# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النور)

إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

**المجلد التاسع عشر**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النور)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي

التفسير المحرر للقرآن الكريم: المجلد التاسع عشر: سورة النور/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤١ هـ

٥٤٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٧٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤١/٣٢٧٣

رقم الإيداع: ١٤٤١/٣٢٧٣

ردمك: ٥-٧٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ النُّورِ

# سورةُ النُّورِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النُّورِ)[١]، مما يدُلُّ على ذلك:

١- عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: ((سُئِلتُ عن المتلاعنَينِ -في إمرةِ مُصعَبٍ-: أيُفَرَّقُ بيْنهما؟ قال: فما دَرَيتُ ما أقولُ، فمضيتُ إلى منزلِ ابنِ عُمرَ بمكَّةَ، فقلتُ للغلامِ: استأذِنْ لي، قال: إنَّه قائِلٌ[٢]، فسَمِعَ صَوتي، قال ابنُ جُبَيرٍ؟ قلتُ: نعَمْ، قال: ادخُلْ، فواللهِ ما جاء بك هذه السَّاعةَ إلَّا حاجةٌ، فدخلتُ، فإذا هو مفترِشٌ بَرْذَعةً[٣]، متوسِّدٌ وِسادةً حَشوُها ليفٌ، قلتُ: أبا عبدِ الرَّحمنِ، المتلاعِنانِ أيُفَرَّقُ بيْنهما؟ قال: سُبحانَ اللهِ، نعَمْ! إنَّ أوَّلَ مَن سأل عن ذلك فلانُ بنُ فلانٍ، قال: يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ أنْ لو وجدَ أحدُنا امرأتَه على فاحشةٍ، كيف يَصنعُ؟ إنْ تكلَّمَ تكلَّمَ بأمرٍ عظيمٍ، وإنْ سكتَ سكتَ على مثلِ ذلك! قال: فسكَتَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلم يُجِبْه، فلمَّا كان بعْدَ ذلك أتاهُ، فقال: إنَّ الذي سألْتُك عنه قد ابتُليتُ به! فأنزل الله عزَّ وجلَّ هؤلاء الآياتِ في سورة «النُّورِ»: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ ...﴾ [النور: ٦ - ٩]، فتلاهُنَّ عليه، ووعَظَه وذَكَّره، وأخبَرَه أنَّ عذابَ

---

(١) سُمِّيَت هذه السورةُ بسورةِ (النورِ)؛ لكثرةِ ذِكرِ (النورِ) فيها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٤).

قال ابن عاشور: (وهذه تسميتُها في المصاحفِ وكتبِ التَّفسيرِ والسُّنَّةِ، ولا يُعْرَفُ لها اسمٌ آخَرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣٩).

(٢) قائل: هو اسمُ فاعِلٍ مِن: قالَ يَقِيلُ؛ فهو مِن القَيلولةِ، وهي النَّومُ نِصفَ النَّهارِ. يُنظر: ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٤/ ٢٩٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١٢٤).

(٣) البَرْذَعةُ: ما يُوضَعُ على ظَهرِ البَعيرِ والدَّابَّةِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٥/ ٥٤٦).

الدُّنيا أهوَنُ مِن عذابِ الآخرةِ. قال: لا، والَّذي بعَثَك بالحَقِّ ما كذَبْتُ عليها. ثمَّ دعاها، فوعَظها وذكَّرَها، وأخبرَها أنَّ عذابَ الدُّنيا أهوَنُ مِن عذابِ الآخرةِ. قالت: لا، والَّذي بعَثَك بالحَقِّ إنَّه لكاذِبٌ. فبدأ بالرجُلِ، فشَهِدَ أربَعَ شهاداتٍ باللهِ إنَّه لَمِنَ الصادقينَ، والخامِسةُ أنَّ لعنةَ اللهِ عليه إنْ كان مِن الكاذبينَ، ثمَّ ثنَّى بالمرأةِ، فشَهِدَت أربعَ شهاداتٍ باللهِ إنَّه لَمِنَ الكاذبينَ، والخامِسةُ أنَّ غَضَبَ اللهِ عليها إنْ كان من الصَّادقينَ، ثمَّ فَرَّق بيْنهما))[١].

٢- عن أبي إسحاقَ الشَّيْبانيِّ، قال: ((سألتُ عبدَ اللهِ بنَ أبي أَوفَى: هل رَجَمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ؟ قال: نعَمْ. قال: قلتُ: بعدَما أُنزِلَت سورةُ «النُّورِ» أمْ قبْلَها؟ قال: لا أدري))[٢].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ النُّورِ مَدَنيَّةٌ[٣]، ونقلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٤].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

من أهمِّ مقاصدِ هذه السورةِ: ذِكرُ أحكامِ العفافِ والسترِ[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٨).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، وأبو حيان، والفيروزابادي، والبِقَاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٨).

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أبرزِ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتْها سورةُ النُّورِ:**

١- تقريرُ وُجوبِ الانقيادِ لِما أُنزِلَ في هذه السورةِ مِن أحكامٍ وآدابٍ.

٢- بيانُ حَدِّ الزِّنا.

٣- بيانُ عُقوبةِ قاذِفِي المُحصَناتِ.

٤- حُكمُ قَذفِ الزَّوجاتِ، وتَشريعُ اللِّعانِ.

٥- ذِكرُ قِصَّةِ الإفكِ.

٦- ذِكرُ آدابِ الاستِئذانِ، ووجوبِ غَضِّ البَصَرِ وحِفظِ الفُروجِ.

٧- نَهيُ النِّساءِ عن إبداءِ زينتِهِنَّ إلَّا لِمَن استَثناهم اللهُ تعالى.

٨- الأمرُ بإنكاحِ الأيامَى مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ.

٩- الحديثُ عن مظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى في هذا الكَونِ.

١٠- ذَمُّ أحوالِ أهلِ النِّفاقِ، والإشارةُ إلى سوءِ طَوِيَّتِهم.

١١- وَعدُ اللهِ تعالى للمُؤمِنينَ بالاستِخلافِ في الأرضِ، والتَّمكينِ للدِّينِ، والأمنِ بعدَ الخَوفِ.

١٢- بيانُ صِفاتِ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

## الآيات (١-٢)

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُورَةٌ﴾: السُّورةُ: مَجموعُ آياتٍ ممَّا أنزل اللهُ تعالى، معلومُ الابتِداءِ والانتِهاءِ، والسُّورَةُ: بالهَمزِ وبتَركِه؛ فبالهَمزِ مِن السُّؤْرِ: وهو البَقيَّةُ مِمَّا يَشرَبُ الشَّارِبُ؛ لأنَّ كُلَّ سُورةٍ مِن القُرآنِ بَقيَّةٌ منه. وبغيرِ الهَمزِ: قيل: مِنَ السُّورِ بمعنى الجماعةِ؛ لأنَّ السُّورةَ مُشتَمِلةٌ على جماعةِ الآياتِ. أو مِن السُّورِ المُحيطِ بالأبنيةِ؛ لأنَّ السُّورةَ مُحيطةٌ بالآياتِ. وقيلَ غَيرُ ذلك[1].

﴿رَأْفَةٌ﴾: الرأفةُ: أرقُّ الرَّحْمةِ، وأصلُ (رأف): يدُلُّ على رِقَّةٍ ورَحْمةٍ[2].

﴿طَائِفَةٌ﴾: أي: جماعةٌ، والطَّائِفةُ: جماعةٌ مِن النَّاسِ؛ وتُطلَقُ على الواحدِ فما فَوْقَه، وأصلُ (طوف): دَوَرانُ الشَّيءِ على الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٩)، ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١).

## المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ هذه السُّورةَ أَنزَلَها، ووضَّحَ فيها واجباتٍ ونواهيَ، وقدَّرَ فيها ما تضَمَّنَتْه من الحُدودِ والحُقوقِ، وأوجبَ العملَ بما اشتمَلتْ عليه، وأنزَلَ فيها آياتٍ واضحاتٍ فيها تِبيانٌ للحَقِّ لِمَن تَدبَّرها؛ وذلك لكي تَتذكَّروا بهذه الآياتِ وتَتَّعظوا بها وتَعملُوا.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه بعدَ ذلك حدَّ الزاني والزانيةِ؛ فيأمُرُ تعالى بجَلْدِهما مِئةَ جَلدةٍ لكلٍّ منهما -إذا كانا حُرَّينِ، مكلَّفينِ، بِكرَينِ، غيرَ مُحصَنَينِ-، وينهَى المُؤمنينَ أنْ تَأخُذَهم بهما رِقَّةٌ في حُكمِ الله، تَمنعُهم من إقامةِ الحَدِّ عليهما كما أمَرَ اللهُ تعالى، إنْ كانوا يُؤمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ، ويأمُرُ أنْ يَشهَدَ ذلك الجَلْدَ جَماعةٌ مِن المُؤمنِينَ.

ويبيِّنُ تعالى أنَّ الزانيَ لا ينكِحُ إلَّا زانيةً مِثلَه أو مُشرِكةً، والزانيةَ لا ينكِحُها إلَّا زَانٍ مِثلُها أو مُشرِكٌ، وأنَّه سبحانَه حرَّمَ ذلك على المُؤمنِينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١﴾.

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾.

**القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:**

في قولِه: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ قراءتانِ:

١- قِراءة ﴿وَفَرَّضْنَاهَا﴾ بتَشديدِ الرَّاء؛ أي: فَرضْنا فرائضَها، فحُذف المضافُ. وقيل: معناها: أَنزَلْنا فيها الأحكامَ الكَثيرةَ فَرْضًا بَعدَ فَرْضٍ. وقيل: بَيَّنَّا وفصَّلْنا ما

فيها مِن أمرٍ ونَهيٍ، وتَوقيفٍ وحَدٍّ[١].

٢- قِراءة ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ بتَخفيفِ الرَّاء؛ أي: ألْزَمْناكُم العملَ بما فَرَضْنا فيها وبَيَّنَّا من الواجباتِ والحُقوقِ[٢].

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا﴾.

أي: هذه سُورةٌ أَنزَلْناها وبَيَّنَّا ما فيها مِن الواجباتِ والنَّواهي، وقدَّرْنا ما فيها مِن الحُدودِ والحُقوقِ، وأَوجَبْنا الإيمانَ بها وبما تضمَّنَتْه، والعملَ بما فيها[٣].

﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

أي: وأنزَلْنا في هذِه السُّورةِ علاماتٍ، ودَلالاتٍ واضحاتٍ تُبيِّنُ الحَقَّ لِمَن تَدَبَّرها[٤].

﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

---

(١) قرَأ بها ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو. يُنظر: ((التيسير)) لأبي عمرو الداني (ص: ١٦١)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٠).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٩، ٢٦٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٤).

(٢) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((التيسير)) لأبي عمرو الداني (ص: ١٦١)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٠).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٢، ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

أي: وذلك لكي تَتذكَّروا بهذه الآياتِ وتَتَّعظوا، وتَعملُوا بها[١].

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ﴾.

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ ﴾.

أي: مَن زَنَى مِن النِّساءِ أو الرِّجالِ -إذا كانا حُرَّينِ، مكلَّفينِ، بِكرَينِ، غيرَ مُحصَنَينِ- فاجْلِدوا كلَّ واحدٍ مِنهما مِئةَ جَلدةٍ؛ عُقوبةً لهما[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٧٩).

قال السَّمعاني: (وأمَّا قولُ عامَّةِ العُلَماءِ فهو: أنَّ الآيةَ مخصوصةٌ للأبكارِ، وأنَّ الثيِّبَ يُرجَمُ ولا يُجلَدُ، واتَّفَق أهلُ العِلمِ أنَّ هذه الآيةَ ناسِخةٌ للآيةِ المذكورةِ في الإمساكِ في سورة النساءِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٩٨).

وقال القرطبي: (هذه الآيةُ ناسخةٌ لآيةِ الحَبسِ وآيةِ الأذى، اللَّتينِ في سورة النِّساء، باتِّفاقٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٥٩).

وقال السخاوي: (وقيل: ليس هذا بنَسْخٍ؛ لأنَّه سبحانه قال: ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾؛ لأنَّه قد كان الحُكمُ مُنتظَرًا). ((جمال القراء)) (٢/ ٦٥٢).

وقال الشنقيطي: (حَبسُ الزَّواني في البُيوتِ مَنسوخٌ بالجَلدِ والرَّجمِ، أو أنَّه كانت له غايةٌ يَنتهي إليها، هي جَعلُ اللهِ لهنَّ السَّبيلَ، فجَعَل اللهُ السَّبيلَ بالحَدِّ، كما يدُلُّ عليه قولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «خُذُوا عنِّي، قد جعَلَ اللهُ لهنَّ سَبيلًا...» الحديثَ). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: ٥٥، ٥٦).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ [النور:٢] هذه الآيةُ ناسِخةٌ لآيةِ النِّساءِ، وإن شِئتَ فقُلْ: مُبيِّنةٌ؛ لأنَّ آيةَ النِّساءِ ليس فيها جَزمٌ أنَّ هذه هي العُقوبةُ؛ لأنَّ الله قال: ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ١٥]، فجَعَل اللهُ لهنَّ سبيلًا). ((لقاء الباب المفتوح- اللقاء رقم ١٨٦)) بتصرف. =

عن عُبادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((خُذُوا عنِّي، خُذُوا عنِّي؛ قد جَعَلَ اللهُ لهُنَّ سَبيلًا[١]؛ البِكْرُ بالبِكْرِ: جَلْدُ مِئةٍ، ونَفيُ سَنةٍ، والثَّيِّبُ بالثَّيِّبِ: جَلْدُ مِئةٍ، والرَّجمُ[٢]))[٣].

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾.

---

= وقال الشوكاني: (وأمَّا مَن كان مُحصَنًا مِن الأحرارِ، فعليه الرَّجمُ؛ بالسُّنَّةِ الصَّحيحةِ المتواترةِ بإجماعِ أهلِ العِلمِ، وبالقرآنِ المنسوخِ لَفظُه الباقي حُكمُه، وهو: «الشَّيخُ والشَّيخةُ إذا زنَيا، فارجُموهُما البتَّةَ»). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦).

وقال السعدي: (هذا الحُكمُ في الزَّاني والزانية البِكرَين: أنَّهما يُجلَدُ كلٌّ منهما مئةَ جَلدةٍ، وأمَّا الثيِّبُ فقد دلَّت السُّنَّةُ الصحيحةُ المشهورةُ أنَّ حدَّه الرَّجمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

وقال ابن عاشور: (لا شكَّ في أنَّ القضاءَ بالرَّجمِ وقَع بعدَ نزولِ سورةِ النُّورِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٩).

قال القرطبي: (الخبرُ في قولِه: ﴿فَٱجْلِدُوا﴾؛ لأنَّ المعنى: الزانيةُ والزاني مجلودانِ بحكمِ الله. وهو قولٌ جيدٌ، وهو قولُ أكثرِ النُّحاةِ. وإن شئتَ قدَّرتَ الخبرَ: يَنبغي أن يُجلَدَا). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦٠).

(١) سَبيلًا: أي: طريقًا وحَدًّا واضِحًا، أشار إلى قَولِه تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي ٱلْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾[النساء: ١٥]. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٨٨)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٣٢٨).

(٢) قال النووي: (واختلَفوا في جَلْدِ الثَّيِّبِ مع الرَّجمِ؛ فقالت طائِفةٌ: يجِبُ الجَمعُ بيْنهما، فيُجلَدُ ثمَّ يُرجَمُ. وبه قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه، والحَسَنُ البَصريُّ، وإسحاقُ بنُ راهَوَيه، وداودُ، وأهلُ الظَّاهِرِ، وبَعضُ أصحابِ الشَّافعيِّ. وقال جماهيرُ العُلَماءِ: الواجِبُ الرَّجمُ وَحْدَه... وحُجَّةُ الجُمهورِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم اقتصَرَ على رَجمِ الثَّيِّبِ في أحاديثَ كثيرةٍ؛ منها: قِصَّةُ ماعِزٍ، وقِصَّةُ المرأةِ الغامِديَّةِ، وفي قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «واغْدُ يا أُنَيسُ على امرأةِ هذا، فإنِ اعتَرَفَت فارجُمْها». قالوا: وحديثُ الجَمعِ بينَ الجَلْدِ والرَّجمِ مَنسوخٌ؛ فإنَّه كان في أوَّلِ الأمرِ). ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٨٩). ويُنظر: ((المحلى)) لابن حزم (١٢/ ١٧٣-١٧٨)، ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٣٥-٣٨).

(٣) رواه مسلم (١٦٩٠).

مُناسَبتُها لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾، وكان الجَلْدُ مُوجِعًا، وكان المُباشِرُ له قد يَرِقُّ على المَجلودِ مِن وَجَعِه؛ نُهيَ المُسلِمون أنْ تأخُذَهم رَأفةٌ بالزَّانيةِ والزَّاني، فيَترُكوا الحدَّ أو يَنقُصوه أو يُخفِّفوه[1]؛ فقال تعالى:

﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا تَأخُذْكم -أيُّها المُؤمِنونَ- بالزَّانيةِ والزَّاني رِقَّةٌ في حُكمِ الله، تَمنعُكم مِن إقامةِ الحَدِّ عليهما على الوجهِ الذي أمَرَ به اللهُ تعالى[2].

﴿إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

أي: إنْ كُنتُم -أيُّها المؤمنون- تُؤمِنونَ حقًّا باللهِ وبالبَعثِ يومَ القِيامةِ للجَزاءِ على الأعمالِ، ثوابًا أو عِقابًا، فأقيموا الحَدَّ على الزَّانِيَينِ كما أمرَكَم اللهُ، ولا تَأخُذْكم بهما رأفةٌ في دِينِه[3].

﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: ولْيَحضُرْ جَلْدَ الزَّانِيَينِ جماعةٌ[4].....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٣٩، ١٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٠، ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١).

(٤) قال الرازي: (اختلفوا في أقَلِّ الطَّائفةِ؛ على أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّه رجُلٌ واحِدٌ. وهو قَولُ النَّخَعيِّ، ومجاهِدٍ، واحتجَّا بقَولِه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩].

وثانيها: أنَّه اثنانِ. وهو قَولُ عِكرمةَ، وعَطاءٍ ... =

مِن المُؤمِنِينَ، تَحُفُّ وتُحيطُ بهما[١].

= وثالثُها: أنَّه ثلاثةٌ. وهو قَولُ الزُّهْريِّ، وقتادةَ. قالوا: الطَّائفةُ هي الفِرقةُ التي يمكِنُ أن تكونَ حَلْقةً، كأنَّها الجماعةُ الحافَّةُ حوْلَ الشَّيءِ، وهذه الصُّورةُ أقَلُّ ما لا بُدَّ في حُصولِها هو الثَّلاثةُ.

ورابعُها: أنَّه أربعةٌ بعَدَدِ شُهودِ الزِّنا. وهو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، والشَّافعيِّ رَضِيَ الله عنهما.

وخامِسُها: أنَّه عَشَرةٌ. وهو قَولُ الحَسَنِ البَصريِّ؛ لأنَّ العَشَرةَ هي العَدَدُ الكامِلُ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣١٧). ويُنظر: ((الأم)) للشافعي (٦/ ١٦٧).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٩).

قال ابنُ جرير: (أَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصوابِ: قولُ مَن قال: أقلُّ ما ينبغي حضورُ ذلك مِن عَدَدِ المُسلِمينَ: الواحدُ فصاعدًا؛ وذلك أنَّ اللهَ عَمَّ بقَولِه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ﴾ [النور: ٢]، والطَّائِفةُ: قد تقعُ عند العَرَبِ على الواحِدِ فصاعدًا، فإذا كان ذلك كذلك، ولم يكُن اللهُ -تعالى ذِكرُه- وضَع دَلالةً على أنَّ مُرادَه مِن ذلك خاصٌّ مِنَ العَدَدِ؛ كان معلومًا أنَّ حضورَ ما وقَع عليه أدنى اسمِ الطَّائفةِ ذلك المحْضَرَ مُخرِجٌ مُقيمَ الحدِّ ممَّا أمَره اللهُ به بقَولِه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، غيرَ أنِّي -وإنْ كان الأمرُ على ما وَصفتُ- أستحِبُّ ألَّا يُقصَّرَ بعدَدِ مَن يحضُرُ ذلك الموضعَ عن أربعةِ أنفُسٍ؛ عدَدِ مَن تُقبلُ شَهادتُه على الزِّنا؛ لأنَّ ذلك إذا كان كذلك فلا خِلافَ بيْن الجَمعِ أنَّه قد أدَّى المقيمُ الحدَّ ما عليه في ذلك، وهُم فيما دونَ ذلك مُختَلِفونَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٩).

وممَّن اختار القولَ الثانيَ وأنَّ المرادَ اثنانِ فصاعِدًا: مقاتلُ بن سليمان، والزَّجَّاج. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨).

وممَّن اختار القولَ الثالثَ وأنَّ المرادَ ثلاثةٌ فأكثَرُ: البيضاوي، وأبو حيان، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧).

قال ابنُ عطيةَ: (وقَولُه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المَقصَدُ بالآيةِ الإغلاظُ على الزُّناةِ، والتَّوبيخُ بحَضرةِ النَّاسِ، فلا خِلافَ أنَّ «الطَّائِفةَ» كُلَّما كَثُرَت فهو أليَقُ بامتِثالِ الأمرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٥، ١٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨، ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

قال الشنقيطي: (قوله: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ أي: حدَّهما بلا نِزاعٍ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٦٤).

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

## سَببُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رجلٌ يُقالُ له: مَرْثَدُ ابنُ أبي مرثدٍ، وكان رجلًا يَحمِلُ الأسرى من مكَّةَ حتى يأتيَ بهم المدينةَ. قال: وكانت امرأةٌ بَغِيٌّ بمكةَ يُقالُ لها: عَناقُ، وكانت صديقةً له، وإنَّه كان وعَدَ رجلًا مِن أُسارى مكَّةَ يَحمِلُه. قال: فجئتُ حتى انتهيتُ إلى ظلِّ حائطٍ مِن حوائطِ مكَّةَ في ليلةٍ مُقمِرةٍ. قال: فجاءت عَناقُ فأبصرَت سوادَ ظلِّي بجنبِ الحائطِ، فلمَّا انتهَت إليَّ عرَفَتْ[1]، فقالت: مرثدٌ؟! فقلتُ: مَرثدٌ، قالت: مرحبًا وأهلاً، هلُمَّ فبِتْ عندَنا الليلةَ، قلتُ: يا عَناقُ، حرَّم اللهُ الزِّنا! قالت: يا أهلَ الخيامِ، هذا الرجلُ يحمِلُ أُسَراءَكم[2]، قال: فتَبِعني ثمانيةٌ وسلكتُ الخَندَمةَ[3]، فانتهيتُ إلى كهفٍ أو غارٍ فدخلتُ، فجاؤوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فظلَّ بولُهم على رأسي، وأعماهم اللهُ عنِّي. قال: ثمَّ رجَعوا ورجعتُ إلى صاحبي فحمَلتُه، وكان رجلاً ثقيلاً، حتى انتهيتُ إلى الإذخِرِ[4]، ففككتُ عنه كَبْلَه[5]، فجعلتُ أحمِلُه ويُعْيِيني[6] حتى قَدِمتُ المدينةَ، فأتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم،

---

(١) عَرَفَتْ: أي: عَرَفَتْني. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

(٢) أُسَراء: جمْعُ أسير، والمعنى: تنبَّهوا يا أهلَ الخيام وخُذوا هذا الرجلَ الذي يذهب بأُساراكم. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

(٣) الخَندَمة: جبلٌ بمكَّةَ. يُنظر: ((معجم البلدان)) لياقوت (٢/ ٣٩٢).

(٤) المرادُ بالإذخرِ هنا: مكانٌ خارج مكَّة، يَنبُتُ فيه الإذخرُ. ويَحتمِلُ أنْ يكون المرادُ بالإذخرِ: أذاخرَ، وهو موضعٌ قُربَ مكَّة. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

(٥) كَبْلَه: أي: قَيْدَه. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

(٦) ويعييني: أي: يُتعِبُني ويُجهِدُني. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ١٧).

فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أنكِحُ عناقَ -مرتين-؟ فأمسك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلم يرُدَّ عليَّ شيئًا، حتَّى نزلت: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا مَرْثَدُ، الزَّاني لا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً، وَالزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ؛ فلا تَنْكِحْها))[1].

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان في الحكمِ المذكورِ في الآيةِ السابقةِ مِن الغلظةِ على الزَّاني لما ارتَكب مِن الحرامِ المتصفِ بالعارِ ما يُفهِمُ مجانبتَه؛ صرَّح به[2]، فقال تعالى:

﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

أي: الزَّاني لا يَنْكِحُ إلَّا زَانيةً مِثلَه أو مُشرِكةً باللهِ، والزَّانيةُ لا يَنْكِحُهَا إلا زانٍ مِثلُها أو مُشرِكٌ بالله[3].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥١)، والترمذي (٣١٧٧)، والنسائي (٣٢٢٨).

قال ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٢٦٠): (حسن صحيح جدًّا). وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٥١): (حسن صحيح).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٩، ٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٥ - ٣٢١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٢٢ - ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

قال الشنقيطي: (العُلماءُ اختَلَفوا في المرادِ بالنِّكاحِ في هذه الآيةِ؛ فقال جماعةٌ: المرادُ بالنِّكاحِ في هذه الآيةِ: الوَطءُ الذي هو نفْسُ الزِّنا. وقالت جماعةٌ أُخرى مِن أهلِ العِلمِ: إنَّ المرادَ بالنِّكاحِ في هذه الآيةِ هو عقدُ النِّكاحِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤١٧، ٤١٨). =

= ممن اختار أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ هنا: عقدُ الزواجِ: الزجَّاجُ، وابن تيميَّة، وابن القيِّم، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١١٣-١١٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٥-٦٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٢).

والمعنى على هذا القول: أنَّ مَن اتَّصف بالزِّنا، من رجُل أو امرأة، ولم يتُبْ من ذلك، أنَّ المُقدِمَ على الزواجِ به إمَّا أنْ يلتزمَ حُكمَ الله سُبحانَه ويعتقدَ وجوبَه عليه، أو لا؛ فإنْ لم يلتزِمْه ولم يعتقِدْه فهو مشركٌ، وإنِ التزمه واعتقَد وجوبه وخالفَه فهو زانٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابن عباس في راويةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بن جُبير في روايةٍ عنه، وعطاء ابن أبي رباح، وقتادة، والزُّهري، والشعبي، والقاسم بن أبي بزة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٨٠).

قال الشنقيطي: (وهؤلاء الذين فسَّروا النكاحَ بالعقدِ انقسَموا قِسمينِ؛ منهم مَن قال: لا يجوزُ نكاحُ الزانيةِ بحالٍ ... ومنهم مَن ذهَب إلى جوازِ نكاحِها، وقالوا: إنَّ الآيةَ منسوخةٌ بقولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]...). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٣٧).

وممن اختار أنَّ معنى النِّكاحِ هنا: الوطءُ: ابنُ جرير، وابن عطيَّة، وابن جُزَيٍّ، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩).

والمعنى على هذا القَولِ: لا يقَعُ في الزِّنا إلَّا زانٍ عاصٍ أو مُشرِكٌ لا يعتَقِدُ حُرمتَه، ولا يُوافِقُه عليه مِنَ النِّساءِ إلَّا زانيةٌ عاصيةٌ أو مُشرِكةٌ لا تَعتَقِدُ حُرمتَه. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في رواية عنه، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بن جُبَيرٍ في رواية عنه، وعُرْوةُ بن الزُّبَير، والضَّحَّاك، ومكحولٌ، ومقاتل بن حيان، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩).

وذهب الشِّنقيطيُّ إلى أنَّ لفظَ النِّكاحِ مُشترَكٌ بين الوطءِ والتَّزويجِ، فيُحمَلُ النِّكاحُ في هذه الآيةِ على الوَطءِ وعلى التزويجِ معًا، ويكونُ ذِكرُ المُشرِكةِ والمُشرِكِ على تفسيرِ النِّكاحِ بالوَطءِ دونَ العَقدِ، فقال: (هذه الآيةُ الكريمةُ مِن أصعَبِ الآياتِ تحقيقًا؛ لأنَّ حمْلَ النِّكاحِ فيها على التَّزويجِ لا يُلائِمُ ذِكرَ المُشرِكةِ والمُشرِكِ، وحمْلَ النِّكاحِ فيها على الوَطءِ لا يُلائِمُ الأحاديثَ الواردةَ المتعلِّقةَ بالآيةِ؛ فإنها تُعيِّنُ أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ في الآيةِ: التَّزويجُ، ولا أعلَمُ مَخرجًا واضِحًا =

عن أبي هُرَيرَةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا يَنكِحُ الزاني المجلودُ إلَّا مِثلَه))(١).

---

= من الإشكالِ في هذه الآية إلَّا مع بَعضِ تَعَسُّفٍ، وهو أنَّ أصحَّ الأقوالِ عند الأصوليِّين -كما حرَّره أبو العباسِ ابنُ تيميَّةَ في رسالتِه في عُلومِ القُرآنِ، وعزاه لأجلَّاءِ عُلَماءِ المذاهِبِ الأربعةِ: هو جوازُ حَملِ المُشتَرَكِ على مَعنَيَيه، أو معانيه... وإذا عَلِمْتَ ذلك فاعلَمْ أنَّ النِّكاحَ مُشتَرَكٌ بين الوَطءِ والتَّزويجِ...، وإذا جاز حَملُ المُشتَرَكِ على معنَيَيه فيُحمَلُ النِّكاحُ في الآيةِ على الوَطءِ، وعلى التَّزويجِ معًا، ويكونُ ذِكرُ المُشرِكةِ والمُشرِكِ على تَفسيرِ النِّكاحِ بالوَطءِ دونَ العَقدِ، وهذا هو نوعُ التعسُّفِ الذي أشَرْنا له، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٢٥).

وقيل: المعنى: أنَّه في الأعمِّ الأغلَبِ أنَّ الفاسِقَ الخَبيثَ الذي من شأنِه الزِّنا لا يَرغَبُ في نكاحِ الصَّالحاتِ مِنَ النِّساءِ، وإنما يَرغَبُ في فاسقةٍ خبيثةٍ مِن شَكلِه، أو مُشركةٍ، والفاسِقةَ الخَبيثةَ المُسافِحةَ كذلك لا يَرغَبُ في نِكاحِها الصُّلَحاءُ مِن الرِّجالِ، وإنَّما يَرغَبُ فيها مَن هو مِن شَكلِها مِن الفَسَقةِ أو المُشرِكينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملة: القَفَّالُ -ونسَبه إليه الرازيُّ-، والزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ مِن قَولِه: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ...﴾ إلخ: مَن كان الزِّنا دأبًا له قبل الإسلامِ وتخلَّق به، ثمَّ أسلمَ وأراد تزوُّجَ امرأةٍ مُلازمةٍ للزِّنا مِثلِ البغايا ومُتَّخِذاتِ الأخدانِ، ولا يكُنَّ إلَّا غيرَ مُسلِماتٍ لا محالةَ؛ فنَهَى اللهُ المسلمين عن تزوُّجِ مِثلِها بقَولِه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقدَّم له ما يُفيدُ تَشويهَه بأنَّه لا يُلائِمُ حالَ المسلِمِ، وإنَّما هو شأنُ أهلِ الزِّنا، أي: غيرِ المؤمِنينَ؛ لأنَّ المؤمِنَ لا يكونُ الزِّنا له دأبًا، ولو صدَر منه لكان على سبيلِ الفَلتةِ، كما وقَع لِماعزِ بنِ مالك؛ فقولُه: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ تمهيدٌ، وليس بتشريعٍ؛ لأنَّ الزَّانيَ -بمعنى مَن الزِّنا له عادةٌ- لا يكونُ مُؤمِنًا؛ فلا تُشرَعُ له أحكامُ الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٥).

وقيل في معنى الآيةِ غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧).

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٥٢) واللفظ له، وأحمد (٨٣٠٠).

صحَّحه ابنُ القطَّان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٤٨٩). وجوَّد إسنادَه محمد بن عبد الهادي =

﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: وحَرَّمَ اللهُ ذلك[١] على المُؤمنِينَ[٢].

---

= في ((تنقيح التعليق)) (٣/ ١٨٠)، وابنُ كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ١٤٩) وقوَّاه. ووثَّق رجالَه ابن حجر في ((بلوغ المرام)) (٢٩٦)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٥٢).

(١) قيل: الإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ترجعُ إلى تزوُّجِ المؤمنِ غيرِ الزَّاني بزانيةٍ، والعكس، وذلك بِناءً على أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ في الآيةِ عقدُ الزَّواجِ.

قال ابن تيميَّة: (لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بعُقوبةِ الزَّانيَينِ حرَّمَ مُناكَحتَهما على المُؤمِنينَ؛ هَجْرًا لهما، ولِمَا معهما مِن الذُّنوبِ والسيِّئاتِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣١٥).

وقيل: الإشارةُ تَرجعُ إلى الزِّنا، أي: حُرِّم الزِّنا على المؤمنينَ، وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ بالنِّكاحِ في الآيةِ الوَطءُ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨).

قال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ العلماءَ اختَلَفوا فِي جَوازِ نِكاحِ العفِيفِ الزَّانِيةَ، ونِكاحِ العفيفةِ الزَّانِيَ، فذَهَب جَماعَةٌ مِن أهلِ العلمِ؛ منهم الأئِمَّةُ الثَّلاثةُ إلى جوازِ نِكاحِ الزَّانِيةِ مع الكراهةِ التَّنْزيهيَّةِ عندَ مالِكٍ وأصحابِه، ومَن وافَقَهم). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤١٨). ويُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نجيم (٣/ ١١٤)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي، (٣/ ١٧٢)، ((الحاوي الكبير)) للماوَرْدي (٩/ ١٨٩).

وقال الشوكاني: (وقيل: هو مكروهٌ فقطْ [أي: نكاح الزواني]، وعَبَّر بالتَّحريمِ عن كراهةِ التَّنزيهِ مُبالغةً في الزَّجْرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨).

وقال الشنقيطي: (وهنا قد يرِدُ سؤالٌ، وهو كيفَ سوَّغ هؤلاء الأئمةُ الأجِلَّاءُ للمسلمِ العفيفِ مقاربةَ الزانيةِ بالزَّواجِ منها، وهي زانيةٌ خبيثةٌ خسيسةٌ؟

والجوابُ: أنَّ هؤلاء الأئمةَ لم يُجيزوا له ذلك على أن يتركَها وشأنَها، وإنَّما جوَّزوا له ذلك معَ المحافظةِ عليها، والضربِ على يدِها وزجرِها، وإذا وقَع منها ما لا يَنبَغي مِن ارتكابِ الفاحشةِ، وهو لا يدري وقد عمِل ما يقدرُ عليه مِن الاحتياطاتِ التي تحولُ بينها وبينَ ذلك فلا حرجَ عليه، وتكونُ معَه على حدِّ قولِ القائلِ: اجْتَنِ الثِّمارَ، وألْقِ الخشبةَ في النارِ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٣٧). =

## الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- سُمِّيتْ سُورةُ النورِ بهذا الاسمِ؛ لقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]، وإذا تأمَّلتَ السُّورةَ وَجدتَ ذِكْرَ النورِ فيها، وأنَّ اللهَ نورُ السمواتِ والأرضِ، وقولَه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ تَبيَّنَ لك أنَّ العِفَّةَ مِن أسبابِ نورِ القَلبِ، وأنَّ ضِدَّها -وهو الفُجورُ- مِن أسبابِ ظُلمةِ القَلبِ؛ ولذلك فإنَّ الزِّنا -سواءٌ كان بالعَينِ، أو بالرِّجلِ، أو باليَدِ، أو باللِّسانِ، أو بالفرْجِ- تأثيرُه على القَلبِ وعلى نُورِ القلبِ أعظَمُ مِن غيرِه، وتأثيرُ العِفَّةِ في نُورِ القلبِ أبلغُ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ بَيَّنَ تعالى أنَّه هو الذي أنزلها، مُعَبِّرًا عن نفْسِه بصيغةِ الجَمعِ التي تدُلُّ على عَظَمتِه تعالى، وذلك يتضمَّنُ عَظَمةَ هذه السورةِ؛ ويدلُّ على وجوبِ امتِثالِ أوامرِها، وما فيها مِن حدودٍ وأحكامٍ وآدابٍ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ تأمَّلْ هذا السِّرَّ العظيمَ مِن أسرارِ التَّنزيلِ، وإعجازِ القُرآنِ الكريمِ، ذلك أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لَمَّا ذكَرَ في فاتحةِ سُورةِ النور شناعةَ جَريمةِ الزِّنا، وتحريمَه تحريمًا

---

= وقال ابن تيميَّة: (والذين لم يَعملوا بهذه الآيةِ ذكَروا لها تأويلًا ونَسخًا؛ أمَّا التأويلُ فقالوا: المرادُ بالنِّكاحِ الوَطءُ... وأمَّا النَّسخُ فقال سعيدُ بنُ المسيِّبِ وطائفةٌ: نسَخَها قَولُه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]). وبيَّن ضَعفَ هذا القولِ. يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ١٧٨).

وذهب الحنابلةُ إلى أنَّه يَحرُمُ الزواجُ بالزانيةِ حتى تَتوبَ. يُنظر: ((المبدع في شرح المقنع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٦/ ١٣٨)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٢).

غائيًّا؛ ذكَرَ سُبحانَه مِن فاتحتِها إلى تمامِ ثلاثٍ وثلاثينَ آيةً أربَعَ عَشْرةَ وسيلةً وقائيَّةً، تحجُبُ هذه الفاحِشةَ، وتقاوِمُ وقوعَها في مجتَمَعِ الطُّهرِ والعَفافِ؛ جماعةِ المسلمينَ، وهي:

**الأولى**: تطهيرُ الزُّناةِ والزَّواني بالعُقوبةِ الحَدِّيَّةِ.

**الثانية**: التطهُّرُ باجتنابِ نِكاحِ الزانيةِ وإنكاحِ الزَّواني، إلَّا بعد التَّوبةِ ومَعرفةِ الصِّدقِ فيها.

**الثالثة**: تطهيرُ الألسنةِ عن رميِ النَّاسِ بفاحشةِ الزِّنا، ومَن قال ولا بيِّنةَ فيُحَدُّ حَدَّ القَذفِ.

**الرابعة**: تطهيرُ لسانِ الزَّوجِ عن رَميِ زَوجتِه بالزِّنا ولا بَيِّنةَ، وإلَّا فاللِّعانُ.

**الخامسة**: تطهيرُ النُّفوسِ وحَجبُ القلوبِ عن ظَنِّ السُّوءِ بمُسلمٍ بفعلِ الفاحِشةِ.

**السادسة**: تطهيرُ الإرادةِ وحَجبُها عن محبَّةِ إشاعةِ الفاحِشةِ في المسلمينَ.

**السابعة**: الوِقايةُ العامَّةُ بتطهيرِ النَّفْسِ مِن الوساوِسِ والخَطَراتِ التي هي أُولى خُطواتِ الشَّيطانِ في نُفوسِ المؤمِنينَ؛ لِيُوقِعَهم في الفاحشةِ، وهذا غايةٌ في الوقايةِ مِن الفاحِشةِ.

**الثامنة**: مشروعيَّةُ الاستِئذانِ عندَ إرادةِ دُخولِ البَيتِ؛ حتى لا يقَعَ النَّظَرُ على العَوْراتِ.

**التاسعة والعاشرة**: تطهيرُ العَينِ مِن النَّظَرِ المحَرَّمِ إلى المرأةِ الأجنبيَّةِ، أو منها إلى الرجُلِ الأجنبيِّ عنها.

**الحاديةَ عشرةَ**: تحريمُ إبداءِ المرأةِ زينتَها للأجانِبِ عنها.

**الثانيةَ عشرةَ**: مَنعُ ما يُحَرِّك الرَّجُلَ ويُثيرُه، كضَربِ المرأةِ برِجْلِها؛ لِيُسمَعَ صَوتُ خَلخالِها، فيَجلِبَ ذَوي النُّفوسِ المريضةِ إليها.

**الثالثةَ عشرةَ والرابعةَ عشرةَ**: الأمرُ بالاستعفافِ لِمَن لا يجِدُ ما يستطيعُ به الزَّواجَ، وفعلِ الأسبابِ(١).

٤- ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ قد نهانا اللهُ عزَّ وجلَّ أن تأخذَنا بالزُّناةِ رأفةٌ، بل نُقيم عليهم الحدَّ؛ فكيف بما هو دون ذلك من هَجرٍ وأدبٍ باطنٍ، ونهيٍ وتوبيخٍ وغيرِ ذلك؟! وبهذا يتبيَّنُ لك أنَّ العقوباتِ الشرعيَّةَ كلّها أدويةٌ نافعةٌ يُصلِحُ اللهُ بها مرَضَ القلوبِ، وهي مِن رحمةِ اللهِ بعِبادِه، ورأفتِه بهمُ الدَّاخِلةِ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]؛ فمَن ترَك هذه الرحمةَ النافعةَ لرأفةٍ يَجِدُها بالمريضِ، فهو الذي أعان على عذابِه وهلاكِه، وإنْ كان لا يُريدُ إلا الخيرَ؛ إذ هو في ذلك جاهلٌ أحمقُ، كما يَفعلُه بعضُ النساءِ والرجالِ الجُهَّالِ بمرضاهم وبمَن يُرَبُّونه مِن أولادِهم وغِلمانِهم وغيرِهم، في ترْكِ تأديبِهم وعُقوبتِهم على ما يأتونه مِن الشرِّ، ويتركونَه مِن الخيرِ؛ رأفةً بهم؛ فيكونُ ذلك سببَ فَسادِهم وعداوتِهم وهلاكِهم. ومِن الناسِ مَن تأخذُه الرأفةُ بهم؛ لمشاركتِه لهم في ذلك المرضِ، وذَوقِه ما ذاقوه مِن قوَّةِ الشهوةِ وبُرودةِ القلبِ والدِّياثةِ؛ فيتركُ ما أمَر اللهُ به مِن العقوبةِ، وهو في ذلك مِن أظلَمِ الناس وأديَثِهم في حقِّ نفْسِه ونُظرائِه. ومنهم مَن تأخذُه الرأفةُ؛ لكونِ أحدِ الزانيَينِ مَحبوبًا له، فمَن لم يكن مُبغِضًا للفواحشِ، كارهًا لها ولأهلِها، ولا يَغضبُ عندَ رُؤيتِها وسماعِها؛ لم يكُنْ مريدًا للعقوبةِ عليها، إنَّ الرأفةَ والرحمةَ يُحِبُّهما اللهُ ما لم تكُنْ مضيعةً لدِينِ اللهِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((حراسة الفضيلة)) لبكر أبو زيد (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٧ - ٢٩١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه أنَّ الزِّنا حرامٌ، وهو مِن الكَبائرِ، ويدُلُّ عليه أنَّ اللهَ تعالى أوجبَ المئةَ فيها بكَمالِها، بخِلافِ حَدِّ القذفِ وشُربِ الخَمرِ، وشرَع فيه الرَّجْمَ، ونهَى المؤمنينَ عن الرَّأفةِ بِمَن ارتَكبَ هذِه الفاحشةَ، وأمَرَ بشهودِ الطائفةِ للتَّشهيرِ[1].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞ﴾ فيه أنَّ المؤمِنَ الصالِحَ لا يَتزوَّجُ الزانيةَ؛ ذلك لأنَّ الدُّربةَ على الزِّنا يَتكوَّنُ بها خُلُقٌ يُناسِبُ أحوالَ الزُّناةِ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ؛ فلا يَرغَبُ في مُعاشرةِ الزانيةِ إلَّا مَن تَرُوقُه أخلاقُ أمثالِها[2].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لَمَّا أمَرَ الله تعالى بعُقوبةِ الزَّانيينِ حَرَّم مُناكحتَهما على المُؤمنِينَ؛ هَجرًا لهما، ولِمَا معهما مِن الذُّنوبِ والسَّيِّئاتِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ [المدثر: ٥]، وجعَل مُجالِسَ فاعِلِ ذلك المُنكَرِ مِثلَه بقولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٠]، وهو زَوجٌ له، وقد قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي: عُشراءَهم وقُرناءَهم، وأشباهَهم ونُظراءَهم؛ ولهذا يُقال: المُستمِعُ شريكُ المُغتابِ، فإذا كانَ هذا في المجالسةِ والعِشْرةِ العارضةِ حينَ فِعلِهم للمنكَرِ يَكونُ مُجالِسُهم مِثْلًا لهم، فكيفَ بالعِشرةِ الدَّائمةِ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٥).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ يُستدَلُّ به لِمَا يُصدِّرُ به المؤلِّفون أمامَ كُتبَهم، والشُّروعِ في مَقاصدِهم مِن الخُطبِ والدِّيباجاتِ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ فيها حُجَجٌ وتوحيدٌ، وفيها دلائِلُ الأحكامِ، والكُلُّ آياتٌ بَيِّناتٌ: حُجَجُ العُقولِ تُرشِدُ إلى مسائِلِ التَّوحيدِ، ودلائِلُ الأحكامِ تُرشِدُ إلى وجهِ الحَقِّ، وترفَعُ غُمَّةَ الجَهلِ، وهذا هو شَرفُ السورةِ، وهو أقَلُّ ما وقع التحَدِّي به في سَبيلِ المُعجِزةِ؛ فيكونُ شَرفًا للنبيِّ في الوِلايةِ، وشَرفًا لنا في الهدايةِ(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ ذَكَر اللهُ سُبحانَه وتعالَى الذَّكَرَ والأُنثَى، و(الزاني) كان يَكفي منهما؛ فقيل: ذَكَرَهما للتأكيدِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ ذَكَرَهما هنا لئلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ الرجُلَ لَمَّا كان هو الواطئَ، والمرأةُ محلٌّ، ليستْ بواطئةٍ، فلا يجبُ عليها حَدٌّ(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ فيه ردٌّ على مَن قال: إنَّ العبدَ إذا زنَى بحُرَّةٍ يُرجَمُ، أو أَمَةٍ يُجلَدُ، وعلى مَن قال: لا تُحَدُّ العاقلةُ إذا زنَى بها مجنونٌ، أو الكبيرةُ إذا زنَى بها صبيٌّ، أو عكسُه لا يُحَدُّ، وعلى مَن قال: لا حدَّ على الزاني بحَربيَّةٍ أو مُسلِمةٍ في بلادِ الحَرْبِ، أو في عَسْكرِ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦٠).

أهلِ البغيِ، أو بنَصرانيَّةٍ مُطلقًا، أو بأَمَةِ امرأتِه، أو مَحْرَمٍ، أو مَن استَدخلَتْ ذَكَرَ نائمٍ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ فيه وجوبُ الجلدِ على الزَّاني والزَّانيةِ، وأنَّه مِئةُ جَلدةٍ، أي: في البِكرِ كما بيَّنَتْه السُّنَّةُ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّه ليس أحدُهما بأَولَى بالعُقوبةِ مِنَ الآخَرِ[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا يُكتَفَى بالضربِ بها مَجموعةً ضربةً واحدةً، صحيحًا كان أو مريضًا[٤]؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾، والذي يَضرِبُ بها مَجموعةً ضربةً واحدةً لم يجلِدْ مئةَ جلدةٍ، إنَّما جلَد جَلدةً[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ حَدَّ الجَلْدِ هذا يُقامُ عَلانيةً غيرَ سِرٍّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وتقدَّم الكلامُ عن حديثِ عبادةَ بنِ الصَّامتِ في الجمعِ بينَ الجلدِ والرَّجمِ للثيِّبِ (ص: ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٦، ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٨).

وذهَب الجمهورُ مِن الحنفيَّةِ والشافعيَّةِ والحنابلةِ إلى أنَّ المريضَ مرضًا لا يُرجَى زوالُه يُضرَبُ بها مجموعةً، دَفعةً واحدةً، وذلك في الجملةِ. يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (٥/ ٢٤٥)، ((مغني المحتاج)) للخطيب الشربيني (٤/ ١٥٤)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٤٨)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٢٨).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٣٨٣).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أمَر تعالى أنْ يَحضُرَ عذابَ الزانيَينِ جماعةٌ مِن المُؤمنِينَ؛ ليشتهرَ ويَحصُلَ بذلك الخزيُ، وليُشاهِدوا الحدَّ فِعلًا؛ فإنَّ مُشاهدَةَ أحكامِ الشرعِ بالفِعلِ ممَّا يَقْوَى بها العِلمُ، ويستقرُّ به الفَهمُ، ويكونُ أقربَ لإصابةِ الصوابِ؛ فلا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ[1]. وأيضًا فإنَّه أمَر بذلك؛ تحقيقًا لإقامةِ الحدِّ، وحذرًا مِن التساهُلِ فيه؛ فإنَّ الإخفاءَ ذريعةٌ للإنساءِ، فإذا لم يَشْهَدْه المؤمنون فقد يَتساءلون عن عدمِ إقامتِه، فإذا تبيَّنَ لهم إهمالُه فلا يُعدَمُ بيْنهم مَن يقومُ بتغيير المنكَرِ مِن تعطيلِ الحُدودِ.

وفيه فائدةٌ أخرى، وهي أنَّ مِن مقاصدِ الحدودِ مع عُقوبةِ الجاني: أنْ يَرتدِعَ غيرُه، وبحُضورِ طائفةٍ مِن المؤمنين يتَّعظُ به الحاضرونُ ويَزدَجِرون، ويَشيعُ الحديثُ فيه بنَقْلِ الحاضِرِ إلى الغائِبِ[2].

وفيه أيضًا تنكيلٌ للزَّانيَينِ إذا جُلِدا بحضرةِ النَّاسِ؛ فإنَّ ذلك يكونُ أبلغَ في زجرِهما، وأنجَعَ في رَدعِهما، فإنَّ في ذلك تقريعًا وتوبيخًا وفضيحةً إذا كان النَّاسُ حُضورًا[3].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، قولُه تعالى: ﴿بِهِمَا رَأۡفَةٞ﴾ أي: لِينٌ، ولعلَّه عَبَّر بها إعلامًا بأنَّه لم يَنْهَ عن مُطلَقِ الرحمةِ؛ لأنَّ الرأفةَ أشدُّ الرحمةِ أو أرَقُّها، وتكونُ عن أسبابٍ مِن المرؤوفِ به، وكذا قولُه: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، أي: الذي شَرَعَه لكم المَلِكُ المحيطُ بصِفاتِ الكَمالِ؛ إشارةً إلى أنَّ الممنوعَ منه رحمةٌ تُؤدِّي إلى ترْكِ الحدِّ أو شيءٍ منه، أو التَّهاوُنِ به، أو الرِّضا عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨).

مُنتهِكِه، لا رِقَّةُ القلبِ المطبوعُ عليها البشرُ[١].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ فيه الحثُّ على إقامةِ الحدودِ، والنهيُ عن تَعطيلِها، وأنَّه لا يجوزُ العفوُ عنها للإمامِ ولا لغَيرِه، وفيه ردٌّ على مَن أجازَ للسيِّدِ العَفوَ[٢].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ فيه أنَّ الإيمانَ مُوجِبٌ لانتفاءِ هذه الرأفةِ المانعةِ مِن إقامةِ أمْرِ اللهِ؛ فرحمتُه حَقيقةٌ بإقامةِ حدِّ اللهِ عليه[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ سؤالٌ: أنَّ الرَّأفةَ والرَّحمةَ مِن الانفعالاتِ التي لا يملكُ الإنسانُ ترْكَها، والأمرُ والنهيُ إنما يتوجَّهانِ إلى الأفعالِ الاختياريَّةِ، فكيف يُوَجَّهُ النَّهيُ هنا عمَّا ليس هو مِن الأفعالِ الاختياريَّةِ؟

**الجوابُ**: أنَّ النهيَ مُتَوَجِّهٌ إلى أن تَحْمِلَ الرأفةُ بهما على المحاباةِ في ترْكِ الحَدِّ، أو تخفيفِه، أو نقصِ العددِ؛ فلا يُقامُ الحَدُّ كما يَنبغي[٤]، أمَّا رِقَّةُ القلبِ التي لا تَمنعُ مِن إقامةِ الحَدِّ كما يَنبغي، فلا يَتعلَّقُ بها النَّهيُ[٥].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ «إنْ» تُفيدُ الشكَّ، ومع ذلك تأتي في الكتابِ والسُّنَّةِ في الأمورِ المتحقِّقةِ الوقوعِ كما

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٤) والقاعدةُ: أنَّ مُتعلَّقَ الخِطابِ إذا كان مَقدورًا حُمِل عليه، وإنْ كان غيْرَ مَقدورٍ صُرِف الخِطابُ للأثرِ أو سَببِه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧٨٤-٧٨٧). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤٨، ٣٤٩) و(٤/ ١٨٦-١٨٨) و(٥/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٢، ٣٣).

هنا، وكما في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]؟

**الجوابُ**: قدِ اختلفَ الكوفيُّونَ والبصريُّونَ في الجوابِ عن ذلك؛ فالكوفيُّون يقولون: إنَّها في كلِّ المواضعِ للتَّعليلِ؛ فهي مُطَّرِدةٌ عندَهم بهذا المعنى.

وأمَّا البصريُّون فيقولون: إنْ جاءتْ مع فعْلِ المشيئةِ كما في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٢٧]، فالشرطُ دَخَل على أمْرٍ مُحَقَّقٍ؛ وليس المرادُ منه الشكَّ، بلِ المرادُ تعليمُ الخلائقِ بألَّا يتحَدَّثوا عن المستقبلِ إلَّا بالمشيئةِ، وإنْ لم تكنْ مع فعْلِ المشيئةِ -كما في هذه الآيةِ التي نحنُ بصددِها: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾- فهي شرطيَّةٌ لم يُجَأْ بها لتعليقِ الجزاءِ على الشرطِ، بل جِيءَ بها للتَّهييجِ والحثِّ على العملِ، وهذا أسلوبٌ معروفٌ، كما يقالُ: «إنْ كنتَ ابنَ الكرامِ فافعَلْ كذا»، وأنت لا تشكُّ في كونِه ابنَ الكرامِ؛ ولكنْ تَحُثُّه على العملِ[1].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا﴾ المرادُ بالعذابِ هنا: الجَلْدُ المنصوصُ عليه في قَولِه تعالى: ﴿فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ الجَلْدَ يُسمَّى عذابًا[2].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأخْبَر الله تعالى أنَّ الزَّانيَ لا يَنكحُ إلَّا زانيةً أو مشركةً، ثم قال تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ فعُلِمَ أنَّ الإيمانَ يَمنعُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٣). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٤).

ذلك ويَزجُرُ؛ وأنَّ فاعلَه إمَّا مُشركٌ وإمَّا زانٍ؛ ليس مِن المؤمنين الذين يَمنعُهم إيمانُهم من ذلك؛ فإنَّ كمالَ الإيمانِ وحقيقتَه يمنعُ ذلك، فلا يَقَعُ إلَّا عندَ نوعِ ضَعفٍ في الإيمانِ، وفي الصَّحيحِ: ((لا يَزني الزَّاني حِين يَزني وهو مُؤمِنٌ))[1]، فسَلَبه حقيقةَ الإيمانِ الَّتي بها يستحِقُّ حُصولَ الثَّوابِ والنَّجاةِ مِن العقابِ؛ وإنْ كانَ معَه أصلُ الإيمانِ الَّذي يُفارِقُ به الكفَّارَ، ويَخرُجُ به مِن النَّارِ[2].

١٧- إذا كان رَجُلٌ له جاريةٌ تَزني؛ فليس له أنْ يَطَأَها حتَّى تَحيضَ ويَستبرِئَها مِن الزِّنا؛ فإنَّ ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ عَقدًا ووطْئًا، ومتى وَطِئَها -مع كونِها زانيةً- كان دَيُّوثًا[3].

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ أَسندَ النِّكاحَ في الموضِعَينِ إلى الرَّجُلِ؛ تنبيهًا إلى أنَّ النساءَ لا حَقَّ لهنَّ في مُباشَرةِ العَقدِ[4]، وذلك بِناءً على أنَّ المرادَ بالنِّكاحِ هاهنا: العقدُ.

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه دليلٌ صريحٌ على تَحريمِ نِكاحِ الزانيةِ حتى تَتوبَ، وكذلك إنكاحُ الزاني حتَّى يتوبَ؛ فإنَّ مُقارَنةَ الزوجِ لزوجتِه، والزوجةِ لزَوجِها أشدُّ الاقتراناتِ والازدِواجاتِ، وقد قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: قُرناءَهم؛ فحرَّمَ اللهُ ذلك؛ لِمَا فيه مِن الشرِّ العظيمِ، ممَّا بعضُه كافٍ للتحريمِ[5]، وذلك أنَّ الزانيةَ فيها إفسادُ فِراشِ الرَّجُلِ،

---

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٦)، (٢٠/ ١٢٤)، (٢٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

وفي مُناكحتِها مُعاشرةُ الفاجرةِ دائمًا ومصاحبتُها، والله قدْ أمَرَ بهَجرِ السُّوءِ وأهلِه ما داموا عليه، وهذا المعنى موجودٌ في الزاني؛ فإنَّ الزانيَ إنْ لم يُفسِدْ فراشَ امرأتِه كان قَرينَ سُوءٍ لها، كما قال الشعبيُّ: (مَن زَوَّجَ كريمتَه من فاسقٍ فقدْ قطَعَ رَحِمَها)[1]، وهذا ممَّا يَدخُلُ به على المرأةِ ضَررٌ في دِينها ودُنياها؛ فنِكاحُ الزانيةِ أشدُّ مِن جِهةِ الفراشِ، ونِكاحُ الزاني أشدُّ من جِهةِ أنَّه السيِّدُ المالكُ الحاكمُ على المرأةِ؛ فتَبقَى المرأةُ الحُرَّةُ العفيفةُ في أَسْرِ الفاجرِ الزاني، الذي يُقصِّرُ في حُقوقِها، ويَتعدَّى عليها[2].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على تحريمِ نِكاحِ الزَّواني والزُّناةِ على الأعفَّاءِ والعفائفِ، ويدُلُّ لذلك قولُه: ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وقولُه: ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [النساء: ٢٤]، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ بعُمومِها على خِلافِ ذلك؛ كقولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وقولِه: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]؟

والجواب عن هذا مُختَلَفٌ فيه اختلافًا مَبنيًّا على الاختلافِ في حُكمِ تَزوُّجِ العفيفِ للزَّانيةِ، أو العفيفةِ للزَّاني؛ فمَن يقولُ: هو حرامٌ، يقولُ: هذه الآيةُ مُخصِّصةٌ لعُمومِ: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾، وعُمومِ: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، والذين يقولون بعَدمِ المنعِ -وهُم الأكثرُ- أجابوا بأجوبةٍ:

**الأوَّل**: أنَّها مَنسوخةٌ بقولِه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾.

**الثَّاني**: أنَّ النِّكاحَ في هذه الآيةِ الوطءُ؛ وعليه فالمرادُ بالآيةِ أنَّ الزَّانيَ لا يُطاوِعُه

---

(١) الأثر في: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٤/ ٣١٤)، ((شُعَب الإيمان)) للبيهقي (١١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣١٦).

على فِعلِه ويُشارِكُه في مُرادِه إلَّا زانيةٌ مِثلُه، أو مُشرِكةٌ لا ترَى حُرمةَ الزِّنا.

**الثَّالث**: أنَّ هذا خاصٌّ؛ لأنَّه كان في نِسوةٍ بَغايا، كان الرَّجُلُ يتزوَّجُ إحداهُنَّ على أنْ تُنفِقَ عليه ممَّا كَسَبتْه مِن الزِّنا؛ لأنَّ ذلك هو سببُ نزولِ الآيةِ؛ فزَعَم بعضُهم أنَّها مُختَصَّةٌ بذلك السببِ؛ بدليلِ قوله: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾، وقولِه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾[1].

٢١- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لو زَوَّجَ الأبُ عَفيفةً بفاجِرٍ؛ فإنَّ النِّكاحَ فاسِدٌ[2].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إنَّما خَصَّهم بالذِّكْرِ؛ لأنَّهم هم المنتَفِعون بالأمرِ والنَّهيِ، والتَّحليلِ والتحريمِ؛ فلا دليلَ فيه لِمَن يقولُ: إنَّ الكفَّارَ ليسوا مخاطَبينَ بفروعِ الشَّريعةِ[3]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿سُورَةٌ﴾ خبرُ مبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: هذه سُورةٌ، وإنَّما أُشيرَ إليها مع عَدمِ سَبْقِ ذِكْرِها؛ لأنَّها باعتِبارِ كَونِها في شرَفِ الذِّكرِ في حُكْمِ الحاضِرِ المُشاهَدِ[4].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص:١٦٧). وقال الشنقيطي عن الجوابِ الثالثِ: (وهذا أضعفُها).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

- قَولُه: ﴿أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ صِفاتٌ لـ﴿سُورَةٌ﴾، والمقصودُ مِن تلكَ الأوصافِ: التَّنْويهُ بهذه السُّورةِ؛ ليُقْبِلَ المُسلِمونَ على تَلقِّي ما فيها. وفي ذلكَ امتِنانٌ على الأُمَّةِ بتَحديدِ أحكامِ سِيرتِها في أحوالِها؛ ففي قولِه: ﴿أَنزَلْنَٰهَا﴾ تَنْويهٌ بالسُّورةِ بما يَدُلُّ عليه (أَنزَلْنا) مِنَ الإسنادِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ الدَّالِّ على العِنايةِ بها وتَشريفِها. والمَقصودُ مِن إسنادِ إنزالِها إلى اللهِ تعالى: تَنْويهٌ بها. وعَبَّرَ عن إنزالِها بصِيغَةِ المُضِيِّ -وإنَّما هو واقِعٌ في الحالِ- باعتِبارِ إرادةِ إنزالِها، فكأنَّه قيل: أرَدْنا إنزالَها وإبلاغَها، فجَعَل ذلكَ الاعتِناءَ كالماضي؛ حِرصًا عليه. وهذا مِن استِعمالِ الفِعلِ في معنى إرادةِ وُقوعِه[1]. وقولُه: ﴿أَنزَلْنَٰهَا ...﴾ مع ما عُطِفَ عليه صِفاتٌ للسُّورةِ، مُؤكِّدةٌ لِما أفادَه التَّنكيرُ مِنَ الفَخامةِ مِن حيثُ الذَّاتُ بالفَخامةِ مِن حيثُ الصِّفاتُ[2].

- قَولُه: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾، أي: فَرَضْنا ما بُيِّن فيها، وإنَّما قال ذلكَ؛ لأنَّ أكثَرَ ما في هذه السُّورةِ مِن بابِ الأَحكامِ والحُدودِ[3]؛ فقولُه: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ بمَنزلةِ بَراعةِ الاستِهلالِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ ...﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ مِنَ الأحكامِ كالتَّفصيلِ[4].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ مِنَ الإيذانِ بغايةِ وِكادةِ الفَرْضيَّةِ ما لا يَخفَى[5].

- قَولُه: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ هكذا ﴿وَفَرَّضْنَاهَا﴾؛ لِلمُبالَغةِ في الإيجابِ وتَوكيدِه، أو لأنَّ فيها فرائضَ شتَّى، أو لكثرةِ المفروضِ عليهم[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) =

- وقولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ إنْ أُريدَ بها الآياتُ الَّتي نِيطَتْ بها الأَحكامُ المَفروضةُ، فتكريرُ (أَنْزَلْنَا) مع استِلزامِ إنزالِ السُّورةِ لإنزالِها؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ بشأْنِها. وإنْ أُريدَ جَميعُ الآياتِ، فتكريرُ (أَنْزَلْنَا) مع أنَّ جميعَ الآياتِ عَيْنُ السُّورةِ، وإنزالَها عَيْنُ إنزالِها؛ لاستِقلالِها بعُنوانٍ رائقٍ داعٍ إلى تَخصيصِ إنزالِها بالذِّكرِ؛ إبانةً لخَطَرِها، ورَفعًا لمَحلِّها[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ تَنْويهٌ آخَرُ بهذه السُّورةِ؛ تَنويهٌ بكلِّ آيةٍ اشتَملَتْ عليها السُّورةُ: مِنَ الهَدْيِ إلى التَّوحيدِ، وحَقِّيَّةِ الإسلامِ، ومِن حُجَجٍ وتَمثيلٍ، وما في دَلائلِ صُنعِ اللهِ على سَعةِ قُدرتِه وعِلْمِه وحِكْمتِه، وهي ما أشارَ إليه قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]، وقولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ إلى قولِه: ﴿صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٣ - ٤٦]. ومِنَ الآياتِ البَيِّناتِ الَّتي أُنزِلَتْ فيها: إطْلاعُ اللهِ رسولَه على دَخائِلِ المُنافِقينَ ممَّا كَتَموه في نُفوسِهِم، مِن قولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٤٨- ٥٣]؛ فحَصَل التَّنويهُ بمَجموعِ السُّورةِ ابتِداءً، والتَّنويهُ بكلِّ جُزءٍ منها ثانيًا؛ فالمرادُ مِنَ الآياتِ المُنزَّلةِ في هذه السُّورةِ: جَميعُ ما اشتَملَتْ عليه مِنَ الآياتِ، لا آياتٌ مَخصوصةٌ مِن بَيْنِها. والمَقصودُ: التَّنويهُ بآياتِها، بإجراءِ وَصْفِ (بَيِّناتٍ) عليها[2].

- قَولُه: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ حَقَّها أنْ تَكونَ على ذُكْرٍ منهُم، بحيثُ

---

= (٨/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥)

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٣، ١٤٤).

متى مَسَّتِ الحاجةُ إليها استَحضَرُوها[١].

- وجُملةُ: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مُرتبِطةٌ بجُملةِ: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾؛ لأنَّ الآياتِ بهذا المعنى مَظِنَّةُ التَّذكُّرِ، أي: دلائِلُ، مَظِنَّةٌ لحُصولِ تَذكُّرِكُم؛ فحَصَلَ بهذا الرَّجاءِ وَصْفٌ آخَرُ للسُّورةِ، هو: أنَّها مَبعَثُ تَذكُّرٍ وعِظَةٍ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ابتِداءُ كلامٍ، وهو كالعُنوانِ والتَّرجمةِ في التَّبويبِ؛ فلذلكَ أُتِيَ بَعدَه بالفاءِ المُؤْذِنةِ بأنَّ ما بَعدَها في قُوَّةِ الجوابِ، وأنَّ ما قَبْلَها في قُوَّةِ الشَّرطِ؛ فالتَّقديرُ: الزَّانيةُ والزَّاني ممَّا أُنزِلَتْ له هذه السُّورةُ وفُرِضَتْ. ولَمَّا كان هذا يَستَدعي استِشرافَ السَّامعِ، كان الكلامُ في قُوَّةِ: إنْ أرَدْتُم حُكْمَهما فاجْلِدوا كلَّ واحدٍ منهُما مئةَ جَلْدةٍ[٣]. وإنَّما بُدِئَ بالزِّنا، مع أنَّ السُّورةَ تَضمَّنَتْ أحكامًا كثيرةً فيما يَتعلَّقُ بالزِّنا ونِكاحِ الزَّواني، وقَذْفِ المُحْصَناتِ، والتَّلاعُنِ، والحِجابِ، وغَيرِ ذلكَ؛ لقُبحِ الزِّنا، وما يَحدُثُ عنه مِنَ المَفاسدِ والعارِ[٤].

- وقُدِّمَ ذِكْرُ الزَّانيةِ على الزَّاني للاهتِمامِ بالحُكمِ؛ لأنَّ المرأةَ هي الباعِثُ على زِنَا الرَّجُلِ، وبمُساعَفَتِها الرَّجُلَ يَحصُلُ الزِّنا، ولو مَنَعَتِ المرأةُ نفْسَها ما وَجَد الرَّجُلُ إلى الزِّنا تَمكينًا؛ فتَقديمُ المرأةِ في الذِّكْرِ لأنَّه أشَدُّ في تَحذيرِها، ولأنَّها أصلُ الفِتنةِ بهَتْكِ ما أُمِرَتْ به مِن حِجابِ التَّستُّرِ والتَّصوُّنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧).

والتَّحذُّرِ[١]. وقيل: قُدِّمَتْ لأنَّ زِناها أفحَشُ وأكثَرُ عارًا، وهو لأجلِ الحَبَلِ أضَرُّ؛ فقدَّمها لأنَّ أثَرَ الزِّنا يَبدُو عليها مِن الحَبَلِ وزَوالِ البَكارةِ، وحالُ النِّساءِ الحَجبَةُ والصِّيانةُ؛ فقَدَّمَ ذِكْرَهُنَّ تَغليظًا واهتمامًا[٢]. وقيل: قُدِّمتِ الزانيةُ في الآيةِ؛ لأنَّه في ذلك الزَّمانِ كان زِنَا النساءِ فاشيًا، وكان لإماءِ العربِ وبغايا الوقتِ راياتٌ، وكُنَّ مُجاهِراتٍ بذلك[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاءَ قولُه: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖ﴾ الآيةَ، فقُدِّمَتِ المرأةُ في آيةِ حَدِّ الزِّنا، وأُخِّرَتْ في آيةِ حدِّ السَّرِقةِ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]؛ أمَّا وجهُ تقديمِ المرأةِ في آيةِ حَدِّ الزِّنا فقد سبَق، وأمَّا وجهُ تقديمِ الرجُلِ في آيةِ حدِّ السَّرِقةِ فلأنَّ السَّرِقةَ إنَّما تَتولَّدُ مِنَ الجَسارةِ والقُوَّةِ والجُرأةِ، وهي مِنَ الرَّجُلِ أَقوى وأَكثَرُ[٤].

- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ سؤالٌ: ما الموجِبُ لدخولِ الفاءِ في قَولِه تعالى: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾؟

**والجوابُ**: ما ذَكَرَه بعضُ العلماءِ مِن أنَّ الموصولَ إذا تضمَّنَ معنى الشرطِ دخلتِ الفاءُ في خبرِه، و(أل) في: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾ موصولةٌ مضمَّنةٌ الشَّرطَ؛ لأنَّها دخلَتْ على صفةٍ صريحةٍ، والمعنى: إذا زنَيا فاجلِدوهما[٥].

- قَولُه: ﴿فَٱجۡلِدُواْ﴾ في لَفظِ الجَلْدِ إشارةٌ إلى أنَّه لا يَنبَغي أنْ يَتجاوَزَ الألمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٥، ٢٦).

إلى اللَّحمِ؛ لأنَّ الجَلْدَ ضَرْبُ الجِلْدِ، أي: لا يَكونُ الضَّربُ يُطيِّرُ الجِلْدَ حتَّى يَظهَرَ اللَّحمُ؛ فاختيارُ هذا اللَّفظِ دُون الضَّربِ مَقصودٌ به الإشارةُ إلى هذا المعنى على طَريقةِ الإدماجِ(١).

- قَولُه: ﴿كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا﴾ تأكيدٌ للعُمومِ المُستفادِ مِنَ التَّعريفِ في ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي﴾؛ فلمْ يَكتَفِ بأنْ يُقالَ: فاجلِدوهُما، كما قال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾(٢) [المائدة: ٣٨]، ولئلاَّ يُتوهَّمَ أنَّ المئةَ بيْنَهما مُناصَفةٌ.

- وفي قولِه: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ قُدِّمَ المَجرورُ ﴿بِهِمَا﴾ على عامِلِه ﴿رَأْفَةٌ﴾؛ للاهتِمامِ بذِكْرِ الزَّاني والزَّانيةِ؛ تَنبيهًا على الاعتِناءِ بإقامةِ الحدِّ. والنَّهيُ عن أنْ تأخُذَهم رَأفةٌ: كِنايةٌ عنِ النَّهيِ عن أثَرِ ذلكَ، وهو تَرْكُ الحدِّ أو نَقْصُه أو تخفيفُه(٣).

- وعُلِّقَ بالرَّأفةِ قولُه: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ أنَّها رَأفةٌ غيرُ مَحمودةٍ؛ لأنَّها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٧).

والإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعل المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٤٦، ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٥٠).

تُعطِّلُ دِينَ اللهِ، أي: أحكامَه، وإنَّما شَرَعَ اللهُ الحدَّ استِصلاحًا؛ فكانتِ الرَّأفةُ في إقامتِه فَسادًا. وفيه تَعريضٌ بأنَّ اللهَ الَّذي شَرَعَ الحدَّ هو أرأفُ بعِبادِه مِن بعضِهم ببَعضٍ[١].

وقيل: سرُّ تقييدِ النَّهيِ عنِ الرأفةِ بقولِه تعالى: ﴿فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾، هو أنَّ الرِّقَّةَ إذا منَعَتْ مِن إقامةِ الحَدِّ فهي واقعةٌ في دينِ اللهِ، ودينُ اللهِ هو الإسلامُ، ويدخلُ فيه الأوامِرُ والنَّواهي والحدودُ، وغيرُ ذلك ممَّا يَشملُه الدِّينُ[٢].

- وجُملةُ: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ شَرْطٌ مَحذوفُ الجوابِ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، أي: إنْ كنتُم مُؤمِنينَ فلا تأخُذْكُم بهِما رَأفةٌ، أي: لا تؤَثِّرْ فيكُم رَأفةٌ بهِما. والمقصودُ: شِدَّةُ التَّحذيرِ مِن أنْ يَتأثَّروا بالرَّأفةِ بهِما، بحيثُ يُفرَضُ أنَّهم لا يُؤْمِنونَ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ مِن بابِ التَّلهيبِ والتَّهييجِ والغضبِ للهِ، حتَّى يقولَ السَّامعُ: كيف لا أُومِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ؟! فإنَّ الإيمانَ بهما يَقتضِي الجِدَّ في طاعتِه تعالى، والاجتهادَ في إجراءِ أحكامِه، وذُكِرَ اليومُ الآخِرُ؛ لتَذكيرِ ما فيه مِن العِقابِ في مُقابلةِ المُسامحةِ والتَّعطيلِ[٤].

- وعَطْفُ الإيمانِ باليومِ الآخِرِ على الإيمانِ باللهِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾؛ للتَّذكيرِ بأنَّ الرَّأفةَ بهِما في تَعطيلِ الحدِّ أو نَقْصِه نِسيانٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٠، ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٣٢، ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦١، ٥٦٢).

لليومِ الآخِرِ؛ فإنَّ تلكَ الرَّأفةَ تُفْضِي بهما إلى أنْ يُؤخَذَ منهما العِقابُ يومَ القيامةِ؛ فهي رَأفةٌ ضارَّةٌ، كرَأفةِ تَرْكِ الدَّواءِ للمَريضِ؛ فإنَّ الحُدودَ جَوابرُ على ما تُؤْذِنُ به أدِلَّةُ الشَّريعةِ[1].

- قَولُه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سَمَّى الجَلدَ عذابًا؛ إذْ فيه إيلامٌ وافتِضاحٌ، وهو عُقوبةٌ على ذلك الفِعلِ[2]. وقولُه: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ زِيادةٌ في التَّنكيلِ؛ فإنَّ التَّفضيحَ قد يُنكِّلُ أكثَرَ ممَّا يُنكِّلُ التَّعذيبُ[3]. واختِصاصُه المُؤمِنينَ؛ لأنَّ ذلك أفضَحُ، والفاسقُ بيْنَ صُلَحاءِ قَومِه أخجَلُ[4].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَوقِعُ هذه الآيةِ مَوقِعُ المَقصودِ مِنَ الكلامِ بَعدَ المُقدِّمةِ؛ ولذلك جاءَتْ مُستأنَفةً كما تَقَعُ النَّتائجُ بَعدَ أدِلَّتِها، وقُدِّمَ قَبْلَها حُكْمُ عُقوبةِ الزِّنا؛ لإفادةِ حُكْمِه وما يَقتَضيه ذلك مِن تَشنيعِ فِعْلِه[5].

- وقولُه: ﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ حُكْمٌ مُؤَسَّسٌ على الغالبِ المُعتادِ؛ جِيءَ به لزَجْرِ المُؤمِنينَ عن نِكاحِ الزَّواني -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-، بَعدَ زَجْرِهم عنِ الزِّنا بهنَّ، كأنَّه قيلَ: الزَّاني لا يَرغَبُ إلَّا في نِكاحِ إحداهما، والزَّانيةُ لا يَرغَبُ في نِكاحِها إلَّا أحدُهُما، فلا تَحومُوا حَولَه؛ كيْ لا تَنتَظِموا في سِلْكِهما، أو تَتَّسِموا بسِمَتِهما؛ فإيرادُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٦).

الجُملةِ الأُولى مع أنَّ مَناطَ التَّنفيرِ هي الثَّانيةُ؛ إمَّا للتَّعريضِ بقَصْرِهم الرَّغبةَ عليهِنَّ، أو لتأكيدِ العَلاقةِ بيْن الجانِبَينِ؛ مُبالَغةً في الزَّجرِ والتَّنفيرِ. وعَدَمُ التَّعرُّضِ في الجُملةِ الثَّانيةِ للمُشرِكةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَناطَ الزَّجرِ والتَّنفيرِ هو الزِّنا لا مُجرَّدُ الإشراكِ، وإنَّما تُعرِّضَ لها في الأُولى؛ إشباعًا في التَّنفيرِ عنِ الزَّانيةِ بنَظْمِها في سِلْكِ المُشركةِ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قُدِّمَتِ الزَّانيةُ على الزَّاني أوَّلًا، ثمَّ قُدِّمَ عليها ثانيًا؛ وذلك لأنَّ تلك الآيةَ سِيقَتْ لعُقوبَتِهما على ما جَنَيا، والمرأةُ هي المادَّةُ الَّتي منها نَشأتِ الجِنايةُ؛ لأنَّها لو لمْ تُطْمِعِ الرَّجُلَ، ولمْ تُومِضْ له، ولمْ تُمكِّنْه: لمْ يَطمَعْ ولمْ يَتمكَّنْ؛ فلمَّا كانتْ أصْلًا وأوَّلًا في ذلك بدَأَ بذِكْرِها، وأمَّا الثَّانيةُ فمَسوقةٌ لذِكْرِ النِّكاحِ، والرَّجُلُ أصْلٌ فيه؛ لأنَّه هو الرَّاغِبُ والخاطِبُ، ومنه يَبدأُ الطَّلبُ[٢]. وقيل: لأنَّ سبَبَ نُزولِ هذه الآيةِ كان رَغبةَ رَجُلٍ في تَزوُّجِ امرأةٍ تَعوَّدَتِ الزِّنا؛ فكان المَقامُ مُقتَضيًا الاهتِمامَ بما يَترتَّبُ على هذا السُّؤالِ مِن مَذمَّةِ الرَّجُلِ الَّذي يَتزوَّجُ مِثْلَ تلك المرأةِ[٣].

- وعَطْفُ قولِه: ﴿أَوْ مُشْرِكَةً﴾ على ﴿زَانِيَةً﴾، وقولِه: ﴿أَوْ مُشْرِكٌ﴾ على ﴿إِلَّا زَانٍ﴾؛ لزِيادةِ التَّفظيعِ[٤].

- وجُملةُ: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تكميلٌ للمَقصودِ مِنَ الجُملتينِ قَبْلَها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٣، ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٥٦).

وهو تَصريحٌ بما أُريدَ مِن تَفظيعِ نِكاحِ الزَّانيةِ، ببَيانِ الحُكْمِ الشَّرعيِّ في القَضيَّةِ، وعُطِفَتِ الجُملةُ؛ لأنَّها أفادَتْ تَكميلًا لِما قبلَها، وشأْنُ التَّكميلِ أنْ يكونَ بطَريقِ العَطفِ[1].

- قَولُه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا كان معنَى الآيةِ على الخَبرِ؛ فيَكونُ فيه التَّعبيرُ عنِ التَّنزيهِ بالتَّحريمِ؛ مُبالَغةً في الزَّجرِ، وإذا كان مَعناها النَّهيَ؛ فقولُه: ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مؤَكِّدٌ لمعنَى النَّهيِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

## الآيتان (٤-٥)

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَرْمُونَ﴾: أي: يَشتُمون، ويَقْذِفون بالزِّنَا، وأصْلُ (رمي): نَبْذُ الشَّيءِ[1].

﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: أي: ذواتَ الأزواجِ، والمُحْصَناتُ أيضًا: الحرائرُ وإنْ لم يكُنَّ مُتزوِّجاتٍ، والعفائفُ، وأصْلُ (حصن): الحِفْظُ والحِياطةُ والحِرْزُ[2].

## المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى تشريعًا آخَرَ يكفُلُ حمايةَ الأعراضِ، فيقولُ مبيِّنًا حدَّ القذفِ: والذين يَقذِفونَ المسلماتِ الحرائرَ المكلَّفاتِ العَفيفاتِ بالفاحشةِ دونَ أن يشهَدَ معهم أربعةُ شُهداءَ مِن الرجالِ العدولِ، فيُجلَدُ كلُّ واحدٍ منهم ثمانينَ جَلدةً، ولا تُقبَلُ لهم شهادةٌ أبدًا، وأولئك هم الخارِجونَ عن طاعةِ الله، إلَّا الذين تابوا ونَدِموا على ما فعَلوا، وأصلحوا أعمالَهم؛ فإنَّ اللهَ يغفِرُ ذنوبَهم ويرحَمُهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٥).

قال الرازي: (الإحصان... مأخوذٌ مِن منْعِ الفرْجِ، فإذا تزوَّجَتْ منعَتْه إلَّا مِن زَوجِها، وغيرُ المُتزوِّجةِ تَمنَعُه كلَّ أحدٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٣).

## تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا نفَّرَ اللهُ تعالى مِن نكاحِ مَنِ اتَّصفَ بالزِّنا مِن رجُلٍ أو امرأةٍ- عطَفَ على ذلك تَحريمَ القذْفِ بما يُوجِبُ تَعظيمَ الرَّغبةِ في السَّترِ، وصِيانةِ الأعراضِ، وإخفاءِ الفواحشِ[1].

وأيضًا لَمَّا عظَّمَ اللهُ تعالى أمْرَ الزَّاني بوُجوبِ جَلْدِه، وكذا رَجْمُه إنْ كان مُحصَنًا، وأنَّه لا تَجوزُ مُقارَنتُه، ولا مُخالَطَتُه على وَجْهٍ لا يَسلَمُ فيه العبْدُ مِنَ الشَّرِّ- بيَّنَ تعالى تَعظيمَ الإقدامِ على الأعراضِ بالرَّميِ بالزِّنا؛ فقال[2]:

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ ﴾.

أي: والَّذين يَقْذِفون[3] المسلماتِ الحرائرَ المكلَّفاتِ العَفيفاتِ[4] بالزِّنا، ولم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٣) حكى الرازي الاتفاقَ على دُخولِ الكافرِ تحتَ عُمومِ قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ﴾، قال: (لأنَّ الاسمَ يتناولُه). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٣).

قال الشِّنقيطيُّ: (قولُه تعالى في هذه الآيةِ: ﴿يَرۡمُونَ﴾ معناهُ: يَقْذِفون المُحْصَناتِ بالزِّنا صريحًا، أو ما يَستلزِمُ الزِّنا؛ كنَفْيِ نسَبِ ولَدِ المُحْصَنةِ عن أبيهِ؛ لأنَّه إنْ كان مِن غَيرِ أبيه كان مِن زِنًا). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٢٨).

(٤) قال البِقَاعيُّ: (﴿ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ جمْعُ مُحصَنةٍ، وهي هنا المُسلِمةُ، الحُرَّةُ، المُكلَّفةُ، العَفيفةُ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢١٤).

وقال الرازيُّ: (ظاهِرُ الآيةِ يَتناوَلُ جميعَ العفائفِ؛ سواءٌ كانت مُسلمةً أو كافرةً، وسواءٌ كانت حُرَّةً أو رقيقةً، إلَّا أنَّ الفُقهاءَ قالوا: شرائطُ الإحصانِ خمْسةٌ: الإسلامُ، والعقْلُ، والبُلوغُ، =

يُحضِروا أربعةً مِنَ الرِّجالِ العُدولِ؛ لِيَشْهدوا علَيهِنَّ أنَّهم رأَوْهُنَّ يَفعلْنَ الزِّنا؛ فاجلِدوا كلَّ واحدٍ منهم ثمانينَ جَلدةً؛ عُقوبةً لهم على القذفِ بلا بيِّنةٍ[1].

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾.

أي: ولا تَقْبَلوا للقاذِفِينَ بعدَ جَلدِهم شَهادةً في بَقيَّةِ حياتِهم؛ عُقوبةً أُخرى لهم على مَعصيَتِهم[2].

---

= والحُرِّيةُ، والعِفَّةُ مِن الزِّنا). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٣).

وهذه الشرائطُ الخمسةُ اتفقَتْ عليها المذاهبُ الفقهيَّةُ الأربعةُ، وخالَف الحنابلةُ في البلوغِ؛ فقالوا: لا يُشترَطُ في المَقذوفِ البلوغُ، بل أن يَكونَ مِثلُه يَطأُ أو يُوطأُ. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٧/ ٤٠)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (٨/ ٨٦)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (٧/ ٤٣٧، ١٠٩)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ١٠٥).

وقال القرطبيُّ: (قذْفُ الرِّجالِ داخلٌ في حُكمِ الآيةِ بالمعنى، وإجماعِ الأُمَّةِ على ذلك... وحكى الزَّهراويُّ أنَّ المعنى: الأنفُسَ المُحْصناتِ؛ فهي بلَفْظِها تعُمُّ الرِّجالَ والنِّساءَ، ويدُلُّ على ذلك قولُه: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٤]). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٧٢). وممَّن حكى الإجماعَ أيضًا: ابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٦١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٢٨، ٤٢٩).

قال ابنُ عاشورٍ: (الشُّهداءُ الأربعةُ هم غيرُ القاذِفِ؛ لأنَّ معنى: ﴿يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ لا يتحقَّقُ فيما إذا كان القاذِفُ مِن جُملةِ الشُّهداءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٩).

قال الشنقيطيُّ: (يُشترَطُ في شُهودِ الزِّنا أنْ يكونوا ذُكورًا، ولا تصِحُّ فيه شَهادةُ النِّساءِ بحالٍ، ولا نعلَمُ أحدًا مِن أهلِ العلْمِ خالَفَ في ذلك، إلَّا شيئًا يُرْوى عن عطاءٍ وحمَّادٍ: أنَّه يُقبَلُ فيه ثلاثةُ رجالٍ وامرأتانِ. وقال ابنُ قُدامةَ في «المُغْني»: وهو شُذوذٌ لا يُعوَّلُ عليه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٣٧٣). ويُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١). =

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

أي: وأُولئِكَ القاذِفونَ هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ[1].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٥﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾.

أي: إلَّا الَّذين نَدِموا على قَذْفِهم، وأقلَعوا عن مَعصيةِ القذفِ بعدَ وُقوعِهم فيها، وعَزَموا على عدَمِ العودةِ إليها[2]،.....

---

= قال ابنُ تيميَّةَ: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ فهذا نَصٌّ في أنَّ هؤلاء القَذَفةَ لا تُقبَلُ لهم شَهادةٌ أبدًا، واحدًا كانوا أو عَددًا؛ بلْ لفْظُ الآيةِ يَنتظِمُ العدَدَ على سَبيلِ الجمْعِ والبدَلِ؛ لأنَّ الآيةَ نزَلَت في أهْلِ الإفكِ باتِّفاقِ أهْلِ العلْمِ والحديثِ والفِقْهِ والتَّفسيرِ، وكان الَّذين قَذَفوا عائشةَ عددًا، ولم يَكونوا واحدًا). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٥٣، ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٨/ ٥٠٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٢) قال ابن عطية: (تضَمَّنَت الآيةُ ثلاثةَ أحكامٍ في القاذِفِ: جَلْدَه، ورَدَّ شهادتِه أبدًا، وفِسقَه؛ فالاستِثناءُ غيرُ عاملٍ في جَلْدِه بإجماعٍ، وعامِلٌ في فِسْقِه بإجماعٍ، واختَلَف النَّاسُ في عَمَلِه في رَدِّ الشَّهادةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٥).

ممَّن نَقَل الاتِّفاقَ أيضًا على أنَّ الاستثناءَ لا يَرجِعُ إلى جملةِ الجَلْدِ، وأنَّ القاذِفَ إذا تاب وأصلَحَ لا يَسقُطُ عنه حَدُّ القَذفِ بالتَّوبةِ: ابنُ جرير، وابنُ رُشْد، وابن كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٢)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١).

قال الشنقيطي: (الجُملةُ الأُولى التي هي: ﴿فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ لا يَرجِعُ لها الاستِثناءُ في قَولِ عامَّةِ أهلِ العِلمِ، ولم يخالِفْ إلَّا مَن شَذَّ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٣٢).

وممَّن نَقَل الاتِّفاقَ أيضًا على أنَّ الفِسقَ يَزولُ بالتَّوبةِ، وأنَّ الجُملةَ الأخيرةَ التي هي قَولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ يَرجِعُ لها الاستِثناءُ: ابنُ جرير، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٢).

واختَلَفوا في قَبولِ الشَّهادةِ بعد التَّوبةِ؛ فذَهَب الجُمهورُ إلى أنَّ الاستِثناءَ عامِلٌ في رَدِّ =

= الشَّهادةِ، فإذا تاب القاذِفُ قُبِلَت شَهادتُه، ومِمَّن نَسَبه إلى الجُمهورِ: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، ونسبه الرازيُّ إلى أكثرِ الصَّحابةِ والتابعينَ، وممَّن اختاره: السعديُّ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥).

وهو مذهَبُ جُمهورِ الفُقَهاءِ مِنَ المالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٤/ ٢٤٦)، ((البيان في مذهب الإمام الشافعي)) للعمراني (١٣/ ٣١٧)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٥٩٠).

قال مكِّيٌّ: (وهو مذهَبُ أكثرِ الفُقَهاءِ؛ منهم: الشَّعْبيُّ، والزُّهْري، وأبو الزناد، ومالكٌ، والشافعيُّ، وأحمدُ، وإسحاق، وأبو ثور، وأبو عبيد، وهو قول عُمرَ بنِ الخطابِ، وابن أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وعطاء، ومجاهد، وطاوُس، وبه قال عُمرُ بن عبد العزيز، وعبد الله بن عتبة، وابنُ المسَيِّب.( ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٨/ ٥٠٣٤).

وقال أبو حيان: (وقد وقَعَ الخِلافُ في قَبولِ شهادتِهم إذا تابوا؛ بِناءً على أنَّ هذا الاستثناءَ راجِعٌ إلى جُملةِ النَّهيِ، وجملةِ الحُكمِ بالفِسقِ، أو هو راجِعٌ إلى الجملةِ الأخيرةِ، وهي الثَّالِثةُ، وهي الحُكمُ بفِسقِهم). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥).

وقال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ المقرَّرَ في أُصولِ المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ: أنَّ الاستِثناءَ إذا جاء بعد جُمَلٍ مُتعاطِفاتٍ أو مُفرَداتٍ مُتعاطِفاتٍ: أنَّه يرجِعُ لجَميعِها إلَّا لدليلٍ مِن نَقلٍ أو عَقلٍ يُخَصِّصُه ببَعضِها، خلافًا لأبي حنيفةَ القائِلِ برُجوعِ الاستِثناءِ للجُملةِ الأخيرةِ فقط). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٣١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨٠).

وقال أيضًا: (الذي يَظهَرُ لنا في مسألةِ الاستثناءِ بعد جُمَلٍ مُتعاطِفاتٍ أو مُفرَداتٍ مُتعاطِفاتٍ: هو ما ذكَرَه بَعضُ المتأخِّرين؛ كابنِ الحاجِبِ مِنَ المالكيَّةِ، والغزاليِّ من الشَّافعيَّةِ، والآمديِّ مِن الحنابلةِ: مِن أنَّ الحُكمَ في الاستثناءِ الآتي بعد متعاطِفاتٍ هو الوَقفُ، ولا يُحكَمُ برُجوعِه إلى الجَميعِ ولا إلى الأخيرةِ إلَّا بدَليلٍ. وإنَّما قُلْنا: إنَّ هذا هو الأظهَرُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، وإذا ردَدْنا النِّزاعَ في هذه المسألةِ إلى اللهِ وَجَدْنا القُرآنَ دالًّا على ما ذكَرْنا أنَّه الأظهَرُ عندَنا، وهو الوَقفُ؛ وذلك لأنَّ بعضَ الآياتِ لم يَرجِعْ فيها الاستثناءُ للأُولى، وبَعضَها لم يَرجِعْ فيه الاستثناءُ للأخيرةِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ رُجوعَه لِما قَبلَه ليس شيئًا مُطَّرِدًا). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٣٢).

وقال الماوَرْدي: (وفي صفةِ التَّوبةِ قولانِ: أحدُهما: أنَّها بإكذابِه نَفْسَه، وقد رواه الزُّهري عن =

وأصلَحوا أحوالَهم وأعمالَهم[1].

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ يَستُرُ ذُنوبَهم ويَتجاوزُ عن مُؤاخذَتِهم بها، رَحيمٌ بهم، فاقْبَلوا

---

= ابن المسَيِّبِ: أنَّ عُمَرَ بنَ الخطَّابِ جَلَد أبا بَكْرةَ وشِبلَ بنَ مَعبدٍ ونافِعَ بنَ الحارثِ بنِ كَلَدةَ، وقال لهم: مَن أكذَبَ نَفْسَه، أحرزَ شَهادتَه. فأكذَبَ نَفْسَه شِبلٌ ونافِعٌ، وأبى أبو بَكرةَ أن يَفعَلَ. قال الزُّهريُّ: وهو واللهِ السُّنَّةُ، فاحفَظوه. الثاني: أنَّ توبتَه منه تكونُ بصلاحِ حالِه، وندَمِه على قَذفِه، والاستغفارِ منه، وتَركِ العَودِ إلى مِثلِه. قاله ابنُ جريرٍ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٧٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ التوبةَ لا تحصُلُ إلَّا بإكذابِه نَفْسَه: السمعانيُّ، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

وممَّن قال به من السَّلَفِ: طاوسٌ، وعطاءٌ، وسعيدُ بنُ المسيِّبِ، والشَّعبيُّ، والزُّهْريُّ، وإسحاقُ، وأبو عُبيد، وأبو ثور. يُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٧/ ١٠٨).

وهو مذهبُ الشافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((الحاوي الكبير)) للماوَرْدي (١٧/ ٣٢)، ((شرح منتهي الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٥٩٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أنَّه لا يُشترَطُ إكذابُه نَفْسَه، بل توبتُه بأن يُصلِحَ حالَه، ويُقلِعَ ويَندَمَ، ويَعزِمَ ألَّا يَعودَ لمِثلِ ذلك: ابنُ جرير، وابنُ جُزي، وهو ظاهِرُ اختيارِ الشوكانيِّ، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

وهو مذهبُ المالكيَّةِ. يُنظر: ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبد البر (٢/ ٨٩٧)، ((الذخيرة)) للقرافي (١٠/ ٢٢١).

قال ابنُ عاشورٍ: (ليس مِن شَرطِ التَّوبةِ أنْ يُكذِّبَ نفْسَه فيما قذَفَ به...؛ لأنَّه قد يكونُ صادقًا، ولكنَّه عجَزَ عن إثباتِ ذلك بأربعةِ شُهداءَ على الصِّفةِ المعلومةِ؛ فتَوبَتُه أنْ يُصلِحَ ويُحسِّنَ حالَه، ويَتثبَّتَ في أمْرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٢، ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٧٨، ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

شَهادتَهم، ولا تُسَمُّوهم فاسِقينَ؛ فقد صاروا عُدولًا غيرَ فَسقةٍ[١].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- عاقَبَ هؤلاء القاذِفينَ للمُحصَناتِ بثَلاثِ عُقوباتٍ:

**أُولاها**: حِسِّيَّةٌ، وتتمَثَّلُ في جَلْدِهم ثمانينَ جَلدةً، وهي عُقوبةٌ قَريبةٌ مِن عُقوبةِ الزِّنا.

**وثانيتُها**: مَعنويَّةٌ، وتتمَثَّلُ في عدَمِ قَبولِ شَهادتِهم؛ بأن تُهدَرَ أقوالُهم، ويَصيروا في المجتمَعِ أشبَهَ ما يكونون بالمَنبوذينَ الذين إنْ قالوا لا يُصَدِّقُ النَّاسُ أقوالَهم، وإن شَهِدوا لا تُقبَلُ شهادتُهم؛ لأنَّهم انسلَخَت عنهم صِفةُ الثِّقةِ مِن النَّاسِ فيهم.

**وثالثتُها**: دينيَّةٌ، وتتمَثَّلُ في وَصفِ اللهِ تعالى لهم بالفِسقِ، أي: بالخُروجِ عن طاعتِه سُبحانَه، وعن آدابِ دينِه وشريعتِه.

وما عاقَبَ اللهُ تعالى هؤلاء القاذِفينَ في أعراضِ النَّاسِ بتلك العُقوباتِ الرَّادِعةِ إلَّا لحِكَمٍ؛ مِن أهَمِّها: حمايةُ أعراضِ المُسلِمينَ مِن ألسِنةِ السُّوءِ، وصيانتُهم مِن كُلِّ ما يَخدِشُ كرامتَهم، ويَجرَحُ عَفافَهم، وأقسى شَيءٍ على النُّفوسِ الحُرَّةِ الشَّريفةِ الطَّاهِرةِ: أن تُلصَقَ بهم التُّهَمُ الباطِلةُ. وعلى رأسِ الرَّذائِلِ التي تُؤدِّي إلى فسادِ المُجتمَعِ: تَركُ ألسِنةِ السُّوءِ تَنهَشُ أعراضَ الشُّرَفاءِ دونَ أن تجِدَ هذه الألسِنةُ مَن يُخرِسُها أو يَردَعُها[٢].

٢- قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فعطَفَ الإصلاحَ على التَّوبةِ؛ لأنَّ التَّوبةَ التي لا أثَرَ لها في العَمَلِ لا شأنَ لها ولا قيمةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٨٦).

في نَظَرِ الدِّينِ؛ ولذلك جرى القُرآنُ على عَطفِ العَمَلِ الصَّالحِ عليها عندَ ذِكرِها أو وَصْفِها بالنَّصُوحِ، وترى كثيرًا مِنَ النَّاسِ يُظهِرونَ التَّوبةَ بالنَّدَمِ والاستِغفارِ والرُّجوعِ عن الذَّنبِ، ثمَّ لا يَلبَثونَ أن يعودوا إلى ما كانوا تابوا عنه؛ ذلك بأنَّه لم يكُنْ للتَّوبةِ أثَرٌ في نُفوسِهم يُنبِّهُهم إذا غَفَلوا كَيْ لا يعودوا إلى ما اقترَفوا، ويهديهم إلى اتِّخاذِ الوَسائِلِ لإصلاحِ شَأنِهم، وتقويمِ أمْرِهم[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ لَمَّا كانت مَعصيةُ الزِّنا كبيرةً مِن أُمَّهاتِ الكبائرِ، وكان مُتعاطِيها كثيرًا ما يَتستَّرُ بها، فقلَّما يَطَّلِعُ أحدٌ عليها- شدَّدَ اللهُ تعالى على القاذفِ؛ حيثُ شرَطَ فيها أربعةَ شُهداءَ؛ رَحمةً بعِبادِه، وسَتْرًا لهم[2].

٢- القاذِفُ قد يكونُ ذكَرًا والمقذوفُ أُنثى، وقد يكونُ أُنثى والمقذوفُ ذكَرًا، وقد يكونُ ذكرًا والمقذوفُ ذكرًا، وقد يكونُ أنثى والمقذوفُ أنثى؛ فالقِسمةُ رباعيَّةٌ. وقد نصَّ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ على قذْفِ الذُّكورِ للإناثِ، وبقيَّةُ الصوَرِ المسكوتِ عنها داخِلةٌ في حُكمِ المنصوصِ بالإلحاقِ بنفيِ الفارقِ[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ احْتُجَّ به على أنَّ مَن قذَفَ نفْسَه، ثمَّ رجَعَ، لا يُحَدُّ لنفْسِه؛ لأنَّه لم يَرْمِ أحدًا[4].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٤٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

أنَّ الزِّنا لا يُقبَلُ فيه إلَّا أربعةُ رِجالٍ، لا أقَلُّ، وسواءٌ شَهِدوا مُجْتمِعينَ أو مُتفرِّقينَ، ولا يُقبَلُ فيه نِساءٌ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ هذه الآيةُ أصْلٌ في حَدِّ الفِرْيةِ والقذْفِ الَّذي كان أوَّلُ ظُهورِه في رَمْيِ المُحصَناتِ بالزِّنا[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ فيه أنَّه يُجلَدُ القاذِفُ ثمانينَ إذا قذَفَ مُحصَنةً، ومَفهومُه: أنَّه إذا قذَفَ مَن عُرِفَت بالزِّنا لا يُحَدُّ للقذْفِ، ويُصرِّحُ بذلك قولُه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾[٣]، لكنْ ينبغي صَونُ الألسنةِ عن الخوضِ في الأعراضِ.

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ فيه أنَّ القاذِفَ لا تُقبَلُ شَهادتُه[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗا﴾ أنَّ عدمَ قَبولِ شهادةِ القاذِفِ لا يجري حُكْمُه على الرِّوايةِ، فتُقْبَلُ روايتُه في حالِ أنَّ شهادتَه لا تُقْبَلُ، سواءٌ كان قبْلَ توبتِه أو بعْدَها عندَ مَن يقولُ بعدَمِ قَبولِها -أي: الشهادةِ- بعدَ التَّوبةِ؛ ولهذا لم يتوقَّفِ البخاريُّ ومسلمٌ في روايةِ أبي بَكْرةَ. وهنا قد يَرِدُ سؤالٌ لطالبِ العلمِ، وهو: كيف تُقْبَلُ روايتُه دونَ شهادتِه، مع أنَّ كلًّا منهما تترتَّبُ عليه أحكامٌ، وهو إخبارٌ؟!

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والجوابُ: أنَّ الشَّرعَ فَرَّقَ بيْن الشَّهادةِ والروايةِ؛ فشهادةُ المرأةِ لا تُقْبَلُ في دِرهمٍ إلَّا إذا كانت مع غيرِها مِن النِّساءِ، وتكونُ شَهادةُ اثنتَينِ كشَهادةِ رجُلٍ واحدٍ؛ وروايتُها تُقْبَلُ ولو كانت في نصٍّ تُزهَقُ به النُّفوسُ(١).

٩- الفِسْقُ قد يكونُ ناقِلًا عن المِلَّةِ؛ كما قال في حقِّ إبليسَ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]. وقد لا يكونُ الفِسْقُ ناقِلًا عن المِلَّةِ؛ كقولِه تعالى في الَّذين يَرْمُون المُحصَناتِ: ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾(٢) [البقرة: ٢٨٢].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فيه تَحريمُ القذْفِ، وأنَّه فِسْقٌ(٣). وقولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، أي: الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، الَّذين قد كثُرَ شَرُّهم؛ وذلك لانتِهاكِ ما حرَّمَ اللهُ، وانتِهاكِ عِرْضِ أخيهِ، وتَسليطِ النَّاسِ على الكلامِ بما تكلَّمَ به، وإزالةِ الأُخُوَّةِ الَّتي عقَدَها اللهُ بيْن أهْلِ الإيمانِ، ومَحبَّةِ أنْ تَشيعَ الفاحشةُ في الَّذين آمنوا، وهذا دليلٌ على أنَّ القذفَ مِن كبائرِ الذُّنوبِ(٤)، ولأنَّ اسمَ الفِسقِ لا يقَعُ إلَّا على صاحِبِ كبيرةٍ(٥).

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٥٩٩).

جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾، يُستدَلُّ بالآيةِ لقولِ مَن قال: إنَّ شَهادةَ القاذِفِ لا تَسقُطُ بمُجرَّدِ القذْفِ حتَّى يُقامَ عليه الحدُّ؛ لأنَّه تعالى إنَّما نَهى عن قَبولِ شَهادتِهم إذا لم يأْتوا بالشُّهداءِ، وللقاذِفِ الإتيانُ بالشُّهداءِ ما لم يُحَدَّ، فهذا بَيِّنٌ أنَّ شَهادتَه لا تَسقُطُ إلَّا بإقامةِ الحدِّ عليه؛ لاحتِمالِ إتيانِه بالشُّهداءِ[1].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ استَدَلَّ به مَن قال: إنَّ حدَّ القذْفِ مِن حُقوقِ اللهِ؛ فلا يَجوزُ العفْوُ عنه[2].

١٣- في قولِه تعالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ دَليلٌ على أنَّ شَهادةَ القاذفِ بعدَ التَّوبةِ مَقبولةٌ، وذَنْبَه مَغفورٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٤٤)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

وهذا مَذهَبُ الحَنَفيَّةِ: أنَّه لا يجوزُ عَفوُ المقذوفِ عن القاذِفِ، خِلافًا للجُمهورِ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ الذين يرَوْنَ جوازَ ذلك، وأنَّه يَسقُطُ حَدُّ القَذفِ بالعَفوِ عن المقذوفِ، وقَيَّد المالكيَّةُ جوازَه بكَونِه قبْلَ الرَّفعِ إلى الإمامِ وصاحِبِ الشُّرطةِ أو الحَرَسِ، إلَّا أن يريدَ سَترًا على نَفْسِه، فيجوزُ أيضًا بعد الرَّفعِ. يُنظر: ((شرح مختصر الطحاوي)) للجصَّاص (٦/ ٢١٠-٢١٣)، ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٣/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((الذخيرة)) للقرافي (٤/ ٣٣٧) و(١٢/ ١٨٨)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (٨/ ٩٠، ٩١)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (٧/ ١١٠)، ((المغني)) لابن قدامة (١٠/ ٢١٣)، ((الإقناع)) للحَجَّاوي (٤/ ٢٥٩).

قال ابنُ القَيِّم: (الحَدُّ يَستحِقُّه المقذوفُ، فلا يُستوفَى إلَّا بطَلَبِه، باتِّفاقِ الفُقَهاءِ، فإنْ عفا عنه سَقَط عندَ جمهورِ العُلَماءِ؛ لأنَّ المُغلَّبَ فيه حقُّ الآدميِّ، كالقِصاصِ والأموالِ. وقيل: لا يَسقُطُ؛ تغليبًا لحَقِّ اللهِ؛ لعَدَمِ المماثَلةِ، كسائِرِ الحُدودِ). ((السياسة الشرعية)) (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤١٥).

وتقدَّم ذِكرُ الخلافِ في ذلك (ص: ٤٣).

١٤- في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ مَنِ اغتابَ مُسلِمًا، وأوصَلَ إليه أذَى القَولِ في شَتْمِ نفْسٍ أو آباءٍ؛ فتَوبتُه منه تَحُطُّ ذَنْبَه، وتَغفِرُ خَطيئتَه، وإنْ لم يُحَلِّلْهُ صاحبُه[1]؛ أَلاَ ترى أنَّ القاذِفَ قد غَمَّ المَقذوفَ وآذاهُ بقَذْفِه، ثمَّ أوجَبَ اللهُ له المَغفِرةَ والرَّحمةَ بتَوبَتِه منه، ولم يَشترِطْ عليه تَحليلَ المقذوفِ عنه؟ فالقِصَاصُ والمَظالِمُ ما كان في مالٍ أو نَفْسٍ أو جُرْحٍ دونَ الكلامِ، واللهُ أعلمُ[2].

## بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ...﴾ خُصَّ النِّساءُ بذلك، وإنْ كان الرِّجالُ يَشْرَكونَهنَّ في الحُكْمِ؛ تَنبيهًا على عَظيمِ حَقِّ أُمِّ المُؤمنينَ عائِشةَ رضِيَ اللهُ عنها[3]، ولأنَّ القَذفَ فيهِنَّ أشنَعُ وأنكَرُ للنُّفوسِ، ومِن حيث هُنَّ هَوَى الرِّجالِ؛ ففيه إيذاءٌ لهُنَّ ولأزواجِهِنَّ وقَراباتِهِنَّ[4].

- وفي التَّعبيرِ عنِ التَّفَوُّهِ بما قالوا في حقِّهِنَّ بالرَّميِ ﴿يَرْمُونَ﴾ المُنْبِئِ عن صَلابةِ الآلةِ، وإيلامِ المَرْميِّ، وبُعْدِه عنِ الرَّامي: إيذانٌ بشِدَّةِ تأثيرِه فيهِنَّ،

---

(١) ومِن أهلِ العلمِ مَن يرَى أنه يُشترَطُ في توبةِ المغتابِ والقاذفِ طلبُ عفوِ مَنِ اغتابه وإبرائِه، ومنهم مَن فرَّق بيْن ما إذا عَلِم به مَنِ اغتابه وقذَفَه فيَستحِلُّه حينَئذٍ، وإلَّا دعا له واستَغْفَر ولم يُعْلِمْه. وحُكي عن أكثرِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٧-٣٣٩)، ((الأذكار)) للنووي (ص: ٣٤٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((الإنصاف)) للمرداوي (١٠/ ٢٢٥)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٦/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦١، ٥٦٢).

وكَونِه رَجْمًا بالغَيبِ، والمُرادُ به رَمْيُهنَّ بالزِّنا لا غَيرُ، وعَدَمُ التَّصريحِ به؛ للاكتِفاءِ بإيرادِهنَّ عَقِيبَ الزَّواني، ووَصْفِهنَّ بالإحصانِ الدَّالِّ بالوَضعِ على نَزاهتِهنَّ عنِ الزِّنا خاصَّةً؛ فإنَّ ذلك بمَنزلةِ التَّصريحِ بكَونِ رَمْيِهنَّ به لا مَحالةَ[1]؛ فحُذِفَ المَرميُّ به في هذه الآيةِ لظُهورِ المَقصودِ بقَرينةِ السِّياقِ وذِكْرِ المُحْصَناتِ، أي: يَرمُون المُحْصَناتِ بالزِّنا[2].

- ولَمَّا كان إقْدامُ المُجترِئِ على القَذْفِ -معَ ما شرَطَه فيه لدَرءِ الحدِّ إرادةَ السَّترِ- بَعيدًا؛ أشار إليه بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾[3].

- قَولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ فيه حَذْفُ مُتعلَّقِ الشَّهادةِ؛ لظُهورِ أنَّهم شُهداءُ على إثباتِ ما رَمى به القاذِفُ[4].

- قَولُه: ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ فيه تَخصيصُ رَمْيِهنَّ بهذا الحُكْمِ، مع أنَّ حُكمَ رَمْيِ المُحصَنِينَ أيضًا كذلك؛ لخُصوصِ الواقعةِ، وشُيوعِ الرَّمْيِ فيهنَّ[5].

- قَولُه: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً﴾ عَطفٌ على (اجْلِدُوا)، داخِلٌ في حُكْمِه تَتِمَّةً له؛ لِمَا فيه مِن معنَى الزَّجرِ؛ لأنَّه مُؤلِمٌ للقلبِ، كما أنَّ الجَلدَ مُؤلِمٌ للبَدنِ، وقد آذَى المَقذوفَ بلِسانِه؛ فعُوقِبَ بإهدارِ مَنافِعِه جَزاءً وِفاقًا[6].

- واللَّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ هو حالٌ مِن ﴿شَهَادَةً﴾؛ قُدِّمتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

عليها لكَونِها نَكِرةً، ولو تَأخَّرَتْ عنها لكانتْ صِفَةً لها، وفائدَتُها: تَخصيصُ الرَّدِّ بشَهادتِهِمُ النَّاشِئةِ عن أهْلِيَّتِهِمُ الثَّابتةِ لهم عندَ الرَّمْيِ(١).

- قَولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، مُقرِّرٌ لِمَا قَبْلَه، ومُبيِّنٌ لسُوءِ حالِهِم عندَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وما في اسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ) مِن معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهِم في الشَّرِّ والفسادِ(٢)؛ فعُبِّرَ باسمِ الإشارةِ؛ للإعلانِ بفِسْقِهِم؛ ليَتميَّزوا في هذه الصِّفةِ الذَّميمةِ(٣).

- والحَصرُ(٤) في قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ لِلمُبالَغةِ في شَناعةِ فِسْقِهِم، حتَّى كأنَّ ما عَداهُ مِن الفُسوقِ لا يُعَدُّ فِسْقًا(٥).

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

- قَولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ لتَهويلِ المَتوبِ عنه، أي: مِن بَعدِ ما اقتَرفُوا ذلك الذَّنْبَ العظيمَ الهائِلَ(٦).

- ومَفعولُ (أَصْلَحُوا) مَحذوفٌ؛ دَلَّ عليه السِّياقُ، أي: أصلَحوا أنفُسَهم باجتِنابِ ما نُهُوا عنه(٧)، وأصلَحوا أعمالَهم بالتَّدارُكِ، ومنه الاستِسلامُ للحَدِّ، أو الاستِحلالُ مِنَ المَقذوفِ(٨).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٩).

(٤) وهو المستفادُ مِن دُخولِ ضميرِ الفَصلِ ﴿هُمُ﴾ بيْن طَرَفَيِ الجُملةِ؛ لتَقويةِ النِّسبةِ، وكذلك دُخولُ (أل) على الخبرِ ﴿ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾؛ فكأنَّهمُ استَحَقُّوا الوَصفَ الكاملَ مِنَ الفِسقِ، وأنَّه لا فاسِقَ إلَّا هُم.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٥٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

(٨) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩).

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَعليلٌ لِما يُفيدُه الاستِثناءُ مِن العَفْوِ عنِ المُؤاخَذةِ بمُوجَبِ الفِسْقِ[1]؛ ففُرِّعَ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على ما يَقتَضيهِ الاستِثناءُ مِن معنَى: فاقبَلوا شَهادَتَهم، واغفِروا لهم ما سَلَفَ؛ فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ، أي: فإنَّ اللهَ أمَرَ بالمَغفرةِ لهم؛ لأنَّه غَفورٌ رَحيمٌ، كما قال في آيةِ البقرةِ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٠]، وإنَّما صُرِّحَ في آيةِ البقرةِ بما قُدِّرَ نَظيرُه هنا؛ لأنَّ المَقامَ هنالِك مَقامُ إطنابٍ؛ لشِدَّةِ الاهتِمامِ بأمْرِهِم؛ إذْ ثابُوا إلى الإيمانِ والإصلاحِ، وبَيانِ ما أُنزِلَ إليهِم مِن الهُدى بَعْدَ ما كَتَموه وكَتَمه سَلَفُهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٠).

## الآيات (٦-١٠)

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَيَدْرَؤُا۟﴾: أي: يَدْفعُ، وأصْلُ (درأ): دَفْعُ الشَّيءِ[1].

### المَعنى الإجماليُّ:

بعْدَ أن بيَّن الله تعالى حُكمَ القذفِ بصِفةٍ عامَّةٍ، يُبيِّنُ حُكمَ القذفِ إذا ما حدَث بيْنَ الزَّوجينِ، فيقولُ: والذين يَرمونَ زوجاتِهم بالزِّنا، وليس لهم شهودٌ يَشهدون بما رمَوهنَّ به مِن الزِّنا إلا أنفُسُهم، فشهادةُ أحدِهم التي تُزيلُ عنه حدَّ القَذفِ أن يَحلِفَ بالله أربعَ مرَّاتٍ إنَّه صادقٌ فيما رماها به مِن الزِّنا، ويَحلفُ في المرَّةِ الخامسةِ بأنَّ لعنةَ الله عليه إن كان كاذبًا فيما رماها به. ويدفَعُ عن الزوجةِ المقذوفةِ حدَّ الزنا -وهو الرجمُ حتى الموتِ- أن تَحلِفَ أربعَ مرَّاتٍ إنَّه لكاذبٌ في اتِّهامه لها بالزِّنا، وتحلفُ في المرَّة الخامسةِ باستحقاقِها غضَبَ اللهِ إن كان زوجُها صادقًا في اتِّهامه لها بالزِّنا. ويُبيِّنُ تعالى أنَّه لولا فَضْلُه عليكم ورحمتُه، لعاجَلَكم بالعقوبةِ، وأنَّ اللهَ توَّابٌ لِمَن تاب مِن عبادِه، حكيمٌ فيما شرَعَ مِنَ الأحكامِ، ومِن جملتِها حُكمُ اللِّعانِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٦﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى رمْيَ المُحصَناتِ، دخَلَ في عمومِه الزوجُ إذا رمى زوجتَه، ولمَّا كان له أحكامٌ خاصَّةٌ، والقرائِنُ تدُلُّ على أنَّه لا يَرمي زوجتَه إلَّا إذا كان صادِقًا؛ لأنَّ زناها مصيبةٌ وعارٌ عليه هو، والإنسانُ لا يَذْكرُ عيبًا يَعودُ عليه- جعَل اللهُ تعالى له مَخرَجًا إذا قذَفَ زوجتَه، بتشريعِ حُكمِ اللِّعانِ[1].

### سَببُ النُّزولِ:

عن سَهلِ بنِ سَعدٍ رضِيَ اللهُ عنْهما: ((أنَّ عُوَيْمِرًا أتَى عاصِمَ بنَ عَدِيٍّ، وكان سيِّدَ بَني عَجْلانَ، فقال: كيف تقولونَ في رَجُلٍ وجَدَ مع امرأتِه رَجُلًا: أيقتُلُه فتَقْتُلونه، أمْ كيف يَصنَعُ؟ سَلْ لي رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ذلك. فأتَى عاصِمٌ النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، فَكَرِهَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المسائِلَ، فسألَهُ عُوَيْمِرٌ، فقال: إنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَرِهَ المسائلَ وعابَهَا، قال عُوَيْمِرٌ: واللهِ لا أنْتَهي حتَّى أسأَلَ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن ذلك، فجاء عُوَيْمِرٌ، فقال: يا رسولَ اللهِ، رجُلٌ وجَدَ مع امرأتِه رجُلًا: أيقتُلُه فتَقْتُلونه، أمْ كيف يصنَعُ؟ فقال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: قد أنزَلَ اللهُ القُرآنَ فيك وفي صاحِبَتِكَ، فأمَرَهُما رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالمُلاعَنةِ بما سمَّى اللهُ في كِتابِه، فلاعَنَها، ثمَّ قال: يا رسولَ اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٥١).

إنْ حبَسْتُها فقد ظلَمْتُها، فطلَّقَها، فكانتْ سُنَّةً لِمَن كان بَعْدَهما في المُتلاعنَينِ، ثمَّ قال رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: انْظُروا؛ فإنْ جاءتْ به أسْحَمَ[١]، أدْعَجَ العينَينِ[٢]، عظيمَ الأَلْيَتَينِ، خَدَلَّجَ السَّاقينِ[٣]؛ فلا أحسبُ عُويمرًا إلَّا قد صدَقَ عليها، وإنْ جاءت به أُحيمِرَ كأنَّه وَحَرَةٌ[٤]، فلا أحسبُ عُويمرًا إلاَّ قد كذَبَ عليها. فجاءت به على النَّعتِ الَّذي نعَتَ به رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن تَصديقِ عُويمرٍ، فكان بَعْدُ يُنسَبُ إلى أُمِّهِ))[٥].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ هِلالَ بنَ أُميَّةَ قذَفَ امرأتَه[٦] عندَ

---

(١) أسْحَمَ: أي: أسودَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٨).

(٢) أدْعَجَ العينَينِ: أي: شديدَ سَوادِهما. يُنظر: (((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١١٧).

(٣) خَدَلَّجَ السَّاقينِ: أي: مُمتلئَ السَّاقَينِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١١٠).

(٤) كأنَّه وَحَرَةٌ: الوَحَرةُ: حَشرةٌ من حَشراتِ الأرض تُشبِهُ الحرباءَ، وهي حمراءُ، وإذا دبَّت على اللَّحْمِ وَحَر، أي: اشْتَدَّ حماه. يُنظر: ((الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي)) للهروي (٢٢٢)، ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (١٣٤).

(٥) رواه البخاري (٤٧٤٥) واللفظ له، ومسلم (١٤٩٢).

(٦) قال ابنُ حَجَرٍ: (في هذه الرِّوايةِ أنَّ آياتِ اللِّعانِ نزَلَت في قِصَّةِ هلالِ بنِ أُمَيَّةَ، وفي حديثِ سَهلِ بنِ سَعدٍ الماضي أنَّها نزَلَت في عُوَيمرٍ...

وقد اختلف الأئمَّةُ في هذا الموضِعِ؛ فمنهم مَن رجَّح أنَّها نزلت في شأنِ عُوَيمرٍ، ومنهم مَن رجَّح أنَّها نزلت في شأنِ هلالٍ، ومنهم مَن جمَع بيْنهما بأنَّ أوَّلَ مَن وقع له ذلك هلالٌ، وصادف مجيءُ عويمرٍ أيضًا؛ فنزَلت في شأنِهما معًا في وقتٍ واحدٍ، وقد جنح النوويُّ إلى هذا، وسبَقَه الخطيبُ... ويؤيِّدُ التعَدُّدَ أنَّ القائِلَ في قِصَّةِ هلالٍ: سَعدُ بنُ عُبادةَ... والقائِلَ في قِصَّةِ عُوَيمرٍ: عاصِمُ بنُ عَدِيٍّ... ولا مانِعَ أن تتعدَّدَ القِصَصُ ويتَّحِدَ النُّزولُ... ويحتَمِلُ أنَّ النُّزولَ سَبق بسببِ هلالٍ، فلما جاء عويمرٌ ولم يكُنْ عَلِمَ بما وقع لهلالٍ أعلمَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالحُكمِ... وجنح القُرطبيُّ إلى تجويزِ نُزولِ الآيةِ مرَّتينِ، قال: وهذه الاحتمالاتُ وإن بَعُدت أَولى من تغليطِ الرُّواةِ الحُفَّاظِ. وقد أنكَرَ جماعةٌ ذِكْرَ هلالٍ فيمن لاعَنَ ... وكلامُ الجَميعِ =

النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بشَريكِ ابنِ سَحْماءَ، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: البيِّنَةَ، أو حَدٌّ في ظَهْرِكَ، فقال: يا رسولَ اللهِ، إذا رأى أحدُنا على امرأتِه رجُلًا، يَنطلِقُ يلْتمِسُ البيِّنَةَ؟! فجعَلَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: البيِّنَةَ، وإلَّا حَدٌّ في ظَهْرِكَ، فقال هِلالٌ: والَّذي بعثَكَ بالحقِّ إنِّي لصادِقٌ؛ فلَيُنزِلَنَّ اللهُ ما يُبرِّئُ ظَهْري مِن الحدِّ، فنزَلَ جبريلُ وأنزَلَ عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦ - ٩]، فانصرَفَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأرسَلَ إليها، فجاء هِلالٌ فشَهِدَ، والنَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: إنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّ أحَدَكما كاذِبٌ؛ فهلْ منْكما تائبٌ؟ ثمَّ قامتْ فشَهِدَتْ، فلمَّا كانت عندَ الخامسةِ وَقَّفُوها، وقالوا: إنَّها مُوجِبةٌ، قال ابنُ عبَّاسٍ: فتلكَّأَتْ ونكَصَتْ، حتَّى ظَنَنَّا أنَّها ترجِعُ، ثمَّ قالت: لا أفضَحُ قَومي سائرَ اليومِ، فمَضَتْ، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أبْصِروها؛ فإنْ جاءت به أكحَلَ العينَينِ[1]، سابغَ الألْيَتينِ[2]، خَدَلَّجَ السَّاقينِ؛ فهو لشَريكِ ابنِ سَحماءَ، فجاءت به كذلك، فقال النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لولا ما مَضى مِن كِتابِ اللهِ

---

= مُتعَقَّبٌ). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٥٠، ٤٥١). ويُنظر: ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٤/ ٣٠٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١٢٠)، ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) للمزيني (٢/ ٧١٩-٧٤٢).

(١) أكْحَلَ العَينينِ: الكَحَل: سَوادٌ فِي أجْفانِ العَيْنِ خِلْقةً. يُنظر: ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (١٦٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٥٤).

(٢) سابغَ الألْيَتينِ: أي تامَّهما وعَظيمَهما، والأَليةُ: العَجيزَةُ والمؤخِّرةُ، للنَّاسِ وغيرِهِم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٣٨)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٧/ ٩٥).

لَكان لي ولَها شَأْنٌ))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّا لَيلةَ الجُمُعةِ في المسجِدِ، إذ جاء رجُلٌ مِن الأنصارِ، فقال: لو أنَّ رجُلًا وجَدَ مع امرأتِه رجُلًا فتكلَّمَ جلَدْتُموهُ، أو قتَلَ قَتلْتُموه، وإنْ سكَتَ سكَتَ على غَيظٍ! واللهِ لَأسألَنَّ عنه رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلمَّا كان مِنَ الغدِ أتى رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فسألَهَ فقال: لو أنَّ رجُلًا وجَدَ مع امرأتِه رجُلًا فتكلَّمَ جلَدْتُموهُ، أو قتَلَ قَتلْتُموه، أو سكَتَ سكَتَ على غَيظٍ؟ فقال: اللَّهُمَّ افتَحْ. وجعَلَ يَدْعو، فنزلَتْ آيةُ اللِّعانِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ ...﴾ هذه الآيات؛ فابتُلِيَ به ذلك الرَّجلُ مِن بيْنِ النَّاسِ، فجاء هو وامرأتُه إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فتلاعَنَا، فشَهِدَ الرَّجلُ أربَعَ شَهاداتٍ باللهِ إنَّه لَمِنَ الصَّادقينَ، ثمَّ لعَنَ الخامسةَ: أنَّ لَعنةَ اللهِ عليه إنْ كان مِنَ الكاذبينَ، فذهبَتْ لِتَلْعَنَ، فقال لها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: مَهْ[٢]! فأبَتْ، فلعَنَتْ، فلمَّا أدبَرَا، قال: لعلَّها أنْ تَجِيءَ به أسْوَدَ جَعْدًا، فجاءت به أسوَدَ جَعْدًا))[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ﴾.

أي: والَّذين يَقذِفون زَوجاتِهم بالزِّنا، وليس لدَيْهم أربعةُ شُهودٍ يَشْهَدون على صِحَّةَ ما رَمَوهنَّ به غيرُ أنفُسِهم[٤].

﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٧٤٧).

(٢) مَهْ: هي كَلِمةُ زَجرٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٩٣).

(٣) رواه مسلم (١٤٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

أي: ففي تلك الحالِ يَشهَدُ الزَّوجُ أربَعَ شَهاداتٍ، يَحلِفُ فيها باللهِ فيقولُ: إنَّه لَمِنَ الصَّادقينَ فيما رَمَى به زَوجتَه مِن الزِّنا[1].

﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧﴾.

أي: والشَّهادةُ الخامِسةُ يقولُ فيها: إنَّ لَعنةَ اللهِ عليه واجِبةٌ وحالَّةٌ إنْ كان مِنَ الكاذبينَ فيما رَمَى به زوجتَه مِنَ الزِّنا[2].

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كانت هذه الأيمانُ مُقتضِيةً صِدقَ دَعوى الزَّوجِ على المرأةِ، كان مِن أثَرِ ذلك أنْ تُعتبَرَ المرأةُ زانيةً، أو أن يكونَ حَملُها ليس منه؛ فهو مِن زِنًا؛ لأنَّها في عِصمةٍ؛ فكان ذلك مُقْتضِيًا أنْ يُقامَ عليها حَدُّ الزِّنا، فلمْ تُهمِلِ الشَّريعةُ حقَّ المرأةِ، ولم تَجعَلْها مأخوذةً بأَيمانٍ قد يكونُ حالِفُها كاذِبًا فيها؛ لأنَّه يُتَّهمُ بالكذِبِ لِتَبْرئةِ نفْسِه، فجعَلَ للزَّوجةِ مُعارَضةَ أيمانِ زَوجِها، كما جعَلَ للمشهودِ عليه الطَّعنَ في الشَّهادةِ بالتَّجريحِ أو المُعارَضةِ؛ فقال تعالى[3]:

﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨﴾.

أي: ويَدفَعُ حَدَّ الزِّنا عن الزَّوجةِ أنْ تَشهَدَ أربَعَ شَهاداتٍ، تَحلِفُ فيها باللهِ فتقولُ: إنَّ زوجَها لَمِنَ الكاذبينَ فيما رَمَاها به مِنَ الزِّنا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٦٦، ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤، ١٥)، =

﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: وتَشهَدُ المرأةُ الشَّهادةَ الخامِسةَ، فتقولُ فيها: إنَّ غضَبَ اللهِ عليها إنْ كان زَوجُها مِنَ الصَّادقينَ فيما رمَاها به مِنَ الزِّنا(١).

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾.

---

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٦٤).

قال الرازي: (قولُه تعالى: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ﴾ الألِفُ واللَّامُ الدَّاخِلانِ على العذابِ لا يفيدانِ العُمومَ؛ لأنَّه لم يَجِبْ عليها جميعُ أنواعِ العذابِ، فوجَبَ صَرفُهما إلى المعهودِ السَّابقِ، والمعهودُ السَّابِقُ هو الحَدُّ؛ لأنَّه تعالى ذكَرَ في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢]، والمرادُ منه الحَدُّ، وإذا ثبَت أنَّ المرادَ مِنَ العذابِ في قَولِه: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ هو الحَدُّ، ثبت أنَّها لو لم تلاعِنْ لحُدَّت، وأنَّها باللِّعانِ دَفَعَت الحَدَّ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٣٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩).

قال مكِّي: (قَولُه: ﴿ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ ﴾ يعني الحَدَّ، أي: يَدفَعُ عنها حَدَّ الزَّانيةِ شَهادتُها باللهِ أربَعَ شَهاداتٍ إنَّه لَمِنَ الكاذِبينَ، والخامِسةَ أنَّ غَضَبَ اللهِ عليها إن كان مِن الصَّادقينَ. وقيل: العذابُ هنا: الرَّجمُ، ومعناه: العذابُ الذي عَهِدْتُم مِن فِعْلِ نَبيِّكم؛ ولذلك أتى بالألفِ واللَّامِ. وقيل: هو الجَلدُ إن كانت غيرَ مُحصَنةٍ، والرَّجمُ إن كانت مُحصَنةً). ((الهداية الى بلوغ النهاية)) (٨/ ٥٠٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٠).

ويترتَّبُ على اللِّعانِ ثُبوتُ الفُرقةِ بيْنَ الزَّوجَينِ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((المبسوط)) للسرخسي (٧/ ٤٠)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٤/ ١٣٨)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٥١(، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٨/ ٨٢).

وتحرمُ الزَّوجةُ بذلك على الزَّوجِ تَحريمًا مُؤَبَّدًا، وهو مَذهَبُ الجُمهورِ: المالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((التاج والإكليل)) للمواق (٤/ ١٣٨)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٥١)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٨/ ٨٢).

أي: ولولا فَضْلُ اللهِ عليكم -أيُّها النَّاسُ- ورَحمَتُه بكم، وأنَّ اللهَ يجودُ على خَلْقِه بنِعَمِه، ويُنزِلُ رَحمتَه على مَن تابَ مِن عِبادِه، حَكيمٌ في قدَرِه وشَرْعِه وتَدبيرِ خلْقِه، ومِن ذلك ما شرَعَ لعِبادِه مِن حُكْمِ اللِّعانِ- لَعاجَلَكم بالعُقوبةِ على مَعاصيكم، ولفَضَحَ المُذْنِبينَ منكم، فاشْكُروا اللهَ واتَّقوهُ[1].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الضَّميرُ هنا ضَميرُ غَيْبةٍ؛ إلَّا أنَّ الزَّوجَ يَجعَلُه ضَميرَ مُتكلِّمٍ؛ يعني يقولُ: (أنَّ لَعنةَ اللهِ عَلَيَّ)، ولا يقولُ: (عليه)، وهذا مِن بابِ التَّأدُّبِ في اللَّفظِ: أنَّ يُعَبَّرَ بضَميرِ الغَيْبةِ؛ لئلَّا يُضِيفَ المُتكلِّمُ اللَّعنةَ إلى نَفْسِه[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فيه مِن أحكامِ الحِكَمِ البالِغةِ، وآثارِ التَّفضُّلِ والرَّحمةِ ما لا يَخفى؛ أمَّا على الصَّادقِ فظاهرٌ، وأمَّا على الكاذبِ فهو إمهالُه، والسَّترُ عليه في الدُّنيا، ودَرْءُ الحدِّ عنه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣).

قال السعدي: (﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ جوابُ الشرطِ محذوفٌ، يدُلُّ عليه سِياقُ الكلامِ، أي: لَأَحَلَّ بأحدِ المُتلاعنَينِ الكاذبِ منْهما ما دعا به على نفْسِه، ومِن رحمَتِه وفضْلِه ثبوتُ هذا الحُكمِ الخاصِّ بالزوجينِ؛ لشِدَّةِ الحاجةِ إليه، وأنْ بيَّنَ لكم شِدَّةَ الزِّنا وفظاعتَه، وفظاعةَ القذْفِ به، وأنْ شرعَ التَّوبةَ مِن هذه الكبائرِ وغيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢، ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٩٠).

قال النووي: (مِن آدابِ الكلامِ ... أنَّه إذا عرَضَ في الحكايةِ عن الغَيرِ ما فيه سوءٌ، واقتضَتِ الحكايةُ رُجوعَ الضَّميرِ إلى المُتكلِّمِ؛ صرَفَ الحاكي الضميرَ عن نفْسِه؛ تَصاوُنًا عن صورةِ إضافةِ السُّوءِ إلى نفْسِه). ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٧١) و (١/ ٢١٤).

وتَعريضُه للتَّوبةِ، حسْبَما يُنْبِئُ عنه التَّعرُّض لعُنوانِ تَوَّابيَّته سُبحانه، ما أعظَمَ شَأنَه، وأوسَعَ رَحْمتَه، وأدَقَّ حِكمتَه[1]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه أنَّ شَرْطَ اللِّعانِ سَبْقُ قَذْفٍ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ دَليلٌ على أنَّ كلَّ زوجٍ رَمَى زَوجتَه -حُرَّةً كانتْ أو أَمَةً، مُسلِمةً أو ذِمِّيَّةً-؛ فاللِّعانُ بيْنهما واجبٌ، لا يُزيلُه افتراقُ أحوالِ الأزواجِ، وأنَّه باسمِ الزَّوجيَّةِ لا بغيرِها[3]، فاللِّعان إنَّما يَكونُ بيْن الزَّوجينِ، لا بيْن الرجُلِ وأجْنبيَّةٍ، ولا السَّيِّدِ وأمَتِه[4].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ عمومُ الآيةِ في قولِه: ﴿أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ يَشمَلُ ما قبْلَ الدُّخولِ وما بعدَه، فلو عقَدَ على امرأةٍ ثمَّ رماها بالزِّنا، أُجْرِيَ بيْنهما اللِّعانُ؛ لأنَّها زَوجتُه[5].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ ظاهِرُه يَدُلُّ على اشتِراطِ هذه الألفاظِ عندَ اللِّعانِ مِن المُلاعِنِ ومِن المُلاعِنَةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٣).

واشتراطِ التَّرتيبِ فيها، وألَّا يُنْقَصَ منها شَيءٌ، ولا يُبَدَّلَ شَيءٌ بشَيءٍ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فيه أنَّ اللِّعانَ مُختَصٌّ بالزَّوجِ إذا رمَى امرأتَه، لا بالعَكْسِ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ فيه أنَّ الشَّبهَ في الولَدِ مع اللِّعانِ لا عِبْرةَ به، كما لا يُعتبَرُ مع الفِراشِ، وإنَّما يُعتبَرُ الشَّبهُ حيث لا مُرجِّحَ إلَّا هو[٣].

٧- قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ * وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ ...﴾ يؤخَذُ مِن هذه الآياتِ قاعدةٌ عظيمةٌ مِن قواعدِ الشَّرعِ، ودَلالتُها عليها في غايةِ الصَّراحةِ، والقاعِدةُ هي: (أنَّ أحكامَ الشَّرعِ تكونُ على حسَبِ الظَّاهرِ، ولو كان الواقعُ يخالِفُه)؛ لأنَّ المتلاعِنَينِ متكاذِبانِ، فالزَّوجُ يُثبِتُ أنَّ زوجتَه زانيةٌ، وهي تدَّعي أنَّه قاذِفٌ كاذبٌ، ونحن نقطَعُ أنَّ أحدَهما كاذِبٌ، كما قال الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤]، ولو أقَرَّ الرجُلُ لوجَبَ عليه حَدُّ القَذفِ، ولو أقرَّتِ المرأةُ لوَجبَ عليها الرَّجمُ، ومع ذلك فالشَّرعُ صَدَّقَهما في الظَّاهرِ مع الجَزمِ بأنَّ أحدَهما كاذِبٌ، وقد أشار اللهُ تعالى في آخِرِ هذه الآياتِ إلى أنَّ الأخذَ يَكونُ بالظَّاهرِ، وأنَّ ذلك رحمةٌ منه تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾، أي: لولا ذلك لَمَا قَبِلَ منكم هذه الظَّواهرَ، والبواطنُ غيرُ صحيحةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر ما رواه البخاري (٤٧٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٥٤).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ استدَلَّ به مَن قال: لا لِعانَ إذا أقام الزَّوجُ البيِّنةَ بزِنَا زَوجتِه[1].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ اللِّعانَ شَهادةٌ لا يمينٌ[2].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ﴾ أنَّ البَدَلَ يُجْعَلُ له حُكْمُ المُبْدَلِ منه؛ فإنَّه لَمَّا كانتِ البيِّنَةُ على الزِّنا أربعةَ شُهودٍ؛ وكان الزَّوجُ إذا قذَفَ زوجتَه بالزِّنا يُعتبَرُ شاهِدًا، والتَّعدُّدُ الشَّخصيُّ في حَقِّه مُمتنِعٌ؛ جُعِلَ التَّعدُّدُ في نَفْسِ الشَّهادةِ، ويَكونُ هذا تقْريرًا للقاعدةِ المشهورةِ المعروفةِ: أنَّ البَدَلَ له حُكْمُ المُبْدَلِ منه؛ فلمَّا كانت شَهادةُ الزَّوجِ على زَوجتِه بالزِّنا بمَنزلَةِ شَهادةِ رجُلٍ، صار تَكرارُها بمَنزلةِ تَكرارِ الرِّجالِ وتعدُّدِ الشُّهودِ[3].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ﴾ فسمَّاها شهادةً؛ لأنَّها نائبةٌ منابَ الشهودِ، بأن يقولَ: (أشهدُ باللهِ إنِّي لَمِنَ الصادقينَ فيما رميتُها به)[4].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ بِٱللَّهِ﴾ أفادتِ الآيةُ الكريمةُ أنَّ هذه الشَّهادةَ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا مَذهَبُ الحَنَفيَّةِ، خلافًا للجُمهورِ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ الَّذينَ قالوا: إنَّ اللِّعانَ يَمينٌ وليس بشهادةٍ. يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهُمام (٤/ ٢٧٨)، ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٣/ ١٤)، ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبد البر (٢/ ٦١٠)، ((بداية المجتهد)) لابن رُشْد (٢/ ١١٨، ١١٩)، ((الحاوي الكبير)) للماوَرْدي (١١/ ١٢)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

مَقْرونةٌ بقَسَمٍ؛ لأنَّه يقولُ: (أشهَدُ باللهِ)، كأنَّما قال: (أشهَدُ مُقْسِمًا باللهِ)؛ ولهذا سمَّاها اللهُ تعالى شَهادةً[١].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إنَّما كانت شَهاداتُ الزَّوجِ على زَوجتِه دارِئةً عنه الحدَّ؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ الزَّوجَ لا يُقدِمُ على رَمْيِ زَوجتِه الَّتي يُدنِّسُه ما يُدنِّسُها إلَّا إذا كان صادقًا، ولأنَّ له في ذلك حقًّا، وخوفًا مِن إلْحاقِ أولادٍ ليسوا منه به، ولغيرِ ذلك مِن الحِكَمِ المَفقودةِ في غَيرِه[٢].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ احتُجَّ به على بُطلانِ قَولِ الخوارجِ في أنَّ الزِّنا والقذْفَ كُفْرٌ؛ مِن وَجهينِ:

**الوَجْهُ الأوَّلُ**: أنَّ الرَّامِيَ إنْ صدَقَ فهي زانيةٌ، وإنْ كذَبَ فهو قاذفٌ، فلا بُدَّ -على قَولِهم- مِن وُقوعِ الكُفرِ مِن أحَدِهما، وذلك يكونُ رِدَّةً، فيجِبُ على هذا: أنْ تقَعَ الفُرقةُ، ولا لِعانَ أصْلًا، وأنْ تكونَ فُرقةَ الرِّدَّةِ؛ حتَّى لا يتعلَّقَ بذلك توارُثُ الْبتَّةَ.

**الوَجْهُ الثَّاني**: أنَّ الكُفْرَ إذا ثبَتَ عليها بلِعانِه، فالواجِبُ أنْ تُقتَلَ لا أنْ تُجلَدَ أو تُرجَمَ؛ لأنَّ عُقوبةَ المُرتَدِّ مُباينةٌ للحدِّ في الزِّنا[٣].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٣٦).

أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ الآيةُ دالَّةٌ على بُطلانِ قَولِ مَن يقولُ: إنَّ وُقوعَ الزِّنا يُفسِدُ النِّكاحَ؛ وذلك لأنَّه يجِبُ إذا رمَاها بالزِّنا أنْ يكونَ قولُه هذا كأنَّه مُعترِفٌ بفَسادِ النِّكاحِ، حتَّى يَكونَ سَبيلُه سَبيلَ مَن يُقِرُّ بأنَّها أُخْتُه مِن الرَّضاعِ أو بأنَّها كافرةٌ، ولو كان كذلك لَوجَبَ أنْ تقَعَ الفُرقةُ بنفْسِ الرَّميِ مِن قبْلِ اللِّعانِ، وقد ثبَتَ بالإجماعِ فسادُ ذلك(١).

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ليس لها مُقابِلٌ في عدَدِ شُهودِ الزِّنا، فلعلَّ حِكْمةَ زِيادةِ هذه اليمينِ مع الأيمانِ الأربَعِ القائمةِ مَقامَ الشُّهودِ الأربعةِ: أنَّها لِتَقويةِ الأيمانِ الأربَعِ، باستِذكارِ ما يترتَّبُ على أَيْمانِه إنْ كانت غَموسًا مِن الحِرمانِ مِن رَحمةِ اللهِ تعالى. وهذا هو وَجْهُ كَونِها مُخالِفةً في صِيغَتِها لصِيَغِ الشَّهاداتِ الأربَعِ الَّتي تقدَّمَتْها. وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ الأربَعَ هي المجعولةُ بدَلًا عن الشُّهودِ، وأنَّ هذه الخامسةَ تَذييلٌ للشَّهادةِ، وتَغليظٌ لها(٢).

١٧- في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ دَلالةٌ على جَوازِ الاستِثناءِ في الدُّعاءِ(٣).

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فيه أنَّ لِعانَ الزَّوجِ يُوجِبُ على المرأةِ حدَّ الزِّنا، وأنَّ لها دفْعَه بأنْ تقولَ أربعَ مرَّاتٍ: أشهَدُ باللهِ إنَّه لَمِنَ الكاذبينَ، والخامسةَ: أنَّ غضَبَ اللهِ عليها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((فتاوى أركان الإسلام)) لابن عثيمين (ص: ٤١٠).

إنْ كان مِنَ الصَّادقينَ[١].

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا يجوزُ تَقديمُ لِعانِ الزَّوجةِ على لِعانِ الزَّوجِ[٢].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ لَمَّا كانت أَيْمانُ المرأةِ لِرَدِّ أيمانِ الرَّجلِ، وكانت أيمانُ الرَّجلِ بدَلًا مِنَ الشَّهادةِ وسُمِّيت شَهادةً؛ كانت أيمانُ المرأةِ -لِرَدِّها- يُناسِبُ أنْ تُسمَّى شَهادةً، ولأنَّها كالشَّهادةِ المُعارِضةِ، ولكَونِها بمَنزلةِ المُعارِضةِ؛ كانت أيمانُ المرأةِ كلُّها على إبطالِ دَعواهُ، لا على إثباتِ بَراءتِها أو صِدْقِها[٣].

٢١- قال تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ لا ريبَ أنَّ المرأةَ المزوَّجةَ الزانيةَ استحقَّتِ الغضبَ لشيئَينِ: لأجْلِ ما في الزِّنا من التحريمِ، ولأنَّها اعتَدَتْ فيه على الزوجِ فأفسَدَتْ فِراشَه؛ ولهذا كان للزَّوجِ إذا قذَف امرأتَه ولم يأتِ بأربعةِ شُهداءَ أن يلاعِنَها؛ لِما له في ذلك مِن الحَقِّ، ولأنَّه مظلومٌ إذا كان صادقًا، وعليه في زناها من الضَّررِ ما يحتاجُ إلى دفعِه بما شرَعَه اللهُ، كالمقذوفِ الذي له أن يستوفيَ حَدَّ القذفِ مِن القاذِفِ الذي ظلَمَه في عِرضِه، فكذلك الزوجُ له أن يستوفيَ حَدَّ الفاحشةِ مِن البَغِيِّ الظَّالمةِ له، المُعتَديةِ عليه، كما قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حقِّ الرجُلِ على امرأتِه: ((فلا يُوطِئْنَ فُرُشَكم مَن تَكرَهونَ))[٤]؛ فلهذا كان له أن يَقذِفَها ابتِداءً، وقذفُها إمَّا مباحٌ له،

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٧).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٠٨٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٩١٦٩)، وابن ماجه (١٨٥١) =

وإمَّا واجِبٌ عليه إذا احتاج إليه لنفيِ النَّسَبِ، ويَضطرُّها بذلك إلى أحدِ أمرينِ: إمَّا أن تعترِفَ فيُقامَ عليها الحَدُّ، فيَكونَ قد استوفى حَقَّه، وتطهَّرت هي أيضًا من الجزاءِ لها والنَّكالِ في الآخرةِ بما حصَل. وإمَّا أن تبوءَ بغضَبِ اللهِ عليها وعقابِه في الآخرةِ الذي هو أعظَمُ مِن عقابِ الدُّنيا؛ فإنَّ الزَّوجَ مظلومٌ معها، والمظلومُ له استيفاءُ حَقِّه؛ إمَّا في الدنيا، وإمَّا في الآخرةِ، قال الله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[1] [النساء: ١٤٨].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ يؤخَذُ مِن هذه الآيةِ رَدٌّ على بعضِ العلماءِ -كالمالكيَّةِ- القائلينَ: «إنَّ التخصيصَ بالشَّرطِ المتأخِّرِ لا يُفيدُ، وإنَّما يكونُ ندَمًا»؛ فإنَّهم قالوا: لو قال للمرأةِ: «أنا المخالِعُ لكِ إنْ أمضى وليُّك» حصَلتِ المخالَعةُ وإنْ لم يُمْضِ الوليُّ، بخِلافِ ما لو قال: «إنْ أمضى وليُّك فأنا المخالِعُ لكِ» فإنَّ المخالَعةَ لا تحصُلُ إذا لم يُمْضِ الوليُّ. والقرآنُ يدُلُّ على خلافِ ما ذهَبوا إليه؛ فإنَّ الشَّرطَ تأخَّرَ، وصيغةُ الفعلِ «غضب» متقدِّمةٌ، وهي تفيدُه لو تأخَّرَتْ[2].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه قد يُخَفَّفُ في التشريعِ تخفيفٌ يَلزَمُ معه قطعُ النظَرِ عن الواقعِ في نفْسِ الأمرِ؛ ففي الآيةِ تخفيفٌ اقتضَتْهُ رحمةُ اللهِ وحِكمتُه، فالأحكامُ قد تَكونُ مشروعةً تشريعًا قطعيًّا بِناءً على الظَّاهرِ، والباطنُ غيرُ صَحيحٍ[3]!

---

= من حديث عمرو ابن الأحوص رضي الله عنه.

قال الترمذي، وابن العربي في ((أحكام القرآن)) (٢/ ٤٥٠): (حسَنٌ صحيحٌ)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٨٥١).

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٧-٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٧).

٢٤- في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ حُجَّةٌ لِمَن يَحذِفُ مِن لفْظِ الكلامِ ما لا يَتِمُّ على الحَقيقةِ إلَّا به؛ الْتِماسَ الإيجازِ والاختِصارِ، كقولِ الشَّاعرِ:

فإنَّ المَنيَّةَ مَن يَخْشَها ... فسَوفَ تُصادِفُه أيْنَما[1]

لأنَّه جلَّ وتَعالى ابتدَأَ بـ ﴿لوْلَا﴾، ولم يَصِلْه بشَيءٍ يكونُ تمامُه ظاهرًا في اللَّفظِ؛ فكأنَّه -واللهُ أعلَمُ-: (ولولَا فضْلُ اللهِ عليكم ورَحمتُه، وأنَّ اللهَ توَّابٌ حكيمٌ؛ لَمَا بَيَّنَ لكم هذه الأحكامَ الَّتي قَبْلَ هذا الكلامِ، ولكنْ مِن فَضْلِه عليكم بَيَّنَ لكم، وأنصَفَ المَرْمِيَّ مِن الرَّامي، وطَهَّرَ الزَّانيَ والزَّانيةَ بالجَلْدِ)، أو شَيءٌ هذا معناهُ[2].

٢٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ والموانعِ؛ لأنَّ هذه الآيةَ فيها مانِعٌ وفيها سبَبٌ؛ فالسَّببُ ذُنوبُنا وما نحنُ عليه مِنَ الأخطاءِ، والمانعُ الَّذي يَمنَعُ مِن العُقوبةِ هو فَضْلُ اللهِ ورَحمتُه[3].

٢٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ فيه بَيانُ فضْلِ اللهِ ورَحمتِه على عِبادِه بالشَّرعِ والقدَرِ؛ لقولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾؛ فإنَّ هذا يتعلَّقُ بالشَّرعِ وبالقدَرِ؛ أمَّا بالشَّرعِ فلولا أنَّ اللهَ تفضَّلَ علينا ورَحِمَنا، وشرَعَ للأزواجِ ما شرَعَ مِن اللِّعانِ، لَكان الزَّوجُ يقَعُ في حرَجٍ عظيمٍ؛ لأنَّه إنْ تكلَّمَ يُقامُ عليه حَدُّ القذْفِ، وإنْ سكَتَ سكَتَ عن أمْرٍ عظيمٍ، لكنْ مِن رَحمةِ اللهِ وفضْلِه أنَّه شرَعَ اللِّعانَ.

---

(١) أيْنَما: المرادُ: أيْنَما ذهَب. وقائلُ البيت هو: النَّمِرُ بنُ تَوْلَبٍ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٥٣).

كذلك في القدَرِ في قضيَّةِ المُتلاعنَينِ: أنَّه لولا أنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ السَّتْرَ، لَفضحَ المرأةَ، وأظهَرَ آيةً تدُلُّ على صِدْقِ الزَّوجِ، أو بالعكْسِ إذا كان الزَّوجُ كاذبًا، لكنْ مِن رَحمةِ اللهِ أنَّه سُبحانَه وتَعالى يَستُرُ على عِبادِه في الدُّنيا مِثْلَ هذه الأمورِ، ثمَّ يُجازيهم عليها في الآخرةِ[1].

٢٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ إنَّ بادئَ الرأيِ يقتضي (توَّاب رحيم)؛ لأنَّ الرَّحمةَ مُناسِبةٌ للتوبةِ، لكنْ عبَّرَ به؛ إشارةً إلى فائدةِ مَشروعيَّةِ اللِّعانِ وحِكمتِه، وهي السَّترُ عن هذه الفاحِشةِ العَظيمةِ[2]، وأيضًا ففي ذِكْرِ وَصْفِ (الحكيم) هنا مع وَصْفِ (تَوَّاب): إشارةٌ إلى أنَّ في هذه التَّوبةِ حِكْمةً، وهي استِصلاحُ النَّاسِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- بدأَ اللهُ سُبحانَه في اللِّعَان بذِكْرِ الزَّوجِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: ٦ - ٩]، وبدأَ في حَدِّ الزنا بذِكْرِ المرأةِ، فقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾، وهذا في غايةِ المناسَبةِ؛ لأنَّ في اللِّعَانِ الزوجُ هو الذي قذَفَها، وعرَّضَها لِلِّعَانِ، وهَتَكَ عِرْضَها، ورَماها بالعَظيمةِ، وفَضحَها عندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٩).

قَومِها وأهلِها؛ ولهذا يجبُ عليه الحَدُّ إذا لم يُلَاعِنْ؛ فكانتِ البُداءةُ به في اللِّعَان أَوْلى مِن البُداءةِ بها، وأمَّا في الزِّنا فهو مِن المرأةِ أقبَحُ منه بالرَّجُلِ؛ لأنَّها تَزيدُ على هَتْكِ حقِّ الله: إفسادَ فِراشِ بَعلِها، وتَعليقَ نَسَبٍ مِن غيرِه عليه، وفَضيحةَ أهلِها وأقاربِها، والجِنايةَ على مَحْضِ حقِّ الزَّوجِ، وخِيانتَه فيه، وإسقاطَ حُرْمتِه عندَ الناسِ، وتَعييرَه بإمساكِ البَغِيِّ، وغيرَ ذلك مِن مَفاسِدِ زِنَاها؛ فكانتِ البُداءةُ بها في الحَدِّ أهَمَّ[1].

- قَولُه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ لم يُقَيَّدْ بعَددٍ؛ اكتِفاءً بالتَّقييدِ في قَذْفِ غيرِ الزَّوجاتِ[2].

- و﴿أَنفُسُهُمْ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿شُهَدَآءُ﴾، أو صِفَةٌ لها، على أنَّ (إلَّا) بمعنَى (غَير)؛ جُعِلوا مِن جُملةِ الشُّهداءِ؛ إيذانًا مِن أوَّلِ الأمرِ بعَدَمِ إلغاءِ قَولِهم بالمرَّةِ، ونَظْمِه في سِلْكِ الشَّهادةِ في الجُملةِ؛ وبذلك ازدادَ حُسْنُ إضافةِ الشَّهادةِ إليهم في قولِه تعالى: ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾[3].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿شُهَدَآءُ﴾؛ لظُهورِه مِنَ السِّياقِ، أي: شُهداءُ على ما ادَّعَوْهُ ممَّا رَمَوْا به أزواجَهُم[4].

- قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أصْلُه: (على أنَّه)، فحُذِفَ الجارُّ، وكُسِرَتْ (إنَّ)، وعُلِّقَ العاملُ عنها باللَّامِ؛ للتَّأكيدِ[5].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٨).

- قَولُه: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ فيه إفرادُ الشَّهادةِ الخامسةِ عنهُنَّ، مع كَونِها شَهادةً أيضًا؛ لاستِقلالِها بالفَحوى، ووِكادَتِها في إفادةِ ما يُقصَدُ بالشَّهادةِ مِن تَحقيقِ الخَبرِ وإظهارِ الصِّدقِ(١).

- قَولُه: ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فيه تَعيينُ خُصوصِ اللَّعنةِ له في الدُّعاءِ؛ لأنَّه إنْ كان كاذبًا فقد عَرَّضَ بامرأتِه لِلَعْنةِ النَّاسِ ونَبْذِ الأزواجِ إيَّاها؛ فناسَبَ أنْ يكونَ جَزاؤُه اللَّعنةَ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ﴾ عُيِّنَ لها في الخامسةِ الدُّعاءُ بغضَبِ اللهِ عليها إنْ صَدَقَ زَوْجُها؛ لأنَّها أغضبَتْ زَوْجَها بفِعلِها؛ فناسَبَ أنْ يكونَ جَزاؤُها على ذلك غَضَبَ ربِّها عليها كما أغضبَتْ بَعْلَها(٣). أو لأنَّ النِّساءَ كثيرًا ما يَستَعمِلْنَ اللَّعنَ، فربَّما يَجتَرِئْنَ على التَّفوُّهِ به؛ لسُقوطِ وَقْعِه عن قُلوبِهنَّ، بخِلافِ غضَبِه تعالى(٤).

وقيل: خُصَّتِ المرأةُ بالغضَبِ؛ لأنَّه أبلَغُ مِنَ اللَّعنِ الَّذي هو الطَّردُ؛ لأنَّه قد يَكونُ بسبَبٍ غيرِ الغضَبِ، وسبَبُ التَّغليظِ عليها: الحَثُّ على اعتِرافِها بالحقِّ؛ لِمَا يُصدِّقُ الزَّوجَ مِنَ القَرينةِ؛ مِن أنَّه لا يَتجشَّمُ فَضيحةَ أهْلِه -المُستلزِم لفَضيحَتِه- إلَّا وهو صادِقٌ(٥)، وهي تَعلمُ صِدقَه فيما رماها به؛ ولهذا كانت الخامسةُ في حقِّها أنَّ غضبَ الله عليها، والمغضوبُ عليه هو الذي يَعلَمُ الحقَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢١٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠١).

ثم يَحيدُ عنه[١]، ولأنَّها مادَّةُ الفسادِ، وخالِطةُ الأنسابِ[٢].

وقيل: خُصَّتِ المرأةُ بلفْظِ الغضبِ؛ لِعِظَمِ الذَّنْبِ بالنِّسبةِ إليها؛ لأنَّ الرجُلَ إذا كان كاذبًا لم يَصِلْ ذنْبُه إلى أكثرَ مِن القذْفِ، وإنْ كانت هي كاذبةً فذنْبُها أعظَمُ؛ لِمَا فيه مِن تلويثِ الفِراشِ، والتَّعرُّضِ لإلحاقِ مَن ليس مِن الزَّوجِ به؛ فتَنتشِرُ المَحْرميَّةُ، وتثبُتُ الوَلايةُ والمِيراثُ لِمَن لا يَستحِقُّهما[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ لِما مَرَّ مِن الأحكامِ العظيمةِ المُشتمِلةِ على التَّفضُّلِ مِن اللهِ والرَّحمةِ منه، والمُؤْذِنةِ بأنَّه توَّابٌ على مَن تابَ مِن عِبادِه، والمُنْبِئةِ بكَمالِ حِكْمَتِه تعالى، فلمَّا دخَلَتْ تلك الأحكامُ تحتَ كُلِّيِّ هذه الصِّفاتِ، كان ذِكْرُ الصِّفاتِ تَذييلًا[٤].

- وجَوابُ (لَوْلَا) في قولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ مَحذوفٌ؛ لقَصْدِ تَهويلِ مَضمونِه وتَعظيمِه؛ فيَدُلُّ تَهويلُه على تَفخيمِ مَضمونِ الشَّرطِ الَّذي كان سببًا في امتِناعِ حُصولِه[٥]، وأيضًا لِتَذهَبَ النَّفْسُ كلَّ مَذهبٍ مُمكِنٍ في تَقديرِه بحسَبِ المَقامِ[٦]. وأيضًا ثَمَّ حذْفٌ مع جَوابِ (لولا)، أي: كأنْ يُقالَ في بَيانِه: فلانٌ صادِقٌ في قذفِه فلانةَ بالزِّنا؛ لكونِ المقذوفةِ قد زَنتْ في نفْسِ الواقعِ. أو يُقال: فلانٌ كاذبٌ في قَذْفِه؛ لكونِ المقذوفةِ لم تَزْنِ في نفْسِ الواقِعِ؛ وسُدِلَ السِّتارُ على ذلك كلِّه؛ لأنَّ الغَرَضَ الأسْمى هو الصَّونُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٨، ١٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

والصَّونُ يتطلَّبُ التحوُّطَ، والتَّحوُّطُ يَستدعي السُّكوتَ عمَّا لا يَحسُنُ التَّصريحُ به[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ الْتِفاتٌ؛ فقد الْتُفِتَ مِنَ الغَيبةِ إلى خِطابِ الرَّامينَ والمَرميَّاتِ؛ لتَسجيلِ المِنَّةِ على المُخاطَبِينَ، بحيثُ لا تَبقَى لدَيْهم أعذارٌ واهيةٌ يَتشبَّثون بها إذا هُم تَجاوَزوا حُدودَ ما بَيَّنه لهم[٢].

- قَولُه: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ فيه ما يُعرَفُ بالتَّغليبِ؛ فقد غَلَّبَ صِيغةَ الذُّكورِ على صِيغةِ الإناثِ، حيثُ لمْ يَقُلْ: عليكُم وعليكُنَّ؛ لأنَّه بِصَددِ مُخاطَبةِ الفريقَينِ، أي: القاذِفينَ والمَقذوفاتِ[٣].

- وقد تَكرَّرَ قولُه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أربعَ مَرَّاتٍ [النور: ١٠، ١٤، ٢٠، ٢١]؛ كرَّرَه لاختِلافِ الأجوبةِ فيه؛ إذْ جَوابُ الأوَّلِ مَحذوفٌ تَقديرُه: لَفَضَحَكُم، وجوابُ الثَّاني قولُه: ﴿لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤]، وجوابُ الثَّالثِ مَحذوفٌ تَقديرُه: لعَجَّلَ لكمُ العَذابَ، وجوابُ الرَّابعِ: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾[٤] [النور: ٢١].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاءَ قولُه هنا في آخِرِ العَشْرِ الأُولى مِنَ السُّورةِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾، وقال في آخِرِ العِشرينَ مِن أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠]؛ فاختَلَفَتْ خاتِمَتَا الآيتَينِ، وحُذِفَ جَوابُ (لَوْلَا) منهُما؛ ووَجْهُه: أنه ذُكِرَ هنا وَصْفُ اللهِ بأنَّه ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾؛ لِمَا مرَّ مِن الأحكامِ العظيمةِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٦٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٤).

المشتملةِ على التفضُّلِ مِن الله والرحمةِ منه، والمُؤْذِنةِ بأنَّه توَّابٌ على مَن تاب مِن عبادِه، والمُنبِئةِ بكمالِ حكمتِه تعالى؛ إذ وضَعَ الشِّدَّةَ مَوضعَها، والرفقَ مَوضعَه، وكفَّ بعضَ الناسِ عن بعضٍ، وذُكِرَ بعد ذلك وصْفُه بأنَّه ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنَّ هذا التَّنبيهَ الَّذي تَضمَّنَه التَّذييلُ فيه انتِشالٌ للأُمَّةِ مِن اضْطِرابٍ عظيمٍ في أخلاقِها وآدابِها، وانفِصامِ عُرَى وَحْدَتِها، فأنقَذَها مِن ذلك رَأفةً ورَحمةً لآحادِها وجَماعتِها، وحِفْظًا لأواصِرِها. وذَكَر وَصْفَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ هنا؛ لأنَّه قد تَقدَّمَه إنقاذُه إيَّاهُم مِن سُوءِ مَحبَّةِ أنْ تَشيعَ الفاحشةُ في الَّذين آمَنوا، تلك المَحبَّةُ الَّتي انطَوَتْ عليها ضَمائرُ المُنافِقينَ، كان إنقاذُ المُؤمِنينَ مِن التَّخلُّقِ بها رأفةً بهم مِن العذابِ، ورَحمةً لهم بثَوابِ المَتابِ[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥، ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٥٠).

## الآيات (١١-١٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم
مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ
يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا
وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا
لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ
لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلْإِفْكِ﴾: أي: الكَذِبِ والبُهتانِ، وقيل: الإِفْكُ: أسوأُ الكذبِ، وأصلُه يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه[1].

﴿عُصْبَةٌ﴾: العُصبةُ: الجماعةُ مِن العَشَرةِ إلى الأربعينَ، وأصلُ (عصب): يدُلُّ على ربطِ شَيءٍ بشَيءٍ[2].

﴿كِبْرَهُۥ﴾: أي: مُعظَمَه، أي: معظمَ ذلك الإثمِ والإفكِ، ومنه الكِبْرُ: وذلك أن يرى الإنسانُ نفْسَه أكبرَ مِن غيرِه، وقيلَ: الكِبْرُ: الإثمُ، وهو مِن الكبيرةِ، وأصلُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣، ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٦).

(كبر): خِلافُ الصِّغَرِ[١].

﴿أَفَضْتُمْ﴾: أي: خُضتُم، وأصلُ (فيض): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسُهولةٍ[٢].

﴿تَلَقَّوْنَهُۥ﴾: أي: يُلقيه بعضُكم إلى بعضٍ، يقالُ: تلقَّيتُ الحديثَ مِن فلانٍ، أي: أخذتُه عنه فقَبِلتُه، وأصلُ التلقِّي: التكَلُّفُ لِلِقاءِ الغَيرِ[٣].

﴿هَيِّنًا﴾: يَسيرًا سَهلًا، لا تَبِعةَ فيه، وأصلُه يدلُّ على اليُسرِ والسُّهولةِ[٤].

﴿بُهْتَٰنٌ﴾: أي: افتِراءٌ وكَذِبٌ يَبهَتُ سامِعَه لفظاعتِه، يقالُ: بَهَت فلانٌ فُلانًا: إذا كذَب عليه، وأصلُه مِن قولِهم: بُهِت الرجُلُ: إذا تحيَّر؛ فالبهتانُ كَذِبٌ يُحيِّرُ الإنسانَ لعِظَمِه، ثم جُعِلَ كلُّ باطلٍ يُتحيَّرُ مِن بطلانِه بُهتانًا[٥].

﴿يَعِظُكُمُ﴾: أي: يُوصِيكُم ويُذكِّرُكم، والوَعظُ: زجرٌ مُقتَرِنٌ بتخويفٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٠)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٧٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٠٧)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، (البسيط)) للواحدي (٦/ ٤٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦ / ١٢٦)، =

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ الذين قذَفوا أمَّ المؤمنينَ عائِشةَ كَذِبًا وباطلًا، جماعةٌ منكم -أيُّها المُسلِمونَ-، لا تَحسَبوا قذْفَهم لها شرًّا لكم، بل هو خيرٌ لكم؛ لكلِّ فردٍ من أولئك القاذفينَ حظُّه من العذابِ بقَدْرِ جُرمِه، والذي تحمَّلَ مُعظَمَ ذلك الافتِراءِ والكَذِبِ له عذابٌ عظيمٌ. هلَّا حين سَمِعتُم ذلك الإفكَ ظننتُم -أيُّها المُؤمِنونَ والمُؤمِناتُ- بإخوانِكم وأخواتِكم خيرًا مِن العفافِ والصَّلاحِ، وقلتُم: هذا القذفُ كَذِبٌ وافتراءٌ باطِلٌ! وهلَّا جاء هؤلاء المُفتَرونَ القاذِفونَ بالباطِلِ بأربعةِ رجالٍ عُدولٍ يشهَدون على صِحَّةِ قولِهم! وما داموا لم يأتوا بالشُّهداءِ فإنَّهم -في حُكمِ الله تعالى- كاذِبونَ.

ولولا فَضلُ الله عليكم ورحمتُه بكم -بإمهالِكم للتَّوبةِ، وعدَمِ تعجيلِ العقوبةِ لكم، وعَفوِه عنكم- لنزَلَ بكم بسبَبِ خَوضِكم في حديثِ الإفكِ عذابٌ عظيمٌ حينَ تناقلتُم بيْنكم هذا الحديثَ السيِّئَ دون تحرُّجٍ أو تمهُّلٍ، وتفَوَّهتُم بكلامٍ لا عِلمَ لكم بحقيقتِه، ولا دليلَ معكم على صِدقِه، وتظنُّونَ خَوضَكم الباطِلَ هذا شيئًا يسيرًا سهلًا، وهو -عندَ اللهِ- ذنْبٌ عظيمٌ!

وهلَّا قلتُم وقتَ سماعِكم هذا الإفكَ: ما يَصِحُّ لنا أن نتكلَّم بهذا الباطِلِ، نُنزِّهُك -يا ربَّنا- ونتعجَّبُ مِن شناعةِ ما سَمِعْناه، ونبرَأُ إليك مِن هذا الافتراءِ العظيمِ! يُذَكِّرُكم اللهُ ويُحَذِّرُكم مِن العودةِ لهذا الإثمِ العظيمِ إن كنتُم مؤمنينَ بالله حقًّا، ويوضِّحُ اللهُ لكم آياتِه، واللهُ عليمٌ بأحوالِ خَلقِه، حكيمٌ فيما يأمُرُ به ويَنهى عنه.

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ سبحانه وتعالى حُكْمَ القَذفِ بالنِّسبةِ للمُحصَناتِ، وبالنِّسبةِ للزَّوجاتِ، أتبَعَ ذلك بإيرادِ مثَلٍ لِما قاله المُنافِقونَ في شأنِ أمِّ المؤمِنينَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، ولِما كان يجبُ على المؤمِنينَ أن يَفعلوه في مِثلِ هذه الأحوالِ[1]. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ...﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن الزُّهْريِّ، قال: أخبَرَني سعيدُ بنُ المسيِّبِ وعُرْوةُ بنُ الزُّبيرِ وعَلْقَمةُ بنُ وقَّاصٍ وعُبَيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ بنِ مَسعودٍ، عن حديثِ عائشةَ زَوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حين قال لها أهلُ الإفكِ ما قالوا، فبَرَّأها اللهُ ممَّا قالوا، وكلُّهم حدَّثَني طائفةً مِن حديثِها، وبعضُهم كان أَوْعَى لحديثِها مِن بعضٍ، وأثبَتَ اقتِصاصًا، وقد وَعَيتُ عن كلِّ واحدٍ منهم الحديثَ الذي حدَّثني، وبعضُ حديثِهم يُصَدِّقُ بعضًا؛ ذكروا أنَّ عائشةَ زوجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قالت: ((كان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أراد أن يَخرُجَ سَفرًا[2] أقرَع بيْنَ نسائِه، فأيَّتُهنَّ خرَج سهمُها خرَج بها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معه. قالت عائشةُ: فأقرَع بيْنَنا في غزوةٍ غزاها، فخرَج فيها سهمي، فخرجتُ مع رسولِ الله صلَّى

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٩١).

(٢) سَفرًا: أي: إلى سفرٍ؛ فهو نُصِب بنزعِ الخافضِ، أو ضُمِّن (يَخرُجُ) معنَى: يُنشئ؛ فالنصبُ على المفعوليةِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٣٩٠).

اللهُ عليه وسلَّم، وذلك بعدَما أُنزِل الحِجابُ، فأنا أُحمَلُ في هَوْدَجي[١]، وأُنزَلُ فيه مَسيرَنا، حتى إذا فَرَغ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن غَزْوِه وقَفَلَ[٢]، ودَنَوْنا مِن المدينةِ؛ آذَنَ[٣] لَيلةً بالرَّحيلِ، فقُمتُ حين آذَنوا بالرَّحيلِ، فمَشيتُ حتى جاوزتُ الجيشَ، فلمَّا قضيتُ مِن شأني أقبلتُ إلى الرَّحلِ، فلمَستُ صدري، فإذا عِقْدي مِن جَزْعِ ظَفَارِ[٤] قد انقطع، فرجعتُ، فالتمستُ عِقدي، فحبسَني ابتغاؤُه، وأقبل الرَّهطُ الذين كانوا يَرْحَلون لي[٥]، فحَمَلوا هَوْدَجي، فرَحَلوه على بعيري الذي كنتُ أركَبُ، وهم يَحسَبون أنِّي فيه -قالت: وكانت النِّساءُ إذ ذاك خِفافًا، لم يُهَبَّلْنَ[٦] ولم يَغْشَهُنَّ اللحمُ؛ إنَّما يأكُلنَ العُلْقَةَ[٧] مِن الطعامِ، فلمْ يَستنكرِ القومُ ثِقلَ الهَودَجِ حين رحَلوه ورفَعوه، وكنتُ جاريةً حديثةَ السِّنِّ- فبَعَثوا الجملَ وساروا، ووجدتُ عِقدي بعدَما استمَرَّ الجيشُ، فجِئتُ منازِلَهم وليس بها داعٍ ولا مُجيبٌ، فتيمَّمتُ[٨] منزلي الذي كنتُ فيه، وظننتُ أنَّ القومَ سيَفقِدوني فيرجِعونَ إليَّ، فبيْنا أنا جالسةٌ في منزلي غلبَتْني عيني فنِمتُ، وكان صفوانُ بنُ المُعَطَّلِ السُّلميُّ ثمَّ الذَّكْوانيُّ قد عَرَّسَ[٩] مِن وراءِ الجيشِ،

---

(١) الهَوْدَجُ: مَركَبٌ مِن مَراكِبِ النِّساءِ يكونُ على البعيرِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٢) وقَفَل: أي: رَجَع. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٥٨).

(٣) آذَنَ: أي: أعلَمَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٥٨).

(٤) جَزْعِ ظَفَارِ: الجَزعُ: خَرَزٌ يماني، وظَفَارِ: قَريةٌ في اليَمَنِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٥) يَرْحَلون لي: أي: يَجعَلونَ الرَّحْلَ على البعيرِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٦) يُهَبَّلْنَ: أي: يَثقُلْنَ باللَّحمِ والشَّحمِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٧) العُلْقَةَ: أي: القَليلَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٤).

(٨) فتيمَّمتُ: أي: قَصَدتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٩) عرَّس: التَّعريسُ: النُّزولُ آخِرَ اللَّيلِ في السَّفَرِ لِنَومٍ أو استراحةٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

فادَّلَجَ[١] فأصبَحَ عندَ منزلي، فرأى سوادَ إنسانٍ نائمٍ، فأتاني فعرَفَني حينَ رآني -وقد كان يراني قبْلَ أن يُضرَبَ الحِجابُ عليَّ- فاستيقظتُ باسترجاعِه حينَ عرَفَني، فخَمَّرتُ[٢] وجهي بجِلبابي، ووالله ما يُكَلِّمُني كَلِمةً، ولا سمِعْتُ منه كَلِمةً غيرَ استِرجاعِه، حتى أَناخَ[٣] راحلتَه، فوَطِئَ على يَدِها فرَكِبْتُها، فانطلَق يَقودُ بيَ الراحلةَ، حتى أَتَيْنا الجيشَ بعدَما نزَلوا مُوغِرينَ[٤] في نَحْرِ الظَّهيرةِ[٥]، فهَلَكَ مَن هلَكَ في شأني، وكان الذي تولَّى كِبْرَه عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ ابنُ سَلولَ.

فقَدِمْنا المدينةَ، فاشتكيتُ حينَ قَدِمْنا المدينةَ شَهرًا، والنَّاسُ يُفيضونَ في قَولِ أهلِ الإفكِ، ولا أَشعُرُ بشَيءٍ مِن ذلك، وهو يَرِيبُني[٦] في وَجَعي أنِّي لا أعرِفُ مِن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اللُّطفَ الذي كنتُ أرى منه حينَ أشتكي؛ إنَّما يَدخُلُ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيُسَلِّمُ، ثمَّ يقولُ: كيف تِيكُمْ؟ فذاك يَرِيبُني، ولا أشعُرُ بالشَّرِّ.

حتى خرجتُ بعدَما نَقَهْتُ[٧]، وخرَجَتْ معي أمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَناصِعِ[٨] -وهو مُتبَرَّزُنا- ولا نخرُجُ إلَّا لَيلًا إلى لَيْلٍ، وذلك قبْلَ أن نتَّخِذَ الكُنُفَ قَريبًا

---

(١) ادَّلَجَ: أي: سار آخِرَ اللَّيلِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٢) فخمَّرتُ: أي: غطَّيتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٣) أناخ: أي: أبرَكَ بَعيرَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٣٩١).

(٤) مُوغِرين: الموغرُ: النازلُ في وقت الوَغْرة، وهي شِدَّةِ الحَرِّ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٥) نحرِ الظَّهيرةِ: أي: وقت القائلةِ وشِدَّة الحَرِّ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٥).

(٦) يَريبُني: أي: يُوهِمُني ويُشَكِّكني. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٦).

(٧) نَقَهْتُ: بَرِئْتُ مِن المَرَضِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٦).

(٨) المَناصِعُ: مَواضِعُ خارِجَ المدينةِ كانوا يتبَرَّزونَ فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٦).

مِن بُيوتِنا، وأمْرُنا أمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ في التنزُّهِ، وكنَّا نتأذَّى بالكُنُفِ أن نتَّخِذَها عندَ بيوتِنا، فانطلقتُ أنا وأمُّ مِسْطَحٍ -وهي بنتُ أبي رُهْمِ بنِ المُطَّلِبِ بنِ عبدِ مَنافٍ، وأمُّها ابنةُ صَخرِ ابنِ عامرٍ، خالةُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، وابنُها مِسطَحُ بنُ أُثاثةَ بنِ عبَّادِ بنِ المُطَّلِبِ- فأقبلتُ أنا وبنتُ أبي رُهْمٍ قِبَلَ بيتي حين فرَغْنا مِن شأنِنا، فعَثَرَتْ أمُّ مِسطَحٍ في مِرْطِها[1]، فقالت: تَعِسَ مِسطَحٌ! فقلتُ لها: بئسَ ما قُلتِ! أتسُبِّينَ رجُلًا قد شَهِدَ بَدرًا؟! قالت: أيْ هَنْتَاهُ[2]، أوَلَمْ تَسمَعي ما قال؟! قلتُ: وماذا قال؟ قالت: فأخبَرَتني بقولِ أهلِ الإفكِ؛ فازددتُ مرضًا إلى مرَضي، فلمَّا رجعتُ إلى بيتي، فدخَل علَيَّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فسلَّم، ثمَّ قال: كيف تِيكُمْ؟ قلتُ: أتأذَنُ لي أن آتيَ أبَوَيَّ؟ -قالت: وأنا حينَئذٍ أريدُ أن أتيقَّنَ الخبرَ مِن قِبَلِهما-، فأذِنَ لي رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فجِئتُ أبَوَيَّ، فقُلتُ لأمي: يا أُمَّتَاهْ، ما يتحدَّثُ الناسُ؟! فقالت: يا بُنَيَّةُ، هَوِّني عليك؛ فواللهِ لَقَلَّما كانت امرأةٌ قَطُّ وَضِيئةً[3] عندَ رجُلٍ يحِبُّها، ولها ضرائِرُ، إلاَّ كثَّرْنَ عليها، قالت: قلتُ: سُبحانَ اللهِ، وقد تحدَّث النَّاسُ بهذا؟! قالت: فبكيتُ تلك الليلةَ حتى أصبحتُ لا يَرْقأُ[4] لي دَمعٌ، ولا أكتَحِلُ بنومٍ، ثم أصبحتُ أبكي.

ودعا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليَّ بنَ أبي طالبٍ وأُسامةَ بنَ زيدٍ حين استلبثَ الوحيُ، يستشيرُهما في فِراقِ أهلِه، قالت: فأمَّا أسامةُ بنُ زيدٍ فأشار على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالذي يَعلمُ مِن براءةِ أهلِه، وبالذي يعلَمُ في نفْسِه لهم مِن الوُدِّ، فقال: يا رسولَ اللهِ، هم أهلُك، ولا نعلمُ إلَّا خيرًا. وأمَّا

---

(١) مِرطِها: المِرطُ: كِساءٌ مِن صُوفٍ أو غَيرِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٧).

(٢) هَنْتَاهُ: أي: يا هذه، أو يا امرأةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٧).

(٣) وضيئةً: أي: جميلةً حَسناءَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٧).

(٤) لا يَرقأُ: أي: لا يَنقَطِعُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٧).

عليُّ بنُ أبي طالبٍ فقال: لم يُضَيِّقِ اللهُ عليك، والنِّساءُ سواها كثيرٌ، وإنْ تسألِ الجاريةَ تَصْدُقْك. قالت: فدعا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَرِيرةَ، فقال: أيْ بَرِيرةُ، هل رأيتِ مِن شَيءٍ يَرِيبُكِ مِن عائشةَ؟ قالت له بَرِيرةُ: والذي بعثَك بالحَقِّ، إنْ رأيتُ عليها أمرًا قَطُّ أَغْمِصُه[1] عليها أكثَرَ مِن أنَّها جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، تنام عن عَجينِ أهلِها، فتأتي الدَّاجِنُ[2] فتأكُلُه. قالت: فقام رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المِنبرِ، فاستَعْذَرَ[3] مِن عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ ابنِ سَلولَ، قالت: فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو على المِنبرِ: يا مَعشرَ المُسلمينَ، مَن يَعذِرُني مِن رجُلٍ قد بلغ أذاه في أهلِ بيتي؟ فوالله ما عَلِمتُ على أهلي إلَّا خيرًا، ولقد ذكَروا رجلًا ما علمتُ عليه إلَّا خيرًا، وما كان يدخُلُ على أهلي إلَّا معي. فقام سعدُ بنُ معاذٍ الأنصاريُّ، فقال: أنا أَعذِرُك منه يا رسولَ اللهِ، إن كان مِن الأَوسِ ضَرَبْنا عُنُقَه، وإن كان مِن إخوانِنا الخَزرجِ أمَرْتَنا ففعَلْنا أمْرَك، قالت: فقام سعدُ بنُ عُبادةَ -وهو سَيِّدُ الخَزرجِ، وكان رجلًا صالِحًا، ولكِنِ اجتَهَلَتْه الحَمِيَّةُ[4]- فقال لسَعدِ بنِ مُعاذٍ: كذَبْتَ، لعَمْرُ اللهِ[5] لا تقتُلُه، ولا تقدِرُ على قَتلِه! فقام أُسَيْدُ بنُ حُضَيرٍ -وهو ابنُ عَمِّ سعدِ بنِ مُعاذ- فقال لسَعدِ بنِ عُبادةَ: كذَبْتَ، لَعَمْرُ اللهِ لنَقتُلَنَّه؛ فإنَّك منافِقٌ تجادِلُ عن المنافقين! فثار الحَيَّانِ: الأَوسُ والخزرجُ، حتى هَمُّوا أن يَقتَتِلوا، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِمٌ على المِنبَر، فلم يزَلْ

---

(١) أغمِصُه عليها: أي: أعيبُها به. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٩).

(٢) الدَّاجِنُ: أي: الشاةُ التي تألَفُ البَيتَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٩).

(٣) فاستعذر: أي: قال مَن يقومُ بعُذري إن كافأتُه على قبيحِ فِعالِه ولا يلومُني، أو من ينصُرُني؟ يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٠٩).

(٤) اجتَهَلَتْه: أي: استَخَفَّتْه وأغضَبَتْه وحَمَلَتْه على الجَهلِ. والحَمِيَّةُ: أي: العَصبيَّةُ والأنفَةُ والغَضَبُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٢٢)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١٠).

(٥) لعَمْرُ اللهِ: هو قَسَمٌ ببَقاءِ اللهِ تعالى ودَوامِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٩٨).

رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخَفِّضُهم[١] حتى سكَتوا وسكَتَ.

قالت: وبكيتُ يَومي ذلك لا يَرْقأُ لي دمعٌ، ولا أكتَحِلُ بنومٍ، ثمَّ بكيتُ ليلتي المُقبِلةَ لا يَرقأُ لي دمعٌ، ولا أكتَحِلُ بنومٍ، وأبَوايَ يَظُنَّانِ أنَّ البكاءَ فالِقٌ كَبِدي، فبيْنما هما جالِسانِ عندي وأنا أبكي استأذَنَتْ علَيَّ امرأةٌ من الأنصارِ، فأذِنتُ لها، فجَلَسَت تبكي. قالت: فبيْنا نحنُ على ذلك دخَلَ علينا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسَلَّم ثمَّ جلس، قالت: ولم يجلِسْ عندي منذُ قيلَ لي ما قيل، وقد لَبِث شَهرًا لا يُوحَى إليه في شأني بشَيءٍ. قالت: فتشهَّدَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ جلَس، ثمَّ قال: أمَّا بعدُ، يا عائشةُ، فإنَّه قد بلغَني عنكِ كذا وكذا، فإنْ كُنتِ بريئةً فسيُبَرِّئُك اللهُ، وإن كنتِ ألممْتِ[٢] بذنْبٍ فاستغفري اللهَ وتوبي إليه؛ فإنَّ العبدَ إذا اعترَف بذنبٍ ثم تاب، تاب الله عليه. قالت: فلمَّا قضى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مقالتَه، قَلَصَ[٣] دمعي حتى ما أُحِسُّ منه قطرةً! فقلتُ لأبي: أجِبْ عنِّي رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما قال، فقال: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فقلتُ لأمي: أجيبي عنِّي رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: واللهِ ما أدري ما أقولُ لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فقلتُ -وأنا جاريةٌ حديثةُ السِّنِّ، لا أقرأُ كثيرًا مِن القرآنِ-: إنِّي واللهِ لقد عرَفْتُ أنَّكم قد سمِعتُم بهذا حتى استقَرَّ في نفوسِكم، وصدَّقتُم به، فإنْ قلتُ لكم: إنِّي بريئةٌ -واللهُ يعلمُ أنِّي بريئةٌ- لا تُصَدِّقوني بذلك، ولئنْ اعترَفْتُ لكم بأمرٍ -واللهُ يعلمُ أنِّي بريئةٌ- لَتُصدِّقونَني! وإنِّي واللهِ ما أجِدُ لي ولكم مثلًا إلَّا كما قال أبو يوسفَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:

---

(١) يُخفِّضُهم: أي: يُسَكِّنُهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٥٨).

(٢) ألممْتِ: أي: فعَلْتِ ذَنبًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١١).

(٣) قلَصَ: أي: استمسَك نزولُه فانقَطَع. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٥).

١٨]، قالت: ثمَّ تحوَّلتُ فاضْطَجَعتُ على فِراشي.

قالت: وأنا -واللهِ- حينَئذٍ أعلَمُ أنِّي بريئةٌ، وأنَّ اللهَ مُبَرِّئي ببَراءتي، ولكِنْ واللهِ ما كنتُ أظُنُّ أن يُنزَلَ في شأني وحْيٌ يُتلَى، ولَشَأني كان أحقَرَ في نفْسي مِن أن يتكلَّمَ اللهُ عزَّ وجلَّ فيَّ بأمرٍ يُتلى! ولكنِّي كنتُ أرجو أن يرَى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النَّومِ رُؤيا يُبَرِّئُني اللهُ بها. قالت: فواللهِ ما رامَ[1] رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مجلِسَه، ولا خرَج مِن أهلِ البَيتِ أحدٌ حتى أنزَل اللهُ عزَّ وجَلَّ على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخَذه ما كان يأخُذُه مِن البُرَحاءِ[2] عندَ الوَحيِ، حتى إنَّه لَيَتحَدَّرُ منه مِثلُ الجُمَانِ[3] مِن العَرَقِ في اليومِ الشَّاتِ؛ مِن ثِقَلِ القَولِ الذي أُنزِلَ عليه، قالت: فلمَّا سُرِّيَ[4] عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يضحَكُ، فكان أوَّلَ كَلِمةٍ تكلَّمَ بها أنْ قال: أَبْشِري يا عائشةُ، أمَّا اللهُ فقد برَّأكِ! فقالت لي أمِّي: قُومي إليه، فقلتُ: واللهِ لا أقومُ إليه، ولا أحمَدُ إلَّا اللهَ؛ هو الذي أنزل براءتي! قالت: فأنزل اللهُ عَزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور: ١١] عشْرَ آياتٍ، فأنزل اللهُ عَزَّ وجَلَّ هؤلاء الآياتِ براءتي.

قالت: فقال أبو بكرٍ -وكان يُنفِقُ على مِسْطَحٍ؛ لقَرابتِه منه وفَقرِه-: واللهِ لا أُنفِقُ عليه شيئًا أبدًا بعدَ الذي قال لعائشةَ؛ فأنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]...، فقال أبو بكرٍ: واللهِ إنِّي لَأُحِبُّ أن يغفِرَ اللهُ لي، فرجَع إلى مِسطَحٍ النَّفقةَ التي كان يُنفِقُ عليه، وقال:

---

(١) ما رام: أي: ما فارق. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٦).

(٢) البُرَحاءِ: أي: شِدَّةِ الحُمَّى أو شِدَّةِ الكَربِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٦).

(٣) الجُمَانِ: أي: اللُّؤلؤ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٦).

(٤) سُرِّيَ: أيْ: كُشِفَ وأُزيلَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١٢).

لا أَنزِعُها منه أبدًا.

قالت عائشةُ: وكان رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سأل زينبَ بنتَ جَحشٍ زوجَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن أمري: ما عَلِمْتِ؟ -أو: ما رأيتِ؟- فقالت: يا رسولَ اللهِ، أَحْمي سَمعي وبصري، واللهِ ما عَلِمتُ إلَّا خيرًا. قالت عائشةُ: وهي التي كانت تُسامِيني[1] مِن أزواجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعصَمَها اللهُ بالوَرَعِ، وطَفِقَتْ أختُها حَمْنةُ بنتُ جَحشٍ تُحارِبُ لها، فهلَكَت فيمَن هلَكَ)). قال الزُّهْريُّ: فهذا ما انتهى إلينا مِن أمرِ هؤلاءِ الرَّهطِ[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾.

أي: إنَّ الذين جاؤوا بالبُهتانِ والكَذِبِ الشَّنيعِ بقَذفِهم عائشةَ، جماعةٌ في عدادِكم، أيُّها المُسلِمونَ[3].

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾.

أي: لا تظنُّوا قَذْفَهم لها شَرًّا لكم، بل هو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخرةِ[4].

---

(١) تُساميني: أي: تُعاليني. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٧٨).

(٢) رواه البخاري (٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) واللفظُ له.

قال ابنُ الجوزي: (أجمع المفسِّرون أنَّ هذه الآيةَ وما يتعلَّقُ بها بعدَها نزلت في قصَّةِ عائشةَ رضيَ الله عنها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٢). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٢١-٢٢٣).

قال ابنُ كثير: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعةٌ منكم، يعني: ما هو واحِدٌ ولا اثنانِ، بل جماعةٌ، فكان المقَدَّمُ في هذه اللَّعنةِ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيِّ ابنَ سَلولَ: رأسَ المنافقين؛ فإنَّه كان يجمَعُه ويستوشيه، حتى دخَل ذلك في أذهانِ بعضِ المسلِمينَ، فتكَلَّموا به، وجوَّزه آخرون منهم، وبقِي الأمرُ كذلك قريبًا من شهرٍ، حتى نزَل القرآنُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٩٨)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾.

أي: لكلِّ واحدٍ ممَّن تكلَّم بالإفكِ نَصيبُه مِن العذابِ؛ جزاءً له بقَدرِ ذَنبِه[1].

---

= كثير)) (٦/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٢١-٢٢٣).

قال ابن عاشور: (خيرٌ لهم؛ لأنَّ فيه منافِعَ كثيرةً؛ إذ يميَّزُ به المؤمنون الخُلَّصُ مِن المنافقين، وتُشرَعُ لهم بسبَبِه أحكامٌ تردَعُ أهلَ الفِسقِ عن فِسقِهم، وتتبيَّنُ منه براءةُ فُضَلائِهم، ويزدادُ المنافِقونَ غيظًا، ويُصبِحونَ محقَّرينَ مذمومينَ، ولا يفرحون بظَنِّهم حُزْنَ المسلمين؛ فإنَّهم لَمَّا اختلَقوا هذا الخبَرَ ما أرادوا إلَّا أذَى المسلمينَ، وتجيءُ منه مُعجزاتٌ بنزولِ هذه الآياتِ بالإنباء بالغيبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

وقال ابنُ جُزي: (والخيرُ في ذلك من خمسةِ أوجُهٍ: تَبرِئةُ أمِّ المؤمنينَ، وكرامةُ اللهِ لها بإنزالِ الوَحيِ في شأنِها، والأجرُ الجزيلُ لها في الفِرْيةِ عليها، ومَوعِظةُ المؤمِنينَ، والانتِقامُ مِن المُفتَرينَ). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٢١٧).

وقال ابن الأثير: (قال عروةُ: لو لم يكُنْ لعائشةَ مِن الفضائلِ إلَّا قصةُ الإفكِ لكفَى بها فضلًا وعلوَّ مجدٍ؛ فإنَّها نزَل فيها مِن القرآنِ ما يُتلَى إلى يومِ القيامةِ). ((أسد الغابة)) (٦/ ١٩١).

ومِن أوجُهِ الخَيريَّةِ أيضًا: أنَّه ظهر بذلك نقاءُ وطُهرُ فِراشِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه لا يُمكِنُ لِفراشِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَتدَنَّسَ بهذا.

ومنها: الأجرُ العظيمُ الذي ترتَّب على ما أصاب المؤمِنينَ في هذه الحادثةِ مِنَ الأذى والمشقَّةِ والجَهدِ الجَهيدِ، حتى إنَّه مِن حِكمةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ أنَّ الوَحيَ انقطَعَ شَهرًا كامِلًا!

ومنها: رِفعةُ شأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِكَونِ اللهِ سُبحانَه وتعالى يدافِعُ بنَفْسِه عنه.

ومنها: تأديبُ المؤمنينَ وعِظَتُهم بما يَنبغي أن يَكونوا عليه مِن عدَمِ إطلاقِ القَولِ والتَّجَرُّؤِ على أعراضِ الأعِفَّاءِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٢)، ((الوسيط)) =

﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: والذي تحمَّل مُعظَمَ ذلك الإثمِ والإفكِ، له عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ[1].

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى قِصَّةَ الإفكِ، وذكَرَ حالَ المقذوفينَ والقاذفينَ؛ عقَّبَها بما يليقُ بها مِن الآدابِ والزَّواجرِ[2].

وأيضًا لَمَّا أخبر اللهُ سُبحانَه وتعالى بعقابِ أهلِ الإفكِ، وكان في المؤمنينَ

---

= للواحدي (٣/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩١، ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

وقال ابن كثير: (﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ قيل: ابتدأ به. وقيل: الذي كان يجمَعُه ويَستوشيه ويُذيعُه ويُشيعُه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥).

قال ابنُ جرير: (لا خِلافَ بيْن أهلِ العِلمِ بالسِّيَرِ أنَّ الذي بدأ بذكْرِ الإفكِ، وكان يجمعُ أهلَه ويحدِّثُهم: عبدُ الله بنُ أبيِّ ابنُ سَلولَ، وفِعلُه ذلك على ما وصفتُ كان تولِّيَه كِبْرَ ذلك الأمرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٩٧).

وقال ابن عطية: (والإشارةُ بقَولِه: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ إلى عبدِ الله بنِ أُبَيِّ ابنِ سَلولَ، والعذابُ المتوَعَّدُ به هو عذابُ الآخرةِ، وهذا قولُ الجمهورِ، وهو ظاهِرُ الحديثِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٦٩)

وممَّن نسَبَ إلى الأكثرينَ أيضًا أنَّه عبدُ الله بنُ أُبَيِّ ابنُ سَلولَ: السمعانيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقيل: بل المرادُ به حسَّانُ بنُ ثابتٍ، وهو قولٌ غريبٌ، ولولا أنَّه وقَع في صحيح البخاريِّ ما قد يدُلُّ على ذلك لَمَا كان لإيرادِه كبيرُ فائدةٍ؛ فإنَّه مِنَ الصحابةِ الذين كان لهم فضائلُ ومناقبُ ومآثرُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٠).

مَن سَمِعَه وسكَت، وفيهم مَن سَمِعه فتحَدَّث به متعجِّبًا مِن قائِلِه، أو متثبِّتًا في أمرِه، وفيهم مَن أكذَبه- أتْبَعه سُبحانَه وتعالى بعتابِهم في أسلوبِ خطابِهم، مُثنيًا على مَن كذَّبه، فقال مُستأنفًا مُحرِّضًا[1]:

﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾.

أي: هلَّا حين سَمِعتُم قولَ أهلِ الإفكِ ظَنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بعضُهم ببعضٍ السلامةَ مما رُمُوا به مِن الإفكِ[2]!

﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: وقال المؤمنونَ والمؤمناتُ: هذا الذي يقولُه أهلُ الإفكِ كَذِبٌ واضِحٌ على أُمِّ المؤمنينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: ظنَّ المؤمنونَ والمؤمناتُ بإخوانِهم وأهلِ دينِهم الذين هم منهم مِن المؤمنينَ والمؤمناتِ خيرًا: ابنُ جرير، والزجَّاجُ، ومكِّي، والسمعانيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والنسفي، والسعدي، والشنقيطي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٦)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّه كان يَنبغي أن يَقيسَ فُضلاءُ المؤمنينَ والمؤمناتِ الأمرَ على أنفُسِهم، وإذا كان ذلك يَبعُدُ في حقِّهم، فهو في حقِّ عائشةَ أبْعَدُ؛ لفَضلِها: ابنُ عطية، وابنُ جزي، وابن كثير، والثعالبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير أبي =

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾.

أي: هلَّا جاء أهلُ الإفكِ بأربعةِ رِجالٍ عُدولٍ يَشهَدونَ على صِحَّةِ ما رَمَوا به عائشةَ رَضِي اللهُ عنها[1]!

﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾.

أي: فإذ لم يأتِ القاذِفون بأربعةِ شُهَداءَ يَشهَدونَ على صِحَّةِ ما قالوا، فإنَّهم في حُكمِ اللهِ كاذِبونَ[2].

---

= السعود)) (٦/ ١٦١).

قال ابنُ كثير: (﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كَذِبٌ ظاهِرٌ على أمِّ المؤمنينَ؛ فإنَّ الذي وقع لم يكن ريبةً، وذلك أنَّ مجيءَ أمِّ المؤمنين راكبةً جَهرةً على راحلةِ صفوانَ بنِ المُعطَّلِ في وقتِ الظَّهيرةِ، والجيشُ بكمالِه يُشاهِدونَ ذلك، ورسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيْن أظهُرِهم، لو كان هذا الأمرُ فيه ريبةٌ لم يكنْ هكذا جهرةً، ولا كانا يَقدَمانِ على مِثلِ ذلك على رؤوسِ الأشهادِ، بل كان يكونُ هذا -لو قُدِّرَ- خُفيةً مستورًا؛ فتعيَّن أنَّ ما جاء به أهلُ الإفك ممَّا رَمَوا به أمَّ المؤمنينَ هو الكَذِبُ البَحتُ، والقولُ الزورُ، والرُّعونةُ الفاحشةُ الفاجرةُ، والصفقةُ الخاسرةُ!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

قال القرطبي: (قد يعجِزُ الرجلُ عن إقامةِ البيِّنة وهو صادقٌ في قذفِه، ولكنَّه في حُكمِ الشَّرع وظاهرِ الأمرِ كاذبٌ، لا في علم الله تعالى، وهو سبحانَه إنَّما رتَّب الحدودَ على حُكمِه الذي شرعه في الدُّنيا لا على مقتضى عِلمِه... وأجمع العُلَماءُ أنَّ أحكامَ الدُّنيا على الظاهر، وأنَّ السَّرائرَ إلى الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٣).

وقال ابنُ تيمية: (القاذِفُ كاذِبٌ، ولو كان قد قذَف مَن زنى في نفسِ الأمرِ؛ لأنَّه أخبَر بما =

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى لهم بإقامةِ الدَّليلِ على كَذِبِ الخائضينَ في هذا الكلامِ أنَّهم استحَقُّوا الملامَ، وكان ذلك مرَغِّبًا لأهلِ التقوى؛ بيَّن أنَّهم استحقُّوا بالتقصيرِ في الإنكارِ عمومَ الانتقامِ في سياقٍ مُبَشِّرٍ بالعفوِ[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

أي: ولولا فضلُ الله عليكم -أيُّها الخائضون في الإفكِ- ورحمتُه بكم في الدُّنيا والآخرةِ، بإمهالِه لكم لتتوبوا، وقَبولِ توبتِكم، وعَفوِه عنكم، وعدَمِ معُاجلتِكم بالعقوبةِ- لأصابَكم بسبَبِ خوضِكم في عِرضِ عائشةَ عذابٌ عظيمٌ[2].

---

= لا يحلُّ له الإخبارُ به، وتكلُّف ما لا عِلمَ له به). ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٣٧١).

وقال السعدي: (فإنَّهم كاذبونَ في حُكمِ الله؛ لأنَّ الله حرَّم عليهم التكلُّمَ بذلك، مِن دونِ أربعةِ شهودٍ؛ ولهذا قال: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ ولم يقل «فأولئك هم الكاذبون» وهذا كلُّه من تعظيمِ حُرمةِ عِرضِ المسلمِ؛ بحيث لا يجوزُ الإقدامُ على رميه، مِن دون نصابِ الشَّهادةِ بالصِّدقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

قال ابنُ كثير: (وهذا فيمن عندَه إيمانٌ رزقه اللهُ بسبَبِه التوبةَ إليه؛ كمِسطحٍ، وحسانَ، وحَمْنةَ بنتِ جحشٍ أختِ زينبَ بنتِ جحش. فأمَّا مَن خاض فيه مِن المنافقين -كعبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ وأضرابِه- فليس أولئك مرادينَ في هذه الآيةِ؛ لأنَّه ليس عندَهم مِن الإيمانِ والعملِ الصالحِ ما يُعادِلُ هذا ولا ما يُعارِضُه، وهكذا شأنُ ما يَرِدُ مِن الوعيدِ على فِعلٍ معيَّنٍ، يكونُ مطلَقًا =

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾.

أي: لَمَسَّكم عذابٌ عظيمٌ حين تتلقَّونَ الإفكَ، ويأخُذُه ويَرويه بعضُكم عن بعضٍ[1].

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

أي: وتقولونَ في عائشةَ كلامًا ليس لكم أيُّ دليلٍ على صحَّتِه[2]!

﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾.

---

= مشروطًا بعدمِ التوبةِ، أو ما يقابِلُه مِن عملٍ صالحٍ يوازنُه أو يرجَحُ عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٣، ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

قال ابن الجوزي: (ذَكَرَ الوقتَ الذي لولا فَضلُه لأصابهم فيه العذابُ، فقال: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ﴾، وكان الرجُلُ منهم يَلْقى الرجُلَ فيقولُ: بلَغَني كذا، فيتلقَّاه بعضُهم من بعضٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٦٠٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فهذا بيانٌ لسببِ العذابِ، وهو تلقِّي الباطِلِ بالألسنةِ، والقَولِ بالأفواه، وهما نوعانِ محرَّمانِ: القولُ بالباطلِ، والقولُ بلا علمٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٣١).

وقال ابن جُزي: (في هذا الكلامِ عِتابٌ لهم على خوضِهم في حديثِ الإفكِ، وإن كانوا لم يُصَدِّقوه؛ فإنَّ الواجِبَ كان الإغضاءَ عن ذِكرِه، والتركَ له بالكلِّيَّةِ، فعاتَبَهم على ثلاثةِ أشياءَ، وهي: تلقِّيهِ بالألسنةِ، أي: السؤالُ عنه، وأخْذُه مِن المسؤولِ، والثاني: قولُهم ذلك، والثالث: أنهم حَسِبوه هيِّنًا، وهو عندَ الله عظيمٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٣، ٦٤).

أي: وتَظُنُّونَ أنَّ تلقِّيَكم الإفكَ، وروايةَ بَعضِكم له عن بعضٍ، والخوضَ فيه بلا علمٍ- أمرٌ سهلٌ يسيرٌ، وهو عندَ اللهِ ذنْبٌ عظيمٌ مِن كبائِرِ الذُّنوبِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النور: ٢٣].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اجتَنِبوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ[٢]، قيل: يا رسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقتلُ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الرِّبا، والتولِّي يومَ الزَّحفِ[٣]، وقَذفُ المُحصَناتِ الغافلاتِ المؤمناتِ))[٤].

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ ١٦﴾.

﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾.

أي: وهلَّا حين سَمِعتُم الإفكَ قلتُم: ما يَنبغي لنا أن نتكلَّمَ بهذا الباطِلِ أو نذكُرَه لأحدٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨).

(٢) المُوبقاتِ: أي: المُهلِكاتِ. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم)) للقاضي عياض (١/ ٣٥٦).

(٣) التولِّي يومَ الزَّحفِ: أي: الإعراضُ عن الحَربِ، والفِرارُ مِن الكُفَّارِ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٢/ ٥٠٥)، ((عمدة القاري)) للعَيني (١٤/ ٦٢).

(٤) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) واللفظُ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٠).

قال ابن كثير: (هذا تأديبٌ آخَرُ بعد الأوَّلِ: الأمرِ بالظنِّ خيرًا، أي: إذا ذُكِرَ ما لا يَليقُ من القولِ في شأنِ الخِيَرَةِ، فأَوْلى يَنبغي الظَّنُّ بهم خيرًا، وألا يُشعِرَ نفْسَه سوى ذلك، ثم إن عَلِقَ بنفْسِه شَيءٌ من ذلك -وسوسةٌ أو خيالٌ- فلا يَنبغي أن يتكلَّم به). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩). =

﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ننزِّهُك -يا ربَّنا- ونبرأُ إليك من هذا الكَذِبِ العظيمِ[1]!

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٧﴾.

أي: يَنصَحُكم اللهُ ويُذَكِّرُكم ويَنهاكم؛ لئلَّا تَعودُوا لِقَذفِ المُحصَناتِ، والخَوضِ في أعراضِهنَّ بلا عِلمٍ، إن كنتُم مؤمنينَ باللهِ وشَرعِه، وتتَّعظونَ بِعِظاتِه، فتنتهُون عمَّا نهاكم عنه، وتأتمِرون بأمرِه[2].

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٨﴾.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾.

أي: ويوضِّحُ اللهُ لكم آياتِ كتابِه، فيَجعَلُها لكم واضِحةَ الدَّلالةِ على المقصودِ؛ لتَعمَلوا بها وتتَّعِظوا[3].

---

= وقال ابن عاشور: (معنى ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ﴾ أن يقولوا لِلَّذينَ أخبَروهم بهذا الخبرِ الآفِك، أي: قلتُم لهم زجرًا وموعِظةً. وضميرُ ﴿لَنَآ﴾ مرادٌ به القائِلون والمخاطَبون؛ فأمَّا المخاطَبون فلأنَّهم تكلَّموا به حين حدَّثوهم بخبرِ الإفكِ، والمعنى: ما يَكونُ لكم أن تتكلَّموا بهذا. وأمَّا المتكَلِّمون فلِتنزُّهِهم مِن أن يجريَ ذلك البهتانُ على ألسنَتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

قال الشوكاني: (وعظ سُبحانَه الذين خاضوا في الإفكِ، فقال: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ أي: ينصَحُكم اللهُ، أو يُحَرِّمُ عليكم، أو يَنهاكم؛ كراهةَ أن تعودوا، أو مِن أن تعودوا، أو في أن تعودوا لِمِثلِ هذا القذفِ مُدَّةَ حياتِكم إن كنتم مؤمِنينَ؛ فإنَّ الإيمانَ يَقتضي عدَمَ الوقوعِ في مِثلِه ما دمتُم، وفيه تهييجٌ عَظيمٌ، وتقريعٌ بالغٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بكلِّ شيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بعبادِه وما يُصلِحُهم، وعِلمُه بأعمالِهم، فيُجازي كلًّا بما قدَّم مِن خيرٍ أو شرٍّ، وهو ذو الحكمةِ التامَّةِ العامَّةِ، ومِن ذلك حكمتُه في شرعِه، وتكليفِ عِبادِه، وتدبيرِ خَلقِه، فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللائِقِ به[1].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ حَقَّ المؤمِنِ إذا سَمِعَ قالةً في أخيه أن يبنيَ الأمرَ فيه على ظَنِّ الخيرِ، وأن يقولَ بِناءً على ظنِّه: هذا إفكٌ مُبينٌ، هكذا باللَّفظِ الصَّريحِ ببراءةِ أخيه، كما يقولُ المُستيقنُ المطَّلِعُ على حقيقةِ الحالِ، وهذا مِن الأدبِ الحسَنِ[2]، فالواجِبُ على المؤمِنين إذا سَمِعوا قَولَ القاذِفِ أن يُكَذِّبوه، ويَشتَغِلوا بإحسانِ الظَّنِّ، ولا يُسرِعوا إلى التُّهمةِ فيمن عرَفوا فيه الطَّهارةَ[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ الواجِبَ فيمن كان ظاهِرُه العدالةَ أن يُظَنَّ به خيرٌ،

---

= (٦/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٣).

قال البِقَاعي: (﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ﴾ أي: بما له مِن الاتِّصافِ بصِفاتِ الجلالِ والإكرامِ ﴿لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: العلاماتِ الموضِّحةَ للحَقِّ والباطِلِ، مِن كُلِّ أمرٍ دينيٍّ أو دُنيويٍّ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤١).

ويوجِبُ أن تكونَ عُقودُ المسلمين وتصَرُّفاتُهم محمولةً على الصِّحَّةِ والجوازِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ المسلمينَ عُدولٌ ما لم يظهَرْ منهم رِيبةٌ؛ لأنَّا مأمورونَ بحُسنِ الظَّنِّ، وذلك يوجِبُ قَبولَ الشهادةِ ما لم يَظهَرْ منه ريبةٌ توجِبُ التوقُّفَ عنها أو ردَّها[٢].

٤- في قولِه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ دليلٌ على أنَّ التصديقَ بالذَّايعِ مِن الخبرِ المُنْكَرِ والنِّحلةِ الفاحشةِ إلى المُخْبَرِ عنه- مُحَرَّمٌ؛ وهو مُوجِبٌ على سامعِه إعدادَه في وجوهِ الكذبِ والزُّورِ، بل لازمٌ له أن يَلفِظَ بتكذيبِه، ولا يقتصرَ على إضمارِ القلبِ ونُبُوِّه عنه[٣]!

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ فيه تحريمُ ظَنِّ السُّوءِ، وأنَّه لا يُحكَمُ بالظنِّ[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ فيه أنَّ مَن عُرِف بالصلاحِ لا يُعدَلُ به عنه لخبرٍ مُحتَمَلٍ، وأنَّ القاذِفَ يُكذَّبُ شرعًا ما لم يأتِ بالشُّهَداءِ[٥].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ جعَل اللهُ الخطابَ عامًّا مع المؤمنين كلِّهم، وأخبر تعالى أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَدْحَ بعضِهم ببعضٍ كقَدحٍ في أنفُسِهم -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-؛ ففيه أنَّ المؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفِهم، واجتماعِهم على مصالحِهم- كالجَسَدِ الواحِدِ؛ والمؤمِنَ للمؤمِنِ كالبُنيانِ، يَشُدُّ بعضُه بعضًا، فكما أنَّه يُكرهُ أن يقدَحَ أحَدٌ في عِرضِه، فلْيَكرَهْ مِن كلِّ أحدٍ أن يَقدحَ في أخيه المؤمِنِ الذي بمنزلةِ نفْسِه، وما لم يَصِلِ العبدُ إلى هذه الحالةِ فإنَّه مِن نقصِ إيمانِه، وعدَمِ نُصحِه[١]!

٨- وفي عَطْفِ ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ على قولِه: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ تَشريعٌ لوُجوبِ المُبادَرةِ بإنكارِ ما يَسمَعُه المُسلِمُ مِن الطَّعنِ في المُسلِمِ بالقَولِ كما يُنكِرُه بالظَّنِّ، وكذلك تَغييرُ المُنكَرِ بالقلبِ واللِّسانِ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ في هذا تربيةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ تُفيدُ أنَّ الإنسانَ يتثبَّتُ فيما يقولُ؛ لِيَكونَ قولُه معتبرًا، ولِيَسْلَمَ مِن إثمِ القولِ بلا علمٍ، لا سيَّما إذا كان القولُ على الله؛ فإنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن افترَى على الله كذبًا، أو كان القولُ في النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وآلِ بيتِه وأصحابِه[٣]. ففيه مِن الأدَبِ الأخلاقيِّ أنَّ المرءَ لا يقولُ بلِسانِه إلاَّ ما يعلَمُه ويتحَقَّقُه، وإلَّا فهو أحدُ رجُلين: أَفِنٌ[٤] الرأيِ، يقولُ الشَّيءَ قبْلَ أن يتبيَّنَ له الأمرُ، فيُوشِكُ أن يقولَ الكَذِبَ فيَحسَبَه النَّاسُ كذَّابًا، وفي الحديثِ: ((كفَى بالمرءِ كذبًا أن يحَدِّثَ بكُلِّ ما سمِعَ))[٥]، أو رجُلٌ مُمَوِّهٌ مُراءٍ، يقولُ ما يعتَقِدُ خِلافَه؛ قال

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٨٤).

(٤) أفِنُ: الأفَنُ: النَّقصُ. ورجُلٌ أفينٌ ومأفونٌ، أي: ناقِصُ العقلِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٥٧).

(٥) أخرجه مسلم (٥).

تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]، وقال: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٣]. هذا في الخبرِ، وكذلك الشأنُ في الوعدِ، فلا يَعِدُ إلَّا بما يعلَمُ أنَّه يستطيعُ الوفاءَ به، وفي الحديثِ: ((آيةُ المنافقِ ثلاثٌ: إذا حدَّث كذَب، وإذا وعَد أخلفَ، وإذا ائتُمِنَ خان))[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ يُرشِدُ إلى أنَّ الواجِبَ على المكلَّفِ في كلِّ محرَّمٍ أن يَستعظِمَ الإقدامَ عليه؛ إذ لا يأمَنُ أنَّه من الكبائِرِ[٢]، فهذا فيه الزَّجرُ البليغُ عن تعاطي بعضِ الذنوبِ على وجهِ التَّهاونِ بها؛ فإنَّ العبدَ لا يُفيدُه حسبانُه شيئًا، ولا يُخفِّفُ مِن عقوبةِ الذَّنبِ، بل يُضاعفُ الذَّنبَ، ويُسهِّلُ عليه مواقعتَه مرَّةً أُخرَى[٣].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ فيه مِن أدبِ الشريعةِ أنَّ احترامَ القوانينِ الشرعيَّةِ يجبُ أن يكونَ سواءً في الغَيبةِ والحضرةِ، والسرِّ والعلانيةِ[٤].

١٢- قال تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ قُلۡتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ وصْفُ اللهِ سُبحانَه وتعالى أو ذِكرُه ينبغي أن يُذكَرَ في كلِّ مَحَلٍّ بما يُناسبُه؛ فعندَما يكونُ الأمرُ يقتضي انتِقاصَ اللهِ عزَّ وجلَّ نأتي بالتَّسبيحِ، وعندَما يكونُ الأمرُ موجِبًا لإظهارِ فضْلِ اللهِ ورحمتِه نأتي بالحَمدِ، وعندَما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٨).

والحديث أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٩).

يَشعُرُ الإنسانُ في نَفْسِه بعُلُوٍّ يأتي بالتَّكبيرِ؛ ولهذا كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم وجيوشُه إذا علَوُا الثَّنايا كبَّروا، وإذا هبَطوا سبَّحوا[١]، فالإنسانُ عندَما يَعلو يَشعُرُ في نَفسِه بالكبرياءِ، فيُكَبِّرُ اللهَ، وعندما يَهْبِطُ فيقتضي أنْ يُسَبِّحَ اللهَ؛ لِيُنزِّهَه عن السُّفُولِ[٢].

١٣- قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ فلا يَنبغي لمن يؤمِنُ باللهِ تعالى ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يخالِجَ قلبَه بعدَ الوقوفِ على الآياتِ والأخبارِ شَكٌّ في طهارةِ نساءِ الأنبياءِ -عليهم الصلاةُ والسَّلامُ- عن الفُجورِ في حياةِ أزواجِهنَّ، وبعدَ وفاتِهم عنهنَّ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ دَلالةٌ على أنَّه يجِبُ على الإنسانِ إذا سَمِعَ إفكًا ألَّا يتكلَّمَ به، بل يُدافِعُ عنِ المَقولِ فيه، ويقولُ: هذا إفكٌ ظاهِرٌ كبيرٌ[٤].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الإيمانَ الصَّادِقَ يمنَعُ صاحِبَه من الإقدامِ على المحَرَّماتِ[٥].

١٦- قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿عَلِيمٌ﴾ فثِقوا ببَيانِه ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يضَعُ شَيئًا إلَّا في أحكَمِ مواضِعِه، وإن دَقَّ عليكم فَهْمُ ذلك؛ فلا تتوقَّفوا في

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٩٩)، والبيهقي في ((الدعوات الكبير)) (٤٦٣) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

حسَّن إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٣٩٥)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

أمرٍ مِن أوامِرِه، واعلَموا أنَّه لم يختَرْ لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا الخُلَّصَ مِن عِبادِه، على حسَبِ مَنازِلِهم عندَه، وقُربِهم مِن قَلبِه[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ نزل في براءةِ عائشةَ -رضي الله عنها- فيما قُذِفَت به، فاستدَلَّ به الفُقَهاءُ على أنَّ قاذِفَها يُقتَلُ؛ لتكذيبِه لنصِّ القرآنِ[٢]، قال مالكٌ: فمَن رماها فقد خالفَ القرآنَ، ومَن خالفَ القرآنَ قُتِل[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ ترَكَ تسميةَ عائشةَ رضيَ الله عنها؟

**الجوابُ**: أنَّه تركَه تنزيهًا لها عن هذا القالِ، وإبعادًا لِصَونِ جانبِها العَليِّ عن هذا المرادِ[٤].

٣- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ كمالُ غَيرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه جَلَّ وعلا يدافِعُ عن نبيِّه وعن فِراشِ نبيِّه هذه المدافَعةَ البليغةَ[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ﴾ الخطابُ للمؤمنينَ، وكونُهم مِن المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((المحلى)) لابن حزم (١٢/ ٤٤٠)، ((الشفا)) للقاضي عياض (٢/ ١١٠٩).

قال ابن حزم: (قول مالكٍ هاهنا صحيحٌ، وهي رِدَّةٌ تامَّةٌ، وتكذيبٌ لله تعالى في قَطعِه ببَراءتِها). ((المحلى)) (١٢/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٦٧).

يدُلُّ على أنَّهم لم يَخرجوا مِن الإيمانِ بذلك -أي: بهذا القذفِ-؛ لأنه صَدَرَ قبْلَ أنْ يَتبيَّنَ الحُكمُ في هذا[١]، فالآيةُ فُهِم منها أنَّ كِبارَ الذُّنوبِ لا تُخرِجُ المُسلمَ عن دائرةِ الإسلامِ، وكونُ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ منهم لا يَضُرُّ؛ فإنَّ القُرآنَ يتكلَّمُ عنِ الظَّاهرِ، وهو في ظاهِرِه منهم، له أحكامُ الإسلامِ[٢]، وإلاَّ فمَن قذَف عائشةَ بما رُمِيتْ به فإنَّه يَكفرُ؛ لأنَّه مكذِّبٌ للقرآنِ[٣]، قال العُلماءُ: قَذْفُ عائِشةَ -رضي الله عنها- كُفرٌ؛ لأنَّ اللهَ سَبَّح نفْسَه عندَ ذِكرِه، فقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، كما سبَّح نفْسَه عند ذِكرِ ما وصفَه به المُشرِكونَ من الزَّوجةِ والولَدِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لإزالةِ ما حصل في نفُوسِ المؤمنينَ مِن الأسَفِ مِن اجتراءِ عُصبةٍ على هذا البُهتانِ الذي اشتملت عليه القِصَّةُ، فضميرُ ﴿تَحْسَبُوهُ﴾ عائِدٌ إلى الإفكِ[٥].

٦- في قولِه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن لحِقَه غَمٌّ بالمُتَقَوَّلِ عليه مِن الزُّورِ، فإنَّه شريكُه في الأجرِ؛ لأنَّ المَرميَّةَ بالإفكِ أمُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٦٦).

قال النوويُّ: (براءةُ عائشةَ رضي الله عنها مِن الإفكِ، وهي براءةٌ قطعيَّةٌ بنصِّ القرآنِ العزيزِ، فلو تَشكَّكَ فيها إنسانٌ -والعياذُ بالله- صار كافرًا مرتدًّا بإجماعِ المسلمينَ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١٧).

وقال ابن القيم: (واتَّفقَتِ الأمَّةُ على كُفرِ قاذِفِها). ((زاد المعاد)) (١/ ١٠٣).

وقال ابن كثير: (وقد أجمَعَ العلماءُ رحمهمُ اللهُ قاطِبةً على أنَّ مَن سبَّها بعدَ هذا ورماها بما رماها به بعدَ هذا الذي ذُكِر في هذه الآيةِ، فإنَّه كافرٌ؛ لأنَّه معانِدٌ للقرآنِ. وفي بقيَّةِ أمَّهاتِ المؤمنينَ قولانِ؛ أصَحُّهما: أنَّهُنَّ كَهِيَ، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧١).

المؤمنين رضي الله عنها وحْدَها، فجَمَعَ اللهُ معها مَن لَحِقَه أذَى القولِ، ورسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وأبوَيها وكلَّ مَن لَحِقَه غَمٌّ بسببِها، فقال: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ على لفظِ الجميعِ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أنَّ الخيرَ قد يكونُ فيما يَتوقَّعُ الإنسانُ منه الشَّرَّ(٢).

٨- في قولِه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ دليلٌ على أنَّ قولَ الزُّورِ في المَقولِ خيرٌ مُدَّخَرٌ له، يُثابُ عليه في الآخرةِ، وشَرٌّ على قائلِه، معدودٌ عليه في عِدادِ ذُنوبِه(٣).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم﴾ عُدِلَ عن «على» إلى «اللام»؛ لِتُفيدَ الاستِحقاقَ، أي: لبيانِ أنَّ هؤلاء العُصبةَ الذين ارتكَبوا ما ارتكبوا مستحِقُّون لِمَا عليهم مِن الإثمِ(٤).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ كمالُ عَدْلِ اللهِ جلَّ وعلا؛ لأنه لا يُحَمِّلُ الإنسانَ أكثرَ ممَّا يَستحِقُّ، ولا يُحَمِّلُ أحدًا وِزْرَ أحدٍ، فهذه الآيةُ دليلٌ على مسألتينِ: أنَّ الإنسانَ يُجازَى بقَدرِ عَمَلِه، وأنَّه لا يُجازَى بذنْبِ غَيرِه(٥).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن سَنَّ شرًّا أعظمُ إثمًا ممَّن واطأهُ عليه؛ لأنَّ المتولِّيَ للكِبْرِ كان السابقَ إلى الإفكِ،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٦٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

وسائرَهم صَدَّقَ قولَه؛ فاستوجَبَ ضِعْفَ العذابِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ الإنكارَ يكونُ بالقَلبِ واللِّسانِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أنَّ مِن فوائدِ الإيمانِ أنَّ صاحبَه مَحَلٌّ للثِّقةِ، وأنَّ الإيمانَ مُوجِبٌ للعدالةِ؛ حيثُ إنَّ اللهَ نهَى أنْ يُظَنَّ بالمؤمنينَ إلَّا الخيرُ[٣].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فيه وجوبُ إنزالِ الناسِ مَنازِلَهم؛ فالمؤمنُ يُظَنُّ به الخيرُ، والفاسِقُ -الذي هو مَحَلُّ التُّهمةِ- يُظَنُّ به ما يليقُ به[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ وجوبُ احترامِ أعراضِ المؤمنينَ؛ وأَلَّا تُعَرَّضَ لِمَا يُسيءُ إليها وما يَخدِشُ المجتمعَ الإسلاميَّ، فإذا كان المقذوفُ له مكانةٌ في المجتمعِ الإسلاميِّ؛ فإنّ قَذْفَه ليس عيبًا لشخصِه فقط، بل عيبٌ للإسلامِ كلِّه، وذلك كالعيبِ في علماءِ المسلمينَ، فهذا في الحقيقةِ عيبٌ للإسلامِ كلِّه؛ لأننا إذا عِبْنا واجهةَ الإسلامِ -وهم علماؤه- فقد عِبْنا الإسلامَ كلَّه[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أنَّ ظَنَّ السُّوءِ بمَن يَستحِقُّه لا يُنافي الإيمانَ؛ فالمؤمنُ ليس مَحَلًّا لسُوءِ الظنِّ، أمَّا غيرُه مِن

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفُسَّاقِ إذا كان مَحَلًّا فلا بأسَ، فإذا دَلَّتِ القرائنُ مثلًا على أنَّ هذا الرجُلَ مَحَلٌّ لسُوءِ الظنِّ، فلا بأسَ أنْ نَظُنَّ به، بل قد يجبُ على الإنسانِ أن يَتَّهِمَ الشَّخصَ الذي دَلَّتِ القرائنُ على اتِّهامِه(١).

١٧- القرائِنُ لها تأثيرٌ، والإنسانُ يَحكُمُ بالظَّنِّ بحَسَبِ القرائنِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، فهذا يدُلُّ على أنَّ القرائِنَ لها تأثيرٌ في الأحكامِ، وأنَّ الإنسانَ يجِبُ عليه أن يبنيَ ظَنَّه على قرائِنَ(٢)، فالآيةُ فيها تنبيهٌ على أنَّ حَقَّ المؤمِنِ أن ينظُرَ في قرائنِ الأحوالِ وصلاحيةِ المقامِ، فإذا نُسِبَ سُوءٌ إلى مَن عُرِف بالخير، ظَنَّ أنَّ ذلك إفكٌ وبهتانٌ حتى يتَّضِحَ البُرهانُ(٣).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ دَلالةٌ على أنَّه يجبُ على القُضاةِ أن يَحكُموا ببُطلانِ مِثلِ هذه الإشاعاتِ في الذين ظاهِرُهم البراءةُ(٤).

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا يُقبَلُ في شَهادةِ الزِّنا إلَّا أربعةُ رجالٍ؛ وذلك لأنَّ «أربعة» مؤنَّثةٌ؛ فيكونُ المعدودُ مُذَكَّرًا(٥).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ حمايةُ اللهِ عزَّ وجلَّ للأعراضِ؛ حيثُ جَعَل البَيِّنَةَ على الزِّنا أربعةَ رجالٍ(٦).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ بيانُ أنَّ مِن الكذبِ: الخبرَ الذي لا يجوزُ الإخبارُ به -وإنْ كان خَبَرُه مطابِقًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٦٨).

(٥) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٤٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٦).

للمُخبَرِ به- فحُكمُ اللهِ في مِثلِ هذا أن يُعاقَبَ عقوبةَ المفتري الكاذبِ، وإنْ كان خبرُه مُطابِقًا، وعلى هذا فلا تتحقَّقُ توبتُه حتى يَعترفَ بأنَّه كاذِبٌ عندَ اللهِ -وهذا على أحدِ القولَينِ-، كما أخبرَ اللهُ تعالى به عنه، فإذا لم يَعترِفْ بأنَّه كاذِبٌ وجعَلَه اللهُ كاذِبًا، فأيُّ توبةٍ له؟ وهل هذا إلَّا محضُ الإصرارِ والمجاهرةِ بمخالفةِ حُكمِ اللهِ الذي حكَمَ به عليه[1]؟!

٢٢- قولُه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ...﴾ فيه تَوبيخٌ وتَعنيفٌ للَّذين سَمِعوا الإفكَ فلمْ يَجِدُّوا في دَفْعِه وإنكارِه، واحتِجاجٌ عليهِم بما هو ظاهرٌ مَكشوفٌ في الشَّرعِ: مِن وُجوبِ تكذيبِ القاذِفِ بغَيرِ بَيِّنةٍ، والتَّنكيلِ به إذا قَذَف امرأةً مُحْصَنةً مِن عُرْضِ نِساءِ المُسلِمينَ؛ فكيف بأُمِّ المُؤمِنينَ، الصِّدِّيقةِ بنتِ الصِّدِّيق، حُرْمةِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وحَبيبةِ حَبيبِ اللهِ[2]؟!

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أنَّ الأسبابَ قد يَحصُلُ لها مِن الموانعِ ما يمنعُ تأثيرَها؛ فقد يَجعَلُ اللهُ تعالى مِن الموانِعِ ما يمنعُ حصولَ الشَّيءِ مع تحقُّقِ أسبابِه؛ لأنَّ الأسبابَ موجودةٌ -وهي المَسُّ بعذابٍ عظيمٍ- والمانعُ مِن هذا فضلُ اللهِ ورحمتُه[3].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وربطُها بمسبَّباتِها[4].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٩).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أنَّ شُيوعَ المعصيةِ بيْنَ النَّاسِ سببٌ للعُقوبةِ العامَّةِ(١).

٢٦- قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ نبَّه بقَولِه: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ على أنَّ عِظَمَ المعصيةِ لا يختَلِفُ بظَنِّ فاعِلِها وحُسبانِه، بل ربَّما كان ذلك مؤكِّدًا لعِظَمِها؛ مِن حيثُ جهلُ كَونِها عظيمًا(٢).

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ بيانُ عِظَمِ قَذْفِ زَوجاتِ الرَّسولِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالزِّنا(٣).

٢٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ القَذفَ مِن الكبائِرِ ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾(٤).

٢٩- لَمَّا وصَفَ طَعنَ اليَهودِ في مريمَ بأنَّه بُهتانٌ عَظيمٌ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦]، ووصَفَ طَعْنَ المنافقينَ في عائشةَ بأنَّه بهتانٌ عظيمٌ؛ حيث قال هنا: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾- دَلَّ ذلك على أنَّ الرَّوافِضَ الذين يَطعنونَ في عائشةَ -رضِيَ اللهُ عنها- بمنزلةِ اليهودِ الذين يطعنونَ في مريمَ عليها السَّلامُ(٥).

٣٠- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٧/ ١١١).

بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ هذا من بابِ الآدابِ، أي: هلَّا إذ سمِعتُموه قلتُم: ما يكونُ لنا أن نتكَلَّم بهذا! وإنما وجَب عليهم الامتناعُ منه؛ لوُجوهٍ:

**أحدُها**: أنَّ المقتضيَ لكونِهم تاركينَ لهذا الفعلِ قائِمٌ، وهو العقلُ والدِّينُ، ولم يوجَدْ ما يعارِضُه؛ فوجبَ أن يكونَ ظَنُّ كونِهم تاركينَ للمَعصيةِ أقوى مِن ظَنِّ كَونِهم فاعلينَ لها، فلو أنَّه أخبر عن صدورِ المعصيةِ، لكان قد رجَّح المرجوحَ على الرَّاجِحِ، وهو غيرُ جائزٍ.

**وثانيها**: أنَّه يتضَمَّنُ إيذاءَ الرَّسولِ، وذلك سببٌ لِلَّعنِ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الأحزاب: ٥٧].

**وثالثها**: أنَّه سببٌ لإيذاء عائشةَ وإيذاءِ أبوَيها ومَن يتَّصِلُ بهم، مِن غيرِ سَبَبٍ عُرِفَ إقدامُهم عليه، ولا جنايةٍ عُرِفَ صدورُها عنهم، وذلك حرامٌ.

**ورابعها**: أنَّه إقدامٌ على ما يجوزُ أن يكونَ سببًا للضَّررِ مع الاستِغناءِ عنه، والعقلُ يقتضي التباعُدَ عنه؛ لأنَّ القاذِفَ بتقديرِ كونِه صادقًا لا يستحِقُّ الثوابَ على صدقِه، بل يستحِقُّ العقابَ؛ لأنَّه أشاع الفاحشةَ، وبتقديرِ كونِه كاذبًا فإنَّه يستحِقُّ العقابَ العظيمَ، ومِثلُ ذلك ممَّا يقتضي صريحُ العقلِ الاحترازَ عنه.

**وخامسها**: أنَّه تضييعٌ للوقتِ بما لا فائدةَ فيه.

**وسادسها**: أنَّ في إظهارِ محاسِنِ النَّاسِ وسَترِ مقابِحِهم اتِّصافًا بمقتضياتِ صفاتِ اللهِ تعالى.

فهذه الوجوه توجِبُ على العاقِلِ أنَّه إذا سَمِع القَذفَ أن يسكُتَ عنه، وأن يجتَهِدَ في الاحترازِ عن الوقوعِ فيه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

٣١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يليقُ (سُبحانَك) بهذا الموضِعِ؟

**الجواب مِن وُجوهٍ:**

**الوجه الأوَّل:** أنَّ المرادَ منه التعجُّبُ مِن عِظَمِ الأمر، وإنَّما استُعمِلَ في معنى التعجُّبِ؛ لأنَّه يُسَبَّحُ اللهُ عندَ رؤيةِ العجيبِ مِن صنائعِه، ثمَّ كثُرَ حتى استُعملَ في كلِّ متعَجَّبٍ منه.

**الوجه الثاني:** المرادُ تنزيهُ الله تعالى عن أن تكونَ زوجةُ نبيِّه فاجرةً.

**الوجه الثالث:** أنَّه مُنزَّهٌ عن أنْ يرضَى هؤلاء الفِرقةَ المُفترينَ.

**الوجه الرابع:** أنَّه مُنزَّهٌ عن ألَّا يعاقِبَ هؤلاء القَذَفةَ الظَّلَمةَ[1].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أنَّ المؤمنَ هو الذي يَنتفِعُ بالموعظةِ، أمَّا غيرُه فإنَّه لا يَنتفِعُ[2].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فضلُ اللهِ ورحمتُه بالعِبادِ؛ حيثُ كان اللهُ سُبحانَه وتعالى يَعِظُهم عمَّا يضُرُّهم ويُنافي إيمانَهم، ولا شكَّ أنَّ الذي يَعِظُك ويُرشِدُك وينصَحُك له فَضلٌ عليك[3].

٣٤- أنَّه ينبغي للمؤمِنِ إذا خَفِيَ عليه شيءٌ أن يَتأمَّلَ؛ لأنَّ الآياتِ مُبيَّنةٌ وظاهِرةٌ، فمثلًا إذا خَفِيَ عليك حُكمُ شيءٍ مِن كتابِ اللهِ، فأعِدِ النظرَ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ﴾، فالآياتُ مُبيَّنَاتٌ، وخفاؤُها على الإنسانِ في بعضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأحيانِ يدُلُّ على قُصورِه؛ إمَّا في العلمِ، أو الفَهمِ، أو التَّدبُّرِ[١].

٣٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ إثباتُ الصِّفاتِ والأسماءِ؛ لأنَّ ﴿عَلِيمٌ﴾ مِن أسماءِ الله جلَّ وعلا، و﴿حَكِيمٌ﴾ من أسمائِه أيضًا، وهما متضَمِّنانِ لِصِفَتينِ: العِلمِ، والحِكمةِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ نَزَل في قِصَّةِ الإفكِ آياتٌ؛ كلُّ واحدةٍ منها مُستقِلَّةٌ بما هو تَعظيمٌ لشأْنِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَسليةٌ له، وتَنزيهٌ لأُمِّ المُؤمِنينَ رِضوانُ اللهِ عليها، وتَطهيرٌ لأهْلِ البَيتِ، وتَهويلٌ لمَن تَكلَّمَ في ذلكَ أو سَمِع به فلمْ تَمُجَّه أُذُناهُ، وعِدَّةُ ألْطافٍ للسَّامِعينَ والتَّالينَ إلى يَومِ القيامةِ، وفوائدُ دِينيَّةٌ، وأحكامٌ وآدابٌ لا تَخفَى على مُتأمِّليها[٣].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ[٤]. وفي لفظِ (المَجيءِ) إشارةٌ إلى أنَّهم أظْهَروه مِن عندِ أنفُسِهم مِن غيرِ أنْ يكونَ له أصْلٌ[٥].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ معناه: قَصَدوا واهتَمُّوا. وأصلُه: أنَّ الَّذي يُخبِرُ بخبرٍ غريبٍ يُقالُ له: جاء بخبرِ كذا؛ لأنَّ شأنَ الأخبارِ الغريبةِ أنْ تَكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٠).

مع الوافِدينَ مِن أسفارٍ، أو المُبتَعِدينَ عن الحَيِّ[١].

- قَولُه: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ ذِكْرُ ﴿عُصْبَةٌ﴾ تَحقيرٌ لهُم ولقَولِهم، أي: لا يُعبَأُ بقَولِهم في جانبِ تَزكيةِ جميعِ الأُمَّةِ لمَن رُميَتْ بالإفكِ. ووَصْفُ العُصبةِ بكَونِهم ﴿مِّنكُمْ﴾ يَدُلُّ على أنَّهم مِن المُسلِمينَ، وفي ذلك تَعريضٌ بهم بأنَّهم حادُوا عن خُلُقِ الإسلامِ، حيثُ تَصَدَّوا لِأَذَى المُسلِمينَ[٢].

- قَولُه: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ[٣]. وقيل: استِئنافٌ خُوطِبَ به رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأبو بكرٍ وعائشةُ وصَفْوانُ رضِيَ اللهُ عنهم؛ تَسليةً لهم مِن أوَّلِ الأمرِ[٤].

- قَولُه: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إضْرابُ إبطالِ أنْ يَحسَبوه شَرًّا، وإثباتُ أنَّه خَيرٌ لهُم؛ لأنَّ فيه مَنافعَ كثيرةً. وعَدَل عن أنْ يَعطِفَ خَيرًا على ﴿شَرًّا﴾ بحَرفِ (بَلْ)، فيُقالُ: بَلْ خَيرًا لكم؛ إيثارًا للجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ[٥].

- قَولُه: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في التَّعبيرِ عنه بـ (الَّذي)، وتَكريرِ الإسنادِ[٦]، وتَنكيرِ العذابِ، ووَصْفِه بالعِظَمِ: مِن تَهويلِ الخَطْبِ ما لا يَخفَى[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٢).

(٦) لم يقُلْ: (وللذي تولَّى كبرَه عذابٌ أليمٌ)؛ إنَّما كرَّر الإسنادَ بجَعْلِ الجملةِ الظرفيَّةِ خبرًا للموصولِ؛ لتقويةِ الحُكم.

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ استِئنافٌ لتَوبيخِ عُصْبةِ الإفكِ مِن المُؤمِنينَ وتَعنيفِهم بَعدَ أنْ سَمَّاهُ إفْكًا. و﴿لَّوْلَآ﴾ هنا حَرفٌ بمعنَى (هَلَّا) للتَّوبيخِ كما هو شأْنُها إذا وَلِيَها الفِعلُ الماضي، وهو هنا ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. وأمَّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ فهو ظَرْفٌ مُتعلِّقٌ بفِعلِ الظَّنِّ؛ فقُدِّمَ عليه، ومَحَلُّ التَّوبيخِ جُملةُ: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾، فأُسنِدَ السَّماعُ إلى جَميعِ المُخاطَبينَ، وخُصَّ بالتَّوبيخِ مَن سَمِعوا ولم يُكذِّبوا الخَبرَ[1].

- وفي قولِه: ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ جَرى الكلامُ على الإبهامِ في التَّوبيخِ بطَريقةِ التَّعبيرِ بصِيغَةِ الجَمْعِ، وإنْ كان المَقصودُ دُونَ عددِ الجَمْعِ؛ فإنَّ مَن لَمْ يَظُنَّ خيرًا رَجُلانِ، فعُبِّرَ عنهما بالمُؤمِنينَ، وامرأةٌ، فعُبِّرَ عنها بالمُؤمِناتِ، على حَدِّ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾[2] [آل عمران: ١٧٣].

- وكذلك ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فيه التَّعبيرُ بالأنفُسِ عنِ الآخَرينَ -هذا على قولٍ في التفسيرِ-؛ والتَّعبيرُ بالأنفُسِ عنِ الآخَرينَ يَنطوي على أبعَدِ النُّكتِ مَرمًى، وأكثَرِها حُفولًا بالمعاني السَّامِيَةِ؛ فهو أوَّلًا يُهيبُ بالمُؤمِنينَ إلى التَّعاطُفِ وإجراءِ التَّوبيخِ على النَّفْسِ بدَلًا مِن أنْ يَذكُرَه بسُوءٍ، وذلك أدْعَى إلى اصطِناعِه وجَعْلِه مَحمولًا على المُوالاةِ والاصطِفاءِ، وذلك بتَصويرِه بصُورةِ مَن أخَذَ يَقذِفُ نَفْسَه ويَرميها بما ليس فيها مِن الفاحشةِ، فأُطلقتِ الأنفسُ مرادًا بها الإخوانُ؛ لبيانِ شدَّةِ ارتباطِ المُسلمِ بأخيه المُسلمِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٧٤).

وأنَّه كنَفْسِه؛ تنفيرًا له مِن أنْ يعمَلَ معه ما يَسوؤُه. ومجيءُ النَّفسِ مُرادًا بها الإخوانُ كثيرٌ في القُرآنِ. وهو ثانيًا يَحتمِلُ أنْ يَكونَ التَّعبيرُ بالأنفُسِ حقيقةً، والمَقصودُ إلزامُ سَيِّئِ الظَّنِّ بنَفْسِه؛ لأنَّه لم يَعْتَدَّ بنَوازِعِ الإيمانِ ووَزائِعِه في حَقِّ غَيرِه وألْغاهُ، واعتبَرَه في حَقِّ نفْسِه وادَّعى لها البَراءةَ قَبْلَ مَعرفتِه، بحُكْمِ الهَوى لا بحُكْمِ الهُدى، والمعنى: أنَّه كما تظُنُّ بنَفسِك الخيرَ، يجبُ أنْ تظنَّ ذلك بأخيك، إلَّا بيقينٍ يُبَيِّنُ خِلافَ ذلك[1]. وقيل: قال ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ لأنَّ أهلَ الإسلامِ كلَّهم بمنزلةِ نفسٍ واحدةٍ؛ لأنَّهم أهلُ ملةٍ واحدةٍ[2].

- ووقَعَ قولُه: ﴿بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ في مُقابَلةِ ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾؛ فيَقتَضي التَّوزيعَ، أي: ظَنَّ كلُّ واحدٍ منهُم بالآخَرينَ ممَّن رُمُوا بالإفكِ خَيرًا -على قولٍ في التفسيرِ-؛ إذْ لا يَظُنُّ المَرءُ بنفْسِه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، أي: لا يَلْمِزْ بعضُكُم بعضًا[3].

- وتَوسيطُ الظَّرفِ ﴿إِذْ﴾ بيْن ﴿لَّوْلَآ﴾ وفِعْلِها ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ لتَخصيصِ التَّحضيضِ بأوَّلِ زمانِ سماعِهِم، وقَصْرُ التَّوبيخِ على تأخيرِ الإتيانِ بالمُحضَّضِ عليه عن ذلك الآنِ والتَّردُّدِ فيه؛ ليُفِيدَ أنَّ عدَمَ الإتيانِ به رأسًا في غايةِ ما يكونُ مِن القَباحةِ والشَّناعةِ، أي: كان الواجِبُ أنْ يَظُنَّ المُؤمِنونَ والمُؤمِناتُ أوَّلَ ما سَمِعوه ممَّن اختَرَعَه بالذَّاتِ أو بالواسطةِ، مِن غَيرِ تَلَعثُمٍ وتَردُّدٍ بمِثلِهِم مِن آحادِ المُؤمِنينَ: خَيرًا[4]، فذِكرُه مُنبِّهٌ على الاهتمامِ به؛ لوجوبِ المبادرةِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٧٧، ٥٧٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٧)، =

إلى المحضَّضِ عليه[١]، وأنَّه كان الواجِبُ عليهم أن يحترِزوا أوَّلَ ما سَمِعوا بالإفكِ عن التكَلُّمِ به[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث لمْ يَقُلْ: (لولا إذْ سمِعتُموه ظنَنْتُم بأنفسِكُم خَيرًا وقُلتُم)، وعَدَلَ عنِ الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وعنِ الضَّميرِ إلى الظَّاهرِ؛ ليُبالِغَ في التَّوبيخِ بطريقةِ الالتِفاتِ، ولِيُصرِّحَ بلَفظِ الإيمانِ؛ دَلالةً على أنَّ الاشتِراكَ فيه مُقتَضٍ ألَّا يُصَدِّقَ مُؤمِنٌ على أخيه ولا مُؤمِنةٌ على أُختِها قولَ غائبٍ ولا طاعنٍ. وفيه: تَنبيهٌ على أنَّ حَقَّ المُؤمِنِ إذا سمِعَ قالةً في أخيهِ أنْ يَبْنِيَ الأمرَ فيها على الظَّنِّ لا على الشَّكِّ، وأنْ يقولَ بمِلْءِ فيه -بِناءً على ظَنِّه بالمُؤمِنِ الخَيرَ-: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، هكذا بلَفظِ المُصرِّحِ ببَراءةِ أخيهِ وبَراءةِ ساحتِه، كما يقولُ المُستَيقِنُ المُطَّلِعُ على حقيقةِ الحال. وهذا مِنَ الأدبِ الحَسنِ[٣]. وقيل: والأصلُ أيضًا: (وظنَنْتُم بها)، أي: بأُمِّ المُؤمِنينَ -رضِيَ اللهُ عنها- خيرًا؛ وعدَلَ عن المُفرَدِ إلى الجماعةِ؛ لأنَّ في العُدولِ مِنَ المفرَدِ إلى الجماعةِ وسُلوكِ طريقِ الكِنايةِ: الإشعارَ بتَعظيمِ شأْنِها، ورِفعةِ مَنزلتِها[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾

---

= ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٤، ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٧٨، ٥٧٩).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤، ٣٥).

- قَولُه: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ...﴾ استِئنافٌ ثانٍ لتَوبيخِ العُصْبةِ الَّذين جاؤُوا بالإفكِ، وذَمٌّ لهُم[١]. وقيل: هو إمَّا مِن تَمامِ القولِ المُحضَّضِ عليهِ، مَسوقٌ لحَثِّ السَّامِعينَ على إلْزامِ المُسمِّعين وتَكذيبِهم إثْرَ تَكذيبِ ما سَمِعوه منهُم بقولِهم: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾، وتَوبيخِهم على تَرْكِه، وإنَّما قيل: ﴿بِٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ لزِيادةِ التَّقريرِ. وإمَّا كلامٌ مُبتدَأٌ مَسوقٌ مِن جِهَتِه تعالى للاحتِجاجِ على كَذِبِهم، بكَونِ ما قالُوه قَولًا لا يُساعِدُه الدَّليلُ أصلًا[٢].

- قَولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الخائِضينَ، وما فيه مِن معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ بغُلوِّهِم في الفسادِ، وبُعْدِ مَنزلتِهم في الشَّرِّ[٣]. وأيضًا التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ؛ لزِيادةِ تَمييزِهِم بهذه الصِّفةِ؛ لِيَحذَرَ النَّاسُ أمثالَهم[٤].

- وصِيغةُ الحَصرِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ للمُبالَغةِ؛ كأنَّ كَذِبَهم -لِقُوَّتِه وشَناعَتِه- لا يُعَدُّ غَيرُهم مِن الكاذِبينَ كاذِبًا؛ فكأنَّهمُ انحصَرَتْ فيهم ماهيَّةُ المَوصوفِينَ بالكذِبِ. والتَّقييدُ بقولِه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لزِيادةِ تَحقيقِ كَذِبِهم، أي: هو كَذِبٌ في عِلْمِ اللهِ؛ فإنَّ عِلْمَ اللهَ لا يكونُ إلَّا مُوافِقًا لنفْسِ الأمرِ، واسمُ الإشارةِ لزيادةِ تمييزِهم بهذه الصفةِ؛ ليَحذرَ الناسُ أمثالَهم[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١، ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ على القولِ بأنَّ المعنى: ولولا فضْلُ اللهِ عليكُم ورَحمتُه لَمَسَّكُم فيما أفَضْتُم فيه عذابٌ عظيمٌ في الدُّنيا والآخِرةِ مَعًا؛ فيكونُ فيه تَقديمٌ وتأخيرٌ[١].

- قَولُه: ﴿ لَمَسَّكُمْ فِي مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾، أي: حديثِ الإفكِ، والإبهامُ لتَهويلِ أمْرِه، والاستِهجانِ بذِكْرِه[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾

- قَولُه: ﴿إِذْ ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿أَفَضْتُمْ ﴾ [النور: ١٤]، والمقصودُ منه ومِن الجُملةِ المُضافِ هو إليها: استِحضارُ صُورةِ حَديثِهم في الإفكِ، وتَفظيعُها[٣].

- وفي قولِه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ تَعريضٌ بحِرْصِهم على تَلقِّي هذا الخبرِ؛ فهم حين يَتلقَّوْنَه يُبادِرونَ بالإخبارِ به بلا تَرَوٍّ ولا تَرَيُّثٍ، وهذا تَعريضٌ بالتَّوبيخِ أيضًا[٤].

- فإنْ قيل: كيفَ يُسنَدُ التَّلقِّي إلى الألسنةِ مع أنَّ الكلامَ يُتلقَّى بالأُذنِ؟

**والجوابُ**: أنَّه لَمَّا كان المقصودُ مِن تلقِّيه بالأذُنِ أن يُتكلَّمَ به ويُشاعَ باللِّسانِ، عَبَّرَ عنه بحسَبِ المقصودِ؛ فكأنَّ اللِّسانَ هو الذي يَتلقَّاه.

**وقيل**: إنَّ في الكلامِ حَذفًا دلَّ عليه المقامُ؛ أي: تَلَقَّونه حالَ كونِكم تُشِيعونَه بألسنتِكم؛ ففيه إشارةٌ إلى سرعةِ إشاعتِه، بحيث كأنَّه لا يقَعُ على الأسماعِ، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٧٨).

يقَعُ على اللِّسانِ ثمَّ يُنقَلُ مُباشَرةً! وليس فيه تَكرارٌ على هذا التَّقديرِ مع قَولِه تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ توبيخٍ يقتضي الإطنابَ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- وَجْهُ ذِكْرِ ﴿بِأَفْوَاهِكُم﴾ في قولِه: ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مع أنَّ القَولَ لا يكونُ بغَيرِ الأفواهِ: أنَّه أُرِيدَ التَّمهيدُ لقَولِه: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، أي: هو قَولٌ غَيرُ مُوافِقٍ لِما في العِلْمِ، ولكنَّه عن مُجرَّدِ تَصوُّرٍ؛ لأنَّ أدلَّةَ العِلْمِ قائمةٌ بنَقيضِ مَدلولِ هذا القولِ؛ فصارَ الكلامُ مُجرَّدَ ألْفاظٍ تَجري على الأفواهِ؛ فالشَّيءُ المعلومُ يكونُ عِلْمُه في القلبِ، فيُتَرجِمُ عنه اللِّسانُ، وهذا الإفكُ ليس إلَّا قَولًا يَجري على ألْسنتِكُم، ويَدورُ في أفواهِكُم مِن غَيرِ تَرجمةٍ عن عِلْمٍ[٣].

- قَولُه: ﴿مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾، فيه تنكيرُ ﴿عِلْمٌ﴾؛ للتحقيرِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ زِيادةٌ في تَوبيخِهم، أي: تَحسَبون الحديثَ بالقذْفِ أمْرًا هَيِّنًا[٥].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري-الحاشية)) (٣/ ٢١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٧٧ - ٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٨).

- قَولُه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ تَوسيطُ الظَّرفِ بيْن (لَوْلَا) و(قُلْتُمْ)؛ لتَخصيصِ التَّحضيضِ بأوَّلِ وَقْتِ السَّماعِ، وقَصْرِ التَّوبيخِ واللَّومِ على تأخيرِ القَولِ المذكورِ عن ذلكَ الآنِ؛ ليُفيدَ أنَّه المُحتملُ للوُقوعِ، المُفتقِرُ إلى التَّحضيضِ على تَرْكِه[1].

- قَولُه: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلخ [النور: ١٢]. وأُعيدَتْ (لَوْلَا) وشَرْطُها وجَوابُها؛ لزِيادةِ الاهتِمامِ بالجُملةِ[2].

- قَولُه: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، ولمْ يَقُلْ: (ليس لنا أنْ نَتكلَّمَ بهذا)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الكلامَ في هذا وكَيْنونةَ الخَوضِ فيه حَقيقٌ بالانتِفاءِ؛ وذلكَ أنَّ قَولَك: (ما يَكونُ لي أنْ أفعَلَ) أشَدُّ في نَفْيِ الفِعْلِ عنك مِن قَولِك: ليس لي أنْ أفعَلَ. وهذا مَسوقٌ للتَّوبيخِ على تَناقُلِهمُ الخبرَ الكاذبَ. وكان الشَّأنُ أنْ يقولَ القائلُ في نَفْسِه: ما يكونُ لنا أنْ نَتكلَّمَ بهذا، ويقولَ ذلك لمَن يُجالِسُه ويَسمَعُه منه؛ فهذا زِيادةٌ على التَّوبيخِ على السُّكوتِ عليه في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾[3].

- قَولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تَعجُّبٌ مِن ذلك الإفكِ، أو ممَّن يقولُ ذلك[4]؛ فقولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ جُملةُ إنشاءٍ وقَعَتْ مُعترِضةً بيْن جُملةِ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) (٦/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣))، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٣).

بِهَٰذَا﴾ وجُملةِ: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾؛ للتَّعجُّبِ. والأحسَنُ أنْ يكونَ هنا لإعلانِ المُتكلِّمِ البَراءةَ مِن شَيءٍ، بتَمثيلِ حالِ نَفْسِه بحالِ مَن يُشهِدُ اللهَ على ما يقولُ، فيَبتَدِئُ بخِطابِ اللهِ بتَعظيمِه، ثمَّ بقولِ: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾؛ تَبرُّؤًا مِن لازِمِ ذلك، وهو مُبالَغةٌ في إنكارِ الشَّيءِ، والتَّعجُّبِ مِن وُقوعِه[1].

- وتَوجيهُ الخِطابِ إلى اللهِ تعالى في قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ اللهَ غاضبٌ على مَن يَخوضُ في ذلك، فعليهِم أنْ يتَوجَّهوا للهِ بالتَّوبةِ منه لِمَن خاضُوا فيه، وبالاحتِرازِ مِن المُشارَكةِ فيه لِمَن لمْ يَخوضوا فيه[2].

- وجُملةُ: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ: ﴿مَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾؛ فهي داخِلةٌ في تَوبيخِ المَقولِ لهم. ووَصْفُ البُهتانِ بأنَّه ﴿عَظِيمٌ﴾ مَعناهُ: أنَّه عَظيمٌ في وُقوعِه، أي: بالِغٌ في كُنْهِ البُهتانِ مَبْلغًا قَويًّا[3].

٧- قَولُه تعالى: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

- قَولُه: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُواْ لِمِثۡلِهِۦٓ أَبَدًا﴾، في الكلامِ إيجازٌ بالحَذْفِ؛ ففِعلُ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ لا يَتعدَّى إلى مفعولٍ ثانٍ بنَفْسِه؛ فالمصدرُ المأخوذُ مِن ﴿أَن تَعُودُواْ﴾ لا يكونُ مَعمولًا لفِعلِ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ إلَّا بتقديرِ شَيءٍ محذوفٍ، أو بتَضمينِ فِعلِ الوَعظِ معنَى فِعلٍ مُتعَدٍّ، أو بتقديرِ حرْفِ جرٍّ محذوفٍ؛ فجائزٌ أنْ يُضمَّنَ فِعلُ ﴿يَعِظُكُمُ﴾ معنى التَّحذيرِ؛ والتقديرُ: يُحذِّرُكم مِن العَودِ لمِثلِه، أو يُقدَّرَ: يَعِظُكم الله في العودِ لمِثلِه، أو يُقدَّرَ حرْفُ نَفيٍ، أي: ألَّا تعودوا لمِثلِه، وحَذْفُ حرْفِ النَّفيِ كثيرٌ إذا دلَّ عليه السِّياقُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٨٢).

- وقولُه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تَهييجٌ وإلْهابٌ لهم، يَبعَثُ حِرْصَهم على ألَّا يَعودوا لمِثْلِه؛ لأنَّهم حَريصونَ على إثْباتِ إيمانِهم؛ فالشَّرطُ في مِثْلِ هذا لا يُقصَدُ بالتَّعليقِ؛ إذْ ليس المعنَى: إنْ لمْ تَكونوا مُؤمِنينَ فعُودوا لمِثْلِه، ولكنْ لَمَّا كان احتِمالُ حُصولِ مَفهومِ الشَّرطِ مُجْتنَبًا، كان في ذِكْرِ الشَّرطِ بَعْثٌ على الامتِثالِ[1].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجَليلِ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لتَفخيمِ شأْنِ البَيانِ[2]، ولتَأكيدِ استِقلالِ الاعتِراضِ التَّذييليِّ، والإشعارِ بعِلَّةِ الأُلوهيَّةِ للعِلْمِ والحِكمةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٩-٢٢)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَشِيعَ﴾: أي: تفشُوَ وتَذيعَ، وأصلُ (شيع): يدلُّ على بَثٍّ وإشادةٍ[١].

﴿ٱلْفَٰحِشَةُ﴾: أي: الزِّنا، والفاحِشةُ: كلُّ شَيءٍ مُستقبَحٍ ومُستشنَعٍ؛ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشناعةٍ[٢].

﴿رَءُوفٌ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، والرؤوفُ: ذو الرأفةِ، والرأفةُ أعلَى معاني الرحمةِ وأرَقُّها، وأصلُ (رأف): يدُلُّ على رِقَّةٍ ورحمةٍ[٣].

﴿خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: سَبيلَه ومَسلَكَه، وخُطواتٌ جَمعُ خُطوةٍ، والخُطوةُ: ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤) (٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥، ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤).

بيْن القَدَمينِ[١].

﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾: الفحشاءُ مِن المعاصي: ما تناهَى قُبْحُه ممَّا يَستفحشُه مَن له عقلٌ سليمٌ، أو: هي كلُّ شيءٍ مُستقبَحٍ ومُستشنَعٍ، من قولٍ أو فِعلٍ، أو: ما ظهَر قُبْحُه لكلِّ أحدٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبْحٍ في شَيءٍ وشناعةٍ[٢].

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾: المنكَرُ: كلُّ معصيةٍ تَستنكرُها العقولُ والفِطَرُ، أو: ما لم يُعرَفْ حُسنُه ولم يُؤْلَفْ، وأصْلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ الَّتي يَسكُنُ إليها القلْبُ[٣].

﴿زَكَىٰ﴾: أي: صلَح وطَهُر، وأصلُ (زكو): يدُلُّ على طهارةٍ[٤].

﴿يَأْتَلِ﴾: أي: يَحلِفْ، مِن الأَلِيَّةِ، وهي اليَمينُ، وأصلُه يدُلُّ على الاجتِهادِ والمُبالَغةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥١، ١٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

﴿وَٱلسَّعَةِ﴾: أي: الغِنى والجِدَةِ، وأصلُ (وسع): يدُلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسرِ[١].

﴿وَلْيَعْفُواْ﴾: العفْوُ: التَّجاوزُ عَنِ الذَّنْبِ، وتركُ المؤاخَذةِ عليه، وأصلُ (عفو) هنا يَدُلُّ على تَرْكِ الشَّيءِ. وقيل: أصلُه المحوُ والطَّمْسُ، مِن: عَفَت الرِّيحُ الأثَرَ؛ إذا طَمَسَتْه، والمعنى: فَلْيَطْمِسوا آثارَ الإساءةِ بِحِلْمِهم وتجاوُزِهم[٢].

﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾: الصَّفْحُ: الإعراضُ عن المؤاخَذةِ بالذَّنْبِ، وتركُ التَّثريبِ والعِتابِ، وهو أبلَغُ مِن العفوِ، يُقالُ: صَفحتُ عنه: إذا أعرضْتَ عن ذنْبِه، والأصلُ فيه أنَّ مَن أعرَض عن صاحبِه ولَّاه صَفحةَ عُنُقِه (أي: جانبَه)، وصرَف عنه وجْهَه، فكأنَّه أعرَض بوجهِه عن ذنْبِه[٣].

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ الذين يُحبُّون أنْ يَظهرَ الزِّنا، ويَشيعَ خبرُه، والقذفُ به في المؤمنين؛ لهم عذابٌ مُؤْلِمٌ في الدُّنيا والآخِرةِ، واللهُ يعلَمُ، وأنتم لا تعلمون إلَّا ما علَّمكم سبحانه وتعالى، ولولا فَضلُ اللهِ على عبادِه ورحمتُه بهم، وأنَّه بهم رؤوفٌ رحيمٌ؛ لعجَّل لهم العُقوبةَ.

يا أيُّها الذين آمَنوا لا تتَّبِعوا طرقَ الشَّيطانِ، ولا تَسلُكوا مسالِكَه، ومَن يَسلُكْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠، ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٦)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٢٤٢)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٠٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٠).

طُرُقَ الشيطانِ فإنَّه يأمُرُه بقبيحِ الأفعالِ ومُنكَراتِها، ولولا فَضلُ الله ورحمتُه بكم -أيُّها المؤمِنونَ- ما تطهَّرَ أحدٌ منكم مِن الأوزارِ، ولكِنَّ اللهَ برحمتِه وفَضلِه يطهِّرُ من يشاءُ، واللهُ سميعٌ لأقوالِكم، عليمٌ بأعمالِكم ونيَّاتِكم.

ثمَّ يقولُ الله تعالى: ولا يحلِفْ أهلُ الفَضلِ وأصحابُ الغِنى على ألَّا يُؤتوا أقاربَهم والمساكينَ والمهاجرينَ ما كانوا يُعطونهم إيَّاه من الإحسانِ؛ بسبَبِ ذنْبٍ فَعَلوه، ولْيَعفوا عمَّا كان منهم مِن جُرمٍ، ولْيُعرِضوا عن ذَنبِهم ويَترُكوا عُقوبتَهم، ولْيُحسِنوا إليهم، ألَا تُحِبُّونَ أن يغفِرَ اللهُ لكم؟ واللهُ غفورٌ رحيمٌ مع كمالِ قُدرتِه على العقابِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه ما على أهلِ الإفكِ وما على مَن سَمِع منهم، وما يَنبغي أن يتمَسَّكوا به من آدابِ الدِّينِ؛ أتبَعَه بقَولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾؛ لِيُعلَمَ أنَّ من أحَبَّ ذلك فقد شارك في هذا الذَّمِّ، كما شارك فيه مَن فَعَلَه ومَن لم يُنكِرْه، ولِيُعلَمَ أنَّ أهلَ الإفكِ كما عليهم العقوبةُ فيما أظهروه، فكذلك يَستحِقُّون العقابَ بما أسرُّوه مِن محبَّةِ إشاعةِ الفاحشةِ في المؤمنينَ[1].

وأيضًا لَمَّا حذَّر اللهُ المؤمنينَ مِن العَودِ إلى مِثلِ ما خاضوا به مِن الإفكِ على جميعِ أزمِنةِ المُستقبَلِ؛ أعقبَ تحذيرَهم بالوعيدِ على ما عسى أن يَصدُرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٥).

منهم في المستقبَلِ، بالوعيدِ على محبَّةِ شُيوعِ الفاحشةِ في المؤمنين؛ فهو تحذيرٌ للمُؤمِنينَ، وإخبارٌ عن المنافِقينَ والمُشرِكينَ[١].

وأيضًا لَمَّا كان مِن أعظمِ الوعظِ: بيانُ ما يستحقُّ على الذنْبِ مِن العقابِ؛ بيَّنه بقولِه[٢]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: إنَّ الذين يُحِبُّون[٣] أنْ يظهرَ الزِّنا، ويَشيعَ خبرُه، والقذفُ به[٤] في أوساطِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٠٩).

(٣) قال ابن جزي: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ الإشارةُ بذلك إلى المنافقينَ الذين أَحَبُّوا أن يَشيعَ حديثُ الإفكِ، ثمَّ هو عامٌّ في غَيرِهم ممَّن اتَّصَف بصِفتِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٤).

وقال ابن عطية: (وقالت فِرقةٌ -وقَولُها الأظهَرُ: الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ قاذِفٍ، منافقًا كان أو مؤمِنًا؛ فالقاذِفُ المؤمِنُ لا يَتَّصِفُ بحُبِّ شِياعِ الفاحشةِ في المؤمنينَ جُملةً، لكنَّه يُحِبُّها لمَقذوفِه، وكذلك آخَرُ لمَقذوفِه، وآخَرُ حتى تَشِيعَ الفاحِشةُ مِن مجموعِ فِعلِهم؛ فهُم لها مُحِبُّون بهذا الوجهِ، مِن حيث أحَبَّ كلُّ واحدٍ جزءًا مِن شِياعِها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧١). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣).

(٤) قال الماتريدي: (هذا يحتَمِلُ وجهين؛ أحدُهما: يُشيعونَ الفاحشةَ ويُذيعونها في الذين آمنوا، هم الذين تولَّوا إشاعتَها وإذاعتَها فيهم، لهم ما ذُكِرَ من العذابِ الأليمِ.

والثاني: يُحِبُّونَ أن تشيعَ الفاحشةُ في الذين آمنوا؛ ليَكونَ ذلك ذريعةً لهم في المؤمنينَ، فيقولون: إنَّ دينكم لم يمنَعْكم عن الفواحِشِ والمنكَرِ). ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٥٣٤).

وقال ابن تيميَّة: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ الآيةَ. وهذا ذمٌّ لِمَن يُحِبُّ ذلك، وذلك يكونُ بالقَلبِ فقط، ويكونُ مع ذلك باللِّسانِ والجوارحِ، وهو ذمٌّ لِمَن يتكَلَّمُ بالفاحِشةِ، أو يُخبِرُ بها؛ محبَّةً لِوُقوعِها في المؤمنينَ: إمَّا حَسَدًا أو بُغضًا، وإمَّا مَحبَّةً للفاحشةِ وإرادةً لها). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٣٢). =

المُؤمِنينَ والمؤمِناتِ[١]؛ لهم عذابٌ مُؤْلِمٌ في الدُّنيا وفي الآخرةِ[٢].

---

= وقال السعدي: (إذا كان هذا الوعيدُ لمجَرَّدِ محبَّةِ أن تَشيعَ الفاحِشةُ، واستِحْلاءِ ذلك بالقَلبِ، فكيف بما هو أعظَمُ من ذلك؛ مِن إظهارِه ونَقْلِه؟! وسواءٌ كانت الفاحِشةُ صادِرةً أو غيرَ صادرةٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

(١) ممَّن اختار أنَّ معنَى ﴿تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾: أن يَذِيعَ الزِّنا ويَظهَرَ ويَفْشُوَ: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: إشاعةُ خبرِ الفاحشةِ، والقذف بها: الواحديُّ، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلِّي، وابن عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

قال بكر أبو زيد: (ومحبَّةُ إشاعةِ الفاحِشةِ تَنتَظِمُ جَميعَ الوسائِلِ القبيحةِ إلى هذه الفاحِشةِ؛ سواءٌ كانت بالقَولِ، أم بالفِعلِ، أم بالإقرارِ، أو ترويجِ أسبابِها، وهكذا). ((حراسة الفضيلة)) (ص: ٧٥).

وممن اختار الجمعَ بينَ المعنيَينِ السابقينِ: ابنُ عثيمينَ، فقال: (الأظهَرُ أنَّها أعَمُّ مِن الشُّيوعِ باللِّسانِ، وأنَّها تَشيعُ بالفِعلِ بحيثُ يُشاهِدُهم النَّاسُ، وبالقَولِ بحيثُ يُشاعُ عنهم ذلك، فهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ سواءٌ يُحِبُّون أن تشيعَ بالقَولِ... أو يحبُّونَ أن تَشيعَ بالفِعلِ، بمعنى أن يَظهَرَ أمْرُهم ويَتَبيَّنَ، ويُرَونَ ويُشاهَدونَ). ((تفسير ابن عثيمين-سورة النور)) (ص: ٩٩).

وقال أيضًا: (يَظهَرُ أنَّ الآيةَ عامَّة لهذا ولهذا؛ أن يَشيعَ خبرُها وتَنتشِرَ إذا فُعلَتْ، وأن يَشيعَ فِعلُها وتَكثُرَ الفواحشُ في المؤمنينَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

ممَّن اختار أنَّ العذابَ الأليمَ في الدُّنيا بالحدِّ، وفي الآخرةِ بالنارِ: الواحديُّ، والسمعاني، وابن الجوزي، وأبو حيان، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧). =

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: واللهُ يَعلمُ جميعَ المعلوماتِ، ومِن جملةِ ذلك عِلمُه ما في القلوب مِن الأسرارِ والضمائرِ، فيَعلمُ مَن يُحِبُّ إشاعةَ الفاحشةِ، وهو معاقِبُه عليها، ويَعلمُ كَذِبَ الذين جاؤوا بالإفكِ، ويعلَمُ ما في ذلك من المفاسِدِ فيَعِظُكم لتَجتَنِبوا، وأنتم لا تعلمونَ إلَّا ما علَّمكم، وبيَّن لكم، فرُدُّوا الأمورَ إليه تَرْشُدوا، ولا تَرْوُوا ما لا عِلمَ لكم به[1].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِي الله عنهما، قال: ((صَعِدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المِنبَرَ، فنادى بصوتٍ رفيعٍ، فقال: يا معشَرَ مَن أسْلَمَ بلِسانِه، ولم يُفْضِ الإيمانُ

---

= وممَّن قيَّد العَذابَ في الآخرةِ بالنارِ بعدَمِ التَّوبةِ ومَوتِهم مُصِرِّينَ على ذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٤٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٥).

قال ابن عطية: (والعذابُ الأليمُ في الدُّنيا: الحدودُ، وفي الآخِرةِ يحتمِلُ وجهَينِ؛ أحَدُهما: أن يَكونَ القاذِفُ متوعَّدًا مِن بيْنِ العُصاةِ بعذابِ الآخرةِ لا يُزيلُه الحَدُّ حسَبَ مُقتضى حديثِ عُبادةَ بنِ الصامِتِ، ويَكونَ أمْرُه كأمرِ المُحارِبينَ إذا صُلِّبوا؛ لهم خِزْيٌ في الدُّنيا، ولهم في الآخرةِ عَذابٌ. والوجهُ الثَّاني: أن يُحكَمَ بأنَّ الحدَّ مُسقِطٌ عَذابَ الآخرةِ حسَبَ حديثِ عُبادةَ بنِ الصامِتِ، وأنَّ قَولَه: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ لا يريدُ به عُمومَ القَذَفةِ، بل يريدُ إمَّا المنافقينَ، وإمَّا مَن لم يَتُبْ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧١).

وقال ابن جزي: (ورد في الحديثِ: أنَّ مَن عُوقِب في الدُّنيا على ذنبٍ لم يُعاقَبْ عليه في الآخرةِ [يُنظر ما أخرجه البخاري «٣٨٩٢»، ومسلم «١٧٠٩» مِن حديثِ عُبادةَ]، فأَشكَل اجتِماعُ الحَدِّ معَ عذابِ الآخرةِ في هذا الموضِعِ، فيَحتَمِلُ أن يكونَ القاذِفُ يُعذَّبُ في الآخرةِ ولا يُسقِطُ الحَدُّ عنه عذابَ الآخرةِ بخلافِ سائِرِ الحدودِ، أو يكونَ هذا مختَصًّا بمن قذَفَ عائشةَ...، أو يكونَ لِمن مات مُصِرًّا غيرَ تائبٍ، أو يكونَ للمُنافِقين). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

إلى قلبِه، لا تُؤْذُوا المُسلِمينَ، ولا تُعَيِّروهم، ولا تتَّبِعوا عَوْراتِهم؛ فإنَّه مَن تتبَّع عَوْرةَ أخيه المسلِمِ تتبَّع اللهُ عورتَه، ومَن تتَّبَع اللهُ عَورتَه يَفْضَحْهُ ولو في جَوفِ رَحلِه))[1].

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ﴾.

أي: ولولا فَضلُ اللهِ عليكم ورحمتُه وأنَّه رؤوفٌ بكم؛ لعجَّل لكم العُقوبةَ على خَوضِكم في الإفكِ، لكِنَّه لم يعاقِبْكم، وتاب عليكم[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا أخبرَ تعالى بأنَّه ما أنزَل لهم هذا الشَّرعَ على لسانِ هذا الرَّسولِ الرؤوفِ الرَّحيمِ إلَّا رحمةً لهم، بعْدَ أن حذَّرهم موارِدَ الجَهلِ؛ نهاهم عن التَّمادي فيه في سياقِ مُعْلِمٍ أنَّ الدَّاعيَ إليه الشَّيطانُ العَدُوُّ[3].

وأيضًا لَمَّا نهَى تعالى عمَّا نهَى عنه فيما سبَق بخصوصِه، نهَى عن الذنوبِ عمومًا[4]، فقال تعالى:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢)، وابن حبان (٥٧٦٣).

قال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ)، وصَحَّح إسنادَه الزَّيْلعيُّ في ((تخريج الكشاف)) (٣/ ٣٤٤)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمنوا لا تَسلُكوا طُرُقَ الشَّيطانِ التي يَدْعوكم إليها بوساوسِه، كإشاعةِ الفاحشةِ في الذين آمنوا(١).

﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾.

أي: ومَن يَسلُكْ طرُقَ الشَّيطانِ يقَعْ في الفَحشاءِ والمنكَرِ؛ لأنَّ الشيطانَ يأمُرُ النَّاسَ بفِعلِ الذُّنوبِ العظيمةِ القبيحةِ، كالزِّنا، ويأمُرُ بمُنكراتِ الأقوالِ والأفعالِ التي تُنكِرُها الشَّريعةُ والعقولُ السَّليمةُ(٢).

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾.

أي: ولولا فَضلُ الله عليكم ورحمتُه بكم، ما تطهَّر أحَدٌ منكم أبدًا مِن الشِّركِ والمعاصي واتِّباعِ خُطواتِ الشَّيطانِ، ولا اهتدَى إلى الإيمانِ والتَّوبةِ النَّصوحِ وطاعةِ الرَّحمنِ(٣).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ يُطهِّرُ مِن الذُّنوبِ وآثامِها، ويهدي إليه مَن يشاءُ مِن عبادِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).
قال السعدي: (وخُطواتُ الشَّيطانِ يدخُلُ فيها سائِرُ المعاصي المتعَلِّقةِ بالقَلبِ واللِّسانِ والبَدَنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٥).

ممَّن يستحِقُّ ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٩].

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ الله عنه، قال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((اللهُمَّ آتِ نفْسي تَقْواها، وزَكِّها أنت خيرُ مَن زكَّاها، أنت وليُّها ومَوْلاها))[٢].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ سميعٌ لأقوالِكم كُلِّها؛ خَيرِها وشَرِّها، عليمٌ بأقوالِكم وأعمالِكم وما في قلوبِكم، وهو محيطٌ بكلِّ ذلك، ومُحصيه عليكم؛ لِيُجازيَكم به[٣].

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾.

سَبَبُ النُّزولِ:

عن أمِّ المؤمنين عائِشةَ بنتِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ -رَضِيَ الله عنهما- في قِصَّةِ الإفكِ، قالت: ((فأنزل اللهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [النور: ١١] العشرَ الآياتِ كُلَّها في براءتي، فقال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ -وكان يُنفِقُ على مِسْطَحٍ لِقَرابتِه منه-: واللهِ لا أُنفِقُ على مِسطَحٍ شَيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشةَ؛ فأنزل اللهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧٥).

(٢) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠).

وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ٢٢]. قال أبو بكرٍ: بلى واللهِ، إنِّي لَأُحِبُّ أن يَغفِرَ اللهُ لي، فرجَعَ إلى مِسْطَحٍ النَّفقةَ التي كان يُنفِقُ عليه، وقال: واللهِ لا أنزِعُها عنه أبدًا))(١).

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

أي: ولا يَحلِفْ باللهِ أصحابُ الفَضلِ(٢) والغِنى وذَوو السَّعةِ في الرِّزقِ، على

---

(١) رواه البخاري (٦٦٧٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) قال الواحدي: (﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ [النور: ٢٢] قال جماعةُ المفسرين: لا يحلِفْ). ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٣).

قال ابن جزي: (والفضلُ هنا يحتمِلُ أن يُريدَ به: الفضلَ في الدِّينِ، أو الفضلَ في المالِ، وهو أن يَفضُلَ له عن مِقدارِ ما يَكفيه، والسَّعةُ هي اتِّساعُ المالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالفضلِ هنا: الفضلُ في الدِّينِ: السمرقنديُّ، والرازي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والعليمي، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٩).

قال ابن عاشور: (والفضلُ: أصْلُه الزِّيادةُ؛ فهو ضِدُّ النقصِ، وشاعَ إطلاقُه على الزيادةِ في الخَيرِ والكمالِ الدِّينيِّ، وهو المرادُ هنا. ويُطلَقُ على زيادةِ المالِ فوقَ حاجةِ صاحِبِه، وليس مرادًا هنا؛ لأنَّ عَطْفَ ﴿وَالسَّعَةِ﴾ عليه يُبعِدُ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أن المرادَ به: الفضلُ في المالِ والغنى: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٧٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠).

قال ابن جرير: (ذَوو الفَضلِ منكم، يعني: ذَوي التفضُّلِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢). =

أَلَّا يُنفِقوا ويُعطوا الصَّدَقاتِ أقارِبَهم والمساكينَ والمُهاجرينَ في سَبيلِ اللهِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟

---

= وقال ابن كثير: (﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي: الطَّوْلِ والصدقةِ والإحسانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٦).

قال الواحدي: (﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾... وهو أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ الله عنه، في قولِ جميعِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٦/ ١٧٣).

وقال الرازي: (أجمَع المفسِّرونَ على أنَّ المرادَ مِن قولِه: ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ﴾: أبو بكرٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٩).

وقال أيضًا: (أجمعوا على أنَّ المرادَ مِن قوله: ﴿أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: مِسطَحٌ؛ لأنَّه كان قريبًا لأبي بكرٍ، وكان من المساكينِ، وكان من المهاجرينَ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٢).

وقال ابن عطية: (غيرَ أنَّ الآيةَ تتناوَلُ الأمَّةَ إلى يومِ القيامةِ، بألَّا يَغتاظَ ذو فَضلٍ وسَعةٍ فيَحلِفَ ألَّا ينفَعَ مَن هذه صِفتُه غابِرَ الدَّهرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٣).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ مِن أُولي الفضلِ ابتداءً أبو بكرٍ، والمرادُ مِن أولي القُربى ابتداءً مِسطَحُ ابنُ أُثاثةَ، وتعُمُّ الآيةُ غيرَهما ممَّن شاركوا في قضية الإفكِ، وغيرَهم ممَّن يشمَلُه عمومُ لَفظِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٩).

قال البقاعي: (ذكَرَ الصِّفاتِ المُقتَضيةَ للإحسانِ، فقال: ﴿أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وعدَّدَها بأداةِ العَطفِ؛ تكثيرًا لها وتَعظيمًا لأمرِها، وإشارةً إلى أنَّ صِفةً منها كافيةٌ في الإحسانِ، فكيف إذا اجتمَعَت؟! فقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾ أي: الذين لا يجِدون ما يُغنيهم وإن لم تكن لهم قَرابةٌ، ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ لأهلِهم وديارِهم وأموالِهم، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: الذي عَمَّ الخلائِقَ بجودِه؛ لِما له من الإحاطةِ بالجلالِ والإكرامِ، وإنِ انتفى عنهم الوصفانِ الأوَّلانِ فإنَّ هذه الصِّفاتِ مُؤْذِنةٌ بأنَّهم ممَّن زكَّى الله، وتَعدادُها بجَعلِها عِلَّةً للعَفوِ- دليلٌ على أنَّ الزاكيَ مِن غيرِ المعصومين قد يَزِلُّ، فتُدرِكُه الزكاةُ بالتوبةِ، فيَرجِعُ كما كان، وقد تكونُ الثلاثةُ لِموصوفٍ واحدٍ؛ لأنَّ سَبَبَ نزولِها مِسطَحٌ رضِيَ الله عنه؛ فالعَطفُ إذَنْ للتمكُّنِ في كُلِّ وصفٍ منها). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٣٨).

بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٢٤].

﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾.

أي: ولْيَعْفُ ذَوو الفَضلِ والسَّعةِ منكم عن أولئك المحتاجينَ الذين خاضُوا في الإفكِ، ويتجاوَزوا عنهم، ويُعرِضوا عن ذَنبِهم، ويَترُكوا عُقوبتَهم؛ فلا يَمْنعوهم مِن الصَّدقاتِ والنَّفَقاتِ التي كانوا يُقدِّمونَها إليهم مِن قبْلُ(١).

﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ ﴾.

أي: ألا تُحِبُّونَ أن يَستُرَ اللهُ ذُنوبَكم، ويَتجاوزَ عن مؤاخَذتِكم بها؟ إذَنْ فاعفُوا واصفَحوا عمَّن أساؤوا إليكم؛ لِيَغفِرَ اللهُ لكم(٢).

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

أي: واللهُ ساترٌ لذُنوبِ التَّائبينَ الطَّائعينَ، ومُتجاوِزٌ عن مؤاخَذتِهم بها، رحيمٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٩).

قال ابن عثيمين: (إذا قال قائلٌ: ما الفرقُ بيْن العَفوِ والصفحِ؟

الجوابُ: العفوُ بمعنَى التجاوُزِ، يعني: أنَّ اللهَ إذا عفا عنه فقد تجاوَزَ عنه، وقد يَكونُ الصفحُ بدُونِ عَفوٍ، كما لو أعرَضَ الإنسانُ عن هذا الاعتِداءِ لكنَّ قلبَه مملوءٌ على صاحِبِه، ولم يَعْفُ عنه، وقد يَكونُ العفوُ بدُونِ صَفحٍ، بأن يَتجاوَزَ ولا يُعاقِبَه على ذَنبِه، ولكنَّه ليس مُعرِضًا عن هذا الذَّمِّ كلَّما جاءت مناسَبةُ ذِكرِه؛ ولهذا أمَرَ اللهُ بالأمْرَينِ جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢١).

وقال أيضًا: (العفو: تَرْكُ المؤاخَذةِ على الذنْبِ، والصفحُ: الإعراضُ عنه... فالصفحُ معناهُ: الإعراضُ عن هذا بالكلِّيَّةِ وكأنَّه لم يَكُنْ؛ فعلى هذا يَكونُ بيْنهما فرقٌ؛ فالصفحُ أكمَلُ إذا اقترَنَ بالعَفْوِ). ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٨).

بعبادِه المؤمِنينَ الصَّالحينَ[١].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ يدُلُّ على وجوبِ سلامةِ القَلبِ للمُؤمنينَ، كوجوبِ كَفِّ الجوارِحِ والقَولِ عمَّا يَضُرُّ بهم[٢].

٢- العاقِلُ هو الذي يتحَسَّسُ مَعايبَ نَفْسِه، ويَنظُرُ فيها لِيُصلِحَها، لا أن يَنظُرَ في معايبِ الغَيرِ لِيُشيعَها -والعياذُ باللهِ-؛ ولهذا قال اللهُ عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣].

٣- مَن كان مِن النَّاسِ مَستورًا لا يُعرَفُ بشَيءٍ مِن المعاصي، إذا وقَعَت منه هَفوةٌ أو زلَّةٌ، فإنَّه لا يجوزُ كَشفُها ولا هَتكُها، ولا التَّحدُّثُ بها؛ لأنَّ ذلك غِيبةٌ مُحرَّمةٌ، وهذا هو الذي ورَدتْ فيه النُّصوصُ، وفي ذلك قد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾، والمرادُ: إشاعةُ الفاحشةِ على المؤمِنِ المُستَتِرِ فيما وقع منه، أو اتُّهِم به وهو بريءٌ منه[٤]، فالآية فيها الحثُّ على سَترِ المؤمِنِ، وعَدَمِ هَتكِه[٥].

٤- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ إذا أَحَبُّوا إشاعتَها وإذاعتَها، فكيفَ إذا تولَّوا هم إشاعتَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٥١).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٩٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠).

وإذاعتَها، لا نصيحةً منهم، ولكن طاعةً لإبليسَ ونيابةً عنه[١]؟! ففي الآيةِ أنَّ هذا العقابَ ثابتٌ لِمَن أشاع الفاحِشةَ؛ لأنَّه إذا ثَبَتَ فيمَن أحَبَّها، فكذلك فيمَن أشاعَها مِن بابِ أَولى[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ يدُلُّ على أنَّ العَزمَ على الذَّنبِ العَظيمِ عَظيمٌ، وأنَّ إرادةَ الفِسقِ فِسقٌ؛ لأنَّه تعالى علَّق الوعيدَ بمحبَّةِ إشاعةِ الفاحشةِ[٣].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ مِن أدَبِ هذه الآيةِ أنَّ شأنَ المؤمنِ ألَّا يُحِبَّ لإخوانِه المؤمنين إلَّا ما يحِبُّ لنفسِه، فكما أنَّه لا يحِبُّ أن يُشيعَ عن نَفْسِه خبرَ سوءٍ، كذلك يجِبُ عليه ألَّا يحِبَّ إشاعةَ السوءِ عن إخوانِه المؤمِنينَ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ لِشُيوعِ أخبارِ الفواحِشِ بيْن المؤمِنينَ بالصِّدقِ أو بالكَذِبِ مَفسدةٌ أخلاقيَّةٌ؛ فإنَّ ممَّا يَزَعُ النَّاسَ عن المفاسِدِ تَهيُّبُهم وُقوعَها، وكراهتَهم سوءَ سُمعتِها، وذلك مِمَّا يَصرِفُ تفكيرَهم عن تذكُّرِها -بَلْهَ الإقدامِ عليها- رويدًا رويدًا حتى تُنسى وتَنْمحي صُوَرُها مِن النُّفوسِ، فإذا انتشرَ بيْن الأمَّةِ الحديثُ بوقوعِ شَيءٍ مِن الفواحِشِ، تذكَّرَتها الخواطِرُ، وخَفَّ وقْعُ خَبَرِها على الأسماعِ؛ فدَبَّ بذلك إلى النُّفوسِ التهاوُنُ بوقوعِها، وخِفَّةُ وَقعِها على الأسماعِ، فلا تلبَثُ النفوسُ الخبيثةُ أن تُقدِمَ على اقترافِها، وبمقدارِ تكرُّرِ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

وُقوعِها وتكرُّرِ الحديثِ عنها تصيرُ متداوَلةً. هذا إلى ما في إشاعةِ الفاحشةِ مِن لَحاقِ الأذى والضُّرِّ بالنَّاسِ ضُرًّا متفاوِتَ المقدارِ على تفاوُتِ الأخبارِ في الصِّدقِ والكَذِبِ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ التَّحذيرُ مِن اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ، وبيانُ عاقبةِ اتِّباعِها(٢)، ومِن حِكمتِه تعالى أنْ بَيَّنَ الحُكمَ، وهو: النَّهيُ عن اتِّباعِ خُطُواتِ الشَّيطانِ. والحِكمةَ، وهي: بيانُ ما في المَنهيِّ عنه مِنَ الشَّرِّ المُقتضي والدَّاعي لِتَركِه؛ فنَهيُ اللهِ عنها للعبادِ نِعمةٌ منه عليهم أن يَشكُروه ويَذكُروه؛ لأنَّ ذلك صيانةٌ لهم عن التدَنُّسِ بالرَّذائِلِ والقَبائحِ؛ فمِن إحسانِه عليهم أنْ نهاهم عنها كما نهاهم عن أكلِ السُّمومِ القاتِلةِ، ونَحوِها(٣). ومِن نعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى أنْ يُبيِّنَ للعِبادِ أسبابَ الشَّرِّ، ويُحَذِّرَهم منها، يعني لا يَكِلُهم إلى أنفُسِهم، بل اللهُ سُبحانَه وتعالى يتولَّى بيانَ ذلك بفَضلِه ورَحمتِه(٤).

٩- في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أنَّه يَنبغي ذِكرُ الحوافزِ التي تُحفِّزُ الإنسانَ، وتَحمِلُه على الامتثالِ؛ لقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، كأنَّه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لأنَّكم مؤمِنونَ ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ ففي هذا إثارةٌ وحافزٌ قويٌّ يُحفِّزُ الإنسانَ على ألَّا يَتَّبعَ خُطواتِ الشَّيطانِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٦).

١٠- زكاةُ القَلبِ مَوقوفةٌ على طهارتِه، كما أنَّ زكاةَ البدَنِ موقوفةٌ على استفراغِه مِن أخلاطِه الرَّديئةِ الفاسدةِ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾، وذكَرَ ذلك سُبحانَه عَقِيبَ تحريمِ الزِّنا والقَذفِ ونِكاحِ الزَّانيةِ؛ فدَلَّ على أنَّ التزكِّيَ هو باجتنابِ ذلك[1].

١١- قولُه تعالى: ﴿عَلِيمٞ﴾ أي: بجميعِ المعلوماتِ التي مِنْ جُملتِها نيَّاتُهم، وفيه حَثٌّ لهُم على الإخلاصِ في التَّوبةِ[2].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ في هذه الآيةِ مِن الأخلاقِ الاجتماعيَّةِ ما يدُلُّ على أنَّ القُرآنَ تَشريعٌ سَماويٌّ؛ حيثُ يُعطِّفُ الإنسانَ على مَن تَكلَّمَ فيه بما لا يَنبغي، وليس فيه تَشجيعٌ على الجرائمِ؛ فإنَّ كلَّ واحدٍ يُؤَدَّبُ مِن جهةٍ؛ فالذي رمى أُدِّبَ مِن جهةِ الحَدِّ، والذي حَلَفَ ألَّا يُنفِقَ عليه أُدِّبَ مِن جهةِ تَكفيرِ يمينِه، وإيتاءِ الفَقيرِ ما يَستحِقُّ[3].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه لا تُترَكُ النَّفقةُ والإحسانُ بمعصيةِ الإنسانِ[4].

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ﴾ فيه الحَثُّ على العَفوِ والصَّفحِ، ولو جرى عليه ما جرى مِن أهلِ الجرائِمِ[١]. قال الإمامُ أحمدُ: (كُلُّ مَن ذكرني ففي حِلٍّ إلَّا مُبتدعًا، وقدْ جعلْتُ أبا إسحاقَ -يعني: المعتصمَ[٢]- في حِلٍّ، ورأيْتُ اللهَ يقولُ: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، وأمَر النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم أبا بكرٍ بالعفوِ في قِصَّةِ مِسطحٍ). وقال أيضًا: (وما ينفعُكَ أنْ يُعَذِّبَ اللهُ أخاكَ المسلمَ في سببِكَ)[٣]؟!

١٥- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه ترغيبٌ عظيمٌ في العفوِ، ووَعْدُ الكريمِ بمُقابَلتِه[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ دليلٌ على أنَّ مُواصلةَ مَن قطَع، والإحسانَ إلى مَن أساء: هو خُلُقٌ مَرْضِيٌّ، ومندوبٌ إليه المرءُ[٥].

١٧- يُفيدُ قَولُه تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أنَّه ينبغي التعرُّضُ لمَغفرةِ اللهِ ورِضوانِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٢) فقد حُبِس، وضُرِب بينَ يدَيِ المعتصمِ في المحنةِ بخلقِ القرآنِ. يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١٤/ ٣٩٣، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (١١/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢٥).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ عبَّر بالحُبِّ؛ إشارةً إلى أنَّه لا يَرتكِبُ هذا مع شناعتِه إلَّا مُحِبٌّ له[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ تَعليقُ الوعيدِ على مَحبَّةِ الشِّياعِ: دَليلٌ على أنَّ إرادةَ الفِسْقِ فِسْقٌ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ فضْلُ اللهِ على المؤمنينَ في حمايةِ أعراضِهم؛ حيث تَوعَّدَ مَن أحبَّ أن تَشيعَ الفاحشةُ فيهم[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ هذا الوَعيدُ الشَّديدُ يَنطَبِقُ على دُعاةِ تَحريرِ المرأةِ في بلادِ الإسلامِ مِن الحِجابِ، والتخَلُّصِ مِن الأوامِرِ الشَّرعيَّةِ الضَّابِطةِ لها في عِفَّتِها وحِشمتِها وحيائِها[٤].

٥- حَسُنَ مَوقِعُ قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بعْدَ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ لأنَّ محبَّةَ القَلبِ كامِنةٌ، ونحن لا نعلَمُها إلَّا بالأماراتِ، أمَّا الله سُبحانَه فهو لا يخفَى عليه شَيءٌ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((حراسة الفضيلة)) لبكر أبو زيد (ص: ٧٥).

فصار هذا الذِّكرُ نهايةً في الزَّجرِ؛ لأنَّ مَن أحبَّ إشاعةَ الفاحشةِ -وإنْ بالغَ في إخفاءِ تلك المحبَّةِ- فهو يعلمُ أنَّ اللهَ تعالى يعلَمُ ذلك منه، وأنَّ عِلمَه سُبحانَه بذلك الذي أخفاه كعِلمِه بالذي أظهَرَه، ويعلَمُ قَدرَ الجزاءِ عليه[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وجوبُ رَدِّ الأشياءِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وحُكمِها؛ لقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾[2].

٧- قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فيه قصورُ علمِ المخلوقِ؛ ولذلك نفى اللهُ عنه العِلمَ؛ لأنَّ ما أُوتي مِن العلمِ قليلٌ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ بيانُ فضلِ اللهِ وحكمتِه؛ حيثُ يَقرِنُ الأحكامَ بعِلَلِها؛ لأنَّ قولَه: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ هذا حُكمٌ؛ علةُ النَّهيِ: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾، وذِكرُ الأحكامِ بعِلَلِها له فوائدُ؛ منها: زيادةُ اطمئنانِ الإنسانِ للحُكمِ، ومعرفةُ أسرارِ الشريعةِ وكمالِها، وتعدِّي هذا الحُكمِ بتعدِّي العلَّةِ[4].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ لا يُعارِضُه قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، ولا قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]، ووجهُ ذلك في قَولِه: ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أنَّه لا يزكِّيها إلَّا بتوفيقِ اللهِ وهدايتِه إيَّاه للعمَلِ الصَّالحِ، وقَبولِه منه. وكذلك الأمرُ في قَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٧).

لا يخفى[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ فيه دليلٌ على النَّفَقةِ على القَريبِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ فضيلةُ أبي بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه[٣]، فقولُه: ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ أي: في الدِّين -على قولٍ في التفسيرِ-، وكفَى به دليلًا على فضلِ الصِّدِّيقِ رضي الله تعالى عنه[٤].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه النَّهيُ عن الحَلِفِ ألَّا يفعَلَ خَيرًا، وأنَّ مَن حلَف على يمينٍ فرأى غيرَها خيرًا منها، فيُستحَبُّ له الحِنثُ[٥]، وفيه دليلٌ على أنَّ اليمينَ إذا وقعَتْ على ما لا قُربةَ فيه إلى اللهِ، فالطَّاعةُ تَرْكُها وتَركُ المُضِيِّ عليها -وإنْ لم يكُنِ التَّركُ مفروضًا- إذا كان غيرُه أقربَ منه؛ لأنَّ سياقَ الآيةِ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى نَدَب أبا بكرٍ إلى العَودِ إلى مِسطَحٍ بفَضلِه، وتَرْكِ مُعاقبتِه على ما كان منه إلى ابنتِه نَدبًا، ولم يَفرِضْ عليه فَرضًا، ولولا ذلك ما دَلَّه -واللهُ أعلمُ- على العَفوِ والصَّفحِ، ولا وَعَده عليه الغُفرانَ؛ إذِ العَفوُ والصَّفحُ بَابَا فَضلٍ، لا يُجبَرُ أحدٌ عليهما[٦].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:١٩٠). ويُنظر أيضًا: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٣٤).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الإساءةَ مِن الشَّخصِ لا تُوجِبُ إسقاطَ حُقوقِه، فإذا أساء فليس معنى ذلك أنَّنا نُسيءُ إليه بتَركِ ما يجبُ علينا؛ فإساءتُه تكونُ على نفْسِه، ونحن علينا ما يجِبُ[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دليلٌ على أنَّ اسمَ القُربى شاملٌ لكلِّ مَن مَتَّ إلى الإنسانِ برَحِمٍ -قَرُبَت أو بَعُدَت-؛ إذِ الرَّحِمُ قُربَةٌ يَقتربُ بها ذو النَّسَبِ، وقد عَرِي منها الأجنبيُّ، فلا يَمُتُّ بها أبدًا، وكذا النَّسَبُ -وإن بَعُدَ نسَبُه- فهو قُرْبةٌ مِن الإنسانِ لا يقتربُ بها سائرُ جنْسِه مِن النَّاسِ، وسواءٌ كان ذلك مِن قِبَلِ الأبِ أو الأمِّ؛ لا أنَّه أسباطُ الإنسانِ وبنو عمِّه الأَدْنَونَ، كما تزعُمُ الرَّافضةُ مِن أنَّ قولَ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] أنه عليٌّ والحسَنُ والحُسَينُ وفاطمةُ رضي الله عنهم، دون سائرِ قراباتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم!! ألَا ترَى أنَّ مِسطحَ بنَ أُثَاثةَ -الذي حُضَّ أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه على الإنفاقِ عليه، المسمَّى بأُولي القُربى- إنَّما هو ابنُ بنتِ خالةِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه، وقد سمَّاه اللهُ مِن أُولي قُربَاه؟! فكيف تُخَصُّ ابنةُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وسِبْطاهُ وابنُ عمِّه دونَ سائرِ أقاربِه المسلمين، بالمودَّةِ في الآيةِ، وابنُ بنتِ خالةِ الإنسانِ قريبُه كما ترى[2]؟!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الرَّدُّ على المعتزلةِ القائلِين: إنَّ الكبائرَ تُحبِطُ الأعمالَ[3]؛ لأنَّ مِسطَحًا رضي اللهُ عنه كان ممَّن خاض في رَميِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٣٨).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيميَّةَ: (إذا كانت السَّيِّئاتُ لا تُحبِطُ جميعَ الحَسَناتِ، فهل تُحبِطُ =

عائشةَ، وذلك كَبيرةٌ قَطعًا، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾، وتَوَعَّدَ على ذلك توعُّدًا عظيمًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، ومع ذلك بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ هِجرةَ مِسطَحٍ باقيةٌ، فلو كانتِ الكبيرةُ -غيرَ الشِّركِ- تُحبِطُ العمَلَ، لَمَا بَقِيت له هِجرةٌ، فلمَّا نَوَّه تعالى بهِجرتِه بعدَ ارتكابِه ذَنبَ القذْفِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ سائرَ الذُّنوبِ لا تَقضي على الأعمالِ الصَّالحةِ إلَّا ذنبَ الشِّركِ الذي لا يَغفِرُه اللهُ[1]، وفيه ردٌّ على مَن يزعُمُ أنَّ الذُّنوبَ كُفرٌ، وكيف تكونُ كُفرًا وقد سمَّى اللهُ مِسطحًا -مع عظيمِ ذَنبِه- مُهاجِرًا[2]؟!

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يؤْذِنُ بأنَّ كفَّارةَ اليمينِ كانت مشروعةً مِن قبْلِ هذه القصَّةِ، ولكنَّهم كانوا يَهابون الإقدامَ على الحِنثِ[3].

١٧- قَولُه تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ فيه أنَّ كمالَ العَفوِ يكونُ بالصَّفحِ؛

---

= بقَدْرِها؟ وهل يُحبَطُ بعضُ الحَسَناتِ بذَنبٍ دونَ الكُفرِ؟ فيه قولانِ للمُنتَسِبينَ إلى السُّنَّةِ: منهم مَن يُنكِرُه، ومنهم مَن يُثبِتُه، كما دلَّت عليه النُّصوصُ). ((مجموع الفتاوى)). (١٠/ ٦٣٨).

وقال أيضًا: (أمَّا الصَّحابةُ وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ فعلى أنَّ أهلَ الكبائرِ يُخرَجونَ مِن النَّارِ، ويُشفَعُ فيهم، وأنَّ الكبيرةَ الواحِدةَ لا تُحبِطُ جميعَ الحَسَناتِ، ولكِنْ قد يُحبَطُ ما يقابِلُها عند أكثرِ أهلِ السُّنَّةِ، ولا يُحبِطُ جميعَ الحَسَناتِ إلَّا الكُفرُ، كما لا يُحبِطُ جميعَ السَّيِّئاتِ إلَّا التَّوبةُ؛ فصاحِبُ الكبيرةِ إذا أتى بحسَناتٍ يبتغي بها رضا الله أثابه اللهُ على ذلك، وإن كان مُستَحِقًّا للعُقوبةِ على كبيرتِه). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٢١، ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٨).
ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٠).

فالعفوُ بعدمِ المؤاخَذةِ على الذنْبِ، والصَّفحُ بالإعراضِ عنه بالكلِّيَّةِ، وكأنَّه لم يَجْرِ؛ فيكونُ تكميلًا للعفوِ[١].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ العفوَ والصَّفحَ عن المسيءِ المسلمِ مِنْ مُوجِباتِ غفرانِ الذُّنوبِ[٢].

١٩- قَولُه تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه بيانُ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ[٣].

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ قيل: هذه أرجَى آيةٍ في كتابِ الله تعالى[٤]؛ لأنَّ الله أوصَى بالإحسانِ إلى القاذفِ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الجُملةُ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، واسمُ المَوصولِ ﴿الَّذِينَ﴾ يَعُمُّ كلَّ مَن يَتَّصِفُ بمَضمونِ الصِّلَةِ؛ فيَعُمُّ المُؤمِنينَ والمُنافِقينَ والمُشرِكينَ؛ فهو تَحذيرٌ للمُؤمِنينَ، وإخبارٌ عنِ المُنافِقينَ والمُشرِكينَ[٦].

- وقولُه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فيه جَعْلُ الوعيدِ على المَحبَّةِ لشُيوعِ الفاحشةِ في المُؤمِنينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٣).

(٤) قاله عبدُ الله بنُ المبارك. يُنظر: ((صحيح مسلم)) (٢٧٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٨-٤٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

تَنبيهًا على أنَّ مَحبَّةَ ذلك تَستحِقُّ العُقوبةَ؛ لأنَّ مَحبَّةَ ذلك دالَّةٌ على خُبْثِ النِّيَّةِ نحوَ المُؤمِنينَ. ومِن شأْنِ تلك الطَّوِيَّةِ: ألَّا يَلْبَثَ صاحبُها إلَّا يَسيرًا حتَّى يَصدُرَ عنه ما هو مُحِبٌّ له أو يُسَرَّ بصُدورِ ذلك مِن غَيرِه؛ فالمحبَّةُ هنا كِنايةٌ عنِ التَّهيُّؤِ لإبرازِ ما يُحِبُّ وُقوعَه. وجِيءَ بصِيغةِ الفِعْلِ المُضارعِ ﴿يُحِبُّونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستِمرارِ[1].

- قيل: المرادُ بشُيوعِ الفاحشةِ في قولِه: ﴿يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ شُيوعُ خَبَرِها -على قولٍ في التفسيرِ-، أي: يُحِبُّون شُيوعَها، ويَتَصدَّون مع ذلك لإشاعتِها؛ وإنَّما لم يُصرِّحْ به اكتِفاءً بذِكْرِ المحبَّةِ؛ فإنَّها مُستتبِعةٌ له لا مَحالةَ[2]. وقيل: إذا أُريدَ بالمحبَّةِ نفْسُها مِن غَيرِ أنْ يُقارِنَها التَّصدِّي للإشاعةِ، فيَكونُ تَرتيبُ العذابِ عليها تَنبيهًا على أنَّ عذابَ مَن يُباشِرُ الإشاعةَ ويَتَولَّاها أشَدُّ وأعظَمُ، ويَكونُ الاعتِراضُ التَّذييليُّ -وهو: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾- تَقريرًا لثُبوتِ العذابِ الأليمِ لهم، وتَعليلًا له[3].

- قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ تَذييلٌ، أي: يَعلَمُ ما في ذلك مِن المفاسدِ؛ فيَعِظُكم لِتَجتَنِبوا، وأنتم لا تَعلَمون فتَحسَبون التَّحدُّثَ بذلك لا يَترتَّبُ عليه ضُرٌّ[4].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

- قَولُه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه تَكرارُ المِنَّةِ بتَرْكِ المُعاجَلةِ بالعِقابِ، وحُذِفَ جَوابُ (لَوْلَا) كما حُذِفَ ثَمَّةَ، وفي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٥).

هذا التَّكريرِ مع حَذْفِ الجوابِ مُبالَغةٌ عظيمةٌ، وكذلك في التَّوَّابِ والرَّؤوفِ والرَّحيمِ[١]. فجَعَل هذا المعنى أوَّلاً خاتمةً لأحكامِ الزَّاني والرَّامي والمُلاعِنِ، ثمَّ أتَى به في حديثِ الإفكِ؛ للإيذانِ بأنَّهما سِيَّانِ في استِيجابِ سَخَطِ اللهِ ونَكالِه ولَعْنِه، وجَعَل الفاصِلةَ هنالِك: ﴿تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠]، وهاهنا: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ هذا أعظَمُ مِن ذلك[٢].

- قَولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ؛ لتَربيةِ المَهابةِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾

- قَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ. ووُقوعُه عَقِبَ الآياتِ العَشْرِ الَّتي في قَضيَّةِ الإفكِ يُشيرُ إلى أنَّ ما تَضمَّنَتْه تلك الآياتُ مِن المَناهي وظُنونِ السُّوءِ ومَحبَّةِ شُيوعِ الفاحشةِ، كلُّه مِن وَساوِسِ الشَّيطانِ؛ فشَبَّه حالَ فاعِلِها في كَونِه مُتلبِّسًا بوَسوَسةِ الشَّيطانِ، بهَيئةِ الشَّيطانِ يَمشي، والعاملُ بأمْرِه يَتَّبِعُ خُطَى ذلك الشَّيطانِ؛ ففي قولِه: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ...﴾ تَمثيلٌ مَبنيٌّ على تَشبيهِ حالةٍ مَحسوسةٍ بحالةٍ مَعقولةٍ؛ إذْ لا يَعرِفُ السَّامِعون للشَّيطانِ خُطُواتٍ حتَّى يُنْهَوْا عنِ اتِّباعِها. وفيه: تَشبيهُ وَسوَسةِ الشَّيطانِ في نُفوسِ الَّذين جاؤُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٤).

بالإفكِ بالمَشيِ[١].

- وقولُه: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ...﴾ بَيانٌ لعِلَّةِ النَّهيِ عنِ اتِّباعِه[٢].

- وقولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ عِلَّةٌ للجزاءِ، وُضِعَتْ مَوضِعَه، كأنَّه قيلَ: فقدِ ارتَكَبَ الفَحشاءَ والمُنكَرَ؛ لأنَّ دَأْبَه المُستمِرَّ أنْ يَأمُرَ بهما، فمَنِ اتَّبَعَ خُطُواتِه فقدِ امتَثَلَ بأمْرِه قَطْعًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ...﴾ وَضْعُ الظَّاهِرَينِ مَوضِعَ ضَميرَيْهما، حيثُ لمْ يَقُلْ: (ومَن يَتَّبِعْها)، أو: (ومَن يَتَّبعْ خُطواتِه)؛ لزيادةِ التَّقريرِ، والمُبالَغةِ في التَّنفيرِ والتَّحذيرِ[٤].

- قَولُه: ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ مفعولُ ﴿يَأْمُرُ﴾ مَحذوفٌ؛ لقصْدِ العُمومِ[٥].

- قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ اعتِراضٌ تَذْييليٌّ بيْن الوعدِ والوعيدِ. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ؛ للإيذانِ باستِدعاءِ الأُلوهيَّةِ للسَّمعِ والعِلْمِ؛ ولِيَكونَ التَّذييلُ مُستقِلًّا بنفْسِه؛ لأنَّه ممَّا يَجري مَجرَى المَثَلِ[٦].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٦، ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٨).

- عطْفٌ على جُملةِ: ﴿لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ [النور: ٢١]؛ عطفَ خاصٍّ على عامٍّ؛ للاهتمامِ به؛ لأنَّه قد يَخْفى أنَّه مِن خُطواتِ الشَّيطانِ؛ فإنَّ مِن كَيدِ الشَّيطانِ أنْ يأتيَ بوَسوسةٍ في صُورةِ خواطِرِ الخيرِ إذا علِمَ أنَّ المُوسوَسَ إليه مِن الَّذين يتوخَّونَ البِرَّ والطَّاعةَ، وأنَّه ممَّن يتعذَّرُ عليه تَرويجُ وَسوستِه إذا كانت مَكشوفةً[١].

- وقولُه: ﴿أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صِفاتٌ لموصوفٍ واحدٍ، جيءَ بها بطريقِ العطْفِ؛ تَنبيهًا على أنَّ كلًّا منها عِلَّةٌ مُستقلَّةٌ لاستِحقاقِه الإيتاءَ، وقيل: لمَوصوفاتٍ أُقيمتْ هي مُقامَها؛ فيكونُ أبلَغَ في تعليلِ المقصودِ. وحُذِفَ المفعولُ الثَّاني لغايةِ ظُهورِه، أي: على ألَّا يُؤْتوهم شيئًا[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ إنكاريٌّ، مُستعملٌ في التَّحضيضِ على السَّعيِ فيما به المغفرةُ[٣].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ على جُملةِ: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾؛ زِيادةً في التَّرغيبِ في العفْوِ والصَّفحِ، وتَطمينًا لنفْسِ أبي بكرٍ في حِنْثِه، وتَنبيهًا على الأمْرِ بالاتِّصافِ بمقتضياتِ صفاتِ اللهِ تعالى، مما ليس مختصًّا به سبحانَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١٩٠).

## الآيات (٢٣-٢٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾: أي: حِسابَهم العَدلَ، وجزاءَهم الواجِبَ، وأصلُ (دين) وما تفرَّع عنه: جنسٌ مأخوذٌ مِن الانقيادِ والذُّلِّ[1].

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: إنَّ الذين يَقذِفون بالزِّنا العَفيفاتِ، الغافلاتِ عن الفاحِشةِ، المتَّصِفاتِ بالإيمانِ- مطرودون مِن رحمةِ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ، ولهم عذابٌ عَظيمٌ في نارِ جهنَّمَ إنْ لم يتوبوا قبلَ وفاتِهم، ذلك العذابُ يومَ القيامةِ حينَ تشهَدُ عليهم ألسنتُهم، وتتكَلَّمُ أيديهم وأرجُلُهم بما اقترَفوا مِن السيِّئاتِ، في هذا اليومِ ينالُهم حِسابُهم وجزاؤُهم العادِلُ، ويَعلَمونَ حينَئذٍ أنَّ اللهَ هو الحَقُّ الموجودُ الثابتُ، الظَّاهِرُ الذي لا شَكَّ فيه، المُظهِرُ للحقائِقِ في الآخرةِ.

الخبيثاتُ مِن النِّساءِ والأقوالِ والأعمالِ والأوصافِ مُناسِبةٌ للخَبيثينَ، وكذلك الخَبيثونَ مُوافِقونَ ومُناسِبونَ للخَبيثاتِ، والطيِّباتُ مِن النِّساءِ والأقوالِ والأعمالِ والأوصافِ مُناسِبةٌ للطَّيِّبينَ، وكذلك الطَّيِّبونَ أهلٌ للطَّيِّباتِ، أولئك

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٦٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٥).

الطَّيِّبونَ والطَّيِّباتُ مُنزَّهونَ ممَّا تقوَّلَه أهلُ الإفكِ، لهم على ما نالهم مِن الأذى مَغفِرةٌ لذُنوبِهم، ورِزقٌ كريمٌ في جنَّاتِ النَّعيمِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا ختَمَ الآيةَ السَّابقةَ بالوَصفينِ ﴿غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ بعْدَ الأمرِ بالعَفوِ، ربَّما جرَّأ على مِثلِ هذه الإساءةِ، فوصَلَ به مُرَهِّبًا من الوقوعِ في مثلِ ذلك قَولَه مُعَمِّمًا للحُكمِ[1]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾.

أي: إنَّ الذين يَقذِفونَ بالزِّنا العَفيفاتِ الغافلاتِ عن الفاحِشةِ[2] المؤمِناتِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٤٠).

(٢) قال ابنُ جريرٍ بعدَ أن ذكَر الخلافَ في المحصناتِ اللاتي هذا حُكمُهنَّ: (أَوْلى هذه الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ قَولُ من قال: نزَلت هذه الآيةُ في شأنِ عائشةَ، والحُكمُ بها عامٌّ في كلِّ مَن كان بالصِّفةِ التي وصَفه اللهُ بها فيها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٠). وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١-٣٣). وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السلفِ: قتادةُ، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٨٦). وقيل: الآيةُ خاصَّةٌ في قذفِ عائشةَ وأزواجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والكرماني. يُنظر ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨٠)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٧٩٣).

ونسَبَ ابنُ تيميَّةَ القولَ بأنَّ هذه الآيةَ في أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاصَّةً إلى كثيرٍ مِن أهلِ العِلمِ. يُنظر: ((الصارم المسلول)) (ص: ٤٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَير في روايةٍ عنه، والضَّحَّاك، والكلبي، وأبو الجوزاء، وسَلَمةُ بن نُبَيْط. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٨٩)، =

ولم يتوبوا مِنْ قذْفِهنَّ؛ أبعَدَهم اللهُ مِن رحمتِه في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ولهم عذابٌ عظيمٌ في جهنَّمَ، إنْ لم يتوبوا قبْلَ وفاتِهم مِن قَذفِ المُحصَناتِ الغافلاتِ المُؤمِناتِ[٢].

---

= ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ١٦٥).

قال الشنقيطي: (وَصْفُه تعالى للمُحصَناتِ في هذه الآيةِ بكَونِهنَّ غافِلاتٍ: ثناءٌ عليهنَّ بأنَّهنَّ سليماتُ الصُّدورِ، نقيَّاتُ القُلوبِ، لا تَخطُرُ الرِّيبةُ في قُلوبِهنَّ؛ لحُسنِ سَرائِرِهنَّ، ليس فيهنَّ دَهاءٌ ولا مَكرٌ؛ لأنَّهنَّ لم يُجَرِّبْنَ الأمرَ فلا يَفْطُنَّ لِمَا تَفطُنُ له المُجَرِّباتُ ذواتُ المَكرِ والدَّهاءِ، وهذا النَّوعُ مِن سلامةِ الصُّدورِ وصَفائِها مِنَ الرِّيبةِ: مِن أحسَنِ الثَّناءِ). ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٣٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٦، ٢٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

قال الزجَّاج: (لم يقُلْ هاهنا: والمؤمنينَ؛ استِغناءً بأنَّه إذا رمى المؤمنةَ فلا بدَّ أن يرميَ معها مؤمنًا، فاستَغْنى عن ذِكرِ المؤمنينَ؛ لأنَّه قد جرى ذِكرُ المؤمنينَ والمؤمناتِ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٣٧).

وذهب النحاسُ إلى أنَّ التقديرَ: الذين يَرْمونَ الأنفُسَ المحصناتِ، فيَدخُلُ في الآية قذفُ الذكورِ والإناث. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٩١).

وقال ابن القيم: (خُصَّ الإناثُ باللَّفظِ؛ إذ كنَّ سببَ النُّزولِ، فنُصَّ عليهم بخُصوصهنَّ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ٢٧٤).

وقال ابن عاشور: (اللعنُ في الدنيا: التَّفسيقُ، وسَلبُ أهليَّةِ الشهادة، واستيحاشُ المؤمنين منهم، وحَدُّ القذفِ؛ واللَّعنُ في الآخرة: الإبعادُ من رحمةِ الله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٢٦، ٢٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

قال السعدي: (وهذا زيادةٌ على اللعنةِ، أبعَدهم عن رحمتِه، وأحلَّ بهم شدةَ نقمتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اجتَنِبوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ، قيل: يا رَسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقَتلُ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحَقِّ، وأكلُ مالِ اليتيمِ، وأكلُ الرِّبا، والتولِّي يومَ الزَّحفِ، وقَذفُ المُحصَناتِ الغافلاتِ المُؤمِناتِ))[1].

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: لهم عذابٌ عظيمٌ يومَ القيامةِ حينَ تَشهَدُ عليهم ألسِنتُهم وأيديهم وأرجُلُهم، فتنطِقُ بغيرِ اختيارِهم بما كانوا يكتَسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ، بأقوالِهم وأفعالِهم، كالقَذفِ وغَيرِه[2].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فضَحِكَ، فقال: هل تدرونَ ممَّ أضحَكُ؟ قلنا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: مِن مخاطبةِ العبدِ ربَّه؛ يقولُ: يا ربِّ، ألم تُجِرْني من الظُّلمِ؟ يقولُ: بلى، فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نفْسي إلَّا شاهِدًا مِنِّي، فيقولُ: كفَى بنَفْسِك اليومَ عليك شَهيدًا، وبالكِرامِ الكاتبينَ شُهودًا! فيُختَمُ على فِيهِ، فيُقالُ لأركانِه[3]: انطِقي، فتَنطِقُ بأعمالِه، ثم يُخلَّى بيْنَه وبيْنَ الكلامِ، فيقولُ: بُعْدًا لكُنَّ وسُحْقًا! فعنكُنَّ كنتُ أُناضِلُ[4]))[5].

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٥)، ((السراج المنير)) للشربيني (٢/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

(٣) لأركانِه: أي: لجوارحِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٥).

(٤) أُناضِلُ: أي أُدافِعُ وأُجادِلُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٥).

(٥) رواه مسلم (٢٩٦٩).

﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾.

أي: يومَئذٍ يوفِّيهم اللهُ حِسابَهم بالعَدلِ، ويُجازيهم على أعمالِهم بلا ظُلمٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: وينكَشِفُ لهم[2] حينَها أنَّ اللهَ هو الحَقُّ الموجودُ الثَّابتُ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، الظَّاهِرُ الذي لا شَكَّ فيه، والهادي مَن يشاءُ، المُظهِرُ للحقائِقِ في الآخرةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٩١).

قال النحاس: (مجازاةُ الله جلَّ وعَزَّ للكافِرِ والمُسيءِ: بالحَقِّ والعدلِ، ومجازاتُه للمحسنينَ: بالفضلِ والإحسانِ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٩٢).

وقال البِقَاعي: (﴿ٱلْحَقَّ﴾ أي الذي يَظهرُ لكلِّ أحدٍ مِن أهلِ ذلك المجمعِ العظيمِ أنَّهم يستحقونَه، فلا يقدرُ أحدٌ على نوعِ طعنٍ فيه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٤٢).

(٢) قيل: هم أهلُ النِّفاقِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥).

قال ابنُ عاشور: (قوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ أي: ينكشفُ للناسِ أنَّ الله هو الحقُّ... ومعنى كونِهم يعلمون أنَّ الله هو الحقُّ المبينُ: أنهم يتحقَّقونَ ذلك يومَئذٍ بعلمٍ قطعيٍّ لا يَقبلُ الخفاءَ ولا التردَدَ، وإن كانوا عالِمينَ ذلك مِن قبْلُ؛ لأنَّ الكلامَ جارٍ في موعظةِ المؤمنينَ، ولكن نزَّل عِلمَهم المحتاجَ للنظرِ والمُعَرَّضَ للخفاءِ والغفلةِ منزلةَ عدمِ العلمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٢، ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢/ ٤١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٢، ١٩٣).

قال السعدي: (أوصافُه العظيمةُ حقٌّ، وأفعالُه هي الحقُّ، وعبادتُه هي الحقُّ، ولقاؤُه حقٌّ، ووعدُه ووعيدُه، وحُكمُه الدينيُّ والجزائيُّ حقٌّ، ورُسلُه حقٌّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥). =

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعد أن برَّأ سُبحانَه عائشةَ رضي اللهُ عنها مِمَّا رُمِيَت به مِن الإفكِ، ثمَّ ذكرَ أنَّ راميَ المُحصَناتِ الغافلاتِ مَطرودٌ مِن رَحمةِ الله- أردف ذلك دليلًا يَنفي الرِّيبةَ

---

= قال ابن عاشور: (﴿ٱلْمُبِينُ﴾: اسمُ فاعلٍ مِن أبانَ، الذي يُستعمَلُ مُتعدِّيًا بمعنَى أظهَرَ، على أصلِ معنَى إفادةِ الهمزةِ التَّعديةَ، ويُستعمَلُ بمعنَى بانَ، أي: ظهَرَ، على اعتِبارِ الهمزةِ زائدةً). (تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٣).

ممَّن اختار أنَّ المُبينَ بمعنَى البَيِّنِ الظاهِرِ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابنُ جُزَي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٠).

وممَّن اختار أنَّ المُبينَ بمعنَى المُظهِرِ: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٢)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٤١).

والمعنى على ذلك: أنَّه يُبيِّنُ لهم حقائقَ ما كان يَعِدُهم في الدُّنيا مِن العذابِ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٢)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٦).

وقيل: المُظهِرُ للأشياءِ كما هي في أنفُسِها. وممَّن اختاره: الشوكانيُّ، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٤١).

وذكَرَ ابنُ عثيمينَ أنَّ مِن اللازمِ أنَّه إذا كان مُظهِرًا فهو ظاهِرٌ في نفْسِه، فالمُبينُ بمعنَى المُظهِرِ لا بدَّ أن يَكونَ بَيِّنًا بنفْسِه. وقد جمَع بيْن المعنيَينِ السابقَينِ، فقال: (الله تعالى بيِّنُ الأحَقِّيَّةِ، ومُبينٌ ذلك لعِبادِه بما ركَّبَ فيهم مِنَ الفِطَرِ السليمةِ، والعقولِ، وبالوحيِ الذي أرسَلَ به الرُّسلَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤١) بتصرف.

عن عائشةَ بأجلى وضوحٍ؛ ذاك أنَّ السُّنةَ الجاريةَ بيْن الخَلقِ مَبنيَّةٌ على مُشاكلةِ الأخلاقِ والصِّفاتِ بيْن الزَّوجَينِ؛ فالطيِّباتُ للطيِّبينَ، والخبيثاتُ للخبيثينَ؛ ورسولُ اللهِ أطيبُ الطَّيِّبينَ، فيَجِبُ كونُ الصِّدِّيقةِ مِن أطيبِ الطَّيِّباتِ على مقتضى المنطقِ السَّليمِ والعادةِ الشَّائِعةِ بين الخَلقِ(١).

﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾.

أي: الخَبيثاتُ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك لائقةٌ ومُناسِبةٌ للخَبيثينَ، وكذلك الخَبيثونَ أهلٌ للخَبيثاتِ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

قال الماوَرْدي: (قوله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ﴾ الآيَةَ. فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدُها: الخبيثاتُ مِن النِّساءِ للخبيثينَ مِن الرِّجالِ، والخبيثون مِنَ الرِّجالِ للخبيثاتِ مِن النِّساءِ؛ والطيِّباتُ مِن النِّساءِ للطيِّبينَ مِن الرِّجالِ، والطيِّبونَ مِن الرِّجالِ للطيِّباتِ مِن النِّساءِ. قاله ابنُ زيد.

الثاني: الخبيثاتُ مِن الأعمالِ للخَبيثين مِنَ النَّاسِ، والخَبيثون مِن النَّاسِ للخَبيثاتِ مِن الأعمالِ؛ والطيِّباتُ مِن الأعمالِ للطيِّبينَ مِن النَّاسِ، والطيِّبون مِن النَّاسِ للطيِّباتِ مِن الأعمالِ. قاله مجاهِدٌ، وقتادةُ.

الثالث: الخبيثاتُ مِن الكلامِ للخَبيثين من النَّاسِ، والخبيثون مِن النَّاسِ للخَبيثاتِ مِن الكلامِ؛ والطيِّباتُ مِن الكلامِ للطيِّبينَ مِن النَّاسِ، والطيِّبونَ مِن النَّاسِ للطيِّباتِ مِن الكلامِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والضحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٨٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: البيضاويُّ، وابن تيميَّةَ، وابنُ جُزَي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٣)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١).

وممن قال به مِن السلفِ: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٢).

وذكَرَ ابنُ كثيرٍ أنَّ هذا القولَ يرجِعُ إلى القولِ الثالثِ باللازمِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤).

وممَّن اختار القولَ الثالثَ: ابنُ جريرٍ، والزجَّاجُ، والنحاس، ومكِّي، والواحدي، والنسفي، =

= والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٥١٥)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٩٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٠).

ونسَبَه الثعلبيُّ والواحديُّ والبغويُّ والقُرطُبيُّ لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١١).

وممَّن قال به من السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعطاء، وسعيد بن جُبَير، والشعبي، والحسن بن أبي الحسن البصري، وحبيب بن أبي ثابت، والضحَّاكُ. ونسَبَه ابنُ تيميَّةَ لجمهورِ السَّلَفِ. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤).

قال الزجَّاجُ: (وقَولُه جلَّ وعزَّ: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فيها وَجهانِ: المعنى: الكَلِماتُ الخَبيثاتُ للخَبيثينَ مِنَ الرِّجالِ، والرِّجالُ الخَبيثونَ للكَلِماتِ الخبيثَاتِ، أي: لا يَتكلَّمُ بالخَبيثاتِ إلَّا الخَبيثُ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ، ولا يتكلَّمُ بالطيِّباتِ إلَّا الطَّيِّبُ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ. ويجوزُ أن يكونَ معنى هذه: الكَلِماتُ الخَبيثاتُ إنَّما تَلصَقُ بالخَبيثينَ مِنَ الرِّجالِ والخَبيثاتِ مِن النِّساءِ، فأمَّا الطَّاهِراتُ الطَّيِّباتُ فلا يَلصَقُ بِهنَّ شَيءٌ). ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧).

قال الواحديُّ: (والمعنى: أنَّ الخَبيثَ مِنَ القَولِ لا يَليقُ إلَّا بالخَبيثِ مِنَ النَّاسِ، وكُلُّ كلامٍ إنَّما يَحسُنُ في أهلِه؛ فيُضافُ سَيِّئُ القَولِ إلى مَن يليقُ به ذلك، وكذلك الطَّيِّبُ مِنَ القَولِ، وعائِشةُ لا يَليقُ بها الخَبيثاتُ مِنَ الكَلامِ، فلا يَصدُقُ فيها؛ لأنَّها طَيِّبةٌ، فيُضافُ إليها طَيِّباتُ الكلامِ مِنَ الثَّناءِ الحَسَنِ وما يَليقُ بها). ثمَّ عَلَّق على الوَجهِ الأوَّلِ الذي ذكره الزَّجَّاجُ، فقال: (وهذا ذمٌّ للذين قذَفوا عائِشةَ بالخَبيثِ، ومَدحٌ للَّذينَ بَرَّؤوها بالطَّهارةِ). ((الوسيط)) للواحدي (١/ ٤٥).

وممَّن اختار العمومَ: ابنُ القيِّمِ، والسعديُّ. قال ابن القيِّمِ: (هذا وإنْ كان في النِّساءِ والرِّجالِ، فإنَّه يتناوَلُ الأعمالَ والأقوالَ، والمطاعِمَ والمشارِبَ، والملابسَ والروائِحَ، إمَّا بعمومِ لفظِه، أو بعمومِ معناه). ((زاد المعاد)) (٤/ ٢٥٧).

وقال السعديُّ: (هذه كَلِمةٌ عامَّةٌ وحَصرٌ، لا يخرجُ منه شَيءٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤٣، ١٤٤).

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: والطَّيِّباتُ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك لائقةٌ ومُناسِبةٌ للطَّيِّبينَ، وكذلك الطيِّبون أهلٌ للطَّيِّباتِ مِنَ الأقوالِ والأعمالِ والنِّساءِ وغيرِ ذلك(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾.

أي: أولئك الطَّيِّبون والطَّيِّباتُ مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ بُعَداءُ ومنزَّهونَ مِن الخُبْثِ الذي يَنسُبُه إليهم أهلُ الإفكِ(٢).

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: لهؤلاءِ الطيِّبين مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ، في الآخرةِ، مَغفِرةٌ من اللهِ لذُنوبِهم، ورِزقٌ حسَنٌ في جنَّاتِ النَّعيمِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥).

قال السعديُّ: (الإشارةُ إلى عائشةَ رضي اللهُ عنها أصلًا، وللمؤمناتِ المُحصَناتِ الغافلاتِ تبعًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

وقال الواحدي: (قال الفرَّاء: يعني عائِشةَ وصَفوانَ، فذكَر الاثنينِ بلَفظِ الجمعِ، كقَولِه: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١] يريدُ: أخَوين، وقَولِه: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨] يريدُ: داودَ وسليمانَ. وقال الزَّجَّاجُ: كلُّ مِن قُذِفَ مِنَ المؤمنينَ والمؤمناتِ مُبَرَّؤونَ ممَّا يقولُ أهلُ الخبثِ القاذِفونَ). ((البسيط)) (١٦/ ١٨٦).

قال ابنُ جرير: (وقَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ يقولُ: الطَّيِّبونُ مِنَ النَّاسِ مُبَرَّؤونَ مِن خَبيثاتِ القَولِ، إنْ قالوها فإنَّ اللهَ يَصفَحُ لهم عنها، ويَغفِرُها لهم، وإنْ قِيلَت فيهم ضَرَّت قائِلَها ولم تَضُرَّهم، كما لو قال الطَّيِّبَ مِنَ القَولِ الخَبيثُ مِن النَّاسِ لم يَنفَعْهُ اللهُ به؛ لأنَّ اللهَ لا يَتقبَّلُه، ولو قِيلَت له لَضَرَّتْه؛ لأنَّه يَلحَقُه عارُها في الدُّنيا، وذُلُّها في الآخرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن =

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ قضى اللهُ العليمُ الخبيرُ أنَّ كُلَّ شَكلٍ ينضَمُّ إلى شَكلِه، ويفعَلُ أفعالَ مِثلِه[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ الغالبُ الْتِئامُ الطَّيِّبةِ مع الطَّيِّبِ، والخَبيثةِ مع الخَبيثِ، لكن قد يَخْرِمُ اللهُ هذه القاعِدةَ لحِكَمٍ عَظيمةٍ، فيَضرِبُها أمثالًا للنَّاسِ، كما ضَرَبَ لهم بامرأتَيْ نوحٍ ولوطٍ، وامرأةِ فِرعونَ، وكما ضَرَبَ مثلًا لابنِ نوحٍ معه، وأبِي إبراهيمَ مع إبراهيمَ. والحكمةُ في ذلك: التفكُّرُ والاتِّعاظُ، وعدَمُ ركونِ الإنسانِ على قريبِه التقيِّ؛ قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر: ٢١]، فإذا عُلِمَ أنَّ أعظمَ مُداخلةٍ بيْن النَّاسِ هي الزوجيَّةُ، ومع ذلك فَصِلَةُ امرأتَيْ نوحٍ ولوطٍ بهما -وهما نبيَّانِ- لم تنفعْهما،

---

= كثير)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

وقال ابن عثيمين: (أي: هؤلاء لهم مَغفِرةٌ على ذنوبِهم، ورِزقٌ كريمٌ على طاعاتِهم؛ فإنَّ الذنْبَ يناسِبُه المغفرةُ، والأعمالَ الصَّالحةَ يناسِبُها الرِّزقُ الكريمُ؛ لأنَّ مَن فعَلَ حَسَنةً يُجزى بعشرِ حَسَناتٍ إلى سَبعِ مئةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، فنَفْهَمُ مِن هذا أنَّ هؤلاء الذين قيل عليهم ما قيل قد حصَلَ لهم تكفيرُ سَيِّئاتٍ ومغفرةُ ذُنوبٍ، وكذلك رِفعةُ دَرَجاتٍ... وهنا قال عزَّ وجَلَّ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ فهؤلاء أُصيبوا مُصيبةً عَظيمةً، ولا شَكَّ أنَّهم صبَروا حتى فرَّج الله عنهم هذه الغُمَّةَ، فكان جزاءَ ما أُصيبوا به في هذه القضيَّةِ أن حصَلَت لهم المغفرةُ، وفي مقابلةِ الصبرِ حصَل لهم الرِّزقُ الكريمُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤٦، ١٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٤٤).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣]. إذا عَلِمَ الإنسانُ ذلك وأنَّ قرابةَ الصَّالحِ لا تنفعُ العاصيَ، كان ذلك باعثًا على العمَلِ، والاتِّصافِ بالصَّلاحِ، والمعروفُ أنَّ اللهَ تعالى نهى عن مُقاربةِ أهلِ السُّوءِ، والاختلاطِ بهم، وقال فيمَن يجالِسُهم إنَّهم يكونون مِثلَهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، ولكنَّ الصالحِينَ قد يَلجَؤون إلى مُخالطةِ الفاسدِين، فلا يَضُرُّهم ذلك في حُدودِ الضَّرورةِ المُلجِئةِ(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ فيه أنَّ كُلَّ خَبيثٍ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، والكَلِماتِ والأفعالِ: مُناسِبٌ للخبيثِ، ومُوافِقٌ له، ومُقتَرِنٌ به، ومشاكِلٌ له؛ وكُلَّ طيِّبٍ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، والكَلِماتِ والأفعالِ: مُناسِبٌ للطيِّبِ، وموافِقٌ له، ومُقتَرِنٌ به، ومُشاكِلٌ له(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ دلَّت الآيةُ على النَّهيِ عن مُقارنةِ الفُجَّارِ ومُزاوجتِهم(٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٨٥- ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٢٦).

وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ لقد برَّأ اللهُ تعالى أربعةً بأربعةٍ: برَّأ يوسُفَ بلِسانِ الشَّاهِدِ ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، وبرَّأ موسى مِن قَولِ اليهودِ فيه بالحَجَرِ الذي ذهَبَ بثَوبِه[١]، وبرَّأ مريمَ بإنطاقِ ولَدِها حين نادى مِن حِجْرِها: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، وبرَّأ عائشةَ بهذه الآياتِ العِظامِ في كتابِه المُعجِزِ المتلُوِّ على وجهِ الدَّهرِ مِثْلَ هذه التبرئةِ بهذه المبالغاتِ، فانظُرْ: كَمْ بيْنها وبيْن تبرئةِ أولئك؟! وما ذاك إلَّا لإظهارِ علُوِّ مَنزلةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتنبيهِ على إنافةِ محلِّ سَيِّدِ ولدِ آدمَ، وخِيرةِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وحُجَّةِ الله على العالَمينَ، ومَن أراد أن يتحقَّق عظَمةَ شأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتقَدُّمَ قدَمِه، وإحرازَه لقصَبِ السَّبْقِ دونَ كُلِّ سابقٍ؛ فليتلَقَّ ذلك من آياتِ الإفكِ، وليتأمَّلْ كيف غَضِبَ اللهُ في حُرمتِه، وكيف بالغَ في نفيِ التُّهمةِ عن حِجابِه[٢]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ أنَّ مَن رمى زانيةً مجلودةً لا يُحَدُّ؛ لثبوتِ الفاحِشةِ فيها، وليس المرادُ مِن هذا إباحةَ عِرْضِ مَن ثَبَتَ عليه الزِّنا، فلا يجوزُ ذلك، ويُؤَدِّبُ السلطانُ مَن رماهُ بما يَراهُ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ فيه مِن الدَّلالةِ على كَمالِ النَّزاهةِ ما ليس في ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾، أي: السَّليماتِ الصُّدورِ، التَّقيَّاتِ القُلوبِ عن كلِّ سُوءٍ[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٧٨، ٣٤٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥، ١٦٦).

وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ تضمَّنت هذه الآيةُ بيانَ أنَّ القَذْفَ مِن الكبائرِ، وهذا بِناءً على أنَّ كلَّ ما تُوُعِّدَ عليه باللَّعْنِ أو العذابِ، أو شُرِعَ فيه حَدٌّ؛ فهو كبيرةٌ، وهو المعتمَدُ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «لَعَنَهم اللهُ»، وإنما قال: ﴿لُعِنُواْ﴾؛ لأجلِ أنْ يشمَلَ ذلك لعنةَ اللهِ سُبحانَه وتعالى وغَيرِه، وهذا مِثْلُ قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، يعني: أنَّ اللهَ يَلعنُهم، وكذلك اللاعِنونَ يلعنونَهم، وبِناءُ الفِعلِ للمفعولِ أفاد في هذه الآيةِ العمومَ(٢).

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذا الحُكمُ وإن كان عامًّا فهو لأجلِ الصِّدِّيقةِ بالذَّاتِ وبالقَصدِ الأوَّلِ، وفيما فيه مِن التَّشديدِ الذي قَلَّ أن يوجَدَ مِثلُه في القرآنِ مِن الإعلامِ بعَليِّ قَدرِها، وجَليِّ أمرِها، في عَظيمِ فَخرِها- ما يَجِلُّ عن الوَصفِ(٣).

٧- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعيدٌ مِن اللهِ تعالى للذين يَرمونَ المُحصَناتِ الغافلاتِ المُؤمِناتِ؛ فأُمَّهاتُ المؤمنينَ أَولى بالدُّخولِ في هذا مِن كُلِّ مُحصَنةٍ، ولا سيَّما التي كانت سبَبَ النُّزولِ، وهي عائشةُ الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيقِ، رَضِيَ اللهُ عنهما(٤).

٨- قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٢/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١، ٣٢).

يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ قد أقرُّوا بوجودِه عزَّ وجَلَّ في الدُّنيا، لكنْ في ذلك اليومِ يَعلَمونَ أنَّه الحقُّ المُبينُ دونَ ما سِواه؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ بصيغةِ الحَصرِ؛ فإنَّه يومئذٍ لا يبقَى أحَدٌ يُدَّعَى فيه الإلهيَّةُ، ولا أحدٌ يُشرِكُ برَبِّه أحدًا[1].

٩- في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تمامُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ إنَّ هذه الأعضاءَ تنطِقُ مع أنَّ النُّطقَ في العادةِ باللِّسانِ، لكنْ يكونُ النُّطقُ بكلِّ شَيءٍ إذا أراد اللهُ سُبحانَه وتعالى؛ ولهذا تقولُ الجلودُ: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[2] [فصلت: ٢١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ الذين تشهَدُ عليهم ألسِنتُهم وأيديهم وأرجلُهم كثيرون، فما سببُ جمْعِها على «أفعُل» وهو مِن جُموعِ القلَّةِ؟!

**والجوابُ**: أنَّ هذا البحثَ قد حقَّقَه الأصوليُّونَ، وأهملَه النحْويُّونَ، وذلك أنَّ مَحَلَّ القِلَّةِ والكثرةِ حينما تكونُ الصِّيغةُ مُنكَّرةً، أمَّا إذا دخلتْ عليها «أل» أو أُضيفتْ إلى مَعرفةٍ فتكونُ عامَّةً، فهي أكثرُ مِن الكَثرةِ[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الحقَّ مِن أسماءِ اللهِ الحُسنى[4].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٨٣).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٤٣).

وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ بيانُ أنَّ الرِّجالَ الطَّيِّبينَ للنِّساءِ الطيِّباتِ، والرِّجالَ الخَبيثين للنِّساءِ الخَبيثاتِ، وكذلك في النِّساءِ؛ فإذا كانت المرأةُ خَبيثةً كان قرينُها خَبيثًا، وإذا كان قرينُها خَبيثًا كانت خَبيثةً، وبهذا عَظُمَ القولُ فيمَن قَذَفَ عائِشةَ ونحوَها مِن أمَّهاتِ المؤمنينَ، ولولا ما على الزَّوجِ في ذلك مِن العَيبِ ما حَصَلَ هذا التَّغليظُ[1]. والأنبياءُ -خصوصًا أُولي العَزمِ منهم، خصوصًا سَيِّدَهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الذي هو أفضَلُ الطيِّبينَ مِن الخَلقِ على الإطلاقِ- لا يناسِبُهم إلَّا كُلُّ طَيِّبٍ مِن النِّساءِ؛ فالقَدحُ في عائشةَ رَضِيَ الله عنها بهذا الأمرِ قدْحٌ في النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو المقصودُ بهذا الإفكِ، مِن قَصدِ المنافِقين، فمُجَرَّدُ كَونِها زوجةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُعلِمُ أنَّها لا تَكونُ إلَّا طيِّبةً طاهِرةً مِن هذا الأمرِ القَبيحِ. فكيف وهي هي؛ صِدِّيقةُ النِّساءِ، وأفضَلُهنَّ، وأعلَمُهنَّ، وأطيبُهنَّ، حَبيبةُ رَسولِ رَبِّ العالَمينَ، التي لم يَنزِلِ الوحيُ عليه وهو في لحافِ زَوجةٍ مِن زَوجاتِه غَيرِها؟! ثمَّ صرَّح بذلك، بحيثُ لا يُبقي لمُبطِلٍ مَقالًا، ولا لشَكٍّ وشُبهةٍ مَجالًا، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾، والإشارةُ إلى عائشةَ رَضِيَ الله عنها أصلًا، وللمُؤمِناتِ المُحصَناتِ الغافلاتِ تَبَعًا[2].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ الرَّميَ وَقَعَ على اثنينِ، فكيف يُعَبَّرُ عنهما بصيغةِ الجَمعِ؟

**الجوابُ مِن أوجُهٍ:**

**الوجهُ الأولُ:** أنَّ هذا مِمَّا استدَلَّ به بعضُ العُلماءِ على ما رآه الإمامُ مالكٌ مِن أنَّ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٣٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٣).

أقلَّ الجَمعِ اثنانِ، ومِثلُ هذا قولُه تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ [النساء: ١١]؛ فإنه يَصْدُقُ على اثنينِ عندَ غيرِ ابنِ عباسٍ. وقَولُه تعالى: ﴿وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [طه: ١٣٠] أي: طَرَفاه. وقَولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤] أي: قَلْباكُما.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ المرادَ بالجمعِ التَّعظيمُ.

**وهناك وجهٌ ثالثٌ**: وهو أنَّ مَرجِعَ الضَّميرِ هو عائشةُ وصَفْوانُ، وأبو بكرٍ والرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فالآيةُ تدُلُّ على بَعضِهم -وهما عائشةُ وصَفوانُ- بالمُطابقةِ، وعلى بعضِهم -وهما الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم وأبو بكرٍ- باللُّزومِ[1].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ نزَلتْ في براءةِ أُمِّ المؤمنينَ عائشةَ رضِيَ اللهُ عنها مِمَّا رُمِيَت به، وعلى هذا فالآيةُ الكريمةُ يظهَرُ تعارُضُها مع قَولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ﴾ [التحريم: ١٠]، إلى قَولِه: ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾، وقولِه أيضًا: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ ...﴾ [التحريم: ١١]؛ إذ الآيةُ الأولى دلَّت على خُبثِ الزَّوجَتينِ الكافرتَينِ، مع أنَّ زوجَيهما مِن أطيبِ الطيِّبينَ، وهما نوحٌ ولوطٌ عليهما وعلى نبيِّنا الصلاةُ والسَّلامُ، والآيةُ الثانيةُ دلَّت على طِيبِ امرأةِ فِرعونَ مع خُبثِ زَوجِها؟

**الجوابُ عن ذلك مِن أوجُهٍ:**

**الأول**: أنَّ معنى الآيةِ: الخبيثاتُ من القولِ للخبيثينَ مِن الرجالِ، والخَبيثون مِنَ الرِّجالِ للخَبيثاتِ مِنَ القَولِ؛ والطيِّباتُ مِن القَولِ للطيِّبينَ مِن الرِّجالِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٨٧).

والطيِّبونَ مِن الرِّجالِ للطيِّباتِ مِن القَولِ، أي فما نسَبَه أهلُ النِّفاقِ إلى عائشةَ مِن كَلامٍ خَبيثٍ هم أَولى به، وهي أَولى بالبراءةِ والنَّزاهة منهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]، وعلى هذا الوجهِ فلا تعارُضَ أصلًا بين الآياتِ.

**الثاني**: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ...﴾ إلى آخِرِه: مِن العامِّ المخصوصِ، بدليلِ امرأةِ نوحٍ وامرأةِ فِرعَونَ، وعليه فالغالِبُ تَقييضُ كُلٍّ مِن الطيِّباتِ والطيِّبين والخبيثاتِ والخَبيثين لجِنسِه وشَكلِه الملائِمِ له في الخُبثِ أو الطِّيبِ، مع أنَّه تعالى ربَّما قَيَّض خبيثةً لطَيِّبٍ، كامرأةِ نوحٍ ولوطٍ، أو طيِّبةً لخبيثٍ، كامرأةِ فِرعَونَ؛ لحِكمةٍ بالغةٍ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التحريم: ١٠]، وقَولُه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [التحريم: ١١] مع قَولِه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ فدلَّ ذلك على أنَّ تقييضَ الخبيثةِ للطيِّبِ أو الطيِّبةِ للخَبيثِ فيه حِكمةٌ لا يَعقِلُها إلَّا العُلماءُ، وهي في تقييضِ الخبيثةِ للطيِّبِ أن يبيِّنَ للنَّاسِ أنَّ القرابةَ مِن الصالحينَ لا تنفَعُ الإنسانَ، وإنَّما ينفَعُه عَمَلُه(١).

**الثالث**: أنَّ المرادَ بالخُبثِ: خُبثُ الصِّفاتِ الإنسانيَّةِ كالفواحشِ، وكذلك المرادُ بالطِّيبِ: زكاءُ الصِّفاتِ الإنسانيَّةِ مِن الفضائِلِ المعروفةِ في البشَرِ، فليس الكُفرُ مِن الخُبثِ، ولكِنَّه من متمِّماتِه، وكذلك الإيمانُ مِن مكَمِّلاتِ الطِّيبِ؛ فلذلك لم يكُنْ كُفرُ امرأةِ نوحٍ وامرأةِ لوطٍ ناقضًا لعمومِ الآيةِ(٢).

١٥- قال الله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٨، ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٥).

وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ فليس في الأنبياءِ ولا الصَّالحينَ مَن تزوَّج بَغِيًّا؛ لأنَّ البِغاءَ يُفسِدُ فِراشَه؛ ولهذا أُبيحَ للمسلِمِ أن يتزوَّجَ الكتابيَّةَ اليهوديَّةَ والنصرانيَّةَ إذا كان مُحصَنًا غيرَ مُسافِحٍ ولا متَّخِذِ خِدنٍ، فعُلِمَ أنَّ تزَوُّجَ الكافرةِ قد يجوزُ، وتزَوُّجَ البَغِيِّ لا يجوزُ؛ لأنَّ ضَرَرَ دِينِها لا يتعدَّى إليه، وأمَّا ضرَرُ بِغائِها فيتعَدَّى إليه[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُبَرِّئُ أهلَ الرَّجُلِ الطيِّبِ العفيفِ مِن الخُبثِ؛ لأنَّ الطيِّباتِ للطَّيِّبينَ، والطيِّبينَ للطيِّباتِ، وهذا مِن حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ: أنَّ الإنسانَ كلَّما كان طيِّبًا نظيفًا وطاهِرًا، فإنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى يُهيِّئُ له أهلًا بهذه المَثابةِ؛ جزاءً وِفاقًا، والأمرُ كذلك بالعَكسِ فيما لو كان خبيثًا، ولا سيَّما فيما يتعلَّقُ بالعِفَّةِ، وهذا هو الغالِبُ في الواقِعِ: أنَّ المرءَ ذا الخُلُقِ الخَبيثِ يكونُ أهلُه كذلك؛ لأنَّه لم يَحْمِ نَفْسَه حتى يحميَه اللهُ عزَّ وجَلَّ[٢].

١٧- قَولُ الله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ فيه وَعدٌ بأنْ تكونَ عائشةُ رَضِيَ الله عنها -زوجةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في الجنَّةِ[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ دَليلٌ على أنَّ مَن أُصيبَ بمصيبةٍ قوليَّةٍ أو فعليَّةٍ، فإنَّ اللهَ تعالى يَغفِرُ له، فإن صَبَر فله أجرٌ أيضًا[٤].

١٩- قَولُه: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ ذِكْرُ الرِّزقِ الكريمِ هاهنا مِثْلُه في

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٤٨).

قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣١]؛ فكما أُرِيدَ بالرِّزقِ الكريمِ هنالك البِشارةُ بالجنَّةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ بدليلِ قولِه: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، كذلك يَنْبغي أنْ يكونَ هاهنا؛ لأنَّ الآيتينِ مِثْلانِ، وكما أنَّ الرِّزقَ الكريمَ هناك مَسبوقٌ بـ ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾، كذلك هاهنا مَسبوقٌ بقولِه: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، وكما أنَّ إيتاءَ الأجرِ هناك مُسبَّبٌ عن قُنوتِهنَّ، كذلك هنا ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ مُسبَّبٌ عن كونِها مُبرَّأةً عمَّا قِيلَ فيها، وليس ذلك إلَّا لقُنوتِها وطَهارتِها، وكما أنَّ تلك الآيةَ في شأْنِ نِساءِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كذلك هذه في شأْنِ حَبيبتِه وصَفيَّتِه؛ فالكلامُ مَبْنيٌّ على حمْلِ المُطْلَقِ على المُقيَّدِ(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

- جُملةُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ...﴾ استِئنافٌ بعدَ استئنافِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ﴾ [النُّور: ١٩]، والكلُّ تَفصيلٌ للموعظةِ الَّتي في قولِه: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [النُّور: ١٧]؛ فابْتُدِئَ بوعيدِ العَودِ إلى محبَّةِ ذلك، وثُنِّيَ بوَعيدِ العَودِ إلى إشاعةِ القالةِ؛ فالمُضارِعُ ﴿يَرْمُونَ﴾ للاستقبالِ، وإنَّما لم تُعطَفْ هذه الجُملةُ؛ لوُقوعِ الفصلِ بيْنها وبيْنَ الَّتي تُناسِبُها بالآياتِ النَّازلةِ بيْنهما مِن قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾(٢) [النور: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٠، ١٩١).

- قَولُه: ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ﴿ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ وُقوعِهنَّ فيما رُمِينَ به؛ لأنَّ الَّذي يفعَلُ الشَّيءَ لا يكونُ غافلًا عنه؛ فالمعنى: إنَّ الَّذين يَرْمُون المُحصَناتِ كذِبًا عليهنَّ. وذُكِرَ وَصفُ ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لتَشنيعِ قذْفِ الَّذين يَقْذِفونَهنَّ كذِبًا؛ لأنَّ وصْفَ الإيمانِ وازِعٌ لهنَّ عن الخَنا[1].

- قَولُه: ﴿ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المُرادُ عائشةُ الصِّدِّيقةُ رضِيَ اللهُ عنَها، والجمْعُ باعتبارِ أنَّ رمْيَها رمْيٌ لسائرِ أُمَّهاتِ المُؤمنينَ؛ لاشتراكِ الكلِّ في العِصمةِ والنَّزاهةِ والانتِسابِ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقِيلَ: المُرادُ أُمَّهاتُ المؤمنينَ، فيَدخُلُ فيهنَّ الصِّدِّيقةُ دُخولًا أوَّليًّا[2]. أو المُرادُ أُمُّ المؤمنينَ عائشةُ، فجُمِعَت إرادةً لها ولبَناتِها مِن نِساءِ الأُمَّةِ الموصوفاتِ بالإحصانِ والغفلةِ والإيمانِ[3]. وقِيلَ: أراد بالمُحصَناتِ العُمومَ، وإنْ كان الحديثُ مَسوقًا عن عائشةَ، والمقصودُ بذِكْرِهنَّ على العُمومِ وَعيدُ مَن وقَعَ في عائشةَ على أبلغِ الوُجوهِ؛ لأنَّه إذا كان هذا وعيدَ قاذفِ آحادِ المُؤمناتِ، فما الظَّنُّ بوعيدِ مَن وقَعَ في قذْفِ سيِّدتِهنَّ؟! على أنَّ تَعميمَ الوعيدِ أبلَغُ وأقطَعُ مِن تَخصيصِه؛ ولهذا عمَّمَت امرأةُ العزيزِ حينَ قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، فعمَّمت وأرادتْ يُوسفَ؛ تَهويلًا عليه وإرجافًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٥، ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٨٨).

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

- قَولُه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ﴾ إمَّا مُتَّصلٌ بما قبْلَه، مَسوقٌ لتَقريرِ العذابِ المذكورِ بتَعيينِ وقْتِ حُلولِه وتَهويلِه ببَيانِ ظُهورِ جِناياتِهم المُوجِبةِ له، مع سائرِ جِناياتِهم المُستتبِعةِ لعُقوباتِها عَلى كيفيَّةٍ هائلةٍ وهيْئةٍ خارقةٍ للعاداتِ؛ فـ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ لِمَا في الجارِّ والمجرورِ المُتقدِّمِ: ﴿وَلَهُمْ﴾ من معنى الاستقرارِ، لا لـ﴿عَذَابٌ﴾، وإنْ أغْضَينا عن وصْفِه؛ لإخلالِه بجزالةِ المعنى. وإمَّا مُنقطِعٌ عنه، مَسوقٌ لتَهويلِ اليومِ بتَهويلِ ما يَحويهِ، على أنَّه ظرفٌ لِفعلٍ مُؤخَّرٍ قد ضُرِبَ عنه الذِّكرُ صَفْحًا؛ للإيذانِ بقُصورِ العبارةِ عن تَفصيلِ ما يقَعُ فيه مِن الطَّامَّةِ التَّامَّةِ، والدَّاهيةِ العامَّةِ؛ كأنَّه قِيلَ: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾: يكونُ مِن الأحوالِ والأهوالِ ما لا يُحِيطُ به حيطةُ المقالِ، على أنَّ الموصولَ المذكورَ عِبارةٌ عن جميعِ أعمالِهم السَّيِّئةِ، وجِناياتِهم القبيحةِ، لا عن جِناياتِهم المعهودةِ فقطْ. والموصولُ والمحذوفُ عبارةٌ عنها وعن فُنونِ العُقوباتِ المُترتِّبةِ عليها كافَّةً، لا عنْ إحداهما خاصَّةً؛ ففيهِ مِن ضُروبِ التَّهويلِ بالإجمالِ والتَّفصيلِ ما لا مَزيدَ عليه[1].

- والجمْعُ بين صِيغتَيِ الماضِي والمُستقبَلِ ﴿كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استِمرارِهم عليها في الدُّنيا. وتَقديمُ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على الفاعلِ ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ كونِ الشَّهادةِ ضارَّةً لهم، مع ما فيه مِن التَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[2].

- وتَخصيصُ هذه الأعضاءِ ﴿أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ بالذِّكرِ، مع أنَّ الشَّهادةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تكونُ مِن جميعِ الجسَدِ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١]؛ لأنَّ لهذه الأعضاءِ عمَلًا في رمْيِ المُحصَناتِ؛ فهم يَنطِقون بالقذْفِ، ويُشيرون بالأيدي إلى المقذوفاتِ، ويَسْعَون بأرجُلِهم إلى مجالِسِ النَّاسِ لإبلاغِ القذْفِ(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكْرَ شَهادةِ الأعضاءِ يُثِيرُ سُؤالًا عن آثارِ تلك الشَّهادةِ، فيُجابُ بأنَّ أثَرَها أنْ يُجازِيَهم اللهُ على ما شهِدَت به أعضاؤُهم عليهم(٢).

- ووصْفُ الدِّينِ بالحقِّ، وكذلك وصْفُ اللهِ تعالى بالحقِّ في قولِه: ﴿دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾، وقولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ وَصْفٌ بالمصدَرِ؛ للمُبالَغةِ، ولإفادةِ تحقُّقِ اتِّصافِه بالحقِّ(٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ إنْ كان وصْفُ اللهِ بـ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ بالمعنى المصدريِّ؛ فالحصْرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفصلِ ادِّعائيٌّ؛ لعدَمِ الاعتِدادِ بالحقِّ الَّذي يَصدُرُ مِن غيرِه مِن الحاكمينَ؛ لأنَّه وإنْ يُصادِفِ المِحَزَّ فهو مع ذلك مُعرَّضٌ للزَّوالِ وللتَّقصيرِ وللخطأِ، فكأنَّه ليس بحقٍّ، أو ليس بمُبينٍ. وإنْ كان الخبَرُ عن اللهِ بأنَّه الحقُّ بالمعنى الاسميِّ للهِ تعالى؛ فالحصْرُ حقيقيٌّ؛ إذ ليس اسمُ الحقِّ مُسمًّى به غيرُ ذاتِ اللهِ تعالى، فالمعنى: أنَّ اللهَ هو صاحبُ هذا الاسمِ. وعلى أنَّ المُرادَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ﴾ خُصوصُ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيِّ ابنِ سَلولَ ومَن يتَّصِلُ به مِن المُنافقينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

المُبْطِنينَ الكُفْرَ، بلْهَ الإصرارَ على ذنْبِ الإفكِ؛ إذ لا توبةَ لهم، فهم مُستمِرُّون على الإفكِ فيما بيْنهم؛ لأنَّه زُيِّنَ عندَ أنفُسِهم، فلم يَرُوموا الإقلاعَ عنه في بَواطنِهم مع علْمِهم بأنَّه اختِلاقٌ منهم، لكنَّهم -لِخُبْثِ طَواياهم- يَجعَلون الشَّكَّ الَّذي خالَجَ أنفُسَهم بمَنزلةِ اليقينِ، فهم ملْعونونَ عندَ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ، ولهم عذابٌ عظيمٌ في الآخرةِ، ويعْلمون أنَّ اللهَ هو الحقُّ المُبينُ فيما كذَّبَهم فيه مِن حديثِ الإفكِ، وقد كانوا مِن قبْلُ مُبْطنينَ الشِّركَ مع اللهِ، فجاعلينَ الحقَّ ثابتًا لأصنامِهم؛ فالقصْرُ حينئذٍ إضافيٌّ[1]، أي: يعْلَمون أنَّ اللهَ وحْدَه دونَ أصنامِهم[2].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ * يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ * يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ هذا مِنَ التَّغليظِ الشَّديدِ الَّذي أُوعِدَ به العُصاةُ؛ ولم يُغلِّظِ اللهُ تعالى في شَيءٍ تَغليظَه في إفكِ عائشةَ رضوانُ اللهِ عليها، ولا أنزَلَ مِن الآياتِ القوارعِ، المشحونةِ بالوعيدِ الشَّديدِ، والعِتابِ البليغِ، والزَّجرِ العنيفِ، واستِعظامِ ما رُكبَ مِن ذلك،

---

(١) القصرُ -في اصطلاحِ البلاغيينَ-: هو تخصيصُ شيءٍ بشيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأوَّلُ: مقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، وما ضربتُ إلَّا زيدًا. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكون المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صحةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصر بالإضافة إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. مثل: قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٣، ١٩٤).

واستِفظاعِ ما أُقْدِمَ عليه، ما أنزَلَ فيه على طُرقٍ مُختلفةٍ، وأساليبَ مُفْتَنَّةٍ، كلُّ واحدٍ منها كافٍ في بابِه، ولو لم يُنزِلْ إلَّا هذه الثلاثَ لَكفَى بها؛ حيث جعَلَ القذفةَ ملْعونينَ في الدَّارينِ جميعًا، وتوعَّدَهم بالعذابِ العظيمِ في الآخرةِ، وبأنَّ ألْسنَتَهم وأيدِيَهم وأرجُلَهم تَشهَدُ عليهم بما أفكُوا وبَهَتوا، وأنَّه يُوفِّيهم جزاءَهم الحقَّ الواجبَ الَّذي هم أهْلُه، حتَّى يَعْلَموا عندَ ذلك أنَّ اللهَ هو الحقُّ المبينُ؛ فأوجَزَ في ذلك وأشبَعَ، وفصَّلَ وأجمَلَ، وأكَّدَ وكرَّرَ، وجاء بما لم يقَعْ في وَعيدِ المشركينَ عبدةِ الأوثانِ إلَّا ما هو دونَه في الفظاعةِ، وما ذاك إلَّا لأمْرٍ[1]؛ ففصَّلَ وأجمَلَ؛ حيث أوقَعَ ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ﴾ إجمالًا لِمَا سبَقَ، وأكَّدَ وكرَّرَ من حيث إنَّ البدَلَ -وهو قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾- بدلُ تكريرٍ للمُبدَلِ وتَوكيدٍ له، وجاء بما لم يقَعْ في وَعيدِ المشركينَ إلَّا ما هو دونه في الفظاعةِ، وهو قولُه: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فيه تَعريضٌ بالَّذين اختَلَقوا الإفكَ بأنْ ما أفكُوه لا يَليقُ مثْلُه إلَّا بأزواجِهم؛ فقولُه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ تعريضٌ بالمُنافقينَ المُختلقينَ للإفكِ. والابتداءُ بذِكْرِ الخبيثاتِ؛ لأنَّ غرَضَ الكلامِ الاستِدلالُ على بَراءةِ عائشةَ وبقيَّةِ أُمَّهاتِ المؤمنينَ رضِيَ اللهُ عنهنَّ[3].

- وعطْفُ ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾ إطنابٌ؛ لمَزيدِ العنايةِ بتَقريرِ هذا الحُكْمِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٧، ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٤).

ولتكونَ الجُملةُ بمَنزلةِ المَثَلِ مُستقِلَّةً بدَلالتِها على الحُكْمِ، ولِيَكونَ الاستِدلالُ على حالِ القرينِ بحالِ مُقارِنِه حاصلًا مِن أيِّ جانبٍ ابتدأَهُ السَّامعُ. وذِكْرُ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ إطنابٌ أيضًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُقارَنةَ دليلٌ على حالِ القرينَينِ في الخيرِ أيضًا. وعطْفُ ﴿وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ كعطْفِ ﴿وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ﴾[1]؛ فقولُه: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ ...﴾ الآيةَ، هذه قضيَّةٌ كُلِّيَّةٌ؛ ولذلك حُقَّ لها أنْ تَجرِيَ مَجرى المثَلِ، وجُعِلَت في آخرِ القصَّةِ كالتَّذييلِ[2].

- قَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الطَّيِّبينَ، وأنَّهم مُبرَّؤونَ ممَّا يقولُ الخبيثونَ مِن خَبيثاتِ الكلِمِ، وهو كلامٌ جارٍ مَجرى المثَلِ لعائشةَ رضِيَ اللهُ عنها وما رُمِيَت به مِن قولٍ لا يُطابِقُ حالَها في النَّزاهةِ والطِّيبِ[3]؛ فالآيةُ عامَّةٌ تَذييلٌ للكلامِ السَّابقِ[4]. وما في اسمِ الإشارةِ مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبةِ المُشارِ إليهم، وبُعدِ مَنزلَتِهم في الفضلِ[5].

- وفي العُدولِ عن التَّعبيرِ عن الإفكِ باسْمِه إلى ﴿مِمَّا يَقُولُونَ﴾: إيماءٌ إلى أنَّه لا يَعْدو كونَه قولًا، أي: أنَّه غيرُ مُطابِقٍ للواقعِ[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٥).

## الآيات (٢٧-٢٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٢٨﴾ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾: أي: تَستأذِنوا، وتَستَعلِموا أيُريدُ أهلُها أن تَدخُلوا أم لا، والاستِئناسُ: إعلامُ مَن في الدارِ، تقولُ: استأنسْتُ فما رأيتُ أحدًا، أي: استعلَمْتُ وتعرَّفْتُ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ[1].

﴿مَتَٰعٞ﴾: أي: تمتُّعٌ وانتِفاعٌ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على المنفعةِ[2].

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: يا أيُّها الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، لا تَدخُلوا بيوتًا غيرَ بُيوتِكم حتى تستأذِنوا أهلَها في الدُّخولِ، وتُسَلِّموا عليهم، ذلكم الاستِئذانُ والتَّسليمُ خيرٌ لكم؛ لتتَّعِظوا وتعمَلوا بموجِبِ هذه الآدابِ، فإنْ لم تجِدوا في بُيوتِ الآخَرينَ أحدًا يأذَنُ لكم بالدُّخولِ فلا تَدخُلوها حتى يُسمَحَ لكم بالدُّخولِ، وإنِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ١٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

استأذَنْتُم فلم يُؤذَنْ لكم، وقيل لكم: ارجِعوا؛ فارجِعوا ولا تُلِحُّوا؛ فإنَّ الرُّجوعَ عندَئذٍ أطهَرُ لكم، واللهُ عليمٌ بكُلِّ أعمالِكم، فيُجازيكم عليها. وليس عليكم إثمٌ وحرَجٌ أن تدخُلوا بغيرِ استِئذانٍ بُيوتًا لا تختَصُّ بسُكنى أحدٍ؛ كالبُيوتِ المبنيَّةِ على الطُّرُقِ للمُسافرينَ، والبُيوتِ الخَرِبةِ، وحوانيتِ التجَّارِ وغيرِها؛ ففيها حاجةٌ ومنافِعُ لِمَن يدخُلُها، واللهُ يعلَمُ ما تُظهِرونَ وما تُسِرُّونَ في نفوسِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٢٧ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الله تعالى عدَلَ عمَّا يتَّصِلُ بالرَّميِ والقذفِ وما يتعلَّقُ بهما مِن الحُكمِ، إلى ما يليقُ به؛ لأنَّ أهلَ الإفكِ إنَّما وجَدوا السَّبيلَ إلى بُهتانِهم مِن حيث اتَّفقت الخَلوةُ، فصارت كأنَّها طريقُ التُّهمةِ، فأَوجَبَ اللهُ تعالى ألَّا يَدخُلَ المرءُ بيتَ غَيرِه إلَّا بعد الاستِئذانِ والسَّلامِ؛ لأنَّ في الدُّخولِ لا على هذا الوجهِ وقوعَ التُّهمةِ، وفي ذلك مِن المضَرَّةِ ما لا خَفاءَ به، فقال تعالى[1]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمَنوا، لا تدخُلوا بيوتَ غيرِكم حتى تستأذِنُوا منهم في دُخولِها، وتُسلِّموا على ساكِنيها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٧١٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) =

= (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٧).

وممَّن قال بأنَّ الاستِئناسَ هنا بمعنى الاستِئذانِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن القيم، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ جُزَي: (ومعنَى ﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾: تَستأذِنوا، وهو مأخوذٌ مِن قَولِك: آنستُ الشَّيءَ: إذا عَلِمْتَه؛ فالاستِئناسُ: أن يَستعلِمَ: هل يريدُ أهلُ الدَّارِ الدُّخولَ أم لا؟ وقيل: هو مأخوذٌ مِنَ الأُنسِ، ضِدِّ الوَحشةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٦).

قال الشنقيطي: (في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمةِ بما يناسِبُ لَفْظَها وجهانِ، ولكُلٍّ منهما شاهِدٌ مِن كتابِ الله تعالى:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّه مِن الاستِئناسِ الظَّاهِرِ الذي هو ضِدُّ الاستيحاشِ؛ لأنَّ الذي يَقرَعُ بابَ غيرِه لا يدري أيؤْذَنُ له أمْ لا، فهو كالمُستوحِشِ من خَفاءِ الحالِ عليه، فإذا أُذِنَ له استأنسَ وزال عنه الاستيحاشُ...

الوَجهُ الثَّاني في الآيةِ: هو أن يكونَ الاستِئناسُ بمعنى الاستِعلامِ والاستِكشافِ، فهو استفعالٌ مِن آنسَ الشَّيءَ: إذا أبصَرَه ظاهِرًا مَكشوفًا أو عَلِمَه. والمعنى: حتى تَستَعلِموا وتستكشِفوا الحالَ، هل يؤْذَنُ لكم أمْ لا). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٩١).

وقال القاسمي: (﴿تَسْتَأْنِسُوا﴾ أي تَستَعلِموا وتَستكشِفوا الحالَ: هلْ يُرادُ دُخولُكم أمْ لا؟ مِنَ الاستِئناسِ وهو الاستِعلامُ... أو المعنى: حتى يؤْذَنَ لكم فتَستأنِسوا، مِنَ الاستِئناس الذي هو خِلافُ الاستيحاشِ؛ لِما أنَّ المستأذِنَ مُستَوحِشٌ مِن خَفاءِ الحالِ عليه، فيكون عبَّر بالشَّيءِ عمَّا هو لازِمٌ له). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٦٨).

وقال ابنُ جرير: (فتأويلُ الكلامِ إذَنْ إذا كان ذلك معناه: يا أيُّها الذين آمنوا، لا تدخُلوا بُيوتًا غيرَ بُيوتِكم حتى تُسَلِّموا وتستأذِنوا، وذلك أن يقولَ أحَدُكم: السَّلامُ عليكم، أدخُلُ؟ وهو مِن المقَدَّمِ الذي معناه التأخيرُ، إنما هو: حتى تسَلِّموا وتستأذِنوا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٦).

وقال ابن عثيمين: (اختلف العُلَماءُ في مسألة: هل تستأذِنُ أولًا، أو تسَلِّمُ أولًا؟ على أقوالٍ ثلاثة:

فمنهم مَن يرى تقديمَ الاستئذانِ على السَّلامِ؛ لظاهِرِ الآيةِ: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾.

ومنهم مَن يرى أنَّ السَّلامَ قبل الاستئذانِ؛ لأحاديثَ وردَت في ذلك.

ومنهم مَن يرى أنَّه لو عَلِمَ أنَّ صاحِبَ البَيتِ موجودٌ، فعليه أن يسَلِّمَ أولًا ثم يستأذِنَ، وأمَّا إذا لم يَعلَمْ بوجودِه فإنَّه يستأذِنُ أولًا ثم يسَلِّمُ، وهذا القولُ أصَحُّ الأقوالِ الثلاثةِ؛ لأنَّ فيه جمعًا بين الآيةِ والأحاديثِ الواردةِ، ولأنَّه موافِقٌ تمامًا للنظَرِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٥٤). =

عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنتُ في مجلِسٍ مِن مجالسِ الأنصارِ إذ جاء أبو موسى كأنَّه مذعورٌ، فقال: استأذنتُ على عُمَرَ ثلاثًا، فلم يؤْذَنْ لي، فرَجَعْتُ، فقال: ما منَعَك؟ قلتُ: استأذنتُ ثلاثًا فلم يؤذَنْ لي فرجعْتُ، وقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إذا استأذنَ أحَدُكم ثلاثًا فلم يؤْذَنْ له، فلْيَرجِعْ. فقال: واللهِ لَتُقِيمَنَّ عليه ببيِّنةٍ، أمِنْكم أحدٌ سَمِعه من النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ فقال أُبَيُّ بنُ كَعبٍ: واللهِ لا يَقومُ معك إلَّا أصغَرُ القومِ! فكنتُ أصغَرَ القَومِ، فقُمتُ معه، فأخبَرْتُ عُمَرَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال ذلك))[1].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((اطَّلَع رجلٌ من جُحْرٍ[2] في حُجَرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِدْرًى[3] يَحُكُّ به رأسَه، فقال: لو أعلَمُ أنَّك تنظُرُ لطعَنْتُ به في عَينِك، إنَّما جُعِل الاستِئذانُ مِن أجلِ البَصَرِ))[4].

وعن رجُلٍ من بني عامرٍ، أنَّه ((استأذَنَ علَى النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ وهو في بيتٍ، فقالَ: أألِجُ؟ فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ لخادمِه: اخرُجْ إلى هذا فعلِّمهُ الاستئذانَ، فقُلْ لَه: قُلْ: السَّلامُ عليكم، أأدخُلُ؟ فسمِعَه فقال: السَّلامُ عليكم، أأدخُلُ؟ فأَذِنَ لَه النَّبيُّ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّمَ، فدخَلَ))[5].

---

= وقال ابنُ جُزَي: (وليس في الآيةِ عَدَدُ الاستِئذانِ، وجاء في الحَديثِ أن يَستأذِنَ ثلاثَ مَرَّاتٍ، وهو تفسيرٌ للآيةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٦).

(١) رواه البخاري (٦٢٤٥).

(٢) جُحْرٍ: أي: ثُقبٍ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٢/ ٢٣٩).

(٣) مِدْرًى: أي: حديدةٌ يُسَوَّى بها شَعرُ الرَّأسِ شِبهُ المُشطِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٣٧).

(٤) رواه البخاري (٦٢٤١) واللفظ له، ومسلم (٢١٥٦).

(٥) أخرجه أبو داود (٥١٧٧) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠١٤٨)، وأحمد (٢٣١٢٧). =

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: ذلكم الاستِئذانُ والسَّلامُ عندَ إرادةِ دُخولِ بُيوتِ النَّاسِ أفضَلُ للمُستأذِنِ ولأهلِ البَيتِ، أمَرَكم اللهُ بذلك لتُطيعوه بفِعلِ هذه الآدابِ، وتَعلَموا أنَّها خيرٌ لكم مِن الدُّخولِ بلا إذنٍ ولا سلامٍ، فتَّتعِظوا وتأخُذوا بها[1].

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾.

أي: فإنْ لم تجِدوا في بُيوتِ غَيرِكم أحَدًا مِن أهلِها، فاصبِروا ولا تدخُلوها إلى أن يؤْذَنَ لكم بالدُّخولِ، فإن أُذِن لكم فادخُلوا[2].

﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾.

أي: وإنِ استأذَنْتُم مِن أهلِ البُيوتِ في دُخولِ بُيوتِهم، فلمْ يأذَنوا لكم، وقالوا لكم: انصَرِفوا؛ فانصَرِفوا بلا غَضَبٍ، ولا تُلِحُّوا عليهم في طلَبِ الإذنِ، ولا تَبقَوا عندَ بُيوتِهم مُنتَظِرينَ[3].

---

= صحَّح إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٦١٩)، وصحَّح الحديثَ ابنُ القيم في ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٩٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥). =

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾.

أي: رجوعُكم عن بُيوتِ النَّاسِ إذا لم يأذَنوا لكم بدُخولِها، أطهَرُ لكم[١].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ بما تعمَلون مِن الطَّاعاتِ والمعاصي، ودُخولِكم بإذنٍ وبغيرِ إذنٍ، وبغيرِ ذلك مِن أعمالِكم؛ عليمٌ، وسيُجازيكم عليها؛ خَيرِها وشَرِّها[٢].

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حُكمَ الدُّورِ المَسكونةِ؛ ذكَرَ بعدَه حُكمَ الدُّورِ التي هي غيرُ مَسكونةٍ؛ وذلك لأنَّ المانِعَ مِن الدُّخولِ إلَّا بإذنٍ زائِلٌ عنها[٣].

وأيضًا لَمَّا كان مِن الأماكنِ التي قد لا يُوجَدُ بها أحَدٌ، ما يُباحُ الدُّخولُ إليه؛

---

= قال السعدي: (﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟﴾ أي: فلا تمتَنِعوا مِن الرُّجوعِ، ولا تغضَبوا منه؛ فإنَّ صاحِبَ المنزلِ لم يمنعْكم حقًّا واجبًا لكم، وإنما هو متبرِّعٌ، فإن شاء أذِنَ أو منَعَ، فأنتم لا يأخُذْ أحَدَكم الكِبْرُ والاشمئزازُ مِن هذه الحالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٠).

قال السعدي: (﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أشدُّ لتطهيرِكم مِن السيئاتِ، وتنميتِكم بالحسناتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (معنى ﴿أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾: أنَّه أفضَلُ وخيرٌ لكم مِن أن يأذَنوا على كراهيةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٩).

لخُلوِّه، أو عَدَمِ اختِصاصِ النَّازِلِ به- أتبَع ما تقدَّمَ التَّعريفَ بأنَّه لم يَدخُلْ في النَّهيِ؛ فقال تعالى[1]:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾.

أي: لا إثمَ ولا حرجَ عليكم أن تدخُلوا -مِن غيرِ استِئذانٍ- بيوتًا لا يَسكُنُها أحدٌ؛ لتنتَفِعوا بها؛ كالبيوتِ المبنيَّةِ على الطُّرُقِ للمُسافرينَ، والبُيوتِ الخَرِبةِ، وحوانيتِ التجَّارِ، والمكتباتِ، إلى غيرِ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٨، ٢٥٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٧١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠١ - ٢٠٣).

قال ابن جرير: (إنَّ الله عمَّ بقولِه: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ٢٩] كلَّ بيتٍ لا ساكنَ به لنا فيه متاعٌ، نَدخلُه بغيرِ إذنٍ، فلا وجهَ لتخصيصِ بعضِ ذلك دونَ بعضٍ، فكُلُّ بيتٍ لا مالِكَ له ولا ساكِنَ؛ مِن بيتٍ مبنيٍّ ببعضِ الطُّرُقِ للمارَّة والسَّابِلةِ؛ ليأوُوا إليه، أو بيتِ خرابٍ قد بادَ أهلُه، ولا ساكِنَ فيه، حيث كان ذلك- فإنَّ لِمَن أراد دخولَه أن يدخُلَ بغيرِ استئذانٍ؛ لمتاعٍ له يؤويه إليه، أو للاستِمتاعِ به لقضاءِ حَقِّه؛ مِن بولٍ، أو غائطٍ، أو غيرِ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٢، ٢٥٣).

وقال البيضاوي: (﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ كالرُّبُطِ والحوانيتِ والخاناتِ والخانقاتِ. ﴿فِيهَا مَتَاعٌ﴾ استِمتاعٌ ﴿لَّكُمْ﴾؛ كالاستِكنانِ مِن الحرِّ والبردِ، وإيواءِ الأمتعةِ، والجلوسِ للمعامَلةِ، وذلك استثناءٌ مِن الحُكمِ السَّابِقِ؛ لشُمولِه البيوتَ المسكونةَ وغيرَها). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٤).

قال ابن عاشور: (وأمَّا أن تكونَ تلك البيوتُ مأهولةً بأناسٍ يقطُنونَها يُؤوونَ المُسافرين ورِحالَهم ورواحِلَهم، ويحفَظون أمتِعتَهم ويُبيِّتونَهم حتى يستأنِفوا المرحلةَ؛ مثل الخاناتِ المأهولةِ والفنادقِ، وكذلك البيوتُ المعدودةُ لبيعِ السِّلَعِ، والحمَّاماتُ، وحوانيتُ التجَّارِ، وكذلك المكتباتُ وبُيوتُ المطالعةِ؛ فهذه مأهولةٌ، ولا تُسمَّى مسكونةً؛ لأنَّ السكنى هي الإقامةُ التي يَسكُنُ بها المرءُ، ويستقِرُّ فيها، ويُقيمُ فيها شؤونَه. فمعنى قولِه: ﴿غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ أنَّها غيرُ مأهولةٍ على حالةِ الاستقرارِ، أو غيرُ مأهولةِ البتَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٢). =

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾.

أي: واللهُ يعلَمُ ما تُظهِرونَه، وما تُخفونَه في قُلوبِكم[1].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ فيه مِن الآدابِ أنَّ المرءَ لا يَنبغي أن يكونَ كَلًّا على غَيرِه، ولا يَنبغي له أن يُعرِّضَ نفْسَه إلى الكراهيةِ والاستِثقالِ،

---

= وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ قَولِه: ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ﴾ أنَّ المتاعَ موضوعٌ هناك قبْلَ دخولِ الدَّاخِلِ، فلا مفهومَ لهذه الصفةِ؛ لأنَّها خرجت مخرجَ التنبيهِ على العُذرِ في الدُّخولِ، ويشمَلُ ذلك أن يدخُلَها لوضعِ مَتاعِه بدَلالةِ لحنِ الخِطابِ، وكذلك يشمَلُ دُخولَ المسافِرِ وإن كان لا متاعَ له؛ لقصدِ التظَلُّلِ أو المبيتِ، بدلالةِ لحنِ الخطابِ أو القياس، وقد فُسِّر المتاعُ بالمصدر، أي: التمتُّع والانتِفاع). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: واللهُ يعلم ما تُظهِرونَ -أيُّها الناسُ- بألسنتِكم مِن الاستئذانِ إذا استأذنتُم على أهلِ البيوتِ المسكونةِ، ﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ يقولُ: وما تُضمِرونَه في صدورِكم عندَ فِعلِكم ذلك، ما الذي تَقصدِون به: أطاعةَ اللهِ والانتهاءَ إلى أمرِه، أمْ غيرَ ذلك؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤).

وقال البِقَاعي: (﴿وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ تَحذيرًا مِن أن تُزاحِموا أحدًا في مُباحٍ بما يؤذيه ويضَيِّقُ عليه، معتلِّينَ بأصلِ الإباحةِ، أو يؤْذَنَ لكم في منزلٍ فتُبطِنوا فيه الخيانةَ؛ فإنَّه وإن وقع الاحترازُ مِن الخَوَنةِ بالحِجابِ، فلا بدَّ من الخُلطةِ؛ لِما بُني عليه الإنسانُ من الحاجةِ إلى العِشرةِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٥٣).

وقال أبو السعود: (هذا وعيدٌ لِمَن يدخُلُ مَدخلًا مِن هذه المداخِلِ؛ لفسادٍ، أو اطِّلاعٍ على عَوْراتٍ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩).

وقال السعدي: (﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ أي: أحوالَكم الظَّاهِرةَ والخَفيَّةَ، وعَلِمَ مصالحَكم؛ فلذلك شَرَع لكم ما تحتاجون إليه وتُضطَرُّون مِن الأحكامِ الشَّرعيةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

وأنَّه يَنبغي أن يكونَ الزَّائِرُ والمَزورُ مُتوافِقَينِ مُتآنِسَينِ، وذلك عَونٌ على توفُّرِ الأُخُوَّةِ الإسلاميَّةِ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ أي: أطهَرُ وأصلَحُ مِن الوقوفِ على الأبوابِ مُنتظرينَ؛ لأنَّ هذا ممَّا يجلِبُ الكراهةَ، ويقدَحُ في قلوبِ النَّاسِ، خصوصًا إذا كانوا ذَوِي مروءةٍ مُرتاضينَ للآدابِ الحَسَنةِ، وإذا نُهيَ عن ذلك لأدائِه إلى الكراهةِ، وجَبَ الانتِهاءُ عن كُلِّ ما يؤدِّي إليها؛ مِن قَرعِ البابِ بعُنفٍ، والتَّصييحِ بصاحِبِ الدارِ، وغيرِ ذلك ممَّا يَدخُلُ في عاداتِ مَن لم يتهذَّبْ، مِن أكثَرِ النَّاسِ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ فيه أدبٌ عَظيمٌ: وهو تعليمُ الصَّراحةِ بالحَقِّ دونَ المواربةِ، ما لم يكنْ فيه أذًى، وتعليمُ قَبولِ الحَقِّ؛ لأنَّه أطمَنُ لنَفْسِ قابِلِه مِن تلقِّي ما لا يُدرَى أهو حَقٌّ أم مُواربةٌ، ولو اعتاد النَّاسُ التصارُحَ بالحَقِّ بيْنهم، لزالت عنهم ظُنونُ السُّوءِ بأنفُسِهم[٣]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ يُرشِدُ الباري جلَّ وعلا عبادَه المؤمنين ألَّا يَدخُلوا بيوتًا غيرَ بُيوتِهم بغير استِئذانٍ؛ فإنَّ في ذلك عِدَّةَ مفاسِدَ:

منها: ما ذكرَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حيث قال: ((إنَّما جُعِل الاستِئذانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٠).

مِن أجلِ البصَرِ))[١]، فبسبَبِ الإخلالِ به يقَعُ البصَرُ على العَوْراتِ التي داخِلَ البيوتِ؛ فإنَّ البيتَ للإنسانِ في سَترِ عورةِ ما وراءَه بمنزلةِ الثَّوبِ في سَترِ عورةِ جَسَدِه.

ومنها: أنَّ ذلك يوجِبُ الرِّيبةَ مِن الدَّاخِلِ، ويُتَّهَمُ بالشَّرِّ سرقةً أو غيرَها؛ لأنَّ الدُّخولَ خُفيةً يدُلُّ على الشَّرِّ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ كَلِمةَ (حتى) للغايةِ، والحُكمُ بعْدَ الغايةِ يكونُ بخلافِ ما قَبْلَها، فقولُه: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ﴾ يقتضي جوازَ الدُّخولِ بعد الاستِئذانِ، وإن لم يكُنْ مِن صاحِبِ البيتِ إذْنٌ؟

**الجوابُ مِن وجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ:** أنَّ الله تعالى جعَل الغايةَ الاستِئناسَ لا الاستِئذانَ، والاستِئناسُ لا يحصُلُ إلَّا إذا حصَلَ الإذنُ بعد الاستِئذانِ.

**الوجهُ الثَّاني:** أنَّه لَمَّا عَلِمْنا أنَّ الحِكمةَ في الاستِئذانِ: ألَّا يَدخُلَ الإنسانُ على غَيرِه بغَيرِ إذنِه؛ فإنَّ ذلك ممَّا يَسوؤُه، وعَلِمْنا أنَّ هذا المقصودَ لا يحصُلُ إلَّا بعد حُصولِ الإذنِ- عَلِمْنا أنَّ الاستِئذانَ ما لم يتَّصِلْ به الإذنُ، وجَبَ ألَّا يكونَ كافيًا.

**الوجهُ الثَّالثُ:** أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾، فحظَرَ الدُّخولَ إلَّا بإذنٍ؛ فدَلَّ على أنَّ الإذنَ مَشروطٌ بإباحةِ الدُّخولِ في الآيةِ الأُولى[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٤١) واللفظ له، ومسلم (٢١٥٦) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٨).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ الظَّاهِرُ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أن يدخُلَ بيتَ نَفْسِه مِن غيرِ استِئذانٍ ولا سلامٍ؛ لقَولِه: ﴿غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ ﴾[1]، فالآيةُ فُهِم منها أنَّ الرجُلَ لا يستأذنُ عندَ دخولِ بيتِه على امرأتِه[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ ظاهِرُ الآيةِ يَقتَضي قَبولَ الإذنِ مُطلَقًا، سواءٌ كان الآذِنُ صَبيًّا أو امرأةً أو عبدًا أو ذِمِّيًّا؛ فإنَّه لا يُعتبَرُ في هذا الإذنِ صِفاتُ الشَّهادةِ[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ فيه وجوبُ الاستِئذانِ عند دُخولِ بيتِ الغيرِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٩٠).

قال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّه إنْ لم يكُنْ مع الرَّجُلِ في بَيتِه إلَّا امرأتُه أنَّ الأظهَرَ أنَّه لا يستأذِنُ عليها، وذلك يُفهَمُ مِن ظاهِرِ قَولِه تعالى: ﴿ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ ﴾، ولأنَّه لا حِشمةَ بينَ الرَّجُلِ وامرأتِه، ويجوزُ بيْنهما مِنَ الأحوالِ والملابَساتِ ما لا يجوزُ لأحدٍ غَيرِهما، ولو كان أبًا أو أمًّا أو ابنًا، كما لا يخفى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٠١).

لكنْ قال ابنُ كثيرٍ: (الأَولى أن يُعلِمَها بدُخولِه، ولا يُفاجِئَها به؛ لاحتِمالِ أن تكونَ على هيئةٍ لا تحِبُّ أن يراها عليها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩).

أمَّا إذا كان مع الرَّجُلِ في بيتِه مَحارِمُه، فقال الشنقيطي: (الأظهَرُ الذي لا ينبغي العُدولُ عنه أنَّ الرَّجُلَ يَلزَمُه أن يستأذِنَ على أمِّه وأختِه، وبَنِيه وبناتِه البالِغينَ؛ لأنَّه إنْ دخَلَ على مَن ذُكِرَ بغيرِ استِئذانٍ فقد تقَعُ عَينُه على عَوْراتِ مَن ذُكِرَ، وذلك لا يَحِلُّ له). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٨).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ * فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدٗا فَلَا تَدۡخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤۡذَنَ لَكُمۡۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ فَٱرۡجِعُواْۖ هُوَ أَزۡكَىٰ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾ فيه وجوبُ الرُّجوعِ إذا لم يُؤذَنْ له، وتحريمُ الدُّخولِ إذا لم يكُنْ فيها أحَدٌ، ويُستفادُ مِن هذا تحريمُ دُخولِ مِلكِ الغيرِ، والسُّكنى فيه، وشَغلِه بغيرِ إذْنِ صاحِبِه، فيدخُلُ تحتَه من المسائِلِ والفروعِ ما لا يُحصَى[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ هو بيانٌ لكيفيَّةِ الاستِئذانِ[٢].

٨- قال تعالى: ﴿وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ والسَّلامُ تقرَّرتْ مَشروعيَّتُه مِن قبْلُ في أوَّلِ الإسلامِ، ولم يكُنْ خاصًّا بحالةِ دُخولِ البيوتِ، فلم يكُنْ للسَّلامِ اختِصاصٌ هنا، وإنَّما ذُكِرَ مع الاستِئذانِ؛ للمُحافَظةِ عليه مع الاستِئذانِ؛ لئلَّا يُلْهِيَ الاستِئذانُ الطَّارقَ، فيَنْسى السَّلامَ، أو يَحسَبَ الاستئذانَ كافيًا عن السَّلامِ[٣].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ ﴾ سُمِّي الاستِئذانُ استِئناسًا؛ لأنَّ به يحصُلُ الاستِئناسُ، وبعَدَمِه تحصُلُ الوَحشةُ[٤].

١٠- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَا ... ﴾ إلى قَولِه: ﴿ لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ﴾ الجُناحُ: الإثمُ، فيُستفادُ منه أنَّ الأوامِرَ السَّابِقةَ للوُجوبِ؛ لأنَّها هي التي يأثمُ الإنسانُ بمُخالفتِها[1].

١١- قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ في ذلك توعُّدٌ لأهلِ التجَسُّسِ على البيوتِ، وطلَبِ الدُّخولِ على غَفلةٍ للمعاصي، والنَّظَرِ لِما لا يحِلُّ[2].

١٢- قال قتادةُ: (قال بَعضُ المُهاجِرينَ: لقد طلبتُ عُمُري كلَّه هذه الآيةَ فما أدرَكْتُها: أنْ أستأذِنَ على بَعضِ إخواني، فيقولَ لي: ارجِعْ، فأرجِعُ وأنا مُغتَبِطٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾)[3].

١٣- لا مُنافاةَ بيْنَ قَولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا ﴾ وبيْنَ قَولِه: ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾؛ فإنَّ أهلَ البُيوتِ قد يَكونونَ غائِبينَ عن بُيوتِهم، فإذا رجَعوا وأذِنوا فلا مانِعَ مِن الدُّخولِ؛ فصاحِبُ البَيتِ قد لا يوجَدُ في وقتٍ، ويوجدُ في وَقتٍ آخَرَ، والفائدةُ في هذا نفيُ توهُّمِ جوازِ دُخولِ الدَّارِ التي لا يُوجَدُ فيها صاحِبُها؛ ظنًّا بأنَّ النَّهيَ إنَّما هو لخشيةِ الاطِّلاعِ على عَوْراتِ أهلِ الدَّارِ أنفُسِهم فحسْبُ؛ فإنَّ أهلَ الدارِ وإنْ غابوا فقد يَكرهونَ أن يَطَّلِعَ أحَدٌ على ما في دارِهم مِن مَتاعٍ وغَيرِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٩٣، ٩٤).

قال الزمخشريُّ: (وذلك أنَّ الاستِئذانَ لم يُشرَع لئلَّا يطَّلِعَ الدَّاخِلُ بغير إذْنٍ على عورةٍ، ولا تسبِقَ عينُه إلى ما لا يحِلُّ النظرُ إليه فقط، وإنَّما شُرِع لئلَّا يُوقَفَ على الأحوالِ التي يطويها النَّاسُ =

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرۡجِعُواْ﴾ بُنِيَ الفِعلُ للمَجهولِ؛ لِيَدُلَّ أنَّ المستأذِنَ إذا سَمِعَ مَن يقولُ له: «ارجِعْ»، فإنَّه يجبُ عليه أن يَرجِعَ، ولو كان القائِلُ غيرَ مَن له الإذنُ مِن أهلِ البَيتِ(١).

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ يدخُلُ فيه المُعَدُّ للضَّيفِ إذا أَذِنَ فيه صاحبُه في أوَّلِ الأمرِ، ووضَعَ الضَّيفُ متاعَه فيه؛ لأنَّ الاستِئذانَ لئلَّا يُهجَمَ على ما لا يُرادُ الاطِّلاعُ عليه، ويُرادُ طَيُّه عن عِلمِ الغَيرِ، فإذا لم يُخَفْ ذلك، فلا معنى للاستِئذانِ(٢).

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ يُفهَمُ منه تحريمُ النَّظَرِ إلى النِّساءِ وعَوراتِ الرِّجالِ، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما جُعِلَ الاستِئذانُ مِن أجلِ البصرِ))(٣).

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ هذا مِن احتِرازاتِ القُرآنِ العَجيبةِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ﴾ لفظٌ عامٌّ في كلِّ بيتٍ ليس مِلكًا للإنسانِ؛ أخْرَجَ منه تعالى البيوتَ التي ليست مِلكَه، وفيها متاعُه، وليس فيها ساكِنٌ، فأسقَط الحرجَ في الدُّخولِ إليها(٤).

---

= في العادةِ عن غيرِهم، ويتحفَّظون مِنِ اطِّلاعِ أحدٍ عليها، ولأنَّه تصَرُّفٌ في مِلكِ غيرِك؛ فلا بدَّ من أن يكونَ برضاه، وإلَّا أشْبَهَ الغَصبَ والتغلُّبَ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩١).

والحديث أخرجه البخاري (٦٢٤١) واللفظ له، ومسلم (٢١٥٦) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٥).

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ مَن لا منفعةَ له في دُخولِها لا يؤْذَنُ له في دُخولِها؛ لأنَّه يُضَيِّقُ على أصحابِ الاحتياجِ إلى بِقاعِها[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ استِئنافٌ لبَيانِ أحكامِ التَّزاوُرِ، وتَعليمِ آدابِ الاستِئذانِ، وتَحديدِ ما يحصُلُ المقصودُ منه؛ كيْ لا يكونَ النَّاسُ مُختلفينَ في كَيفيَّتِه على تفاوُتِ اختلافِ مَداركِهم في المقصودِ منه والمُفيدِ[2].

- ووَصْفُ البُيوتِ بمُغايرةِ بُيوتِهم خارجٌ مَخرجَ العادةِ الَّتي هي سُكنى كلِّ أحدٍ في ملْكِه، وإلَّا فالمؤاجرُ والمُعيرُ أيضًا مَنْهيَّانِ عن الدُّخولِ بغيرِ إذنٍ[3].

- قَولُه: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ كِنايةٌ لَطيفةٌ عن الاستِئذانِ، أي: أنْ يَستأذِنَ الدَّاخلُ، أي: يَطلُبَ إذنًا مِن شأنِه ألَّا يكونَ معه استيحاشُ ربِّ المنزلِ بالدَّاخلِ، إذا كان معنى الاستِئناسِ خِلافَ الاستيحاشِ؛ لأنَّ الَّذي يَطرُقُ بابَ غيرِه لا يَدْري أيُؤْذَنُ له أمْ لا، فهو كالمُستَوحشِ مِن خَفاءِ الحالِ، فإذا أُذِنَ له استأنَسَ، فالمعنى: حتَّى يُؤذَنَ لكم؛ فهذا مِن بابِ الكِناياتِ والإردافِ؛ لأنَّ هذا النَّوعَ مِن الاستئناسِ يَردُفُ الإذْنَ؛ فوُضِعَ مَوضعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٨).

الإذنِ[١]. وسِرُّ ذلك: تَرغيبُ المُخاطَبينَ في الإتيانِ بالاستِئذانِ؛ فإنَّ له فائدةً وثمرةً تَميلُ النُّفوسُ إليها، وتَنفِرُ مِن ضِدِّها، وهو الاستيحاشُ الحاصلُ بتقديرِ عدَمِ الاستِئذانِ؛ ففيه تَنهيضٌ للدَّواعي على سُلوكِ هذا الأدبِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ عطَفَ الأمرَ بالسَّلامِ على الاستِئناسِ، وجعَلَ كِلاهما غايةً للنَّهيِ عن دُخولِ البيوتِ؛ تَنبيهًا على وُجوبِ الإتيانِ بهما؛ لأنَّ النَّهيَ لا يرتفِعُ إلَّا عند حُصولِهما[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

- قَولُه: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا﴾ احتِراسٌ مِن أنْ يظُنَّ ظانٌّ أنَّ المنازِلَ غيرَ المسكونةِ يدخُلُها النَّاسُ في غَيبةِ أصحابِها بدونِ إذْنٍ منهم؛ توهُّمًا بأنَّ عِلَّةَ شرْعِ الاستئذانِ ما يَكرَهُ أهْلُ المنازِلِ مِن رُؤيتِهم على غيرِ تأهُّبٍ، بلِ العلَّةُ هي كراهتُهم رُؤيةَ ما يُحِبُّون سَتْرَه مِن شُؤونِهم؛ فالشَّرطُ هنا يُشبِهُ الشَّرطَ الوصليَّ؛ لأنَّه مُرادٌ به المُبالَغةُ في تَحقيقِ ما قبْلَه؛ ولذلك ليس له مفهومُ مخالفةٍ[٤].

- والغايةُ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ لتأكيدِ النَّهيِ بقولِه: ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٢٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: (((المصدر السابق)).

- قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ تَذييلٌ لهذه الوصايا بتَذكيرِهم بأنَّ اللهَ عليمٌ بأعمالِهم؛ لِيَزدجِرَ أهْلُ الإلحاحِ عن إلْحاحِهم بالتَّثقيلِ، ولِيَزدجِرَ أهْلُ الحِيَلِ أو التَّطلُّعِ مِن الشُّقوقِ ونَحوِها. وهذا تَعريضٌ بالوعيدِ؛ لأنَّ في ذلك عِصيانًا لِمَا أمَرَ اللهُ به؛ فعِلْمُه به كِنايةٌ عن مُجازاتِه فاعِلِيه بما يَستحِقُّونَ[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾

- قَولُه: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ مَسۡكُونَةٖ فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ ﴿فِيهَا مَتَٰعٞ لَّكُمۡ﴾ صِفةٌ للبُيوتِ، أو استِئنافٌ جارٍ مَجْرى التَّعليلِ لعدَمِ الجُناحِ[2].

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا تَكۡتُمُونَ﴾ فيه وَعيدٌ لِمَن يَدخُلُ مَدخلًا مِن هذه المداخلِ لفسادٍ أو اطِّلاعٍ على عَوراتٍ، كمَن يدخُلونَ الخَرِباتِ والدُّورَ الخاليةَ مِن أهْلِ الرِّيبةِ؛ فهذه الجُملةُ مُستعمَلةٌ في التَّحذيرِ مِن تجاوُزِ ما أشارت إليه الآيةُ مِن القيودِ، وهي كونُ البُيوتِ غيرَ مَسكونةٍ، وكونُ الدَّاخلِ مُحتاجًا إلى دُخولِها، بلْهَ أنْ يدخُلَها بقصْدِ التَّجسُّسِ على قُطَّانِها -أي: ساكنيها-، أو بقصْدِ أذاهُم، أو سَرِقةِ مَتاعِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

## الآيتان (٣٠-٣١)

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿يَغُضُّوا﴾: أَي: يَكُفُّوا، وأصلُ (غضض): يدُلُّ على كَفٍّ ونَقصٍ[1].

﴿أَزْكَىٰ﴾: أي: أصلَحُ وأطهَرُ، والزكاةُ: هى النَّماءُ والزِّيادةُ فى الصلاحِ، وكمالُ الشيءِ، وأصلُ (زكو): يدُلُّ على طهارةٍ ونَماءٍ[2].

﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾: جمعُ خِمارٍ، وهو ما تُغطِّي به المرأةُ رأسَها، وكُلُّ شَيءٍ غطَّيتَه فقد خمَّرتَه، وأصلُ (خمر): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٠٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٠٦)، =

﴿جُيُوبِهِنَّ﴾: جَمعُ جَيبٍ، وهو طَوقُ القَميصِ الذي يُحيطُ بالعُنُقِ مِمَّا يلي الرَّقبةَ، وأصلُه مبدَلٌ مِن (جوب)، بمعنى: الخَرقِ والقَطعِ؛ لأنَّ الجيبَ هو موضِعُ القَطعِ مِنَ القَميصِ(١).

﴿لِبُعُولَتِهِنَّ﴾: جمعُ بَعْلٍ، هو الذَّكَرُ مِن الزَّوجينِ، ويُسمَّى به كلُّ مُستَعلٍ على غَيرِه، وأصلُ (بعل) هنا: الصَّاحِبُ(٢).

﴿ٱلْإِرْبَةِ﴾: أي: الحاجةِ إلى النِّساءِ، وأصلُ (أرب) هنا: الحاجةُ(٣).

﴿يَظْهَرُواْ﴾: أي: يَطَّلِعوا، ويَعرِفوا، والظُّهورُ أصلُه: البروزُ دونَ ساترٍ، و (ظهر) تُطلَقُ بمعنى اطَّلَع وفَهِمَ وعَلِمَ، وبمعنى غلَب، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ(٤).

## المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: قُلْ -يا محمَّدُ- للمؤمنينَ يَكُفُّوا أبصارَهم عمَّا حرَّم اللهُ عليهم،

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(١) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٧)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (١٠٩).

ويَصونوا فُروجَهم عمَّا حرَّم اللهُ؛ ذلك الغضُّ والحِفظُ أطهَرُ لقُلوبِهم، وأفضَلُ لهم في دينِهم ودُنياهم، إنَّ الله رقيبٌ عليهم، مطَّلِعٌ على أعمالِهم، لا يَخفَى عليه منها شَيءٌ.

ثمَّ يرشِدُ الله سبحانَه النِّساءَ إلى ما أرشَد إليه الرجالَ، فيقول: وقُلْ -يا محمَّدُ- للمُؤمِناتِ يَكفُفْنَ النظَرَ عمَّا حرَّمَ اللهُ، ويحفَظْنَ فروجَهنَّ عمَّا حَرَّم اللهُ، ولا يَكشِفْنَ زينتَهنَّ للأجانبِ إلَّا ما ظهرَ منها، كظاهرِ الثِّيابِ التي جرَت العادةُ بلُبسِها، ولْيُلقِينَ بِخُمُرِهِنَّ على فتَحاتِ القُمصِ المحيطةِ بالأعناقِ؛ لئلَّا يبدوَ شَيءٌ مِن شُعورِهنَّ، وآذانِهنَّ، وأعناقِهنَّ، ونحورِهنَّ، وصُدورِهنَّ، ولا يُظْهِرْنَ زينتَهنَّ الخفيَّةَ إلَّا لأزواجِهنَّ، أو آبائهنَّ أو آباءِ أزواجِهنَّ، أو أبنائِهنَّ أو أبناءِ أزواجِهنَّ، أو إخوانِهنَّ أو أبناءِ إخوانِهنَّ، أو أبناءِ أخَواتهنَّ أو نسائِهنَّ، أو ما ملكْنَ مِنَ الإماءِ والعبيدِ، أو التَّابعينَ مِن الرِّجالِ الذين لا مَيلَ لهم ولا شَهوةَ إلى النِّساءِ، أو الأطفالِ الصِّغارِ الذين لم يَبلُغوا حدَّ الشَّهوةِ، ولا يَعرِفونَ عَوْراتِ النِّساءِ. ولا يَضرِبِ النِّساءُ بأرجُلِهنَّ الأرضَ لِيُسْمِعْنَ صَوتَ ما خَفِيَ مِن حُلِيهنَّ.

ويختمُ الله تعالى هذه الآيةَ بدعوةِ المؤمنينَ إلى التوبةِ، فيقولُ: وتوبوا -أيُّها المؤمِنونَ- إلى ربِّكم؛ لِتَفوزوا في دُنياكم وآخِرتِكم.

## تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن الله تعالى حُكمَ الاستئذانِ؛ أعقَبه ببيانِ آدابِ ما تَقْتضيه المجالسةُ

بعدَ الدخولِ[١]، فقال تعالى:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُؤمِنينَ يَكُفُّوا نظَرَهم[٢] عمَّا حرَّم اللهُ عليهم[٣].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والجُلوسَ بالطُّرُقاتِ. فقالوا: يا رسولَ اللهِ، ما لنا مِن مجالِسِنا بُدٌّ نتحَدَّثُ فيها، فقال: إذ أَبَيْتُم إلَّا المجلِسَ، فأعطُوا الطَّريقَ حَقَّه. قالوا: وما حَقُّ الطَّريقِ يا رسولَ الله؟ قال: غَضُّ البصَرِ، وكَفُّ الأذى، ورَدُّ السَّلامِ، والأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المنكَرِ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

(٢) قال الشوكاني: (﴿مِنْ﴾ في قَولِه: ﴿مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ هي: التَّبعيضيَّةُ، وإليه ذهب الأكثَرونَ، وبيَّنوه بأنَّ المعنى غضُّ البصَرِ عمَّا يَحرُمُ، والاقتِصارُ به على ما يَحِلُّ. وقيل: وجهُ التَّبعيضِ أنه يُعفَى للنَّاظِرِ أوَّلُ نظرةٍ تقَعُ مِن غيرِ قَصدٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦).

وقال ابنُ جُزي بعدَ أنْ ذكَر أنَّ (مِن) للتبعيضِ في الآيةِ: (وأجاز الأخفَشُ أن تكونَ «مِنْ» زائدةً. وقيل: هي لابتداءِ الغايةِ؛ لأنَّ البَصَرَ مِفتاحُ القَلبِ، والغَضُّ المأمورُ به هو عن النَّظَرِ إلى العَورةِ، أو إلى ما لا يَحِلُّ مِنَ النِّساءِ، أو إلى كُتُبِ الغَيرِ، وشِبهِ ذلك مِمَّا يُستَرُّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٥/ ٣٦٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

قال ابنُ القطَّان: (النَّظَرُ إنَّما حَرُم في محلِّ الإجماعِ حَذرًا من الفِتنةِ، كما حَرُم الزِّنا حَذرًا من اختلاطِ الأنساب، وشُربُ الخَمرِ توقيرًا للعَقلِ، فإذا كان كذلك وَجَب غَضُّ البصرِ على كلِّ خائفٍ، وحرُمَ عليه أن يُرسِلَ طَرْفَه في مواقِعِ الفِتَنِ؛ فإنَّه إذا فعَل ذلك رأى الذي لا كُلُّه هو قادِرٌ عليه، ولا عن بَعضِه هو صابِرٌ!). ((إحكام النظر)) (ص: ٣٣٨).

(٤) رواه البخاري (٦٢٢٩) واللفظ له، ومسلم (٢١٢١).

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن نظَرِ الفُجاءةِ، فأمَرَني أن أصرِفَ بَصَري))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كُتِبَ على ابنِ آدَمَ نصيبُه مِن الزِّنا، مُدرِكٌ ذلك لا مَحالةَ؛ فالعينانِ زِناهما النَّظَرُ، والأُذنانِ زِناهما الاستِماعُ، واللِّسانُ زِناه الكلامُ، واليَدُ زِناها البَطشُ، والرِّجلُ زِناها الخُطا، والقَلبُ يَهوى ويتمنَّى، ويُصَدِّقُ ذلك الفَرجُ ويُكَذِّبُه))(٢).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يَنظُرِ الرجُلُ إلى عَورةِ الرَّجُلِ، ولا المرأةُ إلى عورةِ المرأةِ، ولا يُفضِي(٣) الرجُلُ إلى الرجُلِ في ثوبٍ واحدٍ، ولا تُفضي المرأةُ إلى المرأةِ في الثَّوبِ الواحدِ))(٤).

﴿وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾.

أي: ويَحفَظوا فروجَهم عمَّا حرَّم اللهُ؛ كالزِّنا، وكأنْ يَراها أو يَمَسَّها أحدٌ لا يحِلُّ له ذلك(٥).

---

(١) رواه مسلم (٢١٥٩).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧) واللفظ له.

(٣) لا يُفضِي: أي: لا يَصِلُ. والمعنى: لا يَضطَجعانِ مُتجَرِّدينِ تحت ثوبٍ واحدٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٥١).

(٤) رواه مسلم (٣٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٦).

قال الجصَّاص: (المعنى: حِفظُها عن سائرِ ما حُرِّمَ عليه؛ من الزِّنا، واللَّمسِ، والنَّظَرِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٠٧). =

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ الله عنهما، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن يَضْمَنْ لي ما بيْن لَحْيَيه[١] وما بيْن رِجلَيه، أَضمَنْ له الجنَّةَ))[٢].

وعن مُعاويةَ بنِ حَيْدةَ القُشَيريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، عوْراتُنا ما نأتي منها وما نذَرُ؟ قال: احفَظْ عورتَك إلَّا مِن زوجتِك أو ما ملَكَت يمينُك. فقال: الرجُلُ يكونُ مع الرجُلِ؟ قال: إنِ استطَعْتَ ألَّا يراها أحَدٌ، فافعَلْ. قلتُ: والرجُلُ يكونُ خاليًا؟ قال: فاللهُ أحقُّ أن يُستَحْيَا منه))[٣].

---

= وقال ابن عطية: (حِفظُ الفروجِ يعُمُّ الفواحِشَ، وسَترَ العورةِ، وما دون ذلك ممَّا فيه حِفظٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٨).

(١) لَحْيَيه: هما العَظمانِ في جانبَي الفَمِ، والمرادُ بما بيْنَهما: اللِّسانُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٠٩).

(٢) رواه البخاري (٤٣٠٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠١٧)، والترمذي (٢٧٦٩) واللفظ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٩٧٢)، وابن ماجه (١٩٢٠)، وأحمد (٢٠٠٣٤).

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه ابنُ القطَّان في ((أحكام النظر)) (٩٤)، وذكر ثبوته ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٢١/ ٣٣٧). وصحَّح الحديثَ ابنُ القيم في ((تهذيب السنن)) (١١/ ٥٦)، وابنُ باز في ((الفوائد العلمية)) (٦/ ١١٧)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٧٦٩).

وآخِرُ الحديث أخرجه البخاري معلَّقًا بصيغة الجزم قبْلَ حديث (٢٧٨)، ولفظُه: ((اللهُ أحقُّ أن يُستَحيا منه من النَّاسِ)).

﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: غَضُّ المؤمنينَ مِن أبصارِهم، وحِفظُهم لفُروجِهم: أطهَرُ وأطيَبُ لقُلوبِهم، وأفضَلُ لهم في دينِهم ودُنياهم، وأنْمَى لأعمالِهم، وأبعَدُ لهم مِن الخَطايا والآثامِ[1].

كما قال تعالى: ﴿... وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ خبيرٌ بما يصنَع النَّاسُ، لا يَخفى عليه شَيءٌ من ذلك، فيَعلَمُ مَن يَغُضُّ بصَرَه ويحفظُ فَرجَه منهم، ومَن لا يفعَلُ ذلك؛ فلْيَجتَهِدوا في طاعتِه، ولْيَحذروا مِن مَعصيتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٨، ٣٨٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قوله: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ فالغَضُّ مِن البَصَرِ، وحِفظُ الفرجِ يتضَمَّنُ البُعدَ عن نجاسةِ الذُّنوبِ، ويتضَمَّنُ الأعمالَ الصالحةَ التي يزكو بها الإنسانُ، وهو أزكى، والزكاةُ تتضمَّنُ الطَّهارةَ؛ فإنَّ فيها معنى تَركِ السيِّئاتِ، ومعنى فِعلِ الحَسَناتِ؛ ولهذا تفسَّرُ تارةً بالطَّهارةِ، وتارةً بالزِّيادةِ والنَّماءِ، ومعناها يتضَمَّنُ الأمْرينِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا أمَر الله تعالى المؤمنينَ بغضِّ الأبصارِ، وحفظِ الفروجِ؛ أمَر المؤمناتِ بذلك[1]، فأردَفَ أمرَ المؤمنينَ بأمرِ المؤمِنات؛ لأنَّ الحِكمةَ في الأمْرينِ واحِدةٌ، وتصريحًا بما تقرَّرَ في أوامِرِ الشريعةِ المُخاطَبِ بها الرِّجالُ، مِن أنَّها تشملُ النِّساءَ أيضًا، ولكِنَّه لَمَّا كان هذا الأمرُ قد يُظَنُّ أنَّه خاصٌّ بالرِّجالِ؛ لأنَّهم أكثَرُ ارتِكابًا لضِدِّه- وقَع النَّصُّ على هذا الشُّمولِ بأمرِ النِّساءِ بذلك أيضًا[2].

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ- للمُؤمِناتِ يَكفُفْنَ النظَرَ عمَّا حرَّمَ اللهُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٦)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ١٠٢ و٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢٣، ٢٢٦، ٢٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣).

قال ابن القَطَّان: (لا خِلافَ أعلَمُه في جَوازِ نظرِ المرأةِ إلى وَجهِ الرجُلِ مُطلقًا إذا لم تَقصِدِ اللَّذَّةَ ولم تَخَفِ الفِتنةَ... [و] إنْ قصَدَت اللذَّةَ وخافت الفِتنةَ حَرُمَ بلا نزاعٍ، وكذلك إن قصَدَت ولم تَخَفْ؛ فإنَّها تاركةٌ لغضِّ البصرِ حيثُ أُمِرَت به). ((إحكام النظر)) (ص: ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٣).=

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يَنظُرِ الرجُلُ إلى عَورةِ الرَّجُلِ، ولا المرأةُ إلى عورةِ المرأةِ، ولا يُفضِي الرجُلُ إلى الرجُلِ في ثوبٍ واحدٍ، ولا تُفضي المرأةُ إلى المرأةِ في الثَّوبِ الواحدِ))[1].

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾.

أي: ويحفَظْنَ فُروجَهنَّ عمَّا حرَّم اللهُ؛ كالزِّنا، وكأنْ يراها أو يمسَّها أحدٌ لا يَحِلُّ له ذلك[2].

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾.

أي: لا يُظهِرْنَ شَيئًا مِنَ الزِّينةِ للأجانِبِ، إلَّا ما لا يُمْكِنُ إخفاؤُه؛ كظاهرِ

---

= ونَظَرُ المرأةِ إلى وَجهِ الرَّجُلِ بشَهوةٍ أو مع خَوفِ الفِتنةِ حَرامٌ بالإجماعِ، أمَّا إذا لم يكُنِ النَّظَرُ بشَهوةٍ وأَمِنَت الفِتنةَ فالمذاهِبُ الفِقهيَّةُ الأربعةُ: الحَنَفيَّةُ، والمالِكيَّةُ، والشَّافِعيَّةُ، والحنابِلةُ- على جوازِه، والمسألةُ فيها خِلافٌ. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٥/ ١٢٢)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٣/ ١٣٢)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ١٤). ويُنظر الخلاف في: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٨٤)، ((الشرح الكبير)) لابن قدامة (٧/ ٣٥١).

قال ابنُ كثير: (قَولُه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ أي: عمَّا حرَّم اللهُ عليهنَّ مِن النَّظَرِ إلى غيرِ أزواجِهنَّ؛ ولهذا ذهَبَ كثيرٌ مِنَ العُلَماءِ إلى أنَّه: لا يجوزُ للمَرأةِ أن تَنظُرَ إلى الأجانبِ بشَهوةٍ ولا بغيرِ شَهوةٍ أصلًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤).

وقال ابنُ العربي: (وكما لا يَحِلُّ للرَّجُلِ أن يَنظُرَ إلى المرأةِ، فكذلك لا يحِلُّ للمَرأةِ أن تنظُرَ إلى الرَّجُلِ؛ فإنَّ عَلاقتَه بها كعَلاقتِها به، وقَصْدَه منها كقَصدِها منه). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٣٨٠).

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٦).

الثِّيابِ التي جرَت العادةُ بلُبسِها[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾: ظاهِرُ الثِّيابِ: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر المصادِرُ السَّابِقةُ.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بن مسعود، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ في روايةٍ عنه، والحسَنُ في روايةٍ عنه، وماهانُ الحنفيُّ في روايةٍ عنه، وابن سيرينَ، وأبو الجوزاء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥).

قال ابنُ كثير: (﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: لا يُظهِرْنَ شَيئًا مِنَ الزِّينةِ للأجانبِ إلَّا ما لا يمكِنُ إخفاؤُه. وقال ابنُ مسعودٍ: كالرِّداءِ والثِّيابِ. يعني: على ما كان يتعاناه نِساءُ العرَبِ مِنَ الْمِقنَعةِ التي تجَلِّلُ ثيابَها، وما يبدو مِن أسافِلِ الثِّيابِ فلا حرَجَ عليها فيه؛ لأنَّ هذا لا يمكِنُ إخفاؤُه، ونظيرُه في زيِّ النِّساءِ ما يظهَرُ مِن إزارِها، وما لا يمكِنُ إخفاؤُه. وقال بقَولِ ابنِ مسعودٍ: الحسَنُ، وابنُ سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، وغيرُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (فما ظهَرَ مِن الزِّينةِ: هو الثِّيابُ الظَّاهِرةُ، فهذا لا جُناحَ عليها في إبدائِها إذا لم يكُنْ في ذلك محذورٌ آخَرُ؛ فإنَّ هذه لا بدَّ مِن إبدائِها، وهذا قَولُ ابنِ مسعودٍ وغيرِه، وهو المشهورُ عن أحمدَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: الوَجهُ واليدانِ مِنَ الزِّينةِ الظَّاهِرةِ. وهي الرِّوايةُ الثَّانيةُ عن أحمدَ، وهو قَولُ طائفةٍ مِن العُلَماءِ؛ كالشَّافعيِّ وغيرِه، وأمَرَ سُبحانَه النِّساءَ بإرخاءِ الجلابيبِ؛ لئَلَّا يُعرَفْنَ ولا يُؤذَينَ، وهذا دليلٌ على القَولِ الأوَّلِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٧١).

وقال ابنُ كثير: (عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ قال: وَجْهَها وكَفَّيها والخاتَمَ. ورُوِيَ عن ابنِ عُمَرَ، وعطاءٍ، وعِكْرِمةَ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وأبي الشَّعثاء، والضَّحَّاك، وإبراهيمَ النَّخَعيِّ، وغيرِهم -نحوُ ذلك. وهذا يحتَمِلُ أن يكونَ تفسيرًا للزِّينةِ التي نُهِينَ عن إبدائِها كما قال أبو إسحاقَ السَّبيعيُّ، عن أبي الأحوص، عن عبدِ الله قال في قَولِه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾: الزِّينةُ: القُرطُ والدُّمْلُجُ والخَلْخالُ والقِلادةُ. وفي روايةٍ عنه بهذا الإسنادِ قال: الزِّينةُ زينتانِ: فزِينةٌ لا يراها إلَّا الزَّوجُ: الخاتَمُ والسِّوارُ، وزينةٌ يراها الأجانِبُ، وهي الظَّاهِرُ مِنَ الثِّيابِ. وقال الزُّهْريُّ: لا يبدو لهؤلاء الذين سَمَّى اللهُ مِمَّن لا يحِلُّ له إلَّا الأَسْوِرةُ والأخمِرةُ والأقرِطةُ مِن غيرِ حَسْرٍ، وأمَّا عامَّةُ النَّاسِ فلا يبدو منها إلَّا الخواتِمُ. وقال مالِكٌ عن الزُّهري: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ الخاتَمَ والخَلْخالَ. ويحتَمِلُ أنَّ ابنَ عبَّاسٍ ومَن تابعه أرادوا تفسيرَ ما =

= ظهَرَ منها بالوَجهِ والكَفَّينِ، وهذا هو المشهورُ عند الجُمهورِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥).

وقال ابنُ تيميَّة: (وحقيقةُ الأمرِ: أنَّ اللهَ جَعَل الزِّينةَ زِينتَينِ: زينةً ظاهِرةً، وزينةً غيرَ ظاهِرةٍ، وجوَّز لها إبداءَ زينتِها الظَّاهِرةِ لغيرِ الزَّوجِ وذَوِي المحارِمِ، وكانوا قبْلَ أن تَنزِلَ آيةُ الحِجابِ كان النِّساءُ يَخرُجْنَ بلا جِلبابٍ، يرى الرَّجُلُ وَجْهَها ويَدَيها، وكان إذ ذاك يجوزُ لها أن تُظهِرَ الوَجهَ والكَفَّينِ، وكان حينَئذٍ يجوزُ النَّظَرُ إليها؛ لأنَّه يجوزُ لها إظهارُه، ثمَّ لَمَّا أنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ آيةَ الحِجابِ بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩] حُجِب النِّساءُ عن الرِّجالِ... فإذا كُنَّ مأموراتٍ بالجِلبابِ لئلَّا يُعرَفْنَ، وهو سَترُ الوَجهِ أو سَترُ الوَجهِ بالنِّقابِ؛ كان الوَجهُ واليدانِ مِنَ الزِّينةِ التي أُمِرَت ألَّا تُظهِرَها للأجانِبِ، فما بَقِيَ يَحِلُّ للأجانِبِ النَّظَرُ إلَّا إلى الثِّيابِ الظَّاهِرةِ؛ فابنُ مَسعودٍ ذَكَر آخِرَ الأمْرَينِ، وابنُ عبَّاسٍ ذَكَر أوَّلَ الأمْرَينِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ١٠٩).

وقال ابنُ عثيمين: (الصَّحيحُ أنَّ المرادَ بالزِّينةِ: الزِّينةُ الخارجيَّةُ -وهي ما تتزَيَّنُ بها المرأةُ- لا الزِّينةُ الخِلْقيَّةُ التي خَلَق اللهُ عليها المرأةَ، والدَّليلُ قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وفي آخِرِ هذه الآيةِ: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١] .... فكُلُّ مَن تأمَّلَ الزِّينةَ وجَدَها في الزِّينةِ الخارجيَّةِ لا فيما زَيَّن اللهُ به المرأةَ، وعلى هذا يَكونُ الاستِثناءُ عائِدًا على ما يبدو مِنَ الثِّيابِ التي لا بدَّ مِن ظُهورِها... ويؤيِّدُه أيضًا أنَّه قال: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَا﴾، ولو كان المرادُ الوَجهَ والكَفَّينِ لقال: إلَّا ما أُظهِرَ مِنها. أمَّا ثيابُ الجَمالِ فهي مِنَ الزِّينةِ الخَفيَّةِ، وكذلك الحَلْيُ وشِبهُه ممَّا تتحَلَّى به المرأةُ لا يُبدى إلَّا لِمَن ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ؛ لأنَّ الحَلْيَ يمكِنُ إخفاؤُه، ليس كالعَباءةِ والجِلبابِ وشِبهِهما). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).

وقال الشِّنقيطي: (ظاهِرُ اللُّغةِ أنَّ الزِّينةَ تُطلَقُ على ما تتزيَّنُ به المرأةُ خارِجًا عن بَدَنِها؛ فإنَّ إطلاقَها على نفْسِ البَدَنِ يحتاجُ إلى قرينةٍ، وأمَّا استِقراءُ الشَّرعِ فالمعروفُ منه الأمرُ بالتباعُدِ عن أسبابِ الفِتنةِ، والوَجهُ محَلُّ الجَمالِ والافتِتانِ مِنَ المرأةِ؛ فالواجِبُ سَتْرُه). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٩٩).

وقال أيضًا: (هذا القَولُ [أي: قَولُ ابنِ مَسعودٍ] هو أظهَرُ الأقوالِ عندَنا وأحوَطُها، وأبعَدُها مِنَ الرِّيبةِ وأسبابِ الفِتنةِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥١٥).

وذكر أبو يَعلَى أنَّ هذا القَولَ أشبَهُ، كما في ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٠). وذهب ابنُ باز إلى أنَّ هذا القَولَ أصَحُّ، وأنَّه الموافِقُ للأدِلَّةِ الشَّرعيَّةِ. يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٥/ ٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾.

أي: ولْيُلقِينَ الخُمُرَ -وهي ما تُغطِّي به المرأةُ رأسَها- على فتَحاتِ القُمُصِ المحيطةِ بالأعناقِ، ويَشدُدْنَها؛ لِيَستُرْنَ شُعورَهنَّ، وآذانَهنَّ، وأعناقَهنَّ، ونحورَهنَّ، وصُدورَهنَّ[1].

---

= وتُنظَرُ بقيَّةُ الأقوالِ في هذه الآيةِ في: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٠).

قال الشنقيطيُّ بعد أن ذكَرَ جُملةً مِن أقوالِ أهلِ العِلمِ في الزِّينةِ الظَّاهِرةِ والزِّينةِ الباطِنةِ: (جميعُ ذلك راجِعٌ في الجُملةِ إلى ثلاثةِ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بالزِّينةِ: ما تتزَيَّنُ به المرأةُ خارِجًا عن أصلِ خِلْقتِها، ولا يَستلزِمُ النَّظَرُ إليه رؤيةَ شَيءٍ مِن بَدَنِها، كقَولِ ابنِ مسعودٍ ومَن وافَقَه: إنَّها ظاهِرُ الثِّيابِ؛ لأنَّ الثِّيابَ زِينةٌ لها خارِجةٌ عن أصلِ خِلْقتِها، وهي ظاهِرةٌ بحُكمِ الاضْطِرارِ كما ترى.

القَولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالزِّينةِ: ما تتزَيَّنُ به وليس مِن أصلِ خِلْقتِها أيضًا، لكِنَّ النَّظَرَ إلى تلك الزِّينةِ يَستلزِمُ رُؤيةَ شَيءٍ مِن بَدَنِ المرأةِ، وذلك كالخِضابِ والكُحلِ ونحوِ ذلك؛ لأنَّ النَّظَرَ إلى ذلك يَستلزِمُ رُؤيةَ الموضِعِ المُلابِسِ له مِنَ البَدَنِ كما لا يخفى.

القَولُ الثَّالِثُ: أنَّ المرادَ بالزِّينةِ الظَّاهِرةِ: بَعضُ بَدَنِ المرأةِ الذي هو مِن أصلِ خِلْقتِها، كقَولِ مَن قال: إنَّ المرادَ بما ظَهَرَ منها: الوَجهُ والكَفَّانِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٨).

قال ابنُ عثيمين: (هل المرادُ بضَربِ الخِمارِ على الجَيبِ: أن يكونَ مِن تحتِ الوَجهِ بحيثُ يبقى الوَجهُ مَكشوفًا والجَيبُ مَستورًا، أو أنَّ المعنى أن تَضرِبَ بالخِمارِ على الجَيبِ مارًّا بالوَجهِ؟ هذا هو الأقرَبُ؛ لأنَّ الخِمارَ يَنزِلُ مِن أعلى لأنَّه فَوقَ الرَّأسِ، ثمَّ الجَيبُ إذا وجَب سَترُه فالوَجهُ مِن بابِ أولى، وكان النِّساءُ في الجاهِليَّةِ -على حَسَبِ ما قاله بَعضُ المفَسِّرينَ- كانت المرأةُ =

عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: (يَرحمُ اللهُ نِساءَ المُهاجِراتِ الأُوَلَ؛ لَمَّا أنزل اللهُ: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ شقَّقْنَ مُروطَهنَّ[1]، فاختمَرْنَ بها[2])[3].

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر في الآيةِ قَبْلَها ما أباح أن يَراه غيرُ ذي المَحرَمِ مِن الزِّينةِ الظَّاهِرةِ؛ ذَكَر في هذه ما أباح أن يراه الزَّوجُ وذَوو المحارِمِ مِنَ الزِّينةِ الباطِنةِ، فقال[4]:

---

= تَسدُلُ الخِمارَ مِن وَرائِها، ولا يَقرَبُ وَجهَها ولا جَيبَها؛ ولهذا أمَرَ اللهُ تعالى النِّساءَ أن يَضرِبنَ بخُمُرِهنَّ على جُيوبِهنَّ، وعندَ مَن يرى أنَّ المرادَ بالزِّينةِ الوَجهُ والكَفَّانِ يقولُ: تَضرِبُ بخِمارِها على جَيبِها مِن أسفَلَ، فتُغطِّي الجَيبَ، وتَكشِفُ الوَجهَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٦٨).

(١) مُروطَهنَّ: جمعُ مِرطٍ، وهو الإزارُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٩٠).

(٢) قال الشنقيطي: (قال ابنُ حَجَرٍ في «الفتح» في شَرحِ هذا الحَديثِ: قَولُه: فاختَمَرْنَ، أي: غَطَّينَ وُجوهَهنَّ، .... انتهى... وهذا الحديثُ الصَّحيحُ صَريحٌ في أنَّ النِّساءَ الصَّحابيَّاتِ المذكوراتِ فيه فَهِمْنَ أنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ يَقتَضي سَتْرَ وُجوهِهنَّ، وأنَّهنَّ شَقَّقْنَ أُزُرَهنَّ فاختَمَرْنَ، أي: سَتَرْنَ وُجوهَهنَّ بها؛ امتِثالًا لأمرِ اللهِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ المُقتضي سَتْرَ وُجوهِهنَّ، وبهذا يتحَقَّقُ المُنصِفُ أنَّ احتِجابَ المرأةِ عن الرِّجالِ وسَتْرَها وَجْهَها عنهم ثابِتٌ في السُّنَّةِ الصَّحيحةِ المُفَسِّرةِ لكِتابِ اللهِ تعالى، وقد أثنَتْ عائِشةُ رَضِيَ اللهُ عنها على تلك النِّساءِ بمُسارعتِهنَّ لامتثالِ أوامِرِ اللهِ في كتابِه، ومعلومٌ أنَّهنَّ ما فَهِمْنَ سَتْرَ الوُجوهِ مِن قَولِه: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ إلَّا مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه موجودٌ، وهنَّ يَسألْنَه عن كُلِّ ما أشكَلَ عليهنَّ في دِينِهنَّ، واللهُ جَلَّ وعلا يقولُ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]؛ فلا يُمكِنُ أن يُفَسِّرْنَها مِن تِلقاءِ أنفُسِهنَّ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٥٠). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٩٠).

(٣) رواه البخاري (٤٧٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٧).

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾.

أي: ولا يُظهِرْنَ زينتَهنَّ الخفيَّةَ[١] إلاَّ لأزواجِهنَّ[٢].

﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾.

أي: أو لآبائهنَّ، وأجدادِهنَّ من جهةِ آبائهنَّ وأمهاتهنَّ، أو لآباءِ أزواجِهنَّ، وأجدادِهم مِن جهةِ آبائِهم وأمهاتِهم، أو لأبنائِهنَّ وأحفادِهنَّ مِن جهةِ أبنائهنَّ وبناتِهنَّ، أو لأبناءِ أزواجِهنَّ مِن غيرِهنَّ وأحفادِهم[٣].

﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾.

أي: أو لإخوانِهنَّ الأشقَّاءِ أو لأبٍ أو لأمٍّ، أو لبني إخوانِهنَّ وأبنائِهم ذُكورًا وإناثًا، أو لبني أخواتِهنَّ وأبنائِهم ذكورًا وإناثًا[٤].

---

(١) قال ابن جزي: (المرادُ بالزينةِ هنا: الباطنةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال ابن القطان: (أُجمِعَ على أنَّ الزوجَ مرادٌ بالآيةِ). ((إحكام النظر)) (ص: ٢٤٣).

وقال الشوكاني: (البَعْلُ: هو الزَّوجُ والسَّيِّدُ في كلامِ العَرَبِ،... ومِثْلُه قَولُه سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥، ٦]). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال ابن القطَّان: (البَعلُ والأبُ يفترِقان في إبداءِ العَورةِ؛ فلا يحِلُّ ذلك للأبِ، وهذا لا اختلافَ ولا ريبَ فيه). ((إحكام النظر)) (ص: ٢٣٨).

وقال أيضًا: (الإجماعُ مُنعَقِدٌ على أنَّ ما تُبديه للمذكورينَ أكثَرُ مِمَّا تُبديه للأجانِبِ، وعلى أنَّ المذكورينَ مُتفاوِتون فيما تُبديه لهم). ((إحكام النظر)) (ص: ١٧١). =

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾.

أي: أو لِنسائِهنَّ[1].

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾.

---

= وقال أيضًا: (مَن أجازت الآيةُ التبسُّطَ بحَضرتِهم والتكَشُّفَ لهم ليسوا سواءً؛ فإنَّا لا نشُكُّ في أنَّ ابنَ بَعلِها مِن غَيرِها ليس كابنِها، وأنَّ أبا بَعلِها ليس كأبيها، وأنَّ إخوتَها وبنيهم ليسُوا كأبيها وابنِها، ولا كابنِ بَعلِها وأبيه، هذا ممَّا لا يختَلِفُ فيه كلُّ مَن رأيتُه عرَضَ للآيةِ بتَفسيرٍ، أو أجال فيها نظرًا). ((إحكام النظر)) (ص: ٢٤٠).

وقد اختَلَف الفُقَهاءُ فيما تُبديه المرأةُ لمحارِمِها. يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (١٠/ ٣١)، ((الشَّرح الكبير)) للدَّردير (١/ ٢١٤)، ((مغني المحتاج)) للشِّربيني (٣/ ١٢٩)، ((كشَّاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٩)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٢٨٠ - ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧).

قيل: المرادُ هنا: عمومُ النساءِ؛ فللمرأةِ إبداءُ زينتِها لكلِّ امرأةٍ، ولو كانت مشركةً. وممَّن قال بذلك: ابنُ العربي، والرازي، والألوسي، ومال إليه ابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٧٦-١٧٧، ١٨٠).

وقيل المراد هنا: النساءُ المسلماتُ فقط. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطيَّة، والقرطبيُّ، والرسعني، وابن تيميَّة، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٣٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٢/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧).

وقال السعدي: (﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ أي: يجوزُ للنِّساءِ أن ينظُرَ بعضُهنَّ إلى بعضٍ مُطلقًا، ويحتملُ أنَّ الإضافةَ تقتضي الجنسيَّةَ، أي: النِّساءِ المسلماتِ اللَّاتي مِن جنسِكنَّ؛ ففيه دليلٌ لِمَن قال: إنَّ المسلمةَ لا يجوز أن تنظُرَ إليها الذمِّيَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

أي: أو لِمماليكِهنَّ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ[١].

عن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أتَى فاطمةَ بعبدٍ كان قد وهَبَه لها، وعلى فاطمةَ رَضِيَ الله عنها ثوبٌ، إذا قنَّعَت به رأسَها لم يبلُغْ رِجلَيها، وإذا غطَّت به رِجلَيها لم يبلُغْ رأسَها، فلمَّا رأى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما تلقى قال: ((إنَّه ليس عليك بأسٌ؛ إنما هو أبوكِ وغُلامُكِ))[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٥)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال العليمي: (﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ اختلف العُلَماءُ في حُكمِ الآيةِ؛ فقال قَومٌ: هو عامٌّ، فيكونُ عَبدُ المرأةِ مَحْرَمًا لها، فيجوزُ له الدُّخولُ عليها إذا كان عَفيفًا، وأن يَنظُرَ إلى مَولاتِه كالمحارِمِ، وهو مَذهَبُ مالِكٍ والشَّافعيِّ...، وقال آخَرونَ: المرادُ: الإماءُ دونَ العَبيدِ، فيكونُ العَبدُ حُكمُه حُكمُ الأجنبيِّ معها، وهو مَذهَبُ أبي حنيفةَ وأحمدَ، مع اتِّفاقِهما على جوازِ رُؤيتِه إليها، فأبو حنيفةَ يُجَوِّزُ رؤيتَه إلى وَجهِها وكَفَّيها، وأحمدُ يُجوِّزُ رؤيتَه إلى ما يجوزُ للمَحرَمِ النَّظَرُ إليه منها كما تقدَّمَ؛ قال أحمدُ: ولا يَلزَمُ مِنَ النَّظَرِ المَحْرَميَّةُ، فلا يُباحُ لها الحَجُّ ولا السَّفَرُ معه). ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٢٩). يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (١٠/ ٣٧)، ((الذخيرة)) للقرافي (١٣/ ٣١٦)، ((مغني المحتاج)) للخطيب الشربيني (٣/ ١٣٠)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٨/ ١٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ يدُلُّ على أنَّ لها أن تبديَ الزينةَ الباطنةَ لِمَملوكها. وفيه قولان؛ قيل: المرادُ الإماءُ والإماءُ الكتابيَّاتُ، كما قاله ابنُ المسيِّبِ، ورجَّحه أحمدُ وغيرُه، وقيل: هو المملوكُ الرجُلُ، كما قاله ابنُ عباسٍ وغيرُه، وهو الروايةُ الأخرى عن أحمدَ؛ فهذا يقتضي جوازَ نظَرِ العبدِ إلى مَولاتِه، وقد جاءت بذلك أحاديثُ، وهذا لأجلِ الحاجةِ؛ لأنَّها محتاجةٌ إلى مخاطَبةِ عبدِها أكثرَ مِن حاجتِها إلى رؤيةِ الشاهدِ والمعامِلِ والخاطِبِ، فإذا جاز نظَرُ أولئك، فنظَرُ العبدِ أولى). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ١١١).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ قال ابنُ جُرَيجٍ: يعني: مِن نساءِ المشركين، فيجوزُ لها أن تُظهِرَ زينتَها لها وإن كانت مشركةً؛ لأنها أمَتُها، وإليه ذهب سعيدُ بنُ المسيِّبِ. وقال الأكثرونَ: بل يجوزُ لها أن تظهَرَ على رقيقِها مِن الرجالِ والنساءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤١٠٦)، والبيهقي (١٣٩٢٩)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (١٧١٢).=

﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾.

أي: أو الذين يَتْبَعونكم من الرجال ممَّن لا شَهوةَ لهم في النِّساءِ[1].

﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: أو الأطفالِ الذين لم يطَّلِعوا على عَوْراتِ النِّساءِ، ولم يَعرِفوا أحوالهنَّ، ولا يشتهونَهنَّ؛ لِصِغَرِهم[2].

---

= صحَّحه ابن القطان في ((أحكام النظر)) (١٩٦). وقال الضياء المقدسي في ((الأحاديث المختارة)) (٥/ ١٠٧): لا أعلم بإسناده بأسًا. وجوَّد إسنادَه الذهبي في ((المهذب)) (٥/ ٢٦٧١)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٧/ ٥١٠). وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال القرطبي: (واختلف النَّاسُ في معنى قوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ﴾؛ فقيل: هو الأحمقُ الذي لا حاجةَ به إلى النساءِ. وقيل: الأبلَهُ. وقيل: الرجلُ يتْبَعُ القومَ فيأكلُ معهم، ويرتفِقُ بهم، وهو ضعيفٌ لا يَكترثُ للنساءِ ولا يشتهيهنَّ. وقيل: العِنِّينُ. وقيل: الخَصِيُّ. وقيل: المخنَّثُ. وقيل: الشيخُ الكبيرُ، والصبيُّ الذي لم يُدرِكْ. وهذا الاختلافُ كُلُّه متقاربُ المعنى، ويجتمِعُ فيمَن لا فَهْمَ له، ولا هِمَّةَ ينتبهُ بها إلى أمرِ النِّساءِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

قال القرطبي: (الطِّفلُ يُطلقُ مِن وقتِ انْفِصالِ الولدِ إلى البُلوغِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢).

وقال الماوَردي: وفي معنى قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ ثلاثةُ أوجُهٍ: الأوَّلُ: لعَدَمِ شَهوتِهم. والثَّاني: لم يَعرِفوا عَوْراتِ النِّساءِ لعَدَمِ تَمييزِهم. والثَّالِثُ: لم يُطيقوا جِماعَ النِّساءِ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٩٦).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: أنَّهم لم يَفهَموا أحوالَ النِّساءِ وعَوراتِهنَّ، ولم يَعرِفوها: ابنُ قُتَيبةَ، والرسعني، وابن كثير، والعليمي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

= (١٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٧٩).

قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ يعني: لِصِغَرِهم لا يفهَمونَ أحوالَ النساءِ وعوراتِهنَّ؛ مِن كلامِهنَّ الرخيمِ، وتعطُّفِهنَّ في المِشيةِ وحَركاتِهنَّ، فإذا كان الطفلُ صغيرًا لا يفهَمُ ذلك، فلا بأسَ بدُخولِه على النساءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩).

وقال ابنُ عثيمين: (والمعنى: أنَّهم لا يَعرِفونَ ما يتعلَّقُ بالعَوْراتِ، فقَولُه: ﴿لَمۡ يَظۡهَرُواْ﴾ أي: لم يطَّلِعوا بحيث لا يَدرونَ ماذا يُصنَعُ بالعَوْراتِ، ولا هي لهم على بالٍ؛ فهؤلاء الأطفالُ يجوزُ أن تُبدَى لهم الزِّينةُ، هذا المرادُ، ليس المرادُ الاطِّلاعَ بالعَينِ؛ لأنَّ الاطِّلاعَ بالعَينِ هذا يكونُ في الأطفالِ وغَيرِهم، لكِنِ المرادُ أنَّهم لا يَدرونَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٨٢).

ومِمَّن اختار أنَّ المرادَ عدمُ الشهوةِ: السمرقنديُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٢).

وممَّن جمع بين المعنيَينِ السَّابِقَينِ، فقال: ليس لهم عِلمٌ بذلك، ولا وُجِدت فيهم الشَّهوةُ بعدُ: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

وقيل: المعنى: لم يَطَّلِعوا على عوراتِ النِّساءِ ويَكْشِفوا عنها لِلجِماعِ. ومِمَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، والخازن، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٨٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٢).

وقيل: المعنى: لم يَبلغوا أن يُطيقُوا النِّساءَ. وممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والنحاس، والهروي، والسمعاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٥٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٥٢٦)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٢١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٣).

قال الشنقيطي: (العورةُ ما يسوؤُك أن يُطَّلَعَ عليه ... والمرادُ هنا ما تستُره المرأةُ مِن المحاسنِ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٠٦).

وقال القرطبي: (أجْمَع المسلمونَ على أنَّ السَّوأتينِ عَوْرَةٌ مِن الرَّجلِ والمرأةِ، وأنَّ المرأةَ كُلَّها عورَةٌ، إلَّا وَجْهَها ويَدَيْها؛ فإنَّهم اخْتَلفوا فيهما). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩).

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾.

أي: ولا تَضرِبِ النِّساءُ بأرجُلِهنَّ الأرضَ، أو بإحدى الرِّجلَينِ على الأخرى؛ ليَظهَرَ صَوتُ ما خَفِيَ مِن حُلِيهنَّ، كأن تقرعَ الخَلخالَ بالخَلخالِ، فيسمَعَ النَّاسُ صَوتَ الخلاخِلِ المستورةِ مِن وراءِ الثِّيابِ[1].

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

لَمَّا أمر تعالى بهذه الأوامِرِ الحَسَنةِ، ووصَّى بالوصايا المُستحسَنةِ، وكان لا بُدَّ مِن وقوعِ تَقصيرٍ من المؤمِنِ بذلك- أمرَ اللهُ تعالى بالتوبةِ، فقال[2]:

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: وتُوبوا -أيُّها المؤمِنونَ والمؤمِناتُ- بإخلاصٍ للهِ، وارْجِعوا إلى طاعتِه سبحانه فيما أمرَكم به، ونهاكم عنه، ومِن ذلك غَضُّ البصَرِ، وحِفظُ الفَرْجِ، وتركُ النساءِ إظهارَ ما خفِي مِن زينتهنَّ لغيرِ مَنِ استثناهُ اللهُ؛ توبوا إلى الله؛ لتفوزوا في دُنياكم وآخِرتِكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).
قال الزجاج: (كانت المرأةُ ربَّما اجتازت وفي رِجلِها الخَلخالُ، وربما كان فيها الخلاخِلُ، فإذا ضرَبت برِجلِها عُلِمَ أنَّها ذاتُ خَلخالٍ وزينةٍ، وهذا يحَرِّكُ مِن الشهوةِ، فنهيَ عنه، كما أُمِرنَ ألَّا يُبدينَ؛ لأنَّ استماعَ صوتِه بمنزلة إبدائِه). ((معاني القرآن)) (٤/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٤).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

وعن الأَغَرِّ المُزَنيِّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا أيُّها النَّاسُ، توبوا إلى الله؛ فإنِّي أتوبُ في اليَومِ إليه مئةَ مَرَّةٍ))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((واللهِ، إنِّي لَأستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليومِ أكثَرَ مِن سبعينَ مَرَّةً))[٢].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡ﴾ في هذا الأمرِ بالغَضِّ أدَبٌ شَرعيٌّ عظيمٌ في مُباعَدةِ النَّفْسِ عن التطَلُّعِ إلى ما عسى أن يُوقِعَها في الحرامِ، أو ما عسى أن يكَلِّفَها صبرًا شديدًا عليه[٣]. فليحذرِ العاقلُ إطلاقَ البصرِ؛ فإنَّ العينَ ترَى غيرَ المقدورِ عليه، على غيرِ ما هو عليه، وربَّما وقَع مِن ذلك العشقُ فيهلِك البدنُ والدِّينُ، فمَن ابتُلِي بشيءٍ منه فليتفكَّرْ في عيوبِ النِّساءِ[٤].

٢- قال تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ وإنَّما بصَرُك نِعمةٌ مِنَ اللهِ عليك، فلا تَعْصِه بنِعَمِه، وعامِلْه بغَضِّه عن الحرامِ تَربَحْ، واحذَرْ أن تكونَ العقوبةُ سَلْبَ تلك النِّعمةِ[٥].

٣- قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((الفروع)) لابن مفلح (٨/ ١٨١).

(٥) يُنظر: ((ذم الهوى)) لابن الجوزي (ص: ١٤٣).

ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ في غَضِّ البصَرِ عِدَّةُ مَنافِعَ:

**أحدها**: أنَّه امتِثالٌ لأمرِ اللهِ، الذي هو غايةُ سَعادةِ العَبدِ في معاشِه ومَعادِه.

**الثانية**: أنَّه يمنَعُ مِن وصولِ أثَرِ السَّهمِ المسمومِ -الذي لعلَّ فيه هلاكَه- إلى قَلبِه.

**الثالثة**: أنَّه يورِثُ القلبَ أُنسًا بالله، وجمعيَّةً عليه.

**الرابعة**: أنَّه يقوِّي القلبَ ويُفرِحُه.

**الخامسة**: أنَّه يُكسِبُ القَلبَ نُورًا، كما أنَّ إطلاقَه يُلبِسُه ظُلمةً؛ ولهذا ذكَرَ الله سُبحانَه آيةَ النورِ عَقِيبَ الأمرِ بغَضِّ البصَرِ، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور: ٣٠] ثمَّ قال إثرَ ذلك: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ [النور: ٣٥]، أي: مَثَلُ نورِه في قَلبِ عَبدِه المؤمِنِ الذي امتَثَل أوامِرَه، واجتَنَب نواهيَه.

**السادسة**: أنَّه يُورِثُ العبدَ فِراسةً صادِقةً يميِّزُ بها بين الحَقِّ والباطِلِ، والصَّادِقِ والكاذِبِ، فمَن ترَك لله شيئًا عوَّضَه اللهُ خيرًا منه، فإذا غَضَّ بصَرَه عن محارِمِ الله، عوَّضَه اللهُ بأن يُطلِقَ نورَ بصيرتِه؛ عِوَضًا عن حَبسِ بَصَرِه لله، ويفتَحَ عليه بابَ العِلمِ والإيمانِ، والمعرفةِ والفِراسةِ الصَّادقةِ المُصيبةِ التي إنَّما تُنالُ ببَصيرةٍ.

**السابعة**: أنَّه يورِثُ القَلبَ ثَباتًا وشجاعةً وقُوَّةً، فجمَع الله له بيْنَ سُلطانِ النُّصرةِ والحُجَّة، وسُلطانِ القُدرةِ والقُوَّة.

**الثامنة**: أنَّه يَسُدُّ على الشَّيطانِ مَدخَلَه مِن القلبِ؛ فإنَّه يدخُلُ مع النَّظرةِ، ويَنفُذُ معها إلى القَلبِ أسرَعَ مِن نفوذِ الهواءِ في المكانِ الخالي، فيُمثِّلُ له صورةَ المنظورِ إليه ويزيِّنُها، ويجعَلُها صنَمًا يَعكُفُ عليه القَلبُ، ثمَّ يَعِدُه ويُمَنِّيه، ويوقِدُ

على القَلبِ نارَ الشَّهوةِ، ويُلقي عليها حطَبَ المعاصي التي لم يكُنْ يتوصَّلُ إليها بدونِ تلك الصُّورةِ؛ فيصيرُ القَلبُ في اللَّهبِ!

**التاسعة**: أنَّه يُفَرِّغُ القلبَ للفِكرةِ في مصالحِه، والاشتِغالِ بها.

**العاشرة**: أنَّ بيْنَ العَينِ والقَلبِ مَنفذًا وطريقًا يوجِبُ انتقالَ أحَدِهما عن الآخَرِ، وأن يَصلُحَ بصلاحِه، ويَفسُد بفسادِه، فإذا فسَد القَلبُ فسَدَ النَّظرُ، وإذا فسَدَ النظَرُ فسدَ القَلبُ، وكذلك في جانبِ الصَّلاحِ، فإذا خَرِبَت العَينُ وفَسَدت خَرِب القَلبُ وفَسَد، وصار كالمَزبَلةِ التي هي محَلُّ النَّجاساتِ والقاذوراتِ والأوساخِ، فلا يَصلُحُ لسُكنى معرفةِ اللهِ ومحبَّتِه، والإنابةِ إليه، والأُنسِ به، والسُّرورِ بقُربِه فيه، وإنَّما يسكُنُ فيه أضدادُ ذلك.

فهذه إشارةٌ إلى بَعضِ فوائِدِ غَضِّ البصَرِ، تُطلِعُك على ما وراءَها[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ أطهَرُ وأطيَبُ، وأنمَى لأعمالِهم؛ فإنَّ مَن حَفِظَ فَرْجَه وبصَرَه، طهُرَ من الخُبثِ الذي يتدنَّسُ به أهلُ الفواحشِ، وزكَت أعمالُه بسبب ترْكِ المحرَّمِ الذي تَطمَحُ إليه النفْسُ، وتدعو إليه؛ فمَن ترك شيئًا لله عوَّضَه الله خيرًا منه، ومَن غَضَّ بصَرَه عن المحَرَّم أنار اللهُ بصيرتَه، ولأنَّ العبدَ إذا حَفِظ فَرجَه وبصرَه عن الحرامِ ومقَدِّماتِه معَ داعي الشهوةِ، كان حِفظُه لغيرِه أبلَغَ؛ ولهذا سمَّاه الله حِفظًا، فالشيءُ المحفوظُ إن لم يَجتهِدْ حافظُه في مراقبتِه وحِفظِه، وعملِ الأسبابِ الموجبةِ لحفظِه؛ لم ينحفِظْ، كذلك البصرُ والفرجُ: إن لم يجتهِدِ العبدُ في حفظِهما، أوقعاه في بلايا ومِحَنٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٨-١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ هذا يقتضي النَّهيَ عن كُلِّ ما مِن شأنِه أن يُذَكِّرَ الرجُلَ بلَهوِ النِّساءِ، ويُثيرَ منه إليهنَّ مِن كُلِّ ما يُرى أو يُسمَعُ، من زينةٍ أو حركةٍ؛ كالتثنِّي، والغناءِ، وكلامِ الغزَلِ، ومِن ذلك رقصُ النِّساءِ في مجالسِ الرِّجالِ، ومِن ذلك التلَطُّخُ بالطِّيبِ الذي يغلِبُ عَبيقُه[1]، وقد أومأ إلى عِلَّةِ ذلك قولُه تعالى: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[2].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ فيه الحثُّ على الإخلاصِ بالتَّوبةِ لا لمقصَدٍ غيرِ وجهِه؛ مِن سلامةٍ مِن آفاتِ الدُّنيا، أو رياءٍ وسُمعةٍ، أو نحوِ ذلك مِن المقاصِدِ الفاسِدةِ[3].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ علَّق سُبحانَه وتعالى على التَّوبةِ الفلاحَ، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ فلا سبيلَ إلى الفلاحِ إلَّا بالتوبةِ، وهي الرجوعُ مِمَّا يَكرَهُه اللهُ، ظاهِرًا وباطنًا، إلى ما يُحِبُّه ظاهِرًا وباطِنًا، ودلَّ هذا أنَّ كُلَّ مؤمنٍ محتاجٌ إلى التوبةِ؛ لأنَّ الله خاطَبَ المؤمنينَ جميعًا[4].

٨- أُعقِبَتِ الأوامرُ والنَّواهي المُوجَّهةُ إلى المؤمنينَ والمُؤمناتِ بأمرِ جميعِهم بالتَّوبةِ إلى اللهِ؛ إيماءً إلى أنَّ فيما أُمِروا به ونُهُوا عنه دِفاعًا لداعٍ تَدْعو إليه الجِبِلَّةُ البشريَّةُ مِن الاستحسانِ والشَّهوةِ، فيَصدُرُ ذلك عن الإنسانِ عن غفلةٍ، ثمَّ يتغلغَلُ هو فيه، فأُمِروا بالتَّوبةِ؛ ليُحاسِبوا أنفُسَهم على ما يفلِتُ منهم

---

(١) عَبيقُه: أي: رائحتُه الطيِّبةُ الذكيَّةُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٣، ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن ذلك اللَّممِ المُؤدِّي إلى ما هو أعظَمُ[١]، فأوامرُ اللهِ ونَواهيه في كلِّ بابٍ لا يَكادُ العبْدُ الضَّعيفُ يقدِرُ على مُراعاتِها وإنْ ضبَطَ نفْسَه واجتهَدَ، ولا يَخْلو مِن تَقصيرٍ يقَعُ منه؛ فلذلك وصَّى المؤمنينَ جميعًا بالتَّوبةِ والاستغفارِ، وبتأْميلِ الفلاحِ إذا تابوا واستَغْفروا[٢].

٩- قولُه تعالى ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ التَّوبةَ هي مِن أسبابِ الفَلاحِ[٣]، فقد خاطَبَ اللهُ بهذه الآيةُ أهلَ الإيمانِ وخِيارَ خَلقِه أن يَتوبوا إليه، بعد إيمانِهم وصَبرِهم، وهِجرتِهم وجِهادِهم، ثمَّ علَّق الفَلاحَ بالتَّوبةِ تعليقَ المُسَبَّبِ بسَبَبِه، وأتى بأداةِ لعلَّ المُشعِرةِ بالترجِّي؛ إيذانًا بأنَّكم إذا تُبتُم كنتُم على رجاءِ الفلاحِ، فلا يرجو الفَلاحَ إلَّا التَّائِبونَ. جعَلَنا اللهُ منهم[٤].

١٠- قال تعالى ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ في قَولِه: ﴿جَمِيعًا﴾ دَلالةٌ على أنَّ التَّوبةَ واجِبةٌ على جَميعِ المكلَّفينَ[٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- البصَرُ هو البابُ الأكبَرُ إلى القلبِ، وأعمَرُ طُرُقِ الحواسِّ إليه، وبحسَبِ ذلك كثُرَ السقوطُ مِن جهتِه، ووجَب التحذيرُ منه، وغضُّه واجبٌ عن جميعِ المحَرَّماتِ، وكُلِّ ما يُخشى الفتنةُ مِن أجْلِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٠).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٢٣). =

٢- الإصرارُ على النَّظرِ إلى الحرامِ يُصيِّرُه كبيرةً، وقد يكونُ الإصرارُ على ذلك أعظَمَ مِن قليلِ الفواحِشِ؛ فإنَّ دوامَ النظَرِ بالشَّهوةِ وما يتَّصِلُ به من العِشقِ والمعاشرةِ والمباشرةِ قد يكون أعظمَ بكثيرٍ مِن فَسادِ زِنًا لا إصرارَ عليه؛ ولهذا قال الفُقَهاءُ في الشَّاهِدِ العَدلِ: (ألَّا يأتيَ كبيرةً، ولا يُصِرَّ على صغيرةٍ). بل قد ينتهي النظَرُ بالرَّجُلِ إلى الشِّركِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]؛ ولهذا لا يكونُ عِشقُ الصُّوَرِ إلَّا مِن ضَعفِ محبَّةِ اللهِ، وضَعفِ الإيمانِ، واللهُ تعالى إنَّما ذكرَه في القرآنِ عن امرأةِ العزيزِ المُشرِكةِ، وعن قَومِ لُوطٍ المُشركين، والعاشِقُ المتَيَّمُ يَصيرُ عبدًا لِمَعشوقِه، منقادًا له، أسيرَ القَلبِ له[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ عبَّرَ بالوصفِ ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةً إلى أنَّه لا يعِفُّ فيه إلَّا مَن رسَخ الإيمانُ في قلبِه؛ لخفاءِ الخيانةِ حينَئذٍ، بخلافِ ما سبَق في المنعِ مِن الدخولِ؛ حيثُ كان التعبيرُ بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ سؤالٌ: وهو ما عُرِفَ مِن أنَّ القاعدةَ في الفِعلِ المضارعِ المجزومِ في جَوابِ الطَّلبِ أن يكونَ جزْمُه بشَرطٍ مُقَدَّرٍ دلَّ عليه فِعْلُ الطَّلبِ، وقولُه: ﴿يَغُضُّوا۟﴾ مِن هذا القَبيلِ، فالمعنى: «إنْ تَقُلْ: غُضُّوا، يَغُضُّوا»، ويُشْكِلُ على هذا أنَّه رَبَطَ الشَّرطَ بالجزاءِ،

---

= قال ابنُ القطَّان: (كلُّ ما قُلنا: إنَّه لا يجوزُ أن يَنظُرَ إليه الرجُلُ أو غيرُه؛ مِن عَورةٍ أو شخصٍ، فإنَّه لا يجوُز أن يَنظُرَ إلى المُنطَبِعِ منه في مرآةٍ أو ماءٍ أو جِسمٍ صَقيلٍ؛ لأنَّه في الحَقيقةِ قد نظرَ إلى ذلك الشَّيءِ بعَينِه). ((إحكام النظر)) (ص: ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٥/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٣، ٢٥٤).

والرَّبطُ يقتضي عدَمَ التخَلُّفِ بمجَرَّدِ القَولِ، مع أنَّ المشاهَدَ تَخَلُّفُ الغَضِّ مِن كثيرٍ مِن النَّاسِ، فكيف يَصحُّ الرَّبطُ مع هذا؟

**الجوابُ**: ما أشارتْ إليه الآيةُ، وهو العَنْونةُ بالمؤمنينَ في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ﴾؛ فإنَّ الإيمانَ إذا أُطلِقَ فالمرادُ به الإيمانُ الكامِلُ، أي: «قُلْ للمُؤمِنينَ -الذين كَمُلَ إيمانُهم- هذا القَولَ، يَستجيبوا»، ولا يَرِدُ على هذا أنَّ غيرَ الكاملِ الإيمانِ يَدخُلُ في هذا؛ لأنَّ اللهَ تعالى كَثيرًا ما يَخُصُّ المنتَفِعَ مع أنَّه يعني غيرَه معه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، مع أنَّ الذين يُنذَرون ويُذَكَّرون هم جميعُ النَّاسِ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف دخَلَت (مِن) في غَضِّ البصَرِ دونَ حِفظِ الفَرجِ؟

**الجوابُ من وجوهٍ:**

**الوجه الأول**: أنه لَمَّا كان تحريمُ النظرِ تحريمَ الوسائلِ -فيُباحُ للمصلحةِ الراجحةِ؛ ويَحْرُمُ إذا خِيفَ منه الفسادُ؛ ولم يُعارِضْه مصلحةٌ أرجحُ مِن تلك المفسدةِ- لم يأمُرْ سُبحانَه بِغَضِّهِ مطلقًا؛ بل أمَر بالغَضِّ منه، وأمَّا حِفْظُ الفَرْجِ فواجبٌ بكل حالٍ -لا يُباحُ إلَّا بِحَقِّهِ-؛ فلذلك عَمَّ الأمرَ بحِفْظِه[٢].

**الوجه الثاني**: أنَّه لَمَّا كان الغَضُّ التامُّ لا يمكِنُ، جيءَ في الآيةِ بحَرفِ (مِن) الذي هو للتَّبعيضِ إيماءً إلى ذلك؛ إذ مِن المفهومِ أنَّ المأمورَ بالغَضِّ فيه هو ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٩٢).

لا يَليقُ تَحديقُ النظَرِ إليه، وذلك يتذكَّرُه المسلِمُ مِن استحضارِه أحكامَ الحَلالِ والحرامِ في هذا الشَّأنِ، فيَعلَمُ أنَّ غضَّ البصَرِ مراتِبُ: منه واجِبٌ، ومنه دونَ ذلك، فيشمَلُ غَضَّ البصَرِ عما اعتاد النَّاسُ كراهيةَ التحَقُّقِ فيه، كالنظَرِ إلى خبايا المنازِلِ، بخلافِ ما ليس كذلك[1].

**الوجه الثالث**: أن فائدةَ ذِكْرِ (مِنْ) التَّبعيضيَّةِ في غضِّ البصرِ دونَ حِفْظِ الفرْجِ: الدَّلالةُ على أنَّ حُكْمَ النَّظرِ أخفُّ مِن حُكْمِ الفرْجِ؛ إذْ يَحِلُّ النَّظرُ إلى بعضِ أعضاءِ المحارمِ، ولا يَحِلُّ شَيءٌ مِن فُروجِهنَّ[2].

**الوجه الرابع**: أنه لمَّا كان المُسْتثنى مِن حفظِ الفرجِ كالشَّاذِّ النَّادرِ -بخلافِ الغضِّ- أطلَقَه، وقيَّدَ الغضَّ بحرْفِ التَّبعيضِ[3].

**الوجه الخامس**: أنَّ قولَه ﴿يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي: يَنقُصوا مِن نظَرِهم، فالبصَرُ إذا لم يُمكِّنْ مَن عَمَلِه فهو مغضوضٌ ممنوعٌ عنه، وعلى هذا (مِن) ليست بزائدةٍ، ولا هي للتَّبعيضِ، بل هي من صِلةِ الغَضِّ، يقال: غَضَضتُ مِن فلانٍ: إذا نقَصْتَ مِن قَدْرِه[4].

٦- سَترُ العورةِ عن أعيُنِ النَّاظرين بما لا يصِفُ البشَرةَ واجِبٌ في الجملةِ، في الصَّلاةِ وخارجَ الصلاةِ؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡ﴾، وحِفظُ الفَرجِ يعُمُّ حِفظَه مِن مَسِّ مَن لا يحِلُّ له مسُّه بجِماعٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٠، ٣٦١).

وغيرِ جماعٍ، ومِن النظَرِ إليه[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ بدأ سبحانَه بالغَضِّ في الموضِعَينِ قَبلَ حِفظِ الفَرجِ، لأنَّ النَّظَرَ وَسيلةٌ إلى عدَمِ حِفظِ الفَرجِ، والوسيلةُ مُقَدَّمةٌ على المتوَسَّلِ إليه[٢]. فعدمُ غَضِّ البصرِ سببٌ لعدمِ حِفْظِ الفَرجِ، والإنسانُ إذا أطلقَ بصرَه تَعَلَّقَ قلبُه بالنِّساءِ، ثم لا يزالُ به النظرُ حتى يدنوَ مِن المرأةِ ويُكَلِّمَها ويخاطِبَها، ثمَّ يَعِدَها، ثمَّ تحصُلَ الفاحشةُ[٣]؛ فغَضُّ البصرِ لَمَّا كان أصلًا لحِفْظِ الفَرْجِ بدأ بذِكْرِه[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ المرأةَ يحرمُ عليها النَّظرُ إلى الرَّجلِ كحُرمةِ نظرِه إليها[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ فيه أنَّ المرأةَ يجِبُ عليها سَترُ عورتِها[٦].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ كَرَّرَ تعالى النهْيَ عن إبداءِ الزِّينةِ؛ نظرًا لتنوُّعِ الاستِثناءِ، فالنَّهيُ

---

(١) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيميَّة (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٩٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩١).

وتقدَّم الخلافُ في المسألة إذا لم يكُنِ النظرُ بشَهوةٍ أو مع خَوفِ الفِتنةِ (ص: ٢٠١) وما بعدها.

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٢).

الأوَّلُ استثنى منه بعضَ الزِّينةِ التي يجوزُ للمَنظورِ أنْ يُبديَها، والأمرُ الثاني استثنَى منه بعضَ الأشخاصِ الذين يجوزُ لهم النظَرُ[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ فيه إباحةُ النَّظَرِ للمَحارمِ[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ ...﴾ فمَنِ اتَّصَف بذلك دخَل في هذه الآيةِ، ودلَّت الآيةُ على أنَّ الأعمالَ بالنيَّاتِ، ويؤخَذُ مِن مَفهومِ مُخالفتِها أنَّ مَن ذَكَرَ اللهُ مِن المحارمِ إذا حَدَثَ مِن بعضِهم النظَرُ إلى مَن حُرِّمَتْ عليه بشَهوةٍ؛ أنَّه لا يجوزُ له أنْ يَنظُرَ إليها، وكذا المرأةُ إذا بَلَغَ فيها الفَسادُ إلى أنْ تتعاطى السِّحاقَ لو نظرتْ إلى امرأةٍ أخرى بشَهوةٍ؛ فلا يجوزُ لها النظَرُ إليها[٣].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ كأنَّه اختير لفظُ (الضَّربِ)؛ إشارةً إلى قُوَّةِ القصدِ للسَّترِ، وإشارةً إلى العفوِ عمَّا قد يبدو عند تحَرُّكِ الخمارِ عند مزاولةِ شَيءٍ مِن العملِ[٤].

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، وقال سُبحانه: ﴿وَلَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٦٠).

يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فنهى الله تعالى في هاتَينِ الآيتَينِ عمَّا يُوجِبُ العِلمَ بالزِّينةِ الخَفِيَّةِ بالسَّمعِ أو غيرِه[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ فيه دليلٌ على وجوبِ سَترِ الصَّدرِ والنَّحرِ والعُنُقِ، وأنَّ ذلك منها عورةٌ[٢]، لا يجوزُ للأجنبيِّ النَّظرُ إلى ذلك منها[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ دليلٌ على أنَّ المرأةَ إذا مَلَكَت زوجَها حَرُمت عليه، وانفسخَ نكاحُها[٤]؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ مِلْكَ يمينِ المرأةِ في عِدَادِ محارمِها، والمَحْرَمُ لا يَصلُحُ أنْ يكونَ زوجًا بحالٍ[٥].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ دَلالةٌ على أنَّه إذا عُرِفَ مِن الطِّفلِ أنَّه ينظُرُ إلى المرأةِ نَظَرَ شَهوةٍ -ولو لم يكن له إلَّا عشرُ سنواتٍ- فإنَّه يجبُ عليها أنْ تحتَجِبَ عنه؛ لأنَّ نظَرَ الطِّفلِ للمرأةِ ليس مقيَّدًا بالبلوغِ، بل هو مقيَّدٌ بما إذا عُرِف من الطِّفلِ أنَّه ينظُرُ إلى المرأةِ نظَرَ شَهوةٍ[٦]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

١٨- لم يَذكُرِ اللهُ الأعمامَ والأخوالَ فِي عِدادِ المُستثنَياتِ؛ وذلك لعدَّةِ أوجُهٍ:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٥/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٢). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ١٧٤).

(٤) حكى الإجماعَ على ذلك: ابنُ المنذر، وابنُ حزم، وابنُ قدامة. يُنظر: ((الإقناع)) لابن المنذر (١/ ٣١٠)، ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٦٩)، ((المغني)) لابن قدامة (٧/ ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٣).

(٦) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٤٣٣). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

**الأوَّلُ**: أنَّ سُكوتَ الآيةِ عن العَمِّ والخالِ ليس لمخالفةِ حُكمِهما حُكمَ بقيَّةِ المحارِمِ، ولكِنَّه اقتِصارٌ على الذين تكثُرُ مزاولتُهم بيتَ المرأةِ؛ فالتَّعدادُ جرَى على الغالِبِ[١].

**الثَّاني**: أنَّه لم يذكُرِ العَمَّ والخالَ؛ لأنَّهما يجريانِ مجرى الوالِدَينِ، وقد جاء تسميةُ العَمِّ أبًا في قَولِه تعالى: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾[٢] [البقرة: ١٣٣].

**الثَّالِثُ**: أنَّه لم يذكُرْهما لِفَهمِهما مِن بني الإخوانِ وبني الأخَواتِ[٣]؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ بني الأخِ للعمَّاتِ محارِمُ، عَلِمَ أنَّ بناتِ الأخِ للأعمامِ محارِمُ، وكذلك الحالُ في أمرِ الخالِ[٤]، فإذا لم يحتجِبْنَ عمَّن هنَّ عمَّاتُه ولا خالاتُه مِن أبناءِ الإخوةِ والأخَواتِ، مع رفعتِهنَّ عليهم، فعدمُ احتجابهنَّ عن عَمِّهنَّ وخالِهنَّ مِن بابِ أَولَى[٥].

**الرَّابعُ**: أنَّه تَركَ ذِكرَهما كما تَركَ ذِكْرَ مَحرَمِ الرَّضاعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

قال الشنقيطي: (وقال بعضُهم: إنَّ في الآيةِ ما يُشيرُ إليه، فلو سُمِّيَ لكان فيه شِبهُ تَكرارٍ؛ فقد ذَكَر أنَّ ابنَ أخي المرأةِ وابنَ أُختِها مِن محارِمِها، وهي عَمَّةُ أحدِهما وخالةُ الآخَرِ، فيُؤخَذُ منه أنَّ العَمَّ والخالَ مَحْرَمانِ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٠١).

(٦) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨).

وقيل أيضًا: لأنَّ الأعمامَ ربَّما يذكُرونَ بناتِ الأخِ عند أبنائِهم، وهم غيرُ محارِمَ، وكذلك الحالُ في الخالِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٠). =

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ نبَّه به على أنَّ الذي لأجْلِه نُهيَ عنه: أنْ يُعلَمَ زينتُهنَّ مِن الحَلْيِ وغيرِه، فلمَّا نهَى عن استماعِ الصَّوتِ الدَّالِّ على وجودِ الزِّينةِ، فلأنْ يدُلَّ على المنعِ مِن إظهارِ الزينةِ أَولى[1].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ فيه أنَّ المرأةَ مَنهيَّةٌ عن رَفعِ صَوتِها بالكلامِ، بحيث يَسمَعُ ذلك الأجانِبُ؛ إذ كان صوتُها أقرَبَ إلى الفتنةِ مِن صوتِ خَلخالِها؛ ولذلك كَرِهوا أذانَ النِّساءِ؛ لأنَّه يُحتاجُ فيه إلى رفعِ الصَّوتِ، والمرأةُ مَنهيَّةٌ عن ذلك[2].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ تَغطيةَ المرأةِ وَجْهَها واجِبٌ؛ لأنَّه إذا كانت المرأةُ مَنهيَّةً عن الضَّربِ بالأرجُلِ خَوفًا مِنِ افتِتانِ الرَّجُلِ بما يَسمَعُ مِن صَوتِ خَلخالِها ونَحوِه، فكيف

---

= قال ابنُ عثيمين بعد أن ذكَرَ هذا الوَجْهَ: (فلمَّا كان يُخشى أنَّ العَمَّ والخالَ يَصِفُ [أحَدُهما] المرأةَ لابنِه، لم يُذكَرا؛ للتحَرُّزِ لا لمخالفةِ الحُكمِ، وهذا التَّعليلُ له بعضُ الوجهِ، والله أعلمُ بما أراد... ولا شَكَّ أنَّ قوَّةَ المَحْرَميَّةِ في العَمِّ والخالِ أضعَفُ مِن قوَّتِها فيمَن عداهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥١).

قال الشوكاني: (وقال الزَّجَّاجُ: العَمُّ والخالُ ربَّما يَصِفانِ المرأةَ لولَدَيهما؛ فإنَّ المرأةَ تحِلُّ لابنِ العَمِّ وابنِ الخالِ، فكُرِه لهما الرؤيةُ، وهذا ضعيفٌ جِدًّا؛ فإنَّ تجويزَ وَصفِ المرأةِ لِمن تحِلُّ له ممكِنٌ مِن غيرِهما ممَّن يجوزُ له النظَرُ إليها، لا سيَّما أبناءُ الإخوةِ وأبناءُ الأخواتِ، واللازِمُ باطِلٌ فالملزومُ مِثلُه، وهكذا يستلزِمُ ألَّا يجوزَ للنِّساءِ الأجنبيَّاتِ أن ينظُرْنَ إليها؛ لأنَّهنَّ يَصِفْنها، واللازِمُ باطِلٌ فالملزومُ مِثلُه، وهكذا لا وَجهَ لِما قاله الشعبي وعِكرمةُ مِن أنَّه يُكرهُ للمرأةِ أن تضعَ خِمارَها عند عَمِّها أو خالِها. والأَولى أن يقالَ: إنَّه سبحانه اقتصَرَ هاهنا على بعضِ ما ذكَرَه مِن المحارِمِ في سورةِ النورِ؛ اكتفاءً بما تقدَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بكَشفِ الوَجهِ؟! فأيُّما أعظَمُ فِتنةً: أن يَسمَعَ الرَّجُلُ خَلخالًا بقَدَمِ امرأةٍ لا يدري ما هي وما جمالُها، أو أن يَنظُرَ إلى وَجهِ سافِرٍ جَميلٍ مُمتَلِئٍ شَبابًا ونَضارةً وحُسنًا وجَمالًا وتَجميلًا بما يجلِبُ الفِتنةَ، ويدعو إلى النَّظَرِ[1]؟!

٢٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ يُؤخَذُ منه قاعدةُ سَدِّ الوسائِلِ، وأنَّ الأمرَ إذا كان مُباحًا، ولكِنَّه يُفضي إلى محَرَّمٍ، أو يُخافُ مِن وقوعِه؛ فإنَّه يُمنَعُ منه؛ فالضَّربُ بالرِّجلِ في الأرضِ الأصلُ أنَّه مباحٌ، ولكِنْ لَمَّا كان وسيلةً لعِلمِ الزِّينةِ، مُنِع منه[2]. فالآيةُ فيها دليلٌ على أنَّ المرأةَ منهيَّةٌ عن إبرازِ كلِّ ما دعا إلى الشهوةِ، وإنْ كان مُباحًا لُبسُه لها[3].

٢٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ قَولُه: ﴿مَا يُخْفِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ اللِّباسَ سَتَرَ هذه الخَلاخيلَ[4]. والآيةُ نَصٌّ على أنَّ الرِّجلَينِ والسَّاقَينِ مِمَّا يُخفى ولا يَحِلُّ إبداؤُه[5]، وإلَّا لاستطاعَت إحداهُنَّ أن تُبدِيَ ما تُخفِي مِنَ الزِّينةِ «وهي الخلاخيلُ»، ولاستغنَت بذلك عن الضَّربِ بالرِّجْلِ[6].

٢٤- كانت المرأةُ في الجاهليَّةِ إذا كانت تمشي في الطريقِ وفي رِجلِها خَلخالٌ صامِتٌ -لا يُسمَعُ صَوتُه- ضَرَبت برِجلِها الأرضَ، فيَعلَمُ الرِّجالُ طَنينَه، فنهى اللهُ المؤمِناتِ عن مِثلِ ذلك. وكذلك إذا كان شيءٌ مِن زينتِها

---

(١) يُنظر: ((رسالة الحجاب)) لابن عثيمين (ص: ٩، ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٧٦).

(٥) يُنظر: ((المحلى بالآثار)) لابن حزم (٢/ ٢٤٧).

(٦) يُنظر: ((جلباب المرأة المسلمة)) للألباني (ص: ٨٠).

مستورًا، فتحَرَّكت بحركةٍ لِتُظهِرَ ما هو خفيٌّ، دخَل في هذا النَّهيِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[1]، ومِن ذلك الكَعبُ العالي الذي تَلبَسُه بعضُ النِّساءِ فيُسمَعُ له صوتٌ إذا مَشَينَ، يلفتُ أنظارَ الرِّجالِ.

٢٥- يُؤخذُ مِن مَفهومِ المُوافَقةِ[2] في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ أنَّ حُكْمَ الطِّيبِ حُكمُ الحَلْيِ؛ الحَلْيُ يُحَرِّكُ الشَّهوةَ بالسَّماعِ، والطِّيبُ يُحَرِّكُ الشَّهوةَ بالشَّمِّ، وقد نصَّتِ السُّنَّةُ على هذا المفهومِ[3]، فنُهِيت المرأةُ عن التعطُّرِ والتطيُّبِ عندَ خروجِها من بيتِها لِيشتَمَّ الرِّجالُ طِيبَها[4].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ بَيانٌ لعلَّةِ النَّهيِ عن الضَّربِ بالأرجُلِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ الخَلخالَ ونحوَه مِن الحُليِّ هو مِن الزِّينةِ الخفيَّةِ[5].

٢٧- ليس في كِتابِ اللهِ آيةٌ أكثرَ ضَمائرَ مِن هذه؛ جمَعَتْ خمسةً وعشرينَ ضميرًا للمُؤمناتِ مِن مَخفوضٍ ومَرفوعٍ، وسُمِّيَت لذلك: آيةَ الضَّمائرِ[6].

٢٨- في قولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فائدةٌ جليلةٌ، وهي أنَّ في أمرِه سبحانَه لجميعِ المؤمنين بالتَّوبةِ -في هذا السياقِ- تنبيهًا على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩).

(٢) مَفهومُ الموافقةِ: هو أن يكونَ المَسكوتُ عنه مُوافِقًا في الحكمِ للمَنطوقِ بِه. يُنظر: ((كشف الأسرار شرح أصول البزدوي)) لعلاء الدين البخاري (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩).

ويُنظر ما أخرجه مسلم (٤٤٣) من حديث زينبَ، امرأةِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما.

وما أخرجه أبو داود (٤١٧٣) والنسائي (٥١٢٦) من حديث أبي موسى الأَشْعَريِّ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٠٧).

(٦) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٤).

أنَّه لا يخلو مؤمِنٌ مِن بعضِ هذه الذُّنوبِ التي هي: تَركُ غَضِّ البصرِ وحفظِ الفرجِ، وتَركُ إبداءِ الزينةِ وما يتبَعُ ذلك، فمُستقِلٌّ ومُستكثِرٌ[1]. وفيه دليلٌ أنَّ الذَّنْبَ لا يُخرِجُ العبدَ مِن الإيمانِ؛ لأنَّه أمَرَ بالتوبةِ، ولم يَفصِلْ بينَ الكبائِرِ وغيرِها، فقال بعدما أمر بالتوبةِ: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ سَمَّاهم مؤمنينَ بعدَ الذَّنْبِ[2].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ مَن لم يَتُبْ فهو ناقِصُ الإيمانِ؛ لأنَّ التوبةَ مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ، وعلى حسَبِ معصيتِه يكونُ نَقصُ إيمانِه[3].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ حيثُ جَعَلَ اللهُ التوبةَ سببًا للفلاحِ، ففيه رَدٌّ على مَن أنكروا الأسبابَ، وقالوا: إنَّ الأسبابَ مجرَّدُ علاماتٍ لا مُوجِباتٍ[4]!

٣١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ التعبيرُ بالوصفِ في قولِه: ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إشارةٌ إلى علُوِّ مقامِ التوبةِ، بأنَّه لا يقدِرُ على ملازمتِها إلَّا راسِخُ القدَمِ في الإيمانِ، عارفٌ بأنَّه -وإن بالَغَ في الاجتهادِ- واقِعٌ في النُّقصانِ، وهذا الأمرُ للوجوبِ، وإذا كان للرَّاسخينَ في الإيمانِ، فمَن دُونَه مِن بابِ الأَولى[5].

٣٢- في قولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ توجيهُ الخطابِ للذكورِ -مع أنه يشملُ النِّساءَ بلا شكٍّ- فيه إشارةٌ -واللهُ أعلمُ-

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٥/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٦٤).

إلى رعايةِ الرجُلِ للمرأةِ، وأنَّ المرأةَ لا تَستقيمُ إلَّا باستقامةِ الرجلِ، فمِن أسبابِ تفريطِ النساءِ عدمُ رعايةِ الرجالِ لهنَّ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾[1] [النساء: ٣٤].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ كَرَمُ اللهِ تعالى وفضلُه؛ نأخذُ الكرمَ والفضلَ مِن محبَّتِه للتَّوبةِ، يعني كَوْنَه يُحِبُّ أنْ يتوبَ الناسُ حتى لا يُعاقِبَهم يدُلُّ على كَرَمِه وفضْلِه، وأنَّ رحمتَه سبَقتْ غضبَه؛ بخلافِ مَن لا رحمةَ عندَه[2].

## بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ شُروعٌ في بَيانِ أحكامٍ كُلِّيَّةٍ شاملةٍ للمُؤمنينَ كافَّةً، يَندرِجُ فيها حُكْمُ المُستأذنينَ عندَ دُخولِهم البيوتَ انْدراجًا أوليًّا. وتلْوينُ الخِطابِ وتَوجيهُه إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتفويضُ ما في حيِّزِه مِن الأوامرِ والنَّواهي إلى رأْيِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّها تكاليفُ مُتعلِّقةٌ بأُمورٍ جُزئيَّةٍ كثيرةِ الوُقوعِ، حَقيقةٌ بأنْ يكونَ الآمِرُ بها والمُتصدِّيَ لِتَدبيرِها حافظًا ومُهيمنًا عليهم. ومفعولُ الأمرِ أمْرٌ آخَرُ؛ قد حُذِفَ تَعويلًا على دَلالةِ جَوابِه عليه، أي: قُلْ لهم: غُضُّوا[3].

- وخَصَّ المؤمِنينَ معَ تحريمِه على غيرِهم، لكونِ قِطْعِ ذرائِعِ الزِّنا الَّتي منها النَّظَرُ، هم أحَقُّ مِنْ غيرِهم بها، وأَولَى بذلك مِمَّنْ سِواهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦).

- قَولُه: ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ اسمُ التَّفضيلِ ﴿أَزْكَىٰ﴾ مَسلوبُ المُفاضَلةِ، والمُرادُ تقويةُ تلك التَّزكيةِ؛ لأنَّ ذلك جُنَّةٌ مِن ارتكابِ ذُنوبٍ عظيمةٍ(١).

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ تذييلٌ؛ لأنَّه كِنايةٌ عن جزاءِ ما يتضمَّنُه الأمرُ مِن الغضِّ والحِفْظِ؛ لأنَّ المقصَدَ مِن الأمرِ الامتثالُ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ عطْفٌ بالنَّهيِ عن إبداءِ مَواقعِ الزِّينِ مِن الجسَدِ على الأمرِ بإغضاءِ البصرِ تأكيدًا(٣).

- قَولُه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ فيه ذِكْرُ الزِّينةِ دونَ مَواقعِها؛ للمُبالَغةِ في الأمرِ بالتَّصوُّنِ والتَّستُّرِ؛ لأنَّ هذه الزِّينةَ واقعةٌ على مواضعَ مِن الجسَدِ لا يحِلُّ النَّظرُ إليها لغيرِ هؤلاء؛ فنَهى عن إبداءِ الزِّينةِ نفْسِها؛ لِيُعلَمَ أنَّ النَّظرَ إذا لم يحِلَّ إليها لِمُلابسَتِها تلك المواقعِ -بدَليلِ أنَّ النَّظرَ إليها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦١).

غيرَ مُلابِسَةٍ لها لا مَقالَ في حِلِّه- كان النَّظرُ إلى المواقعِ أنفُسِها مُتمكِّنًا في الحظْرِ، ثابتَ القدمِ في الحُرمةِ، شاهِدًا على أنَّ النِّساءَ حقُّهنَّ أنْ يَحتطْنَ في سَتْرِها، ويتَّقينَ اللهَ في الكشْفِ عنها[١].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِخُمُرِهِنَّ﴾ لتأكيدِ اللُّصوقِ؛ مُبالَغةً في إحكامِ وضْعِ الخِمارِ على الجَيبِ؛ زِيادةً على المُبالَغةِ المُستفادةِ مِن فِعْلِ (يضْرِبْنَ)[٢].

- وقيل: ضُمِّنَ «يَضرِبنَ» معنى «يُلْقينَ»؛ فلذلك عُدِّيَ بـ «على»[٣].

- ولَمَّا كان أكثَرُ الزِّينةِ في الأعناقِ والأيدي والأرجُلِ، وكان دوامُ سَترِ الأعناقِ أيسَرَ وأمكَنَ؛ خَصَّها، فقال: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، جمعُ جيبٍ: وهو خَرقُ الثَّوبِ الذي يُحيطُ بالعُنُقِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ فيه إعادةُ لفْظِ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾؛ تأكيدًا للأوَّلِ، وهو قولُه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ المُتقدِّمُ، ولِيَبْنِيَ عليه الاستثناءَ في قولِه: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...﴾ إلخ، الَّذي مُقْتضَى ظاهِرِه أنْ يُعطَفَ على ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾؛ لبُعْدِ ما بيْنَ الأوَّلِ والثَّاني، أي: ولا يبدينَ زينتَهنَّ غيرَ الظاهرةِ إلَّا لمَن ذُكِروا بعدَ حرفِ الاستثناءِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ...﴾ بدَأَ تعالى بالأزواجِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢، ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٠٨).

لأنَّهم المقصودونَ بالزينةِ، ولأنَّ كلَّ بدَنِ الزوجةِ والسُّرِّيَّةِ حلالٌ لهم[١].

- قَولُه: ﴿أَوِ ٱلطِّفۡلِ﴾ وضَعَ الواحدَ مَوضِعَ الجمْعِ، حيث لم يقُلْ: (أو الأطفالِ)؛ لأنَّه يُفيدُ الجنْسَ؛ فلذلك أُجْرِي عليه الجمْعُ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ﴾[٢].

- قَولُه: ﴿لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ كِنايةٌ عن خُلوِّ بالِهم مِن شَهوةِ النِّساءِ[٣].

- قَولُه: ﴿وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ في النَّهيِ عن إبداءِ صَوتِ الحُليِّ بعدَ النَّهيِ عن إبداءِ عَينِها، مِن المُبالَغةِ في الزَّجرِ عن إبداءِ مَوضعِها ما لا يَخْفَى[٤].

- قَولُه: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فيه تلْوينٌ للخِطابِ، وصرْفٌ له عن رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الكلِّ بطريقِ التَّغليبِ؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ بما في حيِّزِه مِن أمْرِ التَّوبةِ، وأنَّها مِن مُعظَّماتِ المُهمَّاتِ الحقيقةِ بأنْ يكونَ سُبحانَه وتعالى هو الآمرَ بها؛ لِمَا أنَّه لا يكادُ يَخلو أحدٌ مِن المُكلَّفينَ عن نَوعِ تفريطٍ في إقامةِ مَواجبِ التَّكاليفِ كما يَنْبغي[٥]. وقيل: وقَعَ الْتفاتٌ مِن خطابِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١).

إلى خِطابِ الأمَّةِ؛ لأنَّ هذا تَذكيرٌ بواجبِ التَّوبةِ المُقرَّرةِ مِن قبْلُ، وليس استئنافَ تَشريعٍ. ونبَّهَ بقولِه: ﴿جَمِيعًا﴾ على أنَّ المُخاطبينَ هم المُؤمِنون والمُؤمناتُ، وإنْ كان الخِطابُ ورَدَ بضميرِ التَّذكيرِ على التَّغليبِ، وأنْ يُؤمِّلوا الفلاحَ إنْ هم تابوا وأنابوا[1].

- والإضافةُ في قولِه: ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ إلى ضَميرِ المؤمناتِ إنْ حُمِلَت على ظاهرِ الإضافةِ، كانت دالَّةً على أنَّهنَّ النِّساءُ اللَّاتي لهنَّ بهنَّ مَزيدُ اختصاصٍ؛ فقيل: المُرادُ نِساءُ أُمَّتِهنَّ، أي: المؤمناتُ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: (أو النِّساءِ)، وإنَّما أضافَهنَّ إلى ضَميرِ النِّسوةِ؛ إتْباعًا لبقيَّةِ المعدودِ؛ ففي هذه الآيةِ خمْسةٌ وعِشرونَ ضَميرًا، فجاء هذا للإتْباعِ، أي: فتكونُ الإضافةُ لغيرِ داعٍ معنويٍّ، بلْ لداعٍ لفظيٍّ تَقْتضيه الفصاحةُ، مِثْلُ الضَّميرينِ المُضافِ إليهما[2].

- وفي تَكريرِ الخِطابِ في قولِه: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ تأكيدٌ للإيجابِ، وإيذانٌ بأنَّ وصْفَ الإيمانِ مُوجِبٌ للامتثالِ حتْمًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١).

## الآيتان (٣٢-٣٣)

﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَيَـٰمَىٰ﴾: أي: الذين لا أزواجَ لهم مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، واحِدُهم أَيِّمٌ[1].

﴿وَإِمَآئِكُمْ﴾: جمعُ أَمَةٍ، والأَمَةُ: ضِدُّ الحُرَّةِ، وهي المرأةُ المَملوكةُ[2].

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾: أي: لِيطلُبِ العِفَّةَ عن الزنا، والعِفَّةُ: حصولُ حالةٍ للنَّفْسِ تمتَنِعُ بها عن غَلَبةِ الشَّهوةِ، وأصلُه: الكَفُّ عن القَبيحِ[3].

﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾: أي: المكاتَبَةَ، وكتابةُ العبدِ: ابتياعُ نفْسِه مِن سَيِّدِه بما يؤدِّيه مِن كَسْبِه، فيَعْقِدُ معَه عقدًا على مالٍ بشرطِ أنَّه إذا أدَّى عَتَقَ، وأصلُه مِن الكتابِ، يُرادُ بذلك الشَّرطُ الَّذي يُكْتَبُ بيْنَهما، وأصلُ (كتب): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٧)، =

﴿فَتَيَٰتِكُمۡ﴾: أي: إمائِكم، وأصلُ (فتي): يدُلُّ على طراوةٍ وجِدَّةٍ[١].

﴿ٱلۡبِغَآءِ﴾: أي: الزِّنا، يُقالُ: بَغَى الجرحُ: تجاوَز الحدَّ في فسادِه، وبَغَتِ المرأةُ بِغَاءً: إذا فجَرت؛ وذلك لتجاوزِها إلى ما ليس لها، وأصلُ (بغي) هنا: جنسٌ مِن الفسادِ[٢].

﴿تَحَصُّنٗا﴾: أي: تعَفُّفًا، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على حِفظٍ وحياطةٍ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مرشدًا عبادَه إلى ما يُعِينُ على العفافِ: وزوِّجوا -أيُّها المؤمنونَ- مَن لا زوجَ له مِن الأحرارِ والحرائرِ، ومِن مماليكِكم الصَّالحينَ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، إن يكُنْ هؤلاء الذين تُنكِحونَهم فقراءَ، يُغْنِهِمُ اللهُ مِن واسِعِ رِزقِه، واللهُ واسِعُ الفَضلِ، جَوادٌ كريمٌ، عليمٌ بأحوالِ العِبادِ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى بإعانةِ المماليكِ على ما يُحرِّرُهم مِن الرِّقِّ، فيقولُ: والذين يريدونَ أن يتحَرَّروا مِن رِقِّ العبوديَّةِ بمُكاتبتِكم، فكاتِبوهم على قَدرٍ مِن المالِ؛ ليَصيروا أحرارًا، إن عرَفتُم منهم قُدرةً على كسبِ المالِ والوفاءِ، وأعطوهم مِمَّا أعطاكم اللهُ مِن المالِ؛ ليَستعينوا به على الأداءِ. ولا تُجبِروا إماءَكم على الزِّنا؛

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

طلبًا للمالِ بطريقِ الفاحشةِ، إن أرَدْنَ التعفُّفَ عن مُقارفةِ الفاحشةِ، ومَن يُجبِرْهنَّ على الزِّنا، فإنَّ الله تعالى غفورٌ لهنَّ، رحيمٌ بهنَّ، والإثمُ على مَن أكرَههنَّ.

## تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه بغَضِّ الأبصارِ، وحِفظِ الفُروجِ؛ أرشَدَ بعد ذلك إلى ما يَحِلُّ للعِبادِ مِن النِّكاحِ الذي يكونُ به قَضاءُ الشَّهوةِ، وسُكونُ دَواعي الزِّنا، ويَسهُلُ بَعدَه غَضُّ البَصَرِ عن المُحَرَّماتِ، وحِفظُ الفَرجِ عمَّا لا يَحِلُّ[1].

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمت أوامِرُ ونواهٍ في غَضِّ البصَرِ وحِفظِ الفَرجِ وإخفاءِ الزِّينةِ وغيرِ ذلك، وكان الموجِبُ للطُّموحِ مِن الرجالِ إلى النِّساءِ، ومِن النِّساءِ إلى الرِّجالِ هو عدمَ التزوُّجِ غالِبًا؛ لأنَّ في تكاليفِ النِّكاحِ وما يجِبُ لكُلِّ واحدٍ مِن الزوجينِ ما يشغَلُ- أمَر تعالى بإنكاحِ الأيامَى، وهم الذين لا أزواجَ لهم مِن الصِّنفينِ؛ حتى يشتَغِلَ كُلٌّ منهما بما يلزَمُه، فلا يلتَفِتَ إلى غيرِه[2]، فأُردِفت أوامرُ العفافِ بالإرشادِ إلى ما يُعينُ عليه، ويُعِفُّ نفوسَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، ويَغُضُّ مِن أبصارِهم[3].

﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٥).

أي: وزوِّجُوا[١] -أيُّها المُسلِمونَ- كُلَّ مَن لا زوجَ له منكم مِن الرِّجالِ والنِّساءِ الأحرارِ؛ فإنَّ الزَّواجَ طَريقُ التعَفُّفِ[٢].

﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾.

أي: وزوِّجُوا -أيُّها المالِكونَ للعبيدِ- كُلَّ مَن لا زوجَ له مِن مماليكِكم مِن الرِّجالِ والنِّساءِ الصَّالحينَ[٣].

---

(١) قال القرطبي: (الخطابُ للأولياءِ. وقيل: للأزواجِ. والصحيحُ الأوَّلُ؛ إذ لو أراد الأزواجَ لقال «وانْكِحوا» بغير همزٍ، وكانت الألفُ للوصلِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٢٨، ٥٢٩).
قال ابنُ تيميَّةَ: (هذه الآيةُ لم تتعرَّضْ للصفاتِ التي بها تحرُمُ المرأةُ مطلقًا أو مؤقَّتًا، وإنَّما أمر بإنكاحِ الأيَامى مِن حيثُ الجملةُ، وهو أمرٌ بإنكاحِهنَّ بالشروطِ التي بيَّنَها، وكما أنَّها لا تُنكَحُ في العِدَّة والإحرامِ، لا تُنكَحُ حتى تتوبَ [أي: مِن الزنا]). ((مجموع الفتاوى)) (٣٢/ ١١٥).
ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٨)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٧٩٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١٧).
اختلف المفسِّرون في المرادِ بالصلاحِ المذكورِ هنا؛ فقيل: المرادُ به: الصلاحُ في الدِّين. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزمخشري، والبيضاوي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٦).
وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ وَصفِ العَبيدِ والإماءِ بالصَّالحينَ أنَّ المرادَ اتِّصافُهم بالصَّلاحِ الدِّينيِّ، أي: الأتقياء. والمعنى: لا يَحمِلْكم تحقُّقُ صَلاحِهم على إهمالِ إنكاحِهم؛ لأنَّكم آمِنون مِن وقوعِهم في الزِّنا، بل عليكم أن تُزَوِّجوهم؛ رفقًا بهم، ودفعًا لِمَشقةِ العَنَتِ عنهم. فيُفيدُ أنَّهم إن لم يكونوا صالحينَ كان تزويجُهم آكَدَ أمرًا، وهذا من دَلالةِ الفَحوى؛ فيَشمَلُ غيرُ الصَّالحينَ غيرَ الأعِفَّاءِ والعفائِفِ مِن المماليكِ المُسلِمينَ، ويَشمَلُ المماليكَ غيرَ المُسلمينَ. وبهذا التفسيرِ تنقَشِعُ الحَيرةُ التي عَرَضت للمفَسِّرينَ في التَّقييدِ بهذا الوَصفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٦).
=

﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: إنْ يكُنْ هؤلاء الذين تُنكِحونَهم -مِن أيامى رجالِكم ونسائِكم، وعبيدِكم وإمائِكم- أهلَ فاقةٍ وفقرٍ، فإنَّ اللهَ سيُغنيهم مِن فَضلِه؛ فلا تمتَنِعوا عن تزويجِهم بسبَبِ فَقرِهم[1].

---

= وقيل: المرادُ الذين يَصلُحون للنكاحِ، وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الفرس، وابنُ جزي، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٠)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٦٨)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٧٩٩).

قال ابنُ القيم: (المرادُ بـ «الصالحينَ»: مَن صلَحَ للنكاحِ، هذا أصحُّ التفسيرينِ، وذهبت طائفة إلى أنه الإيمانُ، والأوَّلُ أصَحُّ؛ فإنَّ الله سبحانه لم يأمُرْهم بإنكاحِ أهلِ الصلاحِ والدِّينِ خاصَّةً مِن عبيدِهم وإمائهم، كما لم يَخُصَّهم بوجوبِ الإنفاقِ عليهم، بل يجِبُ على السيِّدِ إعفافُ عبدِه وأمَتِه، كما يجبُ عليه الإنفاقُ عليه؛ فإنَّ ذلك مِن تمامِ مصالحِه وحقوقِه على سيِّدِه). ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٧٩٩).

وممَّن ذهَب إلى احتمالِ إرادةِ كِلا المعنيَينِ: السعديُّ، فقال: (﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ يحتملُ أنَّ المرادَ بالصالحينَ: صلاحُ الدِّينِ، وأنَّ الصالحَ مِن العبيدِ والإماءِ -وهو الذي لا يكونُ فاجرًا زانيًا- مأمورٌ سيِّدُه بإنكاحِه؛ جزاءً له على صلاحِه، وترغيبًا له فيه؛ ولأنَّ الفاسِدَ بالزِّنا منهيٌّ عن تزوجِه، فيكونُ مؤيِّدًا للمذكورِ في أوَّلِ السورةِ: أنَّ نكاحَ الزاني والزانيةِ مُحرَّمٌ حتى يَتوبَ، ويَكونُ التخصيصُ بالصلاحِ في العبيدِ والإماءِ دُونَ الأحرارِ؛ لكثرةِ وُجودِ ذلك في العبيدِ عادةً. ويحتملُ أنَّ المرادَ بالصالحينَ: الصالحونَ للتزوُّجِ، المحتاجون إليه مِن العبيدِ والإماءِ، يؤيِّدُ هذا المعنى أنَّ السيِّدَ غيرُ مأمورٍ بتزويجِ مملوكِه قبْلَ حاجتِه إلى الزواجِ، ولا يبعُدُ إرادةُ المعنيَينِ كِلَيْهِما، والله أعلَمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

وممَّن قال بالمعنيَين: ابنُ عثيمينَ، حيث قال: (ينبغي أن يُفَسَّر قولُه: «الصالحين» بصلاحِ الدينِ، وصلاحِ الدنيا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٤)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٠).

قال القرطبي: (هذا وعْدٌ بالغنى للمتزوِّجينَ؛ طلبَ رضا الله، واعتصامًا مِن معاصيه). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤١). =

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ثلاثةٌ حَقٌّ على اللهِ عَونُهم: المجاهِدُ في سبَيلِ اللهِ، والمُكاتَبُ[1] الَّذي يريدُ الأداءَ، والنَّاكِحُ الَّذي يُريدُ العَفافَ))[2].

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ واسِعُ الفَضلِ والغِنى، عليمٌ بعبادِه وأحوالِهم ونيَّاتِهم، عليمٌ بمن يستَحِقُّ منهم الإغناءَ مِن فَضلِه[3].

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾.

---

= وقال الشنقيطي: (الظاهرُ أن المتزوِّجَ الذي وعده الله بالغنى هو الذي يريدُ بتزويجِه الإعانةَ على طاعةِ الله بغَضِّ البصرِ، وحِفظِ الفَرجِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٣١).

(١) المُكاتَبُ: هو العَبدُ يُكاتِبُ على نَفْسِه بثَمَنِه، فإذا سعى وأدَّاه عَتَق. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٤٨)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٦٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٥٥) واللفظ له، والنَّسائي (٣٢١٨)، وابن ماجه (٢٥١٨)، وأحمد (٧٤١٦). حسَّنه الترمذي، وقال الدارقطني -كما في ((البدر المنير)) لابن الملقِّن (٧/ ٤٣٢): اختُلِف في رفعه ووقفِه، ورفعه صحيح. وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٣/ ٥)، وابن الملقِّن في ((شرح صحيح البخاري)) (٢٤/ ٢٣٦)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تحقيقِ ((مسند أحمد)) (١٣/ ١٤٩)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٧٦٥)، وذكر أنَّه ورد بإسنادٍ صَحيحٍ بلَفظِ: (الغازي في سَبيلِ اللهِ) بَدَلَ (المُجاهِدُ). وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٦٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٧، ٢١٨).
قال البقاعي: (﴿وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فهو بسَعةِ قُدرتِه يَسوقُ ما كتَبه للمرأةِ على يدِ الزوجِ، وبشمولِ علمِه يسبِّبُ أسبابَه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٦٧).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه تزويجَ الحرائرِ والإماءِ؛ ذكَرَ حالَ مَن يَعجِزُ عن ذلك[١].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى أمَرَ كُلَّ مَن تعلَّقَ به الأمرُ بالإنكاحِ بأن يُلازِموا العَفافَ في مُدَّةِ انتظارِهم تيسيرَ النِّكاحِ لهم بأنفُسِهم، أو بإذْنِ أوليائِهم ومَواليهم[٢].

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾.

أي: ولْيلزَمِ الكفَّ والامتِناعَ عن الوقوعِ فيما حرَّمَ اللهُ مِنَ الفواحِشِ، الذين لا يَجِدونَ قُدرةً على النِّكاحِ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ الأحرارِ والعبيدِ، ولْيصبِروا على مشقَّةِ العُزوبةِ حتى ييسِّرَ اللهُ لهم مِن فَضلِه ما يتزوَّجونَ به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٨).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ هذا الاستِعفافُ المأمورُ به في هذه الآيةِ الكريمةِ هو المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، وقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، ونحوِ ذلك مِنَ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٣٢).

قال السعدي: (قولُه: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يَقدِرونَ نِكاحًا؛ إمَّا لفَقرِهم أو فقرِ أوليائِهم وأسيادِهم، أو امتناعِهم مِن تزويجِهم، وليس لهم مِن قدرةٍ على إجبارِهم على ذلك، وهذا التقديرُ أحسَنُ مِن تقديرِ مَن قدَّر: «لا يجدون مهرَ نكاحٍ» وجعلوا المضافَ إليه نائبًا مَنابَ المضافِ؛ فإنَّ في ذلك محذورينِ؛ أحدهما: الحذفُ في الكلامِ، والأصلُ عدمُ الحذف. والثاني: كونُ المعنى قاصرًا على مَن له حالانِ: حالةُ غنًى بمالِه، وحالةُ عدَمٍ، فيخرجُ العبيدُ والإماءُ ومَن إنكاحُه على وليِّه، كما ذكرنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٠٧، ٢٠٨).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور: ٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شَبابًا لا نجِدُ شيئًا، فقال لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا معشَرَ الشَّبابِ، مَنِ استطاع الباءةَ[1] فلْيَتزَوَّجْ؛ فإنَّه أغَضُّ للبصَرِ، وأحصَنُ للفَرْجِ، ومَن لم يَستَطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ[2]))[3].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ومَن يَستعفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، ومَن يَستغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، ومَن يَتصبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وما أُعطِيَ أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسَعَ مِنَ الصَّبرِ))[4].

﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾.

أي: والذين يَلتَمِسونَ المُكاتَبةَ منكم -أيُّها المالِكونَ للعَبيدِ[5]- مِن مماليكِكم مِن الرِّجالِ والنِّساءِ، فأجيبوهم إلى ما طَلَبوا ليتحَرَّروا مِن الرِّقِّ، إنْ عَلِمتُم فيهم

---

(١) الباءةَ: أي: الجِماعَ أو مُؤَنَ النِّكاحِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٧٣).

(٢) وِجاءٌ: أي: قاطِعٌ للشَّهوةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ١١٩).

(٣) رواه البخاري (٥٠٦٦) واللفظ له، ومسلم (١٤٠٠).

(٤) رواه البخاري (١٤٦٩) واللفظ له، ومسلم (١٠٥٣).

(٥) قال ابنُ الفرس: (والمخاطبونَ بإنكاحِهنَّ السادةُ، ولا خلافَ في هذا). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٣٧٥).

قُدرةً على كَسبِ المالِ، وأمانةً للوفاءِ بما التَزَموا لكم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٩).

قال القرطبي: (معنى المكاتَبةِ في الشَّرعِ: هو أن يُكاتِبَ الرجُلُ عبْدَه على مالٍ يؤدِّيه مُنجَّمًا عليه [أي: على أقساط]، فإذا أدَّاه فهو حرٌّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٤٤).

اختلف أهلُ العلمِ في الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾؛ هل هو للوُجوبِ، أو للاستِحبابِ؟ فالمذاهِبُ الفِقهيَّةُ الأربعةُ: الحَنَفيَّةُ، والمالِكيَّةُ، والشَّافِعيَّةُ، والحنابِلةُ- على أنَّه للاستِحبابِ، وهو قولُ عامَّةِ أهلِ العلمِ خِلافًا للظَّاهِريَّةِ وبعضِ السلفِ. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٤/ ١٣٤)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ٣٧٤)، ((البيان في مذهب الإمام الشافعي)) للعمراني (٨/ ٤١٢)، ((المغني)) لابن قدامة (١٠/ ٣٦٥).

قال ابنُ رشد: (قال أهلُ الظَّاهِرِ: هو واجِبٌ، واحتَجُّوا بظاهِرِ قَولِه تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ والأمرُ على الوُجوبِ، وأمَّا الجُمهورُ فإنَّهم لَمَّا رَأَوا أنَّ الأصلَ هو ألَّا يُجبَرَ أحَدٌ على عِتقِ مَملوكِه، حمَلوا هذه الآيةَ على النَّدبِ؛ لئَلَّا تكونَ مُعارِضةً لهذا الأصلِ، وأيضًا فإنَّه لم يكُنْ للعَبدِ أن يُحكَمَ له على سَيِّدِه بالبَيعِ له، وهو خروجُ رَقَبتِه عن مِلكِه بعِوَضٍ؛ فأحرى ألَّا يُحكَمَ له عليه بخُروجِه عن غَيرِ عِوَضٍ هو مالِكُه؛ وذلك أنَّ كَسْبَ العَبدِ هو للسَّيِّدِ). ((بداية المجتهد)) (٢/ ٣٧٤).

وقال ابنُ عثيمين في بيانِ دليلِ الجُمهورِ: (وحُجَّتُهم في ذلك أنَّ العبدَ مملوكٌ لك، ولا يجِبُ عليك إخراجُ مِلكِك إلَّا برضًا منك، فكما أنَّ الإنسانَ لا يُجبَرُ على بيعِ بَيتِه وعلى بَيعِ دابَّتِه، لا يُجبَرُ كذلك على بَيعِ عَبدِه، فإذا طَلَب منِّي المكاتَبةَ فأنا حُرٌّ؛ لأنَّه مالي؛ ولهذا سمَّاه الله تعالى مِلكًا، فلا يُجبَرُ على إخراجِ مِلكِه مِن مِلكِه؛ «لا يحِلُّ مالُ امرئٍ مُسلِمٍ إلَّا بطِيبِ نَفْسٍ منه»، وإذا كان كذلك، فإنَّ الأمرَ هنا للاستِحبابِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٠).

وقال ابنُ حجر: (وقال أبو سعيدٍ الإصطخري: القرينةُ الصارفةُ للأمرِ في هذا عن الوجوبِ: الشرطُ في قوله: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾؛ فإنَّه وكَل الاجتهادَ في ذلك إلى المولَى، ومقتضاه أنَّه إذا رأى عدمَه لم يُجبَرْ عليه؛ فدلَّ على أنَّه غيرُ واجبٍ. وقال غيرُه: الكتابةُ عقدُ غررٍ، وكان الأصلُ أن لا تجوزَ، فلمَّا وقَع الإذنُ فيها كان أمرًا بعدَ منعٍ، والأمرُ بعدَ المنعِ للإباحةِ، ولا يَرِدُ على هذا كونُها مستحبةً؛ لأنَّ استحبابَها ثبَت بأدلةٍ أخرَى). ((فتح الباري)) (٥/ ١٨٧). =

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

= واختُلِف في معنى الخَيرِ في قَولِه: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾:

فقيل: ﴿خَيْرًا﴾ أي: مَالًا. وممَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، ونَسَبه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباس في رواية عنه، والسُّدِّيُّ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وقَتادةُ، والحسنُ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، والضحَّاكُ، وعطاءٌ، ومقاتلُ بنُ حيان، وطاووسٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٨٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٣٦).

وقيل: المرادُ بالخَيرِ: القُوَّةُ على الاحتِرافِ والاكتِسابِ، والقُدرةُ على أداءِ ما كُوتِبَ عليه، والوَفاءِ بما أوجَب على نفْسِه وألزَمَها. ومِمَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، والزجَّاج، ومكِّي، والواحديُّ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عُمرَ، وابنُ عبَّاسٍ في رواية عنه، ومالكُ بن أنس، وزيد، والثوري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٩٦).

وقيل: المرادُ بالخَيرِ: الأمانةُ، والقُدرةُ على الكَسبِ وأداءِ المالِ بالاحترافِ. وممَّن اختاره: الشافعيُّ، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٨/ ٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٩).

وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: الحسنُ في رواية عنه، ومجاهدٌ في رواية عنه، وطاووسٌ في رواية عنه، وأبو صالح، وإبراهيم، وعطاء، وعَمرُو بن دينار، وسفيان، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٩٦).

وقال البِقَاعي: (﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: تصَرُّفًا صالحًا في دينِهم ودُنياهم؛ لئَلَّا يَفسُدَ حالُهم بعدَ الاستِقلالِ بأنفُسِهم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٦٨).

وقال السعدي: (﴿خَيْرًا﴾ أي: قدرةً على التكَسُّبِ، وصلاحًا في دينِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

أي: وأعطُوا المكاتَبينَ مِن مالِ اللهِ الذي رزَقَكم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٢، ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣، ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قيل: عَنَى به إيتاءَهم سَهْمَهم مِنَ الزَّكاةِ المفروضةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وزيدُ بنُ أسلمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٣).

قال النسفي: (﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ أمرٌ للمُسلِمينَ على وَجهِ الوُجوبِ بإعانةِ المُكاتَبينَ، وإعطائِهم سَهْمَهم مِنَ الزَّكاةِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠]). ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٣).

وقيل: هذا أمرٌ للسَّادةِ بإعانتِهم في مالِ الكتابةِ؛ إمَّا بأن يُعطوهم شيئًا ممَّا في أيديهم، أو يحطُّوا عنهم شيئًا. وممَّن قال بذلك: الزجَّاجُ، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والقرطبي، والبيضاوي، وأبو حيان، والبقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٠٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ في رواية، وعِكرمةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٨٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (قولُه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ اختلَف المفسِّرون فيه؛ فقال قائلون: معناه: اطرَحوا لهم مِن الكتابةِ بعضَها، ثمَّ قال بعضُهم: مقدارُ الرُّبُعِ. وقيل: الثُّلُثُ. وقيل: النِّصْفُ. وقيل: جزءٌ من الكتابةِ مِن غيرِ حَدٍّ.

وقال آخَرونَ: بل المرادُ مِن قَولِه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ هو النَّصيبُ الذي فَرَض الله لهم مِن أموالِ الزَّكواتِ... والقولُ الأوَّلُ أشهرُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣، ٥٤).

وممَّن جمع بيْن القولينِ السَّابقَينِ: القاسميُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨). =

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أرشَدَ اللهُ سُبحانَه المَواليَ إلى نِكاحِ الصَّالِحينَ مِنَ المماليكِ؛ نهَى المُسلِمينَ عمَّا كان يَفعَلُه أهلُ الجاهِليَّةِ مِن إكراهِ إمائِهم على الزِّنا(١).

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابرٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ جاريةً لعبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلولَ يقالُ لها: مُسَيكةُ، وأُخرى يُقالُ لها: أُميمةُ، فكان يُكرِهُهما على الزِّنا، فشكَتَا ذلك إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(٢).

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾.

أي: ولا تُكرِهوا إماءَكم على الزِّنا إنْ أرَدْنَ التعفُّفَ عنه(٣).

---

= قال السعدي: (يدخلُ في ذلك أمرُ سَيِّدِه الذي كاتَبه أن يعطيَه مِن كتابتِه، أو يُسقِطَ عنه منها، وأمرُ النَّاسِ بمعونتِهم؛ ولهذا جعَل الله للمُكاتَبينَ قِسطًا مِن الزَّكاةِ، ورغَّب في إعطائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥).

(٢) رواه مسلم (٣٠٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قال ابن كثير: (كان أهلُ الجاهلية إذا كان لأحدِهم أمَةٌ أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبةً يأخُذُها منها كلَّ وقتٍ! فلمَّا جاء الإسلامُ نهى اللهُ المسلمينَ عن ذلك... وقولُه: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ هذا خرجَ مَخرجَ الغالِبِ؛ فلا مفهومَ له). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤، ٥٦).

وقال الشوكاني: (وقيل: إنَّ هذا الشرطَ خرَج مخرجَ الغالبِ؛ لأنَّ الغالِبَ أنَّ الإكراهَ لا يكونُ إلَّا عندَ إرادةِ التحصُّنِ؛ فلا يلزمُ منه جوازُ الإكراهِ عندَ عدمِ إرادةِ التحَصُّنِ، وهذا الوجهُ أقوى =

﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وذلك لِتَطلبوا بإكراهِ إمائِكم على الزِّنا مالًا مِن كَسبِهنَّ به[1].

﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: ومَن يُكرِهْ إماءَه على الزِّنا، فإنَّ اللهَ مِن بعدِ إكراهِهنَّ غفورٌ لهنَّ، رحيمٌ بهنَّ، وإثمُهنَّ على مَن أكرهَهنَّ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦].

---

= هذه الوجوهِ؛ فإنَّ الأمَةَ قد تكونُ غيرَ مريدةٍ للحلالِ ولا للحرامِ، كما فيمَن لا رغبةَ لها في النكاحِ كالصغيرةِ، فتوصَفُ بأنها مُكرَهةٌ على الزِّنا، مع عدمِ إرادتِها للتحصُّنِ، فلا يتِمُّ ما قيل مِن أنَّه لا يُتصَوَّرُ الإكراهُ إلَّا عندَ إرادةِ التحصُّنِ، إلَّا أن يُقالَ: إنَّ المرادَ بالتحصُّنِ هنا مجرَّدُ التعفُّفِ، وأنَّه لا يَصدُقُ على مَن كانت تريدُ الزواجَ أنَّها مريدةٌ للتحصُّنِ، وهو بعيدٌ، فقد قال الحَبرُ ابنُ عبَّاسٍ: إنَّ المرادَ بالتحصُّنِ: التعفُّفُ والتزوُّجُ، وتابَعه على ذلك غيرُه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥).

وقال النووي: (المقصودُ أنَّ الإكراهَ على الزِّنا حرامٌ، سواءٌ أرَدْنَ تحَصُّنًا أم لا، وصورةُ الإكراهِ مع أنَّها لا تُريدُ التحَصُّنَ أن تكونَ هي مريدةَ الزِّنا بإنسانٍ، فيُكرِهُها على الزِّنا بغَيرِه، وكلُّه حرامٌ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦).

قال البغوي: (﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: لتَطلُبوا مِن أموالِ الدنيا، يريدُ: مِن كسبِهنَّ، وبيعِ أولادِهنَّ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٤).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مِن خراجِهنَّ ومُهورهنَّ وأولادِهنَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦).

قال الشنقيطي (﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لهنَّ، وليس المرادُ أنَّه غَفورٌ رَحيمٌ للذين أكرَهوهنَّ؛ لأنَّ الغُفرانَ والرَّحمةَ يُناسِبانِ المقهورَ المُكْرَهَ، لا المُجرِمَ المُكرِهَ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٢٠).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ وضَعَ عن أمَّتي الخطأَ، والنِّسيانَ، وما استُكرِهوا عليه))(١).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١ - فائدةُ ربْطِه الغِنى بالنِّكاحِ في قولِه: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: أنَّه قد ركَزَ في الطِّباعِ السُّكونُ إلى الأسبابِ، والاعتمادُ عليها، والغَفلةُ عن المُسبِّبِ جلَّ وعلا، حتَّى غلَبَ الوهمُ على العقْلِ، فخيَّلَ أنَّ كثرةَ العيالِ سبَبٌ يُوجِبُ الفقرَ حتْمًا، وعدَمَها سببٌ يُوجِبُ تَوفيرَ المالِ جزْمًا، وإنْ كان واحدٌ مِن هذينِ السَّببينِ غيرَ مُؤثِّرٍ فيما ربطَهُ الوهمُ به؛ فأُرِيدَ قلْعُ هذا الخَيالِ المُتمكِّنِ مِن الطَّبعِ، بالايذانِ بأنَّ اللهَ تعالى قد يُوفِّرُ المالَ ويُنَمِّيه مع كثرةِ العيالِ الَّتي هي سببٌ في الأوهامِ لنَفادِ المالِ، وقد يُقدِّرُ الإملاقَ مع عدَمِه الَّذي هو سبَبٌ في الإكثارِ عندَ الأوهامِ، والواقِعُ يَشهَدُ بذلك بلا مِراءٍ؛ فدلَّ ذلك قطْعًا على أنَّ الأسبابَ الَّتي يَتوهَّمُها البشرُ مُرتبِطاتٍ بمُسبَّباتِها ارتباطًا لا ينفكُّ ليست على ما يَزْعُمونه، وإنَّما يُقدِّرُ الغِنى والفقرَ مُسبِّبُ الأسبابِ، غيرُ مَوقوفٍ تقديرُ ذاك إلَّا على مَشيئةٍ خاصَّةٍ، وحينَئذٍ لا يَنفِرُ العاقلُ المُتيقِّظُ مِن النِّكاحِ؛ لأنَّه استقرَّ عنده أنْ لا أثَرَ له في الإقتارِ، وأنَّ اللهَ تعالى لا يمنَعُه ذلك مِن إغنائِه، ولا يُؤثِّرُ أيضًا الخُلوُّ عن

---

(١) أخرجه من طرق ابن ماجه (٢٠٤٥) واللفظ له، وابن حبان (٧٢١٩)، والحاكم (٢٨٠١) ذكر العقيلي في ((الضعفاء الكبير)) (٤/ ١٤٥) أن له إسنادًا جيدًا، وصحَّحه الحاكم على شرط الشيخين، وصحَّحه ابن حزم في ((المحلى)) (١٠/ ٢٠٥)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٠٤٥)، وحسنه النووي في ((المجموع)) (٢/ ٢٦٧)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٥١٠)، والحديث استنكره الإمام أحمد وأبو حاتم. يُنظر: ((العلل ومعرفة الرجال)) (١/ ٥٦١)، ((علل الحديث)) لابن أبي حاتم (٤/ ١١٦).
لكن قال ابنُ العربي: (والخبرُ، وإنْ لم يصحَّ سندُه، فإنَّ معناه صحيحٌ باتِّفاقِ العلماءِ). ((أحكام القرآن)) (٥/ ٢١٢).

النِّكاحِ لأجلِ التَّوفيرِ؛ لأنَّه قد استقرَّ أنْ لا أثَرَ له فيه، وأنَّ اللهَ تعالى لا يمنَعُه مانعٌ أنْ يَقتُرَ عليه، وأنَّ العبْدَ إنْ تَعاطى سببًا، فلا يكُنْ ناظرًا إليه، ولكنْ إلى مَشيئةِ اللهِ تعالى وتقدَّسَ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فيه استِحبابُ الصَّبرِ عن النكاحِ لِمن لا يقدِرُ على أُهبَتِه، والاستِعفافُ بأن يَكسِرَ شَهوتَه بالصَّومِ، كما بيَّنه الحديثُ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ فيه حثٌّ على التزَوُّجِ، ووعدٌ للمُتزوِّجِ بالغِنَى بعدَ الفَقرِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ أخَذَ بعضُ العُلَماءِ مِن هذه الآيةِ أنَّ العَبدَ التقيَّ الصَّالحَ في دينِه كُفُؤٌ للحُرَّةِ، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾[٤] [البقرة: ٢٢١]. فمَن أباح نِكاحَ العبَدِ الحُرَّةَ استدَلَّ بعمومِ آيةِ سورةِ (النُّورِ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٣٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

والحديث المشار إليه أخرجه البخاري (١٩٠٥) واللفظ له، ومسلم (١٤٠٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، قال: كنَّا مع النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ((مَنِ استطاع الباءةَ فلْيَتزَوَّجْ؛ فإنَّه أغَضُّ للبصرِ، وأحصَنُ للفَرْجِ، ومَن لم يَستطِعْ فعليه بالصَّومِ؛ فإنَّه له وِجاءٌ)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ أخذَ مِن الآيةِ بَعضُ العُلَماءِ أنَّ العبدَ إذا طلَبَ التَّزويجَ لِيَعِفَّ نفْسَه أنَّه ليس للسيِّدِ أن يمنَعَه، بل يجِبُ عليه أن يأذَنَ له بذلك[١]؛ للأمرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾[٢]. وأنَّه يُجبَرُ على إنكاحِ عبدِه وأمَتِه[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ حجَّةٌ واضحةٌ في أنَّه ليس للبِكْرِ ولا للثَّيِّبِ أنْ تتزوَّجَ بغيرِ أمرِ وَلِيِّها؛ إذْ لو كان لها ذلك ما أُمِرَ غيرُها بإنكاحِها[٤]! فالآيةُ فيها دليلٌ على اعتبارِ الوَليِّ؛ لأنَّ الخِطابَ له، وعدَمِ استقلالِ المرأةِ بالنِّكاحِ[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ استدَلَّ بعمومِه مَن أباح نكاحَ الإماءِ بلا شرطٍ[٦].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ دَلالةٌ على جوازِ قولِ القائلِ: «عبدي» أو «أَمَتي»[٧]، والنَّهْيُ الَّذي ورَد في الحديثِ عن

---

(١) قال ابنُ تيمية: (وإذا طَلَب النِّكاحَ فعلى السَّيِّدِ أنْ يُزَوِّجَه، لِقولِ اللَّهِ تعالَى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾). ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٤).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

وهو مَذهَبُ الجُمهورِ: المالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ؛ أنه لا يَصِحُّ النِّكاحُ بدونِ وليٍّ للمَرأةِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٢٢٠)، ))روضة الطالبين)) للنووي (٧/ ٥٠)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٤٨).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

(٧) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ١٧٨).

قولِ الرجُلِ: «عبدي» و«أَمَتي»[١] للتَّنزيهِ، لا للتَّحريمِ. وقيل: المرادُ بالنَّهيِ: مَنِ استعمَله على جهةِ التعاظُمِ والارتفاعِ، لا للوصفِ والتعريفِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّه ليس للعبدِ ولا للأَمَةِ أنْ يتزوَّجا بغير إذْنِ سيِّدِهما[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فيه أمرُ الأولياءِ بإنكاحِ مَن تحتَ ولايتِهم مِن الأيامَى، وهم مَن لا أزواجَ لهم مِن رجالٍ ونساءٍ، ثيِّباتٍ وأبكارٍ، فيجبُ على القريبِ ووليِّ اليتيمِ أن يزوِّجَ مَن يحتاجُ للزَّواجِ ممن تجِبُ نفقتُه عليه، وإذا كانوا مأمورينَ بإنكاحِ مَن تحتَ أيديهم، كان أمرُهم بالنِّكاحِ بأنفُسِهم مِن بابِ أولى[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ دليلٌ واضحٌ على أنَّ العبيدَ والإماءَ يَملِكونَ، ولا يكونُ المِلْكُ مضافًا إليهم على المجازِ وحقيقتُه للسَّادةِ؛ إذْ لو كان كذلك ما استغنَوا بالإنكاحِ، ولكانوا فقراءَ قَبْلَه وبَعْدَه؛ لأنَّ مَن لا يملِكُ شيئًا لا يقعُ عليه اسمُ غِنًى[٥]!

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٥٥٢)، ومسلم (٢٢٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٧)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٣/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٥٠).

قال الرازي: (لكنِ المفسِّرونَ تَأَوَّلوه على الأحرارِ خاصَّةً؛ فكأنَّهم قالوا: هو راجعٌ إلى الأيامَى، أمَّا إذا فسَّرْنا الغنى بالعفافِ فالاستدلالُ به على ذلك ساقِطٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧١).

قال ابنُ قُدامةَ: (ولا يملكُ العبدُ شيئًا، إذا لم يملِّكْه سيدُه، في قولِ عامةِ أهلِ العلمِ. وقال أهلُ الظاهرِ: يملكُ). ((المغني)) لابن قدامة (٤/ ١٣١). ويُنظر: ((المحلى)) لابن حزم (٨/ ٣٧٤).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أي: لا يَمنَعْكم فَقْرُ الخاطِبِ إليكم -إذا كان كفُؤًا- عن تزويجِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى سيُغنيهم، وفي هذا الرَّبطِ دليلٌ على أنَّ النِّكاحَ سبَبٌ في الغنى، قال بعضُ السَّلَفِ: (التَمِسوا الغِنى في النِّكاحِ)[1]. ولكِنْ في هذا الرَّبطِ إشكالٌ، وهو أنَّنا نَجِدُ كثيرًا مِن النَّاسِ يَتزوَّجون ويَبقَونَ فُقراءَ؟

**الجوابُ مِن وَجهينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ غِناهم مُقيَّدٌ بالمشيئةِ؛ فمَن شاء تعالى أغناه، ومَن لم يشأْ بقِيَ على فَقرِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

**الوجهُ الثاني**: أنَّ الرَّبطَ على بابِه، ولكنْ قد يحصُلُ مانعٌ لبعضِ النَّاسِ مِن الغنى؛ كعَدَمِ الطَّاعةِ، أو وجودِ المعصيةِ، أو أنَّ المتزوِّجَ لم يُرِدْ بزواجِه العِفَّةَ، واللهُ تعالى إنَّما وَعَدَ عبادَه الطائِعينَ[2].

١١- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أنَّ الفقرَ في الحالِ لا يمنَعُ التزويجَ؛ لاحتمالِ حصولِ المالِ في المآلِ[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ سُؤالٌ: وهو كَوْنُ اللهِ تعالى جَعَلَ غايةَ طلبِ العفَّةِ بحُصولِ الغِنى، وطلبُ العفَّةِ فَرضٌ في كلِّ وَقتٍ؟!

**الجوابُ**: أنَّ هذه الغايةَ لا مَفهومَ لها؛ فليس المرادُ أنَّ اللهَ إذا أغناهم مِن فضْلِه

---

(١) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٧/ ٢٧٥) عن ابن مسعود رضي الله عنه. ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ١٣١).

فلا حاجةَ إلى طلبِهم العفَّةَ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فليس المرادُ أنَّه إذا بَلَغَ أشُدَّه فاقرَبوه بغيرِ التي هي أحسنُ! وإنَّما سَكَتَ عمَّا بعدَ الغايةِ؛ لأنَّ الذي لم يجِدْ ما يتزوَّجُ به هو الذي يَحتاجُ إلى أنْ يتكَلَّفَ طلبَ العفَّةِ؛ لشِدَّةِ حرارةِ الشَّهوةِ والغَريزةِ الجنسيَّةِ ما دامَ غيرَ متزَوِّجٍ، فإذا أغناه اللهُ تعالى بالزَّواجِ، فلا يحتاجُ إلى تكلُّفِ العفَّةِ الذي كان واجِبًا عليه مِن قَبلُ؛ لأنَّ الغالبَ على المؤمنِ أنْ يستغنيَ بالحَلالِ عنِ الحرامِ، واللهُ تعالى أعلمُ[1].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ استدلَّ بعضُهم به على بُطلانِ نِكاحِ المُتعةِ؛ لأنَّه لو صحَّ لم يَتعيَّن الاستعفافُ على فاقدِ المهرِ، وظاهرُ الآيةِ تعيُّنُه، ولا يلزمُ مِن ذلك تحريمُ مِلكِ اليمينِ؛ لأنَّ مَن لا يقدِرُ على النِّكاحِ لعدمِ المهرِ، لا يقدِرُ على شراءِ الجاريةِ غالبًا[2].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ دليلٌ على وجوبِ نفقةِ الزَّوجاتِ -إماءً كُنَّ أو حرائرَ-، وعلى أنَّ المهرَ يكونُ نَقدًا إلَّا أنْ ترضَى المرأةُ بتأخيرِه؛ إذْ لا نَجِدُ شيئًا يلزمُ الراغبَ في النِّكاحِ غيرَ هذين الشيئينِ؛ مِن نَقْدِ المهرِ والإنفاقِ، وإلَّا فلِمَ لا يَجِدُ النكاحَ[3]؟!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ العِفَّةَ سببٌ للغِنى[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٧٦)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٠٩).

١٦- إنْ قيلَ: قد قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وقال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أمَرَهم بالاستِعفافِ إلى وَقتِ الغِنى، وأمَرَ بتَزويجِ أولئك مع الفَقرِ، وأخبَرَ أنَّه تعالى يُغنيهم. فما مَحمَلُ كُلٍّ مِنَ الآيتَينِ؟

الجَوابُ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في حَقِّ الأحرارِ، أمَرَهم اللهُ تعالى أن يَستَعِفُّوا حتى يُغنيَهم اللهُ مِن فَضْلِه؛ فإنَّهم إن تزَوَّجوا مع الفَقرِ التَزَموا حُقوقًا لم يَقدِروا عليها، وليس لهم مَن يَقومُ بها عنهم. وأمَّا قَولُه: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ فإنَّه سُبحانَه أمَرَهم فيها أن يُنكِحوا الأَيامى وهنَّ النِّساءَ اللَّواتي لا أزواجَ لهُنَّ. هذا هو المَشهورُ مِن لَفظِ الأَيِّمِ عندَ الإطلاقِ، وإنِ استُعمِلَ في حَقِّ الرَّجُلِ بالتَّقييدِ، مع أنَّ العَزَبَ عندَ الإطلاقِ للرَّجُلِ وإنِ استُعمِلَ في حَقِّ المرأةِ، ثمَّ أمَرَهم سُبحانَه أن يُزَوِّجوا عَبيدَهم وإماءَهم إذا صَلَحوا للنِّكاحِ؛ فالآيةُ الأُولى في حُكمِ تزَوُّجِهم لأنفُسِهم، والثَّانيةُ في حُكمِ تَزويجِهم لِغَيرِهم، وقَولُه في هذا القِسمِ: ﴿وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ﴾ يَعُمُّ الأنواعَ الثَّلاثةَ التي ذُكِرَت فيه؛ فإنَّ الأَيِّمَ تَستغني بنَفَقةِ زَوجِها، وكذلك الأَمَةُ، وأمَّا العَبدُ فإنَّه لَمَّا كان لا مالَ له، وكان مالُه لسَيِّده، فهو فقيرٌ ما دام رقيقًا، فلا يُمكِنُ أن يُجعَلَ لنِكاحِه غايةٌ، وهي غِناه ما دام عَبدًا، بل غِناه إنَّما يكونُ إذا عَتَقَ واستغنى بهذا العِتقِ، والحاجةُ تَدعوه إلى النِّكاحِ في الرِّقِّ- فأَمَر سُبحانَه بإنكاحِه، وأخبَرَ أنَّه يُغنيه مِن فَضْلِه؛ إمَّا بكَسْبِه، وإمَّا بإنفاقِ سَيِّدِه عليه وعلى امرأتِه، فلم يُمكِنْ أن يَنتَظِرَ بنِكاحِه الغِنى الذي يُنتظَرُ بنِكاحِ الحُرِّ. واللهُ أعلَمُ[1].

---

(١) يُنظر: ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٣١٧).

١٧- تشَوَّفَ الشَّارِعُ تَشَوُّفًا شَديدًا للحُرِّيَّةِ والإخراجِ مِنَ الرِّقِّ، فأكثَرَ أسبابَ ذلك، كما أوجَبَه في الكفَّاراتِ؛ مِن قَتلِ خَطَأٍ، وظِهارٍ، ويَمينٍ، وغَيرِ ذلك، وأوجبَ سِرايةَ العِتقِ[1]، وأمَرَ بالكِتابةِ في قَولِه تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]، ورَغَّب في الإعتاقِ تَرغيبًا شَديدًا[2].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ استُدلَّ به على أنَّه فَرْضٌ على السَّيِّدِ -إذا عَرَف مِن عَبدِه خيرًا أو مِن أَمَتِه- أنْ يُكاتِبَهما إذا التمَسَا منه الكِتابةَ، ولا يكونَ بالخِيارِ في إجابتِهما؛ لأنَّ ظاهرَ الآيةِ أمرٌ[3]، والأصلُ في أوامرِ اللهِ ورَسولِه الوُجوبُ[4].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾ مفهومُ الآيةِ الكريمةِ أنَّ العبدَ إذا لم يطلُبِ الكتابةَ لا يُؤمَرُ سَيِّدُه أن يبتدئَ بكتابتِه، وأنَّه إذا لم يعلَمْ منه خيرًا -بأنْ عَلِمَ منه عكْسَه-؛ إمَّا أنَّه يعلمُ أنَّه لا كسْبَ له، فيكونُ بسبَبِ ذلك كَلًّا على الناسِ ضائِعًا، وإمَّا أن يخافَ إذا أُعتِقَ وصار في حرِّيَّةِ نَفْسِه أن يتمكَّنَ مِن الفساد- فهذا لا يُؤمَرُ بكتابتِه، بل يُنهى عن ذلك؛ لِما فيه من المحذورِ المذكورِ[5].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ﴾

---

(١) سِرايةَ العِتقِ: أي: نُفوذَه فيما يُضافُ إليه، وسَرَيانَه إلى باقِيه. كما لو أعتَق جزءًا له مِن عبدٍ مشتركٍ، فإنَّه يسري إلى حصَّةِ شريكِه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٧٥)، ((المنثور في القواعد الفقهية)) للزركشي (٢/ ٢٠٠)، ((إعانة الطالبين)) للبكري (٢/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢١٣). وسبق أن الجمهورَ حمَلوا الأمرَ في الآيةِ على الندبِ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ٣٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٧).

فيه سؤالٌ: كيف يصِحُّ أن يبيعَ مالَه بمالِه؟

**الجوابُ**: إذا ورد الشرعُ به أنَّه يجوزُ -كما إذا علَّقَ عِتقَه على مالٍ يكتَسِبُه فيؤدِّيه أو يؤدَّى عنه- صار سببًا لعِتقِه[١].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ استدَلَّ به الشافعيُّ على وجوبِ أن يحُطَّ السيِّدُ عن المكاتَبِ جُزءًا من المال الذي كاتَبَه عليه، أو يدفَعَه إليه. وقال غيرُه: هو أمرُ نَدبٍ[٢].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ في الآية ردٌّ على من حدَّد القَدْرَ المؤتَى[٣].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ دليلٌ على أنَّ السيِّدَ الذي له مملوكاتٌ -ولو كُنَّ كبارًا- يُزوِّجُهنَّ بغيرِ إذنِهنَّ؛ لأنَّه مالكٌ لهُنَّ ملكًا مطلقًا، فمفهومُ الآيةِ أنَّ إكراهَهُنَّ على غيرِ البغاءِ -كالنكاحِ الصحيحِ- لا بأسَ به[٤].

٢٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ فيه أنَّ الإكراهَ على الزِّنا يُتصَوَّرُ[٥]، وإنَّما ذَكَر اللَّهُ إرادَةَ التَّحَصُّنِ مِن المرأةِ؛ لأنَّ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣).

والقول بأنَّ الأمر في الآيةِ للوجوبِ هو مذهبُ الشافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((المجموع)) للنووي (١٦/ ٢٨)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٤/ ٥٦٠).

ومذهبُ الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ أنَّه على النَّدبِ. يُنظر: ((البناية شرح الهداية)) للعيني (١٠/ ٣٦٤)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٤/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٣، ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٧٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

هو الَّذي يُصَوِّرُ الإكراهَ، فأمَّا إذا كانَتْ راغبةً في الزِّنا لم يُتَصَوَّرْ إكراهٌ[١].

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه أنَّ مَهرَ البَغِيِّ حرامٌ[٢].

٢٦- قال تعالى: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بكسبِهنَّ وبيعِ أولادهنَّ مِن الفجورِ[٣]، وفيه دليلٌ على أنَّ وَلَدَ الأَمَةِ مِن زنًى عَبدٌ لسَيِّدِها[٤].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليلٌ على أنَّ إِثْمَ الزِّنا مدفوعٌ عن المكرَهةِ، ولا حَدَّ عليها فيه[٥]، وأنَّ المُكرَهَ غيرُ مُكَلَّفٍ ولا آثمٍ[٦]، فالآيةُ فيها ردٌّ على مَن أوجَب الحَدَّ على المُكرَهِ[٧].

٢٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ استُدلَّ به على إبطالِ قولِ مَن قال: «إنَّ الرجلَ إذا أكرَى جاريتَه مِن الفُسَّاقِ بِيْعَتْ عليه»؛ أَلَا ترى أنَّ اللهَ تعالى وعَدَها الغفرانَ على الإكراهِ؟! ولو كان البيعُ عليه جائزًا لكان حائِلًا بيْنها وبينَ الإكراهِ، فلا يكونُ السيدُ بعدَه مُكرِهًا، ولا هي محتاجةً بسببِ الإكراهِ إلى المغفرةِ والرحمةِ، وإنْ كانت محتاجةً في غيرِه[٨]!

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٧١).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٨) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧١).

٢٩- في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دَليلٌ لِمن قال بإباحةِ الأفعالِ المُحَرَّمةِ بالإكراهِ، فلا يَختصُّ بالأقوالِ فقط، وهذا في الأفعالِ المحرَّمةِ لحقِّ اللهِ فيها، فأمَّا قَتلُ المعصومِ فلا يُباحُ بالإكراهِ بلا نزاعٍ[١]، فالآيةُ فيها رَدٌّ على مَن فَرَّقَ مِن أهلِ العلمِ بين الإكراهِ على القَولِ والإكراهِ على الفِعلِ، ففي هذه الصُّورةِ الإكراهُ على البِغاءِ، والبِغاءُ فِعلٌ[٢]. فليس كلُّ مَكرَهٍ على فِعلٍ مُحَرَّمٍ يأثَمُ به، وعليه جمهورُ العُلَماءِ، وقد دَلَّ على ذلك نَصُّ هذه الآيةِ، فإذا كان هذا في الإكراهِ على البِغاءِ، فالإكراهُ على شُربِ الخَمرِ وأكلِ المَيتةِ دونَ ذلك؛ فإنَّ الزِّنا مِن أكبرِ الكبائِرِ بعد القَتلِ، كما دلَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ذلك عندَما سُئِلَ: أيُّ الذَّنْبِ أعظَمُ؟ قال: ((أن تجعَلَ لله نِدًّا...)) الحديثَ، إلى قَولِه: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ((أن تُزانيَ بحَليلةِ جارِك))، ثمَّ قرأ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾[٣] [الفرقان: ٦٨]، ومعلومٌ أنَّ المُكرَهاتِ مِن الإماءِ على البغاءِ -كما كان ابنُ أُبَيٍّ وأمثالُه يُكرِهونَ إماءَهم على الاكتسابِ بالبغاءِ- ليس هو أن يفعَلَ بها بلا فِعلٍ منها، بل هو أن تُكرَهَ حتى تقصِدَ ذلك وتفعَلَه؛ ولهذا سَمَّاه بِغاءً[٤].

٣٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لعلَّه عبَّرَ بلَفظِ (بَعد) إشارةً إلى العَفوِ عن الميلِ إلى ذلك الفِعلِ عند مواقَعتِه إن رجَعَت إلى الكَراهةِ بعْدَه؛ فإنَّ النَّفْسَ لا تَملِكُ بُغضَه حينَئذٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيميَّة (٢/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٢٥).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٠١) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٤) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٠).

٣١- قال تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وحاجَتُهنَّ إلى المغفرةِ المُنبئةِ عن سابقةِ الإثمِ: إمَّا باعتبارِ أنَّهنَّ وإنْ كنَّ مُكرَهاتٍ لا يَخْلونَ في تَضاعيفِ الزِّنا عن شائبةِ مُطاوَعةٍ ما بحُكْمِ الجِبلَّةِ البشريَّةِ، وإمَّا باعتبارِ أنَّ الإكراهَ قد يكونُ قاصِرًا عن حدِّ الإلجاءِ المُزيلِ للاختيارِ بالمرَّةِ، وإمَّا لغايةِ تَهويلِ أمْرِ الزِّنا، وحثِّ المُكرَهاتِ على التَّثبُّتِ في التَّجافي عنه، والتَّشديدِ في تَحذيرِ المُكرِهينَ، ببَيانِ أنَّهنَّ حيث كنَّ عُرضةً للعُقوبةِ لولا أنْ تَداركَهنَّ المغفرةُ والرَّحمةُ، مع قِيامِ العُذْرِ في حَقِّهنَّ؛ فما حالُ مَن يُكْرِهُهنَّ في استحقاقِ العذابِ[1]؟!

٣٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، في قَولِه: ﴿رَّحِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ سيجعلُ لهنَّ فَرَجًا؛ لأنَّ الرحمةَ بها حصولُ المطلوبِ وزوالُ المرهوبِ؛ لذلك نقولُ: إنَّ في هذه الآيةِ إشارةً إلى الفَرَجِ لِمَن أُكرِه على فِعلِ مُحَرَّمٍ؛ وأنَّ اللهَ تعالى سيَجْعَلُ له فَرَجًا، ويؤيِّدُ ذلك قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((واعلمْ أنَّ النصرَ مع الصبرِ، وأنَّ الفَرَجَ مع الكربِ، وأنَّ مع العُسرِ يُسرًا))[2].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دَليلٌ على أنَّ المُسلِمَ إذا وَقَعَ في ذَنبٍ وهو مُكرَهٌ مقهورٌ، لا يُؤخَذُ به، والقرآنُ الكريمُ قد دلَّ على أنَّ المكرهَ لا يُؤاخَذُ بما أُكْرِه عليه، كما قال تعالى: ﴿ مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٢٥).

والحديث أخرجه أحمد (٢٨٠٣)، والطبراني (١١/ ١٢٣) (١١٢٤٣)، والحاكم (٦٣٠٤) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

صحَّحه عبدالحق الإشبيلي في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، وحسَّنه ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابن حجر في ((موافقة الخبر الخبر)) (١/ ٣٢٧)، والسخاوي في ((المقاصد الحسنة)) (١٨٨).

كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[1] [النحل: ١٠٦].

## بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡ﴾ خصَّ الصَّالحينَ؛ لِيُحصِّنَ دِينَهم، ويَحفَظَ عليهم صَلاحَهم -وذلك على أحدِ الأقوالِ في معنى الصلاحِ في الآيةِ-، ولأنَّ الصَّالحينَ مِن الأرِقَّاءِ هم الَّذين مَواليهم يُشفِقون عليهم، ويُنزِّلونَهم مَنزلةَ الأولادِ في الأثَرةِ والمودَّةِ؛ فكانوا مَظِنَّةً للتَّوصيةِ بشأْنِهم، والاهتمامِ بهم، وتقبُّلِ الوصيةِ فيهم، والمُفسِدون منهم حالُهم عندَ مَواليهم على عكْسِ ذلك[2].

- وجُملةُ: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ ...﴾ إلخ، استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ عُمومَ الأيامى والعبيدِ والإماءِ في صِيغةِ الأمرِ يُثِيرُ سُؤالَ الأولياءِ والموالي: أنْ يكونَ الرَّاغبُ في تزوُّجِ المرأةِ الأيِّمِ فقيرًا؛ فهل يرُدُّه الوليُّ؟ وأنْ يكونَ سيِّدُ العبدِ فقيرًا لا يجِدُ ما يُنفِقُه على زَوجِه، وكذلك سيِّدُ الأمَةِ يخطُبُها رجُلٌ فقيرٌ حُرٌّ أو عبْدٌ؟ فجاء هذا لبَيانِ إرادةِ العُمومِ في الأحوالِ[3].

- و﴿عَلِيمٞ﴾ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ تكميلٌ لقولِه: ﴿وَٰسِعٌ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٧).

فذِكْرُ ﴿عَلِيمٌ﴾ بعدَ ﴿وَٰسِعٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يُعْطي فضْلَه على مُقْتضى ما عَلِمَه مِن الحِكمةِ في مِقدارِ الإعطاءِ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ السِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ للمُبالَغةِ في الفِعلِ(٢).

- وقولُه: ﴿لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ قيل: فيه إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: لا يَجِدون قُدرةً على النِّكاحِ(٣).

- وقولُه: ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه تَرجيةٌ للمُستعفِّينَ، وتَقدِمةُ وَعدٍ بالتَّفضُّلِ عليهم بالغِنى؛ ليكونَ انتظارُ ذلك وتأْميلُه لُطْفًا لهم في استعفافِهم، وربْطًا على قُلوبِهم، وليَظهَرَ بذلك أنَّ فضْلَه أوْلَى بالأعِفَّاءِ، وأدْنَى مِن الصُّلحاءِ؛ ففي إيقاعِ الغِنى غايةً للأمرِ بالاستعفافِ فائدتانِ؛ إحداهما: أنْ يُوطِّنَ المُستعفِفُ نفْسَه على الإمساكِ عن النِّكاحِ، ولا يَستعجِلَ قبْلَ الاستغناءِ. وثانيهما: أنَّه تعالى لمَّا رتَّبَ الأمرَ بالاستعفافِ على قولِه: ﴿يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾، آذَنَ أنَّ فضْلَه أَولى بالأعِفَّاءِ؛ لأنَّ ترتُّبَ الحُكْمِ على الوصفِ المُناسِبِ مُشعِرٌ بالعِلِّيَّةِ، وكأنَّه قِيل: استَعِفُّوا إلى أنْ يُغنيَكم اللهُ مِن فضْلِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٧٩)، =

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾ دُخولُ الفاءِ في ﴿فَكَاتِبُوهُمۡ﴾؛ لتَضمينِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ...﴾ معنى الشَّرطيَّةِ؛ كأنَّه قِيل: إنِ ابْتَغى الكتابَ ما ملَكَتْ أيمانُكم فكاتِبوهم؛ تأكيدًا لترتُّبِ الخيرِ على تحقُّقِ مَضمونِ صِلَةِ الموصولِ بأنْ يكونَ كترتُّبِ المشروطِ على الشَّرطِ[1].

- قَولُه: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ فيه إضافةُ المالِ إليه تعالى، ووَصْفُه بإيتائِه إيَّاهم؛ للحثِّ على الامتثالِ بالأمْرِ بتَحقيقِ المأْمورِ به، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧]؛ فإنَّ مُلاحظةَ وُصولِ المالِ إليهم مِن جِهَتِه تعالى مع كونِه هو المالِكَ الحقيقيَّ له: مِن أقْوى الدَّواعي إلى صَرْفِه إلى الجِهةِ المأمورِ بها، والإضافةُ والوَصْفُ لتَعيينِ المأخَذِ[2]. وقِيل: إضافةُ المالِ إلى اللهِ؛ لأنَّه مُيسِّرُ أسبابِ تَحصيلِه. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الإعطاءَ مِن ذلك المالِ شُكْرٌ، والإمساكَ جَحدٌ للنِّعمةِ قد يَتعرَّضُ به المُمسِكُ لسلبِ النِّعمةِ عنه[3].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ على القولِ بأنَّه وصْفٌ لاسمِ الجَلالةِ؛ فيكونُ امتنانًا وحثًّا على الامتثالِ بتذكيرِ أنَّه وليُّ النِّعمةِ، ويكونُ مَفعولُ ﴿ءَاتَىٰكُمۡ﴾ مَحذوفًا للعُمومِ، أي: آتاكم نِعَمًا كثيرةً، كقولِه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾[4] [إبراهيم: ٣٤].

---

= ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قَولُه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيه مِن زِيادةِ تَقبيحِ حالِهم وتَشنيعِهم على ما كانوا عليه مِن القبائحِ ما لا يخفى؛ فإنَّ مَن له أدْنى مُروءةٍ لا يَكادُ يَرضى بفُجورِ مَن يَحويهِ حرَمُه مِن إمائِهِ، فضْلًا عن أمْرِهنَّ به أو إكراهِهنَّ عليه، لا سيَّما عندَ إرادتِهنَّ التَّعفُّفَ[1].

- قَولُه: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَٰتِكُمْ﴾، أي: إماءَكم؛ فإنَّ كُلًّا مِن الفَتَى والفَتاةِ كِنايةٌ مَشهورةٌ عن العبدِ والأمَةِ، ولهذه العبارةِ في هذا المقامِ باعتبارِ مَفهومِها الأصليِّ حُسْنُ مَوقعٍ، ومَزيدُ مُناسَبةٍ لقولِهِ تعالى: ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ وهو الزِّنا مِن حيثُ صُدورُه عن النِّساءِ؛ لأنَّهنَّ اللَّاتي يُتوقَّعُ منهنَّ ذلك غالبًا دُون مَن عداهنَّ مِن العجائزِ والصَّغائرِ[2].

- قَولُه: ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ في التعبيرِ بكلمةِ (إنْ) وإيثارُها على (إذا) إيذانٌ بأنَّ المُساعياتِ كنَّ يَفعلْنَ ذلك برغبةٍ وطواعيةٍ منهنَّ، وأنَّ ما وُجِدَ مِن إرادةِ التَّحصُّنِ مِن خبَرِ الشَّاذِّ النَّادرِ[3]. وقِيل: إيثارُ كَلمةِ (إنْ) على (إذا) مع تحقُّقِ الإرادةِ في مَوردِ النَّصِّ حتْمًا؛ للإيذانِ بوُجوبِ الانتهاءِ عن الإكراهِ عندَ كونِ إرادةِ التَّحصُّنِ في حيِّزِ التَّردُّدِ والشَّكِّ؛ فكيف إذا كانت مُحقَّقةَ الوُقوعِ كما هو الواقعُ[4]؟!

- وقولُه: ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿تُكْرِهُوا۟﴾، أي: لا تُكْرِهوهنَّ لهذه العِلَّةِ؛ ذكَرَ هذه العِلَّةَ لزِيادةِ التَّبشيعِ[5]. فهو قَيدٌ للإكراهِ، لكنْ لا باعتبارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٧).

أنَّه مَدارُ النَّهيِ عنه، بلْ باعتبارِ أنَّه المُعتادُ فيما بيْنهم؛ تَشنيعًا لهُم فيما هُم عليه مِن احتمالِ الوِزْرِ الكبيرِ لأجْلِ النَّزْرِ الحقيرِ[١]؛ فإنَّ العَرَض مُتَحَقِّقٌ فيه الزوالُ، والدنيا مُشْتَقَّةٌ مِن الدناءةِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ جَملةٌ مُستأنفةٌ سِيقَت لتَقريرِ النَّهيِ، وتأْكيدِ وُجوبِ العمَلِ به، ببَيانِ خَلاصِ المُكْرَهاتِ مِن عُقوبةِ المُكرَهِ عليه عِبارةً، ورُجوعِ غائلةِ الإكراهِ إلى المُكرِهينَ إشارةً[٣].

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه توسيطُ الإكراهِ بيْن اسم (إنَّ) وخبَرِها؛ للإيذانِ بأنَّ ذلك هو السَّببُ للمغفرةِ والرَّحمةِ. وفي تَخصيصِهما بهنَّ، وتَعيينِ مَدارِهما، مع سَبْقِ ذِكْرِ المُكرِهينَ أيضًا في الشَّرطيةِ: دَلالةٌ بيِّنةٌ على كونِهم مَحرومينَ منهما بالكُلِّيَّةِ؛ كأنَّه قِيل: لا للمُكْرِهِ. ولظُهورِ هذا التَّقديرِ اكْتَفى به عن العائدِ إلى اسمِ الشَّرطِ.

- قَولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قِيل: إنَّه دَليلُ جوابِ الشَّرطِ المحذوفِ؛ إذ حُذِفَ الجوابُ إيجازًا، واستُغْنِيَ عن ذِكْرِه بذِكْرِ عِلَّتِه الَّتي تشمَلُه وغيرَه. والتَّقديرُ: فلا إثْمَ عليهنَّ؛ فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ لأمْثالِهنَّ ممَّن أُكْرِهَ على فِعْلِ جريمةٍ. وحرْفُ (إنَّ) في هذا المقامِ يُفيدُ التَّعليلَ، ويُغْني غَناءَ لامِ التَّعليلِ[٤].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَعريضٌ بالوعيدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٨).

للَّذين يُكْرِهون الإماءَ على البغاءِ[١].

- وفي الآياتِ الثَّلاثِ السَّابقةِ تَرتيبٌ حسَنٌ بَديعٌ؛ فما أحسَنَ ما رتَّبَ هذه الأوامِرَ! حيث أمَرَ أوَّلًا بما يَعصِمُ مِن الفتنةِ، ويُبعِدُ مِن مُواقَعةِ المعصيةِ؛ وهو غضُّ البصرِ، ثمَّ بالنِّكاحِ الَّذي يُحصَنُ به الدِّينُ، ويقَعُ به الاستغناءُ بالحلالِ عن الحرامِ، ثمَّ بالحمْلِ على النَّفسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، وعزْفِها عن الطُّموحِ إلى الشَّهوةِ عندَ العجْزِ عن النِّكاحِ إلى أنْ يُرزَقَ القُدرةَ عليه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩).

## الآيتان (٣٤-٣٥)

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَمَثَلًا﴾: أي: قصةً عجيبةً، أو شبَهًا، أو أخبارًا تكونُ لكم مثلًا، وأصلُ (مثل): يَدُلُّ على مُناظرَةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ[1].

﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾: المشكاةُ: الكَوَّةُ فِي الحائِطِ غيرُ النافذةِ يُوضَعُ فيها المصباحُ، وقيل: مَوضِعُ الفتيلةِ مِن القنديلِ، واختُلِف هل هي عربيةٌ أو حبشيَّةٌ مُعَرَّبةٌ[2].

﴿دُرِّىٌّ﴾: أي: مضيءٌ؛ منسوبٌ إلى الدُّرِّ، وهو كِبارُ اللُّؤْلُؤِ، تَشْبيهًا بصفائِه، والدريُّ: الشَّديدُ الإنارةِ، وأصلُ (دري) هنا: يدلُّ على اضْطِرابٍ في شيءٍ، وسُمِّي الدرُّ بذلك؛ لاضطرابٍ يُرَى فيه لِصَفائِه، كأنَّه ماءٌ يَضْطَرِبُ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الوجوه والنظائر)) لأبي هلال العسكري (ص: ٤٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١). ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٣). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٥). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠٢). ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٥، ٢٥٦). ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٦٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ولقد أنزَلْنا إليكم آياتٍ واضحاتٍ موضِّحاتٍ، ومَثَلًا بمَن سبقَكم مِن الأُمَمِ؛ لتتَّعِظوا وتعتَبِروا، وعِظةً وذِكرى للمتَّقين. اللهُ نورُ السَّمواتِ والأرضِ، وهادي مَن فيهما، مَثَلُ نورِ الله في قلبِ المؤمِنِ ككَوَّةٍ في حائطٍ غيرِ نافذةٍ، فيها مِصباحٌ، المِصباحُ في زُجاجةٍ مُتوهِّجةٍ كأنَّها كوكبٌ مُضيءٌ كالدُّرِّ، يوقَدُ المصباحُ مِن زيتِ شَجَرةِ زيتونٍ مُبارَكةٍ، لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ، فلا يستُرُها عن الشَّمسِ شَيءٌ في الصَّباحِ أو في المساءِ، يكادُ زيتُها -لصفائِه- يضيءُ ولو لم تمسَسْه نارٌ، نورٌ على نورٍ؛ نورُ النَّارِ مع نورِ الزَّيتِ والزجاجة، وانعكاسه مِن الكوَّةِ، وهكذا قلبُ المؤمنِ إذا أشرقَ فيه نورُ الهدايةِ، واللهُ يَهدي لنورِه مَن يشاءُ مِن عبادِه، ويضرِبُ اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ، واللهُ بكُلِّ شيءٍ عَليمٌ، لا يخفى عليه شَيءٌ.

## تَفسيرُ الآيتين:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أن فصَّل هذه الأحكامَ التي سبَقت وبيَّنها؛ امتنَّ على عبادِه بذلك، فقال[1]:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ﴾.

### القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿مُبَيَّنَاتٍ﴾ بفتح الياءِ، بمعنى: واضحاتٍ مفسَّراتٍ مفصَّلاتٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ١٠٦).

(٢) قرأ بها ابن كثير، وأبو بكر شعبة، ونافع، وأبو جعفر، وأبو عمرو، ويعقوب. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨). =

٢- قراءةُ ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بكسر الياءِ، بمعنى: موضِّحاتٍ؛ تُبَيِّنُ الحقَّ والصوابَ للنَّاسِ[١].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾.

أي: ولقد أنزَلْنا إليكم[٢] آياتٍ واضحاتٍ مُفَصَّلاَتٍ، توضِّحُ الحقَّ، وتميِّزُه مِن الباطلِ، وتُبَيِّنُ الأحكامَ[٣].

﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

أي: وأنزَلْنا إليكم قِصَّةً عجيبةً في هذه السُّورةِ مِن جنسِ قَصَصِ الأُمَمِ الماضينَ مِن قَبْلِكم[٤].

---

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٩٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٩٨).

(٢) ) قال ابنُ جريرٍ: (ولقد أنزلنا إليكم أيُّها الناسُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٣١، ٢٣٢).

قال البِقَاعي: (﴿ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ مفصَّلٌ فيها الحقُّ من الباطلِ، موضَّحٌ بالنقل والعقلِ، بحيث صارت لشدَّةِ بيانِها تبينُ هي لمن تدبَّرها طرقَ الصوابِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٣٦).

قال ابن عاشور: (وفي الكلامِ حذفُ مُضافٍ يَدُلُّ عليه السِّياقُ، تقديرُه: مِنْ أمثالِ الَّذينَ خَلَوا مِنْ قبلِكم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٠).

وممَّن قال بهذا القولِ: الزمخشريُّ، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦). =

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: وأنزَلْنا إليكم من الوَعدِ والوعيدِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ ما يَعتبِرُ به الذين يتَّقون اللهَ، ويخافونَ عقابَه، فيَمتثِلون أوامِرَه، ويجتَنِبون نواهيَه[1].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه مِنَ الأحكامِ ما بَيَّنَ، أردَف ذلك بكَونِه سُبحانَه في غايةِ الكَمالِ[2]، وعلَّل إنزالَه ما سبَق على هذا السَّنَنِ الأقوَمِ، والنَّظْمِ المُحكَمِ[3].

---

= وقال الشنقيطي: (المرادُ بالقِصَّةِ العجيبةِ التي أنزل إلينا، وعبَّر عنها بقَولِه: ﴿وَمَثَلًا﴾ هي براءةُ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها مِمَّا رماها به أهلُ الإفك... لأنَّ كُلًّا مِن عائشةَ ومريمَ ويوسُفَ رُمي بما لا يليقُ، وكلٌّ منهم برَّأه الله، وقِصَّةُ كُلٍّ منهم عجيبةٌ؛ ولذا أطلَقَ عليها اسمَ المَثَل). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٣٤، ٥٣٦).

وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالمَثَلِ -والله أعلم- هنا ما هو أعَمُّ مِن الواقِعِ، يعني: أمثالًا مِن الذين خَلَوا، وليس هذا خاصًّا بخبَرِ عائشةَ رضِيَ الله عنها ومريمَ ويوسُفَ، بل هو أعَمُّ مِن ذلك... فاللهُ سُبحانه وتعالى ضرَبَ لنا أمثالًا ممَّن خلا مِن قَبلِنا فيما يتعلَّقُ بالعِفَّةِ والصِّيانةِ، وفيما يتعلَّقُ بالأمرِ بالدِّينِ والإيمانِ والقُدوةِ الحَسَنةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى ببَعضِ الأُمورِ التي لا غِنَى للنَّاسِ عنها، ونَهى عن بَعضِ الأُمورِ التي بارتِكابِها يَحصُلُ الضَّرَرُ على المُجتمَعِ والأفرادِ، وحَثَّ على بَعضِ الآدابِ؛ بَيَّن سُبحانَه أنَّ امتِثالَ تلك الأوامِرِ، واجتِنابَ تلك النَّواهي، والتِزامَ تلك الآدابِ: يُنَوِّرُ لها قُلوبَ بَعضِ عِبادِه؛ فيُوفِّقُهم لها، ويَطمِسُ قُلوبَ آخَرِينَ؛ فلا يَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويَرتَكِبونَ نواهيَه، فضَرَبَ للمُوَفَّقِ هذا المَثَلَ، وضَرَب للضَّالِّينَ المَثَلَ الآتيَ بعدَ ذلك[1].

وأيضًا لَمَّا كان غَضُّ البصرِ يَكْسِبُ القَلبَ نُورًا، كما أنَّ إطلاقَه يُلْبِسُه ظُلمةً؛ ذَكَرَ اللهُ سبحانَه آيةَ النُّورِ عَقِيبَ الأمرِ بغَضِّ البصرِ[2]، فقال تعالى:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: اللهُ مُنَوِّرُ السَّمواتِ والأرضِ، وهادي مَن فيهما، ومُدبِّرُ أمورِهم، وهو بذاتِه نورٌ جلَّ وعلا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٣٩١)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٤ - ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٣٩).

قال ابنُ القيِّمِ: (اللهُ سبحانَه وتعالى سمَّى نفسَه نورًا، وجعل كتابَه نورًا، ورسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نورًا، ودينَه نورًا، واحتجَبَ عن خلقِه بالنورِ، وجعَلَ دارَ أوليائِه نورًا تتلألأ... وقد فُسِّر: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] الآيةَ: بكونِه مُنَوِّرَ السَّموات والأرضِ، وهاديَ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فبُنورِه اهتدى أهلُ السَّمواتِ والأرضِ، وهذا إنَّما هو فِعلُه، وإلَّا فالنورُ الذي هو من أوصافِه قائِمٌ به، ومنه اشتُقَّ له اسمُ النورِ الذي هو أحدُ الأسماءِ الحُسنى.

والنورُ يُضافُ إليه سُبحانَه على أحدِ وَجهَينِ: إضافةُ صِفةٍ إلى موصوفِها، وإضافةُ مَفعولٍ =

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يدعو مِنَ اللَّيلِ: ((اللهُمَّ لك الحمدُ، أنت ربُّ السَّمواتِ والأرضِ، لك الحمدُ أنت قَيِّمُ السَّمواتِ والأرضِ ومَن فيهنَّ، لك الحمدُ أنت نورُ السَّمواتِ والأرضِ، قولُك الحقُّ، ووعدُك الحقُّ، ولِقاؤُك حَقٌّ، والجنَّةُ حقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعةُ حَقٌّ، اللهمَّ لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلتُ، وإليك أنبتُ، وبك خاصَمتُ، وإليك حاكَمتُ؛ فاغفِرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وأسرَرتُ وأعلَنتُ، أنت إلهي لا إلهَ لي غيرُك))[1].

---

= إلى فاعِلِه. فالأوَّلُ: كقَولِه تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ...﴾ [الزمر: ٦٩] الآيةَ، فهذا إشراقُها يومَ القيامةِ بنورِه تعالى إذا جاء لفَصلِ القَضاءِ... وفي مُعجَمِ الطَّبَرانيِّ والسُّنَّةِ له، وكتابِ عُثمانَ الدَّارميِّ، وغيرِها، عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: «ليس عند ربِّكم ليلٌ ولا نهارٌ؛ نورُ السَّمواتِ والأرضِ مِن نورِ وَجهِه»، وهذا الذي قاله ابنُ مسعودٍ رَضِيَ الله عنه أقرَبُ إلى تفسيرِ الآيةِ مِن قَولِ مَن فسَّرها بأنَّه هادي أهلِ السَّمواتِ والأرضِ، وأمَّا مَن فسَّرها بأنَّه مُنَوِّرُ السَّمواتِ والأرضِ، فلا تنافيَ بيْنه وبيْن قَولِ ابنِ مَسعودٍ، والحَقُّ أنَّه نورُ السَّمواتِ والأرضِ بهذه الاعتِباراتِ كُلِّها). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٤٤-٤٦).

وقال السَّعدي: (﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الحسِّيُّ والمعنويُّ؛ وذلك أنَّه تعالى بذاتِه نورٌ، وحِجابُه -الذي لولا لُطفُه لأحرَقَت سُبُحاتُ وَجهِه ما انتهى إليه بصَرُه مِن خَلقِه- نورٌ، وبه استنار العَرشُ والكرسيُّ، والشَّمسُ والقَمَرُ والنورُ، وبه استنارت الجنَّةُ. وكذلك النورُ المعنويُّ يَرجِعُ إلى الله؛ فكتابُه نورٌ، وشَرعُه نورٌ، والإيمانُ والمعرفةُ في قُلوبِ رُسُلِه وعبادِه المؤمنين نورٌ. فلولا نورُه تعالى لتَراكمت الظُّلُمات؛ ولهذا كُلُّ محَلٍّ يَفقِدُ نورَه، فثَمَّ الظُّلمةُ والحَصرُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

وقال ابنُ عثيمين: (النُّورُ حقيقيٌّ لله سبحانَه وتعالى؛ فهو نورٌ، وصِفاتُه نورٌ، وكذلك آياتُه نورٌ؛ سَمَّاها اللهُ تعالى نورًا لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ نَفْسَه بهذا الشَّيءِ، ولكِنْ ليس كالنُّورِ الذي نتصَوَّرُه أو نتخيَّلُه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٣٨).

وقال ابن تيميَّةَ: (اللهُ تعالَى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾؛ فإنَّه ليس كشَيءٍ مِنَ الأنوارِ، كما أنَّ ذاتَه ليست كشيءٍ مِنَ الذَّواتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٣٩٥).

(١) رواه البخاري (٧٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (٧٦٩).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلَق خَلْقَه في ظُلمةٍ، فألقَى عليهم مِن نُورِه، فمَن أصابَه مِن ذلك النُّورِ اهتدَى، ومَن أخطأه ضلَّ؛ فلذلك أقولُ: جفَّ القَلمُ على عِلمِ اللهِ))[1].

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾.

أي: مَثَلُ نورِ الله[2] في قَلبِ المؤمنِ الذي هداه الله مثلُ كَوَّةٍ غيرِ نافذةٍ، وُضِع

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٤٢) واللفظُ له، وأحمد (٦٦٤٤) مُطوَّلاً.

حسَّنه الترمذي، وصَحَّحه الحاكِمُ في ((المستدرك)) (١/ ٨٤) وقال: (قد تداوله الأئمَّةُ، وقد احتجَّا بجميعِ رُواتِه ثُمَّ لم يُخَرِّجاه، ولا أعلمُ له عِلَّةً). وحَسَّنه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٥/ ٣١٦)، وصَحَّح إسنادَه البوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (١/ ١٦٦)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١١/ ٧٩)، وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٦٤٢).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿نُورِهِۦ﴾ يعودُ إلى اللهِ تعالى: البغويُّ، وابن جُزي، والخازن، وابن القيم، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٧)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٤).

قال السمعاني: (﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ فيه أقوالٌ؛ أحَدُها: أنَّ معناه: مَثَلُ نُورِ اللهِ في قَلبِ المُؤمِنِ، وهو النُّورُ الذي يُهتدَى به، وهذا في معنى قَولِه تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]. والقَولُ الثَّاني: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ أي: نورِ قَلبِ المؤمِنِ بالإيمانِ. والقَولُ الثَّالِثُ: أنَّه نورُ مُحمَّدٍ، ومنهم مَن أوَّلَ على القُرآنِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٩).

قال ابنُ عطيَّة: (واختلف المتأوِّلون في الضَّميرِ في ﴿نُورِهِۦ﴾ على مَن يعودُ؛ فقال كَعبُ الأحبارِ وابنُ جُبَيرٍ: هو عائِدٌ على محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أي: مَثَلُ نُورِ محمَّدٍ. وقال أُبَيُّ بنُ كَعبٍ، وابنُ جُبَيرٍ [في روايةٍ أُخرَى]، والضحَّاكُ: هو عائِدٌ على المؤمِنينَ... وقال الحسَنُ: هو عائِدٌ على القُرآنِ والإيمانِ... وهذه أقوالٌ فيها عَودُ الضَّميرِ على مَن لم يَجْرِ له ذِكرٌ، وفيها قَطعُ المعنى المرادِ بالآيةِ. =

فيها مِصباحٌ[1].

= وقالت فِرقةٌ: الضَّميرُ في ﴿نُورِهِۦ﴾ عائدٌ على الله، ثم اختَلَفت هذه الفِرقةُ في المرادِ بـالنورِ الذي أُضيفَ إلى اللهِ تعالى إضافةَ خَلقٍ إلى خالقٍ، كما تقولُ: سماءُ اللهِ، وناقةُ الله؛ فقال بعضُها: هو محمَّدٌ. وقال بعضُها: هو المؤمِنُ. وقال بعضُها: هو الإيمانُ والقرآنُ. وهذه الأقوالُ متَّجِهةٌ مطَّرِدٌ معها المعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٣).

قال ابن جزي: (المعنى: صفةُ نورِ الله في وضوحِه كصفةِ مِشكاةٍ فيها مِصباحٌ، على أعظَمِ ما يَتصوَّرُه البَشَرُ مِن الإضاءةِ والإنارةِ... وقيل: الضَّميرُ في نورِه عائدٌ على سيدِنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقيل: على القرآنِ، وقيل: على المؤمنِ. وهذه الأقوالُ ضعيفةٌ؛ لأنَّه لم يتقدَّمْ ما يعودُ عليه الضَّميرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٠).

وقال ابن القيم: (وقد اختُلف في تفسيرِ الضميرِ في ﴿نُورِهِۦ﴾؛ فقيل: هو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: مثَلُ نورِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وقيل: تفسيرُه المؤمنُ، أي: مثلُ نورِ المؤمنِ، والصحيحُ أنَّه يعودُ على الله عزَّ وجلَّ، والمعنى: مثلُ نورِ الله سبحانه وتعالى في قلبِ عبدِه. وأعظَمُ عبادِه نصيبًا مِن هذا النورِ رسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم، فهذا مع ما تضمَّنه عودُ الضميرِ إلى المذكورِ، وهو وجهُ الكلامِ يتضمَّنُ التقاديرَ الثلاثةَ، وهو أتمُّ معنًى ولفظًا). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥).

ممَّن اختار أنَّ المشكاةَ هي الكَوَّةُ غيرُ النَّافذةِ في الجِدارِ: الفَرَّاءُ، وأبو عبيدة، وابنُ قُتَيبة، والزجَّاج، والسمعاني، والراغب الأصبهاني، والبغوي، والزمخشري، وابن عطية -ونسَبه لجمهورِ المفسِّرين-، وابن جزي، وابن القيم، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٥٢)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٦٦)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٠)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٠)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٤١).

قال الألوسي: (والمُعَوَّلُ عليه قَولُ الجُمهورِ). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٥٩). =

قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾.

---

= قال الواحدي: (﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي كَوَّةٌ غيرُ نافذةٍ، في قَولِ الجَميعِ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٢٠).

وقال أيضًا: (قال ابنُ عباسٍ في رواية عطاءٍ وسليمانَ [بن قتَّة]: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ يعني: كَوَّةً غيرَ نافذةٍ بلِسانِ الحَبَشِ. وهذا قولُ السُّدِّي، والكلبي، وقتادةَ، وجميعِ المفسِّرين. قالوا: هي الكَوَّةُ غيرُ النافذةِ، كما قال أهلُ اللغةِ، غيرَ أنَّ بعضَهم ذكر أنَّها بلُغةِ الحبَشَةِ). ((البسيط)) (١٦/ ٢٦٠).

وقال ابن عاشور: (المِشْكاةُ: المعروفُ مِن كلامِ أهلِ اللُّغةِ أنَّها فُرجةٌ في الجِدارِ مِثلُ الكَوَّةِ، لكِنَّها غيرُ نافِذةٍ، فإن كانت نافِذةً فهي الكَوَّةُ. ولا يُوجَدُ في كلامِ الموثوقِ عنهم من أهلِ العربيَّةِ غيرُ هذا المعنى، واقتصَرَ عليه الرَّاغِبُ، وصاحِبُ «القاموس»، و «الكشَّاف»). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عمر، وابنُ عَبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وكعب الأحبار، والحسن، وابن جُرَيج، وسعد بن عياض، والسُّدِّي، وعِكْرِمة، والكلبي، وسليمان بن قتة، وقتادة، والضحاك، وأبو مالك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٦٠).

وقيل: المِشْكاةُ: هي مَوضِعُ الفَتيلةِ مِنَ القِنديلِ. وممَّن اختار ذلك: ابنُ جرير، وابن كثير، والسيوطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٣٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومجاهِدٌ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ، وابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٥٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨).

قال الواحدي: (﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ وهي: الكَوَّةُ غيرُ النَّافذةِ، والمرادُ بها هاهنا: الذي وسَطَ القِنديلِ كالكَوَّةِ يُوضَعُ فيها الذُّبالةُ). ((الوجيز)) (ص: ٧٦٤). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ١٦٦).

وقال ابنُ العربي: (لا خِلافَ بينَ المُحَقِّقينَ الذين يُنزِلونَ التَّفسيرَ مَنازِلَه، ويَضَعونَ التَّأويلَ مَواضِعَه مِن غيرِ إفراطٍ ولا تفريطٍ: أنَّ هذا مَثَلٌ ضَرَبَه اللهُ تعالى لنُورِه، ولا يُمكِنُ أن يَضرِبَ لنُورِه المُعَظَّمِ مَثَلًا تنبيهًا لخَلقِه إلَّا ببَعضِ خَلْقِه؛ لأنَّ الخَلْقَ بقُصورِهم لا يَفهَمونَ إلَّا بأنفُسِهم ومِن أنفُسِهم، ولولا ذلك ما عَرَفَ اللهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٠٤).

أي: وهذا المِصباحُ داخلَ زجاجةٍ تُحيطُ به[١].

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾.

**القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

في قَولِه تعالى: ﴿دُرِّيّٞ﴾ قِراءاتٌ:

١- قِراءةُ: ﴿دِرِّيءٌ﴾ بكَسرِ الدَّالِ مع المَدِّ والهَمزِ، وهو فِعِّيلٌ، مِثلُ سِكِّيرٍ؛ مِنَ الدَّرْءِ: وهو الدَّفعُ، والمعنى: أنَّ الخَفاءَ يُدفَعُ عنه لِتَلألُئِه في ظُهورِه، أو أنَّه يَدفَعُ بنُورِه مِن أن يَنظُرَ النَّاظِرُ إليه. وقيل: سُمِّيَ دِرِّيئًا؛ لأنَّ الكوكَبَ يَدفَعُ الشَّياطينَ مِنَ السَّماءِ، وشَبَّهَه بحالةِ الدَّفعِ؛ لأنَّه يكونُ في تلك الحالةِ أضوَأَ وأنوَرَ. ويُقالُ: هو مِنَ دَرَأَ الكَوكبُ: إذا اندفَعَ مُنقَبِضًا، فيتَضاعَفُ ضَوؤُه في ذلك الوَقتِ. وقيل: إنَّما سُمِّيَ دِرِّيئًا؛ لأنَّه يَطلُعُ عليك مِن مَطْلِعِه، يُقالُ: دَرَأَ النَّجمُ: إذا طَلَع وارتَفَع[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿دُرِّيءٌ﴾ بضَمِّ الدَّالِ والمَدِّ والهَمزِ، وهو فُعِّيلٌ مِنَ الدَّرءِ: وهو الدَّفعُ[٣].

٣- قِراءةُ: ﴿دُرِّيّٞ﴾ نِسبةً إلى الدُّرِّ؛ لفَرطِ ضِيائِه وبَهائِه ونُورِه، ويجوزُ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٦).

(٢) قرأ بها أبو عمرو والكسائي. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠٧)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩).

(٣) قرأ بها حمزة وشعبة. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠٧)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٩).

يكونَ فُعِّيلًا مِنَ الدَّرءِ: وهو الدَّفعُ، فخُفِّفَت الهَمزةُ فانقَلَبَت ياءً، ثم أُدغِمَت الياءُ في الياءِ، فتكونُ بمعنى القِراءةِ السَّابقةِ[١].

﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾.

أي: الزُّجاجةُ صافيةٌ وبهيَّةٌ كأنَّها كوكَبٌ صافٍ حَسَنٍ مُضيءٍ، وهكذا قَلبُ المؤمِنِ الخالِصِ من الكُفرِ والشَّكِّ، المتطهِّرِ من دَنَسِ المعاصي[٢].

عن حُذيفةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ[٣] فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بَيضاءُ، حتى تصيرَ على قَلبينِ؛ على أبيَضَ مِثلِ الصَّفا[٤]، فلا تضُرُّه فِتنةٌ ما دامت السَّمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسوَدُ مِرْبادًّا، كالكُوزِ مُجَخِّيًا[٥]، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلاَّ ما أُشرِبَ مِن هواه!))[٦].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٠٧)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٠٧، ٣٠٩)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قال البقاعي: (فإنه إذا كان في زجاجةٍ صافيةٍ انعكَست الأشعةُ المنفصلةُ عنه مِن بعضِ جوانبِ الزُّجاجةِ إلى بعضٍ؛ لِما فيها مِن الصَّفاءِ والشفيفِ، فيزدادُ النورُ، ويبلغُ النهايةَ، كما أنَّ شعاعَ الشمسِ إذا وقَع على ماءٍ أو زجاجةٍ صافيةٍ تضاعَف النُّورُ، حتى إنَّه يَظهرُ فيما يقابلُه مثلُ ذلك النُّورِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٧٣).

(٣) نُكِتَ: أي: نُقِطَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٤) الصَّفا: أي: الحَجَرِ الأملَسِ الذي لا يَعلَقُ به شَيءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٥) مُجَخِّيًا: أي: مائِلاً مَنكوسًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٣).

(٦) رواه مسلم (١٤٤).

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿يُوقَدُ﴾ قِراءاتٌ:

١- قِراءةُ ﴿يُوقَدُ﴾ وفاعِلُ (يوقَدُ) المِصباحُ. وقيل: يجوزُ أن يكونَ التوقُّدُ للكَوكَبِ[١].

٢- قِراءةُ ﴿تَوَقَّدَ﴾: فعلٌ ماضٍ بزِنةِ (تَفَعَّلَ)، وفاعِلُ (تَوقَّدَ) المِصباحُ. ويجوزُ أن يكونَ التوقُّدُ للكوكَبِ. وقيل: لا يعودُ على (كوكب)؛ لفَسادِ المعنى[٢].

٣- قِراءةُ ﴿تُوقَدُ﴾ على أنَّ الإيقادَ للزُّجاجةِ[٣].

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾.

أي: يَستَمِدُّ المصباحُ نورَه مِن زيتِ شَجرةِ زيتونٍ، مُبارَكةٍ كَثيرةِ المنافِعِ،

---

(١) قرأ بها نافع، وابن عامر، وحفص. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).
وينظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٠).

(٢) قرأ بها ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٠٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٠٧).
قال ابن زنجلة: (فإنْ قِيلَ: كيف وُصِفَت الزُّجاجةُ بأنَّها تُوقَدُ، وإنَّما يكونُ الاتِّقادُ للنَّارِ؟ قيل: لَمَّا كان الاتِّقادُ فيها جازَ أن يُوصَفَ به؛ لارتفاعِ اللَّبسِ عن وَهمِ السَّامِعينَ، وعِلمِهم بالمرادِ مِن الكَلامِ، والعَرَبُ قد تُسنِدُ الأفعالَ كثيرًا إلى ما لا فِعْلَ له في الحقيقةِ إذا كان الفِعلُ يَقَعُ فيه، فيقولونَ: ليلٌ نائِمٌ؛ لأنَّ النَّومَ فيه يكونُ). ((حجة القراءات)) (ص: ٥٠٠)

لا شرقيَّةٍ تصيبُها الشَّمسُ عند الشُّروقِ فقط، ولا غربيَّةٍ تصيبُها الشَّمسُ عند الغروبِ فقط، بل الشَّمسُ تصيبُها طوالَ النَّهارِ؛ فيكونُ زيتُها أصفى وأجوَدَ وأشدَّ إضاءةً[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٠، ٣١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

ممَّن اختار القولَ المذكورَ: الفرَّاءُ، وابن جرير، والزجاج، والبقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٨٦).

ونسَبَ السمعانيُّ هذا القولَ لأكثَرِ أهلِ المعاني، ونسَبَه البغويُّ للأكثرينَ، والرَّسعنيُّ لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٥٥).

قال ابن عثيمين: (فهي إمَّا في رَبْوةٍ، وذلك أكمَلُ وأبيَنُ وأعلى وأطيَبُ زَيتًا، وإمَّا في مكانٍ مُستَوٍ؛ صحراويَّة). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٤٥).

وقال الشنقيطيُّ بعد أن ذكَر أنَّ أظهَرَ الأقوالِ أنَّها باديةٌ لا يَستُرُها شَيءٌ عن الشمسِ، قال: (وذلك بألَّا يَكونَ في شَرقِها ولا في غَربِها شجَرٌ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٣٧).

وقيل: ليست مِن المَشرِقِ ولا مِن المَغربِ، بلْ في الوسَطِ منهما، وهو الشامُ، وأجْوَدُ الزَّيتونِ زَيتونُ الشامِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الكرمانيُّ، والزمخشري، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٧٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٦).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٣٨)، وقد وصَف هذا القولَ بأنَّه غيرُ سديدٍ.

وقال السعدي: (﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تُصيبَها الشمسُ آخِرَ النهارِ، ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تُصيبَها الشمسُ أوَّلَ النهارِ، وإذا انتفى عنها الأمْرانِ، كانت متوسِّطةً مِن الأرضِ؛ كزَيتونِ الشامِ، تُصيبُها الشمسُ أوَّلَ النهارِ وآخِرَه؛ فتَحسُنُ وتَطيبُ، ويَكونُ أصْفى لزَيتِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

وقيل: المعنى: أنَّها شجرةٌ بيْن الأشجارِ، لا هي بارزةٌ للشمسِ عندَ شُروقِها، ولا هي بارزةٌ عندَ غروبِها. وذكَر الشنقيطيُّ أنَّه باطلٌ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٣٨). =

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

أي: يُقارِبُ زَيتُ هذه الشَّجَرةِ المباركةِ أن يضيءَ بنَفسِه ولو لم تمسَسْه نارٌ؛ مِن شدَّةِ صَفائِه وتلألُئِه، فإذا مسَّتْه النارُ أضاء إضاءةً عظيمةً[1].

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾.

أي: اجتمعُ نورُ النَّارِ مع نور الزَّيتِ، وهكذا المؤمِنُ قَلبُه مضيءٌ، يكادُ يعرِفُ

---

= وقال السمرقندي: (ورُوِيَ عن الحسَنِ أنَّه قال: ليس هذه مِن أشجارِ الدُّنيا، لكنْ مِن أشجارِ الآخِرةِ، يعني: أنَّ أشجارَ الدُّنيا لا تَخلو مِن أن تَكونَ شرقيَّةً أو غربيَّةً، ولكنْ هذه مِن أشجارِ الآخرةِ). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٣).

وقال ابنُ القيِّمِ: (كذلك مادَّةُ نورِ المِصباحِ الذي في قلبِ المؤمِنِ هو مِن شجرةِ الوحيِ التي هي أعظَمُ الأشياءِ بَرَكةً، وأبعَدُها مِن الانحرافِ، بل هي أوسَطُ الأمورِ وأعْدَلُها وأفضَلُها، لم تَنحرِفِ انحرافَ النصرانيَّةِ، ولا انحرافَ اليهوديَّةِ، بل هي وسَطٌ بيْن الطرفَينِ المَذمومَينِ في كلِّ شَيءٍ، فهذه مادَّةُ مِصباحِ الإيمانِ في قلبِ المؤمِنِ). ((الوابل الصيب)) (ص: ٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قال ابنُ جريرٍ: (وعُنيَ بقَولِه: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ أنَّ حُجَجَ اللهِ تعالى ذِكرُه على خَلقِه تَكادُ مِن بَيانِها ووُضوحِها تُضيءُ لِمَن فكَّر فيها، ونظَرَ، أو أعرَضَ عنها ولها. ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ يقولُ: ولو لم يَزِدْها الله بيانًا ووضوحًا بإنزالِه هذا القرآنَ إليهم، مُنَبِّهًا لهم على تَوحيدِه، فكيف إذا نبَّهَهم به، وذكَّرهم بآياتِه، فزادهم به حُجَّةً إلى حُجَجِه عليهم قبْلَ ذلك؟! فذلك بيانٌ مِنَ الله، ونورٌ على البيانِ والنُّورِ الذي كان قد وصَفَه لهم ونصَبَه قبْلَ نُزولِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٣، ٣١٤).

وقال السمعانيُّ: (يَكادُ قلبُ المؤمنِ يَعرِفُ الحقَّ قبْلَ أن يُبَيَّنَ له؛ لِموافَقتِه إيَّاه). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٣).

وقال القرطبيُّ: (تَكادُ حُجَجُ القرآنِ تَتَّضِحُ، ولو لم يُقرَأْ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦٤).

وقال ابنُ القيِّمِ: (وهكذا المؤمِنُ؛ قلبُه مُضيءٌ، يَكادُ يَعرِفُ الحقَّ بفِطرتِه وعَقلِه، ولكنْ لا مادَّةَ له مِن نفْسِه). ((الوابل الصيب)) (ص: ٥٣).

الحَقَّ بفِطرتِه وعَقلِه، فإذا نزلت آياتُ الوحيِ فباشرَت قلبَه وخالطت بَشاشتَه، ازداد نورًا بالوَحيِ على نورِ الإيمانِ الذي فطَرَه اللهُ تعالى عليه[1].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٦)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٢)، ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

قال ابن القيِّم: (النورُ على النورِ: نورُ الفِطرةِ الصحيحةِ والإدراكِ الصحيحِ، ونورُ الوَحيِ والكِتابِ، فيَنضافُ أحَدُ النُّورَينِ إلى الآخَرِ؛ فيَزدادُ العبدُ نورًا على نورٍ... فيَتَّفِقُ عندَه شاهِدُ العقلِ والشرعِ، والفِطرةِ والوَحيِ، فيُريهِ عقلُه وفِطرتُه وذَوقُه أنَّ الذي جاء به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو الحقُّ، لا يَتعارَضُ عندَه العقلُ والنقلُ البَتَّةَ، بل يَتصادَقانِ ويَتوافَقانِ). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٥٢).

وقد تقدَّمَ (ص: ٢٧١) اختِلافُ المفسِّرينَ -الذين ذهبوا إلى أن الضميرَ في قولِه: ﴿نُورِهِۦ﴾ يَعودُ على اللهِ- في المرادِ بالنورِ، وأنَّ منهم مَن قال: المرادُ به محمَّدٌ. ومنهم مَن قال: المؤمِنُ. ومنهم مَن قال: القرآنُ والإيمانُ.

قال ابنُ عطيَّةَ: (فعلى قَولِ مَن قال: الممثَّلُ به محمَّدٌ عليه السَّلامُ، وهو قَولُ كَعبِ الحَبْرِ؛ فرسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو «المشكاة» أو صدرُه، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ هو النُّبوءةُ وما يتَّصِلُ بها مِن عمَلِه وهُداهُ، و﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ قلبُه، و«الشجرة المباركة» هي الوحيُ، والملائكةُ رُسُلٌ إليه وسببُه المتَّصِلُ به، والزَّيتُ هو الحُجَجُ والبَراهينُ، والآياتُ التي تضَمَّنها الوحيُ.

وعلى قَولِ مَن قال: الممَثَّلُ به المؤمِنُ -وهذا قَولُ أُبَيِّ بنِ كعبٍ- فـ «المشكاة» صدرُه، و﴿ٱلْمِصْبَاحُ﴾ الإيمانُ والعِلمُ، و﴿ٱلزُّجَاجَةُ﴾ قلْبُه، و«الشجرةُ» القرآنُ، وزَيتُها هو الحُجَجُ والحِكمةُ التي تضَمَّنها. قال أُبَيٌّ: فهو على أحسَنِ الحالِ؛ يَمْشي في الناسِ كالرجُلِ الحيِّ يمشي في قُبورِ الأمواتِ.

ومَن قال: إنَّ الممثَّلَ به القرآنُ والإيمانُ، فتقديرُ الكلامِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الذي هو الإيمانُ في صدرِ المؤمِنِ في قلْبِه ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾، أي: كهذه الجُملةِ. وهذا القولُ ليس في مقابلةِ التَّشبيهِ كالأوَّلَينِ؛ لأنَّ المِشكاةَ ليست تُقابِلُ الإيمانَ. وتَحتمِلُ الآيةُ معنًى آخَرَ ليس فيه مُقابَلةُ جُزءٍ مِنَ المِثالِ لجُزءٍ مِنَ المُمَثَّلِ، بل وقَع التَّشبيهُ فيه جُملةً بجُملةٍ، وذلك أن يُريدَ: مثَلُ نورِ الله الذي هو هُداهُ وإتقانُه صَنعةَ كلِّ مَخلوقٍ وبراهينُه الساطِعةُ على الجملةِ كهذه الجُملةِ مِن النورِ الذي تتَّخِذونه أنتم على هذه الصِّفةِ التي هي أبلَغُ صِفاتِ النورِ الذي بيْن أيدي الناسِ، أي: فمثَلُ نورِ الله في الوضوحِ كهذا الذي هو مُنتهاكم أيُّها البشَرُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٣). =

﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الإخبارُ عن مُضاعفةِ هذا النُّورِ موجِبًا لاعتقادِ أنَّه لا يخفَى عن أحدٍ، أشار إلى أنَّه -بشُمولِ عِلمِه، وتمامِ قُدرتِه- يُعمي عنه مَن يريدُ، مع شِدَّةِ ضيائِه، وعظيمِ لألائِه، فقال[1]:

---

= وقال الرسعني: (قال أكثرُ المفسِّرينَ: هذا مثَلٌ للمؤمِنِ؛ فـ«المشكاةُ»: قلْبُه، و«الزجاجةُ»: صدرُه، و«المِصباحُ»: هو الإيمانُ والقرآنُ، «توقدُ مِن شجرةٍ مبارَكةٍ»: وهي الإخلاصُ، «لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ»: بل هي مُسَلَّمةٌ ممَّا يوجِبُ نَقصًا فيها، كذلك المؤمِنُ قد أُجيرَ وحُرِسَ مِن الفِتَنِ القادِحةِ في نورِ إيمانِه، فإنْ أُعطيَ شَكَر، وإنِ ابتُلِيَ صبَر، وإنْ قال صَدَق، وإنْ حَكَم عَدَل، يَكادُ قلبُ المؤمنِ يَعمَلُ بالهُدى ولو لم يأتِه العِلمُ، فإذا أتاه العِلمُ ازداد نورًا على نورِه الذي جُبِل عليه). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٥٧).

وقال السعديُّ: (وجْهُ هذا المثَلِ الذي ضرَبه الله، وتطبيقه على حالةِ المؤمِنِ، ونور الله في قلبِه: أنَّ فِطرتَه التي فُطِر عليها بمَنزِلةِ الزَّيتِ الصافي، ففِطرتُه صافيةٌ، مُستعِدَّةٌ للتعاليمِ الإلهيَّةِ، والعملِ المشروعِ، فإذا وصَل إليه العِلمُ والإيمانُ اشتَعَل ذلك النورُ في قلبِه، بمَنزلةِ اشتِعالِ النارِ في فَتيلةِ ذلك المِصباحِ، وهو صافي القلبِ مِن سوءِ القَصدِ، وسوءِ الفَهمِ عن الله، إذا وصَل إليه الإيمانُ أضاء إضاءةً عظيمةً؛ لصفائه مِن الكُدوراتِ، وذلك بمَنزِلةِ صفاءِ الزُّجاجةِ الدُّرِّيَّةِ؛ فيَجتمِعُ له نورُ الفِطرةِ، ونورُ الإيمانِ، ونورُ العِلمِ، وصَفاءُ المعرفةِ؛ نورٌ على نورِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

وقال ابن عثيمينَ: (اللهُ شَبَّهَ النورَ الذي في قلبِ المؤمنِ بهذه القضيةِ كلِّها: «مشكاة فيها مِصباحٌ»، والذي يُقابِلُ المِشكاةَ هو القلبُ، والنورُ الذي يَقذِفُه الله في قلبِه مع نورِ الإيمانِ هو المِصباحُ، لكنْ هذا المِصباحُ مُرَكَّبٌ في زُجاجةٍ، والزُّجاجةُ صافيةٌ لامِعةٌ ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ ووَقودُ هذا النورِ ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ جيِّدةٍ؛ لأنَّ الزُّجاجةَ تَقي النورَ وتُصفِّيه...، فتَجدُ أنَّ هذا النورَ قد كمَلَتْ فيه أسبابُ الصفاءِ مِن حيث الوَقودُ والمكانُ، وكذلك أسبابُ الشمولِ والقوةِ من حيث كوْنُه في مِشكاةٍ، النورُ الذي في قلبِ المؤمنِ مثلُ هذا، ولكنِ المرادُ المؤمِنُ كامِلُ الإيمانِ في الحقيقةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٥).

﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: يوفِّقُ الله لنورِه مَن يختارُه ممن يعلمُ زكاءَه وطهارتَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال الشوكاني: (﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ عِبادِه، أي: هدايةً خاصَّةً مُوَصِّلةً إلى المطلوبِ، وليس المرادُ بالهدايةِ هنا مجرَّدَ الدَّلالَةِ). (( تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠).

وقال الواحدي: (قَولُه تعالى: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لدينِه الإسلامِ، وإنْ شِئتَ قُلتَ: للقُرآنِ، وإنْ شِئتَ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، على اختِلافِ التَّفسيرِ في قَولِه تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾). ((البسيط)) (١٦/ ٢٨٧).

وقال السعدي: (ولمَّا كان هذا مِن نورِ الله تعالى، وليس كلُّ أحدٍ يصلحُ له ذلك، قال: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ممَّن يعلمُ زكاءَه وطهارته، وأنَّه يزكو معه وينمو). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

أي: ويُبيِّن اللهُ الأمثالَ للنَّاسِ؛ ليفهَموا معانيَها، ويُدرِكوا مراميَها، كما مثَّل لهم نورَ القرآنِ في قلبِ المؤمِنِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ محيطٌ عِلمًا بجميعِ الأشياءِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ، ومِن ذلك عِلمُه بمَن هو قابلٌ للهُدى، ومَن هو مُصِرٌّ على ضلالِه، ومِن ذلك عِلمُه بما يَضرِبُ مِن الأمثالِ، فهو ضَربُ مَن يعلَمُ حقائِقَ الأمورِ وتفاصيلَها، وأنَّها مَصلحةٌ للعبادِ، فليكُنِ اشتغالُكم بتدبُّرِها وتعقُّلِها، لا بالاعتراضِ عليها أو بمعارَضتِها؛ فهو سُبحانَه يعلَمُ وأنتم لا تعلَمونَ(٢).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: مَثَلُ نورِه في قَلبِ عَبدِه المؤمِنِ الذي امتَثَل أوامِرَه واجتَنَب نواهيَه، وإذا استنار القَلبُ أقبلتْ وفودُ الخيراتِ إليه مِن كُلِّ ناحيةٍ، كما أنَّه إذا أظلَم أقبَلَت سحائِبُ البلاءِ والشَّرِّ عليه مِن كُلِّ مكانٍ، فما شِئتَ مِن بِدَعٍ وضلالةٍ، واتِّباعِ هَوًى، واجتنابِ هُدًى، وإعراضٍ عن أسبابِ السَّعادة، واشتغالٍ بأسبابِ الشَّقاوةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٤).

فإنَّ ذلك إنَّما يَكشِفُه له النورُ الذي في القلبِ، فإذا نَفِدَ ذلك النورُ بَقِيَ صاحِبُه كالأعمَى الذي يجوسُ في حنادِسِ الظَّلامِ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ﴾ يُومِئ إلى الحاجةِ إلى اجتِهادِ عُلَماءِ الدِّينِ في استخراجِ إرشادِ الإسلامِ على مرورِ الأزمنةِ؛ لأنَّ استخراجَ الزَّيتِ مِن ثَمَرِ الشَّجرةِ يتوقَّفُ على اعتِصارِ الثَّمرةِ، وهو الاستِنباطُ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ ...﴾ هذه الآيةُ دَليلٌ صريحٌ على أنَّ اللهَ أنزلَ القرآنَ مِن عندِه، وأنَّ النُّزولَ ليس بمعنى الوحيِ فقط، بل هو معنًى خاصٌّ أخَصُّ مِن الوحيِ، وأنَّه يلزَمُ مِن الإنزالِ أن يكونَ المُنزِلُ عاليًا[٣]، فالنُّزولُ لا يَكونُ إلَّا مِن أعلَى؛ ففيه إثباتُ علُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ الذي هو مِن صفاتِه الذاتيَّةِ اللازمةِ له، التي لم يَزَلْ ولا يَزالُ متَّصِفًا بها[٤].

٢- الإيمانُ له نورٌ في القلبِ، قال تعالى ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي: مثَلُ نورِه فِي قلبِ المُؤمِنِ كمِشكاةٍ فِيهَا مِصباحٌ، إلى قولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فسمَّى الايمانَ الذي يَهَبُه للعبدِ نورًا[٥].

٣- قال الله تعالى: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾ إنْ قيل: لَمَ

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٢٩، ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٩) (٣/ ٤٤٧).

(٥) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ١٤٣).

خَصَّ الزُّجاجةَ بالذِّكرِ؟

**فالجوابُ**: أنَّه قيل: إنَّما ذكَرَ الزُّجاجةَ؛ لأنَّ المِصباحَ فيها أضوأُ. وقيل: ذكَرَ الزُّجاجةَ؛ لأنَّها إذا انكَسَرت لا يُنتفَعُ منها بشَيءٍ، كذلك القَلبُ إذا فسَد لا يُنتفَعُ منه بشَيءٍ[1]، ولأنَّها جمعت أوصافًا هي في قلبِ المؤمنِ، وهي الصَّفاءُ والرِّقَّةُ، فيَرى الحقَّ والهدى بصفائِه، وتحصُلُ منه الرأفةُ والرَّحمةُ والشَّفَقةُ برِقَّتِه، ويجاهِدُ أعداءَ الله تعالى ويُغلِظُ عليهم ويشتَدُّ في الحَقِّ ويَصلُبُ فيه بصلابتِه، ولا تُبطِلُ صِفةٌ منه صِفةً أخرى ولا تُعارِضُها، بل تُساعِدُها وتُعاضِدُها ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ إن قيلَ: لمَ شبَّهَ بالكواكِبِ، ولم يشَبِّهْ بالشَّمسِ والقَمرِ؟

**الجواب**: لأنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يلحَقُهما الخُسوفُ والكسوفُ، والكواكِبُ لا يلحَقُها ذلك[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ المرادُ بالشَّجَرةِ هاهنا: شجرةُ الزَّيتونِ، وبَرَكتُها مِن وجوهٍ: أنَّها تجمَعُ الأُدمَ والدُّهنَ والوَقودَ؛ فيُوقَدُ بحَطَبِ الزَّيتونِ، ويُغسَلُ برَمادِه الإبْريسَمُ[4]، ويُستخرَجُ دُهنُه أسهلَ استخراجٍ، ويُورِقُ غُصنُه مِن أوَّلِه إلى آخِرِه، وإنَّما خُصَّت بالذِّكرِ هاهنا دونَ غيرِها؛ لأنَّ دُهنَها أصفَى وأضوأُ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٢٣).

(٤) الإبْريسَمُ: أي: الحريرُ، أو الخامُ الخالِصُ منه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣١/ ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ دليلٌ وإرشادٌ إلى أنَّه يَنبغي للإنسانِ إذا وَضَعَ الشجرَ ألَّا يَضعَه في مكانٍ يَحتجِبُ عن الشمسِ شرقًا أو غربًا؛ بل يَنبغي أن يوضَعَ الشجرُ في مكانٍ يَبرُزُ للشمسِ شرقًا وغربًا[1]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ، وأنَّها إمَّا في رَبْوةٍ -وذلك أكمَلُ وأبْيَنُ وأعلى وأطيَبُ زَيتًا-؛ وإمَّا في مكانٍ مُستوٍ؛ صحراويَّةً.

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيه أنَّ وضوحَ الدَّلائِلِ لا يَكفي ولا ينفَعُ ما لم يَخلُقِ اللهُ الإيمانَ[2]. وقَولُه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ فيه إيذانٌ بأنَّ مَناطَ هذه الهدايةِ ومِلاكَها ليس إلَّا مَشيئتَه تعالى، وأنَّ تظاهُرَ الأسبابِ بدُونِها بمَعزلٍ مِن الإفضاءِ إلى المَطالِبِ[3].

## بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

- قَولُه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، جِيءَ به في تَضاعيفِ ما ورَدَ مِن الآياتِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ؛ لبَيانِ جَلالةِ شُؤونِها المُستوجبةِ للإقبالِ الكُلِّيِّ على العمَلِ بمَضمونِها[4].

- وابتُدِئَ الكلامُ بلامِ القسَمِ وحَرفِ التَّحقيقِ؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ بشأْنِه[5].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث وصَفَ هذه الآياتِ المُنزَّلةِ بثلاثِ صِفاتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٩).

-﴿مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾- كما وصَفَ السُّورةَ في طالِعَتِها بثلاثِ صِفاتٍ -﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ١]-، والمقصدُ مِن الأوصافِ في الموضعينِ هو الامتِنانُ؛ فكأنَّ هذا يُشبِهُ رَدَّ العجُزِ على الصَّدرِ، فجُملةُ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافَ التَّذييلِ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ ألَّا تُعطَفَ؛ لأنَّ شأْنَ التَّذييلِ والاستئنافِ الفصْلُ، وإنَّما عُدِلَ عن الفصْلِ إلى العطفِ؛ لأنَّ هذا خِتامُ التَّشريعاتِ والأحكامِ الَّتي نزَلَتِ السُّورةُ لأسبابِها. وقد خُلِّلَت بمِثْلِ هذا التَّذييلِ مرَّتينِ قبْلَ هذا بقولِه تعالى في ابتداءِ السُّورةِ: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ١]، ثمَّ قولِه: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨]، ثمَّ قولِه هنا: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾؛ فكان كلُّ واحدٍ مِن هذه التَّذييلاتِ زائدًا على الَّذي قبْلَه؛ فالأوَّلُ زائدٌ بقولِه: ﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ [النور: ١٨]؛ لأنَّه أفاد أنَّ بَيانَ الآياتِ لِفائدةِ الأمَّةِ، وما هنا زاد بقولِه: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾؛ فكانت كلُّ زِيادةٍ مِن هاتينِ مُقْتضيةً العطفَ؛ لِمَا حصَلَ مِن المُغايَرةِ بيْنها وبيْن أخْتِها، وتُعتبَرُ كلُّ واحدةٍ عطفًا على نَظيرتِها؛ فوُصِفَتِ السُّورةُ كلُّها بثلاثِ صِفاتٍ، ووُصِفَ ما كان مِن هذه السُّورةِ مُشتمِلًا على أحكامِ القذْفِ والحُدودِ وما يُفْضي إليها أو إلى مُقاربِها مِن أحوالِ المُعاشَرةِ بينَ الرِّجالِ والنِّساءِ بثلاثِ صِفاتٍ؛ فقولُه هنا: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يُطابِقُ قولَه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ١]، وقولُه: ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ﴾ يُقابِلُ قولَه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَفَرَضْنَٰهَا﴾ [النور: ١]، على أنَّ مَعنى الفرْضِ التَّعيينُ والتَّقديرُ؛ لأنَّ في التَّمثيلِ تقْديرًا وتَصويرًا للمعاني بنَظائرِها، وفي ذلك كشْفٌ للحقائقِ، وقولُه: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ يُقابِلُ قولَه في أوَّلِها

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[١] [النور: ١].

- وإنَّما قِيلَ: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مع شُمولِ الموعظةِ للكلِّ -حسَبَ شُمولِ الإنزالِ لقولِه تعالى: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ﴾-؛ حثًّا للمُخاطَبينَ على الاعتِناءِ بالانتِظامِ في سِلْكِ المُتَّقينَ، ببَيانِ أنَّهم المُغتنِمون لآثارِها، المُقتبِسون مِن أنوارِها[٢]، والمنتَفِعون بها[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث جاء قولُه هنا: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ بذِكْرِ الواوِ و﴿إِلَيْكُمْ﴾، وقالَه بعْدُ بحذْفِهما: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٤٦]؛ ووَجْهُه: أنَّ اتِّصالَ ما هنا بما قبْلَه أشدُّ؛ إذ قولُه بعْدُ: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مَصروفٌ إلى الجُمَلِ السَّابقةِ مِن قولِه: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾[النور: ٣٣] إلى آخِرِه، وفيه مَعطوفانِ بالواوِ؛ فناسَبَ ذِكرَها العطْفُ، وذكَرَ ﴿إِلَيْكُمْ﴾؛ ليُفِيدَ أنَّ الآياتِ المُبيِّناتِ نزَلَتْ في المُخاطبينَ في الجُمَلِ السَّابقةِ، وما ذُكِرَ بعدُ خالٍ عن ذلك؛ فناسَبَهُ الاستِئنافُ والحذْفُ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ جاءت هذه الآيةُ رابطةً لقصَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٢٢).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٣٧، ٣٣٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٦).

بَراءةِ ساحةِ حِجابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُمِّ المُؤمنين الصِّدِّيقةِ بنتِ الصِّدِّيقِ رضِيَ اللهُ عنهما بقولِه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وتخلُّصًا منها إليه، وقد كرَّرَ هذا المعنى في هذه السُّورةِ الكريمةِ مِرارًا؛ تَرجيعًا إلى ما هو مُهتمٌّ به، وتخلُّصًا إلى ما يَنْبغي أنْ يَشرَعَ فيه. منها: قولُه تعالى في فاتحةِ السُّورةِ: ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النور: ١]. ومِن ثَمَّ جاء في هذا المقامِ مَفصولًا استئنافًا على بَيانِ المُوجَبِ؛ امتِنانًا على المُنزَّلِ عليهم، كأنَّه قِيل: إنَّما أنزَلَ اللهُ إليكم هذه الآياتِ ومثَلًا مِن الَّذين خَلَوا مِن قبْلِكم ومَوعظةً للمُتَّقينِ؛ لأنَّه هادي أهلِ السَّمواتِ وأهلِ الأرضِ بإنزالِ الآياتِ البيِّناتِ والكتابِ المُنيرِ المُشتمِلِ على ما تأْتون به وتَذَرون؛ ففيهِ مع الامتِنانِ تَعظيمُ شأْنِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حيث استشهَدَ لبراءةِ حِجابِه بمثْلِ هذه الآيةِ الكريمةِ الجامعةِ، وفي جَعْلِ تلك الآيةِ تخلُّصًا لهذه، وإنَّها مِن الجوامعِ المُحتويةِ على الأمَّهاتِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ يَشتمِلُ على جميعِ ما يَستحِقُّ أن يُبيَّنَ مِن أصولِ الدِّينِ وفُروعِه[1].

- قَولُه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فيه إتْباعُ مِنَّةِ الهدايةِ الخاصَّةِ في أحكامٍ خاصَّةٍ -المُفادةِ من قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ الآيةَ [النور: ٣٤]- بالامتِنانِ بأنَّ اللهَ هو مُكوِّنُ أصولِ الهدايةِ العامَّةِ والمعارفِ الحقَّةِ للنَّاسِ كلِّهم بإرسالِ رسولِه بالهُدى ودِينِ الحقِّ، مع ما في هذا الامتِنانِ مِن الإعلامِ بعَظَمةِ اللهِ تعالى ومجْدِه، وعُمومِ عِلْمِه وقُدرتِه[2].

- وإذا كان المُرادُ بالآياتِ المُبيِّناتِ والمثَلِ والموعظةِ جميعَ ما في القُرآنِ المجيدِ مِن الآياتِ والأمثالِ والمواعظِ؛ فقولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٠).

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَقريرِ ما فيها مِن البَيانِ، مع الإشعارِ بكونِه في غايةِ الكَمالِ. وإذا كان المُرادُ بالآياتِ المُبيِّناتِ والمثَلِ والموعظةِ ما نُزِّلَ في هذه السُّورةِ؛ فهو استِئنافٌ مَسوقٌ لتَحقيقِ أنَّ بَيانَه تعالى ليس مَقصُورًا على ما ورَدَ في السُّورةِ الكريمةِ، بلْ هو شاملٌ لكلِّ ما يحِقُّ بَيانُه مِن الأحكامِ والشَّرائعِ، ومَباديها وغاياتِها المُترتِّبةِ عليها في الدُّنيا والآخرةِ، وغيرِ ذلك ممَّا له مَدخلٌ في البَيانِ، وأنَّه واقِعٌ منه تعالى على أتمِّ الوُجوهِ وأكمَلِها؛ حيث عبَّرَ عنه بالتَّنويرِ الَّذي هو أقْوى مَراتبِ البَيانِ وأجْلاها، وعبَّرَ عن المُنوِّرِ بنفْسِ النُّورِ؛ تَنبيهًا على قُوَّةِ التَّنويرِ، وشدَّةِ التَّأثيرِ، وإيذانًا بأنَّه تعالى ظاهرٌ بذاتِه، وكلُّ ما سِواهُ ظاهرٌ بإظهارِه[1].

- وفي الانتِقالِ مِن ضَميرِ التَّعظيمِ ﴿أَنزَلْنَآ﴾ إلى اسمِ الذَّاتِ ﴿ٱللَّهُ﴾ خطْبٌ جليلٌ، وخطَرٌ خطيرٌ، وإيذانٌ بأنَّ تلك الهِدايةَ أيضًا جامعةٌ لِمَا يُناطُ به أُمورُ الدِّينِ؛ مِن بَعثةِ الرُّسلِ، وإنزالِ الكُتبِ، وغيرِ ذلك[2].

- وهذه الجُملةُ ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ ...﴾ بَيانٌ لجُملةِ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٣٤]؛ إذ كان يَنْطوي في معنى آياتٍ ووَصْفِها بـ ﴿مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ ما يَستشرِفُ إليه السَّامعُ مِن بَيانٍ لـ: ما هي الآياتُ، وما هو تَبيينُها؟ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا. ووقعَتْ جُملةُ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُعترِضةً بيْنَ هذه الجُملةِ والَّتي قبْلَها؛ تَمهيدًا لعَظَمةِ هذا النُّورِ المُمثَّلِ بالمِشكاةِ. وقيل: إنَّها بَيانٌ لجُملةِ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فيَكونُ مَوقعُها مَوقعَ عطْفِ البَيانِ؛ فلذلك فُصِلَت فلمْ تُعطَفْ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣١، ٢٣٤).

- ومُناسَبةُ مَوقعِ جُملةِ: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ بعدَ جُملةِ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٣٤]: أنَّ آياتِ القُرآنِ نُورٌ؛ قال تعالى في سُورةِ النِّساءِ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، فكان قولُه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كلمةً جامعةً لِمَعانٍ جَمَّةٍ تتْبَعُ معاني النُّورِ في إطلاقِه في الكلامِ. ومَوقعُ الجُملةِ عجيبٌ مِن عدَّةِ جِهاتٍ، وانتقالٌ مِن بَيانِ الأحكامِ إلى غرَضٍ آخَرَ مِن أغراضِ الإرشادِ، وأفانينَ مِن الموعظةِ والبُرهانِ(١).

- قَولُه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النُّورُ اسمٌ جامدٌ لمعنًى؛ فهو كالمصدرِ، وبذلك كان الإخبارُ به بمَنزلةِ الإخبارِ بالمصدَرِ أو باسمِ الجِنسِ في إفادةِ المُبالَغةِ(٢).

- وإضافةُ النُّورِ إلى السَّمواتِ والأرضِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ إمَّا للدَّلالةِ على سَعةِ إشراقِه وفُشوِّ إضاءتِه حتَّى تُضيءَ له السَّمواتُ والأرضُ، وإمَّا أنْ يُرادَ أهْلُ السَّمواتِ والأرضِ وأنَّهم يَسْتضيئون به، وإمَّا لاشتِمالِها على الأنوارِ الحسِّيَّةِ والعقليَّةِ، وقُصورِ الإدراكاتِ عليهما، وعلى المُتعلِّقِ بهما، والمَدلولِ لهما(٣)، فيجوزُ أنْ يُرادَ بالسَّمواتِ والأرضِ مَن فيهما مِن بابِ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، وهو أبلَغُ مِن ذِكْرِ المُضافِ المحذوفِ؛ لأنَّ في هذا الحذْفِ إيهامَ أنَّ السَّمواتِ والأرضَ قابلةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣).

لهذا النُّورِ، كما أنَّ القريةَ نفْسَها تَشهَدُ بما يُسأَلُ منها، وذلك أبلَغُ في الدَّلالةِ على الإحاطةِ بالمقصودِ وألْطَفُ دَلالةً[1].

- قَولُه: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

- هذا التَّشبيهُ العجيبُ الذي تَضمَّنه قَولُه سُبحانَه: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ فيه مِن الأسرارِ والمعاني وإظهارِ تَمامِ نِعمة اللهِ تعالَى على عبْدِه المؤمِنِ بما أنالَه مِن نُورِه ما تَقَرُّ به عيونُ أهلِه، وتَبتهِجُ به قلوبُهم. وهذا التَّشبيهُ تَشبيهٌ مُرسَلٌ[2]؛ حيثُ جاء التَّشبيهُ هنا بواسطةِ الأداةِ وهي الكافُ، ولأهلِ البَلاغةِ والمعاني في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٣).

(٢) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به للمُشبَّهِ. وقد اتَّفقَ الأُدباءُ على شَرفِه في أنواعِ البَلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادَها كمَالًا، وكساها حُلَّةً وجَمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العَربِ، بلْ هو أكثرُ كلامِهم. ويَنقسمُ التشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّة؛ فمنه: التَّشبيهُ المُفرَد. ومنه: التشبيهُ المُركَّبُ: وهو الذي يكونُ وجهُ الشَّبهِ فيه مُنتزَعًا مِن مُتعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتشبيهُ هنا مُركَّبٌ من أحوالِ الحِمارِ. وخَصَّ البيانيُّونَ لفْظَ «التمثيل» بالتشبيهِ المركَّبِ. ومنه: التشبيهُ البليغُ: وهو ما كانتْ أداةُ التشبيهِ فيه مَحذوفةً. وينقسمُ التشبيهُ باعتبارٍ آخَرَ إلى مُؤكَّدٍ: وهو ما حُذفتْ فيه الأداةُ، نحو: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مرِّ السحابِ. ومُرْسَل: وهو ما لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

هذا التَّشبيهِ طَريقتانِ؛ أحدُهما: طريقةُ التَّشبيهِ المركَّبِ، وهي أقرَبُ مأخذًا، وأسلَمُ مِن التكلُّفِ، وهي أن تُشبَّهَ الجُملةُ برُمَّتِها بنورِ المؤمنِ مِن غيرِ تعرُّضٍ لتفصيلِ كلِّ جزءٍ مِن أجزاءِ المشبَّهِ، ومقابلتِه بجزءٍ مِن المشبَّهِ به، وعلى هذا عامَّةُ أمثالِ القرآنِ الكريمِ. فتأمَّلْ صِفةَ مشكاةٍ -وهي كَوَّةٌ لا تَنفذُ؛ لتكونَ أجمعَ للضوءِ- قد وُضع فيها مِصباحٌ، وذلك المصباحُ داخلُ زُجاجةٍ تُشبِهُ الكوكبَ الدُّرِّيَّ في صفائِها وحسنِها، ومادَّتُه مِن أصفَى الأدْهانِ وأتمِّها وَقودًا مِن زَيتِ شجرةٍ في وسَطِ القَراحِ[1]، لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ، فمِن شِدَّةِ إضاءةِ زَيتِها وصَفائِه وحُسنِه يَكادُ يُضيءُ مِن غيرِ أنْ تمسَّه نارٌ، فهذا المجموعُ المركَّبُ هو مثَلُ نورِ الله تعالَى الذي وضَعه في قلْبِ عَبدِه المؤمنِ وخصَّه به؛ فمثَلُ نُورِه في قلْبِ عبْدِه المُخلِصِ كمِشكاةٍ، والمِشكاةُ: القلْبُ، والمِصباحُ: النُّورُ الَّذي قُذِفَ فيه، والمعرفةُ تُضِيءُ في قلْبِ العارفِ بنُورِ التَّوفيقِ في مِصباحِ النُّورِ، توقَدُ مِن شَجرةٍ مُبارَكةٍ، تُضِيءُ على شخصٍ مُبارَكٍ، تتبيَّنُ أنوارُ باطنِه على آدابِ ظاهرِه، وحُسنِ مُعامَلتِه، زَيتونةٍ لا شرقيَّةٍ ولا غربيَّةٍ، جَوهرةٍ صافيةٍ.

والطَّريقةُ الثانية: طريقةُ التَّشبيهِ المفصَّلِ؛ فقيل: المِشكاةُ صَدرُ المؤمنِ، والزُّجاجةُ قلبُه، وشَبَّه قلبَه بالزُّجاجةِ؛ لرِقَّتِها وصَفائِها وصَلابتِها، وكذلك قلبُ المؤمنِ فإنَّه قد جمَع الأوصافَ الثلاثةَ؛ فهو يَرحمُ ويُحسنُ ويتحنَّنُ ويُشفقُ على الخَلقِ برِقَّتِه. وبصَفائِه تَتجلَّى فيه صُوَرُ الحقائقِ والعُلومِ على ما هي عليه، ويُباعِدُ الكَدرَ والدَّرَنَ والوَسخَ بحسَبِ ما فيه مِن الصَّفاءِ، وبصَلابتِه يَشتدُّ في أمرِ الله تعالى، ويَتصلَّبُ في ذاتِ الله تعالى، ويُغلظُ على أعداءِ الله تعالى، ويَقومُ بالحقِّ لله تعالى. والمصباحُ هو نورُ الإيمانِ في قلبِه، والشجرةُ المباركةُ

(١) القَراحِ: أي: المَزْرَعةِ التي ليس فيها بِناءٌ ولا شَجَرٌ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٩٦).

هي شجرةُ الوحيِ المتضمِّنةُ للهُدَى ودِينِ الحقِّ، وهي مادَّةُ المِصباحِ التي يتَّقدُ منها. والنورُ على النورِ: نورُ الفِطرةِ الصَّحيحةِ والإدراكِ الصحيحِ، ونورُ الوحيِ والكِتابِ؛ فيَنضافُ أحدُ النُّورينِ إلى الآخَرِ فيَزدادُ العبدُ نورًا على نورٍ.

وقيل: هذا مَثَلٌ ضرَبَهُ اللهُ لنَبيِّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: المِشكاةُ: صدْرُه، والزُّجاجةُ: قلْبُه، والمِصباحُ فيه: النُّبوَّةُ. والمِصباحُ: ما في قلْبِه مِن الدِّينِ. وقيل: المِشكاةُ: جوفُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والزُّجاجةُ: قلْبُه، والمِصباحُ: النُّورُ الَّذي فيه.

وقيل: الشَّجرةُ المُبارَكةُ شَجرةُ الوَحيِ، ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾: تَكادُ حُجَّةُ القُرآنِ تتَّضِحُ وإنْ لم يُقْرَأْ. وقيل: هي شَجرةُ النُّبوَّةِ. وقيل وجْهٌ آخَرُ: وهو أنْ يُشبَّهَ القُرآنُ بالمِصباحِ على ما سبَقَ، ونفْسُه الزَّكيَّةُ الطَّاهرةُ صلواتُ اللهِ على صاحبِها بالشَّجرةِ؛ لكونِها ثابتةً مِن أرضِ الدِّينِ، مُتشعِّبةً فُروعُها إلى سماءِ الإيمانِ، مُتدلِّيةً أثمارُها إلى فضاءِ الإخلاصِ والإحسانِ؛ وذلك لاستقامتِها بمُقْتضَى قولِه تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]، غيرَ مائلةٍ إلى طرفَيِ الإفراطِ والتَّفريطِ. ويُشبَّهُ ما مُحِّضَ مِن تلك الثَّمراتِ بعدَ التَّصفيةِ التَّامَّةِ للتَّهيئةِ، وقَبولِ تلك الأنوارِ: بالزَّيتِ الصَّافي؛ لوُفورِ قوَّةِ استعدادِها للاستضاءةِ، وهي الدُّهنيَّةُ القابلةُ للاشتعالِ، ومِن ثَمَّ خُصَّتْ شجرةُ الزَّيتونِ؛ لأنَّ لُبَّ ثَمرتِها الزَّيتُ الَّذي تشتعِلُ به المصابيحُ، وخُصَّ هذا الدُّهنُ؛ لمزيدِ إشراقِه، مع قِلَّةِ الدُّخَانِ، يَكادُ زيتُ استِعدادِه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه -لصفائِه وذَكائِه- يُضِيءُ ولو لم يمَسَّهُ نُورُ القُرآنِ[1].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٥ - ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٩ - ٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٠٨- ٦٠٩).

- وأيضًا ذُكِرَ في معنَى هذا التَّمثيلِ وُجوهٌ أُخرَى؛ الأوَّلُ: أنَّه تمثيلٌ للهُدى الَّذي دلَّتْ عليه الآياتُ المُبيِّناتُ في جَلاءِ مَدْلولِها، وظُهورِ ما تضمَّنَه مِن الهُدى بالمشكاةِ المنعوتةِ. الثاني: أنَّه تَشبيهٌ للهُدى مِن حيثُ إنَّه محفوفٌ بظُلماتِ أوهامِ النَّاسِ وخيالاتِهم بالمصباحِ، وإنَّما ولِيَ الكافُ المِشكاةَ؛ لاشتِمالِها عليه، وتَشبيهُه به أوفَقُ مِن تَشبيهِه بالشَّمسِ. وقيل غيرُ ذلك[1].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿نُورِهِۦ﴾ عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ، أي: مَثَلُ نورِ اللهِ سُبحانَه، أي: مثَلُه في إنارةِ عُقولِ المُهتدينَ؛ فالكلامُ تَمثيلٌ لهيئةِ إرشادِ اللهِ المؤمنينَ بهَيئةِ المِصباحِ الَّذي حفَّتْ به وسائلُ قوَّةِ الإشراقِ، فهو نورُ اللهِ لا مَحالةَ، وإنَّما أُوثِرَ تَشبيهُه بالمِصباحِ الموصوفِ بما معه مِن الصِّفاتِ دونَ أنْ يُشبَّهَ نُورُه بطُلوعِ الشَّمسِ بعدَ ظُلمةِ اللَّيلِ؛ لقصْدِ إكمالِ مُشابَهةِ الهيئةِ المُشبَّهِ بها بأنَّها حالةُ ظُهورِ نُورٍ يَبْدو في خِلالِ ظُلمةٍ، فتَنقشِعُ به تلك الظُّلمةُ في مِساحةٍ يُرادُ تَنويرُها. ودونَ أنْ يُشبَّهَ بهَيئةِ بزُوغِ القمَرِ في خِلالِ ظُلمةِ الأُفقِ؛ لقصْدِ إكمالِ المُشابَهةِ؛ لأنَّ القمَرَ يَبْدو ويَغيبُ في بعضِ اللَّيلةِ، بخِلافِ المصباحِ الموصوفِ، وبعْدَ هذا: فلأنَّ المقصودَ ذِكْرُ ما حفَّ بالمِصباحِ مِن الأدواتِ؛ لِيَتسنَّى كَمالُ التَّمثيلِ بقَبولِه تَفريقَ التَّشبيهاتِ، وذلك لا يتأتَّى في القمَرِ، والمثَلُ: تَشبيهُ حالٍ بحالٍ؛ فمعنى ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾: شَبيهُ هَدْيِه حالُ مِشكاةٍ... إلى آخرِه. فالمُشبَّهُ به هو المِشكاةُ وما يتْبَعُها[2].

- وإنَّما قدَّمَ المِشكاةَ في الذِّكرِ؛ لأنَّ المُشبَّهَ به هو مَجموعُ الهيئةِ؛ فاللَّفظُ الدَّالُّ على المُشبَّهِ به هو مَجموعُ المُركَّبِ المُبْتَدِئِ بقولِه: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾، والمُنْتهي بقولِه: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾؛ فلذلك كان دُخولُ كافِ الشَّبهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٨- ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٤، ٢٣٥).

على كلمةِ (مِشكاة) دونَ لفْظِ (مِصباح) لا يَقْتضي أصالةَ لفْظِ (مِشكاةٍ) في الهيئةِ المُشبَّهِ بها دونَ لفْظِ (مِصباح)، بلْ مُوجبُ هذا التَّرتيبِ مُراعاةُ التَّرتيبِ الذِّهنيِّ في تصوُّرِ هذه الهيئةِ المُتخيَّلةِ حين يلمَحُ النَّاظِرُ إلى انبثاقِ النُّورِ، ثمَّ ينظُرُ إلى مَصدرِه، فيَرى مِشكاةً، ثمَّ يَبْدو له مِصباحٌ في زُجاجةٍ[1].

- وهذا تَشبيهٌ بالِغٌ كَمالَ الإفصاحِ، بحيثُ هو مع أنَّه تَشبيهُ هَيئةٍ بهيئةٍ هو أيضًا مُفرَّقُ التَّشبيهاتِ لأجزاءِ المُركَّبِ المُشبَّهِ مع أجزاءِ المُركَّبِ المُشبَّهِ به؛ وذلك أقْصَى كَمالِ التَّشبيهِ التَّمثيليِّ في صناعةِ البلاغةِ، ولَمَّا كان المقصودُ تَشبيهَ الهَيئةِ بالهيئةِ والمُركَّبِ بالمُركَّبِ، حسُنَ دُخولُ حرفِ التَّشبيهِ على بَعضِ ما يدُلُّ على بعضِ المُركَّبِ؛ ليَكونَ قَرينةً على أنَّ المُرادَ التَّشبيهُ المُركَّبُ، ولو كان المُرادُ تَشبيهَ الهُدَى فقطْ، لَقال: نُورُه كمِصباحٍ في مِشكاةٍ... إلى آخرِه؛ فالنُّورُ هو مَعرفةُ الحقِّ على ما هو عليه، المُكتسَبةُ مِن وحْيِ اللهِ، وهو القُرآنُ. شُبِّهَ بالمصباحِ المحفوفِ بكُلِّ ما يَزيدُ نُورَه انتشارًا وإشراقًا[2].

- وفي إعادةِ المصباحِ والزُّجاجةِ مُعرَّفينِ إثْرَ سبْقِهما مُنكَّرينِ، والإخبارِ عنهما بما بعْدَهما مع انتِظامِ الكلامِ بأنْ يُقالَ: كمشكاةٍ فيها مِصباحٌ في زُجاجةٍ، كأنَّها كَوكبٌ دُرِّيٌّ: مِن تفخيمِ شأْنِهما، ورفعِ مكانِهما؛ بالتَّفسيرِ إثْرَ الإبهامِ، والتَّفصيلِ بعْدَ الإجمالِ، وبإثباتِ ما بعْدَهما لهما بطريقِ الإخبارِ المُنْبِئِ عن القصْدِ الأصليِّ، دونَ الوَصفِ المَبْنيِّ على الإشارةِ إلى الثُّبوتِ في الجُملةِ- ما لا يَخْفى[3].

- وإعادةُ لفْظِ المِصباحِ دونَ أنْ يُقالَ: فيها مِصباحٌ في زُجاجةٍ، كما قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٦).

﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّنويهِ بذِكْرِ المِصباحِ؛ لأنَّه أعظَمُ أركانِ هذا التَّمثيلِ، وكذلك إعادةُ لَفْظِ الزُّجاجةِ في قولِه: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾؛ لأنَّه مِن أعظَمِ أركانِ التَّمثيلِ. ويُسمَّى مِثْلُ هذه الإعادةِ تَشابُهَ الأطرافِ في فنِّ البديعِ[1].

- قَولُه: ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ إنَّما سلَكَ طريقَ التَّشبيهِ في التَّعبيرِ عن شدَّةِ صَفاءِ الزُّجاجةِ؛ لأنَّه أوجَزُ لفْظًا، وأبيَنُ وصْفًا. وهذا تَشبيهُ مُفردٍ في أثناءِ التَّمثيلِ، ولا حَظَّ له في التَّمثيلِ[2].

- وفي صِيغةِ المُضارعِ على قِراءةِ الأكثرينَ -﴿يُوقَدُ﴾ و(تَوَقَّدُ)- إفادةُ تجدُّدِ إيقادِه، أي: لا يَذْوِي ولا يُطفَأُ. وعلى القِراءةِ بصِيغةِ المُضِيِّ -(تَوَقَّدَ)- إفادةُ أنَّ وَقودَه ثبَتَ وتحقَّقَ[3].

- وذُكِرَتِ الشَّجرةُ باسمِ جِنْسِها، ثمَّ أُبْدِلَ منه ﴿زَيْتُونَةٍ﴾ وهو اسمُ نَوعِها؛ للإبهامِ الَّذي يَعقُبُه التَّفصيلُ؛ اهتِمامًا بتقرُّرِ ذلك في الذِّهنِ، وتَفخيمًا لشأْنِها[4].

- ووَصَفَ الزَّيتونةَ بالمُبارَكةِ؛ لِمَا فيها مِن كثرةِ النَّفعِ؛ فإنَّها يُنتفَعُ بحَبِّها أكلًا، وبزَيتِها كذلك، ويُستنارُ بزَيتِها، ويدخُلُ في أدويةٍ وإصلاحِ أُمورٍ كثيرةٍ، ويُنتفَعُ بحطَبِها، وهو أحسَنُ حطَبٍ؛ لأنَّ فيه المادَّةَ الدُّهنيَّةَ، قال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٦).

تَشابُهِ الأطرافِ: وهو أنْ يَنظُرَ المُتكلِّمُ إلى لفظةٍ وقَعَتْ في آخرِ جُملةٍ مِن الفقرةِ في النَّثرِ، أو آخرِ لفْظةٍ وقعَتْ في آخرِ المِصراعِ الأوَّلِ في النَّظمِ؛ فيَبْتدِئُ بها. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٠).

﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ويُنتفَعُ بجَودةِ هواءِ غاباتِها. وقد قِيل: إنَّ بَرَكتَها؛ لأنَّها مِن شجَرِ بلادِ الشَّامِ، والشَّامُ بَلدٌ مُبارَكٌ مِن عهْدِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ قال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]، يُرِيد أرضَ الشَّامِ. ووَصْفُ الزَّيتونةِ بـ ﴿مُّبَٰرَكَةٖ﴾ على هذا وصْفٌ كاشفٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ وصْفًا مُخصِّصًا لـ ﴿زَيۡتُونَةٖ﴾، أي: شَجرةٍ ذاتِ بَرَكةٍ، أي: نَماءٍ ووَفرةِ ثمَرٍ مِن بيْنِ شجَرِ الزَّيتونِ؛ فيكونَ ذِكْرُ هذا الوصْفِ لتَحسينِ المُشبَّهِ به؛ ليَنجَرَّ منه تَحسينٌ للمُشبَّهِ[1].

- وفي قولِه: ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ وصْفٌ لـ ﴿زَيۡتُونَةٖ﴾، دخَلَ حرْفُ (لا) النَّافيةِ في كِلَا الوصفينِ، فصار بمَنزلةِ حَرفِ هِجاءٍ مِن الكلمةِ بعْدَه؛ لإفادةِ الاتِّصافِ بنفْيِ كلِّ وصْفٍ، وعُطِفَ على كلِّ وصْفٍ ضِدُّه؛ لإرادةِ الاتِّصافِ بوصْفٍ وسَطٍ بيْن الوصفَينِ المَنْفيَّينِ؛ لأنَّ الوصفَينِ ضِدَّانِ، على طريقةِ قولِهم: الرُّمَّانُ حُلوٌ حامضٌ. والعطْفُ هنا مِن عطْفِ الصِّفاتِ؛ كقولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣]، والمعنى: أنَّها زَيتونةٌ جِهتُها بيْن جِهةِ الشَّرقِ وجِهةِ الغرْبِ، فنَفى عنها أنْ تكونَ شرقيَّةً وأنْ تكونَ غربيَّةً، وهذا الاستِعمالُ مِن قَبيلِ الكِنايةِ؛ لأنَّ المقصودَ لازمُ المعنى لا صريحُه. وأمَّا إذا لم يكُنِ الأمرانِ المَنفيَّانِ مُتضادَّينِ، فإنَّ نَفْيَهما لا يَقْتضي أكثَرَ مِن نفْيِ وُقوعِهما؛ كقولِه تعالى: ﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ * لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤]. وهذا الاستعمالُ يكونُ في عطْفِ نفْيِ الأسماءِ[2].

- قولُه: ﴿وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞ﴾ مُبالَغةٌ في صَفاءِ الزَّيتِ، وأنَّه -لإشراقِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٤٠، ٢٤١).

وجَودتِه- يكادُ يُضِيءُ مِن غيرِ نارٍ[١].

- وكلمةُ (لو) لبَيانِ تحقُّقِ ما يُفِيدُه الكلامُ السَّابقُ مِن الحُكْمِ المُوجَبِ على كلِّ حالٍ مَفروضٍ مِن الأحوالِ المُقارِنةِ له إجمالًا بإدخالِها على أبعَدِها منه؛ إمَّا لوُجودِ المانعِ كما في قولِه تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، وإمَّا لعدَمِ الشَّرطِ كما في هذه الآيةِ الكريمةِ؛ لِيَظهرَ بثُبوتِه أو انتفائِه معه ثُبوتُه أو انتفاؤُه مع عداهُ مِن الأحوالِ بطريقِ الأولويَّةِ؛ لِمَا أنَّ الشَّيءَ متى تحقَّقَ مع ما يُنافِيه مِن وُجودِ المانعِ أو عدَمِ الشَّرطِ، فلَأنْ يتحقَّقَ بدونِ ذلك أَولى. وتَقديرُ الآيةِ الكريمةِ: يَكادُ زيتُها يُضِيءُ لو مسَّتْه نارٌ ولو لم تمَسَّهُ نارٌ، أي: يُضِيءُ كائنًا على كلِّ حالٍ مِن وُجودِ الشَّرطِ وعدَمِه، وقد حُذِفَتِ الجُملةُ الأُولى حسْبَما هو المُطَّردُ في البابِ؛ لدَلالةِ الثَّانيةِ عليها دَلالةً واضحةً[٢].

- قَولُه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ هو صِفةٌ له، مُؤكِّدةٌ لِما أفادَهُ التَّنكيرُ مِن الفَخامةِ، والجُملةُ فَذْلكةٌ للتَّمثيلِ، وتَصريحٌ بما حصَلَ منه، وتَمهيدٌ لِمَا يَعقُبُه، أي: ذلك النُّورُ الَّذي عُبِّرَ به عن القُرآنِ[٣].

- وفي تَنكيرِ قولِه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ ضَربٌ مِن الفَخامةِ والمُبالَغةِ[٤].

- جُملةُ: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ مُستأنَفةٌ، إشارةً إلى أنَّ المقصودَ مِن مجموعِ أجزاءِ المُركَّبِ التَّمثيليِّ هنا هو البُلوغُ إلى إيضاحِ أنَّ الهيئةَ المُشبَّهَ بها قد بلغَتْ حدَّ المُضاعَفةِ لوسائلِ الإنارةِ؛ إذ تظاهَرَتْ فيها المِشكاةُ والمِصباحُ والزُّجاجُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٦، ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١١).

الخالصُ والزَّيتُ الصَّافي؛ فالمِصباحُ إذا كان في مِشكاةٍ، كان شُعاعُه مُنحصِرًا فيها غيرَ مُنتشِرٍ، فكان أشدَّ إضاءةً لها ممَّا لو كان في بَيتٍ، وإذا كان مَوضوعًا في زُجاجةٍ صافيةٍ تضاعَفَ نُورُه، وإذا كان زَيتُه نقيًّا صافيًا كان أشدَّ إسراجًا؛ فحصَلَ تَمثيلُ حالِ الدِّينِ أو الكتابِ المُنزَّلِ مِن اللهِ في بَيانِه وسُرعةِ فُشوِّه في النَّاسِ، بحالِ انبثاقِ نُورِ المِصباحِ وانتشارِه فيما حفَّ به مِن أسبابِ قوَّةِ شُعاعِه وانتشارِه في الجهةِ المُضاءةِ به[1].

- قَولُه: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيه إظهارُ كَلمةِ النُّورِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ تَقريرِه، وتأكيدِ فَخامتِه الذَّاتيَّةِ بفَخامَتِه الإضافيَّةِ النَّاشئةِ مِن إضافتِه إلى ضَميرِه عَزَّ وجَلَّ[2].

- قَولُه: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ إظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإيذانِ باختِلافِ حالِ ما أُسنِدَ إليه تعالى مِن الهدايةِ الخاصَّةِ، وضَرْبِ الأمثالِ الَّذي هو مِن قَبيلِ الهدايةِ العامَّةِ، كما يُفصِحُ عنه تَعليقُ الأُولى بمَن يشاءُ، والثَّانيةِ بالنَّاسِ كافَّةً[3].

- وفي قولِه: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ الإشعارُ بأنَّ هذه تَقريباتٌ وتلْويحاتٌ بحسَبِ الاستِعداداتِ، وأنَّ بَيانَ نُورِه الحقيقيِّ لا يسَعُه نِطاقُ التَّحريرِ، لكنَّ اللهَ بعِلْمِه الواسعِ يَعلَمُ حَقيقتَه، واللهُ بكلِّ شيءٍ عليمٌ[4].

- قَولُه: ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه الجُملُ الثَّلاثُ مُعترضةٌ، أو تَذييلٌ للتَّمثيلِ، والمعنى: دفْعُ التَّعجُّبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٧٧، ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٩).

مِن عدَمِ اهتِداءِ كثيرٍ مِن النَّاسِ بالنُّورِ الَّذي أنزلَهُ اللهُ، وهو القُرآنُ والإسلامُ؛ فإنَّ اللهَ إذا لم يشَأْ هدْيَ أحَدٍ خلَقَه وجبَلَه على العِنادِ والكُفرِ، وأنَّ اللهَ يَضرِبُ الأمثالَ للنَّاسِ مَرْجُوًّا منهم التَّذكُّرُ بها: فمِنْهم مَن يَعتبِرُ بها فيَهْتدي، ومنْهم مَن يُعرِضُ فيَستمِرُّ على ضَلالِه، ولكنْ شأْنُ تلك الأمثالِ أنْ يَهتدِيَ بها غيرُ مَن طُبِعَ على قلْبِه(١).

- قَولُه: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ ...﴾ جاء مفصولًا للاستِئنافِ، وبَيانِ أنَّ اللهَ يختَصُّ بتلك الهدايةِ مَن يشاءُ، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ﴾ [النور: ٣٩]، ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ﴾ [النور: ٤٠] جاء مُقابِلًا لهذه الآياتِ، والمعنى: أنَّ أعمالَهم الصَّالحةَ الَّتي لم تكُنْ مُقتبسةً مِن مِشكاةِ النُّبوَّةِ ضائعةٌ؛ ألَا ترى كيف أوقَعَ قولَه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ الكافرَ كان فاقِدَ ذلك النُّورِ عند عمَلِه؟ وقولُه: ﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ مُقابِلٌ لقولِه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾؛ ولهذا ختَمَها بقولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. وقيل: إنَّه تعالى لمَّا وصَفَ هِدايةَ المؤمنِ بأنَّها في نِهايةٍ مِن الجَلاءِ والظُّهورِ، عقَّبَها بأنْ قال: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، ولمَّا وصَفَ ضَلالةَ الكافرِ بأنَّها في نِهايةِ الظُّلمةِ، عقَّبَها بقولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]؛ مُظهِرًا أنَّ المُرادَ بالنُّورِ: الهدايةُ بإنزالِ الكُتبِ وإرسالِ الرُّسلِ، شبَّهَها في ظُهورِها في نفْسِها والبَيانِ والجَلاءِ، وفي كَونِها مُبيِّنًا لغيرِها ممَّا يُناطُ به أمرُ الدِّينِ بالنُّورِ؛ لأنَّه ظاهرٌ في نفْسِه، مُظهِرٌ لغيرِه(٢).

- قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ لمَضمونِ الجُملتينِ قبْلَها، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٩٢).

لا يَعزُبُ عن عِلْمِه شَيءٌ، ومِن ذلك عِلْمُ مَن هو قابِلٌ للهُدى، ومَن هو مُصِرٌّ على غيِّه. وهذا تَعريضٌ بالوعدِ للأوَّلينَ، والوعيدِ للآخِرينَ[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ إظهارُ الاسمِ الجَليلِ ﴿وَٱللَّهُ﴾؛ لتأكيدِ استِقلالِ الجُملةِ، والإشعارِ بعلَّةِ الحُكْمِ وبما ذُكِرَ مِن اختلافِ حالِ المحكومِ به ذاتًا وتعلُّقًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨).

## الآيات (٢٦-٢٨)

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يَدلُّ على زمانٍ[1].

﴿وَٱلْآصَالِ﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ وَقتَ اصفِرارِ الشَّمسِ في آخرِ المساءِ، وأصلُ (أصل): يَدلُّ على زمانٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله سبحانَه أهمَّ أماكنِ هذا النورِ، ومَن ينتفعُ به، فيقولُ تعالى: في مَساجِدَ أَذِنَ سبحانَه أن تُبنى وتُشادَ، وتُعظَّمَ وتُطهَّرَ، ويُذكَرَ فيها اسمُ الله، يُسبِّحُ للهِ فيها بإخلاصٍ في أوَّلِ النَّهارِ وفي آخِرِه- رجالٌ لا تُلهيهم تِجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكرِ رَبِّهم، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ لِمُستحقِّيها، يخافونَ يومَ القيامةِ الذي تَضْطَرِبُ مِن شِدَّةِ هَولِه وفَزَعِه قلوبُ النَّاسِ وأبصارُهم؛ ليُكافِئَهم اللهُ على أعمالِهم في الدُّنيا بأحسَنِ ما عَمِلوا، ويَزيدَهم مِن فَضلِه جزاءً عليها، واللهُ يرزُقُ مَن يشاءُ بغيرِ حِسابٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧٦).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ضَرَب اللهُ المَثَلَ لهذا النُّورِ، جَعَل ظَرْفَه أحسَنَ البِقاعِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان نورُ الإيمانِ والقُرآنِ أكثَرُ وقوعِ أسبابِه في المساجِدِ، ذكَرَها اللهُ تعالى مُنَوِّهًا بها، فقال تعالى[2]:

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾.

أي: في مَساجِدَ[3] أمرَ اللهُ أن تُرفَعَ حِسًّا في البناءِ، وتُرفَعَ معنًى بتَعظيمِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٥٦٨).

(٣) قال الرسعني: (قولُه تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ ... قال ابنُ عبَّاسٍ وأكثرُ المفسِّرينَ: يعني: المساجدَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٥٨). ونسَبَه الواحديُّ أيضًا لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢٨٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس، وسالم بن عمر، وعِكْرِمةُ في رواية عنه، وأبو صالح، ومجاهد في رواية عنه، والضحَّاكُ، والحسن في رواية عنه، ونافع بن جُبَير، وأبو بكر ابن سليمان بن أبي حَثْمَةَ، وسفيان بن حسين، وقتادة، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٠٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٠٢).

وقال الشوكاني: (قَولُه: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾ بمَ هو مُتعَلِّقٌ؟ فقيل: مُتعَلِّقٌ بما قَبْلَه، أي: كمِشْكاةٍ في بَعضِ بُيوتِ اللهِ، وهي المساجِدُ، كأنَّه قيل: مَثَلُ نُورِه كما ترى في المَسجِدِ نُورَ المِشْكاةِ التي من صِفَتِها كَيْتَ وكَيْتَ. وقيل: مُتعَلِّقٌ بمِصْباح. وقال ابنُ الأنباري: سمِعتُ أبا العبَّاسِ يقولُ: هو حالٌ للمِصباحِ والزُّجاجةِ والكَوكَبِ، كأنَّه قيل: وهي في بُيوتٍ. وقيل: مُتعَلِّقٌ بـ﴿يُوقَدُ﴾، أي: يُوقَدُ في بُيوتٍ. وقد قيل: متعَلِّقٌ بما بعْدَه، وهو: ﴿يُسَبِّحُ﴾، أي: يُسَبِّحُ له رِجالٌ في بُيوتٍ، وعلى هذا يكونُ قَولُه: ﴿فِيهَا﴾ تكريرًا، كقَولِك: زيدٌ في الدَّارِ جالِسٌ فيها. وقيل: إنَّه مُنفَصِلٌ عمَّا قَبْلَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠). =

وتَطهيرِها وتَنزيهِها عن كلِّ ما لا يَليقُ بها؛ مِن الرَّوائِحِ الكريهةِ، والأقوالِ السَّيِّئةِ، وغيرِ ذلك[1].

---

= وممَّن اختار أنَّ الجارَّ والمجرورَ مُتعَلِّقانِ بمِشكاةٍ: الزجَّاجُ، والزمخشري، والغزنوي، والبقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٢)، ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٠٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٧).

وممَّن اختار أن الجارَّ والمجرورَ ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ متعلِّقانِ بـ (مصباح) المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾، أي: ذلك المِصباحُ في بُيوتٍ أذِنَ اللهُ أن تُرفَعَ: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٠٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٧).

قال الشنقيطيُّ بعدَ أن ذكَر هذَينِ القولينِ السَّابِقينِ: (وكِلاهما مُتقاربانِ، والمرادُ كينونةُ هذا النُّورِ العظيمِ في أعظَمِ المواضعِ المناسِبةِ له، وهي المساجدُ؛ لأنَّها بُنِيت لهذا النُّورِ خاصَّةً). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٤١).

وممَّن اختار أنَّ قَولَه: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ متعلِّقٌ بقولِه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا ﴾ والتَّقديرُ: يُسَبِّحُ للهِ رِجالٌ في بُيوتٍ: جلال الدين المحلِّي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥١).

قال الواحدي: (الاختيارُ ألَّا تُجعَلَ هذه الآيةُ مُتَّصِلةً بما قَبلَها؛ لأنَّ الآيةَ الأُولى في ضَربِ المثَلِ لنُورِ المُؤمِنِ بالمِشْكاةِ التي فيها مِصباحٌ يُزهِرُ بزَيتٍ مُضيءٍ، ولا فائِدةَ في وَصفِ المِصْباحِ بكَونِه في بُيوتٍ أو في غَيرِها، ولا تأكيدَ لِضَوئِها بأن تُوصَفَ أنَّها في بُيوتٍ يُذكَرُ فيها اسمُ اللهِ، وأيضًا فإنَّه وَحَّدَ المِشْكاةَ وجَمَع البُيوتَ، ولا تكونُ مِشكاةٌ في بُيوتٍ؛ فإذَنِ الأَوْلى أن يقالَ: قَولُه: ﴿ فِي بُيُوتٍ ﴾ ابتِداءُ كَلامٍ في وَصفِ مَساجِدِ المُؤمِنينَ الذين يَذكُرونَ اللهَ فيها ويَعبُدونَه ويُصَلُّونَ له). ((البسيط)) (١٦/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

عن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن بنى مَسجِدًا -قال بُكَيرٌ[١]: حَسِبتُ أنَّه قال: يَبتغي به وجْهَ اللهِ- بنى الله له مِثلَه في الجنَّةِ))[٢].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ هذه المساجِدَ لا تصلُحُ لشَيءٍ مِن هذا البَولِ ولا القَذَرِ، إنَّما هي لذِكرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، والصَّلاةِ، وقراءةِ القرآنِ)) أو كما قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَمِعَ رجُلًا يَنشُدُ ضالَّةً[٤] في المسجِدِ، فلْيَقُلْ: لا ردَّها الله عليك؛ فإنَّ المساجِدَ لم تُبْنَ لهذا))[٥].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((من أكَلَ البصَلَ والثُّومَ والكُرَّاثَ فلا يقرَبَنَّ مَسجِدَنا؛ فإنَّ الملائكةَ تتأذَّى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدَمَ))[٦].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لِيَلِني منكم أُولو الأحلامِ والنُّهى، ثمَّ الذين يَلونَهم -ثلاثًا-، وإيَّاكم

---

(١) بكيرُ بنُ عبد الله الاشجُّ، وهو أحدُ رواةِ الحديثِ. ينظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٤/ ٢١١).

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٠)، ومسلم (٥٣٣).

(٣) رواه مسلم (٢٨٥).

(٤) يَنشُدُ ضالَّةً: أي: يَطلُبُها برَفعِ الصَّوتِ ويَسألُ عنها، والضَّالَّةُ: الحَيوانُ الضَّائِعُ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٢/ ٤١٣).

(٥) رواه مسلم (٥٦٨).

(٦) رواه البخاري (٨٥٤)، ومسلم (٥٦٨) واللفظ له.

وهَيْشاتِ الأسواقِ[١]))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنَّه نهى عن تَناشُدِ الأشعارِ في المسجِدِ، وعن البَيعِ والاشتِراءِ فيه، وأن يتحَلَّقَ[٣] النَّاسُ فيه يومَ الجمُعةِ قبْلَ الصَّلاةِ))[٤].

﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾.

أي: وأذِنَ اللهُ لعِبادِه أن يَذْكُروا في المساجِدِ اسمَه وحْدَه لا شريكَ له[٥].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

---

(١) هَيشاتِ الأسواقِ: أي: اختِلاطَها، والمُنازَعةَ والخُصوماتِ، وارتِفاعَ الأصواتِ، واللَّغَطَ والفِتَنَ التي فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ١٥٦).

(٢) رواه مسلم (٤٣٢).

(٣) يتحَلَّقَ النَّاسُ: أي: يَجلِسوا على هَيئةِ الحَلْقةِ، يُقالُ: تحَلَّقَ القَومُ: إذا جَلَسوا حَلْقةً حَلْقةً. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦١٥).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٢٢) واللَّفظُ له، والنَّسائي (٧١٥)، وابن ماجه (٧٤٩)، وأحمد (٦٦٧٦). حَسَّنه الترمذي، وصَحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (١/ ٣٥٤)، وحَسَّنه النووي في ((المجموع)) (٢/ ١٧٧)، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٢٩٧)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٢)، وجوَّد أسانيدَه ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (١٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٦).

قال ابن عثيمين: (المرادُ أنَّ اللهَ يُذكَرُ بأسمائِه؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ الاسمُ ذُكِرَ المُسمَّى، لكِنْ بأيِّ شيءٍ يُذكَرُ؟ بالقراءةِ والتَّسبيحِ...، المهِمُّ أن يُذكَرَ بالثَّناءِ والتَّمجيدِ، وهذا يشمَلُ الصَّلاةَ وغيرَ الصَّلاةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥٣).

وقال الشوكاني: (﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ يُتْلَى فيها كِتابُه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤).

وقال ابن عطية: (وذكرُ اسْمِه تعالى، هو بالصلاةِ والعبادةِ قولًا وفعلًا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٦).

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما اجتمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِن بُيوتِ اللهِ، يتلُونَ كِتابَ الله، ويَتدارَسونَه بيْنهم، إلَّا نزلتْ عليهمُ السَّكينةُ، وغَشِيَتْهمُ الرَّحمةُ، وحفَّتْهمُ الملائِكةُ، وذكَرَهمُ اللهُ فيمَن عِندَه))(١).

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾.

أي: يُسبِّحُ للهِ بإخلاصٍ في المساجِدِ في أوَّلِ النَّهارِ وفي آخِرِه(٢).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣١٩، ٣٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال ابن الجوزي: (﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ فِيها قولانِ:

أحَدُهما: أنَّه الصَّلاةُ، ثمَّ في صلاةِ الغُدُوِّ قَولانِ: أحَدُهما: أنَّها صلاةُ الفَجرِ. رواه ابنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ. والثاني: صلاةُ الضُّحى، روى ابنُ أبي مُلَيكة عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: إنَّ صلاةَ الضُّحى لَفِي كِتابِ اللهِ، وما يَغوصُ عليها إلَّا غوَّاصٌ، ثمَّ قرأ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾. وفي صلاةِ الآصالِ قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّها صَلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ والمَغرِبِ والعِشاءِ، قاله ابنُ السَّائبِ. والثَّاني: صلاةُ العَصرِ. قاله أبو سليمانَ الدمشقيُّ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّه التَّسبيحُ المعروفُ. ذكره بعضُ المفسِّرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ: الصَّلاةُ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والرسعني، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٨).

وعزا الثَّعلبيُّ والبَغَويُّ إلى أهلِ التَّفسيرِ القَولَ بأنَّ المرادَ الصَّلواتُ المَفروضةُ، وأنَّ التي تُؤدَّى بالغَداةِ صَلاةُ الصُّبحِ، والتي تُؤدَّى بالآصالِ صَلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ والعِشاءَينِ، وعزاه =

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

وعن عُمارةَ بنِ رُؤَيْبةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لن يَلِجَ النَّارَ أحَدٌ صلَّى قبلَ طلوعِ الشَّمسِ وقبلَ غُروبِها)) يعني: الفجرَ والعَصرَ(١).

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾.

---

= القرطبيُّ والشوكانيُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١).

وقيل: الغُدُوُّ: صلاةُ الصُّبحِ، والآصالُ: الظُّهرُ والعَصرُ. وممَّن اختاره: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٣٧).

وقيل: المرادُ: صلاةُ الصُّبحِ وصلاةُ العَصرِ. وممَّن اختاره: مكِّيٌّ، والسمعاني. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ: التَّنزيهُ: الشوكانيُّ، فقال: (قيل: المرادُ بالتَّسبيحِ هنا: معناه الحقيقيُّ، وهو تنزيهُ اللهِ سُبحانَه عمَّا لا يليقُ به في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، ويؤيِّدُ هذا ذِكرُ الصَّلاةِ والزَّكاةِ بَعْدَه، وهذا أرجَحُ ممَّا قَبْلَه؛ لكَونِه المعنى الحقيقيَّ، مع وجودِ دليلٍ يدُلُّ على خِلافِ ما ذهب إليه الأوَّلونَ، وهو ما ذكَرْناه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١).

وممَّن اختار الجَمْعَ بين المعنيَينِ السَّابِقَينِ: البِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥٣).

قال السعدي: (يدخُلُ في ذلك التَّسبيحُ في الصَّلاةِ وغَيرِها؛ ولهذا شُرِعت أذكارُ الصَّباحِ والمساءِ وأورادُهما عندَ الصَّباحِ والمساءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ أعمُّ مِن كَونِهم يُصَلُّون، بل هم يُسَبِّحون اللهَ بالصَّلاةِ وغَيرِها مِمَّا يكونُ به تنزيهُ اللهِ سُبحانه وتعالى). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥٣).

(١) رواه مسلم (٦٣٤).

﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: رِجالٌ لا تَشغَلُهم أيُّ تجارةٍ ولا أيُّ بيعٍ عن ذِكرِ اللهِ تعالى[1].

﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾.

أي: ولا تَشغَلُهمُ التِّجارةُ ولا البيعُ عن حُضورِ المساجِدِ لأداءِ الصَّلواتِ بحُدودِها في أوقاتِها، ولا عن أداءِ الزَّكاةِ لِمُستحِقِّيها في وقتِها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بذكرِ الله هنا: الأذانُ؛ لأنَّهم كانوا إذا سَمِعوا المؤذِّنَ تَرَكوا بيعَهم، وقاموا إلى الصَّلاةِ: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٣٨).

وقيل: المرادُ بذكرِ الله: حُضورُ المساجِدِ لإقامةِ الصَّلَواتِ. ومِمَّن اختاره: الواحديُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩).

واختار مقاتلُ بنُ سليمانَ والعليميُّ أنَّ المرادَ: الصَّلواتُ المفروضةُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٢).

وقيل: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ باللِّسانِ والقَلبِ. ومِمَّن اختاره: النَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩١).

وقال الشوكانيُّ: (ومعنى ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: هو ما تقَدَّمَ في قَولِه: ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾)، وذكَر في تفسيرِ هذه الآيةِ أنَّ المرادَ: يُتْلَى فيها كتابُه. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٣، ٣٢٤)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥١١٧، ٥١١٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى لإيتاءِ الزكاةِ: مكيُّ بن أبي طالب، والرازي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥١١٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢).

وقيل: معناها: طاعةُ الله تعالى، والإخلاصُ له. وممَّن رُوي عنه القولُ بذلك: ابنُ عباسٍ -رَضِيَ اللهُ عنهما- في إحدى الرِّوايتينِ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٤). =

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان تَركُ الدُّنيا شديدًا على أكثَرِ النُّفوسِ، وحُبُّ المكاسِبِ بأنواعِ التِّجاراتِ محبوبًا لها، ويشُقُّ عليها تَركُه في الغالبِ، وتتكَلَّفُ من تقديمِ حَقِّ الله على ذلك- ذكرَ ما يدعوها إلى ذلك ترغيبًا وترهيبًا، فقال[1]:

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

أي: يخافونَ يومَ القيامةِ الذي تتحَرَّكُ وتَضْطَرِبُ فيه قلوبُ النَّاسِ وأبصارُهم؛ مِن شِدَّةِ الأهوالِ والفَزَعِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ

---

= قال الرازي: (اختلفوا في الصَّلاةِ؛ فمنهم مَن قال: هي الفرائِضُ، ومنهم مَن أدخَلَ فيها النَّفلَ ...، والأوَّلُ أقرَبُ؛ لأنَّه إلى التَّعريفِ أقرَبُ، وكذلك القَولُ في الزَّكاةِ أنَّ المرادَ المفروضُ؛ لأنَّه المعروفُ في الشَّرعِ المُسمَّى بذلك، وقال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: المرادُ مِن الزَّكاةِ: طاعةُ اللهِ تعالى والإخلاصُ، وكذا في قَولِه: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مريم: ٥٥]، وقَولِه: ﴿مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [النور: ٢١]، وقَولِه: ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]، وهذا ضَعيفٌ؛ لِما تقَدَّم، ولأنَّه تعالى عَلَّق الزَّكاةَ بالإيتاءِ، وهذا لا يُحمَلُ إلَّا على ما يُعطى مِن حُقوقِ المالِ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٨).

وقيل: معنى تقَلُّبِ القُلوبِ: أنَّ النَّاسَ يومَ القيامةِ يَكونونَ بيْن الطَّمَعِ بالنَّجاةِ، والحَذَرِ مِنَ الهلاكِ، ومعنى تقَلُّبِ الأبصارِ: أنَّهم يَنظُرونَ إلى أيِّ ناحيةٍ يُؤخَذُ بهم: أذاتَ اليمينِ أمْ ذاتَ الشِّمالِ؟ ومِن أين يُؤتَونَ كُتُبَهم: أمِنْ قِبَلِ الأيمانِ أم مِن قِبَلِ الشَّمائِلِ؟ ومِمَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٢).

مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧ - ١٠].

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أفعالَ هؤلاء الرِّجالِ التي أقبَلوا بها عليه، وأعرَضوا عمَّا عداه؛ بيَّنَ غايتَهم فيها، فقال تعالى[1]:

﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾.

أي: أنَّهم فَعَلوا ما فَعَلوا[2]؛كي يُثيبَهمُ اللهُ يومَ القيامةِ بأحسَنِ ما عَمِلوه في

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٨١).

(٢) قال أبو حيان: (اللامُ في ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ مُتعَلِّقةٌ بمحذوفٍ، أي: فعَلوا ذلك لِيَجزيَهم، ويجوزُ أن تتعلَّقَ بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾، وهو الظَّاهِرُ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠).

مِمَّن اختار في الجُملةِ القَولَ الأوَّلَ، أي: اشتَغَلوا بذِكرِ اللهِ، وإقامِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ؛ لِيَجزيَهم، أو فعلوا ذلك، أو يَفعَلون ما يَفعَلون مِن هذه القُرُباتِ؛ لِيَجزيَهم: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن عطية، والرازي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢).

ومِمَّن اختار القَولَ الثَّانيَ: أنَّها تتعلَّقُ بـ ﴿يُسَبِّحُ﴾: الواحديُّ، وابن الجوزي، وأبو حيان. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠).

وممَّن قال بأنَّ المعنى: يُسَبِّحونَ ويخافون؛ لِيَجزيَهم ثوابَهم: الزمخشريُّ، والنسفي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٨)، ((أضواء البيان)) =

الدُّنيا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

---

= للشنقيطي (٥/ ٥٤٩).

وقال ابنُ عاشور: (ويتعلَّقُ قَولُه: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ بـ﴿يَخَافُونَ﴾، أي: كان خَوفُهم سَبَبًا للجَزاءِ على أعمالِهم النَّاشِئةِ عن ذلك الخَوفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قيل: المرادُ بالأحسَنِ: جميعُ الحَسَناتِ وما عَمِلوا من الخيرِ، فهي موصوفةٌ في مُقابَلةِ الذُّنوبِ بأنَّها أحسَنُ، ولهم مَساوئُ فلا يَجزيهم بها. ومِمَّن اختار هذا القَولَ: مقاتل بن سليمان، والواحدي، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٢٩٩).

وقيل: المرادُ: أحسَن جزاءِ أعمالِهم حَسْبَما وعَدَهم مِن تضعيفِ ذلك إلى عَشَرةِ أمثالِه وإلى سبْعِ مئةِ ضِعفٍ . وممَّن قال بذلك: الزمخشريُّ، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٣٨).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾: أعمالُهم الحَسَنةُ الصَّالحةُ؛ لأنَّها أحسَنُ ما عَمِلوا؛ لأنَّهم يَعمَلونَ المباحاتِ وغيرَها، فالثَّوابُ لا يَكونُ إلَّا على العمَلِ الحسَنِ. وممَّن قال بذلك: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

وهذا على القَولِ بأنَّ المباحَ ليس مِن قِسمِ الحَسَنِ. واختار الشنقيطيُّ أنَّ الآيةَ تدُلُّ على أنَّ المباحَ مِن الحَسَنِ؛ وعليه فإنَّ أعمالَ الإنسانِ منها الحَسَنُ -وهو المباحُ- وهذا لا يُجازَى عليه، ومنها الأحسَنُ، وهو المندوبُ والواجِبُ، وهما المرادُ بقَولِه: ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾. يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤٦).

وقيل: يَجزيهم أحسَنَ وأفضَلَ مِن أعمالِهم، وهو الجنَّةُ. وقيل: يَجزيهم ويَغفِرُ لهم بأحسَنِ أعمالِهم، ويبقى سائِرُ أعمالِهم فَضْلًا. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥).

وقال سُبحانَه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: ويَزيدَهمُ اللهُ على ثوابِ أعمالِهم الصَّالحةِ فَوقَ ما يستَحِقُّونَه بأعمالِهم[1].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: واللهُ يتفضَّلُ على مَن يشاءُ، فيَرزُقُه أرزاقًا كثيرةً لا حدَّ لها ولا عَدَّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٩).

قال أبو السعود: (﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يتفضَّلَ عليهم بأشياءَ لم تُوعَدْ لهم بخصوصيَّاتِها أو بمقاديرِها، ولم تخطُرْ ببالِهم كيفيَّاتُها ولا كَمِّيَّاتُها، بل إنَّما وُعِدَت بطريقِ الإجمالِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٠).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ هذا زائِدٌ على ثوابِ العمَلِ، وذلك ما يَحصُلُ مِن زيادةِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وزيادةِ الرِّزقِ في الدُّنيا، وزيادةِ ما يُدَّخَرُ لهم عندَ الله في الجنَّةِ؛ كالنَّظَرِ إلى وَجهِ اللهِ سُبحانَه وتعالى). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٥)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٠).

مِمَّن اختار أنَّ المعنى: مِن غيرِ أن يُحاسِبَه على ما بَذَل له وأعطاه، فيَرزُقُه ولا يُحاسِبُه: ابنُ جرير، والسمرقندي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨١).

وقال مقاتل بن سليمان: (﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يقولُ اللهُ تعالى: ليس فوقي مَلِكٌ يُحاسِبني، أنا المَلِكُ أُعطي مَن شِئتُ بغيرِ حِسابٍ، لا أخافُ مِن أحدٍ يُحاسِبُني). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠١).

=

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ فيه دليلٌ على حَثِّ المسلمين أنْ يُصَلُّوا في المساجدِ[1]، وفيه استِحبابُ ذِكرِ الله فيها[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ وصْفُه تعالى لهؤلاء الرِّجالِ الذين يُسَبِّحون له بالغدُوِّ والآصالِ بكَونِهم لا تُلهيهم تِجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكرِ اللهِ، وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، على سبيلِ مَدحِهم والثَّناءِ

---

= وقال يحيى بن سلام: (قَولُه: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغيرِ أن يُحاسِبَ نفْسَه، أي: لا يَنقُصُ ما عندَ اللهِ كما يَنقُصُ ما في أيدي النَّاسِ). ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٣).

وقيل: هو كنايةٌ عن كثرةِ العَطاءِ وسَعتِه، فهو يُوسِّعُ كأنَّه لا يَحسِبُ ما يُنفِقُه ويُعطيه. ومِمَّن اختار هذا القَولَ في الجُملةِ: جلال الدين المحلي، والبِقاعي، والقاسمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٦٤).

وقال السمرقندي: (﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ... يقالُ: يَرزقُه رزقًا لا يُدرَكُ حِسابُه،... ويقال: بغيرِ حسابٍ، أي: مِن غيرِ حِسابٍ، أي: مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كان المعنى: رِزقًا يفوقُ الحَدَّ، ويفوتُ العَدَّ؛ عَبَّرَ عنه بقَولِه: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، فهو كنايةٌ عن السَّعةِ، ويجوزُ أن يكونَ مع السَّعةِ التَّوفيقُ، فيكونَ بِشارةً بنَفيِ الحِسابِ في الآخرةِ أيضًا أصلًا ورأسًا؛ لأنَّ ذلك المَرزوقَ لم يَعمَلْ ما فيه دَرَكٌ عليه، فلا يُحاسَبُ، أو يحاسَبُ ولا يُعاقَبُ؛ فيكونَ المرادُ بنَفيِ الحِسابِ نَفيَ عُسرِه وعِقابِه، ويجوزُ أن يُرادَ الرزقُ كَفافًا، وقد ورد أنَّه لا حِسابَ فيه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

عليهم- يدُلُّ على أنَّ تلك الصِّفاتِ لا يَنبغي التَّساهُلُ فيها بحالٍ؛ لأنَّ ثناءَ الله على المتَّصِفِ بها يدُلُّ على أنَّ مَن أخَلَّ بها يستحِقُّ الذَّمَّ الذي هو ضِدُّ الثَّناءِ، ويوضِّحُ ذلك أنَّ الله نهَى عن الإخلالِ بها نهيًا جازِمًا في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ [الجمعة: ٩]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ[١].

٣- قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ في تعقيبِ المَثَلِ بذكرِ كونِ المساجدِ ظرفًا لذلك النُّورِ -على أحدِ الأقوالِ-؛ تنبيهٌ على أنَّ صَقالةَ القَلبِ تكونُ بتزويدِه بالطَّاعةِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ فيه أنَّ التِّجارةَ لا تُنافي الصَّلاحَ؛ لأنَّ مَقصودَ الآيةِ أنَّهم يتعاطَونَها، ومع ذلك لا تُلهيهم عن الصَّلاةِ وحُضورِ الجماعةِ[٣]. فهؤلاء الرِّجالُ وإنِ اتَّجَروا وباعُوا واشتَرَوا، فإنَّ ذلك لا محذورَ فيه، لكِنَّه لا تُلهيهم تلك، بأن يقَدِّموها ويُؤثِروها على ذِكرِ اللهِ وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، بل جَعَلوا طاعةَ اللهِ وعِبادتَه غايةَ مُرادِهم، ونهايةَ مَقصدِهم، فما حالَ بيْنهم وبيْنها رَفَضوه[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ بيَّن سُبحانَه وتعالى أنَّ هؤلاء الرِّجالَ وإن تعَبَّدوا بذِكرِ اللهِ والطَّاعاتِ، فإنَّهم مع ذلك موصوفون

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

بالوجَلِ والخَوفِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ قولُه تعالى: ﴿أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ هذان مجموعُ أحكامِ المساجِدِ، فيدخُلُ في رَفعِها بناؤُها وكَنسُها وتنظيفُها مِن النَّجاسةِ والأذى، وصونُها مِن المجانينِ والصِّبيانِ الذين لا يتحَرَّزونَ عن النَّجاسةِ، وعن الكافِرِ، وأن تُصانَ عن اللَّغوِ فيها، ورَفعِ الأصواتِ بغيرِ ذِكرِ الله، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ يدخُلُ في ذلك الصَّلاةُ كُلُّها؛ فرضُها ونَفلُها، وقراءةُ القرآنِ، والتسبيحُ، والتهليلُ، وغيرُه من أنواعِ الذِّكرِ، وتعلُّمُ العِلمِ وتعليمُه، والمذاكرةُ فيها، والاعتكافُ، وغيرُ ذلك مِن العباداتِ التي تُفعَلُ في المساجِدِ؛ ولهذا كانت عمارةُ المساجِدِ على قِسمَينِ: عمارةِ بُنيانٍ وصيانةٍ لها، وعِمارةٍ بذكرِ اسمِ الله، مِن الصَّلاةِ وغَيرِها، وهذا أشرَفُ القِسمَينِ؛ ولهذا شُرِعَت الصَّلواتُ الخَمسُ والجُمُعةُ في المساجِدِ[٢].

٢- قولُه: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ فيه فضيلةُ وشَرَفُ المساجِدِ؛ لأنَّها مَحَلُّ ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ وتعظيمِه؛ فالمكانُ يَشرُفُ بشَرَفِ العَمَلِ فيه، كما أنَّ الزَّمانَ أيضًا يَشرُفُ بشَرَفِ العَمَلِ فيه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ أنَّ الأفضَلَ في الذِّكرِ أنْ يكونَ بالقلبِ واللِّسانِ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ أن يُذكَرَ فيها اسمُه إلَّا باللِّسانِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿رِجَالٌ﴾ أنَّ النِّساءَ لَسْنَ مكَلَّفاتٍ بصَلاةِ الجَماعةِ وزيارةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

المساجِدِ؛ لأنَّ اللهَ خَصَّ بها الرِّجالَ[١]، ومفهومُ المُخالَفةِ الذي دلَّتْ عليه هذه الآيةُ بيَّنَتْه الأحاديثُ الصَّحيحةُ، وهو أنَّ صَلاةَ المرأةِ في بَيتِها أفضلُ مِن صلاتِها في المَسجِدِ[٢]، وأنَّ النِّساءَ لَسْنَ كالرِّجالِ في حكمِ الخروجِ إلى المساجِدِ، وأنَّه يجوزُ لهنَّ الخروجُ إلى المساجِدِ بِشُروطٍ[٣].

٥- قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ هؤلاء الرجالُ لو كانوا لا يَعرِفونَ التِّجارةَ ولا يستطيعونَ التِّجارةَ، قُلْنا: إنَّ لجوءَهم إلى بيوتِ اللهِ مِن بابِ الضَّرورةِ -يعني: لأجْلِ أنْ يقضُوا الوقتَ عن أنفُسِهم، ويتسَلَّوا بذلك- لكنَّهم قومٌ لهم تِجارةٌ، فالصَّارِفُ عن ذِكْرِ اللهِ في المساجِدِ موجودٌ، وهو التِّجارةُ، لكنَّهم مع ذلك لا تُلهيهم، وكُلَّما قَوِيَ الصَّارِفُ ولم ينصَرِفِ الإنسانُ، فهو أكمَلُ ممَّن لا صارفَ له[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قَولُه: ﴿رِجَالٌ﴾

---

(١) قال الشنقيطي: (الحاصِلُ: أنَّ لَفظَ الرِّجالِ في الآيةِ وإن كان في الاصطِلاحِ لَقَبًا، فإنَّ ما يَشتَمِلُ عليه مِن أوصافِ الذُّكورةِ المُناسِبةِ للفَرقِ بينَ الذُّكورِ والإناثِ- يَقتضي اعتِبارَ مَفهومِ المُخالَفةِ في لَفظِ رِجالٍ، فهو في الحقيقةِ مَفهومُ صِفةٍ لا مَفهومُ لَقَبٍ؛ لأنَّ لَفظَ الرِّجالِ مُستَلزِمٌ لأوصافٍ صالحةٍ لإناطةِ الحُكمِ به، والفَرقُ في ذلك بين الرِّجالِ والنِّساءِ كما لا يخفى... [و] مَفهومُ الصِّفةِ مُعتَبَرٌ عند الجُمهورِ، خِلافًا لأبي حنيفةَ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٩).

ويُنظَرُ في أفضليَّةِ صَلاةِ المرأةِ في بَيتِها: ما أخرَجَه أبو داود (٥٦٧)، وأحمد (٢/ ٧٦) (٥٤٦٨) مِن حديثِ ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، وما أخرجه أبو داود (٥٧٠) من حديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٣٩).

ويُنظَرُ في شروطِ خُروجِ المرأةِ إلى المسجِدِ: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٧).

فيه إشعارٌ بهِمَمِهم السَّاميةِ، ونيَّاتِهم وعَزائِمِهم العاليةِ، التي بها صاروا عُمَّارًا للمَساجِدِ التي هي بُيوتُ اللهِ في أرضِه، ومواطِنُ عِبادتِه وشُكرِه، وتَوحيدِه وتَنزيهِه، كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣][1].

٧- إيرادُ قولِه: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ هاهنا وإنْ لم يكُنْ ممَّا يُفعَلُ في البُيوتِ؛ لكونِه قَرينةً لا تُفارِقُ إقامةَ الصَّلاةِ في عامَّةِ المواضعِ، مع ما فيه مِن التَّنبيهِ على أنَّ مَحاسنَ أعمالِهم غيرُ مُنْحصرةٍ فيما يقَعُ في المساجدِ، وكذلك قولُه تعالى: ﴿يَخَافُونَ﴾ إلخ؛ فليس خَوفُهم مَقصُورًا على كونِهم في المساجدِ[2].

٨- أنَّ مَن تَعَبَّدَ للهِ خَوفًا فهو محمودٌ؛ لقَولِه: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا﴾، وقد أثنى اللهُ على مَن تَعبَّدَ خوفًا منه مِن العذابِ، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]، وهنا قال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ﴾، وأثنى اللهُ تعالى على مَن تَعَبَّدَ طلبًا، قال تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي هذا ردٌّ على مَن ذَهَبَ مِن الصوفيَّةِ أو غيرِهم إلى أنَّ الأفضلَ في التَّعبُّدِ ألَّا يَقصِدَ الإنسانُ حظًّا لنَفْسِه؛ وإنما يَعْبُدُ اللهَ لذاتِه فقط، لا قصدًا لفضلِه، ولا حذرًا مِن عقابِه! وهذا نبيُّ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وهؤلاء أصحابُه -وهم أكملُ حالًا- قد ذَكَر اللهُ عنهم أنَّهم كانوا ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، وكذلك فإنَّ مَن يَعْبُدُ اللهَ سبحانَه لِينالَ فضْلَه وينجوَ مِن عقابِه، هو يريدُ الوصولَ إلى رِضوانِ اللهِ وإلى رؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، التي هي مِن جملةِ النَّعيمِ في الجنَّةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٦٨).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ ردٌّ على مَن يزعُمُ أنَّه لا ينبغي أنْ يعمَلَ الإنسانُ لأجلِ الجَزاءِ الذي ينالُه مِن اللهِ؛ لأنَّه يكونُ في زَعمِهم مِن بابِ المُتاجرةِ، بل يجِبُ أنْ يعمَلَ العمَلَ تعظيمًا وإجلالًا للهِ! فهذا يخالِفُ ثناءَ اللهِ تعالى ومدْحَه لِمَن عَمِلَ لأجلِ نَيلِ جزاءِ اللهِ[1].

١٠- أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، بل هو في الطَّاعاتِ أحسَنُ مِن العمَلِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ شيئًا فوقَ ما عَمِلوه[2]، فاللهُ تعالى جعَل الحُسْنَ للعملِ نفْسِه، مع أنَّ الحُسْنَ للثَّوابِ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ إشارةً إلى أنَّ الجزاءَ بقَدْرِ العملِ؛ ولذلك عَبَّر به عنه[3].

١١- استُدِلَّ بقولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ ونحوِ ذلك مِن الآياتِ على أنَّ المباحَ حَسَنٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ صيغةُ تفضيلٍ، وصيغةُ التَّفضيلِ المذكورةُ تَدُلُّ على أَنَّ مِن أعمالِهم حَسَنًا لَمْ يُجْزَوْهُ، وهو المباحُ، فصيغَةُ التفضيلِ تَدُلُّ على المشاركةِ، والواجبُ أحسَنُ مِن المندوبِ، والمندوبُ أحسَنُ مِن المباحِ؛ فيُجازَوْنَ بالأحسَنِ الَّذي هو الواجبُ والمندوبُ -على قولٍ في التفسيرِ-، دونَ مُشارِكِهما في الحُسنِ، وهو المباحُ[4].

١٢- قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ فذَكَر الجزاءَ على الحَسَناتِ، ولم يَذكُرِ الجزاءَ على السَّيِّئاتِ وإن كان يُجازى عليها؛ لأمْرَينِ:

**أحَدُهما:** أنَّه تَرغيبٌ، فاقتَصَر على ذِكرِ الرَّغبةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٣٩)، (٥/ ٥٤٩).

الثَّاني: أنَّه يكونُ في صِفةِ قَومٍ لا تكونُ منهم الكبائِرُ، فكانت صَغائِرُهم مَغفورةً[١].

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ فيه تَنبيهٌ على كَمالِ القُدرةِ، ونَفاذِ المشيئةِ، وسَعةِ الإحسانِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾

- قيل: قولُه: ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ مِن تَمامِ التَّمثيلِ؛ فيكونُ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ مُتعلِّقًا بشَيءٍ ممَّا قبْلَه؛ فقيل: يتعلَّقُ بقولِه: ﴿يُوقَدُ﴾ [النور: ٣٥]، أي: يُوقَدُ المِصباحُ في بيوتٍ. وقيل: هو صِفةٌ لمِشكاةٍ، أي: مِشكاةٍ في بُيوت، وما بيْنهما اعتراضٌ، وإنَّما جاء (بيوت) بصِيغةِ الجمْعِ مع أنَّ (مِشكاة) و(مِصباح) مُفرَدانِ؛ لأنَّ المُرادَ بهما الجنسُ؛ فتَساوى الإفرادُ والجمْعُ. والمقصدُ مِن ذِكرِ هذا زيادةُ إيضاحِ المُشبَّهِ به. وفيه مع ذلك تَحسينُ المُشبَّهِ به؛ ليَسرِيَ ذلك إلى تَحسينِ المُشبَّهِ؛ لأنَّ ما ذُكِرَ مِن وصْفِ البيوتِ وما يجري فيها مما يُكسِبُها حُسنًا في نُفوسِ المؤمنينَ[٣].

- ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ غيرَ مُرتبِطٍ بما قبْلَه، وأنَّه مبدَأُ استِئنافٍ ابتدائيٍّ، وأنَّ المجرورَ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا﴾ استِئنافٌ. وتَقديمُ المجرورِ للاهتِمامِ بتلك البُيوتِ، وللتَّشويقِ إلى مُتعلَّقِ المجرورِ، وهو التَّسبيحُ وأصحابُه. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ خبرًا مُقدَّمًا، و﴿رِجَالٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٥، ٢٤٦).

مُبتدأً، والجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن قولِه: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٣٥]؛ فيسأَلُ السَّائلُ في نفْسِه عن تَعيينِ بعضٍ ممَّن هداهُ اللهُ لنُورِه، فقيل: رِجالٌ في بُيوتٍ[١]. وقيل: كَلِمةُ (في) في قولِه: ﴿فِى بُيُوتٍ﴾ مُتعلِّقةٌ بقولِه تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾، وقولُه تعالى: ﴿فِيهَا﴾ تَكريرٌ لها للتَّأكيدِ والتَّذكيرِ؛ لِمَا بيْنهما مِن الفاصلةِ، وللإيذانِ بأنَّ التَّقديمَ للاهتِمامِ، لا لقصْرِ التَّسبيحِ على الوُقوعِ في البُيوتِ فقطْ[٢]. وفي ذلك تَنويهٌ بالمساجدِ، وإيقاعِ الصَّلاةِ والذِّكْرِ فيها[٣].

- وتَنكيرُ: ﴿بُيُوتٍ﴾؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ[٤]. وأتَى بجمعِ الكثرةِ (بيوت) دونَ جمعِ القِلَّةِ؛ للتعظيمِ[٥].

- وفي التَّعبيرِ بالإذنِ في قولِه: ﴿أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ تلْويحٌ بأنَّ اللَّائقَ بحالِ المأمورِ أنْ يكونَ مُتوجِّهًا إلى المأمورِ به قبْلَ وُرودِ الأمرِ به ناويًا لتَحقيقِه، كأنَّه مُستأذِنٌ في ذلك، فيقَعُ الأمرُ به مَوقِعَ الإذْنِ فيه[٦].

- قولُه: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ قيل: فيه إفرادُ طَرفَيِ النَّهارِ بالذِّكرِ؛ لقِيامِهما مَقامَ كلِّها؛ لكونِهما العُمدةَ فيها؛ بكونِهما مَشهودَينِ، وكَونِهما أشهَرَ ما يقَعُ فيه المُباشَرةُ للأعمالِ، والاشتِغالُ بالأشغالِ. وقيل: خصَّ هذَينِ الوقتَينِ؛ لشَرَفِهما، ولتيسُّرِ السَّيرِ فيهما إلى اللهِ وسُهولتِه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

٢- قَولُه تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾

- قولُه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * رِجَالٌ ...﴾ ﴿رِجَالٌ﴾ فاعلُ ﴿يُسَبِّحُ﴾، وتأخيرُه عن الظُّروفِ؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، ولأنَّ في وَصْفِه نوعَ طُولٍ، فيُخِلُّ تَقديمُه بحُسنِ الانتِظامِ[1].

- وخَصَّ الرِّجالَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ النِّساءَ لَسْنَ مِن أهلِ التِّجاراتِ أو الجماعاتِ[2].

- قولُه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ صِفَةٌ لـ﴿رِجَالٌ﴾، مُؤكِّدةٌ لِمَا أفادَهُ التَّنكيرُ مِن الفخامةِ، مُفِيدةٌ لكَمالِ تَبتُّلِهم إلى اللهِ تعالى، واستغراقِهم فيما حُكِيَ عنهم مِن التَّسبيحِ، مِن غيرِ صارفٍ يَلْويهم، ولا عاطفٍ يَثْنيهم كائنًا ما كان. وتَخصيصُ التِّجارةِ بالذِّكْرِ؛ لكونِها أقوى الصَّوارفِ عندَهم وأشهَرَها[3]، فهي أعظَمُ ما يشتَغِلُ به الإنسانُ عن الصَّلاةِ[4].

- وعُطِفَ البَيعُ على التِّجارةِ في قولِه: ﴿تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لمُغايَرةِ التِّجارةِ والبَيعِ؛ فاحتمَلَ أنْ تكونَ ﴿تِجَٰرَةٌ﴾ مِن إطلاقِ العامِّ، ويُرادُ به الخاصُّ، فأرادَ بالتِّجارةِ الشِّراءَ، ولذلك قابلَه بالبيعِ. أو يُرادُ تِجارةُ الجلَبِ، ويُقال: تَجَرَ فُلانٌ في كذا، إذا جلَبَهُ، وبالبيعِ البيعُ بالأسواقِ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ مِن الخاصِّ بعدَ العامِّ؛ لأنَّ التِّجارةَ هي البيعُ والشِّراءُ طلبًا للرِّبْحِ. وإفرادُه بالذِّكرِ مع اندراجِه تحتَ التِّجارةِ؛ لأنَّه في الإلهاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٧٩).

أدخَلُ؛ لأنَّ الربحَ الحاصلَ في البيعِ مُتيقَّنٌ ناجزٌ، والربحُ الحاصلُ في الشراء شكٌّ مستقبَلٌ، مُتوقَّعٌ في ثاني الحالِ عندَ البيعِ، ولذلك كُرِّرت كلمةُ (لا)؛ لتَذكيرِ النَّفيِ وتأْكيدِه[١]. ويحتمِلُ أنَّه عطَفَه عليها؛ لئلاَّ يُتوهَّمَ القصورُ على بيعِ التِّجارةِ[٢]، فالإنسانُ قد يُضْطَرُّ إلى الخروجِ بالبَيعِ عن بَعضِ ما يَملِكُ؛ للاقتياتِ بثَمَنِه، أو التبلُّغِ به إلى بَعضِ المُهمَّاتِ التي لا وصولَ له إليها إلَّا به، أو بتحصيلِ ما لا يملِكُ كذلك؛ لذا قال: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ أي: وإن لم يكُنْ على وجهِ التِّجارةِ[٣]، فالتَّاجِرُ مَن يَجعلُ البيعَ والشِّراءَ حِرفةً له يستفيدُ منهما، والبائِعُ قد يَبيعُ السِّلعةَ مرَّةً واحدةً لحاجةٍ، ولا يُريدُ مِن البَيعِ التِّجارةَ[٤].

- على القولِ بأنَّ قولَه تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: تَسبيحِ اللهِ؛ فـ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ مُظْهَرٌ وُضِعَ مَوضِعَ المُضمَرِ، وتَقديرُ الكلامِ: يُسبِّحُ له فيها بالغُدوِّ والآصالِ رجالٌ لا تُلْهيهم تِجارةٌ ولا بيعٌ عنه[٥].

- وأعاد ذِكرَ (الصَّلاةِ) بعد ذِكرِها بالتَّسبيحِ -على قولٍ في التفسيرِ- تَصريحًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٤٤).

وقال ابن عثيمين: (التِّجارةُ أعَمُّ مِن البَيعِ؛ قد يلهو الإنسانُ في تجارتِه بتَصنيفِها وتبويبِها وحِفظِها وصيانتِها، وما أشبَهَ ذلك. ربَّما لا يلهو وهو يبيعُ ويشتري، لكنْ يلهو بطَريقٍ آخَرَ بهذه التجارةِ؛ لذلك نقولُ: المرادُ بالتِّجارةِ في الآيةِ: ما يتَّجِرُ به الإنسانُ، ولَهْوُه به ليس بالشِّراءِ، بل بما هو أعَمُّ، أمَّا الشِّراءُ فمَفهومٌ مِن البيعِ؛ لأنَّهم إذا اشتَرَوا فقد باع عليهم غيرُهم، وإذا باعوا فقد اشتَرى منهم غيرُهم). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٠٩).

بها؛ تأكيدًا لها، وحَثًّا على حِفظِ وَقتِها؛ لأنَّه مِن جملة مقوِّماتِها، وكذا جميعُ حدودِها، ولو بأوجَزِ ما يكونُ من أدنى الكَمالِ، بما أشار إليه حذفُ التاءِ في (إِقامِ)[1]؛ إشعارًا بأنَّ هذا المدحَ لا يتوقَّفُ على أنهى الكَمالِ[2].

- قولُه: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ﴾ وقولُه: ﴿يَخَافُونَ ...﴾ فيه تَعريضٌ بالمُنافِقين[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ تذييلٌ مُقرِّرٌ للزِّيادةِ، وعْدٌ كريمٌ بأنَّه تعالى يُعْطِيهم غيرَ أجْزيةِ أعمالِهم مِن الخيراتِ ما لا يَفِي به الحِسابُ[4]. وقد حصَلَ التَّذييلُ؛ لِمَا في قولِه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِن العُمومِ، أي: وهُمْ ممَّن يَشاءُ اللهُ لهم الزِّيادةَ[5].

- والاسمُ الموصولُ (مَن) في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ عبارةٌ عمَّن ذُكِرَتْ صِفاتُهم الجميلةُ؛ كأنَّه قيل: واللهُ يرزُقُهم بغيرِ حِسابٍ، ولكنْ وُضِعَ الموصولُ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ، على أنَّ مناطَ الرِّزقِ المذكورِ في مَحضِ مَشيئتِه تعالى لا أعمالُهم المَحكيَّةُ، كما أنَّها المناطُ

---

(١) قال الرسعني: (فإن قيل: لِمَ حذفوا التاءَ مِن إقام الصلاةِ، فإنَّ أصْلَها: إقامة الصلاة؟ قلتُ: لأنها عِوَضٌ مِن العَينِ الساقطةِ للإعْلالِ، وأصلُها: إقوام، فلمَّا أُضيفت جعَلوا الإضافةَ مقامَ حرفِ العِوَضِ؛ فأُسقِطتْ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٣).

وقيل: حَذْفُ هاءِ (إقامة) تخفيفٌ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٠).

لِمَا سبَقَ مِن الهِدايةِ لنُورِه تعالى لا لظاهرِ الأسبابِ، وللإيذانِ بأنَّهم ممَّن شاءَ اللهُ تعالى لأنْ يَرزُقَهم، كما أنَّهم ممَّن شاء اللهُ تعالى أنْ يَهديَهم لنُورِه، حسْبَما يُعرِبُ عنه ما فُصِّلَ مِن أعمالِهم الحَسنةِ؛ فإنَّ جميعَ ما ذُكِر مِن الذِّكرِ والتَّسبيحِ، وإقامِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، وخوفِ اليومِ الآخِرِ وأهوالِه، ورجاءِ الثَّوابِ: مُقتبَسٌ مِن القُرآنِ الكريمِ العظيمِ الَّذي هو المَعْنيُّ بالنُّورِ، وبه يتِمُّ بَيانُ أحوالِ مَنِ اهْتَدى بهُداهُ، على أوضَحِ وجْهٍ وأجلاهُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٠).

## الآيتان (٣٩-٤٠)

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّّ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَسَرَابِۭ﴾: السَّرابُ: ما رأيتَ مِن الشَّمسِ كالماءِ نِصفَ النَّهارِ، وأصلُ (سرب): يدُلُّ على الاتِّساعِ والذَّهابِ في الأرضِ[1].

﴿بِقِيعَةٖ﴾: القِيعَةُ جمعُ قاعٍ، وهو المُستَوي مِن الأرضِ، وأصلُ (قوع): يدُلُّ على تبسُّطٍ في مكانٍ[2].

﴿لُّجِّّ﴾: أي: عَميقٍ لا يُدرَكُ قَعرُه، وأصلُ (لجج): يدُلُّ على تردُّدِ الشَّيءِ بَعضِه على بعضٍ، وترديدِ الشَّيءِ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يضرِبُ الله تعالى مَثليْنِ لأعمالِ الكفَّارِ، فيذكرُ المثلَ الأولَ، فيقولُ تعالى: والذين كفَروا برَبِّهم وكذَّبوا رسُلَه، أعمالُهم التي عَمِلوها ظنًّا منهم أنَّها تنفَعُهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١).

لا ثوابَ لها، مِثلُ السَّرابِ في أرضٍ مُنبَسِطةٍ خاليةٍ مِن البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ، يراه العَطشانُ فيظُنُّه ماءً، فإذا أتاه لم يجِدْه ماءً، وكذا الكافِرُ يظُنُّ أنَّ أعمالَه تنفَعُه، حتَّى إذا مات وبُعِثَ لم يجِدْ ثَوابَها، ووجدَ رَبَّه عندَه بالمرصادِ، فوفَّاه حِسابَ عَمَلِه كاملًا، واللهُ سَريعُ الحِسابِ.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى المثلَ الثاني، وما هم فيه مِن ضَلالٍ وجَهلٍ لا يتبيَّنونَ فيه الهُدى والحَقَّ، فيقولُ: أو أعمالُهم مِثلُ ظُلُماتٍ في بحرٍ عَميقٍ يَعلوه موجٌ، مِن فَوقِ ذلك الموجِ مَوجٌ آخَرُ، مِن فَوقِه سَحابٌ، ظُلُماتٌ مُتراكِمٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، إذا أخرجَ مَن وقَع في هذه الظُّلُماتِ يَدَه لم يُقارِبْ رُؤيتَها؛ مِن شِدَّةِ الظُّلُماتِ، ومَن لم يَهْدِه اللهُ للإيمانِ وينَوِّرْ قَلبَه بنورِ الإسلامِ، فما له مِن هادٍ.

## تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى فيما تقَدَّمَ حالةَ الإيمانِ والمُؤمِنينَ، وتَنويرَه قُلوبَهم؛ عَقَّب ذلك بذِكرِ الكَفَرةِ وأعمالِهم[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه حالَ المؤمِنِ، وأنَّه في الدُّنيا يكونُ في النُّورِ، وبسَبَبِه يكونُ متمَسِّكًا بالعمَلِ الصَّالحِ، ثمَّ بيَّن أنَّه في الآخرةِ يكونُ فائزًا بالنَّعيمِ المقيمِ والثَّوابِ العظيمِ- أتبعَ ذلك بأنْ بيَّن أنَّ الكافِرَ يكونُ في الآخرةِ في أشَدِّ الخُسرانِ، وفي الدُّنيا في أعظَمِ الظُّلُماتِ، وضرَبَ لكلِّ واحدٍ منهما مثَلًا[2]،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٩).

فقال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ﴾.

أي: ومَثَلُ أعمالِ الذين كفَروا مَثَلُ سَرابٍ في أرضٍ مُنبَسِطةٍ خاليةٍ مِن البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ وغيرِها مِن المعالِمِ[1].

﴿يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: يظُنُّ العَطشانُ ذلك السَّرابَ ماءً، حتى إذا جاء إلى موضِعِه يلتَمِسُ الماءَ، لم يجِدِ السَّرابَ شَيئًا مِمَّا كان يظُنُّه؛ فيَهلِكُ، وكذلك الكافِرونَ: يظُنُّونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٤/ ٧٥)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال ابنُ كثير: (هذان مَثَلانِ ضَرَبهما اللهُ تعالى لنَوعَيِ الكُفَّارِ... فأمَّا الأوَّلُ مِن هذَينِ المَثَلينِ فهو للكُفَّارِ الدُّعاةِ إلى كُفرِهم، الذين يَحسَبونَ أنَّهم على شَيءٍ مِنَ الأعمالِ والاعتقاداتِ، وليسوا في نفْسِ الأمرِ على شَيءٍ؛ فمَثَلُهم في ذلك كالسَّرابِ الذي يُرى في القِيعانِ مِنَ الأرضِ عن بُعدٍ كأنَّه بَحرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٠، ٧١). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٤/ ٧٥) و (٧/ ٢٧٨) و (١٠/ ١٠١).

وقال ابنُ القيم: (ذكَرَ سُبحانَه للكافِرينَ مَثَلينِ: مَثَلًا بالسَّرابِ، ومَثَلًا بالظُّلماتِ المتراكِمةِ؛ وذلك لأنَّ المُعرِضينَ عن الهُدى والحَقِّ نوعان؛ أحَدُهما: مَن يَظُنُّ أنَّه على شَيءٍ، فيتبَيَّنُ له عندَ انكِشافِ الحقائِقِ خِلافُ ما كان يظُنُّه، وهذه حالُ أهلِ الجَهلِ وأهلِ البِدَعِ والأهواءِ الذين يظُنُّونَ أنَّهم على هُدًى وعِلمٍ، فإذا انكشَفَت الحقائِقُ تبَيَّنَ لهم أنَّهم لم يكونوا على شَيءٍ، وأنَّ عقائِدَهم وأعمالَهم التي ترتَّبَت عليها كانت كسَرابٍ بِقيعةٍ يُرى في عينِ النَّاظِرِ ماءً، ولا حقيقةَ له! وهكذا الأعمالُ التي لغيرِ اللهِ وعلى غيرِ أمْرِه، يَحسَبُها العامِلُ نافِعةً له، وليست كذلك!... وتأمَّلْ جَعْلَ اللهِ سُبحانَه السَّرابَ بالقِيعةِ -وهي الأرضُ القَفرُ الخاليةُ مِنَ البناءِ والشَّجَرِ والنَّباتِ والمعالِمِ- فمَحَلُّ السَّرابِ أرضٌ قَفرٌ لا شَيءَ بها، والسَّرابُ لا حقيقةَ له، وذلك مُطابِقٌ لأعمالِهم وقُلوبِهم التي أقفَرَت مِنَ الإيمانِ والهُدى!... فهذا مَثَلُ الضَّالِّ الذي يَحسَبُ أنَّه على هُدًى). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٢٠، ١٢١).

اعتقاداتِهم وأعمالَهم تنفَعُهم، فإذا جاؤوا يومَ القيامةِ وجَدوها غيرَ مَقبولةٍ عندَ اللهِ؛ فلا ينتَفِعونَ بها[1].

كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر: ٨].

﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ﴾.

أي: ووجَدَ الكافِرُ ربَّه عندَه بالمرصادِ[2]، فيُجازيه يومَ القيامةِ على جميعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٢، ٢٨٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٣).

(٢) قال الشوكاني: (﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي: وَجَد اللهَ بالمرصادِ فوَفَّاه حِسابَه... وقيلَ: وَجَد وَعْدَ اللهِ بالجَزاءِ على عَمَلِه. وقيلَ: وَجَد أمرَ اللهَ عندَ حَشرِه. وقيلَ: وَجَد حُكمَه وقضاءَه عندَ المجيءِ. وقيلَ: عندَ العَمَلِ. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦).

مِمَّن اختار أنَّ المعنى: وَجَد اللهَ بالمِرصادِ: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦).

قال القاسمي: (﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي: وَجَد عِقابَ اللهِ وجَزاءَه عندَ السَّرابِ، أو العَمَلِ... وقيل: المعنى: وَجَده مُحاسِبًا إيَّاه؛ فالعِنْديَّةُ بمعنى الحِسابِ على طريقِ الكِنايةِ؛ لِذِكرِ التَّوفيةِ بَعْدَه. قيل: هذه الجُملةُ مَعطوفةٌ على ﴿لَمْ يَجِدْهُ ﴾، ولا حاجةَ إلى عَطْفِه على ما يُفيدُه مِن نَحوِ: لم يجِدْ ما عَمِلَه نافِعًا. =

أعمالِه التي عَمِلَها في الدُّنيا بما يَستَحِقُّه مِن العذابِ جزاءً وافيًا[١].

﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: واللهُ سريعُ المحاسَبةِ لعِبادِه، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، ولا يَشغَلُه حِسابٌ عن حِسابٍ[٢].

---

= وقال الشِّهابُ: ويحتَمِلُ أن يكونَ بيانًا لحالِ المُشَبَّهِ به الكافِرِ، فيُعطَفَ بحَسَبِ المعنى على التَّمثيلِ بتَمامِه. ولو قيلَ على الأوَّلِ: إنَّه مِن تَتِمَّةِ وَصفِ السَّرابِ. والمعنى: وَجَد مَقدورَه تعالى من الهَلاكِ بالظَّمَأِ عند السَّرابِ، فوَفَّاه ما كُتِبَ له مَن لا يؤخِّرُ الحِسابَ- كان الكَلامُ مُتناسِبًا. واختار الثَّاني أبو السعود). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩٢). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٣٨٨).

ومِمَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿عِندَهُۥ﴾ يعودُ إلى العملِ: مقاتلُ بن سليمان، والفرَّاء، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابن جزي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٤).

قال السمعاني: (وقَولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ أي: عِندَ عَمَلِه، ومعناهُ: أنَّه لَقِيَ اللهَ في الآخِرةِ). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٦).

وقال ابنُ جزي: (﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ ضميرُ الفاعِلِ في «وَجَدَ» للكافِرِ، والضَّميرُ في ﴿عِندَهُۥ﴾ لعمَلِه، والمعنى: وَجَد اللهَ عندَه بالجزاءِ، أو وجَدَ زَبانِيَةَ اللهِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٢).

وقال النسفي: (﴿عِندَهُۥ﴾ عندَ الكافِرِ). يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٩).

وقال ابن جرير: (عندَ هلاكِه). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٦، ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٠٩).

قال السعدي: (﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فلا يَستبطِئِ الجاهلونَ ذلك الوعدَ؛ فإنَّه لا بدَّ مِن إتيانِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩). =

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى بالمثالِ السَّابِقِ أنَّ الكافرينَ لم يَصِلوا إلى شيءٍ غيرِ التَّعَبِ المُثمِرِ للعَطَبِ، وكان هذا لا يفعَلُه بنَفْسِه عاقِلٌ- ضرَب مثالًا آخَرَ بيَّن الحامِلَ لهم على الوقوعِ في ذلك، وهو السَّيرُ بغيرِ دليلٍ، الموقِعُ في خَبطِ العَشواءِ، كالماشي في الظَّلامِ[1].

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾.

أي: أو مَثَلُ أعمالِ الكافرينَ[2] في ضَلالِهم وجَهلِهم الذي لا يتبيَّنونَ فيه الهُدى والحَقَّ، مَثَلُ ظُلُماتٍ في بحرٍ عَميقٍ[3].

---

= وقال ابن عثيمين: (ما المرادُ بالسُّرعةِ هنا؟ هل المرادُ قُربُ وقتِ المجازاةِ، فتكونَ السُّرعةُ زَمنيةً؟ أو المرادُ إنجازُ الحِسابِ فتكونَ السُّرعةُ عَمَليَّةً؟ أو كلاهما؟ هل المعنى أنَّه في محاسَبتِه سريعٌ، أو المعنى حسابُه للعبادِ قريبٌ، أو كلاهما؟ الجواب: كلاهما). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٢) قال الرسعني: (قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ قال أكثرُ المفسِّرينَ: هذا المَثَلُ لأعمالِ الكفَّارِ أيضًا). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثيرٍ.

قال ابنُ تيميَّةَ: (ذَكَر سُبحانَه مَثَلينِ:... والمَثَلُ الثَّاني: مَثَلُ الكُفرِ والجَهلِ البَسيطِ الذي لا يَتبيَّنُ فيه صاحِبُه حَقًّا، ولا يَرى فيه هُدًى، والكُفرُ المُرَكَّبُ مُستلزِمٌ للبَسيطِ، وكُلُّ كُفرٍ فلا بُدَّ فيه مِن جَهلٍ مُرَكَّبٍ؛ فضَرَب اللهُ سُبحانَه المَثَلينِ بذلك؛ ليُبيِّنَ حالَ الاعتقادِ الفاسِدِ، ويُبيِّنَ حالَ عدَمِ مَعرفةِ الحقِّ، وهو يُشبِهُ حالَ المغضوبِ عليهم والضَّالِّينَ، حالَ المُصَمِّمِ على الباطِلِ حتى =

= يَحُلَّ به العذابُ، وحالَ الضَّالِّ الذي لا يرى طريقَ الهُدى). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٧٥).

وقال ابنُ كثير: (وهذا المِثالُ مِثالٌ لِذَوي الجَهلِ المُرَكَّبِ، فأمَّا أصحابُ الجَهلِ البَسيطِ، وهم... المقلِّدونَ لأئمَّةِ الكُفرِ، الصُّمُّ البُكمُ الذين لا يَعقِلونَ... فهذا مَثَلُ قَلبِ الكافِرِ الجاهِلِ البَسيطِ المقلِّدِ الذي لا يَدري أين يَذهَبُ، ولا هو يَعرِفُ حالَ مَن يَقودُه، بل كما يُقالُ في المَثَلِ للجاهِلِ: أين تذهَبُ؟ قال: معهم. قيل: فإلى أينَ يَذهَبون؟ قال: لا أدري!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١).

وقال ابنُ القيِّم: (النوع الثَّاني: أصحابُ مثَلِ الظُّلُماتِ المُتراكِمةِ، وهُمُ الذين عرَفوا الحقَّ والهُدى، وآثَروا عليه ظُلُماتِ الباطِلِ والضَّلالِ، فتراكمَتْ عليهم ظُلْمةُ الطَّبعِ، وظُلمةُ النفوسِ، وظُلمةُ الجهلِ حيث لم يَعمَلوا بعِلمِهم فصاروا جاهِلين، وظُلمةُ اتِّباعِ الغَيِّ والهَوى، فحالُهم كحالِ مَن كان في بحرٍ لُجِّيٍّ لا ساحلَ له، وقد غَشِيَه مَوجٌ، ومِن فَوقِ ذلك المَوجِ مَوجٌ، ومِن فَوقِه سَحابٌ مُظلِمٌ؛ فهو في ظُلمةِ البحرِ، وظُلمةِ المَوجِ، وظُلمةِ السَّحابِ، وهذا نَظيرُ ما هو فيه مِنَ الظُّلُماتِ التي لم يُخرِجْهُ الله منها إلى نورِ الإيمانِ... فكذلك الكفَّارُ في هذَينِ المثَلَينِ؛ حَظُّهم مِنَ الماءِ السَّرابُ الذي يَغُرُّ الناظِرَ ولا حقيقةَ له، وحَظُّهمُ الظُّلُماتُ المُتراكِمةُ. وهذا يَجوزُ أن يَكونَ المرادُ به حالَ كلِّ طائفةٍ مِن طوائفِ الكفَّارِ، وأنَّهم عَدِموا مادَّةَ الحياةِ والإضاءةِ بإعراضِهم عن الوَحيِ؛ فيَكونَ المَثَلانِ صِفَتَينِ لمَوصوفٍ واحدٍ. ويَجوزُ أن يَكونَ المرادُ به تنويعَ أحوالِ الكفَّارِ، وأنَّ أصحابَ المَثَلِ الأوَّلِ هُمُ الذين عمِلوا على غَيرِ عِلمٍ ولا بصيرةٍ، بل على جهلٍ وحُسنِ ظَنٍّ بالأسلافِ، فكانوا يَحسَبونَ أنَّهم يُحسِنونَ صُنْعًا، وأصحابَ المَثَلِ الثَّاني هم الذين استَحَبُّوا الضَّلالةَ على الهُدى، وآثَروا الباطلَ على الحقِّ، وعَمُوا عنه بعْدَ أن أبصَروه، وجَحَدوه بعْدَ أن عرَفوه، فهذا حالُ المغضوبِ عليهم، والأوَّلُ حالُ الضَّالِّينَ... فالمَثَلُ الأوَّلُ مِنَ المَثَلينِ لأصحابِ العملِ الباطلِ الذي لا يَنفَعُ، والمثَلُ الثَّاني لأصحابِ العِلمِ الذي لا يَنفَعُ والاعتِقاداتِ الباطِلةِ، وكِلاهما مُضادٌّ للهُدى ودينِ الحقِّ؛ ولهذا مثَّلَ حالَ الفريقِ الثَّاني في تلاطُمِ أمواجِ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ والعلومِ الفاسدةِ في قلوبِهم بتلاطُمِ أمواجِ البحرِ فيه، وأنَّها أمواجٌ مُتراكِمةٌ مِن فَوقِها سَحابٌ مُظلِمٌ، وهكذا أمواجُ الشُّكوكِ والشُّبَهِ في قلوبِهم المُظلِمةِ التي قد تراكمتْ عليها سُحُبُ الغَيِّ والهوى والباطِلِ. فلْيَتدبَّرِ اللَّبيبُ أحوالَ الفريقَينِ، ولْيُطابِقْ بيْنهما وبيْن المَثَلينِ؛ يَعرِفْ عَظَمةَ القرآنِ وجَلالَتَه، وأنَّه تَنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٢١، ١٢٢).

وقال السعدي: (يحتمِلُ أنَّ هذَينِ المِثالَينِ لأعمالِ جميعِ الكفَّارِ، كلٌّ منهما مُنطبِقٌ عليها، وعدَّدهما لتعدُّدِ الأوصافِ. ويحتمِلُ أنَّ كلَّ مثالٍ لطائفةٍ وفِرقةٍ؛ فالأوَّلُ للمتبوعينَ، والثَّاني =

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قراءةُ (سَحَابٌ ظُلُمَاتٍ): برفعِ (سَحَابٌ) منوَّنًا، و(ظُلُمَاتٍ) بالخفضِ بدلًا مِن قَولِه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾[١].

٢- قراءة (سَحَابُ ظُلُمَاتٍ): برفعِ (سَحَابُ) مِن غيرِ تنوينٍ، و(ظُلُمَاتٍ) بالخفضِ، جعلَ الموجَ المتراكِمَ بمنزلةِ السَّحابِ، كما يُقالُ: سَحابةُ رحمةٍ، فأضافَ (سَحَابُ) إلى (ظُلُمَاتٍ) ليبيِّنَ في أيِّ شَيءٍ هو[٢].

٣- قراءةُ ﴿سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ﴾: برفعِهما جميعًا وتنوينِهما، و(ظُلُمَاتٌ) تبيينٌ لِقَولِه: ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾، فهذه ثلاثُ ظُلُماتٍ[٣].

---

= للتابِعينَ، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

وقال ابن عثيمين: (﴿أَوْ﴾ للتَّنويعِ في قَولِه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾، يعني: أو أعمالُهم كظُلُماتٍ... إلى آخِرِه... وهذا التقسيمُ للتَّنويعِ كما تقدَّم؛ فالأوَّلُ -والله أعلمُ- في حالِ الكافِرِ المجتَهِدِ الذي عندَه فَهمٌ واجتِهادٌ، الذي يظُنُّ أنَّ عَمَله يَنفَعُه، والثاني: في حالِ المقَلِّدِ الذي لا يَدري وعِندَه جَهلٌ وضَلالٌ، فهو في ظُلمةٍ، يسيرُ مع الكُفَّارِ وهو لا يَدري). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٧، ٢٧٨).

(١) قرأ بها قنبل عن ابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٧٣).

(٢) قرأ بها البزِّي عن ابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٢)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٧٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٣)، ((الدر المصون)) للحلبي (٨/ ٤١٥).

﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾.

أي: يَعلو ذلك البَحرَ اللُّجِّيَّ مَوجٌ، ومِن فوقِ الموجِ مَوجٌ آخَرُ يَعلوه، ومِن فَوقِ الموجِ الثَّاني سَحابٌ مُظلِمٌ(١).

﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

أي: ظُلمةُ البَحرِ، وظُلمةُ المَوجِ، وظُلمةُ السَّحابِ؛ هي ظُلُماتٌ مُتراكِمةٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٤)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢١).

قال ابن القيم: (تصويرٌ لحال هذا المُعرِضِ عن وَحْيِه، فشَبَّه تلاطُمَ أمواجِ الشُّبَهِ والباطِلِ في صدرِه بتلاطُمِ أمواجِ ذلك البحرِ، وأنَّها أمواجٌ بعضُها فوقَ بَعضٍ). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٥٨).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ﴾ بمعنى: يغطِّي هذا الكافِرَ ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ أيضًا؛ أمواجٌ عاليةٌ، لكنْ ما حَدُّ الموجِ الثاني مِن الأوَّلِ؟ يعني: ما الذي يميِّزُ الموجَ الثَّانيَ عن الموجِ الأوَّلِ؟

الجوابُ: إمَّا أن يقالَ بالاتِّجاهِ، يعني: الأمواج تتلاقى؛ موجٌ يأتي مِن هنا، والثَّاني أعلى منه، أتى مِن جهةٍ ثانيةٍ؛ مِن أجْلِ أن يتبيَّنَ عُلوُّ هذا على ذاك، أو أنَّها أمواجٌ مُتلاحِقةٌ، مثلًا مَوجٌ مُقبِلٌ كارتفاعِ الجبَلِ، ووراءَه موجٌ آخَرُ أعلى منه، فإذا لَحِقَه صار مَوجًا مِن فَوقِه مَوجٌ، وأمَّا أنَّه موجٌ واحِدٌ فلا يمكِنُ أن يُفصَلَ بَعضُه عن بعضٍ، ومَن شاهَد البحرَ وجد الأمرَ كذلك؛ تجِدُ أمواجًا متلاحِقةً، أحيانًا إذا انعكس الهواءُ تتقابَلُ، وأحيانًا تتلاحَقُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٨).

قال الشوكاني: (يجتمِعُ حينئذٍ عليهم خوفُ البحرِ وأمواجِه، والسحابِ المرتفعِ فوقَه. وقيلَ إنَّ المعنَى: يَغشاهُ موجٌ مِن بعدِ موجٌ، فيكونُ الموجُ يَتْبَعُ بعضُه بعضًا حتَّى كأنَّه بعضَه فوقَ بعضٍ، والبحرُ أخوفُ ما يكونُ إذا توالَتْ أمواجُه، فإذا انْضَمَّ إلى ذلك وجودُ السَّحابِ مِن فوقِه، زادَ الخوفُ شِدَّةً، لأنَّها تَسْتُرُ النُّجومَ الَّتي يَهْتَدي بها مَن في البحرِ، ثمَّ إذا أمطَرت تلك السحبُ وَهَبَّتِ الرِّيحُ المعتادَةُ في الغالبِ عندَ نُزولِ المطرِ، تكاثَفَتِ الهمومُ، وترادَفَتِ الغمومُ، وبَلَغ الأمرُ إلى الغايةِ الَّتي ليسَ وراءَها غايةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦).

بَعضُها فوقَ بعضٍ[١].

﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾.

أي: إذا أخرجَ مَن كان في هذه الظُّلُماتِ يَدَه لِيَنظُرَ إليها، لم يقارِبْ رُؤيتَها؛ مِن شِدَّةِ الظَّلامِ، فلا يراها مُطلقًا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٠)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٦).

قال ابنُ جرير: (فجعَلَ الظُّلُماتِ مَثَلًا لأعمالِهم، والبَحرَ اللُّجِّيَّ مَثلًا لقَلبِ الكافِرِ، يقولُ: عَمَلُه بنيَّةِ قَلبٍ قد غمَره الجَهلُ، وتغَشَّتْه الضَّلالةُ والحَيرةُ، كما يَغشى هذا البَحرَ اللُّجِّيَّ ﴿مَّوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞ﴾، فكذلك قَلبُ هذا الكافِرِ الذي مَثَلُ عَمَلِه مَثَلُ هذه الظُّلُماتِ؛ يغشاه الجَهلُ بالله، بأنَّ اللهَ ختَمَ عليه فلا يَعقِلُ عن الله، وعلى سَمعِه فلا يَسمَعُ مَواعِظَ الله، وجعَلَ على بصَرِه غِشاوةً فلا يُبصِرُ به حُجَجَ الله، فتلك ظُلُماتٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٠،٣٢٩).

وقال السعدي: (كذلك الكُفَّارُ؛ تراكمت على قلوبِهم الظُّلُماتُ: ظُلمةُ الطبيعة التي لا خيرَ فيها، وفوقَها ظلمةُ الكُفرِ، وفوقَ ذلك ظُلمةُ الجَهلِ، وفوقَ ذلك ظُلمةُ الأعمالِ الصَّادرة عمَّا ذُكر، فبقُوا في الظلمةِ متحيِّرين، وفي غمرتِهم يَعْمَهون، وعن الصراطِ المُستقيمِ مُدْبِرين، وفي طرُقِ الغَيِّ والضَّلالِ يترَدَّدون؛ وهذا لأنَّ الله تعالى خذَلهم، فلمْ يُعطِهم مِن نورِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٥)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال ابن جُزي: (المعنى: مُبالَغةٌ في وَصفِ الظُّلمةِ، والضَّميرُ في ﴿أَخۡرَجَ﴾ وما بعْدَه للرَّجُلِ الذي وَقَع في الظُّلُماتِ الموصوفةِ. واختُلِفَ في تأويلِ الكلامِ؛ فقيل: المعنى: إذا أخرَج يَدَه لم يُقارِبْ رُؤيتَها، فنفى الرُّؤيةَ ومُقارَبتَها. وقيل: بل رآها بعْدَ عُسرٍ وشِدَّةٍ؛ لأنَّ «كاد» إذا نُفِيَت تقتضي الإيجابَ، وإذا أُوجِبَت تقتضي النَّفيَ. وقال ابنُ عطيةَ: إنَّما ذلك إذا دخل حَرفُ النَّفيِ على الفِعلِ الذي بَعْدَها، فأمَّا إذا دَخَل حَرفُ النَّفيِ على كاد، كقَولِه: «لم يَكَدْ»، فإنَّه يحتَمِلُ النَّفيَ والإيجابَ). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٢٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٨). =

﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾.

أي: ومَنْ لم يَهدِه اللهُ في الدُّنيا لنورِ القُرآنِ ويُوفِّقْه للإيمانِ، فلا هِدايةَ له مِن أيِّ أحَدٍ كائنًا مَن كان(١).

كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيه إثباتُ الحِسابِ، وأنَّ الإنسانَ سوف يُحاسَبُ على عمَلِه؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، فيَنبَغي للعاقِلِ أن يُحاسِبَ نفْسَه قبْلَ أنْ يُحاسَبَ، كما قال أميرُ المؤمِنينَ عُمرُ بنُ الخَطَّابِ رضي

---

= مِمَّن اختار القَولَ الأوَّلَ، وهو نفيُ الرُّؤيةِ، وأنَّ معنى ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي: لم يَرَها، أو نَفيُ مُقاربتِها، والمعنى: لم يُقارِبْ رُؤيتَها، وهذا يقتَضي نفيَ الرُّؤيةِ جُملةً؛ لأنَّه إذا كان لا يُقارِبُ رُؤيتَها، فكيف يراها؟ مِمَّن اختار هذا القَولَ في الجُملةِ: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والنحاس، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩٧).

ومِمَّن اختار القَولَ الثَّاني: أي: أنَّه رآها بَعدَ جَهدٍ وتَعَبٍ: مكِّي، والغزنوي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٢٦)، ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٠٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩، ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٢).

اللهُ عنه: (حاسِبوا أنفُسَكم قبْلَ أن تُحاسَبوا)[١]. فكَوْنُ الإنسانِ يُحاسِبُ نفْسَه لِيُصلِحَ ما عَساهُ فسَدَ، أَوْلى مِن سُكوتِه وإهمالِه وعدَمِ حسابِ نفْسِه؛ لأنَّ الذُّنوبَ تَتراكَمُ عليه ثمَّ يَهلِكُ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه يجبُ على المرءِ أنْ يلجأَ إلى اللهِ دائمًا، فيسألَه أنْ يُنَوِّرَ قلبَه؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ هذا منطوقُ الآيةِ، ومفهومُ الآيةِ: مَن جَعَل اللهُ له نورًا فلا أحدَ يَحْجُبُ عنه نورَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ فيه سؤالٌ: قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ يدُلُّ على كونِه شيئًا. وقولُه: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ قد يُفهَمُ منه التَّعارُضُ؟

**الجواب مِن وجوهٍ ثلاثةٍ:**

الأول: أنَّ المرادَ معناه: أنَّه لم يَجِدْه شيئًا نافعًا، كما يُقالُ: (فلانٌ ما عمِل شيئًا)، وإن كان قد اجتَهد.

**الثاني**: أنَّ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ أي: جاء موضعَ السرابِ، لم يَجِدِ السرابَ شيئًا؛ فاكتفَى بذكرِ السرابِ عن ذكرِ موضعِه.

**الثالث**: الكنايةُ للسرابِ؛ لأنَّ السرابَ يُرى مِن بعيدٍ بسببِ الكثافةِ كأنَّه ضبابٌ وهباءٌ، وإذا قرُب منه رقَّ وانتثر، وصار كالهواءِ، فالمرادُ: جاء الشيءَ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في ((الحلية)) (١/ ٥٢) والآجري في ((أدب النفوس)) (ص: ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٣٠) و(٢/ ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٣).

الذي تخيَّلَ أنَّه ماءٌ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـًٔا﴾ دَلالةٌ على أنَّ السَّرابَ مَعدومٌ، وأنَّ المعدومَ ليس شيئًا، وأنَّ الجبالَ يومَ القيامةِ تصيرُ إلى لا شَيءٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في شأنِها: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾[٢] [النبأ: ٢٠].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ حُجَّةٌ في أنَّ الكُفَّارَ يُحاسَبونَ[٣].

٤- لا رَيْبَ أنَّ الاعتِقاداتِ الفاسِدةَ -مِثلَ اعتِقادِ الكُفَّارِ في ربِّهم- وما يَتبَعُها مِنَ الإراداتِ هي خَيالاتٌ وأَوْهامٌ باطِلةٌ؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٣٩٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٢٧)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٩)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦٣٠).

قال ابنُ تيميَّةَ جوابًا عن سُؤالٍ: هل الكُفَّارُ يُحاسَبونَ يومَ القيامةِ أم لا؟: (هذه المسألةُ تنازَعَ فيها المتأخِّرون من أصحابِ أحمدَ وغيرِهم... وفَصْلُ الخِطابِ: أنَّ الحِسابَ يُرادُ به عَرضُ أعمالِهم عليهم وتَوبيخُهم عليها، ويرادُ بالحِسابِ مُوازَنةُ الحَسَناتِ بالسَّيِّئاتِ؛ فإنْ أُريدَ بالحِسابِ المعنى الأوَّلُ فلا رَيبَ أنَّهم يُحاسَبونَ بهذا الاعتِبارِ، وإن أُريدَ المعنى الثاني: فإنْ قَصَد بذلك أنَّ الكُفَّارَ تَبقى لهم حَسَناتٌ يَستَحِقُّونَ بها الجنَّةَ، فهذا خطأٌ ظاهِرٌ، وإنْ أُريدَ أنَّهم يَتفاوتونَ في العِقابِ، فعِقابُ مَن كَثُرت سيِّئاتُه أعظَمُ من عقابِ مَن قَلَّتْ سيِّئاتُه، ومَن كان له حَسَناتٌ خُفِّفَ عنه العذابُ، كما أنَّ أبا طالبٍ أخَفُّ عذابًا مِن أبي لهَبٍ، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [التوبة: ٣٧]، والنَّارُ دَرَكاتٌ؛ فإذا كان بَعضُ الكُفَّارِ عَذابُه أشَدُّ عَذابًا مِن بَعضٍ -لكَثرةِ سَيِّئاتِه، وقِلَّةِ حَسَناتِه- كان الحِسابُ لبَيانِ مراتِبِ العذابِ، لا لأجْلِ دُخولِهم الجنَّةَ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٠٥).

كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩-٤٠]، هذا بعْدَ قَولِه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَـٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1] [الأنعام: ١٢٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ الله تعالى متصَرِّفٌ بالإعطاءِ والمَنعِ، على حَسَبِ إرادتِه وحِكمتِه، وما سبَقَ مِن نِظامِ تَدبيرِه[2].

## بلاغةُ الآيتين:

١- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَـٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ...﴾ عطْفُ حالِ أعمالِ الكافرينَ عطْفَ القصَّةِ على القصَّةِ، على عادةِ القُرآنِ في إردافِ البِشارةِ بالنِّذارةِ. والجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا، وجُعِلَ المُسنَدُ إليه ما يدُلُّ على ذواتِ الكافرينَ، ثمَّ بُنِيَ عليه مُسنَدٌ إليه آخَرُ وهو ﴿أَعْمَـٰلُهُمْ﴾، ولم يُجعَلِ المُسنَدُ إليه أعمالَ الَّذين كَفروا مِن أوَّلِ وهْلةٍ؛ لِمَا في الافتتاحِ

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٧).

بذِكْرِ (الَّذين كفروا) مِن التَّشويقِ إلى مَعرفةِ ما سيُذكَرُ مِن شُؤونِهم؛ ليَتقرَّرَ في النفْسِ كَمالُ التَّقرُّرِ، وليَظهَرَ أنَّ للَّذينَ كَفروا حظًّا في التَّمثيلِ، بحيث لا يكونُ المُشبَّهُ أعمالَهم خاصَّةً، وفي الإتيانِ بالموصولِ وصِلَتِه إشارةٌ إلى وجْهِ بِناءِ الخبَرِ، وهو أنَّه مِن جَزاءِ كُفْرِهم باللهِ. على أنَّه قد يكونُ عنوانُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قد غلَبَ على المُشركين مِن أهلِ مكَّةَ؛ فيكونُ افتِتاحُ الكلامِ بهذا الوصفِ إشارةً إلى أنَّه إبطالٌ لشيءٍ اعتقدَهُ الَّذين كفروا؛ فتَشبيهُ الكافرينَ وأعمالِهم تَشبيهٌ تَمثيليٌّ؛ شُبِّهَت حالةُ كَدِّهم في الأعمالِ وحِرْصِهم على الاستكثارِ منها، مع ظَنِّهم أنَّها تُقرِّبُهم إلى رِضا اللهِ، ثمَّ تبيَّنَ أنَّها لا تُجْدِيهم، بلْ يَلْقَون العذابَ في وقتِ ظنِّهم الفوزَ: شبَّهَ ذلك بحالةِ ظمآنٍ يَرى السَّرابَ، فيَحسَبُه ماءً، فيَسْعى إليه، فإذا بلَغَ المسافةَ الَّتي خالَ -أي: ظَنَّ- أنَّها مَوقعُ الماءِ لم يجِدْ ماءً، ووجَدَ هُنالك غَريمًا يأسِرُه ويُحاسِبُه على ما سلَفَ مِن أعمالِه السَّيِّئةِ. والحالةُ المُشبَّهةُ مُركَّبةٌ مِن مَحسوسٍ ومَعقولٍ، والحالةُ المُشبَّهُ بها حالةٌ مَحسوسةٌ، أي: داخلةٌ تحتَ إدراكِ الحواسِّ[1].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ...﴾ شبَّهَ أعمالَهم في اضْمِحلالِها وفُقدانِ ثَمرتِها بسَرابٍ في مكانٍ مُنخفضٍ ظنَّه العطشانُ ماءً، فقصَدَه وأتعَبَ نفْسَه في الوُصولِ إليه، حتَّى إذا جاء مَوضِعَه الَّذي تخيَّلَه فيه، لم يجِدْه شيئًا، أي: فقَدَهُ؛ لأنَّه مع الدُّنوِّ لا يَرى شيئًا. كذلك الكافِرُ يظُنُّ أنَّ عمَلَه في الدُّنيا نافِعُه، حتَّى إذا أفْضى إلى الآخرةِ لم يَنفَعْه عمَلُه، بل صار وَبالًا عليه. ويَحتمِلُ أنْ يعودَ الضَّميرُ في ﴿جَآءَهُۥ﴾ على السَّرابِ، ثمَّ في الكلامِ مَتروكٌ كثيرٌ يدُلُّ عليه الظَّاهرُ، تقديرُه: وكذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٠، ٢٥١).

الكافرُ يومَ القيامةِ يظُنُّ عملَهُ نافعًا، حتَّى إذا جاءهُ لم يجِدْه شيئًا. ويَحتمِلُ الضَّميرُ أنْ يعودَ على العمَلِ الَّذي يدُلُّ عليه قولُه: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾، ويكونُ تَمامُ المثَلِ في قولِه: ﴿مَآءً﴾، ويَسْتغني الكلامُ عن مَتروكٍ على هذا التَّأويلِ، لكنْ يكونُ في المثَلِ إيجازٌ واقتِضابٌ؛ لوُضوحِ المعنى المُرادِ به[1].

- قولُه: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ فيه تَخصيصُ الحُسبانِ بالظَّمآنِ، مع شُمولِه لكلِّ مَن يراهُ كائنًا مَن كان مِن العطشانِ والرَّيَّانِ؛ لتكميلِ التَّشبيهِ بتَحقيقِ شَرِكةِ طرفَيهِ في وَجهِ الشَّبهِ الَّذي هو المُطلعُ المُطْمِعُ، والمُقطِعُ المُوئِسُ[2].

وأيضًا يُفيدُ قولُه: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ وجْهَ الشَّبهِ، ويتضمَّنُ أحدَ أركانِ التَّمثيلِ؛ وهو العطشانُ، وهو مُشابهُ الكافرِ صاحبِ العمَلِ؛ ضُرِبَ ذلك مثلًا لقُربِ زمَنِ إفضاءِ الكافرِ إلى عمَلِه وقتَ مَوتِه حينَ يَرى مَقعدَه، أو في وقتِ الحشْرِ. وقولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ مِن تَمامِ التَّمثيلِ، أي: لم يجِدِ الماءَ، ووجَدَ في مَظِنَّةِ الماءِ الَّذي ينتفِعُ به، وجَدَ مَن إنْ أخَذَ بناصيتِه لم يُفلِتْه[3].

- وأيضًا قولُه: ﴿يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ فيه تَشبيهٌ مُرسَلٌ[4]؛ فقد أخرَجَ ما لا تقَعُ عليه الحاسَّةُ إلى ما تقَعُ عليه الحاسَّةُ، ولو قِيلَ: (يَحسَبُه الرَّائي ماءً) لكان بَليغًا، وأبلَغُ منه لفظُ القُرآنِ؛ لأنَّ الظَّمآنَ أشدُّ حِرصًا عليه، وأكثَرُ تعلُّقَ قلْبٍ به. وتَشبيهُ أعمالِ الكفَّارِ بالسَّرابِ مِن أحسَنِ التَّشبيهِ وأبلَغِه؛ فكيف وقد تضمَّنَ مع ذلك حُسنَ النَّظمِ، وعُذوبةَ الألفاظِ، وصِحَّةَ الدَّلالةِ، وصِدْقَ التَّمثيلِ[5]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٣).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١٨).

- وفي قولِه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ تَشبيهٌ تَمثيليٌّ، أي: وجَدَ عِقابَه وزَبانيةَ عذابِه -على قولٍ في التفسيرِ- ووجْهُ التَّشبيهِ: أنَّ الَّذي يأْتي به الكافرُ من أعمالِ البِرِّ، ويعتقِدُ أنَّ له ثوابًا عندَ اللهِ تعالى وليس كذلك، فإذا وافَى عَرَصاتِ القيامةِ لم يجِدِ الثَّوابَ الَّذي كان يظُنُّه، بلْ وجَدَ العِقابَ العظيمَ، والعذابَ الأليمَ؛ فعظُمَت حَسرتُه، وتَناهى غمُّه؛ فشُبِّهَ حالُه بحالِ الظَّمآنِ الَّذي اشتدَّتْ حاجتُه إلى الماءِ، فإذا شاهَدَ السَّرابَ في البَرِّ تعلَّقَ قلْبُه، فإذا جاءهُ لم يجِدْه شيئًا، فكذلك حالُ الكافرِ يَحسَبُ أنَّ عمَلَه نافِعُه، فإذا احتاج إلى عمَلِه لم يجِدْه أغْنى عنه شيئًا[1].

- قولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فالجُملةُ عطْفٌ على مُقدَّرٍ، وليست معطوفةً على ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾، بلْ على ما يُفهَمُ منه بطريقِ التَّمثيلِ، مِن عدَمِ وُجدانِ الكفرةِ مِن أعمالِهم المذكورةِ عَيْنًا ولا أثرًا، كأنَّه قيل: حتَّى إذا جاء الكفرةُ يومَ القيامةِ أعمالَهم الَّتي كانوا في الدُّنيا يَحسَبونها نافعةً لهم في الآخرةِ، لم يجِدُوها شيئًا، ووَجَدوا حُكْمَ اللهِ وقضاءَه -على قولٍ في التفسيرِ- لهم بالمِرصادِ[2].

- قولُه: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ بَيانٌ لبقيَّةِ أحوالِهم العارضةِ لهم بعدَ ذلك بطريقِ التَّكملةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ قُصارى أمْرِهم هو الخَيبةُ والقُنوطُ فقطْ كما هو شأْنُ الظَّمآنِ[3].

- وإفرادُ الضَّميرينِ (فوجَدَ - فوفَّاه) الرَّاجعَينِ إلى الَّذين كَفروا؛ إمَّا لإرادةِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١).

الجنْسِ كالضَّمانِ الواقعِ في التَّمثيلِ، وإمَّا للحمْلِ على كلِّ واحدٍ منهم، وكذا إفرادُ ما يَرجِعُ إلى أعمالِهم[١].

- وجُملةُ: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ تذييلٌ؛ فالمُرادُ أنَّه لا يُماطِلُ الحِسابَ ولا يُؤخِّرُه عندَ حُلولِ مُقْتضيه؛ فهو عامٌّ في حسابِ الخيرِ والشَّرِّ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ هذا هو التَّشبيهُ الثَّاني لأعمالِهم؛ فالأوَّلُ فيما يَؤولُ إليه أعمالُهم في الآخرةِ -على قولٍ-، وهذا الثَّاني فيما هُم عليه في حالِ الدُّنيا -على قولٍ-. وبدَأَ بالتَّشبيهِ الأوَّلِ؛ لأنَّه آكَدُ في الإخبارِ؛ لِمَا فيه مِن ذِكْرِ ما يَؤولُ إليه أمْرُهم مِن العقابِ الدَّائمِ، والعذابِ السَّرْمَديِّ. ثمَّ أتبَعَهُ بهذا التَّمثيلِ الَّذي نبَّهَهم على ما هي أعمالُهم عليه؛ لعلَّهم يرجِعون إلى الإيمانِ، ويُفكِّرون في نُورِ اللهِ الَّذي جاء به الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣]. وقد شبَّهَ أعمالَهم أوَّلًا في فَواتِ نفْعِها وحُضورِ ضرَرِها بسَرابٍ لم يجِدْه مَن خدَعَه مِن بعيدٍ شيئًا، ولم يَكْفِه خَيبةً وكَمَدًا أنْ لم يجِدْ شيئًا كغيرِه مِن السَّرابِ، حتَّى وجَدَ عندَه الزَّبانيةَ -على قولٍ في التفسيرِ- تَعتِلُه إلى النَّارِ، ولا يقتُلُ ظمأَهُ بالماءِ. وشبَّهها ثانيًا في ظُلْمتِها وسَوادِها لكونِها باطلةً، وفي خُلوِّها عن نورِ الحقِّ بظُلُماتٍ مُتراكمةٍ مِن لُجِّ البحرِ والأمواجِ والسَّحابِ[٤].

- قولُه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢، ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤).

ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَا﴾ قِيل: تَقديرُ ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ﴾: أو كَذِي ظُلماتٍ، ودلَّ على هذا المُضافِ قولُه: ﴿إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ﴾؛ فالكِنايةُ تعودُ إلى المُضافِ المحذوفِ؛ فالتَّشبيهُ وقَعَ للكافرِ لا للأعمالِ -وهو خلافُ الظَّاهرِ-، ويكونُ التَّقديرُ: أو هُم كذي ظُلماتٍ؛ فيكونُ التَّشبيهُ الأوَّلُ لأعمالِهم، والثَّاني لهم في حالِ ضَلالِهم. وقيل: الآيةُ الأُولى في ذِكْرِ أعمالِ الكفَّارِ، والثَّانيةُ في ذِكْرِ كُفْرِهم، ونسَقَ الكُفرَ على أعمالِهم؛ لأنَّ الكُفرَ أيضًا مِن أعمالِهم، وقد قال تعالى: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] مِن الكُفرِ إلى الإيمانِ، فيكونُ التَّمثيلُ قد وقَعَ لأعمالِهم بكُفرِ الكافرِ، وأعمالُهم منها كُفْرُهم؛ فيكونُ قد شبَّهَ أعمالَهم بالظُّلماتِ[1].

- وأيضًا هذا التَّمثيلُ صالحٌ لاعتِبارِ التَّفريقِ في تَشبيهِ أجزاءِ الهيئةِ المُشبَّهةِ بأجزاءِ الهيئةِ المُشبَّهِ بها؛ فالضَّلالاتُ تُشبِهُ الظُّلماتِ، والأعمالُ الَّتي اقتحَمَها الكافرُ لقصْدِ التَّقرُّبِ بها تُشْبِهُ البحْرَ، وما يُخالِطُ أعمالَه الحَسنةَ مِن الأعمالِ الباطلةِ كالبَحيرةِ والسَّائبةِ، يُشبِهُ الموجَ في تَخليطِه العمَلَ الحَسنَ وتخلُّلِه فيه، وهو الموجُ الأوَّلُ. وما يَرِدُ على ذلك مِن أعمالِ الكُفرِ كالذَّبحِ للأصنامِ، يُشبِهُ الموجَ الغامِرَ الآتيَ على جميعِ ذلك بالتَّخلُّلِ والإفسادِ، وهو الموجُ الثَّاني، وما يحُفُّ اعتقادَهُ مِن الحَيرةِ في تَمييزِ الحسَنِ مِن العبَثِ ومِن القبيحِ، يُشبِهُ السَّحابَ الَّذي يَغْشى ما بقِيَ في السَّماءِ مِن بَصيصِ أنوارِ النُّجومِ، وتَطلُّبُه الانتفاعَ مِن عمَلِه يُشبِهُ إخراجَ الماخِرِ[2] يدَهُ لإصلاحِ أمْرِ سَفينتِه أو تناوُلِ ما يحتاجُه، فلا يَرى يدَهُ، بلْهَ الشَّيءَ الَّذي يُريدُ تناوُلَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣).

(٢) الماخِرِ: أي: مُجْرِي السَّفينةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٧).

- وقولُه: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ عطْفٌ على ﴿كَسَرَابٍ﴾، وكلمةُ (أو) للتَّنويعِ إثْرَ ما مُثِّلتْ أعمالُهم الَّتي كانُوا يعتمِدونَ عليها أقوى اعتمادٍ، ويفتخِرون بها في كلِّ وادٍ ونادٍ، بما ذُكِرَ مِن حالِ السَّرابِ مع زِيادةِ حِسابٍ وعِقابٍ: مُثِّلتْ أعمالُهم القَبيحةُ الَّتي ليس فيها شائبةُ خَيريَّةٍ يَغتَرُّ بها المُغترُّون بظُلُماتٍ[1].

وقيل: (أَو) للتَّخييرِ؛ فإنَّ أعمالَهم لكونِها لاغيةً لا مَنفعةَ لها كالسَّرابِ، ولكونِها خاليةً عن نُورِ الحقِّ كالظُّلماتِ المُتراكمةِ مِن لُجِّ البحرِ والأمواجِ والسَّحابِ. أو للتَّنويعِ؛ فإنَّ أعمالَهم إنْ كانت حَسنةً فكالسَّرابِ، وإنْ كانت قَبيحةً فكالظُّلماتِ. أو للتَّقسيمِ باعتبارِ وقْتينِ؛ فإنَّها كالظُّلماتِ في الدُّنيا، وكالسَّرابِ في الآخرةِ[2].

- (أو) إذا جاءت في عطْفِ التَّشبيهاتِ تدُلُّ على تَخييرِ السَّامعِ أنْ يُشَبِّهَ بما قبْلَها وبما بعْدَها مع اتِّحادِ وجْهِ الشَّبهِ. فالمعنى تَمثيلُ الَّذين كَفروا في أعمالِهم الَّتي يَظنُّون أنَّهم يتقرَّبون بها إلى اللهِ، بحالِ ظُلماتِ ليلٍ غَشِيَت ماخِرًا في بحرٍ شديدِ المَوجِ، قدِ اقتحَمَ ذلك البحرَ ليصِلَ إلى غايةٍ مطلوبةٍ؛ فحالُهم في أعمالِهم تُشبِهُ حالَ سابحٍ في ظُلماتِ ليلٍ في بَحرٍ عميقٍ، يَغشاهُ مُوجٌ يركَبُ بعضُه بعضًا لشدَّةِ تَعاقُبِه، وإنَّما يكونُ ذلك عندَ اشتدادِ الرِّياحِ، حتَّى لا يكادُ يَرى يدَهُ الَّتي هي أقرَبُ شيءٍ إليه، وأوضَحُه في رُؤيتِه؛ فكيف يَرْجو النَّجاةَ؟! وإنْ كان الكلامُ جاريًا على التَّخييرِ في التَّشبيهِ مع اختلافِ وَجْهِ الشَّبهِ، كان المعنى تَمثيلَ حالِ الَّذين كَفَروا في أعمالِهم الَّتي يعْمَلونها وهم غيرُ مُؤمنينَ، بحالِ مَن ركِبَ البحرَ يَرْجو بُلوغَ غايةٍ، فإذا هو في ظُلماتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣).

لا يَهْتدي معها طريقًا؛ فوجْهُ الشَّبهِ هو ما حَفَّ بأعمالِهم مِن ضَلالِ الكُفرِ الحائلِ دونَ حُصولِ مُبْتغاهم. ويُرجِّحُ هذا الوجهَ تَذييلُ التَّمثيلِ بقولِه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾. وهذا التَّمثيلُ مِن قَبيلِ تَشبيهِ حالةٍ مَعقولةٍ بحالةٍ مَحسوسةٍ، كما يُقال: شاهدتُ سوادَ الكُفرِ في وجْهِ فُلانٍ[1].

- والجمْعُ في قولِه: ﴿كَظُلُمَٰتٍ﴾ مُستعمَلٌ في لازمِ الكثرةِ، وهو الشِّدَّةُ؛ فالجمْعُ كِنايةٌ؛ لأنَّ شِدَّةَ الظُّلمةِ يحصُلُ مِن تظاهُرِ عِدَّةِ ظُلماتٍ[2].

- قولُه: ﴿مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ﴾ فيه إيماءٌ إلى غايةِ تَراكُمِ الأمواجِ وتَضاعيفِها حتَّى كأنَّها بلغَتِ السَّحابَ[3].

- قولُه: ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾، أي: مُتكاثِفةٌ مُتراكِمةٌ، وهذا بَيانٌ لكَمالِ شدَّةِ الظُّلماتِ[4].

- قولُه: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ﴾، أي: مَنِ ابتُليَ بها، وإضمارُه مِن غيرِ ذِكْرِه؛ لدَلالةِ المَعْنى عليه دَلالةً واضحةً[5].

- قولُه: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ مُبالغةٌ في (لم يَرَها)، أي: لم يَقرُبْ أنْ يراها، فضْلًا عن أنْ يَراها[6]، على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ؛ جِيءَ به لتَقريرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨١، ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦١٩، ٦٢٠).

ما أفادهُ التَّمثيلُ مِن كونِ أعمالِ الكَفَرةِ كما فُصِّلَ، وتحقيقِ أنَّ ذلك لعدَمِ هِدايتِه تعالى إيَّاهم لنُورِه. وإيرادُ الموصولِ؛ للإشارةِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى عِلَّةِ الحُكْمِ، وأنَّهم ممَّن لم يَشَأِ اللهُ تعالى هِدايتَهم[1].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٧).

## الآيات (٤١-٤٦)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾: أي: باسِطاتٍ أجنِحتَهُنَّ، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استواءٍ في الشَّيءِ[1].

﴿يُزْجِى﴾: أي: يَسوقُ، والتَّزجيةُ: دَفعُ الشَّيءِ ليَنساقَ، وأصلُ (زجي): يدُلُّ على تَسييرِ الشَّيءِ[2].

﴿يُؤَلِّفُ﴾: أي: يَجمَعُ، وأصلُ (ألف): يدُلُّ على انضِمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١)، ((تفسير =

﴿رُكَامًا﴾: الرُّكَامُ: ما يُجمَعُ ويُضَمُّ بعضُه إلى بعضٍ، وأصلُه يدُلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ[١].

﴿ٱلْوَدْقَ﴾: أي: المطَرَ، وأصلُ (ودق): يدُلُّ على إتيانٍ[٢].

﴿بَرَدٍ﴾: البَرَدُ: المطرُ الجامِدُ، ويُقالُ له: حَبُّ الغَمامِ، وأصلُ (برد) هنا: خِلافُ الحَرِّ[٣].

﴿سَنَا بَرْقِهِۦ﴾: أي: ضوءُ برقِه، والسَّنَا: الضَّوءُ السَّاطِعُ، وأصلُ (سنا): يدلُّ على رِفعةِ الضَّوءِ، وأصلُ (برق): يدُلُّ على لَمعانِ الشَّيءِ[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾

(مِنْ) الأُولى لابتِداءِ الغايةِ اتِّفاقًا، وأمَّا (مِن) الثانيةُ ففيها ثلاثةُ أوجهٍ؛ أحدها:

---

= القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٧)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٢).

قال الراغب: (والبَرَدُ: ما يبردُ مِن المطرِ في الهواءِ فيصلبُ). ((المفردات)) (ص: ١١٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢١) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨، ٤٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣).

أنَّها لابتِداءِ الغايةِ أيضًا، فـ (جبال) بدلُ اشتِمالٍ مِن (السَّماء) بإعادةِ الجارِّ، والتقديرُ: وينَزِّلُ من جبالِ السَّماءِ، أي: مِن جبالٍ فيها. الثاني: أنَّها للتبعيضِ، وهي ومجرورُها في موضِعِ نصبٍ مَفعولُ (يُنَزِّلُ)، كأنَّه قال: وينَزِّلُ بعضَ جبالٍ. الثالثُ: أنَّها زائدةٌ على قَولِ الأخفَشِ، أي: ينزِّلُ مِن السَّماء جِبالًا. وأمَّا (مِن) الثالثةُ ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ ففيها أربعةُ أوجهٍ: الثَّلاثةُ المتقَدِّمةُ، والرَّابعُ: أنَّها لبيانِ الجِنسِ، والتقدير: وينَزِّلُ مِن السَّماءِ بعضَ جبالٍ التي هي البَرَدُ، فالمنَزَّلُ برَدٌ؛ لأنَّ بعضَ البَرَدِ بَرَدٌ[1].

## المَعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: ألمْ ترَ أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ له وينَزِّهُه كُلُّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ مِن المَخلوقاتِ، والطَّيرُ باسِطاتٍ أجنِحَتَها في السَّماءِ حالَ الطَّيرانِ تُسَبِّحُ رَبَّها؟ كُلُّ مَخلوقٍ قد عَلِمَ صلاتَه وتَسبيحَه لله، وهو سُبحانَه عليمٌ بأفعالهم، لا يخفَى عليه شيءٌ منها، ولله وحْدَه مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ، فهو المالِكُ والمتصَرِّفُ في الكونِ، وإليه مَرجِعُ الخلائِقِ يومَ القيامةِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ مظاهرِ قدرتِه: ألم ترَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَسوقُ بقُدرتِه السَّحابَ إلى حيثُ يشاءُ، ثمَّ يجمَعُه بعدَ تفرُّقِه، ثمَّ يجعَلُه مُتراكِمًا بعضُه فوقَ بَعضٍ، فترى المطَرَ يخرُجُ مِن بينِ السَّحابِ الكثيفِ؟

ويُنَزِّلُ اللهُ مِن السَّماء بَرَدًا مِن قِطَعِ سَحابٍ عَظيمةٍ كأمثالِ الجِبالِ، فيُصيبُ بذلك البَرَدِ مَن شاء مِن العبادِ، ويَدفَعُه عمَّن يشاءُ، يَكادُ ضَوءُ البَرقِ في السَّحابِ

---

(١) ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥١٣)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٨/ ٢٧٤).

يَخطَفُ أبصارَ النَّاظِرينَ؛ مِن شِدَّةِ إضاءتِه، وقُوَّةِ لَمعانِه، يُقلِّبُ اللهُ تعالى اللَّيلَ والنَّهارَ، بمَجيءِ أحَدِهما بعدَ الآخَرِ، واختلافِهما طُولًا وقِصَرًا، وحرًّا وبردًا، ونورًا وظلمةً، وبما يقعُ فيهما مِن وقائعَ وأحداثٍ إلى غير ذلك، إنَّ في ذلك لَدلالةً واضِحةً، وعِظةً بليغةً لأصحابِ العُقولِ.

واللهُ تعالى خلقَ كُلَّ ما يَدِبُّ على الأرضِ مِن ماءٍ؛ فمِن هذه الدوابِّ مَن يزحَفُ على بَطنِه، كالحيَّةِ والزَّواحِفِ؛ ومنهم مَن يمشي على رِجلينِ، كالإنسانِ والطَّيرِ؛ ومنهم مَن يمشي على أربَعٍ، كالبهائِمِ ونَحوِها، يخلُقُ اللهُ ما يشاءُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثم يقولُ تعالى: لقد أنزَلْنا آياتِ القُرآنِ علاماتٍ واضِحاتٍ مُوضِحاتٍ للحَقِّ، واللهُ يُرشِدُ ويوَفِّقُ مَن يشاءُ إلى طريقِ الإسلامِ الواضِحِ المُستقيمِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مَثَلَ المؤمِنِ والكافِرِ، وأنَّ الإيمانَ والضَّلالَ أمْرُهما راجِعٌ إليه؛ أعقَبَ بذِكرِ الدَّلائِلِ على قُدرتِه وتوحيدِه[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألم تَرَ[2] أنَّ اللهَ يُسَبِّحُ له وينزِّهُه عن النَّقائِصِ كُلُّ مَن في السَّمَواتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تَعلَمْ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، وابن جُزَي، والشوكانيُّ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن =

وكُلُّ مَن في الأرضِ؛ مِن الملائكةِ والنَّاسِ والجِنِّ، والحيواناتِ والنَّباتاتِ والجَماداتِ[1]؟

---

= سليمان)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٤). ويُنظر: أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٨/ ٥١٢٨).

قال ابنُ عثيمين: (هل هذه الرُّؤيةُ بَصَريَّةٌ أو عِلميَّةٌ؟ ... الأَولى: أن تكونَ عِلميَّةً، يعني: ألَمْ تَعلَمْ، سواءٌ كان عِلمُك عن طريقِ المُشاهَدةِ بالبَصَرِ، أو عن طريقِ السَّمعِ بالأُذُنِ، أو عن طريقِ الاستِنتاجِ بالعَقلِ والتَّفكيرِ، هذه الثَّلاثةُ هي طُرُقُ العِلمِ، كما قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٤).

وقال الشوكاني: (والخطابُ لكلِّ مَنْ له أهليَّةُ النَّظرِ، أو للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسَلَّم، وقد عَلِمه مِنْ جهةِ الاستِدلالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧).

ممَّن اختار أنَّ المُخاطَبَ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، ومكي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٠).

وممَّن اختار العُمومَ: القرطبيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٤).

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ﴾ يعني: قد رأيتَ، لكِنْ هل الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه؟ الظَّاهِرُ: العُمومُ. ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أيُّها المخاطَبُ، لا أيُّها النبيُّ؛ لأنَّ ذلك أشمَلُ وأعَمُّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٢).

قال ابنُ جُزَي: (والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ والتَّعظيمُ، وهو مِنَ العُقلاءِ بالنُّطقِ، وأمَّا تَسبيحُ الطَّيرِ وغَيرِها مِمَّا لا يَعقِلُ، فقال الجُمهورُ: إنَّه حقيقيٌّ، ولا يَبعُدُ أن يُلهِمَها اللهُ التَّسبيحَ كما يُلهِمُها الأُمورَ الدَّقيقةَ التي لا يَهتدي إليها العُقَلاءُ. وقيل: تَسبيحُه: ظُهورُ الحِكمةِ فيه). ((تفسير ابن جزي)) =

كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾.

---

= (ص: ١٢٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٨).

وممَّن حَمَل التَّسبيحَ على حقيقتِه: الرسعنيُّ، وأبو حيان -لكِنْ خَصَّه بالمُطيعِ مِنَ الثَّقَلينِ-، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٧٥) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٧٤) (٤/ ٤٧).

وممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ: دَلالةُ هذه الأشياءِ على كَونِه تعالى مُنَزَّهًا عن النَّقائصِ، موصوفًا بنُعوتِ الجَلالِ، وأنَّ هذا التَّسبيحَ بلِسانِ الحال: الرازيُّ، والنيسابوري، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠١)، ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٧٩).

وممَّن جمع بين المعنَيَينِ السَّابِقَينِ: البيضاويُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٥).

قال ابن عثيمين: (وهذا التَّسبيحُ يَشمَلُ التَّسبيحَ بالقَولِ وبالحالِ؛ بالقَولِ، مِثلُ: سُبحانَ الله، وبالحالِ: أنَّك إذا تأمَّلْتَ خَلْقَه وما جُبِلوا عليه عَلِمْتَ بذلك أنَّ الله تعالى مُنَزَّهٌ عن العَبَثِ وعن النَّقائِصِ، يُسَمَّى هذا التسبيحَ بالحالِ.

إذا قُلْنا: إنَّ التَّسبيحَ بالمقالِ، فمِن المعلومِ أنَّ الكافِرَ لا يُسَبِّحُ اللهَ بمقالِه، يعني: لا يَقولُ: سُبحانَ اللهِ؛ لأنَّه يَصِفُ اللهَ تعالى بالعَيبِ، ويَجعَلُ مع اللهِ شَريكًا، لكِنَّه مُسَبِّحٌ لله بحالِه؛ فإنَّ حالَه وما جُبِلَ عليه، وانصِرافَه عن الحَقِّ مع وُضوحِه، وما أشبَهَ ذلك: كُلُّ ذلك ممَّا يدُلُّ على تنزيهِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وعلى حِكمتِه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٥).

وقيل: المرادُ بالتَّسبيحِ الصَّلاةُ، وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٢٨).

وقيل: معنى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ أي: يَذكُرُه. قاله مقاتل بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٣).

وممَّن جمع بيْن المعنَيَينِ السَّابِقَينِ -أي: أنَّ معنى ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾: يُصَلِّي له، ويَذكُرُه-: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٧).

أي: والطَّيرُ مُصطَفَّاتِ الأجنحةِ في الهواءِ، تُسَبِّحُ لله أيضًا في حالِ طَيَرانِها[1].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾.

أي: كلُّ مخلوقٍ قد عَلِمَ صلاتَه وتَسبيحَه لله[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٨، ٤٩)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥١، ٥٥٢).

قال الماوردي: (﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾... فيه قولانِ:

أحدُهما: أنَّ كلَّ واحدٍ منهم قد علِم صلاتَه وتسبيحَه.

الثاني: أنَّ الله قد علِم صلاتَه وتسبيحَه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١١٢).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: كلٌّ مِنَ المصَلِّينَ والمُسَبِّحِينَ قد عَلِم هو نفْسُه كيفيَّةَ صَلاتِه وتسبيحِه، على وَفقِ ما أرشدَه الله إليه: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥١، ٥٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٧).

قال الشنقيطي: (كلامُ الأُصوليِّينَ في أنَّ اللَّفظَ إنِ احتَمَل التَّوكيدَ والتَّأسيسَ حُمِلَ على التَّأسيسِ... وإذا عَلِمْتَ ذلك فاعلَمْ أنَّ الأظهَرَ على مُقتضى ما ذكَرْنا عن الأُصوليِّينَ: أن يكونَ ضَميرُ الفاعِلِ المحذوفُ في قَولِه: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ راجِعًا إلى قَولِه: ﴿كُلٌّ﴾، أي: كُلٌّ مِنَ المُصَلِّينَ قد عَلِمَ صَلاةَ نفْسِه، وكُلٌّ مِنَ المُسَبِّحينَ قد عَلِمَ تَسبيحَ نفْسِه، وعلى هذا القَولِ فقَولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ تأسيسٌ لا تأكيدٌ. أمَّا على القَولِ بأنَّ الضَّميرَ راجِعٌ إلى اللهِ، أي: قد عَلِمَ اللهُ صَلاتَه، يكونُ قَولُه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ كالتَّكرارِ مع ذلك؛ فيكونُ مِن قَبيلِ التَّوكيدِ اللَّفظيِّ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٥١).

وقال ابنُ عثيمين: (الصَّحيحُ أنَّ قَولَه: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ﴾، أي: كُلٌّ مِن هؤلاء المُسَبِّحينَ ﴿قَدْ عَلِمَ﴾ هو نفْسُه ﴿صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، لكِنْ بأيِّ شَيءٍ عَلِمَ؟ أمَّا بالنِّسبةِ للبَشَرِ وكذلك الجِنُّ فقد عَلِموا =

= عن طريقِ الرُّسُلِ، فالرُّسُلُ أرسلَهم اللهُ ليُعَلِّموا النَّاسَ كيف يُصَلُّونَ وكيف يُسَبِّحونَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ، وأمَّا البهائِمُ والحيواناتُ الأُخرى فإنَّها عَلِمَت صَلاتَها وتَسبيحَها بما ألهَمَها اللهُ عزَّ وجَلَّ، ولكُلٍّ منها صلاةٌ وتَسبيحٌ خاصٌّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٨٧).

وقال الشوكاني: (فائدةُ الإخبارِ بأنَّ كُلَّ واحدٍ قد عَلِمَ ذلك: أنَّ صدورَ هذا التَّسبيحِ هو عن عِلمٍ عَلَّمَها اللهُ ذلك، وألهَمَها إليه، لا أنَّ صُدورَه منها على طريقةِ الاتِّفاقِ بلا رَويَّةٍ، وفي ذلك زيادةُ دَلالةٍ على بديعِ صُنعِ الله سبحانَه، وعظيمِ شأنِه؛ كونُه جعَلَها مسبِّحةً له، عالِمةً بما يصدُرُ منها، غيرَ جاهلةٍ له). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨).

وقيل: المعنى: قد عَلِمَ اللهُ صلاةَ كُلِّ مصَلٍّ منهم وتسبيحَه، وأنَّ الضميرَ في ﴿عَلِمَ﴾ للهِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزجَّاج، والرسعني، وابنُ القيم، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٨، ٤٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦٦)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٦).

ممَّن حمل الصَّلاةَ والتَّسبيحَ على حَقيقتِهما: ابنُ القيم، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٢).

قال الشوكاني: (قيلَ: والصَّلاةُ هنا بمعنَى التَّسبيحِ، وكُرِّر للتَّأكيدِ، والصَّلاةُ قد تُسَمَّى تسبيحًا. وقيلَ: المرادُ بالصَّلاةِ هنا الدُّعاءُ، أي: كلُّ واحدٍ قد عَلِم دُعاءَه وتسبيحَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصَّلاةِ هنا: الدعاءُ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٨).

قال الرسعني: (قال أكثرُ المفسِّرينَ: الصلاةُ لبني آدمَ، والتَّسبيحُ لِما سِواهم). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦٧). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٢).

وقال مقاتل بن سليمان: (﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ﴾ مِنَ الملائكةِ والمُؤمِنينَ مِن الجِنِّ والإنسِ. ثمَّ قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ يعني: ويَذكُرُه كُلُّ مخلوقٍ بلُغتِه، غيرَ كُفَّارِ الإنسِ والجِنِّ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٣).

وقيل: إنَّ هذا في الطَّيرِ، وإنَّ ضَرْبَ أجنِحَتِها صَلاةٌ، وإنَّ أصواتَها تَسبيحٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١١٢).

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ بما يفعَلُ كُلُّ مُصَلٍّ ومُسَبِّحٍ منهم، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، وهو مُجازيهم على ذلك(١).

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٤٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا أخبرَ اللهُ تعالى عمَّا في الكونَينِ بما يستلزِمُ المُلكَ على أنهَى وجوهِ التَّمامِ المُستلزِمِ للقُدرةِ على البَعثِ؛ أخبرَ عنهما بالتَّصريحِ به(٢).

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عبوديَّةَ المخلوقاتِ، وافتقارَهم إليه مِن جِهةِ العبادةِ والتوحيدِ؛ بيَّنَ افتِقارَهم مِن جِهةِ المُلكِ والتَّربيةِ والتَّدبيرِ، فقال(٣):

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ولله سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ ومُلكُهما وتدبيرُهما، فلا تنبغي الرَّهبةُ والرَّغبةُ والعبادةُ إلَّا له وحْدَه(٤).

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وحْدَه مَرجِعُ عِبادِه، فيَبعَثُهم بعدَ مَوتِهم، ويُجازيهم على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

أعمالِهم؛ فلْيُحسِنوا عبادَتَه، ويجتَهِدوا في طاعتِه[١].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾.

أي: ألم تَرَ[٢] أنَّ اللهَ يَسوقُ بقُدرتِه قِطَعَ السَّحابِ المتفرِّقةَ، إلى حيثُ يريدُ[٣]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٠).

وقال ابن عثيمين: (ويحتَمِلُ أنَّ قولَه: ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ ليس المرادُ مَصيرَ النَّاسِ في الآخرةِ فقط، بل مصيرُ الأمورِ كُلِّها، يعني: المرجِعُ إلى اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، كلُّ شَيءٍ صائِرٌ إلى الله؛ فهو سبحانَه وتعالى يدبِّرُ ويَفعَلُ ما شاء). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٢).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الرُّؤيةَ هنا بَصَريَّةٌ: ابنُ عطيَّة، وابن عادل، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٤١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

وممَّن اختار أنَّ الرُّؤيةَ عِلميَّةٌ: مقاتلُ بن سليمان، والرازيُّ (وعَبَّرَ عن ذلك بقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعَينِ عَقلِك)، والقرطبيُّ (وعَبَّرَ عن ذلك بقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بعَينَي قَلبِك) ، والرسعني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٦٥، ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٣).

قال ابنُ عثيمين: (فالرُّؤيةُ في قَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى العِلمِ، وتفسيرُنا لها بالعِلمِ أعَمُّ مِن تفسيرِها بالرُّؤيةِ البَصَريَّةِ؛ لأجْلِ أن يَشمَلَ رُؤيةَ الإنسانِ ببَصَرِه -أي: عن طريقِ المُشاهَدةِ؛ لأنَّها تؤدِّي إلى العِلمِ-، ورُؤيةَ الإنسانِ بسَمْعِه بما يُخبَرُ به -لأنَّها تؤدِّي أيضًا إلى العِلمِ، ورؤيةَ الإنسانِ بقراءتِه عن هذا الأمرِ؛ لأنَّه يؤدِّي إلى العِلمِ،... فتَفسيرُها بالعِلمِ أَولى؛ لأنَّه أشمَلُ وأعَمُّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾.

أي: ثمَّ يجمَعُ اللهُ بينَ قِطَعِ السَّحابِ المتفرِّقةِ(١).

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾.

أي: ثمَّ يجعَلُ اللهُ قِطَعَ السَّحابِ المجموعةَ مُتراكِمةً؛ بَعضُها على بعضٍ، فتكونُ قويَّةً متَّصِلةً وكثيفةً(٢).

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾.

أي: فتنظُرُ إلى المطَرِ يَخرُجُ مِن فُتُوقِ السَّحابِ نُقَطًا متفرِّقةً(٣).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦١).

قال ابن عاشور: (أكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّ الوَدْقَ هو المطَرُ، وهو الذي اقتصَرَت عليه دواوينُ اللُّغةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦١).

وممَّن نسَبَ هذا القولَ للجمهورِ: الماوَرْديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٨). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٢١).

أي: ويُنَزِّلُ اللهُ البَرَدَ مِن جِهةِ السَّماءِ إلى الأرضِ، مِن قِطَعِ سَحابٍ عظيمةٍ كالجِبالِ[١].

﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾.

أي: فيُصيبُ اللهُ بالبَرَدِ مَن يَشاءُ مِن عبادِه؛ عقوبةً لهم، فيَضُرُّهم في أنفُسِهم وأموالِهم، ويُتلِفُ ثمارَهم وزُروعَهم، ويَصرِفُ البَرَدَ عَمَّن يشاءُ مِن عبادِه؛ رَحمةً بهم، فلا يُصيبُهم ضَرَرُه[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦١، ٢٦٢).

قال الرازي: (في هذه الآيةِ قولان؛ أحدُهما: أنَّ في السَّماءِ جِبالًا مِن بَرَدٍ خلَقَها الله تعالى كذلك، ثمَّ يُنزِّلُ منها ما شاء. وهذا القَولُ عليه أكثَرُ المفَسِّرينَ، قال مجاهدٌ والكلبيُّ: جبالٌ مِن بَرَدٍ في السَّماءِ. والقولُ الثاني: أنَّ السَّماءَ هو الغَيمُ المرتفِعُ على رؤوسِ النَّاسِ؛ سُمِّيَ بذلك لسُمُوِّه وارتفاعِه، وأنَّه تعالى أنزلَ مِن هذا الغيمِ -الذي هو سماءٌ- البَرَدَ، وأراد بقولِه: ﴿مِن جِبَالٍ﴾ السَّحابَ العِظامَ؛ لأنَّها إذا عَظُمت أشبَهَت الجبالَ، كما يقالُ: فلانٌ يملِكُ جِبالًا مِن مالٍ، ووُصِفَت بذلك توسُّعًا. وذهبوا إلى أنَّ البَرَدَ ماءٌ جامِدٌ خلَقَه الله تعالى في السَّحابِ، ثمَّ أنزله إلى الأرضِ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٥).

وممَّن ذهَب إلى القولِ الأوَّلِ وأنَّ هذه الجبالَ مِن بَرَدٍ: يحيى بنُ سلام، والزجَّاج، والواحدي، وأبو حيان، والعليمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٤) ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٧).

وممَّن ذهَب إلى القولِ الثاني في الجملةِ: البِقَاعيُّ، ومحمد رشيد رضا، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦١، ٢٦٢).

وقال محمد رشيد رضا: (لا مانِعَ مِنْ جَعْلِ السَّماءِ فيها عَيْنَ السَّحابِ، ولعلَّ الأظهَرَ أنْ يُرادَ بها جهةُ العلوِّ الَّتي يكونُ فيها السَّحابُ؛ كقولِه: ﴿فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨]). ((تفسير المنار)) (٨/ ٤١٦). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن =

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

أي: يُقارِبُ ضَوءُ بَرقِ السَّحابِ أن يُعمِيَ عُيونَ النَّاظِرينَ إليه؛ مِن شِدَّةِ ضَوئِه ولَمعانِه[1].

كما قال تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠].

---

= كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٢).

قال ابن كثير: (يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بقولِه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بما ينزِلُ مِن السَّماءِ مِن نوعَيِ البَرَدِ والمطرِ؛ فيكونَ قولُه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ رحمةً لهم، ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ أي: يُؤَخِّرُ عنهم الغَيْثَ.

ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بقولِه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ أي: بالبَرَدِ؛ نِقْمَةً على مَن يشاءُ؛ لِمَا فيه مِنْ نَثْرِ ثِمارِهم، وإتلافِ زُروعِهم وأشجارِهم. ويَصْرِفُه عَمَّنْ يشاءُ؛ أي: رحمةً بهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣).

ممَّن اختار أنَّ إصابةَ البَرَدِ هنا نِقمةٌ وضرَرٌ، وصَرْفَه رحمةٌ ونِعمةٌ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠١).

قال ابن عثيمين: (يحتَمِلُ أن تكونَ مِن بابِ الامتنانِ؛ فإنَّ البَرَدَ قد يكونُ خَيرًا، وقد يَحصُلُ به رِيُّ الأرضِ ونباتُ الأشجارِ وغَيرُ ذلك؛ فيكونَ هذا من بابِ سياقِ الامتنانِ: يُصيبُ بهذا البَرَدِ مَن يشاءُ فيَنتَفِعُ به، ﴿وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾ فيَفوتُه الانتِفاعُ. ولا مانِعَ مِن أن يُستعمَلَ الصَّرفُ في صَرفِ الشَّيءِ النَّافِعِ، وإنْ كان الأكثَرُ أن يكونَ في صَرفِ الأشياءِ الضَّارَّةِ، لكِنْ قد يُستعمَلُ أيضًا في صَرفِ الأشياءِ التي تنفَعُ، وهذا من بلاغةِ القُرآنِ: أن تكونَ هذه الجُملةُ صالحةً للوَجهَينِ: وَجهِ العُقوبةِ، ووَجهِ الرَّحمةِ؛ فالإصابةُ بالبَرَدِ أحيانًا تكونُ عُقوبةً تَهلِكُ بها الزُّروعُ وتموت بها المواشي، وأحيانًا بالعَكسِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٤﴾.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

أي: يُعقِّبُ اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ؛ فيأتي بأحَدِهما بعْدَ الآخَرِ، ويتصَرَّفُ فيهما بالزِّيادةِ والنُّقصانِ، ويغَيِّرُ حالَهما بالحَرِّ والبَردِ، والظُّلمةِ والنُّورِ إلى غيرِ ذلك، ويُديلُ الأيامَ بينَ عبادِه، ويَرفعُ أقوامًا ويضعُ آخرينَ إلى غيرِ ذلك[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بتقلُّبِ اللَّيلِ والنَّهارِ: اختِلافُهما؛ فيأتي باللَّيلِ ويَذهبُ بالنهارِ، ثمَّ يأتي بالنهارِ ويَذهبُ باللَّيلِ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والواحديُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والخازنُ، وابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلف: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦١٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: أخْذُ كلِّ واحِدٍ منهما مِن صاحِبِه: يحيى بنُ سلام، وابن أبي زمنين، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يُعاقِبُ بيْن اللَّيلِ والنهارِ، ويُخالِفُ بيْنهما بالطُّولِ والقِصَرِ: الزمخشريُّ، والنسفي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٨).

وممَّن اختار ما هو أعَمُّ مِن التقليبِ الحِسِّيِّ: ابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ، وابنُ عثيمين:

قال ابنُ عثيمين: (المرادُ ما هو أعَمُّ مِن التَّقليبِ الحِسِّيِّ، والتقليبُ الحِسِّيُّ أنَّ اللهَ يُقَلِّبُ الأرضَ: بَدلًا مِن أنْ كانت ضياءً ونهارًا إلى لَيلٍ، ثمَّ إلى نهارٍ، وهكذا... والتَّقليبُ المعنويُّ: ما يحصُلُ في هذه الأيامِ مِن الحوادِثِ والتغَيُّراتِ، والعِزِّ والنَّصرِ، والإذلالِ والخِذلانِ، كما قال =

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

أي: إنَّ في ذلك[1] لَعِظةً لأصحابِ العُقولِ النَّافذةِ، الذين يعتَبِرونَ بالنَّظَرِ إليه، فيَستَدِلُّونَ بذلك على وُجودِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه وعظَمتِه وتوحيدِه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ

---

= الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠١).

وقال ابن تيميَّةَ: (تقليبُه اللَّيلَ والنَّهارَ: تحويلُ أحوالِ العالَمِ بإنزالِ المطَرِ الذي هو سبَبُ خلقِ النَّباتِ والحيوانِ والمَعدِن، وذلك سبَبُ تحويلِ النَّاسِ مِن حالٍ إلى حالٍ، المتضَمِّنِ رَفْعَ قومٍ وخَفْضَ آخَرينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤٩٢).

وقال السعدي: (﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ مِن حرٍّ إلى بردٍ، ومِن بردٍ إلى حرٍّ، مِن لَيلٍ إلى نهارٍ، ومِن نهارٍ إلى لَيلٍ، ويُديلُ الأيامَ بينَ عبادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(١) ممَّن اختار أنَّ معنى قولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الذي ذكرتُ مِن هذه الأشياءِ، مما تقدَّم ذِكرُه: الثعلبيُّ، والرازي، والبيضاوي، والخازن، وأبو حيان، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠).

قال ابن جرير: (يقولُ: إنَّ في إنشاءِ اللهِ السَّحابَ، وإنزالِه منه الوَدْقَ، ومِن السَّماءِ البَرَدَ، وفي تقليبِه اللَّيلَ والنَّهارَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: إنَّ في ذلكَ التَّقليبِ: السمرقنديُّ، والواحدي، وابن الجوزي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠٢).

قال ابن عاشور: (والإشارَةُ الواقعةُ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تَضَمَّنه فعلُ ﴿يُقَلِّبُ﴾ مِن المصدرِ. أي: إنَّ في التَّقليبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا استدلَّ أوَّلًا بأحوالِ السماءِ والأرضِ، وثانيًا بالآثارِ العُلويةِ؛ استدلَّ ثالثًا بأحوالِ الحيواناتِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى أوَّلًا أحوالَ الخافِقَينِ[٢] دليلاً على وَحدانيَّتِه، وفصَّلَ منها الآثارَ العُلويَّةَ، فذكَرَ ما يَسقي الأرضَ؛ ذكَر أحوالَ ما يتكوَّنُ به مِن الحيواناتِ دَليلًا ظاهِرًا على الإعادةِ، وبُرهانًا قاهِرًا على المُنكِرينَ لها، فقال تعالى[٣]:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾.

أي: واللهُ خلَقَ كلَّ كائنٍ حَيٍّ يمشي على الأرضِ، مِن ماءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٦).

(٢) الخافِقَينِ: أي: المَشرِق والمَغرِب، أو أُفُقَيهما. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٥/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

قال ابنُ الجوزي: (وفي الماءِ قولان؛ أحَدُهما: أنَّ الماءَ أصلُ كُلِّ دابَّةٍ. والثَّاني: أنَّه النُّطفةُ، والمرادُ به: جميعُ الحيوانِ المشاهَدِ في الدُّنيا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠١).

والقَولُ الأوَّلُ هو ظاهِرُ قَولِ السمعانيِّ، وابنِ كثيرٍ، واختاره ابنُ رجب، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((لطائف المعارف)) =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾.

أي: فمِنَ الحَيواناتِ المَخلوقةِ مِنْ ماءٍ مَنْ يَمشي زَحفًا على بَطنِه؛ كالحيَّةِ[1].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾.

أي: ومِنهم مَن يمشي قائِمًا على رِجلَينِ؛ كالإنسانِ والطَّيرِ[2].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾.

---

= لابن رجب (ص: ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠٤).

والقَولُ الثَّاني -أنَّ المرادَ بالماءِ النُّطفةُ- عزاه الشوكانيُّ للجمهور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠).

وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠١).

قال ابنُ رجب: (وقَولُ مَن قال: إنَّ المرادَ بالماءِ النُّطفةُ التي يُخلَقُ منها الحيواناتُ- بَعيدٌ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٣).

وقال ابنُ عثيمين: (كَلِمةُ ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ أعَمُّ مِن كَلِمةِ نُطفةٍ، والواجِبُ إبقاءُ الآيةِ على عُمومِها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠٤).

وقال الشوكاني: (وقيل: في الآيةِ تَنزيلُ الغالِبِ مَنزِلةَ الكُلِّ، على القَولِ الأوَّلِ -أي: أنَّ المرادَ بالماءِ: النُّطفةُ-؛ لأنَّ في الحيواناتِ مَن لا يتولَّدُ عن نُطفةٍ، ويخرُجُ من هذا العُمومِ الملائِكةُ؛ فإنَّهم خُلِقوا مِن نورٍ، والجانُّ؛ فإنَّهم خُلِقوا مِن نارٍ). ((فتح القدير)) للشوكاني (٤/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

أي: ومنهم مَن يمشي على أربَعِ قوائِمَ؛ كالبهائِمِ[١].

﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: يُحدِثُ اللهُ بقُدرتِه في كُلِّ وَقتٍ ما يشاءُ مِن المَخلوقاتِ المتنوِّعةِ، ويجعَلُها على ما يَشاءُ مِن الصِّفاتِ المُختَلِفةِ[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قادِرٌ، ومِن ذلك قدرتُه على خلْقِ ما يشاءُ، ودخولُ كلِّ مخلوقاتِه تحتَ قدرتِه، فهو سبحانه لا يُعجِزُه شَيءٌ[٣].

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا اتَّضحَ بما ذُكِرَ مِن الدَّلائِلِ ما لله تعالى مِن صِفاتِ الكَمالِ، والتنزُّهِ عن كُلِّ شائِبةِ نَقصٍ، وقامت أدِلَّةُ الوحدانيَّةِ على ساقٍ، واتَّسَقت براهينُ الألوهيَّةِ أيَّ اتِّساقٍ؛ قال تعالى مُترجِمًا لتلك الأدِلَّةِ[٤]:

﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾.

أي: لقد أنزَلْنا آياتِ القُرآنِ عَلاماتٍ واضِحاتٍ مُوضِحاتٍ للحَقِّ ولِما يحتاجُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٤).

النَّاسُ إلى بيانِه مِن مَعارِفَ وعُلومٍ، وآدابٍ وأحكامٍ[١].

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: واللهُ يُرشِدُ ويُوفِّقُ مَن يشاءُ مِن عبادِه مِمَّن هو أهلٌ للهِدايةِ، إلى طريقِ الإسلامِ المُستَقيمِ الواضِحِ، المُوصِلِ إلى رِضاه وجَنَّتِه[٢].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تنبيهٌ على أنَّه سُبحانَه وتعالى مالِكٌ للأوَّلِ والآخِرِ، فـ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ ابتداءٌ، ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ انتهاءٌ؛ ففيه -واللهُ أعلمُ- إشارةٌ إلى أنَّه إذا كان المُلكُ للهِ والمرجِعُ إليه، فإنَّه لا يَحِلُّ لنا أنْ نتصَرَّفَ إلَّا حسَبَ ما شُرِعَ لنا ما دُمْنا مِلكًا للهِ عزَّ وجلَّ، ومصيرُنا إلى اللهِ، وما دُمْنا نَعلمُ أنَّ مصيرَنا إليه فلا بُدَّ أنْ نستعدَّ لهذا المصيرِ؛ لأنَّه سوف يُحاسِبُنا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٧).

قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ يعُمُّ كُلَّ ما نصَبَ الله تعالى من آيةٍ وصَنعةٍ للعِبرةِ، وكُلَّ ما نصَّ في كتابِه مِن آيةِ تنبيهٍ وتذكيرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩١).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بالآياتِ هنا آياتُ القرآنِ، كما يقتضيه فِعلُ ﴿أَنزَلۡنَآ﴾؛ ولذلك لم تُعطَفْ هذه الجملةُ على ما قبْلَها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

قال ابنُ عثيمين: (يعني: على الرَّغمِ مِن كَونِ الآياتِ ﴿مُّبَيِّنَٰتٖ﴾ واضِحةً مُبيِّنةً، على الرَّغمِ مِن ذلك، فليس كلُّ أحدٍ يَهتدي بها، وإنَّما الله تعالى ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٩١).

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فالبصيرُ ينظُرُ إلى هذه المخلوقاتِ نظَرَ اعتِبارٍ وتفكُّرٍ وتدَبُّرٍ لِما أُريدَ بها ومنها، والمُعرِضُ الجاهِلُ نَظَرُه إليها نظَرُ غَفلةٍ، بمنزلةِ نظَرِ البَهائمِ(١)!

٣- قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تأمَّلْ كيف نبَّه سُبحانَه باختلافِ الحيواناتِ في المشيِ مع اشتراكِها في المادَّةِ على الاختِلافِ فيما وراءَ ذلك من أعضائِها وأشكالِها، وقُواها وأفعالِها، وأغذيتِها ومساكِنِها؛ فنبَّه على الاشتراكِ والاختِلافِ، فنُشيرُ إلى يسيرٍ منه: فالطَّيرُ كُلُّها تشتَرِكُ في الريشِ والجَناحِ، وتتفاوتُ فيما وراءَ ذلك أعظَمَ تفاوُتٍ، واشتراكُ ذواتِ الحوافِرِ في الحافِرِ، كالفَرَسِ والحِمارِ والبَغلِ، وتفاوُتُها في ما وراءَ ذلك، واشتراكُ ذواتِ الأظلافِ في الظِّلفِ، وتفاوتُها في غيرِ ذلك، واشتراكُ ذواتِ القُرونِ فيها، وتفاوتُها في الخَلقِ والمنافِعِ والأشكالِ، واشتراكُ حَيواناتِ الماء في كونِها سابحةً تأوي فيها وتتكوَّنُ فيها، وتفاوتُها أعظَمُ تفاوُتٍ عَجَز البشرُ إلى الآنَ عن حَصْرِه، واشتراكُ الوحوشِ في البُعدِ عن النَّاسِ، والنِّفارِ عنهم وعن مساكِنِهم، وتفاوتُها في صفاتِها وأشكالِها وطبائِعِها وأفعالها أعظَمُ تفاوُتٍ يَعجِزُ البشَرُ عن حصرِه، واشتراكُ الماشي منها على بطنِه في ذلك، وتفاوتُ نَوعِه، واشتراكُ الماشي على رِجلَين في ذلك، وتفاوُتُ نوعِه أعظَمُ تفاوتٍ؛ وكلٌّ من هذه الأنواعِ له عِلمٌ وإدراكٌ وتحيُّلٌ على جَلبِ مصالِحِه ودَفعِ مَضارِّه، يعجِزُ عن كثيرٍ منها نوعُ الإنسانِ، فمِن أعظَمِ الحِكَمِ الدَّلالةُ الظاهرةُ على مَعرفةِ الخالِقِ الواحدِ المُستولي بقوَّتِه وقُدرتِه وحِكمتِه على ذلك كُلِّه، بحيث جاءت

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

كُلُّها مطيعةً مُنقادةً مُنساقةً إلى ما خلَقَها له على وَفقِ مَشيئتِه وحكمتِه، وذلك أدَلُّ شيءٍ على قوَّتِه القاهرةِ، وحِكمتِه البالِغةِ، وعِلمِه الشَّامِلِ، فيُعلَمُ إحاطةُ قُدرةٍ واحدةٍ، وعلمٍ واحدٍ، وحِكمةٍ واحدةٍ -أعني: بالنوع- مِن قادرٍ واحدٍ، عالِمٍ واحدٍ، حَكيمٍ واحدٍ، بجميعِ هذه الأنواعِ وأضعافِها مِمَّا لا تعلَمُه العُقولُ البشريَّةُ، كما قال: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1] [النحل: ٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أن يعتَمِدَ على نفْسِه في الهدايةِ، بل يسألُ اللهَ دائمًا أنْ يهديَه ثم يُثَبِّتَه ما دامَ أنَّ اللهَ هو الذي يهدي[2]! فالله تعالى عَمَّم البيانَ التَّامَّ لجميعِ الخَلقِ، فقال: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾، وخَصَّص بالهدايةِ مَن يشاءُ، فهذا فَضلُه وإحسانُه، وما فَضلُ الكريمِ بمَمنونٍ -أي: بمقطوعٍ-، وذاك عَدلُه[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ الله تعالى عَلِمَ في الجماداتِ وسائِرِ الحيواناتِ سِوى العُقلاءِ عِلمًا لا يَقِفُ عليه غيرُه، فلها صلاةٌ وتَسبيحٌ وخَشيةٌ، كما قال جلَّ ذِكرُه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [الحج: ١٨] الآيةَ؛ فيَجِبُ على المرءِ الإيمانُ به، ويَكِلُ عِلمَه إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى[4].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (١/ ١٣٢).

٢- قال تعالى: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ إنَّ إعطاءَ الله سبحانه للأجرامِ الثَّقيلةِ ما تتمكَّنُ مِن الوُقوفِ في الجَوِّ والحركةِ كيف تشاءُ مِن الأجنحةِ والأذنابِ الخَفيفةِ، وإرشادَها إلى كيفيَّةِ استعمالِهما بالقبْضِ والبسْطِ: حُجَّةٌ نيِّرةٌ واضحةُ المَكنونِ، وآيةٌ بيِّنةٌ لقومٍ يعقِلون، دالَّةٌ على كَمالِ قُدرةِ الصَّانعِ المجيدِ، وغايةِ حِكمةِ المُبدئِ المُعيدِ(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ إنَّما دخلَتْ (بينَ) على مفردٍ، وهي إنما تَدخُلُ على المثَّنى فما فوقَه؛ لأنَّه إمَّا أن يُرادَ بالسَّحابِ الجِنسُ، فعاد الضَّميرُ عليه على حُكمِه، وإمَّا أن يُرادَ حَذفُ مُضافٍ، أي: بيْن قِطَعِه؛ فإنَّ كلَّ قِطعةٍ سَحابةٌ(٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ جعَلَ نُزولَ البرَدِ إصابةً؛ لأنَّ الإصابةَ إذا أُطْلِقَت في كلامِهم دلَّتْ على أنَّها حُلولُ مَكروهٍ، ومِن ذلك سُمِّيَتِ المُصيبةُ: الحادثةَ المكروهةَ، فجعَلَ نُزولَ البرَدِ إصابةً؛ لأنَّه يُفسِدُ الزَّرعَ والثَّمرةَ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا﴾ نصٌّ صريحٌ أنَّ ذلك ليس مِن تَفرقةِ الرِّيحِ كما يزعُمُ أهلُ الطبيعةِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى ذَكَرَ بعدَ ذلك أنَّه هو الذي يُصرِّفُه ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ﴾، وقد نصَّ تعالى أنه هو المُصَرِّفُ له في آيةٍ أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا * وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٢).

﴿كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨-٥٠]، وهذا مِن لُطْفِ اللهِ وحِكمتِه؛ فإنَّه لو لم يجعَلْ للمطَرِ فُتوقًا وفُروجًا يَنزِلُ منها مُفرَّقًا، فأنزلَه دَفعةً واحدةً إلى الأرضِ لأهلكَ الناسَ والدَّوابَّ، ولأفسدَ الأرضَ وخرَّبَها، وهذا يرُدُّ على عُلَماءِ الطبيعةِ الذين لا يَعتَبِرونَ لهذا الكونِ مُدَبِّرًا(١)!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ في السَّماءِ جِبالًا مِن بَرَدٍ -على أحدِ القولَينِ-، وهو تعالى يُنبِّه خلْقَه على ما فيه نفْعُهم؛ لِيطمَعوا فيه، وعلى ما فيه هَلاكُهم؛ لِيخافوا منه، فنَبَّهَ على ما يَطمَعونَ فيه بالمطَرِ، ونَبَّهَ على ما يخافونَ منه بالبَرَدِ، وهو شَبيهٌ بقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾(٢) [الرعد: ١٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ فيه تَنبيهُ العُقولِ إلى التَّدبُّرِ في هذه التَّغيُّراتِ؛ إذ كان شُعورُ النَّاسِ بحُدوثِ البرْقِ أوضَحَ وأكثَرَ مِن شُعورِهم بتكوُّنِ السَّحابِ وتَراكُمِه، ونُزولِ المطَرِ والبرَدِ؛ إذ قد يَغفُلُ النَّاسُ عن ذلك لكثرةِ حُدوثِه وتَعوُّدِهم به، بخلافِ اشتدادِ البرْقِ؛ فإنَّه لا يَخْلو أحدٌ مِن أنْ يكونَ قد عرَضَ له مرَّاتٍ، فإنَّ أصحابَ الأبصارِ الَّتي حرَّكَها خَفْقُ البرْقِ يتذكَّرون تلك الحالةَ العجيبةَ الدَّالَّةَ على القُدرةِ؛ ولهذه النُّكتةِ خُصِّصَت هذه الحالةُ مِن أحوالِ البرْقِ بالذِّكْرِ(٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ العِبرةُ مِن الاعتبارِ، وهو مأخوذٌ مِن «العِبْرِ» وهو شاطِئُ النَّهرِ، ومَن قَطَعَ النَّهرَ فقد عَبَرَه، فكأنَّ المُعتَبِرينَ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على قُدرتِه عَبَروا مِن شاطِئِ السِّنَةِ والغَفلةِ والجهلِ إلى شاطِئِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٢).

النُّورِ والانتباهِ والاتِّعاظِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أنَّ عُمْيَ الأبصارِ لا يَستدِلُّونَ بهذه الآياتِ على كَمالِ قُدرتِه، ولا يَنتَفِعونَ منها بشَيءٍ[٢].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الماءَ مادَّةُ جَميعِ الحيواناتِ، وعلى خَلقِ جَميعِ ما يدِبُّ وما فيه حياةٌ مِن ماءٍ؛ فعُلِمَ بذلك أنَّ أصلَ جَميعِها الماءُ المُطلَقُ[٣].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ لمَ قال الله ذلك مع أنَّ كثيرًا مِن الحيواناتِ غَيرُ مخلوقةٍ مِن الماءِ، أمَّا الملائكةُ فهُم أعظَمُ المخلوقاتِ الحيةِ عَددًا، وهم مخلوقونَ مِن النورِ، وأمَّا الجِنُّ فهم مخلوقون مِن النَّارِ[٤]، وخَلَق

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٦٦).

قال الرازي: (ع ب ر» ... تُفيدُ العُبورَ والانتقالَ، ... ومنه العِبارةُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يُمْكِنُه أنْ يَتكَلَّمَ بها إلَّا إذا انتَقَل مِن حرفٍ إلى حرفٍ آخَرَ، وأيضًا كأنَّه بسببِ تلك العِبارةِ يَنتقِلُ المعنَى مِن ذِهْنِ نفْسِه إلى ذِهنِ السَّامِعِ. ومنه العَبْرَةُ؛ لأنَّ تلك الدَّمعةَ تَنتقِلُ مِن داخلِ العيْنِ إلى الخارِجِ. ومنه العِبْرُ؛ لأنَّ الإنسانَ يَنتقِلُ فيها مِن الشَّاهدِ إلى الغائِبِ. ومنه المِعْبَرُ؛ لأنَّ الإنسانَ يَنتقِلُ بِواسِطَتِه مِن أحدِ طرفَيِ البحرِ إلى الثَّاني. ومنه التَّعبيرُ؛ لأنَّه يَنتقِلُ مِمَّا يَراهُ في النَّومِ إلى المعاني الغائبةِ). ((تفسير الرازي)) (١/ ٣٢).

وقال ابن القيِّم: (الاتِّعاظُ يُسمَّى اعتِبارًا وعِبرةً؛ لعبورِ المتَّعِظِ مِن النَّظيرِ إلى نظيرِه). ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (١/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٣).

(٤) قال ابن رجب: (القرآنُ دَلَّ على خَلقِ جَميعِ ما يدِبُّ وما فيه حياةٌ مِن ماءٍ، فعُلِمَ بذلك أنَّ أصلَ جَميعِها الماءُ المُطلَقُ، ولا يُنافي هذا قَولُه تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧]، وقَولُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «خُلِقت الملائكةُ مِن نورٍ» [مسلم (٢٩٩٦) من حديثِ عائشةَ]؛ فإنَّ حديثَ أبي هُريرةَ «كُلُّ شَيءٍ خُلِقَ مِن ماءٍ» [أحمد (٧٩٣٢)، وابن حبان (٢٥٥٩)، والحاكم (٧٢٧٨). ويُنظر: ((إرواء الغليل)) للألباني (١/ ١٩٠)] دلَّ على =

اللهُ آدمَ مِن الترابِ؛ لِقَولِه: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]، وقال عن خلقِ عيسى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وأيضًا كثيرٌ من الحيواناتِ متولِّدٌ لا عن النُّطفةِ؟

**الجواب من وجوه:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ قَولَه: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ صِلةُ ﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾، وليس هو مِن صِلةِ ﴿خَلَقَ﴾، والمعنى: أنَّ كُلَّ دابَّةٍ متولِّدةٍ مِن الماء فهي مخلوقةٌ لله تعالى.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ أصلَ جَميعِ المخلوقاتِ الماءُ، ولَمَّا كان المقصودُ مِن هذه الآيةِ بيانَ أصلِ الخِلقةِ، وكان الأصلُ الأوَّلُ هو الماءَ؛ لا جَرَمَ ذَكَره على هذا الوجهِ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ المرادَ مِن (الدابَّة) التي تدِبُّ على وجهِ الأرضِ، ومَسكنُهم هناك، فيَخرُجُ عنه الملائكةُ والجِنُّ، ولَمَّا كان الغالِبُ جِدًّا من هذه الحيواناتِ كَونَهم مخلوقينَ مِن الماء؛ إمَّا لأنَّها متولِّدةٌ مِن النُّطفةِ، وإمَّا لأنَّها لا تعيشُ إلَّا بالماء- لا جَرَمَ أطلَق لَفظَ الكُلِّ؛ تنزيلًا للغالِبِ مَنزلةَ الكُلِّ[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ سؤالٌ: وهو: أنَّ بعضَ الحيواناتِ تمشي على أكثرَ مِن أربعٍ، فلِمَ لم تُذكَرْ؟

**والجوابُ مِن أوجهٍ:**

**الوجهُ الأولُ**: أنَّ الواوَ حُذِفَتْ مع معطوفِها، أي: ومنهم مَن يمشي على أكثرَ

---

= أنَّ أصلَ النورِ والنَّارِ الماءُ، كما أنَّ أصلَ الترابِ الذي خُلِقَ منه آدمُ الماءُ، فإنَّ آدَمَ خُلِقَ مِن طينٍ، والطينُ تُرابٌ مُختَلِطٌ بماءٍ، أو الترابُ خُلِقَ من الماءِ... ولا يُستنكَرُ خَلقُ النَّارِ مِن الماءِ؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ جمَع بقُدرتِه بينَ الماءِ والنَّارِ في الشَّجَرِ الأخضَرِ، وجعَل ذلك مِن أدلَّةِ القُدرةِ على البَعثِ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٦).

مِن أربعٍ، وحَذْفُ الواوِ مع معطوفِها أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ.

**الوجهُ الثاني**: أنَّ ما يمشي على أكثرَ مِن أربعٍ قليلٌ، فلم يَتعرَّضْ له؛ لِقِلَّتِه.

**الوجهُ الثالثُ**: أنَّ المشيَ الرَّئيسَ على أربعٍ وإن كَثُرت الأرجُلُ.

**الوجهُ الرابعُ**: أنَّ الآيةَ ذكرتْ أمثلةً شَهيرةً، ولم تَحصُرْ[1]، فليسَ فيها ما يَقْتضي حَصرَ المشي في هذه الأحوالِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ المقصودَ الاعتبارُ بالغالبِ المُشاهَدِ[2].

**الوجه الخامس**: أنَّه لم يزِدْ على الأربعِ؛ لأنَّ القوائمَ وإن زادَتْ فاعتمادُ الحيوانِ على جهاتِه الأربعةِ، فكأنَّها تمشي على أربعةٍ[3].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه تعالى ما تعلَّقَت به إرادةُ خَلقِه، أنشأه واختَرَعه، وفي ذلك تنبيهٌ على كثرةِ الحَيوانِ، وأنَّها كما اختَلَفت بكيفيَّةِ المشي، اختلَفَت بأمورٍ أُخَرَ[4].

١٤- في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أنَّ الشَّرعَ كلَّه -الذي هو دينُ الإسلامِ- مُستقيمٌ، ليس فيه اعوِجاجٌ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٦٨).

وقال ابن عثيمين: (مِن الحيواناتِ أو مِن الدوابِّ ما يمشي على أكثَرَ مِن أربَعٍ، فمنها ما له سِتُّ أرجُلٍ أو أكثرُ من ذلك، إنَّما هذا التقسيمُ ليس للحَصرِ، ولكِنَّه للقَصرِ، أي: مِن بابِ الاقتصارِ على بعضِ الأنواعِ فقط، ويدُلُّ على ذلك قَولُه: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾).

((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٠٦) بتصرف يسير.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٣).

## بلاغة الآيات:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ كِنايةً عن التَّعجُّبِ مِن حالِ فريقِ المُشرِكين الَّذين هم مِن أصحابِ العُقولِ، ومع ذلك قد حُرِموا الهُدى لَمَّا لم يَجعَلْه اللهُ فيهم، وقد جعَلَ الهُدى في العَجْماواتِ؛ إذ جبَلَها على إدراكِ أثَرِ نِعمةِ الوُجودِ والرِّزقِ. وقيل: الرُّؤيةُ هنا بَصريَّةٌ؛ وعلى هذا الاعتبارِ كان الاستفهامُ الإنكاريُّ مَكينَ الوقْعِ. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ جاريةً مَجْرى الأمثالِ في كلامِ البُلغاءِ؛ وعليه فلا الْتِفاتَ فيها إلى معنى الرُّؤيةِ. وقيل: الرُّؤيةُ هنا قلبيَّةٌ، وأغنَى المصدرُ عن المفعولَينِ[1]. وقيل: هو استِئنافٌ خُوطِبَ بهِ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على أحدِ الأقوالِ-؛ للإيذانِ بأنَّه تعالى أفاضَ عليه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أعلَى مَراتبِ النُّورِ وأجْلاها، وبيَّنَ له مِن أسرارِ المُلْكِ والملكوتِ أدقَّها وأخفاها، والهمزةُ للتَّقريرِ، أي: قد علِمْتَ عِلْمًا يَقينيًّا شَبيهًا بالمُشاهَدةِ في القوَّةِ والرَّصانةِ بالوحيِ الصَّريحِ، والاستدلالِ الصَّحيحِ[2].

- وفي قولِه: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ نبَّهَ على كَمالِ قُوَّةِ دَلالةِ المخلوقاتِ عليه سُبحانه وغايةِ وُضوحِها؛ حيثُ عبَّرَ عنها بما يخُصُّ العُقلاءَ مِن التَّسبيحِ الَّذي هو أقْوى مَراتبِ التَّنزيهِ وأظهَرُها؛ تَنزيلًا لِلِسانِ الحالِ مَنزلةَ لِسانِ المَقالِ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-، وأكَّدَ ذلك بإيثارِ كَلمةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٢).

(مَن) على (ما)؛ كأنَّ كلَّ شيءٍ ممَّا عَزَّ وهانَ، وكلَّ فَرْدٍ مِن أفرادِ الأعراضِ والأعيانِ: عاقلٌ ناطقٌ، ومُخبِرٌ صادقٌ بعُلوِّ شأْنِه تعالى وعِزَّةِ سُلطانِه. وتَخصيصُ التَّنزيهِ (التَّسبيحِ) بالذِّكْرِ مع دَلالةِ ما فيهما على اتِّصافِه تعالى بنُعوتِ الكَمالِ أيضًا؛ لِما أنَّ مَساقَ الكلامِ لتَقبيحِ حالِ الكفَرةِ في إخلالِهم بالتَّنزيهِ، بجَعْلِهم الجَماداتِ شُركاءَ له في الأُلوهيَّةِ، ونِسبَتِهم إيَّاه إلى اتِّخاذِ الولَدِ، تعالى عن ذلكَ عُلُوًّا كبيرًا[1]. وقيل: وجهُ تخصيصِ التسبيحِ هاهنا بالعقلاءِ أنَّ خِلْقةَ العقلاءِ أشدُّ دَلالةً على وجودِ الصانعِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ العجائبَ والغرائبَ في خَلقِهم أكثرُ، وهي العقلُ والنطقُ والفَهمُ[2]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ﴾ فيه تَخصيصُ الطَّيرِ بالذِّكْرِ مع اندراجِها في جُملةِ ما في الأرضِ؛ لعدَمِ استِقرارِ قَرارِها، واستِقلالِها بصُنْعٍ بارعٍ، وإنشاءٍ رائعٍ؛ قُصِدَ بَيانُ تَسبيحِها مِن تلك الجِهَةِ؛ لوُضوحِ إنبائِها عن كَمالِ قُدرةِ صانعِها، ولُطْفِ تَدبيرِ مُبدعِها؛ ولذلك قيَّدها بقولِه: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾؛ فإنَّ إعطاءَ الأجرامِ الثقيلةِ ما به تقوَى على الوقوفِ في الجوِّ باسطةً أجنحتَها، بما فيها مِن القبضِ والبسطِ- حُجَّةٌ قاطعةٌ على كمالِ قدرةِ الصانعِ تعالى، ولُطفِ تدبيرِه[3]. وقيل: تَخصيصُ الطَّيرِ بالذِّكْرِ مِن بيْنِ المخلوقاتِ؛ للمُقابَلةِ بيْنَ مخلوقاتِ الأرضِ والسَّماءِ بذِكْرِ مَخلوقاتٍ في الجوِّ بين السَّماءِ والأرضِ؛ ولذلك قُيِّدَت بـ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٩).

- قولُه: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ استِئنافٌ، وهو مِن تَمامِ العِبرةِ؛ إذ أودَعَ اللهُ في جميعِ أولئك ما به مُلازَمتُهم لِمَا فُطِروا عليه مِن تَعظيمِ اللهِ وتَنزيهِه[١].

وتَقديمُ الصلاةِ على التَّسبيحِ في الذِّكْرِ؛ لقِدَمِها عليه في الرُّتبةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ فيه وَعيدٌ وتَخويفٌ[٣]. وهو اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تَحقيقٌ لِمَا دلَّ عليه الكلامُ السَّابقُ مِن إعطائِه الهُدى للعَجْماواتِ في شُؤونِه، وحِرْمانِه إيَّاهُ فريقًا مِن العُقلاءِ؛ فلو كان ذلك جاريًا على حسَبِ الاستحقاقِ لكان هؤلاء أهْدى مِن الطَّيرِ في شأْنِهم[٥].

- قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ بَيانٌ لاختِصاصِ المُلكِ به تعالى في المعادِ، إثْرَ بَيانِ اختصاصِه به تعالى في المبدَأِ. وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لتَربيةِ المَهابةِ، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ[٦]، وفيه أيضًا تذكيرٌ وتَخويفٌ[٧].

- وتَقديمُ المعمولينِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: إنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦).

التَّصرُّفَ في العوالِمِ للهِ لا لغَيرِه[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ فيه حُسنُ تخلُّصٍ؛ حيث أعقَبَ الدَّلالةَ على إعطاءِ الهُدى في قوانينِ الإلهامِ في العَجْماواتِ بالدَّلالةِ على خلْقِ الخصائصِ في الجَمادِ، بحيث تَسِيرُ على السَّيرِ الَّذي قدَّرَهُ اللهُ لها سَيرًا لا يتغيَّرُ؛ فهي بذلك أهْدى مِن فريقِ الكافرينَ الَّذين لهم عُقولٌ وحواسٌّ لا يَهْتدون بها إلى مَعرفةِ اللهِ تعالى، والنَّظرِ في أدِلَّتِها، وفي ذلك دَلالةٌ على عِظَمِ القُدرةِ، وسَعةِ العلْمِ، ووَحدانيَّةِ التَّصرُّفِ. وهذا استدلالٌ بنظامِ بعضِ حوادثِ الجوِّ حتَّى آلَ إلى قولِه: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ وقد حصَلَ مِن هذا حُسنُ التَّخلُّصِ للانتِقالِ إلى الاستِدلالِ على عِظَمِ القُدرةِ، وسُمُوِّ الحِكمةِ، وسَعةِ العلْمِ الإلهيِّ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ في تَعقيبِ الجَعلِ المذكورِ برُؤيتِه خارجًا لا بخُروجِه مِنَ المُبالَغةِ في سُرعةِ الخُروجِ، ومِنَ الاعتناءِ بتَقريرِ الرُّؤيةِ ما لا يَخْفى[٣].

- قولُه: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ مَفعولُ (يُنَزِّلُ). وقيل: المفعولُ ﴿مِن جِبَالٍ﴾، وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ. وقيل: مفعولُ (يُنَزِّلُ) مَحذوفٌ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾، والتَّقديرُ: يُنزِّلُ بَردًا، ووُقوعُ (مِن) زائدةً؛ لقصْدِ مُشاكَلةِ قولِه: ﴿مِن جِبَالٍ﴾. وقيل: هو على حذْفِ حَرفِ التَّشبيهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٤).

والسَّماءُ: السَّحابُ، أي: مِن السَّماءِ الَّتي هي جِبالٌ، أي: كجبالٍ[١].

- وذكر البَرَد؛ لأنَّهم كانوا يَعرِفونه، فخُوطِبوا بما يعرِفون، وترَك ذِكرَ الثلجِ، وهو أكثرُ نزولًا مِن البَرَدِ؛ لأنَّهم كانوا لا يعرِفونَه في بلادِهم[٢].

- قولُه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: ضَوءُ بَرقِ السَّحابِ، وإضافةُ البرْقِ إليه قبْلَ الإخبارِ بوُجودِه فيه؛ للإيذانِ بظُهورِ أمْرِه، واستِغنائِه عن التَّصريحِ به[٣].

- قولُه: ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، أي: يخطَفُها مِن فَرطِ الإضاءةِ، وسرعةِ وُرودِها. وفي إطلاقِ الأبصارِ مَزيدُ تَهويلٍ لأمْرِه، وبَيانٌ لشِدَّةِ تأْثيرِه فيها، كأنَّه يكادُ يذهَبُ بها ولو عندَ الإغماضِ، وهذا مِن أقوى الدَّلائلِ على كَمالِ القُدرةِ، مِن حيثُ إنَّه تَوليدٌ للضِّدِّ مِن الضِّدِّ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّ قولَه: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ هو كقولِه في سُورةِ (البقرةِ): ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، سِوى أنَّ هذه الآيةَ زِيدَ فيها لفْظُ ﴿سَنَا﴾؛ لأنَّ هذه الآيةَ واردةٌ في مَقامِ الاعتبارِ بتَكوينِ السَّحابِ، وإنْزالِ الغَيثِ؛ فكان المَقامُ مُقْتضيًا للتَّنويهِ بهذا البرْقِ وشِدَّةِ ضِيائِه؛ حتَّى يكونَ الاعتبارُ بأمْرينِ: بتكوينِ البرْقِ في السَّحابِ، وبقُوَّةِ ضِيائِه حتَّى يَكاد يَذهَبُ بالأبصارِ. وآيةُ (البقرةِ) واردةٌ في مَقامِ التَّهديدِ والتَّشويهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤٠٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥).

لحالِهم حين كانوا مُظهِرينَ الإسلامَ ومُنطَوِينَ على الكُفرِ والجُحودِ؛ فكانتْ حالُهم كحالةِ الغَيثِ المُشتمِلِ على صَواعِقَ ورعْدٍ وبرْقٍ؛ فظاهِرُه مَنفعةٌ، وفي باطنِه قوارعُ ومَصائبُ. ومِن أجْلِ اختلافِ المَقامينِ وُضِعَ التَّعبيرُ هنا بـ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾، وهنالِك بقولِه: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾؛ لأنَّ في الخَطْفِ مِن معنى النِّكايةِ بهم والتَّسلُّطِ عليهم ما ليس في (يَذهَبُ)؛ إذ هو مُجرَّدُ الاستِلابِ. وأمَّا التَّعبيرُ هنا بالأبصارِ مُعرَّفًا باللَّامِ؛ فلأنَّ المقصودَ أنَّ البرْقَ مُقارِبٌ أنْ يُزيلَ طائفةً مِن جِنسِ الأبصارِ؛ فالحُكْمُ على حالةِ البرْقِ الشَّديدِ مِن حيثُ هي، بخلافِ آيةِ (البقرةِ)؛ فإنَّها في مَقامِ التَّوبيخِ لهم بأنَّ ما شأْنُه أنْ يَنتفِعَ النَّاسُ به قد أشرَفَ على الضُّرِّ بهم؛ فلذلك ذُكِرَ لفْظُ (أبصار) مُضافًا إلى ضَميرِهم. مع ما في هذا التَّخالُفِ مِن تفْنينِ الكلامِ الواحدِ على أفانينَ مُختلفةٍ؛ حتَّى لا يكونَ الكلامُ مُعادًا، وإنْ كان المَعنى مُتَّحِدًا. ولا تجِدُ حقَّ الإيجازِ فائتًا؛ فإنَّ هذينِ الكلامينِ في حدِّ التَّساوي في الحُروفِ والنُّطقِ. وهكذا نَرى بلاغةَ القُرآنِ وإعجازَهُ وحلاوةَ نظْمِه[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ الكلامُ استِئنافٌ، وجِيءَ به مُستأنَفًا غيرَ مَعطوفٍ على آياتِ الاعتِبارِ المذكورةِ قَبْلَه؛ لأنَّه أُرِيدَ الانتِقالُ مِن الاستِدلالِ بما قدْ يَخْفى على بعضِ الأبصارِ إلى الاستِدلالِ بما يُشاهِدُه كلُّ ذي بَصَرٍ كلَّ يومٍ وكلَّ شهْرٍ، فهو لا يَكادُ يَخْفى على ذي بصَرٍ، وهذا تدرُّجٌ في مَوقعِ هذه الجُملةِ عقِبَ جُملةِ: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾؛ ولذلك فالمقصودُ مِن الكلامِ هو جُملةُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾، ولكنْ بُنِيَ نظْمُ الكلامِ على تَقديمِ الجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ لِمَا تَقْتضيهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٣).

مِن إفادةِ التَّجدُّدِ، بخلافِ أنْ يُقالَ: إنَّ في تَقليبِ اللَّيلِ والنَّهارِ لَعِبرةً[١].

- قولُه: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ تَقليبُ اللَّيلِ والنَّهارِ تَغييرُ الأُفقِ مِن حالةِ اللَّيلِ إلى حالةِ الضِّياءِ، ومِن حالةِ النَّهارِ إلى حالةِ الظَّلامِ، فالمُقلِّبُ هو الجوُّ بما يَختلِفُ عليه مِن الأعراضِ، ولكنْ لمَّا كانت حالةُ ظُلمةِ الجوِّ تُسمَّى ليلًا، وحالةُ نُورِه تُسمَّى نهارًا؛ عُبِّرَ عن الجوِّ في حالتَيهِ بهما، وعُدِّيَ التَّقليبُ إليهما بهذا الاعتِبارِ، وممَّا يدخُلُ في معنى التَّقليبِ تَغييرُ هَيئةِ اللَّيلِ والنَّهارِ بالطُّولِ والقِصَرِ؛ ولرَعْيِ تَكرُّرِ التَّقلُّبِ بمَعنيَيهِ عُبِّرَ بالمُضارِعِ المُقْتضي للتَّكرُّرِ والتَّجدُّدِ ﴿يُقَلِّبُ﴾[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فيه التَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ وهو إمَّا لمُجرَّدِ الاهتِمامِ بالخبَرِ، وإمَّا لتَنزيلِ المُشركينَ في تَرْكِهم الاعتبارَ بذلك مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ في ذلك عِبرةً[٣].

- والإشارةُ الواقعةُ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تَضمَّنَه فِعلُ ﴿يُقَلِّبُ﴾ مِن المصدرِ، أي: إنَّ في التَّقليبِ، ويُرجِّحُ هذا القصدَ ذِكرُ العِبرةِ بلفْظِ المُفرَدِ المُنكَّرِ. وقيل: الإشارةُ بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ إلى جميعِ ما ذُكِرَ آنفًا، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابًا﴾ [النور: ٤٣]؛ فيَكونُ الإفرادُ في قولِه: ﴿لَعِبۡرَةً﴾ ناظرًا إلى أنَّ مجموعَ ذلك يُفيدُ جِنسَ العِبرةِ الجامعةِ لليقينِ بأنَّ اللهَ هو المُتصرِّفُ في الكونِ. ولم تَرِدِ العِبرةُ في القُرآنِ مُعرَّفةً بلامِ الجِنسِ، ولا مَذكورةً بلفْظِ الجمْعِ[٤]. والتعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يفيدُ البُعدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٦٤، ٢٦٥).

مع قُربِ المُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتْبتِه، وبُعدِ مَنزلَتِه[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ خُصَّ أولُو الأبصارِ بالاتِّعاظِ؛ لأنَّ البصرَ والبصيرةَ إذا استُعْمِلا وَصَلا إلى إدراكِ الحقِّ[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفِعليِّ ﴿خَلَقَ ...﴾؛ لأنَّه لمَّا كان الاعتِبارُ بتَساوي أجناسِ الحيوانِ في أصلِ التَّكوينِ مِن ماءِ التَّناسُلِ، مع الاختلافِ في أوَّلِ أحوالِ تلك الأجناسِ في آثارِ الخِلْقةِ -وهو حالُ المشْيِ- إنَّما هو باستمرارِ ذلك النِّظامِ بدونِ تخلُّفٍ، وكان ذلك مُحقَّقًا؛ كان إفراغُ هذا المعنى بتَقديمِ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ مُفيدًا لأمْرينِ: التَّحقُّقِ بالتَّقديمِ على الخبَرِ الفِعليِّ، والتَّجدُّدِ بكونِ الخبَرِ فِعليًّا[٣].

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ ﴿وَٱللَّهُ﴾ دونَ الإضمارِ (وهو)؛ للتَّنويهِ بهذا الخَلْقِ العجيبِ[٤].

- وأيضًا اخْتِيرَ فِعلُ المُضِيِّ ﴿خَلَقَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَقريرِ التَّقوِّي بأنَّ هذا شأْنٌ مُتقرِّرٌ منذ القِدَمِ، مع عدَمِ فَواتِ الدَّلالةِ على التَّكريرِ؛ حيث عقَّبَ الكلامَ بقولِه: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وخصَّ الدَّابَّةَ بالذِّكْرِ، مع أنَّ غيرَها مِثْلُها، كما شَمِلَهُ قولُه في سُورةِ الأنبياءِ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ لأنَّ القُدرةَ فيها أظهَرُ وأعجَبُ منها في غيرِها(١).

- قولُه: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ فيه تَنكيرُ (ماء)، وهو إمَّا للإفرادِ نوعًا؛ فإنَّه تعالى خلَقَ كلَّ نوعٍ مِن أنواعِ الدَّوابِّ مِن ماءٍ مُختَصٍّ بذلك النَّوعِ؛ فخلَقَ نوعَ الإنسانِ مِن ماءٍ مُختصٍّ به، وخلَقَ الفرَسَ مِن ماءٍ مُختصٍّ به. وإمَّا للإفرادِ شَخْصًا؛ فإنَّه تعالى خلَقَ كلَّ دابَّةٍ مِن ماءٍ مَخصوصٍ بها، وهو النُّطفةُ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-، ثمَّ اختلَفَتْ هذه النُّطفةُ بحسَبِ اختلافِ الدَّوابِّ؛ فيكونُ تَنزيلًا للغالِبِ مَنزلةَ الكلِّ؛ إذ مِن الحيواناتِ ما يَتولَّدُ لا عن النُّطفةِ(٢).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ جاء الماءُ في قولِه: ﴿مِّن مَّآءٍ﴾ نكِرةً، وجاء في سُورةِ (الأنبياءِ) ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] مَعرِفةً؛ ووَجْهُه: أنَّ تَنكيرَ ﴿مَّآءٍ﴾ لإرادةِ النَّوعيَّةِ؛ تَنبيهًا على اختِلافِ صِفاتِ الماءِ لكلِّ نوعٍ مِن الدَّوابِّ؛ إذ المقصودُ تَنبيهُ النَّاسِ إلى اختلافِ النُّطَفِ -وذلك على قولٍ في التفسيرِ-؛ للزِّيادةِ في الاعتبارِ. وهذا بخِلافِ قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ إذ قُصِدَ هناك إلى أنَّ أجناسَ الحيوانِ كلَّها مَخلوقةٌ مِن جِنسِ الماءِ، وهو جِنسٌ واحدٌ اختلَفَت أنواعُه؛ فتعريفُ الجِنسِ هناك إشارةٌ إلى ما يَعرِفُه النَّاسُ إجمالًا ويَعهَدونه؛ مِن أنَّ الحيوانَ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣٦).

كلَّه مخلوقٌ مِن نُطَفِ أُصولِه. وهذا مناطُ الفرْقِ بيْن التَّنكيرِ كما هنا، وبيْن تَعريفِ الجِنسِ كما في آيةِ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ فالآيةُ الأُولى لإخراجِ المُختلِفِ مِن المُتَّفِقِ، والثَّانيةُ لإخراجِ المُتَّفِقِ مِن المُختلِفِ(١).

- قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ فيه تَسميةُ حَركتِها مشْيًا مع كَونِها زحْفًا على البطن؛ اتساعًا؛ لقيامِه مقامَ المشيِ(٢). وقيل: لأنَّ كلَّ سائرٍ يقالُ له: ماشٍ، وقد مشَى، سواءٌ كانت له قوائمُ أو لم تكنْ له، بل وإن لم يكنْ مِن الحيوانِ(٣). وقيل: للمُشاكَلةِ مع بقيَّةِ الأنواعِ. وقيل غيرُ ذلك(٤).

- وفي قولِه: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ تَغليبٌ للعاقلِ على غيرِه؛ لأنَّه لمَّا اختلَطَ غيرُ العاقلِ بالعاقلِ في الفصْلِ بـ (مَن) و﴿كُلَّ دَآبَّةٍ﴾، كان التَّعبيرُ بـ (مَن) أوْلى؛ لِتُوافِقَ اللَّفظَ. والقاعدةُ: إذا اجتَمع مَن يعقلُ وغيرُه غُلِّب مَن يعقلُ، فلمَّا وقَع التفصيلُ وقَع تفصيلًا للعقلاءِ فقط، ويحتمِلُ أنْ تكونَ (مَن) نكِرةً مَوصوفةً بالجُملةِ بعدَها، والتَّقديرُ: فمنهم نوعٌ يَمْشي على بطْنِه، ونوعٌ يَمْشي على رِجلينِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٧)، ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣٦).

ونوعٌ يَمْشي على أربعٍ[١]. وقيل: لمَّا كان في سياقِ التعظيمِ، وكان قد آتَى كلَّ نفْسٍ مِن الإدراكِ ما تعرِفُ به منافعَها ومضارَّها؛ عبَّر عن الكلِّ بأداةِ مَن يَعقِلُ، وإن كانوا متفاوتينَ في التمييزِ[٢].

- قولُه: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ زِيادةٌ في العِبرةِ، أي: يتجدَّدُ خلْقُ اللهِ ما يشاءُ أنْ يَخلُقَه ممَّا علِمْتُم وما لم تَعلَموا؛ فهي جُملةٌ مُستأنَفةٌ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَوضعِ الإضمارِ؛ لتَفخيمِ شأْنِ الخَلْقِ المذكورِ، والإيذانِ بأنَّه مِن أحكامِ الأُلوهيَّةِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تَعليلٌ وتَذييلٌ، وإظهارُ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ أيضًا في مقامِ الإضمارِ؛ لتَفخيمِ شأْنِ الخلْقِ المذكورِ، والإيذانِ بأنَّه مِن أحكامِ الأُلوهيَّةِ؛ وليكونَ كلامًا مُستقِلًّا بذاتِه؛ لأنَّ شأْنَ التَّذييلِ أنْ يكونَ كالمَثلِ[٥].

- وقدَّم ما يمشي على غيرِ آلةٍ؛ لكونِ الآيةِ سيقَتْ لبيانِ القدرةِ وتعجُّبِ السامعِ، وما يمشي بغيرِ آلةٍ أعجبُ ممَّا يمشي بآلةٍ، فلذلك كان تقديمُه ملائمًا لمقصودِ الآيةِ الشريفةِ، ثمَّ ثنَّى بالأفضلِ فأتَى بما يمشي على رجلينِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٦).

وهو الآدميُّ والطيرُ؛ لتمامِ خلقِ الإنسانِ، وكمالِ صورتِه، ولما في الطيرِ مِن عجبِ الطيرانِ الدالِّ على الخفَّةِ، معَ ما فيه مِن الكثافةِ الأرضيةِ، وثلَّث بما يمشي على أربعٍ؛ لأنَّه أحسنُ الحيوانِ البهيميِّ وأقواه، فتضمَّنتْ هذه الكلماتُ -التي هي بعضُ آيةٍ-، عدةً مِن المحاسنِ، منها: صحةُ التقسيمِ معَ مراعاةِ الترتيبِ، وائتلافُ اللفظِ معَ المعنى، وحُسنِ النَّسقِ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تَذييلٌ للدَّلائلِ والعِبَرِ السَّالفةِ، وهو نتيجةُ الاستِدلالِ؛ ولذلك خُتِمَ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: إنْ لم يَهتَدِ بتلك الآياتِ أهلُ الضَّلالةِ؛ فذلك لأنَّ اللهَ لم يَهْدِهم؛ لأنَّه يَهْدي مَن يشاءُ[2].

- ولم تُعطَفْ هذه الجُملةُ على ما قبْلَها، بعكْسِ قولِه السَّابقِ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [النور: ٣٤]؛ لأنَّ المُرادَ بالآياتِ هنا آياتُ القُرآنِ كما يَقْتضيه فِعْلُ ﴿أَنزَلْنَآ﴾. ولمَّا كان المقصودُ مِن هذا إقامةَ الحُجَّةِ دونَ الامتنانِ، لم يُقيَّدْ إنزالُ الآياتِ بأنَّه إلى المُسلمينَ كما قُيِّدَ في قولِه تعالى قبْلَه: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾[3] [النور: ٣٤].

- وتَكريرُ قولِه: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ مِن بابِ التَّرجيعِ والشُّروعِ في مَشرعٍ آخَرَ مِن ذِكْرِ المُنافقينَ وأحوالِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((خزانة الأدب)) للحموي (٢/ ٣٧١)، و يُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٢).

## الآيات (٤٧-٥٠)

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُذْعِنِينَ﴾: أي: مُنقادينَ مُطيعينَ، وأصلُ (ذعن): يدُلُّ على الانقيادِ[1].

﴿ٱرْتَابُوٓا۟﴾: أي: شَكُّوا، وأصلُ الرَّيبِ: الشكُّ مع الخَوفِ، ومع تُهمةِ المشكوكِ فيه[2].

﴿يَحِيفَ﴾: أي: يَظلِمَ ويَجورَ، وأصلُ (حيف): يدُلُّ على المَيلِ في الحُكمِ، والجُنوحِ إلى أحَدِ الجانِبينِ[3].

### المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا بعضَ أحوالِ المنافقينَ: ويقولُ المُنافِقون بألسِنتِهم كَذِبًا: آمَنَّا باللهِ وبالرَّسولِ، وأطَعْنا أمْرَهما. ثمَّ تُعْرِضُ جماعةٌ منهم مِن بعدِ ما صدَرَ منهم مِن دعوى الإيمانِ والطَّاعةِ، وما أولئك بالمؤمِنينَ. وإذا دُعوا في

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: (( مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦).

مُنازعاتِهم إلى حُكمِ اللهِ ورَسولِه، أعرَضَ فريقٌ منهم عن حُكمِ اللهِ وحُكمِ رَسولِه، وإن يكُنِ الحَقُّ في جانبِهم يأتوا إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طائعينَ مُنقادينَ لحُكمِه. فهلْ إعراضُهم عن حُكمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لنفاقٍ في قلوبِهم، أمْ شَكُّوا في نبُوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أم يخافونَ أن يَظلِمَهم رسولُ اللهِ في الحُكمِ؟! كلَّا، ليس الأمرُ كذلك، بل هؤلاء هُمُ الظَّالِمون لأنفُسِهم بعَدَمِ التَّسليمِ بحُكمِ الشَّرعِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعد أن ذُكرَت دلائِلُ انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، وذُكرَ الكُفَّارُ الصُّرَحاءُ الذين لم يَهتَدوا بها في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ ﴾ [النور: ٣٩]، تهيَّأ المقامُ لذِكرِ صِنفٍ آخَرَ مِن الكافرينَ الذين لم يَهتَدوا بآياتِ الله، وأظهَروا أنَّهم اهتَدوا بها[1].

﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ﴾.

أي: ويَقولُ المُنافِقونَ بألسِنتِهم كَذِبًا مِن غيرِ يقينٍ ولا إخلاصٍ: آمَنَّا باللهِ وبرَسولِه محمَّدٍ، وأطَعْنا اللهَ وأطَعْنا رَسولَه[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۞

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤).

يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٨، ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١].

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾.

أي: ثمَّ يُعرِضُ طائِفةٌ مِن المُنافِقين عن طاعةِ اللهِ ورَسولِه مِن بَعدِ قَولِهم: آمنَّا وأطَعْنا[1]!

﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وليس أولئك القائِلونَ بأفواهِهم: آمَنَّا باللهِ وبالرسولِ وأطَعْنا[2] بالمُؤمِنينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

قال ابن تيميَّة: (التَّولِّي ليس هو التَّكذيبَ، بل هو التوَلِّي عن الطَّاعةِ؛ فإنَّ النَّاسَ عليهم أن يُصَدِّقوا الرَّسولَ فيما أخبرَ، ويُطيعوه فيما أمَرَ، وضِدُّ التَّصديقِ التَّكذيبُ، وضِدُّ الطَّاعةِ التوَلِّي). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٤٢).

وقال الشنقيطي: (على قَولٍ بأنَّها نزلت في المنافِقينَ، وَجهُ كَونِ فَريقٍ منهم يتولَّونَ مع أنَّهم على مِلَّةٍ واحدةٍ، وكُلُّهم يوافِقُ على التَّولِّي: هو أنَّ بَعضَهم قد تقَعُ بيْنه وبيْن خَصمِه مُنازَعةٌ، فيَطلُبُ الخَصمُ منه التحاكُمَ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيتولَّى، والباقون لا تقَعُ منهم خُصومةٌ مع أحدٍ، فلا يَظهَرُ تولِّيه مِثلَ الفَريقِ الأوَّلِ، ولو وقَعَت بيْنه وبيْن أحدٍ مُنازَعةٌ وطُلِب منه التحاكُمُ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَتَوَلَّى أيضًا كما تولَّى الفريقُ الأوَّلُ.

وقال بعضُ العُلَماءِ: الآيةُ نزلت في عُمومِ المُؤمِنينَ، سواءٌ منهم مَن كان مُؤمِنًا ظاهِرًا وباطِنًا، وهم المؤمِنونَ الصَّادِقونَ، أو كان مُؤمِنًا في الظَّاهِرِ دونَ الباطِنِ، وهم المنافِقونَ، ثمَّ أخرَج منهم المنافِقينَ، ووَجهُ ذلك أنَّهم ادَّعَوُا الإيمانَ كما ادَّعاه المؤمِنونَ الصَّادِقونَ، ثمَّ تولَّوا عنه). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٧٠).

(٢) قال البيضاوي: (﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى القائلين بأَسْرِهم، فيكونُ إعلامًا مِن الله تعالى بأنَّ جميعَهم وإن آمَنوا بلسانِهم لم تؤمِنْ قُلوبُهم، أو إلى الفَريقِ منهم، وسُلِب الإيمانُ =

المُخلِصينَ الثَّابِتينَ[١].

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا فضح المُنافِقين بما أخفَوه مِن تولِّيهم، قبَّح عليهم ما أظهَروه، فقال تعالى[٢]:

﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨﴾.

---

= عنهم لتولِّيهم، والتَّعريفُ فيه للدَّلالةِ على أنَّهم ليسوا بالمؤمِنينَ الذين عَرَفتَهم، وهم المُخلِصونَ في الإيمانِ، والثَّابتونَ عليه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم القائلون: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا﴾: ابنُ جرير، ومكي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨).

قال الشوكاني: (﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: ما أولئك القائلونَ هذه المقالةَ بالمؤمنينَ على الحقيقةِ، فيشملُ الحُكمُ بنفيِ الإيمانِ جميعَ القائلينَ، ويندرجُ تحتَهم مَن تولَّى اندراجًا أوَّليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢).

وقيل: المرادُ بهم: الفريقُ الذي تولَّى منهم؛ المُعرِضونَ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، وابنُ تيمية، وجلال الدين المحلي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨، ٢٦٩).

قال الشوكاني: (والكلامُ مُشتمِلٌ على حُكمَينِ: الحُكمُ الأوَّلُ على بعضِهم بالتوَلِّي، والحُكمُ الثاني على جميعِهم بعدَمِ الإيمانِ. وقيل: أراد بمَن تولَّى: مَن تولَّى عن قَبولِ حُكمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقيل: أراد بذلك رُؤساءَ المنافِقين. وقيل: أراد بتولِّي هذا الفريقِ رُجوعَهم إلى الباقين). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٦).

أي: وإذا دُعِيَ هؤلاء المُنافِقونَ إلى كتابِ اللهِ وإلى رَسولِه؛ لِيَحكُمَ بينهم الرَّسولُ بحُكمِ اللهِ فيما يَختَلِفونَ فيه، إذا طائِفةٌ مِن المُنافِقينَ يُعرِضونَ عن التَّحاكُمِ إلى اللهِ ورَسولِه[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: وإنْ يكُنِ الحَقُّ للمُنافِقينَ على مَن يُخاصِمونَه، يَقبَلوا التَّحاكُمَ إلى اللهِ ورَسولِه، ويأتوا إلى الرَّسولِ طائِعينَ مُنقادينَ لحُكمِه؛ لِمُوافقتِه لأهوائِهم[2]!

﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾.

أي: أفي قُلوبِ هؤلاء المُنافِقينَ -المُعرِضينَ عن التَّحاكُمِ إلى اللهِ ورَسولِه- مَرَضٌ مُلازِمٌ لهم، أخْرجَ القلبَ عن صِحَّتِه، فصاروا كالمريضِ الذي يُعرِضُ عمَّا يَنفَعُه، ويُقبِلُ على ما يضُرُّه[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١). =

﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾.

أي: أمْ حدَثَ لهم شَكٌّ واضطرابٌ وتردُّدٌ وقلقٌ[1]؟

﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾.

---

= قيل: المرادُ بالمَرَضِ هنا: الشكُّ. وممن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٥).

وقيل: المرادُ بالمرَضِ هنا: الكُفرُ والشِّركُ. ومِمَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٦).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلفِ: الحسنُ البصري. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٧).

وقيل: المرادُ بالمرَضِ: النفاقُ. ومِمَّن اختاره: الرازيُّ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٧).

وقيل: المرادُ بالمرَضِ: عِلَّةٌ تُخرِجُ القَلبَ عن صِحَّتِه، وتمنَعُ مِن قَبولِ الحَقِّ. ومِمَّن اختار هذا القَولَ في الجملة: السمعانيُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

وقال البقاعي: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: نَوعُ فَسادٍ مِن أصلِ الفِطرةِ يَحمِلُهم على الضَّلالِ. ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٧).

وقال ابن عثيمين: (الذي يَظهَرُ لي -واللهُ أعلَمُ- أنَّ المرادَ به الشَّهوةُ في الإرادةِ السَّيِّئةِ؛ بدَليلِ التَّقسيمِ، سواءٌ كان كُفرًا أو نِفاقًا أو غيرَ ذلك، المُهِمُّ أنَّ المرَضَ هو الإرادةُ السَّيِّئةُ التي تَصرِفُهم عن قَبولِ الحَقِّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١).

قال الماوَرْدي: (﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ أي: شكُّوا. ويَحتَمِلُ وَجهَينِ؛ أحَدُهما: في عَدلِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم. الثَّاني: في نبُوَّتِه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١١٧).

أي: أمْ يخافون أن يَجورَ اللهُ ورَسولُه عليهم في الحُكمِ[١]؟!

﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: بل هؤلاء هُمُ الظَّالِمون لأنفُسِهم بعَدَمِ الرِّضا والتَّسليمِ بحُكمِ الشَّرعِ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ ليس ذلك لأجْلِ أنَّه حُكمٌ شَرعيٌّ، وإنَّما ذلك لأجْلِ مُوافَقةِ أهوائِهم، فليسوا ممدوحينَ في هذه الحالِ ولو أتَوا إليه مُذعِنينَ؛ لأنَّ العبدَ حقيقةً مَن يَتَّبعُ الحَقَّ فيما يُحِبُّ ويَكرَهُ، وفيما يَسُرُّه ويَحزُنُه، وأمَّا الذي يَتَّبعُ الشَّرعَ عندَ موافقةِ هواه، ويَنبِذُه عندَ مخالفتِه، ويُقَدِّمُ الهوى على الشَّرعِ؛ فليس بعَبدٍ على الحقيقةِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ حظَّ المُنافقينَ مِن الإيمانِ مُجرَّدُ القَولِ دونَ الاعتقادِ[٤].

٢- القُرآنُ يُبيِّنُ أنَّ إيمانَ القَلبِ يَستَلزِمُ العمَلَ الظَّاهِرَ بحَسَبِه، كقَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨).

بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، فنفَى الإيمانَ عَمَّن تولَّى عن طاعةِ الرَّسولِ، وأخبَرَ أنَّ المؤمنينَ إذا دُعُوا إلى الله ورَسولِه ليَحكُمَ بيْنهم، سَمِعوا وأطاعوا؛ فبَيَّن أنَّ هذا مِن لوازِمِ الإيمانِ(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه دليلٌ واضحٌ على أنَّ الإنسانَ إذا قال: إنَّه مؤمِنٌ، وهو مُتَوَلٍّ ومُعرِضٌ؛ فهو كاذبٌ في دَعْواه، وهو إمَّا أن يكونَ ليس مؤمنًا أصلًا، وإمَّا أن يكونَ مؤمنًا لكن ناقص الإيمانِ، فإذا كان التولِّي تولِّيًا مُطلقًا انتفَى أصلُ الإيمانِ، وإذا كان التولِّي تولِّيًا غيرَ مُطلَقٍ، بل في بعضِ الأمورِ، فإنَّها تختلِفُ؛ فبَعضُ الأمورِ إذا ترَكَها الإنسانُ وأعرَضَ عنها قد يكونُ كافِرًا، وقد يكونُ مُؤمِنًا ناقِصَ الإيمان(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ الله تعالى حكى عنهم كلِّهم أنَّهم يقولون آمنَّا، ثمَّ حكى عن فَريقٍ منهم التولِّيَ، فكيف يصِحُّ أن يقولَ في جميعِهم: ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، مع أنَّ الذي تولَّى منهم هو البَعضُ؟

**الجوابُ**: أنَّ قَولَه: ﴿وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ راجِعٌ إلى الذين تولَّوا، لا إلى الجُملةِ الأولى -على قولٍ-، وأيضًا فلو رجعَ إلى الأوَّلِ يَصِحُّ، ويكونُ معنى قَولِه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾ أي: يَرجِعُ هذا الفريقُ إلى الباقينَ منهم، فيُظهِرُ بَعضُهم لبعضٍ الرُّجوعَ عمَّا أظهَروه(٣).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٠).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فيه دَليلٌ على وجوبِ الانقيادِ لحُكمِ اللهِ ورَسولِه في كُلِّ حالٍ، وأنَّ مَن لم ينقَدْ له دَلَّ على مرَضٍ في قَلبِه، ورَيبٍ في إيمانِه؛ وأنَّه يَحرُمُ إساءةُ الظَّنِّ بأحكامِ الشَّريعةِ، وأن يُظَنَّ بها خِلافُ العَدلِ والحِكمةِ[1].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ فيه وجوبُ الحُضورِ على مَن دُعِيَ لحُكمِ الشَّرعِ، وتَحريمُ الامتِناعِ[2].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ إنَّما جُعِلَ الدُّعاءُ إلى اللهِ ورسولِه كِلَيْهِما، مع أنَّهم دُعوا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ حُكمَ الرَّسولِ حُكمُ اللهِ؛ لأنَّه لا يَحكُمُ إلَّا عن وَحيٍ؛ ولهذا الاعتبارِ أُفرِدَ الضَّميرُ في قَولِه: ﴿لِيَحْكُمَ﴾ العائدُ إلى أقرَبِ مَذكورٍ، ولم يقُلْ: (لِيحكُمَا)[3]، أو: لأنَّ المعنيَّ به الرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما بدأ بذِكرِ اللهِ؛ إعظامًا لله، واستفتاحَ كَلامٍ[4]، ولبيانِ أنَّه المشرِّعُ للأحكامِ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو المباشِرُ للحُكمِ في الحقيقةِ[5].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أنه يجبُ على المؤمنِ إذا دعاه أحدٌ إلى حاكمٍ مِن حُكَّامِ المسلمينَ يحكمُ بالشَّرعِ أنْ يُجيبَه ويأتيَ إليه؛ وأنَّه يَلْزَمُه الانقيادُ لحُكْمِه؛ وأن يقولَ: «سمعنا وأطعنا»؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٧٢).

لأنَّ اللهَ تعالى ذَمَّ مَن أعْرَضَ وتولَّى، ومَدَحَ مَن أطاعَ وأجابَ، وشرْطُ وجوبِ الإجابةِ والانقيادِ أنْ يكونَ القاضي عالمًا عادلًا؛ لأنه وارثُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فالتولِّي عنه حرامٌ، أمَّا إذا كان القاضي متَّبِعًا لهواهُ، جائرًا في حكْمِه، يأخُذُ الرِّشوةَ؛ فلا إثْمَ على مَنِ امتنعَ عن التحاكمِ إليه(١).

٩- مَرَضُ القُلوبِ نَوعانِ: مَرَضُ شُبهةٍ وشَكٍّ، ومَرَضُ شَهوةٍ وغَيٍّ، وكِلاهما في القُرآنِ؛ قال تعالى في مَرَضِ الشُّبهةِ: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى في حَقِّ مَن دُعِيَ إلى تحكيمِ القُرآنِ والسُّنَّةِ فأبى وأعرَضَ: ﴿ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ * أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [النور: ٤٨ - ٥٠]، فهذا مَرَضُ الشُّبُهاتِ والشُّكوكِ. وأمَّا مَرَضُ الشَّهواتِ، فقال تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ فهذا مَرَضُ شَهوةِ الزِّنا. واللهُ أعلَمُ(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ ﴾ على القولِ بأنَّها نزَلَتْ في أحدِ المنافقينَ؛ فيكونُ فيه التَّعبيرُ بصِيغَةِ الجمْعِ ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ للقائلِ طائفةً يُساعِدونه ويُشايِعونه في تلك المقالةِ، كما يُقال: بنُو فلانٍ قَتلُوا

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٥).

فُلانًا، والقاتلُ واحدٌ منهم[١]. وقيل: ضَميرُ الجمْعِ عائدٌ إلى معْروفينَ عند السَّامعينَ، وهم المُنافِقون؛ لأنَّ ما ذُكِرَ بعدَه هو مِن أحوالِهم، وعَودُ الضَّميرِ إلى شَيءٍ غيرِ مذكورٍ كثيرٌ في القُرآنِ، على أنَّهم قد تقدَّمَ ما يُشِيرُ إليهم بطريقِ التَّعريضِ في قولِه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[٢] [النور: ٣٧].

- في قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ عبَّرَ بالمُضارعِ؛ لإفادةِ تجدُّدِ ذلك منهم، واستِمرارِهم عليه؛ لِمَا فيه مِن تَكرُّرِ الكذِبِ ونَحوِه مِن خِصالِ النِّفاقِ[٣].

- ومَفعولُ (أَطَعْنَا) مَحذوفٌ؛ دلَّ عليه ما قبْلَه، أي: أطَعْنا اللهَ والرَّسولَ؛ ففيه إيجازٌ بالحذْفِ[٤].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ عُبِّر باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يُفيدُ البُعدَ؛ للإيذانِ بكونِه أمرًا مُعتَدًّا به، واجِبَ المُراعاةِ[٥].

- قولُه: ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في التَّعريفِ في قولِه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّهم ليسوا بالمُؤمنينَ الَّذين عرَفْتَ، وهم الثَّابِتون المُستقيمون على الإيمانِ، الموصوفونَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾[٦] [الحجرات: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).

- وعُبِّر باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذي يفيدُ البُعدَ؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الكُفرِ والفسادِ[1]. وإذا كان قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى القائلينَ ﴿ءَامَنَّا﴾، يكونُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي في الرُّتبةِ؛ إيذانًا بارتفاعِ دَرجةِ كُفْرِ الفريقِ المُتولِّي منهم، وانحطاطِ درجةِ أولئك. وإذا كان إشارةً إلى الفريقِ المُتولِّي منهم، يكونُ ﴿ثُمَّ﴾ للاستبعادِ، ويُؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾، أي: كيف يَدخُلون في زُمرةِ المُؤمنينَ الَّذين يقولون: آمنَّا باللهِ وبالرَّسولِ وأطَعْنا، ثمَّ يُعرِضون، ويتَجاوزون عن الفريقِ المُؤمنينَ، ويَرغَبُون عن تلك المَقالةِ، وهذا بعيدٌ عن العاقلِ المُميِّزِ[2]؟!

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ شَرْحٌ للتَّولِّي المذكورِ في الآيةِ السَّابقةِ، ومُبالَغةٌ فيه[3].

- قولُه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ الضَّميرُ في قولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ﴾ عائدٌ إلى مُعادِ ضَميرِ (يَقُولُونَ)، وإسنادُ فِعْلِ ﴿دُعُوٓاْ﴾ إلى جميعِهم، وإنْ كان المُعرِضون فَريقًا منهم لا جميعَهم؛ للإشارةِ إلى أنَّهم سواءٌ في التَّهيُّؤِ إلى الإعراضِ، ولكنَّهم لا يُظهِرونه إلَّا عندما تَحُلُّ بهم النَّوازلُ؛ فالمُعرِضون هم الَّذين حلَّت بهم الخُصوماتُ[4].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ وقَعَ حرْفُ (إذا) المُفاجأةِ في جوابِ (إذا) الشَّرطيَّةِ؛ لإفادةِ مُبادرتِهم بالإعراضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٦٩).

دونَ تريُّثٍ؛ لأنَّهم قد أيْقَنوا مِن قبلُ بعَدالةِ الرَّسولِ، وأيْقَنوا بأنَّ الباطِلَ في جانبِهم، فلم يَتردَّدوا في الإعراضِ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَقسيمِ الأمْرِ في صُدودِهم عن حُكومتِه إذا كان الحقُّ عليهم بيْن أنْ يكونوا مرضَى القلوبِ مُنافقينَ، أو مُرتابينَ في أمْرِ نبوَّتِه، أو خائِفين الحَيفَ في قضائِه. والاستِفهاماتُ الثلاثةُ مُستعمَلةٌ في التَّنبيهِ على أخلاقِهم، ولفْتِ الأذهانِ إلى ما انْطَوَوا عليه، والدَّاعي إلى ذلك أنَّها أحوالٌ خَفِيَّةٌ؛ لأنَّهم كانوا يُظهِرون خِلافَها. وأتْبَعَ بعضَ الاستِفهاماتِ بعضًا بحَرفِ (أَمْ) المُنقطعةِ الَّتي هي هنا للإضرابِ الانتِقاليِّ، والانتقالُ هنا تدرُّجٌ في عَدِّ أخلاقِهم؛ فالمعنى: أنَّه إنْ سأَلَ سائلٌ عن اتِّصافِهم بخُلقٍ مِن هذه المذكوراتِ، علِمَ المسؤولُ أنَّهم مُتَّصِفون به؛ فكان الاستِفهامُ المُكرَّرُ ثلاثَ مرَّاتٍ مُستعمَلًا في التَّنبيهِ(٢).

- وقيل: إنَّ (أَمْ) هنا مُنقطِعةٌ، والتَّقديرُ: بلِ ارْتابوا، بلْ أيخافُونَ؟ وهو استِفهامُ تَوقيفٍ وتوبيخٍ؛ ليُقِرُّوا بأحدِ هذه الوُجوهِ الَّتي عليهم في الإقرارِ بها ما عليهم(٣).

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ إنكارٌ واستِقباحٌ لِإعراضِهم المذكورِ، وفيه بَيانٌ لمَنشأِ إعراضِهم وصُدودِهم بعدَ استِقصاءِ عِدَّةٍ مِن القَبائحِ المُحقَّقةِ فيهم، والمُتوقَّعةِ منهم، وتَرديدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٦/ ٦٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٢).

المَنشئيَّةِ بيْنها؛ فمدارُ الاستِفهامِ ليس نفْسَ ما جاء بعدَ الهمزةِ و(أم) مِن الأمورِ الثَّلاثةِ -وهي وجودُ المرضِ في قُلوبِهم، وارتيابُهم، وخوفُهم مِن أنْ يَحيفَ اللهُ عليهم ورسولُه-، بلْ مدارُ الاستِفهامِ مَنشئيَّةُ هذه الأمورِ للإعراضِ؛ كأنَّه قيل: أذلِكَ -أي: إعراضُهم المذكورُ- لأنَّهم مَرْضى القُلوبِ؛ لكُفْرِهم ونِفاقِهم، ﴿أَمِ﴾ لأنَّهم ﴿ٱرْتَابُوٓاْ﴾ في أمْرِ نُبوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع ظُهورِ حقِّيَّتِها، ﴿أَمْ﴾ لأنَّهم ﴿يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾؟ ثمَّ أُضرِبَ عن الكلِّ، وأُبطِلَتْ مَنشئيَّتُه، وحُكِمَ بأنَّ المَنشأَ للإعراضِ شَيءٌ آخرُ مِن شَنائعِهم، وهو كونُهم ظالِمينَ[1]. أو أبطَلَ خوفَهم حَيْفَه بقولِه: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: لا يَخافون أنْ يَحيفَ عليهم؛ لمعرفتِهم بحالِه، وإنَّما هم ظالمونَ يُريدونَ أنْ يَظلِموا مَن له الحقُّ عليهم، ويَتِمَّ لهم جُحودُه، وذلك شَيءٌ لا يَستطيعونَه في مجلسِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فمِن ثَمَّةَ يأبَوْنَ المُحاكمةَ إليه[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ لطيفةٌ؛ حيث أُتِيَ في جانبِ هذا الاستفهامِ ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ المرضِ في قُلوبِهم، وتأصُّلِه فيها بحيثُ لم يدخُلِ الإيمانُ في قُلوبِهم. وأُتِيَ في جانبِ هذا الاستِفهامِ ﴿أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ﴾ بالجُملةِ الفِعليَّةِ المُفيدةِ للحُدوثِ والتَّجدُّدِ، أي: حدَثَ لهم ارتيابٌ بعدَ أنِ اعتَقَدوا الإيمانَ اعتقادًا مُزلزَلًا. وجِيءَ في جانبِ هذا الاستفهامِ ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ بالفِعلينِ المُضارعينِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه خَوفٌ في الحالِ مِن الحَيفِ في المُستقبلِ، يَقْتضيهِ دُخولُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٩).

﴿أَن﴾ -وهي حرفُ الاستقبالِ- على فِعلِ ﴿يَحِيفَ﴾[١].

- قولُه: ﴿أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ كِنايةٌ عن كَونِهم يَعتقِدون أنَّه غيرُ مُنزَّلٍ مِن اللهِ، وأنْ يكونَ حُكمُ الرَّسولِ بغيرِ ما أمَرَ اللهُ؛ فهم يَطعنونَ في الحُكْمِ وفي الحاكمِ، وما ذلك إلَّا لأنَّهم لا يُؤمِنون بأنَّ شريعةَ الإسلامِ مُنزَّلةٌ مِن اللهِ، ولا يُؤمِنون بأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُرسَلٌ مِن عندِ اللهِ؛ فالكلامُ كِنايةٌ عن إنكارِهم أنْ تكونَ الشَّريعةُ إلَهيَّةً، وأنْ يكونَ الآتي بها صادِقًا فيما أتى به[٢].

- قولُه: ﴿بَلْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قيل: (بل) للإضرابِ الانتقاليِّ مِنَ الاستِفهامِ التَّنبيهيِّ إلى خبَرٍ آخَرَ، ولم يُؤتَ في هذا الإضرابِ بـ (أَمْ)؛ لأنَّ (أَمْ) لا بُدَّ معها مِن معنى الاستفهامِ، وليس المُرادُ عطْفَ كونِهم ظالمينَ على الاستفهامِ المُستعمَلِ في التَّنبيهِ، بلِ المُرادُ به إفادةُ اتِّصافِهم بالظُّلمِ دونَ غيرِهم؛ لأنَّه قدِ اتَّضحَ حالُهم، فلا داعِيَ لإيرادِه بصِيغةِ استِفهامِ التَّنبيهِ. وليست (بل) هنا للإبطالِ؛ لأنَّه لا يَستقيمُ إبطالُ جميعِ الأقسامِ المُتقدِّمةِ؛ فإنَّ منها مرَضَ قُلوبِهم وهو ثابتٌ، ولا دليلَ على قصْدِ إبطالِ القِسمِ الأخيرِ خاصَّةً، ولا على إبطالِ القِسمينِ الآخَرينِ[٣].

- وجُملةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ السَّامعَ بعدَ أنْ طنَّتْ بأُذنِه تلك الاستفهاماتُ الثَّلاثةُ، ثمَّ أُعقِبَت بحرفِ الإضرابِ (بل)، يترقَّبُ ماذا سيُرسِي عليه تحقيقَ حالِهم؛ فكان قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بَيانًا لِمَا يَترقبُّه السَّامعُ[١].

- والقَصرُ الحاصلُ مِن تَعريفِ الجُزأينِ، ومِن ضَميرِ الفصلِ ﴿هُمُ﴾ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: حَصْرٌ مُؤكَّدٌ، أي: هم الظَّالِمون، لا شَرْعُ اللهِ، ولا حُكمُ رَسولِه. وزاد اسمَ الإشارةِ تأْكيدًا للخبَرِ؛ فحصَلَ فيه أربعةُ مُؤكِّداتٍ: اثنانِ مِن صِيغَةِ الحصرِ؛ إذ ليس الحصْرُ والتَّخصيصُ إلَّا تأكيدًا على تأكيدٍ، والثَّالثُ: ضَميرُ الفصْلِ، والرَّابعُ: اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٣).

## الآيات (٥١-٥٤)

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّۖ قُل لَّا تُقْسِمُواْۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي: أقوى الأيمانِ وأغلَظَها مُجتَهِدينَ في تَوكيدِها. وحقيقةُ الجَهدِ: التَّعَبُ والمشَقَّةُ ومُنتهَى الطَّاقةِ، ثمَّ أُطلِقَ على أشَدِّ الفِعلِ ونِهايةِ قُوَّتِه؛ لِما بينَ الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ مِن المُلازَمةِ[1].

﴿حُمِّلَ﴾: أي: كُلِّفَ وأُمِرَ به، وأصلُ (حمل): يدُلُّ على إقلالِ الشَّيءِ[2].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ مُضارِعٌ مجزومٌ عَطفًا على ما قَبْلَه بحَذفِ حَرفِ العِلَّةِ؛ لأنَّه مُعتَلُّ الآخِرِ، والأصلُ (ويتَّقِهِ)، ثمَّ سُكِّنَت القافُ؛ تَخفيفًا لكَثرةِ الحَرَكاتِ على لُغةٍ للعَرَبِ في كُلِّ مُعتَلٍّ حُذِفَ آخِرُه، فيَقولونَ: لم أرْ زَيدًا، يُسقِطونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦) (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٧).

الحَرفَ للجَزمِ، ثمَّ يُسَكِّنونَ ما قَبْلَه. وقيلَ غَيرُ ذلك[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾

﴿جَهْدَ﴾: منصوبٌ، وفي نَصبِه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ الأوَّل: أنَّه مَصدرٌ مؤكِّدٌ، وناصبُه (أقسَموا) مِن مَعناه لا مِن لَفظِه، والمعنى: أَقسَموا إقْسامَ اجتِهادٍ في اليَمينِ.

**الثَّاني**: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ من ضَميرِ (أقسَموا) على تأويلِ المَصْدَرِ باسْمِ الفاعِلِ، أي: جاهِدِينَ، والتَّقديرُ: وأقْسَموا باللهِ جاهِدينَ أنفُسَهم في أَيمانِهم، أي: بالغِينَ بها أقْصى الطَّاقةِ.

**الثَّالِثُ**: أنَّه مَنصوبٌ على المَفعولِ المُطلَقِ الواقِعِ بَدَلًا مِن فِعْلِه، والفِعلُ المُقَدَّرُ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ (أقسَموا)، والتَّقديرُ: أقسَموا يَجْهَدونَ أيمانَهم جَهْدًا[٢].

## المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما يَنبغي أنْ يكونَ عليه المؤمنونَ، فيقولُ: إنَّما المؤمِنونَ حقًّا الذين إذا دُعوا إلى التَّحاكُمِ في خُصوماتِهم إلى اللهِ ورَسولِه، أن يقولوا: سَمعًا وطاعةً، وأولئك هم الفائِزون بسَعادةِ الدَّارَينِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جزاءَ مَن أطاع الله ورسولَه، فيقولُ: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه، ويَخَفِ اللهَ تعالى، ويتَّقِ سَخَطَه وعذابَه، فيمتَثِلْ أوامِرَه، ويجتَنِبْ نواهيَه؛ فهؤلاء هم الفائِزونَ برِضوانِه تعالى.

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٢٨)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٩٠)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٢/ ٨٠٢).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ٢٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٤٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٠٥) (٨/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨ / ٢٧٧).

ثم يعودُ الحديثُ مرَّةً أخرى عن المنافقينَ، فيقولُ الله تعالى: وأقسَمَ المنافِقونَ باللهِ تعالى أغلَظَ الأيمانِ وآكَدَها: لَئِنْ أمرْتَهم -أيُّها النبيُّ- بالخُروجِ إلى الجِهادِ لَيَخرُجُنَّ معك. قُلْ لهم: لا تَحلِفوا؛ فإنَّ أيمانَكم كاذِبةٌ، فطاعتُكم معروفةٌ؛ فهي باللِّسانِ دونَ القَلبِ، وبالقَولِ دونَ العَمَلِ، إنَّ اللهَ خَبيرٌ بما تَعمَلونَه، لا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

ثم يأمُرُ نبيَّه بإرشادِهم إلى الطاعةِ الصادقةِ، فيقولُ تعالى: قُلْ -يا أيُّها النبيُّ- لهم: أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ، فإنْ أعرَضوا فإنَّ على الرَّسولِ ما كُلِّفَ به مِن تَبليغِ الرِّسالةِ، وعليكم ما كُلِّفْتُم به مِنَ السَّمعِ والطَّاعةِ والامتِثالِ، وإن تُطيعوه تَرشُدوا إلى الحَقِّ، وليس على الرَّسولِ إلَّا التبليغُ الواضِحُ في نفْسِه، الموضِّحُ رسالةَ اللهِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى قَولَ المُنافِقين وما قالوه وما فعَلوه؛ أتبَعَه بذِكرِ ما كان يجِبُ أن يفعَلوه، وما يجِبُ أن يَسلُكَه المؤمِنون[1]، وهذا على عادتِه تعالى في إتْباعِ ذِكرِ المُحِقِّ المُبطِلَ، والتَّنبيهِ على ما يَنبغي بعْدَ إنكارِه لِما لا ينبغي[2].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى حالةَ المُعرِضينَ عن الحُكمِ الشَّرعيِّ؛ ذكَرَ حالةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢).

المؤمِنينَ الممدوحين، فقال[١]:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

أي: إنَّما يَنبغي على المؤمِنينَ الصَّادقينَ المُخلِصينَ إذا طُلِب منهم عندَ اختلافِهم التَّحاكُمُ إلى اللهِ ورَسولِه- أن يقولوا برَغبةٍ ومُبادرةٍ، وإقبالٍ دونَ مَطلٍ وتَسويفٍ وتَرَدُّدٍ: سَمِعْنا الدَّعوةَ، وأجَبْنا إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه، ورَضِينا بحُكمِهما لنا أو علينا[٢].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: وأولئك المُؤمِنونَ المُتحاكِمونَ إلى اللهِ ورَسولِه، هم المُدرِكونَ لِما يَطلبونَ، وفي الجنَّةِ هم خالِدون[٣].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فَضلَ الطَّاعةِ في الحُكمِ خُصوصًا؛ ذكَرَ فَضلَها عُمومًا في جميعِ الأحوالِ، فقال[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).
قال ابن جرير: (لم يُعْنَ بـ ﴿كَانَ﴾ في هذا الموضِعِ الخبرُ عن أمرٍ قد مضَى فتقضَّى، ولكنَّه تأنيبٌ مِن اللهِ الذين أُنزِلت هذه الآيةُ بسَبَبِهم، وتأديبٌ منه آخَرينَ غيرَهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾.

أي: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه فيما يأمُرانِه ويَنهيانِه، ويَخَفِ اللهَ العظيمَ خَوفًا مُقترِنًا بعِلمٍ وتَعظيمٍ، ويتَّقِ سَخَطَه وعذابَه، فيَمتَثِلْ أوامِرَه، ويَترُكْ نواهيَه- فأولئك هم الظَّافِرونَ بكُلِّ خَيرٍ، النَّاجونَ مِن كُلِّ شَرٍّ في الدُّنيا والآخرةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝٥٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذكَرَ الله سُبحانَه ما رَتَّب على الطَّاعةِ الظَّاهِرةِ التي هي دَليلُ الانقيادِ الباطِنِ؛ ذكَرَ حال المنافِقينَ فيه، فقال[2]:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾.

أي: وحلَفَ باللهِ أولئك المُنافِقونَ أغلَظَ أيمانِهم وأشَدَّها، مُبالِغينَ في تأكيدِها: لَئِنْ أمَرْتَهم -أيُّها النبيُّ- بالخروجِ إلى الجهادِ لَيَخْرُجُنَّ معك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٨)، ((تفسير =

قال تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٦].

﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾.

أي: قُلْ -يا أيُّها النبيُّ- لأولئك المُنافِقين: لا تَحلِفوا؛ فقد عرَفْتُ أنَّ طاعتَكم مجرَّدُ قَولٍ بلا فِعلٍ، وطاعةٌ نِفاقيَّةٌ لم تكُنْ عن اعتِقادٍ، ومعروفٌ عنكم الكَذِبُ دونَ الإخلاصِ، وقد عرَفتُ كَذِبَكم في دعواكم طاعتي إن أمَرْتُكم بالخُروجِ للجِهادِ[1].

---

= الشوكاني)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: المصادِرُ السَّابِقةُ.

قال الثعلبي: (﴿لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أي: هذه طاعةٌ بالقَولِ واللِّسانِ دونَ الاعتِقادِ، فهي مَعروفةٌ منكم بالكَذِبِ؛ أنَّكم تَكذِبونَ فيها، وهذا معنى قَولِ مجاهِدٍ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٤).

قال السمعاني: (وقَولُه: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ﴾ فِيهِ أقوالٌ؛ أحدُها: ليكُنْ مِنكم طاعةٌ مَعروفةٌ. والآخَرُ: طاعةٌ معروفةٌ أمثَلُ مِن يمينٍ بالقَولِ لا يُوافِقُها الاعتِقادُ. والثَّالِثُ: هذه طاعةٌ مَعروفةٌ منكم أن تَحلِفوا كاذِبينَ، وأن تَقولوا ما لا تَفعَلونَ، ومعناه: هذا أمرٌ مَعروفٌ منكم). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٣).

وقال ابن عثيمين: (الظاهِرُ أنَّ ﴿طَاعَةٌ ﴾ مبتدأٌ، والخبَرُ محذوفٌ، تقديرُه: (عليكم)، أي: عليكم طاعةٌ معروفةٌ، أو ﴿طَاعَةٌ ﴾ خبَرٌ، والمبتدأُ محذوفٌ، أي: طاعتُكم معروفةٌ، فمعنى ذلك أنَّ الإنسانَ عليه أن يُطيعَ طاعةً معروفةً. والطَّاعةُ المعروفةُ مِن المؤمنينَ تكونُ بدونِ حَلِفٍ؛ لأنَّ الذي يحلِفُ على أن يفعلَ، كأنَّه لا يريدُ أن يفعَلَ؛ يفعَلُ لكنَّه يُلزِمُ نَفسَه، فالطَّاعةُ المعروفةُ: الانقيادُ بدونِ قَسَمٍ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٤٣، ٣٤٤).

وقال البقاعي: (قولُه: ﴿طَاعَةٌ ﴾ أي: هذه الحقيقةُ ﴿مَّعْرُوفَةٌ ﴾ أي: منكم ومِن غيرِكم، ... والمعنى: أنَّ الطاعةَ وإنِ اجتهَد العبدُ في إخفائِها لا بدَّ أن تظهَرَ مخايلُها على شمائِلِه، وكذا =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ خبيرٌ بجَميعِ ما تَعمَلونَ مِن طاعةٍ أو مَعصيةٍ، ويعلَمُ ما في بواطِنِكم، وهو مُجازيكم بكُلِّ ذلك؛ فإنَّه إنْ خَفِيَ على النَّاسِ حَقيقةُ حالِكم؛ لنِفاقِكم وكَذِبِكم، فإنَّه لا يخفى على اللهِ العالِمِ بالسَّرائِرِ، المطَّلِعِ على بواطِنِ الأمورِ[1].

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٥٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا بكَّت اللهُ تعالى المُنافِقين بأنَّه مُطَّلِعٌ على سَرائِرِهم؛ تلطَّفَ بهم فأمَرَهم بطاعةِ اللهِ والرَّسولِ، وهو أمرٌ عامٌّ للمُنافِقين وغَيرِهم[2].

وأيضًا لَمَّا نَبَّه اللهُ تعالى على خِداعِ المُنافِقين، وأشار إلى عدَمِ الاغترارِ بإيمانِهم، وإلى قَبولِ شَهادةِ التوسُّمِ فيهم؛ أمَرَ بتَرغيبِهم وترهيبِهم، مُشيرًا إلى الإعراضِ عن عُقوبَتِهم، فقال[3]:

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾.

أي: قُلْ -أيُّها النبيُّ- لهؤلاء المُنافِقين: أطيعوا اللهَ باتِّباعِ كِتابِه، وأطيعوا

---

= المعصيةُ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

قال البقاعي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ أي: الذي له الإحاطةُ بكلِّ شيءٍ ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ وإنِ اجتهدتُم في إخفائِه، فهو ينصبُ عليه دلائلَ يعرفُه بها عبادُه، فالحلفُ غيرُ مُغْنٍ عن الحالفِ، والتسليمُ غيرُ ضارٍّ للمسلمِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠١، ٣٠٢).

الرَّسولَ باتِّباعِ سُنَّتِه طاعةً ظاهِرةً وباطِنةً بصِدقٍ وإخلاصٍ[١].

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾.

أي: فإنْ تُعرِضوا -أيُّها المُنافِقونَ- عمَّا جاءكم به الرَّسولُ، فإنَّما عليه مسؤوليَّةُ تبليغِكم الرِّسالةَ، وأداءُ الأمانةِ، وعليكم مسؤوليةُ طاعتِه، واتِّباعُ شَريعتِه[٢].

﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾.

أي: وإنْ تُطيعوا الرَّسولَ في أمرِه ونَهيِه، تَرشُدوا إلى الخَيرِ، وتُصيبوا الحَقَّ في جميعِ أمورِكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وعن العِرباضِ بنِ ساريةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصُّبحَ ذاتَ يومٍ، ثمَّ أقبَلَ علينا، فوعَظَنا مَوعِظةً بَليغةً، ذَرَفَت[٤] منها العُيونُ، ووَجِلَت[٥] منها القُلوبُ، فقال قائِلٌ: يا رسولَ اللهِ، كأنَّ هذه مَوعِظةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٨٠).
قال السعدي: (وإنْ ﴿تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ مِن الرِّسالةِ، وقد أدَّاها. ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ مِن الطاعةِ، وقد بانت حالُكم وظهَرت، فبان ضلالُكم وغَيُّكم، واستحقاقُكم العذابَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٢).

(٤) ذَرَفَت: أي: دَمَعَت. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢٥١).

(٥) وَجِلَت: أي: خافَت، والوَجَلُ: خَوفٌ مع الحَذَرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢٥١).

مُوَدِّعٍ! فماذا تعهَدُ إلينا؟ فقال: أُوصيكم بتَقوى اللهِ، والسَّمعِ والطَّاعةِ وإن كان عبدًا حَبَشيًّا؛ فإنَّه مَن يَعِشْ منكم بعدي فسَيَرى اختِلافًا كثيرًا، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهديِّينَ، تمسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ[1]، وإيَّاكم ومُحدَثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّ كُلَّ مُحدَثةٍ بِدعةٌ، وكُلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ))[2].

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: ولا يَجِبُ على الرَّسولِ إلَّا التَّبليغُ الظَّاهِرُ الواضِحُ في نفْسِه، الموضِّحُ لكم رسالةَ اللهِ، بحيثُ لا يبقَى لدى أحَدٍ شَكٌّ ولا شُبهةٌ، وقد أدَّى ذلك، وقام بوظيفتِه، وبَقِيَ عليكم ما حُمِّلْتُم، وليس هو مَن كَلَّفَكم، وليس عليه هدايتُكم ولا حِسابُكم، فطاعتُه يعودُ نَفعُها إليكم، ومَعصيتُه يعودُ وبالُها عليكم[3].

---

(١) عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ: أي: تمسَّكوا بها كما يتمَسَّكُ العاضُّ بجَميعِ أضراسِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٧١٤٥).
صحَّحه الترمذيُّ (٢٦٧٦)، والحاكم (١/ ١٧٦)، ووافقه الذهبي، وصحَّحه ابن عبد البر في ((جامع بيان العلم وفضله)) (٢/ ١١٦٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٢).
قال الشوكاني: (اللامُ: إمَّا للعهد، فيُرادُ بالرَّسولِ نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ وإمَّا للجِنسِ، فيُرادُ كُلُّ رَسولٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥).
وقال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلْمُبِينُ﴾ تَصِحُّ بمعنى البَيِّنِ، وتَصِحُّ بمعنى المُبَيِّنِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٢).
ممَّن اختار أنَّها بمعنى البَيِّنِ الواضِحِ الظَّاهِرِ: مكِّي، والسمعانيُّ، والبغوي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٥٤)، =

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ هذه الآيةُ -على إيجازِها- حاويةٌ لكُلِّ ما ينبغي للمُؤمِنينَ أن يفعَلوه[1].

٢- قال أبو عثمانَ سعيدُ بنُ إسماعيلَ: (مَن أمَّرَ السنَّةَ على نفْسِه قَولًا وفِعلًا، نطقَ بالحِكمةِ، ومَن أمَّرَ الهوى على نفْسِه قَولًا وفِعلًا، نطَقَ بالبدعةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾)[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أنَّ المبلِّغِينَ لشريعةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يجبُ عليهم أن يُبيِّنوها للنَّاسِ على أتمِّ الوُجوهِ[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- يَحرُمُ الإفتاءُ والحُكْمُ في دينِ اللهِ بما يخالِفُ النصوصَ؛ ويَسقطُ الاجتهادُ

---

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

وممَّن اختار أنَّها بمعنى الموضِّحِ المُظهِرِ: البيضاويُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٢).

وممَّن جمع بين المعنيَينِ السَّابِقَينِ: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (١٠/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٨٠).

والتقليدُ عندَ ظهورِ النصِّ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقال أيضًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[1] [الحجرات: ١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ حصَرَ الفلاحَ فيهم؛ لأنَّ الفلاحَ: الفَوزُ بالمطلوبِ، والنَّجاةُ مِن المكروهِ، ولا يُفلِحُ إلَّا مَن حكَّمَ اللهَ ورَسولَه، وأطاع اللهَ ورَسولَه[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ﴾ ميَّزَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بيْن حَقِّه وحَقِّ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ؛ فالطاعةُ لله والرَّسولِ، والخَشيةُ للهِ وحْدَه، والتَّقوى للهِ وحْدَه، لا يُخْشَى مخلوقٌ، ولا يُتَّقَى مخلوقٌ؛ لا مَلَكٌ ولا نبيٌّ ولا غيرُهما[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ فجمَعَ اللهُ في هذه الآيةِ أسبابَ الفوزِ؛ فالفاءُ في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ جَزائيَّةٌ، مُؤذِنةٌ بأنَّ ما بعْدَها مُسبَّبةٌ عمَّا قبْلَها ممَّا تضمَّنَه الشَّرطُ مِن طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه؛ فخَشيةُ اللهِ على ما مَضى، إنْ فرَطَ منه تَقصيرٌ فيَتدارَكُه، وتَقْوى اللهِ فيما يُستقبَلُ مِن ترْكِ ما يجِبُ عليه أنْ يذَرَهُ، والإتيانِ بما يجِبُ عليه إتيانُه، فعَمَّ الأوقاتَ بأسْرِها، والأفعالَ بأجمَعِها، مِن فِعلِ ما يَنْبغي، وترْكِ ما لا يَنْبغي؛ ولذلك قِيل: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾، أي: الكامِلونَ في الفوزِ بمَباغِيهم ومَطالِبِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٨)، =

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ إشارةٌ إلى النَّهيِ عن النَّذرِ[1]، فهذا القَسَمُ نذرٌ؛ لأنَّ القَسَمَ إذا تضمَّن إلزامًا مِن الإنسانِ لله صار جامعًا بينَ القَسَمِ والنَّذرِ، فنهَى الله عن ذلك بقولِه: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾[2].

٦- في قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ وجوبُ تقييدِ الطاعةِ بالمعروفِ، يعني أنْ تكونَ طاعةً بالمعروفِ، والمرادُ بالمعروفِ هنا المعروفُ مِن الشرعِ، وليست المعروفة بيْن الناسِ؛ لأنَّ الناسَ قد يَعرفون شيئًا يظنُّونه طاعةً وليس بطاعةٍ[3]! وذلك على أحدِ الأقوالِ في معنى الآيةِ.

٧- في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ إعادةُ العاملِ (أطيعُوا) تدُلُّ على أنَّ طاعةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم طاعةٌ مُستقِلَّةٌ؛ وأنَّ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم فكما جاء به عنِ اللهِ؛ ولهذا قال العلماءُ: (إنَّ ما وَجَبَ في سُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كالذي وَجَبَ في القُرآنِ مِن أمرٍ ونهيٍ)، وهذا واضِحٌ؛ لأنَّه جعَلَ طاعةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طاعةً مُستقِلَّةً؛ حيث قال: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[4].

٨- إردافُ التَّرهيبِ الذي تضَمَّنَه قولُه تعالى: ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ بالتَّرغيبِ في الطَّاعةِ الذي تضَمَّنَه قَولُه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ فيه استِقصاءٌ في الدَّعوةِ إلى الرُّشدِ[5].

---

= ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما جاءت به السُّنَّةُ فهو حُكمٌ مُستَقِلٌّ يجبُ أن يُطاعَ ويُتَّبَعَ، كما جاء في القرآنِ؛ ولهذا قال: ﴿تَهْتَدُوا﴾، فالهِدايةُ مطلوبةٌ؛ فإذا أمَرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأمرٍ، فلا يجوزُ لنا أن نقولَ: هل لهذا أصلٌ في القُرآنِ أو لا؟ إن كان له أصلٌ قَبِلْناه، وإن لم يكُنْ له أصلٌ لم نَقبَلْه! لأنَّ هذا حرامٌ، وهو كُفرٌ بالقُرآنِ نفْسِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾؛ فدَلَّ هذا على أنَّ كُلَّ ما جاء به فهو حَقٌّ وهِدايةٌ، ليس فيه باطِلٌ وضَلالٌ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الإخبارَ عن الَّذين يُعرِضون عندَما يُدْعَون إلى الحُكومةِ بأنَّهم ليسوا بالمُؤمِنينَ في حينِ أنَّهم يُظهِرونَ الإيمانَ، يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن الفاصلِ الَّذي يُميِّزُ بينَ المُؤمِن الحقِّ وبيْنَ الَّذي يُرائي بإيمانِه في حين يُدْعَى إلى الحُكومةِ عندَ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فيَقْتضي أنْ يُبيَّنَ للسَّائلِ الفرْقُ بين الحالينِ؛ لئلَّا يلْتبِسَ عنده الإيمانُ المُزوَّرُ بالإيمانِ الصَّادقِ، فقد كان المُنافِقون يُموِّهون بأنَّ إعراضَ مَن أعرَضَ منهم عن التَّحاكُمِ عندَ رسولِ اللهِ ليس لِتَزلزُلٍ في إيمانِه بصِدْقِ الرَّسولِ، ولكنَّه إعراضٌ لمُراعاةِ أعراضٍ مِن العلائقِ الدُّنيويَّةِ؛ فبيَّنَ اللهُ بُطلانَ ذلك بأنَّ المُؤمِنَ لا يَرتابُ في عدْلِ الرَّسولِ، وعدَمِ مُصانعَتِه. وقد أفاد هذا الاستِئنافُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٠).

أيضًا الثَّناءَ على المُؤمنينَ الأحِقَّاءِ بضِدِّ ما كان ذمًّا للمُنافقينَ[١].

- وجِيءَ بصِيغَةِ الحصرِ ﴿إِنَّمَا﴾؛ لدفْعِ أنْ يكونَ مُخالِفُ هذه الحالةِ في شَيءٍ مِن الإيمانِ، وإنْ قال بلسانِه: إنَّه مُؤمِنٌ، فهذا القصرُ إضافيٌّ[٢]، أي: هذا قولُ المُؤمنينَ الصَّادقينَ في إيمانِهم. وليس قصْرًا حَقيقيًّا؛ لأنَّ أقوالَ المُؤمنينَ حين يُدْعَون إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِيَحكُمَ بيْنهم غيرُ مُنحصرةٍ في قولِ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، ولا في مُرادِفِه؛ فلعلَّ منهم مَن يَزِيدُ على ذلك؛ فليس المُرادُ بقولِ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ خُصوصَ هذين اللَّفظينِ، بلِ المُرادُ لفْظُهما أو مُرادِفُهما؛ للتَّسامُحِ في مفعولِ فِعلِ القولِ ألَّا يُحْكى بلَفظِه. وإنَّما خُصَّ هذانِ اللَّفظانِ بالذِّكْرِ هنا؛ مِن أجْلِ أنَّهما كَلمةٌ مَشهورةٌ تُقال في مثْلِ هذه الحالةِ، وهي ممَّا جَرى مَجْرى المثَلِ، كما يُقال أيضًا: (سمْعٌ وطاعةٌ)، و(سمْعًا وطاعةً). والقصرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) هنا قصْرُ إفرادٍ لأحدِ نوعَيِ القولِ؛ فالمقصودُ منه الثَّناءُ على المُؤمنينَ برُسوخِ إيمانِهم، وثَباتِ طاعتِهم في المَنْشَطِ والمَكْرَهِ. وفيه تَعريضٌ بالمنافقينَ؛ إذ يقولونَ كَلمةَ الطَّاعةِ ثمَّ يَنقُضونها بضِدِّها مِن كلماتِ الإعراضِ والارتيابِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ جِيءَ في وَصْفِ المُؤمنينَ بالفلاحِ بمِثْلِ التَّركيبِ الَّذي وُصِفَ به المُنافِقون بالظُّلمِ، بصِيغةِ القصرِ المُؤكَّدِ؛ ليكونَ الثَّناءُ على المُؤمنينَ ضِدًّا لِمَذمَّةِ المُنافِقين تامًّا[٤].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعُلوِّ رُتبتِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٥).

وبُعدِ مَنزلتِهم في الفضْلِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ...﴾ استئنافٌ؛ جِيءَ به لتَقريرِ مَضمونِ ما قبْلَه مِن حُسنِ حالِ المُؤمنينَ، وتَرغيبِ مَن عَداهم في الانتظامِ في سِلْكِهم[٢].

وقِيل: الواوُ في ﴿وَمَن يُطِعِ...﴾ اعتراضيَّةٌ، أو عاطفةٌ على جُملةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]، والتَّقديرُ: وهُمُ الفائِزون؛ فجاء نظْمُ الكلامِ على هذا الإطنابِ؛ ليَحصُلَ تَعميمُ الحُكْمِ والمحكومِ عليه. ومَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقِعُ تَذييلٍ؛ لأنَّها تعُمُّ ما ذُكِرَ قبْلَها مِن قولِ المُؤمنينَ: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ [النور: ٥١]، وتَشملُ غيرَه مِن الطَّاعاتِ بالقولِ أو بالفِعْلِ[٣].

- وصِيغةُ الحصرِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾؛ للتَّعريضِ بالَّذين أعْرَضوا إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه، وهي على وزْنِ صِيغةِ القصْرِ الَّتي تقدَّمَتْها[٤]. وقيل: هي تَعريضٌ بالمُؤمنينَ الَّذين إذا دُعُوا إلى اللهِ ورسولِه ليَحكُمَ بيْنهم أن يَقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، وبالمُنافقين الَّذين يَقولونَ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى آخرِ الآياتِ؛ بأنَّ الأوَّلينَ هم الفائِزونَ بمَباغِيهم، والآخَرينَ هم الدَّامِرونَ الخاسِرونَ؛ فالآيةُ مِن الجوامعِ[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُواْ طَاعَةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٥).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٢٨).

مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ ضَميرُ (أَقْسَمُوا) عائدٌ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ [النور: ٤٧]، والتَّعبيرُ بفِعْلِ المُضِيِّ هنا؛ لأنَّ ذلك شَيءٌ وقَعَ وانْقَضى[١].

- وجُملةُ: ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ بَيانٌ لجُملةِ: (أَقْسَمُوا)، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿أَمَرْتَهُمْ﴾؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾، والتَّقديرُ: لئنْ أمَرْتَهم بالخُروجِ لَيَخرُجُنَّ[٢].

- أيضًا في قولِه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ على القولِ بأنَّهم ذَكَروا خُروجينِ؛ فيكونُ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ حيث حُذِفَ مُتعلَّقُ الخُروجِ؛ ليَشمَلَ ما يُطلَقُ عليه لفْظُ الخُروجِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لأنَّه أبلَغُ في تَبكيتِهم[٤].

- وقولُه: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ هذا كَلامٌ مُوَجَّهٌ؛ لأنَّ نَهْيَهم عن أنْ يُقْسِموا بعْدَ أنْ صدَرَ القَسَمُ يَحتمِلُ أنْ يكونَ نهْيًا عن إعادتِه؛ لأنَّهم كانوا بصدَدِ إعادتِه، بمعنى: لا حاجةَ بكم إلى تأْكيدِ القسَمِ، أي: فإنَّ التَّأكيدَ بمَنزلةِ المُؤكَّدِ في كَونِه كذِبًا. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٤).

النَّهيُ مُستعمَلًا في معنى عدَمِ المُطالَبةِ بالقسَمِ، أي: ما كان لكم أنْ تُقسِموا؛ إذ لا حاجةَ إلى القسَمِ؛ لعدَمِ الشَّكِّ في أمْرِكم. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ النَّهيُ مُستعمَلًا في التَّسويةِ، مِثْلُ ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾[الطور: ١٦]. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ النَّهيُ مُستعمَلًا في حقيقتِه، والمُقسَمُ عليه مَحذوفٌ، أي: لا تُقسِموا على الخُروجِ مِن ديارِكم وأموالِكم؛ فإنَّ اللهَ لا يُكلِّفُكم بذلك. ومَقامُ مُواجهةِ نِفاقِهم يَقْتضي أنْ تكونَ هذه الاحتمالاتُ مَقصودةً[1].

- وقولُه: ﴿طَاعَةٌ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ كَلامٌ أُرْسِلَ مَثلًا، وتحْتَه مَعانٍ جمَّةٌ تَختلِفُ باختلافِ الاحتمالاتِ المُتقدِّمةِ في قولِه: ﴿لَّا تُقۡسِمُواْ﴾؛ فعلى احتمالِ أنْ يكونَ النَّهيُ عن القسَمِ مُستعمَلًا في النَّهيِ عن تَكريرِه، يكونُ المعنى مِن قَبيلِ التَّهكُّمِ، أي: لا حُرمةَ للقسَمِ، فلا تُعِيدُوه؛ فطاعَتُكم مَعروفةٌ، أي: مَعروفٌ وَهَنُها وانتفاؤُها. وعلى احتمالِ استِعمالِ النَّهيِ في عدَمِ المُطالَبةِ باليمينِ، يكونُ المعنى: لماذا تُقْسِمون؟ أفَأنا أشُكُّ في حالِكم؟! فإنَّ طاعتَكم مَعروفةٌ عندي، أي: أعرِفُ عدَمَ وُقوعِها، والكلامُ تهكُّمٌ أيضًا. وعلى احتمالِ استعمالِ النَّهيِ في التَّسويةِ؛ فالمعنى: قَسَمُكم ونفْيُه سواءٌ؛ لأنَّ أيمانَكم فاجرةٌ، وطاعتكم مَعروفةٌ. وإنْ كان النَّهيُ مُستعمَلًا في حقيقتِه؛ فالمعنى: لا تُقْسِموا هذا القسَمَ، أي: على الخُروجِ مِن ديارِكم وأموالِكم؛ لأنَّ اللهَ لا يُكلِّفُكم الطَّاعةَ إلَّا في معروفٍ[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿طَاعَةٌ مَّعۡرُوفَةٌ﴾ خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ تَعليلٌ للنَّهيِ، أي: لا تُقسِمُوا على ما تدَّعُون مِن الطَّاعةِ؛ لأنَّ طاعتكم طاعةٌ نِفاقيَّةٌ واقعةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٨، ٢٧٩).

باللِّسانِ فقَطْ مِن غيرِ مُواطأةٍ مِن القلبِ، وإنَّما عبَّرَ عنها بـ﴿مَّعْرُوفَةٌ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ كونَها كذلك مَشهورٌ مَعروفٌ لكلِّ أحدٍ[1].

- وتَنكيرُ ﴿طَاعَةٌ﴾؛ لأنَّ المقصودَ به نوعُ الطَّاعةِ، وليست طاعةً مُعيَّنةً، فهو مِن بابِ: تمْرةٌ خيرٌ مِن جَرادةٍ[2].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تَذييلٌ وتَعليلٌ لِما قبْلَها[3]؛ فالجُملةُ تَعليلٌ للحُكمِ بأنَّ طاعتَهم طاعةٌ نِفاقيَّةٌ، مُشعِرٌ بأنَّ مَدارَ شُهرةِ أمْرِها فيما بيْن المُؤمنين إخبارُه تعالى بذلك، ووَعيدٌ لهم بأنَّه تعالى مُجازيهم بجميعِ أعمالِهم السَّيِّئةِ الَّتي منْها نِفاقُهم[4].

٤- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ فيه تَكرارُ الأمرِ بالقولِ؛ لإبرازِ كَمالِ العِنايةِ به، والإشعارِ باختلافِهما؛ مِن حيثُ إنَّ المَقولَ في الأوَّلِ نهْيٌ بطريقِ الرَّدِّ والتَّقريعِ، وفي الثَّاني أمْرٌ بطَريقِ التَّكليفِ والتَّشريعِ. وإطلاقُ الطَّاعةِ المأمورِ بها عن وصْفِ الصِّحَّةِ والإخلاصِ ونحوِهما بعْدَ وصْفِ طاعتِهم بما ذُكِرَ؛ للتَّنبيهِ على أنَّها ليست مِن الطَّاعةِ في شَيءٍ أصْلًا[5].

- قولُه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ ...﴾ أمْرٌ بتَبليغِ ما خاطَبَهم اللهُ به على الحكايةِ؛ مُبالَغةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٨، ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٠).

في تَبكيتِهم[١].

- قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ خِطابٌ للمأْمورينَ بالطَّاعةِ مِن جِهَتِه تعالى، واردٌ لتأكيدِ الأمْرِ بها، والمُبالَغةِ في إيجابِ الامتثالِ به، والحمْلِ عليه بالتَّرهيبِ والتَّرغيبِ؛ لِمَا أنَّ تَغييرَ الكلامِ المَسوقِ لمَعنًى مِن المعاني، وصَرْفَه عن سَنَنِه المَسلوكِ يُنبِئُ عن اهتمامٍ جديدٍ بشأْنِه مِن المُتكلِّمِ، ويَستجلِبُ مَزيدَ رغْبةٍ فيه مِن السَّامعِ، لا سيَّما إذا كان ذلك بتَغييرِ الخِطابِ بالواسطةِ إلى الخِطابِ بالذَّاتِ؛ فإنَّ في خِطابِه تعالى إيَّاهم بالذَّاتِ بعْدَ أمْرِه تعالى إيَّاهم بواسطَتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَصدِّيَه لبَيانِ حُكْمِ الامتثالِ بالأمْرِ والتولِّي عنه إجمْالًا وتَفصيلًا؛ مِن إفادةِ ما ذُكِرَ مِن التَّأكيدِ والمُبالَغةِ ما لا غايةَ وراءَه. والفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على تَبليغِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للمأمورِ به إليهم، وعدَمُ التَّصريحِ به؛ للإيذانِ بغايةِ ظُهورِ مُسارَعتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى تبْليغِ ما أُمِرَ به، وعدَمِ الحاجةِ إلى الذِّكْرِ[٢].

- ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ تفريعًا على فِعْلِ ﴿أَطِيعُواْ﴾؛ فيكونَ فِعلُ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ مِن جُملةِ ما أُمِرَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَه لهم، ويكونَ فِعلًا مضارِعًا بتاءِ الخِطابِ، وحُذِفَت تاءُ الخِطابِ للتَّخفيفِ، وهو حذْفٌ كثيرٌ في الاستعمالِ، والكلامُ تَبْليغٌ عن اللهِ تعالى إليهم؛ فيكونَ ضَميرَا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ عائدَينِ إلى الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويجوزُ أنْ يكونَ تَفريعًا على فِعْلِ ﴿قُلْ﴾، أي: فإذا قلْتَ ذلك، فتولَّوا ولم يُطِيعوا...

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩، ١٩٠).

إلخ؛ فيكونَ فِعلُ ﴿تَوَلَّوْاْ﴾ ماضِيًا بتاءٍ واحدةٍ، مُواجَهًا به النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: فإنْ تولَّوا ولم يُطِيعوا، فإنَّما عليك ما حُمِّلْتَ مِن التَّبليغِ، وعليهم ما حُمِّلوا مِن تَبِعَةِ التَّكليفِ؛ فيكونَ في ضمائرِ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ الْتِفاتٌ. وأصْلُ الكلامِ: فإنَّما عليك ما حُمِّلْتَ، وعليهم ما حُمِّلوا. والالتفاتُ مُحسِّنٌ لا يَحتاجُ إلى نُكتةٍ. وبهذَينِ الوجهينِ تكونُ الآيةُ مُفيدةً معنيينِ: معنًى مِن تعلُّقِ خِطابِ اللهِ تعالى بهم، وهو تَعريضٌ بتَهديدٍ ووَعيدٍ، ومعنًى مِن موعظةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيَّاهم، ومُوادعةٍ لهم. وهذا كلُّه تَبكيتٌ لهم؛ لِيَعْلَموا أنَّهم لا يضُرُّون بتولِّيهم إلَّا أنفُسَهم[1]؛ ففي قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ ...﴾ صَرْفُ الكلامِ عن الغَيبةِ في (أَقْسَمُوا) إلى الخِطابِ على طريقةِ الالتفاتِ، وهو أبلَغُ في تَبكيتِهم[2].

- قولُه: ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾، أي: ما أُمِرْتُم بهِ مِنَ الطَّاعةِ، ولعلَّ التَّعبيرَ عنه بالتَّحميلِ؛ للإشعارِ بثِقَلِه، وكَونِه مُؤنةً باقيةً في عُهْدتِهم بعْدُ. وقولُه تعالى: ﴿مَا حُمِّلَ﴾ مَحمولٌ على المُشاكَلةِ[3].

- وتأخيرُ قولِه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾ عن بَيانِ حُكْمِ التَّولِّي في قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾؛ لِمَا في تَقديمِ التَّرهيبِ مِن تأْكيدِ التَّرغيبِ وتَقريبِه ممَّا هو مِن بابِه مِن الوعْدِ الكريمِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، مِن أنَّ غائلةَ التَّولِّي وفائدةَ الإطاعةِ مَقصورتانِ عليهم[1]. وقيل: جُملةُ: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ بَيانٌ لإبهامِ قولِه: ﴿مَا حُمِّلَ﴾[2].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٨٩، ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨١).

## الآيات (٥٥-٥٧)

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾.

### غريبُ الكَلماتِ:

﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾: أي: ليجعَلَنَّهم خُلَفاءَ، والخِلافةُ: النِّيابةُ عن الغَيرِ، يُقالُ: خلَفَ فلانٌ فلانًا: إذا قام بالأمرِ عنه؛ إمَّا معه وإمَّا بَعْدَه، وأصلُه: يدُلُّ على مجيءِ شَيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مَقامَه[1].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ﴾: أي: لَيُثبِّتَنَّ، وليوطِّئَنَّ، والتَّمكينُ هنا: التَّثبيتُ والتَّقريرُ[2].

### المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى وعْدَه الذي لا يتخلَّفُ لعبادِه المؤمنينَ، فيقولُ: وعَدَ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ بمِيراثِ الأرضِ وخِلافتِها، كما استخلفَ المؤمِنينَ مِن قَبْلِهم، وأن يجعَلَ دينَهم الذي ارتَضاه لهم -وهو الإسلامُ- دينًا مَكينًا عزيزًا، فيَظهَرَ على غيرِه مِن الأديانِ، وأن يغَيِّرَ حالَهم مِن الخَوفِ إلى الأمنِ، يوحِّدونَ الله ويُخلِصونَ له العبادةَ، ولا يَعبُدونَ إلهًا غيرَه سُبحانَه. ومَن كفَرَ بعْدَ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

الاستِخلافِ والأمنِ والتَّمكينِ، فأولئك هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ.

ثمَّ يُبيِّنُ -سُبحانه وتعالى- بعدَ ذلك أهَمَّ أركانِ عبادتِه، فقال: وأقيموا الصَّلاةَ، وأدُّوا الزَّكاةَ على الوَجهِ التَّامِّ، وأطيعوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ رجاءَ رَحمةِ اللهِ.

ثم يقولُ تعالى مثبِّتًا للمؤمنينَ، ومهوِّنًا مِن شأنِ أعدائِهم: ولا تظُنَّنَّ -أيُّها النبيُّ- الذين كفَروا مُعجِزينَ لله في الأرضِ، بل هو قادِرٌ عليهم، ومَرجِعُهم في الآخرةِ إلى نارِ جهنَّمَ، وقبُحَ هذا المرجِعُ والمآلُ الذي يصيرونَ إليه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

مُناسَبةُ الانتِقالِ إلى هذا الكَلامِ التعَرُّضُ إلى أحوالِ المُنافِقينَ الذين أبقاهم على النِّفاقِ تردُّدُهم في عاقبةِ أمرِ المُسلِمينَ، وخَشيتُهم ألَّا يَستَقِرَّ بالمُسلِمينَ المُقامُ بالمدينةِ حتى يَغزُوَهم المُشرِكونَ، أو يُخرِجَهم المنافِقونَ حين يَجِدونَ الفُرصةَ لذلك، مع ما لهذا الكَلامِ مِن المناسَبةِ مع قَولِه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ [النور: ٥٤]، فيكونُ المعنى: وإنْ تُطيعوه تَهتَدوا وتُنصَروا وتَأمَنوا[1].

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: وَعَدَ اللهُ الذين آمَنوا مِن هذه الأمَّةِ وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ وَعدًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨١).

جازِمًا مؤكَّدًا أنَّه سيُورِثُهم الأرضَ، فيَجعَلُهم خُلَفاءَ فيها، مُسيطرينَ عليها، متصرِّفينَ في أمورِها، والقيامِ بتَدبيرِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٣).

و(مِن) في قوله: ﴿مِنكُمْ﴾ قيل: للتَّبعيضِ، أو للتَّبيينِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٨٨).

قال النسفي: (﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ولِمَن معه، ﴿مِنكُمْ﴾ للبَيانِ، وقيل: المرادُ به المهاجِرونَ، و«مِن» للتَّبعيضِ). ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٥).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالَى ذِكْرُه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ باللَّهِ ورسولِه ﴿مِنكُمْ﴾ أيُّها النَّاسُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦).

وقال الشوكاني: (وهو وَعدٌ يَعُمُّ جميعَ الأُمَّةِ. وقيل: هو خاصٌّ بالصَّحابةِ، ولا وَجْهَ لذلك؛ فإنَّ الإيمانَ وعَمَلَ الصَّالحاتِ لا يختَصُّ بهم، بل يُمكِنُ وُقوعُ ذلك مِن كُلِّ واحدٍ مِن هذه الأمَّةِ، ومَن عَمِلَ بكِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه فقد أطاع اللهَ ورَسولَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: لَيُورِثَنَّهم اللهُ أرضَ المشركين مِن العرَبِ والعَجَمِ، فيجعَلُهم ملوكَها وساسَتَها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦).

وقال ابن عطية: (قولُه: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريدُ في البلادِ التي تجاوِرُهم، والأصقاعِ التي قضى بامتدادِهم إليها. واستخلافُهم هو أن يُملِّكَهم البلادَ ويجعَلَهم أهلَها، كما جرى في الشَّامِ وفي العراقِ وخُراسانَ والمغربِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٢).

وقال ابن عثيمين: (كَلِمةُ ﴿الْأَرْضِ﴾ المرادُ بها الجِنسُ، ليست أرضًا واحِدةً مُعَيَّنةً، بل أرضٌ عامَّةٌ، أي: الأرضُ كُلُّها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٥٤).

وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

وعن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زوى[١] لي الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أمَّتي سيبلُغُ مُلْكُها ما زُوِيَ لي منها، وأُعطيتُ الكَنزَينِ: الأحمَرَ والأبيضَ، وإنِّي سألتُ رَبِّي لأمَّتي ألَّا يُهلِكَها بسَنَةٍ عامَّةٍ، وألَّا يُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا مِن سِوى أنفُسِهم، فيَستبيحَ بَيضَتَهم[٢]، وإنَّ رَبِّي قاكل: يا مُحمَّدُ، إنِّي إذا قضيتُ قضاءً فإنَّه لا يُرَدُّ، وإنِّي أعطيتُك لأمَّتِك ألَّا أُهلِكَهم بسَنَةٍ عامَّةٍ[٣]، وألاَّ أُسَلِّطَ عليهم عدُوًّا مِن سِوى أنفُسِهم يَستبيحُ بَيضَتَهم، ولوِ اجتَمَع عليهم مَن بأقطارِها، حتى يكونَ بَعضُهم يُهلِكُ بَعضًا، ويَسبِي بعضُهم بعضًا))[٤].

﴿كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

أي: كما ملَّك اللهُ الأرضَ لآخَرِينَ مِن قَبْلِ هذه الأُمَّةِ[٥].

---

(١) زَوَى: أي: جَمَعَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣).

(٢) بَيضَتَهم: أي: جَماعتَهم، ومَوضِعَ سُلطانِهم، ومُستَقَرَّ دَعوتِهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٧٢).

(٣) بسَنةٍ عامَّةٍ: أي: بقَحْطٍ يَعُمُّهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٤).

(٤) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: بنو إسرائيل: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والزمخشري، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وأبو حيان، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٤٢)، ((الوجيز)) =

كما قال تعالى حاكيًا قولَ موسى لِقومِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وقال عزَّ وجلَّ عن فِرعَونَ وقَومِه: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧- ٥٩].

وقال الله عن ذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤].

﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: ولَيُثبِّتَنَّ اللهُ للمُؤمِنينَ دينَ الإسلامِ الذي اختارَه لهم، فيَظهَرُ على غيرِه

---

= للواحدي (ص: ٧٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٩٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الأُممُ المؤمنةُ برُسلِها؛ بنو إسرائيلَ وغيرُهم، وداودُ وسُلَيمانَ وغيرُهما مِنَ الأنبياءِ والمؤمنينَ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، والسمرقندي، والرازي، والخازن، والبقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (١/ ٤٥٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢١)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠٣).

وقال الشوكاني: (وظاهِرُ قَولِه: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كُلُّ مَنِ استَخلَفَهُ اللهُ في أرضِه، فلا يُخَصُّ ذلك ببَني إسرائيلَ ولا أُمَّةٍ مِن الأمَمِ دُونَ غيرِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥).

وقال ابن عاشور: (يعني: الأمَمَ التي حكَمَت معظَمَ العالَمِ وأخافت جميعَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٦).

مِن الأديانِ، وينتَشِرُ ويتمَكَّنُ أتباعُه مِن إقامةِ شَرائِعِه[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣].

وعن تَميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وبَرٍ[٢] إلاَّ أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ. وكان تميمٌ الدَّاريُّ يقول: قد عرَفتُ ذلك في أهلِ بيتي؛ لقد أصابَ مَن أسلَمَ منهم الخيرُ والشَّرَفُ والعِزُّ، ولقد أصابَ مَن كان منهم كافِرًا الذُّلُّ والصَّغارُ والجِزيةُ))[٣].

وعن المِقدادِ بنِ الأسوَدِ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٢)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٣).

(٢) بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ: المَدَرُ: جَمعُ مَدَرةٍ، وهي: اللَّبِنةُ، والمرادُ به هنا: البُيوتُ المُحكَمةُ المَبنيَّةُ مِن الأحجارِ والطُّوبِ واللَّبِنِ، كبُيوتِ المُدُنِ والقُرى. والوَبَرُ: شَعرُ الإبِلِ، والمرادُ به هنا: البُيوتُ غيرُ المُحكَمةِ، كبُيوتِ البوادي وأهلِ الخِيامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦)، ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) لمحمد الأمين الهَرري (٢٦/ ٢٥٩).

(٣) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) واللفظ له، والحاكم (٨٣٢٦)، والبيهقي (١٩٠٩٠).
صحَّحه الحاكِمُ على شَرطِ الشيخين. وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): (رجالُه رجالُ الصحيح). وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): (على شرطِ مُسلمٍ، وله شاهِدٌ على شَرطِ مُسلمٍ أيضًا).

عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَبقى على ظَهرِ الأرضِ بَيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ إلَّا أدخلَه اللهُ كَلِمةَ الإسلامِ، بعِزِّ عزيزٍ أو ذُلِّ ذليلٍ؛ إمَّا يُعِزُّهم اللهُ فيَجعَلُهم مِن أهلِها، أو يُذِلُّهم فيَدينون لها))[1].

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾.

أي: وليُغَيِّرَنَّ اللهُ حالَ المؤمِنينَ مِن الخَوفِ مِن أعدائِهم إلى الأمنِ التَّامِّ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وعن خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَونا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو متوَسِّدٌ بُردةً[3] له في ظِلِّ الكعبةِ، فقُلْنا: ألاَ تَستنصِرُ لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان مَن قَبْلَكم يُؤخَذُ الرَّجُلُ فيُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُجعَلُ نِصفَينِ، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لَحمِه وعَظمِه، فما يَصُدُّه ذلك عن دينِه! واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتى يسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضرموتَ لا يخافُ إلَّا اللهَ، والذِّئبَ على غَنَمِه، ولكِنَّكم تَستعجِلون))[4].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٨١٤)، وابن حبان (٦٧٠١)، والطبراني (٢٠/ ٢٥٥) (٦٠١).
صحَّحه الحاكمُ على شرط الشيخينِ في ((المستدرك)) (٤/ ٤٧٦)، وحَسَّنه ابن عساكر في ((معجم الشيوخ)) (٢/ ٨٠٦)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): (رجالُه رجالُ الصحيحِ). وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٣) مُتوَسِّدٌ بُردةً: أي: كِساءً مُخطَّطًا، والمعنى، جاعِلٌ البُردةَ وِسادةً له؛ مِن توسَّدَ الشَّيءَ: إذا جعَلَه تحتَ رأسِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٤٧).

(٤) رواه البخاري (٦٩٤٣).

وعن عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بينا أنا عندَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْ أتاه رجُلٌ فشكا إليه الفاقةَ، ثمَّ أتاه آخَرُ فشكا إليه قطْعَ السَّبيلِ، فقال: يا عَدِيُّ، هل رأيتَ الحِيرةَ[1]؟ قلتُ: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها، قال: فإنْ طالت بك حياةٌ لتَرَينَّ الظَّعينةَ[2] ترتحِلُ مِن الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحدًا إلاَّ اللهَ -قُلتُ فيما بيْني وبيْن نفْسي: فأينَ دُعَّارُ[3] طَيِّئٍ الذين قد سَعَّروا[4] البلادَ؟!- ولئن طالت بك حياةٌ لَتُفْتَحَنَّ كنوزُ كِسرى، قلتُ: كسرى بنِ هُرمزَ؟! قال: كِسرى بنِ هُرْمُزَ، ولئن طالت بك حياةٌ لتَرَينَّ الرجُلَ يُخرِجُ مِلءَ كَفِّه مِن ذَهبٍ أو فِضَّةٍ يَطلُبُ مَن يَقبَلُه منه فلا يجِدُ أحدًا يقبَلُه منه... قال عَدِيٌّ: فرأيتُ الظَّعينةَ ترتحِلُ مِن الحِيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلَّا اللهَ، وكنتُ فيمَنِ افتتَحَ كُنوزَ كِسرى بنِ هُرْمُزَ، ولئن طالت بكم حياةٌ لتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسِمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ يُخرِجُ مِلءَ كَفِّه))[5].

﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

أي: يَعبُدُني المؤمِنونَ بإخلاصٍ آمِنينَ، ويَخضَعونَ ويتذَلَّلونَ لي بالطَّاعةِ، لا يُشرِكونَ بي شيئًا في عِبادتي[6].

---

(١) الحِيرةَ: مَدينةٌ كانت على ثلاثةِ أميالٍ مِنَ الكُوفةِ على مَوضِعٍ يُقالُ له: النَّجَفُ، كانت مَسكَنَ مُلوكِ العَرَبِ في الجاهِليَّةِ. يُنظر: ((معجم البلدان)) لياقوت الحموي (٢/ ٣٢٨)، ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٥٠).

(٢) الظعينةَ: أي: المرأةَ في الهَودَجِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٥٧).

(٣) دُعَّار: أي: قُطَّاعُ الطَّريقِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١١٩).

(٤) سَعَّروا: أي: أوقَدوا نارَ الفِتنةِ، ومَلؤوا الأرضَ شَرًّا وفسادًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٦١٣).

(٥) رواه البخاري (٣٥٩٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٧)، ((تفسير =

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((بشِّرْ هذه الأمَّةَ بالسَّناءِ[1] والنَّصرِ والتَّمكينِ، فمَن عَمِلَ منهم عمَلَ الآخرةِ للدُّنيا، لم يكُنْ له في الآخرةِ نصيبٌ))[2].

﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

أي: ومَن كفَرَ بعدَ نعمةِ الاستِخلافِ والأمنِ وتمكينِ الدِّينِ[3]، فأولئك هم

---

= السمعاني)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦).

قال الزجَّاج: (قوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ يجوزُ أن يكونَ مُستأنفًا، ويجوزُ أن يكونَ في موضِعِ الحال، على معنى: وعَدَ اللهُ المؤمنينَ في حالِ عبادتِهم وإخلاصِهم لله عزَّ وجَلَّ لَيَفعلَنَّ بهم. ويجوزُ أن يكونَ استئنافًا على طريقِ الثناءِ عليهم وتثبيتًا، كأنَّه قال: يعبُدُني المؤمِنون لا يُشرِكون بي شيئًا). ((معاني القرآن)) (٤/ ٥١).

وقال السمرقندي: (﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ يعني: لكي يعبدوني لا يُشرِكونَ بي شيئًا). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢١).

وقال ابن عثيمين عن قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾: (لا شكَّ أنَّه تعليلٌ... لكنَّه مُتضَمِّنٌ للثَّناءِ؛ لأنَّ مَن عبَد الله استحقَّ الثناءَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٥).

قال الشوكاني: (جملةُ ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ في محلِّ نَصبٍ على الحالِ مِن فاعِلِ ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾، أي: يَعبُدونَني غيرَ مُشرِكينَ بي في العبادةِ شَيئًا مِنَ الأشياءِ. وقيل معناه: لا يُراؤونَ بعبادتي أحدًا. وقيل معناه: لا يخافونَ غَيري. وقيل معناه: لا يُحِبُّونَ غيري). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦).

(١) بالسَّناءِ: أي: بارتِفاعِ المَنزِلةِ والقَدْرِ عندَ الله تعالى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٢٢٣) واللفظ له، وابن حبان (٤٠٥)، والحاكم (٧٨٦٢).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢٢٣): (رجاله رجال الصحيح). ووثَّق رواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٤٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٨٢٥).

(٣) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالكُفرِ هنا: كُفرُ النِّعمةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٤٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير الرازي)) =

الخارِجون عن طاعةِ رَبِّهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦].

---

= (٢٤/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٧).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: أبو العالية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٣٠).

وقيل: المرادُ به: الكُفرُ الأكبَرُ. وممَّن اختاره: الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٨٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: حُذَيفةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٤٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ أي: أقام على كُفرِه وثبتَ واستمَرَّ عليه: يحيى بنُ سلام، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: وأوَّلُ مَن كفَر بهذه النِّعَم وجحَد حَقَّها: الذين قتَلوا عثمانَ رَضِيَ الله عنه، فلمَّا قتلوه غيَّر اللهُ ما بهم، وأدخَل عليهم الخَوفَ الذي رفَعَه عنهم حتى صاروا يقتَتِلون بعد أن كانوا إخوانًا متحابِّينَ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٢٧).

قال البيضاوي: (﴿وَمَن كَفَرَ﴾ ومَن ارتدَّ، أو كفَر هذه النعمةَ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعدَ الوعدِ أو حصولِ الخلافةِ. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الكاملونَ في فسقِهم، حيثُ ارتدُّوا بعْدَ وضوحِ مثلِ هذه الآياتِ، أو كفَروا تلك النعمةَ العظيمةَ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣).

وقال السعدي: (﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ...؛ لأنَّ الذي يتركُ الإيمانَ في حالِ عزِّه وقَهرِه، وعَدَمِ وُجودِ الأسبابِ المانعةِ منه: يدُلُّ على فَسادِ نيَّتِه، وخُبثِ طَوِيَّتِه؛ لأنَّه لا داعيَ له لتركِ الدِّينِ إلَّا ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

وقال سُبحانَه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وأقيموا -أيُّها المُؤمِنونَ- الصَّلاةَ بحُدودِها، وآتُوا الزَّكاةَ مُستَحقِّيها[1].

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: وأطيعوا رَسولَ رَبِّكم فيما يأمُرُكم به ويَنهاكم عنه؛ لِتَنالوا رحمةَ اللهِ في الدُّنيا والآخرةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤).
(لَعَلَّ) في قَولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إمَّا حرفُ تعليلٍ أو تَرَجٍّ؛ فعلى أنَّها حرفُ تعليلٍ فإقامةُ الصَّلاةِ وما عُطِف عليه سببٌ لرحمةِ اللَّهِ؛ لأنَّ العللَ أسبابٌ شرعيَّةٌ، وعلى أنَّ (لعلَّ) للتَّرجِّي، فالمعنى: أقيموا الصَّلاةَ، وآتُوا الزَّكاةَ على رجائِكم أنَّ اللهَ يرحَمُكم بذلكَ؛ لأنَّ اللهَ ما أطمَعهم بتلكَ الرَّحمةِ عندَ عملِهم بمُوجبِها إلَّا ليرحَمَهم؛ لِما هو معلومٌ مِن فضلِه وكرمِه. وكونُ لعلَّ هنا للتَّرجِّي، إنَّما هو بِحَسَبِ عِلمِ المخلوقِينَ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان الكُفَّارُ مِن الكَثرةِ والقُوَّةِ بمكانٍ، كان الحالُ جديرًا بتأكيدِ معنى التَّمكينِ، جوابًا لسؤالِ مَن كأنَّه قال: وهل ذلك ممكِنٌ، فقال[1]:

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قراءةُ ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ بياءِ الغَيبةِ، وفاعِلُ الحِسبانِ هو النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيكونُ التَّقديرُ: لا يَحسَبَنَّ محمَّدٌ الذين كفَروا مُعجِزينَ. ويحتَمِلُ أن يكونَ فاعِلُ الحِسبانِ: الذين كفَروا، ويكونَ المفعولُ الأوَّلُ مَحذوفًا، تقديرُه: لا يحسَبَنَّ الذين كفَروا أنفُسَهم مُعجِزينَ[2]. أو: لا يَحسبنَّ الذين كفروا أحدًا يُعجِزُ الله في الأرضِ حتَّى يطمَعوا هم في مثلِ ذلك[3].

٢- قِراءةُ ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاءِ، أي: لا تحسَبَنَّ -يا محمَّدُ- الكافرينَ مُعجِزينَ[4].

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠٨).

(٢) قرأ بها حمزةُ، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢).

(٤) قرأ بها الباقون على اختِلافٍ بينَهم في فَتحِ السِّينِ وكَسْرِها. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٥١).

قال أبو حيان: (وقرأ الجُمهورُ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بتاءِ الخطابِ، والتقديرُ: لا تحسبنَّ -أيُّها المخاطَبُ-، ولا يندرجُ فيه الرَّسولُ. وقالوا: هو خِطابٌ للرَّسولِ. وليس بجَيِّدٍ؛ لأنَّ مِثلَ هذا الحِسْبانِ لا يُتصوَّرُ وُقوعُه فيه عليه السَّلامُ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٦).

أي: لا تظُنَّ الكافرينَ -أيُّها النبيُّ- فائتينَ في الأرضِ فلا يُدرَكونَ، ومِن الهلاكِ يُفلِتُون، فإذا أراد اللهُ هلاكَهم فهو قادرٌ عليهم، وهم مأخوذونَ لا محالةَ[1].

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [هود: ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ومَسكَنُهم في الآخرةِ النَّارُ[2].

﴿وَلَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: ولبِئسَ المآلُ الذي يَرجِعونَ إليه النَّارُ[3].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((السراج المنير)) للخطيب الشربيني (٢/ ٦٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١).

وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ يُستفادُ مِن هذه الآيةِ أنَّ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ سَبَبٌ لتمكينِ الدِّينِ في الأرضِ، وأنَّ المُخالفةَ سَبَبٌ لِنَزعِ الدِّينِ مِن الأرضِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ﴾ فيُفهَمُ منه أنَّهم لو فَسَقُوا ولم يُؤمِنوا ولم يعمَلوا صالحًا، ما مُكِّنَ لهم الدِّينُ الذي هو لهم، والذي ارتضاه اللهُ تعالى لهم، ويتفرَّعُ على هذا: التحذيرُ البالغُ مِن المخالفةِ والفُسوقِ، وأنَّ ذلك سببٌ لنَزْعِ الدِّينِ منهم، وهذا هو المُطَّرِدُ في سُنَنِ اللهِ سُبحانه وتعالى؛ فإنَّ النِّعَمَ إذا لم تُشْكَرْ زالت، وأكبرُ نعمةٍ أنعَمَ اللهُ بها على عبادِه هي نِعمةُ الدِّينِ، فإذا لم تُشْكَرْ فإنَّها تَزولُ كغَيرِها مِن النِّعَمِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ وعَدَهم اللهُ هذه الأمورَ وقتَ نزولِ الآيةِ، وهي لم تُشاهَدْ: وهي الاستِخلافُ في الأرضِ، والتَّمكينُ فيها، والتَّمكينُ مِن إقامةِ الدِّينِ الإسلاميِّ، والأمنُ التَّامُّ، بحيثُ يَعبُدونَ اللهَ، ولا يُشرِكونَ به شيئًا، ولا يخافون أحدًا إلَّا اللهَ، فقام صدرُ هذه الأُمَّةِ مِن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ بما يفوقون على غيرِهم، فمكَّنَهم من البلادِ والعبادِ، وفُتِحَت مشارِقُ الأرضِ ومَغارِبُها، وحصل الأمنُ التَّامُّ والتَّمكينُ التامُّ، فهذا مِن آياتِ اللهِ العَجيبةِ الباهرةِ، ولا يزالُ الأمرُ إلى قيامِ السَّاعةِ: مهما قاموا بالإيمانِ والعَمَلِ الصالحِ، فلا بدَّ أن يوجَدَ ما وعَدهم اللهُ، وإنَّما يُسلِّطُ عليهم الكُفَّارَ والمنافقين، ويُديلُهم في بعضِ الأحيانِ؛ بسَبَبِ إخلالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٦).

المسلمين بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ[١]، فهذا الوَعدُ مُناسِبٌ لكُلِّ مَنِ اتَّصفَ بهذا الوَصفِ، فمَن كان أكملَ إيمانًا وعَمِلَ صالحًا، كان استِخلافُه المذكورُ أتَمَّ، فإنْ كان فيه نقصٌ وخَلَلٌ، كان في تمكينِه خَلَلٌ ونَقصٌ[٢]؛ وذلك أنَّ هذا جزاءُ هذا العَمَلِ، فمَن قام بذلك العمَلِ استحقَّ ذلك الجزاءَ، لكِنْ ما بقِيَ قَرنٌ مِثلُ القَرنِ الأوَّلِ؛ فلا جَرَم ما بقيَ قَرنٌ يتمكَّنُ تمكُّنَ القَرنِ الأوَّلِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فإقامةُ الصَّلاةِ وإيتاءُ الزَّكاةِ وطاعةُ الرَّسولِ سببٌ لرحمةِ اللهِ[٤]، فمَن أراد الرَّحمةَ فهذا طريقُها، ومَن رجاها مِن دونِ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ وطاعةِ الرَّسولِ، فهو مُتَمَنٍّ كاذِبٌ، وقد مَنَّتْه نفْسُه الأمانيَّ الكاذِبةَ[٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه متكَلِّمٌ؛ لأنَّ الوَعدَ نوعٌ مِن أنواعِ الكلامِ، والموصوفُ بالنَّوعِ مَوصوفٌ بالجِنسِ، ولأنَّه سُبحانَه مَلِكٌ مُطاعٌ، والمَلِكُ المطاعُ لا بُدَّ أن يكونَ بحيثُ يُمكِنُه وَعْدُ أوليائِه، ووعيدُ أعدائِه؛ فثبَت أنَّه سُبحانَه مُتكَلِّمٌ[٦].

٢- قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٢) والقاعدةُ: أنَّ الحُكمَ المعلَّقَ على وصْفٍ يَزيدُ بزيادتِه، ويَنقُصُ بنُقصانِه. يُنظر: ((القواعد الحسان)) للسعدي (ص: ١٣)، ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢).

كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ فقد وعَدَ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ بالاستِخلافِ، كما وعَدَهم في تلك الآيةِ مَغفرةً وأجرًا عظيمًا، واللهُ لا يُخلِفُ الميعادَ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ الذين استخلَفَهم كما استخلَفَ الذين مِن قَبْلِهم، ومكَّن لهم دينَ الإسلامِ، وبَدَّلهم مِن بعدِ خَوفِهم أمنًا- لهم منه المغفرةُ والأجرُ العظيمُ.

وهذا يُستدَلُّ به مِن وَجهينِ: يُستدَلُّ به على أنَّ المُستَخلَفينَ مؤمِنون عَمِلوا الصَّالحاتِ؛ لأنَّ الوعدَ لهم لا لِغَيرِهم، ويُستدَلُّ به على أنَّ هؤلاء مَغفورٌ لهم، ولهم مغفرةٌ وأجرٌ عَظيمٌ؛ لأنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فتناولَتْهم هذه الآيةُ في سورةِ (النور)، كما تناولَتْهم آيةُ (الفتحِ): ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

ومِن المعلومِ أنَّ هذه النُّعوتَ مُنطَبِقةٌ على الصَّحابةِ على زمَنِ أبي بكرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ؛ فإنَّه إذ ذاك حصَلَ الاستِخلافُ، وتمكُّنُ الدِّينِ، والأمنُ بعدَ الخَوفِ، لَمَّا قَهَروا فارِسَ والرُّومَ، وفتَحوا الشَّامَ والعِراقَ ومِصرَ وخُراسانَ وإفريقيَّةَ.

وحينَئذٍ فقد دَلَّ القرآنُ على إيمانِ أبي بكرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ، ومَن كان معهم في زمَنِ الاستخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ؛ والذين كانوا في زمَنِ الاستخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ وأدركوا زمَنَ الفِتنةِ -كعليٍّ، وطَلحةَ، والزُّبَيرِ، وأبي موسى الأشعريِّ، ومُعاويةَ، وعَمرِو بنِ العاصِ- دخلوا في الآيةِ؛ لأنَّهم استُخلِفوا ومُكِّنوا وأمِنُوا.

وأمَّا مَن حَدَث في زمَنِ الفتنةِ -كالرَّافضةِ الذين حَدَثوا في الإسلامِ في زَمَن الفِتنةِ والافتراقِ، وكالخوارجِ المارِقين- فهؤلاء لم يتناوَلْهم النَّصُّ، فلم يَدخُلوا فيمَن وُصِفَ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ المذكورَينِ في هذه الآيةِ؛ لأنَّهم أوَّلًا: ليسوا مِن الصَّحابةِ المُخاطَبينَ بهذا. وثانيًا: لم يحصُلْ لهم مِن الاستِخلافِ والتَّمكينِ والأمنِ بعْدَ الخَوفِ ما حصلَ للصَّحابةِ، بل لا يَزالون خائِفينَ مُقلقَلينَ غيرَ ممكَّنينَ[1].

٣- التَّمكينُ في الأرضِ لا يكونُ إلَّا بعدَ تحقيقِ عبادةِ اللهِ وحْدَه، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾، فإذا قام العبدُ بعبادةِ اللهِ مُخلِصًا له في أقوالِه وأفعالِه، لا يريدُ بها إلَّا وجهَ اللهِ والدَّارَ الآخرةَ، ولا يريدُ بها جاهًا ولا ثناءً مِن النَّاسِ، ولا مالًا ولا شيئًا مِن الدُّنيا، واستمَرَّ على هذه العبادةِ المُخلَصةِ في السَّراءِ والضَّرَّاءِ، والشِّدَّةِ والرَّخاءِ- مكَّنَ اللهُ له في الأرضِ، وإذَنْ فالتَّمكينُ في الأرضِ يَستلزِمُ وَصفًا سابقًا عليه، وهو عبادةُ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له، وبعْدَ التَّمكينِ والإخلاصِ يكونُ الوصفُ الثاني، وهو: إقامةُ الصَّلاةِ[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للاستِغراقِ، أي: عَمِلوا جميعَ الصَّالحاتِ، وهي الأعمالُ التي وصَفَها الشَّرعُ بأنَّها صلاحٌ، وتَركُوا الأعمالَ التي وصَفَها الشَّرعُ بأنَّها فَسادٌ؛

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٢/ ٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٣١).

لأنَّ إبطالَ الفَسادِ صَلاحٌ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ الأرضَ للهِ يورِثُها مَن يشاءُ مِن عبادِه، وهو الذي يَستخلِفُ فيها النَّاسَ بَدَلَ غَيرِهم، وليس للنَّاسِ في هذه الأرضِ مُلكٌ؛ المُلكُ في الأرضِ للهِ يؤتيه مَن يَشاءُ[٢].

٦- قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تَعليقُ فِعْلِ الاستخلافِ بمجموعِ الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ -وإنْ كان تَدبيرُ شُؤونِ الأُمَّةِ مَنوطًا بوُلاةِ الأمورِ لا بمجموعِ الأُمَّةِ- مِن حيث إنَّ لمَجموعِ الأُمَّةِ انتِفاعًا بذلك، وإعانةً عليه، كلٌّ بحسَبِ مَقامِه في المُجتمَعِ[٣].

٧- قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ فمتى اهتمَّ وُلاةُ الأمورِ وعُمومُ الأمَّةِ باتِّباعِ ما وضَّحَ لهم الشرعُ، تحقَّق وعدُ اللهِ إيَّاهم بهذا الوعدِ الجليلِ، وهذه التَّكاليفُ التي جعلَها اللهُ قِوامًا لصَلاحِ أمورِ الأمَّةِ، ووعَدَ عليها بإعطاءِ الخِلافةِ والتَّمكينِ والأمنِ؛ صارت بترتيبِ تلك المَوعِدةِ عليها أسبابًا لها، فلو أنَّ قومًا غيرَ مسلمين عَمِلوا في سيرتِهم وشؤونِ رعيَّتِهم بمِثلِ ما أمرَ الله به المُسلمينَ مِن الصَّالحاتِ، بحيثُ لم يُعْوِزْهم إلَّا الإيمانُ باللهِ ورَسولِه؛ لاجتَنَوا مِن سيرتِهم صوَرًا تُشبِهُ الحقائِقَ التي يَجتَنيها المسلمونَ؛ لأنَّ تلك الأعمالَ صارت أسبابًا وسُنَنًا تترتَّبُ عليها آثارُها التي جعَلَها الله سُنَنًا وقوانينَ عُمرانيَّةً، سِوى أنَّهم لِسوءِ معامَلتِهم ربَّهم، بجُحودِه، أو بالإشراكِ به، أو بعدَمِ تصديقِ رسولِه؛ يكونون بمَنأًى عن كفالتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٥).

وتأييدِه إيَّاهم، ودَفعِ العوادي عنهم، بل يَكِلُهم إلى أعمالِهم وجهودِهم على حَسَبِ المعتادِ. ألَا ترى أنَّ القادةَ الأوروبيِّينَ بعْدَ أن اقتَبَسوا مِن الإسلامِ قوانينَه ونظامَه بما مارسُوه من شؤونِ المُسلِمينَ في خلالِ الحُروبِ الصَّليبيَّةِ، ثمَّ بما اكتَسَبوه مِن ممارسةِ كُتُبِ التاريخِ الإسلاميِّ والفقهِ الإسلاميِّ والسيرةِ النبويَّةِ؛ قد نَظَّموا ممالِكَهم على قواعِدِ العَدلِ والإحسانِ والمواساةِ، وكراهةِ البغيِ والعُدوانِ، فعَظُمَت دُوَلُهم، واستقامت أمورُهم[1]؟

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه يعلَمُ الأشياءَ قبلَ وقوعِها، ووجهُ الاستدلالِ به: أنَّه سُبحانَه أخبَرَ عن وقوعِ شَيءٍ في المُستقبَلِ إخبارًا على التَّفصيلِ، وقد وقع المُخبَرُ مُطابِقًا للخبرِ، ومِثلُ هذا الخبَرِ لا يَصِحُّ إلَّا مع العلمِ[2].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ يدُلُّ على صِحَّةِ نبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه أخبَرَ عن الغَيبِ في هذه الآيةِ، وقد وُجِدَ هذا المُخبَرُ مُوافِقًا للخَبرِ، ومِثلُ هذا الخبَرِ مُعجِزٌ، والمُعجِزُ دَليلُ الصِّدقِ؛ فدَلَّ على صِدقِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤١٣).

يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى قد مكَّن مَن قَبْلَنا واستخلفَهم في الأرضِ، كما قال موسى لقَومِه: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] [القصص: ٥، ٦].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ ممَّا نستفيدُه مِن الآيةِ أنَّ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ هو عبادةُ اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾، وعليه يكونُ تحقيقُ التَّوحيدِ مِن أسبابِ هذا الوَعدِ الذي وَعَد اللهُ به[2].

١٢- قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إنَّ الأمورَ الهامَّةَ ينبغي تأكيدُها بأنواعِ المؤكِّداتِ؛ فإنَّ هذا الوعدَ مِن الأمورِ الهامَّةِ؛ لِمَا يترتبُ عليه مِن المصالحِ والمنافعِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ولهذا أكَّدَه اللهُ تعالى بالقَسَمِ واللامِ والنونِ، كما في قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾، وقَولِه: ﴿كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والمرادُ بهذا التَّشبيهِ تأكيدُ هذا الوَعدِ بذِكْرِ شواهِدِه؛ فيَكونُ ذلك أيضًا تأكيدًا معنويًّا على تأكيدٍ لَفظيٍّ، فهو سُبحانَه يَذكُرُ ما يُقوِّي القلبَ ويُثَبِّتُه[3].

١٣- كمالُ الدِّينِ الإسلاميِّ؛ حيث قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، فهو الدِّينُ الذي ارتضاه لعِبادِه، وهو أكمَلُ الأديانِ؛ ولذلك خُتِمَت به الرِّسالاتُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المَوصوفينَ بهذه الصِّلةِ هم الَّذين يَنشُرون هذا الدِّينَ في الأُمَمِ؛ لأنَّه دِينُهم؛ فيكونُ تمكُّنُه في النَّاسِ بواسطَتِهم[١].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وليس هذا الوَعدُ بمقتَضٍ ألَّا تحدُثَ حوادِثُ خَوفٍ في الأمَّةِ في بعضِ الأقطارِ، كالخَوفِ الذي اعترى أهلَ المدينةِ مِن ثَورةِ أهلِ مِصرَ الذين قادهم الضَّالُّ مالِكُ الأشتَرُ النَّخَعيُّ[٢]، ومِثلِ الخَوفِ الذي حدَثَ في المدينةِ يومَ الحَرَّةِ[٣]، وغيرِ ذلك من الحوادِثِ، وإنَّما كانت تلك مُسَبَّباتٍ عن أسبابٍ بشريَّةٍ، وإلى الله إيابُهم، وعلى الله حِسابُهم[٤]!

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ فائِدتُه بعْدَ الخَوفِ أبلَغُ مِن ظُهورِ أمْنٍ على أمْنٍ؛ لأنَّه لا تُعرَفُ قيمةُ الأشياءِ إلَّا بضِدِّها، فإذا قُدِّرَ أنَّ هذا الإنسانَ في خَوفٍ ثم أُبدِلَ بعدَ الخَوفِ أمنًا، ظهَر لهذا الأمنِ مِن الأثَرِ في نفْسِه ما هو أبلَغُ مِمَّا لو كان أمنًا على أمنٍ[٥].

١٧- في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّ الصَّلاةَ أفضَلُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

(٢) الأشترُ: مالكُ بنُ الحارثِ النَّخَعيُّ: كان شريفًا كبيرَ القدرِ في النخَعِ، شهِدَ اليرموك، وقُلِعَتْ عينُه يومَئذٍ، وكان ممَّن ألَّب على عُثمانَ، وقاتَلَه وحضَر حصرَه في المدينةِ. وشَهِدَ يومَ الجَمَلِ، وأيامَ صِفِّينَ مع عليٍّ، وكان خطيبًا بليغًا فارسًا. يُنظر: ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٢/ ٣٣٦)، ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٤/ ٣٤)، ((الأعلام)) للزِّرِكْلي (٥/ ٢٥٩).

(٣) يوم الحَرَّةِ: أي: وَقعة الحَرَّةِ التي كانت بالمدينةِ أيَّامَ يزيدَ بنِ مُعاويةَ على يَدَي مُسلِمِ بنِ عُقبةَ لمَّا بايع أهلُ المدينةِ لعبدِ الله بنِ الزُّبيرِ، وخلَعوا بيعةَ يزيدَ، وخلَعوا واليَه في المدينةِ، وحاصروا بني أُمَيَّةَ في دارِ مرْوانَ. يُنظر: ((الروض الأُنُف)) للسهيلي (٣/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٦٠).

الزكاةِ؛ وذلك لتقديمِها عليها في كلِّ موضعٍ، اللهمَّ إلَّا أنْ يكونَ هناك سببٌ خاصٌّ لتقديمِ الإنفاقِ، فقد يُقَدَّمُ الإنفاقُ على الصَّلاةِ، لكنْ عندَما تُذكَرُ الصَّلاةُ والزَّكاةُ معًا فإنَّها تُقدَّمُ(١).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أنَّ الذي ثَبَتَ في السنَّةِ كالذي ثَبَتَ في القُرآنِ، وهذا شامِلٌ لِما قاله النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ابتِداءً، ولِما قاله تفسيرًا للقُرآنِ، فيكونُ فيه دليلٌ على وجوبِ العمَلِ بالسنَّةِ كما يجبُ العمَلُ بالقُرآنِ(٢).

١٩- قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، حيثُ جَعَلَ هذه الأشياءَ الثلاثةَ -إقامَ الصلاةِ، وإيتاءَ الزكاة، وطاعةَ الرَّسولِ- سببًا للرَّحمةِ، وهذا باعتبارِ أنَّ (لعلَّ) تعليليَّةٌ(٣).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أنَّ أهلَ النارِ -مِن الكُفَّارِ- مخلَّدونَ فيها، ولو لم يُخَلَّدوا لكان مأواهم ما بعْدَ النارِ؛ لأنَّ المأوى معناه المرجعُ الأخيرُ، وهذا دَليلٌ على أنَّ النارَ دائمةٌ لهم، وأنَّهم مخَلَّدون فيها، وقد ثبَت في القُرآنِ الكريمِ تأبيدُ أهلِ النَّارِ في ثلاثِ آياتٍ مِن القُرآنِ؛ هي: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣]، فهذه ثلاثُ آياتٍ صَريحةٌ تنُصُّ على تأبيدِ خُلودِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٧٢)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٧٥).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَا في قولِه: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾ مِن الوعْدِ الكريمِ، ومُعرِبٌ عنه بطريقِ التَّصريحِ، ومُبيِّنٌ لتفاصيلِ ما أُجمِلَ فيه مِن فُنونِ السَّعاداتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ الَّتي هي مِن آثارِ الاهتِداءِ، ومُتضمِّنٌ لِمَا هو المُرادُ بالطَّاعةِ الَّتي نِيطَ بها الاهتِداءُ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ وُسِّطَ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِنكُمْ﴾ بين المعطوفينِ؛ لإظهارِ أصالةِ الإيمانِ وعَراقَتِه في استِتباعِ الآثارِ والأحكامِ، وللإيذانِ بكَونِه أوَّلَ ما يُطلَبُ منهم، وأهمَّ ما يجِبُ عليهم. بيْنَما أُخِّرَ عنهما في قولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩]؛ وذلك لأنَّ (مِن) هناك -في سورةِ (الفتحِ)- بَيانيَّةٌ، والضَّميرُ للَّذين معه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خُلَّصِ المُؤمنين، ولا ريبَ في أنَّهم جامِعونَ بيْن الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ، مُثابِرونَ عليهما؛ فلا بُدَّ مِن وُرودِ بَيانِهم بعْدَ ذِكْرِ نُعوتِهم الجليلةِ بكَمالِها، و(من) هنا تَبعيضيَّةٌ[2]، على قولٍ في التفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقيل: فائدةُ تَوسيطِ ﴿مِنكُمْ﴾ بيْن ﴿ءَامَنُواْ﴾ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هنا، وتأخيرِه عنهما في سُورةِ (الفتْحِ): أنَّ التَّأخيرَ دَلَّ على أنَّ وعْدَ اللهِ تعالى بالمغفرةِ والأجْرِ العظيمِ مُسبَّبانِ عن إيمانِهم المُقارَنِ بالأعمالِ الصَّالحاتِ معًا؛ لأنَّ الاتِّصافَ بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ في الظَّاهرِ مُناسِبٌ لأنْ يَكونَ عِلَّةً للمغفرةِ والأجْرِ العظيمِ، وتوسيطَه دلَّ على أنَّ الإيمانَ هو الأصلُ في الاعتبارِ، وأنَّ الأعمالَ كالتَّابعةِ له؛ فتأثيرُ العمَلِ الصَّالحِ في الاستخلافِ دونَ تأْثيرِه في إثباتِ المغفرةِ والأجْرِ العظيمِ، ونحوُه في الاعتبارِ قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، أُخِّرَ إسماعيلُ عن المفعولِ؛ ليَدُلَّ على أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كان الأصلَ في العمَلِ، وإسماعيلُ عليه السَّلامُ كالتَّابعِ له، ولو قدَّمَه لم يكُنْ كذلك[1].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عامٌّ، و(مِن) للتَّبعيضِ؛ وذلك أنَّ قولَه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ إلى آخِرِ قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ وسَطٌ بيْن المعطوفِ -وهو قولُه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾- والمعطوفِ عليه -وهو قولُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾- كالاعتِراضِ؛ لأنَّ أصلَ الكلامِ: قُلْ: أطِيعوا اللهَ وأطِيعوا الرَّسولَ، ولا تخَفْ مَعرَّتَهم؛ فيَنْبغي أنْ يَجرِيَ الكلُّ على سَننٍ واحدٍ، وأنْ يُقالَ: أطيعوا اللهَ وأطيعوا الرَّسولَ، فإنْ تُعرِضوا عن طاعتِهما فقد عرَّضْتُم نُفوسَكم لِسخَطِ اللهِ تعالى، وإنْ أطَعْتُموهما تَهْتدوا. ثمَّ بيَّن ما لِلمُهتدينَ منهم بقولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ إلى آخِرِه، أي: أحرَزْتُم نَصيبَكم في الدُّنيا والعُقبى؛ ولهذه الفائدةِ أُخِّرَ المعطوفُ عن المعطوفِ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٣٢، ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ١٣٢).

- قولُه: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ جُملةُ: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ...﴾ بَيانٌ لجُملةِ: ﴿وَعَدَ﴾؛ لأنَّها عينُ المَوعودِ به. ولمَّا كانت جُملةَ قَسَمٍ وهو مِن قَبيلِ القولِ، كانت إحداهما بَيانًا للأُخرى[1]. وإنَّما صِيغَ الكلامُ في هذا النَّظمِ ولم يُقتصَرْ على قولِه: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ دونَ تَقْييدٍ بقولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لـ ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ الاستِخلافَ يَحصُلُ في مُعظَمِ الأرضِ، وذلك يَقبَلُ الامتدادَ والانقباضَ[2].

- وقد كان المُسلِمون واثقينَ بالأمْنِ، ولكنَّ اللهَ قدَّمَ على وعْدِهم بالأمْنِ أنْ وعَدَهم بالاستِخلافِ في الأرضِ، وتَمكينِ الدِّينِ والشَّريعةِ فيهم؛ تَنبيهًا لهم بأنَّ سُنَّةَ اللهِ أنَّه لا تأمَنُ أُمَّةٌ بأسَ غَيرِها حتَّى تكونَ قويَّةً مَكينةً مُهيمِنةً على أصقاعِها؛ ففي الوعْدِ بالاستِخلافِ والتَّمكينِ وتبْديلِ الخوفِ أمْنًا: إيماءٌ إلى التَّهيُّؤِ لتَحصيلِ أسبابِه، مع ضمانِ التَّوفيقِ لهم والنَّجاحِ إنْ هم أخَذوا في ذلك، وأنَّ مِلاكَ ذلك هو طاعةُ اللهِ والرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]، وإذا حلَّ الاهتِداءُ في النُّفوسِ نشأَتِ الصَّالحاتُ، فأقبلَتْ مُسبَّباتُها تَنهالُ على الأُمَّةِ، فالأسبابُ هي الإيمانُ وعمَلُ الصَّالحاتِ[3]. وقيل: تأْخيرُ التمكينِ عن الاستِخلافِ مع كونِه أجَلَّ الرَّغائبِ الموعودةِ وأعظَمَها؛ لِما أنَّ النُّفوسَ إلى الحُظوظِ العاجلةِ أميَلُ؛ فتَصديرُ المواعيدِ بها في الاستِمالةِ أدخَلُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ جوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ، أي: وأُقسِمُ لَيستخلِفنَّهم، أو أجْرى وعْدَ اللهِ -لتَحقُّقِه- مُجرى القسَمِ، فجُووِبَ بما يُجاوَبُ به القسَمُ. وعلى تَقديرِ حذْفِ القسَمِ يكونُ معمولُ ﴿وَعَدَ﴾ مَحذوفًا، تقديرُه: استِخلافَكم وتَمْكينَ دِينِكم. ودلَّ عليه جوابُ القسَمِ[1].

- السِّينُ والتَّاءُ في ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾ للتَّأكيدِ، وأصْلُه: (لَيُخلِفنَّهم)[2].

- قولُه: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ﴾، أي: لَيَجعلَنَّ دِينَهم ثابتًا مُقرَّرًا، بحيثُ يَستمِرُّون على العمَلِ بأحكامِه، ويَرجِعون إليه في كلِّ ما يأتُون وما يَذَرُون. والتَّعبيرُ عن ذلك بالتَّمكينِ الَّذي هو جَعْلُ الشَّيءِ مكانًا لآخَرَ؛ للدَّلالةِ على كَمالِ ثَباتِ الدِّينِ، ورَصانةِ أحكامِه، وسَلامتِه مِن التَّغييرِ والتَّبديلِ؛ لابتِنائِه على تَشبيهِه بالأرضِ في الثَّباتِ والقرارِ، مع ما فيه مِن مُراعاةِ المُناسَبةِ بيْنَه وبيْنَ الاستخلافِ في الأرضِ[3].

- وتَقديمُ صِلَةِ التَّمكينِ ﴿لَهُمْ﴾ على مَفعولِه الصَّريحِ ﴿دِينَهُمُ﴾؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ كَونِ الموعودِ مِن مَنافعِهم؛ تَشويقًا لهم إليه، وتَرغيبًا لهم في قَبولِه عندَ وُرودِه؛ ولأنَّ في تَوسيطِها بيْنه وبيْن وَصْفِه -وهو قولُه: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾- وفي تأخيرِها عنه: مِن الإخلالِ بجَزَالةِ النَّظمِ الكريمِ ما لا يَخْفَى[4]. وقيل: قُدِّمَ ﴿لَهُمْ﴾ على المفعولِ ﴿دِينَهُمُ﴾؛ للإيماءِ إلى العِنايةِ بهم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

- قولُه: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ في إضافةِ الدِّينِ إليهم -وهو دِينُ الإسلامِ- ثمَّ وَصْفِه بارتضائِه لهم: تأليفٌ لقُلوبِهم، ومَزيدُ ترغيبٍ فيه، وفضْلُ تَثبيتٍ عليه[1]. وأيضًا إضافةُ الدِّينِ إلى ضَميرِهم؛ لتَشريفِهم به؛ لأنَّه دِينُ اللهِ، كما دلَّ عليه قولُه عقِبَه: ﴿ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ﴾، أي: الَّذي اختارَهُ ليَكونَ دِينَهم؛ فيَقْتضي ذلك أنَّه اختارَهم أيضًا ليَكونوا أتْباعَ هذا الدِّينِ[2]. وقيل: أضافه إليهم؛ إشارةً إلى رسوخِ أقدامِهم فيه، وأنَّه أبَديٌّ لا يُنسخُ[3].

- وإنَّما قال: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ ولم يقُلْ: (ولَيُؤَمِّنَنَّهم) كما قال في سابقَيه؛ لأنَّهم ما كانوا يَطمَحون يومَئذٍ إلَّا إلى الأمْنِ؛ فكانوا في حالةٍ هي ضدُّ الأمْنِ، ولو أُعْطوا الأمنَ دونَ أنْ يكونوا في حالةِ خوفٍ، لكانَ الأمْنُ مِنَّةً واحدةً[4].

- وإضافةُ الخوفِ إلى ضَميرِهم؛ للإشارةِ إلى أنَّه خوفٌ مَعروفٌ مُقرَّرٌ[5].

- وتَنكيرُ ﴿أَمْنًا﴾ للتَّعظيمِ؛ بقَرينةِ كَونِه مُبْدَلًا مِن ﴿بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ المعروفِ بالشِّدَّةِ[6].

- قولُه: ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ عبَّرَ بالمُضارعِ ﴿يَعْبُدُونَنِى﴾؛ لإفادةِ استِمرارِهم على ذلك تَعريضًا بالمُنافقين؛ إذ كانوا يُؤمِنون ثمَّ يَنقلِبون[7].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٨٨).

- وجُملةُ: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ﴾، مُفيدةٌ لتَقييدِ الوعْدِ بالثَّباتِ على التَّوحيدِ، أو استِئنافٌ ببَيانِ المُقْتضي للاستِخلافِ وما انتظَمَ معه في سِلْكِ الوعْدِ[1]. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ حالٌ مِن ضَمائرِ الغَيبةِ المُتقدِّمةِ، أي: هذا الوعدُ جَرَى في حالِ عِبادتِهم إيَّايَ، وفي هذه الحالِ إيذانٌ بأنَّ ذلك الوعْدَ جَزاءٌ لهم، أي: وعَدْتُهم هذا الوعْدَ الشَّاملَ لهم، والباقيَ في خَلَفِهم؛ لأنَّهم يعبُدونَني عِبادةً خالصةً عن الإشراكِ[2].

- وجُملةُ: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا﴾ حالٌ مِن ضَميرِ الرَّفعِ في ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾؛ تَقييدًا للعِبادةِ بهذه الحالةِ؛ لأنَّ المُشركين قد يَعبُدون اللهَ ولكنَّهم يُشرِكون معه غيرَه[3].

- قولُه: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ تَحذيرٌ بعْدَ البِشارةِ، على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ البِشارةِ بالنِّذارةِ والعكْسُ؛ دَفْعًا للاتِّكالِ[4].

- وصِيغةُ الحصْرِ المأخوذةُ مِن تَعريفِ المُسنَدِ بلامِ الجِنْسِ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ مُستعمَلةٌ مُبالَغةً؛ للدَّلالةِ على أنَّه الفِسْقُ الكاملُ، ووصْفُ الفاسقين لهم رَشيقُ الموقِعِ؛ لأنَّ مادَّةَ الفِسْقِ تدُلُّ على الخُروجِ مِن المكانِ مِن مَنفَذٍ ضيِّقٍ[5].

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٨٨، ٢٨٩).

- قولُه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ[١]. وقيل: إنَّه عَطفٌ على مُقدَّرٍ يَنسحِبُ عليه الكلامُ، ويَستدعيهِ النِّظامُ؛ فكأنَّه قيل: فآمِنوا واعْمَلوا صالِحًا، وأقيمُوا. أو فلا تكْفُروا وأقيمُوا[٢]. وقيل: إنَّه عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]؛ لِمَا فيها مِن معنى الأمْرِ بترْكِ الشِّركِ، فكأنَّه قِيل: اعْبُدوني ولا تُشرِكوا، وأقِيموا الصَّلاةَ. والخِطابُ موَجَّهٌ للَّذين آمَنوا خاصَّةً بعدَ أنْ كان مُوجَّهًا لأُمَّةِ الدَّعوةِ؛ فالطَّاعةُ المأمورُ بها هنا غيرُ الطَّاعةِ الَّتي في قولِه: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ [النور: ٥٤] إلخ؛ لأنَّ تلك دَعوةٌ للمُعرِضينَ، وهذه ازديادٌ للمُؤمنينَ[٣]. وقيل: يجوزُ أن يكونَ مَعطوفًا على ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾[٤]، فإنَّ الفاصِلَ وَعدٌ على المأمورِ به؛ فيكونَ تكريرُ الأمرِ بطاعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لتأكيدِ وُجوبِها، وليس ببَعيدٍ أن يَقَع بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه فاصِلٌ وإن طالَ؛ لأنَّ حَقَّ المعطوفِ أن يكونَ غَيرَ المعطوفِ عليه؛ لأنَّ طُولَ الفَصلِ يُحَقِّقُ المغايَرةَ المطلوبةَ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ فالواجِبُ أن يكونَ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه المغايَرةُ، وعندَ القُربِ لا يتحَقَّقُ ذلك؛ فإنَّ المُجاوَرةَ مَظِنَّةُ الاتِّصالِ، بخِلافِ المضافِ والمضافِ إليه؛ فإنَّ شِدَّةَ اتِّصالِهما مانعةٌ مِن دُخولِ فَصلٍ بينهما[٥]. وللفَصلِ والتَّأخيرِ فوائِدُ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٩).

(٤) لكن قال أبو السعود: (وعطفُه على ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ﴾ ممَّا لا يليقُ بجزالةِ النَّظمِ الكريمِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٦).

منها: الإشعارُ بأنَّ الجُملةَ المُتخَلِّلةَ -وهي ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ الآيةَ- ممَّا هو يُهتَمُّ بشَأنِه، وأنَّها مُتَّصِلةٌ بما يَتعلَّقُ بالمعطوفِ عليه، وهو ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾. ومنها: أنَّ في تأخيرِ المعطوفِ عن قَولِه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾ إعلامًا بنوعِ اتِّصالٍ به، وهو: إنْ أطعتُم وآمنتُم فقد أحرَزتُم نَصيبَكم في الدُّنيا والعُقبى. ومنها: التَّوكيدُ؛ لأنَّه لو لم يؤخَّرْ لم يُحتَجْ إلى إناطةِ «أطيعوا الرَّسولَ» به؛ فإنَّه على مِنوالِ قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩]. ومنها: الإيذانُ بشَرَفِ إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، ومَحلِّهما عندَ الله، وأنَّهما أُمَّا العِباداتِ، وأبعَدُهما مَرتبةً عن سائِرِ العباداتِ والطَّاعاتِ؛ لأنَّ العَطفَ مِن بابِ عَطفِ جِبريلَ على الملائِكةِ -أي: الخاصِّ على العامِّ-، ومِن ثَمَّ رَتَّب الأوَّلَ بقَولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾، وعلى الثَّاني بقَولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أمَرَهم اللهُ سُبحانَه وتعالى بالذَّاتِ بما أمَرَهُم به بواسطةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن طاعَتِه الَّتي هي طاعَتُه تعالى في الحقيقةِ؛ تأْكيدًا للأمْرِ السَّابِقِ، وتَقريرًا لمَضمونِه[2].

- وقد جمَعَتْ هذه الآيةُ جميعَ الأعمالِ الصَّالحاتِ؛ فأهَمُّها بالتَّصريحِ، وسائرُها بعُمومِ حَذْفِ المُتعلَّقِ بقولِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، أي: في كلِّ ما يأْمُرُكم ويَنْهاكم[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٨٩).

٣- قولُه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لتَحقيقِ ما اقتضاهُ قولُه: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]؛ فقد كان المُشرِكون يومَئذٍ لم يَزالوا في قُوَّةٍ وكَثرةٍ، وكان المُسلِمون لم يَزالوا يخافونَ بأْسَهم، فرُبَّما كان الوعْدُ بالأمْنِ مِن بأْسِهم مُتلقًّى بالتَّعجُّبِ والاستِبطاءِ الشَّبيهِ بالتَّردُّدِ؛ فجاء قولُه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تطْمينًا وتسليةً. والنَّهيُ في قولِه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ قُصِدَ منه التَّنبيهُ على تَحقيقِ الخبَرِ[1].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إمَّا لكلِّ أحدٍ ممَّن يَصلُحُ له كائنًا مَن كانَ، وإمَّا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، على مِنهاجِ قولِه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤] ونظائرِه؛ للإيذانِ بأنَّ الحِسبانَ المذكورَ مِن القُبحِ والمَحذوريَّةِ بحيثُ يُنْهَى عنه مَن يَمتنِعُ صُدورُه عنه؛ فكيف بمَن يُمكِنُ ذلك منه[2]؟!

- قولُه: ﴿مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قولُه: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ظرْفٌ لـ ﴿مُعْجِزِينَ﴾؛ لإفادةِ شُمولِ عدَمِ الإعجازِ بجميعِ أجزائِها، أي: لا تَحسبَنَّهم مُعجزينَ اللهَ عَزَّ وجَلَّ عن إدراكِهم وإهلاكِهم في قُطْرٍ مِن أقطارِ الأرضِ بما رحُبَتْ، وإنْ هرَبُوا منها كلَّ مَهرَبٍ[3].

- وقولُه: ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جوابُ قسَمٍ مُقدَّرٍ، والمخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: وباللهِ لبِئْسَ المصيرُ هي، أي: النَّارُ، والجُملةُ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه. وفي إيرادِ النَّارِ بعُنوانِ كَونِها مأوًى ومَصيرًا لهم، إثْرَ نفْيِ فَوتِهم بالهرَبِ في الأرضِ كلَّ مَهرَبٍ مِن الجَزالةِ: ما لا غايةَ وراءَهُ، فلِلَّهِ دَرُّ شأْنِ التَّنزيلِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٢، ١٩٣).

## الآيات (٥٨-٦٠)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾ وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾: أي: الأطفالُ غيرُ البالغينَ، والحُلُمُ: الاحتِلامُ، وعبَّر عن البلوغِ بالاحتلامِ؛ لأنَّه أقوَى دلائلِه، وأصلُ (حلم): رُؤيةُ الشَّيءِ في المنامِ، وقيل: سُمِّي زمانُ البُلوغِ الحُلُمَ؛ لكونِ صاحبِه جديرًا بالحِلْمِ، وأصلُ (حلم) على ذلك: تَركُ العَجَلةِ[1].

﴿عَوۡرَٰتٖ﴾: العورةُ: كلُّ ما يُسْتَحْيا منه إذا ظهَر. قيل: أصلُ العورةِ: الخَلَلُ، ومنه: الأعور: المختلُّ العَيْنِ، فسُمِّيت هذه عوراتٌ؛ لاختلالِ تَستُّرِ الناسِ، وقلَّةِ تحفُّظِهم فيها. والعورَةُ: سوأةُ الإنسانِ، وأصلُها مِن العارِ؛ وذلك لِما يَلحَقُ في ظهورِها من العارِ، أي: المذَمَّةِ. وقيل: أصلُ (عور) هنا: يدُلُّ على مرضٍ في إحدى عينَي الإنسانِ وكلِّ ذي عينينِ، ومعناه الخلُوُّ مِن النَّظرِ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه ويُشتَقُّ منه، ومنه العورَةُ، كأنَّها شيءٌ يَنْبغي مُراقَبَتُه؛ لخُلُوِّه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٩)، =

﴿جُنَاحٌ﴾: أي: إثمٌ؛ وأصلُ (جنح): مالَ وتَعدَّى، وسُمِّي الإثمُ بذلك؛ لِمَيلِه عن طريقِ الحقِّ[1].

﴿طَوَّٰفُونَ﴾: أي: ساعونَ في خِدمتِكم، والطَّوْفُ: المشيُ حوْلَ الشَّيءِ، وأصلُ (طوف): يدُلُّ على دَورانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ[2].

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ﴾: أي: العجائزُ اللَّواتي قعَدْنَ عن الحَيضِ والوَلَدِ والأزواجِ؛ مِن الكِبَرِ، جمعُ قاعدٍ، وأمَّا القاعدَةُ فهي الجالسةُ[3].

﴿مُتَبَرِّجَٰتٍ﴾: أي: مُظهِراتٍ مُحاسِنَهنَّ، وأصلُ (برج): يدُلُّ على البُروزِ والظُّهورِ[4].

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا بعضَ الأحكامِ والآدابِ التي شرَعها لعبادِه: يا أيُّها الذين آمَنوا، مُروا العَبيدَ والإماءَ الذين تَملِكونَهم، والأطفالَ الأحرارَ الذين لم يَبلُغوا

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٢١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

مَبلَغَ الرِّجالِ؛ أن يَستأذِنوا عندَ الدُّخولِ عليكم في أوقاتٍ ثلاثةٍ: قَبْلَ صلاةِ الفَجرِ، ووقتَ الظُّهرِ حينَ خَلْعِ الثِّيابِ للقَيلولةِ، ومِن بعدِ صَلاةِ العِشاءِ؛ فهذه الأوقاتُ تكونُ العوراتُ فيها باديةً، فعَلِّموهم ألَّا يَدخُلوا عليكم إلَّا بعْدَ الاستِئذانِ، أمَّا فيما سِوى هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ فلا حرَجَ إذا دخَلوا بغيرِ استِئذانٍ؛ فهم خدَمُكم وأطفالُكم، يَطوفونَ عليكم لِقَضاءِ حوائِجِكم، وأنتم تتردَّدونَ عليهم؛ لاستِخدامِهم وغيرِ ذلك. مِثلَ ذلك البيانِ والتَّوضيحِ في أحكامِ الاستِئذانِ يُبَيِّنُ اللهُ لكم آياتِه وأحكامَه وشرائِعَ دينِه، واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عبادَه، حكيمٌ فيما يَشرَعُه لهم مِن الأحكامِ.

وإذا بلَغ الأطفالُ منكم مَبلغَ الرِّجالِ، فعليهم أن يَستأذِنوا في كلِّ الأوقاتِ كما استأذَنَ الرِّجالُ البالِغونَ، وكما بيَّنَ اللهُ آدابَ الاستئذانِ يُبيِّنُ اللهُ تعالى لكم آياتِه، واللهُ عليمٌ بخَلقِه، حكيمٌ فى تشريعِه.

والنِّساءُ العجائِزُ اللَّاتي قعَدْنَ عن الحَيضِ والوَلَدِ وطلبِ الزَّواجِ؛ لكِبَرِ سِنِّهنَّ- فلا إثمَ عليهنَّ في أن يضَعْنَ بعضَ ثيابِهنَّ الظَّاهرةِ، كالخِمارِ، غيرَ مُظهِراتٍ للزِّينةِ. ولُبْسُهنَّ هذه الثيابَ مُبالَغةً في التستُّرِ والتعفُّفِ أحسَنُ لهُنَّ، وأزكى عندَ الله وأطهَرُ، واللهُ سَميعٌ لأقوالِكم، عليمٌ بأعمالِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أوَّلًا حُكمَ البالِغينَ الأحرارِ في الاستِئذانِ في قَولِه: ﴿لَا

تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ ...﴾ [النور: ٢٧]، بَيَّن تعالى هنا حُكمَ الأحرارِ غيرِ البالِغينَ، وحُكمَ العَبيدِ، فقال(١):

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمنوا، مُرُوا مماليكَكم مِن الذُّكورِ والإناثِ، والكِبارِ والصِّغارِ؛ أن يَستأذِنوكم إذا أرادوا الدُّخولَ عليكم(٢).

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾.

أي: ومُرُوا -أيُّها المُؤمِنونَ- صِبيانَكم الأحرارَ غيرَ البالغينَ أن يستأذِنوا إذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٢، ٢٩٣).

قال ابن كثير: (هذه الآياتُ الكريمةُ اشتملت على استئذانِ الأقارب بعضِهم على بعضٍ، وما تقدَّم في أوَّلِ السورةِ فهو استئذانُ الأجانبِ بَعضِهم على بعضٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١).

وممَّن قال بأنَّ الآيةَ عامَّةٌ في الأرِقَّاءِ الكِبارِ والصِّغارِ: يحيى بنُ سلام، وابن جرير، واستظهره الرازي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الصِّغارُ منهم: الماتريديُّ، والقاضي أبو يعلى -كما نسبه إليه ابن الجوزي-، وعبد القاهر الجُرْجاني. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٥٩٠)، ((درج الدرر)) لعبد القاهر الجرجاني (٢/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٥).

قال ابن القيم: (قالت طائفة: كان الأمرُ بالاستئذانِ في ذلك الوقتِ للحاجةِ ثمَّ زالت، والحُكمُ إذا ثبت بعلَّةٍ زال بزوالِها... وقالت طائفة: الآيةُ محكَمةٌ عامَّةٌ لا مُعارِضَ لها ولا دافِعَ، والعمَلُ بها واجب، وإنْ تركَه أكثَرُ الناس. والصَّحيحُ: أنَّه إن كان هناك ما يقومُ مقامَ الاستئذانِ؛ مِن فَتحِ بابٍ فَتحُه دليلٌ على الدُّخولِ، أو رَفعِ سِترٍ، أو تردُّدِ الداخِلِ والخارِجِ ونحوِه- أغنى ذلك عن الاستئذانِ، وإن لم يكُنْ ما يقوم مقامَه فلا بدَّ منه، والحُكمُ معَلَّلٌ بعلَّةٍ قد أشارت إليها الآيةُ، فإذا وُجِدت وُجِد الحكمُ، وإذا انتفتِ انتفى. والله أعلم). ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٩٦، ٣٩٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٣).

أرادوا الدُّخولَ عليكم في ثلاثةِ أوقاتٍ مِن ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ[١].

﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾.

أي: لِيَستأذِنوا إذا أرادوا الدُّخولَ عليكم في ثلاثةِ أوقاتٍ: قبْلَ صَلاةِ الفَجرِ، ووقتَ القَيلولةِ نِصفَ النَّهارِ، وبعْدَ صَلاةِ العِشاءِ[٢].

﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾.

أي: هذه ثلاثةُ أوقاتٍ يَحصُلُ فيها ظُهورٌ للعَوْراتِ؛ فلا يدخُلْ عليكم مماليكُكم وأطفالُكم إلَّا بإذنِكم[٣].

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾.

أي: ليس عليكم ولا على مماليكِكم وأطفالِكم إثمٌ في تَركِ الاستِئذانِ للدُّخولِ عليكم في غيرِ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٢، ٢٩٣).

قال السمعاني: (ليس هؤلاء هُمُ الذين لم يَظهَروا على عوراتِ النِّساءِ؛ فإنَّ الذين لم يظهَروا على عوراتِ النِّساءِ لا حِشمةَ لأحدٍ منهم؛ لأنَّا بَيَّنَّا أنَّهم الذين لا يُمَيِّزون، ولكِنَّ هؤلاء هم الذين مَيَّزوا، وعَرَفوا أمرَ النِّساءِ، ولكن لم يَبلُغوا). ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٢٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٢ - ٢٩٤).

قال ابنُ عاشور: (وتعيينُ الاستئذانِ في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّها أوقاتُ خَلوةِ الرِّجالِ والنساءِ، وأوقاتُ التعَرِّي مِن الثيابِ، وهي أوقاتُ نَومٍ، وكانوا غالبًا ينامون مجرَّدينَ من الثيابِ؛ اجتِزاءً بالغِطاءِ، وقد سمَّاها الله تعالى عَوراتٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٢).

﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾.

أي: بعضُكم يَطوفُ على بعضٍ؛ فمَماليكُكم وأطفالُكم يدخُلونَ ويَخرُجونَ عليكم في منازِلِكم لقضاءِ أشغالِكم وحوائِجِكم، وأنتم تتردَّدونَ عليهم لاستخدامِهم وغيرِ ذلك[1].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ﴾.

أي: كما بيَّن اللهُ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- أحكامَ الاستئذانِ بيانًا تامًّا واضِحًا، كذلك يبَيِّنُ اللهُ لكم جميعَ آياتِ القُرآنِ وشرائِعِ الإسلامِ[2].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عبادَه، حكيمٌ فيما يُدبِّرُه لهم، وفيما يَشرَعُه لهم مِن الأحكامِ؛ فهو يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللائِقِ به، ومِن ذلك تلك الأحكامُ التي بيَّنَها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

قال ابنُ جرير: (ويعني بالطوَّافينَ: أنَّهم يدخلون ويخرُجون على مواليهم وأقرِبائِهم في منازِلِهم غُدوةً وعَشِيَّةً بغيرِ إذنٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٧).

وقال القرطبي: (فمعنى ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ أي: يَطوفون عليكم، وتَطوفون عليهم). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٦).

وقال الشنقيطي: (يَطوفون للخِدمةِ، والسَّادةُ والآباء يطوفون عليهم للاستخدامِ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٦).

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حُكمَ الصِّبيانِ والأرقَّاءِ الذين هم أطوَعُ للأمرِ، وأقبَلُ لكُلِّ خَيرٍ؛ أتبَعَه حُكمَ البالغينَ مِن الأحرارِ، فقال[1]:

﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: وإذا صار أطفالُكم بالغينَ، فلْيستأذِنوا في الدُّخولِ عليكم في كُلِّ وَقتٍ بلا استِثناءٍ، كما استأذن الكِبارُ الأحرارُ[2].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

أي: كما بيَّن اللهُ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- حُكمَ الأطفالِ في الاستِئذانِ إذا بلَغوا الحُلُمَ، كذلك يوضِّحُ اللهُ ويفَصِّلُ لكم جميعَ آياتِ القُرآنِ وأحكامِ الإسلامِ[3].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عِبادَه، حكيمٌ في تدبيرِهم بما شرَعَه لهم مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

قال الرسعني: (﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: الرجالَ الكبارَ الأحرارَ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ في الوجودِ أو في بلوغِ الحُلمِ، أو الذين ذُكِروا مِن قَبلِهم في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا ...﴾). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

الأحكامِ[١].

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى بعضَ الآدابِ الاجتماعيَّةِ، ومِنها أمْرُ النِّساءِ بالتسَتُّرِ وعَدَمِ إبداءِ الزِّينةِ لغَيرِ مَحارِمِهنَّ، وكان ذلك شامِلًا للشَّابَّاتِ وغَيرِهنَّ مِنَ العَجائِزِ- استَثنى هنا العَجائِزَ الكَبيراتِ في السِّنِّ، وبَيَّنَ ما يجوزُ لهُنَّ، وما هو الأفضَلُ في حَقِّهنَّ، فقال تعالى[٢]:

﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾.

أي: والنِّساءُ العجائزُ اللَّاتي لا يَحِضْنَ ولا يَلِدْنَ، ولا يَطمَعْنَ في الزَّواجِ لكبرِ سنِّهنَّ، لا إثمَ عليهنَّ أن يترُكْنَ لُبسَ الثِّيابِ الظَّاهرةِ، كالجِلبابِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٣، ٨٤).

قال الواحدي: (المفسِّرون كلُّهم قالوا في «القَواعِد»: هنَّ اللاتي قعَدْنَ عن الحَيضِ والولَدِ؛ مِنَ الكِبَرِ). ((البسيط)) (١٦/ ٣٦٤).

وقال السمرقندي: (القاعدُ: المرأةُ التي قعَدت عن الزَّوجِ وعن الحيضِ والولَدِ). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٣).

وقال البقاعي: (﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لعدَمِ رغبَتِهنَّ فيه، أو لوصولهنَّ إلى حدٍّ لا يُرغَبُ فيهنَّ معه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣١٤). =

= وقال ابن عاشور: (هذه الآيةُ مُخَصِّصةٌ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ [النور: ٣١]... وعلَّةُ هذه الرخصةِ هي أنَّ الغالِبَ أن تنتفيَ أو تقِلَّ رغبةُ الرجالِ في أمثالِ هذه القواعدِ؛ لكِبَرِ السِّنِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٦، ٢٩٧). ويُنظر: ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٣٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٣).

وقال الشنقيطي: (حَمَل بعضُ العُلَماءِ معنى القاعِد منها على التي قعدَتْ عن الولَدِ، ولكنَّ هذا غيرُ سديدٍ؛ فإنَّا نرى كثيرًا مِن النِّساءِ يقعُدْنَ عن الولَدِ في سنٍّ مبكِّرةٍ مع أنهنَّ جميلاتٌ وفيهنَّ مُستمتَعٌ، ولا عِبرةَ بكونِ بَعضِ العجائِزِ قد يبدو منهنَّ مَيلٌ إلى الرجالِ وهي في غايةٍ مِن الكِبَرِ الذي لا يلتَفِتُ معه إليها أحَدٌ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ١٩٧).

قال الماوردي: (﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: جِلبابُها، وهو الرِّداءُ الذي فَوقَ خِمارِها، فتَضَعُه عنها إذا ستَرَها باقي ثيابِها. قاله ابنُ مَسعودٍ، وابنُ جُبَيرٍ. الثَّاني: خِمارُها ورِداؤُها. قاله جابِرُ بنُ زيدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٢١).

ممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ، وهو أنَّ المرادَ: الثِّيابُ الظَّاهِرةُ فوقَ الثِّيابِ السَّاتِرةِ، كالجِلبابِ الذي فوقَ الخِمار: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والواحديُّ -ونسبه لعامَّةِ المفسِّرينَ-، والبغويُّ، والزمخشري، وابن الجوزي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥١٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٤٨).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عُمرَ في روايةٍ عنه، وجابرُ بنُ زيدٍ، ومُجاهِدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو الشَّعْثاءِ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والحسنُ، وقَتادةُ، والزُّهْريُّ، والأَوْزاعيُّ، وسُلَيمانُ بنُ يَسارٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٣).

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾.

أي: لا إثمَ على العجائزِ أن يَضَعْنَ ثيابَهنَّ حالَ كَونِهنَّ غيرَ مُظهِراتٍ للزِّينةِ التي يجِبُ على المرأةِ إخفاؤُها[1].

﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾.

أي: وتَركُ وَضْعِهنَّ لثيابِهنَّ -وإن كان جائِزًا- خيرٌ وأفضَلُ لهنَّ مِن خَلعِها[2].

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ سَميعٌ لجَميعِ الأصواتِ، عليمٌ بجميعِ الأعمالِ والمقاصِدِ والنيَّاتِ؛ فلْيَحذَرْنَ مِن كُلِّ قولٍ وفِعلٍ وقَصدٍ فاسدٍ، ولْيَعلَمْنَ أنَّ اللهَ يجازي على ذلك[3].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ توجيهُ الخطابِ للمُؤمِنينَ -والحُكمُ لِغَيرِهم- فيه دَلالةٌ على أنَّهم مَسؤولون عنهم، ومَسؤولون عن تنفيذِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٨).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي: غيرَ مُظهِراتٍ ولا متعَرِّضاتٍ بالزينةِ ليُنظَرَ إليهنَّ؛ فإنَّ ذلك من أقبَحِ الأشياءِ وأبعَدِه عن الحَقِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٠٩).

وقال البقاعي: (﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ أي متعمِّداتٍ -بوضعِ ما أبيحَ لهنَّ وضْعُه- إظهارَ وجوهِهنَّ معَ الزينةِ، أو غيرَ متظاهراتٍ بالزينةِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٤).

وقال السعدي: (الاستعفافُ: طَلَبُ العِفَّةِ، بفِعلِ الأسبابِ المُقتَضيةِ لذلك؛ مِن تزوُّجٍ، وتَرْكٍ لِما يُخشى منه الفتنةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٠٧).

هذا الحُكمِ في أولادِهم الصِّغارِ ومماليكِهم، وأنَّ هذا الصَّغيرَ والمملوكَ إذا خالَفَ فإنَّ إثمَه على مَن لم يقُمْ بواجِبِ التَّربيةِ والتَّأديبِ[1]. فالسيِّدُ ووليُّ الصَّغيرِ مُخاطَبانِ بتعليمِ عَبيدِهم ومَن تحتَ ولايتِهم مِن الأولادِ، العِلمَ والآدابَ الشَّرعيَّةَ؛ لأنَّ اللهَ وجَّه الخِطابَ إليهم بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾، ولا يمكِنُ ذلك إلَّا بالتَّعليمِ والتأديبِ، ولِقَولِه: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّ﴾[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ مَن لم يبلُغْ، وقد عَقَل، يُؤمَرُ بفِعلِ الشَّرائِعِ، ويُنهى عن ارتكابِ القبائِحِ؛ فإنَّ اللهَ أمَرَهم بالاستِئذانِ في هذه الأوقاتِ[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ سَتْرَ العَورةِ عن الأطفالِ -الذين قد بلَغوا مَبلَغَ مَعرفتِها- فرضٌ في كلِّ وقتٍ؛ إذْ لا يأمُرُ اللهُ تعالى بالاستئذانِ مِن أجْلِ ذلك إلَّا وقد فَرضَ سَترَها في كلِّ وقتٍ عنهم وعن مِلْكِ اليمينِ[4]، فالله تعالى أمَر باستئذانِ الصِّغارِ والمماليكِ حينَ الاستيقاظِ مِن النَّومِ، وحينَ إرادةِ النَّومِ، وحينَ القائِلةِ؛ فإنَّ في هذه الأوقاتِ تبدو العوراتُ، كما قال تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾. وفي ذلك ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٨٨).

يدُلُّ على أنَّ المملوكَ المميَّزَ، والمميَّزَ مِن الصِّبيانِ- ليس له أن ينظُرَ إلى عورةِ الرَّجُلِ[١]. وإذا وَجبَ الاستئذانُ في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ خوفًا مِن أن يُفاجِئَهم أحدٌ على عَورةٍ، فمَن تَعمَّدَ أنْ يرى العورةَ فهو أَولى إذَنْ؛ فيُستفادُ منه تحريمُ النَّظَرِ إلى العَورةِ، سواءٌ كان النَّاظرُ صغيرًا أو كبيرًا، وأمَّا تهاوُنُ بعضِ النَّاسِ في نَظَرِ الصَّغير المميِّزِ إلى العورةِ، فهذا خطأٌ، وبَعضُ النَّاسِ إذا كان الصغيرُ له سِتُّ سنواتٍ أو سبْعُ سنواتٍ لا يبالي أنْ يَنظُرَ إلى عورتِه! وذلك لا يجوزُ؛ لأنَّه لا بُدَّ أن يَرتَسِمَ في ذِهنِه هذا المنظرُ؛ ثمَّ ربَّما يَذكُرُه في يومٍ مِن الأيامِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ فيه أنَّه ينبغي للواعِظِ والمعَلِّمِ ونَحوِهما ممَّن يتكَلَّمُ في مسائِلِ العِلمِ الشَّرعيِّ- أن يَقرِنَ بالحُكمِ بَيانَ مَأخَذِه ووَجهِه، ولا يُلقيَه مجرَّدًا عن الدَّليلِ والتَّعليلِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن الحُكمَ المذكورَ، عَلَّله بقَولِه: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ وصْفُ الأحكامِ بالآياتِ؛ ففيه إرشادٌ للخَلْقِ إلى تأمُّلِ هذه الأحكامِ؛ لِيستَدِلُّوا بها على مُشَرِّعِها[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٨٨).

صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ﴾ ففي ثلاثةِ هذه الأحوالِ يكونُ المماليكُ والأولادُ الصِّغارُ كغَيرِهم، لا يُمَكَّنونَ مِن الدُّخولِ إلَّا بإذنٍ، وأمَّا ما عدا هذه الأحوالَ الثَّلاثةَ، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ﴾[1]، فالآيةُ فيها جوازُ الدُّخولِ للمذكورينَ بدونِ استئذانٍ في غيرِ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾ دَلالةٌ على المَنعِ مِن فِعْلِ ما يؤدِّي إلى الحَرامِ؛ فاللهُ تعالى أمَرَ مماليكَ المؤمنينَ ومَن لم يَبلُغْ منهم الحُلُمَ أنْ يستأذِنوا عليهم في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ؛ لئلَّا يكونَ دُخولُهم هَجْمًا بغير استئذانٍ فيها ذريعةً إلى اطِّلَاعِهم على عَوْراتِهم وقتَ إلقاءِ ثيابِهم عندَ القائلةِ والنَّومِ واليَقَظةِ، ولم يأمُرْهم بالاستِئذانِ في غَيرِها -وإنْ أمكنَ في ترْكِه هذه المَفسَدةُ- لنُدورِها، وقِلَّةِ الإفضاءِ إليها؛ فجُعِلَتْ كالمقَدِّمةِ[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فيه ثبوتُ مِلكِ اليمينِ للآدميِّينَ، ولكنْ -كما هو مَعروفٌ- أنَّ الإسلامَ حمَى حقوقَ هؤلاء المَماليكِ، ورَغَّبَ في تحريرِهم وعِتقِهم، وجَعلَ للعتقِ أسبابًا متعَدِّدةً[4].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ فيه جوازُ وَضعِ الثَّوبِ عندَ النَّومِ، ويلتَحِفُ الإنسانُ بلِحافِه[5].

٥- قَولُه تعالى: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ لا يُفهَمُ منه أنَّ ما قبْلَه مِن اللَّيلِ كان مُباحَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الدُّخولِ بلا استِئذانٍ؛ لأنَّ هذا خَرَجَ مخْرَجَ الغالِبِ، وهو أنَّ النَّاسَ في العادةِ يبدأُ انتِشارُهم قَبلَ صلاةِ الفَجرِ بعدَ الأذانِ؛ ولا يَكثُرُ قبلَ ذلك مِن اللَّيلِ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ فيه جوازُ كَشفِ العَورةِ لحاجةٍ؛ كالحاجةِ عندَ النَّومِ، وعند البَولِ والغائِطِ، ونحوِ ذلك[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ فيه الأمرُ بحِفظِ العَوراتِ، والاحتياطِ لذلك مِن كُلِّ وَجهٍ، وأنَّ المحَلَّ والمكانَ الذي هو مَظِنَّةٌ لرؤيةِ عَورةِ الإنسانِ فيه؛ أنَّه منهيٌّ عن الاغتِسالِ فيه والاستِنجاءِ ونحوِ ذلك[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ فيه أنَّ المُسلِمينَ كانوا مُعتادينَ للقَيلولةِ وسَطَ النَّهارِ، كما اعتادوا نومَ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللهَ خاطبَهم ببيانِ حالِهم الموجودةِ[٤].

٩- قال الله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾ الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ الواجِبَ اعتِبارُ العِلَلِ في الأحكامِ إذا أمكَنَ؛ لأنَّه تعالى نبَّه على العِلَّةِ في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ مِن وَجهينِ:

**أحدُهما:** بقَولِه تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والثَّاني: بالتَّنبيهِ على الفَرقِ بينَ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ وبينَ ما عداها؛ بأنَّه ليس ذاك إلَّا لعلَّةِ التكَشُّفِ في هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ، وأنَّه لا يُؤمَنُ وُقوعُ التكشُّفِ فيها، وليس كذلك ما عدا هذه الأوقاتَ[1]. فالآيةُ فيها دَليلٌ على تَعليلِ الأحكامِ[2]، بمعنى أنَّ أحكامَ اللهِ سبحانه وتعالى كلَّها مبنيَّةٌ على الحِكمِ[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ دَليلٌ على أنَّه لا حَرَجَ على المرأةِ أن يَنظُرَ إليها الذَّكَرُ البالغُ مِن مِلْكِ يمينِها -وذلك على أنَّ مِلكَ اليمينِ هنا شاملٌ للكبيرِ والصَّغيرِ-، ولا عليه إذا نَظرَ -لِغَيرِ ريبةٍ- إذْ كان في غيرِ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ مُباحٌ له أنْ يدخُلَ بغير إذْنٍ، ومَن دخَلَ بغير إذنٍ أبصَرَ الحُرَمَ، وقد أزال اللهُ عن الجَميعِ الحَرَجَ، وهذا خاصٌّ في المماليكِ، وأمَّا الأحرارُ فيُفرَضُ عليهم غَضُّ البصَرِ عن النِّساءِ، إلَّا ما تُجُوِّزَ لهم عنه مِن نظرةِ الفَجأةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أمرَ بِغَضِّ البصَرِ مُطلقًا بلا شَرطٍ في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾، وقَولِه: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾[4].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ هذا الحُكمَ يختَصُّ بالصِّغارِ دونَ البالغينَ، وقد نَصَّ تعالى على ذلك مِن بعْدُ، فقال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والمرادُ: مَن تجدَّدَ منه البُلوغُ يجِبُ أن يكونَ بمَنزلةِ مَن تقَدَّم بلوغُه في وجوبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٨٩).

الاستئذانِ، فهذا معنى قَولِه: ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. وقد يجوزُ أن يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ مَن خدَمَ في حالِ الصِّغَرِ فإذا بلغ يجوزُ له ألَّا يستأذِنَ، ويفارِقُ حالُه حالَ مَن لم يَخدُمْ ولم يُملَكْ؛ فبيَّن تعالى أنَّه كما حظَرَ على البالِغين الدُّخولَ إلَّا بالاستئذانِ، فكذلك على هؤلاء إذا بَلَغوا، وإن تقَدَّمتْ لهم خِدمةٌ، أو ثبَتَ فيهم مِلكٌ لهنَّ[1].

١٢- في قولِه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إشكالٌ؛ وهو: أنَّ مفهومَ الآيةِ الكريمةِ أنَّ على الأطفالِ جُناحًا فيهنَّ، وقد عُلِمَ أنَّه قد رُفِعَ القلمُ عنهم!

**والجوابُ**: أنَّ الجُناحَ على الأولياءِ والمماليكِ لا الصِّغارِ؛ فعُموماتُ الأدلَّةِ على أنَّ الصَّغيرَ غَيرُ مُكَلَّفٍ، وأنَّه لا إثمَ عليه[2].

وقيل: ليس المرادُ بالجناحِ هنا الإثمَ، وإنما المرادُ: الحرَجُ والمشقَّةُ في الاستئذانِ؛ وهذا لا يَلزمُ منه الإثمُ[3].

١٣- في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ دلالةٌ على أنَّ الطَّوَّافينَ يُرَخَّصُ فيهم ما لا يُرَخَّصُ في غيرِ الطَّوَّافينَ عليكم والطَّوَّافاتِ، والطَّوَّافُ مَن يدخلُ بغير إذْنٍ -كما تدخُلُ الهِرَّةُ؛ وكما يدخُلُ الصبيُّ والمملوكُ-، وإذا كان هذا في الصبيِّ المُمَيِّزِ؛ فغيرُ المُميِّزِ أولى[4].

١٤- في قولِه تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ طهارةُ بَدَنِ الطفلِ -وإنْ غَلَبَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((المنتقى من فرائد الفوائد)) لابن عثيمين (ص: ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٠).

الظنِّ أنه نَجِسٌ-، نأخُذُه مِن قولِه صَلَّى الله عليه وسلَّم في الهِرةِ: ((إنَّها ليست بِنَجَسٍ))[١]، وعلَّلَ ذلك بأنها مِن الطَّوَّافينَ؛ وهؤلاء مِن الطَّوَّافينَ، فرُبَّما يُؤخَذُ مِن هذا طهارةُ بَدَنِ الطفلِ؛ وأنه طاهرٌ ما لم يَتيقَّنِ النجاسةَ[٢]، وأنَّ ريقَه طاهرٌ، ولو كان بعْدَ نجاسةٍ، كالقيءِ[٣].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ فيه جوازُ استخدامِ الإنسانِ مَن تحتَ يَدِه مِن الأطفالِ على وجهٍ مُعتادٍ لا يَشُقُّ على الطِّفلِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم﴾ رفْعُ الحَرَجِ والمشَقَّةِ عنِ النَّاسِ. وجهُ ذلك يُؤخَذُ مِن رفْعِ الحَرَجِ في عدَمِ الاستئذانِ في غيرِ هذه الأوقاتِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّهم طَوَّافونَ عليهم متردِّدونَ، والاستِئذانُ فيه مشَقَّةٌ[٥]، والمشَقَّةَ تجلِبُ التَّيسيرَ[٦].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أنَّه لا يستطيعُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٥)، وأحمد (٢٢٨٥٠) واللفظ لهما، والترمذي (٩٢)، والنسائي (٦٨)، وابن ماجه (٣٦٧) باختلافٍ يسيرٍ. من حديث أبي قَتادةَ الأنصاريِّ رضي الله عنه.
قال البخاريُّ -كما في ((السنن الكبرى)) للبيهقي (١/ ٢٤٥): (جوَّد مالكٌ هذا الحديثَ، وروايتُه أصَحُّ مِن روايةِ غَيرِه). وقال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وقال العُقَيليُّ في ((الضعفاء الكبير)) (٢/ ١٤٢): (إسنادُه ثابتٌ صحيحٌ). وحسَّنَ إسنادَه الدارقطنيُّ في ((تعليقة على العلل)) (١٢٩)، وصحَّحه ابنُ عبدالبَرِّ في ((التمهيد)) (١/ ٣١٨)، والنوويُّ في ((المجموع)) (١/ ١١٧)، وابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١٢٦)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (١/ ٥٥١)، وابن حجر في ((المطالب العالية)) (١/ ٥٩).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩٠).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٣).

أحدٌ أن يأتيَ بمثلِ تَشريعِ اللهِ عزَّ وجلَّ ونظامِه. تُؤخَذُ مِن كَونِه جَعلَ ذلك مِن الآياتِ، وآياتُ اللهِ معناها أنَّها لا تصلُحُ لغَيرِه تعالى؛ إذْ لو صلحتْ لغيرِه لم تكنْ آيةً له؛ فهذا يدُلُّ على أنَّ شَرعَ اللهِ لا يُمكِنُ أن يأتيَ أحَدٌ بمِثلِه، وإلَّا ما صَحَّ أن يكونَ آيةً[1]!

١٨- قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فيه مِنَّةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى على العِبادِ ببَيانِ الآياتِ الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ؛ حتى لا يبقَى للنَّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ بعدَ هذا البيانِ[2].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الاحتلامَ في الذُّكْرَانِ هو حَدُّ البُلوغِ، ووقتُ وجوبِ الفَرائضِ عليهم[3].

٢٠- وقَعَ قولُه: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ في مَوقعِ التَّصريحِ بمفهومِ الصِّفةِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّ الأطفالَ إذا بَلَغوا الحُلُمَ تغيَّرَ حُكْمُهم في الاستئذانِ إلى حُكمِ استئذانِ الرِّجالِ[4].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الاستئذانَ في جَميعِ الأوقاتِ واجِبٌ -في الأوقاتِ الثَّلاثةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩٣). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٦).

قال البغوي: (﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ﴾... ليس المرادُ منهم الأطفالَ الذين لم يَظهروا على عوراتِ النِّساءِ، بل الذين عرَفوا أمرَ النِّساءِ، ولكن لم يَبْلغوا). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٢٨).

وغيرِها- على سائرِ النَّاسِ سِوى الأطفالِ ومِلْكِ اليَمينِ الذين أُبيحَ لهم إلَّا في الثَّلاثةِ الأوقاتِ[١]؛ فالأولادُ البالغونَ لا يدخُلونَ على والدِيهم إلَّا باستئذانٍ، كالأجانِبِ[٢].

٢٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ فيه إباحةُ تَركِ التحَفُّظِ في التسَتُّرِ للنِّساءِ القواعِدِ، وفيه أنَّ استِعفافَهنَّ وتحفُّظَهنَّ بالسِّترِ كالثَّوابِ، خَيرٌ وأفضَلُ[٣].

٢٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ فيه سؤالٌ: كيف أباح تعالى للقَواعِدِ مِن النِّساءِ -وهنَّ العجائِزُ- التجَرُّدَ مِن الثيابِ بحَضرةِ الرِّجالِ؟

**الجوابُ**: المرادُ بالثِّيابِ: الزَّائِدةُ على ما يَستُرُهنَّ[٤].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ ﴾ أنَّ الحُكمَ يدورُ مع عِلَّتِه وجودًا وعَدَمًا؛ لأنَّ اللهَ إنما أباح وضْعَ الثِّيابِ لهؤلاء القواعِدِ؛ لأنَّ الفِتنةَ بعيدةٌ فيهنَّ؛ فيؤخَذُ منه أنَّ المدارَ كلَّه على خَوفِ الفتنةِ في مِثلِ هذه الأمورِ؛ فالحُكمُ يدورُ مع عِلَّتِه وُجودًا وعَدَمًا[٥]، فالعَجوزُ التي لا تطمَعُ في النِّكاحِ رُخِّصَ لها أن تضَعَ ثيابَها، فلا تُلقيَ عليها جِلبابَها ولا تحتَجِبَ، وإن كانت مُستثناةً مِن الحرائِرِ؛ لزَوالِ المفسدةِ الموجودةِ في غيرِها، كما استثنى

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٠١).

التابعينَ غيرَ أُولي الإرْبةِ مِن الرِّجالِ في إظهارِ الزِّينةِ لهم؛ لِعَدمِ الشَّهوةِ التي تتولَّدُ منها الفِتنةُ[١]. قال بعضُهم: (لمَّا كان القواعدُ لا مذهبَ للرجالِ فيهنَّ، أُرِحْنَ مِن عناءِ التستُّرِ، وخُفِّف عنهنَّ قلَّةُ التحفُّظِ؛ إذ علةُ وجوبِه منعدمةٌ)[٢].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا﴾ أنَّه يُقاسُ على القواعِدِ مَن لا تُشتَهى؛ لغايةٍ في قُبْحِها، كالعَجائزِ؛ لأنَّها لا ترجو النِّكاحَ، ولا يَطمعُ أحدٌ فيها؛ ولهذا ألحَقَ العُلَماءُ هذا الصِّنفَ مِن النِّساءِ بالقَواعدِ[٣].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖ﴾ أنَّ التبَرُّجَ بالزِّينةِ حرامٌ على العَجائزِ، فهذا الشرطُ إذا تخلَّفَ صار عليهنَّ جُناحٌ في ذلك، وهذا يدُلُّ على التَّحريمِ، فإذا كان التبَرُّجُ حرامًا على العَجائزِ، فيتفَرَّعُ على هذه الفائدةِ تحريمُ التبَرُّجِ على الشَّابَّاتِ ومَن هي مَحَلُّ الفِتنةِ، وهذا قياسُ أولويَّةٍ؛ لأنَّه مَعلومٌ إذا حُرِّمَ على القواعِدِ اللَّاتي لا يَرجونَ نِكاحًا، فغَيرُهنَّ ممَّن يرجون النِّكاحَ وتتعَلَّقُ بهن الفِتنةُ أبلَغُ[٤].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ أنَّ الأفضلَ البُعدُ عن الرِّيبةِ ومَحَلِّ الفِتنةِ، وإن بَعُدَت[٥].

٢٨- قولُه تعالى: ﴿وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ﴾ لمَّا ذكَرَ الجائزَ عقَّبَه بالمُستحَبِّ؛ بَعثًا منه على اختيارِ أفضلِ الأعمالِ وأحسَنِها[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٥١).

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ دَليلٌ على أنَّ الأخذَ بالرُّخَصِ، وإنْ كان مُباحًا، فالأخذُ بالعزائمِ أفضَلُ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ استِئنافٌ انتقاليٌّ إلى غرَضٍ مِن أحكامِ المُخالَطةِ والمُعاشَرةِ، وهو عَودٌ إلى الغرَضِ الَّذي ابتُدِئَتْ به السُّورةُ وقُطِعَ عندَ قولِه: ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[2] [النور: ٣٤].

- قولُه: ﴿ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ﴾، أي: ثلاثةَ أوقاتٍ في اليومِ واللَّيلةِ، والتَّعبيرُ عنها بالمرَّاتِ؛ للإيذانِ بأنَّ مَدارَ وُجوبِ الاستئذانِ مُقارَنةُ تلك الأوقاتِ لمُرورِ المُستأذِنينَ بالمُخاطَبينَ، لا أنفُسِها[3].

- وحَرفُ (مِن) في قولِه: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾ مَزيدٌ للتَّأكيدِ[4].

- قولُه: ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ﴾ الظَّهيرةُ: هي شِدَّةُ الحرِّ عندَ انتصافِ النَّهارِ، وهي بَيانٌ للحِينِ؛ والتَّصريحُ بمَدارِ الأمْرِ -أي: وضْعِ الثِّيابِ في هذا الحينِ- دُونَ الأوَّلِ والآخِرِ؛ لأنَّ التَّجرُّدَ عن الثِّيابِ فيه لأجْلِ القَيلولةِ؛

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٣).

لقلَّةِ زَمانِها -كما يُنبِئُ عنها إيرادُ (الحينِ) مُضافًا إلى فِعْلٍ حادثٍ مُتقَضٍّ، ووُقوعُها في النَّهارِ الَّذي هو مَئِنَّةٌ لكَثرةِ الوُرودِ والصُّدورِ، ومَظِنَّةٌ لظُهورِ الأحوالِ وبُروزِ الأمورِ- ليسَ مِن التَّحقُّقِ والاطِّرادِ بمَنزلةِ ما في الوقتينِ المَذكورينِ؛ فإنَّ تَحقُّقَ التَّجرُّدِ واطِّرادَه فيهما أمْرٌ مَعروفٌ لا يُحتاجُ إلى التَّصريحِ به[1].

- قَولُه: ﴿مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾ أثبَتَ (مِن) في الموضِعَينِ الأوَّلِ والثَّالثِ؛ دَلالةً على قُربِ الزَّمَنِ مِن الوَقتِ المذكورِ لِضَبطِه، وأسقَطَها في الأوسَطِ دَلالةً على استغراقِه؛ لأنَّه غَيرُ مُنضَبِطٍ[2].

- قولُه: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ عِلَّةِ وُجوبِ الاستئذانِ، والعَورةُ في الأصلِ هو الخلَلُ -غلَبَ في الخلَلِ الواقعِ فيما يَهُمُّ حِفْظُه، ويُعْتنى بسَتْرِه- أُطْلِقتْ على الأوقاتِ المُشتملةِ عليها؛ مُبالَغةً كأنَّها نفْسُ العورةِ[3]. أو سمَّى كلَّ واحدةٍ مِن هذه الأحوالِ عورةً؛ لأنَّ النَّاسَ يَختَلُّ تَستُّرُهم وتَحفُّظُهم فيها[4].

- قولُه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ﴾ مُستأنَفةٌ؛ مَسوقةٌ لتَقريرِ ما قبْلَها بالطَّردِ والعكْسِ[5]. ونفْيُ الجُناحِ عن المُخاطَبينَ في قولِه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ﴾ بعْدَ أنْ كان الكلامُ على استئذانِ المماليكِ والَّذين لم يَبلُغوا الحُلُمَ: إشارةٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

لَحْنِ خِطابٍ[١] حاصِلٍ مِن قولِه: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ﴾؛ فإنَّ الأمْرَ باستِئذانِ هؤلاء عليهم يَقْتضي أمْرَ أهْلِ البيتِ بالاستئذانِ على الَّذين ملَكَتْ أيمانُهم إذا دعاهم داعٍ إلى الدُّخولِ عليهم في تلك الأوقاتِ، كما يُرشِدُ السَّامعَ إليه قولُه: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾. وإنَّما لم يُصرَّحْ بأمْرِ المُخاطَبينَ بأنْ يَستأذِنوا على الَّذين ملَكَتْ أيمانُهم؛ لنُدورِ دُخولِ السَّادةِ على عَبيدِهم أو على غِلْمانِهم؛ إذِ الشَّأنُ أنَّهم إذا دعَتْهم حاجةٌ إليهم أنْ يُنادُوهم، فأمَّا إذا دعَتِ الحاجةُ إلى الدُّخولِ عليهم فالحُكْمُ فيهم سواءٌ[٢].

- قولُه: ﴿بَعْدَهُنَّ﴾، أي: بعْدَ كلِّ واحدةٍ مِن تلك العوراتِ الثَّلاثِ، وهي الأوقاتُ المُتخلِّلةُ بيْن كلِّ اثنتينِ منْهنَّ، وإيرادُها بعُنوانِ البَعديَّةِ -مع أنَّ كلَّ وقتٍ مِن تلكَ الأوقاتِ قبْلَ عَورةٍ من العَوراتِ، كما أنَّها بعْدَ أُخرى منْهنَّ-؛ لتَوفيةِ حقِّ التَّكليفِ والتَّرخيصِ الَّذي هو عبارةٌ عن رَفْعِه؛ إذِ الرُّخصةُ إنَّما تُتَصَوَّرُ في فِعلٍ يقَعُ بعْدَ زمانِ وُقوعِ الفِعلِ المُكلَّفِ[٣].

- قولُه: ﴿طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم﴾ استِئنافٌ ببَيانِ العُذرِ المُرخِّصِ في تَرْكِ الاستئذانِ، وهو المُخالَطةُ، وكثرةُ المُداخَلةِ[٤]. وفي الكلامِ اكتِفاءٌ؛ تَقديرُه: وأنتم طوَّافون

---

(١) لحنُ الخطاب: هو أن يكونَ المسكوتُ عنه موافقًا للمنطوقِ في الحُكمِ، ويُسمَّى أيضًا: فحوى الخطاب. وقيل: إنْ كان أَوْلى بالحُكمِ مِن المنطوقِ به فيُسَمَّى فَحْوى الخطابِ، وإن كان مساويًا فيُسَمَّى لحنَ الخطابِ. وقيل: هو مفهومُ المخالَفةِ. وقيل: هو دَلالةُ الاقتِضاءِ. يُنظر: ((نفائس الأصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((المختصر في أصول الفقه)) لابن اللحام (ص: ١٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٥).

عليهم؛ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾، وقولُه عقِبَه: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1].

- وجُملةُ: ﴿بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ مُستأنَفةٌ، ويتعلَّقُ قولُه: ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بخبَرٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: طوَّافٌ على بعضٍ؛ وحُذِفَ الخبرُ وبقِيَ المُتعلِّقُ به -وهو كَونٌ خاصٌّ-؛ لدَلالةِ ﴿طَوَّٰفُونَ﴾ عليه، والتَّقديرُ: بعضُكم طوَّافٌ على بعضٍ[2].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى مَصدرِ الفِعلِ الَّذي بعْدَه، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ لتَفخيمِ شأنِ المُشارِ إليه، والإيذانِ ببُعدِ مَنزلَتِه، وكونِه مِن الوُضوحِ بمَنزلةِ المُشارِ إليه حِسًّا[3].

- وقولُه: ﴿لَكُمُ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يُبَيِّنُ﴾، وتَقديمُه على المَفعولِ الصَّريحِ ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾؛ للاهتِمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[4].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تأكيدٌ لنَظيرِه المُتقدِّمِ في الآيةِ السَّابقةِ، وهو تأكيدٌ بالتَّكريرِ؛ لمزيدِ الاهتمامِ والامتِنانِ، ومبُالَغةً في الأمرِ بالاستئذانِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٦).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ ختَمَ هذه الآيةَ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ بالإضافةِ إليه، وختَمَ ما قبْلَها وما بعْدَها بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ [النور: ٥٨- ٦١] بالتَّعريفِ بـ (أل)؛ ووجْهُه: أنَّه لَمَّا تقارَبَ اللَّفظُ الواحدُ، عدَلَ عن تَكرارِه بلفْظٍ واحدٍ فيما تقارَبَ، على عادةِ العرَبِ في استثقالِها تَكرُّرَ اللَّفظِ الواحدِ بعَينِه في بيتٍ واحدٍ مِن الشِّعرِ أو ما تقارَبَ مِن الكلامِ، ما لم يَحمِلْ على ذلك حامِلٌ مِن المعنى؛ فجِيءَ بالآياتِ في الأُولى مُعرَّفًا بالألفِ واللَّامِ للعهْدِ فيما تقدَّمَ مِن المُعتبَراتِ الواضحةِ الدَّلالةِ، وفي الآيةِ الثَّانيةِ مُضافًا إلى الضَّميرِ المُتَّصلِ؛ لتَحصُلَ نِسبةُ الآياتِ لِمَن هي له تعالى، وكانت الثَّانيةُ هي المُضافَةَ؛ لأنَّها مع ما تُعطيهِ مِن النِّسبةِ مُبيِّنةٌ للأُولى بَيانًا تأْكيديًّا؛ إذ مِن المعلومِ أنَّها آياتُه سُبحانه، فجاء ذلك على ما يجِبُ. ومِن الواردِ على هذا الرَّعْيِ -واللهُ أعلَمُ- قولُه في سُورةِ (البقرةِ): ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ثمَّ قال تعالى بعدَ آيٍ: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١]، فهذا مِثْلُ الواردِ في سُورةِ (البقرةِ)[1]. وقيل: إنَّما أُضِيفَتِ الآياتُ هنا لضَميرِ الجَلالةِ؛ تَفنُّنًا، ولتَقويةِ تأْكيدِ معنَى كَمالِ التَّبْيينِ الحاصلِ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾. وتأْكيدِ معنَى الوصفينِ ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: هي آياتٌ مِن لَدُنْ مَن هذه صِفاتُه، ومَن تلك صِفاتُ بَيانِه[2]. وقيل: إضافةُ الآياتِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ لتَشريفِها[3]. وقيل: أضاف الآياتِ إليه سُبحانَه تعظيمًا لها؛ إشارةً إلى أنَّها مُقَدِّمةٌ للآياتِ الإلهيَّاتِ؛ لأنَّ مَن لم يتفَرَّغْ مِن مُكَدِّرات الأفكارِ، لم يَطِرْ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٥).

ذلك المطارَ، وحثًّا على تدبُّرِ ما تقَدَّم منها؛ لاستحضارِ ما دعت إليه مِن الحِكَمِ، وفَصَّلت به من المواعِظِ، وتنبيهًا على ما فيها من العُلومِ النافعةِ دينًا ودُنيا[1].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

- السِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يَسْتَعْفِفْنَ﴾ للمُبالَغةِ؛ فالاستعفافُ: التَّعفُّفُ، مثْلُ استجابَ[2].

- وجُملةُ: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مَسوقةٌ مَساقَ التَّذييلِ؛ للتَّحذيرِ مِن التَّوسُّعِ في الرُّخصةِ أو جَعْلِها ذَريعةً لِمَا لا يُحمَدُ شرْعًا؛ فوَصْفُ (السَّميعِ) تذكيرٌ بأنَّه يسمَعُ ما تُحدِّثُهنَّ به أنفُسُهنَّ مِن المقاصِدِ، ووَصْفُ (العليمِ) تذْكيرٌ بأنَّه يعلَمُ أحوالَ وضْعِهنَّ الثِّيابَ وتبرُّجِهنَّ ونَحْوِها؛ ففي ذِكْرِ هاتينِ الصِّفتينِ توعُّدٌ وتحذيرٌ، وفيه مِن التَّرهيبِ ما لا يَخْفى[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٩).

## الآية (٦١)

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَشْتَاتًا﴾: أي: مُتَفَرِّقينَ، وأصلُه يدُلُّ على تفَرُّقٍ[1].

### المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: ليس على أصحابِ الأعذارِ -كالأعمى، والأعرَجِ، والمَريضِ- حَرَجٌ في الأكلِ مِن البُيوتِ المذكورةِ؛ لِضَعفِهم وعَجزِهم، وليس عليكم كذلك حرَجٌ في أن تأكُلوا مِن بُيوتِكم وبُيوتِ أولادِكم وعَبيدِكم، أو مِن بُيوتِ آبائِكم أو أمَّهاتِكم، أو إخوانِكم أو أخَواتِكم، أو أعمامِكم أو عمَّاتِكم، أو أخوالِكم أو خالاتِكم، أو البُيوتِ التي وُكِّلتُم بحِفظِها وتَملِكونَ مَفاتيحَها في غيابِ أهلِها، أو مِن بُيوتِ الأصدقاءِ؛ ولا حرَجَ عليكم أن تأكُلوا مجتَمِعينَ أو متفَرِّقينَ، فإذا دخَلتُم بُيوتَكم أو بُيوتَ غَيرِكم، فلْيُسلِّمْ بعضُكم على بَعضٍ بتحيَّةِ الإسلامِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٣).

تحيَّةً مُباركةً طَيِّبةً شَرَعها اللهُ لعبادِه المؤمِنين. مِثلَ هذا التَّبيينِ يبيِّنُ الله لكم آياتِه؛ لِتَعقِلوها، وتَعمَلوا بها.

## تفسيرُ الآيةِ:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أتمَّ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما ذكَرَ مِن حُرُماتِ البُيوتِ المُستلزِمةِ لصيانةِ الأبضاعِ على وجهٍ يلزَمُ منه إحرازُ الأموالِ؛ أتبَعَه ما يُباحُ مِن ذلك للأكلِ -الذي هو مِن أجَلِّ مقاصِدِ الأموالِ- اجتِماعًا وانفِرادًا، فقال في جوابِ مَن كأنَّه سأل: هل هذا التَّحجيرُ في البُيوتِ سارٍ في الأقارِبِ وغَيرِهم في جميعِ الأحوالِ[1]:

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

أي: ليس على الأعمى ولا على الأعرجِ ولا على المريضِ إثمٌ في الأكلِ مِن البُيوتِ المذكورةِ في هذه الآيةِ، التي أباح اللهُ لهم الأكلَ فيها[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١)، ((تفسير الماتريدي)) (٧/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن =

= عطية)) (٤/ ١٩٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٩).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١).

قال ابنُ جُزي: (اختُلِف في المعنى الذي رَفَع اللهُ فيه الحَرَجَ عن الأعمى والأعرَجِ والمريضِ في هذه الآيةِ:

فقيلَ: هو في الغَزْوِ، أي: لا حَرَجَ عليهم في تأخيرِهم عنه، وقَولُه: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ مقطوعٌ مِن الذي قَبْلَه على هذا القَولِ، كأنَّه قال: ليس على هؤلاءِ الثَّلاثةِ حَرَجٌ في تَرْكِ الغَزْوِ، ولا عليكم حَرَجٌ في الأكلِ.

وقيل: الآيةُ كُلُّها في معنى الأكلِ، واختَلَف الذَّاهِبونَ إلى ذلك؛ فقيل: إنَّ أهلَ هذه الأعذارِ كانوا يتجَنَّبونَ الأكلَ مع النَّاسِ؛ لئَلَّا يتقَذَّرَهم النَّاسُ، فنزلت الآيةُ مُبيحةً لهم الأكلَ مع النَّاسِ. وقيل: إنَّ النَّاسَ كانوا إذا نَهَضوا إلى الغَزوِ خَلَّفوا أهلَ هذه الأعذارِ في بُيوتِهم، وكانوا يتجَنَّبون أكلَ مالِ الغائِبِ، فنزلت الآيةُ في ذلك. وقيل: إنَّ النَّاسَ كانوا يتجَنَّبون الأكلَ معهم تقَذُّرًا، فنزلت الآيةُ، وهذا ضَعيفٌ؛ لأنَّ رَفعَ الحَرَجِ عن أهلِ الأعذارِ لا عن غَيرِهم. وقيل: إنَّ رَفْعَ الحَرَجِ عن هؤلاء الثَّلاثةِ في كلِّ ما تمنَعُهم عنه أعذارُهم مِنَ الجِهادِ وغَيرِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٥).

ويُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ١٩٩).

وقال البيضاوي: (وقيل: نَفيٌ للحَرَجِ عنهم في القُعودِ عن الجِهادِ، وهو لا يُلائِمُ ما قَبْلَه ولا ما بَعْدَه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥).

وممَّن اختار أنَّ الآيةَ في مُؤاكَلةِ أصحابِ الأعذارِ المذكورينَ لِغَيرِهم مِنَ الأصِحَّاءِ: جلال الدين المحلي، والبقاعي، والعليمي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٥)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٥).

وقيل: المرادُ أنَّ الحَرَجَ عنهم مرفوعٌ في كُلِّ ما يَضطَرُّهم إليه العُذرُ، وتَقتَضي نيَّتُهم الإتيانَ فيه بالأكمَلِ، ويَقتَضي العُذرُ أن يَقَع منهم الأنقَصُ؛ فالحَرَجُ مَرفوعٌ عنهم في هذا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطية، وابن العربي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٢٩٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٠٨). =

﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾.

أي: وليس عليكم -أيُّها المُسلِمونَ- إثمٌ في الأكلِ مِن بُيوتِكم وبُيوتِ أولادِكم وعَبيدِكم، أو في تناوُلِكم الطَّعامَ بمُفرَدِكم دونَ بقيَّةِ أهلِ بَيتِكم[1].

---

= قال ابنُ العربي: (إنَّ اللهَ رَفَع الحَرَجَ عن الأعمى فيما يتعَلَّقُ بالتَّكليفِ الذي يُشتَرَطُ فيه البَصَرُ، وعن الأعرَجِ فيما يُشتَرَطُ في التَّكليفِ به المَشيُ، وما يَتعذَّرُ مِن الأفعالِ مع وُجودِ الحَرَجِ، وعن المريضِ فيما يتعَلَّقُ بالتَّكليفِ الذي يؤثِّرُ المرَضُ في إسقاطِه؛ كالصَّومِ، وشُروطِ الصَّلاةِ، وأركانِها، والجِهادِ، ونَحوِ ذلك). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١، ٣٧٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

قال الشوكاني: (الحاصِلُ أنَّ رَفعَ الحَرَجِ عن الأعمى والأعرَجِ والمَريضِ: إن كان باعتِبارِ مُؤاكَلةِ الأصِحَّاءِ، أو دُخولِ بُيوتِهم؛ فيَكونُ ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ مُتَّصِلًا بما قَبْلَه، وإن كان رَفعُ الحَرَجِ عن أولئك باعتِبارِ التَّكاليفِ التي يُشتَرَطُ فيها وُجودُ البصَرِ، وعَدَمُ العَرَجِ، وعَدَمُ المرَضِ؛ فقَولُه: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ ابتِداءُ كَلامٍ غَيرُ مُتَّصِلٍ بما قَبْلَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢).

وقال ابن العربي: (وأمَّا مالُ العبدِ فيدخُلُ في قولِه: ﴿بُيُوتِكُمۡ﴾؛ لأنَّ العبدَ ومالَه مِلكٌ للسَّيِّدِ... كما بيَّنَّا أنَّ بيتَ الابنِ يدخُلُ فيه؛ فبيتُ العبدِ أَولى وأحرى بإجماعٍ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٢٤).

وقال ابنُ كثير: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ إنَّما ذكَرَ هذا وهو معلومٌ؛ ليعطِفَ عليه غيرَه في اللَّفظِ، وليستأديَه ما بعْدَه في الحُكمِ. وتضمَّنَ هذا بُيوتَ الأبناءِ؛ لأنَّه لم ينُصَّ عليهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٥).

وقال السعدي: (﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ أي: حَرَجٌ ﴿أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ أي: بُيوتِ أولادِكم، ... وليس المرادُ مِن قَولِه: ﴿مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ بيتَ الإنسانِ نفْسِه؛ فإنَّ هذا مِن بابِ تَحصيلِ الحاصِلِ، الذي يُنَزَّهُ عنه كلامُ اللهِ تعالى، ولأنَّه نَفى الحَرَجَ عمَّا يُظَنُّ أو يُتوهَّمُ فيه الإثمُ مِن هؤلاءِ المذكورينَ، وأمَّا بَيتُ الإنسانِ نفْسِه فليس فيه أدنى توَهُّمٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بأكلِ الإنسانِ مِن بيتِه الأكلُ غيرُ المُعتادِ، أي: أن يأكُلَ أكلًا لا يُشارِكُه فيه بقيَّةُ أهلِه، كأنْ يأكُلَ الرجُلُ وزَوجُه غائبةٌ، أو أن تأكُلَ هي وزوجُها غائِبٌ؛ فهذه أثَرَةٌ =

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجُلُ مِن كَسْبِه، وإنَّ ولَدَه مِن كَسْبِه[1]))[2].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ رجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ لي مالًا وولدًا، وإنَّ أبي يريدُ أن يجتاحَ[3] مالي، فقال: أنت ومالُك لأبيك))[4].

---

= مُرَخَّصٌ فيها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

وقال ابنُ عثيمين: (لا مانِعَ مِن أن يُرادَ بها بَيتُه الحَقيقيُّ وبَيتُ وَلَدِه. فإن قال قائِلٌ: أيُّ فائدةٍ في نَفيِ الحَرَجِ عن أكْلِه مِن بَيتِه؟!

قُلْنا: لأجْلِ ما ذُكِرَ في آخِرِ الآيةِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١]، يعني: ليس عليك جُناحٌ أن تأكُلَ مِن بَيتِك، سواءٌ أكَلْتَ أنت وأهلُكَ، أو أكلتُم مُتفَرِّقينَ، وإن كان الأفضَلُ الاجتِماعَ على الأكْلِ...، لكِنْ مع ذلك لا جُناحَ، يعني: ليس على الإنسانِ جُناحٌ أنَّه يأكُلُ فيتغَذَّى وَحْدَه وعيالُه وَحْدَهم، أو يتغَذَّى وَحْدَه وزوجتُه وَحْدَها، أو ما أشبَهَ ذلك، ولا بأسَ أيضًا أن يأكُلوا جميعًا، لا بأسَ بهذا وبهذا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٠٩).

(١) وإنَّ وَلَدَه مِن كَسْبِه: الكَسْبُ: الطَّلَبُ والسَّعيُ في طَلَبِ الرِّزقِ والمَعيشةِ، وإنَّما جُعِلَ الوَلَدُ كَسْبًا؛ لأنَّ الوالِدَ طَلَبَه وسعَى في تحصيلِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٧١).

(٢) أخرجه من طرقٍ أبو داود (٣٥٢٨)، النسائي (٤٤٥٢)، وابن ماجه (٢١٣٧)، وأحمد (٢٥٨٤٥) واللفظ له.

أخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (٤٢٦٠)، وصحَّحه ابن حزم في ((المحلى)) (٨/ ١٠٢)، وابن الملقِّن في ((البدر المنير)) (٨/ ٣٠٨)، وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٤١٩): (له طُرُقٌ متعددةٌ، بعضُها على شرط الصحيحين). وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٣٧).

(٣) أن يَجتاحَ مالي: أي: يَستأصِلَه ويأتيَ عليه أخْذًا وإنفاقًا؛ مِنَ الجائِحةِ: وهي الآفةُ التي تُهلِكُ الثِّمارَ والأموالَ وتَستأصِلُها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣١١).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٢٩١)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٦٧٢٨) واللفظ لهما، والطحاوي في ((شرح معاني الآثار)) (٦١٥٠).

صحَّحه ابنُ حزم في ((المحلى)) (٨/ ١٠٦)، وابن القطان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ١٠٢)، =

﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾.

أي: وليس عليكم -أيُّها المُسلِمونَ- إثمٌ في أكلِكم مِن بُيوتِ آبائِكم أو بُيوتِ أمَّهاتِكم، أو بُيوتِ إخوانِكم أو بُيوتِ أخواتِكم، أو بُيوتِ أعمامِكم أو بُيوتِ عَمَّاتِكم، أو بُيوتِ أخوالِكم أو بُيوتِ خالاتِكم[1].

---

= وابنُ القيم في ((الصواعق المرسلة)) (٢/ ٥٨٤)، وصحَّح إسنادَه ابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٧/ ٦٦٥)، والبوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٢/ ٢٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١، ٣٧٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

قال ابنُ عاشور: (المقصودُ بالأكلِ هنا: الأكلُ بدونِ دَعوةٍ، وذلك إذا كان الطَّعامُ مُحضَّرًا دونَ المُختَزَن). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

وقال البِقاعي: (﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ مِن الأبَوَينِ، أو الأبِ أو الأمِّ، بالنَّسَبِ أو الرَّضاعِ؛ فإنَّهم من أولى من رضِيَ بذلك بعد الوالِدَينِ؛ لأنَّهم أشقَّاؤكم، وهم أولياءُ بُيوتِهم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣١٦).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ يَشملُ الأبَ الأدنى والأعلى؛ فإنَّ الجَدَّ أبٌ... قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ يَشملُ الأُمَّ الدُّنيا التي وَلَدت الإنسانَ، والأُمَّ العُليا التي هي الجَدَّةُ... قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾ الأشِقَّاءِ، أو لأبٍ، أو لأمٍّ. قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ﴾ لكِنْ بشَرطِ ألَّا تكونَ ذاتَ زَوجٍ؛ فإنْ كانت ذاتَ زَوجٍ والمالُ له لم يكُنْ بَيتًا لأُختي، بل لِزَوجِها، لكِنْ إذا كانت الأُختُ لها بَيتٌ فإنَّه لا بأسَ أن يأكُلَ الإنسانُ من هذا البَيتِ. قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ﴾ يُقالُ في عَمَّاتِكم مِثلُ ما قيل في أخَواتِكم، يعني: ما لم تكُنِ العَمَّةُ ذاتَ زَوجٍ، فلا يأكُلُ الإنسانُ مِن بَيتِ زَوجِها؛ لأنَّه له، وليس لها. قَولُه: ﴿أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ بالنِّسبةِ للأعمامِ والأخوالِ والخالاتِ يَشمَلُ الأدنى مِن هؤلاء والأعلى؛ فالأدنى أخو أبيك بالنِّسبةِ للعَمِّ، والأعلى أخو جَدِّك وإنْ علا، وبالنِّسبةِ للخالِ الأدنى أخو أمِّك، والأعلى أخو جَدِّتِك وإنْ عَلا؛ فإنَّه خالٌ). ((تفسير =

﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾.

أي: وليس عليكم إثمٌ في أكلِكم مِن البُيوتِ التي مفاتيحُها بأيديكم، فوُكِّلتُم بحِفظِها، وأُذِنَ لكم بالتصَرُّفِ فيها[1].

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

أي: وليس عليكم إثمٌ في أكلِكم مِن بُيوتِ أصدقائِكم[2].

---

= ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤١٠، ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١، ٣٧٣)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/ ٢٥٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٢).

قال ابن جُزي: (﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ يعني: الوكَلاءَ والأُجراءَ والعبيدَ الذين يُمسِكونَ مفاتِحَ مخازنِ أموالِ ساداتِهم، فأباح لهم الأكلَ منها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٦). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢).

وقال ابن عاشور: (يأكُلُ كُلٌّ منهم ممَّا تحتَ يَدِه بدونِ إذنٍ، ولا يَتجاوَز شِبَعَ بطنِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧١، ٣٧٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٢، ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٢).

قال ابنُ جرير: (إذا أذِنوا لكم في ذلك، عندَ مغيبِهم ومَشهَدِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧٣).

وقال ابنُ كثير: (فلا جُناحَ عليكم في الأكلِ منها، إذا عَلِمتُم أنَّ ذلك لا يشُقُّ عليهم، ولا يَكرَهونَ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٦).

وقال السعدي: (وهذا الحَرَجُ المَنفيُّ عن الأكلِ مِن هذه البُيوتِ، كُلُّ ذلك إذا كان بدونِ إذنٍ، والحِكمةُ فيه معلومةٌ مِنَ السِّياقِ؛ فإنَّ هؤلاء المُسَمَّينَ قد جرت العادةُ والعُرفُ بالمُسامَحةِ في الأكلِ منها؛ لأجْلِ القَرابةِ القَريبةِ، أو التصَرُّفِ التَّامِّ، أو الصَّداقةِ، فلو قُدِّرَ في أحدٍ مِن هؤلاء عَدَمُ المسامَحةِ، والشُّحُّ في الأكلِ المذكورِ: لم يَجُزِ الأكلُ، ولم يرتَفِعِ الحَرَجُ؛ نظَرًا للحِكمةِ والمَعنى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾.

أي: ليس عليكم إثمٌ في الأكلِ في تلك البُيوتِ المذكورةِ سواءٌ كنتُم مُجتَمِعينَ على الطَّعامِ أم متفرِّقينَ يأكُلُ كلٌّ منكم بمُفرَدِه[1].

﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾.

أي: فإذا دَخلتُم -أيُّها المُسلِمونَ- بُيوتَكم أو بُيوتَ غَيرِكم[2]، فلْيُسلِّمْ بعضُكم على بَعضٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

قال ابن عطية: (وكان بَعضُ العَرَبِ إذا كان له ضَيفٌ، لا يأكُلُ إلَّا أن يأكُلَ مع ضيفِه، فنَزَلت هذه الآيةُ مُبَيِّنةً سُنَّةَ الأكلِ، ومُذهِبةً كُلَّ ما خالفَها مِن سُنَّةِ العَرَبِ، ومُبيحةً مِن أكلِ المنفَرِدِ ما كان عند العَرَبِ مُحَرَّمًا؛ نَحَتْ به نحوَ كَرَمِ الخُلُقِ، فأفرَطَت في إلزامِه، وإنَّ إحضارَ الأكيلِ لحَسَنٌ، ولكِنْ بألَّا يَحرُمَ الانفِرادُ). ((تفسير ابن عطية)) ((٤/ ١٩٦)).

(٢) مِن المفسِّرين مَن أدخلَ في عمومِ ذلك المساجِدَ. ومنهم: ابنُ جرير، وابن العربي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٣).

قال ابن العربي: (أي: ليسَلِّمْ بعضُكم على بعضٍ، وأطلق القولَ؛ لأنَّه قد بيَّن الحُكمَ في بُيوتِ الغيرِ؛ ليَدخُلَ تحت هذا العمومِ كُلُّ بيتٍ كان للغيرِ أو لنفْسِه... فإذا دخَل بيتًا لغَيرِه استأذَن كما تقدَّم، وإن دخَل بيتًا لنفْسِه... إذا كان فيه أهلُه وعيالُه وخَدَمُه، فلْيَقُلْ: السلامُ عليكم؛ فإنَّهم أهلٌ للتحيَّةِ منه... والذي أختارُه إذا كان البيتُ فارغًا أنَّه لا يلزَمُ السَّلامُ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٢٧).

قال السعدي: (﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا﴾ نكرةٌ في سِياقِ الشَّرطِ؛ يشمَلُ بيتَ الإنسانِ وبيتَ غَيرِه، سواءٌ كان في البيتِ ساكنٌ أم لا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

وقال ابنُ حجرٍ: (ويدخُلُ في عُمومِ إفشاءِ السَّلامِ: السَّلامُ على النفْسِ لِمنْ دخَل مكانًا ليس =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رجُلًا سأل رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الإسلامِ خَيرٌ؟ قال: ((تُطعِمُ الطَّعامَ، وتَقرأُ السَّلامَ على مَن عَرَفتَ ومَن لم تَعرِفْ))(١).

﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾.

أي: لِيُحَيِّ بَعضُكم بَعضًا -أيُّها المُسلِمونَ- بالسَّلامِ تحيةً شرَعَها اللهُ لكم كثيرةَ الخيراتِ والبَرَكاتِ، عظيمةَ الثَّوابِ والحَسَناتِ، جميلةً في ألفاظِها، حَسَنةً في معانيها، تجلِبُ المحبَّةَ والمودَّةَ، وتَطِيبُ بها نفْسُ سامِعيها(٢).

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((خلَقَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ آدمَ على صورتِه، طولُه ستُّونَ ذِراعًا، فلمَّا خلَقَه قال: اذهَبْ فسلِّمْ على أولئِك النَّفرِ -وَهم نفَرٌ منَ الملائِكةِ جلوسٌ- فاستَمِعْ ما يُجيبونَك؛ فإنَّها تحيَّتُك، وتحيَّةُ ذرِّيَّتِك. قال: فذَهبَ فقال: السَّلامُ عليكم. فقالوا: السَّلامُ عليكَ

---

= فيه أحَدٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الآيةَ. وأخرَج البخاريُّ في الأدَبِ المُفرَدِ، وابنُ أبي شيبةَ بسَنَدٍ حَسَنٍ، عن ابنِ عُمَرَ: «فيُستحَبُّ إذا لم يكُنْ أحَدٌ في البيتِ أن يقولَ: السَّلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصَّالحينَ»، وأخرج الطبريُّ عن ابنِ عباسٍ، ومِن طريقِ كُلٍّ مِن عَلْقَمةَ وعَطاءٍ ومُجاهِدٍ، نحوَه). ((فتح الباري)) (١١/ ٢٠).

(١) رواه البخاري (٢٨)، ومسلم (٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٤).

قال ابنُ عاشور: (هي مِن جوامِعِ الكَلِمِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن التحيَّةِ تأنيسُ الدَّاخِلِ بتأمينِه إن كان لا يَعرِفُه، وباللُّطفِ له إن كان معروفًا. ولفظُ «السَّلام» يجمَعُ المعنيينِ؛ لأنَّه مشتَقٌّ مِن السَّلامةِ، فهو دُعاءٌ بالسَّلامةِ، وتأمينٌ بالسَّلامِ؛ لأنَّه إذا دعا له بالسَّلامةِ فهو مسالِمٌ له، فكان الخَبَرُ كنايةً عن التأمينِ، وإذا تحقَّق الأمْرانِ حصَل خيرٌ كثيرٌ؛ لأنَّ السَّلامةَ لا تُجامِعُ شيئًا مِن الشَّرِّ في ذاتِ السَّالِمِ، والأمانَ لا يُجامِعُ شَيئًا مِن الشَّرِّ يأتي مِن قِبَلِ المعتدي، فكانت دُعاءً تُرجَى إجابتُه، وعهدًا بالأمنِ يَجِبُ الوفاءُ به). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٤).

ورحمةُ اللَّهِ. قال: فزادوهُ: ورحمةُ اللَّهِ...)) الحديثَ[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَدخُلونَ الجنَّةَ حتَّى تُؤمِنوا، ولا تُؤمِنوا حتَّى تَحابُّوا، أوَلا أدُلُّكُم علَى شَيءٍ إذا فعلتُموه تحابَبتُم؟ أفشُوا السَّلامَ بيْنَكُم))[٢].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

**مناسَبتُها لِمَا قَبلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالى ما في السُّورةِ الكريمةِ مِنَ الأحكامِ المُحكَمةِ، والشَّرائِعِ المُتقَنةِ المُبرَمةِ، نَبَّه تعالى على أنَّه يُبَيِّنُ لعبادِه الآياتِ بيانًا شافيًا؛ ليَتَدبَّروها ويتعَقَّلوها[٣].

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: كما بيَّن اللهُ لكم -أيُّها المُؤمِنونَ- الأحكامَ[٤] بهذا الوُضوحِ والتَّمامِ، كذلك يبَيِّنُ لكم جميعَ آياتِ القُرآنِ وشرائِعِ الإسلامِ، بيانًا تامًّا واضِحًا شافيًا؛

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤١).

(٢) رواه مسلم (٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨).

(٤) قال ابن جرير: (وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: هكذا يفصِّلُ الله لكم معالِمَ دينِكم فيُبيِّنُها لكم، كما فصَّل لكم في هذه الآيةِ ما أحلَّ لكم فيها، وعرَّفكم سبيلَ الدخولِ على مَن تدخلونَ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٤).

وقال ابن عطية: (والكافُ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ كافُ تشبيهٍ، وذلك إشارةٌ إلى هذه السُّننِ، أي: كهذا الذي وصَف يَطَّرِدُ تبيينُ الآياتِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٧).

وقال الشوكاني: (والإشارَةُ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ إلى مصدرِ الفعلِ الَّذي بعْدَه، كما في سائِرِ المواضعِ في الكتابِ العزيزِ، أي: مِثْلُ ذلك التَّبيينِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لكم الآياتِ الدَّالَّةَ على ما شَرَعه لكم مِن الأحكامِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠).

لِتَفهموها وتتدبَّروها، وتَعمَلوا بها[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ تفريعٌ على الإذنِ لهم في الأكلِ مِن هذه البُيوتِ، بأن ذكَّرَهم بأدَبِ الدُّخولِ المتقدِّمِ في قَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧]؛ لئلَّا يجعَلوا القَرابةَ والصَّداقةَ والمُخالَطةَ مُبيحةً لإسقاطِ الآدابِ؛ فإنَّ واجِبَ المرءِ أن يلازِمَ الآدابَ مع القريبِ والبعيدِ، ولا يغُرَّنَّه قَولُ النَّاسِ: إذا استوى الحُبُّ سقَطَ الأدَبُ[٢]!

٢- قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فإنَّ مَعرفةَ أحكامِ اللهِ تعالى الشَّرعيَّةِ على وَجهِها تَزيدُ في العَقلِ، وينمو به اللُّبُّ؛ لِكَونِ معانيها أجَلَّ المعاني، وآدابُها أجَلَّ الآدابِ، ولأنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكلَّما استعمَل عقلَه للعَقلِ عن رَبِّه، وللتفكُّرِ في آياتِه التي دعاه إليها؛ زادَه مِن ذلك[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ فيه دليلٌ على قاعدةٍ عامَّةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

كُلِّيَّةٍ، وهي: أنَّ (العُرفَ والعادةَ مُخَصِّصٌ للألفاظِ، كتَخصيصِ اللَّفظِ للَّفظِ)؛ فإنَّ الأصلَ: أنَّ الإنسانَ مَمنوعٌ مِن تناوُلِ طَعامِ غَيرِه، مع أنَّ اللهَ أباح الأكلَ مِن بُيوتِ هؤلاء؛ لِلعُرفِ والعادةِ، فكُلُّ مسألةٍ تتوقَّفُ على الإذنِ مِن مالِكِ الشَّيءِ، إذا عُلِمَ إذنُه بالقَولِ أو العُرفِ، جاز الإقدامُ عليه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ بيانُ رحمةِ اللهِ سبحانه وتعالى، وسهولةِ هذه الشريعةِ في نَفيِ الحَرَجِ عمَّن يَستحِقُّه؛ ويَلحَقُ بذلك سائِرُ العاهاتِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ الأحكامُ تدورُ مع عِلَلِها، فإذا وُجِدَتِ العِلَّةُ في الحُكمِ ثَبَتَ، وإذا انتفتِ انتفَى الحُكمُ؛ لأنَّ نفيَ الحَرَجِ عن هؤلاء إنَّما كان لهذه العِلَّةِ التي فيهم، فإذا بَرِئَ المريضُ واستقامُ، ومشى الأعرجُ، ورَدَّ اللهُ البصرَ على الأعمى؛ انتفَى هذا الحُكمُ في حقِّهم، وثَبَتَ في حقِّهم ما يثبُتُ في حقِّ السَّالِمينَ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ...﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ جوازُ الأكلِ مِن بُيوتِ هؤلاء المذكورينَ -ما لم يُعلَمْ عدَمُ رضاهم- سواءٌ بإذنٍ أو بغيرِ إذنٍ[4]؛ إذْ لو كان بإذْنٍ ما كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال الشنقيطي: (ظاهِرُ القرآنِ أنَّ ذلك جائِزٌ مِن غيرِ إذْنٍ، وبعضُهم يقَيِّدُه بالإذنِ، وهذه المسألةُ ذاتُ طرفَينِ وواسطةٍ:

الطرَفُ الأول: أن يُعلَمَ أنَّهم راضون بالأكلِ، وهذا لا كلامَ في جوازه. =

لاختِصاصِ هؤلاء معنًى؛ لأنَّ الإذنَ يُبيحُ مِن جميعِ الأمكِنةِ، لكن بِشَرطِ ألَّا يُفْسِدَ ولا يَحْمِلَ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ المتصَرِّفَ في بيتِ الإنسانِ -كزَوجتِه، وأُختِه، ونَحوِهما- يجوزُ له الأكلُ عادةً، وإطعامُ السَّائِلِ المُعتاد[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ لم يذكُرْ بُيوتَ الأولادِ؛ اكتِفاءً بذِكرِ ﴿بُيُوتِكُمْ﴾؛ لأنَّ ولَدَ الرَّجُلِ بَعضُه، وحُكمُه حُكمُ نفْسِه، وبَيتُه بَيتُه[٣]، فبُيوتُ الأبناءِ داخلةٌ في بُيوتهم أنفسِهم؛ فاكتفَى بذِكْرِها دونَها، وإلَّا فبُيوتُهم أقربُ مِن بُيوتِ مَن ذُكِر في الآيةِ[٤].

---

= الطَّرفُ الثاني: أن يُعلَمَ عَدَمُ الرِّضا، وهذا لا يجوزُ معه الأكلُ بدون إذنٍ، والآيةُ خرجت مخرجَ الغالبِ؛ فإنَّ الغالِبَ في الأقارِبِ والأصدقاءِ الرِّضا والسَّماحُ.

والواسطة: أن يُجهَلَ حالُ القريبِ أو الصديقِ مِن جِهةِ الرضا وعَدَمِه، والأظهرُ الجوازُ؛ لإطلاقِ الآيةِ، ولأنَّ العادةَ جرت بالتسامُحِ في مثل ذلك). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٨٨).

قال ابن العربي: (وأما بيتُ الابنِ... كبَيتِ المرءِ نفْسِه... فيما كان غيرُ مُحرزٍ؛ فلا يَتبسَّط الأبُ على الابنِ في هَتكِ حِرزٍ وأخْذِ مالٍ؛ وإنَّما يأكُلُه مُسترسلًا فيما لم يقَعْ فيه حيازةٌ، ولكنْ بالمعروفِ، دُونَ فسادٍ ولا استِغنامٍ، وأمَّا بيتُ الأبِ للابنِ فمِثلُه، ولكنَّ تبسُّطَ الابنِ أقَلُّ مِن =

٧- قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ﴾ فيه أنَّ مالَ ابنِ الإنسانِ مالٌ له. وجْهُ الدلالةِ مِن الآيةِ: أنَّه لم يَذْكُرِ الأولادَ؛ فدلَّ على أنَّ المرادَ بالبُيوتِ بُيوتُكم وبُيوتُ أولادِكم، ولقولِه صَلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ أطيبَ ما أكلَ الرجُلُ مِن كَسْبِه، وإنَّ ولَدَه مِن كَسْبِه))[1]، وقولِه[2]: ((أنت ومالُك لأبيكَ))[3].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ﴾ احتَجَّ أبو حنيفةَ رحمه اللهُ بهذه الآيةِ على أنَّ مَن سرَقَ مِن ذي رَحِمٍ مَحرَمٍ، أنَّه لا يُقطَعُ؛ لإباحةِ الله تعالى بهذه الآيةِ الأكلَ مِن بُيوتِهم، ودُخولَها بغَيرِ إذنِهم؛ فلا يكونُ مالُه مُحرَزًا منهم[4].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ﴾ قد يَستَدِلُّ به من يُوجِبُ نفَقةَ الأقاربِ بَعضِهم على بَعضٍ، كما هو مذهبُ الإمامِ أبي حنيفةَ والإمامِ أحمَدَ بنِ حَنبلٍ،

---

= تبسُّطِ الأبِ، كما كان تبسُّطُ الزَّوجِ أقَلَّ مِن تبسُّطِ الزَّوجةِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٢٤).

(١) تقدم تخريجه (ص: ٤٨٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٣). ويُنظر أيضًا: ((شرح مختصر الطحاوي)) للجَصَّاص (٦/ ٢٦٦)، ((فتح القدير)) للكمال ابن الهُمام (٥/ ٣٨١).

في المشهورِ عنهما[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ عدَلَ الصَّديقَ هنا بالقَريبِ؛ تنبيهًا على شريفِ رُتبةِ الصَّداقةِ، ولَطيفِ سِرِّها، وخَفِيِّ أمرِها[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ للصَّداقةِ حقًّا، وهو كذلك، والسببُ: الصِّلةُ التي بيْنَك وبيْنَه[٣]، قال جَعفرُ بنُ محمَّدٍ: (مِن عِظَمِ حُرمةِ الصَّديقِ أن جعَلَه كالنفْسِ والأبِ ومَن معَه)[٤].

١٢- قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فيه رخصةٌ مِنَ اللَّهِ تعالَى في أنْ يأكلَ الرجُلُ وحْدَه، ومعَ الجماعةِ، وإنْ كان الأكلُ معَ الجماعةِ أفضَلَ وأبرَكَ[٥].

١٣- قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فيه إباحةُ اجتِماعِ الجَماعةِ على الأكلِ، وإن تفاوَتوا فيه[٦].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ وصَفَها بالبَرَكةِ والطِّيبِ؛ لأنَّها دَعوةُ مُؤمِنٍ لِمُؤمِنٍ، يُرجَى بها مِن اللهِ زيادةُ الخَيرِ، وطِيبُ الرِّزقِ[٧]، ولِما فيها مِن نيَّةِ المُسالَمةِ، وحُسنِ اللِّقاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٥).

ويُنظر في مذهب الحنفية: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (٣/ ٦٤)، وفي مذهب الحنابلة: ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤١٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٦).

(٦) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٨).

والمُخالطةِ، وذلك يُوفِّرُ خيرَ الأُخُوَّةِ الإسلاميَّةِ[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ جَعَلَهم سُبحانَه مِن «أنفُسِهم»؛ لأنَّ المؤمنَ للمُؤمِنِ كالبُنْيانِ، يَشُدُّ بعضُه بعضًا، فهو كقَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة: ١٢٨]، فالمعنى إذَنْ: سَلِّمُوا على مَن فيها؛ لأنَّكم وإيَّاهم نفْسٌ واحِدةٌ[٢]، فالمسلمون كأنَّهم شخصٌ واحدٌ، مِن تَوادُدِهم، وتراحمِهم، وتعاطفِهم[٣]. وقيل: عبَّر بـ ﴿أَنفُسِكُمْ﴾؛ ترغيبًا في السلامِ، والإحسانِ في الإكرامِ، ولتصلحَ العبارةُ لِما إذا لم يكنْ فيها أحدٌ، فيقالُ حينَئذٍ: (السلامُ علينا وعلى عبادِ الله الصالحينَ)[٤]، وذلك على أحدِ القولينِ. وقيل: قولُه: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: على أهْلِ البُيوتِ، وفي التَّعبيرِ عنهم بالأنفُسِ تَنبيهٌ على السِّرِّ الَّذي اقْتَضى إباحةَ الأكْلِ مِن هذه البُيوتِ المعدودةِ، وأنَّ ذلك إنَّما كان لأنَّها بالنِّسبةِ إلى الدَّاخلِ كبَيْتِ نفْسِه؛ لاتِّحادِ القرابةِ، فلْيَطِبْ نفْسًا بالبساطِ فيها[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فَضيلةُ السَّلامِ؛ فقد وَصَفَه اللهُ تعالى بثلاثةِ أوصافٍ: أنَّها تحيةٌ مِن عنده، وأنَّها مُباركةٌ، وطيِّبةٌ، وذلك مِن الآياتِ التي بيَّنَها الله تعالى للعبادِ وأوضحَها لهم؛ لِما في ذلك مِن جَلبِ المودَّةِ والمحبَّةِ والخيرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((حاشية ابن المنير على تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٠).

## بلاغةُ الآيةِ:

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ...﴾ فائدةُ الإخبارِ برَفعِ الجُناحِ عمَّن أكَلَ مِن بَيتِه: التَّوطِئةُ؛ لِيَبْنيَ عليه ما يَعطِفُه على جُملتِه مِن البُيوتِ الَّتي قُصِدَ إباحةُ الأكلِ منها؛ فإنَّه إذا عُلِمَ أنَّ الإنسانَ لا جُناحَ عليه أنْ يأكُلَ مِن بَيتِه، فكذلك لا جُناحَ عليه أنْ يأكُلَ مِن هذه البُيوتِ؛ لِيُشيرَ إلى أنَّ أموالَ هذه القرابةِ كَمالِ الإنسانِ؛ فيكونُ سُبحانه قد أدمَجَ في ذلك الحضَّ على صِلَةِ الأرحامِ، ومُعامَلَتِهم مُعامَلةَ الإنسانِ نفْسَه(١).

- وفي قولِه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أُعِيدَ حرفُ (لا) مع المعطوفِ على المَنْفيِّ قبْلَه؛ تأكيدًا لمعنى النَّفيِ، وهو استعمالٌ كثيرٌ(٢).

- قولُه: ﴿أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠١).

بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ فيه تَخصيصُ هؤلاء بالذِّكرِ؛ لاعتيادِهم التَّبسُّطَ فيما بيْنهم[1]، وقدَّمَ الأبَ؛ لأنَّه أجَلُّ، وهو حاكِمُ بَيتِه دائِمًا، والمالُ له[2].

- قولُه: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ فيه التَّعبيرُ عن الصَّديقِ بالإفرادِ، كما في قولِه: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١]؛ حيث أفرَدَ الصَّديقَ دونَ الشَّافعينَ؛ قِيلَ: وسِرُّ ذلك: التَّنبيهُ على قِلَّةِ الأصدقاءِ. ويَحتمِلُ في الآيتينِ -واللهُ أعلَمُ- أنْ يكونَ المُرادُ به الجمْعَ؛ فالصَّديقُ يقَعُ على الواحدِ وعلى الجمْعِ؛ ككلمةِ (العدوِّ)، كما في قولِه تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]، فالمعنى: (أو بيوتِ أصدقائِكم)، فالمرادُ به هنا جمعٌ؛ ليُناسبَ ما ذُكِر قبلَه مِن الجموعِ في قولِه: ﴿ءَابَآئِكُمْ﴾ و﴿أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ وغيرِ ذلك[3].

- قولُه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، مَسوقٌ لِبَيانِ حُكْمٍ آخَرَ مِن جنسِ ما بُيِّنَ قبْلَه[4].

- وأُعِيدَت جُملةُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ تأكيدًا للأُولى في قولِه: ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾؛ إذ الجُناحُ والحرَجُ كالمُترادفَينِ. وحَسُنَ هذا التَّأكيدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٦).

بعْدَما بيَّنَ الحالَ وصاحِبَها، وهو واوُ الجَماعةِ في قولِه: ﴿أَن تَأْكُلُوا مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾، ولأجْلِ كونِها تأكيدًا فُصِلَت بلا عطْفٍ[1].

- وقولُه: ﴿أَشْتَاتًا﴾ على القولِ بأنَّه في الأصْلِ مَصدرٌ؛ فيكونُ وصَفَ به مُبالَغةً[2].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ تكريرُه ثلاثًا؛ لِمَزيدِ التَّأكيدِ، وتَفخيمِ الأحكامِ المُختتَمةِ به. وفي تَعليلِ هذا التَّبيينِ بهذه الغايةِ القُصوى -﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾- بعْدَ تَذييلِ الأوَّلَينِ بـ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٨ و٥٩] بما يُوجِبُهما مِن الجَزالةِ: ما لا يَخْفى[3].

- وقدِ اشتمَلَتْ هذه الآيةُ الكريمةُ أيضًا على أنواعٍ مِن فُنونِ البلاغةِ والبديعِ؛ منها: صِحَّةُ التَّقسيمِ؛ وذلك لاستيعابِ الكلامِ جميعَ أقسامِ الأقاربِ القريبةِ، بحيث لم يُغادِرْ منها شيئًا. ومنها: التَّهذيبُ؛ وذلك في انتقالِ الكلامِ على مُقْتضى البلاغةِ في هذا المكانِ؛ فإنَّ مُقْتضى البلاغةِ تَقديمُ الأقربِ فالأقرَبِ كما جاء فيها. ومنها: حُسْنُ النَّسقِ؛ وذلك في اختيارِه (أو) لِعطْفِ الجُمَلِ، وهي تدُلُّ على الإباحةِ. ومنها: المُناسَبةُ؛ وذلك بمُناسَبةِ الألفاظِ بعْضِها ببَعضٍ في الزِّنَةِ، وهي واضحةٌ في الألفاظِ (آبائِكم- إخوانِكم- أعمامِكم- أخوالِكم). ومنها: المثَلُ؛ وذلك في قولِه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾، حيث خرَجَ مَخرَجَ المثَلِ السَّائرِ الَّذي يصِحُّ أنْ يُتمثَّلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٥).

به في كلِّ واقعةٍ تُشبِهُ واقعِتَه. ومنها: التَّذييلُ؛ فإنَّ الكلامَ الَّذي خرَجَ مَخرَجَ المثَلِ جاء تَذييلًا لمعنى الكلامِ المُتقدِّمِ؛ لِقَصْدِ تَوكيدِه وتَقريرِه[1].

- وقولُه: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ قولُه: ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أضافها اللهُ إليه؛ لأنَّه هو الذي شَرَعها وأمَرَ بها، يعني: هذه التحيَّةُ مِن عندِ الله، أو لأنَّه غايتُها، أي: الذي تَنتهي إليه هذه التحيَّةُ لِيُثيبَ عليها ويُجيبَها؛ لأنَّك تقول: السَّلامُ علينا، أو السَّلامُ عليكم؛ فهي تُطلَبُ منه، فهو غايتُها، أو هو مُشَرِّعُها[2].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٥٤- ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤١٧).

## الآيات (٦٢-٦٤)

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَسَلَّلُونَ﴾: أي: يَخرُجونَ مِن الجَماعةِ واحِدًا وَاحِدًا خُفْيَةً، والتَّسلُّلُ هو الخروجُ على خُفْيَةٍ، وأصلُه يدُلُّ على مَدِّ الشَّيءِ فِي رِفقٍ وخَفاءٍ[1].

﴿لِوَاذًا﴾: أي: مُستَتِرًا بعضُهم ببَعضٍ، وأصلُ (لوذ): يدُلُّ على إطافةِ الإنسانِ بالشَّيءِ مُستعيذًا به ومُتَستِّرًا[2].

﴿فِتْنَةٌ﴾: أي كُفرٌ وضلالةٌ، والفتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ، والابتلاءُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٢٩٥).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه تعالى: ﴿دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ﴾ يجوزُ أَنْ يكونَ المصدرُ ﴿دُعَآءَ﴾ مُضافًا لِمَفعولِه، أي: دعاءَكم الرَّسولَ، بمعنى: لا تنادُوه باسمِه ولا بكُنيتِه، بل نادُوه وخاطِبوه بالتوقيرِ: يا رسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مُضافًا للفاعِلِ، أي: لا تَجعَلوا دعاءَه إيَّاكم كدُعاءِ بعضِكم لبعضٍ؛ فتَتباطَؤُوا عنه كما يتباطَأُ بعضُكم عن بعضٍ إذا دعاه لأمرٍ، بل يجبُ عليكم المبادرةُ لأمرِه صلَّى الله عليه وسلَّم. وقيل غيرُ ذلك.

- قَولُه تعالى: ﴿لِوَاذًا﴾ فيه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّه مَنصوبٌ على المصدَرِ مِن معنى الفِعلِ الأوَّلِ، أي: يَتَسَلَّلون منكم تَسَلُّلًا، أو يُلاوِذون لِواذًا. والثَّاني: أنَّه مَصدرٌ في موضعِ الحالِ، أي: مُلاوِذين[1].

## المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما يَنبغي أن يكونَ عليه المؤمنونَ مع نبيِّهم صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: إنَّما المُؤمِنونَ حَقًّا هم الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وإذا كانوا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أمرٍ مُهِمٍّ جمَعَهم له، لم ينصَرِفْ أحَدٌ منهم حتى يستأذِنَه. إنَّ الذين يَستأذِنونَك -أيُّها النبيُّ- هم المؤمِنونَ حَقًّا، فإذا استأذَنَك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٣٠)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٤٦-٤٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٤١٥)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٨/ ٢٩٩).

هؤلاء المؤمِنونَ لِبَعضِ حاجتِهم، فَأْذَنْ لِمَن شِئتَ إن كان فيه حِكمةٌ ومَصلحةٌ، واطلُبْ لهم العَفوَ والمغفرةَ مِن الله؛ إنَّ اللهَ عظيمُ المغفرةِ، واسِعُ الرَّحمةِ.

ثمَّ يُوجِّهُهم إلى أدبٍ آخَرَ فيه مِن التوقيرِ والتعظيمِ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: لا تَجعَلوا -أيُّها المُؤمِنونَ- دُعاءَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيَّاكم كدُعاءِ بعضِكم لبَعضٍ؛ فتَتباطَؤُوا عنه كما يتباطَأُ بعضُكم عن بعضٍ إذا دعاه لأمرٍ، بل يجِبُ عليكم المبادرةُ لأمرِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ ولا تُنادوه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باسمِه مُجَرَّدًا كما يُنادي بَعضُكم بَعضًا باسمِه، ولكِنْ عَظِّموه ووَقِّروه، وقولوا: يا نبيَّ اللهِ، يا رَسولَ اللهِ.

ثمَّ يحذِّرُ الله تعالى المنافقينَ مِن سوءِ عاقبةِ أفعالِهم، فيقولُ: قد عَلِمَ اللهُ المنافِقينَ الذين يَخرُجونَ مِن الجماعةِ في خُفيةٍ مُستَتِرينَ، فليَحْذَرِ الذين يُعرِضونَ عن أمرِ رَسولِ اللهِ أن تَنزِلَ بهم فتنةٌ في الدُّنيا، أو يُصيبَهم عذابٌ شَديدٌ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى السورةَ بقولِه: لله وحْدَه مُلكُ ما في السَّمواتِ والأرضِ، قد عَلِمَ سُبحانَه كُلَّ شُؤونِكم، ويومَ يُرجَعُ العِبادُ إليه سُبحانَه، فيُخبِرُهم بما فعَلوا في الدُّنيا، ويُجازي كُلًّا بعَمَلِه، واللهُ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ، لا يَخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا جرى الكلامُ السَّابِقُ في شأنِ الاستِئذانِ للدُّخولِ، عقَّب ذلك بحُكمِ

الاستئذانِ للخُروجِ ومُفارقةِ المجامِعِ، فاعتُنِي من ذلك بالواجِبِ منه، وهو استِئذانُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُفارَقةِ مَجلِسِه، أو مُفارَقةِ جَمعٍ جُمِعَ عن إذْنِه لأمرٍ مُهِمٍّ؛ كالشُّورى، والقِتالِ، والاجتِماعِ للوعظِ، ونحوِ ذلك[1].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: إنَّما المُؤمِنونَ حَقَّ الإيمانِ، الكامِلونَ في إيمانِهم: هم الذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه ظاهِرًا وباطِنًا، إيمانًا صحيحًا صادِقًا، يتضَمَّنُ القَبولَ والإذعانَ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢١، ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٤).

قال القرطبي: («إنَّما» في هذه الآيةِ للحَصرِ، المعنى: لا يَتِمُّ ولا يَكمُلُ إيمانُ مَن آمَنَ باللهِ ورَسولِه إلَّا بأن يكونَ مِنَ الرَّسولِ سامِعًا غَيرَ مُعْنِتٍ؛ في أن يكونَ الرَّسولُ يُريدُ إكمالَ أمرٍ، فيُريدُ هو إفسادَه بزَوالِه في وقتِ الجَمْعِ، ونحوِ ذلك، وبَيَّنَ تعالى في أوَّلِ السُّورةِ أنَّه أنزل آياتٍ بَيِّناتٍ، وإنَّما النُّزولُ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فخَتَم السُّورةَ بتأكيدِ الأمرِ في مُتابعتِه عليه السَّلامُ؛ لِيُعلَمَ أنَّ أوامِرَه كأوامِرِ القُرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (المقصودُ: إظهارُ علامةِ المؤمِنينَ، وتَمييزُهم عن عَلامةِ المُنافِقينَ؛ فليس سياقُ الآيةِ لبَيانِ حقيقةِ الإيمانِ؛ لأنَّ للإيمانِ حَقيقةً مَعلومةً ليس استِئذانُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عند إرادةِ الذَّهابِ من أركانِها؛ فعُلِمَ أنْ ليس المقصودُ مِن هذا الحَصرِ سَلبَ الإيمانِ عن الذي يَنصَرِفُ دونَ إذنٍ مِن المؤمنِينَ الأحِقَّاءِ، لو وَقَع منه ذلك عن غيرِ قَصدِ الخَذْلِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو أذاهُ؛ إذ لا يَعْدو ذلك -لو فعَله أحَدُ المؤمِنينَ- عن أن يكونَ تَقصيرًا في الأدَبِ يَستَحِقُّ التَّأديبَ والتَّنبيهَ على تجنُّبِ ذلك؛ لأنَّه خَصلةٌ مِنَ النِّفاقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٦).

﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾.

أي: وإذا كانوا مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أمرٍ مُهِمٍّ يجمَعُهم؛ كالجِهادِ، أو التَّشاوُرِ في أمرٍ ما- لم يُفارِقوا الرَّسولَ وينصَرِفوا لحاجتِهم حتى يَطلُبوا منه الإذنَ[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: إنَّ الذين يَطلُبونَ منك -أيُّها النبيُّ- أن تأذَنَ لهم بالانصرافِ لِعُذرٍ: أولئك الذين يُؤمِنون باللهِ ورَسولِه حقًّا، وليسوا بمُنافِقين[2].

﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.

أي: فإذا طلَبَ المؤمِنونَ منك -أيُّها النبيُّ- أن تأذنَ لهم بالانصِرافِ لحاجتِهم إلى قَضاءِ بَعضِ أمورِهم؛ فأْذَنْ لِمَن تشاءُ منهم، وامنَعْ مَن تشاءُ إن كانت المصلحةُ تَقضي بعدَمِ ذَهابِه[3].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾.

أي: وادْعُ اللهَ -أيُّها النبيُّ- أن يغفِرَ لهؤلاء المُستأذِنينَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٥، ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٧)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ كثيرُ المَغفِرةِ والرَّحمةِ، يَغفِرُ لعبادِه ذُنوبَهم ويَرحَمُهم، ومِن رَحمتِه أنْ جوَّز للمَعذورينَ الاستِئذانَ[1].

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان الاجتِماعُ للرَّسولِ في الأُمورِ يقعُ بعْدَ دَعوتِه النَّاسَ للاجتماعِ، وقد أمَرهم اللهُ ألَّا يَنصَرِفوا عن مجامِعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا لعُذرٍ بعْدَ

---

= (ص: ٥٧٦).

قال البيضاوي: (﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ بعد الإذنِ؛ فإنَّ الاستئذانَ ولو لعُذرٍ قُصورٌ؛ لأنَّه تقديمٌ لأمرِ الدُّنيا على أمرِ الدِّينِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥).

وقال السعدي: (ومع هذا إذا استأذن وأُذِنَ له، بشَرطَيْهِ؛ أمرَ اللهُ رسولَه أن يستغفِرَ له؛ لِما عسى أن يكون مقصِّرًا في الاستئذانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦).

وقال ابنُ عثيمين: (هذا الاستِغفارُ لهم لِتَطيبَ قُلوبُهم إذا انصَرَفوا عن هذا الجَمعِ، وفاتَهم أجرُه، فاستغفَرَ لهم الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ قُلوبَهم تطيبُ بالانصرافِ، ولا يبقى في قلوبِهم حَرَجٌ وقَلَقٌ. هذا من جهةٍ.

ومِن جهةٍ أخرى: يَستغفِرُ لهم؛ لأنَّه قد يكونُ في استِئذانِهم هذا أمرٌ لا يُعذَرونَ فيه؛ هم ظَنُّوه عُذرًا فاستأذنوا مِن أجْلِه، وهو ليس بعُذرٍ عندَ الله، ويكونُ استغفارُك لهم ماحيًا لِما عسى أن يكونَ مِن التقصيرِ والتَّفريطِ في ذلك، واستغفارُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كأنْ يقولَ: انصَرِفوا، غفَرَ اللهُ لكم، أو: اللهُمَّ اغفِرْ لهم). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٧، ٤٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦).

إذنِه؛ أنبَأَهم بهذه الآيةِ وُجوبَ استِجابةِ دَعوةِ الرَّسولِ إذا دعاهم[١]، وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ.

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ هذه السُّورةَ العظيمةَ وما فيها مِن الآدابِ السَّاميةِ، خَتَمَها بأدبٍ اجتماعيٍّ لائقٍ برَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو احترامُه في الخِطابِ[٢].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَت الآيةُ السَّابِقةُ وُجوبَ الاستِئذانِ عندَ إرادةِ الانصِرافِ مِن مَجلِسِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بَيَّنَت هذه الآيةُ وُجوبَ تَلبيةِ دَعوتِه إذا دعا -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-، وفَضَحت حالةَ الذين يَتسَلَّلونَ غيرَ مُستأذِنينَ، وحَذَّرَت مِن فِعْلِهم، وأوعَدَت الوَعيدَ الشَّديدَ للمُخالِفينَ أمثالِهم[٣].

﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾.

أي: لا تَعتَقِدوا -أيُّها المُؤمِنونَ- أنَّ دَعوةَ الرَّسولِ لكم للاجتِماعِ غَيرُ واجِبةٍ، كما يدعو بعضُكم بعضًا؛ ولا تنادُوا الرَّسولَ بِقِلَّةِ احترامٍ وتوقيرٍ، كمناداتِه باسمِه مُجَرَّدًا، أو برَفعِ الصَّوتِ مِثلَما ينادي بعضُكم بعضًا؛ فإجابةُ الرَّسولِ لازِمةٌ، والتأدُّبُ معه واجِبٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: (( تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨، ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٦ - ٥٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٣ - ٤٣٥).

ممَّن اختار أنَّ معنى الآيةِ: لا تَدْعوه باسمِه، كما يدعو بعضُكم بعضًا، بل قولوا: يا رسولَ الله، يا نبيَّ الله. فعلى هذا: المصدرُ مضافٌ إلى المفعولِ، أي: دعاءَكم الرَّسولَ. ممَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ عطيةَ، والقرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن =

= سليمان)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٦).

قال الواحدي: (وهذا قولُ أكثرِ المفسِّرين، واختيارُ الفرَّاءِ، والزَّجَّاجِ). ((البسيط)) (١٦/ ٣٨٩).

ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٦٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٥٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عباس في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهد، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والحسن في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٥٤).

وممَّن اختار أنَّ معنَى الآيةِ: لا تجعلوا دُعاءَه -صلَّى الله عليه وسلَّم- لكم بمنزلةِ دُعاءِ بَعضِكم بَعضًا؛ إن شاء أجاب، وإن شاء تَرَك، بل إذا دعاكم لم يكُنْ لكم بُدٌّ مِن إجابتِه، ولم يَسَعْكم التخَلُّفُ عنها البتَّةَ. فعلى هذا: المصدرُ مُضافٌ إلى الفاعِلِ، أي: دُعاؤه إيَّاكم. ممَّن اختاره: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨).

وممَّن جمَع بينَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: البقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٣).

وقال ابنُ عثيمين: (يجوزُ أن نجعَلَها شامِلةً للمعنَيينِ؛ لأنَّنا أسلَفْنا قاعدةً في هذا، وهي: أنَّ الآيةَ إذا كانت تحتَمِلُ المعنيينِ بدونِ تناقُضٍ، فإنَّها تُحمَلُ عليهما جميعًا... فعليه نقولُ: إنَّ هذا مِن بابِ الأدَبِ في مخاطبةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والأدَبِ في إجابتِه؛ ففي مُخاطبتِه لا نجعَلُ مُخاطبتَه ودُعاءَنا إيَّاه كدُعاء غيرِه، وفي إجابتِه لا نجعَلُ دُعاءَه وطَلَبَه لأمرٍ مِن الأمورِ كطَلَبِ غَيرِه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٣).

وقال ابنُ عبَّاسٍ في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ قال: (دَعوةُ الرَّسولِ عليكم مُوجِبةٌ؛ فاحذَروها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٨).

وقال ابنُ كثير: (والقَولُ الثَّاني في ذلك أنَّ المعنى في: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ أي: لا تعتَقِدوا أنَّ دُعاءَه على غيرِه كدُعاءِ غَيرِه؛ فإنَّ دُعاءَه مُستجابٌ؛ فاحذَروا أن يَدعوَ عليكم فتَهلِكوا. حكاه ابنُ أبي حاتمٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، والحَسَنِ البَصريِّ، وعطيَّةَ العَوْفيِّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٩).

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، وأبو القاسم نجم الدين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٩)، ((إيجاز البيان)) لنجم الدين (٢/ ٦٠٧). =

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [التوبة: ١٢٠].

﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يعلَمُ المُنافِقينَ الذين ينصَرِفونَ خُفيةً عن اجتِماعِ المُسلِمينَ، فيَخرُجونَ بلا استِئذانٍ، مُستَتِرينَ؛ مخافةَ أن يراهم أحدٌ، وسيُجازيهم اللهُ على ذلك[1].

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾.

أي: فلْيحذَرِ الذين يُعرِضونَ عن أمرِ الرَّسولِ أن تُصيبَهم فِتنةٌ في الدُّنيا[2].

---

= وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، والشعبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٥٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٣١).

قال الشنقيطي: (هذا الوَجهُ الأخيرُ يأباه ظاهِرُ القُرآنِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ يدُلُّ على خِلافِه، ولو أراد دُعاءَ بَعضِهم على بَعضٍ، لقال: لا تجعَلوا دُعاءَ الرَّسولِ عليكم كدُعاءِ بَعضِكم على بَعضٍ؛ فدُعاءُ بَعضِهم بعضًا، ودُعاءُ بَعضِهم على بَعضٍ: مُتغايِرانِ، كما لا يخفى). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٥٨).

وممَّن استبعد هذا الوَجهَ الأخيرَ أيضًا: ابنُ عطية، وابنُ الفرس، وابن جُزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١،٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨٩، ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٨ - ٥٦٠)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٨). =

= قال الشنقيطي: (الضَّميرُ في قَولِه: ﴿عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ راجِعٌ إلى الرَّسولِ، أو إلى اللهِ، والمعنى واحِدٌ؛ لأنَّ الأمرَ مِنَ اللهِ، والرَّسولُ مُبلِّغٌ عنه). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٥٨).

وقال ابن عطية: (قوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ معناه: يقعُ خلافُهم بعْدَ أمرِه، وهذا كما تقولُ: كان المطرُ عن ريحٍ، و«عن» هي لِما عدا الشَّيءَ، والفِتنةُ في هذا الموضِعِ: الإخبارُ بالرَّزايا في الدُّنيا، وبالعذابِ الأليمِ في الآخرةِ، ولا بدَّ للمُنافقينَ مِن أحدِ هذَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨).

وقال ابن تيميَّةَ: (قال الإمامُ أحمد رحمه الله تعالى: أيُّ فتنةٍ هي؟ إنما هي الكُفرُ، وكذلك ألبس اللهُ سبحانه الذِّلَّةَ والصَّغارَ لِمن خالفَ أمْرَه). ((مجموع الفتاوى)) (١٩/ ١٠٤).

قال الماوَرْدي: (﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ فيها ثلاثةُ تأويلاتٍ؛ أحَدُها: كُفرٌ. قاله السُّدِّيُّ. الثاني: عُقوبةٌ. قاله ابنُ كامل. الثَّالِثُ: بَلِيَّةٌ تُظهِرُ ما في قُلوبِهم مِنَ النِّفاقِ. حكاه ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٢٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالفِتنةِ هنا الكُفرُ والشِّركُ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٨).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: السُّدِّيُّ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ، وعبدُ الرحمن بنُ زيدِ بنِ أَسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٥٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٢٩).

قال ابنُ كثيرٍ: (﴿فِتْنَةٌ﴾ أي: في قُلوبِهم؛ مِن كُفرٍ، أو نِفاقٍ، أو بِدعةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠).

وممَّن اختار القَولَ الثَّانيَ، وأنَّ المرادَ بالفِتنةِ: العُقوبةُ: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٧).

وقال الشنقيطي: (الفِتنةُ تُطلَقُ على الاختِبارِ، وليست مُرادةً هنا، وتُطلَقُ على نتيجةِ الاختبارِ إذا كانت سيِّئةً، والمرادُ بها هنا العِقابُ؛ كالزَّلازِلِ، والوُلاةِ الجائِرينَ، أو الإضلالِ، وهو أن يَختِمَ اللهُ على قُلوبِهم، وهذا أقرَبُ). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٢٠٨). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٦٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالفِتنةِ هنا: البَلِيَّةُ والمِحْنةُ في الدُّنيا: ابنُ أبي زمنين، والواحدي، والزمخشري، وابن عطية، والبيضاوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥١)، ((الوجيز)) للواحدي =

كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((جُعِلَ الذِّلَّةُ والصَّغارُ على من خالفَ أمري))(١).

﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

= (ص: ٧٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٥٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤١٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِنَ السلَفِ: عطاءٌ، وجعفر بن محمد، والحسن، ومجاهد، والكلبي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٠).

قال أبو حيان: (والفِتنةُ: القَتلُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ أيضًا. أو بلاءٌ، قاله مجاهِدٌ. أو كُفرٌ، قاله السُّدِّيُّ ومقاتل. أو إسباغُ النِّعَمِ استِدراجًا، قاله الجرَّاحُ. أو قَسوةُ القَلبِ عن مَعرفةِ المعروفِ والمُنكَرِ، قاله الجُنَيد. أو طَبعٌ على القُلوبِ، قاله بعضُهم. وهذه الأقوالُ خرَجَت مَخرجَ التَّمثيلِ لا الحَصرِ، وهي في الدُّنيا). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٦).

(١) أخرجه البخاري مُعَلَّقًا بصيغةِ التَّضعيفِ قبْلَ حديث (٢٩١٤)، وأخرجه أحمدُ موصولاً (٥١١٤).

صحَّح إسنادَه الذهبيُّ في ((سير أعلام النبلاء)) (١٥/ ٥٠٩)، وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٧٠): (فيه عبدُ الرحمنِ بنُ ثابتِ بنِ ثَوْبانَ، وبقيَّةُ رجالِه ثِقاتٌ)، وذكر ابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٣/ ٤٤٥) أنَّ فيه عبدَ الرحمنِ بنَ ثابتٍ: مختلَفٌ في الاحتجاجِ به، وله شاهِدٌ بإسناد حسنٍ، لكنَّه مُرسَل. وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٧/ ١٢٢)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (١/ ٢٠٠)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ ((صحيح الجامع)) (٢٨٣١).

أي: أو[١] يُصيبَهم عذابٌ مُوجِعٌ؛ لِمُخالفتِهم أمرَ الرَّسولِ[٢].

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ جاءت بعدَ قَولِه تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ كالدَّليلِ على أنَّ ما هدَّد اللهُ به مِن الفِتنةِ أو العذابِ الأليمِ: أمرٌ لا يُعجِزُ اللهَ؛ لأنَّ اللهَ

---

(١) قال ابنُ عثيمين: (قوله: ﴿ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ ﴾ ﴿أَوْ﴾ مانعةُ اجتماعٍ، أو مانِعةُ خُلُوٍّ؟ يعني: هل المعنى: إمَّا هذا أو هذا ولا يجتمعانِ، فتكون مانعةَ اجتماعٍ، مثل: تزوَّجْ هندًا أو أختَها؟ هذه مانعةُ اجتماعٍ؛ لأنَّهما لا يمكِنُ أن يجتَمِعا، فهل نقولُ: إنَّ ﴿أَوْ﴾ هذه مانعةُ اجتماعٍ، أو مانعةُ خُلوٍّ؛ بمعنى: أنَّه لا يخلو من أحدِهما، وربما يجتَمِعان؟

الجوابُ: مانِعةُ خُلوٍّ؛ بمعنى: أنَّه لا يخلو مِن أحدِ هذَينِ الأمْرَينِ المتوقَّعينِ، أو منهما جميعًا، لا سيما إذا قُلْنا بأنَّ الفتنةَ: الشِّركُ؛ فإنَّ العذابَ الأليمَ ملازمٌ لها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٨، ٤٣٩). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١١).

قيل: المرادُ بالعذابِ هنا: عذابُ الدنيا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن كثير: (﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: في الدُّنيا؛ بقَتلٍ، أو حَدٍّ، أو حبسٍ، أو نحو ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠).

وقيل: المرادُ به: عذابُ الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطية، والبِقاعي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٨).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿أَلِيمٌ ﴾ بمعنى: مُؤلِم، ولم يقيِّدْه اللهُ تعالى بالآخرةِ؛ فقد يكونُ في الدنيا، وقد يكونُ في الآخرةِ، وقد يكونُ فيهما جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٩).

تعالى له مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ، ومَن كان له مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ فإنَّه لا يَعجِزُ عن تنفيذِ ما هدَّد به وإيقاعِه[١].

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ألا إنَّ للهِ مُلكَ جَميعِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، وكلُّهم خَلْقُه وعبيدُه وتحتَ تدبيرِه؛ فلا تنبغي لكم مَعصيتُه[٢].

﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يعلَمُ ما أنتم عليه -أيُّها النَّاسُ- في سِرِّكم وعَلانيتِكم؛ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وطاعةٍ ومَعصيةٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ ﴾.

أي: ويَومَ[٤] يُرجَعُ النَّاسُ إلى اللهِ فيُخبِرُهم بجَميعِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٠، ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٩).

(٤) كلمةُ ﴿ وَيَوْمَ ﴾ معطوفةٌ على ﴿ مَآ ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ فيكونُ المعنى: ويعلمُ يومَ يُرجَعونَ إليه. وممَّن قال بهذا: أبو حيان، والشوكاني، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٦١)، ((تفسير سورة النور)) للشنقيطي (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن =

خَيرٍ وشَرٍّ، ويُجازيهم عليه[1].

كما قال تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بجَميعِ الأعمالِ والأحوالِ والنيَّاتِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

---

= عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٣).

قال الشنقيطي: (الصَّحيحُ أنَّ كَلِمةَ «يومَ» معطوفةٌ على ﴿مَآ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، فهو مفعولٌ به، لا مَفعولٌ فيه، أي: هو عالمٌ بحالِكم اليَومَ، وما ستُلاقونَ في يومِ الجزاءِ الذي تُرجَعونَ فيه إليه). ((تفسير سورة النور)) (ص: ٢٠٩).

وقال الشهاب الخفاجي: (ويجوزُ تعَلُّقُه بمحذوفٍ يُعطَفُ على ما قبلَه، أي: وسيُنَبِّئُهم يومَ يُرجَعونَ إليه، كما في الكشَّافِ). ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٤/ ٤٠٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦١).

وقال ابن عثيمين: (الله تعالى يَعلمُ متى يرجعون؛ سواءٌ كان رجوعًا عامًّا كيومِ القيامةِ، أم خاصًّا كموتِ الإنسانِ؛ هذا أيضًا مرجعُه إلى الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٦١).

قال ابن عثيمين: (فائدةُ الإنباءِ هو الإقرارُ، يعني: يقرِّرُهم حتى يكونَ جزاؤُهم على وجهِ العدلِ الذي أقرُّوا به هم، فلا يقولونَ: إنَّنا ظُلِمنا، بل الله يقولُ: عَمِلتُم كذا وعمِلتُم كذا وعمِلتُم كذا، حتى يُقَرِّروا بذلك، ثم بعْدَ هذا الإقرارِ يترتَّبُ الجزاءُ فضلًا أو عدلًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٣).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١ - قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ وكذلك ينبغي أن يكونَ الناسُ مع أئمتِهم ومقدَّميهم في الدينِ والعلمِ، يظاهرونهم ولا يخذلونهم في نازلةٍ من النوازلِ، ولا يتفرَّقونَ عنهم، والأمرُ في الإذنِ مفوَّضٌ إلى الإمامِ: إن شاء أذِنَ، وإن شاء لم يأذَنْ، على حسَبِ ما اقتضاه رأيُه[1]، ففي الآيةِ بَيانُ حِفظِ الأدَبِ، بأنَّ الإمامَ إذا جمعَ النَّاسَ لتدبيرِ أمرٍ مِن أمورِ المُسلِمين فينبغي ألَّا يَرجِعوا إلَّا بإذنِه، وكذلك إذا خرجوا إلى الغَزوِ، لا ينبغي لأحدٍ أن يرجِعَ إلَّا بإذنِه، أو يخالِفَ أمرَ السَّرِيَّةِ[2].

٢ - قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ مِن نظامِ الجَماعاتِ في مصالحِ الأمَّةِ؛ لأنَّ مِن السُّنةِ أن يكونَ لكُلِّ اجتِماعٍ إمامٌ ورئيسٌ يديرُ أمرَ ذلك الاجتِماعِ، وقد أشارت مشروعيَّةُ الإمامةِ إلى ذلك النِّظامِ، ومِن السُّنةِ ألَّا يجتَمِعَ جماعةٌ إلَّا أمَّروا عليهم أميرًا؛ فالذي يترأَّسُ الجَمعَ هو قائِمٌ مقامَ وليِّ أمرِ المُسلِمين، فهو في مقامِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا ينصَرِفُ أحدٌ عن اجتماعِه إلَّا بعد أن يستأذِنَه؛ لأنَّه لو جُعِلَ أمرُ الانسلالِ لِشَهوةِ الحاضِرِ، لكان ذريعةً لانفِضاضِ الاجتِماعاتِ دونَ حُصولِ الفائدةِ التي جُمِعت لأجلِها، وكذلك الأدبُ أيضًا في التخَلُّفِ عن الاجتِماعِ عند الدَّعوةِ إليه؛ كاجتِماعِ المجالِسِ النيابيَّةِ والقضائيَّةِ والدينيَّةِ، أو التخَلُّفِ عن ميقاتِ الاجتماعِ المتَّفَقِ عليه إلَّا لعُذرٍ واستِئذانٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ أنَّ الأوْلَى عدَمُ الاستئذانِ حتى وإنْ كان للإنسانِ شأنٌ؛ لأنَّ الأمرَ بالاستغفارِ دليلٌ على أنَّ هناك شيئًا مِن التفريطِ الذي أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَستغفرَ لهم عليه، وهذا صحيحٌ بلا شكٍّ؛ وأنَّ الأَولى البقاءُ مع الجماعةِ؛ وأنَّ الاستئذانَ للانصرافِ أمرٌ قد يكون فيه ذَمٌّ؛ ولهذا أَمَرَ اللهُ نبيَّه أنْ يَستغفرَ لهم؛ فقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾[1]، فالانصِرافُ خِلافُ ما ينبغي؛ لأنَّه لِترجيحِ حاجتِه على الإعانةِ على حاجةِ الأمَّةِ[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ إذا كان هذا في خِطابِه -على قولٍ في التفسيرِ-، فهكذا في مَغيبِه؛ فلا ينبغي أن يُجعَلَ ما يُدعَى به له صلَّى الله عليه وسلَّم مِن جِنسِ ما يدعو به بعضُنا لبعضٍ، بل يُدعَى له بأشرَفِ الدُّعاءِ، وهو الصَّلاةُ عليه، ومعلومٌ أنَّ الرَّحمةَ يُدعَى بها لكُلِّ مُسلمٍ[3].

٥- تحذيرُ المتسَلِّلينَ في الأمورِ الجامعةِ بدونِ عذرٍ واستِئذانٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾، وهذه الجملةُ وهي قولُه تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ لا شَكَّ أنَّها تحذيرٌ لهؤلاء الذين يَتَسَلَّلون، وأنَّهم سوف يُجازَونَ على هذا العَمَلِ المُحَرَّمِ[4].

٦- قَولُه تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه وجوبُ امتِثالِ أمرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّحذيرُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٣٩).

مخالفتِه[١]، وأنَّ الذي يخالِفُ عنه مُهَدَّدٌ بهذه العُقوبةِ: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مخالفةُ بعضِ أوامرِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خطأً مِن غيرِ عمدٍ، مع الاجتهادِ على متابعتِه، هذا يقعُ كثيرًا مِن أعيانِ الأمَّةِ مِن علمائِها وصلحائِها، ولا إثمَ فيه، بل صاحبُه إذا اجتهَد فله أجرٌ على اجتهادِه، وخطؤُه موضوعٌ عنه، أمَّا المبتدعُ فإنَّ عقوبتَه تغلَّظتْ على عقوبةِ العاصي؛ لأنَّ المبتدعَ مُفتَرٍ على اللهِ، مخالفٌ لأمرِ رسولِه؛ لأجْلِ هواه[٣].

٨- سُئِلَ مالِكٌ عن رجُلٍ أحرَمَ قَبلَ الميقاتِ؟ فقال: أخافُ عليه من الفِتنةِ! قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾. فقال السَّائِلُ: وأيُّ فِتنةٍ في ذلك، وإنما هي زيادةُ أميالٍ في طاعةِ اللهِ تعالى؟! قال: وأيُّ فِتنةٍ أعظَمُ مِن أن تظُنَّ أنَّك خُصِصْتَ بفِعلٍ لم يَفعَلْه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟! أو كما قال[٤].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه عُمومُ علمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وفائدةُ ذِكرِ عُمومِ العِلمِ: التَّحذيرُ مِن المُخالفةِ؛ لأنَّ مَن عَلِم بك مُمتَثِلًا أو مُخالفًا، فسوف يُجازيك على ذلك، فإنْ كان الأمرُ هكذا، ففي كلِّ آيةٍ فيها إثباتُ العِلمِ تحذيرٌ مِن مخالفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لئلَّا يَقَعَ الإنسانُ فيما يُسخِطُ اللهَ سُبحانَه

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((الحكم الجديرة بالإذاعة)) لابن رجب (ص: ٣٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٣٧٥)، ((مواهب الجليل)) للحطاب (٤/ ٥٤).

وتعالى عليه[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ فيه وُجوبُ استِئذانِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبْلَ الانصرافِ عنه، في كُلِّ أمرٍ يَجتَمِعون عليه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ أنَّه إذا جُعِلَ مِن لوازمِ الإيمانِ أنَّهم لا يَذهَبونَ مَذهَبًا -إذا كانوا معه- إلَّا باستِئذانِه؛ فأَولى أنْ يكونَ مِن لوازمِه ألَّا يَذهَبوا إلى قَولٍ ولا مَذهَبٍ عِلميٍّ إلَّا بعد استئذانِه، وإذنُه يُعرَفُ بدَلالةِ ما جاء به على أنَّه أَذِنَ فيه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ حُجَّةٌ على المُرجِئةِ فيما يَزعُمونَ أنَّ الأعمالَ ليست مِن الإيمانِ؛ فقد جَعَل اللهُ تعالى استِئذانَ الرَّسولِ مِن الإيمانِ؛ إذْ جَعَله في صفةِ الإيمانِ، ولم يَشهَدْ لهم به إلَّا معه[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا مِن عَظيمِ التَّنبيهِ على عَلِيِّ أمرِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وشَريفِ قَدرِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٥٠٢).

وذلك أنَّه سُبحانَه كما أمَرَهم بالاستِئذانِ عندَ الدُّخولِ عليه وعلى غيرِه، أفرَدَه بأمرِهم باستِئذانِه عندَ الانصرافِ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجعَلَ رُتبةَ ذلك تاليةً لرُتبةِ الإيمانِ باللهِ والرَّسولِ، وجعَلَهما كالتَّسبيبِ له[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه فوَّض إلى رَسولِه بَعضَ أمرِ الدِّينِ؛ ليَجتَهِدَ فيه برأيِه[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿لِّمَن شِئْتَ﴾ فيه تفويضُ الأمرِ إلى مَن له وِلايةٌ، ولكِنَّ هذا التَّفويضَ تفويضٌ للمَصلحةِ لا لمجرَّدِ التَّشَهِّي والإرادةِ؛ فإذا رأى أنَّ في الإذنِ لهم مَصلحةً، أذِنَ لهم، وإذا رأى أنَّ المصلحةَ في عَدَمِ الإذنِ فلا يجوزُ أن يَأذَنَ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ فيه أنَّ الاستئذانَ بدونِ عُذرٍ لا يُقبَلُ، وإذا استأذَنوا لمجَرَّدِ أن يَتركوا العملَ، فإنَّه لا يُؤذَنُ لهم[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ أنَّ وليَّ الأمرِ يجبُ عليه التَّيسيرُ على مَن تحتَ يدِه[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمن شاء، وقولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣] يُوهِمُ خِلافَ ذلك؟

الجوابُ ظاهِرٌ، وهو أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له الإذنُ لِمن شاء مِن أصحابِه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الذين كانوا معه على أمرٍ جامعٍ؛ كصلاةِ جُمعةٍ، أو عيدٍ، أو جماعةٍ، أو اجتِماعٍ في مشورةٍ، ونحوِ ذلك، كما بيَّنه تعالى بقَولِه: ﴿وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [النور: ٦٢]، وأمَّا الإذنُ في خُصوصِ التخَلُّفِ عن الجِهادِ، فهو الذي بيَّن اللهُ لِرَسولِه أنَّ الأَولى فيه ألَّا يُبادِرَ بالإذنِ، حتى يتبيَّنَ له الصَّادِقَ في عُذرِه مِن الكاذِبِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]؛ فلا مُنافاةَ بينَ الآياتِ. والعِلمُ عندَ الله تعالى[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ عنايةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بعبادِه المؤمِنين؛ حيث أمَرَ اللهُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَستغفِرَ لهم؛ لِيطمَئِنُّوا على هذا الانصِرافِ[٢].

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ فيه انتفاعُ الإنسانِ بدُعاءِ غَيرِه[٣].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ فيه تحريمُ ندائِه صلَّى الله عليه وسلَّم باسمِه، بل يُقالُ: يا رسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ. والظَّاهِرُ استِمرارُ ذلك بعد وفاتِه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الآنَ[٤]، لكن لا على سبيلِ الاستغاثةِ والدُّعاءِ.

١٣- إنْ تَرَكَ المُسلِمُ -عالِمًا كان أو غيرَ عالمٍ- ما عَلِم مِن أمرِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِقَولِ غَيرِه- كان مُستحِقًّا للعذابِ؛ قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٦).

ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الأمرَ المجرَّدَ عن القرائنِ يقتضي الوجوبَ؛ لأنَّه جلَّ وعلا توعَّد المخالفينَ عن أمرِه بالفتنةِ أو العذابِ الأليمِ، وحذَّرهم مِن مخالفةِ الأمرِ، وكلُّ ذلك يقتضي أنَّ الأمرَ للوجوبِ، ما لم يصرِفْ عنه صارفٌ؛ لأنَّ غيرَ الواجبِ لا يستوجبُ تركُه الوعيدَ الشديدَ والتحذيرَ[2].

١٥- قال الله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ ختَمَ السُّورةَ بتأكيدِ الأمرِ في مُتابعتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيُعلَمَ أنَّ أوامِرَه كأوامِرِ القُرآنِ[3].

١٦- مَنِ استقرأ أحوالَ الفِتَنِ التي تجري بينَ المُسلِمينَ، تبيَّنَ له أنَّه ما دخَلَ فيها أحدٌ فحَمِدَ عاقبةَ دُخولِه؛ لِما يحصُلُ له مِن الضَّرَرِ في دينِه ودُنياه؛ ولهذا كانت مِن بابِ المنهيِّ عنه، والإمساكُ عنها مِن المأمورِ به الذي قال الله فيه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[4].

١٧- لَمَّا افتتح اللهُ تعالى السورةَ بقَولِه تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا﴾ [النور: ١]، وذكَرَ أنواعًا مِن الأوامِرِ والحدودِ مِمَّا أنزلَه على الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ اختتَمَها بما يجِبُ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أمَّتِه؛ مِن التَّتابُعِ والتَّشايُعِ على ما فيه مَصلحةُ الإسلامِ، ومِن طلَبِ استِئذانِه إنْ عَرَض لأحدٍ منهم عارِضٌ، ومِن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبِقاعي (١٣/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤١٠).

توقيرِه في دُعائِهم إيَّاه[١].

١٨- قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ في هذه الآيةِ وما في معناها أحسَنُ وعدٍ للمُطيعين، وأشَدُّ وعيدٍ للعُصاةِ المُجرِمينَ[٢].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، المرادُ بالمضارعِ هنا وجودُ الوصفِ مِن غيرِ نظرٍ إلى زمانٍ، ولو عبَّر بالماضي لتُوُهِّم الاختصاصُ به[٣].

٢٠- قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ في هذه الآيةِ لَطيفةُ الاطِّلاعِ على أحوالِهم؛ لأنَّهم كانوا يَستُرون نِفاقَهم[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أراد عَزَّ وجَلَّ أنْ يُرِيَهم عِظَمَ الجِنايةِ في ذَهابِ الذَّاهبِ عن مَجلِسِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّمَ بغيرِ إذْنِه إذا كانوا معه على أمْرٍ جامعٍ، فجعَلَ ترْكَ ذَهابِهم حتَّى يَستأذِنوهُ ثالثَ الإيمانِ باللهِ والإيمانِ برسولِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٧).

والقاعدة: أن (قد) إذا دخلت على المضارعِ المُسْنَدِ لله تعالى فهي للتحقيقِ دائمًا. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٢).

وجعَلَهما كالتَّقديمِ والتَّوطئةِ له والبِساطِ لذِكْرِه، وذلك مع تَصديرِ الجُملةِ بـ (إنَّما)، وإيقاعِ المُؤمِنين مُبتدَأً مُخبَرًا عنه بمَوصولٍ أحاطت صِلَتُه بذِكْرِ الإيمانينِ، ثمَّ عقَّبَه بما يَزيدُه تَوكيدًا وتَشديدًا؛ حيث أعادَه على أُسلوبٍ آخَرَ، وهو قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وضمَّنَه شيئًا آخرَ، وهو: أنَّه جعَلَ الاستئذانَ كالمِصْداقِ لِصِحَّةِ الإيمانينِ، وعرَّضَ بحالِ المُنافِقين وتَسلُّلِهم لِواذًا[1].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ...﴾ استئنافٌ جِيءَ به في أواخرِ الأحكامِ السَّابقةِ؛ تَقريرًا لها، وتأكيدًا لوُجوبِ مُراعاتِها، وتَكميلًا لها ببَيانِ بعضٍ آخرَ مِن جِنْسِها، وإنَّما ذكَرَ الإيمانَ باللهِ ورسولِه في حيِّزِ الصِّلةِ للموصولِ الواقعِ خبَرًا للمُبتدَأِ مع تَضمُّنِه له قطعًا؛ تَقريرًا لِمَا قبْلَه، وتَمهيدًا لِمَا بعْدَه، وإيذانًا بأنَّه حقيقٌ بأنْ يُجعَلَ قَرينًا للإيمانِ بهما مُنتظِمًا في سِلْكِه[2].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قصْرُ مَوصوفٍ على صِفَةٍ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[3] قصْرَ إفرادٍ، أي: لا غيرَ أصحابِ هذه الصِّفةِ مِن الَّذين أظْهَروا الإيمانَ، ولا يَستأذِنون الرَّسولَ عندَ إرادةِ الانصرافِ[4].

- قولُه: ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ وصَفَ الأمْرَ بأنَّه جامِعٌ؛ للمُبالَغةِ[5].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾، أي: النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الذَّهابِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧).

لا على أنَّ نفْسَ الاستئذانِ غايةٌ لعدَمِ الذَّهابِ، بلِ الغايةُ هي الإذْنُ المَنوطُ برأْيِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والاقتصارُ على ذِكْرِه؛ لأنَّه الَّذي يتِمُّ مِن قِبَلِهم، وهو المُعتبَرُ في كَمالِ الإيمانِ، لا الإذْنُ ولا الذَّهابُ المُترتِّبُ عليه، واعتبارُه في ذلك؛ لأنَّه كالمِصْداقِ لصِحَّتِه، والمُميِّزِ للمُخلِصِ فيه عن المُنافِقِ؛ فإنَّ دَيدنَه التَّسلُّلُ للفِرارِ، ولتَعظيمِ ما في الذَّهابِ بغيرِ إذْنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الجِنايةِ؛ ولذلك أعادَهُ مُؤكَّدًا على أُسلوبٍ أبلَغَ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ فإنَّه يُفيدُ أنَّ المُستأذِنَ مُؤمِنٌ لا مَحالةَ، وأنَّ الذَّاهبَ بغيرِ إذْنٍ ليس كذلك[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ ...﴾ إلى آخرِها، تأكيدٌ لقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾؛ لأنَّ مَضمونَ معنى هذه الجُملةِ هو مضمونُ معنَى جُملةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾، وقد تُفنِّنَ في نظْمِ الجُملةِ الثَّانيةِ بتغييرِ أُسلوبِ الجُملةِ الأُولى؛ فجُعِلَ مَضمونُ المُسنَدِ في الأُولى مُسنَدًا إليه في الثَّانيةِ، والمُسنَدُ إليه في الأُولى مُسنَدًا في الثَّانيةِ، ومآلُ الأسلوبينِ واحدٌ؛ لأنَّ المآلَ الإخبارُ بأنَّ هذا هو ذاك، على حدِّ: وشِعْري شِعْري؛ تَنويهًا بشأْنِ الاستئذانِ، وليُبْنَى عليها تفريعُ ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾؛ لِيُعْلِمَ المُؤمنين الأعذارَ المُوجِبةَ للاستئذانِ[2]؛ فلمَّا أراد أنْ يُكرِّرَ هذا المعنى تَوكيدًا وتَقريرًا، أعاد المعنى وقلَبَه؛ حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ فأفادَ الأوَّلُ حصْرَ المُؤمنين في المُستأذِنين، والثَّاني عكْسَه؛ تَعريضًا بحالِ المُنافِقين وتَسلُّلِهم لِواذًا، وما اكْتَفى بذلك، بل أوقَعَ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ خبرًا، وعقَّبَه ذِكْرَ الإيمانينِ؛ ليُؤذِنَ بأنَّ أولئك مَحقوقونَ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٧).

بأنْ يُسَمَّوا مُؤمِنين؛ لِمَا اكْتَسبوا مِن صِفَةِ الاستئذانِ، واجْتَنبوا مِن التَّسلُّلِ الَّذي هو مِن صِفَةِ المُنافِقين[١].

- وقولُه: ﴿يَسْتَـْٔذِنُونَكَ﴾ فيه: الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ تَشريفًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا الخِطابِ[٢].

- وفي التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مِن تَفخيمِ شأْنِ المُستأذِنينَ ما لا يَخْفى[٣]؛ فإنَّ (أولاء) اسمُ إشارةٍ يدلُّ على تعظيمِ المشارِ إليه؛ ولهذا جاء بصيغةِ البعيدِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إشارةً إلى علوِّ مرتبتِهم[٤].

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ﴾ فيه مُبالَغةٌ وتَضييقُ الأمْرِ، حيث لم يقُلْ: لشأْنِهم[٥].

- قولُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ ذِكْرُ الاستغفارِ للمُستأذِنينَ دليلٌ على أنَّ الأحسَنَ والأفضَلَ ألَّا يُحدِّثوا أنفُسَهم بالذَّهابِ ولا يَستأذِنوا فيه؛ ففي تَعقيبِ ذلك بالاستغفارِ تَتميمٌ لمعنَى الكراهةِ منه صلواتُ اللهِ عليه في إذْنِه[٦].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَعليلٌ للمغفرةِ الموعودةِ في ضِمْنِ الأمْرِ بالاستغفارِ لهم[٧].

٢- قوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨).

يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه، وفيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى خِطابِ المُسلِمين؛ لإبرازِ مَزيدِ الاعتناءِ بشأْنِه، وحثًّا على تلَقِّي الجُملةِ بنَشاطِ فَهْمٍ؛ فالخِطابُ للمُؤمنين الَّذين تحدَّثَ عنهم بقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ ...﴾[1] [النور: ٦٢].

- وقولُه: ﴿ بَيْنَكُمْ ﴾ أفاد التَّعريضَ بالمُنافِقين الَّذين تمالَؤُوا بيْنهم على التَّخلُّفِ عن رسولِ اللهِ إذا دعاهم كلَّما وَجَدوا لذلك سبيلًا[2].

- قولُه: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ استئنافُ تَهديدٍ للَّذين كانوا سبَبَ نُزولِ آيةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ...﴾ الآيةَ، أي: أولئك المُؤمِنون، وضِدُّهم المُعرَّضُ بهم ليسوا بمُؤمِنين. و﴿ قَدْ ﴾ لتَحقيقِ الخبَرِ؛ لأنَّهم يظُنُّون أنَّهم إذا تَسلَّلوا مُتَستِّرينَ لم يَطَّلِعْ عليهم النَّبيُّ، فأعلَمَهم اللهُ أنَّه عَلِمَهم، أي: أنَّه أعلَمَ رسولَه بذلك[3].

- والفاءُ في قولِه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ...﴾ لتَرتيبِ الحذَرِ أو الأمْرِ به على ما قبْلَها مِن عِلْمِه تعالى بأحوالِهم؛ فإنَّه ممَّا يُوجِبُ الحذَرَ الْبَتَّةَ[4]. والفِعلُ المُضارِعُ ﴿ يُخَالِفُونَ ﴾ يُفيدُ معنَى الدَّأبِ والعادةِ، وقد أُقِيمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

المُظهَرُ مَوضِعَ المُضمَرِ مِن غيرِ لفْظِه السَّابقِ وهو قولُه: ﴿أَمْرٍ جَامِعٍ﴾؛ عِلَّةَ لاستحقاقِهم فِتنةَ الدَّارينِ[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ...﴾ عُدِّيَ الفِعْلُ (خالَفَ) بـ (عَنْ) مع أنَّه يتعدَّى بنفْسِه؛ قيل: لأنَّه ضمَّنَ (خَالَفَ) معنى (أعرَضَ) أو (عدَلَ)، فعدَّاهُ تَعديتَه، أو (عن) مُتعلِّقٍ بمَحذوفٍ تَقديرُه: أو ويَعدِلون عن أمْرِه. وقيل: ﴿يُخَالِفُونَ﴾ مُتضمِّنٌ معنَى (يصُدُّون)، أي: الَّذين يصُدُّون عن أمْرِه دونَ المُؤمِنين؛ فحُذِفَ المَفعولُ لأنَّ الغرَضَ تَقبيحُ أمْرِ المُخالِفِ، وتعظيمُ أمْرِ المُخالَفِ عنه، فذكَرَ الأهمَّ، وترَكَ ما لا اهتمامَ به. وقيل: هي زائدةٌ[2]. وقيل: حُذِفَ مَفعولُه هنا؛ لظُهورِ أنَّ المُرادَ: الَّذين يُخالِفون اللهَ، وتَعديةُ فِعْلِ المُخالَفةِ بحرفِ (عن)؛ لأنَّه ضُمِّنَ معنى الصُّدودِ، ولو تُرِكَت تَعديتُه بحرفِ جرٍّ، لَأفادَ أصْلَ المُخالَفةِ في الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ[3]. وقيل: عدَّى ﴿يُخَالِفُونَ﴾ بـ (عن)؛ لِمَا في المُخالَفةِ مِن معنى التَّباعُدِ والحَيدِ، كأنَّه قال: الَّذينَ يَحِيدون عن أمْرِه بالمُخالَفةِ، وهو أبلَغُ مِن إذا قِيل: يُخالِفون أمْرَه[4].

- قولُه: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فيه إعادةُ فِعْلِ الإصابةِ صَريحًا؛ للاعتناءِ بالتَّهديدِ والتَّحذيرِ[5].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٨، ١٩٩).

٣- قولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ تَذييلٌ لِمَا تقدَّمَ في هذه السُّورةِ كلِّها. وافتتاحُه بحَرفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَآ﴾ إيذانٌ بانتهاءِ الكلامِ، وتَنبيهٌ للنَّاسِ لِيَعُوا ما يَرِدُ بعدَ حَرفِ التَّنبيهِ[1].

- وقولُه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ فيه تَهديدٌ ووَعيدٌ. وأُدْخِلَ (قد)؛ ليُؤكِّدَ عِلْمَه بما هم عليه مِن المُخالَفةِ عن الدِّينِ والنِّفاقِ[2].

- وفي قولِه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ تَعليقُ عِلْمِه تعالى بيَومِ رُجوعِهم لا برُجوعِهم؛ لِزيادةِ تَحقيقِ عِلْمِه تعالى بذلك، وغايةُ تَقريرِه؛ لِمَا أنَّ العِلْمَ بوقتِ وُقوعِ الشَّيءِ مُستلزِمٌ للعِلْمِ بوُقوعِه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه، وفيه إشعارٌ بأنَّ عِلْمَه تعالى لنفْسِ رُجوعِهم مِن الظُّهورِ بحيث لا يَحتاجُ إلى البَيانِ قطْعًا[3].

- والخِطابُ والغَيبةُ في قولِه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَا جميعًا للمُنافِقين على طريقِ الالْتفاتِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ عامًّا، و﴿يُرْجَعُونَ﴾ للمُنافِقين؛ فيكونَ تَسليةً ووَعْدًا بالنِّسبةِ إلى المُؤمنين، وتَهديدًا بالنِّسبةِ إلى المُنافِقين، وتَخويفًا في الدُّنيا، ووَعيدًا في العُقْبى خاصًّا في حقِّ المُنافِقين؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ يأْبى أنْ يُنزَّلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٦، ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ١٩٩).

على المُؤمِنين؛ ولذلك غُيِّرَ التَّغليبُ في الخِطابِ بـ﴿أَنتُمْ﴾ إلى الغَيبةِ في ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾ ويجوزُ أيضًا كونُ كلٍّ منهما عامًّا[1].

- وقيل على اعتبارِ العمومِ في الخطابِ والغَيبةِ: أعرَض عنهم تهويلًا للأمرِ. وعلى القول بأنَّه خاصٌّ بالمتولِّينَ المعرضينَ يكونُ ذلك إشارةً إلى أنَّهم يُناقَشون الحسابَ، ويكونُ سرُّ الالتفاتِ: التنبيهَ على الإعراضِ عن المكذِّبِ بالقيامةِ، والإقبالِ على المصَدِّقِ؛ صَونًا لنفيسِ الكلامِ، عن الجفاةِ الأغبياءِ اللئامِ[2]، بالإضافةِ إلى أنَّ هذا الالتفاتَ فيه تنبيهٌ للمخاطَبِ، بخلافِ ما إذا كان الأُسلوبُ على نسقٍ واحدٍ[3].

- وقولُه: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ كِنايةٌ عن الجَزاءِ؛ لأنَّ إعلامَهم بأعمالِهم لو لم يكُنْ كِنايةً عن الجزاءِ لَمَا كانت له جَدْوى[4].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ لأنَّه أعَمُّ منه[5].

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ التاسعَ عَشَرَ**

**ويليه المجلدُ العشرونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الفرقانِ**

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٦، ٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٤٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

# الفهرس

# الفهرس

سورةُ النُّورِ ..... ٧
أسماءُ السُّورةِ: ..... ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ: ..... ٨
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٨
موضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٩
الآيات (١-٣) ..... ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٠
المَعنى الإجماليُّ: ..... ١١
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١١
الفَوائِدُ التربويَّةُ: ..... ٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٢٦
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٣
الآيتان (٤-٥) ..... ٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٣
المَعنى الإجماليُّ: ..... ٤٣
تَفسيرُ الآيتينِ: ..... ٤٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٥٠
بلاغةُ الآيتينِ: ..... ٥٤
الآيات (٦-١٠) ..... ٥٨

غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٥٨
المَعنى الإجماليُّ: ..... ٥٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٥٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٦٦
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٧٤
الآيات (١١-١٨) ..... ٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٨٠
المَعنى الإجماليُّ: ..... ٨٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٨٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١٠٤
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١١٣
الآيات (١٩-٢٢) ..... ١٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٢٤
المَعنى الإجماليُّ: ..... ١٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٢٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ١٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٤٧
الآيات (٢٣-٢٦) ..... ١٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٥٢

المَعنى الإجماليُّ: ..... ١٥٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٥٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ١٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١٦٢
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٧٠
الآيات (٢٧-٢٩) ..... ١٧٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٧٧
المَعنى الإجماليُّ: ..... ١٧٧
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٧٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ١٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١٨٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٩١
الآيتان (٣٠-٣١) ..... ١٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٩٤
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٩٥
تَفسيرُ الآيتينِ: ..... ١٩٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٢١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٢١٧
بلاغةُ الآيتينِ: ..... ٢٢٩
الآيتان (٣٢-٣٣) ..... ٢٣٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٣٤
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٣٥

تَفسيرُ الآيتينِ: ..... ٢٣٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٢٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٢٤٨
بلاغةُ الآيتينِ: ..... ٢٥٩
الآيتان (٣٤-٣٥) ..... ٢٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٦٥
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٦٦
تَفسيرُ الآيتين: ..... ٢٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٢٨٣
بلاغةُ الآيتينِ: ..... ٢٨٥
الآيات (٣٦-٣٨) ..... ٣٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٠٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٠٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٣١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٣١٦
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٢٠
الآيتان (٣٩-٤٠) ..... ٣٢٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٢٦
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٢٦
تَفسيرُ الآيتينِ: ..... ٣٢٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٣٣٦

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٣٣٧
بلاغةُ الآيتينِ: ..... ٣٣٩
الآيات (٤١-٤٦) ..... ٣٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٤٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٣٤٩
المَعنى الإجماليُّ: ..... ٣٥٠
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٥١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٣٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٣٦٨
بلاغة الآيات: ..... ٣٧٤
الآيات (٤٧-٥٠) ..... ٣٨٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٨٦
المَعنى الإجماليُّ: ..... ٣٨٦
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٨٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٣٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٣٩٢
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٩٥
الآيات (٥١-٥٤) ..... ٤٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٠٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٤٠٢
المَعنى الإجماليُّ: ..... ٤٠٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٠٤

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٤١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٤١١
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤١٤
الآيات (٥٥-٥٧) ..... ٤٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٢٣
المَعنى الإجماليُّ: ..... ٤٢٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٢٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٤٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٤٣٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٤٥
الآيات (٥٨-٦٠) ..... ٤٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٥٥
المَعنى الإجماليُّ: ..... ٤٥٦
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٤٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٤٦٦
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٧٥
الآية (٦١) ..... ٤٨١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٨١
المَعنى الإجماليُّ: ..... ٤٨١
تفسيرُ الآيةِ: ..... ٤٨٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٤٩١

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٤٩١
بلاغةُ الآيةِ: ..... ٤٩٧
الآيات (٦٢-٦٤) ..... ٥٠١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٥٠١
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٥٠٢
المَعنى الإجماليُّ: ..... ٥٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٥٠٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٥١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٥١٨
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٥٢٢
الفهرس ..... ٥٣٣

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الفرقان)


إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف


**المجلد العشرون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الفرقان)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤١ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية - القسم العلمي

التفسير المحرر للقرآن الكريم: المجلد العشرون: سورة الفرقان/ القسم العلمي

بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤١ هـ

٤١٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٧٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤١/٤٤٣٣

رقم الإيداع: ١٤٤١/٤٤٣٣

ردمك: ٢-٧٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ - ٢٠٢٠ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية - المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ - جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ - بريد إلكتروني nashr@dorar.net

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الفُرقانِ

# سورةُ الفُرقانِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفرقان)[١].

فعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سَمِعتُ هِشامَ بنَ حَكيمٍ يقرأُ سورةَ الفُرقانِ في حياةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاستمعتُ لِقِراءتِه، فإذا هو يقرأُ على حُروفٍ كثيرةٍ لم يُقرِئْنيها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكِدتُ أُساوِرُه[٢] في الصَّلاةِ، فتصبَّرتُ حتى سَلَّمَ، فلبَّبتُه[٣] بردائِه، فقلتُ: مَن أقرأَك هذه السُّورةَ التي سمِعتُك تقرأُ؟ قال: أقرأَنيها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقلتُ: كذَبْتَ؛ فإنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أقرأَنيها على غيرِ ما قرأتَ. فانطلقتُ به أقودُه إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقلتُ: إني سمِعتُ هذا يقرأُ سورةَ الفُرقانِ على حروفٍ لم تُقرِئْنيها! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهشامٍ: اقرأْ، فقرأَ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كذلك أُنزِلَت. ثمَّ قال: اقرأْ يا عُمَرُ، فقرأتُ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كذلك أُنزِلَت، إنَّ هذا القُرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرُفٍ[٤]، .....

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الفُرقانِ؛ لأنَّ في فاتحتِها ذِكرَ الفُرقانِ؛ في قَولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٣).

(٢) أساوِرُه: أي: أُواثِبُه وأقاتِلُه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٢٠).

(٣) فلَبَّبْتُه: أي: جَمَعتُ ثيابَه عند نَحْرِه ثمَّ جَرَرْتُه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٧/ ٢٩٦).

(٤) سَبعةِ أحرُفٍ: اختُلِف في المرادِ بالأحرفِ السبعةِ على أقوالٍ كثيرةٍ، مِن أقربِها: أنَّ المرادَ سبعةُ أوجُهٍ مِن الاختلافِ لا يخرُجُ عنها، أو: سبْعُ لُغاتٍ مِن لُغاتِ العَرَبِ، أو: سبعةُ أوجهٍ مِن المعاني المتَّفقةِ بألفاظٍ مختلفةٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٦٩)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٢٦)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٦٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٥٢).

فاقرؤوا ما تيسَّرَ منه))[١].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

في سورةِ (الفرقان) سجدةُ تلاوةٍ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[٢] [الفرقان: ٦٠].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الفُرقانِ مكِّيَّةٌ[٣]، وحُكيَ الإجماعُ على ذلك[٤].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أبرزِ المَقاصِدِ التي تَضمَّنَتْها سورةُ الفُرقانِ:**

١- التَّنويهُ بالقُرآنِ، وإثباتُ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، والتَّنويهُ بالرَّسولِ المنَزَّلِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبيانُ دلائِلِ صِدقِه، والتَّنويهُ بالذين اتَّبَعوه[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٢) واللفظ له، ومسلم (٨١٨).

(٢) نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ حزم، وابنُ قُدامة، وابنُ حجر. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٣١)، ((الكافي)) لابن قدامة (١/ ٢٧٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٥١).

(٣) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ منها نزَلت بالمدينةِ؛ وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ ...﴾ [الفرقان: ٦٨] إلى قَولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]. وقيل: مَدَنيَّةٌ. وقيل: مَدَنيَّةٌ، وفيها آياتٌ مَكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٨/ ٥١٧١)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٤).

(٤) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي، والبِقَاعي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣١٦).

وعزا القرطبيُّ القولَ بأنَّها مكيَّةٌ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦).

قال ابنُ عاشور: (أُقيمَت هذه السُّورةُ على ثلاثِ دَعائِمَ:

الأُولى: إثباتُ أنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، والتَّنويهُ بالرَّسولِ المُنزَّلِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، =

٢- تثبيتُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَسليتُه، والتَّسْريةُ عنه[١].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أبرزِ المَوضوعاتِ التي تناولَتْها سورةُ الفُرقانِ:**

١- تمجيدُ اللهِ تعالى والثَّناءُ عليه، ووَصفُه بصِفاتِ الإلهيَّةِ والوَحدانيَّةِ فيها، واتِّخاذُ المُشرِكينَ مع ذلك آلهةً مِن دُونِه تعالى مخلوقةً مَوصوفةً بالعَجزِ.

٢- حِكايةُ بَعضِ أقوالِ المُشرِكينَ وشُبُهاتِهم حولَ القُرآنِ وحولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع الرَّدِّ عليهم، ودَحْضِ شُبُهاتِهم.

٣- المُقارنةُ بيْنَ مَصيرِ المُشرِكينَ وما أعَدَّه اللهُ لهم، وبينَ ما أعَدَّه اللهُ تعالى للمؤمِنينَ.

٤- ذِكرُ جانِبٍ مِن قَصَصِ بَعضِ الأنبياءِ مع أقوامِهم.

٥- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِنَ المُشرِكينَ مِن تَطاوُلٍ عليه، وتَكذيبٍ له.

---

= ودلائِلِ صِدقِه، ورفِعةِ شأنِه عن أن تكونَ له حُظوظُ الدُّنيا، وأنَّه على طريقةِ غَيرِه مِنَ الرُّسُلِ، ومِن ذلك تَلقِّي قَومِه دَعوتَه بالتَّكذيبِ.

الدِّعامةُ الثَّانيةُ: إثباتُ البَعثِ والجَزاءِ، والإنذارُ بالجزاءِ في الآخرةِ، والتَّبشيرُ بالثَّوابِ فيها للصَّالِحينَ، وإنذارُ المُشرِكينَ بسُوءِ حَظِّهم يومَئذٍ، وتكونُ لهم النَّدامةُ على تكذيبِهم الرَّسولَ، وعلى إشراكِهم واتِّباعِ أئمَّةِ كُفْرِهم.

الدِّعامةُ الثَّالِثةُ: الاستِدلالُ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وتفَرُّدِه بالخَلْقِ، وتَنزيهُه عن أن يكونَ له وَلَدٌ أو شَريكٌ، وإبطالُ إلهيَّةِ الأصنامِ، وإبطالُ ما زَعَموه مِن بنُوَّةِ الملائِكةِ لله تعالى.

وافتُتِحَت في آياتِ كُلِّ دِعامةٍ مِن هذه الثَّلاثِ بجُملةِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى﴾ إلخ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ١٦٧).

٦- الحديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

٧- عَرضُ صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ، وأخلاقِهم، وعبادتِهم لرَبِّهم، ودُعائِهم له، وتضَرُّعِهم إليه.

## الآيات (١-٢)

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ۝٣﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَارَكَ﴾: أي: تعاظَمَ، وتعالَى، وتقَدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثباتُ الشَّيءِ[1].

﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: أي: كلامَ اللهِ تعالى؛ لِفَرقِه بينَ الحقِّ والباطِلِ، وأصلُه: يدُلُّ على الفَصلِ بيْن شيئَينِ[2].

﴿نَذِيرًا﴾: أي: مُنذِرًا مخوِّفًا، وأصلُه: يدُلُّ على التَّخويفِ[3].

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: أي: سَوَّاه وهَيَّأه، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونهايتِه[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٢).

﴿نُشُورًا﴾: أي: حياةً بعْدَ المَوتِ. وأصْلُه: يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفتتِحًا السورةَ بالثناءِ على نفْسِه: تعاظَمَ الله، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ بَرَكاتُه، فهو الذي نزَّل القرآنَ المفرِّقَ بين الحَقِّ والباطِلِ آياتٍ بعْدَ آياتٍ، وسورةً بعدَ سورةٍ على عَبدِه مُحمَّدٍ؛ ليكونَ مُنذِرًا لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، وهو الذي له وحْدَه مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ، ولم يتَّخِذْ لِنَفْسِه ولدًا، ولم يكُنْ له شَريكٌ في سُلطانِه، وأوجَدَ كلَّ شيءٍ، وجعَلَه مُحكَمًا بحِكمتِه وتقديرِه، وهيَّأه لِما يصلُحُ له.

ثمَّ يُبيِّنُ انحرافَ المشركينَ، فيقول: واتَّخذ المشرِكون مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تستطيعُ أن تخلُقَ شيئًا، وهذه الآلهةُ المزعومةُ مَخلوقةٌ لا تستطيعُ أن تدفَعَ عن نَفْسِها ضَرًّا، ولا أن تجلِبَ لِنَفسِها نَفعًا، ولا تستطيعُ أن تُميتَ أحدًا، ولا أن تُحييَه، ولا أن تبعَثَه بعدَ مَوتِه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾.

أي: تعاظَمَ الله، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ وثبتت بَرَكاتُه، فهو الذي نزَّل القرآنَ المفرِّقَ ببيانِه بيْن الحَقِّ والباطِلِ، آياتٍ بعْدَ آياتٍ، وسورةً بعدَ سورةٍ على عَبدِه مُحمَّدٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١].

﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾.

أي: لِيَكونَ محمَّدٌ مُنذِرًا لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، يحَذِّرُهم عذابَ اللهِ إن لم يُخلِصوا له العبادةَ(١).

---

= (١٣/ ١، ٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤).

قال ابنُ كثير: (﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ نزَّل: فعَّل، مِن التكرُّرِ والتكثُّرِ، كما قال: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]؛ لأنَّ الكتُبَ المتقدِّمةَ كانت تنزِلُ جُملةً واحدةً، والقرآنُ نَزَل منجَّمًا مفرَّقًا مفصَّلًا آياتٍ بعدَ آياتٍ، وأحكامًا بعدَ أحكامٍ، وسُوَرًا بعدَ سُوَرٍ، وهذا أشدُّ وأبلغُ، وأشدُّ اعتناءً بمن أُنزِل عليه، كما قال في أثناءِ هذه السُّورةِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢، ٣٣]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٢).

وقال البِقَاعي: (نزَل مفرَّقًا بحسَبِ المصالحِ؛ فسُمِّيَ لذلك فُرقانًا، ولأنَّه الفارقُ بيْن ملتبِسٍ؛ فلا يدَعُ خفاءً إلَّا بيَّنه، ولا حقًّا إلا أثبته، ولا باطلًا إلَّا نفاه ومحَقَه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٣٠).

وقال ابن عثيمين: (هذا مِن جملةِ البَرَكةِ التي هي مِن صفةِ الله سبحانه وتعالى: أنَّه نزَّل الفرقانَ على عبدِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

مِمَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿لِيَكُونَ﴾ عائدٌ على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، وابنُ جُزيٍّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٨/ ٥١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٦). =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان النبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً))(١).

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا تقدَّم ذِكرُ مُنَزِّلِ الفُرقانِ سُبحانه، وذِكرُ الفُرقانِ والمنَزَّلِ عليه على طريقِ الإجمالِ؛ أتبَعَ ذلك تفصيلَه على الترتيبِ، فبدأ بوَصفِ المنَزِّلِ سُبحانه بما هو أدَلُّ دَليلٍ على إرادةِ التَّعميمِ في الرِّسالةِ لكُلِّ مَن يريدُ، فقال(٢):

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وهو اللهُ الذي له وحْدَه سُلطانُ السَّمواتِ والأرضِ، يصَرِّفُ شُؤونَهما ويدبِّرُهما وجميعَ ما فيهما(٣).

---

= ونسَبَ ابنُ الجوزيِّ هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١١).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٦٦٠).

وممَّن قال: إنَّ الضميرَ يعودُ على القرآنِ، أي: لِيَكونَ القرآنُ نذيرًا: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٢٨).

قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ عامٌّ في كلِّ إنسيٍّ وجِنِّيٍّ عاصَرَه أو جاء بعْدَه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩).

(١) رواه البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠، ٢٠١)، =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾.

أي: ولم يتَّخِذْ لِنَفْسِه وَلدًا؛ لا عيسى، ولا عُزَيرًا، ولا الملائكةَ، ولا غيرَهم مِن خَلقِه[١].

كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾.

أي: ولم يكُنْ لله شريكٌ في مُلكِه وسُلطانِه كما يزعُمُ المُشرِكون[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾.

أي: وأوجَد اللهُ كلَّ شيءٍ مِن المخلوقاتِ الكبيرةِ والصَّغيرةِ، فأتقَنَه وهيَّأه لِما يَصلُحُ له، وجعَلَه مُحْكَمًا، لا تفاوُتَ فيه ولا خَللَ، على ما أراد سُبحانَه بحِكمتِه[٣].

---

= ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨، ٣١٩). =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقال سُبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣].

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا بيَّن كَمالَه وعظَمتَه وكَثرةَ إحسانِه، وكان ذلك مُقتَضيًا لأن يكونَ وحْدَه المحبوبَ المألوهَ المعظَّمَ، المُفرَدَ بالإخلاصِ وحْدَه لا شريكَ له؛ ناسَبَ أن يذكُرَ بُطلانَ عبادةِ ما سِواه، فقال[1]:

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

أي: واتَّخذ المُشرِكون من دونِ اللهِ معبوداتٍ مِن الأصنامِ وغَيرِها لا تَستطيعُ أن تخلُقَ شيئًا، وهذه الآلهةُ مخلوقةٌ، بل منها ما هو مَصنوعٌ ومنحوتٌ بأيدي المُشرِكين[2]!

---

= قال ابن عطية: (تقديرُ الأشياءِ: هو حَدُّها بالأمكنةِ والأزمانِ والمقاديرِ، والمصلحةِ والإتقانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧). =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾ [الحج: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

أي: ولا تَستطيعُ المعبوداتُ مِن دونِ اللهِ أن تدفَعَ عن نفْسِها ضَرًّا، ولا أن تجلِبَ لنَفسِها نفعًا(١).

---

= قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ: يخلُقُهم اللهُ بالاختراعِ والإيجادِ، ويحتَمِلُ أن يريدَ: يخلُقُهم البشَرُ بالنَّحتِ والنِّجارةِ، وهذا التأويلُ أشَدُّ إبداءً لخَساسةِ الأصنامِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩، ٢٠٠).

ممَّن اختار المعنى الثانيَ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن أبي زمنين، والزمخشري، والبيضاوي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٦).

وممَّن جمَع بينَ المعنيينِ السَّابِقَينِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٧).

قال البقاعي: (﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: بما يُشاهَدُ فيهم مِنَ التغَيُّرِ والطَّواعِيَةِ لِمَشيئتِه سُبحانَه، ومِن ذلك أنَّ عَبَدَتَهم افتَعَلوهم بالنَّحتِ والتَّصويرِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: المصادِرُ السابِقةُ.

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾... ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾: لو أرادوا أن يَضُرُّوا أنفُسَهم ما ضَرُّوها، ولو أرادوا أن يدْفَعوا عنها ضَرَرًا ما دفَعوا عنها؛... قولُه: ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ يعني: لا يَملِكونَ أن يجُرُّوا لأنفُسِهم نَفعًا، ولا يملِكون أيضًا أن يدفَعوه عن أنفُسِهم... وإبقاءُ الآيةِ على العُمومِ أَولى، يعني: لا يَستطيعونَ شَيئًا لأنفُسِهم، وإذا كانوا لا يَستَطيعونَ ذلك لأنفُسِهم، فمِن بابِ أَولَى لا يَستطيعونَه لعابِدِيهم!). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٨، ٢٩).

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾.

أي: ولا تَستطيعُ المعبوداتُ مِن دونِ اللهِ إماتةَ حَيٍّ، ولا إحياءَ مَيِّتٍ، ولا بَعْثَه بعدَ مَوتِه[1].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أنَّ هذا الربَّ المُنْعِمَ المتفضِّلَ القُدُّوسَ: هو الذي أَنزلَ هذا الفرقانَ، فإذا أردتَ أن تَرقَى في درجاتِ الكمالِ، وتظفرَ بأنواعِ الإنعامِ، وتُزَكِّيَ نفْسَك الزَّكاءَ التامَّ؛ فعليك بهُدى هذا الفرقانِ، فهو بساطُ القُدُسِ، ومِعراجُ الكمالِ، ومائدةُ الإكرامِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لَمَّا سمَّى الله كتابَه الفُرقانَ، عَلِمْنا أنَّه به يُفرَقُ بيْنَ الحقِّ والباطلِ، وأهْلِ هذا وذاك. فهو الحَكَمُ العَدلُ، والقَولُ الفَصلُ بيْن كلِّ متنازعينِ يدَّعي كلٌّ منهما أنَّه على الحَقِّ فيما هو عليه مِن عَقدٍ أو قَولٍ أو عمَلٍ، فما تقابَلَ حقٌّ وباطلٌ، وما تعالجت حُجَّةٌ وشُبهةٌ إلَّا وفي هذا الكتابِ الحكيمِ ما يَفرُقُ ما بيْنهما. وإنما يتفاوتُ النَّاسُ في إدراكِ ذلك منه على حسَبِ ما عندَهم مِن قوةِ عِلمٍ، وصِدقِ بصيرةٍ، وحُسنِ إخلاصٍ، فعلينا -إذَنْ- أن يكون أوَّلُ فزَعِنا في الفَرقِ والفَصلِ إليه، وأن يكون أوَّلُ جُهدِنا في استجلاءِ ذلك مِن نصوصِه ومَراميه، مستعينينَ بالسُّنَّةِ القوليَّةِ والعمليَّةِ على استخراجِ لآليه، فإذا حكَمَ قَبِلْنا وسَلَّمْنا، وكنَّا مع ما حكَمَ له، وفارَقْنا ما حكَم عليه؛ فالله سمَّاه الفرقانَ لِنَعلمَ أنَّه فارِقٌ بنفْسِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٥٤).

ولِنَعملَ بالفَرقِ به، ولا يَكمُلُ إيمانُنا بأنَّه الفرقانُ إلَّا بالعلمِ والعمَلِ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ نستفيدُ مِن النَّاحيةِ المسلكيَّةِ التربويَّةِ: أن تتأكَّدَ وتزدادَ محبَّتُنا لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث كان عبدًا لله، قائِمًا بإبلاغِ الرِّسالةِ، وإنذارِ الخَلقِ[٢].

٤- نَستفيدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أراد أنْ تتبينَ له الأمورُ، فلْيَرجِعْ إلى القُرآنِ؛ لأنَّ اللهَ سمَّاه فُرقانًا[٣]، فكما أنَّه فُرقانٌ بذاتِه يَفرُقُ، فإنَّ مَن كان مِن أهلِه ولازَمَه وعَمِلَ به، أُوتيَ هذه الصِّفةَ، وصار له تَفريقٌ بين الحَقِّ والباطِلِ؛ لِقَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[٤] [الأنفال: ٢٩].

٥- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لَمَّا جَعَلَ تعالى غايةَ تنزيلِ الفُرقانِ أنْ يكونَ عبْدُه نذيرًا، اقتضى ذلك أنَّ نِذارتَه تكونُ بالقُرآنِ؛ لتَقومَ الحُجَّةُ، وتتِمَّ الحِكمةُ، وتحصُلَ الفائدةُ، وتشمَلَ النعمةُ، وقد صُرِّحَ بهذا في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢]، ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]؛ فعلينا -إذَنْ- أن نَعلَمَ أنَّ القرآنَ هو كتابُ النِّذارةِ والهدايةِ، فنستخرجَ أصولَها وفُنونَها مِن آياتِه، وهذا حظُّ العِلمِ؛ وأن يكونَ اهتداؤنا في أنفُسِنا وهديُنا لغيرِنا به، وهذا حظُّ العمَلِ، وهما رُكنا الإيمانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٥٥).

## الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿تَبَارَكَ﴾ فِعلٌ مختَصٌّ بالله تعالى لم يُستعمَلْ في غَيرِه[1]، فلا يقالُ لغيرِ الله: (تَبارَك)[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ لمَّا قال تعالى أولًا: ﴿تَبَارَكَ﴾ ومعناه كثرةُ الخيرِ والبَرَكةِ، ثمَّ ذكَرَ عَقِبَه أمرَ القرآنِ؛ دلَّ ذلك على أنَّ القُرآنَ مَنشأُ الخيراتِ، وأعمُّ البَرَكاتِ[3]. وأيضًا فإسنادُه ﴿تَبَارَكَ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾، يدُلُّ على أنَّ إنزالَه الفُرقانَ على عبدِه مِن أعظَمِ البَرَكاتِ والخَيراتِ والنِّعَمِ التي أنعَمَ بها على خَلقِه[4].

٣- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ تكلَّمَ الله سُبحانَه وتعالى في هذه السُّورةِ في التَّوحيدِ والنبوَّةِ وأحوالِ القيامةِ، ثم خَتَمها بذكرِ صفاتِ العبادِ المُخلِصينَ الموقِنينَ، ولمَّا كان إثباتُ التوحيدِ يجبُ أنْ يكونَ مُقَدَّمًا على الكُلِّ؛ لا جَرَم افتتحَ اللهُ هذه السُّورةَ بذلك[5].

٤- اللهُ سُبحانَه قد أقام الحُجَّةَ على خَلقِه بكتابِه ورُسُلِه، فقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، وقال: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فكلُّ مَن بلَغَه هذا القرآنُ فقد أُنذِرَ به، وقامت عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٨).

حُجَّةُ اللهِ به[١].

٥- قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فافتتح هذه السُّورةَ بأنَّه تعالَى مُنَزَّهٌ في صفاتِه عن النَّقائصِ، كثيرُ الخيرِ، ومِن خَيرِه أنَّه نَزَّلَ الفُرقانَ على رسولِه مُنْذِرًا لهم؛ فكانَ في ذلك إطماعٌ في خَيرِه، وتحذيرٌ مِن عِقابِه[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ كالتَّنبيهِ على أنَّه لا التفاتَ إلى المنافعِ العاجلةِ؛ وذلك لأنَّه سُبحانَه لَمَّا وَصَفَ نفْسَه بأنه الذي يُعطي الخيراتِ الكثيرةَ لم يَذْكُرْ إلَّا منافعَ الدِّينِ، ولم يَذْكُرِ البتَّةَ شيئًا مِن منافعِ الدُّنيا[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، في إيثارِ اسمِ ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ بالذِّكْرِ هنا إيماءٌ إلى أنَّ ما سيُذْكَرُ مِن الدَّلائلِ على الوحدانيَّةِ وإنزالِ القرآنِ دلائلُ قيِّمَةٌ تُفَرِّقُ بيْنَ الحقِّ والباطلِ[٤].

٨- قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فيه أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ إذا أضاف إنزالَ شيءٍ إليه، ولم يكُنْ عينًا قائمًا بذاتِه ولا صفةً في عينٍ قائمةٍ بذاتِها؛ لزِم أن يكونَ صفةً مِن صفاتِ الله، فتعيَّن أن يكونَ كلامًا لله تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٢، ١٨).

٩- قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، قَولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ هذه صِفةُ مَدحٍ وثَناءٍ؛ لأنَّ اللهَ أضاف نَبيَّه إلى عُبُوديَّتِه[1]. وقد وَصَف اللهُ تعالى أكرَمَ خَلْقِه عليه، وأعلاهم عِندَه مَنزِلةً بالعُبوديَّةِ في أشرَفِ مَقاماتِه؛ فذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ إنزالِ الكِتابِ عليه، فقال تبارك تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ التحَدِّي بأن يأتُوا بمِثْلِه في قَولِه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ الدَّعوةِ إليه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن: ١٩]، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ الإسراءِ، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾[2] [الإسراء: ١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ إشارةٌ إلى كثرةِ المستحقِّينَ للنِّذارةِ[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ اللهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿لِيَكُونَ﴾؛ لأنَّ «اللامَ» في قَولِه: ﴿لِيَكُونَ﴾ للتَّعليلِ، فإذا كانت للتعليلِ دلَّ هذا على أنَّها تفيدُ الحِكمةَ؛ إذِ العلَّةُ هي الباعثةُ على الشَّيءِ، أو هي غايةُ الشَّيءِ؛ لأنَّ العلةَ إمَّا غائيَّةٌ أو باعثةٌ، وكلٌّ منها يدُلُّ على الحِكمةِ[4].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ في السَّماءِ، ووجهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨).

الدَّلالةِ: أنَّ النُّزولَ يكونُ مِن عُلُوٍّ؛ وإذا كان اللهُ نَزَّلَ الفُرقانَ، فإنَّ هذا يدُلُّ على عُلُوِّ اللهِ تبارك وتعالى[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ أنَّ القُرآنَ كلَّه واضِحٌ صَريحٌ ليس فيه إشكالٌ؛ لأنَّه لا يمكنُ أن يكونَ فُرقانًا إلَّا على هذا الوجهِ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] فالمرادُ بالتَّشابُهِ فيه ليس اشتباهَ المَعنى، بل هو الموافَقةُ والمُشاكَلةُ في الكَمالِ والحُسنِ[٢].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ يدُلُّ على عمومِ رسالتِه صلَّى الله عليه وسلَّم للأسودِ والأحمرِ، والجنِّ والإنسِ؛ لدخولِ الجميعِ في قولِه تعالى: ﴿لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[٣]، فهو يتناوَلُ جميعَ المكلَّفِينَ مِن الجِنِّ والإنْسِ[٤].

ويَبطُلُ بهذا قولُ مَن قال: إنَّه كان رسولًا إلى بعضِ الناسِ دونَ بعضٍ[٥]، فمَن قال: إنَّه رسولٌ إلى العَرَبِ فقط، فإنَّه كافرٌ به[٦].

١٥- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، دلَّتِ الآيةُ على أنَّه رَسولٌ للخَلْقِ إلى يَومِ القيامةِ؛ فوَجَبَ أنْ يكونَ خاتَمَ الأنبياءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣).

(٤) أمَّا الملائِكةُ فقد حكى الرازيُّ الإجماعَ على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يكُنْ رَسولًا إلى الملائكةِ، وقد قدَح في هذا الإجماعِ البِقَاعيُّ في ((نظم الدرر)) (٧/ ٧٠) و(١٣/ ٣٣٢). ويُنظر تفصيلُ المسألةِ، والخلافُ فيها في رسالةِ: ((تزيين الأرائكِ في إرسالِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الملائكِ)) للسيوطيِّ.

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨).

والرُّسُلِ[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فضْلُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، حيثُ كُلِّفَ الرِّسالةَ إلى جميعِ الخَلقِ؛ لأنَّ هذا دَليلٌ على فضْلِه، وأنَّه أهلٌ لهذه المهِمَّةِ العظيمةِ؛ فلو أَرسلتَ إنسانًا لِيُصلحَ بيْن شخصينِ فهذا دليلٌ على فضْلِه، لكنْ لو أرسلتَ إنسانًا لِيُصلِحَ بيْن طائفتينِ أو أُمَّتَينِ فهذه زيادةُ فضلٍ؛ ولذلك لا يُرسَلُ لهذه المهمَّةِ الأخيرةِ إلَّا مَن هو جديرٌ بها، فكَوْنُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُرسِلَ لجميعِ الخَلقِ دَليلٌ على فَضلِه؛ حيث حُمِّل الرِّسالةَ إلى جَميعِ الخَلقِ[٢].

١٧- قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فذكَرَ الله سُبحانه وتعالى إنزالَ الفُرقانِ، وهو تشريعٌ وتَنظيمٌ، ثمَّ أعقَبَه بقَولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه يجِبُ العمَلُ بما جاء في هذا الفرقانِ؛ لأنَّه جاء مِن مالكِ السَّمواتِ والأرضِ، والمالِكُ له حَقُّ التصَرُّفِ في مملوكِه، بأنْ يُشَرِّعَ له ما شاء، ويُنَظِّمَ له ما شاء، وهذه هي الفائدةُ مِن قَولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بعْدَ قَولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾، فأتى بالتَّشريعِ أوَّلًا، أو بدُستورِ التَّشريعِ كما يقولون، ثمَّ أتى بعْدَ ذلك بعُمومِ المُلكِ؛ لأنَّه عزَّ وجَلَّ إذا كان هو المالِكَ العامَّ للسَّمواتِ والأرضِ، لَزِمَ أن يكونَ ما شَرَعه حتمًا على المملوكينَ[٣].

١٨- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠).

شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ أثنى جلَّ وعلا على نفْسِه في هذه الآيةِ الكريمةِ بخَمسةِ أُمورٍ، هي أدِلَّةٌ قاطِعةٌ على عَظَمتِه واستحقاقِه وحْدَه لإخلاصِ العبادةِ له:

**الأوَّلُ منها**: أنَّه هو الذي له مُلكُ السَّمواتِ والأرضِ.

**والثاني**: أنَّه لم يتَّخِذْ ولَدًا- سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كَبيرًا.

**والثالثُ**: أنَّه لا شريكَ له في مُلكِه.

**والرابعُ**: أنَّه هو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ.

**والخامسُ**: أنَّه قَدَّر كُلَّ شَيءٍ خَلَقه تقديرًا[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الاشتراكَ في المِلكِ ينافي حقيقةَ المِلكِ التامَّةَ التي لا يَليقُ به غيرُها[2].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيه ردٌّ على مُشْركي قُريشٍ، وعلى النَّصارى واليهودِ النَّاسبينَ للهِ الولَدَ[3].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّه سُبحانَه خالقٌ لأعمالِ العِبادِ، وهذا مِن وجهينِ:

**الأول**: أنَّ قولَه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يتناوَلُ جميعَ الأشياءِ؛ فيتناولُ أفعالَ العبادِ.

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٠).

**والثاني**: أنَّه تعالى بعْدَ أنْ نفَى الشريكَ ذَكَر ذلك، والتقديرُ أنَّه سُبحانَه لَمَّا نفَى الشريكَ كأنَّ قائلًا قال: هاهنا أقوامٌ يَعترفون بنَفيِ الشُّركاءِ والأندادِ، ومع ذلك يقولون: إنَّهم يَخلقون أفعالَ أنفسِهم؛ فذَكَرَ اللهُ تعالى هذه الآيةَ لتكونَ مُعينةً في الرَّدِّ عليهم[1].

٢٢- قَولُه تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ إنْ كان الخلْقُ بمعنى التَّقديرِ، فكيف جاء ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾؛ إذ يَصيرُ المعنى: وقدَّرَ كلَّ شَيءٍ يُقدِّرُه تقديرًا، وكيف جمَعَ بيْنهما؟

**الجوابُ**: أنَّ الخلْقَ مِن اللهِ هو الإيجادُ؛ فصَحَّ الجمْعُ بيْنه وبيْن التَّقديرِ، والمعنى أنَّه أحدَثَ كلَّ شَيءٍ إحداثًا مُراعًى فيه التَّقديرُ والتَّسويةُ، فقدَّرَه وهيَّأَهُ لِمَا يَصلُحُ له. أو سمَّى إحداثَ اللهِ خلْقًا؛ لأنَّه لا يُحدِثُ شيئًا -لحِكْمتِه- إلَّا على وَجْهِ التَّقديرِ مِن غيرِ تفاوُتٍ، فإذا قِيل: خلَقَ اللهُ كذا، فهو بمَنزلةِ قولِك: أحدَثَ وأوجَدَ، مِن غيرِ نظَرٍ إلى وَجهِ الاشتقاقِ، فكأنَّه قِيل: وأوجَدَ كلَّ شيءٍ، فقدَّرَهُ في إيجادِه لم يُوجِدْه مُتفاوِتًا. وقيل: فجعَلَ له غايةً ومُنتهًى، ومعناهُ: فقدَّرَه للبقاءِ إلى أمدٍ معلومٍ، ولو سُلِّمَ أنَّه التَّقديرُ، فساغ الجمْعُ بيْنهما لاختلافِهما لفظًا[2].

٢٣- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ يُستدَلُّ به على أنَّ فِعلَ العَبدِ مَخلوقٌ لله تعالى؛ لأنَّه تعالى عابَ هؤلاء الكفَّارَ مِن حيثُ عَبَدوا ما لا يَخلقُ شَيئًا، وذلك يدُلُّ على أنَّ مَن خَلَقَ يَستحقُّ أن يُعبَدَ، فلو كان العبدُ خالِقًا لكان مَعبودًا إلهًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٠، ٨١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٤٧).

٢٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ لَمَّا اعتَقَد المُشرِكون فيها أنَّها تضُرُّ وتنفَعُ، عبَّر عنها كما يعبَّرُ عمَّا يعقِلُ[1].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَسوقَ للخَصمِ ما يُقِرُّ به لُزومًا؛ حتى تقومَ الحُجَّةُ عليه، فهؤلاء الذين جَعَلوها آلهةً لا يمكِنُ أنْ يَدَّعوا أنَّها تخلُقُ، ولا يمكِنُ أنْ يَدَّعوا أنَّها غيرُ مخلوقةٍ[2].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ حُجَّةٌ على مَن يَرُدُّ مَشيئةَ العبادِ إلى أنفُسِهم؛ إذْ لو كانتِ المشيئةُ إليهم لكانوا مالِكينَ لضَرِّهم ونَفْعِهم، وقد نفاهما اللهُ تعالى عنهم، كما نفَى عنهم الموتَ والحياةَ والنُّشورَ[3].

٢٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على البَعثِ؛ لأنَّه تعالى ذَكَرَ النُّشورَ، ومعناه أنَّ المعبودَ يجبُ أنْ يكونَ قادرًا على إيصالِ الثَّوابِ إلى المُطيعينَ، والعقابَ إلى العُصاةِ، فمَن لا يكونُ كذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٣).

قال ابنُ تيميَّة: (إنَّ العَبدَ له مَشيئةٌ، وهي تابِعةٌ لِمَشيئةِ اللهِ، كما ذكَرَ اللهُ ذلك في عِدَّةِ مَواضِعَ مِن كتابِه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥-٥٦]، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ [المزمل: ١٩]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٧٤).

وقال أيضًا: (له مَشيئةٌ لكُلِّ ما يَفعَلُه باختيارِه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وكُلُّ ذلك إنَّما يكونُ بمَشيئةِ اللهِ وقُدرتِه؛ فلا بُدَّ مِن الإيمانِ بهذا وهذا). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٢٤٠).

وَجَبَ ألَّا يَصلُحَ للإلهيَّةِ[١].

٢٨- قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾ زيَّف الله تعالى فيه مذهَبَ عَبَدةِ الأوثانِ، وبيَّنَ نُقصانَها مِن وجوهٍ:

**أحدُها**: أنَّها ليستْ خالقةً للأشياءِ؛ والإلهُ يجبُ أنْ يكونَ قادرًا على الخلْقِ والإيجادِ.

**وثانيها**: أنَّها مخلوقةٌ؛ والمخلوقُ محتاجٌ؛ والإلهُ يجبُ أنْ يكونَ غنيًّا.

**وثالثُها**: أنَّها لا تَملِكُ لأنفُسِها ضرًّا ولا نفعًا؛ ومَن كان كذلك فهو لا يملكُ لغيرِه أيضًا نفعًا؛ ومَن كان كذلك فلا فائدةَ في عبادتِه.

**ورابعُها**: أنَّها لا تملكُ موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، أي: لا تَقدِرُ على الإحياءِ والإماتةِ في زمانِ التكليفِ، وثانيًا في زمانِ المجازاةِ، ومَن كان كذلك كيف يسمَّى إلهًا؟! وكيف يَحْسُنُ عبادتُه مع أنَّ حقَّ مَن يحقُّ له العبادةُ أنْ يُنْعِمَ بهذه النِّعَمِ المخصوصةِ[٢]؟!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ افتتاحٌ بديعٌ؛ لِنُدرةِ أمثالِه في كَلامِ بُلغاءِ العرَبِ؛ لأنَّ غالبَ فواتحِهم أنْ تكونَ بالأسماءِ مُجرَّدةً أو مُقترِنةً بحرفٍ غيرِ مُنفصِلٍ، أو بأفعالِ المُضارَعةِ ونحوِها، أو بحروفِ التَّأكيدِ أو الاستفهامِ أو التَّنبيهِ، مثْلُ (إنَّ) و(قد) والهمزةِ و(هَلْ). وبهذه النُّدرةِ يكونُ في طالعِ هذه السُّورةِ بَراعةُ المَطلَعِ؛ لأنَّ النُّدرةَ مِن العِزَّةِ، والعِزَّةُ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤٣١).

مَحاسنِ الألفاظِ، وضِدُّها الابتذالُ[١].

- وقولُه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ...﴾ على القولِ بأنَّه إخبارٌ عن عَظَمةِ اللهِ، وتوفُّرِ كَمالاتِه؛ فيكونُ المقصودُ به التَّعليمَ والإيقاظَ، ويجوزُ مع ذلك أنْ يكونَ كِنايةً عن إنشاءِ ثَناءٍ على اللهِ تعالى؛ أنشَأَ اللهُ به ثَناءً على نفْسِه كقولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، على طريقةِ الكلامِ العربيِّ في إنشاءِ التَّعجُّبِ مِن صِفاتِ المُتكلِّمِ في مَقامِ الفخرِ والعظَمةِ، أو إظهارِ غرائبَ صدَرَتْ[٢].

- كلمةُ ﴿تَبَارَكَ﴾ لا تُستعمَلُ إلَّا للهِ بلَفظِ الماضي، وقد ذُكِرَت في هذه السُّورةِ في ثلاثةِ مواضِعَ؛ تَعظيمًا للهِ تعالى، وخُصَّتْ مَواضُعها بذِكْرِها؛ لِعِظَمِ ما بعْدَها:

**الأوَّلُ**: ذِكْرُ الفُرقانِ، وهو القُرآنُ، المُشتمِلُ على معاني جميعِ كُتبِ اللهِ.

**والثَّاني**: ذِكْرُ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُخاطَبةُ اللهِ له فيه.

**والثَّالثُ**: ذِكْرُ البُروجِ، والشَّمسِ والقمَرِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، ولولاها -بعْدَ اللهِ- لَمَا وُجِدَ في الأرضِ حيوانٌ ولا نَباتٌ[٣].

- قَولُه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ فيه إبرازُ تَنزيلِ الفُرقانِ في مَعْرِضِ الصِّلةِ الَّتي حَقُّها أنْ تكونَ مَعلومةَ الثُّبوتِ للمَوصولِ عندَ السَّامعِ مع إنكارِ الكَفَرةِ له؛ لإجرائِه مُجْرى المَعلومِ المُسلَّمِ؛ تَنبيهًا على كَمالِ قُوَّةِ دَلائلِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٥، ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٢، ٤٠٣).

وكونِه بحيثُ لا يَكادُ يَجْهلُه أحدٌ[١]. والموصولُ ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ﴾ يُومِئُ إلى عِلَّةِ ما قبْلَه؛ فهو كِنايةٌ عن تَعظيمِ شأْنِ الفُرقانِ وبَرَكتِه على النَّاسِ مِن ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، فتلك مِنَّةٌ عظيمةٌ تُوجِبُ الثَّناءَ على اللهِ. وهو أيضًا كِنايةٌ عن تَعظيمِ شأْنِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

- وقولُه: ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾، أي: المُفرَّقَ -على أحدِ القولينِ في التفسيرِ-، وجاء في أثناءِ السُّورةِ بعْدَ آياتٍ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: أنزَلْناهُ مُفرَّقًا، كذلك ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾؛ فيكونُ وصْفُه بالفُرقانِ في أوَّلِ السُّورةِ -واللهُ أعلَمُ- كالمُقدِّمةِ والتَّوطئةِ لِمَا يأْتي بعْدُ[٣].

- ووَصْفُ النَّبيِّ بـ ﴿عَبْدِهِۦ﴾ تَقريبٌ له، وتَمهيدٌ لإبطالِ طلَبِهم منه في قولِه: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] الآيةَ[٤]. وإيرادُه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أيضًا بذلك العُنوانِ؛ لتَشريفِه، والإيذانِ بكَونِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أقصى مَراتبِ العُبوديَّةِ، والتَّنبيهِ على أنَّ الرَّسولَ لا يكونُ إلَّا عبْدًا للمُرسِلِ؛ ردًّا على النَّصارى[٥].

- قَولُه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ فيه تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على عامِلِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠).

لمُراعاةِ الفواصلِ[١].

- وفي قولِه: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث اقتصَرَ في وصْفِ الرَّسولِ هنا على النَّذيرِ دونَ البشيرِ، كما في قولِه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]؛ لأنَّ المقامَ هنا لتَهديدِ المُشركينَ؛ إذ كذَّبوا بالقُرآنِ وبالرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فكان مُقْتضيًا لذِكْرِ النِّذارةِ دونَ البِشارةِ، وفي ذلك اكتِفاءٌ؛ لأنَّ البِشارةَ تَخطُرُ ببالِ السَّامعِ عندَ ذِكْرِ النِّذارةِ. وسيَجِيءُ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ في هذه السُّورةِ [الآية: ٥٦][٢]؛ ففي اختصاصِ النَّذيرِ دونَ البشيرِ سُلوكُ طريقِ بَراعةِ الاستهلالِ، والإيذانُ بأنَّ هذه السُّورةَ مُشتمِلةٌ على ذِكْرِ المُعانِدينَ المُتَّخِذينَ للهِ ولدًا وشريكًا، الطَّاعنينَ في كُتبِه ورُسلِه واليومِ الآخِرِ[٣]. وقيل: اقتصرَ على النِّذارةِ؛ للإشارةِ إلى البِشارةِ بلفظِ ﴿تَبَارَكَ﴾[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ على القولِ بأنَّ مَحلَّه الرَّفعُ على أنَّه خبرٌ لمُبتدأٍ مَحذوفٍ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لِمَا قبْلَها[٥]. وعلى أنَّ قولَه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بدَلٌ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]؛ فإعادةُ اسمِ الموصولِ لاختلافِ الغرَضِ مِن الصِّلتينِ؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠١).

الصِّلةَ الأُولى في غرَضِ الامتِنانِ بتَنزيلِ القُرآنِ للهُدى، والصِّلةَ الثَّانيةَ في غرَضِ اتِّصافِ اللهِ تعالى بالوَحدانيَّةِ(٦).

- وقولُه: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ توطئةٌ وتَمهيدٌ لقولِه: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾، وأردَفَه بقولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ لأنَّ كَوْنَه بَديعَ السَّمواتِ والأرضِ، ومُفطِرَهما، ومالِكَهما، مُنافٍ لاتِّخاذِ الولَدِ والشَّريكِ(٧).

- وقد أُجْرِيَت على اسمِ اللهِ تعالى هذه الصِّفاتُ الأربعُ -﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾- بطريقِ تَعريفِ الموصوليَّةِ؛ لأنَّ بعضَ الصِّلاتِ مَعروفٌ عندَ المُخاطَبينَ اتِّصافُ اللهِ به، وهما الصِّفتانِ الأُولى والرَّابعةُ؛ وإذ قد كانَتَا مَعلومتينِ كانت الصِّلتانِ الأُخْرَيانِ المذْكورتانِ معهما في حُكْمِ المعروفِ؛ لأنَّهما أُجْرِيَتا على مَن عُرِفَ بالصِّلتينِ الأُولى والرَّابعةِ؛ فإنَّ المُشركين ما كانوا يَمتَرُون في أنَّ اللهَ هو مالِكُ السَّمواتِ والأرضِ، ولا في أنَّ اللهَ هو خالِقُ كلِّ شيءٍ، كما في قولِه: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ الآياتِ [٨٦، ٨٧] مِن سُورةِ (المؤمنون)، ولكنَّهم يُثبِتون للهِ ولدًا وشريكًا في المُلْكِ. ومِن بَديعِ النَّظمِ أنْ جُعِلَ الوَصفانِ المُختلَفُ فيهما معهم مُتوسِّطَينِ بيْنَ الوصفينِ اللَّذينِ لا مِريةَ فيهما؛ حتَّى يكونَ الوَصفانِ المُسلَّمينِ كالدَّليلِ أوَّلًا، والنَّتيجةِ آخِرًا؛ فإنَّ الَّذي له مُلْكُ السَّمواتِ والأرضِ لا يَلِيقُ به أنْ يَتَّخِذَ ولدًا، ولا أنْ يَتَّخِذَ

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٧) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٦٨).

شَريكًا؛ لأنَّ مُلْكَه العظيمَ يَقْتضي غِناهُ المُطْلَقَ، فيَقْتضي أنْ يكونَ اتِّخاذُه ولدًا وشريكًا عبثًا؛ إذ لا غايةَ له، وإذا كانت أفعالُ العُقلاءِ تُصانُ عن العبَثِ؛ فكيف بأفعالِ أحكَمِ الحُكماءِ تعالى وتقدَّسَ[1]؟!

- ونظَمَ قولَه: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ في سِلْكِ الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾؛ للإيذانِ بأنَّ مَضمونَه مِن الوُضوحِ والظُّهورِ بحيثُ لا يَكادُ يَجْهَله جاهِلٌ، لا سيَّما بعدَ تَقريرِ ما قبْلَه[2].

- قَولُه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ تأكيدٌ لقولِه: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وردٌّ على مَن جعَل لله شريكًا[3]. وتَوسيطُ نفْيِ اتِّخاذِ الولدِ بيْنَهما؛ للتَّنبيهِ على استقلالِه وأصالَتِه، والاحترازِ عن تَوهُّمِ كونِه تَتِمَّةً للأوَّلِ[4].

- قَولُه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ الجُملةُ جاريةٌ مَجْرى التَّعليلِ لِمَا قبْلَها مِن الجُمَلِ المُنتظِمةِ مِثْلِها في سِلْكِ الصِّلةِ؛ فإنَّ خَلْقَه تعالى لجَميعِ الأشياءِ على ذلك النَّمطِ البديعِ -كما يَقْتضي استقلالَه تعالى باتِّصافِه بصِفاتِ الأُلوهيَّةِ- يَقْتضي انتظامَ كلِّ ما سِواهُ كائنًا ما كان تحت مَلكوتِه القاهرِ، بحيثُ لا يَشِذُّ عنها شَيءٌ مِن ذلك قطْعًا، وما كان كذلك كيف يُتوَّهَمُ كونُه ولدًا له سُبحانه أو شَريكًا في مُلْكِه[5]؟!

- وفرَّعَ على (خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ) قولَه: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾؛ لأنَّه دليلٌ على إتْقانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الخلْقِ إتقانًا يدُلُّ على أنَّ الخالقَ مُتَّصِفٌ بصِفاتِ الكَمالِ[١].

- وقولُه: ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ فيه تأكيدُ الفِعْلِ ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿تَقۡدِيرٗا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه تقديرٌ كاملٌ في نَوعِ التَّقاديرِ[٢].

- وما جاء مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا بَراعةُ استهلالٍ بأغراضِها، وهو يَتنزَّلُ مَنزِلةَ خُطبةِ الكِتابِ أو الرِّسالةِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾

- قَولُه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗ﴾ استطرادٌ لانتهازِ الفُرصةِ لوَصفِ ضَلالِ أهْلِ الشِّركِ، وسَفالةِ تَفكيرِهم؛ فهو عطفٌ على جُملةِ: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الفرقان: ٢] وما تلاها ممَّا هو استِدلالٌ على انفرادِه تعالى بالإلهيَّةِ، وأُرْدِفَت بقولِه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الفرقان: ٢] الشَّاملِ لِكَونِ ما اتَّخَذوه مِن الآلهةِ مَخلوقاتٍ؛ فكان ما تقدَّمَ مُهيِّئًا للتَّعجيبِ مِن اتِّخاذِ المُشرِكين آلهةً دونَ ذلك الإلهِ المَنعوتِ بصِفاتِ الكَمالِ والجلالِ؛ فالخبَرُ غيرُ مَقصودٍ به الإفادةُ، بلْ هو للتَّعجُّبِ مِن حالِهم: كيف قابَلوا نِعمةَ إنزالِ الفُرقانِ بالجَحدِ والطُّغيانِ، وكيف أشْرَكوا بالَّذي تلك صِفاتُه آلهةً أُخرى، صِفاتُهم على الضِّدِّ مِن صِفاتِ مَن أشْرَكوهم به؟! وإلَّا فإنَّ اتِّخاذَ المُشرِكين آلهةً أمرٌ معلومٌ لهم وللمُؤمِنينَ؛ فلا يُقصَدُ إفادتُهم لحُكْمِ الخبرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قَولُه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ﴾ فيه إضمارٌ في مَوضعِ الإظهارِ، والإضمارُ مِن غَيرِ جَرَيانِ ذِكْرِهم؛ للثِّقةِ بدَلالةِ ما قبْلَه مِن نفْيِ الشَّريكِ عليهم[1].

- وذكَرَ في هذه الآيةِ مِن أقوالِهم المُقابِلةِ للجُمَلِ الموصوفِ بها اللهُ تعالى؛ اهتمامًا بإبطالِ كُفْرِهم المُتعلِّقِ بصِفاتِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك أصْلُ الكُفرِ ومادَّتُه[2]؛ فجُملةُ: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ مُقابِلةٌ جُملةَ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٢]. وجُملةُ: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الفرقان: ٢]؛ لأنَّ ولَدَ الخالقِ يجِبُ أنْ يكونَ مُتولَّدًا منه، فلا يكونُ مَخلوقًا. وجُملةُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢]؛ لأنَّ الشَّرِكةَ في المُلْكِ تَقْتضي الشَّرِكةَ في التَّصرُّفِ. وجُملةُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]؛ لأنَّ أعظَمَ مَظاهِرِ تَقديرِ الخلْقِ هو مَظهَرُ الحياةِ والموتِ، وذلك مِن المُشاهَداتِ. وأمَّا قولُه: ﴿وَلَا نُشُورًا﴾ فهو تَكميلٌ لِقَرْعِ المُشركينَ نُفاةِ البَعثِ؛ لأنَّ نفْيَ أنْ يكونَ الآلهةُ يَمْلِكون نُشورًا يَقْتضي إثباتَ حَقيقةِ النُّشورِ في نفْسِ الأمْرِ؛ إذ الأكثَرُ في كلامِ العرَبِ أنَّ نَفْيَ الشَّيءِ يَقْتضي تحقُّقَ ماهيَّتِه[3].

- قَولُه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فيه وَصْفُ الآلهةِ بانتفاءِ إنشائِهم شيئًا مِن الأشياءِ؛ إشارةً إلى انتفاءِ القُدرةِ بالكُلِّيَّةِ، ثمَّ بأنَّهم مَخلوقونَ للهِ ذاتًا، أو مَصْنوعون بالنَّحتِ والتَّصويرِ على شكْلٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣١٩، ٣٢٠).

مَخصوصٍ، وهذا أبلَغُ في الخَساسةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قاله هنا بالضَّميرِ: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، وقالَه في سُورةِ (مُريمَ) و(يسَ) بلفْظِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ فقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]، وقال: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٧٤]؛ مُوافقةً لِمَا قبْلَه في المواضعِ الثَّلاثةِ؛ فآيةُ (الفُرقانِ) تَقَدَّمَ قبْلَها اسمُه سُبحانَه مَكْنِيًّا عنه جلَّ وعلا في قولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا * ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾؛ فوَرَدَ اسمُه سُبحانه مَكْنِيًّا عنه ثمانِيَ مرَّاتٍ: أوَّلُها الموصولُ، وهو الَّذي مِن قولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي﴾، وفاعلُ ﴿نَزَّلَ﴾ المُضْمَرُ، والضَّميرُ في ﴿عَبۡدِهِۦ﴾، والموصولُ الثَّاني، والضَّميرُ المجرورُ باللَّامِ، والضَّميرُ الفاعلُ في ﴿وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا﴾، والضَّميرُ في ﴿لَّهُۥ﴾ المجرورُ، والضَّميرُ الفاعلُ في ﴿وَخَلَقَ﴾؛ فلمَّا تكرَّرَ اسمُه مَكْنِيًّا عنه ثمانِيَ مرَّاتٍ جَرى بعْدَ ذلك في قولِه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ مُضْمَرًا على حُكْمِ ما تقدَّمَ، فما في هذه السُّورةِ وافَق ما قبْلَه، أمَّا في السُّورتينِ فلو جاءَ (مِن دونِه) لخالَف ما قبلَه؛ لأنَّ ما قبْلَه في السُّورتينِ بلفظِ الجَمعِ؛ تعظيمًا، فصرَّح؛ فجاء كلٌّ مِن الآيتينِ على ما يجِبُ ويُناسِبُ[٢].

- والتَّنصيصُ على قولِه: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾؛ لبَيانِ عجْزِهم عمَّا هو أهْوَنُ مِن هذه الأمورِ مِن دفْعِ الضَّرِّ وجلْبِ النَّفعِ؛ للتَّصريحِ بعَجْزِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٧٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٢).

عن كلٍّ واحدٍ ممَّا ذُكِرَ على التَّفصيلِ، والتَّنبيهِ على أنَّ الإلهَ يجِبُ أنْ يكونَ قادرًا على جميعِ ذلك. وفيه إيذانٌ بغايةِ جَهْلِهم وسَخافةِ عُقولِهم، كأنَّهم غيرُ عارفينَ بانتفاءِ ما نُفِيَ عن آلهتِهم مِن الأمورِ المذكورةِ، مُفْتَقِرون إلى التَّصريحِ بذلك[١].

- والتَّنكيرُ في قولِه: ﴿مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً﴾ في سِياقِ النَّفيِ للعُمومِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاء قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، فقدَّمَ الضَّرَّ على النَّفعِ هنا، وعكَسَ ذلك في سُورةِ (الرَّعدِ): ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد: ١٦]. ووَجْهُ ذلك: أن ما في سُورةِ (الفُرقانِ) بُنِيَ على ما قبْلَه، وهو ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، وقولُه: ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ نفْيٌ، وقولُه: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ إثباتٌ؛ فقَدَّمَ النَّفيَ على الإثباتِ، وكان الضَّرُّ نفْيًا، والنَّفعُ إثباتًا؛ إذِ النَّفعُ إثباتُ المصالحِ وإيجادُها؛ والضَّرُّ نفْيُها، فكما قَدَّمَ فيما قبْلَه ما نَفى على ما أثبَتَ، حمَلَ المعطوفَ عليه لِيكونَ مُشاكِلًا له. وأمَّا في سُورةِ (الرَّعدِ) فإنَّه قدَّمَ فيها الأفضلَ على الأنقَصِ؛ لأنَّ اجتلابَ النَّفعِ أشرَفُ مِن استدفاعِ الضَّرِّ، وهو رُتْبةٌ فَوقَه؛ فمَن فاته ذلك طلَبَ دفْعَ الضَّرِّ، فهو على وَجْهِه في التَّرتيبِ[٣]. وقيل: قدَّمَ الضَّرَّ على النَّفعِ؛ لمُناسَبةِ ما بعْدَه مِن تَقديمِ الموتِ على الحياةِ[٤]. وقيل: تَقديمُ ذِكْرِ الضَّرِّ؛ لأنَّ دَفْعَه -مع كونِه أهَمَّ في نفْسِه- أوَّلُ مَراتبِ النَّفعِ وأقدمُها[٥]. وقيل: قولُه هنا: ﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ جَرَى مَجْرى المثَلِ لقَصْدِ الإحاطةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ٩٥٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

بالأحوالِ؛ فكأنَّه قيل: لا يَمْلِكون التَّصرُّفَ بحالٍ مِن الأحوالِ. وهذا نظيرُ أنْ يُقالَ: شَرْقًا وغرْبًا، وليلًا ونَهارًا. وبذلك يَندفِعُ ما يُشكِلُ في بادئِ الرَّأيِ مِن وجْهِ نفْيِ قُدرتِهم على إضرارِ أنفُسِهم بأنَّه لا تَتعلَّقُ إرادةُ أحدٍ بضَرِّ نفْسِه، وبذلك أيضًا لا يُتطلَّبُ وجْهٌ لتَقديمِ الضَّرِّ على النَّفعِ؛ لأنَّ المقامَ يَقْتضي التَّسويةَ في تَقديمِ أحَدِ الأمْرينِ؛ فالمُتكلِّمُ مُخيَّرٌ في ذلك، والمُخالَفةُ بيْن الآياتِ في تَقديمِ أحَدِ الأمرينِ مُجرَّدُ تَفنُّنٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٠).

## الآيات (٤-٦)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٦﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلماتِ:

﴿إِفۡكٌ﴾: أي: كَذِبٌ، وقيل: هو أسوأُ الكذبِ؛ لأنَّه قلْبٌ للكلامِ عن الحقِّ إلى الباطلِ، وأصلُه: يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهتِه[1].

﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: أي: اختلَقَه، والافتِراءُ: الاختِلاقُ، ويُقالُ: افترَى فلانٌ على فلانٍ: إذا قذَفه بما ليسَ فيه، وأصلُه: ما عظُم مِن الكَذِبِ[2].

﴿وَزُورٗا﴾: الزُّورُ: الباطِلُ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وقد غَلَب على الكَذِبِ، وقيل للكَذِبِ: زورٌ؛ لكونِه مائِلًا عن طريقةِ الحَقِّ، وأصلُ (زور): يدُلُّ على المَيلِ والعُدولِ[3].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: الأساطيرُ: الأباطيلُ والتُّرَّهاتُ، جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (ص: ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، =

﴿ٱكۡتَتَبَهَا﴾: أي: اختَلَقها واستَنسخَها، وأصلُ (كتب): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿تُمۡلَىٰ﴾: أي: تُلقَى وتُقرَأُ، مِن قَولِهم: أمليتُ عليك الكِتابَ وأملَلْتُ، وهو إلقاءُ الكلامِ لِمن يكتُبُ ألفاظَه أو يَرويها أو يحفَظُها[٢].

﴿بُكۡرَةً﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه[٣].

﴿وَأَصِيلًا﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ، وما بيْن العَصرِ إلى اللَّيلِ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكرُ الله تعالى بعضَ الشُّبهاتِ التي أثارها المشركونَ حوْلَ القرآنِ، فيقولُ: وقال الكافِرونَ: ما هذا القرآنُ إلَّا كَذِبٌ اختلقَه محمَّدٌ مِن عِندِه، وأعانه على اختِلاقِه قَومٌ مِن غيرِ قَومِه! فقد أتى هؤلاء الكُفَّارُ الكاذِبون بظُلمٍ وكَذِبٍ.

ثمَّ يَذكرُ تعالى شُبْهةً أُخرَى مِن شُبُهاتِهم الفاسدةِ، وهي أنَّهم قالوا: ما هذا القُرآنُ إلَّا أكاذيبُ الأوَّلينَ استنسَخها منهم محمَّدٌ، فهي تُقرأُ عليه أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه!

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالردِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: الذي أنزَلَ القُرآنَ هو اللهُ الذي يعلَمُ غَيبَ السَّمواتِ والأرضِ، وسِرَّ مَن فيهما، إنَّه غفورٌ رَحيمٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما يعودُ إلى التَّوحيدِ؛ انتقَلَ إلى ما يعودُ إلى الرِّسالةِ؛ وذلك لأنَّ الشَّهادةَ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ[1].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ ﴾.

أي: وقال الكافِرونَ: ما هذا القرآنُ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه محمَّدٌ، وليس هو مِن عندِ اللهِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴾ [ص: ٤].

﴿وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ ﴾.

أي: وأعان محمَّدًا على اختِلاقِ هذا القُرآنِ أُناسٌ ذَوو قُدرةٍ وكفايةٍ مِن غَيرِ قَومِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾.

أي: فقد أتى الكُفَّارُ بظُلمٍ وكَذِبٍ ومَيْلٍ عن الحَقِّ، حينَ وصَفوا القُرآنَ بغيرِ صِفتِه، ورَمَوُا النبيَّ بالكَذِبِ على اللهِ(١).

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ: هذا القُرآنُ عِبارةٌ عن أكاذيبِ الأُمَمِ الأوَّلينَ وقَصَصِهم المسطَّرةِ في كُتُبِهم، استنسَخها منهم محمَّدٌ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٥-٤٠).

قال ابن كثير: (وهذا الكلامُ -لسخافتِه وكَذِبِه وبَهْتِه منهم- كلُّ أحدٍ يعلَمُ بُطلانَه؛ فإنَّه قد عُلِم بالتواتُرِ وبالضَّرورةِ أنَّ محمدًا رسولَ الله لم يكُنْ يعاني شيئًا مِن الكتابةِ، لا في أوَّلِ عُمُرِه ولا في آخِرِه، وقد نشأ بيْن أظهُرِهم مِن أوَّلِ مَولِدِه إلى أنْ بعَثَه اللهُ نحوًا مِن أربعين سنةً، وهم يَعرِفون مَدخَلَه ومَخرَجَه، وصِدقَه وبِرَّه وأمانتَه، ونزاهتَه مِن الكَذِبِ والفُجورِ وسائرِ الأخلاقِ الرذيلةِ، حتى إنَّهم لم يكونوا يسمُّونَه في صِغَرِه إلى أنْ بُعِث إلَّا الأمينَ؛ لِما يَعلمون مِن صِدقِه وبِرِّه. فلمَّا أكرَمَه الله بما أكرَمَه به نصَبوا له العداوةَ، ورَمَوه بهذه الأقوالِ التي يعلَمُ كُلُّ عاقلٍ براءتَه منها، وحاروا ماذا يَقذِفونَه به؛ فتارةً مِن إفكِهم يقولون: ساحِرٌ، وتارةً يقولون: شاعرٌ، وتارةً يقولون: مجنونٌ، وتارة يقولون: كذَّابٌ!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥).

قال السمين الحلبي: (﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾: الافتِعالُ هنا يجوز أنْ يكونَ بمعنى أَمَر بكِتابتِها، =

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال: ٣١].

﴿ فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾.

أي: فهذه الأساطيرُ التي اكتَتَبها محمَّدٌ تُقرأُ عليه في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرَه؛ ليَحفَظَها[1].

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: الذي أنزَل القُرآنَ المشتَمِلَ على الأسرارِ -كالإخبارِ بالأمورِ الماضيةِ والمُستَقبَلةِ- هو اللهُ الذي يعلَمُ غَيبَ السَّمواتِ والأرضِ، وسِرَّ مَن فيهما، ولا يخفَى عليه شَيءٌ[2].

كما قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٦].

---

= كافتَصَد واحتَجَم، إذا أَمَر بذلك. ويجوزُ أَنْ يكونَ بمعنى كَتَبَها، وهو مِنْ جملةِ افترائِهم عليه؛ لأنَّه عليه السَّلامُ كان أمِّيًّا لا يَقرأُ ولا يَكتُبُ، ويكونَ كقَولِهم: اسْتَكَبَّه واصْطَبَّه، أي: سَكَبَه وصَبَّه. والافتِعالُ مُشْعِرٌ بالتكَلُّفِ. ويجوز أَنْ يكونَ مِنْ كَتَبَ بمعنى جَمَعَ، مِن الكَتْبِ: وهو الجَمْعُ، لا مِنَ الكتابةِ بالقلَمِ). ((الدر المصون)) (٨/ ٤٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

قال ابنُ جزي: (ويعني بالسِّرِّ: ما أَسَرَّه الكُفَّارُ مِن أقوالِهم، أو يكونُ ذلك على وَجهِ التنَصُّلِ والبراءةِ مِمَّا نَسَبه الكُفَّارُ إليه مِنَ الافتراءِ، أي: أنَّ اللهَ يَعلَمُ سِرِّي، فهو العالِمُ بأنِّي ما افتَرَيتُ عليه، بل هو أنزَلَه علَيَّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٧٨).

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

**مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:**

لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ العالِمَ بكُلِّ شَيءٍ قادِرٌ على كلِّ شَيءٍ، وكانت العادةُ جاريةً بأنَّ مَن عَلِم استِخفافَ غَيرِه به وكان قادِرًا عليه، عاجَلَه بالأخذِ- أُجيبَ مَن كأنَّه قال: فما له لا يُهلِكُ المكذِّبين له؟ بقَولِه -مرَغِّبًا لهم في التوبةِ، مشيرًا إلى قُدرتِه بالسَّترِ والإنعامِ، ومبيِّنًا لفائدةِ إنزالِه إليهم هذا الذِّكرَ مِن الرُّجوعِ عمَّا تمادت عليه أزمانُهم مِن الكُفرِ وأنواعِ المعاصي-[1]:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ لم يَزَلْ يستُرُ ذُنوبَ عبادِه، ويتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها ويرحَمُهم، ومِن رحمتِه بهم أنَّه لم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ، ويَقبَلُ منهم التَّوبةَ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

قال ابن جرير: (يقولُ: إنَّه لم يَزَلْ يصفَحُ عن خَلقِه ويرحَمُهم، فيتفضَّلُ عليهم بعَفوِه، يقول: فلأنَّ ذلك مِن عادتِه في خَلقِه يمهِلُكم أيُّها القائلونَ ما قلْتُم مِن الإفكِ، والفاعلونَ ما فعلْتُم مِن الكُفرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠١).

وقال ابنُ كثير: (دعاءٌ لهم إلى التَّوبةِ والإنابةِ، وإخبارٌ بأنَّ رحمتَه واسعةٌ، وأنَّ حِلمَه عَظيمٌ، وأنَّ مَن تاب إليه تاب عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٤).

وقال البِقاعي: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ أزلًا وأبَدًا ﴿غَفُورًا﴾ أي: بليغَ السَّترِ لِما يريدُ مِن ذنوبِ عبادِه؛ بألَّا يعاتِبَهم عليها، ولا يؤاخِذَهم بها. ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم في الإنعامِ عليهم بعْدَ خَلقِهم؛ برزقِهم، وتركيبِ العُقولِ فيهم، ونصْبِ الأدلَّةِ لهم، وإرسالِ الرسلِ، وإنزالِ الكُتُبِ فيهم، ولإمهالِهم في تكذيبِهم، أي: فليس لإمهالِهم ووعْظِهم بما نزَّله إليهم سبَبٌ إلَّا رحمتُه وغفرانُه وعِلمُه بأنَّ كتابَه صَلاحٌ لأحوالِهم في الدارينِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٢).

كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أنزَلَه مَن أحاط عِلْمُه بما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ؛ مِنَ الغَيبِ والشَّهادةِ، والجَهرِ والسِّرِّ، وذِكْرُ عِلمِه تعالى العامِّ يُنَبِّهُهم ويَحُضُّهم على تدَبُّرِ القُرآنِ، وأنَّهم لو تدَبَّروا لرَأَوا فيه مِن عِلْمِه وأحكامِه ما يدُلُّ دَلالةً قاطِعةً على أنَّه لا يكونُ إلَّا مِن عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ[1].

٢- مع إنكارِهم للتَّوحيدِ والرِّسالةِ؛ مِن لُطفِ اللهِ بهم أنَّه لم يَدَعْهم وظُلْمَهم، بل دعاهم إلى التَّوبةِ والإنابةِ إليه، ووَعَدَهم بالمَغفِرةِ والرَّحمةِ إنْ هم تابوا ورَجَعوا، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا﴾ أي: وَصْفُه المَغفِرةُ لأهلِ الجَرائِمِ والذُّنوبِ إذا فَعَلوا أسبابَ المَغفِرةِ، وهي الرُّجوعُ عن مَعاصيه، والتَّوبةُ منها. ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم؛ حيثُ لم يُعاجِلْهم بالعُقوبةِ وقد فَعَلوا مُقتَضاها، وحيثُ قَبِلَ تَوبتَهم بعْدَ المعاصي، وحيثُ مَحا ما سَلَف مِن سَيِّئاتِهم، وحيثُ قَبِلَ حَسَناتِهم، وحيثُ أعاد الرَّاجِعَ إليه بعْدَ شُرودِه، والمُقبِلَ عليه بَعدَ إعراضِه- إلى حالةِ المُطيعينَ المُنِيبينَ إليه[2]، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ هذه الذُّنوبَ مع بُلوغِها الغايةَ في العِظَمِ مَغفورةٌ إن تابوا، وأنَّ رَحمتَه واصِلةٌ إليهم بَعْدَها؛ فلا يَيأَسوا منها بما فَرَط منهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٨/ ١٥٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴾ هذا القَولُ منهم فيه عِدَّةُ عَظائمَ:

**منها**: رَميُهم الرَّسولَ -الذي هو أبَرُّ النَّاسِ وأصدَقُهم- بالكَذِبِ، والجُرأةُ العَظيمةُ.

**ومنها**: إخبارُهم عن هذا القُرآنِ -الذي هو أصدَقُ الكَلامِ وأعظَمُه وأجَلُّه- بأنَّه كَذِبٌ وافتِراءٌ.

**ومنها**: أنَّ في ضِمنِ ذلك أنَّهم قادِرون أن يأتوا بمِثلِه، وأن يضاهيَ المخلوقُ النَّاقِصُ مِن كُلِّ وجهٍ الخالِقَ الكامِلَ مِن كُلِّ وجهٍ، بصفةٍ مِن صِفاتِه، وهي الكلامُ.

**ومنها**: أنَّ الرَّسولَ قد عُلِمت حالتُه، وهم أشَدُّ النَّاسِ عِلمًا بها؛ أنَّه لا يكتُبُ ولا يجتَمِعُ بمَن يكتُبُ له، وقد زعموا ذلك[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ لأنَّ فيه مِن الأسرارِ التي لا يعلَمُها إلَّا اللهُ ما يدُلُّ على أنَّ اللهَ أنزله، فذِكرُه ذلك يُستدَلُّ به تارةً على أنَّه حَقٌّ مُنزَّلٌ مِن اللهِ؛ لِكَونِه تضمَّنَ مِن الأخبارِ عن أسرارِ السَّمَواتِ والأرضِ والدُّنيا والأوَّلينَ والآخِرينَ، وسِرِّ الغيبِ، ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ. فمِن هنا نستَدِلُّ بعِلمِنا بصِدقِ أخبارِه أنَّه مِن الله، وإذا ثبَت أنَّه أنزَله بعِلمِه تعالى استدلَلْنا بذلك على أنَّ خبَرَه حَقٌّ، وإذا كان خبرًا بعِلمِ اللهِ فما فيه مِن الخبَرِ يُستدَلُّ به عن الأنبياءِ وأُممِهم، وتارةً عن يومِ القيامةِ وما فيها، والخبَرُ الذي يُستدَلُّ به لا بدَّ أن نعلمَ صِحَّتَه مِن غيرِ جِهتِه، وذلك كإخبارِه بالمستقبَلاتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

فوقعت كما أخبَرَ، وكإخباره بالأُمَمِ الماضية بما يوافِقُ ما عندَ أهلِ الكتابِ مِن غيرِ تعلُّمٍ منهم، وإخبارِه بأمورٍ هي سِرٌّ عندَ أصحابِها، كما قال: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣] إلى قوله: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [التحريم: ٣]؛ فقولُه: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استِدلالٌ بأخبارِه[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيه ردٌّ على ما زعَمه المشركونَ مِن اجتماعِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بمَن يكتبُ له، ووجهُ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم أنَّ الذي أنزَله هو المحيطُ عِلمُه بكُلِّ شَيءٍ، فيَستحيلُ ويمتَنِعُ أن يقولَ مخلوقٌ ويتقَوَّلَ عليه هذا القرآنَ، ويقولَ: هو مِن عندِ الله. وما هو مِن عندِه، ويستَحِلَّ دِماءَ مَن خالفَه وأموالَهم، ويزعُمَ أنَّ الله قال له ذلك. واللهُ يعلَمُ كُلَّ شَيءٍ، ومع ذلك فهو يؤيِّدُه وينصُرُه على أعدائِه، ويمكِّنُه من رِقابِهم وبلادِهم، فلا يمكِنُ أحدًا أن ينكِرَ هذا القُرآنَ إلَّا بعْدَ إنكارِ عِلمِ اللهِ، وهذا لا تقولُ به طائِفةٌ مِن بني آدمَ سِوى الفلاسفةِ الدهريَّةِ. وأيضًا فإنَّ ذِكرَ عِلمِه تعالى العامِّ ينبِّهُهم ويحضُّهم على تدبُّرِ القرآنِ، وأنَّهم لو تدَبَّروا لرأوا فيه مِن عِلمِه وأحكامِه ما يدُلُّ دَلالةً قاطِعةً على أنَّه لا يكونُ إلَّا مِن عالمِ الغَيبِ والشَّهادةِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ هذا شُروعٌ في حِكايةِ أباطيلِهم المُتعلِّقةِ بالمُنزِّلِ والمُنزَّلِ عليه معًا، وإبطالِها[3].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ﴾ فيه إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، حيثُ لم يقُلْ: (وقالوا)؛ لإفادةِ أنَّ مَضمونَ الصِّلةِ هو عِلَّةُ قولِهم هذا، أي: ما جرَّأهم على هذا البُهتانِ إلَّا إشراكُهم وتَصلُّبُهم فيه، وليس ذلك لشُبهةٍ تَبعَثُهم على هذه المقالةِ؛ لانتفاءِ شُبهةِ ذلك، بخِلافِ ما حُكِيَ آنفًا مِن كُفْرِهم باللهِ، فإنَّهم تلقَّوهُ مِن آبائِهم؛ فالوصفُ الَّذي أُجْرِيَ عليهم هنا مُناسِبٌ لِمَقالتِهم؛ لأنَّها أصْلُ كُفرِهم، وهذه الجُملةُ مُقابِلةٌ جُملةَ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]؛ فهي المقصودُ مِن افتِتاحِ الكلامِ كما آذنَتْ بذلك فاتِحةُ السُّورةِ. وإنَّما أُخِّرَت هذه الجُملةُ الَّتي تُقابِلُ الجُملةَ الأُولى، مع أنَّ مُقْتضَى ظاهرِ المُقابَلةِ أنْ تُذكَرَ هذه الجُملةُ قبْلَ جُملةِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: ٣]؛ اهتمامًا بإبطالِ الكُفرِ المُتعلِّقِ بصِفاتِ اللهِ[1].

- والقصْرُ المُشتمِلُ عليه كلامُهم المُستفادُ مِن (إنْ) النَّافيةِ و(إلَّا) قصْرُ قلْبٍ[2]؛ زعَموا به رَدَّ دَعوَى أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، وإسنادُ هذا القولِ إلى جميعِ الكُفَّارِ؛ لأنَّه واقعٌ بيْن ظَهرانَيْهم، وكلُّهم يَتناقَلونَه، وهذه طريقةٌ مألوفةٌ في نِسْبةِ أمْرٍ إلى القَبيلةِ، كما يُقالُ: بنو أسَدٍ قَتَلوا حُجْرًا[3]. وقيل: الموصولُ إمَّا عبارةٌ عن غُلاتِهم في الكُفرِ والطُّغيانِ، والجمْعُ لمُشايَعةِ الباقينَ له في ذلك. وإمَّا عن كُلِّهم، ووَضْعُ الموصولِ مَوضِعَ ضَميرِهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٢).

(٢) قصر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقول: ما زَيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٢).

وحُجْرٌ هو الكِنديُّ، والدُ امرئِ القيسِ. يُنظر: ((أمثال العرب)) للمفضل الضبي (ص: ١٢٧).

لِذمِّهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ، والإيذانِ بأنَّ ما تَفوَّهوا به كُفْرٌ عظيمٌ[١].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ مُتسلِّطٌ على كِلْتا الجُملتينِ، أي: لا يَخْلو هذا القُرآنُ -على زَعْمِهم- مِن مجموعِ الأمْرينِ؛ هما: أنْ يكونَ افْترى بعْضَه مِن نفْسِه، وأعانَه قومٌ على بَعضِه[٢].

- قَولُه: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ فرَّعَ على حِكايةِ قولِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ ظُهورَ أنَّهم ارْتَكبوا بقولِهم ظُلْمًا وزُورًا؛ لأنَّهم حين قالوا ذلك ظهَرَ أنَّ قولَهم زُورٌ وظُلْمٌ؛ لأنَّه اختِلاقٌ واعتداءٌ؛ فالفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها؛ لكنْ لا على أنَّهما أمْرانِ مُتغايرانِ حقيقةً، يقَعُ أحدُهما عَقِيبَ الآخَرِ أو يَحصُلُ بسبَبِه، بلْ على أنَّ الثَّانيَ هو عينُ الأوَّلِ حقيقةً، وإنَّما التَّرتيبُ بحسَبِ التَّغايُرِ الاعتباريِّ، و(قد) لتَحقيقِ ذلك المعنى؛ فإنَّ ما جاؤوه مِن الظُّلمِ والزُّورِ هو عينُ ما حُكِيَ عنهم؛ لكنَّه لمَّا كان مُغايِرًا له في المفهومِ، وأظهَرَ منه بُطلانًا، رُتِّبَ عليه بالفاءِ تَرتيبَ اللَّازمِ على الملزومِ؛ تَهويلًا لأمْرِه[٣].

- وتَنكيرُ ﴿ظُلْمًا وَزُورًا﴾؛ للتَّفخيمِ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: تُمْلى عليه طرفَيِ النَّهارِ، وهذا مُستعمَلٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٠٢).

كِنايةً عن كثرةِ المُمارَسةِ لِتَلقِّي الأساطيرِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ هذا جَوابٌ عن قولِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾، وقولِهم: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ على الأُسلوبِ الحَكيمِ[٢]، أي: قُلْ يا محمَّدُ: ليس هذا مِن افتِرائي، ولا هو مُمْلًى عليَّ، بلْ مُنزَّلٌ مِن عندِ مَن يَعلَمُ السِّرَّ في السَّمواتِ والأرضِ، وما في بواطِنِكم مِن الدَّهاءِ والمَكْرِ؛ لأنَّكم تَعلَمون عِلْمًا يَقينًا أنَّ هذا ليس مِن قَبيلِ الافتراءِ، ولا هو مِن الأساطيرِ؛ لأنَّه أعجَزَكم عن آخِرِكم بفَصاحَتِه، وأنَّه تضمَّنَ أخبارًا عن المُغيَّباتِ، وأسرارًا لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ عَزَّ وجَلَّ، لكنَّ غرَضَكم الصَّدُّ عن سَبيلِ اللهِ، ومُجرَّدُ العِنادِ؛ ويُؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا﴾ وإقحامُه بيْن كَلامِهم، فسُبحانَه ما أرحَمَه وما أجَلَّه؛ حيث أمهَلَكُم ولم يُعاجِلْكم بالاستئصالِ لهذه العظيمةِ! فإذَنْ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ معنى التَّعجُّبِ[٣]، وقد ردَّ عليهم بوَصْفِه تعالى بالعِلْمِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ لم يكُنْ لِيَصدُرَ إلَّا مِن علَّامٍ بكلِّ المعلوماتِ؛ لِمَا احْتَوى عليه مِن إعجازِ التَّركيبِ الَّذي لا يُمكِنُ صُدورُه مِن أحدٍ ولوِ استعانَ بالعالَمِ كلِّهم، ولِاشتمالِه على مصالِحِ العالَمِ وعلى أنواعِ العُلومِ. واكْتَفى بعِلْمِ السِّرِّ؛ لأنَّ ما سِواهُ أولى أنْ يَتعلَّقَ عِلْمُه به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٥).

(٢) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولَى بحالِه وبالسؤالِ عنه، وهو مِن خلافُ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ وَصْفُه تعالى بإحاطةِ عِلْمِه بجَميعِ المعلوماتِ الجَلِيَّةِ والخَفيَّةِ؛ للإيذانِ بانطواءِ ما أنزلَهُ على أسرارٍ مَطْويَّةٍ عن عُقولِ البشَرِ، مع ما فيه مِن التَّعريضِ بمُجازاتِهم بجِناياتِهم المَحْكيَّةِ الَّتي هي مِن جُملةِ مَعلوماتِه[1].

- وفي قولِه: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ عبَّرَ عن مُنزِلِ القُرآنِ بطَريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾؛ لِمَا تَقْتضيهِ الصِّلةُ مِن استشهادِ الرَّسولِ اللهَ على ما في سِرِّهِ؛ لأنَّ اللهَ يعلَمُ كلَّ سِرٍّ في كلِّ مكانٍ؛ فجُملةُ الصِّلةِ مُستعمَلةٌ في لازمِ الفائدةِ، وهو كونُ المُتكلِّمِ -أي: الرَّسولِ- عالِمًا بذلك. وفي ذلك كِنايةٌ عن مُراقبَتِه اللهَ فيما يُبَلِّغُه عنه. وفي ذلك إيقاظٌ لهم بأنْ يَتدبَّروا في هذا الَّذي زعَمُوه إفْكًا أو أساطيرَ الأوَّلينَ؛ لِيَظهَرَ لهم اشتمالُه على الحقائقِ النَّاصعةِ الَّتي لا يُحِيطُ بها إلَّا اللهُ الَّذي يَعلَمُ السِّرَّ، فيُوقِنوا أنَّ القُرآنَ لا يكونُ إلَّا مِن إنزالِه، ولِيَعلموا بَراءةَ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الاستعانةِ بمَن زَعَمُوهم يُعينونَه[2].

- قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تَرغيبٌ لهم في الإقلاعِ عن هذه المُكابَرةِ، وفي اتِّباعِ دِينِ الحقِّ؛ لِيَغفِرَ اللهُ لهم ويَرحَمَهم، وذلك تَعريضٌ بأنَّهم إنْ لم يُقلِعوا ويَتوبوا حَقَّ عليهم الغضَبُ والنِّقمةُ. أو غفورًا رحيمًا في كونِه أمهَلَكم ولم يُعاجِلْكم على ما اسْتَوجَبْتُموه مِن العِقابِ بسبَبِ مُكابرَتِكم؛ فهو تَعليلُ ما هو المُشاهَدُ مِن تأْخيرِ العُقوبةِ. أو لمَّا تقدَّمَ ما يدُلُّ على العِقابِ أعقَبَهُ بما يدُلُّ على القُدرةِ عليه؛ لأنَّ المُتَّصِفَ بالغُفرانِ والرَّحمةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٦).

قادرٌ على أنْ يُعاقِبَ[١]؛ فدلَّ قولُه: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ على القُدرةِ التَّامَّةِ الكاملةِ بالكِنايةِ. وفي إيثارِ هاتينِ الصِّفتينِ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: تَعييرٌ لهم، ونعْيٌ على فِعْلِهم؛ يعني: إنَّكم فيما أنتم فيه بحيث يَتصدَّى لِعَذابِكم مَن صِفَتُه الغُفرانُ والرَّحمةُ. وقيل: ذكَرَ المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأجْلِ أنْ يَعرِفوا أنَّ هذه الذُّنوبَ العظيمةَ المُتجاوِزةَ عن الحدِّ مَفقودةٌ إنْ تابوا، وأنَّ رَحمتَه واصلةٌ إليهم بعْدَها، وألَّا ييْأَسوا مِن رَحمتِه بما فرَطَ منهم مع إصرارِهم عليه مِن المُعاداةِ والمُخاصَمةِ الشَّديدةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٧٦).

## الآيات (٧-١٠)

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَنزٌ﴾: أي: مالٌ عظيمٌ، وهو في الأصلِ: المالُ المَدْفونُ تحتَ الأرضِ، والكَنْزُ: جعْلُ المالِ بعضِه على بعضٍ، وحِفظُه، وأصلُ (كنز): يدُلُّ على تجَمُّعٍ في الشَّيءِ[1].

﴿جَنَّةٌ﴾: أي: بُستانٌ، وكُلُّ بُستانٍ ذي شَجَرٍ يستُرُ بأشجارِه الأرضَ يقالُ له: جنَّةٌ. وأصلُ (جنن): يدُلُّ على السَّترِ[2].

﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾: أي: الأشباهَ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[3].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكرُ الله تعالى شبهةً ثالثةً مِن شُبَهِ المشركينَ، فيقولُ تعالى: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص ٦٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ١٣٢).

ما لمحمَّدٍ يأكُلُ الطَّعامَ ويمشي في الأسواقِ للتكسُّبِ -معَ أنَّه رَسولٌ-؟! هلَّا أنزَلَ اللهُ إليه مَلَكًا مِن السَّماءِ يَشهَدُ له بالصِّدقِ، ويُنذِرُ معه النَّاسَ إن كان صادِقًا، أو يُلقَى إليه كَنزٌ مِن المالِ يُنفِقُ منه، ويُكفى به طلَبَ الرِّزقِ، أو يكونُ له بُستانٌ يأكُلُ مِن ثمارِه! وقال هؤلاء المُشرِكون: ما تتَّبِعون إلَّا رجلًا به سِحرٌ، وليس هو برَسولٍ.

ثمَّ يقولُ تعالى مهوِّنًا مِن شأنِهم، ومسلِّيًا لرسولِه: انظرْ -يا محمَّدُ- كيف جعَل هؤلاء المُشرِكون لك الأوصافَ الكاذِبةَ الباطِلةَ، فضَلُّوا بذلك عن الصَّوابِ، فلا يَستطيعون إلى ذلك طَريقًا!

تعاظَمَ اللهُ، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ بركاتُه؛ فهو الذي إن شاء جعَلَ لك -يا محمَّدُ- خيرًا ممَّا يقولُ المُشرِكون؛ بساتينَ تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ، ويجعَلْ لك بُيوتًا عظيمةً في الدُّنيا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا فَرَغ سُبحانَه مِن ذِكرِ ما طَعَنوا به على القُرآنِ؛ ذَكَر ما طَعَنوا به على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال تعالى[1]:

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: ما لمحمَّدٍ -الذي يزعُمُ أنَّه رَسولٌ مِن اللهِ- يأكُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٣).

الطَّعامَ كما نأكُلُ، ويمشي في الأسواقِ للتكسُّبِ والتجارةِ كما نمشي[١]؟!

﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾.

أي: هلَّا أنزَلَ اللهُ إلى محمَّدٍ مَلَكًا مِن الملائكةِ، يَشهَدُ له بالصِّدقِ، ويُعينُه على إنذارِ النَّاسِ وتبليغِ رسالتِه، إن كان صادِقًا في دعواه أنَّه رَسولٌ مِن عندِ اللهِ[٢]!

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾.

أي: أو يُلقَى إلى محمَّدٍ كَنزٌ مِن المالِ يُنفِقُ منه فيُغنيه عن طَلَبِ المعاشِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ﴾ [هود: ١٢].

وقال تعالى حكايةً لِقَولِ فِرعَونَ عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧).

قال العليمي: (وكُتِبت اللامُ في المصحفِ مفرَدةً مِن قولِه: ﴿مَالِ هَٰذَا﴾، واتِّباعُه سُنَّةٌ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٩، ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٠).

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ ﴿نَأْكُلُ﴾ بالنونِ، أي: أو تكونُ له جَنَّةٌ يُطعِمُنا منها، فنتيقَّنُ أنَّ ثَمَرَها حقيقةٌ لا سِحرٌ[١].

٢- قراءةُ ﴿يَأْكُلُ﴾ بالياءِ، أي: يختَصُّ الرَّسولُ بالأكلِ مِن الجنَّةِ، فيَبينُ فَضلُه على غيرِه في مأكَلِه[٢].

﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾.

أي: أو يكونُ لمحمَّدٍ بُستانٌ يأكُلُ مِن ثمارِه، فيستغني بذلك عن طَلبِ الرِّزقِ[٣].

---

(١) قرأ بها حمزة، والكسائي، وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٨).

قال البقاعي: (وعلى قراءةِ حمزةَ والكسائيِّ بالنونِ يكونُ المعنى: أنَّا إذا أمكنَّا منها، كان ذلك أجلَبَ لنا إلى اتِّباعِه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٥).

وقال ابنُ عاشورٍ: (قرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ: (نأكُلُ منها) بنونِ الجماعةِ. والمعنى: ليتيقَّنوا أنَّ ثمرَها حقيقةٌ لا سِحرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٣)، ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٣/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٠).

قال الزمخشري: (يَعْنُونَ أنَّه كان يجِبُ أن يكونَ مَلَكًا مستغنيًا عن الأكلِ والتعَيُّشِ، ثمَّ نزَلوا عن اقتراحِهم أن يكونَ مَلَكًا إلى اقتراحِ أن يكونَ إنسانًا معه ملَكٌ؛ حتى يَتساندَا في الإنذارِ والتَّخويفِ، ثمَّ نزَلوا أيضًا فقالوا: وإن لم يكُنْ مَرْفودًا بملَكٍ فلْيَكُنْ مَرفودًا بكَنزٍ يُلقى إليه من السَّماءِ يَستظهِرُ به، ولا يحتاجُ إلى تحصيلِ المعاشِ، ثمَّ نزلوا فاقتنعوا بأن يكونَ رجُلًا له =

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٠، ٩١].

﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾.

أي: وقال المُشرِكون: ما تتَّبِعون[١] إلَّا رجُلًا مِن البَشَرِ به سِحرٌ، وليس رسولًا مِن عندِ اللهِ كما يزعُمُ، فهو رجلٌ مَخدوعٌ مَغلوبٌ على أمرِه، ومختَلُّ العَقلِ بالسِّحرِ[٢].

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾.

أي: انظُرْ -يا محمَّدُ- إلى هؤلاء المُشرِكين كيف يجعَلونَ لك هذه الأوصافَ، ويقولون فيك هذه الأقوالَ الباطلةَ المُتناقِضةَ، فأخطَؤوا بذلك الحَقَّ والصوابَ، فلا يَستطيعون إليه طَريقًا[٣]!

---

= بستانٌ يأكُلُ منه ويرتَزِقُ كما الدَّهاقينِ والمياسيرِ، أو يأكلون هُم مِن ذلك البُستانِ فينتَفِعون به في دنياهم ومعاشِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥).

(١) قيل: الخطابُ هنا للمؤمنينَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٥).

قال ابنُ جرير: (وقال المشركون للمؤمنينَ بالله ورسولِه: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ ﴾ أيُّها القومُ، باتِّباعِكم محمَّدًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤).

وقيل: الخطابُ لِقَومِهم المشركين، فقال ذلك بعضُهم لبعضٍ. ومِمَّن قال بذلك في الجملةِ: مكِّيٌّ، والبِقَاعيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير =

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

ابتُدِئت السورةُ بتعظيمِ اللهِ وثَنائِه على أنْ أنزَل الفُرقانَ على رسولِه، وأعقَبَ ذلك بما تلقَّى به المشرِكون هذه المزيَّةَ مِن الجُحودِ والإنكارِ النَّاشئِ عن تمسُّكِهم بما اتَّخَذوه مِن آلهةٍ مِن صِفاتِهم ما يُنافي الإلهيَّةَ، ثمَّ طعنوا في القُرآنِ والذي جاء به بما هو كُفرانٌ للنِّعمةِ ومَن جاء بها، فلَمَّا أُريدَ الإعراضُ عن باطلِهم، والإقبالُ على خِطابِ الرَّسولِ بتَثبيتِه وتثبيتِ المؤمنين؛ أُعِيدَ اللَّفظُ الذي ابتُدِئتْ به السورةُ على طريقةِ وصْلِ الكَلامِ، بقَولِه تعالى[1]:

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾.

أي: تعاظَمَ الله وكَمَلَت أوصافه وكثُرتْ خيراته ودامتْ وثبتتْ بَرَكاتُه؛ فهو الَّذي إن شاء جعَلَ لك -يا محمَّدُ- خيرًا مِمَّا اقتَرَحه المشركونَ؛ بساتينَ عديدةً في الدُّنيا[2]

---

= ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٣، ٥٤).

قال البِقاعي: (﴿فَضَلُّوا۟﴾ أي: عن جميعِ طرُقِ العَدلِ، وسائِرِ أنحاءِ البيانِ بسبَبِ ذلك، فلم يجِدوا قولًا يستقِرُّون عليه، وأبعدوا جِدًّا ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ في الحالِ ولا في المآلِ؛ بسببِ هذا الضَّلالِ ﴿سَبِيلًا﴾ أي: سُلوكَ سَبيلٍ مِن السُّبُلِ الموصِلةِ إلى ما يستحِقُّ أن يُقصَدَ، بل هم في مجاهِلَ مُوحِشةٍ، وفيافيَ مُهلِكةٍ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٧).

وقال الشنقيطي: (وقَولُه تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فيه أقوالٌ كثيرةٌ مُتقارِبةٌ، وأظهَرُها أنَّ معنى ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾، أي: طريقًا إلى الحَقِّ والصَّوابِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٠).

(٢) وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ وُقوعُ ذلك في الدُّنيا: الواحديُّ، وابنُ كثير، والبقاعي، والعليمي، =

تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ[١].

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءة ﴿وَيَجْعَلُ﴾ بالرفعِ على الاستِئنافِ، وفيه معنى الحَتمِ، أي: وسيجعَلُ اللهُ لك -يا محمَّدُ- قُصورًا في الجنَّةِ[٢].

٢- قراءة ﴿وَيَجْعَل﴾ بالجَزمِ؛ عَطفًا على موضِعِ ﴿جَعَلَ﴾ أي: إن يَشَأِ اللهُ يجعَلْ لك -يا محمَّدُ- جَناتٍ، ويجعَلْ لك قُصورًا في الدُّنيا[٣].

---

= والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٨).

ونسَبه ابنُ عاشورٍ للجمهورِ، ثمَّ قال: (وعلى هذا التأويلِ تكونُ «إن» الشَّرطيةُ واقعةً موقعَ «لو»، أي: إنَّه لم يَشَأْ، ولو شاءه لفعَلَه، ولكِنَّ الحكمةَ اقتضت عدَمَ البَسطِ للرَّسولِ في هذه الدُّنيا، ولكنَّ المشركين لا يدركون المطالِبَ العاليةَ. وقال ابنُ عطيةَ: يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بالجنَّاتِ والقصورِ ليست التي في الدُّنيا، أي: هي جناتُ الخُلدِ وقصورُ الجنَّةِ؛ فيكونَ وعدًا مِن الله لرسولِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٠، ٣٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠١).

ومِمَّن اختار أنَّها في الآخرةِ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٥ - ٤٠٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

قال السمعانيُّ: (بساتينَ تجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨).

وقال البقاعي: (﴿جَنَّٰتٍ﴾ فضلًا عن جَنَّةٍ واحدةٍ ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: تكونُ أرضُها عُيونًا نابعةً، أيُّ موضعٍ أُريدَ منه إجراءُ نهرٍ جرى، فهي لا تزال رَيَّا تُغْني صاحِبَها عن كلِّ حاجةٍ، ولا تُحوِجُه في استِثمارِها إلى سقيٍ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٤٧).

(٢) قرأ بها ابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو بكرٍ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥٩)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١٤٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣). =

﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾.

أي: وإن شاء اللهُ جعَلَ لك -يا محمَّدُ- بيوتًا مُشَيَّدةً عَظيمةً واسِعةً في الدُّنيا[1].

## الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ إباحةُ دخولِ الأسواقِ للعُلماءِ وأهلِ الدِّينِ والصَّلاحِ، خلافًا لِمَن كرِهَها لهم[2].

٢- قال تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾، ومُرادُهم فاسِدٌ مِن وَجهَينِ:

**أحَدُهما**: أنَّه ليس يُوجِبُ اختِصاصُه بالمَنزِلةِ نَقْلَه عن مَوضِعِ الخِلْقةِ؛ لأمرَينِ: أحَدُهما: أنَّ كُلَّ جِنسٍ قد يَتفاضَلُ أهلُه في المَنزِلةِ، ولا يَقتَضي تمييزَهم في الخِلْقةِ، كذلك حالُ مَن فُضِّلَ في الرِّسالةِ. الثَّاني: أنَّه لو نُقِلَ عن مَوضوعِ الخِلْقةِ بتَمييزِه بالرِّسالةِ لصار مِن غَيرِ جِنسِهم، ولَمَا كان رسولًا منهم، وذلك مِمَّا تَنفِرُ منه النُّفوسُ.

**وأمَّا الوَجهُ الثَّاني**: فهو أنَّ الرِّسالةَ لا تَقتَضي مَنْعَه مِنَ المَشْيِ في الأسواقِ؛ لأمرَينِ:

**أحَدُهما**: أنَّ هذا مِن أفعالِ الجَبابِرةِ، وقد صان اللهُ رَسولَه عن التجَبُّرِ.

**الثَّاني**: لحاجتِه لدُعاءِ أهلِ الأسواقِ إلى نبُوَّتِه، ومُشاهدةِ ما هم عليه مِن مُنكَرٍ

---

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٥٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٧).

يَمنَعُ منه، ومَعروفٍ يُقِرُّ عليه[١].

٣- قال تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ قولَهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ﴾ العَجَبُ لجَهلِهم حين أرادوا أن يُلقَى إليه كَنزٌ، أو تكونَ له جَنَّةٌ، ولو فَهِموا عَلِموا أنَّ كُلَّ الكُنوزِ له، وجَميعَ الدُّنيا مِلكُه! أَوَليس قد قَهَر أربابَ الكُنوزِ، وحَكَم في جميعِ المُلوكِ؟! وكان مِن تمامِ مُعجزتِه أنَّ الأموالَ لم تُفتَحْ عليه في زَمَنِه؛ لئَلَّا يَقولَ قائِلٌ: قد جَرَت العادةُ بأنَّ إقامةَ الدُّوَلِ وقَهْرَ الأعداءِ بكَثرةِ الأموالِ! فتَمَّت المُعجِزةُ بالغَلَبةِ والقَهرِ مِن غَيرِ مالٍ، ولا كَثرةِ أعوانٍ، ثمَّ فُتِحَت الدُّنيا على أصحابِه، ففرَّقوا ما جَمَعه الملوكُ بالشَّرَهِ، فأخرَجوه فيما خُلِقَ له، ولم يُمسِكوه إمساكَ الكافِرينَ؛ لِيُعَلِّموا النَّاسَ بإخراجِ ذلك المالِ: أنَّ لنا دارًا سِوى هذه، ومَقَرًّا غَيرَ هذا[٢]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَـٰلَ فَضَلُّوا۟﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ إذا أوردَ الشُّبُهاتِ على نفْسِه أو على مَن أتَى بالحقِّ؛ فإنه يكونُ سببًا لضَلالِه، إذا لم يَقبَلِ الإنسانُ الحقَّ، ويدَعْ ما يَرِدُ على خاطِرِه مِن الشُّبُهاتِ حوْلَ ذلك الحقِّ؛ فإنه يكونُ سببًا لضَلالِه؛ ولهذا قال: ﴿فَضَلُّوا۟﴾، الفاءُ عاطفةٌ، وتُفيدُ السَّببيَّةَ[٣].

٥- قال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ نَفيُ الاستِطاعةِ المذكورةِ هنا كقَولِه تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٣٣).

(٢) الفائِدةُ لابنِ هُبَيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٤).

١٠١ ][1]، وهذه الاستِطاعةُ نَفْيُها إنَّما هو بحَسَبِ مَشيئةِ اللهِ مِن مُعاقَبةِ الإنسانِ على ذنْبٍ مِن ذُنوبِهِ، وقد دَلَّتْ آياتٌ كثيرةٌ أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يُسَبِّبُ للإنسانِ الضَّلالةَ بِسَبَبِ ارتكابِ الذُّنوبِ، كما يُسَبِّبُ له الهُدى بسَبَبِ الطَّاعاتِ؛ فالعَبدُ إذا سارَعَ إلى الكُفرِ، وتكذيبِ الرُّسُلِ، وإلى ما يُسْخِطُ اللهَ؛ عاقَبَه اللهُ بأنْ زادَه ضَلالًا فَوقَ ضَلالِه، وظَلامًا على ظَلامِه، وجاءه الطَّبعُ والخَتمُ على قَلْبِه، والغِشاوةُ على عَينِه؛ بسَبَبِ كُفرِه وبَغْيِه وتمَرُّدِه على اللهِ، ومِن هنالك يُعلَمُ أنَّ اللهَ يَجعَلُ الحَسَناتِ وطاعةَ اللهِ سَببًا لهُدى عَبْدِه، كما أنَّ السَّيِّئاتِ والمُبادرةَ إلى ما لا يُرضيه تكونُ سَبَبًا للرَّينِ على القُلوبِ والطَّبعِ عليها، كما قال تعالى: ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال في الهُدى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى﴾ [محمد: ١٧]، ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وأمثالِ ذلك مِنَ الآياتِ[2].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢) و (٢/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الاستِطاعةُ نوعانِ: مُتقَدِّمةٌ صالِحةٌ للضِّدَّينِ، ومُقارِنةٌ لا تكونُ إلَّا مع الفِعلِ؛ فتلك هي المُصَحِّحةُ للفِعلِ المجَوِّزةُ له، وهذه هي المُوجِبةُ للفِعلِ المحَقِّقةُ له، قال الله تعالى في الأُولى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧]، ولو كانت هذه الاستِطاعةُ لا تكونُ إلَّا مع الفِعلِ لَما وَجَب الحَجُّ إلَّا على مَن حَجَّ، ولَمَا عَصى أحَدٌ بتَركِ الحَجِّ، ولا كان الحَجُّ واجِبًا على أحدٍ قبْلَ الإحرامِ به، بل قبْلَ فَراغِه! وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، فأمَرَ بالتَّقوى بمِقدارِ الاستِطاعةِ، ولو أراد الاستِطاعةَ المُقارِنةَ لَمَا وَجَب على أحدٍ مِن التَّقوى إلَّا ما فَعَل فقط؛ إذ هو الذي قارنَتْه تلك الاستِطاعةُ... ونظائِرُ هذا مُتعَدِّدةٌ؛ فإنَّ كُلَّ أمرٍ عُلِّقَ في الكتابِ والسُّنَّةِ وُجوبُه بالاستطاعةِ، وعَدَمُه بعَدَمِها- لم يُرَدْ به المقارَنةُ، وإلَّا لَمَا كان اللهُ قد أوجَبَ الواجباتِ إلَّا على مَن فعَلَها، وقد أسقَطَها عمَّن لم يفعَلْها، فلا يأثَمُ أحدٌ بتَركِ الواجِبِ المذكورِ. وأمَّا «الاستِطاعةُ المُقارِنةُ المُوجِبةُ» فمِثلُ قَولِه تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]، وقَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]، فهذه الاستِطاعةُ هي المُقارِنةُ المُوجِبةُ؛ إذ =

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ هذا انتِقالٌ مِن حِكايةِ مَطاعنِهم في القُرآنِ، وبَيانِ إبطالِها، إلى حِكايةِ مَطاعنِهم في الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والضَّميرُ في ﴿وَقَالُواْ﴾ عائدٌ إلى الَّذين كَفَروا؛ فمدلولُ الصِّفةِ مُراعًى كما تقدَّمَ[1].

- قَولُه: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ ...﴾ (ما) استِفهاميَّةٌ بمعنى إنكارِ الوُقوعِ ونفْيِه، وهذا الاستِفهامُ استِفهامٌ تَعجُّبيٌّ مُستعمَلٌ في لازمِه، وهو بُطلانُ كَونِه رَسولًا؛ بِناءً على أنَّ التَّعجُّبَ مِن الدَّعوى يَقْتضي استحالتَها أو بُطلانَها. وتركيبُ ﴿مَالِ هَٰذَا﴾ ونحوِه يُفيدُ الاستِفهامَ عن أمْرٍ ثابتٍ له؛ فمَثارُ الاستِفهامِ في هذِه الآيةِ هو ثُبوتُ حالِ أكْلِ الطَّعامِ والمشْيِ في الأسواقِ للَّذي يَدَّعي الرِّسالةَ مِن اللهِ. وفي قولِهم: (هذا) تَصغيرٌ لشأْنِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وتَسميَتُهم له صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولًا بطريقِ الاستهزاءِ به صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أو أجْرَوا عليه وصْفَ الرِّسالةِ؛ مُجاراةً منهم لقولِه، وهم لا يُؤمِنون به[2]، ولكنَّهم بنَوا عليه؛ لِيتأتَّى لهم التَّعجُّبُ، والمُرادُ منه الإحالةُ والإبطالُ[3].

---

= الأُخرى لا بدَّ منها في التَّكليفِ؛ فالأُولى: هي الشَّرعيَّةُ التي هي مَناطُ الأمرِ والنَّهيِ، والثَّوابِ والعِقابِ، وعليها يَتكَلَّمُ الفُقَهاءُ، وهي الغالِبةُ في عُرفِ النَّاسِ. والثَّانيةُ: هي الكونيَّةُ التي هي مَناطُ القَضاءِ والقَدَرِ، وبها يتحَقَّقُ وُجودُ الفِعلِ؛ فالأُولى للكَلِماتِ الأَمْرِيَّاتِ الشَّرعيَّاتِ، والثَّانيةُ للكَلِماتِ الخَلْقِيَّاتِ الكَونيَّاتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٦).

(٢) والقاعِدةُ: أنَّه قد يَرِدُ الخِطابُ بالشَّيءِ في القُرآنِ على اعتِقادِ المُخاطَبِ دُونَ ما في نفْسِ الأمرِ، وهو يَقَعُ في القُرآنِ على أنواعٍ مُتعَدِّدةٍ؛ منها: نوعٌ يَخرُجُ على اعتقادِ المُخاطَبِ سواءٌ وافَقَ الواقِعَ أم لا، إلَّا أنَّ المتكَلِّمَ لا يَعتَقِدُه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير أبي =

- قَولُه: ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كَنَوْا بأكْلِ الطَّعامِ والمشْيِ في الأسواقِ عن مُماثَلةِ أحوالِه لأحوالِ النَّاسِ؛ تذَرُّعًا منهم إلى إبطالِ كَونِه رسولًا؛ لِزَعْمِهم أنَّ الرَّسولَ عن اللهِ تكونُ أحوالُه غيرَ مُماثِلةٍ لأحوالِ النَّاسِ، وخَصُّوا أكْلَ الطَّعامِ والمشْيَ في الأسواقِ؛ لأنَّهما مِن الأحوالِ المُشاهَدةِ المُتكرِّرةِ[1]. وفي قولِه: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ كِنايةٌ عن الحدَثِ؛ لأنَّه مُلازِمٌ أكْلَ الطَّعامِ. وفي ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ كِنايةٌ عن طلَبِ المعاشِ[2].

- و(لولا) في قولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ حَرفُ تَحضيضٍ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ[3].

- وفي قولِهم: ﴿فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ خصُّوا مِن أحوالِ الرَّسولِ حالَ النِّذارةِ؛ لأنَّها هي الَّتي أنبتَتْ حِقْدَهم عليه[4].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾

- عبَّر بالإلقاءِ -وهو الرميُ- عن الإعطاءِ مِن عندِ اللهِ[5].

- قَولُه: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ فيه وَضْعُ الظَّاهِرِ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ مَوضِعَ المُضْمَرِ؛ لِيُسجِّلَ عليهم بالظُّلمِ، وتجاوُزِ الحدِّ فيما

---

= حيان)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٢٨).

قالوهُ؛ لكونِه إضلالًا خارجًا عن حدِّ الضَّلالِ، مع ما فيه مِن نِسبَتِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المَسْحُوريَّةِ[١]؛ فـ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هم المُشرِكون، فغيَّرَ عُنوانَهم الأوَّلَ إلى عنوانِ الظُّلمِ وهمْ همْ؛ تَنبيهًا على أنَّ في هذا القولِ اعتداءً على الرَّسولِ، بنَبْزِه بما هو بريءٌ منه، وهم يَعلمون أنَّه ليس كذلك؛ فظُلْمُهم له أشدُّ ظُلْمٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢]. وأفاد الإظهارُ في مقامِ الإضمارِ هنا أيضًا: أنَّ هذا القَولُ ظُلْمٌ مِن أيِّ إنسانٍ وقَع؛ لأنَّه للتعليل، فهذا القولُ يعتبَرُ مِن الظلْمِ؛ فيكونُ الأمرُ شامِلًا، يعني: أنَّ كُلَّ مَن قال فهو ظالِمٌ. وأفاد أيضًا تنبيهَ المخاطَبِ؛ لأنَّ اختلافَ الكَلامِ أو اختِلافَ النَّسَقِ في الكلامِ يوجِبُ الانتباهَ[٣].

- وأسنَد القَولَ إلى جميعِ الظَّالِمين؛ لأنَّهم تلقَّفوه ولَهِجوا به[٤].

- وذكَرَ ﴿رَجُلًا﴾ في قولِهم: ﴿رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ لتَمهيدِ استِحالةِ كونِه رسولًا؛ لأنَّه رجُلٌ مِن النَّاسِ[٥].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ...﴾ إلى قولِه: ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ اعتراضًا بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ مُؤكِّدًا لمعنى مَضمونِ الكلامِ، ومَسْلاةً لقلْبِه صلواتُ اللهِ عليه. ويجوزُ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٥٠)

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كالجوابِ عن قولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ إلى آخِرِه، على سبيلِ التَّعريضِ التَّوبيخيِّ، ويكونَ قولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ﴾ إضْرابًا عن قولِه: ﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(١).

- قَولُه: ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ فُرِّعَ على هذا التَّعجُّبِ ﴿كَيْفَ ضَرَبُواْ﴾ إخبارٌ عنهم بأنَّهم ضَلُّوا في تَلْفيقِ المطاعِنِ في رِسالةِ الرَّسولِ، فسَلَكوا طَرائقَ لا تصِلُ بهم إلى دَليلٍ مُقنِعٍ على مُرادِهم، وهو هنا تعجُّبٌ مِن خطَلِهم، وإعراضٌ عن مُجاوبَتِهم(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ استِئنافٌ واقِعٌ مَوقِعَ الجَوابِ عن قولِهم: ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ ...﴾ [الفرقان: ٨]، أي: إنْ شاءَ جعَلَ لك أفضَلَ مِن الَّذي اقتَرحوهُ، أي: إنْ شاء عَجَّلَه لك في الدُّنيا؛ فالإشارةُ إلى المذكورِ مِن قولِهم(٣). وعدَمُ التَّعرُّضِ لجَوابِ الاقتراحَينِ الأوَّلَينِ -﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا * أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾-؛ للتَّنبيهِ على خُروجِهما عن دائرةِ العقْلِ، واستغنائِهما عن الجوابِ؛ لظُهورِ بُطلانِهما ومُنافاتِهما للحِكمةِ التَّشريعيَّةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٥).

## الآيات (١١-١٦)

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَعِيرًا﴾: أي: نارًا مُتَّقِدةً، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه[1].

﴿تَغَيُّظًا﴾: أي: غَضَبًا شَديدًا، والغَيظُ: أشدُّ الغَضَبِ، وهو الحرارةُ التي يجِدُها الإنسانُ مِن فَورانِ دَمِ قَلبِه[2].

﴿وَزَفِيرًا﴾: الزَّفيرُ: إخراجُ النَّفَسِ بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ مِن الهَمِّ والكَربِ، وهو بمَنزلةِ ابتداءِ صَوتِ الحِمارِ بالنَّهيقِ، وأصلُ (زفر): يدُلُّ على صَوتٍ[3].

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: أي: مُوثَقينَ في السَّلاسِلِ والأغلالِ، قد قُرِنَ بعضُهم إلى بعضٍ، أو قُرِنَت أيديهم وأرجلُهم إلى رِقابِهم، يقالُ: قَرَنتُ الشَّيءَ بالشَّيءِ: إذا شدَدْتَه به

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٠).

ووصَلْتَه، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿ثُبُورًا﴾: أي: هَلاكًا، وأصلُ (ثبر) هنا: الهلاكُ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى موقفَ المشركينَ مِن البعثِ، وما أعدَّه لهم مِن جزاءٍ، فيقولُ: قد كذَّب هؤلاء المُشرِكون بالبَعثِ يومَ القيامةِ، وقد هيَّأنا لهم نارًا شديدًا حَرُّها، إذا رأتْهم مِن مكانٍ بعيدٍ سَمِعوا صوتَ لهيبِها وصوتَ زَفيرِها؛ مِن شِدَّةِ غَيظِها منهم، وإذا طُرِحوا في مكانٍ ضَيِّقٍ مِن النَّارِ وقد قُرِنوا في الأغلالِ والسَّلاسِلِ، دَعَوا على أنفُسِهم بالهلاكِ لِيَستريحوا من العَذابِ. فيقولُ خَزَنةُ النَّارِ لهم: لا تَطلُبوا هلاكًا واحِدًا، بل اطلُبوا هلاكًا كثيرًا؛ فلن ينفَعَكم الدُّعاءُ أبدًا.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَ يُبيِّنَ لهم ما أعدَّ الله سبحانَه للمتَّقينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء الكُفَّارِ: أذلك العذابُ خَيرٌ أم جَنَّةُ الخُلدِ التي وَعَد اللهُ بها المتَّقينَ، قد كانت ثوابًا لهم، ومَصيرًا يَصيرونَ إليها يومَ القيامةِ؟! ولهؤلاء المتَّقين ما يشاؤونَ في الجنَّةِ، لابثينَ فيها أبدًا، وكان هذا الوَعدُ وَعدًا واجِبًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥١٨) و(١٦/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٣٠).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كانت تلك الأقوالُ التي قالوها معلومةَ الفسادِ؛ أخبَرَ تعالى أنَّها لم تصدُرْ منهم لطَلَبِ الحقِّ، ولا لاتِّباعِ البُرهانِ، وإنَّما صَدَرتْ منهم تَعَنُّتًا وظُلمًا وتكذيبًا بالحَقِّ، فقالوا ما بقُلوبِهم مِن ذلك؛ ولهذا قال[1]:

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾

أي: لا تظُنَّ أنَّهم كذَّبوا بما جئتَ به مِن الحَقِّ -يا محمَّدُ- لأنَّهم يعتَقِدونَ فيك كَذِبًا وافتراءً للقُرآنِ، أو نُقصانًا؛ لأكلِك الطَّعامَ ومَشيِكَ في الأسواقِ، وإنَّما سبَبُ كُفرِهم وتكذيبِهم واقتراحِهم ما اقترَحوه هو عَدَمُ إيمانِهم بالبَعثِ يومَ القيامةِ[2].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾

أي: وهيَّأنا وأرصَدْنا لِمن أنكَرَ البَعثَ يومَ القيامةِ مِن هؤلاء المُشرِكين وغَيرِهم نارًا مُوقَدةً شَديدةَ الحرارةِ، نعَذِّبُهم فيها في الآخرةِ[3].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٦].

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٢).

أي: إذا رأتْ تلك النَّارُ أهلَها الكُفَّارَ يومَ القيامةِ مِن مكانٍ بَعيدٍ، سَمِعوا صَوتَ غَلَيانِها وتلهُّبِها؛ مِن شِدَّةِ غَيظِها منهم، وسَمِعوا لها صوتَ زَفيرٍ؛ مِن غَضَبِها وحَنَقِها عليهم[1].

كما قال تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ [الملك: ٧، ٨].

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا وَصَفَ سُبحانَه مُلاقاتَها لهم؛ وَصَفَ إلقاءَهم فيها، فقال تعالى[2]:

﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾

أي: وإذا طُرِح الكُفَّارُ في مكانٍ ضَيِّقٍ في النَّارِ، وقد قُرِنوا في الأغلالِ والسَّلاسِلِ[3]- رفعوا أصواتَهم بطَلَبِ الهلاكِ؛ ندَمًا على تَركِهم الإيمانَ، وانصرافِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٤).

قال ابنُ جريرٍ: (فإن قال قائِلٌ: وكيف قيل: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا﴾ [الفرقان: ١٢]، والتغيُّظُ لا يُسمَعُ؟ قيل: معنى ذلك: سمَعِوا لها صوتَ التغَيُّظِ؛ مِن التلَهُّبِ والتوَقُّدِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٨، ٤٠٩).

وقال الشنقيطيُّ: (وللعُلماءِ أقوالٌ في معنى الزَّفيرِ والشَّهيقِ، وأقربُها: أنَّهما يمثِّلُهما معًا صوتُ الحِمارِ في نهيقِه؛ فأوَّلُه زَفيرٌ، وآخِرُه الذي يرَدِّدُه في صَدرِه شَهيقٌ. والأظهَرُ أنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا﴾ أي: سَمِعوا غلَيانَها مِن شِدَّةِ غَيظِها، ولَمَّا كان سبَبُ الغَلَيانِ التغيُّظَ، أطلَقَه عليه، وذلك أسلوبٌ عربيٌّ معروفٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٤).

(٣) قيل: المرادُ قُرِنَت أيديهم إلى أعناقِهم في الأغلالِ. ومِمَّن قال ذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والزمخشري، والبيضاوي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

عن طاعةِ الرَّحمنِ، وتمنِّيًا للمَوتِ لِيَستريحوا مِن العذابِ[١].

قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ [إبراهيم: ٤٩].

﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾

أي: يقولُ خَزَنَةُ النَّارِ للكُفَّارِ: لا تَطلُبوا هلاكًا واحِدًا في النَّارِ، بل اطلُبوا كثيرًا مِن ذلك، فعَذابُكم مستَمِرٌّ ومتجَدِّدٌ، ولن ينفَعَكم الدُّعاءُ أبدًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ * قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

---

= (١٧/ ٤١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٦٦).

وقيل: مُقَرَّنًا بعضُهم إلى بَعضٍ في الأصفادِ والسلاسلِ، كحالِ الأسرى والمساجينِ: أن يُقرَنَ عدَدٌ منهم في وِثاقٍ واحدٍ، أو يُقرنوا مع الشياطين. وممَّن قال بذلك في الجملة: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، وابن عطية، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧).

ومِمَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السابقَينِ: مكِّيٌّ، والسمعاني. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٨٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٠، ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٧، ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦، ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا وصَفَ الله تعالى حالَ العِقابِ المعَدِّ للمُكَذِّبين بالسَّاعةِ؛ أتبَعَه بما يؤكِّدُ الحَسرةَ والنَّدامةَ[1].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه جزاءَ الظَّالمين؛ ناسَبَ أن يَذكرَ جزاءَ المتَّقين، فقال تعالى[2]:

﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للكُفَّارِ: أذلك العذابُ المستَمِرُّ في النَّارِ خَيرٌ، أم جنَّةُ الخُلدِ الدَّائمُ نعيمُها، التي وعَد اللهُ بها الذين يتَّقونَ سَخَطَه وعذابَه؛ بامتِثالِ ما يأمُرُهم، واجتِنابِ ما يَنهاهم[3]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦٠، ٦١].

﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾.

أي: كانت الجنَّةُ ثَوابًا للمتَّقينَ على تَقواهم وأعمالِهم الصَّالحةِ، ومَرجِعًا يَصيرون إليها في الآخرةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ﴾.

أي: للمتَّقينَ في الجنَّةِ ما يَشاؤون ممَّا تَشتهيه أنفُسُهم، لابثينَ فيها أبدًا بلا زَوالٍ عنها، ولا انقِطاعٍ لنَعيمِها[1].

﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾.

أي: كان دُخولُ المتَّقينَ الجنَّةَ وَعدًا واجِبًا لا بدَّ أن يقَعَ في الآخرةِ؛ جزاءً لهم على طاعتِهم ربَّهم، وسؤالِهم ذلك في الدُّنيا[2].

كما قال تعالى حاكيًا عنهم قَولَهم: ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ * فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٤، ١٩٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- احتُجَّ بقَولِه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ على أنَّ النارَ -التي هي دارُ العِقابِ- مَخلوقةٌ؛ لأنَّ ﴿وَأَعْتَدْنَا ﴾ إخبارٌ عن فِعلٍ وَقَعَ في الماضي؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢).

قال ابنُ القيم: (﴿ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ يَسألُه إيَّاه عبادُه المؤمنون، ويَسألُه إيَّاه ملائكتُه لهم؛ فالجنَّةُ تَسألُ رَبَّها أهلَها، وأهلُها يسألونَه إيَّاها، والملائكةُ تسألُها لهم، والرسُلُ يسألونَه إيَّاها لهم ولأتْباعِهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٠).

فدلَّتِ الآيةُ على أنَّ دارَ العِقابِ مَخلوقةٌ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ التَّحقيقُ أنَّ النَّارَ تُبصِرُ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ، كما صَرَّح اللهُ بذلك في قَولِه هنا: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾، ورؤيتُها إيَّاهم مِن مكانٍ بَعيدٍ تدُلُّ على حِدَّةِ بَصَرِها، كما لا يخفى، كما أنَّ النَّارَ تتكَلَّمُ، كما صرَّح اللهُ به في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]، والأحاديثُ الدَّالَّةُ على ذلك كثيرةٌ؛ كحَديثِ مُحاجَّةِ النَّارِ مع الجنَّةِ[٢]، وكحديثِ اشتكائِها إلى رَبِّها، فأذِنَ لها في نفَسَينِ[٣]، ونحوِ ذلك، ويكفي في ذلك أنَّ اللهَ جَلَّ وعلا صَرَّحَ في هذه الآيةِ أنَّها تَراهم، وأنَّ لها تغيُّظًا على الكُفَّارِ، وأنَّها تقولُ: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]. واعلَمْ أنَّ ما يزعُمُه كَثيرٌ مِن المفَسِّرينَ، وغيرُهم مِن المنتسبينَ للعِلمِ مِن أنَّ النَّارَ لا تُبصِرُ ولا تتكَلَّمُ ولا تغتاظُ، وأنَّ ذلك كُلَّه مِن قَبيلِ المجازِ، أو أنَّ الذي يفعَلُ ذلك خزَنَتُها: كُلُّه باطِلٌ، ولا مُعَوَّلَ عليه؛ لمخالفتِه نُصوصَ الوَحيِ الصَّحيحةَ بلا مُستَنَدٍ، والحَقُّ هو ما ذكَرْنا[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ جُعِلَ إزجاؤُهم إلى النَّارِ مِن مكانٍ بعيدٍ زِيادةً في النِّكاية بهم؛ لأنَّ بُعدَ المكانِ يَقتضي زِيادةَ المَشقَّةِ إلى الوُصولِ، ويَقتضي طُولَ الرُّعبِ ممَّا سمِعوا[٥].

٤- قال تعالى: ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، وكذلك في (الأنعام) في قولِه تعالى: ﴿يَجْعَلْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٧)، ومسلم (٦١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٣).

صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال في (هود) ﴿وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]، فما وجهُ التعبيرِ في سورة (هود) بقولِه: (ضائق) على وزنِ (فاعلٍ)، وفي (الفرقان) و(الأنعام) بقولِه: ﴿ضَيِّقًا﴾ على وزنِ (فَيْعِل)، مع أنَّه في المواضعِ الثلاثةِ هو الوصفُ مِن ضاق يَضيقُ، فهو ضيِّقٌ؟

**والجوابُ عن هذا:** أنَّ قولَه تعالى في سورةِ (هود): ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢] أُريدَ به أنَّه يحدثُ له ضِيقُ الصدرِ، ويتجدَّدُ له بسببِ عنادِهم وتعنتِهم في قولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود: ١٢]، ولَمَّا كان كذلك، قيل فيه: (ضائق) بصيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لأنَّه قُصِد بها الحدوثُ والتجدُّدُ. أمَّا قولُه: ﴿ضَيِّقًا﴾ في (الفرقان) و(الأنعام) فلمْ يُرَدْ به حدوثٌ؛ ولذلك بقيَ على أصلِه، فقد تقرَّر في فنِّ الصرفِ أنَّ جميعَ أوزانِ الصفةِ المشبَّهةِ باسمِ الفاعلِ إنْ قُصِد بها الحدوثُ والتجدُّدُ جاءت على وزنِ (فاعل) مطلَقًا، وإن لم يُقصَدْ به الحدوثُ والتجدُّدُ بقيَ على أصلِه[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾ سؤالٌ؛ وهو أنَّ الجنةَ ستصيرُ للمتقين جزاءً ومصيرًا؛ لكنها بعْدُ ما صارتْ كذلك، فلِمَ قال تعالى: ﴿كَانَتْ﴾؟!

**أجيبَ مِن أوجُهٍ:**

**الأول:** أنَّها أحيانًا تدُلُّ على مجرَّدِ الحدثِ، لا على الزمنِ؛ لأنَّ الفعلَ كما هو معروفٌ يدُلُّ على زمنٍ ومعنًى، فـ (كان) دائمًا تأتي للدَّلالةِ على مجرَّدِ المعنى فقط، يعني التي وُعِد المتقون وهي لهم جزاءٌ ومصيرٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٣).

**الثاني**: أنَّ ما وعدَه اللهُ تعالى فهو في تحقُّقِه كالواقعِ، كأنَّه قد كان.

**الثالثُ**: أنَّه كان مكتوبًا في اللوحِ المحفوظِ قبْلَ أنْ يَخْلُقَهم اللهُ تعالى بأزمنةٍ متطاولةٍ أنَّ الجنةَ جزاؤُهم ومصيرُهم[١].

٦- قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ أهلَ الجنةِ يجِدونَ كلَّ ما يَشاؤُونه مِن أنواعِ النعيمِ[٢]، وهي كالتَّنبيهِ على أنَّ حصولَ المراداتِ بأسْرِها لا يكونُ إلَّا في الجنَّةِ، فأمَّا في غَيرِها فلا يحصُلُ ذلك، بل لا بُدَّ في الدُّنيا مِن أن تكونَ راحاتُها مَشوبةً بالجِراحاتِ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا﴾ يدُلُّ على أنَّ الجنةَ جُعِلَتْ لهم بحُكمِ الوَعدِ والتفَضُّلِ، لا بحُكمِ الاستِحقاقِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ إضرابٌ عن تَوبيخِهم بحِكايةِ جِناياتِهم السَّابقةِ، وانتِقالٌ منه إلى تَوبيخِهم بحِكايةِ جِناياتِهم الأُخرى؛ للتَّخلُّصِ إلى بَيانِ ما لهم في الآخرةِ بسَببِها مِن فُنونِ العذابِ[٥]. وقيل: يَجوزُ أنْ يكونَ إضرابَ انتقالٍ مِن ذِكْرِ ضَلالِهم في صِفَةِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى ذِكْرِ ضَلالِهم في إنكارِ البَعثِ، على تأويلِ أنَّ قولَه: ﴿إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٥٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٥).

ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠] بمعنى: أنَّه لم يَشَأْ، ولو شاءَه لَفعلَه. ويجوزُ أنْ يكونَ إضرابَ إبطالٍ لِمَا تَضمَّنَه قولُه: ﴿إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾، على تأويلِ أنَّه وعْدٌ بإيتائِه ذلك في الآخرةِ[١].

- قَولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلسَّاعَةِ﴾ فيه قَصْرُ تَكذيبِهم على السَّاعةِ؛ لأنَّهم كذَّبوا بالبعثِ، فَهُم بما وراءَهُ أحْرى تَكذيبًا[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ مُعترِضةٌ بالوَعيدِ لهم، وهو -لعُمومِه- يَشمَلُ المُشرِكين المُتحدَّثَ عنهم؛ فهو تَذييلٌ. ومِن غرَضِه مُقابَلةُ ما أعدَّ اللهُ للمُؤمِنينَ في العاقبةِ بما أعدَّهُ للمُشرِكين[٣].

- قَولُه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ وضْعُ (السَّاعة) مَوضِعَ ضَميرِها حيثُ لم يقُلْ: (لِمَن كذَّبَ بها)؛ للمُبالَغةِ في التَّشنيعِ[٤]. وهذا الاعتدادُ وإن كان ليس بسبَبِ تكذيبِهم بها خاصَّةً، بل يُشارِكُه في السببيَّةِ له ارتكابُهم الأباطيلَ في أمرِ التَّوحيدِ وأمرِ النبُوَّةِ؛ إلَّا أنَّه لَمَّا كانت السَّاعةُ نَفسُها هي العِلَّةَ القَريبةَ لدخولِهم السعيرَ؛ أُشيرَ بما ذُكِرَ إلى سببيَّةِ التَّكذيبِ بها لدُخولِها، ولم يتعَرَّضْ للإشارةِ إلى سببيَّةِ شَيءٍ آخَرَ. وقيل: إنَّ مَن كذَّب بالساعةِ صار كالاسمِ لأولئك المشرِكين، والمكذِّبين برَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمكَذِّبين بالسَّاعةِ، أي: الجامعين للأوصافِ الثلاثةِ؛ لأنَّ التكذيبَ بها أخَصُّ صِفاتِهم القبيحةِ، وأكثَرُ دَورانًا على ألسنتِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٤٣٠).

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿إِذَا رَأَتْهُم ...﴾ فيه نِسبةُ الرُّؤيةِ إليها لا إليهم؛ للإيذانِ بأنَّ التَّغيُّظَ والزَّفيرَ منها لِهَيجانِ غضَبِها عليهم عندَ رُؤيتِها إيَّاهم[١].

- وفي التَّعبيرِ بـ (مِن) في قولِه: ﴿مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾: إشعارٌ بأنَّ بُعدَ ما بيْنَها وبيْنَهم مِن المسافةِ -حينَ رأتْهم- خارجٌ عن حُدودِ البُعدِ المُعتادِ في المسافاتِ المعهودةِ، وفيه مَزيدُ تَهويلٍ لأمْرِها[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ هذا وَصْفٌ لوُصولِهم إلى جَهنَّمَ مِن مَكانٍ بعيدٍ، ووَضْعِهم فيها؛ صِيغَ نظْمُه في صُورةِ تَوصيفِ ضَجيجِ أهْلِ النَّارِ مِن قولِه: ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾، وأدْمَجَ في خلالِ ذلك وصْفَ داخلِ جَهنَّمَ، ووَصْفَ وَضْعِ المُشركين فيها بقولِه: ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾، وقولِه: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ تفنُّنًا في أُسلوبِ الكلامِ[٣].

- قَولُه: ﴿أُلْقُوا﴾ الإلقاءُ: الرَّمْيُ، وهو كِنايةٌ عن الإهانةِ[٤].

- قَولُه: ﴿ضَيِّقًا﴾ صِفَةٌ لـ ﴿مَكَانًا﴾ مُفيدةٌ لزِيادةِ شِدَّةٍ؛ فإنَّ الكَرْبَ مع الضِّيقِ، كما أنَّ الرَّوحَ مع السَّعةِ، وهو السِّرُّ في وصْفِ الجنَّةِ بأنَّ عرْضَها السَّمواتُ والأرضُ[٥]؛ فقولُه: ﴿ضَيِّقًا﴾ على القراءةِ بتَشديدِ الياءِ، والقِراءةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٦).

بسُكونِها ﴿ضَيِّقًا﴾[١]؛ كلاهما للمُبالَغةِ في الوصْفِ، مثْلُ مَيْتٍ ومَيِّتٍ؛ لأنَّ (الضَّيِّقَ) بالتَّشديدِ صِيغَةُ تمكُّنِ الوصْفِ مِن الموصوفِ، و(الضِّيقَ) بالسُّكونِ وصْفٌ بالمصدرِ[٢].

- قَولُه: ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ المُقرَّنُ: المقرونُ؛ صِيغَتْ له مادَّةُ التَّفعيلِ للإشارةِ إلى شِدَّةِ القرْنِ[٣].

- قَولُه: ﴿دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ النِّداءُ كِنايةٌ عن التَّمنِّي، أي: تمنَّوُا الهلاكَ؛ للاستراحةِ مِن فظيعِ العذابِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ على تَقديرِ (قولٍ) مَحذوفٍ؛ فهو منصوبٌ على أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿دَعَوْا﴾، أي: دَعَوهُ مقُولًا لهم ذلك حقيقةً بأنْ يُخاطِبَهم الملائكةُ به؛ لِتَنبيهِهم على خُلودِ عَذابِهم، وأنَّهم لا يُجابونَ إلى ما يَدْعُونه، ولا يَنالون ما يَتمنَّوْنَه مِن الهلاكِ المُنجِّي. أو يكونُ تَمثيلًا وتَصويرًا لحالِهم بحالِ مَن يُقالُ له ذلك مِن غيرِ أنْ يكونَ هناك قولٌ ولا خِطابٌ، أي: دَعَوهُ حالَ كونِهم أحقَّاءَ بأنْ يُقالَ لهم ذلك. وإمَّا مُستأنَفٌ وقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ يَنسحِبُ عليه الكلامُ؛ كأنَّه قيلَ: فماذَا يكونُ عندَ دُعائِهم المذكورِ؟ فقيل: يُقالُ لهم ذلك؛ إقناطًا ممَّا علَّقوا به أطماعَهم مِن الهلاكِ، وتَنبيهًا على أنَّ عذابَهم المُلْجِئَ لهم إلى استدعاءِ الهلاكِ بالمَرَّةِ

---

(١) قرأها ابنُ كثيرٍ بإسكانِ الياءِ مخفَّفةً، والباقونَ بكسرِها مشددةً. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أبَدِيٌّ لا خَلاصَ لهم منْه[١].

- قَولُه: ﴿لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ فيه تَقييدُ النَّهيِ والأمْرِ بـ (اليوم)؛ لمَزيدِ التَّهويلِ والتَّفظيعِ، والتَّنبيهِ على أنَّه ليس كسائرِ الأيَّامِ المعهودةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ وُصِفَ الثُّبورُ بالكثيرِ؛ إمَّا لكثرةِ نِدائِه بالتَّكريرِ، وهو كِنايةٌ عن عدَمِ حُصولِ الثُّبورِ؛ لأنَّ انتهاءَ النِّداءِ يكونُ بحُضورِ المُنادَى، أو هو يأْسٌ يَقْتضي تكريرَ التَّمنِّي أو التَّحسُّرِ[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ﴾ هذا الاستِفهامُ على سَبيلِ التَّوقيفِ والتَّوبيخِ[٤]. وقيل: الاستفهامُ والتَّفضيلُ والتَّرديدُ للتَّقريعِ، مع التَّهكُّمِ والتَّحسيرِ على ما فاتَهم[٥]؛ فإنَّه لمَّا ذكَرَ حالَ العِقابِ المُعَدِّ لِمَن كَذَّبَ بالسَّاعةِ؛ أتْبَعه بما يُؤكِّدُ حَسرتَه ونَدامتَه؛ تَقريعًا وتهكُّمًا[٦].

- وقيل: يَجوزُ أنْ يُقصَدَ بقولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: قُلْ لهم، أي: للمُشرِكين الَّذين يَسمَعون الوعيدَ والتَّهديدَ السَّابقَ؛ فالجُمَلُ مُتَّصلةُ السِّياقِ، والاستِفهامُ حينَئذٍ للتَّهكُّمِ؛ إذ لا شُبهةَ في كونِ الجنَّةِ الموصوفةِ خيرًا. ويجوزُ أنْ يُقصَدَ: قُلْ للمُؤمنينَ؛ فالجُملةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

(٦) يُنظر: ((حاشية شيخ زاده على تفسير البيضاوي)) (٦/ ٢٧٢).

مُعترِضةٌ بيْنَ آياتِ الوَعيدِ؛ لمُناسَبةِ إبداءِ البَونِ بيْنَ حالِ المُشرِكين وحالِ المُؤمِنين، والاستِفهامُ حينَئذٍ مُستعمَلٌ في التَّلميحِ والتَّلطُّفِ. والتَّفضيلُ على المَحملِ الأوَّلِ في مَوقعِ الآيةِ مُستعمَلٌ للتَّهكُّمِ بالمُشرِكينَ، وعلى المَحملِ الثَّاني مُستعمَلٌ للتَّمليحِ في خِطابِ المُؤمِنين، وإظهارِ المِنَّةِ عليهم. ووَصْفُ الموعودينَ بأنَّهم مُتَّقونَ على المَحمَلِ الأوَّلِ جارٍ على مُقْتضى الظَّاهرِ، وعلى المَحملِ الثَّاني جارٍ على خلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُؤتَى بضميرِ الخِطابِ؛ فوَجْهُ العُدولِ إلى الإظهارِ ما يُفِيدُه ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مِن العُمومِ للمُخاطَبينَ ومَن يَجِيءُ بعْدَهم[1].

- وقولُه: ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن السَّعيرِ باعتبارِ اتِّصافِها بما فُصِّلَ مِن الأحوالِ الهائلةِ، وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإشعارِ بكونِها في الغايةِ القاصيةِ مِن الهَولِ والفَظاعةِ[2]. وقيل: المُشارُ إليه في قولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ ...﴾ العِقابُ والمكانُ الضَّيِّقُ، وتَسميتُه بالخيرِ للتَّهكُّمِ والسُّخريةِ؛ لِيَزِيدَ في غَيظِهم، أو أنَّ ثوابَ العدُوِّ وتَنعُّمَه سبَبٌ لتَغيُّظِ العدُوِّ وتَحسُّرِه[3].

- وإضافةُ الـ ﴿جَنَّةُ﴾ إلى ﴿ٱلْخُلْدِ﴾ للمدْحِ، أو للدَّلالةِ على خُلودِها، أو التَّمييزِ عن جنَّاتِ الدُّنيا[4].

- قَولُه: ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا﴾، قد عُلِمَ مِن قولِه: ﴿جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ كَوْنُ الجنَّةِ جزاءَهم ومَصيرَهم، وإنَّما كرَّرها؛ لأنَّها كالتَّذييلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

لها؛ إرادةً لمَزيدِ مَدحِ المكانِ لتَبجُّحِ ساكنِيه، كما أنَّ قولَه: ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٣١] تَذييلٌ لقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ ...﴾ [الكهف: ٣١]، وأنَّ قولَه: ﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] تَذييلٌ لقولِه: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوُجُوهَ﴾ [الكهف: ٢٩]. ودَلالتُه على المدْحِ مِن جِهةِ تَنكيرِه، أي: جزاءً مُوفَّرًا لا يدخُلُ تحتَ الوصْفِ، وإردافُه بقولِه: ﴿وَمَصِيرًا﴾، أي: مَصيرًا لا يُقادَرُ قَدْرُه؛ فالجزاءُ هنا كالثَّوابِ في تلك الآيةِ، والمصيرُ كالمُرتفَقِ، واجتماعُهما كالتَّتميمِ لِمَا يتِمُّ به ما يُطلَبُ مِن المكانِ مِن التَّرفُّهِ والتَّنعُّمِ؛ فقدَّمَ هنا قولَه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ﴾ الآيةَ، على قولِه: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ...﴾ الآيةَ؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ النَّعيمَ لا يتِمُّ إلَّا بطِيبِ المكانِ وسَعتِه، ومُوافقَتِه للمُرادِ والشَّهوةِ، وإلَّا تَنغَّصَ؛ فلذلك ذكَرَ المصيرَ مع الجزاءِ، وأنَّ العِقابَ يتضاعَفُ بضِيقِ الموضعِ وظُلْمتِه، وجمْعِه لأسبابِ الاجتواءِ[1]؛ ولذلك ذكَرَ ﴿وَإِذَآ أُلْقُواْ مِنْهَا﴾، وذكَرَ ﴿مَكَانًا ضَيِّقًا﴾[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾

- قولُه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ مَسوقٌ مَساقَ المُبالَغةِ في تَحقيقِ الوعْدِ والكرَمِ؛ إذ لا مَعنى للوُجوبِ على اللهِ تعالى سِوى أنَّه تَفضَّلَ وتعهَّدَ به[3].

---

(١) الاجتِواءُ: كَراهةُ المَكانِ وعدَمُ مُوافَقتِه. يُنظر: ((العين)) للخليل (١/ ١٢٥)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٧/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٦).

- وقولُه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ في التَّعرُّضِ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ مِن تَشريفِه، والإشعارِ بأنَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الفائزُ آثِرَ ذي أثيرٍ[1] بمَغانمِ الوعْدِ الكريمِ: ما لا يَخْفى[2].

(١) آثِرَ ذي أَثيرٍ، أي: أوَّلَ كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٧).

## الآيات (١٧-١٩)

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿بُورًا﴾: أي: هَلْكى، مِن: بارَ يَبورُ: إذا هلَك وبطَل، وأصلُ (بور) هنا: يدُلُّ على هَلاكِ الشَّيءِ، وما يُشْبِهُه مِن تَعَطُّلِه وخُلُوِّه[1].

﴿صَرْفًا﴾: أي: دَفعًا وحِيلةً، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى حالَ المشركينَ وآلهتِهم الباطلةِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: اذكُرْ -أيُّها الرسولُ- يومَ القيامةِ حين يَحشُرُ اللهُ المُشرِكين وما عَبَدوه مِن دونِ اللهِ، فيقولُ اللهُ لهذه الآلهةِ المزعومةِ: أأنتم أضلَلتُم عبادي هؤلاء، أمْ هم الذين ضَلُّوا عن الهُدى؟ فتقولُ: سبحانَك، ما يحِقُّ لنا أن نعبُدَ غيرَك ولا أن نُشرِكَ بك أحدًا في عبادتِك، ولكِنَّك -يا رَبَّنا- متَّعْتَ هؤلاءِ المُشرِكين وآباءَهم بالنِّعَمِ، حتى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

تَرَكوا وَحْيَك المنزَّلَ، وفيه ما أمَرْتَهم به مِن توحيدِك وعبادتِك وحْدَك، وكانوا قومًا مُهلَكينَ.

فيقولُ اللهُ تعالى لهؤلاء الكافرين مُبَكِّتًا ومُقَرِّعًا لهم: قد كذَّبَكم مَنْ عبَدْتُموهم وردُّوا قولَكم الباطِلَ، فقد وجَب عليكم العذابُ، فلا تملِكون له ردًّا ولا دَفعًا، ولا نَصرًا مِن جهةِ أنفُسِكم، أو مِن جِهةِ غَيرِكم. ومَن يكفُرْ باللهِ تعالى منكم نعذِّبْه عذابًا كبيرًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا توَعَّدَهم بالسَّعيرِ وما يُلاقون مِن هَولِها؛ بَيَّنَ لهم حالَ ما قبْلَ ذلك، وهو حالُهم في الحَشرِ مع أصنامِهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ لهم حالَهم في السَّاعةِ معه سُبحانَه؛ أتبَعَه ذِكرَ حالِهم مع معبوداتِهم مِن دُونِه، فقال[2]:

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: واذكُرْ -أيُّها الرَّسولُ[3]- يومَ القيامةِ حين يَحشُرُ اللهُ المُشرِكين ومَعبوداتِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٥٩).

(٣) قال محمد رشيد رضا: (جمهورُ المفسِّرينَ يجعلونَ كلمةَ «يوم» في أمثالِ هذه الآياتِ مفعولًا لفعلٍ محذوفٍ تقديرُه، «واذكُرْ»، وهو خطابٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: واذكُرْ لهم فيما تَتْلوه عليهم يومَ يكونُ كَذا وكَذا؛ لأنَّ هذا معهودٌ ومعروفٌ عندَهم). ((تفسير المنار)) (٨/ ٥٥).

التي عَبَدوها مِن دونِ اللهِ[1].

﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾.

أي: فيقولُ اللهُ للمَعبوداتِ التي كان يعبُدُها المُشرِكون: أأنتم أضلَلْتُم عبادي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣، ٣٤).

قيل: المرادُ بقَولِه: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الأصنامُ. ومِمَّن اختاره: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٢).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾: الملائِكةُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١١).

وقيل: المرادُ: الملائكةُ والإنسُ والجِنُّ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٠).

وقال الرازيُّ: (وأمَّا الأكثَرونَ فزَعَموا أنَّ المرادَ هو الملائِكةُ، وعيسى، وعُزَيرٌ -عليهم السَّلامُ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٢).

وممَّن اختار العُمومَ، وأنَّ المرادَ كُلُّ ما عُبِدَ مِن دونِ اللهِ: ابنُ عطية، والبيضاوي، والبقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ عطيَّة: (وقولُه: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يريدُ به كُلَّ شَيءٍ عُبِدَ مِن دون الله، فغَلَّب العبارةَ عمَّا لا يعقِلُ مِن الأوثانِ؛ لأنَّها كانت الأغلَبَ وقتَ المخاطَبةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٣).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ عندي شُمولُ المعبودينَ المذكورينَ للأصنامِ معَ الملائكةِ وعيسى وعُزَيرٍ؛ لأنَّ ذلك تدُلُّ عليه قرينتانِ قرآنيتانِ؛ الأولَى: أنَّه عبَّرَ عن المعبودينَ المذكورينَ بـ «ما» التي هي لغيرِ العاقِلِ في قولِه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ فلفظةُ «ما» تدُلُّ على شُمولِ غيرِ العقلاءِ، وأنَّه غلَّب غيرَ العاقِلِ؛ لكثرتِه.

القرينة الثانية: هي دَلالةُ آياتٍ مِن كتابِ اللهِ على أنَّ المعبودينَ غافلونَ عن عبادةِ مَن عبَدَهم، أي: لا يعلَمون بها؛ لكَونِهم غيرَ عُقلاءَ... وإطلاقُ اللَّفظِ المختَصِّ بالعُقلاءِ عليهم؛ نظرًا إلى أنَّ المشركينَ نَزَّلوهم منزلةَ العُقلاءِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٣، ٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٠).

هؤلاء عن طَريقِ الهُدى، ودعَوْتُموهم إلى عبادتِكم مِن دوني حتى فَعَلوا ذلك، أمْ هم الذين ضَلُّوا عن طَريقِ الحَقِّ مِن تِلقاءِ أنفُسِهم مِن غيرِ دَعوةٍ وتَضليلٍ منكم[1]؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ...﴾ [المائدة: ١١٦].

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾.

**القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:**

في قوله تعالى: ﴿نَّتَّخِذَ﴾ قراءتانِ:

١- قراءةُ: ﴿نُتَّخَذَ﴾ بضمِّ النُّونِ، وفتحِ الخاءِ، على البناءِ للمفعولِ؛ أيْ: ما كان يَنْبَغي لنا أنْ يَتَّخِذَنا المشرِكونَ أولِياءَ مِن دونِكَ[2].

٢- قراءةُ: ﴿نَّتَّخِذَ﴾ بِفتحِ النُّونِ، وكسرِ الخاءِ، والمعنى أنَّ هؤلاءِ المعبودينَ هم الَّذينَ تَبَرَّءوا أنْ يكونَ كانَ لهم وَلِيٌّ غيرُ اللَّهِ تعالَى ذِكْرُه[3].

﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: قال المعبودون مِن دونِ اللهِ: ننزِّهُك -يا اللهُ- عن مُشارَكتِك في الألوهيَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٨).

(٢) قرأ بها أبو جعفر. يُنظر ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٨).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٧).

فما يليقُ ولا يحِقُّ لنا أن نَعبُدَ غَيرَك، ونواليَ سِواك، ولا نطلُبَ مِن النَّاسِ أن يكونوا عابدينَ لنا؛ فنحن ما دعَوْناهم إلى ذلك، بل هم فَعَلوه مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم مِن غيرِ أمْرِنا ولا رِضانا، ونحن بُرآءُ منهم ومِن عبادتِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾.

أي: ولكِنْ متَّعْتَ -يا ربَّنا- هؤلاء المُشرِكين وآباءَهم في الدُّنيا بالنِّعَمِ، فانشَغَلوا بالشَّهواتِ حتى تَرَكوا وَحْيَك المنزَّلَ، وفيه الأمرُ بتوحيدِك وعبادتِك وحْدَك لا شَريكَ لك[2].

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾.

أي: وكان المُشرِكون قومًا هَلْكى، قد غلَب عليهم الخِذلانُ والشَّقاءُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٦، ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤).
قال ابن جرير: (وإنَّما أُريدَ بالبورِ في هذا الموضِعِ أنَّ أعمالَ هؤلاء الكُفَّارِ كانت باطلةً؛ لأنَّها لم تكُنْ لله). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٩).
وقال البقاعي: (﴿وَكَانُوا۟﴾ في عِلمِك بما قضيتَ عليهم في الأزَلِ ﴿قَوْمًۢا بُورًا﴾ هَلْكى). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٦٣).

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ ﴾.

أي: فقد كذَّبَكم -أيُّها المُشرِكون- مَن عبَدْتُموهم مِن دُونِ اللهِ، وأنكروا قَولَكم أنَّهم أمَروكم بعبادتِهم، ورَضُوا فِعْلَكم، وأنَّهم شُفَعاءُ لكم عندَ رَبِّكم، وكذَّبوكم في زَعمِكم أنَّهم آلهةٌ[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [النحل: ٨٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التفسيرِ:**

١- قراءةُ ﴿ تَسْتَطِيعُونَ ﴾ بالتاءِ على الخِطابِ للمُشرِكين، أي: فما تَستطيعونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠).

قال ابن عطية: (الآيةُ خِطابٌ مِن الله تعالى بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤).

وقال ابن عاشور: (الباءُ في قَولِه: ﴿ بِمَا تَقُولُونَ ﴾ يجوزُ أن تكونَ بمعنى «في» ...، أي: كذَّبوكم تكذيبًا واقِعًا فيما تقولون، ويجوزُ أن تكونَ للسَّببيَّةِ، أي: كذَّبوكم بسَبَبِ ما تقولون). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

-يا عَبَدةَ الأوثانِ- صَرفًا لعذابِ اللهِ عنكم، ولا نَصرًا منه لأنفُسِكم[١].

٢- قراءةُ ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ بالياءِ على الإخبارِ عن المعبودينَ مِن دونِ الله، أي: فما يستطيعُ الآلهةُ صَرفًا لعذابِ اللهِ عنكم -أيُّها المشركون- ولا نَصرًا لكم[٢].

﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾

أي: فما تَستطيعون -أيُّها المُشرِكونَ- صَرْفَ عذابِ اللهِ عنكم بفِداءٍ أو غيرِه، ولا تستطيعونَ نَصرَ أنفُسِكم؛ لِعَجزِكم[٣].

﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾

أي: ومَن يَظلِمْ نفْسَه منكم[٤] .....

---

(١) قرأ بها حفصٌ عن عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٥)، ((الحجة)) لأبي عليٍّ الفارسي (٥/ ٣٤٠)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢١٥)، ((الحجة)) لأبي عليٍّ الفارسي (٥/ ٣٤٠)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).
قال الواحدي: (وتفسيرُ الصَّرفِ هاهنا: صرْفُ العذابِ، في قولِ ابنِ عبَّاسٍ ومقاتلٍ، وأكثَرِ المفسِّرينَ، وأهلِ المعاني). ((البسيط)) (١٦/ ٤٤٠).

(٤) قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ﴾، قيل: هو خطابٌ للكفَّارِ، وقيل: للمؤمنينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤).
ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ للمؤمنينَ: ابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٢).
وممَّن اختار أنَّ الخطابَ لعمومِ المكلَّفينَ: البيضاويُّ، والنسفي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢). =

بالشِّركِ، نُعَذِّبْه في النَّارِ عذابًا كبيرًا[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ أنَّه لا تجوزُ الوَلايةُ والعَداوةُ إلَّا بإذنِ اللهِ؛ فكلُّ وَلايةٍ مَبنيَّةٍ على مَيلِ النَّفْسِ ونَصيبِ الطَّبعِ، فذاك على خِلافِ الشَّرعِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ

---

= قال الشوكاني: (﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هذا وعيدٌ لكلِّ ظالمٍ، ويدخُلُ تحتَه الذي فيهم السياقُ دخولًا أوَّليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٧٩).

وقال السعدي: (وأمَّا المعانِدُ منهم الذي عرَف الحقَّ وصدَفَ عنه، فقال في حقِّه: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بتركِ الحقِّ ظُلمًا وعنادًا ﴿نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يُقادَرُ قَدرُه، ولا يُبلَغُ أمرُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

قال ابن عطية: (الظُّلمُ هنا: الشِّركُ. قاله الحَسَنُ وابنُ جُرَيجٍ. وقد يحتمِلُ أن يعُمَّ غيرَه مِن المعاصي). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٤).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كان التَّقديرُ: فمَن يَعدِلْ منكم لسَماعِ هذا الوَعظِ بوَضعِ العِبادةِ في موضِعِها، نُثِبْه ثوابًا جليلًا؛ عطف عليه ما المقامُ له، فقال: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ﴾ بوَضعِها في غيرِ مَوضِعِها، وباعتِقادِه في الرسُلِ ما لا يَنبغي مِن أنَّه لا يَنبغي لهم أن يكونوا مِثلَ النَّاسِ في أكلٍ ولا طلَبِ مَعيشةٍ ونحوِ ذلك؛ ﴿نُذِقْهُ﴾ في الدُّنيا والآخرةِ، بما لنا مِن العَظَمةِ ﴿عَذَابًا كَبِيرًا﴾). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٤).

أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾. إن قيل: إن كانت الأصنامُ التي تُعبَدُ تُحشَرُ، فكيف تَنطِقُ وهي جمادٌ؟

**فالجواب**: يُنطِقُها الله تعالى يومَ القيامةِ كما يُنطِقُ الأيديَ والأرجُلَ[1]، فإسنادُ القَولِ إلى ما يُعبَدون مِن دونِ اللهِ يَقتضي أنَّ اللهَ يجعَلُ في الأصنامِ نُطقًا يَسمَعُه عبَدَتُها، أمَّا غيرُ الأصنامِ مِمَّن عُبِد مِن العُقَلاءِ، فالقَولُ فيهم ظاهِرٌ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ قَولُهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ ﴾ تعظيمٌ لله تعالى في مَقامِ الاعترافِ بأنَّهم ينزِّهون اللهَ عن أن يَدَّعُوا لأنفُسِهم مشاركتَه في الإلهيَّةِ[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الإشارةُ إليهم؛ لتَمييزِهم مِن بيْنِ بقيَّةِ العِبادِ، وهذا أصلٌ في أداءِ الشَّهادةِ على عَينِ المشهودِ عليه لدى القاضي[4].

٤- قال تعالى: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ «لا ينبغي» في كَلامِ اللهِ تعالى، ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لِلَّذي هو في غايةِ الامتِناعِ شَرعًا؛ كقَولِه تعالى: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٩٢]، وقَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ [يس: ٦٩]، وقَولِه تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ ﴾[1] [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ أَمۡ هُمۡ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ ﴾ نُصِبَ على أنَّه مَفعولٌ لِمُضمرٍ مُقدَّمٍ مَعطوفٍ على قولِه تعالى: ﴿ قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ ﴾ إلخ [الفرقان: ١٥]، إنْ كان المُرادُ: قُلْ للمُشرِكين. أو على قولِه: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١]، على جوازِ أنَّ المُرادَ: قُلْ للمُؤمِنينَ. والتَّقديرُ: واذكُرْ لهم بعْدَ التَّقريعِ والتَّحسيرِ يومَ يَحشُرُهم اللهُ عَزَّ وجلَّ. أو على أنَّه ظرْفٌ لمُضمَرٍ مُؤخَّرٍ؛ قد حُذِفَ للتَّنبيهِ على كَمالِ هَولِه وفَظاعةِ ما فيه، والإيذانِ بقُصورِ العِبارةِ عن بَيانِه[2].

- وتَعليقُ التَّذكيرِ باليومِ مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ الهائلةِ؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها؛ لِأنَّ إيجابَ ذِكْرِ الوَقتِ إيجابٌ لذِكْرِ ما وقَعَ فيه، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ عليها؛ فإذا استُحضِرَ كانت حاضرةً بتَفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عِيانًا[3].

- واستعمالُ (مَا) في قولِه: ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ ﴾؛ إمَّا لأنَّ وضْعَه أعَمُّ، ولذلك يُطلَقُ لكلِّ شبَحٍ يُرى ولا يُعرَفُ، أو لأنَّه أُرِيدَ به الوصْفُ، كأنَّه قِيلَ: ومَعبودَهم. أو لتَغليبِ الأصنامِ؛ تَحقيرًا وتَنبيهًا على أنَّهم مِثْلُها في السُّقوطِ عن رُتبةِ المَعبوديَّةِ. أو اعتبارًا لغَلبةِ عُبَّادِها. أو

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٦، ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

يَخُصُّ الملائكةَ وعُزَيرًا والمسيحَ؛ بقَرينةِ السُّؤالِ والجوابِ. أو الأصنامُ يُنطِقُها اللهُ، أو تَتكلَّمُ بلسانِ الحالِ. وقولُه: ﴿فَيَقُولُ﴾، أي: للمَعبودينَ، وهو على طَريقةِ تَلوينِ الخِطابِ[1]. وقِيل: أنْ يكونَ عامًّا لهم جميعًا يأْباهُ جوابُ المَعبودينَ، وهو قولُهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ﴾؛ لأنَّهم ملائِكةٌ مَعصومونَ وأنبياءُ مَعصومونَ؛ فلا يدخُلُ فيه الأصنامُ، لكنْ عُدِلَ إلى (ما) إجراءً للمَعبودينَ مُجْرى غيرِ ذَوِي العُقولِ؛ تَحقيرًا لشأنِهم؛ لغايةِ قُصورِهم عن معنَى الرُّبوبيَّةِ، وتَنبيهًا على المُجانَسةِ المُنافيةِ للأُلوهيَّةِ[2].

- قَولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ استِفهامُ تَقريعٍ وتَبْكيتٍ للعَبَدةِ. وحَذْفُ صِلَةِ (ضَلَّ) مُبالَغةٌ؛ فسُؤالُه تعالى وهو عالِمٌ بالمسؤولِ عنه؛ لِيُجيبوا بما أجابوا به، حتَّى يُبكِّتَ عَبَدتَهم بتكذيبِهم إيَّاهم، فيُبْهَتوا ويَنْقطِعوا، وتَزِيدَ حَسرتُهم، ويكونَ ذلك نوعًا ممَّا يَلحَقُهم مِن غضَبِ اللهِ وعَذابِه، ويَغتبِطَ المُؤمِنون ويَفْرَحوا بحالِهم ونَجاتِهم مِن فَضيحةِ أولئك، وليكونَ حِكايةُ ذلك في القُرآنِ لُطْفًا للمُكلَّفينَ. وجاء الاستفهامُ مُقدَّمًا فيه الاسمُ على الفِعلِ، ولم يقُلْ: أضلَلْتُم عِبادي هؤلاء أمْ ضلُّوا السَّبيلَ؛ بحذْفِ (أنتُم) و(هم)؛ لأنَّ السُّؤالَ ليس عن الفِعلِ ووُجودِه؛ لأنَّه لولا وُجودُه لَمَا توجَّهَ هذا العِتابُ، وإنَّما هو عن مُتولِّيهِ، فلا بُدَّ مِن ذِكْرِه، وإيلائِه حَرْفَ الاستفهامِ حتَّى يُعلَمَ أنَّه المسؤولُ عنه[3]. وقيل: هو استِفهامٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

تقْريريٌّ للاستِنطاقِ والاستِشهادِ. والمعنى: أأنتُمْ أضْلَلْتُموهم أمْ ضَلُّوا مِن تِلقاءِ أنفُسِهم دونَ تَضليلٍ منكم؛ ففي الكلامِ حَذْفٌ دلَّ عليه المذكورُ[١].

- وأخبَرَ بفِعلِ: ﴿أَضْلَلْتُمْ﴾ عن ضَميرِ المُخاطَبينَ المُنفصِلِ، وبفِعلِ ﴿ضَلُّوا﴾ عن ضَميرِ الغائبينَ المُنفصِلِ؛ لِيُفيدَ تَقديمُ المُسنَدِ إليهما على الخَبرينِ الفِعْلِيَّينِ تَقْويةَ الحُكْمِ المُقرَّرِ به؛ لإشعارِهم بأنَّهم لا مَناصَ لهم مِن الإقرارِ بأحَدِ الأمْرَينِ، وأنَّ أحدَهم مُحقَّقُ الوُقوعِ لا مَحالةَ؛ فالمقصودُ بالتَّقويةِ هو مُعادِلُ هَمزةِ الاستِفهامِ، وهو ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾[٢]. وإعادةُ فِعْلِ ﴿ضَلُّوا﴾ في قولِه: ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾؛ لِيَجْرِيَ على ضَميرِهم مُسنَدٌ فِعليٌّ، فيُفِيدَ التَّقويةَ في نِسبةِ الضَّلالِ إليهم[٣].

- ووصْفُ العِبادِ هنا بقولِه: ﴿عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تَسجيلٌ على المُشرِكين بالعُبوديَّةِ، وتعريضٌ بكُفرانِهم حقَّها[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًۢا بُورًا﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حكايةِ السُّؤالِ؛ كأنَّه قِيلَ: فماذَا قالوا في الجوابِ؟ فقيل: قالوا...[٥].

- قَولُه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ إمَّا على إرادةِ مُطلَقِ التَّعجُّبِ ممَّا قِيل لهم مِن قولِه: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي﴾، أو نَطَقوا بكلمةِ التَّسبيحِ كِنايةً عن البَراءةِ عن أنفُسِهم ذلك القولَ، أو أرادوا مَوضوعَها اللُّغويَّ مِن التَّنزيهِ والتَّقديسِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٧).

قدَّسوا ساحةَ جَلالِ اللهِ عمَّا لا يَلِيقُ بحَضرتِه مِن النِّدِّ والضِّدِّ[١].

- ولَمَّا كان السُّؤالُ على التَّعريضِ التَّوبيخيِّ -والمقصودُ تَبْكيتُهم، وإلْزامُ الحُجَّةِ عليهم، وتَفضيحُهم على رُؤوسِ الأشهادِ- أجابوا أوَّلًا بما يدُلُّ على تَبرُّئِهم مِن نِسبةِ الإضلالِ إلى أنفُسِهم بأقْصى ما يُمكِنُ مِن المُبالَغةِ؛ خِذْلانًا لهم، وكان مِن حقِّ الظَّاهرِ: إنَّا ما أضلَلْناهم، فأطْنَبوا بقولِهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ إلى آخِرِه؛ تَعجُّبًا، أي: كيف يَصِحُّ منَّا أنْ نصِفَك بما لا يَلِيقُ بجَلالِك، ونحن عالِمون بالتَّقديسِ، وكيف يَستقيمُ لنا أنْ نَحمِلَ غيرَنا أنْ يَتولَّونا دونَك، ونحن العابِدون؟! وثانيًا: بما يدُلُّ على أنَّ الكَفرةَ هم ضلُّوا السَّبيلَ، لكنْ بتَقديرِ اللهِ وإضلالِه، فأطْنَبوا في تَعبيرِهم بقولِه: ﴿لَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ﴾ إلى آخِرِه[٢].

- قَولُه: ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ﴾ كِنايةٌ عنِ انتِفاءِ طلَبِهم هذا الاتِّخاذَ انتفاءً شديدًا. والخبَرُ مُستعمَلٌ في لازمِ فائِدتِه، أي: نَعلَمُ أنَّه لا يَنْبغي لنا؛ فكيف نُحاوِلُه[٣]؟!

- وتَنكيرُ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مِن حيثُ إنَّهم أولياءُ مَخْصوصون، وهم الجِنُّ والأصنامُ. على القولِ بأنَّ القائلين الملائكةُ والأنبياءُ؛ فتعيَّنَ أنْ يكونَ الباقي الجِنَّ والأصنامَ؛ لأنَّ المعبودينَ مُنحصِرون في هؤلاء. ويجوزُ أنْ يكونَ المعبودونَ عامًّا، والتَّقديرُ: ما يَنبغِي لنا أن نُحسَبَ مِن بعضِ ما يقَعُ عليه اسمُ الولايةِ، فضْلًا مِن الكلِّ؛ فإنَّ الوليَّ قد يكونُ مَعبودًا ومالِكًا ومَخدومًا. أو التَّقديرُ: نتَّخِذَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٩).

مَعبودينَ مِن أولياءَ، أي: مِن جِهةِ أولياءَ؛ فحَذْفُ مَفعولِ الاتِّخاذِ مَعهودٌ[١].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾ مَزيدةٌ؛ لتأكيدِ عُمومِ النَّفيِ، أي: استِغراقِه؛ لأنَّه نَكِرةٌ في سِياقِ النَّفيِ. وقيل: للتَّبعيضِ، أي: لا نتَّخِذَ بعضَ أولياءَ[٢].

- والاستدراكُ الَّذي أفادَهُ (لكنْ) في قولِه: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ﴾ ناشئٌ عن التَّبرِّي مِن أنْ يكونوا هم المُضِلِّينَ لهم، بتَعقيبِه ببَيانِ سَببِ ضلالِهم؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ تَبرئةَ أنفُسِهم مِن إضلالِهم يرفَعُ تَبِعةَ الضَّلالِ عن الضَّالِّينَ. والمقصودُ بالاستِدراكِ ما بعْدَ (حتَّى)، وهو: ﴿نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾، وأمَّا ما قبْلَها؛ فقد أُدمِجَ بيْن حَرفِ الاستِدراكِ ومَدخولِه ما يُسجِّلُ عليهم فَظاعةَ ضَلالِهم؛ بأنَّهم قابَلوا رَحمةَ اللهِ ونِعمتَه عليهم وعلى آبائِهم بالكُفرانِ؛ فالخبَرُ عن اللهِ بأنَّه متَّعَ الضَّالِّين وآباءَهم مُستعمَلٌ في الثَّناءِ على اللهِ بسَعةِ الرَّحمةِ، وفي الإنكارِ على المُشرِكين مُقابَلةَ النِّعمةِ بالكُفرانِ؛ غضَبًا عليهم. وجعَلَ نِسيانَهم الذِّكْرَ غايةً للتَّمتيعِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ ذلك التَّمتيعَ أفْضى إلى الكُفرانِ؛ لِخُبثِ نُفوسِهم، قال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[٣] [الواقعة: ٨٢].

- قَولُه: ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ التَّعرُّضُ إلى تَمتيعِ آبائِهم هنا، معَ أنَّ نِسيانَ الذِّكْرِ إنَّما حصَلَ مِن المُشرِكين الَّذين بلَغَتْهم الدَّعوةُ المُحمديَّةُ ونسُوا الذِّكْرَ: هو زِيادةُ تَعظيمِ نِعمةِ التَّمتيعِ عليهم بأنَّها نِعمةٌ مُتأثِّلةٌ تَليدةٌ، مع الإشارةِ إلى أنَّ كُفرانَ النِّعمةِ قد انجَرَّ لهم مِن آبائِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٠).

الَّذين سَنُّوا لهم عِبادةَ الأصنامِ؛ ففيه تَعريضٌ بشَناعةِ الإشراكِ، ولو قبْلَ مَجيءِ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

- وجُملةُ: ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه(٢).

- وعلى القول بأنَّ ﴿بُورًا﴾ مَصدرٌ؛ فيكون وُصِفوا به مُبالَغةً؛ ولذلك يَسْتوي فيه الواحدُ والجمْعُ(٣).

- واجتِلابُ فِعْلِ (كان)، وبِناءُ ﴿بُورًا﴾ على ﴿قَوْمًۢا﴾ دونَ أن يُقالَ: (حتَّى نسُوا الذِّكْرَ وبارُوا)؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ البَوارِ منهم بما تَقْتضيهِ (كان) مِن تَمكُّنِ معنى الخبَرِ، وما يَقْتضيهِ ﴿قَوْمًۢا﴾ مِن كَونِ البَوارِ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم(٤).

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ هذه الآيةُ كالخاتمةِ لِمَا يَجْري عليهم مِن الأحوالِ والنَّكالِ مِن لَدُنْ قولِه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾(٥) [الفرقان: ١٢].

- وقولُه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ في الكَلامِ حذْفُ فِعلِ القولِ يدُلُّ عليه المَقامُ، والتَّقديرُ: إنْ قُلْتم: هؤلاء آلِهَتُنا، فقد كذَّبوكم، على تَقديرِ قولٍ مُرتَّبٍ علَى الجوابِ، أي: فقال اللهُ تعالى عِندَ ذلك: فقد كذَّبوكم. وفي حذْفِ فِعلِ القولِ في هذه الآيةِ استحضارٌ لصُورةِ المَقامِ كأنَّه مُشاهَدٌ غيرُ مَحكِيٍّ، وكأنَّ السَّامعَ آخِرَ الآيةِ قد سمِعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٢).

لهذه المُحاوَرةِ مُباشَرةً دونَ حِكايةٍ، فقرَعَ سمْعَه شَهادةُ الأصنامِ عليهم، ثمَّ قرَعَ سمْعَه توجُّهُ خِطابِ التَّكذيبِ إلى المشهودِ عليهم، وهو تفنُّنٌ بَديعٌ في الحِكايةِ يَعتمِدُ على تَخييلِ المَحكيِّ واقِعًا؛ فجُملةُ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم...﴾ مُستأنَفةٌ ابتدائيَّةٌ، وهو الْتِفاتٌ إلى العَبَدةِ بالاحتِجاجِ والإلزامِ، وإقبالٌ على خِطابِ الحاضِرينَ، وهو ضَربٌ مِن الالتِفاتِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾[1] [يوسف: ٢٩].

- وهذه المفاجأةُ بالاحتِجاجِ والإلزامِ التي في قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ حَسَنةٌ رائعةٌ، وخاصَّةً إذا انضمَّ إليها الالتِفاتُ؛ فالمفاجأةُ مِن تَعقُّبِ القِصَّةِ بالفاءِ التي تَستدعي ما يَترتَّبُ عليه، كأنَّ السامعَ لم يَنتظِرْ ما بعْدَ الفاءِ بتقديمِ ما يَترتَّبُ عليه ففُوجِئَ به، وهذا أسلوبٌ رائعٌ حسَنٌ، والالتفاتُ مِن قولِه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾، كأنَّه قيل: أنتُم المخصوصونَ -أيُّها المكذِّبونَ- بأنْ يَفعَلَ بكم ما تَستحقُّونَه مِن الفَضيحةِ والنَّكالِ، ولا يُمهِلَكم فيه. والفاءُ في ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم﴾ فَصيحةٌ، أي: إفصاحٌ عن حُجَّةٍ بعْدَ تَهيئةِ ما يَقْتضيها، وهو إفصاحٌ رائعٌ، وزادَهُ الالْتِفاتُ في قولِه: ﴿كَذَّبُوكُم﴾[2].

- قَولُه: ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا﴾ فُرِّعَ على الإعلانِ بتَكذيبِهم إيَّاهم تأْييسُهم مِن الانتِفاعِ بهم في ذلك الموقِفِ؛ إذ بَيَّنَ لهم أنَّهم لا يَستطيعون صَرْفَ ضُرٍّ عنهم، ولا إلْحاقَ ضُرٍّ بمَن يَغلِبُهم. ووَجْهُ التَّفريعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤١).

ما دَلَّ عليه قولُهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ [الفرقان: ١٨]، الَّذي يَقْتضي أنَّهم في مَوقفِ العُبوديَّةِ والخُضوعِ؛ ففيه ضَربُ تَهكُّمٍ بهم(١).

- وعلى القَولِ بأنَّ الخِطابَ للمَعبودِينَ؛ فالتاءُ في ﴿تَسْتَطِيعُونَ﴾ التِفاتٌ(٢).

- قَولُه: ﴿وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ تَذييلٌ للكَلامِ يَشمَلُ عُمومُه جميعَ النَّاسِ، ويكونُ خِطابُ ﴿مِّنكُمْ﴾ لجَميعِ المُكلَّفينَ، ويُفِيدُ ذلك أنَّ المُشرِكين المُتحدَّثَ عنهم مُعَذَّبون عذابًا كبيرًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٢).

## الآيات (٢٠-٢٤)

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَعَتَوۡ﴾: أي: تكبَّروا وتجبَّروا، والعاتي: هو المبالِغُ في رُكوبِ المعاصي المتمَرِّدُ، والعُتُوُّ: تجاوُزُ الحَدِّ في الظُّلمِ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ[1].

﴿حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾: أي: حَرامًا محرَّمًا، وأصلُ (حجر): يدُلُّ على مَنعٍ[2].

﴿هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾: أي: ضائِعًا باطِلًا، والهباءُ المنثورُ: ما يدخُلُ البَيتَ مِن الكُوَّةِ (النافذة) مِثلَ الغُبارِ إذا طلَعَت فيها الشَّمسُ. وأصلُ الهباءِ: يدُلُّ على غَبرةٍ ورِقَّةٍ، وأصلُ (نثر): يَدُلُّ على إلقاءِ شيءٍ مُتَفَرِّقٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((الغريبين)) للهروي (٤/ ١٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٩)، (٦/ ٣١).

﴿مَقِيلًا﴾: أي: مَنزِلًا وقرارًا وقتَ القائلةِ، والقَيلولةُ عند العَرَبِ: الاستراحةُ نِصفَ النَّهارِ إذا اشتَدَّ الحَرُّ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾

قَولُه: ﴿يَوْمَ﴾ العامِلُ فيه النَّصبَ محذوفٌ تقديرُه (يُمنَعون) أي: يُمنَعون البِشارةَ يومَ يَرَون الملائكةَ، ولا يجوزُ أن يعمَلَ فيه نفْسُ البُشرى؛ لوجهينِ:

**أحدُهما**: أنَّها مصدرٌ، والمصدرُ لا يعمَلُ فيما قبْلَه.

**والثاني**: أنَّها منفيَّةٌ بـ (لا)، وما بعْدَها لا يعمَلُ فيما قبْلَها.

وقيل: إنَّ (يومَ) منصوبٌ بـ (اذكُرْ) محذوفًا؛ فيكونُ مفعولًا به، والتقديرُ: اذكُرْ يومَ يَرَونَ الملائكةَ. وجملةُ ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ في محلِّ نَصبٍ، مَقولُ قَولٍ مُضمَرٍ، أي: يومَ يَرَونَ الملائكةَ يقولونَ: لا بُشرى، وجملةُ (يقولون) المقَدَّرةُ في محلِّ نصبٍ حالٌ مِن ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾.

قَولُه: ﴿حِجْرًا﴾ منصوبٌ على المَصدريَّةِ بفِعلٍ مَحذوفٍ وُجوبًا، وهي مِنْ (حَجَره): إذا مَنَعَه؛ لأنَّ المستعيذَ طالِبٌ مِن اللهِ أن يمنعَ المكروهَ لا يَلحَقُه، وكأنَّ المعنى: أسألُ اللهَ أن يمنَعَه مَنعًا، ويَحجُرَه حَجرًا، و﴿مَّحْجُورًا﴾ صِفةٌ مُؤكِّدةٌ للمَعنى[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٤)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٦٠٢)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٠).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٤٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٩٨٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٧٠-٤٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٦).

## المعنى الإجماليّ:

يقولُ تعالى: وما أرسَلْنا قَبْلَك -يا مُحمَّدُ- أحدًا مِن المُرسَلينَ إلَّا مِن البشَرِ الذين يأكُلونَ الطَّعامَ، ويَمشونَ في الأسواقِ؛ فليس للمُشرِكين حُجَّةٌ في تكذيبِك. وابتَلَيْنا بعضَكم ببَعضٍ -أيُّها النَّاسُ- فهلْ تَصبِرون على هذا البَلاءِ؟ وكان ربُّك -يا محمَّدُ- بَصيرًا بمن يَصبِرُ مِن عِبادِه ومَن لا يصبِرُ، ويعلَمُ أحوالَهم وأعمالَهم، وسيُجازي كُلًّا بعَمَلِه، ويعلَمُ مَن يصلُحُ لرسالتِه فيَصْطَفيه.

وقال الكفَّارُ الذين يُنكِرون البعثَ ولا يُقِرُّون بلقاءِ الله ولا يخافونَه: هلَّا أنزَل اللهُ الملائِكةَ علينا؛ ليُخبِرونا بصِدقِك، أو نرى اللهَ جَهرةً بأعيُنِنا فنؤمِنَ لك! لقد أضمر هؤلاء الكُفَّارُ في أنفُسِهم كِبْرًا عن الحَقِّ، وتجاوَزوا الحَدَّ في الظُّلمِ والطُّغيانِ والاستِكبارِ. يومَ يرى هؤلاء الكُفَّارُ ملائِكةَ العذابِ فلا بُشرى لهم يَومَها بالخَيرِ، بل بالخَيبةِ والخُسرانِ، ويقولُ الملائِكةُ لهم: حَرامٌ محَرَّمٌ عليكم أن تكونَ لكم اليومَ بُشرى.

وقصَدْنا إلى ما عَمِلَه هؤلاء الكُفَّارُ في الدُّنيا مِن وُجوهِ الخَيرِ، وأعمالِ البِرِّ، فجعَلْناه ضائِعًا باطِلًا لا وَزنَ له، كالهباءِ الذي تفرَّق وتبَدَّد؛ لحقارتِه، أمَّا أهلُ الجنَّةِ فهم خَيرٌ مكانًا ومَنزِلًا في الجنةِ، وهم أحسَنُ موضعَ قائلةٍ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تقدمَ الطعنُ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأكلِ الطَّعامِ، والمشيِ

في الأسواقِ؛ أخبَرَ تعالى أنَّها عادةٌ مُستمِرَّةٌ في كلِّ رِسالةٍ(١).

وأيضًا لَمَّا فرَغَ مِن تهديدِهم ووعيدِهم؛ شرَع في تسليةِ رَسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما ناله مِن قَولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الفرقان: ٧] مِن الحُزنِ وضِيقِ الصَّدرِ(٢).

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ﴾.

أي: وما أرسَلْنا قبْلَك -يا محمَّدُ- أحدًا مِن المرسَلينَ إلَّا والحالُ أنَّهم بَشَرٌ يأكلون الطَّعامَ ويَمشونَ في الأسواقِ؛ فليس للمُشرِكين حُجَّةٌ في تكذيبِك؛ لكَونِك تأكُلُ الطَّعامَ وتَمشي في الأسواقِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ * وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدٗا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧، ٨].

﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:**

أفاد ما تَقَدَّمَ مِن الآيةِ أنَّ الرُّسُلَ يأكُلونَ الطَّعامَ فيحتاجونَ للغِذاءِ وتحصيلِه، وأنَّهم يَمشونَ في الأسواقِ للسَّعيِ والتكسُّبِ؛ وأفاد آخِرُ الآيةِ الحِكمةَ الربَّانيَّةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٣).

في ذلك، وهي أنْ يكونَ بذلك فتنةٌ واختبارٌ للعِبادِ، وتلك سُنَّةُ اللهِ تعالى في خلْقِه؛ فقد جَعَل بعضَهم لبعضٍ فتنةً(١).

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾.

أي: وامتحَنَّا -أيُّها النَّاسُ- بعضَكم ببَعضٍ؛ لِيَظهَرَ ما نعلَمُه منكم في عالَمِ الغَيبِ مِن الطَّاعةِ والمعصيةِ في عالَمِ الشَّهادةِ، فهلْ تَصبِرونَ على البَلاءِ أو لا تَصبِرونَ(٢)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٦٢، ٦٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

قال ابن القيم: (قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾، فهو سبحانه جعَل أولياءَه فتنةً لأعدائِه، وأعداءَه فِتنةً لأوليائِه، والملوكَ فِتنةً للرعيَّةِ، والرعيَّةَ فتنةً لهم، والرِّجالَ فِتنةً للنِّساءِ، وهنَّ فِتنة لهم، والأغنياءَ فِتنةً للفقراءِ، والفُقراءَ فِتنةً لهم، وابتلى كلَّ أحدٍ بضِدٍّ جَعَلَه مُتقابِلًا؛ فما استقرَّت أقدامُ الأبوَينِ على الأرضِ إلَّا وضِدُّهما مقابِلهما، واستمَرَّ الأمرُ في الذُّرِّيَّةِ كذلك إلى أن يطويَ اللهُ الدُّنيا ومَن عليها، وكم له سبحانَه في مِثلِ هذا الابتِلاءِ والامتحانِ مِن حِكمةٍ بالغةٍ، ونِعمةٍ سابِغةٍ، وحُكمٍ نافذٍ، وأمرٍ ونهيٍ، وتصريفٍ دالٍّ على ربوبيَّتِه وإلهيَّتِه، ومُلكِه وحَمدِه!). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٤٤). ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٢).

ومِمَّن اختار هذا المعنى بعمومِه في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن رجب، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨)، ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

قال ابن عاشور: (وحالُ الفتنةِ في كِلا البعضينِ مختلِفٌ؛ فبعضُها فِتنةٌ في العقيدةِ، وبعضُها فِتنةٌ في الأمنِ، وبعضُها فِتنةٌ في الأبدانِ، وشمِلَ أحدُ البعضينِ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ معه، والبعضُ الآخَرُ المشركينَ، فكان حالُ الرَّسولِ فتنةً للمُشرِكين؛ إذْ زعَموا أنَّ حالَه مُنافٍ للرسالةِ فلم يؤمنوا به، وكان حالُ المؤمنينَ في ضَعفِهم فتنةً للمُشرِكين؛ إذ ترفَّعوا عن الإيمانِ الذي يُسَوِّيهم بهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٤).

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣].

وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال فيما يرويه عن اللهِ: ((قال: إنَّما بعثتُك لأبتلِيَك وأبتليَ بك))[١].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

موقعُ هذه الجملةِ بعْدَ الجملةِ الأُولى لبيانِ أنَّ فِتنةَ اللهِ لهم هي عن عِلمٍ وبَصَرٍ بصَوابِ ذلك وحكمتِه، وأنه مُطَّلِعٌ على حقيقةِ ما يكونُ منهم عندَ الاختيارِ لِيجازيَهم عليه، وفي هذا وعدٌ ووعيدٌ للمُمتحَنينَ[٢].

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾.

أي: وكان ربُّك -يا محمَّدُ- بَصيرًا بمن يَصبِرُ مِن عبادِه ومَن لا يصبِرُ على ما امتُحِنَ به، ويعلَمُ أحوالَكم وأعمالَكم، وسيُجازي كُلًّا بعَمَلِه، ويعلَمُ مَن يصلُحُ لرسالتِه فيَصْطَفيه، ويختَصُّه بتفضيلِه[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠، ٥٨١).

مِمَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أي: بمَن يصبِرُ وبمَن يجزعُ: ابنُ جرير، ومكي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٠). =

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾.

أي: وقال الكفَّارُ الذين لا يَطمَعونَ في لقائِنا، فلا يرجونَ ثوابَنا ولا يخافونَ عِقابَنا؛ لإنكارِهم البَعثَ: هلَّا أنزَل اللهُ علينا الملائِكةَ، أو نرى اللهَ بأعيُنِنا فنُؤمِنَ[1]؟!

---

= ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦).

وقيل: المعنى: إنَّ اللهَ بصيرٌ بمن يَستحِقُّ أن يُوحى إليه ومَن يستحِقُّ أن يهديَه اللهُ لِما أرسَلَهم به، ومَن لا يستَحِقُّ ذلك. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٠).

وقال الثعلبيُّ: (﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ بمَن يَصبرُ ويَجزعُ، وبمن يؤمنُ وبمن لا يؤمنُ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢٨).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ أي: بكلِّ امرئٍ، وبمن يصبرُ أو يجزعُ، ومَن يؤمنُ ومَن لا يؤمنُ، وبمن أدَّى ما عليه مِن الحقِّ ومَن لا يؤدِّي). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩).

وقال السعدي: (﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ يعلَمُ أحوالكم، ويصطَفي مَن يعلَمُه يصلُحُ لرسالتِه ويختَصُّه بتفضيلِه، ويعلَمُ أعمالَكم فيُجازيكم عليها: إنْ خَيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠، ٥٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧).

قيل: المعنى: هلَّا أنزل اللهُ علينا ملائكةً، فتُخبِرَنا أنَّ محمَّدًا محِقٌّ فيما يقولُ، وأنَّ ما جاءنا به صِدقٌ، أو نرى ربَّنا فيُخبِرَنا بذلك! وممَّن قال بذلك في الجملة: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زمنين، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والخازن، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: لقد تكبَّرَ الكُفَّارُ الذين تجرَّؤوا على اقتراحِ نُزولِ الملائِكةِ عليهم، أو رُؤيةِ اللهِ في الدُّنيا، وتعظَّموا في أنفُسِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦].

---

= القرطبي)) (١٣/ ١٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦).

وقيل: معنى: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: بالرسالةِ كما أتت الأنبياءَ والرسُلَ، كما أخبرَ عنهم تعالَى في الآيةِ الأخرى: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٩٢).

وقيل: المعنى: هلَّا أُنْزِل علينا الملائِكةُ فكانوا رُسُلًا إلينا! وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٨).

وقال السعدي: (﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أي: هلَّا نُزِّلَت الملائِكةُ تَشهَدُ لك بالرِّسالةِ وتؤيِّدُك عليها، أو تُنزلُ رُسُلًا مُستقِلِّينَ، أو نرى رَبَّنا فيُكَلِّمَنا ويقولَ: هذا رَسولي فاتَّبِعوه؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧).

﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

أي: وتجاوَزَ أولئك الكُفَّارُ الحَدَّ في الكِبْرِ والظُّلمِ والطُّغيانِ، باقتراحِهم ذلك[1].

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

هذه الآيةُ جَوابٌ لقَولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾، فبَيَّنَ تعالى أنَّ الذي سألوه سيُوجَدُ، ولكِنَّهم يَلقونَ منه ما يَكرَهونَ[2].

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: يومَ يرى الكُفَّارُ مَلائكةَ الموتِ حينَ تَنزِلُ لقَبضِ أرواحِهم، ويَرَون ملائِكةَ العذابِ في البَرزخِ ويومَ القيامةِ؛ فلا تُبَشِّرُ الملائكةُ المُجرِمين يومَ يَرَونَها بالخَيرِ، بل بالخَيبةِ والخُسرانِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠١، ١٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧، ٣٨).

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضيَ الله عنهما، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِن السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوجوهِ، معهم المُسُوحُ[1]، فيَجلِسون منه مَدَّ البصَرِ[2]، ثمَّ يجيءُ مَلَكُ الموتِ حتى يجلِسَ عند رأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ، فتَفَرَّقُ في جَسَدِه، فينتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ[3] مِن الصُّوفِ المبلولِ، فيأخُذُها، فإذا أخَذها لم يَدَعوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَجعَلوها في تلك المُسُوحِ، ويخرُجُ منها كأنتَنِ ريحِ جيفةٍ وُجِدَت على وجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بها، فلا يمُرُّون بها على ملأٍ مِن الملائِكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟ فيقولون: فُلانُ بنُ فلانٍ، بأقبَحِ أسمائِه التي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتى يُنتهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستفتَحُ له فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبوا كتابَه في سِجِّينٍ[4] في الأرضِ السُّفلى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرحًا، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ

---

(١) المُسُوحُ، جَمعُ المِسْحِ، وهو اللِّباسُ الخَشِنُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٩).

(٢) مَد البصَر: عبارةٌ عمَّا ينتهي إليه بصَرُ الإنسانِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٤٩٦).

(٣) السَّفُّودُ: أي: الحديدةُ التي يُشوى بها اللَّحمُ. يُنظر: ((شرح المشكاة للطيبي)) (٤/ ١٣٨١).

(٤) سِجِّينٍ: قِيلَ: هو موضِعٌ فيه كتابُ الفُجَّارِ مِن قعرِ النَّارِ. وقيل: هو كتابٌ جامِعٌ لأعمال الشياطينِ والكَفَرةِ. وقيل: هو مكانٌ في أسفلِ الأرضِ السَّابعةِ، وهو محلُّ إبليسَ وجنودِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٨٠)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٩).

مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فتُعادُ رُوحُه في جسَدِه، ويأتيه مَلَكانِ فيُجلِسانِه، فيقولان له: مَن ربُّك؟ فيقول: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيقولانِ له: ما دِينُك؟ فيقولُ: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيقولانِ له: ما هذا الرجُلُ الذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاهْ هاهْ، لا أدري، فيُنادي مُنادٍ مِن السَّماءِ أن كذَبَ، فافرِشُوا له مِن النَّارِ، وافتَحوا له بابًا إلى النَّارِ، فيأتيه مِن حَرِّها، وسَمومِها، ويُضَيَّقُ عليه قبرُه حتَّى تختَلِفَ فيه أضلاعُه، ويأتيه رجُلٌ قَبيحُ الوجهِ، قَبيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيقولُ: أبشِرْ بالذي يَسوؤُك، هذا يومُك الذي كنتَ تُوعَدُ. فيقولُ: مَن أنت؟ فوجهُك الوجهُ يجيءُ بالشَّرِّ. فيقولُ: أنا عمَلُك الخبيثُ. فيقولُ: ربِّ، لا تُقِمِ السَّاعةَ))[1].

﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾.

أي: ويقولُ الملائِكةُ للكُفَّارِ: حَرامٌ محَرَّمٌ عليكم الفَلاحُ اليومَ[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ متقاربة.

صحَّح إسنادَه ابنُ جريرٍ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وحسَّن الحديثَ المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ القائلينَ بذلك هم الملائكةُ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، ونسَبه إلى الجمهورِ. يُنظر: المصدران السابقان.

ومِمَّن ذهب إلى ذلك أيضًا: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥١٩٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣٢).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: أبو سعيدٍ الخُدْريُّ، والضحَّاكُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) =

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾.

أي: وعَمَدْنا يومَ القيامةِ إلى ما عَمِل هؤلاء المُجرِمونَ في الدُّنيا مِن العباداتِ وأعمالِ البِرِّ والخَيرِ، فأحبَطْناها وأبْطَلْناها، حتَّى صارَتْ كالهباءِ[1] المتفرِّقِ المتبدِّدِ، فلا ينتفِعُ منها صاحبُها بشَيءٍ أصلًا[2].

---

= (٨/ ٢٦٧٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٤٥).

ومِمَّن اختار أنَّ القائلينَ بذلك هم المجرمون الكفَّارُ: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ جُرَيجٍ، ومجاهدٌ في رواية عنه، وقتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٢٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٧).

قال ابنُ جُزي: (إن كان الضميرُ للمجرمينَ فالمعنى أنَّهم يقولونَ: حجرًا، بمعنى عوذًا؛ لأنَّ العربَ كانت تتعوَّذُ بهذه الكلمةِ ممَّا تكرهُ، وانتِصابُه بفعلٍ متروكٍ إظهارُه، نحو: معاذَ الله). ((التسهيل لعلوم التنزيل)) (ص: ١٢٦٦).

وقال الشنقيطي: (الكفَّار الَّذينَ اقْتَرَحوا إنزالَ الملائكةِ إذا رَأَوُا الملائكةَ تَوَقَّعوا العذابَ مِن قِبَلِهم، فيقولونَ حينئذٍ للملائكةِ: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أي: حرامًا مُحَرَّمًا عليكم أنْ تَمَسُّونا بسوءٍ؛ أي: لأنَّنا لم نرتكِبْ ذنبًا نَستوجِبُ به العذابَ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٩).

وقال الواحدي: (قولُه: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حرامًا مُحَرَّمًا. قاله ابنُ عباسٍ وجميعُ المفسِّرينَ. وأصلُ الحَجرِ في اللغة: المنعُ). ((البسيط)) (١٦/ ٤٥٤).

(١) قال ابنُ جرير: (والهَباءُ: هو الذي يُرى كهيئةِ الغُبارِ إذا دخل ضَوءُ الشَّمسِ مِن كَوَّةٍ، يحسَبُه الناظِرُ غُبارًا، وليس بشَيءٍ، تَقبِضُ عليه الأيدي ولا تمَسُّه، ولا يُرى ذلك في الظِّلِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣١).

وقال البقاعي: (باطلًا لا نفعَ فيه، وهو معنى ﴿هَبَآءً﴾، وهو ما يُرى في شُعاعِ الشَّمسِ الدَّاخِلِ مِن الكُوَّةِ ممَّا يُشبِهُ الغُبارَ، فهو أشبَهُ شَيءٍ بالعدَمِ؛ لأنَّه لا نفعَ له أصلًا). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٠، ٤٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٧)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) =

كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه وتعالى حالَ الكُفَّارِ في الخَسارِ الكُلِّيِّ والخَيبةِ التامَّةِ؛ شرَحَ وصْفَ أهلِ الجنَّةِ؛ تنبيهًا على أنَّ الحظَّ كلَّ الحَظِّ في طاعةِ اللهِ تعالى(١).

﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: أهلُ الجنَّةِ بسَبَبِ ما عَمِلوه من الأعمالِ المتقَبَّلةِ أفضَلُ(٢) منزِلًا في الجنَّةِ، وأحسَنُ مَوضِعَ قائِلَةٍ(٣).

---

= (٤/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨).

قال ابن القيم: (﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ وهي الأعمالُ التي كانت لغَيرِ الله، وعلى غيرِ أمْرِه وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((مدارج السالكين)) (١/ ٥١٤).

وقال ابن عاشور: (كانوا في الجاهليَّةِ يَعُدُّون الأعمالَ الصالحةَ مَجلبةً لخَيرِ الدُّنيا؛ لأنَّها تُرضي الله تعالى فيُجازيهم بنِعَمٍ في الدنيا؛ إذ كانوا لا يؤمِنون بالبَعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥١).

(٢) قال ابن جُزي: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ جاء هنا التفضيلُ بيْنَ الجنةِ والنارِ؛ لأنَّ هذا مستقَرٌّ وهذا مستقَرٌّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨١).

وقال السعدي: (هذا من بابِ استِعمالِ أفعَلِ التفضيلِ فيما ليس في الطَّرَفِ الآخَرِ منه شَيءٌ؛ لأنَّه لا خيرَ في مَقيلِ أهلِ النَّارِ ومُستقَرِّهم، كقَولِه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٥٩]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١). ويُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير =

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ قَرنَ سُبحانَه الفِتنةَ بالصَّبرِ هاهنا، وفى قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا﴾ [النحل: ١١٠]، فليس لِمَن قد فُتِنَ بفتنةٍ دواءٌ مِثلُ الصَّبرِ، فإنْ صبَرَ كانتِ الفتنةُ مُمحِّصةً له ومُخَلِّصةً مِن الذُّنوبِ، كما يُخَلِّصُ الكِيرُ خَبَثَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، فالفتنةُ كِيرُ القلوبِ، ومَحَكُّ الإيمانِ، وبها يتبيَّنُ الصَّادِقُ مِن الكاذِبِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، فالفِتنةُ قَسَّمت النَّاسَ إلى صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمنٍ ومُنافقٍ، وطيِّبٍ وخَبيثٍ، فمَن صبَرَ عليها كانت رحمةً فى حَقِّه، ونجا بصبرِه مِن فِتنةٍ أعظَمَ منها، ومَن لم يصبِرْ عليها وقعَ فى فتنةٍ أشَدَّ منها[1].

٢- قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ بكُلِّ شَيءٍ؛ فهو عالِمٌ بالإنسانِ قبْلَ الامتِحانِ، لم يُفِدْه ذلك عِلمًا لم يكُنْ، وهو سُبحانَه يضَعُ الأمورَ في حاقِّ مواضِعِها وإن رُئِيَ غيرُ ذلك، فينبغي على كلِّ أحدٍ التَّسليمُ له في جَميعِ الأمورِ؛ فإنَّه يَجُرُّ إلى خَيرٍ كبيرٍ، والتدبُّرُ لأقوالِه وأفعالِه بحُسْنِ الانقيادِ والتلقِّي؛ فإنَّه يُوصِلُ إلى علمٍ غزيرٍ، وما أراد بابتلائِك بهم

---

= الخازن)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٢).

قال البقاعي: (﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: مكانًا يمكنُ فيه الاستراحةُ في مثلِ وقت القَيلولةِ للاستروا حِ بأزواجِهم، والتمتع بما يكونُ في الخَلواتِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٧٢).

وقال ابن عاشور: (والمَقيلُ: المكانُ الذي يُؤوَى إليه في القَيلولةِ، والاستراحةُ في ذلك الوقتِ مِن عادةِ المترَفينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩).

وقال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ المشهورَ في كلامِ العرب أنَّ المَقيلَ: القيلولةُ أو مكانُها، وهي الاستراحةُ نصفَ النهارِ زمنَ الحرِّ مثلًا، وإن لم يكن معها نومٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٢).

وابتلائِهم بك في هذا الأذى الكبيرِ إلَّا إعلاءَ شأنِك، وإسفالَ أمرِهم، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾[1] [ص: ٨٨].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الرَّسولُ فِتنةٌ للمُرسَلِ إليهم، واختبارٌ للمُطيعينَ مِن العاصين، والرسُلُ فتَنَّاهم بدَعوةِ الخَلقِ، والغنيُّ فتنةٌ للفقيرِ، والفقيرُ فِتنةٌ للغنيِّ، وهكذا سائِرُ أصنافِ الخَلقِ في هذه الدَّارِ دارِ الفِتَنِ والابتلاءِ والاختبارِ، والقصدُ مِن تلك الفِتنةِ ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ فتقومون بما هو وظيفتُكم اللَّازمةُ الرَّاتبةُ، فيُثيبكم مولاكم، أمْ لا تَصبِرون فتَستَحِقُّون المعاقَبةَ[2]؟ فكُلُّ مَنِ اتَّصل بك، مِن أهلك وبَنيك، وأبيك وأمِّك، وأصحابِك وعشيرتِك، وقَومِك وكُلِّ مَن ترتبِطُ به برباطٍ مِن أبناءِ جنسِك: هو فِتنةٌ وامتِحانٌ لك: هل تقومُ بواجبِك نحوَه مِن جلْبِ خَيرٍ له، أو دفعِ شَرٍّ عنه، أو جلْبِ خيرٍ منه لِغَيرِه، أو دفعِ شَرِّه عن غيرِه، وهل تكُفُّ يدَك عن شَيْئِه، وتكُفُّ بصَرَك عمَّا مُتِّع به، وتسألُ اللهَ مِمَّا عندَه مِن فَضلِه؟ وإنَّما تقوم بواجِبِك نحوَه ممَّا تقدَّم، وتكُفُّ يدَك وعينَك عنه، وتسألُ اللهَ ممَّا عندَه راضيًا بما قَسَم لك، معتقدًا الخيرَ كُلَّ الخير في قَسمِه؛ إذا تدرَّعتَ بالصَّبرِ على إتيانِه وإن كان عليك ثقيلًا، والكفِّ عمَّا يُطلَبُ منك الانكفافُ عنه وإن كان منك قريبًا، وفي طبعِك لذيذًا. وإنَّما يكونُ لك هذا الصبرُ إذا كنتَ دائمَ اليقينِ بعِلمِ الله بك، واطِّلاعِه عليك، وأنَّه كان بك بصيرًا. هذه الحقائِقُ كُلُّها هَدَتْنا هذه الآيةُ الكريمةُ إليها؛ هدَتْنا إلى أنَّا امتُحِنَّا ببعضِنا، وأنَّ الذي يُخلِّصُنا في هذا الامتحانِ، ويخرِجُنا سالمينَ هو الصَّبرُ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٨).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ عَلِمْنا مِن هذه الآيةِ أنَّ اللهَ تعالى يَمتحِنُ عبادَه ويَختبِرُهم لِيُظهرَ حقائقَهم؛ فعلينا أن نبنيَ أمورَنا على الامتحانِ والاختبارِ، فلا نُقَرِّرَ علمًا ولا نُصدِرَ حُكمًا إلَّا بعْدَ ذلك، وخُصوصًا في معرفةِ النَّاسِ والحُكْمِ عليهم، فالظَّواهرُ كثيرًا ما تُخالِفُ البواطنَ، والتصنُّعُ والتكلُّفُ قلَّما يَسلَمُ منهما أحَدٌ، ولا يَعصِمُ مِن الخطأِ مع هذه المغالطاتِ كلِّها إلَّا الامتحانُ والاختبارُ، فاعتَصِمْ بهما[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ فيه دَليلٌ على القضاءِ والقدَرِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ سؤالٌ: اللهُ تعالى عالِمٌ بما يَكونُ مِن عبادِه بعْدَ امتحانِهم قبْلَ أن يَمتحِنَهم، فما حِكمةُ الامتحانِ؟

**الجوابُ**: أنَّ اللهَ تعالى إنما يُحَاسِبُ عبادَه على ما عَمِلوه وكَسَبوه واكتسَبوه بما عندهم مِن التمكُّنِ مِن الفِعلِ والتَّركِ، وما عندَهم مِن الاختيارِ، لا على عِلْمِه منهم قبْلَ أن يَعملوه؛ فلهذا يُمتحَنون؛ لتظهرَ حقائقُهم، ويَقَعَ جزاؤُهم على ما كسبتْ أيديهم باختيارِهم، ولا حُجَّةَ لهم في تَقَدُّمِ عِلمِه تعالى بما يكونُ منهم؛ لأنَّ تَقدُّمَ العِلمِ لم يكن مُلجِئًا لهم على أعمالِهم، ففي هذا الامتحانِ قيامُ حُجَّةِ اللهِ على العامِلِينَ أمامَ أنفُسِهم وأمامَ الناسِ، كما فيه إظهارٌ لحقيقتِهم لأنفُسِهم ولغيرِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٧).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ كما يُفتَنُ الفَردُ بالفردِ، كذلك تُفتَنُ الأمَّةُ بالأمَّةِ: مِن ذلك أنَّنا -معشرَ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ- قد فُتِنَّا بغَيرِنا مِن أمَمِ الغربِ، وفُتِنوا هم أيضًا بنا؛ فنحن نَدينُ بالإسلامِ، وهو دينُ السعادةِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، ولكِنْ حيثما كنَّا -إلَّا قليلًا- لسْنا سعداءَ لا في مظاهِرِ تديُّنِنا، ولا في أحوالِ دُنيانا!

**ففي الأُولى**: نأتي بما يبرَأُ منه الإسلامُ، ونصَرِّحُ بأنَّه مِن صميمِه!

**وفي الثَّانيةِ**: ترانا في حالةٍ مِن الجهلِ والفَقرِ والذُّلِّ والاستعبادِ يَرثي لها الجمادُ.

فلمَّا يَرانا الغربيُّون على هذه الحالةِ يَنفِرونَ مِن الإسلامِ، ويَسخرونَ منه، إلَّا مَن نظَرَ منهم بعَينِ العِلمِ والإنصافِ؛ فإنَّه يعرِفُ أنَّ ما نحن عليه هو ضِدُّ الإسلام، فكنَّا فِتنةً عظيمةً عليهم، وحجابًا كثيفًا لهم عن الإسلامِ. فكنَّا -ويا لَلأسفِ- فتنةً للقَومِ الظالمين.

وهم مِن ناحيتِهم نراهم في عزٍّ وسيادةٍ وتقدُّمٍ عِلميٍّ وعمرانيٍّ، فننظرُ إلى تلك الناحيةِ منهم، فنندفِعُ في تقليدِهم في كلِّ شيءٍ حتى معائِبِهم ومفاسِدِهم، ونَزْدَري كلَّ شيءٍ عندَنا حتى أعزَّ عزيزٍ، إلَّا مَن نظَر بعينِ العِلمِ، فعرَف أنَّ كلَّ ما عندَهم مِن خيرٍ هو عندَنا في دينِنا وتاريخِنا، وأنَّ ذلك هو الذي تقَدَّموا وسادوا به، وأنَّ ما عِندَهم مِن شَرٍّ هو شَرٌّ على حقيقتِه، وأنَّ ضرَرَه فيهم هو ضَرَرُه، وأنَّه لا يجوز أن يُتابَعوا عليه؛ فكانوا فتنةً لنا حتى ينظُرَ مَن ينظُرُ بعَينِ الحَقِّ للحقائق ممَّن تبهَرُه الظواهِرُ فتَسلُبُه إدراكَه فيَغْدو لا يفرِّقُ بيْن اللُّبِّ والقشورِ[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ لا يخافون، وإنَّما جاز «يرجو» في موضِعِ «يخاف»؛ لأنَّ الرَّاجيَ الشَّيءَ قَلِقٌ فيما يرجوه؛ فمرَّةً يَشتدُّ طمَعُه فيصيرُ كالآمِنِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٧).

ومرَّةً يضْعُفُ فيصيرُ كالخائفِ[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ دلَّ ظاهِرُ الآيةِ على جوازِ الرؤيةِ[٢]، وقد أجمَع أهلُ اللسانِ على أنَّ اللقاءَ متى نُسِب إلى الحيِّ السليمِ مِن العمَى والمانعِ اقتضَى المعايَنةَ والرؤيةَ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ إيماءٌ إلى أنَّ النبوَّةَ لا تكونُ بالاكتِسابِ، وإنَّما هي إعدادٌ مِن اللهِ تعالى؛ قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[٤] [الأنعام: ١٢٤].

٧- يُفهَمُ مِن قولِه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ الآيةَ: أنَّ أصحابَ النارِ ليسوا كذلك، وأنَّ حسابَهم غيرُ يسيرٍ، وهذا المفهومُ دلَّت عليه آياتٌ أُخَرُ؛ كقولِه تعالى قريبًا مِن هذه الآيةِ: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، فقولُه: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّه على المؤمنينَ غيرُ عسيرٍ، كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ الآيةَ [الأنبياء: ١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾[٥] [القمر: ٨].

٨- قال الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ استَنبَط بعضُ العُلماءِ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ حِسابَ أهلِ الجنَّةِ يسيرٌ، وأنَّه

---

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٠٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤١).

ينتهي في نِصفِ نَهارٍ، ووجْهُ ذلك أنَّ قَولَه: ﴿مَقِيلًا﴾، أي: مكانَ قَيلولةٍ، وهي الاستراحةُ في نِصفِ النَّهارِ، قالوا: وهذا الذي فُهِمَ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ جاء بيانُه في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾[1] [الانشقاق: ٧-٩]. وقيل: إنَّ الله تعالى يحاسِبُ الخلائقَ كلَّها في نصفِ يومٍ؛ لقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾، والقيلولةُ إنما تكونُ في نصفِ النهارِ، ويلزمُ مِن هذا أنَّ الله يحاسِبُ الخلائقَ كلَّهم في نصفِ يومٍ حتى إنَّ كلَّ واحدٍ منهم يَقيلُ في منزلِه ومستقَرِّه[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ سؤالٌ، وهو أنَّ الآيةَ دلَّتْ على أنَّ مُستقَرَّهم غيرُ مَقيلِهم، فكيف ذلك؟

**والجوابُ مِن وجوهٍ:**

**منها:** أنَّ المستقَرَّ مكانُ الاستِقرارِ، والمقيلَ زمانُ القَيلولةِ، فهذا إشارةٌ إلى أنَّهم مِن المكانِ في أحسَنِ مكانٍ، ومِن الزَّمانِ في أطيَبِ زَمانٍ.

**ومنها:** أنَّ بعْدَ الفراغِ مِن المحاسَبةِ والذَّهابِ إلى الجنَّةِ يكونُ الوقتُ وقتَ القَيلولةِ[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ سُؤالٌ: كيف يصحُّ القَيلولةُ في الجنَّةِ والنَّارِ، وأهلُ الجنَّةِ في الآخرةِ لا ينامون، وأهلُ النَّارِ أبدًا في عَذابٍ يَعرِفونَه، وأهلُ الجنَّةِ في نعيمٍ يَعرِفونَه؟!

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٢).

والجوابُ: قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، وليس في الجنَّةِ بُكرةٌ وعَشِيٌّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]، ولأنَّه إذا لم يكُنْ هناك شَمسٌ لم يكُن هناك نِصفُ النَّهارِ، ولا وقتُ القَيلولةِ، بلِ المرادُ منه بيانُ أنَّ ذلك الموضِعَ أطيبُ المواضِعِ وأحسَنُها، كما أنَّ مَوضِعَ القيلولةِ يكونُ أطيبَ المواضِعِ. واللهُ أعلمُ[1]. وقيل: المقيلُ: موضعُ الاستراحةِ؛ نام أو لم ينَمْ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ رَدٌّ على قولِهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧]، بعْدَ أنْ ردَّ عليهم قولَهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٨] بقولِه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ ...﴾ [الفرقان: ١٠]؛ ولكنْ لَمَّا كان قولُهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ حالةً لم تُعطَ للرُّسلِ في الحَياةِ الدُّنيا، كان رَدُّ قولِهم فيها بأنَّ اللهَ أعطاهُ خَيرًا مِن ذلك في الآخرةِ[3].

- جُملةُ: ﴿إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ في مَوضعِ الحالِ، والتَّوكيدُ بـ(إنَّ) واللَّامِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٣).

لتَحقيقِ وُقوعِ الحالِ؛ تَنزيلًا للمُشرِكين في تَناسِيهم أحوالَ الرُّسلِ مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنْ يكونَ الرُّسلُ السَّابقون يأْكُلون الطَّعامَ، ويَمْشون في الأسواقِ[١].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ هذا تَصبيرٌ لرَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما قالوهُ واستَبْدعوهُ؛ مِن أكْلِه الطَّعامَ، ومَشْيِه في الأسواقِ، بعْدَما احتجَّ عليهم بسائرِ الرُّسلِ. وقيل: هو تَسليةٌ له عمَّا عيَّروه به مِن الفَقرِ حينَ قالوا: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[٢].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ تَذييلٌ؛ فضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿بَعْضَكُمْ﴾ يعُمُّ جميعَ النَّاسِ؛ بقرينةِ السِّياقِ[٣].

- قَولُه: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ عِلَّةٌ للجَعْلِ، والمعنى: وجَعَلْنا بَعضَكم لِبعضٍ فِتنةً؛ لنَعلَمَ أيُّكم يَصبِرُ. ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. أو استِفهامٌ مُستعمَلٌ في الحثِّ والأمْرِ على الصَّبرِ على ما افْتُتِنُوا به[٤].

- قَولُه: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ الاقتِصارُ على ذِكْرِه مِن غيرِ تعرُّضٍ لمُعادِلٍ له -كأنْ يقولَ: (أتصبِرونَ أمْ لا تصبِرون)-؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّ اللَّائقَ بحالِ المفتونينَ والمُتوقَّعَ صُدورُه عنهم هو الصَّبرُ لا غيرُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠).

- قَولُه: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ خبرٌ فيه مَزيدُ تَشريفٍ للنبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالالْتفاتِ إلى اسمِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

ومَوقِعُ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ مَوقِعُ الحثِّ على الصَّبرِ المأمورِ به، أي: هو عليمٌ بالصَّابرينَ، وإيذانٌ بأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ جَزاءَ الرَّسولِ على ما يُلاقِيه مِن قَومِه، وأنَّه ناصِرُه عليهم. وفي الإسنادِ إلى وصْفِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ النَّبيِ إلْماعٌ إلى هذا الوعْدِ؛ فإنَّ الرَّبَّ لا يُضِيعُ أولياءَهُ[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ حِكايةُ مَقالةٍ أُخرى مِن مَقالاتِ تَكذيبِهمُ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد عَنْوَنَ عليهم في هذه المقالةِ بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وعَنْوَنَ عليهم في المقالاتِ السَّابقةِ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [الفرقان: ٤] وبـ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الفرقان: ٨]؛ لأنَّ بيْنَ هذا الوصفِ وبيْن مقالَتِهمُ انتِقاضًا؛ فهُم قد كذَّبوا بلِقاءِ الآخِرةِ بما فيه مِن رُؤْيةِ اللهِ والملائكةِ، وطلَبوا رُؤْيةَ اللهِ في الدُّنيا، ونُزولَ الملائكةِ عليهم في الدُّنيا، وأرادُوا تَلَقِّي الدِّينِ مِنَ الملائكةِ أو مِنَ اللهِ مباشرةً؛ فكان في حكايةِ قَولِهم، وذِكْرِ وصْفِهم: تَعجيبٌ مِن تَناقُضِ مَدارِكِهم! وأيضًا فإنَّ أهلَ الشِّركِ أنكروا البعثَ، وتوهَّموا أنَّ شُبهتَهُم في إنكارِه أقوَى حجَّةً لهم في تكذيبِ الرُّسلِ؛ فمِن أجْلِ ذلك أيضًا جَعَل قولَهم ذلك طريقًا لتعريفِهم بالمَوصولِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾[3] [يونس: ١٥].

- قَولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ شُروعٌ في حِكايةِ بعضٍ آخَرَ مِن أقاويلِهمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥).

الباطلةِ وبيانِ بُطلانِها، بعْدَ إبطالِ أباطيلِهمُ السَّابقةِ. والجملةُ معطوفةٌ على قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾، ووُضِع الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ موضعَ الضَّميرِ؛ للتَّنبيهِ بما في حَيِّزِ الصِّلَةِ على أنَّ ما يُحكَى عنهم مِنَ الشَّناعةِ بحيثُ لا يَصدُرُ عمَّن يَعتقدُ المصيرَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[1].

- والقومُ المعانِدون السابِقون في قولِه: ﴿وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هم الذين وصَفَهم اللهُ هنا بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾، وقد أُقيمَ المُظهَرُ مُقامَ المُضمَرِ؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا سَلَّى رسولَه صلواتُ اللهِ عليه بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ...﴾ [الفرقان: ٢٠] عاد إلى تقبيحِ نوعٍ آخَرَ مِن أفعالِهم، وهو إنكارُهم لقاءَ اللهِ، وأنَّ لله تعالى دارَ جَزاءٍ[2].

- و(لولا) في قولِه: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ حرْفُ تَحضيضٍ مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ والاستِحالةِ[3].

- قَولُه: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ استِئنافٌ يَتنزَّلُ منزلةَ جوابٍ عن قَولِهم. والتَّأكيدُ بلامِ القَسَمِ لإفادةِ معنَى التَّعجيبِ؛ لأنَّ القسَمَ يُستعمَلُ في التَّعجُّبِ[4]. والاستِكبارُ: مُبالَغةٌ في التَّكبُّرِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾ للمُبالَغةِ[5].

- وأيضًا هذه الجُملةُ في حُسنِ استِئنافِها غايةٌ، وفي فَحْوى هذا الفعلِ دليلٌ على التَّعجُّبِ مِن غَيرِ لفظِ التَّعجُّبِ؛ ألا ترى أنَّ المعنى: ما أشَدَّ استِكبارَهم!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥، ٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥).

وما أَكبرَ عُتُوَّهم[١]! فقولُه: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ جملةٌ قَسَميَّةٌ، يَستدعي أنْ يُتلقَّى بها مَن يُبالِغُ في الإنكارِ، كأنَّه لَمَّا قالوا: لولا أُنزِل علينا الملائِكةُ أو نَرى ربَّنا، حُمِل السَّامعُ على أن يقولَ: ما أشدَّ استِكبارَهم! وما أكبرَ عُتُوَّهم! لأنَّها اشتَملَتْ على أمرٍ يَقتضي التَّعجُّبَ منهم، فلا يَتمالَكُ أنْ يَترُكَ ذلك القَولَ، فوُضِع مَوضِعَه: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾؛ لأنَّه أَثبَتُ وأَبلَغُ مِن ذلك[٢].

- قَولُه: ﴿عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ وصَفَ العُتُوَّ بالكبيرِ؛ مبالَغةً في إفراطِه[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾

- قَولُه: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبيانِ ما يَلْقَونه عِندَ مُشاهَدتِهم لِما اقترحُوه مِن نُزولِ الملائكةِ عليهم السَّلامُ، بعْدَ استِعظامِه، وبيانِ كَونِه في غايةِ ما يكونُ مِنَ الشَّناعةِ. وإنَّما قيلَ: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ دُونَ أنْ يُقالَ: (يومَ يَنزِلُ الملائكةُ)؛ إيذانًا مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ رُؤيتَهم لهم ليسَتْ على طريقِ الإجابةِ إلى ما اقتَرحُوه، بل على وجهٍ آخَرَ غيرِ معهودٍ[٤].

- وفي هذا الاستِئنافِ تَلميحٌ وتَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ ابتِداءَه مُطمِعٌ بالاستِجابةِ، وآخِرَه مؤْيِسٌ بالوعيدِ[٥].

- والعُدولُ إلى نَفْيِ الجِنسِ في قولِه: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾؛ للمُبالَغةِ في نَفْيِ البُشرى. وحيثُ كان نَفْيُها كِنايةً عن إثباتِ ضِدِّها -كما أنَّ نفيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٦، ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦، ٧).

المحبَّةِ في مثلِ قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] كنايةٌ عن البُغض والمَقْتِ- دَلَّ على ثبوتِ النَّذْرِ -أي: الخوف- لهم على أَبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه(١).

- و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ والتَّهويلِ، مع ما فيه مِنَ الإيذانِ بأنَّ تقديمَ الظَّرفِ للاهتِمامِ لا لقَصْرِ نَفْيِ البُشرَى على ذلك الوقتِ فقط؛ فإنَّ ذلك مُخِلٌّ بتَفظيعِ حالِهم(٢). وقيل: قُدِّم الظَّرفُ للاهتِمامِ به؛ لإثارةِ الطَّمعِ، وللتَّشويقِ إلى تَعيينِ إبَّانِه، حتَّى إذا وَرَدَ ما فيه خَيبةُ طَمَعِهم كان له وقْعُ الكآبةِ على نفوسِهم حينما يَسمَعونه(٣).

- وقوله: ﴿لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ إمَّا عامٌّ يَتناوَلُ حُكْمُه حُكْمَهم، ولا يَلزَمُ مِن نَفْيِ البُشرى لعامَّةِ المُجرمينَ حينئذٍ نَفْيُ البُشرى بالعَفْوِ والشَّفاعةِ في وقتٍ آخَرَ، وإمَّا خاصٌّ وُضِعَ مَوضِعَ ضميرِهم؛ تسجيلًا على جُرْمِهم، وإشعارًا بما هو المانعُ للبُشرى، والموجِبُ لِما يُقابِلُها(٤).

- وفي قولِه: ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ جاءتِ الصِّفةُ ﴿مَّحْجُورًا﴾؛ لتأكيدِ معنَى الحَجرِ، كما يُقالُ: ذَيْلٌ ذائِلٌ -والذَّيلُ: الهَوانُ-، ومَوتٌ مائِتٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢١، ١٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾

- في قولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ شَبَّه عمَلَهم بالهَباءِ في قِلَّتِه وحَقارتِه عِندَه، وأنَّه لا يُنتفَعُ به مع كَونِه مَوجودًا، ثمَّ بالمَنثورِ منه؛ لأنَّك تراه مُنتظِمًا مع الضَّوءِ فإذا حرَّكَتْه الرِّيحُ رأيْتَه قد تَناثَرَ وذَهَب كُلَّ مَذهَبٍ؛ فلمْ يَكتَفِ أنْ شَبَّهَ عملَهم بالهَباءِ حتَّى جعَلَه مُتناثِرًا، ومِثْلُ هذا الإردافِ يُسمَّى في البَديعِ: بالتَّتْميمِ[1] والإيغالِ[2]؛ فقولُه: ﴿مَّنثُورًا﴾ وصْفٌ كاشِفٌ؛ لأنَّ الهَباءَ لا يَكونُ إلَّا مَنثورًا، فذِكْرُ هذا الوَصفِ للإشارةِ إلى ما في الهَباءِ مِنَ الحَقارةِ ومِنَ التَّفرُّقِ[3].

---

(١) التَّتميم: هو أن يُؤتى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المراد بفضلةٍ تُفيد نكتةً. أو بعبارةٍ أخرى هو: الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصود؛ لرَفْعِ اللبسِ عنه، وتقريبِه للفَهم، أو لزِيادةٍ حسنة، بحيث إذا طُرِح من الكلام نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاته. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠)، (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

(٢) الإيغال: هو استِكمالُ الكلامِ قبْلَ الإتيانِ بمقطعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيد معنًى زائدًا على معنى ذلك الكلامِ، وهو ضَربانِ: ١- إيغالُ تخييرٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ إذ إنَّ المعنى قد تمَّ بقَولِه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾، ولَمَّا احتاجَ الكلامُ إلى فاصلةٍ تُناسِبُ ما قبْلَها وما بعْدَها، أتتْ هذه الفاصلةُ ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لتُفيدَ معنًى زائدًا، لولاها لم يَحصُل؛ وذلك أنَّه لا يَعلَمُ أنَّ حُكْمَ الله أحسَنُ مِن كلِّ حُكمٍ إلَّا مَن أَيقنَ أنَّه واحدٌ حكيمٌ عادلٌ. ٢- إيغالُ احتياطٍ: وهو استِكمالُ معنَى الكلامِ قبْلَ قَطْعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيدُ معنىً زائدًا تتمَّةً للمبالَغةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، فالكلامُ يحتاجُ إلى فاصلةٍ تماثلُ مقاطعَ ما قبْلَها وما بعْدَها، فأتى بها مفيدةً معنًى زائدًا على معنى الكلامِ، حيث قال: ﴿إِذَا وَلَّوْاْ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]، فإنْ قيل: ما معنى مُدبرينَ وقد أغنى عنها ذِكرُ التولِّي؟ قيل: ذلك لا يُغني عنها؛ إذ التولِّي قد يكون بجانبٍ دونَ جانبٍ، كما يكونُ الإعراضُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥٠٠، ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((حاشية =

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ؛ جِيءَ به لمُقابَلةِ حالِ المشركينَ في الآخرةِ بضِدِّها مِن حالِ أصحابِ الجنَّةِ[١].

- قَولُه: ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ سَمَّى مكانَ دَعَتِهم واستِرواحِهم إلى الحُورِ مَقِيلًا -مع أنَّه لا نَومَ في الجنَّةِ- على طَريقِ التَّشبيهِ؛ إذِ المكانُ المُتخيَّرُ للقَيلولةِ يكونُ أَطيَبَ المواضعِ. وفي وصْفِه بزِيادةِ الحُسنِ مع حُصولِ الخَيريةِ بعَطفِه على المُستَقَرِّ رمْزٌ إلى أنَّه مُزَيَّنٌ بفُنونِ الزِّينِ والزَّخارفِ[٢]. وقيل: وصَفَه بالحُسنِ؛ إرادةً لحُسنِ ساكنِيهِ على طريقِ الكِنايةِ[٣].

- واسمُ التَّفضيلِ (خَيْرٌ) في قولِه: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾ قيل: إنَّه ليس على بابِه مِن استِعمالِه دَلالةً على الأَفضليَّةِ؛ لئلَّا يَلزَمَ مِن ذلك خَيرٌ في مُستَقَرِّ أهلِ النَّارِ. وقيل: يُمكِنُ إبقاؤُه على بابِه، ويكونُ التَّفضيلُ وقَعَ بيْن المُستَقَرَّينِ والمَقِيلَينِ باعتِبارِ الزَّمانِ الواقعِ ذلك فيه[٤]. وقيل: التَّفضيلُ المُعتبَرُ فيهما إمَّا لإرادةِ الزِّيادةِ على الإطلاقِ، وإمَّا بالإضافةِ إلى ما للكَفرةِ المُتنعِّمينَ في الدُّنيا، أو إلى ما لهم في الآخرةِ بطريقِ التَّهكُّمِ بهم[٥]. وقيل: التفاضُلُ

---

= الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٨٦، ٦٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٩٩)، ويُنظر أيضًا: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩).

الذي ذُكِرَ بيْن المنزلتينِ إنَّما يَرجعُ إلى المَوضعِ، والموضعُ مِن حيثُ إنَّه مَوضعٌ لا شرَّ فيه. وقيل: هذا التفاضُلُ واقعٌ على هذا التقديرِ، أي: لو كان لهم مستقَرٌّ فيه خَيرٌ لكان مستقَرُّ أهلِ الجنةِ خيرًا منه[1]. وقيل: هذا يَحْسُنُ في مَعرِضِ التَّقريعِ، كما إذا أعطى السيدُ عبدَه مالًا فتَمَرَّدَ وأبى واستكبَرَ؛ فيَضْرِبُه ضربًا وجيعًا، ويقولُ على سبيلِ التوبيخِ: هذا أطيَبُ أمْ ذاك[2]؟!

- وفي قوله: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ كِنايةٌ في قولِه: ﴿مُّسْتَقَرًّا﴾ و﴿مَقِيلًا﴾؛ فالمُستقَرُّ اسمُ مكانٍ مِنَ الاستِقرارِ، وهو المجلسُ الدَّائمُ لأهلِ الجنَّةِ يَستقِرُّونَ فيه ويَقْضُون مُعظَمَ أوقاتِهم مُتقابِلينَ يَتحادَثونَ ويَتسامَرون، وكَنَى به عن أحاديثِ العَشايا والبُكَرِ الَّتي يَتبادَلُونها، وهي أحاديثُ كانتْ في الدُّنيا تَدورُ بيْن المُترَفينَ وأصحابِ النَّعيمِ واليَسارِ، وكَنَى بالمَقِيلِ -وهو وقتُ استراحةِ نِصفِ النَّهارِ- عن قَضائِهم وقتَ الاستِجمامِ والاستِراحةِ مع أزواجِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٧، ٨).

## الآيات (٢٥-٢٩)

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾: أي: السَّحابِ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّه يَغُمُّ السَّماءَ، أي: يَستُرُها ويُغطِّيها، وكُلُّ شَيءٍ غطَّيتَه فقدْ غَمَمتَه، وأصلُ (غمم): يدُلُّ على تغطيةٍ وإطباقٍ[1].

﴿خَلِيلًا﴾: الخَليلُ: الصَّديقُ، مِنَ الخُلَّةِ، أي: الصَّداقةِ والمودَّةِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تتخَلَّلُ النَّفْسَ، أي: تتوسَّطُها[2].

﴿خَذُولًا﴾: أي: كثيرَ الخِذلانِ، والخِذلانُ: تَركُ المَعونةِ، وأصلُ (خذل): يدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ والقُعودِ عنه[3].

## المعنى الإجماليُّ:

يصِفُ الله تعالى بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: واذكُرْ -أيُّها الرسولُ- حين تتشَقَّقُ السَّماءُ عن سَحابٍ رَقيقٍ أبيضَ يومَ القيامةِ، وتُنزَّلُ الملائِكةُ إلى أرضِ المحشَرِ تنزيلًا. في ذلك اليَومِ يكونُ السُّلطانُ الثَّابِتُ الحَقُّ لله وحْدَه دونَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩، ٣١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

غيرِه مِن مُلوكِ الأرضِ، وكان ذلك اليَومُ يَومًا شَديدًا على الكافرينَ.

ثمَّ يذكُرُ تعالى ما يكونُ عليه الكافرونَ يومَ القيامةِ مِن حسرةٍ وندامةٍ، فيقولُ: واذكُرْ حين يَعَضُّ الظَّالمُ المحادُّ للهِ ورَسولِه على يَدَيه؛ تحسُّرًا وأسَفًا، يقولُ: يا ليتني سلَكْتُ طَريقَ الحَقِّ الذي جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واتبَعْتُه فيما جاء به مِن عندِ رَبِّه.

وأنَّه يقولُ في هذا اليومِ: يا هَلاكي! ليتَني لم أتَّخِذْ مَن أضَلَّني وأغواني في الدُّنيا صديقًا لي وحبيبًا، لقد صرَفَني هذا الصَّديقُ المشؤومُ عن القُرآنِ والهُدى بعد أن بلَغَني. ثمَّ قال الله تعالى: وكان الشَّيطانُ كثيرَ الخِذلانِ للإنسانِ الذي يتَّبِعُه، تارِكًا لإعانتِه ونصرِه وَقتَ استِنصارِه به.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذا الكلامُ مَبنيٌّ على ما استَدعَوه مِن إنزالِ الملائكةِ؛ فبَيَّنَ سُبحانَه أنَّه يحصُلُ ذلك في يومٍ له صِفاتٌ ذكَرَها في هذه الآياتِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان للكَفَرةِ في هذه الدَّارِ مِن العِزِّ والقوَّةِ والضَّخامةِ ما يتعجَّبونَ معه مِن مَصيرِ حالِهم إلى ما ذُكِرَ؛ بَيَّنَ أنَّ الأمرَ في ذلك اليومِ على غَيرِ ما نَعهَدُه، فقال عاطِفًا على ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾[2] [الفرقان: ٢٢]:

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٢).

أي: واذكُرْ أيُّها الرسولُ[١] يومَ القيامةِ حين تتشَقَّقُ السَّماءُ عن سَحابٍ أبيَضَ رَقيقٍ[٢].

﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾.

أي: وتُنَزَّلُ الملائِكةُ يومَ القيامةِ مِن السَّمواتِ إلى أرضِ المحشَرِ تنزيلًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان ذلك اليومُ سببًا لانكِشافِ الأمورِ، ومَعرفةِ أنَّه لا مُلْكَ لِسواه سُبحانَه؛ لأنَّه لا يَقضي فيه غَيرُه، قال[٤]:

﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾.

---

(١) قال محمد رشيد رضا: (وجمهورُ المفسِّرينَ يجعلونَ كلمةَ «يوم» في أمثالِ هذه الآياتِ مفعولًا لِفعلٍ محذوفٍ تقديرُه «واذْكُرْ»، وهو خطابٌ لِلرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: واذكُرْ لهم فيما تَتْلوه عليهم يومَ يَكونُ كَذا وكَذا). ((تفسير المنار)) (٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٤).

وقال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى عن هَولِ يومِ القيامةِ، وما يكونُ فيه مِن الأمورِ العظيمةِ؛ فمنها انشِقاقُ السَّماءِ وتفطُّرُها، وانفراجُها بالغَمامِ، وهو ظُلَلُ النورِ العظيمِ الذي يُبهِرُ الأبصارَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٣).

أي: السُّلطانُ -يَومَ القيامةِ- المؤكَّدُ الثَّابِتُ الذي لا يَزولُ: للرَّحمنِ وَحْدَه دُونَ غَيرِه مِن مُلوكِ الأرضِ[1].

كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَقبِضُ اللهُ الأرضَ يومَ القيامةِ، ويَطوي السَّماءَ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ، أين ملوكُ الأرضِ؟))[2].

﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾.

أي: وكان يومُ القيامةِ يَومًا صَعبًا شَديدًا على الكافرينَ[3].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠].

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان حاصِلُ حالِ الكافرينَ أنَّهم جانَبوا أشرفَ الخلْقِ، الهاديَ لهم إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٨٧).

(٢) رواه البخاري (٧٣٨٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

قال القرطبي: (﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: لِما يَنالُهم مِن الأهوالِ، ويَلحَقُهم مِن الخِزيِ والهوانِ، وهو على المؤمِنينَ أخَفُّ مِن صَلاةٍ مكتوبةٍ...، وهذه الآيةُ دالَّةٌ عليه؛ لأنَّه إذا كان على الكافرين عَسيرًا، فهو على المؤمنين يَسيرٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ أي: شديدًا صَعبًا؛ لأنَّه يومُ عَدلٍ، وقَضاءِ فَصلٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٧).

كلِّ خَيرٍ، وصاحَبوا غيرَه ممَّن يقودُهم إلى كُلِّ شرٍّ؛ بَيَّنَ عُسْرَ ذلك اليومِ -الذي إنَّما أوجبَ جُرأتَهم تكذيبُهم به- بتناهِي نَدَمِهم على فِعلِهم هذا، فقال[1]:

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ القيامةِ حينَ يَعَضُّ الظَّالِمُ المخالِفُ لطَريقِ الرَّسولِ على يَدَيه؛ نَدَمًا وحَسرةً وأسَفًا[2].

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾.

أي: يَقولُ هذا الظَّالِمُ: يا ليتني اتَّبَعتُ في الدُّنيا طريقَ رَسولِ اللهِ، فآمنتُ به ولم أخالِفْه؛ لأنجوَ مِن عذابِ اللهِ، وأصِلَ إلى جنَّاتِه[3].

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ * وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٦، ٦٧].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٣٩)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

قال الشوكاني: (الظَّاهِرُ أنَّ العَضَّ هنا حقيقةٌ، ولا مانِعَ من ذلك، ولا مُوجبَ لتأويلِه. وقيل: هو كنايةٌ عن الغَيظِ والحَسرةِ، والمرادُ بالظالم: كلُّ ظالمٍ يَرِدُ ذلك المكانَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٤).

وقال الشنقيطي: (مِن المشهورِ عندَ علماءِ التفسيرِ أنَّ الظَّالمَ الذي نزَلَت فيه هذه الآيةُ: هو عُقبةُ ابنُ أبي مُعَيطٍ، وأنَّ فلانًا الذي أضلَّه عن الذِّكرِ: أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ أو أخوه أُبَيُّ بنُ خلَفٍ... وعلى كلِّ حالٍ فالعِبرةُ بعُمومِ الألفاظِ، لا بخصوصِ الأسبابِ؛ فكُلُّ ظالمٍ أطاع خليلَه في الكُفرِ حتى مات على ذلك يجري له مِثلُ ما جرى لابنِ أبي مُعَيطٍ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

﴿ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ ﴾.

أي: يقولُ الظَّالِمُ: يا هلاكي! ليتَني لم أجعَلْ مَن أغواني في الدُّنيا صديقًا وحبيبًا لي[١].

عن أبي موسى الأشعريِّ رضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّما مَثَلُ الجَليسِ الصَّالحِ والجَليسِ السُّوءِ، كحامِلِ المِسكِ ونافِخِ الكِيرِ[٢]؛ فحامِلُ المسكِ: إمَّا أن يُحْذيَك[٣]، وإمَّا أنْ تَبتاعَ منه، وإمَّا أن تجِدَ منه ريحًا طيِّبةً، ونافِخُ الكِيرِ: إمَّا أن يُحرِقَ ثيابَك، وإمَّا أن تجِدَ ريحًا خَبيثةً))[٤].

﴿ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩ ﴾.

﴿ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِي ﴾.

أي: لقد صَرَفني مَن اتَّخَذْتُه في الدُّنيا خليلًا عن القُرآنِ بعد بُلوغِه إليَّ، وصَدَّني عنه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٥).

(٢) الكِير: هو شيءٌ يَنفُخُ فيه الحدَّادُ؛ لتشتَعِلَ النَّارُ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٢٣١). ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٣٢٤).

(٣) يُحذيَك؛ أي: يُعطيَك. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٧٨)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٢٣١).

(٤) رواه البخاري (٢١٠١)، ومسلم (٢٦٢٨) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥، ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٧).

قال السعدي: (﴿ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِي ﴾ حيثُ زيَّن له ما هو عليه مِن الضَّلالِ بخُدَعِه وتسويلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

وقال ابن عاشور: (أي: نهاني عن التدبُّرِ فيه والاستماعِ له بعْدَ أن قاربْتُ فَهْمَه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦).

﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾.

أي: قال الله: وإنَّ مِن عادةِ الشَّيطانِ وصِفَتِه المجبولِ عليها: أن يَخذُلَ الإنسانَ الذي يتَّبِعُه، وَيترُكَ إعانَتَه ونَصْرَه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٠٢-١٠٤).

قال ابن عطية: (وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مِن قولِ الظَّالمِ، ويحتمِلُ أن يكونَ ابتِداءَ إخبارٍ مِن الله تعالى على جهةِ الدَّلالةِ على وجهِ ضلالتِهم، والتحذيرِ مِن الشيطانِ الذي بلَّغهم ذلك المبلغَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩).

وقال القرطبي: (﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ قيل: هذا مِن قَولِ الله لا مِن قَولِ الظالم. وتمامُ الكلامِ على هذا عندَ قولِه: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦).

وممَّن قال بذلك: ابنُ أبي زمنين، والواحديُّ، وابن الجوزي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. واستظهره الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٦).

قال السعدي: (﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ يزيِّنُ له الباطِلَ، ويقبِّحُ له الحَقَّ، ويَعِدُه الأمانيَّ، ثم يتخلَّى عنه، ويتبرَّأُ منه، كما قال لجميعِ أتْباعِه حين قُضيَ الأمرُ، وفَرَغ اللهُ مِن حسابِ الخَلقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

وقال ابن عثيمين: (فالظَّاهِرُ أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا الجنسُ، يعني: المؤمِنَ أو الكافِرَ، وإنَّما قُلْنا: إنَّ ذلك هو الظَّاهِرُ؛ لأنَّه كما يُغْوي الكافرين بالكُفرِ، كذلك يُغوي المؤمنينَ بالفِسقِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٠٢).

وقال سُبحانَه: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ ﴾ [الحشر: ١٦].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن هذا اليومِ، وأنَّه يَنبغي الاستِعدادُ له، فيومُ القيامةِ لا يمكنُ أن يَفِرَّ الناسُ منه ومِن أهوالِه وأحكامِه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ تخويفٌ وتحذيرٌ مِن تَسَلُّطِ الملوكِ؛ فإنَّهم يجبُ أنْ يَذكُروا هذا اليومَ الذي تَزولُ فيه مِلكيَّتُهم، ولا يبقَى إلَّا مُلكُ اللهِ سُبحانَه وتعالى(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ أنَّه كما علينا أن نَتَّبِعَ سبيلَ الرَّسولِ -عليه وآلِه الصلاةُ والسَّلامُ- الَّتي جاء بها مِن عندِ اللهِ تعالى، وهي الإسلامُ؛ كذلك علينا أن نَتَّبِعَ سبيلَه في القيامِ بشرائعِ الإسلامِ عِلمًا وعملًا؛ في أبوابِ العباداتِ، وأحكامِ المعامَلاتِ، وفي تطبيقِ أصولِ الإسلامِ وفروعِه على الحياةِ العامَّةِ والخاصَّةِ، وهذه هي سُنَّتُه التي كان عليها، وكان عليها أصحابُه، وأهلُ القرنِ الثَّاني مِن التابعينَ، وأهلُ القرنِ الثالثِ مِن أتباعِ التابعينَ؛ تلك القرونُ المشهودُ لها بالخيريَّةِ على غيرِها بلسانِ المعصومِ، كما أنَّ مَن عدَلَ عنِ الإسلامِ ولم يَسلُكْ سبيلَه وَقَعَ في ضلالِ الكُفرِ؛ كذلك مَن عدَلَ عنِ السُّنَّةِ ولم يَسلُكْ سبيلَها وَقَعَ في ضلالِ الابتِداعِ، وكما أنَّ مَن لم يَتخِذْ مع الرَّسولِ سبيلَ الإسلامِ يَندَمُ أشدَّ الندمِ، ويَتَحَسَّرُ أعظَمَ الحَسرةِ على ما كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩١).

مِن تَفريطِه؛ كذلك مَن لم يَتَّخِذْ مع الرَّسولِ سبيلَ السُّنَّةِ؛ إذْ كلٌّ منهما قد ظَلَمَ نفْسَه، وفَرَّطَ في سبيلِ نجاتِه؛ فالآيةُ وإنْ كانت في الكافرِ والمشرِكِ، فهي تتناوَلُ بطريقِ الاعتِبارِ لكلِّ الأهواءِ والبدعِ، وبهذا كانتِ الآيةُ متناوِلةً بوَعْظِها وترهيبِها جميعَ الخلْقِ ممَّن لم يَدخُلْ في الإسلامِ، أو دخَلَ فيه ولم يلزَمْ سُنَّةَ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن قُرَناءِ السوءِ؛ لقولِه: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى ﴾[2]. وأنَّه يجِبُ على المرءِ أن يختارَ لنفْسِه الأصحابَ: أهلَ العِلمِ والدِّينِ[3]. فلْينظُرِ العبدُ لنفْسِه وَقتَ الإمكانِ، ولْيَتدارَكِ المُمكنَ قبْلَ ألَّا يُمكنَ، ولْيُوالِ مَن وَلايتُه فيها سَعادتُه، ولْيُعادِ مَن تنفَعُه عداوتُه وتضُرُّه صداقتُه[4]، ولْيَختَرْ مَنْ يُخالِلُ؛ فلا يخالَّ إلَّا مَن حَسُنَتْ سريرتُه، واستقامتْ سيرتُه، وغَلَب الصوابُ على أقوالِه وأعمالِه؛ ليكونَ دليلَه إلى الخَيرِ، وسائقَه إليه[5].

٥- قال الله تعالى: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ عندَما تتخَلَّلُ محبَّةُ شَخصٍ مِن الناسِ قلْبَك، وتُمزَجُ برُوحِك، ويَستولي بسُلطانِ مودَّتِه عليك؛ تصيرُ أقوالُه وأفعالُه كُلُّها عندَك مَرْضيَّةً، وعيوبُه ونقائصُه عنك محجوبةً، فتُمْسي طَوعَ بَنانِه، ورَهْنَ إشارتِه، يوجِّهُك حيث شاء، ويَصرِفُك عمَّا أراد. وهذه حالةٌ مِن أخطرِ الأحوالِ عليك؛ لأنَّك فيها قد سُلِبت تمييزَك، وخَسِرتَ إرادتَك، وصِرتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧١).

آلةً في يدِ غَيرِك؛ فقد ترى الخيرَ وتُدْعى إليه فيَصرِفُك عنه، وقد ترى الشرَّ وتَحذَرَ منه فيُوقِعُك فيه!

وهَبْ هذا الخليلَ كان مخلِصًا لك، وحَدِبًا عليك؛ فإنَّه غيرُ معصومٍ مِن الخطأِ والضَّلالِ، أمَّا إذا كان شرِّيرًا مفسِدًا فهنالِكَ الهلاكُ المحقَّقُ، والوَبالُ الشَّديدُ، وقد ذكَرَ لنا اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما كان مِن سوءِ مثالِ الظالمِ بسببِ انقيادِه لخليلِه، واتِّباعِه له مِن غيرِ رويَّةٍ وصِدقِ تمييزٍ؛ تحذيرٌ مِن سلطانِ الخُلَّةِ الذي يُهمَلُ معه شأنُ الإرادةِ والتمييزِ، وتعليمٌ أنَّ علينا أنْ نحافظَ على إرادتِنا وتمييزِنا ونظرِنا لأنْفُسِنا مع الصَّديقِ والعدوِّ، ومع الخليلِ وغيرِ الخليلِ، بل نحافظُ عليها مع الخليلِ أكثرَ؛ لأنَّه مظِنَّةُ الخَوفِ بما له مِن المكانةِ في القلبِ، والسُّلطانِ على النَّفْسِ[1].

٦- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ فكلُّ مَن خرَجَ عن اتِّباعِ الرَّسولِ فهو ظالمٌ بحَسَبِ ذلك، والمُبتدِعُ ظالمٌ بقَدْرِ ما خالف مِن سُنَّتِه[2].

٧- التقليدُ المُحَرَّمُ بالنصِّ والإجماعِ: هو أنْ يُعارِضَ قولَ اللهِ ورسولِه بما يُخالِفُ ذلك، كائِنًا مَن كان المخالِفُ لذلك؛ قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا * وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾[3].

٨- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٢).

سَبِيلًا * يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ لا ريبَ أنَّ هذا يتناوَلُ الكافِرَ الذي لم يؤمِنْ بالرَّسولِ؛ فإنَّ «الظلمَ المُطلَقَ» يتناوَلُ ذلك ويتناوَلُ ما دونَه بحسَبِه. فمَن خالَّ مخلوقًا في خِلافِ أمرِ اللهِ ورسولِه، كان له مِن هذا الوعيدِ نَصيبٌ، كما قال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾[1] [الزخرف: ٦٧].

٩- قال الله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِي ﴾ فكلُّ مَنِ اتَّخَذَ غيرَ الرَّسولِ، يَترُكُ لأقوالِه وآرائِه ما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّه قائلٌ هذه المقالةَ لا محالةَ؛ فهذا حالُ الخَليلينِ المتخالَّينِ على خِلافِ طاعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومآلُ تلك الخُلَّةِ إلى العَداوةِ واللَّعنةِ، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وقد ذُكِرَ حالُ هؤلاء الأتْباعِ وحالُ مَن تَبِعوهم في غيرِ مَوضِعٍ مِن كتابِه؛ كقَولِه تعالى: ﴿ يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ * وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]. تمنَّى القَومُ طاعةَ اللهِ ورَسولِه حين لا ينفَعُهم ذلك، واعتَذَروا بأنَّهم أطاعوا كُبراءَهم ورُؤساءَهم، واعتَرَفوا بأنَّهم لا عُذرَ لهم في ذلك، وأنَّهم أطاعوا السَّاداتِ والكُبَراءَ، وعَصَوُا الرَّسولَ، وآلت تلك الطَّاعةُ والموالاةُ إلى قَولِهم: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٦٨]، وفي بَعضِ هذا عِبرةٌ للعاقِلِ ومَوعِظةٌ شافيةٌ[2].

١٠- التَّحذيرُ مِن الظُّلْمِ الذي يُصَدُّ به الإنسانُ عن دينِ اللهِ، أو التَّحذيرُ مِن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٤٥).

الظُّلمِ الذي يُوقِعُ الإنسانَ في مُخالَفةِ الرُّسُلِ؛ لقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾؛ لأنَّ الغرضَ مِن ذلك التَّحذيرِ ليس مجرَّدَ القِصَّةِ، بلِ الغرضُ أن يَحذَرَ الإنسانُ مِن هذا الأمرِ الذي يكونُ مآلُ صاحبِه إلى هذا الحالِ(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ شأنَ الخُلَّةِ الثِّقةُ بالخَليلِ، وحملُ مَشورتِه على النُّصحِ؛ فلا ينبغي أن يَضَعَ المرءُ خُلَّتَه إلَّا حيثُ يُوقِنُ بالسَّلامةِ مِن إشاراتِ السُّوءِ؛ قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴾(٢) [آل عمران: ١١٨].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ دَليلٌ على مجيءِ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ -مع أنَّه ليس في الآيةِ ذِكرُ المجيءِ-؛ وذلك لأنَّ تشَقُّقَ السَّماءِ بالغَمامِ وتنزيلَ الملائكةِ إنَّما يكونانِ عندَ مجيءِ اللهِ للقَضاءِ بيْن عبادِه، فيكونُ مِن بابِ الاستِدلالِ بأحَدِ الأمْرَينِ على الآخَرِ؛ لِمَا بيْنَهما مِن التلازُمِ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ فيه أنَّ الملائكةَ في السَّماءِ(٤).

٣- قَولُه تعالى: ﴿لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ لم يقُلْ: «للهِ»؛ إشارةً إلى كثرةِ رحمةِ اللهِ في ذلك اليومِ(٥).

٤- قال الله تعالى: ﴿ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ فلا يبقى لأحدٍ مِن المخلوقين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٧).

مُلكٌ ولا صورةُ مُلكٍ، كما كانوا في الدُّنيا، بل قد تساوت الملوكُ ورعاياهم، والأحرارُ والعبيدُ، والأشرافُ وغَيرُهم. وممَّا يرتاحُ له القَلبُ، وتطمئِنُّ به النَّفْسُ، ويَنشرِحُ له الصدرُ: أنْ أضاف المُلْكَ في يومِ القيامةِ لاسمِه «الرَّحمن» الذي وَسِعتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، وعَمَّتْ كلَّ حيٍّ، وملأتِ الكائناتِ، وعمَرتْ بها الدُّنيا والآخرةُ، وتمَّ بها كلُّ ناقِصٍ، وزال بها كلُّ نَقصٍ، وغلبتِ الأسماءُ الدالَّةُ عليه الأسماءَ الدالَّةَ على الغَضَبِ، وسبقتْ رحمتُه غضَبَه وغلَبَتْه، فلها السَّبْقُ والغَلَبةُ، وخَلَقَ هذا الآدميَّ الضعيفَ وشَرَّفَه وكَرَّمَه؛ لِيُتِمَّ عليه نِعمَتَه، ولِيتغمَّدَه برَحمتِه، وقد حضروا في موقِفِ الذُّلِّ والخُضوعِ والاستِكانةِ بيْنَ يدَيه ينتَظِرونَ ما يَحكُمُ فيهم، وما يجري عليهم، وهو أرحَمُ بهم مِن أنفُسِهم ووالِدِيهم، فما ظنُّك بما يُعامِلُهم به؟! ولا يَهلِكُ على اللهِ إلَّا هالِكٌ، ولا يَخرُجُ مِن رحمتِه إلَّا مَن غلَبَتْ عليه الشَّقاوةُ، وحَقَّتْ عليه كلمةُ العذابِ[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ دليلٌ على أنَّه على المؤمنين يَسيرٌ، وهي بِشارةٌ لهم؛ إذ مُحالٌ أن يَخُصَّ الكفَّارَ بصِفةِ عقوبةٍ لهم إلَّا والمؤمِنونَ بضِدِّ تلكَ الصِّفةِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ دَليلٌ على اختِلافِ النَّاسِ في ذلك الموقِفِ؛ وأنَّ يُسْرَ ذلك اليومِ وعُسرَه بحسَبِ حالِ الإنسانِ؛ فكلَّما كان الإنسانُ أشَدَّ إيمانًا وأشدَّ تقوى للهِ عزَّ وجلَّ، كان ذلك اليومُ أيسَرَ له، وكلَّما كان الإنسانُ أعتى وأكفَرَ كان أشَدَّ وأعظَمَ، والقاعدةُ: أنَّه إذا عُلِّق الحُكمُ على وصفٍ، كان أثَرُ ذلك الحُكمِ بحسَبِ ذلك الوَصفِ، يعني: أنَّ تأثيرَ الوَصفِ في الحُكمِ بحَسَبِ الوصفِ، فإذا كان العُسرُ معلَّقًا بالكُفرِ، فكُلَّما كان

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٧).

الكفرُ أشَدَّ كان العُسرُ أشَدَّ، وإذا عُلِّق اليُسرُ بالإيمانِ، صار كلَّما كان الإيمانُ أقوى كان اليُسرُ أقوى[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾ أنَّ عمومَ الظَّالِمين في يومِ القيامةِ يُؤمِنونَ بالحقِّ؛ لِقَولِه: ﴿ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ﴾، فأقَرَّ بأنَّ الذِّكرَ قد جاءه، وأقَرَّ بأنَّ ما جاءه ذِكرٌ يَتذكَّرُ به المرءُ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ [الفرقان: ٢٢]، والمقصودُ: تأْييسُهم مِنَ الانتِفاعِ بأعمالِهم وبآلهتِهم، وتأكيدُ وعيدِهم. وأَدمَج في ذلك وَصْفَ بَعضِ شُؤونِ ذلك اليَومِ، وأنَّه يَومُ تَنزيلِ الملائكةِ بمَرْأى مِنَ النَّاسِ[٣].

- قَولُه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ فيه إعادةُ لَفظِ (يوم) على طريقةِ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ وإنْ كان ذلك يَومًا واحدًا؛ لِبُعْدِ ما بيْن المُعادِ ومكانِ الضَّميرِ[٤].

- قَولُه: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ لَمَّا كان انشِقاقُ السَّماءِ بسَببِ طُلوعِ الغَمامِ منها، جعَلَ الغَمامَ كأنَّه الَّذي تَشقَّقَ به السَّماءُ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ﴾ [المزمل: ١٨]. وقيل: الباءُ باءُ الحالِ، أي: مُتغيِّمةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

- قَولُه: ﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ فيه تأكيدُ الفِعلِ (نُزِّلَ) بالمفعولِ المطْلَقِ ﴿تَنزِيلًا﴾؛ لإفادةِ أنَّه نزولٌ بالذَّاتِ[1]، وفيه دَلالةٌ على أنَّ الملائكةَ يَنزِلونَ شَيئًا فشَيئًا، لا يَنزِلون جُملةً[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ﴾ هو صَدْرُ الجُملةِ المعطوفةِ؛ فيَتعلَّقُ به ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾، وإنَّما قُدِّم عليه للاهتِمامِ به؛ لإثارةِ الطَّمعِ، وللتَّشويقِ إلى تَعيينِ إبَّانِه حتَّى إذا وردَ ما فيه خَيبةُ طَمَعِهم كان له وقْعُ الكآبةِ على نفوسِهم حينما يَسمَعونه. وتَكريرُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ للتَّأكيدِ والتَّهويلِ[3].

- وفائدةُ التَّقييدِ بـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في قولِه: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾: أنَّ ثبوتَ المُلكِ المذكورِ له تعالى خاصَّةً يَومَئذٍ، وأمَّا فيما عَداهُ مِن أيَّامِ الدُّنيا فيكونُ لِغَيرِه أيضًا تصرُّفٌ صُوريٌّ في الجُملةِ[4]، ففي ذلك اليومِ لا مالكَ سِواهُ -لا في الصورةِ ولا في المعنى- فتخضَعُ له الملوكُ، وتَعْنُو له الوجوهُ، وتَذِلُّ له الجبابرةُ، بخلافِ سائرِ الأيَّامِ[5]. وإيرادُه تعالى بعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّ اتِّصافَه تعالى بغايةِ الرَّحمةِ لا يُهوِّنُ الخَطْبَ على الكَفَرةِ؛ لعَدمِ استِحقاقِهم للرَّحمةِ[6].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ اعتِراضٌ تَذْيِيليٌّ مُقرِّرٌ لِما قَبْلَه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣).

وتقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لمراعاةِ الفَواصلِ[١]. وقيل: تقديمُ ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ للحَصْرِ والقَصرِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ، أي: دُونَ المؤمنينَ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ عَضُّ اليدَينِ والأنامِلِ كِنايةٌ عنِ الغَيظِ والحَسرةِ؛ لأنَّها مِن رَوادِفِها، فيَذكُرُ الرَّادفةَ ويدُلُّ بها على المَردوفِ، فيَرتفِعُ الكلامُ به في طَبقةِ الفَصاحةِ، ويَجِدُ السَّامعُ عِندَه في نفْسِه مِنَ الرَّوعةِ والاستِحسانِ ما لا يَجِدُه عِندَ لفظِ المُكنَى عنه؛ فشأنُ مَن وقَع في غَيظٍ وحَسرةٍ ونَدامةٍ أنْ يَعَضَّ يَديهِ، ويأكُلَ بَنانَه كأنَّه لَمَّا لم يجِدْ شيئًا يُطفئُ فيه غيظَه، رَجَع على نفْسِه بذلك؛ فلذا يُكنَى به عنها؛ مِن إطلاقِ اللازمِ وإرادةِ الملزومِ، وذلك لا يَمنَعُ مِن وجودِ العَضِّ منه حقيقةً، بل وقوعُ ذلك هو الشأنُ الغالبُ[٣].

- والعَضُّ: الشَّدُّ بالأسنانِ على الشَّيءِ؛ لِيُؤْلِمَه أو ليُمْسِكَه، وحقُّه التَّعديةُ بنفْسِه -فيُقال: عَضَّ يَديهِ-، إلَّا أنَّه كثُرَتْ تَعديتُه بـ (على)؛ لإفادةِ التَّمكُّنِ مِنَ المَعضوضِ إذا قصَدوا عضًّا شديدًا، كما في هذه الآيةِ[٤].

- واللَّامُ في ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ يَجوزُ أن تكونَ للعهدِ، ويَجوزُ أن تكونَ للجِنسِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٣، ٢١٤).

- قَولُه: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ نداءٌ للكلامِ الدَّالِّ على التَّمنِّي، وهذا النِّداءُ يَزيدُ المُتمنَّى استِبعادًا[١]؛ نادَى ويْلَتَه -أي: هلَكَتَه- لِتَحضُرَ في ذلك الوقتِ؛ لأنَّه وقْتُها، وليس نِداؤُها رَغبةً في حُضورِها؛ فالهلاكُ لا يُرغَبُ فيه، وإنَّما نادى الهلاكَ لِيَحضُرَ؛ لِمَا حصَلَ له مِن اليأْسِ والقنوطِ مِن أسبابِ النَّجاةِ، فلمْ يَبْقَ له إلَّا الهلاكُ[٢].

- وجملةُ ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ حاليَّةٌ؛ فهو يعَضُّ حالةَ كونِه قائلًا: يا لَيْتني، فبيَّنَتْ هذه الجُملةُ ما يقولُ، كما بيَّنَت الَّتي قبْلَها ما يَعمَلُ، فصَوَّرتاهُ في حالِه الشَّنيعِ الفظيعِ[٣].

- وإنَّما عَدَلَ عنِ الإتيانِ بفِعلِ الاتِّباعِ ونَحوِه بأنْ يُقالَ: (يا لَيْتَني اتَّبعْتُ الرَّسولَ)، إلى هذا التَّركيبِ ﴿يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا﴾ الذي فيه إطْنابٌ؛ لأنَّ في هذا التَّركيبِ تَمثيلَ هَيئةِ الاقتِداءِ بهَيئةِ مُسايرةِ الدَّليلِ تمثيلًا مُحتويًا على تَشبيهِ دَعوةِ الرَّسولِ بالسَّبيلِ، ومُتضمِّنًا تَشبيهَ ما يَحصُلُ عن سُلوكِ ذلك السَّبيلِ مِنَ النَّجاةِ ببُلوغِ السَّائرِ إلى المَوضعِ المقصودِ؛ فكان حُصولُ هذه المعاني صائرًا بالإطنابِ إلى إيجازٍ، وأمَّا لفْظُ المتابعةِ فقد شاع إطلاقُه على الاقتِداءِ، فهو غيرُ مُشعِرٍ بهذا التَّمثيلِ[٤].

- والتَّنكيرُ في قولِه: ﴿سَبِيلٗا﴾ للإفرادِ، أي: سبيلًا واحدًا لا تعدُّدَ فيه، بخِلافِ ما كان عليه الظَّالمُ مِن سُبُلِ أهوائِه المُتعدِّدةِ المُتشعِّبةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

٤- قَولُه تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾

- قَولُه: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾ تَحسُّرٌ بطريقِ نِداءِ الوَيلِ، والألِفُ عِوَضٌ عن ياءِ المتكلِّمِ، وهو تَعويضٌ مشهورٌ في نِداءِ المضافِ إلى ياءِ المُتكلِّمِ[1]. وهذا التَّمنِّي منه وإنْ كان مَسوقًا لإبرازِ النَّدمِ والحَسرةِ، لكنَّه مُتضمِّنٌ لنَوعِ تَعلُّلٍ واعتِذارٍ بإسنادِ جِنايتِه إلى الغَيرِ[2].

- وكلمةُ (فُلان) كِنايةٌ عن الأَعلامِ؛ فإنْ أُريدَ بـ ﴿ٱلظَّٰلِمُ﴾ عُقْبةُ -أي: ابنُ أبي مُعَيطٍ-؛ فمعنى قولِه: ﴿لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا﴾: لَيْتَني لمْ أَتَّخِذْ أُبَيًّا -أي: ابنَ خَلَفٍ- خَليلًا؛ فكَنَى عنِ اسمِه. وإنْ أُريدَ به الجِنسُ، فكلُّ مَنِ اتَّخَذ مِنَ المُضلِّينَ خليلًا كان لخَليلِه اسمٌ عَلَمٌ لا مَحالةَ، فجَعَله كِنايةً عنه؛ فعلى هذا الجملةُ مُعترِضةٌ مُذيِّلةٌ، وعلى التَّعيينِ يَجوزُ أن يكونَ حالًا[3]. وقيل: (فُلانٌ) كِنايةٌ عنِ الشَّيطانِ[4]. والدَّاعي إلى الكِنايةِ بـ (فُلانٍ) إمَّا قصْدُ إخفاءِ اسمِه خِيفةً عليه، أو خِيفةً مِن أهْلِهم، أو للجَهلِ به، أو لعدَمِ الفائدةِ لذِكْرِه، أو لقصْدِ نَوعِ مَن له اسمٌ عَلَمٌ. وهذانِ الأَخيرانِ هُمَا اللَّذانِ يَجْريانِ في هذه الآيةِ إنْ حُمِلَتْ على إرادةِ خُصوصِ عُقْبةَ وأُبَيٍّ، أو حُمِلَتْ على إرادةِ كلِّ مُشرِكٍ له خَليلٌ صَدَّه عنِ اتِّباعِ الإسلامِ. وإنَّما تَمنَّى ألَّا يكونَ اتَّخذَه خليلًا دُونَ تَمنِّي أن يكونَ عَصاهُ فيما سَوَّلَ له؛ قصْدًا للاشمِئْزازِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠١، ١٠٢).

خُلَّتِه مِن أصْلِها، إذْ كان الإضلالُ مِن أحوالِها[١].

- وقيل: كَنَى (بفلانٍ)؛ لأنَّ لكلِّ ظالمٍ خليلًا له اسْمُه الخاصُّ؛ فلا يُمكِنُ التَّصريحُ بأسماءِ الجميعِ، فما بقِيَ إلَّا الكِنايةُ عنها بفُلانٍ[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ تعليلٌ لتَمنِّيه ألَّا يكونَ اتَّخذ فُلانًا خَليلًا بأنَّه قد صَدَر عن خُلَّتِه أَعظَمُ خُسرانٍ لخليلِه؛ إذْ أَضَلَّه عنِ الحقِّ بعْدَ أن كاد يَتمكَّنُ منه[٣]، وتَصديرُه باللَّامِ القسَميَّةِ؛ للمُبالَغةِ في بيانِ خَطئِه، وإظهارِ ندَمِهِ وحَسْرتِه[٤].

- وجملةُ ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ بيانٌ لسببِ تَمنِّيه السابِقِ[٥].

- وقولُه: ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرْفٌ للزَّمنِ الماضي، أي: بعْدَ وقْتِ جاءَني فيه الذِّكرُ، والإتيانُ بالظَّرفِ هنا دُونَ أن يُقالَ: (بعدَ ما جاءَني)، أو (بعدَ أنْ جاءَني)؛ للإشارةِ إلى شدَّةِ التَّمكُّنِ مِنَ الذِّكرِ؛ لأنَّه قد استَقرَّ في زمنٍ وتحقَّقَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ﴾ [التوبة: ١١٥]، أي: تَمَكَّنَ هَدْيُه منهم[٦].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ اعتِراضٌ مقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه؛ إمَّا مِن جهتِه تعالى، أو مِن تمامِ كلامِ الظَّالمِ، على أنَّه سَمَّى خليلَه شيطانًا بعْدَ وصْفِه بالإضلالِ الَّذي هو أخَصُّ الأوصافِ الشَّيطانيَّةِ؛ لأنَّه أضَلَّه كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦).

يُضِلُّ الشَّيطانُ، ثمَّ خَذَله ولمْ يَنفَعْه في العاقبةِ، أو على أنَّه أرادَ بالشَّيطانِ إبليسَ؛ لأنَّه الَّذي حمَلَه على مُخالَّةِ المُضلِّينَ، ومُخالَفةِ الرَّسولِ الهادي صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بوَسوَستِه وإغوائِه، ثمَّ خذَلَه. أو أرادَ الجِنسَ، وكلَّ مَن تَشَيْطَنَ مِنَ الجنِّ والإنسِ. لكنْ وصْفُه بالخِذلانِ يُشعِرُ بأنَّه كان يَعِدُه في الدُّنيا ويُمَنِّيه بأنْ يَنفَعَه في الآخِرةِ، وهو أَوْفَقُ بحالِ إبليسَ[١].

- وقيل: هو تَذْييلٌ مِن كلامِ اللهِ تعالى لا مِن كلامِ الظَّالمِ؛ تَنبيهًا للنَّاسِ على أنَّ كلَّ هذا الإضلالِ مِن عمَلِ الشَّيطانِ، فهو الَّذي يُسَوِّلُ لخَليلِ الظَّالمِ إضلالَ خَليلِه؛ لأنَّ الشَّيطانَ خَذولُ الإنسانِ، أي: مَجْبولٌ على شدَّةِ خَذْلِه... والخَذْلُ: ترْكُ نصْرِ المُستنجِدِ مع القدرةِ على نصْرِه، فإذا أَعانَ على الهزيمةِ فهو أشدُّ الخَذْلِ، وهو المقصودُ مِن صيغةِ المُبالَغةِ في وصْفِ الشَّيطانِ بخَذْلِ الإنسانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ يَكيدُ الإنسانَ فيُورِّطُه في الضُّرِّ، فهو خَذولٌ[٢].

- وقيل: (أل) في (الشَّيْطَان) و(الإنْسَانِ) للجِنسِ؛ فيَدخُلُ في جِنسِ الشَّيطانِ خليلُ الظَّالمِ الَّذي صدَّه عن الذِّكرِ، وقرينُ خَليلِه مِن الجنِّ الَّذي سوَّل له ذلك وأعانَه، وقرينُه هو الَّذي زيَّنَه له ودعاهُ إليه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦، ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٠).

## الآيات (٣٠-٣٤)

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا وَنَصِيرٗا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴿٣٤﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَهۡجُورٗا﴾: أي: مَتروكًا، والهَجرُ والهِجْرانُ: مُفارقةُ الإنسانِ غَيْرَه، وأصلُ (هجر) هنا: يدُلُّ على قَطيعةٍ وقَطْعٍ[1].

﴿جُمۡلَةٗ﴾: أي: دَفعةً، مجتمِعًا، في وقتٍ واحدٍ، لا كما أُنزِل نُجومًا مُتَفَرِّقةً، ويُقالُ لكلِّ جماعةٍ غيرِ منفصلةٍ: جُمْلَةٌ، وأصلُ (جمل) هنا: تجمُّعٌ[2].

﴿تَفۡسِيرًا﴾: أي: بَيانًا، وأصلُ (فسر): يدُلُّ على بيانِ شَيءٍ وإيضاحِه[3].

﴿يُحۡشَرُونَ﴾: أي: يُجمعونَ، والحشرُ: الجمعُ معَ سَوقٍ، وكلُّ جمعٍ حشرٌ، ويُطلَقُ أيضًا على البعثِ والانبعاثِ، أو الجمعِ بكثرةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، =

## المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: وقال الرَّسولُ لرَبِّه جَلَّ وعلا، مُشتَكيًا في الدُّنيا: يا رَبِّ، إنَّ الكُفَّارَ مِن قَومي ترَكوا هذا القُرآنَ وأعرَضوا عنه فلا يُؤمِنون به، ولا يَعمَلون بأحكامِه.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: وكما جعَلْنا لك -يا محمَّدُ- أعداءً مِن مُشرِكي قَومِك، كذلك جعَلْنا لكُلِّ نبيٍّ مِن الأنبياءِ أعداءً مِن الكُفَّارِ المُشرِكين مِن أقوامِهم؛ فاصبِرْ كما صَبَروا، وكفى برَبِّك -يا محمَّدُ- هاديًا وناصِرًا لك على أعدائِك.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى أيضًا بعضَ شبهاتِ المشركينِ، فيقولُ: وقال الكُفَّارُ: هلَّا نزَّل اللهُ عليك -يا محمَّدُ- القُرآنَ دَفعةً واحِدةً لا مُفرَّقًا؟ ويرُدُّ عليهم سبحانَه فيقولُ: كذلك نزَّلنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- مُفرَّقًا؛ لنقَوِّيَ به قَلبَك، وتزدادَ ثَباتًا ويَقينًا، وجعَلْنا بَعضَه يَنزِلُ في إثْرِ بَعضٍ على تُؤَدةٍ وتمَهُّلٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا.

ولا يأتيك هؤلاء المُشرِكون بمَثَلٍ مِن الأمثالِ التي مِن جُملتِها اقتِراحاتُهم القبيحةُ، يُريدونَ به القَدْحَ في نبوَّتِك، إلَّا جِئْناك في مُقابَلتِه بالجوابِ الحَقِّ الثابتِ الذي يُبطِلُ شُبهَتَهم بأحسَنَ ممَّا جاؤوا به كَشفًا وبَيانًا.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى سوءَ مصيرِهم، فيقولُ: الذين يُحشَرون يومَ القيامةِ مَسحوبينَ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ أولئك شَرٌّ مَنزِلًا ومَكانًا في جهنَّمَ، وأضَلُّ النَّاسِ عن طريقِ الحَقِّ.

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا أكثَرَ الكُفَّارُ مِن الاعتراضاتِ الفاسِدةِ ووجوهِ التعَنُّتِ؛ ضاق صدرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وشكاهم إلى اللهِ تعالى[1].

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠ ﴾.

أي: وقال الرَّسولُ مُشتكيًا في الدُّنيا[2] إلى رَبِّه: يا رَبِّ، إنَّ كُفَّارَ قَومي تَرَكوا القُرآنَ العظيمَ وهجَروه؛ لا يَسمَعونه ولا يتدَبَّرونَه، ولا يُؤمِنونَ به، ولا يَعمَلون بأحكامِه[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥).

(٢) ممَّن اختار أنَّه يقولُ ذلك في الدُّنيا: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّةَ ونسَبَه للجمهور، والرازيُّ ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ، والنسفيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ))تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

وممَّن اختار أنَّ هذا القولَ يقولُه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآخرةِ: ابنُ جريرٍ، والثعلبيُّ، والواحديُّ، والبغويُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٣٢)، ((الوجيز)) (ص: ٧٧٨) للواحدي، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ بهَجرِ القُرآنِ: أنَّهم يَتركونَه، ويُعرِضونَ عنه؛ لا يُؤمِنونَ به، ولا يَعمَلونَ بما فيه: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٤)، =

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا شكا عليه الصلاةُ والسلامُ قومَه؛ سلَّاه اللهُ تعالى وعزَّاه، وأمرَه بالصَّبرِ

---

= ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٠).

قال ابنُ كثير: (﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ يقولُ تعالى مُخبِرًا عن رَسولِه ونَبيِّه محمَّدٍ -صلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه دائِمًا إلى يومِ الدِّينِ- أنَّه قال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾، وذلك أنَّ المُشرِكينَ كانوا لا يُصغُونَ للقُرآنِ ولا يَسمَعونَه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وكانوا إذا تُلِيَ عليهم القُرآنُ أكثَروا اللَّغَطَ والكلامَ في غَيرِه؛ حتى لا يَسمَعوه، فهذا مِن هِجرانِه، وتَرْكُ عِلْمِه وحِفْظِه أيضًا: مِن هِجرانِه، وتَركُ الإيمانِ به وتَصديقِه: مِن هِجرانِه، وتَرْكُ تَدَبُّرِه وتَفَهُّمِه: مِن هِجرانِه، وتَركُ العَمَلِ به، وامتِثالِ أوامِرِه واجتنابِ زواجِرِه: مِن هِجرانِه، والعُدولُ عنه إلى غَيرِه؛ مِن شِعرٍ، أو قَولٍ، أو غِناءٍ، أو لَهْوٍ، أو كلامٍ، أو طريقةٍ مأخوذةٍ مِن غَيرِه: مِن هِجرانِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٨).

ومِمَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى أنَّهم جَعَلوه كالهَذَيانِ، وما لا يُنتفَعُ به مِن القَولِ: ابنُ قُتَيْبةَ، والزجَّاجُ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٦٦).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّهم هَجَروه بإعراضِهم عنه، فصار مَهجورًا. قاله ابنُ زيد. الثَّاني: أنَّهم قالوا فيه هُجْرًا، أي: قَبيحًا. قاله مجاهِدٌ. الثَّالثُ: أنَّهم جَعَلوه هَجْرًا مِنَ الكلامِ، وهو: ما لا نَفْعَ فيه مِنَ العَبَثِ والهَذَيانِ. قاله ابنُ قُتيبةَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٣).

والثَّباتِ، ووعدَه ورجَّاه[١]، وبيَّنَ أنَّ له أُسوةً بسائِرِ الرسُلِ؛ فلْيَصبِرْ على ما يَلْقاهُ مِن قَومِه كما صَبَروا[٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

أي: وكما جعَلْنا لك -يا محمَّدُ- أعداءً مِن مُشرِكي قَومِك، كذلك جعَلْنا لكُلِّ الأنبياءِ أعداءً مِن الكُفَّارِ المُشرِكين مِن أقوامِهم يُعارِضونَهم ويُؤذونَهم؛ فاصبِرْ كما صبَر أولئك الرسُلُ مِن قَبْلِك[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

**مُناسَبتُها لِمَا قَبلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه جعَل لكُلِّ نبيٍّ عدوًّا مِن المجرمين، وهؤلاء المجرِمون يحاوِلون القضاءَ على الرِّسالةِ أو النبوَّةِ بواحدٍ مِن أمْرَينِ؛ إمَّا بإضلالِ النَّاسِ وصَدِّهم عمَّا جاءت به الرسُلُ، وإمَّا بقِتالِهم وإهلاكِهم، فيَعتَدُون على النَّاسِ بالقِتالِ- فقال الله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ في مقابلةِ محاولةِ الإضلالِ، ﴿وَنَصِيرًا﴾ في مُقابلةِ محاولةِ القضاءِ على الأنبياءِ وأُمَمِهم[٤].

وأيضًا لَمَّا كان هذا مَوطنًا تتعلَّقُ فيه النفوسُ متشوِّقةً إلى الهدايةِ بعْدَ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٤).

الطَّبْعِ، والنُّصرةِ بعْدَ ذلك الجَعْلِ؛ كان كأنَّه قيل: لا تَحزَنْ؛ فلَنَجعلَنَّ لك وَلِيًّا ممَّن نَهْديه للإيمانِ، ولَننصرَنَّهم على عدوِّهم كما فعَلْنا بمَن قبْلَك، بل أعظم[١].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.

أي: وكفى برَبِّك -يا محمَّدُ- هاديًا يَهديك إلى الحَقِّ وإلى مصالحِ الدِّينِ والدُّنيا، وناصِرًا لك على أعدائِك، يدفَعُ عنك كُلَّ مَكروهٍ في أمرِ الدِّينِ والدُّنيا؛ فلا تُبالِ بمَن عاداك، واصبِرْ وامضِ لتبليغِ رِسالةِ الله إليهم، متوكِّلًا عليه سبحانه[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾ [الأعراف: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه شِكايةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن هِجرانِ قَومِه للقُرآنِ، وقرَّرَ عداوتَهم له، ونُصرتَه عليهم؛ أتبَعَ ذلك بما يدُلُّ عليه، فقال عَطفًا على ما مضَى مِن الأشباهِ في الشُّبَهِ[٣]:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٨).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: هلَّا نزَّل اللهُ على محمَّدٍ القُرآنَ دَفعةً واحِدةً، ولم يُنَزِّلْ مُفرَّقًا[١]؟

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾.

أي: كذلك نزَّلنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- مُفرَّقًا؛ لنقوِّيَ قَلبَك فتَعِيَه وتحفَظَه، وتَزدادَ يقينًا وطُمأنينةً وثَباتًا[٢].

﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾.

أي: أنزَلْناه مفرَّقًا على تُؤَدةٍ وتَمَهُّلٍ، شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، آياتٍ ثمَّ آياتٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ التَّرتيلَ بمعنى الترسُّلِ، والتَّمكُّثِ شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، آياتٍ ثمَّ آياتٍ، على تؤَدَةٍ وتَمهُّلٍ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، السعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والنَّخعيُّ، والحسن، وابن جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٣٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا رَدَّ تعالى اعتراضاتِهم، وأبطَلَ شُبُهاتِهم؛ أخبرَ بأنَّه لا يَزالُ القرآنُ كذلك: يَدمغُ باطلَهم بحقِّه فيُزهِقُه، ويَصدَعُ غشاءَ تَمويهِهم بصادقِ بيانِه فيُمَزِّقُه؛ لِطمأنةِ قلْبِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم وتثبيتِه، والوعدِ له بدوامِ النَّصرِ والتأييدِ[1].

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ولا يَذكُرُ مُشرِكو قُرَيشٍ شُبهةً أو اقتِراحًا يُعارِضون به الحَقَّ ويَطعنونَ به فيه، إلَّا أنزَلْنا مِن القُرآنِ ما يُبطِلُ شُبهَتَهم، ويَرُدُّ حُجَّتَهم بأحسَنَ مِمَّا جاؤوا به؛

---

= ومِمَّن اختار أنَّ الترتيلَ بمعنى التَّبيينِ: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٥٩).

وممَّن قال بذلك مِن السلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩).

قال العليمي: (﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾: أنزَلْنا بعضَه في إثرِ بعضٍ، وبيَّنَّاه تبيينًا). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣).

وقال الثعلبي: (والترتيلُ: التبيينُ في ترسُّلٍ وتثبُّتٍ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٣٢).

وقال ابن عاشور: (والترتيلُ يوصَفُ به الكلامُ إذا كان حسَنَ التأليفِ، بيِّنَ الدَّلالةِ... والترتيلُ يجوزُ أن يكون حالةً لنزولِ القرآنِ، أي: نزلَّناه مفرَّقًا منسَّقًا في ألفاظِه ومعانيه، غيرَ متراكمٍ، فهو مفرَّقٌ في الزمانِ، فإذا كمل إنزالُ سورةٍ جاءت آياتُها مرتَّبةً متناسِبةً، كأنَّها أُنزلت جُملةً واحدةً، ومفرَّقٌ في التأليفِ بأنه مفصَّلٌ واضحٌ... ويجوزُ أن يرادَ بـ «رتلناه»: أمَرْنا بترتيلِه، أي: بقراءتِه مرتَّلًا، أي: بتمهُّلٍ بألَّا يُعجِّلَ في قراءتِه؛ بأن تُبيَّنَ جميعُ الحروفِ والحركاتِ بمهلٍ، وهو المذكورُ في سورةِ «المزمل» في قولِه تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٢).

بيانًا ووضوحًا، وفصاحةً وتَفصيلًا[١].

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا أبطلَ سبحانه شُبَهَهم؛ بَيَّنَ مآلَهم وجزاءَهم[٢]، فقال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٣٤﴾.

أي: الذين يُجمَعونَ يومَ القيامةِ قَهرًا يُساقونَ مَقلوبينَ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ: أولئك شَرٌّ مُستقَرًّا ومُقامًا في جهنَّمَ، وأضَلُّ طَريقًا عن الحَقِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٧، ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١).

قال ابنُ القيمِ: (التفسيرُ الأحسَنُ: هو الألفاظُ الدالَّةُ على ذلك الحَقِّ، فهي تفسيرُه وبيانُه... فلا بدَّ مِن أن يكونَ التفسيرُ مُطابقًا للمُفَسَّرِ مُفهِمًا له، وكلَّما كان فَهْمُ المعنى منه أوضَحَ وأبْيَنَ، كان التفسيرُ أكمَلَ وأحسَنَ؛ ولهذا لا تجِدُ كلامًا أحسَنَ تفسيرًا ولا أتمَّ بيانًا مِن كلامِ الله سُبحانَه). ((الصواعق المرسلة)) (١/ ٣٣٠، ٣٣١).

وقال ابن عثيمين: (... فالمرادُ بالمثَلِ هنا الصِّفةُ، يعني: لا يأتونَك بصِفةٍ مِن القَولِ يُريدونَ بها إبطالَ دَعوتِك إلَّا جِئْناك بالحقِّ، إذَنْ فهُم يأتون بباطلٍ؛ لأنَّه قابَلَ قَولَهم بالحَقِّ، فهذا دليلٌ أيضًا على أنَّ كُلَّ شُبهةٍ يحتَجُّ بها المكَذِّبون للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهي باطِلٌ، ولكِنَّ هذا الباطِلَ باطِلٌ في ذاتِه؛ قد يظهرُ لبعضِ النَّاسِ بُطلانُه، وقد يَخفى على بعضِ النَّاسِ بُطلانُه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه لنبيِّه: هؤلاء المُشرِكون -يا محمَّدُ- القائلون لك: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ ومَن كان على مِثلِ الذي هم عليه من الكُفرِ بالله، الذين يُحشَرون يومَ القيامةِ على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ، فيُساقُونَ إلى جهنَّمَ: شَرٌّ مُستقَرًّا في الدُّنيا والآخرةِ مِن أهلِ الجنَّةِ في الجنَّةِ، وأضَلُّ منهم في الدُّنيا طريقًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٤٨).

عن قَتادةَ، قال: حدَّثَنا أنسُ بنُ مالكٍ، ((أنَّ رجُلًا قال: يا رَسولَ اللهِ، كيف يُحشَرُ الكافِرُ على وجهِه يَومَ القيامةِ؟ قال: أليس الَّذي أَمْشاهُ على رِجلَيهِ في الدُّنيا قادِرًا على أن يُمشِيَه على وجْهِه يَومَ القيامةِ؟)). قال قَتادةُ: بلى وعِزَّةِ رَبِّنا[1].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ فيه تَلويحٌ بأنَّ مِن حقِّ المؤمنِ أنْ يكونَ كثيرَ التَّعاهُدِ للقُرآنِ؛ كَيْ لا يَندرِجَ تحتَ ظاهرِ النَّظمِ الكريمِ[2].

٢- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ شكَا نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ربِّه هَجْرَ قومِه -وهم كفَّارُ قريشٍ- لهذا القرآنِ العظيمِ، أي: تَرْكَهم لتصديقِه والعملِ به، وهذه شكوى عظيمةٌ، وفيها أعظَمُ تخويفٍ لمَن هجَر هذا القرآنَ العظيمَ، فلم يعمَلْ بما فيه مِن الحلالِ والحرامِ والآدابِ والمكارمِ، ولم يعتقِدْ ما فيه مِن العقائدِ، ويَعتبِرْ بما فيه مِن الزَّواجرِ والقصصِ والأمثالِ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ ابتلاءُ اللهِ سُبحانَه وتعالى للمُؤمِنِ؛ فإنَّه إذا كان الإيمانُ قويًّا فإنه يَصمُدُ أمامَ هذه الشُّبُهاتِ، وأمامَ هذه العَداوةِ، وإذا كان ضعيفًا فإنه يتأثَّرُ، فهذا مِن حِكمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ أنَّ اللهَ يُقيِّضُ للإنسانِ ما يكونُ سببًا للحَيلولةِ بيْنه وبيْن دَعوتِه لِيَبلُوَهُ، قال سُبحانه وتعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦ﴾ يعني: اطمأنَّ بحالِه التي هو عليها، ﴿وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ

---

(١) رواه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦) واللفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٤٨).

هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[الحج: ١١]: وإنْ أصابَته فِتنةٌ وأمرٌ يَشغَلُه انقلبَ على وَجهِه[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ وهذه العداوةُ التي ذكَرَها اللهُ تعالى تكونُ أيضًا لأتْباعِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ هؤلاء عادَوُا الرسُلَ لدُعائِهم للحَقِّ، يعني: ما عادَوُا الرُّسُلَ لأشخاصِهم؛ ولهذا كان الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ قبْلَ البَعثةِ عندَ قريشٍ ليس عدوًّا، بل هم يُسمُّونَه الأمينَ، فما دامتِ العداوةُ مِن أجْلِ الدعوةِ إلى الدِّينِ فسوف تكونُ لكلِّ مَن دعا إلى الدِّينِ؛ لأنَّ الذي يَدعو مثلًا إلى شريعةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هو يدعو إلى ما دعا إليه النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ، فلا بُدَّ أن يكونَ له أعداءٌ، كما كان للأنبياءِ أعداءٌ؛ وعليه فالواجِبُ على مَن دعا إلى الهُدى وأُوذيَ أن يَصبِرَ، وأن يَتأسَّى بما جرى للرسُلِ مِن قبْلِه، والرسُلُ أعظَمُ منزلةً عندَ اللهِ منه، ومع ذلك مَكَّنَ أعداءَهم ممَّا فعَلوه[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ دَليلٌ على أنَّه يَنبَغي لِمَن أراد حِفظَ شَيءٍ أنْ يَحفَظَ منه قَدْرًا قليلًا، أو شَيئًا بعْدَ شَيءٍ؛ لِيَرسَخَ في قلبِه، ويأمَنَ مِن نسيانِه[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾، أيْ: نزَّلْناه مُفرَّقًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ ذلك مِن دَلائلِ أنَّه مِن عِندِ اللهِ؛ لأنَّ شأنَ كلامِ النَّاسِ إذا فُرِّقَ تأليفُه على أزمنةٍ مُتباعِدةٍ أنْ يَعتَوِرَه التَّفكُّكُ وعدَمُ تَشابُهِ الجُمَلِ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ مِن محاسِنِ هذه الشَّريعةِ المطَهَّرةِ أنَّها نزلت بالتَّدريجِ المناسِبِ، ويُفيدُنا ذلك فائدةً عمليَّةً، وهي أن نقرأَ القرآنَ ونتفهَّمَه حتى تكونَ آياتُه على طَرفِ ألسنتِنا، ومعانيه نُصبَ أعيُنِنا؛ لِنُطبِّقَ آياتِه على أحوالِنا، ونُنزِلَها عليها، كما كانت تَنزِلُ على الأحوالِ والوقائعِ، فإذا حَدَثَ مرَضٌ قلبيٌّ أو اجتِماعيٌّ طلَبْنا دواءَه في القرآنِ، وطبَّقناه عليه، وإذا عَرَضَتْ شُبهةٌ أو ورَدَ اعتِراضٌ؛ طلَبْنا فيه الرَّدَّ والإبطالَ، وإذا نزلَتْ نازلةٌ طلَبْنا فيه حُكمَها، وهكذا نذهَبُ في تطبيقِه وتنزيلِه على الشُّؤونِ والأحوالِ إلى أقصى حَدٍّ يمكِنُنا[1].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ في تَنَزُّلِ آياتِ القرآنِ على حسَبِ الوقائعِ دَليلٌ على أنَّه ينبغي للمتكَلِّمِ في العِلمِ -مِن مُحَدِّثٍ ومُعَلِّمٍ- كلَّما حَدَثَ مُوجِبٌ أو حَصَلَ مَوسِمٌ، أن يأتيَ بما يناسِبُ ذلك مِن الآياتِ القُرآنيَّةِ والأحاديثِ النَّبويَّةِ، وفيها قدوةٌ صالحةٌ لأئمَّةِ الجُمَعِ وخُطبائِها في توجِّيهم بخُطَبِهم الوقائعَ النازِلةَ، وتطبيقِهم خُطَبَهم على مقتضى الحالِ، وذِكرِ المواعِظِ الموافِقةِ لذلك[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ أنَّه ينبغي أن نقتديَ بالقرآنِ فيما نأتي به مِن كلامٍ في مقامِ الحِجاجِ أو مقامِ الإرشادِ، فلْنَتوَخَّ دائمًا الحقَّ الثابتَ بالبرهانِ أو بالعِيانِ، ولْنُفَسِّرْه أحسَنَ التفسيرِ، ولْنَشرَحْه أكمَلَ الشرحِ، ولْنُقَرِّبْه إلى الأذهانِ غايةَ التقريبِ، وهذا يَستدعي صحَّةَ الإدراكِ، وجَودةَ الفَهمِ، ومتانةَ العلمِ؛ لِتَصَوُّرِ الحقِّ ومعرفتِه، ويَستدعي حُسْنَ البيانِ، وعلومَ اللسانِ لتصويرِ الحقِّ وتجليتِه والدفاعِ عنه، فللاقتداءِ بالقرآنِ في الإتيانِ بالحقِّ وأحسَنِ بيانٍ علينا أن نُحَصِّلَ هذه كلَّها، ونتدرَّبَ فيها، ونَتمرَّنَ عليها؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨١).

حتى نَبلُغَ إلى ما قُدِّرَ لنا منها، هذا ما على أهلِ الدعوةِ والإرشادِ وخدمةِ الإسلامِ والقرآنِ.

فأمَّا ما على عمومِ المسلمينَ مِن هذا الاقتداءِ: فهو دوامُ القصدِ إلى الإتيانِ بالحَقِّ، وبَذْلُ الجُهدِ في التعبيرِ بأحسَنِ لفظٍ وأقرَبِه، ومَن أخلَصَ قَصْدَه في شَيءٍ، وجعَلَه مِن دأبِه؛ أُعينَ -بإذنِ الله تعالى- عليه[1].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ يُؤخَذُ منه أنَّ كلَّ ذي باطلٍ نَجِدُ بيانَ باطلِه مِن الوحيِ المُنَزَّلِ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فما مِن شُبهةٍ إلى يومِنا هذا تَرِدُ إلَّا وفي كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما يَدْحَضُها[2]. وإنَّك إذا تتبَّعْتَ آياتِ القرآنِ وجدْتَها قد أتتْ بالعَددِ الوافرِ مِن شُبَهِ الضَّالين واعتراضاتِهم، ونَقَضَتْها بالحقِّ الواضِحِ، والبيانِ الكاشفِ في أوجَزِ لفظٍ وأقْرَبِه وأبلَغِه، وهذا قِسْمٌ عظيمٌ جليلٌ مِن علومِ القرآنِ، يتحتَّمُ على رجالِ الدَّعوةِ والإرشادِ أن يكونَ لهم به فضلُ عنايةٍ، ومَزيدُ دِرايةٍ وخبرةٍ، ولا نحسَبُ شُبهةً تَرِدُ على الإسلامِ إلَّا وفي القرآنِ العظيمِ رَدُّها بهذا الوعدِ الصادقِ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ؛ فعلينا عندَ وُرودِ كلِّ شُبهةٍ مِن كلِّ ذي ضلالةٍ أن نَفزَعَ إلى آيِ القُرآنِ[3].

١١- قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ فيما يذكُرُه الله تعالى من هذا الجزاءِ العادلِ تخويفٌ عظيمٌ لنا مِن سوءِ الأعمالِ التي تؤدِّي إلى سوءِ الجزاءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ في شكوى النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم مِن هجرةِ القرآنِ دَليلٌ على أنَّ ذلك من أصعبِ الأمورِ وأبغَضِها لديه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ كَراهةُ هَجْرِ المصحَفِ وعدَمِ تعهُّدِه بالقِراءةِ فيه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ حُجَّةٌ على مَن يَعدِلُ عن القُرآنِ في الاحتِجاجِ به، ويَعيبُ على مَن يدعو إليه[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ بيَّنَ أنَّ مَن هَجَرَ القرآنَ فهو مِن أعداءِ الرَّسولِ، وأنَّ هذه العَداوةَ أمرٌ لا بُدَّ منه، ولا مَفَرَّ عنه[٤]، فهؤلاء الذين سمَّاهم اللهُ تعالى أعداءً لنبيِّه، ووَصَفَهم بالإجرامِ: هم أولئك الذين هَجَروا القرآنَ وصَدَّوا عنه؛ فهذا تخويفٌ عظيمٌ ووعيدٌ شديدٌ لكلِّ مَن كان هاجرًا للقرآنِ العظيمِ بوجهٍ مِن وجوهِ الهِجرانِ[٥]!

٥- هَجرُ القرآنِ أنواعٌ:

**أحدُها:** هَجرُ سَماعِه، والإيمانِ به، والإصغاءِ إليه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٣٩٦)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٦).

**الثاني**: هَجرُ العمَلِ به، والوقوفِ عند حَلالِه وحرامِه، وإنْ قرأَه وآمنَ به.

**الثالثُ**: هَجرُ تحكيمِه والتَّحاكُمِ إليه في أصولِ الدِّينِ وفُروعِه، واعتقادُ أنَّه لا يفيدُ اليقينَ، وأنَّ أدلَّتَه لفظيَّةٌ لا تُحَصِّلُ العِلمَ.

**الرابعُ**: هَجرُ تدبُّرِه وتفَهُّمِه، ومَعرفةِ ما أراد المتكلِّمُ به منه.

**الخامسُ**: هَجرُ الاستشفاءِ والتَّداوي به في جميعِ أمراضِ القَلبِ وأدوائِها، فيَطلبُ شفاءَ دائِه مِن غيرِه، ويَهجُرُ التداويَ به، وكلُّ هذا داخِلٌ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾، وإنْ كان بعضُ الهَجرِ أهْوَنَ مِن بعضٍ[1].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ في حكايةِ الله تعالى لهذه الشكوى وعيدٌ كبيرٌ للهاجرينَ بإنزالِ العقابِ بهم؛ إجابةً لشكوى نبيِّه، ولَمَّا كان الهجرُ طبقاتٍ أعلاها عدَمُ الإيمانِ به، فلكلِّ هاجرٍ حظُّه مِن هذه الشكوى وهذا الوعيدِ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أنَّ الحقَّ يَتبيَّنُ بضِدِّه؛ لأنَّ اللهَ جَعَل عدوًّا مِن المجرمين يُنابِذُ الدَّعوةَ، فمِنَ الحكمةِ في ذلك أنْ تَتبيَّنَ الدعوةُ؛ لأنَّه إذا لم يكنْ لها مُعارِضٌ ما تَبيَّنتْ، لكنْ إذا كان لها مُعارِضٌ وكلَّما أُتِيَ بشُبهةٍ رُدَّ عليها، صار ذلك أبيَنَ وأوضَحَ[3]، فمُعارَضةُ الباطلِ للحَقِّ ممَّا تَزيدُه وضوحًا وبيانًا وكمالَ استِدلالٍ، وبها يَتبيَّنَ ما يفعَلُ اللهُ بأهلِ الحقِّ مِن الكرامةِ، وبأهلِ الباطلِ مِن العُقوبةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ عنايةُ اللهِ تعالى بالرَّسولِ، ووجْهُ ذلك: أنَّ كَوْنَ اللهِ يُسلِّي الرَّسولَ بما وقَعَ لغَيرِه، هذا دليلٌ على العنايةِ به. وكونُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم يحتاجُ إلى تلك التسليةِ يدُلُّ على أنَّ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بَشَرٌ، يَنتابُه ما ينتابُ البشَرَ مِن الحُزنِ والأسَى، فيَحتاجُ إلى التسليةِ، وإذا كان الرسولُ يحتاجُ إلى ذلك فمَن دونَه مِن بابِ أَولى؛ فالنَّظرُ إلى ما أصاب الغيرَ يُهَوِّنُ على النفْسِ ما يُصيبُها، وهو مِن مقتضياتِ الطبيعةِ البشريَّةِ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقدَريَّةِ[2]، وردٌّ على زعمِهم أنَّ خالقَ الشرِّ غيرُه، تعالى شأنُه[3]! ففي الآية حجَّةٌ على أنَّه تعالى خَلَقَ الخيرَ والشَّرَّ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾ يدُلُّ على أنَّ تلك العداوةَ مِن جَعْلِ اللهِ؛ ولا شكَّ أنَّ تلك العداوةَ كفرٌ[4].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فيه تَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وحمْلٌ له على الاقتِداءِ بمَن قَبْلَه مِنَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسلامُ[5].

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فيه تنبيهٌ للمُشركينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

لِيَعرِضوا أحوالَهم على هذا الحُكمِ التَّاريخيِّ؛ فيَعلَموا أنَّ حالَهم كحالِ مَن كَذَّبوا مِن قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ أنَّه قد وعَدَ اللهُ تعالى نبيَّه -بعْدَما أمَرَه بالتأسِّي والصَّبرِ-، بالهدايةِ والنَّصرِ؛ ففي هذا بِشارةٌ للدُّعاةِ مِن أُمَّتِه مِن بعْدِه، السَّائرينَ في الدَّعوةِ بالقرآنِ وإلى القرآنِ على نهْجِه: أن يَهديَهم ويَنصُرَهم، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] معهم بالفضلِ والنَّصرِ والتأييدِ، وهذا عامٌّ للمجاهِدينَ المُحسنينَ، والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ دليلٌ على أنَّ الأخذَ بالأسبابِ لا يؤثِّرُ في توكُّلِ المتوكِّلِينَ، كما يزعُمُ جهَلةُ المتصوِّفةِ أنَّ طَلَبَ المكاسِبِ مُؤثِّرٌ في التوكُّلِ! ألَا يَعلمونَ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه كان قادِرًا على تثبيتِ القُرآنِ جملةً واحدةً في قلْبِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؟! ولكنَّه لمَّا جَعَل سببَه الحِفظَ بصِفةٍ أجراه عليها[٣].

١٤- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ اللهِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾؛ لأنَّ «اللامَ» للتَّعليلِ، والتَّعليلُ معناه الحِكمةُ؛ ففيه رَدٌّ على طائفةٍ مِن طوائفِ البدعِ، يَرَونَ أنَّ أفعالَ اللهِ سُبحانه وتعالى غيرُ مُعَلَّلةٍ، وأنَّه عزَّ وجلَّ يخلُقُ الخَلقَ ويُشَرِّعُ الشَّرائعَ لمجرَّدِ المشيئةِ لا لحِكمةٍ! فهذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧، ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٠٩).

الآياتُ تُفيدُ بيانَ الحِكمةِ مِن إنزالِ القُرآنِ مُفرَّقًا، وأنَّ أفعالَ اللهِ تعالى مُعَلَّلةٌ مَقرونةٌ بالحِكمةِ، لكنَّ هذه الحِكمةَ التي تكونُ لأفعالِ اللهِ عزَّ وجلَّ -سواءٌ كانت شرعيَّةً أو غيرَ شرعيَّةٍ- منها ما هو معلومٌ، ومنها ما هو مَجهولٌ لنا، ولكنَّها معلومةٌ عندَ اللهِ تعالى[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ دَلالةٌ على اعتِناءِ اللهِ بكِتابِه القُرآنِ وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيثُ جَعَلَ إنزالَ كتابِه جاريًا على أحوالِ الرَّسولِ ومَصالحِه الدِّينيَّةِ[٢]. وقولُه: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ كلمةٌ جامعةٌ؛ لأنَّ تَثبيتَ الفؤادِ يَقتَضي كلَّ ما به خَيرٌ للنَّفْسِ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أنَّه لَمَّا كان البلاءُ والعَناءُ في سبيلِ التبليغِ متكرِّرًا متجدِّدًا، كان مُحتاجًا إلى تجديدِ تقويةِ قلبِه، وكان ذلك مُقتضيًا لتفريقِ نزولِ الآيِ عليه[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ بيانُ حكمتينِ في إنزالِه مفرَّقًا:

**الحكمةُ الأُولى**: تثبيتُ قلبِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

**الحكمةُ الثانيةُ**: تفريقُه مرتَّبًا على الوقائعِ.

وكان في تَينِك الحكمتينِ مَزيَّتانِ عظيمتانِ للقرآنِ العظيمِ على غيرِه مِن كُتُبِ اللهِ تعالى، فكان ما اعتَرَضوا به على أنَّه نقصٌ فيه عنها: هو كمالٌ له عليها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٨- كانتِ الوقائعُ تقعُ، والحوادثُ تَحدُثُ، والشُّبَهُ تَعرِضُ، والاعتراضاتُ تَرِدُ؛ فكانتِ الآياتُ تَنزِلُ بما تتطلَّبُه تلك الوقائعُ مِن بيانٍ، وما تقتضيه تلك الحوادثُ مِن أحكامٍ، وما تَستدعيه تلك الشُّبَهُ مِن رَدٍّ، وتلك الاعتراضاتُ مِن إبطالٍ وغيرِه مِن مقتضياتِ نزولِ الآياتِ المعروفةِ بـ «أسبابِ النزولِ»، وفي بيانِ الواقعةِ عندَ وقوعِها، وذِكْرِ حُكْمِ الحادثةِ عندَ حدوثِها، ورَدِّ الشبهةِ عندَ عُروضِها، وإبطالِ الاعتراضِ عندَ ورودِه: ما فيه مِن تأثيرٍ في النفوسِ، ووَقْعٍ في القلوبِ، ورسوخٍ في العقولِ، وجلاءٍ في البيانِ، وبلاغةٍ في التطبيقِ، واستيلاءٍ على السامعِينَ، وما كان هذا كلُّه لِيأتيَ لولا تفريقُ الآياتِ في التنزيلِ، وترتيلُها وتنضيدُها هذا الترتيلَ العجيبَ، وهذا التنضيدَ الغريبَ؛ الذي بَلَغَ الغايةَ مِن الحُسْنِ والمنفعةِ، حتى إنَّه لَيَصِحُّ أن يُعَدَّ وحْدَه وجهًا مِن وجوهِ الإعجازِ، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ ردٌّ على المتكلِّفِينَ مِن الجَهْميَّةِ ونَحوِهم، ممَّن يرى أنَّ كثيرًا مِن نُصوصِ القرآنِ محمولةٌ على غيرِ ظاهرِها، ولها مَعانٍ غيرُ ما يُفهَمُ منها؛ فإذَن -على قولِهم- لا يكونُ القُرآنُ أحسَنَ تَفسيرًا مِن غيرِه، وإنما التَّفسيرُ الأحسَنُ -على زَعمِهم- تَفسيرُهم الذي حَرَّفوا له المعانيَ تَحريفًا[2]!

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ فمُخالفو الرسُلِ -ومنهم مُخالِفو ما جاء به الكِتابُ والسُّنَّةُ- لا يأتون بقِياسٍ يَرُدُّون به بعضَ ما جاءتْ به الرسُلُ، فيكونُ قياسًا أقاموا به باطلًا، إلَّا جاء اللهُ -فيما بَعَثَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

به الرسُلَ- بالحَقِّ، وبقياسٍ أحسَنَ تَفسيرًا، وكشفًا وإيضاحا للحَقِّ[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحۡشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أنَّ هؤلاء رفعوا وجوهَهم في الدنيا عنِ السجودِ للهِ، فأذلَّ اللهُ تلك الوجوهَ فمَشَوا عليها في المحشَرِ، ورفعوا رؤوسَهم كِبْرًا عن الحقِّ، فنكسَها اللهُ يومَ القيامةِ، ومَشَوا في طريقِ النظرِ والاستدلالِ مَشيًا مقلوبًا، فمشوا في الآخرةِ مَشيًا مقلوبًا؛ فكان ما نالَهم مِن سوءِ تلك الحالِ جزاءً وِفاقًا لِمَا أَتوا مِن قُبحِ الأعمالِ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[٢] [فصلت: ٤٦].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ عطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، مَسوقٌ لاستِعظامِ ما قالُوه، وبيانِ ما يَحِيقُ بهم في الآخرةِ مِنَ الأهوالِ والخُطوبِ. وإيرادُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعُنوانِ الرِّسالةِ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾؛ لتَحقيقِ الحقِّ، والرَّدِّ على نُحورِهم؛ حيثُ كان ما حُكِيَ عنهم قدْحًا في رسالتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَٰرَبِّ﴾ إظهارٌ لعَظيمِ الْتِجائِه، وشِدَّةِ اعتِمادِه، وتَمامِ تَفويضِه لمالكِه، ومُدبِّرِ أمْرِه، ومُوالي الإنعامِ عليه[٤].

- وفي هذه الحِكايةِ ﴿إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ تَعظيمٌ للشِّكايةِ، وتَخويفٌ وتَحذيرٌ لقَومِه؛ لأنَّ الأنبياءَ كانوا إذا التَجَؤوا إليه، وشَكَوا إليه

---

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٢).

قَومَهم، حَلَّ بهمُ العَذابُ ولمْ يُنظَروا[١]، وتَأكيدُه بـ (إنَّ) للاهتِمامِ به؛ ليكونَ التَّشكِّي أقْوى[٢].

- والتَّعبيرُ عن قُرَيشٍ بـ ﴿قَوْمِي﴾؛ لزِيادةِ التَّذَمُّرِ مِن فِعلِهم معه وتَوبيخِهم؛ لأنَّ شأنَ قَومِ الرَّجُلِ أن يوافِقوه، ويُصَدِّقوا به، ويَقبَلوا ما جاء به[٣]. وأيضًا في التَّعبيرِ عنهم بـ (قَومِه) وإضافتِهم إليه، وفي التَّعبيرِ عن القُرآنِ باسمِ الإشارةِ القَريبِ (هَذَا): بَيانٌ لعظيمِ جُرْمِهم بتَرْكِهم للقُرآنِ، وهو قريبٌ منهم في مُتناوَلِهم، وقد أتاهُم به واحدٌ منهم، أقرَبُ النَّاسِ إليهم، فصَدُّوا وأبْعَدوا في الصَّدِّ عمَّن هو إليهم قريبٌ مِن قريبٍ، وهذا أقبَحُ الصَّدِّ وأظلَمُه[٤].

- وفِعلُ الاتِّخاذِ إذا قُيِّد بحالةٍ يُفيدُ شدَّةَ اعتِناءِ المُتَّخِذِ بتلك الحالةِ، بحيث ارتَكَب الفِعلَ لأجْلِها، وجعَلَه لها قَصْدًا؛ فقولُه: ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ أشَدُّ مُبالَغةً في هَجرِهمُ القُرآنَ مِن أنْ يُقالَ: (إنَّ قَومي هجَروا القُرآنَ)[٥]؛ فأشارَ بصِيغةِ الافتِعالِ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ إلى أنَّهم عالَجوا أنفسَهم في ترْكِه عِلاجًا كثيرًا، وأنَّهم جعَلوا الهَجْرَ مُلازِمًا له، ووصفًا مِن أوصافِه عندَهم، وذلك أعظَمُ مِن أنْ يُقالَ: هجَروه، الَّذي يُفيدُ وُقوعَ الهِجرانِ منهم، دونَ دَلالةٍ على الثُّبوتِ والمُلازَمةِ؛ لِما يَرَوْنَ مِن حُسنِ نَظْمِه، ويَذُوقون مِن لَذيذِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٠٧، ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

مَعانيه، ورائقِ أساليبِه، ولَطيفِ عَجائبِه، وبَديعِ غَرائبِه[١].

- واسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لتَعظيمِه، وأنَّ مِثلَه لا يُتَّخَذُ مَهْجورًا، بل هو جَديرٌ بالإقبالِ عليه، والانتِفاعِ به[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ وُصِفَ أعداءُ الأنبياءِ بأنَّهم مِنَ المُجرِمينَ، أي: مِن جملةِ المُجرِمينَ؛ فإنَّ الإجرامَ أعَمُّ مِن عَداوةِ الأنبياءِ، وهو أَعظَمُها. وإنَّما أُريدَ هنا تحقيقُ انضِواءِ أعداءِ الأنبياءِ في زُمرةِ المُجرِمينَ؛ لأنَّ ذلك أَبلَغُ في الوصفِ مِن أن يقالَ: عَدُوًّا مُجرِمينَ[٣].

- قَولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ خبرٌ فيه وعْدٌ كَريمٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالهِدايةِ إلى مَطالِبِه كافَّةً، والنَّصرِ على أعدائِه[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ حِكايةٌ لاقتِراحِهمُ الخاصِّ بالقُرآنِ الكريمِ بعْدَ حِكايةِ اقتِراحِهم في حَقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإيرادُهم بعُنوانِ الكُفرِ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ لذَمِّهم به، والإشعارِ بعلَّةِ الحُكمِ[٥]. وهو اعتِراضٌ آخَرُ مِن اعتِراضاتِهم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥).

الباطلةِ، نسَقَه مع ما تقدَّمَ منها؛ لِيُجابَ عنه، ويُبيِّنَ خَطؤُهم فيه[١].

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ لَمَّا كانوا -لشِدَّةِ ضَعفِهم- لا يَكادون يَسمَحون بتَسميةِ القرآنِ تَنزيلًا، فضْلًا عن أنْ يُسنِدوا إنزالَه إلى اللهِ سبحانه وتعالى؛ بَنَوْا للمَفعولِ في هذه الشُّبهةِ التي أَورَدُوها قولَهم: ﴿نُزِّلَ عَلَيۡهِ﴾[٢].

- والفِعلُ (نَزَّلَ) يأتي مُرادِفًا لـ (أنزَلَ)، والتَّضعيفُ أخو الهَمزةِ، ويأتي مُفيدًا للتَّكثيرِ، فيُفِيدُ تكرُّرَ النُّزولِ وتجديدَه، وهو هنا لا يصِحُّ حمْلُه على التَّكثيرِ المُفيدِ للتَّدريجِ؛ لئلَّا يُناقِضَ قولَهم: ﴿جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾؛ فيكونُ مِن التَّضعيفِ المُرادِفِ للهمزةِ. والمُختارُ أنَّ (نزَّل) المُضاعَفَ يَرِدُ لكثرةِ الفِعلِ ولِقُوَّتِه؛ فجاء لكَثرتِه في آيةِ (آلِ عمرانَ): ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣]، وجاء لقُوَّتِه في هذه الآيةِ؛ لأنَّ إنزالَ الجُملةِ مرَّةً واحدةً أقوى مِن إنزالِ كلِّ جُزءٍ مِن الأجزاءِ بمُفرَدِه[٣].

- وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ استِئنافٌ واردٌ مِن جِهتِه تعالى لردِّ مقالتِهمُ الباطلةِ، وبيانِ الحِكمةِ في التَّنزيلِ التَّدريجيِّ[٤]. وعدَل فيه عن خِطابِهم إلى خِطابِ الرَّسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ؛ إعلامًا له بحِكمةِ تَنزيلِه مُفرَّقًا، وفي ضِمْنِه امتِنانٌ على الرَّسولِ بما فيه تَثبيتُ قلْبِه، والتَّيسيرُ عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩).

- قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ الأصْلُ: أنزلناهُ كذلك...، فأوجَزَ بحذْفِ المُتعلَّقِ؛ لوُجودِ ما يدُلُّ عليه مِن إعراضِهم. وفُصِلَ -أي: لم يُعطَفْ على ما قَبْلَه-؛ لأنَّه جوابٌ عن اعتراضِهم[1].

- ونَكَّر ﴿تَرْتِيلًا﴾؛ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ؛ فالتَّنوينُ فيه تنوينُ تنويعٍ وتعظيمٍ، أي: نوعًا مِن التَّرتيلِ عظيمًا[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ فَذْلَكةٌ[3] جامِعةٌ تَعُمُّ ما تَقدَّمَ، وما عسَى أنْ يأتُوا به مِنَ الشُّكوكِ والتَّمويهِ بأنَّ كلَّ ذلك مَدْحوضٌ بالحُجَّةِ الواضحةِ، الكاشفةِ لتُرَّهاتِهم؛ فإنَّه لَمَّا استَقصى أكثرَ مَعاذيرِهم وتَعلُّلاتِهم، وردَّ عليها وأبطَلها؛ أتَى بهذِه الآيةِ الجامِعةِ العامَّةِ[4].

- وفيه مِنَ الدَّلالةِ على المُسارعةِ إلى إبطالِ ما أَتَوْا به، وتَثبيتِ فؤادِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ما لا يَخفَى[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠).

(٣) الفَذْلكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلكةُ كلمة منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، من قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُراد بالفذلكةِ: النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٦).

- وتَنكيرُ (مَثَل) في سياقِ النَّفيِ ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ ...﴾ للتَّعميمِ، أيْ: بكُلِّ مَثَلٍ[١].

- وتَعْديةُ فِعْلِ ﴿يَأْتُونَكَ﴾ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لإفادةِ أنَّ إتيانَهم بالأمثالِ يَقصِدون به أن يُفحِموه. وجاءتْ صِيغةُ المضارِعِ في قولِه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ﴾؛ لتَشمَلَ ما عسى أنْ يأتُوا به مِن هذا النَّوعِ[٢].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يَأْتُونَكَ﴾ يُفِيدُ الحُدوثَ وتجدُّدَ الإتيانِ منهم. والتَّعبيرُ بالماضي ﴿جِئْنَاكَ﴾ -معَ أنَّه في معنى المُستقبَلِ- يُفِيدُ تحقُّقَ المجيءِ، وهو المُناسِبُ لمَقامِ الوعدِ والتَّثبيتِ[٣].

- وقولُه: ﴿جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ مُقابِلٌ لقولِه: ﴿لَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾، وفي هذه المقابَلةِ إشارةٌ إلى أنَّ ما يأتُون به باطلٌ. والتَّعبيرُ في جانبِ ما يؤيِّدُه اللهُ مِنَ الحُجَّةِ بـ﴿جِئْنَاكَ﴾ دُونَ: أَتَيْناك، كما عَبَّر عمَّا يَجيئون به بـ﴿يَأْتُونَكَ﴾: إمَّا لمُجرَّدِ التَّفنُّنِ، وإمَّا لأنَّ فِعلَ الإتيانِ إذا استُعمِلَ كثُرَ فيما يَسوءُ وما يُكرَهُ، كالوعيدِ والهِجاءِ، بخِلافِ فِعلِ المَجيءِ إذا استُعمِلَ؛ فأكثَرُ ما يُستعمَلُ في وُصولِ الخَيرِ والوعدِ والنَّصرِ والشَّيءِ العظيمِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾، أيْ: أحَقَّ في الاستِدلالِ؛ فالتَّفضيلُ للمُبالَغةِ؛ إذْ ليس في حُجَّتِهم حُسْنٌ أصلًا. أو يُرادُ بالحُسنِ ما يَبْدو مِن بَهْرَجةِ سَفسَطَتِهم وشُبَهِهم؛ فيَجيءُ الكشفُ عنِ الحقِّ أحسَنَ وقْعًا في نُفوسِ السَّامِعينَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢١، ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢، ٢٣).

مُغالَطاتِهم؛ فيكونُ التَّفضيلُ بهذا الوجهِ على حقيقتِه، فهذه نُكتةٌ مِن دَقائقِ الاستِعمالِ، ودَقائقِ التَّنزيلِ(١).

- قَولُه: ﴿تَفْسِيرًا﴾ في قولِه: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ وُضِعَ موضعَ: معنًى ومؤدًّى، أي: أحسَنَ معنًى ومؤدًّى مِن سؤالِهم؛ فهو مِن وَضْعِ السَّببِ مَوضعَ المُسبَّبِ؛ لأنَّ التَّكشيفَ سببُ ظُهورِ المعنى وكشْفِه؛ ففيه المبالَغةُ مع الإيجازِ(٢).

٥- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ لتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولوعيدِ المُشركينَ وذَمِّهم؛ لأنَّه تعالى لَمَّا قال لرَسولِه صلواتُ اللهِ عليه مُسَلِّيًا: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ حرَّك منه صلواتُ اللهِ عليه بأنْ يَسألَ: فإذَنْ بماذا أُجيبُهم، وما يكونُ قَوْلي لهم؟ قيل: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾(٣). وفُصِلَتِ هذه الجُملةُ -أي: لم تُعطَفْ على ما قَبْلَها-؛ لأنَّها بَيانٌ لحالِهم في الآخرةِ، وهو غيرُ الموضوعِ المُتقدِّمِ(٤).

- والمرادُ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ القومُ الَّذينَ أَورَدوا هذه الأسئلةَ على سَبيلِ التَّعنُّتِ في قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ فالموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ واقعٌ موقعَ الضَّميرِ، كأنَّه قيل: هُم يُحشَرون على وُجوهِهم؛ فوُضِع المُظهَرُ مَوضِعَ المُضْمَرِ؛ إشعارًا بتَوهينِهم، وتَحقيرًا لشأنِهم، ولتَحصيلِ فائدةِ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤).

أصحابَ الضَّميرِ ثَبَتَ لهم مَضْمونُ الصِّلةِ، ولِيُبنَى على الصِّلةِ موقعُ اسمِ الإشارةِ، ومُقتضَى ظاهِرِ النَّظمِ أن يقالَ: (ولا يَأْتونَك بمَثَلٍ إلَّا جِئْناكَ بالحقِّ وأَحسَنَ تفسيرًا، هُمْ شَرٌّ مكانًا وأضَلُّ سبيلًا، ونَحشُرُهم على وُجوهِهم إلى جَهنَّمَ)، كما قال في سورةِ (الإسراء): ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧] عَقِبَ قولِه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. وأيضًا يُعْلَمُ مِنَ السِّياقِ بطريقِ التَّعريضِ أنَّ الَّذينَ يُحشَرون على وُجوهِهم هُمُ الذين يأْتُون بالأمثالِ تكذيبًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإذْ كان قصْدُهم ممَّا يَأْتون به مِنَ الأمثالِ تَنقيصَ شأنِ النَّبيِّ، ذُكِروا بأنَّهم أهْلُ شَرِّ المكانِ وضَلالِ السَّبيلِ دُونَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

- قولُه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ عَقِبَ ما تَقدَّمَ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم -وهم ﴿ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ ...﴾- حَقِيقُونَ بما بعْدَ اسمِ الإشارةِ، وهو أنَّهم ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، وأَحْرياءُ بالمكانِ الأَشَرِّ والسَّبيلِ الأَضَلِّ؛ بسَببِ ما اتَّصفوا به، ممّا دلَّتْ عليه الصِّلةُ، وهو حَشْرُهم على وُجوهِهم إلى جهنَّمَ، الذي ما أصابَهم إلَّا بما قدَّمتْ أيديهم، ولأجْلِ ما سَبَق مِن أحوالِهمُ الَّتي منها قولُهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]؛ فهم أَحِقَّاءُ بكونِهم شرًّا مكانًا وأضَلَّ سبيلًا؛ بسَببِ ما أدَّاهم إلى ذلك الحَشرِ؛ فاكتُفِيَ بذِكْرِ المُسبَّبِ عن السَّببِ[2].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣، ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤).

- وصِيغتَا التَّفضيلِ ﴿شَرٌّ﴾، و﴿أَضَلُّ﴾ في قولِه: ﴿شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ مُستعمَلتانِ للمُبالَغةِ في الاتِّصافِ بالشَّرِّ والضَّلالِ. وتَعريفُ جُزْأَيِ الجملةِ يُفيدُ القَصْرَ، وهو قصْرٌ للمبالَغةِ بتَنزيلِهم مَنزِلةَ مَنِ انحصَرَ الشَّرُّ والضَّلالُ فيهم. ورُويَ: أنَّ الكفَّارَ قالوا للمسْلمينَ: هُم شَرُّ الخلْقِ، فنزلَتْ هذه الآيةُ؛ فيكونُ القصْرُ قصْرَ قلْبٍ، أيْ: هُم شَرٌّ مكانًا وأضَلُّ سبيلًا لا المسْلمون. وصِيغتَا التَّفضيلِ مَسْلوبتَا المُفاضَلةِ على كِلا الوَجهَينِ[1].

- وأيضًا لم يُذكَرْ مع أفعلِ التَّفضيلِ المُفضَّلُ عليه؛ لِيُفِيدَ أنَّ مكانَهم شرُّ مكانٍ مِن أمكنةِ الشَّرِّ، وسبيلَهم أضلُّ سبيلٍ مِن سُبُلِ الضَّلالِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٤).

## الآيات (٣٥-٤٠)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَزِيرًا﴾: أي: عَونًا، مِن الوِزرِ: وهو الحِملُ الثَّقيلُ، كأنَّ الوَزيرَ يحمِلُ عَن السُّلطانِ الثِّقلَ والشُّغلَ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقلِ في الشَّيءِ[1].

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾: أي: أهلَكْناهم بالعذابِ إهلاكًا، والدَّمارُ: الهلاكُ، والتَّدْميرُ: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيءِ، وأصلُ (دمر): يَدُلُّ على الدُّخولِ في البيتِ وغَيرِه[2].

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أي: أعدَدْنا، قيل: هو أفْعَلْنا مِن العَتادِ، وهو ادِّخارُ الشَّيءِ قبْلَ الحاجةِ إليه، كالإعدادِ. وقيل: العَتادُ: المُعَدُّ الثابتُ اللازمُ. وأصلُ (عتد): يدُلُّ على حُضورٍ وقُرْبٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٦٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٦)، ((الغريبين =

﴿ٱلرَّسِّ﴾: أي: البئرِ العَظيمةِ، أو الأُخدودِ، أو الوادي، وقيل: الرَّسُّ: كلُّ محفورٍ، مِثلُ البئرِ والقبرِ ونحوِ ذلك، وأصلُ (رسس): يدُلُّ على ثباتٍ، وقيل: أصلُه: الأثرُ القليلُ الموجودُ في الشَّيءِ[١].

﴿وَقُرُونًا﴾: القرونُ: جمعُ قَرْنٍ، وهو: الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ، أو القَومُ المُقترِنونَ في زَمنٍ واحدٍ غيرِ مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ. وقيلَ: مدَّةُ القرنِ مئةُ سنةٍ. وقيل: ثمانونَ. وقيل: ثلاثون. وقيل غيرُ ذلك. والاقترانُ هو اجتِماعُ شيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٢].

﴿تَبَّرْنَا﴾: أي: أهلَكْنا ودمَّرْنا، وأصلُ (تبر): يدُلُّ على كَسرٍ وإهلاكٍ[٣].

﴿نُشُورًا﴾: أي: مَعادًا وبَعثًا، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشعُّبِه[٤].

---

= في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢٢٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٤٥).

قال الراغب: (وقيل: أصْلُه: أعددنا، فأُبدِلَ مِن إحدَى الدَّالينِ تاءٌ). ((المفردات)) (ص:٥٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٣) و(٢١/ ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى أحوالَ الذين كذَّبوا أنبياءَهم، فكانت عاقبتُهم الإهلاكَ والتدميرَ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ، وجعَلْنا معه أخاه هارونَ مُعينًا له في أمرِ الرِّسالةِ، فقُلْنا لهما: اذهَبا إلى فِرعَونَ وقَومِه، فكذَّبوهما فأهلَكْناهم بالغَرقِ، وأغرَقْنا كذلك قومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوا نوحًا، وجعَلْناهم عِظةً وعِبرةً للنَّاسِ، وأعدَدْنا للظَّالمين عذابًا موجِعًا مُؤلِمًا، وأهلَكْنا كذلك عادًا وثمودَ وأصحابَ الرَّسِّ؛ لكُفرِهم وتكذيبِهم، وأُمَمًا غيرَهم كثيرينَ لا يعلَمُهم إلَّا اللهُ، وكلًّا مِن هؤلاء المهلَكينَ وضَّحْنا له الأدلَّةَ على وحدانيَّتِنا، وكلًّا منهم أهلَكْنا إهلاكًا كاملًا.

ولقد مرَّ كفَّارُ قُريشٍ على قريةِ قَومِ لوطٍ الذين أمطر اللهُ عليهم حِجارةً مِن السَّماءِ، أفلمْ يَكونوا يرَونَ في أسفارِهم آثارَ إهلاكِنا هذه القريةَ، فيعتَبِروا ويتَّعظوا بما حلَّ بهم بسَبَبِ كُفرِهم وتكذيبِهم؟! بل كانوا يَرونَ عاقِبةَ أهلِ تلك القريةِ التي أهلَكْناها، ولكِنَّهم كانوا لا يُؤمِّلونَ وُقوعَ البَعثِ بعْدَ المَوتِ، فلا يَرجونَ ثوابًا، ولا يخافونَ عذابًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

بعْدَ أنْ تكلَّمَ سُبحانَه وتعالى في التَّوحيدِ، ونَفيِ الأندادِ، وإثباتِ النبوَّةِ، والجَوابِ عن شُبُهاتِ المنكِرينَ لها، وفي أحوالِ القيامةِ- شرَعَ في ذِكرِ القَصَصِ على السُّنَّةِ المعلومةِ[1].

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمَ تكذيبُ قُريشٍ والكفَّارِ لِمَا جاء به رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٥٨).

وسلَّم؛ ذَكرَ تعالى ما فيه تسليةٌ للرَّسولِ، وإرهابٌ للمُكذِّبينَ، وتذكيرٌ لهم أنْ يصيبَهم ما أصاب الأُممَ السَّابقةَ مِن هلاكِ الاستِئصالِ لَمَّا كذَّبوا رسُلَهم، فناسَبَ أنْ ذَكرَ أوَّلًا مَن نزَلَ عليه كتابُه جُملةً واحدةً؛ ومع ذلك كفَروا وكذَّبوا به، فكذلك هؤلاء: لو نَزَلَ عليه القرآنُ دَفعةً لكَذَّبوا وكَفَروا كما كَذَّبَ قَومُ موسى[1].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

أي: ولقد آتَينا موسى التَّوراةَ[2].

﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾.

أي: وجعَلْنا مع موسى أخاه هارونَ مُعينًا له يُقَوِّيه ويؤَيِّدُه[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى * وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى * يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى * وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى * هَٰرُونَ أَخِى * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى * وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى * كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٢٥ - ٣٦].

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

أي: فقُلْنا لموسى وهارونَ: اذهَبا إلى فِرعَونَ وقَومِه القِبطِ الذين كذَّبوا بأدِلَّتِنا وبراهينِنا[١].

﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾.

أي: فكذَّب فِرعَونُ وقَومُه موسى وهارونَ، فأهلَكْناهم بالغَرقِ إهلاكًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ۞ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٦، ١٣٧].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا هَدَّدَ سُبحانَه المكذِّبينَ بإهلاكِ الأوَّلينَ الذين كانوا أقوَى منهم وأكثَرَ، وقَدَّمَ قصَّةَ موسى عليه السَّلامُ- أتبَعَه أوَّلَ الأُممِ؛ لأنَّهم أوَّلُ، ولِمَا في عذابِهم مِن الهَولِ، ولِمناسبةِ ما بيْنَه وبيْنَ عذابِ القِبطِ، فقال[٣]:

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

قال البقاعي: (﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: المرئيَّةِ والمسموعةِ مِن الأنبياءِ الماضينَ قبْلَ إتيانِكما في عِلمِ الشَّهادةِ، والمرئيَّةِ والمسموعةِ منكما بعْدَ إتيانِكما في عِلمِنا). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٥).

أي: وأغرَقْنا قَومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوا نوحًا، وجعَلْنا إغراقَهم بالطُّوفانِ عِبرةً للنَّاسِ وعِظةً(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وأعدَدْنا في الآخرةِ للظَّالِمينَ مِن قَومِ نُوحٍ وغَيرِهم عذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا؛ جزاءً على ظُلمِهم(٢).

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه آخِرَ الأُمَمِ المهلَكةِ بعامَّةٍ وأوَّلَها، وكان إهلاكُهما بالماءِ- ذكَرَ مَن بيْنَهما ممَّن أُهلِكَ بغيرِ ذلك؛ إظهارًا للقُدرةِ والاختيارِ، وطوَى خبرَهم بغيرِ العذابِ؛ لأنَّه في سياقِ الإنذارِ، فقال(٣):

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٦).

قال القرطبي: (﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ أي: علامةً ظاهرةً على قدرتِنا). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

أي: وأهلَكْنا أيضًا عادًا قَومَ هُودٍ، وثمودَ قَومَ صالحٍ، وأصحابَ الرَّسِّ، ودمَّرْناهم لكُفرِهم وتكذيبِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ * وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿وَقُرُونَۢا بَيۡنَ ذَٰلِكَ كَثِيرٗا﴾.

أي: ودمَّرْنا بين تلك الأُمَمِ الكافرةِ -التي سمَّيْناها- أُمَمًا أُخرى كثيرةً لا يعلَمُها إلَّا اللهُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٣).

قال ابنُ جريرٍ في التعريفِ بأصحابِ الرسِّ: (الصَّوابُ مِن القولِ في ذلك قولُ مَن قال: هم قومٌ كانوا على بئرٍ؛ وذلك أنَّ الرَّسَّ في كلام العربِ: كُلُّ محفورٍ، مِثلُ البئرِ والقبرِ ونحوِ ذلك. ولا أعلَمُ قومًا كانت لهم قصَّةٌ بسببِ حُفرةٍ ذكَرَهم اللهُ في كتابِه إلَّا أصحابَ الأُخدودِ،... وإن يكونوا غيرَهم فلا نعرفُ لهم خبرًا إلَّا ما جاء مِن جملةِ الخبرِ عنهم أنَّهم قومٌ رَسُّوا نبيَّهم في حفرةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٣، ٤٥٤).

وقال ابن عاشور: (اتَّفقوا على أنَّ الرَّسَّ بئرٌ عظيمةٌ، أو حَفيرٌ كبيرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧).

وقال الشنقيطي: (وأمَّا أصحابُ الرَّسِّ فلم يأتِ في القرآنِ تفصيلُ قِصَّتِهم ولا اسمُ نبيِّهم، وللمفسِّرينَ فيهم أقوالٌ كثيرةٌ ترَكْناها؛ لأنَّها لا دليلَ على شَيءٍ منها). ((أضواء البيان)) (٦/ ٥٤). وتُنظَرُ أقوالُ المفسِّرينَ في أصحابِ الرَّسِّ في: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩). =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم: ٩].

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا قَدَّمَ سُبحانَه أنَّه يأتي في هذا الكتابِ بما هو الحقُّ في جوابِ أمثالِهم؛ بَيَّنَ أنَّه فعَلَ بالجَميعِ نحوًا مِن هذا، فقال تسليةً لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وتأسيةً وبيانًا لتشريفِه بالعَفوِ عن أمَّتِه[1]، وعدمِ استِئْصالِها بالعذابِ:

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾.

أي: وكلُّ الأُمَمِ الكافرةِ التي أهلَكْناها أقَمْنا عليها الحُجَّةَ، ووَضَّحْنا لها الأدِلَّةَ بذِكرِ الأمثالِ؛ لِيَعتبِروا بها ويتَّعِظوا[2].

---

= قال ابنُ كثير: (الأظهرُ: أنَّ القرنَ هم الأمَّةُ المتعاصِرون في الزَّمنِ الواحد، فإذا ذهبوا وخلَفَهم جيلٌ آخَرُ، فهم قرنٌ ثانٍ، كما ثبت في الصحيحينِ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «خيرُ [الناسِ] قَرني، ثمَّ الذين يلونَهم، ثمَّ الذين يلونَهم...» الحديثَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢).

وقال الشنقيطي: (والأظهرُ أنَّ القرونَ الكثيرَ: المذكورُ بعْدَ قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، وقبْلَ أصحابِ الرَّسِّ، وقد دلَّت آيةٌ من سورة «إبراهيم» على أنَّ بعْدَ عادٍ وثمودَ خَلْقًا كفَروا وكذَّبوا الرسُلَ، وأنَّهم لا يعلَمُهم إلَّا اللهُ جلَّ وعلا. وتصريحُه بأنَّهم بعد عادٍ وثمودَ يوضِّحُ ما ذكَرْنا). ((أضواء البيان)) (٦/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾.

أي: وكُلُّ الأُمَمِ الكافرةِ الماضيةِ دمَّرْناها تدميرًا كامِلًا، واستأصَلْناها بالعذابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا * وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ١٥ - ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ * قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان سَوقُ خبرِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأصحابِ الرَّسِّ وما بيْنَهما مِنَ

---

= (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٤، ٥٥).

قال ابن عاشور: (والمَثَلُ: النَّظيرُ والمُشابِه، أي: بَيَّنَّا لهم الأشباهَ والنظائِرَ في الخيرِ والشَّرِّ؛ لِيَعرِضوا حالَ أنفُسِهم عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

وقال ابن عثيمين: (يعني: بيَّنَّا له الأمثالَ، يعني: الوقائعَ التي أوقعَها الله تعالى بمَن قبْلَهم، كلُّ أمَّةٍ تُنذَرُ بمَن قبْلَها، ويُضرَبُ لها المثَلُ، يقالُ: هذا مَثَلُ المكذِّبين، حصَلَ عليهم كَيْتَ وكَيْتَ، فكُلُّ أمَّةٍ أنذرَها اللهُ تمامَ الإنذارِ، بحيثُ لا يبقَى لها حُجَّةٌ؛ أمَّةُ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وغيرُها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٥).

القرونِ مقصودًا لاعتِبارِ قريشٍ بمصائِرِهم؛ نُقِل نَظْمُ الكلامِ هنا إلى إضاعَتِهم الاعتِبارَ بذلك وبما هو أظهَرُ منه لأنظارِهم، وهو آثارُ العذابِ الَّذي نَزَل بقريةِ قومِ لوطٍ(١).

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ﴾.

أي: ولقد مرَّ كُفَّارُ قُرَيشٍ على قَريةِ قَومِ لُوطٍ الذين أهلَكَهم اللهُ بالحِجارةِ التي أمطَرَها عليهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر: ٧٤ - ٧٦].

﴿ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ﴾.

أي: أفلم يكُنْ كُفَّارُ قُرَيشٍ يَرَونَ في أسفارِهم آثارَ عَذابِ اللهِ على قريةِ قَومِ لوطٍ، فيَعتَبِروا ويتَّعِظوا بما حلَّ بأهلِها مِن العذابِ؛ بسبَبِ تكذيبِهم بالرَّسولِ، ومُخالفتِهم أوامِرَ اللهِ(٣)؟

قال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢).

أي: ما كذَّب كفَّارُ قُرَيشٍ بمحمَّدٍ لكونِهم لم يَرَوا ما حلَّ بقومِ لوطٍ، وإنَّما كذَّبوا ولم يعتَبِروا؛ لأنَّهم لا يُؤمِّلون وقوعَ البَعثِ بعْدَ الموتِ، فلا يَرجونَ ثوابًا في الآخرةِ، ولا يخافونَ عذابًا فيها[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، وقَولُه في موضعٍ آخَرَ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] لا يُنافي هذا؛ لأنَّهما إذا كانا مأمورَينِ فكُلُّ واحدٍ مأمورٌ، ويجوزُ أن يقالَ: أُمِرَ موسى أوَّلًا، ثمَّ لَمَّا قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى﴾ [طه: ٢٩] قال: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾[2] [طه: ٤٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ﴾ إذا قيل: لماذا جُعِلَ قومُ نوحٍ مكذِّبينَ للرسُلِ مع أنَّهم كذَّبوا رسولًا واحدًا؟

**فالجوابُ مِن أوجهٍ:**

**منها:** أنَّهم استَنَدوا في تكذيبِهم رسولَهم إلى إحالةِ أنْ يُرسِلَ اللهُ بشَرًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]؛ فكان تكذيبُهم مستلزِمًا تكذيبَ عمومِ الرسُلِ.

**ومنها:** أنَّهم أوَّلُ مَن كَذَّبَ رسولَهم؛ فكانوا قدوةً للمكذِّبين مِن بعْدِهم[3].

**ومنها:** أنَّ تكذيبَه تكذيبٌ لباقي الرسلِ؛ لاشتراكِهم في المجيءِ بالتوحيدِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

فيكونُ هذا مِن بابِ الجنسِ؛ لأنَّ مَن كذَّب رسولًا فكأنَّما كذَّب جميعَ الرسُلِ؛ لأنَّ أعداءَ الرسلِ لا يُعادونَهم لشخصِهم، وإنَّما يعادونَهم لِما يَدْعونَ إليه، وما جاؤوا به، وهذا جنسٌ؛ فيكونُ تكذيبُهم لرسولٍ تكذيبًا لجميعِ الرسُلِ(١).

ومنها: أنَّ مَن كذَّب رسولًا فقد كذَّب جميعَ الرسُلِ؛ لأنَّهم لا يُفرَّقُ بيْنَهم في الإيمانِ، ولأنَّه ما مِن نبيٍّ إلَّا يُصدِّقُ سائرَ أنبياءِ الله، فمَن كذَّب منهم نبيًّا فقد كذَّب كلَّ مَن صدَّقه مِن النبِّيينَ(٢).

ومنها: أنَّه لطولِ مُكثِه في قومِه صار كأنَّه رسُلٌ كثيرونَ؛ لأنَّه لَبِث فيهم ألْفَ سَنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا، وهذه مدَّةٌ تستوعبُ رسُلًا كثيرينَ، فكأنَّه لطولِ المُكثِ صار متعدِّدًا(٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ فأخبرَ سُبحانَه أنَّه ضرَبَ الأمثالَ لجميعِ هؤلاء الذين أُرسِلَ إليهم وأهلَكَهم، فلم يعاقِبْهم إلَّا بعْدَ أنْ أقام عليهم الحُجَّةَ(٤).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ في كلمةِ ﴿كَذَّبُوا۟﴾ إشكالٌ، وهو أنَّه يقتضي أنَّ التكذيبَ سابِقٌ للرِّسالةِ، فكيف يكونون مكَذِّبين مع أنَّهم لم يأتِ إليهم رَسولٌ؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٧، ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٧، ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٢).

والجواب من أوجُهٍ:

منها: أنَّ الفعلَ الماضيَ هنا بمعنى المستقبَلِ، بمعنى: الذين يكَذِّبون بآياتِنا؛ لأنَّ الآياتِ لم تصِلْ إليهم بَعْدُ؛ فمعنى ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي: يُكَذِّبون بها في المستقبَلِ.

ومنها: أن يُقالَ: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بحسَبِ عِلمِ الله عزَّ وجَلَّ، يعني: قدَّرْنا أنَّهم يُكَذِّبون.

ومنها: أنَّهم قد أُرسِلَ إليهم رسولٌ فكذَّبوه، وهذا يؤيِّدُه قَولُ المؤمِنِ مِن آلِ فِرعَونَ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

فإذا قيل: إنَّ يوسُفَ سابِقٌ جدًّا على موسى؟ فيُقالُ: لعلَّ آثارَ رسالتِه قد بَقِيت؛ ولهذا خاطبهم المؤمِنُ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾، ولم يُنكِروا؛ ما قالوا: ما جاءَنا، ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ يعني: إلى الآنَ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ إيذانٌ بطولِ مُدَدِ هذه القُرونِ وكَثرتِها(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٣).

وقيل: قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ وصْفٌ للقَومِ، وليس هو مِنَ المَقولِ لموسى وهارونَ؛ لأنَّ التَّكذيبَ حينَئذٍ لَمَّا يقَعْ منهم، ولكنَّه وصْفٌ لإفادةِ قُرَّاءِ القُرآنِ أنَّ موسى وهارونَ بلَّغا الرِّسالةَ، وأظهَرَ اللهُ منهما الآياتِ، فكَذَّب بها قَومُ فِرعونَ، فاستَحقُّوا التَّدميرَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥، ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ... ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ سِيقَتْ لتأكيدِ ما مرَّ مِنَ التَّسليةِ والوعدِ بالهدايةِ والنَّصرِ في قولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣١] بحِكايةِ ما جرَى بيْنَ مَن ذُكِر مِنَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وبيْنَ قَومِهم حكايةً إجماليَّةً كافيةً فيما هو المقصودُ، واللَّامُ جوابٌ لقَسَمٍ محذوفٍ، أي: وباللهِ لقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ[1].

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ حرْفُ التَّحقيقِ (قَدْ) ولامُ القسَمِ؛ لتأكيدِ الخَبرِ باعتِبارِ ما يَشتمِلُ عليه مِنَ الوعيدِ بتَدميرِهم. ولَمَّا جرَى الوعيدُ والتَّسليةُ بذِكرِ حالِ المكذِّبينَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ عَطَف على ذلك تَمثيلَهم بالأُممِ المُكذِّبينَ رُسُلَهم؛ لِيَحصُلَ مِن ذلك موعظةُ هؤلاءِ، وزيادةُ تَسليةِ الرَّسولِ، والتَّعريضُ بوَعدِه بالانتِصارِ له[2].

- والتَّعرُّضُ في مَطلَعِ القصَّةِ لإيتاءِ الكِتابِ مع أنَّه كان بعْدَ مَهلِكِ القَومِ، ولمْ يكنْ له مَدخَلٌ في هَلاكِهم كسائرِ الآياتِ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ ببُلوغِ نبيِّ الله موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غايةَ الكمالِ، ونَيْلِه نهايةَ الآمالِ، الَّتي هي إنجاءُ بَني إسرائيلَ مِن فِرعونَ، وإرشادُهم إلى الطَّريقِ الحقِّ بما في التَّوراةِ مِنَ الأحكامِ؛ إذْ به يَحصُلُ تأكيدُ الوَعدِ بالهدايةِ[3].

- والتَّعرُّضُ هنا إلى تأييدِ موسى بهارونَ تَعريضٌ بالرَّدِّ على المشركينَ؛ إذْ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ٧]؛ فإنَّ موسى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٨).

لَمَّا اقتضَتِ الحِكمةُ تأييدَه لمْ يُؤيَّدْ بملَكٍ، ولكنَّه أُيِّدَ برسولٍ مِثْلِه[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ في الكَلامِ حذْفٌ، أي: فذَهَبَا وأَدَّيَا الرِّسالةَ، فكذَّبوهما، وقد حصَل بهذا النَّظمِ إيجازٌ عَجيبٌ اختُصرَتْ به القِصَّةُ؛ فذُكِر منها حاشِيَتاها: أوَّلُها وآخِرُها، وهما: الإنذارُ، والتَّدميرُ -أي: إلزامُ الحُجَّةِ ببَعثةِ الرسُلِ، واستِحقاقُ الأُممِ التَّدميرَ بتَكذيبِهم رُسُلَهم-؛ لأنَّهما المقصودُ بالقِصَّةِ؛ فدَلَّ بذِكرِهما على ما هو الغَرَضُ مِن القِصَّةِ الطَّويلةِ كلِّها، وهو أنَّهم قومٌ كذَّبوا بآياتِ اللهِ؛ فأرادَ إلزامَ الحُجَّةِ عليهم، فبَعَثَ إليهم رَسولَينِ فكَذَّبوهما، فأَهلَكهم[٢].

- قَولُه: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ أُتبع الفِعلُ بالمفعولِ المطْلَقِ؛ لِما في تَنكيرِ المصدرِ مِن تَعظيمِ التَّدميرِ، وهو الإغراقُ في اليَمِّ[٣].

- وبدأ بذِكرِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّه متأخِّرٌ بالنِّسبةِ إلى قَومِ نوحٍ؛ لأنَّ فِرعونَ أقربُ عهدًا، وأشَدُّ عُتُوًّا مِن قَومِ نوحٍ[٤]. وقيل: قَدَّمَ قصَّةَ موسى عليه السَّلامُ لِمناسبةِ الكتابِ في نفْسِه أوَّلًا، وفي تنجيمِه ثانيًا، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[٥] [الفرقان: ٣٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٨٥).

وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

- قَولُه: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ فيه تقديمُ قَومِ نُوحٍ؛ للاهتمامِ؛ لأنَّ حالَهم هو محَلُّ العِبرةِ؛ فقُدِّم ذِكرُهم، ثمَّ أُكِّد بضَميرِهم؛ فإنَّ (قَوْمَ نُوحٍ) انتصَبَ بفِعلٍ مَحذوفٍ يُفسِّرُه ﴿أَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾[1].

- قَولُه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ فيه إظهارٌ في موقعِ الإضمارِ -حيثُ قيل: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ ﴾، عِوَضًا عن: أعتَدْنا لهم-؛ للإيذانِ بتَجاوُزِهمُ الحدَّ في الكُفرِ والتَّكذيبِ، ولإفادةِ أنَّ عذابَهم جزاءٌ على ظُلْمِهم بالشِّركِ وتكذيبِ الرَّسولِ. أو هو عامٌّ يَتناوَلُهم بعُمومِه[2].

وقد أفاد هذا الإظهارُ أيضًا: إرادةَ الشُّمولِ والعُمومِ؛ ليَشمَلَهم هم وغيرَهم، حتى الظَّالِمون مِن قريشٍ يدخُلون في هذا؛ لأنَّه إذا قال: (وأعتَدْنا لَهم عَذابًا أليمًا) صار العذابُ الأليمُ لهم فقط، لكِنْ لَمَّا قال: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ ﴾ صار لهم ولغيرِهم، وأفاد تسجيلَ هذا الوَصفِ عليهم، وهو الظُّلمُ؛ لأنَّه وصَفَهم بأنَّهم ظالِمون. وأفاد أيضًا إظهارَ الحكمةِ مِن هذه العقوبةِ، وهي أنَّهم كانوا ظالِمين، يعني: أعَدَّ لهم عذابًا أليمًا؛ لأنَّهم ظالِمون. مع ما فيه من تنبيهِ المخاطَبِ؛ لأنَّ تغيُّرَ السياقِ يوجِبُ انتباهَ المخاطَبِ[3].

فقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ -على أنَّه وُضِع المُضمَرُ موضعَ المُظهَرِ- عطَفَه على (أَغْرَقْنَا)؛ ليَجمَعَ لهم نَكالَ الدَّارينِ، وعلى العمومِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٤٠).

مِن بابِ التَّذييلِ، فيَدْخلوا في العامِّ دُخولًا أَوَّليًّا[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ قيل: هو عَطْفٌ على (هُم) في (جَعَلْنَاهُمْ)، أو على ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فقولُه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في معنَى الوعيدِ، أي: ووعَدْنا الظَّالِمينَ، ثمَّ عَطَف عادًا وثمودَ عطْفَ الخاصِّ على العامِّ مُبالَغةً؛ لأنَّهم رُؤوسُ الظَّلَمةِ والأَوْحَديُّون فيه[٢]. وقيل: انتصَبَتِ الأسماءُ الأربعةُ -﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾- بفِعلٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿تَبَّرْنَا﴾، وفي تَقديمِها تَشويقٌ إلى معرفةِ ما سيُخبَرُ به عنها[٣].

- ولعلَّ الاكتِفاءَ في شؤونِ تلك القُرونِ بهذا البيانِ الإجماليِّ ﴿وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾؛ لِمَا أنَّ كلَّ قَرنٍ منها لم يكنْ في الشُّهرةِ وغَرابةِ القصَّةِ بمَثابةِ الأُممِ المَذكورةِ[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾

- انتَصَب ﴿تَتْبِيرًا﴾ على أنَّه مفعولٌ مطْلَقٌ مؤكِّدٌ لعامِلِه؛ لإفادةِ شدَّةِ هذا الإهلاكِ[٥].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُواْ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾

- قَولُه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

لبيانِ مُشاهدتِهم لآثارِ هلاكِ بعضِ الأُممِ المُتَبَّرةِ، وعدَمِ اتِّعاظِهم بها. وتَصديرُها بالقسَمِ ﴿ وَلَقَدْ ﴾؛ لمَزيدِ تقريرِ مَضمونِها. وقيل: اقتِرانُ الخَبرِ بلَامِ القسَمِ؛ لإفادةِ معنَى التَّعجيبِ مِن عدَمِ اعتِبارِهم[١].

- والإتيانُ: المَجيءُ. وتَعديتُه في قولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ... ﴾ بـ (على)؛ لتَضمينِه معنَى: (مَرُّوا)؛ لأنَّ المقصودَ مِنَ التَّذكيرِ بمَجيءِ القريةِ التَّذكيرُ بمَصيرِ أهْلِها؛ فكأنَّ مَجيئَهم إيَّاها مُرورٌ بأهْلِها، فضُمِّنَ المَجيءُ معنَى المرورِ؛ لأنَّه يُشبِهُ المرورَ؛ فإنَّ المرورَ يَتعلَّقُ بالسُّكَّانِ، والمَجيءَ يَتعلَّقُ بالمكانِ[٢].

- ووصَف القَريةَ بـ ﴿ٱلَّتِيٓ أُمۡطِرَتۡ مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾؛ لأنَّها اشتُهِرَتْ بمَضمونِ الصِّلةِ بيْن العربِ وأهْلِ الكِتابِ[٣].

- وقوله: ﴿مَطَرَ ٱلسَّوۡءِ﴾ فيه تَسميةُ العذابِ الَّذي نَزَل عليهم مِنَ السَّماءِ مطَرًا على طريقةِ التَّشبيهِ؛ لأنَّ حقيقةَ المطرِ ماءُ السَّماءِ[٤].

- تَفرَّعَ على تَحقيقِ إتيانِهم على القَريةِ مع عدَمِ انتِفاعِهم به قولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَكُونُواْ يَرَوۡنَهَا﴾، وهو استِفهامٌ صُوريٌّ عنِ انتِفاءِ رُؤيتِهم إيَّاها حينما يَأْتون عليها؛ لأنَّهم لَمَّا لمْ يتَّعِظوا بها كانوا بحالِ مَن يُسألُ عنهم: هل رأَوْها؟ فكان الاستِفهامُ لإيقاظِ العقولِ؛ للبحثِ عن حالِهم. وهو استِفهامٌ إمَّا مُستعمَلٌ في الإنكارِ والتَّهديدِ، وإمَّا مُستعمَلٌ في الإيقاظِ لمعرفةِ سببِ عدَمِ اتِّعاظِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وقيل: الاستِفهامُ معناه التَّعجُّبُ[١]. وقيل: هو تَوبيخٌ لهم على ترْكِهمُ التَّذكُّرَ عِندَ مُشاهَدةِ ما يُوجِبُه. والهمزةُ لإنكارِ نَفْيِ استِمرارِ رُؤيتِهم لها، وتقريرِ استِمرارِها حسَبَ استِمرارِ ما يُوجِبُها مِن إتيانِهم عليها. والفاءُ لعَطفِ مَدْخولِها على مُقَدَّرٍ يَقتضيه المَقامُ[٢].

- و(بلْ) في قولِه: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ إمَّا إضرابٌ عمَّا قَبْلَه مِن عدَمِ رؤيتِهم لآثارِ ما جَرَى على أهلِ القُرى مِنَ العُقوبةِ، وبيانٌ لكَونِ عدَمِ اتِّعاظِهم بسببِ إنكارِهم؛ لكَونِ ذلك عُقوبةً لِمعاصيهم، لا لعدَمِ رؤيتِهم لآثارِها، خَلَا أنَّه اكتَفى عنِ التَّصريحِ بإنكارِهم ذلك بذِكْرِ ما يَستلزِمُه مِن إنكارِهم للجَزاءِ الأُخْرويِّ، الذي هو الغايةُ مِن خلْقِ العالَمِ. وقد كُنيَ عن ذلك بعدَمِ النُّشورِ، أي: عدَمِ توقُّعِه، كأنَّه قيل: بل كانوا يُنكِرون النُّشورَ المُستتبعَ للجزاءِ الأُخْرويِّ، ولا يرَوْنَ لنفْسٍ مِنَ النُّفوسِ نُشورًا أصلًا مع تَحقُّقِه حتْمًا، وشُمولِه للنَّاسِ عمومًا، واطِّرادِه وقوعًا؛ فكيف يَعترِفُون بالجزاءِ الدُّنيويِّ في حقِّ طائفةٍ خاصَّةً مع عدَمِ الاطِّرادِ والملازَمةِ بيْنَه وبيْنَ المعاصي حتَّى يَتذكَّروا ويَتَّعِظوا بما شاهَدوه مِن آثارِ الهلاكِ، وإنَّما يَحمِلونه على الاتِّفاقِ؟! وإمَّا انتِقالٌ مِنَ التَّوبيخِ بما ذُكِر مِن تَرْكِ التَّذكُّرِ إلى التَّوبيخِ بما هو أعظَمُ منه مِن عدَمِ توقُّعِ النُّشورِ[٣]. ويَجوزُ أن يكونَ (بلْ) للإضرابِ الانتِقاليِّ انتِقالًا مِن وصْفِ تَكذيبِهم بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعدَمِ اتِّعاظِهم بما حَلَّ بالمكذِّبينَ مِنَ الأُممِ، إلى ذِكرِ تَكذيبِهم بالبَعثِ؛ فيكونَ انتِهاءُ الكلامِ عِندَ قولِه: ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾، وهو الَّذي يَجري

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢١٩، ٢٢٠).

على الوجهِ الأوَّلِ في الاستِفهامِ، وهو الإنكارُ والتَّهديدُ[١].

- وفي قولِه: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ وُضِعَ الرَّجاءُ مَوضِعَ التَّوقُّعِ؛ لأنَّه إنَّما يَتوقَّعُ العاقبةَ مَن يؤْمِنُ، فمِن ثَمَّ لم يَنظُروا ولم يَذَّكَّروا، ومَرُّوا بها كما مرَّتْ رِكابُهم[٢].

- وعُبِّر عن إنكارِهمُ البَعثَ بعدَمِ رَجائِه؛ لأنَّ مُنكِرَ البَعثِ لا يَرْجو منه نفعًا، ولا يَخشى منه ضُرًّا، فعُبِّر عن إنكارِ البَعثِ بأحدِ شِقَّيِ الإنكارِ؛ تَعريضًا بأنَّهم ليسوا مِثْلَ المؤْمِنِينَ يَرْجون رحمةَ اللهِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠، ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٠، ٣١).

## الآيات (٤١-٤٤)

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلماتِ:

﴿هَوَىٰهُ﴾: أي: ما تَميلُ إليه نفْسُه، والهَوى: مَيلُ النَّفسِ إلى الشَّهوةِ، قيل: سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويةِ[1].

﴿وَكِيلًا﴾: أي: مانِعًا وحافِظًا، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتمادِ غَيرِك في أمرِك[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله تعالى عن استِهزاءِ المشركينَ بالنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وما كانوا يقولونَه عندَ رؤيتِهم له، فيقولُ تعالى: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كُفَّارُ قريشٍ، يَسخَرون منك، ويَستَهزِئون بك، قائِلينَ: أهذا الذي يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسلَه إلينا رَسولًا؟! لقد أوشَكَ أن يَصرِفَنا عن عبادةِ أصنامِنا لولا أن تمسَّكْنا بها وردَدْنا دعوتَه. ثمَّ يقولُ الله تعالى مهدِّدًا لهم: وسوف يعلَمُ هؤلاء الكُفَّارُ حينَ يرَونَ العذابَ مَن أبعَدُ طريقًا عن الحَقِّ، أهُم أمْ أنت؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

ثمَّ يقولُ تعالى مسلِّيًا نبيَّه، ومبيِّنًا حقيقةَ حالِ هؤلاء المشركينَ: أرأيتَ -يا محمَّدُ- مَنِ اتَّبَع هواهُ وانقاد له، أفأنت تكونُ عليه حَفيظًا؛ تمنَعُه مِنَ الضَّلالِ، وتَهديه إلى الحَقِّ؟! بل أتظُنُّ أنَّ أكثَرَ هؤلاء المُشرِكين يَسمَعون ما تُرشِدُهم إليه سماعَ تدَبُّرٍ وتعَقُّلٍ، أو يَعقِلونَه، حتى تطمَعَ في إيمانِهم؟! كلَّا، إنَّهم ليسوا كذلك؛ فما هؤلاء المُشرِكون في عدَمِ انتفاعِهم بما يقرَعُ قلوبَهم وأسماعَهم إلَّا كالبهائِمِ، بل هم أسوأُ حالًا منهم!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه مُبالَغةَ المُشرِكين في إنكارِ نبوَّتِه، وفي إيرادِ الشُّبُهاتِ في ذلك؛ بَيَّنَ بعْدَ ذلك أنَّهم إذا رأَوُا الرسولَ اتَّخَذوه هُزُوًا، فلم يقتَصِروا على ترْكِ الإيمانِ به، بل زادوا عليه بالاستِهزاءِ والاستِحقارِ[1].

وأيضًا فإنَّ ما تقَدَّمتْ حكايتُه مِن صنوفِ أذاهم الرسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانت أقوالًا في مَغيبِه، فعَطَفَ عليها في هذه الآيةِ أذًى خاصًّا، وهو الأذَى حينَ يرَونَه[2].

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾.

أي: وإذا رآك -يا محمَّدُ- كُفَّارُ قُرَيشٍ، لا يتَّخِذونَك إلَّا سُخريةً، فهم دائِبونَ على الاستِهزاءِ والسُّخريةِ بك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾.

أي: ويقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ احتقارًا للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: أهذا الذي يزعُمُ أنَّ اللهَ أرسَلَه إلينا رسولًا مِن بينِ خَلقِه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وقال سُبحانَه حاكيًا قولَهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨].

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾.

أي: يقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ: لقد أوشَكَ هذا الرَّسولُ أن يَصرِفَنا ويَصُدَّنا عن عبادةِ أصنامِنا بحُجَجِه وأدِلَّتِه، لولا أن ثبَّتْنا على عبادةِ آلهتِنا فتمسَّكْنا بها ولم نَقبَلْ دَعْوتَه[2]!

---

= (ص: ٥٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

قال السعدي: (وقالوا -على وجه الاحتقارِ والاستصغارِ-: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ أي: غيرُ مناسبٍ ولا لائقٍ أن يبعَثَ الله هذا الرجُلَ! وهذا مِن شِدَّةِ ظُلمِهم وعنادِهم وقَلبِهم الحقائِقَ؛ فإنَّ كلامَهم هذا يُفهِمُ أنَّ الرَّسولَ -حاشاه- في غايةِ الخِسَّةِ والحقارةِ، وأنَّه لو كانت الرِّسالةُ لغيره لكان أنسَبَ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ * مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٦، ٧].

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصفُوه بالإضلالِ في قَولِهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾؛ بيَّن تعالى أنَّه سيَظهَرُ لهم مَنِ المُضِلُّ ومَنِ الضَّالُّ عندَ مُشاهَدةِ العذابِ الذي لا مَخلَصَ لهم منه، فقال[1]:

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

أي: وسوف يعلَمُ الكُفَّارُ حين يرَونَ عذابَ اللهِ النَّازِلَ بهم[2] مَن أخطأَ طريقَ

---

= كثير)) (٦/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩١، ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٣٩).

(٢) قيل: المرادُ: عذابُ الآخرةِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٠).

وقيل: المرادُ به: ما وقع لهم يومَ بدرٍ. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

قال ابن عاشور: (الأظهرُ أنَّ المرادَ عذابُ السَّيفِ النازِلُ بهم يومَ بدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

وقيل: يرونَ العذابَ في الدُّنيا والآخرةِ. وممَّن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٢).

وقيل: يرون العذابَ في الآخرةِ وعندَ الموتِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٧٠).

الهُدى: هم أم محمَّدٌ الذي دعاهم إلى توحيدِ اللهِ[1]؟!

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

أي: أرأيتَ -يا مُحمَّدُ- مَنِ اتَّبعَ هواه، وانقاد إليه وأطاعَه[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٣، ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أَتْبَاعُ الهوى دَرَجاتٌ: فمنهم المُشرِكون والذين يَعبُدون مِن دونِ اللهِ ما يَستحسِنون بلا عِلمٍ ولا بُرهانٍ، كما قال: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]، أي: يتَّخِذُ إلهَه الذي يعبُدُه وهو ما يهواه من آلهةٍ، ولم يقُلْ: إنَّ هواه نفْسُ إلهِه، فليس كلُّ مَن يهوى شيئًا يَعبُده؛ فإنَّ الهوى أقسامٌ، بل المرادُ: أنَّه جعَلَ المعبودَ الذي يعبُدُه هو ما يهواه، فكانت عبادتُه تابعةً لهوى نفْسِه في العبادةِ؛ فإنَّه لم يَعبُدْ ما يجِبُ أن يُعبَدَ، ولا عبَدَ العبادةَ التي أُمِرَ بها. وهذه حالُ «أهلِ البدَعِ»؛ فإنَّهم عبَدوا غيرَ الله، وابتَدَعوا عباداتٍ زَعَموا أنَّهم يَعبُدون الله بها!). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٩٢).

وقال البقاعي: (أي: أنَّهم حقَّروا الإلهَ بإنزاله إلى رتبةِ الهوى، فهم لا يَعبُدون إلَّا الهوى، وهو مَيلُ الشهوةِ، ورميُ النفْسِ إلى الشَّيءِ، لا شبهةَ لهم أصلًا في عبادةِ الأصنام يرجِعون عنها إذا جَلَت، فهم لا يَنفكُّون عن عبادتِها ما دام هواهم موجودًا... فالمعنى: أنَّ هذا المذمومَ قصَر نفْسَه على تألُّهِ الهوى، فلا صلاحَ له ولا رشادَ، وقد يتألَّهُ لهوَى غيرِه. ولو قيل: مَنِ اتخذَ هواه إلهَه؛ لكان المعنى أنَّه قصَر هواه على الإلهِ، فلا غَيَّ له؛ لأنَّ هواه تابعٌ لأمرِ الإلهِ، وقد يُشاركُه في تألُّهِ الإلهِ غيرُه. قال أبو حيَّان: والمعنى أنَّه لم يتخِذْ إلهًا إلَّا هواه. انتهى.

فلو عُكِس لقيل: لم يتَّخِذ هوًى إلَّا إلهَه، وهو إذا فعل ذلك فقد سلَبَ نفْسَه الهوى فلم يعمَلْ به إلَّا فيما وافَقَ أمرَ إلهِه، ومما يوضِّحُ لك انعكاسَ المعنى بالتقديمِ والتأخيرِ أنَّك لو قلتَ: فلانٌ اتَّخَذ عبدَه أباه؛ لكان معناه أنَّه عظَّم العبدَ، ولو قيل: إنه اتَّخَذ أباه عبدَه؛ لكان معناه أنَّه أهان =

= الأبَ، وسواءٌ في ذلك إتيانُك به هكذا على وِزانِ ما في القرآنِ أو نكَّرْت أحدَهما، فإنَّك لا تجِدُ ذَوقَك فيه يختلِفُ في أنه إذا قدَّم الحقيرَ شَرَّفه، وإذا قدَّم الشريفَ حَقَّره، وكذا لو قلتَ: اتَّخَذ إصطبلَه مَسجِدًا، أو صديقه أبًا، أو عكسْتَ، ولو كان التقديمُ بمجرَّدِ العنايةِ مِن غيرِ اختلافٍ في الدَّلالةِ قُدِّم في «الجاثية» الهوى؛ فإنَّ السياقَ والسباقَ له، وحاصِلُ المعنى أنَّه اضمحلَّ وَصفُ الإلهِ، ولم يبقَ إلا الهوى، فلو قُدِّم الهوى لكان المعنى أنَّه زال وغَلَبت عليه صِفةُ الإلهِ، ولم يكُنْ ينظُرُ إلَّا إليه، ولا حُكمَ إلَّا له، كما في الطينِ بالنسبة إلى الخَزفِ سواءٌ، والله أعلم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٢-٣٩٤).

وقال ابن عاشور: (قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إذا أُجرِيَ على الترتيب كان معناه: جعَلَ إلهَه الشيءَ الذي يهوى عبادتَه، أي: ما يُحبُّ أن يكونَ إلهًا له، أي: لمجرَّدِ الشهوةِ، لا لأنَّ إلهَه مستحِقٌّ للإلهيَّةِ، فالمعنى: مَن اتَّخَذ ربًّا له محبوبَه؛ فإن الذين عبدوا الأصنامَ كانت شهوتُهم في أن يعبدوها، وليست لهم حُجَّةٌ على استِحقاقِها العبادةَ. فإطلاقُ إلهِه على هذا الوجهِ إطلاقٌ حقيقيٌّ. وهذا يناسِبُ قولَه قبْلَه: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الفرقان: ٤٢]...، وإذا أُجريَ على اعتبار تقديمِ المفعولِ الثاني كان المعنى: مَنِ اتَّخَذ هواه قدوةً له في أعمالِه، لا يأتي عملًا إلَّا إذا كان وِفاقًا لشهوتِه؛ فكأنَّ هواه إلهَه ... وهذا المعنى أشمَلُ في الذمِّ؛ لأنَّه يشمَلُ عبادتَهم الأصنامَ، ويشملُ غيرَ ذلك مِن المنكَراتِ والفواحشِ مِن أفعالِهم. ونحا إليه ابنُ عباس، وإلى هذا المعنى ذهب صاحِبُ «الكشاف»، وابنُ عطية. وكِلا المعنيينِ يَنبغي أن يكونَ مَحملًا للآية). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥).

وقال ابن عثيمين: (الصوابُ أنَّ الآية على ظاهرها، وأنَّ الإلهَ هو الهوى، ومعنى ذلك: أنَّه جعل المتبوعَ الهوى، وكونُ الإنسان يتبَعُ غيرَه، سواءٌ هوى نفْسِه أو كونُه يتبَعُ غَيرَه، هذا مِن اتخاذِه إلهًا... فإذَنْ نقولُ: الآيةُ على ظاهرِها، يعني: أنَّ الإلهَ هو الهوى نفْسُه، والهوى يقودُه إلى عبادة الشجَرِ والحجَرِ، ويقودُه إلى استحلالِ الزنا، وإلى استحلالِ الرِّبا، وإلى غيرِ ذلك؛ فعليه الأَولى جَعْلُ الآيةِ على ظاهرِها، وألَّا تُصرَفَ إلى المعبودِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٧٦).

وقال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدُها: أنَّهم قَومٌ كان الرجُلُ منهم يَعبُدُ حجَرًا يَستحسِنُه، فإذا رأى أحسَنَ منه عبَدَه وترَكَ الأوَّلَ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أنَّه الحارثُ بنُ قَيسٍ، كان إذا هوى شيئًا عبَدَه. حكاه النقاشُ. =

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾.

أي: أفأنت -يا مُحمَّدُ- تكونُ على مَنِ اتَّبع هواه حَفيظًا تمنَعُه مِن الضَّلالِ، وتَهديه إلى الحَقِّ؟! كلَّا؛ فليست الهدايةُ والضَّلالةُ موكولتَينِ إليك، وإنَّما عليك البلاغُ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾.

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾.

أي: بل[2] أتظُنُّ -يا مُحمَّدُ- أنَّ أكثَرَ هؤلاء المُشرِكين يَسمَعون الحَقَّ أو

---

= الثَّالثُ: أنَّه الذي يتَّبعُ هواه في كلِّ ما دعا إليه. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٩).

(٢) قال الشنقيطي: (﴿أَمْ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ هي المنقَطِعةُ، وأشهَرُ معانيها أنَّها جامعةٌ بين =

يَعقِلونَه، حتى تطمَعَ في إيمانِهم؟! فليسوا كذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

أي: ما المُشرِكون إلَّا كالبهائِمِ، بل هم أسوأُ حالًا منهم[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

= معنى «بل» الإضرابيَّةِ، واستفهام الإنكار معًا، والإضرابُ المدلولُ عليه بها هنا إضرابٌ انتقاليٌّ. والمعنى: بل أتحسَبُ أنَّ أكثَرَهم يسمَعون أو يَعقِلون؟! أي: لا تعتَقِدْ ذلك ولا تظُنَّه؛ فإنَّهم لا يسمعون الحَقَّ ولا يعقِلونَه، أي: لا يُدرِكونه بعُقولِهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٩، ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨٠-١٨٢).

قال القرطبي: (﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ قَبولٍ، أو يفكِّرون فيما تقولُ فيعقلونه؛ أي: هُم بمنزلةِ مَن لا يعقلُ ولا يسمعُ. وقيل: المعنى: أنَّهم لمَّا لم يَنتفعوا بما يَسمعون فكأنَّهم لم يَسْمعوا). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦).

وقال ابن عاشور: (المرادُ مِن نفيِ أنَّ ﴿أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ نفيُ أثرِ السماعِ، وهو فَهْمُ الحقِّ؛ لأنَّ ما يُلقيه إليهم الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَرتابُ فيه إلَّا مَن هو كالذي لم يسمعْه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٩).

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ والواجِبُ الذي يلزَمُ العمَلُ به: هو أن تكونَ جَميعُ أفعالِ المكَلَّفِ مُطابِقةً لِما أمَرَه به معبودُه جَلَّ وعلا، فإذا كانت جميعُ أفعالِه تابعةً لِما يَهواه، فقد صرفَ جميعَ ما يستحِقُّه عليه خالِقُه من العبادةِ والطاعةِ إلى هواه[1].

٢- أصلُ الطريقِ هو الإرادةُ والقَصدُ والعملُ، وذلك يَتضمَّنُ الحُبَّ، وكثيرًا ما يَعمَلُ السالكُ بمُقتضى ما يَجِدُه في قَلبِه مِنَ المَحبَّةِ، وما يُدرِكُه بذَوقِه مِن طَعمِ العِبادةِ، وهذا إذا لم يكُنْ موافِقًا لأمرِ الله ورسولِه فصاحِبُه في ضَلالٍ، وهو مِمَّنِ اتَّبَع هواه، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص:

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٥٨).

٥٠]؛ فجَعَل كلَّما خالَفَ الأمرَ فصاحِبُه مُتَّبِعٌ هواه، فما ثَمَّ واسِطةٌ، بل إمَّا الأمرُ وإمَّا الهوى(١).

٣- قال الله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ جعَلَ الأكثرينَ أضَلَّ سبيلًا مِنَ الأنعام؛ لأنَّ البهيمةَ يَهديها سائقُها فتَهْتدي وتَتَّبِعُ الطَّريقَ، فلا تَحيدُ عنها يمينًا ولا شِمالًا، والأكثرونَ يَدْعوهم الرسُلُ ويَهْدونهم السَّبيلَ فلا يَستجيبونَ ولا يَهتدونَ، ولا يُفَرِّقون بيْن ما يَضُرُّهم وبيْن ما يَنفَعُهم، والأنعامُ تُفَرِّقُ بيْن ما يَضُرُّها مِن النَّباتِ والطَّريقِ فتَجتنِبُه، وما يَنفَعُها فتُؤْثِرُه، واللهُ تعالى لم يَخلُقْ للأنعامِ قُلوبًا تَعقِلُ بها، ولا أَلْسِنةً تَنطِقُ بها، وأَعطى اللهُ ذلك لهؤلاء، ثمَّ لمْ يَنتفِعوا بما جعل لهم مِن العقولِ والقلوبِ والألْسِنةِ والأسماعِ والأبصارِ؛ فهُم أضَلُّ من البهائم، فإنَّ مَن لا يَهتدي إلى الرُّشْدِ وإلى الطَّريقِ -مع الدَّليلِ إليه- أضَلُّ وأسْوَأُ حالًا مِمَّن لا يَهتدي حيثُ لا دليلَ معه(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أخبَرَ عن المشركين أنَّهم متى رأَوُا الرسولَ أتَوا بنوعَينِ مِن الأفعالِ:

**أحدُهما**: أنَّهم يَستهزئون به، وفسَّرَ ذلك الاستهزاءَ بقَولِه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾، وذلك جهلٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ الاستهزاءَ إمَّا أن يقعَ بصورتِه أو بصِفتِه:

---

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٢).

أمَّا الأولُ فباطِلٌ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان أحسَنَ منهم صورةً وخِلقةً، وبتقديرِ أنَّه لم يكُنْ كذلك لكنَّه عليه السَّلامُ ما كان يدَّعي التمييزَ عنهم بالصورةِ بل بالحُجَّةِ. وأمَّا الثَّاني فباطِلٌ؛ لأنَّه عليه السَّلامُ ادَّعى التميُّزَ عنهم في ظهورِ المعجزِ عليه دونَهم، وأنَّهم ما قدَروا على القَدحِ في حُجَّتِه ودَلالتِه، ففي الحقيقةِ هم الذين يستحقُّون أن يُهزأَ بهم، ثم إنَّهم لوقاحتِهم قلبوا القضيَّةَ، واستَهزؤوا بالرَّسولِ عليه السلام، وذلك يدُلُّ على أنه ليس للمُبطِلِ في كلِّ الأوقاتِ إلَّا السفاهةُ والوقاحةُ.

**وثانيهما**: أنَّهم كانوا يقولون فيه: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾، وذلك يدُلُّ على أمورٍ:

**الأوَّل**: أنَّهم سَمَّوا ذلك إضلالًا، وذلك يدُلُّ على أنَّهم كانوا مُبالِغين في تعظيمِ آلهتِهم، وفي استعظامِ صَنيعِه صلَّى الله عليه وسلَّم في صَرفِهم عنه، وذلك يدُلُّ على أنَّهم كانوا يعتقدون أنَّ هذا هو الحقُّ، وقولُهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ يدُلُّ أيضًا على ذلك.

**الثَّاني**: يدُلُّ هذا القَولُ منهم على جِدِّ الرَّسولِ عليه السَّلامُ واجتهادِه في صَرفِهم عن عبادةِ الأوثانِ، ولولا ذلك لَما قالوا: ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ وهكذا كان عليه السَّلامُ؛ فإنَّه في أوَّلِ الأمرِ بالَغَ في إيرادِ الدَّلائِلِ والجوابِ عن الشُّبُهاتِ، وتحمَّلَ ما كانوا يفعلونَه مِن أنواعِ السَّفاهةِ وسُوءِ الأدَبِ.

**الثَّالث**: أنَّ هذا يدُلُّ على اعترافِ القَومِ بأنَّهم لم يعتَرِضوا البتَّةَ على دلائِلِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وما عارَضوها إلَّا بمَحضِ الجُحودِ والتقليدِ؛

لأنَّ قولَهم: ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ إشارةٌ إلى الجُحودِ والتَّقليدِ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه وعيدٌ ودَلالةٌ على أنَّهم لا يَفوتُونَه وإنْ طالَتْ مدَّةُ الإمهالِ، ولا بدَّ للوعيدِ أن يَلحَقَهم؛ فلا يَغُرَّنَّهمُ التَّأخيرُ(٢).

٣- عبادةُ اللهِ تعالى إنَّما هي بطاعتِه وطاعةِ رُسُلِه، فإذا أمرَ اللهُ على ألْسِنةِ رُسُلِه بشَيءٍ، فعدَلَ عنه العبدُ إلى ما يُحبُّه هو؛ كان عابدًا لهواه، لا عابِدًا للهِ؛ قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾(٣)، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ مَن قَدَّمَ هوى نفْسِه على هُدى ربِّه، فهو قد اتَّخذَه إلهًا؛ ولهذا يمكِنُنا أن نقولَ: إنَّ جميعَ المعاصي داخِلةٌ في الشِّركِ بهذا المعنى؛ حيث إنَّه قدَّمَها على مَرضاةِ اللهِ تعالى وطاعتِه، فجَعَلَ هذا شريكًا لله عزَّ وجلَّ في تعبُّدِه له، واتِّباعِه إيَّاه(٤)، ولا يعني ذلك أنَّ العاصيَ مشركٌ خرَجَ مِن المِلَّةِ بمعصيتِه.

٤- الإنسانُ إذا اعتبَرَ وتعَرَّف نفْسَه والنَّاسَ، رأى الواحِدَ يريدُ نفْسَه أن تُطاعَ وتَعلوَ بحسَبِ الإمكانِ، والنفوسُ مَشحونةٌ بحُبِّ العلُوِّ والرئاسةِ بحسَبِ إمكانِها، فتَجِدُه يوالي مَن يوافِقُه على هواه، ويُعادي مَن يخالِفُه في هواه، وإنَّما معبودُه ما يَهواه ويُريدُه؛ قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٧).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢١٨).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّه سُبحانَه لَمَّا نفى عنهمُ السَّمعَ والعقلَ، فكيف ذَمَّهم على الإعراضِ عن الدِّينِ؟! وكيف بَعَثَ الرسولَ إليهم؛ فإنَّ مِن شرطِ التَّكليفِ العقلَ؟

**الجوابُ**: ليس المرادُ أنَّهم لا يَعقِلون، بل إنَّهم لا يَنتَفِعون بذلك العَقلِ، فهو كقَولِ الرجُلِ لغيرِه إذا لم يَفهَمْ: إنَّما أنت أعمى وأصَمُّ[1]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ سؤالٌ؛ لِمَ جُعِلوا أضَلَّ مِن الأنعامِ؟

**الجوابُ مِن وجوهٍ:**

**أحدها**: أنَّ الأنعامَ تَنقادُ لأربابِها وللَّذي يَعْلِفُها ويَتَعَهَّدُها، وتُمَيِّزُ بيْنَ مَن يُحْسِنُ إليها وبيْن مَن يُسيءُ إليها، وتَطلبُ ما يَنفعُها، وتَجتنبُ ما يضُرُّها، وهؤلاء لا يَنقادون لربِّهم، ولا يُميِّزونَ بيْنَ إحسانِه إليهم، وبيْن إساءةِ الشيطانِ إليهم الذي هو عدوٌّ لهم، ولا يَطلبون الثوابَ الذي هو أعظَمُ المنافعِ، ولا يَحترِزونَ مِن العقابِ الذي هو أعظَمُ المَضارِّ!

**ثانيها**: أنَّ قلوبَ الأنعامِ كما أنَّها تكونُ خاليةً عن العِلمِ فهي خاليةٌ عن الجهلِ الذي هو اعتِقادُ المعتقَدِ على خلافِ ما هو عليه مع التصميم، وأمَّا هؤلاء فقلوبُهم كما خَلَتْ عن العِلمِ فقد اتصفَتْ بالجهلِ؛ فإنَّهم لا يَعلمونَ، ولا يَعلمون أنهم لا يَعلمون، بل هم مُصِرُّون على أنَّهم يَعلمون.

**ثالثها**: أنَّ عدمَ عِلمِ الأنعامِ لا يَضُرُّ بأحدٍ، أمَّا جهلُ هؤلاء فإنَّه منشأٌ للضررِ العظيمِ؛ لأنَّهم يَصُدُّون الناسَ عن سبيلِ اللهِ، ويبغونها عِوَجًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٣).

**رابعها**: أنَّ البهائمَ لا تَستحقُّ عقابًا على عدمِ العِلمِ، أمَّا هؤلاء فإنَّهم يَستحقُّون عليه أعظمَ العقابِ.

**خامسها**: أنَّ البهائمَ تُسبِّحُ اللهَ تعالى، على ما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الحج: ١٨]، وقال: ﴿وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١]، وإذا كان كذلك؛ فضلالُ الكفارِ أشَدُّ وأعظَمُ مِن ضلالِ هذه الأنعامِ[١].

**سادسها**: أن البهائمَ لم يَعرفوا، ولم يَكونوا أُعطوا آلةَ المعرفةِ، وأمَّا الكفارُ فلم يَعرفوا وقد أُعطوا آلةَ المعرفةِ؛ فهم أضَلُّ[٢]. والمحرومُ عن طلبِ المراتبِ العاليةِ إذا عَجَزَ عنه لا يكونُ في استحقاقِ الذَّمِّ كالقادر عليه التاركِ له لسوءِ اختيارِه[٣]!

**سابعها**: أنَّ البهائمَ لم تُفسِدْ ما لها مِن المعارفِ؛ فإنَّ الله تعالى أعطاها قدْرًا مِن المعارفِ فهي تَستعمِلُها، وأمَّا الكفارُ فقد أفسَدوا ما لهم مِن المعارفِ؛ فهم أضَلُّ وأقَلُّ مِن البهائمِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾

- قولُه: ﴿إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ الوصفُ بـ﴿هُزُوًا﴾ للمُبالَغةِ في استِهزائِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٢).

به، حتَّى كأنَّه نفْسُ الهُزُؤِ؛ لأنَّهم مَحَّضُوه لذلك. وإسنادُ ﴿يَتَّخِذُونَكَ﴾ إلى ضميرِ الجَمعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ جَماعاتِهم يَستهزِئون به إذا رأَوْه وهُم في مَجالِسِهم ومُنتَدياتِهم. وصِيغةُ الحَصرِ (إنْ... إلَّا)؛ للتَّشنيعِ عليهم بأنَّهمُ انحَصَر اتِّخاذُهم إيَّاه في الاستِهزاءِ به، يُلازِمونه ويَدْأبون عليه، ولا يَخلِطون معه شيئًا مِن تَذكُّرِ أقوالِه ودَعوتِه؛ فالاستِثناءُ مِن عُمومِ الأحوالِ المَنفيَّةِ، أيْ: لا يَتَّخِذونك في حالةٍ إلَّا في حالةِ الاستِهزاءِ[1].

- قولُه: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ مَقُولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: يَقولون. والإشارةُ بـ (هذا) للاستِحقارِ منهم، وإبرازِ بَعثِ اللهِ رَسولًا في مَعرِضِ التَّسليمِ بجَعْلِه صِلةً للمَوصولِ الَّذي هو صِفَتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع كَونِهم في غايةِ النَّكيرِ لبَعْثِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطريقِ التَّهكُّمِ والاستِهزاءِ والإنكارِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

- قولُهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ أَسنَدوا مُقاربةَ الإضلالِ إلى الرَّسولِ دُونَ أنفسِهم؛ تَرفُّعًا على أن يَكونوا قارَبوا الضَّلالَ عن آلهتِهم، مع أنَّ مُقارَبَتَه إضلالَهم تَستلزِمُ اقتِرابَهم مِنَ الضَّلالِ[3].

- وجوابُ (لولا) في قولِهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٣).

عَلَيْهَا﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبلَ (لولا) عليه، وهو ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾؛ وفائدةُ نَسجِ الكلامِ على هذا المِنوالِ دُونَ أن يُؤْتَى بأداةِ الشَّرطِ ابتِداءً مَتْلوَّةً بجوابِها: قَصْدُ العِنايةِ والاهتِمامِ بالخَبرِ ابتِداءً بأنَّه حاصِلٌ، ثمَّ يؤْتَى بالشَّرطِ بعْدَه تَقييدًا لإطلاقِ الخَبرِ بعْدَ إطلاقِه(١).

- قولُه: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ...﴾ هذا جَوابُ قولِهم: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ المُتضمِّنِ أنَّهم على هُدًى في دِينِهم، وكان الجوابُ بقطْعِ مُجادلتِهم، وإحالَتِهم على حينِ رؤْيتِهمُ العذابَ يَنزِلُ بهم، فتَضمَّنَ ذلك وعيدًا بعذابٍ(٢). ولَمَّا كان الجوابُ بالإعراضِ عنِ المُحاجَّةِ عبَّر بأُسلوبِ التَّهكُّمِ، بجعْلِ ما يَنكشِفُ عنه المستقبَلُ هو معرفةَ مَن هو أشدُّ ضلالًا مِنَ الفَريقَينِ، على طريقةِ المُجاراةِ، وإرخاءِ العِنانِ للمُخطئِ إلى أن يَقِفَ على خطَئِه(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ استِئنافٌ خوطِبَ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يَخطُرُ بنفْسِه مِنَ الحُزنِ على تَكرُّرِ إعراضِهم عن دَعْوتِه؛ إذْ كان حَريصًا على هُداهُم، والإلحاحِ في دَعْوتِهم، فأَعلَمَه بأنَّ مِثلَهم لا يُرجَى اهتداؤُه؛ لأنَّهم جَعَلوا هواهُم إلهَهُم، فالخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٤).

- وقولُه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ فيه -على قَولٍ- تقديمُ المفعولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٣، ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٣٤، ٣٥).

الثَّاني ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على الأوَّلِ ﴿هَوَىٰهُ﴾؛ للعنايةِ به، والأصلُ: اتَّخذ الهوَى إلهًا[١]. وفيه -إلى جانبِ هذه النُّكتةِ- نُكتةٌ ثانيةٌ، وهي إفادةُ الحَصرِ؛ فإنَّ الكلامَ قبْلَ دُخولِ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ مُبتدَأٌ وخَبرٌ، المبتدَأُ (هَوَاهُ) والخبرُ (إِلَهَهُ)، وتَقديمُ الخبرِ -كما علِمْتَ- يُفيدُ الحَصرَ، فكأنَّه قال: أرأيتَ مَن لمْ يتَّخِذْ مَعبودَه إلَّا هَواهُ؛ فهو أبلَغُ في ذمِّه وتَوبيخِه[٢].

- قولُه أيضًا: ﴿أَتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، أيْ: مَنِ اتَّخذ هَواه قُدوةً له في أعمالِه، لا يأتي عمَلًا إلَّا إذا كان وِفاقًا لشَهوتِه، فكأنَّ هَواهُ إلهُه. وعلى هذا يكونُ معنَى إلهِه شبيهًا بإلهِه في إطاعتِه على طريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ، وهذا المعنى أَشمَلُ في الذَّمِّ؛ لأنَّه يَشملُ عبادتَهمُ الأصنامَ، ويَشملُ غَيرَ ذلك مِنَ المُنكَراتِ والفَواحشِ مِن أفعالِهم[٣].

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ قيل: الاستِفهامُ للتَّقريرِ، والتَّعجيبِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن شَناعةِ حالِهم بعْدَ حِكايةِ قَبائِحِهم مِنَ الأقوالِ والأفعالِ، وبيانِ ما لهم مِنَ المَصيرِ والمآلِ، والتَّنبيهِ على أنَّ ذلك مِنَ الغَرابةِ بحيث يَجِبُ أن يُرى ويُتعجَّبَ منه[٤].

- قولُه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ إنكارٌ واستِبعادٌ لكَونِه صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٠، ٢٢١).

عليه وسلَّمَ حفيظًا عليه يَزجُرُه عمَّا هو عليه مِنَ الضَّلالِ، ويُرشِدُه إلى الحقِّ طَوعًا أو كَرهًا. والفاءُ في ﴿أَفَأَنتَ﴾ لتَرتيبِ الإنكارِ على ما قبْلَه مِنَ الحالةِ المُوجِبةِ له(١).

- وإنْ كان مَجموعُ جُملتَيْ ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ كلامًا واحدًا متَّصِلًا ثانيهِ بأوَّلِه اتِّصالَ المفعولِ بعامِلِه؛ تَعيَّنَ فِعلُ «رأيْتَ» لأنْ يَكونَ فِعلًا قلْبيًّا بمعنَى العِلمِ، وكان الاستِفهامُ الَّذي في الجملةِ الأُولى بقولِه: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ إنكاريًّا كالثَّاني في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾، وكان مجموعُ الجُملتَينِ كلامًا على طريقةِ الإجمالِ، ثمَّ التَّفصيلِ. والمعنَى: أَرأيْتَكَ تكونُ وَكيلًا على مَنِ اتَّخَذ إلهَه هَواهُ؟ وتكونُ الفاءُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ﴾ فاءَ الجوابِ للمَوصولِ؛ لمُعاملَتِه مُعاملةَ الشَّرطِ، وهمزةُ الاستِفهامِ الثَّانيةُ تأكيدٌ للاستِفهامِ الأوَّلِ، كقولِه: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الإسراء: ٤٩] على قِراءةِ إعادةِ همزةِ الاستِفهامِ، وتكونُ جُملةُ ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ عِوَضًا عنِ المفعولِ الثَّاني لِفعلِ ﴿أَرَءَيْتَ﴾، والفِعلُ مُعلَّقٌ عنِ العملِ فيه؛ بسببِ الاستِفهامِ، على نحْوِ قولِه تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ١٩]، وعليه لا يُوقَفُ على قوله: ﴿هَوَىٰهُ﴾، بلْ يوصَلُ الكلامُ. وإنْ كانتْ كلُّ جملةٍ مِنَ الجُملتَينِ مُستقِلَّةً عنِ الأُخرى في نظْمِ الكلامِ، كان الاستِفهامُ الَّذي في الجُملةِ الأُولى مُستعمَلًا في التَّعجيبِ مِن حالِ الَّذين اتَّخَذوا إلهَهم هَواهُم تَعجيبًا مَشوبًا بالإنكارِ، وكانتِ الفاءُ في الجُملةِ الثَّانيةِ للتَّفريعِ على ذلك التَّعجيبِ والإنكارِ، وكان الاستِفهامُ الَّذي في الجُملةِ الثَّانيةِ مِن قَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١).

﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ بمعنَى: أنَّك لا تَستطيعُ قَلْعَه عن ضَلالِه، كما أشار إليه قَولُه قبْلَه: ﴿مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[1] [الفرقان: ٤٢].

- و(مَن) في قَولِه: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ صادِقةٌ على الجَمْعِ المُتحدَّثِ عنه في قَولِه: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ [الفرقان: ٤٢]، ورُوعيَ في ضَمائرِ الصِّلةِ لفْظُ (مَن)؛ فأُفرِدَتِ الضَّمائرُ[2].

- وفي قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ تَقديمُ المُسنَدِ إليه (أَنْت) على الخَبرِ الفِعليِّ؛ للتَّقوِّي؛ إشارةً إلى إنكارِ ما حَمَّل الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نفْسَه مِنَ الحِرصِ والحُزنِ في طلَبِ إقلاعِهم عنِ الهوَى[3]. ولَمَّا كان مُرادُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -حِرْصًا عليهم، ورَحمةً لهم- ردَّهُم عنِ الغَيِّ ولا بدَّ؛ عَبَّر بأداةِ الاستِعلاءِ في قَولِه: ﴿عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[4].

٤- قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾

- قولُه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ عنِ التَّأْييسِ مِن اهتِدائِهم؛ لغلَبةِ الهوَى على عُقولِهم، إلى التَّحذيرِ مِن أن يُظَنَّ بهم إدراكُ الدَّلائلِ والحُجَجِ، وهذا تَوجيهٌ ثانٍ للإعراضِ عن مُجادلَتِهمُ الَّتي أَنبأَ عنها قَولُه تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]، فـ (أَمْ) مُنقطِعةٌ للإضرابِ الانتِقاليِّ مِن إنكارٍ إلى إنكارٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٥، ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٤).

وهي مؤْذِنةٌ باستِفهامٍ عطَفَتْه على الاستِفهامِ الَّذي قبْلَها. والتَّقديرُ: أَمْ أَتَحسَبُ أنَّ أَكثرَهم يَسمَعون أو يَعقِلون[١]؟

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ نُفيَ فَهمُ الأدِلَّةِ السَّمعيَّةِ والعَقليَّةِ عن (أكثَرِهم) دُونَ جميعِهم؛ لأنَّ هذا حالُ دَهْمائِهم ومُقَلِّدِيهم فقطْ، ومِنهم مَن عَقَل الحَقَّ وكابَرَ استِكبارًا، وخَوفًا على الرِّئاسةِ؛ ففيهم مَعشَرٌ عُقلاءُ يَفهَمون ويَستَدِلُّون بالكائناتِ، ولكنَّهم غَلَبَ عليهم حُبُّ الرِّئاسةِ، وأَنِفوا مِن أن يَعُودوا أتْباعًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُساوِينَ للمؤْمنِينَ مِن ضُعفاءِ قُرَيشٍ وعَبيدِهم مِثْلِ: عَمَّارٍ وبِلالٍ. وأيضًا تَخصيصُ الأَكثَرِ؛ لأنَّه كان مِنهم مَن آمَنَ[٢].

- وضَميرُ ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ لـ (مَن)، وجمْعُه باعتِبارِ معناها، كما أنَّ الإفرادَ في الضَّمائرِ الأُوَلِ باعتِبارِ لفْظِها[٣].

- وعَطْفُ ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ على ﴿يَسْمَعُونَ﴾؛ لنفْيِ أن يَكونوا يَعقِلون الدَّلائلَ غَيرَ المَقاليَّةِ، وهي دَلائلُ الكائناتِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لتَقريرِ النَّكيرِ وتَأكيدِه، وحَسْمِ مادَّةِ الحُسبانِ بالمرَّةِ[٥]. وقيل: مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢١).

لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن إنكارِ أنَّهم يَسمَعون يُثيرُ في نفْسِ السَّامِعينَ سؤالًا عن نفْيِ فَهمِهم لِما يَسمَعون مع سلامةِ حَواسِّ السَّمعِ منهم؛ فكان تَشبيهُهم بالأنعامِ تَبيينًا للجَمعِ بيْن حُصولِ اختِراقِ أصواتِ الدَّعوةِ آذانَهم مع عدَمِ انتِفاعِهم بها؛ لعدَمِ تَهَيُّئِهم للاهتِمامِ بها؛ فالغرضُ مِنَ التَّشبيهِ التَّقريبُ والإمكانُ[1].

- وقولُه: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فيه تشبيهٌ لأكثرِ النَّاسِ بالأنعامِ، والجامعُ بيْن النوعينِ: التَّساوي في عدمِ قَبولِ الهدى والانقيادِ له[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٢).

## الآيات (٤٥-٥٤)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَبَضْنَٰهُ﴾: أي: أزَلْناه ونسَخْناه، وأصلُ (قبض): يدُلُّ على شيءٍ مأخوذٍ[1].

﴿لِبَاسًا﴾: أي: ساتِرًا وغِشاءً، وأصلُ (لبس): يدُلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلةٍ[2].

﴿سُبَاتًا﴾: أي: راحةً لأبدانِكم، وقَطعًا لأعمالِكم، وأصلُ (سبت): يدُلُّ على القَطعِ[3].

﴿نُشُورًا﴾: أي: يَقَظةً وحياةً، يَنتشِرونَ فيه، ويَبتَغونَ الرِّزقَ، ويَتصرَّفونَ في

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٣)، ((الغريبين)) للهروي (٣/ ٨٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢).

حاجاتِهم، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[١].

﴿بُشْرًا﴾: أي: مُبَشِّراتٍ بالغَيثِ، والبُشرى تُطلَقُ على الإِخْبار بِمَا يَسُرُّ، وما يُعطَى للمُبشَّرِ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجَمالٍ[٢].

﴿وَأَنَاسِيَّ﴾: الأناسيُّ: جَمعُ إنسيٍّ، وهو مرادِفُ إنسانٍ، مِثلُ كُرسيٍّ وكَراسيَّ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ، وكلِّ شَيءٍ خالَفَ طريقةَ التَّوحُّشِ[٣].

﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾: قسَّمْناه، يعني المطرَ: يَسقي أرضًا، ويتركُ أرضًا، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[٤].

﴿كُفُورًا﴾: أي: جُحُودًا، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[٥].

﴿مَرَجَ﴾: أي: خلَطَ أو خلَّى بيْنهما، وأصلُ (مرج): يدُلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ واضطرابٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩١، ٩٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٦).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

﴿فُرَاتٌ﴾: الفُراتُ: الماءُ الشَّديدُ العُذوبةِ، قِيل: سُمِّي الماءُ الحُلوُ فُراتًا؛ لأنَّه يَفْرُتُ العطشُ، أي: يقطَعُه ويكسِرُه[1].

﴿أُجَاجٌ﴾: أي: شَديدُ المُلوحةِ، وأصلُ (أجج): يدُلُّ على الشِّدَّةِ[2].

﴿بَرْزَخًا﴾: أي: حاجِزًا ومانِعًا؛ لئلَّا يَختلطَا، وكلُّ حاجزٍ بيْنَ شَيئينِ فهو برزخٌ[3].

﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾: أي: حَرامًا مُحَرَّمًا على صاحبِه أنْ يُغَيِّرَه ويُفْسِدَه، أو مانِعًا مَمْنوعًا، وأصلُ (حجر): المَنعُ والإحاطَةُ على الشَّيءِ[4].

﴿نَسَبًا﴾: النَّسبُ: اشتِراكٌ مِن جهةِ أحدِ الأبوَينِ، أي: أن يجتمعَ إنسانٌ مع آخَرَ في أبٍ أو أمٍّ، قرُبَ ذلك أو بعُدَ، وقيل: ﴿نَسَبًا﴾ أي: ذا نسبٍ، وهو ما لا يَحِلُّ نكاحُه، وأصلُ (نسب): اتِّصالُ شَيءٍ بشَيءٍ، ومنه النَّسَبُ؛ سُمِّيَ لِاتِّصالِه ولِلاتِّصالِ به[5].

---

(١) ((أدب الكاتب)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((أدب الكاتب)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤، ٧٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨، ٢٢٠).
قال ابن فارس: (مِمَّا فيه حرفٌ زائدٌ «البرزَخُ»: الحائِلُ بيْنَ الشَّيئيْنِ، كأنَّ بيْنهما بَرازًا، أي: مُتَّسَعًا مِن الأرضِ، ثُمَّ صارَ كُلُّ حائِلٍ بَرْزَخًا، فالخاءُ زائِدَةٌ). ((مقاييس اللغة)) (١/ ٣٣٣).
وقال الراغب: (وقيل: أصلُه «برزه»، فعُرِّب). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ١١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨، ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) (٥/ ٤٢٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٠١)، =

﴿وَصِهْرًا﴾: الصِّهرُ: قرابةُ النِّكاحِ، وأهلُ بَيتِ المرأةِ، وأصلُ (صهر): يدُلُّ على قُربى[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى بعضَ مظاهرِ قدرتِه، ويمتَنُّ على عبادِه ببيانِ بعضِ النِّعمِ التي أنعَم بها عليهم، فيقول: ألَمْ ترَ -يا محمَّدُ- إلى كيفيَّةِ بسْطِ رَبِّك الظِّلَّ على الأرضِ مِن بعْدِ طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، ولو شاء اللهُ لجعَلَ الظِّلَّ دائمًا لا يتحَرَّكُ، ثمَّ جعَلَ الشَّمسَ عندَ طلوعِها دالَّةً على الظِّلِّ، ثمَّ نقَصَ ذلك الظِّلَّ.

واللهُ سُبحانَه الذي جعَلَ لكم اللَّيلَ سِترًا يَستُرُكم بظَلامِه، وجعَل النَّومَ قاطعًا لحركتِكم لِتَستريحوا، وجعل النَّهارَ حياةً تنتَشِرونَ فيه لطلَبِ الأرزاقِ.

واللهُ وحْدَه الذي أرسَلَ الرِّياحَ تبَشِّرُ النَّاسَ بنُزولِ المطَرِ، وأنزَل مِن السَّماءِ ماءَ المطَرِ الطَّهورَ؛ ليُحييَ به أرضًا مُجدِبةً لا نباتَ فيها، ويَسقيَ به ما خلَقَه مِن الأنعامِ والنَّاسِ.

ولقد قسَّم سُبحانَه ماءَ المطَرِ بيْن النَّاسِ للتذكُّرِ والاعتِبارِ، فأبى أكثَرُ النَّاسِ إلَّا الكُفرَ باللهِ والجُحودَ، ولو شاء اللهُ تعالى لجعَلَ في كلِّ قَريةٍ رَسولًا يُنذِرُ النَّاسَ عَذابَ اللهِ ويدعوهم إليه؛ فلا تُطِعِ الكافرين -يا محمَّدُ- فيما يُريدونَه مِن عبادةِ آلهتِهم، أو تَرْكِ شَيءٍ مما أُرسِلتَ به، وجاهِدْهم بالقُرآنِ جِهادًا شديدًا.

واللهُ وحْدَه هو الذي أرسل البَحرينِ وخلَّاهما؛ أحدُهما شديدُ العذوبةِ، والآخَرُ شديدُ الملوحةِ، وهو بقدرتِه يَفصِلُ بيْنهما ويمنَعُهما التَّمازُجَ والاختِلاطَ.

---

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

وهو وحْدَه الذي خلَقَ مِن المَنيِّ إنسانًا، فجعَلَ ذلك الإنسانَ ذا نَسَبٍ وذا صِهرٍ، ولم يزَلْ سُبحانَه قَديرًا على كلِّ شَيءٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمّا بيَّنَ سُبحانَه جهْلَ المُعرِضين عن دلائلِه، وفَسادَ طريقِهم في ذلك؛ ذَكَرَ بعْدَه أنواعًا مِن الدَّلائلِ الدالَّةِ على وجودِ الصَّانعِ، فقال تعالى[1]:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ﴾.

أي: ألم تَرَ[2] -يا محمَّدُ- إلى هيئةِ بسْطِ رَبِّك الظِّلَّ على الأرضِ مِن بعْدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٤).

(٢) قال الشوكاني: (هذه الرُّؤيةُ إمَّا بَصَريَّةٌ، والمرادُ بها: ألم تُبصِرْ إلى صُنعِ رَبِّك؟ أو ألم تُبصِرْ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه ربُّك؟ وإمَّا قَلبيَّةٌ، بمعنى العِلمِ؛ فإنَّ الظِّلَّ مُتغيِّرٌ، وكُلُّ مُتغَيِّرٍ حادثٌ، ولكُلِّ حادِثٍ مُوجِدٌ. قال الزَّجَّاجُ: ألم تَرَ: ألم تَعلَمْ، وهذا مِن رؤيةِ القَلبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٢)،

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الرؤيةَ رؤيةُ القلبِ، والمراد: ألمْ تَعلَمْ: الفرَّاءُ، والزجَّاجُ، وابنُ عطية، وأبو حيان، والعليمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٣٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ٥٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الرؤيةَ بصَريَّةٌ، أي: ألمْ تَنظُرْ: البيضاويُّ، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٩).

وجمَع السعديُّ بيْن القولينِ، فذكَر أنَّ المعنى: (ألم تشاهِدْ ببصرِك وبصيرتِك). ((تفسير =

طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، ولو شاء اللهُ لجعَلَ الظِّلَّ مَمدودًا دائِمًا لا يتحَرَّكُ بزيادةٍ ولا نُقصانٍ[1]؟!

---

= السعدي)) (ص: ٥٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠، ٤٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٠).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالظِّلِّ: مِن طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والبَغَوي، والرسعني، والقرطبي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠، ٤٦٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عُمَرَ، وسعيدُ بنُ جُبَير، وأبو العاليةِ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، ومسروقٌ، والحسَنُ، وقتادةُ، وأبو مالِكٍ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّي، وأبو سِنانٍ الشَّيبانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠١).

قال الواحديُّ: (والمفَسِّرون جميعًا قالوا في معنى الظِّلِّ هاهنا: إنَّه الظِّلُّ مِن وَقتِ طُلوعِ الفَجرِ إلى وَقتِ طُلوعِ الشَّمسِ). ((البسيط)) (١٦/ ٥١٧).

ونَسَب النَّسَفيُّ هذا القَولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٠).

قال البغوي: (وهو ما بيْنَ طُلوعِ الفَجرِ إلى طُلوعِ الشَّمسِ، جعَلَه ممدودًا؛ لأنَّه ظِلٌّ لا شَمسَ معه، كما قال في ظِلِّ الجنَّةِ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠] لم يكُنْ معه شمسٌ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٧).

واعترض ابنُ عطيَّةَ على هذا المعنى بأنَّ ذلك في غيرِ نهارٍ، بل في بقايا اللَّيلِ، وهذا لا يُقالُ له ظِلٌّ، واختار أنَّ المرادَ بمَدِّ الظِّلِّ بإطلاقٍ هو بيْنَ أوَّلِ الإسفارِ إلى بُزوغِ الشَّمسِ، ومِن بَعدِ مَغِيبِها مُدَّةً يَسيرةً؛ فإنَّه في هذينِ الوقتَينِ على الأرضِ كُلِّها ظِلٌّ ممدودٌ على أنَّها نهارٌ، وفي سائِرِ أوقاتِ النَّهارِ ظِلالٌ مُتقَطِّعةٌ، والمَدُّ والقَبضُ مُطَّرِدٌ فيها. قال: (وهو عندي المرادُ في الآيةِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٢).

وقيل: المرادُ به: ظِلُّ كُلِّ شاخصٍ؛ فإنَّه أوَّلَ ما تطلُعُ الشَّمسُ يكونُ الظِّلُّ طويلًا ممدودًا، ثم يُقبَضُ شيئًا فشيئًا. وهذا ظاهِرُ اختيار ابن القيِّمِ، وابنِ عاشور. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن =

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾.

أي: ثمَّ جعَلْنا الشَّمسَ عندَ طلوعِها دالَّةً على الظِّلِّ؛ فهو يَتبَعُها، ويتفاوَتُ بحَركتِها[1].

---

= القيم (٣/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٩-٤١).

وقيل: المرادُ بالظلِّ هنا: اللَّيلُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: أبو القاسم النيسابوريُّ، والبقاعي. يُنظر: ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٧).

وممَّن ذهب إلى حملِ الآيةِ على جميعِ هذه المعاني: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩١-١٩٢).

قال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالظِّلِّ على الخِلافِ ثلاثةُ آراءٍ: إمَّا أنَّه ما بينَ طُلوعِ الفَجرِ إلى طلوعِ الشَّمسِ... أو أنَّه اللَّيلُ كُلُّه، ويكونُ مَدُّه تطويلَه ثمَّ ينقُصُ، ففي هذا من قدرةِ الله تعالى: تغيُّرُ الفُصولِ بسبَبِ طولِ اللَّيلِ وقِصَرِه. أو أنَّ المرادَ به ظِلُّ كُلِّ شاخصٍ؛ فإنَّه أوَّلَ ما تطلُعُ الشَّمسُ يكونُ الظلُّ طويلًا ممدودًا، ثمَّ يُقبَضُ شيئًا فشَيئًا، ﴿وَلَوْ شَآءَ﴾ اللهُ سُبحانَه وتعالى ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، والسُّكونُ هنا يختلفُ معناه بحسَبِ اختلافِ معنى الظلِّ؛ فإذا قُلْنا: المرادُ بالظلِّ ما بينَ طلوعِ الفجرِ إلى طلوعِ الشمسِ، كان المرادُ بالسكونِ أنَّ الشمسَ تخرجُ دَفعةً واحدةً بدون أن يكونَ ظِلُّها شَيئًا فشَيئًا، وإذا قُلْنا: إنَّ المرادَ به اللَّيلُ، كان المرادُ بسكونِه أن يبقَى الليلُ دائمًا، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، وإذا قلنا: إنَّ المرادَ بالظلِّ ظلُّ الشاخصِ، صار المرادُ بسكونِه أنَّ الشمسَ لا تتحرَّكُ، وتبقَى في مكانٍ واحدٍ، ويكونُ الظلُّ ساكنًا، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ... [و] ما دام أنَّ هذه المعانيَ لا تتنافى، فالواجِبُ أن تُحمَلَ الآيةُ على الجميعِ، وهذه قاعدةٌ ... قرَّرها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ رحمه الله: أنَّه إذا كانت الآيةُ تحتَمِلُ المعانيَ المذكورةَ فيها، فالواجِبُ أن تُحمَلَ على كلِّ هذه المعاني؛ لأنَّ كلامَ الله سُبحانه وتعالى لا يُحيطُ به شيءٌ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ جعْلُ الشَّمسِ دَليلًا على الظِّلِّ فيه دليلٌ ليس على مجرَّدِ وجودِ الظلِّ، بل دليلٌ على ما فيه مِن المصالحِ، وهي أيضًا مدلولٌ عليها به؛ فالشَّمسُ الآنَ يُستدَلُّ بها على ما في الظلِّ مِن المصالحِ، ويُستدَلُّ بالظِّلِّ على ما فيها من =

﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾﴾.

أي: ثمَّ نَقَصْنا ذلك الظِّلَّ الممدودَ بسُهولةٍ وتدريجٍ[1].

---

= المصالحِ أيضًا؛ لأنَّ غيبَ الشَّمسِ عن الأرضِ قد يؤثِّرُ، وبقاءَها دائمًا على وجهِ الأرضِ قد يؤثِّرُ، مِثلُ قَولِ الله سُبحانَه وتعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]، فكونُ هذا دليلًا على هذا، وهذا دليلًا على هذا: هو أيضًا مِن رحمةِ الله؛ لأنَّه لولا الشمسُ ما عرَفْنا فائدةَ الظلِّ، ولولا الظلُّ ما عرَفْنا فائدةَ الشَّمسِ، فكُلٌّ منهما في الحقيقةِ دالٌّ ومدلولٌ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٥٦، ٥٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٢).

قال الواحدي: (﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ الكنايةُ تعودُ إلى الظِّلِّ الذي سَبَق ذِكرُه، وهو: ظِلُّ الغَداةِ بإجماعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٦/ ٥٢٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾: الظِّلُّ: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، والثعلبي، والماوَرْدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٩٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٦١).

وقيل: المعنى: قَبَضْنا ذلك الدَّليلَ مِنَ الشَّمسِ على الظِّلِّ. ومِمَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٢).

وقال البقاعي: (﴿إِلَيْنَا﴾ أي: إلى الجهةِ التي نُريدُها، لا يقدِرُ أحَدٌ غَيرُنا أن يحوِّلَه إلى جهةٍ غَيرِها). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٨). =

= ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿يَسِيرًا﴾ أي: على مَهلٍ، قَبضًا خفيفًا، جُزءًا فجُزْءًا، وشيئًا بعْدَ شَيءٍ، لا دَفعةً واحدةً: السمرقنديُّ، والزمخشري، والخازن، وابن جُزي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٩٤).

قال ابنُ قُتَيبةَ: (وقولُه: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: خفيًّا؛ لأنَّ الظلَّ بعْدَ غروبِ الشَّمسِ لا يذهَبُ كُلُّه دَفعةً واحدةً، ولا يُقبِلُ الظلامُ كُلُّه جملةً، وإنما يَقبِضُ الله جلَّ وعزَّ ذلك الظِّلَّ قَبضًا خفيًّا شَيئًا بعدَ شَيءٍ، ويُعقِبُ كُلَّ جزءٍ منه يَقبِضُه بجزءٍ مِن سوادِ الليلِ حتى يذهبَ كُلُّه. فدلَّ الله عز وجلَّ بهذا الوصفِ على قدرتِه ولطفِه في معاقبتِه بيْن الشمسِ والظلِّ واللَّيلِ؛ لمصالحِ عِبادِه وبلادِه. وبعضُهم يجعَلُ قبْضَ الظِّلِّ عندَ نَسخِ الشَّمسِ إيَّاه، ويجعلُ قَولَه: ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أي: سهلًا خفيفًا عليه. وهو وجهٌ، غيرَ أنَّ التفسيرَ الأوَّلَ أجمَعُ للمعاني، وأشبَهُ بما أراد). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿يَسِيرًا﴾: أي: خفيًّا سريعًا: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٢).

وقال ابنُ جرير: (وقَولُه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: ثمَّ قَبَضْنا ذلك الدَّليلَ مِنَ الشَّمسِ على الظِّلِّ إلينا قَبضًا خَفِيًّا سَريعًا بالفَيءِ الذي نأتي به بالعَشِيِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٤).

وقال ابن عثيمين: (إذا قُلْنا: الظِّلُّ ما بيْنَ طُلوعِ الفَجرِ أو ما بيْنَ وَقتِ الإسفارِ إلى وَقتِ طُلوعِ الشَّمسِ، فإنَّه يُقبَضُ هذا الظِّلُّ شَيئًا فشَيئًا، لا يزالُ النُّورُ يَسطَعُ تدريجيًّا حتى تطلُعَ الشَّمسُ. هذه واحِدةٌ.

وإذا قُلْنا: المرادُ به اللَّيلُ، فهو أيضًا يُقبَضُ شَيئًا فشَيئًا، يعني: لا يكونُ اللَّيلُ في هذا اليومِ اثنَتَي عَشْرةَ ساعةً، ويكونُ تِسعَ ساعاتٍ في اليومِ الذي يليه، وإنَّما يُقبَضُ شيئًا فشيئًا.

كذلك إذا قُلْنا: إنَّ المرادَ بالظِّلِّ ظِلُّ الشَّاخِصِ، فهو نفْسُ الشَّيءِ؛ إنَّما يتناقَصُ شَيئًا فشَيئًا، وليس في الآيةِ إشكالٌ سِوى قَولِه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، ﴿إِلَيْنَا﴾ هذه الغايةُ فيها إشكالٌ؛ لأنَّه كان مِن المُمكِنِ أن يَقتَصِرَ على قَولِه: «ثمَّ قَبَضْناه قَبضًا يَسيرًا»، فما الحِكمةُ مِن هذه الغايةِ في قَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾؟ =

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

مُناسَبةُ الانتِقالِ مِن الاستِدلالِ باعتبارِ أحوالِ الظِّلِّ والضَّحاءِ إلى الاعتِبارِ بأحوالِ اللَّيلِ والنَّهارِ: ظاهِرةٌ؛ فاللَّيلُ يُشبِهُ الظِّلَّ في أنَّه ظُلمةٌ تَعقُبُ نورَ الشَّمسِ[1].

وأيضًا لَمَّا تضَمَّنتْ هذه الآيةُ اللَّيلَ والنهارَ؛ قال مُصَرِّحًا بهما دليلًا على الحَقِّ، وإظهارًا للنِّعمةِ على الخلْقِ[2]:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾.

---

= بعضُهم يرى أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿قَبَضْنَٰهُ﴾ أي: الشَّمسَ، باعتِبارِها دَليلًا، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾، أي: قَبَضْنا هذا الدَّليلَ ﴿إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾.

وعلى كلِّ حالٍ يُوجَدُ احتِمالُ أنَّه يَجعَلُ المرادَ بقولِه: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ يعني: الدَّليلَ، أي: الشَّمسَ، ويكونُ المرادُ بالقَبضِ إليه ما أشار إليه النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قولِه في حديث أبي ذرٍّ: «فإنَّها تَذهَبُ حتى تسجُدَ تحتَ العَرشِ» [البخاري (٣١٩٩) ومسلم (٢٥٠)].

ويوجَدُ احتِمالٌ ثالِثٌ ذهب إليه الزمخشريُّ، وقال: إنَّ المرادَ بالقَبضِ هنا ما ذكَرَه اللهُ بقَوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢]، وإنَّ المرادَ به قَبضُ هذه النَّيِّراتِ -الشَّمسِ وغَيرِها- يومَ القيامةِ، وجَعَل اليسيرَ ليس صفةً للقَبضِ، يعني: أنَّه يكونُ شَيئًا فشَيئًا، بل هو صِفةٌ للفِعلِ، يعني أنَّه يسيرٌ عليه، كقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤]، لكنِ الأخيرُ بَعيدٌ؛ لأنَّ الله تعالى إنما يمتَنُّ بذلك على أمرٍ يُدرِكُ الناسُ فائدتَه في الدُّنيا، وتمامَ قُدرةِ الله تعالى فيه، فيكونُ على هذا إمَّا أن يُقالَ: إنَّ الغايةَ التي ذكرها اللهُ سبحانه وتعالى إشارةٌ إلى أنَّ ذلك مِن تصرُّفِه وحْدَه، وأنَّ الأمرَ إليه وحْدَه لا إلى غَيرِه، فيكونُ دليلًا على عَظَمةِ اللهِ سبحانه وتعالى، أو أنَّ المرادَ بالقَبضِ إليه أنَّ الشَّمسَ تُقبَضُ إلى اللهِ، بمعنى أنَّها تذهَبُ وتسجُدُ تحت العَرشِ، كما جاء به الحديثُ عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٥، ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٣٩٩).

أي: واللهُ هو الذي جعَلَ لكم اللَّيلَ -أيُّها النَّاسُ- غِطاءً وسِترًا يَستُركم ويُغشِّيكم بظَلامِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١].

﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾.

أي: وجعَل اللهُ لكم النَّومَ قاطِعًا لحركتِكم وأشغالِكم، فتستريحُ به أبدانُكم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤، ٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٠).

قال ابنُ عثيمين: (وهل هو لباسٌ للأرضِ أو لباسٌ لنا؟ للجميعِ؛ لأنَّه يكسو الأرضَ، ويكسو الإنسانَ في الواقعِ، فهو كاسٍ للأرضِ، وكاسٍ أيضًا للإنسانِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

قال الشنقيطي: (وأمَّا جَعلُه لهم النَّومَ سُباتًا، فأكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالسُّباتِ: الرَّاحةُ مِن تَعَبِ العَمَلِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ النَّومَ يَقطَعُ العمَلَ النَّهاريَّ، فينقَطِعُ به التَّعبُ، وتحصُلُ الاستراحةُ كما هو معروفٌ...). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالسُّباتِ: الراحةُ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدينِ المحليُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ [النبأ: ٩].

﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾.

أي: وجعَل اللهُ لكم النَّهارَ حَياةً بعْدَ نَومِكم الذي يُشبِهُ الموتَ، ويَقَظةً تَنتَشِرون في ضيائِه لطَلَبِ الأرزاقِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

---

= وممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ: يَسبُتُ النائمُ حتَّى لا يَعقِلَ كأنَّه مَيتٌ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بنُ سلام. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٨٤).

قال الزمخشريُّ: (والسُّباتُ: الموتُ. والمَسبوتُ: الميتُ؛ لأنَّه مقطوعُ الحياةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣).

وقال الشنقيطيُّ: (وإيضاحُ كلامِه: أنَّ النُّشورَ هو الحياةُ بعد الموتِ...، وعليه فقولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أي: حياةً بعد الموتِ، وعليه فالموتُ هو المعبَّرُ عنه بالسُّباتِ في قَولِه: ﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾، وإطلاقُ الموتِ على النَّومِ معروفٌ في القرآنِ العظيمِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦١)

وقال ابن عاشور: (وفسَّر الزمخشريُّ السُّباتَ بالموتِ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، ناظرًا في ذلك إلى مُقابَلتِه بقولِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥).

وقال البقاعي: (﴿وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ أي: نومًا وسكونًا وراحةً، عبارة عن كونِه موتًا أصغرَ طاويًا لِما كان مِن الإحساسِ، قطعًا عمَّا كان مِن الشُّعورِ والتقلُّبِ، دليلًا لأهلِ البصائرِ على الموتِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٣٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ١١].

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أراد أن ينامَ قال: باسمِك اللَّهمَّ أموتُ وأَحْيَا. وإذا استيقَظَ مِن مَنامِه قال: الحمدُ لله الذي أحيانا بعْدَ ما أماتَنا، وإليه النُّشورُ))(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا دلَّ على عظَمتِه بتصَرُّفِه في المعاني بالإيجادِ والإعدامِ، وخَتَمَه بالإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ قريبةٍ؛ أتبَعَه التصرُّفَ في الأعيانِ بمِثلِ ذلك؛ دالًّا على الإماتةِ والإحياءِ بأسبابٍ بعيدةٍ، وبدأه بما هو قريبٌ لِلَطافتِه مِن المعاني، فقال(٢):

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قراءةُ ﴿بُشْرًۢا﴾ أي: تُبشِّرُ بالمطَرِ(٣).

٢- قراءةُ ﴿نَشْرًۢا﴾، قيل: المرادُ: يُرسِلُ الرِّياحَ حياةً، أي: تحيا بها البلادُ الميتةُ. وقيل: أي: تهبُّ مِن كُلِّ وجهٍ لجمعِ السَّحابِ الممطِرةِ. وقيل: النَّشْرُ مِن الرِّياحِ: الطيِّبةُ الليِّنةُ التي تُنشئُ السَّحابَ(٤).

---

(١) رواه البخاري (٦٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٠).

(٣) قرأ بها عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٠٩)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٤٥).

(٤) قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠). =

٣- قراءةُ ﴿نُشْرًا﴾ جمعُ نُشُورٍ، قيل: المرادُ: تنشرُ السَّحابَ وتَبسُطُها في السَّماءِ، وقيل: ليِّنةً طيِّبةً. وقيل: متفرِّقةً، وهي الرِّياحُ التي تهبُّ مِن كُلِّ ناحيةٍ[١].

٤- قراءةُ ﴿نُشُرًا﴾ جمعُ نُشُورٍ، قيل: المرادُ: تنشرُ السحابَ، وتبسطُها في السماءِ. وقيل: متفرقةً[٢].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾.

أي: واللهُ وحْدَه الذي أرسَلَ الرِّياحَ فتبَشِّرُ النَّاسَ بمَجيءِ السَّحابِ ونُزولِ المطَرِ قبْلَ أن يفجَأَهم بنُزولِه[٣].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان السَّحابُ قريبًا مِن الرِّيحِ في اللَّطافةِ، والماءُ قريبًا منهما، ومُسَبَّبًا عمَّا تحمِلُه الريحُ مِن السَّحابِ؛ أتبَعَهما به، فقال[٤]:

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾.

---

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٥٧)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (٥/ ٣٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٢٨٥).

(١) قرأ بها ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٠).

أي: وأنزَلْنا مِن السَّحابِ ماءَ المطَرِ، الطَّاهِرَ في نفْسِه، المطَهِّرَ لِغَيرِه[١].

﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

أي: لِنُحييَ بالمطَرِ أرضًا مُجدِبةً لا نباتَ فيها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾.

أي: ونُسقِيَ بالمطَرِ كَثيرًا مِمَّا خلَقْنا مِن الأنعامِ والنَّاسِ، فيَشرَبون مِن ماءِ المطَرِ، ويَسقُونَ به زُروعَهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠].

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨، ٤٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾، وعلَّلَه بحياةِ البَلدةِ المَيْتةِ، وسَقْيِ بعضِ الأنعامِ وبَعضِ الأَناسيِّ، عُرِف أنَّ ذلك كان بقَدْرِ الاحتِياجِ، ولا بدَّ مِن قادرٍ مُختارٍ عالِمٍ بجُزئيَّاتِ أحوالِ المَخلوقينَ، حتَّى يُحوِّلَ إلى كلٍّ مِن ذلك ما يَحتاجُ إليه[1]؛ فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾.

أي: ولقد قسَّمْنا ماءَ المطَرِ بيْن النَّاسِ؛ لأجْلِ أن يتذكَّروا ويعتَبِروا[2].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩، ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٢، ٦٣).

قال أبو حيان: (والضَّميرُ في ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ عائدٌ على الماءِ المنَزَّلِ مِن السَّماءِ، أي: جعَلْنا إنزالَ الماءِ تَذكِرةً بأن يُصرِّفَه عن بعضِ المواضِعِ إلى بعضٍ، وهو في كلِّ عامٍ بمقدارٍ واحدٍ، قاله الجمهورُ؛ منهم: ابنُ مسعود، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، فعلى هذا التأويلِ ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ هو قولُهم بالأنواءِ والكواكِبِ، قاله عِكرمةُ. وقيل: ﴿كُفُورًا﴾ على الإطلاقِ لَمَّا ترَكوا التذكُّرَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا: عائدٌ على القرآنِ وإن لم يتقدَّمْ له ذِكرٌ؛ لوضوحِ الأمرِ، ويعضِّدُه: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾؛ لتوافُقِ الضَّمائرِ. وعلى أنَّه للمطَرِ يكونُ ﴿بِهِۦ﴾ للقرآنِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦).

ممَّن اختار أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿صَرَّفْنَٰهُ﴾ يعودُ على المطرِ: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والزجَّاجُ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والرازيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ كثيرٍ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٢).

ونسَب السمعانيُّ هذا القولَ إلى أكثرِ أهلِ التفسيرِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥). =

﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾.

أي: فلمْ يتذكَّرْ أكثَرُ النَّاسِ بتَصريفِ اللهِ للمطَرِ، وأصَرُّوا على الكُفرِ باللهِ، وجُحودِ نِعَمِه، وإنكارِ قُدرتِه وحِكمتِه[1].

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٦٤).

قال الشنقيطيُّ: (المعنى: ولقد صرَّفْنا ماءَ المطرِ بيْن الناسِ؛ فأنزَلْنا مطرًا كثيرًا في بعضِ السِّنينَ على بعضِ البلادِ، ومنَعْنا المطرَ في بعضِ السِّنينَ عن بعضِ البلادِ، فيَكثُرُ الخِصبُ في بعضِها، والجدبُ في بعضِها الآخَرِ. وقولُه: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾، أي: صرَّفْناه بيْنَهم لأجْلِ أن يَتذكَّروا، أي: يتذكَّرَ الذين أخصبَتْ أرضُهم لكثرةِ المطرِ نعمةَ الله عليهم، فيَشكُروا له، ويتذكَّرَ الذين أجدبت أرضُهم ما نزَل بهم مِن البلاءِ، فيُبادِروا بالتَّوبةِ إلى الله جلَّ وعلا؛ لِيَرحمَهم ويَسقيَهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٣).

وقال ابن عثيمين: (يعني: أنَّ الله تعالى غيَّرَ هذا المطرَ بالنسبةِ للنَّاسِ، ووزَّعه بيْنهم ما بيْن مُقِلٍّ ومُستكثِرٍ؛ فمِنهم مَن يكثُرُ المطرُ عندَه، ومِنهم مَن يقِلُّ، هذا بالنِّسبةِ للبينيَّةِ، كذلك أيضًا صرَّفه الله سبحانه وتعالى بيْنهم بالنِّسبةِ لكلِّ أحدٍ؛ أحيانًا يكونُ المطرُ كثيرًا في عامٍ، وقليلًا في عامٍ... ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ أي: نِعمةَ الله فيما إذا نزَلَ عليهم، و﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ يتَّعِظوا ويَذكُروا ما هم عليه مِن المعاصي والآثامِ فيما إذا لم ينزِلْ، وكذلك أيضًا ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ بذلك قدرةَ الله، حيث صرَفَ في محلٍّ دونَ محلٍّ. فالمهمُّ أنَّ تصريفَ هذا المطرِ في محلٍّ دونَ محلٍّ، أو في سَنةٍ دون سَنةٍ هذا لا شَكَّ أنَّه سَبَبٌ لِتَذكُّرِ الإنسانِ؛ إما تذَكُّر النعمةِ إذا كان ناسيًا، وإما تذكُّر النِّقمةِ ومعاصيه إذا كان ممتنعًا، وإما تذكُّر القدرةِ حينما يَعرفُ أنَّه في مكانٍ يكونُ غَزيرًا، وفي مكانٍ يكونُ قليلًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٤، ٢١٥).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾: أي: القرآنَ. وممَّن اختاره: القرطبيُّ، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عطاءٌ الخُراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٠٧).

وقيل: ﴿صَرَّفۡنَٰهُ﴾ أي: هذا القولَ، وهو ذكرُ إنشاءِ السَّحابِ، وإنزالِ المطرِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦٨)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

وعن زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رضِيَ الله عنه، قال: ((صلَّى بنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيْبِيَةِ في إثرِ السَّماءِ[1] كانت من اللَّيلِ، فلمَّا انصرفَ أقبَلَ على النَّاسِ، فقال: هل تَدرُونَ ماذا قال ربُّكم؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: قال: أصبَحَ مِن عِبادي مؤمِنٌ بي وكافِرٌ؛ فأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورحمتِه، فذلك مؤمِنٌ بي كافِرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا مَن قال: مُطِرنا بنَوءِ[2] كذا

---

= (٦/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٣).

قال النحاسُ: (لا يُعلَمُ بينَ أهلِ التَّفسيرِ اختِلافٌ أنَّ الكُفرَ هاهنا قولُهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا وكذا، وأنَّ نظيرَه قَولُ المنجِّمِ: فعَلَ النَّجمُ كذا وكذا، وأنَّ كُلَّ مَن نَسَبَ إليها فعلًا، فهو كافرٌ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ١١٤).

قال ابنُ عثيمينَ: (ومِن الكُفرِ بهذا المطَرِ... أن يجعَلَ ذلك سببًا للأشَرِ والبطَرِ، مِثلَما يحصُلُ مِن بعض الناسِ: إذا نزلَتِ الأمطارُ وكثُرت الأبيارُ صارت سببًا لأشَرِه وبطَرِه وفُسوقِه، فهذا من أسبابِه. ومِن أسبابِ الكُفرِ أيضًا: أنَّه إذا امتنَع المطَرُ صار امتناعُه سببًا لقُنوطِ الإنسان مِن رحمةِ الله سبحانَه وتعالى، والقُنوطُ مِن رحمةِ الله مِن كبائرِ الذنوبِ، وليس بالأمرِ الهَيِّنِ؛ فلا يجوزُ للإنسانِ أن يَقنَطَ مِن رحمةِ الله، ولا أن يأمَنَ مَكرَ الله، لا هذا ولا هذا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٦).

(١) إثرِ السَّماءِ أي: بعْدَ نُزولِ مطرٍ. والإثرُ: هو ما يعقُبُ الشيءَ، والسماءُ: المطرُ، وأُطلِق عليه سماءً؛ لكونِه ينزلُ مِن جهةِ السماءِ، وكلُّ جهةِ علوٍّ تُسمَّى سماءً. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٩٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٢٣).

(٢) مُطِرنا بنَوءِ كذا: أي: بسُقوطِ نَجم وطُلوعِ نظيرِه، (والأنواءُ): ظهورُ الكواكبِ، أو منازل القَمَرِ في السَّماءِ، وكانت العربُ تزعُمُ أنَّ بسقوطِ المنزلةِ وطلوعِ رقيبِها يكونُ مطرٌ، ويَنسبونه إليها، فيقولون: مُطِرْنا بنَوءِ كذا. وإنَّما سُمِّيَ نَوءًا؛ لأنَّه إذا سقَطَ السَّاقِطُ منها بالمَغربِ ناء الطَّالع =

وكذا، فذلك كافِرٌ بي مؤمِنٌ بالكوكَبِ))[١].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا عَلِمَ تعالى ما كابَدَه الرَّسولُ مِن أذَى قَومِه؛ أعْلَمَه أنَّه تعالى لو أراد لَبعثَ في كلِّ قريةٍ نذيرًا فيُخَفِّفُ عنك الأمرَ، ولكنَّه أعظَمَ أجرَك وأجَلَّك؛ إذْ جعَلَ إنذارَك عامًّا للنَّاسِ كلِّهم، وخَصَّك بذلك؛ لِيَكثُرَ ثوابُك؛ لأنَّه على كثرةِ المجاهَدةِ يكونُ الثَّوابُ، ولِيَجمعَ لك حَسَناتِ مَن آمَنَ بك؛ إذْ أنت مُؤَسِّسُها[٢].

وأيضًا فهذه الآيةُ متَّصِلةٌ بقَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ [الفرقان: ٣٢] الآيةَ، فبعْدَ أن بيَّنَ إبطالَ طَعنِهم، فقال: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان: ٣٢]، انتقَل إلى تنظيرِ القُرآنِ بالكتابِ الذي أوتيَه موسى عليه السَّلامُ وكيف استأصل اللهُ مَن كذَّبوه، ثمَّ استطرَد بذِكرِ أُمَمٍ كذَّبوا رسُلَهم، ثم انتقَل إلى استهزاءِ المُشرِكين بالنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأشار إلى تحرُّجِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن إعراضِ قَومِه عن دعوتِه، بقَولِه: ﴿ أَرَءَيْتَ

---

= بالمشرِقِ، أي: نهضَ وطلَعَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤١٥) (٧/ ٢٩٠٦).

(١) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٧).

وقال ابن باديس: (لمَّا تبيَّن مِن الآياتِ المتقَدِّمةِ ما كان يُكابِدُه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن أذيَّةِ قَومِه، وما كان يَلْقاه مِن مُكابرتِهم للحقِّ، وتعنُّتِهم بالباطلِ، وما كان يُعانيه مِن الجَهدِ الجَهيدِ في إنذارِهم، وتبليغِ دِينِ اللهِ تعالى إليهم، وهو في ذلك كلِّه جاهِدٌ في القيام بتبليغِ الأمانةِ، ناهِضٌ بأعباءِ الرِّسالةِ، ماضٍ في تلك السبيلِ، وليس معه مِن نذيرٍ، وقد كان ذلك مما تَتفسَّخُ له القُوى البشريَّةُ لولا تأييدٌ مِن اللهِ- فأراد تعالى في هذه الآيةِ أن يُثبِّتَه في مقامِه، ويُؤنِسَه في انفرادِه، فيُبيِّنَ له أنَّ تخصيصَه بالقيامِ هذا المقامَ العظيمَ هو لأجْلِ تعظيمِه وتكريمِه، وتخصيصِه بالأجرِ الكثيرِ، والثوابِ الذي ليس له مِن مثيلٍ). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٥).

مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣]. وتسلْسَلَ الكلامُ بضَربِ المثَلِ بمَدِّ الظِّلِّ وقَبضِه، وبحالِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وبإرسالِ الرِّياحِ، أمارةً على رحمةِ غَيثِه الذي تحيا به المَواتُ، حتى انتهى إلى قَولِه: ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ﴾ [الفرقان: ٥١]، ويؤيِّدُ ما ذكَرْنا اشتِمالُ التَّفريعِ على ضميرِ القُرآنِ في قَولِه: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ﴾، وممَّا يَزيدُ هذه الآيةَ اتِّصالًا بقَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ [الفرقان: ٣٢]: أنَّ في بَعثِ نذيرٍ إلى كُلِّ قَريةٍ ما هو أشَدُّ مِن تنزيلِ القرآنِ مجزَّأً، فلو بعَثَ اللهُ في كلِّ قَريةٍ نَذيرًا لقال الذين كفَروا: لولا أُرسِلَ رسولٌ واحِدٌ إلى الناسِ جميعًا؛ فإنَّ مَطاعِنَهم لا تقِفُ[1].

﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا ٥١ ﴾.

أي: ولو شِئْنا لجعَلْنا في كُلِّ مدينةٍ رَسولًا يُنذِرُ النَّاسَ عَذابَ اللهِ ويَدْعوهم إليه، ولكِنَّنا خَصَصْناك -يا محمَّدُ- بالرِّسالةِ إلى جميعِ النَّاسِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ [الأنعام: ٩٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ الأنصاريِّ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُعطِيتُ خَمسًا لم يُعطَهنَّ أحَدٌ قَبلي:... وكان النبيُّ يُبعَثُ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥١، ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٤).

قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً))[١].

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ۝٥٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ سبحانَه لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم ما خَصَّصَه به مِن الكرامةِ؛ دعاه إلى مُقابَلةِ ذلك بعدَمِ طاعةِ أهلِ الكُفرِ، والثَّباتِ على جهادِهم بالقُرآنِ[٢].

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: فلا تُطِعِ الكافرينَ -يا محمَّدُ- فيما يَدْعونَك إليه مِن عبادةِ آلهتِهم، أو في تَركِ شَيءٍ مِمَّا أُرسِلْتَ به[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا * فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤].

﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾.

أي: وجاهِدِ الكافرينَ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ جِهادًا شَديدًا بكُلِّ طاقتِك بلا فُتورٍ؛ نُصرةً للحَقِّ، وقمعًا للباطِلِ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٤)، ((أضواء =

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هذه الآيةُ عَودٌ إلى الاستِدلالِ على تفرُّدِه تعالى بالخَلقِ[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾.

أي: واللهُ وحْدَه هو الذي أرسَل البَحرينِ وخلَّاهما، لا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ[2].

---

= البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٥).

قال الشنقيطيُّ: (اعلمْ أنَّ لفظةَ: مرَج، تُطلَقُ في اللُّغةِ إطلاقينِ:

الأوَّل: مرَج بمعنى: أرسَلَ وخلَّى، ... وعلى هذا، فالمعنى: أرسَل البحرينِ وخلَّاهما، لا يختلِطُ أحَدُهما بالآخَرِ.

والإطلاقُ الثَّاني: مرَج بمعنى: خلَط، ومنه قولُه تعالى: ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، أي: مختلِطٍ.

فعلى القولِ الأوَّلِ: فالمرادُ بالبحرينِ: الماءُ العَذبُ في جميعِ الدُّنيا، والماءُ المِلحُ في جميعِها.

وقولُه: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾، يعني به: ماءَ الآبارِ والأنهارِ والعيونِ في أقطارِ الدُّنيا. وقولُه: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾، أي: البحرُ المِلحُ؛ كالبحرِ المُحيطِ وغَيرِه مِنَ البحارِ الَّتي هي مِلحٌ أُجاجٌ، وعلى هذا التفسيرِ فلا إشكالَ.

وأمَّا على القولِ الثَّاني -بأنَّ مرَج بمعنى خلَط- فالمعنى: أنَّه يوجَدُ في بعضِ المواضعِ اختلاطُ الماءِ المِلحِ والماءِ العَذبِ في مجرًى واحدٍ، ولا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ، بل يكونُ بيْنهما حاجزٌ مِن قُدرةِ الله تعالى، وهذا محقَّقُ الوُجودِ في بعضِ البلادِ... فسبحانَه جلَّ وعلا ما أعْظَمَه، وما أكمَلَ قُدرتَه!). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ المعنى الأوَّلَ، أي: أرسَلَهما وخلَّاهما مُتجاورينِ مُتلاصقينِ: =

﴿هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾.

أي: أحدُهما شَديدُ الحَلاوةِ، والآخَرُ شَديدُ الملوحةِ والمرارةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ [فاطر: ١٢].

﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ بقُدرتِه بيْنهما حاجِزًا، ومانِعًا حصينًا يمنَعُهما منعًا شديدًا مِن

---

= الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، وأبو السعود، وجلالُ الدينِ المحليُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٢). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٢).

وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ -أنَّ مرَج بمعنى خلَط-: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعانيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧١)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٦).

قال ابن عطية: (والذي أقولُ به في الآيةِ: إنَّ المقصدَ بها التَّنبيهُ على قدرةِ الله تعالى، وإتقانِ خَلقِه للأشياءِ في أنْ بَثَّ في الأرضِ مِياهًا عَذبةً كثيرةً مِن أنهارٍ وعُيونٍ وآبارٍ، وجعَلَها خِلالَ الأُجاجِ وجعَل الأُجاجَ خِلالَها، فتَلْقَى البحرَ قد اكتنَفَتْهُ المياهُ العَذبةُ في ضَفَّتَيهِ، وتَلْقى الماءَ العَذبَ في الجزائرِ ونَحوِها قد اكتنَفَه الماءُ الأُجاجُ، فبَثُّها هكذا في الأرضِ هو خلطُها، وهو قولُه: ﴿مَرَجَ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٤).

وقال القرطبيُّ: (مرَج: خلَّى وخلَط وأرسَل). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٣، ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٥).

الامتِزاجِ والاختِلاطِ ببَعضِهما[١].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالى قُدرتَه في منْعِ الماءِ مِن الاختِلاطِ؛ أتبَعَه القُدرةَ على خَلطِه؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّه مُمتَنِعٌ؛ تقريرًا للفِعلِ بالاختيارِ، وإبطالًا للقَولِ بالطَّبائعِ[٢].

وأيضًا فمُناسَبةُ مَوقِعِ هذا الاستِدلالِ بعْدَ ما قبْلَه أنَّه استِدلالٌ بدَقيقِ آثارِ القُدرةِ في تكوينِ المياهِ وجعْلِها سببَ حياةٍ مُختلِفةِ الأشكالِ والأوضاعِ، ومِن أعظَمِها دقائقُ الماءِ الذي خُلِقَ منه أشرفُ الأنواعِ التي على الأرضِ، وهو نطفةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧١، ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٦).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا﴾ أي: بينَ العذْبِ والمالِحِ ﴿بَرْزَخًا﴾ أي: حاجِزًا، وهو اليَبَسُ مِن الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧).

وقال الشوكاني: (وقيلَ: معنَى «حِجْرًا مَحْجُورًا» ... أنَّها كلمةٌ يقولُها المُتَعَوِّذُ، كأنَّ كلَّ واحدٍ مِن البحرَيْنِ يَتَعَوَّذُ مِن صاحِبِه، ويقولُ له هذا القولَ. وقيلَ: حَدًّا محدودًا. وقيلَ: المرادُ مِن البحرِ العذْبِ: الأنهارُ العظامُ؛ كالنِّيلِ والفُراتِ وجَيْحونَ، ومِن البحرِ الأُجاجِ: البحارُ المشهورةُ، والبرزخُ بيْنَهما: الحائلُ مِن الأرضِ. وقيلَ: معنَى «حِجْراً مَحْجُورًا» حَرامًا مُحَرَّمًا أنْ يَعْذُبَ هذا المالِحُ بالعذْبِ، أو يُمَلَّحَ هذا العذْبُ بالمالِحِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٥).

وتقدَّم ذِكرُ المعنى الثَّاني وهو اختلاطُ الماءِ المِلحِ والماءِ العذبِ في مجرًى واحدٍ، دونَ امتزاجِ أحدِهما بالآخَرِ.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٨).

الإنسانِ؛ بأنَّها سببُ تكوينِ النَّسلِ للبشَرِ؛ فإنَّه يكونُ أوَّلَ أمرِه ماءً، ثم يتخلَّقُ منه البَشرُ العظيمُ(١).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾.

أي: واللهُ وحْدَه هو الذي خلَقَ مِن المَنيِّ إنسانًا ذكَرًا أو أُنثى(٢).

﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾.

أي: فجعَلَ اللهُ الإنسانَ ذا نَسَبٍ، وذا صِهرٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالنَّسبِ سَبعةُ أصنافٍ مِن القرابةِ يجمعُها قولُه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣]، وأنَّ المرادَ بالصهرِ خمسٌ، يجمعُها قولُه تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٣).

وقيل: المرادُ بالنَّسَبِ: الذي لا يحِلُّ نِكاحُه، والمرادُ بالصهرِ: الذي يحِلُّ نكاحُه؛ وممَّن ذهب إلى ذلك في الجملةِ: الفرَّاءُ -وقصَر الصِّهرَ على النَّسبِ الذي يحلُّ نكاحُه، كبناتِ العمِّ والخالِ وأشباهِهنَّ- والكرماني، وابن الجوزي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٢٧٠)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

وقيل: المعنى: فقسَّم البشَرَ قِسمَين: ذَوِي نَسَبٍ ذُكورًا يُنسَبُ إليهم، فيقال: فلانُ بنُ فلان، وفلانةُ بنتُ فلان. وذواتِ صِهرٍ، أي: إناثًا يُصاهَرُ بهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في =

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

أي: ولم يَزَلْ رَبُّك -يا محمَّدُ- مُتَّصِفًا بكَمالِ القُدرةِ، ومِن ذلك قُدرتُه البالِغةُ على خَلقِ ما يشاءُ[1].

---

= الجملةِ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، والقاسميُّ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٥).

وقيل: النَّسبُ أن يجتمِعَ إنسانٌ مع آخَرَ في أبٍ أو أمٍّ، قرُبَ ذلك أو بعُدَ، والصِّهرُ هو الاختِلاطُ بالنكاحِ. وممَّن اختاره: ابنُ عطية، وابنُ جُزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

وقال القرطبي: (النَّسَبُ والصِّهرُ مَعنيانِ يعُمَّانِ كُلَّ قُربى تكونُ بينَ آدميَّينِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٥٩).

وقال ابن عاشور: (﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾: مصدران سمِّي بهما صِنفانِ مِن القرابة، على تقدير: ذا نسَبٍ وصِهرٍ، وشاع ذلك في الكلامِ. والنسَبُ: لا يخلو مِن أُبوَّةٍ وبُنوةٍ وأُخوَّةٍ لأولئك، وبُنُوَّةٍ لتلك الأُخوَّةِ. وأمَّا الصِّهرُ فهو: اسمٌ لِما بيْن المرءِ وبيْن قَرابةِ زوجِه وأقاربِه مِن العَلاقةِ، ويُسمَّى أيضًا مُصاهرةً؛ لأنَّه يكونُ مِن جهتينِ، وهو آصرةٌ اعتباريَّةٌ تتقومُ بالإضافةِ إلى ما تُضافُ إليه، فصِهرُ الرجلِ قَرابةُ امرأتِه، وصِهرُ المرأةِ قَرابةُ زَوجِها؛ ولذلك يقال: صاهَرَ فُلانٌ فُلانًا: إذا تزوَّجَ مِن قرابتِه ولو قرابةً بعيدةً، كقرابة القبيلةِ. وهذا لا يخلو عنه البَشَرُ المتزوِّجُ وغيرُ المتزوِّجِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

وقال ابن عثيمين: (مِن كمالِ قُدرةِ الله سُبحانه وتعالى أنْ خلَقَ من الماءِ بَشَرًا، وقسَّمه إلى قسمينِ؛ هما: النَّسبُ، والصِّهرُ، أي الزوجيَّةُ، وهذه أسبابُ الصِّلةِ بين الناس؛ إمَّا صلةٌ بالوِلادة: النَّسَبُ، أو بالنِّكاحِ: وهو المصاهَرةُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٢٤) بتصرف يسير.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

قال ابن عاشور: (﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾، أي: عظيمَ القُدرةِ، إذ أوجَد مِن هذا الماءِ خَلقًا عَظيمًا صاحِبَ عَقلٍ وتَفكيرٍ، فاختَصَّ باتِّصالِ أواصِرِ النَّسَبِ وأواصِرِ الصِّهرِ، وكان ذلك أصلَ نظامِ الاجتِماعِ البشريِّ لتكوينِ القبائِلِ والشعوبِ وتعاوُنِهم ممَّا جاء بهذه الحضارةِ المرتقيةِ مع =

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ ألَّا يَجعَلَ النِّعَمَ أُمورًا عاديَّةً لا بُدَّ منها، بل يُقَدِّرُها بضِدِّها، فمَثَلًا: طُلوعُ الشَّمسِ على هذه الأرضِ وغُروبُها أمرٌ مُعتادٌ، ومِن أجْلِ كَونِه مُعتادًا لا يُحِسُّ الإنسانُ بأنَّه نِعْمةٌ، لكِنْ قَدِّرْ هذا الشَّيءَ بضِدِّه ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، كذلك فإنَّ خُروجَ النَّفَسِ مِن جِسمِ الإنسانِ أمرٌ مُعتادٌ؛ ولهذا لا يُحِسُّ الإنسانُ بقَدْرِ هذه النِّعْمةِ، لكِنْ قَدِّرْ أنَّ اللهَ تعالى لو شاءَ لحَبَسَه، وحينَئِذٍ يتَبيَّنُ قَدْرُ النِّعْمةِ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ هذه الآيةُ نصٌّ صريحٌ في أنَّ الجهادَ في الدعوةِ إلى اللهِ وإحقاقِ الحقِّ: هو مِن الدِّينِ، وأنَّ إبطالَ الباطلِ مِن شُبَهِ المشبِّهين، وضلالاتِ الضالِّين، وإنكارِ الجاحِدين: هو بالقرآنِ العظيمِ؛ ففيه بيانُ العقائدِ وأدلَّتِها، ورَدُّ الشُّبَهِ عنها، وفيه بيانُ الأخلاقِ محاسِنِها ومساويها، وطُرُقِ الوصولِ إلى التحلِّي بالأولى، والتخلِّي عن الثانيةِ ومعالجتِها، وفيه أصولُ الأحكامِ وعِلَلُها، وهكذا فيه كلُّ ما يَحتاجُ إليه المجاهِدُ به في دينِ اللهِ، فيُستفادُ منها -كما يُستفادُ مِن آياتٍ أخرى غيرِها- أنَّ على الدعاةِ والمرشِدين أنْ تكونَ دعوتُهم وإرشادُهم بالقرآنِ العظيمِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ عندَما يختلفُ عليك الدعاةُ الذين يَدَّعي كلٌّ منهم أنَّه يَدعوك إلى اللهِ تعالى، فانظُرْ مَن يَدعوك بالقرآنِ إلى القرآنِ -ومثلُه ما صَحَّ مِن السُّنَّةِ؛ لأنَّها تفسيرُه وبيانُه- فاتَّبِعْه؛ لأنه هو المُتَّبَعُ

---

= العصورِ والأقطارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٨).

للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في دعوتِه وجهادِه بالقرآنِ، والمُتمثِّلُ لِمَا دلَّتْ عليه أمثالُ هذه الآيةِ الكريمةِ مِن آياتِ القرآنِ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ في مَدِّ الظِّلِّ وقَبضِه نِعمةُ مَعرفةِ أوقاتِ النَّهارِ للصَّلواتِ وأعمالِ النَّاسِ، ونِعمةُ التناوُبِ في انتِفاعِ الجماعاتِ والأقطارِ بفوائِدِ شُعاعِ الشَّمسِ وفوائِدِ الفَيءِ، ووراءَ ذلك عِبرةٌ عِلميَّةٌ كُبرى توضِّحُها قواعِدُ النِّظامِ الشَّمسيِّ، وحَركةُ الأرضِ حولَ الشَّمسِ، وظهورُ الظُّلمةِ والضِّياءِ، ونشأ عن تداوُلِ الظُّلمةِ والنُّورِ نِظامُ اللَّيلِ والنَّهارِ، وعن ذلك نظامُ الفُصولِ، وخطوطُ الطولِ والعَرضِ للكُرةِ الأرضيَّةِ، وبها عُرِفت مناطِقُ الحرارةِ والبرودةِ.

ومِن وراءِ ذلك إشارةٌ إلى أصلِ المخلوقاتِ كيف طَرأَ عليها الإيجادُ بعْدَ أنْ كانت عَدَمًا، وكيف يَمتدُّ وُجودُها في طَورِ نَمائِها، ثمَّ كيف تعودُ إلى العدَمِ تدريجًا في طَورِ انحطاطِها إلى أنْ تصيرَ إلى العدمِ؟ فذلك ممَّا يشيرُ إليه ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، فيكونُ قد حصَلَ مِن التَّذكيرِ بأحوالِ الظِّلِّ في هذه الآيةِ -مع المِنَّةِ والدَّلالةِ على نظامِ القدرةِ- تقريبٌ لحالةِ إيجادِ النَّاسِ، وأحوالِ الشَّبابِ، وتقَدُّمِ السِّنِّ، وأنَّهم عَقِبَ ذلك صائرونَ إلى ربِّهم يومَ البعثِ مَصيرًا لا إحالةَ فيه ولا بُعْدَ -كما يزعمون-، فلمَّا صار قَبضُ الظِّلِّ مثلًا لمصيرِ النَّاسِ إلى اللهِ بالبَعثِ، وصَفَ القَبضَ بـ﴿يَسِيرًا﴾؛ تلميحًا إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤٤] -على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ-، وفي هذا التَّمثيلِ إشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٩).

إلى أنَّ الحياةَ في الدُّنيا كظلٍّ يَمتدُّ ويَنقَبضُ، وما هو إلَّا ظِلٌّ، فهذان المحمَلانِ في الآيةِ مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ العلميَّةِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ فيه الاستِدلالُ بالشَّيءِ على ضِدِّه (وبضِدِّه يُعرَفُ الضِّدُّ)، ويقولُ بعضُهم: (وبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياءُ)[٢]، والمرادُ بالاستِدلالِ بالشَّيءِ على ضِدِّه: النِّعَمُ؛ ففيه مَعرِفةُ قدْرِ النِّعَمِ بمَعرفةِ ضِدِّها، وأنَّ الإنسانَ يستَدِلُّ على مِقدارِ هذه النِّعمةِ بضِدِّها[٣].

٣- جمعَتِ الآيةُ الكريمةُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ استِدلالًا وامتِنانًا؛ فهي دَليلٌ على عِظَمِ قُدرةِ الخالقِ، وهي أيضًا تذكيرٌ بنِعَمِه؛ فإنَّ في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ آياتٍ جَمَّةً لِما يدُلُّ عليه حُصولُ الظُّلمةِ مِن دِقَّةِ نظامِ دَورانِ الأرضِ حوْلَ الشَّمسِ، ومِن دِقَّةِ نِظامِ خَلقِ الشَّمسِ، ولِما يتوقَّفُ عليه وُجودُ النَّهارِ مِن تغيُّرِ دورانِ الأرضِ، ومِن فوائِدِ نورِ الشَّمسِ، ثمَّ ما في خلالِ ذلك مِن نظامِ النَّومِ المناسِبِ للظُّلمةِ حين ترتخي أعصابُ النَّاسِ فيَحصُلُ لهم بالنَّومِ تجَدُّدُ نشاطِهم، ومِن الاستعانةِ على التستُّرِ بظُلمةِ اللَّيلِ، ومِن نِظامِ النَّهارِ مِن تجَدُّدِ النَّشاطِ وانبعاثِ النَّاسِ للعَمَلِ وسآمتِهم مِنَ الدَّعةِ، مع ما هو ملائِمٌ لذلك مِن النُّورِ الذي به إبصارُ ما يَقصِدُه العامِلون[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٣).

(٢) هذا عجُزُ بيتٍ للمتنبي، وهو:

ونَذِيمُهُم وبهم عَرَفْنا فَضْلَه ... وبِضِدِّها تَتَبَيَّنُ الأشياءُ

يُنظر: ((شرح ديوان المتنبي)) للعكبري (١/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥).

نُشُورًا ﴾، وقال: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [يونس: ٦٧]، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، فانظُرْ إلى هاتين الآيتينِ وما تضَمَّنَتاه مِن العِبرِ والدَّلالاتِ على ربوبيَّةِ اللهِ وحِكمتِه؛ كيف جعل اللَّيلَ سَكنًا ولِباسًا يغشى العالَمَ فتَسكُنُ فيه الحَرَكاتُ، وتأوي الحيواناتُ إلى بيوتِها، والطيرُ إلى أوكارِها، وتستجِمُّ فيه النُّفوسُ وتستريحُ مِن كَدِّ السَّعيِ والتَّعَبِ؟! حتى إذا أخَذَت منه النُّفوسُ راحتَها وسُباتَها، وتطَلَّعَت إلى معايشِها وتصَرُّفِها، جاء فالِقُ الإصباحِ سُبحانَه وتعالى بالنَّهارِ يَقدُمُ جَيشَه بشيرُ الصَّباحِ، فهزَم تلك الظُّلمةَ، ومَزَّقَها كُلَّ مُمَزَّقٍ، وكشَفَها عن العالَمِ، فإذا هم مُبصِرون، فانتشر الحيوانُ، وتصَرَّف في معاشِه ومصالحِه، وخرجت الطيورُ مِن أوكارِها، فيا له مِن مَعادٍ ونشأةٍ دالٍّ على قدرةِ الله سُبحانَه على المعادِ الأكبرِ! وتكَرُّرُه ودوامُ مُشاهَدةِ النُّفوسِ له بحيثُ صار عادةً ومألَفًا منَعَها مِن الاعتِبارِ به والاستِدلالِ به على النَّشأةِ الثَّانيةِ وإحياءِ الخَلقِ بعْدَ موتِهم، ولا ضَعْفَ في قدرةِ القادِرِ التَّامِّ القُدرةِ، ولا قُصورَ في حكمتِه ولا في عِلمِه يوجِبُ تخلُّفَ ذلك، ولكِنَّ اللهَ يَهدي مَن يشاءُ، ويُضِلُّ مَن يشاءُ، وهذا أيضًا مِن آياتِه الباهرةِ: أن يُعميَ عن هذه الآياتِ الواضحةِ البَيِّنةِ مَن شاء مِن خَلقِه، فلا يهتديَ بها ولا يُبصِرَها، وبهذا وأمثالِه يُعرَفُ اللهُ عزَّ وجَلَّ، ويُشكَرُ ويُحمَدُ، ويُتضَرَّعُ إليه ويُسألُ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ النَّومَ واليقظةَ أُنموذجانِ للمَوتِ والنُّشورِ[2].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٦٤).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ قُدرةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في إرسالِ الرِّياحِ؛ لأنَّ هذه الرِّياحَ لو اجتمَعَ الخلْقُ كلُّهم على أنْ يأتوا بواحدةٍ منها، ما استطاعوا إلى ذلك سَبيلًا، مع أنَّ هذه الرِّياحَ في بعضِ الأحيانِ تقتَلِعُ الأشجارَ، وتُدمِّرُ المنازِلَ، هذه القوَّةُ العظيمةُ لو أتيتَ بمولِّداتِ الدُّنيا كلِّها لِتَخلُقَ مِثلَ هذا الهواءَ، ما حَصَلَ هذا[1].

٧- إرسالُ المُبَشِّراتِ والمُقَدِّماتِ بيْن يدَيِ الأشياءِ لقوَّةِ الرَّجاءِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾[2].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ هو أصلٌ في الطَّهارةِ بالماءِ[3]، وفيه دَلالةٌ على أنَّ الماءَ يُطَهِّرُ مِن الحَدَثِ والنَّجاسةِ[4].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ أنَّ الأصلَ في الماءِ الطَّهارةُ، ونحن نَعرفُ أنَّ الماءَ الموجودَ في الأرضِ كلُّه مِن السماءِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، فإذا كان مِن السَّماءِ فإنَّ الأصلَ فيما نَبَعَ مِن الأرضِ، أو فيما نَزَلَ مِن السَّماءِ أنْ يكونَ طَهورًا[5]، فكلُّ ماءٍ نزَلَ مِن السَّماءِ فهو طَهورٌ[6].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ حِكمةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بكَونِ المطرِ يَنزِلُ مِن السَّماءِ، لو كان هذا المطرُ -الذي تحيا به الأرضُ- يأتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((شرح العمدة - كتاب الطهارة)) لابن تيمية (ص: ٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).

(٦) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢٠٦).

جريًا على سَطحِ الأرضِ ما كان فيه هذا النَّفعُ؛ لأنَّه لا يَصِلُ إلى قِمَمِ الجبالِ إلَّا بعدَ أنْ يُغرِقَ ما تحتَها، لكنَّه إذا نَزَلَ مِن فوقٍ أَتَى على قِمَمِ الجبالِ، وأَتَى على ما هو أسفَلَ منها، وهذا مِن حِكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بذلك[1].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ لِماءِ المطرِ خاصيَّةُ الإحياءِ لكُلِّ أرضٍ؛ لأنَّه لخُلوِّه مِن الجراثيمِ ومِن بعضِ الأجزاءِ المعدِنيَّةِ والترابيَّةِ التي تشتَمِلُ عليها مياهُ العُيونِ ومياهُ الأنهارِ والأوديةِ، كان صالحًا بكُلِّ أرضٍ وبكلِّ نباتٍ على اختِلافِ طِباعِ الأرَضينَ والمنابِتِ[2].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا * لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ إخبارٌ أنَّه سُبحانَه يَجعَلُ حياةَ بعضِ مخلوقاتِه ببَعضٍ[3].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ إيماءٌ إلى تقريبِ إمكانِ البَعثِ[4].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ[5].

١٥- نستفيدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ إثباتَ الحِكمةِ في أفعالِ اللهِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِهِ﴾، وهذه «اللامُ» هي لامُ التَّعليلِ، وهذا دليلٌ مِن مئاتِ الأدلَّةِ على إثباتِ الحِكمةِ؛ فيكونُ فيه رَدٌّ على طائفةٍ مِن طوائفِ المبتدِعةِ وهم الجهميَّةُ؛ لأنَّهم يَرَون أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١١).

فِعْلَ اللهِ لمجرَّدِ المشيئةِ ليس لعلَّةٍ، فإنَّه لا يُرَجِّحُ شيئًا على شَيءٍ لحِكمةٍ، إنَّما لمجرَّدِ المشيئةِ، ولا يَفعَلُ شيئًا إلَّا لمجرَّدِ المشيئةِ[1]!!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ جوازُ ذِكْرِ بَعضِ الفوائدِ، وأنَّ الاقتِصارَ على البَعضِ لا يُعَدُّ نقصًا، فهنا ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى مِن فوائدِ المطرِ فائدتينِ فقط: إحياءَ الأرضِ، وسَقْيَ الأنعامِ والأناسيِّ، مع أنَّ للمَطرِ فوائدَ أُخرى؛ كالتطهُّرِ به مثلًا، فالتطهُّرُ به ليس سَقيًا، وليس إحياءً للأرضِ، وغير ذلك أيضًا مِن الفوائدِ، لكنَّه لَمَّا كان أشَدُّ ما يكونُ ضرورةً للمَطرِ هو إحياءَ الأرضِ بالنباتِ؛ لِيأكُلَ الناسُ والأنعامُ، وكذلك السَّقيُ؛ فالطعامُ والشرابُ ضرورةٌ مِن ضرورياتِ الحياةِ بالنِّسبةِ للأنعامِ وبالنِّسبةِ للناسِ، فاقتصَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ على ذِكرِ هاتينِ الفائدتينِ فقط؛ لأنَّهما هما الفائدتان الضروريَّتانِ الحاصِلتان بنزولِ المطرِ[2].

١٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ يؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ الماءَ المنزَّلَ مِن السَّماءِ لا يختلفُ مِقدارُه، وإنما تختلفُ مقاديرُ توزيعِه على مواقعِ القَطرِ؛ فعن ابنِ عباس: (ما عامٌ أقَلَّ مطرًا مِن عامٍ، ولكنَّ اللهَ قَسَمَ ذلك بيْن عِبادِه على ما شاء. وتلا هذه الآيةَ)[3]، فحصَلَ مِن هذا أنَّ المقدارَ الذي تفضَّل اللهُ به مِن المطَرِ على هذه الأرضِ لا تختَلِفُ كَمِّيَّتُه، وإنَّما يختَلِفُ توزيعُه. وهذه حقيقةٌ قَرَّرها عُلَماءُ حوادثِ الجوِّ في القرن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٧/ ٤٦٨)، والحاكم (٣٥٢٠)، والبيهقي (٦٧١٧) واللفظ له. صحَّحه الحاكم على شرط الشيخين، وصحَّحه الألباني على شرط الشيخين في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٢٤٦١).

الحاضِرِ، فهو من معجزاتِ القُرآنِ العلميَّةِ[١].

١٨- ثبوتُ الحكمةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾، فـ «اللامُ» للتَّعليلِ[٢].

١٩- إبطالُ مذهَبِ الجبريَّةِ؛ لِقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾، فجعَلَ هذا باختيارِهم؛ أبَوا إلَّا أن يكفُروا بذلك[٣].

٢٠- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ قولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا﴾ يدخُلُ فيه مَن قال: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، ومَن قال: مُطِرْنا بالبُخارِ، يعني: أنَّ البحرَ يتصاعَدُ منه بُخارُ الماءِ ثمَّ يتجَمَّعُ، ثمَّ يَنزِلُ على الأرضِ بمُقتضى الطَّبيعةِ لا بفِعلِ فاعلٍ، وأنَّ المطَرَ منه[٤]!

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ أنَّ مِن إكرامِ اللهِ تعالى عبدَه تحميلَه أعباءَ الرِّسالةِ وحْدَه[٥].

٢٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا﴾ المرادُ مِن ذلك تعظيمُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وذلك لوُجوهٍ:

**أحدُها**: كأنَّه تعالى بيَّن له أنَّه مع القُدرةِ على بَعثةِ رَسولٍ ونَذيرٍ في كُلِّ قَريةٍ، خَصَّه بالرِّسالةِ وفضَّلَه بها على الكُلِّ؛ ولذلك أتبَعَه بقَولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٥).

ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: لا تُوافِقْهم.

**وثانيها**: المرادُ: ولو شِئْنا لخفَّفْنا عنك أعباءَ الرِّسالةِ إلى كُلِّ العالَمينَ، ولَبَعَثْنا في كُلِّ قَريةٍ نَذيرًا، ولكِنَّا قصَرْنا الأمرَ عليك، وأجلَلْناك وفضَّلْناك على سائرِ الرُّسُلِ، فقابِلْ هذا الإجلالَ بالقوَّةِ في الدِّينِ.

**وثالثها**: أنَّ الآيةَ تقتضي مَزْجَ اللُّطفِ بالعُنفِ؛ لأنَّها تدُلُّ على القُدرةِ على أن يَبعَثَ في كُلِّ قريةٍ نَذيرًا مِثلَ محمَّدٍ، وقَولُه: ﴿وَلَوْ﴾ يدُلُّ على أنَّه سُبحانَه لا يفعَلُ ذلك، فبالنَّظَرِ إلى الأوَّلِ يحصُلُ التأديبُ، وبالنظَرِ إلى الثاني يحصُلُ الإعزازُ[1].

٢٣- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ كما لا تجوزُ طاعةُ الكافرين في شيءٍ ممَّا يُمليه عليهم كُفرُهم؛ كذلك لا تجوزُ طاعةُ العصاةِ في شيءٍ ممَّا تُمليه عليهم معصيتُهم؛ لأنَّ الجميعَ فيه مخالفةٌ لدينِ اللهِ، وكما يُجاهَدُ أهلُ الكُفرِ بالقرآنِ العظيمِ الجهادَ الكبيرَ، كذلك يُجاهَدُ به أهلُ المعصيةِ؛ لأنَّه كتابُ الهدايةِ لكلِّ ضالٍّ، والدَّعوةِ لكل مُرشدٍ، وفي ذِكرِ الكافرين تنبيهٌ على العصاةِ مِن بابِ التَّنبيهِ بالأعلى على الأدنى؛ لاشتِراكِهم في العلَّةِ، وهي المخالَفةُ[2].

٢٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ النهيَ عن الشَّيءِ لا يقتضي كونَ المنهيِّ عنه مُشتغِلًا به[3].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أنَّه قد سمَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٤).

تعالى الجهادَ بالقرآنِ جهادًا كبيرًا، وفي هذا مَنقبةٌ كبرى للقائمِين بالدَّعوةِ إلى اللهِ بالقُرآنِ العظيمِ، وفي ذلك نِعمةٌ عظيمةٌ مِن اللهِ عليهم حيثُ يَسَّرَهم لهذا الجهادِ، حتى لَيَصِحُّ أن يُسَمَّوا بهذا الاسمِ الشَّريفِ «مجاهدون»؛ فحُقَّ عليهم أنْ يُقَدِّروا هذه النِّعمةَ، ويُؤدُّوا شُكرَها بالقَولِ والعَمَلِ والإخلاصِ، والصَّبرِ والثَّباتِ واليقينِ[١].

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ يدُلُّ على أنَّ الله سُبحانَه جعل الماءَ سَبَبَ الاجتِماعِ والتآلُفِ[٢].

٢٧- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ فيه إشارةٌ إلى المحرَّماتِ بالسَّبَبِ والنَّسَبِ، وأنَّ كُلَّ ذلك تولَّد مِن الماءِ[٣].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ بيانُ خطأِ مَن يُسمِّي أقاربَ الزَّوجِ أو الزَّوجةِ «أنسابي» لأنَّه تزوَّجَ منهم، وهذا خطأٌ على اللُّغةِ؛ فإنَّ الأنسابَ هم القَرابةُ مِن قِبَلِ الأبِ أو مِن قِبَلِ الأمِّ، والأرحامَ كذلك هم القَرابةُ مِن قِبَلِ الأبِ أو مِن قِبَلِ الأمِّ، وأمَّا أقاربُ الزَّوجينِ فإنهم يُسمَّون أصهارًا لا أنسابًا؛ فقد جَعَلَ اللهُ تعالى الصِّلةَ بيْن البشَرِ بهذينِ الأمْرينِ: النَّسبِ، والصِّهرِ، وهما قَسيمانِ، أي: أنَّ بعضَهما قسيمٌ للآخَرِ، ومُباينٌ له[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٥١٦).

ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، فيه انتِقالٌ مِن إثباتِ صِدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإثباتِ أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ أنزَلَه على رَسولِه، وصِفاتِ الرُّسلِ وما تَخلَّلَ ذلك مِنَ الوَعيدِ، وهو مِن هذا الاعتِبارِ متَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢] الآيةَ. وفيه انتِقالٌ إلى الاستِدلالِ على بُطلانِ شِرْكِهم، وإثباتِ الوَحدانيَّةِ للهِ، وهو مِن هذه الجهةِ متَّصِلٌ بقولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ [الفرقان: ٣] الآيةَ[١].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ ...﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ[٢].

- وأصْلُ النَّظمِ: (ألمْ تَنظُرْ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه ربُّك؟)، فغُيِّر النَّظمُ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾؛ إشعارًا بأنَّه المعقولُ مِن هذا الكلامِ؛ لوُضوحِ بُرهانِه، وهو دَلالةُ حُدوثِه وتَصرُّفِه على الوجهِ النَّافعِ بأسبابٍ مُمكِنةٍ، على أنَّ ذلك فِعلُ الخالِقِ الحَكيمِ كالمُشاهَدِ المَرْئيِّ، فكيف بالمَحسوسِ منه؟! ولو قيل: (ألمْ تَرَ إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه؟) كان الانتِقالُ مِنَ الأثرِ إلى المؤَثِّرِ، والَّذي عليه التِّلاوةُ عكْسُه، والمَقامُ يَقتَضِيه؛ لأنَّ الكلامَ في تَقريعِ القَومِ، وتَجهيلِهم في اتِّخاذِهمُ الهوَى إلهًا مع وُضوحِ هذه الدَّلائلِ؛ ولذلك جَعَل ما يدُلُّ على ذاتِه مُقدَّمًا على أفعالِه في سائِرِ آياتِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ [الفرقان: ٤٧]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الفرقان: ٤٨]، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا﴾ [الفرقان: ٥١][٣]. وأيضًا لعلَّ تَوجيهَ الرُّؤيةِ إليه سبحانه وتعالى مع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٣٨، ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٤، ٢٤٥).

أنَّ المرادَ تَقريرُ رؤْيَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لكيفيَّةِ مَدِّ الظِّلِّ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ نظَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غَيرُ مَقصورٍ على ما يُطالِعُه مِنَ الآثارِ والصَّنائعِ، بل مَطمَحُ أنظارِه مَعرِفةُ شُؤونِ الصَّانعِ المَجيدِ(١).

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ معَ الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ﴿رَبِّكَ﴾؛ لتَشريفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وللإيذانِ بأنَّ ما يَعقُبُه مِن آثارِ رُبوبيَّتِه ورحمتِه تعالى(٢).

- وقُوبِلَ قَولُه: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ بقَولِه: ﴿سَاكِنًا﴾، ومقابِلُ السُّكونِ الحرَكةُ؛ فيكونُ إطلاقُ مَدِّ ظِلٍّ وبَسْطِه على الحركةِ مِن بابِ تَسميةِ الشَّيءِ باسمِ مُلابِسِه أو سببِه. وعَدَل عن (متحرِّكًا) إلى (مَدَّ)، وهو أَظهَرُ مِن (مَدَّ) في تَناوُلِه الانبِساطَ والامتِدادَ؛ ليُدمِجَ فيه معنَى الانتِفاعِ المقصودِ بالذَّاتِ، وهو معرفةُ أوقاتِ الصَّلَواتِ؛ فإنَّ اعتِبارَ الظِّلِّ فيها بالامتِدادِ دُونَ الانبِساطِ، وتَمَّمَ معنَى الإدماجِ بقَولِه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾، أيْ: بالتَّدريجِ والمَهَلِ لمعرفةِ السَّاعاتِ والأوقاتِ، وفيه لَمحةٌ مِن معنَى قَولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٨](٣)؛ فلَمَّا كان مَدُّ الظِّلِّ يُشبِهُ صورةَ التَّحرُّكِ أَطلَقَ على انتِفاءِ الامتِدادِ اسمَ السُّكونِ بأنْ يُلازِمَ مِقْدارًا واحدًا لا يَنقُصُ ولا يَزيدُ. ودلَّتْ مُقابَلةُ قَولِه: ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ بقَولِه: ﴿لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ على حالةٍ مَطْويَّةٍ مِنَ الكلامِ؛ وهي حالةُ عُمومِ الظِّلِّ جميعَ وجْهِ الأرضِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١).

- وجُملةُ ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾ جملةٌ معترِضةٌ للتَّذكيرِ بأنَّ في الظِّلِّ مِنَّةً[1]، وأيضًا قدِ اعتَرضتْ بيْن المَعطوفَينِ؛ للتَّنبيهِ مِن أوَّلِ الأمرِ على أنَّه لا مَدخَلَ فيما ذُكِر مِنَ المَدِّ للأسبابِ العاديَّةِ، وإنَّما المؤثِّرُ فيه المَشيئةُ والقُدرةُ. ومَفعولُ المشيئةِ مَحذوفٌ، أي: ولو شاء سُكونَه لجَعَله ساكنًا، أي: ثابتًا على حالِه مِنَ الطُّولِ والامتِدادِ، وإنَّما عُبِّر عن ذلك بالسُّكونِ؛ لِما أنَّ مُقابِلَه الَّذي هو تَغيُّرُ حالِه حسَبَ تَغيُّرِ الأوضاعِ بيْن الظلِّ وبيْن الشَّمسِ يُرَى رأيَ العَينِ حرَكةً وانتِقالًا، وحاصِلُه: أنَّه لا يَعتَريهِ اختِلافُ حالٍ بألَّا تَنسَخَه الشَّمسُ[2].

- وجُعِل امتِدادُ الظِّلِّ لاختِلافِ مَقاديرِه كامتِدادِ الطَّريقِ، وعلاماتُ مقاديرِه مثلَ صُوَى الطَّريقِ (أي: الأعلامِ المنصوبةِ التي يُستدلُّ بها عليه)، وجُعِلَتِ الشَّمسُ -مِن حيثُ كانتْ- سببًا في ظهورِ مَقاديرِ الظِّلِّ كالهادي إلى مَراحِلَ، بطريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ؛ فكما أنَّ الهادي يُخبِرُ السَّائرَ أين يَنزِلُ مِنَ الطَّريقِ، كذلك الشَّمسُ بتَسبُّبِها في مَقاديرِ امتِدادِ الظِّلِّ تُعرِّفُ المُستدِلَّ بالظِّلِّ بأوقاتِ أعمالِه ليَشرَعَ فيها. وتَعديةُ ﴿دَلِيلًا﴾ بحرف (على) تُفيدُ أنَّ دَلالةَ الشَّمسِ على الظِّلِّ هنا دَلالةُ تَنبيهٍ على شَيءٍ قد يَخفَى[3].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ الالتِفاتُ إلى نُونِ العظَمةِ؛ لِمَا في الجَعْلِ المَذكورِ العاري عنِ التَّأثيرِ مع ما يُشاهَدُ بيْنَ الشَّمسِ والظِّلِّ مِنَ الدَّورانِ المُطَّردِ المُنبئِ عنِ السَّببيَّةِ: مِن مَزيدِ دَلالةٍ على عِظَمِ القُدرةِ، ودِقَّةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٢).

الحكمةِ، وهو السِّرُّ في إيرادِ كلمةِ التَّراخي[١]. وقيل: الالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾؛ لأنَّ ضميرَ المتكلِّمِ أَدخَلُ في الامتِنانِ مِن ضَميرِ الغائبِ، فهو مُشعِرٌ بأنَّ هذا الجَعْلَ نِعمةٌ، وهي نعمةُ النُّورِ الَّذي به تَمييزُ أحوالِ المَرئيَّاتِ؛ وعليه فقولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ ارتِقاءٌ في المِنَّةِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، وأفادَتْ (ثُمَّ) أنَّ مَدلولَ المَعطوفِ بها مُتَراخٍ في الرُّتبةِ عن مَدلولِ المعطوفِ عليه، شأنُ (ثُمَّ) إذا عَطَفَتِ الجملةَ. ومعنَى تَراخي الرُّتبةِ أنَّها أبعَدُ اعتِبارًا، أي: أنَّها أرفَعُ في التَّأثيرِ أو في الوُجودِ؛ فإنَّ وُجودَ الشَّمسِ هو عِلَّةُ وُجودِ الظِّلِّ للأجسامِ الَّتي على الأرضِ، والسَّببُ أرفَعُ رُتبةً مِنَ المُسبَّبِ، أي: أنَّ اللهَ مَدَّ الظِّلَّ بأنْ جَعَل الشَّمسَ دليلًا على مَقاديرِ امتِدادِه[٣].

- وموقعُ (ثُمَّ) في هذَينِ المَوضعَينِ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا * ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ لبيانِ تَفاضُلِ الأمورِ الثَّلاثةِ (مَد الظِّل، وسُكونه، وقَبْضه): كأن الثَّاني أَعظَمُ مِنَ الأوَّلِ، والثَّالثَ أَعظَمُ منهما -لأنَّ في إزالةِ الظِّلِّ بالشَّمسِ دَليلًا على جُودِه؛ فلولا الشَّمسُ ما عُرِفَ الظِّلُّ-؛ تشبيهًا لتَباعُدِ ما بيْنَهما في الفضلِ بتَباعُدِ ما بيْنَ الحَوادثِ في الوقتِ، أو لتَفاضُلِ مَبادئِ أوقاتِ ظُهورِها. أو أنَّ «ثمَّ» تُفيدُ التَّراخيَ في الزَّمانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٣).

٢- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الزَّمانيِّ؛ لِما أنَّ في بيانِ كَونِ القبضِ والمدِّ مُرتَّبَينِ دائِرَينِ على قُطبِ مَصالِحِ المَخلوقاتِ مَزيدَ دَلالةٍ على الحكمةِ الرَّبَّانيَّةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ للتَّراخي الرُّتْبيِّ، أي: أزَلْناه بعْدَ ما أنشَأْناهُ مُمتَدًّا، ومَحَوْناه بمَحْضِ قُدرتِنا ومَشيئتِنا عِندَ إيقاعِ شُعاعِ الشَّمسِ مَوقعَه، مِن غَيرِ أن يكونَ له تأثيرٌ في ذلك أصلًا، وإنَّما عَبَّر عنه بالقَبضِ المُنبئِ عن جمْعِ المُنبسِطِ وطَيِّه؛ لِمَا أنَّه قد عَبَّر عن إحداثِه بالمَدِّ الَّذي هو البَسْطُ طُولًا[1].

- وجُملةُ ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا...﴾ إلخ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾، أو على جُملةِ ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ لأنَّ قَبضَ الظِّلِّ مِن آثارِ جعْلِ الشَّمسِ دليلًا على الظِّلِّ. و(ثمَّ) الثَّانيةُ مِثلُ الأُولى مُفيدةٌ التَّراخيَ الرُّتبيَّ؛ لأنَّ مَضمونَ جملةِ ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ أهَمُّ في الاعتِبار بمَضمونِها مِن مَضمونِ ﴿جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾؛ إذْ في قَبضِ الظِّلِّ دَلالةٌ مِن دَلالةِ الشَّمسِ هي عكْسُ دَلالتِها على امتِدادِه؛ فكانت أَعجَبَ؛ إذْ هي عمَلٌ ضِدٌّ للعملِ الأوَّلِ، وصُدورُ الضِّدَّينِ مِنَ السَّببِ الواحدِ أَعجَبُ مِن صُدورِ أحدِهما السَّابقِ في الذِّكرِ[2].

- قولُه: ﴿إِلَيْنَا﴾ للتَّنصيصِ على كَونِ مَرجعِه إليه تعالى، كما أنَّ حُدوثَه منه عزَّ وجلَّ[3].

- قولُه: ﴿قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا﴾ أفادَ قولُه: ﴿إِلَيْنَا﴾ وصِيغةُ الجَمعِ: القَبضَ التَّامَّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾[١] [فاطر: ٢].

- ومَوقعُ وصْفِ القَبضِ بـ (يَسيرٍ) هنا أنَّه أُريدَ أنَّ هذا القَبضَ يَحصُلُ ببُطْءٍ دُونَ طَفْرةٍ؛ فإنَّ في التَّريُّثِ تَسهيلًا لقَبضِه؛ لأنَّ العملَ المُجَزَّأَ أَيسَرُ على النُّفوسِ مِنَ المُجتمِعِ غالِبًا، فأُطلِقَ اليُسرُ، وأُريدَ به لازِمُ معناهُ عُرْفًا، وهو التَّدريجُ ببُطْءٍ، على طريقةِ الكِنايةِ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ بيانٌ لبعضِ بَدائعِ آثارِ قُدرتِه تعالى وحِكمتِه ورَوائعِ أحكامِ رحمتِه ونِعَمِه الفائِضةِ على الخَلْقِ. وتَلوينُ الخِطابِ لتَوفيةِ مَقامِ الامتِنانِ حقَّه، واللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿جَعَلَ﴾، وتَقديمُها على مَفعولَيْهِ؛ للاعتِناءِ ببَيانِ كَونِ ما يَعْقُبُه مِن مَنافعِهم، وفي تَعقيبِ بَيانِ أحوالِ الظِّلِّ ببَيانِ أحكامِ اللَّيلِ -الَّذي هو ظِلُّ الأرضِ- مِن لُطْفِ المَسلَكِ ما لا مَزيدَ عليه[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ التِفاتٌ؛ حيث رَجَع أسلوبُ الكلامِ مِنَ المُتكلِّمِ إلى الغَيبةِ[٤].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ جُزْأَيِ الجُملةِ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾ قَصْرُ إفرادٍ، أي: لا يَشْركُه غَيرُه في جَعْلِ اللَّيلِ والنَّهارِ، أمَّا كَونُ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤).

الجَعلِ المذكورِ بخَلْقِ اللهِ فهُم يُقِرُّون به، ولكنَّهم لَمَّا جَعَلوا له شُركاءَ على الإجمالِ أُبطِلَتْ شَرِكَتُهم بقَصرِ التَّصرُّفِ في الأزمانِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّه إذا بَطَل تَصرُّفُهم في بعضِ الموجوداتِ اختَلَّتْ حقيقةُ الإلهيَّةِ عنهم؛ إذِ الإلهيَّةُ لا تَقبَلُ التَّجزئةَ(١).

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ شُبِّه ما يَستُرُ مِن ظَلامِ اللَّيلِ باللِّباسِ السَّاتِرِ، على طَريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ(٢).

- قولُه: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾ قيل: عبَّر عنِ النَّومِ بالسُّباتِ الَّذي هو الموتُ -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-؛ لِما بيْنهما مِنَ المُشابَهةِ التَّامَّةِ في انقطاعِ أحكامِ الحياةِ(٣).

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾، أيْ: جعَل النَّهارَ زمانَ بَعثٍ ونُشورٍ مِن ذلك السُّباتِ كبَعثِ الموتَى؛ على حَذفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مقامَه، أو: جعَل النَّهارَ نفْسَ البَعثِ على طَريقِ المبالَغةِ(٤). والنُّشورُ هنا الإحياءُ؛ شَبَّهَ اليَقظةَ به؛ لِيَتطابَقَ الإحياءُ مع الإماتةِ اللَّذَينِ يَتضمَّنُهما النَّومُ والسُّباتُ(٥).

- وإعادةُ فِعلِ (جَعَل) في قَولِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ دُونَ أن يُعادَ في قَولِه: ﴿وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا﴾ مُشعِرةٌ بأنَّه تَنبيهٌ إلى أنَّه جَعْلٌ مُخالِفٌ لجَعلِ اللَّيلِ لِباسًا؛ وذلك أنَّه أخبَرَ عنه بقوله: ﴿نُشُورًا﴾، والنُّشورُ: بَعثُ الأمواتِ، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٤، ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٤).

إدماجٌ[١] للتَّذكيرِ بالبَعثِ، وتَعريضٌ بالاستِدلالِ على مَن أَحالُوه بتَقريبِه بالهُبوبِ في النَّهارِ. والنُّشورُ: الحياةُ بعْدَ المَوتِ، وهو هنا يَحتمِلُ مَعنيَينِ: أن يكونَ مُرادًا به البُروزُ والانتِشارُ؛ فيكونَ ضِدَّ اللِّباسَ في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾، فيكونَ الإخبارُ به عنِ النَّهارِ حقيقيًّا، والمِنَّةُ في أنَّ النَّهارَ يَنتشِرُ فيه النَّاسُ لحَوائجِهم واكتِسابِهم. ويحتمِلُ أن يكونَ مرادًا به بَعْثُ الأجسادِ بعْدَ مَوتِها؛ فيكونَ الإخبارُ على طريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قُدِّمَ الاعتِبارُ بحالةِ سَترِ اللَّيلِ على الاعتِبارِ بحالةِ النَّومِ؛ لرَعيِ مناسَبةِ اللَّيلِ بالظِّلِّ، بخِلافِ قَولِه في سُورةِ النَّبأ: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجًا * وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا * وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا﴾ [النبأ: ٨-١٠]؛ فإنَّ نِعمةَ النَّومِ أهَمُّ مِن نِعمةِ السَّترِ، ولأنَّ المناسَبةَ بيْنَ نِعمةِ خلْقِ الأزواجِ وبيْنَ النَّومِ أَشَدُّ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ فيه احتِباكٌ[٤]؛ حيثُ ذَكَر السُّباتَ أوَّلًا دليلًا على الحركةِ ثانيًا، والنُّشورَ ثانيًا

---

(١) الإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشَّيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِى ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٥، ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٥).

(٤) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، =

دليلًا على الطَّيِّ والسُّكونِ أوَّلًا[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ استِدلالٌ على الانفِرادِ بالخَلْقِ، وامتِنانٌ بتكوينِ الرِّياحِ والسُّحبِ والمطرِ، ومَردودُ الاستِدلالِ قَصْرُ إرسالِ الرِّياحِ وما عُطِف عليه على اللهِ تعالى؛ إبطالًا لادِّعاءِ الشُّرَكاءِ له في الإلهيَّةِ بنَفيِ الشَّرِكةِ في التَّصرُّفِ في هذه الكائناتِ، وذلك ما لا يُنكِرُه المشْركونَ، ولكنَّهم لَمَّا جَعَلوا له شُركاءَ على الإجمالِ أُبطِلَت شَرِكتُهم بقَصرِ التَّصرُّفِ في الرِّياحِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّه إذا بَطَل تَصرُّفُهم في بعضِ المَوجوداتِ اختلَّتْ حقيقةُ الإلهيَّةِ عنهم؛ إذِ الإلهيَّةُ لا تَقبَلُ التَّجزئةَ[٢].

- وجملةُ ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ عطْفٌ على جملةِ ﴿أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾؛ فهي داخلةٌ في حَيِّزِ القَصرِ، أي: وهو الَّذي أَنزَل مِنَ السَّماءِ ماءً طَهورًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ التِفاتٌ إلى نونِ العَظَمةِ؛ لإبرازِ كَمالِ العنايةِ بالإنزالِ؛ لأنَّه نتيجةُ ما ذُكِر مِن إرسالِ الرِّياحِ[٤]. وأيضًا الالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قَولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾، ﴿لِنُحۡيِۦَ﴾، ﴿وَنُسۡقِيَهُۥ﴾، ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ﴾؛ لِمَا في إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ، وإحياءِ البلدِ المَيْتِ به، وسَقْيِه للنَّاسِ والدَّوابِّ، وتَصريفِ الماءِ: مِن مَزيدِ دَلالةٍ على عِظَمِ القُدرةِ، ودِقَّةِ الحِكمةِ،

---

= إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤).

ولأنَّ ضَميرَ المُتكلِّمِ أَدخلُ في الامتِنانِ مِن ضَميرِ الغائبِ؛ فهو مُشعِرٌ بأنَّ (الإنزالَ، والإحياءَ، والسَّقيَ، والتصريفَ) نِعمةٌ[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ وصَفَ الماءَ بالطَّهارةِ، وعلَّلَ إنزالَه بالإحياءِ والسَّقْيِ؛ لأنَّه لَمَّا كان سَقْيُ الأناسيِّ مِن جملةِ ما أنزَلَ له الماءَ، وصَفَه بالطَّهورِ إكرامًا لهم، وتَتْميمًا للمِنَّةِ عليهم، وبيانًا أنَّ مِن حقِّهم حينَ أرادَ اللهُ لهمُ الطَّهارةَ، وأَرادَهم عليها أن يؤْثِرُوها في بَواطِنِهم ثمَّ في ظَواهِرِهم، وأنَّ يَرْبَؤوا بأنفُسِهم عن مُخالَطةِ القاذُوراتِ كلِّها، كما رَبَأ بهم ربُّهُم. وقيل: الظَّاهرُ في قَولِه: ﴿مَآءً طَهُورًا﴾ أن يكونَ للمُبالَغةِ في طَهارتِه، وجِهةُ المُبالَغةِ: كَونُه لم يَشُبْهُ شَيءٌ بخِلافِ ما نَبَع مِنَ الأرضِ ونَحوِه؛ فإنَّه تَشوبُه أجزاءٌ أرْضيَّةٌ مِن مَقرِّه أو مَمَرِّه أو ممَّا يُطرَحُ فيه، ويَجوزُ أن يوصَفَ بالاسمِ وبالمَصدرِ[2]. والطَّهورُ -بفَتحِ الطَّاءِ- مِن أمثلةِ المُبالَغةِ في الوَصفِ بالمصدرِ، ووصْفُ الماءِ بالطَّهورِ يَقتَضي أنَّه مُطهِّرٌ لغَيرِه؛ إذِ العُدولُ عن صيغةِ (فاعِلٍ) إلى صيغةِ (فَعولٍ) لزِيادةِ معنًى في الوَصفِ، فاقتِضاؤُه في هذه الآيةِ أنَّه مُطهِّرٌ لغَيرِه اقتِضاءٌ التِزاميٌّ؛ ليَكونَ مُستكمِلًا وصْفَ الطَّهارةِ القاصِرةِ والمُتعدِّيةِ، فيكونَ ذِكرُ هذا الوَصفِ إدماجًا لمِنَّةٍ في أثناءِ المِنَنِ المَقصودةِ، ويكونَ كقَولِه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنفال: ١١]، وصَفَ الطَّهارةَ الذَّاتيَّةَ وتَطهيرَه، فيكونُ هذا الوَصفُ إدماجًا، ولولا ذلك لكان الأحَقَّ بمَقامِ الامتِنانِ وصْفُ الماءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤١- ٤٢، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤).

بالصَّفاءِ أو نَحوِ ذلك[١].

٥- قوله تعالى: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾

- قولُه: ﴿لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ لَمَّا كان المقصودُ بإحياءِ الأرضِ بالنَّباتِ إحياءَ البلادِ لإحياءِ أهْلِها؛ قال: ﴿بَلْدَةً﴾، ولو كان مِلْحًا أو مُرًّا أو مُكبرتًا لم تكنْ فيه قوَّةُ الإحياءِ. ولَمَّا كُرِه أن يُفهَمَ تَخصيصُ البلادِ، أُجريَ الوَصفُ باعتِبارِ المَوضعِ؛ لِيَعُمَّ كلَّ مكانٍ، فقال: ﴿مَّيْتًا﴾[٢].

- وقيل: ذكَّر الصِّفةَ ﴿مَّيْتًا﴾ مع أنَّ المَوصوفَ ﴿بَلْدَةً﴾ مؤنَّثٌ؛ لأنَّه أُريدَ به اسمُ المَيتِ، ووصْفُ البَلدةِ به وصْفٌ على معنَى التَّشبيهِ البَليغِ[٣]. وقيل: ذَكَّره نظرًا إلى معنَى البلدةِ وهو المكانُ، لا إلى لفْظِها، والسِّرُّ فيه تَخفيفُ اللَّفظِ. وقيل: التَّذكيرُ لأنَّ البَلدةَ بمعنَى البلدِ، ولأنَّه غَيرُ جارٍ على الفعلِ كسائرِ أَبنيةِ المُبالَغةِ؛ فأُجريَ مَجرَى الجامدِ[٤].

- قولُه: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ المَوصولُ (ما) للإيماءِ إلى علَّةِ الخَبرِ، أي: نُسْقِيَهم؛ لأنَّهم مَخلوقاتٌ؛ ففائدةُ هذا الحالِ الإشارةُ إلى رحمةِ اللهِ بها؛ لأنَّها خَلْقُه[٥].

- وفي قولِه: ﴿مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أنواعًا أُخرى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠١، ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٤، ٤٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨، ٤٩).

مِنَ الخَلائقِ تُسقَى بماءِ السَّماءِ، ولكنَّ الاقتِصارَ على ذِكرِ الأنعامِ والأناسيِّ؛ لأنَّهما مَوقِعُ المِنَّةِ؛ فالأنعامُ بها صَلاحُ حالِ البادينَ بألْبانِها وأَصوافِها وأَشعارِها ولُحومِها، وهي تَشرَبُ مِن مياهِ المطرِ مِنَ الأَحواضِ والغُدْرانِ[1].

وقيل: خَصَّ الأنعامَ بالذِّكرِ مِن بيْنِ ما خَلَق مِنَ الحَيوانِ الشَّاربِ بخِلافِ الأنعامِ؛ لأنَّ أهلَ القُرَى والأمصارِ يُقِيمون بقُربِ الأنهارِ والمَنابعِ، فبهم وبما لهم مِنَ الأنعامِ غُنْيةٌ عن سُقْيَا السَّماءِ؛ فكان الإنعامُ عليهم بسَقيِ أنعامِهم كالإنعامِ بسَقْيِهم، والطَّيرُ والوَحْشُ وسائرُ الحيواناتِ بخِلافِ ذلك؛ إذ تُبعِدُ في طلَبِ الماءِ فلا يُعوِزُها الشُّربُ غالبًا، مع أنَّ مَساقَ الآياتِ الكريمةِ كما هو للدَّلالةِ على عِظَمِ القُدرةِ فهو لتَعدادِ أنواعِ النِّعمةِ، والأنعامُ -حيثُ كانتْ- قُنْيةٌ للإنسانِ، وعامَّةُ مَنافِعِهم ومَعايشِهم مُتعلِّقةٌ بها[2].

- وتَنكيرُ الأنعامِ والأَناسيِّ ووصْفُها بالكَثرةِ في قولِه: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾؛ لأنَّ عِلْيةَ النَّاسِ وجُلَّهم قَريبونَ مِنَ الأوديةِ والأنهارِ ومَنابعِ الماءِ؛ ففيهم غُنْيةٌ عن سَقيِ السَّماءِ، وأعقابُهم -وهُم كثيرٌ منهم- لا يُعيِّشُهم إلَّا ما يُنزِلُ اللهُ مِن رَحمتِه، وسُقْيَا سَمائِه[3].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا * لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ تقديمٌ وتأخيرٌ؛ فقد قَدَّمَ حَياةَ الأرضِ وإسقاءَ الأنعامِ على إسقاءِ النَّاسِ، وإنْ كانوا أَشرَفَ محلًّا؛ لأنَّ حياةَ الأرضِ هي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٨، ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩).

سبَبٌ لحَياةِ الأنعامِ والنَّاسِ؛ فلمَّا كانت بهذه المَثابةِ جُعِلَتْ مُقدَّمةً في الذِّكرِ، ولَمَّا كانتِ الأنعامُ مِن أسبابِ التَّعيُّشِ والحياةِ للنَّاسِ قدَّمَها في الذِّكرِ على النَّاسِ؛ لأنَّ حياةَ النَّاسِ بحياةِ أرْضِهم وأَنعامِهم، فقُدِّمَ سَقْيُ ما هو سبَبُ نَمائِهم ومَعاشِهم على سَقْيِهم، وهذا الوَجهُ مَبنيٌّ على تَقدُّمِ الأسبابِ على المُسبَّباتِ. ووجْهٌ آخَرُ: أنَّهم إذا وجَدوا ما يَسقي أرضَهم ومواشيَهم وجَدوا سُقياهُم، وهذا الوجهُ مَبنيٌّ على تقديمِ ما يَشتَدُّ فيه الاحتِياجُ إلى الماءِ، ويَكثُرُ به الانتِفاعُ؛ فإنَّ انتِفاعِ الإنسانِ بحياةِ الأرضِ أكثَرُ، واهتِمامَه بسُقياها أشَدُّ مِن سُقيَا الأنعامِ، ثمَّ اهتِمامُه بسُقْيا الأنعامِ أقدَمُ مِن سُقيا نفْسِه؛ لأنَّهم إذا ظَفِروا بما يكونُ سُقْيَا أرْضِهم ومواشيهم لمْ يَعدَموا سُقياهم. وهذا الوجهُ أحسَنُ، ولمعنَى الإيغالِ[1] والتَّتميمِ[2] أجمَعُ؛ إذْ ليس اهتِمامُ مَن يَقرَبُ الأَوديةَ والأنهارَ ومَنابعَ الماءِ كاهتِمامِ مَن هو بعيدٌ منها؛ فعلى هذا المرادُ بالأناسيِّ: أصحابُ البَوادي والمُتبعِّدونَ مِن مَظانِّ الماءِ[3].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ فيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قَدَّم ذِكرَ الأنعامِ على الأَناسيِّ؛ لأنَّه اقتَضاهُ نَسْجُ الكلامِ على طريقةِ الإحكامِ في تعقيبِه بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الفرقان: ٥٠]، ولو قُدِّمَ ذِكرُ (أَناسيَّ) لتَفكَّكَ النَّظمُ. ولم يُقدِّمْ ذِكرَ النَّاسِ في قَولِه تعالى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٣، عبس: ٣٢]؛ لانتِفاءِ الدَّاعي للتَّقديمِ؛ فجاءَ

---

(١) سبق تعريفه (ص: ١٢٦).

(٢) سبق تعريفه (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٥).

على أصلِ التَّرتيبِ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ جيءَ بالجملةِ القَسَميَّةِ، لإبطالِ زَعمِ مَن يَزعُمُ أنَّ ذلك بسببِ الأَنواءِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ فيه توكيدُ الجُملةِ بلامِ القَسمِ و(قد) لتَحقيقِ التَّعليلِ؛ لأنَّ تَصرُّفَ المطرِ مُحقَّقٌ لا يَحتاجُ إلى التَّأكيدِ، وإنَّما الشَّيءُ الَّذي لم يَكُنْ لهم عِلمٌ به هو أنَّ مِن حِكمةِ تَصريفِه بيْن النَّاسِ أن يَذْكروا نِعمةَ اللهِ تعالى عليهم مع نُزولِه عليهم، وفي حالةِ إمساكِه عنهم؛ لأنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ لا يَقدُرُ قَدْرَ النِّعمةَ إلَّا عِندَ فَقدِها، فيَعلَموا أنَّ اللهَ هو الرَّبُّ الواحِدُ المُختارُ في خلْقِ الأسبابِ والمُسبَّباتِ[٣].

- ولَمَّا كان التَّذكُّرُ شاملًا لشُكرِ المُنعَمِ عليهم بإصابةِ المطرِ، ولتَفطُّنِ المَحرومينَ إلى سببِ حِرمانِهم إيَّاه لعلَّهم يَستَغفِرون، جيءَ في التَّعليلِ بفِعلِ ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾؛ لِيَكونَ علَّةً لحالَتَيِ التَّصريفِ بيْنهم[٤].

- وقوله: ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ تَركيبٌ جرَى بمادَّتِه وهَيئتِه مَجرَى المَثَلِ في الإخبارِ عن تَصميمِ المُخبَرِ عنه على ما بعْدَ حَرْفِ الاستِثناءِ، وذلك يَقتَضي وُجودَ الصَّارفِ عنِ المُستثنَى، أي: فصَمَّموا على الكُفورِ لا يَرجِعون عنه؛ لأنَّ الاستِثناءَ مِن عُمومِ أشياءَ مُبهمَةٍ جُعِلَتْ كلُّها ممَّا تَعلَّقَ به الإباءُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٤٩، ٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٠).

كأنَّ الآبِينَ قد عُرِضَتْ عليهم -مِنَ النَّاسِ أو مِن خَواطِرِهم- أمورٌ وراجَعوا فلمْ يَقبَلوا منها إلَّا الكُفورَ، وإنْ لم يَكُنْ هنالك عَرْضٌ ولا إباءٌ[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾

- الأصلُ في (بَعَث) و(أرسل) وأمثالِهما أنْ يَتعدَّى بـ (إلى)، وهنا قال: ﴿لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾؛ فجُعِلتِ القريةُ موضعًا للإرسالِ؛ فلم يُعَدَّ بـ (في) كما عُدِّي بـ (إلى)، ولم يُجعَلْ صِلةً مِثلَه، يعني: أنَّ «في» هنا ليستْ للتَّعديةِ، مِثل «إلى»، لكنها: ظرفٌ له، اقتطع «بَعَثْنا» مِن صِلتِه، وجُعِلَ مطلقًا[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ هذا النهيُ مرادٌ به تَهييجُه صلَّى الله عليه وسلَّم، وتَهييجُ المؤمنينَ وتَحريكُهم على عَدمِ طاعةِ الكافِرينَ فيما يُريدونَهم عليه؛ والخِطابُ وإنْ كان له فالحُكمُ شاملٌ لِأُمَّتِه[٣].

- وتفريعُ قَولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ على جُملةِ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾؛ لأنَّها تَتضمَّنُ أنَّه مُرسَلٌ إلى المشْركينَ مِن أهلِ مكَّةَ، وهُم يَطلُبون منه الكَفَّ عن دَعوَتِهم، وعن تَنقُّصِ أصنامِهم. والنَّهيُ مُستعمَلٌ في التَّحذيرِ والتَّذكيرِ، وفِعلُ ﴿تُطِعِ﴾ في سِياقِ النَّهيِ يُفيدُ عُمومَ التَّحذيرِ مِن أَدْنى طاعةٍ لهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٠/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣).

- قولُه: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ قيل: إنَّه أُمِر بالحِرصِ على الدَّعوةِ والمُبالَغةِ فيها، وعُبِّرَ عن ذلك بالجِهادِ -وهو الاسمُ الجامعُ لمُنتهَى الطَّاقةِ- وصِيغةِ المُفاعَلةِ فيه؛ ليُفيدَ مُقابلةَ مَجهودِهم بمَجهودِه فلا يَضعُفُ؛ ولذلك وُصِف بالجِهادِ الكَبيرِ، أي: الجامعِ لكلِّ مُجاهَدةٍ[1]. قيل: لأنَّ مُجاهَدةَ السُّفهاءِ بالحُجَجِ أكبَرُ مِن مُجاهَدةِ الأعداءِ بالسَّيفِ، أو لأنَّ مُخالفتَهم ومُعاداتِهم فيما بيْن أظهُرِهم مع عُتُوِّهم وظُهورِهم[2]، أو جعَلَه جِهادًا كبيرًا لِما يُحتمَلُ فيه مِنَ المَشاقِّ العِظامِ، أو لأنَّه جِهادٌ مع كلِّ الكَفرةِ؛ لأنَّه مَبعوثٌ إلى القُرى كافَّةً[3].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ جمَعَتْ هذه الآيةُ: استِدلالًا، وتَمثيلًا، وتَثبيتًا، ووعْدًا؛ فصريحُها استِدلالٌ على شَيءٍ عظيمٍ مِن آثارِ القُدرةِ الإلهيَّةِ، وهو التِقاءُ الأنهارِ والأَبحُرِ. وفي ضِمْنِها تَمثيلٌ لحالِ دَعوةِ الإسلامِ في مكَّةَ يوْمَئذٍ واختِلاطِ المؤْمنينَ مع المشْركينَ بحالِ تَجاوُزِ البَحرينِ: أحدِهما عَذْبٌ فُراتٌ، والآخَرِ مِلْحٌ أُجاجٌ. وتمثيلُ الإيمانِ بالعَذْبِ الفُراتِ، والشِّركِ بالمِلْحِ الأُجاجِ، وأنَّ اللهَ تعالى كما جَعَل بيْن البَحرَينِ بَرْزخًا يَحفَظُ العَذْبَ مِن أنْ يُكدِّرَه الأُجاجُ، كذلك حَجَز بيْن المُسلِمينَ والمُشركينَ فلا يَستطيعُ المُشرِكونَ أنْ يَدُسُّوا كُفرَهم بيْن المسْلمينَ. وفي هذا تَثبيتٌ للمسْلمينَ بأنَّ اللهَ يَحجُزُ عنهم ضُرَّ المُشركينَ، لقَولِه: ﴿لَن يَضُرُّوكُمۡ إِلَّآ أَذٗى﴾ [آل عمران: ١١١]. وفي ذلك تَعريضٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٧).

كِنائيٌّ بأنَّ اللهَ ناصِرٌ لهذا الدِّينِ مِن أن يُكدِّرَه الشِّركُ؛ ولأجْلِ ما فيها مِنَ التَّمثيلِ والتَّثبيتِ والوعدِ كان لِمَوقِعِها عَقِبَ جملةِ ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢] أكمَلُ حُسنٍ[١].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ القَصرُ المُستفادُ هنا مِن تَعريفِ جُزأَيِ الجُملةِ، هو قَصرُ إفرادٍ، أي: لا يَشرَكُه غَيرُه في مَرْجِ البَحرَينِ؛ لَمَّا جَعَلوا له شُركاءَ على الإجمالِ أُبطِلَتْ شَرِكَتُهم بقَصرِ التَّصرُّفِ في مَرْجِ البَحرَينِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّه إذا بَطَل تَصرُّفُهم في بعضِ الموجوداتِ اختلَّتْ حَقيقةُ الإلهيَّةِ عنهم؛ إذِ الإلهيَّةُ لا تَقبَلُ التَّجزِئةَ[٢].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ ﴿مَّحْجُورًا﴾ وصْفٌ لـ ﴿حِجْرًا﴾ مُشتَقٌّ مِن مادَّتِه؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ المعنَى المُشتَقِّ منه، كما قالوا: لَيْلٌ أَلْيَلُ[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾

- عَبَّر بالضَّميرِ ﴿وَهُوَ﴾ -كما تقدَّمه- حَثًّا على استِحضارِ الأفعالِ والصِّفاتِ التي تقَدَّمتْ؛ لِتُعرفَ الحيثيَّةُ التي كُرِّرَ الضَّميرُ لأجلِها[٤].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ ...﴾ القَصرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ الجُزأَينِ قَصرُ إفرادٍ؛ لإبطالِ دَعْوى شَرِكةِ الأصنامِ للهِ في الإلهيَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٣، ٥٤).

وهذا المذكورُ مِن قبيلِ التفسيرِ الإشاريِّ، وهو مِن بابِ الاعتبارِ والقياسِ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

- والماءُ في قَولِه: ﴿خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ مُطلَقٌ دَلَّ على شائعٍ في جِنسِ الماءِ؛ فتَقييدُه بقَولِه: ﴿بَشَرًا﴾ دَلَّ على أنَّ المرادَ منه النُّطفةُ الواحدةُ، ثمَّ تَقسيمُه بقَولِه: ﴿نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ دَلَّ على نَوعَينِ: ذكَرٍ وأُنثى، وإنَّما عَدَل عنِ الذَّكرِ والأُنثى؛ ليؤْذِنَ بالانشِعابِ نَصًّا؛ فالنُّطفةُ الواحدةُ نُطفةُ آدَمَ عليه السَّلامُ؛ فإذَنِ الآيةُ على وِزانِ قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1] [النساء: ١].

- والتَّنوينُ في قَولِه: ﴿بَشَرًا﴾ للتَّعظيمِ[2].

- وفي تَركيبِ ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ مِن دَقيقِ الإيذانِ بأنَّ قُدرتَه راسِخةٌ واجِبةٌ له، مُتَّصِفٌ بها في الأَزَلِ بما اقتَضاهُ فِعلُ (كان)، وما في صِيغةِ (قَدير) مِنَ الدَّلالةِ على قوَّةِ القُدرةِ المُقتضيةِ تمامَ الإرادةِ والعِلمِ[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٦).

## الآيات (٥٥-٦٢)

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظَهِيرًا﴾: أي: مُظاهِرًا ومُعاوِنًا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[1].

﴿خَبِيرًا﴾: أي: عالِمًا، والخُبْرُ: العِلمُ بالشَّيءِ، أو: هو العِلمُ بكُنْهِ المَعلوماتِ على حقائقِها، والخبيرُ في أسماءِ الله: الَّذي انتهَى عِلمُه إلى الإحاطَةِ ببَواطِنِ الأشياءِ وخَفاياها، كما أحاطَ بظَواهِرِها، وأصلُ (خبر) هنا: يدُلُّ على عِلمٍ[2].

﴿نُفُورًا﴾: أي: هَرَبًا، وذَهابًا عن الحَقِّ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٩)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٩٣)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، =

﴿بُرُوجًا﴾: أي: مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ[١]، وقيل: البُروجُ: الكواكبُ العِظامُ، وأصلُ البرجِ: القَصرُ والحِصْنُ، وبه سُمِّي بروجُ السماءِ لمنازِلِها المختصةِ بها[٢].

﴿خِلْفَةً﴾: أي: مُتعاقِبَينِ؛ يخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢١٤).

(١) قال الخازن: (هي بروجُ الفَلَك الاثنا عشرَ بُرجًا، وهي: الحمَلُ، والثورُ، والجوزاءُ، والسرطانُ، والأسدُ، والسنبلةُ، والميزانُ، والعقربُ، والقوسُ، والجَدْي، والدلوُ، والحوتُ. وهذه البروجُ مَقسومةٌ على ثمانيةٍ وعشرين منزِلًا، لكلِّ برجٍ منزلان وثلثُ منزلٍ... وهذه البروجُ مقسومةٌ على ثلاثِ مئةٍ وستِّينَ درجةً، لكلِّ برجٍ منها ثلاثونَ درجةً تقطَعُها الشَّمسُ في كلِّ سَنةٍ مرَّةً، وبها تتِمُّ دورةُ الفَلَك، ويقطَعُها القمرُ في ثمانيةٍ وعشرينَ يومًا). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٥٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٩).

وقال ابن عاشور: (أُطلِق البُرجُ على بقعةٍ معيَّنةٍ مِن سَمْتِ طائفةٍ مِن النجومِ غيرِ السيَّارةِ -وتُسمَّى النجومَ الثوابتَ- متجمعٍ بعضُها بقربِ بعضٍ على أبعادٍ بيْنَها، لا تتغيَّرُ فيما يُشاهَدُ مِن الجوِّ، فتلك الطائفةُ تكونُ بشكلٍ واحدٍ يشابهُ نُقطًا لو خُطِّطتْ بينَها خطوطٌ لخرجَ منها شِبهُ صورةِ حيوانٍ أو آلةٍ، سمُّوا باسمِها تلك النجومَ المشابهةَ لهيئتِها، وهي واقعةٌ في خطِّ سَيرِ الشمسِ... تخيَّلوا أنَّها منازلُ للشمسِ؛ لأنَّهم وقَّتوا بجهتِها سَمْتَ موقعِ الشمسِ مِن قُبةِ الجوِّ نهارًا فيما يخيَّلُ للناظرِ أنَّ الشمسَ تسيرُ في شبهِ قوسِ الدائرةِ، وجعلوها اثني عشرَ مكانًا بعددِ شهورِ السنةِ الشمسيَّةِ... فبما كان لها مِن النظامِ تسَنَّى أن تُجعلَ علاماتٍ لمواقيتِ حلولِ الفصولِ الأربعةِ، وحلولِ الأشهرِ الاثني عشرَ، فهُم ضبَطوا لتلك العلاماتِ حدودًا وَهْميَّةً عيَّنوا مكانَها في الليلِ مِن جهةِ موقعِ الشمسِ في النهارِ... وللتمييزِ بينَ تلك الطوائفِ مِن النجومِ جعلوا لها أسماءَ الأشياءِ التي شبَّهوها بها، وأضافوا البرجَ إليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٨، ٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

مَجيءِ شَيءٍ بعْدَ شَيءٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المشركينَ مِن هذه النِّعمِ العظيمةِ: ويعبُدُ هؤلاء المُشرِكون آلهةً مِن دونِ اللهِ لا تنفَعُهم ولا تضُرُّهم، وكان الكافِرُ مُظاهِرًا ومُعاوِنًا للشَّيطانِ وحِزبِه على عداوةِ الله؛ يُشرِكُ به ويعصيه، ويُوالي أعداءَه، ويُحارِبُ أولياءَه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى الوظيفةَ التي مِن أجْلِها أرسَل رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقول تعالى: وما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- إلى النَّاسِ إلَّا لتبشِّرَهم بثوابِ اللهِ إذا آمَنوا بالله، ولِتُنذِرَهم عِقابَه وغَضَبَه إنْ كَفَروا وكذَّبوا. ويأمرُ الله نبيَّه أن يقولَ لمَن أُرسِل إليهم: لا أسألُكم على تبليغِ رِسالةِ الله إليكم مالًا، لكِنْ مَن شاء منكم أن يتَّخِذَ إلى مَرضاةِ رَبِّه سَبيلًا، كالصَّدَقةِ في سبيلِ الله، فليفعَلْ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يتوكَّلَ عليه، ويستعينَ به، فيقول: واعتَمِدْ على اللهِ الحيِّ الباقي الذي لا يموتُ، ونزِّهْه عن كلِّ نَقصٍ مُثنيًا عليه بصِفاتِ كَمالِه، وكفى برَبِّك خبيرًا عَليمًا بذُنوبِ عِبادِه، وسيُجازيهم عليها.

الذي خلق السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ في ستَّةِ أيَّامٍ، ثُمَّ علا على العَرشِ علُوًّا يليقُ بجَلالِه : الرَّحمنُ؛ فاسألْ -يا محمَّدُ- عن الرَّحمنِ عالِمًا يخبِرْك عنه.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن جهالاتِ المشركينَ وسخافاتِهم، فيقول: وإذا قيل

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٦).

لهؤلاء المُشرِكين: اسجُدوا للرَّحمنِ، قالوا: لا نَعرِفُ الرَّحمنَ! أنسجُدُ لِما تأمُرُنا أنت أن نسجُدَ له مِن غيرِ أن نَعرِفَه، ومِن غيرِ أن نُؤمِنَ به؟ وزادهم الأمرُ بالسُّجودِ للرَّحمنِ نُفورًا عن الإيمانِ. ثمَّ يرُدُّ الله سبحانه عليهم بما يدُلُّ على عظيمِ قدرتِه، فيقولُ: تعاظَمَ اللهُ وجلَّ شأنُه وكثُرتْ خيراتُه؛ فهو الذي جعَل في السَّماءِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ، وخلَق فيها شَمسًا مُشرِقةً وقَمرًا مُضيئًا، وهو الذي جعل اللَّيلَ والنَّهارَ مُتعاقِبَين يخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، لِمَن أراد أن يتَّعِظَ ويعتبِرَ، أو أراد شُكرَ اللهِ على نِعَمِه التي لا تُحصى.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا عدَّدَ النِّعمَ، وبيَّنَ كمالَ قُدرتِه؛ عَجَّب مِن المشرِكين في إشراكِهم به مَن لا يقدِرُ على نَفعٍ ولا ضرٍّ، أي: إنَّ اللهَ هو الذي خلَقَ ما ذكَرَه، ثمَّ هؤلاء لجَهلِهم يعبُدونَ مِن دونِه أمواتًا جماداتٍ لا تنفَعُ ولا تضُرُّ[1]!

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ﴾.

أي: ويَعبُدُ المُشرِكون مِن دونِ اللهِ آلهةً لا تَنفَعُهم بشَيءٍ، ولا تضُرُّهم أبدًا، ويتركونَ عِبادةَ اللهِ الذي خلَقَهم، وأنعَمَ عليهم، ويَملِكُ نَفعَهم وضُرَّهم[2].

﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾.

أي: وكان الكافِرُ مُعينًا للشَّيطانِ وحِزبِه على عداوةِ اللهِ؛ يُشرِكُ به ويعصيه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦١)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

ويُوالي أعداءَه، ويُحارِبُ أولياءَه[١]!

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

تعلُّقُ ذلك بما تقدَّم هو أنَّ الكُفَّارَ يطلُبونَ العَونَ على اللهِ تعالى وعلى رَسولِه، واللهُ تعالى بَعَثَ رسولَه لِنَفعِهم؛ لأنَّه بعَثَه لِيُبَشِّرَهم على الطاعةِ، ويُنذِرَهم على المعصيةِ، فيَستحقُّوا الثوابَ، ويَحترِزوا عن العقابِ، فلا جهلَ أعظَمُ مِن جهلِ مَنِ استفرغَ جُهْدَه في إيذاءِ شخصٍ استفرغَ جُهْدَه في إصلاحِ مهمَّاتِه دينًا ودُنيا، ولا يسألُهم على ذلك البتَّةَ أجرًا[٢]!!

وأيضًا لَمَّا أفضى الكلامُ بأفانينِ انتِقالاتِه إلى التَّعجيبِ مِن استمرارِهم على أنْ يعبُدوا ما لا يَضُرُّهم ولا ينفَعُهم؛ أعقَبَ بما يُومِئُ إلى استِمرارِهم على تكذيبِهم محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم في دعوى الرِّسالةِ، بنِسبةِ ما بَلَّغَه إليهم إلى الإفكِ، وأنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، وأنَّه سِحرٌ، فأُبطِلتْ دعاويهم كلُّها بوَصفِ النَّبيِّ بأنَّه مُرسَلٌ مِن الله، وقَصْرِه على صفتَيِ التَّبشيرِ والنِّذارةِ[٣].

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦﴾.

أي: وما أرسَلْناك -يا محمَّدُ- إلى النَّاسِ إلَّا لتبشِّرَ مَن آمنَ بك واتَّبعَك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦، ٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٧).

بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا والآخرةِ، وتُنذِرَ مَن كفَرَ بك وكذَّبَك وعصاك بالشَّقاءِ والعذابِ في الدُّنيا والآخرةِ[١].

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٥٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا وقَعَ جوابُهم عن قَولِهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الفرقان: ٧]، وكان قد بقيَ قولُهم: ﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ [الفرقان: ٨]، أُشيرَ إلى مَزيدِ الاهتِمامِ بجوابِه بإبرازِه في صورةِ الجوابِ لِمَن كأنَّه قال: ماذا يُقالُ لهم إذا تظاهَروا وطَعَنوا في الرِّسالةِ بما تقدَّمَ وغَيرِه؟ فقال[٢]:

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن أرسلْتُك إليهم: أنا لا أسألُكم على تبليغِ رسالةِ اللهِ إليكم مالًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال سُبحانه: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

أي: لكنْ مَن شاء مِنكم أن يتَّخِذَ طَريقًا يقرِّبُه إلى اللهِ، فليفعَلْ، ومِن ذلك أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

يُنفِقَ مِن مالِه في سبيلِ اللهِ[١].

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بيَّنَ سُبحانَه أنَّ الكُفَّارَ مُتظاهِرونَ على إيذائِه، فأمَرَه بألَّا يطلُبَ منهم أجرًا البتَّةَ- أمَرَه بأنْ يتوكَّلَ عليه في دفْعِ جَميعِ المَضارِّ، وفي جَلْبِ جميعِ المنافعِ[٢].

وأيضًا لَمَّا أخبرَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه فَطَمَ نفْسَه عن سؤالِهم شَيئًا؛ أمَرَه تعالى بتفويضِ أمرِه إليه، وثِقَتِه به، والاعتِمادِ عليه؛ فهو المتكفِّلُ بنَصرِه وإظهارِ دينِه[٣].

وأيضًا لَمَّا كان المقصودُ رَدَّهم عن عِنادِهم، وكان ذلك في غايةِ الصُّعوبةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابنُ كثير: (﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ أي: طريقًا ومَسلَكًا ومَنهجًا يُقتَدى فيها بما جِئتُ به). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨).

وقال البقاعي: (﴿إِلَّا مَن ﴾ أي: إلَّا أجرَ مَن ﴿ شَآءَ أَن يَتَّخِذَ ﴾ أي: يكلِّفَ نفْسَه ويخالِفَ هواه، ويجعَلَ له ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾؛ فإنَّه إذا اهتدى بهدايةِ رَبِّه، كان لي مِثلُ أجرِه، لا نفْعَ لي من جهتِكم إلَّا هذا، فإنْ سمَّيتم هذا أجرًا فهو مطلوبي، ولا مِريةَ في أنَّه لا يَنقُصُ أحدًا شيئًا مِن دنياه، فلا ضررَ على أحدٍ في طَيِّ الدُّنيا عنِّي، فأفاد هذا فائدتينِ؛ إحداهما: أنَّه لا طمعَ له أصلًا في شيءٍ يَنقُصُهم، والثانيةُ: إظهارُ الشَّفَقةِ البالِغةِ بأنَّه يَعتَدُّ بمنفعتِهم الموصلةِ لهم إلى ربِّهم ثوابًا لنَفْسِه). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠).

وكان هذا الكلامُ لا يَرُدُّ مُتعنِّتيهم -وهم الأغلبُ- الذين تُخشَى غائلتُهم؛ عطَفَ على ﴿قُلْ﴾ قولَه[١]:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾.

أي: واعتَمِدْ -يا محمَّدُ- في دينِك ودُنياك على اللهِ الذي له الحياةُ الكامِلةُ الدَّائِمةُ التي لا موتَ معها أبدًا، وفوِّضْ أمورَك كُلَّها إليه وحْدَه لا إلى غيرِه، لا سيَّما في مُواجهةِ المُشرِكين بالإنذارِ، وتبليغِهم رسالةَ الله إليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨، ٩].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾.

أي: ونزِّهْ -يا محمَّدُ- ربَّك عن النَّقائِصِ والأندادِ والشُّرَكاءِ، مُثنيًا عليه بصِفاتِ كَمالِه، شاكرًا له على نِعَمِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

قال البقاعي: (﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ أي: فلا ضياعَ لِمَن تَوكَّل عليه أصلًا، بل هو المتولِّي لمصالحِه في حياتِه وبعْدَ مماتِه، ولا تلتَفِتْ إلى ما سِواه بوجهٍ؛ فإنَّه هالِكٌ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

قال ابن جُزَي: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: قُلْ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه. والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، ومعنى بحَمْدِه: أي: بحَمْدِه أقولُ ذلك. ويحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: سَبِّحْه مُتَلَبِّسًا بحَمْدِه؛ فهو أمرٌ بأن يَجمَعَ بينَ التَّسبيحِ والحَمدِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥). =

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا كان المُسَلَّى ربَّما وقَعَ في فِكرِه أنَّ مَن سَلَّاه إمَّا غيرُ قادرٍ على نَصرِه، أو غيرُ عالِمٍ بذُنوبِ خَصمِه، وكان السِّياقُ للشِّكايةِ مِن إعراضِ المبلِّغِينَ عن القُرآنِ، وما يَتبَعُ ذلك مِن الأذى- أشار بالعَطفِ على غيرِ مذكورٍ إلى أنَّ التقديرَ:

---

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ أن يقولَ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه: ابنُ عطية، وابنُ جزي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: سَبِّحْه مُتَلَبِّسًا بحَمْدِه -أي أن يقولَ: سُبْحانَ اللهِ، والحمدُ لِلهِ-: جلالُ الدينِ المحليُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٧).

وقال ابن كثير: (اقرنْ بيْنَ حمدِه وتسبيحِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: نزِّهْه عن صفاتِ النُّقصانِ، مُثنيًا عليه بنعوتِ الكمالِ: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٧).

وممَّن فسَّر التَّسبيحَ بالتَّنزيهِ أيضًا: القرطبيُّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: اعبُدْهُ شُكرًا منك له على نِعَمِه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٤٣).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: صَلِّ له شكرًا على نِعَمِه: البغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٧).

وقال الثعلبي: (اعبُدْه وصَلِّ له شكرًا منك له على نِعَمِه). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وقال العليمي: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ صلِّ له شكرًا، ونَزِّهْه عن صفات النقصان). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٦).

وقال ابن عاشور: (وأمَّا أمْرُه بالتَّسبيحِ فهو تنزيهُ الله عمَّا لا يليقُ به، وأوَّلُ ذلك الشِّركةُ في الإلهيَّةِ، أي: إذا أهمَّك أمرُ إعراضِ المشركينَ عن دعوةِ الإسلامِ، فعليك نفْسَك، فنَزِّهِ اللهَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

«فكفى به لك نصيرًا»، وعطَفَ عليه[١]:

﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾.

أي: وحَسْبُك -يا محمَّدُ- ربُّك الخَبيرُ بذُنوبِ عبادِه، فلا يخفى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيهم عليها يومَ القيامةِ؛ فليس عليك هُداهم، ولا حِفظُ أعمالِهم، فذلك كلُّه بيَدِ اللهِ وحْدَه[٢].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه نبيَّه بالتوكُّلِ والتَّسبيحِ، وذكَرَ صفةَ الحياةِ الدَّائمةِ؛ ذَكَرَ ما دلَّ على القدرةِ التامَّةِ، وهو إيجادُ هذا العالَمِ[٣]، وأنَّه جديرٌ بأن يُخَصَّ بالتوكُّلِ، تبارَك وتعالى[٤].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: توكَّلْ على الحيِّ الذي خلَقَ السَّمواتِ السَّبْعَ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ في سِتَّةِ أيامٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٧).

قال ابن كثير: (والسِّتَّةُ الأيامِ هي: الأحدُ، والاثنينُ، والثُّلاثاءُ، والأربِعاءُ، والخميسُ، والجُمُعةُ =

= -وفيه اجتمَع الخَلْقُ كلُّه، وفيه خُلِق آدمُ عليه السلام. واختلَفوا في هذه الأيَّامِ: هل كلُّ يَومٍ منها كهذه الأيَّامِ كما هو المتبادرُ إلى الأذهانِ؟ أو كلُّ يَومٍ كألْفِ سَنةٍ كما نَصَّ على ذلك مجاهِدٌ، والإمامُ أحمدُ بنُ حَنبلٍ، ويُروى ذلك مِن روايةِ الضَّحَّاكِ عن ابنِ عبَّاسٍ؟ فأمَّا يومُ السَّبتِ فلمْ يقَعْ فيه خَلْقٌ؛ لأنَّه اليَومُ السابعُ، ومنه سُمِّيَ السبت، وهو القطعُ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦).

ممَّن اختار أنَّها مِقدارُ ستَّةِ أيَّامٍ مِن أيَّامِ الدُّنيا: الزمخشريُّ، وابنُ عطية -ونَسَبه للجمهورِ-، والبِقاعي، والألوسي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٤)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

قال الألوسي عن هذا القول: (وهو الأنسَبُ بالمقامِ؛ لِما فيه مِن الدَّلالةِ على القُدرةِ الباهرةِ بخَلقِ هذه الأجرامِ العظيمةِ في مِثلِ تلك المُدَّةِ اليسيرةِ، ولأنَّه تعريفٌ لنا بما نعرِفُه). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٦٢).

وقال ابنُ عثيمين عن القَولِ بأنَّ الأيامَ الستَّةَ هي مِن أيامِ الدُّنيا: (هذا هو القَولُ المشهورُ، وهو الراجِحُ، وأمَّا مَن قال: في ستةِ أيَّامٍ مِن أيَّامِ الآخرةِ، وإنَّ اليومَ كألْفِ سَنةٍ، أو مَن قال: إنَّ المرادَ بالأيَّامِ مُطلقُ الزمَنِ، أي: في لحظاتٍ- فذلك أيضًا قولٌ مرجوحٌ؛ لأنَّ القرآنَ إنَّما يخاطِبُ النَّاسَ بما يَعرِفونَ، فالصَّحيحُ أنَّ المرادَ سِتةُ أيامٍ مِن أيامِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

وقال الشنقيطي: (العلماء يقولون: إنَّ هذه الأيَّامَ، المرادُ بها أوقاتُها؛ لأنَّه في ذلك الوقتِ لم يكُنْ هنالك يومٌ؛ لأنَّ اليومَ مِن طُلوعِ الشَّمسِ إلى غُروبِها، وإن لم يكُنْ هنالك شَمسٌ لا يُعرَفُ اليومُ، إلَّا أنَّ اللهَ قبْلَ أن يخلُقَ الشَّمسَ والقَمَرَ يعلمُ زمَنَ الأيَّامِ قبْلَ وُجودِ الشَّمسِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٣٤٤، ٣٤٥).

وقال الزمخشري: (أمَّا الدَّاعي إلى هذا العَدَدِ -أعني: السِّتَّةَ دونَ سائِرِ الأعدادِ- فلا نشُكُّ أنَّه داعي حِكْمةٍ؛ لعِلْمنا أنَّه لا يُقدِّر تقديرًا إلَّا بداعي حِكمةٍ، وإن كنَّا لا نطَّلِعُ عليه، ولا نهتدي إلى معرفتِه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٨).

وقال البيضاوي: (ولعلَّ ذِكرَه زيادةُ تقريرٍ؛ لكونِه حقيقًا بأن يُتوكَّلَ عليه؛ من حيثُ إنَّه الخالِقُ للكُلِّ، والمتصَرِّفُ فيه، وتحريضٌ على الثباتِ والتأنِّي في الأمرِ؛ فإنَّه تعالى -مع كمالِ قدرتِه، وسرعةِ نفاذِ أمرِه في كلِّ مُرادٍ- خلَقَ الأشياءَ على تُؤَدةٍ وتدَرُّجٍ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٩).

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ الرَّحمنُ على عرشِه بعْدَ خَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ عُلُوًّا يليقُ بجلالِه(١).

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان العِلمُ لازمًا للمُلْكِ؛ سَبَّبَ عن ذلك قولَه(٢):

﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾.

أي: فاسألْ(٣) .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٠).

قال السعدي: (﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ﴾ بعْدَ ذلك ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ الذي هو سَقفُ المخلوقاتِ وأعلاها، وأوسَعُها وأجمَلُها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وقال أبو عمرو الداني: (﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ تامٌّ، إذا ارتفَع ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بالابتِداءِ، وجُعِل الخبرُ فيما بعْدَه. فإنْ رُفِع بتقدير: هو الرَّحمنُ؛ كان الوقفُ على ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾ كافيًا. وإن جُعِل بدَلًا مِنَ المُضمَرِ الذي في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ لم يَكفِ الوقفُ على ﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾، وكفى على ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾). ((المكتفى في الوقف والابتدا)) (ص: ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٥).

(٣) قيل: الخطابُ لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسلامُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١).

وقال الواحديُّ: (هذا الخِطابُ ظاهرُه للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ به غيرُه). ((الوسيط)) (٣/ ٣٤٤).

وقال أيضًا: (﴿فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا﴾ فاسأَلْ -أيُّها الإنسانُ الذي لا تَعلَمُ صِفتَه- خَبيرًا يُخبِرْك بصِفاتِه). ((الوجيز)) (ص: ٧٨٢).

وقال أبو السعود: (وما قيل مِن أنَّ التَّقديرَ: إنْ شككتَ فيه فاسألْ به خَبيرًا، على أنَّ الخطابَ =

عن[١] الرَّحمنِ عالِمًا[٢] يُخبِرْك عنه وعن عَظَمتِه، وعن خَلقِه وسُلطانِه، وأفعالِه

= له صلَّى الله عليه وسلَّم والمرادَ غيرُه؛ بمعزلٍ مِن السَّدادِ، بل التَّقديرُ: إنْ شئتَ تحقيقَ ما ذُكِر أو تفصيلَ ما ذُكر، فاسألْ معنيًّا بهِ ﴿خَبِيرًا﴾. ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧).

(١) قال ابنُ عثيمين في بيانِ أوجُهِ التَّعْديةِ بالباءِ:

(الوَجهُ الأوَّلُ: أن تكونَ «الباءُ» بمعنى «عن»، وهذا واضِحٌ: فاسألْ عنه خَبيرًا.

الوَجهُ الثَّاني: أن تكونَ «الباء» متعلِّقةً بمحذوفٍ تقديرُه: مُعْتنيًا أو مُهتَمًّا به، حالٌ مِنَ الضَّميرِ المُستترِ في قولِه: ﴿فَسْئَلْ﴾. وعندي أيضًا أنَّه يوجدُ احتِمالٌ أنَّ المعنى: فاسألْ تُجَبْ به خَبيرًا، يعني كأنَّه ضُمِّنَ السُّؤالُ ما يدُلُّ على الجوابِ، مِثلُ ما قيلَ في: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]: سأل سائِلٌ وأُجيب بعَذابٍ واقعٍ، ويكونُ عَدَل عن «عن» إلى «الباء»؛ لأنَّ «عن» إنَّما تدُلُّ على مجرَّدِ السُّؤالِ، و «الباء» تدُلُّ على الإجابةِ أيضًا. وعلى كلِّ حالٍ فالمعنى أنَّ الرحمنَ الذي خلَق السَّمواتِ والأرضَ واستوى على العَرشِ اسألْ عنه خَبيرًا يُخبِرْك). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٣).

(٢) قيل: المرادُ بالخبير: اللهُ تعالى. وممَّن قال بذلك: السمعانيُّ، وأبو السعود، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٤).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠).

قال أبو السعود: (﴿خَبِيرًا﴾ عظيمَ الشأنِ، محيطًا بظواهِرِ الأمورِ وبواطِنِها، وهو اللهُ سبحانه؛ يُطلِعْك على جليَّةِ الأمرِ. وقيل: فاسألْ به مَن وَجَدَه في الكُتُبِ المتقدِّمةِ؛ لِيَصْدُقَك فيه). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧).

وقال السعدي: (﴿فَسْئَلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يعني بذلك: نَفْسَه الكريمةَ؛ فهو الذي يعلَمُ أوصافَه وعَظَمَته وجَلالَه، وقد أخبَرَكم بذلك، وأبانَ لكم مِن عظمَتِه ما تَسعَدونَ به مِن معرفتِه، فعَرَفه العارفون وخضَعوا لجلالِه، واستكبَرَ عن عبادتِه الكافِرونَ واستنكَفوا عن ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

وقيل: المرادُ به: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلم. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩).

قال ابن كثير: (أي: استعلِمْ عنه مَن هو خبيرٌ به عالمٌ به، فاتَّبِعْه واقتَدِ به، وقد عُلِم أنَّه لا أحدَ =

وصفاتِ كَمالِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ۩ ﴿٦٠﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمّا ذَكَرَ إحسانَه إليهم، وإنعامَه عليهم؛ ذَكَرَ ما أبدَوْهُ مِن كفْرِهم في مَوضِعِ

---

= أعلَمُ بالله ولا أخبَرُ به مِن عبدِه ورسولِه محمدٍ -صلواتُ الله وسلامُه على سيِّدِ ولدِ آدمَ- على الإطلاقِ في الدُّنيا والآخرةِ، الذي لا ينطِقُ عن الهوى، إنْ هو إلا وحيٌ يُوحَى؛ فما قاله فهو حقٌّ، وما أخبَر به فهو صِدقٌ، وهو الإمامُ المحكَّمُ الذي إذا تنازَع الناسُ في شَيءٍ وجَب ردُّ نزاعِهم إليه، فما يوافِقُ أقوالَه وأفعالَه فهو الحقُّ، وما يخالِفُها فهو مردودٌ على قائِلِه وفاعِلِه، كائنًا مَن كان؛ قال الله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩).

وقيل: المرادُ: أهلُ العلمِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ الأنباري. يُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) (٢/ ٨٠٩).

قال ابن جُزي: (الأظهرُ أنَّ المُرادَ: اسألْ عنه مَن هو خبيرٌ عارفٌ به، وانتصَب ﴿خَبِيرًا﴾ على المفعوليَّةِ، وهذا الخبيرُ المَسؤولُ هو جِبريلُ عليه السَّلامُ، والعلماءُ، وأهلُ الكتابِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٥).

وقال الرسعني: (إمَّا أن يُرادَ بالخِطابِ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أو غيرُه بخِطابِه؛ كقولِه تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ﴾ [يونس: ٩٤]: فإن كان المرادُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فالخبيرُ هو جبريلُ عليه السَّلامُ، في قولِ ابنِ عبَّاسٍ. وقال مجاهدٌ: هو اللهُ عزَّ وجلَّ، على معنى: فسَلْني؛ فإنِّي الخبيرُ. وإن أُريدَ به غيرُه فالمعنى: فاسألْ رجُلًا خبيرًا، أي: عالمًا بما تسألُه عنه. وقيل: الضميرُ في ﴿بِهِۦ﴾ يرجِعُ إلى ما دَلَّ عليه ﴿فَسْـَٔلْ﴾، وهو السؤالُ... المعنى: فاسألْ بسؤالِك خبيرًا أيُّها الإنسانُ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٣).

شُكْرِهم، فقال[١]:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾.

أي: وإذا قيلَ لأولئك المُشرِكين: اسجُدوا للرَّحمنِ الذي أنعَمَ عليكم بالنِّعَمِ، ودفَعَ عنكم النِّقَمَ دونَ غيرِه؛ قالوا متعَجِّبين وكافرين بالله ومُنكِرين لاسمِه الرَّحمنِ: لا نعرِفُ الرَّحمنَ! أنطيعُك -يا محمَّدُ- فنَسجُدُ لله وحْدَه لمجرَّدِ قَولِك وأمْرِك بذلك[٢]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

قال ابنُ عثيمين: (هذا السجودُ يحتَمِلُ أن يرادَ به السجودُ الخاصُّ الذي هو خرورُ الإنسانِ على أعضائِه السبعةِ، ويحتمِلُ أنَّ المرادَ به السجودُ العامُّ الذي هو الخضوعُ المُطلَقُ؛ لأنَّ السجودَ يُطلَقُ بالمعنيين: السجودُ العامُّ الذي هو الخضوعُ والذُّلُّ مُطلقًا، أو السجودُ الخاصُّ على هذه الأعضاءِ المعروفةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٩).

وقيل: المعنى: صَلُّوا للرَّحمنِ. ومِمَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٣/ ١٣١).

واختار القاسميُّ أنَّ المرادَ بالسُّجودِ: الإذعانُ بالإيمانِ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٥).

قال ابن عاشور: (السجودُ الذي أُمِروا به سُجودُ الاعتِرافِ له بالوَحدانيَّةِ، وهو شِعارُ الإسلامِ، ولم يكنِ السُّجودُ مِن عبادتِهم، وإنَّما كانوا يَطوفون بالأصنامِ، وأمَّا سُجودُ الصَّلاةِ التي هي مِن قواعدِ الإسلامِ فليس مُرادًا هنا؛ إذ لم يكونوا ممَّن يُؤمَرُ بالصَّلاةِ، ولا فائدةَ في تكليفِهم بها قبْلَ أن يُسْلِموا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٢).

وذَكَر النَّسَفي أنَّ المعنى: صَلُّوا لله، واخضَعوا له. يُنظر: (( تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٦).

قال الشنقيطي: (وما ذَكَرَه هنا مِن أنَّهم أُمِروا بالسُّجودِ له وحْدَه -جَلَّ وعلا- مذكورٌ في غيرِ هذا الموضِعِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، وقَولِه تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ [النجم: ٦٢]، =

كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾.

أي: وزاد المُشرِكينَ أمْرُهم بالسُّجودِ للرَّحمنِ كراهيةً وفِرارًا مِن الحَقِّ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾.

---

= وقد وَبَّخَهم تعالى على عدَمِ امتِثالِ ذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [الانشقاق: ٢١]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٧٠).

وممَّن اقتصَر على تفسيرِ السجودِ في الآيةِ بالسجودِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والواحديُّ، والرازي، والخازن، والعليمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٥٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا حكى سُبحانَه عنِ الكُفَّارِ مَزيدَ النُّفرةِ عن السُّجودِ؛ ذكَرَ ما لو تفكَّروا فيه لعَرَفوا وجوبَ السُّجودِ والعبادةِ للرَّحمنِ[1].

وأيضًا لَمَّا سألَ المُشرِكون بقَولِهم: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ كما يَسألون عنِ المجهولِ؛ ذكَرَ لهم القرآنُ ما يُعَرِّفُهم به مِن عظيمِ آياتِه، وجلائلِ إنعاماتِه التي هي مِن آثارِ رحمتِه، فذَكَرَ لهم بُروجَ السماءِ والشَّمسَ والقمرَ، ثمَّ ذَكَرَ لهم تعاقُبَ اللَّيلِ والنهارِ[2].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سبحانَه حالَ النَّذيرِ الذي ابتدأَ به السورةَ في دعائِه إلى الرَّحمنِ -الذي لو لم يَدْعُ إلى عبادتِه إلَّا رحمانيَّتُه لكفى، فكيف بكلِّ جمالٍ وجلالٍ- فأنكروه؛ اقتضى الحالُ أن يُوصَلَ به إثباتُه بإثباتِ ما هم عالِمونَ به مِن آثارِ رحمانيَّتِه، ففَصَّلَ ما أُجمِلَ بعْدَ ذِكْرِ حالِ النَّذيرِ، ثمَّ مِن المُلْكِ، مُصَدِّرًا له بوَصفِ الحقِّ الذي جعَلَه مَطلِعَ السورةِ؛ رادًّا لِمَا تضمَّنَ إنكارُهم مِن نفيِه، فقال[3]:

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾.

أي: تعاظَمَ اللهُ، وكَمَلَت أوصافُه، وكثُرتْ خَيراتُه، ودامتْ وثبتَتْ بَرَكاتُه، فهو الذي جعَلَ في السَّماءِ منازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦١، ٢٦٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ وَجَعَلْنَـٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَـٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿سُرُجًا﴾ على الجَمعِ، قيل: المرادُ بها: ما أضاءَ مِن النُّجومِ، وقيل: المرادُ بها: الشَّمسُ، وإنَّما جاءت بصيغةِ الجَمعِ؛ لِتَعظيمِها[1].

---

(١) قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٧).

قال ابن زنجلة: (ومَن قرأ ﴿سُرُجًا﴾: الشمسُ والقمرُ والكواكِبُ العِظامُ معها). ((حجة القراءات)) (ص: ٥١٢).

وقال السمعاني: (على هذه القراءةِ قد دخَل القمرُ في السُّرُجِ، إلَّا أنَّه خصَّه بالذِّكرِ لنوعِ فَضيلةٍ له، وهذا مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿فِيهِمَا فَـٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨]). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨).

وقال ابن عثيمين: (فعَطفُ القمَرِ المنيرِ على السُّرجِ مِن بابِ عَطفِ المتغايرينِ، لا مِن بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فالقمَرُ ليس من السُّرُجِ؛ ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦]، فالشَّمسُ -بلا شكٍّ- سراجٌ، ولكنَّ القمرَ نورٌ؛ فعليه لا يكونُ منها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦٣).

وقال البِقاعي: (قرأ حمزةُ والكسائيُّ بصيغةِ الجَمعِ؛ للتَّنبيهِ على عَظَمتِه في ذلك، بحيثُ إنَّه أعظَمُ مِن ألوفِ ألوفٍ مِن السُّرجِ، فهو قائمٌ مقامَ الوصفِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٧).

٢- قِراءةُ ﴿سِرَاجًا﴾ على الإفرادِ، والمرادُ: الشَّمسُ[١].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾.

أي: وخلَقَ اللهُ في السَّماءِ شَمسًا مُشرِقةً تَبعَثُ النُّورَ والحرارةَ، وقمرًا مُضيئًا في اللَّيلِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذكَرَ الآيتينِ: الشَّمسَ والقمرَ؛ ذكَرَ ما هُما آيَتاهُ[٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً﴾.

أي: واللهُ هو الذي جعَل اللَّيلَ والنَّهارَ بحيث يَخلُفُ أحدُهما الآخَرَ، فهُما يَتعاقبانِ أبدًا، ولا يجتَمِعانِ[٤].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٠)، ((السراج المنير)) للخطيب الشربيني (٢/ ٦٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦). =

كما قال تعالى: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

**القِراءات ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قراءةُ ﴿يَذْكُرَ﴾ على معنى: الذِّكرِ لله، وقيل: هي بمعنى ﴿يَذَّكَّرَ﴾[1].

٢- قراءةُ ﴿يَذَّكَّرَ﴾ أي: يَتذكَّرَ ويتَّعِظَ، ويعتبِرَ ويتفَكَّرَ في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ[2].

﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

أي: جعَل اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ خِلفةً لِمَن أراد أن يتَّعِظَ ويعتبِرَ ويتفَكَّرَ في اختِلافِهما، أو أراد شُكرَ اللهِ على نِعَمِه، فيَعبُدُه فيهما، ويَستَدرِكُ ما فاته في

---

= وقال البقاعي: (﴿خِلْفَةً﴾ أي: ذوي حالةٍ معروفةٍ في الاختلاف؛ فيأتي هذا خَلفَ ذاك، بضِدِّ ما له مِن الأوصافِ، ويقومُ مقامَه في كثيرٍ مِن المراداتِ، والأشياءِ المقدَّراتِ، ويُعلَمُ قدرُ التسامُحِ فيها، ومَن فاته شَيءٌ مِن هذا قَضاهُ في ذاك). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤١٨).

(١) قرأ بها حمزة، وخلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٧١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٣)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٤٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٩٩).

أحَدِهما فيَعمَلُه في وقتِ الآخَرِ[١].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَبسُطُ يَدَه باللَّيلِ لِيَتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويَبسُطُ يدَه بالنَّهارِ لِيَتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، حتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها))[٢].

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن نام عن حِزبِه أو عن شَيءٍ منه، فقرأَه فيما بيْن صَلاةِ الفَجرِ وصَلاةِ الظُّهرِ؛ كُتِب له كأنَّما قَرأَه مِنَ اللَّيلِ))[٣].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا فاتَتْه الصَّلاةُ مِن اللَّيلِ مِن وَجَعٍ أو غَيرِه، صلَّى مِنَ النَّهارِ ثِنْتَيْ عَشْرةَ ركعةً))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٥، ٦٦).

قال ابن عاشور: (التذكُّر: تفعُّلٌ مِن الذِّكر، أي: تكَلُّفُ الذِّكر. والذِّكرُ جاء في القرآن بمعنَى التأمُّل في أدلَّةِ الدِّينِ، وجاء بمعنى: تذكُّرِ فائتٍ أو مَنسيٍّ، ويجمَعُ المعنيَينِ استِظهارُ ما احتَجب عن الفِكرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٥).

وقال ابنُ عثيمين: (وأمَّا قَولُه: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فـ (أو) هنا هل هي للتقسيمِ والتنويعِ، بمعنى أن يجعلَ هذا قسيمًا للأوَّلِ، فتكونَ مانعةَ اجتماعٍ، أو هي مانعةُ خُلوٍّ؟

الجوابُ: مانعةُ خُلوٍّ؛ لأنَّ مانعةَ الاجتماعِ معناها أنَّه إذا وُجِدَ الأول امتنعَ الثاني، لكنْ مانعةُ الخلوِّ معناها إمَّا أن يوجَدَ هذا أو هذا، أو هما. ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ فهل يمكِنُ أن يجتَمِعا؟ نعَمْ؛ إذَنْ هي مانعةُ خُلوٍّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٦٦).

(٢) رواه مسلم (٢٧٥٩).

(٣) رواه مسلم (٧٤٧).

(٤) رواه مسلم (٧٤٦).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المرءَ الكاملَ لا يَثِقُ إلَّا باللهِ؛ لأنَّ التوكُّلَ على الأحياءِ المُعرَّضينَ للموتِ لا يَدومُ[١]؛ لأنَّه إذا مات المتوكَّلُ عليه صار المتوكِّلُ ضائِعًا، أمَّا هو سُبحانه وتعالى فإنَّه حيٌّ لا يموتُ، فلا يَضيعُ المتوكِّلُ عليه البتَّةَ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ دليلٌ على أنَّ واجبَ الدَّاعِيةِ أنْ يدعوَ إلى اللهِ، سواءٌ امتَثلَ المدعوُّ أم نفر[٣]، وألَّا يربطَ دعوتَه بنتائِجِها، بمعنى: أنَّه لا يقولُ: إنْ وجَدْتُ نتيجةً وإلَّا وقَفْتُ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ أنَّ عدَمَ استجابةِ المدعوِّين للدَّاعي لا يدُلُّ على فسادِ قصْدِه أو عمَلِه، ولا يدُلُّ أيضًا على تَقصيرِه، يعني: إذا دعا الإنسانُ ولكِنَّه لم يَنجَحْ، فلا يجوزُ لنا أن نَتَّهِمَه ونقولَ: هذا لو كانت نيَّتُه صالحةً لانتفَعَ الناسُ به! إذنْ هذه فائدةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّه ربَّما يكونُ مِن بَعضِ النَّاسِ اعتِراضٌ على الدَّاعي، يقولُ: هذا الدَّاعي نيَّتُه باطِلةٌ، لو أنَّ نيَّتَه صحيحةٌ ما نفَرَ النَّاسُ منه[٥]!

٤- إنَّ حياةَ الإنسانِ مِن بدايتِها إلى نهايتِها مَبنيَّةٌ على الأركانِ الثلاثةِ: الإرادةِ، والفِكرِ، والعمَلِ، وهي المذكوراتُ في قَولِه تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾؛ لأنَّ التذكُّرَ بالتفكُّرِ، والشُّكرَ بالعملِ، فاستِفادةُ الإنسانِ ممَّا خَلَقَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهُ له وجَعَلَه لأجْلِه لا تكونُ إلَّا بهذه الثَّلاثةِ، وهذه الثَّلاثةُ متوقِّفةٌ على ثلاثةٍ أخرى لا بُدَّ للإنسانِ منها؛ فالعملُ متوقِّفٌ على البدَنِ، والفِكرُ متوقِّفٌ على العقلِ، والإرادةُ متوقِّفةٌ على الخُلُقِ، فالتَّفكيرُ الصحيحُ مِن العقلِ الصحيحِ، والإرادةُ القويةُ مِن الخُلُقِ المتينِ، والعملُ المفيدُ مِن البدنِ السليمِ؛ فلهذا كان الإنسانُ مأمورًا بالمحافظةِ على هذه الثلاثةِ: عقْلِه، وخُلُقِه، وبدنِه؛ ودَفْعِ المضارِّ عنها، فيُثَقِّفُ عقْلَه بالعلمِ، ويُقَوِّمُ أخلاقَه بالسلوكِ النبويِّ، ويقُوِّي بدنَه بتنظيمِ الغذاءِ، وتوقِّي الأذى، والتريُّضِ على العمَلِ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: لِمن أراد أن يتذكَّرَ باللَّيلِ والنَّهارِ ويعتَبِرَ ويستَدِلَّ بهما على كثيرٍ مِن المطالِبِ الإلهيَّةِ، ويشكُرَ اللهَ على ذلك، ولِمَن أراد أن يذكُرَ اللهَ ويَشكُرَه وله وِردٌ مِن اللَّيلِ أو النَّهارِ، فمَن فاته وِردُه مِن أحَدِهما أدركَه في الآخَرِ، وأيضًا فإنَّ القُلوبَ تتقَلَّبُ وتنتَقِلُ في ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ، فيَحدُثُ لها النَّشاطُ والكسَلُ، والذِّكرُ والغَفلةُ، والقَبضُ والبَسطُ، والإقبالُ والإعراضُ، فجعَل اللهُ اللَّيلَ والنَّهارَ يتواليانِ على العبادِ ويتكرَّران؛ ليَحدُثَ لهم الذِّكرُ والنَّشاطُ والشُّكرُ لله في وَقتٍ آخَرَ، ولأنَّ أورادَ العباداتِ تتكرَّرُ بتكَرُّرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، فكلَّما تكرَّرت الأوقاتُ أحدَثَ للعبدِ هِمَّةً غيرَ هِمَّتِه التي كَسِلت في الوَقتِ المتقَدِّم، فزاد في تذكُّرِها وشُكرِها، فوظائِفُ الطَّاعاتِ بمنزلةِ سَقيِ الإيمانِ الذي يمُدُّه، فلولا ذلك لَذَوى غَرسُ الإيمانِ ويَبِسَ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ هذا مِن ألطَفِ خِطابِ القرآنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

وأشرفِ معانيه، وأنَّ المؤمنَ دائمًا مع اللهِ على نفْسِه وهواه وشَيطانِه وعدوِّ ربِّه، وهذا معنى كونِه مِن حزبِ اللهِ وجُندِه وأوليائِه؛ فهو معَ اللهِ على عدوِّه الداخلِ فيه والخارجِ عنه، يُحاربُهم ويُعاديهم ويُغضِبُهم له سُبحانَه، كما يكونُ خَواصُّ الملِكِ معه على حَربِ أعدائِه، والبعيدونَ منه فارِغونَ مِن ذلك، غيرُ مهتمِّينَ به، والكافِرُ معَ شيطانِه ونفْسِه وهواهُ على ربِّه. وعباراتُ السَّلَفِ على هذه تدورُ، فمعنى الآيةِ أنَّه يوالي عدُوَّه على معصيتِه والشِّركِ به، فيكونُ مع عدوِّه مُعينًا له على مَساخِطِ رَبِّه، فالمَعيَّةُ الخاصَّةُ التي للمؤمِنِ مع ربِّه وإلهِه قد صارت لهذا الكافِرِ والفاجِرِ مع الشيطانِ ومع نفْسِه وهواهُ وقُربانِه؛ ولهذا صدَّر الآيةَ بقَولِه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]، وهذه العبادةُ هي الموالاةُ والمحبَّةُ والرِّضا بمعبوديهم، المتضَمِّنةُ لمعيَّتِهم الخاصَّةِ، فظاهَروا أعداءَ اللهِ على معاداتِه ومخالفتِه ومَساخِطِه، بخلافِ وليِّه سُبحانَه؛ فإنَّه معه على نفْسِه وشيطانِه وهواه، وهذا المعنى مِن كنوزِ القُرآنِ لِمَن فَهِمَه وعَقَلَه، وبالله التوفيقُ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ لَمَّا كان سياقُ السُّورةِ للإنذارِ -لِمَا ذُكِر فيها مِن سوءِ مقالِهم، وقُبْحِ أفعالِهم- حَسُنَ التعبيرُ في البِشارةِ بما يدُلُّ على كثرةِ الفِعلِ، ويُفهِمُ كثرةَ المفعولِ؛ بِشارةً بكثرةِ المطيعِ، وفي النِّذارةِ بما يقتضي أن يكونَ صفةً لازمةً، فقال: ﴿إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ أي: لكُلِّ مَن يؤمِنُ، ﴿وَنَذِيرًا﴾ لكلِّ مَن يعصي[2].

٣- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ سؤالٌ: أنَّ الأيَّامَ عِبارةٌ عن حرَكاتِ الشمسِ في السَّمواتِ، فقَبْلَ السَّمواتِ لا

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١١).

أيَّامَ، فكيف قال اللهُ: خَلَقَها في ستَّةِ أيَّامٍ؟

**الجوابُ**: يعني في مُدَّةٍ مِقدارُها هذه المدَّةُ(١).

٤- في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ سؤالٌ: لِمَ لمْ يَخلُقْها سُبحانَه في لحظةٍ وهو قادِرٌ على ذلك؟

**والجوابُ مِن وَجهَينِ**:

**الأوَّلُ**: أنَّه يَجِبُ على المُكَلَّفِ أن يَقطَعَ الطَّمَعَ عن مِثلِ هذا؛ فإنَّه بَحرٌ لا ساحِلَ له، مِن ذلك تَقديرُ الملائِكةِ الذين هم أصحابُ النَّارِ بتِسعةَ عَشَرَ، وحَملةِ العَرشِ بثَمانيةٍ، والشُّهورِ باثنَي عَشَرَ، والسَّمَواتِ بالسَّبْعِ، وعَدَدِ الصَّلواتِ، ومَقاديرِ النُّصُبِ في الزَّكَواتِ، والحُدودِ والكَفَّاراتِ؛ فالإقرارُ بأنَّ كُلَّ ما قاله اللهُ حَقٌّ: هو الدِّينُ، والواجِبُ تَركُ البَحثِ عن هذه الأشياءِ.

**الثَّاني**: ما جاء عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ: (إنَّما خَلَقَها في سِتَّةِ أيَّامٍ، وهو قادرٌ أنْ يُخلَقَها في لَحظةٍ واحِدةٍ؛ تَعليمًا لخلْقِه الرِّفقَ والتَثَبُّتَ)(٢).

٥- اسمُ الرَّحمنِ هو على وزنِ (فَعْلان) الذي يدُلُّ على سَعةِ هذا الوَصفِ، وثبوتِ جَميعِ معناه الموصوفِ به، ألا ترَى أنَّهم يقولونَ: (غَضبانُ) للمُمتلِئِ غَضَبًا، و: (نَدْمانُ وحَيرانُ وسَكْرانُ ولَهْفانُ)، لِمن مُلِئَ بذلك، فبناءُ (فَعلان) للسَّعةِ والشُّمولِ؛ ولهذا يَقرِنُ استِواءَه على العَرشِ بهذا الاسمِ كثيرًا، كقَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، فاستوى على عرشِه باسمِ «الرَّحمنِ»؛ لأنَّ العرشَ محيطٌ بالمخلوقاتِ قد وَسِعَها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٦٩).

والأثر ذكره الثعلبيُّ في ((تفسيره)) (٤/ ٢٣٨).

والرَّحمةَ محيطةٌ بالخَلقِ واسِعةٌ لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، فاستوَى على أوسَعِ المخلوقاتِ بأوسعِ الصِّفاتِ؛ فلذلك وَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ، وفي الصَّحيحِ مِن حديثِ أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم: ((لَمَّا قضَى اللهُ الخَلْقَ كتَب في كتابٍ فهو عندَه موضوعٌ على العرشِ: إنَّ رحمتي تغلِبُ غَضَبي))[١]، وفي لفظٍ: ((فهو عندَه على العَرشِ))[٢]. فتأمَّلِ اختِصاصَ هذا الكِتابِ بذِكرِ الرَّحمةِ، ووضْعِه عندَه على العَرشِ، وطابِقْ بيْنَ ذلك وبيْن قَولِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، وقَولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]؛ ينفَتِحْ لك بابٌ عظيمٌ مِن معرفةِ الربِّ تبارك وتعالى إنْ لم يُغلِقْه عنك التَّعطيلُ والتجَهُّمُ[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ بعد ذلك ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أثبَتَ اللهُ تعالى بهذه الآيةِ خَلْقَه للمخلوقاتِ، واطِّلاعَه على ظاهِرِهم وباطِنِهم، وعُلوَّه فوقَ العرشِ، ومباينتَه إيَّاهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أنَّ الاستِواءَ مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ، ليس مِن الصِّفاتِ الذاتيَّةِ؛ لأنَّه مرتَّبٌ بعْدَ خلْقِ السَّمواتِ، يعني: حادِثًا[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ أنَّه لا تُطلَبُ معرفةُ اللهِ إلَّا مِن اللهِ؛ مِن الخبيرِ به، وهو اللهُ سُبحانَه وتعالى -على قولٍ في التفسيرِ-. وهذه

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٦، ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٦).

الآيةُ تَشهَدُ لِمَا عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ مِن أنَّ أسماءَ اللهِ وصفاتِه توقيفيَّةٌ، لا يجوزُ لأحدٍ أن يُثبِتَ منها إلَّا ما أثبَتَه اللهُ ورسولُه، يعني: أنَّ وصْفَ اللهِ تعالى لا يكونُ إلَّا بحسَبِ ما عَلِمْناه منه، فلا يمكِنُ أن نَصِفَ اللهَ تعالى بما لم يَصِفْ به نفْسَه[1]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ أنَّ السُّجودَ مِن أسبابِ الرَّحمةِ، سواءٌ السجودُ العامُّ أو السُّجودُ الخاصُّ؛ فإنَّه مِن أسبابِ الرَّحمةِ؛ ولهذا لم يَقُلْ: «اسجُدوا للهِ»، بل قال: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ﴾، يعني: لِتَصِلوا إلى رحمةِ هذا المَسجودِ له[2].

١٠- مِن عادةِ الكُفَّارِ إنكارُ ما لا يَعرفونَ، سواءٌ كان عمليًّا أو اعتقاديًّا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾[3].

١١- قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ إنَّ تعطيلَ الجَهميَّةِ وشِبهِهم أعظَمُ مِن تعطيلِ هؤلاء، فإذا كان هؤلاء كُفْرُهم بإنكارِ الرَّحمنِ، فكيف بمَن يُنكِرُ جميعَ الأسماءِ، مِن الجهميَّةِ ونحوِهم؟! ومعروفٌ أنَّ المعتزلةَ لا يُنكِرون الأسماءَ، لكنْ يُنكِرُها غُلاةُ الجهميَّةِ، ومعلومٌ أنَّ الذي يُنكِرُ الأسماءَ أعظَمُ مِن الذي يُنكِرُ اسمًا واحدًا، والكفَّارُ يُقِرُّون باللهِ ويُقِرُّون بالرَّحيمِ، لم يُنكِروا إلَّا الرَّحمنَ، قالوا: ما نعرفُ إلَّا رحمنَ اليمامةِ[4]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أنَّ المعاصيَ يَجُرُّ بعضُها بعضًا[5].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨).

أَرَادَ شُكُورًا ﴾ أنَّه لَمَّا كان جَعلُ اللَّيلِ والنهارِ خِلفةً لأجلِ التذكُّرِ والعمَلِ، كان كلُّ واحدٍ منهما صالحًا للعمَلِ الذي يُعمَلُ في صاحبِه، فمَن فاته عَمَلٌ بالليلِ أتَى به في النَّهارِ، ومَن فاته عَمَلٌ بالنَّهارِ أتَى به في الليلِ، وهذا إذا كان مِن العاداتِ فهو على سبيلِ التدارُكِ، وإذا كان مِن العباداتِ فهو على سبيلِ القضاءِ[١]، وفيه حجَّةٌ في قضاءِ النَّوافلِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الواوُ للحالِ، وهذا مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن استِمرارِهم في الشِّركِ؛ أُعقِب ذِكرَ ما نَفَع اللهُ به النَّاسَ مِن إلطافِه بهم في تَصاريفِ الكائناتِ؛ إذْ جَعَل لهمُ اللَّيلَ والنَّهارَ، وخَلَق لهمُ الماءَ، فأنبَتَ به الزَّرعَ، وسَقَى به النَّاسَ والأنعامَ، مع ما قارَنَه مِن دَلائلِ القُدرةِ، بذِكرِ عبادتِهم ما لا يَنفَعُ النَّاسَ؛ عَوْدًا إلى حكايةِ شَيءٍ مِن أحوالِ مُشْركي مكَّةَ[٣].

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارعِ (يَعْبُدُونَ)؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ عبادتِهمُ الأصنامَ، وعدَمِ إجداءِ الدَّلائلِ[٤]. فالتعبيرُ بالمضارعِ فيه إشارةٌ إلى أنَّهم لو فعَلوا ذلك مرَّةً لكان في غايةِ العجبِ، فكيفَ وهو على سبيلِ التجديدِ والاستمرارِ؟! وهو مصوِّرٌ لحالِهم زيادةً في تبشيعِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩).

- قولُه: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ فيه نَفيُ الضُّرِّ بَعْدَ نَفيِ النَّفعِ؛ للتَّنبيهِ على انتِفاءِ شُبهةِ عَبَدةِ الأصنامِ في شِركِهم؛ لأنَّ موجبَ العبادةِ إمَّا رَجاءُ النَّفعِ، وإمَّا اتِّقاءُ ضُرِّ المَعبودِ، وكِلاهما مُنتَفٍ عنِ الأصنامِ بالمُشاهَدةِ(١).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ قُدِّمَ هنا النَّفعُ على الضُّرِّ، فقالَ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾، وعكَسَ ذلك في سُورةِ (يونسَ) فقالَ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]، وفائِدتُه: أنَّه في سُورةِ (يونسَ) بدَأَ بما هو أبلَغُ إذا ابتُدِئَ به؛ لأنَّ امتِلاكَ الضُّرِّ أَسهَلُ مِنَ امتِلاكِ النَّفعِ؛ فالواحدُ منَّا يَقدِرُ لغَيرِه مِنَ الضُّرِّ ما لا يَقدِرُ عليه مِنَ النَّفعِ، ويتَسهَّلُ عليه ضُرُّه ما لا يَتسهَّلُ عليه نفْعُه، أي: يَعبُدون أصنامًا لا تَقدِرُ على ما يَتسهَّلُ على الفاعِلينَ؛ فكيف ما يَتعذَّرُ؟! ثمَّ ذَكَر بَعدَه: ﴿وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ لاستِيعابِ ما في البابِ. وأمَّا هنا في سورةِ (الفُرقانِ) فإنَّه تَبِعَ على ما قُدِّمَ فيه الأفضلُ على الأَنقصِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقولِه بعْدَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]، فقَدَّمَ خِلطةَ النَّسبِ على خِلطةِ السَّببِ -وهي المُصاهَرةُ-، ثمَّ جاءَ بعدَ ذلك: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾؛ فقَدَّم النَّفعَ على الضُّرِّ اتِّباعًا لِمَا تقدَّمَ(٢).

- وأيضًا لَمَّا كان هذا السياقُ لِتَعدادِ نِعَمِه سُبحانَه، وكان الحامِلُ للإنسانِ على الإذعانِ رجاءَ الإحسانِ أو خوفَ الهَوانِ، وكان رجاءُ الإحسانِ مُقبِلًا به إلى المحسِنِ في السِّرِّ والإعلانِ- قَدَّمَ النفعَ فقال: ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٩٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٥).

بوَجهٍ، ولَمَّا كان الخوفُ إنَّما يوجِبُ الإقبالَ ظاهِرًا فقط؛ أتبَعَه قولَه: ﴿وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ أي: أصلًا في إزالةِ نعمةٍ مِن نِعَمِ اللهِ عنهم، فلا أسخَفَ عقلًا ممَّن يترُكُ مَن بيدِه كلُّ نفعٍ وضرٍّ، وهو يتقلَّبُ في نِعَمِه في يقظتِه ونومِه، وأمسِه ويومِه، ويُقبِلُ على مَن لا نَفعَ بيَدِه ولا ضُرَّ أصلًا[1]!

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ تَذْييلٌ لِما قَبلَه؛ فاللَّامُ في تَعريفِ الكافرِ للاستِغراقِ، أي: كُلُّ كافرٍ على ربِّه ظَهيرٌ. وجُعِل الخَبرُ عنِ الكافرِ خَبرًا لـ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ اتِّصافَه بالخبرِ أمْرٌ مُتقرِّرٌ مُعتادٌ مِن كلِّ كافرٍ. وكذلك جُعِل المُشرِكُ في إشراكِه -مع وُضوحِ دَلالةِ عدَمِ استِئهالِ الأصنامِ للإلهيَّةِ- كأنَّه يَنصُرُ الأصنامَ على ربِّه الحقِّ[2].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ فيه إظهارٌ في مقامِ الإضمارِ، فالسياقُ يقتضي أنْ يقولَ: (وكانوا على ربِّهم)، لكنْ قال: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ﴾ إشارةً إلى أنَّ هذه العبادةَ أوصلَتْهم إلى الكُفرِ، وأيضًا لفائدةِ التعميمِ[3].

- وفي ذِكرِ الرَّبِّ تعالى: تَعريضٌ بأنَّ الكافرَ عاقٌّ لمَولاهُ[4].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[5]. وهذا الكلامُ الواردُ في الرَّدِّ عليهم جامعٌ بيْن إبطالِ إنكارِهم لِرسالتِه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٦، ٥٧).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١١٩).

وبيْن تأنيسِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه ليس بمُضِلٍّ، ولكنَّه مُبشِّرٌ ونَذيرٌ. وفيه تَعريضٌ بألَّا يَحزَنَ لتكذيبِهم إيَّاهُ(١).

- وهاهنا نُكتةٌ شَريفةٌ؛ وهي أنَّه تعالى لَمَّا خَصَّ ذِكرَ النَّذيرِ في فاتحةِ السُّورةِ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] أَمسَكَ عن ذِكرِ المؤْمنينَ، وحين قَرَنه بالبَشيرِ في هذه الآيةِ، أتَى بذِكرِ الفَريقَينِ -أَعْني: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٦٣]-؛ لتكونَ الخاتِمةُ مُشتمِلةً على ذِكرِ الأولياءِ، فلا تَخْلو السُّورةُ مِن ذِكرِهم(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ استِثناءٌ، وهو تأكيدٌ لنَفيِ أنْ يَكونَ يَسألُهم أجْرًا؛ لأنَّه استِثناءٌ مِن أحوالٍ عامَّةٍ مَحذوفٍ ما يدُلُّ عليها لقَصدِ التَّعميمِ، والاستِثناءُ مِعيارُ العُمومِ؛ فلذلك كثُرَ في كلامِ العربِ أن يُجعَلَ تأكيدُ الفِعلِ في صورةِ الاستِثناءِ، ويُسمَّى تأكيدَ المدحِ بما يُشْبِهُ الذَّمَّ، أو: تأكيدَ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ مِن قَبيلِ التأكيدِ في الجُملةِ؛ لأنَّ الكلامَ على حذْفِ مُضافٍ يُناسِبُ أجْرًا؛ إذِ التَّقديرُ: إلَّا عمَلَ مَن شاءَ أن يَتَّخِذَ إلى ربِّه سبيلًا، وذلك هو اتِّباعُ دِينِ الإسلامِ. ولَمَّا كان هذا إجابةً لدَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَشبَهَ الأجرَ على تلك الدَّعوةِ، وقد يُسمَّى مِثلُ هذا الاستِثناءِ: الاستِثناءَ المُنقطِعَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦١، ٢٦٢).

ويُقدِّرونه كالاستِدراكِ[١].

- وقدْ صَوَّرَ ذلك بصُورةِ الأجرِ مِن حيثُ إنَّه مَقصودُ الإتيانِ به، واستَثنَى منه قلعًا كُلِّيًّا لشَائبةِ الطَّمعِ، وإظهارًا لغايةِ الشَّفقةِ عليهم، حيثُ جَعَل ذلك مع كَونِ نَفعِه عائدًا إليهم، عائدًا إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- وجُعِل السَّبيلُ هنا إلى اللهِ؛ لأنَّه وسيلةٌ إلى إجابتِه فيما دَعاهُم إليه، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾[النبأ: ٣٩]. وذِكرُ وصْفِ الرَّبِّ دُونَ الاسمِ العَلَمِ؛ للإشارةِ إلى استِحقاقِه السَّيرَ إليه؛ لأنَّ العبدَ مَحقوقٌ بأن يَرجِعَ إلى ربِّه، وإلَّا كان آبِقًا[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ هذا أمرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو يَشمَلُ الأُمَّةَ ما لم يكنْ دَليلٌ على الخُصوصيَّةِ[٤]. وأصلُ الكلامِ: تَوكَّلْ علَيَّ، ثمَّ حُوِّل إلى: تَوكَّلْ على اللهِ؛ فخَصَّ الحَيَّ الَّذي لا يَموتُ بالذِّكرِ؛ ليَكونَ تَعريضًا بأنَّ غيرَه لا يَصِحُّ أن يُتوكَّلَ عليه؛ أمَّا الأصنامُ فإنَّها أَمواتٌ لا يُكْفى أمْرُ مَن يَتوكَّلُ عليها، وأمَّا الأحياءُ الَّذين يَموتون فإنَّهم إذا ماتوا ضاعَ المُتوكِّلُ. أو نقولُ: إنَّ التَّركيبَ مِن بابِ تَرتيبِ الحُكمِ على الوَصفِ المُناسِبِ، وهو أنَّ المتوكِّلَ إذا عَلِم أنَّ المُتوكَّلَ عليه دائِمٌ باقٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٩).

يَعتَمِدُ عليه بشَراشِرِه -أي: بكُلِّيَّتِه-، ولا يَتوزَّعُ خاطِرُه إلى الغَيرِ بخِلافِه إذا لم يَكنْ كذلك؛ فإذَنْ لا يَصِحُّ التَّوكُّلُ إلَّا على الحَيِّ الَّذي لا يَموتُ، وهو اللهُ تعالى؛ فصَحَّ الحَصرُ[1].

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وصَفَ تعالى نفْسَه بالصِّفةِ الَّتي تَقتَضي التَّوكُّلَ في قَولِه: ﴿ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾؛ لأنَّ هذا المعنى يختصُّ به تعالى دُونَ كلِّ حَيٍّ، كما قال: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[2] [القصص: ٨٨].

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ وصْفٌ بالصِّفةِ الفِعليَّةِ بعدَ وصْفِه بالأبَديَّةِ الَّتي هي مِنَ الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ. والإشارةُ إلى اتِّصافِه بالعِلمِ الشَّاملِ؛ لتَقريرِ وُجوبِ التَّوكُّلِ عليه تعالى وتَأكيدِه؛ فإنَّ مَن أَنشَأَ هذه الأجرامَ العِظامَ على هذا النَّمطِ الفائقِ، والنَّسَقِ الرَّائقِ، بتَدبيرٍ مَتينٍ، وتَرتيبٍ رَصينٍ، في أوقاتٍ مُعيَّنةٍ، مع كمالِ قُدرتِه على إبداعِها دَفعةً، لحِكَمٍ جليلةٍ، وغاياتٍ جميلةٍ، لا تَقِفُ على تفاصيلِها العُقولُ: أَحَقُّ مَن يُتوكَّلُ عليه، وأَوْلى مَن يُفوَّضُ الأمرُ إليه[3].

- قولُه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ الحَيُّ الَّذي لا يَموتُ هو اللهُ تعالى، وعَدَل عنِ اسمِ الجلالةِ إلى هذَينِ الوَصفَينِ؛ لِما يؤْذِنُ به مِن تَعليلِ الأمرِ بالتَّوكُّلِ عليه؛ لأنَّه الدَّائمُ، فيُفيدُ ذلك معنَى حَصرِ التَّوكُّلِ في الكَونِ عليه؛ فالتَّعريفُ في الحَيِّ للكاملِ، أي: الكاملِ حياتُه؛ لأنَّها واجبةٌ باقيةٌ مُستمِرَّةٌ، وحياةُ غَيرِه مُعرَّضةٌ للزَّوالِ بالمَوتِ، ومُعرَّضةٌ لاختِلالِ أثَرِها

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٧).

بالذُّهولِ كالنَّومِ ونَحوِه، فإنَّه مِن جِنسِ المَوتِ؛ فالتَّوكُّلُ على غَيرِه مُعرَّضٌ للاختِلالِ وللانخِرامِ. وفي ذِكرِ الوَصفَينِ تَعريضٌ بالمشرِكينَ؛ إذْ ناطُوا آمالَهم بالأصنامِ، وهي أمواتٌ غيرُ أَحياءٍ[1].

- ولَمَّا كان الوَكيلُ يَحمِلُ عن الموكِّلِ ثِقَلَ ما أظهَرَ له عَجْزَه فيه، ويَقومُ بأَعبائِه حتَّى يَصيرَ كمَنْ يَحمِلُ عن آخَرَ عَينًا مَحسوسةً لا يَصيرُ له عليه شَيءٌ منها أصلًا؛ عَبَّر بحرفِ الاستِعلاءِ تَمثيلًا لذلك، فقال: ﴿عَلَى ٱلْحَيِّ﴾[2].

- قولُه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ الباءُ في ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ للمُصاحَبةِ، أي: سبِّحه تَسبيحًا مُصاحِبًا للثناءِ عليه بما هو أهلُه، وقد جَمَع له في هذا الأمرِ التَّخليةَ والتَّحليةَ، مُقدِّمًا التَّخليةَ؛ لأنَّ شأنَ الإصلاحِ أن يَبدَأ بإزالةِ النَّقصِ[3].

- قولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ اعتِراضٌ في آخِرِ الكلامِ، فيُفيدُ معنَى التَّذييلِ؛ لِما فيه مِنَ الدَّلالةِ على عمومِ عِلمِه تعالى بذُنوبِ الخَلْقِ، ومِن ذلك أحوالُ المُشركينَ الَّذين هُم غرَضُ الكلامِ؛ ففي (ذُنوبِ عِبادِهِ) عُمومانِ: عُمومُ ذُنوبِهم كلِّها؛ لإفادةِ الجَمعِ المُضافِ عمومَ إفرادِ المُضافِ، وعمومُ النَّاسِ؛ لإضافةِ (عِبادِ) إلى ضَميرِ الجلالةِ، أي: جميعِ عِبادِه، مع ما في صيغةِ (خَبير) مِن شدَّةِ العِلمِ، وهو يَستلزِمُ العُمومَ؛ فكان كعُمومٍ ثالثٍ[4].

- والعِلمُ بالذُّنوبِ كِنايةٌ عن لازِمِه، وهو أنَّه يُجازيهم على ذُنوبِهم[5].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ تَعريضٌ بتَسليةِ الرَّسولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٩، ٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٦٠).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما يُلاقيهِ مِن أَذاهُم، ووعيدٌ للكفَّارِ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ في ذِكرِ هذه الآيةِ زِيادةُ تَقريرٍ لكَونِه حَقيقًا بأنْ يُتوكَّلَ عليه؛ مِن حيثُ إنَّه الخالقُ للكلِّ والمُتصرِّفُ فيه، وتَحريضٌ على الثَّباتِ والتَّأنِّي في الأمرِ؛ فإنَّه تعالى مع كَمالِ قُدرتِه وسرعةِ نَفاذِ أمْرِه في كلِّ مُرادٍ خلَقَ الأشياءَ على تؤَدَةٍ وتَدرُّجٍ[٢].

- وأُجريَتْ هذه الصِّلةُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ...﴾ وصْفًا ثانيًا لـ ﴿ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]؛ لاقتِضائِها سَعةَ العِلمِ، وسَعةَ القُدرةِ، وعَظيمَ المجدِ؛ فصاحبُها حَقيقٌ بأنْ يُتوكَّلَ عليه، ويُفوَّضَ أمْرُ الجزاءِ إليه. وهذا تَخلُّصٌ إلى العَودِ إلى الاستِدلالِ على تَصرُّفِ اللهِ تعالى بالخَلقِ[٣].

- وقولُه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ هو خَبرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هو الرَّحمنُ - وذلك على قولٍ-، وهذا مِن حذْفِ المُسنَدِ إليه الغالِبِ في الاستِعمالِ عِندَ ما تَتقدَّمُ أَخبارٌ أو أوصافٌ لصاحبِها، ثمَّ يُرادُ الإخبارُ عنه بما هو إفصاحٌ عن وصْفٍ جامعٍ لِما مضَى أو أهَمَّ في الغرضِ ممَّا تَقدَّمَه؛ فإنَّ وصْفَ الرَّحمنِ أهَمُّ في الغرضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو الأمرُ بالتَّوكُّلِ عليه؛ فإنَّه وصْفٌ يَقتَضي أنَّه يُدبِّرُ أُمورَ مَن تَوكَّلَ عليه بقَويِّ الإسعافِ[٤].

- وفُرِّعَ على وَصْفِه بالرَّحمنِ قَولُه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾؛ للدَّلالةِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ في رَحمتِه مِنَ العَظَمةِ والشُّمولِ ما لا تَفِي فيه العِبارةُ، فيَعدِلُ عن زِيادةِ التَّوصيفِ إلى الحَوالةِ على عَليمٍ بتَصاريفِ رَحمتِه، مُجرِّبٍ لها، مُتلَقٍّ أحاديثَها ممَّن عَلِمَها وجرَّبَها[1]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- وتَنكيرُ ﴿خَبِيرًا﴾؛ للدَّلالةِ على العُمومِ، فلا يَظنُّ خبيرًا مُعَيَّنًا؛ لأنَّ النَّكِرةَ إذا تَعلَّقَ بها فِعلُ الأمرِ اقتَضَتْ عُمومًا؛ فقوله: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يَجري مَجرَى المَثَلِ، ولَعلَّه مِن مُبتكَراتِ القُرآنِ، نَظيرَ قَولِ العربِ: «على الخَبيرِ سَقَطْتَ»، يَقولُها العارِفُ بالشَّيءِ إذا سُئِل عنه. والمَثَلانِ وإنْ تَساوَيَا في عددِ الحُروفِ المَنطوقِ بها؛ فالمَثَلُ القُرآنيُّ أَفصَحُ؛ لسَلامتِه مِن ثِقَلِ تَلاقي القافِ والطَّاءِ والتَّاءِ في (سقَطْتَ)، وهو أيضًا أَشرَفُ؛ لسَلامتِه مِن مَعنَى السُّقوطِ. وهو أَبلَغُ مَعنًى؛ لِما فيه مِن عُمومِ كلِّ خَبيرٍ، بخِلافِ قَولِهم: «على الخَبيرِ سقَطْتَ»؛ لأنَّها إنَّما يَقولُها الواحدُ المُعَيَّنُ[2].

- والباءُ في قولِه: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ يَجوزُ أن تَكونَ مُتعلِّقةً بـ﴿خَبِيرًا﴾، وتَقديمُ المَجرورِ للرَّعيِ على الفاصِلةِ، وللاهتِمامِ[3].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ لَمَّا جَرَى وصْفُ اللهِ تعالى بالرَّحمن مع صِفاتٍ أُخَرَ؛ استَطرَدَ بذِكْرِ كُفرِ المُشركينَ بهذا الوَصفِ، والخَبرُ هنا مُستعمَلٌ كِنايةً في التَّعجُّبِ مِن عِنادِهم وبُهتانِهم، وليس المَقصودُ إفادةَ الإخبارِ عنهم بذلك؛ لأنَّه أمْرٌ مَعلومٌ مِن شأنِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٦١، ٦٢).

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ استَفهَمَ كُفَّارُ قُرَيشٍ عنِ الرَّحمنِ استِفهامَ مَن يَجهَلُه وهُم عالِمونَ به؛ فأَظهَروا التَّجاهُلَ بهذه الصِّفةِ الَّتي للهِ؛ مُغالَطةً منهم ووقاحةً، فقالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، وهُم عارِفونَ به وبصِفتِه الرَّحمانيَّةِ، كما قال فِرعونُ: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] حين قال له موسى: ﴿إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤] على سَبيلِ المُناكَرةِ، وهو عالِمٌ برَبِّ العالَمينَ[1]! فـ (ما) في قَولِه: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ استِفهاميَّةٌ، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الاستِغرابِ، يَعْنونَ تَجاهُلَ هذا الاسمِ؛ ولذلك استَفهَموا عنه بـ (ما) دُونَ (مَن)، باعتِبارِ السُّؤالِ عن معنَى هذا الاسمِ[2].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ استِفهامُ إنكارٍ وامتِناعٍ[3].

- ومَفعولُ ﴿تَأْمُرُنَا﴾ في قولِه: ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، تَقديرُه: يَأمُرُنا سُجودَه، نَحوَ قَولِهم: أَمَرْتُك الخَيرَ[4].

- قولُه: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ فيه إسنادُ زيادةِ النُّفورِ إلى القَولِ؛ لأنَّه سبَبُ تلك الزِّيادةِ، فهُم كانوا أصحابَ نُفورٍ مِن سُجودٍ للهِ، فلمَّا أُمِروا بالسُّجودِ للرَّحمن زادُوا بُعدًا مِنَ الإيمانِ، وهذا كقَولِه في سورةِ (نوح): ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾[5] [نوح: ٦].

٧- قولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ؛ جُعِل تمهيدًا لقَولِه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٣).

ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ...﴾ الآياتِ[١] [الفرقان: ٦٣].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ على قِراءةِ (سُرُجًا) بالجَمعِ، وهو يَجمَعُ الأنوارَ؛ يكونُ خَصَّ القمرَ بالذِّكرِ تَشريفًا[٢]. وقولُه: (سُرُجًا) جَمعُ سِراجٍ؛ فيَشمَلُ مع الشَّمسِ النُّجومَ؛ فيكونُ امتِنانًا بحُسنِ مَنظرِها للنَّاسِ، كقَولِه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥]. والكلامُ جارٍ على التَّشبيهِ البَليغِ؛ لأنَّ حقيقةَ السِّراجِ: المِصباحُ الزَّاهِرُ الضِّياءِ. والمقصودُ: أنَّه جَعَل الشَّمسَ مُزيلةً للظُّلْمةِ كالسِّراجِ، أو خَلَقَ النُّجومَ كالسِّراجِ في التَّلألُؤِ وحُسنِ المَنظرِ[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾

- اختِيرَتْ لَفظةُ (الخِلْفةِ) هنا؛ لدَلالتِها على الهيئةِ، فتكونُ مُنبِّهةً على هيئةِ هذا الاختِلافِ؛ بالطُّولِ والقِصَرِ المُختلفينِ في جِهاتٍ مِن الأرضِ، وذلك مُنبِّهٌ على أسبابِ هذا الاختِلافِ مِن وضْعِ جِرمِ الأرضِ وجِرمِ الشَّمسِ، وذلك كلُّه مِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ عليه، وبتلك الهيئةِ مِنَ الاختلافِ المُقدَّرِ المُنظَّمِ عَظُمَت النِّعمةُ على البشرِ، وشَمِلَتْهم الرَّحمةُ؛ فكانتْ هذه اللَّفظةُ الواحدةُ مُنبِّهةً على ما في اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ مِن آيةٍ دالَّةٍ، ومِن نِعمةٍ عامَّةٍ؛ وهكذا جميعُ ألْفاظِ القرآنِ في انتِقائِها لِمواضعِها[٤].

- والجارُّ في ﴿لِّمَنْ أَرَادَ﴾ يتعلَّقُ بـ ﴿جَعَلَ﴾، وكان الجَعلُ لهما؛ لأنَّهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٣، ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٠).

المُستفيدانِ منه، ولم يُكرِّرِ الاسمَ الموصولَ؛ لأنَّ الشَّخصَ الواحدَ يُمكِنُ أنْ يتَّصِفَ بالصِّفتينِ معًا. وكرَّرَ فِعلَ الإرادةِ؛ لأنَّها لا بدَّ منها في التَّذكُّرِ وفي الشُّكرِ(١).

- قولُه: ﴿خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ جِيءَ في جانبِ المُتذكِّرينَ بقَولِه: ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾؛ لدَلالةِ المضارعِ على التَّجدُّدِ والحُدوثِ؛ فإنَّ الغَفلةَ مُستوليةٌ على الإنسانِ، والآياتُ المرئيَّةُ ما تَزالُ تُحدِثُ له التذكُّرَ وتُجدِّدُه له. واقتَصَر في جانبِ الشَّاكِرينَ على المصدرِ بقَولِه: ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾؛ لأنَّ الشُّكرَ يَحصُلُ دَفعةً. ولأجْلِ الاختِلافِ بيْن النَّظْمَينِ أُعيدَ فِعلُ (أَرَادَ)؛ إذْ لا يَلتئِمُ عَطْفُ ﴿شُكُورًا﴾ على ﴿أَن يَذَّكَّرَ﴾، وقيل: ﴿شُكُورًا﴾؛ لمُناسَبةِ رُؤوسِ الآيِ(٢).

- قولُه: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ نَشْرٌ لمعنَى اللَّفِّ(٣) في قَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦).

(٣) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين: الوجه الأوَّل: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّف، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنشر المرتَّب». الوجه الثاني: أن يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ﴾؛ فإنَّ مجرَّدَ الانتِقالِ والتَّغييرِ يدُلُّ على ناقِلٍ ومُغيِّرٍ عظيمِ القُدرةِ، وكَونَ ذلك الانتِقالِ مؤدِّيًا إلى النَّفعِ العظيمِ يدُلُّ على مُنعِمٍ واسعِ النِّعمةِ، وهُمَا يوجِبانِ المعرفةَ والعِبادةَ[1] [المرسلات: ٦].

و﴿ أَوْ ﴾ للتنويعِ على معنى الاشتمالِ على هذينِ المعنيينِ، أو للتخييرِ على معنى الاستقلالِ بكلٍّ، ولا منعَ مِن الاجتماعِ. وفائدةُ هذا الأسلوبِ إفادةُ الاستقلالِ، ولو ذكَر الواوَ بدلَها لتُوُهِّمَ المعيةُ[2].

- وقوله: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا ﴾ أبَوُا التَّفكُّرَ في آياتِ اللهِ جُحودًا وعِنادًا، وامتَنَعوا عنِ الشُّكرِ لآلائِه عُتُوًّا واستِكبارًا، وتَصريحٌ بأنَّ الَّذين تَوسَّموا بعِبادِ الرَّحمنِ على خِلافِ ذلك؛ ولذلك قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾، وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴾ ليُقابِلَ قَولَهم: ﴿أَنَسْجُدُ ﴾، وقولَه: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٢).

وتقدَّمت الإشارةُ إلى أنَّ (أو) مانعةُ خلوٍّ؛ فإمَّا أنْ يوجدَ هذا أو يُوجدَ هذا، ويمكنُ أن يجتمِعا. يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (٩/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٧٩).

## الآيات (٦٢-٦٧)

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَوْنًا﴾: أي: بالرِّفْقِ والسَّكينةِ والوَقارِ، وأصلُ (هون): يدُلُّ على سُكونٍ أو سَكينةٍ أو ذُلٍّ[1].

﴿سَلَٰمًا﴾: أي: سَدادًا مِن القَولِ ومَعروفًا، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على صِحَّةٍ وعافيةٍ[2].

﴿غَرَامًا﴾: أي: دائِمًا لازِمًا، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ[3].

﴿وَمُقَامًا﴾: أي: إقامةً، ويُعبَّرُ بالإقامةِ عن الدَّوامِ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤١٢) و(١٧/ ٤٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

انتِصابٍ أو عَزمٍ[١].

﴿يَقْتُرُوا﴾: يُضَيِّقوا ويَبخَلوا، والقَتْرُ: تقليلُ النَّفَقةِ، وأصلُ (قتر): يدُلُّ على تجميعٍ وتَضييقٍ[٢].

﴿قَوَامًا﴾: أي: وسَطًا وعَدلًا، والقَوامُ هو الشَّيءُ بينَ الشَّيئيْنِ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا صفاتِ عِبادِه المؤمنينَ: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين يَمشونَ على الأرضِ بسَكينةٍ ووَقارٍ ولِينٍ، وإذا خاطَبَهم السُّفَهاءُ بالسَّيِّئِ مِن القَولِ لم يُقابِلوهم بالمِثْلِ، بل قابَلوهم بالقَولِ الطيِّبِ، وهم الذين يُصَلُّون لله في اللَّيلِ ساجِدينَ وقائِمينَ، والذين يقولونَ خَوفًا مِن عِقابِ رَبِّهم: ربَّنا أبعِدْ عنَّا عذابَ جهنَّمَ؛ إنَّ عذابَها كان مُهلِكًا ومُلازِمًا لأهلِ النَّارِ لا يُفارِقُهم، إنَّها قَبُحَت مَنزِلًا ومُقامًا لِمن يُقيمُ فيها.

والذين إذا أنفَقوا لم يُبذِّروا ولم يُضيِّقوا ويَبخَلوا، وكان إنفاقُهم وسَطًا بيْن الإسرافِ والتَّقتيرِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٨).

سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا تجاهَلَ المشرِكون الرحمنَ، واستكبَروا عن السجودِ له؛ عَرَّفَهم القرآنُ بالرحمنِ: بخَلْقِه، وتدبيرِه وإنعامِه -كما مضى في الآياتِ المتقدمةِ- ثم عَرَّفَهم بعِبادِه الذين عَرَفوه بذلك فآمنوا به وخضَعوا له، بما اشتملتْ عليه هذه الآياتُ مِن صفاتِهم، وكما كانت مخلوقاتُ الله المذكورةُ سابقًا دالَّةً عليه، ومعَرِّفةً به، بما فيها مِن آثارِ قدرتِه وآثارِ رحمتِه، كذلك كان عِبادُه المذكورون أدِلَّةً عليه ومعَرِّفين به؛ بأقوالهم وأفعالِهم، وهَديِهم وسلوكِهم، ومَظاهِرِ آثارِ رحمةِ الله عليهم، فذكَروا بعْدَ ذلك تلك المخلوقاتِ، وذُكِرت هي قبلَهم؛ لأنها كانت أدِلَّةً لهم، والدليلُ سابقٌ على المستدِلِّ سَبْقَ المُستفادِ منه على المستفيدِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سبحانه التذكُّرَ والشُّكرَ في اللَّيلِ والنهارِ في الآيةِ المتقدِّمةِ؛ ذَكَرَ صفاتِ المتذكِّرينَ الشاكرينَ، وما أثمَرَه لهم تَذكُّرُهم وشُكرُهم؛ ترغيبًا في التذكُّرِ والشُّكرِ[2].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَ الله سُبحانه الكُفَّارَ في هذه السُّورةِ بما وَصَفَهم به مِن الفَظاظةِ والغِلظةِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعداوتِهم له، ومُظاهَرتِهم على خالِقِهم، ونحوِ ذلك مِن جلافتِهم، وخَتَمَ بالتذكُّرِ والشُّكرِ، وكان التقديرُ: فعِبَادُ الشَّيطانِ لا يتذكَّرون ولا يشكُرون؛ لِما لهم مِن القسوةِ- عَطَفَ على هذا المُقَدَّرِ أضْدادَهم، واصفًا لهم بأضْدادِ أوصافِهم، مُبَشِّرًا لهم بضِدِّ جزائِهم، فقال تعالى[3]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾.

أي: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين يَمشون بحِلْمٍ وسَكينةٍ، ووَقارٍ وتواضُعٍ، ورِفقٍ ولينٍ، مِن غَيرِ مَرَحٍ وتكبُّرٍ وتجبُّرٍ، وسَعيٍ للإفسادِ وارتكابِ المعاصي(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٦٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٨).

قال ابن كثير: (المرادُ بالهَونِ هاهنا السَّكينةُ والوقارُ، كما قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: «إذا أتيتُمُ الصَّلاةَ فلا تأتُوها وأنتم تَسْعَونَ، وأْتُوها وعليكم السَّكينةُ، فما أدركتُم فصَلُّوا، وما فاتَكم فأتِمُّوا»[البخاري (٦٣٥)، ومسلم (٦٠٣)]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١، ١٢٢).

ويُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ١٦١).

وقال ابنُ جُزي: (﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾، أي: رِفقًا ولِينًا بحِلمٍ ووقارٍ، ويحتمِلُ أن يكون ذلك وَصْفَ مَشيِهم على الأرضِ، أو وصْفَ أخلاقِهم في جميعِ أحوالِهم، وعبَّرَ بالمَشيِ على الأرضِ عن جميعِ تصَرُّفِهم مدَّةَ حياتِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٦).

وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ قَولِه ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أنَّه مدحٌ لمِشْيةٍ بالأرجُلِ، وهو الذي حمَل عليه جمهورُ المفسِّرينَ... [و] تقييدُ المشيِ بأنَّه على الأرضِ؛ لِيَكونَ في وَصفِه بالهَونِ ما يقتضي أنَّهم يَمشون كذلك اختيارًا، وليس ذلك عندَ المشيِ في الصُّعُداتِ أو على الجنادِلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٨).

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿يَمْشُونَ﴾ عبارةٌ عن تصرُّفاتِهم في معاشرةِ النَّاسِ، وأنَّه ذكَر مِن ذلك المعظمَ، لاسيَّما وفي ذلك الانتقالِ في الأرضِ معاشرةُ الناسِ وخلطتُهم. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطية، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٨).

وقال ابن عثيمين: (ثمَّ إنَّ هذا المَشيَ، هل هو المشيُ الحِسِّيُّ، أو يعُمُّ المشيَ الحسِّيَّ والمعنويَّ؟ الجوابُ: يَعُمُّهما جميعًا، حتَّى المشيَ المعنويَّ؛ بدليلِ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾، وهذا مِن هَونِ المشيِ المعنويِّ؛ أنَّهم إذا خاطَبَهم الجاهلون لا يتسَرَّعون فيقابلونَه بمِثلِ جَهلِه، ولكِنَّهم يقولون: سلامًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧١).

طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ [لقمان: ١٨، ١٩].

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

أنَّها بيانٌ لحالِ عِبادِ الرحمنِ في المُعامَلةِ مع غَيرِهم إِثْرَ بَيانِ حالِهم في أنفُسِهم(١).

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾.

أي: وإذا خاطَبَ السُّفَهاءُ عِبادَ الرَّحمنِ بما يَكرَهونَه، أجابوهم بقَولٍ سَدادٍ وصَوابٍ، ويَعفُون عنهم ويَصفَحون، فيَسْلَمون مِن الإثمِ، ومِن مُقابَلةِ جَهلِهم بالإساءةِ إليهم، ومِن تطاوُلِهم في أذيَّتِهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٦٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧١).

قال ابنُ باديس: (﴿سَلَٰمًا ﴾ ... مفعولٌ مطلقٌ، والتقديرُ: قالوا قولًا سلامًا، أي: ذا سلامٍ، فيشملُ كلَّ قولٍ فيه سلامةٌ مِن الأذَى والمكروهِ؛ كسلام عليكم، ويغفرُ الله لكم، وسامحكم الله، ونحو ذلك. أو... مفعولٌ به، أي: قالوا هذا اللفظَ ﴿سَلَٰمًا ﴾ نفْسَه). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: رَدُّوا معروفًا، وأجابوا بالسَّدادِ مِن الخِطابِ، ولم يقولوا إلَّا خيرًا: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، وابنُ جُزي، والنسفيُّ، والخازنُ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) =

﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه وصْفَهم بالنَّهارِ مِن وَجهَينِ؛ أحدُهما: تَرْكُ الإيذاءِ، بقَولِه: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، والثَّاني: تحمُّلُ الإيذاءِ، بقولِه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ

---

= (٢/ ٨٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٢).

قال السعدي: (﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي: خاطَبوهم خِطابًا يَسْلَمون فيه مِنَ الإثمِ، ويَسلَمون مِن مُقابَلةِ الجاهلِ بجَهلِه. وهذا مدحٌ لهم بالحِلمِ الكثيرِ، ومُقابَلةِ المُسيءِ بالإحسانِ، والعفوِ عن الجاهلِ، ورَزانةِ العقلِ الذي أوصَلَهم إلى هذه الحالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

وممَّن اختار أنَّهم قالُوا هذا اللَّفظَ -أي: سلامًا-: ابنُ عطية، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢١٧).

وقال القاسمي: (﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ أي: إذا خاطَبَهم السُّفهاءُ بالقولِ السَّيِّئِ لم يُقابِلوهم بمِثلِه، بل قالوا كلامًا فيه سلامٌ مِن الإيذاءِ والإثمِ؛ سواء كان بصيغةِ السلام، كقولهم: «سلامٌ عليكم»، أو غيرِها ممَّا فيه لُطفٌ في القولِ، أو عفوٌ أو صفحٌ، وكَظمٌ للغَيظِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٦).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿سَلَـٰمًا﴾ أي: تسلُّمًا منكم لا نُجاهِلُكم، ومُتاركةً لا خَيرَ بيْننا ولا شَرَّ: المُبَرِّدُ، والزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وأبو السعود، والشربيني. يُنظر: ((المقتضب)) للمبرِّد (٣/ ٢١٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٢).

وقال ابنُ عاشور: («السَّلامُ» يجوزُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى السَّلامةِ، أي: لا خيرَ بيْننا ولا شرَّ؛ فنحن مُسلِّمون منكم. ويجوزُ أن يكونَ مرادًا به لفظُ التحيَّةِ، فيكونَ مُستعمَلًا في لازِمِه، وهو المتاركةُ؛ لأنَّ أصلَ استعمالِ لفظِ السَّلامِ في التحيَّةِ أنَّه يؤْذِنُ بالتأمينِ، أي: عدَمِ الإهاجةِ. والتأمينُ: أوَّلُ ما يَلقَى به المرءُ مَن يريدُ إكرامَه؛ فتكون الآيةُ في معنى قَولِه: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٩).

﴿قَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾؛ شرَحَ صِفتَهم في اللَّيلِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ سُبحانه فيما تقدَّمَ سلوكَهم مع الخَلقِ؛ ذَكَر في هذه الآيةِ سلوكَهم في القيامِ بعبادةِ الحقِّ، وفيما تَقَدَّمَ بيانُ حالِهم عندَ اختلاطِهم بالعِبادِ، وفي هذه بيانُ حالِهم عندَ تَفرُّدِهم لربِّ العبادِ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾﴾.

أي: وعِبادُ الرَّحمنِ هُمُ الذين يُصَلُّونَ في اللَّيلِ مُخلِصينَ لرَبِّهم، وهم في ذلك بيْنَ سُجودٍ وقِيامٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٦ - ١٨].

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠).

قال الزجاج: (كلُّ مَن أدركه اللَّيلُ فقد بات يبيتُ، نام أو لم ينَمْ... إنَّما المَبيتُ إدراكُ اللَّيلِ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٧٥).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ سبحانه حُسنَ سلوكِهم مع الخَلقِ، واجتهادَهم في عبادةِ الحقِّ؛ ذَكَر خَوفَهم مِن ربِّهم، واعتمادَهم عليه في نجاتِهم، وعدَمَ اعتزازِهم بأعمالِهم، فهُم يَأتون ما يَأتون مِن مَحاسِنِ الأعمالِ، ولا يَعتمدون إلَّا على الكبيرِ المُتعالِ[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾.

أي: والذين يقولونَ خَوفًا وحَذَرًا مِن عَذابِ اللهِ: ربَّنا ادفَعْ عنَّا عذابَ جَهنَّمَ، بتَوفيقِنا للطَّاعاتِ، واجتِنابِ المعاصي، وتَكفيرِ السَّيِّئاتِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ * وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٍ﴾ [المعارج: ٢٦ - ٢٨].

﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

أي: إنَّ عذابَ جهنَّمَ مُلازِمٌ لأهلِ النَّارِ لا يُفارِقُهم، مُهلِكٌ لهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٤).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿كَانَ غَرَامًا﴾ فيه خمسةُ أقوالٍ تتقارَبُ معانيها: أحدُها: دائمًا،... والثاني: موجِعًا، رواه الضحَّاكُ عن ابنِ عبَّاسٍ. والثالث: مُلِحًّا، قاله ابنُ السائبِ، وقال ابنُ جُرَيج: لا يفارِقُ. والرابعُ: هلاكًا، قاله أبو عُبَيدة. والخامسُ: أنَّ الغَرامَ في اللُّغةِ: أشَدُّ العذابِ... قاله الزجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢٧). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٥). =

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧].

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾.

أي: إنَّ جَهنَّمَ قَبُحَت مَنزِلًا يَستقِرُّ فيه أهلُها، وبِئسَت موضِعَ إقامةٍ يَمكُثونَ فيها[1].

---

= ممَّن اختار في الجملةِ أن ﴿غَرَامًا﴾ أي: ملازمًا كملازَمةِ الغَريمِ لغريمِه، مُلِحًّا، لازمًا، دائمًا، لا يفارِقُ صاحبَه: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والسمين الحلبيُّ، وابنُ كثير، وجلالُ الدينِ المحليُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٦).

وممَّن اختار أنَّ ﴿غَرَامًا﴾ أي: هلاكًا وخسرانًا مُلِحًّا لازمًا: الزمخشريُّ، والرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨١).

وقال ابن جرير: (﴿غَرَامًا﴾ مُلِحًّا دائمًا لازمًا، غيرَ مفارقٍ مَن عُذِّب به مِن الكفَّارِ، ومُهلِكًا له). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٥).

قال ابن عاشور: (وجملة: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ يجوزُ أن تكونَ حكايةً مِن كلامِ القائلينَ، ويجوزُ أن تكونَ مِن كلامِ اللهِ تعالى مُعترضةً بيْن اسمَيِ الموصولِ. وعلى كلٍّ فهي تعليلٌ لسؤالِ صَرْفِ عذابِها عنهم. والغرامُ: الهلاكُ المُلِحُّ الدَّائِمُ، وغلَبَ إطلاقُه على الشرِّ المستمِرِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى أفعالَهم وأقوالَهم؛ أتبَعَ ذلك بذِكرِ إنفاقِهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه أفعالَهم وأقوالَهم فيما بيْنهم وبيْن الخلْقِ والخالقِ؛ ذكَرَ أحوالَهم في أموالهم نظرًا إلى قول الكفرةِ ﴿ أَوۡ يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡهِ كَنزٌ ﴾ [الفرقان: ٨]، وهدايةً إلى طريق الغنى؛ لأنَّه ما عالَ مَنِ اقتصدَ، فقال[2]:

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ﴾.

أي: والذين إذا أنفَقوا أموالَهم على أنفُسِهم وأهليهم وغَيرِهم، لم يُجاوِزوا الحَدَّ في إنفاقِها فيُبَذِّروا، ولم يُقصِّروا في النَّفَقةِ عن قَدرِ الحاجةِ فيَبخَلوا[3].

---

= (٦/ ١٢٣)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠٠).

قال أبو حيان: (والظَّاهرُ أن التَّعليلينِ غيرُ مترادفينِ؛ ذكرَ أوَّلًا لُزومَ عذابِها، وثانيًا مَساءةَ مكانِها، وهما متغايرانِ، وإن كان يلزمُ مِن لزومِ العذابِ في مكانٍ ذَمُّ ذلك المكانِ. وقيل: هما مترادِفان، والظَّاهِرُ أنَّه مِن كلامِ الداعينَ وحكايةٌ لقولِهم. وقيل: هو مِن كلامِ الله). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨).

وقال ابن عاشور: (جملة: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ﴾ يجوزُ أن تكونَ حِكايةً لكلامِ القائلينَ؛ فتكونَ تعليلًا ثانيًا مؤكِّدًا لتعليلِهم الأوَّلِ، وأن تكونَ مِن جانب الله تعالى دونَ التي قبْلَها؛ فتكونَ تأييدًا لتعليلِ القائلينَ، وأن تكونَ مِن كلامِ الله مع التي قبْلَها؛ فتكونَ تكريرًا للاعتراضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٩٧، ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١].

---

= السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٥، ٧٦).

قال ابن عطية: (الوجهُ أن يُقالَ: إنَّ النَّفَقةَ في المعصيةِ أمرٌ قد حظَرت الشريعةُ قليلَه وكثيرَه، وكذلك التعدِّي على مالِ الغيرِ، وهؤلاء الموصوفون منزَّهون عن ذلك، وإنَّما التأديبُ بهذه الآيةِ هو في نفقةِ الطاعاتِ وفي المباحات، فأدَبُ الشَّرعِ فيها ألَّا يُفَرِّطَ الإنسانُ حتى يضيِّعَ حَقًّا آخَرَ أو عيالًا ونحوَ هذا، وألَّا يضَيِّقَ أيضًا ويقتِّرَ حتى يُجيعَ العيال، ويُفرِطَ في الشُّحِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠).

وقال السعدي: (﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟﴾ النفقاتِ الواجبةَ والمستحبَّةَ ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟﴾ بأن يَزيدوا على الحدِّ فيَدخلوا في قسمِ التبذيرِ، وإهمالِ الحقوقِ الواجبةِ، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ فيدخلوا في بابِ البخلِ والشُّحِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

وقال ابن عاشور: (أُريدَ بالإنفاقِ هنا الإنفاقُ غيرُ الواجبِ، وذلك إنفاقُ المرءِ على أهلِ بيتِه وأصحابِه؛ لأنَّ الإنفاقَ الواجِبَ لا يُذَمُّ الإسرافُ فيه، والإنفاقَ الحرامَ لا يُحمَدُ مُطلقًا بَلْهَ أن يُذَمَّ الإقتارُ فيه، على أنَّ في قولِه: ﴿إِذَآ أَنفَقُوا۟﴾ إشعارًا بأنَّهم اختاروا أن يُنفِقوا ولم يكُنْ واجِبًا عليهم. والإسرافُ: تجاوُزُ الحَدِّ الذي يقتضيه الإنفاقُ بحسَبِ حالِ المنفِقِ وحالِ المنفَقِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

وقال الشنقيطي: (واعلَمْ أنَّ أظهَرَ الأقوالِ في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ اللهَ مدَحَ عبادَه الصالحينَ بتوسُّطِهم في إنفاقِهم، فلا يجاوِزون الحدَّ بالإسرافِ في الإنفاق، ولا يَقتُرون، أي: لا يُضَيِّقون فيَبخَلون بإنفاقِ القَدرِ اللازمِ. وقال بعضُ أهلِ العلمِ: الإسرافُ في الآيةِ: الإنفاقُ في الحرامِ والباطِلِ، والإقتارُ: منعُ الحقِّ الواجبِ. وهذا المعنى وإن كان حقًّا فالأظهرُ في الآيةِ هو القَولُ الأوَّلُ... والظَّاهِرُ أنَّ التوسُّطَ في الإنفاقِ الذي مدَحَهم به شامِلٌ لإنفاقِهم على أهليهم، وإنفاقِهم المالَ في أوجُه الخيرِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٧٥، ٧٦).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الإنفاقَ شامِلٌ للإنفاقِ على العيالِ والإنفاقِ في سبيلِ الله، وفي الزَّكَواتِ والصَّدَقات، والإنفاقِ في وجوهِ الخيرِ، وفي كُلِّ ما يكونُ إنفاقًا، قال: (لأنَّه لم يبيِّنِ المتعَلَّقَ، لم يقُلِ اللهُ: «أنفَقوا على عيالِهم»، بل أطلَق؛ فيشمَلُ كُلَّ ما أنفقوه؛ على العيالِ وعلى غيرِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٩، ٢٨٠).

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

وعن عمَّارِ بنِ ياسرٍ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال في دعائه: ((وأسألُك القَصدَ[١] في الفَقرِ والغِنى))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((كُلوا واشرَبوا وتصَدَّقوا والبَسُوا، في غيرِ مَخِيلةٍ[٣]، ولا سَرَفٍ))[٤].

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾.

أي: وكان إنفاقُهم مُعتَدِلًا وسَطًا بيْنَ الإسرافِ والتَّقتيرِ[٥].

---

(١) أي: الاقتِصادَ والتوسُّطَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ١٧٣٥).

(٢) أخرجه النسائي (١٣٠٥) واللفظ له، وأحمد (١٨٣٢٥)، وابن حبَّان في ((صحيحه)) (١٩٧١).
وثَّق رجالَ إسنادِه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٢/ ٣٣٣)، وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٣٠٥).

(٣) مَخِيلةٍ: أي: كِبرٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٩٣).

(٤) أخرجه البخاريُّ معلَّقًا بصيغة الجزم قبلَ حديث (٥٧٨٣)، وأخرجه موصولًا النَّسائيُّ (٢٥٥٩) واللفظ له، وابن ماجه (٣٦٠٥)، وأحمد (٦٦٩٥).
حسَّنه ابنُ حجر في ((الأمالي المطلقة)) (٣٢)، وصحَّحه الهيتميُّ المكِّيُّ في ((الزواجر)) (٢/ ٣٥)، والصنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٤/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٢ - ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٥، ٧٦). =

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ تذكيرًا بما هم منه وما يَصيرون إليه، وحثًّا على السَّعيِ في معالي الأخلاقِ للترَقِّي عنه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ استِحبابُ الرِّفْقِ في المَشيِ، وكراهيةُ العُنفِ والاضْطِرابِ، ومِن العُنفِ الضَّربُ بالرِّجلِ والخَفقُ بالنَّعلِ، فإذا كانا بعُجْبٍ وخُيَلاءَ فهو حرامٌ[2]. والمَشيُ الهَونُ مخالِفٌ لمَشْيِ المتجبِّرينَ المُعجَبين بنفوسِهم وقوَّتِهم. وهذا الهَونُ ناشئٌ عن التواضُعِ لله تعالى، والتخَلُّقِ بآدابِ النفْسِ العاليةِ، وزوالِ بطَرِ أهلِ الجاهليَّةِ، فكانت هذه المِشيةُ مِن خلالِ الذين آمنوا على الضِّدِّ مِن مَشيِ أهلِ الجاهليَّةِ... والتخَلُّقُ بهذا الخُلقِ مَظهرٌ مِن مَظاهِرِ التخَلُّقِ بالرَّحمةِ المناسِبِ لعبادِ الرَّحمنِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ ضِدُّ الشِّدَّةِ، فالهَونُ يناسِبُ ماهيَّتَها، وفيه سلامةٌ مِن صَدمِ المارِّينَ[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ ليس مِن الهَونِ في المَشيِ التثاقُلُ والتماوُتُ فيه[4]؛ تَصَنُّعًا ورياءً، فقد كان سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ

---

= قال ابنُ عطية: (القَوامُ، أي: المعتَدِلُ، والقَوامُ في كلِّ واحدٍ بحسَبِ عيالِه وحالِه، وخِفَّةِ ظَهرِه، وصَبرِه وجَلَدِه على الكَسبِ، أو ضِدِّ هذه الخصالِ، وخيرُ الأمورِ أوسَطُها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

صَلَّى الله عليه وسلَّم إذا مشَى كأنَّما يَنحَطُّ مِن صَبَبٍ[١]، وقد كَرِه بعضُ السَّلَفِ المشيَ بتَضعُّفٍ وتصَنُّعٍ، حتى رُوِيَ عن عُمَرَ أنَّه رأى شابًّا يَمشي رُوَيدًا، فقال: ما بالُك؟! أأنت مَريضٌ؟ قال: لا يا أميرَ المؤمِنينَ، فعلاه بالدِّرَّةِ، وأمَرَه أن يَمشيَ بقُوَّةٍ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ الإغضاءُ عنِ الجاهلِ، ومُقابَلةُ كلمتِه السيِّئةِ بالكلامِ الحسنِ، وكراهةُ مجاراتِه في خِطابِه ومُماثَلتِه، وإذا كان في ذلك فِتنةٌ أو مَفسَدةٌ محقَّقةٌ كان حرامًا[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ اشتمَلت الآيةُ على بيانِ الأدبِ في معاملةِ الجاهلينَ مِن أفرادِ النَّاسِ، سواءٌ أكانوا مسلمينَ أم غيرَهم، وما اشتملت عليه مِن الأدبِ قد جاء في آياتٍ كثيرةٍ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]؛ فهو أدبٌ مشروعٌ مؤكَّدٌ، وحُكمٌ دائمٌ محكَمٌ، وهو في معاملاتِ الأفرادِ كما ترى، فلا ينافي ما شُرِعَ مِن الحربِ عندَ وجودِ أسبابِها، وتوفُّرِ شروطِها بينَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٣٧)، وأحمد (٧٤٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٤١٩٤)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٢/ ١٠٧)، وصحَّحه البَغَويُّ في ((شرح السنة)) (٦/ ٣٧٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٦٣٧)، وحسَّن الحديثَ لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٧٤٦).
وقوله: يَنحَطُّ مِن صَبَبٍ أي: مِن مَوضِعٍ مُنحَدِرٍ، والمعنى: يمشي مشيًا قويًّا سريعًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٠٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢١، ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٥).

الأُمَمِ والجماعاتِ، وهي مِن الأمورِ العامَّةِ كما ترى[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ استُدِلَّ به على جَوازِ أنْ يُسَلَّمَ على الجاهلِ إذا كان كافرًا، كما قال إبراهيمُ لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧]، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الممتحنة: ٤] ولم يَستثْنِ إلَّا قولَه لأبيه: ﴿لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]، وهو سلامُ مُوادَعةٍ ومُتارَكةٍ؛ لا سلامُ تحيَّةٍ وكرامةٍ[٢]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

٧- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ القولُ السَّلامُ مَحمودٌ ومطلوبٌ في كلِّ حالٍ، وإنما خُصَّتْ حالةُ الخِطابِ بالجاهلِ؛ لأنَّها الحالةُ التي تَثورُ فيها ثائِرةُ الغضَبِ بما يكونُ مِن سَفَهِه ومهاترتِه، فعلى المؤمنِ أن يكونَ حاضِرَ البالِ بهذه الآيةِ عندَما تسوقُ إليه الأقدارُ جاهلًا فيُخاطبُه بما لا يُرضيه؛ حتى يَسلَمَ مِن شَرِّهِ، ويَكسِرَ مِن شِرَّتِه، فيَسلَمَ له عِرْضُه ومروءتُه ودينُه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٦).

ثم قال بعد ذلك: (فبطَلَ قولُ مَن زعمَ أنَّ هذه الآيةَ بالنِّسبةِ لغيرِ المسلمِ مَنسوخةٌ بآيةِ السيفِ؛ لأنَّ هذه الآيةَ ثابتٌ حُكمُها في حالٍ، وآيةَ السيفِ ثابتٌ حُكمُها في حالٍ أخرى؛ فلا تَنْسَخُ إحداهما الأخرى، وما أكثرَ ما قُتِلَتْ أحكامٌ بآيةِ السيفِ هذه، وهي عندَ التحقيقِ غيرُ معارِضةٍ لها؛ لمُبايَنةِ حالِها لحالِها).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٧).

وذلك بِناءً على الوجهِ الثاني في الآيةِ، وهو أنَّه يقولُ للجاهلِ هذا اللَّفظَ نفْسَه ﴿سَلَٰمًا﴾، على أنَّه مفعولٌ به. ويُنظر المصدر السابق أيضًا (ص: ١٩٥).

قال ابنُ عثيمين: (وليس المرادُ ﴿سَلَٰمًا﴾ يعني: السلامُ عليكم، كما يظُنُّ بعضُ العامَّةِ؛ ولذلك تسلَّط الفعلُ عليها فنصَبها، ولو كان المرادُ بالسلامِ الجملةَ السلاميَّةَ لقال: «قالوا: سلامٌ»). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٢).

وقال السمين: (ورَجَّح سيبويه أنَّ المرادَ بالسَّلام السَّلامةُ لا التسليمُ؛ لأنَّ المؤمنين لم يُؤْمَروا قَطُّ بالتسليمِ على الكفرة، وإنما أُمِروا بالمُسالَمةِ). ((الدر المصون)) (ص: ٣٧١٦).

ويَسلَمَ ذلك الجاهلُ أيضًا مِن اللَّجاجِ في الشَّرِّ والتمادي فيه، فيكونُ المؤمِنُ بقولِه «السَّلام» وتأدُّبِه بأدبِ القرآنِ قد حَصَّلَ السَّلامةَ للجَميعِ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ التَّحريضُ على قيامِ اللَّيلِ[2].

٩- قَولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ المُرادُ مِن قولِهم ذلك: فزَعُهم منها، ووَجَلُهم الشديدُ المُستتبِعُ لِتَمسُّكِهم بالتَّقوى، واعتِصامِهم بالسَّببِ الأقوى، لا مجرَّدُ قلقلةِ اللِّسانِ، بلا تأثُّرٍ مِن الجَنانِ؛ فإنَّهم لم يَبتَهلوا إلى المولى ويَتعَوَّذوا به مِن سَعيرِها، إلَّا لعِلمِهم بسوءِ حالِها. ومُقتضى العلمِ بالشَّيءِ إيفاؤُه حقَّه، والعملُ بموجَبِه[3].

١٠- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ إنَّ جهنَّمَ هي أقبَحُ مُستقَرٍّ، وأقبَحُ مُقامٍ، وإنَّ الدنيا هي مَطيَّةُ الآخرةِ، فمَن ساء مُستقَرُّه ومُقامُه في الدنيا، ساء كذلك مُستقَرُّه ومُقامُه في الآخرةِ، وإنَّ مُلازَمةَ العذابِ في الآخرةِ على قَدْرِ مُلازمةِ المعاصي في الدُّنيا؛ فمَن لازَمَها بالكفرِ ومات عليه دامتْ له تلك الملازَمةُ، ومَن لازَمَها بالإصرارِ على الكبائرِ كانت له على حسَبِ تلك الملازمةِ؛ فعلى العاقلِ أن يُحسنَ مَقَرَّه ومُقامَه، وأن يَجتنبَ كلَّ موطنٍ تَلحَقُه فيه المَلامةُ، وأن يَجتنبَ مجالسَ السُّوءِ والبدعةِ، ويلازِمَ مجالسَ الطاعةِ والسُّنَّةِ، وأن يُسرعَ بالتوبةِ مفارِقًا الذنوبَ، وألَّا يُصِرَّ على شَيءٍ مِن القبائحِ والعُيوبِ، وأن يكونَ سريعَ الرُّجوعِ إلى اللهِ، ولو عَظُمَ ذَنبُه وبَلْواه؛ فاللهُ يحِبُّ التوَّابينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٧).

ويَغفِرُ للأوَّابينَ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ ﴾ ذمُّ الإسرافِ والإقتارِ في النَّفَقةِ، ومدحُ التوسُّطِ[٢]، فلَمَّا كان المالُ هو أعزَّ شيءٍ في هذه الدنيا، وهو أعظَمُ سببٍ لِنَيلِ مُبتغياتِها؛ وُصِفوا بأنَّهم في تصرُّفاتِهم فيه على أكمَلِ حالٍ، وهي حالةُ العَدلِ التي أثمرَتْها لهم الصَّلاةُ؛ فلا يُمسِكونَه عن حقٍّ، ولا يَبذُلونَه في باطلٍ[٣]، وكان التوسُّطُ في الإنفاقِ هو حالَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فكان مُقتَصِدًا في حالِ فَقرِه وغِناهُ؛ فإن كان فقيرًا لم يقتِّرْ خوفًا مِن نَفادِ الرِّزقِ، ولم يُسرِفْ فيَحمِل ما لا طاقةَ له به، كما أدَّب اللهُ تعالى نبيَّه بذلك في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومًا مَّحۡسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وإن كان غنيًّا لم يحمِلْه غِناهُ على السَّرَفِ والطُّغيانِ، بل يكونُ مقتَصِدًا أيضًا، وإن كان المؤمِنُ في حالِ غِناهُ يَزيدُ على نفَقتِه في حالِ فَقرِه، كما قال بعضُ السَّلَفِ: (إنَّ المؤمِنَ يأخُذُ عن الله أدبًا حَسَنًا؛ إذا وسَّع الله عليه وسَّعَ على نفْسِه، وإذا ضيَّقَ عليه ضَيَّق على نفْسِه، ثمَّ تلا قَولَه تعالى: ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ [الطلاق: ٧]). لكِنْ يكونُ في حال غِناهُ مقتَصِدًا غيرَ مُسرِفٍ، كما يفعلَهُ أكثَرُ أهلِ الغنى الذين يُخرِجُهم الغِنى إلى الطُّغيانِ، كما قال تعالى: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾[٤] [العلق: ٦، ٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٧، ١٦٨).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ فأثنَى على عِبادِه بالإعراضِ عن الجاهلينَ ومُتارَكتِهم، وهذا ممَّا يدُلُّ على قُبحِ الجَهلِ عندَه عزَّ وجَلَّ، وبُغضِه للجَهلِ وأهلِه، وهو كذلك عندَ النَّاسِ؛ فإنَّ كُلَّ أحدٍ يتبرَّأُ منه، وإن كان فيه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ بيانُ أنَّ هؤلاء يُطيلون القيامَ والسُّجودَ، فما دام بياتُهم على هذا الوَصفِ فمعناه أنَّهم يُطيلون القيامَ والسُّجودَ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ دليلٌ على أنَّ البيتوتةَ هو ضِدُّ الظُّلولِ بالنَّهارِ، لا أنَّه النومُ، وكيف يكونُ نومًا وهو يقولُ: «سُجَّدًا وقيامًا»[3]؟!

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ زعَم قَومٌ أنَّ أكمَلَ أحوالِ العابدِ أن يعبُدَ اللهَ تعالى لا طمعًا في جنَّتِه، ولا خوفًا مِن نارِه! وهذه الآيةُ وغيرُها ردٌّ قاطعٌ عليهم، ومثلُها قولُ إبراهيمَ -عليه وعلى آلِه الصلاةُ والسلامُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وفي نصوصٍ لا تُحصى كَثرةً، وزعموا أنَّ كمالَ التعظيمِ لله ينافيه أن تكونَ العبادةُ معها خوفٌ مِن عقابِه، أو طمَعٌ في ثوابِه! وأخطؤوا فيما زعموا؛ فإنَّ العبادةَ مَبْناها الخضوعُ والذُّلُّ والافتقارُ، والشعورُ بالحاجةِ والاضْطِرارِ، وإظهارُ العبدِ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٣) وسبَق نحوُه مِن كلامِ الزَّجَّاجِ.

هذه العبوديةَ بأتمِّها، ومِن أتمِّ مَظهرٍ لها أن يخافَ ويطمَعَ، كما يذِلُّ ويخضَعُ؛ ففي إظهارِ كَمالِ نَقصِ العبوديَّةِ القيامُ بحَقِّ الإجلالِ والتعظيمِ للربوبيَّةِ؛ ولهذا كان الأنبياءُ -عليهم وآلِهم الصلاةُ والسلامُ- هم أشَدَّ الخلقِ تعظيمًا لله، وأكثَرُهم خوفًا مِن الله، وتعوُّذًا مِن عذابِ الله، وسؤالًا لِما عندَ الله، وكفَى بهم حُجَّةً وقدوةً!

وإنَّ هذه المقالةَ تكادُ تُفضي إلى طرحِ الرجاءِ والخَوفِ، وعليهما مبنى الأعمالِ؛ لِما فيهما مِن ظهورِ العبوديَّةِ بالذُّلِّ والاحتياجِ، ومِثلُ هذه المقالةِ إنما يجُرُّ إليها الغُلوُّ وقلَّةُ الفقهِ في الدينِ، وفي الكتابِ والسُّنةِ، وما كان عليه هَدْيُ السابقينَ الأوَّلينَ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ دليلٌ على أنَّ الدُّعاءَ عبادةٌ يُثابُ عليه الدَّاعي، ألَا ترى أنَّ اللهَ تعالى جعَلَه في جملةِ ما مدَحَ به عِبادَه في هذا المدحِ؟! ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فسَمَّاه عبادةً[2].

٦- هذه الآيةُ الكريمةُ -التي هي قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ ...﴾ الآيةَ- بيَّنَت أحدَ رُكنَي ما يسمَّى الآنَ بالاقتِصادِ، وإيضاحُ ذلك أنَّه لا خِلافَ بيْن العُقَلاءِ أنَّ جميعَ مسائِلِ الاقتصادِ على كَثرتِها واختِلافِ أنواعِها راجِعةٌ بالتَّقسيمِ الأوَّلِ إلى أصلَينِ لا ثالثَ لهما؛ الأوَّلُ منهما: اكتِسابُ المال. والثَّاني منهما: صَرفُه في مَصارِفِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٦).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾

- قولُه تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبيانِ أوصافِ خُلَّصِ عِبادِ الرَّحمنِ وأحوالِهمُ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ بعْدَ بيانِ حالِ النَّافِرينَ عن عبادتِه والسُّجودِ له[1]. وقيل: إنَّه عطْفُ جُملةٍ على جملةٍ؛ فالجملةُ المعطوفةُ هي: (عِبَادُ الرَّحْمَنِ) إلخ، والجملةُ المَعطوفُ عليها جُملةُ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً ... ﴾ [الفرقان: ٦٢]؛ فبِمُناسَبةِ ذِكرِ مَن أرادَ أنْ يَذَّكَّرَ تُخُلِّصَ إلى خِصالِ المؤْمنينَ أتْباعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى تَستكمِلَ السُّورةُ أغراضَ التَّنويهِ بالقُرآنِ ومَن جاءَ به ومَنِ اتَّبَعوه. وهذا مِن أبدَعِ التَّخلُّصِ؛ إذْ كان مُفاجئًا للسَّامعِ، مُطمِعًا أنَّه استِطرادٌ عارِضٌ كسَوابقِه؛ حتَّى يُفاجِئَه ما يؤْذِنُ بالخِتامِ، وهو: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى ... ﴾ الآيةَ[2] [الفرقان: ٧٧].

- وقيل: وُصِلَتِ الجُملةُ بما قبْلَها بالواوِ؛ لاشتِراكِهما في القَصدِ، وهو التَّعريفُ بالرَّحمنِ وبعِبادِه[3].

- قولُه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ... ﴾ أضافَهم إلى الرَّحمنِ؛ تَخصيصًا وتَشريفًا وتَفضيلًا وتَقريبًا، أو لأنَّهمُ الرَّاسِخونَ في عِبادتِه، على أنَّ (عِبَاد) جَمعُ عابدٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٣، ١٩٤).

كتاجِرٍ وتِجَارٍ. وفيه تَعريضٌ بأُولِئكَ المُتجاهِلينَ المُتكبِّرينَ المُبعَدِينَ[١].

وأضافهم إلى وَصفِ الرَّحمةِ الأبلَغِ الذي أنكرَه أولئك؛ تبشيرًا لهم[٢]، وإشارةً إلى أنَّهم إنَّما وصَلوا إلى هذه الحالِ بسببِ رحمتِه[٣]، فعبادتُهم للهِ كانت مِن مقتضياتِ رحمتِه، ومِن ناحيةٍ أُخرَى أنَّهم يَرجونَ بهذه العبادةِ رحمةَ ربِّهم، لا يرجونَ بذلك دُنيا، ولا دفْعَ مَذمَّةٍ عنهم، وإنَّما يرجون بهذا رحمةَ الله[٤]. ثمَّ وصفَهم بضِدِّ ما وَصَف به المتكبِّرين عن السُّجودِ؛ إشارةً إلى أنَّهم تخلَّقوا مِن هذه الصِّفةِ التي أُضيفوا إليها بأمرٍ كبيرٍ، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ﴾[٥].

- وأيضًا في تَعريفِ القرآنِ لعِبادِ الرَّحمنِ بعْدَ تَعريفِه بالرَّحمنِ: تَشريفٌ كَبيرٌ لهم، وتَبكيتٌ لأولئك المُتجاهِلين المُتكبِّرين[٦].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ ﴿هَوۡنٗا﴾ حالٌ، أو صِفةٌ للمَشيِ، بمعنَى: هَيِّنِينَ. أو: مَشْيًا هَيِّنًا، إلَّا أنَّ في وضعِ المَصدرِ مَوضِعَ الصِّفةِ مُبالَغةً[٧].

- وإذا كان المرادُ مِن عِبادِ الرَّحمنِ أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ كان الخَبرُ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ إلى آخِرِ المَعطوفاتِ، وكان قَولُه الآتي: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥]

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩١).

استِئنافًا لبَيانِ كَونِهم أَحْرياءَ بما بعْدَ اسمِ الإشارةِ. وإذا كان المرادُ مِن عِبادِ الرَّحمنِ جميعَ المؤْمنينَ المتَّصِفينَ بمَضمونِ تلك الصِّلاتِ؛ كانتْ تلك المَوصولاتُ وصِلاتُها نُعوتًا لـ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، وكان الخبرُ اسمَ الإشارةِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ [الفرقان: ٧٥] إلخ[١].

- قولُه: ﴿يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ تركيبٌ كِنائيٌّ، أُرِيدَ به معناهُ، ولازِمُ معناهُ؛ فهم يَمْشُون هيِّنِينَ برِفْقٍ وتثبُّتٍ، لا يَضْرِبون بأقدامِهم ولا يَخفِقون بنِعالِهم أشَرًا وبطَرًا، هذا أصْلُ المعنى، وهو مُرادٌ. ومُرادٌ أيضًا لازِمُه؛ وهو: سُهولتُهم، وتواضُعُهم، وعدَمُ تكبُّرِهم، ورِفْقُهم في الأمورِ، وبُعدُهم عن الإفسادِ. ومُرادٌ لازمٌ آخَرُ أيضًا: وهو سَيْرُهم في الحياةِ، وتصرُّفُهم في جميعِ الأمورِ، ومُعامَلتُهم للنَّاسِ، فإذا كانوا أهْلَ رِفْقٍ وسُهولةٍ في مِشيَتِهم في الأرضِ، فكذلك هم أهْلُ رِفْقٍ وسُهولةٍ في الأمورِ الأخرى ممَّا ذكَرْنا؛ لأنَّ الرِّفقَ والسُّهولةَ خُلُقٌ فيهم، فكما هو في المشْيِ هو في غيرِه. وكانتِ الصِّلةُ بالمُضارِعِ؛ لِيُفِيدَ التَّجدُّدَ؛ فإنَّ المشْيَ في الأرضِ ضَروريٌّ للإنسانِ[٢].

- وفي الإطنابِ بصِفاتِهمُ الطَّيِّبةِ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين أبَوُا السُّجودَ للرَّحمنِ وزادَهُم نُفورًا هُم على الضِّدِّ مِن تِلك المَحامِدِ؛ تعَريضًا تُشعِرُ به إضافةُ (عِبَاد) إلى (الرَّحْمَنِ)[٣].

- قولُه: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ ذِكْرُهم بصِفةِ الجاهِلينَ دُونَ غَيرِها ممَّا هو أشَدُّ مَذَمَّةً -مِثلَ الكافِرينَ-؛ لأنَّ هذا الوَصفَ يُشعِرُ بأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٦، ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٧).

الخِطابَ الصَّادرَ منهم خِطابُ الجَهالةِ والجَفْوةِ[١].

- ولأجْلِ المناسَبةِ بيْن الصِّيغتَينِ -﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾، ﴿خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾- عُطِفَتْ هذه الجُملةُ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ على الصِّلةِ الأُولى، ولم يُكرَّرِ اسمُ المَوصولِ كما كُرِّر في الصِّفاتِ بعْدَها[٢]؛ فقولُهم للجاهلينَ: (سَلامًا) مِن مُقْتضى هَوْنِهم ورِفْقِهم؛ فلذلك قُرِنَ به، وعُطِفَ عليه[٣].

- وكان المعطوفُ على الصِّلةِ -﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ﴾- بصُورةِ الشَّرطِ ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ﴾؛ لأنَّ خِطابَ الجاهلينَ لهم ليس ممَّا يكونُ دائمًا. وكان التَّعليقُ بـ (إذا)؛ لأنَّ مُخاطَبةَ الجاهلينَ لهم بالسُّوءِ أمْرٌ مُحقَّقٌ. ومتى سلِمَ أهْلُ العلْمِ والدِّينِ مِن الجاهلينَ؟! ولم يَذكُرْ ما يُخاطِبُهم به الجاهلونَ؛ للعلْمِ بأنَّ خِطابَ الجاهلِ -أي: السَّفيهِ- لا يكونُ إلَّا سوءًا ممَّا يُمْليه عليه جهْلُه وسفَهُه[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ بيانٌ لحالِهم في مُعامَلتِهم مع ربِّهم[٥].

- وإعادةُ لفْظُ الموصولِ ﴿الَّذِينَ﴾؛ لتأكيدِ أنَّهم يُعرَفون بهذه الصِّلةِ، ولاستقلالِ الحالةِ الثَّانيةِ عن الأُولى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٤، ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

- وتَخصيصُ البَيْتوتةِ؛ لأنَّ العبادةَ باللَّيلِ أَبعَدُ عنِ الرِّياءِ[١].

- وقُدِّمَ الجارُّ ﴿لِرَبِّهِمْ﴾؛ لِيُفِيدَ تَخصيصَ عِبادتِهم بربِّهم، ويُفِيدَ الكلامُ عِبادتَهم وإخلاصَهم[٢]، وأنَّهم لا يقومون رياءً ولا سُمعةً، وإنما يقومون لله وحْدَه[٣].

- قولُه: ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ قُدِّم السُّجودُ وإنْ كان مُتأخِّرًا في الفِعلِ؛ لأجْلِ مُناسَبةِ الفَواصلِ، مع الإشارةِ إلى الاهتِمامِ بالسُّجودِ، وأيضًا لفَضلِ السُّجودِ؛ لأنَّ السُّجودَ أقرَبُ أحوالِ العَبدِ للربِّ، وأَقرَبُ ما يَكونُ العبدُ فيها مِنَ اللهِ وهو ساجِدٌ[٤].

- وأيضًا لَمَّا كان السُّجودُ أشَدَّ أركانِ الصَّلاةِ تقريبًا إلى اللهِ، لكَونِه أَنْهى الخُضوعِ مع أنَّه الَّذي أَباهُ الجاهِلونَ؛ قدَّمَه لذلك، فقال: ﴿سُجَّدًا﴾، وأَتْبَعَه ما هو تِلْوُه في المَشقَّةِ تحقيقًا، فقال: ﴿وَقِيَامًا﴾[٥].

- وفي الإطنابُ في التَّعبيرِ عنِ الصَّلاةِ برُكْنَيْها في قولِه: ﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾: تَنويهٌ بكِلَيْهِما[٦].

- ولم يَذكُرِ اللهُ الرُّكوعَ، ولم يَذكُرِ القُعودَ؛ لأنَّ القيامَ أَشرَفُ ما في الصَّلاةِ مِن حيث ذِكْرُه، أي: مِن حيث الذِّكرُ الَّذي هو القُرآنُ، والسُّجودُ أَشرَفُ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٠).

في الصَّلاةِ مِن حيث الحالُ والهَيْئةُ، قال صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ: ((أَقرَبُ ما يَكونُ العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ))[1]، فذَكَر القيامَ لشَرَفِه بذِكرِه، أي: بما يُقالُ فيه، وذَكَر السُّجودَ لشَرَفِه بهَيْئتِه؛ فدَلَّ لذلك على أنَّ هذا أَفضَلُ حالاتِ الصَّلاةِ، وهو كذلك[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ عَقَّبَ وصْفَهم بإحياءِ اللَّيلِ ساجِدينَ وقائِمينَ بذِكرِ دَعوتِهم هذه؛ إيذانًا بأنَّهم مع اجتِهادِهم خائِفونَ مُبتهِلونَ إلى اللهِ في صَرفِ العذابِ عنهم؛ لعدَمِ اعتِدادِهم بأعمالِهم ووُثوقِهم على استِمرارِ أحوالِهم، كقَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[3] [المؤمنون: ٦٠].

- والتَّعليلانِ: قيل: يَصِحُّ أن يَكونَا مُتَداخِلَينِ -أي: يكونَ قَولُه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا﴾ تَعليلًا لقَولِه: ﴿ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾، وقَولُه: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ﴾ تَعليلًا لقَولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾- أو مُترادِفَينِ؛ أي: يَكونَا تَعليلَينِ لقَولِه: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾[4].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ تَعليلٌ للجُملةِ الدُّعائيَّةِ، وفُصِلَت عنها لكَمالِ الانقطاعِ بيْنهما، وجُملةُ ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مُؤكِّدةٌ لمَضمونِ الجُملةِ قبْلَها مع اختلافٍ في المعنى؛ فإنَّ ما أفادَتْه الأُولى مِن

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٧٤، ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨).

فَداحةِ عَذابِها ومُلازَمتِه، أكَّدتْه الثَّانيةُ بما أفادَتهُ مِن مُقامِه ومُستقَرِّها، ففُصِلَت عنها؛ لِمَا بيْنهما مِن كَمالِ الاتِّصالِ، نَظِيرُ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢]. والتَّأكيدُ فيها بـ (إنَّ)؛ لأنَّه قد لُوِّحَ وأُشِيرَ في الكلامِ السَّابقِ إلى هذا الخبرِ، وشأْنُ السَّامعِ لهذا أنْ يَستشرِفَ له استشرافَ المُتردِّدِ الطَّالبِ، فيُنزَّلُ مَنزِلةَ المُتردِّدِ، فيُؤكَّدُ له الخبرُ. ووجْهُ التَّلويحِ بهذا الخبرِ: أنَّه لمَّا سُئِلَ صرْفَ عذابِ جهنَّمَ، كان هذا مُشيرًا إلى قُبْحِ هذا العذابِ وشِدَّتِه. فهذا نظيرُ ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[1] [هود: ٣٧].

- وقيل: يَجوزُ أن تكونَ جُملةُ ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ حِكايةً لكلامِ القائِلينَ؛ فتكونَ تعليلًا ثانيًا مؤكِّدًا لتَعليلِهمُ الأوَّلِ. وأن تَكونَ مِن جانبِ اللهِ تعالى دُونَ الَّتي قَبْلَها؛ فتكونَ تأييدًا لتَعليلِ القائِلينَ. وأنْ تكونَ مِن كلامِ اللهِ مع الَّتي قَبلَها؛ فتكونَ تَكريرًا للاعتِراضِ[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ إشارةٌ إلى كَونِها مَضرَّةً خالِصةً عن شَوائِبِ النَّفعِ. وقوله: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ إشارةٌ إلى كَونِها دائمةً[3].

- ويَظهَرُ أنَّ قَولَه: ﴿وَمُقَامًا﴾ مَعطوفٌ على سبيلِ التَّوكيدِ؛ لأنَّ الاستِقرارَ والإقامةَ كأنَّهما مُترادِفانِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٢٨).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾

- أفادَ قَولُه: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ أنَّ الإنفاقَ مِن خِصالِهم؛ فكأنَّه قال: والَّذين يُنفِقونَ، وإذا أَنفَقوا... إلخ[1].

- قولُه: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ ﴿قَوَامًا﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ، فلو قيل: (وكان بيْن ذلك) لكان كافيًا، ولكنْ أكَّدَ بـ ﴿قَوَامًا﴾؛ لِمَا فيه مِن صَريحِ اللَّفظِ المُفهِمِ للعَدْلِ. والإنفاقُ يكونُ ولا يكونُ، والشَّأنُ أنْ يكونَ؛ ولهذا عُلِّقَ، وكان التَّعليقُ بـ (إذا). وقدَّمَ نفْيَ السَّرَفِ على نفْيِ التَّقتيرِ؛ لأنَّ الإسرافَ شرُّهما؛ ففيه مُجاوَزةُ الحدودِ، وضَياعُ المالِ، وفي التَّقتيرِ مَفسدَتُه مع بقاءِ المالِ، فيُنفِقُه في الخَيرِ، وقد يَبْقى لغيرِه فيَنتفِعُ به[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٧).

## الآيات (٦٨-٧١)

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَثَامًا﴾: أي: عُقوبةً ونَكالًا، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على بُطءٍ وتأخُّرٍ، والإثمُ مشتقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[1].

﴿مُهَانًا﴾: أي: ذليلًا مُبعَدًا، وأصلُ (هون): يدُلُّ على ذِلَّةٍ[2].

﴿مَتَابًا﴾: أي: رجوعًا، وأصلُ (توب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[3].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ﴾

﴿يُضَٰعَفْ﴾: مضارعٌ مجزومٌ بَدَلُ اشتِمالٍ مِنْ ﴿يَلْقَ﴾؛ إذ كان مِن مَعناه؛ لأنَّ مُضاعَفةَ العذابِ لُقِيُّ الأثامِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٦)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٠٣).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وعِبادُ الرَّحمنِ هم الذين لا يُشرِكونَ باللهِ غَيرَه، ولا يَقتُلون نفْسًا حرَّم اللهُ قَتلَها إلَّا بسبَبٍ شَرعيٍّ، ولا يقَعون في فاحِشةِ الزِّنا، ومَن يفعَلْ ذلك الذي نَهَينا عنه مِمَّا تقدَّمْ، يجِدْ عِقابًا شَديدًا؛ يُضاعَفْ له العذابُ يومَ القيامةِ، ويَبْقَ في ذلك العذابِ ذليلًا مُهانًا، إلَّا مَن تاب وآمنَ وعَمِلَ أعمالًا صالِحةً؛ فأولئك يجعَلُ اللهُ مكانَ سَيِّئاتِهم حَسَناتٍ بفَضلِه وكَرَمِه، وكان اللهُ تعالى واسِعَ المَغفِرة والرَّحمةِ لِمَن تاب إليه وأناب، ومَن تاب عن المعاصي وداوَمَ على العمَلِ الصالحِ لِيَستدرِكَ ما فاته منه؛ فإنَّه يكونُ قد تاب ورجعَ إلى الله تعالى رُجوعًا صحيحًا مَقبولًا منه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه ما تَحلَّوا به مِن أصولِ الطَّاعاتِ بما لهم مِن العَدلِ والإحسانِ بالأفعالِ والأقوالِ في الأبدانِ والأموالِ؛ أتبَعَه ما تَخَلَّوا عنه مِن أمَّهاتِ المعاصي التي هي الفَحشاءُ والمُنكَرُ[1].

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: (أنَّ ناسًا مِن أهلِ الشِّركِ كانوا قد قَتَلوا وأكثَروا، وزَنَوا وأكثَروا، فأتَوا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقالوا: إنَّ الذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسَنٌ، لو تخبِرُنا أنَّ لِما عَمِلْنا كفَّارةً، فنزل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٥).

مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾، ونزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣])[١].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

أي: والذين لا يَدْعون مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ، بل يُخلِصون العبادةَ للهِ وحْدَه، ولا يُشرِكون به شَيئًا[٢].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((سألتُ، أو سُئِلَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: أيُّ الذنبِ عند الله أكبَرُ؟ قال: أن تجعَلَ لله ندًّا وهو خلَقَك. قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ أن تقتُلَ ولَدَك خَشيةَ أن يَطعَمَ معك، قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: أن تُزانيَ بحَليلةِ جارِك. قال: ونزَلَت هذه الآيةُ تصديقًا لِقَولِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾))[٣].

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

لَمَّا نفى عنهم ما يُوجِبُ قتْلَ أنفُسِهم بخَسارتِهم إيَّاها؛ أتبَعَه نفيَ قتْلِ غَيرِهم[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٠) واللفظ له، ومسلم (١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال ابن عثيمين: (و ﴿لَا يَدْعُونَ﴾... يعني: لا يدْعون دعاءَ مسألةٍ، ولا يَدْعون دعاءَ عبادةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٨٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧٦١) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٤).

﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: ولا يَقتُلون مَن حرَّم اللهُ قَتْلَهم إلَّا بسبَبٍ شَرعيٍّ يخوِّلُ قَتْلَهم[١].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ الله، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فعَلوا ذلك عَصَموا منِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ[٢]، وحِسابُهم على اللهِ))[٣].

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه القتلَ الجليَّ؛ أتبَعَه الخفيَّ بتضييعِ نَسَبِ الولَدِ، فقال: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ أي: رحمةً لِمَا قد يحدُثُ مِن ولَدٍ؛ إبقاءً على نَسَبِه، ورحمةً للمَزْنيِّ بها ولأقاربِها أنْ تُنتَهكَ حُرُماتُهم، مع رحمتِه لنَفْسِه، على أنَّ الزِّنا جارٌّ أيضًا إلى القَتلِ والفِتَنِ، وفيه التسبُّبُ لإيجادِ نَفْسٍ بالباطلِ، كما أنَّ القتلَ تَسَبُّبٌ إلى إعدامِها بذلك[٤].

﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال ابنُ عثيمين: (والنَّفسُ التي حرَّم اللهُ: أربعةُ أنفُسٍ: المسلمُ، والذمِّيُّ، والمعاهَدُ، والمستأمِنُ. هذه هي الأنفُسُ التي حرَّم اللهُ، فهذه الأربعةُ أنفُسٍ مُحرَّمةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٨٤).

(٢) إلَّا بحَقِّ الإسلامِ: أي: مِن قَتْلِ نَفْسٍ، أو حَدٍّ، أو غَرامةٍ بمُتْلَفٍ، أو تَركِ صَلاةٍ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١/ ١٠٨).

(٣) رواه البخاري (٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٦).

أي: ولا يقَعونَ في الزِّنا فيأتونَ الفَرْجَ الحرامَ بلا نِكاحٍ ولا مِلكِ يَمينٍ[١].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

لمَّا ذَكَر في صدرِ الآيةِ نَفْيَ تلك المعاصي عن عبادِ الرحمنِ -الذي يُفيدُ النهيَ عنها-؛ ذَكَرَ هذا الوعيدَ لبيانِ سوءِ عاقبتِها، وقُبحِ أثَرِها[٢].

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾.

أي: ومَن يفعَلْ تلك الأفعالَ؛ مِن الشِّركِ باللهِ، وقَتلِ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ، والزِّنا- يجِدْ جزاءَه وعِقابَه في الآخرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٨).

قال ابنُ عاشور: (المتبادِرُ مِن الإشارةِ أنَّها إلى المجموعِ، أي: مَن يفعَلْ مجموعَ الثلاثِ. ويُعلَمُ أنَّ جزاءَ من يفعَلُ بعضَها ويتركُ بعضًا عدا الإشراكِ: دونَ جزاءِ من يفعَلُ جميعَها، وأنَّ البعضَ أيضًا مراتِبُ، وليس المرادُ: من يفعلْ كُلَّ واحدةٍ مِمَّا ذُكِرْ يلقَ أثامًا؛ لأنَّ لُقِيَّ الآثامِ بُيِّن هنا بمُضاعفةِ العذابِ والخلودِ فيه، وقد نَهَضت أدِلَّةٌ مُتظافرةٌ من الكتابِ والسنَّةِ على أنَّ ما عدا الكُفرَ من المعاصي لا يوجِبُ الخلودَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

وممَّن قال بأنَّ الجزاءَ هنا على المجموعِ، أي: ما ذُكِر مِن الشِّركِ بالله، وقتلِ النفْسِ بغيرِ حقٍّ، والزِّنا: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبيُّ، والنسفيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ جُزي، والقاسميُّ، والألوسيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٨)، =

﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: يُغلِّظِ اللهُ له عذابَه يومَ القيامةِ ويُكَرِّرْه[1].

---

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٩١، ٢٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٤/ ٣٠١).

وممن ذهَب إلى أنَّ المرادَ: ومَن يفعَلْ شَيئًا ممَّا ذُكِر: مكِّي، والماوردي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٥٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال البقاعي: (ولا يُقالُ: إنَّ الإشارةَ تَرجِعُ إلى المجموعِ؛ فالتهويلُ خاصٌّ بمَن ارتكَبَ مجموعَ هذه الذُّنوبِ؛ لأنَّا نقول: السِّياقُ يأباه؛ لأنَّ تكرارَ «لا» أفاد -كما حقَّقه الرَّضِيُّ- وُرودَ النَّفيِ على وقوعِ الخِصالِ الثلاثِ حالَ الاجتِماعِ والانفرادِ، فالمعنى: لا يوقِعون شَيئًا منها، فكان معنى ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ﴾: ومَن يفعَلْ شَيئًا من ذلك؛ لِيَرِدَ الإثباتُ على ما وردَ عليه النَّفيُ، فيحصُلَ التناسُبُ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

قال الزمخشري: (إذا ارتكب المُشرِكُ معاصيَ مع الشِّركِ، عُذِّب على الشِّركِ وعلى المعاصي جميعًا؛ فتُضاعَفُ العقوبةُ لمُضاعَفةِ المعاقَبِ عليه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٤).

وقال ابن عثيمين: (إنما ضُوعِفَ له العذابُ لأنَّه فعَل ثلاثةَ أسبابٍ للعذابِ، وهي: الإشراكُ بالله، وقتلُ النفْسِ، والزِّنا، ومعلومٌ أنَّ الأسبابَ إذا اجتمعَت صار لكلِّ واحدٍ منها أثَرُه، فمَن فعَل شيئًا واحدًا مِن الثلاثةِ فعليه إثمُه، ومَن فعَل اثنين فعليه إثمُهما، ومَن فعَل ثلاثًا فعليه إثمُهن. فهذا وجْهُ التضعيفِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٩٢). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

وقال البقاعي: (ومُضاعَفةُ العذابِ -والله أعلمُ- إتيانُ بعضِه في إثرِ بَعضٍ بلا انقِطاعٍ، كما كان يُضاعِفُ سيِّئتَه كذلك). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٢٧).

﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾.

أي: ويَبْقَ المُشرِكُ العاصي في العذابِ المُضاعَفِ إلى الأبَدِ ذَليلًا حَقيرًا[1].

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ تعالى عظائمَ الذنوبِ وأكبرَ كبائرِها، وتَوَعَّدَ بالوعيدِ الشَّديدِ عليها؛ عَقَّبَها بذِكْرِ التوبةِ منها، ورَغَّبَ فيها؛ لِيُنَبِّهَ عِبادَه على طريقِ الرجوعِ إليه، وأنَّ مَن تاب منهم إلى اللهِ تاب اللهُ عليه[2].

## سَببُ النُّزولِ:

عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: ((نزَلَت هذه الآيةُ بمكَّةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٢، ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

قال السعدي: (الوعيدُ بالخلودِ لمن فعلها كلَّها ثابتٌ لا شكَّ فيه، وكذا لمن أشرَكَ بالله، وكذلك الوعيدُ بالعذابِ الشديدِ على كلِّ واحدٍ مِن هذه الثلاثةِ؛ لكونِها إمَّا شركٌ وإما مِن أكبرِ الكبائرِ، وأمَّا خلودُ القاتلِ والزاني في العذابِ، فإنَّه لا يتناوَلُه الخلودُ؛ لأنَّه قد دلَّت النصوصُ القرآنيةُ والسنَّةُ النبويَّةُ أنَّ جميعَ المؤمنينَ سيخرجون من النارِ، ولا يخلدُ فيها مؤمنٌ ولو فعَل مِن المعاصي ما فعَل). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

وأيضًا قيل: يُرادُ مِن الخُلودِ المُكثُ الطويلُ الصادقُ بالخلودِ الأبَديِّ وغيرِه، ويكونُ لِمَن أشرَكَ باعتبارِ فَردِه الأوَّلِ، ولِمَنِ ارتكَب إحدى الكبيرتينِ الأخيرتينِ باعتبارِ فَردِه الآخرِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٤).

مُهَانًا ﴾ فقال المُشرِكون: وما يُغْني عنَّا الإسلامُ، وقد عدَلْنا باللهِ، وقد قتَلْنا النفْسَ التي حرَّم اللهُ، وأتَيْنا الفواحِشَ؟! فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾))[1].

﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾.

أي: إلَّا مَن تاب مِن الشِّركِ وقتْلِ النَّفسِ المحرَّمةِ والزِّنا، فنَدِمَ على ذلك وأقلَعَ عنه، وآمَنَ بما وجَبَ عليه الإيمانُ به، وعَمِلَ أعمالًا صالِحةً بإخلاصٍ لله ومُتابعةٍ لِرَسولِه- فأولئك يجعَلُ اللهُ مكانَ سَيِّئاتِهم حَسَناتٍ بفَضلِه ورَحمتِه[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٥٥)، ومسلم (٣٠٢٣) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦ - ١٢٨)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٣).

قال ابن جرير: (قَوْلُهُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ اختَلَف أهلُ التَّأويلِ في تأويلِ ذلك؛ فقالَ بعضُهم: معناه: فأولئك يُبَدِّلُ اللهُ بقبائحِ أعمالِهم في الشِّركِ محاسِنَ الأعمالِ في الإسلامِ، فيُبَدِّلُه بالشِّركِ إيمانًا، وبقِيلِ أهلِ الشِّركِ بالله قِيلَ أهلِ الإيمانِ به، وبالزِّنا عِفَّةً وإحصانًا... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: فأولئك يبدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهم في الدُّنيا حسناتٍ لهم يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٦، ٥١٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّ اللهَ يبدِّلُ سيِّئاتِهم حسناتٍ يومَ القيامةِ: الثعلبيُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ، وابنُ كثير، وجلال الدين المحليُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: سَلمانُ الفارسيُّ، وسعيدُ بنُ المسيِّبِ، ومَكحولٌ، وعليُّ ابن الحسينِ، وعمرُو بنُ ميمونٍ، والحسَنُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٣٠).

قال ابن كثير: (... تلك السيِّئاتُ الماضيةُ تنقلِبُ بنفْسِ التَّوبةِ النَّصوحِ حسناتٍ، وما ذاك إلَّا أنَّه كُلَّما تذَكَّر ما مضى نَدِم واسترجَع واستغفَر، فيَنقلِبُ الذنبُ طاعةً بهذا الاعتِبارِ. فيومَ القيامةِ =

= وإنْ وجَدَه مكتوبًا عليه لكنَّه لا يضُرُّه، ويَنقلِبُ حسنةً في صحيفتِه، كما ثبتَت السُّنَّةُ بذلك، وصحَّت به الآثارُ المَرويَّةُ عن السلَفِ رحمهم اللهُ تعالى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٧).

وقال السمعاني: (قال الحسَنُ البَصريُّ ومُجاهِدٌ وجماعةٌ: هذا في الدُّنيا. ومعناه: تَبديلُ الكُفرِ بالإيمانِ، والشِّركِ بالإخلاصِ، والمَعصيةِ بالطَّاعةِ. وقال سعيدُ بنُ المُسيِّبِ وجماعةٌ: هذا في الآخرةِ، واللهُ تعالى يُبدِّلُ سَيِّئاتِ التَّائبِ بالحَسناتِ في صحيفتِه. وقد ورد في القولِ الثاني خبرٌ صحيحٌ ... عن أبي ذَرٍّ، أن النبيَّ قال: «يؤتَى بالمؤمِنِ يومَ القيامة فيُعرَضُ عليه صِغارُ ذنوبِه، ويخبَّأُ عنه كِبارُها، فيُسألُ ويعترِفُ وهو مشفِقٌ من الكبائرِ، فيقولُ الله تعالى: أعطوه مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حَسنةً، فيقولُ: يا ربِّ، إنَّ لي ذنوبًا ولا أراها هاهنا؟ فضَحِك رسولُ الله حتى بدت نَواجِذُه». أخرجه مسلم في صحيحه. وعن أبي هريرة أنه قال: يُعطى المؤمِنُ صَحيفتَه يومَ القيامةِ، فيَقرأُ بَعضَها وإذا هي سيِّئاتٌ، فإذا وصَل إلى الحَسَناتِ ينظُرُ نظرةً فيما قبْلَها، فإذا هي كلُّها صارت حسناتٍ. وقد أنكر جماعةٌ مِن المتقدِّمينَ أن تنقَلِبَ السيِّئةُ حسنةً، منهم الحسنُ البصريُّ وغيرُه، وإذا ثبت الخبَرُ عن النبيِّ لم يَبْقَ لأحدٍ كلامٌ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤).

وقال ابن القيم: (فهذا حديثٌ صحيحٌ، ولكِنْ في الاستدلالِ به على صِحَّةِ هذا القول نظَرٌ؛ فإنَّ هذا قد عُذِّب بسيِّئاتِه ودخَل بها النارَ، ثمَّ بعْدَ ذلك أُخرِجَ منها، وأُعطِيَ مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةً، صَدقةً تصَدَّقَ الله بها عليه ابتِداءً بعددِ ذنوبِه، وليس في هذا تبديلُ تلك الذنوبِ بحسناتٍ؛ إذ لو كان كذلك لَما عوقِب عليها كما لم يعاقَبِ التائِبُ، والكلامُ إنَّما هو في تائبٍ أُثبِتَ له مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةٌ، فزادت حسناتُه، فأين في هذا الحديثِ ما يدُلُّ على ذلك؟

والناسُ استقبَلوا هذا الحديثَ مستدِلِّينَ به في تفسيرِ هذه الآيةِ على هذا القولِ، وقد عَلِمتَ ما فيه، لكنْ للسَّلَفِ غَورٌ ودقَّةُ فَهمٍ لا يُدرِكُها كثيرٌ مِن المتأخِّرينَ. فالاستدلالُ به صحيحٌ بعْدَ تمهيدِ قاعدةٍ إذا عُرِفت عُرِف لُطفُ الاستدلالِ به ودقَّتُه، وهي أنَّ الذنبَ لا بدَّ له مِن أثرٍ، وأثرُه يرتفِعُ بالتوبة تارةً، وبالحسناتِ الماحيةِ تارةً، وبالمصائبِ المكَفِّرةِ تارةً، وبدخولِ النَّارِ ليتخلَّصَ مِن أثرِه تارةً، وكذلك إذا اشتَدَّ أثَرُه، ولم تَقْوَ تلك الأمورُ على مَحوِه، فلا بدَّ إذنْ مِن دخولِ النارِ؛ لأنَّ الجنةَ لا يكونُ فيها ذرَّةٌ مِن الخبيثِ، ولا يدخلُها إلَّا مَن طاب مِن كلِّ وجهٍ، فإذا بقِيَ عليه شيءٌ مِن خَبَثِ الذُّنوبِ أُدخِلَ كِيرَ الامتحانِ؛ ليَخلُصَ ذهَبُ إيمانِه مِن خَبَثِه، فيصلُحَ حينَئذٍ لدارِ المَلِكِ.

إذا عُلِمَ هذا فزوالُ موجبِ الذنبِ وأثرِه تارةً يكونُ بالتوبةِ النصوحِ، وهي أقوى الأسبابِ، وتارةً يكونُ باستيفاءِ الحقِّ منه وتطهيرِه في النارِ، فإذا تطهَّر بالنارِ وزال أثرُ الوسَخِ والخَبَثِ عنه، =

= أُعطيَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فإذا تطهَّر بالتوبةِ النصوحِ وزال عنه بها أثَرُ وسَخِ الذنوبِ وخَبَثِها، كان أَوْلى بأن يُعطى مكانَ كلِّ سيِّئةٍ حسنةً؛ لأنَّ إزالةَ التوبةِ لهذا الوسخِ والخبَثِ أعظمُ من إزالةِ النارِ، وأحَبُّ إلى الله، وإزالةُ النَّارِ بَدَلٌ منها، وهي الأصلُ؛ فهي أَولى بالتبديلِ ممَّا بعْدَ الدخولِ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٠، ٣١١).

وممَّن اختار أنَّ التَّبديلَ في الدُّنيا، وأنَّ المعنى: فأولئك يبَدِّلُ اللهُ سيِّئاتِهم حَسَناتٍ، بنَقلِهم عمَّا يَسخَطُه اللهُ مِن الأعمالِ إلى ما يَرضى، ويكونُ ذلك سببًا لِرَحمتهم: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، السمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والواحدي، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحسَنُ البصريُّ في روايةٍ، وعطاءُ بن أبي رباح، وقتادةُ، والضحَّاكُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٨/ ٢٧٣٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٣٠).

قال البغوي: (ذهَب جماعةٌ إلى أنَّ هذا التَّبديلَ في الدُّنيا. قال ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحَسَنُ، ومجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، والضحَّاكُ: يُبَدِّلُهم اللهُ بقبائِحِ أعمالِهم في الشِّركِ محاسِنَ الأعمالِ في الإسلامِ؛ فيُبَدِّلُهم بالشِّركِ إيمانًا، وبقَتلِ المؤمِنينَ قَتلَ المُشرِكينَ، وبالزِّنا عِفَّةً وإحصانًا. وقال قومٌ: يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهم التي عَمِلوها في الإسلامِ حَسَناتٍ يومَ القيامةِ. وهو قَولُ سَعيدِ بنِ المُسَيِّبِ، ومَكحولٍ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٥٨).

وقال ابنُ القيم: (وأصلُ القولَينِ أنَّ هذا التبديلَ هل هو في الدنيا أو يومَ القيامةِ؟ فمَن قال: إنَّه في الدُّنيا؛ قال: هو تبديلُ الأعمال القبيحةِ والإراداتِ الفاسدةِ بأضْدادِها، وهي حَسَناتٌ، وهذا تبديلٌ حقيقةً ... الصوابُ إن شاء الله في هذه المسألةِ أن يُقال: لا ريبَ أنَّ الذنْبَ نفْسَه لا ينقلِبُ حَسنةً، والحسنةُ إنَّما هي أمرٌ وجوديٌّ يقتضي ثوابًا؛ ولهذا كان تاركُ المنهيَّاتِ إنَّما يُثابُ على كفِّ نفْسِه وحَبْسِها عن مُواقَعةِ المنهيِّ، وذلك الكفُّ والحبسُ أمرٌ وجوديٌّ، وهو متعلَّقُ الثَّوابِ ... وإذا كانت الحسَنةُ لا بدَّ أن تكونَ أمرًا وجوديًّا فالتَّائِبُ مِن الذُّنوبِ التي عَمِلها قد قارَن كلَّ ذَنبٍ منها ندمًا عليه، وكفَّ نفْسَه عنه، وعَزَم على تركِ معاودتِه، وهذه حَسَناتٌ بلا ريبٍ، وقد محَتِ التوبةُ أثرَ الذَّنبِ، وخَلَفَه هذا النَّدمُ والعزمُ، وهو حسنةٌ قد بَدَّلت تلك السيِّئةَ حَسنةً... فإذا كانت كلُّ سيئةٍ مِن سيِّئاتِه قد تاب منها فتوبتُه منها حسَنةٌ حَلَّت مكانَها، فهذا معنى التَّبديلِ، =

= لا أنَّ السيِّئةَ نفْسَها تنقلِبُ حسنةً. وقال بعضُ المفسِّرينَ في هذه الآيةِ: يُعطيهم بالنَّدَمِ على كلِّ سيِّئةٍ أساؤوها حسنةً، وعلى هذا فقد زال -بحمدِ الله- الإشكالُ، واتَّضح الصَّوابُ، وظهَر أنَّ كلَّ واحدةٍ مِنَ الطائفتَينِ ما خرجت عن موجبِ العلمِ والحُجَّةِ. وأمَّا حديثُ أبي ذَرٍّ -وإن كان التبديلُ فيه في حَقِّ المُصِرِّ الذي عُذِّب على سيِّئاته- فهو يدُلُّ بطَريقِ الأَولى على حصولِ التبديلِ للتائبِ المقلِعِ النادِمِ على سيئاتِه؛ فإنَّ الذُّنوبَ التي عُذِّب عليها المصِرُّ لَمَّا زال أثرُها بالعقوبةِ بَقِيَت كأنْ لم تكُنْ، فأعطاه الله مكانَ كُلِّ سيئةٍ منها حسَنةً؛ لأنَّ ما حصَل له يومَ القيامةِ مِن النَّدَمِ المُفرِطِ عليها مع العُقوبةِ، اقتضى زوالَ أثرِها وتبديلَها حَسَناتٍ، فإنَّ النَّدَمَ لم يكُنْ في وقتٍ ينفَعُه، فلمَّا عوقِبَ عليها وزال أثَرُها بدَّلها اللهُ له حسناتٍ، فزوالُ أثَرِها بالتَّوبةِ النصوحِ أعظَمُ من زوالِ أثَرِها بالعُقوبةِ، فإذا بُدِّلت بعْدَ زوالِها بالعقوبةِ حَسَناتٍ فلأنْ تُبدَّلَ بعْدَ زوالِها بالتَّوبةِ حَسَناتٍ أَولى وأَحرى). ((طريق الهجرتين)) (ص: ٢٤٥-٢٥٠). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٠ - ٣١٢).

وممَّن جمَع بيْن القولينِ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٦).

قال السعدي: (تتبدَّلُ أفعالُهم وأقوالُهم التي كانت مُستَعِدَّةً لعملِ السيِّئاتِ، تتبدَّلُ حَسَناتٍ، فيتبدَّلُ شِركُهم إيمانًا، ومعصيتُهم طاعةً، وتتبدَّلُ نفْسُ السيِّئاتِ التي عمِلوها ثمَّ أحدَثوا عن كلِّ ذنْبٍ منها توبةً وإنابةً وطاعةً، تُبدَّلُ حسناتٍ كما هو ظاهِرُ الآيةِ، وورد في ذلك حديثُ الرجُلِ الذي حاسبه اللهُ ببعضِ ذنوبِه فعدَّدها عليه، ثم أُبدِلَ مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فقال: يا ربِّ، إنَّ لي سيئاتٍ لا أراها هاهنا. واللهُ أعلمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

وقال ابنُ عثيمين: (التبديل: جَعْلُ شَيءٍ مكانَ شَيءٍ، وهذا التبديلُ هل هو تبديلٌ قَدَريٌّ أو تبديلٌ جزائيٌّ؟

اختلَف في ذلك أهلُ العِلمِ؛ فمِنهم مَن قال: إنَّه تبديلٌ قدَريٌّ، ومنهم مَن قال: إنَّه تبديلٌ جزائيٌّ، كيف ذلك؟ الذين يقولون: إنَّه تبديلٌ قدَريٌّ يقولون: إنَّ معنى تبديلِ السَّيِّئاتِ حَسَناتٍ أنَّه لَمَّا آمَن وعَمِل عمَلًا صالحًا صار بدَلَ الشِّركِ إيمانٌ، وصار بدَلَ الزنا وقَتلِ النَّفسِ عمَلٌ صالحٌ، معناه: أنَّ هذا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ صار بدلًا عن الكُفرِ والزِّنا وقَتلِ النَّفسِ، فالمعنى أنَّ إيمانَه وعمَلَه الصَّالحَ الذي فعَلَه هو الحَسَناتُ التي أبدَل اللهُ السيِّئاتِ بها؛ فيكونُ هذا التبديلُ قدَريًّا.

وقيل: بل هو جزائيٌّ، بمعنى أن هذه المعاصيَ نفْسَها تكونُ حَسَناتٍ، يُبدِّلُ الله السيِّئاتِ السابقةَ يجعَلُها حسَناتٍ، بالإضافةِ إلى حَسَناتِه الأخيرةِ التي قُدِّرت له ففعَلَها، وكيف ذلك؟ يقولون: =

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صَلَّى الله عليه وسَلَّم: ((إنِّي لأعلَمُ آخِرَ أهلِ الجنَّةِ دُخولًا الجنَّةَ، وآخِرَ أهلِ النَّارِ خُروجًا منها: رجُلٌ يؤتَى به يومَ القيامةِ، فيُقالُ: اعرِضوا عليه صِغارَ ذُنوبِه، وارفَعوا عنه كِبارَها، فتُعرَضُ عليه صِغارُ ذُنوبِه، فيُقال: عَمِلتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، وعَمِلتَ يومَ كذا وكذا كذا وكذا، فيقولُ: نعَمْ، لا يَستطيعُ أن يُنكِرَ، وهو مُشفِقٌ مِن كِبارِ ذُنوبِه أن تُعرَضَ عليه، فيُقالُ له: فإنَّ لك مكانَ كُلِّ سَيِّئةٍ حَسَنةً، فيقولُ: ربِّ، قد عَمِلتُ أشياءَ لا أراها هاهنا! فلقد رأيتُ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ضَحِك حتى بَدَت نَواجِذُه))[1].

وعن أبي طويلٍ شَطبٍ الممدودِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه أتى رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: ((أرأيتَ رجُلًا عَمِلَ الذُّنوبَ كُلَّها، فلم يترُكْ منها شيئًا، وهو في ذلك لم يترُكْ حاجَةً ولا داجَةً[2] إلَّا أتاها، فهل له مِن توبةٍ؟ قال: فهل أسلَمْتَ؟ قال: أمَّا أنا فأشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّك رَسولُ الله، قال: نعَمْ، تفعَلُ الخَيراتِ، وتَترُكُ السيِّئاتِ، فيَجعَلُهنَّ اللهُ لك خيراتٍ كُلَّهنَّ، قال: وغَدَراتي وفَجَراتي؟! قال: نعَمْ، قال: الله أكبَرُ! فما زال يُكبِّر حتى

---

= لأنَّ هذه السيِّئاتِ لَمَّا تاب منها صار له بكلِّ توبةٍ مِن هذه السيِّئاتِ حَسَنةٌ، فأُبدِلت السيِّئاتُ حَسَناتٍ بالتوبةِ منها، ولأنَّه كلَّما تذكَّر ما سبَق مِن أعمالِه السيِّئةِ أحدَثَ لها توبةً؛ فصارت هذه الأعمالُ السابقةُ حسناتٍ بالتوبةِ منها. والصحيحُ شُمولُ الآيةِ لهذا ولهذا، وأنَّ الآيةَ شاملةٌ للأمْرينِ؛ فإنَّ مَن تاب وآمَن وعَمِل عملًا صالحًا تبدَّلت سيئاتُه السابقةُ فصارت حسناتٍ، لكنَّها ليست هي الأُولى نفْسَها، وكذلك إذا تاب منها جُوزِيَ على هذه التوبةِ بالثَّوابِ؛ فصارت السيِّئاتُ بالتَّوبةِ منها حَسَناتٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٥، ٣٠٦).

(١) رواه مسلم (١٩٠).

(٢) حاجَةً ولا داجَةً: أي: ما تَركْتُ شَيئًا دعَتْني إليه نَفْسي إلَّا رَكِبْتُه مِن الذُّنوبِ. وداجةً: في هذا الموضِعِ: إتْباعٌ. وقيل: الدَّاجَةُ: ما لا يُذكَرُ؛ احتِقارًا له، أي: قد قَضَيتُ الحوائِجَ التي لها مَوقِعٌ مِن قلبي، وقَضَيتُ ما لا يُذكَرُ؛ احتِقارًا له. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٤١٠)، ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) للأنباري (٢/ ٢٢٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٥٠٦).

توارى))[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: ولم يَزَلِ اللهُ يستُرُ ذُنوبَ التَّائبينَ مِن عبادِه، ويتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها ويَرحَمُهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أفادتِ الآيةُ السابقةُ أنَّ التوبةَ تمحو السيِّئاتِ، جاءتْ هذه الآيةُ إثرَها تُبيِّنُ ما لأهلِها مِن جزيلِ الإنعاماتِ، وعظيمِ الدرجاتِ[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في ((الآحاد والمثاني)) (٢٧١٨)، والبزَّار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (١/ ٣٦)، والطبراني (٧/ ٣١٤) (٧٢٣٥).

جوَّد إسنادَه وقوَّاه المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ١٢٨)، وقال ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٤٤): حسنٌ صحيحٌ غريب. وصحَّحه الألباني في ((الترغيب والترهيب)) (٣١٦٤).

قال ابن حَجر: (قال البغويُّ: أظنُّ أنَّ الصوابَ عن عبد الرحمن بن جُبَيرٍ أنَّ رجُلًا أتىَ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم طويلًا شَطبًا، والشَّطبُ يعني في اللغة: الممدودَ، يعني: فظنَّه الراوي اسمًا، فقال فيه: عن شَطبٍ أبي طويلٍ). ((الإصابة في تمييز الصحابة)) (٣/ ٢٨٣). ويُنظر: ((معجم الصحابة)) للبغوي (٣/ ٣٢٣)، ((الاستيعاب)) لابن عبد البر (٢/ ٧٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٩، ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

وقال السعدي: (﴿رَّحِيمًا﴾ بعبادِه؛ حيثُ دعاهم إلى التوبةِ بعْدَ مبارزتِه بالعظائمِ، ثم وفَّقهم لها، ثم قَبِلها منهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٨).

﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ ﴾.

أي: ومَن تاب إلى اللهِ وعَمِلَ بعْدَ تَوبتِه الأعمالَ الصَّالحةَ، فإنَّه يَرجِعُ إلى اللهِ رُجوعًا صَحيحًا حَسَنًا، مَقبولًا مَرضِيًّا(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٤].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- مَن راضَ نفْسَه على الطاعةِ، ودانتْ نفْسُه بالإخباتِ والانقيادِ للأوامرِ الشرعيَّةِ؛ ضَعُفَتْ منه أو زالتْ دواعي الشَّرِّ والفسادِ؛ فانكفَّ عنِ المعصيةِ، لذا قدَّم الله تعالى إثباتَ الطاعاتِ في قولِه: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ ... ﴾ على انتفاءِ المعاصي في قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ ... ﴾؛ تنبيهًا على ذلك، ومِن هنا نعلَمُ أنَّ على المسلمِ الذي يعملُ لتزكيةِ نفْسِه أن يُواظِبَ على الطاعاتِ بأنواعِها، وأن يجتهِدَ في حصولِ الأُنسِ بها، والخشوعِ فيها؛ فإنَّ ذلك -زيادةً على ما يثبِّتُ فيه مِن أصولِ الخَيرِ- يَقلَعُ منه أصولَ الشَّرِّ، ويُميتُ منه بواعثَه(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ يُذَكِّرُنا القرآنُ بمضاعَفةِ العذابِ على كبائرِ الآثامِ؛ لِنَذكُرَ عندما تُحدِّثُنا أنفُسُنا بالمعصيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٩).

سوءَ عاقبتِها، وتَعَدُّدَ شرورِها، وتَشَعُّبَ مفاسِدِها، ومُضاعَفةَ العذابِ بحسَبِ ذلك عليها؛ لِنَزدجِرَ ونَنكَفَّ، فنَسلَمَ مِن الشَّرِّ المتراكمِ، والعذابِ المضاعَفِ، ونفوزَ بأجرِ التذكُّرِ، وثمرةِ التذكيرِ[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ أي: فلْيعلَمْ أنَّ توبتَه في غايةِ الكمالِ؛ لأنَّها رجوعٌ إلى الطريقِ الموصِلِ إلى اللهِ الذي هو عينُ سعادةِ العبدِ وفلاحِه؛ فلْيُخلِصْ فيها، ولْيُخَلِّصْها مِن شوائبِ الأغراضِ الفاسدةِ، فالمقصودُ مِن هذا الحَثُّ على تكميلِ التوبةِ، وإيقاعُها على أفضلِ الوجوهِ وأَجَلِّها؛ لِيَقدَمَ على مَن تاب إليه فيوفِّيَه أجرَه بحسَب كمالِها[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ دعا اللهُ بهذا عبادَه المذنبينَ حتى لا يَتَسَرَّبَ القنوطُ إلى قلوبِهم -وهو مُحَرَّمٌ عليهم- ولا يَحُولَ بيْنهم وبيْنَ خالقِهم ذنْبٌ وإنْ عَظُمَ، ورغَّبَهم في التَوبةِ بأنَّها رجوعٌ إليه وكفَى، وأنَّ الرجوعَ إليه فيه مِن الخَيرِ والشرفِ فوقَ ما تُصَوِّرُه الألفاظُ، فما أحلَمَه مِن ربٍّ كريمٍ، وما أرحمَه بعبادِه المذنِبين! فهذا داعي اللهِ فأجيبوه، وهذا بابُ اللهِ فَلِجُوه؛ فإنَّكم مهما رجعتُم إليه لا تُطرَدوا، ومهما قصَدتُم إليه تُقبَلوا وتُكْرَموا[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قامتِ الشَّريعةُ على المحافظةِ على حقوقِ اللهِ وحقوقِ عبادِه، وحَقُّ اللهِ على عبادِه أنْ يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، فمَن دعا مع اللهِ غيرَه، وأشركَ به سِواه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٩).

فقد أبطَلَ حقَّ اللهِ، وأعدمَ عبادتَه، ومَن قتَلَ النَّفْسَ فقد تعدَّى على أولِ حقٍّ جَعَلَه اللهُ لعبادِه بفضلِه -وهو حقُّ الوجودِ- وعَمِلَ على إبطالِ وجودِهم، وفناءِ نوعِهم، وزوالِ عبادتِهم؛ فلهذا قُرِنَ قَتلُ النَّفسِ بدعاءِ غيرِ اللهِ معه(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ هذه أكبَرُ الكبائرِ، وأعظَمُها ضَررًا، وأشَدُّها فسادًا للعالَمِ، وإذا تأمَّلَ العاقِلُ فَسادَ الوجودِ رآه مِن هذه الجِهاتِ الثَّلاثِ(٢)، وهي: الكفرُ، ثم قتلُ النفْسِ بغَيرِ الحقِّ، ثمَّ الزنا، كما رتَّبها الله(٣)؛ فالشِّركُ فيه فَسادُ الأديانِ، والقَتلُ فيه فَسادُ الأبدانِ، والزِّنا فيه فَسادُ الأعراضِ(٤).

٣- أصولُ المعاصي كلِّها؛ كبارِها وصغارِها، ثلاثةٌ: تعلُّقُ القلبِ بغيرِ الله، وطاعةُ القوَّةِ الغضبيَّةِ، والقوَّةِ الشَّهوانيَّةِ، وهي: الشِّركُ، والظُّلْمُ، والفواحِشُ؛ فغايةُ التعلُّقِ بغيرِ الله شِركٌ، وأن يُدعَى معه إلهٌ آخَرُ، وغايةُ طاعةِ القوَّةِ الغضبيَّةِ القَتلُ، وغايةُ القوةِ الشهوانيَّةِ الزِّنا؛ ولهذا جمَع الله سُبحانَه بينَ الثلاثةِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، وهذه الثلاثةُ يدعو بعضُها إلى بعضٍ؛ فالشركُ يدعو إلى الظُّلمِ والفواحشِ، كما أنَّ الإخلاصَ والتوحيدَ يَصرِفُهما عن صاحبِه؛ قال تعالى: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فالسوءُ: العِشقُ، والفحشاءُ: الزِّنا، وكذلك الظُّلمُ يدعو إلى الشركِ والفاحشةِ؛ فإنَّ الشِّركَ أظلَمُ الظُّلمِ، كما أنَّ أعدلَ العدلِ التوحيدُ؛ فالعدلُ قرينُ التوحيدِ، والظلمُ قرينُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

الشركِ؛ ولهذا يجمع سُبحانَه بيْنهما: أمَّا الأولُ، ففي قولِه تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأما الثاني فكقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، والفاحشةُ تدعو إلى الشِّركِ والظُّلمِ، ولا سيَّما إذا قَوِيت إرادتُها ولم تحصُلْ إلا بنوعٍ مِن الظُّلمِ والاستعانةِ بالسِّحرِ والشيطانِ، وقد جمَع سُبحانَه بينَ الزنا والشِّركِ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٣]، فهذه الثلاثةُ يجُرُّ بعضُها إلى بعضٍ، ويأمُرُ بعضُها ببعضٍ؛ ولهذا كلَّما كان القلبُ أضعَفَ توحيدًا وأعظَمَ شِركًا، كان أكثَرَ فاحشةً، وأعظَمَ تعلُّقًا بالصُّوَرِ وعِشقًا لها(١).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّه ليس بعْدَ الكُفرِ أعظَمُ مِن قَتلِ النَّفسِ بغيرِ الحَقِّ، ثمَّ الزِّنا؛ ولهذا ثَبَت في حَدِّ الزِّنا القَتلُ لِمَن كان مُحصَنًا، أو أقصَى الجَلدِ لِمن كان غيرَ مُحصَنٍ(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ مضاعفةُ العذابِ: أن يُعَذَّبَ على كلِّ جُرْمٍ ممَّا ذُكِرَ عذابًا مُناسبًا؛ ولا يُكتفَى بالعذابِ الأكبرِ عن أكبرِ الجرائمِ، وهو الشِّركُ؛ تنبيهًا على أنَّ الشِّركَ لا يُنجي صاحبَه مِن تَبِعةِ ما يَقترفُه مِن الجرائمِ والمفاسدِ؛ وذلك لأنَّ دعوةَ الإسلامِ للناسِ جاءتْ بالإقلاعِ عن الشركِ وعن المفاسدِ كلِّها، وهذا معنى قولِ مَن قال مِن العلماءِ بأنَّ الكفارَ مخاطَبون

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٦).

بفروعِ الشريعةِ، يَعنون خطابَ المؤاخَذةِ على ما نُهوا عن ارتكابِه، وليس المرادُ أنهم يُطْلَبُ منهم العملُ؛ إذْ لا تُقْبَلُ منهم الصالحاتُ بدونِ الإيمانِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ التَّوبةَ تمحو آثامَ كلِّ ذنبٍ مِن هذه الذُّنوبِ المعدودةِ، ومنها قتلُ النَّفْسِ بدونِ حقٍّ، وهو المعروفُ مِن عُموماتِ الكتابِ والسُّنَّةِ[٢]، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على صحَّةِ توبةِ القاتلِ، ولا تعارُضَ بينَ هذه وبينَ آيةِ (النساء): ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]؛ فإنَّ هذه وإن كانت مدَنيَّةً إلَّا أنَّها مطلقةٌ، فتُحمَلُ على مَن لم يتُبْ؛ لأنَّ هذه مقيدةٌ بالتوبةِ، ثم قد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وقد ثبتت السنَّةُ الصحيحةُ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بصحَّةِ توبةِ القاتلِ[٣]، فالقاتِلُ إذا تاب لا يستحِقُّ الوعيدَ بنَصِّ القُرآنِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٢٦، ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٦).

قال ابن تيميَّة: (قاتِلُ النَّفسِ بغير حقٍّ عليه حقَّان: حقٌّ لله بكَونِه تعدَّى حدودَ الله، وانتهَك حُرُماتِه. فهذا الذنْبُ يغفرُه الله بالتوبةِ الصحيحةِ. والحقُّ الثاني: حقُّ الآدميِّينَ، فعلى القاتلِ أن يُعطيَ أولياءَ المقتولِ حقَّهم، فيُمكِّنَهم مِن القِصاصِ، أو يصالحَهم بمالٍ، أو يطلُبَ منهم العفوَ، فإذا فعَل ذلك فقد أدَّى ما عليه مِن حقِّهم، وذلك مِن تمامِ التوبةِ.

وهل يبقَى للمَقتولِ عليه حقٌّ يطالبُه به يومَ القيامةِ؟ على قولينِ للعُلَماءِ في مذهبِ أحمدَ وغَيرِه، ومَن قال: يبقَى له فإنَّه يستكثرُ القاتِلُ مِن الحَسَناتِ حتى يعطيَ المقتولَ مِن حَسَناتِه بقَدْرِ حقِّه، ويبقَى له ما يبقَى، فإذا استكثرَ القاتِلُ التائبُ مِن الحسناتِ رُجِيَت له رحمةُ الله، وأنجاه مِن النَّارِ). ((الفتاوى الكبرى)) (٣/ ٤٠٧، ٤٠٨). =

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المنتَقِلَ مِن الضَّلالِ إلى الهُدى يُضاعَفُ له الثَّوابُ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ سؤالٌ؛ ما فائدةُ هذا التَّكريرِ مع ما سَبَقَ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾؟

**الجوابُ مِن وجهينِ:**

**الأولُ:** أنَّ هذا ليس بتَكريرٍ؛ لأنَّ الأولَ لَمَّا كان في تلك الخصالِ بيَّنَ تعالى أنَّ جميعَ الذُّنوبِ بمنزلتِها في صِحَّةِ التَّوبةِ منها.

**الثاني:** أنَّ التَّوبةَ الأُولى رجوعٌ عن الشِّركِ والمعاصي، والتَّوبةَ الثَّانيةَ رُجوعٌ

---

= وأمَّا ما ورد عن ابنِ عبَّاسٍ، وزَيدِ بنِ ثابتٍ: أنَّ القاتِلَ لا تَوبةَ له، فقد حُمِلَ على التَّغليظِ؛ فقد رُوِيَ عنهما أنَّ له توبةً، أو: أنَّه لا توبة له بالنِّسبةِ لحقِّ المقتولِ؛ فإنَّه لا يمكنُ استحلالُه.

أمَّا إن مات القاتِلُ مِن غيرِ توبةٍ فإنَّه تحتَ مشيئةِ الله تعالى؛ إنْ شاء غَفَر له، وأرضى خَصْمَه، وإنْ شاء عذَّبه على فِعْلِه، ثم يُدخِلُه الجنَّةَ بإيمانِه؛ فضلًا منه ورَحمةً. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (١/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٣٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٠٠).

قال القرطبي: (ثمَّ إنَّ الجمعَ بيْنَ آيةِ «الفُرقانِ» وهذه الآيةِ -أي: قَولِه: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣]- مُمكِنٌ، فلا نَسْخَ ولا تعارُضَ؛ وذلك أن يُحمَلَ مُطلَقُ آيةِ «النساء» على مُقَيَّدِ آيةِ «الفرقان»، فيكونَ معناه: فجزاؤُه كذا إلَّا مَن تاب، لا سيَّما وقد اتَّحد المُوجِبُ، وهو القَتلُ، والموجَبُ وهو التوعُّدُ بالعِقابِ. وأمَّا الأخبارُ فكثيرةٌ؛ كحَديثِ عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ الذي قال فيه: «تُبايِعوني على ألَّا تُشرِكوا باللهِ شَيئًا، ولا تَزْنُوا، ولا تَسرِقوا، ولا تَقتُلوا النَّفْسَ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحَقِّ، فمَن وَفَى منكم فأجرُه على اللهِ، ومَن أصاب شيئًا مِن ذلك فعُوقِبَ به فهو كفَّارةٌ له، ومَن أصاب مِن ذلك شَيئًا فسَتَرَه اللهُ عليه فأمْرُه إلى اللهِ؛ إنْ شاء عفا عنه، وإنْ شاء عَذَّبَه»). ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ٢٠٩).

إلى اللهِ تعالى للجَزاءِ والمكافأةِ، كقَولِه تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠]، أي: مَرجِعي[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾

- هذا شروعٌ في نفي أُمَّهاتِ المعاصي عنهم بعدَما أثبَت لهم أصولَ الطاعاتِ؛ إظهارًا لكمالِ إيمانِهم، وتنبيهًا على أنَّ الإيمانَ الكاملَ هو ما تثبتُ معه الطاعاتُ، وتنْتَفي المعاصي، وذلك هو غايةُ الامتثالِ للأوامرِ والنَّواهي، وإشعارًا بأنَّ الأجرَ المذكورَ موعودٌ للجامعِ بينَ ذلك، وفيه تعريضٌ بما كان عليه المشركونَ مِن الاتِّصافِ بهذه المعاصي؛ مِن دعائِهم آلهتَهم معَ الله، وقتلِهم النفسَ، وارتكابِهم فاحشةَ الزِّنا. كأنَّه قيل: والذين برَّأهم الله وطهَّرهم ممَّا أنتم عليه، ولذلك عقَّبه بالوعيدِ تهديدًا لهم؛ فقال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[٢].

- والتَّصريحُ بوصفِ عباد الرحمن بنَفيِ الإشراكِ -معَ ظُهورِ إيمانِهم-؛ لإظهارِ كمالِ الاعتِناءِ بالتَّوحيدِ والإخلاصِ، وتَهويلِ أمْرِ القَتلِ والزِّنا بنَظْمِهما في سِلْكِه[٣].

- وقد جُمِع في قولِه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ﴾ التَّخلِّي عن هذه الجَرائمِ الثَّلاثِ في صِلَةِ مَوصولٍ واحدٍ، ولم يُكرِّرِ اسمُ المَوصولِ كما كُرِّر في ذِكرِ خِصالِ تَحلِّيهم؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لَمَّا أَقلَعوا عنِ الشِّركِ، ولمْ يَدْعوا مع اللهِ إلهًا آخَرَ؛ فقد أَقلَعوا عن أشدِّ القبائحِ لُصوقًا بالشِّركِ، وذلك قَتْلُ النَّفْسِ والزِّنا. فجُعِل ذلك شَبِيهَ خَصلةٍ واحدةٍ، وجُعِل في صِلَةِ مَوصولٍ واحدٍ. وقد يكونُ تَكريرُ (لا) مُجْزِئًا عن إعادةِ اسمِ المَوصولِ، وكافيًا في الدَّلالةِ على أنَّ كلَّ خَصلةٍ مِن هذه الخِصالِ مُوجِبةٌ لمُضاعَفةِ العذابِ[1].

- قولُه: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ وَصْفُ النَّفْسِ بـ ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ بيانٌ لحُرمةِ النَّفْسِ الَّتي تَقرَّرَتْ مِن عهْدِ آدَمَ فيما حكَى اللهُ مِن مُحاوَرةِ ولَدَيْ آدَمَ بقَولِه: ﴿قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ [المائدة: ٢٧] الآياتِ، فتَقرَّرَ تحريمُ قتْلِ النَّفْسِ مِن أقدَمِ أزمانِ البَشرِ، ولم يَجْهَلْه أحدٌ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ، فذلك معنَى وصْفِ النَّفْسِ بالمَوصولِ في قَولِه: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّه وصَف النَّفْسَ بالاسمِ الموصولِ المعروفِ الصِّلةِ؛ لأنَّ تَحريمَ اللهِ لها أمرٌ مَركوزٌ في النُّفوسِ، معروفٌ للبشَرِ بما جاءَهم مِن جَميعِ الشَّرائعِ[2].

- وكان النَّفيُ للفعلِ بصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى استمرارِ ذلك النَّفيِ[3].

- قولُه: ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، أي: التي حرَّمَها، بمعنى: حَرَّم قتْلَها، فحُذِف

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٠).

المُضافُ، وأُقيمَ المُضافُ إليه مقامَه؛ مُبالَغةً في التَّحريمِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ مِن بَلاغةِ القرآنِ: أنَّه إذا أمَرَ بشَيءٍ ذكَرَ فائدتَه وثمرتَه للعِبادِ في الدَّارينِ، وكذلك إذا نهَى عن شَيءٍ ذكَرَ مضرَّتَه، وسُوءَ عاقبتِه عليهم فيهما؛ فلمَّا ذكَرَ في صدْرِ الآيةِ نفْيَ تلك المعاصي عن عِبادِ الرَّحمنِ الَّذي يُفيدُ النَّهيَ عنها؛ ذكَر هذا الوعيدَ؛ لبَيانِ سُوءِ عاقبتِها، وقُبْحِ أثَرِها[٢].

- الإشارةُ بأداةِ البُعدِ في قولِه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: الفعلَ العظيمَ القُبحِ، مع قُربِ المذكوراتِ؛ دلَّ على أنَّ البعدَ في رُتَبِها[٣].

- والتَّنوينُ في قَولِه: ﴿أَثَامًا﴾ للتَّفخيمِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾

- قولُه: ﴿يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تَضعيفُ العذابِ: مُضاعَفتُه؛ لانضِمامِ المعصيةِ إلى الكُفرِ، ويَجوزُ أنْ تَكونَ مضاعَفةُ العذابِ مُستعمَلةً في معنى قُوَّتِه، أي: يُعَذَّبُ عذابًا شديدًا، وليستْ لتكريرِ عذابٍ مُقدَّرٍ[٥].

- قولُه: ﴿مُهَانًا﴾ حالٌ قُصِد منها تَشنيعُ حالِهم في الآخِرةِ[٦].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

- قولُه: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ رُوعِيَتِ الحالةُ الأُولى فذُكِرَتِ التَّوبةُ، والثَّانيةُ فذُكِر الإيمانُ، والثَّالثةُ فذُكِر العملُ الصَّالحُ؛ لأنَّ العاصيَ يكونُ في غَمَراتِ مَعصيتِه، فإذا ذكَرَ اللهَ، ووفَّقَه اللهُ، أَسِفَ على حالِه، ورجَعَ إلى ربِّه، وهذه أوَّلُ الدَّرجاتِ في تَوبتِه، فإذا استشعَرَ قلْبُه اليقينَ، واطمأَنَّ قلْبُه بذِكْرِ اللهِ؛ صمَّمَ على الإعراضِ عن المعصيةِ، والإقبالِ على الطَّاعةِ، فإذا كان صادقًا في هذا العزمِ، فلا بُدَّ أن يَظهَرَ أثرُ ذلك على عمَلِه[1].

- وعَطْفُ ﴿وَءَامَنَ﴾ على ﴿مَن تَابَ﴾؛ للتَّنويهِ بالإيمانِ، ولِيُبْنَى عليه قَولُه: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وهو شرائعُ الإسلامِ؛ تحريضًا على الصَّالحاتِ، وإيماءً إلى أنَّها لا يُعتَدُّ بها إلَّا مع الإيمانِ، كما قال تعالى في سورة (البلد): ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ [البلد: ١٧]، وقال في عكسِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾[2] [النور: ٣٩].

- وقولُه: ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ فيه ذِكرُ المَوصوفِ مع جرَيانِ الصَّالحِ والصَّالحاتِ مَجرَى الاسمِ؛ للاعتِناءِ والتَّنصيصِ على مُغايَرتِه للأعمالِ السَّابقةِ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيثُ قال هنا: ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾، وقال في سورةِ (طه): ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [طه: ٨٢]؛ وذلك لأنَّه في سُورةِ (طه)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

أَوْجَزَ في ذِكرِ المعاصي فأَوجَزَ في التَّوبةِ، وأطالَ في الفُرقانِ فأطالَ في التَّوبةِ[١].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ...﴾ كلامٌ مَسوقٌ لبيانِ فضْلِ التَّوبةِ المَذكورةِ، واسمُ الإشارةِ أفادَ التَّنبيهَ على أنَّهم أَحْرياءُ بما أخبَرَ عنهم به بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ ما ذُكِر مِنَ الأوصافِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٢]. واسمُ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المَوصولِ (مَن)، والجَمعُ باعتِبارِ معناهُ، كما أنَّ الإفراد في الأفعالِ الثَّلاثةِ -(تَابَ)، و(آمَنَ)، و(عَمِلَ)- باعتِبارِ لفْظِه[٣].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ ...﴾ ذكَر الاسمَ الأعظمَ؛ تعظيمًا للأمرِ، وإشارةً إلى أنَّه سبحانَه لا منازعَ له[٤].

- ولم تَتعرَّضِ الآيةُ لمِقدارِ الثَّوابِ، وهو مَوكولٌ إلى فضلِ اللهِ؛ ولذلك عَقَّبَ هذا بقَولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ المُقتضِي أنَّه عظيمُ المغفرةِ[٥].

- قولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ اعتِراضٌ تَذْييليٌّ مُقرِّرٌ لِما قَبْلَه مِنَ المَحوِ والإثباتِ[٦].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ تعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ[٧]؛ فهو تَذْييلٌ لِما قبْلَه[٨].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٠).

(٨) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٥).

- والتَّوكيدُ بـ (إنَّ)؛ لتَحقيقِ مَضمونِ الخبرِ[١].

- وقد وقَعَ الإخبارُ عنِ التَّائبِ بأنَّه تائبٌ؛ إذِ المَتابُ مَصدرٌ مِيميٌّ بمعنَى التَّوبةِ، فيَتعيَّنُ أن يُصرَفَ إلى معنًى مُفيدٍ، فيَجوزُ أن يكونَ المُقصودُ هو قَولَه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ فيكونَ كِنايةً عن عظيمِ ثَوابِه. ويَجوزُ أن يكونَ المقصودُ ما في المضارعِ مِنَ الدَّلالةِ على التَّجدُّدِ، أي: فإنَّه يَستمِرُّ على تَوبتِه، ولا يَرتَدُّ على عَقِبَيْهِ؛ فيكونَ وعْدًا مِنَ اللهِ تعالى أن يُثبِّتَه على القَولِ الثَّابتِ إذا كان قد تابَ وأيَّدَ تَوبتَه بالعملِ الصَّالحِ. ويَجوزُ أن يكونَ المقصودُ ما للمفعولِ المُطلَقِ مِن معنَى التَّأكيدِ، أي: مَن تاب وعمِلَ صالحًا فإنَّ تَوبتَه هي التَّوبةُ الكاملةُ الخالِصةُ للهِ[٢].

- وخالَفَ جوابُ الشَّرطِ -وهو ﴿يَتُوبُ﴾- فِعلَ الشَّرطِ -وهو ﴿تَابَ﴾- بمُتعلَّقِه -وهو ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾- ومَعمولِه -وهو ﴿مَتَابًا﴾-، وعُبِّرَ بالمُضارعِ في الجوابِ؛ لِيُفيدَ التَّجدُّدَ باعتِبارِ تجدُّدِ المَثوباتِ للرَّاجعينَ إلى اللهِ[٣].

- وتَنوينُ ﴿مَتَابًا﴾ تَنوينُ تَفخيمٍ وتَعظيمٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٧٧، ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٧٢-٧٧)

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَـٰمًا ﴿٧٥﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾: أي: الدَّرَجةَ الرَّفيعةَ في الجنَّةِ، والغرفةُ: كلُّ بناءٍ عالٍ مرتفعٍ، وأصلُ (غرف): يدُلُّ على رَفعِ الشَّيءِ[1].

﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: أي: ما تَقَرُّ به أعْيُنُنا، قيل: أصلُه مِن القُرِّ، أي: البَردِ، فَقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بَرَدَتْ فصَحَّتْ، وقيل: هو مِن القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللهُ ما تَسكُنُ به عينُه، فلا يطمَحُ إلى غيرِه، وقيل: أقرَّ الله عينَه، أي: أنامَها[2].

﴿وَيُلَقَّوْنَ﴾: أي: يُستقبَلونَ، وتَتَلَقَّاهُم الملائِكةُ، يُقال: تَلَقَّاهُ كذا، أي: لَقِيَه، ولَقِيتُه بكذا: إذا استَقْبلتَه به، وأصلُ (لقي) هنا يدُلُّ على المُلاقاةِ، وتوافِي شيئيْنِ متقابلَيْنِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٩)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٣، ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، =

﴿يَعْبَؤُاْ﴾: أي: يُبالي، وأصلُ (عبأ): يدُلُّ على اجتِماعٍ في ثِقلٍ[١].

﴿لِزَامًا﴾: أي: مُلازِمًا، وقيل: جَزاءً، وقيل: هلاكًا، وأصلُ (لزم): يدُلُّ على مُصاحبةِ الشَّيءِ للشَّيءِ دائِمًا[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومِن صِفةِ عِبادِ الرَّحمنِ أيضًا أنَّهم لا يَحضُرونَ مواضِعَ الباطِلِ، وإذا مرُّوا باللَّغْوِ -مِن غيرِ قَصدٍ منهم- أعرَضوا عنه؛ وهم الذين إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهم لم يُعرِضوا عنها صامِّينَ آذانَهم وعامِينَ عنها، والذين يَدْعونَ رَبَّهم: ربَّنا هَبْ لنا مِن أزواجِنا وذرِّيَّاتِنا ما تَقَرُّ به أعيُنُنا برؤيتِهم على طاعتِك في الدُّنيا، وبدُخولِ جَنَّتِك في الآخرةِ، واجعَلْنا قُدوةً في الخَيرِ للمُتَّقينَ مِن عبادِك؛ فهؤلاء المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ يَجزيهم اللهُ الغُرَفَ العاليةَ في الجِنانِ بسَبَبِ صَبرِهم في الدُّنيا، ويُستقبَلون بالتحيَّةِ والسَّلامِ، ماكثينَ في تلك الغُرَفِ أبدًا، حَسُنَت لهم قرارًا ومُقامًا.

قُلْ -يا محمَّدُ: لولا دعاؤُكم اللهَ تعالى لَما اكتَرَث بكم، فقد كذَّبتُم -أيُّها المُشرِكون- بالحَقِّ، فسوف يكونُ العذابُ مُلازِمًا لكم في الدُّنيا والآخرةِ؛ جزاءَ تكذيبِكم.

---

= ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٥).

(١) ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٦) (ص: ٢٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٦)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ٧٢﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

عَقَّبَ سُبحانه ترْكَهم الزِّنا بالإعراضِ أصلًا عن اللَّغوِ الذي هو أعظَمُ مقَدِّماتِ الزِّنا[1].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَهم سُبحانه بالصِّفاتِ المتقَدِّمةِ الدالَّةِ كلِّها على كَمالِ أخلاقِهم، واستقامةِ أعمالِهم في ظواهرِهم وبواطنِهم بانبِنائِها على قوَّةِ إيمانِهم، وصحَّةِ عِلْمِهم؛ فكانوا أهلَ الحقِّ المتَّصِفين به في عِلْمِهم وعَمَلِهم، القائمينَ عليه في جميعِ أحوالِهم- وَصَفَهم هنا ببُعدِهم عن الباطلِ ومَشاهِدِه، ومجانبتِهم لأهلِه[2].

وأيضًا لَمَّا وَصَفَ سُبحانَه وتعالى عبادَه بأنهم تَحَلَّوا بأصولِ الفضائلِ، وتَخَلَّوا عن أمَّهاتِ الرَّذائلِ، ورَغَّبَ في التَّوبةِ؛ لأنَّ الإنسانَ لِعَجزِه لا يَنفَكُّ عن النَّقصِ- مَدَحَهم بصفةٍ أخرى، وهي الصفةُ المذكورةُ في قَولِه تعالى[3]:

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾.

أي: والذين لا يَحضُرون شَيئًا مِن الباطِلِ، ويجتنبونَ جميعَ المجالِسِ المشتمِلةِ على أقوالٍ أو أفعالٍ محرَّمةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٩)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٤٧٩ - ٤٨٣)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٢٤٤، =

= ١٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

قال ابن عاشور: (فِعلُ «شَهِد» يُستعملُ بمعنى «حضَر»، وهو أصلُ إطلاقِه؛ كقولِه تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويُستعملُ بمعنَى: أخبَر عن شَيءٍ شَهِدَه وعَلِمَه؛ كقولِه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]. والزُّورُ: الباطلُ مِن قَولٍ أو فعلٍ، وقد غلَب على الكذبِ... فيَجوزُ أن يكونَ معنَى الآيةِ: أنَّهم لا يَحضُرونَ مَحاضرَ الباطلِ الَّتي كان يَحضُرُها المشركون، وهي مَجالسُ اللَّهوِ والغِناءِ والغِيبةِ ونَحوِها، وكذلك أعيادُ المشركين وألعابُهم؛ فيكونَ الزُّورُ مفعولًا به لـ﴿يَشۡهَدُونَ﴾. وهذا ثَناءٌ على المؤمنينَ بمُقاطَعةِ المشركينَ وتجنُّبِهم... ويجوزُ أن يكونَ فِعلُ ﴿يَشۡهَدُونَ﴾ بمعنَى الإخبارِ عمَّا عَلِموه، ويكونَ الزُّورُ منصوبًا على نزعِ الخافضِ، أي: لا يَشهَدون بالزُّورِ، أو مفعولًا مُطلقًا لبيانِ نوعِ الشَّهادةِ، أي: لا يَشهدون شهادةً هي زُورٌ لا حقٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨، ٧٩).

وقال ابن الفَرَس: (الزُّورُ: كلُّ الباطلِ، فأعظَمُه: الشِّركُ، وبه فسَّرَ الضحَّاكُ وابنُ زَيدٍ. ومنه: الغِناءُ، وبه فسَّر مجاهِدٌ. ومنه: الكذِبُ، وبه فسَّر ابنُ جُرَيجٍ. و﴿يَشۡهَدُونَ﴾ على القولينِ الأوَّلينِ مِنَ المُشاهَدةِ، وعلى القولِ الثالثِ مِنَ الشَّهادةِ لا مِن المشاهَدةِ، فالمُرادُ: الشَّهادةُ بالزُّورِ، وهو قولُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ وغيرِه). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٠٠). ويُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّورِ: الشِّركُ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ أبي زمنين، والسمعانيُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣١٩).

ونسَبَ الواحديُّ هذا القولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) (١٦/ ٦٠١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّورِ: الكذِبُ: أي: لا يَشهدون بالزُّورِ أو شهادةَ الزُّورِ: ابنُ جُزي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٢).

قال ابن تيميَّةَ: (قال قومٌ: إنَّ المُرادَ: شَهادةُ الزُّورِ الَّتي هي الكذبُ، وهذا فيه نظَرٌ؛ فإنَّه تعالى قال: ﴿لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، ولم يقُلْ: لا يَشهدون بالزُّورِ. والعربُ تقولُ: شهِدتُ كذا: إذا حضَرْتَه... وأمَّا: شَهِدتُ بكذا، فمعناه: أخبرتُ به). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٤٨٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: لا يَشهدون شَيئًا مِن الباطلِ؛ لا شِركًا، ولا غِناءً، ولا كَذِبًا ولا غيرَه مِن الباطلِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٧٩)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

وعن أبي بكْرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ألَا أُنَبِّئُكم بأكبَرِ الكبائِرِ -ثلاثًا-؟ الإشراكُ باللهِ، وعُقوقُ الوالِدَينِ، وشَهادةُ الزُّورِ أو قَولُ الزُّورِ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مُتَّكِئًا فجلَسَ، فما زال يُكَرِّرها حتَّى قُلْنا: لَيْتَهُ سَكَت))(١).

﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

لَمَّا نفَى عنهم سبحانَه -فيما تَقَدَّمَ- حضورَ مَشاهِدِ الزُّورِ؛ أخبرَ هنا أنَّهم لا يَقِفون عندَ اللَّغوِ عندَما يَمُرُّون عليه؛ تَرَقِّيًا في وصْفِهم بالبُعدِ عن الباطلِ والإثمِ

---

= الثعالبي)) (٤/ ٢٢٠).

قال السعدي: (أي: لا يحضُرون الزُّورَ، أي: القولَ والفِعلَ المحَرَّمَ، فيجتنبون جميعَ المَجالسِ المشتَمِلةِ على الأقوالِ المحرَّمةِ أو الأفعالِ المحرَّمةِ... وإذا كانوا لا يَشهَدون الزُّورَ فمِن بابِ أَولى وأَحرى ألَّا يقولوه ويفعلوه، وشهادةُ الزُّورِ داخلةٌ في قَولِ الزورِ، تدخُلُ في هذه الآيةِ بالأولويَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨، ٧٩).

وقال ابن عثيمين: (فالزُّورُ: كُلُّ مَيلٍ قوليٍّ أو فعليٍّ؛ إن كان قولًا وُصِف بالكَذِب، وإن كان فِعلًا وُصِف بالباطِلِ. فكلُّ قولٍ أو فعلٍ مائلٍ عن الطريقِ فإنَّه زورٌ؛ فالكَذِبُ زورٌ، والشَّتمُ واللَّعنُ والغِيبةُ زورٌ أيضًا، والغَصبُ والسَّرِقةُ والزِّنا وغيرُ ذلك: زورٌ أيضًا، لكن قد نُسَمِّيه باطلًا إذا كان فِعلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١٥).

وقال السيوطي: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ هو شامِلٌ لكُلِّ باطلٍ؛ فمِنه الشِّركُ، وبه فسَّره الضحَّاكُ، واللَّهوُ والغناءُ، وبه فسَّر ابنُ الحنفيَّةِ، والكَذِبُ، وبه فسَّر قَتادةُ، والنِّياحةُ، وبه فسَّر الحسَنُ). ((الإكليل)) (ص: ١٩٨).

(١) رواه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (٨٧) واللفظ له.

والعبثِ، ومجانبةِ أهلِه[١].

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

أي: وإذا صادَف أنْ مَرُّوا باللَّغوِ[٢] فسَمِعوه أو رَأَوْهُ -مِن غَيرِ قَصدٍ منهم-،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٢).

(٢) قال السعدي: (﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلامُ الذي لا خيرَ فيه، ولا فيه فائدةٌ دينيَّةٌ ولا دنيويَّةٌ؛ ككلامِ السفهاءِ ونحوِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٩).

وقال ابن جُزي: (اللَّغوُ: هو الكلامُ القبيحُ على اختِلافِ أنواعِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧).

وقال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ اللَّغوُ الصوابُ أنَّه ليس الكلامَ القبيحَ؛ لأنَّ الكلامَ القبيحَ داخِلٌ في الزُّورِ، لكنِ المُرادُ باللَّغوِ: ما لا فائدةَ فيه، فكلُّ ما لا فائدةَ فيه فهو لَغْوٌ؛ وذلك لأنَّه لا يُقصَدُ، وما لا يُقصدُ فهو لَغْوٌ، ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩]، فاللَّغوُ ما لا فائدةَ فيه؛ سواءٌ كان قولًا أو فعلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١٦).

وقيل في معنى اللَّغوِ أيضًا: هو ما كان المشركونَ يَقولونَه للمؤمنينَ، ويُكَلِّمونَهم به مِن الأذَى، وقيل: اللَّغوُ هو ما كان المشركونَ فيه مِن الباطِلِ، وقيل: هو المعاصي كُلُّها... إلى غيرِ ذلك.

قال ابنُ جريرٍ بعْدَ أن ذكَر الخلافَ في معنَى اللَّغوِ: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ أخبَرَ عن هؤلاءِ المؤمنينَ الَّذينَ مَدَحهم بأنَّهم إذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كرامًا، واللَّغوُ في كلامِ العربِ هو كُلُّ كلامٍ أو فِعلٍ باطلٍ لا حقيقةَ له ولا أصلَ، أو ما يُستقبَحُ... فلا وجْهَ إذْ كان كلُّ ذلك يَلْزَمُه اسمُ اللَّغْوِ أن يُقالَ: عُنيَ به بعضُ ذلك دونَ بعضٍ، إذ لم يَكُنْ لخصوصِ ذلك دَلالةٌ مِن خبرٍ أو عقلٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٣- ٥٢٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ اللَّغوَ: كلُّ ما يَنبغي أن يُلغى ويُطَّرَحَ، وكلُّ سَقَطٍ مِن قولٍ أو فعلٍ: الزجَّاجُ، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ الفَرَس، والرازيُّ، والقرطبيُّ، والبيضاويُّ، والنسفيُّ، والخازنُ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٤).

أعرَضوا عنه، وأكرَموا أنفُسَهم عن الخَوضِ والمشاركةِ فيه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥].

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَهم سبحانَه -فيما تَقَدَّمَ- بإعراضِهم عن الباطلِ، ومجانبتِهم لأهلِه، وبُعْدِهم عنه؛ وَصَفَهم هنا بإقبالِهم على الحقِّ، وإكبابِهم عليه، متفهِّمِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٠، ٨١)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٧٩).

قال الرسعني: (﴿ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ أي: مرُّوا مرَّ الكرماءِ، مُعرضينَ عنهم، مُكرمينَ أنفسَهم عن التوقُّفِ عليهم، والخوضِ معهم؛ كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [القصص: ٥٥]). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٥٨).

وقال البقاعي: (﴿ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ أي: آمِرينَ بالمعروفِ، ناهينَ عن المنكَرِ -إن تعلَّقَ بهم أمرٌ أو نهيٌ- بإشارةٍ أو عبارةٍ، على حسَبِ ما يَرَونَه نافعًا، أو مُعرِضينَ إن كان لا يصلُحُ شَيءٌ من ذلك؛ لإثارةِ مَفسدةٍ أعظَمَ مِن ذلك أو نحوِه؛ رحمةً لأنفُسِهم وغيرِهم). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٣٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣١٦، ٣١٧).

وقال ابن جرير: (فتأويلُ الكلامِ: وإذا مَرُّوا بالباطِلِ فسَمِعوه أو رَأَوْه، مَرُّوا كِرامًا؛ مُرورُهم كِرامًا في بعضِ ذلك بأنْ لا يَسْمَعوه، وذلك كالغناءِ. وفي بعضِ ذلك بأنْ يُعْرِضوا عنه ويصفحُوا، وذلك إذا أُوذُوا بإسماعِ القبيحِ مِن القولِ. وفي بعضِه بأنْ يَنْهَوْا عن ذلك، وذلك بأنْ يَرَوْا مِن المُنكَرِ ما يُغَيَّرُ بالقولِ فيُغَيِّرُوه بالقولِ، وفي بعضِه بأنْ يُضارِبوا عليه بالسُّيوفِ، وذلك بأنْ يَرَوْا قومًا يَقْطَعونَ الطَّريقَ على قومٍ، فيَستَصْرِخُهم المُرادُ ذلك منهم، فيُصْرِخونَهم، وكلُّ ذلك مُرورُهم كِرامًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٥).

مُستبصِرِينَ[١].

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ٧٣﴾.

أي: والذين إذا ذكَّرَهم مُذَكِّرٌ بآياتِ رَبِّهم[٢]، لم يُقابِلوها بالإعراضِ عنها، والصَّمَمِ عن سَماعِها، وصَرفِ النَّظَرِ والقلوبِ عنها، كالكُفَّارِ الذين إن ذُكِّروا بها أنكَروا وكَذَّبوا، وأقاموا على كُفرِهم، كأنَّهم لا يَسمَعونَ ولا يُبصِرونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٣).

(٢) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: القرآنُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زمنين، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والنسفيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥١).

وقيل: المرادُ بها: عمومُ الآياتِ، شَرعيَّةً كانت أو كونيَّةً. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٢).

وقال الشوكاني: (﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بالقرآنِ، أو بما فيه موعظةٌ وعِبرةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٠، ٨١).

قال الزمخشري: (﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ ليس بنَفيٍ للخُرورِ، وإنَّما هو إثباتٌ له، ونَفيٌ للصَّمَمِ والعَمَى، كما تقولُ: لا يَلقاني زيدٌ مُسَلِّمًا، هو نَفيٌ للسَّلامِ لا للِّقاءِ. والمعنى: أنَّهم إذا ذُكِّرُوا بها أكَبُّوا عليها حِرصًا على استِماعِها، وأقبَلوا على المُذَكِّرِ بها، وهُم في إكبابِهم عليها سامِعون بآذانٍ واعيةٍ، مُبصِرونَ بعُيونٍ راعيةٍ، لا كالذين يُذَكَّرونَ بها فتراهم مُكِبِّينَ عليها مُقبِلينَ على مَن يُذَكِّرُ بها، مُظهِرينَ الحِرصَ الشَّديدَ على استِماعِها، وهم كالصُّمِّ العُميانِ؛ حيث لا يَعُونَها، ولا يَتَبَصَّرونَ ما فيها، كالمُنافِقينَ وأشباهِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٥).

وقال ابن عطية: (قولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ يحتَمِلُ تأويلينِ:

أحدُهما: أن يكونَ المعنى: لم يكُنْ خرورُهم بهذه الصِّفةِ، بل يكون سُجَّدًا وبُكِيًّا، وهذا كما تقولُ: لم يخرجْ زيدٌ للحربِ جَزِعًا، أي: إنما خرَج جريئًا مُقْدِمًا. وكأنَّ الذي يَخِرُّ أصَمَّ =

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [السجدة: ١٥].

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا وَصَفَهم سبحانه في الآياتِ المتقدِّمةِ بما دلَّ على أنَّهم أهلُ خَيرٍ وكمالٍ في أنفُسِهم؛ وَصَفَهم في هذه بما دلَّ على محبَّتِهم الخَيرَ والكمالَ لغَيرِهم مِن قرابتِهم: أزواجِهم، وذُرِّيَّتِهم، ومَن سِواهم[1].

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

أي: والذين يَدْعُونَ اللهَ قائلينَ: ربَّنا أصلِحْ أزواجَنا وأولادَنا وأحفادَنا، فنُسَرَّ في الدُّنيا برُؤيتِهم على طاعتِك، وفي الآخرةِ بدُخولِ جَنَّتِك[2].

---

= وأعمى هو المنافِقُ أو الشاكُّ.

والتأويلُ الثاني ذهب إليه الطبريُّ، وهو: أنَّ ﴿لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ هي صِفةٌ للكافِرِ، وهي عبارةٌ عن إعراضِهم وجهدِهم في ذلك، وقَرَنَ ذلك بقَولِه: قعَد فلان يشتُمُني، وقام فلانٌ يبكي، وأنت لم تَقصدِ الإخبارَ بقعودٍ ولا قيامٍ، وإنما هي توطئاتٌ في الكلامِ والعبارةِ. ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٨).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ الخرورُ واقِعًا منهم أو مِن بَعضِهم حقيقةً؛ لأنَّهم يكونون جلوسًا في مجتمعاتِهم ونَواديهم، فإذا دعاهم الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الإسلامِ طأطؤوا رؤوسَهم وقَرَّبوها مِن الأرض؛ لأنَّ ذلك للقاعد يقومُ مقامَ الفرارِ، أو سَترِ الوجهِ... وقريبٌ مِن هذا المعنى قولُه تعالى حكايةً في سورة نوح: ﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا﴾ [نوح: ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٠، ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير =

﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

أي: واجعَلْنا قُدوةً للذين يمتَثِلونَ أوامِرَك، ويجتَنِبونَ نواهيَك، فيَقتَدون بنا في الخَيرِ[1].

---

= البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٢).

قال ابن العربي: (معناه: أنَّ النفوسَ تتمنَّى، والعيونَ تمتدُّ إلى ما ترى مِن الأزواجِ والذُّرِّيَّةِ، حتى إذا كانت عندَه زوجةٌ اجتمعت له فيها أمانيه مِن جمالٍ وعِفَّةٍ ونظَرٍ وحَوطةٍ، أو كانت عندَه ذريَّته محافِظينَ على الطاعة، معاوِنينَ له على وظائفِ الدِّينِ والدُّنيا؛ لم يلتَفِتْ إلى زوجِ أحدٍ، ولا إلى ولَدِه؛ فتسكُنُ عينُه عن الملاحظةِ، وتزولُ نفْسُه عن التعلُّقِ بغيرِها؛ فذلك حينَ قُرَّةِ العَينِ، وسُكونِ النَّفسِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٥٥، ٤٥٦). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٢).

لكن قال الرازي: (لا شُبْهَةَ أنَّ المرادَ أنْ يكونَ قُرَّةَ أعينٍ لهم في الدِّينِ لا في الأمورِ الدُّنيويَّةِ مِن المالِ والجمالِ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٦).

وقال الزمخشري: (﴿مِنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا﴾ ... يحتمِلُ أن تكونَ بيانيَّةً... وأن تكونَ ابتدائيَّةً). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦).

وقال أبو حيان: (قُرَّةُ العينِ فيمَنْ ذكروا رُؤْيَتُهم مُطيعينَ لِلَّهِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٢).

وقال الرازي: (فيه وجهان؛ أحدُهما: أنَّهم سألوا أزواجًا وذرِّيَّةً في الدُّنيا يُشارِكونهم، فأحَبُّوا أن يكونوا معهم في التمسُّكِ بطاعةِ الله، فيَقْوى طمَعُهم في أن يَحصُلوا معهم في الجنَّةِ؛ فيَتكامَلَ سرورُهم في الدُّنيا بهذا الطمعِ، وفي الآخرةِ عندَ حصولِ الثَّوابِ. والثَّاني: أنَّهم سألوا أن يُلحِقَ اللهُ أزواجَهم وذريَّتَهم بهم في الجنَّةِ؛ لِيَتِمَّ سرورُهم بهم). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٦، ٤٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

ممَّن اختار أنَّ معنى قولِه: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أي: يَقتدون بنا في الدِّينِ، ويأتمون بنا في الخَيرِ: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابن جزي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير البغوي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾.

---

= (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٤).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، والربيعُ بنُ أنسٍ: أئمَّةً يُقتدى بنا في الخيرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

قال السعدي: (من المعلومِ أنَّ الدُّعاءَ بحُصولِ شَيءٍ: دُعاءٌ به وبما لا يَتِمُّ إلَّا به، وهذه الدَّرَجةُ دَرَجةُ الإمامةِ في الدِّينِ التي لا تَتِمُّ إلَّا بالصَّبرِ واليَقينِ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فهذا الدُّعاءُ يَستلزِمُ مِن حُصولِ الأعمالِ الصَّالحةِ، والصَّبرِ على طاعةِ الله، وعن معصيتِه، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، ومن العِلمِ النَّافِعِ التامِّ الرَّاسخِ الذي يُوصِلُ صاحِبَه إلى درجةِ اليَقينِ- خَيرًا كثيرًا، وعَطاءً جزيلًا). ((تيسير اللطيف المنان)) (ص: ٦٧).

وقيل: معنى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾: نأتَمُّ بهم، ويأتَمُّ بنا مَن بَعْدَنا. وممَّن قال به مِن السلَفِ: مجاهدٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦).

وعن مجاهدٍ -في روايةٍ أخرى-، قال: (اجعَلْنا مؤتَمِّينَ بهم، مُقتَدينَ بهم). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٢).

قال ابنُ القيِّمِ عن تفسير مجاهدٍ المذكورِ: (أَشكَلَ هذا التفسيرُ على مَن لم يَعرِفْ قَدْرَ فَهمِ السلَفِ وعُمقَ عِلمِهم، وقال: يجبُ أن تكونَ الآيةُ على هذا القولِ مِن بابِ المقلوبِ، على تقديرِ: واجعَلِ المتَّقينَ لنا أئمَّةً، ومَعاذَ اللهِ أن يكونَ شَيءٌ مقلوبًا على وَجهِه! وهذا مِن تمامِ فَهمِ مجاهدٍ رحمه الله؛ فإنَّه لا يكونُ الرجُلُ إمامًا للمتَّقينَ حتى يأتَمَّ بالمتَّقينَ، فنَبَّهَ مجاهدٌ على هذا الوجهِ الَّذي يَنالون به هذا المطلوبَ، وهو اقتِداؤُهم بالسلَفِ المتَّقينَ مِن قَبْلِهم، فيَجعَلُهم الله أئمَّةً للمتَّقينَ مِن بَعدِهم. وهذا مِن أحسَنِ الفَهمِ في القرآنِ وألطَفِه، ليس مِن باب القلبِ في شَيءٍ، فمَنِ ائتَمَّ بأهلِ السنَّةِ قبْلَه، ائتَمَّ به مَن بعْدَه ومَن معه). ((رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه)) (ص: ١٢، ١٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا عَدَّدَ سُبحانَه صِفاتِ المتَّقينَ المخلِصينَ؛ بَيَّنَ بعْدَ ذلك أنواعَ إحسانِه إليهم، وهي مجموعةٌ في أمْرينِ: المنافعِ، والتَّعظيمِ؛ فالمنافِعُ في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾، والتعظيمُ في قَولِه تعالى: ﴿وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا﴾[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

أي: عِبادُ الرَّحمنِ المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ يُثيبُهم اللهُ الغُرَفَ العاليةَ في الجنَّةِ[2]؛ بسبَبِ صَبرِهم في الدُّنيا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٧).

(٢) قيل: الغرفةُ: المنزلةُ الرَّفيعةُ، والدرجةُ العاليةُ في الجنَّةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ، وجلال الدين المحليُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٦).

وقال الزمخشري: (المرادُ: يُجزَونَ الغُرُفاتِ، وهي العَلاليُّ في الجنَّةِ، فوَحَّدَ اقتِصارًا على الواحدِ الدالِّ على الجنسِ، والدَّليلُ على ذلك قولُه: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٢).

وقال الشنقيطي: (الظاهرُ أنَّ المرادَ بالغُرفةِ في هذه الآية الكريمةِ جِنسُها الصادِقُ بغُرَفٍ كثيرةٍ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨١).

وقيل: هي الجنَّةُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثيرٍ، وقال: (قال أبو جَعفرٍ الباقِرُ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ: سُمِّيَتْ بذلك؛ لارتِفاعِها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ﴾ فيها وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ الغُرفةَ الجنَّةُ، قاله الضحَّاكُ. الثَّاني: أنَّها أعلى مَنازِلِ الجنَّةِ وأفضَلُها، كما أنَّ الغُرفةَ أعلى مَنازِلِ الدُّنيا). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان المَنزِلُ لا يَطيبُ إلَّا بالكرامةِ والسَّلامةِ؛ قال تعالى(١):

﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾.

أي: ويُستقبَلُ عِبادُ الرَّحمنِ في الغُرَفِ بالتحيَّةِ والسَّلامِ عليهم(٢).

---

= كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨١).

قال القرطبي: (﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ خبرُ «عِبَادُ الرَّحْمَنِ»... وما تخلَّل بيْن المبتدأِ وخبَرِه أوصافُهم مِن التحلِّي والتخلِّي، وهي إحدى عَشْرةَ: التواضُعُ، والحِلمُ، والتهجُّدُ، والخوفُ، وتركُ الإسرافِ والإقتارِ، والنزاهةُ عن الشِّركِ والزِّنا والقتلِ، والتوبةُ، وتجنُّبُ الكَذِب، والعفوُ عن المسيءِ، وقَبولُ المواعظ، والابتهالُ إلى الله). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

قال البغوي: (وقوله: ﴿تَحِيَّةً﴾، أي: مُلْكًا. وقيل: بقاءً دائمًا، ﴿وَسَلَٰمًا﴾ أي: يُسلِّمُ بعضُهم على بعضٍ. وقال الكَلْبيُّ: يُحيِّي بعضُهم بعضًا بالسلامِ، ويُرسِلُ الرَّبُّ إليهم بالسَّلامِ. وقيل: سلامًا: أي سلامةً مِنَ الآفاتِ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٠).

وقال البقاعي: (﴿فِيهَا تَحِيَّةً﴾ أي: دُعاءً بالحياةِ مِن بعضِهم لبعضٍ، ومِن الملائكةِ الذين لا يُرَدُّ دعاؤُهم، ولا يُمترَى في إخبارِهم؛ لأنَّهم عن الله يَنطِقون، وذلك على وجهِ الإكرامِ والإعظامِ مكانَ ما أهانهم عبادُ الشيطان. ﴿وَسَلَٰمًا﴾ أي: مِن الله، ومِن الملائكة وغيرِهم، وسلامةً مِن كلِّ آفةٍ مكانَ ما أصابوهم بالمصائبِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٣٧).

وقال السعدي: (﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ مِن رَبِّهم، ومِن ملائكتِه الكرامِ، ومِن بعضٍ على بعضٍ، ويَسلَمونَ مِن جميعِ المنغِّصاتِ والمكدِّراتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

وقال ابنُ عثيمين: (قولُه: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ هل هما مُترادِفان أو مُتغايران؟ =

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا وَعَدَ سُبحانَه بالمنافِعِ أولًا، وبالتَّعظيمِ ثانيًا؛ بيَّنَ أنَّ مِن صفتِهما الدَّوامَ[1].

وأيضًا لَمَّا كان ما سبَقَ ناطِقًا بدوامِ حياتِهم، سالِمِين بصَريحِه، وبعَظيمِ شَرَفِهم بلازِمِه؛ دلَّ على أنَّهم لا يَبرَحون عنه، بقَولِه[2]:

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

---

= التحيَّةُ أعمُّ؛ فكُلُّ سَلامٍ تحيَّةٌ، ثم أيضًا التحيَّةُ كما تكونُ بالقَولِ تكونُ بالفعلِ؛ ولهذا يُقالُ: حيَّاه بالتُّحَفِ وبطِيبِ المنزلِ، وما أشبَهَ ذلك. قولُه: ﴿تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ يعني: أنَّهم يُلَقَّونَ بالتحيَّةِ قولًا، وبالسلامةِ بقاءً، يعني: يبقَونَ سالمينَ، وهذه المعاني ثابتةٌ بالنِّسبةِ لأهلِ الجنةِ؛ فإنَّهم يُحَيَّون بأنواعِ التحياتِ المَرْضيَّةِ المُفرِحةِ المسِرَّةِ، وكذلك أيضًا يَسلَمونَ من كلِّ الآفاتِ... يُحيِّي بعضُهم بعضًا، ويحَيِّيهم الله سبحانه وتعالى، وكذلك الملائكةُ. ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣٧).

أي: ماكِثِينَ في الغُرَفِ، لا يموتونَ، ولا يُخرَجونَ منها[١].

﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾.

أي: حَسُنَت تلك الغُرَفُ قرارًا لأهلِها، ومكانَ إقامةٍ لهم[٢].

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا استَوعبتِ السورةُ أغراضَ التَّنويهِ بالرِّسالةِ والقرآنِ، وما تضمَّنَتْه مِن توحيدِ اللهِ، ومِن صفةِ كبرياءِ المعانِدِين وتعلُّلاتِهم، وأحوالِ المؤمنين، وأُقيمتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٦).

قال أبو منصور: (﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾): تأويلُه -واللهُ أعلم- أي: حَسُنت لهم الجنَّةُ مُستقرًّا ومُقامًا؛ حتى لا يَمَلُّوا فيها ولا يَسْأموا، ولا تأخُذَهم الوحشةُ والكآبةُ؛ كنَعيمِ الدُّنيا يُمَلُّ ويُسأَمُ عندَ الكثرةِ وطُولِ المُقامِ). ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٧).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي: حسُنت منظرًا، وطابت مَقِيلًا ومَنزِلًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٣).

وقال القاسمي: (﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾؛ لسَلامةِ أهلِها عن الآفاتِ، وخلودِهم أبَدَ الآبادِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٤٦).

وقال ابن عثيمين: (المستَقَرُّ باعتِبارِ المكانِ، والمُقامُ باعتبارِ ما يحصُلُ لهم مِن النعيمِ والسرورِ والتحيَّةِ وغيرِ ذلك، تقولُ: مُقامي فيكم سرورٌ، أو مُقامي في هذا المكان حُزنٌ، أو ما أشبَهَ ذلك. ويمكنُ أيضًا أن يُقالَ: المقامُ بالنِّسبةِ للزمنِ، يعني: أنَّ الله أثنى عليها مكانًا وزمنًا، وكَوْنُنا نُحاوِلُ أن يكونَ بينَ اللفظينِ تغايرٌ أَولى مِن الترادُفِ؛ لأنَّنا إذا قُلْنا بالترادُفِ في هذا وغيرِه صار في المسألةِ تَكرارٌ، والأصلُ عدمُ التَّكرارِ؛ فحاوِلْ ما استطعْتَ أن تجعلَ اللَّفظينِ متغايرينِ إذا أمكَنَ في كلِّ آيةٍ في آياتِ القرآنِ، وغيرِ القرآنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤١، ٣٤٢).

الحُجَجُ الدامغةُ للمعرِضِينَ؛ خُتِمَتْ بأمرِ اللهِ رسولَه عليه الصلاةُ والسلامُ أنْ يُخاطِبَ المشركينَ بكلمةٍ جامعةٍ يُزالُ بها غرورُهم وإعجابُهم بأنفُسِهم؛ فبَيَّنَ لهم حقارتَهم عندَ اللهِ تعالى، وأنَّه ما بَعَثَ إليهم رسولَه وخاطبَهم بكتابه إلَّا رحمةً منه بهم لإصلاحِ حالِهم، وقطعًا لعُذْرِهم، فإذا كذَّبوا فسوف يَحُلُّ بهم العذابُ[1].

وأيضًا لَمَّا كان اللهُ تعالى قد أضاف هؤلاءِ العِبادَ إلى رحمتِه، واختَصَّهم بعبوديَّتِه لِشرَفِهم وفَضلِهم؛ رُبَّما توهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّه: وأيضًا غيرُهم لِمَ لا يدخُلُ في العبوديَّةِ؟! فأخبَر تعالى أنَّه لا يُبالي ولا يَعبَأُ بغيرِ هؤلاء، وأنَّه لولا دعاؤُكم إيَّاه دُعاءَ العبادةِ ودُعاءَ المسألةِ، ما عبأَ بكم ولا أحَبَّكم، فقال[2]:

﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمَن أُرسِلتَ إليهم: لولا دُعاؤُكم إيَّاه لَمَا بالى، ولا اكتَرَث بكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨) و (٢٧/ ٤٣٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

قال الشنقيطي: (العُلماءُ اختلَفوا في المصدَرِ في قَولِه: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾: هل هو مُضافٌ إلى فاعِلِه، أو إلى مَفعولِه، وعلى أنَّه مُضافٌ إلى فاعِلِه فالمخاطَبونَ بالآيةِ داعُونَ لا مَدْعُوُّونَ، أي: ما يَعبَأُ بكم ربِّي لولا دعاؤُكم، أي: عبادتُكم له. وأمَّا على أنَّ المصدرَ مُضافٌ إلى مَفعولِه فالمُخاطَبونَ بالآيةِ مَدْعُوُّونَ لا داعُونَ، أي: ما يَعبَأُ بكم لولا دعاؤُه إيَّاكم إلى توحيدِه وعبادتِه على ألْسِنَةِ رُسُلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨١). =

= وممَّن اختار أنَّ المصدرَ مُضافٌ إلى فاعِلِه، أي: لولا أنَّكم تَدْعونَه: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وأبو السعود، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٥، ٥٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨) و (٢٧/ ٤٣٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

قال الشنقيطي: (أشهَرُ الأقوالِ وأكثَرُها قائِلًا، وهو أنَّ المعنى: لولا دعاؤُكم، أي: عبادتُكم له وحْدَه ... واعلَمْ أنَّ قَولَ مَن قال: لولا دعاؤُكم، أي: دعاؤُكم إيَّاي لأغفِرَ لكم، وأُعطيَكم ما سألتُم: راجِعٌ إلى القَولِ الأوَّلِ؛ لأنَّ دُعاءَ المسألةِ داخِلٌ في العبادةِ، كما هو معلومٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٣).

وقال ابنُ القيم في قولِه تعالى: ﴿دُعَآؤُكُمْ﴾: (المرادُ به نوعَا الدُّعاءِ، وهو في دُعاءِ العبادَةِ أظهرُ، أي: ما يَعْبَأُ بكم لولا أنَّكم تَعبدونه، وعِبادَتُه تَستلْزِمُ مسألَتَه؛ فالنَّوعانِ داخِلانِ فيه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٢).

وقال السعدي: (﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ إيَّاه دعاءَ العبادةِ، ودعاءَ المسألةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨).

وقال الشنقيطي: (وعلى هذا القولِ فالخِطابُ عامٌّ للكافرينَ والمؤمنينَ، ثُمَّ أفرَد الكافرينَ دونَ المؤمِنِينَ بقولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ ...﴾ الآيةَ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٢).

وذكَر الشنقيطي قولينِ آخَرينِ مبنيَّينِ أيضًا على كونِ المصدرِ مُضافًا إلى فاعلِه:

الأول: أنَّ المعنَى: لولا دُعاؤُكم أيُّها الكفَّارُ له وحْدَه عندَ الشَّدائدِ والكروبِ، أي: ولو كنتُم تَرجِعونَ إلى شِرْكِكم، إذا كَشَف الضُّرَّ عنكم.

وممَّن اختار هذا المعنى، وهو أنَّ الخطابَ للمشركينَ، وأنَّ المرادَ دعاؤُهم عندَ الشدائدِ: جلال الدين المحليُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٥).

الثاني: أنَّ معنَى ﴿مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى﴾، أي: ما يصنَعُ بعذابِكم، لولا دُعاؤُكم معه آلِهةً أُخرى.

وقال عن هذا القولِ الأخيرِ: (ولا يخفَى بُعْدُ هذا القولِ، وأنَّ فيه تقديرَ ما لا دليلَ عليه، ولا حاجةَ إليه). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٢).

وقيل: إنَّ المصدرَ في قولِه: ﴿دُعَآؤُكُمْ﴾ مُضافٌ إلى مفعولِه، فالمخاطَبونَ بالآيةِ مَدعُوُّونَ، فالمعنى: ما يصنَعُ بكم ربِّي لولا دعاؤُه إيَّاكم إلى الإيمانِ به وتوحيدِه وعبادتِه. وممَّن قال =

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾.

أي: فقد كذَّبتُم -أيُّها المُشرِكونَ- بالحَقِّ، فسوف يكونُ العذابُ مُلازِمًا لكم في الدُّنيا والآخرةِ؛ جزاءَ تكذيبِكم(١).

---

= بذلك: الفرَّاءُ، وابنُ العربي، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٧٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨١ - ٨٥).

وقال البقاعي: (أي: أيُّها الكافِرون... ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ أي: نداؤُكم له في وقتِ شدائدِكم الذي أنتم تبادِرونَ إليه فيه؛ خضوعًا له به ليُنجيَكم، فإذا فعلتُم ذلك أنقَذكم مما أنتم فيه؛ معاملةً لكم معاملةَ مَن يبالي بالإنسانِ، ويعتدُّ به ويُراعيه، ولولا دعاؤُه إيَّاكم لتَعبُدوه؛ رحمةً لكم؛ لِتَزْكُوا أنفسُكم، وتَصْفوا أعمالُكم، ولا تكونوا حطبًا للنارِ). ((نظم الدرر)) (١٣/ ٤٣٨).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٤، ٣٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٥، ٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٤).

قال ابن جُزي: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: سوف يكونُ العذابُ لِزامًا ثابتًا، وأضمَرَ العَذابَ، وهو اسمُ كان؛ لأنَّه جزاءُ التَّكذيبِ المتقَدِّمِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧).

وقال البيضاوي: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يكونُ جزاءُ التَّكذيبِ لازِمًا يَحيقُ بكم لا محالةَ، أو أثَرُه لازِمًا بكم حتى يَكُبَّكم في النَّارِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢).

وقال ابنُ جرير: (يكونُ تَكذيبُكم رَسولَ رَبِّكم، وخِلافُكم أمرَ بارِئِكم: عَذابًا لكم مُلازِمًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٣٧).

وقال القرطبي: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: يكونُ تكذيبُكم مُلازِمًا لكم. والمعنى: فسوف يكونُ جزاءُ التَّكذيبِ... وحَسُنَ إضمارُ التكذيبِ؛ لتقَدُّمِ ذِكرِ فِعلِه؛ لأنَّك إذا ذكَرْتَ الفِعلَ دَلَّ بلَفظِه على مَصْدَرِه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٥).

وقال ابنُ جُزي: (واختُلِفَ: هل يُرادُ بالعَذابِ هنا القَتلُ يومَ بَدرٍ، أو عذابُ الآخرةِ؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٨٧).

وقال القرطبي: (جمهورُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ باللِّزامِ هنا: ما نَزَل بهم يومَ بَدرٍ، وهو قَولُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ، وأُبَيِّ بنِ كَعبٍ، وأبي مالِكٍ، ومجاهِدٍ، ومُقاتِلٍ، وغَيرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٥). =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: (خمسٌ قد مَضَيْنَ: الدُّخَانُ، والقَمَرُ، والرُّومُ، والبَطشةُ، واللِّزامُ[1] ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾)[2].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ ولم يَقُلْ: بالزُّورِ؛ لأنَّ ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بمعنى: «يَحضُرونَ»، فمدَحَهم على تَركِ حُضورِ مجالسِ الزُّورِ، فكيف بالتكلُّم به وفِعلِه[3]؟!

٢- لا يجوزُ الاستِماعُ إلى الكلامِ الفاحشِ؛ لأنَّ اللهَ وصَفَ عِبادَ الرحمنِ، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾، فكلُّ شيءٍ حرامٍ لا تستمِعْ إليه، ولا تقرَأْه[4].

٣- بعْدَما ذكَرَ تعالى مِن صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ ما ذكَرَ، ذكَرَ استماعَهم للتَّذكيرِ،

---

= وقال ابنُ كثير: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ أي: فسوف يكونُ تكذيبُكم لِزامًا لكم، يعني: مُقتَضِيًا لهلاكِكم وعَذابِكم ودَمارِكم في الدُّنيا والآخِرةِ، ويَدخُلُ في ذلك يومُ بَدرٍ، كما فَسَّره بذلك عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ، وأُبَيُّ بنُ كَعبٍ، ومحمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظيُّ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُهم. وقال الحَسَنُ البَصريُّ: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ يعني: يومَ القيامةِ. ولا مُنافاةَ بَينَهما). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٤).

(١) الدُّخانُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠].

والقَمَرُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

والرُّومُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ١، ٢].

والبَطْشةُ: المشارُ إليها في قَولِه جَلَّ وعَلَا: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [الدخان: ١٦]، وهو القَتلُ يومَ بَدرٍ.

واللِّزامُ: المشارُ إليه في قَولِه تعالى: (﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾). قيل: يَدخُلُ في ذلك يومُ بَدرٍ. وقيل: يعني: يَومَ القيامةِ؛ لأنَّه لتحقُّقِ وقوعِه عُدَّ ماضيًا. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ٢٧٧).

(٢) رواه البخاري (٤٧٦٧) واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٨).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ١٦٨).

فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾؛ تنبيهًا على أنَّ التَّذكيرَ مُحتاجٌ إليه في كلِّ حالٍ، فإذا كان الموصوفونَ بتلك الصِّفاتِ يَحتاجون إليه فغيرُهم أَولى؛ وذلك لأنَّ الغفلةَ مِن طَبْعِ الإنسانِ، ودوامُ الغفلةِ صدَأُ القلوبِ، وصِقالُها هو التَّذكيرُ[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ كما تُقْبَلُ كلمةُ الحقِّ مِن كلِّ قائلٍ، كذلك يُقْبَلُ التذكيرُ مِن كلِّ مُذَكِّرٍ، ولو كان المذكَّرُ مِن أكملِ العِبادِ، والمذكِّرُ مِن أوساطِهم أو أدناهم، وفي عِبادِ الرحمنِ المذكورِينَ؛ في استِماعِهم إذا ذُكِّروا مِن أيِّ مُذَكِّرٍ: القدوةُ الحسنةُ[2].

٥- قَولُه تعالى: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ فيه تقبيحٌ لعدَمِ التفهُّمِ والتدبُّرِ للآياتِ، وتحذيرٌ منه، وتنبيهٌ على أنَّ الانتِفاعَ بالقرآنِ الذي تتفتَّحُ به البصائرُ، وتتَّسِعُ به المدارِكُ، وتتهذَّبُ به الأخلاقُ، وتتزَّكى به النفوسُ، وتتقوَّمُ به الأعمالُ، وتستقيمُ به الأحوالُ: إنَّما يكونُ بتفهُّمِه وتدَبُّرِه، دونَ مجردِ الانكبابِ عليه بلا تَفَهُّمٍ ولا تدبُّرٍ[3]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ سؤالُ العبدِ مِن ربِّه أن يَهَبَ له مِن الزَّوجِ والذرِّيَّةِ ما تَقَرُّ به عَيْنُه، وهذا يقتضي سَعْيَه بقَدْرِ استِطاعتِه لتحصيلِ ذلك فيهما؛ لِيَقومَ بالسَّببينِ المشروعينِ مِن السعيِ والدعاءِ؛ فعليه أنْ يختارَ ويجتهِدَ عندما يريدُ التزوُّجَ، وأنْ يَقصِدَ إلى ذاتِ الدِّينِ، وفي اختيارِه واجتهادِه في جانبِ الزوجةِ سَعْيٌ في اختيارِ الولدِ؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٥).

الزوجةَ الصالحةَ شأنُها أن تُربِّيَ أولادَها على الخَيرِ والصَّلاحِ، ثمَّ عليه أنْ يقومَ بتعليمِ زوجِه وأولادِه، وتهذيبِهم وإرشادِهم، فيكونَ قد قام بما عليه في الابتِداءِ والاستِمرارِ، مع دوامِ التضرُّعِ إلى اللهِ تعالى والابتهالِ[1].

٧- قال عكرمةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾: (لم يُريدوا بذلك صباحةً ولا جمالًا، ولكنْ أرادوا أن يكونوا مُطيعينَ)[2].

وقال الحسنُ في هذه الآيةِ: (واللهِ ما شيءٌ أحبَّ إلى المرءِ المسلمِ مِن أنْ يرَى ولدًا أو والدًا أو حميمًا أو أخًا مُطيعًا للهِ عزَّ وجلَّ)[3].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ طَلَبُ الرُّتَبِ العُليا في الخَيرِ والكمالِ، والسَّبْقُ إليها، والتقدُّمُ فيها: هو ممَّا يَدْعونا إليه اللهُ، ويُرَغِّبُنا بمِثلِ هذه الآيةِ فيه، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]؛ لأنَّ طَلَبَ الكمالِ كمالٌ، ولأنَّ مَن كانت غايتُه الرُّتَبَ العليا إنْ لم يَصِلْ إلى أعلاها لم يَنحَطَّ عن أدناها، وإنْ لم يُساوِ أهلَها لم يَبْعُدْ عنها، ومَن لم يَطْلُبِ الكمالَ بقِيَ في النقصِ، ومَن لم تكن له غايةٌ ساميةٌ قَصَّرَ في السَّعيِ، وتوانَى في العملِ؛ فالمؤمنُ يَطلُبُ أسمَى الغاياتِ، حتى إذا لم يَصِلْ لم يَبْعُدْ، وحتى يكونَ في مَظِنَّةِ الوصولِ بصحَّةِ القصدِ، وصِدْقِ النِّيَّةِ[4].

٩- هذا الدعاءُ ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ يتضمَّنُ ثلاثةَ أمورٍ: العِلمَ، والتَّقوى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٨).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٦/ ٤٠٢) (٨٦٦٨)، ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٨).

والتأثيرَ؛ لأنَّ مَن لم يكُنْ عالِمًا لم يكُنْ قُدوةً، ومن لم يكُنْ مُتَّقيًا لم يكُنْ قدوةً، ومَن لم يكُنْ مؤثِّرًا لم يكُنْ قُدوةً أيضًا، والتأثيرُ بالقولِ والفعلِ له دَورٌ كبيرٌ، تَجِدُ مثَلًا رجُلينِ مُتقارِبينِ في العِلمِ، لكنْ أحدُهما يَصرِفُ اللهُ القلوبَ إليه فيَتَّخِذونه قُدوةً، والآخَرُ لا يحصُلُ له هذا الأمرُ؛ فلهذا نقولُ: نَزيدُ على العِلمِ والتَّقوى التأثيرَ، والتأثيرُ -كما هو معروفٌ- يكونُ سببُه قوَّةَ البيانِ والفصاحة، إذا كان التأثيرُ بالقولِ، ويكونُ سببُه أيضًا الاستِقامةَ وحُسْنَ السُّلوكِ إذا كان تأثيرًا بالفعلِ. وعلى كلِّ حالٍ فلا تتِمُّ الإمامةُ إلَّا بهذه الأمورِ الثَّلاثةِ: العِلمِ، والتَّقوى، والتَّأثيرِ بالقولِ أو بالفعل[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ دَلالةٌ على السَّببِ الذي أفضَى بهم إلى هذا الجزاءِ العظيمِ، وهو أعمالُهم، ودَلالةٌ على السببِ الذي تَمَكَّنوا به مِن القيامِ بهذه الأعمالِ، وهو الصَّبرُ، فلا يَنهَضُ بامتِثالِ المأموراتِ وترْكِ المنهيَّاتِ إلَّا مَن صَبَرَ، والصبرُ خُلُقٌ مِن الأخلاقِ التي تتربَّى وتنمو بالمِرانِ والدَّوامِ؛ فواجبٌ على المكلَّفِ أنْ يَجعَلَ تربيةَ نَفْسِه عليه وتعويدَها به مِن أكبرِ هَمِّه؛ إذْ لا يقومُ بالتكاليفِ الشرعيةِ إلَّا به، بل ولا يستطيعُ الحياةَ في هذه الدارِ الدُّنيا الموضوعةِ على المحنةِ والابتلاءِ إلَّا إذا تمسَّك بسببِه[2].

١١- قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾ لَمَّا ذَكَرَ سبحانَه في الآياتِ المتقَدِّمةِ صفاتِهم وأعمالَهم؛ ذَكَر ما أَعَدَّ لهم مِن عظيمِ الجزاءِ على تلك الأعمالِ؛ تنبيهًا على ما وَضَعَه تعالى -بمشيئتِه وحكمتِه ورحمتِه- مِن الارتباطِ بيْن هذه الأعمالِ وهذا الجزاءِ، وإفضائِها إليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٢).

إفضاءَ السببِ لمسبَّبِه؛ لِيَسعَى الراجونَ لهذا الجزاءِ مِن طريقِ هذه الصفاتِ وهذه الأعمالِ، كما يُسعَى لسائرِ المسَبَّباتِ مِن طريقِ أسبابِها، وتُؤتَى جميعُ الأمورِ مِن أبوابِها، وفي هذا حَثٌّ لأهلِ هذه الأعمالِ على التمسُّكِ بما هم به عامِلون، وتنبيهٌ لأهلِ الغرورِ على بُطلانِ ما هم به مُغتَرُّون، والكَيِّسُ مَن دانَ نَفْسَه وعَمِلَ لِمَا بعْدَ الموتِ، والعاجزُ مَن أتبَعَ نَفْسَه هواها، وتمنَّى على اللهِ الأمانيَّ[1].

١٢- قد أفادت الآياتُ السَّابقةُ كَمالَ حالِ عِبادِ الرَّحمنِ في نفوسِهم وعُقولِهم، وأخلاقِهم وأعمالِهم، وأفادت عظيمَ مَنزلتِهم عندَ ربِّهم، ورفيعَ ما أعَدَّ لهم مِن درجاتِهم؛ جزاءً على صالحاتِهم وحَسَناتِهم، وجاءتْ هذه الآيةُ ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ لِتُفيدَ أنَّ ذلك المقامَ العظيمَ -الذي كان عندَ ربِّهم- إنَّما هو بسبَبِ عبادتِهم، وتُعلِنَ للنَّاسِ أنَّ عبادتَهم هي الشَّيءُ الوحيدُ الذي يكونُ لهم به قدْرٌ وقيمةٌ عندَ ربِّهم، وبدونها لا يكونُ لهم وزنٌ عندَ خالقِهم، ولا يكونون شيئًا يُبالى به، وأنَّ مَن كَذَّبَ وخَلَعَ بتكذيبِه رِبقةَ العبادةِ، فقد حَقَّتْ عليه كلمةُ العذابِ، وهو واقعٌ به لا محالةَ[2].

١٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾، قد بُيِّنَ لك الطريقُ الذي يُوصِلُك إلى مولاك، ويُرقيك في مراتبِ كمالِك وعُلاك، وما هو إلَّا عبادةُ ربِّك، فكُنْ عبدًا له في اختيارِك واضْطِرارِك، وفي جميعِ أحوالِك، واحذَرْ أنْ تعتمدَ على شَيءٍ غَيرِ عبادتِه، واحذَرْ أنْ تتوجَّهَ بشَيءٍ مِن عبادتِك لغيرِه، ومِن عبادتِك -بل هو أصلُ عبادتِك- دعاؤُك وسؤالُك واستِغاثتُك؛ فإيَّاك إيَّاك أنْ تتوجَّهَ منه بشَيءٍ لغيرِه، فكُنْ دائمًا عبدًا للهِ، وكُنْ دائمًا عبدًا له

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٣).

وحْدَه؛ فذلك حَقُّه عليك، وذلك هو السببُ الوحيدُ الذي يُنجيك ويُعليك[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ فيه ثَناءٌ على المؤْمنينَ بمقاطَعةِ المشركينَ وتَجنُّبِهم[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم لا يَقصِدون حُضورَه ولا سماعَه، ولكنْ عندَ المصادَفةِ -التي مِن غيرِ قصدٍ- يُكرِمون أنفُسَهم عنه[٣].

٣- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾ ما أحسَنَ اقتِرانَ هذا الوصفِ مع قَولِه: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا﴾! لا يَختلِطُ جِدُّهم بهَزْلٍ، وحقُّهم بباطِلٍ، فإذا اعتَراهُمُ الهَزْلُ تَنزَّهوا عنه كلَّ تَنزُّهٍ، وإذا اشتَغَلوا بالحقِّ لا يَحومُ الباطلُ حَوْلَه[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ﴾ الدُّعاءُ بصَلاحِ الزَّوجاتِ والأولادِ والذريَّةِ[٥].

٥- قد فُطِرَ الإنسانُ على محبَّتِه لنفْسِه؛ لِتَحمِلَه هذه الفِطرةُ على المُحافظةِ عليها، والدِّفاعِ عنها، وتكميلِها بكلِّ وُجوهِ الكَمالِ، وكان مِن مُقْتضى هذه المحبَّةِ رغْبتُه في الوجودِ والبقاءِ، وممَّا هو قوَّةٌ في وُجودِه ومُظهِرٌ لبقائِه: أنْ يَرى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٧).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

النَّاسَ على فِكْرِه وصِفاتِه وأحوالِه؛ فيَرى نفْسَه مُمثَّلةً في غيرِه، وأفكارَه وصِفاتِه وأحوالَه باقيَةً ببقاءِ النَّاسِ؛ فالخيرُ الكاملُ مِن طبْعِه، ومِن مُقْتضى فِطرتِه أنَّه يُحِبُّ انتشارَ الخيرِ والكمالِ في النَّاسِ. والشِّرِّيرُ النَّاقصُ مِن طبْعِه، ومِن مُقْتضى فِطرتِه أنَّه يُحِبُّ انتشارَ الشَّرِّ والنَّقصِ فيهم؛ فلذا كان لازمًا لتَتميمِ وصْفِ عِبادِ الرَّحمنِ ذِكْرُ محبَّتِهم الخيرَ والكمالَ لغَيرِهم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾.

وقد تخفَى عليك دخيلةُ نَفْسِ الإنسانِ، فيُمكِنُك أن تَعْرِفَها بما يجري به لسانُه؛ فإذا جَرَتْ كلماتُه بمحبَّةِ انتشارِ الخَيرِ والكمالِ فهو مِن أهلِهما، وإذا جَرَتْ بالضِّدِّ فهو على الضِّدِّ؛ فما يُحِبُّ الإنسانُ انتشارَه هو الدليلُ على صِفاتِ نَفْسِه، وهو ميزانٌ تَزِنُه به في الشَّرِّ والخَيرِ، والنَّقصِ والكمالِ(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ فيه جوازُ الدُّعاءِ بالولدِ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ أنَّ التزوُّجَ وطَلَبَ النَّسْلِ هو السُّنَّةُ؛ سُنَّةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وسُنَّةُ أصحابِه عليهم الرِّضوانُ، وسُنَّةُ عِبادِ الرحمنِ، وليس مِن شريعتِه الحنيفيَّةِ السَّمْحةِ الرَّهبانيَّةُ والتَّبتُّلُ، وقد رأى قومٌ مِن الزهَّادِ رُجحانَ الانقِطاعِ إلى العبادةِ على التزوُّجِ، والاشتغالِ بالسَّعيِ على الزوجِ والذريَّةِ، فردَّ عليهم أئمَّةُ الدِّينِ والفتوى بأنَّ في التزوُّجِ اتِّباعًا للسُّنَّةِ، وفي السَّعيِ على الأهل ما هو مِن أعظَمِ العبادةِ، وفي التزوُّجِ تكثيرَ سَوادِ الأمَّةِ والمدافعينَ عن المِلَّة والقائمينَ بمصالحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٢).

الدِّينِ والدنيا، وفي هذا ما فيه مِن الأجرِ والمثوبةِ، وفي التبتُّلِ مخالفةَ السنَّةِ، وانقِطاعَ النسلِ، وضَعفَ الأمَّةِ، وتعطيلَ المصالحِ، وخرابَ العُمرانِ، وكفَى بهذا كلِّه شرًّا وفَسادًا[1]!

٨- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ ما تقَرُّ به الأعينُ يحصُلُ به الفرَحُ والسرورُ؛ فالفرَحُ والسرورُ بما هو خيرٌ وطاعةٌ، مِن حيثُ إنَّه نعمةٌ مِن اللهِ وفَضلٌ: محمودٌ ومَشروعٌ[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ حُجَّةٌ على أنَّ فِعلَ العبدِ مخلوقٌ للهِ تعالى؛ لأنَّ الإمامةَ في الدِّينِ لا تكونُ إلَّا بالعلمِ والعمَلِ، فدلَّ على أنَّ العِلمَ والعمَلَ إنَّما يكونان بجَعلِ اللهِ تعالى وخَلقِه[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ دليلٌ على أنَّ حُبَّ المنزلةِ الرَّفيعةِ والإشارة به إلى مُحِبِّهِ في الدِّينِ، ليس بمُنكَرٍ إذا أحبَّه المُحِبُّ جلالةً للإسلامِ، وظُهورًا لنعمةِ اللهِ عليه فيه، بل هو طاعةٌ؛ إذْ قد أثنى اللهُ على طالِبيه فيما دَعَوه به، كما ترى[4].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ دَليلٌ على فضيلةِ الإمامةِ في الدِّينِ، ومنها إمامةُ المساجِدِ؛ فإنَّ الإمامَ في المسجدِ إمامٌ للمتَّقينَ؛ لأنَّ الذين يأتون للصَّلاةِ متَّقونَ إنْ شاء اللهُ، فهو إمامٌ لهم، فيدُلُّ ذلك على فَضيلةِ تولِّي الإمامةِ في المساجِدِ، وفَضلُ الإمامةِ في المساجِدِ مَعلومٌ، ولو لم يكُنْ منها إلَّا أنَّ الإنسانَ يكونُ قُدوةً، وأنَّ الإمامةَ تُعينُه على أداءِ الصَّلاةِ، فالإمامُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥١٨).

لا تفوتُه الصَّلاةُ كُلَّ يَومٍ، وغيرُه تفوتُه أو يفوتُه بعضُها، كذلك الإمامُ إذا تكَلَّم يُسمَعُ له أكثَرَ، وكم مِن إنسانٍ ما برَز وظهرَ إلَّا بسبَبِ إمامتِه، لا سيَّما إذا تولَّى الخَطابةَ(١).

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ مِن الدِّينِ الاقتداءُ بأهلِ العلمِ والعمَلِ والاستقامةِ في الهَدْيِ والسَّمتِ(٢).

١٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ لا يكونُ الإمامُ إلَّا تقيًّا فاق غيرَه في التقوى(٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ أنَّ اقتداءَ المتَّقين بأئمَّتِهم إنَّما هو في التقوى؛ لأنَّهم ما كانوا أئمةً إلَّا بها، فالآيةُ أفادتْ أنَّ المتَّقين يَقتدون بأئمَّتِهم، وأنَّ أئمَّتَهم متَّقون مِثْلَهم، وأكمَلُ منهم تَقوى، وأنَّ اقتداءَهم بهم في التقوى لا في غيرِها، فمَن حاد عنها فلا إمامةَ له(٤).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي﴾ كمالُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا يَعبَأُ بأحَدٍ مِن خلقِه مهما كَثُروا عَددًا وعُدَّةً(٥).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾ عِظَمُ فضيلةِ الدُّعاءِ(٦).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَا يَعۡبَؤُاْ بِكُمۡ رَبِّي لَوۡلَا دُعَآؤُكُمۡ﴾ أنَّ الدُّعاءَ مانِعٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٨).

مِن العُقوبةِ[١]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

١٨- الأمنُ مِن عذابِ اللهِ وحُصولُ السَّعادةِ إنَّما هو بطاعتِه تعالى؛ لِقَولِه: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ أي: لو لم تَدْعُوه كما أمَرَ فتُطيعوه فتَعبُدوه وتُطيعوا رسُلَه؛ فإنَّه لا يَعبأُ بكم شَيئًا[٢].

١٩- قَولُه تعالى: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، وفيه أيضًا إثباتُ الموانِعِ لِمَا انعقَدَ سبَبُه، وإثباتُ الأسبابِ لِمَا لم يوجَدْ حتَّى يكونَ[٣].

٢٠- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ لَمَّا كانت مقاديرُ العِبادِ عندَ ربِّهم بحسَبِ عبادتِهم، فالأنبياءُ عليهم السلامُ أعلى النَّاسِ منزلةً عندَ اللهِ؛ فهم أعظمُهم عبادةً للهِ، وهم أتقاهم له، وأشدُّهم خشيةً منه[٤].

٢١- قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ في قَولِه: ﴿لِزَامًۢا﴾ تنبيهٌ على ضَعفِهم وعَجزِهم، وذُلِّهم وقَهرِهم؛ لأنَّ الملزومَ لا يكونُ إلَّا كذلك، فأَسْرُهم يومَ بدرٍ مِن أفرادِ هذا التَّهديدِ؛ فقد انطبقَ آخِرُ السُّورةِ على أوَّلِها بالإنذارِ بالفُرقانِ لِمَن أنكَرَ حقيقةَ الرَّحمنِ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الفرقان)) (ص: ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٣٩).

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ إذا فُسِّر قَولُه: ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ بأنَّهم يَنفِرون عن مَحاضرِ الكذَّابينَ والخَطَّائينَ، على أنَّ ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بمعنى يَحضُرون؛ كانت كالتَّتميمِ له، وإذا فُسِّر بأنَّهم لا يَشهَدونَ شَهادةَ الزُّورِ كانت كالتَّكميلِ له، ويجوزُ أن يكونَ تَتميمًا على تفسيرِ ﴿لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾: لم تُسفِّهْهُم المعاصي؛ لأنَّ مَن وقَفَ مواقفَ السُّفهاءِ سُفِّهَ، ويكونُ قدْحًا في عدالتِه[1]؛ فمِن بلاغةِ القرآنِ: أنْ تأتِيَ مِثلُ هذه الآياتِ بوُجوهٍ مِن الاحتمالاتِ مُتناسِباتٍ غيرَ مُتناقضاتٍ؛ فتكونَ الآيةُ الواحدةُ بتلك الاحتمالاتِ كأنَّها آياتٌ، فهذه الآيةُ باحتمالِها معنيينِ -الَّذين لا يَحضُرون مجالِسَ الزُّورِ، أو الَّذين لا يَشهَدُون شَهادةَ الزُّورِ ولا يُخبِرون إلَّا بالحقِّ الواقعِ- مُفيدةٌ تنزُّهَهم عن شُهودِ الباطلِ، وعن شَهادتِه[2].

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ مَعنَى المُرورِ باللَّغوِ: المرورُ بأصحابِه اللَّاغينَ في حالِ لَغْوِهم؛ فجُعِل المرورُ بنَفْسِ اللَّغوِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ أصحابَ اللَّغوِ مُتلبِّسونَ به وقتَ المُرورِ[3]، وقدْ أخبَرَ هنا أنَّهم لا يَقِفون عندَ اللَّغوِ عندما يَمُرُّون عليه؛ تَرَفُّعًا في وصْفِهم بالبُعدِ عن الباطلِ والإثمِ والعبثِ، ومُجانبةِ أهْلِه[4]. وتَخصيصُ المرورِ بالذِّكرِ؛ للإيذانِ بأنَّ ذلك دأبُهم وعادتُهم[5].

- وإعادةُ فِعلِ ﴿مَرُّوا﴾؛ لِبناءِ الحالِ عليه، وذلك مِن مَحاسنِ الاستِعمالِ[6].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٢).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٩).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾

- قولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، أي: أكَبُّوا عليها سامِعينَ بآذانٍ واعيةٍ، مُبصِرينَ ناظِرينَ لها بعُيونٍ راعيةٍ؛ وإنما عَبَّر عن ذلك بنَفيِ الضِّدِّ تَعريضًا بما يَفعَلُه الكفرةُ والمُنافِقون[1].

- قولُه: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ عبَّر بـ (إذا)؛ لأنَّ التَّذكيرَ ممَّا هو واقعٌ مُحقَّقٌ كالَّذي يُسمَعُ مِن القرآنِ في الصَّلاةِ، ومِن الخُطَبِ في الجُمَعِ[2].

- قولُه: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ بُنِيَ الفِعلُ للمُفعولِ، ولم يُبيِّنِ المُذكِّرَ (الفاعِل)؛ إشارةً إلى أنَّهم يَقْبَلون الحقَّ لأنَّه حقٌّ، لا مِن أجْلِ مَن قال به، فهُم لا يَقبَلون التَّذكيرَ لأجْلِ شَخصِ المُذكِّرِ، أو يَرُدُّونه مِن أجْلِ شخصِ المُذكِّرِ، وإنَّما يَقبَلونه لأنَّه تَذكيرٌ؛ لأنَّ التذكيرَ بالآياتِ يَجِبُ قَبولُه مِن أيِّ مُذكِّرٍ كانَ، وهذه هي الفائدةُ في حَذْفِ الفاعلِ[3].

- قولُه: ﴿لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ أُريدَ تمييزُ المؤْمنينَ بمُخالَفةِ حالةٍ هي مِن حالاتِ المشركينَ، وتلك هي حالةُ سماعِهم دَعوةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وما تَشتمِلُ عليه مِن آياتِ القُرآنِ، وطلَبِ النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ؛ فلذلك جيءَ بالصِّلةِ مَنفيَّةً لتحصيلِ الثَّناءِ عليهم، مع التَّعريضِ بتَفظيعِ حالِ المُشركينَ؛ فإنَّ المُشرِكينَ إذا ذُكِّروا بآياتِ اللهِ خَرُّوا صُمًّا وعُمْيانًا، كحالِ مَن لا يُحِبُّ أن يرَى شيئًا فيَجعَل وجْهَه على الأرضِ[4].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٠).

- قولُه: ﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ حالانِ مِن ضَميرِ ﴿يَخِرُّوا﴾، مرادٌ بهما التَّشبيهُ بحذْفِ حرْفِ التَّشبيهِ، أي: يَخِرُّون كالصُّمِّ والعُميانِ في عدَمِ الانتِفاعِ بالمَسموعِ مِنَ الآياتِ، والمُبصَرِ منها، ممَّا يُذَكَّرونَ به؛ فالنَّفيُ -على هذا- مُنصَبٌّ إلى الفِعلِ وإلى قَيْدِه، وهو استِعمالٌ كثيرٌ في الكلام. وقيل غيرُ ذلك[1].

- وفيها تَنديدٌ وتَقريعٌ للكافِرينَ؛ لأنَّهم صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ؛ لا يَتجاوَزُ آذانَهم ما يَسمَعون، ولا يَنتفِعونَ بما يَقرؤون، ولا يَعتَبِرون بما يُشاهِدون[2].

- وقَيَّده بهاتينِ الحاسَّتينِ؛ لأنَّهما الوسيلةُ إلى وُصولِ الشَّيءِ إلى القلبِ؛ إذ الأشياءُ إمَّا مرئيَّةٌ فوسيلتُها النظَرُ، وإمَّا مسموعةٌ فوسيلتُها السَّمعُ، فنفَى أن يكونوا صُمًّا، ونفَى أن يكونوا عُميانًا[3].

- قوله: ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ صِفةٌ سلبيَّةٌ، ولم يَقُلْ: (إذا ذُكِّروا بآياتِ ربِّهم أَقبَلوا عليها مُبصِرينَ سامِعينَ)، معَ أنَّ الصِّفاتِ الثبوتيَّةَ أبلَغُ في الثَّناءِ؛ وذلك لأنَّ هذه السورةَ مِن أوَّلِها إلى آخِرِها في مُجادَلةِ المُنكِرينَ لِمَا جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهم إذا كانوا مُنكِرين فإنَّهم يَخِرُّون على الآياتِ صُمًّا وعُميانًا، فهذا -واللهُ أعلمُ- وجْهُ المناسبةِ في العُدولِ عن ذِكْرِ الصِّفةِ الثبوتيَّةِ إلى ذِكْرِ الصِّفةِ السَّلبيَّةِ[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٣).

- إعادةُ المَوصولِ في المواقعِ السَّبعةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ ...﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا ...﴾ مع كِفايةِ ذِكرِ الصِّلاتِ بطَريقِ العَطفِ على صِلَةِ المَوصولِ الأوَّلِ؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدٍ ممَّا ذُكِر في حَيِّزِ صِلَةِ المَوصولاتِ المذكورةِ وصْفٌ جليلٌ على حِيالِه، له شأنٌ خطيرٌ، حَقيقٌ بأنْ يُفرَدَ له مَوصوفٌ مُستقِلٌّ، ولا يُجعلَ شَيءٌ مِن ذلكَ تَتِمَّةً لغَيرِه. وتَوسيطُ العاطفِ بيْن المَوصولاتِ؛ لتَنزيلِ اختِلافِ الصِّفاتِ مَنزلةَ اختِلافِ الذَّواتِ[1]، وتَنبيهًا على أنَّ كلَّ واحدةٍ منها تَستقِلُّ بالقَصدِ؛ لعِظَمِ خطَرِها، وكِبَرِ أثَرِها[2].

- قولُه: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾، أي: هَبْ لنا أزواجًا وذُرِّيَّاتٍ مُطيعِينَ لك، ولَمَّا كانت طاعتُهم سببًا لسُرورِهم؛ وُضِع المُسبَّبُ مَوضَعَ السَّببِ للمُبالَغةِ، وأنَّ المطلوبَ الأوَّليَّ بالأولادِ طاعةُ اللهِ، وجُعِل هذا الدُّعاءُ مِن جُملةِ صِفاتِ الكَمَلةِ مِنَ المؤْمنينَ؛ للدَّلالةِ على عِظَمِ منزلةِ مَن يَطلُبُ النِّكاحَ لذلك، وهذا بالنِّسبةِ إلى الدَّاعي، فكيف بمَن يتَّصِفُ بذلك[3]؟

- و(مِنْ) في قَولِه: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا﴾ يحتمِلُ أن تكونَ بَيانيَّةً، كأنَّه قيل: هَبْ لنا قُرَّةَ أعْيُنٍ، ثمَّ بُيِّنَتِ القُرَّةُ وفُسِّرَتْ بقَولِه: ﴿مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا﴾. ومعناه: أنْ يَجعَلَهمُ اللهُ لهم قُرَّةَ أَعْيُنٍ، وهو مِن قَولِهم: رأيتُ منك أَسَدًا، أي: أنتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠١).

أَسَدٌ. وأن تكونَ ابتِدائيَّةً، على معنَى: هَبْ لنا مِن جِهَتِهم ما تَقَرُّ به عُيونُنا مِن طاعةٍ وصلاحٍ[1].

- وقدَّمَ الأزواجَ على الذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّهم أَلْصَقُ، ولأنَّهم الأصلُ[2].

- وقولُه: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ تَركيبٌ كِنائيٌّ؛ فإذا كانتِ القُرَّةُ مِن (القُرِّ) فهي كِنايةٌ عن السُّرورِ؛ لأنَّ العَيْنَ في حالةِ السُّرورِ باردةٌ، وإذا سالَتْ منها دُموعٌ في حالةِ الفرحِ كانت باردةً؛ فقُرَّةُ أعينِهم على هذا كِنايةٌ عن سُرورِهم بأزواجِهم وذُرِّيَّتِهم، بما هم عليه مِن الخَيرِ والكمالِ، وإعانتِهم لهم عليهما. وإذا كانت القُرَّةُ مِن القُرورِ، فهي كِنايةٌ عن سُكونِ النَّفْسِ بحُصولِها على ما يُرْضِيها مِن الأزواجِ والذُّرِّيَّةِ[3].

- في قولِه تعالى: ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ نُكتَتانِ؛ الأُولى: التَّنكيرُ، وإنَّما جُنِح إليه لأجْلِ تَنكيرِ القُرَّةِ، والمُضافُ لا يُمكِنُ تَنكيرُه إلَّا بتَنكيرِ المُضافِ إليه؛ لِيَكونَ السُّرورُ غيرَ مُتَناهٍ ولا محدودٍ. وإنَّما قَلَّل الأعْيُنَ -أي: جُمِع جَمْعَ القِلَّةِ-؛ لأنَّ أَعْيُنَ المُتَّقينَ قِلَّةٌ بالإضافةِ إلى غَيرِهم، يدُلُّ على ذلك قَولُه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[4] [سبأ: ١٣]. وهناك وجْهٌ آخَرُ لعلَّه أَبلَغُ ممَّا تَقدَّمَ، وهو أنَّ المَحكيَّ كلامُ كلِّ أحدٍ مِنَ المُتَّقينَ، فكأنَّه قال: يَقولُ كلُّ واحدٍ مِنَ المُتَّقينَ: اجعَلْ لنا مِن ذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أَعْيُنٍ؛ فإنَّ المتَّقينَ وإنْ كانوا بالإضافةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥١).

إلى غَيرِهم قليلًا فإنَّهم في أنفُسِهم على كَثرةٍ مِنَ العددِ، والمُعتبَرُ في إطلاقِ جَمعِ القِلَّةِ أن يكونَ المجموعُ قليلًا في نفْسِه، لا بالنِّسبةِ والإضافةِ[1].

- قولُه: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ كالتَّكميلِ للدُّعاءِ، أي: اجعَلْنا كامِلينَ في أنفُسِنا، ومُكمِّلينَ لغَيرِنا، وفي جَعلِ المُقتدينَ مُتَّقِينَ إشارةٌ إلى عُلُوِّ درجةِ الإمامِ[2].

- قولُه: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ الإمامُ هو المُتَّبَعُ المُقتْدَى به، وأُفرِدَ (إمامًا)؛ إمَّا اكتِفاءً بالواحدِ عنِ الجَمعِ، ويدُلُّ على الجنسِ ولا لَبْسَ، وإمَّا لأنَّه مَصدَرٌ في أصْلِه، وإمَّا لأنَّ المعنى: واجعَلْ كلَّ واحدٍ منَّا إمامًا، وإمَّا لاتِّحادِهم واتِّفاقِ كَلِمَتِهم قالوا: واجعَلْنا إمامًا واحدًا، وقيل غيرُ ذلك. وحَسَّنَ الإفرادَ مِن جِهةِ اللَّفظِ: وُقوعُه فاصلةً على وَزنِ ما قَبْلَها وما بَعْدَها. ومِن جِهةِ المعنى: أنَّ أئمَّةَ الهُدَى كنَفْسٍ واحدةٍ؛ لاتِّحادِ طَريقِهم بالسَّيرِ على الصِّراطِ المستقيمِ، واتِّحادِ وِجهتِهم بالقَصدِ إلى اللهِ تعالى وحْدَه[3].

- ومَدارُ الكُلِّ صُدورُ هذا الدُّعاءِ إمَّا عنِ الكُلِّ بطريقِ المَعيَّةِ وأنَّه محالٌ؛ لاستِحالةِ اجتِماعِهم في عصرٍ واحدٍ، فما ظَنُّك باجتِماعِهم في مجلسٍ واحدٍ، واتِّفاقِهم على كلمةٍ واحدةٍ؟! وإمَّا عنْ كلِّ واحدٍ منهُم بطريقِ تَشريكِ غَيرِه في استِدعاءِ الإمامةِ، وأنَّه ليس بثابتٍ جَزْمًا، بلِ الظَّاهرُ صُدورُه عنهم بطريقِ الانفِرادِ، وأنَّ عِبارةَ كلِّ واحدٍ منهم عِندَ الدُّعاءِ: (واجعَلْني للمتَّقينَ إمامًا)،

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٣، ١٣٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٣٦).

خَلَا أنَّه حُكيَتْ عِباراتُ الكلِّ بصيغةِ المُتكلِّم مع الغَيرِ؛ للقَصدِ إلى الإيجازِ، على طريقةِ قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾[1] [المؤمنون: ٥١].

٤- قولُه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾

- قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المتَّصفينَ بما فُصِّل في حينِ صِلَةِ المَوصولاتِ الثَّمانيةِ من حيثُ اتِّصافُهم به. وفيه دَلالةٌ على أنَّهم مُتميِّزونَ بذلك أكمَلَ تَميُّزٍ، مُنتَظِمونَ بسببِه في سِلكِ الأمورِ المُشاهَدةِ، وما فيه مِن معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الفضلِ. والجملةُ مُستأنَفةٌ مُبيِّنةٌ لِما لهُم في الآخرةِ مِنَ السَّعادةِ الأبَديَّةِ، إثْرَ بَيانِ ما لهُم في الدُّنيا مِنَ الأعمالِ السَّنِيَّةِ[2].

- قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ التَّصديرُ باسمِ الإشارةِ للتَّنبيهِ على أنَّ ما يَرِدُ بعْدَه كانوا أَحْرياءَ به؛ لأجْلِ ما ذُكِر قبلَ اسمِ الإشارةِ من صِفاتٍ[3].

- جُملةُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ...﴾ مُستأنَفةٌ؛ فإنَّ تلك الصِّفاتِ والأعمالَ تُشوِّقُ السَّامعَ إلى معرفةِ مآلِهم، وثمرةِ أعمالِهم، فيَسأَلُ عنهما؛ فكانت الجُملةُ جوابًا لذلك السُّؤالِ المُقدَّرِ[4].

- قولُه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ يدُلُّ على أنَّهم يُجْزَون غُرفةً واحدةً، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك؛ كقَولِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤١).

تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠]، وكقولِه: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

**والجوابُ**: أنَّ الغُرفةَ هنا بمعنَى الغُرَفِ؛ اسمُ جِنسٍ أُريدَ به الجَمْعُ. وقيل: إنَّ المرادَ بالغُرفةِ الدَّرجةُ العُلْيا في الجنَّةِ؛ وعليه فلا إشكالَ. وقيل: الغُرفةُ الجنَّةُ؛ سُمِّيَتْ غُرفةً لارتِفاعِها[1].

- قولُه: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ لم يؤْتَ بمُتعَلِّقِ ﴿صَبَرُوا۟﴾؛ لئلَّا يُقتصَرَ عليه، فيَتناوَلُ كلَّ مَصبورٍ عليه إلى أن يُحاطَ به[2]، ولِيَعُمَّ جميعَ أنواعِ المشاقِّ[3].

- فإنْ قيل: قد تَقرَّرَ أنَّ اسمَ الإشارةِ إذا عُقِّب به مَن أَجرى عليه الأوصافَ دَلَّ على أنَّ المَذكورَ قَبْلَه جَديرٌ بما بعْدَه لأجْلِ تلك الأوصافِ الجاريةِ عليه، فإذَنِ السَّببُ في أنَّهم يُجْزَونَ الغُرفةَ تلك الأوصافُ الَّتي أُجريَتْ على عِبادِ الرَّحمنِ، فكان مِن حقِّ الظَّاهرِ أنْ يُجاءَ بدَلَ ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾: بما فَعَلوا؛ كِنايةً عن تلك المَذكوراتِ بأسْرِها، فما فائدةُ العُدولِ؟

**فالجوابُ**: الإيذانُ بأنَّ مِلاكَ العِباداتِ الصَّبرُ، وأنَّ حَبْسَ النَّفْسِ على طاعةِ اللهِ هي الطَّلِبةُ، وقَطْعَها عن مُشتَهياتِها هي المَرامُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٤)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٤/ ٥٧٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٤).

- قولُه: ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاءَ قَولُه: ﴿ٱلْغُرْفَةَ﴾ مُفرَدًا، وجاء في سورةِ (سبأ) بالجَمعِ: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧]؛ وفائدةُ العُدولِ في هذا المَقامِ إلى المُفرَدِ ﴿يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ فلاتِّحادِ تَرتُّبِ الحُكمِ على الأوصافِ المُشترَكةِ، بخِلافِه في (سبأ)؛ فإنَّه مُرتَّبٌ على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ مُطْلقًا. ولا ارتيابَ في التَّفاوُتِ في الأعمالِ، فناسَبَ الجَمعُ؛ ليَتفاوَتَ الجزاءُ بحسَبِ العامِلينَ. وأمَّا على قراءةِ الإفرادِ في سورةِ (سبأ)[1] فيُقالُ: إنَّ المرادَ مِنَ الإفرادِ الجِنسُ؛ ليتوافَقَ القِراءتانِ. ويُمكِنُ أن يُقالَ: القَرينةُ هي إثباتُ الغُرفةِ الواحدةِ للجَماعةِ[2].

- قولُه تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾، جُمِع بيْن التَّحيَّةِ والسَّلامِ، مع أنَّهما بمعنًى؛ لقَولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]؛ لأنَّ المُرادَ هنا بالتَّحيَّةِ: سَلامُ بعضِهم على بعضٍ، أو سلامُ الملائكةِ، وبالسَّلامِ: سلامُ اللهِ عليهم؛ لقَولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]، أو المرادُ بالتَّحيَّةِ: إكرامُ اللهِ لهم بالهَدايا والتُّحَفِ، وبالسَّلامِ: سَلامُه عليهم بالقَولِ. ولو سُلِّمَ أنَّهما بمعنًى، فساغَ الجَمْعُ بيْنَهما؛ لاختِلافِهما لفظًا[3].

٥- قولُه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾

- جُملةُ ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ مُستأنَفةٌ بَيانيَّةٌ؛ لأنَّ مَن عرَفَ حالتَهم مِن الحياةِ والسَّلامةِ والبقاءِ يَتشَوَّفُ لمعرفةِ حالِ مكانِ هذه الحياةِ السَّالمةِ

---

(١) قرأ بالإفرادِ حمزةُ، والباقون بالجمعِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٦).

الباقيةِ، فيَسأَلُ عنه؛ فوقعَتْ جُملةُ ﴿حَسُنَتْ﴾ موقعَ الجوابِ عن هذا السُّؤالِ المُقدَّرِ. وهي إنشائيَّةٌ أفادتْ إنشاءَ مدْحِ الغُرفِ بالحُسنِ، وتَعظيمِ ذلك الحُسنِ[١].

- وقدَّمَ المُستقَرَّ؛ لأنَّ أوَّلَ الحُلولِ استِقرارٌ، والمُقامَ ببَقاءِ الاستِقرارِ واستِمرارِ المُكثِ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾

- قولُه: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ (ما) يَجوزُ أن تكونَ استفهاميَّةً فيها معنَى النَّفيِ، كأنَّه قيل: وأيُّ عبءٍ يَعبَأُ بكم لولا دُعاؤُكم؟! ويجوزُ أن تكونَ نافيةً[٣]، وتَركيبُ: ما يَعبَأُ به، يدُلُّ على التَّحقيرِ، وضِدُّه (عَبَأَ به) يُفيدُ الحَفاوةَ. فأصلُ ﴿مَا يَعْبَؤُا۟﴾: ما يَحمِلُ عِبْئًا؛ تمثيلًا بحالةِ المُتعَبِ مِنَ الشَّيءِ، فصار المقصودُ: ما يَهتَمُّ وما يَكتَرِثُ، وهو كِنايةٌ عن قِلَّةِ العنايةِ[٤].

- وجَوابُ ﴿لَوْلَا﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما تقدَّمَ، وتقديرُ الكلامِ: لولا دُعاؤُكم ما عبَأَ بكم. وجُملةُ ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ واقعةٌ موقعَ التَّعليلِ لكلامٍ مُقدَّرٍ تَقديرُه -واللهُ أعلَمُ-: لا يَعبَأُ بكم فقد كذَّبْتم، أي: لأنَّكم قد كذَّبْتم، فالفاءُ تَعليليَّةٌ. وأمَّا جُملةُ ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ فمُتَسبِّبةٌ عمَّا قبْلَها؛ فالفاءُ فيها سَببيَّةٌ. وضَميرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٥).

﴿يَكُونُ﴾ عائدٌ على العذابِ المفهومِ مِن المقامِ[١].

- وفائدةُ قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ الإيذانُ بأنَّ مَناطَ فَوزِ أحدِهما، وخُسرانِ الآخَرِ -مع الاتِّحادِ الجِنسيِّ المُصحِّحِ للاشتِراكِ في الفَوزِ- ليس إلَّا اختلافَهما في الأعمالِ[٢]. وأيضًا فيه تهديدٌ للمُشركينَ[٣].

- وحُذِفَ مُتعلِّقُ الدُّعاءِ؛ لظُهورِه مِن قَولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، أي: الدَّاعيَ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤]، وذلك على أنَّ الدُّعاءَ المرادُ به: الدعوةُ إلى الإسلامِ.

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ تُرِكَ اسمُ كان غَيرَ مَنطوقٍ به بعْدَما عُلِم أنَّه ممَّا تُوعِّدَ به؛ للإيذانِ بغايةِ ظُهورِه، وتَهويلِ أمْرِه، وللتَّنبيهِ على أنَّه ممَّا لا يَكتنِهُه البيانُ، كما تَقولُ للجاني: قد فعلْتَ كذا فسوف تَتحمَّلُ ما فعلْتَ[٥].

- واللِّزامُ: مَصدَرُ لازَمَ، وقد صِيغَ على زِنَةِ المُفاعَلةِ لإفادةِ اللُّزومِ، أي: عدَمِ المُفارَقةِ؛ فالإخبارُ باللِّزامِ مِن بابِ الإخبارِ بالمَصدرِ للمُبالَغةِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ بيْنَ المُكذِّبينَ والعذابِ مُلازَمةً مِن الطَّرفينِ: فهُم بتكذيبِهم قد ألْزَموا أنفُسَهم العذابَ، فلازَمَهم العذابُ. وقد اجتَمَع فيه مُبالَغتانِ: مُبالَغةٌ في صيغتِه تُفيدُ قوَّةَ لُزومِه، ومُبالَغةٌ في الإخبارِ به تُفيدُ تَحقيقَ ثُبوتِ الوَصفِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: (( تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٤٤).

- وهذه الخاتمةُ ناظرةٌ إلى الفاتحةِ، أي: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، المعنى: قد أَنذَرَ وبالَغَ فيه، وبيَّن بالآياتِ الظَّاهرةِ، والبَراهينِ الباهِرةِ، تَصريحًا وتَعريضًا: أنَّ الحكمةَ في الإيجادِ مَعرفةُ الخالِقِ وعبادتُه؛ أمَّا تَصريحًا ففي قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وأمَّا تَعريضًا ففي عَدِّ فضائِلِ المؤْمنينَ، وإذا أَعلَمَكُم رَسولي أنَّ حُكْمي ذلك، وأنِّي لا أعتَدُّ بعِبادي إلَّا بعِبادتِهم، فقد خالَفْتُم أنتُم بتَكذيبِكم كِتابي ورَسولي حِكمتي في الإيجادِ، فسوف يَلزَمُكُم أثَرُ تَكذيبِكُم، وهو الاستِئصالُ يَومَ بَدْرٍ، والعذابُ السَّرْمَدُ في النَّارِ يَومَ القِيامةِ[1].

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ العِشرونَ**

**ويليه المجلدُ الحادي والعِشرونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سُورةِ الشُّعَراءِ**

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٠٨).

# الفهرس

# الفهرس

سورةُ الفُرقانِ..... ٧
أسماءُ السُّورةِ: ..... ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:..... ٨
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:..... ٨
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ:..... ٩
الآيات (١-٣) ..... ١١
غَريبُ الكَلِماتِ:..... ١١
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٢
تَفسيرُ الآياتِ:..... ١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:..... ١٨
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:..... ٢٠
بلاغةُ الآياتِ:..... ٢٨
الآيات (٤-٦) ..... ٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ:..... ٣٩
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٠
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٤١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:..... ٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:..... ٤٦
بلاغةُ الآياتِ:..... ٤٧
الآيات (٧-١٠)..... ٥٣

غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٥٣
المعنى الإجماليُّ: ..... ٥٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٥٤
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٦٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٦٣
الآيات (١١-١٦) ..... ٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٦٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ٦٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٧٦
الآيات (١٧-١٩) ..... ٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٨٤
المعنى الإجماليُّ: ..... ٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٨٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٩١
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٩٣
الآيات (٢٠-٢٤) ..... ١٠١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٠١
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ١٠٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٠٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٠٣

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ١١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١١٦
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٢٠
الآيات (٢٥-٢٩) ..... ١٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٢٩
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٢٩
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٣٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ١٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٤٢
الآيات (٣٠-٣٤) ..... ١٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٤٩
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٥٠
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٥١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ١٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١٦٢
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٦٨
الآيات (٣٥-٤٠) ..... ١٧٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٧٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٧٩
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٧٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١٨٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٨٩

الآيات (٤١-٤٤) ..... ١٩٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٩٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٩٧
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٩٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٢٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ: ..... ٢٠٦
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢١٠
الآيات (٤٥-٥٤) ..... ٢١٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢١٨
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٢١
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٢٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٢٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ: ..... ٢٤٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٥٣
الآيات (٥٥-٦٢) ..... ٢٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٧٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٧٤
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٢٩٤
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٩٩
الآيات (٦٣-٦٧) ..... ٣١٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣١٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣١٣

تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣١٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٣٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٣٢٩
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٣١
الآيات (٦٨-٧١) ..... ٣٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٣٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٣٣٩
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٤٠
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٤٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٣٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٣٥٣
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٥٨
الآيات (٧٢-٧٧) ..... ٣٦٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٦٤
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٦٥
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٣٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٣٨٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٩١
الفهرس ..... ٤٠٦

تم الصف والإخراج في
مؤسسة الدرر السنية
nashr@dorar.net
هاتف ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
فاكس ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨
جوال ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

## سورة الشعراء

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق


الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا


الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

**المجلد الحادي والعشرون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الشعراء)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

مؤسسة الدرر السنية – القسم العلمي

التفسير المحرر للقرآن الكريم: المجلد الحادي والعشرون: سورة الشعراء/

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٤٠٠ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٨٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣٢ ١٤٤٢/٨١٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٨١٢

ردمك: ٤-٨٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٢ هـ – ٢٠٢١ م**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

مؤسسة الدرر السنية – المملكة العربية السعودية
ص. ب ٣٩٣٦٤ الظهران ٣١٩٤٢ – جوال: ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠
ت: ٠١٣٨٦٨٠١٢٣ / فاكس: ٠١٣٨٦٨٢٨٤٨ – بريد إلكتروني nashr@dorar.net

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ الشُّعَراءِ

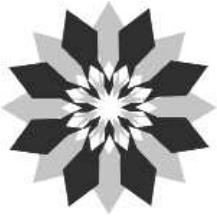

# سورةُ الشُّعَراءِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السورةُ بسُورةِ (الشُّعَراءِ)[١].

## بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الشُّعراءِ مكِّيَّةٌ[٢].

## مقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ المقاصدِ التي تَضمَّنَتها سورةُ الشُّعراءِ:**

١- التَّنويهُ بالقرآنِ الكريمِ، والتَّعريضُ بعَجزِ المشركينَ عن مُعارَضتِه[٣].

٢- تَسليةُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا يُلاقيه مِن إعراضِ قَومِه[٤].

---

(١) سُمِّيت سورةَ الشعراءِ؛ لأنَّها تفرَّدت من بينِ سور القرآنِ بذكرِ كَلمةِ الشعراء، فاختُتِمت بذِكرِهم في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٨٩).

وقد ورَدتْ تسميتُها بذلك في بعضِ الآثارِ عن ابنِ عبَّاسٍ وابنِ الزُّبَيرِ رضي الله عنهم. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٨٨).

(٢) القولُ بأنَّها مكيةٌ كلها نسَبه ابنُ عطيةَ إلى جمهورِ الناسِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٤).

وقيل: السورةُ مكيةٌ غيرَ آيتينِ، فإنَّهما مدنيَّتانِ: قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ ...﴾ الآيةَ، وقولُه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ...﴾.

وقيل: مكيَّةٌ إلَّا أربعَ آياتٍ منها نزَلْت بالمدينةِ، من قَولِه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤] إلى آخِرِها. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٦٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبِقَاعي (١٤/ ١).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٤). =

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أبرزِ الموضوعاتِ التي تناولَتها سورةُ الشُّعراءِ:**

١- بيانُ سموِّ منزلةِ القرآنِ، وذكرُ موقفِ المشركينَ مِن الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتسليتُه عمَّا يُلاقيه مِن إعراضٍ منهم.

٢- ذِكرُ جُملةٍ مِن خَبَرِ الرسُلِ مع أقوامِهم وما لاقَوه منهم.

٣- ذكرُ جانبٍ مِن قِصَّةِ نبيِّ الله موسى وأخيه هارونَ عليهما السلامُ، معَ فرعونَ، وقصةِ السَّحَرةِ، وما آلَ إليه الأمرُ مِن غرقِ فرعونَ وجنودِه، ونجاةِ موسَى عليه السلامُ ومَن معه.

٤- ذكرُ جانبٍ مِن دعوةِ نبيِّ الله إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبيه وقومِه.

---

= قال الطِّيبي: (إذا أمعَنْتَ النظرَ فيما اشتمَلَتْ عليه هذه السُّورةُ الكريمةُ، وجدْتَه نازلًا تَسليةً لقلْبِ الحبيبِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه مِن تَكذيبِ القومِ إيَّاهُ، والطَّعنِ فيما أُنزِلَ إليه، والاستهزاءِ به؛ ألَا ترَى كيف ذيَّلَ كلَّ قصَّةٍ مِن القَصَصِ المذكورةِ فيها بقولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وجُعِلَ كالتَّخلُّصِ إلى قصَّةٍ أُخرى، وكالمُهتمِّ بشأْنِه، فيَرجِعُ إليه إذا وجَدَ له مَجالًا، يعني: لا تتحسَّرْ على إصرارِهم على الكُفرِ، وتَكذيبِهم ما أنزَلْنا عليك؛ إنَّ ربَّك عزيزٌ يَنتقِمُ منهم، ويَرحَمُ عليك بأنْ يُقدِّرَ لك مَن يُؤمِنُ بك إنْ لم يُؤمِنْ هؤلاء. ومِن ثَمَّ قرَنَ معه وقدَّمَ عليه كلَّ مرَّةٍ قولَه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾...، يعني: لك التَّأسِّي بربِّك مع كِبريائِه وجَلالِه، وبالأنبياءِ عليهم السَّلامُ السَّالفةِ؛ ولذلك بدَأَ سُبحانه وتعالى بأمْرِ نفْسِه، وذكَرَ أنَّه تعالى أنزَلَ عليهم دليلَ السَّمعِ، فأعْرَضوا وكذَّبوا واسْتَهْزؤوا، ونصَبَ لهم الدَّلائلَ الظَّاهرةَ، وأراهم آياتٍ يَفتَحُ بها أعيُنَهم: مِن إنباتِ كلِّ صِنْفٍ بهيجٍ، وما الْتَفَتوا ولا رفَعوا له رأْسًا، ثمَّ فصَلَ ذلك بتلك الفاصلةِ، وقرَنَها بتلك القرينةِ، وثنَّى بقصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ، وختَمَها أيضًا بتلك الفاصلةِ والقرينةِ، وثلَّثَ بقصَّةِ الخليلِ عليه السَّلامُ وختَمَها بهما، وهلُمَّ جرًّا، إلى آخرِ السُّورةِ...، كأنَّ التَّنزيلَ بجُملتِه نازلٌ لِتَسكينِ بادرتِه، وتَسلِّي حُزنِه، وتَثبيتِ خَلَدِه، ورِباطةِ جأْشِه، وتَهذيبِ أخلاقِه، وإرشادِ أُمَّتِه). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١٧، ٣١٨).

٥- ذكرُ جانبٍ مِن قِصَّةِ نبيِّ الله نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ودعوتِه قَومَه، وما آلَ إليه الأمرُ مِن إغراقِ المكَذِّبينَ، وتنجيةِ المؤمنينَ.

٦- ذكرُ قِصَّةِ نبيِّ الله هودٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ودعوتِه لقومِه؛ وبيانُ العاقبةِ التي انتهَى إليها المكَذِّبون منهم.

٧- ذكرُ قِصَّةِ نبيِّ الله صالحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ودعوتِه لِقَومِه، وما ترتَّب على عَقرِهم الناقةَ مِن نزولِ العذابِ بهم.

٨- ذكرُ قِصَّةِ نبيِّ الله لوطٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ودعوتِه لِقَومِه، وما حصل منهم مِن إعراضٍ، فنجَّاه اللهُ منهم وأهلَكَهم.

٩- ذكرُ قِصَّةِ نبيِّ الله شُعَيبٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع قَومِه، وما لَحِقهم مِن العذابِ جرَّاءَ تكذيبِهم.

١٠- التنويهُ بنزولِ القُرآنِ الكريمِ، وشهادةُ أهلِ الكتابِ له، وأنَّه مُنزَّهٌ عن أن يكونَ شِعرًا أو مِن أقوالِ الشياطينِ، وأمرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإنذارِ عَشيرتِه، وبيانُ أنَّ العَذابَ مُنقَلَبُ الذين يَظلِمون.

## الآيات (١-٩)

﴿طسٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥ فَقَدۡ كَذَّبُواْ فَسَيَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٦ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٩﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَٰخِعٞ﴾: أي: قاتِلٌ، قيل: البَخْعُ: أن يبلُغَ بالذَّبحِ البِخاعَ، وهو عِرقٌ مستبطِنُ القَفا، وذلك أقصَى حدِّ الذَّبحِ[١]، وأصلُ (بخع): يدُلُّ على القَتلِ[٢].

﴿خَٰضِعِينَ﴾: أي: ذَليلينَ، وأصلُ (خضع): يدُلُّ على تَطامُنٍ في الشَّيءِ[٣].

﴿مُحۡدَثٍ﴾: أي: مُجَدَّدٍ إنزالُه، وأصلُ (حدث): يدُلُّ على كَونِ الشَّيءِ بعدَ أنْ

---

(١) قال ابنُ الأثير: (ذَكَره [أي الزمخشري] في كتابِ الفائقِ فِي غريبِ الحديثِ، وكتابِ الكشَّافِ في تفسيرِ القرآنِ، ولم أجدْه لغيرِه وطالما بحثْتُ عنه في كتب اللُّغةِ والطِّبِّ والتَّشريحِ فلم أجِدِ البخاعَ -بالباءِ- مذكورًا في شيءٍ منها). ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (١/ ١٠٢). وأجاب عن ذلك الألوسي وابنُ عاشورٍ بأنَّ الزمخشريَّ ثقةٌ في هذا البابِ واسعُ الاطلاعِ، حجةٌ فيما أثبتَه من ذلك. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦).

لم يكُنْ[١].

﴿زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾: أي: صِنفٍ ونوعٍ حسنٍ، وكلُّ شيءٍ شرُف في بابِه فإنَّه يُوصَفُ بالكرمِ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

ابتدأت السُّورةُ بالحُروفِ المقطَّعةِ، التي تُبيِّنُ إعجازَ القرآنِ؛ وتُبرِزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بالإتيانِ بشيءٍ مِن مثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثون بها!

ثمَّ قال الله تعالى: تلك آياتُ القُرآنِ الواضِحِ، المُظهرِ للحَقِّ.

ثمَّ خاطَب الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بما يُسلِّيه عن تكذيبِ المشركينَ له، فقال: لعلَّك -يا محمَّدُ- مُهلِكٌ نفْسَك غمًّا وأسَفًا؛ بسَبَبِ تَكذيبِ الكافرينَ لك، وعَدَمِ إيمانِهم بدَعوتِك، إنْ نَشَأْ ننزِّلْ على هؤلاء المُشرِكين مُعجِزةً ظاهِرةً مِن السَّماءِ تُلجِئُهم إلى الإيمانِ، فيَنقادوا للحَقِّ مقهورين.

ثمَّ بيَّن سبحانَه ما عليه هؤلاءِ الكافرونَ مِن عنادٍ وجحودٍ، وبيَّن سوءَ عاقبتِهم، فقال: كُلَّما جاءهم قُرآنٌ مُحدَثٌ تَنزيلُه عليك -أيُّها الرَّسولُ- أعرَضوا عنه فلم يُؤمِنوا به، فقد كذَّب هؤلاء الكُفَّارُ بالقُرآنِ الذي جاءهم مِن عندِ الله، فسيأتيهم عاقِبةُ ما كذَّبوا واستَهزؤوا به.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٢٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٨٥، ٧٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٧١).

ثمَّ وبَّخهم سبحانَه على غفلتِهم عن التفكُّرِ في هذا الكونِ، فقال: أوَلم يَرَ أولئك المُشركون إلى ما أنبَتْنا في الأرضِ مِن الأصنافِ الكثيرةِ الكريمةِ الطيِّبةِ النَّافعةِ، إنَّ في ذلك لَدَلالةً على كَمالِ قُدرةِ الله تعالى، وما كان أكثَرُ هؤلاء المُشركين مُؤمِنينَ، وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لهو الغالِبُ القاهِرُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الواسِعُ الرَّحمةِ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعُقوبتِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿طسٓمٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها[1].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ٢﴾.

أي: تلك آياتُ القرآنِ البَيِّنِ، الواضِحِ صِدقُه، المُظهِرِ ببَيانِه ما فيه مِن الهُدى والحَقِّ[2].

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ٣﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنَّه بيَّن الأمورَ قال بعْدَه: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبِقَاعي (١٤/ ١-٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٤-١٧).

منبِّهًا بذلك على أنَّ الكتابَ وإنْ بلَغَ في البيانِ كلَّ غايةٍ فغيرُ مُدخِلٍ لهم في الإيمانِ؛ لِمَا أنَّه سبَقَ حُكْمُ اللهِ بخِلافِه، فلا تُبالغْ في الحزنِ والأسَفِ على ذلك؛ لأنَّك إنْ بالَغْتَ فيه كنتَ بمنزلةِ مَن يَقتُلُ نفْسَه ثمَّ لا يَنتفعُ بذلك أصلًا، فصَبَّرَه وعَزَّاهُ وعرَّفَه أنَّ غَمَّه وحزنَه لا نفعَ فيه، كما أنَّ وُجودَ الكِتابِ على بيانِه ووُضوحِه لا نفعَ لهم فيه[١].

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٣ ﴾.

أي: لعلَّك[٢] -يا محمَّدُ- مُهلِكٌ نفْسَك غمًّا وأسَفًا؛ لعَدَمِ إيمانِ قَومِك بما جِئتَهم به مِن الحَقِّ، فلا تُهلِكْ نفْسَك بحُزنِك عليهم؛ فما عليك إلَّا البلاغُ، واللهُ يَهدي مَن يشاءُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٩٠).

(٢) قال ابن عطية: (وخُوطِب بـ «لعل» على ما في نفوسِ البشَرِ مِن توقُّعِ الهلاكِ في مِثلِ تلك الحالِ، ومعنى الآيةِ أي: لا تهتَمَّ -يا محمَّدُ- بهم، وبلِّغْ رسالتَك، وما عليك مِن إيمانِهم؛ فإنَّ ذلك بيدِ الله، لو شاء لآمَنوا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٤).

وقال ابن عاشور: (و«لعَلَّ» إذا جاءت في ترجِّي الشيءِ المَخُوفِ سُمِّيت إشفاقًا وتوقُّعًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٣).

وقال ابن عثيمين: («لعلَّ»... هنا للإشفاقِ، مثلُ أن تقولَ: «لعلَّ الحبيبَ هالكٌ»، فلا يمكِنُ أن يكونَ قَصدُك ترجِّيَ أن يَهلِكَ حَبيبُك، لكِنَّك تُشفِقُ. واللهُ تعالى أشفقَ على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أن يُهلِكَ نفْسَه -يقتُلها مِن الغَمِّ- بسببِ عدَمِ إيمانِهم، والرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُعاني مِن عدمِ إيمانِهم، ومِن المشقَّةِ الشَّديدةِ، ويَحزَنُ، ويَضيقُ صَدرُه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩).

وقال البِقاعي: (فكان كأنَّه قيل: هذا الكتابُ في غايةِ البيانِ في نفْسِه والإبانةِ للغيرِ، و... أنَّه ليس عليك إلَّا البلاغُ، أتخافُ وتُشفِقُ على نفْسِك من الهلاك غمًّا؛ تأسفًا على عدمِ إيمانِهم، =

كما قال تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [لقمان: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨].

﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ٤ ﴾.

أي: لو شِئْنا لأنزَلْنا على هؤلاءِ الكُفَّارِ مُعجزةً ظاهِرةً مِن السَّماءِ تَضطرُّهم إلى الإيمانِ، فينقادوا للحَقِّ قَهرًا، ولكِنْ أراد اللهُ بحكمتِه أن يكونَ إيمانُ كُلِّ أحدٍ اختياريًّا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠].

﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ٥ ﴾.

أي: وإذا أتى الكُفَّارَ قُرآنٌ حَديثُ النُّزولِ مِن الرَّحمنِ؛ لِيَتذكَّروا ويتَّعِظوا

---

= والحالُ أنَّا لو شئنا لهديناهم طَوعًا أو كَرهًا، والظَّاهِرُ أنَّ جملةَ الإشفاقِ في موضِعِ حالٍ مِن اسمِ الإشارةِ، كما أنَّ الآية التي بعْدَها في موضعِ الحالِ منها، أي: نحن نشيرُ إلى الآياتِ المبيِّنةِ لمُرادِنا فيهم، والحالُ أنَّك -لمزيدِ حِرصِك على نفعِهم- بحالٍ يُشفِقُ فيها عليك مَن لا يعلَمُ الغَيبَ مِن أن تقتُلَ نفْسَك غمًّا لإبائِهم الإيمانَ، والحالُ أنَّا لو شِئْنا أتَيْناهم بما يَقهَرُهم ويُذِلُّهم للإيمانِ وغيرِه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٥، ٩٦).

ويتَّبِعوه، أعرَضوا عنه، فلم يُؤمِنوا به ولم يتدَبَّروه[١]!

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: فقد كذَّب الكُفَّارُ بالقُرآنِ الذي جاءهم مِن عندِ اللهِ، فسيأتيهم في المُستقبَلِ صِدقُ أخبارِ القُرآنِ الذي استَهزؤوا به؛ من هَلاكِهم، ونَصرِ اللهِ نَبيَّه، والبَعثِ في الآخرةِ، ودُخولِهم النَّارَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۝ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٦، ٦٧].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان إعراضُهم عن الإيمانِ بالله الخالقِ لهذا الوجودِ، وتكذيبُ ما جاءَتْهم به رسُلُه؛ مِن أعظمِ الكفرِ، وكانوا يجعلونَ الأصنامَ آلهةً؛ نَبَّهَ تعالى على قدرتِه، وأنَّه الخالقُ المنشئُ الذي يَستحِقُّ العبادةَ، فقال تعالى[٣]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٥، ٩٦).

قال ابن عثيمين: (وهذا الإعراضُ معنويٌّ وحِسيٌّ، يشملُ الأمْرين؛ فهم مُعرِضون وإن حَضَروا بأبدانهم، ومُعرِضون أيضًا بأبدانِهم يقومون عنه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، فهم معرضون -والعياذُ بالله- في قلوبهم وأبدانِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٠)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيميَّة (١/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤١).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾﴾.

أي: أولم يَرَ[1] أولئك المُشرِكون إلى الأرضِ، فيتفكَّروا في كثرةِ ما أنبَتْنا فيها مِن الأصنافِ الطيِّبةِ الحَسَنةِ النَّافعةِ[2]؟!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان ما سبَقَ باهرًا للعَقلِ، مُنَبِّهًا له في كلِّ حالٍ على عَظيمِ اقتِدارِ صانِعِه، وبَديعِ اختيارِه؛ وصَلَ به قولَه[3]:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

أي: إنَّ في إحياءِ الأرضِ وإنباتِها بعدَ مَوتِها لَدَلالةً على قُدرةِ اللهِ على إحياءِ

---

(١) قال ابنُ عثيمين: (تحتَمِل المعنيَين؛ الرؤيةَ الحِسِّيةَ: إذا نظَر بعَينِه هو. والعِلميَّةَ: إذا عَلِمَ بذلك مِن غيرِه؛ لأنَّ هناك أشياءَ لا نعلَمُها مِمَّا يَنبتُ في الأرض، يعني: لا نراها ولكِنَّنا نُخبَرُ بها، فالأولَى أن يقال: إنه شامِلٌ للنظرِ بالعَينِ، والنظَرِ بالقلبِ الذي هو العِلمُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٢).

ممَّن اختار أنَّ المعنَى: أوَ لم يَنظُروا: السمرقنديُّ، والكرماني، والبيضاوي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير الشوكاني (٤/ ١١٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٦١).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ نبَّه على عظَمتِه وقدرتِه، وأنَّهم لو رأوا بقلوبِهم، ونظَروا ببصائرِهم لعَلِموا أنَّه الذي يَستحقُّ أنْ يُعبَدَ؛ إذ هو القادرُ على كلِّ شيءٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠، ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١).

الموتى[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

أي: وما أكثَرُ هؤلاء المُشرِكين بمؤمِنينَ باللهِ تعالى وآياتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يس: ٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩).

قال البقاعي: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي: الأمرِ العَظيمِ مِن الإنباتِ، وما تقَدَّمَه مِن العِظاتِ على كثرتِه ﴿لَآيَةً ﴾ أي: عَلامةً عظيمةً جدًّا لهم على تمامِ القُدرةِ على البَعثِ وغَيرِه، كافيةً في الدعاءِ إلى الإيمانِ، والزَّجرِ عن الطُّغيانِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٦).

قال ابن عثيمين: (قال: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ فلا ينتَفِعُ بالآيةِ إلَّا المؤمِنُ، فإذا لم ينتفعْ بها أحدٌ ما صارت بالنسبةِ إليه آيةً؛ ولهذا قيَّدَها بقَولِه: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي: لا ينتَفِعونَ بها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٥).

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لهُو القويُّ الغالِبُ، القاهِرُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعِقابِه، ويقبَلُ تَوبةَ مَن آمَنَ به، وينَجِّي أولياءَه مِن عَذابِه[1].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

لا يَنبغي أنْ نَجزَعَ إذا ذكَّرْنا إنسانًا ووجَدْناه يُعانِدُ أو يُخاصِمُ أو يقولُ: «أنا أعمَلُ ما شئتُ» أو ما أشبهَ ذلك؛ قال الله تعالى لنبيِّه: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ لا تُهْلِكْ نفسَك إذا لم يؤمِنوا؛ إيمانُهم لهم، وكُفرُهم ليس عليك[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ ﴾ دليلٌ على إثباتِ الحِكمةِ؛ لأنَّ اللهَ لم يُنَزِّلْ هذه الآيةَ؛ لأنَّه لو أنزَلها لكان الإيمانُ اضطراريًّا، والإيمانُ الاضطراريُّ لا مَدحَ فيه ولا ثناءَ، بل لا يَنفَعُ صاحبَه؛ فلهذا إذا آمَنَ الإنسانُ عندَ ملاقاةِ الموتِ ما نفعَه، وبعدَ طلوعِ الشَّمسِ مِن مغربِها ما نفعَه! نعم، لا يَنفَعُ إلَّا إذا كان الإيمانُ اختياريًّا، ولَمَّا نَتَقَ اللهُ الجبلَ فوقَ بني إسرائيلَ آمَنوا، ولكنَّ هذا الإيمانَ لا شَكَّ أنَّه ضعيفٌ؛ لأنَّه إيمانٌ اضطراريٌّ، فمِنْ حكمةِ اللهِ سبحانه وتعالى أنَّه لم يُنَزِّلْ هذه الآيةَ ليَكونَ الإيمانُ عن اختيارٍ، لا عن اضطرارٍ[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٤).

إنْ قيل: لِماذا لم يُرِهم آيةً كما أُرِيَ بنو إسرائيلَ نَتْقَ الجبَلِ فوقَهم كأنَّه ظُلَّةٌ؟

**الجواب**: كان بنو إسرائيلَ مُؤمِنينَ بموسى وما جاء به، فلم يكنْ إظهارُ الآياتِ لهم لإلجائِهم على الإيمانِ، ولكِنَّه كان لزيادةِ تثبيتِهم، كما قال إبراهيمُ عليه السلامُ: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[1] [البقرة: ٢٦٠].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الأسبابَ مؤثِّرةٌ؛ لأنَّه إذا نزلَتِ الآيةُ خَضَعوا، وهذا دليلٌ على ثبوتِ الأسبابِ وأنَّها مؤثِّرةٌ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أنَّه تعالى وصَفَ الكُفَّارَ بالإعراضِ أوَّلًا، وبالتَّكذيبِ ثانيًا، وبالاستِهزاءِ ثالثًا؛ وهذه درجاتُ مَن أخذَ يترقَّى في الشَّقاوةِ؛ فإنَّه يُعرِضُ أولًا، ثم يُصَرِّحُ بالتَّكذيبِ والإنكارِ إلى حيثُ يَستهزئُ به ثالثًا[3].

٥- قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أنواعُ النَّباتِ المذكورةُ في هذه الآيةِ دالَّةٌ على وَحدانيَّةِ اللهِ؛ لأنَّ هذا الصُّنعَ الحَكيمَ لا يَصدُرُ إلَّا عن واحدٍ لا شريكَ له. وهذا دَليلٌ مِن طريقِ العقْلِ، ودليلٌ أيضًا على إمكانِ البعثِ؛ لأنَّ الإنباتَ بعدَ الجَفافِ مثيلٌ لإحياءِ الأمواتِ بعدَ رُفاتِهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا﴾ [يس: ٣٣]. وهذا دَليلٌ تقْريبيٌّ للإمكانِ؛ فكان في آيةِ الإنباتِ تَنبيهٌ على إبطالِ أصْلَيْ عدَمِ إيمانِهم؛ وهما: أصْلُ الإشراكِ باللهِ، وأصلُ إنكارِ البعثِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٠، ١٠١).

٦- قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإنْ قيل: حين ذُكِرَ الأزواجُ ودَلَّ عليها بكلمتَي الكثرةِ والإحاطةِ، وكانت بحيث لا يُحصيها إلَّا عالِمُ الغَيبِ، كيف قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ وهلَّا قال: (آيات)؟

**فالجوابُ من عدَّةِ أوجُهٍ:**

**الأول**: أن يكونَ ذلك مُشارًا به إلى مصدرِ ﴿أَنْبَتْنَا﴾، فكأنَّه قال: إنَّ في الإنباتِ لآيةً أيَّ آيةٍ، فالمُشارُ إليه واحدٌ، وهو الإنباتُ، وإنِ اختلَفَت مُتعلَّقاتُه.

**الثاني**: أن يُرادَ: إنَّ في كُلِّ واحدةٍ مِن تلك الأزواجِ لَآيةً؛ فيَكونَ على التَّوزيعِ[1].

**الثالث**: لعلَّه وحَّدها على كثرتِها إشارةً إلى أنَّ الدَّوالَّ عليه متساويةُ الأقدامِ في الدَّلالةِ، فالراسخون تُغنيهم واحدةٌ، وغيرُهم لا يَرجعون لشيءٍ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ خَتَمَ اللهُ تعالى بعِزَّتِه ورحمتِه؛ لِيَجمعَ بيْنَ الترغيبِ والترهيبِ؛ التَّرهيبِ بالعِزَّةِ، والتَّرغيبِ بالرَّحمةِ[3].

٨- في قوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ الجمعُ هنا بينَ هاتينِ الصِّفتينِ «العِزَّةِ، والرَّحمةِ» للتناسُبِ البالغِ؛ لأنَّ مِن اجتماعِهما يحصلُ الكمالُ، فهو بعِزَّتِه ذو رحمةٍ؛ فلو قارنَّا بينَ العزةِ والرحمةِ في صفاتِ المخلوقينَ لوجَدْنا أنَّهما لا يجتمعان في الغالبِ؛ وأنَّ العزيزَ الذي يَرى نفْسَه قاهرًا: في الغالبِ لا تكونُ فيه رحمةٌ، فاجتماعُ الصِّفتينِ يحصلُ بهما كمالٌ على الكمالِ، عِزَّةٌ ورحمةٌ، ثم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٧).

اجتماعُهما كمالٌ، فيكونُ مع العِزَّةِ رحيمًا لا يُؤاخِذُ ولا يَنتقِمُ؛ ولهذا لم يُعَجِّلِ اللهُ سبحانه وتعالى العقوبةَ للظالمِ، ولكنَّه بحكمتِه يُمْلي له حتَّى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْه[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿طسٓمٓ﴾ المقصودُ بهذه الحروفِ المُقطَّعةِ: التَّعريضُ بإلْهابِ نُفوسِ المُنكِرينَ لِمُعارَضةِ بعضِ سُورِ القرآنِ بالإتيانِ بمِثْلِه في بَلاغتِه وفصاحتِه، وتحدِّيهم بذلك، وتسجيلِ عجْزِهم عن ذلك[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ الإشارةُ بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى الحاضرِ في الأذهانِ مِن آياتِ القرآنِ المُنزَّلِ مِن قبْلُ، وبيَّنَه الإخبارُ عن اسمِ الإشارةِ بأنَّها آياتُ الكتابِ[٣]، وما في اسمِ الإشارةِ مِن معنى البُعدِ؛ للتَّنبيهِ على بُعدِ منزلةِ المُشارِ إليه في الفَخامةِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ الكلامُ استئنافٌ بَيانيٌّ، وقَع جوابًا عمَّا يُثيرُه مَضمونُ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ مِن تساؤُلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في نفْسِه عن استمرارِ إعراضِ المُشركينَ عن الإيمانِ وتصديقِ القرآنِ. وحُوِّلَ الخِطابُ مِن تَوجيهِه إلى المعاندينَ إلى تَوجيهِه للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهو نوعٌ مِن الالْتفاتِ؛ فيه الْتفاتٌ مِن أُسلوبٍ إلى أُسلوبٍ، والْتفاتٌ عمَّن كان الكلامُ مُوجَّهًا إليه بتَوجيهِ الكلامِ إلى شخصٍ آخَرَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٢٤١) و(١٩/ ٩٣).

- قولُه: ﴿لَعَلَّكَ﴾ (لعلَّ) للإشفاقِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١]، وهو حثٌّ على ترْكِ الأسفِ مِن ضَلالِهم، على طريقةِ تَمثيلِ شأْنِ المُتكلِّمِ الحاثِّ على الإقلاعِ بحالِ مَن يَستقرِبُ حُصولَ هَلاكِ المُخاطَبِ إذا استمرَّ على ما هو فيه مِن الغَمِّ[٢].

- قولُه: ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ جِيءَ بمُضارعِ الكَونِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه لا يأسَفُ على عدَمِ إيمانِهم ولوِ استمرَّ ذلك في المُستقبَلِ؛ فيكونُ انتفاؤُه فيما مَضى أوْلى بألَّا يُؤسَفَ له. وعدَلَ عن (ألَّا يُؤمِنوا) إلى ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾؛ لأنَّ في فِعلِ الكونِ دَلالةً على الاستمرارِ، زِيادةً على ما أفادَتْه صِيغةُ المُضارعِ، فتأكَّدَ استمرارُ عدَمِ إيمانِهم الَّذي هو مَورِدُ الإقلاعِ عن الحُزنِ له[٣].

- وضَميرُ ﴿يَكُونُوا۟﴾ عائدٌ إلى معلومٍ مِن مقامِ التَّحدِّي الحاصلِ بقولِه: ﴿طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ١، ٢]؛ للعلْمِ بأنَّ المُتحدَّيْنَ هم الكافِرونَ المُكذِّبون[٤].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾؛ إمَّا لأنَّ المُرادَ: مُؤمنينَ بما جئتَ به مِن التَّوحيدِ والبعثِ، وتَصديقِ القرآنِ وتصديقِ الرَّسولِ، وإمَّا لأنَّه أُريدَ بـ ﴿مُؤْمِنِينَ﴾ المعنى اللَّقبيُّ، أي: ألَّا يَكونوا في عِدادِ الفريقِ المعروفِ بالمؤمنينَ، وهم أمَّةُ الإسلامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقد جاء في سُورةِ (الكهفِ): ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦] بحرْفِ نفْيِ الماضي وهو (لَمْ)؛ لأنَّ سُورةَ (الكهفِ) مُتأخِّرةُ النُّزولِ عن سُورةِ (الشُّعراءِ)؛ فعدَمُ إيمانِهم قد تقرَّرَ حينَئذٍ، وبلَغَ حدَّ المأْيوسِ منه[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم ... ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ ما يُفْهَمُ مِن الكلامِ مِن النَّهيِ عن التَّحسُّرِ المذكورِ، ببَيانِ أنَّ إيمانَهم ليس ممَّا تعلَّقتْ به مَشيئةُ اللهِ تعالى حتْمًا؛ فلا وجْهَ للطَّمعِ فيه، والتَّألُّمِ مِن فَواتِه[٢].

- وهو استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن ﴿أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾؛ لأنَّ التَّسليةَ على عدَمِ إيمانِهم تُثيرُ في النَّفسِ سُؤالًا عن إمهالِهم دونَ عُقوبةٍ لِيُؤمِنوا، كما قال موسى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمۡوَٰلًا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾[يونس: ٨٨]، فأُجيبَ بأنَّ اللهَ قادرٌ على ذلك. فهذا الاستئنافُ اعتراضٌ بيْنَ الجُملتينِ المعطوفةِ إحداهما على الأُخرى[٣].

- وجِيءَ بحرْفِ (إنْ) الَّذي الغالبُ فيه أنْ يُشعِرَ بعدَمِ الجزْمِ بوُقوعِ الشَّرطِ؛ للإشعارِ بأنَّ ذلك لا يَشاؤُه اللهُ لحِكمةٍ اقتضَتْ ألَّا يَشاءَه[٤].

- ومفعولُ ﴿نَّشَأۡ﴾ محذوفٌ، يدُلُّ عليه جوابُ الشَّرطِ على الطَّريقةِ الغالبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٩٥).

في حذْفِ مفعولِ فِعلِ المشيئةِ. والتَّقديرُ: إنْ نشَأْ تَنزيلَ آيةٍ نُنزِّلْها[١]، وقيل: إنْ نشَأْ إيمانَهم[٢].

- وتَقديمُ الظَّرفينِ -﴿عَلَيۡهِم﴾ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾- على المفعولِ الصَّريحِ ﴿ءَايَةً﴾؛ للاهتمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٣].

- قولُه: ﴿فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾ أصْلُ الكلامِ: فظَلُّوا لها خاضعينَ، فأُقحِمَتِ الأعناقُ لبَيانِ مَوضعِ الخُضوعِ، وتُرِكَ الكَلامُ على أصْلِه، كقولِه: ذهبَتْ أهلُ اليمامةِ، كأنَّ الأهلَ غيرُ مذكورٍ. أو لَمَّا وُصِفَت بالخُضوعِ الَّذي هو للعُقلاءِ قيل: ﴿خَٰضِعِينَ﴾، كقولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]. وقيل: أعناقُ النَّاسِ: رُؤساؤهم ومُقدَّمُوهم، شُبِّهوا بالأعناقِ كما قيل لهم: هم الرُّؤوسُ والنَّواصي والصُّدورُ. وقيلَ: جماعاتُ النَّاسِ[٤]. وفائدةُ الوجْهِ الأوَّلِ -وهو إقحامُ العُنقِ- تصويرُ حالةِ الخضوعِ؛ إدخالًا للرَّوعةِ. والوجْهُ الثَّاني مِن بابِ إجراءِ ما لا يَعقِلُ مُجرى العُقلاءِ؛ مُبالغةً لِخُضوعِهم، فكأنَّه سَرى منهم إليها. والثَّالثُ مِن إطلاقِ الجُزءِ على الكلِّ؛ فإنَّ المُتكبِّرَ إنَّما يَظهَرُ تجبُّرُه في عُنقِه، ولَيِّه له[٥].

- وفُرِّعَ على تَنزيلِ الآيةِ ما هو في مَعنى الصِّفةِ لها، وهو جُملةُ ﴿فَظَلَّتۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٣، ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٠، ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١٦).

أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴾ بفاءِ التَّعقيبِ[١].

- قولُه: ﴿فَظَلَّتْ﴾ معطوفٌ على المُضارعِ ﴿نُنَزِّلْ﴾ الَّذي لو استُعمِلَ بدَلَه الماضي لكانَ صحيحًا[٢]، وفائدةُ وضْعِ ﴿نُنَزِّلْ﴾ مَوضِعَ (أنزَلْنا): استحضارُ صُورةِ إنزالِ تلك الآيةِ العظيمةِ المُلْجِئةِ إلى الإيمانِ، وحُصولِ خُضوعِ رِقابِهم عندَ ذلك في ذِهنِ السَّامعِ؛ لِيَتعجَّبَ منه، وإلَّا لم يصِحَّ عطْفُ الماضي على المُستقبَلِ بحرفِ التَّعقيبِ، أو جَعْلُ الماضي مُسبَّبًا عن المُستقبَلِ[٣]. وقيل: فائدةُ عَطفِ ﴿فَظَلَّتْ﴾ -وهو ماضٍ- على المضارعِ ﴿نُنَزِّلْ﴾: التفنُّنُ بيْنَ الصِّيغتَينِ، وتقريبُ زَمنِ مُضيِّ المُعقَّبِ بالفاءِ مِن زَمَنِ حُصولِ الجزاءِ، بحيثُ يكونُ حصولُ خُضوعِهم للآيةِ بمَنزلةِ حُصولِ تَنزيلِها؛ فيتِمُّ ذلك سريعًا حتَّى يُخيَّلَ لهم مِن سُرعةِ حُصولِه أنَّه أمرٌ مضَى؛ فلذلك قال: ﴿فَظَلَّتْ﴾، ولم يقُلْ: (فتَظَلُّ)، وهذا قريبٌ من استِعمالِ الماضي في قولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وكِلاهما للتهديدِ[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بَيانٌ لشِدَّةِ شَكيمتِهم، وعدَمِ ارْعِوائِهم عمَّا كانوا عليه مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ بغيرِ ما ذُكِرَ مِن الآيةِ المُلْجِئةِ؛ لِصَرْفِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الحِرصِ على إسلامِهم، وقَطْعِ رجائِه عنه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٥).

(٢) قال النحاسُ: (﴿فَظَلَّتْ﴾ معناه فتظَلّ؛ لأنَّ الماضيَ يأتي بمعنى المستقبَلِ في المجازاةِ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٥، ٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤).

- قولُه: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ... ﴾ فيه دَلالةٌ على فَضْلِه وشَرفِه، وشَناعةِ ما فعَلوا به. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمةِ؛ لِتَغليظِ شَناعتِهم، وتَهويلِ جِنايتِهم؛ فإنَّ الإعراضَ عمَّا يأْتيهم مِن جَنابِه عزَّ وجلَّ على الإطلاقِ شَنيعٌ قبيحٌ، وعمَّا يأْتيهم بمُوجَبِ رَحمتِه تعالى لِمَحضِ مَنفعتِهم أشنَعُ وأقبَحُ[١].

- وقولُه: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم ... ﴾ فيه التعبيرُ بالمُضارِعِ (يأتي)؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ والاستمرارِ[٢].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ مُؤكِّدةٌ لعُمومِ نفْيِ الأحوالِ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ جاء قولُه هنا: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴾ بذِكْرِ اسمِ (الرَّحمنِ) دونَ وصْفِ (الرَّبِّ) كما في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢]. ووَجْهُه: أنَّ السِّياقَ هنا لِتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على إعراضِ قَومِه؛ فكان في وصْفِ مُؤْتي الذِّكْرِ بـ(الرَّحمنِ) تَشنيعٌ لحالِ المُعرِضينَ، وتَعريضٌ لِغَباوتِهم أنْ يُعرِضوا عمَّا هو رَحمةٌ لهم، فإذا كانوا لا يُدْرِكون صَلاحَهم، فلا تَذهَبْ نفْسُك حَسراتٍ على قومٍ أضاعوا نفْعَهم، وأنت قد أرشدْتَهم إليه وذَكَّرْتَهم، كما قال المَثَلُ[٤]: لا يَحزُنْك دمٌ هَراقَه أهْلُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((الأمثال)) للقاسم بن سلَّام (ص: ٣٣١)، ((مجمع الأمثال)) للميداني (٢/ ٢٣١)، ((المستقصى في أمثال العرب)) للزمخشري (٢/ ٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٨).

- وقيلَ: خُصَّتْ سُورةُ (الأنبياءِ) بقولِه: ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ بالإضافةِ؛ لأنَّ (الرَّحمنَ) لم يأْتِ مُضافًا، ولِمُوافقةِ ما بعْدَه، وهو قولُه: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ﴾ [الأنبياء: ٤]، وخُصَّتْ سُورةُ (الشُّعراءِ) بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾؛ لِيَكونَ كلُّ سُورةٍ مَخصوصةً بوصْفٍ مِن أوصافِه؛ وليس في أوصافِ اللهِ تعالى اسمٌ أشبَهُ باسمِ (اللهِ) مِن (الرَّحمنِ)؛ لأنَّهما اسمانِ ممنوعانِ أنْ يُسمَّى بهما غيرُ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ ولِمُوافقةِ ما بعْدَه، وهو قولُه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]؛ لأنَّ (الرَّحمنَ) و(الرَّحيمَ) مِن مَصدرٍ واحدٍ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- وفي الإتيانِ بفِعلِ ﴿كَانُوا۟﴾ وخبَرِه دُونَ أنْ يُقالَ: (إلَّا أعْرَضوا): إفادةُ أنَّ إعراضَهم راسخٌ فيهم، وأنَّه قديمٌ مُستمِرٌّ؛ إذ أخبَرَ عنهم قبْلَ ذلك بقولِه: ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]، فانتِفاءُ كونِ إيمانِهم واقعًا هو إعراضٌ منهم عن دَعوةِ الرَّسولِ الَّتي طريقُها الذِّكْرُ بالقرآنِ، فإذا أتاهُم ذِكْرٌ بعدَ الذِّكْرِ الَّذي لم يُؤمِنوا بسَببِه، وجَدَهم على إعراضِهم القديمِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ، أي: إلَّا يَكونوا عنه مُعرِضينَ، تدُلُّ على أنَّ دَيْدَنَهم وعادتَهم الإعراضُ عن ذِكْرِ اللهِ، أي: هذِه عادتُهم، فلا تأسَفْ لعدَمِ إيمانِهم بآياتِ الكتابِ المُبينِ، وما يَجيئُهم منها مِن بَعْدُ، فسيُعرِضون عنه؛ لأنَّهم عُرِفوا بالإعراضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٩٦١)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٧).

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ على الخبرِ؛ لرِعايةِ الفاصلةِ(١).

- وهذه الآيةُ مُتَّصِلةٌ معنًى بقولِه تعالى: ﴿طسٓمٓ * تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ١، ٢]؛ فإنَّه تعالى أعلَمَ أوَّلًا: أنَّه أنزَلَ هذا الكتابَ الكريمَ في نِهايةٍ مِن الوُضوحِ والبَيانِ، وأنَّهم ما رَفَعوا له رأسًا، ثمَّ نبَّهَ ثانيًا على أنَّ هذا الكتابَ مع وُضوحِ آياتِه إنَّما أُنزِلَ على سبيلِ التَّدرُّجِ؛ لِيَكونَ أدخَلَ في التَّذكيرِ، وأنجَعَ في الاتِّعاظِ به، وهم مع ذلك قابَلوا كلَّ حِصَّةٍ منه بتَكذيبٍ واستِهزاءٍ، كلُّ ذلك تَسليةً لحَبيبِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لئلَّا يَذهَبَ بنفْسِه حَسَراتٍ؛ ولذلك أوقَعَ قولَه تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ...﴾ الآيتينِ اعتراضًا، يعني: انظُرْ إليهم وإلى ما فعَلوا بمِثْلِ هذا الكتابِ الكريمِ وبمُنزِلِه، على أنَّه قادرٌ على أنْ يَقْسِرَهم على الإيمانِ وهم مُهانون خاضِعون، فأشْفِقْ على نفْسِك أنْ تَقتُلَها حَسرةً على ما فاتَك مِن إسلامِهم(٢).

٦- قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ خُولِفَ بيْنَ الألفاظِ -وهي الإعراضُ والتَّكذيبُ والاستهزاءُ- والغرضُ واحدٌ، وهو الإعراضُ؛ وذلك لاختلافِ الأغراضِ، كأنَّه قِيل: حِينَ أعْرَضوا عن الذِّكْرِ فقد كذَّبوا به، وحينَ كذَّبوا به فقد خفَّ عندَهم قَدْرُه، وصار عُرضةً للاستهزاءِ والسُّخريةِ؛ لأنَّ مَن كان قابلًا للحقِّ مُقبلًا عليه، كان مُصدِّقًا به لا مَحالةَ ولم يُظَنَّ به التَّكذيبُ، ومَن كان مُصدِّقًا به كان مُوقِّرًا له؛ فعدَل في قولِه: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عمَّا يَقْتضيهِ سائرُ ما سلَفَ مِن الإعراضِ والتَّكذيبِ؛ للإيذانِ بأنَّهما كانا مُقارنَينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١٧، ٣١٨).

للاستِهزاءِ[١]؛ فالمقصودُ التَّدرُّجُ مِن غَرضٍ إلى غرضٍ، وتصويرُ معنَى ما صدَرَ منهم مِن الاستهزاءِ، وأنَّه نَتيجةُ التَّكذيبِ المُسبَّبِ عن الإعراضِ؛ فالفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ عاطفةٌ، وفي قولِهم: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ سَببيَّةٌ فصيحةٌ؛ لأنَّ مدْخولَها وعيدٌ للمُستهزِئ، والوعيدُ مَسبوقٌ بحُصولِ الاستهزاءِ[٢]. وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ فَصيحةٌ، أي: فقد تَبيَّنَ أنَّ إعراضَهم إعراضُ تكذيبٍ، بعْدَ الإخبارِ عنهم بأنَّ سُنَّتَهم الإعراضُ عن الذِّكْرِ الآتي بعضُه عقِبَ بعضٍ؛ فإنَّ الإعراضَ كان لأنَّهم قد كذَّبوا بالقُرآنِ. والفاءُ في قولِه: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ لترتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها، وتَعقيبِ الإخبارِ بالوعيدِ بعْدَ الإخبارِ بالتَّكذيبِ[٣].

- وقيل: في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ احتِباكٌ[٤]؛ حيثُ ذَكَر التكذيبَ أولًا دليلًا على حذْفِه ثانيًا، والاستهزاءَ ثانيًا دليلًا على حَذْفِ مِثْلِه أولًا[٥].

- والسِّينُ والفاءُ في قولِه: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ﴾ لتَأكيدِ مَضمونِ الجُملةِ وتَقريرِه[٦].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وعيدٌ لهم وإنذارٌ بأنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٨).

(٤) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤).

سيَعلمون إذا مسَّهم عذابُ اللهِ ما الشَّيءُ الَّذي كانوا يَستهزِئون به[١]. وأنباؤُه: ما سيَحيقُ بهم مِن العُقوباتِ العاجلةِ والآجلةِ، عبَّرَ عنها بذاكَ؛ إمَّا لكَونِها ممَّا نبَّأَ بها القُرآنُ الكريمُ، وإمَّا لأنَّهم بمُشاهَدتِها يَقِفُون على حقيقةِ حالِ القُرآنِ، كما يقِفُون على الأحوالِ الخافيةِ عنهم باستماعِ الأنباءِ، وفيه تَهويلٌ له؛ لأنَّ النَّبأَ لا يُطلَقُ إلَّا على خبرٍ خطيرٍ، له وقْعٌ عظيمٌ[٢].

- وأُوثِرَ إفرادُ فِعلِ (يأْتيهم)، مع أنَّ فاعلَه جمْعُ تَكسيرٍ لغيرِ مُذكَّرٍ حقيقيٍّ يجوزُ تأْنيثُه؛ لأنَّ الإفرادَ أخفُّ في الكلامِ؛ لكثرةِ دَوَرانِه[٣].

- و(ما) في قولِه: ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ موصولةً؛ فيجوزُ أنْ يكونَ ماصَدَقَها[٤] القرآنَ، وذلك كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾ [البقرة: ٢٣١]. وجِيءَ في صِلَتِه بفِعلِ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دونَ (يُكذِّبون)؛ لتَحصُلَ فائدةُ الإخبارِ عنهم بأنَّهم كذَّبوا به واسْتَهْزؤوا به، وتكون الباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ لتَعديةِ فِعلِ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، والضَّميرُ المجرورُ عائدًا إلى (ما) الموصولةِ، وأنباؤُه: أخبارُه بالوعيدِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ماصَدَقَ (ما): جِنسَ ما عُرِفوا باستهزائِهم به، وهو التَّوعُّدُ؛ كانوا يقولون: متى هذا الوعدُ؟ ونحوَ ذلك. وإضافةُ ﴿أَنۢبَٰٓؤُاْ﴾ إلى ﴿مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ على هذا إضافةٌ بَيانيَّةٌ، أي: ما كانوا به يَستهزِئون الَّذي هو أنباءُ ما سيَحُلُّ بهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٠).

(٤) الماصَدَق -عند المناطقة-: الأفرادُ التي يتحقَّقُ فيها معنى الكليِّ، ويقابلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كليٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

وجمْعُ الأنباءِ على هذا باعتبارِ أنَّهم اسْتَهْزؤوا بأشياءَ كثيرةٍ؛ منها البعثُ، ومنها العذابُ في الدُّنيا، ومنها نصْرُ المُسلمينَ عليهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، ومنها فتْحُ مكَّةَ، ومنها عذابُ جهنَّمَ، وشجرةُ الزَّقُّومِ. ويجوزُ كونُ (ما) مصدريَّةً، أي: أنباءُ كونِ استهزائِهم، أي: حُصوله، وضميرُ ﴿بِهِۦ﴾ عائدًا إلى معلومٍ مِن المقامِ، وهو القرآنُ أو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

- وإقحامُ فِعلِ ﴿كَانُوا۟﴾ هنا؛ لإفادةِ أنَّ استهزاءَهم راسخٌ فيهم، وأنَّه قديمٌ مُستمِرٌّ. وأُوثِرَ الإتيانُ بالفِعلِ المضارعِ -وهو ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾- دونَ اسمِ الفاعلِ كالَّذي في قولِه: ﴿كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥]؛ لأنَّ الاستهزاءَ يتجدَّدُ عندَ تجدُّدِ وَعيدِهم بالعذابِ، وأمَّا الإعراضُ فمُتمكِّنٌ منهم(٢).

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث جاء قولُه هنا: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وفي سُورةِ (الأنعام) قولُه تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ٥]. ووجْهُه: أنَّ سُورةَ الأنعامِ مُتقدِّمةٌ في النُّزولِ على (الشُّعراءِ)، فاستوفَى فيها اللَّفْظَ؛ فقيَّدَ التَّكذيبَ بقولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ﴾ على التَّمام، وحذَف مِن (الشُّعراءِ)، وهو مرادٌ؛ إحالةً على الأوَّلِ، فذَكَرَ فيها: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾ مُطلقًا؛ لأنَّ تَقييدَه في هذه السُّورةِ يدُلُّ عليه، ثمَّ اقتصَرَ على السِّينِ هنا بدلَ (سوف)؛ لِيتَّفِقَ اللَّفظانِ فيه على الاختصارِ(٣). ولَمَّا كان فِعلُ الاستقبالِ المقرونُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٧).

بـ (سوف) أبعَدَ زمانًا مِن المقرونِ بالسِّينِ، تَعيَّن الأوَّلُ فيما نزل أوَّلًا، والثاني فيما نزَل آخِرًا[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الواوُ عاطفةٌ على جُملةِ ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥]؛ فالهمزةُ الاستفهاميَّةُ منه مُقدَّمةٌ على واوِ العطفِ لفظًا؛ لأنَّ للاستفهامِ الصَّدارةَ، والاستفهامُ إنكارٌ على عدَمِ رُؤيتِهم ذلك؛ لأنَّ دَلالةَ الإنباتِ على الصَّانعِ الواحدِ دَلالةٌ بيِّنةٌ لكلِّ مَن يراهُ، فلمَّا لم يَنتفِعوا بتلك الرُّؤيةِ نُزِّلَت رُؤيتُهم مَنزلةَ العدَمِ، فأنكَرَ عليهم ذلك[٢].

- وقيل: الهَمزةُ للإنكارِ التَّوبيخيِّ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أفَعَلوا ما فَعَلوا مِن الإعراضِ عن الآياتِ، والتَّكذيبِ والاستهزاءِ بها، ولم ينظرُوا ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾[٣]!

- قولُه: ﴿كَمۡ أَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لِمَا في الأرضِ مِن الآياتِ الزَّاجرةِ عن الكُفرِ، الدَّاعيةِ إلى الإيمانِ[٤].

- و(مِن) تَبعيضيَّةٌ. ومَوردُ التَّكثيرِ الَّذي أفادَتْه (كم) هو كثرةُ الإنباتِ في أمكنةٍ كثيرةٍ، ومَوردُ الشُّمولِ المُفادِ مِن (كل) هو أنواعُ النَّباتِ وأصنافُه؛ وفي الأمْرينِ دَلالةٌ على دَقيقِ الصُّنعِ. واستُغْنِيَ بذِكْرِ أبعاضِ كلِّ زوجٍ عن ذِكْرِ مُميِّزِ (كم)؛ لأنَّه قد عُلِمَ مِن التَّبعيضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٠، ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠١).

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ جَمَعَ بيْنَ (كم) و(كل)، ولم يقُلْ: كم أنبَتْنا فيها مِن زوجٍ كريم؛ لأنَّ (كل) دلَّت على الإحاطةِ بأزواجِ النَّباتِ على سبيلِ التَّفصيلِ، و(كم) دلَّت على أنَّ هذا الذي أحاط بأزواج النبات متكاثرٌ، مُفرِطُ الكثرةِ، فالمحيطُ: الكلُّ، والمحاطُ به: الأصنافُ، فهذا معنى الجمْعِ بيْنَهما، وبه نبَّهَ على كَمالِ قُدرتِه[1]؛ فمَقامُ بَيانِ كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى يَقْتضي إيرادَ ما يَستوعِبُ الأصنافَ كلَّها مع بَيانِ تكاثُرِها، ولا يَحصُلُ ذلك إلَّا بالجمْعِ بيْن (كم) و(كل)[2]؛ ففي الآيةِ فنُّ التَّتميمِ[3].

- وأيضًا في قولِه: ﴿كَرِيمٍ﴾ فنُّ التَّتميمِ، فتمَّمَ وصْفَه الزَّوجَ بالكريمِ؛ وذلك لأمْرينِ:

أ- أنَّ النَّباتَ على نوعينِ: نافعٍ وضارٍّ، فدلَّ بكلمةِ ﴿كَرِيمٍ﴾ أنَّه يَقصِدُ النَّوعَ النَّافعَ؛ لاختصاصِه بالدَّلالةِ على القُدرةِ والنِّعمةِ معًا، فذكَرَ كثرةَ ما أنبَتَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤١، ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٢١).

(٣) التَّتميم: من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو: هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو: هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التتميم قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

الأرضِ مِن جميعِ أصنافِ النَّباتِ النَّافعِ، وخلَّى ذِكْرَ الضَّارِّ.

ب- أنَّه يَقصِدُ كِلَا النَّوعينِ النَّافعِ والضَّارِّ، ويَصِفُهما جميعًا بالكرَمِ؛ تَنبيهًا على أنَّه ما أنبَتَ شيئًا إلَّا لفائدةٍ؛ لأنَّ الحكيمَ لا يَفعَلُ فِعلًا إلَّا لغرضٍ صحيحٍ ولِحكمةٍ بالغةٍ، وإنْ غفَلَ عنها الغافلونَ، ولم يَتوصَّلْ إلى مَعرفتِها العاقلونَ[1].

- قولُه: ﴿زَوۡجٖ كَرِيمٖ﴾ هذا مِن إدماجِ[2] الامتِنانِ في ضِمْنِ الاستِدلالِ؛ لأنَّ الاستدلالَ على بَديعِ الصُّنعِ يَحصُلُ بالنَّظرِ في إنباتِ الكريمِ وغيرِه؛ ففي الاستِدلالِ بإنباتِ الكريمِ مِن ذلك وفاءٌ بغَرضِ الامتنانِ مع عدَمِ فَواتِ الاستدلالِ. وأيضًا فنظَرُ النَّاسِ في الأنواعِ الكَريمةِ أنفَذُ وأشهَرُ؛ لأنَّه يَبتدِئُ بطَلبِ المنفعةِ منها، والإعجابِ بها؛ فإذا تطلَّبَها وقَعَ في الاستدلالِ؛ فيكونُ الاقتصارُ على الاستِدلالِ بها في الآيةِ مِن قَبيلِ التَّذكيرِ للمُشركينَ بما هم مُمارِسون له، وراغِبون فيه[3].

- وهذا الاستدلالُ لَمَّا كان عقليًّا اقتصَرَ عليه، ولم يُكرِّرْ بغيرِه مِن نوعِ الأدلةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦، ٥٧).

(٢) الإدماجُ لُغةً: الإدخالُ؛ يُقال: أدْمَجَ الشيءَ في ثَوبٍ، إذا لَفَّه فيه. واصطلاحًا: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مبالغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠١).

العقليَّةِ، كما كُرِّرَت الدَّلائلُ الحاصلةُ مِن العِبرةِ بأحوالِ الأُمَم، مِن قولِه: ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ [الشعراء: ١٠]، إلى آخرِ قِصَّةِ أصحابِ الأَيْكةِ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

- التَّأكيدُ بحرْفِ (إنَّ)؛ لِتَنزيلِ المُتحدَّثِ عنهم مَنزلةَ مَن يُنكِرُ دَلالةَ ذلك الإنباتِ وصِفاتِه على ثُبوتِ الوَحدانيَّةِ، الَّتي هي باعثُ تَكذيبِهم الرَّسولَ لمَّا دَعاهم إلى إثباتِها[٢].

- واسمُ الإشارةِ فيه مِن معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِه في الفضْلِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (كانَ) صِلَةٌ مُقحمةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: وما أكثرُهم مُؤمِنين[٤].

- وأسنَدَ نفْيَ الإيمانِ إلى أكثرِهم؛ لأنَّ قليلًا منهم يُؤمِنون حينَئذٍ، أو بعْدَ ذلك[٥].

٩- قولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

- في التَّعرُّضِ لوَصْفِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم؛ مِن تَشريفِه والعِدَةِ الخَفيَّةِ بالانتقامِ مِن الكفَرةِ: مَا لا يَخْفى[٦].

- قولُه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ لَمَّا كان المَوضِعُ مَوضعَ بَيانِ القُدرةِ، قدَّمَ صِفَةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥).

العِزَّةِ على صِفةِ الرَّحمةِ؛ فالرَّحمةُ إذا كانت عن قُدرةٍ كانت أعظَمَ وقْعًا[١]، ولأنَّه لو لم يُقَدِّمْهُ لكان رُبَّما قيلَ: إنَّه رَحِمَهم لِعَجْزِه عن عقوبتِهم! فأزال هذا الوهمَ بذِكْرِ العزيزِ وهو الغالبُ القاهرُ، والمرادُ أنَّهم مع كفرِهم وقدرةِ اللهِ على أنْ يُعَجِّلَ عقابَهم لا يَتْرُكُ رحمتَهم بما تقدَّمَ ذِكْرُه مِن خَلْقِ كلِّ زوجٍ كريمٍ مِن النَّباتِ، ثم مِن إعطاءِ الصحةِ والعقلِ والهدايةِ[٢].

- قولُه: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تذييلٌ لهذا الخبَرِ بوصْفِ اللهِ بالعِزَّةِ، أي: تَمامِ القُدرةِ، فتَعلَمون أنَّه لو شاءَ لعجَّلَ لهم العِقابَ، وبوصْفِ الرَّحمةِ إيماءٌ إلى أنَّ في إمهالِهم رَحمةً بهم؛ لعلَّهم يَشكُرون، ورحيمٌ بكَ؛ قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ [الكهف: ٥٨]. وفي وصْفِ الرَّحمةِ إيماءٌ إلى أنَّه يَرحَمُ رُسلَه بتأْييدِه ونصْرِه[٣].

- وقد ختَمَ كلَّ استدلالٍ جِيءَ به على المُشركينَ المُكذِّبين بتَذييلٍ واحدٍ؛ هو قولُه: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾؛ تَسجيلًا عليهم بأنَّ آياتِ الوَحدانيَّةِ وصِدْقِ الرُّسلِ عديدةٌ كافيةٌ لمَن يتطلَّبُ الحقَّ، ولكنَّ أكثرَ المُشركينَ لا يُؤمِنون، وأنَّ اللهَ عزيزٌ قادرٌ على أنْ يُنزِلَ بهم العذابَ، وأنَّه رحيمٌ برُسلِه، فناصِرُهم على أعدائِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٩١).

## الآيات (١٠-٢٢)

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ
عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا
فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا
وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾: أي: اتَّخذْتَهم عبيدًا، وعَبَّدتُ فلانًا: إذا ذلَّلْتَه، وإذا اتَّخَذْتَه عبدًا، وأصلُ (عبد): يدُلُّ على لِينٍ وذُلٍّ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾

قولُه: ﴿أَنْ عَبَّدتَّ ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه في محلِّ رفعٍ عطفُ بيانٍ أو بدَلٌ مِن (تلك). الثاني: أنَّه في محلِّ نصبٍ مفعولٌ مِنْ أجلِه. الثالثُ: أنَّه بدَلٌ من (ها) في ﴿تَمُنُّهَا﴾. الرابعُ: أنه في مَوضعِ نصبٍ على تقديرِ (لِأَن عَبَّدْتَ)، ثمَّ حُذِفَ الحرفُ، وحَذْفُه مع (أنْ) كَثيرٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٦١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٨٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥١٨).

## المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى جانبًا مِن قصةِ موسى عليه السلامُ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ كلَّم رَبُّك موسى وأمَرَه أن يذهَبَ إلى القَومِ الظَّالمين؛ قَومِ فِرعَونَ، وأنْ يقولَ لهم: ألَا تتَّقون اللهَ وتتركونَ ظُلمَ عِبادِه؟! فقال موسى: ربِّ، إنِّي أخافُ أن يكَذِّبَني فِرعونُ وقَومُه، ويَضيقُ صَدري بسَبَبِ تكذيبِهم إيَّاي، ويُحبَسُ لساني عن مُخاطبةِ فِرعَونَ، فلا يُبينُ ما أرسَلْتَني به، فأرسِلْ أخي هارونَ رَسولًا معي يُعينُني، وإنَّ لِقَومِ فِرعَونَ علَيَّ ذَنبًا؛ لقَتلي رجُلًا منهم، فأخافُ أن يقتُلوني به.

فقال الله لِموسى: كلَّا، لن يَقتُلوك، فاذهَبْ أنت وأخوك إليهم بمُعجزاتِنا، إنِّي معكما مؤيِّدٌ وحافِظٌ، أسمَعُ ما يدورُ بيْنَكم، فأْتِيَا فِرعونَ فقُولا له: إنَّا مُرسَلانِ لك مِن رَبِّ العالَمينَ، بأنْ تُطلِقَ بني إسرائيلَ، وتترُكَهم يأتون معنا إلى الأرضِ المقَدَّسةِ لعِبادةِ اللهِ وحْدَه.

ثمَّ يحكي سبحانَه ما دارَ بينَ موسَى وفرعونَ مِن محاوراتٍ، فيقولُ: قال فِرعَونُ لِموسى: ألم نرَبِّك بيْنَنا صغيرًا، ومكثْتَ عندَنا سِنينَ كَثيرةً مِن عُمُرِك، ثمَّ قتَلْتَ رجُلًا منَّا وأنت جاحِدٌ لنِعمتِنا عليك؟! فقال موسى: إنَّما قتلْتُه خطأً، وقد كنتُ مِن الجاهلينَ لم يُوحَ إلَيَّ بعْدُ، فهَرَبتُ منكم خَوفًا مِن أن تقتُلوني، فأعطاني ربِّي عِلمًا وفَهمًا، وجعَلَني رَسولًا إليكم، وتَمُنُّ علَيَّ بهذه المنَّةِ أنْ سخَّرْتَ بني إسرائيلَ، وجعلْتَهم لك عَبيدًا، ولم تَستعبِدْني، فهذه ليست نِعمةً، فكيف تَمُنُّ علَيَّ بها؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى تكذيبَ قُرَيشٍ بما جاءَهم مِن الحقِّ وإعراضَهم عنه، ذَكَرَ قصَّةَ موسى عليه السلامُ، وما قاسى مع فرعونَ وقومِه؛ ليَكونَ ذلك مَسلاةً لِمَا كان يَلْقاه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن كُفَّارِ قريشٍ؛ إذْ كانت قريشٌ قد اتخذَتْ آلهةً مِن دونِ اللهِ، وكان قومُ فرعونَ قد اتَّخَذوه إلهًا، وكان أتْباعُ مِلَّةِ موسى عليه السلامُ هم المجاوِرينَ مَن آمَنَ بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلذا بَدَأَ بقصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ثمَّ ذَكَر بعدَ ذلك ما يأتي ذِكْرُه مِن القَصَصِ[١].

وأيضًا لَمَّا اقتضى وصْفُ العِزَّةِ الإهلاكَ، ووصْفُ الرحمةِ الإمهالَ، وكان الأوَّلُ مقدَّمًا، وكانت عادتُهم تقديمَ ما هم به أهمُّ، وهو لهم أعْنى؛ خِيْفَتْ غائلتُه، فأَتْبَعَ ذلك أخبارَ هذه الأممِ دَلالةً على الوصفين معا ترغيبًا وترهيبًا، ودَلالةً على أنَّ الرحمةَ سبقَتِ الغضبَ -وإنْ قُدِّمَ الوصفُ اللائقُ به-؛ فلا يُعَذِّبُ إلَّا بعْدَ البيانِ، مع طولِ الإمهالِ[٢].

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ كلَّم اللهُ موسى وأمَرَه أن يذهَبَ إلى الظَّالِمين لأنفُسِهم بالكُفرِ والمعاصي، والظَّالِمين لبني إسرائيلَ باستعبادِهم واضْطِهادِهم وسَومِهم سوءَ العَذابِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٣، ١٠٤).

قال الشوكاني: (ووَصْفُهم بالظُّلمِ؛ لأنَّهم جَمَعوا بينَ الكفرِ الَّذي ظَلَموا به أنفسَهم، وبينَ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ * ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٢٩ - ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ * إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى * ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٥ - ١٧].

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾.

أي: اذهَبْ إلى القَومِ الظَّالمينَ، وهم قَومُ فِرعونَ القِبطُ، فقُلْ لهم: ألَا تتَّقونَ الله[1]

---

= المعاصي الَّتي ظَلَموا بها غيرَهم؛ كاستِعبادِ بني إسرائيلَ، وذبحِ أبنائِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٠).

(١) قال ابن عثيمين: (يحتملُ أنَّه مِن المرسَلِ به، يعني: يقولُ لهم: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾. ويحتملُ أنَّه مِن كلامِ الله سبحانَه وتعالى لِموسى؛ ليُبيِّنَ له حالَهم، وأنَّهم يتجنَّبون التقْوى، وأنَّ الأليَقَ بهم أن يتَّقوا اللهَ سبحانه وتعالى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤٠).

وممَّن قال بأنَّها أمرٌ لموسَى بأن يقولَ لهم ذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، ومكي، وابن عطية، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٢٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٥). =

وتخافونَ عِقابَه، فتُؤمِنوا به وتَتركوا ظُلْمَ عِبادِه[١]؟

كما قال تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٧ - ١٩].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: قال موسى: ربِّ إنِّي أخافُ أن يكَذِّبَني فِرعَونُ وقَومُه، ولا يصَدِّقوا أنِّي رَسولُك إليهم[٢].

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي﴾.

---

= وممَّن ذهب إلى القولِ الثاني، وهو ظاهرُ اختيارِه في الجملةِ: الزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢).

قال الشنقيطي: (﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾، أي: بسببِ أنِّي قتلْتُ منهم نفْسًا، وفرَرتُ منهم لَمَّا خِفتُ أن يقتلوني بالقتيلِ الذي قتلتُه منهم. ويوضِّح هذا المعنى الترتيبُ بالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]؛ لأنَّ مَن يخافُ القتلَ فهو يتوقَّعُ التكذيبَ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٨٧).

وقال ابن عثيمين: (هذا جوابُ موسى عليه الصلاةُ والسلامُ لله مبيِّنًا له حالَه حتى يكونَ الأمرُ لدى موسى واضحًا، فينشَطَ ويَقوى، وليس المرادُ بهذا معارضةَ أمرِ الله؛ فإنَّ موسى لن يُعارِضَ أمرَ الله عزَّ وجلَّ، ولكِنْ يريدُ أن يَستبينَ الأمرَ؛ ماذا تكونُ حالُه مع فِرعونَ وقد اتَّصَف بهذه الصِّفةِ، وهي الخوفُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤٣).

أي: ويَضيقُ صَدري بسَبَبِ تكذيبِهم إيَّاي، فلا ينشَرِحُ[١].

﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾.

أي: ويَنحَبِسُ لساني عندَ مُخاطَبةِ فِرعَونَ[٢]، فلا أستطيعُ أن أُبينَ له ما أرسَلْتَني به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤٤، ٤٥).

(٢) قال ابن عثيمين في قوله: ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ وما كان في لسانِ موسى عليه السلامُ مِن عُقدةٍ قال: (يحتملُ أنَّ العُقدةَ [أي: التي كانت في لسانِه] معنويَّةٌ، بمعنى أنَّه لا يستطيع التعبيرَ بانطلاقٍ وفصاحةٍ. وقوله: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي﴾ [طه: ٢٧، ٢٨]، وقول فرعون في وصفه ﴿ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] يحتمِلُ -وهو الأقربُ- أن تكونَ فيه لُثغةٌ، إمَّا سرعة القولِ بنُطقِ الحروفِ، بحيث تتابَعُ الحروفُ حتى لا تفهَمَ؛ لأنَّ مِن الناس مَن يكونُ كذلك، ليس في لسانِه عُقدةٌ حِسِّيَّةٌ، لكنْ تترادفُ الحروفُ في كلامِه بحيث لا تدري ما يقولُ. أو لأنَّه فيه لُثْغةٌ لا تتبيَّنُ الحروف مِن كلامِه، وكل هذا محتملٌ، وهذه العقدةُ ليست كما ذُكِرَ مِن الجَمرةِ، وأنَّ لها أثرًا حِسيًّا يمنعُه مِن الكلامِ، بل هي أثَرٌ خِلْقي، يعني بأصلِ الخِلقةِ. ويحتملُ أنَّها جَهلُ البيان، يعني: ليس فصيحًا في خِطابِه وبيانِه وإقناعِه، لكنِ الأوَّلُ أَولى، وأنَّها عقدةٌ معنويَّةٌ، وذلك بصفةِ الكلامِ، بحيث لا تتبيَّنُ الحروفُ في كلامِه؛ إمَّا لعجَلتِه، وإما للثغتِه، أو غير ذلك). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤٥، ٤٦).

وقال ابن عاشور: (وعَطْفُ ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ على ﴿يَضِيقُ صَدْرِي﴾ يُنبِئُ بأنَّه أراد بضيقِ الصَّدرِ تكاثُرَ خواطِرِ الاستدلالِ في نفْسِه على الَّذين كذَّبوه لِيُقْنِعَهم بصِدقِه، حتَّى يُحِسَّ كأنَّ صدرَه قد امتلأ، والشَّأنُ أنَّ ذلك يَنقُصُ شيئًا بعدَ شيءٍ بمِقدارِ ما يُفصِحُ عنه صاحِبُه مِن إبلاغِه إلى السَّامعينَ، فإذا كانت في لسانِه حُبْسةٌ وعِيٌّ بَقِيَت الخواطِرُ مُتلَجْلِجةً في صدرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٦).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي * وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ [طه: ٢٥ - ٢٨].

﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾.

أي: فأوحِ -يا رَبِّ- إلى أخي هارونَ؛ لِيَكونَ رَسولًا معي فيُعينَني[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٩ - ٣٦].

﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: ولِقَومِ فِرعَونَ دَعوى ذنْبٍ يَطلُبونَني بها؛ لِقَتلي منهم رجُلًا، فأخشَى أن يقتُلوني به[٢].

﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

أي: قال اللهُ لموسى: لن يَقتُلَك قَومُ فِرعَونَ، فاذهَبْ أنت وأخوك هارونُ إليهم بمُعجِزاتِنا الدَّالَّةِ على صِدْقِكما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

قال ابن عاشور: (قوله: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ ليس هلَعًا وفرَقًا مِن الموتِ؛ فإنَّه لَمَّا أصبَح في مقامِ الرِّسالةِ ما كان بالذي يُبالي أن يموتَ في سبيلِ الله، ولكِنَّه خَشِيَ العائقَ مِن إتمامِ ما عُهِدَ إليه ممَّا فيه له ثوابٌ جزيلٌ ودرجةٌ عُلْيا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٧، ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

أي: إنِّي معكما بالتَّأييدِ والحِفظِ، أسمَعُ ما ستَقولانِ لفِرعَونَ وقَومِه، وما سيَرُدُّون به عليكما[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ * قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٥، ٤٦].

﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: فَأْتِيا -أنت وهارون- إلى فِرعَونَ فقُولَا له: إنَّا مُرسَلانِ إليك مِن خالِقِ ومالِكِ ومُدَبِّرِ العالَمينَ[2].

---

= كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٨).

قال ابن عطية: (أُمِرَ موسى وهارونُ بخطابٍ لموسى فقط؛ لأنَّ هارونَ ليس بمُكلَّم بإجماع، ولكِنْ قال لموسى: اذهَبا، أي: أنت وأخوك، والآياتُ تعُمُّ جميعَ ما بعَثَهما الله به، وأعظَمُ ذلك العصا... ولا خِلافَ في أنَّ موسى عليه السلامُ هو الذي حمَّله اللهُ أمرَ النبوَّةِ كُلِّها، وأنَّ هارونَ كان نبيًّا رسولًا، مُعِينًا له وزيرًا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٧، ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩، ٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠).

وذهَب ابنُ جريرٍ والزجَّاجُ -ونسبه الواحديُّ لجميع النحْويِّينَ- إلى أنَّ الرسولَ هاهنا بمعنى الرِّسالةِ. أي: نحن ذَوو رسالةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٠، ٣١). =

كما قال سُبحانَه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزخرف: ٤٦].

﴿ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: إنَّا رَسولُ رَبِّ العالَمينَ إليك بأنْ تُطلِقَ -يا فِرعَونُ- بني إسرائيلَ مِن قَهرِك وعَذابِك، وتترُكَهم يسيرونَ معنا إلى الأرضِ المقَدَّسةِ؛ لِيَعبُدوا اللهَ ويُقيموا دينَه[1].

كما قال تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [طه: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الأعراف: ١٠٤-١٠٥].

---

= وذهَب الأخفشُ وابنُ قُتَيْبةَ إلى أنَّ ﴿رَسُولُ﴾ هنا مفردٌ بمعنَى الجَمعِ، مثل: العدُوِّ والضَّيفِ، كقَولِه تعالى: ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ ﴾ [الشعراء: ٧٧]، وقولِه: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ [الحجر: ٦٨]. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٦١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٦).

قال البِقاعي: (﴿إِنَّا رَسُولُ﴾ أفرَده مُريدًا به الجِنسَ الصَّالحَ للاثنين؛ إشارةً بالتَّوحيدِ إلى أنَّهما في تعاضُدِهما واتِّفاقِهما كالنَّفسِ الواحدةِ، ولا تخالُفَ؛ لأنَّه إمَّا وقَع مرَّتين كُلُّ واحدةٍ بلَونٍ، أو مرَّةً بما يُفيدُ التثنيةَ والاتِّفاقَ، فساغ التعبيرُ بكلٍّ منهما، ولم يُثَنِّ هنا؛ لأنَّ المقامَ لا اقتضاءَ له للتَّنبيهِ على طلَبِ نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المؤازَرةَ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٩).

وقال ابن عثيمين: (ووجهٌ ثالثٌ أن يقالَ: إنَّ الأصلَ في الرِّسالة موسى، وهو واحِدٌ، وهارونُ مُعِينٌ ووزيرٌ، وإلَّا فالأصلُ أنَّ موسى هو الرسولُ، كما يوجَدُ في آياتٍ كثيرةٍ ذِكرُ موسى بدُونِ ذِكرِ هارونَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الدخان: ١٧، ١٨].

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾.

أي: قال فِرعَونُ لموسى: ألم نَقُمْ بتربيتِك منذُ كنتَ صَغيرًا في المَهدِ[١]؟

﴿وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾.

أي: ومَكثْتَ عندَنا سِنينَ كثيرةً مِن عُمُرِك تتنعَّمُ بخَيراتِنا[٢]!

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ﴾.

أي: وقتلْتَ رجُلًا منَّا مِن القِبطِ كما تَعلَمُ[٣].

﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: والحالُ أنَّك مِن الجاحِدينَ لنِعمَتِنا عليك؛ حيث جازَيْتَنا على تَربيتِنا لك بقَتلِ رجُلٍ مِنَّا[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٨، ٨٩). =

﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: قال موسى مُجيبًا لفِرعَونَ: قتلتُ القِبطيَّ خَطأً وأنا مِن الجاهِلينَ، قبْلَ أن يُوحيَ اللهُ إلَيَّ بالرِّسالةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٥، ١٦].

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾.

أي: فخرجتُ مِن بينِكم هاربًا منكم؛ خَوفًا مِن أن تقتُلوني بذلك القِبطيِّ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٠، ٢١].

﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾.

---

= قال البغوي: (قال أكثرُ المفسِّرينَ: معنَى قولِه: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعني: مِن الجاحِدينَ لنعمتي، وحَقِّ تربيتي، يقولُ: ربَّيْناكَ فينا فكافأْتَنا أنْ قتلْتَ مِنَّا نفْسًا، وكفَرْتَ بنِعمتِنا). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٧، ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠).

أي: فأعطاني ربِّي عِلمًا[١].

﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: وجعَلَني ربِّي مِن جُملةِ رُسُلِه؛ لأُبلِّغَكم رسالتَه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٦٩).

قال الألوسي: (﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ أي: نبوَّةً أو عِلمًا وفَهمًا للأشياءِ على ما هي عليه، والأوَّلُ مرويٌّ عن السُّدِّي، وتأوَّل بعضُهم ذلك بأنَّه أراد عِلمًا هو مِن خواصِّ النبوَّةِ، فيكونُ الحُكمُ بهذا المعنى أخَصَّ منه بالمعنى الثاني). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٦٩).

ممن اختار أنَّ الحكمَ هنا بمعنى العلمِ والفهمِ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والثعلبيُّ، والرازي، وجلالُ الدينِ المحليُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٩٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨١).

وقال البقاعي: (﴿حُكْمًا﴾ أي: علمًا أعملُ به عملَ الحكَّامِ الحكماءِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٢).

وقال الشنقيطي: (قولُه: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾، قال بعضُهم: الحُكمُ هنا هو النبوَّةُ، وممَّن يُروى عنه ذلك السُّدِّيُّ. والأظهَرُ عندي: أنَّ الحُكمَ هو العِلمُ الذي علَّمَه الله إيَّاه بالوحْيِ. والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٩١).

وذكر ابنُ عثيمين أن تفسيرَ الحُكمِ بالعلمِ تفسيرٌ له بلازمِه؛ لِأَنَّ مِن لازِمِ الحكمِ العلمَ. ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٦٤، ٦٥).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالحكمِ: النبوةُ: يحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والواحدي، والبغوي، والخازنُ، والعليمي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٢٨).

وممن اختار أنَّ المرادَ: النبوةُ والعلمُ: السمعاني، والنسفي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٥٨).

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وتَمُنُّ عليَّ -يا فِرعَونُ- بتربيتِك لي وإنعامِك علَيَّ، وقد اتَّخَذْتَ قَومي بني إسرائيلَ عَبيدًا لك، فكيف تَمُنُّ علَيَّ بهذه النِّعمةِ أنِ استَعبدْتَ بني إسرائيلَ ولم تَستعبِدْني، فهذه ليست نِعمةً[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٦٦).

قال يحيى بن سلام: (﴿أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] موسى بقَولِه لفِرعونَ أراد ألَّا يُسوِّغَ عدوَّ اللهِ ما امتَنَّ به عليه، فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢] فاتخذْتَ قَومي عبيدًا وكانوا أحرارًا، وأخذْتَ أموالَهم، فأنفقْتَ علَيَّ مِن أموالِهم وربَّيْتني بها، فأنا أحَقُّ بأموالِ قَومي منك). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٤٩٩، ٥٠٠).

وقال الزمخشري: (كرَّ على امتنانِه عليه بالتربية، فأبطَلَه مِن أصلِه، واستأصَلَه مِن سِنْخِه [أي: أساسِه]، وأبى أن يسمِّيَ نعمَتَه إلَّا نِقمةً؛ حيث بيَّن أنَّ حقيقةَ إنعامِه عليه تعبيدُ بنى إسرائيلَ؛ لأنَّ تعبيدَهم وقَصْدَهم بذبحِ أبنائِهم هو السببُ في حصولِه عندَه وتربيتِه، فكأنَّه امتَنَّ عليه بتعبيدِ قَومِه إذا حَقَّقْتَ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: وما أحسَنْتَ إليَّ وربَّيْتَني مقابلَ ما أسأتَ إلى بني إسرائيلَ، فجعَلْتَهم عبيدًا وخَدَمًا، تُصَرِّفُهم في أعمالِك ومشاقِّ رعيَّتِك، أفَيَفي إحسانُك إلى رجُلٍ واحدٍ منهم بما أسأْتَ إلى مجموعِهم؟! أي: ليس ما ذكَرْتَه شيئًا بالنِّسبةِ إلى ما فعلْتَ بهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨).

وقال ابنُ عثيمين: (فكأنَّه يقولُ: تَرْكُ الظُّلمِ بالنِّسبةِ إليَّ لا يُعَدُّ نِعمةً؛ لأنَّ الإنسانَ ليس مستحِقًّا له حتى نقولَ: إنَّه عفا عنه وترَكَه... لكِنْ هناك احتِمالٌ آخَرُ، فالإساءةُ إلى قَومِه إساءةٌ له، فكأنَّه يؤكِّدُ نفْيَ النعمةِ، يعني: أين النِّعمةُ وأنت قد عبَّدْتَ بني إسرائيلَ وهم قَومي، فإذا قُدِّرَ أنِّي سَلِمتُ مِن التعبيدِ والظلْمِ، فأنا فَردٌ مِن قبيلةٍ، وقَومي قد عبَّدْتَهم، فأين النِّعمةُ؟!... يعني: يقولُ: أين النِّعمةُ التي أنعمْتَ بها علَيَّ وأنت تُعَبِّدُ بني إسرائيلَ؛ لأنَّ تعبيدَ بني إسرائيلَ خِلافُ النعمةِ في الواقعِ، ومِن المعلومِ أنَّ موسى مِن بني إسرائيلَ، فتعبيدُ بني إسرائيلَ -وهم قومُه- إذلالٌ له، وهذا معنًى جيِّدٌ في الحقيقةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٦٧، ٦٨). =

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ لم يكنْ ذلك استِعفاءً مِن الرِّسالةِ، بل طَلَب مَن يُعينُه؛ ففي هذا دَليلٌ على أنَّ مَن لا يستَقِلُّ بأمرٍ، ويخافُ مِن نفْسِه تقصيرًا: أن يأخُذَ مَن يستعينُ به عليه[1]، ولا يلحَقُه في ذلك لَومٌ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ كَلَّاۖ فَٱذۡهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسۡتَمِعُونَ﴾ دَليلٌ على مَبدأِ تشجيعِ الإنسانِ في مُهمَّتِه، فهنا التَّشجيعُ حَصَلَ مِن ثلاثِ جهاتٍ: إبطالُ الخوفِ بقَولِه: ﴿كَلَّا﴾، واستِصحابُ الدَّليلِ بقولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، والعلمُ بالمُدافِعِ،

---

= وذهَب الفَرَّاءُ وابنُ جرير إلى أنَّ هذا الكلامَ مِن موسى عليه السلامُ على جهةِ الإقرارِ بالنِّعمةِ، كأنَّه يقولُ: نعمْ، تربيتُك نعمةٌ علَيَّ مِن حيث عبَّدْتَ غيري وترَكْتَني، ولكنْ لا يمنعُ ذلك صحَّةَ رسالتي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٥٩، ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٥).

(١) قال ابن القيِّم ناقلًا عن غيرِه: (إذا تحرَّكت النفْسُ لعملٍ مِن الأعمالِ وهَمَّ به العبدُ، وقَف أوَّلًا ونظَر: هل ذلك العملُ مقدورٌ له، أو غيرُ مقدورٍ ولا مستطاعٍ؟ فإن لم يكُنْ مقدورًا لم يُقدِمْ عليه، وإن كان مقدورًا وقَف وقفةً أخرى ونظَر: هل فِعلُه خيرٌ له مِن تركِه، أو تركُه خيرٌ له مِن فعلِه؟ فإن كان الثانيَ ترَكه ولم يُقدِمْ عليه، وإن كان الأوَّلَ وقَف وقفةً ثالثةً ونظَر: هل الباعثُ عليه إرادةُ وجهِ الله عزَّ وجلَّ وثوابِه، أو إرادةُ الجاهِ والثناءِ والمالِ مِن المخلوقِ؟ فإن كان الثانيَ لم يُقدِمْ وإنْ أفضَى به إلى مطلوبِه؛ لئلَّا تعتادَ النفسُ الشركَ، ويخِفَّ عليها العملُ لغيرِ الله، فبقَدْرِ ما يخفُّ عليها ذلك يثقُلُ عليها العملُ لله تعالى، حتى يصيرَ أثقلَ شيءٍ عليها، وإن كان الأوَّلَ وقَف وقفةً أخرى ونظَر: هل هو مُعانٌ عليه، وله أعوانٌ يساعدونَه وينصرونَه إذا كان العملُ محتاجًا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكُنْ له أعوانٌ أمسَك عنه، كما أمسَك النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الجهادِ بمكَّةَ حتى صار له شوكةٌ وأنصارٌ، وإن وجَده مُعانًا عليه فلْيُقْدِمْ عليه؛ فإنَّه منصورٌ، ولا يفوتُ النجاحُ إلَّا مَن فوَّت خصلةً مِن هذه الخِصالِ، وإلَّا فمع اجتماعِها لا يفوتُه النجاحُ). ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) (١/ ٨١، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢).

وهو قولُه: ﴿مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾، فكلُّ شيءٍ يَحتاجُ إلى تَشجيعٍ، فينبغي للإنسانِ أنْ يُظهِرَ تشجيعَ صاحبِه حتى يَنشَطَ ويؤدِّيَ الرسالةَ على الوجهِ الأكملِ(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه أنَّ القومَ والأهلَ وما أشبَهَ ذلك، إذا أُضيفتْ دخَلَ فيها مَن أُضيفتْ له(٢)، ويؤخَذُ ذلك مِن قَولِه: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، ثمَّ قال هنا: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾؛ فدلَّ ذلك على أنَّ فِرعَونَ منهم(٣).

٢- إثباتُ النِّداءِ للهِ سُبحانه وتعالى؛ لقولِه: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ﴾ فيكونُ كلامُه بصوتٍ على هذا؛ وأنَّه بحَرفٍ؛ قال تعالى: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾ كلُّها حروفٌ(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دليلٌ على فضْلِ اللهِ سُبحانه وتعالى على الخَلقِ لإرسالِه الرُّسُلَ؛ فإرسالُ الرُّسُلِ دَليلٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٥٢).

(٢) قال ابن القيِّم: (الرجُلُ حيثُ أُضيفَ إلى آلِه دخَل فيه هو؛ كقولِه تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقولِه تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]. وقولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «اللهمَّ صلِّ على آلِ أبي أوفى». وهذا إذا لم يُذكَرْ معه مَن أُضِيف إليه الآلُ، وأمَّا إذا ذُكر معه فقد يُقالُ: ذُكِر مفردًا وداخلًا في الآلِ، وقد يُقالُ: ذِكرُه مفردًا أغنى عن ذِكرِه مضافًا، والأهلُ بخلافِ ذلك، فإذا قلتَ: جاء أهلُ زيدٍ؛ لم يدخُلْ فيهم...). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١).

فضْلِ اللهِ على الخَلْقِ، وعنايتِه بهم؛ لأنَّ الخلْقَ مهما أُوتوا مِن ذكاءٍ لا يُمكِنُهم أنْ يُدرِكوا ما يَجِبُ للهِ سُبحانَه وتعالى على التَّفصيلِ، والعاقِلُ يُدرِكُ ما يجِبُ لله على وَجهِ الإتمام، فإدراكُه أنَّ له الكمالَ المُطلَقَ، وأنَّه المُستحِقُّ العبادةَ على وَجهِ التَّفصيلِ لا يمكِنُ إلَّا عن طريقِ الرُّسُلِ؛ ولهذا قال: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1] [النساء: ١٦٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ دَليلٌ على أنَّه لا بأسَ في الإجمالِ في الكلام؛ بشرطِ أنْ يأتيَ التَّفصيلُ، وفائدةُ الإجمالِ ثمَّ التفصيلِ بعْدَه الاهتِمامُ، فيكونُ مُتَشوِّفًا ومتطلِّعًا لهذا المُجمَلِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ...﴾ إلى آخرِ الآياتِ سؤالٌ، وهو: كيف ساغَ لِموسى عليه السَّلامُ أنْ يأمُرَه ربُّه بأمرٍ فلا يَقبَلَه بسَمعٍ وطاعةٍ مِن غيرِ توقُّفٍ وتشبُّثٍ بعِلَلٍ، وقد عَلِمَ أنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بحالِه؟!

**أُجيبَ**: بأنَّه قد امتثلَ وتقبَّلَ، ولكِنَّه التمَسَ مِن ربِّه أن يُعَضِّدَه بأخيه؛ حتى يتعاونَا على تنفيذِ أمرِه، وتبليغِ رسالتِه، فمَهَّدَ قبْلَ التماسِه عُذرًا فيما التمَسَه، ثمَّ التمسَ بعْدَ ذلك، وتمهيدُ العُذرِ في التِماسِ المُعينِ على تنفيذِ الأمرِ ليس بتوقُّفٍ في امتثالِ الأمرِ، ولا بتعَلُّلٍ فيه، وكفى بطَلَبِ العَونِ دليلًا على التقَبُّلِ، لا على التعَلُّلِ[3].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ فيه جوازُ الخَوفِ الطبيعيِّ، وأنَّه ليس بشِركٍ[4]، فقد خاف موسى أنْ يَقْتلوه به، فدلَّ هذا على أنَّ الخوفَ قد يصحَبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤٨). =

الأنبياءَ والفضلاءَ والأولياءَ معَ معرفتِهم بالله، وأنَّه لا يقعُ شَيءٌ إلَّا بمشيئتِه وقُدرتِه؛ إذْ قد يسَلِّطُ مَن شاء على مَن شاء[١].

٧- جوازُ بيانِ الإنسانِ حالَه إذا لم يَقصِدْ به الشَّكوى؛ لِقولِه تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾، فإنَّ هذا وَصفٌ له في الضَّعْفِ، وعدَمِ التحَمُّلِ نفسيًّا بضِيقِ الصَّدرِ، وعدمِ الكلامِ المتقَنِ؛ لكونِه لا يَنطلِقُ لسانُه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ جوازُ ذِكرِ الوسائلِ التي تَستوجِبُ القَبولَ في الدُّعاءِ؛ حيث ذَكَر معلوماتٍ كثيرةً؛ بكونِه يَضيقُ صَدرُه، ولا يَنطَلِقُ لسانُه، وهذا مِن بابِ التوسُّلِ الزَّائدِ، فذِكرُ حالِه مِن الوسائلِ التي تستوجِبُ قَبولَ دُعائِه[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ إثباتُ المَعِيَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ، وفي الحقيقةِ معناها: المُصاحبةُ المطْلَقةُ، ولكِنَّها في كلِّ شَيءٍ بحسَبِه، فنقولُ مثلًا:

---

= فالخوفُ الطبيعيُّ الأصلُ أنَّه مباحٌ لوجودِ أسبابِه، بل مشروعٌ، كخَوفِ الإنسانِ مِن اللصوصِ فيُغلِق بابَه، ويحفظ متاعَه، ومِن السباعِ والحياتِ والعقاربِ فيأخذ حذرَه بالأسبابِ الشرعيةِ المباحةِ.

وقد يكونُ الخوفُ محرَّمًا إن كان الخوفُ مِن شيءٍ لا يؤثِّرُ على الإنسانِ، فيحملُه ذلك الخوفُ على تركِ واجبٍ أو فعلِ محرَّمٍ.

وقد يكونُ شركًا ويسمَّى خوفَ السرِّ،كالخوفِ مِن أصحابِ القبورِ أو غيرِهم مِن الغائبينَ، واعتقادِ نفعِهم وضرِّهم بقدرتِهم الخاصَّةِ. يُنظر: ((فتح المجيد شرح كتاب التوحيد)) لعبد الرحمن بن حسن (ص: ٣٤٤)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٨/ ٢٨١)، ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

سقاني لبنًا معه ماءٌ، فهذه تقتضي الامتزاجَ والاختِلاطَ، فتفسيرُ مَعِيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالإحاطةِ عِلمًا وقُدرةً وسُلطانًا، وبصرًا وسمعًا، وغيرَ ذلك مِن معاني الرُّبوبيَّةِ: ليس تفسيرُها بذلك مِن بابِ التَّأويلِ، بل مِن بابِ ذِكرِ الحقيقةِ؛ لأنَّها بحسَبِ ما تُضافُ إليه(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ حُجَّةٌ واضِحةٌ على مَن يُنكِرُ صِفةَ السَّمعِ للهِ سُبحانَه(٢).

١١- قال الله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على أنَّه ينبغي أنْ يُخاطَبَ الإنسانُ بما تقتضيه حالُه؛ فمُنكِرُ الرُّبوبيَّةِ نخاطبُه بإثباتِ الرُّبوبيةِ، ومُنكِرُ الألوهيَّةِ نخاطبُه بإثباتِ الألوهيةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ سؤالٌ؛ كيف قال موسى: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ والنَّبيُّ لا يكونُ ضالًّا(٤)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٥٥).

(٤) يُطلَقُ الضلالُ في القرآنِ وفي لغةِ العربِ ثلاثةَ إطلاقاتٍ، ومنها إطلاقُه على: الذهابِ عن معرفةِ حقيقةِ الشيءِ، فكلُّ مَن لم يعرِفْ حقيقةَ شيءٍ تقولُ العربُ: «ضلَّ»، وهذا ليس مِن الضلالِ في الدِّينِ، وإنَّما هو الذهابُ عن عِلمِ معرفةِ الشيءِ. وهذا الإطلاقُ كثيرٌ في القرآنِ، ومنه على أصحِّ التفسيراتِ: قولُه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧] أي: ذاهبًا عمَّا تعلَمُه الآنَ مِن العلومِ والأسرارِ، فهداك إليه بالوحيِ؛ لأنَّه لا يُعلَمُ إلَّا بالوحيِ. ومنه بهذا المعنى: قولُ أولادِ يعقوبَ في حقِّ أبيهم: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]، ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]، يَعنون: لفي ذهابٍ عن حقيقةِ الأمرِ، حيثُ فضَّل ابنَيْنِ على عشَرةِ بَنينَ، وحيث رجا يوسفَ أنَّه حيٌّ وهو قد مات، فهو ذاهبٌ عن علمِ الحقيقةِ في زعمِهم. ومِن الضلالِ بهذا =

**الجوابُ**: أراد به: وأنا مِن الجاهلين، أو مِن الناسينَ، كقوله تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أو مِن المخطئينَ لا مِن المتعمدين، كما يقالُ: «ضَلَّ عن الطريقِ» إذا عَدَلَ عن الصواب إلى الخطأ[١]. وعلى هذا فيكونُ الضَّلالُ ينقَسِمُ إلى قِسمَينِ؛ الأوَّلُ: ضَلالٌ يُذَمُّ عليه الفاعِلُ أو الضالُّ، والثَّاني: ضَلالٌ لا يُذَمُّ عليه. والضَّلالُ الذي حصَل أو الذي اتَّصَف به موسى حين قَتْلِه القِبطيَّ ضَلالٌ لا يُلامُ عليه؛ لأنَّه لم يأتِه وَحْيٌ ولا رِسالةٌ حينَئذٍ، فهو مَعذورٌ[٢].

١٣- قال الله تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، في قَولِه: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ولم يقُل: وجعلَني رَسولًا، كالتَّنبيهِ لفِرعَونَ أنَّه ليس ببِدْعٍ مِن الرُّسُلِ، وأنَّه لم يأتِ بأمرٍ جَديدٍ، بل إنَّ أمامَه رسُلًا، وقد ذكَرَ الله تعالى في سُورةِ (غافرٍ) أنَّ الرجُلَ المؤمِنَ يقولُ لهم: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ [غافر: ٣٤]، فكأنَّه يقولُ له: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين عندَك خبَرُهم، فلستُ ببِدعٍ مِن الرُّسُلِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

---

= المعنى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] أي: لا يخفَى عليه عِلمُ شيءٍ، ولا تذهبُ عليه حقيقةُ شيءٍ. ومنه بهذا المعنى قولُه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ أي: تذهَبَ عن عِلمِ حقيقةِ المشهودِ به بنسيانٍ ونحوِه، ﴿فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[البقرة: ٢٨٢]. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٥٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٢٩)، (٢/ ١٩٧، ١٩٨).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٥).

- كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَقريرِ ما قبْلَه؛ مِن إعراضِهم عن كلِّ ما يأْتيهم مِن الآياتِ التَّنزيليَّةِ وتكذيبِهم بها، إثْرَ بَيانِ إعراضِهم عمَّا يُشاهِدونه مِن الآياتِ التَّكوينيَّةِ[١].

- وهو شُروعٌ في عدِّ آياتٍ على صِدْقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بذِكْرِ عواقبِ المُكذِّبين برُسلِهم؛ لِيَحذَرَ المُخاطَبون بالدَّعوةِ إلى الإسلامِ مِن أنْ يُصِيبَهم ما أصاب المُكذِّبين. وفي ضِمنِ ذلك تَبيينٌ لبعضِ ما نادَى به الرُّسلُ مِن البراهينِ. وإذ قد كانت هذه الأدلَّةُ مِن المَثُلاتِ قُصِدَ ذِكْرُ كثيرٍ اشتُهِرَ منها، ولم يُقتصَرْ على حادثةٍ واحدةٍ؛ لأنَّ الدَّلالةَ غيرَ العقليَّةِ يَتطرَّقُها احتِمالُ عدَمِ المُلازَمةِ بأنْ يكونَ ما أصاب قَومًا مِن أولئك على وجْهِ الصُّدفةِ والاتِّفاقِ، فإذا تبيَّنَ تكرُّرُ أمثالِها ضَعُفَ احتمالُ الاتِّفاقيَّةِ؛ لأنَّ قِياسَ التَّمثيلِ[٢] لا يُفِيد القطْعَ إلَّا بانضمامِ مُقوِّماتٍ له مِن تواتُرٍ وتكرُّرٍ[٣].

- وإنَّما ابتُدِئَ بذِكْرِ قصَّةِ مُوسى ثمَّ قصَّةِ إبراهيمَ، على خلافِ تَرتيبِ حكايةِ القَصصِ الغالبِ في القرآنِ مِن جَعْلِها على تَرتيبِ سَبْقِها في الزَّمانِ؛ لعلَّه لأنَّ السُّورةَ نزَلَت للرَّدِّ على المُشركينَ في إلْحاحِهم على إظهارِ آياتٍ مِن خوارقِ العاداتِ في الكائناتِ، زاعمينَ أنَّهم لا يُؤمِنون إلَّا إذا جاءتْهم آيةٌ؛ فضرَبَ لهم المَثلَ بمُكابَرةِ فِرعونَ وقومِه في آياتِ مُوسى، وعطَفَ ﴿وَإِذْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥).

(٢) قياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشتَرَكَ الكُلِّيَّ، مثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٢، ١٠٣).

نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ ﴾ عطْفَ جُملةٍ على جُملةٍ ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الشعراء: ٧] بتَمامِها[١].

- و(إذ) مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بمُضمَرٍ خُوطِبَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم، أي: واذكُرْ لأولئك المُعرِضينَ المُكذِّبين وقْتَ نِدائِه تعالى إيَّاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذكِّرْهم بما جَرى على قومِ فرعونَ بسَببِ تكذيبِهم إيَّاه؛ زجرًا لهم عمَّا هُم عليه مِن التَّكذيبِ، وتحذيرًا مِن أنْ يَحِيقَ بهم مِثلُ ما حاقَ بأضرابِهم المُكذِّبينَ الظَّالِمين[٢]. وفي هذا المُقدَّرِ تَذكيرٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بما يُسلِّيه عمَّا يَلْقاهُ مِن قَومِه[٣].

- وتَوجيهُ الأمْرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ، مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ؛ للمُبالَغةِ في إيجابِ ذِكْرِها؛ لِمَا أنَّ إيجابَ ذِكْرِ الوقتِ إيجابٌ لذِكْرِ ما وقَعَ فيه، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ عليها، فإذا استُحضِرَ كانت حاضرةً بتَفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عِيانًا[٤].

- قولُه: ﴿أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾الإتيانُ المأمورُ به هو ذَهابُه لِتَبليغِ الرِّسالةِ إليهم، وهذا إيجازٌ يُبيِّنُه قولُه: ﴿ فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦] إلى آخِرِه[٥].

- قولُه: ﴿ وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ ﴾ سجَّلَ عليهم بالظُّلمِ بأنْ قدَّمَ ﴿ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾، ثمَّ عطَفَهم عليهم عطْفَ البَيانِ؛ كأنَّ معنَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٧٩) و(٦/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٤).

﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وتَرجمَتَه ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾، وكأنَّهما عبارتانِ تَعتقِبانِ على مُؤدًّى واحدٍ؛ إنْ شاء ذاكِرُهم عبَّر عنهم بالقومِ الظَّالمينَ، وإنْ شاء عبَّرَ بقومِ فِرعونَ(١).

- واستِحضارُ قومِ فِرعونَ بوَصْفِهم بالقومِ الظَّالمينَ: إيماءٌ إلى عِلَّةِ الإرسالِ. وفي هذا الإجمالِ تَوجيهُ نفْسِ مُوسى لترقُّبِ تَعيينِ هؤلاء القومِ بما يُبيِّنُه، وإثارةٌ لِغَضبِ مُوسى عليهم؛ حتَّى يَنضَمَّ داعي غضَبِه عليهم إلى داعي امتِثالِ أمْرِ اللهِ الباعِثِ إليهم، وذلك أوقَعُ لكلامِه في نُفوسِهم. وفيه إيماءٌ إلى أنَّهم اشْتُهِروا بالظُّلمِ(٢).

- والمقصودُ مِن سَوقِ هذه القِصَّةِ هو الموعظةُ بعاقِبةِ المُكذِّبينَ؛ وذلك عندَ قولِه تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٣- ٦٨]. وأمَّا ما تقدَّمَ ذلك مِن قولِه: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ إلخ، فهو تفصيلٌ لأسبابِ الموعظةِ؛ بذِكْرِ دَعوةِ مُوسى إلى ما أُمِرَ بإبلاغِه، وإعراضِ فرعونَ وقَومِه، وما عقِبَ ذلك إلى الخاتمةِ(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، فقد عدَلَ هنا عن ذِكْرِ ما ابتُدِئَ به نِداءُ مُوسى ممَّا هو في سُورةِ (طه) بقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ إلى قولِه: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: ١٢- ٢٣]؛ لأنَّ المقامَ هنا يَقْتضي الاقتصارَ على ما هو شرحُ دَعوةِ قَومِ فِرعونَ وإعراضِهم؛ للاتِّعاظِ بعاقبتِهم. وأمَّا مقامُ ما في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٣، ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٠٣).

سُورةِ (طه)؛ فلِبَيانِ كرامةِ مُوسى عندَ ربِّه ورسالتِه معًا، فكان مقامَ إطنابٍ، مع ما في ذلك مِن اختلافِ الأسلوبِ في حِكايةِ القصَّةِ الواحدةِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ فيه الاقتصارُ على ذِكْرِ قومِه؛ للإيذانِ بشُهرةِ أنَّ نفْسَه أوَّلُ داخلٍ في الحُكمِ[٢].

- وفي تَكريرِ كلمةِ (قوم) موقعٌ مِن التَّأكيدِ؛ فلمْ يقُلْ: ائتِ قومَ فِرعونَ الظَّالمينَ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * قَوْمَ فِرْعَوْنَۚ أَلَا يَتَّقُونَ﴾، وقال في سورةِ (طه): ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، وقال في سورةِ (القَصصِ): ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢]؛ فهنا في سورةِ (الشعراء) ذكَرَ قومَ فِرعونَ من دُونِه، ومعلومٌ أنَّه منهم، ومُخاطَبٌ بمثْلِ خِطابِهم، فإذا اتَّقَوا وآمَنُوا، كان فرعونُ وحْدَه لا يَقدِرُ على مُخالَفَتِهم، فترَكَ ذِكْرَه؛ لأنَّه في هذه الحالةِ في حُكْمِ التَّابعِ لهم، وخِطابُهم خِطابُه. وفي سورةِ (طه) ذكَرَ فِرعونَ وحْدَه؛ لأنَّ قومَه تبَعٌ له، وكأنَّهم مذكورونَ معه. أمَّا ما في سورةِ (القصص) فإنَّ الحِكايةَ أتَتْ على فِرعونَ وملَئِه، فبيَّنَت ما انطوَتْ عليه الآياتُ قبْلُ مِنْ ذكْرِ بعضٍ، والاكتفاءِ به عن بعضٍ، وهذا كما قال في موضعٍ لمُوسى وحْدَه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٢٤]، وفي موضعٍ: ﴿أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٤).

١٠]؛ لأنَّ هارونَ تابعٌ له، وداخِلٌ في حُكْمِه، وأبانَ ذلك في موضعٍ فقال: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦]، وقال في (طه): ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[1] [طه: ٤٧].

- جُملةُ ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ مَستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّه لَمَّا أمَرَه بالإتيانِ إليهم لدَعوتِهم، ووصَفَهم بالظَّالمينَ، كان الكلامُ مُثيرًا لسُؤالٍ في نفْسِ مُوسى عليه السلامُ عن مدَى ظُلْمِهم؛ فجِيءَ بما يدُلُّ على توغُّلِهم في الظُّلم ودوامِهم عليه؛ تقويةً للباعثِ لمُوسى عليه السلامُ على بُلوغِ الغايةِ في الدَّعوةِ، وتَهيئةً لِتلقِّيه تكذيبَهم بدونِ مُفاجأةٍ؛ فيكونُ (ألَا) مِن قولِه: ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ مُركَّبًا مِن حرفينِ: همزةِ الاستفهامِ، و(لا) النَّافيةِ. والاستفهامُ لإنكارِ انتفاءِ تَقْواهم، وتعجيبِ مُوسى مِن ذلك؛ فإنَّ مُوسى كان مُطَّلِعًا على أحوالِهم؛ إذ كان قد نشَأَ فيهم، وقد علِمَ مظالِمَهم، وأعظَمُها الإشراكُ وقتْلُ أنبياءِ بني إسرائيلَ. ويجوزُ أنْ يكونَ (ألَا) كلمةً واحدةً؛ هي أداةُ العرضِ والتَّحضيضِ، فتكونَ جُملةُ ﴿أَلَا يَتَّقُونَ﴾ بَيانًا لجُملةِ ﴿ٱئْتِ﴾، والمعنى: قلْ لهم: ألَا تتَّقون، فحكَى مَقالتَه بمعناها لا بلَفْظِها، وذلك واسعٌ في حِكايةِ القولِ[2].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ لِظُهورِ أنَّ المُرادَ: ألَا يتَّقونَ عواقبَ ظُلْمِهم[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ استئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ٨٩٥، ٨٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٤، ١٠٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٥).

نشَأَ مِن حِكايةِ ما مَضى؛ كأنَّه قِيل: فماذا قال مُوسى عليه السَّلامُ؟ فقِيل: قال مُتضرِّعًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ...﴾[١].

- وفي افتِتاحِ مُراجعَتِه بنِداءِ اللهِ بوصْفِ الرَّبِّ مُضافًا إليه: تَحنينٌ واستسلامٌ[٢]. وجعَلَ نفْسَه خائفًا مِن التَّكذيبِ؛ لأنَّه لمَّا خُلِعَت عليه الرِّسالةُ عن اللهِ، وقَرَ في صَدْرِه الحِرصُ على نَجاحِ رِسالتِه؛ فكان تَكذيبُه فيها مَخُوفًا منه[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَضِيقُ... وَلَا يَنْطَلِقُ﴾ جاء الفِعلانِ مرفوعينِ عطْفًا على ﴿فَأَخَافُ﴾؛ ولذلك حقَّقهُ بحرْفِ التَّأكيدِ؛ لأنَّه أيقَنَ بحُصولِ ذلك؛ لأنَّه جِبلِّيٌّ عندَ تلقِّي التَّكذيبِ، ولأنَّ أمانةَ الرِّسالةِ والحرصَ على تَنفيذِ مُرادِ اللهِ يُحدِثُ ذلك في نفْسِه لا مَحالةَ، وإذ قد كان انحِباسُ لِسانِه يقينًا عندَه؛ لأنَّه كان كذلك، مِن أجْلِ ذلك التَّيقُّنِ كان فِعلَا ﴿يَضِيقُ... وَلَا يَنْطَلِقُ﴾ معطوفينِ على ما هو مُحقَّقٌ عنده، وهو حصولُ الخوفِ مِن التَّكذيبِ، ولم يكونَا معطوفينِ على ﴿يُكَذِّبُونِ﴾ المَخُوفِ منه المُتوقَّعِ، على أنَّ كونَه مُحقَّقَ الحُصولِ يَجعَلُه أحْرى مِن المُتوقَّعِ[٤].

- وهذا الكلامُ كَلامٌ مُختصَرٌ، وقد بسَطَه في غَيرِ هذا الموضعِ، وقد أحسَنَ في الاختصارِ؛ حيثُ قال: ﴿فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾؛ فجاء بما يتضمَّنُ معنى الاستنباءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٧).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ فكَنَّى عن العُقدةِ بما يَقْرُبُ مِن الصَّريحِ، وفي (القَصصِ): ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤] فكَنَّى عن العقدةِ كنايةً مبهَمةً؛ لأنَّ الأولَ يدُلُّ على ذلك، وفي سورةِ (طه) قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ [طه: ٢٧] صَرَّحَ بالعُقدةِ؛ لأنَّها السابقةُ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حَيثُ قال هنا في (الشُّعراءِ): ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾، وقال في سُورةِ (طه): ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَـٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٢٩، ٣٠] صَرَّحَ بالوزيرِ؛ لأنَّه الأولُ في الذِّكْرِ، وكنَّى عنه هنا في (الشُّعراءِ) فقال: ﴿فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ﴾، أي: لِيأتيَني؛ فيكونَ لي وزيرًا، وفي (القَصصِ): ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ [القصص: ٣٤]، أي: اجْعَلْه لي وزيرًا؛ فكَنَّى عنه بقولِه: ﴿رِدْءًا﴾؛ لبيانِ الأولِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ﴾، أي: ولهم عليَّ تَبِعةُ ذنْبٍ، وهي قَوَدُ ذلك القتْلِ، فأخافُ أنْ يَقْتلوني به؛ فحُذِفَ المُضافُ. أو سمَّى تَبِعةَ الذنْبِ ذنْبًا كما سُمِّيَ جزاءُ السَّيِّئةِ سَيِّئةً[٣]. وسمَّاهُ ذنْبًا بحسَبِ ما في شرعِ القبْطِ؛ فإنَّه لم يكُنْ يومَئذٍ شرعٌ إلهيٌّ في أحكامِ قتْلِ النَّفسِ. ويصِحُّ أنْ يكونَ سمَّاهُ ذنْبًا؛ لأنَّ قتْلَ أحدٍ في غيرِ قِصاصٍ ولا دفاعٍ عن نفْسِ المُدافعِ يُعتبَرُ جُرْمًا في قوانينِ

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٧).

جماعاتِ البشرِ مِن عهْدِ قتَلَ أحدُ ابنَيْ آدمَ أخاهُ[١].

- وحُذِفَت ياءُ المُتكلِّمِ مِن ﴿يَقْتُلُونِ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ[٢].

- وفيه: تَعريضٌ بسُؤالِ النَّصرِ والتَّأييدِ، وأنْ يَكْفِيَه شرَّ عدُوِّه؛ حتَّى يُؤدِّيَ ما عهِدَ اللهُ إليه على أكمَلِ وجْهٍ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾

- ﴿كَلَّا﴾ حَرفُ إبطالٍ، والإبطالُ لقولِه: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]، أي: لا يَقْتلونك. وفي هذا الإبطالِ استجابةٌ لِمَا تضمَّنَه التَّعريضُ بالدُّعاءِ حينَ قال: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]. وقولُه: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ تَفريعٌ على مُفادِ كلمةِ (كلَّا)[٤].

- قولُه: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا﴾ وجَّه الخِطابَ إليهما بطريقِ التَّغليبِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ رَمزٌ إلى أنَّها تَدفَعُ ما يَخافُه[٦]. وفيه: وعدٌ بالتَّأييدِ بمُعجزاتٍ تَظهَرُ عندَ الحاجةِ[٧].

٧- قولُه: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ أمْرَهما بالذَّهابِ إلى فِرعونَ يُثيرُ في النفْسِ أنْ يَتعامَى فِرعونُ عن الآياتِ، ولا يَرْعوي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٨).

عندَ رُؤيتِها عن إلْحاقِ أذًى بهما؛ فأُجيبَ بأنَّ اللهَ معهما، ومُستمِعٌ لكلامِهما وما يُجيبُ فِرعونُ به[١]، ولازمُ ذلك تأييدُهما، وكفُّ فِرعونَ عن أذاهُما.

- قولُه: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾ تَعليلٌ للرَّدعِ عن الخَوفِ، ومَزيدُ تَسليةٍ لهما بضَمانِ كَمالِ الحِفظِ والنُّصرةِ[٢].

- وقولُه: ﴿مَعَكُم﴾ قِيل: هو على ظاهِرِه مِن الجَمْعِ، والمُرادُ مُوسى وهارونُ ومَن أُرْسِلَا إليه، حيثُ كان الموعدُ بمَحْضَرٍ من فِرعونَ؛ فاعتُبِرَ هاهنا في المعيَّةِ[٣].

- وقولُه: ﴿مُّسْتَمِعُونَ﴾ أشدُّ مُبالَغةً مِن (سامِعون)؛ لأنَّ أصلَ الاستماعِ أنَّه تكلُّفُ السَّماعِ، ولازمُ ذلك العِنايةُ واللُّطفُ. والجمْعُ بيْن قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وقولِه: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾: تأكيدٌ للطَّمأنةِ، ورِباطةٌ لِجأْشِهما[٤].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ﴾ الفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها مِن الوعدِ الكريمِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ وحَّدَ كلِمةَ رسولٍ في قولِه: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وثنَّاها في قولِه: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]. ووجْهُه: أنَّ الرَّسولَ يكونُ بمعنى المُرسَلِ، وبمعنى الرِّسالةِ، فجُعِلَ ثَمَّ بمعنى المُرسَلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧).

فلم يكُنْ بُدٌّ مِن تَثْنيتِه، وجُعِلَ هاهنا بمعنى الرِّسالةِ، فجاز التَّسويةُ فيه -إذا وُصِفَ به- بيْن الواحدِ والتَّثنيةِ والجمْعِ، كما يُفعَلُ بالوَصفِ بالمصادرِ. ويجوزُ أنْ يُوحَّدَ؛ لأنَّ حُكْمَهما -لِتَسانُدِهما، واتِّفاقِهما على شريعةٍ واحدةٍ، واتِّحادِهما لذلك، وللأُخوَّةِ- كان حُكْمًا واحدًا؛ فكأنَّهما رسولٌ واحدٌ. أو أُرِيدَ أنَّ كلَّ واحدٍ منَّا رسولٌ. أو أفرَدَهُ نظرًا إلى مُوسى؛ لأنَّه الأصلُ، وهارونُ تَبَعٌ له[١].

- وخِطابُهما فِرعونَ بأنْ وصَفَا اللهَ بصِفَةِ ربِّ العالَمينَ: مُجابَهةٌ لفِرعونَ بأنَّه مَربوبٌ وليس بربٍّ، وإثباتُ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى للعالَمينَ يَقْتضي وَحدانيَّةَ اللهِ تعالى؛ لأنَّ العالَمينَ شاملٌ جميعَ الكائناتِ؛ فيَشملُ معبوداتِ القِبْطِ؛ كالشَّمسِ وغيرِها، فهذه كلمةٌ جامعةٌ لِمَا يجِبُ اعتقادُه يومَئذٍ[٢]. ونقْضٌ لما كان أبرَمَهُ فرعونُ مِن ادِّعاءِ الألوهيَّةِ[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ طُوِيَ مِن الكلامِ ذَهابُ مُوسى وهارونَ إلى فِرعونَ، واستِئذانُهما عليه، وإبلاغُهما ما أمَرَهما اللهُ أنْ يقولَا لفِرعونَ؛ إيجازًا للكلامِ. وهذا النَّوعُ مِن الاختصارِ كثيرٌ في التَّنزيلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٠).

- ووجَّهَ فِرعونُ خِطابَه إلى مُوسى وحْدَه؛ لأنَّه علِمَ مِن تَفصيلِ كلامِ مُوسى وهارونَ أنَّ مُوسى هو الرَّسولُ بالأصالةِ، وأنَّ هارونَ كان عَونًا له على التَّبليغِ؛ فلمْ يَشتغِلْ بالكلامِ مع هارونَ(١).

- وأعرَضَ فِرعونُ عن الاعتِناءِ بإبطالِ دَعوةِ مُوسى، فعدَلَ إلى تَذكيرِه بتربيتِه فيهم، وتَخويفِه مِن جِنايتِه؛ حُسبانًا بأنَّ ذلك يَقتلعُ الدَّعوةَ مِن أصْلِها، ويكُفُّ مُوسى عنها، وقصْدُه مِن هذا الخِطابِ إفحامُ مُوسى؛ كي يَتلعثَمَ مِن خشيةِ فِرعونَ؛ حيث أوجَدَ له سببًا يتذرَّعُ به إلى قتْلِه، ويكونُ مَعذورًا فيه؛ حيث كفَرَ نِعمةَ الولايةِ بالتَّربيةِ، واقترَفَ جُرمَ الجِنايةِ على الأنفُسِ(٢).

- قولُه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا﴾ الاستفهامُ تقريريٌّ. وجعَلَ التَّقريرَ على نفْيِ التَّربيةِ مع أنَّ المقصودَ الإقرارُ بوُقوعِ التَّربيةِ؛ مُجاراةً لحالِ مُوسى في نظَرِ فِرعونَ؛ إذ رأى في هذا الكلامِ جُرأةً عليه، لا تُناسِبُ حالَ مَن هو مَمنونٌ لأُسرتِه بالتَّربيةِ؛ لأنَّها تَقْتضي المحبَّةَ والبِرَّ، فكأنَّه يُرْخِي له العِنانَ بتَلقينِ أنْ يَجحَدَ أنَّه مُربًّى فيهم، حتَّى إذا أقَرَّ ولم يُنكِرْ، كان الإقرارُ سالمًا مِن التَّعلُّلِ بخَوفٍ أو ضغْطٍ؛ فهذا وجْهُ تَسليطِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ على النَّفيِ في حينِ أنَّ المُقرَّرَ به ثابتٌ. والتَّقريرُ مُستعمَلٌ في لازمِه؛ وهو أنْ يُقابِلَ المُقرَّرَ عليه بالبِرِّ والطَّاعةِ، لا بالجَفاءِ. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ الاستفهامُ إنكاريًّا عليه؛ لأنَّ لِسانَ حالِ مُوسى في نظَرِ فِرعونَ حالُ مَن يَجحَدُ أنَّه مُربًّى فيهم، ومَن يظُنُّ نِسيانَهم لفِعْلَتِه، فأنكَرَ فِرعونُ عليه ذلك. وكِلا الوجهينِ لا يَخلو مِن تَنزيلِ مُوسى مَنزلةَ مَن يَجحَدُ ذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١١١).

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

- وبَّخَه بما جَرى على يَدِه مِن قتْلِ نفْسٍ منهم، وعظَّمَ ذلك وفظَّعَه، وعبَّرَ عنها بالمَوصولِ ﴿ٱلَّتِي﴾؛ لعِلْمِ مُوسى بها، وفي ذلك تهويلٌ للفَعلةِ، وفي العُدولِ عن ذِكْرِ فَعلةٍ مُعيَّنةٍ إلى ذِكْرِها مُبهمةً مُضافةً إلى ضَميرِه، ثمَّ وصْفِها بما لا يَزيدُ على معنَى الموصوفِ: تَهويلٌ مُرادٌ به التَّفظيعُ، وأن ذلك لِفَظاعتِه ممَّا لا يُنطَقُ به إلَّا مَكنيًّا عنه، وأنَّها مُشتهِرةٌ مَعلومةٌ، مع تَحقيقِ إلْصاقِ تَبِعَتِها به؛ حتَّى لا يجِدَ تنصُّلًا منها[1].

١١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

- ابتدَأَ بالإقرارِ بفَعلتِه؛ ليَعلَمَ فِرعونُ أنَّه لم يَجِدْ لكلامِه مدخلَ تأثيرٍ في نفْسِ مُوسى. وأخَّرَ مُوسى الجوابَ عن قولِ فِرعونَ: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]؛ لأنَّه علِمَ أنَّ القصْدَ منه الإقصارُ مِن مُواجَهتِه بأنَّ ربًّا أعلى مِن فِرعونَ أرسَلَ مُوسى إليه. وابتدَأَ بالجوابِ عن الأهمِّ مِن كلامِ فِرعونَ، وهو ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ﴾ [الشعراء: ١٩]؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّه أدخَلُ في قَصْدِ الإفحام، ولِيُظهِرَ لفِرعونَ أنَّه لا يَوْجَلُ مِن أنْ يُطالِبوه بثأرِ ذلك القَتيلِ؛ ثِقةً بأنَّ اللهَ يُنجِّيه مِن عُدوانِهم[2].

- وقيل: أجابَ مُوسى عن كَلامِه الأخيرِ المُتضمِّنِ للقتلِ؛ إذ كان الاعتذارُ فيه أهَمَّ مِن الجوابِ في ذِكْرِ النِّعمةِ بالتَّربيةِ؛ لأنَّه فيه إزهاقُ النَّفْسِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٦).

- وقدَّمَ ﴿فَعَلْتُهَآ﴾ على (إذنْ)؛ مُبادَرةً بالإقرارِ؛ ليَكونَ كِنايةً عن عدَمِ خَشيتِه مِن هذا الإقرارِ(١).

- كلمةُ (إذنْ) هنا قيل: هي حرفُ جوابٍ وجزاءٍ، ومعنى الجزاءِ في قولِه: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا﴾ أنَّ قولَ فرعونَ: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ﴾ قصَد به إفحامَ مُوسى وتَهديدَه، فجعَلَ مُوسى الاعترافَ بالفَعلةِ جزاءً لذلك التَّهديدِ على طَريقةِ القولِ بالمُوجَبِ(٢)، أي: لا أتهيَّبُ ما أردْتَ(٣).

- وجوابُ مُوسى فيه اعترافٌ بظاهرِ التَّقريرِ، وإبطالٌ لِمَا يَستتْبِعُه مِن جَعْلِه حُجَّةً لتكذيبِه برسالتِه عن اللهِ؛ ولذلك قابَلَ قولَ فِرعونَ: ﴿وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩] بقولِه: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ إبطالًا لأنْ يكونَ يومَئذٍ كافرًا، ولذلك كان هذا أهَمَّ بالإبطالِ. وبهذا يَظهَرُ وجْهُ الاسترسالِ في الجوابِ بقولِه: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]، أي: فكان فِراري قد عقِبَه أنَّ اللهَ أنعَمَ عليَّ، فأصلَحَ حالي وعلَّمَني، وهَداني وأرسَلَني؛ فليس ذلك مِن مُوسى مُجرَّدَ إطنابٍ، بل لأنَّه يُفيد معنَى أنَّ الإنسانَ ابنُ يَومِه لا ابنُ أمْسِه، والأحوالُ بأواخرِها، فلا عجَبَ فيما قصدْتُ؛ فإنَّ اللهَ أعلَمُ حيثُ يَجعَلُ رِسالاتِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٣).

(٢) القولُ بالموجَبِ: هو عبارةٌ عن تسليمِ مقتضَى ما جعَله المستدِلُّ دليلًا لحُكمٍ، مع بقاءِ الخلافِ بيْنَهما فيه. أو: تسليمُ الدَّليلِ معَ بقاءِ النزاعِ، ومعنى ذلك: أن يسلمَ الخصمُ الدليلَ الذى استدلَّ به المستدِلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدليلُ ليس فى محلِّ النزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخلافُ بيْنَهما. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٨٩)، ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ جمعَ الضَّميرَ في ﴿مِنكُمْ﴾ و ﴿خِفْتُكُمْ﴾ مع إفرادِه في ﴿تَمُنُّهَا﴾ و ﴿عَبَّدتَّ﴾؛ لأنَّ الخوفَ والفِرارَ لم يكونَا منه وحْدَه، ولكنْ منه ومِن مَلَئِه المُؤتمرينَ بقتْلِه؛ بدليلِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]، وأمَّا الامتنانُ فمِنْهُ وحْدَه، وكذلك التَّعبيدُ(١).

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

- قولُه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ ...﴾ عادَ إلى أوَّلِ الكلامِ، فكَرَّ على امتنانِه عليه بالتَّربيةِ فأبطَله، وأبى أنْ يُسمِّيَه نِعمةً؛ فقولُه: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ﴾ إشارةٌ إلى النِّعمةِ الَّتي اقتضاها الامتنانُ في كلامِ فِرعونَ؛ إذ الامتنانُ لا يكونُ إلَّا بنِعمةٍ. ثمَّ إنْ جعلْتَ جُملةَ ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ بَيانًا لاسمِ الإشارةِ، كان ذلك لزِيادةِ تَقريرِ المعنى، مع ما فيه مِن قلْبِ مقصودِ فِرعونَ، وهو على حدِّ قولِه تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]؛ إذ قولُه: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بَيانٌ لقولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿أَنْ عَبَّدتَّ﴾ في مَحلِّ نصْبٍ على نزْعِ الخافضِ، وهو لامُ التَّعليلِ، والتَّقديرُ: لأنْ عبَّدْتَ بني إسرائيلَ. وقيل: الكلامُ استفهامٌ بحذْفِ الهمزةِ، وهو استفهامُ إنكارٍ. وكلامُ مُوسى على التَّقاديرِ الثَّلاثةِ نقْضٌ لامتنانِ فِرعونَ؛ بقلْبِ النِّعمةِ نِقمةً، بتَذكيرِه أنَّ نِعمةَ تَربيتِه ما كانت إلَّا بسَببِ إذلالِ بني إسرائيلَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٨).

## الآيات (٢٢-٢٧)

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِلْمَلَإِ﴾: أي: أشرافِ النَّاسِ ووُجوهِهم؛ لأنَّهم يَملؤون العيونَ منظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجَلالًا، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكَمالِ في الشَّيءِ[1].

﴿أَرْجِهْ﴾: أي: أخِّرْهُ، وأصلُ الإرجاءِ: التَّأخيرُ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى حاكيًا تعنُّتَ فرعونَ في محاورتِه لموسى عليه السلامُ وتمرُّدَه: قال فِرعَونُ مُنكِرًا مَعرفتَه برَبِّه: وما رَبُّ العالَمينَ الذي أرسلَك كما تزعُمُ يا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٧).

موسى؟! قال موسى: هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، ومالِكُ كُلِّ ذلك إنْ كنتُم تُوقِنون. قال فِرعَونُ لِمَن حَوْلَه مِن الملأ: ألَا تَستَمِعون إلى ما يقولُه موسى؟! قال موسى: اللهُ هو ربُّكم وربُّ آبائِكم مِن قَبْلِكم. قال فِرعَونُ معانِدًا للحقِّ، قادحًا بمَن جاء به: إنَّ موسى -الذي يزعُمُ أنَّه رسولٌ إليكم- مجنونٌ!

قال موسى: هو ربُّ المشرِقِ والمَغرِبِ وما بيْنَهما إنْ كنتُم تَعقِلون.

قال فِرعَونُ مُهدِّدًا موسى عليه السلامُ بعدَ أنْ عجَز عن دفعِ حُجَّتِه: لَئِنِ اتَّخذْتَ مَعبودًا غيري لأُصَيِّرَنَّك مِن المَسجونينَ. قال موسى: أتَسجُنُني ولو أتيتُك بمُعجزةٍ ظاهرةٍ تُبَيِّنُ صِحَّةَ ما جِئتُك به؟ قال فِرعَونُ لموسى: فأْتِ بمُعجِزتِك هذه إنْ كنتَ صادقًا. فرَمى موسى عصاهُ على الأرضِ فانقَلَبت حيَّةً ضَخمةً ظاهِرةَ الوُضوحِ، وأخرَج يَدَه مِن فَتحةِ قَميصِه العُلويَّةِ فإذا هي بَيضاءُ تَلمَعُ، فقال فِرعونُ لِمَن حوْلَه: إنَّ هذا لساحِرٌ ذو عِلمٍ بالسِّحرِ، يريدُ أن يُخرِجَكم مِن أرضِكم بسِحرِه، فماذا تُشيرون علَيَّ مِن الرأيِ في شأنِه؟ فقالوا له: أخِّرْ موسى وأخاه هارونَ وأمهِلْهما، وابعَثْ في مُدُنِ المَملكةِ مَن يَجمَعون السَّحَرةَ إليك؛ يأتوك بكُلِّ ساحرٍ عليمٍ ماهرٍ؛ لِيُعارِضوا ما جاء به موسى.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: قال فِرعَونُ مُنكِرًا مَعرِفتَه باللهِ: وما ربُّ العالَمين الذي تَزعُمُ -يا موسى- أنَّه أرسَلَك، وأنَّه يَستَحِقُّ العبادةَ[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٦/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣، ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٦٩، ٧٠).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩].

وقال سُبحانَه حاكِيًا قَولَ فِرعَونَ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: قال موسى: هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومالِكُهنَّ ومُدبِّرُهن وما بيْنَهنَّ، فإن كنتُم تُوقِنون حقًّا[1] فأيقِنوا بأنَّ اللهَ هو الخالِقُ؛ لظهورِ ذلك بلا خَفاءٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: قال فِرعَونُ للَّذين حوْلَه مِن أشرافِ قَومِه: ألَا تَستَمِعون إلى ما يقولُه موسى، وتَعجَبون مِن قَولِه[3]؟!

---

(١) قال ابن الجوزي: (في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ قولان؛ أحدُهما: أنَّه خَلَقَ السمواتِ والأرضَ. والثاني: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أنَّ ما تُعاينونه كما تُعاينونه، فكذلك فأيقِنوا أنَّ ربَّ العالَمينَ ربُّ السَّمواتِ والأرضِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٣٨).

وقال ابن عثيمين: (التقدير: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: مِن ذوي الإيقانِ، فأيقِنوا بذلك؛ لأنَّه لا أحدَ يقدِرُ على خلقِ السمواتِ والأرضَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (خاطَبه موسى بما بيَّن له أنه أعرَفُ مِنْ أنْ يُنكَرَ، وأعظمُ مِنْ أنْ يُجحَدَ). ((منهاج السنة النبوية)) (١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ٧٢، ٧٣).

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

أي: قال موسى: اللهُ الذي أدعوكم إلى عبادتِه هو ربُّكم الذي خلَقَكم وخلَقَ آباءَكم الذين مِن قَبْلِكم، ومالِكُكم ومدبِّرُ شؤونِكم، فكيف يمكِنُ أن يكونَ مَن سِوى اللهِ ربًّا[1]؟!

﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أي: قال فِرعَونُ مُتهَكِّمًا: إنَّ موسى الذي يزعُمُ أنَّه رسولٌ إليكم لا عَقلَ له، ويقولُ ما لا نعلَمُ حَقيقتَه[2]!

﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

أي: قال موسى لفِرعَونَ وقَومِه: الَّذي أدعوكم إلى عبادتِه هو رَبُّ المشرِقِ والمَغرِبِ وما بيْنَهما وما يَحدُثُ فيهما، وليس مُلكُه ناقِصًا كمُلكِكم، فإن كانت لكم عُقولٌ تَعرِفونَ بها صِحَّةَ كلامي، فآمِنوا باللهِ وحْدَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٧٤).

قال ابن جُزَي: (زاد موسى في إقامةِ الحُجَّةِ بقولِه: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ لأنَّ وجودَ الإنسانِ وآبائِه أظهَرُ الأدلَّةِ عندَ العقلاءِ، وأعظَمُ البراهينِ؛ فإنَّ أنفُسَهم أقرَبُ الأشياءِ إليهم، فيَستدِلُّون بها على وجودِ خالِقِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٣، ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٧٧، ٧٨).

قال ابنُ كثير: (أي: هو الذي جعَل المشرِقَ مَشرِقًا تطلُعُ منه الكواكِبُ، والمغربَ مغرِبًا =

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا قامت على فِرعونَ الحُجَّةُ بالبيانِ والعقلِ، وغُلِبَ وانقطَعَت حُجَّتُه، عدَل إلى استعمالِ جاهِه وقُوَّتِه وسُلطانِه، وأراد أن يَقهرَ موسَى بيَدِه وسلطانِه، وظنَّ أنَّه ليس وراءَ هذا المقامِ مقالٌ، واعتقدَ أنَّ ذلك نافعٌ له ونافِذٌ في موسى عليه السَّلامُ، فقال ما أخبَرَ الله تعالى عنه[1]، عادلًا عن الحِجَاجِ -بعْدَ الخوضِ فيه- إلى المغالَبةِ الَّتي هي أبْيَنُ علاماتِ الانقطاعِ[2]:

﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾.

أي: قال فِرعَونُ متهدِّدًا موسى عليه السَّلامُ: لئِنْ أصرَرْتَ -يا موسى- على عبادةِ مَعبودٍ غيري، لأُصَيِّرَنَّك مِن جُملةِ المحبوسينَ المعذَّبينَ في سُجوني[3].

﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ٣٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا رأى موسى عليه السَّلامُ مِن مكابرةِ فرعونَ عن الاعترافِ بدَلالةِ النَّظَرِ

---

= تغرُبُ فيه الكواكِبُ؛ ثوابتُها وسيَّاراتُها، مع هذا النظامِ الذي سخَّرها فيه وقَدَّرها، فإنْ كان هذا الذي يزعُمُ أنَّه ربُّكم وإلهُكم صادقًا، فلْيَعكِسِ الأمرَ، ولْيجعَلِ المشرِقَ مَغرِبًا، والمغرِبَ مَشرِقًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (فبيَّن له موسى أنَّكم الذين سُلِبْتُم العقلَ النَّافعَ، وأنتم أحَقُّ بهذا الوَصفِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٢).

ما لا مَطمَعَ معه إلى الاسترسالِ في الاستِدلالِ؛ لأنَّه مُتعامٍ عن الحَقِّ- عَدَلَ موسى إلى إظهارِ آيةٍ مِن خَوارقِ العادةِ دَلالةً على صِدقِه، وعرَضَ عليه ذلك قبْلَ وُقوعِه؛ لِيَسُدَّ عليه منافِذَ ادِّعاءِ عدَمِ الرِّضا بها[1].

﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: قال موسى عليه السَّلامُ لفِرعَونَ: أتسجُنُني حتَّى وإنْ أتيتُك بمُعجزةٍ ظاهرةٍ وبُرهانٍ قاطعٍ يُبينُ لك صِدقي وصِحَّةَ ما جِئتُ به[2]؟!

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: قال فِرعَونُ لموسى عليه السَّلامُ: فأْتِ بهذا الشَّيءِ المُبينِ إن كنتَ صادقًا في دعْواك[3].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ موسى عليه السَّلامُ وفِرعونَ: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ * قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٥، ١٠٦].

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: فرمَى موسى عَصاهُ إلى الأرضِ، فانقلَبَت حَيَّةً ضَخمةً في غايةِ الوضوحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٤، ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢١)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٤/ ١٣٢).

قال ابن عجيبة: (قال فرعونُ: فأْتِ به إن كنتَ مِن الصادقينَ فيما قُلْتَ مِن الإتيانِ بالشيءِ الواضحِ على صدقِ دعْواك، أو: مِن الصادقينَ في دعوَى الرسالةِ). ((البحر المديد)) (٤/ ١٣٢).

وقال البِقاعي: (أي: فيما ادَّعيتَ مِن الرسالةِ والبيِّنةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٨).

لِمَن يَراها[١].

﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ٣٣﴾.

أي: وأخرَج موسى يَدَه -مِن فَتحةِ قَميصِه العُلويَّةِ مِن جِهةِ العُنُقِ- بيضاءَ تلمَعُ لجَميعِ الناظرينَ إليها في مجلِسِ فِرعَونَ[٢].

﴿قَالَ لِلۡمَلَإِ حَوۡلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ٣٤﴾.

قال فِرعَونُ للأشرافِ الذين مِن حَولِه: إنَّ هذا لساحِرٌ بارِعٌ، ذو عِلمٍ ودِرايةٍ فائِقةٍ بالسِّحرِ، يُخيِّلُ إلى النَّاسِ أنَّ عصاهُ تنقَلِبُ حَيَّةً، وأنَّ يَدَه تَصيرُ بَيضاءَ[٣]!

﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ٣٥﴾.

﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٣).

قال ابن جرير: (فتحوَّلَتْ ثعبانًا، وهي الحيَّةُ الذَّكَر). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

وقال ابن عاشور: (الثعبانُ: الحيَّةُ الضخمةُ الطويلةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٣، ١٢٤).

قال البغوي: (أدخَلَ يدَه في جَيبِه ثمَّ نزَعها منه، وقيلَ: أخْرَجها مِن تحتِ إبْطِه فإذا هي بيضاءُ لها شعاعٌ غَلَب نورَ الشَّمسِ، وكان موسَى آدمَ اللَّونِ، ثُمَّ أدخَلها جَيْبَه فصارَتْ كما كانت). ((تفسير البغوي)) (٢/ ٢١٩).

وقال البقاعي: (أي: بياضًا تتوفَّرُ الدَّواعي على نظَرِه؛ لخروجِه عن العادةِ بأنَّ له نورًا كنورِ الشَّمسِ يَكادُ يَغْشى الأبصارَ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

أي: يريدُ أن يُخرِجَكم مِن أرضِكم مِصرَ بسِحرِه[١].

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾.

أي: قال فِرعَونُ لِمَن حَولَه: فماذا تُشيرونَ عليَّ مِن الرأيِ في شَأنِه، وما نفعَلُه به[٢]؟!

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ﴾.

أي: قال الأشرافُ لفِرعَونَ مُشيرينَ عليه: أخِّرْ موسى وأخاه هارونَ وأمهِلْهما[٣].

﴿وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾.

أي: وابعَثْ -يا فِرعَونُ- في مُدُنِ مملكتِك مَن يجمَعونَ منها السَّحَرةَ إليك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

قال الرازي: (والمعنى: يريدُ أن يُخرِجَكم مِن أرضِكم بما يُلقيه بينَكم مِن العداواتِ، فيفَرِّق جَمْعَكم، ومعلومٌ أنَّ مُفارقةَ الوطنِ أصعَبُ الأمورِ، فنفَّرَهم عنه بذلك، وهذا نهايةُ ما يفعلُه المبطِلُ في التنفيرِ عن المحِقِّ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠١).

وقال ابن كثير: (أي: أراد أن يَذهَبَ بقلوبِ النَّاسِ معه بسبَبِ هذا، فيَكثُرَ أعوانُه وأنصارُه وأتباعُه، ويَغلِبَكم على دولتِكم، فيأخُذَ البلادَ منكم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المعنى: يريدُ موسى أن يُخرِجَ خدَمَكم وعبيدَكم بني إسرائيلَ مِن أرضِكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٦، ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٨٥، ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٧)، ((بدائع الفوائد)) =

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

أي: يأتوك بجَميعِ السَّحَرةِ المَهَرةِ؛ ليُعارِضوا ما جاء به موسى[١].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ أنَّ الواجِبَ على مَن يدعو غيرَه إلى اللهِ تعالى ألَّا يُجيبَ عنِ السَّفاهةِ؛ لأنَّ موسى عليه السَّلامُ لَمَّا قال له فرعونُ: إنَّه مجنونٌ! لم يَعْدِلْ عن ذِكرِ الدَّلالةِ، وكذلك لَمَّا توعَّدَه أنْ يَسجُنَه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾، ظاهِرُ هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ فرعونَ لا يعلمُ شيئًا عن رَبِّ العالَمينَ، وكذلك قولُه تعالَى عنه: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ [طه: ٤٩]، وقولُه: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨]، وقولُه: ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩]، ولكنَّ اللهَ جلَّ وعلَا بيَّن أنَّ سؤالَ فِرعونَ في قولِه: ﴿ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾، وقولِه: ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾ تجاهُلُ عارِفٍ[٣] أنَّه عبدٌ مَربوبٌ لِرَبِّ العالَمينَ،

---

= لابن القيم (٤/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠٠).

(٣) تَجاهُل العارِف: له عِدَّةُ تعريفاتٍ، وتَرجِعُ كلُّها إلى: سَوْقِ المعلومِ مَساقَ غيرِه لنُكتةٍ؛ فمِن =

بقولِه تعالَى: ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقولِه تعالَى عن فِرْعونَ وقومِه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[1] [النمل: ١٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ... ﴾، مِن دقائقِ هذه المجادَلةِ أنَّ الاستِفسارَ مُقَدَّمٌ في المناظَراتِ؛ ولذلك ابتدأَ فرعونُ بالسُّؤالِ عن حقيقةِ الذي أرسَلَ موسى عليه السَّلامُ، وكان جوابُ مُوسى عليه السَّلامُ بَيانًا لحقيقةِ ربِّ العالَمينَ بما يَجعَلُ وصْفَه بربِّ العالمينَ نصًّا لا يَحتمِلُ غيرَ ما أرادهُ مِن ظاهرِه؛ فأتى بشَرْحِ اللَّفظِ بما هو تفصيلٌ لمعناهُ؛ إذ قال: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ﴾ [الشعراء: ٢٤]، فبِذِكْرِ السَّمواتِ والأرضِ وبعُمومِ ما بيْنَهما حصَلَ بَيانُ حقيقةِ المسؤولِ عنه بـ (ما)، ومَرجِعُ هذا البيانِ إلى أنَّه تعريفٌ لحقيقةِ الرَّبِّ بخصائصِها؛ لأنَّ ذلك غايةُ ما تصِلُ إليه العقولُ في مَعرفةِ اللهِ أنْ يُعرَفَ بآثارِ خلْقِه[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ

---

= تعريفاتِه أنَّه: سؤالُ المتكلِّمِ عمَّا يَعلمُه حقيقةً تجاهُلًا؛ لنُكتةٍ بلاغيَّة. ومنها أنَّه: إخراجُ ما يَعرِفُ صِحَّتَه مخرجَ ما يَشُكُّ فيه؛ ليَزيدَ بذلك تأكيدًا. وقيل: هو إخراجُ الكلامِ مخرجَ الشكِّ في اللَّفظِ دون الحقيقةِ؛ لضربٍ مِن المسامحةِ وحسْمِ العنادِ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(١) يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٧).

تَعۡقِلُونَ﴾، فإنْ قيل: كيف قال أوَّلًا: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، ثمَّ قال آخِرًا: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾؟

**فالجوابُ**: أنَّه لايَنَ أوَّلًا طمعًا في إيمانِهم، فلمَّا رأى منهم العنادَ والمغالطةَ وبَّخَهم بقَولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾، وجعَل ذلك في مقابلةِ قَولِ فِرعَونَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾[1]. فلَمَّا دعاهُ موسى صلَّى الله عليه وسلَّم باللِّينِ فأساءَ الأدبَ عليه في الجوابِ الماضي، خَتَمَ هذا البُرهانَ بقَولِه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: فأنتم تَعلمونَ ذلك، فخَيَّرَهم بيْنَ الإقرارِ بالجُنونِ أو العَقلِ بما أشار إليه مِنَ الأدِلَّةِ في مقابَلةِ ما نَسَبوه إليه مِنَ الجُنونِ بسُكوتِهم وقَولِ عَظيمِهم بغيرِ شُبهةٍ؛ ردًّا لهم عن الضَّلالةِ، وإنقاذًا مِن واضِحِ الجَهالةِ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ أنَّ جوابَ موسى بما يُبَيِّنُ حقيقةَ ربِّ العالَمينَ تضمَّنَ تنبيهًا على أنَّ الاستدلالَ على إثباتِ الخالقِ الواحِدِ يحصُلُ بالنظَرِ في السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما؛ نظرًا يؤدِّي إلى العِلمِ بحقيقةِ الرَّبِّ الواحِدِ، الممتازةِ عن حقائقِ المخلوقاتِ؛ ولهذا أتبَعَ بيانَه بقَولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إنْ كنتُم مُستعدِّينَ للإيقانِ، طالبِينَ لمعرفةِ الحقائقِ غيرَ مكابرِينَ[3].

٥- قال تعالى عن فرعونَ: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾ فقولُ فرعونَ ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ﴾ على طريقِ التهكُّمِ إشارةٌ إلى أنَّ الرَّسولَ يَنبغي أن يكونَ أعقَلَ النَّاسِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦).

٦- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ في رُبوبيَّتِه سُبحانَه للمَشارِقِ والمغارِبِ تنبيهٌ على ربوبيَّتِه للسَّمواتِ وما حَوَتْه مِنَ الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ، وربوبيَّتِه لِما بيْنَ الجِهتَينِ، وربوبيَّتِه للَّيلِ والنَّهارِ وما تضَمَّناه[١].

٧- قال تعالى حِكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ فموسى عليه السَّلامُ أُسلوبُه أُسلوبُ حَكيم؛ أتَى أولًا بالربوبيَّةِ العامَّةِ للسَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، ثمَّ أتى بالربوبيَّةِ الخاصَّةِ لفِرعَونَ الذي يدَّعي أنَّه رَبُّه، وقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّكم أنتم أتيتُم مِن آبائِكم، ومَن أتى مِن أبٍ فكيف يمكِنُ أن يكون ربًّا وهو مخلوقٌ مِن نُطفةٍ؟! فكأنَّه يقولُ: ارجِعوا إلى أصلِكم، فاللهُ تعالى ربُّكم أنتم الذين تَدَّعون أنَّكم أربابٌ، وربُّ آبائِكم الأوَّلينَ الذين أتيتُم منهم، فيُذَكِّرُهم بأصلِهم؛ لِيَذكُروا أنَّهم كانوا مُحْدَثِينَ، وأنَّهم لا يَصلُحونَ لأن يَكونوا أربابًا، وهذا مِن حُسنِ الجَوابِ، وفي الحقيقةِ كُلُّ جوابٍ يقولُه موسى فهو حُجَّةٌ قاطِعةٌ تَدمَغُهم، ولكِنْ -والعياذُ باللهِ- مَن لم يُوَفَّقْ للحَقِّ فإنَّه لا ينتَفِعُ به، ويَستكبِرُ عنه[٢].

٨- إنَّ المُبطِلينَ إذا غُلِبوا وقامتْ عليهمُ الحُجَّةُ هَمُّوا بالعُقوبةِ، كما قال فرعونُ لموسى عليه السَّلامُ -وقد أقام عليه الحُجَّةَ-: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾[٣].

٩- في قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ﴾ أنَّه يجوزُ للمَسؤولِ أن يَعْدِلَ في حجَّتِه مِن مثالٍ إلى مثالٍ لإيضاحِ الكلامِ، ولا يدُلُّ ذلك على الانقِطاعِ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٥، ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠٠).

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ بَياضَها كان شيئًا يَجتمِعُ النَّظَّارةُ على النَّظرِ إليه؛ لخُروجِه عنِ العادةِ، وكان بياضًا نوريًّا[١].

١١- قَولُه تعالى حكايةً عن فرعونَ: ﴿فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ استدلَّ به الأصوليُّونَ على أنَّه لا يُشترَطُ في الأمرِ العُلوُّ ولا الاستِعلاءُ[٢].

١٢- قال الله تعالى حِكايةً عن فِرعَونَ مُخاطِبًا السَّحَرةَ: ﴿يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِۦ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ﴾ أظهَرَ فِرعَونُ للسَّحَرةِ المَيلَ إلى ما يقولونَه؛ تألُّفًا لهم، واستِجلابًا لمَودَّتِهم؛ لأنَّه قد أشرَف ما كان فيه مِن دَعوى الربوبيَّةِ على الزَّوالِ، وقارَب ما كان يغَرِّرُ به عليهم الاضمِحلالَ، وإلَّا فهو أكبَرُ تِيهًا وأعظَمُ كِبْرًا مِن أن يخاطِبَهم مِثلَ هذه المُخاطَبةِ المُشعِرةِ بأنَّه فَردٌ مِن أفرادِهم، وواحِدٌ منهم، مع كَونِه قبْلَ هذا الوَقتِ يدَّعي أنَّه إلهُهم، ويُذعِنون له بذلك، ويصَدِّقونَه في دَعْواه[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- إظهارُ اسمِ فِرْعونَ، مع أنَّ طريقةَ حِكايةِ المُقاوَلاتِ والمُحاوَرةِ يُكْتفى فيها بضَميرِ القائلينَ بطريقةِ (قال، قال)، أو (قال، فقال)، فعدَلَ عن تلك الطَّريقةِ إلى إظهارِ اسْمِه؛ لإيضاحِ صاحبِ هذه المقالةِ؛ لِبُعدِ ما بيْنَ قولِه هذا وقولِه الآخرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٦).

- قولُه: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سُؤالُ إنكارٍ لأنْ يكونَ للعالَمينَ ربٌّ سِواهُ، حسَبَما يُعرِبُ عنه قولُه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقولُه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، ويَنطِقُ به وعيدُه عندَ تَمامِ أجوبةِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١]. أو: سُؤالٌ على سَبيلِ المُباهَتةِ والمُكابَرةِ والمُرادَّةِ، وكان عالمًا باللهِ، ويدُلُّ عليه: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولكنَّه تعامَى عن ذلك طلَبًا للرِّياسةِ ودَعوى الإلهيَّةِ، واستفهَمَ بـ (ما) استفهامًا عن مَجهولٍ مِن الأشياءِ[٢]. أو: استفهامٌ مَشوبٌ بتعجُّبٍ وإنكارٍ على طَريقِ الكِنايةِ. وكان جوابُ مُوسى عليه السَّلامُ بَيانًا لحقيقةِ ربِّ العالَمينَ؛ ولهذا أتبَعَ بَيانَه بـ ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾

- عرَّفَه بأَظهرِ خَواصِّه وآثارِه لَمَّا امتَنَع تعريفُ الأفرادِ إلَّا بذِكرِ الخَواصِّ والأفعالِ[٤].

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ تَعيينُ ما أَرادَ بالعالَمينَ وتَفصيلُه؛ لزيادةِ التَّحقيقِ والتَّقريرِ، وحسْمِ مادَّةِ تَزويرِ اللَّعينِ وتَشكيكِه بحمْلِ العالَمينَ على ما تحتَ مملكتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٩).

- وجاء قولُه: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ على التَّثنيةِ، والعائدُ عليه الضَّميرُ مَجموعٌ اعتِبارًا للجِنسَينِ: جِنسِ السَّماءِ، وجِنسِ الأرضِ(١).

- وضميرُ الجَمعِ في ﴿كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ مُرادٌ به: جميعُ حاضِري مَجلِسِ فِرعونَ، أرادَ موسى تَشريكَهم في الدَّعوةِ؛ تَقَصِّيًا لكمالِ الدَّعوةِ(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ أَعرَضَ فِرعونُ عن خِطابِ موسى، واستَثارَ نُفوسَ المَلأِ مِن حَولِه، وهُم أهلُ مَجلِسِه، فاستَفهَمَهمُ استِفهامَ تَعجُّبٍ مِن حالِهم: كيف لمْ يَستمِعوا ما قاله موسى؟! فنَزَّلَهم مَنزِلةَ مَن لم يَستمِعْه؛ تَهييجًا لنُفوسِهم؛ كيْ لا تَتمكَّنَ منهم حُجَّةُ موسى، فسَلَّطَ الاستِفهامَ على نَفيِ استِماعِهم. وهذا التَّعجُّبُ مِن حالِ استِماعِهم وسُكوتِهم يَقتَضي التَّعجُّبَ مِن كلامِ موسى بطريقِ فَحْوى الخِطابِ(٣)؛ فهو كِنايةٌ عن تَعجُّبٍ آخَرَ(٤).

- ولكَونِ خِطابِ فِرعونَ لمَن حَوْلَه يَتضمَّنُ جوابًا عن كلامِ موسى؛ حُكيَ كلامُ فِرعونَ بالصِّيغةِ الَّتي اعتِيدتْ في القُرآنِ حكايةُ المُقاوَلاتِ بها، كأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٨).

(٣) فحْوَى الخطابِ: ويسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ، وهو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولى؛ كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٨).

يُجيبُ موسى عن كلامِه[١].

- قولُه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ إغراءٌ به وتَعجُّبٌ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- كَلامُ موسى هذا في مَعرِضِ الجَوابِ عن تَعجُّبِ فِرعونَ مِن سُكوتِ مَن حوْلَه؛ فلذلك كانت حِكايتُه قَوْلَه على الطَّريقةِ الَّتي تُحكَى بها المُقاوَلاتُ. ولَمَّا كان في كلامِ فِرعونَ إعراضٌ عن مُخاطبةِ موسى، إذْ تَجاوَزَه إلى مُخاطَبةِ مَن حوْلَه؛ وجَّهَ موسى خِطابَه إلى جميعِهم[٣].

- وعمَّ أوَّلًا بقولِه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾، وخصَّ ثانيًا بذِكْرِ أنفُسِهم وآبائِهم؛ لأنَّ أقرَبَ ما ينظُرُ فيه العاقلُ نفسُه، وما نشَأ عنه، وتولَّد منه، ولِيَكونَ أوضَحَ لهم في بيانِ بُطْلانِ دَعْوى فِرعونَ الإلهيَّةَ؛ إذْ كان آباؤُهمُ الأوَّلونَ تَقدَّموا فِرعونَ في الوُجودِ، فمُحالٌ أن يَكونَ وهو في العَدَمِ إلهًا لهم. معَ ما في ذلك مِن تنبيهِهم على نِعَمِ الله تعالى عليهم، وإحسانِه إليهم[٤].

- وفي قَولِه: ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دَلالةٌ على إماتَتِهم بعْدَ إيجادِهم[٥].

- وهذا بعَينِه طريقةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع نُمْرُوذَ؛ فإنَّه استَدلَّ أوَّلًا بالإحياءِ والإماتةِ -وهو الَّذي ذَكَرَه موسى عليه السَّلامُ هاهنا بقولِه: ﴿رَبُّكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٠٩، ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٨، ١١٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٠).

وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾-؛ فأجابه نُمْروذُ بقَولِه: ﴿أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]! فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾، وهو الَّذي ذَكَرَه مُوسى عليه السَّلامُ هاهنا بقولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾

- في قولِه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ أكَّدَ كلامَه بحرفَي التَّأكيدِ (إنَّ - واللَّام)؛ لأنَّ حالةَ موسى لا تؤْذِنُ بجُنونِه، فكان وصْفُه بالمَجنونِ مُعرَّضًا للشَّكِّ؛ ولِيَفتِنَهم بذلك، ويَصرِفَهم عن قَبولِ الحقِّ. وقصَدَ بإطلاقِ وصْفِ الرَّسولِ على موسى التَّهكُّمَ به؛ بقرينةِ رَمْيِه بالجُنونِ المُحقَّقِ عِندَه. وأضافَ الرَّسولَ إلى المُخاطَبينَ؛ تنزيهًا لنفْسِه واستبعادًا أن يَكونَ مقصودًا بالخِطابِ، وأكَّد التَّهكُّمَ والاستبعادَ بوصْفِه بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ ﴾؛ فإنَّ مَضمونَ المَوصولِ وصِلَتِه هو مَضْمونُ ﴿رَسُولَكُمُ ﴾؛ فكان ذِكرُه كالتَّأكيدِ، وتَنصيصًا على المقصودِ؛ لزيادةِ تَهييجِ السَّامِعينَ؛ كيْلَا يَتأثَّروا أو يَتأثَّرَ بعضُهم بصِدْقِ موسى[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

- قال ذلك موسى عليه السَّلامُ؛ تَكميلًا لجَوابِه الأوَّلِ، وتفسيرًا له، وتنبيهًا على جهلِهم وعدَمِ فَهمِهم لمعنَى مَقالتِه؛ فإنَّ بيانَ رُبوبيَّتِه تعالى للسَّموات والأرضِ وما بيْنَهما وإنْ كان مُتضمِّنًا لبيانِ رُبوبيَّتِه تعالى للخافِقَينِ وما

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٩، ١٢٠).

بيْنَهما، لكنْ لمَّا لمْ يكُنْ فيه تَصريحٌ باستِنادِ حرَكاتِ السَّمواتِ وما فيها وتَغيُّراتِ أحوالِها وأوضاعِها، وكَونِ الأرضِ تارةً مُظلِمةً وأُخرى مُنوِّرةً؛ إلى الله تعالى- أرشدَهُم إلى طريقِ مَعرفةِ رُبوبيَّتِه تعالى لِما ذَكَر؛ فإنَّ ذِكرَ المَشرقِ والمَغربِ مُنبِئٌ عن شُروقِ الشَّمسِ وغُروبِها المنُوطَينَ بحرَكاتِ السَّمواتِ وما فيها على نَمَطٍ بديعٍ تَترتَّبُ عليه هذه الأوضاعُ الرَّصينةُ، وكلُّ ذلك أمورٌ حادثةٌ مُفتقِرةٌ إلى مُحْدِثٍ قادرٍ عليمٍ حكيمٍ، لا كذَواتِ السَّمواتِ والأرضِ الَّتي رُبَّما يَتوهَّمُ جهَلةُ المُتَوهِّمينَ باستِمرارِها استِغناءَها عنِ المُوجِدِ المُتصرِّفِ[1].

أو: خصَّصَ المَشرِقَ والمَغربَ؛ لأنَّ طُلوعَ الشَّمسِ مِن أحَدِ الخافقَينِ وغُروبَها في الآخَرِ على تقديرٍ مُستقيمٍ في فُصولِ السَّنةِ، وحسابٍ مُستَوٍ مِن أَظهَرِ ما استُدِلَّ به[2].

- وتَكريرُ لفظِ الرَّبِّ وإعادتُه في كلِّ مرَّةٍ؛ لتَعظيمِ ما نَسَبوا إليه[3].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فيه إيذانٌ بغايةِ وُضوحِ الأمرِ، بحيثُ لا يَشتَبِهُ على مَن له عقْلٌ في الجُملةِ، وتَلويحٌ بأنَّهم بمَعزلٍ مِن دائرةِ العقلِ، وأنَّهمُ المُتَّصِفون بما رَمَوه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ به مِنَ الجُنونِ[4].

- والتَّذييلُ بجملةِ ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تَنبيهٌ لنَظرِهمُ العقليِّ؛ ليُعاوِدوا النَّظرَ فيُدْرِكوا وجْهَ الاستِدلالِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢١).

- وفي قولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ تعريضٌ بفِرعونَ أنَّ الرَّبَّ يَنبَغي أن يكونَ قادرًا على ما في يَدِه وتحتَ تَصرُّفِه، وأنتُم تَعلَمون أنَّ مَشارقَ الأرضِ وَمغارِبَها ليستْ في تَصرُّفِه، ولا يَملِكُ منها على شيءٍ، ولا أَحاطَ منها عِلمًا بشيءٍ. وذَيَّلَه بقَولِه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ ردًّا لنِسبتِه الجُنونَ إليه، على طريقِ المُشاكَلةِ المَعنويَّةِ[1].

- ومِن اللَّطائِفِ والمُناسَبةِ الحَسَنةِ: أنَّ موسى عليه السَّلامَ قال أوَّلًا: ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾، وآخِرًا: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾؛ فجَعَلَ ذلك مُقابِلَ قَولِ فِرعونَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾؛ لأنَّ الجُنونَ يُقابِلُه العقلُ؛ فكانَ موسى يقولُ لهم قَولًا لَيِّنًا ابتِداءً فلاطَفَهم أوَّلًا، فلمَّا رأى منهمُ المُكابرةَ وشدَّةَ الشَّكيمةِ في العِنادِ، وقِلَّةَ الإصغاءِ إلى عرْضِ الحُجَجِ، ووصَفوه بالجُنونِ؛ خاشَنَهم في القولِ، وعارَضَ قَولَ فِرعونَ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾، فقال: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: إنْ كنتُم أنتُمُ العُقلاءَ، أي: فلا تَكونوا أنتُمُ المَجانينَ[2].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾

- اللَّامُ في قَولِه: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا﴾ موَطِّئةٌ للقسَمِ. والمعنى: أنَّ فِرعونَ أكَّدَ وَعيدَه بما يُساوي اليَمينَ المُجمَلةَ الَّتي تؤْذِنُ بها اللَّامُ الموَطِّئةُ في اللُّغةِ العربيَّةِ، كأنْ يَكونَ فِرعونُ قال: علَيَّ يمينٌ، أو بالأَيمانِ، أو أُقْسِمُ[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤٢، ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥١، ١٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢١، ١٢٢).

- قولُه: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾، أي: لأَسجُنَنَّكَ، فسَلَكَ فيه طريقةَ الإطنابِ؛ لأنَّه أَنسَبُ بمَقامِ التَّهديدِ؛ لأنَّه يُفيدُ معنَى: لأَجعَلَنَّكَ واحدًا ممَّن عرَفْتَ أنَّهم في سِجني، ومِثلُ هذا التَّركيبِ يُفيدُ تَمكُّنَ الخبرِ مِنَ المُخبَرِ عنه[1].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾

- قيل: الواوُ في قولِه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ عاطِفةٌ، وهي تَستَدعي مَعطوفًا عليه، وهو ما سبَقَ في أوَّلِ المُكالَمةِ بيْنَ نبيِّ اللهِ تعالى وعدُوِّه، والهمزةُ مُقحَمةٌ بيْنَ المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه؛ للتَّقريرِ[2]. وقيل: استَفهَمَه استِفهامًا مَشوبًا بإنكارٍ واستغرابٍ على تَقديرِ عدَمِ اجتِزاءِ فِرعونَ بالشَّيءِ المُبينِ، وأنَّه ساجِنُه لا مَحالةَ إنْ لم يَعترِفْ بإلهيَّةِ فِرعونَ؛ قَطْعًا لمَعذرتِه مِن قبْلِ الوُقوعِ. وهذا التَّقديرُ دلَّتْ عليه (لو) الوَصْليَّةُ، الَّتي هي لفَرضِ حالةٍ خاصَّةٍ. فالواوُ في قولِه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾ واوُ الحالِ، والمُستفهَمُ عنه بالهمزةِ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه أنَّ الكلامَ جوابُ قَولِ فِرعونَ: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٢٩]، والتقدير: أتَجعَلُني مِنَ المَسجونينَ والحالُ لو جِئتُكَ بشيءٍ مُبينٍ؟ إذِ القَصدُ الاستِفهامُ عنِ الحالةِ الَّتي تَضمَّنَها شرْطُ (لو) بأنَّها أَوْلى الحالاتِ بألَّا يَثبُتَ معها الغرضُ المُستفهَمُ عنه على فرْضِ وُقوعِها، وهو غرضُ الاستِمرارِ على التَّكذيبِ، وهو استِفهامٌ حقيقيٌّ، وليستِ الواوُ مؤَخَّرةً عن همزةِ الاستِفهامِ؛ لأنَّ لحَرفِ الاستِفهامِ الصَّدارةَ، بل هي لعَطفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٠، ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤٨).

الاستِفهامِ[١].

- وتصديرُ المَجيءِ بما ذُكِر مِن كَلمةِ (لَوْ) دون (أنْ) ليس لبَيانِ استبعادِه في نفْسِه، بل بالنِّسبةِ إلى فِرعونَ، والمعنى: أَتَفْعَلُ بي ذلك حالَ عدَمِ مَجيئي بشَيءٍ مُبينٍ وحالَ مَجيئي به[٢]؟

- قولُه: ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ﴾ فيه التَّعبيرُ عنِ المُعجزةِ بـ (شيءٍ مبينٍ)؛ للتَّهويلِ[٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- في قوله: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ في كلامِ فِرعونَ ما يَقتَضي أنَّ فرْضَ صِدْقِ موسى فرْضٌ ضعيفٌ، كما هو الغالبُ في شرطِ (إنْ)، مع إيهامِ أنَّه إنْ جاء بشَيءٍ مُبينٍ يُعتبَرُ صادقًا فيما دَعَا إليه، فبَقيَ تحقيقُ أنَّ ما سيَجيءُ به موسى مُبينٌ أو غَيرُ مُبينٍ. وهذا قدِ استَبْقاهُ كلامُ فِرعونَ إلى ما بعْدَ الوُقوعِ والنُّزولِ؛ ليتأتَّى إنكارُه إنِ احتاجَ إليه[٤].

- قولُه: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذفِ؛ حيثُ حُذِف الجزاءُ؛ لأنَّ الأمرَ بالإتيانِ به يدُلُّ عليه[٥].

- وأُدمِجَ في سِياقِ هذا التَّركيبِ معنَى أنَّ المعجزةَ تَصديقٌ مِنَ اللهِ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤١).

لمُدَّعي النُّبوَّةِ، والحكيمُ لا يُصَدِّقُ الكاذبَ[١].

١٠- قولُه تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ فيه إيثارُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على كَمالِ سُرعةِ الانقلابِ، وثَباتِ وَصْفِ الثُّعبانيَّةِ فيها، كأنَّها في الأصلِ كذلك[٢].

- ووصَفَ ﴿ثُعْبَانٌ﴾ بأنَّه ﴿مُّبِينٌ﴾ الَّذي هو اسمُ فاعلٍ مِن الفعلِ (أَبانَ) القاصرِ الَّذي بمعنَى بانَ بمعنَى ظهَرَ، فـ ﴿مُّبِينٌ﴾ دالٌّ على شدَّةِ الظُّهورِ؛ مِن أجْلِ أنَّ زيادةَ المَبْنَى تدُلُّ على زيادةِ المَعنى، أي: ثُعبانٌ ظاهرٌ أنَّه ثُعبانٌ، لا لَبْسَ فيه ولا تَخْييلَ[٣].

- إنْ قيلَ: كيف قال هاهنا: ﴿ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾، وفي آيةٍ أُخرى: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٢٠]، وفي آيةٍ ثالثةٍ: ﴿كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ [النمل: ١٠]، والجانُّ مائِلٌ إلى الصِّغَرِ؛ والثُّعبانُ مائِلٌ إلى الكِبَرِ؟

**جوابُه:** أمَّا الحيَّةُ فهي اسمُ الجِنسِ، ثمَّ إنَّها لكِبَرِها صارَتْ ثُعْبانًا، وشَبَّهَها بالجانِّ لِخِفَّتِها وسُرعتِها؛ فصَحَّ الكلامانِ. ويحتمِلُ أنَّه شبَّهَها بالشَّيطانِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]. ويحتمِلُ أنَّها كانت أوَّلًا صغيرةً كالجانِّ، ثمَّ عَظُمَتْ فصارَتْ ثُعبانًا[٤].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٠٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠١).

- نَزْعُ اليدِ: إخراجُها مِنَ القميصِ؛ فلذلك استَغنى عن ذِكرِ المَنزوعِ منه؛ لظُهورِه[١].

- -ودلَّتْ (إذا) المُفاجِئةُ على سُرعةِ انقلابِ لَونِ يدِه بَياضًا[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾ للاستِغراقِ العُرْفيِّ، أي: لجَميعِ النَّاظِرينَ في ذلك المَجلِسِ. وهذا يُفيدُ أنَّ بَياضَها كان واضِحًا بَيِّنًا مُخالِفًا لَوْنَ جِلْدِه بصورةٍ بعيدةٍ عن لَونِ البَرَصِ[٣].

١٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ في سُورةِ (الأعرافِ)، سِوى أنَّ في هذه الآيةِ أنَّ هذا قولُ فِرعونَ للمَلأِ، وفي آيةِ (الأعرافِ): ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، والجَمعُ بيْنَهما: أنَّ فِرعونَ قالَه لمَن حَولَه، فأَعادُوه بلَفظِه؛ للموافَقةِ التَّامَّةِ، بحيث لمْ يَكتَفوا بقولِ: نعَمْ، بل أَعادُوا كلامَ فِرعونَ؛ لِيَكونَ قَولُهم على تمامِ قَولِه[٤]، والتقديرُ في آيةِ سورةِ (الأعرافِ): «قال المَلأُ مِن قَومِ فِرعونَ وفِرعونُ بعضُهم لبعضٍ»؛ فحُذِفَ فِرعونُ لاشتِمالِ المَلأِ مِن قَومِ فِرعونَ على اسمِه، كما قال: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٥٠] أي: آلَ فرعونَ وفرعونَ؛ فحُذِفَ «فرعونُ» لأنَّ آلَ فِرعونَ اشتَملَ على اسمِه؛ فالقائلُ هو فِرعونُ نفْسُه؛ بدليلِ الجَوابِ وهو ﴿أَرْجِهْ﴾ بلفظِ التَّوحيدِ، والمَلأُ هُمُ المَقولُ لهم؛ إذْ ليس في الآيةِ مُخاطَبون بقَولِه: ﴿يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ غيرَهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢١٦).

١٣- قولُه تعالى: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿بِسِحْرِهِۦ﴾ حكايةً عن فرعونَ، وقال في سورةِ (الأعرافِ): ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ حكايةً عن ملأِ فرعونَ؛ وذلك لأنَّ آيةَ (الأعرافِ) بُنِيَتْ على الاقتِصارِ، ولأنَّ لَفْظَ السَّاحرِ في قَولِه: ﴿لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ يدُلُّ على السِّحْرِ[١].

وقيل: الفرقُ أنَّ فرعونَ أراد أن يشدَّهم، وأن يُغريَهم بما يقابِلون به موسَى عليه الصلاة والسلامُ[٢]، ففِرعونُ كان أشَدَّهم تَمرُّدًا، وأوَّلَهم تَجبُّرًا، وأبلَغَهم فيما يُرَدُّ به الحَقُّ، فذكَر السَّببَ الَّذي يَصِلُ به إلى الإخراجِ، أما المَلأُ فلم يَبْلُغوا مَبلَغَ فِرعونَ في إبطالِ ما أورَدَه موسى عليه السَّلامُ، ولمْ يَجْفوا في الخِطابِ جَفاءَه[٣].

١٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قالَ هنا: ﴿وَٱبْعَثْ﴾، وفي سورةِ (الأعرافِ) قال: ﴿وَأَرْسِلْ﴾ [الأعراف: ١١١]؛ لأنَّ الإرسالَ يُفيدُ معنَى البَعثِ؛ ويَتضمَّنُ نَوعًا مِنَ العُلوِّ؛ لأنَّه يَكونُ مِن فَوقٍ؛ فخُصَّتْ سورةُ (الأعرافِ) به لَمَّا الْتَبَسَ؛ لِيُعْلَمَ أنَّ المُخاطَبَ به فِرعونُ دُونَ غَيرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥١-٦٥٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٥، ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢١٧).

وقيل: إنَّ (أَرسِلْ) و(ابْعَثْ) بمعنًى واحدٍ؛ وإنَّما عُبِّر بكلِّ واحدٍ في مَوضِعٍ؛ تَكثيرًا للفائدةِ في التَّعبيرِ عنِ المُرادِ بلَفظيْنِ مُتَساويَيْنِ معنًى[١]. وقيل غير ذلك[٢].

١٥- قولُه تعالى: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ قابَلوا قولَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ﴾، بقَولِهم: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾، فجاؤُوا بكلمةِ الاستِغراقِ والبِناءِ الَّذي للمُبالَغةِ؛ ليُطامِنوا مِن نفْسِه، ويُسكِّنوا بعضَ قَلَقِه[٣].

- وأيضًا في قولِه هنا في (الشُّعراءِ): ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قالَه في سورةِ (الأعرافِ): ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ [الأعراف: ١١٢]؛ لأنَّه راعَى ما قبْلَه في هذه السُّورةِ -(الأعرافِ)- وهو قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، وفي (الشُّعراءِ) قال: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ بالاتفاقِ على قراءتِها بالألِفِ بعدَ الحاءِ المشدَّدةِ، وهو جوابٌ لقولِ فرعونَ فيما استشارهم فيه مِن أمرِ موسَى بعدَ قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ فأجابوه بما هو أبلغُ مِن قولِه؛ رعايةً لمرادِه بخلافِ التي في (الأعراف)، فإنَّ ذلك جوابٌ لقولِهم، فتناسَب اللفظانِ، وقُرِئَ في سُورةِ (الأعرافِ) ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ أيضًا؛ طلبًا للمُبالَغةِ، ومُوافَقةً لِمَا في (الشُّعراءِ)[٤]. وقيل: السَّحَّارُ مُرادِفٌ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٢/ ٦٥٤، ٦٥٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (١/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٧٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢١٧).

للسَّاحرِ في الاستِعمالِ؛ لأنَّ صيغةَ فعَّالٍ هنا للنَّسَبِ دَلالةً على الصِّناعةِ، مِثلُ: النَّجَّارِ والقَصَّارِ؛ ولذلك أُتبِعَ في السُّورتَينِ بوَصْفِ ﴿عَلِيمٍ﴾، أي: قَويِّ العِلمِ بالسِّحرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٥).

## الآيات (٢٨ - ٥١)

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلۡقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِمِيقَٰتِ﴾: الميقاتُ: الوقتُ المضروبُ، أو: القدرُ المحدَّدُ للفعلِ مِن الزمانِ أو المكانِ، وأصلُ (وقت): يدُلُّ على حَدِّ شَيءٍ في زَمانٍ[1].

﴿تَلۡقَفُ﴾: أي: تَبتَلعُ، يقالُ: لَقِفتُ الشَّيءَ: إذا تناولْتَه بسُرعةٍ، سواءٌ في ذلك تناوُلُه بالفَمِ أو اليَدِ[2].

﴿يَأۡفِكُونَ﴾: أي: يَكذِبون[3] ويزَوِّرون، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٣) قال ابن عثيمين: (الإفكُ: الكَذِبُ، وهذا كَذِبٌ بالفعلِ وليس بالقولِ، والكذبُ الفِعليُّ هو إظهارُ الإنسانِ الفعلَ بخلافِ الحقيقةِ، فهؤلاءِ أظهروا الحبالَ والعِصيَّ حَيَّاتٍ، لكنَّها ليستْ =

وصَرفِه عن جِهتِه[١].

﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾: أي: مُخالفًا في قَطعِ ذلك منكم؛ يَدِه اليُمنى ورِجلِه اليُسرى، والعكس، يخالِفُ بيْنَ قَطعِهما[٢].

﴿لَا ضَيْرَ﴾: أي: لا ضَرَرَ، مِن: ضارَّه يَضُوره ويَضِيرُه، بمعنى: ضَرَّه، والضَّيْرُ: المَضَرَّةُ، وأصلُ (ضرر): خِلافُ النَّفعِ[٣].

﴿مُنقَلِبُونَ﴾: أي: راجِعونَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على صَرفِ الشَّيءِ مِن وجهٍ إلى وَجهٍ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فجَمَعَ الحاشِرون السَّحَرةَ للوَقتِ المحَدَّدِ لاجتِماعِهم، وقيلَ لأهلِ مِصرَ: هل أنتم مُجتَمِعون؛ لِتَنظُروا لِمَن يكونُ النَّصرُ والغَلَبةُ، لعَلَّنا نتَّبِعُ السَّحَرةَ إنْ كانوا سيَغلِبون موسى؟ فلمَّا جاء السَّحَرةُ فِرعَونَ قالوا له: هل لنا مِن أجرٍ عِندَك إنْ غَلَبْنا موسى؟ قال فِرعَونُ لهم: نعم، وتكونون أيضًا مِن

---

= كذلك، وإنَّما هي حبالٌ وعِصيٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- الشعراء)) (ص: ١٠٢) بتصرف.

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

المقرَّبين عندي، فلمَّا اجتمَعَ السَّحَرةُ بموسى قال لهم: اطرَحوا ما تُريدونَ طَرحَه، فألقى السَّحَرةُ حِبالَهم وعِصِيَّهم الَّتي أعَدُّوها للسِّحرِ، وقالوا: بعَظَمةِ فِرعَونَ وقُدرتِه، إنَّا لنحن الغالِبون لموسى.

فألقى موسى عصاهُ فابتلَعَت ما ألقاه السَّحَرةُ مِن الحِبالِ والعِصيِّ الَّتي خيَّلوا للنَّاسِ أنَّها حيَّاتٌ، وخَدَعوهم بذلك، فلمَّا رأى السَّحَرةُ ذلك عَرَفوا صِدقَ موسى عليه السَّلامُ، وأنَّ ما جاءهم به حَقٌّ ليس سِحرًا ولا تَمويهًا، فخرُّوا ساجدينَ لله تعالى، وقالوا: آمنَّا برَبِّ العالَمينَ؛ ربِّ موسى وهارونَ. فلمَّا رآهم فِرعونُ على هذه الحالِ قال لهم: أآمنتُم بأنَّ ما جاء به موسى حقٌّ، واتبَعْتُموه قبْلَ أنْ آذَنَ لكم؟! إنَّ موسى لَرئيسُكم وكبيرُكم الذي علَّمكم السِّحرَ، فلَسَوف تَعلَمونَ.

ثمَّ توعَّدهم فِرعونُ، فقال: لَأُقطِّعَنَّ مِن كُلِّ واحدٍ منكم يدَه ورِجلَه مِن جِهَتينِ مختَلِفَتينِ، ولأُصَلِّبَنَّكم جميعًا. فقال السَّحَرةُ له: لا ضرَرَ علينا مِن عقابِك، فسنصبِرُ عليه؛ لأنَّنا إلى اللهِ راجِعونَ، فيُجازينا على إيمانِنا وصَبرِنا، إنَّا نرجو أن يغفِرَ لنا ربُّنا ذُنوبَنا؛ لأنَّنا كُنَّا أوَّلَ المؤمنينَ بالحَقِّ لَمَّا جاءَنا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي: فجَمَع الحاشِرون السَّحَرةَ مِن المُدُنِ للوَقتِ المحَدَّدِ لاجتِماعِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ۞ قَالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٥).

مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٧ - ٥٩].

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وقيلَ لأهلِ مِصرَ: هل أنتم مُجتَمِعون لِتَنظُروا إلى ما يَفعَلُ الفريقانِ، ولِمَن تكونُ الغَلَبةُ[1]؟

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: لعَلَّنا[2] نتَّبِعُ السَّحَرةَ إن كانوا سيَغلِبون موسى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٥).

(٢) قيل: لعلَّ هنا: بمعنى كَيْ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

وقيل: لعَلَّ هنا للترجِّي. وممَّن ذهب إلى ذلك: البيضاوي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧، ٥٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

قال ابن جرير: (يقولُ: كَيْ نتَّبِعَ السَّحَرةَ إن كانوا هم الغالبينَ موسى... فغيرُ معقولٍ أن يقولَ مَن كان على دينٍ: أنظُرُ إلى حُجَّةِ مَن هو على خِلافي لعلِّي أتَّبِعُ دينَه، وإنَّما يقالُ: أنظُرُ إليها كيْ أزدادَ بصيرةً بدِيني، فأُقيمَ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٧، ٥٦٨).

وقال ابن عطية: (قولُه: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ ليس معناه نتبعُهم في السِّحرِ، إنَّما أراد نتَّبِعُهم في نُصرةِ دينِنا ومِلَّتِنا، والإبطالِ على معارضتِنا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٠).

وقال البقاعي: (وزيَّن لهم هذا القائلُ البقاءَ على ما كانوا عليه مِن الباطِلِ بذِكرِ جانبِ السَّحَرةِ، وإن كان شَرَطَ فيه الغَلَبةَ، ولم يسمَحْ بذِكرِ جانبِ موسى عليه السَّلامُ، فقال: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾؛ لأنَّ مَن امتثَل أمرَ المَلِكِ كان حالُه حالَ مَن يُرجى منه اتِّباعُ حِزبِه ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ﴾ أي: خاصَّةً ﴿ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي: غَلَبةً لا يُشَكُّ في أنَّها ناشِئةٌ عن مكنةٍ، ونُعرِضُ عن أمرِ موسى الذي ينازِعُ المَلِكَ في أمرِه، وهذا مرادُهم في الحقيقةِ، وعبَّرَ بهذا كنايةً عنه؛ لأنَّه أدَلُّ على عظمةِ =

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرۡعَوۡنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: فلمَّا حضَرَ السَّحَرةُ قالوا لفِرعَونَ: هل ستُعطينا أجرًا إن غلَبْنا موسى[1]؟

﴿ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: قال فِرعَونُ لهم: نعمْ، سأُعطيكم أُجرتَكم إنْ غلبْتُم موسى، وأَزيدُكم على ذلك أنْ أجعَلَكم مِن المقرَّبينَ لدَيَّ[2].

﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

أي: قال موسى للسَّحَرةِ: اطرَحوا في الأرضِ ما تُريدونَ طَرحَه كائنًا ما كان[3].

﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ ﴾.

---

= المَلِكِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣١).

وقال ابن عاشور: (رَجَوا اتِّباعَ السَّحَرةِ، أي: اتِّباعَ ما يؤيِّدُه سِحرُ السَّحَرةِ، وهو إبطالُ دينِ ما جاء به موسى، فكان قولُهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ كنايةً عن رجاءِ تأييدِهم في إنكارِ رسالةِ موسى فلا يتَّبِعونَه، وليس المقصودُ أن يصيرَ السَّحَرةُ أئمَّةً لهم؛ لأنَّ فِرعَونَ هو المتَّبَعُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٩٧).

قال البيضاوي: (لم يُرِدْ به أمرَهم بالسِّحرِ والتمويهِ، بل الإذن في تقديمِ ما هم فاعِلوه لا محالةَ؛ توسُّلًا به إلى إظهارِ الحقِّ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨).

أي: فطرَح السَّحَرةُ الحِبالَ والعِصِيَّ الَّتي أعَدُّوها للسِّحرِ، وخيَّلوا للنَّاسِ أنَّها حَيَّاتٌ تَسعَى[١].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦].

﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾.

أي: وقال السَّحَرةُ: بعَظَمةِ فِرعَونَ وقُوَّتِه وقُدرتِه وقَهرِه وشِدَّةِ سُلطانِه[٢]، إنَّا لَنَحْنُ الغالِبونَ موسى[٣].

﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: فألقَى موسَى عصاهُ فأخَذَتْ تبتَلِعُ بسُرعةٍ جميعَ ما ألقاه السَّحَرةُ مِن الحِبالِ والعِصيِّ التي أوهَموا النَّاسَ أنَّها حيَّاتٌ وخَدَعوهم بذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

(٢) قال ابن عاشور: (الباءُ في قولهم: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ كالباء في «باسم الله»، أرادوا التيَمُّنَ بقدرةِ فِرعونَ، قاله ابنُ عطيَّةَ. وقيل: الباءُ للقَسَم: أقسَموا بعزَّةِ فِرعَونَ على أنَّهم يغلبونَ؛ ثِقةً منهم باعتقادِ ضلالِهم أنَّ إرادةَ فِرعونَ لا يغلِبُها أحدٌ؛ لأنَّها إرادةُ آلهتِهم. وهذا الذي نحَاه المفسِّرون). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٠).

وقال ابنُ عثيمين: (وقالوا لَمَّا ألقَوها: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾، والباءُ للسببيَّةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٣).

قال البقاعي: (﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: يَصرِفونَه عن وَجهِه وحقيقتِه التي هي الجماديَّةُ، بحِيَلِهم وتخييلِهم إلى ظنِّ أنَّه حيَّاتٌ تسعى). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٣).

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ٤٦﴾.

أي: فلمْ يَتمالَكِ السَّحَرةُ أنفُسَهم لَمَّا شاهدوا ذلك، وعَلِموا أنَّه صُنعُ صانعٍ حَكيمٍ، لا مِن صُنعِ البَشَرِ، ولا مِن تَمويهِ السَّحَرةِ، فرَأَوا عظيمَ قدرةِ الله سبحانَه، وعرَفوا صدقَ موسَى عليه السلامُ، وأنَّ ما جاءهم به حقٌّ، فسَجَدوا لله تعالى مُسرِعينَ بلا تردُّدٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ١١٩ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١٨ - ١٢٠].

﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٧﴾.

أي: قال السَّحَرةُ عندَما سَجَدوا لله: آمَنَّا بخالقِ ومالكِ ومدَبِّرِ السمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، الَّذي دعَانا موسَى إلى عبادتِه[2].

﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٤٨﴾.

أي: ربِّ موسى وهارونَ، الذي أيَّدَهما بهذه المُعجزةِ العظيمةِ، الدَّالَّةِ على صِدقِهما[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦٩، ٥٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٥، ١١٦).

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا خاف فِرعَونُ اتِّباعَ النَّاسِ لهم؛ لِمَا يَرَون ممَّا هالَهم مِن أمرِهم، وكان قد تَقدَّمَ ما يُعرِّفُ أنَّ المنكِرَ عليهم فِرعونُ نفْسُه؛ قال تعالى مُخبِرًا عنه[1]:

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

أي: قال فِرعَونُ لِلَّذين كانوا سَحَرَتَه فآمَنوا: أصدَّقْتُم بأنَّ ما جاء به موسى حقٌّ وانقَدْتُم له قبلَ أنْ آذَنَ لكم بذلك[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾.

أي: إنَّ موسى لَرئيسُكم الذي علَّمَكم صناعةَ السِّحرِ، ولذلك آمنْتُم به، وتَواطأْتُم على ما فعَلْتُم[3]!

كما قال تعالى حاكيًا قولَ فِرعَونَ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة الشعراء)) (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤١)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٠٨).

قال القرطبي: (أي: رئيسُكم في التَّعليم، وإنَّما غَلَبكم؛ لأنَّه أحذَقُ به منكم. وإنَّما أراد فرعونُ بقَولِه هذا ليشَبِّهَ على النَّاسِ؛ حتى لا يَتَّبِعوهم فيُؤمنوا كإيمانِهم، وإلَّا فقد عَلِم فِرعونُ أنَّهم لم يتعَلَّموا مِن موسى، بل قد عَلِموا السِّحرَ قبْلَ قدومِ موسى وولادتِه). ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٤).

مِنْهَآ أَهْلَهَا﴾ [الأعراف: ١٢٣].

﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: قال فِرعَونُ متهدِّدًا: فلَسوفَ تعلَمونَ ما أفعلُه بكم مِن العِقابِ(١).

﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ﴾.

أي: لأُقطِّعنَّ مِن كُلِّ ساحرٍ منكم يدَه ورِجلَه مِن جِهَتينِ مختَلِفتَينِ(٢).

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: ولأُصَلِّبَنَّكم جميعًا على جُذوعِ النَّخلِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٠٩).

قال ابنُ جرير: (﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عندَ عِقابي إيَّاكم وَبالَ ما فعلْتُم، وخطأَ ما صنعْتُم مِن الإيمانِ به). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٠٩، ١١٠).

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ يعني: مُتخالِفةً؛ إذا قطَعَ اليدَ اليُمنى قطَعَ الرِّجلَ اليسرى، وإذا قطعَ اليدَ اليُسرى قطع الرِّجلَ اليمنى، وليس معنى: ﴿مِّنْ خِلَافٍ﴾ أني أخالِفُ بيْنَكم؛ فمنكم مَن أقطَعُ يديه، ومنكم مَن أقطَعُ رِجلَيه، بل هذا واقعٌ على محلٍّ واحدٍ، فالخِلافُ في محلٍّ واحدٍ، يعني: كُلُّ واحدٍ منكم أقطَعُ يدَه ورِجلَه متخالفتَينِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١١٠).

قال ابن عاشور: (والصَّلْبُ: ربطُ الجسم على عُودٍ مُنتَصِبٍ أو دَقُّه عليه بمساميرَ... والمبالَغةُ راجِعةٌ إلى الكيفيَّةِ أيضًا بشِدَّةِ الدَّقِّ على الأعوادِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٦٥).

فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه: ٧١].

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أي: قال السَّحَرةُ المؤمِنونَ لفِرعَونَ: لا ضرَرَ علينا فيما يُصيبُنا مِن عذابِك المنقَطِعِ، ولا نُبالي به؛ لأنَّنا إلى اللهِ راجِعون، فيُجازينا أحسَنَ الجَزاءِ على إيمانِنا، وصَبرِنا على عذابِك[1].

كما قال تعالى: ﴿ قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ * إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه: ٧٢، ٧٣].

﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

أي: إنَّنا نرجو أن يستُرَ رَبُّنا ذُنوبَنا، ويتجاوَزَ عن مؤاخَذتِنا بها؛ بسبَبِ كَونِنا أوَّلَ مَن آمَنَ بموسى عندَ ظُهورِ آيتِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٠، ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٩).

المرادُ مِن قولِهم: ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: مِن آلِ فِرعَونَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ١١٦).

قال البيضاوي: (﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ ﴾ لِأن كنَّا ﴿أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن أتباعِ فِرعَونَ، أو مِن أهلِ المشهَدِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٩).

## الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَ﴾ أنَّ الإيمانَ إذا صَدَقَ صار أقوى مِن العاطِفةِ، فحُبُّ النفْسِ أمرٌ فِطريٌّ؛ ولكنَّ الإيمانَ يؤدِّي إلى أنْ تَرخُصَ النفْسُ عندَ المرءِ بجانبِ دِينِه(١).

٢- السَّبقُ إلى الإيمانِ وإلى العَمَلِ الصَّالحِ مَنقَبةٌ، ومِن أسبابِ الرُّتَبِ العاليةِ والرِّفعةِ والمَغفرةِ؛ لذا قال سَحرةُ فِرعَونَ: ﴿أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، فكان قَولُهم هذا من بابِ التحَدُّثِ بنِعمةِ الله، الذي يَرَونَه سببًا ووسيلةً لِمَغفرةِ الذُّنوبِ، ولم يكُنْ قَولُهم مِن بابِ الإدلالِ على اللهِ والمِنَّةِ عليه بكَونِهم أوَّلَ المؤمِنينَ؛ ولهذا أيضًا قال الله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: ١٠]، فالسَّبقُ إلى الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ له مَزِيَّتُه، ولصاحِبِه مَرتبةٌ عاليةٌ(٢).

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ مِن إظهارِ التعَصُّبِ ما لا يخفَى؛ لأنَّ الواجِبَ عليهم أن يقولوا: لعَلَّنا نتَّبِعُ الغالِبَ، لا أن يقولوا: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، فقد يكونُ الحَقُّ مع موسى، وقد يكونُ الحَقُّ مع السَّحَرةِ، فلو وُفِّقوا لقالوا: لعَلَّنا نتَّبِعُ الغالِبَ أو الحَقَّ، ولكِنَّهم قالوا: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾، ثمَّ استدرَكوا فقالوا: ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾، وهذا ما يُسمَّى بـ(التحَفُّظ) -في لغةِ العصرِ- يعني: كأنَّهم حَكَموا بأنَّ الغَلَبَ للسَّحَرةِ، لكنْ مع تحفُّظٍ لقَولِهم: ﴿إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾(٣)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩١).

فلذلك ما أفاد فيهم ذلك إلَّا قيامَ الحُجَّةِ عليهم[١].

٢- قولُهم: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ إنَّ هذا شأنُ المغرورينَ بهواهُم، العُمي عن النظَرِ في تقَلُّباتِ الأحوالِ: أنَّهم لا يَفرِضونَ مِن الاحتِمالاتِ إلَّا ما يوافِقُ هواهم، ولا يأخُذونَ العُدَّةَ لاحتِمالِ نَقيضِه[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ﴾، فأمَرهم موسَى عليه السلامُ بالإلقاءِ؛ لأنَّه علِم أنَّهم لا بدَّ أن يُلقوا تلك الحبالَ والعِصيَّ، وإنَّما وقَع التخييرُ في التقديم والتأخيرِ، فأذِن لهم في التقديمِ؛ لتَظهرَ معجزتُه أيضًا بغلَبِهم؛ لأنَّه لو ألقَى أوَّلًا لَم يكنْ له غلَبٌ وظهورٌ عليهم، فلهذا المعنَى أمَرهم بالإلقاءِ أوَّلًا[٣]، وهو بمنزلةِ تَقريرِ شُبهةِ المُلحِدِ ممَّن يتَصدَّى لإبطالِها بعدَ تقريرِها[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ أنَّ كلَّ مَن حلَفَ بغيرِ اللهِ -كأن يقولَ: وحياةِ فلانٍ، وحقِّ رأسِه، ونحوِ ذلك- فهو تابِعٌ لهذه الجاهليَّةِ[٥]، فهذا القَسَمُ ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ مِن نوعِ أقسامِ الجاهليَّةِ، وقد سلَك كثيرٌ مِن المُسلمينَ في الأَيمانِ ما هو أشنَعُ مِن أيمانِهم؛ لا يَرضَونَ بالقَسَمِ باللهِ تعالى وصِفاتِه عزَّ وجلَّ، ولا يَعتَدُّونَ بذلك حتى يحلِفَ أحَدُهم بنِعمةِ السُّلطانِ أو برأسِه، أو برأسِ المُحلِّفِ أو بلِحْيتِه أو بترابِ قبرِ أبيه، فحينَئذٍ يَستوثِقُ منه! ولهم أشياءُ يُعظِّمونَها ويحلِفون بها غيرُ ذلك، ولا يَبعُدُ أن يكونَ الحَلِفُ بالله تعالى كَذِبًا أقَلَّ إثمًا مِن الحَلِفِ بها صِدقًا، وهذا ممَّا عَمَّت به البَلوى، ولا حولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣).

العليِّ العظيم[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ أنَّ الحقَّ إذا تَبيَّنَ كان أعلَمَ النَّاسِ به مَن يَعرِفُ الباطلَ؛ فإنَّ أوَّلَ مَن تَبيَّنَ له أنَّ ما جاء به موسى عليه السلامُ هو الحقُّ، وأنَّه ليس بسِحرٍ: هم السَّحرةُ الذين عَرَفوا السِّحرَ وباطِلَه؛ فالذي يَعرِفُ الحقَّ هو الذي يَعرِفُ الباطِلَ، أمَّا مَن لا يَعرِفُ الباطلَ فإنَّه قد تلتَبِسُ عليه الأمورُ؛ ولهذا قيل: «بِضِدِّها تَتبيَّنُ الأشياءُ»[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ هذه الحادِثةُ الخارِقةُ للعادةِ فيها إثباتُ الصَّانعِ، وإثباتُ نبُوَّةِ أنبيائِه؛ فإنَّ حُدوثَ هذا الحادِثِ على هذا الوَجهِ في مِثلِ ذلك المقامِ يُوجِبُ عِلمًا ضَروريًّا أنَّه مِن القادِرِ المُختارِ؛ لتَصديقِ موسى عليه السلامُ، ونَصرِه على السَّحَرةِ[٣].

٧- أخبَرَ اللهُ تعالى في غيرِ مَوضِعٍ مِن القرآنِ عن سُجودِ سَحَرةِ فِرعَونَ، كما قال الله تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ * قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٠- ١٢٢]، وذلك سُجودٌ مع إيمانِهم، وهو مِمَّا قَبِلَه اللهُ منهم، وأدخَلَهم به الجنَّةَ، ولم يَكونوا على طَهارةٍ، وشَرعُ مَن قَبْلَنا شَرعٌ لنا ما لم يَرِدْ شَرعُنا بنَسخِه، ولو قُرِئَ القُرآنُ على كُفَّارٍ فسَجَدوا لله سُجودَ إيمانٍ باللهِ ورَسولِه محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو رأَوا آيةً مِن آياتِ الإيمانِ فسَجَدوا لله مُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه؛ لنَفَعهم ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٣٥٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عَبَّروا بالطَّمَعِ؛ إشارةً إلى أنَّ جميعَ أسبابِ السَّعادةِ منه تعالى[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾

- دلَّتِ الفاءُ على أنَّ جَمْعَ السَّحرةِ وقَعَ في أَسرَعِ وقتٍ عَقِبَ بعْثِ الحاشِرينَ؛ حِرصًا مِنَ الحاشِرينَ والمَحشورينَ على تنفيذِ أمْرِ فِرعونَ. وبُنِيَ (جُمِعَ- وقِيلَ) لِما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لعدَمِ تَعيُّنِ جامِعينَ وقائِلينَ، أي: جمَعَ مَن يَجمَعُ، وقال القائِلون[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ﴾ استِبطاءٌ لهم في الاجتِماعِ؛ حثًّا على مُبادرتِهم إليه؛ فالاستِفهامُ مُستعمَلٌ في طلَبِ الإسراعِ بالاجتِماعِ، بحيث نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يُسألُ سؤالَ تَحقيقٍ عن عزْمِه على الاجتِماعِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ﴾ ليس غرَضُهمُ اتِّباعَ السَّحرةِ، وإنَّما الغرَضُ الكُلِّيُّ: ألَّا يَتَّبِعوا موسى، فساقُوا الكلامَ مَساقَ الكِنايةِ؛ لأنَّهم إذا اتَّبَعوهم لمْ يَكونوا مُتَّبِعينَ لموسى عليه السَّلامُ؛ فجاء الكلامُ حَمْلًا لهم على الاهتِمامِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٥).

والجِدِّ في المُغالَبةِ[١].

- وقد جِيءَ في شرْطِ ﴿إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ بحرف (إنْ)؛ لأنَّها أصلُ أدواتِ الشَّرطِ، ولم يكنْ لهم شَكٌّ في أنَّ السَّحرةَ غالِبون[٢]. وقيل: عبَّر بأداةِ الشكِّ؛ إظهارًا للإنصافِ، واستِجلابًا للناسِ، معَ تقديرِهم لقطعِهم بظَفَرِ السحَرةِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾

- تقدَّمَ نَظيرُها في سورةِ (الأعرافِ) بقولِه: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ﴾ [الأعراف: ١١٣] وبطرْحِ همزةِ الاستِفهامِ؛ إذْ قال هناك: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف: ١١٣]، وهو تَفنُّنٌ في حِكايةِ مَقالَتِهم عِندَ إعادتِها؛ لئلَّا تُعادَ كما هي، وبدُونِ كلمةِ (إذَنْ)، فحَكَى هنا ما في كلامِ فِرعونَ مِن دَلالةٍ على جزاءِ مَضمونِ قَولِهم: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣] زيادةً على ما اقتَضاه حرفُ (نعَمْ) مِن تقريرِ استِفهامِهم عنِ الأجرِ. فتقديرُ الكلامِ: إنْ كنتُم غالِبينَ إذًا إنَّكم لَمِنَ المُقرَّبينَ. وهذا وقَعَ الاستِغناءُ عنه في سورةِ (الأعرافِ)، فهو زيادةٌ في حكايةِ القصَّةِ هنا. وكذلك شأنُ القرآنِ في قَصصِه، ألَّا يَخْلوَ المُعادُ منها عن فائدةٍ غَيرِ مَذكورةٍ في مَوضعٍ آخَرَ منه؛ تَجديدًا لنَشاطِ السَّامعِ[٤].

- وساقوه مساقَ الاستفهامِ؛ أدبًا معه، وقالوا: ﴿إِن كُنَّا﴾ بأداةِ الشكِّ معَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦).

جزمِهم بالغلَبةِ؛ تخويفًا له بأنَّه إن لم يُحسِنْ في وعدِهم لم ينصَحوا له[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ ﴾

- حُكِيَ كلامُ موسى في ذلك الجَمعِ بإعادةِ فِعْلِ (قال) مَفصولًا بطَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ؛ لأنَّه كان المقصودَ بالمُحاورةِ؛ إذْ هُم حَضَروا لأجْلِه[٢].

- وبيْنَ قَولِه: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ ﴾ وقَولِه: ﴿ لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ كلامٌ مَحذوفٌ، وهو ما ثَبَتَ في (الأعرافِ) مِن تَخييرِهم إيَّاه في البُداءةِ مَن يُلْقي[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ وقَعَ في سورةِ (الأعرافِ): ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ * قَالَ أَلۡقُواْ ﴾ [الأعراف: ١١٥، ١١٦]، واختُصِر هنا تَخييرُهم موسى في الابتِداءِ بالأعمالِ، وذُكِر هنا مَفعولُ ﴿أَلۡقُواْ﴾، واختُصِر في سورةِ (الأعرافِ)[٤].

- وفِعلُ الأمرِ في قوله: ﴿أَلۡقُواْ مَآ أَنتُم مُّلۡقُونَ﴾ مستعمَلٌ في التسويةِ المرادِ منها الاختيارُ، وإظهارُ قلَّةِ الاكتراثِ بأحدِ الأمْرينِ[٥].

- وفي كلامِ موسى عليه السَّلامُ استِخفافٌ بما سيُلْقُونه؛ لأنَّه عَبَّرَ عنه بصِيغةِ العُمومِ، أي: ما تَستَطيعونَ إلقاءَه[٦].

٦- قولُه تعالى: ﴿ فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٦، ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٢٥٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٢٧).

- قولُه: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾ عَدَلوا عنِ الخِطابِ إلى اسمِ الغَيبةِ؛ تعظيمًا[١].

- وقُرِنَتْ حكايةُ قولِ السَّحرةِ بالواوِ خِلافًا للحِكاياتِ الَّتي سبقَتْها؛ لأنَّ هذا قَولٌ لم يُقصَدْ به المُحاوَرةُ، وإنَّما هو قَولٌ ابتَدَؤوا به عِندَ الشُّروعِ في السِّحْرِ[٢].

- وجملةُ ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ استِئْنافُ إنشاءٍ عن قَولِهم: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾؛ كأنَّ السَّامعَ -وهو موسى أو غيرُه- يقولُ في نفْسِه: ماذا يؤَثِّرُ قَولُهم: بعِزَّةِ فِرعونَ؟ فيَقولون:... وقد أفادَتْ جملةُ ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ بما فيها مِنَ المؤَكِّداتِ مُفادَ القَسَمِ[٣].

٧- قولُه تعالى: ﴿ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ أي: تَلقَفُ ما يَقلِبونه عن وَجْهِه وحَقيقتِه بسِحْرِهم وكَيدِهم، ويُزوِّرونه فيُخيِّلون في حِبالِهم وعِصِيِّهم أنَّها حَيَّاتٌ تَسعَى؛ بالتَّمويهِ على النَّاظِرينَ. أو تَلْقَفُ إفْكَهم، فسمَّى تِلك الأشياءَ إفكًا؛ مُبالَغةً[٤].

٨- قولُه تعالى: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ أي: فخَرُّوا ساجِدينَ، وإنَّما عُبِّر عنِ الخُرورِ بالإلقاءِ؛ لأنَّه ذُكِر مع الإلقاءاتِ، فسُلِك به طريقُ المُشاكَلةِ[٥]، وفيه أيضًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨). =

أنَّهم حينَ رأَوْا ما رأَوْا، لمْ يَتَمالَكوا أنْ رَموا بأنفُسِهم إلى الأرضِ ساجِدينَ، كأنَّهم أُخِذوا فطُرِحوا طَرْحًا[١]، واندفَعوا بدُونِ شعورٍ ولا اختيارٍ، حتى سجَدوا مؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ عَطفُ بَيانٍ أو بدَلٌ مِن ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ للتَّوضيحِ، ودفْعِ تَوهُّمِ إرادةِ فِرعونَ، حيثُ كان قَومُه الجَهَلةُ يُسمُّونَه بذلك، وللإشعارِ بأنَّ المُوجِبَ لإيمانِهم به تعالى ما أجْراه على أيدِيهما مِنَ المُعجِزةِ القاهِرةِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أضافوا الرَّبَّ سُبحانَه إلى مُوسَى وهارُونَ؛ لأنَّهما القائمانِ بالدَّعوةِ في تِلكَ الحالِ، وفيه تبكيتٌ لفِرعونَ بأنَّه ليس برَبٍّ، وأنَّ الربَّ في الحقيقةِ هو هذا[٤].

- وخُصَّ موسَى وهارونُ عليهما السَّلامُ بالذِّكْرِ أيضًا تفضيلًا وتشريفًا[٥]، فربوبيَّةُ موسى وهارونَ لها اختِصاصٌ زائِدٌ على الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ للخَلقِ؛ فإنَّ

---

= والمشاكلة: لُغةً: هي المماثلةُ، واصطلاحًا: هي ذِكرُ الشيءِ بغيرِ لفظِه؛ لوُقوعِه في صُحبتِه، كقولِه تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فالجزاءُ عن السيئةِ في الحقيقةِ غيرُ سيئةٍ، والأصلُ: وجزاءُ سيئةٍ عقوبةٌ مِثلُها. يُنظر: ((خِزانة الأدب)) للحموي (٢/ ٢٥٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٥، ١١٦).

(٥) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٢٨٦).

مَن أعطاه اللهُ مِن الكَمالِ أكثَرَ مِمَّا أعطى غيرَه، فقد رَبَّه ورَبَّاه رُبوبيَّةً وتَربيةً أكمَلَ مِن غَيرِه[١].

١٠- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- بالَغَ في التَّنفيرِ مِن جِهةِ قَولِه: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ موهِمًا أنَّ مُسارعتَهم للإيمانِ دَليلٌ على مَيلِهم إليه قَبْلُ، وبقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ صرَّحَ بما رمَزَه أوَّلًا مِن مُواطَأتِهم وتَقصيرِهم؛ لِيَظهَرَ أمْرُ كبيرِهم، وبقَولِه: ﴿فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ حيث أوعَدَهم وعيدًا مُطْلَقًا، وبتَصريحِه بما هدَّدَهم به مِنَ العذابِ[٢].

- قال الله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ إنْ قيل: في سورةِ (الأعرافِ): ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٢٣]، وهنا: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾؟

**فالجوابُ**: في الأصلِ بيْنَهما فَرقٌ: آمَنَ به: أقَرَّ به واعترفَ بالإيمانِ الكامِلِ، وآمَنَ له: مضَمَّنةٌ معنَى انقادَ. فإذا جمعْتَ بينَ الآيتَينِ هنا صارتْ أبلَغَ، يعني: كأنَّهم آمَنوا إيمانًا به، ثمَّ آمَنوا له فانقادُوا له[٣].

١١- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ جاء قَولُه: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ بحذْفِ لامِ التَّأكيدِ، وفي سُورةِ (الزُّخْرُف) قال: ﴿وَيَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف: ١٣، ١٤] بإثباتِها. ووجْهُه: أنَّ ما هنا كلامُ السَّحرةِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٠٨، ١٠٩).

حينَ آمَنوا، ولا عُمومَ فيه، فناسَبَ عدَمُ التَّأكيدِ، وما في سُورةِ (الزُّخرُفِ) عامٌّ لِمَن رَكِبَ سفينةً أو دابَّةً؛ فناسَبَه التَّأكيدُ[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ تَعليلٌ لنَفيِ الضَّيرِ، وهي القَرينةُ على المُرادِ مِنَ النَّفيِ[٢].

١٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ تعليلٌ ثانٍ لنَفيِ الضَّيرِ. وقيل: هو تَعليلٌ للعِلَّةِ المُتقدِّمةِ[٣]. وقيل: بيانٌ للمَقصودِ مِن جملةِ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾، وعلَّلوا ذلك الطَّمعَ بأنَّهم كانوا أوَّلَ المُؤمنينَ باللهِ بتَصديقِ موسى عليه السَّلامُ، وفي هذا دَلالةٌ على رُسوخِ إيمانِهم باللهِ ووعْدِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٨، ١٢٩).

## الآيات (٥٢-٦٨)

﴿ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ
حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾
فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾
فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ
إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ
فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ
أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ لَشِرْذِمَةٌ ﴾: أي: طائِفةٌ. وكُلُّ بقيَّةٍ قليلةٍ فهى شِرذِمةٌ، مِن شَرَمْتُ الشَّيءَ: إذا مزَّقْتَه، فكأنَّها طائفةٌ تمزَّقت عن الجماعةِ الكثيرةِ، فالذالُ فيها زائِدةٌ[١].

﴿ لَغَآئِظُونَ ﴾: أي: مُغضِبون، والغَيظُ: أشَدُّ الغَضَبِ، وأصلُ (غيظ): يدُلُّ على كَربٍ يلحَقُ الإنسانَ مِن غَيرِه[٢].

﴿ حَٰذِرُونَ ﴾: أي: مُستَعِدُّون ومتيقِّظون، وأصلُ (حذر): يدُلُّ على التحَرُّزِ والتيقُّظِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧)، ((تذكرة =

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾: أي: مَساكِنَ حِسانٍ، والمقامُ: محَلُّ القيامِ، والكَريمُ: النَّفيسُ[١].

﴿مُّشْرِقِينَ﴾: أي: مُصبِحينَ، وقتَ شُروقِ الشَّمسِ، وأصلُ (شرق): يدُلُّ على إضاءةٍ وفَتحٍ[٢].

﴿تَرَٰٓءَا﴾: أي: تقابَلَ وتلاقى، وأصلُ (رأى): يدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ[٣].

﴿فَٱنفَلَقَ﴾: أي: انشقَّ، وانْفَرَق، والفَلْقُ: شقُّ الشيءِ، وإبانةُ بعضِه عن بعضٍ، وأصلُ (فلق): يدُلُّ على فُرْجةٍ وبَيْنونةٍ في الشَّيءِ[٤].

﴿فِرْقٍ﴾: أي: جُزءٍ وقِطعةٍ، والفَرْقُ: الفَلْقُ مِن الشَّيْء إذا انفلَقَ وانقطَعَ، وكُلُّ شَيءٍ انقطع مِن شَيءٍ فهو فِرْقٌ منه وقِطعةٌ منه، وأصلُ (فرق): يدُلُّ على تمييزٍ وتَزييلٍ بيْنَ شَيئَينِ[٥].

﴿كَٱلطَّوْدِ﴾: أي: الجَبَلِ، أو الجبلِ العظيمِ[٦].

---

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٢).

(١) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٤٧٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥٩)، ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (ص: ٤٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، =

﴿وَأَزْلَفْنَا﴾: أي: قرَّبْنا، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على اندِفاعٍ وتقَدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ(١).

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما أمَر به نبيَّه موسَى عليه السلامُ، وما حلَّ بفرعونَ وقومِه مِن هلاكٍ، فيقولُ: وأوحى اللهُ تعالى إلى موسى أن يسيرَ ببني إسرائيلَ ليلًا؛ لأنَّ فِرعَونَ وجُنودَه سيتَّبِعونَهم لِيَحُولوا بيْنَهم وبيْنَ الخُروجِ مِن مِصرَ، ولَمَّا عَلِمَ فِرعَونُ بخُروجِ موسى ومعه بنو إسرائيلَ، أرسَل مَن يجمَعُ له الجنودَ مِن المدائنِ المتعَدِّدةِ في مملكتِه، وبعْدَ أنِ اكتمَلَ عدَدُ جُنودِه أخَذ يهَوِّنُ مِن شأنِ موسى ومَن تَبِعَه، فقال: إنَّ بني إسرائيلَ الذين خرَجوا بدُونِ إذْني لَطائفةٌ ضعيفةٌ وقليلةٌ، وإنَّهم مُغضِبون لنا أشدَّ الغضَبِ، وقد أخَذْنا حِذْرَنا منهم، وتأهَّبْنا لهم بالقُوَّةِ والسِّلاحِ.

ثمَّ يذكرُ سُبحانَه عاقِبةَ فِرعَونَ وقَومِه، فيقولُ: فأخرَجْنا فِرعَونَ وقَومَه مِن بساتينَ وعيونٍ عَذبةِ الماءِ كانوا يَشرَبونَ منها، وأموالٍ كانت مملوكةً لهم، ومساكِنَ حَسَنةٍ كانوا يُقيمون فيها، كذلك وأورَثْنا تلك الجنَّاتِ والعُيونَ والكُنوزَ والمساكِنَ بني إسرائيلَ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه بعدَ ذلك ما حدثَ مِن فِرعَونَ وقَومِه، وما قاله بنو إسرائيلَ عندَما شاهَدوهم، فيقولُ: فلَحِقَ فِرعَونُ وجُنودُه بني إسرائيلَ وقتَ شُروقِ

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٩).

الشَّمسِ، فلمَّا رأى كُلُّ فريقٍ خَصمَه قال أصحابُ موسى: سيُدرِكُنا فِرعَونُ وجُنودُه ولا نستطيعُ الفِرارَ؛ فهم خَلْفَنا والبَحرُ أمامَنا. فقال موسى واثِقًا مِن نُصرةِ الله له: ليس الأمرُ كما تَظنُّون؛ لأنَّ ربِّي معي بنَصرِه وتأييدِه، وسيَهديني لطَريقِ النَّجاةِ والفَوزِ.

فأوحى اللهُ تعالى إلى موسى عليه السَّلامُ، فقال له: اضرِبْ بعصاكَ البَحرَ، فضرَب موسى بعَصاهُ البَحرَ فانشَقَّ، فكانت كلُّ قِطعةٍ مِن الماءِ كالجبَلِ الشامِخِ الكبيرِ، وقرَّبْنا هنالك فِرعَونَ وجُنودَه مِن موسى وقَومِه، فدخَلوا وراءَهم في الطَّريقِ المنشَقِّ مِن البَحرِ؛ ليَلحَقوا بهم، فأنجَينا موسى ومَن معه مِن الغَرَقِ، وأغرَقْنا فِرعَونَ وقَومَه أجمعينَ.

إنَّ في قصَّةِ موسى وفِرعَونَ لَعِظةً وعِبرةً عَظيمةً، وما كان أكثَرُ قَومِ فِرعَونَ مُؤمنينَ بالله، وإنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- لَهُوَ العزيزُ القاهِرُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعِبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢ ﴾.

أي: وأوحَيْنا إلى موسى أنْ سِرْ بعِبادي بني إسرائيلَ ليلًا، وسيتَّبِعُكم فِرعَونُ وجُنودُه؛ لِيَحُولوا بيْنَكم وبيْنَ الخُروجِ مِن أرضِ مِصرَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ * فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

مُّتَّبَعُونَ * وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ [الدخان: ٢٢ - ٢٤].

﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي: فأرسَلَ فِرعَونُ مَن يجمَعُ له مِن مدُنٍ كَثيرةٍ جُنودًا؛ ليَلحَقوا بني إسرائيلَ فيَرُدُّوهم(١).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

أي: إنَّ بني إسرائيلَ لَطائِفةٌ ضَعيفةٌ وقَليلةٌ(٢).

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١١٩).

قال ابن كثير: (فلمَّا أصبحوا وليس في ناديهم داعٍ ولا مجيبٌ، غاظ ذلك فِرعَونَ واشتَدَّ غَضَبُه على بني إسرائيلَ؛ لِما يريدُ اللهُ به مِن الدَّمارِ، فأرسَل سريعًا في بلادِه حاشرين). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٠، ١٢١).

وممَّن اختار أنَّ هذا الكلامَ لفِرعَونَ: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والبغوي، والبيضاوي، والنسفي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٣٠).

قال الطِّيبي: (قولُه: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ يوهمُ قِلَّةَ الاحتفالِ بهم، وأنَّ قتالَهم إنَّما هو لأجْلِ أنَّهم لنا غائظون، ومِن عادتِنا الحذرُ على دولتِنا بحُسنِ الحِفظِ، وحمايةِ حَوزةِ المملكةِ، ولقد كذَب وكان فؤادُه مملوءًا رعبًا). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٩٥).

وقيل: هو مِن كلامِ مَن أرسلهم فرعونُ لحشرِ الجنودِ. وممَّن اختار ذلك: البِقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٠).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكرَ ما يمنَعُ الخَوفَ مِن اتِّباعِهم؛ ذكَرَ ما يوجِبُ الحثَّ عليه، ويحَذِّرُ مِن التقاعُسِ عنه، فقال[1]:

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

أي: وإنَّ بني إسرائيلَ مُغضِبون لنا أشدَّ الغضَبِ[2].

﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

## القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿حَٰذِرُونَ﴾ بألِفٍ بعْدَ الحاءِ، ذَوو أداةٍ مِن السلاحِ وقوةٍ، أي: قد أخَذْنا حِذْرَنا من بني إسرائيلَ، وتأهَّبْنا لهم بسِلاحِنا، وقيل: رجلٌ حاذرٌ فيما يستقبلُ، لا في وقتِه[3].

٢- قِراءةُ ﴿حَذِرُونَ﴾ بحذفِ الألفِ، أي: متيَقِّظون وخائِفون مِن شَرِّ بني

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣١).

قال الرسعني: (﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ لِمُراغمتِهم إيَّانا، وقِلَّةِ اهتمامِهم بأمرِنا). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٨٤).

وقال السمعاني: (وكان غيظُه منهم بخروجِهم مِن غيرِ أمرِه، واستعارتِهم الحُليَّ مِن قَومِه، ومُضِيِّهم بها). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٦).

(٣) قرأ بها عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن ذكوان عن ابن عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٧).

إسرائيلَ، ومِن عادَتِنا الحَذَرُ في كُلِّ وَقتٍ. فقيل: رجلٌ حذِرٌ: إذا كان الحذرُ لازمًا له كالخِلقةِ، وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ(١).

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ٥٦﴾.

أي: وإنَّنا كُلَّنا مستعِدُّون بالقوَّةِ والسِّلاحِ لحَربِ بني إسرائيلَ، وقد أخَذْنا حِذْرَنا منهم(٢).

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٥٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان التَّقديرُ: فأطاعوا أمرَه، ونَفَروا على كلِّ صَعبٍ وذَلولٍ؛ عطَف عليه قولَه مُعلِمًا بما آلَ إليه أمرُهم(٣):

﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٥٧﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٧، ٥١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠١).

قال ابن عثيمين: (واجتماعُ القِراءتَينِ يُفيدُ المعنيينِ جميعًا، أي: إنَّنا متيقِّظون، ولِتيقُّظِنا كنَّا مستعِدِّينَ، فهاتانِ القِراءتانِ تُفيدانِ معنيَينِ؛ المعنى الأول: التيقُّظُ، وهو استعدادٌ نفْسيٌّ، والمعنى الثاني: الاستعدادُ الحِسيُّ؛ لقولِه: ﴿حَٰذِرُونَ﴾؛ لأنَّ الحاذِرَ اسمُ فاعلٍ، وهو الذي فعَل ما يَحذَرُ به، وهو الاستعدادُ فقط. فإن قيل: ألَا تَشملُ (حاذرون) كِلا المعنيَينِ؟

فالجواب: لا؛ لأنَّ الإنسانَ قد يستعِدُّ ويُحسِنُ الإعدادَ والأجهزةَ، لكِنْ لا يكونُ متيقِّظًا، فقط يستعِدُّ ولا يتيقَّظُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١).

أي: فأخرَجْنا فِرعَونَ وقَومَه مِن بساتينَ كَثيرةِ الأشجارِ والزُّروعِ، وعُيونِ الماءِ[١].

كما قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٧].

﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: وأخرَجْناهم من أموالِهم ومساكِنِهم الحسَنةِ التي كانوا يتنعَّمون فيها[٢].

﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: كذلك[٣] وأورَثْنا الجنَّاتِ والعُيونَ والكُنوزَ والمساكِنَ التي كانت لفِرعَونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٢).

قال ابن عاشور: (الكنوز: الأموالُ المدَّخرةُ. والمَقامُ: أصلُه محلُّ القيامِ، أو مصدرُ قامَ. والمعنى على الأوَّلِ: مساكِنُ كريمةٌ، وعلى الثاني: قيامُهم في مجتمَعِهم، والكريمُ: النفيسُ في نوعِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٢).

(٣) قال ابن جرير: (قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ يقولُ: هكذا أخرَجْناهم مِن ذلك، كما وصَفْتُ لكم في هذه الآيةِ والَّتي قبْلَها). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٨، ٥٧٩).

وقال البقاعي: (﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثلَ ذلك الإخراجِ العجيبِ الذي أراده فرعونُ مِن قومِه في السرعةِ والكمالِ والهَيبةِ، أخرَجْناهم نحن بأنْ يسَّرْنا له ولهم ذلك، ووفَّرْنا لهم الأسبابَ؛ لِما اقتضَتْه حِكمتُنا. أو مِثلَ ذلك الخروجِ الذي قصَصْناه عليك أخرَجْناهم، أي: كان الواقعُ مِن خروجِهم مطابقًا لِما عبَّرْنا به عنه. أو الأمرُ الذي قصَصْناه كلَّه كما قُلْنا. وأوَّلُها أقعَدُها وأحسَنُها وأجوَدُها). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿كَذَٰلِكَ﴾ تكون خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ، يعني: إخراجنا لهم كان كذلك. أو يكونُ التقدير: الأمرُ كذلك...، فهي جملةٌ مستقِلَّةٌ عمَّا قبْلَها وعمَّا بعْدَها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٧).

وقَومِه بني إسرائيلَ[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

قيل: ردَّ اللهُ بني إسرائيلَ إلى مِصرَ بعدَ خروجِهم منها فأعطاهم جميعَ ما كان لقومِ فرعونَ مِن الخَيراتِ والنِّعَم. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٤).

قال الألوسي: (قال الواحدي: إنَّ الله تعالى ردَّ بني إسرائيلَ إلى مصرَ بعدَما أغرَق فِرعونَ وقومَه، فأعطاهم جميعَ ما كان لقومِ فِرعونَ مِن الأموالِ والعقارِ والمساكنِ،... وظواهرُ كثيرٍ مِن الآياتِ تقتضي ما ذكره الواحديُّ. والله تعالى أعلَمُ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٨٢، ٨٣).

وقال أيضًا: (قوله تعالى في سورةِ الشعراء: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ظاهرٌ في أن بني إسرائيلَ رجَعوا إلى مصرَ بعدَ هلاكِ فرعونَ، وملَكوها، وبه قال الحسنُ... وقيل: لم يَرِدْ في مشهورِ التواريخِ أنَّ بني إسرائيلَ رجَعوا إلى مصرَ، ولا أنَّهم ملَكوها قطُّ... وأخَذ جمعٌ بقولِ الحسنِ، وقالوا: لا اعتبارَ بالتواريخِ، وكذا الكتبُ التي بيدِ اليهودِ اليومَ؛ لِما أنَّ الكذبَ فيها كثيرٌ، وحسْبُنا كتابُ الله تعالى، وهو سبحانَه أصدقُ القائلينَ، وكتابُه جلَّ وعلا مأمونٌ مِن تحريفِ المحرِّفينَ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٢٢) بتصرف.

وقال طنطاوي: (لا مانعَ مِن عودةِ الضميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾ إلى الجناتِ والعيونِ والكنوزِ التي أخرَج اللهُ تعالى منها فِرعونَ وقومَه، بأنْ عاد موسى ومَن معَه إلى مِصرَ -لفترةٍ معيَّنةٍ- بعْدَ هلاكِ فرعونَ ومَلَئِه، ثمَّ خرَجوا منها بعدَ ذلك مواصِلينَ سيرَهم إلى الأرضِ المقدَّسةِ التي أمرَهم موسَى عليه السلامُ بدُخولِها). ((التفسير الوسيط)) (١٠/ ٢٥١).

وقيل: إنَّ بني إسرائيل لم يَرِثوا مُلكَ فِرعَونَ في مِصرَ، ولكنَّهم وَرِثوا مُلكًا مِثلَه في أرضِ الشامِ، والمقصودُ نوعُ المُلكِ والنِّعمةِ الذي زالَ عن فِرعونَ وملَئِه ووَرِثَه بنو إسرائيلَ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جُزَي، والمراغي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩١)، ((تفسير المراغي)) (١٩/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٣) و(٢٥/ ٣٠٣).

وذهب محمد رشيد رضا إلى أنَّ المعنى: أنَّ بني إسرائيلَ وَرِثوا مُلكَ فِرعونَ في أرضِ الشامِ؛ لأنَّ الشامَ كانت تابعةً لِمصرَ في عهدِ فِرعونَ. يُنظر: ((تفسير المنار)) (٩/ ٨٦).

وقال ابن عجيبة: (التحقيقُ أنَّهم ملَكوا التصَرُّفَ في مِصرَ، ووصَلتْ حكومتُهم إليها، ولم يَرجِعوا إليها، والله تعالى أعلَمُ). ((البحر المديد)) (٤/ ١٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

أي: فلَحِقَ فِرعَونُ وجنودُه بني إسرائيلَ وقْتَ شُروقِ الشَّمسِ[1].

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: فلمَّا رأى كلٌّ مِن جمعِ موسى وجَمعِ فِرعَونَ الآخَرَ، قال أصحابُ موسى:

---

= وقال ابنُ عاشور: (وقيل: ضميرُ ﴿وَأَوْرَثْنَهَا﴾ عائدٌ إلى خصوصِ الكنوزِ؛ لأنَّ بني إسرائيلَ استعاروا ليلةَ خروجِهم مِن جيرانِهم المصريِّينَ مَصوغَهم مِن ذهبٍ وفِضَّةٍ، وخرَجوا به كما تقدَّم في سورة طه [يعني في قَولِه تعالى: ﴿حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا﴾ [طه: ٨٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

قال ابن عاشور: (يجوز أن يكونَ معناه: قاصدين جِهةَ الشَّرقِ، يقال: أشرَقَ: إذا دخلَ في أرض الشَّرقِ، كما يقال: أنجَدَ وأتْهَم وأعْرَقَ وأشأَمَ، ويُعلَمُ مِن هذا أنَّ بني إسرائيلَ توجَّهوا صَوْبَ الشَّرقِ، وهو صَوبُ بحرِ القُلْزُمِ، وهو البحرُ الأحمرُ،... وهو شرقيَّ مِصرَ. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: داخلينَ في وقتِ الشروقِ، أي: أدرَكوهم عندَ شروقٍ بعْدَ أن قضَوا ليلةً أو لياليَ مَشيًا، فما بصُرَ بعضُهم ببعضٍ إلَّا عندَ شروقِ الشمسِ بعدَ ليالي السَّفرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٤).

وقال ابن عثيمين: (وكِلا المعنيَينِ صحيحٌ؛ فمُشرِقٌ: متَّجِهٌ نحوَ المشرقِ باعتبارِ المكانِ، ومُشرِقٌ: وقت الشُّروقِ باعتبارِ الزمانِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٣١).

سيُدرِكُنا فِرعَونُ وجنودُه، ولا نَستطيعُ الفِرارَ؛ فالبَحرُ أمامَنا، وهم خَلْفَنا[١].

﴿ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٦٢ ﴾.

أي: قال موسى مُطَمْئِنًا قومَه: ليس الأمرُ كما ذكَرتُم مِن أنَّنا مُدرَكون؛ لأنَّ ربِّي معي بنَصرِه وتأييدِه، وسيَهديني لطَريقِ النَّجاةِ[٢].

﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا حَكَى سُبحانَه عن موسَى عليه السَّلامُ قولَه: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾[الشعراء: ٦٢]، بَيَّنَ تعالى بَعْدَه كيف هَداه ونجَّاه، وأهلَكَ أعداءَه بذلك التدبيرِ الجامعِ لِنعَمِ الدِّينِ والدُّنيا، فقال[٣]:

﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَ ﴾.

أي: فأوحى اللهُ إلى موسى، فقال له: اضرِبْ بعَصاك البَحرَ الذي أمامَك[٤].

﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾.

أي: فضرَبَ موسَى بعصاه البحرَ، فانشَقَّ، فكانت كلُّ قِطعةٍ مِن الماءِ كالجبَلِ الكبيرِ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٣، ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٢)، ((الوجيز)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: وقرَّبْنا فِرعَونَ وجُنودَه مِن البَحرِ، وأدخَلْناهم في ذلك الطَّريقِ المنشَقِّ لِنُغرِقَهم(١).

﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: وأنجَيْنا مِن الغرَقِ موسى والذين معه كُلَّهم، وسلَّمْناهم مِن عدُوِّهم(٢).

---

= للواحدي (ص: ٧٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

قال البقاعي: (﴿كَٱلطَّوْدِ﴾ أي: الجبَلِ في إشرافِه وطولِه وصلابتِه بعدمِ السَّيلانِ ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ المتطاوِلِ في السماءِ، الثابتِ لا يتزلزَلُ؛ لأنَّ الماءَ كان منبَسِطًا في أرضِ البحرِ، فلما انفرَقَ وانكشَفَت فيه الطرُقُ انضَمَّ بعضُه إلى بعضٍ، فاستطال وارتفَعَ في السَّماءِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٤).

وقال ابنُ عثيمين: (ظاهِرُه أنَّه عريضٌ؛ لأنَّ الطودَ العظيمَ يتناوَلُ الكِبَرَ والارتفاعَ والعَرْضَ... وقولُه: ﴿كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ظاهِرُه أنَّ الماءَ لم يتغيَّرْ، يعني: لم يتجمَّدْ بالمعنى المعروفِ فيكونَ أبيضَ جامدًا، ولكنَّه بقِي جامدًا على طبيعتِه أسودَ، وهذا أعظَمُ مما لو تجمَّد وهو على غيرِ طبيعتِه، لصارت فيه آيةٌ واحدةٌ، وهي سرعةُ التجمُّدِ بهذه اللحظةِ، فكوْنُه لا يسيلُ وهو جامِدٌ أمرٌ طبيعيٌّ عاديٌّ، لكِنْ كونُه يبقَى مائعًا ولكِنْ لا يسيلُ، فهذا أبلَغُ مِن ذلك. ففيه آيتان: أنَّه لا يسيلُ، وأنَّه لا يسيلُ وهو على طبيعتِه، والله تعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: ثمَّ أغرَقْنا فِرعَونَ وقَومَه كُلَّهم في البَحرِ، فلمْ يُفلِتْ منهم أحَدٌ[1].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

أي: إنَّ في قِصَّةِ موسى وفِرعَونَ لَعِظةً وعِبرةً عَظيمةً، ودَلالةً واضِحةً للنَّاسِ على صِدقِ الرَّسولِ، وحِكمةِ اللهِ وتَوحيدِه، وقُدرتِه العظيمةِ على إهلاكِ الكافرين وإنجاءِ المؤمِنينَ[2].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ فِرعَونَ مؤمنينَ بالله، فلم يُؤمِنْ منهم إلَّا قِلَّةٌ قَليلةٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٤، ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ هنا قومُ فرعونَ: مقاتلُ بن سليمان، والواحدي، والقرطبي، والبقاعي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الشوكاني: (ليس المرادُ أكثرَ مَن كان معَ فرعونَ عندَ لحاقِه بموسَى؛ فإنَّهم هلَكوا في البحرِ جميعًا، بل المرادُ مَن كان معه مِن الأصلِ، ومَن كان متابعًا له ومنتسبًا إليه، هذا غايةُ ما يمكنُ أن يُقالَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١١٩).

وذهب ابنُ جريرٍ ومكِّيٌّ إلى أنَّ المعنى: وما كان أكثَرُ قومِك -يا محمَّدُ- مؤمنينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣١٤). =

كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [هود: ١٧].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- لَهُوَ العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يبيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه ينجِّي أتْباعَ رسُلِه[1].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴾ تحذيرٌ للطُّغاةِ مِن أن تزولَ نِعَمُهم بسبَبِ طُغيانِهم؛ ففي عصرِنا هذا فتَح اللهُ على النَّاسِ مِن أنواعِ النَّعيمِ ما لم يكن مَوهومًا مِن قَبلُ -وبالأَولى ليس معلومًا- فيُخشَى أن يُخرَجَ هؤلاء مِن هذا النَّعيمِ إذا طَغَوا وعَتَوا عن أمرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ * قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المُعايَنةَ والتَّجرِبةَ أقوَى في نُفوسِ البشَرِ، وقلوبَهم إليها أشدُّ طُمأنينةً -صالحةً كانت النَّفسُ أو طالحةً-؛ لأنَّها على ذلك مجبولةٌ، لا تقدِرُ أن تُغيِّرَه مِن أنفُسِها؛ لأنَّ موسى خاف عَصاهُ حينَ تحوَّلتْ ثُعبانًا في بُدُوِّ أمرِه، وخاف

---

= وقال ابن عثيمين: (والأَولى أن يُقال: ﴿وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ أنَّه يَعودُ على الذين نزَل عليهم القرآنُ، لا على بني إسرائيلَ، أو آلِ فِرعَونَ). ((تفسير ابن عثيمين-سورة الشعراء)) (ص: ١٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٦).

حِبالَ السَّحَرةِ وعِصِيَّهم يومَ ألقَوْها، فلمَّا تَمكَّنَ في النبوَّةِ، وكثُرَتْ آياتُ اللهِ الجميلةُ عندَه، وعاينَها منه وَقتًا بعدَ وقتٍ؛ أيقنَ أنَّه لا يُسلِمُه لشِدَّةٍ، وقد سَلَّمَه منها مرَّةً بعدَ أخرى؛ فقال ما قال ثقةً بربِّه، وتوكُّلًا عليه(١).

٣- أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى كما يهدي إلى الطَّريقِ المعنويِّ يهدي أيضًا إلى الطَّريقِ الحِسِّيِّ؛ لِقَولِه: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴾، وليس المرادُ هنا هدايةَ العِلمِ والتَّوفيقِ للعَمَلِ الصَّالحِ، وإنَّما المرادُ الهدايةُ لطريقِ النَّجاةِ التي يَنجو بها، فهَداه اللهُ سُبحانَه وتعالى(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ * وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ قد يُؤخَذُ مِن حيثُ يَرى أنَّه علا وظهَرَ؛ فإنَّ فِرعَونَ بَعَث في المدائنِ حاشِرينَ، يَدعوهم إلى قتالِ موسى وقَومِه، فخَرجوا تابعينَ لهم على أنَّهم سيُدركونَهم، فصار في هذا الخروجِ حَتْفُهم وهلاكُهم، ونظيرُه في هذه الأُمَّةِ ما صنعتْ قُرَيشٌ حين خرجتْ إلى بدْرٍ، وكان أبو جَهلٍ يقولُ: (واللهِ لا نَرجِعُ حتى نَقْدَمَ بدرًا فنَسقيَ فيها الخُمورَ، وتَعزِفَ علينا القِيانُ(٣)، ونَشرَبَ الخُمورَ؛ حتى تسمَعَ بنا العرَبُ، فلا يَزالون يَهابونَنا أبدًا)(٤)، فأُخِذوا مِن حيثُ أَتَوا(٥)!

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٣٤).

(٣) القَيْنَة: الأَمَةُ غَنَّت أو لم تُغَنِّ، والماشِطةُ، وكثيرًا ما تُطْلَقُ على المُغَنِّيةِ مِن الإماءِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (٤/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((السيرة النبوية)) لابن هشام (١/ ٦١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٦).

٢- قولُه: ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ أي: إنَّا مِن عادتِنا التيقُّظُ للحَوادِثِ، والحَذَرُ مِمَّا عسى أن يكونَ لها مِن سيِّئِ العواقِبِ، وهذا أصلٌ عظيمٌ مِن أصولِ السياسةِ، وهو سَدُّ ذرائعِ الفَسادِ -ولو كان احتِمالُ إفضائِها إلى الفَسادِ ضعيفًا-، فالذرائعُ المُلغاةُ في التَّشريعِ في حُقوقِ الخُصوصِ غيرُ مُلغاةٍ في سياسةِ العُمومِ؛ ولذلك يقولُ عُلماءُ الشريعةِ: إنَّ نَظَرَ وُلاةِ الأمورِ في مصالحِ الأُمَّةِ أوسَعُ مِن نَظَرِ القُضاةِ، فالحذَرُ أوسعُ مِن حِفظِ الحُقوقِ، وهو الخَوفُ مِن وقوعِ شَيءٍ ضارٍّ يمكِنُ وقوعُه، والترصُّدُ لِمنعِ وقوعِه، والمحمودُ منه هو الخَوفُ مِن الضَّارِّ عندَ احتِمالِ حُدوثِه دونَ الأمرِ الذي لا يمكِنُ حُدوثُه؛ فالحذَرُ منه ضَربٌ مِن الهوَسِ[١].

٣- قَوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ فيه بيانُ عُقوبةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى للطَّاغينَ، وذلك بإزالةِ النِّعَمِ عنهم؛ إمَّا بإخراجِهم منها، وإمَّا بإزالتِها هيَ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ...﴾ أنَّ العُقوبةَ بعدَ التَّنعيمِ أشدُّ؛ ولذلك نُصَّ عليها، فما قال: «فأخرَجْناهم مِن أماكِنِهم» فقط، أو مِن ديارِهم، ولكنْ بَيَّنَ على سبيلِ التَّعيينِ ما هم فيه مِن النَّعيمِ؛ لأنَّ الأخذَ بالعُقوبةِ بعدَ النَّعيمِ يكونُ أشَدَّ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ قال مجاهِدٌ: (سَمَّاها كُنوزًا؛ لأنَّه لم يُعْطَ حقُّ اللهِ منها، وما لم يُعْطَ حقُّ اللهِ منه فهو كَنْزٌ، وإنْ كان ظاهِرًا)[٤].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ فيه مِن الإشكالِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٦٨). ويُنظر أيضًا: ((مصنف ابن أبي شيبة)) (٢/ ٤١١) (١٠٥٢١).

عليه وسلَّم يقولُ: ((أُحِلَّتْ ليَ الغنائمُ، ولم تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلي))[١]، وهنا أورَثَ اللهُ ديارَ فِرعَونَ وقومِه وأموالَهم بني إسرائيلَ!

**والجوابُ**: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أهلَكَ فِرعَونَ في البَحرِ بدونِ حربٍ، والغَنيمةُ هي ما أُخِذَ مِن مالِ الكفَّارِ بقتالٍ وما أُلحِقَ به، هذا تعريفُها شَرعًا، وهذا ما أُخِذَ بقتالٍ، فهؤلاء هَلَكوا فبقِيتْ ديارُهم لبني إسرائيلَ، وحتى لو لم يَسكُنْها بنو إسرائيلَ لَسكَنَها آخَرون غيرُهم، فالمسألةُ هذه ما غَنِمُوها بأيديهم، ولكِنَّها مِن اللهِ عزَّ وجلَّ لهلاكِ هؤلاء، يعني: كان الأمرُ أنَّهم لَمَّا هَلَكوا صارتْ إرثًا لبني إسرائيلَ إرثًا قَدَريًّا؛ لأنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ كذلك[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾ فيه قوَّةُ يقينِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقد قال ذلك في هذا المقام المُحْرِجِ الذي لا يرى الإنسانُ فيه إلَّا أنَّه هالِكٌ؛ ولهذا قال أصحابُه: ﴿إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ﴾[٣]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ دَليلٌ على أنَّ لكلِّ شيءٍ سَببًا، حتى الآياتُ التي يَجعلُها اللهُ على يدِ الشَّخصِ لها سببٌ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لم يَفلِقِ البحرَ إلَّا بعدَ أنْ أوحَى إلى موسَى أنِ اضربِ البحرَ بعصاك، فضَربَه فانفلَقَ[٤]. فأرادَ تعالى أن يَجعَلَ هذه الآيةَ متَّصِلةً بموسى، ومُتعلِّقةً بفِعلٍ فعَلَه، ولكنَّه بقُدرةِ اللهِ؛ إذْ ضرْبُ البحرِ بالعَصا لا يوجِبُ انفِلاقَ البَحرِ بذاتِه، ولو شاءَ تعالى لفلَقَه دُونَ ضرْبِه بالعَصا[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨)، ومسلم (٥٢١) واللفظ له، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٠).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تمامُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بفَلْقِ البحرِ وتيبيسِه في الحالِ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أنَّ كلَّ شيءٍ يَمتَثِلُ لأمرِ اللهِ، وأنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على قَلْبِ الأمورِ عن طبائعِها، فضلًا عن تَغَيُّرِ صِفاتِها؛ فهذه النارُ التي مِن طبيعتِها الإحراقُ والحرارةُ كانت بَرْدًا وسلامًا على إبراهيمَ في الحالِ، وهذا الماءُ الذي مِن طبيعتِه الإغراقُ والسَّيلانُ صار آمنًا لا يَسيلُ بالنِّسبةِ لبني إسرائيلَ[٢]!

١١- يَذكرُ سُبحانَه في هذه السورةِ قصَّةَ موسى وإبراهيمَ، ونوحٍ وعادٍ، وثمودَ ولوطٍ وشعيبٍ، ويَذكرُ لكلِّ نبيٍّ إهلاكَه لمُكَذِّبيهم، والنَّجاةَ لهم ولأتبَاعِهم، ثم يَختمُ القِصَّةَ بقَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فخَتَمَ القصةَ باسمين مِن أسمائِه تقتضيهما تلك الصفةُ، وهو «العزيزُ الرحيمُ»، فانتَقَم مِن أعدائِه بعِزَّتِه، وأنجى رُسُلَه وأتباعَهم برحَمتِه[٣].

١٢- مِن آياتِ الأنبياءِ إهلاكُ اللهِ لمُكَذِّبيهم، ونَصرُه للمؤمنينَ بهم، فهذا مِن أعلامِ نُبُوَّتِهم، ودلائلِ صِدقِهم؛ كإغراقِ اللهِ قومَ نوحٍ لَمَّا كذَّبوه، وكإهلاكِه قومَ عادٍ بالرِّيحِ الصَّرصَرِ، وإهلاكِ قومِ صالحٍ بالصَّيحةِ، وإهلاكِ قومِ شُعيبٍ بالظُّلَّةِ، وإهلاكِ قومِ لوطٍ بقَلْبِ مدائنِهم، ورجمِهم بالحجارةِ، وكإهلاكِ قومِ فِرعَونَ بالغَرَقِ، وقد ذكر اللهُ القَصَصَ في القرآنِ في غيرِ موضعٍ، وبيَّنَ أنَّها مِن آياتِ الأنبياءِ الدالَّةِ على صِدقِهم كما يذكُرُه في هذه السورةِ، لَمَّا ذكر قِصَّةَ موسى قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٨).

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، ثمَّ ذكَرَ قِصَّةَ إبراهيمَ وقال في آخِرِها: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٣]، وكذلك ذكَرَ مِثلَ ذلك في قِصَّةِ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وشُعَيبٍ(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ هذه قِصَّةٌ أُخرى مِن أحوالِ موسى عليه السَّلامُ في دَعوةِ فِرعونَ؛ فالواوُ لعَطفِ القصَّةِ، ولا تُفيدُ قُرْبَ القصَّةِ مِنَ القصَّةِ(٢).

- وقولُه: ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ تَعليلٌ للأمرِ بالإسراءِ(٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ ظاهرُ ترتيبِ الجُمَلِ يَقتَضي أنَّ الفاءَ للتَّعقيبِ على جملةِ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ ﴾ [الشعراء: ٥٢]، وأنَّ بيْن الجُمْلتَينِ مَحذوفًا، تَقديرُه: فأَسرَى موسى عليه السَّلامُ وخَرَج بهم، فأَرسَلَ فِرعونُ حاشِرينَ(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ مَقُولٌ لقَولٍ مَحذوفٍ؛ لأنَّ ﴿حَٰشِرِينَ ﴾ يَتضمَّنُ معنَى النِّداءِ، أي: يقولون: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾(٥).

- وفي قولِه: ﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾ ذكَرَهم بالاسمِ الدَّالِّ على القِلَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٠).

ثمَّ جعَلَهم قليلًا بالوَصفِ، ثمَّ جَمَعَ القليلَ فجَعَل كلَّ حِزبٍ منهم قليلًا، واختارَ جَمْعَ السَّلامةِ الَّذي هو للقِلَّةِ. وقيل: جُمِعَ «قليلًا» بالواوِ والنُّونِ؛ لموافَقةِ رُؤوسِ الآيِ، وإنْ أَفرَدَها جازَ؛ لأنَّ لفْظَ «الشِّرذِمةِ» مُفرَدٌ[1]. ولَمَّا كانت قِلَّتُهم إنَّما هي بالنِّسبةِ إلى كَثرةِ آلِ فِرعونَ وقوَّتِهم، وما لَهم عليهم مِن هَيبةِ الاستِعبادِ، وكان التَّعبيرُ بالشِّرذِمةِ موهِمًا لأنَّهم في غايةِ القِلَّةِ- أزالَ هذا الوَهمَ بالتَّعبيرِ بالجَمعِ دُونَ المُفرَدِ؛ ليُفيدَ أنَّه خَبرٌ بعدَ خَبرٍ، لا صِفةٌ، وأنَّ التَّعبيرَ بالشِّرذِمةِ إنَّما هو للإشارةِ إلى تَفرُّقِ القلوبِ. والجَمعُ ولا سيَّما ما للسَّلامةِ مع كَونِه أيضًا للقِلَّةِ أدَلُّ على أنَّهم أَوْزاعٌ. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّهم مع ضَعفِهم بقِلَّةِ العَددِ آيِسونَ مِن إسعافٍ بمَدَدٍ، وليس لهم أُهْبَةٌ لقتالٍ؛ لعدَمِ العُدَّةِ؛ لأنَّهم لمْ يَكونوا قطُّ في عِدادِ مَن يُقاتِلُ، كما تقولُ لمَن تَزْدَريهِ: هو أَقَلُّ مِن أن يَفعَلَ كذا، فقال: ﴿قَلِيلُونَ﴾، أي: بالنِّسبةِ إلى ما لنا مِنَ الجُنودِ الَّتي لا تُحصَى، وإنْ كانوا في أنفُسِهم كَثيرينَ، فلا كَثرةَ لهم تَمنعُكُم أيُّها المَحشورونَ مِنَ اتِّباعِهم[2].

- وفي اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إيماءٌ إلى تَحقيرٍ لشأنِهم، أكَّدَه التَّصريحُ بأنَّهم شِرْذِمةٌ قَليلون، والشِّرْذِمةُ: الطَّائفةُ القليلةُ مِنَ النَّاسِ؛ فإتْباعُه بوصْفِ ﴿قَلِيلُونَ﴾ للتَّأكيدِ؛ لدفْعِ احتِمالِ استِعمالِها في تَحقيرِ الشَّأنِ أو بالنِّسبةِ إلى جُنودِ فِرعونَ. و﴿قَلِيلُونَ﴾ خبرٌ ثانٍ عنِ اسمِ الإشارةِ، فهو وصْفٌ في المَعنى لمَدلولِ هؤلاءِ، وليس وصْفًا لشِرْذِمة، ولكنَّه مؤكِّدٌ لمَعْناها؛ ولهذا جِيءَ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٤، ٣١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨، ٣٩).

بصيغةِ جمْعِ السَّلامةِ، الَّذي هو ليس مِن جُموعِ الكَثْرةِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴾ فيه تَقديمُ ﴿لَنَا﴾ على ﴿لَغَآئِظُونَ﴾؛ لرِعايةِ الفاصِلةِ[٢]، وللحصرِ، واللامُ للتقويةِ، أو تنزيلِ المتعدِّي منزلةَ اللازمِ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ هذا حثٌّ لأهلِ المَدائنِ على أن يَكونوا حَذِرينَ على أبلَغِ وجْهٍ؛ إذْ جَعَل نفْسَه معهم في ذلك بقَولِه: ﴿ لَجَمِيعٌ ﴾، وذلك كِنايةٌ عن وُجوبِ الاقتِداءِ به في سياسةِ المَملَكةِ[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم﴾، وما بيْنَهما اعتِراضٌ؛ لأنَّ الإتْباعَ عَقِبَ الإخراجِ، لا الإيراثِ[٥].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ قالُوه بالتَّأكيدِ؛ لشدَّةِ الاهتِمامِ بهذا الخَبرِ، وهو مُستعمَلٌ في معنَى الجَزَعِ[٦]. وكذلِك جاؤُوا بالجملةِ الاسميَّةِ مؤكَّدةً بحرفَيِ التَّأكيدِ؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِ الإدراكِ واللَّحاقِ وتَنَجُّزِهما[٧].

٨- قولُه تعالى: ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ زجَرَهم ورَدَعَهم بحَرْفِ الرَّدْعِ ﴿كَلَّآ﴾، واقتَصَر مُوسَى عليه السَّلامُ على نفْسِه في قَولِه: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣١).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٣، ١٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٥).

لأنَّهم لمْ يَكونوا عالِمينَ بما ضَمِنَ اللهُ له مِن مَعِيَّةِ العنايةِ؛ فإذا عَلِموا ذلك عَلِموا أنَّ هِدايتَه تَنفَعُهم؛ لأنَّه قائِدُهم، والمُرسَلُ لفائِدتِهم. ووجْهُ اقتِصارِه على نفْسِه أيضًا: أنَّ طريقَ نَجاتِهم بعدَ أنْ أَدركَهُم فِرعونُ وجُنْدُه لا يَحصُلُ إلَّا بفِعلٍ يَقطَعُ دابِرَ العدُوِّ، وهذا الفعلُ خارِقٌ للعادةِ؛ فلا يَقَعُ إلَّا على يَدِ الرَّسولِ. وهذا وجْهُ اختِلافِ المَعِيَّةِ بيْنَ ما في هذه الآيةِ وبيْنَ ما في قَولِه تعالى في قِصَّةِ الغارِ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]؛ لأنَّ تلك مَعِيَّةُ حِفظِهما كِلَيْهِما بصرْفِ أَعيُنِ الأعداءِ عنهما[١].

- وقدَّم مَعيَّةَ اللهِ؛ لأنَّها أقوى في تَثبيتِ قَومِه، وكلُّ إنسانٍ يكونُ اللهُ معه فلن يَضُرَّه شَيءٌ، ثمَّ قال أيضًا مؤكِّدًا أثَرَ هذه المعيَّةِ: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، والسِّينُ تدُلُّ على التَّحقيقِ والقُربِ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ الفاءُ فصيحةٌ، أي: فضَرَبَ فانفلَقَ؛ ففيه إيجازٌ بالحَذْفِ[٣].

ومِن عادةِ العربِ الحَسَنةِ في خِطابِها أنهم يَحذِفونَ مِن الكلامِ ما يكونُ المذكورُ دليلًا عليه؛ اختِصارًا، ومِن ذلك هذه الآيةُ، فمَعلومٌ أنَّ المرادَ «فضَرَبَ فانفَلَقَ»، لكنْ لم يُحتَجْ إلى ذِكرِ ذلك في اللَّفظِ؛ إذْ كان قولُه: ﴿أَنِ ٱضْرِب﴾ ﴿فَٱنفَلَقَ﴾ دليلًا على أنَّه ضُرِبَ فانفلَقَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٦٦).

١٠- قولُه تعالى: ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾

- في الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: ودخَلَ موسى وبَنو إسرائيلَ البحرَ، وأنجَيْنا...[١].

١١- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ تَذييلٌ[٢]، وتَسليةٌ لحبيبِه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم[٣].

- قولُه: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ ما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنَى البُعدِ؛ لتَهويلِ أمْرِ المُشارِ إليه وتَفظيعِه، كتَنكيرِ الآيةِ في قَولِه تعالى: ﴿لَءَايَةً﴾، أي: أيَّةُ آيةٍ، أو: آيةً عظيمةً لا تَكادُ توصَفُ[٤].

- وقولُه: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: وما أكثَرُهم مؤْمنينَ، على أنَّ (كانَ) صِلَةٌ؛ فيَكونُ كقَولِه تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وهو إخبارٌ منه تعالى بما سيَكونُ مِنَ المُشركينَ -على أحدِ الأقوالِ- بعْدَما سمِعُوا الآياتِ النَّاطقةَ بالقصَّةِ؛ تَقريرًا لِما مَرَّ مِن قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ۞ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ ... ﴾ [الشعراء: ٥- ٦]. وإيثارُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على استِقرارِهم على عدَمِ الإيمانِ، واستِمرارِهم عليه. ويَجوزُ أن يُجعلَ (كان) بمعنَى (صَار)، كما فُعِل ذلك في قَولِه تعالَى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤]، فالمَعْنى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٦).

وما صار أَكثَرُهم مؤْمنِينَ مع ما سمِعُوا مِنَ الآيةِ العظيمةِ الموجِبةِ له بما ذُكِر مِنَ الطَّرفَينِ، فيَكونَ الإخبارُ بعدَم الصَّيرورةِ قبْلَ الحدوثِ؛ للدَّلالةِ على كمالِ تَحقُّقِه وتَقرُّرِه، كقَولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ...﴾ [النحل: ١] الآيةَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٦).

## الآيات (٦٩-٨٩)

﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا
فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ٧٣ قَالُواْ
بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٧٤ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ
ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨ وَٱلَّذِي هُوَ
يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ٧٩ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ٨٠ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١
وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ٨٢ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي
بِٱلصَّٰلِحِينَ ٨٣ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥
وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨
إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَٰكِفِينَ﴾: أي: مُقيمينَ، والعُكُوفُ: الإقبالُ على الشَّيءِ ومُلازمتُه على سَبيلِ التَّعظيمِ له، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على الإقبالِ والحَبسِ[١].

﴿لِسَانَ صِدۡقٖ﴾: أي: ذِكرًا وثناءً حَسَنًا، وأصلُ (صدق): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ قَولًا وغيرَه[٢].

﴿تُخۡزِنِي﴾: أي: تَفضَحْني وتُذِلَّني، وأصلُ الخزيِ: الإبعادُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩) و(٥/ ٢٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((تذكرة =

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

الاستِثناءُ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّه مُنقطِعٌ، أي: لكِنْ من أتى اللهَ بقَلبٍ سليمٍ فإنَّه ينفعُه ذلك... الثاني: أنَّه متَّصِلٌ.

وفي إعرابِ (مَن) وَجهانِ:

**أحدُهما**: أنَّه بَدَلٌ مِن المفعولِ المَحذوفِ، أو مُستثنًى منه؛ إذ التقديرُ: لا ينفَعُ مالٌ ولا بَنونَ أحدًا من النَّاسِ إلَّا مَن كانت هذه صِفتُه.

**والثاني**: أنَّ (مَن) مفعولٌ به لـ ﴿يَنفَعُ﴾، أي: لا ينفَعُ المالُ والبَنونَ إلَّا هذا الشَّخصَ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى جانبًا مِن قصةِ إبراهيمَ عليه السلامُ، فيقولُ: واقرأْ -يا مُحمَّدُ- على قَومِك خَبَرَ إبراهيمَ حينَ قال لأبيه وقَومِه: ما هذا الذي تَعبُدونَه؟

قالوا: نَعبُدُ أصنامًا فنظَلُّ مُقيمينَ على عِبادتِها. قال لهم إبراهيمُ: هل تسمَعُ أصنامُكم دُعاءَكم حينَ تَدْعونَها، أو تنفَعُكم أو تضُرُّكم أنتم أو أعداءَكم؟ قال قومُ إبراهيمَ: لا، ولكِنَّنا وجَدْنا آباءَنا يَعبُدونَها، فنحن نعبُدُها مِثلَهم.

قال إبراهيمُ لهم: أرأيتُم هذه الأصنامَ التي تَعبُدونَها أنتم وأجدادُكم الماضون، فإنَّهم كُلَّهم عدوٌّ لي إلَّا رَبَّ العالَمينَ، الذي خلقَني فهو يُرشِدُني، والذي يَرزُقُني

---

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٧٧).

(١) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ٩٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٣٢)، ((المجتبى)) للخراط (٣/ ٨٤١).

الطَّعامَ والشَّرابَ، وإذا مَرِضتُ فهو وَحْدَه الذي يُعافيني، وهو وحْدَه الذي يُميتُني ثمَّ يَبعثُني يومَ القيامةِ، والذي أرجو أن يغفِرَ لي ذُنوبي يومَ القيامةِ.

ثمَّ أتْبَع إبراهيمُ عليه السلامُ ذلك بالتوجُّهِ إلى الله بالدعاءِ قائلًا: ربِّ أعطِني فَهمًا وعِلمًا، واجعَلْني مع الصَّالحينَ، واجعَلْ لي ثناءً حَسنًا في العالَمينَ مِن بَعدي، واجعَلْني ممَّن تُورِثُهم الجنَّةَ في الآخرةِ، واغفِرْ لأبي؛ لأنَّه كان مِن الضالِّينَ، ولا تَفْضَحْني حينَ تَبعَثُ عِبادَك؛ يومَ لا ينفَعُ أحدًا مالُه ولا أبناؤُه، إلَّا مَن لَقِيَ اللهَ يومَ القيامةِ بقَلبٍ سَليمٍ خالصٍ مِن الشِّركِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

اعلَمْ أنَّه تعالى ذكَرَ في أوَّلِ السُّورةِ شِدَّةَ حُزنِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسبَبِ كُفرِ قَومِه، ثمَّ إنَّه ذكَرَ قِصَّةَ موسى عليه السَّلامُ؛ لِيَعرِفَ محمَّدٌ أنَّ مِثلَ تلك المِحنةِ كانت حاصِلةً لموسى عليه السَّلامُ، ثمَّ ذكَرَ عَقِبَها قِصَّةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لِيَعرِفَ مُحمَّدٌ أيضًا أنَّ حُزنَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بهذا السبَبِ كان أشَدَّ مِن حُزنِه؛ لأنَّ مِن عَظيمِ المِحنةِ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ أن يرى أباه وقومَه في النَّارِ، وهو لا يتمَكَّنُ مِن إنقاذِهم[1]!

وأيضًا لَمَّا كانت العَرَبُ لها خُصوصيَّةٌ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ أمَرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يتلوَ عليهم قَصَصَه، وما جرَى له مع قَومِه، ولم يأتِ في قِصَّةٍ مِن قِصَصِ هذه السُّورةِ أمْرُه عليه السَّلامُ بتلاوةِ قِصَّةٍ إلَّا في هذه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٢).

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩ ﴾.

أي: واقرأْ -يا مُحمَّدُ- على قَومِك خبَرَ إبراهيمَ العَظيمَ[1].

﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ٧٠ ﴾.

أي: حينَ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه المُشرِكين: أيُّ شَيءٍ تعبدونَ، وتُواظِبونَ على عبادتِه[2]؟

﴿ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ٧١ ﴾.

أي: قال المُشرِكون لإبراهيمَ: نعبُدُ أصنامًا، فنُقيمُ على عبادتِها وَقتًا طَويلًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٥٠).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ نبَّه المشركين على فَرطِ جَهلِهم؛ إذ رَغِبوا عن اعتقادِ إبراهيمَ ودينِه، وهو أبوهم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٩).

وقال السعدي: (أي: واتلُ -يا محمَّدُ- على النَّاسِ نبأَ إبراهيمَ الخليلِ، وخبَرَه الجليلَ في هذه الحالةِ بخصوصِها، وإلَّا فله أنباءٌ كثيرةٌ، ولكِنْ مِن أعجبِ أنبائِه وأفضَلِها هذا النبأُ المتضَمِّنُ لرسالتِه ودعوتِه قَومَه، ومحاجَّتِه إيَّاهم، وإبطالِه ما هم عليه؛ ولذلك قيَّده بالظَّرفِ فقال: ﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ ... ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

وقال ابن عاشور: (ونبأُ إبراهيمَ: قصَّتُه المذكورةُ هنا، أي: اقرأْ عليهم ما ينزِلُ عليك الآنَ مِن نبأِ إبراهيمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٩).

قال مكي: (لا يكونُ «ظلَّ» إلا بالنَّهارِ، كما أنَّ «باتَ» بالليلِ، واشتقاقُه مِن «الظلِّ»، و«الظلُّ» إنَّما يكونُ بالنَّهارِ؛ فلذلك لم يقَعْ «ظل» إلَّا بالنَّهارِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٧/ ٤٩٢٦).

وقال الزمخشري: ((إنما قالوا: نَظَلُّ؛ لأنَّهم كانوا يعبُدونَها بالنَّهارِ دونَ اللَّيلِ). ((تفسير =

﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: هل تَسمَعُ أصنامُكم دُعاءَكم حينَ تَدْعونَها[١]؟

﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

أي: أو هل تنفَعُكم أو تُوقِعُ الضَّرَرَ عليكم أو على أعدائِكم[٢]؟!

﴿ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

أي: قال قَومُ إبراهيمَ: لا تَسمَعُنا الأصنامُ، ولا تنفَعُنا ولا تضُرُّنا، ولكِنَّنا وجَدْنا آباءَنا يَعبُدونَها ويَعكُفونَ عليها، فنحنُ نقتَدي بهم[٣]!

﴿ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ: أفرأيتُم -أيُّها القَومُ- هذه الأصنامَ التي كنتُم تَعبدونَها أنتم وأجدادُكم الماضُونَ الأوَّلونَ[٤].

---

= الزمخشري)) (٣/ ٣١٨).

وقال ابن عاشور: (... هم كانوا صابئةً يعبدون الكواكبَ، وجعلوا الأصنام رموزًا على الكواكب تكونُ خَلَفًا عنها في النهارِ، فإذا جاء الليلُ عبدوا الكواكِبَ الطالعةَ... وكانت الأممُ الوَثَنيةُ تَعبُدُ الوثَنَ؛ لرجاءِ نفعِه أو لدَفعِ ضَرِّه، ولذلك عَبَد بعضُهم الشياطينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٥٥، ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٠). =

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٧﴾.

أي: فإنَّها كُلَّها عدوٌّ لي لا أعبُدُها، وأتبرَّأُ منها، إلَّا رَبَّ العالَمينَ؛ فإنِّي أعبُدُه وحْدَه[1].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا حكى سُبحانَه عن إبراهيمَ عليه السلامُ أنَّه استثنى ربَّ العالَمينَ؛ حكَى عنه أيضًا ما وَصَفَه به ممَّا يستَحِقُّ العبادةَ لأجْلِه[2].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ٧٨﴾.

أي: الذي أوجَدني وحْدَه مِنَ العَدَمِ، ويُرشِدُني لِمَصالحي في دِيني ودُنياي[3].

---

= قال الألوسي: (﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أي: أنظَرْتُم فأبصَرْتُم أو تأمَّلتُم فعَلِمتُم أيُّ شيءٍ استدَمْتُم على عبادتِه، أو أيُّ شَيء تعبدونَه). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٩٣).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٤٩).

قال ابن عطية: (لفظةُ عدوٍّ تقع للجَميعِ والمفرَدِ، والمؤنَّثِ والمذكَّرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٤).

وقال ابن الجوزي: (في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قولان؛ أحدُهما: أنَّه استثناءٌ مِن الجنسِ؛ لأنَّه علِمَ أنَّهم كانوا يعبدونَ اللهَ مع آلهتِهم، قاله ابن زيد. والثاني: أنَّه مِن غير الجنسِ، فالمعنى: ولكِنْ رَبُّ العالَمينَ ليس كذلك، قاله أكثَرُ النَّحْويِّينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤١).

ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٣٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٢).

﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ ﴾.

أي: والذي يُغَذِّيني وحْدَه بالطَّعامِ والشَّرابِ[١].

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾.

أي: وإذا سَقِمَ بَدَني واعتَلَّتَ صِحَّتي فهو وحْدَه الذي يُعافيني[٢].

﴿ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾.

أي: وهو وحْدَه الذي يَقبِضُ رُوحي عند انقضاءِ أجلي، ثمَّ يبعَثُني يومَ القيامةِ ليُجازيَني[٣].

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذَكَرَ البعثَ؛ ذَكَرَ ما يترتَّبُ عليه، فقال[٤]:

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾.

أي: وهو وحْدَه الذي أرجو أن يغفِرَ لي ذُنوبي يومَ القيامةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٢)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٧).

قال ابنُ عطيةَ: (قولُهُ: ﴿خَطِيٓـَٔتِى﴾ ذهب فيه أكثَرُ المفسِّرينَ إلى أنَّه أراد كَذِباتِه الثَّلاثَ؛ =

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعانَ كان في الجاهليَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المِسكينَ، فهل ذاك نافِعُه؟ قال: لا ينفَعُه؛ إنَّه لم يَقُلْ يومًا: ربِّ اغفِرْ لي خطيئتي يومَ الدِّينِ))[1].

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ﴾.

أي: ربِّ أعطِني فَهمًا، وعِلمًا كثيرًا[2].

---

= قولُه: «هي أختي»، في شأنِ سارَةَ، وقولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقَولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]. وقالت فِرقةٌ: أراد بـ «الخطيئة» اسمَ الجنسِ، فدعا في كُلِّ أمْرٍ مِن غيرِ تعيينٍ. وهذا أظهَرُ عندي؛ لأنَّ تلك الثَّلاثَ قد خَرَّجها كثيرٌ مِن العلماء على المعاريضِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٥).

(١) رواه مسلم (٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قال ابن الجوزي: (﴿حُكْمًا﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: النبوَّةُ، قاله أبو صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ. والثاني: اللُّبُّ، قاله عِكْرِمةُ. والثالث: الفَهمُ والعلمُ، قاله مقاتلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤١). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٩).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بالحُكمِ: العِلمُ والفَهمُ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمعانيُّ، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: النُّبوَّةُ: يحيى بنُ سلَّام، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٢٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الحكمةُ والنبوةُ: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٥). =

﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: واجعَلْني معَ الصَّالحينَ في الدُّنيا والآخرةِ[1].

---

= وقال ابنُ عاشور: (الحُكمُ: هو الحِكمةُ والنبوَّةُ... وقد كان إبراهيمُ حين دعا نبيًّا؛ فلذلك كان السؤالُ طلبًا للازديادِ؛ لأنَّ مراتِبَ الكمالِ لا حَدَّ لها بأن يُعطى الرِّسالةَ مع النبوَّةِ، أو يُعطى شريعةً مع الرِّسالةِ، أو سَأل الدَّوامَ على ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الكمالُ في العِلمِ والعَملِ: البيضاويُّ، والشربيني، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٠).

قال البقاعي: (﴿هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أي: عملًا متقنًا بالعلمِ، وأصلُه بناءُ الشيءِ على ما تُوجِبُه الحكمةُ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٥٤).

وقال أبو حيان: (والظاهرُ أنَّ الحكمَ هو الفصلُ بينَ الناسِ بالحقِّ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصالحينَ: الأنبياءُ والمرسَلونَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والثعلبي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٦٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قيل: المرادُ: في المنزلةِ والدَّرجةِ، وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٧).

وقال ابن جرير: (﴿وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يقولُ: واجعَلْني رسولًا إلى خَلقِك؛ حتى تُلحِقَني بذلك بعِدادِ مَن أرسَلْتَه مِن رُسلِك إلى خَلقِك، واتَّمَنْتَه على وحْيِك، واصطَفَيْتَه لنفْسِك). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٣). ويُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٢٠).

وقيل: المرادُ بالصالحينَ: أهلُ الجنةِ، وممَّن اختاره: يحيى بنُ سلام. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٠٨).

واختار ابنُ عاشورٍ أنَّ لفظَ الصَّالحينَ يَعُمُّ جميعَ الصَّالحينَ مِن الأنبياءِ والمرسلينَ، والشُّهداءِ والصَّالحينَ. ينظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٥). =

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان الصَّالحُ قد لا يَظهرُ عملُه، وكان إظهارُ اللهِ له مَجلَبةً للدُّعاءِ وزيادةً في الأجرِ؛ قال[1]:

﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ٨٤﴾.

أي: واجعَلْ لي ثناءً حَسَنًا دائمًا، فأُذكَرَ مِن بَعدي، ويَقتديَ النَّاسُ بي[2].

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٨ - ١١١].

﴿وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥﴾.

---

= وقيل: معنى ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾: أي: وفِّقْني للكمالِ في العملِ؛ لأنتظِمَ به في عِدادِ الكاملينَ في الصلاحِ، الراسخينَ فيه. وممَّن اختار هذا القولَ في الجملةِ: الرازيُّ، والبيضاوي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٥، ١٤٦).

قال ابن عطية: (لسانُ الصِّدقِ في الآخِرينَ: هو الثناءُ وتخليدُ المكانةِ، بإجماعٍ مِن المفسِّرينَ، وكذلك أجاب اللهُ دَعْوتَه؛ فكلُّ مِلَّةٍ تتمَسَّكُ به وتعَظِّمُه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٥).

وقال القرطبيُّ: (وقد فعَل اللهُ ذلك؛ إذ ليس أحدٌ يصَلِّي على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا وهو يصلِّي على إبراهيمَ، وخاصَّةً في الصَّلواتِ، وعلى المنابرِ، التي هي أفضلُ الحالاتِ، وأفضَلُ الدَّرَجاتِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٣).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا طَلَبَ عليه السَّلامُ سَعادةَ الدُّنيا، وكان لا نفْعَ لها إلَّا باتِّصالِها بسَعادةِ الآخرةِ التي هي الجنةُ؛ طَلَبها بقَولِه[1]:

﴿ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ٨٥ ﴾.

أي: واجعَلْني ممَّن تُورِثُهم الجنَّةَ في الآخِرةِ[2].

﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا دعا لنفْسِه، ثنَّى بأحقِّ الخَلقِ ببِرِّه، فقال[3]:

﴿ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦ ﴾.

أي: واغفِرْ لأبي؛ لأنَّه مِنَ الضَّالِّينَ عن طَريقِ الحَقِّ، فلا تُعاقِبْه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قال ابنُ جرير: (يعني إبراهيمُ صلواتُ الله عليه بقَولِه: ﴿ وَٱجۡعَلۡنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الشعراء: ٨٥] أورِثْني -يا رَبِّ- مِن منازِلِ مَن هَلَك مِن أعدائِك المشركينَ بك مِن الجنَّةِ، وأسْكِنِّي ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥).

وقال البقاعي: (شبَّه إدخالَها بالإرثِ الذي يحصُلُ بغيرِ اكتسابٍ مِن الوارِثِ، وهو أقوى أسبابِ المِلْكِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٦، ١٤٧).

قال السعدي: (هذا الدعاءُ بسببِ الوعدِ الذي قال لأبيه: ﴿سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ [مريم: ٤٧]، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ=

﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: ولا تَفْضَحْني يومَ القيامةِ حينَ تَبعَثُ عِبادَك لفصلِ القضاءِ[1].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((يَلقَى إبراهيمُ أباه آزَرَ يومَ القيامةِ، وعلى وَجهِ آزَرَ قَتَرةٌ وغَبَرةٌ، فيقولُ له إبراهيمُ: ألم أقُلْ لك: لا تَعصِني؟ فيقولُ أبوه: فاليومَ لا أعصيك. فيقولُ إبراهيمُ: يا رَبِّ، إنَّك وعَدْتَني ألَّا تُخزيَني يومَ يُبعَثونَ، فأيُّ خزيٍ أخزَى مِن أبي الأبعَدِ[2]؟! فيقولُ الله

= فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ [التوبة: ١١٤]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

وذهب السمرقنديُّ إلى أنَّ هذا الدُّعاءَ مِن إبراهيمَ كان في حياةِ أبيه، والمرادُ هدايتُه إلى الحَقِّ، يعني: إنَّه كان مِن المشركينَ في الحالِ، كقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ٢٩] يعني: مَن هو في الحالِ صبيٌّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٨).

وقال الواحدي: (هذا الاستغفارُ منه لأبيه إنَّما كان قبْلَ أن يتبرَّأَ منه). ((البسيط)) (١٧/ ٧٤).

وقال البيضاوي: (إنْ كان هذا الدُّعاءُ بعْدَ مَوتِه، فلعلَّه... لم يُمنَعْ بَعدُ مِن الاستغفارِ للكُفَّارِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٢).

وقال الألوسي: (حاصِلُه: وفِّقْه للإيمانِ، كما يلوحُ به تعليلُه بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهذا ظاهِرٌ إذا كان هذا الدعاءُ قبلَ موتِه، وإنْ كان بعْدَ الموتِ فالدُّعاءُ بالمغفرةِ على ظاهِرِه، وجاز الدعاءُ بها لمُشرِكٍ، واللهُ تعالى لا يغفِرُ أن يُشرَكَ به؛ لأنَّه لم يوحَ إليه عليه السَّلامُ بذلك إذ ذاك، والعَقلُ لا يَحكُمُ بالامتناعِ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قال الشوكاني: (﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: لا تَفضَحْني على رؤوسِ الأشهادِ بمُعاتَبتي، أو: لا تُعَذِّبْني يومَ القيامةِ، أو: لا تُخزِني بتعذيبِ أبي، أو ببَعْثِه في جملةِ الضَّالِّينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣).

وقال السعدي: (﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ أي: بالتوبيخِ على بعضِ الذُّنوبِ، والعقوبةِ عليها والفضيحةِ، بل أسعِدْني في ذلك اليومِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

(٢) قيل: وصَف إبراهيمُ عليه السلامُ نفْسَه بالأبعدِ على طريقِ الفرضِ إذا لم تُقبَلْ شفاعتُه في أبيه. =

تعالى: إنِّي حرَّمتُ الجنَّةَ على الكافرينَ. ثمَّ يُقالُ: يا إبراهيمُ، ما تحتَ رِجْلَيْك؟ فينظُرُ فإذا هو بذِيخٍ مُلتَطِخٍ[١]، فيُؤخَذُ بقوائِمِه فيُلقى في النَّارِ))[٢].

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا نَبَّهَ على أنَّ المقصودَ هو الآخرةُ، صَرَّحَ بالتَّزهيدِ في الدُّنيا بتحقيرِ أجَلِّ ما فيها، فقال[٣]:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: يومَ لا ينفَعُ العَبدَ فيه مالُه ولا أبناؤُه[٤].

---

= وقيل: الأبعدُ صفةُ أبيه، أي: أنَّه شديدُ البعدِ مِن رحمةِ الله؛ لأنَّ الفاسقَ بعيدٌ منها، فالكافرُ أبعدُ.
وقيل: الأبعد بمعنى البعيدِ، والمرادُ الهالكُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٠٠).

(١) الذِّيخُ: ذكَرُ الضِّباعِ، وأراد بالتلطُّخِ التلَطُّخَ برَجيعِه أو بالطِّينِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٧٤).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).
ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ...﴾ مِن كلامِ إبراهيمَ عليه السلامُ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جرير، واختاره أبو حيَّان، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٧).
قال أبو حيان: (والظَّاهِرُ أن هذه الجُمَلَ كُلَّها متعلِّقةٌ بقولِ إبراهيمَ؛ أخبَرَ بما أعلَمَه اللهُ مِن أحوالِ يومِ القيامةِ، وما يكونُ فيها مِن حالِ قَومِه). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧١).
وذهب السمرقنديُّ وابنُ عطيَّةَ إلى أنَّ كلامَ إبراهيمَ انقطع عندَ قَولِه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾، ثمَّ إنَّ الله وصَف ذلك اليومَ فقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ...﴾. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) =

﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾.

أي: إلَّا مَن لَقِيَ اللهَ يومَ القيامةِ وقَلبُه خالِصٌ مِنَ الشِّركِ والشَّكِّ، والعقائِدِ الباطِلةِ، والأوصافِ الذَّميمةِ، والإراداتِ الفاسدةِ(١).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- إنَّما قال إبراهيمُ عليه السلامُ: ﴿عَدُوٌّ لِّيٓ﴾؛ تصويرًا للمسألةِ في نفْسِه، وأَراهُم بذلك أنَّها نصيحةٌ نَصَح بها نفْسَه أوَّلًا، وبَنَى عليها تَدبيرَ أمْرِه؛ لِيَنظُروا فيَقولوا: ما نَصَحَنا إبراهيمُ إلَّا بما نَصَح به نفْسَه، وما أرادَ لنا إلَّا ما أرادَ لرُوحِه؛ لِيَكونَ أَدْعى لهم إلى القَبولِ، وأَبعَثَ على الاستِماعِ منه، ولو قال: فإنَّه عدُوٌّ لكم، لم يكنْ بتلك المَثابةِ، ولأنَّه دَخَل في بابٍ مِنَ التَّعريضِ، وقد يَبلُغُ التَّعريضُ للمَنصوحِ ما لا يَبلُغُه التَّصريحُ؛ لأنَّه يَتأمَّلُ فيه، فرُبَّما قادَه التَّأمُّلُ إلى التَّقبُّلِ(٢).

٢- قَولُ الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ أضافَ

---

= (٢/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٤، ١١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٤، ٣٣٧)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢١، ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٩)، ((كلمة الإخلاص)) لابن رجب (ص: ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قال ابن رجب: (القَلبُ السَّليمُ هو الذي ليس فيه شَيءٌ مِن محبَّةِ ما يكرَهُه الله، فدخَل في ذلك سلامتُه مِن الشِّركِ الجَليِّ والخَفيِّ، ومِن الأهواءِ والبِدَعِ، ومِن الفُسوقِ والمعاصي؛كبائِرِها وصغائِرِها، الظَّاهرةِ والباطنةِ، كالرِّياءِ، والعُجْبِ، والغِلِّ، والغِشِّ، والحِقدِ، والحسدِ، وغيرِ ذلك). ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٥٤). ويُنظر: ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (١/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩٠).

المرضَ إلى نفْسِه والشِّفاءَ إلى ربِّه -وإنْ كان المرضُ والشفاءُ كلُّه مِن اللهِ، وعن قَدَرِه وقضائِه وخَلْقِه-؛ استعمالًا لحُسنِ الأدبِ، فمِن الأدبِ إضافةُ نوعِ الحسنةِ إلى الله، ونوعِ السيئةِ إلى النفْسِ، وقد تأدَّب العارفونَ مِن عبادِ الله سُبحانَه وتعالى بهذا الأدبِ، فأضافوا إليه النِّعَمَ والخَيراتِ؛ وأضافوا الشرورَ إلى محَلِّها، كما قال الخَضِرُ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وكما قالت الجِنُّ: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، وقال تعالى آمِرًا للمصلِّي أن يقولَ: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فأسندَ الإنعامَ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، والغَضَبُ حُذِفَ فاعِلُه أدبًا، وأُسنِدَ الضَّلالُ إلى العَبيدِ(١).

٣- قولُه تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾ قال إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذلك؛ هَضْمًا لنفْسِه، وتعليمًا للأُمَّةِ أنْ يَجتنِبُوا المعاصيَ، ويَكونوا على حَذَرٍ وطلَبِ مَغفرةٍ لِما يَفرُطُ منهم، وتَلافيًا لِما عَسَى يَندُرُ منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ الصَّغائرِ، وتَنبيهًا لأبيهِ وقَومِه على أنْ يَتأمَّلوا في أمْرِهم، فيَقِفُوا على أنَّهم مِن سوءِ الحالِ في درجةٍ لا يُقادَرُ قَدْرُها؛ فإنَّ حالَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مع كَونِه في طاعةِ اللهِ تعالى وعبادتِه في الغايةِ القاصيةِ حيثُ كانت بتلك المَثابةِ، فما ظَنُّكِ بحالِ أولئك المَغمُورينَ في الكُفرِ وفُنونِ المعاصي والخَطايا(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴾ تخويفٌ للمُؤمنينَ شديدٌ لأنْ يَعمَلوا ولا يَتَّكِلوا؛ إذ كان خليلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طامعًا في غُفرانِ خطيئتِه، غيرَ حاتمٍ[١] بها على ربِّه، فمَنْ بعْدَه مِن المؤمنينَ أَحرى أنْ يكونَ أشدَّ خوفًا مِن خطاياه[٢]، فقد أوقَفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نفْسَه على الطَّمعِ في المغفرةِ؛ وهذا دليلٌ على شدَّةِ خَوفِه مع مَنزلتِه وخُلَّتِه[٣].

٥- يُستفادُ مِن قَولِه: ﴿ رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ... ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ ثناءَه على اللهِ تعالى، ذَكَر بعْدَ ذلك دُعاءَه ومسألتَه، وذلك تنبيهٌ على أنَّ تقديمَ الثَّناءِ على الدُّعاءِ مِن المهمَّاتِ[٤].

٦- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ في هذا دَليلٌ على التَّرغيبِ في العَمَلِ الصَّالحِ الذي يُكسِبُ الثَّناءَ الحَسَنَ[٥]، واستِحبابِ اكتِسابِ ما يُورِثُ الذِّكرَ الجَميلَ[٦].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴾ أنَّ كلَّ إنسانٍ مُفتَقِرٌ إلى الدُّعاءِ حتى الأنبياءَ؛ لأنَّ إبراهيمَ عليه الصلاةُ والسلامُ دعا اللهَ سُبحانَه وتعالى بذلك[٧].

---

(١) الحتمُ: اللازمُ الواجبُ الذي لا بُدَّ مِن فِعلِه. يُقالُ: حَتَمْتُ عليه الشيءَ: أوجَبْتُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٦، ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥١٤).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٥٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٥٨).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ...﴾ إلى آخِرِ القصةِ، أخلى سُبحانَه قِصَّةَ أبي العَرَبِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مِن ذِكْرِ الإهلاكِ؛ إشارةً إلى البِشارةِ بالرِّفقِ ببَنيه العَرَبِ في الإمهالِ، كما رَفَقَ بهم في الإنزالِ والإرسالِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ * أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾ التقَدُّمُ لا يدُلُّ على الصِّحَّةِ، ولا ينقَلِبُ به الباطِلُ حَقًّا[٢].

٣- قولُه تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ * أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾ في وصْفِهم بالأَقدَمِينَ دَلالةٌ على تَقادُمِ عِبادةِ الأصنامِ فيهم[٣].

٤- قوله: ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إنْ قيل: كيف وصَفَ الأصنامَ بالعَداوةِ، وهي جماداتٌ لا تَعقِلُ؟

**فالجوابُ**: أنَّ معناه فإنَّهم عدوٌّ لي يومَ القيامةِ لو عبَدْتُهم في الدُّنيا. وقيل: إنَّ الكُفَّارَ لَمَّا عَبَدوها ونزَّلوها مَنزِلةَ الأحياءِ العُقَلاءِ، أطلقَ إبراهيمُ لَفظَ العَداوةِ عليها. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٥- إذا كان الحُبُّ أصلَ كُلِّ عَمَلٍ مِن حَقٍّ وباطلٍ، فأصلُ الأعمالِ الدينيَّةِ حُبُّ اللهِ ورَسولِه، كما أنَّ أصْلَ الأقوالِ الدِّينيةِ تصديقُ اللهِ ورَسولِه، وكُلُّ إرادةٍ تمنَعُ كَمالَ الحُبِّ لله ورَسولِه، وتُزاحِمُ هذه المحبَّةَ؛ أو شُبهةٍ تَمنَعُ كَمالَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٧).

التَّصديقِ: فهي مُعارِضةٌ لأصلِ الإيمانِ أو مُضعِفةٌ له، فإنْ قَوِيَت حتى عارَضَتْ أصلَ الحُبِّ والتَّصديقِ، كانت كُفرًا أو شِركًا أكبَرَ، وإنْ لم تعارِضْه قَدَحت في كمالِه، وأثَّرَت فيه ضَعفًا وفُتورًا في العزيمةِ والطَّلَبِ، وهي تَحجُبُ الواصِلَ، وتقطَعُ الطَّالِبَ، وتَنكُسُ الرَّاغِبَ؛ فلا تَصِحُّ الموالاةُ إلَّا بالمعاداةِ، كما قال تعالى عن إمامِ الحُنَفاءِ المحبِّينَ إنَّه قال لِقَومِه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فلمْ يصِحَّ لخليلِ اللهِ هذه الموالاةُ والخُلَّةُ إلَّا بتحقيقِ هذه المعاداةِ، فإنَّه لا ولاءَ إلَّا بالبراءةِ مِن كُلِّ معبودٍ سِواهُ؛ قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[1] [الممتحنة: ٤].

٦- إنَّ مَن تَفَرَّدَ بخَلْقِ العبدِ وبهدايتِه وبرَزْقِه، وإحيائِه وإماتتِه في الدنيا، وبمغفرةِ ذنوبِه في الآخرةِ؛ مُستحِقٌّ أنْ يُفرَدَ بالإلهيَّةِ والعبادةِ، والسؤالِ والتضرُّعِ إليه والاستكانةِ له، وقد استدَلَّ إبراهيمُ الخليلُ عليه السَّلامُ بتفرُّدِ الله بهذه الأمورِ على أنَّه لا إلهَ غيرُه، وأنَّ كُلَّ ما أُشرِك معه فباطِلٌ، فقال لِقَومِه: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾[2].

٧- قولُ الله تعالى إخبارًا عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٨).

فيه ردٌّ على المُعتَزلةِ والقدَريَّةِ فيما يَزعمون أنَّ أفعالَ العِبادِ لا صُنعَ فيها الْبَتَّةَ، ولا يقولونَ: إنَّ أفعالَهم وإن كانت منسوبةً إليهم فهم في الحقيقةِ ميسَّرونَ لها، أفيَشُكُّ أحدٌ أنَّ إبراهيمَ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يتناوَلُ مأكولَه ومَشروبَه بيَدِه، ويرفَعُه إلى فيه، ويبتَلِعُه بحَلقِه، ويكونُ فِعلُه بها منسوبًا إليه، وقد قال كما ترَى: إنَّ الله مُطعِمُه وساقيه، فما يُنكَرُ أن تكونَ هدايةُ إبراهيمَ وغيرِه وإنْ كانت منسوبةً إليهم، فاللهُ هاديهم كما هو مُطعِمُهم وساقيهم، وضَلالُ مَن ضَلَّ وإنْ كان منسوبًا إليه فالله مُضِلُّه وخاذِلُه، كما هو مميتُه ومُحْييه[1]؟!

٨- قال الله تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ... ﴾ إلى آخرِ كلامِ الخليلِ، وقد أشارَ في هذه النُّعوتِ إلى ما هو مِن تَصرُّفاتِ اللهِ في العالَمِ الحِسِّيِّ، بحيثُ لا يَخفَى عن أحدٍ؛ قَصْدًا لاقتِصاصِ إيمانِ المُشرِكينَ إنْ رامُوا الاهتِداءَ. وفي تلك النُّعوتِ إشارةٌ إلى أنَّها مُهيِّئاتٌ للكمالِ النَّفسانيِّ؛ فقد جمَعَتْ كلِماتُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ -مع دَلالتِها على انفرادِ اللهِ بالتَّصرُّفِ في تلك الأفعالِ الَّتي هي أصلُ أطوارِ الخَلْقِ الجُسْمانيِّ- دَلالةً أُخرى على جميعِ أُصولِ النِّعَمِ مِن أوَّلِ الخَلْقِ إلى الخَلْقِ الثَّاني وهو البَعثُ، فذَكَر خَلْقَ الجسدِ، وخَلْقَ العقلِ، وإعطاءَ ما به بَقاءُ المَخلوقِ، وهو الغِذاءُ والماءُ، وما يَعتَري المَرءَ مِن اختِلالِ المِزاجِ وشِفائِه، وذَكَر المَوتَ الَّذي هو خاتمةُ الحياةِ الأُولى، وأَعقَبَه بذِكرِ الحياةِ الثَّانيةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ المَوتَ حالةٌ لا يَظهَرُ كَونُها نِعمةً إلَّا بغَوصِ فِكْرٍ، ولكنَّ وراءَه حياةً هي نعمةٌ لا مَحالَةَ لِمَنْ شاءَ أنْ تكونَ له نِعمةً[2].

٩- قَولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ فيه جَوازُ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٤).

الصَّغائرِ على الأنبياءِ[١]، والقَولُ بأنَّ الأنبياءَ معصومون عن الكبائرِ دونَ الصَّغائرِ هو قَولُ أكثرِ عُلَماءِ الإسلامِ وجميعِ الطَّوائفِ، حتى إنَّه قَولُ أكثرِ أهلِ الكلامِ وأكثرِ أهلِ التَّفسيرِ والحَديثِ، والفُقَهاءِ، بل لم يُنقَلْ عن السَّلَفِ والأئمَّةِ والصَّحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهم إلَّا ما يُوافِقُ هذا القَولَ، وقد اتَّفَق سلَفُ الأمَّةِ وأئمَّتُها ومَن اتَّبَعَهم على ما أخبَرَ الله به في كتابِه وما ثبَت عن رَسولِه مِن تَوبةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مِن الذُّنوبِ التي تابوا منها، وهذه التَّوبةُ رَفَع اللهُ بها دَرَجاتِهم؛ فإنَّ اللهَ يحِبُّ التَّوابينَ ويحِبُّ المتطَهِّرينَ، وعِصمَتُهم هي مِن أن يُقَرُّوا على الذُّنوبِ والخَطأِ؛ فإنَّ مَن سِوى الأنبياءِ يجوزُ عليهم الذَّنبُ الخَطأُ مِن غيرِ تَوبةٍ، والأنبياءُ عليهم السَّلامُ يَستدرِكُهم اللهُ فيتوبُ عليهم ويبَيِّنُ لهم، وقد ذكَرَ الله تعالى مِن تَوبةِ الأنبياءِ واستغفارِهم؛ كقَولِه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقَولِ نوحٍ عليه السلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقَولِ إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقَولِه سُبحانَه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] إلى غيرِ ذلك[٢].

١٠- روى أشهَبُ عن مالكٍ قال: (قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ لا بأسَ أن يحِبَّ الرجُلُ أن يُثنَى عليه صالِحًا، ويُرى في عمَلِ الصَّالحينَ، إذا قصَدَ به وجْهَ الله تعالى)[٣]، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على جوازِ حُبِّ الإنسانِ الثناءَ الحسَنَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣١٩)، ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (١/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٣٠).

١١- قال اللهُ تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السلامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى في كتابِه خمسةَ أشياءَ مُضافةً إلى الصِّدقِ؛ وهي: لِسانُ الصِدْقِ، كما هنا، وقدَمُ الصِّدقِ، كما في سورة (يونسَ) [الآية: ٢]، ومُدخَلُ الصِّدقِ، ومُخرَجُ الصِّدقِ، كما في سورةِ (الإسراءِ) [الآية: ٨٠]، ومَقعَدُ الصِّدقِ، كما في سورة (القمر) [الآية: ٥٥]، وحقيقةُ الصِّدقِ في هذه الأشياءِ: هو الحقُّ الثَّابتُ، المتَّصِلُ باللهِ، المُوصِلُ إلى اللهِ -وهو ما كان به وله، مِن الأقوالِ والأعمالِ-، وجزاءُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ(١).

١٢- قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ داعيًا رَبَّه: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾؛ لأنَّ الذِّكرَ الجَميلَ قائِمٌ مَقامَ الحياةِ الشَّريفةِ، بل الذِّكرُ أفضَلُ مِن الحياةِ؛ لأنَّ أثَرَ الحياةِ لا يحصُلُ إلَّا في مَسكَنِ ذلك الحيِّ، أمَّا أثَرُ الذِّكرِ الجَميلِ فإنَّه يحصُلُ في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمانٍ(٢).

١٣- مِن أعظَمِ نِعَمِ اللهِ على العَبدِ أن يرفَعَ له بينَ العالَمينَ ذِكْرَه، ويُعليَ قَدْرَه؛ ولهذا خَصَّ أنبياءَه ورُسُلَه مِن ذلك بما ليس لِغَيرِهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص: ٤٥، ٤٦]، أي: خصَصْناهم بخَصِيصةٍ، وهو الذِّكرُ الجَميلُ الذي يُذكَرون به في هذه الدَّارِ -على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ-، وهو لِسانُ الصِّدقِ الذي سأله إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيثُ قال: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، وقال سُبحانه وتعالى عنه وعن بَنيه: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾ [مريم: ٥٠]، وقال لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَرَفَعۡنَا

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٥).

لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، فأتْباعُ الرُّسُلِ لهم نصيبٌ مِن ذلك بحسَبِ ميراثِهم مِن طاعتِهم ومُتابعتِهم، وكلُّ مَن خالَفهم فإنَّه بعيدٌ مِن ذلك بحسَبِ مُخالفتِهم ومَعصيتِهم(١).

١٤- إنْ قيل: لمَ خَصَّ أباه بسُؤالِ المغفرةِ له في قولِه: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؟

**فالجوابُ**: للمَوعِدةِ التي وعَدَها إيَّاه، على أنَّه قد قيل: إنَّ أمَّه كانت مُؤمِنةً(٢).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ دليلٌ على فضيلةِ القَلبِ السليم؛ لأنَّه سببٌ لاستفادةِ الإنسانِ مِن مالِه وبَنيه، وهذا بِناءً على أنَّ الاستثناءَ متَّصِلٌ(٣).

١٦- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ لا يكونُ القَلبُ سَليمًا إذا كان حَقودًا حَسودًا، مُعجَبًا مُتكَبِّرًا، وقد شرَطَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في الإيمانِ أن يحِبَّ لأخيه ما يحِبُّ لنَفْسِه، والله الموفِّقُ برَحمتِه(٤).

١٧- ممَّا أَكرَمَ اللهُ تعالى به خليلَه، ونبَّهَ على جلالةِ محَلِّه في الإخلاصِ: أنْ حَكَى استِثناءَه هذا حكايةَ راضٍ بإصابتِه فيه في قولِه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، ثمَّ جَعَلَه صِفةً له في قَولِه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٥) [الصافات: ٨٣، ٨٤].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ قُدِّمَتْ هنا قِصَّةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ على قِصَّةِ نوحٍ على خِلافِ المُعتادِ في تَرتيبِ قَصصِهم في القُرآنِ؛ لشدَّةِ الشَّبهِ بيْنَ قَومِ إبراهيمَ وبيْن مُشركي العربِ في عبادةِ الأصنامِ الَّتي لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ، وفي تَمسُّكِهم بضَلالِ آبائِهم، وأنَّ إبراهيمَ دعاهُم إلى الاستِدلالِ على انحِطاطِ الأصنامِ عن مَرتبةِ استِحقاقِ العِبادةِ؛ لِيَكونَ إيمانُ النَّاسِ مُستندًا لدليلِ الفِطرةِ، وفي أنَّ قَومَ إبراهيمَ لمْ يُسلَّطْ عليهم مِن عذابِ الدُّنيا مِثلُ ما سُلِّطَ على قَومِ نُوحٍ وعلى عادٍ وثَمودَ وقَومِ لُوطٍ وأهلِ مَدْيَنَ؛ فأَشْبَهوا قُرَيشًا في إمهالِهم، فرسالةُ محمَّدٍ وإبراهيمَ صلى اللهُ عليهما قائِمتانِ على دِعامةِ الفِطرةِ في العقلِ والعملِ، أي: في الاعتِقادِ والتَّشريعِ؛ فإنَّ اللهَ ما جَعَل في خلْقِ الإنسانِ هذه الفِطرةَ ليُضيِّعَها ويُهْمِلَها، بل لِيُقيمَها ويُعْمِلَها. فلمَّا ضَرَب اللهُ المَثَلَ للمُشركينَ لإبطالِ زَعْمِهم أنَّهم لا يؤْمِنونَ حتَّى تأتيَهمُ الآياتُ كما أُوتيَ موسى، فإنَّ آياتِ موسى -وهي أَكثَرُ آياتِ الرُّسُلِ السَّابقينَ- لم تَقضِ شيئًا في إيمانِ فِرعونَ وقَومِه لَمَّا كان خُلُقُهمُ المُكابرةَ والعِنادَ- أَعقَبَ ذلك بضَربِ المَثَلِ بدَعوةِ إبراهيمَ المُماثِلةِ لدَعوةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النِّداءِ على إعمالِ دَليلِ النَّظرِ[1].

- وفي قولِه: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ أُمِر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتِلاوَتِه؛ للإشارةِ إلى أنَّ الكلامَ المُتضمِّنَ نَبأَ إبراهيمَ هو آيةٌ مُعجِزةٌ، وما تَضمَّنَتْه مِن دليلِ العقلِ على انتِفاءِ إلهيَّةِ الأصنامِ الَّتي هي كأصنامِ العربِ آيةٌ أيضًا؛ فحَصَل مِن مجموعِ ذلك آيتانِ دالَّتانِ على صِدْقِ الرَّسولِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٣٧، ١٣٨).

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ صُوريٌّ؛ فإنَّ إبراهيمَ يَعلَمُ أنَّهم يَعبُدون أصنامًا، ولكنَّه أرادَ بالاستِفهامِ: افتِتاحَ المُجادَلةِ معهم؛ فأَلْقى عليهم هذا السُّؤالَ؛ لِيَكونوا هُمُ المُبتدِئينَ بشرحِ حقيقةِ عِبادتِهم ومَعبوداتِهم، فتَلُوحَ لهم مِن خلال شرحِ ذلك لَوائحُ ما فيه مِن فسادٍ؛ لأنَّ الَّذي يَتصدَّى لشرحِ الباطلِ يَشعُرُ بما فيه مِن بُطلانٍ عِندَ نَظْمِ مَعانيهِ أَكثَرَ ممَّا يَشعُرُ بذلك مَن يَسمَعُه؛ ولأنَّه يَعلَمُ أنَّ جَوابَهم يَنشأُ عنه ما يُريدُه مِنَ الاحتِجاجِ على فسادِ دينِهم[1]. وقيل: الاستِفهامُ بمعنَى التَّحقيرِ والتَّقريرِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث جاءَ قَولُه هنا: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ بدُونِ ذِكرِ (ذا)، وفي (الصَّافات) بذِكرِه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥]؛ ووجْهُه: أنَّ (ما) لمُجرَّدِ الاستِفهام، فأجابُوا بقَولِهم: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا﴾ [الشعراء: ٧١]، و(ماذا) فيه مُبالَغةٌ؛ لتَضمُّنِه معنَى التَّوبيخِ، فلمَّا وَبَّخَهم ولمْ يُجيبُوه، زادَ على التَّوبيخِ فقال: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦، ٨٧]؛ فذَكَر في كلِّ سورةٍ ما يُناسِبُ ما ذُكِر فيها[3]. وقيل: هذه هي المُحاجَّةُ الأُولى في مَلأِ أبيه وقَومِه أَلْقى فيها دَعْوتَه في صورةِ سؤالِ استِفسارٍ غَيرِ إنكارٍ؛ استِنزالًا لطائرِ نُفورِهم، وأمَّا قَولُه في الآيةِ الأُخرى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ [الصافات ٨٥، ٨٦] فذلك مَقامٌ آخَرُ له في قَومِه كان بعْدَ الدَّعوةِ الأُولى المَحكيَّةِ في سورةِ (الشعراء)؛ ولأجْلِ ذلك كان الاستِفهامُ مُقترِنًا بما يَقتَضي التَّعجُّبَ مِن حالِهم بزيادةِ كَلِمةِ (ذا) بعدَ (ما) الاستِفهاميَّةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٢).

سورةِ (الصافاتِ). وكَلِمةُ (ذا) إذا وقعَتْ بعدَ (ما) تَؤولُ إلى معنَى اسمِ المَوصولِ؛ فصارَ المعنى في سورةِ (الصافاتِ): ما هذا الَّذي تَعْبُدونه؛ فصارَ الإنكارُ مُسلَّطًا إلى كَونِ تلك الأصنامِ تُعبَدُ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾ أَتَوْا في جَوابِهم بفِعلِ ﴿نَعۡبُدُ﴾، مع أنَّ الشَّأنَ الاستِغناءُ عنِ التَّصريحِ؛ إذْ كان جَوابُهم عن سُؤالٍ فيه: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾؛ فلا حاجةَ إلى تَعيينِ جِنسِ المَعبوداتِ فيَقولوا: أصنامًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [سبأ: ٢٣]؛ فعَدَلوا عن سُنَّةِ الجَوابِ إلى تَكريرِ الفِعلِ الواقعِ في السُّؤالِ؛ ابتِهاجًا بهذا الفِعلِ، وافتِخارًا به؛ ولذلك عَطَفوا على قَولِهم: ﴿نَعۡبُدُ﴾ ما يَزيدُ فِعلَ العبادةِ تأكيدًا بقَولِهم: ﴿فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾. وفي فِعلِ (نَظَلُّ) دَلالةُ الاستِمرارِ جَميعَ النَّهارِ. وصِلَةُ العُكوفِ كَلِمةُ (على)؛ فلم يَقُلْ: (فنَظَلُّ عليها)، وإنما أَوردَه باللَّامِ ﴿فَنَظَلُّ لَهَا﴾؛ لإفادةِ معنًى زائدٍ، كأنَّهم قالوا: فنَظَلُّ لأجْلِها مُقْبِلينَ على عبادتِها، أو مُستَديرينَ حَوْلَها، وهذا أيضًا مِن جملةِ إطنابِهم(٢). أو عَدَّى العُكوفَ باللَّامِ؛ لأنَّ المعنى: (لها قانِتون)(٣).

- والتَّنْوينُ في ﴿أَصۡنَامٗا﴾ للتَّعظيمِ؛ ولذا عُدِلَ عن تَعريفِها، وهُم يَعْلَمون أنَّ إبراهيمَ يَعرِفُها، ويَعلَمُ أنَّهم يَعبُدونها، واسمُ (الأصنام) عِندَهم اسمٌ عظيمٌ؛ فَهُمْ يَفتَخِرونَ به، على عَكسِ أهلِ التوحيدِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٨٩).

(٣) يُنظر ((شرح العمدة - كتاب الصيام)) لابن تيمية (٢/ ٧٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٩).

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سؤالٍ نَشأَ مِن تَفصيلِ جَوابِهم[١].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾ لافتِتاحِ المُجادَلةِ معهم؛ ولأجْلِ ذلك كان الاستِفهامُ مُقترِنًا بما يَقتَضي التَّعجُّبَ مِن حالِهم[٢]. ولَمَّا كان شأنُ الرَّبِّ أنْ يُلجَأَ إليه في الحاجةِ، وأن يَنفَعَ أو يَضُرَّ؛ أَلْقَى إبراهيمُ عليهمُ استِفهامًا عن حالِ هذه الأصنامِ: هل تَسمَعُ دُعاءَ الدَّاعِينَ؟ وهل تَنفَعُ أو تَضُرُّ؟ تَنبيهًا على دليلِ انتِفاءِ الإلهيَّةِ عنها[٣].

- وجُعِل مفعولُ ﴿يَسْمَعُونَكُمْ﴾ ضَميرَ المُخاطَبينَ؛ تَوسُّعًا بحَذفِ مُضافٍ، تَقديرُه: هل يَسمَعون دُعاءَكم؟ أو التَّقديرُ: يَسْمَعونَكم تَدْعُون؛ حُذِفَ لدَلالةِ قَولِه: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ عليه[٤].

- وصِيغةُ المُضارِعِ مع (إذْ) في قولِه: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ على حِكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ لاستِحضارِ صورتِها؛ كأنَّه قيل لهم: استَحضِرُوا الأحوالَ الماضيةَ الَّتي كنتُم تَدْعونها فيها، وأَجيبُوا: هل سمِعُوا أو أَسْمَعوا قطُّ؟! وهذا أَبلَغُ في التَّبكيتِ[٥].

- قولُه: ﴿أَوْ يَضُرُّونَ﴾ الحذفُ هنا مراعاة للفواصلِ، وللعُمومِ، ويصيرُ: إمَّا:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٧، ٢٤٨).

أو يَضرُّونَكم إن لم تعبُدوهم، أو: أو يَضرُّونَ عَدُوَّكم إذا عبَدْتُموهم[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ هذا منهم حَيْدةٌ عن جَوابِ الاستِفهامِ، و(بل) هنا إضرابُ انتِقالٍ عن جَوابِه لِما سألَ، وأَخْذٌ في شَيءٍ آخَرَ لَمْ يَسألْهم عنه؛ انقِطاعًا وإقرارًا بالعجزِ[٢].

- وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ تَشبيهُ فِعلِ الآباءِ بفِعلِهم، وهو نَعْتٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: يَفْعَلون فِعلًا كذلك الفِعلِ. وقُدِّم الجارُّ والمَجرورُ على ﴿يَفۡعَلُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بمَدلولِ اسمِ الإشارةِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ﴾ جملةٌ مُفرَّعةٌ على جُمَلِ كَلامِ القَومِ المُتضمِّنةِ عِبادتَهمُ الأصنامَ، وأنَّهم مُقتَدونَ في ذلك بآبائِهم؛ فالفاءُ في ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾ للتَّفريعِ، ومِثلُ هذا التَّركيبِ يُستعمَلُ في التَّنبيهِ على ما يَجِبُ أن يُعلَمَ؛ على إرادةِ التَّعجُّبِ ممَّا يُعلَمُ مِن شَأنِه[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾ فيه عَطْفُ ﴿آبَاؤُكُمُ﴾ على ﴿أَنتُمۡ﴾؛ لزِيادةِ إظهارِ قلَّةِ اكتِراثِه بتلك الأصنامِ، معَ العِلمِ بأنَّ الأَقدَمِينَ عَبَدوها؛ فتَضمَّنَ ذلك إبطالَ شُبهتِهم في استِحقاقِها العِبادةَ. ووصْفُ الآباءِ بالأَقدميَّةِ؛ إيغالٌ في قلَّةِ الاكتِراثِ بتَقليدِهم؛ لأنَّ عُرْفَ الأُمَمِ أنَّ الآباءَ كلَّما تَقادَمَ عَهْدُهم كان تَقليدُهم آكَدَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٤٠، ١٤١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٤١).

٨- قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ للتَّفريعِ على ما اقتَضَتْه جُملةُ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ مِنَ التَّعجيبِ مِن شأنِ عِبادتِهم إيَّاها. ويَجوزُ جعْلُ الرُّؤيةِ بَصَريَّةً لها مفعولٌ واحدٌ، وجَعْلُ الاستِفهامِ تَقريريًّا، والكلامُ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ لشَيءٍ يُريدُ المُتكلِّمُ الحديثَ عنه؛ لِيَعِيَه السَّامعُ حقَّ الوَعْيِ. أو فاءٌ فصيحةٌ بتَقديرِ: إنْ رأيْتُموهُم فاعلَموا أنَّهم عدُوٌّ لي[1].

- والتَّعبيرُ عنِ الأصنامِ بضَميرِ جمْعِ العُقلاءِ ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ دُونَ (فإنَّها)، جرْيٌ على غالبِ العِباراتِ الجاريةِ بيْنَهم عنِ الأصنامِ؛ لأنَّهم يَعتَقِدونها مُدْرِكةً[2].

٩- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ صِفَةٌ لـ ﴿رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧]، والفاءُ في قولِه: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ للعَطفِ. ويَجوزُ أن يَكونَ قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ مُبتدَأً مُستأنَفًا به، ويَكونَ ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ خبرًا عنِ ﴿ٱلَّذِى﴾، والفاءُ فيه للسَّببيَّةِ، وزِيدَتِ الفاءُ في الخَبرِ؛ لمُشابَهةِ المَوصولِ للشَّرطِ. وإنَّما وصَفَه تعالَى بذلك وبما عطَفَه عليه مع اندِراجِ الكُلِّ تحتَ رُبوبيَّتِه تعالى للعالَمينَ؛ تَصريحًا بالنِّعَمِ الخاصَّةِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَفصيلًا لها؛ لكَونِها أَدخَلَ في اقتِضاءِ تخصيصِ العبادةِ به تعالى، وقَصْرِ الالتِجاءِ في جَلْبِ المَنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنْيَويَّةِ ودفْعِ المَضارِّ العاجِلةِ والآجِلةِ عليه تعالى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٢).

- وفي قولِه: ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ تَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبرِ الفِعليِّ دُونَ أن يقولَ: (فيَهدينِ)؛ لتَخصيصِه بأنَّه مُتولِّي الهِدايةِ دُونَ غَيرِه؛ لأنَّ المَقامَ لإبطالِ اعتِقادِهم تَصرُّفَ أصنامِهم بالقَصرِ الإضافيِّ، وهو قَصْرُ قَلْبٍ[1].

- واختِلافُ النَّظمِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ -حيث قال: ﴿خَلَقَنِي﴾ فذَكَره بلفظِ الماضي، وقال: ﴿يَهۡدِينِ﴾ فذَكَرَه بلفظِ المستقبَلِ-؛ لتَقدُّمِ الخَلْقِ واستِمرارِ الهِدايةِ؛ فخَلْقُ الذاتِ لا يَتجدَّدُ في الدُّنيا، بل لَمَّا وَقَعَ بقيَ إلى الأمدِ المعلومِ، أمّا هدايتُه تعالى فهي ممَّا يَتكررُ كلَّ حينٍ وأَوانٍ؛ سواءٌ كان ذلك هدايةً في المنافعِ الدُّنيويَّةِ، أو في المنافعِ الدِّينيَّةِ، فبَيَّنَ بذلك أنَّه سُبحانَه هو الذي خَلَقَه بسائرِ ما تكاملَ به خلْقُه في الماضي دَفْعةً واحدةً؛ وأنَّه يَهديه إلى مصالحِ الدِّينِ والدُّنيا بضُروبِ الهداياتِ في كلِّ لحظةٍ ولمحةٍ[2].

- ولَمَّا كان الخَلقُ لا يُمْكِنُ أنْ يَدَّعِيَه أحدٌ لم يُؤَكِّدْ فيه بـ(هو)، فلمْ يَكُنِ التَّركيبُ (الَّذي هو خَلَقني)، ولمَّا كانت الهدايةُ قد يُمكِنُ ادِّعاؤُها -والإطعامُ والسَّقْيُ كذلك- أكَّد بـ﴿هُوَ﴾[3].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ﴾ مُبتدَأٌ مَحذوفُ الخبرِ؛ لدَلالةِ ما قبْلَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٢).

وقصرُ القلبِ: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٥).

عليه، وكذا اللَّذانِ بعْدَه. وهذا على الوَجهِ بأنَّ قولَه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى﴾ مُبتدَأٌ[١].

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبرِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾، وقَولِه: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؛ للرَّدِّ على زعْمِهم أنَّ الأصنامَ تُقدِّرُ لهم تَيسيرَ ما يَأكُلونَ وما يَشرَبونَ، وبها بُرْؤُهم إذا مَرِضوا[٢].

١١- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ عطْفٌ على ﴿يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾؛ لأنَّه مِن رَوادِفِهما، مِن حَيثُ إنَّ الصِّحَّةَ والمرضَ في الأغلَبِ يَتْبَعانِ المَأكولَ والمَشروبَ[٣].

- وقيل: عَطَف ﴿إذا مَرِضْتُ﴾ على ﴿يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾؛ لأنَّه لم يَكُنْ حينَ قال ذلك مريضًا، فإنَّ (إذا) تُخلِّصُ الفِعلَ بعْدَها للمُستقبَلِ، أي: إذا طَرأَ علَيَّ مرَضٌ. فأمَّا قَولُه: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ فلمْ يَأتِ فيه بما يَقتَضي الحَصرَ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يَزْعُمون أنَّ الأصنامَ تُميتُ، بل عمَلُ الأصنامِ قاصِرٌ على الإعانةِ أوِ الإعاقةِ في أعمالِ النَّاسِ في حياتِهم[٤].

- ولم يَنسبِ المرضَ إليه تعالى؛ لأنَّ المقصودَ تَعديدُ النِّعَم، ولا يُنتقَضُ بإسنادِ الإماتةِ إليه؛ فإنَّ الموتَ مِن حيثُ إنَّه لا يُحَسُّ به لا ضَرَرَ فيه، وإنَّما الضَّررُ في مُقدِّماتِه وهي المرضُ، ثمَّ إنَّه لأهلِ الكمالِ وُصْلةٌ إلى نَيلِ المَحابِّ الَّتي تُستحقَرُ دُونَها الحياةُ الدُّنيويَّةُ، وخَلاصٌ مِن أنواعِ المِحَنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٣).

والبَلِيَّاتِ؛ ولأنَّ المرضَ في غالبِ الأمرِ إنَّما يَحدُثُ بتَفريطٍ مِنَ الإنسانِ في مَطاعِمِه ومَشارِبِه، وغَيرِ ذلك. ولذا قال: ﴿مَرِضْتُ﴾ دُونَ: (أَمرَضَني)[1].

وقيل: يُفرَّقُ بينَ نِسبةِ المَوتِ ونِسبةُ المرضِ في مُقتَضى الأدبِ: بأنَّ المَوتَ قد عُلِم واشتهرَ أنَّه قَضاءٌ مَحتومٌ مِنَ اللهِ تعالى على سائرِ البشرِ، وحُكْمٌ عامٌّ لا يُخَصُّ، ولا كذلك المرَضُ؛ فكمْ مِن مُعافى منه قد بَغَتَه الموتُ؛ فالتَّأسِّي بعُمومِ المَوتِ لعلَّه يُسقِطُ أثَرَ كَونِه بَلاءً؛ فيَسوغُ في الأدبِ نِسْبَتُه إلى اللهِ تعالى. وأمَّا المرضُ فلمَّا كان ممَّا يُخَصُّ به بعضُ البشرِ دُونَ بعضٍ، كان بَلاءً مُحقَّقًا؛ فاقتَضى العُلُوُّ في الأدبِ مع اللهِ تعالى أن يَنسبَه الإنسانُ إلى نفْسِه باعتِبارِ ذلك السَّببِ الَّذي لا يَخْلو منه، ويؤيِّدُ ذلك: أنَّ كلَّ ما ذَكَره مع المرضِ أَخبَرَ عن وُقوعِه بَتًّا وجَزْمًا؛ لأنَّه أمْرٌ لا بدَّ منه، وأمَّا المرضُ فلمَّا كان قد يَتَّفِقُ وقد لا، أورَدَه مَقرونًا بشرط (إذا)، فقال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ﴾، وكان مُمكِنًا أن يقولَ: والَّذي يُمْرِضُني فيَشفِيني، كما قال في غَيرِه، فما عَدَل عنِ المُطابَقةِ المُجانِسةِ المَأثورةِ إلَّا لذلك[2].

- ولَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ واردًا على الاستِدراجِ، وإرخاءِ العِنانِ؛ جاءَ قَولُه: ﴿إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَخلُّصًا منه إلى التَّمكُّنِ مِن إجراءِ الأوصافِ الَّتي يُصحِّحُ بها معنَى الإلهيَّةِ مِن كَونِه خالقًا رازقًا، مُحْيِيًا ومُمِيتًا، مُعاقِبًا ومُثِيبًا؛ تربيةً لمعنَى النُّصحِ والاستِدراجِ، وبَعْثًا على التَّفكُّرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٧٤).

والتَّدبُّرِ، وأمَّا ذِكرُ المرضِ والشِّفاءِ في قولِه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾؛ فكالمُتابِعِ لمعنَى الإطعامِ والسَّقي؛ ولذلك تُرِك فيهما المَوصولُ إلى الشَّرطِ والجَزاءِ، فرُوعيَتْ فيهما تلك النُّكتةُ[1].

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ فيه مُراعاةُ حروفِ العَطفِ؛ فقد قال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[الشعراء: ٧٩ - ٨١]، فالأوَّلُ عطَفَه بالواوِ الَّتي هي لمُطْلَقِ الجَمعِ، وتقديمُ الإطعامِ على الإسقاءِ، والإسقاءِ على الإطعامِ جائزٌ لولا مُراعاةُ حُسنِ النَّظمِ. ثمَّ عَطَفَ الثَّاني بالفاءِ؛ لأنَّ الشِّفاءَ يعقبُ المرضَ بلا زَمانٍ خالٍ مِن أحدِهما. ثمَّ عَطَفَ الثَّالثَ بـ(ثُمَّ)؛ لأنَّ الإحياءَ يَكونُ بعدَ المَوتِ بزمانٍ؛ ولهذا جِيءَ في عطْفِه بـ(ثُمَّ) الَّتي هي للتَّراخي[2].

- وحُذِفَتْ ياءاتُ المُتكلِّمِ مِن (يَهْدِين، ويَسْقِين، ويَشْفِين، ويُحْيِين)؛ لأجْلِ التَّخفيفِ، ورِعايةِ الفاصِلةِ؛ لأنَّها يُوقَفُ عليها، وفواصِلُ هذه السُّورةِ أكثَرُها بالنُّونِ السَّاكنةِ[3].

- وفي هذِه الآياتِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أدْخَلَ (هُوَ) في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾، وقَولِه: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، بخِلافِ قَولِه: ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى﴾ منها، فلم يَقُلْ: (والَّذي هو يُميتُني)، كما قال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى﴾؛ ووَجهُ ذلك: أنَّه لو جاء: (والَّذي يُطْعِمُني ويَسْقِين، وإذا مرِضْتُ يَشْفِين)، لَكان مَعلومًا أنَّ مُرادَه اللهُ تعالى، وذِكرُ (هو) تَوكيدًا لمعنَى الكلامِ، وتَخصيصِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٤).

الفِعلِ به دُونَ غَيرِه، واحتاجَ ذِكرُ الإطعامِ والشِّفاءِ إلى هذا التَّوكيدِ؛ لأنَّهما ممَّا يَدَّعي الخَلْقُ فِعلَه، فيُقالُ: فُلانٌ يُطعِمُ فُلانًا، والطَّبيبُ يُداوي ويُسبِّبُ الشِّفاءَ؛ فكانت إضافةُ هذَينِ الفِعلَينِ إلى اللهِ تعالى مُحتاجةً إلى لفظِ التَّوكيدِ بخلافِ المَوتِ والحياةِ؛ لأنَّ أحدًا لا يَدَّعي فِعْلَهما كما يَدَّعي الأَوَّلَينِ؛ فافترَقَا لهذا الشَّأنِ[١].

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ هذا الكلامُ خبرٌ يَتضمَّنُ تَعريضًا بالدُّعاءِ[٢].

- وفيه تَكريرُ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ في المَواقعِ الثَّلاثةِ مع كِفايةِ عَطْفِ ما وَقَع في حَيِّزِ الصِّلةِ مِنَ الجُمَلِ السِّتِّ على صِلَةِ المَوصولِ الأوَّلِ؛ للاهتِمامِ، وللإيذانِ بأنَّ كلَّ واحدةٍ مِن تِلكَ الصِّلاتِ نَعتٌ جليلٌ له تعالى، مُستقِلٌّ في استِيجابِ الحُكمِ، حقيقٌ بأنْ تَجريَ عليه تعالى بحِيالِها، ولا تُجعلَ مِن رَوادِفِ غَيرِها[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ عَلَّقَ مَغفرةَ الخطيئةِ بيَومِ الدِّينِ، وإنَّما تُغفَرُ في الدُّنيا؛ لأنَّه اليَومُ الَّذي يَظهَرُ فيه أثَرُ العَفوِ، وهو الآنَ خَفِيٌّ لا يُعْلَمُ[٤]؛ ولأنَّ في ذلك تَهويلًا له، وإشارةً إلى وُقوعِ الجزاءِ فيه إنْ لم تُغفَرْ[٥].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ٩٦٧، ٩٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٠).

١٤- قولُه تعالى: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾

- لَمَّا كان آخِرُ مَقالِه في الدَّعوةِ إلى الدِّينِ الحَقِّ مُتضمِّنًا دُعاءً بطَلبِ المغفرةِ؛ تَخلَّصَ منه إلى الدُّعاءِ بما فيه جَمْعُ الكمالِ النَّفْسانيِّ بالرِّسالةِ، وتبليغِ دَعوةِ الخَلقِ إلى اللهِ؛ فإنَّ الحُجَّةَ التي قامَ بها في قومِه بوحيٍ مِن اللهِ؛ فكان حينَئذٍ في حالِ قُربٍ مِن اللهِ، وجَهَر بذلك في ذلك الجَمعِ؛ لأنَّه عَقِبَ الانتِهاءِ مِن أَقدَسِ واجبٍ وهو الدَّعوةُ إلى الدِّينِ؛ فهو ابتِهالٌ أَرْجى للقَبولِ. ونَظيرُ ذلك دُعاؤُه عِندَ الانتِهاءِ مِن بِناءِ أساسِ الكعبةِ المَحْكيِّ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ إلى قَولِه: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ إلى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1] [البقرة: ١٢٧ - ١٢٩].

- ولفظُ ﴿الصَّالِحِينَ﴾ يَعُمُّ جميعَ الصَّالِحينَ مِنَ الأنبياءِ والمُرسَلينَ؛ فيَكونُ قد سأل بُلوغَ دَرَجاتِ الرُّسُلِ أُولي العَزمِ نُوحٍ وهُودٍ وصَالحٍ والشُّهداءِ والصَّالِحينَ، فجَعَل الصَّالِحينَ آخِرًا؛ لأنَّه يَعُمُّ؛ فكان تَذْييلًا[2].

١٥- قولُه تعالى: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ إضافةُ ﴿لِسَانَ﴾ إلى ﴿صِدْقٍ﴾ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ؛ ففيه مُبالَغةُ الوَصفِ بالمصدرِ، أي: لِسانًا صادِقًا. و(الصِّدقُ) هنا كِنايةٌ عنِ المَحبوبِ المَرغوبِ فيه؛ لأنَّه يُرغَبُ في تَحقُّقِه ووُقوعِه في نفْسِ الأمرِ[3].

١٦- قولُه تعالى: ﴿وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ سَأل المَغفرةَ لأبيه قبْلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٤، ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٤٦).

سؤالِ ألَّا يُخزيَه اللهُ يومَ القِيامةِ؛ لأنَّه أرادَ ألَّا يَلحَقَه يومَئذٍ شَيءٌ يَنكسِرُ منه خاطِرُه، وقد اجتَهَد في العملِ المُبلِّغِ لذلك، واستَعانَ اللهَ على ذلك، وما بَقِيَتْ له حَزازةٌ إلَّا حَزازةُ كُفْرِ أبيه، فسَألَ المغفرةَ له؛ لأنَّه إذا جِيءَ بأبيه مع الضَّالِّينَ لَحِقَه انكسارٌ، ولو كان قد استُجيبَ له بقيَّةُ دَعَواتِه؛ فكان هذا آخِرَ شَيءٍ تَخوَّفَ منه لَحاقَ مَهانةٍ نفْسيَّةٍ مِن جِهةِ أصْلِه لا مِن جهةِ ذاتِه(١).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ تَعليلٌ لطلَبِ المغفرةِ لأبيه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه سألَ له مَغفرةً خاصَّةً، وهي مغفرةُ أَكبَرِ الذُّنوبِ، أي: الإشراكِ باللهِ، وهو سؤالٌ اقتضاهُ مَقامُ الخُلَّةِ، وقد كان أبوه حيًّا حينَئذٍ. ولعلَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ عَلِمَ مِن حالِ أبيه أنَّه لا يُرجَى إيمانُه بما جاء به ابنُه، أو أنَّ اللهَ أوْحَى إليه بذلك. ويجوزُ أنَّه لم يَتقرَّرْ في شَرْعِ إبراهيمَ حينَئذٍ حِرمانُ المشركينَ مِن المغفرةِ؛ فيكون ذلك مِن معنى قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُ﴾ [التوبة: ١١٤]. ويجوزُ أنْ يكونَ طلبُ الغُفرانِ له كِنايةً عن سَببِ الغُفرانِ، وهو هِدايتُه إلى الإيمانِ(٢).

١٧- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ فيه إضمارٌ قبْلَ الذِّكرِ -حيثُ لم يُذْكَرِ المَبعُوثونَ قبْلُ-؛ لِما في عُمومِ البَعثِ مِنَ الشُّهرةِ الفاشيةِ المُغْنِيةِ عنه(٣).

١٨- قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ...﴾ على القولِ بأنَّه مِن كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فيَكونُ بدَلًا مِن ﴿يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾؛ جِيءَ به تَأكيدًا للتَّهويلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٥٠).

وتَمهيدًا لِما يَعقُبُه مِنَ الاستِثناءِ، وهو مِن أَعَمِّ المَفاعيلِ، وقُصِد به إظهارُ أنَّ الالتِجاءَ في ذلك اليَومِ إلى اللهِ وحْدَه، ولا عَوْنَ فيه بما اعتادَه النَّاسُ في الدُّنيا مِن أسبابِ الدَّفعِ عن أنفُسِهم. وقيل: إنَّ الآياتِ الَّتي أوَّلُها: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢] مُنقطِعةٌ عن كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وهي إخبارٌ مِنَ اللهِ تعالى صِفةً لليَومِ الَّذي وقَفَ إبراهيمُ عِندَه في دُعائِه ألَّا يُخزَى فيه؛ فيَكونُ: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾ استِئنافًا خبرًا لمُبتدأٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: هو يومٌ لا يَنفَعُ مالٌ ولا بَنونَ. ويَظهَرُ على هذا الوجهِ أن يَكونَ المُرادُ بـ﴿مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الإشارةَ إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وصَفَه بمِثلِ هذا في آيةِ سورةِ (الصَّافَّاتِ)، في قَولِه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾، أي: شِيعةِ نُوحٍ ﴿لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1] [الصافات: ٨٣، ٨٤].

- والاقتِصارُ على المالِ والبَنِينَ في نَفْيِ النَّافِعِينَ جرَى على غالبِ أحوالِ القَبائلِ في دِفاعِ أحدٍ عن نفْسِه بأنْ يُدافعَ إمَّا بفِدْيةٍ وإما بنَجْدةٍ (وهي النَّصرُ)؛ فالمالُ وسيلةُ الفِديةِ، والبَنونَ أحَقُّ مَن يَنصُرونَ أباهُم، واقتَضى ذلك أنَّ انتِفاءَ نَفْعِ ما عدَا المالَ والبَنِينَ مِن وسائلِ الدِّفاعِ حاصِلٌ بالأَوْلى؛ بحُكمِ دَلالةِ الاقتِضاءِ[2] المُستنِدةِ إلى العُرْفِ؛ فالكلامُ مِن قَبيلِ الاكتِفاءِ[3].

- وحُذِف مَفعولُ ﴿يَنفَعُ﴾؛ لقَصدِ العُمومِ، كحَذفِه في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] أي: يَدْعو كلَّ أحَدٍ؛ فتَحصَّلَ أنَّ التَّقديرَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٧).

(٢) دلالةُ الاقتِضاءِ: هي دَلالةُ اللفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٨).

يَومَ لا يَنفَعُ أحدًا شيءٌ يَأتي به للدَّفعِ عن نفْسِه[١].

١٩- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

- السَّليمُ هو السَّالمُ، وجاء على هذا المثالِ لأنَّه للصِّفاتِ، كالطويلِ والقصيرِ والظريفِ، فالسليمُ: القلبُ الذي قد صارتِ السَّلامةُ صفةً ثابتةً له، كالعليمِ والقديرِ، وأيضًا فإنَّه ضدُّ المريضِ والسَّقيمِ والعليلِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا ...﴾ إلى قولِه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قابَلَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ في دُعائِه النِّعَمَ الخَمسَ الَّتي أَنعَمَ اللهُ بها عليه المَذكورةَ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٢] الرَّاجِعةَ إلى مَواهِبَ حِسِّيَّةٍ، بسُؤالِ خَمسِ نِعَمٍ راجعةٍ إلى الكَمالِ النَّفْسانيِّ، كما أَوْمأَ إليه قَولُه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]، وأَقحَمَ بيْن طلَباتِه سُؤالَه المَغفرةَ لأبيهِ؛ لأنَّ ذلك داخِلٌ في قَولِه: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[٣] [الشعراء: ٨٧].

- وفي الآياتِ مِن قَولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٩] أنواعٌ شَتَّى من البَلاغةِ:

منها: حُسْنُ النَّسَقِ[٤]؛ فإنَّه قَدَّم الخَلْقَ الَّذي يَجِبُ تقديمُ الاعتِدادِ به مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٥).

(٤) حُسنُ النَّسَق: هو عبارةٌ عن أن يأتيَ المتكلِّمُ بالكلِماتِ مِن النثرِ والأبياتِ مِن الشِّعرِ مُتتالياتٍ مُتلاحِماتٍ تلاحُمًا سليمًا مستحسَنًا، لا مَعيبًا مستهجنًا، وأن تكونَ كلُّ واحدةٍ منها قابلةً لأنْ تَستقِلَّ بنفْسِها لو أُفرِدَتْ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٦٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٦٢).

الخالقِ على المَخلوقِ، واعترافِ المَخلوقِ بنِعمتِه؛ فإنَّه أوَّلُ نعمةٍ، وفي إقرارِ المخلوقِ بنِعمةِ الإيجادِ مِنَ العدَمِ إقرارُه بقُدرةِ الخالقِ على الإيجادِ والاختراعِ وحِكمتِه، ثمَّ ثَنَّى بنِعمةِ الهِدايةِ الَّتي هي أَوْلى بالتَّقديمِ بعْدَ نِعمةِ الإيجادِ مِن سائرِ النِّعَمِ، ثمَّ ثلَّثَ بالإطعامِ والإسقاءِ اللَّذَينِ هُمَا مادَّةُ الحياةِ، وبهما مِنَ اللهِ استِمرارُ البقاءِ إلى الأجَلِ المَحْتومِ، وذَكَر المرضَ وأسنَدَه إلى نفْسِه؛ أدبًا مع ربِّه، ثمَّ أَعقَبَ ذِكرَ المرضِ بذِكرِ الشِّفاءِ مُسنِدًا ذلك الى ربِّه، ثمَّ ذَكَر الإماتةَ مُسنِدًا فِعلَها الى ربِّه؛ لتَكميلِ المدحِ بالقُدرةِ المُطْلَقةِ على كلِّ شيءٍ مِنَ الإيجادِ والإعدامِ، ثمَّ أَردَفَ ذِكرَ المَوتِ بذِكرِ الإحياءِ بعدَ الموتِ، وفيه -مع الإقرارِ بهذه النِّعمةِ، والاعترافِ بالقُدرةِ- الإيمانُ بالبعثِ، وكلُّ هذه المعاني جُمَلُ ألفاظِها مَعطوفٌ بعضُها على بعضٍ بحُروفٍ مُلائِمةٍ لمعاني الجُمَلِ المَعطوفةِ.

ومنها: صِحَّةُ التَّقسيمِ[1]؛ فقد استَوعبَتْ هذه الآياتُ أقسامَ النِّعَمِ الدُّنْيَويَّةِ والأُخْرَويَّةِ؛ مِنَ الخَلْقِ والهِدايةِ، والإطعامِ والإسقاءِ، والمرضِ والشِّفاءِ، والموتِ والحياةِ، والإيمانِ بالبعثِ، وغُفرانِ الذَّنبِ[2].

---

(١) صِحَّةُ التَّقسيمِ: وهو أنْ يَستوعِبَ الكلامُ جميعَ أقسامِ المعنى الذي أخَذ المتكلِّمُ فيه. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٥٥، ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩١، ٩٢).

## الآيات (٩٠-١٠٤)

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾: أي: قُرِّبَت وأُدنِيَت، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على اندِفاعٍ وتقَدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿ وَبُرِّزَتِ ﴾: أي: أُظهِرَت وكُشِفَت، والبَرازُ: الفَضاءُ، وأصلُ (برز): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ[2].

﴿ ٱلْجَحِيمُ ﴾: أي: النارُ، والجُحْمةُ: شِدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، والجاحِمُ: المكانُ الشديدُ الحرِّ، وبذلك سُمِّيت الجحيمُ، وأصلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[3].

﴿ لِلْغَاوِينَ ﴾: أي: للضَّالِّينَ والكافِرين، والغَيُّ: جَهلٌ مِن اعتقادٍ فاسِدٍ، والانهماكُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((مجمل اللغة)) لابن فارس (ص: ١٧٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٨٧).

في الباطلِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ[١].

﴿ فَكُبْكِبُواْ ﴾: أي: جُمِعوا وطُرِحوا، والكَبْكَبةُ: تَدَهْورُ الشَّيءِ في هُوَّةٍ، وأصلُ الكبِّ: إسقاطُ الشَّيءِ على وجْهِه[٢].

﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾: أي: يختَلِفون ويَتنازَعون، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على مُنازَعةٍ[٣].

﴿ شَٰفِعِينَ ﴾: الشَّفاعَةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ: إذا جاء مُلتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعِينًا له؛ فأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه[٤].

﴿ حَمِيمٍ ﴾: أي: قَريبٍ مُشفِقٍ، وهو أخصُّ مِن الصَّديقِ، وحميمُ الرَّجُلِ: خاصَّتُه، مِنْ (حَمَّ): إذا دنا وقَرُبَ، وأصلُ (حمم) هنا: الدنوُّ والحضورُ[٥].

﴿ كَرَّةً ﴾: أي: رَجعةً إلى الدُّنيا، مِنَ الكَرِّ: وهو الرُّجوعُ[٦].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا مَشهدًا مِن مَشاهدِ يومِ القيامةِ: وقُرِّبتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للمُتَّقينَ، وأُظهِرَت النَّارُ للضالِّين عن الحَقِّ، وقيل لهم: أين ما كنتُم تَعبُدون في

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧، ٥٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٥) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٥).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

الدُّنيا مِن دونِ الله تعالى، هل يَدفَعون عنكم أو عن أنفُسِهم عذابَ اللهِ؟!

فطُرِحوا في جهنَّمَ جَميعًا: المعبودون، والعابِدون، وأتباعُ إبليسَ. وقال العابِدون لمَعبوديهم في النَّارِ وهم يختَصِمون: واللهِ قد كنَّا في الدُّنيا في ضَلالٍ واضِحٍ عن الحَقِّ حينَ سوَّيْناكم برَبِّ العالَمينَ فعَبَدْناكم، وما أغْوانا عن الهُدى إلَّا الضَّالُّون، فما لنا مِن شُفَعاءَ يَشفَعون لنا، ولا صديقٍ خالصِ الوُدِّ، فلو أنَّ لنا رُجوعًا إلى الدُّنيا فنُؤمِنَ بالله! إنَّ في ذلك لَعِظةً وعِبرةً، وما كان أكثَرُهم مؤمِنين، وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

أي: وقُرِّبتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للذين اتَّقَوا عذابَ اللهِ في الدُّنيا؛ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق: ٣١].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾ [التكوير: ١٣].

﴿ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥١).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ أي: قُرِّبت وأُدنِيتْ ليَدخُلوها). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٥).

وقال ابن عاشور: (والمعنى: أنَّ المتَّقينَ يجِدون الجنَّةَ حاضِرةً، فلا يَتجشَّمون مشقَّةَ السَّوقِ إليها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥١).

وقال الزجاج: (وقوله: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ معناه قُرِّبَتْ، وتأويلُه أنَّه قرُبَ دُخولُهم إيَّاها، ونظَرُهم إليها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٩٤).

أي: وأُظهِرَت النَّارُ يومَ القيامةِ للذين ضَلُّوا في الدُّنيا عن الحَقِّ[١].

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴾.

أي: وقيل للغاوينَ توبيخًا لهم: أين مَعبوداتُكم التي كنتُم تعبُدونَها في الدُّنيا مِن دونِ اللهِ، وتزعُمونَ أنَّها تنفَعُكم وتشفَعُ لكم[٢]؟!

﴿ ... هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

أي: هل تُنقِذُكم مَعبوداتُكم مِن عذابِ اللهِ، أو تُنقِذُ أنفُسَها منه[٣]؟!

﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

أي: فطُرِح في جهنَّمَ المعبودونَ وعابِدوهم بعضُهم على بعضٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قال القرطبي: (أي: تظهَرُ جهنَّمُ لأهلِها قبْلَ أن يَدخُلوها حتى يَستشعِروا الرَّوعَ والحَزنَ، كما يستشعِرُ أهلُ الجنَّةِ الفَرَحَ لِعلمِهم أنَّهم يَدخلونَ الجنَّةَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٧، ٥٩٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢).

قال ابن عاشور: (قال: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا ﴾، أي: كُبْكِبت الأصنامُ في جهنَّمَ. ومعنى ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ ﴾: كُبُّوا فيها كَبًّا بعدَ كَبٍّ، فإنَّ «كُبكِبوا» مُضاعَفُ «كُبُّوا» بالتكريرِ، وتكريرُ اللَّفظِ مفيدٌ تكريرَ المعنى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢).

وقال ابنُ عثيمينَ: (قولُه: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ ﴾ بمعنى: أُلقُوا، ولكِنَّ هذا التَّكرارَ يدُلُّ على معنًى أدَقَّ =

قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩].

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: وطُرِحَ في جهنَّمَ جَميعُ مَن كانوا أعوانًا وأتباعًا لإبليسَ في الدُّنيا مِن الإنسِ والجِنِّ[١].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

أي: قال أهلُ النَّارِ لِمَعبوداتِهم وهم في النَّارِ يتخاصَمونَ، ويجادِلُ بعضُهم بعضًا[٢].

---

= مِن الإلقاءِ فقط، يعني: كأنهم يُكَبُّون فيها على وجوهِهم، وأيضًا بدون ترتيبٍ، وبدونِ نظام، كأنَّما يُحْثَون حَثْيًا -والعياذُ بالله- ويُلقَوْن!). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢).

قال ابن عثيمين: (ولكِنْ قَولُه: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ هذا، هل هو مِن بابِ عطفِ المتغايرينِ، وأنَّ الغاويَ ليس مِن جنودِ إبليسَ، أم أنَّه مِن بابِ عَطفِ المترادِفَين؟

نقولُ: الأصلُ في العطفِ التغايرُ، والظاهِرُ أنَّ الغاويَ هو الفاسِدُ في نفْسِه، وأنَّ جنودَ إبليسَ على اسمِهم جنودٌ يَنصُرونَه ويَدْعون لِما يَدْعو إليه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٢)، ((تفسير =

﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ ﴾.

أي: واللهِ إنَّنا كُنَّا في الدُّنيا في ذَهابٍ واضحٍ عن الحَقِّ[1].

﴿ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

أي: حينَ سوَّيْناكم برَبِّ العالَمينَ، فعَبدْناكم وأطَعْناكم كما يُعبَدُ اللهُ ويُطاعُ[2].

﴿ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾.

أي: وما صرَفَنا وأغْوانَا عن الحَقِّ إلَّا الضالُّونَ[3].

---

= السمعاني)) (٤/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦٤).

قال ابن جرير: (يقول تعالى ذِكرُه: قال هؤلاء الغاوونَ والأندادُ التي كانوا يعبدونَها مِن دُونِ الله، وجنودُ إبليسَ، وهم في الجحيم يختَصِمون). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٣، ١٥٤).

قال ابنُ القيم: (مِن المعلوم أنَّهم إنَّما سَوَّوْهم به سبحانَه في الحُبِّ والتألُّه والعبادةِ، وإلَّا فلمْ يقُلْ أحَدٌ قَطُّ: إنَّ الصَّنمَ أو غيرَه مِن الأندادِ مساوٍ لربِّ العالَمينَ في صفاتِه وفي أفعالِه، وفي خلقِ السَّمواتِ والأرض، وفي خَلقِ عبادِه أيضًا! وإنَّما كانت التسويةُ في المحبَّةِ والعبادةِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٤٤٩). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٤).

قال ابنُ عثيمين بعدَ أن ذكَر المعنيَينِ المحتملينِ للآيةِ: أنَّ المرادَ بالمجرمينَ: الشياطينُ، أو الأوَّلونَ الذين اقتَدَوا بهم، قال: (لا يَبعُدُ أن يُرادَ بالآياتِ المعنيانِ جميعًا؛ فإنَّهم ضَلُّوا بأمْرين: الأوَّل: بمَن يَدْعونهم -وهم أحياءٌ- إلى الضَّلالِ. =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

أي: فما لنا مِن شُفَعاءَ يَشفَعونَ لنا عندَ اللهِ؛ لِيَعفوَ عنَّا، ويُخرِجَنا مِنَ النَّارِ[1]!

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

أي: ولا صديقٍ، مُشفِقٍ، صادِقٍ في وُدِّه[2].

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

أي: فلو أنَّ لنا رَجعةً إلى الدُّنيا فنُؤمِنَ بالله ونعمَلَ بطاعتِه، فنَسلَمَ مِن عقابِ

---

= والثاني: بمَن يقلِّدونهم، وهؤلاء مِن الأمواتِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٠)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

قال البقاعي: (ولَمَّا كان الصَّديقُ قد لا يكونُ أهلًا لأنْ يَشفَعَ، قالوا تأسُّفًا على أقَلِّ ما يمكِنُ: ﴿وَلَا صَدِيقٍ﴾ أي: يَصدُقُ في وُدِّنا؛ ليفعَلَ ما ينفَعُنا، ولَمَّا كان أصدَقَ الصَّداقةِ ما كان مِن القريبِ، قال: ﴿حَمِيمٍ﴾ أي: قريبٍ، وأصلُه المُصافي الذي يُحرِقُه ما يُحرِقُك). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٥٩).

وقال السعدي: (﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي: قريبٍ مُصافٍ ينفَعُنا بأدنى نفعٍ، كما جرَتِ العادةُ بذلك في الدُّنيا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٣).

الآخرةِ، ونَستحِقَّ ثوابَها[١]!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

أي: إنَّ في ذلك المذكورِ مِن قِصَّةِ إبراهيمَ وقَومِه لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً واضِحةً على توحيدِ اللهِ وبُطلانِ الشِّركِ، وأنَّ اللهَ يعَذِّبُ يومَ القيامةِ مَن أشرَكَ به[٢].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثَرُهم[٣] مؤمنينَ بتوحيدِ اللهِ، مع وضوحِ المُعجِزاتِ، ونُزولِ الآياتِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

(٣) قيل: المرادُ بهم: قومُ إبراهيمَ. وهو ظاهرُ اختيارِ البيضاوي، والبقاعي، والقاسمي، وابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).
قال الرازي: (والأكثرونَ مِن المفسِّرينَ حمَلوه على قومِ إبراهيمَ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥١٩).
وقيل: المرادُ بهم: مَن كانوا في عهدِ محمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهم: قريشٌ ومَن دانَ بدينِهم. وممَّن قال بذلك: الشوكانيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ، المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه فلا يُعاجِلُهم بعذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعْدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجي أتْباعَ رُسُلِه[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ فَرَّقَ اللهُ سُبحانَه وتعالى بيْنَ التَّعبيرَينِ في إزلافِ الجنةِ وإظهارِ النارِ، وهو دليلٌ على أنَّ الرحمةَ سبقتِ الغضبَ؛ لأنَّ الجنةَ تُدنَى للمؤمنينَ، أمَّا أولئك فتَظْهَرُ لهم، فيَرَوْنها مِن بعيدٍ، ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]؛ لأجْلِ أنْ يكونوا في خَوفٍ وذُعْرٍ مِن قَبْلِ أنْ يَصِلوا إليها[2]. ففي اختلافِ الفِعلينِ ترجيحٌ لجانبِ الوعدِ على الوعيدِ؛ حيثُ قال في حقِّ المتَّقين: ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ أي: قُرِّبَت، وفي حقِّ الغاوين: ﴿وَبُرِّزَتِ﴾ أي: أُظهِرَت، ولا يلزَمُ مِن الظهورِ القُربُ[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ * وَقِيلَ لَهُمْ﴾ دليلٌ على التَّعذيبِ البدنيِّ والقلبيِّ لأصحابِ النارِ؛ البَدَني: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾، والقَلبي: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ﴾[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ أنَّ هذه الأصنامَ تُلْقَى في جهنَّمَ، كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦١).

في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، لكنْ إذا كان الذي يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ ممَّا كُلِّفَ، فإنْ رَضِيَ بعبادتِهم فهو معهم، وإنْ لم يَرضَ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أي: لا يَدخُلون النارَ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴾ إذا قيل: ما فائدةُ إدخالِ الأصنامِ النَّارَ معَ أنَّها لا تفهمُ؟

**فالجواب**: أنَّ في ذلك إهانةً لعابديها؛ ففيه مِن الإهانةِ، وبيانِ أنهَّا لا تنفَعُ ما هو ظاهِرٌ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ * وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴾ جنودُ إبليسَ هم الذين يَتَّبِعونه، ويُغوونَ الناسَ، فكلُّ مَن سعَى في إغواءِ الناسِ، والإفسادِ بيْنَهم، فهو مِن جنودُ إبليسَ، ومعلومٌ أنَّ جنودَ إبليسَ على عكسِ جنودِ الرحمنِ؛ فجنودُ الرحمنِ يَدْعُون إلى الخَيرِ، ويأمُرون بالمعروفِ، ويَنهَون عن المنكَرِ، وأولئك يَدْعُون إلى الشَّرِّ، ويأمُرون بالمنكَرِ، ويَنهَون عن المعروفِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن نَصَرَ أحدًا فهو مِن جُنودِه، ولو بالاتِّباعِ؛ فإنَّه يكونُ مِن جُندِه؛ ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ: ((المرءُ معَ مَن أَحَبَّ))[٣]، ومَن أحبَّ شخصًا أطاعَه واتَّبَعه، فمَنِ اتَّبَعَ الشيطانَ لم يكُنْ مِن أتْباعِه فحَسْبُ، بل مِن جنودِه المُناصرِين له؛ لِقَولِه: ﴿ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ ﴾؛ وذلك لأنَّ المُتَّبِعَ للشَّخصِ مُقَوٍّ له، وناصرٌ له، وناشرٌ لِمَا يريدُ، فيكون كالجُنديِّ المُسَخَّرِ له[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦١).

(٣) رواه البخاري (٦١٦٨)، ومسلم (٢٦٤٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص:١٦٢، ١٦٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ * تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ دليلٌ على نَدَمِ أهلِ النارِ ندمًا عظيمًا، حينَ قالوا وهم يختَصِمون -يُخاصِمُ بعضُهم بعضًا: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وهنا أَقسموا وأكَّدوا: ﴿تَٱللَّهِ﴾ قَسَمٌ، ﴿إِن كُنَّا﴾ إنْ مخففةٌ مِن الثقيلةِ، وتفيدُ التوكيدَ، واللامُ في ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ كذلك[١].

٧- في قَولِهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه نفيُ تشبيهِ المخلوقِ بالخالقِ، وأنَّ اللهَ تبارك وتعالى لا شَبيهَ له[٢]، فقد اعترَفوا أنَّهم كانوا فى أعظمِ الضلالِ وأبْيَنِه، إذْ جعَلوا للهِ شبهًا وعِدْلًا مِن خلْقِه، سوَّوْهم به فى العبادةِ والتعظيمِ[٣].

٨- في قَولِهم: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى بيانِ الضَّلالِ؛ إذ لا يمكنُ التسويةُ بيْنَ مَن هذا وصْفُه «ربُّ العالَمينَ» وبيْنَ مَن لم يَستحِقَّ مِن هذا الوَصفِ شيئًا، وهذه الأصنامُ لا تستحِقُّ وصفًا مِن الرُّبوبيَّةِ إطلاقًا، فضلًا عنِ الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ لجَميعِ العالَمينَ[٤].

٩- قال بعضُ العُلَماءُ: (في سورةِ الشُّعراءِ ثلاثُ آياتٍ مُتواليات رَدٌّ على ثلاثِ فِرَقٍ: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ردٌّ على المشَبِّهةِ[٥]، ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٨، ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٦٨).

(٥) المشبهةُ: هُمُ الذين يُشَبِّهونَ الخالِقَ سبحانَه بالمخلوقِ، وهم صنفانِ: صنفٌ شبَّهوا ذاتَ الباري بذاتِ غيرِه، وصنفٌ آخرونَ شبَّهوا صِفاتِه بصِفاتِ غيرِه! يُنظر: ((الفَرْق بين الفِرَق)) لعبد القاهر البغدادي (ص: ٢١٤)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٨٤).

ردٌّ على المُجبرةِ[١]، ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ ردٌّ على المُرجِئة)[٢].

١٠- قولُهم: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يُستفادُ منه سَبُّ هؤلاء بعضِهم بعضًا؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، فهذا قَدْحٌ فيهم مِن جهةِ أنَّهم أضَلُّوهم، ومِن جهةِ أنَّهم مُجرِمون[٣].

١١- قولُهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾ يُؤخَذُ منه انتفاءُ الشَّفاعةِ عن المكذِّبين للرُّسُلِ؛ وأنَّه لا يُشفَعُ لهم[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه يُشَفِّعُ غيرَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ قَومًا مِن المؤمنين بعضَهم في بعضٍ، وأنَّ الصَّديقَ يَشفَعُ لصديقِه[٥]، فالآيةُ فيها إثباتُ الشَّفاعةِ للمؤمنينَ، ويُؤخَذُ مِن قَولِهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ﴾، فنَفَوا أنْ يكونَ لهم شافِعون، ومفهومُ هذا أنَّ المؤمنينَ لهم شفاعةٌ، كأنَّهم لَمَّا رأَوْا أنَّ المؤمِنينَ يَشفعونَ بعضُهم لبعضٍ، قالوا: نحنُ ما لنا مِن شافِعين، ولا صديقٍ حَميمٍ[٦].

---

(١) المجبرةُ أو الجبريَّةُ أو القدريَّةُ المجبرةُ، وهم غلاةُ الجهميَّةِ الذين يقولون: إنَّ العبدَ مجبورٌ على أفعالِه، فلا فعلَ له، ولا اختيارَ! وهم أصنافٌ متعدِّدةٌ. يُنظر: ((المِلَل والنِّحَل)) للشَّهْرَسْتاني (١/ ٨٥، ٨٦)، ((اعتقادات فرق المسلمين والمشركين)) للرازي (ص: ٦٧)، ((الدرر السنية في الأجوبة النجدية)) (١/ ٤٩٠)، ((الدرة البهية)) للسعدي (ص: ٢٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ١٩٩).

والمرجئة: فرقةٌ كانت ترى تأخيرَ العمَلِ عن النيةِ والعَقدِ، ويقولون: لا تضرُّ مع الإيمانِ معصيةٌ، كما لا تنفَعُ مع الكفرِ طاعةٌ! يُنظر: ((الملل والنحل)) للشهرستاني (١/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٧٣).

١٣- قولُهم: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه دَليلٌ على النَّدَم البالغِ الذي يُصيبُ هؤلاء في ذلك اليومِ، وتمنِّيهم لو أنَّهم رجَعوا إلى الدنيا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهذا التمنِّي ليس بصحيحٍ؛ فإنَّهم لو رجعوا لَمَا كانوا مُؤمِنينَ، والدَّليلُ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾[1] [الأنعام: ٢٨].

١٤- في قَولِه تعالى إخبارًا عن أهلِ النَّارِ: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن يَخلُدُ في النارِ فبِكُفرِه لا بذَنْبِه؛ إذ لو خُلِّد بذَنبِه لقالوا -واللهُ أعلمُ: «فنكونَ مِن الصالحِينَ»، وهو ردٌّ على المعتزلةِ في بابِ الوَعيدِ[2].

١٥- قالوا: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ ولم يقولوا: (لَيْتَ)؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تذَلُّلٍ وخُضوعٍ، و (لو) للتمنِّي أقَلُّ مِن (ليت)؛ لأنَّ (ليت) صريحةُ الطَّلَبِ، و (لو) فيها نوعٌ مِن اللِّينِ والعَرْضِ، والمقامُ هنا يقتَضيه؛ لأنَّهم في مَقامِ ذُلٍّ -والعياذُ باللهِ- وخُضوعٍ، على أنَّه في سورةِ (الأنعامِ) يقولونَ: ﴿يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

فيُقال: الجَمعُ بيْنَهما أنَّ لهم حالاتٍ؛ فأحيانًا يقولونَ بهذا، وأحيانًا يقولونَ بهذا، والظَّاهِرُ أنَّ (ليت) هي الأُولى، يعني: كأنَّه يكونُ بالأوَّلِ بعَزمٍ على التمَنِّي، ثمَّ إذا لم يحصُلْ لهم رجَعوا إلى الخُضوعِ والخُنوعِ والعَرْضِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطْفٌ على ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٧٥، ١٧٦).

وصيغةُ الماضي فيه وفيما بعْدَه مِنَ الجُمَلِ المُنتظمةِ معه في سِلكِ العَطفِ: ﴿بُرِّزَتِ﴾ و﴿فَكُبْكِبُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِ الوُقوعِ وتَقرُّرِه، وإنْ كان لم يَقَعْ، كما أنَّ صيغةَ المُضارعِ في المَعطوفِ عليه؛ للدَّلالة على استِمرارِ انتِفاءِ النَّفعِ ودَوامِه حسَبَما يَقتَضيهِ مَقامُ التَّهويلِ والتَّفظيعِ(١).

- وقيل: الظَّاهرُ أنَّ الواوَ في قَولِه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ واوُ الحالِ، والعاملُ فيها: ﴿لَا يَنفَعُ مَالٌ﴾ [الشعراء: ٨٨]، أي: يومَ عدَمِ نَفْعِ مَن عَدَا مَن أتَى اللهَ بقلبٍ سليمٍ، وقد أُزلِفَتِ الجنَّةُ للمُتَّقينَ. والخروجُ إلى تَصويرِ هذه الأحوالِ شيءٌ اقتَضاهُ مَقامُ الدَّعوةِ إلى الإيمانِ بالرَّغبةِ والرَّهبةِ؛ لأنَّه ابتَدأَ الدَّعوةَ بإلقاءِ السُّؤالِ على قَومِه فيما يَعبُدونَ؛ إيقاظًا لبَصائرِهم، ثمَّ أعقَبَ ذلك بإبطالِ إلهيَّةِ أصنامِهم، والاستِدلالِ على عدَمِ استِئْهالِها الإلهيَّةَ بدليلِ التَّأمُّلِ، وهو أنَّها فاقدةٌ السَّمعَ والبَصرَ، وعاجزةٌ عنِ النَّفعِ والضُّرِّ، ثمَّ طالَ دليلَ التَّقليدِ الَّذي نَحا إليه قَومُه لَمَّا عَجَزوا عن تأييدِ دِينِهم بالنَّظرِ؛ فلمَّا نهَضَتِ الحُجَّةُ على بُطلانِ إلهيَّةِ أصنامِهم، انتَصَبَ لبيانِ الإلهِ الحقِّ رَبِّ العالَمينَ، الَّذي له صِفاتُ التَّصرُّفِ في الأجسامِ والأرواحِ، تَصرُّفَ المُنعِمِ المُتوحِّدِ بشَتَّى التَّصرُّفِ، إلى أنْ يأتيَ تَصرُّفُه بالإحياءِ المؤَبَّدِ، وأنَّه الَّذي نَطمَعُ في تَجاوُزِه عنه يَومَ البَعثِ، فلْيَعْلَموا أنَّهم إنِ استَغفَروا اللهَ عمَّا سَلَفَ مِنهم مِن كُفرٍ فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لهم، وأنَّهم إنْ لم يُقْلِعوا عنِ الشِّركِ لا يَنفَعُهم شيءٌ يَومَ البعثِ، ثمَّ صَوَّرَ لهم عاقبةَ حالَيِ التَّقوى والغَوايةِ، بذِكرِ دارِ جزاءِ الخَيرِ، ودارِ جزاءِ الشَّرِّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٠).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾

- لمَّا كان قومُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مُستمرِّينَ على الشِّركِ، ولم يكنْ يَومَئذٍ أحدٌ مؤْمِنًا غَيرُه وغَيرُ زَوجِه وغَيرُ لوطٍ ابنِ أخيهِ- كان المَقامُ بذِكرِ التَّرهيبِ أجْدَرَ؛ فلذلك أطنَبَ في وَصْفِ حالِ الضَّالِّينَ يَومَ البَعثِ، وسُوءِ مَصيرِهم، حيثُ يَندَمونَ على ما فَرَّطوا في الدُّنيا مِنَ الإيمانِ والطَّاعةِ، ويَتَمنَّوْنَ أن يَعودوا إلى الدُّنيا ليَتَدارَكوا الإيمانَ، ولاتَ ساعةَ مَندَمٍ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ...﴾ فيه ذِكرُ ما يُقالُ للغاوينَ؛ للإنحاءِ عليهم، وإظهارِ حَقارةِ أصنامِهم. وفي الاقتِصارِ على ذِكرِ هذا دُونَ غَيرِه ممَّا يُخاطَبونَ به يَومَئذٍ مُناسَبةٌ لمَقامِ طلَبِ الإقلاعِ عن عِبادةِ تلك الأصنامِ. وأُسنِدَ فِعلُ القَولِ إلى غَيرِ مَعلومٍ؛ لأنَّ الغرضَ تَعلَّقَ بمعرفةِ القَولِ لا بمعرفةِ القائلِ[٢].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ على سَبيلِ التَّوبيخِ[٣]. وقيل: الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ استِفهامٌ عن تَعيينِ مكانِ الأصنامِ إنْ لم تَكنْ حاضِرةً، أو عن عمَلِها إنْ كانت حاضرةً في ذلك المَوقفِ؛ تَنزيلًا لعدَمِ جَدْواها فيما كانوا يَأمُلونَه منها مَنزلةَ العدَمِ؛ تَهكُّمًا وتَوبيخًا وتَوقيفًا على الخَطأِ[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٠، ١٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥١).

- قولُه: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ سؤالُ تَقريعٍ وتَبكيتٍ، لا يُتوقَّعُ له جَوابٌ[١]؛ فالاستِفهامُ في قَولِه: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ﴾ فيه إنكارُ أنْ تَكونَ الأصنامُ نُصَراءَ[٢].

- وفي معنَى قَولِه: ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ التَّرقِّي والمُبالَغةُ، أي: كيفَ يُخلِّصونَكم مِن عذابِ النَّارِ؟! بل كيف يَقدِرونَ على خَلاصِ أنفُسِهم منها؟! فوُضِع ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ -وهو مِن انتَصَرَ منه، أي: انتَقَمَ- مَوضِعَ الاستِخلاصِ؛ مُبالغةً وتَهكُّمًا[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾

- قولُه: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ الكَبْكَبةُ: تَكريرُ الكَبِّ، جُعِل التَّكريرُ في اللَّفظِ دليلًا على التَّكريرِ في المعنى، كأنَّ مَن أُلقِيَ في النَّارِ يَنكَبُّ مرَّةً بعْدَ أُخرى حتَّى يَستقِرَّ في قَعرِها[٤].

- قولُه: ﴿هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ في تأخيرِ ذِكرِ الغاوينَ عن ذِكرِ آلهَتِهم: رَمزٌ إلى أنَّهم يُؤَخَّرون عنها في الكَبْكَبةِ؛ ليُشاهِدوا سُوءَ حالِها؛ فيَزْدادوا غَمًّا إلى غَمِّهم[٥].

- وضمائرُ ﴿يَنصُرُونَكُمْ... و: يَنتَصِرُونَ... و: فَكُبْكِبُوا۟﴾ عائدةٌ إلى ﴿مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾، بتَنزيلِها مَنزِلةَ العُقلاءِ[٦].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢).

- قولُه: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ تأكيدٌ للضَّميرِ وما عُطِفَ عليه[١]. وقيل: تأكيدٌ لـ ﴿وَجُنُودُ﴾ إنْ جُعِل مُبتدَأً خبرُه ما بعْدَه، أو للضَّميرِ وما عُطِف عليه، وكذا الضَّميرُ المُنفصِلُ وما يَعودُ إليه[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سؤالٍ نشأَ مِن حِكايةِ حالِهم، كأنَّه قيل: ماذا قالوا حينَ فُعِل بهم ما فُعِل؟ فقيل:...[٣]. ويَجوزُ أن يَكونَ هذا مِن حِكايةِ كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ أَطنَبَ به المَوعظةَ؛ لتَصويرِ هَوْلِ ذلك اليَومِ؛ فتكونَ الجُملةُ حالًا، أو تَكونَ مُستأنَفةً استِئنافًا بيانيًّا. ويجوزُ أن يكونَ حِكايةُ كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ انتهَتْ عِندَ قَولِه تعالى: ﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٥] أو عِندَ قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]، ويكونَ هذا الكلامُ مَوعظةً مِنَ الله للسَّامِعينَ مِنَ المُشركينَ، وتَعليمًا منه للمؤْمنينَ؛ فتكونَ الجملةُ استِئنافًا مُعترِضًا بيْنَ ذِكرِ القصَّةِ والَّتي بعْدَها، وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عن قَولِه: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ [الشعراء: ٩٤]؛ لأنَّ السَّامعَ بحيثُ يَسألُ عن فائدةِ إيقاعِ الأصنامِ في النَّارِ، مع أنَّها لا تَفْقَهُ ولا تُحِسُّ، فبُيِّنَ له ذلك[٤].

٨- قولُه تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿تَٱللَّهِ﴾ جِيءَ في القَسمِ بالتَّاءِ دُونَ الواوِ والباءِ؛ لأنَّ التَّاءَ تَختَصُّ بالقسَمِ في شيءٍ مُتعجَّبٍ منه؛ فهم يَعجَبونَ مِن ضلالِهم؛ إذ ناطوا آمالَهم المعونةَ والنَّصرَ بحجارةٍ لا تُغني عنهم شيئًا[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٢، ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٥٣).

- وفي قولِهم: ﴿إِنۡ كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ أفادُوا تَمكُّنَ الضَّلالِ منهم باجتِلابِ حرفِ الظَّرفيَّةِ (في) المُفيدِ لمعنَى المُلابَسةِ؛ لأنَّ المَظروفَ شديدُ المُلابَسةِ لظَرفِه، وأكَّدوا ذلك بوَصفِهمُ الضَّلالَ بـ (المُبينِ)، وفي هذا تَسفيهٌ منهم لأنفُسِهم؛ إذْ تَمشَّى عليها هذا الضَّلالُ الَّذي ما كان له أن يَروجَ على ذي مُسْكةٍ مِن عقلٍ[١].

- وأيضًا وصْفُهم للضَّلالِ بالوُضوحِ في قولِهم: ﴿لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ للإشباعِ في إظهارِ ندَمِهم وتَحسُّرِهم، وبيانِ عِظَمِ خَطَئِهم في رأيِهم، مع وُضوحِ الحقِّ، كما يُنْبِئُ عنه تَصديرُ قَسَمِهم بحرفِ التَّاءِ المُشعِرةِ بالتَّعجُّبِ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- عُبِّرَ بصِيغةِ المُضارعِ ﴿نُسَوِّيكُم﴾؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ الماضيةِ العجيبةِ حينَ يَتوجَّهون إلى الأصنامِ بالدُّعاءِ والنُّعوتِ الإلهيَّةِ[٣].

- والخِطابُ في ﴿نُسَوِّيكُم﴾ للأصنامِ على جِهةِ الإقرارِ، والاعترافِ بالحَقِّ، وللمُبالَغةِ في التَّحسُّرِ والنَّدامةِ؛ مِن تَوجيهِ المُتندِّمِ الخِطابَ إلى الشَّيءِ الَّذي لا يَعقِلُ، وكان سببًا في الأمرِ الَّذي جَرَّ إليه النَّدامةَ؛ بتَنزيلِه مَنزلةَ مَن يَعقِلُ ويَسمَعُ. والمقصودُ مِن ذلك: المُبالَغةُ في تَوبيخِ نفْسِه[٤].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ بَيانٌ لسببِ ضَلالِهم بعْدَ اعترافِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٤).

بصُدورِه عنهم[١].

- وفيه أَوْفَرُ نَصيبٍ مِنَ التَّعريضِ بالَّذينَ قالوا: ﴿قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾[٢] [الشعراء: ٧٤].

١١- قولُه تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ هذا الخبرُ مُستعمَلٌ في التَّحسُّرِ والتَّأسُّفِ والتَّوجُّعِ[٣].

- وقيل: جُمِع الشَّافعُ وأُفرِدَ الصَّديقُ؛ لكَثرةِ الشُّفعاءِ في العادةِ وقلَّةِ الصَّديقِ، أو لأنَّ الصَّديقَ الواحدَ يَسعى أَكثَرَ ممَّا يَسعى الشُّفعاءُ. ويَجوزُ أن يُريدَ بالصَّديقِ: الجَمعَ؛ إذْ يُقالُ: هُمْ صديقٌ، أي: أصدقاءُ؛ فأُطلِقَ (الصَّديق) على الجَمعِ كـ (العَدُوِّ)؛ لأنَّه في الأصلِ مَصدرٌ[٤]. وقيل: المُرادُ نَفْيُ جِنسِ الشَّفيعِ وجِنسِ الصَّديقِ؛ لوُقوعِ الاسمَينِ في سِياقِ النَّفيِ المؤكَّدِ بـ ﴿مِن﴾ الزَّائدةِ، وفي ذلك السِّياقِ يَستَوي المُفرَدُ والجَمعُ في الدَّلالةِ على الجِنسِ؛ وإنَّما خولِفَ بيْن اسمَيْ هذَينِ الجِنسَينِ في حِكايةِ كلامِهم -إذْ جِيءَ بـ ﴿شَٰفِعِينَ﴾ جَمْعًا، وبـ ﴿صَدِيقٍ﴾ مُفرَدًا-؛ لأنَّهم أَرادوا بالشَّافِعينَ: الآلِهةَ الباطلةَ، وكانوا يَعْهَدونَهم عَديدينَ؛ فجرَى على كلامِهم ما هو مُرتَسِمٌ في تَصوُّرِهم. وأمَّا الصَّديقُ فإنَّه مَفروضٌ جِنسُه دُونَ عددِ أفرادِه؛ إذْ لم يَعنُوا عددًا مُعَيَّنًا، فبَقيَ على أصلِ نَفيِ الجِنسِ، وعلى الأصلِ في الألفاظِ؛ إذْ لم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري-مع الحاشية)) (٣/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٤).

يَكُنْ داعٍ لغَيرِ الإفرادِ. والَّذي يَبْدو أنَّه أُوثِرَ جَمعُ ﴿شَٰفِعِينَ﴾؛ لأنَّه أَنسَبُ بصورةِ ما في أذهانِهم، وأمَّا إفرادُ ﴿صَدِيقٍ﴾؛ فلأنَّه أُريدَ أنْ يُجرَى عليه وصْفُ حَميم، فلو جِيءَ بالمَوصوفِ جَمْعًا لاقتَضى جمْعَ وصْفِه، وجَمْعُ حَميم فيه ثِقَلٌ لا يُناسِبُ منتهَى الفَصاحةِ، ولا يَليقُ بصورةِ الفاصِلةِ، مع ما حَصَلَ في ذلك مِنَ التَّفنُّنِ الَّذي هو مِن مَقاصِدِ البُلَغاءِ[١].

- وقولُهم: ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ تَتميمٌ[٢]، أثارَه ما يَلْقَونه مِن سوءِ المُعامَلةِ مِن كلِّ مَن يَمُرُّون به أو يَتَّصِلون، ومِنَ الحِرمانِ الَّذي يُعامِلُهم كلُّ مَن يَسألُونه الرِّفقَ بهم، حتَّى عَلِموا أنَّ جميعَ الخَلْقِ تَتبرَّأُ منهم[٣].

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فرَّعوا على هذا التَّحسُّرِ والنَّدامةِ تَمنِّي أنْ يُعادُوا إلى الدُّنيا؛ ليَتَدارَكوا أمْرَهم في الإيمانِ باللهِ وحْدَه[٤]. وهو تَمَنٍّ للرَّجعةِ، أُقيمَ فيه (لو) مقامَ (لَيْتَ)؛ لتَلاقيهما في معنَى التَّقديرِ. وقيل: يَجوزُ أن تَكونَ على أصْلِها، ويُحذَفَ الجوابُ، وهو: لَفَعَلْنا كَيْتَ وكَيْتَ[٥].

- وفي الآياتِ مِن قَولِه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٧٠- ١٠٢] تخلُّصٌ حَسَنٌ[٦]؛ فما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٣).

(٦) حُسنُ التخلُّصِ: هو الانتقالُ ممَّا ابتُدِئ به الكلامُ إلى المقصودِ، أو مِن موضوعٍ إلى موضوعٍ آخَرَ بأُسلوبٍ حسَنٍ مستطابٍ، على وجهٍ سهلٍ دقيقِ المعنى، بحيثُ لا يشعُرُ السامعُ بالانتقالِ مِن المعنى الأوَّلِ إلَّا وقد وقَعَ عليه الثاني؛ لشدَّةِ الالتئامِ بيْنَهما. =

أَحسَنَ ما رتَّبَ إبراهيمُ كلامَه مع المُشرِكينَ، حينَ سألَهم أوَّلًا عمَّا يَعبُدونَ سؤالَ مُقرِّرٍ لا مُستفهِمٍ، ثمَّ أَنحَى على آلهتِهم، فأَبطَلَ أمْرَها بأنَّها لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ، ولا تُبصِرُ ولا تَسمَعُ، وعلى تَقليدِهم آباءَهم الأَقدَمينَ، فكَسَره وأَخرَجه مِن أن يَكونَ شُبهةً، فضْلًا أن يَكونَ حُجَّةً، ثمَّ صَوَّرَ المسألةَ في نفْسِه دُونَهم، حتَّى تَخلَّص منها إلى ذِكرِ اللهِ عزَّ وعلا؛ فعَظَّمَ شأنَه، وعَدَّدَ نِعمتَه، مِن لَدُنْ خَلْقِه وإنشائِه، إلى حينِ وفاتِه، معَ ما يُرجَى في الآخِرةِ مِن رَحمتِه، ثمَّ أتبَعَ ذلك أنْ دعاهُ بدعَواتِ المُخلِصينَ، وابتَهَلَ اليه ابتِهالَ الأَوَّابينَ، ثمَّ وصَلَه بذِكرِ يَومِ القِيامةِ، وثَوابِ اللهِ وعِقابِه، وما يُدفَعُ إليه المُشرِكون يَومَئذٍ مِنَ النَّدمِ والحسَرةِ على ما كانوا فيه مِنَ الضَّلالِ، وتَمنِّي الكَرَّةِ إلى الدُّنيا؛ ليؤْمِنوا ويُطيعوا[1].

١٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

- في ذلك مَسلاةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في تَكذيبِ قَومِه إيَّاهُ عليه السَّلامُ[2].

- وهو تكريرٌ ثالثٌ لهاتِه الجُملةِ؛ تَعدادًا على المُشرِكينَ، وتَسجيلًا لتَصميمِهم[3].

---

= وحسنُ التخلُّصِ متشابهٌ جدًّا معَ الاستطرادِ، إلَّا أنَّ بينَهما فرقًا دقيقًا؛ بيانُه: أنَّ التخلُّصَ تركُ ما كان الكلامُ فيه بالكليةِ، والإقبالُ على ما تُخُلِّص إليه. والاستطرادُ مرورٌ بذكرِ الأمرِ الذي استُطرِد إليه مرورًا كالبرقِ الخاطِفِ، ثم ترْكُه والعودةُ إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكلِّمَ لم يقصِدْه، وإنَّما عرَض عُروضًا. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٩٢، ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

## الآيات (١٠٥-١٢٢)

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَرْذَلُونَ﴾: أي: أهلُ الضَّعَةِ والخَساسةِ، والرَّذْلُ والرُّذالُ: المرغوبُ عنه لرَداءتِه، وأصلُه: الدُّونُ مِن كلِّ شَيءٍ[1].

﴿ٱلْمَرْجُومِينَ﴾: جمعُ مَرْجوم، والرَّجْمُ الرَّميُ بالرِّجام، وهي الحجارةُ، ويُطلَقُ الرَّجمُ على القَتلِ بالحجارةِ، ثمَّ أُطْلِق على كلِّ قتلٍ، وإنْ لم يكُنْ بالحجارةِ، والرَّجمُ: السَّبُّ والشَّتمُ؛ لأنَّه رَميٌ بالقَولِ القَبيحِ، والرَّجمُ: أصلُه الرَّميُ[2].

﴿فَٱفْتَحْ﴾: أي: احكُمْ واقْضِ، ومنه قيل للقاضي: الفَتَّاحُ. والفَتحُ والفِتاحةُ: الحُكْمُ. وأصلُ (فتح): يدُلُّ على خِلافِ الإغلاقِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج =

﴿ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾: أي: السَّفينةِ المملوءةِ، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استدارةٍ في شَيءٍ، وأصلُ (شحن): يدُلُّ على المَلءِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى جانبًا مِن قِصَّةِ نوحٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه، فيقولُ: كذَّبَتْ قَومُ نُوحٍ رسُلَ اللهِ أجمَعينَ؛ لأنَّ تكذيبَهم لنُوحٍ بمنزلةِ التَّكذيبِ لجَميعِ الرُّسُلِ، حينَ قالَ لهم أخوهم في النَّسَبِ نوحٌ: ألَا تتَّقونَ اللهَ وتَحذَرونَ عِقابَه، فتُخلِصوا له العِبادَةَ وتَترُكوا عبادةَ غَيرِه؟! إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه، فاتَّقوا عِقابَ الله، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أجرًا، ما ثَوابي إلَّا على اللهِ رَبِّ العالَمينَ، فاتَّقوا عِقابَ الله، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه.

فقال كُبراءُ قَومِه: أنؤمِنُ لك -يا نوحُ- والحالُ أنَّ الذين اتَّبَعوك هم ضُعَفاؤنا وفُقَراؤنا؟! فأجابهم نوحٌ قائلًا: وما عِلمي بما كان يَعمَلُ أتْباعي؟ ما حِسابُهم إلَّا على ربِّي؛ فهو أعلَمُ ببواطِنِهم وبأحوالِهم مِنِّي، لو كنتُم مِن أهلِ الفَهمِ والشُّعورِ بحقائِقِ الأمورِ لَما عِبتُموهم، ولستُ بطاردِ هؤلاء المؤمِنينَ الذين اتَّبَعوني؛ فما أنا إلَّا نذيرٌ أوضِّحُ إنذاري لكم جميعًا. فأجابه المُشرِكون قائلينَ: لئِنْ لم تَكُفَّ -يا نوحُ- عن دَعوتِك لنا، لَنَرجُمَنَّك، فقال نوحٌ: ربِّ إنَّ قَومي كذَّبوني، فاحكُمْ بيْني وبيْنَهم حُكمًا تُنجِّي به أهلَ الحَقِّ، وتَمحَقُ به أهلَ الباطِلِ، ونجِّني وأتْباعي

---

= (٤/ ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (٨/ ٥٣٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٥١) و(٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢).

مِن المؤمنينَ.

فاستجاب اللهُ تعالى له، وأخبَر سبحانَه أنَّه أنجاه ومَن كان معه في السَّفينةِ المملوءةِ بهم وبِغَيرِهم، ثمَّ أغرَقَ بعْدَ إنجائِهم مَن بَقِيَ على كُفرِه فلم يركَبِ السَّفينةَ.

ثمَّ قال: إنَّ في ذلك الذي ذكَرْناه لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً على وحدانيَّةِ الله تعالى وقُدرتِه، وما كان أكثَرُ قَومِ نُوحٍ مُؤمنينَ بالله، وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعَذابِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا قَصَّ سُبحانَه على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خبَرَ موسى وإبراهيمَ عليهما السلامُ تسليةً له فيما يَلْقاه مِن قَومِه؛ قَصَّ عليه أيضًا نبأَ نوحٍ عليه السَّلامُ، فقد كان نبَؤُه أعظَمَ مِن نبأِ غَيرِه؛ لأنَّه كان يدعوهم ألْفَ سَنَةٍ إلَّا خمسينَ عامًا، ومعَ ذلك كذَّبَه قومُه[1].

وأيضًا لَمَّا أَتَمَّ سُبحانَه قصَّةَ الأبِ الأعظمِ الأقرَبِ؛ أتْبَعَها -دَلالةً على وصْفَي العِزَّةِ والرَّحمةِ- قصَّةَ الأبِ الثاني، مُقَدِّمًا لها على غيرِها؛ لِمَا له مِن القِدَمِ في الزَّمانِ؛ إعلامًا بأنَّ البلاءَ قديمٌ، ولأنَّها أدَلُّ على صِفتَيِ الرَّحمةِ والنِّقمةِ التي هي أثَرُ العِزَّةِ، بطُولِ الإملاءِ لهم على طولِ مدَّتِهم، ثمَّ تعميمِ النِّقمةِ مع كونِهم جميعَ أهلِ الأرضِ، فقال[2]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦١).

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾.

أي: كَذَّبت قَومُ نُوحٍ[١] بجَميعِ رُسُلِ الله[٢].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

أي: حينَ قال لهم نوحٌ -وهو أخوهم في النَّسَبِ-: ألَا تتَّقون اللهَ وتَحذَرونَ عِقابَه، فتُوحِّدوا اللهَ، وتَترُكوا عبادةَ الأصنامِ[٣]؟!

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾.

أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأُبلِّغُكم رسالةَ الله بلا زيادةٍ أو نُقصانٍ[٤].

﴿فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه[٥].

﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾.

---

(١) قال ابن جُزَي: (أسنَد الفعلَ إلى القومِ، وفيه علامةُ التأنيثِ؛ لأنَّ القومَ في معنَى الجماعةِ والأمَّةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٣).

وقال البقاعي: (﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهم أهلُ الأرضِ كُلُّهم مِن الآدَميِّينَ قبْلَ اختِلافِ الأُمَمِ بتفَرُّقِ اللُّغاتِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ ﴾.

أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ[1].

﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: ما أرجو ثَوابي إلَّا مِنَ اللهِ الخالِقِ الرَّازِقِ، المالِكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ[2].

﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١١٠ ﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه؛ فقد بانَ لكم صِدقي[3].

﴿ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١).

قال السعدي: (كرَّر ذلك عليه السلام لتكريرِه دعوةَ قومِه، وطولِ مكثِه في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: ١٤]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

وقال ابن عثيمين: (وقولُه: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ كرَّر تأسيسًا؛ لأنَّه بناهُ على قَولِه: ﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يعني: فإذا انتفى ذلك فأنتم اتَّقوا الله وأطيعوني، فيكون هذا تأسيسًا، ولا يُستفادُ المعنى المقصودُ منه لو حُذِف. والفرقُ بيْنَ التأكيدِ والتأسيسِ: أنَّ التأكيدَ لو حُذِفَ لاستُفيد المعنى منه ممَّا بقيَ دُونَ التأكيدِ، أي: أنَّ المؤكَّدَ لا يُستفادُ منه سِوى التأكيدِ، فلا يَحمِلُ معنًى جديدًا. أمَّا التأسيسُ فيَحمِلُ معنًى جديدًا، وهو: وعلى أنَّني لا أريدُ الأجرَ، وإنَّما ألتَمِسُ الثوابَ مِن الله، فيَجِبُ عليكم أن تتَّقوا الله وتطيعوني). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٩٣).

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَأَتْبَاعُكَ﴾ والتقديرُ: أنؤمِنُ لك وإنَّما أتْباعُك الأرذَلون، أو أنؤمِنُ لك نحنُ وأتْباعُك الأرذَلون، فنُساويَهم فنكونَ مَرذولينَ مِثلَهم(١)؟!

٢- قراءةُ ﴿وَٱتَّبَعَكَ﴾ أي: وتَبِعَك الأرذَلون(٢).

﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ ١١١﴾.

أي: قال كُبَراءُ قَومِ نُوحٍ المتكَبِّرون عن اتِّباعِ الحَقِّ: أنؤمِنُ لك -يا نوحُ- ونتَّبِعُك، والحالُ أنَّه قد اتَّبَعك الضعفاءُ والفقراءُ وأسافلُ الناسِ دُونَ ذَوي الشَّرفِ، فكيفَ نتساوى معهم في اتِّباعِك(٣)؟!

كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا

---

(١) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٧)، ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ١٣١).

(٢) قرأ بها الباقونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٥).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٩، ١٦٠).
الأرذلون: قيل: المرادُ بهم: أصحابُ الحِرَفِ الدَّنيَّةِ، وقيل: المساكينُ الذين ليس لهم مالٌ ولا عزٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٠٠).
قال ابن عثيمين: (المعنى: أنَّهم قالوا: لو كان أتْباعُك الملأَ والأشرافَ لاتَّبَعْناك، لكِنْ أتباعُك أراذِلُ النَّاسِ، مِن الفُقراء والسُّوقةِ، والذين لا يُقَدِّرون الأمورَ ولا يَعرفونَها! فهُم أراذِلُهم مِن حيث المالُ -على زعمِهم-. ويمكِنُ أن نقولَ: إنَّهم أراذِلُهم مِن حيث الثقافةُ أيضًا والجاهُ والشرفُ، فهم أرذَلُ الأراذِلِ عندَهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٩٥).

نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧].

﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: وما عِلمي بما كان يعمَلُ أتْباعي؟ فأنا لم أُكلَّفِ العِلمَ بأعمالِهم وأحوالِهم الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وإنَّما أمَرني اللهُ أنْ أدعُوَهم إلى الإيمانِ، وأقبَلَ منهم إقرارَهم وتَصديقَهم وانقيادَهم، وأكتفيَ بذلك دونَ النظَرِ إلى بواطِنِهم وحِرَفِهم وصَنائِعِهم[1].

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

أي: ما حِسابُ أتْباعي إلَّا على ربِّي؛ فهو الذي يعلَمُ السِّرَّ والعلانيةَ، وليس علَيَّ مَعرفةُ أعمالِهم وبواطِنِهم، وإنَّما علَيَّ التَّبليغُ، ولو كنتُم تَعلَمون أنَّ حِسابَهم على اللهِ وحْدَه، وتَشعُرونَ بالأمرِ على حقيقتِه، لَما عِبتُموهم، ولمْ تَسْألوني عنهم؛ فإنْ كان ما جئتُكم به هو الحَقَّ فاتَّبِعوه[2].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُمِرتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦١).

قال القرطبي: (وكأنَّهم قالوا: إنَّما اتَّبَعك هؤلاء الضعفاءُ طمعًا في العِزَّةِ والمالِ، فقال: إنِّي لم أقفْ على باطنِ أمْرِهم، وإنَّما إليَّ ظاهِرُهم. وقيل: المعنَى: إنِّي لم أعلَمْ أنَّ الله يَهْديهم ويُضِلُّكم، ويُرشِدُهم ويُغويكم، ويوفِّقُهم ويَخذُلُكم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٩٧).

قال البقاعي: (﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ أي: لو كان لكم نوعُ شعورٍ لَعَلِمتُم ذلك فلمْ تقولوا ما قلتُم ممَّا هو دائرٌ على أمورِ الدُّنيا فقط، ولا نظَرَ له إلى يومِ الحسابِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٦٥).

أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ الله، ويُقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فَعَلوا ذلك عَصَموا مِنِّي دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ[١]، وحِسابُهم على اللهِ))[٢].

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا أفهَمَ قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رَدَّ ما أفهمَه قولُهم مِن طَردِهم؛ صَرَّحَ به في قَولِه[٣]:

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٤﴾.

أي: ولن أطرُدَ مَن آمَنَ بالله واتَّبَعني[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩].

﴿إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ ١١٥﴾.

أي: ما بعَثَني اللهُ إلَّا نذيرًا أُوضِّحُ إنذارَه لكم جميعًا؛ غنيِّكم وفَقيرِكم، شريفِكم ووضيعِكم[٥].

---

(١) إلَّا بحَقِّ الإسلامِ: كقَتلٍ لنَحوِ زِنا مُحصَنٍ، وقَطعٍ لِنَحوِ سَرِقةٍ، وتَغريمِ مالٍ لِنَحوِ إتلافِ مالِ الغيرِ المحترَمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (١/ ٨١).

(٢) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ ١١٦﴾.

أي: قال المُشرِكون مِن قَومِ نُوحٍ: لئِنْ لم تترُكْ -يا نوحُ- دَعوتَك لنا، لَنَرجُمَنَّكَ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمرجومينَ: المقتولون: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، والبقاعي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمرجومين: المقتولون بالحجارةِ: السمعانيُّ، والنسفي، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

قال السعدي: (أي: لَنَقتُلَكَ شرَّ قتلةٍ؛ بالرميِ بالحجارةِ، كما يُقتَلُ الكلبُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

وذكَر القائلون بهذا القولِ أيضًا أن القتلَ بالحجارةِ هو أشدُّ قتلٍ؛ لذلك أوعدوه به، أمَّا الشتمُ فقد كان منهم، فلا يحتمِلُ الوعيدُ به. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٧١).

ومِن المفسِّرينَ مَنِ اقتصَر على تفسيرِ ﴿ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ بقولِه: أي: بالحجارةِ. ومنهم: الزجاجُ، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٦).

وقال ابن عثيمين: (الظاهرُ والأقربُ أنَّهم يقصِدون رجْمَه بالحجارةِ؛ لأنَّ الرجمَ بالقولِ قليلُ الاستعمالِ، ثمَّ إنَّ التهديدَ به مِن هؤلاء الذين يَرَوْنَ أنَّهم يَتكلمون مِن مصدرِ القوَّةِ ليس بلائقٍ في المقامِ، فالصوابُ أنَّهم يُهدِّدونه بالرجمِ بالحجارةِ، والله أعلَمُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣١١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمرجومينَ: المشتومونَ: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٣٠)، ((الوجيز)) =

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أَيِسَ منهم بما سمِعَ مِن المبالَغةِ بالتأكيدِ في قولِهم، ورأى بما يُصَدِّقُه مِن فعْلِهم، قال تعالى مُخبرًا عنه جوابًا لسُؤالِ مَن يريدُ تَعَرُّفَ حالِه بعدَ ذلك[1]:

﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧﴾.

أي: قال نوحٌ: رَبِّ إنَّ قَومي كذَّبوني فيما جئتُهم به مِن الحَقِّ، فلا نيَّةَ لهم في اتِّباعِه[2]!

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ [القمر: ٩، ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا * فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا * ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ [نوح: ٥-٩].

﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨﴾.

﴿فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا﴾.

---

= للواحدي (ص: ٧٩٣).

وممَّن قال بهذا القول مِن السلفِ: الضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ، والحسَنُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣١١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٣).

أي: فاحكُمْ بيْني وبيْنَ قَومي حُكمًا مِن عندِك، تستأصِلُ وتُهلِكُ به المُبطِلَ[١].

﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ونجِّني وأتْباعي المؤمِنينَ مِن عذابِك الذي تُنزِلُه على المُبطِلينَ[٢].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾﴾.

أي: فأنجَيْنا نوحًا ومَن حُمِلَ معه في السَّفينةِ المملوءةِ بالنَّاسِ والحيواناتِ والطُّيورِ وغَيرِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

أي: ثمَّ[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٩٥).
قال ابن عثيمين: (سُمِّي الحُكمُ فتحًا؛ لأنَّه ينفتِحُ به الأمرُ ويتبيَّنُ، فينفصِلُ هذا عن هذا، وهذا الفتحُ بأن ينجيَه ومَن معه مِن المؤمنينَ، ويُهلِكَهم؛ أمَّا نجاتُه ومَن معه مِن المؤمنينَ فمُصرَّحٌ بها، وأمَّا إهلاكُهم فلا نجاةَ إلَّا مِن هَلَكةٍ، هذا هو الفتحُ الذي سأله نوحٌ أن يُهلِكَ اللهُ تعالى قومَه، وأن ينجيَه هو ومَن معه مِن المؤمنينَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٩٥).

(٤) قال القرطبي: (﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي: بعْدَ إنجائِنا نوحًا ومَنْ آمَنَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١).
=

أغرَقْنا جميعَ الكافرين الذين بَقُوا، فلمْ يَركَبوا السَّفينةَ[١].

كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾.

أي: إنَّ في إنجاءِ نوحٍ وأتباعِه المؤمنينَ، وإهلاكِ المكَذِّبين به، لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً واضِحةً على توحيدِ اللهِ، وصِدقِ رُسُلِه، وبُطلانِ الشِّركِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ نوحٍ مُؤمِنينَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

---

= وقال البقاعي: (﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعْدَ حَملِه الذي هو سببُ إنجائِه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: أكثَرُ قَومِ نوحٍ: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي. يُنظر: المصدران السابقان.

وقيل: المعنى: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِك يا محمَّدُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢١٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٣، ٢٥٦).

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٢﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعْدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه[1].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالرُّسُلُ إنَّما يَأمُرونَ الناسَ ويَنهَوْنَهم لِمَا يَرجونَه مِن ثوابِ اللهِ، لا لِمَا يَنالونَه مِن الأجرِ، وفي هذا دليلٌ على وجوبِ إصلاحِ النيَّةِ لِمَن قام مقامَ الرُّسُلِ بالدعوةِ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى[2].

٢- في قوله تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ عمَلَ الإنسانِ لِينالَ الثوابَ ليس أمرًا ممقوتًا، بل هو طريقُ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وأتباعِهم[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾ أي: المؤخَّرون في الحالِ والمآلِ، والأحوالِ والأفعالِ، فيكونَ إيمانُنا بك سببًا لاستوائِنا معهم؟! فلو طرَدْتَهم لم يكُنْ لنا عذرٌ في التخلُّفِ عنك، ولا مانعٌ مِن اتِّباعِك! فكان ما مُتِّعوا به مِن العَرَضِ الفاني مانعًا لهم عن السَّعادةِ الباقيةِ، وأمَّا الضُّعَفاءُ فانكِسارُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢١٢، ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قُلوبِهم، وخُلوُّها عن شاغلٍ؛ موجِبٌ لإقبالِها على الخَيرِ، وقَبولِها له؛ لأنَّ الله تعالى عندَ المُنكَسِرةِ قلوبُهم، وهكذا قالت قريشٌ في أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما زالت أتْباعُ الرُّسُلِ كذلك حتى صارت مِن سماتِهم وأماراتِهم، كما قال هِرَقْلُ في سؤالِه عن أتْباعِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1]، فكان مِثالُ المُستكبِرين مِثالَ شَخصٍ كان آخَرُ دُونَه بدَرجةٍ، فأصبحَ فوقَه بدرجةٍ، فأَنِفَ مِن أن يرتقيَ إلى درجتِه لئلَّا يُساويَه، ورَضِيَ لنفْسِه أن يكونَ دُونَه! فما أسخَفَ عقْلَه، وما أكثَرَ جَهْلَه[2]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّه ينبغي موالاةُ المؤمِنينَ، والقربُ منهم، وأنَّ هذا دأبُ الأنبياءِ، فينبغي للإنسانِ أن يُقَرِّبَ منه كلَّ مؤمنٍ، وأنْ يختارَ لنفْسِه أصلحَ الأصحابِ[3].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فيه التواضعُ للمُؤمِنينَ، وعدمُ إبعادِهم، ولو كانوا مَن كانوا فيما بينَ النَّاسِ، والصبرُ على ما يَجِدُ منهم مِن الجَفاءِ؛ فالرسولُ -عليه الصلاةُ والسلامُ- أشرَفُ الخلْقِ جاهًا عندَ اللهِ، وأعظمُهم منزلةً، عاتَبَه اللهُ في رجُلٍ أعمى، فقال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ * وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾[4] [عبس: ١ - ٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ قومَ نوحٍ كَذَّبوا جماعةً مِنَ المرسَلينَ؛ مع أنَّهم إنَّما كَذَّبوا رسولًا واحدًا -وهو نوحٌ عليه وعلى نبيِّنا

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٩).

الصَّلاةُ والسَّلامُ-: بدليلِ قولِه تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ إلى قولِه: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾.

**والجوابُ عن هذا مِن وجهَينِ:**

**الأول:** أنَّ الرُّسُلَ عليهم صَلواتُ اللهِ وسلامُه لَمَّا كانت دعوتُهم واحدةً -وهي: لا إلهَ إلَّا اللهُ- صار مُكَذِّبُ واحدٍ منهم مُكذِّبًا لجَميعِهم، كما يدُلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقولُه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]، وقد بيَّنَ تعالى أنَّ مُكَذِّبَ بعضِهم مُكَذِّبٌ للجميعِ بقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١]، ويأتي مِثلُ هذا الإشكالِ، والجوابُ في قولِه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ ﴾ [الشعراء: ١٢٣، ١٢٤] إلى آخرِه، وقولِه: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ ﴾ [الشعراء: ١٤١، ١٤٢]، وكذلك في قصةِ لوطٍ وشُعيبٍ، على الجميعِ وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

وأيضًا لأنَّ تكذيبَهم لم يكُنْ لأجْلِ ذاتِه، ولكنَّه كان لإحالتِهم أنْ يُرسِلَ اللهُ بشَرًا، وأنْ تكونَ عِبادةُ أصنامِهم ضَلالًا؛ فكان تكذيبُهم إيَّاه مُقتضيًا تَكذيبَ كُلِّ رسولٍ؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ يقولُ مِثلَ ما قاله نوحٌ عليه السَّلامُ؛ ولذلك تكرَّر في قولِه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٣] وما بعْدَه، وقد حُكِيَ تكذيبُهم أنْ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٤).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

يكونَ الرَّسولُ بشَرًا في قولِه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾[1] [الأعراف: ٦٣].

**الثاني**: أنَّه أرادَ الجِنسَ، كقولِك: فلانٌ يركبُ الخيلَ، وإنَّما لم يركَبْ إلَّا فرَسًا واحدًا[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾، قولُه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ أي: في النَّسَبِ، وإنَّما ابتعثَ اللهُ الرسُلَ مِن نَسَبِ مَن أُرسِلَ إليهم؛ لئلَّا يشمَئِزُّوا مِن الانقيادِ له، ولأنَّهم يَعرِفونَ حقيقَتَه، فلا يحتاجونَ أنْ يبحَثوا عنه[3].

٣- قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حكايةُ الأمرِ بالتقوَى والإطاعةِ، ونفيِ سؤالِ الأجرِ في هذه القصةِ، والقصصِ التي تَلَتْها، وتصديرُها بذلك؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَبْنى البَعثةِ هو الدُّعاءُ إلى توحيدِ الله، ومعرفةِ الحقِّ، والطَّاعةِ فيما يُقرِّبُ المَدْعُوَّ إلى الثَّوابِ، ويُبْعِدُه مِنَ العِقابِ، وأنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مُجمِعونَ على ذلك، وإنِ اختلَفوا في بعضِ فُروعِ الشَّرائعِ المختلِفةِ باختلافِ الأزمنةِ والأعصارِ، وأنَّهم مُتنزِّهونَ عن المطامعِ الدَّنِيَّةِ، والأغراضِ الدُّنيويَّةِ بالكُلِّيَّةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٣).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٠٧).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ بيانُ أنَّ أهلَ الرئاسةِ والشَّرَفِ يكونونَ أبعَدَ عن الانقيادِ إلى عبادةِ اللهِ وطاعتِه؛ لأنَّ حبَّهم للرئاسةِ يمنعُهم ذلك، بخِلافِ المُستضعَفينَ[1].

٥- قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ معلومٌ أنَّ اتِّباعَ الأرذَلينَ له لا يقدَحُ في صِدقِه، لكِنْ كَرِهوا مُشاركةَ أولئك، كما طلَب المُشرِكون مِن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إبعادَ الضُّعَفاءِ؛ كسعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، وابنِ مسعودٍ، وخَبَّابِ بنِ الأرَتِّ، وعمَّارِ بنِ ياسرٍ، وبلالٍ، ونحوِهم، وكان ذلك بمكَّةَ قبْلَ أن يكونَ في الصَّحابةِ أهلُ الصُّفَّةِ[2]، فأنزَل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾[3] [الأنعام: ٥٢، ٥٣].

٦- قال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾، مع أنَّ دعاءَه: ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]، فكَلِمةُ: ﴿وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أعَمُّ، فما الحِكمةُ في ذلك؟

**الجواب**: ذلك لأنَّه صَحِبَ معه بعضَ الحيواناتِ والمخلوقاتِ، وأخَذ مِن كُلٍّ زوجَينِ، فهذه لا تُلصَقُ في الإيمانِ أو عَدَمِه. وقد نقولُ: لعلَّ نوحًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -فيما يظهرُ- حينَ دعا ما كان يدورُ في ذِهنِه أنَّ اللهَ يُنجِّي هذه

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٣٠).

(٢) يُنظر ما تقدم في تفسير سورة الأنعام (٥/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٥٣).

وسببُ النزولِ المذكورُ أخرجه مسلم (٢٤١٣).

المخلوقاتِ الأُخرَى، لذا قال: ﴿وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ قولُه: ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ حيثُ أتَى في غَيرِ فاصلةٍ استُعمِلَ جَمْعًا، كقولِه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤]، وحيثُ كان فاصلةً استُعمِلَ مُفردًا؛ لمُراعاةِ الفَواصلِ؛ كهذا الموضِعِ، والذي في سُورةِ (يس)[٢]، فلو كان جمعًا لقال: (المشحونةِ)، أو (المشحوناتِ).

٨- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ الآيةُ في قصَّةِ نوحٍ: دلالَتُها على أنَّ اللهَ لا يُقِرُّ الذين يُكذِّبون رُسُلَه، ففي قصَّتِه آيةٌ للمُشرِكينَ مِن قريشٍ، وهم يعلمون قِصَّةَ نوحٍ والطُّوفانِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ استِئنافٌ لِتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ناشئٌ عن قولِه: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٤] [الشعراء: ١٠٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ خَصَّ بالذِّكرِ في هذه السُّورةِ هذا الموقفَ مِن مَواقفِه؛ لأنَّه أنسَبُ بغرضِ السُّورةِ في تَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذِكْرِ مُماثِلِ حالِه مع قومِه[٥].

- يجوزُ أنْ يكونَ لفظُ (أَلَا) في قولِه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ مُرَكَّبًا مِن حرفَينِ: همزةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٥٨).

استِفهامٍ دخلَتْ على (لا) النَّافيةِ؛ فهو استِفهامٌ عنِ انتفاءِ تَقْواهم، مُستعمَلٌ في الإنكارِ، وهو يقْتضي امتناعَهم مِنَ الامتثالِ لدَعوتِه. ويجوزُ أنْ يكونَ (أَلَا) حرْفًا واحدًا، هو حَرفُ التَّحضيضِ، وهو يَقتَضي تباطُؤَهم عن تَصديقِه[١].

- قولُه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ فيه إيجازٌ بالحَذفِ؛ فمُتعلَّقُ التَّقوى مَحذوفٌ، فقيل: أَلَا تتَّقونَ عذابَ الله وعقابَه على شركِكم؟ وقيل: أَلَا تتَّقونَ مخالفةَ أمرِ الله، فتتركوا عبادتَكم للأصنامِ[٢]؟

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ تَعليلٌ للإنكارِ، أو للتَّحضيضِ في الآيةِ السَّابقةِ، وتأكيدُه بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ) مع عدَمِ سَبْقِ إنكارِهم أمانتَه؛ لأنَّه توقَّعَ حُدوثَ الإنكارِ؛ فاستَدلَّ عليهم بتَجرِبةِ أمانتِه قبْلَ تبليغِ الرِّسالةِ؛ فإنَّ الأمانةَ دَليلٌ على صِدقِه فيما بلَّغَهم مِن رِسالةِ اللهِ[٣].

- وفي حِكايةِ استِدلالِ نُوحٍ بأمانتِه بينَ قومِه في هذه القِصَّةِ المَسوقَةِ مَثَلًا للمشركينَ في تَكذيبِهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: تَعريضٌ بهم؛ إذْ كذَّبوه بعْدَ أنْ كانوا يدْعونَه الأمينَ[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ تأكيدٌ لقولِه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وهو اعتراضٌ بينَ الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ[٥].

- قولُه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيه تَقديمُ الأمرِ بتَقوَى اللهِ على الأمْرِ بطاعتِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٥٨، ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٥٩).

لأنَّ تقْوَى اللهِ سببٌ لطاعةِ نوحٍ عليه السَّلامُ[١]، فتقوَى اللهِ علَّةٌ لطاعتِه، فقَدَّمَ العلَّةَ على المعلولِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- في هذه الآياتِ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ذُكِرتْ هذه الآياتُ في خمْسةِ مواضعَ: في قصَّةِ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، وشُعيبٍ عليهم السَّلامُ، ثمَّ كُرِّرَ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ في قِصَّةِ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ؛ فصارتْ ثمانيةَ مَواضعَ، وليس في قِصَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾؛ لِذِكْرِها في مواضعَ، وليستْ في قِصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه ربَّاه فِرعونُ؛ حيثُ قال: ﴿أَلَمۡ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدٗا﴾ [الشعراء: ١٨]، ولا في قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ أباهُ في المُخاطَبينَ؛ حيثُ يقولُ: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ﴾ [الشعراء: ٧٠]، وهو ربَّاه، واستحْيَا مُوسى وإبراهيمُ عليهما السَّلامُ أنْ يقولَا: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ وإنْ كانا مُنزَّهَينِ مِن طلَبِ الأُجرةِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

- قولُه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ الفاءُ لتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها، مِن تَنَزُّهِه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- عنِ الطَّمعِ، كما أنَّ نَظيرتَها السَّابقةَ لتَرتيبِ ما بعْدَها على أمانتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٤).

- وكرَّر الأمْرَ بالتَّقوى والطَّاعةِ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ ليُؤكِّدَ عليهم، ويُقرِّرَ ذلك في نُفوسِهم، وإنِ اختلَفَ التَّعليلُ؛ جعَلَ الأوَّلَ مَعلولًا لأمانتِه، والثَّانيَ لانتفاءِ أخْذِ الأجْرِ[١]. وليُنبِّهَ على دَلالةِ كلِّ واحدٍ مِن أمانتِه، وحَسْمِ طَمَعِه على وُجوبِ طاعتِه فيما يَدْعوهم إليه؛ فكَيْفَ إذا اجتَمَعا[٢]؟! أو كرَّر جُملةَ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾؛ لزيادةِ التَّأكيدِ؛ فيكونُ قَدِ افتتَحَ دعوتَه بالنَّهيِ عن تَرْكِ التَّقوى، ثمَّ علَّلَ ذلك، ثمَّ أعادَ ما تقْتضيه جُملةُ الاستفتاحِ، ثمَّ علَّلَ ذلك بقولِه: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾، ثمَّ أعادَ جُملةَ الدَّعوةِ في آخِرِ كلامِه؛ إذْ قال: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ ذُكِر مُكرَّرًا في ثَلاثةِ مواضعَ: في قصَّةِ نوحٍ، وهودٍ، وصالحٍ؛ تأكيدًا، وخُصَّتِ الثَّلاثةُ بالتَّأكيدِ دونَ قصَّةِ لُوطٍ وشعيبٍ؛ اكتفاءً عنه في قصَّةِ لوطٍ بقولِه: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]، وفي قصَّةِ شُعيبٍ بقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٤]؛ لاستِلزامِهما له[٣].

- وحُذِفَتِ الياءُ مِن ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ في الموضعَينِ كما حُذِفَتْ في قولِه: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤] في أوائلِ السُّورةِ؛ لمُراعاةِ الفاصلةِ[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لِما يُثيرُه قولُه: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ﴾ [الشعراء: ١٠٥] مِن استِشرافِ السَّامعِ لمعرفةِ ما دارَ بيْنَهم وبينَ نُوحٍ مِن حِوارٍ؛ ولذلك حُكِيَتْ مُجادَلَتُهم بطريقةِ: قالوا، وقال[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والاستفهامُ في ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ جَوابٌ عمَّا أُشِيرَ إليه مِن قولِهم: إنَّ أتْباعَه لم يُؤمِنوا عن نظَرٍ وبَصيرةٍ[٢]. وفي جوابِ نُوحٍ عليه السَّلامُ هذا عن كلامِ قومِه حُسنُ بلاغةٍ في لَفظِه ومعناهُ؛ فأمَّا لَفظُه: فاقترانُ أوَّلِه بالواوِ يَجعلُه في حُكمِ المعطوفِ على كَلامِ قَومِه؛ تَنبيهًا على اتِّصالِه بكلامِهم، وذلك كِنايةٌ عن مُبادرتِه بالجوابِ كما في قولِه تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤] بعْدَ قولِه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤]. وأمَّا معناهُ: فهو استِفهامٌ مُؤْذِنٌ بأنَّ قومَه فصَّلوا إجْمالَ وصْفِهم أتْباعَه بالأرذَلينَ؛ بأنْ بيَّنوا أوصافًا مِن أحوالِ أهلِ الحاجةِ الَّذينَ لا يَعْبأُ النَّاسُ بهم؛ فأتَى بالاستِفهامِ عن عِلمِه استِفهامًا مُستعمَلًا في قِلَّةِ الاعتناءِ بالمُستفهَمِ عنه، وهو كِنايةٌ عن قِلَّةِ جَدْواه؛ لأنَّ الاستفهامَ عنِ الشَّيءِ يُؤْذِنُ بالجَهلِ به، والجَهلُ تُلازِمُه قِلَّةُ العِنايةِ بالمجهولِ، وضَعْفُ شأْنِه؛ كما يُقالُ لك: يُهدِّدُكَ فلانٌ؛ فتقولُ: وما فلانٌ؟! أي: لا يُعْبأُ به[٣].

- و ﴿كَانُوا۟﴾ في قولِه: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مَزيدةٌ بينَ (ما) الموصولةِ وصِلتِها؛ لإفادةِ التَّأكيدِ، والمعنى: أيُّ شَيءٍ عِلْمي بما يعملونَ؟ وليس المُرادُ بما كانوا عمِلوهُ مِن قبْلُ[٤].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٦١).

- القَصرُ في قولِه: ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي﴾ قَصْرُ مَوصوفٍ على الصِّفةِ[١]، والموصوفُ هو ﴿حِسَابُهُمْ﴾، والصِّفةُ هي ﴿عَلَىٰ رَبِّي﴾؛ لأنَّ المجرورَ الخبرَ في قُوَّةِ الوصفِ، ومعناه: حسابُهم مَقصورٌ على الاتِّصافِ بمدلولِ ﴿عَلَىٰ رَبِّي﴾، أي: لا يَتجاوزُ إلى الاتِّصافِ بكوْنِ حِسابِهم علَيَّ أنا. وهو ردٌّ لِمَا تضمَّنَه كلامُ قَومِه مِن مُطالَبتِه بإبعادِ الذينَ آمَنوا؛ لأنَّهم لا يَستحِقُّونَ أنْ يكونوا مُساوينَ لهم في الإيمانِ الذي طلَبَه نُوحٌ مِن قَومِه[٢]!

- وقولُه: ﴿لَوْ تَشْعُرُونَ﴾ تَجهيلٌ لهم، ورَغْمٌ لغُرورِهم، وإعجابِهمُ الباطِلِ، وجوابُ (لو) محذوفٌ دلَّ عليه ما قبْلَه[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جوابٌ لِمَا أَوْهَمَ قولُهم مِن استدعاءِ

---

(١) وهو أيضًا قَصْرُ إفرادٍ إضافيٌّ.

والقَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شيءٍ بشيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالقصرُ الإضافيُّ: أنْ يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قَصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالينَ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ويَنقسمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثَلاثةِ أقسامٍ: قصْرُ الموصوفِ على الصِّفةِ قَصْرَ إفرادٍ، وقصرَ قَلْبٍ، وقصرَ تعيينٍ.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

(٢) يُنظرُ: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

طرْدِهم، وتوقيفِ إيمانِهم عليه؛ حيثُ جَعلوا اتِّباعَهم المانعَ عنه[١].

١١- قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ استِئنافٌ في معنى التَّعليلِ[٢].

- والقصْرُ إضافيٌّ، وهو قصْرُ مَوصوفٍ على صِفَةٍ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ في سُورةِ (هودٍ) حِكايةُ مَوقفٍ لنُوحٍ عليه السَّلامُ مع قومِه شبيهٍ بما حُكِيَ هُنا في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ * وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ...﴾ [هود: ٢٥ - ٢٩]، وبينَ الحكايتَينِ اختِلافٌ ما؛ فلعلَّهما مَوقفانِ، أو هما كلامانِ في موقفٍ واحدٍ؛ حُكِيَ أحدُهما هُنالِكَ، والآخَرُ هنا على عادةِ قَصصِ القرآنِ؛ فما في إحدى الآيتَينِ مِن زِيادةٍ يُحْمَلُ على أنَّهُ مُكمِّلٌ لِمَا في الأخرى[٤].

١٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ﴾ تَمهيدٌ للدُّعاءِ عليهم، وهو خبَرٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُستعمَلٌ في إنشاءِ التَّحسُّرِ، واليأسِ مِن إقلاعِهم عن التَّكذيبِ[١].

- وحذْفُ الياءِ مِن قولِه: ﴿كَذَّبُونِ﴾ للفاصِلةِ؛ كما تقدَّم في قولِه: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[٢] [الشعراء: ١٤].

١٣- قولُه تعالى: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ الفتْحُ: الحُكْمُ، وتأكيدُهُ بـ﴿فَتْحًا﴾؛ لإرادةِ حُكْمٍ شديدٍ، وهو الاستئصالُ؛ ولذلك أَعْقَبَه بالاحتراسِ بقولِه: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] [الشعراء: ١١٨].

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حِكايةٌ إجماليَّةٌ لدُعائِه المُفصَّلِ في سُورةِ نوحٍ عليه السَّلامُ[٤]. ودَعا لنفْسِه ولِمَن آمَنَ به بالنَّجاةِ، وفي ذلك إشعارٌ بحُلولِ العذابِ بقَومِه[٥].

١٤- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ لَمَّا كان إغراقُهم كلِّهم مِنَ الغرائبِ، عظَّمَه بأداةِ البُعدِ ومَظهَرِ العَظمةِ؛ فقال: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٣).

## الآيات (١٢٣-١٤٠)

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣٥﴾ قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رِيعٍ﴾: أي: مكانٍ مُرتَفعٍ مِن الأرضِ، وأصلُ (ريع): يدُلُّ على ارتِفاعٍ وعُلوٍّ[1].

﴿ءَايَةً﴾: أي: بناءً عاليًا، وأعلامًا طِوالًا، وأصلُ الآيةِ: العَلامةُ[2].

﴿تَعْبَثُونَ﴾: أي: تَلعَبون، وأصلُ (عبث): يدُلُّ على الخَلطِ[3].

﴿مَصَانِعَ﴾: أي: مَنازِلَ، وحُصونًا، وقُصورًا مُشَيَّدةً، وقيل: صهاريجُ [أحواض]

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٨)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٧/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٣).

عَميقةٌ تُتَّخَذُ للماءِ، وأصلُ (صنع): يدُلُّ على عَمَلِ الشَّيءِ[١].

﴿تَخْلُدُونَ﴾: أي: تُقيمون فلا تموتونَ، وأصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والمُلازَمةِ[٢].

﴿بَطَشْتُم﴾: أي: عاقبتُم وضَربتُم، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ[٣].

﴿جَبَّارِينَ﴾: أي: قتَّالينَ بغيرِ حَقٍّ، وأصلُ (جبر): يدُلُّ على العُلُوِّ والقَهرِ[٤].

﴿أَوَعَظْتَ﴾: الوَعظُ: زجْرٌ مُقترِنٌ بتخويفٍ، وتذكيرٌ بالخَيرِ وما يَرِقُّ له القَلبُ[٥].

﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: عادتُهم وشأنُهم ودينُهم، وأصلُ (خلق) هنا: تقديرُ الشَّيءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٠).

(٦) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٤).

## المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى تعالى جانبًا مِن قصةِ هودٍ عليه السلامُ معَ قومِه، فيقولُ: كذَّبَتْ قبيلةُ عادٍ رُسلَ اللهِ بتكذيبِهم رَسولَهم هودًا -فتَكذيبُهم له تكذيبٌ لِغَيرِه- حينَ قال لهم هودٌ، وهو أخوهم في النَّسَبِ: ألَا تتَّقون اللهَ، إنِّي لكم رسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه، فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم ثوابًا ولا جزاءً؛ فما ثوابي إلَّا مِن اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

أتَبْنون بكُلِّ مَكانٍ مُرتَفعٍ مِن الأرضِ بناءً عاليًا؛ عَبَثًا وفَخرًا، وتَصنَعون بناياتٍ مُحكَمةً كأنَّكم تَخلُدونَ في الدُّنيا، وإذا أخَذتُم النَّاسَ آذَيْتُموهم ظُلمًا وعُدوانًا! فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه وأطيعوني، واتَّقوا اللهَ الذي أعطاكم ما تَعلَمونَ مِن النِّعَمِ؛ أعطاكم أنعامًا وبنينَ، وبَساتينَ وعيونَ ماءٍ، إنِّي أخافُ عليكم مِن الله عذابَ يومٍ عَظيمِ الأهوالِ.

فقال له قَومُه: سواءٌ عندَنا وَعْظُك لنا وعَدَمُه، فلن نؤمِنَ بك، ما هذا الذي نحن عليه إلَّا عادةُ آبائِنا الأوَّلينَ، ونحن تابِعونَ لهم، وما نحن بمعَذَّبينَ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى إصرارَهم على التكذيبِ، وسوءَ عاقبتِهم، فيقولُ: فكذَّب هؤلاء المُشرِكون رَسولَهم، فأهلَكْناهم أجمَعينَ. إنَّ في إهلاكِنا قَومَ هُودٍ لَعِظةً وعِبرةً، وما كان أكثَرُ قَومِ هودٍ مُؤمِنينَ، وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعذابِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ١٢٣﴾.

أي: كذَّبَتْ قبيلةُ عادٍ بجَميعِ رُسُلِ الله[١].

كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

أي: كذَّبوا هودًا -وهو أخوهم في النَّسَبِ- حينَ قال لهم: ألَا تتَّقون اللهَ، وتحذَرون عِقابَه، فتُوحِّدوه، وتَتركوا عبادةَ الأصنامِ[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾.

أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه الذي بعثَني به إليكم، فأبَلِّغُكم رسالتَه بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧-٦٨].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

قال السعدي: (أي: كذَّبت القبيلةُ المسمَّاةُ عادًا، رسولَهم هودًا، وتكذيبُهم له تكذيبٌ لِغَيرِه؛ لاتِّفاقِ الدَّعوةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه[١].

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٧﴾.

﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾.

أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ[٢].

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ما أرجو ثَوابي إلَّا مِن الله الخالِقِ الرَّازِقِ، المالِكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ دونَ غَيرِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ ١٢٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا فَرَغَ مِن الدُّعاءِ إلى الأصلِ -وهو الإيمانُ بالرَّسولِ والمُرسِلِ-؛ أتبَعَه إنكارَ بعضِ ما هم عليه ممَّا أوجبَه الكفرُ، وأوجبَ الاشتغالُ به الثباتَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

قال ابن عثيمين: (يعني: فلأنِّي رسولٌ أمينٌ افعَلوا ما آمرُكم به مِن التقوَى، وأحُثُّكم عليه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١).

الغَيِّ، فقال[١]:

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: أتَبْنونَ بكُلِّ مَكانٍ مُرتَفِعٍ بناءً عاليًا مُرتَفِعًا[٢]؛ دَلالةً على قوَّتِكم وشِدَّتِكم، وتتَّخِذونَ ذلك فَخرًا وإظهارًا للقُدرةِ والعَظَمةِ، مِن غيرِ حاجةٍ ونفعٍ حقيقيٍّ يعودُ عليكم[٣]؟!

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((مرَّ عليَّ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ونحن نعالجُ خُصًّا[٤] لنا وَهَى[٥]، فقال: ما هذا؟ فقُلْنا: خُصٌّ لنا وهَى، فنحن نُصلِحُه، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ما أرَى الأمرَ إلَّا أعجَلَ مِن ذلك))[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٦٩).

(٢) قال ابن دُرَيْد: (الرِّيعُ: العُلُوُّ من الأرضِ حتى يمتَنِعَ أن يُسْلَكَ). ((جمهرة اللغة)) (٢/ ٧٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٠٦ - ٦١٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢١٩، ٢٢٠).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّهم بَنَوْا تلك الأبنيةَ علاماتٍ للمسافرينَ، وهو أمرٌ نافعٌ، لكنْ لَمَّا كان قصدُهم ببنائِها الرِّياءَ صار وُجودُها شبيهًا بالعبثِ؛ لعدَمِ قصدِهم رضا الله. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٥، ١٦٦).

(٤) الخصُّ: بيتٌ يُعملُ مِن الخَشبِ والقَصبِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٧).

(٥) أي: خرِب أو كاد. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٣٤).

(٦) أخرجه أبو داود (٥٢٣٦) واللفظ له، والترمذي (٢٣٣٥)، وابن ماجه (٤١٦٠)، وأحمد (٦٥٠٢).

قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ. وأخرجه ابن حبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٩٩٦)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٠)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٢٣٦).

وعن قيسِ بن أبي حازم، قال: (دخَلْنا على خَبَّابٍ نَعودُه، وقد اكتوى سَبْعَ كَيَّاتٍ، فقال: إنَّ أصحابَنا الذينَ سَلَفوا مَضَوا ولم تَنقُصْهم الدُّنْيا، وإنَّا أصَبْنا ما لا نجِدُ له مَوضِعًا إلَّا التُّرابَ، ولولا أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نهَانا أن ندعوَ بالموتِ لدَعوتُ به. ثمَّ أتَيْناه مرَّةً أخرى وهو يَبني حائِطًا له، فقال: إنَّ المُسلِمَ لَيُؤجَرُ في كُلِّ شَيءٍ يُنفِقُه، إلَّا في شَيءٍ يَجعلُه في هذا التُّرابِ[1])[2].

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾.

أي: وتَصنَعونَ بِناياتٍ مُحكَمةً[3]، .....

---

(١) أي: الذي يُوضَعُ في البنيانِ، وهو محمولٌ على ما زاد على الحاجةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ١٢٩).

(٢) رواه البخاري (٥٦٧٢).

قال ابن حجر: (هذا كلُّه محمولٌ على ما لا تمَسُّ الحاجةُ إليه ممَّا لا بدَّ منه للتوطُّنِ، وما يقي البردَ والحَرَّ). ((فتح الباري)) (١١/ ٩٣).

(٣) قيل: المصانعُ: هي الصهاريجُ والخزَّاناتُ والأحواضُ التي تجمعُ الماءَ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الزجَّاجُ، والسمعانيُّ، والزمخشري، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٩٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١١).

وقيل: هي الحصونُ. وممَّن قال بذلك: العليمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨٣).

قال ابنُ قُتَيْبةَ: («المَصَانعُ» البناءُ... وكأنَّ المعنى: أنَّهم كانوا يَستوثِقون في البناءِ والحُصونِ، ويذهبونَ إلى أنَّها تحَصِّنُهم مِن أقدارِ الله عزَّ وجلَّ). ((غريب القرآن)) (ص: ٣١٩).

وقيل: هي القصورُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابن أبي زمنين، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٦٧).

قال ابن عطية: («المصانع» جمعُ مصنع، وهو ما صُنع وأُتقِنَ في بنائِه مِن قصرٍ مَشيدٍ ونحوِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٣٠٤). =

كأنَّكم تَخلُدونَ في الدُّنيا[1]!

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، ومجاهدٌ، والحسنُ، والكلبي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٤).

وممَّن جمَع بيْنَ هذَينِ القولَينِ في الجملةِ: الواحديُّ، فقال: (قوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء: ١٢٩] المصانعُ: التي يتخِذُها الناسُ مِن الأبنيةِ والآبارِ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٥٩).

قال ابنُ جرير: (الصوابُ من القولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ المصانعَ جمعُ مَصنعةٍ، والعربُ تُسمِّي كلَّ بناءٍ مَصنعةً، وجائزٌ أن يكونَ ذلك البناءُ كان قصورًا وحُصونًا مُشَيَّدةً، وجائزٌ أن يكونَ كان مآخِذَ للماءِ، ولا خبَرَ يقطَعُ العُذرَ بأيِّ ذلك كان، ولا هو مما يُدرَكُ مِن جهةِ العقلِ. فالصوابُ أنْ يُقالَ فيه ما قال اللهُ: إنَّهم كانوا يتَّخِذونَ مصانعَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١١، ٦١٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٢، ١٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٦).

واختلف المفسِّرون في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾؛ فقيل: هي على بابِها للترجِّي. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشورٍ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٣).

وقيل: هي للتَّشبيهِ، بمعنى: كأنَّ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ -ونسبَه إلى أكثَرِ المفسِّرينَ-، والبغويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٤).

قال الواحديُّ: (﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: كأنَّكم تَخلُدونَ، قاله أكثَرُ المفسِّرينَ، والمعنى: أنَّهم كانوا يَستوثِقونَ المصانعَ كأنَّهم يَخلُدونَ فيها ولا يموتونَ، و«لعلَّ» يأتي في الكلامِ بمعنى «كأنَّ»). ((الوسيط)) (٣/ ٣٥٩).

وقيل: هي للتَّعليلِ بمعنى (كَيْ)، وممَّن ذهب إلى ذلك: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٣).

قال الرازي: (إنَّما صار مذمومًا؛ لدَلالتِه على الأملِ الطويلِ، والغَفلةِ عن أنَّ الدنيا دارُ ممَرٍّ، لا دارُ مقَرٍّ). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢٣). =

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ أنَّ عمَلَهم عمَلُ مَن لا يترقَّبُ الموتَ؛ أتبَعَه ما يدُلُّ على أنَّهم لا يَظنُّونَ الجزاءَ، فقال[1]:

﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

أي: وإذا أخَذْتُم النَّاسَ وقَهَرْتُموهم، فإنَّكم تُفرِطون في أذيَّتِهم عُدوانًا وظُلمًا، كأنْ يَقتُلوهم، أو يَضرِبوهم بقَسوةٍ بغيرِ حَقٍّ[2].

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه؛ فقد بانَ لكم صِدقي[3].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

---

= قال ابنُ قُتَيْبةَ: (وكأنَّ المعنى: أنَّهم كانوا يَستوثِقونَ في البناءِ والحصونِ، ويذهبون إلى أنَّها تُحَصِّنُهم مِن أقدارِ الله عزَّ وجلَّ). ((غريب القرآن)) (ص: ٣١٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٨، ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

أي: واتَّقوا الله الذي أعطاكم ما تعلَمونَ مِن النِّعَمِ والخَيراتِ المُتتابِعةِ[١].

﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

أي: أعطاكم اللهُ ما تَعلمونَ مِن المواشي[٢]، والأبناءِ الذُّكورِ[٣].

﴿وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

أي: وأعطاكم اللهُ ما تعلمون مِنَ البساتينِ، وعُيونِ الماءِ[٤].

﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

قال البقاعي: (﴿بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴾ أي: ليس فيه نوعُ خَفاءٍ حتى تُعذَروا في الغَفلةِ عن تقييدِه بالشُّكرِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣).

قال السعدي: (﴿ أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ ﴾ مِن إبلٍ وبقَرٍ وغَنَمٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٥).

والعيونُ قيل: هي الأنهارُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٥).

وقال ابن عثيمين: (فالعيونُ هي التي تنبُعُ مِن الأرضِ، والأنهارُ كما هو معروفٌ لا تنبُعُ مِن الأرضِ، وإنَّما تأتي مِن الأمطارِ والسيولِ وغيرِها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٨).

وقال الشوكاني: (أنهار، وأبيار). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٨).

أي: إنِّي أخافُ أن يُصيبَكم مِنَ الله عذابُ يومٍ عظيمِ الأهوالِ، إنْ أصرَرْتُم على الكُفرِ والتَّكذيبِ(١).

﴿قَالُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾﴾.

أي: قال قَومُ هودٍ لِنبيِّهم: يستوي عندَنا وَعْظُك لنا وتَركُك له، فلن نؤمِنَ بك، ولن نترُكَ دينَنا(٢).

كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠).

قال ابن عاشور: (والعذابُ يجوزُ أن يريدَ به عذابًا في الدُّنيا توعَّدهم اللهُ به على لسانِه، ويجوزُ أن يريدَ به عذابَ يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠)، ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٣٠، ٢٣١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: العذابُ في الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: العذابُ في الدُّنيا والآخرةِ: السمرقنديُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

قال ابن عاشور: (الوعظُ: التخويفُ والتَّحذيرُ مِن شَيءٍ فيه ضُرٌّ... ومعنى: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ أم لم تكُنْ في عدادِ الموصوفينَ بالواعظينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧١).

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿خَلْقُ﴾ قيل: بمعنى: كَذِب، أي: ما هذا الذي أتَيْتَنا به مِن الدِّينِ ووعَدْتَنا مِن البَعثِ والعذابِ إلَّا كَذِبُ الأوَّلينَ، ومِن أحاديثِهم المُختَلَقةِ. وقيل: المرادُ إنكارُهم البَعثَ، أي: خُلِقْنا كما خُلِق الأوَّلون مِن قَبْلِنا، فنحنُ مِثلُهم نحيا ونموتُ ولا نُبعَثُ[1]!

٢- قِراءةُ ﴿خُلُقُ﴾ بمعنى: عادةِ آبائِنا الأوَّلينَ[2].

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾﴾.

أي: ما هذا الذي نحن عليه إلَّا عادةُ آبائِنا الأوَّلين، ونحنُ تابعونَ لهم، سالِكونَ وراءَهم[3].

---

(١) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عَمرٍو، والكسائيُّ، ويعقوبُ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((تحبير التيسير)) لابن الجزري (ص: ٤٨٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٦٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٨)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٥١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((تحبير التيسير)) لابن الجزري (ص: ٤٨٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٨)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٤).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: عادةُ الأوَّلينَ وطبيعتُهم ودأبُهم: ابنُ جرير، والزجَّاجُ، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٨). =

﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

أي: ولن يُعَذِّبَنا اللهُ في الدُّنيا، ولن يبعَثَنا بعدَ مَوتِنا لِيُعذِّبَنا في الآخرةِ[1].

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾.

أي: فكذَّب المُشرِكون مِن قَومِ عادٍ رَسولَهم هودًا، فأهلَكْناهم في الدُّنيا[2].

---

= قال الواحديُّ: (وله [أي: القولِ بأنَّ المرادَ: العادةُ] تأويلان؛ أحدُهما: أنَّهم قالوا: ما هذا الذي نحن فيه إلَّا عادةُ الأوَّلينَ مِن قَبْلِنا، يعيشون ما عاشوا، ثمَّ يموتونَ، ولا بَعثَ ولا حِسابَ. والثاني: ما هذا الذي أنكَرْتَ علينا مِن الشأنِ والبَطشِ إلَّا عادةُ مَن قبْلَنا؛ فنحن على ما كانوا عليه نَقتدي بهم). ((البسيط)) (١٧/ ١٠١).

وقال ابنُ كثيرٍ: (﴿ خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾... يَعْنونَ: دينَهم وما هم عليه مِنَ الأمرِ هو دينُ الأوائلِ مِنَ الآباءِ والأجدادِ، ونحنُ تابعونَ لهم، سالِكونَ وراءَهم، نعيشُ كما عاشوا، ونموتُ كما ماتوا، ولا بعثَ ولا معادَ؛ ولهذا قالوا: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٤).

وقال السعدي: (أي: هذه الأحوالُ والنِّعَمُ ونحوُ ذلك عادةُ الأوَّلينَ؛ تارةً يَستغنون، وتارةً يَفتَقِرون، وهذه أحوالُ الدَّهرِ، لا أنَّ هذه مِحَنٌ ومِنَحٌ مِن الله تعالى، وابتلاءٌ لعبادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٢).

وقال ابن عاشور: (الإشارةُ تنصرِفُ إلى ما هم عليه الَّذي نَهاهم عنه رسولُهم. ويجوزُ أنْ يَكونوا أرادوا ما يَدْعو إليه رسولُهم: أي: ما هو إلَّا مِن خُلُقِ أناسٍ قبْلَه، أي: مِن عقائدِهم وما راضوا عليه أنفسَهم، وأنَّه عَبَر عليها وانْتَحَلها، أي: ما هو بإذْنٍ مِن الله). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٥).

قال السعدي: (﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ وهذا إنكارٌ منهم للبعثِ، أو تنزُّلٌ مع نبيِّهم وتهكُّمٌ به، إنَّنا على فرضِ أنَّنا نُبعَثُ، فإنَّنا كما أُدِرَّتْ علينا النِّعمُ في الدُّنيا، كذلك لا تَزالُ مستمرَّةً علينا إذا بُعِثْنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ قَومِ هُودٍ لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً واضِحةً على صِدقِ رسولِه[١].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثرُ قَومِ هُودٍ مُؤمِنينَ حقًّا، معَ وجودِ الآياتِ المُقتَضيةِ لإيمانِهم[٢].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ، المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعد إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه[٣].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

يكونَ غرَضُه مِن عمَلِه -ولا سيَّما العمَلِ الجبَّارِ العظيمِ- أنْ يكونَ غرضُه غرَضًا صحيحًا، لا عبثًا ومُباهاةً؛ لِقَولِه: ﴿تَعْبَثُونَ﴾، وهذا هو مَحَطُّ الانتقاد، ليس بأنْ يَبنوا ﴿بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾، ولكنْ كَوْنُ ذلك عبثًا هو مَحَلُّ الانتقادِ، ومَحَطُّ اللَّومِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ حاصلُ الأمرِ في هذه الأمورِ الثلاثةِ: أنَّ اتِّخاذَ الأبنيةِ العاليةِ يدُلُّ على حُبِّ العُلوِّ، واتخاذَ المصانعِ يدُلُّ على حُبِّ البقاءِ، والجبَّاريَّةَ تدُلُّ على حُبِّ التفرُّدِ بالعُلوِّ، فيَرجِعُ الحاصلُ إلى أنَّهم أحَبُّوا العلوَّ، وبقاءَ العلوِّ، والتفرُّدَ بالعلوِّ، وهذه صفاتُ الإلهيَّةِ، وهي ممتنعةُ الحصولِ للعبدِ؛ فدلَّ ذلك على أنَّ حُبَّ الدنيا قد استولى عليهم بحيثُ استغرَقوا فيه، وخرَجوا عن حَدِّ العبوديَّةِ، وحاموا حولَ ادِّعاءِ الرُّبوبيَّةِ، وكلُّ ذلك يُنَبِّهُ على أنَّ حُبَّ الدُّنيا رأسُ كلِّ خطيئةٍ، وعنوانُ كلِّ كُفرٍ ومَعصيةٍ[2].

٣- إنَّ اتخاذَ المباني الفَخمةِ للفَخرِ والخُيَلاءِ والزِّينةِ، وقَهرَ العبادِ بالجَبَروتِ: مِن الأمورِ المذمومةِ الموروثةِ عن الأُمَمِ الطَّاغيةِ، كما قال اللهُ في قِصَّةِ عادٍ، وإنكارِ هودٍ عليهم؛ قال: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أنَّ الدَّاعِيةَ ينبغي له أنْ يُذَكِّرَ المدعوَّ بنِعَمِ اللهِ عليه، والحكمةُ مِن تذكيرِه بالنِّعَمِ: أنَّ النِّعَمَ تستوجِبُ الشكرَ، وطاعةَ الرحمنِ، وتَضمَنُ ذلك عقلًا؛ لأنَّ مَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ١٩٣).

أَحسَنَ إليك، فإنَّه مِن المستحسَنِ عقلًا أنْ تُطيعَه بما يأمُرُك به[١].

٥- ينبغي للدَّاعيةِ -مع قَرْنِ دعوتِه بذِكرِ النِّعَمِ- أنْ يَقْرِنَها بالتَّخويفِ، ويُؤخَذُ مِن قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾، وينبغي إذا كان المقامُ أنسَبَ أنْ يكونَ غيرَ مُصَرِّحٍ بذلك؛ لقَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾ كالمتوقِّعِ له غيرِ الجازمِ به، فلم يَقُلْ: إنَّكم ستُصابونَ بيومٍ عظيمٍ؛ لأنَّ المقامَ يقتضي ذلك، ولكلِّ مقامٍ مقالٌ[٢]، وأيضًا أبرَزَ تحذيرَهم من عذابِ اللهِ في صُورةِ الخوفِ لا على سَبيلِ الجزمِ؛ إذْ كان راجيًا لإيمانِهم[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ أنَّ التكذيبَ سببٌ للإهلاكِ، فينبغي للمؤمنِ الذي يَعتبرُ بقَصصِ الأنبياءِ السابقينَ أنْ يَحذرَ مِن هذا التكذيبِ؛ لأنَّه إنْ فعَلَ أُهلِكَ[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ جوازُ وصفِ الإنسانِ بالثَّناءِ على نَفْسِه للمَصلحةِ، وهذا أيضًا وَرَدَ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ أنَّه قال: ((أنا سيِّدُ ولدِ آدَمَ يومَ القيامةِ))[٥]، ووَرَدَ أيضًا عن الصحابةِ مِثلُ هذا المَدحِ في قولِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه: (لو أعلَمُ أحدًا أعلَمَ مِنِّي بكتابِ اللهِ -تَبلُغُه الإبلُ- لرَكِبتُ إليه)[٦]، لكنْ بشرطِ أنْ يكونَ غرضُ الإنسانِ مِن ذلك المصلحةَ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٣٨).

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ﴾ دليلٌ على إخلاصِ الرُّسُلِ للهِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الاحتِسابُ؛ احتسابُ الإنسانِ عَمَلَه على اللهِ، فليس هذا للإدلالِ على اللهِ بهذا العَمَلِ، والمِنَّةِ عليه به، ولكنَّ الاحتسابَ به عليه لرَجاءِ ثوابِه[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ * وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن عَمِيَ عن الحُجَّةِ، وترَكَ تَبَصُّرَ البَيانِ، وعَوَّلَ على عَقْلِ غيرِه: أهلَكَه؛ إذْ لا يُعلَمُ أحَدٌ مِمَّن هَلَكَ مِن القرونِ الخاليةِ إلَّا صادًّا عن بيانِ الرُّسُلِ، مُعَوِّلًا على الآباءِ الماضِينَ، واختيارِ عقولِهم على عقولِ أنفُسِهم، ألَا ترى أنَّ عادًا أَهملوا مَوعِظةَ هودٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَركوا الإصغاءَ إليه مُطْمَئِنِّينَ إلى ما كان آباؤُهم يقولونَ؟! ويأمُلون أنَّهم إذا ماتوا لم يُبعَثوا، ولم يُحاسَبوا[٣]!

٥- قال الله تعالى: ﴿أَتَبۡنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةٗ تَعۡبَثُونَ﴾، في قوله: ﴿تَعۡبَثُونَ﴾ أنَّ هؤلاء الذين يحاولون أنْ يَصِلوا إلى الكواكبِ مثلُ قومِ عادٍ تمامًا، فالطريقةُ هي الطريقةُ -وإنْ كان الأسلوبُ مختلفًا-، يعني: يفعلون هذه الأشياءَ عبثًا؛ إذْ لا يستفيدونَ منها فيما خُلِقَ لهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ [البقرة: ٢٩]، فالذي في الأرضِ هو الذي خُلِق لنا، فانتفِعوا به مباشرةً، أمَّا الذي في السماءِ فمُسَخَّرٌ لمصالِحِنا؛ ولكنَّنا لا ننتفعُ به مباشرةً! فالذي يُنتفعُ به مباشرةً هو ما في الأرضِ، ولهذا يقولُ بعضُ الناسِ: «لماذا تحاولونَ أنْ تَصِلوا للسَّماءِ، وأنتم عاجزونَ عن حَلِّ مشاكِلِكم في الأرضِ؟!»، وهذا صحيحٌ، لكنَّهم يعملونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٣٣).

هذا لمجرَّدِ العَبَثِ والفخرِ؛ وأنَّهم أقوياءُ، مع أنَّ قومَ هودٍ -وهؤلاءِ القومُ أيضًا المعاصرون- يَخسَرون لأجْلِ هذه الأمورِ خسائرَ باهظةً! فصارت عبثًا؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يُتعِبُ الإنسانُ فيه جسْمَه ومالَه وفِكْرَه بدونِ فائدةٍ فهو عبثٌ، ولا فائدةَ منه[١].

٦- البِناياتُ للقُصورِ والحُصونِ والدُّورِ وغَيرِها مِن الأبنيةِ: إمَّا أن تُتَّخَذَ مساكِنَ للحاجةِ إليها، والحاجاتُ تتنوَّعُ وتختَلِفُ، فهذا النوعُ مِن الأمورِ المباحةِ، وقد يُتوسَّلُ به بالنيَّةِ الصالحةِ إلى الخيرِ، وإمَّا أن تكونَ البناياتُ حُصونًا واقيةً لشُرورِ الأعداءِ، وثُغورًا تُحفَظُ بها البلادُ ونحوُها مما ينفَعُ المسلمينَ، ويقيهم الشَّرَّ؛ فهذا النوعُ يدخُلُ في الجهادِ في سَبيلِ الله، وهو داخِلٌ في الأمرِ باتِّخاذِ الحَذَرِ مِن الأعداءِ، وإمَّا أن تكونَ للفَخرِ والخُيَلاءِ والبَطشِ بعبادِ اللهِ، وتبذيرِ الأموالِ التي يتعيَّنُ صَرفُها في طُرُقٍ نافعةٍ؛ فهذا النوعُ هو المذمومُ الذي أنكرَه اللهُ على عادٍ وغَيرِهم؛ قال الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[٢].

٧- هذه النِّعَمُ التي يُمِدُّ اللهُ بها العبدَ تستوجِبُ تقوى اللهِ؛ لقولِه: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾، فقولُه: ﴿الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ كالتَّعليلِ للأمرِ بالتقوى، أتَى به إقامةً للحُجَّةِ عليهم؛ لأنَّ مَن أمَدَّك بهذه النِّعمِ كان أولَى بأنْ تتَّقيَه[٣].

٨- قَولُه تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ هذا الرَّبعَ الخاليَ الآنَ من الماءِ أنَّه كان فيه بساتينُ، وكان فيه أنهارٌ، ولعَلَّ هذا يُوحي به أيضًا قَولُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((لا تقومُ السَّاعةُ حتى تعودَ أرضُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٧، ٢٢٩).

العَرَبِ مُروجًا وأنهارًا))[١]، فإنَّ قَولَه: ((حتى تعودَ)) العَودُ بعْدَ البَدءِ، فهذه الجنَّاتُ ليست مجرَّدَ بساتينَ فقط؛ لأنَّه لا يُسمَّى البُستانُ جنَّةً إلَّا إذا كان كثيرَ الأشجارِ والزُّروعِ، حيث يَجُنُّ مَن فيه ويَستُرُه[٢].

٩- الإنسانُ قد لا يَكترِثُ بالواعِظِ؛ لكَوْنِه مِن غيرِ أهلِه، وقد لا يَكترِثُ به عِنادًا، وهؤلاء لَمَّا قالوا: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ دلَّ ذلك على أنَّهم مُعانِدونَ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافَ تَعدادٍ لأخبارِ التَّسليةِ للرَّسولِ، وتَكريرِ الموعظةِ للمُكذِّبينَ بعْدَ جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[٤] [الشعراء: ١٠٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيه حَذْفُ ياءِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾؛ لمراعاةِ الفاصلةِ[٥].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتَبْنُونَ﴾ استفهامُ إنكارٍ وتَوْبيخ[٦]، ولَمَّا صار أثَرُ البِناءِ شاغِلًا عن المقصدِ النافعِ للحياةِ في الآخرةِ، نُزِّلَ فِعلُهمُ المُفْضي إلى العَبَثِ منزلةَ الفِعلِ الذي أُريدَ منه العبثُ عندَ الشُّروعِ فيه؛ فأنكَرَ عليهِمُ البِناءَ بإدخالِ همزةِ الإنكارِ على فعْلِ (تَبْنُونَ)، وقُيِّدَ بجملةِ ﴿تَعْبَثُونَ﴾ التي هي

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٧٠١) (١٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٦٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٦٥، ١٦٦).

في موضِعِ الحالِ مِن فاعِلِ (تَبْنُونَ)، مع أنَّهم لَمَّا بَنَوْا ذلك ما أرادوا بفِعلِهم عبثًا؛ فمَناطُ الإنكارِ مِنَ الاستفهامِ الإنكاريِّ هو البِناءُ المُقَيَّدُ بالعبَثِ؛ لأنَّ الحُكمَ إذا دخَلَ على مُقَيَّدٍ بقَيْدٍ انصرَفَ إلى ذلك القَيْدِ، وكذلك المعطوفُ على الفعلِ المستفهَمِ عنه -وهو جملةُ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾- هو داخِلٌ في حَيِّزِ الإنكارِ، ومُقَيَّدٌ بجملةِ الحالِ المُقَيَّدِ بها المعطوفُ عليه[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَصَانِعَ﴾ مصدرٌ ميميٌّ وُصِفَ به؛ للمبالَغةِ[٢].

- قولُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ على القولِ بأنَّ (لعلَّ) على بابِها مِنَ الرَّجاءِ، فكأنَّه تعليلٌ للبِناءِ والاتِّخاذِ. وقيل: معناهُ الاستفهامُ على سبيلِ التوبيخِ والهُزْءِ بهم، أي: هل أنتم تَخْلُدون[٣]؟!

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ وقَعَ فِعلُ ﴿بَطَشْتُمْ﴾ الثاني جوابًا لـ (إذا)، وهو مُرادفٌ لفِعلِ شرْطِها؛ لحُصولِ الاختلافِ بيْنَ فعلِ الشرطِ وفعلِ الجوابِ بالعُمومِ والخُصوصِ، وإنَّما يُقصَدُ مِثلُ هذا النَّظْمِ لإفادةِ الاهتمامِ بالفِعلِ؛ إذْ يحصُلُ مِن تكريرِه تأكيدُ مدلولِه[٤]. وقيل: أتَى بالجَزاءِ نفْسَ الشرْطِ؛ للمبالَغةِ[٥].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٩٦).

- لَمَّا أفاد الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً﴾ [الشعراء: ١٢٨] معنى الإنكارِ على ما قارَنَ بِناءَهُمُ الآياتِ واتِّخاذَهُمُ المصانعَ وعلى شِدَّتِهم على الناسِ عِندَ الغضبِ؛ فرَّعَ عليه أمْرَهم باتِّقاءِ اللهِ، وحصَلَ معَ ذلك التفريعِ تكريرُ جملةِ الأمرِ بالتَّقْوى والطاعَةِ[١].

- وحَذْفُ ياءِ المتكلِّمِ مِن ﴿أَطِيعُونِ﴾؛ لرِعايةِ الفاصلةِ[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾

- أُعيدَ فِعلُ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾ وهو مُستغنًى عنه لو اقتُصِرَ على المَوصولِ وصفًا لاسمِ الجلالةِ؛ لأنَّ ظاهِرَ النَّظْمِ أنْ يُقالَ: (فاتَّقوا اللهَ الذي أمَدَّكم بما تعلمونَ)؛ فعُدِلَ عن مُقتضى الظاهِرِ، وبُنِيَ الكلامُ على عطْفِ الأمرِ بالتَّقوى على الأمرِ الذي قبْلَه؛ تأكيدًا له، واهتمامًا بالأمرِ بالتقْوى، مع أنَّ ما عرَضَ مِنَ الفصلِ بيْنَ الصِّفةِ والموصوفِ بجملةِ ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ قضَى بأنْ يُعادَ اتِّصالُ النَّظمِ بإعادةِ فِعلِ (اتَّقُوا)[٣].

- وقيل: إنَّما أُتِيَ بفعلِ (اتَّقُوا) مَعطوفًا، ولم يُؤْتَ به مَفصولًا -أي: غيرَ مَعطوفٍ-؛ لِمَا في الجُملةِ الثانيةِ مِنَ الزِّيادةِ على ما في الجُملةِ الأولى مِنَ التذكيرِ بإنعامِ اللهِ عليهم؛ فعُلِّقَ بفعلِ التقْوى في الجُملةِ الأُولى اسمُ الذاتِ المقدَّسةِ؛ للإشارةِ إلى استحقاقِه التقْوى لِذاتِه، ثمَّ عُلِّقَ بفعلِ التقوى في الجملةِ الثانيةِ اسمُ الموصولِ بصِلَتِه الدالَّةِ على إنعامِه؛ للإشارةِ إلى استحقاقِه التقوى؛ لاستحقاقِه الشكرَ على ما أنعَمَ به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ولَمَّا نبَّهَهم ووَبَّخَهم على أفعالِهِمُ القبيحةِ، أمَرَهم ثانيًا بتقوى اللهِ وطاعةِ نبيِّهِ، ثمَّ أمَرَهم ثالثًا بالتقوى؛ تنبيهًا لهم على إحسانِه تعالى إليهم، وسُبوغِ نعمتِه عليهم، وأبرَزَ صِلةِ (الذي) مُتعلِّقةً بعِلْمِهم؛ تنبيهًا لهم وتحريضًا على الطاعةِ والتقْوى؛ إذْ شُكْرُ المحسِنِ واجبٌ، وطاعتُه مُتعيِّنةٌ، ومُشيرًا إليهم بأنَّ مَن أمَدَّ بالإحسانِ هو قادرٌ على سَلْبِه، وعلى تعذيبِ مَن لم يَتَّقِه؛ إذْ هذا الإمدادُ ليس مِن جِهتِكم، وإنَّما هو مِن تفَضُّلِه تعالى عليكم؛ بحيثُ أتبعَكم إحسانَه شيئًا بعْدَ شيءٍ[1].

٨- قولُه تعالى: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ﴾

- أجْمَلَها أوَّلًا، ثمَّ فصَّلها بقولِه: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ...﴾ بإعادةِ الفعلِ؛ لزيادةِ التَّقريرِ؛ فإنَّ التَّفصيلَ بعْدَ الإجمالِ والتَّفسيرَ إثْرَ الإبهامِ أدْخَلُ في ذلك[2]. وهذا التفصيلُ بعْدَ الإجمالِ واردٌ على المبالَغةِ في التنبيهِ على نِعَمِ اللهِ تعالى[3].

- وقد جاء في ذِكْرِ النِّعمةِ بالإجمالِ الذي يُهيِّئُ السامِعينَ لتلقِّي ما يَرِدُ بعْدَه؛ فقال: ﴿ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾، ثمَّ فصَّلَ بقولِه: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، وأُعيدَ فِعلُ ﴿أَمَدَّكُم﴾ في جُملةِ التفصيلِ؛ لزيادةِ الاهتمامِ بذلك الإمدادِ؛ فهو للتوكيدِ اللَّفظيِّ، وهذه الجملةُ بمنزلةِ بَدَلِ البعضِ مِن جُملةِ ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ﴾؛ فإنَّ فعلَ ﴿أَمَدَّكُم﴾ الثاني وإنْ كان مُساويًا لـ ﴿أَمَدَّكُم﴾ الأوَّلِ؛ فإنَّما صار بدلًا مِنه باعتبارِ ما تعلَّقَ به مِن قولِه: ﴿بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ...﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٩٩).

إلخ الذي هو بعضٌ ممَّا تعلمونَ، وكِلا الاعتبارَيْنِ -التوكيدُ والبدلُ- يَقتضي الفَصْلَ؛ فلأجْلِه لم تُعطَفِ الجملةُ[١].

- وبَدَأَ تَعدادَ النِّعَمِ بذِكْرِ الأَنعام؛ لأنَّها أَجَلُّ نعمةٍ على أهلِ ذلك البلدِ؛ لأنَّ منها أقواتَهم ولِباسَهم، وعليها أسفارَهم، وكانوا أهلَ نُجْعةٍ[٢]؛ فهي سببُ بقائِهم، وعطَفَ عليها البنينَ؛ لأنَّهم نعمةٌ عظيمةٌ؛ بأنَّها أُنْسُهم وعَوْنُهم على أسبابِ الحياةِ، وبقاءِ ذِكْرِهم بعْدَهم، وكثرةِ أُمَّتِهم[٣]. وقيل: قَرَنَ البَنينَ بالأنعامِ؛ لأنَّهُمُ الذينَ يُعينونَهم على حِفْظِها، والقِيامِ عليها[٤].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾

- بالَغَ في تَنبيهِهم على نِعَمِ اللهِ؛ حَيثُ أَجْمَلَها، ثمَّ فصَّلَها مُستشهِدًا بعِلْمِهم؛ وذلك أنَّه أيقظَهم عن سِنَةِ غفلتِهم عنها حينَ قال: ﴿أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾، ثمَّ عدَّدَها عليهم، وعرَّفَهُمُ المُنعِمَ بتَعديدِ ما يَعلَمونَ مِن نِعمتِه، وأنَّه كما قدَّرَ أنْ يتفضَّلَ عليكم بهذه النِّعمةِ، فهو قادرٌ على الثَّوابِ والعِقابِ؛ فاتَّقُوهُ[٥].

- قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِيٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ﴾ كرَّرَه مُرتَّبًا على إمدادِ اللهِ تعالى إيَّاهم بما يَعرِفونَه مِن أنواعِ النِّعَمِ؛ تَعليلًا وتنبيهًا على الوعْدِ عليه بدَوامِ الإمدادِ، والوَعيدِ على تركِه بالانقطاعِ، ثمَّ فصَّلَ بعضَ تِلك النِّعَمِ، كما فصَّلَ بعضَ مَساويهِمُ المدلولِ عليها إجمالًا بالإنكارِ في ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ مُبالَغةً في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠).

(٢) النُّجْعةُ بالضَّمِّ: طلبُ الكلإِ في مَوْضِعِه، ومساقطِ الغَيثِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٢/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٦).

الإيقاظِ، والحثِّ على التقوى؛ فقال: ﴿أَمَدَّكُم بِأَنْعَٰمٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾، ثمَّ أَوْعَدَهم فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فإنَّه كما قَدَرَ على الإنعامِ قَدَرَ على الانتقامِ[١].

- وعطَفَ الجنَّاتِ والعُيونَ على الأنعامِ والبَنينَ؛ لأنَّها بها رفاهيةُ حالِهم، واتِّساعُ رِزْقِهم، وعَيْشُ أنعامِهم[٢]، والإمدادُ بها مِن إتمامِ النِّعمةِ[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ تعليلٌ لإنكارِ عدَمِ تَقْواهم[٤].

١١- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ﴾ آثَرَ ذلك التعبيرَ ولم يقُلْ: (أَوَعَظْتَ أمْ لم تَعِظْ)، مع أنَّه أَخْصَرُ والمعنى واحدٌ في الظاهِرِ؛ لأنَّ المعنى ليس بواحدٍ، وبيْنَهما فَرْقٌ؛ لأنَّ المرادَ: سَواءٌ علينا أَفَعَلْتَ هذا الفِعلَ الذي هو الوعْظُ، أم لم تكُنْ أصلًا مِن أهلِه ومُباشِريهِ؛ فهو أبلَغُ في قِلَّةِ اعتِدادِهم بوعظِه مِن قولِكَ: أمْ لم تَعِظْ[٥]؛ فأَتَوْا في طرَفِ الإثباتِ بالفعلِ الصَّريحِ الذي دَلَّ على حُصولِه منه مرَّةً، وفي النَّفيِ باسمِ الفاعلِ على الاستغراقِ؛ نَفَوْا أنْ يَكونَ مِن زُمْرةِ مَن حصَلَ منهم هذا الفِعلُ، واستَهْزَؤوا فيه، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧١).

سَواءٌ علينا أَجَدَّدْتَ الوعْظَ، أمِ اسْتمرَرْتَ على ما كُنتَ عليه مِنَ الإمساكِ عنه، والخُمولِ فيه[١].

- وتقديرُ الكلام: (أَوَعَظْتَ أمْ لم تَعِظْ، أو أَكُنْتَ واعظًا تَستحِقُّ أنْ يَنصرِفَ الناسُ إليك، ويأخُذوا مِنكَ، أم لم تكُنْ واعِظًا)، فحذَفَ مِن كلِّ واحدةٍ ما يُقابِلُها؛ اختِصارًا للوُضوحِ، وهذه غايةُ ما يكونُ مِن بلاغةِ القرآنِ، وبالنِّسبةِ لهم غايةُ ما يكونُ مِنَ الاستكبارِ، وعدَمِ الاكتراثِ بوعظِهم[٢].

- وقيل: عَادَلَ ﴿أَوَعَظْتَ﴾ بقولِه: ﴿أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾، وإنْ كان قد يُعادِلُه: أمْ لم تَعِظْ، كما قال: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١]؛ لأجْلِ الفاصلةِ، كما عادَلَتْ في قولِه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣]، ولم يأتِ التَّركيبُ: أمْ صَمَتُّمْ، وكثيرًا ما يَحْسُنُ مع الفواصلِ ما لا يَحْسُنُ دونَه[٣].

- وجعَلوا قولَه وعْظًا؛ إذْ لم يَعتقِدوا صِحَّةَ ما جاء به، وأنَّه كاذبٌ فيما ادَّعاهُ، وقولُهم ذلك على سبيلِ الاستِخفافِ، وعدَمِ المبالاةِ بما خوَّفَهم به[٤].

١٢- قولُه تعالى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تعليلٌ لمضمونِ جُملةِ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧١).

١٣- قولُه تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَٰهُمْ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

- الفاءُ في ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ فَصيحةٌ، أي: فتبيَّنَ أنَّهم بقولِهم: سَواءٌ علينا ذلكَ أَوَعَظْتَ... إلخ، قد كذَّبوه؛ فأهلَكْناهُم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٣).

## الآيات (١٤١-١٥٩)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ
أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا
هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟
أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ
﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا
شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾
فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طَلْعُهَا﴾: أي: ما يَطلُعُ منها، وهو الثَّمَرُ، سُمِّي طَلْعًا؛ لطُلوعِه كُلَّ سَنةٍ، وأصلُ (طلع): يدُلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ[1].

﴿هَضِيمٌ﴾: أي: يانعٌ لَيِّنٌ نَضيجٌ، والهَضيمُ: هو المتكَسِّرُ مِن لِينِه ورطوبتِه، مِن قَولِهم: هضم فلانٌ فُلانًا حَقَّه: إذا انتقَصَه، فكذلك الهَضمُ في الطَّلعِ، إنَّما هو التنَقُّصُ منه مِن رطوبتِه ولِينِه؛ إمَّا بمَسِّ الأيدي، وإمَّا بركوبِ بَعضِه بعضًا، وأصلُ (هضم): يدُلُّ على كَسْرٍ، وضَغْطٍ، وتداخُلٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٩)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٩، ٦٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٢).

﴿وَتَنْحِتُونَ﴾: أي: تَنجُرونَ وتَصنَعونَ، والنَّحتُ: بَريُ الحجَرِ والخَشَبِ وتَسويتُهما على تقديرٍ مَخصوصٍ(١).

﴿فَٰرِهِينَ﴾: أي: حاذِقينَ بنَحتِها، وأصلُ (فره): يدُلُّ على أشَرٍ وحِذْقٍ(٢).

﴿ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: أي: الذين بُولغَ في سِحْرِهم مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ حتى غَلَب على عُقولِهم. وقيل: أي: مِن ذَوي السَّحْرِ، أي: الرِّئةِ، فهو كنايةٌ عن كونِه مِنَ الأناسيِّ. وأصلُ (سحر) هنا: يدُلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِه، وعلى عُضوٍ مِنَ الأعضاءِ(٣).

﴿شِرْبٌ﴾: أي: حَظٌّ ونَصيبٌ مِن الماءِ، والشُّربُ: تناوُلُ كلِّ مائعٍ، ماءً كان أو غيرَه(٤).

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أي: فنَحَروها وقَتَلوها، وأصلُ العَقْرِ: ضَرْبُ قوائمِ البعيرِ بالسيفِ، وهو قائِمٌ، ثمَّ جُعِل النَّحرُ عقرًا؛ لأنَّ العَقْرَ سببٌ لنحرِه، وناحِرُ البعيرِ يعقِرُه ثمَّ ينحرُه، واستُعمِل العقرُ أيضًا في القتلِ والهلاكِ، وأصلُ (عقر): يدُلُّ على جَرحٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣) و(١٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٩، ٣٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٣) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٨).

(٥) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثر =

## المعنى الإجماليُّ:

يحكي اللهُ تعالى جانبًا مِن قصةِ صالحٍ عليه السلامُ معَ قومِه، فيقولُ: كذَّبتْ قَبيلةُ ثمودَ بجَميعِ رُسُلِ الله، إذْ قال لهم أخوهم في النَّسَبِ صالحٌ: ألَا تتَّقون اللهَ، وتخافونَ عِقابَه، إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه، أبَلِّغُكم إيَّاه بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ، فاتَّقوا عِقابَ اللهِ وسَخَطَه، وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم جَزاءً ولا ثوابًا؛ ما ثَوابي إلَّا على اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

أتَظُنُّون أن تُترَكوا متنعِّمينَ في هذه الخَيراتِ آمِنينَ؛ في بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ، وزُروعٍ ونَخلٍ ثَمَرُها لَيِّنٌ ناضِجٌ، وتَنحِتون من الجِبالِ بُيوتًا لكم حاذِقينَ بنَحتِها؟! فاتَّقوا عِقابَ اللهِ وسخَطَه وأطيعوني، ولا تُطيعوا أمرَ المُسرِفين المُتجاوِزين الحَدَّ في الكُفرِ والعِصيانِ، الذين يُفسِدون في الأرضِ ولا يُصلِحون أنفُسَهم ولا غَيرَهم.

قال قومُ صالحٍ ردًّا عليه: إنَّما أنت مِن المسحورينَ، تَهذي بكَلامٍ لا معنى له، ما أنت إلَّا بشَرٌ مِثلُنا، فأْتِ بحجَّةٍ تدُلُّ على صِحَّةِ قَولِك إن كنتَ مِن الصَّادقين حَقًّا.

فقال صالِحٌ لهم: هذه ناقةٌ جعَلَها الله لكم آيةً تدُلُّ على صِدقي، لها حَظٌّ من الماءِ في يومٍ لا تُشارِكونها فيه، ولكم حظٌّ مِن الماء في يومٍ لا تشارِكُكم هي فيه، ولا تمَسُّوا هذه الناقةَ بأذًى فيُصيبَكم عذابُ يومٍ عظيمِ الشَّدائدِ.

فما كان مِن قَومِ صالحٍ إلَّا أن ذَبَحوا النَّاقةَ فأصبَحوا نادِمينَ على فِعلِهم، فأهلَكَهم اللهُ بالعذابِ الذي حذَّرَهم إيَّاه نبيُّهم.

---

= (٣/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

إنَّ في إهلاكِ قَومِ صالحٍ لَعِظةً وعِبرةً ودَلالةً على صِدقِ صالحٍ، وما كان أكثَرُ قَومِ صالحٍ مُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه، وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعذابِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

أي: كذَّبتْ قبيلةُ ثَمودَ بجَميعِ رُسُلِ اللهِ[1].

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾﴾.

أي: حينَ قال لهم صالِحٌ -وهو أخوهم في النَّسَبِ، فهم يَعرِفون صِدقَه وأمانَتَه وشَفَقتَه عليهم-: ألَا تتَّقون اللهَ، وتَحذَرونَ عِقابَه[2]؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾.

أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأُبلِّغُكم ما أُرسِلتُ به بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ[3].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٤٥ ﴾.

﴿ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ ﴾.

أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ(١).

﴿ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: ما أرجو ثوابي إلَّا مِن اللهِ الخالِقِ الرازِقِ، المالِكِ المدبِّرِ لجميعِ العالَمينَ دونَ خَلقِه(٢).

﴿ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ثبتَتِ الأمانةُ، وانتفَى مُوجبُ الخيانةِ؛ شرَعَ يُنكِرُ عليهم أكْلَ خَيرِه، وعبادةَ غيرِه، فقال مخوِّفًا لهم مِن سَطَواتِه، ومرغِّبًا في المزيدِ مِن خَيراتِه، مُنكِرًا عليهم إخلادَهم إلى شَهوةِ البَطنِ، واستنادَهم إلى الرَّفاهيةِ، والرِّضا بالفاني(٣):

﴿ أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ١٤٦ ﴾.

أي: أتظُنُّون أنَّ اللهَ يترُكُكم تتنعَّمون في هذه الخَيراتِ آمنينَ لا تخافونَ(٤)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٤١).

قيل: المرادُ بقوله: ﴿ ءَامِنِينَ ﴾: أي: مِن الموتِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٣). =

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان للتَّفسيرِ بعْدَ الإجمالِ شأنٌ؛ بَيَّنَ ما أجمَلَ بقَولِه، مُذَكِّرًا لهم بنعمةِ اللهِ ليَشكُروها[1]:

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ١٤٧﴾.

أي: في بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ[2].

﴿وَزُرُوعٖ وَنَخۡلٖ طَلۡعُهَا هَضِيمٞ ١٤٨﴾.

أي: وفي زُروعٍ ونَخلٍ طلْعُها[3] .....

---

= وقيل: ﴿ءَامِنِينَ﴾: أي: مِن العذابِ. وممَّن قال بذلك: السمعانيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٦١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٠).

وقيل: ﴿ءَامِنِينَ﴾: أي: مِن الموتِ والعذابِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، والنسفي، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٩).

وقال ابنُ جريرٍ ومكِّيٌّ: ﴿ءَامِنِينَ﴾: لا تخافونَ شيئًا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٣٧).

وقال السعدي: (أتحسبونَ أنَّكم تُترَكون في هذه الخيراتِ والنِّعم سُدًى، تتنعَّمون وتتمتَّعون كما تتمتَّعُ الأنعامُ، وتُترَكون سدًى لا تُؤمَرونَ ولا تُنْهَوْن، وتَستعِينونَ بهذه النِّعم على معاصي الله؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٤٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٣)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣٣٧).

(٣) قيل: المرادُ: الثمَرُ الذي تُطلِعُه. وممَّن قال بذلك: ابنُ الجوزي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير =

لَيِّنٌ رَطْبٌ[1].

= ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٤، ٧٥).

وقيل: هو وعاءٌ يَطلُعُ مِن النخلِ فيه ثمرُ النخلةِ. وممَّن قال بذلك: القرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٥).

وقال ابن عطية: (و«الطلع»: الكُفُرَّى، وهو عنقودُ التمرِ قبلَ أن يخرجَ مِن الكُمِّ في أوَّلِ نباتِه، فكأنَّ الإشارةَ إلى أنَّ طلعَها يثمرُ ويرطبُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦١٨، ٦٢٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٦)، ((التفسير المظهري)) (٧/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

قال ابن الجوزي: (في الهضيم سَبعةُ أقوال؛ أحدُها: أنَّه الذي قد أينَعَ وبلغ، رواه العَوْفي عن ابن عبَّاس. والثاني: أنَّه الذي يتهشَّم تهشُّمًا [أي: يتفَتَّتْ]، قاله مجاهد. والثالث: أنَّه الذي ليس له نوًى، قاله الحسن. والرابع: أنه المذنِّبُ مِن الرُّطَب [أي: الذي أرطبَ مِن قِبَلِ ذَنَبه]، قاله سعيدُ ابنُ جُبَيْر. والخامس: اللَّيِّن، قاله قَتادةُ، والفَرَّاءُ. والسادس: أنَّه الحَمْلُ الكثيرُ الذي يركَبُ بَعضُه بعضًا، قاله الضَّحَّاكُ.

والسابع: أنَّه الطَّلْعُ قبل أن ينشقَّ عنه القِشرُ وينفَتِح، يريدُ أنَّه منضِمٌّ مكتَنِزٌ، ومنه قيل: رجُلٌ أهضَمُ الكَشْحَينِ: إذا كان منضمَّهما، قاله ابنُ قُتَيْبَةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٥).

ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٩٦).

وممَّن اختار أنَّ الهضيمَ بمعنى اللَّيِّنِ الرَّطبِ النَّضيجِ: الواحديُّ، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عِكْرِمةُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٥).

وقال ابنُ جرير: (الهَضيمُ: هو المتكَسِّرُ مِن لِينِه ورطوبتِه، وذلك مِن قَولِهم: هضَم فلانٌ فُلانًا حَقَّه: إذا انتقَصَه وتحيَّفَه، فكذلك الهَضمُ في الطَّلعِ، إنَّما هو التنَقُّصُ منه مِن رطوبتِه ولِينِه؛ إمَّا بمَسِّ الأيدي، وإمَّا بركوبِ بَعضِه بعضًا، وأصلُه مفعولٌ صُرِفَ إلى فعيلٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٠).

وقال البقاعي: (﴿هَضِيمٌ﴾ أي: جوادٌ كريمٌ، مِن قَولِهم: يدٌ هَضومٌ، إذا كانت تجودُ بما لديها، وتفسيرُه بذلك يجمَعُ أقوالَ العلماءِ، وإليه يرجِعُ ما قال أبو عبدِ الله القزازُ: معناه أنه قد هَضَم =

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذَكَر اللَّطيفَ مِن أحوالِهم؛ أتبَعَه الكثيفَ مِن أفعالِهم[١].

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿فَٰرِهِينَ﴾ أي: حاذِقينَ بنَحتِها[٢].

٢- قِراءةُ ﴿فَرِهِينَ﴾ أي: أَشِرين بَطِرينَ. وقيل: القراءتانِ بمعنًى واحدٍ[٣].

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾.

أي: وتَنحِتون مِنَ الجِبالِ بُيوتًا لكم حاذِقينَ بنَحتِها[٤].

---

= -أي: ضغَطَ- بعضُه بعضًا لتراكُمِه؛ فإنَّه لا يكونُ كذلك إلا وهو كثيرٌ متُقارِبُ النَّضدِ، لا فُرَجَ بيْنَه، ولطيفٌ لَيِّنٌ هشٌّ طَيِّبُ الرائحةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٧٤، ٧٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٥).

(٢) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائيُّ، وخلفٌ، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((المبسوط)) لابن مهران (ص: ٣٢٨)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((المبسوط)) لابن مهران (ص: ٣٢٨)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٢٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢١، ٦٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ قال ابنُ عباسٍ، وغيرُ واحدٍ: يعني: حاذقينَ. وفي روايةٍ عنه: شَرِهينَ أَشِرينَ. وهو اختيارُ مجاهدٍ وجماعةٍ. ولا منافاةَ بيْنَهما؛ فإنَّهم كانوا يتَّخِذون تلك البيوتَ المنحوتةَ في الجبالِ أَشَرًا وبطَرًا وعَبثًا، مِن غيرِ حاجةٍ إلى =

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ صالح عليه السلامُ لِقَومِه: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢].

وقال سبحانه: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ [الفجر: ٩].

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به وأنهاكم عنه؛ فقد بانَ لكم صِدقي[1].

﴿وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

أي: ولا تَنقادوا لأمرِ المُسرِفين، الذين تمادَوا وتجاوَزوا الحَدَّ في الكُفرِ باللهِ ومَعصيتِه[2].

---

= سكناها، وكانوا حاذِقينَ مُتقِنينَ لِنَحتِها ونَقشِها، كما هو المشاهَدُ مِن حالِهم لِمَن رأى منازِلَهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٦).

وقال البقاعي: (﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ﴾ أي: مُظهرين النشاطَ والقوَّةَ؛ تعظُّمًا بذلك وبطَرًا، لا لحاجتِكم إلى شيءٍ من ذلك). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٧٥).

وقال ابنُ عثيمينَ: (وكلمةُ: (فَرِهِينَ) يعني: بَطِرين، فهي صفةٌ مشبَّهة، و ﴿فَٰرِهِينَ﴾ بالمدِّ اسمُ فاعلٍ، والمراد به الحِذْقُ. واختلافُ القراءتينِ يكونُ فيه فائدةٌ، وهي اجتماعُ المعنيَينِ مِن هذه الكلمةِ؛ فيكونونَ متَّصِفينَ بالأمْرينِ: بالبطَرِ بناءً على قراءةِ القَصْرِ، وبالحِذْقِ بناءً على قراءةِ المدِّ، وهذا مِن فوائدِ تنوُّعِ القراءةِ؛ لأنَّ تنوعَ القراءةِ له فوائدُ كثيرةٌ، منها أنْ تكونَ الكَلِمةُ جامعةً لِمَعنيينِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ٢٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٦). =

﴿ ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢ ﴾.

أي: الذين يُفسِدون في الأرضِ بالكُفرِ والظُّلم والمعاصي والدَّعوةِ إلى ذلك، ولا يُصلِحونَ أنفُسَهم بالعَمَلِ الصَّالحِ، ولا يأمُرونَ غَيرَهم بالصَّلاحِ[1].

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا دعا إلى اللهِ تعالى بما لا خلَلَ فيه، فعَلِموا أنَّهم عاجِزونَ عن الطَّعنِ في شَيءٍ منه؛ عَدَلوا إلى التَّخييلِ على عُقولِ الضُّعَفاءِ[2].

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٥٣ ﴾.

أي: قال قومُ صالحٍ: إنَّما أنت مِن المسحورينَ الذين بُولغَ في سِحرِهم مرَّةً بعْدَ مرَّة، فلا عقْلَ لك، وإنَّما تَهذِي بما لا مَعنى له[3].

---

= قيل: عنى بالمسرفينَ: كُبَراءَهم وأئمَّتَهم في الكُفرِ والضَّلالِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطية، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٦).

وقيل: المرادُ بالمُسرفين: التِّسعةُ الرَّهطِ الذين وصَفَهم اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨]. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، وذكره السعديُّ احتمالًا. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٦، ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٥٤ ﴾.

﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُنَا ﴾.

أي: ما أنت إلَّا آدميٌّ مِثلُنا، فكيف خَصَّك اللهُ بالرِّسالةِ مِن بيْنِنا حتى نتَّبِعَك[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ * فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ * أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ [القمر: ٢٣ - ٢٥].

﴿فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

أي: فأْتِ بحُجَّةٍ تدُلُّ بوُضوحٍ على صحَّةِ ما تقولُ إن كنتَ مِن الصَّادقينَ في أنَّك رَسولٌ مِن اللهِ إلينا حَقًّا[2].

﴿ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ ﴾.

أي: قال صالحٌ لِقَومِه: هذه ناقةٌ جعَلَها الله لكم آيةً تدُلُّ على صِدقي، لها حَظٌّ ونَصيبٌ مِن الماءِ في يومٍ لا تُشارِكونَها فيه، ولكم حظٌّ ونَصيبٌ مِن الماء في يومٍ لا تُشارِكُكم فيه[3].

كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٧).

وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَـٰقَوۡمِ هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ ﴾ [هود: ٦٤].

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦ ﴾.

أي: ولا تمَسُّوا النَّاقةَ بأيِّ أذًى كائنًا ما كان؛ فإنَّكم إن فعلتُم يُصيبُكم مِنَ اللهِ عذابُ يومٍ عظيمِ الأهوالِ[1].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ صالحٍ لِقَومِه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَـٰدِمِينَ ١٥٧ ﴾.

أي: فقتَلَ قَومُ صالحٍ النَّاقةَ، فأصبَحوا نادِمينَ على ذلك حينَ أيقَنوا بالعَذابِ[2].

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٥٨ ﴾.

﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ ﴾.

أي: فأهلَكَهم اللهُ بالعذابِ الذي توعَّدَهم به نبيُّهم[3].

كما قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَـٰصَـٰلِحُ ٱئۡتِنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٠). ممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ: عذابُ الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٨، ٦٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

وقال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [هود: ٦٧].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان في النَّاقةِ وفي حُلولِ مخايلِ العذابِ أعظَمُ دليلٍ على صِدْقِ الرَّسولِ الدَّاعي إلى اللهِ؛ قال[1]:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ قَومِ صالحٍ لَعِظةً، وعِبرةً، ودَلالةً على صِدقِ رَسولِه[2].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ صالحٍ مُؤمِنينَ[3].

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان رُبَّما تُوُهِّمَ أنَّه سُبحانَه غيرُ متَّصِفٍ بالعِزَّة؛ لعدَمِ قَسْرِهم على الإيمانِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

أو بالرَّحمةِ؛ لإهلاكِهم- قال[١]:

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾ ﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ، المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعْدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه[٢].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ... ﴾ في هذه الآية دَلالةٌ على عِظَمِ نِعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّها تستوجِبُ الشُّكرَ العظيمَ للهِ سُبحانَه وتعالى، وأنَّه هو مُعطي الأمانِ وآخِذُه؛ لِقَولِه: ﴿ءَامِنِينَ﴾[٣]، ففي تذكيرِهم بنعمةِ الله عليهم بما مكَّن لهم مِن خَيراتٍ حَثٌّ على العملِ لاستبقاءِ تلك النِّعَمِ؛ بأنْ يَشكروا اللهَ عليها[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ ﴾ تَسليةٌ لكلِّ داعيةٍ إذا دعا إلى حَقٍّ، فقُوبِل بإعراضٍ ورفْضٍ لِما معه مِن الحقِّ، وأنَّ الواجبَ عليه أن يَصبِرَ، وأن يقولَ: جرَى للأنبياءِ مِثلُ هذا وأشدُّ، وهم أشرفُ عندَ اللهِ مِنِّي[٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ثَمودُ قد كذَّبوا المرسَلينَ؛ لأنَّهم كذَّبوا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٥٧).

صالحًا، وكذَّبوا هودًا؛ لأنَّ صالحًا وعَظَهم بِعَادٍ في قولِه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وبتكذيبِهم كذَّبوا بنوحٍ أيضًا؛ لأنَّ هودًا ذَكَّرَ قومَه بمصيرِ قومِ نوحٍ في آيةِ ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾[1] [الأعراف: ٦٩].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَتُتۡرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ دَليلٌ على عدمِ البقاءِ في حالِ الرَّفاهيةِ عقابًا لِمَن التَزَموا شِرْكَهم، أي: إنَّه لا يمكِنُ أنْ يُترَكوا بدونِ رُسُلٍ وشُكْرٍ للنِّعمةِ[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾ فيه عِظَمُ نِعمةِ الأمنِ؛ فإنَّ نعمةَ الأمنِ قد تقابِلُ نعمةَ الشِّبَعِ والرِّيِّ[3].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ ...﴾ فيه بيانُ قوَّةِ قومِ صالحٍ؛ إذ بَلَغوا مِن القوَّةِ أنْ كانوا يَنحِتونَ بيوتَهم في الجِبالِ، وأيُّ قوةٍ بعدُ[4]؟!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ فيه دَليلٌ على دِقَّةِ قَومِ صالحٍ في العَمَلِ، والحِذقِ في الهندسةِ؛ لأنَّ (فارهين) بمعنى حاذِقينَ[5].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾ سؤالٌ: لِمَ أخَذَهم العذابُ وقد نَدِموا؟

**جوابُه مِن وجهَينِ:**

**الأولُ:** أنَّه لم يكن نَدَمُهم نَدَمَ التائبينَ، لكنْ نَدَمُ الخائفينَ مِن العذابِ العاجلِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

**الثاني**: أنَّ الندمَ، وإنْ كان نَدَمَ التَّائبينَ، ولكنْ كان ذلك في غيرِ وقتِ التوبةِ، بل عندَ معاينةِ العذابِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ...﴾ الآية[1] [النساء: ١٨].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ استئنافُ تَعدادٍ وتكريرٍ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾

- يجوزُ أنْ يكونَ هذا القولُ إنكارًا ونفْيًا لِأَنْ يُترَكُوا مُخَلَّدِينَ في نَعيمِهم لا يُزالونَ عنه، وأنْ يكونَ تَذكيرًا بالنِّعمةِ في تَخليةِ اللهِ إيَّاهم وما يتنعَّمونَ فيه مِنَ الجنَّاتِ وغيرِ ذلك، مع الأمنِ والدَّعَةِ[3]. وقيل: تَخويفٌ لهم؛ بمعنى: أَتَطمعونَ أنْ تُقَرُّوا في النِّعَمِ على معاصيكُم؟ وقيل: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ استفهامٌ في معنى التوبيخِ[4].

- ونُزِّلَ حالُهم مَنزلةَ مَن يظُنُّ الخُلودَ، ودوامَ النعمةِ؛ فخاطبَهم بالاستفهامِ الإنكاريِّ التوبيخيِّ ﴿أَتُتْرَكُونَ...﴾، وهو في المعنى إنكارٌ على ظنِّهم ذلك، وسلَّطَ الإنكارَ على فِعلِ التَّرْكِ؛ لأنَّ ترْكَهم على تلك النِّعَمِ لا يكونُ؛ فكان إنكارُ حُصولِه مُستلزِمًا إنكارَ اعتقادِه، وهذا الكلامُ تعليلٌ للإنكارِ الذي في قولِه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ الإنكارَ عليهم دوامَ حالِهم يَقْتضي أنَّهم مُفارِقونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨١).

هذه الحياةَ، وصائرونَ إلى اللهِ[١].

- وقولُه: ﴿هَٰهُنَآ﴾ إشارةٌ إلى بِلادِهم، أي: في جَميعِ ما تُشاهِدونَه، وهذا إيجازٌ بَديعٌ[٢].

- وقولُه: ﴿ءَامِنِينَ﴾ حالٌ مُبيِّنةٌ لبَعضِ ما أجْمَله قولُه: ﴿فِي مَا هَٰهُنَآ﴾؛ وذلك تَنبيهٌ على نِعمةٍ عَظيمةٍ لا يَدُلُّ عليها اسمُ الإشارةِ؛ لأنَّها لا يُشارُ إليها، وهي نعمةُ الأمنِ التي هي مِن أعظمِ النِّعَمِ، ولا يُتذَوَّقُ طعمُ النِّعَمِ الأُخرى إلَّا بها[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾

- قولُه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾ إجمالٌ، ثمَّ تفصيلٌ في قولِه: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾[٤]؛ فالتفصيلُ واردٌ على المبالَغةِ في التنبيهِ على نِعَمِ اللهِ تعالى[٥].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾

- جاء قولُه: ﴿وَنَخْلٍ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾، وإنْ كانتِ الجنَّةُ تتناوَلُ النخلَ أوَّلَ شيءٍ، ويُطلِقونَ الجنَّةَ ولا يُريدونَ بها إلَّا النخلَ؛ فأفرَدَ ﴿وَنَخْلٍ﴾ بالذِّكْرِ بعْدَ اندراجِه في لفظِ ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ تَنبيهًا على انفرادِه عن شَجرِ الجنَّةِ بفضلِه، أو أرادَ بـ﴿جَنَّٰتٍ﴾ غيرَ النخلِ مِنَ الشَّجرِ؛ لأنَّ اللَّفظَ صالحٌ لهذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٤، ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٣٩٩).

الإرادةِ، ثمَّ عطَفَ عليه ﴿وَنَخۡلٖ﴾[١]. وقيل: خُصَّ النَّخلُ بالذِّكرِ مع أنَّه ممَّا تشملُه الجنَّاتُ؛ لقَصدِ بيانِ جَودتِه بأنَّ طَلْعَه هَضيمٌ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَتَنۡحِتُونَ﴾ عَطْفٌ على ﴿ءَامِنِينَ﴾ -أي: وناحِتِينَ- عَبَّرَ عنه بصِيغةِ المضارعِ؛ لاستِحضارِ الحالةِ في نَحتِهم بُيوتًا مِنَ الجبالِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾

- أفاد قولُه: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ أنَّ فسادَهم فَسادٌ مُصْمَتٌ ليس معه شيءٌ مِنَ الصَّلاحِ، كما تَكونُ حالُ بعضِ المفسدينَ مخلوطةً ببعضِ الصَّلاحِ[٤]؛ فالتركيبُ مِن بابِ الطَّرْدِ والعَكسِ، وفائدتُه: التوكيدُ والمبالَغةُ[٥]؛ فإنَّه لَمَّا كانتْ دَلالةُ قولِه: ﴿يُفۡسِدُونَ﴾ دَلالةَ المطلَقِ، أتَى بقولِه: ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾؛ فنفى عنهُمُ الصَّلاحَ، وهو نفْيٌ لمطلَقِ الصَّلاحِ؛ فيَلْزَمُ منه نفيُ الصلاحِ كائنًا ما كان؛ فلا يحصُلُ منهم صلاحٌ الْبَتَّةَ[٦].

- وأيضًا قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وصْفٌ موضِّحٌ لإسرافِهم؛ ولذلك عُطِفَ ﴿وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ على ﴿يُفۡسِدُونَ﴾؛ لبيانِ خُلوصِ إفسادِهم عن مُخالَطةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١١٥).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٢).

الإصلاحِ[١].

- وكذلك وَصَفَهم بأنَّهم يُفسِدونَ في الأرضِ؛ فالإسرافُ مَنوطٌ بالفسادِ، وعطْفُ ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ على جُملةِ ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تأكيدٌ لوقوعِ الشيءِ بنفْيِ ضدِّه؛ فكأنَّه قيل: الذينَ إنَّما هم مُفسِدونَ في الأرضِ، فعُدِلَ عن صِيغةِ القصْرِ؛ لِئَلَّا يحتملَ أنَّه قصْرُ مُبالَغةٍ؛ لأنَّ نفيَ الإصلاحِ عنهم يؤكِّدُ إثباتَ الإفسادِ لهم؛ فيتقرَّرُ ذلك في الذِّهْنِ، ويتأكَّدُ معنى إفسادِهم بنفْيِ ضدِّه[٢].

٧- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ قولُه: ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أبلَغُ في الاتِّصافِ بالتَّسحيرِ مِن أنْ يُقالَ: (إنَّما أنتَ مُسَحَّرٌ)[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- لَمَّا تَضمَّنَ قولُهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ تكذيبَهم إيَّاهُ، أيَّدوا تكذيبَه بأنَّه بشَرٌ مِثْلُهم، وذلك -في زعْمِهم- يُنافي أنْ يكونَ رسولًا مِنَ اللهِ؛ لأنَّ الرسولَ -في زعْمِهم- لا يكونُ إلَّا مَخلوقًا خارقًا للعادةِ؛ كأنْ يكونَ ملَكًا أو جِنِّيًّا؛ فجُملةُ ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ في حُكْمِ التأكيدِ بجُملةِ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ باعتبارِ مَضمونِ الجُملتَينِ[٤].

- قولُه تعالَى في قصَّةِ صالحٍ عليه السلامُ: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قالَه فيها بلا «واوٍ»، وقالَه في قصَّةِ شُعيبٍ عليه السلامُ بـ«واوٍ»؛ لأنَّه هُنا بَدَلٌ ممَّا قبْلَه، وهناك مَعطوفٌ على ما قبْلَه، وخُصَّتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأُولى بالبَدلِ؛ لأنَّ صالحًا قَلَّلَ في الخِطابِ؛ فقَلَّلوا في الجوابِ، وأكْثَرَ شُعيبٌ في الخِطابِ؛ فأَكْثَروا في الجوابِ[١].

- قولُه: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ فرَّعوا على تَكذيبِه المطالَبَةَ بأنْ يأتيَ بآيةٍ على صِدقِه، أي: أنْ يأتيَ بخارقِ عادةٍ يدُلُّ على أنَّ اللهَ صدَّقَه في دعوَى الرِّسالةِ عنه، وفَرَضوا صِدقَه بحرفِ (إن) الشرطيَّةِ الغالبِ استعمالُها في الشَّكِّ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ في الكلامِ إيجازٌ بالحَذفِ، تقديرُه: قال: آتِي بها، قالوا: ما هي؟ قال: هذه ناقةٌ...[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ إنَّما عَظُمَ اليومُ لحُلولِ العذابِ فيه، ووَصْفُ اليومِ به أبلَغُ مِن وَصْفِ العذابِ؛ لأنَّ الوقتَ إذا عَظُمَ بسببِه كان موقِعُه مِنَ العِظَمِ أشدَّ؛ فهو مِن بابِ الكِنايةِ[٤].

١١- قولُه تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أُسنِدَ العَقْرُ إلى كُلِّهم؛ لأنَّ عاقِرَها إنَّما عقَرَها برِضاهُم ورأيِهم؛ ولذلك عمَّهُمُ العذابُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٥٩).

- والفاءُ في ﴿فَأَصۡبَحُواْ﴾ فَصيحةٌ، أي: فعقَروها؛ فَرَأَوُا العذابَ فنَدِموا، فأخَذَهُمُ العذابُ[1].

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

- عطَفَ قولَه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ بفاءِ التَّعقيبِ على ﴿نَٰدِمِينَ﴾؛ لأنَّ العذابَ قد حَلَّ بهم سَريعًا[2].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨).

## الآيات (١٦٠-١٧٥)

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَتَأْتُونَ﴾: أي: أتَنكِحونَ، والإتيانُ يُقالُ للمَجيءِ بالذَّاتِ وبالأمرِ وبالتَّدبيرِ[١].

﴿وَتَذَرُونَ﴾: أي: تَترُكون وتَدَعون، وفلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه؛ لِقِلَّةِ اعتِدادِه به[٢].

﴿عَادُونَ﴾: أي: مُتجاوِزون لحُدودِ اللهِ، ومُعتَدون، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ[٣].

﴿ٱلْقَالِينَ﴾: أي: المُبغِضينَ المُنكِرين، وأصلُ القلي: شِدَّةُ البُغضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٣، ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٠،٦٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣١)، =

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقينَ في العَذابِ، والغابرُ مِن الأضْدادِ؛ يُقالُ: غابرٌ للباقي، و: غابرٌ للماضي، وأصلُ (غبر): يدُلُّ على البَقاءِ(١).

﴿فَسَآءَ﴾: أي: قَبُحَ، والسُّوءُ: اسمٌ جامعٌ للآفاتِ، وأصلُ (سوء): يدُلُّ على قُبحٍ(٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ لوطٍ عليه السلامُ مع قَومِه، فيقولُ: كذَّبتْ قَومُ لُوطٍ بجَميعِ رسُلِ اللهِ بتَكذيبِهم نبيَّهم لوطًا، حينَ قال لهم أخوهم لوطٌ: ألَا تتَّقون اللهَ، إنِّي لكم رسولٌ مِن الله، أمينٌ على وَحْيه، فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم جزاءً ولا ثوابًا؛ ما ثوابي إلَّا على اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى أنَّ نبيَّه لوطًا عليه السلامُ نهَى قومَه عن أبرزِ الرذائلِ المتفشِّيةِ فيهم، وأنَّه قال لهم: أتُواقِعونَ الذُّكورَ مِن النَّاسِ ولم يَسبِقْكم إلى فعلِ ذلك أحدٌ مِن الخَلقِ، وتَتركونَ ما خلَقَه لكم ربُّكم مِن نِسائِكم؟! بل أنتم قَومٌ مُجاوِزونَ الحَدَّ في معصيةِ اللهِ. فقال قَومُ لوطٍ له متوعِّدينَ: لَئِنْ لم تَنْتَهِ -يا لوطُ- عن

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤).

إنكارِك علينا إتيانَ الذُّكورِ، لَتكونَنَّ مِن المطرودينَ مِن قَريتِنا. قال لوطٌ لهم: إنِّي لِما تَعمَلونَه مِن الفاحِشةِ مِن المُبغِضين التَّارِكين، ثمَّ دعا ربَّه عزَّ وجلَّ قائلًا: رَبِّ نجِّني وأهلي مِن العذابِ الذي تُنزِلُه على قَومي، فأجاب الله تعالى دعاءَه، قال سبحانَه: فنجَّيْناه وأهلَه كُلَّهم، إلَّا زوجَتَه العَجوزَ أهلَكْناها مع قَومِها الباقينَ في العذابِ، ثمَّ أهلَكْنا قومَ لُوطٍ، وأنزَلْنا عليهم حجارةً مِن السَّماءِ، فبِئسَ مطَرُ القَومِ الذين أنذَرَهم نبيُّهم.

إنَّ في إهلاكِ قَومِ لُوطٍ لَدَلالةً واضِحةً على صِدقِ رَسولِه، وعِبرةً لِمن يعتبِرُ، وما كان أكثَرُ قَومِ لوطٍ مُؤمِنينَ، وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعذابِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾.

أي: كذَّبت جماعةُ قَومِ لُوطٍ[1] بجَميعِ رُسُلِ اللهِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴾ [الحج: ٤٢، ٤٣].

﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾.

أي: حينَ قال لهم أخوهم لوطٌ[3]: .....

---

(١) القومُ في معنى الجماعةِ أو الأُمَّةِ أو القبيلةِ؛ لذا قال: ﴿كَذَّبَتْ﴾ بالتأنيثِ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٧).

(٣) قال البقاعي: (﴿قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ أي: في السُّكنى في البلدِ، لا في النسَبِ؛ لأنَّه ابنُ أخي إبراهيمَ عليه السلامُ، وهما مِن بلادِ الشرقِ مِن بلادِ بابلَ، وكأنَّه عبَّرَ بالأُخوَّةِ؛ لاختيارِه لمجاورتِهم، =

أَلَا تتَّقون اللهَ، وتَحذَرونَ عِقابَه[١]؟

﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ ﴾.

أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحْيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأبلِّغُكم ما أُرسِلتُ به إليكم بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ[٢].

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه[٣].

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾.

أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ[٤].

﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

أي: ما أرجو ثَوابي إلَّا مِن اللهِ الخالِقِ الرَّازِقِ، المالكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ

---

= ومناسبتِهم بمُصاهرتِهم، وإقامتِه بيْنَهم في مدينتِهم مدَّةً مديدةً، وسنينَ عديدةً، وإتيانِه بالأولادِ مِن نسائِهم، مع موافقتِه لهم في أنَّه قُرَويٌّ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((حاشية الخفاجي)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

دونَ خَلقِه[١].

﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾.

أي: أتَنكِحونَ الذُّكورَ مِن النَّاسِ؟! لم يَسبِقْكم إلى ابتِداعِ هذه الفاحشةِ أحدٌ[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

قال البيضاوي: (﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أتأتون -مِن بينِ مَن عَداكم مِن العالَمينَ- الذُّكْرانَ، لا يُشارِكُكم فيه غيرُكم، أو: أتأتونَ الذُّكرانَ مِن أولادِ آدمَ مع كثرتِهم، وغلبةِ الإناثِ فيهم كأنهنَّ قد أعوَزْنَكم، فالمرادُ بـ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على الأوَّلِ كلُّ مَن يُنكَحُ، وعلى الثاني الناسُ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٧).

قال الشوكاني: (﴿ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهم بنو آدمَ، أو كلُّ حيوانٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ (العالَمينَ): الناسُ مِن بني آدمَ: ابنُ جرير، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والألوسي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٥٩).

وقال الزمخشري: (أراد بـ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: الناسَ، أي: أتأتونَ مِن بينِ أولادِ آدمَ عليه السلامُ -على فَرطِ كثرتِهم، وتفاوتِ أجناسِهم، وغلَبةِ إناثِهم على ذكورِهم في الكثرةِ- ذُكْرانَهم، كأنَّ الإناثَ قد أعوَزْنَكم!). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٢٩).

وقال ابن عاشور: (فالمعنى: مفصولينَ مِن العالَمينَ، لا يماثِلُكم في ذلك صِنفٌ مِن العالَمينَ. وهذا المعنى جوَّزه في «الكشَّاف» ثانيًا، وهو أوفَقُ بمعنى: العالَمينَ، الذي المختارُ فيه أنَّه جمعُ (عالَم)، بمعنى النوعِ مِن المخلوقاتِ... والمعنى: أتأتون الذُّكرانَ مخالِفينَ جميعَ العالَمينَ مِن الأنواعِ التي فيها ذكورٌ وإناثٌ؛ فإنَّها لا يوجَدُ فيها ما يأتي الذكورَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٩).

=

كما قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١].

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾.

أي: وتَترُكونَ ما خلَقَه لكم ربُّكم مِن نسائِكم[1]، وقد أَحَلَّ لكم الاستِمتاعَ بهنَّ[2]!

---

= وقال البقاعي: (ولعلَّهم كانوا يفعلون بالذُّكورِ مِن غيرِ الآدميِّينَ؛ توغُّلًا في الشَّرِّ، وتجاهرًا بالتهتُّكِ؛ لقولِه: ﴿مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: كُلِّهم، أو يكونُ المعنى: مِن بيْنِ الخلائقِ، أي: أنَّكم اختصَصْتُم بإتيانِ الذُّكرانِ، لم يفعَلْ هذا الفِعلَ غيرُكم مِن الناكحينَ مِن الخَلقِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٨١).

وقال ابنُ كثير: (نهاهم عن معصيةِ الله، وارتكابِ ما كانوا قد ابتدعوه في العالَم، ممَّا لم يسبِقْهم الخلائقُ إلى فِعلِه، مِن إتيانِ الذُّكرانِ دونَ الإناثِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٧).

(١) قال أبو حيان: (﴿مِّنْ﴾ إمَّا للتَّبيينِ لقولِه: ﴿مَا خَلَقَ﴾، وإمَّا للتبعيضِ: أي: العضوِ المخلوقِ للوطءِ، وهو الفرْجُ، وهو على حذفِ مضافٍ، أي: وتذرونَ إتيانَ. فإن كان ﴿مَا خَلَقَ﴾ لا يُرادُ به العضوُ، فلا بدَّ مِن تقديرِ مضافٍ آخَرَ، أي: وتَذَرونَ إتيانَ فروجِ ما خلَق). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٣).

ممَّن قال: إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾: فروجُ النساءِ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، وابن أبي زمنين، والواحدي، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣١).

وممَّن قال في الجملةِ: إنَّ (مِنْ) هنا: بيانيَّةٌ، والمعنى تأتون الذكورَ، وتَدَعون النِّساءَ: أبو حيان، وأبو السعود، والبقاعي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٠).

وقال السمرقندي: (﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ يعني: مِن نسائِكم). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٨٥)، ((الوسيط)) =

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾.

أي: بل أنتم قَومٌ مُجاوِزونَ الحَدَّ في معصيةِ اللهِ، وتَتجاوَزونَ ما أحَلَّه لكم ربُّكم إلى ما حَرَّمه عليكم[1].

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا اتضحَ الحقُّ، وعُرِفَ المرادُ -وكان غريبًا عندَهم- وتَشَوَّفَ السَّامِعُ إلى جوابِهم؛ استُؤنِفَ الإخبارُ عنه، فقيل إعلامًا بانقطاعِهم، وأنَّهم عارفون أنَّه لا وجْهَ لهم في ذلك أصلًا؛ لعدولِهم إلى الفُحشِ[2]:

﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ ١٦٧﴾.

أي: قال قَومُ لوطٍ: لئِنْ لم تترُكْ -يا لوطُ- نَهْيَك وإنكارَك علينا إتيانَ الذُّكورِ،

---

= للواحدي (٣/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٠).

قال البقاعي: (﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ أي: تركتُم الأزواجَ بتعدِّي الفعلِ بهنَّ، وتجاوُزِه إلى الفِعلِ بالذُّكرانِ، وليس ذلك ببِدْعٍ مِن أمرِكم؛ فإنَّ العدوانَ -الذي هو مجاوَزةُ الحَدِّ في الشرِّ- وَصْفٌ لكم، أنتم عريقونَ فيه؛ فلذلك لا تَقِفونَ عندَ حَدٍّ حَدَّه اللهُ تعالى). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٨٢).

وقال ابنُ عثيمين: (قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ «بل» للإضرابِ، والإضرابُ هنا كأنَّه قال: لا تأتون الذُّكرانَ فِطرةً ولا عملًا عاديًّا محبوبًا إلى الفِطَرِ، ولكِنَّ الذي حمَلكم على هذا هو العدوانُ المجَرَّدُ -والعياذُ باللهِ- متجاوزينَ الحلالَ إلى الحرام، فبَيَّن لهم لوطٌ عليه الصلاةُ والسلامُ أنَّ ما فعَلوه أمرٌ مُستنكَرٌ عقلًا، ومستنكَرٌ شرعًا وعُرفًا؛ لأنَّ العدوانَ لا شَكَّ أنَّ كُلَّ أحدٍ يُنكِرُه، وهؤلاء مُعتَدُونَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٢).

لَتكونَنَّ مِن المطرودينَ مِن قَريتِنا[١].

كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ١٦٨﴾.

أي: قال لوطٌ لِقَومِه: إنِّي لِما تَعمَلونَه مِن الفاحِشةِ مِن المُبغِضينَ له أشَدَّ البُغضِ، التَّاركينَ فِعْلَه، المنكِرينَ له[٢].

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ١٦٩﴾.

أي: قال لوطٌ داعيًا رَبَّه: ربِّ نجِّني وأهلي مِن عذابِ قَومي حينَ تُنزِلُه عليهم[٣].

﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ١٧٠﴾.

أي: فنجَّينا مِنَ العذابِ لوطًا وأهلَه كُلَّهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٢، ٢٦٣).

قال ابنُ عاشور: (هدَّدوه بالإخراجِ مِن مدينتِهم؛ لأنَّه كان مِن غيرِ أهلِ المدينةِ، بل كان مُهاجِرًا بيْنَهم، وله صِهرٌ فيهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤١)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥].

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت زوجتُه مُندَرِجةً في الأهلِ، وكان ظاهرُ دعائِه دخولَها في التَّنجيةِ، وكانت كافرةً؛ استُثنِيَتْ في قَولِه[1]:

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

أي: إلَّا زَوجتَه العَجوزَ فلم نُنْجِها، وهَلَكَت مع قَومِها الباقينَ في العَذابِ[2].

---

= (٦/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالغابرينَ: الباقون في العذاب: مقاتلُ بن سليمان، والواحدي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، وقتادةُ، وعبدُ الرحمن بنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٠٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣١٧).

قال ابنُ عطية: (وقَولُه ﴿فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ معناه: في الباقينَ؛ فإمَّا أنْ يريدَ في الباقينَ مِن لِدَاتِها وأهلِ سِنِّها، وهذا تأويلُ أبي عبيدةَ، وإمَّا أنْ يريدَ في الباقينَ في العذابِ النازلِ بهم، وهذا تأويلُ قتادةَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤١). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٨٩).

وقال ابنُ عثيمين: (الغابِرُ: يُطلَقُ على مَعانٍ؛ منها: الباقي، ومنها: الماضي أيضًا، فيكونُ مِن =

كما قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[الأعراف: ٨٣].

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر نجاتَه المفهِمةَ لهلاكِهم؛ صَرَّح به على وجهٍ هَوَّلَه بأداةِ التَّراخي؛ لِما عُلِمَ غيرَ مَرَّةٍ أنَّه كان عَقِبَ خُروجِه، لم تَتخلَّلْ بيْنَهما مُهلةٌ، فقال[1]:

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾.

أي: ثمَّ أهلَكْنا قومَ لوطٍ[2].

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ﴾.

أي: وأنزَلْنا عليهم حِجارةً مِن السَّماءِ[3].

---

= الأضْدادِ، وهي الكلماتُ التي تَصلُحُ للشَّيءِ ولِضِدِّه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٥).

قال الشوكاني: (الغابِر يكونُ بمعنَى الماضي، ويكونُ بمعنَى الباقي، فالمعنَى: إلَّا عجوزًا في الباقينَ في العذابِ، أوِ الماضِينَ الَّذينَ قد هَلَكوا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

قال ابن عاشور: (التَّدميرُ: الإصابةُ بالدَّمارِ، وهو الهلاكُ؛ وذلك أنَّهم استُؤْصِلوا بالخَسفِ وإمطارِ الحجارةِ عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

وبنحوِ ذلك قال الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣).

وقال السمعاني: (التدميرُ: هو الإهلاكُ بوَصْفِ التَّنكيلِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾.

أي: فبئسَ المطَرُ الذي أمطَرْناه على قَومِ لوطٍ الذين أنذَرَهم نبيُّهم عذابَ اللهِ فكَذَّبوه[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان في جَريِ المكذِّبينَ والمصَدِّقينَ على نظامٍ واحدٍ مِن الهَلاكِ والنَّجاةِ أعظمُ عبرةٍ وأكبرُ موعظةٍ؛ أشار إلى ذلك بقَولِه[٢]:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ قَومِ لوطٍ لَدَلالةً واضِحةً على صِدقِ رَسولِه، وعِبرةً وعِظةً لِمُرتكِبِ الفواحِشِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧].

---

= السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٤).

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان مَن أتى بعْدَ هذه الأمم -كقُريشٍ ومَن تَقَدَّمَهم- قد عَلِموا أخبارَهم، وضَمُّوا إلى بعضِ الأخبارِ نظرَ الدِّيارِ، والتوسُّمَ في الآثارِ؛ قال مُعَجِّبًا مِن حالِهم في ضلالِهم[1]:

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ لوطٍ مُؤمِنينَ[2].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

أي: وإنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يعاجِلُهم بعَذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قومًا إلَّا بعد إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه[3].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ينبغي لمُعَلِّمِ النَّاسِ إذا ذَكَر لهم الأبوابَ الممنوعةَ أنْ يَفتحَ لهم الأبوابَ الجائزةَ؛ حتى يَخرجَ الناسُ مِن هذا إلى هذا؛ فبعضُ الناسِ يَذكُرُ الأشياءَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

قال القرطبي: (لم يكن فيها مؤمِنٌ إلَّا بيتُ لوطٍ وابنَتاه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٥).

الممنوعةَ يقولُ: «هذا حرامٌ، هذا حرامٌ»، ولا يُبيِّنُ لهم الأبوابَ الجائزةَ، وانظرْ إلى لوطٍ عليه الصلاةُ والسلامُ قال لقَومِه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾؛ نهاهم عن الممنوعِ، وأرشدَهم إلى الجائزِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يُبغِضَ ما أبغضَه اللهُ؛ لأنَّ هذه طريقةُ الرُّسُلِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ هذا حالُ أهلِ الفجور؛ أنَّه إذا كان بيْنَهم مَن ينهاهم طلَبوا نفْيَه وإخراجَه[٣]! فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّ عادتَهم المستمِرَّةَ نفْيُ مَن اعترَض عليهم[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ التَّائبَ مِن عملِ قومِ لوطٍ مِن الجانبينِ، إنْ تابَ تابَ اللهُ عليه؛ فإنَّهم كانوا يفعلونَ الفاحشةَ بعضُهم ببعضٍ، ومعَ هذا فقد دعاهم جميعَهم إلى تقوى الله والتَّوبةِ منها، فلو كانت توبةُ المفعولِ به أو غيرِه لا تُقْبَلُ، لم يأمُرْهم بما لا يُقبَلُ[٥]! والخِطابُ وإن كان للفاعِلِ فإنَّه إنَّما خُصَّ به؛ لأنَّه صاحِبُ الشَّهوةِ والطَّلَبِ في العادةِ، بخلافِ المفعولِ به؛ فإنَّه لم تُخلَقْ فيه شَهوةٌ لذلك في الأصلِ، وإن كانت قد تَعرِضُ له لمَرضٍ طارئٍ، أو أجرٍ يأخُذُه مِن الفاعِلِ، أو

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٠٨).

لغَرضٍ آخَرَ. والله سُبحانَه وتعالى أعلَمُ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ هذا الفعلَ الفظيعَ مخالِفٌ للفِطرةِ، ولا يقعُ مِن الحيوانِ العَجَم! -وذلك على قولٍ في التفسيرِ- فهو عملٌ ابتدعوه ما فَعَله غيرُهم، ونحوُه قولُه تعالى في الآيةِ الأخرى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٢] [العنكبوت: ٢٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ أنَّ مِن بني آدمَ مَن تُقلَبُ طبيعتُه وتُصرَفُ حتى يَستحسِنَ الخبيثَ؛ لأنَّ هؤلاء هذا حالُهم[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ فيه دليلٌ على تحريمِ أدبارِ الزوجاتِ والمملوكاتِ، ومَن أجاز ذلك قد أخطأَ خطأً عظيمًا[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ فيه زيادةُ الإنكارِ فيما إذا كان للإنسانِ مندوحةٌ عن الحرامِ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ إيماءٌ إلى الاستِدلالِ بالصَّلاحيةِ الفِطريةِ لعَمَلٍ على بُطلانِ عَمَلٍ يُضادُّه؛ لأنَّه مُنافٍ للفِطرةِ، فهو مِن تغييرِ الشَّيطانِ وإفسادِه لسُنَّةِ الخلْقِ والتَّكوينِ، قال تعالى حكايةً

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٧).

عنه: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾[١] [النساء: ١١٩].

٨- قولُه تعالى: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ فيه جوازُ الاستِمتاعِ بالزَّوجةِ استمتاعًا مُطلَقًا ما عدا: الدبرَ، والفرجَ في الحيضِ[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ فيه أنه يبتدئُ باللِّينِ في تغييرِ المنكَرِ، فإنْ لم يَنفَعِ انتقلَ منه إلى ما هو أشدُّ؛ ولذلك انتقلَ لوطٌ مِن قولِه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ﴾ إلى قَولِه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ في مقامِ الذمِّ؛ تغليظًا للإنكارِ بعدَ لينِه[٣].

١٠- أنَّ مَن تجاوزَ الحلالَ إلى الحرامِ فهو عادٍ ظالمٌ لنَفْسِه ولغيرِه؛ لِقَولِه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ المعانِدينَ للرُّسُلِ إنَّما يَلجؤونَ إلى قوَّتِهم وسُلطتِهم، لا إلى العَقلِ والإقناعِ، وقال ذلك قومُ نوحٍ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، وكذلك أيضًا قاله فرعونُ لِموسى عليه السلامُ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقاله آزَرُ لابنِه إبراهيمَ: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]، كلُّ هذا ممَّا يدُلُّ على أنَّ هؤلاء الذين يُهَدِّدُون بالسُّلطةِ لا بالإقناعِ والعقلِ؛ هؤلاء لا حُجَّةَ لهم[٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أنَّه لا غِنى لأحدٍ عن دُعاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٠، ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ، وأمَّا قولُ بعضِ العارفِينَ الجاهلِين: «عِلْمُه بحالي، يُغني عن سؤالي»[١]! فهذا قولٌ باطلٌ؛ فاللهُ يَعلَمُ بحالِ كلِّ أحدٍ، ومع ذلك ما زالتِ الرُّسلُ وأتْباعُهم يَدْعونَ اللهَ تبارك وتعالى[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أنَّ القُرْبَ مِن الأنبياءِ والأولياءِ لا يُغْني الإنسانَ شيئًا؛ لأنَّ هذه زوجةُ نبيٍّ، ومع ذلك هَلَكَت مع مَن هَلكَ، فكَوْنُ الإنسانِ قريبًا مِن إنسانٍ وَلِيٍّ للهِ، لا يفيدُه شيئًا؛ فأبو لهبٍ عمُّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومع ذلك ما نَزَلَ مِن القرآنِ في أحدٍ مُعَيَّنٍ مِن الكُفَّارِ سِوى أبي لهبٍ عمِّ النَّبيِّ عليه الصلاةُ والسلامُ! وما نَزَل القرآنُ في تسميةِ شخصٍ بعَيْنِه مِن المسلمينَ إلَّا في زَيدِ بنِ حارثةَ -مَوْلًى مِن المَوالي- مِن أبعَدِ ما يكونُ عن الرَّسولِ عليه الصلاةُ والسلامُ، وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ قُربَ النَّسَبِ وقُربَ المُصاهَرةِ وغيره لا يُغْني عن الإنسانِ شيئًا[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ جُعِلَ لُوطٌ عليه السَّلامُ أخًا لقومِه، ولم يكُنْ مِن نسَبِهم، وإنَّما كان نزيلًا فيهم، وهو ابنُ أخي إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ولكنَّه لَمَّا استوطَنَ بلادَهم، وعاشَرَ فيهم، وحالَفَهم، وظاهَرَهم؛ جُعِلَ أخًا لهم، وقال تعالى في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ [ق: ١٣]، وهذا مِن

(١) قال ابن تيميَّةَ: (وما يُروى أنَّ الخليلَ لَمَّا أُلقِيَ في المنْجَنيقِ قال له جبريلُ: سَلْ، قال: «حسْبي مِن سؤالي، عِلْمُه بحالي» ليس له إسنادٌ معروفٌ، وهو باطلٌ، بل الذي ثَبَت في الصحيحِ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه قال: «حسْبيَ اللهُ ونِعمَ الوكيلُ»). ((مجموع الفتاوى)) (١/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٨، ٢٦٩).

إطلاقِ الأُخُوَّةِ على مُلازَمةِ الشَّيءِ ومُمارَستِه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ استِفهامُ إنكارٍ وتقريعٍ وتوبيخٍ[٢].

- والإتيانُ هنا: كِنايةٌ عن وَطْءِ الرجالِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم﴾ هو على حذْفِ مُضافٍ، أي: وتَذَرونَ إتيانَ، فإنْ كان ما خلَقَ لا يُرادُ به العُضوُ؛ فلا بُدَّ مِن تَقديرِ مضافٍ آخَرَ، أي: وتَذرونَ إتيانَ فُروجِ ما خلَقَ[٤]؛ ففي قولِه: ﴿مَا خَلَقَ لَكُمْ﴾ إبهامٌ قد أراد به أَقْبالَهنَّ، وفي ذلك مُراعاةٌ للحِشمةِ والتصَوُّنِ[٥].

- وكلمةُ (مِن) في قولِه: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾ للبَيانِ -إنْ أُريدَ بها جنسُ الإناثِ. وللتبعيضِ -إنْ أُريدَ بها العضوُ المباحُ منهُنَّ-؛ تَعريضًا بأنَّهم كانوا يفعلونَ ذلك بنسائِهم أيضًا[٦]. وقيل: يتعيَّنُ حَمْلُ (مِن) على البعضيَّةِ؛ فيكونُ المنكَرُ عليهم أمرَيْنِ، كلُّ واحدٍ منهما مُستقِلٌّ بالإنكارِ؛ أحدُهما: إتيانُ الذُّكْرانِ، والثاني: مُجانَبةُ إتيانِ النساءِ في المأتَى؛ رغبةً في إتيانِهنَّ في غيرِه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٢١، ١٢٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٣٠).

- و﴿بَلۡ﴾ لإضرابِ الانتِقالِ مِن مَقامِ الموعظةِ والاستدلالِ إلى مَقامِ الذَّمِّ؛ تغليظًا للإنكارِ بعْدَ لينِه(١).

- وجاء تَصديرُ الجُملةِ بضَميرِ الخِطابِ ﴿أَنتُمۡ﴾؛ تَعظيمًا لقُبحِ فِعلِهم، وتنبيهًا على أنَّهم هم مختصُّونَ بذلك، كما تقولُ: أنتَ فعلتَ كذا، أي: لا غيرُكَ(٢).

- والإتيانُ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (بلْ كنتُمْ عادينَ): مبالَغةٌ في تَحقيقِ نسبةِ العُدوانِ إليهم. وفي جعْلِ الخبرِ ﴿قَوۡمٌ عَادُونَ﴾ دُونَ اقتصارٍ على ﴿عَادُونَ﴾: تَنبيهٌ على أنَّ العُدوانَ سَجِيَّةٌ فيهم، حتَّى كأنَّه مِن مُقَوِّماتِ قوميَّتِهم(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فقولُهم هذا كقَولِ قَومِ نُوحٍ لنُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمَرۡجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، إلَّا أنَّ هؤلاءِ قالوا: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾، فهدَّدوهُ بالإخراجِ مِن مَدينتِهم؛ لأنَّه كان مِن غيرِ أهلِ المدينةِ، بلْ كان مُهاجِرًا بيْنَهم، وله صِهْرٌ فيهم(٤).

- ولَمَّا كان لِمَا له مِن العَظَمةِ بالنبُوَّةِ والأفعالِ الشَّريفةِ التي توجِبُ إجلالَه وإنكارَ كلِّ مَن يَسمَعُهم أنْ يَخرجَ مِثلُه، زادوا في التأكيدِ فقالوا: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق))(١٩/ ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٢).

- وصِيغةُ ﴿مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ أبلَغُ مِن (لَنُخْرِجَنَّكَ)؛ فهي تُفيدُ أنَّه معدودٌ في زُمْرتِهم، ومشهورٌ بأنَّه مِن جُملتِهم[1]، كأنَّهم يُهدِّدونَه بما هو أعظَمُ ترويعًا له، يعني: إنَّنا أخرَجْنا غيرَك، وستكونُ أنت مِن جملةِ المُخرَجينَ؛ لأنَّ لنا قدرةً وسلطةً على إخراجِك[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾

- قولُه: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ أبلَغُ -أيْ: أقْوَى- مِن أنْ يقولَ: (إنِّي لِعَمَلِكُمْ قالٍ)؛ لدَلالتِه على أنَّه مَعدودٌ في زُمرتِهم، ومشهورٌ بأنَّه مِن جُملتِهم. ويجوزُ أنْ يُريدَ: مِنَ الكاملينَ في قِلاكُمْ. والتَّعريفُ في اللَّامِ على الأوَّلِ: للعَهدِ، وعلى الثاني: للجِنسِ[3].

- والعُدولُ إلى الصِّفةِ في قَولِه: ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾، وقوله: ﴿مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾ عُدولٌ عن الجُملةِ الفعليَّةِ إلى الصِّفةِ، وكثيرًا ما ورد في القرآنِ -خُصوصًا في هذه السُّورةِ- العُدولُ عن التعبيرِ بالفِعلِ إلى التَّعبيرِ بالصِّفةِ المشتقَّةِ، ثمَّ جَعْلُ الموصوفِ بها واحدًا مِن جمعٍ؛ كقولِ فِرعونَ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وأمثالُه كثيرةٌ، والسِّرُّ في ذلك أنَّ التعبيرَ بالفعلِ إنَّما يُفْهِمُ وُقوعَه خاصَّةً، وأمَّا التعبيرُ بالصِّفةِ ثمَّ جَعْلُ الموصوفِ بها واحدًا مِن جمْعٍ؛ فإنَّه يُفهِمُ أمرًا زائدًا على وُقوعِه، وهو أنَّ الصِّفةَ المذكورةَ كالسِّمَةِ للمَوصوفِ ثابتةَ العُلوقِ به، كأنَّها لقَبٌ، وكأنَّه مِن طائفةٍ صارَتْ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٠).

هذا النوعِ المخصوصِ المشهورِ ببعضِ السِّماتِ الرديئةِ، استمِعْ إلى قولِه تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة: ٨٧] كيف ألحقَهم لقبًا رديئًا، وصيَّرهم مِن نوعِ رَذْلٍ مشهورٍ بِسِمةِ التخلُّفِ، حتَّى صارت له لقبًا لاصقًا به، وهذا عامٌّ في كلِّ ما يَرِدُ عليكَ ووَرَدَ فيما مضَى مِن أمثالِ ذلكَ؛ فتدبَّرْه، واقْدُرْه قَدْرَه(١).

٦- قولُه تعالى: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾، أي: مِن عَذابِ ما يَعملونَه؛ ففي الكَلامِ إيجازٌ بالحَذْفِ، وفيه تَعريضٌ بعَذابٍ سيَحِلُّ بهم(٢).

٧- قولُه تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ﴾ للتَّعقيبِ، أي: كانتْ نَجاتُه عَقِبَ دُعائِه(٣).

٨- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ إهلاكَ المكذِّبينَ أجدَرُ بأنْ يُذْكَرَ في مَقامِ الموعظةِ مِن ذِكْرِ إنجاءِ لوطٍ والمؤمنينَ(٤).

٩- قولُه تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾

- سُمِّيَ ما أصابَهم مِنَ الحجارةِ مطرًا؛ لأنَّهُ نزَلَ عليهم مِنَ الجوِّ(٥).

- وفي قولِه: ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تَسجيلٌ عليهم بأنَّهم أُنذِروا فلَمْ يَنتذِروا(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٢١، ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٧٦-١٩١)

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لْـَٔيْكَةِ﴾: أي: الشَّجَرِ المُلتَفِّ المُجتَمِعِ، وأصلُ (أيك): يدُلُّ على اجتماعِ شَجَرٍ[١].

﴿ٱلْمُخْسِرِينَ﴾: أي: النَّاقِصينَ الكَيلَ، وأصلُ (خسر): يدُلُّ على نَقصٍ[٢].

﴿بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾: أي: المِيزانِ العَدلِ السَّوِيِّ، وأصلُ (قسط) هنا: يدُلُّ على العَدلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥، ٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ﴾: أي: لا تَنقُصوا، والبَخسُ: نَقصُ الشَّيءِ على سَبيلِ الظُّلمِ، وأصلُ (بخس): يدُلُّ على نَقصٍ[١].

﴿تَعۡثَوۡاْ﴾: أي: تُفسِدُوا، مِن العُثُوِّ: وهو أشَدُّ الفَسادِ[٢].

﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾: أي: الخَلْقَ، يُقالُ: جُبِلَ فُلانٌ على كذا، أي: خُلِقَ[٣].

﴿كِسَفًا﴾: أي: قِطَعًا، الواحِدةُ كِسْفةٌ، وأصلُ (كسف): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[٤].

﴿يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾: الظُّلَّةُ: سحابةٌ تُظِلُّ، وأكثرُ ما يُقالُ فيما يُستوخَمُ ويُكرهُ، أرسَل اللهُ سُبحانَه سحابةً فهَرَبوا إليها لِيَستظِلُّوا بها، فلمَّا صاروا تحتَها صِيحَ بهم فهَلَكوا، وأصلُ (ظلل): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشَيءٍ[٥].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر:((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٥٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩).

﴿إِنْ﴾ مخفَّفةٌ مِن الثَّقيلةِ، واللامُ في ﴿لَمِنَ﴾ هي الفارِقةُ -أي: تفرقُ بينَ (إن) النافيةِ و(إن) المخفَّفةِ مِن الثقيلةِ-، أي: وإنَّ الشَّأنَ نظُنُّك مِن الكاذبينَ في الدعوى. خلافًا للكوفيِّينَ؛ فـ ﴿إِنْ﴾ عندَهم نافيةٌ بمعنى (ما)، واللامُ في ﴿لَمِنَ﴾ بمعنى (إلَّا) أي: ما نظُنُّك إلَّا مِنَ الكاذبينَ. وعلى كِلا الوَجهينِ فـ (مِنَ الكاذبينَ) متعلِّقٌ بمحذوفٍ مَفعولٌ به ثانٍ لـ (نظُنُّ)[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى جانبًا مِن قصةِ شُعَيبٍ عليه السلامُ، وهي آخرُ القصصِ المذكورةِ في هذه السورةِ، فيقولُ: كذَّب أصحابُ الشَّجَرِ الملتَفِّ المُرسَلينَ، حينَ قال لهم رَسولُهم شُعَيبٌ: ألَا تتَّقونَ الله، وتَحذَرونَ سَخَطَه؟! إنِّي لكم رسولٌ مِن الله، أمينٌ على وحيِه، فأبلِّغُكم به بلا زيادةٍ ولا نقصٍ، فاتَّقوا عِقابَ الله وأطيعوني، وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم ثوابًا ولا جَزاءً، ما ثوابي إلَّا على اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يَذكرُ الله تعالى أنَّ نبيَّه شعيبًا عليه السلامُ نهَى قومَه عن أبرزِ الرذائلِ المتفشِّيةِ فيهم، وأنَّه قال لهم: أَتِمُّوا -أيُّها النَّاسُ- الحَقَّ كاملًا عندَ الكَيلِ، ولا تكونوا ممَّن يَنقُصُ النَّاسَ حُقوقَهم، وَزِنوا للنَّاسِ بالميزانِ العادِلِ المُستقيمِ الذي لا انحرافَ فيه، ولا تَنقُصوا النَّاسَ شَيئًا مِن حُقوقِهم، ولا تُفسِدوا في الأرضِ، واتَّقوا اللهَ الذي خلَقَكم أنتم والخَلقَ الأوَّلينَ مِن قَبْلِكم.

قال قومُ شُعَيبٍ له: إنَّما أنت مِن المسحورينَ، فتَهذِي بما لا معنى له، وما أنت إلَّا بشَرٌ مِثلُنا، وإنَّا لَنظُنُّك مِن الكاذبينَ في زَعمِك أنَّك مُرسَلٌ مِن عندِ اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١١٧)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٩/ ١٢٠).

فأنزِلْ علينا قِطَعًا مِن السَّماءِ تُهلِكُنا إن كنتَ صادِقًا فيما تقولُ!

قال شُعَيبٌ لهم: ربِّي أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِن الشِّركِ والمعاصي، وهو مُجازيكم عليها، ومُعَذِّبُكم بها إنْ شاء.

فكذَّب قَومُ شُعَيبٍ نبيَّهم، فأخَذَهم اللهُ بعذابٍ أظَلَّهم فهَلَكوا مِن تحتِه، إنَّ ذلك العذابَ كان عذابَ يومٍ شَديدِ الأهوالِ.

إنَّ في إهلاكِ قَومِ شُعَيبٍ لَدَلالةً واضِحةً على صِدقِ شُعَيبٍ، وعِبرةً وعِظةً لِمن يعتبِرُ، وما كان أكثَرُ قَومِ شُعَيبٍ مُؤمِنينَ، وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعذابِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦﴾.

أي: كذَّب أصحابُ الشَّجَرِ المُلتَفِّ[1] بجَميعِ رُسُلِ اللهِ[2].

---

(١) قال القرطبي: (الأيْكُ: الشجَرُ الملتَفُّ الكثيرُ، الواحدةُ: أَيْكةٌ. ومَن قرأ: «أصحابُ الأيْكةِ» فهي الغَيْضةُ. ومَن قرأ: «لَيْكة» فهو اسمُ القريةِ. ويُقالُ: هما مِثلُ بَكَّةَ ومكَّةَ، قاله الجوهريُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٤).

وقال أيضًا: (لا نعلَمُ بيْنَ أهلِ اللغةِ اختلافًا أنَّ الأَيْكةَ الشَّجَرُ الملتَفُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

قال ابن تيميَّةَ: (ذكَرَ اللهُ سُبحانه وتعالى قِصَّةَ شُعَيبٍ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غيرِ موضعٍ مِن كتابِه، وإرسالَه إلى أهلِ مَدْيَنَ، وقال في موضعٍ آخَرَ: ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٦]، فأكثَرُ الناسِ يقولون: إنَّهم أهلُ مَدْيَنَ، ومِن الناسِ مَن يَجعلُها قصَّتينِ). ((جامع الرسائل)) (١/ ٦١).

وممَّن قال بأنَّ أصحابَ الأيْكةِ هم أهلُ مَدْيَنَ: ابنُ كثيرٍ، والسعديُّ. وعزاه الشنقيطيُّ إلى =

= أكثرِ أهلِ العلمِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣).

قال ابن كثير: (أصحابُ الأيكةِ هم أهلُ مَدْيَنَ على الصَّحيحِ، وكان نبيُّ الله شعيبٌ مِن أنفُسِهم، وإنَّما لم يقُلْ هنا: «أخوهم شعيبٌ»؛ لأنَّهم نُسِبوا إلى عبادةِ الأيْكةِ، وهي شجرةٌ. وقيل: شجَرٌ ملتَفٌّ كالغَيضةِ كانوا يَعبُدونها... والصَّحيحُ أنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ، وُصِفوا في كلِّ مقامٍ بشَيءٍ؛ ولهذا وعَظَ هؤلاء وأمَرَهم بوفاءِ المكيالِ والميزانِ، كما في قصَّةِ مَدْيَنَ سواءً بسواءٍ؛ فدلَّ ذلك على أنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨، ١٥٩).

وقال أيضًا: (لَمَّا قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، لم يقُلْ: «إذْ قال لهم أخوهم شُعَيبٌ»، وإنَّما قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾، فقطَع نِسبةَ الأُخوَّةِ بيْنَهم؛ للمعنى الذي نُسِبوا إليه، وإن كان أخاهم نسَبًا. ومِن الناسِ مَن لم يتفطَّنْ لهذه النكتةِ، فظنَّ أنَّ أصحابَ الأيْكةِ غيرُ أهلِ مَدْيَنَ، فزعَم أنَّ شُعَيبًا عليه السَّلامُ بعَثه اللهُ إلى أُمَّتينِ). ((تفسير ابن كثير)). (٦/ ١٥٨، ١٥٩).

وممَّن قال بأنَّ أصحابَ الأيْكةِ هم غيرُ أهلِ مَدْيَنَ، وقد أُرسِل شعيبٌ إلى هؤلاء وهؤلاء: مقاتلُ ابنُ سليمانَ، واستظهره ابنُ عاشور، ورجَّحه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ٢٧٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ، والربيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨١١).

قال ابن عاشور: (الأظهرُ أنَّ أهلَ الأيْكةِ قبيلةٌ غيرُ مَدْيَنَ... والذي يشهدُ لذلك ويرجِّحُه أنَّ القرآنَ لَمَّا ذكَر هذه القصةَ لأهلِ مَدْيَنَ وصَف شعيبًا بأنَّه أخوهم، ولَمَّا ذكَرها لأصحابِ الأيْكةِ لم يَصِفْ شعيبًا بأنَّه أخوهم؛ إذ لم يكنْ شعيبٌ نسيبًا ولا صهرًا لأصحابِ الأيْكةِ، وهذا إيماءٌ دقيقٌ إلى هذه النكتةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٣، ١٨٤).

وقال ابن عثيمين: (وممَّا يدُلُّ على أنَّهم ليسوا أصحابَ مَدْيَنَ أنَّ العذابَ الذي أُخِذوا به غيرُ العذابِ الذي أُخِذ به أصحابُ مَدْيَنَ؛ فأصحابُ مَدْيَنَ أُخِذوا بالصَّيحةِ، وهؤلاء أُخِذوا بعذابِ الظُّلَّةِ... وهل معنى هذا أنَّ شعيبًا أُرسِلَ مرَّتينِ؟

الجوابُ: لا، بل أُرسِلَ مرَّةً واحدةً، لكنْ إلى قومَينِ؛ إلى هؤلاء وهؤلاء، ويجوزُ أن يكونَ هذا مِن بابِ التَّبَعِ، يعني: هذه القريةُ صغيرةٌ مثلًا، وكانت تابعةً لبلدتِه، ويدُلُّك على هذا أنَّ عمَلَهم واحدٌ؛ عَمَل هؤلاء، وعَمَل أهلِ مَدْيَنَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧٤).

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

أي: حينَ قال لهم شُعَيبٌ: ألَا تتَّقونَ اللهَ، وتَحذَرونَ عِقابَه[١]؟

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

أي: إنِّي لكم رَسولٌ مِن اللهِ، أمينٌ على وَحيِه الذي بعَثَني به إليكم، فأبلِّغُكم ما أُرسِلتُ به إليكم بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ[٢].

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾.

أي: فاتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعِقابَه، وأطيعوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه[٣].

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قَدَّمَ ما هو المقصودُ بالذاتِ، عَطَفَ على خبرِ «إنَّ» قولَه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ نفيًا لِمَا يُنَفِّرُ عنه[٤].

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

أي: وما أطلُبُ منكم على نُصحي لكم أيَّ ثوابٍ وجَزاءٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) =

﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ما أرجو ثوابي إلَّا مِن اللهِ الخالِقِ الرَّازِقِ، المالِكِ المدَبِّرِ لجميعِ العالَمينَ دونَ خَلقِه[1].

﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١﴾.

﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ﴾.

أي: قال شُعَيبٌ لِقَومِه: أتِمُّوا للنَّاسِ حقَّهم كامِلًا عندَ الكَيلِ[2].

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَهم بالإيفاءِ؛ نهاهم عن النقصِ على وجْهٍ أعمَّ، فقال[3]:

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾.

أي: ولا تكونوا ممَّن يَنقُصُ النَّاسَ حُقوقَهم[4].

---

= للبقاعي (١٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

قال البقاعي: (﴿مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ أي: الذين يُخسِرون... بنَقصِ الكَيلِ، أو غيرِه من أنواعِ النَّقصِ مِن كُلِّ ما يوجِبُ الغَبْنَ، فتكونوا مشهورينَ بذلك بينَ مَن يَفعَلُه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٨٧).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧٧).

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمرَ بالإيفاءِ؛ بيَّنَ أنَّه كيف يُفعَلُ[١].

وأيضًا لَمَّا أمرَ بوفاءِ الكَيلِ؛ أتبَعَه بمِثلِ ذلك في الوَزنِ، ولم يجمَعْهما؛ لِما للتَّفريقِ مِن التَّعريفِ بمزيدِ الاهتمامِ، فقال[٢]:

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾.

أي: وَزِنوا للنَّاسِ -إذا وزَنْتُم لهم- بالميزانِ العادِلِ، الذي لا مَيْلَ ولا انحرافَ فيه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

﴿وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمرَ بالوفاءِ في الوزنِ؛ أتبَعَه نهيًا عن تركِه عامًّا -كما فَعَل في الكيلِ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

قال ابنُ عاشور: (القِسْطاسُ: بضَمِّ القاف وبكسرها من أسماءِ العَدلِ، ومِن أسماء الميزانِ، ... وإن كان الوصفُ بـ ﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ يرجِّحُ أنَّ المقصودَ به الميزانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٥).

وقال ابن عثيمين: (الفَرقُ بيْنَ الوَزنِ وبينَ الكَيلِ: أنَّ ما قُدِّرَ بالحجمِ فهو كَيْلٌ؛ لأنَّ المِكْيالَ تضَعُ فيه الشيءَ فيكونُ حجمُه هكذا، وأمَّا ما يقَدَّرُ بالثِّقلِ فيُسمَّى وزنًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧٧).

لِيكونَ آكَدَ، فقال[١]:

﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾.

أي: ولا تَنقُصوا النَّاسَ شَيئًا مِن حُقوقِهم[٢].

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

أي: ولا تَسْعَوْا في الأرضِ بمعصيةِ اللهِ، وتُكثِروا فيها الفَسادَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٣).

قال ابن عاشور: (بخسُ أشياءِ النَّاسِ: غَبنُ منافِعِها، وذَمُّها بغيرِ ما فيها؛ لِيَضْطَرُّوهم إلى بَيْعِها بغَبنٍ... والبَخسُ: النَّقصُ والذمُّ... ومِن بَخسِ الأشياءِ أن يقولوا للذي يَعرِضُ سِلعةً سليمةً للبيعِ: إنَّ سِلعَتَك رديئةٌ؛ لِيَصرِفَ عنها الرَّاغبينَ فيَشتريَها برُخصٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٥). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٨).

قال الشوكاني: (والعثيُّ في الأرضِ: يشمَلُ كُلَّ ما يقعُ فيها مِن الإضرارِ بالنَّاسِ، فيدخُلُ فيه ما في السِّياقِ مِن نقصِ المكيالِ والميزانِ). ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٨٨).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقدَّم أمْرُه عليه السَّلامُ إيَّاهم بتقوى الله؛ أمَرَهم ثانيًا بتقوى مَن أوجَدَهم، وأوجَدَ مَن قبْلَهم؛ تنبيهًا على أنَّ مَن أوجدَهم قادِرٌ على أنْ يُعَذِّبَهم ويُهلِكَهم[١].

وأيضًا لَمَّا وَعَظَهم فأبلَغَ في وعظِهم بما خَتَمه بالنَّهيِ عن الفسادِ؛ خَوَّفَهم مِن سَطَواتِ اللهِ تعالى بما أحَلَّ بمَن هو أعظمُ منهم، فقال[٢]:

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾.

أي: واتَّقوا اللهَ الذي خلَقَكم، وخَلَق الخَلْقَ الأوَّلينَ مِن قَبْلِكم[٣].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الحاصِلُ ممَّا مضى الإعلامَ بالرسالةِ، والتحذيرَ مِن المخالفةِ؛ لأنَّها تؤدِّي إلى الضَّلالةِ، إلى أن خَتَمَ ذلك بالإشارةِ بالتعبيرِ بالجِبِلَّةِ إلى أنَّ عذابَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٥).

قال السعدي: (﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: الخليقةَ الأوَّلينَ، فكما انفرد بخَلقِكم، وخَلْقِ مَن قبْلَكم مِن غيرِ مُشارِكٍ له في ذلك، فأفرِدوه بالعبادةِ والتوحيدِ، وكما أنعَمَ عليكم بالإيجادِ والإمدادِ بالنِّعَمِ، فقابلوه بشُكرِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

وقال ابنُ عثيمين: (ذكَّرهم الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ بالذي خَلَقَهم، وخَلَقَ الخَلْقَ الأوَّلَ أيضًا؛ إشارةً إلى أنَّكم ستَزولون كما زال مَن قبْلَكم، فأنتم مخلوقونَ مِنَ العدَمِ، وتعودونَ إلى العدَمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٨).

تعالى عظيمٌ، لا يستعصي عليه صغيرٌ ولا كبيرٌ- أجابوه بالقَدحِ في الرِّسالةِ أولًا، وباستِصغارِ الوعيدِ ثانيًا[١].

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ ﴾.

أي: قال قَومُ شُعَيبٍ له: إنَّما أنت مِنَ المسحورينَ الذين بُولِغَ في سِحرِهم مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ، فلا عَقلَ لك، وإنَّما تَهذي بما لا مَعنى له[٢].

كما قال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ [هود: ٩١].

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا ﴾.

أي: وما أنت إلَّا آدميٌّ مِثلُنا، فكيف خَصَّك اللهُ بالرِّسالةِ مِن بيْنِنا حتى نتَّبِعَك[٣]؟!

﴿ وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾.

أي: ونحن نظُنُّك[٤] مِنَ الكاذِبينَ[٥] .....

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

(٤) قال ابن عاشور: (أُطلِقَ الظَّنُّ على اليقين... وهو إطلاقٌ شائعٌ، كقَولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ ﴾ [البقرة: ٤٦]، وقرينتُه هنا دخولُ اللام على المفعولِ الثاني لـ (ظَنَّ)؛ لأنَّ أصْلَها لامُ قَسَم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٦).

(٥) و ﴿إِنْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ﴾ -على مذهبِ الكوفيِّينَ- بمعنى (ما) النافيةِ. أي: وما نظُنُّك إلَّا مِن الكاذبينَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والبقاعي. يُنظر: =

في زَعمِك أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ[١].

﴿ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧ ﴾.

أي: فأنزِلْ علينا قِطَعًا مِن السَّماءِ تُهلِكُنا، إنْ كُنتَ صادِقًا في أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ[٢].

﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ ﴾.

---

= ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٩).

قال البقاعي: (والذي يقتضيه السياقُ ترجُّحُ مذهبِ الكوفيِّينَ هنا في أنَّ ﴿إِنْ﴾ نافيةٌ؛ فإنَّهم أرادوا بإثباتِ الواوِ في ﴿وَمَآ﴾ المبالغةَ في نفْيِ إرسالِه بتَعدادِ ما يُنافيه، فيكونُ مرادُهم أنَّه ليس لنا ظنٌّ يتوجَّهُ إلى غيرِ الكذبِ، وهو أبلغُ مِن إثباتِ الظنِّ به، ويؤيِّدُه تسبيبُهم عنه سؤالَه استهزاءً به، وتعجيزًا له إنزالَ العذابِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٨٩، ٩٠).

وقيل: المرادُ بها (إنْ) المخفَّفةُ مِن الثقيلةِ. وممَّن اختار ذلك: الشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧٩، ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٩).

قال السعدي: (هذا جراءةٌ منهم وظُلمٌ، وقَولٌ زُورٌ، قد انطَوَوْا على خلافِه؛ فإنَّه ما مِن رسولٍ مِن الرُّسُلِ واجَهَ قومَه ودعاهم، وجادَلهم وجادَلوه، إلَّا وقد أظهَرَ اللهُ على يديه مِن الآياتِ ما به يتيقَّنونَ صِدقَه وأمانتَه، خصوصًا شُعَيبًا عليه السلامُ، الذي يُسمَّى خطيبَ الأنبياء؛ لحُسنِ مراجعتِه قَومَه، ومجادلتِهم بالتي هي أحسَنُ؛ فإنَّ قومَه قد تيقَّنوا صِدقَه، وأنَّ ما جاء به حقٌّ، ولكِنَّ إخبارَهم عن ظَنٍّ كَذِبه كَذِبٌ منهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٠).

قال الرازي: (وهُم إنَّما طَلَبوا ذلك؛ لاستِبعادِهم وُقوعَه، فظَنُّوا أنَّه إذا لم يَقَعْ ظَهَر كذِبُه). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٢٨).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا طَلَبوا منه ما طلبوا؛ أحالَ عِلْمَ ذلك إلى اللهِ تعالى، وأنَّه هو العالِمُ بأعمالِكم، وبما تَستوجِبون عليها مِن العِقابِ، فهو يعاقِبُكم بما شاء[١].

وأيضًا لَمَّا كان عذابُ العاصي يتوقَّفُ على العِلمِ المُحيطِ بأعمالِه، والقُدرةِ على نَكالِه؛ استأنَفَ تعالى الحِكايةَ عنه في تَنبيهِه لهم على ذلك بقَولِه[٢]:

﴿ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ ﴾.

أي: قال شُعَيبٌ لِقَومِه: ربِّي أعلَمُ بما تَعمَلونَه مِنَ الشِّركِ والمعاصي، ونَقصِ الكَيلِ والميزانِ، وهو مُجازيكم بأعمالِكم، ومُعذِّبُكم بها إنْ شاء، وما علَيَّ إلَّا تبليغُكم[٣].

كما قال اللهُ تعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحج: ٦٨].

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مَحَطُّ كلامِهم كلِّه على تكذيبِهم له مِن غيرِ قدْحٍ في قُدرةِ الخالقِ؛ سَبَّبَ العذابَ عن تكذيبِهم، فقال[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٠، ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٠، ٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩١).

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾.

أي: فكذَّب قومُ شُعَيبٍ نبيَّهم، فأهلَكَهم اللهُ بعذابٍ أظلَّهم، فهلَكوا مِن تحتِه[1].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الحالُ مُوجِبًا للسؤالِ عن يومِ الظُّلَّةِ، قال تعالى مُهَوِّلًا لأمرِه، ومعظِّمًا لقَدْرِه[2]:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾.

أي: إنَّ عذابَ يومِ الظُّلَّةِ الذي أصاب قَومَ شُعَيبٍ كان عذابَ يومٍ عَظيمِ الأهوالِ[3].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٧).

قال ابن القيم: (أخبَر تعالى عن العذابِ الذي أصاب به قَومَ شُعيبٍ بثلاثة أمورٍ، كُلُّها مؤنَّثةُ اللفظِ؛ أحدُها: الرَّجفةُ في قَولِه في «الأعراف»: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٨]. الثاني: الظُّلَّةُ بقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ﴾ [الشعراء: ١٨٩]. الثالثُ: الصَّيحةُ: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ [هود: ٦٧]. وجمع لهم بيْنَ الثلاثةِ؛ فإنَّ الرجْفةَ بدأَتْ بهم، فأصحَروا [خرَجوا] إلى الفضاءِ خوفًا مِن سقوطِ الأبنيةِ عليهم، فصهَرتْهم الشمسُ بحَرِّها، ورُفِعَت لهم الظُّلَّةُ، فأُهرِعوا إليها يَستظِلُّون بها مِن الشَّمسِ، فنزَل عليهم منها العذابُ وفيه الصَّيحةُ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٢٦).

وقال ابنُ عاشور: (كان العذابُ مِن جنسِ ما سألوه، ومِن إسقاطِ شَيءٍ مِن السَّماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٧٤).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان لتوالي الإخبارِ بإهلاكِ هذه القُرونِ، وإبادةِ مَن ذُكِرَ مِن تلك الأممِ، مِن الرُّعبِ ما لا يبلغُ وصْفُه، ولا يمكِنُ لغيرِه سُبحانَه شرحُه؛ قال تعالى مشيرًا إليه تحذيرًا مِن مِثلِه[١]:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾.

أي: إنَّ في إهلاكِ قَومِ شُعَيبٍ لَدَلالةً واضِحةً على صِدقِ رَسولِه، وعِبرةً وعِظةً لِمن ينقُصُ في الكَيلِ والوَزنِ[٢].

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولم يكُنْ أكثَرُ قَومِ شُعَيبٍ مُؤمِنينَ[٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لهو العزيزُ القاهِرُ الغالِبُ، المُنتقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه، فلا يُعاجِلُهم بعذابِه، ومِن رحمتِه أنَّه يُرسِلُ رُسُلًا، ويُنزِّلُ معهم ما يُبَيِّنُ به ما يُرضيه وما يُسخِطُه، فلا يُهلِكُ قَومًا إلَّا بعْدَ إعذارِهم، ومِن رحمتِه أنَّه يُنجِّي أتْباعَ رُسُلِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٧، ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ خاطَب كلُّ رسولٍ به قومَه؛ إزاحةً للتهمةِ، وتمحيضًا للنصيحةِ؛ فإنَّها لا تنجعُ ما دامَت مشوبةً بالمطامعِ[١].

٢- قال الله تعالى حكايةً عن شعيبٍ عليه السلامُ: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ * وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ * وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ سلَكَ شُعَيبٌ عليه السَّلامُ في نهيِهم عن الفَسادِ مَسلَكَ التدرُّجِ، وهذا مِن أساليبِ الحِكمةِ في تهيئةِ النُّفوسِ بقَبولِ الإرشادِ والكَمالِ، فابتَدأ بنَهيِهم عن نوعٍ مِن الفسادِ فاشٍ فيهم، وهو التَّطفيفُ، ثمَّ ارتقَى فنهاهم عن جِنسِ ذلك النَّوعِ، وهو: أكلُ أموالِ النَّاسِ، ثمَّ ارتقَى فنهاهم عن الجِنسِ الأعلى للفَسادِ الشَّاملِ لجميعِ أنواعِ المفاسدِ، وهو: الإفسادُ في الأرضِ كُلِّه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ إنَّما لم يَقُلْ هنا: أخوهم شُعَيبٌ؛ لأنَّهم نُسِبوا إلى عبادةِ الأَيْكةِ[٣]، وذلك على اعتبارِ أنَّ مَدْيَنَ هم أصحابُ الأيْكةِ.

وقيل: لم يقُلْ: (أخوهم)؛ لأنَّه لم يكُنْ مِن أصحابِ الأيْكةِ في النَّسَبِ، فلمَّا ذكَر مَدْيَنَ قال ﴿أَخَاهُمۡ شُعَيۡبًا﴾؛ لأنَّه كان منهم[٤]، وذلك على اعتبارِ أنَّ مَدْيَنَ غيرُ أصحابِ الأيكةِ. وقيل غيرُ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨، ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٥).

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنَّما كان جوابُ هؤلاء الرُّسُلِ واحِدًا على صيغةٍ واحدةٍ؛ لأنَّهم مُتَّفِقونَ على الأمرِ بالتَّقوى، والطَّاعةِ، والإخلاصِ في العبادةِ، والامتِناعِ مِن أخذِ الأجرِ على تبليغِ الرِّسالةِ[١].

٣- الكَيلُ على ثلاثةِ أضرُبٍ: وافٍ، وطفيفٍ، وزائدٍ، فأمَرَ بالواجبِ الذي هو الإيفاءُ بقَولِه تعالى: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾، ونهى عن المُحَرَّمِ الذي هو التَّطفيفُ بقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾، ولم يَذكُرِ الزَّائدَ؛ لأنَّه إنْ فَعَلَه فقد أحسَنَ، وإنْ لم يَفعَلْه فلا إثمَ عليه[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ هذا عامٌّ في كلِّ حقٍّ يَثبُتُ لأحدٍ ألَّا يُهضَمَ، وفي كلِّ مِلْكٍ ألَّا يُغصَبَ عليه مالِكُه، ولا يُتحَيَّفَ منه، ولا يُتصَرَّفَ فيه إلَّا بإذنِه تصرُّفًا شرعيًّا[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الوفاءَ في العُقودِ هو ممَّا جاء في الشَّرائعِ السَّماويَّةِ السَّابقةِ واللَّاحِقةِ[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى صِفةَ إهلاكِهم في ثلاثةِ مَواطِنَ، كُلُّ موطنٍ بصِفةٍ تُناسِبُ ذلك السِّياقَ؛ ففي (الأعرافِ) ذكَرَ أنَّهم أخذَتْهم الرَّجفةُ، فأصبحوا في دارِهم جاثمينَ؛ وذلك لأنَّهم قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤٠٢).

[الأعراف: ٨٨]، فأرجَفوا بنبيِّ اللهِ ومَن اتَّبَعه، فأخذَتْهم الرَّجفةُ. وفي سورةِ (هودٍ) قال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٩٤]؛ وذلك لأنَّهم استَهزَؤوا بنبيِّ اللهِ في قولِهم: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧]، قالوا ذلك على سبيلِ التهَكُّم والازْدِراءِ، فناسَب أن تأتيَهم صَيحةٌ تُسكِتُهم، فقال: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾. وهاهنا قالوا: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، على وجهِ التعَنُّتِ والعنادِ، فناسَب أن يَحِقَّ عليهم ما استبعَدوا وُقوعَه: ﴿فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾[1].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كَرَّرَ سُبحانَه الخِتامَ بهذا الكَلامِ في هذه السُّورةِ ثمانيَ مرَّاتٍ؛ فلعلَّ مِن أسرارِه الإشارةَ إلى سبْقِ الرَّحمةِ للغَضَبِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ استِئنافٌ مِن كَلامِه، انتَقلَ به مِن غَرضِ الدَّعوةِ الأصليَّةِ بقولِه: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٧] إلى آخِرِه، إلى الدعوةِ التفصيليَّةِ بوَضْعِ قوانينِ المعامَلةِ بيْنَهم؛ فقدْ كانوا مع شِرْكِهم باللهِ يُطفِّفونَ المِكيالَ والميزانَ، ويَبخَسونَ أشياءَ الناسِ إذا ابتاعوها مِنهم، ويُفسِدونَ في الأرضِ[3].

- وصَوْغُ ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ أبلَغُ مِن (لا تكونوا مُخْسِرينَ)؛ لأنَّه يدُلُّ على الأمْرِ بالتبرُّؤِ مِن أهلِ هذا الصَّنيعِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ هذا تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصِ بعضِ الموادِّ بالذِّكْرِ؛ لغايةِ انهماكِهم فيها[١].

- وفي الكلامِ تَرَقٍّ؛ ذكَرَ أوَّلًا الأمْرَ بإيفاءِ الكيلِ، وأكَّدَهُ بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ﴾ على الطَّردِ والعكسِ، ثمَّ ترقَّى إلى الأمْرِ بالعدلِ في الموازينِ؛ فإنَّها أكثرُ استعمالًا مِنَ المكاييلِ، ثمَّ جاء بهذا العامِّ، ثمَّ بأعمَّ منه: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾؛ فإنَّ بخْسَ الأشياءِ أعَمُّ مِن أنْ يكونَ في المِكيالِ أو الميزانِ، والعُثُوَّ أعمُّ مِن تنقيصِ الحُقوقِ وغيرِه مِن أنواعِ الفسادِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ مَن أوْجَدهم قادرٌ على أنْ يُعذِّبَهم ويُهلِكَهم، وعطَفَ عليهم ﴿وَٱلۡجِبِلَّةَ﴾؛ إيذانًا بذلك[٣].

- وأكَّدَ قولَه في صَدرِ خِطابِه ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بقولِه هُنا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾، وزاد فيه دليلَ استحقاقِه التقْوى بأنَّ اللهَ خلَقَهم، وخلَقَ الأُمَمَ مِن قبْلِهم، وباعتِبارِ هذه الزِّيادةِ أدخَلَ حرفَ العَطفِ على فِعلِ (اتَّقُوا)، ولو كان مُجرَّدَ تأكيدٍ لم يَصِحَّ عطْفُه. وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ إيماءٌ إلى نَبْذِ اتِّقاءِ غيرِه مِن شُركائِهم[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ نَفَوْا رِسالتَه عَنِ اللهِ كِنايةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٥).

وتَصريحًا؛ فزَعَموهُ مَسحورًا، أي: مُختلَّ الإدراكِ والتصوُّراتِ مِن جَرَّاءِ سِحرٍ سُلِّطَ عليه، وذلك كنايةٌ عن بُطلانِ أنْ يكونَ ما جاء به رسالةً عن اللهِ. وفي صيغةِ ﴿مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ مُبالَغةٌ؛ فهي تُفيدُ أنَّه معدودٌ في زُمرتِهم، ومَشهورٌ بأنَّه مِن جُملتِهم[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ جاء هُنا بالواوِ، وفي قِصَّةِ ثمودَ: ﴿مَا أَنْتَ﴾ بغيرِ واوٍ؛ فإنْ قيل: هلِ اختلَف المعنى بإدخالِ الواوِ هاهُنا، وتَرْكِها في قصَّةِ ثمودَ؟

**فالجوابُ**: إذا أُدخِلَتِ الواوُ فقدْ قُصِدَ معنَيانِ كِلاهما مُنافٍ للرِّسالةِ عِندَهم: التَّسحيرُ والبشريَّةُ، وأنَّ الرسولَ لا يَجوزُ أنْ يَكونَ مُسَحَّرًا، ولا يَجوزُ أنْ يَكونَ بَشرًا؛ فهي للدَّلالةِ على أنَّ كُلًّا مِنَ التَّسحيرِ والبشريَّةِ مُنافٍ للرِّسالةِ؛ مبالغةً في التَّكذيبِ. وإذا تُرِكَتِ الواوُ فلَمْ يُقصَدْ إلَّا معنًى واحدٌ، وهو كونُه مُسَحَّرًا، ثمَّ قُرِّرَ بكَونِه بشرًا مِثلَهم[2]. وقيل: الإتيانُ بواوِ العَطفِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ يجعَلُ كونَه بشرًا إبطالًا ثانيًا لرِسالتِه، وتَرْكُ العطفِ في قصَّةِ ثمودَ يجعَلُ كونَه بشرًا حُجَّةً على أنَّ ما يَصدُرُ منه ليس وَحْيًا، بلْ هو مِن تأثيرِ كونِه مسحورًا؛ فمآلُ معنى الآيتَينِ مُتَّحِدٌ، ولكنْ طريقُ إفادتِه مختلِفٌ، وذلك على حسَبِ أُسلوبِ الحِكايتَيْنِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٦).

- فإنْ قيل: هذا بَيانُ خاصيَّةِ التَّركيبِ؛ فما بيانُ الأبلغيَّةِ، واختِصاصِ الواوِ بموضعٍ دونَ مَوضعٍ؟

**فالجوابُ**: أنَّ التركيبَ بدونِ الواوِ في قِصَّةِ ثمودَ يُفيدُ التوكيدَ والتقريرَ، والقطعَ بأنَّه بَشرٌ مِثلُهم، أي: لا يَنبغي أنْ نؤمِنَ برسالاتِكَ إلَّا بشيءٍ تمتازُ به عنَّا؛ ولهذا قالوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، والقومُ أَنْصَفوا في الطلَبِ؛ ولهذا قال: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرۡبٌ﴾. وأمَّا قومُ شُعيبٍ عليه السَّلامُ فإنَّهم أثبتوا له شيئَيْنِ: كَوْنَه مُسَحَّرًا، وكونَه بشرًا مِثلَهم، كلُّ واحدٍ منهما مُستقِلٌّ في المنْعِ مِن كونِه رسولًا؛ يعني: نحنُ وأنتَ في عدمِ صلاحيةِ الرِّسالةِ لكَونِنا بشَرًا سواءٌ، ولك المزيةُ علينا في كونِكَ مُسَحَّرًا دونَنا، ثمَّ أكَّدوا ذلك بقولِهم: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾، والظَّنُّ بمعنى اليقينِ؛ ولذلك أدخَلَ «إنْ» واللَّامَ، ولَمَّا كان هذا الرَّدُّ أبلَغَ مِنَ الأوَّلِ ما طلَبوا البرهانَ كما طلَبوا؛ حيثُ قالوا: ﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، بل قطَعوا بما يدُلُّ على اليأسِ مِن إيمانِهم بقولِهم: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ استهزاءً كما قطَع قريشٌ بقولِهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1] [الأنفال: ٣٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لَعلَّه جوابٌ لِمَا أشْعَر به الأمْرُ بالتَّقوى مِنَ التَّهديدِ[2]. والأمْرُ في قولِه: ﴿فَأَسۡقِطۡ﴾ أمْرُ تعجيزٍ[3].

٧- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ جاء جوابُ شُعيبٍ بإسنادِ العِلمِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤١٢، ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٧).

إلى اللهِ؛ فهو العالِمُ بما يَستحِقُّونه مِنَ العَذابِ ومِقدارِه، وكلمةُ ﴿أَعْلَمُ﴾ هُنا مُبالَغةٌ في العالِمِ، وليس هو بتَفضيلٍ(١).

٨- قولُه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- بيَّنَ اللهُ تعالى استِمرارَهم على ما كانوا عليه بقولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ﴾، أي: استمَرُّوا على ذلك، وكَذَّبوه تَكذيبًا بعْدَ تَكذيبٍ، هذا معنى الفاءِ والتكريرِ في ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، واتَّصلَ بذلك ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾(٢).

- وقولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الفاءُ فصيحةٌ، أي: فتبيَّنَ مِن قولِهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ أنَّهم كذَّبوهُ، أي: تبيَّنَ التكذيبُ والثباتُ عليه بما دلَّ عليه ما قصَدوه مِن تعجيزِه؛ إذْ قالوا: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾(٣) [الشعراء: ١٨٧].

- وفي إعادةِ فِعلِ التكذيبِ إيقاظٌ للمشركينَ بأنَّ حالَهم كحالِ أصحابِ شُعيبٍ؛ فيوشِكُ أنْ يكونَ عِقابُهم كذلك(٤).

- قولُه: ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ في إضافةِ العذابِ إلى يومِ الظُّلَّةِ دونَ نفْسِها: إيذانٌ بأنَّ لهم يَومَئذٍ عذابًا آخَرَ غيرَ عذابِ الظُّلَّةِ(٥).

- وقِصَّةُ شُعيبٍ آخِرُ القصصِ السَّبْعِ التي أُوحيَتْ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، المذكورةِ على سَبيلِ الاختِصارِ؛ تَسليَةً له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٣).

وتَهديدًا للمُكذِّبينَ به[١]، ولصرفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن الحِرصِ على إسلامِ قومِه، وقَطْعِ رجائِه عنه، ودفْعِ تحسُّرِه على فواتِه؛ تحقيقًا لمضمونِ ما مرَّ في مَطلَعِ السورةِ الكريمةِ مِن قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا۟ ...﴾ [الشعراء: ٥ -٦] الآيةَ؛ فإنَّ كلَّ واحدةٍ مِن هذه القصصِ ذِكرٌ مُستقِلٌّ، مُتجدِّدُ النُّزولِ، قد أتاهم مِن جهتِه تعالى بموجَبِ رحمتِه الواسعةِ، وما كان أكثرُهم مؤمنينَ بَعْدَما سمِعوها على التَّفصيلِ قصَّةً بعدَ قصَّةٍ، لا بأنْ يتدبَّروا فيها، ويَعتبروا بما في كلِّ واحدةٍ منها مِنَ الدَّواعي إلى الإيمانِ، والزَّواجرِ عن الكُفرِ والطُّغيانِ، ولا بأنْ يَتأمَّلوا في شأنِ الآياتِ الكريمةِ النَّاطقةِ بتلك القصصِ على ما هي عليه، مع عِلمِهم بأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يسمَعْ شيئًا منها مِن أحدٍ أصلًا، واستمَرُّوا على ما كانوا عليهِ مِنَ الكُفرِ والضَّلالِ كأنْ لم يَسمَعوا شيئًا يزجُرُهم عن ذلكَ[٢]!

٩- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ كَرَّرَ هذا القولَ في هذه السُّورةِ في أوَّلِ كلِّ قِصَّةٍ وآخِرِها؛ لأنَّ كلَّ قصَّةٍ منها كتنزيلٍ برأسِه، وفيها مِنَ الاعتبارِ مِثلُ ما في غيرِها؛ فكانتْ كلُّ واحدةٍ منها تُدْلِي بحَقٍّ في أنْ تُفتتَحَ بما افتُتِحَتْ به صاحبتُها، وأنْ تُختتَمَ بما اختُتِمَتْ به، ولأنَّ في التكريرِ تقريرًا للمعاني في الأنفُسِ، وتَثبيتًا لها في الصُّدورِ؛ فإنَّه لا طَريقَ إلى تَحفُّظِ العلومِ إلَّا تَرديدُ ما يُرادُ تحفُّظُه منها، وكلَّما زاد تَرديدُه كان أمكَنَ له في القلبِ، وأرسَخَ في الفَهْمِ، وأثبَتَ للذِّكْرِ، وأَبْعَدَ مِنَ النِّسيانِ. ولأنَّ هذه القصصَ طُرِقَتْ بها آذانٌ وُقُرٌ عن الإنصاتِ للحَقِّ، وقُلوبٌ غُلْفٌ عن تدبُّرِه؛

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٣).

فَكُوثِرَتْ بالوعظِ والتذكيرِ، ورُوجِعَتْ بالترديدِ والتكريرِ؛ لعلَّ ذلك يفتَحُ أُذُنًا، أو يَفْتُقُ ذِهنًا، أو يَصْقُلُ عَقلًا طال عهْدُه بالصَّقْلِ، أو يَجْلو فَهْمًا قد غطَّى عليه تراكُمُ الصَّدَأِ[١].

- وكرَّرَ ما كرَّرَ في أوائلِ هذه القصصِ؛ تَنبيهًا على أنَّ طريقةَ الأنبياءِ واحدةٌ لا اختلافَ فيها، وهي الدعاءُ إلى توحيدِ اللهِ وعبادتِه، ورفْضِ ما سِواهُ، وأنَّهم ورسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُشترِكونَ في ذلك، وأنَّ ما جاء به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو ما جاءتْ به الرسُلُ قبْلَه، وتلك عادةُ الأنبياءِ[٢].

- وأيضًا جاءَتِ الألفاظُ في دُعاءِ كلِّ واحدٍ مِن هؤلاءِ الأنبياءِ واحدةً بعَيْنِها؛ إذْ كان الإيمانُ المدعوُّ إليه معنًى واحدًا بعَيْنِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٣٠-١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٧، ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٨).

## الآيات (١٩٢-٢٠٩)

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زُبُرِ﴾: أي: كتُبٍ، جمعُ زَبورٍ، وهو: كلُّ كتابٍ ذي حِكمةٍ، مأخوذٌ مِن الزَّبْرِ، وهو الكِتابةُ والقِراءةُ[١].

﴿ٱلْأَعْجَمِينَ﴾: الأعجَمُ: مَن في لِسانِه عُجمةٌ، عربيًّا كان أو غيرَ عربيٍّ، وأصلُ (عجم): يدُلُّ على سُكوتٍ وصَمتٍ[٢].

﴿سَلَكْنَٰهُ﴾: أي: أدخَلْناه، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ[٣].

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فجأةً، والبَغتُ: مُفاجأةُ الشَّيءِ مِن حيثُ لا يُحتسَبُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢١)، ((تفسير الطبري)) (١٧/ ٦٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((تفسير الطبري)) (٩/ ٢١٤)، ((مقاييس =

﴿مُنظَرُونَ﴾: أي: مُؤخَّرٌ عنا العذابُ، وممدودٌ في آجالِنا، والنَّظَرُ: الانتظارُ. يُقالُ: نظرْتُه وانتظَرْتُه وأنْظَرْتُه، أي: أخَّرْتُه، وأصلُ (نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعاينَتُه[١].

﴿مَّتَّعْنَٰهُمْ﴾: أي: عمَّرْناهم، وأصلُ الإمتاعِ: الإطالةُ، يُقالُ للشيءِ الطويلِ: ماتعٌ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على منفعةٍ، وامتدادِ مُدَّةٍ في خيرٍ[٢].

﴿مَآ أَغْنَىٰ﴾: أي: ما نَفَعهم وما دفَعَ عنهم، يُقالُ: أغْناني كذا، وأغْنَى عنه كذا: إذا كفاه، وأصلُ (غني) هنا: يدُلُّ على الكِفايةِ[٣].

﴿ذِكْرَىٰ﴾: أي: تَذكيرٌ، والذِّكرى: كثرةُ الذِّكرِ، وهو أبلَغُ مِن الذِّكْرِ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى مصدرَ القرآنِ، والنازلَ به، والنازلَ عليه، وحكمةَ الإنزالِ، واللغةَ التي نزَل بها، فيقولُ: وإنَّ القرآنَ وحْيٌ مُنزَّلٌ مِن اللهِ ربِّ العالَمينَ، نزَل به على قَلبِك -يا مُحمَّدُ- جِبريلُ الأمينُ على الوَحيِ؛ لِتُنذِرَ به النَّاسَ، بلُغةٍ عربيَّةٍ واضحةِ البيانِ.

---

= اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٧/ ٦٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٠).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٧).

ثمَّ يبيِّنُ سبحانَه ما يدُلُّ على صِدقِ هذا القرآنِ ومَن جاء به، فيقولُ: وإنَّ هذا القُرآنَ لَمذكورٌ خَبَرُه في كتُبِ الأنبياءِ السَّابقينَ. أوَلَمْ يكُنْ لهؤلاء المُشرِكين المكَذِّبينَ عَلامةً على صِحَّةِ ما جئْتَهم به -يا مُحمَّدُ- عِلمُ عُلَماءِ بني إسرائيلَ صِدْقَ ذلك، ووجودُه في كُتُبِهم؟!

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى جحودَ الكافرينَ وعنادَهم، فيقولُ: ولو نزَّلْنا هذا القُرآنَ على رجُلٍ أعجميٍّ لا يَنطِقُ بالعربيَّةِ، فقرأه على مُشركي قَومِك بغيرِ لغةِ العربِ؛ لَما آمَنوا به، ولَقالوا: ما نَفْقَهُ قولَه! كذلك أدخَلْنا القُرآنَ في قُلوبِ المُشرِكين، فكَذَّبوا به، ولا يؤمِنون به حتى يرَوُا العذابَ الأليمَ مِن الله، وهو آتِيهم فجأةً، فيقولونَ حينَ يَرَون العذابَ: هل نحن مؤخَّرون ومُمهَلونَ يا رَبَّنا؟!

أيَستعجِلُ هؤلاء المجرِمون بعذابِنا؟ أخبِرْني إنْ أمهَلْناهم يتمَتَّعون في الدُّنيا سِنينَ كثيرةً، ثمَّ جاءهم بعْدَ تمتُّعِهم تلك السِّنينَ عذابُ اللهِ الذي كانوا يُوعَدون به، فماذا ينفَعُهم تمتُّعُهم في الدُّنيا، وإمهالُنا لهم؟!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سُنَّتَه التي لا تتخلَّفُ، فيقولُ: وما أهلَكْنا قريةً مِن القُرى الظَّالِمةِ إلَّا بعْدَ إرسالِ رسُلِ الله المُنذِرينَ لهم، بعَثْنا هؤلاء الرسُّلَ تذكِرةً لأهل القرى، وما كُنَّا ظالِمين لهم بعْدَما أقَمْنا الحُجَّةَ عليهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ختمَ سُبحانَه ما اقتصَّه مِن خبرِ الأنبياءِ؛ ذَكَرَ بعدَ ذلك ما يدُلُّ على نبوَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٠).

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾.

أي: وإنَّ القرآنَ وحْيٌ مِن اللهِ الذي ربَّى جميعَ العالَمينَ بنِعَمِه، وهداهم لمصالِحِهم برَحمتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ١٩٣﴾.

أي: نزَل بالقُرآنِ جِبريلُ المؤتمَنُ على وَحيِ اللهِ إلى أنبيائِه؛ فهو لا يَزيدُ فيه ولا يَنقُصُ منه شيئًا[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ١٩٤﴾.

أي: نزَل جبريلُ بالقُرآنِ على قَلبِك -يا محمَّدُ- لِتَعِيَهُ وتحفَظَه، فتكونَ ممَّن يُنذِرُ النَّاسَ به[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

قال ابن عطية: (﴿ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ جبريلُ عليه السلامُ، بإجماعٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٢). وحكَى الإجماعَ أيضًا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٢، ٦٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٥).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.

أي: بلُغةٍ عَربيَّةٍ واضحةِ المعاني[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧].

﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

أي: وإنَّ هذا القُرآنَ مَذكورٌ خبَرُه في كتُبِ الأنبياءِ السَّابقةِ المبشِّرةِ به، ممَّا يدُلُّ على صِحَّتِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٧، ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يرجعُ إلى القرآنِ، أي: ذِكر القرآنِ، وخبره، وإنزاله، وهو قولُ أكثرِ المفسِّرينَ. =

﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾.

أي: أوَلَمْ يكُنْ للمُشرِكين المكَذِّبين دَلالةً على صِحَّةِ ما جاء به الرَّسولُ مِن الوَحيِ؛ أنَّ العُلَماءَ مِن بني إسرائيلَ يَعلَمونَ صِدقَ ذلك، ويَجِدونَ ذِكرَه في كُتُبِهم التي يَدرُسونَها(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤].

---

= يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٨).

وقيل: الضميرُ يرجِعُ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أي: أمْره، ونعته، وصفة أُمَّتِه. وممَّن اختار ذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقنديُّ، وابن أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٢٨٧).

وقال الزجاج: (وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تأويلُه -والله أعلَمُ- أنَّ ذِكرَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ وذِكرَ القرآنِ في ﴿زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٨، ٢٨٩).

قال ابن تيميَّةَ: (علماءُ بني إسرائيلَ يَعلمونَ ذِكرَ إرسالِ محمَّدٍ ونزولَ الوحْيِ عليه... ويعلمونَ المعانيَ التي فيه أنَّها موافِقةٌ لأقوالِ الرُّسلِ قبْلَه في الخبرِ والأمرِ؛ فإنَّه أخبَرَ عن توحيدِ الله وصفاتِه، وعرشِه وملائكتِه، وخَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ، وغيرِ ذلك بمِثلِ ما أخبَرَتْ به الرُّسلُ قبْلَه، وأمَرَ بتوحيدِ الله وعبادتِه وحْدَه لا شريكَ له، وبالعَدلِ والصِّدقِ والصَّلاةِ والزكاةِ، ونهى عن الشِّركِ والظُّلْمِ والفواحِشِ، كما أمرت ونهَت الرسُلُ قبْلَه). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٣٤٠، ٣٤١).

وقال ابن عاشور: (وفعلُ: ﴿يَعْلَمَهُۥ﴾ شامِلٌ للعِلمِ بصِفةِ القرآنِ، أي: تحقُّق صِدْقِ الصِّفاتِ الموصوفِ بها مَن جاء به، وشامِلٌ للعِلمِ بما يتضَمَّنُه ما في كتُبِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٢).

وقال جلَّ وعزَّ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأحقاف: ١٠].

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فَرغَ مِن الاستِدلالِ بتعجيزِهم؛ فضَحَ نيَّاتِهم بأنَّهم لا يُؤمِنون به في كلِّ حالٍ[1].

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

أي: ولو نزَّلْنا القُرآنَ على رجُلٍ مِن الأعاجِمِ لا يُحسِنُ التحَدُّثَ بالعربيَّةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالأعجَمينَ: الأعاجِمُ مِن بني آدمَ، وهم مَن لا يعرِفُونَ العربيَّةَ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، ونسَبه السمعانيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: قَتادةُ، والأوزاعي، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٢٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٢٣).

وقيل: المراد: البهائِمُ التي لا تنطِقُ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٥، ٦٤٧)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣٥٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: عبد الله بن مطيع، ومجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٢١).

وقال البقاعيُّ: (﴿ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يعرِفون شيئًا مِن لسانِ العرَبِ مِن البهائم أو الآدميِّينَ، جمعُ أعجَمَ، وهو مَن لا يفصِحُ وفي لسانِه عُجمةٌ، والأعجميُّ مِثلُه بزيادةِ تأكيدِ ياء النِّسبةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٠٠، ١٠١). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾.

أي: فقرَأ القُرآنَ على كُفَّارِ العَرَبِ بغيرِ لُغةِ العربِ، لَما آمَنوا بأنَّه مِن عندِ اللهِ، ولَقالوا: لا نَفْقَهُ قولَك[1]!

﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

أي: كذلك[2] .....

---

= وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ...﴾ جمعُ أعجمَ، وهو الذي لا يتكلَّمُ، سواءٌ كان إنسانًا أو بهيمةً أو جمادًا... ومعنى الآيةِ: أنَّ القرآنَ لو نزَل على مَن لا يتكلَّمُ، ثمَّ قرأه عليهم لا يُؤمنوا؛ لإفراطِ عنادِهم، ففي ذلك تسليةٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على كفرِهم به مع وضوحِ برهانِه). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٣٠٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بن سليمان، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: فقرَأ القُرآنَ على كُفَّارِ العَرَبِ باللُّغةِ العربيَّةِ معَ كَونِه لا يُحسِنُ العربيَّةَ، لَما آمَنوا بأنَّه مِن عندِ اللهِ؛ لشِدَّةِ تعَنُّتِهم وكُفرِهم. وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبِقاعي، وأبو السعود، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٣).

قال ابن عثيمين: (المعنى أنَّه لو نزَّل اللهُ هذا القرآنَ على بعضِ الأعجَمينَ إنْ كان بلُغتِهم فإنَّهم لن يُؤمِنوا به؛ لأنَّهم لم يفهَموه، وهو بلُغةِ العَجَمِ، وإن كان باللغةِ العربيَّةِ ما آمنوا أيضًا؛ أَنَفةً مِن أن يتَّبعوا رجُلًا أعجميًّا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٠).

(٢) قال ابنُ جُزي: (﴿كَذَٰلِكَ﴾: مِثْلَ هذا السَّلْكِ سَلَكْناهُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٦). =

أدخَلْنا القُرآنَ في قُلوبِ المُشرِكين فكَذَّبوا به[١]!

﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ ﴾.

أي: لا يُؤمِنونَ بالقُرآنِ حتى يَرَوا عذابَ اللهِ فيُؤمِنوا به حينَ لا ينفَعُهم الإيمانُ[٢].

---

= وقال السمينُ الحلبي: (قوله: ﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ ﴾: أي: مِثلَ ذلك، أو الأمرُ كذلك). ((الدر المصون)) (٨/ ٥٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٣٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٩٨).

وممَّن قال بأنَّ الضمير عائدٌ إلى القرآنِ، أي: كذلك أدخَلْنا القرآنَ في قلوبِ المجرمينَ حتى فهِموا معانيَه، وقامَتْ عليهم الحُجَّةُ بمعرفتِهم صِدقَه، ومع ذلك كفروا به: القرطبيُّ، وابن القيم، والسمين الحلبي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: التكذيبُ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

قال ابنُ القيم: (الظاهرُ أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ هو الضميرُ في قوله: ﴿سَلَكْنَٰهُ﴾، فلا يصِحُّ أن يكونَ المعنى: لا يؤمنون بالشِّركِ والتكذيبِ والاستهزاءِ، فلا تصِحُّ تلك الأقوالُ إلَّا باختلافِ مفسِّرِ الضميرَينِ، والظاهِرُ اتِّحادُه؛ فالذينَ لا يؤمنونَ به هو الذي سلكَه في قلوبِهم، وهو القرآنُ. فإنْ قيل: فما معنى سَلْكِه إيَّاه في قلوبِهم وهم يُنكِرونَه؟ قيل: سَلكه في قلوبِهم بهذه الحالِ، أي: سلَكْناه غيرَ مؤمنينَ به، فدخَل في قلوبهم مُكَذَّبًا به، كما دخَل في قلوبِ المؤمنينَ مُصَدَّقًا به، وهذا مرادُ مَن قال: إنَّ الذي سلَكه في قلوبِهم هو التكذيبُ والضلالُ، ولكِنْ فَسَّر الآيةَ بالمعنى؛ فإنَّه إذا دخَل في قلوبِهم مكَذِّبينَ به، فقد دخَل التكذيبُ والضلالُ في قلوبهم. فإنْ قيل: فما معنى إدخالِه في قلوبِهم وهم لا يؤمنونَ به؟ قيل: لِتَقومَ عليهم بذلك حُجَّةُ الله، فدخَل في قلوبِهم وعَلِموا أنَّه حَقٌّ، وكَذَّبوا به، فلمْ يدخُلْ في قلوبهم دُخولَ مُصَدَّقٍ به مؤمَنٍ به مَرضيٍّ به، وتكذيبُهم به بعدَ دخولِه في قلوبِهم أعظَمُ كُفرًا مِن تكذيبِهم به قبْلَ أن يدخُلَ في قلوبِهم؛ فإنَّ المكَذِّبَ بالحقِّ بعدَ معرفتِه له شَرٌّ مِن المكَذِّبِ به ولم يعرِفْه. فتأمَّلْه؛ فإنَّه مِن فقهِ التفسيرِ. والله الموفِّقُ للصوابِ). ((شفاء العليل)) (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٠٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا * وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا﴾ [الكهف: ٥٧، ٥٨].

﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان إتيانُ الشَّرِّ فُجاءةً أشَدَّ، وكان أخْذُه لهم عَقِبَ رؤيتِهم له مِن غيرِ مُهلةٍ يحصلُ فيها نوعُ استعدادٍ أصلًا- دلَّ على ذلك مصَوِّرًا لحالِه بقولِه، دالًّا بالفاءِ على الأشَدِّيةِ والتَّعقيبِ[1]:

﴿فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٠٢﴾.

أي: فيأتيَ المكَذِّبينَ بالقُرآنِ عَذابُ الله فَجأةً بلا مُقَدِّماتٍ، وهم لا يَشعُرونَ بمَجيئِه[2].

---

= كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩١).

قال الشنقيطي: (هؤلاء الكُفَّارُ الذين ذكَرَ الله جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمة أنَّهم لا يؤمنون حتى يَرَوُا العذابَ الأليمَ، هُمُ الذين حَقَّتْ عليهم كَلِمةُ العذابِ، وسبَقَ في عِلمِ الله أنَّهم أشْقياءُ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٩٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥). =

﴿ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ أنَّهم لا يُؤمِنون به حتى يَروُا العذابَ الأليمَ، وأنَّه يأتيهم العذابُ بغتةً؛ أتبعَه بما يكونُ منهم عندَ ذلك على وجهِ الحَسرةِ، فقال[1]:

﴿ فَيَقُولُواْ هَلۡ نَحۡنُ مُنظَرُونَ ٢٠٣ ﴾.

أي: فيقولَ المُجرِمونَ حينَ يأتيهم العَذابُ فَجأةً: هل نحن مؤخَّرون ومُمهَلُون لِنَتوبَ إلى اللهِ، فنُؤمِنَ ونعمَلَ صالِحًا[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسۡتَعۡجِلُونَ ٢٠٤ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حقَّقَ سُبحانَه أنَّ حالَهم عندَ الأخذِ الجؤارُ بالذُّلِّ والصَّغارِ به؛ تسبَّبَ عنه ما يستَحِقُّون باستعجالِه مِن الإنكار[3].

وأيضًا لَمَّا أوعدَهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالعذابِ، قالوا: إلى متى

---

= قال ابن عاشور: (قولُه: ﴿ فَيَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ ﴾ صالحٌ للعذابين: عذابُ الآخرةِ يأتي عَقِبَ الموت، والموتُ يحصُلُ بغتةً، وعذابُ الدنيا بالسَّيفِ يحصُلُ بغتةً حينَ الضَّربِ بالسَّيفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٢).

تُوعِدُنا بالعَذابِ؟ ومتى هذا العذابُ؟ قال اللهُ تعالى[١]:

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾.

أي: أيَستعجِلُ هؤلاء المُجرِمونَ بعَذابِنا الذي لا يَنْبغي أن يُستهانَ به[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ١٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [النمل: ٧١، ٧٢].

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان استعجالُهم بالعذابِ مُقتَضيًا أنَّهم في مُهلةٍ منه ومُتعةٍ بالسَّلامةِ، وأنَّ ذلك يَغُرُّهم بأنَّهم في مَنجاةٍ مِن الوعيدِ الذي جاءَهم على لسانِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ جابههم بجُملةِ[٣]:

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾.

أي: هَبْ أنَّ الأمرَ كما يعتَقِدونَ مِن طُولِ عَيشِهم، فأخبِرْني إنْ أمهَلْناهم وأبقَيناهم يتمتَّعونَ في الدُّنيا سِنينَ كَثيرةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾.

أي: ثمَّ جاءهم بعْدَ تلك السِّنينَ الكثيرةِ عذابُ الله الذي كانوا يوعَدُون به على كُفرِهم وتكذيبِهم[1].

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾﴾.

أي: فماذا ينفَعُهم حينَها تمتُّعُهم في الدُّنيا، وتأخيرُنا عذابَهم سِنينَ كَثيرةً[2]؟!

---

= (٦/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٣).

قال أبو السعودِ: (الخطابُ لكُلِّ مَن يصلُحُ له كائنًا مَن كان). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٣).

ممَّن اختار أنَّ (ما) استفهاميَّةٌ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٣).

قال ابن عثيمين: (الأبلَغُ أن تكونَ استفهاميَّةً بمعنى النفْيِ؛ لأنَّ الاستفهامَ الذي بمعنى النفْيِ يَتضمَّنُ النفْيَ وزيادةً؛ إذ إنَّه مُشرَبٌ معنَى التحدِّي). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٤، ٢٩٥).

وقال السعدي: (﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ مِن اللذَّاتِ والشَّهَواتِ، أيْ: أيُّ شيءٍ يُغني عنهم ويُفيدُهم، وقد مضَت وبطَلَت واضْمَحَلَّتْ، وأعقَبَت تَبِعاتِها، وضُوعِفَ لهم العذابُ عندَ طولِ المدَّةِ؟! القصدُ أنَّ الحذَرَ مِن وُقوعِ العذابِ واستحقاقِهم له، وأمَّا تعجيلُه وتأخيرُه فلا أهميَّةَ تحتَه، ولا جَدْوَى عندَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

وقيل: (ما) نافيةٌ، وهو ظاهرُ اختيارِ الواحديِّ، والبغوي، والبيضاوي، والخازن، والعليمي. =

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُؤتَى بأنعَمِ أهلِ الدُّنيا مِن أهلِ النَّارِ يومَ القيامةِ، فيُصبَغُ في النَّارِ صَبغةً، ثمَّ يُقالُ: يا ابنَ آدَمَ، هل رأيتَ خيرًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك نعيمٌ قطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا رَبِّ! ويُؤتَى بأشَدِّ النَّاسِ بُؤسًا في الدُّنيا مِن أهلِ الجنَّةِ، فيُصبَغُ صَبغةً في الجنَّةِ، فيُقالُ له: يا ابنَ آدَمَ، هل رأيتَ بؤسًا قَطُّ؟ هل مَرَّ بك شِدَّةٌ قَطُّ؟ فيقولُ: لا واللهِ يا ربِّ، ما مرَّ بي بؤسٌ قطُّ، ولا رأيتُ شِدَّةً قطُّ))[1].

﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨ ﴾.

أي: وما أهلَكْنا قريةً مِن القُرى الماضيةِ إلَّا بعْدَ قيامِ الحُجَّةِ على أهلِها بإرسالِ رسُلٍ يُنذِرونَهم سَخَطَ اللهِ وعَذابَه إنِ استمَرُّوا على كُفرِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩].

﴿ ذِكۡرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ٢٠٩ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لمَّا بيَّن أنَّ أولئك المُشركينَ المُستهزئينَ لا يُؤمِنونَ بالكتابِ ولا بالرَّسولِ حتَّى يرَوُا العذابَ الأليمَ حينَ لا تَنفعُهم الآياتُ؛ أتَى بهذه الآيةِ بَيانًا لِاستحقاقِهم

---

= يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٠٣).

(١) رواه مسلم (٢٨٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

العذابَ والاستئصالَ، وأنْ يُجْعَلوا نَكالًا وعِبرةً لغيرِهم، كما جَرَت سُنَّةُ اللهِ تعالى في الأممِ السَّالفةِ، والقرونِ الخاليةِ(١).

﴿ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ ﴾.

أي: بعَثْنا الرُّسُلَ المُنذِرينَ تذكرةً لأهلِ القُرى، وتنبيهًا لهم قبْلَ إهلاكِهم، وما كنَّا ظالِمين لهم بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، وإنذارِهم، والإعذارِ إليهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- يكفي في الزُّهدِ في الدُّنيا قَولُه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾(٣).

٢- ما مضى مِن العُمُرِ وإنْ طالتْ أوقاتُه فقد ذهبتْ لَذَّاتُه، وبقيتْ تَبِعاتُه،

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥١، ٦٥٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

قال ابن عثيمين: (قال المفسِّرُ [جلال الدين المحلي]: «﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ في إهلاكِهم بعْدَ إنذارِهم»، وهذا صحيحٌ، ويحتمل: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: مُهلِكينَ بدُونِ إنذارٍ، والمعنى صحيحٌ على هذا الوجهِ، وعلى الوجهِ الذي ذكره المفسِّرُ؛ فالله تعالى إذا أهلكهم بعدَ إنذارِهم وقد عَصَوا، فهو لم يَظلِمْهم، وكذلك لا يمكنُ أن يُهلِكَ مَن لا يُنذَرَ؛ لأنَّ ذلك ظُلمٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٦).

وكأنَّه لم يكُنْ إذا جاء الموتُ وميقاتُه؛ قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾. تلا بعضُ السَّلَفِ هذه الآيةَ وبكى، وقال: (إذا جاء الموتُ لم يُغْنِ عن المرءِ ما كان فيه مِن اللذَّةِ والنَّعيمِ)[١]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، قَولُه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ ﴾ «تنزيلُ»: مصدرٌ بمعنى اسمِ المفعولِ، أي: لَمُنَزَّلٌ؛ لأنَّ القرآنَ نفْسَه ليس تنزيلًا، بلِ التنزيلُ فِعلُ اللهِ، والقرآنُ عبارةٌ عن شيءٍ مُنَزَّلٍ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾[٢] [الفرقان: ١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾ تأمَّلْ كيف اجتمعَتْ هذه الفضائلُ الفاخرةُ في هذا الكتابِ الكريمِ؛ فإنَّه أفضَلُ الكتُبِ، نَزَلَ به أفضلُ الملائكةِ، على أفضَلِ الخلْقِ، على أفضَلِ بَضْعةٍ فيه -وهي قلبُه-، على أفضلِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناسِ، بأفضلِ الألسنةِ وأفصحِها وأوسَعِها، وهو اللسانُ العربيُّ المُبينُ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قَولُه: ﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ هذه الرُّبوبيَّةُ العامَّةُ إشارةٌ إلى أنَّه مِن مُقتضى ربوبيَّتِه أنْ يكونَ مُنَزِّلًا لعبادِه هذا الكتابَ المفيدَ لهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ سؤالٌ: إنْ قيل: قال: ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾، وهو إنما نَزَلَ عليه؟!

**الجوابُ**: أنَّه خصَّه بالذِّكرِ؛ لِيُؤَكِّدَ أنَّ ذلك المُنَزَّلَ محفوظٌ، والمُرسَلَ متمكِّنٌ مِن قلْبِه لا يجوزُ عليه التغيرُ، ولأنَّ القلبَ هو المخاطَبُ في الحقيقةِ؛ لأنَّه موضعُ التمييزِ والاختيارِ، وأمَّا سائرُ الأعضاءِ فمُسَخَّرةٌ له، ويدُلُّ على ذلك الكِتابُ والسُّنةُ؛ فمِن الكتابِ قَولُه تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾، واستحقاقُ الجزاءِ ليس إلَّا على ما في القَلبِ؛ قال الله تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

ومِن السُّنةِ قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألَا وإنَّ في الجسَدِ مُضْغةً إذا صلَحَت صلَحَ الجَسدُ كُلُّه، وإذا فسَدَت فسَدَ الجسَدُ كُلُّه، ألَا وهي القَلبُ))[1]، ولأنَّ القَلبَ مَحَلُّ العَقلِ والفَهمِ، كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾[2] [الحج: ٤٦].

٥- قولُه تعالى: ﴿ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ هو جبريلُ عليه الصلاةُ والسلامُ، وقد وُصِفَ بالرُّوحِ؛ لأنَّه يَنْزِلُ بما فيه الحياةُ؛ وهو الوحيُ الذي به حياةُ القلوبِ[3].

٦- قال الله تعالى: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ في قَولِه: ﴿ٱلْأَمِينُ ﴾ إشارةٌ إلى كَونِه معصومًا مِن كلِّ دَنَسٍ، فلا يُمكِنُ منه خيانةٌ[4]. ووُصِفَ جبريلُ بالأمانةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٣).

والحديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير الفاتحة والبقرة)) لابن عثيمين (١/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٦).

لأنَّ المقامَ يقتضيه، وأمانةُ جبريلَ عليه الصلاةُ والسلامُ مِن عِدَّةِ أوجهٍ بالنسبةِ للقرآنِ:

**أولًا**: أمينٌ؛ بحيثُ لا يَنْزِلُ به إلَّا على مَن أُمِرَ به، وعلى هذا فيكونُ قولُ الرافضةِ -قَبَّحَهم اللهُ-: «إنْ جبريلَ أُمِر أن يَنزِلَ بالقرآنِ على عليٍّ؛ ولكنَّه خانَ فنَزَلَ به على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ» منافيًا لوصفِ جبريلَ عليه السلامُ بالأمانةِ!

**ثانيًا**: مقتضَى الأمانةِ أنْ يَنزِلَ به كما سَمِعه مِن اللهِ؛ لا يَزيدُ فيه ولا يَنقُصُ، ولا يُقَدِّمُ ولا يُؤَخِّرُ.

**ثالثًا**: أنْ يَنزِلَ به في الوقتِ الذي أُمِر بإنزالِه فيه؛ فلا يتأخَّرُ إذا أُوحيَ إليه به إلَّا بإذنِ اللهِ.

فهذه الأوصافُ الثلاثةُ مِن مقتضَى أمانةِ جبريلَ عليه الصلاةُ والسَّلامُ[1].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ تقريرٌ لحقِّيَّةِ تلك القصصِ، وتنبيهٌ على إعجازِ القرآنِ، ونُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ الإخبارَ عنها ممَّنْ لم يتعلَّمْها لا يكونُ إلَّا وَحْيًا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

٨- قَولُه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ يَدخُلُ تحتَ الإنذارِ فيه: الدُّعاءُ إلى كلِّ واجبٍ مِن علمٍ وعَمَلٍ، والمنعُ مِن كلِّ قبيحٍ؛ لأنَّ في الوجهينِ جميعًا يَدخُلُ الخوفُ مِن العقابِ[3].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ تقريعٌ عظيمٌ لِمَن يَعرِفُ لسانَ العربِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٢).

ولا يؤمِنُ بالتَّنزيلِ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ دَلالةٌ على وجوبِ فَهْمِ القرآنِ على ما يَقتَضيه ظاهرُه باللِّسانِ العربيِّ، إلَّا أنْ يمنعَ منه دَليلٌ شرعيٌّ[٢].

١١- قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ فلُغةُ العَرَبِ أفصَحُ اللُّغاتِ وأوسَعُها لاحتمالِ المعاني الدَّقيقةِ الشَّريفةِ مع الاختِصارِ؛ فإنَّ ما في أساليبِ نَظمِ كَلامِ العَرَبِ مِن علاماتِ الإعرابِ، والتَّقديمِ والتأخيرِ، والكنايةِ وغيرِ ذلك، وما في سَعةِ اللُّغةِ مِن الترادُفِ، وأسماءِ المعاني المقيَّدةِ، وما فيها من المحَسِّنات- ما يَلِجُ بالمعاني إلى العُقولِ سَهلةً مُتمَكِّنةً، فقدَّر اللهُ تعالى هذه اللُّغةَ أن تكونَ هي لُغةَ كتابِه الذي خاطبَ به النَّاسَ كافَّةً[٣]. ومِن الدعواتِ المستنكَرةِ في عَصرِنا الحاضرِ دعواتُ مَن يريدون أنْ يُذيبوا اللغةَ العربيَّةَ، مطالبينَ بجَعْلِ اللُّغةِ العاميَّةِ مكانَ اللُّغةِ العربيةِ في المُكاتباتِ والمراسلاتِ وغيرِهما! وأقبَحُ مِن ذلك مَن يحاولون أنْ يَتكلَّموا باللُّغةِ الأعجميَّةِ في أكثرِ محادثاتِهم، ويَفتخرونَ بلغةِ الإنجليزِ وغيرِهم، وتجدُهم يَتَشَدَّقون بالكلامِ بها[٤]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دليلٌ واضحٌ على عنايةِ اللهِ تعالى بهذا القُرآنِ وتشريفِه وتعظيمِه؛ حيثُ ذُكِرَ في كلِّ كتابٍ سَبَق[٥].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ دليلٌ على أنَّه لو جاء هذا الكتابُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٧).

لوَجَبَ على جميعِ مَن يَدِينون بالكتبِ السابقةِ أنْ يؤمِنوا به[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه ما كان مِن العِلْمِ المَوروثِ عن نبيِّنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فلنا أنْ نستشهِدَ عليه بما عندَ أهلِ الكتابِ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ أنَّ الشَّرائعَ لا تَلزَمُ إلَّا بعدَ العِلمِ، وأنَّه ما دام الإنسانُ غيرَ عالِمٍ بالشَّرعِ فإنَّه لا يُكَلَّفُ به[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى لا يُعَذِّبُ أحدًا ولا يُهلِكُه إلَّا بذَنْبِه، وبعْدَ إرسالِ الرَّسولِ إليه[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الله سبحانه وتعالى قادِرٌ على أنْ يُعَذِّبَ المطيعَ وإن أطاعَ، فهذا ليس مُستحيلًا، ولكِنَّه تبارك وتعالى مُنَزَّهٌ عنه؛ لكَمالِ عَدْلِه، وهذا فيه الرَّدُّ على الجهميَّةِ الذين يقولون: إنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى يَستحيلُ في حقِّه الظُّلمُ، يستحيلُ لِذاتِه، ومُحالٌ لذاتِه[٥]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عَوْدٌ إلى ما افتُتِحَتْ به السورةُ مِنَ التَّنويهِ بالقرآنِ، وكَوْنِه الآيةَ العُظمى بما اقتضاهُ قولُه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٩٨).

ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢]؛ لتُختَتَمَ السورةُ بإطنابِ التَّنويهِ بالقُرآنِ، كما ابتُدِئَتْ بإجمالِ التَّنويهِ به، والتنبيهِ على أنَّه أعظَمُ آيةٍ اختارها اللهُ أنْ تكونَ معجزةَ أفضلِ المرسَلينَ؛ فضميرُ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى معلومٍ مِنَ المقام -وهو القرآنُ- بعْدَ ذِكْرِ آياتِ الرسلِ الأوَّلينَ، أي: إنَّه ليس بكهانةٍ ولا سِحرٍ، بلْ هو مِن عِندِ اللهِ، وكأنَّه عاد أيضًا إلى ما افتتَحَ به السورةَ مِن إعراضِ المشركينَ عمَّا يأتيهم مِنَ الذِّكْرِ؛ ليتناسبَ المفتتَحُ والمختتَمُ؛ فبواوِ العطفِ اتَّصلتِ الجملةُ بالجُمَلِ التي قبْلَها، وبضميرِ القرآنِ اتَّصلَ غرضُها بغرضِ صدرِ السورةِ؛ فجُملةُ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ معطوفةٌ على الجُملِ التي قبْلَها المحكيَّةِ فيها أخبارُ الرسلِ المماثِلةِ أحوالُ أقوامِهم لحالِ قومِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما أيَّدَهُمُ اللهُ به مِنَ الآياتِ؛ ليُعْلَمَ أنَّ القرآنَ هو آيةُ اللهِ لهذه الأمَّةِ؛ فعطْفُها على الجُملِ التي مِثلُها عطْفُ القصَّةِ على القصَّةِ لتلك المناسَبةِ، ولكنَّ هذه الجملةَ مُتَّصلةٌ في المعنى بجُملةِ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢]؛ بحيثُ لولا ما فَصَلَ بيْنَها وبينَ الأخرى مِن طولِ الكلامِ لكانتْ معطوفةً عليها[١].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ﴾ فيه التأكيدُ بـ(إنَّ) وَلامِ الابتداءِ؛ لرَدِّ إنكارِ المنكِرينَ، و(التنزيلُ) مصدرٌ بمعنى المفعولِ؛ للمُبالَغةِ في الوصفِ، حتَّى كأنَّ المنزَّلَ نفْسُ التنزيلِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ بيانٌ لتنزيلِ ربِّ العالَمينَ، أي: كان تنزيلُه على هذه الكيفيَّةِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ فيه توجيهُ الخِطابِ إلى النبيِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٨).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ في التنويهِ بالقرآنِ تسليةً له على ما يُلاقيهِ مِن إعراضِ الكافرينَ عن قَبولِه وطاعتِهم فيه[١].

- وعبَّر بحرفِ الاستِعلاءِ (على) في قولِه: ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّمكُّنِ مِمَّا سُمِّيَ بقَلْبِ النَّبيِّ[٢].

- قولُه: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿نَزَلَ بِهِ﴾، أي: أنزلَه لتُنذِرَهم بما في تضاعيفِه مِنَ العُقوباتِ الهائلةِ، وجاء النَّظْمُ الكريمُ بهذا، ولم يُعبِّرْ مثلًا بقولِه: (لتكونَ مُنذِرًا)؛ للدَّلالةِ على انتظامِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في سلكِ أولئك المنذِرينَ المشهورينَ في حقِّيَّةِ الرِّسالةِ، وتقرُّرِ وقوعِ العذابِ المُنذَرِ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ عِلَّةٌ في التنزيلِ أو النُّزولِ، اقتُصِرَ عليها؛ لأنَّ ذلك أزْجَرُ للسامعِ، وإنْ كان القرآنُ نزلَ للإنذارِ والتبشيرِ[٤]، ولأنَّها أخصُّ بغرضِ السورةِ؛ فإنَّها افتُتِحَتْ بذِكْرِ إعراضِهم وبإنذارِهم[٥].

٤- قولُه تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾

- قولُه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ﴾ أي: نزَّلَه باللِّسانِ العربيِّ؛ فالأصلُ التعريفُ فيه، وأنَّه للعهْدِ، وأُوثِرَ التنكيرُ في التنزيلِ؛ ليُؤْذِنَ بالتعظيمِ والتفخيمِ[٦].

- وقولُه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ هو أيضًا مُتعلِّقٌ بـ﴿نَزَلَ بِهِ﴾، وتأخيرُه؛ للاعتناءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٨، ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٠).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤١٨).

بأمْرِ الإنذارِ، وللإيماءِ إلى أنَّ مدارَ كونِه مِن جُملةِ المنذِرينَ المذكورينَ عليهِمُ السلامُ مُجرَّدُ إنزالِه عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لا إنزالُه باللِّسانِ العربيِّ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تنويهٌ آخَرُ بالقرآنِ بأنَّه تُصدِّقُه كُتبُ الأنبياءِ الأوَّلينَ بموافقتِها لِمَا فيه، وخاصَّةً في إخبارِه عن الأُمَمِ وأنبيائِها[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تنويهٌ ثالثٌ بالقرآنِ، وحُجَّةٌ على التنويهِ الثاني به الذي هو شهادةُ كُتبِ الأنبياءِ له بالصِّدقِ، بأنَّ علماءَ بَني إسرائيلَ يَعلَمونَ ما في القرآنِ ممَّا يَختصُّ بعِلمِهم؛ فباعتبارِ كَوْنِ هذه الجملةِ تنويهًا آخَرَ بالقرآنِ عُطِفَتْ على الجملةِ التي قبْلَها، ولولا ذلك لكان مقتضى كونِها حُجَّةً على صِدقِ القرآنِ ألَّا تُعطَفَ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ تقريرٌ لكونِه دليلًا على صِحَّةِ القرآنِ أو نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤]، وهو بيانٌ لِعنادِهم، وتقريرٌ بأنَّ كلًّا مِنَ القصصِ مُستقِلَّةٌ[٥].

- وهمزةُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً﴾ للإنكارِ والنفيِ، والواوُ للعطفِ على مُقَدَّرٍ يَقتضيهِ المقامُ؛ كأنَّهُ قيل: أَغَفَلُوا عن ذلك، ولم يكُنْ لهم آيةٌ دالَّةٌ على أنَّه تنزيلٌ مِن ربِّ العالَمينَ، وأنَّه في زُبُرِ الأوَّلينَ؟! على أنَّ ﴿لَّهُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بالكونِ، قُدِّم على اسمِه وخبرِه؛ للاهتمامِ به، أو بمحذوفٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٠، ١٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤١٧).

هو حالٌ مِن ﴿ءَايَةً﴾، قُدِّمَتْ عليها؛ لكونِها نكِرةً، و ﴿ءَايَةً﴾ خبرٌ للكونِ قُدِّمَ على اسمِه الذي هو قولُه تعالى: ﴿أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ للاعتناءِ والتشويقِ إلى المؤخَّرِ(١).

٧- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ في لفظِ (البعضِ) إشارةٌ إلى كونِ ذلك واحدًا مِن عُرْضِ تلك الطَّائفةِ كائنًا مَن كان(٢).

٨- قولُه تعالى: ﴿فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾

- أظهَرَ اللهُ بُهتانَهم في هذه الآيةِ بأنَّهم إنَّما قالوا ذلك حيثُ جاءهم بالقرآنِ رسولٌ عربيٌّ، وأنَّه لو جاءهم بهذا القرآنِ رسولٌ أعجميٌّ لا يَعرِفُ العربيَّةَ بأنْ أوحى اللهُ بهذه الألفاظِ إلى رسولٍ لا يفهمُها، ولا يُحسِنُ تأليفَها، فقرأَهُ عليهم، وفي قراءتِه وهو لا يُحسِنُ اللُّغةَ أيضًا خارِقُ عادةٍ؛ لو كان ذلك لَمَا آمَنوا بأنَّه رسولٌ، مع أنَّ ذلك خارِقٌ للعادةِ -وذلك على أحدِ القولينِ في تفسيرِ الآيةِ-؛ فزيادةُ قولِه: ﴿عَلَيْهِم﴾ زيادةُ بيانٍ في خَرْقِ العادةِ، يعني: أنَّ المشركينَ لا يُريدونَ ممَّا يُلْقُونَه مِنَ المطاعِنِ البحثَ عن الحقِّ، ولكنَّهم أصَرُّوا على التكذيبِ، وطَفِقوا يتحمَّلونَ أعذارًا لتكذيبِهم؛ جُحودًا للحقِّ، وتستُّرًا مِنَ اللائِمينَ(٣).

- وجُملةُ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤] إلى قولِه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]؛ لأنَّ قولَه: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٤] أفاد أنَّه أُوتِيَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٣).

مِن عِندِ اللهِ، وأنَّه ليس مِن قوْلِ النبيِّ، لا كما يقولُ المشركونَ: ﴿نَقَوَّلَهُۥ﴾[١] [الطور: ٣٣].

٩- قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ جملةٌ مستأنَفةٌ بيانيَّةٌ، أي: إنْ سألتَ عن استمرارِ تكذيبِهم بالقرآنِ في حينِ أنَّه نزَلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ، فلا تعجَبْ؛ فكذلك السُّلوكِ سَلَكْناهُ في قُلوبِ المشركينَ؛ فهو تشبيهٌ للسُّلوكِ المأخوذِ مِن (سَلَكْنَاهُ) بنفْسِه لغرابتِه، أي: هو سلوكٌ لا يُشبِهُه سُلوكٌ، وهو أنَّه دخَلَ قُلوبَهم بإبانتِه، وعرَفوا دلائلَ صِدقِه مِن أخبارِ علماءِ بَني إسرائيلَ، ومع ذلك لم يؤمِنوا به[٢]، وذلك على أحدِ القولينِ في تفسيرِ الآية.

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ تقدَّمَ نظيرُ أوَّلِ هذه الآيةِ في سورةِ (الحِجْرِ)، إلَّا أنَّ آيةَ (الحِجْرِ) قيل فيها: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ﴾ [الحجر: ١٢]، وفي هذه الآيةِ قيل: ﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾؛ فوجْهُ اختيارِ المضارعِ في آيةِ (الحِجْرِ): أنَّهُ دالٌّ على التجدُّدِ؛ لئلَّا يُتَوَهَّمَ أنَّ المقصودَ إبلاغٌ مضَى؛ وهو الذي أُبْلِغَ لِشيَعِ الأوَّلينَ لِتَقَدُّمِ ذِكْرِهم؛ فيُتَوَهَّمَ أنَّهمُ المرادُ بالمجرمينَ مع أنَّ المرادَ كفَّارُ قريشٍ، وأمَّا هذه الآيةُ فلَمْ يَتَقَدَّمْ فيها ذِكْرٌ لغيرِ كفَّارِ قريشٍ؛ فناسَبَها حكايةُ وقوعِ هذا الإبلاغِ مُنذُ زمنٍ مضى؛ وهم مُستمِرُّونَ على عدمِ الإيمانِ[٣].

- وعبَّر عَنِ المشركينَ بـ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ لأنَّ كُفرَهم بعْدَ نُزولِ القرآنِ إجرامٌ[٤].

١٠- قولُه تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾

- جملةُ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ مستأنَفةٌ، مَسوقةٌ لبيانِ أنَّهم لا يتأثَّرونَ بأمثالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٩٥).

تلك الأمورِ الداعيةِ إلى الإيمانِ به، بلْ يَستمِرُّونَ على ما هُمْ عليه. وقيل: موقعُ هذه الجملةِ مِن قولِه: ﴿سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ موقعُ الموضِّحِ والمُلخِّصِ؛ لأنَّه مَسوقٌ لثباتِه مُكذَّبًا مجحودًا في قُلوبِهم؛ فأُتْبِعَ بما يُقرِّرُ هذا المعنى مِن أنَّهم لا يَزالونَ على التكذيبِ به وجُحودِه حتَّى يُعاينوا الوعيدَ. ويجوزُ أنْ يكونَ حالًا، أي: سَلَكْناهُ فيها غيرَ مُؤْمَنٍ به[1].

- والغايةُ في ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ تهديدٌ بعذابٍ سيحُلُّ بهم، وحثٌّ على المبادَرةِ بالإيمانِ قبْلَ أنْ يحُلَّ بهِمُ العذابُ[2].

١١- قولُه تعالى: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- معنى التعقيبِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً ... فَيَقُولُوا۟﴾ ليس ترادُفَ رؤيةِ العذابِ ومفاجأتِه، وسؤالِ النظرةِ فيه في الوجودِ، وإنَّما المعنى ترتُّبُها في الشِّدَّةِ؛ كأنَّه قيل: لا يؤمنونَ بالقرآنِ حتَّى تكونَ رؤيتُهم للعذابِ، فما هو أشدُّ منها؛ وهو لُحوقُه بهم مفاجأةً، فما هو أشدُّ منه؛ وهو سؤالُهُمُ النظرةَ[3]. وقيل: الأوْجَهُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بدَلَ اشتمالٍ مِن جملةِ ﴿يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، وأُدْخِلَتِ الفاءُ فيها لبيانِ صورةِ الاشتمالِ، أي: إنَّ رؤيةَ العذابِ مُشتمِلةٌ على حُصولِه بَغتةً، أي: يَرَوْنَه دَفْعةً دونَ سَبْقِ أشراطٍ له[4].

١٢- قولُه تعالى: ﴿فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ يقولونَ هذا تحسُّرًا على ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٧، ٣٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥).

فات مِنَ الإيمانِ، وتمنِّيًا للإمهالِ لِتَلافي ما فرَّطوهُ؛ فالاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ للتحسُّرِ والتأسُّفِ، أُتْبِعَ قولُه: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ بما يكونُ منهم عِندَ ذلك على وجهِ الحسرةِ ﴿فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾، كما يستغيثُ إليه المرءُ عِندَ تعذُّرِ الخلاصِ؛ لأنَّهم يعلمونَ في الآخرةِ أنْ لا ملجَأَ، لكنَّهم يقولونَ ذلك استرواحًا، أو يقولونَ: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ على جِهةِ التمنِّي منهم والرغبةِ؛ فـ (هَلْ) مُستعمَلةٌ في استفهامٍ مُرادٍ به التمنِّي، وجِيءَ بعْدَها بالجملةِ الاسميَّةِ الدالَّةِ على الثباتِ، أي: تَمَنَّوْا إنظارًا طويلًا يتمكَّنونَ فيه مِنَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ، أو يطلبونَ الرَّجْعةَ حينَ يَبْغَتُهم عذابُ الساعةِ، فلا يُجابون إليها[1].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَيَقُولُواْ﴾ لإفادةِ التعقيبِ في الوجودِ، وهو صادقٌ بأسرعِ تعذيبٍ؛ فتكونُ خَطِرةً في نُفوسِهم قبْلَ أنْ يَهْلِكوا في الدُّنيا، أو يقولونَ ذلك ويُردِّدونَه يومَ القيامةِ حينَ يَرَوْنَ العذابَ، وحينَ يُلْقَوْنَ فيه[2].

١٣- قولُه تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا تبْكيتٌ لهم بإنكارٍ وتهكُّمٍ، ومعنى التَّبكيتِ: أنَّه لمَّا قيلَ: ﴿فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَيَقُولُواْ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾ عقَّبَ ذلك بقولِه: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾؛ إسكاتًا لهم مع إنكارٍ وتهكُّمٍ، أي: كيف يَستعجِلونَ ما حالُه ما ذُكِرَ، وهي أنَّه ما يأْتيهم بَغتةً، ويسْأَلون عندَ ذلك الإمهالَ فلا يُمْهَلون؟! والعاقلُ لا يَستعجِلُ ما فيه دَمارُه. وهذا معنى التَّبكيتِ؛ لأنَّه كلامٌ جارٍ على العُرفِ والعادةِ، والعاقلُ لا يَدفَعُ الكلامَ المُنصِفَ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا حِكايةَ توبيخٍ يُوبَّخون به عندَ استنظارِهم يَومَئذٍ، و﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ على هذا الوجْهِ مُضارِعٌ وقَعَ موقعَ الماضي على حِكايةِ الحالِ الماضيةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٥).

الدُّنيا، وكان مِن حَقِّ الظَّاهرِ: أفبِعذابِنا اسْتعجَلْتُم؟!

وفيه وجْهٌ آخرُ مُتَّصلٌ بما بعْدَه -أي: بقولِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾-؛ وذلك أنَّ استعجالَهم بالعذابِ إنَّما كان لاعتِقادِهم أنَّه غيرُ كائنٍ ولا لَاحِقٍ بهم، وأنَّهم مُمَتَّعون بأعمارٍ طوالٍ في سلامةٍ وأمْنٍ؛ فقال تعالى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أشَرًا وبطَرًا واستهزاءً، واتِّكالًا على الأملِ الطَّويلِ، ثمَّ قال: هَبْ أنَّ الأمرَ كما يَعتقِدون مِن تَمتيعِهم وتَعميرِهم، فإذا لَحِقَهم الوعيدُ بعْدَ ذلك ما يَنفعُهم حينَئذٍ ما مضى مِن طُولِ أعمارِهم، وطِيبِ مَعايشِهم. أي: أنْ يَتِمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿نَحْنُ مُنظَرُونَ﴾، ثمَّ يُبْتدَأُ مِن قولِه: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ على تأويلِ: أتَسْتهزِئون فتَستعجِلون بعذابِنا؟! فالفاءُ في ﴿أَفَبِعَذَابِنَا﴾ عطْفٌ على هذا المُقدَّرِ، وفي ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ للتَّسبيبِ، أي: استِهزاؤُهم ذلك سببٌ لأنْ يُتعجَّبَ منهم، ويُقالَ لكلِّ سامعٍ: أرأيْتَ إنْ مَتَّعناهم سِنينَ؛ فإذَنِ الهمزةُ في ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ جِيء بها لمزيدِ الإنكارِ والتَّعجُّبِ، وعلى الأوَّلِ الفاءُ في ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ عاطِفةٌ؛ عطَفَت (رأيتَ) على مُقدَّرٍ، أي: أُخبِرَ فيَتعجَّب؟ والهمزةُ غيرُ مُقْحمةٍ؛ فتكونُ الجُملةُ مُستقلَّةً[1].

- والفاءُ في قولِه: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ للعطفِ على مُقدَّرٍ يقْتضيهِ المقامُ، أي: أيكونُ حالُهم كما ذُكِرَ مِن الاستنظارِ عندَ نُزولِ العذابِ الأليمِ، فيَسْتعجلونَ بعذابِنا، وبيْنَهما مِن التَّنافي ما لا يَخْفى على أحدٍ، وأيَغْفُلون عن ذلك مع تحقُّقِه وتقرُّره فيَستعجلونَ... إلخ؟! وإنَّما قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ (بعذابِنا)؛ للإيذانِ بأنَّ مصَبَّ الإنكارِ والتَّوبيخِ كونُ المُستعجَلِ به عذابَه تعالى، مع ما فيهِ مِن رِعايةِ الفواصلِ، وللاهتمامِ به في مَقامِ الإنذارِ، أي: ليس شأْنُ مِثلِه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٣).

أنْ يُستعجَلَ؛ لفَظاعتِه[١].

- ونَشأَ عن قولِه: ﴿ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ تَقديرُ جوابٍ عن تكرُّرِ سُؤالِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، حيثُ جعَلوا تأخُّرَ حُصولِ العَذابِ دَليلًا على انتفاءِ وُقوعِه؛ فأعقبَ ذلك بقولِه: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾؛ فالفاءُ في قولِه: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴾ تفيدُ تَعقيبَ الاستفهامِ عَقِبَ تكرُّرِ قولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ [يونس: ٤٨] ونَحوِه، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التعجُّبِ مِن غُرورِهم، أي: أيستعجلونَ بعَذابِنا؟ فما تأخيرُه إلَّا تمتيعٌ لهم[٢].

١٤- قولُه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ﴾ لَمَّا كانَتِ الرُّؤيةُ مِن أقوى أسبابِ الإخبارِ بالشَّيءِ وأَشهرِها، شاعَ استعمالُ (أَرَأَيْتَ) في معنى (أَخْبِرْني)، والخِطابُ لكلِّ مَن يَصلُحُ له كائنًا مَن كانَ، والفاءُ لترتيبِ الاستخبارِ على قولِهم: ﴿هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴾، وما بيْنَهما اعتراضٌ؛ للتوبيخِ والتبكيتِ، وهي متقدِّمةٌ في المعنى على الهمزةِ، وتأخيرُها عنها صورةً؛ لاقتضاءِ الهمزةِ الصَّدارةَ؛ أي فأخْبِرْني...[٣].

- والاستفهامُ في ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ ﴾ للتَّقريرِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴾ مُعترِضةٌ، وجوابُ الشَّرطِ محذوفٌ دلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

عليه ما سَدَّ مَسَدَّ مفعولَيْ (رَأَيْتَ)[١].

١٥- قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ معطوفٌ على جُملةِ الشرطِ المُعترِضةِ، و(ثُمَّ) فيه للترتيبِ والمُهْلةِ، أي: جاءهم بعْدَ سِنينَ، وفيه رمْزٌ إلى أنَّ العذابَ جَائِيهم، وحَالٌّ بهم لا مَحالةَ، و ﴿مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ موصولٌ وصِلتُه، والعائدُ محذوفٌ تقديرُه: يوعَدونَه[٢].

١٦- قولُه تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾

- على القولِ بأنَّ (ما) استفهاميَّةٌ؛ فالاستفهامُ في قولِه: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ والنفيِ، أي: لم يُغْنِ عنهم شيئًا. وقيل: إنَّ (ما) نافيةٌ، والأوَّلُ هو الأَوْلَى؛ لكونِه أوفَقَ لصورةِ الاستخبارِ، وأدلَّ على انتفاءِ الإغناءِ على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه؛ كأنَّ كلَّ مَن مِن شأنِه الخِطابُ قد كُلِّفَ أنْ يُخبرَ بأنَّ تمتيعَهم ماذا أفادَهم؟ وأيُّ شيءٍ أغنى عنهم؟ فلَمْ يَقدِرْ أحدٌ على أنْ يُخبِرَ بشيءٍ مِن ذلك أصلًا[٣].

- و﴿مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ موصولٌ وصِلتُه، والعائدُ محذوفٌ تقديرُه: يُمَتَّعُونَه[٤].

١٧- قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴾ الاستثناءُ هنا استثناءٌ مِن أحوالٍ مَحذوفةٍ، والتَّقديرُ: وما أهلَكْنا مِن قريةٍ في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالٍ لها مُنذِرونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٩٦، ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٩٧، ١٩٨).

- وفي قولِه: ﴿إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ عُبِّرَ عن الرُّسلِ بصِفةِ الإنذارِ؛ لأنَّه المُناسِبُ للتَّهديدِ بالإهلاكِ[١]. وجُمِعَ ﴿مُنذِرُونَ﴾؛ لأنَّ ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ عامٌّ في القُرى الظَّالمةِ، كأنَّه قيلَ: وما أهلَكْنا القُرى الظَّالمةَ[٢].

١٨- قولُه تعالى: ﴿ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ فنُهلِكُ غيرَ الظَّالمينَ قبْلَ الإنذارِ، والتَّعبيرُ عن ذلك بنفْيِ الظَّالميَّةِ؛ لبَيانِ كَمالِ نَزاهتِه تعالى عن ذلك بتَصويرِه بصُورةِ ما يَستحيلُ صُدورُه عنه تعالى مِن الظُّلمِ[٣].

- ومُفادُ جُملةِ ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ الإعذارُ لكفَّارِ قُريشٍ، والإنذارُ بأنَّهم سيحُلُّ بهم هَلاكٌ. وحُذِفَ مفعولُ ﴿ظَالِمِينَ﴾؛ لقَصْدِ تَعميمِه، كقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٤] [الكهف: ٤٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٨).

## الآيات (٢١٠-٢٢٠)

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَمَعْزُولُونَ﴾: أي: ممنوعونَ، يُقالُ: عزَلَ الشَّيءَ: إذا نحَّاه في جانبٍ، وأصلُ (عزل): يدُلُّ على تنحيةٍ وإمالةٍ[1].

﴿عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾: أي: أهلَك وقَومَك الأقربينَ نَسَبًا، وأصلُ العِشرةِ والعَشيرةِ: مِن المخالَطةِ والمداخَلةِ[2].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾: أي: وألِنْ جانِبَك وكلامَك، وتواضَعْ لهم، وارفُقْ بهم[3].

﴿بَرِيٓءٌ﴾: فعيلٌ بمعنى فاعلٍ مِن (برِئ)، بمعنى التفصِّي والتنزُّهِ ونفيِ المخالطةِ، فالبريءُ: الخليُّ عن التلبُّسِ بشيءٍ وعن مخالطتِه، وأصلُ (برأ) هنا: يدُلُّ على التباعُدِ مِن الشيءِ ومزايلتِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٧/ ٦٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٧/ ٦٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١)، =

## المعنى الإجماليُّ:

يُؤكِّدُ الله تعالى على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه، ويردُّ على شبهاتِ المشركينِ، فيقولُ: وما تنزَّلت الشَّياطينُ بهذا القُرآنِ على مُحمَّدٍ، ولا يَنْبغي لهم ذلك ولا يَسْتطيعونَه؛ لأنَّهم مَحجوبونَ عن سَماعِ القُرآنِ في السَّماءِ.

ثمَّ ينهَى سبحانَه عن الشركِ، فيقولُ: فلا تَدْعُ مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ فتُعذَّبَ مع المعَذَّبينَ.

ويأمرُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يجهرَ بدعوتِه، وبأن يتوكَّلَ عليه وحْدَه، فيقولُ: وأنذِرْ قَومَك الأقرَبينَ عذابَ الله إنْ لم يؤمِنوا، وألِنْ جانِبَك لِمَنِ اتَّبَعك مِن المؤمِنينَ، وارفُقْ بهم، فإنْ عصاك قومُك الأقربَون فقُلْ لهم: إنِّي بريءٌ ممَّا تعمَلون مِن شِركٍ وعِصيانٍ، واعتَمِدْ على اللهِ العزيزِ القاهرِ الذي لا يُغلَبُ، الرَّحيم الذي لا يَعجَلُ بالعُقوبةِ، الذي يراك حينَ تقومُ إلى صلاتِك، ويراك وأنت تتقَلَّبُ في الصَّلاةِ معَ المصَلِّينَ بينَ القيامِ والرُّكوعِ والسُّجودِ، إنَّ اللهَ هو السَّميعُ العليمُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا احتَجَّ تعالى على صدْقِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم بكونِ القرآنِ تنزيلَ ربِّ العالَمينَ، وإنَّما يُعرَفُ ذلك لوقوعِه مِن الفصاحةِ في النهايةِ القصوى، ولأنَّه مُشتَمِلٌ على قَصَصِ المتقدِّمينَ مِن غيرِ تفاوتٍ، مع أنَّه عليه السَّلامُ لم يَشتغِلْ بالتعَلُّمِ والاستفادةِ، فكان الكفَّارُ يقولون: لِمَ لا يجوزُ أنْ يكونَ هذا مِن إلقاءِ

---

= ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٢) و(١١/ ١٧٦).

الجِنِّ والشياطينِ كسائرِ ما يَنزِلُ على الكَهَنةِ؟! فأجاب اللهُ تعالى عنه بأنَّ ذلك لا يَتسَهَّلُ للشياطينِ؛ لأنَّهم مَرجومون بالشُّهُبِ، معزولون عنِ استِماعِ كلامِ أهلِ السَّماءِ(١).

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ ﴾.

أي: وما نزَلَت الشَّياطينُ بالقُرآنِ على محمَّدٍ، بل نزَل به عليه جبريلُ الأمينُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥].

﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان لا يلزَمُ مِن عَدَمِ التلَبُّسِ بالفِعلِ عَدَمُ الصَّلاحيةِ له؛ قال: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ ﴾ أي: ما يصِحُّ وما يُتصَوَّرُ منهم النُّزولُ بشَيءٍ منه، ولَمَّا كان عدَمُ الانتفاءِ لا يلزَمُ منه عدَمُ القُدرةِ؛ قال: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ أي: النُّزولَ به وإن اشتَدَّت مُعالجتُهم، على تقديرِ أن يكونَ لهم قابليَّةٌ لذلك(٣).

﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾.

أي: ولا يَنبغي ولا يَصِحُّ للشَّياطينِ أن ينزِلوا بالقُرآنِ؛ لأنَّهم لا يُريدونَه؛ لِمُخالفتِه أحوالَهم ومقاصِدَهم، وحتى لو أرادوا إنزالَه فإنَّهم لا يستطيعونَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٤)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٣٤٨، ٣٤٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٦، ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦-١٠].

﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

أي: لأنَّهم محجوبون مِن سَماعِ القُرآنِ في السَّماءِ[1].

كما قال الله سبحانه وتعالى حاكيًا قَولَ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩].

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ نزولَ القرآنِ مِن عندِه، وحقَّق صدقَه بأنَّه مذكورٌ في كتبِ الأنبياءِ السالفينَ، وشهِد به علماءُ بني إسرائيلَ، وأنحَى على المشركينَ بإبطالِ ما ألصقوه بالقرآنِ مِن بهتانِهم؛ لا جَرَمَ اقتضَى ذلك ثبوتَ ما جاء به القرآنُ،

---

= قال ابنُ تيمية: (بيَّن قولُه: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ﴾ أنَّهم لا يريدونَ تنزيلَه، وبقولِه: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أنَّهم عاجِزونَ عن تنزيلِه). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٥).

قال الواحدي: (حِيلَ بيْنَهم وبينَ السَّمعِ بالملائكةِ والشُّهُبِ، وهو قَولُه: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾). ((الوسيط)) (٣/ ٣٦٤).

وأصلُ ذلك هو إبطالُ دينِ الشركِ الذي تقلَّدَتْه قريشٌ وغيرُها، وناضَلتْ عليه بالأكاذيبِ؛ فناسَبَ أن يتفرَّعَ عليه النهيُ عن الإشراكِ بالله، والتحذيرُ منه[1].

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾.

أي: فلا تدْعُ مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ تَعبُدُه وتسألُه، فتكونَ مُعَذَّبًا مِن المعَذَّبينَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨).

قيل: الخطابُ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ جرير، والبقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٢).

قال ابن عثيمين: (قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا يلزَمُ مِن النَّهيِ عنه إمكانُ وقوعِه، كما أنَّ الله تعالى يأمُرُ المؤمنينَ بالثَّباتِ على الإيمانِ، وينهاهم عن الشِّركِ، وهو لم يقَعْ منهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٢).

وقال الخازن: (الخطابُ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ به غيرُه؛ لأنَّه معصومٌ مِن ذلك). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٢).

وقال الشوكاني: (خِطابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بهذا معَ كونِه منزَّهًا عنه، معصومًا منه؛ لحثِّ العبادِ على التوحيدِ، ونهيِهم عن شوائبِ الشركِ، وكأنَّه قال: أنتَ أكرَمُ الخَلقِ علَيَّ، وأعزُّهم عندي، ولو اتخَذْتَ معي إلهًا لعذبْتُك، فكيف بغيرِك مِن العبادِ؟!). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٨).

وقال الشنقيطي: (النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُخاطَبُ بمِثلِ هذا الخِطابِ، والمرادُ التشريعُ لأمَّتِه). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٠٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٥).

وقيل: الخِطابُ لغيرِ مُعَيَّنٍ، يشملُ كلَّ مَن يسمعُ هذا الكلامَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: أبو حيَّان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٠).

وقال مكِّي: (﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ أي: قلْ يا محمدُ لِمَن كفَر: لا تَدْعُ مع اللهِ إلهًا آخَرَ). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ * بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥، ٦٦].

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا سلَّى الله تعالى رسولَه أوَّلًا، ثمَّ أقام الحُجَّةَ على نبوَّتِه ثانيًا، ثمَّ أورد سؤالَ المنكِرينَ وأجاب عنه ثالثًا؛ أمَره بعْدَ ذلك بما يَتعلَّقُ ببابِ التبليغِ والرِّسالةِ[1].

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾.

أي: وحذِّرْ قَومَك الأقرَبينَ إليك نَسَبًا مِن عذابِ اللهِ إنْ لم يؤمِنوا، وقدِّمْ إنذارَهم على إنذارِ غيرِهم، ولا تُحابِهم لِقُربِهم[2].

---

= ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٨/ ٥٣٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٣٢).

قال ابن كثير: (هذه النِّذارةُ الخاصَّةُ لا تنافي العامَّةَ، بل هي فردٌ مِن أجزائها، كما قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦]، وقال: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]... وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]... وفي صحيح مُسلم: «والذي نفْسي بيَدِه، لا يسمَعُ بي أحدٌ مِن هذه الأمَّةِ؛ يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ، ثمَّ لا يؤمنُ بي، إلَّا دخل النَّارَ»). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٦). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٠).

وقال ابن عثيمين: (هذا في أوَّلِ الدَّعوةِ، أُمِرَ أن يُنذِرَ عَشيرتَه الأقربينَ؛ لأنَّهم أحقُّ النَّاسِ ببرِّه، ولأنَّهم بمقتضى القَرابةِ -لا بمقتضى الواقعِ- أقرَبُ الناسِ إلى الإيمانِ به، ولأنَّهم أيضًا =

عن ابنِ عباسٍ رَضيَ الله عنهما، قال: ((لَمَّا نزلَتْ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ صعِدَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الصَّفا فجعَل ينادي: يا بني فِهْرٍ، يا بني عَدِيٍّ -لبُطونِ قُريش- حتى اجتَمَعوا، فجعَل الرجُلُ إذا لم يستطِعْ أن يخرُجَ أرسَلَ رَسولًا؛ لِيَنظُرَ ما هو، فجاء أبو لهبٍ وقُرَيشٌ، فقال: أرَأَيْتَكم لو أخبَرْتُكم أنَّ خَيلًا بالوادي تريدُ أن تُغيرَ عليكم، أكنتُم مُصَدِّقِيَّ؟ قالوا: نعَمْ، ما جرَّبْنا عليك إلَّا صِدقًا، قال: فإنِّي نذيرٌ لكم بيْنَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ، فقال أبو لهبٍ: تبًّا لك سائِرَ اليوم، ألهذا جمَعْتَنا؟! فنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ١، ٢]))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا أُنزِلَت هذه الآيةُ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قُرَيشًا، فاجتَمَعوا فعَمَّ وخَصَّ، فقال: يا بَني كَعبِ بنِ لُؤَيٍّ، أنقِذوا أنفُسَكم مِنَ النَّارِ، يا بَني مُرَّةَ بنِ كَعبٍ، أنقِذوا أنفُسَكم مِن النَّارِ، يا بني عَبدِ شَمسٍ، أنقِذوا أنفُسَكم مِن النَّارِ، يا بني عبدِ مَنافٍ، أنقِذوا أنفُسَكم مِنَ النَّارِ، يا بني هاشِمٍ، أنقِذوا أنفُسَكم مِنَ النَّارِ، يا بني عبدِ المطَّلِبِ، أنقِذوا أنفُسَكم مِن النَّارِ، يا فاطمةُ، أنقِذي نفْسَكِ من النَّارِ؛ فإنِّي لا أملِكُ لكم مِنَ الله شيئًا، غيرَ أنَّ لكم رَحِمًا سأَبُلُّها بِبَلالِها[٢]))[٣].

﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾﴾.

---

= بمقتضى القرابةِ هم أشَدُّ النَّاسِ غَيرةً عليه، ولأنَّهم أيضًا بصِلةِ القرابةِ هم أعظَمُ النَّاسِ حَقًّا عليه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٤).

(١) رواه البخاري (٤٧٧٠) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨).

(٢) سأَبُلُّها بِبَلالِها بفتحِ الباءِ الثانيةِ وكسرِها، والبلالُ: الماءُ، أي: أصِلُها بصلتِها، شُبِّهت قطيعةُ الرحمِ بالحرارةِ، ووصلُها بإطفاءِ الحرارةِ ببرودةٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٨٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٢٢).

(٣) رواه البخاري (٤٧٧١)، ومسلم (٢٠٤) واللفظُ له.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانتِ النِّذارةُ إنَّما هي للمُتَولِّينَ؛ أمَر بضِدِّها لأضْدادِهم[١]، فبَعْدَ أنْ أمَره بإنذارِ المشركينَ مِن قومِه؛ أمَره بالرِّفقِ بالمؤمنينَ[٢]، فقال:

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾.

أي: وألِنْ جانِبَك لأتْباعِك المؤمِنينَ، وتواضَعْ لهم، وارفُقْ بهم، وتودَّدْ إليهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الإنذارُ يترتَّبُ عليه إمَّا الطاعةُ وإمَّا العصيانُ، جاء التَّقسيمُ عليهما، فكأنَّ المعنى: أنَّ مَنِ اتَّبَعَك مؤمِنًا فتواضَعْ له؛ فلذلك جاء قسيمُه: «فإنْ عصَوْك فتبَرَّأْ منهم ومِن أعمالِهم»[٤].

﴿ فَإِنۡ عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾.

أي: فإنْ خالَفَ أمرَك قَومُك الأقرَبون ولم يتَّبِعوك، فقُلْ لهم: إنِّي بَريءٌ مِمَّا تَعمَلونَ مِن شِرْكِكم وعِصيانِكم[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (١٩/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩)، ((منع جواز المجاز)) للشنقيطي (ص: ٣٠، ٣١).

(٤) يُنظر: ((البحر المحيط)) لأبي حيان (٨/ ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾.

---

= (٦/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿عَصَوْكَ﴾: مَن أُمِر بإنذارِهم مِن عشيرتِه: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن الجوزي، وابن عطية، والنسفي، وأبو حيان، وجلال الدين المحلي، والشربيني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٣٣).

قال أبو حيان: (وقيل: الضميرُ يعودُ على مَن اتَّبَعه مِن المؤمنينَ، أي: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ -يا محمَّدُ- في الأحكامِ وفروعِ الإسلام، بعْدَ تصديقِك والإيمانِ بك ﴿فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لا منكم، أي: أظهِرْ عدَمَ رضاك بعَمَلِهم، وإنكارَك عليهم). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٧).

وهذا القولُ هو ظاهرُ اختيارِ ابنِ تيميَّةَ، واختاره السعديُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

قال السعدي: (﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ في أمرٍ مِن الأمورِ، فلا تتبرَّأْ منهم، ولا تترُكْ معاملتَهم بخَفضِ الجَناحِ، ولِينِ الجانبِ، بل تبرَّأْ مِن عملِهم، فعِظْهم عليه وانصحْهم، وابذُلْ قدرتَك في ردِّهم عنه، وتوبتِهم منه، وهذا لدفعِ احترازِ وهْمٍ مِن يتوهَّمُ أنَّ قولَه: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ للمؤمنينَ، يقتضي الرِّضاءَ بجميعِ ما يصدُرُ منهم، ما داموا مؤمنينَ، فدفَع هذا بهذا، والله أعلم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

وقال الشوكاني: (﴿فَإِنْ عَصَوْكَ﴾ أي: خَالَفوا أمْرَكَ ولم يَتَّبعوكَ... وهذا يدُلُّ على أنَّ المرادَ بالمؤمنينَ المشارفونَ للإيمانِ، المصدِّقونَ باللِّسانِ؛ لأنَّ المؤمنينَ الخلَّصَ لا يَعْصونَه ولا يُخالِفونَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٨).

وذكر ابنُ عثيمين أنَّ المرادَ: عشيرتُه أو غيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٦).

واختار العمومَ أيضًا ابنُ كثير، فقال: (ومَن عصاه مِن خَلقِ الله كائنًا مَن كان فليتبرَّأْ منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٦٦).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان التبَرُّؤُ يُؤذِنُ بحُدوثِ مجافاةٍ وعَداوةٍ بيْنَه وبيْنَهم؛ ثَبَّتَ اللهُ جأشَ رسولِه بألَّا يَعبَأَ بهم، وأنْ يتوكَّلَ على ربِّه فهو كافيه[1]، فقال تعالى:

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾.

أي: واعتَمِدْ في جميعِ أمورِك على اللهِ العزيزِ في نِقمتِه مِن أعدائِه، فلا يُقهَرُ ولا يُغالَبُ؛ الرَّحيمِ الذي يقبَلُ التَّوبةَ مِن عبادِه، ولا يَعجَلُ بالعُقوبةِ ولا يَخذُلُ أولياءَه، وفوِّضْ أمورَك إليه؛ لِيَحفَظَك ويَنصُرَك[2].

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ ﴾.

أي: توكَّلْ على اللهِ الذي يراك حينَ تقومُ إلى صَلاتِك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦٥، ٦٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٣).

قال القرطبي: (أي: حينَ تقومُ إلى الصَّلاةِ، في قولِ أكثَرِ المفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٤).

وقال ابن عاشور: (القيامُ: الصلاةُ في جَوفِ الليلِ، غلَب هذا الاسمُ عليه في اصطلاحِ القرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٤).

وقال ابن كثير: (قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ يعني: إلى الصَّلاةِ. وقال عِكْرِمةُ: يرى قيامَه وركوعَه وسجودَه. وقال الحسَنُ: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾: إذا صلَّيتَ وحْدَك. وقال الضحَّاكُ: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي: مِن فراشِك أو مجلِسِك. وقال قَتادةُ: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ ﴾: قائِمًا وجالِسًا وعلى حالاتِك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١).

وقال الشنقيطي: (أي: الذي يراك حينَ تقومُ إلى صلاتِك، وحينَ تقومُ مِن فِراشِك ومَجلِسِك). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٠٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ [الطور: ٤٨].

﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ ﴾.

أي: ويَراك وأنت معَ المصَلِّينَ تتقَلَّبُ في الصَّلاةِ قائِمًا وراكِعًا وساجِدًا(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ [يونس: ٦١].

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت هذه الأحوالُ مُشتَمِلةً على الأقوالِ، وكان قد قَدَّمَ الرُّؤيةَ المتضَمِّنةَ للعِلمِ؛ عَلَّلَ ذلك بالتَّصريحِ به مقرونًا بالسَّمعِ، فقال(٢):

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٢٢٠ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لجَميعِ الأصواتِ، العليمُ بجميعِ الأعمالِ والأحوالِ والنيَّاتِ، ومِن ذلك سَماعُه لتلاوةِ محمَّدٍ، وذِكرِه في صلاتِه، العليمُ بما يعمَلُ فيها وبما في قَلبِه مِن الإيمانِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٦٩، ٦٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٣).
قال الواحدي: (﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي: ويرى رُكوعَك وسُجودَك وقيامَك مع المصَلِّينَ في الجماعةِ. والمعنى: يراك إذا صَلَّيتَ وحْدَك، ويراك إذا صلَّيتَ في الجماعةِ راكعًا وساجِدًا وقائِمًا، هذا قَولُ أكثَرِ المفسِّرينَ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩). =

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دليلٌ على أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يُرشِدَ ويَعِظَ الأقربَ منه فالأقربَ، وهو مَسؤولٌ سؤالًا مُباشِرًا بالنِّسبةِ إلى أهلِه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذه وظيفةُ المسلم مع إخوانِه؛ أنْ يكونَ هَيِّنًا لَيِّنًا بالقَولِ وبالفِعلِ؛ لأنَّ هذا ممَّا يُوجِبُ المودَّةَ والأُلفةَ بينَ النَّاسِ، وهذه الأُلفةُ والمودَّةُ أمرٌ مطلوبٌ للشَّرعِ؛ ولهذا نهَى النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن كُلِّ ما يُوجِبُ العداوةَ والبَغضاءَ، مِثلُ البَيعِ على بَيعِ المُسلِمِ، والسَّوْمِ على سَومِ المُسلِمِ[٢]، وغيرِ ذلك ممَّا هو معروفٌ لكثيرٍ مِن النَّاسِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنَّ هذه أخلاقُه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أكمَلُ الأخلاقِ التي يحصُلُ بها مِن المصالحِ العظيمةِ، ودفْعِ المَضَارِّ ما هو مُشاهَدٌ، فهل يليقُ بمؤمنٍ باللهِ ورسولِه، ويدَّعي اتِّباعَه

---

= قال البقاعي: (شمولُ العلمِ يستلزمُ تمامَ القدرةِ، فصار كأنَّه قال: إنَّه السميعُ العليمُ البصيرُ القديرُ؛ تثبيتًا للمتوكِّلِ عليه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١١٠، ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢١٣٩)، ومسلم (١٤١٢) من حديث عبد الله بن عُمرَ رضي الله عنهما. وما أخرجه البخاري (٢٧٢٧)، ومسلم (١٤٠٨/ ٣٨) و(١٤١٣) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

والسَّومُ صورتُه: أن يأخُذَ شيئًا ليشتريَه، فيقولَ له: رُدَّه لأبيعَك خيرًا منه بثمنِه أو مِثلَه بأرخَصَ، أو يقولَ للمالكِ: استردَّه لأشتريَه منك بأكثرَ، ومحلُّه بعدَ استقرارِ الثمنِ، وركونِ أحدِهما إلى الآخَرِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٥٤٤).

والاقتِداءَ به أنْ يكونَ كَلًّا على المُسلمينَ، شَرِسَ الأخلاقِ، شديدَ الشَّكيمةِ عليهم، غليظَ القلبِ، فَظَّ القَولِ فظيعَه؟!

وإنْ رأى منهم معصيةً أو سوءَ أدبٍ هَجَرَهم ومقَتَهم وأبغضَهم، لا لِينَ عندَه، ولا أدبَ لديه ولا توفيقَ! قد حَصَّلَ مِن هذه المعاملةِ مِن المفاسدِ وتعطيلِ المصالحِ ما حَصَّلَ، ومع ذلك تجدُه محتَقِرًا لِمَنِ اتَّصفَ بصفاتِ الرَّسولِ الكريمِ، وقد رماه بالنِّفاقِ والمُداهَنةِ، وقد كمَّل نفْسَه ورَفَعَها، وأُعجِبَ بعمَلِه، فهل هذا إلَّا مِن جهْلِه وتزيينِ الشَّيطانِ وخَدْعِه له[1]؟!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ إرشادٌ إلى ألَّا تتعالى على المؤمنينَ، ولا ترتَفِعَ في الجوِّ، بل اخفِضِ الجَناحَ، حتى وإنْ كنتَ تستطيعُ أنْ تطيرَ في الجوِّ، فاخفِضْ جَناحَك لِمَن اتَّبَعك مِن المؤمنينَ، وأمَّا مَن خالَفَك وعصاك فأقِمْ عليه العُقوبةَ اللائِقةَ به؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَقُلْ: «اخفِضْ جناحَك لكلِّ أَحَدٍ»، بل قال: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2].

٥- أعظَمُ مُساعدٍ للعبدِ على القيامِ بما أُمِرَ به: الاعتِمادُ على ربِّه، والاستِعانةُ بمولاهُ على توفيقِه للقيامِ بالمأمورِ؛ فلذلك أمَرَ اللهُ تعالى بالتوكُّلِ عليه، فقال: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾[3].

٦- قال الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ * إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾، فاستِحضارُ العبدِ رُؤيةَ اللهِ له في جَميعِ أحوالِه، وسَمْعَه لكُلِّ ما ينطِقُ به، وعِلمَه بما ينطوي عليه قَلبُه مِن الهَمِّ والعَزمِ والنيَّاتِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

ممَّا يُعينُه على مَنزلةِ الإحسانِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ القرآنَ تَفِرُّ منه الشَّياطينُ، وأنَّه لا يمكِنُ أنْ تَقرَبَه، وقد أخبَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في بعضِ الآياتِ أنَّها تَطْرُدُ الشَّياطينَ، كما في (البَقَرةِ) وفي (آيةِ الكرسيِّ) وما أشبَهَ ذلك[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ كلَّما انقادَ للشَّيطانِ ابتعدَ عن فَهمِ القُرآنِ ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾؛ لأنَّهم شياطينُ، فمَن كان شَيطانًا -والشَّيطانُ مِن بني آدمَ هو الذي يتلقَّى ما تأمُرُه الشَّياطينُ به- فإنَّه يُعزَلُ أيضًا عن فَهمِ القُرآنِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ في هذا إبطالٌ للكهانةِ مِن أصْلِها[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ لم يَقُلْ: «مُعذَّبًا، أو ستُعَذَّب»؛ إشارةً إلى أنَّ المُشرِكين الكُفَّارَ كثيرون، والذي يدعو مع اللهِ إلهًا آخَرَ يكونُ منهم[٥].

٥- السِّرُّ في الأمرِ بإنذارِ الأقرَبينَ أوَّلًا في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أنَّ الحُجَّةَ إذا قامتْ عليهم تَعَدَّتْ إلى غيرِهم، وإلَّا فكانوا عِلَّةً للأبعَدينَ في الامتِناعِ، وأيضًا ألَّا يأخُذَه ما يأخذُ القَريبَ للقَريبِ مِن العَطفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٣).

والرأفةِ، فيُحابيَهم في الدَّعوةِ والتَّخويفِ؛ فلذلك نُصَّ له على إنذارِهم[١]، وإنْ كان مأمورًا بإنذارِ النَّاسِ كافَّةً، كما قال: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢]؛ لأنَّ في إنذارِهم -وهم عشيرتُه- عدَمَ مُحاباةٍ ولُطفٍ بهم، وأنَّهم والنَّاسَ في ذلك شرَعٌ واحدٌ[٢] في التَّخويفِ والإنذارِ، فإذا كانتِ القرابةُ قد خُوِّفوا وأُنْذِروا مع ما يَلْحقُ الإنسانَ في حقِّهم مِن الرَّأفةِ؛ كان غيرُهم في ذلك أوكَدَ وأدْخَلَ. أو لأنَّ البُداءةَ تكونُ بمَن يَلِيه ثمَّ مَن بعْدَه، كما قال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾[٣] [التوبة: ١٢٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ تحقيقَ الإيمانِ إنَّما يكونُ في اتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنه لَمَّا قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾، فهو إذا أنذَرَ إمَّا أنْ يُتَّبعَ وإمَّا ألَّا يُتَّبعَ[٤].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ كَونَه سُبحانَه سَميعًا أمرٌ مُغايرٌ لعِلْمِه بالمَسموعاتِ، وإلَّا لكان لفْظُ العليمِ مفيدًا فائدتَه[٥]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ ردٌّ لِمَا زعَمَه الكفَرةُ في حقِّ القرآنِ الكريمِ مِن أنَّه مِن قَبيلِ ما يُلقيه الشَّيطانُ على الكَهنةِ، بعْدَ تحقيقِ الحقِّ ببَيانِ أنَّه نزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ؛ فقولُه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّهُۥ

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٠٣).

(٢) أي: مُتساوونَ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢١/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٧).

لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، وما بيْنَهما اعتراضٌ، استدعاهُ تَناسبُ المعاني، وأخْذُ بعضِها بحُجَزِ بَعضٍ؛ تفنُّنًا في الغرَضِ، وهذا رَدٌّ على قولِهم في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هو كاهنٌ، وزعْمِهم أنَّ الَّذي يأْتِيه شيطانٌ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾

- مفعولُ ﴿يَسۡتَطِيعُونَ﴾ محذوفٌ، أي: ما يَستطيعونَهُ[٢]؛ ولعلَّ ذلك لرِعايةِ الفاصِلةِ.

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ﴾ استِئنافٌ؛ فكان كالفَذْلَكةِ[٣] لِمَا قبْلَه، وهو بعُمومِه يَتنزَّلُ مَنزلةَ التَّذييلِ[٤].

- وأُعيدَت الضَّمائرُ بصِيغةِ العُقلاءِ ﴿لَهُمۡ .. يَسۡتَطِيعُونَ .. إِنَّهُمۡ .. لَمَعۡزُولُونَ﴾ بعْدَ أنْ أُضمِرَ لهم بضَميرِ غيرِ العقلاءِ في قولِه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ﴾؛ اعتبارًا بمُلابسةِ ذلك للكُهَّانِ[٥].

- وما أحسَنَ ما تَرتَّبَ نَفْيُ هذه الجُملِ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٨، ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٩).

(٣) الفَذْلكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و (الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٩٩، ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٩٩).

وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾؛ حيثُ نَفى أوَّلًا تَنزيلَ الشَّياطينِ به، والنَّفيُ في الغالبِ يكونُ في المُمكنِ، وإنْ كان هنا لا يُمكِنُ مِن الشَّياطينِ التَّنزُّلُ بالقرآنِ، ثمَّ نفَى انبغاءَ ذلك والصَّلاحيَّةَ، أي: ولو فُرِضَ الإمكانُ لم يَكونوا أهْلًا له، ثمَّ نفَى قُدرتَهم على ذلك، وأنَّه مُستحيلٌ في حقِّهم التَّنزُّلُ به؛ فارْتَقى مِن نفْيِ الإمكانِ إلى نفْيِ الصَّلاحيَّةِ، إلى نفْيِ القُدرةِ والاستطاعةِ، وذلك مُبالَغةٌ مُترتِّبةٌ في نَفْيِ تَنزيلِهم به، ثمَّ علَّلَ انتفاءَ ذلك عن استماعِ كلامِ أهلِ السَّماءِ: بأنَّهم مَرْجومون بالشُّهبِ[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ فيه تَوجيهُ الخِطابِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مع ظُهورِ استحالةِ صُدورِ المُنْهَى عنه عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَهييجًا وحثًّا على ازديادِ الإخلاصِ، ولُطفًا لسائرِ المُكلَّفينَ؛ ببَيانِ أنَّ الإشراكَ مِن القُبْحِ والسُّوءِ بحيث يُنْهَى عنه مَن لا يُمكِنُ صُدورُه عنه، فكيف بمَن عدَاهُ[2]؟! ولأنَّه المُبلِّغُ عن اللهِ تعالى، فللاهتمامِ بهذا النَّهيِ وقَعَ تَوجيهُه إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مع تحقُّقِ أنَّه مُنْتَهٍ عن ذلك؛ فتعيَّنَ أنْ يكونَ النَّهيُ للَّذين هم مُتلبِّسونَ بالإشراكِ، والمقصودُ مِن مِثلِ ذلك الخِطابِ غيرُه ممَّن يَبلُغُه الخِطابُ؛ فالمعنى: فلا تَدْعوا مع اللهِ إلهًا آخَرَ، فتَكونوا مِن المُعذَّبينَ. وفي هذا تعريضٌ بالمُشركينَ أنَّهم سيُعذَّبون؛ للعِلْمِ بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابَه غيرُ مُشركينَ. وقيل: هو خِطابٌ لغيرِ مُعيَّنٍ؛ فيَعُمُّ كلَّ مَن يَسمعُ هذا الكلامَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٠).

٥- قولُه تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]؛ فهو تَخصيصٌ بعدَ تَعميمٍ؛ للاهتمامِ بهذا الخاصِّ. ووجْهُ الاهتمامِ أنَّهم أَوْلَى النَّاسِ بقَبولِ نُصحِه، وتعزيزِ جانبِه، ولئلَّا يَسبقَ إلى أذهانِهم أنَّ ما يُلْقِيه الرَّسولُ مِن الغِلظةِ في الإنذارِ وأهوالِ الوعيدِ لا يقَعُ عليهم؛ لأنَّهم قرابةُ هذا المُنذِرِ وخاصَّتُه. وأنَّ فيه تَعريضًا بقلَّةِ رَعْيِ كثيرٍ منهم حقَّ القرابةِ؛ إذ آذاهُ كثيرٌ منهم وعصَوهُ، مثلُ أبي لَهبٍ؛ فلا يَحْسَبوا أنَّهم ناجونَ في الحالتينِ، وأنْ يَعلَموا أنَّهم لا يُكتَفى مِن مُؤمنِهم بإيمانِه حتَّى يضُمَّ إليه العملَ الصَّالحَ، فهذا ممَّا يَدخلُ في النِّذارةِ. والعشيرةُ: هم الأدْنونَ مِن القبيلةِ، فوصْفُ الأقربينَ تأكيدٌ لمعنى العشيرةِ، واجتلابٌ لقُلوبِهم إلى إجابةِ ما دَعاهم إليه، وتعريضٌ بأهلِ الإدانةِ منهم[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مُعترِضٌ بيْنَ الجُملتينِ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ و: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾؛ ابتدارًا لكرامةِ المؤمنينَ قبْلَ الأمْرِ بالتَّبرُّؤِ مِن الَّذين لا يُؤمِنون -على أحدِ القولينِ في المرادِ بقولِه: ﴿عَصَوْكَ﴾-، وبعْدَ الأمْرِ بالإنذارِ الَّذي لا يَخْلو مِن وقْعٍ أليمٍ في النُّفوسِ[2].

- قولُه: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ كِنايةٌ عن التَّواضُعِ[3].

- قولُه: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ المُتَّبِعون للرَّسولِ هم المُؤمِنونَ، والمُؤمِنون هم المُتبِعون للرَّسولِ؛ فوجْهُ تَسميتِهم قبْلَ الدُّخولِ في الإيمانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٠- ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٧).

(مؤمنين): مُشارفَتُهم ذلك، أو أنْ يُريدَ بالمُؤمنينَ المُصدِّقينَ بألْسِنَتِهم، وهم صِنفانِ: صِنفٌ صَدَّق واتَّبَع رسولَ اللهِ فيما جاء به، وصِنْفٌ ما وُجِدَ منه إلَّا التَّصديقُ فحسْبُ، ثمَّ إمَّا أنْ يَكونوا مُنافقينَ أو فاسقينَ، والمُنافِقُ والفاسقُ لا يُخفَضُ لهما الجَناحُ؛ فـ(مِن) على الأوَّلِ: بَيانٌ. وعلى الثَّاني: تَبعيضٌ، ومَوقعُه مَوقعُ البدلِ ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾، والتَّقديرُ: واخفِضْ جَناحَك لبعضِ المؤمنينَ. والَّذي هو أجْرى على أفانينِ البلاغةِ: أنْ يُحمَلَ الكلامُ على أُسلوبِ وضْعِ المُظهَرِ موضِعَ المُضمرِ، وأنَّ الأصلَ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ * وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ (منهم)؛ فعُدِلَ إلى ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ لِيَعُمَّ، ولِيُؤذِنَ أنَّ صِفةَ الإيمانِ هي الَّتي تَستحِقُّ أنْ يُكرَمَ صاحبُها، ويُتواضَعَ لأجْلِها لِمَن اتَّصَف بها، سواءٌ كان مِن عَشيرتِك أو مِن غَيرِهم[1]. وقيل: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بَيانٌ لـ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾؛ فإنَّ المُرادَ المُتابَعةُ في الدِّينِ، وهي الإيمانُ. والغرضُ مِن هذا البَيانِ: التَّنويهُ بشأْنِ الإيمانِ، كأنَّه قيلَ: واخفِضْ جَناحَك لهم؛ لأجْلِ إيمانِهم. وجَبْرٌ لخاطِرِ المؤمنينَ مِن قَرابتِه[2].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ لعلَّه احتُرِزَ بالتَّعبيرِ بصِيغةِ الافتعالِ عن مثْلِ أبي طالبٍ ممَّن لم يُؤمِنْ، أو آمَن ظاهرًا وكان منافقًا، أو ضعيفًا بالإيمانِ فاسقًا؛ وحُقِّقَ المُرادُ بقولِه: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: الَّذين صار الإيمانُ لهم صِفةً راسخةً، سواءٌ كانوا مِن الأقربينَ أو الأبعدينَ[3].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿وَأَنذِرْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٠٩).

عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾، أي: فإنْ عصاك عَشيرتُك، فما عليك إلَّا أنْ تَتبرَّأَ مِن عمَلِهم، وإنَّما أُمِرَ بأنْ يقولَ لهم ذلك؛ لِإظهارِ أنَّهم أهْلٌ للتَّبرُّؤِ مِن أعمالِهم، فلا يَقتصِرُ على إضمارِ ذلك في نفْسِه[١].

٨- قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

- ﴿ وَتَوَكَّلْ ﴾ هو عطْفٌ على جوابِ الشَّرطِ، أي: قُلْ: إنِّي بَرِيءٌ وتوكَّلْ، وعطْفُه على الجوابِ يَقْتضي تَسبُّبَه على الشَّرطِ كتَسبُّبِ الجوابِ، وهو يَستلزمُ البِدارَ به[٢].

- وناسَبَ الوصفُ بالعزيزِ -وهو الَّذي لا يُغالَبُ-، وبالرَّحيمِ -وهو الَّذي يَرحمُك- وهاتانِ الصِّفتانِ هما اللَّتانِ جاءتا في أواخرِ قصصِ هذه السُّورةِ. فالتَّوكُّلُ على مَن هو بهَذينِ الوَصفينِ كافِيهِ شَرَّ مَن يُبغِضُه مِن هؤلاء وغَيرِهم؛ فهو يَقهَرُ أعداءَك بعِزَّتِه، ويَنصرُك عليهم برَحمتِه[٣].

- وعلَّقَ التَّوكُّلَ بالاسمينِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وما تبِعَهُما مِن الوصفِ بالمَوصولِ، وما ذيَّلَ به مِن الإيماءِ إلى أنَّه يُلاحِظُ قولَه ويَعلمُ نِيَّتَه؛ إشارةً إلى أنَّ التَّوكُّلَ على اللهِ يأْتي بما أومَأَتْ إليه هذه الصِّفاتُ ومُسْتَتبعاتُها بوصْفِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّه بعِزَّتِه قادرٌ على تغلُّبِه على عدُوِّه الَّذي هو أقْوى منه، وأنَّه برَحمتِه يَعصِمُه منهم. وقد لُوحِظَ هذانِ الاسمانِ غيرَ مرَّةٍ في هذه السُّورةِ لهذا الاعتبارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٤).

- قولُه: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ لعلَّ السِّرَّ في تَقديم هذا الاسم على الوصفين الأخيرين ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ اقتضاءُ مَقام التَّسلِّي عن المَشاقِّ اللَّاحقةِ مِن القوم إليه؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَتَوَكَّلْ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، كأنَّه قِيلَ: فإنْ لم يَنتفِعوا بإنذارِك، ولم يَنجَعْ فيهم وَعْظُك تبرَّأْ منهم، وكِلْ أمْرَك وأمْرَهم إلى العزيزِ الغالبِ القاهرِ، واشتغِلْ بدَعوةِ مَن يَقبَلُ دعوتَك، وبلِّغْ إليهم ما أُنزِلَ إليك مِن الرَّحمةِ مِن ربِّك، واخفِضْ جناحَك لهم رَحمةً؛ لأنَّك رَحمةٌ مُهْداةٌ إلى الخلْقِ، وتفرَّغْ لعِبادةِ ربِّك باللَّيلِ والنَّهارِ[1].

٩- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾

- وَصْفُه تعالى بـ ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ مَقصودٌ به لازمُ معناهُ؛ وهو أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمَحلِّ العِنايةِ منه؛ لأنَّه يَعلمُ توجُّهَه إلى اللهِ ويَقبَلُ ذلك منه، فالمُرادُ مِن قولِه: ﴿يَرَىٰكَ﴾ رُؤيةٌ خاصَّةٌ، وهي رُؤيةُ الإقبالِ والتَّقبُّلِ، كقولِه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾[2] [الطور: ٤٨].

١٠- قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾

- إنَّما وصَفَ اللهُ تعالى ذاتَه بعلْمِه بحالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الَّتي بها يَستأهِلُ ولايتَه بعْدَ أنْ عبَّرَ عنه بما يُنبِئُ عن قَهرِ أعدائِه ونصْرِ أوليائِه مِن وصفَيِ العزيزِ الرحيمِ؛ تَحقيقًا للتَّوكُّلِ، وتَوطينًا لقلْبِه عليه[3].

- والقيامُ: الصَّلاةُ في جَوفِ اللَّيلِ، والتَّقلُّبُ في السَّاجدينَ: هو صَلاتُه في

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٨).

جماعاتِ المُسلمينَ في مَسجدِه. وهذا يَجمعُ معنى العنايةِ بالمسلمينَ تَبعًا للعِنايةِ برسولِهم، فهذا مِن بَرَكتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقد جمَعَها هذا التَّركيبُ العجيبُ الإيجازِ[1].

١١- قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

- مَوقعُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ مَوقعُ التَّعليلِ للأمْرِ بـ ﴿قُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، وللأمْرِ بـ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ فصِفةُ (السَّميعِ) مُناسِبةٌ للقولِ، وصِفةُ (العليم) مُناسِبةٌ للتَّوكُّلِ، أي: إنَّه يَسمعُ قولَك ويَعلمُ عزْمَك. وضميرُ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ للتَّقويةِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٢١-٢٢٧)

﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ
وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ
﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا
وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَفَّاكٍ﴾: أي: كذَّابٍ، والإِفْكُ هو أشدُّ الكَذِبِ، وإنَّما سُمِّي إفكًا؛ لأنَّه مصروفٌ عن الحقِّ، والإفكُ: كُلُّ مَصروفٍ عن وجْهِه الذي يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[1].

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: كثيرِ الإثمِ، مُتجاوِزٍ في الظُّلمِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتأخُّرِ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخيرِ، متأخِّرٌ عنه[2].

﴿يَهِيمُونَ﴾: أي: يَذهَبون على غيرِ قَصدٍ، كما يذهَبُ الهائمُ على وَجهِه، فيَخوضون في كلِّ نوعٍ مِن الكَلامِ، وأصلُ (هيم): يدُلُّ على عَطَشٍ شديدٍ[3].

﴿مُنقَلَبٍ﴾: أي: مَرجِعٍ ومَعادٍ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على صَرفِ الشَّيءِ عن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٥٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٨).

وجهٍ إلى وجهٍ[١].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾

قولُه: ﴿أَيَّ﴾: مَنصوبٌ على المَصدَرِ، والنَّاصبُ له ﴿يَنقَلِبُونَ﴾؛ قُدِّمَ عليه لصَدارةِ الاستفهام، وهو مُعَلِّقٌ لـ (يعلم)، سادٌّ مَسَدَّ مفعولَيْها، ولا يجوزُ نَصبُ ﴿أَيَّ﴾ بـ (سيعلَمُ)؛ لأنَّ الاستفهامَ لا يعمَلُ فيه ما قبْلَه؛ لأنَّ له صدْرَ الكلامِ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى أنَّه مِن المحالِ أنْ تتنزَّلَ الشياطينُ على الرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: هل أُخبِرُكم بالذين تتنزَّلُ عليهم الشَّياطينُ؟ تتنَزَّلُ على كُلِّ كذَّابٍ كثيرِ الآثام، يَستَرِقُ هؤلاء الشَّياطينُ ما يَسمَعونَه في السَّماءِ، ثمَّ يُلقونَه إلى أوليائِهم مِن الكَهَنةِ، وأكثَرُهم كاذِبون فيما يُخبِرونَ به.

ثمَّ يُبطِلُ الله تعالى شبهةً أخرَى مِن شبهاتِهم، وهي زعمُهم أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم شاعرٌ، فيقولُ: والشُّعَراءُ يتَّبِعُهم الغاوُون الضالُّونَ، ألم تَرَ أنَّ هؤلاء الشُّعَراءَ يتكَلَّمون بالباطلِ في كلِّ وجهٍ مِن أوجُهِ الكلام، خائِضينَ حائرينَ لا يَثْبُتونَ على حالٍ، وأنَّهم يقولون ما لا يَفعَلونَه في الواقعِ، إلَّا مَن آمَنَ منهم، وعَمِلَ صالِحًا، وذكَرَ اللهَ كثيرًا، وهجا بالحَقِّ مَن ظلَمَ؛ انتصارًا لنَفْسِه وللمُسلمينَ؛ فهؤلاء ليسوا مِن الشُّعراءِ المذمومينَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٧/ ٦٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٤).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٠٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (١/ ١٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٦٧).

ثمَّ يختمُ الله سبحانَه السورةَ بقولِه متوعِّدًا: وسيعلَمُ الذين ظَلَموا بالشِّركِ والاعتداءِ على النَّاسِ المصيرَ الذي يصيرونَ إليه بعْدَ مَوتِهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢٢١ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه وتعالى أنَّ القُرآنَ لا يصِحُّ أنْ يكونَ ممَّا تنَزَّلتْ به الشَّياطينُ؛ أكَّدَ ذلك بأنْ بَيَّنَ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَصِحُّ أنْ يَتنزَّلوا عليه[1].

وأيضًا لَمَّا سفَّهَ قولَهم في القرآنِ: إنَّه قولُ كاهنٍ، فردَّ عليهم بقولِه: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾ [الشعراء: ٢١٠]، وأنَّه لا يَنْبغي للشَّياطينِ، ولا يسْتطيعونَ مِثْلَه، وأنَّهم حِيلَ بيْنَهم وبيْنَ أخبارِ أوليائِهم؛ عاد الكلامُ إلى وصْفِ حالِ كُهَّانِهم؛ لِيُعلَمَ أنَّ الَّذي رَمَوا به القرآنَ لا يَنْبغي أنْ يَلتبِسَ بحالِ أوليائِهم[2].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه أنَّ القرآنَ مُنافٍ لأقوالِ الشياطينِ، وبَيَّنَ أنَّ حالَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وحالَ أتْباعِه مُنافيةٌ لأحوالِهم، وأحوالِ مَن يأتونَه مِن الكُهَّانِ بما ذَكَره سُبحانَه مِن فِعلِه صلَّى الله عليه وسلَّم وفِعلِ أشياعِه رضيَ اللهُ عنهم مِن الإقبالِ على اللهِ، والإعراضِ عمَّا سِواه، فعُلِمَ أنَّ بيْنَهم وبيْنَهم بَونًا بعيدًا، وفَرقًا كبيرًا شديدًا، وأنَّ حالَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم موافِقٌ لحالِ الرُّوحِ الأمينِ النازلِ عليه بالذِّكرِ الحكيمِ- تشوَّفتِ النَّفْسُ إلى معرفةِ أحوالِ إخوانِ الشَّياطينِ، فقال محرِّكًا لِمَن يريدُ ذلك، متمِّمًا لدفعِ اللَّبسِ عن كَونِ القرآنِ مِن عندِ اللهِ[3]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١١).

﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ ﴾.

أي: هل أُخبِرُكم[١] بصِفةِ الذينَ تتنزَّلُ عليهم الشَّياطينُ[٢]؟

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٢٢٢﴾ ﴾.

أي: تتنَزَّلُ بكَثرةٍ على كُلِّ كثيرِ الكَذِبِ في أقوالِه، كثيرِ الآثامِ في أفعالِه[٣].

﴿ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾.

أي: يَستَرِقُ الشَّياطينُ بعضَ ما يَسمَعونَه مِن الملائكةِ في السَّماءِ، فيُلقونَه إلى أوليائِهم مِن الكَهَنةِ الأفَّاكين الآثِمينَ قبْلَ أن يُرجَمُوا بالشُّهُبِ[٤]، وأكثَرُهم

---

(١) قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ﴿ هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ ﴾ أيُّها الناسُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠).
وقال ابنُ كثير: (يقولُ تعالى مخاطِبًا لِمن زعَم مِن المشركين أنَّ ما جاء به الرسولُ ليس حقًّا، وأنَّه شيءٌ افتعله مِن تِلقاءِ نفْسِه، أو أنَّه أتاه به رَئِيٌّ مِن الجنِّ، فنزَّه اللهُ سبحانه جَنابَ رسولِه عن قولِهم وافترائِهم، ونبَّه أنَّ ما جاء به إنَّما هو الحقُّ مِن عندِ الله، وأنَّه تنزيلُه ووحْيُه، نزَل به مَلَكٌ كريمٌ أمينٌ عظيمٌ، وأنَّه ليس مِن قَبيلِ الشياطينِ؛ فإنَّهم ليس لهم رغبةٌ في مثلِ هذا القرآنِ العظيمِ، وإنَّما يَنزلون على مَن يُشاكلُهم ويشابهُهم مِن الكهَّانِ الكذبةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٢).
ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٦).
قال ابن عاشور: (﴿ كُلِّ ﴾ هنا مُستعمَلةٌ في معنى التكثيرِ، أي: على كثيرٍ مِنَ الأفَّاكينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٦).

(٤) قال الشوكاني: (الشَّياطينُ كانت تَستَرِقُ السَّمعَ ثمَّ يأتون إليهم فيُلقونَه إليهم، وهو معنى قَولِه: ﴿ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ ﴾ أي: ما يَسمَعونَه ممَّا يَستَرِقونَه، فتكونُ جملةُ ﴿ يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ ﴾ على هذا راجعةً إلى الشياطينِ في محلِّ نصبٍ على الحالِ، أي: حالِ كَونِ الشياطينِ مُلقينَ السمعَ، أي: ما =

كاذِبونَ فيما يُخبِرونَ به مِن الغُيوبِ[1].

= يَسمَعونه مِن الملأِ الأعلى إلى الكُهَّانِ. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: إنَّ الشياطينَ يُلْقون السَّمعَ: أي: يُنصِتونَ إلى الملأِ الأعلى لِيَسترِقوا منهم شيئًا، ويكونَ المرادُ بالسَّمعِ على الوجهِ الأوَّلِ المسموعَ، وعلى الوجهِ الثاني: نفْسَ حاسَّةِ السَّمعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٩).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: يُلْقون ما سمِعوه مِن الملائكةِ ممَّا استَرَقوا سَمْعَه مِن السماءِ إلى الكَهَنةِ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والعليمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

وقيل: المعنى: تُلْقي الشياطينُ بآذانِهم إلى السمعِ في السماءِ لكلامِ الملائكةِ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٠).

وقيل: المعنى: يُلْقي الأفَّاكون السمعَ إلى الشياطينِ فيَتلَقَّوْن منهم ظُنونًا وأماراتٍ لنُقصانِ عِلمِهم، فيَضُمُّون إليها على حسَبِ تخيُّلاتِهم خرافاتٍ وأشياءَ لا يُطابِقُ أكثرُها الواقعَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: البيضاويُّ، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧١، ٦٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿ يُلْقُونَ ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ يعودُ إلى الشياطينِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٩٩).

وقيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿ يُلْقُونَ ﴾: وقولِه: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ يعودُ إلى كلِّ أفَّاكٍ أثيم. وممَّن قال بذلك: البيضاويُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٦).

وقيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿ يُلْقُونَ ﴾: يعودُ إلى الشياطينِ، وفي قَولِه تعالى: ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ ﴾ يعودُ إلى أوليائِهم مِن الكَهَنةِ الأفَّاكينَ الآثِمين. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، =

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ [الحجر: ١٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ الله عنه، قال: إنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قضى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبت الملائِكةُ بأجنِحَتِها خُضْعانًا لِقَولِه، كأنَّه سِلسلةٌ على صَفوانٍ[١]، فإذا فُزِّعَ[٢] عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهو العَليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ، ومُستَرِقُ السَّمعِ هكذا بعضُه فوقَ بَعضٍ -ووصَفَ سُفْيانُ بكَفِّه فحَرَفَها وبَدَّد بيْنَ أصابِعِه- فيسمَعُ الكَلِمةَ فيُلْقيها إلى مَن تحتَه، ثمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَه، حتَّى يُلقيَها على لسانِ الساحِرِ أو الكاهِنِ، فرُبَّما أدرَكَ الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقِيَها، ورُبَّما ألْقاها قبْلَ أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ معها مِئةَ كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! فيُصَدَّقُ بتلك الكَلِمةِ التي سَمِعَ مِنَ السَّماءِ))[٣].

وعن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها، قالت: ((سَأل أُناسٌ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الكُهَّانِ، فقال لهم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ليسُوا بشَيءٍ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، فإنَّهم يحَدِّثونَ أحيانًا بالشَّيءِ يكونُ حَقًّا! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: تلك الكَلِمةُ مِنَ الحَقِّ يَخطَفُها الجِنِّيُّ، فيَقُرُّها في أُذُنِ وليِّه قَرَّ الدَّجاجةِ[٤]، فيَخلِطون فيها أكثَرَ مِن مِئةِ كَذْبةٍ))[٥].

---

= والزمخشري، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٤).

(١) صَفوانٍ: هو الحَجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

(٢) فُزِّعَ أي: أُزيلَ الخَوفُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

(٣) رواه البخاري (٤٨٠٠).

(٤) القَرُّ: ترديدُك الكلامَ في أذُنِ المخاطَبَ حتى يفهَمَه، وقَرُّ الدجاجةِ: صَوتُها إذا قطَّعَتْه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٩).

(٥) رواه البخاري (٦٢١٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢٨).

وعن عائشةَ رَضيَ الله عنها، أنَّها سَمِعَت رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الملائِكةَ تَنزِلُ في العَنانِ -وهو السَّحابُ-، فتذكُرُ الأمرَ قُضِي في السَّماءِ، فتَستَرِقُ الشَّياطينُ السَّمعَ فتَسمَعُه، فتُوحيه إلى الكُهَّانِ، فيَكذِبون معها مِئةَ كَذبةٍ مِن عندِ أنفُسِهم))[1].

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قال الكُفَّارُ: لِمَ لا يجوزُ أن يُقالَ: إنَّ الشَّياطينَ تَنزِلُ بالقُرآنِ على محمَّدٍ، كما أنَّهم يَنزِلون بالكَهانةِ على الكَهَنةِ، وبالشِّعرِ على الشُّعَراءِ؟! ثمَّ إنَّه سُبحانَه فَرَّق بيْنَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيْنَ الكَهَنةِ؛ فذكَرَ هاهنا ما يدُلُّ على الفَرقِ بيْنَه عليه السَّلامُ وبينَ الشُّعَراءِ[2].

وأيضًا لَمَّا نزَّه اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن نُزولِ الشَّياطينِ عليه؛ برَّأه أيضًا مِن الشِّعرِ، فقال[3]:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾.

أي: والشُّعَراءُ يتَّبِعُهم غُواةُ الإنسِ والجِنِّ، الضَّالُّونَ المتَّبِعون أهواءَهم وشَهَواتِهم، وليس القرآنُ شِعرًا، ولا محمَّدٌ بشاعرٍ. وأتباعُه هم المُهتَدون[4].

---

(١) رواه البخاري (٣٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٣، ٦٧٦)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١٨، ١٩) و(٢٨/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٨، ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣١١).=

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحاقة: ٤١ - ٤٣].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ الله عنه، قال: بَيْنَا نحن نسيرُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعَرْجِ[١] إذْ عَرَضَ شاعِرٌ يُنشِدُ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُذوا الشَّيطانَ أو أمسِكوا الشَّيطانَ؛ لَأَنْ يَمتلئَ جَوفُ رجُلٍ قَيْحًا[٢] خيرٌ له مِن أن يمتلئَ شِعرًا))[٣].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَأَنْ يَمتلئَ جَوفُ الرَّجُلِ قَيحًا يَريهِ[٤] خَيرٌ مِن أنْ يَمتلئَ شِعرًا))[٥].

---

= قال ابن عاشور: (الغاوي: المتَّصِفُ بالغَيِّ والغَوايةِ، وهي الضَّلالةُ الشَّديدةُ، أي: يَتَّبِعُهم أهلُ الضَّلالةِ والبِطالةِ الرَّاغبون في الفِسقِ والأذى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٨، ٢١٠).

وقال ابن عطية: (كلُّ شاعرٍ في الإسلامِ يهجو ويمدَحُ مِن غيرِ حَقٍّ، ولا يرتَدِعُ عن قولٍ دَنيءٍ؛ فهم داخِلون في هذه الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٧).

وقال ابن عبد البر: (لا يُنكِرُ الشِّعرَ الحَسَنَ أحَدٌ مِن أُولي العِلمِ ولا مِن أُولي النُّهَى... وليس أحدٌ مِن كبارِ الصَّحابةِ وأهلِ العِلمِ ومَوضِعِ القُدوةِ إلَّا وقد قال الشِّعرَ وتمثَّلَ به، أو سَمِعَه فرَضِيَه، وذلك ما كان حِكمةً أو مُباحًا مِن القَولِ، ولم يكُنْ فيه فُحشٌ ولا خَنًا، ولا لِمُسلم أذًى، فإنْ كان ذلك فهو والمنثورُ مِن الكلامِ سَواءٌ؛ لا يحِلُّ سَماعُه ولا قَولُه). ((التمهيد)) (٢٢/ ١٩٤).

(١) العَرْجُ: قريةٌ قَريبةٌ مِن المدينةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٥).

(٢) قَيحًا: أي: صديدًا ودَمًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٧/ ٣٠١٧).

(٣) رواه مسلم (٢٢٥٩).

(٤) يريه: أي: يأكُلُ جَوفَه ويُفسِدُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٤).

(٥) رواه البخاري (٦١٥٥)، ومسلم (٢٢٥٧) واللَّفظُ له.

قال القرطبي: (هذا الحديثُ أحسَنُ ما قيل في تأويلِه: إنَّه الذي قد غَلَب عليه الشِّعرُ، وامتلأ =

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ ﴾.

أي: ألم تَرَ أنَّ الشُّعَراءَ يتكَلَّمونَ بالباطِلِ في كُلِّ لَغوٍ ووَجهٍ مِن أوجُهِ القَولِ؛ كالمَدحِ والهِجاءِ، والرِّثاءِ والفَخرِ والغَزَلِ، يَمضُون فيه خائِضينَ حائرينَ، لا يَثْبُتونَ على حالٍ[1]؟!

﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾.

أي: وأنَّ الشُّعَراءَ يقولون الكَذِبَ، فيتكَلَّمونَ بما لا يَفعَلونَه في الواقِعِ[2].

---

= صدرُه منه دونَ علمِ سِواه، ولا شيءٍ مِن الذِّكرِ، مِمَّن يخوضُ به في الباطِلِ، ويَسلُكُ به مسالِكَ لا تُحمَدُ له، كالمُكثِرِ مِن اللَّغَطِ والهَذْرِ والغِيبةِ وقَبيحِ القولِ، ومَن كان الغالِبُ عليه الشِّعرَ لزِمَتْه هذه الأوصافُ المذمومةُ الدنيَّةُ؛ لحُكمِ العادةِ الأدبيَّةِ، وهذا المعنى هو الذي أشار إليه البخاريُّ في صَحيحِه لَمَّا بوَّبَ على هذا الحديثِ: بابُ ما يُكرَهُ أن يكون الغالِبُ على الإنسانِ الشِّعرَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣١٢).

قال ابن جرير: (هذا مَثَلٌ ضَرَبه الله لهم في افتِنانِهم في الوجوهِ التي يفتنُّونَ فيها بغيرِ حَقٍّ، فيَمدَحون بالباطِلِ قَومًا، ويهجُون آخَرينَ كذلك بالكَذِبِ والزُّورِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٩).

قال القرطبي: (يقولُ: أكثَرُهم يكذِبونَ، أي: يدُلُّون بكلامِهم على الكرَمِ والخيرِ، ولا يفعلونَه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٢).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قال عليُّ بنُ أبي طَلْحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ: «أكثرُ قولِهم يَكذِبون فيه». وهذا الذي قاله ابنُ عباسٍ رضي الله عنه هو الواقعُ في نفْسِ الأمرِ؛ فإنَّ الشعراءَ يتبجَّحون بأقوالٍ وأفعالٍ لم تَصدُرْ منهم ولا عنهم، فيتكَثَّرونَ بما ليس لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٤).

وقال السعدي: (هذا وصْفُ الشعراءِ؛ أنَّهم تخالِفُ أقوالُهم أفعالَهم، فإذا سمِعتَ الشاعرَ =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ ۝٢٢٧﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾.

أي: إلَّا[1] الشُّعَراءَ المؤمِنينَ الذين عَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ، وذكَروا اللهَ ذِكرًا كَثيرًا[2].

---

= يتغزَّلُ بالغزلِ الرقيقِ، قلتَ: هذا أشدُّ الناسِ غرامًا، وقلبُه فارغٌ مِن ذاك، وإذا سمِعتَه يمدحُ أو يذمُّ، قلتَ: هذا صدقٌ، وهو كذبٌ، وتارةً يتمدَّحُ بأفعالٍ لم يَفعلْها، وتُروكٍ لم يَترُكْها، وكرَمٍ لم يحُمْ حوْلَ ساحتِه، وشجاعةٍ يعلو بها على الفُرسانِ، وتراه أجبَنَ مِن كلِّ جبانٍ، هذا وصْفُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠).

وقال ابنُ عاشور: (في هذا إبداءٌ للبَونِ الشاسعِ بيْنَ حالِ الشُّعراءِ، وحالِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي كان لا يقولُ إلَّا حقًّا، ولا يصانعُ، ولا يأتي بما يُضَلِّلُ الأفهامَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٠).

(١) قال ابن عاشور: (بهذا الاستثناءِ تعيَّن أنَّ المذمومينَ هم شُعَراءُ المُشركينَ الذين شغَلَهم الشِّعرُ عن سَماعِ القرآنِ، والدُّخولِ في الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٨، ٦٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٥، ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠).

قال الواحدي: (أي: لم يَشغَلْهمُ الشِّعرُ عن ذِكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولم يجعَلوا الشِّعرَ هَمَّهم). ((البسيط)) (١٧/ ١٥١).

وقال ابن كثير: (قيل: معناه: ذكَروا الله كثيرًا في كلامِهم. وقيل: في شِعرِهم. وكلاهما صحيحٌ مُكَفِّرٌ لِما سبَق). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٦).

وقال البِقاعي: (لم يَشغَلْهم الشِّعرُ عن الذِّكرِ، بل بَنَوا شِعرَهم على أمرِ الدِّينِ، والانتصارِ =

عن أبي هُريرةَ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أصْدَقُ كَلِمةٍ قالها شاعِرٌ كَلِمةُ لَبِيدٍ: ألَا كُلُّ شَيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ. وكاد أُمَيَّةُ ابنُ أبي الصَّلْتِ أن يُسلِمَ))(١).

وعن سَلَمةَ بنِ الأكْوَعِ رَضيَ الله عنه، قال: ((خرَجْنا مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى خَيْبَرَ، فسِرْنا ليلًا، فقال رجُلٌ مِن القَومِ لعامِرِ بنِ الأكوَعِ: ألَا تُسمِعُنا مِن هُنَيْهاتِك(٢)؟ قال: وكان عامِرٌ رجُلًا شاعِرًا، فنزل يَحْدو بالقَومِ يقولُ:

اللَّهمَّ لولا أنت ما اهتَدَيْنا ... ولا تصَدَّقْنا ولا صَلَّيْنا
فاغفِرْ فِداءً لك ما اقتَفَيْنا(٣) ... وثبِّتِ الأقدامَ إنْ لاقَيْنا
وألْقِيَنْ سَكينةً علينا ... إنَّا إذا صِيحَ بنا أتَيْنا(٤)
وبالصِّياحِ عَوَّلوا علينا(٥)

---

= للشَّرعِ، فصار لذلك كله ذِكرًا للهِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١١٥).

وقال ابن عاشور: (معنى: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: كان إقبالُهم على القُرآنِ والعبادةِ أكثَرَ مِن إقبالِهم على الشِّعرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١١).

(١) رواه البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) واللفظُ له.

(٢) هُنَيهاتِك: أي: أراجيزِك، والأُرْجوزةُ: القصيدةُ مِن الرَّجَزِ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (٣/ ١٧٣٦)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٩).

(٣) فِداءً لك: رُوي بالرفع: «فداءٌ» على المبتدأِ، وخبرِه، أي: نفسي فداءٌ أو فداءٌ نفسي لك، وبالنصبِ على المصدرِ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٦/ ١٨٢).

قيل: كأنَّه قال: نفسي مبذولةٌ لرِضاك، أو هذه الكلمةُ وقعَتْ خطابًا لسامعِ الكلامِ، وقيل: هي دعاءٌ، أي: افدِنا مِن عقابِك على ما اقترَفْنا مِن ذنوبِنا، كأنَّه قال: اغفِرْ لنا، وافْدِنا منك فداءً لك: أي: مِن عندِك، فلا تعاقبنا به. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٥٤٣).

واقتفينا أي: اكتسبنا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٦٧).

(٤) أي: جِئْنا إذا دُعينا إلى القتالِ أو إلى الحقِّ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٦٦).

(٥) أي: قصَدونا بالدُّعاءِ بالصَّوتِ العالي واستغاثوا علينا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٦٦).

فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن هذا السائِقُ؟! قالوا: عامِرُ بنُ الأكوَعِ، فقال: يَرحَمُه اللهُ))[١].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ مِن الشِّعرِ حِكمةً))[٢].

﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾.

أي: وهَجَوا شُعَراءَ المُشرِكينَ الذين هَجَوْهم ظُلمًا، فرَدُّوا عليهم بالحَقِّ؛ انتِصارًا للمُسلمينَ، فهؤلاء المُستَثنَونَ ليسوا مِن الشُّعَراءِ المَذمومينَ[٣].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضيَ الله عنه: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دخَل مكَّةَ في عُمرةِ القَضاءِ، وعبدُ اللهِ بنُ رَواحةَ بيْنَ يديه يمشي، وهو يقولُ:

خَلُّوا بَني الكُفَّارِ عن سَبيلِهْ ... اليَومَ نَضرِبْكُم على تَنزيلِهْ
ضَربًا يُزيلُ الهامَ عن مَقيلِهْ[٤] ... ويُذهِلُ الخليلَ عن خَليلِهْ[٥]

فقال له عُمَرُ: يا ابنَ رَواحةَ، بيْنَ يَدَيْ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وفي

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٨).

(٢) رواه البخاري (٦١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١١، ٢١٢).

قال الشوكاني: (يدخُلُ في هذا مَن انتصَر بشِعره لأهلِ السُّنَّةِ، وكافَحَ أهلَ البدعةِ، وزيَّفَ ما يقولُه شُعراؤُهم؛ مِن مدحِ بدعتِهم، وهَجوِ السُّنَّةِ المطَهَّرةِ، كما يقعُ ذلك كثيرًا مِن شُعَراءِ الرافضةِ ونحوِهم؛ فإنَّ الانتصارَ للحَقِّ بالشِّعرِ، وتزييفَ الباطِلِ به: مِن أعظَمِ المجاهدةِ، وفاعِلُه مِن المجاهدينَ في سبيلِ الله، المنتصرينَ لدِينِه، القائمينَ بما أمَرَ الله بالقيامِ به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٠).

(٤) الهامُ: جمعُ هامةٍ، وهي أعلَى الرأسِ. ومَقيلِه: أي: مَوضِعِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٣٤).

(٥) أي: يُنسي ذلك الضربُ الخليلَ عن خليلِه. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٨/ ١١٢).

حَرَم الله تقولُ الشِّعرَ؟! فقال له النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خَلِّ عنه يا عُمَرُ؛ فلَهِيَ أسرَعُ فيهم مِن نَضْحِ النَّبْلِ[١]))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ الله عنه: ((أنَّ عُمَرَ مَرَّ بحَسَّان وهو يُنشِدُ الشِّعرَ في المسجِدِ، فلَحَظ إليه، فقال: قد كنتُ أُنشِدُ وفيه مَن هو خيرٌ منك، ثمَّ التَفَتَ إلى أبي هُريرةَ فقال: أَنشُدُك اللهَ، أسَمِعْتَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: أجِبْ عنِّي، اللَّهُمَّ أيِّدْه برُوحِ القُدُسِ؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ))[٣].

وعن عائِشةَ رَضيَ الله عنها: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: اهجُوا قُرَيشًا؛ فإنَّه أشَدُّ عليها مِن رَشْقٍ[٤] بالنَّبْلِ، فأرسَلَ إلى ابنِ رَواحةَ فقال: اهجُهم، فهجاهم فلمْ يُرْضِ، فأرسَلَ إلى كعبِ بنِ مالكٍ، ثمَّ أرسَلَ إلى حسَّان بنِ ثابتٍ، فلمَّا دخل عليه، قال حسَّان: قد آنَ لكم أن تُرسِلوا إلى هذا الأسَدِ الضَّارِبِ بذَنَبِه[٥]، ثمَّ أدلَعَ[٦] لِسانَه فجعَل يُحَرِّكُه! فقال: والذي بعَثَك بالحَقِّ، لأَفْرِيَنَّهم بلِساني فَرْيَ الأَديمِ[٧]، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تَعجَلْ؛ فإنَّ أبا

---

(١) نضْحِ النبلِ: أي: رمْيِه، والمراد: أن أشعارَه تُؤثِّرُ فيهم تأثيرًا أسرعَ مِن تأثيرِ النبلِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٣٠١٨)، ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٨/ ١١٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٤٧) واللفظ له، والنسائي (٢٨٧٣).

قال الترمذي: حسنٌ صَحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجه. وأخرجه ابنُ حبان في ((صحيحه)) (٥٧٨٨). وصحَّح الحديثَ ابنُ حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ١٤٨)-، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٨٤٧).

(٣) رواه مسلم (٢٤٨٥).

(٤) رشْق أي: رمْي. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (٧/ ٥٢٨).

(٥) المرادُ بذَنَبِه هنا: لِسانُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٤٩).

(٦) أدلَعَ لسانَه: أي: أخرَجَه عن الشَّفَتينِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٤٩).

(٧) أي: لأمزقَنَّ أعراضَهم تمزيقَ الجلدِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٤٩).

بكرٍ أعلَمُ قُرَيشٍ بأنسابِها، وإنَّ لي فيهم نسَبًا، حتى يُلَخِّصَ[١] لك نَسَبي، فأتاه حَسَّان، ثمَّ رجَعَ فقال: يا رَسولَ اللهِ، قد لخَّصَ لي نسَبَك، والذي بعثَك بالحَقِّ لأَسُلَّنَّك منهم كما تُسَلُّ الشَّعرةُ مِن العَجينِ[٢]! قالت عائشةُ: فسَمِعْتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ لحسَّان: إنَّ رُوحَ القُدُسِ لا يَزالُ يؤيِّدُك ما نافَحْتَ[٣] عن اللهِ ورَسولِه! وقالت: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: هَجاهم حسَّان فشَفَى واشتَفَى[٤]!)). قال حسَّان:

هجَوْتَ محمدًا فأجبتُ عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ
هجوتَ محمدًا برًّا حنيفًا ... رسولَ الله شيمتُه الوفاءُ
فإنَّ أبي ووالِدَه وعِرضي ... لعِرضِ محمَّدٍ منكم وِقاءُ
ثَكِلتُ بُنَيَّتي[٥] إن لم ترَوْها ... تُثيرُ النَّقعَ مِنْ كَنَفَيْ كَداءِ[٦]
يُبارين الأعِنَّةَ مُصعِداتٍ[٧] ... على أكتافِها الأسَلُ الظِّمَاءُ[٨]

---

(١) يُلخِّص أي: يبيِّن. يُنظر: ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قرقول (٢/ ٤٥٠).

(٢) أي: لأخلصَنَّ نسبَك مِن نسبِهم، بحيثُ يختصُّ الهجوُ بهم دونَك، كما أنَّ الشعرةَ إذا سُلَّت مِن العجينِ لا يبقَى منها شيءٌ فيه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٤٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٥٥٤).

(٣) نافحْتَ: أي: دافَعْتَ. والمنافَحةُ والمكافحةُ: المدافَعةُ والمضاربةُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٨٩).

(٤) فشفَى واشتَفَى: أي: شفَى المؤمنينَ، واشتفَى هو بما ناله مِن أعراضِ الكفارِ، ومزَّقها ونافَح عن الاسلامِ والمسلمينَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٤٩).

(٥) الثكل: فقْدُ الولدِ. وبُنَيَّتي: تصغيرُ بنتٍ. والمعنى: الدعاءُ على نفْسِه إن لم يغزُ قريشًا. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) للمازَري (٦/ ٤٢٨).

(٦) كَنَفَيْ كَدَاءٍ: أي: جانِبَي كَدا، وكَدَاءُ: ثَنِيَّةٌ على بابِ مكَّةَ، وهي التي يقالُ لها الحَجُونُ، وعلى هذه الروايةِ في هذا البيتِ إقواءٌ مخالفٌ لباقيها، وفي بعض النسخ: غايتُها كَداءُ، وفي بعضِها: موعِدُها كَداءُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٥٠).

(٧) مُصعِداتٍ: أي: مُقبِلاتٍ إليكم متوجِّهاتٍ. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم)) للقاضي عياض (٧/ ٥٣١).

(٨) الأسَلُ: الرِّماحُ، والظِّماءُ: الرِّقاقُ أو العاطِشةُ بدماءِ الأعادي. يُنظر: ((إكمال المعلم)) =

تَظَـــلُّ جيادُنـــا مُتَمَطِّـــرَاتٍ[١] تُلَطِّمُهـــن بِالخُمُـــرِ النِّسَـــاءُ[٢]
فـــإن أعرضتُمـــو عنَّـــا اعتمَرْنا وكان الفتـــحُ وانكَشَـــف الغِطاءُ
وإلَّا فاصبـــروا لضِـــرابِ يـــوم يُعِـــزُّ اللـــه فيـــه مَـــن يشـــاءُ
وقـــال الله قـــد أرســـلتُ عبدًا يقـــول الحـــقَّ ليـــس بـــه خَفاءُ
وقال اللـــه قـــد يسَّـــرتُ جندًا هم الأنصـــار عُرضَتُهـــا[٣] اللقاءُ
لنـــا فـــي كلِّ يـــوم مِن مَعَـــدٍّ[٤] ســـبابٌ أو قِـــتـــالٌ أو هِـــجـــاءُ
فمَـــن يهجو رســـولَ اللـــه منكم ويـــمـــدَحُـــه ويـــنـــصُـــرُه سَـــواءُ
وجبريـــلٌ رســـولُ اللـــه فينـــا ورُوحُ القُـــدسِ ليس لـــه كِفاءُ[٥]

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أباح سُبحانَه الانتِصارَ مِن الظَّالم، وكان البادئُ -إذا اقتصَرَ المجيبُ على جوابِه- أظلَمَ، كان إذا تجاوَز جديرًا بأَنْ يعتديَ فيندَمَ- حَذَّرَ اللهُ الاثنينِ[٦].

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ سبحانه في هذه السورةِ ما يُزيلَ الحزنَ عن قلْبِ رسولِه

---

= للقاضي عياض (٧/ ٥٣١).

(١) مُتَمَطِّراتٍ: أي: سِراعًا يُسابِقُ بَعضُها بعضًا. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (٧/ ٥٣١).

(٢) أي: تمسحُهنَّ النساءُ بخمرِهنَّ (جمعُ خِمارٍ): أي: يُزِلْنَ عنهنَّ الغبارَ، وهذا لعزَّتِها، وكرامتِها عندَهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٥١).

(٣) عُرضَتُها: أي: مقصودُها ومَطلوبُها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٥١).

(٤) يعني بمَعَدٍّ: قريشًا، نسَبهم لمعدِّ بنِ عدنانَ. يُنظر: ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) للمازَري (٦/ ٤٣٠).

(٥) رواه مسلم (٢٤٩٠).

وكِفاءُ: أي: مُماثِلٌ ومُقاوِمٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٥١).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٠).

صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الدلائلِ العقليَّةِ، ومِن أخبارِ الأنبياءِ المتقدمينَ، ثمَّ ذَكَرَ الدلائلَ على نبوَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وردَّ على المشركينَ في تسميتِهم له تارةً بالكاهنِ، وتارةً بالشاعرِ! وبَيَّنَ الفَرْقَ بيْنَه وبينَ الكاهنِ أوَّلًا، ثمَّ بَيَّنَ الفرقَ بينَه وبينَ الشاعرِ ثانيًا؛ خَتَم السورةَ بهذا التهديدِ العظيمِ، يعني: أنَّ الذين ظَلَموا أنفُسَهم، وأعرَضوا عن تدبُّرِ هذه الآياتِ؛ والتأمُّلِ في هذه البيِّناتِ فإنَّهم سيَعلَمون بعْدَ ذلك أيَّ مُنقلَبٍ يَنقلِبونَ[1].

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾.

أي: وسيَعلَمُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ والمعاصي، والاعتِداءِ على حُقوقِ العبادِ؛ المآلَ السَّيِّئَ الذي سيَصيرون إليه بعْدَ مَوتِهم؛ فإنَّ مصيرَهم إلى النَّارِ[2].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ، فيه ذمُّ الشِّعرِ والمُبالغةِ في المَدحِ والهَجوِ وغَيرِهما مِن فُنونِه، وجوازُه في الزُّهدِ والأدَبِ ومَكارِمِ الأخلاقِ، وجوازُ الهَجوِ لِمَن ظُلِمَ انتِصارًا[3].

٢- في قَولِه تعالى عن الشُّعراءِ: ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٣، ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٨).
قال القرطبي: (في هذا تهديدٌ لِمَنِ انتصَرَ بظُلم، أي: سيَعلمُ الظَّالِمون كيف يَخلُصون مِن بينِ يَدَيِ الله عزَّ وجَلَّ؛ فالظَّالمُ ينتظِرُ العقابَ، والمظلومُ ينتَظِرُ النُّصرةَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٠).

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ دَليلٌ على أنَّ مَن تَجنَّبَ الكَذِبَ المَحْضَ في شِعْرِه ولم يَتشبَّعْ به، فقولُه للشِّعرِ مُباحٌ لا حَرَجَ عليه[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الباديَ بالهِجاءِ ظالِمٌ، والمجيبَ مُنتصِرٌ، وأنَّ الانتصارَ يكونُ باللِّسانِ كما يكونُ باليَدِ[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ كان السَّلَفُ الصَّالحُ يتواعَظونَ بهذه الآيةِ؛ لأنَّك لا تجِدُ أهيَبَ منها، ولا أهوَلَ ولا أوجَعَ لقُلوبِ المتأمِّلينَ، ولا أصدَعَ لأكبادِ المتدَبِّرينَ[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ * يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ وَأَكۡثَرُهُمۡ كَٰذِبُونَ * وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ إنَّ ظاهِرَ القُرآنِ ليس فيه أنَّ الشُّعَراءَ تتنَزَّلُ عليهم الشَّياطينُ إلَّا إذا كان أحدُهم كذَّابًا أثيمًا؛ فالكذَّابُ في قَولِه وخَبرِه، والأثيمُ في فِعلِه وأمرِه؛ وذاك -واللهُ أعلمُ- لأنَّ الشِّعرَ يكونُ مِن الشَّيطانِ تارةً، ويكونُ مِن النَّفْسِ أُخرى، كما أنَّه إذا كان حَقًّا يكونُ مِن رُوحِ القُدُسِ، كما قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا دعا لحسَّان بنِ ثابتٍ: ((اللَّهُمَّ أيِّدْه برُوحِ القُدُسِ))[4].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٥١).
والحديث تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٨٠).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ الكَهَنةَ كذَّابون أفَّاكون، لا يُغتَرُّ بتلك الكلمةِ مِن أقاويلِهم التي يُلقيها إليهم أولياؤُهم مِن الشَّياطينِ[١]!

٣- قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ إنَّما قال: ﴿تَنَزَّلُ﴾؛ لأنَّها أكثَرُ ما تكونُ في الهواءِ، وأنَّها تمُرُّ في الرِّيحِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾ سؤالٌ: كيف قال: «أكثَرُهم» بعْدَما حَكَمَ بأنَّ كلَّ أفَّاكٍ أثيمٌ، أي: فاجرٌ؟!

**الجوابُ**: الضميرُ في «أكثرهم» للشياطينِ لا للأفَّاكينَ، ولو سُلِّمَ؛ فالأفَّاكون هم الذين يُكثِرون الكذبَ؛ لا أنَّهم الذين لا ينطِقونَ إلَّا بالكذبِ[٣]، فأراد أنَّ هؤلاء الأفَّاكينَ قَلَّ مَن يَصدُقُ منهم فيما يحكي عن الجنِّ، وأكثرُهم يفتري عليهم[٤]. وقيل: (كُل) مُستعمَلةٌ في معنى التَّكثيرِ[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ دَلالةٌ على أنَّ للشِّعرِ حالتَين: حالةً مذمومةً، وحالةً مأذونةً؛ فتَعَيَّنَ أنَّ ذَمَّه ليس لكونِه شِعرًا، ولكنْ لِمَا حُفَّ به مِن معانٍ وأحوالٍ اقتَضَتِ المذمَّةَ، فانفتحَ بالآيةِ للشِّعرِ بابُ قَبولٍ ومدْحٍ، فحَقَّ على أهلِ النَّظَرِ ضبطُ الأحوالِ التي تأوي إلى جانبِ قَبولِه أو إلى جانبِ مدْحِه، والتي تأوي إلى جانبِ رفْضِه، وقد أومأَ إلى الحالةِ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٦).

الممدوحةِ قولُه: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾، وإلى الحالةِ المأذونةِ قولُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1]. فليس كُلُّ الشِّعرِ مَذمومًا، بل منه ما هو مباحٌ كما ثبَت في الصَّحيحِ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ مِن الشِّعرِ لَحِكمةً))[2]، فاللهُ تعالى قد استثنَى مِن الشُّعَراءِ المذمومينَ مَن ذكَرَه؛ فدلَّ ذلك على أنَّه ليس كلُّ الشُّعَراءِ مَذمومينَ[3].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ قَولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ يدُلُّ على أنَّ اتِّباعَ الشُّعَراءِ مِن اتِّباعِ الشَّيطانِ؛ بدليلِ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾[4] [الحجر: ٤٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ الذين استثناهم سُبحانَه مِن عُمومِ الشُّعَراءِ المذمومينَ وَصَفهم بأمورٍ أربعةٍ:

**أحدُها**: الإيمانُ، وهو قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

**وثانيها**: العملُ الصالحُ، وهو قَولُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

**وثالثُها**: أنْ يكونَ شِعْرُهم في التَّوحيدِ والنبوَّةِ ودَعوةِ الحقِّ، وهو قَولُه: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾.

**ورابعُها**: ألَّا يَذْكروا هَجْوَ أحدٍ إلَّا على سبيلِ الانتصارِ ممَّن يَهجوهم، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١١).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((الاستغاثة في الرد على البكري)) لابن تيمية (ص: ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٤).

قَولُه: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾، قال اللهُ تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ [النساء: ١٤٨]، ثم إنَّ الشَّرطَ فيه ترْكُ الاعتداءِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾[1] [البقرة: ١٩٤].

٨- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أنَّه يكفي الشَّاعرَ في التفصِّي عن ذمِّ هذه الآيةِ له ألَّا يَغلِبَ عليه الشِّعرُ، فيَشغَلَه عن الذِّكرِ حتى يكونَ مِن الغاوينَ[2].

٩- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ هذا يشيرُ إلى أنَّ الشَّاعِرَ يَقِلُّ ذِكرُه للهِ، فما امتلأَ قلبُه مِن الشِّعرِ إلَّا بَعُدَ عنه ذِكْرُ اللهِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ استحالةِ تَنزُّلِ الشيَّاطينِ على رسُولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بعْدَ بَيانِ امتناعِ تَنزُّلِهم بالقرآنِ[4].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُمۡ﴾ استفهامُ توقيفٍ وتقريرٍ[5].

- والجُملةُ مُتَّصلةٌ في المعنى بجُملةِ ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]، أي: ما تنزَّلتِ الشَّياطينُ بالقرآنِ على محمَّدٍ، هل أُنبِّئكم على مَن تنزَّلُ الشَّياطينُ؟ وأُلْقِيَ الكلامُ إليهم في صورةِ استِفهامِهم عن أنْ يُعرِّفَهم بمَن تَتنزَّلُ عليه الشَّياطينُ، استفهامًا فيه تعريضٌ بأنَّ المُستفهَمَ عنه ممَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٩).

يَسوؤُهم لذلك، ويُحتاجُ فيه إلى إذْنِهم بكشْفِه.

وهذا الاستفهامُ صُوريٌّ مُستعمَلٌ كِنايةً عن كونِ الخبرِ ممَّا يُستأذَنُ في الإخبارِ به. واختِيرَ له حرفُ الاستفهامِ الدَّالُّ على التَّحقيقِ -وهو (هلْ)-؛ لأنَّ (هل) في الاستفهامِ بمعنى (قد)، والاستفهامُ مُقدَّرٌ فيها بهمزةِ الاستفهامِ، فالمعنى: أُنبِّئُكم إنباءً ثابتًا مُحقَّقًا، وهو استفهامٌ لا يُترقَّبُ منه جوابُ المُسْتفهَمِ؛ لأنَّه ليس بحقيقيٍّ؛ فلذلك يَعقبُه الإفضاءُ بما استُفْهِمَ عنه قبْلَ الإذنِ مِن السَّامعِ[١].

- وفِعلُ ﴿أُنَبِّئُكُمْ﴾ مُعلَّقٌ عن العَملِ[٢] بالاستِفهامِ في قولِه: ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾[٣]، وهو أيضًا استِفهامٌ صُوريٌّ معناه الخبرُ كِنايةً عن أهمِّيَّةِ الخبرِ، بحيث إنَّه ممَّا يُستفهَمُ عنه المُتحسِّسونَ ويَتطلَّبونَه، فالاستفهامُ مِن لوازمِ الاهتمامِ[٤].

- قولُه: ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ على عامِلِه؛ للاهتِمامِ بالمُتنزَّلِ عليه، وأصْلُ التَّركيبِ: مَن تَنزَّلُ عليه الشَّياطينُ، فلمَّا قُدِّمَ المجرورُ دخَلَ حرْفُ (على) على اسمِ الاستفهامِ، وهو (مَن)؛ لأنَّ ماصَدَقَها[٥] هو المُتنزَّلُ عليه[٦].

٢- قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ فرَّقَ بيْنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٥).

(٢) التَّعليقُ: هو إبطالُ العمَلِ لفظًا لا محلًّا؛ لمَجيءِ ما له صدرُ الكلامِ بعدَه. يُنظر: ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٢/ ٥٠).

(٣) قال السمين الحلبي: (قولُه: ﴿عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿تَنَزَّلُ﴾ بعدَه، وإنما قُدِّمَ؛ لأنَّ له صدَر الكلامِ، وهو مُعَلِّقٌ لِما قبْلَه مِنْ فعلِ التنبئةِ؛ لأنَّها بمعنى العِلمِ). ((الدر المصون)) (٨/ ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٥).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٥).

آياتِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢]، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ [الشعراء: ٢٢١]، مع أنَّهنَّ أخواتٌ؛ لأنَّه أُريدَ التَّفريقُ بيْنهنَّ بآياتٍ ليَستْ في معناهنَّ؛ لِيُرجَعَ إلى المَجيءِ بهنَّ، وتطْريةِ ذِكْرِ ما فيهنَّ كرَّةً بعدَ كرَّةٍ؛ فيُدَلَّ بذلك على أنَّ المعنى الَّذي نزَلْنَ فيه مِن المعاني الَّتي اشتَدَّتْ كراهةُ اللهِ لخلافِها. ومثالُه: أنْ يُحدِّثَ الرَّجلُ بحديثٍ، وفي صَدرِه اهتمامٌ بشَيءٍ منه وفضْلُ عِنايةٍ، فتَراهُ يُعيدُ ذِكْرَه، ولا يَنفكُّ عن الرُّجوعِ إليه[1]، فهذه الآياتُ الثَّلاثُ نازِلةٌ في شأْنِ القُرآنِ، وفيما يَنْبغي أنْ يُقالَ فيه وما لا يَنْبغي، ولم تَجِئْ على نَسَقٍ واحدٍ، حيثُ لم يقُلْ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾، ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، ولم تَجِئْ واردةً على وَتيرةٍ واحدةٍ، بل فُرِّقَ بيْنهنَّ بآياتٍ مُتباعدةِ المعاني؛ ووجْهُ ذلك: أنَّها كالتَّراجيعِ للمَعاني الَّتي تخلَّلتْ بيْنهنَّ؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كالتَّرجيعِ مِن قَصصِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ إلى ما بُدِئَ منه في فاتحةِ السُّورةِ مِن ذِكْرِ الكتابِ، وتَكذيبِ القَومِ له، وقولَه: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ مَذكورٌ بعدَ إهلاكِ القُرى المُنذَرةِ، وقولَه: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ مَسوقٌ بعدَ النَّهيِ عن ادِّعاءِ غيرِ اللهِ تعالى إلهًا، وكلُّ هذه الآياتِ مُتدانيةُ المعاني في نفْسِها، لكنَّها تَبعُدُ مُناسبَتُها ظاهرًا عن معنى تلك الآياتِ الثَّلاثِ، والتَّرجيعُ -كما عُلِمَ- يَسْتدعي شِدَّةَ الاتِّصالِ بما رُجِعَ به إليها؛ فدلَّ ذلك على شِدَّةِ الكراهيةِ لِمَا نزَلَت الآياتُ فيه، وهو إنكارُ قُريشٍ أنَّ القرآنَ ليس مِن عندِ اللهِ، وأنَّه مِن جِنسِ ما كان يَنزِلُ على الكَهنةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٠).

والشُّعراءِ[١].

- وقولُه: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ قَصْرٌ لِتَنزُّلِهم على كلِّ مَن اتَّصَفَ بالإفكِ الكثيرِ، والإثمِ الكبيرِ مِن الكَهنةِ والمُتنبِّئةِ، وتَخصيصٌ له بهم بحيث لا يَتخطَّاهم إلى غيرِهم، وحيثُ كانت ساحةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُنزَّهةً عن أنْ يَحُومَ حوْلَها شائبةُ شَيءٍ مِن تلك الأوصافِ؛ اتَّضَحَ استحالةُ تَنزُّلِهم عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- قولُه: ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، الأفَّاكُ: الكثيرُ الإفكِ، وهو الكذبُ، والأثيمُ: كثيرُ الإثمِ، وهما صِيغتَا مُبالَغةٍ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿يُلْقُونَ .. وَأَكْثَرُهُمْ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ؛ لأنَّ كلَّ أفَّاكٍ فيه عُمومٌ وتحْتَه أفرادٌ[٤].

- وإلْقاءُ السَّمعِ هو شِدَّةُ الإصغاءِ -على أحدِ المعنيَينِ- حتَّى كأنَّه إلْقاءٌ للسَّمعِ مِن مَوضعِه؛ شبَّهَ تَوجيهَ حاسَّةِ السَّمعِ إلى المسموعِ الخفيِّ بإلقاءِ الحجَرِ مِن اليدِ إلى الأرضِ أو في الهواءِ[٥].

- ولَمَّا كان حالُ الكُهَّانِ قد يَلتبِسُ على ضُعفاءِ العقولِ ببعضِ أحوالِ النُّبوَّةِ في الإخبارِ عن غيْبٍ، وأسجاعُهم قد تلْتبِسُ بآياتِ القرآنِ في بادئِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٤٢، ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٦).

النَّظرِ: أطْنَبَتِ الآيةُ في بَيانِ ماهيَّةِ الكهانةِ، وبيَّنَتْ أنَّ قُصاراها الإخبارُ عن أشياءَ قليلةٍ قد تَصدُقُ؛ فأينَ هذا مِن هدْيِ النَّبيِّ والقرآنِ وما فيه مِن الآدابِ والإرشادِ والتَّعليمِ، والبلاغةِ والفصاحةِ، والإعجازِ؟! ولا تَصدِّيَ منه للإخبارِ بالمُغيَّباتِ، كما قال: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ [الأنعام: ٥٠] في آياتٍ كثيرةٍ مِن هذا المعنى(١).

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ استئنافٌ أبطَلَ كونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شاعرًا، وقرَّره بـ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾؛ فهو استئنافٌ مَسوقٌ لإبطالِ ما قالُوا في حقِّ القُرآنِ العَظيمِ مِن أنَّه مِن قَبيلِ الشِّعرِ، وأنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الشُّعراءِ، ببَيانِ حالِ الشُّعراءِ المُنافيةِ لحالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بعْدَ إبطالِ ما قالوا: إنَّه مِن قَبيلِ ما يُلْقي الشَّياطينُ على الكَهنةِ مِن الأباطيلِ(٢).

- وكان ممَّا افتراه المشركون بُهتانًا وزُورًا: أنْ قالوا في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هو شاعرٌ، فلمَّا أبطَلت الآياتُ السابقةُ ما افتَرَوه، وكان منها قولُهم: هو كاهِنٌ؛ لم يَبْقَ إلَّا إبطالُ قولِهم: هو شاعرٌ، وكان بيْنَ الكِهانةِ والشِّعرِ جامعٌ في خَيالِ المُشركينَ؛ إذ كانوا يَزعُمون أنَّ للشَّاعرِ شَيطانًا يُمْلي عليه الشِّعرَ، وربَّما سمَّوهُ الرَّئيَّ؛ فناسَبَ أنْ يُقارَنَ بيْنَ تَزييفِ قولِهم في القرآنِ: هو شِعرٌ، وقولِهم في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هو شاعرٌ، وبيْن قولِهم: هو قولُ كاهنٍ، كما قُرِنَ بيْنهما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ * وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١-٤٢]؛ فعطَفَ هنا قولَه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ﴾ على جُملةِ ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾(٣) [الشعراء: ٢٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٧).

- ولَمَّا كان حالُ الشُّعراءِ في نَفْسِ الأمرِ مُخالِفًا لحالِ الكُهَّانِ -إذ لم يكُنْ لِمَلَكةِ الشِّعرِ اتِّصالٌ ما بالنُّفوسِ الشَّيطانيَّةِ، وإنَّما كان ادِّعاءُ ذلك مِن اختلاقِ بعضِ الشُّعراءِ أشاعوهُ بيْنَ عامَّةِ العرَبِ-: اقتَصرَتِ الآيةُ على نفْيِ أنْ يكونَ الرَّسولُ شاعرًا، وأنْ يكونَ القرآنُ شِعرًا، دونَ تعرُّضٍ إلى أنَّه تَنزيلُ الشَّياطينِ، كما جاء في ذِكرِ الكهانةِ(١).

- وأَدْمَجَتِ الآيةُ حالَ مَن يتَّبِعُ الشُّعراءَ بحالِهم؛ تَشويهًا للفريقينِ، وتَنفيرًا منهما؛ فكانتْ هذه الآيةُ نفْيًا للشِّعرِ أنْ يكونَ مِن خُلقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذمًّا للشُّعراءِ الَّذين تَصَدَّوا لهجائِه؛ فقولُه: ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ ذمٌّ لِأتْباعِهم، وهو يَقْتضي ذمَّ المَتبوعينَ بالأَحرى، وفيه كِنايةٌ عن تَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يكونَ منهم؛ فإنَّ أتْباعَه خِيرةُ قومِهم، وليس فيهم أحدٌ مِن الغاوينَ؛ فقدِ اشتمَلَتْ هذه الجُملةُ على تَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَنزيهِ أصحابِه، وعلى ذَمِّ الشُّعراءِ وذَمِّ أتْباعِهم، وتَنزيهِ القرآنِ عن أن يكونَ شِعرًا(٢).

- وقولُه: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَتَّبِعُهُمُ﴾؛ لمُجرَّدِ التَّقوِّي والاهتِمامِ بالمُسنَدِ إليه لِلَفْتِ السَّمعِ إليه، والمقامُ مُستغْنٍ عن الحَصرِ؛ لأنَّه إذا كانوا يتَّبِعُهم الغاوونَ فقد انتَفَى أتْباعُهم عن الصَّالحينَ؛ لأنَّ شأْنَ المجالسِ أنْ يتَّحِدَ أصحابُها في النَّزعةِ. وقيل: التقديمُ للحَصْرِ، أي: لا يَتَّبِعُهم إلَّا الغاوونَ؛ لأنَّه أصرحُ في نَفْيِ اتِّباعِ الشُّعراءِ عن المُسلِمينَ؛ فتقديمُ المُسنَدِ إليه على الخَبرِ الفِعليِّ يُفيدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٠٨).

تَخصيصَه بالخبَرِ، أي: قصْرَ مضمونِ الخبرِ عليه، فهو قصرٌ إضافيٌّ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ استِشهادٌ على أنَّ الشُّعراءَ إنَّما يتَّبِعُهم الغَاوُونَ، وتَقريرٌ له. والخِطابُ لكُلِّ مَن تَتأتَّى منه الرُّؤيةُ؛ للقَصْدِ إلى أنَّ حالَهم مِن الجَلاءِ والظُّهورِ بحيثُ لا تَختصُّ برُؤيةِ راءٍ دُونَ راءٍ[٢].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تقْريريٌّ، وأُجْريَ التَّقريرُ على نفْيِ الرُّؤيةِ؛ لإظهارِ أنَّ الإقرارَ لا مَحيدَ عنه، والخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ. وجُملةُ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ وما عُطِفَ عليها مُؤكِّدةٌ لِمَا اقتَضَتْه جُملةُ ﴿يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ﴾، مِن ذَمِّ الشُّعراءِ بطريقِ فَحوى الخِطابِ[٣].

- قولُه: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ذِكْرُ الوادي والهُيومِ فيه تَمثيلٌ لذَهابِهم في كلِّ شِعْبٍ مِن القولِ، واعتِسافِهم، وقِلَّةِ مُبالاتِهم بالغُلوِّ في المنطقِ، ومُجاوزةِ حَدِّ القَصْدِ فيه[٤]، فمُثِّلَت حالُ الشُّعراءِ بحالِ الهائمينَ في أوديةٍ كثيرةٍ مُختلفةٍ؛ لأنَّ الشُّعراءَ يَقولونَ في فُنونٍ مِن الشِّعرِ: مِن هجاءٍ واعتداءٍ على أعراضِ النَّاسِ، ومِن نَسيبٍ وتَشْبيبٍ بالنِّساءِ، ومَدْحِ مَن يَمْدحُونه رَغبةً في عَطائِه، وإنْ كان لا يَستحِقُّ المدْحَ، وذَمِّ مَن يَمنعُهم وإنْ كان مِن أهْلِ الفَضلِ، وربَّما ذمُّوا مَن كانوا يَمْدحونَه، ومدَحوا مَن سبَقَ لهم ذَمُّه؛ فمُثِّلُ حالُ الشُّعراءِ بحالِ الإبلِ الرَّاعيةِ في الأوديةِ مُتحيِّرةً؛ لأنَّ الشُّعراءَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٠، ٢٠١).

حِرْصٍ على القولِ لاختلابِ النُّفوسِ[١].

- وقد كُنِّيَ باتِّباعِ الغاوينَ إيَّاهم عن كَونِهم غاوينَ، وأُفِيدَ بتَفظيعِ تَمثيلِهم بالإبلِ الهائمةِ تَشويهُ حالتِهم، وأنَّ ذلك مِن أجْلِ الشِّعرِ[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ كأنَّه لَمَّا كان إعجازُ القرآنِ مِن جِهةِ اللَّفظِ والمعنى، وقد قَدَحوا في المعنى بأنَّه ممَّا تنزَّلتْ به الشَّياطينُ، وفي اللَّفظِ بأنَّه مِن جِنسِ كلامِ الشُّعراءِ؛ تَكلَّمَ في القِسْمَينِ وبيَّن مُنافاةَ القُرآنِ لهما، ومُضادَّةَ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لحالِ أربابِهما[٣].

٧- قولُه تعالى: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ ختَمَ هذه السُّورةَ الجَليلةَ بآيةٍ ناطقةٍ بما لا شَيءَ أهيَبَ منه وأهوَلَ، ولا أنْكى لقُلوبِ المُتأمِّلينَ، ولا أصدَعَ لأكبادِ المُتدبِّرينَ؛ وذلك قولُه: ﴿وَسَيَعْلَمُ﴾ وما فيه مِن الوَعيدِ البليغِ، وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ وما فيه مِن الإطلاقِ والتَّعميمِ، وقولُه: ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ وما فيه مِن الإيهامِ والتَّهويلِ[٤]؛ فهذه الآيةُ تحذيرٌ عن غَمْصِ الحُقوقِ، وحثٌّ على استِقصاءِ الجُهْدِ في النُّصحِ للأُمَّةِ، وهي ناطقةٌ بأهيَبِ مَوعظةٍ وأهوَلِ وعيدٍ لِمَن تَدبَّرَها؛ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه مِن حَرفِ التَّنفيسِ (السين) المُؤْذِنِ بالاقترابِ، ومِن اسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ المُؤذِنِ بأنَّ سُوءَ المُنقلَبِ يَترقَّبُ الظَّالمينَ لأجْلِ ظُلْمِهم، ومِن الإبهامِ في قولِه: ﴿أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾؛ إذ تُرِكَ تبْيينُه بعِقابٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧١).

مُعيَّنٍ؛ لتَذْهبَ نُفوسُ المُوعَدِينَ في كلِّ مذهبٍ مُمكِنٍ مِن هَولِ المُنقلَبِ، وهو على الإجمالِ مُنقلَبُ سُوءٍ[١].

- قوله: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ ناسَبَ ذِكْر الظُّلم أنْ يُنتقلَ منه إلى وَعيدِ الظَّالمينَ، وهم المُشرِكون الَّذين ظَلَموا المسلمينَ بالأذى والشَّتْمِ بأقوالِهم وأشعارِهم[٢].

- وجُعِلَتْ هذه الآيةُ في مَوقعِ التَّذييلِ؛ فاقتضَتِ العُمومَ في مُسمَّى الظُّلمِ الشَّاملِ للكُفرِ، وهو ظُلْمُ المرْءِ نفْسَه، ولِلْمعاصي القاصِرةِ على النَّفْسِ كذلك، وللاعتداءِ على حُقوقِ النَّاسِ[٣].

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الحادي والعشرونَ**

**ويليه المجلدُ الثاني والعشرونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ النملِ**

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

# الفهرس

# الفهرس


سورةُ الشُّعَراءِ ..... ٧
أسماءُ السُّورةِ ..... ٧
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٧
مقاصِدُ السُّورةِ ..... ٧
موضوعاتُ السُّورةِ ..... ٨
الآيات (١-٩) ..... ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٠
المعنى الإجماليُّ ..... ١١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢١
الآيات (١٠-٢٢) ..... ٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٧
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٥
الآيات (٢٣-٣٧) ..... ٧٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٧٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٧٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٧١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٧٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٨٢
الآيات (٣٨ - ٥١) ..... ٩٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٩٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٩٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٠٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٠٩
الآيات (٥٢-٦٨) ..... ١١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١١٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١١٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٣٠

بلاغةُ الآياتِ ..... ١٣٤
الآيات (٦٩-٨٩) ..... ١٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٤٠
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٤١
المعنى الإجماليُّ ..... ١٤١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٤٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ١٥٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٦٢
الآيات (٩٠-١٠٤) ..... ١٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٧٨
المعنى الإجماليُّ ..... ١٧٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ١٨٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٩٠
الآيات (١٠٥-١٢٢)..... ١٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٩٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٠٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٠١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢١٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢١٦
الآيات (١٢٣-١٤٠)..... ٢٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٢٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٢٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٢٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٣٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٤٢
الآيات (١٤١-١٥٩)..... ٢٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٥٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٥٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٥٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٦٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٦٥
الآيات (١٦٠-١٧٥)..... ٢٧١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٧١
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٧٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٧٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٨٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٨٦
الآيات (١٧٦-١٩١)..... ٢٩١

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٩١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٩٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٩٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٩٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٠٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٠٨
الآيات (١٩٢-٢٠٩)..... ٣١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣١٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٣١٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٣٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٣٤
الآيات (٢١٠-٢٢٠)..... ٣٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٤٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٤٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٥٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٦٠
الآيات (٢٢١-٢٢٧)..... ٣٦٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٦٨
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٦٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٦٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٧٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٨٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٨٧
الفهرس ..... ٣٩٩

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة النمل)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف


**المجلد الثاني والعشرون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة النمل)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد الثاني والعشرون – سورة النمل/

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – ط١ – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٤٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٨٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣٢ ١٤٤٢/٣٧٥٠

رقم الإيداع: ٥-٨٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

ردمك: ١٤٤٢/٣٧٥٠

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٢ هـ – ٢٠٢١ م**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ النَّملِ

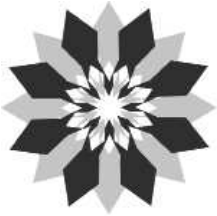

# سورةُ النَّملِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ سُورةَ (النَّملِ)[١].

## بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ النَّملِ مكِّيَّةٌ[٢]، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

الحديثُ عن أدلَّةِ وحدانيَّةِ الله تعالى وقدرتِه، وعن مظاهرِ فضلِه تعالى على عبادِه[٤].

## موضوعاتُ السورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

١- الإشارةُ والتنبيهُ إلى إعجازِ القُرآنِ الكريمِ، ببلاغةِ نَظمِه وعلوِّ معانيه؛

---

(١) سُمِّيت هذه السورةُ بسورةِ (النَّملِ)؛ ووجهُ التسميةِ بذلك أنَّ لفظَ النَّملِ لم يُذكَرْ في سورةٍ مِنَ القرآنِ غيرِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٥).

وقد ورَدت بعضُ الآثارِ عن الصحابةِ فيها تسميتُها بهذا الاسمِ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٦).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: القرطبي، وأبو حيان، والفيروزابادي، والبِقاعيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٤٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٢٩٦).

وعِظَمِ شأنِه.

٢- بيانُ صفاتِ المؤمنينَ وجزائِهم، وصفاتِ الخاسرينَ وجزائِهم.

٣- ذِكرُ شَيءٍ من قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ.

٤- ذِكرُ قِصَّةِ سُليمانَ عليه السَّلامُ مع النَّملةِ، ومع الهُدهدِ، ومع ملكةِ سَبأٍ وقَومِها.

٥- ذِكرُ قِصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه.

٦- ذِكرُ قِصَّة لوطٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه.

٧- بيانُ البراهينِ الدالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ، وإبطالُ دينِ المشركين وعبادتِهم لغيرِ الله، وإثباتُ البَعثِ.

٨- إخبارُ القُرآنِ الكريمِ عن أنباءِ السَّابقين، وأنَّه مُهيمِنٌ على الكتُبِ السَّابقةِ.

٩- خَتْمُ السُّورةِ بذِكرِ بعضِ أشراطِ الساعةِ، وبَعضِ مشاهِدِ القيامةِ، وما يَنتظِرُ المكَذِّبين بالسَّاعةِ في ذلك اليومِ العظيمِ.

## الآيات (١-٦)

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ ٥ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ٦﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَيَّنَّا﴾: أي: حَسَّنَّا، وأصلُ (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[١].

﴿يَعۡمَهُونَ﴾: أي: يَتمادَونَ، ويَتردَّدونَ متحَيِّرينَ، وأصلُ (عمه): يدُلُّ على حَيرةٍ وتردُّدٍ[٢].

﴿لَتُلَقَّى﴾: أي: تأخُذُ وتتلَقَّنُ، والإلقاءُ: طَرحُ الشَّيءِ حيثُ تَلْقاه، أي: تراه، ثمَّ صار اسمًا لكلِّ طرحٍ، وأصلُ (لقي) هنا: يدُلُّ على طرحِ شَيءٍ[٣].

﴿لَّدُنۡ﴾: بمعنى: عِندَ، وهو أبلَغُ مِن عندَ وأخَصُّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٢)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

## المعنى الإجماليُّ:

ابتدأت السُّورةُ ببَعضِ الحُروفِ المقَطَّعةِ، التي تُبيِّنُ إعجازَ القرآنِ، وتُبرزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثلِه، مع أنَّه مرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثون بها. تلك الآياتُ آياتُ القرآنِ وهو نفْسُه كتابٌ ظاهرٌ صِدقُه، ومُظهِرٌ كذلك الحقَّ ببيانِه، هُدًى للمُؤمِنينَ، وبِشارةٌ لهم.

ثمَّ وصَف سبحانَه هؤلاءِ المؤمنينَ، فقال: هؤلاء المؤمِنونَ هم الذين يُقيمون الصَّلاةَ بأركانِها وشُروطِها وحُدودِها، ويُعطونَ الزَّكاةَ، وهم بالآخرةِ يُؤمِنونَ إيمانًا يقينيًّا.

ثمَّ قال تعالى، مبَيِّنًا ما عليه غيرُ المؤمنينَ مِن ضلالٍ وحَيرةٍ: إنَّ الذين لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ حسَّنَّا لهم أعمالَهم السيِّئةَ فرَأَوْها حَسَنةً؛ جزاءً لهم على كُفرِهم، واستحبابِهم العمَى على الهدَى، فهم يَتردَّدُون حائِرينَ في ضلالِهم، ولا يَهتَدونَ للحَقِّ.

ثمَّ أخبَر عن سوءِ عاقبتِهم، فقال: أولئك لهم أشدُّ العذابِ، وهم في الآخرةِ هم الأخسَرون؛ لأنَّهم اشترَوا الضَّلالةَ بالهدى.

ثُمَّ مَهَّد سبحانَه لِمَا سيَذكُرُه بعدَ ذلك مِن الأخبارِ العجيبةِ بقولِه: وإنَّك تتلقَّى هذا القُرآنَ -يا محمَّدُ- وتتلقَّنُه مِن جبريلَ المُرسَلِ إليك مِن قِبَلِ الحَكيمِ الذي يضَعُ الأشياءَ في مَواضِعِها الصَّحيحةِ، العليمِ الذي يعلَمُ ظاهِرَ الأمورِ وباطِنَها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١﴾.

﴿طسٓ﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثونَ بها[١].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: تلك[٢] الآياتُ العَظيمةُ العاليةُ المقامِ: آياتُ القُرآنِ وكِتابٍ واضحٍ صِدقُه، وأنَّه مِن عندِ اللهِ، ومُظهِرٍ الحقَّ ببَيانِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) قيل: المشارُ إليه جميعُ القرآن. وممَّن قال بذلك: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٩).

قال الزجاج: (معنى ﴿تِلْكَ﴾ أنَّهم كانوا وُعِدوا بالقرآنِ في كتبِهم، فقيل لهم هَذِه «تلك» الآياتُ التي وُعِدتُم بها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٠٧).

وقيل: المشارُ إليه سورةُ النمل. وممَّن قال بذلك: القرطبي، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٨٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١).

وقال الزمخشري: (و﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى آياتِ السورةِ، والكتابُ المبينُ: إمَّا اللَّوحُ، وإبانتُه: أنَّه قد خُطَّ فيه كُلُّ ما هو كائنٌ، فهو يبيِّنُه للناظرين فيه إبانةً. وإمَّا السُّورةُ. وإمَّا القرآنُ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٦). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢، ١٣).

ذكر ابنُ عثيمينَ أنَّ كلمةَ ﴿مُّبِينٍ﴾ يجوزُ أن تكونَ مِن (أبان) اللازمِ بمعنى (بان)، ومِن (أبان) المتعدِّي بمعنى (أظهر) وأنَّ هذا مِن المشتركِ المستعمَلِ في معنييه على وجهٍ لا تعارضَ فيه، قال: (فالقرآنُ بيِّنٌ والقرآنُ أيضًا مظهِرٌ. وعلى هذا التفسيرِ تكونُ دلالةُ ﴿مُّبِينٍ﴾ على أنَّ القرآنَ بيِّنٌ دلالةَ مطابقةٍ، يعني: إذا جعَلْنا ﴿مُّبِينٍ﴾ مستعملةً في المعنيينِ فالدلالةُ مطابقةٌ، لكن لو =

﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

أي: هُدًى[١] للمُؤمِنينَ يَهديهم إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ، وهو بِشارةٌ لهم بالخَيرِ والثَّوابِ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال جلَّ ثناؤه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان وصْفُ الإيمانِ خفيًّا، وصَفَهم بما يُصدِّقُه مِن الأمورِ الظاهرةِ، فقال[٣]:

---

= قلنا: إنَّ «مُبِينٍ» بمعنى: مظهِرٍ فدلالتُه على كونِه بيِّنًا مِن بابِ دلالةِ الالتزامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢).

(١) و﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ﴾ قيل: هما حالانِ مِنَ الآياتِ أو مِنَ الكتابِ، أي: تلك آياتٌ هاديةٌ ومبشِّرةٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ في محلِّ رفعٍ على الابتداءِ، أي: هو هُدًى، أو هما خبرانِ آخَرانِ لِـ﴿تِلْكَ﴾، أو هما مصدرانِ منصوبانِ بفعلٍ مُقَدَّرٍ، أي: يَهدي هدًى ويُبشِّرُ بُشْرَى. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٦-١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٦).

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: إنَّ القرآنَ هُدًى وبُشرَى للمُؤمِنينَ الذين يُحافِظونَ على أداءِ الصَّلَواتِ[1] بأركانِها وشُروطِها وحُدودِها[2].

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: ويُعطُونَ الزَّكاةَ المفروضةَ عليهم مُستحقِّيها[3].

---

(١) قيل: المرادُ بها: الصلاةُ المفروضةُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بن سليمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨).
وقيل: الصلاةُ هنا تشمَلُ الفرائِضَ والنوافِلَ. وممَّن قال بذلك: السعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).
قال البقاعي: (﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: بجميعِ حُدودِها الظَّاهرةِ والباطِنةِ؛ مِن المواقيتِ، والطَّهاراتِ، والشُّروطِ والأركانِ، والخُشوعِ والخُضوعِ، والمراقبةِ والإحسانِ؛ إصلاحًا لِما بيْنَهم وبيْنَ الخالقِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٢٦).
وقال ابنُ عثيمين: (وإقامةُ الصَّلاةِ نوعان: نوعٌ لا بدَّ منه، وهو الإتيانُ بالأركانِ والواجباتِ والشُّروطِ، ونوعٌ يكونُ على وجهِ الكمالِ، وهو الإتيانُ بالمكَمِّلاتِ مِن السُّنَن وغَيرِها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سُلَيمان)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢).
وممن قال بأنَّ المرادَ بالزكاةِ هنا: الصدقةُ المفروضةُ: مقاتل بن سُلَيمان، ويحيى بن سلام، وابن جرير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سُلَيمان)) (٣/ ٢٩٦)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢).
قال ابن عطية: (الزكاةُ هنا يحتَمِلُ أن تكونَ غيرَ المفروضةِ؛ لأنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ قديمةٌ، ويحتَمِلُ =

﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

أي: وهم يُؤمِنونَ إيمانًا يقينيًّا بالدَّارِ الآخرةِ، ووقوعِ البَعثِ والجزاءِ يومَ القيامةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: ٢- ٤].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾﴾.

---

= أن تكونَ المفروضةَ مِن غيرِ تفسيرٍ [أي: مِن غيرِ تفصيلٍ لأحكامِها]. وقيل: الزكاةُ هنا بمعنى الطهارةِ مِن النقائِصِ، وملازمةِ مكارمِ الأخلاقِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٨).

وقال ابن عثيمين: (السورةُ -كما تقدَّم- مكيَّةٌ، فهل معنى ذلك أنَّ الزكاةَ فُرِضَت بمكَّةَ أو في المدينةِ؟

المعروفُ عندَ أهلِ العلمِ أنَّها فُرِضتْ في المدينةِ، ولكنَّ الصحيحَ أنها فُرِضَت بمكَّةَ، ولكِنْ تقديرُ أنصبائِها وبيانُ الأموالِ على وجهِ التفصيلِ كان ذلك في المدينةِ، هذا هو الصَّحيحُ، وهو الذي به تجتَمِعُ الأدلَّةُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨).

قال السعدي: (يقينُهم بالآخرةِ يقتضي كمالَ سَعيِهم لها، وحَذَرَهم من أسبابِ العذابِ ومُوجِباتِ العقابِ، وهذا أصلُ كُلِّ خيرٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٦، ١٢٧).

وقال ابنُ عثيمين: (كُلُّ ما أخبر اللهُ تعالى به ممَّا يكونُ في هذا اليومِ، أو أخبَرَ به رسولُه؛ فإنَّه داخِلٌ في الآخرةِ، بل إنَّ شيخَ الإسلامِ رَحِمَه الله يقولُ: إنَّه يدخُلُ في الإيمانِ باليومِ الآخِرِ كُلُّ ما أخبر به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ممَّا يكونُ بعدَ الموتِ. فعلى هذا يكونُ المرادُ بالآخرةِ: ما بعْدَ الدُّنيا؛ فتشمَلُ عذابَ القبرِ ونعيمَ القبرِ، وتشمَلُ كذلك الموازينَ في يومِ القيامةِ، والحوضَ المورودَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ...). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٤، ٢٥). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٣/ ١٤٥).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه ما للمُؤمِنينَ مِن البُشرى، أتبَعَه بما على الكُفَّارِ مِن سوءِ العذابِ، فقال[١]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

أي: إنَّ الذين لا يُؤمِنونَ بالدَّارِ الآخرةِ، ووُقوعِ البَعثِ بعْدَ الموتِ، والجزاءِ على الأعمالِ يَومَ القيامةِ: حسَّنَّا لهم أعمالَهم السيِّئةَ القبيحةَ، وحَبَّبْناها إليهم، وسَهَّلْنا عليهم فِعلَها؛ جزاءً لهم على كُفرِهم[٢].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ۞ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنًا﴾ [الكهف: ١٠٣- ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وقال الله جلَّ ثناؤه: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٨-١٠].

﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾.

أي: فهُم في ضَلالِهم وأعمالِهم الخَبيثةِ القَبيحةِ يَتردَّدُون حائِرينَ، لا يَهتَدونَ للحَقِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا خَصَّ المؤمنينَ بما عُلِمَ منه أنَّ لهم حُسنَ الثَّوابِ، وأنَّهم في الآخرةِ هم الفائِزونَ؛ ذكَرَ ما يَختصُّ به هؤلاء مِن ضدِّ ذلك، فقال[1]:

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: أولئك لهم أشدُّ العذابِ وأسوَؤُه وأعظمُه[2].

---

= عطية)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

ممن اختار أنَّ المرادَ سوءُ العذابِ في الدُّنيا، وهو القتلُ يومَ بدرٍ: ابنُ جرير، والواحدي، والزمخشري -وزاد على القتلِ الأسْرَ-، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٧٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٢).

قال ابن عاشور: (والظَّاهرُ أنَّ المرادَ به عذابُ الدُّنيا، وهو عذابُ السَّيفِ وخِزيُ الغَلَبِ يومَ بدرٍ وما بعْدَه؛ بقرينةِ عطفِ: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٢).

وقال ابنُ جزي: (ويحتملُ أن يريدَ عذابَ الآخرةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨).

وممن اختار أنَّ المرادَ به: سوءُ العذابِ في الدُّنيا والآخرةِ: أبو حيان، وابنُ كثيرٍ، والبِقاعيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣).

﴿وَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾.

أي: وهم يومَ القيامةِ المُختَصُّونَ بأنَّهم أشدُّ النَّاسِ خَسارةً؛ لفَواتِ المَثوبةِ، واستِحقاقِ العُقوبةِ باشترائِهم الضَّلالةَ بالهُدى(١).

كما قال تعالى: ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ * لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ * وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ * وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤- ٤٦].

ثُمَّ مَهَّد سبحانَه مُقَدِّمةً نافعةً لِمَا سيَذكُرُه بعدَ ذلك مِن الأخبارِ العجيبةِ(٢)، فقال:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا وَصَف الله تعالى القرآنَ بما اقتضَى بيانَ أهلِ الفَوزِ والخُسرانِ، وكان حاصِلُ حالِ الكَفَرةِ أنَّهم يتلَقَّونَ كُفرَهم الذي هو في غايةِ السَّفَهِ إمَّا عن الشَّياطينِ الذين هم في غايةِ الشَّرِّ، وإمَّا عن آبائِهم الذين هم في غايةِ الجَهلِ؛ وصَفَ النبيَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٥).

صلَّى الله عليه وسلَّمَ بضِدِّ حالِهم، فذكَر جلالةَ المنَزَّلِ عليه والمُنزِّلِ؛ ليكونَ أدعى إلى قَبولِه، فقال[1]:

﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: وإنَّك لَتتلقَّى القُرآنَ -يا محمَّدُ- فتأخُذُه وتتلقَّنُه وتَعلَمُه بواسطةِ جِبريلَ مِن عندِ مَن له كَمالُ الحِكمةِ في خَلقِه وشَرعِه، فيَضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها الصَّحيحةِ اللَّائقةِ بها، ومَن له كَمالُ العِلمِ، فيَعلَمُ أسرارَ الأمورِ وظاهِرَها وباطِنَها، ومصالِحَ عبادِه؛ وإذا كان القرآنُ مِن عندِ الحكيمِ العليمِ عُلِم أنَّه كُلَّه حِكمةٌ وعِلمٌ، وصَلاحٌ للعبادِ في دُنياهم وأُخراهم[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۞ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۞ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۞ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۞ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۞ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴾ [النجم: ٤- ١٠].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ إقناعُ النَّاسِ بما يقضيه اللهُ تبارك وتعالى مِن قَضاءٍ قَدَريٍّ أو قَضاءٍ شَرعيٍّ، وجْهُ ذلك: أنَّنا إذا عَلِمنا أنَّه صادِرٌ عن حكمةٍ فإنَّنا نُسَلِّمُ ونَرضى، ولا نقولُ: لِمَ وكيف؟ فإنْ عَلِمْنا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٢/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

الحِكمةَ فلا شَكَّ أنَّه يَزيدُنا طُمأنينةً، وإذا لم نَعلَمْ؛ فإنَّنا نجزِمُ أنَّه لحِكمةٍ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ سؤالٌ: أنَّه إنْ قلتَ: الكتابُ المبينُ هو القرآنُ، فكيف عَطَفَه عليه مع أنَّ العطفَ يقتضي المغايرةَ؟

**الجوابُ**: المغايرةُ تصْدُقُ بالمغايرةِ لفظًا ومعنًى، وباللَّفظِ فقط، وهو هنا مِن الثاني، وقيل غير ذلك[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ سؤالٌ: كيف صحَّ أنْ يُشارَ لاثنين -أحدِهما مؤنَّثٌ والآخَرِ مُذَكَّرٌ- باسمِ الإشارةِ المؤنثِ! ولو قلتَ: (تلك هندٌ وزيدٌ) لم يَجُزْ؟!

**الجوابُ مِن ثلاثةِ أوجهٍ:**

**أحدها**: أنَّ المرادَ بالكتاب هو الآياتُ؛ لأنَّ الكتابَ عبارةٌ عنِ الآياتِ المجموعةِ، فلمَّا كانا شيئًا واحدًا صحَّتِ الإشارةُ إليهما بإشارةِ الواحدِ المؤنَّثِ.

**الثاني**: أنَّه على حذْفِ مضافٍ، أي: (وآياتُ كتابٍ مبينٍ).

**الثالث**: أنَّه لَمَّا وَلِيَ المؤنَّثَ ما تصحُّ الإشارةُ به إليه اكتُفيَ به وحَسُنَ، ولو وَلِيَ المذكَّرَ لم يَحْسُنْ، أَلَا ترى أنَّك تقولُ: (جاءتني هندٌ وزيدٌ) ولو أُخِّرَتْ هندٌ لم يَجُزْ تأنيثُ الفعلِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٧).

ويُنظرُ ما سيأتي في البلاغةِ مِن تفصيلٍ.

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤١).

٣- قال الله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ في التَّصريحِ بهذا الحالِ تلويحٌ بأنَّ القرآنَ فِتنةٌ وإنذارٌ للكافرين(١).

٤- القرآنُ هدًى للناسِ، والمرادُ هدايةُ الإرشادِ، فكلُّ الناسِ يَسترشِدون به لو شاؤوا، يعني أنَّ القُرآنَ لا نَقصَ في دَلالتِه، لكنَّ هدايةَ التوفيقِ خاصَّةٌ بالمؤمِنينَ؛ قال تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٢).

٥- قال الله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لَمَّا كان الشيءُ قد يَهدي إلى مقصودٍ يُكَدِّرُ حالَ قاصدِه، قال نافيًا لذلك، وعَطَفَ عليه بالواوِ دَلالةً على الكمالِ في كلٍّ مِن الوصفَينِ: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾ أي: عَظيمةً(٣).

٦- قال الله تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يُستفادُ مِن ذلك أنَّه كلَّما كَمَلَ الإيمانُ في العبدِ كَمَلَ اهتداؤه بالقُرآنِ؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ زاد بزيادةِ ذلك الوَصفِ، ونَقَصَ بنَقصِه(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّ الأعمالَ مِن الإيمانِ، وأنَّ تضييعَ الصَّلاةِ والبُخلَ بالزكاةِ يُنافي الإيمانَ؛ لأنَّ اللهَ جَعَلَ مِن أوصافِ المؤمنينَ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزكاةِ، فمَن لم يكُنْ يُقيمُ الصَّلاةَ ولم يُؤتِ الزكاةَ فهو ناقِصُ الإيمانِ، وقد يكونُ مَعدومَ الإيمانِ بالكليَّةِ، كما في ترْكِ الصَّلاةِ(٥)، على خلافٍ بينَ أهلِ العلمِ في ذلك.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥، ٢٦).

ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا آمَنَ بالشَّرائعِ المنزَّلةِ فهو كاملُ الإيمانِ، وإنْ لم يُدركِ الفرائضَ المتأخِّرةَ؛ فالذين ماتوا مِن الصحابةِ قبْلَ فرْضِ الصِّيامِ إسلامُهم كامِلٌ، بل إنَّ الرجُلَ يمكِنُ أنْ يؤمِنَ ويموتَ قبلَ أن يُصلِّيَ صلاةً واحدةً، ويكونُ بذلك كاملَ الإيمانِ، يعني: إيمانُه كاملٌ وإنْ كان غيرُه -الذي أَدركَ- أكمَلَ منه، لكنَّه هو بالنِّسبةِ إليه لا يُقالُ: إيمانُه ناقصٌ، أي: نقصًا يُخِلُّ به[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أنَّ مَحَلَّ الثَّناءِ على المُصَلِّينَ هو في إقامتِها والإتيانِ بها على الوَجهِ الأكمَلِ[2].

١٠- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أشارت الآيةُ إلى معنًى دقيقٍ جدًّا، وهو أنَّ تفاوُتَ الناسِ في قَبولِ الخيرِ كائِنٌ بمقدارِ رسوخِ ضدِّ الخيرِ في نفوسِهم، وتَعَلُّقِ فِطرتِهم به؛ وذلك من جرَّاءِ ما طرأ على سَلامةِ الفِطرةِ التي فطَرَ اللهُ النَّاسَ عليها مِن التطَوُّرِ إلى الفَسادِ[3].

١١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: ٨]، وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، فأحيانًا يَحذِفُ فاعِلَ التَّزيينِ، وأحيانًا يَنسُبُه إلى سَبَبِه ومَن أجراه على يَدِه، وأحيانًا يُضيفُه اللهُ إليه، وهذا التَّزيينُ منه سُبحانَه خَلقًا ومشيئةً، وهو منه حَسَنٌ؛ إذ هو ابتلاءٌ واختبارٌ؛ ليتميَّزَ المطيعُ منهم من العاصي، والمؤمِنُ مِن الكافِرِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وهو من الشَّيطانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٠).

قَبيحٌ، وأيضًا فتزيينُه سُبحانَه للعَبدِ عَمَلَه السَّيِّئَ: عُقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيدِه وعبوديَّتِه، وإيثارِ سَيِّئِ العمَلِ على حَسَنِه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُعَرِّفَه سُبحانَه السَّيِّئَ مِن الحَسَنِ، فإذا آثرَ القبيحَ واختاره وأحبَّه ورَضِيَه لنَفسِه، زيَّنه سُبحانَه له وأعماه عن رؤيةِ قُبحِه بعد أن رآه قبيحًا، وكُلُّ ظالمٍ وفاجرٍ وفاسِقٍ لا بدَّ أن يرُيهَ اللهُ تعالى ظُلمَه وفُجورَه وفِسقَه قَبيحًا، فإذا تمادى عليه ارتفَعَت رؤيةُ قُبحِه مِن قَلبِه، فربَّما رآه حسَنًا عُقوبةً له؛ فتزيينُ الرَّبِّ تعالى عَدلٌ، وعُقوبتُه حِكمةٌ، وتزيينُ الشَّيطانِ إغواءٌ وظُلمٌ، وهو السَّبَبُ الخارجُ عن العبدِ، والسَّبَبُ الداخِلُ فيه حُبُّه وبُغضُه وإعراضُه، والرَّبُّ سُبحانَه خالِقُ الجميعِ، والجميعُ واقعٌ بمشيئتِه وقُدرتِه، ولو شاء لهدى خَلْقَه أجمعين، والمعصومُ مَن عَصمَه اللهُ، والمخذولُ من خذَلَه اللهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [الأعراف: ٥٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ حُجَّةٌ قاطعةٌ مُسكِتةٌ على المعتزلةِ والقدَريَّةِ؛ إذْ قد أخبرَ عن نَفسِه جلَّ جلالُه أنَّه مُزيِّنُ أعمالِ الكُفَّارِ -نصًّا بلا تأويلٍ- ففيه دَليلٌ على أنَّ ما أخبرَ مِن تزيينِ الشَّيطانِ فهو تَبَعٌ لتزيينِه سُبحانَه -كما أنَّ مَشيئةَ عبادِه في المعصيةِ تابعةٌ لمشيئتِه فيهم- إذ مُحالٌ أنْ تكونَ مشيئةُ الخالقِ تَبَعًا لمشيئة مخلوقٍ، أو تزيينُه تبعًا لتزيينِ الشَّيطانِ، فإمَّا أنْ يجعلوهما تَبَعًا ويَكفُروا، أو يَجحَدوا هذه الآيةَ فيَكفروا أيضًا، وإمَّا أنْ يُقِرُّوا بما قُلْناه ويُسَلِّمُوا، ويَكِلوا عِلمَ العدلِ فيه إلى مَن لم يَتعبَّدْهم بمعرفتِه، ولم يُلْزِمْهُم مزاحمتَه في سِرِّه[2]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٤٠).

عُقوبةُ مَن لم يؤمِنْ بالآخرةِ بهذه العُقوبةِ العظيمةِ، وهي تزيينُ الأعمالِ السيِّئةِ لا الحَسَنةِ، وكلَّما ضعُف الإيمانُ بالآخرةِ ازداد تزيينُ القبيحِ في عينِ الإنسانِ، وكلَّما ازداد إيمانُه بالآخرةِ عرَف القبائحَ وكرِهها واتَّضَح له الحقُّ؛ لأنَّ الإيمانَ بالآخرةِ يَستلزِمُ أنَّ الإنسانَ يرَى الحقَّ حقًّا، ويرَى الباطلَ باطلًا، فلا يُزَيِّنُ له الباطِلُ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[1]!

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمَلِ؛ لأنَّهم لَمَّا لم يُوقِنوا بالآخرةِ -مع وضوحِها- اشتبَه عليهم الحقُّ مع وضوحِه[2].

١٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ في قَولِه: ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فيه نسبةُ الأفعالِ للعبدِ، ففيه ردٌّ على الجَبْريَّةِ؛ لأنَّ الجَبْريَّةَ لا يَنسُبون العملَ للإنسانِ إلَّا على سبيلِ المجازِ؛ إذْ إنَّهم يَرَون أنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على العَمَلِ[3]! والحقُّ أنَّ الأعمالَ حادثةٌ بمشيئةِ الله وقُدْرَتِه وخَلْقِه، ومَفعولةٌ للفاعِلِ مُباشَرةً، والعبدُ فاعلٌ لفِعلِه حقيقةً لا مجازًا، فتُنسَبُ لله عزَّ وجلَّ تقديرًا وخَلْقًا، وتُنسَبُ إلى الفاعلِ كَسبًا وعَمَلًا[4].

١٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ في قَولِه: ﴿فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أنَّ عدمَ الإيمانِ بالآخرةِ سببٌ للحَيرةِ، وعلى هذا فالإيمانُ بالآخرةِ سببٌ لليقينِ والنورِ، وهذا أيضًا أمرٌ مُشاهَدٌ، والإنسانُ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٩، ٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٢).

يصابُ بعدمِ اليقينِ إلَّا بسببِ أعمالِه، ونقْصِ إيمانِه، وكلَّما قَوِيَ الإيمانُ فإنَّ معرفةَ الإنسانِ تزدادُ حتى في الأمورِ غيرِ العِلميَّةِ الشَّرعيةِ، فيُعطيه اللهُ تبارك وتعالى فِراسةً يَتبيَّنُ بها الأشياءَ[١].

١٧- قال الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ في قَولِه: ﴿هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ الرَّدُّ على الخوارجِ والمُعتَزلةِ؛ لأنَّنا لو قلنا: إنَّ أهلَ الكبائرِ الذين يؤمِنون بالآخرةِ مُخَلَّدون في النَّارِ لاتَّصفوا بهذا الوَصفِ وكانوا مِن الأخسَرينَ، مع أنَّ اللهَ إنما حَصَرَ الأخسرَ في الذين لا يُؤمِنون بالآخرةِ[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ؛ لأنَّه نَزَل مِن لَدُنْه، والقرآنُ صِفةُ المتكَلِّمِ[٣].

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ في قَولِه: ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ سؤالٌ: وهو أنه قَدَّمَ (الحكيمَ) على (العليمِ)؛ وأكثرُ ما يَرِدُ في القرآنِ تقديمُ (العليمِ) على (الحكيمِ)! فما الجوابُ؟

**الجوابُ**: أنَّه قَدَّمَ اسمَ الحكيمِ -الذي يدُلُّ على وصفِ اللهِ تعالى بالحكمةِ في هذا المقامِ- لأنَّ ما يُلَقَّاه الرسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن القرآنِ مُشتمِلٌ على التشريعِ الذي يَحتاجُ إلى بيانِ الحِكمةِ فيه حتى يَقتَنِعَ به المرءُ؛ فلذلك قُدِّمَتِ الحِكمةُ على العلمِ، أمَّا العلمُ فإنَّه مفهومٌ مِن كلمةِ (تُلَقَّى)؛ إذْ إنَّه إذا لُقِّيَ القرآنَ فقد عُلِّمَ؛ لذلك صار العِلمُ في المرتبةِ الثانيةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢).

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ تجدُ في القرآنِ أنَّ الحكيمَ مَقرونٌ بالعليمِ كثيرًا، فما الحِكمةُ مِن الجمعِ بيْنَهما؟

**الجوابُ مِن أوجهٍ:**

**الأول:** أنَّ الحِكمةَ قد تخفَى على بعضِ النَّاسِ، فخَفاؤُها علينا لا يقتضي أنَّها ليست معلومةً عندَ الله، فكأنَّه جمَع بيْنَهما لِيَتبيَّنَ أنَّ هذه الحِكمةَ مَعلومةٌ عند الله، فهو حَكيمٌ عليمٌ يضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها، وإن خَفِيَ علينا ذلك. فلا نقولُ: إنَّه إذا شَرَع اللهُ شَيئًا أو قضى بشَيءٍ، فهذا ليس عن علمٍ، بل هو عن عِلمٍ، حتى لو فُرِض أنَّنا نحن لم نعلَمْ حِكمَتَه ووجهتَه[١].

**الثاني:** أنَّ وجهَ الجمعِ بينهما -معَ أنَّ وصفَه نفسَه سبحانَه بكونِه حكيمًا يُعلمُ منه كونُه عليمًا- أنَّ العلمَ الذي يدخُلُ في الحكمةِ هو العلمُ العمليُّ، وهو الذي يتعلَّقُ بكيفيةِ عملٍ، والعلمُ أعمُّ منه، فكأنَّه قيل: مصيبٌ في أفعالِه، لا يفعلُ شيئًا إلا على وَفْقِ علمِه، عليمٌ بكلِّ شيءٍ، سواءٌ كان ذلك العلمُ مؤديًا إلى العملِ أم لا[٢]، فجُمِع بيْنَهما لِعمومِ العِلمِ، ودَلالةِ الحِكمةِ على إتقانِ الفعلِ، والإشعارِ بأنَّ علومَ القرآنِ منها ما هو كالعقائدِ والشَّرائعِ، ومنها ما ليس كذلك؛ كالقَصصِ، والإخبارِ عن المغَيَّباتِ[٣].

**الثالث:** أنه سبحانه يَذكرُ هذين الاسمينِ (الحكيم العليم) عندَ ذِكرِ مصدرِ خلقِه وشرعِه؛ تنبيهًا على أنَّهما إنَّما صدَرا عن حكمةٍ مقصودةٍ مقارِنةٍ للعلمِ المحيطِ التامِّ[٤]، فصِفَتَا الحكمةِ والعِلمِ هما مَصدرُ الخَلقِ والأمرِ، فجميعُ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٣/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٠٠).

خلَقَه سبحانه صادرٌ عن عِلمِه وحِكمتِه، وكذلك أمرُه وشرعُه مصدرُه عن عِلمِه وحِكمتِه.

**الرابع**: أنَّ العِلمَ والحِكمةَ مُتضَمنانِ لجميعِ صِفاتِ الكمالِ؛ فالعِلمُ يَتضمَّنُ الحياةَ ولَوازِمَ كمالِها مِن القَيُّوميَّةِ والقُدرةِ والبقاءِ والسَّمعِ والبصرِ، وسائرَ الصِّفاتِ الَّتي يَستلزِمُها العِلمُ التَّامُّ، والحِكمةُ تَتضمَّنُ كمالَ الإرادةِ والعدلِ والرَّحمةِ والإحسانِ والجُودِ والبرِّ، ووضْعِ الأشياءِ في مَواضِعِها على أحسَنِ وُجوهِها، وتَتضمَّنُ إرسالَ الرُّسلِ، وإثباتَ الثَّوابِ والعِقابِ[1].

**الخامس**: أنَّ اقترانَهما يحصُلُ منه صِفةُ كمالٍ أخرى، وذلك قَدْرٌ زائدٌ على مُفرَدَيْهِما، وهكذا عامَّةُ الصِّفاتِ المُقترِنةِ والأسماءِ المُزدوَجةِ في القُرآنِ؛ كالغَنيِّ الحميدِ، العفُوِّ القديرِ، الحميدِ المَجيدِ؛ فإنَّ الغِنى صِفةُ كمالٍ، والحمدَ كذلك، واجتماعُ الغِنى مع الحمدِ كمالٌ آخَرُ؛ فلَهُ ثَناءٌ مِن غِناهُ، وثَناءٌ مِن حمدِه، وثَناءٌ مِن اجتِماعِهما، وكذلك العفُوُّ القديرُ، والحميدُ المَجيدُ، والعزيزُ الحكيمُ، فتأمَّلْهُ؛ فإنَّه مِن أشرَفِ المَعارِفِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ﴾

- ﴿طسٓ﴾ في افْتتاحِ السُّورةِ بالحروفِ المُقطَّعةِ: تَعريضٌ بالتَّحدِّي بإعجازِ القرآنِ، وأنَّه مُؤْتلِفٌ مِن حُروفِ كلامِهم[3].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿تِلۡكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٧).

لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزلَتِه في الفضلِ والشَّرفِ[١].

- وإضافةُ الآياتِ إلى القرآنِ والكتابِ المُبينِ في قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾: على سَبيلِ التَّفخيمِ لها والتَّعظيمِ؛ لأنَّ المُضافَ إلى العظيمِ يَعظُمُ بالإضافةِ إليه[٢].

- ولما كان في التنكيرِ نوعٌ مِن الفخامةِ، وفي التعريفِ نوعٌ آخرُ، وكان الغرضُ الجمعَ للاستيعابِ الكاملِ؛ عرَّف القرآنَ ونكَّر الكتابَ، وقدَّم المعرفَ لزيادةِ التنويهِ، ولمَّا عقَّبه سبحانَه بالحديثِ عن الخصوصِ هاهنا قدَّم كونَه قرآنًا؛ لأنَّه أدلُّ على خصوصِ المنزَّلِ على محمدٍ صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم للإعجازِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ نكَّرَ الكتابَ المُبينَ؛ لِيُبْهَمَ بالتَّنكيرِ؛ فيَكونَ أفخَمَ له[٤]. ولقد فخَّمَ شأْنَه الجليلَ بما جَمعَ فيه مِن وصْفِ القُرآنيَّةِ المُنبئةِ عن كَونِه بَديعًا في بابِه، مُمتازًا عن غيرِه بالنَّظمِ المُعجزِ، كما يُعْرِبُ عنه قولُه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، ووَصْفِ الكتابيَّةِ المُعرِبةِ عن اشتمالِه على صِفاتِ كَمالِ الكُتبِ الإلهيَّةِ، فكأنَّه كلُّها[٥].

- وعَطْفُ الكِتابِ على القرآنِ مع أنَّه هو القرآنُ نفْسُه في قولِه: ﴿تِلْكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧١).

ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾ مِن بابِ عطْفِ إحدى الصِّفتينِ على الأُخرى؛ لِتَغايُرِهما في المدلولِ عليه بالصِّفةِ، مِن حيث إنَّ مَدلولَ القرآنِ الاجتماعُ، ومَدلولَ الكتابِ الكتابةُ؛ لأنَّ القرآنَ هو المُنزَّلُ المُبارَكُ المُصدِّقُ لِمَا بيْن يدَيهِ، فكان حُكْمُه حُكْمَ الصِّفاتِ المُستقلَّةِ بالمدْحِ، فكأنَّه قيل: تلك الآياتُ آياتُ المُنزَّلِ المُبارَكِ، وآيُ كتابٍ مُبينٍ. وقِيلَ: القرآنُ والكتابُ اسمانِ عَلَمانِ على المُنزَّلِ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فحيث جاء بلفظِ التَّعريفِ فهو العَلَمُ، وحيث جاء بوصْفِ النَّكرةِ فهو الوصْفُ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث خالَفَتْ آيةُ سُورةِ (النَّملِ) هنا ﴿طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾ سابِقَتَها في سُورةِ (الشُّعراءِ) في قولِه: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢] بثلاثةِ أشياءَ: بذِكْرِ اسمِ القرآنِ، وبعطْفِ ﴿وَكِتَابٖ﴾ على القرآنِ، وبتَنكيرِ (كِتَابٍ)؛ فأمَّا ذِكْرُ اسمِ (القرآنِ)؛ فلأنَّهُ عَلَمٌ للكتابِ الَّذي أُنزِلَ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ للإعجازِ والهُدى، وهذا العلَمُ يُرادِفُ الكتابَ المُعرَّفَ بلامِ العهْدِ المَجْعولَ عَلَمًا بالغَلَبةِ على القُرآنِ، إلَّا أنَّ اسمَ القرآنِ أَدخَلُ في التَّعريفِ؛ لأنَّه عَلَمٌ مَنقولٌ. وأمَّا (الكتابُ) فعَلَمٌ بالغَلبةِ؛ فالمُرادُ بقولِه: ﴿وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾ القرآنُ أيضًا. ولمَّا كان في كلٍّ مِن ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٖ﴾ شائبةُ الوصْفِ؛ فالأوَّلُ باشتقاقِه مِن القراءةِ، والثَّاني بوَصْفِه بـ ﴿مُّبِينٖ﴾، كان عطْفُ أحدِهما على الآخَرِ راجعًا إلى عطْفِ الصِّفاتِ بعضِها على بَعضٍ، وإنَّما لم يُؤْتَ بالثَّاني بدَلًا؛ لأنَّ العطْفَ أعلَقُ باستقلالِ كِلَا المُتعاطفَينِ بأنَّه مَقصودٌ في الكلامِ بخِلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٦، ٣٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٦٤).

البدَلِ[١].

- ونَظيرُ هذه الآيةِ آيةُ سُورةِ (الحِجْرِ) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]؛ فإنَّ (قرآن) في تلْك الآيةِ في معنَى عطْفِ البَيانِ مِن الكتابِ، ولكنَّه عطْفٌ لقَصْدِ جمْعِهما بإضافةِ (آياتٍ) إلَيْهما، وإنَّما قُدِّمَ في هذه الآيةِ القرآنُ وعُطِفَ عليه (كِتَابٍ مُبينٍ) على عكْسِ ما في طالعةِ سُورةِ (الحِجْرِ)؛ لأنَّ المقامَ هنا مَقامُ التَّنويهِ بالقُرآنِ ومُتَّبعيهِ المُؤمنينَ؛ فلذلك وُصِفَ بأنَّه ﴿هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢]، فكان الأهمُّ هنا للوحْيِ المُشتمِلِ على الآياتِ هو استحضارَهُ باسْمِه العَلَمِ المنقولِ مِن مَصدرِ القِراءةِ؛ لأنَّ القِراءةَ تُناسِبُ حالَ المُؤمنينَ به والمُتقبِّلينَ لآياتِه؛ فهُمْ يَدْرُسونَها؛ ولأجْلِ ذلك أُدخِلَتِ اللَّامُ لِلَمْحِ الأصْلِ؛ تَذكيرًا بأنَّه مَقروءٌ مَدْروسٌ. ثمَّ عُطِفَ عليه (كِتَابٍ مُبينٍ)؛ لِيَكونَ التَّنويهُ به جامعًا لِعُنوانَيْه، ومُستكمِلًا للدَّلالةِ بالتَّعريفِ على معنَى الكمالِ في نَوعِه مِن المَقروءاتِ، والدَّلالةِ بالتَّنكيرِ على معنَى تَفخيمِه بيْن الكُتبِ. وأمَّا ما في أوَّلِ سُورةِ (الحِجرِ) فهو مَقامُ التَّحسيرِ للكافرينَ مِن جرَّاءِ إعراضِهم عن الإسلامِ؛ فناسَبَ أنْ يُبْتَدَؤوا باسمِ الكتابِ المُشتقِّ مِن الكتابةِ دونَ القرآنِ؛ لأنَّهم بمَعزلٍ عن قِراءتِه، ولكنَّه مكتوبٌ، وحُجَّةٌ عليهم باقيةٌ على مَرِّ الزَّمانِ[٢].

- وقِيل: إنَّ تقدُّمَ (القُرآن) على (الكِتاب) هاهنا، وتأخُّرَه في (الحِجْرِ) لا فرْقَ بيْنَهما إلَّا ما بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه مِن التَّقدُّمِ والتَّأخُّرِ، جريًا على قاعدةِ العربِ في تفنُّنِهم في الكلامِ، وهذا كالمُتعاطِفَينِ في نحوِ: ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢١٧، ٢١٨).

جاء زيدٌ وعمرٌو. فتارةً يَظهَرُ ترجيحٌ كقولِه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وتارةً لا يَظهَرُ كقولِه: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا﴾[1] [الأعراف: ١٦١].

وقِيل: قُدِّمَ الوصفُ الأوَّلُ هاهنا؛ نظَرًا إلى تَقدُّمِ حالِ القُرآنيَّةِ على حالِ الكتابيَّةِ، وعُكِسَ في سُورةِ (الحِجرِ)؛ لأنَّ المُرادَ تفخيمُه مِن حيثُ اشتِمالُه على كمالِ جنسِ الكُتبِ الإلهيَّةِ حتَّى كأنَّه كلُّها، ومِن حيثُ كَوْنُه ممتازًا عن غيرِه نسيجَ وحْدِه بديعًا في بابِه، ولِمَا أنَّ الإشارةَ إلى امتيازِه عن سائرِ الكُتبِ بعْدَ التَّنبيهِ على انطوائِه على كَمالاتِ غيرِه مِن الكُتبِ- أَدخَلُ في المدْحِ؛ كيْلَا يُتوَهَّمَ مِن أوَّلِ الأمْرِ أنَّ امتيازَهُ عن غيرِه لاستقلالِه بأوصافٍ خاصَّةٍ به مِن غيرِ اشتمالِه على نُعوتِ كَمالِ سائرِ الكُتبِ الكريمةِ[2].

- و﴿مُّبِينٖ﴾ اسمُ فاعلٍ مِن (أبان) القاصرِ بمعنَى (بان) -على قولٍ-؛ لأنَّ وصْفَه بأنَّه بيِّنٌ واضحٌ: له حَظٌّ مِن التَّنويهِ به ما ليس مِن الوصْفِ بأنَّه مُوضِّحٌ مُبيِّنٌ؛ فالمُبينُ أفادَ مَعنيينِ؛ أحدَهما: أنَّ شواهدَ صِدْقِه وإعجازِه وهدْيِه واضحةٌ لكلِّ مُتأمِّلٍ، وثانِيَهما: أنَّه مُرشِدٌ ومُفصِّلٌ[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿هُدٗى وَبُشۡرَىٰ﴾ في حيِّزِ النَّصبِ على الحاليَّةِ مِن الآياتِ، على أنَّهما مَصدرانِ أُقِيمَا مُقامَ الفاعلِ؛ للمُبالَغةِ، كأنَّهما نفْسُ الهُدَى والبِشارةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٦٣) و (٦/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٨).

- قولُه: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه تَخصيصُ المُؤمنينَ بالذِّكْرِ؛ لِكَونِهم المُنتفعينَ به دونَ غيرِهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾

- وَصْفُ المُؤمنينَ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾؛ لِتَمييزِهم عن غَيرِهم؛ لأنَّهم عُرِفُوا يَومَئذٍ بإقامةِ الصَّلاةِ، وإعطاءِ الصَّدقاتِ للفُقراءِ والمساكينِ؛ فقد عرَّفَ اللهُ الكُفَّارَ بقولِه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: ٦، ٧]، على القولِ بأنَّ الزكاةَ هنا زكاةُ المالِ. ولأنَّ في الصِّلةِ إيماءً إلى وجْهِ بِناءِ الإخبارِ عنهم بأنَّهم على هُدًى مِن ربِّهم ومُفلِحون[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ صِفَةٌ مادحةٌ لهم، وتَخصيصُ الصَّلاةِ والزَّكاةِ بالذِّكْرِ؛ لأنَّهما قَرينَتَا الإيمانِ، وقُطْرَا العِباداتِ البَدنيَّةِ والماليَّةِ، مُسْتتبِعانِ لسائرِ الأعمالِ الصَّالحةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ مِن جُملةِ صِلَةِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ...﴾؛ فيكونَ مِن تَتِمَّةِ الصِّلةِ، والواوُ حاليَّةٌ أو عاطفةٌ له على الصِّلةِ الأُولى، وتَغييرُ نَظْمِه للدَّلالةِ على قوَّةِ يَقينِهم وثَباتِه، وأنَّهم أوحَديُّونَ فيه. ويَحتمِلُ أنْ تَتِمَّ الصِّلةُ عندَه، ويكونَ جُملةً اعتراضيَّةً، كأنَّه قِيلَ: وهؤلاء الَّذينَ يُؤمِنون ويَعملُون الصَّالحاتِ مِن إقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ، هم المُوقِنون بالآخرةِ حقَّ الإيقانِ، لا مَن عداهُم؛ لأنَّ تَحمُّلَ مَشاقِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢).

العباداتِ لخَوفِ العقابِ ورَجاءِ الثَّوابِ، وهذا الاحتمالُ يدُلُّ عليه أنَّه عُقِدَ جُملةً ابتدائيَّةً، وكُرِّرَ فيها المُبتدَأُ الَّذي هو (هُمْ) -وتكريرُ الضَّميرِ للاختِصاصِ- حتَّى صار معناها: وما يُوقِنُ بالآخرةِ حقَّ الإيقانِ إلَّا هؤلاء الجامعونَ بيْن الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ؛ لأنَّ خوفَ العاقبةِ يَحمِلُهم على تحمُّلِ المَشاقِّ، وإيقاعُ الضَّميرِ مُبتدأً يُفيدُ الحصرَ. ولَمَّا كان جَدوى الاعتراضِ تأكيدُ معنَى المُعترضِ فيه، ودلَّ مفهومُ قولِه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ على أنَّ مَن أيقَنَ بالآخرةِ حقَّ الإيقانِ لا بُدَّ أنْ يَخافَ تَبعاتِها، ومَن خاف تَحمَّلَ المَشاقَّ والمتاعبَ، وكان بهذا الاعتبارِ مُؤكِّدًا لقولِه: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ صحَّ كونُه مُعترضًا. وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ الضَّميرُ الأوَّلُ وُضِعَ مَوضِعَ اسمِ الإشارةِ، وصار مِثلَ قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ٣- ٥]، وفائدتُه: الإشعارُ بأنَّ ما يَرِدُ عَقيبَ اسمِ الإشارةِ فالمَذْكورونَ قبْلَه أهلٌ لِاكتسابِه؛ مِن أجْلِ الخِصالِ الَّتي عُدِّدَت لهم، فالمعنى: هم أحِقَّاءُ بأنْ يُوقِنوا بالآخرةِ؛ لأنَّهم هم الَّذين جَمَعوا بيْن الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ. وهذه المعاني مِن التَّخصيصِ والتَّوكيدِ والتَّعليلِ إنَّما يُفيدُها التَّركيبُ إذا جُعِلَ مُعترِضًا؛ لاستقلالِه، وأمَّا إذا أُدخِلَ في حيِّزِ الصِّلةِ بأنْ جُعِلَ حالًا أو عطْفًا على ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النمل: ٣] على التَّأويلِ، لم يُحتَجْ إلى هذه العبارةِ، فتَفوتَ تلك الفوائدُ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٥٥، ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٦٤، ١٦٥).

- وتَقديمُ ﴿بِٱلْأَخِرَةِ﴾؛ لرِعايةِ الفاصلةِ، وللاهتمامِ بها[١].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وقولِه: ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ ممَّا يَتجدَّدُ ولا يَستغرِقُ الأزمانَ؛ فجاءتِ الصِّلةُ معهما فِعْلًا في قولِه: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولمَّا كان الإيمانُ بالآخرةِ بما هو ثابتٌ عندَهُم مُسْتقِرُّ الدَّيمومةِ، جاءتِ الجُملةُ اسميَّةً، وأُكِّدَ المُسنَدُ إليه فيها بتَكرارِه، فقِيل: ﴿هُمْ يُوقِنُونَ﴾، وجاء خبَرُ المبتدأِ فِعْلًا؛ لِيدُلَّ على الدَّيمومةِ[٢]. وعلى القولِ بأنَّهما عطْفٌ على الصِّلةِ، وليستْ مِن الصِّلةِ؛ فخُولِفَ بيْنَ أُسلوبِها وأُسلوبِ الصِّلةِ، فأُتِيَ له بجُملةٍ اسميَّةٍ؛ اهتمامًا بمَضمونِها ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾؛ لأنَّه باعثٌ على فِعلِ الخيراتِ، على أنَّ ضميرَ (هم) الثَّاني يجوزُ أنْ يُعتبَرَ ضَميرَ فصْلٍ دالًّا على القصْرِ، أي: ما يُوقِنُ بالآخرةِ إلَّا هؤلاء. والقصْرُ إضافيٌّ بالنِّسبةِ إلى مُجاوريهم مِن المُشركينَ، وإلَّا فإنَّ أهلَ الكتابِ يُوقِنون بالآخرةِ، إلَّا أنَّهم غيرُ مَقصودٍ بيانُ حالِهم للمُخاطَبينَ مِن الفريقينِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ لِبَيانِ سَببِ استمرارِهم على ضَلالِهم؛ فكونُ الكتابِ المبينِ هُدًى وبُشرَى للَّذين يُوقِنون بالآخرةِ يُثيرُ سُؤالًا في نفْسِ السَّامعِ عن حالِ أضْدادِهم الَّذين لا يُوقِنون بالآخرةِ: لماذا لا يَهْتدون بهَدْيِ هذا الكتابِ البالغِ حدًّا عظيمًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٣/ ٢٩٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢١٩).

في التَّبيُّنِ والوُضوحِ؟ فلا جَرَمَ أنْ يَصلُحَ المَقامُ للإخبارِ عمَّا صرَفَ هؤلاء الأضْدادَ عن الإيمانِ بالحياةِ الآخرةِ؛ ذلك بأنَّ اللهَ يَعلمُ خُبْثَ طوايَاهُم، فحرَمَهُم التَّوفيقَ، ولم يَصرِفْ إليهم عِنايةً تَنْشُلُهم مِن كَيْدِ الشَّيطانِ لِحكمةٍ عَلِمَها اللهُ مِن حالِ ما جُبِلَت عليه نُفوسُهم؛ فوقَعَ هذا الاستئنافُ بتَوابعِه مَوقعَ الاعتراضِ بيْن أخبارِ التَّنويهِ بالقرآنِ بما سبَقَ، والتَّنويهِ به بمَن أُنزِلَ عليه بقولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾[1] [النمل: ٦].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ فيه تأْكيدُ الخبرِ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لِلاهتمامِ به؛ لأنَّه بحيث يَلتبِسُ على النَّاسِ سبَبُ افتراقِ النَّاسِ في تَلقِّي الهُدى بيْن مُبادِرٍ ومُتقاعِسٍ ومُصِرٍّ على الاستمرارِ في الضَّلالِ[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ في مُجيءِ المُسنَدِ إليه مَوصولًا ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: إشارةٌ إلى أنَّ الصِّلةَ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ عِلَّةٌ في المُسنَدِ ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾[3]، وأيضًا أشارَ جَعْلُ صِلَةِ الموصولِ مُضارعًا إلى أنَّ الحُكْمَ مَنوطٌ بالاستمرارِ على عَدمِ الإيمانِ، وأَوْمَأَ جَعلُ الخبرِ ﴿زَيَّنَّا﴾ ماضيًا إلى أنَّ هذا التَّزيينَ حُكمٌ سبَقَ وتقرَّرَ مِن قبْلُ، وحسْبُك أنَّه مِن آثارِ التَّكوينِ بحَسَبِ ما طرَأَ على النُّفوسِ مِن الأطوارِ[4]!

- قولُه: ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يَتحيَّرون ويَتردَّدون على التَّجدُّدِ والاستمرارِ في الاشتغالِ بها، والانهماكِ فيها، مِن غيرِ مُلاحظةٍ لِمَا يَتْبَعُها مِن نفْعٍ وضُرٍّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٢١).

والفاءُ لتَرتيبِ المُسبَّبِ على السَّببِ[١].

- وأيضًا فُرِّعَ على تَزيينِ أعمالِهم لهم أنَّهم في عَمَهٍ مُتمكِّنٍ منهم بصَوغِ الإخبارِ عنهم بذلك بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾، وأفادَتْ صِيغَةُ المُضارعِ ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أنَّ العَمَهَ مُتجدِّدٌ مُستمِرٌّ فيهم، أي: فهمْ لا يَرجِعون إلى اهتداءٍ؛ لأنَّهم يَحْسَبون أنَّهم على صَوابٍ[٢].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ فإنَّ وِزانَ فاتحةِ هذه السُّورةِ إلى هاهنا وِزانُ فاتحةِ سُورةِ (البقرةِ)؛ فقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٦]، وقولُه: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ كقولِه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]، والتَّركيبُ مِن بابِ تَحقيقِ الخَبرِ، وأنَّ المعنى استمرارُهم على الكُفرِ، وأنَّهم بحيث لا يُتوقَّعُ منهم الإيمانُ ساعةً فساعةً، أمَارةٌ لِرَقْمِ الشَّقاوةِ عليهم في الأزَلِ، والختْمِ على قُلوبِهم، وأنَّه تعالى زيَّنَ لهم سُوءَ عَمَلِهم؛ فهمْ لذلك في تِيهِ الضَّلالةِ يَتردَّدون، وفي بَيداءِ الكُفرِ يَعْمَهون. دلَّ على هذا التَّأويلِ إيقاعُ لَفظِ المُضارعِ في صِلَةِ الموصولِ، والماضي في خَبرِ الموصولِ، وترتُّبُ ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ بالفاعليَّةِ، واختصاصُ الخِطابِ بما يَدلُّ على الكِبرياءِ والجبروتِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ قُصِد باسمِ الإشارةِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ زيادةُ تَمييزِهم؛ فَضْحًا لِسُوءِ حالِهم، مع ما يُنَبِّهُ إليه اسمُ الإشارةِ في مِثْلِ هذا المَقامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٥٧، ٤٥٨).

مِن أنَّ استحقاقَهم ما يُخْبَرُ به عنهم ناشِئٌ عمَّا تقدَّمَ اسمَ الإشارةِ، كما في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ في سُورةِ (البقرةِ) [الآية: ٥]، وعُزِّز ما نُبِّهَ عليه باسمِ الإشارةِ، فأعقِبَ باسمِ الموصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لِمَا فيه مِن الإيماءِ إلى وجْهِ بناءِ الخبرِ[١].

- وجِيءَ بلامِ الاختصاصِ في ﴿لَهُمۡ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم في حالتِهم هذه قدْ هُيِّئَ لهم سُوءُ العذابِ؛ فلِكَونِ نَوالِ العذابِ الأوَّلِ إيَّاهم قابلًا للتَّخلُّصِ منه بالإيمانِ قُبَيلَ حُلولِه بهم، جِيءَ في جانبِه بلامِ الاختِصاصِ، المُفيدةِ كَوْنَه مُهيَّأً تَهْيئةً -وذلك على القولِ بأنَّ العذابَ في الدُّنيا-، أمَّا أصالةُ جَزاءِ الآخرةِ إيَّاهم فلا مَندوحةَ لهم عنه إنْ جاؤوا يومَ القيامةِ بكُفْرِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ صِيغَ الخبَرُ عنهم بالخُسرانِ في صِيغةِ الجُملةِ الاسميَّةِ، وقُرِنَ بضَميرِ الفصْلِ ﴿هُمُ﴾؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ مَضمونِ الجُملةِ، وعلى انحصارِ مَضمونِها فيهمْ[٣].

- وتقديم ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ للفاصلةِ، أو للحصرِ؛ لأنَّ الأخسَريَّةَ والأشَدِّيَّةَ بالنِّسبةِ إليها لا إلى ما في الدُّنيا[٤].

- وإنَّما تكرَّرَتْ لفظةُ (هم)؛ للإيذانِ بتَحقيقِ الخَسارِ، والأصلُ فيها: وهم في الآخرةِ الأخسَرون، لكنْ لَمَّا أُريدَ تأكيدُ ذلك جيءَ بتَكريرِ هذه اللَّفظةِ[٥].

- وجاء المُسنَدُ ﴿ٱلۡأَخۡسَرُونَ﴾ اسمَ تَفضيلٍ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أوْحدونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ١٥١).

في الخُسرانِ لا يُشْبِهُه خُسرانُ غيرِهم؛ لأنَّ الخُسرانَ في الآخرةِ مُتفاوِتُ المِقدارِ والمُدَّةِ، وأعظَمُه فيهما خُسرانُ المُشركينَ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ سِيقَ بعْدَ بَيانِ بعضِ شُؤونِ القرآنِ الكريمِ؛ تَمهيدًا لِمَا يَعْقُبُه مِن قَصصِ الأممِ الخاليةِ، وما في ذلك مِن لطائفِ حِكْمتِه ودقائقِ عِلْمِه تعالى[٢]؛ ففيه نَوعٌ مِن التَّخلُّصِ والانتقالِ إلى نَوعٍ آخَرَ مِن الإعجازِ، وهو الإخبارُ عن المُغَيَّباتِ، ومِن مَدْحِ الكتابِ إلى قَصصِ الأنبياءِ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ عُطِفَ على جُملةِ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [النمل: ١]، وهو انتقالٌ مِن التَّنويهِ بالقرآنِ إلى التَّنويهِ بالَّذي أُنزِلَ عليه بأنَّ القُرآنَ آياتٌ دالَّةٌ على أنَّه كِتابٌ مُبينٌ، وذلك آيةٌ على أنَّه مِن عندِ اللهِ، ثمَّ بأنَّه آيةٌ على صِدْقِ مَن أُنزِلَ عليه؛ إذ أنبَأَهُ بأخبارِ الأنبياءِ والأُمَمِ الماضينَ الَّتي ما كان يَعلمُها هو ولا قومُه قبْلَ القرآنِ، وما كان يَعلمُ خاصَّةُ أهلِ الكتابِ إلَّا قليلًا منها أكثَرُه مُحرَّفٌ[٤].

- وتَصديرُ قولِه: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾ بحَرْفَي التَّأكيدِ: (إنَّ)، واللَّامِ في ﴿لَتُلَقَّى﴾؛ لإبرازِ كَمالِ العنايةِ بمَضمونِه[٥]؛ فتأكيدُ الخبرِ لمُجرَّدِ الاهتمامِ؛ لأنَّ المُخاطَبَ هو النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو لا يَتردَّدُ في ذلك. أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

يكونُ التَّأكيدُ مُوجَّهًا إلى السَّامعينَ مِن الكفَّارِ على طَريقةِ التَّعريضِ[١].

- وبُنِيَ الفِعلُ ﴿لَتُلَقَّى﴾ للمفعولِ، وحُذِفَ الفاعلُ، وهو جِبريلُ عليه السَّلامُ؛ للدَّلالةِ عليه في قولِه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣][٢]، أو بُنِيَ الفِعلُ إلى غيرِ مَذكورٍ؛ للعِلْمِ بأنَّه اللهُ جلَّ جلالُه أو جِبريلُ عليه السَّلامُ، والمعنى واحدٌ: وهو أنَّك مُؤْتًى الوحْيَ مِن لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ[٣].

- وفي إقحامِ ﴿لَّدُنْ﴾ بيْن ﴿مِن﴾ و﴿حَكِيمٍ﴾: تَنبيهٌ على شِدَّةِ انتسابِ القرآنِ إلى جانبِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ أصْلَ (لدُنْ) الدَّلالةُ على المكانِ مِثْلَ (عندَ)، ثمَّ شاعَ إطلاقُها على ما هو مِن خصائصِ ما تُضافُ هي إليه؛ تَنويهًا بشأنِه[٤].

- وفي تَنكيرِ ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ إيذانٌ بتَعظيمِ هذا الحكيمِ العليمِ؛ كأنَّه قِيلَ: مِن حَكيمٍ أيِّ حَكيمٍ، وعَليمٍ أيِّ عليمٍ، والتَّنوينُ للتَّعظيمِ[٥]. وفي تَفخيمِهما تَفخيمٌ لشأْنِ القرآنِ، وتَنصيصٌ على عُلوِّ طَبقتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ في مَعرفتِه والإحاطةِ بما فيه مِن الجلائلِ والدَّقائقِ؛ فإنَّ مَن تلقَّى العلومَ والحِكَمَ مِن مِثْلِ ذلك الحكيمِ العليمِ يكونُ عَلَمًا في رَصانةِ العلْمِ والحِكمةِ[٦].

- وكذلك في الوصفينِ الشَّريفينِ مُناسبةٌ للمعطوفِ عليه وللمُمهَّدِ إليه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

فإنَّ ما في القُرآنِ دَليلٌ على حِكمةِ مَن أَوحَى به وعِلْمِه، وأنَّ ما يُذكَرُ هنا مِن القَصصِ وما يُستخلَصُ منها مِن المَغازي والأمثالِ والموعظةِ مِن آثارِ حِكمةِ وعِلْمِ حَكيمٍ عليمٍ، وكذلك ما في ذلك مِن تَثبيتِ فُؤادِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤).

## الآيات (٧-١٤)

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ
تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ
يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا
وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ءَانَسْتُ﴾: أي: أبصَرتُ مِن بعيدٍ، والإيناسُ: الرُّؤيةُ والعِلمُ والإحساسُ بالشَّيءِ[1].

﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾: أي: بشُعلةِ نارٍ فِي رَأسِ عُودٍ، والقَبَسُ: المتناوَلُ مِن الشُّعلةِ[2].

﴿تَصْطَلُونَ﴾: أي: تَستَدفِئون، والصَّلا: النَّارُ العظيمةُ، والصِّلاءُ: ما يُصطَلى به، وأصلُ (صَلَى) هنا: النَّارُ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٦).

﴿جَآنٌّ﴾: جِنسٌ مِن الحيَّاتِ خَفيفٌ سَريعٌ، وسمِّيت الحيةُ بذلك تشبيهًا لها بالواحدِ مِنَ الجانِّ، وأصلُ (جنن): السَّترُ والتَّستُّرُ[١].

﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾: أي: جرَى هارِبًا، والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ[٢].

﴿يُعَقِّبۡ﴾: أي: يَرجِعْ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعْدَ غيرِه[٣].

﴿جَيۡبِكَ﴾: أي: طَوقِ قميصِك[٤]، وهو مدخَلُ الرأسِ منه المفتوحُ إلى الصَّدرِ، وهو مِن الْجَوْبِ: وهو الْقَطْعُ[٥].

﴿سُوٓءٖ﴾: أي: عَيبٍ أو آفةٍ، وفُسِّرَ بالبَرَصِ، والسُّوءُ: كلُّ ما يَغمُّ الإنسانَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣).

(٤) قال الألوسي: (أي: جيبِ قميصِك، وهو مدخَلُ الرَّأسِ منه المفتوحُ إلى الصدرِ، لا ما يوضَعُ فيه الدراهمُ ونحوُها كما هو معروفٌ الآنَ؛ لأنَّه مُوَلَّدٌ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٢).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

﴿مُبۡصِرَةً﴾: أي: بَيِّنةً، واضِحةَ الدَّلالةِ، وأصلُ البصَرِ: العِلمُ بالشَّيءِ[١].

﴿وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ﴾: أي: تيقَّنَتْها، مِن اليَقينِ، وهو أبلَغُ عِلمٍ وأوكَدُه، وأصلُه: يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ[٢].

﴿وَعُلُوّٗا﴾: أي: تكبُّرًا واستِعلاءً، وأصلُه: يدُلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ[٣].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۞ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

قولُه: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، و(إلَّا) بمعنى (لكنْ)، و﴿مَن﴾ مُستثنى في مَحَلِّ نَصبٍ، أو مُبتدَأٌ خبَرُه ﴿فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، والجُملةُ الاسميَّةُ في محلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ المُنقَطِع. وقيلَ: الاستِثناءُ هنا متَّصِلٌ. وقيل غيرُ ذلك[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ موسَى عليه السلامُ، فيقولُ: اذكُرْ -يا محمَّدُ-

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٢٧).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٧٧)، ((الجدول)) لمحمود صافي (١٩/ ١٤٤).

حينَ قال موسى لأهلِه: إنِّي أبصَرتُ نارًا، سآتيكم منها بخبَرٍ، أو آتيكم بشُعلةٍ أقتَبِسُها مِن تلك النَّارِ؛ كي تستَدفِئوا بها مِن البردِ.

ثمَّ ذكَر سبحانَه ما حدَث عندَما اقترَب موسى عليه السَّلامُ مِن النَّارِ، فقال: فلمَّا جاء مُوسى إلى النَّارِ ناداه اللهُ تعالى بأنْ بُورِكَ مَن في النَّارِ، وبُورِكَ مَنْ حَوْلَها، وتنزيهًا لله رَبِّ العالَمينَ مِن كُلِّ نَقصٍ وسُوءٍ.

يا موسى، إنَّه أنا اللهُ المستحِقُّ للعبادةِ وَحْدي، الغالِبُ الذي لا يُقهَرُ، الحَكيمُ في تدبيرِه، وارْمِ عَصاك، فرماها فانقلَبَت ثُعبانًا عظيمًا، فلمَّا رآها موسى تتحَرَّكُ بسُرعةٍ وكأنَّها حَيَّةٌ صَغيرةٌ، هرب منها مُسرِعًا ولم يرجِعْ، فقُال الله تعالى له: يا موسَى لا تخَفْ؛ لأنِّي لا يخافُ عندي المُرسَلون، لكِنْ مَن ظلَم نفْسَه بارتكابِ السُّوءِ ثمَّ تاب وعَمِلَ صالِحًا بعْدَ عَمَلِه السيِّئِ، فإنِّي غفورٌ لِذَنْبِه، ورحيمٌ به.

ثمَّ أرشَد الله تعالى موسَى عليه السَّلامُ إلى معجزةٍ أخرَى، فقال: وأَدْخِلْ يدَك يا موسى في جَيبِ قَميصِك ثمَّ أخرِجْها، تخرُجْ بيضاءَ مِن غيرِ بَرَصٍ ولا آفةٍ، وهي آيةٌ مِن جملةِ تِسعِ آياتٍ، نُرسِلُك بها إلى فِرعَونَ وقَومِه؛ لأنَّهم كانوا قَومًا كافرينَ باللهِ.

ثمَّ قال تعالى مبيِّنًا موقفَ فِرعونَ وقومِه مِن هذه المعجزاتِ: فلمَّا جاءت فِرعَونَ وقَومَه آياتُنا التِّسعُ المُظهِرةُ للحَقِّ، الواضِحةُ الدَّلالةِ على صِدقِ موسى ورسالتِه، قالوا: هذا سِحرٌ واضِحٌ، وأنكروا الآياتِ أن تكونَ مِن عندِ اللهِ مع تيقُّنِ قُلوبِهم أنَّها مِن عِندِه سُبحانَه؛ اعتِداءً وتكبُّرًا، فانظرْ -يا محمَّدُ- كيف كانت عاقِبةُ هؤلاء المُفسِدينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قال الله تعالى في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] فوصَف نفسَه بتَمامِ الحِكمةِ وشُمولِ العِلمِ؛ دلَّ على كلٍّ مِن الوَصفَينِ، وعلى إبانةِ القُرآنِ وما له مِن العَظَمةِ التي أشار إليها أوَّلَ السُّورةِ بما يأتي في السُّورةِ مِن القَصَصِ وغيرِها[1].

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾.

أي: اذكُرْ -يا محمَّدُ- حين قال موسَى لأهلِه -وهو مسافِرٌ مِن مَدْيَنَ إلى مِصرَ في لَيلةٍ مُظلِمةٍ باردةٍ: إني أبصَرْتُ نارًا[2].

﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾.

أي: سآتيكم مِنَ النَّارِ بخبَرٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤، ٢٢٥).

قال ابن عاشور: (الإيناسُ: الإحساسُ والشُّعورُ بأمرٍ خفيٍّ، فيكونُ في المرئيَّاتِ وفي الأصواتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ هذه الآيةَ متَّصِلةٌ بقولِه تعالى قبْلَها: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ والمعنى: عليم حينَ قال موسى لأهلِه: إنِّي أبصرتُ نارًا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

قيل: المرادُ: بخبرٍ عن الطريقِ. وممَّن قال بذلك: السمعانيُّ، والزمخشري، والرازي، والبيضاوي، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير =

﴿أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ لَّعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾.

أي: أو أجيئُكم بشُعلةٍ أقتَبِسُها مِن تلك النَّارِ؛ كي تستَدفِئوا بها مِن البَردِ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى﴾ [طه: ١٠].

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾.

أي: فلمَّا جاء مُوسى إلى النَّارِ[2].....

---

= الجلالين)) (ص: ٤٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠).

قال ابن عثيمين: (فالخبرُ الذي يريدُ هو خبرُ مَن يَدُلُّه على الطَّريقِ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسلامُ كان قد ضَلَّها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠).

وقيل: المرادُ بالخبر: خبَرُ المكان الذي تَلوحُ منه النَّارُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٥).

قال ابنُ عاشور: (ولعلَّه ظنَّ أنَّ هنالك بيتًا يرجو استضافتَهم إيَّاه وأهلَه تلك اللَّيلةَ). ((المصدر السابق)).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨، ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٥).

(٢) والمرادُ بالنَّارِ: النُّورُ، وممَّن قال بذلك: يحيى بن سلام، وابن عطية، والقرطبي، والبِقاعي، والعُلَيْمي، وجعله الواحديُّ مذهبَ المفسِّرين، ونسَبَه البَغَويُّ لأكثرِهم. يُنظر: ((تفسير يحيى ابن سلام)) (٢/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٧، ١٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٤)، ((الوسيط)) =

ناداه الله تعالى[1] .....

= للواحدي (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٠).

وممَّن قال مِن السَّلفِ أنَّ المرادَ بالنَّارِ النُّورُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بن جُبَيرٍ في رواية، وعِكْرِمةُ، والحسن، وقتادة، ومحمد بن كعب. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٣).

قال الواحدي: (مذهبُ المفسِّرينَ أنَّ المرادَ بالنَّارِ هو النورُ، وذلك أنَّ موسى رأى نورًا عظيمًا فظنَّه نارًا؛ لذلك ذُكِر بلفظِ النَّارِ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٩).

قالوا: لأنَّ النَّارَ لا تخلُو من النُّورِ، والعربُ تضَعُ أحدَهما موضِعَ الآخَرِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨).

والمرادُ بالنُّور هو حِجابُ النُّورِ؛ فعن أبي عُبَيْدةَ، عن أبي موسى رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنَّ اللهَ لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخفِضُ القِسْطَ ويَرْفَعُه، حِجابُه النُّورُ، لو كشَفَها لأَحْرَقَتْ سُبُحاتُ وَجْهِه كلَّ شَيءٍ أدرَكَه بصَرُه))، ثمَّ قرأ أبو عُبَيْدةَ: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٨].

أخرجه ابن ماجه (١٩٦)، وأحمد (١٩٥٨٧)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (١٦٣). وقال الأرناؤوط في تحقيق ((المسند)): إسناده صحيح. والحديث أصلُه في ((صحيح مسلم)) (١٧٩) دون قراءة أبي عبيدةَ. وفي روايةِ أحمدَ: ((النار)) بدل ((النور))، والمرادُ واحدٌ.

وينظر: رسالة ((إزالة الإشكال عن آية بورك من في النار)) لمنصور العيدي (ص: ٩).

وقيل: هي نارٌ، كما هو ظاهِرُ اللَّفظِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: السمرقنديُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٧، ٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ في روايةٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠، ١١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٣).

(١) المنادِي هو الله تبارك وتعالى. وممَّن نصَّ على ذلك: ابن عطية، والقرطبي، وابنُ تيميَّة، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٥/ ٤٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ٤٦٣)، =

بأنْ بُورِكَ[١] مَنْ في تلكَ النَّارِ[٢]، .....

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٥، ٥٦).

(١) قيل: ﴿بُورِكَ﴾ أي: قُدِّس، وقيل: أي: تبارك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦).

وقال ابن عطية: (وقوله: ﴿بُورِكَ﴾ معناه: قُدِّسَ وضُوعِفَ خيرُه ونُميَ، والبَرَكةُ مُختصَّةٌ بالخيرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٠).

وقال البقاعي: (﴿أَنۢ بُورِكَ﴾ أي: ثبَت تثبيتًا يحصُلُ منه مِن النَّماءِ والطَّهارةِ وجميعِ الخَيراتِ ما لا يُوصَفُ). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٢).

(٢) المرادُ بقولِه تعالى: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾؛ هو الله سبحانَه وتعالى عنَى به نفْسَه، وكانت النَّارُ نورَه تعالَى ذِكرُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠).

ممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والحسنُ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ، وأبو صَخْرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٤٥).

فاللهُ تعالى دنا مِن موسى عليه السَّلامُ لَمَّا كلَّمه مِن الشَّجرةِ، وقرَّبَه نَجيًّا، فناداه وناجاه، وهو سبحانه فوقَ العرشِ ويَقرُبُ مِن خَلْقِه كيف شاء، وقُربُه ودُنُوُّه مِن بعضِ مخلوقاتِه لا يَستلزِمُ أن تخلوَ ذاتُه مِن فوقِ العرشِ، ولا يُفهمُ مِن كلامِ السَّلفِ أنَّ الله تعالى قد حلَّ في مخلوقٍ أو أحاط به مخلوقٌ ونحو ذلك مما لا يليقُ نسبتُه لله سبحانَه وتعالى. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ٤٦٠، ٤٦٣)، ((إزالة الإشكال)) لمنصور العيدي (ص: ٢٣).

وهو سبحانَه (يفعلُ ما يَشاءُ، ولا يُشْبِهُ شيئًا مِن مخلوقاتِه، ولا يحيطُ به شيءٌ مِن مَصْنوعاتِه، وهو العليُّ العظيمُ، المبايِنُ لجميعِ المخلوقاتِ، ولا يَكْتَنِفُه الأرضُ وَالسَّمواتُ، بل هو الأحدُ الصَّمَدُ، المُنَزَّهُ عن مُماثلةِ المُحْدَثاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠).

قال البَغَويُّ: (ورُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ والحسَنِ في قولِه: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يعني: قُدِّس مَن في النَّارِ، وهو اللهُ، عنَى به نفْسَه، على معنَى أنَّه نادى موسى منها، وأسمَعه كلامَه مِن جِهتِها). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩١). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٣٢).

ونسَبَ السَّمْعانيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: نورُ الربِّ سُبحانَه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨). =

= وقيل: المُرادُ بمَن في النَّارِ: موسى عليه السَّلامُ، وممَّن اختار هذا القولَ: السَّمَرْقَنْديُّ، والثَّعلبيُّ، والواحديُّ، والرازيُّ، والعُلَيميُّ، والشربينيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦).

قال الواحدي: (واختَلَفوا فيمَن في النَّارِ؛ فالأحسَنُ: أنَّ الآيةَ مِن بابِ حَذفِ المضافِ، على تقديرِ: بُورِكَ مَن في طلَبِ النَّارِ، وهو موسى عليه السَّلامُ، وكأنَّه تحيَّةٌ مِنَ الله عزَّ وجلَّ لموسى بالبَرَكةِ، كما حيَّا إبراهيمَ بالبَرَكةِ على ألسِنَةِ الملائكةِ حينَ دخَلوا عليه). ((البسيط)) (١٧/ ١٦٤).

وقيل: التَّقديرُ: مَن في مكانِ النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨).

وعلى هذا القولِ فالفائدةُ مِن حذفِ كلمةِ مكانٍ شَيْئانِ:

الأوَّل: القُربُ التَّامُّ منها.

والثَّاني: أنَّ شُعاعَ النَّارِ قد وصَل هذا القريبَ منها؛ لأنَّ النَّارَ كما هو معروفٌ لها شُعاعٌ، والإنسانُ القريبُ منها يكونُ في نفْسِ الشُّعاعِ؛ فكأنَّه لقُربِه ووُصولِ شُعاعِ النَّارِ إليه صار كأنَّه فيها نفْسِها، وإلَّا فليس هو في نفْسِ الشُّعلةِ، هذا لا يُمكِنُ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٧).

وقال السَّمْعانيُّ: (فإنْ قيل: لم يكُنْ موسَى في النَّارِ. قُلْنا: قد كان قَريبًا مِنَ النَّارِ، والعربُ تُسمِّي مَن قَرُب مِن الشَّيءِ: في الشَّيءِ، يقولونَ: إذا بلَغْتَ ذاتَ عِرْقٍ فأنت في مكَّةَ؛ قالوا هذا لأجْلِ القُربِ مِن مكَّةَ، وموسى قد كان قَرُب مِنَ النَّارِ، فجَعَله كأنَّه في النَّارِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨).

وقيل: المُرادُ بمَن في النَّارِ: الملائكةُ، وممن قال به: مقاتلُ بن سليمان، والفَرَّاء -ونسَبه إليه السمعاني-، والبَغَوي، والنسفي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٧)، ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٤).

قال الشنقيطيُّ: (وأقربُ الأقوالِ في معنَى الآيةِ إلى ظاهرِ القرآنِ العظيم قولُ مَنْ قالَ: إنَّ في النَّارِ الَّتي هي نورٌ ملائكةً، وحَوْلَها ملائكةٌ ومُوسَى، وأنَّ معنَى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أي: الملائكةُ الَّذينَ هم في ذلك النُّورِ، ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أي: وبُورِكَ الملائكةُ الَّذينَ هم حَوْلَها، وبُورِكَ مُوسَى؛ لأنَّه حَوْلَها معهم. ومِمَّنْ يُروَى عنه هذا: السُّدِّيُّ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٣٣). =

وبُورِكَ مَنْ حَوْلَها[1].

= وقيل: هذه البَرَكةُ راجعةٌ إلى النَّارِ نفْسِها. والمعنَى: بُورِكَتِ النَّارُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٨).

قال الثعلبي: (وتقديرُ هذا التَّفسيرِ أنَّ «مَن» تأتي في الكلامِ بمعنى «ما» ... و«ما» قد تكونُ صِلَةً في كثيرٍ مِن المواضِعِ؛ كقَولِه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ [ص: ١١]، و ﴿عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [المؤمنون: ٤٠]. فمعنى الآيةِ: بُورِكَ في النَّارِ، وفيمَن حَوْلَها، وهم الملائكةُ وموسى عليه السَّلامُ، فسَمَّى النَّارَ مُبارَكةً، كما سمَّى البُقْعةَ مُبارَكةً فقال: ﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠]). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩٠).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه ومُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١).

وذكر الشنقيطيُّ أنَّه بعيدٌ عن ظاهِرِ القرآنِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩- ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٥٧- ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٣، ٤٣٤).

المرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: موسى والملائكةُ. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، وابنُ عاشور، والشِّنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٣٤).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ هم الملائكةُ وموسى، في قولِ الجميعِ). ((البسيط)) (١٧/ ١٦٨).

وممن قال به مِن السَّلفِ: محمد بنُ كَعْب. ينظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٤١).

وقيل: المراد بقولِه تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾: الملائكةُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيْمانَ، والفرَّاءُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والثَّعلبيُّ، والواحديُّ، والرازيُّ، والبِقاعي، والشربيني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦، ٢٢٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، والحسنُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٤٧). =

﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وتنزيهًا لله رَبِّ العالَمينَ مِن كُلِّ نَقصٍ وسُوءٍ وعَيبٍ(١).

﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾.

أي: يا موسى، إنَّه أنا اللهُ المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدي، القويُّ الغالِبُ الذي لا يُقهَرُ، الحكيمُ في أمرِه وقَولِه وفِعلِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ۞ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي

---

= قال ابن عاشور: («ومَن حَوْلَ النَّارِ» هو جبريلُ الذي أُرسِلَ إليه بما نودِيَ به، والملائكةُ الذين وكِّلَ إليهم إنارةُ المكانِ وتقديسُه، إنْ كان النِّداءُ بغيرِ واسطةِ جبريلَ، بل كان مِن لَدُنِ اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦، ٢٢٧).

وقال البقاعي: (... ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ مِن جميعِ الملائكةِ -عليهم السَّلامُ- وتلك الأراضي المقدَّسة على ما أراد اللهُ في ذلك الوقتِ وفي غيرِه.

وحُقَّ لتلك الأراضي أن تكونَ كذلك؛ لأنَّها مَبعَثُ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومَهبِطُ الوحيِ عليهم، وكِفاتُهم أحياءً وأمواتًا). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٣٢).

وقيل: ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ المرادُ به: موسى عليه السَّلامُ. وممَّن اختاره: النَّسَفي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٢).

وقيل: هو عامٌّ في كلِّ مَن كان في تلك الأرضِ وفي ذلك الوادي وحوالَيْهما مِن أرضِ الشَّامِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٣).

قال السعدي: (ومِن حِكمتِه أنْ أَرسَلَ عبْدَه موسى بنَ عِمْرانَ الَّذي عَلِم اللهُ منه أنَّه أهلٌ لرسالتِه ووَحْيِه وتكليمِه. ومِن عِزَّتِه أن تعتمِدَ عليه ولا تَستوحِشَ مِن انفرادِك وكثرةِ أعدائِك وجبروتِهم؛ فإنَّ نواصيَهم بيدِ الله، وحرَكاتِهم وسكونَهم بتدبيرِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه: ١٣، ١٤].

﴿ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٠ ﴾.

﴿ وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۚ ﴾.

أي: وارْمِ عصاك، فرماها فانقلَبَت ثُعبانًا عظيمًا، فلمَّا رآها موسَى تتحَرَّكُ وتَضطرِبُ بخِفَّةٍ وسُرعةٍ، وكأنَّها حيَّةٌ صَغيرةٌ؛ هرَب منها مُسرِعًا ولم يرجِعْ ولم يلتَفِتْ(١).

﴿ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾.

أي: فقُلْنا: يا موسى، لا تخَفْ مِمَّا ترى(٢)؛ لأنِّي لا يَخافُ عندي الرُّسلُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢).

(٢) قال القرطبي: (﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ أي: مِن الحيَّةِ وضررِها). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٧).

قال الشوكاني: (﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ أيْ: لا يَخافُ عِنْدي مَنْ أرسَلْتُه برِسالَتي، فلا تَخَفْ أنت. قِيلَ: ونَفْيُ الخوفِ عن المرسلينَ ليسَ فِي جميعِ الأوقاتِ، بل في وقتِ الخطابِ لهم، لأنَّهم إذْ ذاكَ مُستغرقونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٧).

ممن اختار القولَ الأولَ، أي: لا يخافُ عندي رسلي وأنبيائي: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والزجاج، وابن الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ [القصص: ٣١].

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

أي: لَكِنْ[1] مَن ظلَمَ نفْسَه بارتكابِ السُّوءِ، والوُقوعِ في الذَّنبِ، ثمَّ تاب

---

= قال ابنُ جرير: (﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يقولُ: إنِّي لا يَخافُ عندي رُسلي وأنبيائي الذين أختصُّهم بالنبوَّةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦).

وقال الواحدي: (قال ابنُ عباسٍ: لا يخافُ عندي مَن أرسلتُه برسالتي، والمعنَى: لا يُخيف الله الأنبياءَ، أي: إذا أمَّنهم فلا يخافونَه، فيكف يخافُ الحيةَ؟! فنهَى عن الخوفِ مِن الحيةِ، ونبَّه على أمنِ المرسلينَ عندَ الله ليُعلمَ أنَّ مَن أمَّنه الله مِن عذابِه بالنبوةِ ودرجةِ الرسالةِ لا يستحقُّ أن يخافَ الحيةَ). ((البسيط)) (١٧/ ١٧٣).

وقال القاسمي: (﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: لحِفْظي لهم وعِنايتي بهم وعِصْمتي إياهم مما يُؤْذيهم). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٨٧).

وقال النيسابوري: (وسببُ نفيِ الخوفِ عن الرسلِ مشاهدةُ مزيدِ فضلِ الله وعنايتِه في حقِّهم). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٢٩٤).

وممن ذهب إلى أنَّ قولَه: ﴿لَدَىَّ﴾ يعني: حينَ الوحيِ وتلَقِّي الرِّسالةِ في حضرةِ الربِّ تعالى: البقاعي، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٩).

قال السعدي: (﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لأنَّ جميعَ المخاوفِ مُندَرِجةٌ في قضائِه وقَدَرِه، وتصريفِه وأمْرِه، فالذين اختصَّهم اللهُ برسالتِه واصْطَفاهم لوَحْيِه لا ينبغي لهم أن يخافوا غيرَ اللهِ، خصوصًا عندَ زيادةِ القُربِ منه، والحُظوةِ بتكليمِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١).

وقال الكرماني: (قوله: (لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)، أي، في الموضعِ الذي يُوحي فيه إليهم؛ لأنَّ المرسلينَ أخوفُ مِن الله). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨٤٣).

وممن اختار أنَّ معنى: ﴿لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: إذا أمَّنتهم: السمعاني، والبغوي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٦).

قال البغوي: (﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، يريدُ إذا آمَنهم لا يخافونَ، أمَّا الخوفُ الذي هو شرطُ الإيمانِ فلا يفارقُهم). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩١).

(١) الاستثناءُ هنا منقطِعٌ بمعنى: لَكِنْ. وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، وابن =

= عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٣).

قال ابنُ عثيمين: (إنَّ موسى عليه الصلاةُ والسلامُ لَمَّا قال الله له: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لعلَّه تذكَّرَ أنَّه قد وقع منه خطيئةٌ، والخطيئةُ أنَّه قتَل نفْسًا، وكأنَّه عندَما يتذكَّرُ هذا قد يستبعِدُ في نفْسِه أن يكونَ مِن الرُّسلِ، فقال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾؛ لِيُذَكِّرَه بما مَنَّ به عليه مِن التَّوبةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٢).

وقال أيضًا: (الاستثناءُ في ﴿إِلَّا﴾ هنا منقطعٌ؛ لأنَّه يشمَلُ الرُّسلَ وغيرَ الرُّسلِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٤).

وقيل: المعنى: لَكِنْ مَن ظلَمَ مِن سائرِ النَّاسِ، لا مِنَ المُرسَلينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩).

وقيل: الاستثناءُ هنا متَّصِلٌ. والمعنى: لا يَخافُ لدَيَّ المُرسَلون إلَّا مَن ظلَم منهم. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨، ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٩).

قال الشوكاني: (والمعنَى: إلَّا مَن ظَلَم مِن المرسَلينَ، بإتيانِ الصَّغائرِ الَّتي لا يَسلَمُ منها أحدٌ. واختارَ هذا النَّحَّاسُ، وقالَ: عَلِم مَن عصَى منهم، فاسْتَثْناه فقال: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ وإنْ كنتُ قد غَفَرْتُ له؛ كآدَمَ وداودَ ... وموسَى بقتلِه القبْطِيِّ. ولا مانِعَ مِن الخَوفِ بعْدَ المغفرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٧). ويُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦١).

وقال السمعاني: (وقَولُه: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ فيه أقوالٌ؛ أحدُها: ولا مَن ظَلَم ثمَّ بدَّل حُسنًا بعْدَ سوءٍ، أي: تاب ونَدِم. وهذا القولُ ضعيفٌ عندَ أهلِ النَّحوِ. والقولُ الثَّاني: أنَّ معنى الآيةِ: إنِّي لا يَخافُ لَدَيَّ المرسَلونَ، وإنَّما يَخافُ غيرُ المرسَلينَ، إلَّا مَن ظَلَم ثمَّ بدَّل حُسنًا بعْدَ سوءٍ فإنَّه لا يَخافُ. والقولُ الثَّالثُ: أنَّ الاستثناءَ هاهنا منقطِعٌ، ومعناه: لَكِن مَن ظلَم فخافَ فإنْ بدَّل حسنًا بعْدَ سوءٍ فإنَّه لا يخافُ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٠).

وقال النَّحَّاسُ: (فإنْ قال قائلٌ: فما معنى الخَوفِ بعْدَ التَّوبةِ والمغفرةِ؟

قيل له: هذه سبيلُ العلماءِ بالله جلَّ وعزَّ؛ أن يكونوا خائفينَ مِن معاصيه، وَجِلينَ، وهم أيضًا لا يَأْمَنون أن يكونَ قد بقِيَ مِن أشراطِ التَّوبةِ شَيءٌ لم يأتوا به، فهم يخافونَ مِن المطالبةِ به). ((إعراب القرآن)) (٣/ ١٣٧). =

وعَمِلَ صالِحًا بعْدَ عَمَلِه السيِّئِ؛ فإنِّي غفورٌ لِذَنْبِه -أستُرُه عليه، وأتجاوَزُ عن مؤاخَذتِه به-، ورحيمٌ به[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴾ [طه: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠].

﴿ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ١٢ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أراه سُبحانَه تلك الخارِقةَ فيما كان في يدِه بقَلْبِ جوهرِها إلى جوهرِ شَيءٍ آخَرَ حيوانيٍّ، أراه آيةً أُخرى في يدِه نفْسِها بقَلْبِ عَرَضِها الذي كانت عليه إلى عَرَضٍ آخرَ نُورانيٍّ؛ فقال[2]:

﴿ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ ﴾.

أي: وأدخِلْ يدَك في جَيبِ قَميصِك ثمَّ أخرِجْها، تخرُجْ بَيضاءَ اللَّونِ مِن غَيرِ بَرَصٍ أو غيرِه مِنَ الآفاتِ[3].

---

= وقال ابنُ القيِّم: (الخوفُ ثابتٌ له حالَ ظلمِه وحالَ تبديلِه الحسنَ بعدَ السوءِ، أمَّا حالَ ظلمِه فظاهرٌ، وأمَّا حالَ التَّبديلِ فلأنَّه يخافُ أنَّه لم يَقُمْ بالواجبِ، وأنَّه لم يُقبَلْ منه ما أتَى به... فمَن ظلَمَ ثمَّ تاب فهو أَوْلَى بالخَوفِ، وإنْ لم يكُنْ خَوْفٌ عليه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٧١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠، ٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٤)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ۞ لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [طه: ٢٢، ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ۞ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [القصص: ٣١، ٣٢].

﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾.

أي: وهي آيةٌ مِن جُملةِ تِسعِ آياتٍ[1].....

---

= النسفي)) (٢/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٦، ٧٧).

(١) قوله: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ﴾ (في) بمعنى (من). وقيل: بمعنى (مع). يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٥).

قال ابنُ عطيةَ في بيانِ الآياتِ التِّسعِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ﴾ من سورة الإسراء: (اتَّفَق المتأوِّلونَ والرُّواةُ أنَّ الآياتِ الخَمسَ التي في سورةِ الأعرافِ هي مِن هذه التِّسعِ، وهي: الطُّوفانُ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادعُ، والدَّمُ، واختلَفوا في الأربَعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٤٨٨).

وقال الواحدي: (قال المفسِّرون: هي الطوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضفادعُ، والدَّمُ، والعصا، ويدُه، والسِّنونَ، ونقصٌ مِن الثَّمَراتِ). ((الوسيط)) (٣/ ١٣٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٧، ٧٨).

ونسَبه الشوكانيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١١).

وذكر ابنُ كثير الخلافَ في عدِّ الآياتِ التِّسعِ في آيةِ الإسراءِ، وأنَّ مِنهم مَن قال: إنَّها (العصا، واليَدُ، والسِّنونَ، والبَحرُ، والطُّوفانُ، والجرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادعُ، والدَّمُ؛ آياتٌ مُفَصَّلاتٌ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. وقال محمَّدُ بنُ كعبٍ: هي اليدُ، والعصا، والخمسُ في الأعرافِ، والطمسةُ، والحجرُ. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والشعبيُّ، وقَتادةُ: هي يدُه، وعصاه، [والسِّنون]، ونقصُ الثمراتِ، والطوفانُ، والجرادُ، والقمَّلُ، والضَّفادعُ، والدَّمُ. وهذا القولُ =

نُرسِلُك بها إلى فِرعَونَ وقَومِه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ...﴾ [هود: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

أي: فأرسَلْناك بتلك الآياتِ إليهم؛ لأنَّهم كانوا قَومًا كافرينَ باللهِ، خارجينَ عن طاعتِه[٢].

---

= ظاهرٌ جليٌّ حسنٌ قويٌّ. وجعَل الحسنُ البصريُّ «السنينَ ونقصَ الثمراتِ» واحدةً، وعندَه أنَّ التاسعةَ هي: تلقُّفُ العصا ما يَأْفِكون... فهذه الآياتُ التِّسعُ التي ذكَرَها هؤلاء الأئمَّةُ، هي المرادةُ هاهنا، وهي المَعنيَّةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠- ١٢] فذَكَرَ هاتينِ الآيتَينِ: العصا واليَدَ، وبيَّنَ الآياتِ الباقياتِ في «سورة الأعراف» وفصَّلَها. وقد أُوتيَ موسى عليه السَّلامُ آياتٍ أُخَرَ كثيرةً؛ منها: ضَرْبُه الحَجَرَ بالعصا، وخروجُ الأنهارِ منه، ومنها تظليلُهم بالغَمامِ، وإنزالُ المَنِّ والسَّلْوى، وغيرُ ذلك ممَّا أُوتيَه بنو إسرائيلَ بعْدَ مُفارقتِهم بلادَ مِصرَ، ولكِنْ ذَكَرَ هاهنا التِّسعَ الآياتِ التي شاهَدَها فِرعَونُ وقَومُه مِن أهلِ مِصرَ، وكانت حُجَّةً عليهم، فخالفوها وعانَدوها كُفرًا وجُحودًا). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤، ١٢٥). ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٥٧، ٥٨) و (٩/ ٩٥، ٣٤٥-٣٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٩).

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ ﴾.

أي: فلمَّا جاءت فِرعَونَ وقَومَه آياتُنا التِّسعُ مضيئةً ظاهِرةً واضِحةَ الدَّلالةِ على صِدقِ موسى ورسالتِه، واحدةً بعْدَ أُخرَى؛ قالوا: هذا الذي أَرانا موسى سِحرٌ واضِحٌ لا يخفَى على أحَدٍ[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ * وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ * فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠-١٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ * وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّٰحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٧- ٥٠].

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤ ﴾.

﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٣).

قال ابن عثيمين: (فهذه الآياتُ هي بنفْسِها ظاهرةٌ وواضِحةٌ، والذي يَراها يُبصِرُ بها؛ ولهذا نقول: ﴿مُبۡصِرَةٗ﴾ يعني: أنَّها باصرةٌ بنفْسِها، ومُوجِدةٌ للإبصارِ في غيرِها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٣).

أي: وكذَّب فِرعَونُ وقَومُه بالآياتِ، وأنكروا بألسِنتِهم أن تكونَ مِن عندِ اللهِ، مع تيقُّنِ قُلوبِهم أنَّها مِن عندِ اللهِ تيقُّنًا تامًّا لا شَكَّ فيه، ولكِنَّهم كذَّبوا وأنكروا؛ اعتِداءً وتكبُّرًا عن اتِّباعِ الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٣].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾.

أي: فانظُرْ(٢) -يا محمَّدُ- إلى نهايةِ أمرِ الذين يُفسِدونَ في الأرضِ بالشِّركِ والمعاصي، كيف أهلَكَهم اللهُ ودمَّرَهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٨).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (قولُه: ﴿فَٱنظُرْ﴾... المرادُ: نظَر اعتبارٍ؛ لأنَّ نظرَ الإبصارِ هنا متعذِّرٌ؛ لسَبقِ زمَنِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٠-٩٢).

قال ابنُ كثير: (فحوى الخطابِ [وهو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريق الأَولى] يقولُ: احذَروا -أيُّها المكَذِّبون بمحمَّدٍ- الجاحِدون لِما جاء به مِن ربِّه: أن يصيبَكم ما أصابَهم بطريقِ الأَولى والأحرى؛ فإنَّ محمدًا -صلواتُ الله وسلامُه عليه- أشرَفُ وأعظَمُ مِن موسى، وبرهانَه أدَلُّ وأقوى مِن بُرهانِ موسى؛ بما آتاه اللهُ مِن الدَّلائلِ المقتَرِنةِ بوجودِه في نفسِه وشمائِلِه، وما سبَقَه من البِشاراتِ مِن الأنبياءِ به، وأخْذِ المواثيقِ له، عليه مِن رَبِّه أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨١).

وقال السعدي: (﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أسوأَ عاقبةٍ؛ دمَّرَهم اللهُ، وغَرَّقهم في البَحرِ، وأخزاهم، وأورَثَ مساكِنَهم المُستضعَفينَ مِن عبادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾، وقال جلَّ ثناؤُه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، وقال سُبحانَه: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]، في هذا خدمةُ الرَّجُلِ أهْلِه، وكان نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ في بيتِه في مِهْنةِ أهْلِه[١]، أي: في خِدمتِهم. ومِن ذلك قولُه: ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٥].

وخِدمةُ الرَّجُلِ أهْلَه إحسانٌ وصِلةٌ وتَواضُعٌ، وما هذا مِن أخلاقِ الجبَّارينَ المتكبِّرينَ، وعلى الحقيقةِ سيِّدُ القَومِ خادمُهم؛ لأنَّه فاز بالمناقبِ الدِّينيَّةِ، وأفادهم أعراضًا دُنيويَّةً[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أنَّه ينبغي إيناسُ المستوحِشِ، فينبغي أنْ تقولَ له أو تَفعَلَ معه ما يُؤنِسُه؛ لِيطمئنَّ، ويكونَ قابلًا لِمَا يُلقى إليه؛ لأنَّ المستوحِشَ لا يَقبَلُ ما يُلقَى إليه، بمعنى: أنَّه لا يتمكَّنُ مِن قَبولِه؛ فإنَّ إثباتَ البَرَكةِ لِمَن في النَّارِ ومَن حَوْلَها يَزدادُ به طمأنينةً بلا شَكٍّ؛ ولهذا أوَّلَ ما خاطبَه اللهُ في هذه الآيةِ قال: ﴿نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ في قَولِه: ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ﴾ أنَّ

---

(١) رواه البخاري (٦٧٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٠).

تَعيينَ الشَّخصِ بالنِّداءِ له فائدةٌ، وهي: التَّطمينُ والإيناسُ؛ لأنَّك إذا قلتَ: (يا فلانُ) طمأنْتَه بلا شكٍّ؛ لأنَّه يقولُ: هذا يعرفُني، ما ينالُني بسوءٍ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن أراد تعيينَ نفْسِه أنْ يُبيِّنَ اسمَه، فلم يَقُلْ مثلًا: (أنا مُكَلِّمُك)، (أنا)، أو ما أشبَهَ ذلك، بل بَيَّنَ مَن الذي يُكَلِّمُه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ أنَّه ينبغي الاحترازُ في الكَلامِ عندَما يُوهِمُ الشَّيءُ أمرًا يُحترَزُ منه؛ لقَولِه: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾، ففي الآيةِ دَليلٌ على مبدأِ الاحترازِ في الكلامِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ أنَّ الاتِّصافَ بهذين الوصفَينِ (الظُّلمِ والعُلوِّ) يَجعَلُ الإنسانَ مِن الأُمَّةِ الفِرعونيَّةِ، وما مِن صفةٍ يَخرجُ بها العبدُ عن سواءِ السبيلِ إلَّا وله فيها إمامٌ مِن أهلِ الكُفرِ؛ ولهذا أخبَرَ النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّنا سنَركَبُ سَننَ مَن كان قَبْلَنا[٤]؛ فجَحْدُ الحقِّ مِن الأئمَّةِ فيه فرعونُ وقَومُه، والحسدُ مِن الأئمَّةِ فيه اليَهودُ، وهكذا[٥].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ الوصفُ إذا كان مَذمومًا وفِرعونيًّا؛ فإنَّ عكسَه محمودٌ، والعكسُ هو التواضعُ للحقِّ وقَبولُه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.

وما أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وأحمد (٢١٨٩٧) من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٤).

هذا لا شكَّ أنَّه ممدوحٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا أثنَى بالسُّوءِ على وصْفٍ، فإنَّ ضِدَّه يُثنَى عليه بالحُسنِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ذَمُّ التَّرَفُّعِ عن الحقِّ؛ لِقَولِه: ﴿وَعُلُوًّا﴾، ومِنَ النَّاسِ مَن إذا عُرِضَ عليهم الدَّليلُ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ ترَكوه تقليدًا لإمامٍ يَرَوْنَ أنَّه أكثرُ عِلمًا، وهذه الطريقةُ مذمومةٌ أيضًا، وإن كانت عن حُسنِ نيَّةٍ[٢]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ حُسنُ خُلُقِ موسى صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ وذلك لمكالَمتِه لأهلِه ومُراجعتِه إيَّاهم بما يَهُمُّهم قبْلَ ذهابِه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ دَليلٌ على أنَّ الزَّوجةَ مِن الأهلِ، وهذا هو القَولُ الصَّحيحُ، فعلى هذا آلُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَدخُلُ فيهم أزواجُه؛ لأنَّ الزَّوجةَ مِن الأهلِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أنَّ الأحوالَ البشريةَ تطرأُ حتَّى على الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ؛ فإنَّ موسى في تلك اللَّيلةِ كان قد ضَلَّ الطريقَ ولم يَهتدِ إليه، وقد أصابَه البرْدُ هو وأهله، والأنبياءُ والرُّسلُ لا يختَلِفون عن غيرِهم إلَّا في الرِّسالةِ؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أَنَاْ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [فصلت: ٦]، فالأوَّلُ: المماثَلةُ في البشريَّةِ، والثَّاني: الاختصاصُ بالوحيِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يُلامُ على اتِّخاذِ الوقايةِ الدَّافعةِ أو الرَّافعةِ، وهذه الوقايةُ دافِعةٌ رافِعةٌ؛ رافعةٌ للبرْدِ السَّابقِ، ودافعةٌ للبرْدِ اللَّاحِقِ، بل إنَّه رُبَّما يُؤمَرُ به أمرَ إيجابٍ أو أمرَ استِحبابٍ حسَبَ ما تقتضيه الحالُ التي يريدُ أنْ يَرفَعَها أو يدفَعَها[٢].

٥- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ أنَّ هذا التَّبريكَ تبريكُ ذوَاتٍ لا تبريكُ مكانٍ، بدليلِ ذِكرِ (مَن) الموصولةِ في الموضِعَين[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ المنادي لموسَى هو الله ربُّ العالمينَ لا غيرُه، وإذا كان المنادي هو اللهَ رَبَّ العالَمينَ، وقد ناداه مِن مَوضِعٍ مُعَيَّنٍ وقَرَّبَه إليه؛ دَلَّ ذلك على ما قاله السَّلَفُ مِن قُربِه ودنُوِّه مِن موسى عليه السَّلامُ، وهو سبحانه يَقرُبُ مِن خَلقِه كيف شاء[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ دَليلٌ على تكليمِه سبحانَه لموسى بصَوتٍ مَسموعٍ؛ فالنِّداءُ لا يكونُ إلَّا صَوتًا مَسموعًا، ولا يُعقَلُ في لغةِ العربِ لفظُ النِّداءِ بغيرِ صوتٍ مسموعٍ، لا حقيقةً ولا مَجازًا[٥].

٨- ثَناءُ اللهِ سبحانه وتعالى على نفْسِه، وأنَّ ذلك مِن كمالِه؛ فإنَّه أثنى على نفسِه بقَولِه: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أثنى على نفْسِه بنفيٍ وإثباتٍ؛ النفيُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٠- ٤٦٤).

(٥) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٣/ ٩٧).

(سُبْحَانَ اللهِ)، والإثباتُ: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ومِن هنا نَعرِفُ أنه لا يَتِمُّ كمالُ الأوصافِ إلَّا بهذينِ الأمْرينِ، وهما: النَّفيُ والإثباتُ؛ لأنَّ إثباتَ الكَمالاتِ فقط لا يدُلُّ على نفيِ النَّقائِصِ، ونفْيَ النَّقائصِ فقط لا يدُلُّ على إثباتِ الكَمالاتِ، وباجتِماعِهما يحصلُ الكمالُ المطلَقُ؛ ولهذا قالوا: لا بُدَّ مِن تخليةٍ وتحليةٍ[١].

٩- إثباتُ الحُكْمِ المطلَقِ لله سبحانَه وتعالى؛ لِقَولِه: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ الحكيمَ هو ذو الحُكْمِ والحِكمةِ[٢].

١٠- كانت معجزةُ كلِّ نبيٍّ في زمانِه بما يُناسِبُ أهلَ ذلك الزَّمانِ؛ فذكَروا أنَّ موسى عليه السَّلامُ كانت مُعجزتُه ممَّا يُناسِبُ أهلَ زمانِه، فكانوا سحَرةً أذكياءَ، فبُعِث بآياتٍ بهَرَتِ الأبصارَ، وخضَعَتْ لها الرِّقابُ[٣]؛ فقَولُه تعالى: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ وقولُه: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ دلَّ على حِكمةِ اللهِ تعالى في آياتِ الرُّسلِ، وأنَّها تُناسِبُ العصرَ الذي بُعِثوا فيه؛ فلذلك أُوتيَ موسى صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن الآياتِ ما يَقضي على سِحْرِهم[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ أنَّ هذه العصا لم تكُنْ مجرَّدَ حيوانٍ يتحرَّكُ! ولكنَّها أبلَغُ مِن ذلك ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾، ومعلومٌ أنَّ الجانَّ بنَفْسِه مُرَوِّعٌ، فالحيَّةُ بنفْسِها مروِّعةٌ، فإذا كانت مِن عظيمِ الحَيَّاتِ صارتْ أشَدَّ وأبلَغَ[٥].

١٢- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ والجانُّ هو الحيَّةُ الصغيرةُ، وقد جاءت آيةٌ أخرى تدُلُّ على خِلافِ ذلك، وهي قولُه تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٨، ٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، وهذه الآيةُ تدُلُّ على شَبَهِ العصا بالثُّعبانِ، وهو لا يُطلَقُ إلَّا على الكبيرِ مِن الحيَّاتِ.

**والجوابُ عن هذا:** أنَّه شَبَّهها بالثعبانِ في عِظَمِ خِلقتِها، وبالجانِّ في اهتِزازِها وخِفَّتِها، وسرعةِ حرَكتِها؛ فهي جامعةٌ بيْنَ العِظَمِ وخِفَّةِ الحركةِ على خِلافِ العادةِ[1].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ جوازُ أنْ يعتريَ الأنبياءَ الخَوفُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾، وأنَّ ذلك لا يُعَدُّ نقصًا فيهم؛ لأنَّه مِن مقتضى الطبيعةِ البشريَّةِ، وهذا الذي يكونُ مِن مقتضى الطبيعةِ البشريَّةِ لا يُلامُ عليه أحدٌ، فالأنبياءُ يَجوعون ويَعطَشون، ويَبْرُدون ويمرَضون، ويموتون أيضًا؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[2] [الكهف: ١١٠].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ﴾ جوازُ توجيهِ الأحكامِ الشرعيَّةِ إلى الأمورِ الفِطريَّةِ، يعني -مثلًا- أنت إذا قلتَ لإنسانٍ: (لا تَخَفْ)، والخَوفُ طبيعيٌّ، فكيف يَدفَعُه عنه؟ فهل يَتوجَّهُ الحُكْمُ إلى مِثْلِ هذه الأمورِ الطبيعيَّةِ؟

نقولُ: نعم يمكنُ؛ لأنَّ الخوفَ -وإنْ كان أمرًا طبيعيًّا غيرَ شعوريٍّ؛ لأنَّه يأتي الإنسانَ بغيرِ اختيارِه- لكِنَّه يمكنُه معالجتُه بالمدافعةِ؛ ولهذا جاء رجلٌ إلى الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فقال: أوصني، فقال: ((لا تغضَبْ))[3]، والغضبُ مِن طبيعةِ الإنسانِ، لكنْ معنى (لا تغضَبْ): يعني: حاولْ أنْ تُقَلِّلَ مِن

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٦١١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

غضَبِك، وأنْ تكونَ دائمًا هادئًا، ثمَّ إنْ غضِبتَ فلا تُنْفِذْ مقتضَى هذا الغضَبِ، فإذَن الأمورُ الطبيعيَّةُ البشريَّةُ التي هي مقتضى الطبيعةِ البشريَّةِ يجوزُ أنْ يُوَجَّهَ الحُكمُ إليها أمرًا أو نهيًا، ويكونُ ذلك مِن بابِ مُدافَعتِها قبْلَ وُجودِها، أو مِن بابِ تقليلِ آثارِها، فلا يقالُ: إنَّ الإنسانَ أُمِرَ بما لا يستطيعُ، فأُمِرَ بعدمِ الغضَبِ وهو لا بُدَّ أنْ يغضَبَ، وأُمِرَ بعدمِ الخَوفِ وهو لا بُدَّ أنْ يَخافَ ممَّا هو مَخُوفٌ[1]!

١٥- في قَولِ الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّ أخْذَ الأحكامِ مِن مُقتضى أسماءِ اللهِ تعالى وصفاتِه؛ لأنَّ قولَه: ﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: أغفِرُ له، وهذا حُكمٌ، وأخذُ الأحكامِ مِن مُقتضى الأسماءِ والصِّفاتِ هذا مِن أحسَنِ ما يكونُ مِن الاستِدلالِ. ذُكِرَ أنَّ رجلًا قَرَأ عندَ أعرابيٍّ: (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كَسَبَا نكالًا مِن اللهِ واللهُ غفورٌ رحيمٌ)! فقال الأعرابيُّ -وهو لم يَقرأِ القرآنَ: أعِدِ الآيةَ؛ أخطأتَ فيها، فأعادها مرَّةً ثانيةً، وقال: (والسارقُ والسارقةُ فاقطعوا أيديَهما جزاءً بما كَسَبَا نكالًا مِن اللهِ واللهُ غفورٌ رحيمٌ)! قال له: أعِدِ الآيةَ، فأعادها في الثَّالثةِ على الصَّوابِ، قال: ﴿نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٨]، قال: الآنَ؛ فإنَّه عَزَّ وحَكَمَ فقَطَعَ، ولو غَفَرَ ورَحِمَ ما قَطَعَ. وهذا صَحيحٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٠). ويُنظر أيضًا: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي (١/ ٣٦٤).

والقاعدةُ: أنَّ متعلقَ الخطابِ إذا كان مقدورًا حُمل عليه، وإن كان غيرَ مقدورٍ صُرف الخطابُ لثمرته أو سببِه. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٧٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٧٤).

وتُنظر قصَّةُ الأعرابيِّ في: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٦)، ((الوافي بالوَفَيَات)) للصَّفَدي (٢٧/ ٢٢٧)، ((خِزانة الأدب)) للحَمَوي (١/ ١٧٦)، ((الكشكول)) للعاملي (٢/ ١١٢).

١٦- أنَّه مِن الفَصاحةِ والبلاغةِ قَرنُ الحُكم بتعليلِه؛ لِقَولِه: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ﴾، وتعليلُ هذا الحُكمِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾، وإنَّ قَرْنَ الحُكْمِ بتعليلِه له فوائدُ؛ منها:

**الأُولى**: بيانُ حِكمةِ اللهِ سُبحانَه في تشريعِه وقضائِه.

**الثَّانية**: التعميمُ بعُمومِ العلَّةِ.

**الثالثةُ**: أنَّ المخاطَبَ يَزدادُ طمأنينةً إذا عَلِمَ حِكمةَ الحُكمِ[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أنَّ الفِسقَ يُطلَقُ على الكُفرِ، والفِسقُ نوعان: فِسقٌ مُطلَقٌ، ومُطلَقُ الفِسقِ؛ فالفِسقُ المطلقُ هو الكُفرُ، ومُطلَقُ الفِسقِ هو العصيانُ مِن المؤمِنينَ؛ إذْ إنَّ أصلَ الفِسقِ هو الخُروجُ عن الطَّاعةِ، فإنْ كان خُروجًا كاملًا شاملًا فهو فِسقٌ مُطلَقٌ، وإنْ كان بعضَ خروجٍ فهو مُطلَقُ فِسقٍ[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: (هذه)؛ لأنَّه -واللهُ أعلمُ- رَدٌّ على الجائي بالآياتِ، أو يكونُ المرادُ بقولِهم: ﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي نراه، ثم قال: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ بردِّهِ على الآياتِ[٣].

وقيل: إنَّه قال هنا: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ مِن أجْلِ أن يَشمَلَ كلَّ ما جاء؛ حتى يَشمَلَ موسى نفْسَه، واتِّهامَه بالسِّحرِ[٤].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ مبالَغةُ صاحبِ الباطلِ بدعْواه؛ حيث قالوا: ﴿سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ يعني: بيِّنًا ظاهرًا، ما فيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٦).

إشكالٌ، وهكذا المُدَّعي يأتي بالكَلِماتِ التي تُشَبِّهُ على الخلْقِ حتى يَصِلَ إلى ما يريدُ مِن الباطلِ[١].

٢٠- نصوصُ القُرآنِ في غيرِ موضِعٍ تدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ كانوا في الدُّنيا مُصَدِّقينَ بالرَّبِّ، حتى فِرعَونُ -الذي أظهَرَ التَّكذيبَ- كان في باطنِه مُصَدِّقًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٢].

٢١- مَن عَرَفَ اللهَ بقلبِه ولم يُقِرَّ بلِسانِه، لم يكنْ مُؤمِنًا، كما قال الله تعالى عن قَومِ فِرعَونَ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٣].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ لَمَّا كان الجَحدُ معناه إنكارُ الشَّيءِ مع العلمِ به؛ حقَّقَ ذلك بقَولِه: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾[٤].

٢٣- الجَحدُ لا يكونُ إلَّا بعدَ الاعترافِ بالقَلبِ أو اللِّسانِ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[٥].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بيانُ شأْنِه سُبحانَه في كلِّ مَن أنعمَ عليه بنِعمةٍ فكَفَرَها؛ فإنَّه يَسْلُبُه إيَّاها بعدَ أنْ كانت نصيبَه وحظَّه، فهم جَحَدوا بآياتِ اللهِ بعدَ أنْ تيقَّنوا صِحَّتَها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١١٨).

(٦) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨٠).

٢٥- المعرفةُ بالحقِّ إذا كانت مع الاستِكبارِ عن قَبولِه والجَحدِ له، كانت عَذابًا على صاحِبِها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

٢٦- قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مجرَّدُ عِلْمِ القلبِ بالحقِّ إنْ لم يقترِنْ به عمَلُ القلبِ بموجَبِ عِلمِه -مثلُ: محبَّةِ القلبِ له، واتِّباعِ القلبِ له- لم ينفَعْ صاحبَه، بل أشدُّ الناسِ عذابًا يومَ القيامةِ عالِمٌ لم يَنفَعْه اللهُ بعلْمِه[2].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ دليلٌ على فضيلةِ التأمُّلِ والتفكُّرِ في أخبارِ مَن مضى، وأنَّ دراسةَ علمِ التاريخِ مِن الأشياءِ التي جاء بها الشَّرعُ؛ فإنَّنا لا يمكنُ أنْ ننظُرَ كيف كان عاقبتُهم إلَّا بدراسةِ أخبارِهم وتَتَبُّعِها، فعِلْمُ التاريخِ إذَن مِن الأمورِ المقصودةِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، ومُناسَبةُ مَوقعِها إفادةُ تَنظيرِ تَلقِّي النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ القرآنَ بتلقِّي مُوسى عليه السَّلامُ كلامَ اللهِ؛ إذ نُودِيَ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، وذلك مِن بَديعِ التَّخلُّصِ إلى ذِكْرِ قَصصِ هؤلاء الأنبياءِ عَقِبَ التَّنويهِ بالقرآنِ، وأنَّه مِن لَدُنْ حَكيمٍ عليمٍ، والمعنى: أنَّ اللهَ يَقُصُّ عليك مِن أنباءِ الرُّسلِ ما فيه مَثَلٌ لك ولقَومِك، وما يُثَبِّتُ به فُؤادَك.

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٩٦).

وفي ذلك انتقالٌ لنَوعٍ آخَرَ مِن الإعجازِ؛ وهو الإخبارُ عن المُغَيَّباتِ[١].

- و﴿إِذْ﴾ مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بمُضمَرٍ خُوطِبَ به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وأُمِرَ بتِلاوةِ بعضٍ مِن القرآنِ الَّذي يُلقَّاهُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن لَدُنْه عزَّ وجلَّ؛ تَقريرًا لِمَا قبْلَه، وتَحقيقًا له، أي: اذكُرْ لهم وقتَ قولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لِأهلِه...[٢].

- وجُملةُ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِأَهۡلِهِۦٓ﴾ تَمهيدٌ لجُملةِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ...﴾ إلخ [النمل: ٨]، وزمانُ قولِ مُوسى لأهلِه هذه المقالةَ هو وقْتُ اجتِلابِه للمُبادَرةِ بالوحيِ إليه؛ فهذه القصَّةُ مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ لحالِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مع قَومِه، ابْتُدِئَت بما تقدَّمَ رِسالةَ مُوسى مِن الأحوالِ؛ إدْماجًا للقصَّةِ في الموعظةِ[٣].

- والسِّينُ في قولِه: ﴿سَـَٔاتِيكُم﴾ إمَّا للدَّلالةِ على نَوعِ بُعْدِ مسافةِ النَّارِ في الجملةِ حتَّى لا يَستَوحِشوا إنْ أبطأ عنهم؛ لأنَّ السِّينَ حرفُ تنفيس، أي: توسيع لمدَّةِ الفعلِ الضَّيِّقةِ بنقلِه مِن الحالِ إلى الاستِقبالِ. وإمَّا لأنَّه قد يُمكِنُ أنْ يُبطِئَ لما قدَّرَ أنَّه قد يَعرِضُ له ما يُبْطِئُه، وإنْ لم تَطُلِ المسافةُ[٤]. وقد يُقالُ: إنَّ السِّينَ لِما فيها مِن تقريبِ المدَّةِ أتى بها دُونَ (سوف)؛ لدفعِ الاستيحاشِ عن أهلِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣).

- وإنْ صحَّ أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ لم يكُنْ معه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا امرأتُه؛ فيكونُ عُبِّرَ في قولِه: ﴿سَٱتِيكُم﴾ بالجمْعِ؛ لَمَّا كنَّى عنها بالأهلِ، أو للتَّعظيمِ؛ مُبالَغةً في التَّسليةِ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث جاء هنا: ﴿سَٱتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾، وهو خبرٌ، وفي (طه): ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠]، وفي القَصصِ: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩]، وهو تَرجٍّ، ومعنى التَّرجِّي مُخالِفٌ لمعنى الخبرِ، ولكنَّ الرَّجاءَ إذا قَوِيَ جازَ للرَّاجِي أنْ يُخبِرَ بذلك، وإنْ كانت الخَيبةُ يجوزُ أنْ تقَعَ. وآثَرَ (أو) على الواوِ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ رائعةٍ؛ فإنَّ (أو) تُفيدُ التَّخييرَ، وقد بنى الرَّجاءَ على أنَّه إنْ لم يَظفَرْ بحاجتَيهِ جميعًا لم يَعدَمْ واحدةً منهما: إمَّا هِدايةَ الطَّريقِ، وإمَّا اقتباسَ النَّارِ؛ هضْمًا لنفْسِه، واعترافًا بقُصورِه نحوَ ربِّه. وما أدراهُ حينَ قال ذلك أنَّه ظافِرٌ على النَّارِ بحاجَتيهِ الكُلِّيَّتينِ جميعًا، وهما العِزَّانِ: عِزُّ الدُّنيا، وعِزُّ الآخرةِ[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿بِشِهَابٍ قَبَسٍ﴾، وقال في سُورةِ (طه): ﴿بِقَبَسٍ﴾ [طه: ١٠]، وفي سُورةِ القصصِ: ﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٢٩]؛ لأنَّ الجَذوةَ مِن النَّارِ: خَشبةٌ في رأْسِها قَبَسٌ به شِهابٌ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٣)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٧٣).

فهي في السُّورِ الثَّلاثِ عبارةٌ عن مُعَبَّرٍ واحدٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- ابتداءُ خِطابِ اللهِ مُوسى بذلك عندَ مَجيئِه: بِشارةٌ له بأنَّه قد قُضِيَ أمْرٌ عظيمٌ تَنتشِرُ منه في أرضِ الشَّامِ كلِّها البَرَكةُ، وتأنيسٌ له، ومُقدِّمةٌ لِمُناجاتِه[٢].

- وأنَّثَ ضَميرَ ﴿جَآءَهَا﴾ جرْيًا على ما تَقدَّمَ مِن تَسميةِ النُّورِ نارًا بحَسَبِ ما لاحَ لِمُوسى[٣].

- وقولُه: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ على القَولِ بأنَّ المُرادَ به مُوسى عليه السَّلامُ؛ فإنَّه لَمَّا حلَّ في مَوضعِ النُّورِ صار مُحيطًا به، فتلك الإحاطةُ تُشبِهُ إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروفِ، فعُبِّرَ عنه بـ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ وهو نفْسُه. والعُدولُ عن ذِكْرِه بضَميرِ الخِطابِ -كما هو مُقْتضى الظَّاهرِ- أو باسمِه العَلَمِ -إنْ أُريدَ العدولُ عن مُقْتضى الظَّاهرِ-؛ لأنَّ في معنى صِلَةِ الموصولِ إيناسًا له وتلطُّفًا. وهذا الكلامُ خبرٌ هو بِشارةٌ لِمُوسى عليه السَّلامُ ببَركةِ النُّبوَّةِ[٤].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث جاء هنا ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ﴾، وفي (القصصِ) و(طه): ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ﴾ [طه: ١١] [القصص: ٣٠]؛ لأنَّه قال في هذه

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٧٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السُّورةِ: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ ءَاتِيكُم بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ [النمل: ٧]، فكُرِّرَ ﴿آتِيكُمْ﴾، فاسْتُثْقِلَ الجمعُ بيْنَهما وبينَ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾، فعُدِلَ إلى قولِه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ بعدَ أنْ كانَا بمعنًى واحدٍ، وأمَّا في السُّورتينِ فلمْ يكنْ إلَّا ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم﴾ [طه: ١٠] [القصص: ٢٩]، ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾[1] [طه: ١١] [القصص: ٣٠].

- وقولُه: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَعجيبٌ لمُوسى مِن ذلك الأمرِ العظيمِ، وهو إحداثُ أمْرٍ دينيٍّ مِن تَكليمِه واستِنبائِه، وإعلامٌ له بأنَّ مُريدَ ذلك الأمرِ هو ربُّ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، فأعظِمْ بأمْرٍ مُريدُه مَن هو ربُّ العالَمينَ! فقولُه: ﴿وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كالتَّذييلِ والتَّأكيدِ لِمَا تضمَّنَ قولُه: ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ مِن المعاني؛ تَنبيهًا على جَلالةِ الأمْرِ الحادثِ[2].

- وهو عطْفٌ على ما نُودِيَ به مُوسى على صَريحِ معناهُ؛ إخبارًا بتَنزيهِ اللهِ تعالى عمَّا لا يَليقُ بإلهيَّتِه مِن أحوالِ المُحْدَثاتِ؛ لِيَعلَمَ مُوسى أمْرينِ؛ أحدهما: أنَّ النِّداءَ وحْيٌ مِن اللهِ تعالى، والثَّاني: أنَّ اللهَ مُنزَّهٌ عمَّا عسَى أنْ يَخطُرَ بالبالِ أنَّ جلالتَه في ذلك المكانِ[3].

- وفي حَذْفِ مُتعلَّقِ التَّنزيهِ إيذانٌ بالعُمومِ المُناسِبِ لمَصدرِ التَّنزيهِ، وهو عمومُ الأشياءِ الَّتي لا يَليقُ إثباتُها للهِ تعالى[4].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ آثارِ البَرَكةِ المذكورةِ[١].

- قولُه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صِفتانِ للهِ مُمَهِّدَتانِ لِمَا أراد أنْ يُظهِرَهُ؛ تَنبيهًا على فَخامتِه، يُريدُ: أنا القويُّ القادرُ على ما يَبعُدُ مِن الأوهامِ؛ كقلْبِ العصَا حيَّةً، الفاعلُ كلَّ ما أفعَلُه بحِكمةٍ بالغةٍ، وتَدبيرٍ رَصينٍ[٢].

- قولُه: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تَقديمُ هذا بيْنَ يدَيْ ما سيُلْقَى إليه مِن الأمرِ لإحداثِ رِباطةِ جأْشٍ لمُوسى؛ لِيَعلَمَ أنَّه خُلِعَت عليه النُّبوَّةُ؛ إذْ أُلْقِيَ إليه الوحْيُ، ويَعلَمَ أنَّه سيَتعرَّضُ إلى أذًى وتألُّبٍ عليه، وذلك كِنايةٌ عن كَونِه سيَصيرُ رسولًا، وأنَّ اللهَ يُؤيِّدُه ويَنصُرُه على كلِّ قَويٍّ، ولِيَعلَمَ أنَّ ما شاهَدَ مِن النَّارِ وما تلقَّاهُ مِن الوحْيِ، وما سيُشاهِدُه مِن قلْبِ العصَا حيَّةً: ليس بعَجيبٍ في جانبِ حِكمةِ اللهِ تعالى. فتلك ثَلاثُ كِناياتٍ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

- فيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَ﴾، وفي القَصصِ: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣١]؛ لأنَّه قال في هذه السُّورةِ: ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٧).

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾، فحِيلَ بيْنَهما بهذه الجُملةِ، فاسْتُغْنِيَ عن إعادةِ (أنْ)، وفي القصصِ: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ [القصص: ٣٠، ٣١]، فلم يكُنْ بيْنَهما جُملةٌ أُخرى عُطِفَ بها على الأوَّلِ؛ فحَسُنَ إدخالُ (أنْ)[١].

- وقيل: لأنَّ ما هنا تقدَّمَهُ فِعلٌ بعْدَ (أنْ)، وهو ﴿بُورِكَ﴾؛ فحَسُنَ عطْفُ الفِعلِ عليه، وما هناك لم يَتقدَّمْه فِعلٌ بعْدَ (أنْ)؛ فذُكِرَتْ (أنْ) لِتكونَ جُملةُ (أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) مَعطوفةً على جُملةِ ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾[٢].

- وقيل: بلْ قولُه: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ مَعطوفٌ على قولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، عطفَ جُملةِ الأمْرِ على جُملةِ الخبرِ[٣].

- والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ﴾ فَصيحةٌ؛ تُفصِحُ عن جُملةٍ قد حُذِفَت؛ ثِقةً بظُهورِها، ودَلالةً على سُرعةِ وُقوعِ مَضمونِها، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١] بعْدَ قولِه تعالى: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ كأنَّه قِيلَ: فألْقاهَا فانْقلَبَتْ حيَّةً تسْعى، فأبصَرَها، فلَّما أبصَرَها مُتحرِّكةً بسُرعةٍ واضْطِرابٍ...[٤].

- قولُه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾ شبَّهَ العَصَا حالةَ اهْتزازِها بالجانِّ -قيل: وهو صِغارُ الحيَّاتِ-؛ شبَّهها بها في سُرعةِ اضْطِرابِها وحَركَتِها، مع عِظَمِ

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٤).

جُثَّتِها[١]؛ فالتَّشبيهُ في سُرعةِ الاضطرابِ؛ لأنَّ الحيَّاتِ خَفيفةُ التَّحرُّكِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ لعلَّ قصْدَ إفادةِ قوَّةِ تولِّيهِ لَمَّا رأَى عَصاهُ تَهتزُّ هو الدَّاعي لتَأكيدِ فِعلِ ﴿وَلَّىٰ﴾ بقولِه: ﴿مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾؛ فقولُه: ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ تأكيدٌ لشِدَّةِ تَولِّيهِ، أي: ولَّى تَولِّيًا قويًّا لا تَردُّدَ فيه[٣].

- وقولُه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: قُلْنا له... والنَّهيُ عن الخوفِ مُسْتعمَلٌ في النَّهيِ عن استِمرارِ الخوفِ؛ لأنَّ خوفَه قد حصَلَ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ﴾، وقال في سورة (القَصصِ): ﴿أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡ﴾ [القصص: ٣١]؛ فخُصَّتْ هذه السُّورةُ بقولِه: (لَا تَخَفْ)؛ لأنَّه بُنيَ على ذِكرِ الخَوفِ كلامٌ يَليقُ به، وهو قولُه: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، وفي سُورةِ (القَصصِ) اقتُصِر على قولِه: ﴿لَا تَخَفۡ﴾، ولم يُبْنَ عليه كَلامٌ فَزِيدَ قبْلَه ﴿أَقۡبِلۡ﴾؛ لِيَكونَ في مُقابلةِ ﴿مُدۡبِرٗا﴾، أي: أَقْبِلْ آمِنًا غيرَ مُدْبِرٍ ولا تَخَفْ؛ فخُصَّتْ هذه السُّورةُ به[٥].

- قولُه: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الخوفِ، وتَحقيقٌ لِمَا يَتضمَّنُه نَهْيُه عن الخَوفِ مِن انتفاءِ مُوجِبِه. وهذا كِنايةٌ عن تَشريفِه بمَرتبةِ الرِّسالةِ؛ إذ عُلِّلَ بأنَّ المُرسَلينَ لا يَخافون لَدى اللهِ تعالى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٨، ٢٢٩).

- قوله: ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ هذا تَعليمٌ لِمُوسى عليه السَّلامُ التَّخلُّقَ بخُلقِ المُرسَلينَ مِن رِباطةِ الجأْشِ، وليس في النَّهيِ حَطٌّ لمَرتبةِ مُوسى عليه السَّلامُ عن مَراتبِ غيرِه مِن المُرسَلينَ، وإنَّما هو جارٍ على طريقةِ: مِثلُك لا يَبخَلُ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ﴾ عَطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ [النمل: ١٠]، وما بيْنَهما اعتراضٌ، بعْدَ أنْ أَراهَ آيةَ انقلابِ العصَا ثُعبانًا أَراهُ آيةً أُخرى؛ لِيَطمئِنَّ قلْبُه بالتَّأييدِ[٢].

- قِيل: في الكلامِ حَذْفٌ، تقديرُه: وأدخِلْ يدَكَ في جَيبِك تَدخُلْ، وأخرِجْها تَخرُجْ، فحُذِفَ مِن الأوَّلِ ما أُثبِتَ مُقابِلُه في الثَّاني، ومِن الثَّاني ما أُثبِتَ مُقابِلُه في الأوَّلِ[٣]. وعلى هذا فيكونُ مِن الاحتباكِ.

- قولُه: ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، وحرْفُ الجرِّ فيه يَتعلَّقُ بمَحذوفٍ، والمعنى: اذهَبْ في تِسعِ آياتٍ إلى فِرعونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: وألْقِ عصاكَ، وأدخِلْ يدَكَ في تِسعِ آياتٍ؛ فعَلى هذا هو حالٌ مِن المفعولِ، وهو ﴿يَدَكَ﴾، أي: أدخِلْ يدَكَ في جَيبِك تَخرُجْ بيضاءَ مُسفِرةً في تِسعِ آياتٍ، مَعدودةً في جُملَتِهنَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٦)، ((حاشية =

- قوله: ﴿فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾ ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ صِفةٌ لـ ﴿ءَايَٰتٍ﴾، أي: آياتٍ مَسوقةٍ إلى فِرْعونَ، وفي هذا إيذانٌ بكلامٍ مَحذوفٍ إيجازًا؛ وهو أمْرُ اللهِ مُوسى بأنْ يَذهَبَ إلى فرعونَ كما بُيِّنَ في سُورةِ (الشُّعراءِ)[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قال هنا بلفْظِ: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓ﴾، وفي (القَصصِ) بلفظِ: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [القصص: ٣٢]؛ لأنَّ (الملأَ) أشرافُ القومِ، وكانوا في هذه السُّورةِ موصوفينَ بما وصَفهم الله به مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ * وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ الآيةَ [النمل: ١٤، ١٥]، فَلَمْ يُسَمِّهم مَلأً، بل سمَّاهم قَومًا، وفي (القَصَصِ) لم يَكونوا موصوفينَ بتلكَ الصِّفاتِ فسمَّاهم مَلأً، وعقَّبه: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]؛ فناسَبَ ذِكْرُ القَومِ هنا، وذِكْرُ المَلأِ هناك[2].

- قولُه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ تَعليلٌ للإرسالِ، أي: خارجينَ عن الحُدودِ في الكُفْرِ والعُدوانِ[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ أُوجِزَ بَقيَّةُ القصَّةِ، وانتُقِلَ إلى العِبرةِ بتَكذيبِ فِرعونَ وقَومِه الآياتِ؛ لِيُعْتَبَرَ بذلك حالُ الَّذين كذَّبوا بآياتِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وقُصِدَ مِن هذا الإيجازِ طَيُّ

---

= الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٥).

بِساطِ القِصَّةِ؛ لِيُنتقَلَ منها إلى قِصَّةِ داودَ، ثمَّ قِصَّةِ سُليمانَ عليهما السَّلامُ المبسوطةِ في هذه السُّورةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قُوبِلَ بيْن المُبصِرةِ والمُبينِ؛ فكما وَصَفَ ﴿ءَايَٰتُنَا﴾ بقولِه: ﴿مُبْصِرَةً﴾، قُوبِلَ وَصْفُ السِّحرِ بالمبينِ؛ للتَّطابُقِ بيْن اللَّفظينِ. ويَجوزُ أنْ يُعتبَرَ معنى التَّضادِّ مِن كَونِهما وَصْفينِ للمُتضادَّينِ: الآياتِ والسِّحرِ؛ فيُفِيدُ بُلوغَ كلٍّ مِن الحقِّ والباطلِ غايتَه[٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ في هذا تَمثيلٌ لكُفَّارِ قُريشٍ؛ إذ كانوا مُفسدينَ مُستعلِينَ، وتَحذيرٌ لهم أنْ يَحُلَّ بهم مِثلُ ما حَلَّ بمَن كان قبْلَهم[٣].

- قولُه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ فائدةُ ذِكْرِ الأنفُسِ: أنَّهم جَحَدوها بألْسِنَتِهم، واستَيْقَنوها في قُلوبِهم وضَمائرِهم[٤].

- والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾؛ للمُبالَغةِ[٥]، والاستيقانُ أبلَغُ مِن الإيقانِ[٦].

- ويَحسُنُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ﴾ حاليَّةً؛ فقولُه: ﴿ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ نَشْرٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٢).

على تَرتيبِ اللَّفِّ[١]؛ فالظُّلمُ في الجَحدِ بها، والعُلوُّ في كَونِهم مُوقِنين بها[٢].

- وجُعِل ما هو مَعلومٌ مِن حالِهم فيما لَحِقَ بهم مِن العَذابِ بمَنزلةِ الشَّيءِ المُشاهَدِ للسَّامِعينَ، فأمَر بالنَّظرِ إليه بقولِه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾، والخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ تَسليةً له بما حلَّ بالمُكذِّبينَ بالرُّسلِ قبْلَه؛ لأنَّ في ذلك تَعريضًا بتَهديدِ المشركينَ بمِثْلِ تلك العاقبةِ. و﴿كَيۡفَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مُجرَّدًا عن معنَى الاستِفهامِ مَنصوبًا على المفعوليَّةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ استِفهامًا مُعلِّقًا فِعلَ النَّظرِ عن العَملِ، والاستِفهامُ حينَئذٍ للتَّعجُّبِ[٣].

- قولُه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ أي: ما آلَ إليه فِرعونُ وقومُه

---

(١) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا، بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ، ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين؛ الوجه الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِ، ويُسَمَّى (اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ). الوجه الثاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ (اللَّف والنَّشر المُشَوَّش)، أو (المعكوس). يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ٢٣١، ٢٣٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن الإغراقِ على الوَجْهِ الهائلِ الَّذي هو عِبرةٌ للعالَمينَ؛ وإنَّما لم يُذكَرْ تَنبيهًا على أنَّه عُرضةٌ لكلِّ ناظرٍ، مَشهورٌ فيما بيْنَ كلِّ بادٍ وحاضرٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٥).

## الآيات (١٥ - ١٩)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾: أي: نُطْقَه، وكلامَه، فجعَله كمَنطقِ الرجُلِ إذ فُهِم، والنُّطقُ هو الأصواتُ المُقَطَّعةُ التي يُظهِرُها اللِّسانُ، وتَعِيها الآذانُ، وتُعرَفُ بها المعاني، وأصلُ (نطق) هنا: كلامٌ أو ما أَشْبَهَه[1].

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُدفَعونَ، ويُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، وأصلُ (الوَزْع): الكفُّ والمنعُ[2].

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾: أي: لا يَقتُلَنَّكم ولا يكسِرَنَّكم، مِن الحَطمِ: وهو كَسرُ الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٨٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢).

﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾: أي: ألهِمْني، و(الإيزاع): الإغراءُ بالشَّيءِ، يُقالُ: أوزَعْتُه بكذا، أي: أغرَيْتُه به، و: فلانٌ مُوزَعٌ بكذا، ومُولَعٌ به، بمعنًى واحدٍ(١).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا جانبًا ممَّا أنعَم به على نَبيَّيْنِ مِن أنبيائِه، وهما داودُ وسُلَيمانُ عليهما السَّلامُ: ولقد آتَيْنا داودَ وسُلَيمانَ ابنَه عِلمًا، وقالا: الحَمدُ لله الذي فضَّلَنا على كثيرٍ مِن عبادِه المؤمِنينَ، ووَرِثَ سُلَيمانُ أباه داودَ في النُّبوَّةِ والعِلمِ والملكِ، وقال لبني إسرائيلَ: يا أيُّها النَّاسُ، عَلَّمَنا اللهُ كلامَ الطُّيورِ، وأعطانا مِن كُلِّ النِّعَمِ، إنَّ هذا لَهُوَ الفَضلُ الظَّاهِرُ الواضِحُ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى مظاهرَ ملكِ سليمانَ، فيقولُ: وجُمِعَ لسُلَيمانَ عساكِرُه مِنَ الجِنِّ والإنسِ والطُّيورِ، فهم يُنظَّمونَ في مَسيرِهم، فيُرَدُّ أوَّلُهم على آخِرِهم؛ لِيَبقَوا مُجتَمِعينَ مُرتَّبينَ، حتى إذا مرَّ سُلَيمانُ وجُنودُه بوادِي النَّملِ، قالت نملةٌ منهم لَمَّا رأتِ الجَيشَ: يا أيُّها النَّملُ ادخُلوا بيوتَكم مُسرِعينَ؛ لا يَهشِمنَّكم سُلَيمانُ وجَيشُه وهم لا يَشعُرونَ بذلك. فتبسَّم سُلَيمانُ ضاحِكًا مِن كَلامِ النَّملةِ، وقال: ربِّ ألهِمْني شُكرَ نِعمَتِك الَّتي أنعَمْتَ بها عليَّ وعلى والدَيَّ، وأنْ أعمَلَ عَمَلًا صالِحًا مَرْضيًّا، وأدخِلْني برَحمتِك في عبادِك الصَّالحينَ في جَنَّتِك.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا تمَّ بقصَّةِ موسى عليه السلامُ الدَّليلُ على حِكمتِه تعالى، توقَّعَ السَّامعُ الدَّلالةَ على عِلمِه سبحانه[1].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ﴾.

أي: ولقد أعطَيْنا داودَ وابنَه سُلَيمانَ عِلمًا[2].

﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: وقال داودُ وسُلَيمانُ: الحَمدُ لله الَّذي فضَّلَنا على كثيرٍ مِن عِبادِه المُؤمِنينَ، بما اختَصَّنا به[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

قيل: المرادُ: عِلمُ كَلامِ الطَّيرِ والدَّوابِّ، وغيرِ ذلك ممَّا خصَّهما اللهُ بعِلمِه. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٩).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: عِلْمًا بالقَضاءِ، وبكلامِ الطَّيرِ والدوابِّ، وتسبيحِ الجبالِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٥).

ممَّن قال: المرادُ: العِلمُ بالقضاءِ، وبكلامِ الطَّيرِ والدَّوابِّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨١).

ومِن المفسِّرينَ مَن زاد إلى ما سبق: تسبيحَ الجبالِ؛ منهم: البَغَويُّ، وابنُ عادل، والعُلَيْمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ١٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٨).

وقال ابنُ عثيمين: (العِلمُ الَّذي مَنَّ اللهُ به على داودَ وسُلَيْمانَ وأثنى عليهما به هو عِلمُ الشَّريعةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣٨١)، ((البسيط)) =

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ١٦﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان كلٌّ منهما عليهما السَّلامُ قد أُوتيَ ما ذُكِرَ، أشار إلى فضْلِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ بأنَّه جَمَع إلى ما آتاه ما كان مُنِحَ به أبوه، فقال[1]:

﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾.

أي: ووَرِثَ سُلَيمانُ أباه داودَ في النُّبوَّةِ والعِلمِ ومُلكِ بني إسرائيلَ[2].

---

= للواحدي (١٧/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

قال ابن جرير: (يقول جَلَّ ثناؤه: وقال داودُ وسُليمانُ: الحمدُ لله الذي فضَّلَنا بما خَصَّنا به مِن العِلمِ الذي آتاناه دونَ سائرِ خَلقِه مِن بني آدمَ في زمانِنا هذا، على كثيرٍ مِن عبادِه المؤمنينَ به في دَهرِنا هذا). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤).

وقال الواحدي: (﴿وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا﴾ أي: بالنُّبوَّةِ والكتابِ، وإلانةِ الحديدِ، وتسخيرِ الشَّياطينِ والجِنِّ والإنسِ، والمُلكِ الذي أعطاهما اللهُ وفضَّلهما به). ((البسيط)) (١٧/ ١٨٠).

ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

مِنَ المفسِّرينَ مَن قصَرَ الوِراثةَ على العِلمِ والمُلكِ، ومنهم: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٨١).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ﴾ أباه داودَ العِلمَ الذي كان اللهُ آتاهُ في حياتِه، والمُلكَ الذي كان خَصَّه به على سائرِ قَومِه، فجعَلَه له بعدَ أبيه داودَ دُونَ سائرِ ولَدِ أبيه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤). =

﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾.

أي: وقال سُلَيمانُ لِبَني إسرائيلَ مُتحَدِّثًا بنِعمةِ الله عليه: يا أيُّها النَّاسُ، علَّمَنا اللهُ كلامَ الطُّيورِ، وفهَّمَنا معانيَ أصواتِها[1]!

---

= ومنهم مَن زاد النُّبوَّةَ إلى العِلمِ والمُلكِ، ومنهم: الثعلبيُّ، والبَغَويُّ، وابن الجوزي، والخازن، وابن جُزَي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ١٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٣٩).

ومِن المفسِّرينَ مَن قصَر الوراثةَ على النُّبوَّةِ والمُلكِ، ومنهم: الزمخشريُّ، وابن عطية، والنسفي، وابن كثير، والعليمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١١٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٦).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ أي: في المُلْكِ والنُّبوَّةِ، وليس المرادُ وِراثةَ المالِ؛ إذ لو كان كذلك لم يُخَصَّ سُلَيمانُ وحْدَه مِن بينِ سائرِ أولادِ داودَ، فإنَّه قد كان لداودَ مئةُ امرأةٍ. ولكِنَّ المرادَ بذلك وراثةُ المُلكِ والنُّبوَّةِ؛ فإنَّ الأنبياءَ لا تُورَثُ أموالُهم، كما أخبَر بذلك رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢).

وقال ابن القيِّم: (وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ فهو ميراثُ العِلمِ والنُّبوَّةِ لا غيرُ، وهذا باتِّفاقِ أهلِ العِلمِ مِن المفسِّرينَ وغيرِهم). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٦٧). ويُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

ذهب مقاتِلُ بنُ سُلَيمان، وابنُ العربي، وابنُ كثير، وابنُ عاشور: إلى أنَّ سُليمانَ كان يعلَمُ منطِقَ الطُّيورِ والحيواناتِ كلِّها. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سُلَيمان)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٥٥، ٢٨٥٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٧).

قال ابن كثير: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ يعني: أنَّه عليه السَّلامُ كان يَعرِفُ ما تَتخاطَبُ به الطُّيورُ بلُغاتِها، ويُعَبِّرُ للنَّاسِ عن مَقاصِدِها وإراداتِها... وكذلك ما عَداها مِن الحَيَواناتِ، وسائرِ صُنوفِ المخلوقاتِ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٢٤، ٣٢٥). =

﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: وأعطانا اللهُ مِن كُلِّ النِّعَمِ والخَيراتِ(١).

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: إنَّ هذا الذي أُوتِيناهُ لهو الفَضلُ الظَّاهِرُ الواضِحُ(٢).

---

= وقال الشوكاني: (قال جماعةٌ مِن المفسِّرينَ: إنَّه عُلِّمَ مَنطِقَ جميعِ الحيواناتِ، وإنَّما ذُكِرَ الطَّيرُ؛ لأنَّه كان جندًا مِن جُندِه، يسيرُ معه لتظليلِه مِن الشَّمسِ. وقال قَتادةُ والشَّعْبيُّ: إنَّما عُلِّمَ مَنطِقَ الطَّيرِ خاصَّةً، ولا يُعترَضُ ذلك بالنَّملةِ؛ فإنَّها مِن جملةِ الطَّيرِ، وكثيرًا ما تخرُجُ لها أجنحةٌ فتَطيرُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٠). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

قال البقاعي: (﴿وَأُوتِينَا﴾ ممَّن له العَظَمةُ بأيسَرِ أمرٍ مِن أمْرِه ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: يكملُ به ذلك من أسبابِ المُلكِ والنُّبوَّةِ وغَيرِهما، وعبَّرَ بأداة الاستغراقِ تعظيمًا للنِّعمةِ، كما يُقالُ لِمن يَكثُرُ تَرَدُّدُ الناس إليه: فلانٌ يَقصِدُه كُلُّ أحدٍ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤٠).

وقال ابن كثير: (﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: مِن كلِّ ما يَحتاجُ الملكُ إليه؛ مِنَ العُدَدِ، والآلاتِ، والجُنودِ، والجُيوشِ، والجماعاتِ مِنَ الجِنِّ، والإنسِ، والطُّيورِ، والوُحوشِ، والشَّياطينِ السَّارِحاتِ، والعُلومِ، والفُهومِ، والتَّعبيرِ عن ضمائرِ المخلوقاتِ، مِنَ النَّاطِقاتِ والصَّامِتاتِ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٢٥).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ عمومٌ معناه الخصوصُ، والمرادُ بهذا اللَّفظِ التَّكثيرُ). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٣١٥).

وقال ابنُ عثيمين: (اللهُ سبحانه وتعالى أعطى سليمانَ مِن كُلِّ شَيءٍ يَتِمُّ به المُلكُ... إذا قَيَّدْنا ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يتِمُّ به المُلكُ؛ فـ ﴿مِن﴾ لبيان الجنس، وإذا قُلْنا: إنَّ ﴿مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ عامٌّ لكُلِّ شَيءٍ؛ فإنَّ ﴿مِن﴾ تكونُ للتَّبعيضِ؛ لأنَّهما ما أُعطُوا كُلَّ شَيءٍ، بل بعضَ كُلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢). =

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا كان ما سبَقَ مجرَّدَ خبرٍ؛ أتبَعَه ما يُصَدِّقُه، فقال[1]:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ١٧﴾.

أي: وجُمِعَ لسُلَيمانَ عَساكِرُه الكثيرةُ المتنَوِّعةُ مِن الجِنِّ والإنسِ والطُّيورِ[2]، فهم يُنظَّمونَ في مَسيرِهم، فيُرَدُّ أوَّلُهم على آخِرِهم؛ لِيَبقَوا مُجتَمِعين مُرتَّبينَ[3].

---

= قال البقاعي: (﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الذي أُوتيناه ﴿لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: البَيِّنُ في نفْسِه لكُلِّ مَن ينظُرُه، الموضِّحُ لعلُوِّ قَدْرِ صاحِبِه، ووحدانيَّةِ مُفيضِه ومُؤتِيه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤١).

(٢) قال ابن عثيمين: (سكت عن بقيَّةِ الحيواناتِ، فهل هي داخِلةٌ في جنودِه أو لا؟ قد نقولُ: إنَّها داخِلةٌ مِن بابِ الأَولى، وقد نقولُ: ليست بداخلةٍ. ما وجْهُ قولِنا: مِن بابِ الأَولى؟ وجهُ قولِنا أن نقولَ: إذا كان الطَّيرُ -وهو لا يمكِنُ السَّيطرةُ عليه لطيرانِه- يُحشَرُ ويُجمَعُ، فغيرُه مِن بابِ أَولى، وقد تقولُ: إنَّه ليس بلازمٍ؛ لأنَّه يمكنُ أنَّ سُلَيمانَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لا يَستخدِمُ مِن الحيواناتِ سِوى الطَّيرِ، وإذا لم يستخدِمْ سِواها فلا حاجةَ له في أن يجمَعَ الباقيَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥، ٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١١).

قال ابن كثير: (يُخبِرُ تعالى عن عبدِه ونبيِّه وابنِ نبيِّه سُلَيمانَ بنِ داودَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، أنَّه رَكِبَ يومًا في جيشِه جميعِه مِنَ الجنِّ والإنسِ والطَّيرِ؛ فالجنُّ والإنسُ يَسيرون معه، والطَّيرُ سائرةٌ معه تُظِلُّه بأجنحتِها مِنَ الحرِّ وغيرِه، وعلى كلٍّ مِن هذه الجُيوشِ الثَّلاثةِ وَزَعةٌ، أي: نُقَباءُ يَرُدُّون أوَّلَه على آخِرِه، فلا يَتقدَّمُ أحدٌ عن مَوضِعِه الَّذي يسيرُ فيه، ولا يَتأخَّرُ عنه). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٢٥، ٣٢٦).

وقال أبو السعود: (﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُحبَسُ أوائلُهم على أواخِرِهم، أي: يُوقَفُ سُلَّافُ العَسكرِ حتى يلحَقَهم التَّوالي فيَكونوا مجتَمِعينَ لا يتخَلَّفُ منهم أحدٌ؛ وذلك للكثرةِ العظيمةِ، =

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ﴾.

أي: فساروا حتى إذا مرَّ سُلَيمانُ وجنودُه بوادي النَّملِ[1] قالتْ نملةٌ منهم[2] محذِّرةً لهم بعْدَ أن رأتِ الجَيشَ[3]: يا أيُّها النَّملُ ادخُلوا بيوتَكم مُسرِعينَ

---

= ويجوزُ أن يكونَ ذلك لترتيبِ الصُّفوفِ، كما هو المعتادُ في العساكِرِ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٧).

وقال ابن عاشور: (الوَزْعُ: الكَفُّ عمَّا لا يُرادُ، فشَمِلَ الأمرَ والنَّهيَ، أي: فهم يُؤمَرونَ فيأتَمِرون، ويُنهَون فيَنتَهونَ، فقد سَخَّر اللهُ له الرعيَّةَ كُلَّها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٠).

(١) قال ابنُ عاشور: (وادي النَّملِ يجوزُ أن يكونَ مرادًا به الجنسُ؛ لأنَّ للنَّملِ شُقوقًا ومسالِكَ هي بالنِّسبةِ إليها كالأوديةِ للساكنينَ مِن النَّاسِ، ويجوزُ أن يُرادَ به مكانٌ مُشتَهِرٌ بالنَّملِ غَلَب عليه هذا المضافُ، كما سُمِّيَ وادي السِّباعِ: مَوضِعٌ معلومٌ بينَ البصرةِ ومكَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٠).

وقال ابنُ عثيمينَ: (قَولُه: ﴿عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ ظاهِرُ الكلامِ أنَّ هذا الواديَ معروفٌ بهذا اللَّقَبِ، أي: أنَّه يُسمَّى واديَ النَّملِ، ويحتَمِلُ -لكن خلاف الظاهر- أن يكونَ هذا الوادي واديًا فيه نَملٌ، يعني: يكونُ التَّقديرُ: حتَّى إذا أتَوا على وادٍ فيه نملٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١٤).

(٢) قال ابن عاشور: (...كلمة نملةٍ لا تدُلُّ إلا على فردٍ واحدٍ مِن هذا النَّوعِ، دونَ دَلالةٍ على تذكيرٍ ولا تأنيثٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤١).

وقال الرسعني: (ظاهرُ القرآنِ يدلُّ على أنَّها كانت أُنثَى). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٤٥).

يُنظر تفصيلُ الخلافِ في ذلك: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٧٢).

(٣) قال ابنُ العربي: (لا خِلافَ عند العُلَماءِ في أنَّ الحيواناتِ كُلَّها لها أفهامٌ وعُقولٌ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٤٧٢).

مُحتَرِزينَ[١].

﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: لا يَكسِرَنَّكم ويَهشِمَنَّكم سُلَيمانُ وجَيشُه حينَ يمُرُّونَ بِواديكم، وهم لا يَشعُرونَ بذلك التَّحطيمِ ولا يَقصِدونَه[٢].

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾.

أي: فتبسَّم سُلَيمانُ ضاحِكًا[٣]؛ .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٢)، ((الفواتح الإلهية)) لعلوان (٢/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٢).

قال السعدي: (فنصحَتْ هذه النَّملةُ وأسمَعَت النَّملَ؛ إمَّا بنَفسِها، ويكونُ الله قد أعطى النَّملَ أسماعًا خارِقةً للعادةِ؛ لأنَّ التَّنبيهَ للنَّملِ الذي قد ملأ الواديَ بصَوتِ نملةٍ واحدةٍ: مِن أعجَبِ العجائبِ. وإمَّا بأنَّها أخبَرت مَن حوْلَها مِن النَّملِ ثمَّ سرى الخبَرُ مِن بَعضِهنَّ لبعضٍ، حتى بلَغ الجميعَ، وأمرَتْهنَّ بالحَذَرِ، والطَّريقِ في ذلك وهو دخولُ مَساكِنِهنَّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٣) قيل: المرادُ: أنَّه شرَع في الضَّحِك آخِذًا فيه، ولكِنْ لم يبلُغْ حَدَّ القهقهةِ وكَمالِ الضَّحِكِ. وممَّن قال بذلك: الزمخشري، والرازي، والنيسابوري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٠٠).

وقيل: كان أوَّلُه التبسُّمَ، وآخرُه الضَّحِكَ، وممَّن اختاره: الكرماني، وجلال الدين المحلي، وابن عجيبة. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨٤٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٤/ ١٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٤). =

تعجُّبًا وسُرورًا مِن كَلامِ النَّملةِ[1].

= وقيل: المرادُ: بيانُ أنَّه تبسَّمَ تبسُّمَ الضاحِكِ، وليس تبسُّمَ المُغضَب، فأكَّد هذا المعنى وحقَّقَه بقَولِه: ﴿ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾. وممَّن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤٤).

قال ابن عثيمين: (ويحتملُ أن يكونَ معنى قولِه: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أنَّه ضَحِك مُتبَسِّمًا، يعني أنَّه ما ظهَر له صوتٌ ولكنَّه تبسَّم تبسُّمًا، والله أعلم. وعلى هذا التَّقديرِ تكونُ ﴿ضَاحِكًا﴾ حالًا مبيِّنةً للنَّوعِ، يعني أنَّ ضَحِكَه كان تبسُّمًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٤).

وممَّن اختار هذا المعنى: الزجاجُ، والسمعاني، والبغوي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

قال السعدي: (وهذا حالُ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ؛ الأدبُ الكامِلُ، والتعَجُّبُ في موضِعِه، وألَّا يَبلُغَ بهم الضَّحِكُ إلَّا إلى التبسُّمِ، كما كان الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ جُلُّ ضَحِكِه التبَسُّم؛ فإنَّ القهقهةَ تدُلُّ على خِفَّةِ العَقلِ وسُوءِ الأدبِ، وعَدَمَ التبسُّمِ والعَجَبِ ممَّا يُتعجَّبُ منه: يدُلُّ على شَراسةِ الخُلُقِ والجبروتِ. والرُّسلُ مُنزَّهونَ عن ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣). ويُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ١٧٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٩٥-٢٩٧).

قال ابنُ حجرٍ في بيانِ الفرقِ بينَ التبسم والضحكِ والقهقهةِ: (قال أهلُ اللُّغةِ: التبسُّمُ مبادئُ الضَّحِكِ، والضَّحِكُ انبساطُ الوجهِ حتَّى تظهَرَ الأسنانُ مِنَ السُّرورِ، فإنْ كان بصَوتٍ وكان بحيثُ يُسمَعُ مِن بُعدٍ فهو القَهْقَهةُ، وإلَّا فهو الضَّحِكُ، وإنْ كان بلا صَوتٍ فهو التبسُّمُ). ((فتح الباري)) (١٠/ ٥٠٤). ويُنظر: ((فقه اللغة وسر العربية)) للثعالبي (ص: ٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

قال ابنُ عطية: (وكان تبسُّمُه سُرورًا، واختُلِفَ بِمَ كان؛ فقالت فِرقةٌ: بنِعمةِ الله في إسماعِه وإفهامِه ونحوِ ذلك، وقالت فرقةٌ: بثناءِ النَّملةِ عليه وعلى جنودِه في أن نَفَت عنهم تعمُّدَ القَبيحِ مِن الفِعلِ، فجعلَتِ الحَطْمَ وهم لا يَشعُرونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٤).

وقال البيضاوي: (تبسَّم ضاحِكًا مِن قَولِها؛ تعجُّبًا مِن حَذَرِها وتحذيرِها، واهتدائِها إلى مصالحِها، وسرورًا بما خصَّه الله تعالى به مِن إدراكِ هَمسِها، وفَهْمِ غَرَضِها). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧).

وقال السعدي: (﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ إعجابًا منه بفصاحتِها ونصحِها وحُسنِ تعبيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣). =

﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

أي: وقال سُلَيمانُ: ربِّ ألهِمْني ووفِّقْني إلى شُكرِ نِعمتِك عليَّ وعلى والدَيَّ، بحيثُ أكونُ مُلازِمًا لشُكرِ نِعَمِك الدينيَّةِ والدُّنيويَّةِ علينا[1].

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

لَمَّا عُلِمَ مِن كلامِه أنَّ الشَّاكرَ هو المُستغرِقُ في الثَّناءِ على المُنعِم بما يجبُ عليه مِن العَمَلِ بحَسَبِ ما يَقدِرُ عليه، وكان ذلك العَمَلُ ممَّا يجوزُ أنْ يكونَ زُيِّنَ لذلك العبدِ كونُه حَسَنًا، وهو ليس كذلك- قال عليه السَّلامُ مشيرًا إلى هذا المعنى[2]:

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

أي: وأن أعمَلَ في بقيَّةِ عُمري عَمَلًا خالِصًا لك، مُتَّبِعًا فيه شَرْعَك، مُوافِقًا لِمَرضاتِك[3].

---

= وقال ابنُ عاشور: (إنما تعجَّب مِن أنَّها عرَفت اسمَه، وأنَّها قالت: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فوَسَمَتْهُ وجندَه بالصَّلاحِ والرَّأفةِ، وأنَّهم لا يَقتلون ما فيه رُوحٌ لغيرِ مصلحةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣١-١٣٣).

﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: وأدخِلْني في الآخرةِ برَحمتِك -لا بعَمَلي- في جملةِ عِبادِك الصَّالحينَ في جَنَّتِك[1].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على شَرَفِ العِلمِ وإنافةِ محَلِّه، وتقَدُّمِ حمَلَتِه وأهلِه، وأنَّ نِعمةَ العِلمِ مِن أجَلِّ النِّعَمِ، وأجزَلِ القِسَمِ، وأنَّ مَن أُوتِيَه فقد أُوتيَ فَضلًا على كثيرٍ مِن عبادِ الله، كما قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: ١١][2]، فقد ابتُدِئَ الحديثُ عن المُلْكِ العظيمِ بذِكْرِ العلمِ، وقُدِّمَتِ النِّعمةُ به على سائرِ النِّعَمِ؛ تنويهًا بشأنِ العلمِ، وتنبيهًا على أنَّه هو الأَصلُ الذي تنبني عليه سعادةُ الدُّنيا والأخرى، وأنه هو الأساسُ لكلِّ أمْرٍ مِن أمورِ الدِّينِ والدُّنيا، وأنَّ الممالكَ إنَّما تنبني عليه وتُشادُ، وأنَّ المُلْكَ إنما يُنَظَّمُ به ويُساسُ، وأنَّ كلَّ ما لم يُبْنَ عليه فهو على شفَا جُرُفٍ هارٍ، وأنَّه هو سياجُ المملكةِ ودِرْعُها، وهو سلاحُها الحقيقيُّ، وبه دفاعُها؛ وأنَّ كلَّ مملكةٍ لم تُحْمَ به فهي عرضةٌ للانقراضِ والانقضاضِ[3].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَأُوتِينَا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، أي: الأنبياء. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٤).

كُلِّ شَيْءٍ ﴾ يَذْكُرُ اللهُ تعالى لنا في شأنِ هذا النَّبيِّ الكريمِ ما أعطاه مِن علم، وما مَكَّنَه منه مِن عظيمِ الأشياءِ؛ ترغيبًا لنا في طَلَبِ العلمِ، والسَّعيِ في تحصيلِ كلِّ ما بنا حاجةٌ إليه مِن أمورِ الدُّنيا، وتشويقًا لنا إلى ما في هذا الكونِ مِن عوالمِ الجمادِ، وعوالمِ الأحياءِ، وبعثًا لِهِمَمِنا على التحلِّي بأسبابِ العظَمةِ مِن العلمِ والقوَّةِ، وحثًّا لنا على تشييدِ الملْكِ العظيمِ الفخمِ على سَنَنِ مُلْكِ النُّبوَّةِ، فقد كان سليمانُ عليه السلام نبيًّا، وما كان ملْكُه ذلك إلَّا بإذنِ اللهِ ورِضاه، فهو -فيما ذَكَره اللهُ مِن أمْرِه- قدوةٌ، وأيُّ قدوةٍ! مثلُ سائرِ الأنبياءِ والمرسَلينَ عليهم الصلاةُ والسلامُ أجمعينَ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ في الآيةِ التَّذكيرُ بالتَّواضُعِ، وأن يعتَقِدَ العالِمُ أنَّه وإنْ فُضِّلَ على كثيرٍ فقد فُضِّلَ عليه مِثلُهم[٢]؛ فلا يتكبَّرْ، ولا يفتَخِرْ، ويَشكرُ اللهَ تعالى على ما آتاه مِن فضلِه، وينفعُ به المسلمينَ، كما نَفَعه اللهُ تعالى به[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنَّ مِن أدبِ مَقامِ الفَرَحِ بنعمةِ اللهِ وحمْدِه عليها: ذِكْرَ نعمتِه العامَّةِ عليه وعلى غيرِه، والإشارةَ إلى مَن فُضِّلوا عليه؛ فيَكبَحُ مِن نفْسِه بتذكيرِها بقصورِها، ويُرضي اللهَ باعترافِه لذي الفضلِ بفَضْلِه، وحِكمةِ اللهِ وعدْلِه، وبوُقوفِه كواحدٍ ممن أَنْعَمَ عليهم مِن عبادِه[٤].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٥).

أنَّ الإنسانَ إذا رأى أنَّه أفضَلُ مِن غيرِه بنِعمةِ اللهِ عليه، فإنَّ هذا لا يُنافي التواضعَ، ولا يعني أنَّه تَرَفَّعَ وتكَبَّرَ! بل إنَّ الإنسانَ لا يمكِنُ أنْ يُدرِكَ نعمةَ اللهِ عليه حتى يعْرِفَ ضِدَّها في غيرِه، فإذا رأى مثلًا إنسانًا مُبْتَلًى في بدنِه -واللهُ تعالى قد عافاه-؛ عرَف فضلَ نعمةِ اللهِ، فيقولُ: الحمدُ للهِ الذي عافاني ممَّا ابتَلاهُ به، وفضَّلني عليه، ولا يُعَدُّ هذا مِن بابِ التَّرَفُّعِ والاستِهانةِ بالغيرِ، ولهذا قالا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إنْ كان قولُهما هذا جَهْرًا -وهو الظَّاهرُ- كان حُجَّةً على أنَّه يجوزُ للعالِمِ أنْ يَذكُرَ مَرتبَتَهُ في العلْمِ لِفَوائدَ شرعيَّةٍ تَرجِعُ إلى أنْ يَحذَرَ النَّاسُ مِن الاغترارِ بمَن ليستْ له أهْلِيَّةٌ مِن أهْلِ الدَّعوى الكاذبةِ والجَعْجعةِ الجالِبةِ، وهذا حُكمٌ يُستنبَطُ مِن الآيةِ؛ لأنَّ شرْعَ مَن قبْلَنا شَرعٌ لنا، وإنْ قالاهُ في سِرِّهما لم يكُنْ فيه هذه الحُجَّةُ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تحريضٌ للعالِمِ أنْ يحمدَ اللهَ تعالى على ما آتاه مِن فضْلِه[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مشروعيَّةُ التحَدُّثِ بنعمةِ اللهِ، لكنْ لا على سبيلِ الافتِخارِ والعلوِّ على الغَيرِ، فالإنسانُ إذا تحدَّثَ بنعمةِ اللهِ غيرَ مفتخِرٍ بها، فإنَّه لا بأسَ بذلك، بل قد يكونُ هذا مشروعًا؛ لأنه ثناءٌ على اللهِ سُبحانه وتعالى بما أنعَمَ به عليه[4].

٩- لا يُسنِدُ عِبادُ الله الصالحونَ ما يَعمَلونَه إلى أنفُسِهم، ولكِنَّهم يُسنِدونَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٤).

إلى اللهِ عزَّ وجلَّ وإلى فَضْلِه؛ ولهذا لَمَّا قالت النَّملةُ حينَ أقبلَ سُلَيمانُ بجُنودِه على وادي النَّملِ، وقد قامت خطيبةً فَصيحةً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾- قال سليمانُ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ عِظَةٌ بالغةٌ؛ فإنَّ هذه نملةٌ وَفَتْ لقَومِها، وأَدَّتْ نحوَهم واجبَها؛ فكيف بالإنسانِ العاقلِ فيما يجبُ عليه نحوَ قومِه؟! هذه عِظَةٌ بالغةٌ لِمَن لا يَهتمُّ بأمورِ قَومِه، ولا يؤدِّي الواجبَ نحوَهم، ولِمَن يرى الخطرَ داهمًا لقومِه، فيَسكتُ ويَتعامى! ولِمَن يقودُ الخطرَ إليهم، ويَصُبُّه بيَدِه عليهم! فما أحْوَجَنا -معشرَ المسلمينَ- إلى أمثالِ هذه النَّملةِ[2]!

١١- في قولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ أنَّ عاطفةَ (الجنسيَّةِ) غريزةٌ طبيعيَّةٌ؛ فهذه النَّملةُ لم تَهتَمَّ بنَفسِها فتنجوَ بمفردِها، ولم يُنْسِها هولُ ما رأتْ مِن عظَمةِ ذلك الجندِ إنذارَ بني جنْسِها؛ إذْ كانت تُدرِكُ بفِطرتِها أنْ لا حياةَ لها بدُونِهم، ولا نجاةَ لها إذا لم تَنجُ معهم، فأنذرَتْهم في أشدِّ ساعاتِ الخطرِ أبلغَ الإنذارِ، ولم يُنْسِها الخوفُ على نفْسِها وعلى بني جنْسِها مِن الخطرِ الدَّاهِمِ أنْ تَذكُرَ عُذْرَ سليمانَ وجُنْدِه؛ فهذا يُعَلِّمُنا أنْ لا حياةَ للشخصِ إلَّا بحياةِ قَومِه، ولا نجاةَ له إلَّا بنجاتِهم؛ وأنْ لا خيرَ لهم فيه إلَّا إذا شَعَرَ بأنَّه جزءٌ منهم. ومَظْهَرُ هذا الشُّعورِ أن يَحرِصَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٣).

خيرِهم كما يَحرِصُ على نفْسِه، وألَّا يكونَ اهتمامُه بها دونَ اهتمامِه بهم[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ أنَّ نِعَمَ اللهِ على العبدِ تُدخِلُ عليه السُّرورَ بجِبِلَّةِ الفِطرةِ. والفرحُ بنعمةِ اللهِ مِنَ الاعترافِ بفَضْلِه، والإكبارِ لنوالِه، ومِن أدَبِ العبدِ حينَئذٍ أنْ يَسألَ اللهَ التَّوفيقَ لشُكرِ تلك النِّعمةِ بصرْفِها في الطَّاعةِ، والتَّوفيقَ بشُكرِها بما يقومُ به مِن أعمالٍ صالحةٍ في رِضا اللهِ، كما فَعَلَ سُليمانُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[٢].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ هذا مِن تمامِ برِّ الوالِدَينِ، كأنَّ هذا الولدَ خاف أنْ يكونَ والداه قَصَّرا في شُكْرِ الربِّ عزَّ وجلَّ، فسألَ اللهَ أنْ يُلهِمَه الشُّكرَ على ما أنعمَ به عليه وعليهما؛ لِيقومَ بما وَجَبَ عليهما مِن الشُّكرِ إنْ كانا قَصَّرا[٣]، فقَولُه: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ ﴾ تنبيهٌ على برِّ الوالدَين في سُؤالِ القيامِ عنهم بما لم يَبلُغاه مِن الشُّكرِ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ﴾ دليلٌ على الاعترافِ بنعمةِ اللهِ، وأنَّه ليس مِن الافتخارِ؛ لأنَّ سُلَيمانَ عليه السلام ذَكَر نعمةَ اللهِ عليه؛ لكنَّه لا يقصدُ بذلك الافتخارَ والعُلوَّ على غيرِه! وقد قال اللهُ تعالى للرَّسولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٤).

(٣) هذه الفائدةُ للوزيرِ ابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس))، كما في: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب الحنبلي (٢/ ١٤٧).
والقاعدةُ: أنَّ النِّعمةَ الحاصلةَ للآباءِ واصلةٌ للأبناءِ؛ ولهذا يمتَنُّ الله عزَّ وجلَّ كثيرًا على بني إسرائيلَ بما أنعَم على آبائِهم، فالشُّكرُ على هذا شكرٌ على إنعامٍ نالَه الأبناءُ وإنْ حصَل لآبائِهم. ويُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٣١٦- ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٥).

صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؛ لكنْ لا على سبيلِ الافتخارِ والعلوِّ! لأنَّها حينَئذٍ تنقلبُ إلى نقمةٍ(١).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أنَّ الغايةَ التي يسيرُ إليها الأنبياءُ ومَن تَبِعَهم هي رضا اللهِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن عَملِ الإنسانِ الوُصولُ إلى رِضا اللهِ سبحانه وتعالى، بل إنَّ رِضا اللهِ غايةٌ فَوقَ كُلِّ شَيءٍ؛ قال الله سبحانَه وتعالى في امتِداحِ المؤمنينَ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧١، ٧٢] يعني: أكبَرُ مِن كُلِّ شَيءٍ، وإذا حلَّ على الإنسانِ رِضا الله فهذا غايةُ ما يريدُ(٢)! وشُعورُ العبْدِ برِضَا اللهِ عنه هو أعظَمُ لَذَّةٍ رُوحيَّةٍ تَعجزُ عن تَصويرِها الألْسُنُ؛ فالغايةُ الَّتي يَسْعى إليها السَّاعونَ ويَعمَلُ لها العاملونَ هي رِضَا اللهِ، فالعملُ الصَّالحُ تَرتضيهِ العُقولُ، وتَستعذِبُه الفِطَرُ، ولكنَّه لا يُفيدُ صاحبَه إذا لم يَبْغِ به مَرضاةَ اللهِ؛ ولهذا قال سُليمانُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿تَرْضَاهُ﴾(٣).

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ قولُه: ﴿وَقَالَا﴾ أفاد أنَّ قولَهما متسَبَّبٌ وناشئٌ عنِ العلمِ، لكِنَّه لو قيلَ: (فقالا) -بالفاء- لَمَا أفاد أنَّ غيرَ القولِ تَسَبَّبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٥).

منهما عنِ العلم، فلَمَّا عَطَفَ بالواو دَلَّ على أنَّ هنالك أعمالًا كثيرةً عظيمةً كانت منهما في طاعةِ اللهِ وشُكرِه نشأتْ عنِ العلمِ، وعليها عُطِفَ قولُهما هذا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه يجوزُ لِمَن أنعَمَ اللهُ عليه بنعمةٍ، وفَضَّلَه بفضيلةٍ أن يَفرَحَ بتلك النعمةِ، ويُظهِرَ فَرَحه بها، في مَعرِضِ حَمْدِ اللهِ عليها، مِن حيثُ إنها كرامةٌ مِن اللهِ؛ لا مِن حيثُ إنَّها مَزيَّةٌ مِن مزاياه فاق بها سِواه! مِثلُ فِعْلِ هذين النبيَّينِ الكريمَينِ، وكما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾[٢] [يونس: ٥٨]، ويَشرُفُ الفرَحُ بشَرَفِ المفروحِ به؛ فالفرحُ بفضلِ الله ورحمتِه في أفضَلِ رُتَبِ الفرحِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا﴾ أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالقَولِ، كما هو أيضًا بالفِعلِ؛ فيكونُ بالقولِ وبالفعلِ، ويكونُ أيضًا بالعَقيدةِ، أي: بالاعتقادِ، فالشُّكرُ له ثلاثةُ محلَّاتٍ: القلبِ واللِّسانِ والجَوارحِ[٤].

٤- تواضُعُ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ، ومعرفتُهما للحَقيقةِ؛ لِقَولِه: ﴿فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فما ذكَرا التَّفضيلَ المطْلَقَ على جمَيعِ المؤمنينَ، بل على كثيرٍ مِن عِبادِه المؤمِنينَ[٥].

٥- أنَّ مَن عَلِمَ لغةَ غيرِه فله ميزةٌ على غَيرِه؛ لأنَّه تَمَدَّحَ بقَولِه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾، إذَن: تَعَلُّمُ اللُّغةِ غيرِ العربيَّةِ هو في الحقيقةِ مِن نعمةِ اللهِ على العبدِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٣).

لكنْ إنِ استعملَها مكانَ اللُّغةِ العربيَّةِ فإنَّه مُخطِئٌ[١]، وكان عُمَرُ رضيَ الله عنه يَضرِبُ على ذلك، وإنِ استعملَها لِمصلحةٍ دينيَّةٍ فهذا له أجرٌ في ذلك، كما لو استعملَها في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وتفهيمِ الخلْقِ الذين لا يَفهَمونَ اللُّغةَ العربيَّةَ؛ فهي وَسيلةٌ. المهمُّ: أنَّه لا شكَّ أنَّ الإنسانَ الذي يَتعلَّمُ لغةَ غيرِه فله ميزةٌ على غيرِه في هذا، ولكنْ كونُه محمودًا أو غيرَ محمودٍ يَرجعُ إلى ما يُتوصَّلُ به بهذه اللُّغةِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى حكايةً عن سليمانَ عليه السَّلامُ: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وكذا في قولِه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦]: ذِكرُ الرجُلِ مناقِبَ نفْسِه -إذا كان ذلك لغرضٍ صحيحٍ-، ومِثلُه قولُ هودٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨]، وقولُ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢]، وقولُ يعقوبَ عليه السَّلامُ: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]، وقولُ شعيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وقولُ يوسفَ عليه السَّلامُ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. وذِكرُ سليمانَ عليه السلام ما آتاه الله وسيلةٌ إلى المهابةِ الموجبةِ لطاعتِه فيما يدعو إليه مِن طاعةِ الله، وذِكرُ الرسل أمانتَهم ونصحهم ترغيبٌ في إجابتهم إلى ما دعَوا إليه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ أنَّ سُليمانَ لم يَرِثْ مِن داودَ ما وَرِثَه منه لأنَّه ابنُه، وإنَّما كان ذلك تفضُّلًا مِنَ اللهِ ونِعمةً؛ ولهذا لَمَّا دعا سليمانُ الناسَ لم يَذكُرْ لهم أُبُوَّةَ داودَ، وإنَّما ذَكَرَ لهم

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٥٢٠-٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٩٣).

ما كان به أهلًا لمقامِه ممَّا خَصَّه اللهُ به مِن علمٍ وقوَّةٍ، ومظاهرِ المُلكِ، ومُعجِزةِ النُّبوَّةِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ أنَّ الطيرَ تَنْطِقُ[٢]، وفيه دَلالةٌ على أنَّ البهائمَ لها لغةٌ معروفةٌ فيما بيْنَها مِن جنْسِها[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ حِكمةُ اللُّغةِ العربيَّةِ الشَّريفةِ؛ حيثُ سَمَّتْ أصواتَ الحيواناتِ نطقًا، كما سَمَّتْ -في المتعارَفِ- اللَّفظَ الذي يُعَبَّرُ به عمَّا في الضميرِ نطقًا؛ لأنَّ الأصواتَ لغيرِ الإنسانِ تقومُ مقامَ الألفاظِ للإنسانِ، فهي طريقُ تفاهمِها، وطريقُ فَهْمِ ما يمكِنُ للإنسانِ فَهْمُه عنها، فللَّهِ هذه اللُّغةُ! ما أعمَقَ غَوْرَها، وما أدقَّ تعبيرَها[٤]!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ جمْعَ الجنودِ وتدريبَها هو مِن واجباتِ المُلوكِ؛ ليكونَ الجنودُ مُتعَهِّدينَ لأحوالِهم وحاجاتِهم؛ لِيشعروا بما يَنقُصُهم، ويتذَكَّروا ما قد يَنسَونَه عند تشَوُّشِ الأذهانِ عندَ القِتالِ وعندَ النَّفيرِ[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ جوازُ استِعمالِ السَّاقَةِ في الجُندِ والجيشِ، بأنْ يكونَ لهم سائِقٌ كما أنَّ لهم قائدًا دَليلًا[٦].

١٢- نَستفيدُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيۡمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ وَٱلطَّيۡرِ فَهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١٣).

﴿يُوزَعُونَ﴾ صورةً تامَّةً لنظامِ الجُنديَّةِ في مُلكِ سليمانَ؛ فقد كان الجنودُ يُسَرَّحُون مِن الخدمةِ ويُجمَعون عندَ الحاجةِ، وكانت أعيانُهم معروفةً مضبوطةً، وكانت لهم هيئةٌ تعْرِفُهم وتضْبِطُهم وتجْمَعُهم عندَ الحاجةِ، وكان لهم ضبَّاطٌ يتولَّون تنظيمَهم، وكان النظامُ محكَمًا لضبطِ تلك الكثرةِ، ومنْعِها مِن الاضطرابِ والاختلالِ والفوضى، تَعرِضُ علينا الآيةُ هذه الصُّورةَ التاريخيَّةَ والواقعيَّةَ؛ تعليمًا لنا، وتربيةً على الجُنديَّةِ المضبوطةِ المنظَّمةِ، ولا شكَّ أنَّ الخُلفاءَ الأوَّلينَ قد عَمِلوا على ذلك في تنظيمِ جيوشِهم، إنَّ مِثْلَ هذه الآيةِ كان له الأثرُ البليغُ السَّريعُ في نفوسِ العربِ لَمَّا أسلَموا؛ فسُرعانَ ما تحوَّلوا إلى جنودٍ مُنَظَّمةٍ ممَّا لم يكُنْ معروفًا عندَهم في الجاهليَّةِ، وبَقِيَتِ الآيةُ -على الدَّهرِ- مُذَكِّرةً لنا بأنَّ النِّظامَ أساسُ كلِّ مجتَمَعٍ واجتماعٍ، وأنَّ القوَّةَ والكثرةَ وحْدَهما لا تُغْنيانِ بدونِ نظامٍ، وأنَّ النِّظامَ لا بُدَّ له مِن رجالٍ أكْفَاءٍ يقومون به، ويَحمِلونَ الجُموعَ عليه، وأولئك هم الوازِعون[1].

١٣- قولُه تعالى: ﴿يُوزَعُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّهم مع كثْرتِهم وتَفاوُتِهم لم يَكونوا مُهْمَلينَ ومُبْعَدِينَ كما يكونُ الجيشُ الكثيرُ المُتأذِّي بمَعرَّتِهم، بلْ كانوا مَسُوسِينَ ومَقْموعينَ[2].

١٤- قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ قال أهلُ التَّفسيرِ: عَلِمَ النَّملُ أنَّ سُلَيمانَ مَلِكٌ ليس له جَبريَّةٌ وظُلمٌ، ومعنى الآيةِ: أنَّكم لو لم تَدخُلوا المساكِنَ وَطِئُوكم، ولم يَشعُروا بكم، ولو عَرَفوا لم يَطَؤوا[3]، ففي قولِه: ﴿وَهُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٨٦).

لَا يَشْعُرُونَ﴾ دَلالةٌ على عِلمِ النَّملِ بأنَّهم لو شَعروا بهم ما آذَوْهم؛ لأنَّهم أتْباعُ نبيٍّ، فهُم رُحماءُ(١).

١٥- قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ نظيرُ قَولِ النَّملةِ في جُندِ سُلَيمانَ: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ قَولُ اللهِ تعالى في جُندِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الفتح: ٢٥]؛ التفاتًا إلى أنَّهم لا يَقصِدونَ هَدرَ مُؤمِنٍ. إلَّا أنَّ المُثنِيَ على جُندِ سُلَيمانَ هي النَّملةُ بإذنِ الله تعالى، والمُثنِيَ على جُندِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو اللهُ عزَّ وجَلَّ بنَفْسِه؛ لِمَا لجنودِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِنَ الفَضلِ على جُندِ غَيرِه مِن الأنبياءِ، كما لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فَضلٌ على جميعِ النبيِّينَ صَلَّى الله عليهم وسلَّم أجمعينَ(٢).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ إضافةُ المكانِ إلى سكانِه، كما يُقالُ الآنَ في الأحياءِ في البلدِ: هذا حيُّ بني فلانٍ، كما هو معروفٌ مِن قديمِ الزمانِ أنَّ الأحياءَ تُضافُ إلى ساكنيها(٣)، وذلك على أحدِ القولَينِ في التَّفسيرِ.

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ﴾ أنَّ للحشراتِ نطقًا؛ وأنَّ قولَها أيضًا مسموعٌ؛ يَسمَعُه بنو جنسِها؛ لأنَّه لو لم يكونوا يَسمَعونها لم يكن في قَولِها فائدةٌ، فهم يَسمَعون قولَها، وقد يُسْمِعُه اللهُ تبارك وتعالى مَن يشاءُ(٤).

١٨- قَولُه تعالى: ﴿مَسَٰكِنَكُمۡ﴾ هي قُرى النَّملِ التي يَسكُنُها تحتَ وجهِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٢). ويُنظر أيضًا: ((الحيوان)) للجاحظ (٤/ ٢٦٣، ٢٦٤).

الأرض، المُحكمةُ الوضعِ والتركيبِ والتَّقسيمِ؛ ولذلك قيلَ فيها: (مساكن)، ولم يَقُلْ: (غيران)[١].

١٩- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ فيه تعيينُ المساكِنِ وهي الملاجئُ، وهذا مِثلُ صَفَّاراتِ الإنذارِ عندَ النَّاسِ، فإذا صفرت صفَّارةُ الإنذارِ لا يذهبون إلى السُّطوحِ، ولكن يذهبونَ إلى الملاجئِ، وهي أيضًا أرشدَتْهم إلى ملاجِئِهم: ﴿ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ﴾، ثمَّ فيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ هذه المساكِنَ كما أنَّها أكنانٌ يَكتَنُّ بها الإنسانُ فهي أيضًا حصونٌ يَحترِزُ بها الإنسانُ؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾[٢] [المرسلات: ٢٥، ٢٦].

٢٠- رُبَّما ذُكِر لِما لا يعقِلُ فِعلٌ يكونُ الأغلبُ فيه أن يكونَ لِمَا يعقِلُ، فيُجعَلُ لفظُه كلفظِ ما يعقِلُ تشبيهًا، قال تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، ولم يقُلْ: ادخُلْن مساكنَكنَّ لا يحطمنَّكنَّ؛ لأنَّه أخبَر عنهنَّ بالخطابِ الذي يكونُ لِما يعقِلُ، ومِن ذلك أيضًا قولُه عزَّ وجلَّ حكايةً عن يوسفَ عليه السلامُ: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، فجمَع الشَّمسَ والقمرَ والكواكبَ بالياءِ والنونِ؛ وذلك لأنَّه وصَفها بالسجودِ الذي يكونُ مما يعقِلُ، ولو أجراها على معناها وحقِّها مِن اللفظِ لقال: رأيتُها لي ساجداتٍ[٣].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٢/ ٤٧)، ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (١/ ١٥٤، ١٥٥)، ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٢٠٣) و (٢/ ٤٩).

سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ تَنويهٌ برَأْفتِه وعَدْلِه الشَّاملِ لكلِّ مَخلوقٍ لا فسادَ منه، أجْراهُ اللهُ على نَملةٍ؛ لِيَعلَمَ شَرفَ العدْلِ ولا يَحتقِرَ مواضِعَهُ، وأنَّ وليَّ الأمرِ إذا عَدَلَ سَرَى عدلُه في سائرِ الأشياءِ، وظهَرتْ آثارُه فيها، حتى كأنَّه معلومٌ عندَ ما لا إدراكَ له، فتسيرُ جَميعُ أمورِ الأمَّةِ على عَدلٍ[1].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ أنَّه لا بأسَ بالتبَسُّمِ والضَّحِكِ عندَ قيامِ أسبابِهما مِنَ التعَجُّبِ وغيرِه[2]. فيجوزُ ذلك عندَ وجودِ سببِه؛ فهذا مِن فعلِ نبيٍّ، وفعلُ الأنبياءِ حُجَّةٌ -حتَّى وإنْ كان غيرَ نبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ-؛ إلَّا ما وردَ شرعُنا بنسخِه، فهذا لا يُعتبرُ، والدَّليلُ على أنَّ فِعلَ الأنبياءِ حُجَّةٌ قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقولُه: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[3] [يوسف: ١١١].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ طلَب سُلَيمانُ عليه السَّلامُ ما يكونُ وسيلةً إلى ثوابِ الآخرةِ أوَّلًا، ثمَّ طلب ثوابَ الآخرةِ ثانيًا؛ أمَّا وسيلةُ الثَّوابِ فهي أمْرانِ:

**أحدُهما:** شُكرُ النِّعمةِ السَّالفةِ، والثاني: الاشتغالُ بسائرِ أنواعِ الخِدمةِ؛ أمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٧٦)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٣).

قال ابن عثيمين: (يقولون: إنَّ الضَّحِكَ ثلاثةُ أنواعٍ: ابتِدائيٌّ ووسَطٌ وانتِهائيٌّ؛ الابتِدائيُّ التبسُّمُ، والوسَطُ الضَّحِكُ، والمنتهي القَهْقَهةُ، والقهقهةُ لا تليقُ بالإنسانِ العاقلِ الرَّزينِ، والتبسُّمُ هو أكثَرُ ضَحِكِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، والضَّحِكُ يكونُ مِنَ الأنبياءِ أحيانًا، فهنا تبسَّمَ ضاحكًا...). ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٤).

الاشتغالُ بشُكرِ النِّعمةِ السَّالفةِ، فهي قَولُه تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، وأمَّا الاشتغالُ بسائرِ أنواعِ الخِدمةِ، فقَولُه: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾.

وأمَّا طلَبُ ثوابِ الآخرةِ فقَولُه: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ رَدٌّ على المُعتزلةِ والقدَريَّةِ؛ إذْ كان سُلَيمانُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَسألُ اللهَ أن يُلهِمَه الشُّكرَ، ويُنهِضَه للعَمَلِ الصالحِ، ويُدخِلَه برحمتِه في صالحِ عبادِه. وهل يخلو مِن أنْ يكونَ دعا بما هو مُستَغنٍ به فيُنسبَ إلى أنَّ دعاءَه حَشْوٌ، ومعاذَ اللهِ! أو دعا وهو يُوقِنُ أنَّه لا يَقدِرُ على شَيءٍ البَتَّةَ إلَّا به أو بمعونتِه، فإذا عَدِمَه لم يَقدِرْ؟ فكيف يزعمونَ أنَّ العبدَ قادرٌ على عملِه مُنفَرِدًا به، ونبيُّ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَبرأُ مِنَ الحَولِ والقوَّةِ هذا التبَرُّؤَ، ويَستَلْهِمُ اللهَ جلَّ جلالُه ما لا يَتِمُّ أمرُه إلَّا به[2]؟!

٢٥- أنَّ نِعمةَ اللهِ على الوالِدَينِ نِعمةٌ على الولَدِ؛ لِقَولِه: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾، ولا سيَّما نعمةُ الإسلامِ؛ فإنَّها مِن أكبرِ النِّعَمِ على الولدِ؛ فلو مات طِفلٌ وأبواه كافِران، لكان هذا الطِّفلُ في الدُّنيا في حكمِ الكافرينَ، وفي الآخرةِ اللهُ أعلمُ بحالِه، ولو مات طفلٌ بيْنَ أبوينِ مُسلِمَينِ لكان هذا الطِّفلُ مُسلمًا في الدُّنيا والآخرةِ، وعلى هذا فنِعمةُ اللهِ على الوالدينِ -ولا سيَّما في الدِّينِ- نعمةٌ على الولدِ، وهذا هو وَجهُ قَولِه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٤).

وأيضًا فإنَّ نعمةَ اللهِ على الولدِ هي نعمةٌ على والديه؛ فهو مِن أثَرِهما، ومِثْلُ حسناتِه في ميزانِهما؛ لأنَّهما أصلُ ذلك وسببُه، ويدعو له الناسُ؛ فيَدْعُون لهما كُلَّما دَعَوا له، ويقولون: رضيَ اللهُ عنك وعن والِدَيك، ويدعو هو لهما، وقد يُؤْذَنُ له فيَشْفَعُ لهما، فالنِّعمةُ على الوالدِ هي نعمةٌ مُزدَوجةٌ بيْنَهما؛ ولهذا ذَكَرَ سُليمانُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ نعمةَ اللهِ على والديه مع نعمتِه عليه(١).

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّ مِن العقلِ والعَدلِ والشَّرعِ إضافةَ المِنَّة إلى المانِّ بها؛ لِقَولِه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ وهذا اعترافٌ، وأبلغُ مِن أنْ يقولَ الإنسانُ: أوزِعْني أنْ أشكرَ النِّعمةَ فقط؛ لأنَّ قَولَه: ﴿نِعْمَتَكَ﴾ واضحٌ جدًّا في خُضوعِ هذا الإنسانِ بهذه النِّعمةِ العَظيمةِ التي أنعَمَ اللهُ بها عليه، فهذه فيها دليلٌ أنَّه مِن العَقلِ والعَدلِ والشَّرعِ إضافةُ المِنَّةِ إلى المانِّ بها، حتى ولو كان آدميًّا(٢).

٢٧- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، في قَولِه: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ كغَيرِهم مُفتَقِرونَ إلى توفيقِ اللهِ، وأنَّهم بِدُونِ توفيقِ اللهِ سبحانه وتعالى ما يَسيرون سيرًا يُرضِي اللهَ(٣)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٧).
وقال الرازي: (ولَمَّا كان الإنعامُ على الآباءِ إنعامًا على الأبناءِ؛ لأنَّ انتسابَ الابنِ إلى أبٍ شَريفٍ نعمةٌ مِن الله تعالى على الابنِ- لا جَرَمَ اشتغَلَ بشُكرِ نِعَمِ اللهِ على الآباءِ بِقَولِه: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢٨- قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ العملُ غيرُ الصَّالحِ ليس فيه فائِدةٌ، بل هو دائرٌ بينَ أمْرَينِ: إمَّا الإثم، وإمَّا السَّلامةِ فقط، فإنْ صدرَ عن عِلم فهو إثمٌ، وإنْ صدَرَ عن جَهلٍ فالإنسانُ سالمٌ، ولكِنْ لا فائدةَ له فيه؛ كما لو صلَّى الإنسانُ مَثلًا صلاةً باطِلةً بحَدَثٍ، فإنَّه إن تعَمَّد ذلك كان آثِمًا، وإنْ كان جاهِلًا لم تُفِدْه في إبراءِ الذِّمَّةِ، ويُطالَبُ بإعادتِها، أمَّا الأجرُ فقد يؤجَرُ عليها مِن أجْلِ النِّيَّةِ والعملِ الذي حَصَل والمشَقَّةِ، ولكِنْ مِن حيثُ الفائدةُ لا يَستفيدُ منها في إبراءِ ذِمَّتِه، ولا تَسقُطُ عنه[1].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ؛ لأنَّه أضاف العمَلَ إليه، وقولُه: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا﴾ معناه أنَّه يمكنُ أنْ يعملَ غيرَ صالحٍ؛ فهو مُختارٌ[2].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّ دخولَ الجنةِ هو برحمتِه وفضْلِه سُبحانَه، لا باستِحقاقٍ مِن جانبِ العبدِ[3]، فالإنسانُ لا يَصِلُ إلى غايتِه ومقصودِه إلَّا برحمةِ اللهِ في كلِّ شيءٍ -الجنَّةِ وغيرِ الجنَّةِ- يعني: إذا لم يَرحمْك اللهُ فلن تَنالَ شيئًا أبدًا[4]، فهذه الآيةُ مُناديةٌ بأعلَى صوتٍ، وأوضَحِ بيانٍ بأنَّ دُخولَ الجنَّةِ الَّتي هيَ دارُ المؤمِنينَ بالتَّفضُّلِ مِنَ الله، لا بالعملِ من العِبادِ، كما قال الصادقُ المصدوقُ فيما ثَبَت عنه فِي الصَّحِيحِ: ((سَدِّدُوا وقارِبوا واعْلَموا أنَّه لن يدخُلَ أحدٌ الجنَّةَ بعملِه، قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللَّهِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٥).

قالَ ولا أنا إلَّا أنْ يتغَمَّدَني اللَّهُ برحمتِه))[١]، فإذا لم يَكُنْ إلَّا تفضُّلُ الله الواسعُ فتركُ طلبِه منه عجزٌ، والتَّفريطُ في التَّوسُّلِ إليه بالإيصالِ إليه تضييعٌ[٢].

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ جوازُ التوسُّلِ بصِفاتِ اللهِ؛ لقولِه: ﴿بِرَحۡمَتِكَ﴾[٣].

٣٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في قَولِه: ﴿فِي عِبَادِكَ﴾ أنَّ العبادةَ مَرتَبةٌ شَريفةٌ عظيمةٌ يَسألُها حتَّى الأنبياءُ؛ ولهذا يَذكُرُ اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ بوصفِ العبوديَّةِ في أعلَى مقاماتِه؛ عندَ إنزالِ القرآنِ، وعندَ الدفاعِ عنه، وما أشبَهَ ذلك[٤].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ﴾ سؤالٌ: وهو أنَّه قال اللهُ تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] فأفاد أنَّ الأعمالَ سببٌ في دخولِ الجنَّةِ، وفي هذه الآيةِ: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ﴾ أفاد أنَّ الدخولَ بالرَّحمةِ!

**الجوابُ**: لا مُنافاةَ بيْنَهما؛ فالأعمالُ سببٌ شرعيٌّ لدُخولِ الجنَّةِ، والهدايةُ إليه والتَّوفيقُ فيه وقَبولُه: هو رحمةٌ مِن اللهِ جزاءً؛ لأنَّه لا يَنتفعُ به؛ إذْ هو الغَنيُّ عن خلْقِه، وإنما تفضَّلَ فجعلَه سببًا في نَيلِ ثوابِه، ثم تفضَّلَ فجَعَلَ الجزاءَ مُضاعَفًا، ووفَّى الصَّابرينَ أجرَهم بغيرِ حسابٍ[٥]!

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ١٣٦). ويُنظر أيضًا: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٨٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٣٦) و(٦/ ٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٧٠، ٧١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٨٧، ٨٨).

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّ الصَّالحينَ -بما امتازوا به مِن كَمالٍ- صاروا كأنَّهم في حِمًى خاصٍّ بهم، لا يَدخُلُ عليهم فيه إلَّا مَن كان مِثْلَهم، فلهُم مقامُهم في الرَّفيقِ الأعلى، ولهم مَنازِلُهم في الجنَّةِ، ولهم ذِكرُهم الطَّيِّبُ عندَ اللهِ وعندَ العِبادِ، وهذه المنازلُ والمقاماتُ لا يَدخُلُها العبدُ إلَّا برحمةٍ مِن اللهِ بتيسيرٍ لأسبابِها، وتفضُّلٍ عظيمٍ[1].

٣٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّ الأرواحَ النُّورانيَّةَ الطَّاهرةَ السَّاميةَ لا لَذَّةَ لها حقيقيَّةً في هذا العالَمِ الفاني المادِّي المنحَطِّ، وإنَّما لَذَّتُها الحقيقيَّةُ في عالَمِها العالي الأقدَسِ، وفي الرَّفيقِ الأعلى الأطْهَرِ، وفي معاشرةِ أمثالِها مِنَ النُّفوسِ الطَّيِّبةِ الزَّكيَّةِ في ذلك القُدسِ الأَسْنى؛ فهي دائمةُ الشَّوقِ إليه، والانجذابِ نحوَه؛ ولذا كان مِن دعواتِ الأنبياءِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- الدُّخولُ في الصَّالحينَ، واللُّحوقُ بهم، مِثلُ قولِ سُليمانَ هنا، وقولِ إبراهيمَ: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، وقولِ يوسفَ: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2] [يوسف: ١٠١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ عِلۡمٗاۖ وَقَالَا ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّنۡ عِبَادِهِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِتَقريرِ ما سبَقَ مِن أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُلقَّى القرآنَ مِن لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ؛ فإنَّ قِصَّتَهما عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن جُملةِ القرآنِ الكريمِ، لُقِّيَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن لَدُنْهُ تعالى كقِصَّةِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٦).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ تَصديرُه بالقسَمِ؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بتَحقيقِ مضمونِه[1]. وقيل: افتِتاحُ الجُملةِ بلامِ القَسمِ وحَرفِ التَّحقيقِ (قد)؛ لتَنزيلِ المُخاطَبينَ به مَنزلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك؛ لأنَّهم جَحَدوا نُبوَّةَ مِثلِ داودَ وسُليمانَ؛ إذ قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[2] [سبأ: ٣١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ تَقديمُ ذِكْرِ داودَ لِيُبْنَى عليه ذِكْرُ سُليمانَ؛ إذ كان مُلْكُه وَرِثَه مِن أبيهِ داودَ، ولأنَّ في ذِكْرِ داودَ مَثَلًا لإفاضةِ الحِكمةِ على مَن لم يكُنْ مُتصدِّيًا لها، وما كان مِن أهلِ العلْمِ بالكتابِ أيَّامَ كان فيهم أحبارٌ وعلماءُ. فما كان عجَبٌ في نُبوَّةِ محمَّدٍ الأُمِّيِّ بيْن الأُمِّيِّينَ؛ لِيَعلَمَ المُشركونَ أنَّ اللهَ أعْطى الحِكمةَ والنُّبوَّةَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولم يكُنْ يَعلَمُ ذلك مِن قبْلُ، ولكنْ في قَومِه مَن يَعلمُ ذلك، كما قال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩]؛ فهذه القصَّةُ تَتَّصِلُ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]؛ فيصِحُّ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾ مَعطوفًا على ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ﴾ [النمل: ٧] إذا جعَلْنا (إذ) مفعولًا لفِعلِ (اذْكُرْ) مَحذوفٍ. ويصِحُّ أنْ تكونَ الواوُ للاستئنافِ، فالجُملةُ مُستأنَفةٌ. ومُناسَبةُ الذِّكْرِ ظاهرةٌ. وبعْدُ ففي كلِّ قصَّةٍ مِن قَصصِ القرآنِ عِلْمٌ وعِبْرةٌ وأُسوةٌ[3].

- وفي فِعلِ ﴿ءَاتَيْنَا﴾ ما يُؤْذِنُ بأنَّه عِلْمٌ مُفاضٌ مِن عندِ اللهِ؛ لأنَّ الإيتاءَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٣٣، ٢٣٤).

أخَصُّ مِن (علَّمْناهُ)؛ فلذلك استُغْنِيَ هنا عن كلمةِ (مِن لَدُنَّا)[١].

- وتَنكيرُ ﴿عِلْمًا﴾ لإفادةِ التَّعظيمِ والتَّكثيرِ؛ فظاهرُ قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ في سِياقِ الامتنانِ تَعظيمُ العِلْمِ الَّذي أُوتَياهُ، كأنَّه قال: (علْمًا أيَّ علْمٍ)، وهو كذلك؛ فإنَّ عِلْمَهما كان ممَّا يُستغرَبُ ويُستعظَمُ، ومِن ذلك عِلْمُ مَنطقِ الطَّيرِ وسائرِ الحيواناتِ، على أنَّ كلَّ عِلْمٍ بالإضافةِ إلى عِلْمِ اللهِ قليلٌ ضَئيلٌ. وقِيل: قال: ﴿عِلْمًا﴾؛ لأنَّه طائفةٌ مِن العِلْمِ، فالتَّنوينُ على هذا للتَّقليلِ، وهو أوْفَقُ بكونِ القائلِ هو اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ كلَّ عِلمٍ عندَه سبحانه قليلٌ. وعلى الوجهِ الأولِ التَّنوينُ للتَّعظيمِ والتَّكثيرِ، وهو أوفقُ بامتِنانِه جلَّ جلالُه؛ فإنَّه سبحانه الملكُ العظيمُ، فاللَّائقُ بشأنِه الامتِنانُ بالعظيمِ الكثيرِ؛ فلِكُلٍّ وِجْهةٌ، وكِلاهما مُناسِبٌ للمقامِ[٢].

- قولُه: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الظَّاهرُ أنَّ حِكايةَ قَولَيْهما وقَعَتْ بالمعنى، بأنْ قال كلُّ واحدٍ منهما: (الحمْدُ للهِ الَّذي فضَّلَني)؛ فلمَّا حُكِيَ القَولانِ جُمِعَ ضَميرُ المُتكلِّمِ ﴿فَضَّلَنَا﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ كلُّ واحدٍ شكَرَ اللهَ على مَنْحِه ومنْحِ قَريبِه، على أنَّه يَكثُرُ استعمالُ ضَميرِ المُتكلِّمِ المُشارِكِ لا لِقَصْدِ التَّعظيمِ، بلْ لإخفاءِ المُتكلِّمِ نفْسِه بقَدْرِ الإمكانِ تَواضعًا، كما قال سُليمانُ عقِبَ هذا: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ١٦]. وقولُه: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٦، ٢١٧)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٨١).

عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ كِنايةٌ عن تَفضيلِهما بفضائلَ غيرِ العلْم؛ فإنَّه قال: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ومنهم أهلُ العِلْم وغيرُهم، وتَنويهٌ بأنَّهما شاكرانِ نِعمتَه؛ ولأجْلِ ذلك عُطِفَ قولُهما هذا بالواوِ دونَ الفاءِ؛ لأنَّه ليس حمْدًا لِمُجرَّدِ الشُّكرِ على إيتاءِ العِلْم[1].

- وأيضًا على أنَّ عِبارةَ كلٍّ منهما (فضَّلني)، إلَّا أنَّه عبَّر عنهما عندَ الحِكايةِ بصِيغةِ المُتكلِّم مع الغيرِ إيجازًا؛ فإنَّ حِكايةَ الأقوالِ المُتعدِّدةِ سواءٌ كانتْ صادرةً عن المُتكلِّم أو عن غيرِه بعِبارةٍ جامعةٍ للكُلِّ ممَّا ليس بعَزيز، وبهذا ظهَرَ حُسْنُ مَوقعِ العطْفِ بالواوِ؛ إذ المُتبادَرُ مِن العطْفِ بالفاءِ ترتُّبُ حَمْدِ كلٍّ منهما على إيتاءِ ما أُوتِيَ كلٌّ منهما، لا على إيتاءِ ما أُوتِيَ نفْسُه فقط[2].

- وقِيل: عطْفُ قولِه: ﴿وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بالواوِ إشعارٌ بأنَّ ما قالاهُ بعضُ ما أحدَثَ فيهما إيتاءُ العلْم وشَيءٌ مِن مَواجِبِه؛ فأُضمِرَ ذلك، ثمَّ عُطِفَ عليه التَّحميدُ، كأنَّه قال: ولقدْ آتَيْناهما عِلْمًا، فعَمِلَا به، وعلَّماهُ وعرَفَا حقَّ النِّعمةِ فيه والفضيلةَ[3].

- وفي قولِهما: ﴿ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جعَلَا تَفضيلَهما على كثيرٍ مِن المُؤمنينَ دونَ جَميعِ المُؤمنينَ؛ إمَّا لأنَّهما أرادَا بالعِبادِ المُؤمنينَ كلَّ مَن ثبَتَ له هذا الوصفُ مِن الماضينَ، وفيهم مُوسى وهارونُ، وكثيرٌ مِن الأفضلِ والمُساوي، وإمَّا لأنَّهما اقْتصَدَا في العبارةِ؛ إذ لم يُحِيطَا بمَن نالهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٣، ٢٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٩٥).

التَّفضيلُ، وإمَّا لأنَّهما أرادَا بالعِبادِ أهْلَ عصْرِهما؛ فعبَّرَا بـ﴿كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ﴾ تواضُعًا للهِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ ...﴾ طُوِيَ خبَرُ مُلْكِ داودَ وبَعضِ أحوالِه إلى وَفاتِه؛ لأنَّ المقصودَ هو قصَّةُ سُليمانَ[٢].

- قولُه: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ على القولِ بأنَّ سليمانَ عُلِّم منطقَ جميعِ الطيورِ والحيواناتِ فإنَّما نصَّ على الطَّيرِ؛ لأنَّه كان جُندًا مِن جُنودِه، يَحتاجُ إليه في التَّظليلِ مِن الشَّمسِ، وفي البعثِ في الأمورِ[٣]، وأيضًا الاقتصارُ على مَنطِقِ الطَّيرِ إيجازٌ؛ لأنَّه إذا عُلِّمَ مَنطِقَ الطَّيرِ -وهي أبعدُ الحيوانِ عن الرُّكونِ إلى الإنسانِ، وأسْرَعُها نُفورًا منه- عُلِمَ أنَّ مَنطِقَ ما هو أكثرُ اختلاطًا بالإنسانِ حاصلٌ له بالأحرى، كما يَدُلُّ عليه قولُه تعالى فيما يأْتي قريبًا: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]؛ فتدُلُّ هذه الآيةُ على أنَّه عُلِّمَ مَنطِقَ كلِّ صِنْفٍ مِن أصنافِ الحيوانِ[٤]. وقيلَ: ذكَرَ سُليمانُ عليه السَّلامُ مَنطِقَ الطَّيرِ -وهو قد عُلِّمَ مَنطِقَ غيرِ الطَّيرِ أيضًا؛ فقد فَهِمَ نُطْقَ النَّملةِ-؛ لأنَّ الحيواناتِ -غَيرُ الإنسانِ- مَراتبُ: الزَّاحفةُ، والماشيةُ، والطَّائرةُ، وأشْرفُها الطَّائرةُ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٧).

لكن قال الألوسي: (لا يخفَى أنَّ الآيةَ لا تدلُّ على ذلك، فيحتاجُ القولُ به إلى نقلٍ صحيحٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٧).

فاقتَصَرَ على الطَّيرِ تَنبيهًا بالأعلى على الأَدْنى[١].

- قولُه: ﴿وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ ظاهرُه العمومُ، والمُرادُ الخصوصُ، أي: مِن كلِّ شَيءٍ يَصلُحُ لنا ونَتمنَّاهُ، وأُرِيدَ به كثرةُ ما أُوتِيَ؛ فكأنَّه مُستغرِقٌ لجميعِ الأشياءِ[٢]؛ فالمُرادُ بـ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ كلُّ شَيءٍ مِن الأشياءِ المُهمَّةِ؛ ففي ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ عُمومانِ: عمومُ (كلّ)، وعمومُ النَّكرةِ، وكِلاهُما هنا عُمومٌ عُرفيٌّ؛ فـ(كلّ) مُستعمَلةٌ في الكثرةِ، و(شَيءٌ) مُستعمَلٌ في الأشياءِ المُهمَّةِ ممَّا له عَلاقةٌ بمَقامِ سُليمانَ[٣].

- وبُنِيَ الفِعلانِ ﴿عُلِّمْنَا﴾ و(أُوتِينَا) للمفعولِ، وحُذِفَ الفاعلُ؛ للعِلْمِ به، وهو اللهُ تعالى؛ فإنَّ هذا التَّعليمَ ليس مِن مُعتادِ البشرِ، ولا مِن طُرقِهم[٤].

- وضَميرُ ﴿عُلِّمْنَا﴾ و(أُوتِينَا) جاء به على صِيغَةِ المُتكلِّمِ المُشاركِ؛ إمَّا لأنَّه أرادَ نفْسَه وأباهُ، وإمَّا لِقَصْدِ التَّواضُعِ؛ كأنَّ جماعةً عُلِّمُوا وأُوتُوا وليس هو وحْدَه، وإمَّا لأنَّه لمَّا كان مَلِكًا مُطاعًا خاطَبَ أهْلَ طاعتِه ومَمْلكتِه بحالِه الَّتي هو عليها، لا على سبيلِ التَّعاظُمِ والتَّكبُّرِ[٥]. وقِيل: عبَّرَ سُليمانُ عليه السَّلامُ عن نفْسِه بنُونِ العظمةِ، ونوَّهَ بذلك الفضلِ المُبينِ، وما كان عليه السَّلامُ لِيَتعظَّمَ بسُلطانٍ، ولا لِيَتطاوَلَ بفضْلٍ؛ فالأنبياءُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٧، ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٨). ويُنظر أيضًا: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٦).

أشدُّ الخَلْقِ تواضُعًا للهِ، وأرحَمُهم بعِبادِهِ، وإنَّما أرادَ تَعظيمَ نِعمةِ اللهِ في عُيونِ النَّاسِ، وتَفخيمَ مُلْكِ النُّبوَّةِ في قُلوبِ الرَّعيَّةِ؛ لِيَمْلأَ نُفوسَهم بالجَلالِ والهَيبةِ، فيَدْعُوهم ذلك إلى الإيمانِ والطَّاعةِ؛ فيَنتظِمَ المُلْكُ، ويَهنَأَ العيشُ، وتَمتدَّ بهم أسبابُ السَّعادةِ إلى خيرِ الدُّنيا والآخرةِ، وهذا هو الَّذي توخَّاهُ سُليمانُ عليه السَّلامُ مِن المصلحةِ بإظهارِ العَظَمةِ. ولذا لم يقُلْ: (عَلِمْتُ)، ولا: (لي) و(عندي كلُّ شَيءٍ)، ولم يقُلْ: (فَضْلِي)؛ فهو فضْلُ مَن علَّمَهُ وآتاهُ، فضَّلَه به عمَّنَ سِواهُ[1].

- والتَّأكيدُ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) وَلَامِه الَّذي هو في الأصْلِ لامُ قَسمٍ، وبضَميرِ الفصْلِ (هو): مَقصودٌ به تَعظيمُ النِّعمةِ؛ أداءً للشُّكرِ عليها بالمُستطاعِ مِن العبارةِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ فيه تَرتيبُ الجُنودِ في الذِّكرِ؛ مُراعاةً للأقْوى؛ فأعْلَاهم في ذلك الجنُّ، ثمَّ الإنسُ، ثمَّ الطَّيرُ[3]؛ فتَقديمُ الجنِّ على الإنسِ في البَيانِ؛ للمُسارَعةِ إلى الإيذانِ بكَمالِ قُوَّةِ مُلكِه وعِزَّةِ سُلطانِه مِن أوَّلِ الأمْرِ؛ لِمَا أنَّ الجنَّ طائفةٌ عاتيةٌ، وقَبيلةٌ طاغيةٌ ماردةٌ، بعيدةٌ مِن الحشْرِ والتَّسخيرِ[4].

- واقتُصِرَ على الجنِّ والطَّيرِ؛ لغَرابةِ كَونِهما مِن الجُنودِ؛ فلذلك لم يُذْكَرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٧).

الخيلُ، وهي مِن الجيشِ[١].

- وفي قوله: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ تجدُ المعنى لا يستقيمُ إلَّا على ما جاء عليه مِن بناءِ الفعلِ على الاسم؛ فإنَّه لا يخفَى على مَن له ذوقٌ أنَّه لو جِيء في ذلك بالفعلِ غير مبنيٍّ على الاسمِ فقيل: (وحُشِر لسليمانَ جنودُه مِن الجنِّ والإنسِ والطيرِ فيُوزَعون)؛ لوجَد اللفظَ قد نبا عن المعنى، والمعنى قد زالَ عن صورتِه والحالِ التي ينبغي أن يكونَ عليها[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ (حتَّى) هنا هي الَّتي يُبْتدَأُ بها الكلامُ، ومع ذلك هي غايةٌ لِما قبْلَها كالَّتي في قولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٤٠]، وهي هاهنا غايةٌ لِمَا يُنْبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ مِن السَّيرِ، كأنَّه قِيلَ: فسارُوا حتَّى إذا أتَوا... إلخ[٣]، ففيه إيجازٌ بالحذفِ؛ لأنَّ (حتَّى) للغايةِ؛ فلا بُدَّ أنْ يكونَ هناك شيءٌ محذوفٌ قبْلَها[٤].

- والإتيانُ بـ (إذا) وجَوابِها في قولِه: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾؛ لإفادةِ أنَّ قولَها كان بسَببِ إتيانِهم عندَ أوَّلِ ما أتَوْا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((دلائل الإعجاز)) لعبد القاهر (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٢).

- وفي قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ﴾ عُدِّيَ ﴿أَتَوۡاْ﴾ بحَرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ كان مِن فوق. أو يُرَادُ قطْعُ الوادي وبُلوغُ آخرِه، كأنَّهم أرادوا أنْ يَنزِلوا أُخرياتِ الوادي، مِن قولِهم: أتى على الشَّيءِ؛ إذا أنفَذَهُ وبلَغَ آخِرَه[1].

- قولُه: ﴿لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ﴾ إنْ جُعِلَت (لا) فيه ناهيةً، كانت الجُملةُ مُستأنَفةً؛ تَكريرًا للتَّحذيرِ، ودَلالةً على الفزَعِ؛ لأنَّ المُحذِّرَ مِن شَيءٍ مُفزِعٍ يأْتي بجُمَلٍ مُتعدِّدةٍ للتَّحذيرِ؛ مِن فَرْطِ المخافةِ، والنَّهيُ عن حَطْمِ سُليمانَ إيَّاهنَّ كِنايةٌ عن نَهْيِهنَّ عن التَّسبُّبِ فيه، وإهمالِ الحَذرِ منه، فالمعنى: لا تَكونوا حيثُ أنتم فيَحطِمَكم، كما يُقالُ: لا أعْرِفنَّك تَفعلُ كذا، أي: لا تَفعَلْه فأعْرِفَك بفِعْلِه، والنُّونُ توكيدٌ للنَّهيِ. وكان الأصلُ: (لا يَحْطِمَنَّكُم جُنودُ سُليمانَ)؛ فجاء بقولِه: ﴿سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨]، لِيَكونَ أبلَغَ؛ للإجمالِ والتَّفصيلِ والتَّكريرِ مع التَّبيينِ. وإنْ جُعِلَت (لا) نافيةً، كانت الجُملةُ واقعةً في جوابِ الأمرِ؛ فكان لها حُكْمُ جوابِ شَرطٍ مُقدَّرٍ؛ فالتَّقديرُ: إنْ تَدخُلوا مَساكِنَكم لا يَحطِمَنَّكم سُليمانُ، أي: يَنتَفِ حَطْمُ سُليمانَ إيَّاكنَّ، وإلَّا حَطَمَكم[2].

- قولُه: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ الْتفاتٌ حَسنٌ، أي: مِن عَدْلِ سُليمانَ وأتْباعِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٢).

ورَحمتِه ورِفْقِه: ألَّا يَحطِمَ نَملةً فما فوقَها، إلَّا بأَلَّا يكونَ لهم شُعورٌ بذلك[١]، وهذه الجُملةُ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حالٌ مِن فاعلِ ﴿يَحْطِمَنَّكُمْ﴾، مُفيدةٌ لِتَقييدِ الحَطْمِ بحالِ عَدمِ شُعورِهم بمَكانِهم، حتَّى لو شَعَروا بذلك لم يَحْطِمُوا، وأرادتْ بذلكَ الإيذانَ بأنَّها عارفةٌ بشُؤونِ سُليمانَ وسائرِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن عِصْمتِهم عن الظُّلمِ والإيذاءِ. وقِيل: الجُملةُ استئنافٌ، أي: فَهِمَ سُليمانُ ما قالَتْه، والقومُ لا يَشْعُرون بذلك[٢].

- وما أحسَنَ ما أتَتْ به هذه النَّملةُ في قولِها، وأغْرَبَه وأفصَحَه، وأجْمَعَه للمعاني! أدرَكَتْ فَخامةَ مُلْكِ سُليمانَ؛ فنادَتْ وأمَرَتْ وأنذَرَتْ[٣]، وقد اشتمَلَ قولُها في هذه الآيةِ على أحَدَ عشَرَ نوعًا مِن البلاغةِ يَتولَّدُ بعضُها مِن بعضٍ؛ أوَّلُها: النِّداءُ بـ (يا). وثانيها: كنَّتْ بـ (أيُّ). وثالثُها: نبَّهَت بـ (ها) التَّنبيهِ. ورابعُها: سمَّت بقولِها: ﴿ٱلنَّمْلُ﴾. وخامسُها: أمَرَتْ بقولِها: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾. وسادسُها: نصَّتْ بقولِها: ﴿مَسَٰكِنَكُمْ﴾. وسابعُها: حذَّرت بقولِها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾. وثامنُها: خَصَّصَت بقولِها: ﴿سُلَيْمَٰنُ﴾. وتاسعُها: عمَّمَت بقولِها: ﴿وَجُنُودُهُۥ﴾. وعاشِرُها: أشارَتْ بقولِها: ﴿وَهُمْ﴾. وحادي عَشَرَها: عذَرَتْ بقولِها: ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾!

وأدَّتْ خمْسَ حقوقٍ: حقَّ الله، وحقَّ رسولِه، وحقَّها، وحقَّ رعيَّتِها، وحقَّ جُنودِ سُلَيمانَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٢٧)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ١٨٥).

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

- قوله: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ لَمَّا كان التَّبسُّمُ يكونُ للاستهزاءِ وللغضَبِ، كما يقولونَ: تَبسَّمَ تبسُّمَ الغَضبانِ، وتبسَّمَ تَبسُّمَ المُستهزئِ، وكان الضَّحِكُ إنَّما يكونُ للسُّرورِ والفَرحِ؛ أتى بقولِه: ﴿ضَاحِكًا﴾[1].

- ولأجْلِ أنَّ قولَه: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ كان مَبْنيًّا على أمْرينِ: على شُهرةِ حالِه وحالِ جُنودِه في بابِ التَّقوى، وعلى إدراكِه بسَمعِه ما همسَ به بعضُ الحُكْلِ[2] ومِن إحاطتِه بمعناهُ؛ أرَدَفه بقولِه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾؛ لأنَّهما نِعمتانِ جَليلتانِ مُوجِبتانِ شُكْرَ مُنعِمِهما[3].

- ولَمَّا سأَلَ ربَّه شيئًا خاصًّا، وهو شُكرُ النِّعمةِ، سأَلَ شيئًا عامًّا، وهو أنْ يَعمَلَ عملًا يَرْضاهُ اللهُ تعالى، فانْدرَجَ فيه شُكرُ النِّعمةِ؛ فكأنَّه سأَلَ إيزاعَ الشُّكرِ مرَّتينِ[4].

- قولُه: ﴿تَرْضَىٰهُ﴾ وَصْفٌ مُؤكِّدٌ، وقد يكونُ للتَّقييدِ؛ لأنَّ العملَ الصَّالحَ يَرْضَى عنه اللهُ، وإنَّما ذَكَرَ الوَصفَ؛ لِيُفِيدَ أنَّ رِضَا اللهِ مَقصودٌ بالعملِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٣). ويُنظر أيضًا: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ١٧٥) و(٣/ ٥٠٤).

(٢) الحُكْلُ: ما لا يُسمَعُ له صَوتٌ؛ كالذَّرِّ والنَّملِ. يُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٦٧٢)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَهْ (٣/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٢).

الصَّالحِ[١]، وأنَّ العملَ الصالحَ قد لا يرضاه المنعِمُ لنقصٍ في العاملِ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: اجْعَلني مِن أهْلِ الجنَّةِ، فهو كِنايةٌ[٣]. والإدخالُ في العِبادِ الصَّالحينَ بمَعنى جَعلِه واحدًا منهم؛ فشبَّه إلْحاقَه بهم في الصَّلاحِ بإدخالِه عليهم في زُمْرتِهم، وسُؤالُه ذلك مُرادٌ به الاستِمرارُ والزِّيادةُ مِن رَفْعِ الدَّرجاتِ؛ لأنَّ لعبادِ اللهِ الصَّالحينَ مَراتبَ كثيرةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٤).

## الآيات (٢٠-٢٨)

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَتَفَقَّدَ﴾: التفَقُّدُ: تَطَلُّبُ المفقودِ، وكُلُّ شَيءٍ غاب عنك ثم تَتَبَّعْتَه طالبًا له قُلْتَ: تَفَقَّدتُه، بُنِيَ على: تفعَّلَ؛ لأنَّه تكَلُّفٌ في الطَّلَبِ، وأصلُ (فقد): يدُلُّ على ذَهابِ شَيءٍ وضَياعِه[1].

﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: أي: بعُذرٍ وحجةٍ، وأصل (سلط): القوَّةُ والقهرُ[2].

﴿فَمَكَثَ﴾: أي: انتظَر، والمكثُ: يدُلُّ على ثباتٍ مع انتظارٍ وتوقُّفٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

﴿أَحَطتُ﴾: أي: عَلِمتُ، وأصلُ ذلك راجعٌ إلى معنَى الحائطِ؛ لإحاطتِه بما يَدورُ عليه[١].

﴿عَرْشٌ﴾: أي: العرشُ: سريرٌ وكرسيٌّ للمَلِكِ، وأصلُه يَدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبْنيٍّ[٢].

﴿ٱلْخَبْءَ﴾: أي: الغائِبَ المستورَ، يُقالُ: خبأتُ الشَّيءَ خبْأً: إذا أخفَيتَه، وأصلُ (خبأ): يدُلُّ على سَترِ الشَّيءِ[٣].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾

(ألَّا) بتشديدِ اللامِ أصلُها (أنْ لا)، فأُدغِمَت النُّونُ في اللامِ، و ﴿يَسْجُدُوا۟﴾ فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ بـ(أن) المصدريَّةِ، بدلٌ مِن ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، والتَّقديرُ: وزيَّنَ لهم الشيطانُ عدَمَ السُّجودِ لله تعالى. وقيل: (لا) زائدةٌ، و(أنْ) وما دخَلت عليه في تأويلِ مَصدرٍ بدلٌ من ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾، والتقديرُ: فصَدَّهم عن السُّجودِ لله تعالى. وقيل: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ مفعولٌ له متعلِّقٌ بـ(زَيَّن)، أي: زَيَّن لهم لِئلَّا يَسجدُوا. أو متعلِّقٌ بـ(صَدَّهم)، أي: صَدَّهم عن السَّبيلِ لئلَّا يَسجُدوا. وقيل: هو في محلِّ رَفْعٍ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، على تقديرِ: هي ألَّا يَسجُدوا، أو دأبُهم ألَّا يسجدوا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣).

وقيل غيرُ ذلك.

وقُرِئَ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ بتخفيفِ اللَّامِ[١]، وكان حَقُّ الخَطِّ على هذه القراءةِ أن يكونَ (ألَا يا اسْجُدوا) و (ألَا) للاستفتاحِ والتَّنبيهِ، و (يا) أيضًا حرفُ تنبيهٍ، وقد جُمِعَ بيْنَهما تأكيدًا. وقيل: (يا) حرفُ نداءٍ، والمنادى مَحذوفٌ، أي: يا هؤلاءِ، و(اسجُدوا) فِعلُ أمرٍ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: وتعاهَدَ سُليمانُ عليه السَّلامُ الطَّيرَ فلم يرَ الهُدهدَ، وعندَها قال: لِماذا لا أرى الهدهُدَ، أم هو غائِبٌ؟ واللهِ لَأُعَذِّبَنَّه عذابًا شديدًا، أو لأذبحنَّه، أو لَيأتيَنِّي بحُجَّةٍ ظاهرةٍ أعذِرُه بها. وما هو إلَّا زمنٌ يَسيرٌ ثمَّ جاء الهدهدُ إلى سُليمانَ، فقال له: عَلِمتُ بشَيءٍ لا تَعلَمُه، وأتيتُك مِن بلادِ سَبأٍ باليَمَنِ بخَبرٍ حقٍّ! إنِّي وجدتُ امرأةً تملِكُ أهلَ سَبأٍ، وأُعطيَتْ مِن كلِّ شَيءٍ، ولها سريرُ مُلكٍ عَظيمٌ؛ وجَدْتُها وقَومَها يَسجُدونَ للشَّمسِ مِن دونِ الله، وحسَّن الشيطانُ لهم عبادةَ الشَّمسِ وغَيرَها من الأعمالِ السَّيِّئةِ، فصرَفَهم الشَّيطانُ عن الطَّريقِ المستقيمِ، فهم لا يهتدون لطَريقِ الحَقِّ؛ ألَّا يَسجُدوا لله الَّذي يُخرِجُ المخبوءَ في السَّمواتِ وفي الأرضِ، ويَعلَمُ ما تُخفونَه في صُدورِكم، وما تُظهِرونَه مِن أقوالِكم وأفعالِكم! اللهُ لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو، ربُّ العرشِ العظيمِ.

قال سُليمانُ للهُدهدِ: سنَنظُرُ في عُذرِك؛ لنعلَمَ هل صدقْتَ أم أنَّك كاذِبٌ،

---

(١) سيأتي بيانُ القراءاتِ في هذه الآيةِ.

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٠٨)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٠٢).

اذهَبْ إليهم بهذه الرِّسالةِ المكتوبةِ فأَلْقِها إليهم، ثمَّ انصَرِفْ عنهم إلى موضِعٍ قَريبٍ وانظُرْ جَوابَهم وما يتراجَعون به بيْنَهم مِنَ الكَلامِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ ٢٠﴾.

أي: وتعاهَدَ سُلَيمانُ الطَّيرَ[١]، فقال حينَ لم يَرَ الهدهُدَ: ما لي لا أرَى الهُدهُدَ[٢]؟ أهو حاضِرٌ فأخطأَه بَصَري، أمْ أنَّه غاب بلا إذْني فلم يَحضُرْ[٣]؟!

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٢١﴾.

﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾.

أي: قال سُلَيمانُ متغيِّظًا: واللهِ لأُعَذِّبَنَّ الهُدهُدَ عذابًا شديدًا؛ لغيابِه بلا إذْنٍ[٤].

---

(١) قيل: ظاهِرُ الآية يفيدُ أنه تفقَّد جميعَ الطَّيرِ. وممَّن قال بذلك: ابن عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٢) قولُه: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ قيل: هذا مِن مقلوبِ الكلامِ، أي: ما لِلهُدهدِ لا أراه، وجاز مِثلُ ذلك لوُضوحِ المعنَى، كما تقولُ العربُ: ما لي أراكَ مكتئبًا، أي: ما لَكَ؟

وقيل: لا حاجةَ إلى ادِّعاءِ القلبِ، بل هو استفهامٌ عن المانعِ له مِن رؤيةِ الهدهدِ، كأنَّه قال: ما ليَ لا أَراه، هل ذلك لساترٍ يستُرُه عنِّي، أو لشَيءٍ آخَرَ؟ يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٦).

قال السعدي: (﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا﴾ دونَ القتلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤). =

﴿أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾.

أي: أو[١] لأقتُلَنَّه[٢].

﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: أو[٣] ليأتينِّي بحُجَّةٍ واضحةٍ تبيِّنُ عُذرَه في غيابِه[٤].

﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ ٢٢﴾.

﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ﴾.

أي: فبَقِيَ الهدهُدُ غائبًا زمنًا يَسيرًا[٥]، ثمَّ جاء إلى سُلَيمانَ فقال له: عَلِمتُ

---

= وقال ابنُ عثيمين: (فالصَّوابُ أنَّ هذا التعذيبَ الذي قاله سليمانُ غيرُ معلومٍ لنا، إنَّما هو عذابٌ شديدٌ، والله تبارك وتعالى لم يُبيِّنْه، ولكنْ يكفي أن نعرِفَ أنَّه شديدٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٢).

(١) قال ابن عثيمين: (﴿أَوۡ﴾ هذه للتَّنويعِ؛ يعني: إمَّا هذا، أو هذا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٥).

(٣) قال البقاعي: (أي: لَيكونَنَّ أحَدُ هذه الثلاثةِ الأشياءِ، أو تكونُ ﴿أَوۡ﴾ الثَّانيةُ بمعنى (إلَّا أنْ)، فيكون المعنى: ليكونَنَّ أحَدُ الأمْرَينِ: التَّعذيبُ أو الذَّبحُ، إلَّا أن يأتيَني ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي: حُجَّةٍ واضحةٍ في عُذرِه، فكأنَّه قال: واللهِ لَيُقيمَنَّ عُذرَه، أو لأفعلَنَّ معه أحَدَ الأمْرَينِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤٩، ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٣).

(٥) قال ابن عاشور: (المُكثُ: البقاءُ في المكانِ وملازمتُه زمَنًا ما... و﴿غَيۡرَ بَعِيدٖ﴾ صفةٌ لاسمِ زمانٍ أو اسمِ مكانٍ محذوفٍ منصوبٍ على الظَّرفيةِ، أي: مكَثَ زمنًا غيرَ بعيدٍ، أو في مكانٍ غيرِ بعيدٍ، وكِلا المعنيينِ يقتضي أنَّه رجَعَ إلى سُلَيمانَ بعد زمنٍ قليلٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨).

بشَيءٍ لا تعلَمُه أنتَ[١]!

﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾.

أي: وأتيتُك مِن بلادِ سَبَأٍ باليمَنِ بخَبَرٍ حقٍّ، وصِدقٍ لا شكَّ فيه[٢].

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾.

أي: قال الهدهدُ: إنِّي وجدتُ امرأةً تملِكُ أهلَ سَبأٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨).

ممَّن قال بأنَّ قوله تعالى: ﴿فَمَكَثَ﴾ عائدٌ على الهدهدِ: البيضاويُّ، والنسفي، وابن كثير، والشوكاني، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. ونسَبَه القرطبيُّ للأكثَرِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٢).

وقيل: المَكثُ هنا عائدٌ على سُلَيمانَ عليه السَّلامُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٣٩٣).

قال القرطبيُّ: (الضميرُ في «مكث» يحتملُ أن يكونَ لِسُليمانَ، والمعنى: بقِيَ سليمانُ بعدَ التفقُّدِ والوعيدِ غيرَ طويلٍ، أي: غيرَ وقتٍ طويلٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

قال الشوكاني: (سبأٌ: اسمٌ لمدينةٍ باليمنِ كانت فيها بِلْقِيسُ، وهو أيضًا اسمُ رجُلٍ مِن قَحْطانَ، وهو سبأُ بنُ يَشْجُبَ بنِ يَعْرُبَ بْنِ قَحْطانَ...). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤). =

﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

أي: وأُعطيَتْ هذه المِلكةُ مِن كلِّ شَيءٍ[١].

﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: وسريرُ مُلكِها الذي تجلِسُ عليه ضَخمٌ، عَظيمُ القَدرِ، بديعٌ، حَسَنُ المنظَرِ[٢].

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ٢٤﴾.

﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وجَدْتُ هذه المِلكةَ وقَومَها يَسجُدونَ للشَّمسِ فيَعبُدونَها مِن دونِ الله

---

= قال ابن باديس: (هي بِلْقِيسُ بإجماعِ المفسِّرينَ والمؤرِّخينَ). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٣).

قال ابن تيميَّةَ: (﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فإنَّ كلَّ أحدٍ يعلَمُ بعَقلِه أنَّ المرادَ: أُوتيَت مِن جنسِ ما يُؤْتاهُ مِثلُها). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٣٦١).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ عمومٌ يُرادُ به الخصوصُ فيما يحتاجه الملكُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠١).

وقيل: المعنَى: أُوتِيَتْ مِن كلِّ شَيءٍ في زمانِها شيئًا، فحَذَف (شيئًا)؛ لأنَّ الكلامَ قد دلَّ عليه. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٣).

قال السعدي: (وعِظَمُ العُروشِ يدُلُّ على عَظمةِ المملكةِ، وقوَّةِ السُّلطانِ، وكثرةِ رجالِ الشُّورى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

المستَحِقِّ وَحْدَه للعبادةِ[١]!

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

أي: وحسَّن الشَّيطانُ لهؤلاء القَومِ المُشرِكينَ عبادةَ الشَّمسِ وغَيرَها مِن قبائِحِ الأعمالِ، فصاروا يظنُّونَها حَسَنةً[٢].

﴿فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾.

أي: فصرَفَهم بذلك التَّزيينِ عن اتِّباعِ الطَّريقِ المستقيمِ، فهم لا يَهتَدونَ لطَريقِ الحَقِّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧].

﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ٢٥﴾.

﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿أَلَا يَا﴾ بتخفيفِ اللَّامِ، ويجوزُ الوقفُ عليها، والابتداءُ بـ (اسْجُدُوا)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٤).

بهمزةٍ مضمومةٍ، على أنَّ معنى (ألا) تنبيهٌ واستِفتاحٌ، و (يا) بعدَها حرفُ نداءٍ، أو تنبيهٌ كُرِّر للتَّوكيدِ، و (اسجُدوا) فِعلُ أمرٍ، والمعنى: ألَا يا هؤلاءِ اسجدُوا. وقيل: هو فعلٌ مضارعٌ حُذِفت منه نونُ الرَّفعِ بلا ناصبٍ ولا جازمٍ، وحذفُها بلا موجبٍ لغةٌ صحيحةٌ[١].

٢- قِراءةُ ﴿أَلَّا﴾ بتشديدِ اللَّام، وجَعْلِ (أن) النَّاصبةِ مُدغَمةً في (لا) النَّافية، و﴿يَسْجُدُوا۟﴾ بالياءِ في أوَّلِها، أي: لئلَّا يَسجُدوا، والمعنى: صَدَّهم الشَّيطانُ عن الهُدى؛ لئلَّا يَسجُدوا لله. وقيل: المعنى: وزيَّن لهم الشَّيطانُ ألَّا يسجُدوا لله. وقيل: (لا) صِلةٌ للتأكيدِ، والمعنى: فصَدَّهم عن السَّبيلِ عدَمُ سُجودِهم لله. أو المعنى: فهُم لا يهتدون لِأَنْ يَسجُدوا لله، أي: للسُّجودِ للهِ[٢].

﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألَّا[٣] يَسجُدوا لله الذي يُخرِجُ المخبوءَ في السَّمواتِ، كالمطَرِ، والمخبوءَ في الأرضِ، كالنَّباتِ والثِّمارِ والكنوزِ والمعادنِ، وكالأمواتِ الذين يُخرِجُهم مِن قُبورِهم[٤].

---

(١) قرأ بها الكسائي وأبو جعفر ورويس. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٥٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٢- ١١٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٧١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٠).

(٣) تقدَّم ذكرُ الأوجهِ المتعدِّدة في معناها بحسَبِ قراءاتها وإعرابِها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١-٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٩، ١١٠). =

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

أي: ويعلَمُ ما تُضمِرونَه في صُدورِكم، وما تُظهِرونَه مِن أقوالِكم وأفعالِكم[1].

كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ * سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ [الرعد: ٩، ١٠].

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: اللهُ لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه، مالِكُ العَرشِ العَظيمِ الذي لا يُشبِهُه عَرشُ مَلِكةِ سَبأٍ ولا غَيرُه مِن العُروشِ؛ فهذا المَلِكُ العَظيمُ السُّلطانِ هو مَن تنبغي عبادتُه وطاعتُه وَحْدَه[2].

---

= قال القرطبي: (قراءةُ التَّشديدِ في ﴿أَلَّا﴾ تعطي أنَّ الكلامَ للهدهدِ، وقراءةُ التخفيفِ تمنعُه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٧).

وقال الشوكاني: (وعلى هذه القراءةِ [أي: التشديد] تكونُ جملةُ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾ معترِضةً مِن كلامِ الهدهدِ، أو مِن كلامِ سليمانَ، أو مِن كلامِ الله سبحانه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٥).

وقال ابن كثير: (وهذا مناسِبٌ مِن كلامِ الهدهدِ، الَّذي جَعَل اللهُ فيه مِن الخاصِّيَّةِ ما ذَكَره ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه، مِن أنَّه يَرَى الماءَ يجري في تخومِ الأرضِ ودواخِلِها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٤).

قال القرطبي في قولِه تعالى: ﴿تُخْفُونَ﴾ ﴿تُعْلِنُونَ﴾: (قراءةُ العامَّةِ فيهما بياءٍ، وهذه القراءةُ تعطي أنَّ الآيةَ مِن كلامِ الهدهدِ، وأنَّ اللهَ تعالى خصَّه مِن المعرفةِ بتوحيدِه ووجوبِ السُّجودِ له، وإنكارِ سجودِهم للشَّمسِ، وإضافتِه للشَّيطانِ، وتزيينِه لهم، ما خصَّ به غيرَه من الطُّيورِ وسائرِ الحَيوانِ، مِن المعارفِ اللَّطيفةِ الَّتي لا تكادُ العقولُ الرَّاجحةُ تهتدي لها. وقرأ الجحدري وعيسى بنُ عمر وحفصُ والكِسائيُّ: ﴿تُخْفُونَ﴾ و﴿تُعْلِنُونَ﴾ بالتَّاءِ على الخطابِ، وهذه القراءةُ تعطي أنَّ الآيةَ مِن خطابِ الله عزَّ وجلَّ لأمَّةِ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

﴿ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أي: قال سُلَيمانُ للهُدهُدِ: سنَنظُرُ في عُذرِك لنعلَمَ هل صدقْتَ فيه فنَعذِرَك، أم أنَّك كاذِبٌ مِنَ الكاذبينَ[1]؟

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾.

أي: قال سُليمانُ للهُدهُدِ: اذهَبْ إلى أهلِ سبَأٍ بهذه الرِّسالةِ المكتوبةِ، فارْمِها إليهم[2].

﴿ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾.

أي: ثمَّ انصَرِفْ وتَنَحَّ عنهم إلى موضِعٍ قَريبٍ مِن ملِكةِ سَبأٍ وقَومِها، وانظُرْ جوابَهم وما يتراجَعون به بيْنَهم مِن الكَلامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧١).

قال البقاعي: (شرَعَ فيما يختبرُه به، فكتب له كتابًا على الفورِ في غايةِ الوجازةِ؛ قصدًا للإسراعِ في إزالة المنكَرِ على تقديرِ صِدقِ الهدهدِ، بحسَبِ الاستطاعةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٥٥).

وقال ابنُ عثيمين: (إذا قال قائلٌ: قَولُه: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا ﴾ يقتضي أنَّه صَدَّقَه؛ لأنَّ قَولَه: ﴿ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ﴾ يدُلُّ على أنَّه صَدَّقَه في ذلك؛ ولهذا كَتَب لهم. أو يقالُ: هذا مِن جملةِ الاختبارِ، يعني: أنَّه إذا كان كاذبًا فسيقولُ: ما وجدْتُ أحدًا، مثلًا، فيكونُ هذا مِن جملةِ وسيلةِ الاختبارِ العائدةِ على قَولِه: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾. وقد يقالُ: إنَّ في قَولِه: ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ ﴾ تقديرًا: فنظَرَ وتحقَّق صِدقَه فأعطاه الكتابَ. والله أعلمُ بما جرى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩). =

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾ هذا التفقُّدُ منه أدَبٌ للمُلوكِ والأكابرِ في تَفَقُّدِ جُندِهم، واستِشفافِ أمرِهم، ومُقابلةِ مَن أخَلَّ منهم بشَرطِه مِن الإنكارِ بما يستحِقُّه[١]، ففي هذه الآيةِ دَليلٌ على تفَقُّدِ الإمامِ أحوالَ رعيَّتِه، والمحافظةِ عليهم. فانظُرْ إلى الهدهُدِ مع صِغَرِه كيف لم يَخْفَ على سُلَيمانَ حالُه[٢]. ومِن حقِّ الرعيةِ على راعيها أنْ يَتَفَقَّدَها، ويَتَعَرَّفَ أحوالَها؛ إذْ هو مسؤولٌ عنِ الجليلِ والدَّقيقِ منها، يُباشِرُ بنَفْسِه ما استطاع مباشرتَه منها، ويضَعُ الوسائلَ التي تُطْلِعُه على ما غاب عليه منها، ويُنيطُ بأهلِ الخبرةِ والمقدرةِ والأمانةِ تَفَقُّدَ أحوالِها حتى تكونَ أحوالُ كلِّ ناحيةٍ معروفةً مباشرةً لِمَن كُلِّفَ بها، فهذا سليمانُ -على عَظمةِ ملْكِه، واتِّساعِ جيْشِه، وكثرةِ أتْباعِه- قد تولَّى التفقُّدَ بنَفْسِه، ولم يُهْمِلْ أمْرَ الهدهدِ على صِغَرِه وصِغَرِ مكانِه! وقد كان عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه يقول: (لو ماتتْ سَخْلَةٌ[٣] على شاطِئِ الفُراتِ ضيعةً لخِفْتُ أنْ أُسألَ عنها)[٤]! وهذا التفقُّدُ والتَّعرُّفُ هو على كلِّ راعٍ في الأممِ، والجماعاتِ، والأُسَرِ، والرفاقِ، وكلِّ مَن كانت له رعيةٌ[٥].

---

= قال السيرافي: (قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ ليس التولِّي الانصرافَ عنهم، وإنَّما معناه: تنحَّ عنهم بعدَ إلقاءِ الكتابِ إليهم، بحيثُ يكونُ منك بمرأًى ومسمعٍ، فانظُرْ ماذا يرجِعون مِن جوابِ الكتابِ). ((شرح كتاب سيبويه)) (٢/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ١٠٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٧٨).

(٣) السَّخْلةُ: تُطلَقُ على الذَّكرِ والأنثى من أولادِ الضَّأنِ والمَعزِ ساعةَ تُولَدُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٦٩).

(٤) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٦/ ١٣٧)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٧٤١٥)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣٥/ ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٦).

٢- قيلَ: إنَّما قال سُلَيمانُ عليه السَّلامُ: ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ﴾؛ لأنَّه اعْتَبَر حالَ نفْسِه؛ إذْ عَلِم أنَّه أُوتِيَ المُلْكَ العَظيمَ، وسُخِّر له الخَلقُ، فقد لَزِمه حَقُّ الشُّكرِ بإقامةِ الطَّاعةِ، وإدامةِ العدلِ، فلمَّا فَقَدَ نعمةَ الهدهدِ تَوَقَّع أنْ يكونَ قَصَّر في حَقِّ الشُّكرِ، فلأجْلِه سُلِبها، فجَعَل يَتَفَقَّدُ نفْسَه، فقالَ: ﴿مَا لِيَ﴾. وهذا يفعلُه بعضُ الشيوخِ إذا فقَدوا ما لهم[1]، تَفَقَّدوا أعمالَهم، هذا في الآدابِ، فكيفَ بنا اليومَ ونحنُ نُقَصِّرُ في الفرائضِ[2]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ أنَّ جِرْمَ الهدهدِ صغيرٌ، وما كُلِّفَ إلَّا بما يستطيعُه مِن الوقوفِ في مكانِه، والبقاءِ في مَركزِه، ولكنَّ جُرْمَه بإخلالِه بهذا الواجبِ كان جُرمًا كبيرًا، فإنَّ الخللَ الصغيرَ مَجْلبةٌ للخَللِ الكبيرِ، فقُدِّرَتْ عقوبتُه على حسَبِ كِبَرِ ذنْبِه، لا على حَسَبِ صِغَرِ ذاتِه[3]، قال العلماءُ: وهذا يدُلُّ على أنَّ الحَدَّ على قَدرِ الذَّنْبِ، لا على قَدرِ الجَسَدِ[4].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ﴾ أنَّ استعمالَ ضميرِ الجمعِ للمخاطَبِ المُعَظَّمِ ليس بلازمٍ، وليس مِن شأنِ خطابِ الأنبياءِ والسَّلفِ أنَّه عندَما يكونُ الإنسانُ معظَّمًا أن يقولَ: أتيتُكم، جئتُكم، وما أشبهَ ذلك[5].

---

(١) في ((أحكام القرآن)) لابن العربي: (آمالهم)، وفي إحدَى نسخِ ((تفسير القرطبي)) (مالهم).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٧٩).

قال ابن باديس: (مثل هذه المعاني الدَّقيقةِ القرآنيَّةِ الجليلةِ النَّفيسةِ مِن مثلِ هذا الإمامِ الجليلِ مِن أجَلِّ علومِ القرآنِ وذخائرِه؛ إذْ هي مَعانٍ صحيحةٌ في نفْسِها، ومأخوذةٌ مِن التَّركيبِ القرآنيِّ أخذًا عربيًّا صحيحًا، ولها ما يَشهدُ لها مِن أدلَّةِ الشَّرعِ. وكلُّ ما استجمَع هذه الشُّروطَ الثَّلاثةَ فهو صحيحٌ مقبولٌ). ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٨).

٥- قال الله تعالى: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الصَّغيرَ يقولُ للكبيرِ والمتعلِّمُ للعالِمِ: عندي ما ليس عندَك، إذا تحقَّق ذلك وتيقَّنه؛ هذا عُمَرُ بنُ الخطَّابِ -مع جلالتِه رَضِيَ الله عنه وعِلمِه- لم يكُنْ عندَه علمٌ بالاستئذانِ[١]، وكان عِلمُ التيمُّمِ عند عمَّارٍ وغيرِه، وغاب عن عُمَرَ[٢] وابنِ مَسعودٍ[٣]. وكان حُكمُ الإذنِ في أن تنفِرَ الحائِضُ عندَ ابنِ عبَّاسٍ[٤]، ولم يعلَمْه زيدُ[٥] بنُ ثابتٍ[٦]! فللصَّغيرِ أنْ يقولَ للكبيرِ، وللحقيرِ أنْ يقولَ للجليلِ: عَلِمتُ ما لم تَعلمْ! وعندي ما ليس عندَك! إذا كان مِن ذلك على يقينٍ، وكان لِقَصدٍ صحيحٍ، ومِن ذلك قولُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأبيه: ﴿إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ [مريم: ٤٣]. ومِن أدبِ مَن قيلَ له ذلك -ولو كان كبيرًا جليلًا- أنْ يَتقبَّلَ ذلك، ولا يُبادِرَ بردِّه، وعليه أنْ يَنظُرَ فيه لِيعرفَ مِقدارَ صِدْقِ قائلِه، فيَقبلَه أو يَرُدَّه بعْدَ النَّظرِ والتَّأمُّلِ؛ إذْ قد يكونُ في أصغرِ مخلوقاتِ اللهِ وأحقَرِها مَن يُحيطُ علمًا بما لم يُحِطْ مِثلُ سليمانَ عليه السَّلامُ في علْمِه وحكمتِه، واتِّساعِ مُدركاتِه! وكفَى بمِثْلِ هذا زاجرًا لكُلِّ ذي علمٍ عنِ الإعجابِ بعلْمِه، والاعتزازِ بسَعةِ اطِّلاعِه، والترفُّعِ عنِ الاستفادةِ ممَّن دونَه[٧]. وقد سُئِلَ بعضُ أهلِ العِلمِ عن مسألةٍ فقال: لا أعلَمُها، فقال أحَدُ تلامذتِه: أنا أعلَمُ هذه المسألةَ، فغَضِبَ الأستاذُ وهَمَّ به، فقال له: أيُّها

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٦٢٤٥)، ومسلم (٢١٥٣).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٣٨).

(٣) يُنظر ما أخرجه مسلم (٣٦٨).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٢٩)، ومسلم (١٣٢٨).

(٥) يُنظر ما أخرجه مسلم (١٣٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٧).

الأستاذُ، لَسْتَ أعلَمَ مِن سُليمانَ بنِ داودَ ولو بلغْتَ في العلم ما بلغْتَ، ولستُ أنا أجهَلَ مِن الهُدهدِ، وقد قال لسُلَيمانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾! فلم يَعتِبْ عليه، ولم يعنِّفْه(١).

٦- في قَولِه تعالى عن سُلَيمانَ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أنَّ سُلَيمانَ لَمَّا توعَّد الهدهدَ بأنْ يعَذِّبَه عذابًا شديدًا أو يذبَحَه إنَّما نجا منه بالعِلمِ، وأقدَمَ عليه في خطابِه له بقَولِه: أحطتُ بما لم تُحِطْ به خُبْرًا، وهذا الخِطابُ إنما جرَّأه عليه العِلمُ، وإلَّا فالهدهدُ مع ضَعفِه لا يتمكَّنُ مِن خطابِه لسُليمانَ مع قوَّتِه بمِثلِ هذا الخِطابِ لولا سلطانُ العِلمِ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: أنَّ اللهَ قد ألهَمَ الحيواناتِ إلى ما قد يخفَى عن بعضِ العُقَلاءِ؛ فهذا الهُدْهُدُ بيْنَ الهَداهِدِ له إلهامٌ خاصٌّ، يقتضيه تخصيصُه بهذا الموقفِ، واتِّصالُه بسليمانَ عليه السَّلامُ. وزمنُ الأنبياءِ زمنُ خرْقِ العوائدِ، وظهورِ الآياتِ، وقد كان في حُسْنِ بيانِه، وترتيبِ أخبارِه، وبديعِ تهَدِّيه عبارةً بالغةً لأولي الألبابِ؛ فقد تَحَصَّنَ بالعِلمِ، ونَوَّهَ بالنَّبأِ المتيقَّنِ، وفَصَّلَ النَّبأَ فشَرَحَ حاليها الدُّنيويَّةَ والدِّينيَّةَ، وتَنَقَّلَ مِن تشويقٍ إلى تشويقٍ أبلَغَ منه، فكان مُتثبِّتًا فيما أَخبرَ، بارعًا فيما صَوَّرَ، مستَدِلًّا فيما قَرَّر وفيما أَنْكَر، بصيرًا بكيدِ الشيطانِ للإنسانِ، خبيرًا بترتيبِ الأدلَّةِ وحُسْنِ الاستنتاجِ، وفيما ذَكَر اللهُ لنا مِن هذه العِبَرِ البالغةِ مِن هذا الحيوانِ الأعجمِ حَثٌّ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لنا على أنْ نَسْلُكَ عندَما نُخبرُ ونُبَيِّنُ، أو نبحثُ وننظرُ، أو نستَدِلُّ ونرتِّبُ ونُعَلِّلُ؛ أنْ نَسْلُكَ هذا المسلَكَ، وإذا كان اللهُ تعالى قد بَعَثَ غرابًا لِيتعلَّمَ منه ابنُ آدمَ كيف يواري سَوْءةَ أخيه؛ فكذلك ذَكَرَ لنا أمْرَ هذا الهُدْهُدِ الممتازِ بيْنَ الهَداهِدِ؛ لِنقتَديَ به؛ تنبيهًا لنا على أخْذِ العلمِ مِن كلِّ أحدٍ، وللاستِفادةِ مِن كلِّ مخلوقٍ، وللشُّعورِ دائمًا بالنَّقصِ؛ للسَّلامةِ مِن شَرِّ أدواءِ الإنسانِ: العُجْبِ، والكِبْرِ، والغرورِ، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[1] [يوسف: ٧٦].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أنَّ استحسانَ المرءِ لأعمالِه هو أصلُ ضلالِه، وتزيينُ الشيطانِ لتلك الأعمالِ هو أحدُ أسلحةِ الشيطانِ؛ فعلى المرءِ أنْ يتَّهِمَ نفْسَه في كلِّ ما تدعوه إليه، وأنْ يَزِنَ جميعَ أعمالِه بميزانِ الشرعِ الدَّقيقِ، خصوصًا ما تشتدُّ رغبتُه فيه، ويَعظُمُ حُسنُه في عينيه[2]!

٩- في قوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ النَّهيُ عن استِحسانِ القبائحِ، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وقال سبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [غافر: ٣٧]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٤]. واستحسانُ المرءِ للقبائحِ وسيلةٌ إلى العملِ بها[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ مِن أساليبِ الهدايةِ القرآنيةِ إلى العُلومِ الكونيَّةِ أن يَعرِضَ علينا القرآنُ صُوَرًا مِن العالَمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٠٤).

العُلويِّ والسُّفليِّ في بيانٍ بديعٍ جذَّابٍ؛ يُشوِّقُنا إلى التأمُّلِ فيها، والعُمقِ في أسرارِها، وهنا يَذكُرُ لنا ما خَبَّأه في السَّمواتِ والأرضِ لنشتاقَ إليه، وننبعثَ في البحثِ عنه، واستجلاءِ حقائقِه ومنافِعِه، بدافعِ غريزةِ حُبِّ الاستطلاعِ، ومعرفةِ المجهولِ، وبمِثلِ هذا انبعثَ أسلافُنا في خِدمةِ العلمِ، واستثمارِ ما في الكَونِ إلى أقصَى ما استطاعوا، ومَهَّدوا بذلك السَّبيلَ لِمَن جاء بعدَهم، ولن نَعِزَّ عزَّهم إلَّا إذا فهمنا الدِّينَ فهْمَهم، وخَدَمنا العِلمَ خِدمَتَهم[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ تحذيرُ العبدِ مِن المخالفةِ علنًا أو سِرًّا؛ لأنَّك إذا عَلِمْتَ بأنَّ اللهَ يعلمُ ما تُخفي وما تُعْلِنُ، يَلزَمُ مِن ذلك ألَّا تُخالِفَه، والإنسانُ لو عَلِم أنَّ المُعظَّمَ عندَه يعلَمُ بأفعالِه لتَرَك ما لا يُرضيه، لو عَلِمْتَ مثلًا أنَّ أباك أو الرجلَ الذي تحترمُه يَعْلَمُ بما تفعلُ؛ فهل تَفْعَلُ ما يخالِفُ رضاه؟ لا تفعلُ، لا سيَّما إذا كان محبوبًا لديك ومُعَظَّمًا، فإذا كان كذلك فالربُّ مِن بابِ أَولى، ولهذا ينبغي لك كلَّما دعَتْك نفسُك إلى معصيةٍ، بل إلى مخالفةٍ بتركِ أمرٍ أو فعلِ نهيٍ، يجبُ عليك أن تتذكَّرَ هذا الأمرَ؛ أنَّ الله سبحانَه وتعالى يعلمُ مخالفتَك، فيلزمُ مِن هذا أن ترتدعَ[2].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أنَّه ينبغي التثبُّتُ في الخبرِ، لا سيما عندَ قيامِ الشُّبهاتِ، وما هي الشبهةُ القائمةُ هنا؟ أنَّ الهدهدَ قال ذلك مُدافَعةً، وأنَّه كان بعيدًا؛ لأنَّه قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، لكن لَمَّا كان هذا مقامَ دفاعٍ فإنه ينبغي أنْ يَتثبَّتَ الإنسانُ أكثرَ؛ ولهذا قال: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ مع أنَّه قال: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٧).

١٣- قال الله تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ قال وهبٌ: (أمرُه بالتولِّي حسنُ أدبٍ ليتنحَّى حسَبَ ما يُتَأَدَّبُ به مع الملوكِ، بمعنى: وكن قريبًا بحيثُ تسمَعُ مراجعاتِهم)[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ﴾ أنَّ تَفَقُّدَ سليمانَ عليه السَّلامُ للطيرِ، وفقْدَه الهدهدَ: يدلُّ على كَمالِ حزْمِه وتدبيرِه للمُلْكِ بنفْسِه، وكمالِ فِطنتِه حتى فَقَدَ هذا الطائرَ الصغيرَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ أنَّ هذا الهدهدَ كان مِن جنودِ سليمانَ التي حُشِرَتْ له، وقد كان في مكانِه الذي عُيِّنَ له وأُقِيمَ فيه، فلما فارقَ وتَرَكَ الفُرجةَ في صفِّه، وأَوقعَ الخللَ في جنْسِه، استحقَّ العقابَ الصارمَ الذي لا هَوادةَ فيه، وهذا أصلٌ في صرامةِ أحكامِ الجُنديَّةِ وشدَّتِها؛ لِعظَمِ المسؤوليةِ التي تحمَّلَتْها، وتوقُّفِ سلامةِ الجميعِ على قيامِها بها، وعِظَمِ الخطرِ الذي يَعُمُّ الجميعَ إذا أخَلَّتْ بها[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ جوازُ عقابِ الجنديِّ إذا خالفَ ما عُيِّنَ له مِن عملٍ، أو تَغيَّبَ عنه[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ جوازُ تأديبِ الحيواناتِ والبهائمِ بالضَّربِ عند تجاوزِها المعتادَ في أحوالِها، كتَقصيرِها في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٦).

المشيِ وإسراعِها ونحوِ ذلك[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾ هذه الآيةُ دَليلٌ على أنَّ الطَّيرَ كانوا مكَلَّفين؛ إذ لا يُعاقَبُ على تَركِ فِعلٍ إلَّا مَن كُلِّفَ ذلك الفِعلَ[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ في هذا ردٌّ على مَن قال: إنَّ الأنبياءَ تعلَمُ الغَيبَ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ أنَّه كان في جوابِ الهدهدِ حجةٌ بيِّنةٌ لسببِ غيابِه، وذلك لأنَّه لم يذهبْ عابثًا، ولا لغرضٍ خاصٍّ به، وإنما ذَهَبَ مُستطلِعًا مكتشِفًا، فحَصَّلَ علمًا، وجاء بخبرٍ عظيمٍ في زمنٍ قصيرٍ، فرَجَحَتْ هذه الفوائدُ العظيمةُ بتركِه لمركزِه في الجندِ، فسقطتْ عنه المؤاخذةُ. فإنْ قيلَ: إنَّ أصلَ مفارقتِه لمركزِه دون استئذانٍ كان مخالفةً يَستوجبُ عليها العُقوبةَ؟

**فالجوابُ**: أنَّ هذه المخالفةَ كانت لقَصدٍ حَسَنٍ وهو الاستطلاعُ، وأثمرتْ خيرًا، فاستَحقَّ العفوَ عن تلك المخالفةِ التي كانت عن نظَرٍ، ولم تكُنْ عن تهاونٍ وانتهاكٍ للحُرْمَةِ، وهذه الآيةُ مأخذٌ مِن مآخذِ الأصلِ القائلِ: (إنَّ المخالِفَ للأمرِ عن غيرِ انتهاكٍ للحُرمَةِ لا يُؤاخَذُ بتلك المُخالفةِ)[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ ضَعفُ إدراكِ الإنسانِ مهما بلَغَ مِن المُلكِ ومِن القوةِ، ويدلُّ لهذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]؛ فإنَّ هذا يُبيِّنُ ضَعفَ الإنسانِ، فهو ضعيفٌ في كلِّ شيءٍ؛ في

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٠).

القوى العقليةِ، والقوى الجِسميةِ. وكلُّ ما يمكنُ أن يُوصَفَ بالقوَّةِ والضَّعفِ، فإنَّ حالَ الإنسانِ فيه الضَّعفُ(١).

٩- ليس مِن شرْطِ الأفضلِ ألَّا يُنبِّهَهُ المفضولُ لأمرٍ مِن الأمورِ؛ فقد قال الهدهدُ لسُلَيمانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾، وقد قال موسى للخَضِرِ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾(٢) [الكهف: ٦٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ إبطالٌ لقَولِ الرَّافضةِ: إنَّ الإمامَ لا يخفى عليه شيءٌ، ولا يكونُ في زمانِه مَن هو أعلمُ منه(٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ دَليلٌ واضحٌ على قَبولِ خبرِ الواحدِ مِن أيِّ جنسٍ كان مِن النَّاسِ وغيرِهم، إذا عُرِفَ صِدقُه، ألَا ترى أنَّ سليمانَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إنما كَفَّ عن عذابِه حيثُ أتاه بسُلطانٍ مبينٍ -الذي كان استثنى- فهَلَّا عَذَّبَه لو لم يَقبَلْ خبرَه، وقال له: أنت واحدٌ لا أقبَلُ خبرَك عن سَبَأٍ حتى يُخبِرَ به معك غيرُك مِن الطَّيرِ؟! وليس في قَولِه: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ ما يُوهِنُ ما قُلْناه، ألَا ترى ائتَمَنَه في حَملِ كتابِه ورَدِّ جوابِه وهو واحِدٌ(٤)؟!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ أنَّه ينبغي للمتكلِّمِ أن يُؤكِّدَ الخبرَ للمخاطَبِ عندَ الحاجةِ إليه؛ لِقَولِه: ﴿بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٨).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿مِن سَبَإٍ﴾ صُرِفَ؛ لأنَّه في الأصلِ اسمُ رجُلٍ غَلَبَ على اسمِ بلدٍ[١].

١٤- قَولُه: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ لا يدلُّ على جوازِ أنْ تكونَ المرأةُ ملكةً؛ لأنَّ ذلك كان مِن فعلِ قومِ بلقيسَ، وهم كفَّارٌ، فلا حجَّةَ في ذلك، وفي الحديثِ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لما بلَغه أنَّ أهلَ فارسَ قد ملَّكوا عليهم بنتَ كِسرَى قال: ((لن يُفلِحَ قومٌ ولَّوْا أمرَهم امرأةً))[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٌ﴾ وصفُ العرشِ بالعظمةِ دَليلٌ على أنَّ مِثلَ هذه الأوصافِ تَصِحُّ للهِ تعالى ولغيرِه، ولكنَّ اتِّصافَ اللهِ بها لا يُماثلُه شيءٌ مِن اتِّصافِ المخلوقِ بها؛ فإنَّ صفاتِ الخالقِ تليقُ به، وصفاتِ المخلوقِ تليقُ به[٣].

١٦- إنْ قيل: كيف استعظَمَ عَرشَها مع ما كان يرى مِن مُلكِ سُلَيمانَ؟

**فالجوابُ**: أنَّه يجوزُ أن يستصغِرَ حالَها إلى حالِ سُلَيمانَ، فاستعظم لها ذلك العَرشَ، ويجوزُ ألَّا يكونَ لسُلَيمانَ مِثلُه وإن عَظُمَت مَملكتُه في كلِّ شَيءٍ، كما يكونُ لِبَعضِ أمراءِ الأطرافِ شَيءٌ لا يكونُ مِثلُه للمَلِكِ الذي يملِكُ عليهم أمْرَهم ويَستخدِمُهم[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الخلْقَ مفطورون على إنكارِ الشِّركِ؛ لأنَّ الهدهدَ أنكرَ عليهم شِرْكَهم، مع أنَّ الهدهدَ

---

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ١٠٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٧). والحديث أخرجه البخاري (٤٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٥٤).

ليس مِن العُقلاءِ، لكنَّ جميعَ الحيواناتِ بل والمخلوقاتِ غيرِ الحيواناتِ مفطورةٌ على توحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾[1] [الإسراء: ٤٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ الإنسانَ يُذَمُّ على فِعلِه أو يُمدَحُ على فِعْلِه؛ لأنَّ الهدهدَ ساق ذلك على سبيلِ الذَّمِّ، والغَرَضُ مِن ذِكْرِ هذه الفائدةِ: الوصولُ إلى أنَّ فِعلَ الإنسانِ باختيارِه؛ إذ لو كان مُجبَرًا عليه لم يَصِحَّ أن يكونَ مَحَلًّا للذَّمِّ أو للمَدحِ؛ لأنَّ الذي يُجبَرُ على العَمَلِ لا يُمدَحُ عليه إنْ كان خَيرًا، ولا يُذَمُّ عليه إنْ كان سُوءًا، ولكِنَّه هو فَعَلَه. ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: إبطالُ قولِ الجبريةِ الذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عملِه؛ لأنَّه إذا كان مُجبَرًا لم يكن أهلًا للثَّناءِ في الخيرِ أو في الشَّرِّ[2].

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ * أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾ النَّهيُ عن السجودِ للشَّمسِ هو نهيٌ عمَّا هو دونها بطريقِ الأَولى مِن الكَواكبِ والأشجارِ وغيرِ ذلك؛ فالشمسُ أعظمُ ما يُرى في عالَمِ الشَّهادةِ، وأَعَمُّه نفعًا وتأثيرًا[3].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّ الأعمالَ السيئةَ مِن تزيينِ الشيطانِ، وهنا سؤالٌ: وهو كيف يُجمَعُ بين هذه الآيةِ وبين قَولِه تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [النمل: ٤] فأضاف اللهُ التَّزيينَ إليه، وهنا أضافه إلى الشَّيطانِ، وفي آيةٍ ثالثةٍ: ﴿زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡ﴾ [التوبة: ٣٧] مبنيًّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٤٦).

للمجهولِ؟!

**والجوابُ**: هذه لا تُعارِضُ الآياتِ الأخرى، فيضافُ إلى اللهِ تقديرًا، وإلى الشَّيطانِ مُباشَرةً[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنَّ سبيلَ اللهِ سبحانه وتعالى واحدٌ، وسُبُلَ الشَّرِّ متعَدِّدةٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ ولهذا قال العلماءُ: الإسلامُ ملةٌ، والكُفرُ مِلَلٌ؛ الكُفرُ: يهوديةٌ، نصرانيةٌ، وثنيَّةٌ، ومجوسيَّةٌ، إلى آخرِه. مِلَلٌ لأنَّها سُبُلٌ متعددةٌ، وأمَّا الحقُّ فسبيلُه واحدٌ[٢].

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أنَّه إذا زُيِّنَ للإنسانِ سُوءُ عمَلِه فَصُدَّ بذلك عن السَّبيلِ -والعياذُ باللهِ سُبحانَه وتعالى- فإنَّه لا يهتدي ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾، وهذا هو البلاءُ: أنَّ الإنسانَ يرى القَبيحَ حَسَنًا، فهذا لا يَكادُ يُقلعُ، لكِنْ مَن كان يرَى القبيحَ قَبيحًا فإنَّه يمكِنُه أن يُقلِعَ[٣].

٢٣- قال تعالى عن الهُدهُدِ يخاطِبُ نبيَّ اللهِ سُلَيمانَ: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٢، ٢٤] في هذا السِّياقِ عَشرُ قَضايا يُدرِكُها الهُدهُدُ ويُفصِحُ عنها لنبيِّ الله سُلَيمانَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

**الأولى**: إدراكُه أنَّه أحاط بما لم يكُنْ في عِلمِ سُلَيمانَ.

**الثانية**: معرفتُه لسبأٍ بِعَينِها دونَ غَيرِها، ومجيئُه منها بنبأٍ يقينٍ لا شَكَّ فيه.

**الثالثة**: معرفتُه لتوليةِ المرأةِ عليهم مع إنكارِه ذلك عليهم.

**الرابعة**: إدراكُه ما أوتِيَتْه سبأٌ مِن متاعِ الدُّنيا مِن كُلِّ شَيءٍ.

**الخامسة**: أنَّ لها عرشًا عظيمًا.

**السادسة**: إدراكُه ما هم عليه من السُّجودِ للشَّمسِ مِن دُونِ الله.

**السابعة**: إدراكُه أنَّ هذا شِركٌ بالله تعالى.

**الثامنة**: أنَّ هذا مِن تزيينِ الشَّيطانِ لهم أعمالَهم.

**التاسعة**: أنَّ هذا ضلالٌ عن السَّبيلِ القويمِ.

**العاشرة**: أنَّهم لا يهتدونَ.

وقد اقتنع سُلَيمانُ بإدراكِ الهُدهدِ لهذا كُلِّه، فقال له: ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]، وسَلَّمه رسالةً، وبعثه سفيرًا إلى بِلقيسَ وقَومِها: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨]، وكانت سِفارةً مُوفَّقةً(١).

٢٤- إنْ قيل: كيف خَفِيَ على سُليمانَ مكانُ تلك المملكةِ العظيمةِ؟

**والجوابُ**: لعَلَّ اللهَ تعالى أخفَى عنه ذلك لمصلحةٍ عَلِمَها، كما أخفَى مكانَ يوسُفَ على يعقوبَ عليهما السَّلامُ(٢).

٢٥- قولُه: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ إلى قولِه: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ

---

(١) يُنظر: ((تتمه أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٤).

لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قد جمَعَ هذا القولُ الَّذي أُلْقِيَ إلى سُليمانَ أُصولَ الجُغرافيَّةِ السِّياسيَّةِ مِن صِفَةِ المكانِ والأدْيانِ، وصِبْغَةِ الدَّولةِ وثَروتِها، ووقَعَ الاهتمامُ بأخبارِ مَمْلكةِ سبَأٍ؛ لأنَّ ذلك أهمُّ لمُلْكِ سُليمانَ؛ إذ كانت مُجاورةً لِمَمْلكتِه؛ فأُمورُ هذه المَمْلكةِ أَجْدى بعَمَلِه[1].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ هذان الوصفانِ -إخراجُ الخبءِ، والعلمُ بما يُبطِنُ العبدُ وما يُعلِنُه- لا يكونان لأحدٍ مِن المخلوقين، لا للشَّمسِ ولا لغيرِ الشَّمسِ، وإنما ذلك خاصٌّ باللهِ تبارك وتعالى؛ ولهذا جَعَلَه الهدهدُ مِن الأسبابِ التي تَستلزمُ أنْ تكونَ العبادةُ للهِ وحدَه؛ لأنَّه العالِمُ بها، ولا يمكِنُ أن يُؤتَى بوَصفٍ يَستلزِمُ العبادةَ إلَّا إذا كان خاصًّا بالله؛ لأنَّه يُؤتَى بهذا الوَصفِ استدلالًا على بُطلانِ عبادةِ ما سواه، ولو كان ممَّا يمكِنُ أن يكونَ لله، لم يكُنْ ذلك دليلًا على اختِصاصِ الله تعالى بالعبوديَّةِ؛ إذ قد يقولُ العابدُ للشَّيءِ: وهذا وصفٌ أيضًا موجودٌ في معبودي، فأنا أعبُدُه! فالمهِمُّ أنَّه لا يمكِنُ أن تُقامَ الحُجَّةُ إلَّا بدليلٍ خاصٍّ بالمحتَجِّ له، يعني: أنَّه لا يمكِنُ أن تقيمَ الحُجَّةَ بأنَّ العبادةَ لله وحده إلَّا بوصفٍ خاصٍّ باللهِ[2].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ الظواهرَ دلائلُ البواطنِ؛ فالمرءُ يُعرَفُ مِن سُبُحاتِ وَجهه وفلتاتِ لسانِه، وكثيرًا ما تدلُّ كلماتُه على مِهنتِه أو فكرتِه وعقيدتِه، كما تدلُّ هيئتُه أو لِبْستُه وشمائلُه؛ وما يباشرُه المرءُ تنطبعُ به نفْسُه، ويصطبغُ خيالُه، فيجري على لسانِه في تشبيهاتِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٥٨).

وتمثيلاتِه وفنونِ قولِه، فقد تختلِفُ العباراتُ عن شيءٍ واحدٍ في وقتٍ واحدٍ باختلافِ نفسياتِ المتكلِّمين عليه، وقد عُرِفَ الهدهدُ بينَ الطيورِ بثقوبِ البصرِ، والاهتداءِ إلى الماءِ في جَوفِ الأرضِ، خصوصًا هدهدُ سليمانَ الممتازُ بين الهداهدِ، فلمَّا استدلَّ ذَكرَ مِن صُنعِ اللهِ ما هو أقربُ إليه، وأغلبُ عليه، وهو إخراجُ الخبءِ الذي منه الماءُ المخبوءُ في جَوفِ الأرضِ[١].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ دَلالةَ الصَّنعَةِ على الصانعِ نظريةٌ عقليةٌ قطعيةٌ؛ فكلُّ ذي صَنعةٍ في مُكْنتِه أنْ يَستدِلَّ بصنعتِه على وجودِ خالقِ هذا العالَمِ وكمالِه، يُشاهِدُ أنَّ صنعتَه ما كانت إلَّا به، وبما له مِن قُدرةٍ فيها وعِلْمٍ بها؛ فهداه ذلك إلى أنَّ هذا العالَمَ ما كان إلَّا مِن خالقٍ قادرٍ عالِمٍ، فالهدهدُ ذَكَرَ ما هو مِن عَمَلِه في الاستدلالِ على وجودِ الخالقِ تعالى ووحدانيَّتِه، ومِثلُه كلُّ ذي صنعةٍ.

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدُلُّ على أنَّه الواحِدُ[٢]

٢٩- قولُه تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فيه سَعَةُ علمِ اللهِ، واستدلَّ به الشافعيُّ على ثبوتِ القَدَرِ؛ فثبوتُ علمِ اللهِ تعالى لأفعالِ العبدِ دَليلٌ على تقديرِه لها[٣].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ سؤالٌ؛ مِن أين للهدهدِ التهدي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٩).

والبيت لأبي العتاهية. يُنظر: ((التمثيل والمحاضرة)) للثعالبي (ص: ١١)، ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (١٣/ ٤٥٣)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١٤/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٥٩). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ٣٤٩)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٢٤٧).

إلى معرفةِ اللهِ، ووجوبِ السجودِ له، وإنكارِ السجودِ للشمسِ، وإضافتِه إلى الشيطانِ وتزيينِه؟!

**الجوابُ**: أنه لا يَبْعُدُ أنْ يُلْهِمَه اللهُ ذلك كما ألهمَه وغيرَه مِن الطيورِ وسائرِ الحيوانات المعارفَ اللطيفةَ التي لا يكادُ العقلاءُ الرجاح العقول يهتدون لها، خصوصًا في زمانِ نبيٍّ سُخِّرَتْ له الطيورُ، وعُلِّمَ منْطِقَها، وجُعِلَ ذلك معجزةً له[1]. فضلًا عن إخبارِ الله عزَّ وجلَّ أنَّه ما مِن شيءٍ إلا يُسبِّحُ بحمدِه سبحانَه؛ ومِن ذلك الطيرُ.

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ قَبولُ الوالي عُذرَ رعيَّتِه، ورَدُّ العُقوبةِ عنهم، وامتحانُ صدْقِهم فيما اعتَذَروا به[2].

٣٢- في قَولِه تعالى على لِسانِ سُلَيمانَ: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ أنَّ الحيواناتِ تَعقِلُ ما يُوَجَّهُ إليها مِن الأمرِ والنَّهيِ والاختبارِ والفَحصِ؛ لِقَولِه: ﴿ٱذْهَب﴾، وقَولِه: ﴿فَأَلْقِهْ﴾، وقَولِه: ﴿تَوَلَّ﴾، وقَولِه: ﴿فَٱنظُرْ﴾ كلُّ هذه أوامرُ للهدهدِ؛ مما يدلُّ على أنَّ هذه الحيواناتِ تَعقِلُ، ولكنْ ليس معنى قولنا: (إنها تَعقِلُ) أنْ تكونَ عاقلةً لكلِّ أحدٍ، صحيحٌ أنَّها تَعْقِلُ عقلًا محدودًا بالنِّسبةِ لعامَّةِ النَّاسِ؛ ولهذا تُزجَرُ البَهيمةُ فتَنزَجِرُ، وتدعوها فتُقْبِلُ، ولكنْ ليس هذا كمِثلِ تسخيرِها لسليمانَ عليه الصلاةُ والسلامُ؛ فإنَّ تسخيرَها لسليمانَ أنَّها تُنَزَّلُ منه منزلةَ الإنسانِ العاقلِ الفاهمِ مِن كلِّ وجهٍ[3].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ﴾ دليلٌ على إرسالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧١).

الكُتُبِ إلى المُشركين مِن الإمامِ، يُبَلِّغُهم الدَّعوةَ، ويدعوهم إلى الإسلامِ، وقد كتب رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى كسرى وقيصرَ وغَيرِهما مِن مُلوكِ العَربِ(١).

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾ أنَّه ينبغي تَحَسُّسُ الأخبارِ عندَ الحاجةِ لذلك، وهذا ما يُسمَّى بالمتابعةِ؛ لقوله: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾، فإنه إذا تولى وجَعَلَ يَنْظُرُ لا بُدّ أنْ تتبيَّنَ له الأخبارُ، فلو أنَّه ما تولَّى عنهم فألقاه وبقيَ فقد لا يتكلَّمون بالأشياءِ التي يتكلَّمون بها إذا كان حاضرًا لديهم، لكنْ إذا تولَّى عنهم حينئذٍ وجَدوا لأنفسهم مجالًا للكلامِ حسبَ ما يريدون، وهذا مِن السياقِ(٢).

٣٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ إرسالُ الطَّيرِ بالكُتُبِ(٣).

٣٦- تَخصيصُ سُليمانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الهُدهدَ بالرِّسالةِ في قولِه: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ دونَ سائرِ ما تحْتَ مُلكِه مِن أُمَناءِ الجنِّ الأقوياءِ على التَّصرُّفِ والتَّعرُّفِ؛ لِمَا عايَنَ فيه مِن مَخايلِ العِلْمِ والحِكمةِ وصِحَّةِ الفراسةِ، ولئلَّا يَبْقى له عُذْرٌ أصلًا(٤). ولأنَّه الذي وقَف على حالِهم.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيۡرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ أَمۡ كَانَ مِنَ ٱلۡغَآئِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ في الكلامِ مَحذوفٌ، أي: فَقَدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣).

الهُدهدَ حينَ تفقَّدَ الطَّيرَ، فقالَ: ...[١]. ومَقصدُ الكلامِ: الهُدهدُ غابَ، ولكنَّه أخَذَ اللَّازمَ عن مَغيبِه، وهو ألَّا يَراهُ؛ فاسْتَفهَمَ على جِهةِ التَّوقيفِ عن اللَّازمِ، وهذا ضَربٌ مِن الإيجازِ، والاستِفهامُ الَّذي في قولِه: ﴿مَالِيَ﴾ نابَ مَنابَ الألِفِ الَّتي تَحتاجُها (أمْ)، فعلى ذلك (أَمْ) مُتَّصلةٌ[٢]. وقيل: الأصحُّ أنَّ (أَمْ) مُنقطعةٌ[٣]؛ لأنَّها لم تقَعْ بعدَ هَمزةِ الاستِفهامِ الَّتي يُطلَبُ بها تَعيينُ أحدِ الشَّيئينِ؛ كأنَّه لَمَّا لمْ يَرَهُ ظنَّ أنَّه حاضرٌ، ولا يَراهُ لساترٍ أو غيرِه، فقال: ما لِيَ لا أَراهُ، ثمَّ احتاطَ، فَلَاحَ له أنَّه غائبٌ، فأضْرَبَ عن ذلك وأخَذَ يَقولُ: أهو غائِبٌ؛ كأنَّه يَسأَلُ عن صِحَّةِ ما لَاحَ له؛ فأفادَتْ (أم) هنا إضرابَ الانتقالِ مِن استِفهامٍ إلى استِفهامٍ آخَرَ[٤].

- وقيل: ﴿كَانَ﴾ هاهنا بمعنى صار؛ لأنَّه لم يستفهِمْ وهو حاضِرٌ، إنما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٣).

ممَّن ذهب في الجملة إلى أنَّ أمْ هنا متصلةٌ: ابنُ جرير، وهو ظاهر كلام ابن عطية، وذهب إليه البقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٣).

(٣) وممَّن ذهب إلى أن ﴿أَمْ﴾ هنا منقطعة: المُبَرِّد، والزجاج، والزمخشري، والبيضاوي، وابن عثيمين، والمعنى عند الزجاج: بل كان مِن الغائبينَ. والمعنى عند المبردِ، والزمخشري، والبيضاوي، وابن عثيمين: بل أكان من الغائبين؟ يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٩٧، ١٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٥، ٢٤٦).

استفهَمَ عنه وهو غائِبٌ، وإذا حُمِلَت (كان) على لفظِها صار المعنى أنَّه استفهمَ عنه وهو حاضِرٌ، ولم يكُنْ كذلك، بل كان غائبًا وقت الاستفهامِ، فـ﴿كَانَ﴾ محمولةٌ على معنى صار، وبذلك يتِمُّ المعنى[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أكَّدَ عَزْمَه على عِقابِه بتأْكيدِ الجُملتينِ ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ ﴿لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ باللَّام المُؤكِّدةِ الَّتي تُسمَّى لامَ القسَمِ، وبنُونِ التَّوكيدِ؛ لِيَعلَمَ الجُندُ ذلك، حتَّى إذا فقَدَ الهُدهدَ ولم يَرجِعْ، يكونُ ذلك التَّأكيدُ زاجرًا لباقي الجُندِ عن أنْ يأْتوا بمِثلِ فِعْلتِه، فيَنالَهم العِقابُ. وتأكيدُ جُملةِ ﴿أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾؛ لإفادةِ تَحقيقِ أنَّه لا مَنْجَى له مِن العِقابِ إلَّا أنْ يأتِيَ بحُجَّةٍ تُبرِّرُ تَغيُّبَه؛ لأنَّ سِياقَ تلك الجُملةِ يُفيدُ أنَّ مَضمونَها عَديلُ العُقوبةِ؛ فلمَّا كان العِقابُ مُؤكَّدًا مُحقَّقًا فقدِ اقْتَضَى تأْكيدَ المُخْرِجِ منه؛ لئلَّا يُبرِّئَه منه إلَّا تَحقُّقُ الإتيانِ بحُجَّةٍ ظاهرةٍ؛ لئلَّا تُتَوَهَّمَ هَوادةٌ في الإدلاءِ بالحُجَّةِ؛ فكان تأكيدُ العديلِ كتأْكيدِ مُعادِلِه[٢].

- وفي قولِه: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ﴾ بدَأَ أوَّلًا بأخفِّ العِقابينِ، وهو التَّعذيبُ، ثمَّ أتْبعَهُ بالأشدِّ، وهو إذهابُ المُهجَةِ بالذَّبْحِ[٣]. وقِيل: قدَّمَ التَّعذيبَ؛ لأنَّه أشدُّ مِن القتْلِ، وحالةُ الغضَبِ تَقْتضي تقديمَ الأشدِّ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن سَبَإِۭ بِنَبَإٖ يَقِينٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((الهداية)) لمكي (٨/ ٥٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٦٨).

- قولُه: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ الفاءُ لتَفريعِ الحِكايةِ، عَطَفَتْ جُملةً على جُملةٍ[١].

- وفي قولِه: ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ وَصَف مُكْثَه بقِصَرِ المدَّةِ؛ للدَّلالة على إسراعِه خوفًا مِن سُليمانَ، ولِيُعلَمَ كيف كان الطَّيرُ مُسخَّرًا له، ولبَيانِ ما أُعْطِيَ مِن المُعجزةِ الدَّالَّةِ على نُبوَّتِه وعلى قُدرةِ اللهِ تعالى[٢]؛ فـ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾، أي: قريبٌ قُربًا يُوصَفُ بضِدِّ البُعدِ، أي: يُوشِكُ أنْ يكونَ بعيدًا. وهذا وجْهُ إيثارِ التَّعبيرِ بـ ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾؛ لأنَّ (غَيرَ) تُفيدُ دفْعَ تَوَهُّمِ أنْ يكونَ بعيدًا، وإنَّما يُتَوَهَّمُ ذلك إذا كان القُرْبُ يُشبِهُ البُعْدَ[٣].

- وفي الكَلامِ حَذْفٌ؛ فإنْ كان ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ زَمانًا، فالتَّقديرُ: فجاء سُليمانُ، فسأَلَهُ: ما غيَّبَك؟ فقال: أحطْتُ... وإنْ كان مَكانًا، فالتَّقديرُ: فجاء فوقَفَ مكانًا قَريبًا مِن سُليمانَ، فسَأَلَهُ: ما غيَّبَك[٤]؟

- قولُه: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ الفاءُ في ﴿فَقَالَ﴾ عاطفةٌ على (مكَثَ)، وجعَلَ القولَ عَقِيبَ المُكثِ؛ لأنَّه لَمَّا حضَرَ صدَرَ القولُ مِن جِهَتِه؛ فالتَّعقيبُ حقيقيٌّ[٥].

- قولُه: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ وَصْفُ النَّبأِ بـ ﴿يَقِينٍ ﴾ تَحقيقٌ لكَونِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٩).

ما سيُلْقَى إليه شَيئًا مُحقَّقًا لا شُبْهةَ فيه؛ فوُصِفَ بالمصدرِ للمُبالَغةِ[١].

- قولُه: ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ إنَّما قالَ ذلكَ حتَّى تَتشوَّفَ النَّفْسُ إلى مَعرفةِ ذلك المُبْهَم ما هو. ولَمَّا أبهَمَ في قولِه: ﴿بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، انتقَلَ إلى ما هو أقلُّ منه إبْهامًا، وهو قولُه: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾؛ إذ فيه إخبارٌ بالمكانِ الَّذي جاء منه، وأنَّه له عِلْمٌ بخَبرٍ مُسْتيقِنٍ له[٢]. فعبَّر عنه بما ذُكِرَ؛ لِتَرويجِ كلامِه عنده عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَرغيبِه في الإصغاءِ إلى اعتذارِه واستمالةِ قلْبِه نحوَ قَبولِه؛ فإنَّ النَّفسَ للاعتذارِ المُنْبئِ عن أمْرٍ بَديعٍ أقْبَلُ، وإلى تَلقِّي ما لا تَعلمُهُ أمْيَلُ[٣].

وقيل: هذا وَحْيٌ لِسُليمانَ أجْراهُ اللهُ على لِسانِ الهُدهدِ؛ فابْتِداؤهُ بـ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ تَنبيهٌ لِسُليمانَ بأنَّ في مَخلوقاتِ اللهِ مَمالكَ ومُلوكًا تُداني مُلْكَه أو تَفوقُه في بعضِ أحوالِ المُلْكِ، جعَلهُ اللهُ مَثَلًا له، كما جَعَلَ عِلْمَ الخَضِرِ مَثَلًا لِمُوسى عليه السَّلامُ؛ لئلَّا يَغتَرَّ بانتهاءِ الأمرِ إلى ما بلَغَهُ هو. وفيه استدعاءٌ لإقبالِه على ما سيُلْقَى إليه بجملتِه؛ لأهميَّةِ هذا المَطلعِ في الكلامِ؛ فإنَّ مَعرفةَ أحوالِ المَمالكِ والأُمَمِ مِن أهمِّ ما يُعْنى به مُلوكُ الصَّلاحِ؛ لِيَكونوا على استعدادٍ بما يُفاجِئُهم مِن تِلْقائِها، ولتكونَ مِن دَواعي الازديادِ مِن العمَلِ النَّافعِ للمَمْلكةِ بالاقتداءِ بالنَّافعِ مِن أحوالِ غَيرِها، والانقباضِ عمَّا في أحوالِ المملكةِ مِن الخَلَلِ بمُشاهَدةِ آثارِ مِثْلِه في غيرِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٤٩).

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ﴾ استِئنافٌ ببَيانِ ما جاء به مِن النَّبأ، وتَفصيلٌ له بَعدَ الإجمالِ. وإدخالُ (إنَّ) في صَدرِ هذه الجُملةِ لأهميَّةِ الخبَرِ؛ إذ لم يكُنْ مَعهودًا في بني إسرائيلَ أنْ تكونَ المرأةُ مَلِكًا. وتَنكيرُ ﴿ٱمۡرَأَةٗ﴾ وهو مفعولٌ أوَّلُ لـ ﴿وَجَدتُّ﴾ له حُكْمُ المبتدأ، فهو كالابتداءِ بالنَّكرةِ إذا أُريدَ بالنَّكرةِ التَّعجُّبُ مِن جِنْسِها، كقولِهم: بقرةٌ تكلَّمَت؛ لأنَّ المُرادَ حِكايةُ أمْرٍ عَجيبٍ عندهم؛ أنْ تكونَ امرأةٌ مَلِكةً على قومٍ؛ ولذلك لم يقُلْ: وجَدْتُهم تَملِكُهم امرأةٌ[1]، وأيضًا عبَّرَ بالمُضارعِ ﴿تَمۡلِكُهُمۡ﴾؛ تَصويرًا للحالِ العجيبِ، وهو أنْ تَتولَّى مُلْكَهم امرأةٌ[2].

- وإيثارُ ﴿وَجَدتُّ﴾ على (رأيتُ)؛ للإيذانِ بكَونِه عندَ غَيبتِه بصَددِ خِدْمتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بإبرازِ نفْسِه في مَعرضِ مَن يَتفقَّدُ أحوالَها ويَتعرَّفُها كأنَّها طِلْبتُه وضالَّتُه؛ لِيَعرِضَها على سُليمانَ عليه السَّلامُ[3].

- وبِناءُ الفِعلِ (أُوتِيَتْ) للمَفعولِ؛ لأنَّ الغرَضَ لا يَتعلَّقُ بتَعْيينِ أسبابِ ما نالَتْه، بلِ المقصودُ ما نالَتْه، على أنَّ الوَسائلَ والأسبابَ شَتَّى؛ فمنه ما كان إرثًا مِن الملوكِ الَّذين سَلَفوهَا، ومنه ما كان كَسْبًا مِن كَسْبِها واقتنائِها، ومنه ما وَهَبَها اللهُ مِن عَقْلٍ وحِكمةٍ، وما منَحَ بلادَها مِن خَصْبٍ ووَفرةِ مِياهٍ؛ فليس

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨١).

المُرادُ خُصوصَ ما آتاها اللهُ في أصْلِ خِلْقَتِها وخِلْقةِ أُمَّتِها وبلادِها؛ ولذا فلم يَتعيَّنِ الفاعلُ عُرْفًا. وكلٌّ مِن عندِ اللهِ(١).

- قولُه: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ وصَفَ العَرشَ بذلكَ بيْنَ يَديهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لتَرغيبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الإصغاءِ إلى حَديثِه، وتَوجيهِ عَزيمتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نحوَ تَسخيرِها؛ ولذلك عقَّبَه بما أوجَبَ غَزْوَها مِن كُفرِها وكُفْرِ قَومِها(٢).

- والهُدهدُ الَّذي شاهَدَ مُلْكَ سُليمانَ وعظَمَتَه، قد استعظَمَ مُلْكَها وعَرشَها، وعَظمةُ العرشِ عُنوانُ عَظمةِ المُلْكِ؛ فلذا خصَّصَهُ الهُدهدُ بالذِّكْرِ، ورغَّبَ سُليمانَ في الإتيانِ به(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ...﴾ أعقَبَ التَّنويهَ بشأْنِها بالحَطِّ مِن حالِ اعتِقادِهم؛ إذ هم يَسْجُدون، أي: يَعبُدون الشَّمسَ؛ ولأجْلِ الاهتِمامِ بهذا الخبَرِ أُعِيدَ فِعلُ ﴿وَجَدتُّهَا﴾؛ إنكارًا لكَونِهم يَسْجُدون للشَّمسِ، فذلك مِن انحطاطِ العقليَّةِ الاعتقاديَّةِ؛ فكان انحطاطُهم في الجانبِ الغيبيِّ مِن التَّفكيرِ، وهو ما يَظهَرُ فيه تَفاوُتُ عرضِ العُقولِ علَى الحَقائقِ؛ لأنَّه جانبٌ مُتمحِّضٌ لعَملِ الفِكْرِ، لا يُسْتعانُ فيه بالأدلَّةِ المَحسوسةِ؛ فلا جَرَمَ أنْ تَضِلَّ فيه عُقولُ كثيرٍ مِن أهلِ العقولِ الصَّحيحةِ في الشُّؤونِ الخاضعةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٣).

للحواسِّ[١].

- وجُملةُ ﴿وَجَدتُّهَا﴾ مُستأنفةٌ للبَيانِ، جوابًا على تَقْديرِ سُؤالٍ؛ فالكلامُ السَّابقُ بيَّن حالَتَها مِن ناحيةِ الدُّنيا، فتَشوَّفَتْ نفْسُ السَّامعِ إلى مَعرفةِ حالَتِها مِن ناحيةِ الدِّينِ[٢].

- قولُه: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أفادَتِ الفاءُ في ﴿فَصَدَّهُمْ﴾ أنَّ عَدمَ اهتدائِهم مُسبَّبٌ عن صَدِّ الشَّيطانِ لهم، وصَدَّه مُسبَّبٌ عن تَزيينِه لأعمالِهم[٣].

- وما أحسَنَ انتقالاتِ هذه الأخبارِ بعدَ تَهدُّدِ الهُدهدِ وعِلْمِه بذلك؛ حيثُ أخبَر أوَّلًا باطِّلاعِه على ما لم يَطَّلِعْ عليه سُليمانُ؛ تَحصُّنًا مِن العُقوبةِ بزِينةِ العِلْمِ الَّذي حصَلَ له، فتَشوَّفَ السَّامعُ إلى عِلْمِ ذلك. ثمَّ أخبَرَ ثانيًا بتَعلُّقِ ذلك العِلْمِ؛ وهو أنَّه مِن سبَأٍ، وأنَّه أمْرٌ مُتيقَّنٌ لا شكَّ فيه، فازْدادَ تَشوُّفُ السَّامعِ إلى سَماعِ ذلك النَّبأِ. ثمَّ أخبَرَ ثالثًا عن المُلْكِ الَّذي أُوتِيَتْه امرأةٌ، وكان سُليمانُ عليه السَّلامُ قد سأَلَ اللهَ أنْ يُؤتِيَهُ مُلْكًا لا يَنْبَغي لأحدٍ مِن بَعدِه. ثمَّ أخبَرَ رابعًا ما ظاهِرُه الاشتراكُ بيْنه وبيْن هذه المرأةِ الَّتي ليس مِن شأْنِها ولا شأْنِ النِّساءِ أنْ تَملِكَ فُحولَ الرِّجالِ، وهو قولُه: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، وقولُه: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾، قيل: وكان سُليمانُ له بِساطٌ قد صُنعَ له، وكان عظيمًا. ولَمَّا لم يَتأثَّرْ سُليمانُ للإخبارِ بهذا كلِّه؛ إذ هو أمْرٌ دُنياويٌّ، أخبَرَهُ خامِسًا بما يَهُزُّه لِطَلبِ هذه المَلِكةِ، ودُعائِها إلى الإيمانِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإفرادِ اللهِ بالعِبادةِ؛ فقال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ﴾ بَدلُ بَعضٍ مِن ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النمل: ٢٤]؛ خُصِّصَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أصلُ كُفْرِهم، ومَبعثُ فَسادِ أعمالِهم[٢].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وَصْفٌ له تعالى بما يُوجِبُ اختصاصَه باستِحقاقِ السُّجودِ مِن التَّفرُّدِ بكَمالِ القُدرةِ والعِلْمِ؛ حثًّا على سُجودِهم، ورَدًّا على مَن يَسجُدُ لغَيرِه. وتَخصيصُ هذا الوَصْفِ بالذِّكْرِ بصَددِ بَيانِ تَفرُّدِه تعالى باستِحقاقِ السُّجودِ له مِن بيْن سائرِ أوصافِه المُوجِبةِ لذلك؛ لِمَا أنَّه أرْسَخُ في مَعرفتِه والإحاطةِ بأحكامِه بمُشاهَدةِ آثارِه الَّتي مِن جُمْلَتِها ما أوْدَعَهُ اللهُ تعالى في نفْسِه مِن القُدرةِ على مَعرفةِ الماءِ تحتَ الأرضِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ ﴿ٱلْخَبْءَ﴾: مَصدرُ خبَأَ الشَّيءَ، إذا أخْفاهُ؛ أُطلِقَ هنا على اسمِ المفعولِ -أي: المَخبوء- على طَريقةِ المُبالَغةِ في الخَفاءِ كما هو شأْنُ الوَصْفِ بالمصدرِ. ومُناسَبةُ وُقوعِ الصِّفةِ بالموصولِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ لحالةِ خَبرِ الهُدهدِ ظاهرةٌ؛ لأنَّ فيها اطِّلاعًا على أمْرٍ خَفِيٍّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٥).

- وأيضًا قولُه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ...﴾ مُؤذِنٌ بصِفَةِ القُدرةِ، وقولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ مُؤذِنٌ بعُمومِ صِفَةِ العِلْمِ[١].

- قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ عَطْفٌ على ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾؛ لِتَرتُّبِه عليه تَرتُّبَ المدلولِ على دَليلِه؛ فإخراجُ الخَبْءِ لا يكونُ إلَّا مِن العالِمِ بذلك الخَبْءِ، الَّذي أحاطَ عِلْمُه به في حالِ سَتْرِه، وفي حالِ ظُهورِه؛ فيَدلُّ ذلك على شُمولِ عِلْمِه لِمَا ظهَرَ وما بطَنَ، ومنه ما يُخْفون وما يُعلِنون[٢].

- وذِكْرُ (مَا تُعْلِنُونَ) لتَوسيعِ دائرةِ العلْمِ، أو للتَّنبيهِ على تَساويهِما بالنِّسبةِ إلى العِلْمِ الإلهيِّ[٣].

٧- قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

- مَجيءُ جُملةِ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ عقِبَ قوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٢٥]: استئنافٌ، وهو بمَنزلةِ النَّتيجةِ للصِّفاتِ الَّتي أُجْرِيَت على اسمِ الجلالةِ، وهو المقصودُ مِن هذا التَّذييلِ، أي: ليس لغَيرِ اللهِ شُبْهةُ إلَهيَّةٍ[٤].

وقِيل: إنَّه مِن تَمامِ كلامِ الهُدهدِ؛ كأنَّه اسْتدرَكَ ورَدَّ العَظمةَ مِن عَرشِ بِلْقيسَ إلى عَرشِ اللهِ تعالى[٥].

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ خَصَّ العرشَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أعظَمُ المخلوقاتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢).

وما عدَاهُ في ضِمْنِه[١].

- وكذلِك قولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فيه تَعريضٌ بأنَّ عَظَمةَ مُلْكِ بِلْقيسَ، وعِظَمَ عَرشِها ما كان حَقيقًا بأنْ يَغُرَّها بالإعراضِ عن عِبادةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ هو ربُّ المُلْكِ الأعظَم، فتَعريفُ العَرشِ؛ للدَّلالةِ على معنى الكَمالِ. ووَصْفُه بـ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾؛ للدَّلالةِ على كَمالِ العِظَمِ في تَجسُّمِ النَّفاسةِ[٢].

- وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ وَحدانيَّتَهُ في الأُلوهيَّةِ فلا يُعبَدُ سِواهُ، ذَكَرَ وَحدانيَّتَهُ في الرُّبوبيَّةِ، بانفِرادِه بالخَلْقِ والمُلْكِ والتَّصرُّفِ والتَّدبُّرِ لهذا المخلوقِ العَظيمِ، ونبَّه به على ما دونَهُ مِن المخلوقاتِ. ولَمَّا كان الحَديثُ على عَظَمةِ مُلْكِ العِبادِ: مُلْكِ النُّبوَّةِ وغيرِه، ذكَرَ عَظمةَ مُلْكِ اللهِ الَّتي تَصغُرُ إزاءَها كُلُّ عَظمةٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ هذا مِن جُملةِ الكلامِ الَّذي أُلْقِيَ على لِسانِ الهُدهدِ؛ فالواوُ للعَطْفِ. أو أن يكونَ كلامًا آخَرَ مِن القُرآنِ ذُيِّلَ به الكلامُ المُلْقَى إلى سُليمانَ؛ فالواوُ للاعتراضِ بيْن الكلامِ المُلْقَى لسُليمانَ وبيْن جَوابِ سُليمانَ، والمقصودُ: التَّعريضُ بالمُشركينَ[٤].

- وما حُكِيَ مِن الهُدهدِ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾ إلى ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ ليس داخلًا تحتَ قولِه: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾، وإنَّما هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٤).

مِن العلومِ والمعارفِ الَّتي اقْتبَسَها مِن سُليمانَ عليه السَّلامُ؛ أوردَهُ بَيانًا لِمَا هو عليهِ، وإظْهارًا لِتَصلُّبِه في الدِّينِ؛ وكلُّ ذلكَ لِتَوجيهِ قلْبِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ نحوَ قَبولِ كَلامِه، وصَرْفِ عِنانِ عَزيمتِه عليه السَّلامُ إلى غَزْوِها وتَسخيرِ ولَايتِها[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ كلامِ الهُدهدِ؛ كأنَّه قيلَ: فماذا فعَلَ سُليمانُ عليه السَّلامُ عندَ ذلكَ؟ فقيل: قال...[٢].

- والسِّينُ في قولِه: ﴿سَنَنظُرُ﴾ للتَّأكيدِ[٣].

- قولُه: ﴿أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (... أم كذَبْتَ)، وإيثارُ مَا عليهِ النَّظمُ الكريمُ؛ للإيذانِ بأنَّ كَذِبَه في هذه المادَّةِ يَستلزِمُ انتظامَه في سِلْكِ المَوسومينَ بالكذِبِ الرَّاسخينَ فيه؛ فإنَّ مَساقَ هذه الأقاويلِ المُلفَّقةِ على تَرتيبٍ أنيقٍ يَسْتَميلُ قُلوبَ السَّامعينَ نحوَ قَبولِها مِن غيرِ أنْ يكونَ لها مِصْداقٌ أصلًا -لا سيَّما بيْن يَدَي نَبيٍّ عظيمِ الشَّأنِ- لا يَكادُ يَصدُرُ إلَّا عمَّن له قدَمٌ راسخٌ في الكذِبِ والإفكِ. وأيضًا في هذا النَّظمِ مُراعاةٌ للفواصلِ[٤]. وفي ذلك إيذانٌ بتَوضيحِ تُهْمَتِه بالكذبِ؛ لِيَتخلَّصَ مِن العِقابِ، وإيذانٌ بالتَّوبيخِ والتَّهديدِ وإدخالِ الرَّوعِ عليه، بأنَّ كَذِبَه أرجَحُ عندَ المَلِكِ؛ ليكونَ الهُدهدُ مُغلِّبًا الخوفَ على الرَّجاءِ، وذلك أدْخَلُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٦).

التَّأديبِ على مِثْلِ فِعلَتِه وفي حِرْصِه على تَصديقِ نفْسِه، بأنْ يُبلِّغَ الكتابَ الَّذي يُرسِلُه معه[١].

٩- قولُه تعالى: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ ثُمَّ تَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَٱنظُرۡ مَاذَا يَرۡجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لجُملةِ ﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾؛ لأنَّ فيما سيَنكشِفُ بعدَ تَوجيهِ كِتابِه إلى مَلَكةِ سبأٍ ما يُصدِّقُ خبَرَ الهُدهدِ إنْ جاء مِن المَلِكةِ جَوابٌ عن كِتابِه، أو يُكذِّبُ خبَرَ الهُدهدِ إنْ لم يَجِئْ منها جوابٌ[٢].

- قولُه: ﴿ٱذۡهَب بِّكِتَٰبِي هَٰذَا﴾ يَقْتَضي كلامًا مَحذوفًا؛ وهو أنَّ سُليمانَ فكَّرَ في الاتِّصالِ بيْن مَمْلكتِه وبيْن مَمْلكةِ سبأٍ، فأحضَرَ كِتابًا، وحمَّلَه الهُدهدَ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَلۡقِهۡ إِلَيۡهِمۡ﴾ قالَه على لفْظِ الجمْعِ؛ لأنَّه قال: ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ﴾ [النمل: ٢٤]، فقال: فألْقِه إلى الَّذين هذا دِينُهم؛ اهتمامًا منه بأمْرِ الدِّينِ، واشْتغالًا به عن غَيرِه. وبَنى الخِطابَ في الكتابِ على لفْظِ الجمْعِ لذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣).

## الآيات (٢٩-٣٧)

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِىَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾: أي: وُجوهُ النَّاسِ وأشرافُهم، والمَلأُ: جماعةٌ يجتَمِعون على رأيٍ، ويملؤون العيونَ مَنظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجَلالًا، وأصلُه يدُلُّ على: المساواةِ والكَمالِ في الشَّيءِ[1].

﴿أَفْتُونِى﴾: أي: أجيبوني، وأشيروا عليَّ، ونبئوني ما أفعلُ، والفُتْيا والفَتْوَى: الجوابُ عمَّا يُشكلُ مِن الأحكامِ، وأصلُ (فتى) هنا: يدلُّ على تَبْيينِ حكمٍ[2].

﴿وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ﴾: أي: أصحابُ شِدَّةٍ فِي الحَربِ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

الشِّدَّةِ وما ضارَعَها[١].

﴿لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾: أي: لا طاقةَ لهم على استقبالِها ودفاعِها، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٢].

﴿صَٰغِرُونَ﴾: أي: عاجِزونَ أذِلَّاءُ، وأصلُ الصِّغرِ: يَدُلُّ على قِلَّةٍ وحقارةٍ[٣].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ * إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾

قولُه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟﴾: فيه أوجُهٌ؛ **أحدُها**: أنَّ (أنْ) مفَسِّرةٌ، وجملةُ النَّهيِ بعدَه (لا تَعلُوا) تفسيريَّةٌ لا محلَّ لها من الإعرابِ.

**والثاني**: أنَّ (أنْ) مصدريَّةٌ و(لا) نافيةٌ، والمصدرُ المؤوَّلُ في محلِّ رفعٍ بدلٌ من ﴿كِتَٰبٌ﴾.

**والثالث**: أنَّ المصدرَ المؤوَّلَ في موضعِ رفعٍ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو ألَّا تعلوا.

**والرابع**: أنَّه منصوبٌ على نزعِ الخافضِ، أي: بألَّا تعلُوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١١٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٣٠)، =

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما كان مِن ملكةِ سبأٍ بعدَ أنْ وصَلها كتابُ سليمانَ عليه السلامُ: قالت ملِكةُ سَبأٍ لأشرافِ قَومِها بعد أن قرأَتْ كِتابَ سُلَيمانَ: يا أيُّها الأشرافُ، لقد أُلقِيَ إليَّ كتابٌ جَليلُ القَدرِ من سُلَيمانَ، وإنَّه: بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، لا تتكبَّرُوا عليَّ بل انقادُوا لِما آمُرُكم به، وأقبِلوا إليَّ مُنقادينَ لله بالطَّاعةِ والوحدانيَّةِ، ثمَّ قالت لأشرافِ قَومِها: يا أيُّها الأشرافُ أشيروا عليَّ؛ فما كنتُ أقطَعُ أمرًا دونَكم، فقالوا: نحن أصحابُ قوَّةٍ وشدَّةٍ في الحَربِ، والرأيُ إليك في قِتالِ سُلَيمانَ أو مُسالَمتِه، فانظُري فيما تأمُرينَنا به، فقالت: إنَّ الملوكَ إذا دخَلوا مدينةً خرَّبوها، وذلُّوا أهلَها، وتلك عادتُهم، وإني باعِثةٌ إلى سُلَيمانَ وقَومِه بهديةٍ عَظيمةٍ؛ لأنظُرَ بمَ ترجِعُ رسُلي مِن خبرِ سُلَيمانَ؟

فلما جاءت رسُلُها إلى سُلَيمانَ بالهدايا أنكر عليهم، وقال لهم: أتعطونَني مالًا لأتركَكُم على شِركِكم، فما أعطاني اللهُ أفضَلُ ممَّا أعطاكم، بل أنتم الذين تَفرحَون بالهدايا التي تُهدَى إليكم، ارجِعْ إلى قَومِك فإنْ لم يأتوا إليَّ مُسلِمين فسأرسِلُ إليهم جُنودًا لا طاقةَ لهم بقتالِهم، ولنُخرجَنَّهم من أرضِهم أذلَّةً مُهانينَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبأٍ لأشرافِ قَومِها بعد أن قرأتْ كِتابَ سُلَيمانَ: يا أيُّها الأشرافُ والسَّادةُ، لقد رُميَ إليَّ[1] كتابٌ حَسَنٌ منظرُه، جليلٌ قدْرُه، شريفٌ

---

= ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٥٣٤)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠٠٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٠٩).

(١) قال ابن عثيمين: (ما قالتْ: ألقى الهُدهدُ؛ لأنَّ الظَّاهرَ أنَّه مرَّ ثمَّ حذَفه عليها، وليس معناه أنَّه =

كاتِبُه[١].

﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾.

أي: قَرَأت ملِكةُ سَبأٍ الكِتابَ على قَومِها فقالت: إنَّ الكِتابَ مِن سُلَيمانَ، وإنَّه بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ[٢].

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣١﴾.

﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ﴾.

---

= جاء ووقَف بيْنَ يدَيْها وأعطاها الكِتابَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٣).

وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ قولِها: ﴿أُلۡقِيَ إِلَيَّ﴾ أنَّ الكتابَ سُلِّمَ إليها دُونَ حضورِ أهلِ مجلِسِها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦، ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٧، ٢٥٨).

قال ابن عاشور: (وصْفُ الكتابِ بالكريمِ ينصَرِفُ إلى نفاستِه في جنسِه... بأن كان نفيسَ الصحيفةِ، نفيسَ التخطيطِ، بهيجَ الشَّكلِ، مستوفيًا كلَّ ما جرت عادةُ أمثالِهم بالتأنُّق فيه. ومن ذلك أن يكونَ مختومًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨).

وقال ابنُ عثيمين: (الكريمُ معناه: المتضَمِّنُ للمعاني العظيمةِ المؤثِّرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٨).

قال ابن عاشور: (يحتمِلُ أن يكونَ قد تُرجِمَ لها قبل أن تخرُجَ إلى مجلِسِ مَشورتِها، ويحتَمِلُ أن تكونَ عارفةً بالعبرانية، ويحتَمِلُ أن يكونَ الكتابُ مكتوبًا بالعربيَّةِ القَحطانيَّةِ؛ فإنَّ عظمةَ مُلكِ سُلَيمانَ لا تخلو من كتَّابٍ عارفينَ بلغاتِ الأُمَمِ المجاوِرةِ لمَملكتِه، وكونُه بلغتِه أظهَرُ وأنسَبُ بشِعارِ الملوكِ، وقد كتب النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ للملوكِ باللُّغةِ العربيَّةِ. أمَّا الكلامُ المذكورُ في هذه الآية فهو ترجمةُ الكِتابِ إلى اللغةِ العربيةِ الفُصحى بتضمينِ دقائِقِه وخصوصيَّاتِ اللُّغةِ التي أنشِئَ بها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨، ٢٥٩).

أي: ألَّا تتكبَّرُوا وتمتَنِعوا عليَّ، بل اخضَعوا لي، وانقادُوا لِما آمُرُكم به[١].

﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾.

أي: وأقْبِلوا إليَّ مُنقادين مُذعِنين لله بالوحدانيَّةِ والطاعةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

قال السمعاني: (وقوله: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: هو مِنَ الإسلامِ، والآخَرُ: مِنَ الاستِسلامِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٤).

ممَّن اختارَ القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والخازن، والعليمي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩).

قال الألوسي: (والدَّعوةُ على الأوَّلِ [أي أنَّ المرادَ: وأْتوني مؤمنينَ] دعوةُ النُّبوَّةِ، وعلى الثَّاني [أي أنَّ المرادَ: وأْتوني مُنقادينَ مُستَسلِمينَ] دعوةُ المُلْكِ. واللَّائقُ بشأنِه عليه السَّلامُ هو الأوَّلُ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٩١).

وقال أبو السعود: (على أنَّ الإيمانَ مستتبِعٌ للانقياد حتمًا). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣).

وقال ابن عاشور: (إطلاقُ اسمِ الإسلامِ على الدينِ يدُلُّ على أنَّ سليمانَ إنما دعا ملِكةَ سبأٍ وقومَها إلى نبذِ الشِّركِ، والاعترافِ للهِ بالإلهية والوحدانية، ولم يدعُهم إلى اتِّباعِ شريعة التوراة؛ لأنَّهم غيرُ مخاطبين بها، وأمَّا دعوتُهم إلى إفراد الله بالعبادةِ والاعترافِ له بالوحدانيةِ في الإلهية؛ فذلك ممَّا خاطب الله به البشَرَ كُلَّهم، وشاع ذلك فيهم من عهدِ آدم ونوح وإبراهيم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٠). =

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبَأٍ لأشرافِ قَومِها: يا أيُّها الأشرافُ، أشيروا عليَّ، وبيِّنُوا لي: ماذا أفعَلُ في هذا الأمرِ[1]؟

﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾.

أي: ما كنتُ لأستبدَّ برأيي في أمرٍ عامٍّ ومُهمٍّ، حتى تحضُروا عندي وتُشيروا عليَّ فيه[2].

﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

---

= وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ أي أنَّ المرادَ: وأْتوني مستسلِمينَ: السمرقنديُّ، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: الكلبي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٤٢)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩).

وقال ابن عثيمين: (هل يلزَمُ مِن إتيانِهم مُستسلِمينَ له أن يكونوا مُسلِمين لله؟ لا يلزَمُ، لكِنْ يلزَمُ مِن كونِهم مُسلِمين لله أن يَستسلِموا له، وأن يأتوا مُطيعين غيرَ مُخالِفين). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٦).

وممَّن جمَع بيْنَ القَولَينِ: السعديُّ، فقال: (﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ أي: لا تَكونوا فَوقي، بلِ اخضَعوا تحتَ سُلطاني، وانقادُوا لأوامري، وأَقْبِلوا إلَيَّ مسلمينَ. وهذا في غايةِ الوجازةِ، مع البيانِ التَّامِّ؛ فإنَّه تضَمَّنَ نَهْيَهم عن العُلوِّ عليه والبقاءِ على حالِهم التي هم عليها، والانقيادَ لأمرِه، والدُّخولَ تحتَ طاعتِه، ومجيئَهم إليه، ودعوتَهم إلى الإسلامِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((فتح البيان)) للقنوجي (١٠/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٣، ٢٦٤).

﴿ قَالُواْ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ وَأُوْلُواْ بَأۡسٖ شَدِيدٖ ﴾.

أي: قال الأشرافُ الذين استشارَتْهم مَلِكةُ سَبأٍ: نحن أصحابُ قوَّةٍ بالمالِ والرِّجالِ والعَتادِ، وأصحابُ شدَّةٍ وعزمٍ في الحَربِ، فإن شئتِ أن نحارِبَ سُلَيمانَ فلا مانعَ لدينا(١).

﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾.

أي: وقد فوَّضْنا الرأيَ إليكِ في قتالِ سُلَيمانَ أو مُسالَمتِه، ففكِّري فيما تأمُرينَنا به، ونحن على استعدادٍ لطاعتِك، وتنفيذِ أوامِرِك(٢).

﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤ ﴾.

﴿ قَالَتۡ إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرۡيَةً أَفۡسَدُوهَا ﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبأٍ: إنَّ الملوكَ إذا دخَلوا مدينةً بالقَهرِ والغَلَبةِ، نَهَبوها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٢، ١٨٣).

قال أبو حيان: (قالوا: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ إِلَيۡكِ فَٱنظُرِي مَاذَا تَأۡمُرِينَ ﴾، وذلك مِن حُسنِ مُحاورتِهم؛ إذ وكَّلوا الأمرَ إليها، وهو دَليلٌ على الطاعةِ المُفرِطةِ، أي: نحن ذكَرْنا ما نحن عليه، ومع ذلك فالأمرُ مَوكولٌ إليكِ، كأنَّهم أشاروا أوَّلًا عليها بالحَربِ، أو أرادوا: نحن أبناءُ الحَربِ لا أبناءُ الاستشارةِ، وأنتِ ذاتُ الرأيِ والتَّدبيرِ الحَسَنِ؛ فانظُري ماذا تأمُرين به، نرجِعْ إليك، ونتَّبِعْ رأيَكِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٦).

وخرَّبوها[١].

﴿وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ أَذِلَّةٗۖ﴾.

أي: وأهانوا كُبَراءَها وأشرافَها، باستِعبادِهم، أو إذلالِهم بالقَتلِ والأسرِ والنَّفيِ، وغيرِ ذلك من فنونِ الإهانةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٥).

قال البقاعي: (﴿قَالَتۡ﴾ جوابًا لما أحسَّت في جوابِهم مِن مَيلِهم إلى الحَربِ: إنَّ الصوابَ مِن غيرِ ارتيابٍ أن نحتالَ في عدمِ قَصدِ هذا المَلِك المطاعِ، ثمَّ عَلَّلت هذا الذي أفهَمَه سياقُ كلامِها بقَولِها: ﴿إِنَّ ٱلۡمُلُوكَ﴾ أي: مُطلقًا، فكيف بهذا النافِذِ الأمرِ، العظيمِ القَدرِ؟!). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٥٩، ١٦٠).

وقال ابن عثيمين: (والملوكُ إذا دخَلوا قريةً أفسَدوها؛ لأنَّ عندهم من العلُوِّ والغَلَبةِ والاستكبارِ ما يُوجِبُ أن يَفتِكوا بأهلِ البلَدِ الذي يدخلونَه، وليس المرادُ هنا بالإفسادِ الإفسادَ المعنويَّ، يعني: بإفسادِ الأخلاق مثلًا، المرادُ... الإفسادُ بالتخريبِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٤).

قال ابن عاشور: (أبدتْ لهم رأيَها مفضِّلةً جانبَ السِّلم على جانبِ الحربِ، وحاذِرةً مِن الدُّخولِ تحت سلطةِ سليمانَ اختيارًا؛ لأنَّ نهايةِ الحربِ فيها احتمالُ أن ينتصرَ سليمانُ، فتصيرَ مملكةُ سبأٍ إليه، وفي الدُّخولِ تحتَ سلطةِ سليمانَ إلقاءٌ للمملكةِ في تصرُّفِه، وفي كِلا الحالين يحصلُ تصرُّفُ ملكٍ جديدٍ في مدينتِها، فعَلِمَتْ بقياسِ شواهدِ التاريخِ وبخبرةِ طبائعِ الملوكِ إذا تصرَّفوا في مملكةِ غيرِهم أن يقلبوا نظامَها إلى ما يُسايرُ مصالحَهم واطمئنانَ نفوسِهم مِن انقلابِ الأمَّةِ المغلوبةِ عليهم في فُرَصِ الضَّعفِ، أو لوائحِ الاشتغالِ بحوادثَ مهمَّةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٥).

وقال ابنُ عثيمين: (وقَولُها: ﴿أَعِزَّةَ أَهۡلِهَآ﴾ سواءٌ كانت هذه العزَّةُ تعودُ إلى المُلْكِ، أو تعودُ إلى الجاهِ والشَّرَفِ، أو إلى العِلمِ أحيانًا، فإنَّهم يُسلَّطون على الأعِزَّةِ؛ لأنَّ لهم الكَلِمةَ فيما سبق، =

﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾.

أي: وتلك عادةُ الملوكِ إذا دخَلوا مدينةً بالقَهرِ والغَلَبةِ: أن يُفسِدوها، ويُذِلُّوا أعزَّةَ أهلِها[1].

﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ فَنَاظِرَةُۢ بِمَ يَرۡجِعُ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا بَيَّنَت ما في المصادمةِ مِن الخطرِ؛ أتبَعَتْه بما عَزَمَتْ عليه مِن المسالَمةِ بقَولِها[2]:

---

= فهم الذين دبَّروا هذه الحروبَ ثم هُزِموا، فتكونُ رحى الحربِ عليهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٥).

قيل: إنَّ هذه الجُملةَ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ﴾ مِن كلامِ الله تعالى؛ تصديقًا وتأكيدًا لِقَولِها. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والزجاج، والواحدي، وابنُ كثير، ونسَبه السمعاني إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٥).

وعلى ذلك فهذه الجملةُ مِن (الموصولِ لفظًا، المفصولِ معنى)، أو ما يُسمَّى عندَ بعضِ العلماءِ: (المدرج). يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٤٤٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٩٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٣٠٩).

وقيل: إنَّ هذه الجملةَ من بقيَّةِ كلامِ ملِكةِ سبأٍ، وليست معتَرِضةً من كلامِ الله سبحانَه. وممَّن اختار ذلك: الزمخشري، والبيضاوي، واستظهره أبو حيان، والسمين الحلبي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٧).

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبأٍ: وإنِّي باعثةٌ رسُلًا إلى سُلَيمانَ وقَومِه بهديَّةٍ عظيمةٍ[١]، فناظِرةٌ[٢] ما سترجِعُ به رسُلي من خبرِ وحالِ سُلَيمانَ وقَومِه، وهل يقبَلُ هديَّتَنا ومهادنَتَنا، أو يُصِرُّ على أمرِه بالإتيانِ إليه مُسلِمينَ[٣].

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

---

(١) قال أبو حيان: (قد طوَّلوا في قَصَصِها بما لم يثبُتْ في القرآنِ ولا الحديثِ الصَّحيحِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٥٥).

(٢) قولها: ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ يحتملُ أن يكونَ مِنَ النَّظرِ، يعني: أنظُرُ بعْدَ إرسالِ الهديَّةِ: بِمَ يرجِعُ المُرسَلون؟ ويحتملُ أن يكونَ من الانتظار، ﴿فَنَاظِرَةٌ﴾ أي: فمُنتظِرةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٨).

ممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، وابن كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٨).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثاني: القرطبيُّ، والنسفي، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢، ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ١٩٦، ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٨-١٩٠).

واختُلِف فيما قصَدت بهديتِها؛ فقيل: قصَدت الملاطفةَ والاستنزالَ، ذكَره قَتادةُ. وقيل: قصَدت اختبارَ نُبوَّتِه مِن مُلكِه، وأنَّها اختبرتْه بالقَبولِ والرَّدِّ، فقالت: إنْ قَبِل الهديَّةَ فهو مَلِكٌ، فقاتِلوه على ملكِكم، وإن لم يقبَلِ الهديَّةَ فهو نبيٌّ، لا طاقةَ لكم بقتالِه، قاله ابنُ عبَّاسٍ وزهيرٌ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٠٩).

﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ﴾.

أي: فلمَّا وصَلَ وَفدُ مَلِكةِ سَبأٍ إلى سُلَيمانَ بالهَدايا، أنكرَ عليهم عدَمَ مجيئِهم إليه مُسلِمين كما أمَرَهم، وقال لهم مُتغيِّظًا: أتُعطونني مالًا لأترَكَكم على شِركِكم[1]؟!

﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾.

أي: فما أعطاني اللهُ من النبُوَّةِ والمُلكِ والأموالِ ونعيمِ الدُّنيا: أفضَلُ مِمَّا أعطاكم[2].

﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾.

أي: أنا لا أفرَحُ بهديَّتِكم هذه، ولا أقبَلُ منكم إلَّا الإسلامَ، ولكِنْ أنتم الذين تفْرَحونَ بما يُهْدَى إليكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٧، ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٤).

قال الرازي: (أمَّا قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ ففيه ثلاثةُ أوجهٍ؛ أحدُها: أنَّ ... المعنَى أنَّ اللهَ تعالَى آتاني الدِّينَ الَّذي هو السَّعادةُ القُصْوى، وآتاني مِنَ الدُّنيا ما لا مَزيدَ عليه، فكيف يُستمالُ مِثْلي بمِثلِ هذه الهديَّةِ؟! بل أنتم تفرحونَ بما يُهْدَى إليكم، لكنَّ حالي خلافُ حالِكم.

وثانيها: بل أنتم بهديَّتِكم هذه الَّتي أهدَيْتُموها تفرحونَ مِن حيثُ إنَّكم قدَرْتُم على إهداءِ مِثْلِها.

وثالثُها: كأنَّه قال: بل أنتم مِن حَقِّكم أنْ تأخُذوا هديَّتَكم وتَفْرَحوا بها). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٥٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: بل أنتم تفرحون بالهَديَّةِ الَّتي تُهدى إليكم: مقاتلُ بن سليمان، وابن =

﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ﴾.

أي: قال سُلَيمانُ لأميرِ الوفدِ: ارجِعْ إلى مَن أرسَلَك بهذه الهَديَّةِ، فإنْ لم يأتُوا إليَّ مُسلِمينَ فسأُرسِلُ إليهم جُنودًا لا طاقةَ لهم بقِتالِهم(١).

﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾.

أي: ولَنُخرِجنَّهم من أرضِهم أذلَّاءَ مُهانينَ إنْ لم يأتوني مُسلِمينَ(٢).

---

= جرير، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٤).

وممَّن اختار أن هذا توبيخٌ لهم بفرحهم بهذه الهَديَّةِ فرَحَ فخرٍ وخُيلاءٍ وامتِنانٍ واعتدادٍ بها: أبو السعود، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٢)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٧/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠١، ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٩).

قال ابنُ عُثيمين: (قولُه: ﴿وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ﴾ فنحتَلُّ بلادَهم ونخرِجُهم منها أذِلَّةً ﴿وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ الفَرقُ بين الذِّلَّةِ والصَّغارِ: الذِّلَّةُ: الذُّلُّ في النفْسِ، والصَّغارُ: في البدنِ، يعني: يكون مُستَسْلِمًا باطنًا بالذُّلِّ؛ قال الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥]، فالخشوعُ بمعنى الصَّغارِ، والذُّلُّ: هو ذُلُّ النفْسِ. والعياذُ بالله). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٨).

وقال العسكري: (الصَّغارُ هو الاعترافُ بالذُّلِّ، والإقرارُ به، وإظهارُ صِغَرِ الإنسانِ). ((الفروق اللغوية)) (ص: ٢٤٩). ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٨٥).

## الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ المشاورةُ والاستعانةُ بالآراءِ في الأمورِ المهمَّةِ[١]، فهي مع أنَّها مَلِكةٌ، ولها تمامُ السُّلطةِ؛ فمع ذلك لم تستغْنِ عن المُشاورةِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ أنَّه إذا قَدَّمَ المستشارُ مشورتَه لإنسانٍ أكبرَ منه قدرًا أو فهمًا أو عِلمًا؛ أنَّ له أن يقولَ مثلَ هذا تأدُّبًا، وصاحِبُه بالخيارِ: إنْ شاء أخَذَ بمشورتِه، وإنْ شاء لم يأخُذْ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِىَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ دَليلٌ على جوازِ الغِلظةِ في القَولِ إذا كانتِ المصلحةُ فيه؛ لأنَّ هذا الأسلوبَ مِن سُلَيمانَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أُسلوبٌ قويٌّ؛ إذْ إنَّ الاستفهامَ في قَولِه: ﴿أَتُمِدُّونَنِ﴾ للتَّوبيخِ والتعجيبِ، يعني أنَّه يُوَبِّخُهم على فِعلِهم، ويَتَعَجَّبُ مِن فِعلِهم: كيف يُمِدُّونه بمالٍ وهو مَلِكٌ ومعروفٌ ومشهورٌ[٤]؟!

والعاقلُ يعرفُ مظانَّ الغضبِ لله تعالى فيغضبُ فيها، ويعرفُ مظانَّ التلطفِ فيتلطَّفُ فيها، ألَا ترَى أنَّ سليمانَ عليه السلامُ قال: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، فلمَّا لم تُجِبْهُ بلقيسُ وغالَطَتْه بالهدية قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨١).

قال ابنُ عاشور: (شأن القرآنِ فيما يَذكرُه مِن القَصَصِ أنْ يذكرَ المهمَّ منها للمَوعِظةِ أو للأُسوةِ... فلذلك يُستروَحُ مِن سياقِ هذه الآيةِ حسنُ الشُّورَى). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: (المصدر السابق)) (ص: ١٩٥).

وجميعُ الرُّسلِ إذا استُقرِئ أمرُهم في بَدءِ الإرسالِ وجدْتَ فيه الرِّفقَ واللينَ والشفقةَ على قومِهم، فإذا أصرُّوا وعانَدوا أغلَظوا لهم حينَئذٍ؛ لِما ركَّب الله تعالى في رسلِه مِن العقولِ الوافرةِ، والأحلامِ الكاملةِ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، حيثُ يجعلُ رسالتَه بخلافِ الغبيِّ الذي يلينُ في مواطنِ الإغلاظِ، ويُغلظُ في مظانِّ اللين، معتقدًا أنَّه مقتدٍ بالرسلِ في غلظتِهم ولينِهم! فنعوذُ بالله مِن الجهلِ بمظانِّ خطابِه، ومِن تحريفِ كلامِه، وتنزيلِه على غيرِ مرادِه[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ أنَّ كَرَمَ كلِّ شيءٍ بحسبِه، فالكرمُ بالمالِ معناه: بذْلُه بسخاءٍ، والكريمُ مِن المالِ يُطلَقُ على الجيدِ منه، كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((وإياك وكرائمَ أموالِهم))[٢]، وكذلك أيضًا يُوْصَفُ بالكَرَمِ ما يتضمَّنُ الشيءَ المهمَّ؛ كما في هذا الوصفِ في كتابِ سُلَيمانَ عليه الصلاةُ والسلامُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استحبابُ ابتداءِ الكتبِ بالبَسملةِ كامِلةً[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ سؤالٌ؛ لِمَ قَدَّمَ سُلَيمانُ اسمَه على البسملةِ؟

**الجوابُ**: أنه لم يقعْ منه ذلك! بلِ ابتدأَ الكتابَ بالبسملةِ، وإنما كَتَب اسمَه

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٩٤، ١٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩) مطولًا من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٤).

عنوانًا بعدَ ختْمِه لأنَّ بلقيسَ إنما عرَفتْ كونَه مِن سُلَيمانَ بقراءةِ عنوانِه كما هو المعهودُ، ولذلك قالتْ: (إِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) أي: إنَّ الكتابَ، فالتقديمُ واقعٌ في حكايةِ الحالِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ دَليلٌ على قُوَّةِ سُلَيمانَ عليه الصَّلاةُ والسلامُ؛ لأنه لم يَقُلْ: (وأسلِموا)، بل قال: ﴿وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ فطَلَبَ منهم أنْ يأتوا إليه وهم على الإسلامِ(٢).

٥- استعمالُ الإيجازِ إذا لم يكنْ فيه تقصيرٌ؛ لأنَّ هذا الكتابَ الذي كتَبه سُلَيمانُ هو في غايةِ ما يكونُ مِن الإيجازِ؛ جملتان فقط: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، ولكنْ بشرطِ أَلَّا يكونَ الإيجازُ مُخِلًّا بالمقصودِ، فإنْ كان مُخِلًّا بالمقصودِ صار تقصيرًا(٣).

٦- قولُه: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾ فيه عرضُ الإسلامِ على الكفَّارِ، وفي هذا إحسانٌ إليهم بالتوسُّلِ إلى نقلِهم مِن الكفرِ إلى الإيمان، ومِن أسبابِ السَّخطِ إلى أسبابِ الرِّضوانِ(٤).

٧- قولُه: ﴿أَلَّا تَعۡلُواْ عَلَيَّ وَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ﴾، جمَعَ فيه سُليمانُ بيْنَ دَعوتِها إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦).

قال ابن عاشور: (وقَولُه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ﴾ هو مِن كلامِ المَلِكةِ ابتدأتْ به مخاطَبةَ أهلِ مَشورتِها؛ لإيقاظِ أفهامِهم إلى التدبُّرِ في مغزاه؛ لأنَّ اللائقَ بسُليمانَ ألَّا يقَدِّمَ في كتابِه شَيئًا قبل اسمِ الله تعالى، وأنَّ معرفةَ اسم سُليمانَ تُؤخَذُ مِن خَتْمِه، وهو خارِجُ الكتابِ؛ فلذلك ابتدأتْ به أيضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٩). ويُنظر: ((صبح الأعشى)) للقَلْقَشَنْدي (٦/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٩٤).

مُسالَمَتِه وطاعتِه، وذلك تَصرُّفٌ بصِفَةِ المُلْكِ، وبيْن دَعوةِ قَومِها إلى اتِّباعِ دِينِ التَّوحيدِ، وذلك تصرُّفٌ بالنُّبوَّةِ؛ لأنَّ النَّبيَّ يُلْقِي الإرشادَ إلى الهُدى حيثما تَمكَّنَ منه، كما قال شُعيبٌ: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨]، وهذا نَظيرُ قولِ يُوسفَ لصاحِبَيِ السِّجْنِ: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] الآيةَ. وإنْ كان لم يُرسَلْ إليهم؛ فالأنبياءُ مأْمُورون أمْرًا عامًّا بالإرشادِ إلى الحقِّ، وكذلك دُعاءُ سُليمانَ هنا(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ جوازُ الاختبارِ والامتحانِ، وأنَّ ذلك لا يُعَدُّ خديعةً إذا أراد الإنسانُ أنْ يَمتحِنَ غيرَه بشيءٍ مِن الأشياءِ؛ لأنَّه يريدُ أنْ يستظهِرَ به حالَه، وهذا لا مانعَ منه(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ العَمَلُ بالقرائنِ، لأنَّها أرادتْ أنْ تُوصِلَ هذه الهديةَ؛ لِتختبرَ مرادَ سُلَيمان: هل يريدُ المالَ فقط فتكفيه هذه الهديةُ، أو يريدُهم أن يُسلِموا فلا تنفَعُ فيه هذه الهديةُ، ولا يَكُفُّ عن طلبِه الأولِ، وهو قَولُه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾(٣).

١٠- وقولُه تعالى إخبارًا عن بِلْقيسَ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ يَدلُّ على تَعدُّدِ رُسُلِها إلى سُليمانَ، وقولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ بإفرادِ فاعلِ ﴿جَآءَ﴾، وقولُه تعالى -إخبارًا عن سُليمانَ أنَّه قال-: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾ الآيةَ؛ يَدلُّ على أنَّ الرَّسولَ واحدٌ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩١).

وهذا ليس على إطلاقِه، إنَّما هو مقيَّدٌ بالمصلحةِ والفائدةِ المترتِّبةِ على هذا الاختبارِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩١).

والظَّاهرُ في الجوابِ هو ما ذَكَرَه غيرُ واحدٍ: مِن أنَّ الرُّسُلَ جَماعةٌ وعليهم رئيسٌ منهم، فالجمْعُ نظَرًا إلى الكلِّ؛ والإفرادُ نَظرًا إلى الرَّئيسِ؛ لأنَّ مَن معه تَبَعٌ له، والعِلْمُ عندَ اللهِ تعالى(١).

أو يُقالُ: إنَّ قَولَه تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ﴾ معناه: فلما جاء الرَّسولُ، دلَّ عليه قولُه: ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ [النمل: ٣٥]، فالإرسالُ يقتضي رسولًا، والرَّسولُ لفظُه مُفرَدٌ ويَصدُقُ بالواحِدِ والجماعةِ.

وأيضًا: فإنَّ هدايا الملوكِ يَحمِلُها رَكبٌ، فيجوزُ أن يكونَ فاعِلُ ﴿جَآءَ﴾ الرَّكبَ المعهودَ في إرسالِ هدايا أمثالِ الملوكِ(٢).

١١- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾، قال: ﴿جَآءَ﴾ وهو مفردٌ مع أنَّهم كانوا جماعةً؛ لأنَّ الذي خاطَب سليمانَ وقدَّم الهديةَ هو رئيسُهم، وفيه أنَّ مِن المستحسَنِ أنْ يَتقدَّمَ الرئيسُ -رئيسُ الوفدِ أو القومِ- بالكلامِ أو الفعلِ إذا كان مكلَّفًا بالفِعلِ، المهمُّ أنْ يكونَ المتقدِّمُ الرَّئيسَ؛ لأنَّ تقَدُّمَ الجَميعِ دَفعةً واحِدةً غيرُ لائقٍ؛ لضياعِ المسؤوليةِ، فلا بدَّ أن يتقَدَّمَ واحِدٌ، وكلَّما حُصِرَ الأمرُ كان أقرَبَ إلى الفَهمِ وإلى حصولِ المقصودِ؛ لِقَولِه: ﴿قَالَ﴾(٣).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ دَليلٌ على أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يَتحدَّثَ بنعمةِ اللهِ على سبيلِ الافتخارِ معَ العدوِّ، ولذلك تجوزُ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٤).

الخُيَلاءُ في الحربِ، مع أنَّ الخُيَلاءَ مُحرَّمَةٌ ومِن الكبائرِ، لكنْ في الحربِ لإغاظةِ العدوِّ فلا بأسَ بها[١].

١٣- قوله تعالى: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ فيه إظهارُ القوَّةِ للأعداءِ، وتخويفُ أهلِ الحربِ وإرهابُهم، فهذا التَّهديدُ والوعيدُ لا شكَّ أنَّه مَظهَرُ قوَّةٍ، فيكونُ داخلًا في قَولِه تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]؛ فإنَّ قولَه: ﴿مِّن قُوَّةٖ﴾ نكرةٌ تشملُ كلَّ ما يمكِنُ مِن القوى -سواءً كانتِ القوةُ قوليةً أو ماديةً أو معنويةً- المهمُّ أنَّ جميعَ القوى في معاملةِ الأعداءِ ينبغي للمرءِ أنْ يَستعمِلَها[٢].

١٤- قَولُه: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ﴾ فيه الرَّدُّ على الجبريةِ، وأنَّ الإنسانَ يَفعَلُ باختيارِه[٣].

١٥- قَولُه: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ فيه كثرةُ جنودِ سُلَيمانَ؛ لأنَّ هذه المِلكةَ لها العرشُ العظيمُ، وعندها القومُ المطيعون الذَّليلون لأوامرِها، ومع ذلك فيقولُ: ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾، وجنودُه ثلاثةُ أصنافٍ: الجنُّ والإنسُ والطيرُ، هذه كلُّها يَمكن أنْ يُسلِّطَها عليهم، ولا قِبَلَ لهم بها، فالحاصِلُ: أنَّ الجنودَ التي لسُلَيمان لا يمكِنُ لهؤلاء أن يقابِلوها لا كميَّةً ولا كيفيَّةً[٤].

١٦- قال الله تعالى: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ﴾ لَمَّا كان الذُّلُّ قد يكونُ لمجرَّدِ الانقيادِ لا على سَبيلِ الهوانِ، حقَّقَ المرادَ بقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠١).

﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي: لا يَملِكون شيئًا مِن المنَعةِ إنْ لم يُقِرُّوا بالإسلامِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ غرابةَ قصَّةِ إلْقاءِ الكتابِ إليها يُثيرُ سُؤالًا عن شأْنِها حين بلَغَها الكِتابُ[٢].

- وقد طُوِيَت أخبارٌ كَثيرةٌ دَلَّ عليها ما بيْن الخَبرينِ المذكورينِ مِن اقْتضاءِ عِدَّةِ أحداثٍ؛ إذ التَّقديرُ: فأخَذ الهُدهُدُ الكِتابَ وذهَبَ به إلى سبَأٍ، فلمَّا ألْقاهُ إلى المرأةِ وهي في مَجلسِ مُلْكِها وقرَأَتْه؛ ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ ...﴾ إلخ، وإنَّما طُوِيَ ذِكْرُه؛ إيذانًا بكَمالِ مُسارَعتِه إلى إقامةِ ما أُمِرَ بهِ مِن الخدمةِ، وإشعارًا باستغنائِه عن التَّصريحِ به؛ لغَايةِ ظُهورِه[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استِئنافٌ وتَبْيينٌ لِمَا أُلْقِيَ إليها؛ كأنَّه قِيل لها: ممَّن هو؟ وما هو؟ فقالت:...؛ فأَبْهَمَتْ أوَّلًا ثمَّ فسَّرَت[٤].

- قولُه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ استِفتاحٌ شريفٌ بارِعُ المعنى، مَبدوءٌ به في الكُتبِ في كلِّ لُغةٍ، وكلِّ شَرعٍ[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ التَّأكيدُ بـ (إنَّ) في

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٤).

الموضعينِ يُتَرجِمُ عمَّا في كلامِهما باللُّغةِ السَّبائيَّةِ مِن عباراتٍ دالَّةٍ على اهتمامِها بمُرسِلِ الكتابِ وبما تَضمَّنَه الكتابُ، اهتمامًا يُؤَدَّى مِثْلُه في العربيَّةِ الفُصْحى بحَرفِ التَّأكيدِ الَّذي يَدلُّ على الاهتمامِ في مَقامٍ لا شكَّ فيه[١].

٣- قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ﴾ نَهْيٌ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ؛ ولذلك أتْبَعَتْه مَلِكةُ سبأٍ بقولِها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾[٢] [النمل: ٣٢].

- وقولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ كَلامٌ في غايةِ الوَجازةِ، مع كَمالِ الدَّلالةِ على المقصودِ؛ لاشتِمالِه على البَسملةِ الدَّالَّةِ على ذاتِ الخالِقِ تعالى وصِفاتِه صَريحًا أو الْتِزامًا، والنَّهيِ عن التَّرفُّعِ الَّذي هو أُمُّ الرَّذائلِ، والأمْرِ بالإسلامِ الجامعِ لِأمَّهاتِ الفَضائلِ، وليس الأمْرُ فيه بالانقيادِ قبْلَ إقامةِ الحُجَّةِ على رِسالتِه حتَّى يكونَ استدعاءً للتَّقليدِ؛ فإنَّ إلْقاءَ الكتابِ إلَيها على تلك الحالةِ مِن أعظمِ الدَّلالةِ[٣].

- وكان كتابُ سُليمانَ وَجيزًا؛ لأنَّ ذلك أنسَبُ بمُخاطَبةِ مَن لا يُحسِنُ لُغةَ المُخاطِبِ، فيَقتصِرُ له على المقصودِ؛ لإمكانِ تَرجمَتِه وحُصولِ فَهْمِه، فأحاطَ كِتابُه بالمقصودِ، وهو تَحذيرُ مَلَكةِ سبأٍ مِن أنْ تُحاوِلَ التَّرفُّعَ على الخُضوعِ إلى سُليمانَ والطَّاعةِ له[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٠).

- قولُه: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى﴾ جُملةٌ مُستأنفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا[١]، وكُرِّرت حِكايةُ قولِها: ﴿قَالَتْ﴾؛ للإيذانِ بغايةِ اعتِنائِها بما في حَيِّزِه مِن قولِها[٢].

- قولُها: ﴿أَفْتُونِى﴾ عبَّرَتْ عن الجَوابِ بالفَتوى الَّتي هي الجَوابُ في الحَوادثِ المُشكلةِ غالبًا؛ تَهْويلًا للأمْرِ، ورَفْعًا لِمَحلِّهم بالإشعارِ بأنَّهم قادِرونَ على حَلِّ المُشكِلاتِ المُلمَّةِ[٣].

- وصِيغةُ ﴿مَا كُنتُ قَاطِعَةً﴾ تُؤْذِنُ بأنَّ ذلك دأْبُها وعادتُها معهم؛ فكانتْ عاقلةً حَكيمةً مُسْتَشيرةً، لا تُخاطِرُ بالاستِبدادِ بمَصالحِ قَومِها، ولا تُعرِّضُ مُلْكَها لِمَهاوي أخطاءِ المُستبدِّين[٤].

- وفي قولِها: ﴿حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ كِنايةٌ عن معنى: تُوافِقُوني فيما أقْطَعُه، أي: يَصدُرُ منها في مَقاطعِ الحُقوقِ والسِّياسةِ: إمَّا بالقَولِ، كما جَرَى في هذه الحادثةِ، وإمَّا بالسُّكوتِ وعَدمِ الإنكارِ؛ لأنَّ حُضورَ المعدودِ للشُّورَى في مكانِ الاستشارةِ مُغْنٍ عن استشارتِه؛ إذ سُكوتُه مُوافقةٌ[٥]، وأيضًا فِعلُ ﴿تَشْهَدُونِ﴾ هنا مُستعمَلٌ كِنايةً عن المُشاورةِ؛ لأنَّها يَلزَمُها الحُضورُ غالِبًا؛ إذ لا تَقَعُ مُشاورَةٌ مع غائِبٍ[٦].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ قولِها؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٣).

كأنَّه قِيلَ: فماذا قالوا في جوابِها؟ فقيل: قالوا: ...[١].

- وهو جوابٌ بأُسلوبِ المُحاورةِ؛ فلذلك فُصِلَ عمَّا قبْلَه ولم يُعطَفْ عليه، كما هي طريقةُ المُحاوَراتِ[٢].

- وفي قولِهم: ﴿نَحْنُ أُوْلُواْ قُوَّةٍ وَأُوْلُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ إيجازٌ عجيبٌ؛ فهو -أوَّلًا- يَدلُّ على تَعظيمِ المَشورةِ، وتَعظيمِ بِلْقيسَ أمْرَ المُستشارِ. ويَدلُّ -ثانيًا- على تَعظيمِهم أمْرَها وطاعتَها. وفي قولِهم: ﴿وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ﴾ وقولِهم: ﴿فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ إيجازٌ يُسكِرُ الألبابَ؛ فإنَّ الكلامَ قد يُفسِدُه الاختصارُ، ويُعْمِيه التَّخفيفُ منه والإيجازُ، وهذا ممَّا يَزيدُه الاختصارُ بَسْطًا؛ لِتَمكُّنِه ووُقوعِه مَوقِعَه، ويَتضمَّنُ الإيجازُ منه تَصرُّفًا يَتجاوَزُ مَحلَّه ومَوضِعَه[٣].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَأْمُرِينَ﴾ ومُتعلَّقُه؛ لظُهورِهما مِن المَقامِ، والتَّقديرُ: ما تأْمُرينَنا به، أي: إنْ كان رأْيُكِ غيرَ الحربِ، فمُري به نُطِعْكِ[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓاْ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾

- قولُها: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ فيه افتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخبرِ وتَحقيقِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((إعجاز القرآن)) للباقلاني (ص ١٩٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٥)

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٦).

- قولُها: ﴿إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ...﴾ استِدلالٌ بشواهدِ التَّاريخِ الماضي، وجُملةُ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ استِدلالٌ على المُستقبَلِ بحُكمِ الماضي على طَريقةِ الاستِصحابِ، وهو كالنَّتيجةِ للدَّليلِ الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُواْ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾، وهذا الكلامُ مُقدِّمةٌ لِمَا ستُلْقِيه إليهم مِن عَزْمِها، ويَتضمَّنُ تَعليلًا لِمَا عَزَمَتْ عليه[1].

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ تأكيدٌ لِمَا وصَفَتْ مِن حالِهم، وتَقريرٌ بأنَّ ذلك مِن عاداتِهم الثَّابتةِ المُستمرَّةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ خبرًا عن اللهِ تعالى؛ فيَعترِضُ بيْن جُمَلِ ما يُحْكَى تَصديقًا لها. ويَجوزُ أنْ يكونَ مِن الحِكايةِ على معنى: إنَّ الملوكَ تأثِيرُهم في القُرَى الَّتي يَدخُلونها تَخريبُها، وكذلك يَفعَلُ هؤلاء، يعني: سُليمانُ عليه السَّلامُ وخَيلُه؛ فعَلَى الوجهينِ الأوَّلينِ تكونُ الجُملةُ تَذييلًا[2].

٧- قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ﴾ تَقْريرٌ لرَأْيِها بعْدَما زَيَّفَتْ آراءَهم، وأتتْ بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ، المُصدَّرةِ بحَرفِ التَّحقيقِ؛ للإيذانِ بأنَّها مُزْمِعةٌ على رأْيِها، لا يَلْوِيها عنه صارفٌ، ولا يَثْنيها عاطفٌ[3].

- ومفعولُ ﴿مُرْسِلَةٌ﴾ مَحذوفٌ تقديرُه: مُرسِلةٌ إليهم كتابًا ووَفْدًا مَصحوبًا بهَديَّةٍ؛ إذ لا بُدَّ أنْ يكونَ الوفدُ مَصحوبًا بكتابٍ تُجيبُ به كِتابَ سُليمانَ؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٢١، ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٤).

الجوابَ عن الكتابِ عادةٌ قديمةٌ[١].

- قولُه: ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾ اسمُ فاعلٍ مِن (نَظَرَ) بمعنَى: انْتظَرَ، أي: مُترقِّبةٌ -على أحدِ القولينِ في معناها-؛ فتكونُ جُملةُ ﴿بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ مُبيِّنةً لجُملةِ ﴿فَنَاظِرَةٌۢ﴾، أو مُستأنفةً. وأصْلُ النَّظمِ: فناظِرةٌ ما يَرجِعُ المُرسَلون به، فغُيِّرَ النَّظمُ؛ لمَّا أُريدَ أنَّها مُتردِّدةٌ فيما يَرجِعُ به المُرسَلون[٢].

٨- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ﴾ في الكَلامِ حَذْفٌ تَقديرُه: فأرْسَلَتِ الهديَّةَ، فلمَّا جاء...[٣]

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ إنكاريٌّ؛ لأنَّ حالَ إرسالِ الهديَّةِ، والسُّكوتِ عن الجوابِ يَقْتَضي مَحاولةَ صَرفِ سُليمانَ عن طَلبِ ما طلَبَه بما بُذِلَ له مِن المالِ؛ فيَقْتَضي أنَّهم يَحسَبونه مُحتاجًا إلى مِثْلِ ذلك المالِ، فيَقتنعُ بما وُجِّهَ إليه. وفيه تَوبيخٌ لهم بذلك[٤].

- وتَنكيرُ مالٍ في قولِه: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ للتَّحقيرِ[٥].

- قولُه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ الفاءُ لِتَفريعِ الكلامِ الَّذي بعْدَها على الإنكارِ السَّابقِ، أي: أنكَرْتُ عليكم ظَنَّكم فَرَحي بما وَجَّهْتُم إليَّ؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٥).

ما أعْطاني اللهُ خيرٌ ممَّا أعْطاكم، أي: هو أفضلُ منه في صِفاتِ الأموالِ مِن نَفاسةٍ ووَفْرةٍ. وسَوقُ التَّعليلِ يُشعِرُ بأنَّه عَلِمَ أنَّ المَلِكةَ لا تَعلَمُ أنَّ لَدى سُليمانَ مِن الأموالِ ما هو خيرٌ ممَّا لَدَيْها؛ لأنَّه لو كان يَظنُّ أنَّها تَعلمُ ذلك لَمَا احتاجَ إلى التَّفريعِ. وهذا مِن أسرارِ الفرْقِ في الكلامِ البليغِ بيْن الواوِ والفاءِ في هذه الجُملةِ؛ فلو قال: (وما آتاني اللهُ خيرٌ ممَّا آتاكم)، لكانَ مُشعِرًا بأنَّها تَعلَمُ ذلك؛ لأنَّ الواوَ تكونُ واوَ الحالِ[1].

- وقيل: الفاءُ هاهنا في قولِه: ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ مُستعمَلٌ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ، كأنَّه قال: لا أقبَلُ إمدادَك بمالٍ، فقال المُخاطَبُ: لِمَ لا تَقبَلُ؟ فأُجيبَ: لأنِّي أغْنَى منك؛ فلمَّا كان هذا الجوابُ مُرتَّبًا على السُّؤالِ، ومُعَقبًا له، تُرِكَ السُّؤالُ وجِيءَ بالفاءِ. وقيل: الفاءُ للتَّسبيبِ؛ فالمُنكَرُ الجُملةُ الأُولى، والثَّانيةُ عِلَّةُ الإنكارِ، ولا يجِبُ أنْ تكونَ العلَّةُ مَعلومةً عندَ المُخاطَبِ، فيَجِبُ الإعلامُ والتَّوبيخُ على الجَهلِ به، كأنَّه قال: لا أحتاجُ إلى ما آتَيْتُمونِيهِ؛ لأنِّي غنِيٌّ، كما يُقال: أُنكِرُ عليك ما فعلْتَ؛ فإنِّي غَنِيٌّ عنه[2].

- قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ﴾ لَمَّا أنكَرَ عليهم نَبِيُّ اللهِ إمدادَهم بالمالِ، وعلَّلَ الإنكارَ بكَونِه غنيًّا عنه، أضرَبَ عن ذلك إلى بَيانِ السَّببِ الَّذي حَمَلَهم عليه، وهو أنَّهم غيرُ عالمينَ بحالِه، وأنَّه غنِيٌّ عن ذلك، ثمَّ ترقَّى إلى الأخْذِ فيما هو الأهمُّ مِن ذلك الإنكارِ، وهو الإعلامُ بأنَّ ما جَعَلوه سببًا للإمدادِ أقبَحُ مِن ذُلِّ الجهْلِ؛ وذلك أنَّ قُصارى أمْرِهم الفرحُ بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٢٦، ٥٢٧).

يُهْدى إليهم، فقاسُوا حالَ نَبيِّ اللهِ بحالِهم في أنْ ليس له الرِّضا والفرحُ إلَّا بالحُظوظِ العاجلةِ. هذا إذا قُدِّرت الإضافةُ إلى المُهدى إليه، أمَّا إذا جُعِلَت الإضافةُ إلى المُهدي -أي: الفاعلِ- بأنْ يُقالَ: وأنتم بهَديَّتِكم هذه تَفْرحون فرَحَ افتخارٍ، فيكونُ المعنى: الَّذي مَنَحنى اللهُ مِن الدِّينِ والمُلْكِ الواسعِ خيرٌ ممَّا آتاكُم، فلا أفرَحُ بمِثلِ هذه المُحقَّراتِ الَّتي تَفتخِرون بها؛ فأَولى الضَّميرَ حرفَ الإضرابِ لِيُفِيدَ: أنتم خُصوصًا تَفْرحون. ويجوزُ على هذا أنْ يُعتبَرَ معنى تَقوِّي الحُكمِ مِن التَّركيبِ، فيُفِيدُ مُطلَقَ الرَّدِّ، أي: أنتم لا بُدَّ لكم أنْ تَفرَحوا بمِثلِ هذه المُحقَّراتِ، أي: تُمِدُّونَني بمالٍ وتَزْعُمون أنَّ مِن عادتي أنْ أفرَحَ بأخْذِ الهديَّةِ! بلْ أنتم مِن حَقِّكم أنْ تَفرَحوا به، فخُذوها وافْرَحوا. وهو على هذا الوجهِ كِنايةٌ[1].

٩- قوله تعالى: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾

- وعَدمُ وُقوعِ جَوابِ القسَمِ في قولِه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ...﴾؛ لأنَّه كانَ مُعلَّقًا بشَرطٍ قد حُذِفَ عندَ الحِكايةِ؛ ثِقةً بدَلالةِ الحالِ عليهِ، كأنَّه قِيلَ: ارْجِعْ إليهم، فلْيَأْتُوا مُسلمينَ، وإلَّا فلَنأتِيَنَّهم[2].

- وعبَّرَ بجمْعِ القلَّةِ ﴿أَذِلَّةً﴾؛ تأكيدًا لِذِلَّتِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦).

## الآيات (٢٨-٤٤)

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ
أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ
أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ
ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا
عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ
هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ
﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن
قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عِفْرِيتٌ﴾: العِفريتُ: المارِدُ الشَّديدُ، النَّافِذُ في الأمرِ، المبالغُ فيه مع خُبثٍ ودَهاءٍ، وأصلُ (عفر) هنا: يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[1].

﴿يَرْتَدَّ﴾: أي: يَرجِعُ، والارتِدادُ: الرُّجوعُ[2].

﴿طَرْفُكَ﴾: أي: بصَرُك ونظرُك، والطَّرْفُ: تحريكُ الجَفنِ، وعُبِّرَ به عن النَّظرِ؛ إذ كان تحريكُ الجَفنِ لازِمُه النَّظَرُ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

﴿نَكِّرُواْ﴾: أي: غيِّروا، وتَنكيرُ الشَّيءِ: جَعلُه بحيثُ لا يُعرَفُ، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ التي يَسكُنُ إليها القَلبُ(١).

﴿ٱلصَّرۡحَ﴾: أي: القَصْرَ، وكُلُّ بناءٍ عالٍ: فهو صَرحٌ(٢).

﴿لُجَّةٞ﴾: أي: غَمرةً عَظيمةً مِن ماءٍ، واللُّجَّةُ: الماءُ المجتمعُ كالبحرِ، ولُجَّةُ البحرِ: تردُّدُ أمواجِه، وأصلُه مِنَ اللَّجَجِ: وهو تردُّدُ الشَّيءِ بعضِه على بعضٍ(٣).

﴿مُّمَرَّدٞ﴾: أي: مُمَلَّسٌ، مِن قَولِهم: شَجرةٌ مَرداءُ: إذا لم يكُنْ عليها وَرَقٌ، وأصلُ المرودةِ: المَلاسةُ والاستواءُ(٤).

﴿قَوَٰرِيرَ﴾: أي: زُجاجٍ(٥).

## المعنى الإجماليُّ:

يقول الله تعالى: قال سُلَيمانُ للمَلَأِ مِن حَولِه: يا أيُّها الأشرافُ، أيُّكم يأتيني بكرسيِّ مُلْكِ مَلِكةِ سَبَأٍ قبلَ أن تحضُرَ إلينا هي وقَومُها موحِّدينَ طائِعينَ؟ قال

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤٠).

مارِدٌ مِن الجِنِّ: أنا أُحضِرُ لك عَرْشَها قبل أن تقومَ مِن مجلِسِك، وإنِّي لَقويٌّ عليه أمينٌ على ما فيه. قال الذي عنده علمٌ بكتابِ الله: أنا أُحضِرُ لك العَرشَ قبل أن يرجِعَ إليك بَصَرُك إذا نظَرْتَ إلى شيءٍ! فأتاه بالعَرشِ بقُدرةِ اللهِ.

فلمَّا رآه سُلَيمانُ مُستقِرًّا بين يديه، قال: هذا الذي أنا فيه مِن عَطاءِ ربِّي؛ لِيَختبِرَني أأشكُرُ نِعمَتَه أم أكفُرُها، ومَن شَكَرَ نعمةَ اللهِ عليه فإنَّما ينفَعُ نَفسَه بذلك الشُّكرِ، ومن كَفَرَ نعمةَ اللهِ عليه فإنَّ ربِّي غنيٌّ عن شُكرِه، كريمٌ متفضِّلٌ بإنعامِه.

قال سُلَيمانُ: غيِّروا معالمَ عَرشِها؛ لِننظُرَ أتعرِفُ أنَّه عَرشُها أم لا؟ فلمَّا جاءت مَلِكةُ سَبأٍ إلى سُلَيمانَ قيل لها: أعرشُكِ مثلُ هذا العَرشِ؟! قالت: كأنَّه هو. فقال سُلَيمانُ: قد آتانا اللهُ العِلمَ مِن قَبلِها وكنَّا طائعينَ مُسلِمين لله تعالى، ومنَعَها عن الإسلامِ عِبادتُها الشَّمسَ مِن دونِ اللهِ؛ لأنَّها كانت من قومٍ كافرينَ بالله تعالى.

وقيل لمَلِكةِ سَبأٍ: ادخُلي هذا البناءَ العاليَ، فلمَّا رأَتْه وقد صُنِعَت أرضُه مِن زُجاجٍ شفَّافٍ، حَسِبَته ماءً، وأظهَرَت ساقَيها حتى تخوضَ في الماءِ دونَ أن تبتلَّ ثيابُها. قال سليمانُ لها: ليس هذا ماءً، بل هو بناءٌ مملَّسٌ مبنيٌّ مِن زُجاجٍ! قالت مَلِكةُ سَبَأٍ: ربِّ إني ظلمتُ نفسي بعبادةِ غَيرِك، وانقَدْتُ واستسلمْتُ مع سُلَيمانَ، طائعةً لك وَحدَك.

## تفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨﴾.

أي: قال سُلَيمانُ لجُلَسائِه الحاضرينَ عِندَه من الجِنِّ والإنسِ: يا أيُّها الأشرافُ، أيُّكم يُحضِرُ لي كرسيَّ المُـلْكِ لمَلِكةِ سبأٍ قبل أن تحضُرَ إلينا هي وقَومُها مسلِمينَ[1]؟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣، ٦٥، ٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٢)، =

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٠).

قال ابنُ عطية: (ظاهِرُ هذه الآياتِ أنَّ هذه المقالةَ مِن سليمانَ عليه السلام بعد مجيءِ هديَّتِها وردِّه إيَّاها، وقد بعث الهدهد بالكتاب، وعلى هذا جمهورُ المفسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٠).

قال البيضاوي: (أراد بذلك أن يُريَها بعضَ ما خصَّه اللهُ تعالى به مِن العجائِبِ الدالَّةِ على عِظَمِ القُدرةِ، وصِدقِه في دعوى النبوَّةِ؛ ويختبِرَ عَقلَها بأن ينكِّرَ عَرشَها فينظُرَ أتعرِفُه أم تُنكِره؟). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠).

وقيل غيرُ ذلك في غرضِ سليمانَ عليه السَّلامُ من إحضارِ عرشِها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢).

واختلف أهلُ التفسير في قوله: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾؛ فقال بعضُهم: معناه: قبْلَ أن يأتوني مُستَسلِمينَ طَوعًا.

وقال آخَرون: بل معنى ذلك: قبْلَ أن يأتوني مسلمينَ الإسلامَ الَّذي هو دينُ الله. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مُسْلِمِينَ﴾: مؤمنينَ موحِّدينَ: مقاتلُ بن سليمان، والزجاج، والسمرقندي، والثعلبي، البغوي، والبيضاوي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ جُرَيج، وعطاء الخراساني، والسُّدِّيُّ، وزهير بن محمد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المراد: منقادينَ طائعينَ مُستَسلِمينَ: ابنُ جرير، والسمعاني، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٣). =

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾.

أي: قال مارِدٌ قَوِيٌّ وشديدٌ مِن الجِنِّ: أنا أُحضِرُ لك عَرْشَها قبل أن تنهَضَ مِن مجلِسِك[1].

﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾.

أي: وإنِّي قَوِيٌّ على حَملِ العَرشِ، أمينٌ على ما فيه[2].

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٥٩).

قال ابن جرير: (أولَى التَّأويلينِ في قولِه ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ ... قولُ ابنِ عبَّاسٍ... أنَّ معناه طائعينَ، لأنَّ المرأةَ لم تأتِ سليمانَ إذْ أتَتْه مسلِمةً، وإنَّما أسلَمَتْ بعدَ مَقْدَمِها عليه، وبعدَ مُحاوَرةٍ جَرَتْ بيْنَهما ومُساءَلةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

قال السعدي: (الظَّاهِرُ أنَّ سُلَيمانَ إذ ذاك في الشَّامِ، فيكونُ بيْنَه وبين سبأٍ نحوُ مسيرةِ أربعةِ أشهُرٍ: شهرانِ ذَهابًا، وشهران إيابًا، ومع ذلك يقولُ هذا العِفريتُ: أنا ألتزِمُ بالمجيءِ به -على كِبَرِه وثِقَلِه وبُعْدِه- قبل أن تقومَ مِن مجلِسِك الذي أنت فيه. والمعتادُ مِن المجالِسِ الطويلةِ أن تكونَ مُعظَمَ الضُّحى نحوَ ثُلُثِ يَومٍ، هذا نهايةُ المعتادِ، وقد يكونُ دونَ ذلك أو أكثَرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٠).

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلۡمٌ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾.

أي: قال الذي عنده[1] علمٌ بكتابِ اللهِ[2]: أنا أُحضِرُ لك العَرشَ قبل أن يَرجِعَ إليك بَصَرُك إذا نظَرْتَ إلى شيءٍ مدَّ بصرِك[3].

---

(١) قال ابن عطية: (اختلف المفسِّرون في الذي عندَه عِلمٌ من الكتابِ مَن هو: فجمهورُ النَّاسِ على أنَّه رجلٌ صالحٌ من بني إسرائيلَ اسمه آصف بن برخيا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦١).

وقال ابن تيميَّة: (أتَتْهُ به الملائِكةُ، كذلك ذكره المفسِّرون عن ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه: أنَّ الملائكةَ أتته به أسرعَ ممَّا كان يأتي به العِفريتُ). ((النبوات)) (٢/ ١٠٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٣).

وقال السَّعدي: (قال المفسِّرون: هو رجلٌ عالمٌ صالحٌ عند سليمانَ يقالُ له: آصف بن برخيا، كان يعرِفُ اسمَ الله الأعظَمَ الذي إذا دعا اللهَ به أجاب، وإذا سأل به أُعطيَ... ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ بأن يدعوَ الله بذلك الاسمِ فيَحضُرَ حالًا، وأنَّه دعا اللهَ فحضرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٩، ٧٠).

قال أبو حيان بعد أن ذكَر الخلافَ في اسمِه: (وهذه أقوالٌ مضطربةٌ، وقد أبهَم الله اسمَه، فكان ينبغي ألَّا يُذكرَ اسمُه حتَّى يُخبرَ به نبيٌّ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٠).

(٢) قال البقاعي: (كأنَّه الذي كان شهيرًا في ذلك الزمان، ولعلَّه التَّوراةُ والزَّبورُ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٨، ٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: قبْلَ أن يَرجِعَ بصرُك إذا نظرتَ إلى شَيءٍ مدَّ بصرِك: ابنُ جرير، والرسعني، وابن جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٧١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١٥).

قال ابن عاشور: (وارتِدادُ الطَّرْفِ حقيقتُه: رُجوعُ تحديقِ العَينِ مِن جِهةٍ منظورةٍ تُحُوِّلَ عنها لحظةً). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧١). =

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

أي: فأتى العرشُ بقُدرةِ اللهِ، فلمَّا رآه سُلَيمانُ ثابتًا ثُبوتًا حقيقيًّا بينَ يدَيه، قال: هذا التمَكُّنُ والمُلكُ والسُّلطانُ الذي أنا فيه حتى حُمِلَ إليَّ العَرشُ في قَدْرِ ارتدادِ الطَّرفِ- مِن عَطاءِ رَبِّي عليَّ؛ لِيَختبرَني أأشكُرُ نِعمَتَه، أم أكفُرُها فلا أشكُرُه[1].

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

---

= وقال البيضاوي: (الطَّرفُ: تحريكُ الأجفانِ للنظَّرِ، فوُضِع مَوضعَه، ولَمَّا كان الناظرُ يوصَفُ بإرسالِ الطَّرفِ... وُصِف بِرَدِّ الطَّرفِ، والطَّرْفُ بالارتدادِ، والمعنى: أنَّك تُرسِلُ طَرْفَك نحوَ شَيءٍ فقَبْلَ أن تَرُدَّه أُحضِرُ عرشَها بيْنَ يدَيْك، وهذا غايةٌ في الإسراع، ومَثَلٌ فيه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦١).

وقيل: الطَّرفُ: تحريكُ الأجفانِ وفتحُها للنَّظرِ إلى شَيءٍ، وارتدادُه: انضمامُها. وممَّن اختاره: أبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦١).

وقيل: قولُه: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ معناه: قبل أن يَنتهيَ إليك الذي وقَع عليه مُنتهى بصَرِك وهو جاءٍ إليك، وبعبارةٍ أخرى: قبْلَ أن يَصِلَ إليك مَن كان منك على مَدِّ بصَرِك. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بن سليمان، والسمرقندي، ومكِّي، وابن أبي زمنين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٣٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٠٢).

قال ابن الجوزي: (وفي قولِه تعالى: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: قبْلَ أن يأتيَك أقصى ما تنظُرُ إليه، قاله سعيد بن جُبَير. والثاني: قبل أن ينتهيَ طَرْفُك إذا مدَدْتَه إلى مداه، قاله وَهْبٌ. والثَّالث: قبْلَ أن يَرتَدَّ طَرْفُك حسيرًا إذا أدمْتَ النَّظرَ، قاله مجاهد. والرَّابع: بمقدارِ ما تفتَحُ عَيْنَك ثمَّ تَطرِفُ، قاله الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٣، ٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٠).

أي: ومَن شَكَرَ نعمةَ اللهِ عليه فإنَّما ينفَعُ نَفسَه في دُنياه وآخِرتِه[١].

كما قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

وقال عز وجل: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾.

أي: ومن كَفَرَ نِعمةَ اللهِ عليه ولم يَشكُرْ، فإنَّ ربِّي غَنيٌّ عن شُكرِه، ولا حاجةَ به إليه، كريمٌ في نفسِه وإن لم يُعبَدْ، فعظَمتُه لا تفتَقِرُ إلى أحدٍ؛ ومُتفَضِّلٌ بإنعامِه على جميعِ خَلقِه حتَّى على مَن يكفُرُ به[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

قال القرطبي: (لا يَرجِعُ نَفعُ ذلك إلَّا إلى نفْسِه؛ حيث استوجَبَ بشُكرِه تمامَ النِّعمةِ ودوامَها والمزيدَ منها). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٢).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿ كَرِيمٌ ﴾ أي: أنَّه قد يُبقي النِّعمةَ على مَن كَفَرها؛ تكرُّمًا منه أحيانًا، وأحيانًا استِدراجًا...؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٢].

وقد يُبقي اللهُ تعالى النِّعَمَ مع الكُفرِ تربيةً، بحيث إنَّ الإنسانَ يفتَحُ الله عليه التأمُّلَ فيَخجَلُ مِن الله عزَّ وجلَّ أن يكونَ هو يبادِرُ اللهَ تعالى بالمعاصي، والله تبارك وتعالى يُدِرُّ عليه النِّعَمَ، فيرتدِعُ، وهذا هو ظاهِرُ قَولِه: ﴿ كَرِيمٌ ﴾؛ لأنَّ الكرمَ في مقابِلِ الكُفرِ لا يكونُ إلَّا حيث يكونُ ذلك الكرمُ من مصلحةِ الكافرِ بها، وإلَّا ما ظهر آثارُ الكرمِ، بل ظهر آثارُ الحِكمةِ، لو قال: حكيمٌ، صار =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾﴾.

أي: قال سُلَيمانُ: غيِّروا مَعالِمَ وهيئةَ عَرْشِ ملِكةِ سَبَأٍ؛ لِنَنظُرَ: أتعرِفُ أنَّه عَرشُها أم تكونُ مِن الذين لا يَعرِفون أنَّه هو[1]؟

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾.

---

= هذا يشمَلُ مَن تدرَّج اللهُ به حتى أهلَكَه، لكِنْ كريمٌ: ما يَتِمُّ الكرمُ للكافِرِ بالنعمةِ إلَّا حيث كان إبقاءُ النِّعمةِ عليه مصلحةً له لأجلِ أن يعودَ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٢٢٣، ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٥، ٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٧)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ١٩٨).

قال ابن جُزَي: (﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ يحتملُ أن يريدَ: تهتدي لمعرفةِ عرشِها، أو للجوابِ عنه إذا سُئلَتْ، أو للإيمانِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٢).

وقال الرازي: (واختَلفوا في ﴿أَتَهْتَدِىٓ﴾ على وجهَينِ؛ أحدهما: أتَعرِفُ أنَّه عرشُها أمْ لا؟ ... الثَّاني: أتَعرِفُ به نُبُوَّةَ سُلَيمانَ أمْ لا؛ ولذلك قال: ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾، وذلك كالذَّمِّ، ولا يليقُ إلَّا بطريقةِ الدَّلالةِ، فكأنَّه عليه السَّلامُ أحَبَّ أن تَنظُرَ فتَعرِفَ به نُبوَّتَه مِن حيثُ صار متنقلًا مِن المكانِ البعيدِ إلى هناك، وذلك يدُلُّ على قدرةِ الله تعالى، وعلى صِدقِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، ويَعرِف بذلك أيضًا فضلَ عقلِها؛ لأغراضٍ كانت له، فعندَ ذلك سألها). ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٥٨).

أي: فلمَّا جاءت مَلِكةُ سَبَأٍ إلى سُلَيمانَ، ورأت عَرْشَها بعدَ تغييرِه، قيلَ لها[١]: هل عرشُكِ الذي تركتِهِ في بلادِكِ مِثلُ هذا العَرشِ الذي رأيتِهِ[٢]؟!

﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾.

أي: قالت مَلِكةُ سَبَأٍ: هذا العَرشُ يُشبِهُ جِدًّا عرشي الذي تركتُه في بلادي[٣]!

﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾.

أي: قال سُلَيمانُ: وآتانا اللهُ العِلمَ مِن قَبلِ مِلكةِ سَبَأٍ، وكنَّا طائِعين ومُنقادِين له سُبحانَه[٤].

---

(١) قال الشوكاني: (القائِلُ هو سُليمانُ، أو غيرُه بأمرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٣).
وقال ابنُ عثيمين: (ولم يبيَّنْ؛ لأنَّ المقصودَ معنى هذا القولِ دونَ قائلِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٣، ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٠٧)، ((الانتصاف فيما تضمنه الكشاف)) لابن المُنَيِّر (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٥).
قيل: قائلُ ذلك هو سليمانُ عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابن جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والزمخشري، وابن جزي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. وذهب إليه أيضًا مقاتلُ بنُ سليمان، يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٠٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهدٌ، وزهيرُ بنُ محمد. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٨٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٩). =

= قيل: المرادُ بالعلمِ هنا: العِلمُ بالله وبقدرتِه على فِعلِ ما يَشاءُ. وممَّن قال بذلك في الجملة: ابنُ جرير، ومكي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩٣).

وقيل: المعنى: علِمْنَا حالَها وأمْرَها وحالَ عَرشِها قبل أن تعلَمَ. وممَّن قال بذلك: السمعاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠١).

وقيل: العِلمُ هنا: يشمَلُ العلمَ الشرعيَّ، ويشمَلُ العلمَ بقواعدِ المُلكِ ومثبِّتاتِه، وما أشبَهَ ذلك. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٥).

وقال ابن عاشور: (معنى: ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ إنْ حُمِلَ على ظاهِرِه أنَّ قَومَهم بني إسرائيلَ كانوا أسبَقَ في معرفةِ الحِكمةِ وحضارةِ المُلكِ مِن أهلِ سبأٍ؛ لأنَّ الحِكمةَ ظهَرت في بني إسرائيلَ مِن عَهدِ موسى؛ فقد سَنَّ لهم الشريعةَ، وأقام لهم نظامَ الجماعةِ، وعَلَّمَهم أسلوبَ الحضارةِ بتَخطيطِ رُسومِ مَساكِنِهم وملابِسِهم، ونظامِ الجَيشِ والحَربِ، والمواسِمِ والمحافِلِ. ثم أخذَ ذلك يرتقي إلى أن بلغَ غايةً بعيدةً في مُدَّةِ سُلَيمان- فبهذا الاعتبارِ كان بنو إسرائيلَ أسبَقَ إلى علمِ الحِكمةِ قَبلَ أهلِ سبأٍ؛ وإن أريدَ بـ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ القبليَّةُ الاعتباريَّةُ، وهي الفَضلُ والتفوُّقُ في المزايا -وهو الأليقُ بالمعنى- كان المعنى: إنَّا أوسَعُ وأقوى منها عِلمًا... فكان الأرجَحُ أن يكونَ معنى ﴿مِن قَبْلِهَا﴾ أنَّا فائتونَها في العِلمِ، وبالِغون ما لم تبلُغْه. وزادوا في إظهارِ فَضلِهم عليها بذِكرِ الناحيةِ الدينيةِ، أي: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ دونَها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٤).

وذهب الواحدي، وأبو السعود، وجوَّزه الزمخشري، وذكره السعدي احتِمالًا: إلى أن هذا من قَولِ المِلكة، أي: قالت: وأُوتينا العِلمَ بالله وقُدرتِه وصِحَّةِ نبوَّةِ سليمانَ مِن قبْلِ هذه الآيةِ التي رأيْناها في إحضارِ العَرشِ، وكنَّا مُنقادينَ له قبلَ مجيئِنا. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

وجوَّز ابنُ عاشور أنَّ هذا مِن قولِ الملأِ مِن بني إسرائيلَ مِن قَومِ سُليمانَ، أي: قال بعضُهم لبعضٍ: أُوتينا العِلمَ والحِكمةَ من قبْلِ أهلِ سبأٍ بما هو أكثَرُ مِمَّا أُوتوا، وكنَّا مُسلمينَ لله دونهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٣، ٢٧٤).

وذهب الزمخشريُّ وابن جُزَي إلى أنَّ هذا مِن كلامِ سليمان ومَلَئِه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣).

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ٤٣﴾.

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ومنَع ملِكةَ سَبَأٍ عن الإسلامِ عبادتُها الشَّمسَ مِن دونِ اللهِ[1]!

﴿إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: لأنَّها كانت مِن قَومٍ راسِخينَ في الكُفرِ باللهِ، فنشَأتْ بينَهم على الشِّركِ بالله سبحانَه، وقلَّدَتْهم في دينِهم[2].

﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَۖ فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَۗ قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٤﴾.

﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾.

أي: قيل لِملِكةِ سَبَأٍ: ادخُلي هذا البِناءَ المُرتَفعَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

قال ابن جرير: (ولو قيل: معنى ذلك: وصدَّها سليمانُ ما كانت تعبدُ من دون الله، بمعنى: منَعها وحال بيْنَها وبيْنَه؛ كان وجهًا حسنًا. ولو قيل أيضًا: وصدَّها اللهُ ذلك بتوفيقِها للإسلامِ؛ كان أيضًا وجهًا صحيحًا). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٧، ٢٣٨).

قال أبو السعود: (أي: أنَّها كانت من قومٍ راسخين في الكُفرِ؛ ولذلك لم تكُنْ قادرةً على إظهارِ إسلامِها وهي بيْنَ ظهرانَيْهم إلى أن دخَلَت تحتَ مملكةِ سُليمانَ عليه السَّلامُ). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٢٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٣٨)، ((غرائب التفسير)) للكرماني (٢/ ٨٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٤، ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَا﴾.

أي: فلمَّا رأَتْه الملِكةُ -وهو مبنيٌّ بالزُّجاجِ وتحتَه ماءٌ- حَسِبَتْه ماءً، وأظهَرَت ساقَيها حتى تخوضَ في الماءِ مِن غيرِ أن تبتلَّ ثيابُها[1].

﴿قَالَ إِنَّهُۥ صَرۡحٞ مُّمَرَّدٞ مِّن قَوَارِيرَ﴾.

أي: قال سُلَيمانُ لها: هذا الذي حَسِبْتِه لجَّةً إنَّما هو بناءٌ مملَّسٌ مبنيٌّ من زُجاجٍ[2].

﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾.

أي: قالت ملِكةُ سبأٍ: ربِّ إنِّي ظَلَمتُ نفسي بعبادةِ غَيرِك، والسُّجودِ للشَّمسِ مِن دونِك[3].

﴿وَأَسۡلَمۡتُ مَعَ سُلَيۡمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وأذعنتُ وانقدْتُ واستسلمْتُ مع سُلَيمانَ، طائعةً لله تعالى، متابِعةً لسُلَيمانَ ومُقتَدِيةً به في عبادةِ اللهِ وَحدَه لا شريكَ له، خالِقِ كُلِّ شَيءٍ ومالِكِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٣)، ((غرائب التفسير)) للكرماني (٢/ ٨٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال ابنُ عاشور: (بهَرَها ما رأتْ مِن آياتٍ عَلِمَت منها أنَّ سُلَيمانَ صادِقٌ فيما دعاها إليه، وأنَّه مؤيَّدٌ من الله تعالى، وعلِمَتْ أنَّ دينَها ودينَ قَومِها باطِلٌ، فاعترفت بأنها ظَلَمَت نفسَها في اتِّباعِ الضَّلالِ بعبادةِ الشَّمسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٦).

ومدبِّره[١].

## الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يَصِفَ نفْسَه بما اتَّصفَ به مِن صفاتِ الكمالِ؛ ترغيبًا، كقَولِه: ﴿وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ أو ترهيبًا، كقَولِه: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا﴾ بشَرطِ أنْ يكونَ ذلك حقيقةً، والأصلُ في ذلك أنَّه مباحٌ، والمباحُ تعتريه الأحكامُ الخَمسةُ؛ فقد يكونُ مَطلوبًا إمَّا وجوبًا وإما استِحبابًا إذا اقتَضَت الحالُ البيانَ؛ كأن يكونَ مِن أجلِ أن يمنَعَ مَن ليس بأهلٍ مِن مباشرةِ هذا العمَلِ، فحينئذٍ يجِبُ أن يبَيِّنَ نفسَه، أو يكونَ مِن بابِ التحَدُّثِ بنِعمةِ الله؛ وقد يكونُ مَذمومًا كأن يكونَ لغَرضٍ سَيِّئٍ، أو يكونَ مجَرَّدَ دعوى[٢].

٢- أنَّ كلَّ وِلايةٍ وعَمَلٍ لا بُدَّ فيه مِن ركنينِ: القوَّةِ والأمانةِ: القُوَّةِ على ذلك العملِ، والأمانةِ فيه؛ فالعملُ الذي يَتطلَّبُ العلمَ لابُدَّ أنْ يكونَ المتولِّي له عالِمًا، والذي يعتَمِدُ قوةَ البدنِ لا بُدَّ أنْ يكونَ متولِّيه قويَّ البدنِ، ولا بُدَّ أنْ يكونَ أمينًا؛ لأنَّ مَن ليس بأمينٍ لا يمكنُ أنْ يُنفِّذَ العملَ على الوجهِ المَرْضيِّ، ويدلُّ على هذينِ الركنينِ قولُ العفريتِ مِن الجِنِّ لسليمانَ عليه السلامُ لَمَّا قال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٩).

قال ابن عاشور: (سكت القرآنُ عن بقيَّةِ خَبَرِها ورجوعِها إلى بلادِها، وللقصَّاصينَ أخبارٌ لا تصِحُّ... ولا أصلَ لِما يذكُرُه القصَّاصون وبعضُ المفسِّرينَ مِن أنَّ سُليمانَ تزوَّج بِلْقيسَ، ولا أنَّ له ولدًا منها). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٨).

مَّقَامِكَۖ وَإِنِّي عَلَيۡهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٞ﴾[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِي عِندَهُۥ عِلۡمٞ مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن يَرۡتَدَّ إِلَيۡكَ طَرۡفُكَ﴾ في قَولِه: ﴿عِلۡمٞ﴾ تنبيهٌ على أنَّه اقتدرَ على ذلك بقوَّةِ العلم؛ لِيفيدَ ذلك تَعظيمَ العلمِ والحثَّ على تعَلُّمِه، وبيَّن أنَّ هذا الفَضلَ إنَّما هو للعِلمِ الشَّرعيِّ، فقال: ﴿مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ لم يغترَّ عليه السَّلامُ بمُلكِه وسُلطانِه وقُدرتِه كما هو دأبُ الملوكِ الجاهلينَ، بل عَلِمَ أنَّ ذلك اختبارٌ مِن رَبِّه، فخاف ألَّا يقومَ بشُكرِ هذه النِّعمةِ[٣]. فلم يَشتغِلْ سليمانُ حين أُحضِرَ له العَرشُ بأن يبتهِجَ بسُلطانِه ولا بمقدرةِ رِجالِه، ولكِنَّه انصَرَف إلى شُكرِ الله تعالى على ما منَحَه من فضلٍ، وأعطاه مِن جُندٍ مُسخَّرين بالعِلمِ والقوَّةِ، فمزايا جميعِهم وفَضلُهم راجِعٌ إلى تفضيلِه[٤].

٥- منفعةُ الشُّكرِ تَرجِعُ إلى العبدِ في الدُّنيا والآخِرة، لا إلى اللهِ. والعبدُ هو الذي ينتَفِعُ بشُكرِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾ [النمل: ٤٠]، فشُكرُ العبدِ إحسانٌ منه إلى نفسِه في الدُّنيا والآخِرة؛ فلا يُذَمُّ ما أتَى به مِن ذلك، وإن كان لا يُحسِنُ مُقابَلةَ المُنعَمِ به، ولا يستطيعُ شُكرَه، فإنَّه إنما هو مُحسِنٌ إلى نفسِه بالشُّكرِ، لا أنَّه مُكافِئٌ به لِنعَمِ الرَّبِّ، فالربُّ تعالى لا يستطيعُ أحدٌ أن يكافِئَ نِعَمَه أبدًا، ولا أقَلَّها، ولا أدنَى نعمةٍ مِن نِعَمِه؛ فإنَّه تعالى هو المنعِمُ

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٢).

المتفَضِّلُ، الخالِقُ للشُّكرِ والشَّاكِرِ وما يَشكُرُ عليه، فلا يستطيعُ أحدٌ أن يحصِيَ ثناءً عليه؛ فإنه هو المحسنُ إلى عَبدِه بنِعَمِه، وأحسَنَ إليه بأن أوزَعَه شُكْرَها؛ فشُكرُه نِعمةٌ مِن اللهِ أنعم بها عليه، تحتاجُ إلى شكرٍ آخَرَ. وهلُمَّ جرًّا[١].

٦- قَولُ الله تعالى حِكايةً عن سُلَيمانَ: ﴿وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ فيه أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يتحَدَّثَ بنعمةِ اللهِ تعالى عليه[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ أنَّ البيئةَ لها تأثيرٌ؛ فهؤلاء القومُ أثَّروا عليها فصارتْ كافرةً تعبدُ مع اللهِ غيرَه[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن مُصاحبةِ الأشرارِ؛ حتى لو كانوا مِن أقاربِك، فلا ينبغي أنْ تصاحِبَهم، وإذا كان لهم حقٌّ عليك بالقرابةِ فأعطِهم حقَّهم الذي لهم، ولكنْ لا تكُنْ مخالِطًا لهم ومُصاحِبًا لهم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((المرءُ على دِينِ خليلِه؛ فلْينظرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ))[٤]، وهذا شيءٌ واقعٌ يَشهدُ له التاريخُ السابقُ والحديثُ[٥].

٩- قَولُه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ فيه فضلُ الاعترافِ بالذُّنوبِ، لعَلَّامِ الغُيوبِ، وهو استِكانةٌ موجِبةٌ لعطفِه ولُطفِه، بغَفْرِ الذُّنوبِ وسَترِ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩).

(٤) رواه أبو داود (٤٨٣٣)، والتِّرمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٨٤١٧)، والحاكم (٤/ ١٨٨) (٧٣١٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صححه الحاكم، وحسَّنه ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٥١)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٣٣)، وصحَّح إسناده النَّووي ((رياض الصالحين)) (١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٩).

العُيوبِ، وهذا دأبُ المُصْطَفَيْنَ مِن عِبادِ الله؛ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]، وعلَّمَ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضيَ الله عنه دعاءً يدعو به في صلاتِه، قال: ((قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي ظلَمتُ نفْسي ظُلمًا كثيرًا، ولا يغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت، فاغفِرْ لي مغفرةً مِن عِندِكَ، وارحَمْني؛ إنَّك أنت الغفورُ الرَّحيمُ))(١)، وقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ الله عنها: ((إنَّ العبدَ إذا اعترَفَ بذَنْبِه، ثمَّ تاب؛ تاب اللهُ عليه))(٢).

١٠- مَكانُ العِبرةِ مِن هذه القصَّةِ: الاتِّعاظُ بحالِ هذه المِلكةِ؛ إذ لم يَصُدَّها عُلوُّ شأْنِها وعَظَمةُ سُلطانِها -مع ما أُوتِيَتْه مِن سَلامةِ الفِطرةِ وذَكاءِ العقلِ- عن أنْ تَنظُرَ في دَلائلِ صِدْقِ الدَّاعي إلى التَّوحيدِ، وتُوقِنَ بفَسادِ الشِّركِ، وتَعترِفَ بالوَحدانيَّةِ للهِ، فما يكونُ إصرارُ المُشركينَ على شِرْكِهم بعدَ أنْ جاءهُم الهَدْيُ الإسلاميُّ إلَّا لِسَخافةِ أحلامِهم، أو لِعَمايتِهم عن الحقِّ، وتَمسُّكِهم بالباطلِ وتَصَلُّبِهم فيه(٣).

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ دَليلٌ على جوازِ

---

(١) رواه البخاري (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٦٧).

والحديث رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٧).

الاستعانةِ ببَعضِ الأتْباعِ في مقاصِدِ الملوكِ[١].

٢- جوازُ الخطابِ إلى المُبْهَم إذا كان يَتعيَّنُ بعدَ ذلك، يعني: يجوزُ الخطابُ إلى المُبهَم حُكمًا أو خَبرًا قبلَ أن يَتعيَّنَ الحُكمُ؛ لقولِه: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ ما قال: ائتِني يا فلانُ. وهذا النوعُ مِن الخطابِ تترتبُ عليه فوائدُ كثيرةٌ حُكميَّةٌ وخَبَريَّةٌ؛ فمنها مثلًا: يجوزُ أنْ يقولَ: زوَّجْتُك إحدى ابنتيَّ هاتين، ثم يختار إحداهما، مِثلَما فَعَل صاحِبُ مَديَنَ مع موسى، ومنها: أنَّه يجوزُ أنْ يقولَ: بِعْتُك إحدى هاتينِ السِّلعتَينِ بكذا، فيختار إحداهما، ومنها: بِعتُك هذا بعشرةٍ نقدًا أو بعشرينَ نسيئةً، فيختارُ أحدَ الثمنين[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ دليلٌ على أنَّه قد يُخَصُّ بعضُ أتْباعِ الأنبياءِ بشيءٍ لا يكونُ لغيرِهم[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أمامَ عدوِّه أنْ يُظهِرَ العَظَمةَ؛ لأنَّ سُلَيمانَ أراد بإحضارِ هذا العرشِ إظهارَ عظمتِه وقُدرتِه، وأنَّه استطاع أنْ يأتيَ بعَرشِها المُحَصَّنِ بلا شكٍّ؛ لأنَّه -كما جرتِ العادةُ- قصورُ الملوكِ لا بُدَّ أنْ تكونَ مُحَصَّنَةٌ وعليها حَرَسٌ، لا سيما مِثلُ العرشِ[٤]!

٥- في تَقديمِ القُوَّةِ على الأمانةِ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ دَليلٌ على أنَّها أهمُّ مِن الأمانةِ؛ لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٥).

كم مِن إنسانٍ أمينٍ ولا يُخشى منه الخِيانةُ أبدًا، لكِنَّه ضَعيفٌ لا يُنتِجُ ولا يُثمِرُ! وكم مِن إنسان قويٍّ في أداءِ عملِه، لكنه ضعيفٌ في أمانتِه، فالثاني أحسنُ لإقامةِ العَمَلِ؛ ولهذا تجدُ كثيرًا مِن الناسِ الذين لديهم قوةٌ وحَزمٌ وتصرُّفٌ، تجدُهم يُنتِجون مِن الأعمالِ أكثرَ بكثيرٍ مِن قَومٍ ضُعَفاءَ وعندَهم أمانةٌ[١].

٦- في قَولِ الله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾ قوةُ الجِنِّ؛ لأنَّه سوف يأتي بهذا العرشِ العظيمِ يحمِلُه مِن سبأٍ مِن اليمنِ إلى الشامِ، وأيضًا فيه دليلٌ على سرعتِهم، وهي مِن أوصافِ القوةِ؛ لِقَولِه: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ وهذه سرعةٌ فائقةٌ وعظيمةٌ، ومعلومٌ أنهم عندهم سرعةٌ عظيمةٌ، بدليلِ أنهم يَسترِقُونَ السمعَ مِن السماءِ، ولا يصلُ إلى السماءِ إلَّا مَن كان عنده سُرعةٌ هائلةٌ عظيمةٌ[٢] فالآية فيها قدرةُ الجِنِّ -بإقدارِ اللهِ- على ما يَبعُدُ فِعلُه مِن الإنسِ[٣].

٧- قَولُه: ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ فيه أنَّ سُلَيمانَ عليه الصلاةُ والسلامُ قد رَتَّبَ شؤونَ حياتِه ورَتَّبَ أوقاتَه حتى أصبحتْ معلومةً للناسِ، فلا شكَّ أن قيامَه مِن مقامِه مُقَدَّرٌ بمدةٍ معلومةٍ، ولولا ذلك ما قيل مثلُ هذا الكلامِ، وما كان لذكرِه فائدةٌ[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هذه المناظرةُ بينَ العفريتِ مِن الجِنِّ والذي عنده علمٌ مِن

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١٢).

الكتاب تَرمُزُ إلى أنَّه يتأتى بالحِكمةِ والعِلمِ ما لا يتأتَّى بالقوَّةِ، وأنَّ الحِكمةَ مكتَسَبةٌ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الكراماتِ امتِحانٌ وابتلاءٌ -كالمُلْكِ والسُّلطانِ والمالِ- فالنِّعَمُ ابتلاءٌ مِن اللهِ وامتحانٌ يَظهَرُ بها شُكرُ الشَّكورِ وكُفرُ الكَفورِ[٢].

١٠- في قَولِه: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ﴾ إثباتُ التَّعليلِ لأحكامِ اللهِ سبحانه وتعالى الكونيَّةِ، كما ثَبَتَ ذلك في الأحكامِ الشرعيَّةِ؛ يؤخَذُ مِن (اللام) لأنَّها للتَّعليلِ، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ: الرَّدُّ على الجهميَّةِ الذين يقولون: إنَّ فِعْلَ اللهِ تعالى ليس مُعَلَّلًا، إنما يَفْعَلُ لمجرَّدِ المشيئةِ؛ إذا شاء فَعَلَ لحكمةٍ ولغيرِ حكمةٍ[٣]!

١١- قولُه تعالى حِكايةً عن سليمانَ: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ فيه اختبارُ المرءِ بما يُظْهِرُ حقيقةَ أمْرِه[٤].

١٢- في قَولِه: ﴿لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أنَّه يجوز اختبارُ الإنسانِ وإنْ كان المختبِرُ يعلمُ مآلَه، وبالنسبةِ للهِ فهذا أمرٌ واقعٌ، لكنْ بالنسبةِ للإنسانِ فهذا يُنظَرُ فيه إلى المصلحةِ، قد يكونُ مُحَرَّمًا كما لو أردتَ أنْ تُظهِرَ ضَعفَه أمامَ الناسِ وتُخجِّلَه، وقد يكونُ واجبًا كما لو كان إنسانًا داعيةً إلى ضَلالةٍ وأردتَ أنْ تختبرَه لِيتبيَّنَ أمرُه للنَّاسِ، وأنت تعرفُ أنه ليس عنده جوابٌ لِمَا اختبرْتَه به، لكنْ تريدُ أنْ تُظْهِرَ للناسِ أمْرَه؛ فهو بالنسبةِ للهِ سبحانه وتعالى ممدوحٌ كلُّه؛ لأنَّ اللهَ يَعْلَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المآلَ، لكنْ بالنسبةِ للإنسانِ فاختبارُه عمَّا يُعْلَمُ مآلُه: على حسبِ المصلحةِ والفائدةِ[١].

١٣- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ قد يُقالُ: أليس اللهُ تعالى يعلَمُ بما يَؤولُ إليه الأمرُ؟ إذن: ما فائدةُ الاختبارِ وهو يَعلَمُ؟

**الجوابُ**: ليترتَّبَ الجزاءُ على ظاهرِ الحالِ؛ لأنَّ الله لو جازى الإنسانَ على ما يَعلَمُ مِن حالِه قبل أن يبلُوَه، لكان ذلك ظُلمًا في ظاهرِ الحالِ، فإذا ابتلاه فأطاع أو عصاه تبيَّن الأمرُ، فتكونُ الفائدةُ عَظيمةً، وهي ظهورُ أثَرِ هذا الشَّيءِ للنَّاسِ، وأنَّه ليس بظُلمٍ مِن الله تعالى إذا خالف، وأيضًا ظهورُ نعمةِ الله على العبدِ العامِلِ إذا أطاع حيثُ يشكُرُ اللهُ سَعيَه. فالحاصِلُ: أنَّ الابتلاءَ بمِثلِ هذه الأمورِ فائدتُه: أن يَجرِيَ الجزاءُ على ظاهرِ الحالِ، لا على عِلمِ الله[٢]، وإذا كان اللهُ سبحانه وتعالى -وهو أحكمُ الحاكمين- لا يَحْكُمُ بمجردِ العلمِ حتَّى تظهرَ الآثارُ؛ فالقاضي مِن بابِ أَولى، ولهذا ذَكَر أهلُ العلمِ أنه لا يجوزُ للقاضي أنْ يحكمُ بعِلْمِه؛ لقول النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إنما أقضي بنحوِ مما أسمعُ))[٣].

١٤- قولُه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ فيه الرَّدُّ على الجَبْريةِ؛ لأنَّه أضافَ الشُّكرَ إلى نفْسِه[٤].

١٥- في قَولِه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ بيانُ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٩).

والحديث أخرجه البخاري (٦٩٦٧)، ومسلم (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣٠).

عَمَلَ الإنسانِ يعودُ نفعُهُ عليه، وأنَّ اللهَ غنيٌّ عن الخَلْقِ[١].

١٦- أنَّ الشَّاكرَ يُثابُ؛ لِقَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ ولم يَقُلْ: (عن نفْسِه)، فدلَّ ذلك على أنَّ للشاكرِ ثوابًا يُجازى به، وهو كذلك[٢].

١٧- قولُه: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ فيه امتحانُ الغيرِ بما يُعْرَفُ به ذكاؤه وفِطنتُه[٣]، واختبارُ الأفهامِ للمصالحِ جائزٌ؛ كاختِبارِ فَهْمِ اليتيمِ لحِفظِ مالِه والقيامِ بمصالِحه؛ فإنَّه وسيلةٌ إلى دفْعِ مالِه إليه، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[٤] [النساء: ٦].

١٨- قَولُه: ﴿نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ في هذا الامتحانِ إشارةٌ إلى أنها إذا كانت تعرِفُ عرْشَها مع تغييرِه، وتنكيرِه، فإنه لا شكَّ أنَّ مَعرفتَها بأنَّ اللهَ تعالى هو المستحِقُّ للعبادةِ مِن بابِ أَولى، فهذا وجهٌ مِن أوجهِ الاختبارِ في هذه القصَّةِ[٥].

١٩- في قَوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ التوريةُ في الكلامِ؛ وهو أنْ يُظْهِرَ الإنسانُ شيئًا غيرَ ما يريدُ؛ فإنَّ قولَهم: ﴿أَهَٰكَذَا﴾ توريةٌ، لأنَّ حقيقةَ الأمرِ أنَّ العرشَ الذي بين أيديهم هو عرْشُها، فكان مقتضى الاستفهامِ أنْ يقولوا: (أهذا عرْشُك؟) لكنْ أَتوا بصيغةِ التوريةِ لإبعادِ الأمرِ، لأنَّ كونَه عرْشَها قد تتسرعُ وتقولُ: لا؛ لأنها تستبعدُ أنْ يكونَ العرشُ قد حَضَرَ في هذه المدةِ وعليه الحرسُ وعليه المغاليقُ! فقيل لها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٣١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٦).

٢٠- قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ﴾ المذاهِبُ الفاسِدةُ والعقائدُ الباطلةُ تُسيطِرُ على عَقلِ العاقِلِ، وتُذهِبُ لُبَّ اللَّبيبِ وبصيرةَ قَلبه حتى يُقَيَّضَ له من الأسبابِ المباركةِ ما يبيِّنُ له الحَقَّ، ويمُنُّ عليه باتِّباعِه، وإلَّا فقد كان لها مِن الذَّكاءِ والفِطنةِ ما به تَعرِفُ الحَقَّ مِن الباطِلِ[١].

٢١- ما يُدْرَكُ بالحواسِّ قد يَقَعُ فيه الخطأُ، والرؤيةُ قد تكذِبُ؛ لقوله: ﴿حَسِبَتۡهُ لُجَّةٗ﴾؛ فإنَّ هذا -كما هو الواقعُ- صَرْحٌ ممرَّدٌ مِن قواريرَ، وتنظرُ إليه نَظَرَ العينِ ومع ذلك تحسبُه لُجَّةً! فدلَّ هذا على أنَّ ما يُدْرَكُ بالحواسِّ قد يَقَعُ فيه الخطأُ، قد يرى الإنسانُ الشيءَ المتحرِّكَ ساكنًا؛ والساكنَ متحرِّكًا، والأبيضَ أسودَ، والرجلَ امرأةً[٢]!

٢٢- أنَّ المرأةَ مِن قديمِ الزمانِ شيمَتُها التستُّرُ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَكَشَفَتۡ عَن سَاقَيۡهَا﴾ دليلٌ على أنَّ الأصلَ أنَّها مَستورةٌ، وهو كذلك، بخلافِ الرجُلِ؛ فإنَّ ((إزْرة المسلمِ إلى نصفِ السَّاقِ))[٣]، أما في هذا العصر فقد أصبحَ الأمرُ بالعَكسِ عندَ كثيرٍ مِن المسلمينَ، فأصبحَ الرجالُ ثيابُهم مُسبَلَةٌ، والنِّساءُ ثيابهنَّ قصيرةٌ، وهذا خلافُ الفِطرةِ التي فَطَرَ اللهُ عليها الخلْقَ[٤]!

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي﴾ أنَّ اللهَ تبارك وتعالى

---

(١) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٤٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٠٩٣) واللَّفظُ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٩٧١٧)، وابنُ ماجه (٣٥٧٣)، وأحمد (١١٣٩٧)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

صحَّحه ابنُ دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١١٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٠٩٣)، وصَحَّح إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٤٨).

قد يَهَبُ المرءَ ما يُوجِبُ له أنْ يُسلِمَ، بل قد يُيَسِّرُ له الأسبابَ التي تُوجِبُ إسلامَه بكلِّ سهولةٍ؛ فهذه المرأةُ -حسبَ القصةِ- ما وجدنا أنها دُعِيَتْ وأُكِّدَ عليها وبُيِّنَ لها الخطأُ إلَّا في قَولِه في أوَّلِ القصَّةِ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]، لكنْ لَمَّا شاهدتْ ما شاهدتْ مِن عظمةِ مُلْكِ سليمانَ وقوَّتِه، عرَفَتْ أنَّه لا بُدَّ أنْ تُسلِمَ، وهي تتذكرُ كتابَه الذي قال فيه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾[1].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ دينَ الأنبياءِ كلِّهم الإسلامُ[2].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أنَّ المعاصيَ ظلمٌ للنَّفْسِ، ووجهُ ذلك أنَّ الإنسانَ مؤتمَنٌ على نفْسِه؛ مِن حيثُ السلوكُ والسِّيرةُ، ومِن حيثُ التَّصرُّفُ في مالِه، ومِن حيثُ التَّصرُّفُ في بدَنِه؛ ولهذا نُهيَ عن إضاعةِ المالِ، ونُهيَ عن قتْلِ النَّفْسِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[النساء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وأُمِرَ بالأكلِ وبالشُّربِ وباللِّباسِ، وبالوقايةِ مِن الحَرِّ والوقايةِ مِن البرْدِ، كلُّ هذا مِن أجلِ حفْظِ النَّفْسِ التي هي أمانةٌ عندك؛ فالإنسانُ ليس حُرًّا يتصَرَّفُ كما يشاءُ في بدَنِه، أو في سُلوكِه، أو في مالِه، بل هو مُقَيَّدٌ[3].

٢٦- قولُه تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اعترَفَتْ بأنَّها ظلَمَتْ نفْسَها في اتِّباعِ الضَّلالِ بعِبادةِ الشَّمسِ، وهذا دَرجةٌ أُولى في الاعتقادِ، وهو دَرجةُ التَّخليةِ، ثمَّ صَعِدَت إلى الدَّرجةِ الَّتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٥٠).

فوقَها، وهي درجةُ التَّحلِّي بالإيمانِ الحقِّ، فقالت: (أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)، فاعترَفَتْ بأنَّ اللهَ هو ربُّ جميعِ الموجوداتِ، وهذا مقامُ التَّوحيدِ، وفي قولِها: ﴿مَعَ سُلَيْمَٰنَ﴾ إيمانٌ بالدِّينِ الَّذي تَقلَّدَهُ سُليمانُ، وقد أرادتْ جمْعَ معاني الدِّينِ في هذه الكلمةِ؛ لِيَكونَ تَفصيلُها فيما تَتلقَّاهُ مِن سُليمانَ مِن الشَّرائعِ والأحكامِ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لذِكْرِ بعضِ أجزاءِ القصَّةِ، وطُوِيَ خبَرُ رُجوعِ الرُّسلِ والهديَّةِ، وعَلِمَ سُليمانُ أنَّ ملِكةَ سبأٍ لا يَسَعُها إلَّا طاعتُه ومَجيئُها إليه، أو ورَدَ له منها أنَّها عزَمَتْ على الحضورِ عندهُ عمَلًا بقولِه: ﴿وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١][2]؛ ففي الكلامِ حَذْفٌ تقديرُه: فرَجعَ المُرسَلُ إليها بالهديَّةِ، وأخبَرَها بما أقسَمَ عليه سُليمانُ، فتَجهَّزَت للمسيرِ إليه؛ إذ عَلِمَت أنَّه نَبيٌّ، ولا طاقةَ لها بقتالِ نَبيٍّ[3].

- وتَقْييدُ الإتيانِ به بقولِه: ﴿قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾؛ لِمَا أنَّ ذلكَ أبدعُ وأغربُ وأبعدُ مِن الوقوعِ عادةً، وأدلُّ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وصِحَّةِ نُبوَّتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ ولِيَكونَ اختبارُها وإطْلاعُها على بَدائعِ المُعجزاتِ في أوَّلِ مَجيئِها[4].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦).

- وجُملةُ ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ﴾ واقعةٌ مَوقعَ جوابِ المُحاورةِ؛ ففُصِلَت -أي: لم تُعطَفْ على ما قبْلَها- على أُسلوبِ المُحاوَراتِ[١].

- قولُه: ﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ لمَّا كان العِفريتُ قد يُوصَفُ به الإنسُ، خُصَّ هنا بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾

- جُملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ واقعةٌ مَوقعَ جوابِ المُحاوَرةِ؛ ففُصِلَت -أي: لم تُعطَفْ على ما قبْلَها- على أُسلوبِ المُحاوَراتِ[٣]، أيضًا فُصِلَ عمَّا قبْلَه؛ للإيذانِ بما بيْنَ القائلينِ ومَقالَيْهما، وكيْفيَّتيْ قُدرتِهما على الإتيانِ به مِن كَمالِ التَّبايُنِ. أو لإسقاطِ الأوَّلِ عن دَرجةِ الاعتبارِ[٤].

- وتَنكيرُ ﴿عِلْمٌ﴾؛ للتَّفخيمِ[٥].

- قولُه: ﴿قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ الطَّرْفُ: تَحريكُ الأجفانِ وفتْحُها للنَّظرِ إلى شَيءٍ، وارتدادُه: انضمامُها -على قولٍ في التفسيرِ-، ولكونِه أمرًا طبيعيًّا غيرَ مَنوطٍ بالقصْدِ، أُوثِرَ (الارتدادُ) على الرَّدِّ؛ فقال: ﴿يَرْتَدَّ﴾، ولم يقُل: (يُرَدَّ). ولَمَّا لم يكُنْ بيْن هذا الوعدِ وإنجازِه مُدَّةٌ ما كما في وَعْدِ العِفْريتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٦، ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٨٧).

اسْتُغْنِيَ عن التَّأكيدِ؛ فلم يُؤكِّدْه هنا بقولِه: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾، كما ذكَرَ العِفريتُ في وَعْدِه[1].

- قولُه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ طُوِيَ عندَ الحِكايةِ ذِكرُ الإتيانِ به؛ للإيذانِ بأنَّه أمرٌ مُتحقِّقٌ، غَنِيٌّ عنِ الإخبارِ بهِ، وجِيءَ بالفاءِ الفصيحةِ، لا داخلةٌ على جُملةٍ مَعطوفةٍ على جُملةٍ مُقدَّرةٍ دالَّةٍ على تَحقُّقِه فقطْ، كما في قولِه عَزَّ وجلَّ: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣] ونظائِرِه، بلْ داخلةٌ على الشَّرطيَّةِ، حيثُ قِيل: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾، أيْ: رأَى العرشَ حاضرًا لدَيْهِ، كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ﴾ [يوسف: ٣١]؛ للدَّلالةِ على كَمالِ ظُهورِ ما ذُكِرَ مِن تَحقُّقِه واستغنائِه عن الإخبارِ به ببَيانِ ظُهورِ ما يَترتَّبُ عليه مِن رُؤيةِ سُليمانَ عليه السَّلامُ إيَّاهُ، واستغنائِه أيضًا عن التَّصريحِ به؛ إذِ التَّقديرُ: فأتاهُ به، فرآهُ، فلمَّا رآهُ... إلخ، فحُذِفَ ما حُذِفَ لِمَا ذُكِرَ؛ وللإيذانِ بكَمالِ سُرعةِ الإتيانِ به؛ كأنَّه لم يَقَعْ بيْنَ الوعدِ به وبيْنَ رُؤيتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاه شَيءٌ ما أصلًا. وفي تَقْييدِ رُؤيتِه باستقرارِه عندَه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ تأكيدٌ لهذا المَعْنى؛ لإيهامِه أنَّه لم يَتوسَّطْ بينَهما ابتداءُ الإتيانِ أيضًا، كأنَّه لم يَزَلْ مَوجُودًا عندَهُ، معَ ما فيه مِن الدَّلالةِ على دَوامِ قَرارِه عندَهُ مُنتظمًا في سِلكِ مُلْكِه[2].

- قولُه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ لمَّا ذكَرَ الفضلَ أضافَهُ إلى اللهِ بعُنوانِ كونِه ربَّه؛ لإظهارِ أنَّ فضْلَه عليه عظيمٌ؛ إذ هو عبْدُ ربِّه؛ فليس إحسانُ اللهِ إليه إلَّا فضْلًا مَحْضًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٢).

- وفي العُدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ -دونَ أنْ يقولَ: (فإنَّه غنيٌّ كريمٌ)-: تأكيدٌ للاعترافِ بتَمحُّضِ الفضْلِ المُستفادِ مِن قولِه: ﴿فَضْلِ رَبِّي﴾[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ هذا مِن جُملةِ المُحاوَرةِ الَّتي جرَتْ بيْن سُليمانَ عليه السَّلامُ وبيْن مَلَئِه؛ ولذلك لم يُعْطَفْ على ما قبْلَه؛ لأنَّه جَرى على طريقةِ المُقاوَلةِ والمُحاوَرةِ[2].

- وفي هذا محذوفٌ تقديرُه: فلمَّا جاء به قال: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾؛ لأنَّ تنكيرَه لم يكُنْ إلَّا بعدَ أنْ جِيء به إليه، وقد أغنَى عن المحذوفِ صدرُ الكلامِ وآخرُه، وكان ذلك دليلًا عليه[3].

- قولُه: ﴿قَالَ﴾، أي: سُليمانُ عليه السَّلامُ؛ كُرِّرَتِ الحِكايةُ مع كَونِ المَحْكيِّ سابقًا ولاحقًا مِن كلامِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ تَنْبيهًا على ما بيْن السَّابقِ واللَّاحقِ مِن المُخالَفةِ؛ لِمَا أنَّ الأوَّلَ مِن بابِ الشُّكرِ للهِ تعالى، والثَّانيَ أمْرٌ لِخَدَمِه[4].

- وقولُه: ﴿مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أبلَغُ في انتفاءِ الاهتداءِ مِن: (لا تَهْتدي)؛ لأنَّ ما عليه النَّظمُ الكريمُ فيه دَلالةٌ على انتظامِها في سِلْكِ المَوسومينَ بعَدمِ الهِدايةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (٢/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ شُروعٌ في حِكايةِ التَّجربةِ الَّتي قصَدَها سُليمانُ عليه السَّلامُ[١].

- ودلَّ قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ﴾ أنَّ المَلِكةَ لمَّا بلَغَها ما أجابَ به سُليمانُ رُسُلَها، أزْمَعَتِ الحُضورَ بنفْسِها لَدَى سُليمانَ داخلةً تحتَ نُفوذِ مَمْلكتِه، وأنَّها تَجهَّزتْ للسَّفرِ إليه بما يَليقُ بمِثْلِها؛ ففي الكلامِ حَذْفٌ إيجازًا[٢].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿قِيلَ﴾ للمفعولِ؛ إذ لا يَتعلَّقُ غرَضٌ بالقائلِ، والظَّاهرُ أنَّ الَّذي قال ذلك هو سُليمانُ عليه السَّلامُ[٣].

- قولُه: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ لم يأْتِ التَّركيبُ: (أهذا عَرْشُكِ)، بلْ جاء: حَرفُ التَّنبيهِ، وكافُ التَّشبيهِ، واسمُ الإشارةِ؛ لئلَّا يكونَ تلْقينًا لها[٤].

- وفي قولِها: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وعُدولِها عن مُطابَقةِ الجوابِ للسُّؤالِ، بأنْ تقولَ: (هكذا هو) نُكتةٌ حَسَنةٌ، ولعلَّ قائلًا يقولُ: كِلَا العِبارتينِ تَشبيهٌ؛ إذ كافُ التَّشبيهِ فيهما جميعًا، وإنْ كانت في إحداهما داخلةً على اسمِ الإشارةِ، وفي الأُخرى داخلةً على المُضْمَرِ، وكِلاهما -أي: اسمُ الإشارةِ والمُضمَرُ- واقعٌ على الذَّاتِ المُشبَّهةِ، وحينئذٍ تَسْتوي العبارتانِ في المعنَى، ويَفضُلُ قولُها (هكذا هو) بمُطابَقتِه للسُّؤالِ، فلا بُدَّ في اختيارِ ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ مِن حِكمةٍ!

**فالجوابُ**: أنَّ حِكمتَه -واللهُ أعلَمُ-: أنَّ ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ عبارةُ مَن قَرُبَ عندَهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٨).

الشَّبهُ حتَّى شكَّكَ نفْسَه في التَّغايُرِ بيْن الأمرينِ؛ فكادَ يقولُ: هو هو، وتلك حالُ بِلْقيسَ. وأمَّا (هكذا هو)، فعبارةُ جازمٍ بتَغايُرِ الأمرينِ، حاكمٍ بوُقوعِ الشَّبهِ بيْنهما لا غيرُ؛ فلهذا عدَلَتْ إلى العبارةِ المذكورةِ في التِّلاوةِ؛ لِمُطابَقتِها لحالِها[1].

- وفي ذِكْرِ فِعلِ الكونِ ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾: دَلالةٌ على تَمكُّنِهم مِن الإسلامِ منذُ القِدَمِ[2].

٦- قوله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيه حَذْفُ مُتعلَّقِ الصَّدِّ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه في قولِه: ﴿وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾، وما كانت تَعبُدُه هو الشَّمسُ[3].

- وفي ذِكْرِ فِعلِ الكونِ مرَّتينِ في ﴿مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾: دَلالةٌ على تَمكُّنِها مِن عِبادةِ الشَّمسِ، وكان ذلك التَّمكُّنُ بسَببِ الانحدارِ مِن سُلالةِ المُشركينَ؛ فالشِّركُ مُنْطبِعٌ في نفْسِها بالوراثةِ؛ فالكُفْرُ قد أحاطَ بها بتَغلْغُلِه في نفْسِها وبنَشأَتِها عليه، وبكَونِها بيْن قومٍ كافرينَ؛ فمِن أين يَخلُصُ إليها الهُدى والإيمانُ[4]؟!

٧- قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٦٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٧٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٧٤، ٢٧٥).

- قولُه: ﴿قِيلَ لَهَا ٱدۡخُلِي ٱلصَّرۡحَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ لِجُزءٍ مِن القصَّةِ، وطُوِيَ ذِكْرُ تَرحُّلِها إلى وُصولِها في ذِكْرِ ما يَدلُّ عليه؛ مِن حُلولِها أمامَ صَرْحِ سُليمانَ للدُّخولِ معه إليه، أو الدُّخولِ عليه وهو فيه[1].

- قولُه: ﴿فَلَمَّا رَأَتۡهُ﴾ في الكلامِ حَذْفٌ، تَقديرُه: فدَخَلتْه امتثالًا للأمْرِ[2].

- وفي قولِها: ﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الْتفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ، ووَصْفُه برُبوبيَّةِ العالمينَ؛ لإظهارِ مَعرفتِها بأُلوهيَّتِه تعالَى وتَفرُّدِه باستحقاقِ العِبادةِ برُبوبيَّتِه لجميعِ المَوجُوداتِ، الَّتي مِن جُملتِها ما كانتْ تَعبُدُه قبْلَ ذلكَ مِن الشَّمسِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٩).

## الآيات (٤٥-٥٢)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱطَّيَّرْنَا﴾: أي: تَطَيَّرنا وتشاءَمْنا، وأَصْلُه: التَّفاؤُلُ بالطَّيْرِ، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ ما يُتفاءَلُ به ويُتشاءَمُ، واشتِقاقُه مِنَ الطَّيرِ، كالغُرابِ وما أشبَهَه[1].

﴿طَٰٓئِرُكُمْ﴾: أي: شُؤمُكم وحَظُّكم مِنَ الشَّرِّ[2].

﴿تُفْتَنُونَ﴾: أي: تُبتَلَوْن وتُختبَرون، وأصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهَبِ النَّارَ لتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٢، ٣٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٩، ٢٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، =

﴿رَهۡطٖ﴾: أي: أنفُس، والرَّهْطُ: الجماعةُ والعِصابةُ دُونَ العَشَرةِ، وقيل: ما فوقَ العَشَرةِ إلى الأربعينَ، وأصْلُه: يدُلُّ على تجمُّعٍ في النَّاسِ وغَيرِهم[١].

﴿تَقَاسَمُواْ﴾: أي: تحالَفُوا باللهِ، وحلفَ بعضُهم لبعض، وأصلُه مِنَ القَسامةِ، وهي أيمانٌ تُقْسَمُ على أولياءِ المقتولِ، ثمَّ صار اسمًا لكلِّ حَلِفٍ[٢].

﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾: أي: لَنَقْتُلَنَّهم ليلًا، والتَّبييتُ يُقالُ لكلِّ فِعلٍ دُبِّرَ باللَّيلِ[٣].

﴿مَهۡلِكَ﴾: أي: إهلاكَهم ومَوتَهم، وأصلُ الهلاكِ: السُّقوطُ[٤].

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾: المكرُ: صرْفُ الغيرِ عمَّا يَقصِدُه بحيلةٍ، أو: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغيرِ بطريقٍ خفيٍّ، وأصلُ المكرِ: الاحتيالُ والخِداع[٥].

﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾: أي: أهْلَكْناهم، وأخَذْناهم بعقوبتِنا إيَّاهم، والتَّدميرُ: إدخالُ الهلاكِ على الشَّيءِ[٦].

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٧)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٢، ٦٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٣٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٠)، ((المفردات)) =

﴿خَاوِيَةٌ﴾: أي: خَرابًا خالِيةً قد سقَط بَعضُها على بَعضٍ، وأصلُ الخَواءِ: الخَلاءُ والسُّقوطُ[١].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾

قولُه: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ في محلِّ هذا المصدَرِ المؤوَّلِ أوجُهٌ؛ أحدُها: أن يكونَ منصوبًا على نزعِ الخافضِ، أي: لأنَّا دمَّرْناهم، و(كان) تامَّةٌ، و (عاقبةُ) فاعِلٌ بها، و (كيف) حالٌ. أو (كان) ناقصةٌ، و (عاقبةُ) اسمُها، و(كيف) خبَرُها. الثَّاني: أن يكونَ بدلًا مِن (عاقبة)، أي: كيف كان تدميرُنا إيَّاهم. الثَّالثُ: أن يكونَ خبَرَ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: العاقبةُ أنَّا دمَّرْناهم. الرَّابع: أن يكونَ المصدَرُ المؤوَّلُ خبرًا لـ (كان)، والعاقِبةُ اسمها، و(كيف) في محلِّ نصبٍ حالٌ، والتَّقديرُ: فانظرُ -يا محمَّدُ- على أيِّ حالٍ كان عاقِبةُ أمرِهم تدميرَهم. وقُرِئَ: ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ بالكسرِ على الاستِئْنافِ[٢]، وهو تفسيرٌ للعاقبةِ[٣].

---

= للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٤).

(٢) قرأ بفتحِ الهمزةِ: عاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ ويعقوبُ وخلَفٌ، والباقون بالكسرِ. يُنظر: ((السبعة في القراءات)) لابن مجاهد (ص: ٤٨٣، ٤٨٤)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٨)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٢٩٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢٤)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٥٣٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٢٦).

## المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا مِن قصَّةِ صالحٍ عليه السَّلامُ مع قومِه، فيقولُ سبحانَه: لقد أرسَلْنا إلى قبيلةِ ثمودَ أخاهم ونبيَّهم صالِحًا، فأمَرَهم بعبادةِ اللهِ وحْدَه لا شَريكَ له؛ فإذا هم فريقان: مؤمِنونَ به، وكافِرون، كلٌّ منهم يختَصِمُ في شأنِ الدِّينِ، فقال لهم صالحٌ: يا قومِ، لِمَ تستعجِلونَ عذابَ اللهِ ولا تَرجُونَ رَحمتَه، هلَّا تَطلُبونَ مِن اللهِ أن يغفِرَ لكم؛ لعَلَّه يرحَمُكم؟! فقالوا له: تشاءَمنا بك وبمَن معك مِنَ المؤمِنينَ! فقال صالحٌ لهم: ما أصابَكم مِن مكروهٍ فهو مِن عندِ اللهِ بسبَبِ ذُنوبِكم، بل أنتم قومٌ مختبَرون بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ مِن رَبِّكم.

ثمَّ يحكي الله تعالى ما قابل به رؤساءُ ثَمودَ دعوةَ نبيِّهم صالحٍ عليه السَّلامُ مِن عنادٍ وإصرارٍ على التخلُّصِ منه ومِن أهلِه، فيقولُ تعالى: وكان في مدينةِ ثمودَ تِسعةُ أشخاصٍ يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي، ولا يُصلِحون، فقال بعضُهم لبعضٍ: تحالَفوا باللهِ على اغتيالِ صالحٍ وأهلِه ليلًا، ثمَّ بعدَ أن نقتُلَه وأهلَه نقولُ لِمَن يطالِبُ بدَمِه: ما حضَرْنا هلاكَ صالحٍ وأهلِ بيتِه، وإنَّا لَصادِقون في ذلك!

ومكَرَ هؤلاءِ الرَّهطُ، فمكَرَ اللهُ بهم مَكْرًا أعظَمَ مِن مَكْرِهم، وهم لا يَشعرونَ! فانظُرْ -يا محمَّدُ- كيف كان عاقِبةُ مكرِ هؤلاء المُفسِدين مِن قومِ صالحٍ؛ أنَّا أهلَكْناهم وأهلَكْنا جميعَ قومِهم المُشركين، فتلك مساكِنُ ثمودَ قد صارت خَرابًا خاليةً مِن أهلِها؛ بسَبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم. إنَّ في ذلك لَعِبرةً وعِظةً لِقَومٍ يَعلَمونَ، وأنجَيْنا صالحًا والمؤمِنينَ به مِن قَومِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه قِصَّةَ موسى وداودَ وسُليمانَ -وهم مِن بني إسرائيلَ-؛ ذَكرَ قصةَ مَن هو مِن العربِ؛ يُذَكِّرُ بها قريشًا والعربَ، ويُنبِّهُهم أنَّ مَن تقدَّمَ مِن الأنبياءِ مِن العربِ كان يدعو إلى إفرادِ اللهِ تعالى بالعبادةِ؛ لِيَعلموا أنَّهم في عبادةِ الأصنامِ على ضلالةٍ، وأنَّ شأنَ الأنبياءِ -عربِهم وعجمِهم- هو الدُّعاءُ إلى عبادةِ اللهِ[1].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا إلى قبيلةِ ثمودَ أخاهم في النَّسَبِ صالِحًا، فأمَرَهم بعبادةِ اللهِ وحْدَه لا شَريكَ له[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [هود: ٦١].

﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾.

أي: فإذا قومُ صالحٍ فَريقانِ: مُؤمِنون وكافِرون، يختَصِمون في الدِّينِ، وكلٌّ يقولُ بأنَّ الحقَّ معه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٨).

قال ابن عاشور: (والانتقالُ مِن ذكرِ ملكِ سليمانَ وقِصَّةِ ملكةِ سبأٍ إلى ذكرِ ثمودَ ورسولِهم دونَ ذكرِ عادٍ؛ لمناسبةِ جوارِ البلادِ؛ لأنَّ ديارَ ثمودَ كانت على تُخومِ مملكةِ سليمانَ، وكانت في طريقِ السَّائرِ مِن سبأٍ إلى فِلَسْطِينَ، ألا ترَى أنَّه أعقبَ ذكرَ ثمودَ بذكرِ قومِ لوطٍ وهم أدنَى إلى بلادِ فلسطينَ، فكان سياقُ هذه القصصِ مُناسبًا لسياقِ السَّائرِ مِن بلادِ اليمنِ إلى فِلَسطِينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾.

أي: قال صالحٌ: يا قومِ، لأيِّ شَيءٍ تَطلُبونَ عذابَ اللهِ، ولا تَطلُبونَ رحمتَه[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال القرطبي: (قالَ مُجاهِدٌ: بالعذابِ قبلَ الرَّحمةِ، المعنى: لِمَ تؤخِّرون الإيمانَ الذي يجلِبُ إليكم الثَّوابَ، وتقَدِّمون الكفرَ الذي يوجِبُ العقابَ؟! فكان الكفَّارُ يقولون؛ لفرطِ الإنكارِ: ايتِنا بالعذابِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤).

وقال السعدي: (﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: لِمَ تبادِرونَ فِعلَ السَّيِّئاتِ وتحرِصونَ عليها قبلَ فِعلِ الحسَناتِ التي بها تحسُنُ أحوالُكم وتصلحُ أمورُكم الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ؟! والحالُ أنَّه لا مُوجِبَ لكم إلى الذَّهابِ لِفِعلِ السَّيِّئاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (إنَّ صالحًا تلَطَّف بقَومِه وترَفَّقَ بهم في الخِطابِ، فوقَفَهم على خطيئتِهم في استِعجالِ العذابِ قبلَ الرَّحمةِ، والمعصيةِ لله تعالى قبلَ الطَّاعةِ، وفي أن يكونَ اقتِراحُهم وطلبُهم يقتضي هلاكَهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٣).

وذكر ابن عثيمين أنَّ الاستعجالَ على نوعَينِ:

أحدُهما: استعجالٌ بالقَولِ؛ بأنْ يقولوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

والثاني: استعجالٌ بالفِعلِ والحالِ؛ بأنْ يَسلُكوا مسْلَكًا يكونُ به العذابُ، وذلك بالمعاصي؛ فإنَّ المعصيةَ استعجالٌ بالعذابِ بلا شكٍّ. فالاستعجالُ يكونُ بقالِ الإنسانِ وحالِه. يُنظر: =

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أي: قال صالحٌ لِقَومِه: هلَّا تَطلُبونَ مِن اللهِ أن يغفِرَ لكم كُفرَكم ومعاصيَكم؛ كي يرحَمَكم[1]؟

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾.

أي: قال مُشرِكو ثمودَ لنبيِّهم صالحٍ: تشاءَمْنا بك وبمَن معك مِنَ المؤمِنينَ؛ فنحن تُصيبُنا المصائِبُ والمكارِهُ بسَبَبِكم[2]!

﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: فقال صالحٌ لِقَومِه: ما يُصيبُكم مِن مكروهٍ فإنَّما جاءَكم مِن عندِ اللهِ وحْدَه، ووقَعَ عليكم بإذنِه؛ بسَبَبِ ذُنوبِكم[3].

---

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال البقاعي: (﴿لَوْلَا﴾ أي: هلَّا، ولِمَ لا ﴿تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ﴾ أي: تَطلُبونَ غُفرانَ الَّذي له صِفاتُ الكمالِ لذُنوبِكم السَّالفةِ، بالرُّجوعِ إليه بالتوبةِ بإخلاصِ العبادةِ له ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لِتكونوا على رجاءٍ مِن أن تُعامَلوا مِن كُلِّ مَن فيه خيرٌ معاملةَ المرحومِ؛ بإعطاءِ الخيرِ، والحمايةِ مِنَ الشَّرِّ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٧٥).

وقال السمعاني: (والاستغفارُ هاهنا بمعنَى التَّوبةِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٧).

قال الشنقيطي: (كان قومُ صالحٍ إذا نزَل بهم قَحطٌ أو بلاءٌ أو مصائِبُ، قالوا: ما جاءَنا هذا إلَّا مِن شؤمِ صالحٍ ومَن آمنَ به). ((أضواء البيان)) (٦/ ١١٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن =

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾.

أي: بل أنتم قَومٌ يَختبِرُكم ربُّكم بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والخيرِ والشَّرِّ[1].

---

= كثير)) (٦/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تُبتلَونَ وتُختبرون وتُمتحنون: الزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابن عطية، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تُختبرون بالخيرِ والشَّرِّ، وبتَعاقُبِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ: الرَّسْعَنيُّ، والبيضاوي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال السعدي: (﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والخيرِ والشَّرِّ؛ لِيَنظُرَ هل تُقلِعون وتَتوبون أمْ لا؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: بل أنتم قومٌ تُختبرون؛ يَختبِرُكم ربُّكم إذ أرسَلني إليكم، أتُطيعونه أمْ تَعصونه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٤٤).

وقيل: المرادُ: تُبتلَون بذُنوبِكم. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٦).

وقال ابن كثير: (الظاهِرُ أنَّ المرادَ بقوله: ﴿تُفْتَنُونَ﴾ أي: تُستدرَجون فيما أنتم فيه مِن الضَّلالِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨).

وقال ابنُ عثيمين: (هنا الإضرابُ انتقاليٌّ؛ لأنَّه عندَ الله يفتِنُهم بما حصَل ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾. ووجهُ الفتنةِ:

أوَّلًا: أنَّهم نسَبوا هذا إلى صالحٍ ومَن معه، وهذه فتنةٌ عظيمةٌ ضَلَّ بها هؤلاء.

ثانيًا: أنَّه أصابهم مع مجيءِ صالحٍ إليهم، فظَنُّوا أو ادَّعَوا أنَّ أسبابَ ذلك صالحٌ ومَن معه، ففُتِنوا بذلك فابتَعَدوا عن الحقِّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٧٠).

﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

أي: وكان في مدينةِ ثمودَ تِسعةُ أنفُسٍ[1] يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي، ولا يُصلِحونَ فيها بوجهٍ مِن الوجوهِ[2].

﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ﴾.

أي: قال التِّسعةُ المُفسِدون في الأرضِ بعضُهم لبعضٍ: تحالَفوا باللهِ وتعاهَدوا على اغتيالِ صالحٍ وأهلِه ليلًا[3].

﴿ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾.

---

(١) قال أبو حيَّان: (اتَّفق المفسِّرون على أنَّ المعنى: تسعةُ رجالٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال ابن جرير: (وإنَّما خصَّ اللهُ جلَّ ثناؤه هؤلاء التِّسعةَ الرَّهْطِ بالخبرِ عنهم أنَّهم كانوا يُفسِدون في الأرضِ ولا يُصلِحون، وإن كان أهلُ الكفرِ كلُّهم في الأرضِ مفسدينَ؛ لأنَّ هؤلاء التِّسعةَ هم الذين سَعَوْا -فيما بلَغَنا- في عَقْرِ النَّاقةِ، وتعاوَنوا عليه، وتحالَفوا على قتلِ صالحٍ مِن بينِ قَومِهم ثمودَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٨، ٨٩). ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٣١٣).

وقال ابن كثير: (وإنَّما غلَب هؤلاء على أمرِ ثمودَ؛ لأنَّهم كانوا كبراءَ فيهم ورؤساءَهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال ابن عاشور: (﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾... والمعنى: أنَّهم يُغيرون على بيتِه ليلًا فيَقتُلونه وأهلَه غدْرًا مِن حيثُ لا يُعرَفُ قاتلُه، ثمَّ ينكرونَ أن يكونوا هم قتَلوهم، ولا شَهِدوا مَقتلَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٣).

أي: ثمَّ بعدَ أن نقتُلَ صالحًا وأهلَه خُفيةً نقولُ لِقَريبِ صالحٍ الذي له حَقُّ المطالَبةِ بدَمِه[١]: ما حضَرْنا هلاكَ صالحٍ وأهلِ بيتِه، وإنَّا لَصادِقونَ في ذلك[٢]!

﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أي: ودبَّر التِّسعةُ المفسِدونَ تدبيرًا لِقَتلِ صالحٍ وأهلِه، ومَكَرْنا بهم مكرًا أعظَمَ مِن مَكْرِهم، وهم لا يَعلَمونَ كيفيَّةَ تدبيرِنا إهلاكَهم[٣].

ثم شرَع تعالى في بَيانِ ما تَرتَّبَ على ما بَاشرُوه مِنَ المَكْرِ[٤]، فقال:

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾.

أي: فانظُرْ -يا محمَّدُ- كيف كان آخِرُ أمرِ مَكرِ المُفسِدينَ مِن قَومِ صالحٍ حينَ أرادوا قَتْلَه وأهلِه[٥].

---

(١) قال ابن عثيمين: (ووليُّ الدَّمِ عندَنا في الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ هم الوَرَثةُ بفَرضٍ أو تعصيبٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

قال ابن جرير: (معنى مَكرِ اللهِ بمَن مكَرَ به...: أخْذُه مَن أخَذَه منهم على غِرَّةٍ، أو استِدراجُه مَن استَدرَجَ منهم على كُفرِه به ومعصيتِه إيَّاه، ثمَّ إحلالُه العقوبةَ به على غِرَّةٍ وغَفلةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٣).

وقال السعدي: (﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بنصرِ نبيِّنا صالحٍ عليه السَّلامُ، وتيسيرِ أمرِه، وإهلاكِ قَومِه المكَذِّبينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥].

﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾.

أي: كان عاقِبةُ مَكرِ المُفسِدينَ مِن قَومِ صالحٍ أنَّا أهلَكْناهم وأهلَكْنا جميعَ قَومِهم المُشرِكينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤].

﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢﴾.

﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾.

---

= (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢١).

قال ابن جرير: (فانظُرْ -يا محمَّدُ- بعينِ قلبِك إلى عاقبةِ غدْرِ ثَمودَ بنبيِّهم صالح، كيف كانت؟ وما الَّذي أورَثها اعتِداؤُهم وطغيانُهم وتكذيبُهم؟ فإنَّ ذلك سُنَّتُنا فيمَنْ كذَّبَ رُسُلَنا، وطغَى علينا مِن سائرِ الخَلقِ؛ فحَذِّرْ قَومَك من قُرَيشٍ أن ينالَهم بتكذيبِهم إيَّاك ما نالَ ثمودَ بتكذيبِهم صالحًا مِنَ المَثُلاتِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠، ١٢١).

قال ابن عثيمين: (﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ﴾ مِن التَّدميرِ، وهو أبلَغُ مِن الإهلاكِ؛ لأنَّ التَّدميرَ يُوحي بغِلَظِ هذا الإهلاكِ وعظَمتِه، وهو كذلك؛ فإنَّ قَومَ صالحٍ أُخِذوا -والعياذُ بالله- بأمْرَينِ: بصَيحةٍ ورَجفةٍ؛ صِيحَ بهم، وارتجفَتْ بهم الأرضُ حتَّى انهدمَ عليهم بناؤُهم، وتقَطَّعت قلوبُهم في أجوافِهم. نسألُ اللهَ العافيةَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٩٨).

أي: فتلك مَساكِنُ ثمودَ قد صارت خَرابًا خاليةً مِن أهلِها؛ بسَبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم بشِركِهم وتكذيبِ رَسولِهم، وقَتْلِهم ناقةَ اللهِ(١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ في ذلك(٢) لَعِبرةً وعِظةً ودَلالةً على الحَقِّ لِمَن يَعلَمونَ قُدرةَ اللهِ وحِكمَتَه وغيرَ ذلك مِنَ الحقائِقِ(٣).

كما قال تعالى عنهم: ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ ۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٨].

﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: وأنجَيْنا مِن سَخَطِنا وعَذابِنا صالِحًا والمؤمِنينَ به مِن قَومِه، الَّذين كانوا يَتَّقون سَخَطَ اللهِ وعذابَه، فيَتجنَّبونَ الشِّركَ والمعاصيَ، ويَعمَلونَ بطاعةِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠).

(٢) قيل: الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعودُ إلى إهلاكِ ثمودَ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّي بن أبي طالب، والواحديُّ، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠).

وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى جميعِ قصَّةِ ثمودَ قومِ صالحٍ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠).

قال القاسمي: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: بأنَّهم ما أُخِذوا إلَّا لظُلمِهم، وأنَّ عاقبةَ الظُّلمِ الدَّمارُ والبَوارُ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩٧).

وقال ابنُ عثيمين: (يعلَمونَ قُدرةَ الله وحِكمتَه وما جرى للأمَمِ، كلُّ هذا جائزٌ؛ لأنَّ الذي لا يدري بماذا يعتبرُ؟ لكن الذي يدري هو الذي يعتبرُ). ((تفسير ابن عثيمين-سورة النمل)) (ص: ٣٠٦).

تعالى ويخافونَه[١].

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٦ - ٦٨].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ أنَّ مِن مقتضَى النُّصحِ أنْ تؤكِّدَ ما ينبغي تأكيدُه للمخاطَبِ مِن الأخبارِ المهمَّةِ؛ لِيكونَ المخاطَبُ على يقينٍ منها، ووجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ ذَكَر أنَّه أَرْسَل إلى ثمودَ أخاهم صالحًا، وأكَّدَ هذا الخبرَ بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ ﴾[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ دليلٌ قاطعٌ على أنَّ الكذبَ قبيحٌ عندَ الكفرةِ الَّذين لا يَعرِفون الشَّرعَ ونواهيَه، ولا يَخْطُرُ ببالِهم إلَّا أنَّهم قَصدوا قتْلَ نبيِّ اللهِ؛ ولم يَرضوا لأنفُسِهم أنْ يَكونوا كاذبين حتَّى سَوَّوْا للصِّدقِ في خَبَرِهم حيلةً يَتفصَّون[٣] فيها عن الكذبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٠).

قال ابن جرير: (... فكذلك ننجِّيك -يا محمَّدُ- وأتباعَك، عند إحلالِنا عقوبَتَنا بمُشرِكي قَومِك، مِن بينِ أظهُرِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٥٤).

(٣) تَفصَّى مِن الشَّيءِ وعنه: تخلَّصَ منه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٦)، ((المعجم الوسيط)) (٢/ ٦٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٦٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ ينظُرَ ويتأمَّلَ في الأمورِ ويَعتبِرَ؛ لا سيَّما في أمورِ المكذِّبين[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أنَّ العقوبةَ تَعُمُّ، ولكنْ كما قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا أراد الله بقَومٍ عذابًا، أصاب العذابُ مَن كان فيهم، ثُمَّ بُعِثوا على أعمالِهم))[٢]، وهذا مشاهَدٌ، سواءٌ كانتِ العقوبةُ مِنَ اللهِ -يعني: مِن فِعلِ اللهِ-، أو مِن فعلِ العبادِ؛ فيُسَلِّطُ اللهُ تعالى بعضَ عبادِه على بعضٍ؛ فيُدَمِّرُ هذا المتسَلِّطُ على الصَّالحِ والطَّالحِ، ولكنْ يُبعَثُ النَّاسُ يومَ القيامةِ على أعمالِهم ونِيَّاتِهم[٣]، أو يُنزِلُ اللهُ تعالى كارثةً مِن عندِه -كالفيضاناتِ والرِّياحِ وغيرِها- فتُدَمِّرُ الصَّالحَ والطَّالحَ، ويومَ القيامةِ يُبعثون على نِيَّاتهم؛ ولذلك يجبُ أنْ يكونَ خوفُ الإنسانِ مِن معاصي غيرِه كخوفِه مِن معاصي نفْسِه؛ لأنَّ العقوبةَ واحدةٌ؛ إذا نزلَتْ عَمَّتْ[٤].

٥- قال تعالى: ﴿دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ فالتَّدميرُ مِن أسبابِه الظُّلْمُ، فالباءُ في قولِه: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ للسَّببيَّةِ، وفيه التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ؛ سواءٌ كان متعدِّيًا -بظُلمِ الغيرِ-، أو لازمًا -بظُلمِ النفْسِ وحْدَها-[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فَضيلةُ العِلمِ، وفيه أيضًا الحَثُّ على العِلمِ؛ لأنَّه إذا ثَبَتَ فَضْلُه فمعنى ذلك أنَّ اللهَ ذَكَره لنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (٧١٠٨)، ومسلم (٢٨٧٩) من حديث ابن عمر رضيَ الله عنهما.

(٣) ينظر ما أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلمٌ (٢٨٨٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٧).

لِنَتعلَّمَ[١]، وفيه مِن الحَثِّ على مَعرفةِ أخبارِ الأُمَمِ والعِلمِ بها ما هو ظاهِرٌ؛ لأنَّ بها يتَّعِظُ النَّاسُ، وكذلك أيضًا الأخبارُ الواقعةُ في زمنِ الإنسانِ ينبغي أن يتَّخِذَ مِن حوادِثِها عِظةً وعِبرةً[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ الحَثُّ على الإيمانِ والتقوى؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ عاقلٍ ينبغي له أنْ يَسلُكَ أسبابَ النجاةِ، فيكونُ في الإخبارِ عن نجاتِهم الحَثُّ على السَّببِ الذي به نَجَوا، فقولُه: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ حُكْمٌ مُعَلَّقٌ بوصفٍ، والحكمُ إذا عُلِّقَ بوصفٍ دَلَّ ذلك على عِلِّيَّةِ هذا الوصفِ وتأثيرِه في الحكمِ[٣].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ أنَّه يصِحُّ إطلاقُ الأُخُوَّةِ النَّسَبيَّةِ بينَ المسلمِ والكافرِ، فلا يُقالُ: إذا انتَفَتِ الأخوَّةُ الإيمانيَّةُ انتفتِ الأُخوةُ النَّسَبيَّةُ، بل إذا انتفَى أحدُهما يبقَى الآخَرُ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ أنَّ كلَّ مُتَصَدٍّ للدَّعوةِ إلى اللهِ فلا بُدَّ أنْ يَجِدَ خصومًا؛ لأنَّه إذا كانت الدَّعوةُ في ابتدائِها مع مَن جاء بها وهو الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ تُلاقي ذلك؛ فما بالُك بانتهائِها[٥]؟!

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٣). ويُنظر أيضًا: ((البحر المحيط في أصول الفقه)) للزركشي (٧/ ١٦٧)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٣٠٤، ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٦).

فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴾ فيه الخِصامُ لإظهارِ الحقِّ، كقوله تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]. والخِصامُ لإظهارِ الحقِّ أكرِمْ به مِن خِصام؛ يُثبَتُ به الحقُّ، ويُدحَضُ به الباطلُ، وهو إحسانٌ إلى المخاصَمِ بإنقاذِه مِنَ النَّارِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أنَّ الاستغفارَ سببٌ لرفعِ العُقوبةِ وجلْبِ الرَّحمةِ، وقد قال نوحٌ لقَومِه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢]، وهذه رحمةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ نتيجةَ الاستِغفارِ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ إثباتُ الحِكمةِ للهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، فالرَّحمةُ لها سببٌ، وكونُ اللهِ تبارك وتعالى يَقْرِنُ أفعالَه بأسبابِها يدُلُّ على كمالِ الحكمةِ؛ لأنَّ مَن يَفعلُ أفعالًا عُنجُهيَّةً(٣) ليس لها أسبابٌ، فهذا سفيهٌ، لكنَّ عليه أنْ يَربِطَ الأفعالَ بأسبابِها(٤).

٦- قَولُهم حينَ أُصيبوا بالجَدبِ والقَحطِ: ﴿ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، مع أنَّ هذا الأمرَ مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى، وليس بأسبابِ النَّبيِّ، فيه بيانُ مَسلَكِ المكذِّبينَ للرُّسُلِ؛ أنَّهم يَسلُكونَ مَسالِكَ التَّشبيهِ والتَّمويهِ؛ وهكذا أهلُ الباطلِ يُشَبِّهونَ ويُلَبِّسونَ على النَّاسِ بمثلِ هذه الأمورِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦٠).

(٣) العُنْجُهِيَّةُ: الجَفاء والكِبْر. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٦/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ أنَّه مِن الحكمةِ أنْ يُرَدَّ الباطِلُ بالحقِّ بدونِ سكوتٍ، وأنَّه ينبغي أنْ يكونَ الرَّدُّ مِن جنسِ الإيرادِ؛ فهنا تطيَّروا بصالحٍ ومَن معه، فبيَّن أنَّ طِيَرَتَهم وشُؤمَهم بسبَبِ أعمالِهم؛ ولذا قال: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ﴾، فاللَّفظُ مِثلُ اللَّفظِ، فينبغي أنْ يكونَ الجوابُ مِثلَ الإيرادِ، ويتحرَّى المجيبُ حتَّى اللَّفظَ، وأيضًا ينبغي لِمَن رَدَّ على غيرِه أو أبطلَ قولَه أنْ يأتيَ بأمرٍ لا جِدالَ فيه؛ لأنَّ صالحًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لو قال: هذا الجدبُ ليس مِنِّي، وأنا ما أتيتُ بسببِه، وما أشبَهَ ذلك؛ لكان هذا فيه مجالٌ للأخذِ والرَّدِّ، ولكنْ ينبغي أنْ يختارَ المجيبُ الجوابَ الذي لا كلامَ بعْدَه[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ المصائبَ التي تُصيبُ الإنسانَ إنَّما هي مِن اللهِ تعالى، ولا يُنافي هذا قولَه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، ولا قولَه: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]؛ لأنَّ نِسبةَ هذه الأمورِ إلى اللهِ نِسبةُ خَلْقٍ وإيجادٍ، ونِسبتَها إلى المخلوقِ نِسبةُ تسبُّبٍ، فهي تُضافُ إلى النَّاسِ إضافةَ الشَّيءِ إلى سببِه، وتُضافُ إلى اللهِ سُبحانه وتعالى إضافةَ المخلوقِ إلى خالقِه، وعلى هذا يَزولُ إشكالُ كثيرٍ مِن الآياتِ الَّتي ظاهرُها التَّعارُضُ في هذا البابِ[2].

٩- قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ﴾ القَسَمُ باللهِ يدُلُّ على أنَّهم كانوا يَعترِفون باللهِ، ولكنَّهم يُشرِكونَ به الآلهةَ[3].

١٠- قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٣).

شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ دلَّتْ هذه الآيةُ الكريمةُ على أنَّ نبيَّ الله صالحًا -عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ- نفَعَه اللهُ بنُصرةِ وليِّه، أي: أوليائِه؛ لأنَّه مُضافٌ إلى معرفةٍ، ووجْهُ نُصرتِهم له: أنَّ التِّسعةَ المذكورينَ في قَولِه تعالى: ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ تحالفُوا باللهِ أن يَقتلوه ليلًا ويقتلوا أهلَه معه، ثُمَّ يقولوا لأوليائِه وعصَبتِه: ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾ أي: ولا مَهلِكَه هو، وهذا يدُلُّ على أنَّهم لا يَقدِرونَ أن يقتُلوه علَنًا؛ لِنُصرةِ أوليائِه له، وإنكارُهم شهودَ مَهلِكِ أهلِه دليلٌ على خَوفِهم من أوليائِه[1].

١١- قولهم: ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾ فيه أنَّ البيِّنةَ على المدَّعِي واليمينَ على مَن أنكَرَ؛ لأنَّه لولا أنَّ هذا القَولَ يُبرِّئُهم ما صَحَّ أنْ يَتَّفِقوا على اتِّخاذِه حُجَّةً؛ يقتُلونه ويقولون: ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ ﴾، فلمَّا اتَّفَقوا على هذا دلَّ على أنَّ الإنكارَ يُبرَّأُ به المدَّعَى عليه[2]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ وَصْفُ اللهِ تعالى بالمَكرِ، لكنَّه ليس على سَبيلِ الإطلاقِ، بل على سَبيلِ التَّقييدِ، فيُقالُ مثلًا: هو ماكِرٌ بأعدائِه أو بمن يَستحِقُّ المكرَ، أو ما أشبَهَ ذلك مِمَّا يجعَلُ المَكْرَ صفةَ كمالٍ؛ لأنَّ المكرَ ليس بصِفةِ كَمالٍ على الإطلاقِ، ولا بصِفةِ نَقصٍ على الإطلاقِ[3]؛ فإنَّه إيصالُ الشَّرِّ إلى الغَيرِ بطَريقٍ خَفيٍّ، وكذلك الكَيدُ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١٩).

واستظهر الشنقيطيُّ أنَّ هذه النُّصرةَ عَصبيَّةٌ نَسَبيَّةٌ لا تمُتُّ إلى الدِّينِ بصِلةٍ، وأنَّ أولياءَه ليسوا مُسلِمينَ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٦).

والقاعدةُ: أنَّ الصِّفةَ إذا كانت كمالًا في حالٍ ونقصًا في حالٍ، لم تكُنْ جائزةً في حقِّ اللهِ =

والمخادعةُ، ولكِنَّه نوعانِ؛ قَبيحٌ: وهو إيصالُ ذلك لِمن لا يستحِقُّه، وحَسَنٌ: وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه عقوبةً له؛ فالأوَّلُ مَذمومٌ، والثَّاني ممدوحٌ، والرَّبُّ تعالى إنَّما يَفعلُ مِن ذلك ما يُحمَدُ عليه عدلًا منه وحِكمةً، وهو تعالى يأخُذُ الظَّالِمَ والفاجِرَ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ، لا كما يفعَلُ الظَّلَمةُ بعبادِه[1].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أنَّ العقوباتِ إنَّما تأتي بأسبابٍ مِن المرءِ، حيثُ جَعَل هذا التَّدميرَ عاقبةَ مَكْرِهم[2].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الظُّلمَ يُورِثُ أهلَه الهلاكَ، ويُعقِبُ ديارَهم الخَرابَ[3]؛ فالله تعالى لَمَّا خَصَّ عمَلَهم بوصفِ الظُّلم مِن بينِ عِدَّةِ أحوالٍ يشتَمِلُ عليها كُفرُهم -كالفسادِ-؛ كان ذلك إشارةً إلى أنَّ لِلظُّلْم أثرًا في خرابِ بلادِهم، وهذا معنى ما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما أنَّه قال: (أجِدُ في كتابِ اللهِ أنَّ الظُّلمَ يُخرِبُ البيوتَ، وتلا: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾)[4].

---

= ولا مُمتنِعةً على سبيلِ الإطلاقِ، فلا تُثْبَتُ له إثباتًا مُطْلَقًا، ولا تُنْفَى عنه نفيًا مُطلقًا، بل لا بُدَّ مِنَ التَّفصيلِ، فتجوزُ في الحالِ الَّتي تكونُ كمالًا، وتمتنعُ في الحالِ الَّتي تكونُ نقصًا. يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٢٠).

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٧١). ويُنظر أيضًا: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٧٩-٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٥، ٢٨٦).

ويُنظر لأثر ابن عباس: ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة (١/ ١٤٤)، ((المجالسة وجواهر العلم)) للدِّينَوري (٥/ ٢٢٣).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الرَّدُّ على مَن يُنكِرون الحِكمةَ، مِثلُ الجهميَّةِ[١].

١٦- بيانُ عدلِ اللهِ سبحانه وتعالى؛ حيث أهلكَ مَن يَستحِقُّ الإهلاكَ، وأنجَى مَن يَستحِقُّ الإنجاءَ؛ لقوله: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ هذا مَثَلٌ ثالثٌ ضَرَبه اللهُ لحالِ المُشركينَ مع المُؤمنينَ، وجعَلَه تَسليةً لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنَّ له أُسوةً بالرُّسلِ والأنبياءِ مِن قبْلِه[٣].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ عطْفٌ على قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥]، وهو مَسوقٌ لِمَا سِيقَ هو له مِن تقريرِ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُلقَّى القرآنَ مِن لَدُنْ حكيمٍ عليمٍ؛ فإنَّ هذه القصَّةَ أيضًا مِن جُملةِ القرآنِ الكريمِ الَّذي لُقِّيَهُ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ[٤].

- واللَّامُ في (لَقَدْ) جَوابُ قَسمٍ مَحذوفٍ، أيْ: وباللهِ لقدْ أرْسَلْنا، ولامُ القَسَمِ هذه لتَأكيدِ الإرسالِ باعتبارِ ما اتَّصلَ به مِن بَقيَّةِ الخبرِ؛ فإمَّا أنْ يكونَ التَّأكيدُ لِمُجرَّدِ الاهتمامِ، وإمَّا أنْ يُبْنَى على تَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزلةَ مَن يَتردَّدُ فيما تَضمَّنَه الخبرُ مِن تكذيبِ قَومِه إيَّاهُ، واستِخفافِهم بوَعيدِ ربِّهم على لِسانِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨).

- وقُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ على المفعولِ ﴿صَٰلِحًا﴾؛ لأنَّ ما حَلَّ بالقومِ أهَمُّ ذِكْرًا في هذا المَقامِ؛ فالمجرورُ هنا هو مَحلُّ العِبرةِ، وأمَّا المفعولُ فهو مَحلُّ التَّسليةِ، والتَّسليةُ غرَضٌ تَبَعِيٌّ[١].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ فيه العطْفُ بالفاءِ الَّتي تَقْتَضي التَّعقيبَ لا المُهلةَ؛ فكان المعنى: أنَّهم بادَرُوا بالاختصامِ، مُتعقِّبًا دُعاءَ صالحٍ إيَّاهم إلى عِبادةِ اللهِ[٢].

- والإتيانُ بحَرفِ المُفاجأةِ (إذَا) كِنايةٌ عن كَونِ انقسامِهم غَيرَ مَرْضِيٍّ، فكأنَّه غيرُ مُترقَّبٍ؛ ولذلك لم يَقَعِ التَّعرُّضُ لإنكارِ كَونِ أكثرِهم كافرينَ؛ إشارةً إلى أنَّ مُجرَّدَ بَقاءِ الكُفرِ فيهم كافٍ في قُبْحِ فِعلِهم، وحالُهم هذا مُساوٍ لحالِ قُريشٍ تُجاهَ الرِّسالةِ المُحمَّديَّةِ[٣].

- وأُوثِرَ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ على (يَختصمانِ) -وإنْ كان مِن حيث التَّثنيةُ جائزًا فَصيحًا-؛ لِمُناسَبةِ الفواصلِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لَمَّا كان الاختصامُ بيْن الفريقينِ في شأْنِ صالحٍ ابتِداءً؛ جِيءَ بجَوابِ صالحٍ عمَّا تَضمَّنَه اختِصامُهم مِن مُحاوَلتِهم إفحامَه بطَلَبِ نُزولِ العذابِ، فمَقولُ صالحٍ هذا ليس هو ابتداءَ دَعوتِه؛ فإنَّه تقدَّمَ قولُه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النمل: ٤٥]، ولكنَّه جوابٌ عمَّا تَضمَّنَه اختِصامُهم معه؛ ولذلك جاءت

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٨).

جُملةُ ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ مَفْصولةً غيرَ مَعطوفةٍ؛ جرْيًا على طريقةِ المُحاوَرةِ؛ لأنَّها حِكايةُ جَوابٍ عمَّا تَضمَّنَه اختصامُهم(١).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ إنكارٌ لأخْذِهم بجانبِ العذابِ دونَ جانبِ الرَّحمةِ(٢)، وظاهرُ هذا الاستفهامِ أنَّه استفهامٌ عن عِلَّةِ اسْتِعجالِهم، وإنَّما هو استفهامٌ عن المَعلولِ؛ كِنايةً عن انتفاءِ ما حقُّه أنْ يكونَ سببًا لاستِعجالِ العذابِ؛ فالإنكارُ مُتوجِّهٌ لِلاستعجالِ لا لِعِلَّتِه(٣).

- قولُه: ﴿لِمَ تَسۡتَعۡجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بـ (السَّيِّئةِ) الحالةَ السَّيِّئةَ في مُعامَلتِهم إيَّاهُ بتكذيبِهم إيَّاهُ، والمُرادُ بـ(الحَسَنةِ) ضِدَّ ذلك، أي: تَصديقَهم لِمَا جاء به؛ فالاستِعجالُ المُبادَرةُ، والباءُ للمُلابَسةِ، ومَفعولُ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: تَستَعجلونَني مُتلبِّسينَ بسَيِّئةِ التَّكذيبِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بـ(السَّيِّئةِ) الحالةَ السَّيِّئةِ الَّتي يَترقَّبون حُلولَها، وهي: ما سألوا مِن تَعجيلِ العذابِ المَحْكيِّ عنهم في سُورةِ (الأعرافِ) في قولِه: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وبـ(الحَسَنةِ) ضِدَّ ذلك، أي: حالةَ سَلامتِهم مِن حُلولِ العذابِ؛ فـ (السَّيِّئةُ) مفعولُ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾، والباءُ مَزيدةٌ؛ لتَأكيدِ اللُّصوقِ، مِثلَ ما في قولِه تعالى: ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ﴾ [المائدة: ٦]، والمعنى: إنكارُ جَعْلِهم تأخيرَ العذابِ أمارةً على كذِبِ الوعيدِ به، وأنَّ الأَولى بهم أنْ يَجْعَلوا امتدادَ السَّلامةِ أمارةً على إمهالِ اللهِ إيَّاهم، فيَتَّقُوا حُلولَ العذابِ، أي: لِمَ تَبْقَونَ على التَّكذيبِ مُنتظرينَ حُلولَ العذابِ، وكان الأجدرُ بكم أنْ تُبادِرُوا بالتَّصديقِ مُنتظرينَ عَدَمَ حُلولِ العذابِ بالمرَّةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٨٠).

وعلى كِلَا الوجهَينِ فجوابُ صالح عليه السَّلامُ إيَّاهم جارٍ على الأُسلوبِ الحكيمِ بجَعْلِ يَقينِهم بكَذِبِه مَحمولًا على تَردُّدِهم بيْنَ صِدْقِه وكَذِبِه[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث اقتُصِرَ هنا على مُراجَعةِ صالحٍ قومَه في شأْنِ غُرورِهم بظَنِّهم أنَّ تأخُّرَ العذابِ أَمارةٌ على كَذِبِ الَّذي تَوعَّدَهم به؛ فإنَّهم قالوا -كما حُكِيَ عنهم في سُورةِ (الأعرافِ)-: ﴿ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧]؛ لأنَّ الغرَضَ هنا مَوعظةُ قُريشٍ في قولِهم: ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢] بحالِ ثَمودَ المُساوي لحالِهم؛ لِيَعلَموا أنَّ عاقبةَ ذلك مُماثِلةٌ لِعاقبةِ ثَمودَ لِتَماثُلِ الحالينِ؛ قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾[2] [العنكبوت: ٥٣].

- قولُه: ﴿لَوۡلَا تَسۡتَغۡفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ في هذا التَّحضيضِ تَنبيهٌ على الخطأِ منهم في استِعجالِ العُقوبةِ، وتَجْهيلٌ لهم في اعتقادِهم[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ هذا مِن مُحاوَرتِهم مع صالحٍ؛ فلذلك فُصِلَ عمَّا قبْلَه، ولم يُعطَفْ فِعلَا القولِ، وجاء على سَننِ حِكايةِ أقوالِ المُحاوَراتِ[4].

- قولُه: ﴿قَالَ طَٰٓئِرُكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ عبَّر عمَّا حلَّ بهم بقولِه: ﴿طَٰٓئِرُكُمۡ﴾؛ مُشاكَلةً لقولِهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾، ومُخاطَبةً لهم بما يَفهَمون لإصلاحِ اعتقادِهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٠).

بقَرينةِ قَولِهم: ﴿ٱطَّيَّرۡنَا بِكَ﴾[١].

- قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ إضرابٌ مِن بَيانِ طائرِهم الَّذي هو مَبدَأُ ما يَحِيقُ بهم إلى ذِكْرِ ما هو الدَّاعي إليه[٢].

- وفي قولِه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ صِيغَ الإخبارُ عنهم بأنَّهم مَفتونونَ بتَقديمِ المُسنَدِ إليه ﴿أَنتُمۡ﴾ على الخبرِ الفِعليِّ ﴿تُفۡتَنُونَ﴾؛ لِتَقوِّي الحُكْمِ بذلك، وصِيغَ المُسنَدُ فِعلًا مُضارِعًا؛ لِدَلالتِه على تَجدُّدِ الفُتونِ واستِمرارِه. وغلَّبَ جانبَ الخِطابِ في قولِه: ﴿تُفۡتَنُونَ﴾ على جانبِ الغَيبةِ -مع أنَّ كِلَيْهما مُقْتضى الظَّاهرِ-؛ تَرجيحًا لِجانبِ الخِطابِ؛ لأنَّه أدَلُّ مِن الغَيبةِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ﴾ فيه مِن البلاغةِ ما يُعرَفُ بالتَّمامِ أو التَّتميمِ[٤]؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَكَانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨١).

(٤) التَّتميم: من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١، ٢٤٠، ٢٤١).

فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ شأْنُهم الإفسادُ البحْتُ، ولكنَّ قولَه: ﴿يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لا يَدفَعُ أنْ يَندُرَ منهم أو مِن أحدِهم بعضُ الصَّلاحِ؛ فتَمَّمَ الكلامَ بقولِه: ﴿وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ دَفْعًا لتلك النُّدرةِ أنْ تَقَعَ، أو أنْ يُخالِجَ بعضَ الأذهانِ شَكٌّ في أنَّها سَتقَعُ، وبذلك قطَعَ كلَّ رَجاءٍ في إصلاحِ أمْرِهم وحُسْنِ حالِهم[1].

٥- قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ...﴾ استئنافٌ ببَيانِ بعضِ ما فَعَلوا مِن الفسادِ[2]. وقِيل: إنَّ ﴿قَالُوا۟﴾ صِفةٌ لـ﴿تِسْعَةُ﴾، أو خبرٌ ثانٍ لـ (كَانَ)، أو هو الخبرُ لـ (كَانَ)، و﴿فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ (كَانَ) ظَرفًا لَغْوًا[3]، ولا يَحسُنُ جَعلُ الجُملةِ استئنافًا؛ لأنَّها المقصودُ مِن القصَّةِ، والمعنى: قال بعضُهم لبعضٍ[4].

- قولُه: ﴿مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ﴾، أي: ما حضَرْنا هلاكَهم، على أن ﴿مَهْلِكَ﴾ مصدرٌ كمَرجِع، أو مكانَ هلاكِهم على أنَّه للمكانِ، أو زمانَ هلاكِهم على

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (١٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٠).

(٣) الظَّرفُ اللَّغْوُ: هو الفَضلةُ الَّذي يتعلَّقُ بمذكورٍ في الكلام، ولا يكون حالًا ولا صِفةً ولا صِلةً ولا خَبرًا؛ لأنَّ مُتعَلَّقَه لا يكونُ محذوفًا، ولا مِن الأفعالِ العامَّةِ. يُنظر: ((شرح قواعد الإعراب)) لشيخ زاده (١/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٢).

أنَّه لِلزَّمانِ. والمرادُ: نفْيُ شُهودِ الهلاكِ الواقعِ فيه، واختاروا نفْيَ شهودِ مَهلكِ أهلِه على نفْيِ قتْلِهم إيَّاهُم؛ قصدًا لِلمُبالَغةِ، كأنَّهم قالوا: ما شَهِدْنا ذلك فضلًا عن أن نتَولَّى إهلاكَهم. ويُعلَمُ مِن ذلك نفْيُ قتْلِهم صالحًا عليه السَّلامُ أيضًا؛ لأنَّ مَن لم يَقتُلْ أتباعَه كيف يَقتُلُه[1]؟! وقيل: في الكلام حَذْفُ مَعطوفٍ، يَدُلُّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: ما شَهِدْنا مَهلِكَ أهْلِه ومَهْلِكَهُ، ودلَّ عليه قولُهم: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ﴾[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث لم يُذْكَرْ هذا الجزءُ مِن قصَّةِ ثَمودَ في غيرِ هذه السُّورةِ، ولعلَّ سَببَ ذِكْرِه هنا: أنَّ نُزولَ هذه السُّورةِ كان في وقْتٍ تآمَرَ فيه المُشركونَ على الإيقاعِ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو التَّآمُرُ الَّذي حكاهُ اللهُ في قولِه: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]؛ فضرَبَ اللهُ لهم مَثَلًا بتَآمُرِ الرَّهطِ مِن قَومٍ صالحٍ عليه ومَكْرِهم، وكيف كان عاقبةُ مَكْرِهم؛ ولذلك تَرى بيْن الآيتَينِ تَشابُهًا، وتَرى تَكريرَ ذِكْرِ مَكْرِهم ومَكْرِ اللهِ بهم، وذِكْرِ أنَّ في قِصَّتِهم آيةً لِقَومٍ يَعْلَمون[3].

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا﴾ سمَّى اللهُ تآمُرَهم مَكْرًا؛ لأنَّه كان تَدبيرَ ضُرٍّ في خَفاءٍ، وأُكِّدَ مَكْرُهم بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿مَكۡرٗا﴾؛ للدَّلالةِ على قُوَّتِه في

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٣، ٢٨٤).

جِنْسِ المَكرِ. وتَنوينُه -أي: تَنكيرُه- للتَّعظيمِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أُكِّدَ مَكْرُ اللهِ وعُظِّمَ كما أُكِّدَ مَكْرُهم وعُظِّمَ، وذلك بما يُناسِبُ جِنسَه؛ فإنَّ عذابَ اللهِ لا يُدانِيه عذابُ النَّاسِ، فعَظيمُه أعظَمُ مِن كلِّ ما يُقدِّرُه النَّاسُ[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ في اقترانِه بفاءِ التَّفريعِ: إيماءٌ إلى أنَّ الاعتبارَ بمَكْرِ اللهِ بهم هو المقصودُ مِن سَوقِ القصَّةِ؛ تَعريضًا بأنَّ عاقبةَ أمْرِه مع قُريشٍ أنْ يَكُفَّ عنه كَيْدَهم ويَنصُرَه عليهم، وفي ذلك تَسليةٌ له على ما يُلاقِيه مِن قَومِه[٣].

- وعلى قِراءةِ الجمهورِ: ﴿إِنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ -بكسْرِ الهمزةِ- فتكونُ الجُملةُ مُستأنَفةً استئنافًا بَيانيًّا لِمَا يُثيرُه الاستفهامُ في قولِه: ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ مِن سُؤالٍ عن هذه الكيفيَّةِ. والتَّأكيدُ للاهتمامِ بالخبرِ. وعلى قِراءةِ ﴿أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ﴾ -بفتْحِ الهمزةِ- فيكونُ المصدرُ (تَدْميرهم) بدَلًا مِن ﴿عَاقِبَةُ﴾، والتَّأكيدُ أيضًا للاهتمامِ[٤].

- وضَميرُ الغَيبةِ في ﴿دَمَّرْنَاهُمْ﴾ للرَّهطِ، وعُطِفَ (قَوْمَهُمْ) عليهم؛ لِمُوافَقةِ الجزاءِ للمَجْزِيِّ عليه؛ لأنَّهم مَكَروا بصالحٍ وأهْلِه، فدمَّرَهُم اللهُ وقَومَهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٨- قوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٖ يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ جُملةٌ مُقرِّرةٌ لِمَا قبْلَها[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٖ يَعْلَمُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الجُمَلِ المُتعاطِفةِ[٢]، وفيها تَعريضٌ بأنَّ المُشركينَ الَّذين سِيقَتْ إليهم هذه الموعظةُ إنْ لم يَتَّعِظوا بها فهُمْ قومٌ لا يَعْلَمون[٣].

- وفي ذِكْرِ لفظِ ﴿لِّقَوْمٖ يَعْلَمُونَ﴾ دُونَ أن يُقالَ: لِلَّذِينَ يَعلمون، أو: للعالِمينَ: إيماءٌ إلى أنَّ مَن يَعتبِرُ بهذه الآيةِ مُتمكِّنٌ في العِلم، والعِلمُ سَجِيَّةٌ فيه، حتَّى كأنَّه مِن صِفَتِه القوميَّةِ التي تميِّزُه عن قومٍ آخَرينَ[٤].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾

- زِيادةُ فِعلِ الكونِ في قولِه: ﴿وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مُتمكِّنونَ مِن التَّقوى[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ حيث قالهُ في سُورةِ (فصِّلَت): ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨]، و(نجَّينا) و(أَنجَينا) بمعنًى واحدٍ، وخُصَّتْ هذه السُّورةُ بـ(أَنْجَيْنَا)؛ لِمُوافقتِه لِمَا بعدَه، وهو: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ [النمل: ٥٧]، وبعدَه: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ [النمل: ٥٨]

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٨٩) و (١٩/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٢٨٧).

﴿وَأَنزَلَ﴾ [النمل: ٦٠]، ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ [النمل: ٦٠]، كلُّه على لَفْظِ (أَفْعَل)، وخُصَّ ما في (حم فُصِّلت) بـ(نَجَّيْنَا)؛ لِمُوافَقتِه ما قبْلَه: ﴿وَزَيَّنَّا﴾ [فصلت: ١٢]، وبعْدَه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ﴾ [فصلت: ٢٥]، وكلُّه على لَفْظِ (فَعَّلْنا)[1].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٤).

## الآيات (٥٤-٥٨)

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أي: الفَعلةَ القَبيحةَ الشَّنيعةَ، وهي إتيانُ الذُّكورِ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ(١).

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقينَ في عذابِ اللهِ، والغابرُ مِن الأضْدادِ؛ يُقالُ: غابرٌ للباقي، وغابرٌ للماضي، وأصلُ (غبر) هنا: يدُلُّ على البَقاءِ(٢).

### المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ لوطٍ عليه السلامُ مع قومِه، فيقولُ سبحانَه: واذكُرْ لُوطًا حينَ قال لقَومِه: أتفعَلونَ الفَعلةَ القَبيحةَ الشَّنيعةَ وأنتم تعلَمون أنَّها فاحِشةٌ؟! ثمَّ فسَّر هذه الفاحشةَ، فقال: أتأتونَ الرِّجالَ شَهوةً مِن دونِ النِّساءِ الَّتي أحَلَّها اللهُ لكم؟! بل أنتم قومٌ سُفَهاءُ جاهِلون. فلمْ يكُنْ لِقَومِه جَوابٌ إلَّا أن قال

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((الأضداد)) لابن الأنباري (ص: ١٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

بَعضُهم لبَعضٍ: أخرِجوا لوطًا وأهلَ بيتِه مِن قَريتِكم؛ لأنَّهم يَتنزَّهون عن إتيانِ الرِّجالِ!

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما آلَ إليه أمرُ الفريقَينِ، فيقولُ: فأنجَيْنا لوطًا وأهلَ بيتِه إلَّا امرأتَه قَضَيْنا أنَّها مِن الباقينَ في العذابِ، وأمطَرْنا على قَومِ لُوطٍ مَطرًا مِن حِجارةٍ، فبِئسَ هذا المطَرُ الَّذي أمطَرْناه عليهم!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ لُوطًا[1] حينَ قال لِقَومِه: أتَفعَلونَ الفَعلةَ المتناهِيةَ في القُبحِ، والخطيئةَ الفَظيعةَ الشَّنيعةَ[2] -وهي إتيانُ الذُّكورِ في أدبارِهم- والحالُ أنَّكم تُبصِرونَ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٤).

قال القرطبي: (﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾ أي: وأرسَلْنا لوطًا، أو: اذكرْ لوطًا). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

(٢) قال الواحدي: (يعني: اللِّواطَ، في قَولِ ابنِ عباسٍ، والكلبيِّ، ومقاتلٍ، والجميعِ). ((البسيط)) (١٧/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

قيل: معنى قولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾: تعلمونَ أنَّها فاحشةٌ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحديُّ، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. =

كما قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨].

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾.

أي: قال لُوطٌ لِقَومِه: أئِنَّكم لَتَأتونَ الذُّكورَ في أدبارِهم؛ لأجْلِ الشَّهوةِ، وتَترُكونَ إتيانَ فروجِ النِّساءِ الَّتي أحَلَّها اللهُ لكم[1]؟!

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾.

أي: بل أنتم قومٌ سُفَهاءُ جَهَلةٌ، مُتجاوِزونَ لحُدودِ الله، مُتجرِّئُون على محارِمِه[2].

---

= وقيل: المعنى: تفعلون ذلك علنًا يرى بعضُكم بعضًا. وممَّن قال بذلك في الجملة: ابنُ كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

قال البقاعي: (﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أي: لكم عقولٌ تعرفون بها المحاسِنَ والمقابِحَ، ورُبَّما كان بعضُهم يفعلُه بحضرةِ بعضٍ، كما قال: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، فيكونُ حينَئذٍ مِن البصرِ والبصيرةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٨١).

وقال ابنُ عثيمين: (لو أنَّنا فسَّرنا الإبصارَ هنا بالإبصارِ الحِسِّيِّ بالعينِ، والإبصارِ المعنويِّ بالقلبِ؛ لكان ذلك جائزًا، وفي الحقيقةِ أنَّ بشاعةَ هذا الشيءِ بالقَلبِ أمرٌ معلومٌ بالفِطرةِ، وكونُهم يفعلونَه وهم يُشاهِدُ بعضُهم بعضًا هذا أشَدُّ وأعظَمُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٥، ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٩، ٣٢٠).

قال الزمخشري: (﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾... تفعلونَ فِعلَ الجاهلينَ بأنَّها فاحشةٌ مع عِلمِكم =

كما قال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾.

أي: فلمْ يكُنْ لِقَومِ لُوطٍ جَوابٌ ولا حُجَّةٌ حينَ أنكَرَ عليهم فِعلَ الفاحِشةِ إلَّا أن قال بعضُهم لبعضٍ: أخرِجوا لوطًا وأهلَ بَيتِه مِن قَريتِكم(١).

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾.

أي: أخرِجوهم؛ لأنَّ لوطًا وأهلَ بيتِه أُناسٌ يَتنزَّهون عمَّا نفعلُه مِن إتيانِ الرِّجالِ في أدبارِهم؛ فلا ينبغي أن يُقيموا في بلادِكم(٢)!

---

= بذلك. أو: تجهلونَ العاقبةَ. أو: أراد بالجهلِ: السَّفاهةَ والمجانةَ الَّتي كانوا عليها). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٤).

وقال ابنُ جرير: (ما ذلك منكم إلَّا لأنَّكم قَومٌ سُفَهاءُ جَهَلةٌ بعظيمِ حَقِّ الله عليكم، فخالفْتُم لذلك أمْرَه، وعَصَيْتُم رَسولَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٩، ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٢).

قال ابنُ كثير: (أي: يتحَرَّجون مِن فِعلِ ما تفعلونَه، ومِن إقرارِكم على صنيعِكم؛ فأخرِجوهم مِن بينِ أظهُرِكم؛ فإنَّهم لا يَصلُحون لمجاورتِكم في بلادِكم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠). =

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

أي: فأنجَينا لوطًا وأهلَ بيتِه مِن أنْ يَصِلوا إليهم بأذًى، أو يَلحَقَهم شَيءٌ مِن عذابِنا، إلَّا امرأتَه الكافِرةَ، قَضَيْنا أنَّها مِنَ الباقينَ في العذابِ؛ لتَهلِكَ مع قَومِها[1].

كما قال تعالى: ﴿ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٧٠ - ١٧٢].

---

= وقال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ هل هم أرادوا الحقيقةَ، وأنَّ هذا الفعلَ خبيثٌ، وهؤلاء يريدون التطَهُّرَ منه؟ أو أرادوا: يَتطهَّرون بزَعمِهم، وأنَّ هذا الفِعلَ ليس نجسًا، لكنَّ هؤلاء يُريدون أن يتطَهَّروا منه؟ الأقربُ الأخيرُ؛ لأنَّه هو مقتضى حالِهم؛ فمقتضى حالِهم أنَّهم رأوا هذا المنكَرَ مَعروفًا، وهذه الفاحِشةَ يَسيرةً؛ فتمَسَّكوا بها!). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

قال ابن كثير: (كانت رِدْءًا لهم؛ على دينِهم، وعلى طريقتِهم، في رضاها بأفعالِهم القبيحةِ... لا أنَّها كانت تفعَلُ الفواحِشَ؛ تَكرمةً لنبيِّ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، لا كرامةً لها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠).

وقال أيضًا: (... إنَّ اللهَ لا يُقَدِّرُ على نبيِّه أن تَبغيَ امرأتُه، كما قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه مِن أئمَّةِ السَّلفِ والخلَفِ: «ما بَغَتِ امرأةُ نبيٍّ قَطُّ». ومَن قال خِلافَ هذا فقد أخطأ خطأً كبيرًا). ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٢٢).

ممَّن اختار أنَّ معنَى ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي: الباقينَ في العَذابِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زمنين، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٤٩٨).

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ ٥٨﴾.

﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ مَّطَرٗا﴾.

أي: وأمطَرْنا على قَومِ لوطٍ مَطَرًا مِن حِجارةٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ * فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٢ - ٣٦].

﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾.

أي: فبِئسَ المطَرُ هذا الذي أمطَرْناه على قَومِ لُوطٍ الَّذين أنذَرَهم نبيُّهم عذابَ اللهِ، فعَصَوه وكذَّبوه(٢)!

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أنَّه لا يُنجي مِن عذابِ اللهِ الاتِّصالُ بأهلِ الصَّلاحِ، فلا يقولُ الإنسانُ مثلًا: أنا أخي صالحٌ أو وليٌّ أو ما أشبَهَ ذلك، فهو يَعصِمُني مِن عذابِ اللهِ؛ فهذه امرأةُ لوطٍ لم ينفَعْها أنَّها امرأةُ نبيٍّ! ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٧، ٣٢٨).

[التحريم: ١٠]، فمَن أتى بأسبابِ الهلاكِ هَلَكَ، وإنْ كان بيْنَ قومٍ صالحينَ[١]؛ ففيه تنبيهٌ على أنَّ العذابَ يُدفَعُ بالطَّاعةِ لا بالوسيلةِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ أنَّ الرُّسلَ يُرسَلون إلى قومِهم، ولم يُبْعَثْ أحدٌ إلى عُمومِ النَّاسِ إلَّا رسولُ اللهِ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّمَ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ فيه بيانُ عِظَمِ اللِّواطِ وقُبْحِه، ووجوبِ الإنكارِ على مَن أتَى به[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ أنَّ الفواحشَ تَقْبُحُ بحسَبِ ما يَقترِنُ بها؛ فإنَّ هذه الفاحشةَ مُنكَرةٌ، ولكنَّها إذا كانت علنًا وجهرًا يَظهرُ النَّاسُ بعضُهم أمامَ بعضٍ فيها صارت أَقبَحَ وأعظمَ؛ ولهذا أتى بالجملةِ الحاليَّةِ في قَولِه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[٥] -وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ-؛ فإنَّ التَّجاهُرَ بالمعصيةِ معصيةٌ؛ لأنَّه يدُلُّ على استِحسانِها، وذلك استِخفافٌ بالنَّواهي[٦].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لَمَّا كان قولُه: ﴿شَهْوَةً﴾ رُبَّما أوهَمَ أنَّهم لا غنَى بهم عن إتيانِهم؛ لِلشَّهوةِ الغالبةِ؛ لِكَونِ النِّساءِ لا تكفيهم- لذلك نفَى هذا بقَولِه: ﴿بَلْ﴾ أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

إنَّكم لا تأتونَهم لِشَهوةٍ مُحوجةٍ ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾[١]!

٥- قولُه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ﴾ فيه أنَّ هذه الشَّهوةَ إنَّما تَصدُرُ عن جَهلٍ، لا بمقتضى الطَّبيعةِ، وإنَّما هي عن سفَهٍ في الإنسانِ؛ كأنَّه قال: «إتيانُكم إيَّاهم شهوةً ليس له محلٌّ، ولكنَّ الذي أوجبَ ذلك لكم أنَّكم قومٌ ذَوو جَهلٍ، أي: سَفَهٍ[٢]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾ أنَّ قولَ البعضِ إذا رَضِيَه الباقون فهو للجَميعِ، ومِن المعلومِ أنَّ هذا القولَ ليس للجَميعِ؛ لأنَّهم عندَما يقولون: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ﴾ فبعضُهم يُخاطِبُ بعضًا، ولكنَّ الكَلِمةَ إذا جاءت مِن بعضِ القَومِ ورَضِيَها الآخَرونَ، فإنَّها تُنسَبُ إليهم؛ ولهذا يُخاطِبُ اللهُ اليهودَ في عهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بما فَعَله أسلافُهم، وفي سورةِ (البقرةِ) كثيرٌ مِن ذلك، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡفُرۡقَانَ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣]، فموسى الَّذي أُوتيَ الكتابَ والفُرقانَ جاء لأسلافِهم، وليس لهم[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾ دَليلٌ على أنَّ المرأةَ مِن الأهلِ؛ لأنَّ الإنسانَ يأهَلُها ويأوي إليها، وكذلك هي بالنِّسبةِ إليه؛ فالزَّوجةُ مِن أهلِ الإنسانِ، كما أنَّ أقاربَه مِن أولادِه وآبائِه هم أيضًا مِن الأهلِ[٤].

٨- بيانُ سَبْقِ التَّقديرِ للحوادثِ، وأنَّ تقديرَ اللهِ تعالى سابقٌ على أفعالِه؛ لِقَولِه: ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾؛ لأنَّ معنى ﴿قَدَّرۡنَٰهَا﴾ أي: جعَلْناها بتقديرِنا السَّابقِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٥).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾ في هذا دَليلٌ على أنَّ المطرَ ليس خاصًّا بالماءِ، بل كلُّ ما حُصِبَ به الإنسانُ مَن فوقٍ يُسمَّى مطرًا؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾، والمطرُ الذي أصابهم هو حجارةُ السِّجِّيلِ، كما قال اللهُ تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾[1] [هود: ٨٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗا﴾ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يُعَذِّبُ كلَّ إنسانٍ بذنْبِه، ووجْهُ مناسَبةِ العقوبةِ للجريمةِ أنَّ هذا المطرَ جَعَل عاليَ بلادِهم سافِلَها، كما أنَّ أولئك سَفُلوا بأخلاقِهم حتَّى كانوا يَستَعمِلونَ هذه الفاحِشةَ، ويَذَرونَ ما خَلَقَ لهم ربُّهم مِن أزواجِهم، وهذا بلا شكٍّ انقلابٌ في فِطَرِهم؛ ولذلك عُوقِبوا بهذه الجريمةِ -والعياذُ باللهِ[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ هذا المطرَ مِن اللهِ سُبحانَه وتعالى، والثَّناءُ عليه بالقُبْحِ وبالشَّرِّ ألَا يُنافي قولَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((والشَّرُّ ليس إليك))[3]؟!

**والجوابُ**: لا ينافيه، والجمعُ أنَّ هذا السُّوءَ ليس في فِعلِ اللهِ، ولكِنَّه في مَفعولِه، فهذا المطرُ هو الذي أُثْنِيَ عليه بالسُّوءِ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، وأمَّا فِعلُ اللهِ فإنَّه ليس بِشَرٍّ، بل هو مِن كمالِ العَدلِ والقوَّةِ والسُّلطانِ؛ حيثُ عاقبَ المجرِمين بما يَستحِقُّون، وعُقوبةُ المجرمِ بما يَستحِقُّ لا شكَّ أنَّها ليست بظُلمٍ، وليست بسَيِّئةٍ، ولا يُثنى على فاعِلِها بالسُّوءِ، فتبيَّن بهذا أنَّه لا ينافي قولَ الرسولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٨). ويُنظر أيضًا: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦).

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) مطولًا من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((والشَّرُّ ليس إليكَ))[١].

١٢- مما يُتَنَبَّهُ له أنَّه لم يَرِدْ في قصَّةِ لوطٍ عليه السَّلامُ أكثرُ مِن نَهْيِه لهم عن هذه الفاحشةِ؛ فلا يخلو حالُهم مِن أمْرَينِ: إمَّا أنَّهم كانوا لا يُشرِكون باللهِ تعالى شيئًا، ولكنَّهم لَمَّا ابتكَروا هذه المعصيةَ، وجاهَروا بها مُصِرِّينَ عليها؛ أُخِذوا بالعذابِ لذلك، ولِكفرِهم بتكذيبِهم رسولَهم -كما صَرَّحَتْ به آيةُ الشُّعراءِ-.

وإمَّا أنَّهم كانوا مشركين، ولكنَّه عليه السلامُ لَمَّا رآهم قد سَفَلوا إلى رتبةِ البَهيميَّةِ رَتَّبَ دعاءَهم منها إلى رتبةِ الإنسانيَّةِ، ثمَّ إلى رتبةِ الوحدانيَّةِ، ويدُلُّ على هذا التَّقديرِ الثَّاني قولُه -مشيرًا إلى أنَّ اللهَ تعالى أهلَكهم وجميعَ مَن كَفَر مِن قبْلِهم، ولم تُغْنِ عنهم معبوداتُهم شيئًا-: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٥).

ذكَر الرازي أنَّ لوطًا عليه السَّلامُ كان له قومٌ وهو كان مِن قومِ إبراهيمَ وفي زمانِه، وإبراهيمُ سَبَقه بذلك واجتَهَد فيه حتَّى اشتهرَ الأمرُ بالتَّوحيدِ عندَ الخَلقِ مِن إبراهيمَ، فلم يَذكُرْه عن لوطٍ، وإنَّما ذَكَر منه ما اختصَّ به مِن المنعِ عن الفاحشةِ وغيرِها، وإنْ كان هو أيضًا يأمُرُ بالتَّوحيدِ؛ إذْ ما مِنْ رسولٍ إلَّا ويكونُ أكثرُ كلامِه في التَّوحيدِ. ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٤).

وقال ابنُ تيميَّةَ عن قومِ لوطٍ عليه السَّلامُ: (وكانوا كفَّارًا مِن جِهاتٍ: مِن جهةِ استِحلالِ الفاحشةِ، ومِن جهةِ الشِّركِ، ومِن جهةِ تكذيبِ الرُّسلِ، ففعَلوا هذا وهذا، ولكنَّ الشِّركَ والتَّكذيبَ مشتركٌ بيْنَهم وبيْن غَيرِهم، والَّذي اختصُّوا به الفاحشةُ؛ فلهذا عُوقِبوا عقوبةً تَخُصُّهم لم يُعاقَبْ غيرُهم بمِثْلِها). ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) (١/ ٣٩١).

لكنْ ذكَرَ في كتاب ((النبوات)) (١/ ٢١٢) أنَّهم لم يَكونوا مشركين، وإنَّما كان ذنْبُهم استِحلالَ الفاحشةِ وتوابعَ ذلك؛ ولذا لم يُذَكَّروا بالتَّوحيدِ، بخلافِ سائرِ الأمَمِ.

- قولُه: ﴿ وَلُوطًا ﴾ أي: واذكُرْ لوطًا، أو: وأرسَلْنا لُوطًا؛ لِدَلالةِ قولِه فيما سبق: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ﴾ [النمل: ٤٥] عليه. وعلى الوجهَينِ هو مِن عطفِ قصَّةٍ على قصَّةٍ، وليس معطوفًا على ﴿صَٰلِحًا﴾ مع تبادُرِه، ولا على قولِه قبْلَه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النمل: ٥٣] مع قُربِه؛ لأنَّه غيرُ مستقيم؛ لأنَّ صالحًا بدَلٌ أو عطفُ بيانٍ لـ ﴿أَخَاهُمْ﴾ [النمل: ٤٥]، وقد قُيِّد بقَيدٍ مُقَدَّمٍ عليه، وهو ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ [النمل: ٤٥]، فلو عُطِف عليه تقيَّد به، ولا يصحُّ؛ لأنَّ لوطًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُرسَلْ إلى ثمودَ[١].

وقيل: عطَفَ (لُوطًا) على ﴿صَٰلِحًا﴾ في قولِه السَّابقِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [النمل: ٤٥]، ولم يَذكُرِ المُرسَلَ إليهم هنا كما ذكَرَ في قصَّةِ ثمودَ؛ لعَدمِ تَمامِ المُشابَهةِ بيْن قومِ لوطٍ وبيْن قُريشٍ فيما عدَا التَّكذيبَ والشِّركَ[٢].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ مِن فاعلِ (تأتُون)، مُفيدةٌ لتأكيدِ الإنكارِ وتَشديدِ التَّوبيخِ؛ فإنَّ تعاطيَ القبيحِ مِن العالِمِ بقُبْحِه أقبحُ وأشنعُ[٤]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- وتعقيبُ قصَّةِ ثمودَ بقصَّةِ قومِ لوطٍ جارٍ على مُعتادِ القرآنِ في تَرتيبِ قَصصِ هذه الأُمَمِ؛ فإنَّ قومَ لوطٍ كانوا مُتأخِّرينَ في الزَّمنِ عن ثمودَ. وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

الذي يَسْتثيرُ سؤالًا هنا: هو الاقتصارُ على قصَّةِ قومِ لوطٍ دونَ قصَّةِ عادٍ وقصَّةِ مَدْينَ؛ وذلك لمُناسَبةِ مُجاورةِ دِيارِ قومِ لوطٍ لممْلكةِ سُليمانَ، ووُقوعِها بيْنَ دِيارِ ثمودَ وبيْن فِلَسطينَ، وكانت دِيارُهم ممَـرَّ قُريشٍ إلى بلادِ الشَّام، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ لمَّا أنكَرَ تعالى عليهم فِعلَهم على الإجمالِ، وسمَّاهُ فاحشةً، وقيَّدَه بالحالِ المُقرِّرةِ لجِهَةِ الإشكالِ تَتْميمًا للإنكارِ بقولِه: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؛ أراد مَزيدَ ذلك التَّوبيخِ والإنكارِ، فكشَفَ عن حقيقةِ تلك الفاحشةِ مُفَصِّلًا، ففيه تعْيينٌ بعدَ إبهامٍ؛ فقد أبهَمَ أوَّلًا في قولِه: ﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، ثمَّ عيَّنَها. وصرَّحَ بذِكْرِ ﴿ٱلرِّجَالَ﴾ مُحلًّى بلامِ الجنْسِ، مُشيرًا به إلى أنَّ الرُّجوليَّةَ مُنافِيةٌ لهذه الحالةِ، وقيَّده بالشَّهوةِ التي هي أخَسُّ أحوالِ البَهيميَّةِ، وضَمَّ إليه ﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾، وأذِنَ له بأنَّ ذلك ظُلمٌ فاحشٌ، ووَضْعٌ للشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، ثمَّ أضرَبَ عن الكلِّ بقولِه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، أي: كيف يُقالُ لمَن يَرتكِبُ هذه الشَّنعاءَ: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾؟! فأَولى حرفَ الإضرابِ ضَميرَ (أَنْتُمْ)، وجعَلَهم قومًا جاهلينَ، والْتفَتَ في ﴿تَجْهَلُونَ﴾ مُوبِّخًا مُعيِّرًا[2].

- قولُه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ الهمزةُ للاستفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ، وهذا تَثنيةٌ للإنكارِ، وتَكريرٌ للتَّوبيخِ، وبَيانٌ لِمَا يأْتونَه مِن الفاحشةِ بطريقِ التَّصريحِ، وأيضًا كرَّرَ التَّوبيخَ زِيادةً في التَّقبيحِ واستسماجِ هذه الفِعلةِ الشَّنعاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٤٧، ٥٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٥).

المُخالِفةِ لنَواميسِ الطَّبيعةِ[١].

- وتَحليةُ جُملةِ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً﴾ بحَرفَي التَّأكيدِ (إنَّ واللَّام)؛ للإيذانِ بأنَّ مَضمونَها ممَّا لا يُصدِّقُ وُقوعَه أحدٌ؛ لكَمالِ بُعْدِه مِن العُقولِ. وإيرادُ المفعولِ بعُنوانِ الرُّجوليَّةِ؛ لتَربيةِ التَّقبيحِ وتحقيقِ المُبايَنةِ بيْنَها وبيْن الشَّهوةِ التي عُلِّلَ بها الإتيانُ[٢].

- قولُه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث تقدَّمَ في (الأعرافِ): ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]؛ فهنا جِيءَ بالاستفهامِ الإنكاريِّ، وما في (الأعرافِ) جاء الخبرُ المُستعمَلُ في الإنكارِ؛ فيجوزُ أنْ يكونَ اختلافُ الحكايةِ لاختلافِ المَحكيِّ؛ بأنْ يكونَ لُوطٌ قد قال لهم المقالتَينِ في مَقامينِ مُختلفينِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اختلافُ الحِكايةِ تفنُّنًا مع اتِّحادِ المعنى. وكِلَا الأُسلوبينِ يقَعُ في قَصصِ القرآنِ؛ لأنَّ في تَغييرِ الأسلوبِ تجديدًا لنَشاطِ السَّامعِ. وعلى قِراءةِ ما في سُورةِ (الأعرافِ) بهمْزتينِ؛ فتَستوي الآيتانِ على هذه القِراءةِ[٣].

- قولُه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ ﴿أَنتُمْ قَوْمٌ﴾ خبرٌ موَطِّئٌ، وإنَّما الخبرُ في الحقيقةِ هو الجملةُ الَّتي وُصِف بها ﴿قَوْمٌ﴾، والخبرُ الموَطِّئُ هو الَّذي لا يُفيدُ بانفرادِه ممَّا بَعْدَه، كالحالِ الموَطِّئةِ في نحو: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]. ألا تَرى أنَّك لو اقتَصَرْتَ على ﴿قَوْمٌ﴾ هنا لم تحصُلْ به فائدةٌ، وإنَّما الفائدةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨)، يُنظر ما تقدم في تفسير سورة الأعراف، الآية ٨١ (٦/ ٣١٩).

مقرونةٌ بصِفَتِه، فالخبرُ الموَطِّئُ كالزِّيادةِ في الكلامِ. فـ ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ فِعلُ خِطابٍ وُصِفَ به اسمُ غَيْبةٍ كما تَرى، ولم يأتِ بالياءِ وِفاقًا لـ ﴿قَوۡمٌ﴾، ولكنَّه جاء وَفْقَ المبتَدَأِ الَّذي هو ﴿أَنتُمۡ﴾ في الخِطابِ، ولو قيل: بل أنتُم قَومٌ، لم يحصُلْ بهذا الخبرِ فائدةٌ[١].

- وفي إقحامِ لَفظِ (قوم) إيماءٌ إلى تَمكُّنِ صِفَةِ الجهْلِ منهم حتَّى كأنَّها مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[٢].

- قولُه: ﴿تَجۡهَلُونَ﴾ صِفةٌ لـ ﴿قَوۡمٌ﴾، والموصوفُ لَفظُه لفظُ الغائبِ، ولكنَّها قُرِئَت بالتَّاءِ للمُخاطَبِ دونَ الياءِ الَّتي للغائبِ، وكذلك ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تُفۡتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]؛ لأنَّه اجتمَعَت الغَيبةُ والمُخاطَبةُ، فغُلِّبَت المُخاطَبةُ؛ لأنَّها أقْوى وأرسَخُ أصلًا مِن الغَيبةِ[٣]، فهذا مِن بابِ التَّغليبِ -وهو مِن أنواعِ تخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهِرِ-؛ حيث رُجِّح أحدُ الأمْرَينِ على الآخَرِ تغليبًا للمُخاطَبينَ على الغائبينَ، أو لِتَغليبِ جانبِ المعنَى على اللَّفظِ. ولعلَّه مِنَ الالتِفاتِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث وقَعَ في (الأعرافِ): ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] ولم يُذكَرْ هنا؛ لأنَّ ما يجْري في القصَّةِ لا يَلزَمُ ذِكرُ جَميعِه. وكذلك القولُ في عَدمِ ذِكرِ ﴿وَأَنتُمۡ تُبۡصِرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((أمالي ابن الشجري)) (٣/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ١٦٤)، ((عروس الأفراح)) للبهاء السبكي (٢/ ٣١٨، ٣١٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٥٥).

في سُورةِ (الأعرافِ) مع ذِكْرِه هنا، ونظيرُ بقيَّةِ الآيةِ تقدَّمَ في سُورةِ (الأعرافِ)، إلَّا أنَّ الواقعَ هنا ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، فوصَفَهم بالجَهالةِ، وهي اسمٌ جامعٌ لأحوالِ أفَنِ الرَّأيِ وقساوةِ القلْبِ، وفي (الأعرافِ) وصَفَهم بأنَّهم قومٌ مُسرِفون؛ وذلك يُحمَلُ على اختلافِ المقالتينِ في مَقامينِ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تقدَّمَ نظيرُ هذه الآياتِ في سُورةِ (الأعرافِ)، وخالَفَتْها هذه بوُقوعِ العطْفِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ دونَ الواوِ، وبقولِه: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ عِوَضَ ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ [الأعراف: ٨٢]، وبقولِه: ﴿قَدَّرْنَٰهَا﴾ عِوَضَ ﴿كَانَتْ﴾ [الأعراف: ٨٣]، وبقولِه: ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ عِوَضَ ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]؛ فأمَّا مَوقعُ الفاءِ هنا فهو لتَعقيبِ الجُملةِ المعطوفةِ بالفاءِ على التي قبْلَها تَعقيبَ جُزءِ القصَّةِ على أوَّلِه، فلا تُفيدُ إلَّا تَعقيبَ الإخبارِ، وهي في ذلك مُساويةٌ للواوِ، ولكنْ أُوثِرَ حرفُ التَّعقيبِ في هذه الآيةِ؛ لكَونِها على نَسجِ ما حُكِيَت به قصَّةُ ثمودَ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]؛ فالاختلافُ بيْن هذه الآيةِ وآيةِ (الأعرافِ) تفنُّنٌ في الحكايةِ، ومُراعاةٌ للنَّظيرِ في النَّسجِ، وهذا مِن أساليبِ قَصصِ القرآنِ. وكذلك قولُه: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ﴾ دونَ ﴿أَخْرِجُوهُم﴾ [الأعراف: ٨٢]؛ لأنَّ المَحكيَّ مِن كلامِ القومِ هو تآمُرُهم على إخراجِ آلِ لوطٍ، فما هنا حِكايةٌ بمُرادِفِ كَلامِهم، وما في (الأعرافِ) حِكايةٌ بالمعنى، والغرَضُ هو التَّفنُّنُ أيضًا. وكذلك الاختلافُ بيْنَ ﴿قَدَّرْنَاهَا﴾ هنا وبيْن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٨٨).

﴿كَانَتۡ﴾ في [الأعراف: ٨٣]. وأمَّا الاختلافُ بيْنَ ﴿فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ وبيْن ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]؛ فهُما عِبرتانِ بحالِهم تفرَّعَتَا على وصْفِ ما حلَّ بهم، فوُزِّعَت العِبرتانِ على الآيتينِ؛ لئلَّا يَخلُوَ تَكريرُ القصَّةِ مِن فائدةٍ[1].

- قولُه: ﴿أَخۡرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٖ﴾ قِيل: أَظْهَرَ ما أضْمَرَه في (الأعرافِ): ﴿أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ [الأعراف: ٨٢]؛ لأنَّ الإظهارَ أَلْيقُ بسُورةِ العلمِ والحِكمةِ وإظهارِ الخَبْءِ[2].

- وقالوا: ﴿مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ ولم يقولوا: (مِن القَريةِ)؛ لأنَّ قولَهم: ﴿مِّن قَرۡيَتِكُمۡ﴾ يُوجِبُ الحَمِيَّةَ والعصبيَّةَ حتى يُخرجوهم، كأنَّهم قالوا: هذه القريةُ لكم، أخرجوا هذا الرجُلَ، وكذلك ففي قَولِه: ﴿ءَالَ لُوطٖ﴾ يعني: هؤلاء ليسوا منكم؛ فلا وجْهَ لكونِكم تَسكُتونَ عنهم[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥، ٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٢٣).

## الآيات (٥٩-٦٤)

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾: أي: اختارَ، واجتبَى، وأصلُ (صفو): خلوصُ الشَّيءِ مِن كلِّ شَوبٍ[1].

﴿حَدَآئِقَ﴾: أي: بساتينَ، وقيل: بساتين نخلٍ، واحدُها: حديقةٌ، والحديقةُ كلُّ بستانٍ عليه حائطٌ، وقيل: هي قطعةٌ مِن الأرضِ ذاتُ ماءٍ، سُمِّيت تشبيهًا بحدقةِ العينِ في الهيئةِ، وحصولِ الماءِ فيها، وأصلُ (حدق): الشَّيءُ يحيطُ بشَيءٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

﴿ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾: أي: ذاتَ حسنٍ، والبهجةُ: حُسنُ اللونِ، وظُهورُ السُّرورِ، وأصلُ (بهج): سرورٌ ونضرةٌ[١].

﴿يَعۡدِلُونَ﴾: أي: يَعدِلونَ عن الحقِّ ويَجورونَ عليه ويتكبَّرونَ -مِن قولِهم: عَدَل عن الحقِّ: إذا جارَ-، أو: يَعدِلونَ بالله غيرَه، أي: يجعلونَ له عديلًا، ومثيلًا، وشريكًا، والعدالةُ: لفظٌ يَقتضي معنى المساواةِ، وأصلُ (عدل): يدُلُّ على استواءٍ[٢].

﴿قَرَارًا﴾: أي: مستقَرًّا، وسكنًا، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على التَّمكُّنِ[٣].

﴿خِلَٰلَهَآ﴾: أي: فيما بيْنَها، ووسطَها، وخِلالُ الشَّيءِ: مُنْفَرَجُ ما بيْنَ أجزائِه، والخَلَلُ: فُرجةٌ بينَ الشَّيئينِ، وأصلُ (خلل): يرجِعُ إمَّا إلى دِقَّةٍ أو فُرْجةٍ[٤].

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جبالًا ثوابتَ، وأصلُ (رسي): يدُلُّ على ثباتٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥١، ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

## المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ: الحمدُ لله وَحْدَه، وسَلامٌ مِن اللهِ على عِبادِه الَّذينَ اختارهم، ونجَّاهم مِن العَذابِ، وسلَّمَهُم مِن العُيوبِ والذُّنوبِ، آللهُ الَّذي له صِفاتُ الكَمالِ والجلالِ خيرٌ أمْ تلك المعبوداتُ الَّتي لا تَنفعُ ولا تَضُرُّ؟!

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على وحدانيَّتِه، وكمالِ قدرتِه، وسَعةِ فضلِه على عبادِه، فيقولُ: آلهتُكم -الَّتي لا خيرَ فيها أصلًا- خيرٌ أم اللهُ الَّذي خلقَ السَّمواتِ والأرضَ، وأنزَل مِن السَّحابِ مطَرًا فأنبَتْنا بسبَبِه حدائِقَ ذاتَ منظَرٍ حسَنٍ مُبهِجٍ، ما كان لكم أن تُنبِتوا شجَرَ تلك الحدائِقِ؟! أمع اللهِ معبودٌ آخَرُ يَفعَلُ مِثلَ ذلك حتى تُشرِكوا به في عبادتِه؟! بل هم مُقِرُّون بذلك، وأنَّه لا إلهَ مع اللهِ، ولكِنَّهم يَعدِلون به سبحانَه غيرَه فيُشرِكونَ، مع عِلمِهم بأنَّ اللهَ هو المتفرِّدُ بالخَلقِ!

ثمَّ يلفِتُ اللهُ تعالى أنظارَهم إلى حقائقَ كونيَّةٍ أُخرَى يُشاهِدونها ويُحِسُّونَها، فيقولُ: آلهتُكم خيرٌ أم اللهُ الَّذي جعَلَ الأرضَ ساكِنةً لا تَضطرِبُ، وأجرى في خِلالِها أنهارًا، وجعلَ لها جِبالًا تُثبِّتُها، وجعَل بيْنَ البحارِ المِلْحةِ والأنهارِ العَذبةِ مانِعًا بقُدرتِه؛ لئلَّا يختَلِطَ ماءاهما؟! أمع اللهِ معبودٌ آخَرُ يَفعلُ تلك الأشياءَ حتَّى تُشرِكوا به في عبادتِه؟! بل أكثَرُهم لا يَعلمونَ حقَّ الله عليهم!

ثمَّ يلفِتُ اللهُ تعالى أنظارَهم إلى ما يَشعُرونَ به في خاصَّةِ أنفُسِهم، فيقولُ: آلهتُكم خيرٌ أم اللهُ الذي يُجيبُ المكروبَ المجهودَ إذا دعاه، ويُزيلُ الضُّرَّ والكربَ إنْ شاء، ويَستخلِفُكم في الأرضِ؟! أمع اللهِ معبودٌ آخَرُ يفعلُ تلك الأشياءَ حتَّى تُشرِكوا به في عبادتِه؟! قليلًا ما تَتذكَّرون عَظَمةَ اللهِ ونِعَمَه عليكم!

ثمَّ يلفِتُ الله تعالى أنظارَهم إلى بعضِ نعمِه سبحانَه عليهم، فيقولُ: آلهتُكم

خيرٌ أم اللهُ الذي يُرشِدُكم إلى الطَّريقِ في ظُلماتِ البَرِّ والبَحرِ بما خَلَق لكم مِن العَلاماتِ، والذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُبشِّرةً بالمطرِ؟! أمع الله معبودٌ آخَرُ فعَل ذلك حتى تُشرِكوا به في عبادتِه؟! تنزَّه الله وتقدَّسَ عن شِركِهم!

ثمَّ يقولُ: آلهتُكم خيرٌ أم اللهُ الذي أوجدَ الخَلقَ مِنَ العدَمِ ثمَّ بعد فَنائِهم يُعيدُهم، والَّذي يَرزقُكم مِن السَّماءِ والأرضِ؟! أمع الله معبودٌ آخَرُ يقدِرُ على ذلك حتَّى تُشرِكوا به في عبادتِه؟!

قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكين: هاتوا دَليلَكم وحُجَّتَكم على صِحَّةِ عِبادتِكم غيرَ اللهِ، إنْ كنتُم صادِقينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تَمَّ بهذه القَصَصِ استنتاجُ ما أراد سبحانَه مِن الدَّليلِ على حِكمتِه وعِلمِه، ومُباينتِه للأصنامِ في قُدرتِه وحِلْمِه؛ أمَرَ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأن يَحمدَه شُكرًا على ما عَلِمَ، ويُقَرِّرَهم بعجزِ أصنامِهم ردًّا لهم عنِ الجهلِ بأوضحِ طريقٍ وأقربِ متناوَلٍ، فقال[1]:

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ[2]: جميعُ المحامِدِ يَستحِقُّها اللهُ تعالى وَحْدَه؛ لكَمالِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٤).

(٢) قال القرطبي: (قال الفرَّاءُ: قال أهل المعاني: قِيلَ لِلُوطٍ: «قُل الحمدُ لله» على هلاكِهم. وخالَف جماعةٌ مِنَ العُلماءِ الفَرَّاءَ في هذا، وقالوا: هو مُخاطَبةٌ لنبيِّنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أي: قل: الحمدُ لله على هلاكِ كُفَّارِ الأُمَمِ الخاليةِ. قال النحَّاسُ: وهذا أَوْلى؛ لأنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ =

أفعالِه وصِفاتِه، وعظيمِ نِعَمِه وهِباتِه؛ ومِن جُملةِ ذلك إهلاكُ أعدائِه المكذِّبين للرُّسُلِ.

وسَلامٌ[١] مِن اللهِ على عِبادِه الَّذينَ اصْطَفاهم[٢] ونجَّاهم مِن العَذابِ، وسلَّمَهم

---

= على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكلُّ ما فيه فهو مخاطَبٌ به عليه السَّلامُ إلَّا ما لم يصِحَّ معناه إلَّا لغيرِه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٢٩٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ١٤٨).

(١) قيل: هي مِن ضِمنِ ما أُمِر به عليه الصَّلاة والسَّلام؛ فأُمِرَ بأن يحمدَ الله، وأن يُسلِّمَ على عِبادِه المُصْطفَينَ. وممَّن قال بذلك: الزمخشريُّ، والرسعني، وابن كثير، والعليمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦).

وقيل: يحتملُ أنَّ قولَه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ جملةٌ مستقِلَّةٌ، وتكونُ خبرًا مِنَ الله تعالى، فيكونُ المأمورُ به الحمدَ، والوقْفُ التامُّ عليه. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧٠، ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣٢).

قال ابنُ القيِّم: (وفصْلُ الخطابِ في ذلك أن يُقالَ: الآيةُ تتضَمَّنُ الأمْرَينِ جميعًا، وتَنتظِمُهما انتظامًا واحِدًا؛ فإنَّ الرَّسولَ هو المبلِّغُ عن اللهِ كلامَه، وليس فيه إلَّا البلاغُ، والكلامُ كلامُ الرَّبِّ تبارك وتعالى؛ فهو الذي حَمِد نفْسَه وسلَّم على عبادِه، وأمرَ رسولَه بتبليغِ ذلك؛ فإذا قال الرَّسولُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ كان قد حمِدَ اللهَ وسَلَّم على عبادِه بما حَمِدَ به نفْسَه وسلَّم به هو على عِبادِه؛ فهو سلامٌ مِن الله ابتِداءً، ومِنَ المُبلِّغِ بلاغًا، ومِنَ العبادِ اقتداءً وطاعةً؛ فنحن نقولُ كما أمرنا ربُّنا تبارك وتعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾. ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فهو توحيدٌ منه لنفْسِه، وأمرٌ للمُخاطَبِ بتوحيدِه؛ فإذا قال العبدُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كان قد وحَّد اللهَ بما وحَّد به نفْسَه، وأتى بلفظةِ ﴿قُلْ﴾ تحقيقًا لهذا المعنى، وأنَّه مُبلِّغٌ مَحْضٌ، قائلٌ لِما أُمِرَ بقولِه. والله أعلم). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٧٢).

(٢) قيل: المرادُ بهم هنا: الأنبياءُ والرُّسلُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بن سليمان، والقرطبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦). =

مِن العُيوبِ، والإصرارِ على الذُّنوبِ[1].

كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٧).

وقيل: المرادُ بهم: أصحابُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، وسُفْيانُ الثَّوْريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٧).

قال ابن كثير بعدَ أن ذكَر القولَينِ السَّابقَينِ: (ولا مُنافاةَ؛ فإنَّهم إذا كانوا مِن عِبادِ الله الَّذين اصطفى، فالأنبياءُ بطريقِ الأَوْلى والأحْرى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١).

وممَّن اختار أنَّهم الأنبياءُ والمؤمنون: يحيى بن سلام، والكرماني، وابن عطية، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٥٤)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٨٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣٢).

قال الشوكاني: (والأولَى حملُه على العمومِ، فيدخُلُ في ذلك الأنبياءُ وأتْباعُهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٦٨).

وقال ابن جُزَي: (واللَّفظُ يَعُمُّ الملائكةَ والأنبياءَ والصَّحابةَ والصَّالحينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٠)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٣٤، ٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٥٠٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧١، ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

ٱلْكَبِيرُ ۞ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۞ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [فاطر: ٣٢ - ٣٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا إذا صلَّينا خَلْفَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قُلْنا: السَّلامُ على جِبريلَ وميكائيلَ، السَّلامُ على فلانٍ وفلانٍ، فالتَفَت إلينا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ فقال: إنَّ اللهَ هو السَّلامُ، فإذا صلَّى أحَدُكم فلْيَقُل: التَّحيَّاتُ لله، والصَّلَواتُ والطَّيِّباتُ، السَّلامُ عليك -أيُّها النَّبيُّ- ورَحمةُ اللهِ وبَرَكاتُه، السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ الله الصَّالحينَ؛ فإنَّكم إذا قُلْتُموها أصابَتْ كلَّ عبدٍ للهِ صالحٍ في السَّماءِ والأرضِ- أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورَسولُه))[1].

﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ: هلِ اللهُ المتَّصِفُ بصِفاتِ الكَمالِ والجَلالِ والإكرامِ خيرٌ، أمْ تلك الأصنامُ وغيرُها مِن المعبوداتِ الَّتي لا تنفَعُ ولا تضُرُّ، ومع ذلك يعبُدُها المُشرِكون مع اللهِ[2]؟!

---

(١) رواه البخاري (٨٣١) واللفظ له، ومسلم (٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

قال ابن جزي: (ودُخولُ «خيرٍ» الَّتي يُرادُ بها التَّفضيلُ إنَّما هو لِتَبكيتِهم وتعنيفِهم؛ لأنَّه معلومٌ أنَّه لا خيرَ فيما أشركوا أصلًا). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ١٣٣٦).

قال ابن عثيمين: (﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ﴾ في كلِّ شيءٍ؛ في صِفاتِه، وفي ثَوابِه وجزائِه لِمَن يَعبدُه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣٣).

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

أي: آللهُ الَّذي تفرَّد بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ خيرٌ، أمِ الَّذي لا يَقدِرُ على فِعلِ ذلك مِن المعبوداتِ الباطلةِ[1]؟!

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾.

أي: وأنزَل اللهُ لأجْلِكم مِن السَّحابِ مطَرًا فأنبَتْ بسَبَبِه بساتينَ ذاتَ مَنظرٍ حَسَنٍ يَبتَهِجُ ويُسَرُّ بها مَنْ يراها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٠، ١٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠١، ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٦).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه للمُشرِكين به مِن قُريشٍ: أعِبادةُ ما تَعبدون مِن أوثانِكم الَّتي لا تضُرُّ ولا تنفَعُ خيرٌ، أم عبادةُ مَن خلق السَّمواتِ والأرضِ؟... «مَنْ» الَّتي في ﴿أَمَّنْ﴾ و«ما» مبتدَأٌ في قَولِه: ﴿أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، والآياتُ بعدَها إلى قَولِه: ﴿وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [النمل: ٦٤] بمعنى «الَّذي» لا بمعنى الاستفهامِ؛ وذلك أنَّ الاستفهامَ لا يدخُلُ على الاستفهامِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٠-١٠٤).

وقال ابن كثير: (قولُه هاهنا: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿أَمَّنْ﴾ في هذه الآياتِ كُلِّها تقديرُه: أمَنْ يفعَلُ هذه الأشياءَ كَمَن لا يَقدِرُ على شَيءٍ منها؟ هذا معنى السياقِ وإن لم يُذكَرِ الآخَرُ؛ لأنَّ في قوَّةِ الكلامِ ما يُرشِدُ إلى ذلك، وقد قال: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).

قال ابن عثيمين: (نزولُه مِن السَّماءِ أعَمُّ وأقَلُّ ضررًا؛ إذْ لو كان يَخرجُ مِن الأرضِ ما وَصَلَ إلى قممِ الجبالِ إلَّا وقد أغرقَ ما تحتَه، فلهذا صار ينزِلُ مِن فوقٍ؛ لِيَكونَ أكمَلَ وأعَمَّ وأقَلَّ ضررًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٣٤٨).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [لقمان: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ [النبأ: ١٤ - ١٦].

﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾.

أي: ممتَنِعٌ عليكم غايةَ الامتناعِ إنباتُ شَجَرِ تلك الحدائِقِ، فلا تَقدِرونَ على ذلك، وإنَّما يَقدِرُ عليه اللهُ وَحْدَه[1].

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٧٠].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ثَبَتَ أنَّه المتفرِّدُ بالألوهيَّةِ؛ حَسُنَ موقعُ الإنكارِ والتَّقريرِ، فقال[2]:

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَع اللهِ معبودٌ آخَرُ يُنزِلُ لكم المطَرَ، ويُنبِتُ لكم الشَّجَرَ حتَّى يُشرَكَ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٨).

في عبادتِه[١]؟! والجوابُ لا؛ لأنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه[٢].

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

أي: بل المُشرِكون قومٌ يَعدِلُون عن الحقِّ مع عِلمِهم بأنَّ اللهَ هو المتفرِّدُ بالخَلقِ، فيَجعَلونَ للهِ عِدْلًا ونَظيرًا مع عِلمِهم بالفَرقِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١].

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾.

أي: آللهُ الَّذي جعَلَ الأرضَ مُستَقِرَّةً ساكِنةً لا تَضطرِبُ خيرٌ، أمْ تلك المعبوداتُ العاجِزةُ عن فِعلِ ذلك[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧).
قال ابن تيمية في: (وهذا استفهامُ إنكارٍ، وهم مقِرُّونَ بأنَّه لم يفعَلْ هذا إلهٌ آخرُ معَ الله. ومَن قال مِن المفسِّرينَ: إنَّ المرادَ: هل معَ الله إلهٌ آخرُ؟ فقد غلِط؛ فإنَّهم كانوا يجعَلون معَ الله آلهةٌ أخرَى، كما قال تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ...﴾ [الأنعام: ١٩] ...). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٧٦). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١، ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣). =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤].

﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا﴾.

أي: وأجرى في خِلالِ الأرضِ أنهارًا جاريةً بالماءِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾.

أي: وجعلَ للأرضِ جبالًا تُثبِّتُها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾.

---

= قال ابن عاشور: (جعَل الأرضَ ثابتةً قارَّة غيرَ مضطربةٍ، وهذا تدبيرٌ عجيبٌ، ولا يُدرَكُ تمامُ هذا الصُّنعِ العجيبِ إلَّا عندَ العلمِ بأنَّ هذه الأرضَ سابحةٌ في الهواءِ متحرِّكةٌ في كلِّ لحظةٍ، وهي مع ذلك قارَّةٌ فيما يبدو لِسُكَّانِها، فهذا تدبيرٌ أعجَبُ، وفيه مع ذلك رحمةٌ ونعمةٌ، ولولا قرارُها لكان النَّاسُ عليها متزلزلينَ مُضطربينَ، ولكانت أشغالُهم مُعنتةً لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

قال ابن عثيمين: (هل المرادُ أرسى الأرضَ بها أو أرسى الجبالَ، أي: أثبَتَها؟

كِلا المعنيَين، فإذَن هي رَواسٍ بنفْسِها، وهي أيضًا مُرْسيَةٌ؛ ولهذا سمَّاها الله أوتادًا: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧]، بمنزلةِ أوتادِ الخيمةِ تُمسِكُها وتَضبِطُها، وهذه الجبالُ راسيةٌ بنَفْسِها؛ ولذلك على كثرةِ العواصِفِ والقواصِفِ تجدُها ثابتةً لا تتغيَّرُ؛ فهي راسيةٌ، وكذلك أيضًا مُرْسِيَةٌ للأرضِ، كما قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٥٥).

أي: وجعَلَ بيْنَ البحارِ المِلْحةِ والأنهارِ العَذْبةِ مانِعًا بقُدرتِه؛ لئَلَّا يختَلِطَ الماءُ العذبُ بالماءِ المِلْحِ، فيُفسِدَ أحدُهما الآخَرَ، فتَفُوتَ المنفعةُ المقصودةُ منهما(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

قال ابنُ عثيمين: (بعضُهم قال: إنَّ الحاجزَ هو اليابِسُ مِن الأرضِ الَّذي يَحولُ بيْنَ البحرِ وبيْنَ النَّهرِ؛ لأنَّ النَّهرَ له مجرًى خاصٌّ، والبحرَ له مجرًى خاصٌّ، ولو شاء اللهُ تعالى لمزَجَهما، ولكِنْ جعَلَ لهذا مجاريَه، وجعَل لهذا مجاريَه.

وبعضُهم يقول: إنَّه حاجزٌ غيرُ مَرئيٍّ، وليس هو اليابسَ، وإنَّه يوجَدُ في نفْسِ البحارِ أنهارٌ عذبةٌ حلوةٌ، ومع ذلك لا تختَلِطُ فتَفسُدَ بالمِلحِ ويَفسُدَ المِلحُ بها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٥٥، ٣٥٦).

وقال ابن كثير: (الحكمةُ الإلهيَّةُ تقتضي بقاءَ كلٍّ منهما على صفتِه المقصودةِ منه؛ فإنَّ البحرَ الحلوَ هو هذه الأنهارُ السارحةُ الجاريةُ بينَ الناسِ، والمقصودُ منها: أن تكونَ عذبةً زُلالًا تَسقي الحيوانَ والنَّباتَ والثِّمارَ منها. والبحارَ المالحةَ هي المحيطةُ بالأرجاءِ والأقطارِ مِن كلِّ جانبٍ، والمقصودُ منها: أن يكونَ ماؤُها مِلْحًا أُجاجًا، لئلَّا يفسَدَ الهواءُ بريحِها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣).

وقال أيضًا: (إذ لو كان [أي: البحر] حُلوًا لأنتَنَ الجوُّ وفسَدَ الهواءُ؛ بسبب ما يموت فيه من الحيوانات العِظامِ، فكان يؤدِّي إلى تفاني بني آدمَ وفسادِ معايشِهم، فاقتضت الحكمةُ البالغةُ أن يكون على هذه الصِّفةِ لهذه المصلحة...). ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٨، ٤٩)

وقد كشفتْ وسائلُ العِلمِ الحديثةُ بعْدَ إقامةِ مئاتِ المحطَّاتِ البحريَّةِ، والتقاطِ صوَرٍ بالأقمارِ الصِّناعيَّةِ عن هذا القانونِ الَّذى يَحكُمُ العَلاقةَ المائيَّةَ بيْنَ كلِّ مائَيْنِ مُتجاورَينِ؛ فالبحارُ والأنهارُ تلتقي مع وُجودِ حاجزٍ يمنعُ الاختلاطَ الكاملَ والامتِزاجَ بيْنَهما، وأنَّه لا تَبغي مياهُ بحرٍ على مياهِ بحرٍ آخَرَ فتُغَيِّرَها. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٢٠٧، ٢٠٨).

وقال سُبحانَه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٩ - ٢١].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَعَ اللهِ معبودٌ آخَرُ فعَلَ تلك الأشياءَ، فاستحقَّ أن يُعبَدَ[١]؟!

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: بل أكثَرُهم[٢] لا يَعلَمونَ ما يجِبُ لله، ولا يَعلَمونَ ضَرَرَ الإشراكِ به، ولا نَفْعَ توحيدِه، وأشركوا باللهِ؛ تقليدًا لآبائِهم، واتِّباعًا لكُبَرائِهم[٣].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٢) قيل: المرادُ: أكثَرُ المشركين. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤).

وقيل: المرادُ: أكثرُ الخَلقِ لا يَعلمون. وممَّن قال بهذا المعنى: البقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

قال البقاعي: (﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس لهم نوعٌ مِن العِلمِ، بل هم كالبهائمِ؛ لإعراضِهم عن هذا الدَّليلِ الواضحِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ١٩٠).

وقال ابن عثيمين: (الصَّوابُ أنَّه نقصٌ في العِلمِ مطلقًا، بما تدُلُّ عليه هذه الآياتُ العظيمةُ مِن الرَّحمةِ والحكمةِ والقدرةِ والسُّلطانِ، فتخصيصُ ذلك بالتَّوحيدِ فيه نظرٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٥٧).

أي: آللهُ الَّذي يُعطي المحتاجَ ما يَسألُه مِن الأشياءِ العَسِرةِ الحُصُولِ، ويُزيلُ الضرَّ والكَربَ إنْ شاء، ويَستخلِفُكم في الأرضِ(١)؛ خيرٌ أمْ تلك المعبوداتُ العاجزةُ عن تحقيقِ ذلك(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن أبي تَميمةَ الهُجَيميِّ، عن رجُلٍ مِن بَلْهُجَيم قال: قلْتُ: يا رسولَ اللهِ، إلامَ تدعو؟ قال: ((أدعو إلى اللهِ وحْدَه، الَّذي إنْ مسَّك ضُرٌّ فدَعَوْتَه كشَفَ

---

(١) قيل: المعنى: ويَستخلِفُ بعْدَ أمرائِكم في الأرضِ منكم خُلفاءَ أحياءً يَخلُفونَهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢).

وقيل: المعنى: يجعلُكم سكانَ الأرضِ بأن يُهلِكَ قومًا أو قَرنًا ويُنشئَ آخرينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابن القيم، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩١٠).

قال ابنُ عاشور: (﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ أي: يجعَلُكم تَعمُرونَ الأرضَ وتجتَنونَ منافِعَها، فضُمِّنَ الخُلفاءُ معنى المالكينَ، فأُضيفَ إلى الأرضِ على تقديرِ: مالِكينَ لها، والمُلْكُ يَستلزِمُ الانتِفاعَ بما يُنتفَعُ به منها. وأفاد خلفاءُ بطريقِ الالتزامِ معنى الوراثةِ لِمن سبَقَ؛ فكُلُّ حَيٍّ هو خَلَفٌ عن سَلَفِه، والأُمَّةُ خَلَفٌ عن أمَّةٍ كانت قَبْلَها جيلًا بعدَ جيلٍ. وهذا كقَولِه تعالى حكايةً لِقَولِ نوحٍ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢، ١٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤، ١٥).

عنك، والَّذي إنْ ضلَلْتَ بأرضٍ قَفرٍ[١] دَعَوْتَه رَدَّ عليك، والَّذي إنْ أصابَتْك سَنَةٌ[٢] فدعَوْتَه أنبَتَ عليك))[٣].

﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَعَ اللهِ معبودٌ آخَرُ يُجيبُ المُضطَرَّ، ويَكشِفُ السُّوءَ، ويَستخلِفُكم في الأرضِ[٤]؟!

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: قليلًا ما تَتذكَّرون عَظَمةَ اللهِ ونِعَمَه وحُجَجَه؛ لإعراضِكم وغَفلتِكم؛ فلِذا أشرَكْتُم باللهِ[٥]!

﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

---

(١) قَفرٍ، أي: فلاةٍ خاليةٍ مِن الماءِ والشَّجرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٣٤٥).

(٢) سَنَةٌ: أي: عامٌ مُقحِطٌ لم تُنبِتُ فيه الأرضُ شَيئًا. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٣٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٦٣٦) واللفظ له، وأبو داود (٤٠٨٤).

الحديث صححه ابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٣٢٢)-، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٠٨٤)، وحسن إسناده الذهبي في ((المهذب)) (٨/ ٤٢٥٣)، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣٤/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦).

وقال ابن عثيمين: (والتَّذكُّرُ بمعنى الاتِّعاظِ؛ لأنَّ الإنسانَ يَذكُرُ فينتَفِعُ بذِكرِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٩).

﴿ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾.

أي: آللهُ الَّذي يُرشِدُكم الطَّريقَ إذا ضَلَلْتُم في ظُلُماتِ الأرضِ والبَحرِ في أسفارِكم -بتيسيرِه وبما خَلَق لكم من العَلاماتِ- خيرٌ أمِ المعبوداتُ الباطلةُ العاجزةُ عن فِعلِ ذلك(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴾ [النحل: ١٦].

﴿ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ ﴾.

أي: والَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ مُبشِّرةً بالمطرِ قبْلَ نزولِه خيرٌ أم مَن لا يَقدِرُ على ذلك(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: أمَع اللهِ معبودٌ آخَرُ يهديكم في أسفارِكم، ويُرسِلُ الرِّياحَ مُبشِّرةً بنُزولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢، ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

قال القرطبي: (﴿ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ ﴾ أي: قُدَّامَ المطَرِ، باتِّفاقِ أهلِ التَّأويلِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥).

المطَرِ؛ فاستحَقَّ العبادةَ مع اللهِ، أمْ هو اللهُ وحْدَه الَّذي فعَل ذلك، ثمَّ عبَدْتُم غيرَه[١]؟!

﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تعاظَمَ اللهُ وتنزَّه عن الشِّركِ، وعن مُساواتِه بالمعبوداتِ الباطِلةِ العاجِزةِ النَّاقِصةِ[٢].

﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٦٤﴾.

﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

أي: آللهُ الَّذي ابتَدأ كلَّ مخلوقٍ فأوجَدَه مِنَ العدَمِ، ثمَّ بعْدَ فنائِه يُعيدُه كهَيْئَتِه قبْلَ أن يُفنِيَه، وذلك يومَ البعثِ والنُّشورِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان إيجادُ بني آدمَ إنعامًا إليهم وإحسانًا، ولا تتِمُّ النِّعمةُ إلَّا بالرِّزقِ؛ قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٢، ٢٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم ...﴾[١].

وأيضًا لَمَّا كان الإمطارُ والإنباتُ مِن أدَلِّ ما يكونُ على الإعادةِ، قال مشيرًا إليهما على وجهٍ عَمَّ جميعَ ما مضى[٢]:

﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ومَن يُعطيكم مِنَ السَّماءِ المطَرَ، ومِنَ الأرضِ النَّباتِ[٣]- خيرٌ أم مَن لا يقدِرُ على فِعلِ ذلك[٤]؟!

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾.

أي: أمَع اللهِ مَعبودٌ آخَرُ يَقدِرُ على ابتِداءِ الخَلقِ وإعادتِه، ورزْقِكم مِنَ السَّماءِ والأرضِ[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ١٩٩، ٢٠٠).

(٣) اقتصَر أكثرُ المفسِّرينَ على المطرِ والنباتِ.

قال ابنُ عطية: (والرزقُ مِنَ السَّماءِ بالمطرِ، ومِن الأرضِ بالنَّباتِ، هذا مشهورُ ما يُحِسُّه البشَرُ، وكمْ لله مِن لُطفٍ خفيٍّ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٧).

ومِنَ المفسِّرينَ مَن ذكَر ما هو أعَمُّ مِن ذلك؛ قال البقاعي: (﴿وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: بالمطَرِ والحَرِّ والبردِ وغيرِها ممَّا له سببٌ في التَّكوينِ أو التَّلوينِ. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بالنَّباتِ والمعادِنِ والحيوانِ وغيرِها ممَّا لا يعلَمُه إلَّا اللهُ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٠٠). ويُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((مجموع =

﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: هاتوا دليلَكم وحُجَّتَكم على صِحَّةِ عبادتِكم غيرَ اللهِ، إن كنتُم صادقينَ في دعواكم أنَّ مع اللهِ إلهًا آخَرَ يَستحِقُّ العبادةَ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ فأمَر رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أن يستفتحَ بتحميدِه والسَّلامِ على أنبيائِه والمُصطفَينَ مِن عبادِه. وفيه تعليمٌ حَسَنٌ، وتوقيفٌ على أدَبٍ جميلٍ، وبَعْثٌ على التيمُّنِ بالذِّكْرَين، والتبَرُّكِ بهما، والاستِظهارِ بمكانِهما على قَبولِ ما يُلقى إلى السَّامعينَ وإصغائِهم إليه، وإنزالِه مِن قلوبِهم المنزلةَ الَّتي يَبغيها المُسمِعُ. ولقد توارَثَ العُلماءُ والخُطَباءُ والوُعَّاظُ كابرًا عن كابرٍ هذا الأدبَ؛ فحَمِدوا اللهَ عزَّ وجلَّ،

---

= الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).
قال ابنُ عثيمين: ( «البرهانُ» هو الدَّليلُ، وخَصَّه بعضُهم بالدَّليلِ القاطِعِ، وقالوا: إنَّ الدليلَ إنْ كان قطعيًّا في دَلالتِه فهو بُرهانٌ، وإنْ كان ظنيًّا فهو دليلٌ وليس ببُرهانٍ، ولكِنَّ الظاهِرَ مِن الآياتِ الكريمةِ أنَّ البرهانَ في القرآنِ دَليلٌ؛ سواءٌ كان قطعيًّا كما قال أهلُ المنطِقِ، أمْ غيرَ قَطعيٍّ؛ فعلى هذا يكونُ قَولُه سُبحانَه وتعالى: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ شامِلًا للقَطْعيِّ والظَّنِّيِّ؛ لأنَّهم ليس عندَهم لا دليلٌ قطعيٌّ ولا ظَنِّيٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٨٠). ويُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٥١)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٠).

وصَلَّوا على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أمامَ كُلِّ عِلمٍ مُفادٍ، وقبْلَ كلِّ عِظةٍ وتَذكِرةٍ، وفي مُفتَتَحِ كُلِّ خُطبةٍ، وتَبِعَهم المترَسِّلون فأجْرَوا عليه أوائِلَ كُتُبِهم في الفُتوحِ والتَّهاني وغيرِ ذلك مِنَ الحوادِثِ الَّتي لها شأنٌ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أنَّه يجبُ على المرءِ ألَّا يَلتفتَ في كشْفِ السوءِ إلَّا إلى اللهِ؛ وألَّا يَتعلَّقَ بأحدٍ سِواه؛ لأنَّه لا يَكشفُ السُّوءَ إلَّا اللهُ سبحانه وتعالى، وتَعَلُّقُ المرءِ بغيرِه خِذلانٌ له، فمَن تَعَلَّقَ شيئًا وُكِلَ إليه، والتَّعلُّقُ بالله والتَّوكُّلُ عليه لا يُنافيه فِعلُ الأسبابِ إنْ كان المرءُ يعتقِدُ أنَّ الأسَّبابَ بتَقديرِ اللهِ، وأنَّها ليست فاعلةً بذاتِها[٢]، فالتَّوكُّلُ هو اعتِمادُ القلبِ على الرَّبِّ فيما يُنِيلُه مِن خيرٍ أو يُزيلُه مِن ضرٍّ، وتعاطي الأسبابِ مع تحقيقِ ذلك لا يَقدَحُ فيه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَعتمِدَ على اللهِ في الهدايةِ إلى الطَّريقِ الحِسِّيِّ، كما يَعتمِدُ عليه في الهدايةِ إلى الطَّريقِ المعنويِّ، فكما أنَّك تقولُ: «ربِّ اغفرْ لي وارحَمْني واهدِني» تُريدُ الهدايةَ المعنويَّةَ، كذلك أيضًا اعتَمِدْ على ربِّك في الهدايةِ الحِسِّيَّةِ، ولا تعتَمِد أيضًا على الأسبابِ[٤]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لم يَقُلْ سبحانه: «قُلِ الحمدُ للهِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٧٥).

هذا»، بل قال: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾؛ لِيَكونَ اللهُ تبارك وتعالى محمودًا على كلِّ حالٍ، ومِن جملةِ ما يُحمَدُ عليه إهلاكُ المكذِّبينَ للرُّسلِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى له أنْ يَتمدَّحَ بنَفْسِه ويدعوَ النَّاسَ إلى ذلك، أمَّا غيرُه فليس مِن اللَّائقِ أن يقولَ للنَّاسِ: احمَدوني وأثنُوا علَيَّ! ومعلومٌ أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أهلٌ لذلك، ولأنَّ المصلحةَ لنا، واللهُ تعالى لا يَنتفعُ بطاعةِ الطَّائعِينَ، ولا يتضرَّرُ بمعصيةِ العاصينَ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ أنَّ الذين اصطفاهمُ اللهُ قد بَرِئوا ممَّا يُلصَقُ بهم؛ فإنَّ هذا السَّلامَ يَتضَمَّنُ سلامتَهم ممَّا وُصِفوا به وقُدِحَ فيهم به، ويتضَمَّنُ أيضًا سلامتَهم مِن عقوبةِ اللهِ؛ فالسَّلامةُ هنا شامِلةٌ للسَّلامةِ ممَّا يتعلَّقُ بفِعلِ اللهِ كالعُقوبةِ، أو بفعلِ الخلْقِ كالقَدْحِ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ حكمةُ اللهِ تعالى في تعليقِ الأحكام بأسبابِها؛ فإنَّ السَّلامةَ هنا مُعَلَّقةٌ على الاصطفاءِ، وهكذا أحكامُ اللهِ الكونيَّةُ والقَدَريَّةُ كلُّها مربوطةٌ بأسبابِها؛ وذلك لِثُبوتِ الحكمةِ في أحكامِ اللهِ؛ إذْ إنَّ اللهَ لا يَفعلُ شيئًا إلَّا لحكمةٍ(٤).

٥- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ فيه قيامُ الأفعالِ الاختياريَّةِ بالله سُبحانَه وتعالى؛ فإنَّ الاصطفاءَ مِن الأفعالِ، واللهُ تبارك وتعالى قائمٌ به الأفعالُ الاختياريَّةُ، فهو سبحانَه يَصطفي مِن عبادِه ما شاء، ومَن يختارُهم هم الذين قاموا بطاعتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فمَن قام بطاعةِ اللهِ اصطفاه اللهُ، ومَن عصى اللهَ فهو بعيدٌ مِن الاصطفاءِ[١].

٦- التَّنَزُّلُ مع الخَصمِ يَرِدُ كثيرًا في الأمورِ المُتيَقَّنةِ، كقَولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، ومعلومٌ أنَّه لا نِسبةَ، وأنَّ اللهَ خيرٌ ممَّا يُشرِكون، ولكنَّ هذا مِن باب مُحَاجَّةِ الخَصمِ لإدحاضِ حُجَّتِه[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أنَّ مِن أساليبِ المناظرةِ إلزامَ الخَصمِ بما يُقِرُّ به؛ لأنَّ هؤلاء لا يمكِنُ أنْ يقولوا: إنَّ آلهتَهم خيرٌ أبدًا؛ ولهذا أعقبَها بقَولِه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى آخرِه ممَّا هو مِن أفعالِ الرُّبوبيَّةِ الَّتي لا يمكِنُ لهم أن يَدَّعوا أنَّ آلهتَهم تَفعَلُها[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ أنَّ للهِ سبحانه وتعالى الخيريَّةَ المطْلَقةَ في كلِّ شَيءٍ؛ في صِفاتِه، وفي أفعالِه المتعَلِّقةِ بعابديه[٤].

٩- كثيرًا ما يكرِّرُ الله تعالى في القرآنِ نوعينِ مِن الاستدلالِ: الأولُ يسمَّى دليلَ الاختراعِ والإنشاءِ، ويتضمَّنُ أصلَ الخلقِ والإيجادِ. والثاني يسمَّى دليلَ العنايةِ والحكمةِ، ويتضمَّن الحِكمَ المشهودةَ في خلقِه، كقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢، ٣٣]، فذكَر خلقَ السمواتِ والأرضِ، ثمَّ ذكَر منافعَ المخلوقاتِ وحِكمَها، ونظيرُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قولُه تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ * أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ ...﴾ إلى آخر الآيات[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ إلى آخرِ الآياتِ الَّتي تُختَمُ كلُّ آيةٍ منها بقولِه تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾: دَلالةٌ على وجوبِ إفرادِ اللهِ سبحانه وتعالى بالأُلوهيَّةِ؛ لأنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ يَستلزِمُ الإقرارَ بالألوهيَّةِ ولا بُدَّ؛ فإنَّه إذا كان هو المنفرِدَ بما ذُكِر، فإنَّه المنفَرِدُ بالأُلوهيَّةِ[2]. والقرآنُ مملوءٌ مِن تقريرِ توحيدِ الألوهيَّةِ وبيانِه وضربِ الأمثالِ له، ومِن ذلك أنَّه يُقرِّرُ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ، ويُبيِّنُ أنَّه لا خالقَ إلَّا اللهُ، وأنَّ ذلك مُستلزِمٌ ألَّا يُعبَدَ إلَّا اللهُ، فيجعلُ الأوَّلَ دليلًا على الثَّاني؛ إذ كانوا يُسلِّمون في الأوَّلِ ويُنازِعون في الثَّاني، فيُبيِّنُ لهم سبحانه أنَّكم إذا كنتم تَعلمون أنَّه لا خالقَ إلَّا اللهُ وحْدَه، وأنَّه هو الَّذي يأتي العِبادَ بما يَنفعُهم، ويَدفعُ عنهم ما يَضُرُّهم، لا شريكَ له في ذلك؛ فلِمَ تَعبدون غيرَه، وتجعلون معه آلهةً أخرى؟!

فقولُ الله تعالى في آخرِ كلِّ آيةٍ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أي: أإله مع اللهِ فعَل هذا؟ وهذا استفهامُ إنكارٍ يَتضمَّنُ نفْيَ ذلك، وهم كانوا مُقِرِّينَ بأنَّه لم يَفعلَ ذلك غيرُ الله، فاحتجَّ عليهم بأنَّ مَن فعَل لهم هذا وحْدَه فهو الإلهُ لهم وحْدَه، فإنْ كان معه رَبٌّ فعَل هذا فينبغي أن تعبدوه، وإن لم يكُنْ معه رَبٌّ فعَل هذا فكيف تجعلون معه إلهًا آخَرَ[3]؟!

---

(١) ينظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٥، ٧٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم =

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ لأنَّ الباءَ للسَّبَبيَّةِ، وإثباتُ الحكمةِ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى رَبَطَ الأسبابَ بمُسبَّباتِها شرعًا وقدَرًا، وجعَل بعضَ المخلوقاتِ سببًا لبعضٍ، وهذا مِن الحكمةِ: ألَّا تأتيَ الأمورُ على وجْهِ المُصادَفاتِ أو بدُونِ أسبابٍ تقتضيها، فإثباتُ الأسبابِ يَتضمَّنُ إثباتَ الحكمةِ[1].

١٢- قولُه تعالى: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ فيه التَّنَزُّهُ في الحدائقِ؛ والابتهاجُ بها، وأنَّ الإنسانَ لا يُلامُ على ذلك، ولا يُقالُ: هذا مِن فضولِ الأفعالِ! فإنَّ النَّفْسَ إذا لم تُمَرَّنْ على هذا وهذا فإنها تَمَلُّ وتَكِلُّ، ولا تأتي بالأمورِ على وجْهِها[2].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ أكثرَ الخلْقِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- لا يَعلمون ما في هذه الآياتِ مِن العِبَرِ، ثم إنَّ نفْيَ العلمِ قد يكونُ نفيًا لأصْلِه وقد يكونُ نفيًا لثمرتِه وفائدتِه، والأمرُ كلُّه واقعٌ؛ فمِنَ الناسِ مَن ليس عندَه علمٌ أصلًا ولا يُفَكِّرُ في هذه الآياتِ، ويرَى أنَّها ظواهرُ طبيعيَّةٌ؛ ليس للهِ تعالى فيها أيُّ شأنٍ! ومنهم مَن يعلمُ ولكنْ لا ينتفِعُ[3].

١٤- كثيرًا ما يجمعُ اللهُ سُبحانَه في القرآنِ بيْنَ الخَلقِ والهِدايةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَمَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ الآياتِ، ثمَّ قال: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾، وقولِه تعالى في أوَّلِ سورةٍ أنزلَها على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ

---

= (١/ ٤١٣، ٤١٤)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٨٥).

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٢٣٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٩).

ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥]، وقولِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ١ - ٤]، وقولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ٨ - ١٠]، وقولِه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢، ٣]، فالخَلْقُ إعطاءُ الوُجودِ العينيِّ الخارجيِّ، والهُدى إعطاءُ الوُجودِ العِلميِّ الذِّهنيِّ؛ فهذا خَلْقُه، وهذا هُداهُ وتعليمُه[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أنَّ اللهَ تبارك وتعالى يُجيبُ دَعوةَ المُضْطَرِّ، وهذا دليلٌ على أنَّ رحمةَ اللهِ سَبَقَتْ غضَبَه[٢]، فكلَّما اشتدتِ الأمورُ فانتظرِ الفرَجَ مِن اللهِ سبحانه وتعالى[٣]، ولا فرقَ بينَ أنْ يكونَ المُضْطَرُّ مؤمِنًا أو كافرًا؛ يؤخَذُ ذلك مِن العمومِ وعدمِ التَّقييدِ؛ لأنَّه ما قُيِّدَ بأنَّه مُسلِمٌ، بل أُطلِقَ وعُمِّمَ[٤]، لكنَّ إجابةَ المضطرِّ المتحتمةَ مشروطةٌ بما إذا دعاه؛

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)) لابن القيم (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٧).

قال القرطبي: (ضَمِن اللهُ تعالى إجابةَ المضطرِّ إذا دعاه، وأخبَر بذلك عن نفْسِه، والسَّببُ في ذلك أنَّ الضرورةَ إليه باللجأِ يَنشأُ عن الإخلاصِ، وقطْعِ القلبِ عمَّا سِواه، وللإخلاصِ عندَه سبحانه موقعٌ وذِمَّةٌ، وُجِد مِن مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فأجابهم عندَ ضرورتِهم ووُقوعِ إخلاصِهم، مع عِلمِه أنَّهم يَعودونَ إلى شِركِهم وكفرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٣).

لقوله: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، وأمَّا إذا لم يَدْعُه فقد يُزيلُ ضرورتَه وقد لا يُزيلُها[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ أنَّه ينبغي إقامةُ الحُجَّةِ على الخصمِ بما يَعترِفُ به؛ لأنَّ إجابةَ المضطرِّ يُقِرُّ بها هؤلاء المكذِّبونَ، فهُم إذا ركِبوا في الفُلكِ وأصابَتْهمُ الضَّرَّاءُ والأمواجُ دعَوُا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ؛ فأجاب دعاءَهم، مع أنَّه يعلمُ أنَّهم سيُشرِكونَ إذا خرجوا، وأنَّ إيمانَهم هذا إيمانُ ضرورةٍ فقط! فهُم عندَ الضرورةِ ما يَدْعُون إلَّا اللهَ، فإذا كنتم تَعرِفون أنَّكم لا تَدْعون إلَّا اللهَ عندَ الضَّرورةِ؛ فكيف تعبدون غيرَه عندَ السَّعَةِ[٢]؟!

١٧- ذَمَّ الله سبحانه الكفَّارَ وعاتَبَهم بأنَّهم في وقتِ الشَّدائدِ والأهوالِ خاصَّةً يُخْلِصونَ العبادَةَ له وحدَه، ولا يصْرِفونَ شيئًا مِن حَقِّه لمخلوقٍ، وفي وقتِ الأمنِ والعافيةِ يُشرِكونَ به غيرَه في حقوقِه الواجبةِ له وحدَه، الَّتي هي عبادَتُه وحدَه في جميعِ أنواعِ العبادَةِ، ويُعْلَمُ مِن ذلك أنَّ بعضَ جهلةِ المُتسَمِّينَ باسمِ الإسلامِ أسوأُ حالًا مِن عَبَدَةِ الأوثانِ، فإنَّهم إذا دَهَمَتْهم الشَّدائدُ، وغَشِيَتْهم الأهوالُ والكروبُ الْتَجَؤوا إلى غيرِ اللَّهِ ممَّن يعتقدونَ فيه الصَّلاحَ، في الوقتِ الَّذي يُخْلِصُ فيه الكفَّارُ العبادَةَ لِلَّهِ، معَ أنَّ اللَّهَ جلَّ وعَلا أوضحَ في غيرِ موضعٍ أنَّ إجابةَ المضطَرِّ وإنجاءَه مِن الكربِ مِن حُقوقِه الَّتي لا يُشارِكُه فيها غيرُه.

ومِن أوضحِ الأدلَّةِ في ذلك قولُه تعالَى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۞ أَمَّنْ خَلَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٩).
وأورد بعضُهم سؤالًا وهو أنَّ الآيةَ تعُمُّ كلَّ مُضْطَرٍّ؛ ومع ذلك فكم مِن مُضْطَرٍّ يدعو فلا يُجابُ. وأُجيبَ عن ذلك: بأنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿ٱلْمُضْطَرَّ﴾ للجنسِ لا للاستغراقِ؛ ولا يَلزَمُ منه إجابةُ كلِّ مُضطرٍّ. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٦٩). وأيضًا قد لا يُجابُ المضطرُّ لوجودِ مانعٍ، أو لحكمةٍ اقتَضَتْ ذلك.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٧).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ۞ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۞ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ...﴾ الآياتِ، فتَراه جلَّ وعَلا في هذه الآياتِ الكريماتِ جَعَل إجابةَ المضطَرِّ إذا دعا، وكَشْفَ السُّوءِ عنه مِن حَقِّه الخالصِ الَّذي لا يشارِكُه فيه أحدٌ؛ كخلْقِه السَّمواتِ والأرضَ، وإنزالِه الماءَ مِن السَّماءِ، وإنباتِه به الشَّجَرَ، وجَعلِه الأرضَ قرارًا، وجعلِه خِلالَها أنهارًا، وجعلِه لها رواسِيَ، وجَعْلِه بينَ البحريْنِ حاجزًا، إلى آخَرِ ما ذَكَر في هذه الآياتِ مِنْ غرائِبِ صُنْعِه وعجائِبِه الَّتي لا يشارِكُه فيها أحدٌ؛ سبحانَه وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا[1].

١٨- قال الله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ في قَولِه: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾ أنَّ الدُّعاءَ مِن أسبابِ رفْعِ البلاءِ، وهذا أمرٌ مُجَرَّبٌ ومُشاهَدٌ، ولا سيَّما الأدعيةُ الَّتي جاءتْ بها السُّنَّةُ؛ فإنَّها خيرٌ وبَرَكةٌ، ولها ثمرةٌ ظاهِرةٌ[2].

١٩- الهدايةُ في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ تشمَلُ الهدايةَ بالأسبابِ الَّتي تَوَصَّلَ النَّاسُ إليها اليومَ؛ لأنَّ اللهَ أطلقَ الهدايةَ، فبأيِّ سببٍ كانت فهي مِن اللهِ[3].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾ فيه إطلاقُ الصِّفةِ على آثارِها؛ فالمطرُ ليس رَحمةَ اللهِ، ولكِنَّه أثرٌ مِن آثارِ الرَّحمةِ، واللهُ سبحانه وتعالى يُطلِقُ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٧٧).

الرَّحمةَ على ما كان مِن آثارِها؛ قال اللهُ تعالى للجنَّةِ: ((أنتِ رحمَتي، أرحَمُ بكِ مَن أشاءُ))[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ سؤالٌ؛ كيف قيلَ لهم: ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ وهم مُنكِرون للإعادةِ؟!

**الجوابُ**: كانوا معترِفينَ بالابتِداءِ، ودَلالةُ الابتداءِ على الإعادةِ دَلالةٌ ظاهرةٌ قويَّةٌ؛ فلمَّا كان الكلامُ مقرونًا بالدَّلالةِ الظَّاهرةِ صاروا كأنَّهم لم يَبْقَ لهم عذرٌ في الإنكارِ[٢].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ مُدَّعٍ دعوى محتاجٌ إلى تثبيتِها، وإقامةِ البرهانِ عليها[٣].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّه لا بأسَ للإنسانِ أنْ يَتدَرَّجَ مع خصْمِه؛ وأن يَتحدَّاه بما يُقِرُّ به، وهذا غايةُ الإنصافِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٧٧).

والحديث أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦) مطولًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابن القيم: (الرحمةُ المضافةُ إلى الله تعالى نوعانِ: أحدهما: مضافٌ إليه إضافةَ مفعولٍ إلى فاعله، والثاني: مضافٌ إليه إضافةَ صفةٍ إلى الموصوفِ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٩)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٨٣).

يُشْرِكُونَ ﴾ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنْ يَتلُوَ هذه الآياتِ النَّاطقةَ بالبراهينِ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه على كلِّ شَيءٍ وحِكمتِه، وأن يَستفتِحَ بتَحميدِه والسَّلامِ على أنبيائِه والمُصطفَينَ مِن عِبادِه. وقِيل: هو مُتَّصِلٌ بما قبْلَه؛ أُمِرَ الرَّسولُ بالحمْدِ على ما احتوَتْ عليه القِصصُ السَّابقةُ مِن نجاةِ الرُّسلِ مِن العذابِ الحالِّ بقَومِهم، وعلى ما أعْقَبَهم اللهُ على صَبرِهم مِن النَّصرِ ورفعةِ الدَّرجاتِ، وعلى أنْ أهلَكَ الأعداءَ الظَّالمينَ؛ فأُمِرَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بحمْدِ اللهِ على ذلك باعتبارِ ما أفادَهُ سَوقُ تلك القِصصِ مِن الإيماءِ إلى وَعدِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالنَّصرِ على أعدائِه؛ فعلى الأوَّلِ قولُهُ: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ اقتضابٌ، وهو أنْ يَقتضِبَ خُطبةً، ويَجعَلَها تحْميدةً لتلاوتِه الآياتِ النَّاطقةَ بالبراهينِ، وهي قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ * أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ الآياتِ. وعلى الثَّاني: تخلُّصٌ، أي: جعَلَ التَّحميدَ على الهالكينَ مِن كُفَّارِ الأممِ، والصَّلاةَ على الأنبياءِ وأشياعِهم ذَريعةً إلى الشُّروعِ في قصَّتِه مع مُشْركي قَومِه، وأنَّ له ولهم أُسوةً بالأنبياءِ الماضيةِ والأُمَمِ الخاليةِ[1].

- وأصلُ (سَلَامٌ): سلَّمْتُ سلامًا، مقصودٌ منه الإنشاءُ؛ فحُذِفَ الفِعلُ وأُقِيمَ مَفعولُه المطلَقُ بدلًا عنه، وعُدِلَ عن نصْبِ المفعولِ المُطلَقِ إلى تَصييرِه مبتدأً مَرفوعًا؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ والدَّوامِ[2].

- قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ استفهامٌ فيه تبْكيتٌ وتوبيخٌ وتَهكُّمٌ بحالِهم، وتَنبيهٌ على مَوضعِ التَّبايُنِ بيْنَ اللهِ تعالى وبيْن الأوثانِ؛ إذ معلومٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦، ٧).

عندَ مَن له عقْلٌ أنَّه لا شِركةَ في الخيريَّةِ بيْن اللهِ تعالى وبيْنَهم، وكثيرًا ما يَجيءُ هذا النَّوعُ مِن أفعلِ التَّفضيلِ حيث يُعلَمُ ويُتحَقَّقُ أنَّه لا شِركةَ فيها، وإنَّما يُذكَرُ على سبيلِ إلْزامِ الخَصمِ وتَنبيهِه على خطَأِ مُرتكَبِه. والاستفهامُ في نَحوِ هذا يَجيءُ لبَيانِ فسادِ ما عليه الخَصمُ؛ فيُستعمَلُ في الإلجاءِ وإلْزامِ المُخاطَبِ بالإقرارِ بالحقِّ، وتَنبيهِه على خَطئِه، وإلْزامِه الإقرارَ بحَصرِ التَّفضيلِ في جانبٍ واحدٍ، وانتفائِه عن الآخَرِ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ دليلٌ إجماليٌّ يُقصَدُ به ابتداءُ النَّظرِ في التَّحقيقِ بالإلهيَّةِ والعِبادةِ. وقد ناسَبَ إجمالَه أنَّه دليلٌ جامعٌ لِمَا يأْتي مِن التَّفاصيلِ؛ فلذلك جِيءَ فيه بالاسمِ الجامعِ لمعاني الصِّفاتِ كلِّها، وهو اسمُ الجَلالةِ، فقِيلَ: ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ﴾. وجِيءَ فيما بعدُ بالاسمِ الموصولِ؛ لِمَا في صِلاتِه مِن الصِّفاتِ. وجاء ﴿خَيۡرٌ﴾ بصِيغةِ التَّفضيلِ؛ لقَصدِ مُجاراةِ مُعتقَدِهم أنَّ أصنامَهم شُركاءُ اللهِ في الإلهيَّةِ بحيثُ كان لهم حَظٌّ وافرٌ مِن الخيرِ في زَعمِهم، فعُبِّرَ بـ ﴿خَيۡرٌ﴾؛ لإيهامِ أنَّ المقامَ لإظهارِ رُجحانِ إلهيَّةِ اللهِ تعالى على أصنامِهم؛ استدراجًا لهم في التَّنبيهِ على الخطأِ، مع التَّهكُّمِ بهم؛ إذ آثَرُوا عِبادةَ الأصنامِ على عِبادةِ اللهِ. والعاقلُ لا يُؤثِرُ شيئًا على شَيءٍ إلَّا لداعٍ يدْعو إلى إيثارِه، ففي هذا الاستفهامِ عن الأفضلِ في الخيرِ: تَنبيهٌ لهم على الخطأِ المُفرِطِ والجهْلِ المُورِّطِ؛ لِتَنفتِحَ بصائرُهم إلى الحقِّ إنْ أرادوا اهتداءً. والاستفهامُ على حَقيقتِه؛ بقَرينةِ وُجودِ (أَم) المُعادِلةِ للهمزةِ؛ فإنَّ التَّهكُّمَ يُبْنى على الاستعمالِ الحقيقيِّ. وهذا الكلامُ كالمُقدِّمةِ للأدلَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣).

الآتيةِ جميعِها على هذا الدَّليلِ الإجماليِّ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ (أمْ) مُنقطِعةٌ بمعنى (بلْ)؛ للإضرابِ الانتقاليِّ مِن غرَضٍ إلى غرضٍ مع مُراعاةِ وُجودِ معنى الاستفهامِ أو لَفظِه بعدَها؛ لأنَّ (أَمْ) لا تُفارِقُ معنى الاستفهامِ. انتقَلَ بهذا الإضرابِ مِن الاستفهامِ الحقيقيِّ التَّهكُّميِّ إلى الاستفهامِ التَّقريريِّ، ومِن المُقدِّمةِ الإجماليَّةِ -وهي قولُه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]- إلى الغرضِ المقصودِ، وهو الاستدلالُ؛ عدَّدَ اللهُ الخيراتِ والمنافعَ مِن آثارِ رَحمتِه ومِن آثارِ قُدرتِه؛ فهو استدلالٌ مَشوبٌ بامتنانٍ؛ لأنَّه ذكَّرَهم بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فشملَ ذلك كلَّ الخلائقِ التي تحْتوي عليها الأرضُ مِن النَّاسِ والعَجْماواتِ؛ فهو امتنانٌ بنِعمةِ إيجادِهم، وإيجادِ ما به قِوامُ شُؤونِهم في الحياةِ، وبسابقِ رَحمتِه، كما عدَّدَها في مَوضعٍ آخَرَ عليهم بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠]، فالاستفهامُ تقريرٌ، كما دلَّ عليه قولُه في نِهايتِه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، فهو تقريرٌ لإثباتِ أنَّ الخالقَ والمُنبتَ والرَّازقَ هو اللهُ، وهو مَشوبٌ بتَوبيخٍ؛ فلذلك ذُيِّلَ بقولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[٢].

- و(أَمْ) مُنقطعةٌ وما فيها مِن كلمةِ (بَلْ) للإضرابِ والانتقالِ مِن التَّبكيتِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٠، ١١).

تَعريضًا إلى التَّصريح به خِطابًا على وجْهٍ أظهرَ منه؛ لمَزيدِ التَّأكيدِ والتَّشديدِ، هذا على قراءةِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾. وأمَّا على قراءةِ ﴿تُشْرِكُونَ﴾ -بتاء الخطابِ[1]- فلِتَثنيةِ التَّبكيتِ وتَكريرِ الإلزامِ، كنظائرِها الآتيةِ، والهمزةُ لتَقريرِهم، أي: حمْلِهم على الإقرارِ بالحقِّ على وجْهِ الاضطرارِ؛ فإنَّه لا يَتمالَكُ أحدٌ ممَّن له أدْنى تَمييزٍ، ولا يَقدِرُ على ألَّا يَعترِفَ بخيريَّةِ مَن خلَقَ جميعَ المخلوقاتِ، وأفاضَ على كلٍّ منها ما يَلِيقُ به مِن منافعِه مِن أخسِّ تلك المخلوقاتِ وأدْناها، بلْ بأنْ لا خيرَ يُرى فيه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ قطْعًا[2].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ﴾ ذكَرَ إنزالَ الماءِ؛ لأنَّه مِن جُملةِ ما خلَقَه اللهُ، ولقَطعِ شُبهةِ أنْ يقولوا: إنَّ المُنبتَ للشَّجرِ الذي فيه رِزقُنا هو الماءُ، اغترارًا بالسَّببِ؛ فبُودِروا بالتَّذكيرِ بأنَّ اللهَ خلَقَ الأسبابَ وهو خالِقُ المُسبَّباتِ بتقْديرٍ وحِكمةٍ؛ فقد يَنزِلُ الماءُ بإفراطٍ، فيَجرُفُ الزَّرعَ والشَّجرَ أو يَقتُلُهما؛ ولذلك جُمِعَ بيْن قولِه: ﴿وَأَنزَلَ﴾ وقولِه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾؛ تَنبيهًا على إزالةِ الشُّبهةِ[3].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ فيه تقديمُ صِلتَي الإنزالِ ﴿لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على مَفعولِه ﴿مَآءً﴾؛ للتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[4].

- قولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ فيه الْتفاتٌ إلى خِطابِ الكَفرةِ؛ لتَشديدِ التَّبكيتِ

---

(١) قرأ أبو عمرو وعاصم ويعقوب ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء ﴿تُشْرِكُونَ﴾. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٨)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣).

والإلزامِ[١]، وللتَّعريضِ بأنَّهم ما شَكَروا نِعمةَ اللهِ[٢].

- وقال: ﴿لَكُم﴾، أي: لأجْلِكم، على سبيلِ الامتنانِ، وأنَّ ذلك مِن أجْلِكم[٣].

- وقولُه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّم بنُونِ العظمةِ؛ لتَأكيدِ اختصاصِ الفِعلِ بحُكمِ المُقابَلةِ بذاتِه تعالى، والإيذانِ بأنَّ إنباتَ تلك الحدائقِ المُختلفةِ الأصنافِ والأوصافِ، والألوانِ والطُّعومِ، والرَّوائحِ والأشكالِ -مع ما لَها مِن الحُسنِ البارعِ، والبهاءِ الرَّائعِ- بماءٍ واحدٍ: أمرٌ عظيمٌ، لا يَكادُ يَقدِرُ عليه إلَّا هو وحْدَه عزَّ وجَلَّ؛ ورشَّحَ هذا الاختصاصَ بقولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾[٤]؛ فمِن لطائفِ الالتفاتِ هنا: التَّنصيصُ على أنَّ المقصودَ إسنادُ الإنباتِ إليه؛ لئلَّا يَنصرِفَ ضميرُ الغائبِ إلى الماءِ؛ لأنَّ التَّذكيرَ بالمُنبِتِ الحقيقيِّ الذي خلَقَ الأسبابَ أَلْيقُ بمَقامِ التَّوبيخِ على عَدمِ رِعايتِهم نِعَمَه[٥].

- ولَمَّا كان خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ وإنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ، لا شُبهةَ للعاقلِ في أنَّ ذلك لا يكونُ إلَّا للهِ، وكان الإنباتُ ممَّا قد يَتسبَّبُ فيه الإنسانُ بالبَذرِ والسَّقيِ والتَّهيئةِ، ويَسوغُ لفاعلِ السَّببِ نِسبةُ فِعلِ المُسبَّبِ إليه؛ بيَّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١).

تعالى اختصاصَه بذلك بطريقِ الالتفاتِ وتأكيدِ ذلك بقولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾؛ فالمُتسبِّبُ لذلك قد لا يأْتي على وَفْقِ مُرادِه، ولو أتَى فهو جاهلٌ بطبْعِه ومِقدارِه وكيفيَّتِه؛ فكيف يكونُ فاعلًا لها[1]؟!

- وفي قولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ قُدِّمَ خبرُ كان ﴿لَكُمْ﴾ على الاسمِ ﴿أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾؛ للاهتمامِ بنفْيِ مِلْكِ ذلك[2].

- قولُه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ هو كالنَّتيجةِ للجُملةِ قبْلَها؛ لأنَّ إثباتَ الخلْقِ والرَّزقِ والإنعامِ للهِ تعالى بدَليلٍ لا يَسَعُهم إلَّا الإقرارُ به يَنتِجُ أنَّه لا إلهَ فعَل ذلك معه. والاستفهامُ إنكاريٌّ[3]، وهو تَبكيتٌ لهم بنفْيِ الأُلوهيَّةِ عمَّا يُشْرِكونه به تعالى في ضِمْنِ النَّفيِ الكُلِّيِّ على الطَّريقةِ البُرهانيَّةِ بعدَ تَبكيتِهم بنَفْيِ الخيريَّةِ عنه بما ذُكِرَ مِن التَّرديدِ؛ فإنَّ أحدًا ممَّن له تَمييزٌ في الجُملةِ كما لا يَقدِرُ على إنكارِ انتفاءِ الخيريَّةِ عنه بالمرَّةِ، لا يَكادُ يَقدِرُ على إنكارِ انتفاءِ الأُلوهيَّةِ عنه رأسًا، لا سيَّما بعدَ مُلاحظةِ انتفاءِ أحكامِها عمَّا سِواهُ تعالى، وهكذا الحالُ في المواقعِ الأربعةِ الآتيةِ[4].

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ (بلْ) للإضرابِ عن الاستفهامِ الإنكاريِّ تُفيدُ معنى (لكنَّ) باعتبارِ ما تَضمَّنَه الإنكارُ مِن انتفاءِ أنْ يكونَ مع اللهِ إلهٌ فعَل ما ذُكِر، فكان حقُّ النَّاسِ ألَّا يُشرِكوا معه في الإلهيَّةِ غيرَه؛ فجِيءَ بالاستدراكِ؛ لأنَ المُخاطَبينَ بقولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقولِه: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾ لم يَنتفِعوا بالدَّليلِ مع أنَّه دليلٌ ظاهرٌ مَكشوفٌ؛ فهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١١، ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٤).

مُكابِرون في إعراضِهم عن الاهتداءِ بهذا الدَّليلِ، فهم يَعدِلون باللهِ غيرَه، أو يَعدِلون عن الحقِّ، مِن (عدَلَ) الذي يُعدَّى بـ (عن)، وأيًّا ما كان فالمقصودُ تَوبيخُهم على الإشراكِ مع وُضوحِ دَلالةِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما يَنزِلُ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ مِن الماءِ. ولَمَّا كانت تلك الدَّلالةُ أوضَحَ الدَّلالاتِ المحسوسةِ الدَّالَّةِ على انفرادِ اللهِ بالخلْقِ، وصَفَ الذين أشْرَكوا مع اللهِ غيرَه بأنَّهم في إشراكِهم مُعرِضون إعراضَ مُكابَرةٍ عُدولًا عن الحقِّ الواضحِ؛ قال تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1] [لقمان: ٢٥].

- والإخبارُ عنهم بالمُضارِعِ في قولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾؛ لإفادةِ أنَّهم مُستمِرُّون على شِركِهم، لم يَستنيروا بدليلِ العقلِ، ولا أقْلَعوا بعدَ التَّذكيرِ بالدَّلائلِ. وفي الإخبارِ عنهم بأنَّهم ﴿قَوْمٌ﴾ إيماءٌ إلى تمكُّنِ صِفةِ العُدولِ عن الحقِّ منهم، حتَّى كأنَّها مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[2].

٣- قوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ﴾ (أَمْ) للإضرابِ الانتقاليِّ، وهذا انتقالٌ مِن الاستدلالِ المَشوبِ بالامتنانِ إلى الاستدلالِ المُجرَّدِ بدلائلِ قُدرتِه وعِلْمِه؛ بأنْ خلَقَ المخلوقاتِ العظيمةَ، وبتَدبيرِه نِظامَها حتَّى لا يَطْغَى بعضُها على بعضٍ، فيَختلَّ نِظامُ الجميعِ. ولأجْلِ كونِ الغرضِ مِن هذا الاستِدلالِ إثباتَ عِظَمِ القُدرةِ وحِكمةِ الصُّنعِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢).

لم يَجِئْ خلالَه بخِطابٍ للمُشرِكين كما جاء في قولِه في الآيةِ قبْلَها: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النمل: ٦٠] الآيةَ، وإنْ كان هذا الصُّنعُ العجيبُ لا يَخْلو مِن لُطفٍ بالمخلوقاتِ أرادَه خالِقُها، ولكنَّ ذلك غيرُ مقصودٍ بالقَصدِ الأوَّلِ مِن سَوقِ الدَّليلِ هنا(١).

- قولُه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ القرارُ: مَصدرُ قَرَّ: إذا ثبَتَ وسكَنَ. ووصَفَ الأرضَ به للمُبالَغةِ، أي: ذاتَ قرارٍ(٢).

- قولُه: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ وما بعْدَه مِن الجُملِ الثَّلاثِ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ و﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ و﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾: الأظهرُ أنَّ كلَّ واحدةٍ منها إضرابٌ وانتقالٌ مِن التَّبكيتِ بما قبْلَها إلى التَّبكيتِ بوَجْهٍ آخَرَ أدخَلُ في الإلزامِ بجِهَةٍ مِن الجِهاتِ(٣).

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ هذا الجَعلُ كِنايةٌ عن خلْقِ البحرينِ أيضًا؛ لأنَّ الحَجزَ بيْنَهما يَقْتضي خلْقَهما، وخلْقَ المُلوحةِ والعُذوبةِ فيهما(٤).

- والجَعلُ في المواقعِ الثَّلاثةِ ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾: إبْداعيٌّ. وتأخيرُ مَفعولِه عن الظَّرفِ؛ للتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ(٥). ولَمَّا كانت كلُّ واحدةٍ منه عظيمةً مُستقِلَّةً، تَكرَّرَ فيها العاملُ في قولِه: ﴿وَجَعَلَ﴾؛ فكانت مِن عطْفِ الجُمَلِ المُستقِلِّ كلُّ واحدةٍ منها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢، ١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٥).

بالامتنانِ، ولم يُشْرَكْ في عاملٍ واحدٍ فيكونَ مِن عطْفِ المُفرداتِ[١].

- قولُه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، وذُيِّلَ به وبالاستِدراكِ بجُملةٍ مُماثِلةٍ لِمَا ذُيِّلَ به الاستِدلالُ الذي قبْلَها على طريقةِ التَّكريرِ؛ تَعديدًا للإنكارِ، وتَمهيدًا للتَّوبيخِ بقولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[٢].

- وأُوثِرَ هنا في قولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ نفْيُ صِفةِ العلْمِ عن أكثرِ المُشرِكين -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِقلَّةِ مَن يَنظُرُ في دقائقِ هذه المصنوعاتِ وخصائصِها منهم؛ فإنَّ اعتيادَ مُشاهَدتِها مِن أوَّلِ نشأةِ النَّاظرِ يُذهِلُه عمَّا فيها مِن دَلائلِ بَديعِ الصُّنعِ، فأكثَرُ المُشرِكين يَجهَلُ ذلك، ولا يَهْتدي بما فيه، أمَّا المؤمنون فقد نبَّهَهم القرآنُ إلى ذلك، فهمْ يَقرَؤون آياتِه المُتكرِّر فيها الاستدلالُ والنَّظرُ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه ارتقاءُ الاستدلالِ مِن التَّذكيرِ بالتَّصرُّفِ الرَّبَّانيِّ في ذواتِ المخلوقاتِ إلى التَّذكيرِ بتَصرُّفِه في أحوالِ النَّاسِ التي لا يَخْلو عنها أحدٌ في بعضِ شُؤونِ الحياةِ؛ وذلك حالُ الاضطرارِ إلى تَحصيلِ الخيرِ، وحالُ انتيابِ السُّوءِ، وحالُ التَّصرُّفِ في الأرضِ ومَنافعِها؛ فهذه ثلاثةُ الأنواعِ لأحوالِ البشرِ؛ وهي: حالةُ الاحتياجِ، وحالةُ البُؤسِ، وحالةُ الانتفاعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣، ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ هو كلُّ ما يَسوءُ، وهو عامٌّ في كلِّ ضُرٍّ، انتقَلَ مِن حالةِ المُضطَرِّ -وهو خاصٌّ- إلى أعمَّ، وهو ما يَسوءُ، سواءٌ كان المكشوفُ عنه في حالةِ الاضطرارِ أو فِيما دُونَها[١].

- قولُه: ﴿وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: يَكشِفُ السُّوءَ عن المُستاءِ إذا دعاهُ، فحُذِفَ مِن الجُملةِ المعطوفةِ؛ لدَلالةِ ما ذُكِرَ مع الجُملةِ المعطوفِ عليها[٢].

- قولُه: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ لِمَا اقْتضَتْه الخِلافةُ مِن تَجدُّدِ الأبناءِ عقِبَ الآباءِ، والأجيالِ بعدَ الأجيالِ، وما اقْتضَتْه الاستِجابةُ وكشْفُ السُّوءِ مِن كثرةِ الدَّاعينَ والمُستائين: عُبِّر في أفعالِ الجَعلِ التي تعلَّقَت بها بصِيغةِ المُضارِعِ الدَّالِّ على التَّجدُّدِ، بخلافِ أفعالِ الجَعلِ الأربعةِ الَّتي في الآيةِ قبْلَها[٣].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، تَكريرًا لِمَا تقدَّمَ عقِبَ الأدلَّةِ السَّابقةِ؛ زِيادةً في تَعدادِ خَطئِهم[٤].

- قولُه: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ انتصَبَ ﴿قَلِيلٗا﴾ على الحالِ مِن ضَميرِ الخِطابِ في قولِه: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: فعَلَ ذلك لكم وأنتم في حالِ قِلَّةِ تَذكُّرِكم؛ فتُفيدُ الحالُ معنى التَّعجُّبِ مِن حالِهم[٥]. والقليلُ هنا مُكنًّى به عن المَعدومِ؛ لأنَّ التَّذكُّرَ المقصودَ مَعدومٌ منهم، والكِنايةُ بالقليلِ عن المعدومِ مُستعمَلةٌ في كلامِهم. وهذه الكِنايةُ تلْميحٌ وتَعريضٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥، ١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: إنْ كُنتم تَذكَّرون؛ فإنَّ تَذكُّرَكم قليلٌ[١].

- وفي تَذييلِ الكلامِ بنفْيِ التَّذكُّرِ عنهم: إيذانٌ بأنَّ مَضمونَه مَركوزٌ في ذِهنِ كلِّ ذَكِيٍّ وغبيٍّ، وأنَّه مِن الوضوحِ بحيثُ لا يَتوقَّفُ إلَّا على التَّوجُّهِ إليه وتَذَكُّرِه[٢].

- و(ما) مَزيدةٌ لتأكيدِ معنى القِلَّةِ التي أُرِيدَ بها العدَمُ، أو ما يَجْري مَجراهُ في الحقارةِ وعَدمِ الجدْوى[٣].

- وقرَأَ الجمهورُ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ -معَ اختلافٍ في تخفيفِ الذالِ وتشديدِها-، وقُرِئَ ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بياءِ الغَيبةِ[٤] على الالتفاتِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ ففي قِراءةِ الجمهورِ نُكتةُ توجيهِ الخِطابِ إلى المشركين مُكافَحةً لهم، وفي القِراءةِ الأُخرى نُكتةُ الإعراضِ عنهم؛ لأنَّهم اسْتأْهَلوا الإعراضَ بعدَ تَذكُّرِهم[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ...﴾ (أمْ) بمعنى (بلْ)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٥).

(٤) قرأ أبو عمرو وهشام وروح ﴿يَذَّكَّرُونَ﴾ بياءِ الغَيبةِ، وقرأ الباقون ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦).

لإضرابِ الانتقالِ مِن نَوعِ دلائلِ التَّصرُّفِ في أحوالِ عامَّةِ النَّاسِ إلى دَلائلِ التَّصرُّفِ في أحوالِ المُسافِرينَ منهم في البَرِّ والبحرِ؛ فإنَّهم أدْرى بهذه الأحوالِ وأقدَرُ؛ لِمَا في خلالِها مِن النِّعمةِ والامتنانِ(١).

- قولُه: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ﴾ ذِكْرُ الهدايةِ في ظُلماتِ اللَّيلِ في البَرِّ والبحرِ، وإضافةُ الظُّلماتِ إلى البَرِّ والبحرِ على معنى (في). والهُدى في هذه الظُّلماتِ بسَيرِ النُّجوم، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]؛ فاللهُ الهادي للسَّيرِ في تلك الظُّلماتِ بأنْ خلَقَ النُّجومَ على نِظامٍ صالحٍ للهدايةِ في ذلك، وبأنْ ركَّبَ في النَّاسِ مَدارِكَ للمعرفةِ بإرصادِ سَيرِها وصُعودِها وهُبوطِها، وهَداهُم أيضًا بمَهابِّ الرِّياحِ، وخوَّلَهم مَعرفةَ اختلافِها بإحساسِ جَفافِها ورُطوبتِها، وحرارتِها وبَرْدِها؛ وبهذه المُناسَبةِ أُدمِجَ الامتنانُ بفوائدِ الرِّياحِ في إثارةِ السَّحابِ الذي به المطَرُ، وهو المَعنيُّ برَحمةِ اللهِ(٢).

- قولُه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ قولُه: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تَقريرٌ وتَحقيقٌ لقولِه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، وإظهارُ الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهِ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ(٣).

- وذُيِّلَ هذا الدَّليلُ بتَنزيهِ اللهِ تعالى عن إشراكِهم معه آلهةً، فقال: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّ هذا خاتمةُ الاستِدلالِ عليهم بما لا يُنازِعون في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٥).

أنَّه مَن تَصرُّفِ اللهِ؛ فجِيءَ بعْدَه بالتَّنزيهِ عن الشِّركِ كلِّه، وذلك تَصريحٌ بما أشارت إليه التَّذييلاتُ السَّابقةُ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ انتقالٌ إلى الاستدلالِ بتَصرُّفِ اللهِ تعالى بالحياةِ الأُولى والثَّانيةِ، وبإعطاءِ المَددِ لدَوامِ الحياةِ الأُولى مدَّةً مُقدَّرةً، وفيه تَذكيرٌ بنِعمةِ الإيجادِ ونِعمةِ الإمدادِ[٢].

- قولُه: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الاستفهامُ تَقريريٌّ؛ لأنَّهم لا يُنكِرون أنَّه يَبدَأُ الخلْقَ وأنَّه يَرزُقُهم. وأُدمِجَ في خلالِ الاستفهامِ قولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾؛ لأنَّ تَسليمَ بَدئِه الخلْقَ يُلجِئُهم إلى فَهمِ إمكانِ إعادةِ الخلْقِ التي أحالُوها. ولَمَّا كان إعادةُ الخلْقِ مَحلَّ جَدلٍ، وكان إدْماجُها إيقاظًا وتَذكيرًا؛ أُعيدَ الاستفهامُ في الجُملةِ التي عُطِفَت عليه بقولِه: ﴿وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ولأنَّ الرِّزقَ مُقارِنٌ لبَدءِ الخلْقِ، فلو عُطِفَ على إعادةِ الخلْقِ لَتُوهِّمَ أنَّه يَرزُقُ الخلْقَ بعدَ الإعادةِ، فيَحسَبوا أنَّ رزقَهم في الدُّنيا مِن نِعَمِ آلهتِهم! وإذ قد كانوا مُنكرِين للبعثِ؛ ذُيِّلَت الآيةُ بأمْرِ التَّعجيزِ بالإتيانِ ببُرهانٍ على عَدمِ البعْثِ[٣].

- قولُه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أمْرٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بتَبْكيتِهم إثرَ تَبكيتٍ، وفي إضافةِ البُرهانِ إلى ضَميرِهم تَهكُّمٌ بهم؛ لِمَا فيه مِن إيهامِ أنَّ لهم بُرهانًا، وأنَّى لهُم ذلكَ[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧، ١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٦).

- وفي قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى قولِه هنا: ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ مُناسبةٌ حَسنةٌ فيما خُتِمَت به هذه الآياتُ بعْدَ قولِه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾؛ حيث ناسَبَ ختْمُ كلٍّ استفهامٍ بما تَقدَّمَه؛ فلمَّا ذكَرَ إيجادَ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ، وما امتَنَّ به مِن إنزالِ المطرِ وإنباتِ الحدائقِ، اقْتَضى ذلك ألَّا يُعبَدَ إلَّا مُوجِدُ العالَمِ، والمُمتَنُّ بما به قِوامُ الحياةِ؛ فختَمَ بقولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾، أي: عن عِبادتِه، أو يَعدِلون به غيرَه ممَّا هو مَخلوقٌ مُختَرَعٌ. ولَمَّا ذكَرَ جَعْلَ الأرضِ مُستقَرًّا، وتَفجيرَ الأنهارِ، وإرساءَ الجِبالِ، وكان ذلك تنْبيهًا على تَعقُّلِ ذلك والفِكرِ فيه؛ ختَمَ بقولِه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ إذ كان فيهم مَن يَعلَمُ ويفُكِّرُ في ذلك. ولَمَّا ذكَرَ إجابةَ دُعاءِ المُضطرِّ، وكشْفَ السُّوءِ، واستخلافَهم في الأرضِ؛ ناسَبَ أنْ يَستحضِرَ الإنسانُ دائمًا هذه المِنَّةَ، فختَمَ بقولِه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾؛ إشارةً إلى تَوالي النِّسيانِ إذا صار في خيرٍ، وزالَ اضطرارُه، وكُشِفَ السُّوءُ عنه. ولَمَّا ذكَرَ الهِدايةَ في الظُّلماتِ، وإرسالَ الرِّياحِ بُشرًا، ومَعبوداتُهم لا تَهدِي ولا تُرسِلُ، وهم يُشرِكون بها اللهَ، قال: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، واعتقَبَ كلَّ واحدةٍ مِن هذه الجُمَلِ قولُه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾، على سبيلِ التَّوكيدِ والتَّقريرِ أنَّه لا إلهَ إلَّا هو تعالى[1].

- وجِماعُ ما تقدَّمَ في هذه الآياتِ مِن قولِه: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤]:

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) (١/ ٩٧٩- ٩٨٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٥٠- ٥٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٠).

أنَّها أجْمَلَتِ الاستِدلالَ على أحقِّيَّةِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ وحْدَه، ثمَّ فصَّلَت ذلك بآياتِ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ فابتَدأَتْ بدليلٍ قريبٍ مِن بُرهانِ المُشاهَدةِ، وهو خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ وما يأْتي منهما مِن خيرٍ للنَّاسِ. ودليلِ كيفيَّةِ خلْقِ الكُرةِ الأرضيَّةِ وما على وَجْهِها منها، وهذا مُلحَقٌ بالمُشاهَداتِ. وانتقَلَتْ إلى استدلالٍ مِن قَبيلِ الأصولِ الموضوعةِ؛ وهو ما تَمالَأَ عليه النَّاسُ مِن اللَّجَأِ إلى اللهِ تعالى عندَ الاضطرارِ. وانتقَلَتْ إلى الاستدلالِ عليهم بما مكَّنَهم مِن التَّصرُّفِ في الأرضِ؛ إذ جعَلَ البشرَ خُلفاءَ في الأرضِ، وسخَّرَ لهم التَّصرُّفَ بوُجوهِ التَّصاريفِ المُعينةِ على هذه الخلافةِ، وهي تكوينُ هِدايتِهم في البَرِّ والبحرِ؛ وذلك جامعٌ لأصولِ تَصرُّفاتِ الخلافةِ المذكورةِ في الارتحالِ والتِّجارةِ والغزْوِ. وختَمَ ذلك بكلمةٍ جامعةٍ لِنِعمتَيِ الإيجادِ والإمدادِ، وفي مَطاوِيها جوامعُ التَّمكُّنِ في الأرضِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨، ١٩).

## الآيات (٦٥-٧٠)

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱدَّٰرَكَ﴾: أي: تكامَلَ وتدارَكَ واستحكَمَ، وأصلُ (درك): يدُلُّ على لُحوقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ، ووُصولِه إليه[1].

﴿عَمُونَ﴾: أي: جاهِلونَ، جمعُ عَمٍ، وهو صفةٌ على وزنِ فَعِلٍ مِن العمَى، والعَمى يُقالُ في افتقادِ البصَرِ والبصيرةِ، وأصلُ (عمي): يدُلُّ على سَترٍ وتغطيةٍ[2].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: الأساطيرُ: الأباطيلُ والتُّرَّهاتُ، جمعُ أُسْطورَةٍ، وهي: ما سُطِر مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكذبِهم، وقيل: ما سطَره الأوَّلونَ مِن الكتبِ، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٨).
وادَّارك: أصلُه تدارَك، فأُدغمَتِ التَّاءُ في الدَّالِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٣٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، =

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾

﴿مَن﴾: فاعِلُ ﴿يَعۡلَمُ﴾، و ﴿ٱلۡغَيۡبَ﴾: مَفعولُه، و ﴿ٱللَّهُۚ﴾: بدَلٌ مِن ﴿مَن﴾، ومعناه: لا يعلم أحدٌ. وهو استثناءٌ متَّصِلٌ على رأي المحقِّقينَ، واقِعٌ من كلام منفيٍّ؛ فلذلك جاء اسمُ الجلالةِ مرفوعًا على اللُّغةِ الفصحى، ولو كان الاستثناءُ مُنقطِعًا لكانت اللُّغةُ الفصحى بنصبِ المستثنَى. وقيل: الاستثناءَ في ﴿إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ استِثناء منقطعٌ جاء على لغةِ تميمٍ فرُفِعَ[1].

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٢٧)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٠٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٢٩٣).

قال ابن القيم: (﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هاهنا أبلَغُ صيغِ العموم، وليس المرادُ بها مُعَيَّنًا، فهي في قوَّةِ «أحد» المنفيِّ بقولِك: «لا يعلَمُ أحدٌ الغيبَ إلَّا اللهُ»، وأتى في هذا بذِكرِ السَّمواتِ والأرضِ؛ تحقيقًا لإرادة العمومِ والإحاطةِ، فالكلامُ مؤدٍّ معنَى: «لا يَعلَمُ أحدٌ الغَيبَ إلَّا الله». وإنَّما نشأ الوهمُ مِن ظنِّهم أنَّ الظَّرفَ هاهنا للتَّخصيصِ والتَّقييدِ، وليس كذلك، بل هو لتحقيقِ الاستغراقِ والإحاطةِ ... فهكذا قولُه: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لتحقيقِ الاستِغراقِ المقصودِ بالنَّفيِ). ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٣).

وقال ابن تيمية: (ولا يجوزُ أن يقالَ: هذا استثناءٌ منقطِعٌ؛ لأنَّ المستثنى مرفوعٌ، ولو كان منقطِعًا لكان منصوبًا. والمرفوعُ على البدَلِ، والعاملُ فيه هو العاملُ في المبدَلِ منه، وهو بمنزلةِ المفرَّغِ، كأنَّه قال: «لا يَعْلَمُ الغَيبَ إلَّا اللهُ»، فيلزمُ أنَّه داخلٌ في ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾... ولفظ «السَّمَاءِ» يَتناوَلُ كلَّ ما سما، ويدخُلُ فيه السَّمواتُ والكرسِيُّ والعرشُ وما فوقَ ذلك؛ لأنَّ هذا في جانبِ النَّفْيِ، وهو لم يقُلْ هنا: «السَّمَوَات السَّبْع»، بل عمَّ بلفظِ « السَّمواتِ». وإذا كان لفظُ «السَّماءِ» قد يُرادُ به السَّحابُ، ويُرادُ به الفُلكُ، ويرادُ به ما فوقَ العالَمِ، ويُرادُ به العلُوُّ مطلقًا؛ =

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى -آمِرًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ أنْ يقولَ معلِّمًا لجميع الخلقِ-: قُلْ -يا محمَّدُ: لا يَعلَمُ أحدٌ في السَّمواتِ وفي الأرضِ الغيبَ إلَّا اللهُ وحْدَه، وما يَدرُونَ متى يَبعثُ اللهُ الخلْقَ، بل تكامَلَ عِلمُهم يومَ القيامةِ وعَلِموا حقَّ ما وُعِدوا به في الدُّنيا، بل المُشرِكون في الدُّنيا في شكٍّ مِن وقوعِ القيامةِ ومَجيئِها، بل هم في الدُّنيا بأمرِ الآخرةِ وحُدوثِها جاهِلون.

ثمَّ يَذكرُ الله تعالى ما كان عليه المشركونَ مِن إنكارٍ للبعثِ، فيقولُ تعالى: وقال الكُفَّارُ: أئِذا صِرْنا وآباؤُنا ترابًا في القبورِ أئِنَّا لمُخرَجون يومَ القيامةِ أحياءً؟!

لقد وُعِدْنا وأسلافُنا بالبَعثِ بعْدَ الموتِ ولم يقَعْ شَيءٌ مِن ذلك، ما هذا الوعدُ إلَّا أحاديثُ باطِلةٌ سطَّرها الأقدَمون في كتُبِهم!

ثمَّ يوجِّهُ اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: سِيروا في الأرضِ فانظُروا عاقِبةَ الكُفَّارِ الَّذين كذَّبوا فأهلَكَهم اللهُ؛ لعلَّكم تَعتَبِرون. ولا تَحزَنْ -يا محمَّدُ- على هؤلاء المُشرِكين، ولا يَضِقْ صدرُك بسبَبِ مَكرِهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ٦٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أبطلَتِ الآياتُ السَّابقةُ إلهيَّةَ أصنامِ المشركين بالأدلَّةِ المتظاهِرةِ، فانقطعَ دابرُ عقيدةِ الإشراكِ؛ ثُنِيَ عِنَانُ الإبطالِ إلى أثَرٍ مِن آثارِ الشِّركِ، وهو ادِّعاءُ

---

= فـ «السَّمواتُ» جمعُ «سماءٍ»، وكلُّ مَن فيما يُسمَّى «سَماءً»، وكلُّ مَن فيما يُسمَّى «أرضًا»). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٠٩).

عِلمِ الغَيبِ بالكَهانةِ وإخبارِ الجِنِّ، كما كان يَزعمُه الكُهَّانُ والعَرَّافون وسَدَنةُ الأصنامِ، ويؤمِنُ بذلك المشركون[١].

وأيضًا بعْدَما حقَّقَ تَفرُّدَه تعالى بالأُلوهيَّةِ ببَيانِ اختِصاصِه بالقُدرةِ الكاملةِ التَّامَّةِ، والرَّحمةِ الشَّاملةِ العامَّةِ؛ عقَّبَه بذِكْرِ ما هو مِن لَوازِمِه، وهو اختِصاصُه بعِلمِ الغَيبِ؛ تَكميلًا لِمَا قبْلَه، وتَمهيدًا لِمَا بعْدَه[٢].

﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ: لا يَعلَمُ أحدٌ في السَّمواتِ وفي الأرضِ الغيبَ الذي استأثرَ اللهُ بعِلمِه، إلَّا اللهُ وحْدَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (مَنْ زعَمَ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يُخبِرُ بما يكونُ في غدٍ فقد أعظَمَ على اللهِ الفِرْيةَ، واللهُ يقولُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾)[٤].

﴿وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾.

أي: وما يدري أحدٌ متى يَبعثُ اللهُ الخلْقَ مِن قبورِهم يومَ القيامةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٤) رواه مسلم (١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن =

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ٦٦ ﴾.

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾.

**القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:**

١- قراءةُ ﴿أَدْرَكَ﴾ قيل: معنى الآيةِ على هذه القراءةِ: بل أدرَك عِلمُهم البعثَ في الآخرةِ حينَ يُبعَثُون، فلا يَنفعُهم عِلمُهم حينَئذٍ، فأمَّا في الدُّنيا فإنَّهم في شكٍّ مِن الآخرةِ. وقيل: المعنى: هل أدرَك عِلمُهم عِلمَ الآخرةِ؟ أي: لم يَعْلَموا حدوثَها وكَوْنَها. وقيل: المعنى: انتهَى وفنيَ. وقيل غيرُ ذلك[١].

٢- قراءةُ ﴿ٱدَّٰرَكَ﴾: ومعنَى الآيةِ على هذه القراءةِ: بل تكامَل عِلمُهم يومَ القيامةِ بأنَّ كلَّ ما وُعِدوا به حقٌّ. وقيل: المعنى: بل تدارَكَ ظَنُّهم وحَدْسُهم في الحُكمِ على الآخرةِ؛ فتارةً يقولونَ: إنَّها كائنةٌ، وتارةً يقولونَ: لا تكونُ. وقيل: القراءتانِ بمعنًى واحدٍ. وقيل غيرُ ذلك[٢].

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾.

أي: بل تكامَلَ عِلمُهم يومَ القيامةِ بأنَّ كُلَّ ما وُعِدوا به في الدُّنيا حَقٌّ واقِعٌ[٣].

---

= كثير)) (٦/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٩٤).

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٢٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٢). =

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَا﴾.

أي: بل المُشرِكون في الدُّنيا في شكٍّ مِن وجودِ الآخرةِ ووُقوعِ القيامةِ، فهُم لا يُوقِنونَ بالبَعثِ بعدَ الموتِ[1].

﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾.

أي: بل هم في الدُّنيا جاهِلون جَهلًا تامًّا بأمرِ الآخرةِ ووقوعِها، وما يكونُ فيها مِنَ الحِسابِ والجَزاءِ[2].

---

= وممَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: بل تكامَلَ عِلمُ المشركين يومَ القيامةِ حينَ عايَنوها بأنَّ كلَّ ما وُعِدوا به في الدُّنيا حقٌّ وواقعٌ في الآخرة: مقاتلُ بن سليمان، والزَّجَّاج، والأزهري، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

ذكر الماوَرْديُّ الخِلافَ في قولِه: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، وأنَّ فيه قولَين:

الأول: أنَّها صِفةُ ذمٍّ، فيكون المعنى: اضمحلَّ عِلمُهم، أو ضَلَّ وغابَ، أو لم يُدرِكْ عِلمُهم.

والثاني: أنَّها صفةُ حمدٍ لعِلمِهم، وإنْ كانوا مذمومينَ، فيكون المعنى على ذلك: أدرَكَ عِلمُهم، أو اجتَمع عِلمُهم، أو تلاحَقَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٢٤).

فعلى القولِ الأوَّلِ يكونُ المعنى: بل تَتابَعَ عِلمُ هؤلاء المشركين بشؤونِ البعثِ حتَّى اضمحَلَّ وفنيَ، ولم يَبْقَ لهم عِلمٌ بشَيءٍ ممَّا سيكونُ فيها قطعًا مع توافُرِ أسبابِه ومَباديه مِنَ الدَّلائلِ، وتكونُ (في) بمعنى الباءِ.

وعلى القولِ الثَّاني يكونُ المعنى: بل تكامَلَ عِلمُهم بشؤونِ الآخرةِ، حينَ يُعاينون ما أُعِدَّ لهم فيها مِن عذابٍ، بعدَ أن كانوا يُنكِرون البعثَ والحسابَ في الدُّنيا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٢٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

قال أبو علي الفارسي: (العَمِي عن عِلمِ الشَّيءِ أبعَدُ منه مِن الشَّاكِّ فيه؛ لأنَّ الشَّكَّ قد يَعرِضُ عن ضربٍ مِن النَّظَرِ، والعَمِي عن الشَّيءِ: الَّذي لم يُدرِكْ منه شيئًا). ((الحجة للقراء السبعة)) (٥/ ٤٠١).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تقدَّمَ أنَّ الله تعالى مُنفَرِدٌ بعِلمِ الغَيبِ -ومِن جملتِها وقتُ السَّاعةِ، وأنَّهم لا شعورَ لهم بوقتِها، وأنَّ الكفَّارَ في شكٍّ منها عَمُونَ- ناسبَ ذِكرُ مقالاتِهم في استبعادِها[1]!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ٦٧ ﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ: أئذا صِرْنا وآباؤنا ترابًا في القُبورِ أئِنَّا لَمُخرَجونَ يومَ القيامةِ أحياءً بعدَ مَوتِنا؟! هذا شَيءٌ لا يكونُ أبدًا[2].

﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٦٨ ﴾.

﴿ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ ﴾.

أي: قال المُشرِكون: لقد جاءَنا مِنْ قبْلِ محمَّدٍ مَن وَعَدنا وأسلافَنا بالبَعثِ كما وعَدَنا محمَّدٌ، ولم نَرَ لذلك حقيقةً[3]!

﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾.

أي: ما هذا الوَعدُ بالبَعثِ بعدَ الموتِ إلَّا أحاديثُ باطِلةٌ، وحِكاياتٌ مُختلَقةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٨).

قال القرطبي: (كان الأنبياءُ يقرِّبون أمرَ البَعثِ مُبالَغةً في التَّحذيرِ، وكُلُّ ما هو آتٍ فقريبٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٩).

سطَّرها الأقدَمون في كتُبِهم، وتلقَّفها مَن بعْدَهم، ولا صحَّة لذلك[١].

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: سافِروا في الأرضِ فانظُروا آثارَ الكُفَّارِ الَّذين كذَّبوا رُسلَ اللهِ، فأهلَكَهم اللهُ في آخِرِ أمرِهم؛ لِتَعتَبِروا وتَحذَروا أن يصيبَكم ما أصابَهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠، ١١].

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا دَهَم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِنَ الأسفِ على جلافتِهم في عَماهم عن السَّبيلِ الَّذي هدَى إليه الدَّليلُ، ما لا يعْلَمُه إلَّا اللهُ؛ قال[٣]:

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ولا تحزَنْ -يا محمَّدُ- على هؤلاء المُشرِكين، وإعراضِهم عنك، وتكذيبِهم بما جِئتَهم به مِن الحَقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يونس: ٦٥].

﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانوا لا يَقتَصِرون على التَّكذيبِ، بل يَبْغون للمؤمنينَ الغوائِلَ، ويَنصِبون الحبائِلَ؛ قال[1]:

﴿وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾.

أي: ولا يَضِقْ صدرُك -يا محمَّدُ- بسبَبِ مَكرِ الكافرين بك؛ فإنَّ مكرَهم يعودُ وَبالًا عليهم، واللهُ حافِظُك، وناصِرُك عليهم، ومُظهِرٌ دينَك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فيه أنَّ السَّائِرَ في الأرضِ يجبُ عليه أنْ يكونَ سيْرُه على سبيلِ التفكُّرِ والاتِّعاظِ، لا سيَّما إذا كان هذا المخاطَبُ مُعانِدًا؛ لأنَّ الآيةَ هنا ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يُخاطِبُ المعانِدِين الجاحِدِين؛ فإنه يجِبُ عليه أنْ يسيرَ وينظُرَ؛ لأنَّ هذا طريقٌ

---

= كثير)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

إلى هدايتِه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ هذا الأمرُ يكونُ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ولِغَيرِه؛ فكُلُّ مَن يدعو إلى شَريعةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّنا نوجِّهُ إليه هذا الخِطابَ، ونقولُ: إذا رأيتَ النَّاسَ لم يقبلوا فلا تحزَنْ، ولا تكُنْ في ضَيقٍ مِمَّا يَمكُرونَ، وإلَّا فإنَّ أعداءَ الرُّسلِ سوف يَمكُرونَ بالدُّعاةِ إلى دينِ الرُّسلِ، يَبُثُّونَ ضِدَّهم الدِّعاياتِ، وسوف يُؤْذونَهم بالقَولِ، ويُسمِعونَهم ما يَكرَهون، ورُبَّما يُؤذونَهم بالفِعلِ، والإنسانُ عليه أن يَصبِرَ.

فالدَّاعي إلى اللهِ إذا بَذَل ما يجبُ عليه، فلا ينبغي أنْ يَحزَنَ لمخالفةِ الناسِ؛ لأنَّه إذا حَزِنَ فإنَّه يَيأسُ ويَستحسِرُ، ولا يَنشرِحُ صدرُه، ولا تَنبسِطُ نفْسُه، ويَعوقُه ذلك عن الدَّعوةِ إلى اللهِ، لكنْ على الدَّاعي أن يدعوَ إلى الله، ويسيرَ في طريقِه على حسَبِ ما أُمِر، فإنِ اهتدى النَّاسُ فلَه ولهم، وإنْ لم يَهتدوا فلَه وعليهم[٢].

٣- الحُزنُ لم يَأمرِ اللهُ به ولا رَسولُه، بل قد نُهِيَ عنه في مواضِعَ -وإن تَعلَّق أمرُ الدِّينِ به- كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾، وكقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ وذلك أنَّه لا يَجلِبُ منفعةً، ولا يَدفَعُ مَضرَّةً، ولا فائدةَ فيه، وما لا فائدةَ فيه لا يأمرُ اللهُ به[٣]. ولم يأتِ الحزنُ في القرآنِ إلَّا منهيًّا عنه، أو مَنفيًّا؛ فالمنهيُّ عنه كما في الآيتَينِ السَّابقتَينِ، والمنفيُّ كقولِه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. وسِرُّ ذلك أنَّ الحزنَ مُوقِفٌ غيرُ مسَيِّرٍ، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٤٢).

مصلحةَ فيه للقلبِ، وأحَبُّ شَيءٍ إلى الشَّيطانِ أن يَحزُنَ العبدَ لِيَقطعَه عن سَيرِه، ويوقِفَه عن سلوكِه[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ دَلالةٌ على أنَّه تعالى هو المنفرِدُ بعِلمِ الغَيبِ[٢]، فكلُّ إنسانٍ يدَّعي عِلْمَ الغيبِ فإنَّه كافرٌ، وكلُّ إنسانٍ يُصدِّقُه في ذلك فإنَّه كافرٌ؛ لأنَّ الله تعالى يقولُ: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾[٣].

٢- قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ هذا هو الغيبُ المُطْلَقُ عن جميعِ المخلوقينَ الَّذي اللهُ قال فيه: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾. والغيبُ المُقَيَّدُ: ما عَلِمه بعضُ المخلوقاتِ مِن الملائكةِ أو الجنِّ أو الإنسِ وشَهِدوه، فإنَّما هو غيبٌ عمَّن غاب عنه، ليس هو غيبًا عمَّن شهِده. والناسُ كلُّهم قد يَغيبُ عن هذا ما يَشهَدُه هذا، فيكونُ غيبًا مقيَّدًا، أي: غيبًا عمَّن غاب عنه مِن المخلوقينَ، لا عمَّن شَهِده، ليس غيبًا مُطْلَقًا غاب عن المخلوقينَ قاطبةً[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ الذي لا يريدُ الحقَّ يكونُ له -باعتبارِ قَبولِه- مراتِبُ بعضُها أشدُّ مِن بعضٍ، أي: أنَّه ينتَقِلُ مِن الأدنَى إلى الأعلَى؛ ولهذا قال أهلُ العِلمِ: إنَّ المعاصيَ بريدُ الكُفرِ، أي: أنَّه ينتَقِلُ بها الإنسانُ مِن مرحلةٍ إلى مرحلةٍ كما ينتَقِلُ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٠، ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٩٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١١٠).

البريدُ، فالإنسانُ إذا فعَلَ مَعصيةً -سواءٌ كانت اعتقاديَّةً أو عمليَّةً- فإنَّ الشيطانَ يتدرَّجُ به مِن الأدنَى إلى الأعلَى حتَّى يَصِلَ -والعياذُ بالله- إلى الكُفرِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ تلبيسُ أهلِ الضَّلالِ للحقِّ بالباطلِ؛ لأنَّهم أنكَروا البعثَ، واحتجُّوا بشُبهةٍ لا تُغْنيهم مِن الحقِّ شيئًا، حيثُ يقولون: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ نُخرَجُ؟! فهذه الشُّبهةُ إنَّما تَنطَلي على الجُهَّالِ، أمَّا على أهلِ العلمِ والبصيرةِ فلا تنطَلي[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ العِبرةَ بالعاقبةِ لا بالمبتدأ؛ لقَولِه: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾، فإذا رأيتَ هذا المجرمَ قد نُعِّمَ فلا تَظُنَّ أنَّه على حقٍّ، بلِ المعتبَرُ العاقِبةُ، وستكونُ عاقبتُه وَخيمةً[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقُلْ: «كيف كانت عاقبةُ المجرمين»؟

**الجوابُ**: لأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ، ولأنَّ المعنى: كيف كان آخِرُ أمْرِهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ: «عاقبةُ الكافرين»؟ الجوابُ: الغرضُ أنْ يَحصلَ التَّخويفُ لكلِّ العُصاةِ[٥].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فيه عنايةُ اللهِ تعالى بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالتَّسليةِ والتَّفريجِ عنه؛ وجْهُ ذلك: أنَّ نهيَه عن أنْ يكونَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٦٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ضَيْقٍ معناه: أنَّ مَكرَهم لا يَضُرُّه، وإنْ ضاقت به نفْسُه؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ﴾ أي: لا يهمَّك أمْرُهم، ولا تَضِقْ منه؛ فإنَّ لَدَيْنا ما هو أعظمُ؛ قال تعالى: ﴿وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾[1] [الأنفال: ٣٠].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾

- أبطلَتْ هذه الآيةُ مَزاعمَ مُشركي قُريشٍ إبطالًا عامًّا، مِعيارُه الاستثناءُ بقولِه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو عامٌّ مُرادٌ به الخُصوصُ، أي: خصوصُ الكُهَّانِ وسَدنةِ بُيوتِ الأصنامِ؛ وإنَّما سُلِكَ مَسلكُ العمومِ لإبطالِ ما عسَى أنْ يُزعَمَ مِن ذلك، ولأنَّ العمومَ أكثرُ فائدةً وأوجَزُ؛ فإنَّ ذلك حالُ أهلِ الشِّركِ مِن بيْنِ مَن في السَّمواتِ والأرضِ؛ فالقصدُ هنا تَزييفُ آثارِ الشِّركِ، وهو الكِهانةُ ونَحوُها. وإذ قد كانت المخلوقاتُ لا يَعْدُون أنْ يَكونوا مِن أهلِ السَّمواتِ أو مِن أهلِ الأرضِ -لانحصارِ عوالِمِ الموجوداتِ في ذلك-؛ كان قولُه: ﴿لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ﴾ في قوَّةِ: لا يَعلَمُ أحدٌ الغيبَ، ولكنْ أُطنِبَ الكلامُ؛ لقَصدِ التَّنصيصِ على تَعميمِ المخلوقاتِ كلِّها؛ فإنَّ مَقامَ عِلمِ العقيدةِ مَقامُ بَيانٍ يُناسِبُه الإطنابُ[2].

- وهو سُبحانَه قال: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن﴾، ولم يقُلْ: «ما»؛ فإنَّه لَمَّا اجتمَع ما يَعقِلُ وما لا يَعقِلُ، غُلِّب ما يَعقِلُ، وعُبِّر عنه بـ «مَن»؛ لِتكونَ أبلَغَ؛ فإنَّهم مع كَونِهم مِن أهلِ العِلمِ والمعرفةِ لا يَعلَمُ أحدٌ منهم الغَيبَ إلَّا اللهُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١١٠).

- قولُه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ لَمَّا نَفى عِلمَ الغَيبِ عنهم على العموم، نَفى عنهم هذا الغيبَ المخصوصَ، وهو وقتُ السَّاعةِ والبعثِ، فصار مُنتفِيًا مرَّتينِ؛ إذ هو مُندرِجٌ في عمومِ الغَيبِ، ومَنصوصٌ عليه بخُصوصِه[١].

- وأيضًا أردَفَ هذا الخبرَ بإدماجِ انتفاءِ عِلْمِ هؤلاء الزَّاعمينَ عِلْمَ الغَيبِ أنَّهم لا يَشعُرون بوَقتِ بَعثِهم، بلْ جَحَدوا وُقوعَه؛ إثارةً للتَّذكيرِ بالبعثِ؛ لشِدَّةِ عِنايةِ القرآنِ بإثباتِه وتَسفيهِ الذين أنْكَروه؛ فذلك مَوقعُ قولِه: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾، أي: إنَّ الذين يَزعُمون عِلْمَ الغيبِ ما يَشعُرون بوَقتِ بَعثِهم، وهذا تَعييرٌ للمُشرِكين؛ فإنَّهم لا يُؤمِنون بالبعثِ، بَلْهَ شُعورِهم بوَقتِه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَاۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾

- (بَلْ) للإضرابِ الانتقاليِّ مِن الإخبارِ عنهم بـ (مَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ)، وهو ارتقاءٌ إلى ما هو أغرَبُ وأشدُّ؛ لَمَّا نفَى عنهم عِلْمَ الغيبِ، وأكَّدَ ذلكَ بنَفْيِ شُعورِهم بوَقْتِ مآلِهم لا مَحالةَ؛ بُولِغَ في تأْكيدِه وتَقريرِه بأنْ أضرَبَ عنْه، فقال: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ...﴾، وبيَّن أنَّهم في جَهلٍ أفحَشَ مِن جَهلِهم بوقْتِ بَعْثِهم، حيثُ لا يَعلَمونَ أحوالَ الآخرةِ مُطلقًا، مع تعاضُدِ أسبابِ مَعرِفتِها، وهذا على أنَّ معنى ﴿ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: تَدارَكَ وتتابَعَ عِلْمُهم في شأنِ الآخرةِ التي ما ذُكِرَ مِن البعثِ حالٌ مِن أحوالِها حتَّى انقطَعَ، ولم يَبْقَ لهم عِلمٌ بشَيءٍ ممَّا سيَكونُ فيها قطْعًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠).

- وقيل: الإضرابُ في قولِه: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ ...﴾ إضرابٌ عن نفْيِ الشُّعورِ بوقْتِ القيامةِ عنهم إلى وَصْفِهم باستحكامِ عِلمِهم في أمْرِ الآخرةِ؛ تَهكُّمًا بهم، فيكونُ وصْفًا لهُم بالجهْلِ مُبالَغةً(١).

- وهذه الإضراباتُ الثَّلاثُ ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ ما هي إلَّا تَنزيلٌ لأحوالِهم؛ وَصَفَهم أوَّلًا بأنَّهم لا يَشعُرون وقْتَ البعثِ، ثمَّ بأنَّهم اضْطَرَبَ عِلمُهم في الآخرةِ، أو تَقلَّدَ خَلَفُهم ما لَقَّنَه سَلَفُهم، أو أنَّهم انْتَفى عِلْمُهم في الآخرةِ -على بعضِ الأقوالِ في التَّفسيرِ-، ثمَّ بأنَّهم يَخبِطون في شَكٍّ ومِرْيةٍ، فلا يُزيلونه، والإزالةُ مُستطاعةٌ! ثمَّ بما هو أسْوَأُ حالًا، وهو العَمَى، وأنْ يكونوا مِثلَ البَهيمةِ قد عَكَفوا هَمَّهمْ على بَطْنِهم وفُروجِهم، لا يَخطُرُ ببالِهم حقًّا ولا باطلًا، ولا يُفكِّرون في عاقبةٍ؛ فجاءتْ هذه الانتقالاتُ مُتدرِّجةً مُتصاعِدةً، حتَّى لو قِيل: (بلِ ادَّاركَ عِلْمُهم في الآخرةِ، فهمْ في شَكٍّ منها، فهمْ منها عَمُون) لَحصَلَ المرادُ، ولكنْ جاءت طريقةُ التَّدرُّجِ بالإضرابِ الانتقاليِّ أجزَلَ وأبهَجَ وأروَعَ، وأدلَّ على أنَّ كلًّا مِن هذه الأحوالِ المُترتِّبةِ جَديرٌ بأنْ يَعتبِرَ فيه المُعتبِرُ باستقلالِه، لا بكونِه مُتفرِّعًا على ما قبْلَه(٢).

- قولُه: ﴿بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ الخبرِ ودَوامِه، وجِيءَ بالظَّرفيةِ (مِن)؛ للدَّلالةِ على إحاطةِ الشَّكِّ بهم. و﴿عَمُونَ ﴾ مِن العَمى، صاغوا -أي: العَربُ- له مِثالَ المُبالَغةِ؛ للدَّلالةِ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧).

(٢) يُنظَر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢، ٢٣).

على شِدَّةِ العمَى، وهو تَشبيهُ عَدَمِ العلْمِ بالعَمى، وعادِمِ العلْمِ بالأعْمى[١].

- قولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ في الكلامِ مُضافٌ مَحذوفٌ، تَقديرُه: مِن إنكارِ وُجودِها عَمُونَ؛ فالمَجرورُ مُتعلِّقٌ بـ﴿عَمُونَ﴾. وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ بهذا المُتعلِّقِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[٢].

- قولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ مِّنۡهَا عَمُونَ﴾ جعَلَ الآخرةَ مَبدَأَ عَماهُم ومَنشَأَه -على أنَّ معنى «من» في ﴿مِّنۡهَا﴾ في الموضعَينِ الابتِداءُ-؛ فلذلك عدَّاهُ بـ (مِن) دونَ (عنْ)؛ لأنَّ الكفْرَ بالعاقبةِ والجزاءِ هو الذي جَعَلَهم كالبَهائمِ لا يَتدبَّرون ولا يَتبصَّرون، ومَن لم يَصرِفْهُ خَوفُ العاقبةِ فعَل ما يقتضيه هَواهُ وشَهوتُه، ودخَل في زُمرةِ البهائمِ. وفي هذا شائبةٌ مِن معنى السَّببيَّةِ، وأنَّ الكفرَ بالآخرةِ سببٌ للعمى[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبٗا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ﴾ بَيانٌ لِجَهلِهم بالآخرةِ وعَمَهِهم منها بحِكايةِ إنكارِهم للبَعثِ[٤]. وأعقَبَ وَصْفَ عَمايةِ الزَّاعمينَ عِلْمَ الغَيبِ بذِكْرِ شُبهتِهم التي أرَتْهم البعثَ مُستحيلَ الوُقوعِ؛ ولذلك أُسنِدَ القَولُ هنا إلى جميعِ الَّذين كَفَروا دونَ خُصوصِ الَّذين يَزعُمون عِلْمَ الغيبِ؛ ولذلك عُطِفَت الجُملةُ بالواوِ؛ لأنَّها غايرَتِ الَّتي قبْلَها بأنَّها أعَمُّ[٥].

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ...﴾ فيه التَّعبيرُ عنهم باسمِ الموصولِ؛ لِمَا في الموصولِ مِن الإيماءِ إلى علَّةِ قَولِهم هذه المقالةَ، وهي ما أفادَتْه الصِّلةُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢، ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٧٢، ٥٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤).

كَونِهم كافرينَ؛ فكأنَّه قِيل: وقالوا بكُفرِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ إلى آخِرِه[١].

- قولُه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ الاستفهامُ بمَعنى الإنكارِ؛ أتَوا بالإنكارِ في صُورةِ الاستِفهامِ لتَجهيلِ مُعتقِدِ ذلك، وتَعجيزِه عن الجوابِ بزَعمِهم. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ لِمُجاراةِ كلامِ المردودِ عليه بالإنكارِ، والتَّأكيدُ تَهكُّمٌ[٢].

- وتَكريرُ حرفِ الاستِفهامِ بإدخالِه على (إذا) و(إنَّ) جميعًا إنكارٌ على إنكارٍ، وجحودٌ عَقِيبَ جُحودٍ، ومُبالَغةٌ في كَونِ ذلك لا يكونُ، ودليلٌ على كُفرٍ مُؤكَّدٍ مُبالَغٍ فيه[٣]؛ فتَكريرُ الهمزةِ في ﴿أَئِنَّا﴾ لِلمُبالَغةِ والتَّشديدِ في الإنكارِ. وأيضًا تَحليةُ الجُملةِ بـ (إنَّ) واللَّامِ لتَأكيدِ الإنكارِ، لا لإنكارِ التَّأكيدِ كما يُوهِمُه ظاهرُ النَّظمِ؛ فإنَّ تَقديمَ الهمزةِ لاقتضائِها الصَّدارةَ[٤].

- وتَقْييدُ الإخراجِ بوَقتِ كونِهم تُرابًا في قولِه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ ليس لتَخصيصِ الإنكارِ بالإخراجِ حينَئذٍ فقط؛ فإنَّهم مُنكِرون للإحياءِ بعدَ الموتِ مُطلقًا وإنْ كان البَدَنُ على حالِه، بلْ لتَقويةِ الإنكارِ بتَوجيهِه إلى الإخراجِ في حالةٍ مُنافيةٍ له[٥].

٤- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتَقريرِ الإنكارِ، وتَصديرُه بالقسَمِ ﴿لَقَدْ﴾؛ لمَزيدِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

التَّأكيدِ[١].

- وقد تقدَّمَ في سُورةِ (المؤمنون) حِكايةُ مِثلِ هذه المقالةِ عن الذين كَفَروا، إلَّا أنَّ اسمَ الإشارةِ الأوَّلَ ﴿هَٰذَا﴾ وقَعَ مُؤخَّرًا عن ﴿نَحْنُ﴾ في سُورةِ (المؤمنون) إذ فيها: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ [المؤمنون: ٨٣]، ووقَعَ مُقدَّمًا عليه هنا: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ﴾، وتَقديمُه وتأخيرُه سواءٌ في أصلِ المعنى؛ لأنَّه مفعولٌ ثانٍ لـ ﴿وُعِدْنَا﴾ وقَعَ بعْدَ نائبِ الفاعلِ في الآيتينِ. ووَجْهُ تَقديمِه على تَوكيدِ الضَّميرِ الواقعِ نائبًا عن الفاعلِ: أنَّ التَّقديمَ دليلٌ على أنَّ المُقدَّمَ هو الغرضُ المُعتمَدُ بالذِّكرِ وبسَوقِ الكلامِ لأجْلِه؛ فإنَّ ما وقَعَ في سُورةِ (المؤمنون) كان بوَضعِ المنصوبِ بعدَ المرفوعِ، وذلك مَوضِعُه. وأمَّا ما في سُورةِ (النَّملِ)؛ فقُدِّمَ المنصوبُ على المرفوعِ لكونِه فيها أهَمَّ؛ يَدُلُّك على ذلك أنَّ الذي قبْلَه: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ﴾، والذي قبْلَ آيةِ سُورةِ (المؤمنون): ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا﴾ [المؤمنون: ٨٢]؛ فالجِهةُ المنظورُ فيها في سُورةِ (المؤمنون) هي كونُ أنفُسِهم تُرابًا وعظامًا، والجِهةُ المنظورُ فيها هنا في سُورةِ (النَّملِ) هي كونُ أنفُسِهم وكونُ آبائهم تُرابًا، لا جزءَ هناك مِن بِناهم (جمعُ بِنْيَةٍ) باقيًا على صُورتِه الَّتي كان عليها وهو حيٌّ. ولا شُبهةَ أنَّها أدخَلُ عندَهم في تَبعيدِ البعثِ؛ فاسْتلزَمَ زِيادةَ الاعتِناءِ بالقصْدِ إلى ذِكْرِه، فصيَّرَه هذا العارِضُ أهَمَّ؛ فقد حكَتْ كلُّ آيةٍ أُسلوبًا مِن مقالِهم، وحصَلَ في الاختلافِ بيْنَ أُسلوبِ الآيتينِ تفنُّنٌ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٦٩)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي =

- قولُه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ تَقريرٌ إثرَ تَقريرٍ[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تهديدٌ لهم على التَّكذيبِ، وتَخويفٌ بأنْ يَنزِلَ بهم مِثلُ ما نزَلَ بالمُكذِّبين قبْلَهم، وأراد بالمُجرِمينَ: الكافرين، وإنَّما عُبِّرَ عن الكُفرِ بلَفظِ الإجرامِ؛ ليَكونَ لُطفًا للمُسلِمينَ في تَركِ الجرائمِ وتخوُّفِ عاقبتِها؛ ألَا تَرى إلى قولِه: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وقولِه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾[2] [نوح: ٢٥].

- وفُصِلَت هذه الجُملةُ ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ -أي: لم تُعطَفْ على ما قبْلَها-؛ لأنَّها أمْرٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ لهم هذه الكلمةَ[3].

- وفيه مُناسبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وقال في سُورةِ (الأنعام): ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، والمُناسَبةُ في الموضعينِ هي الموعظةُ بحالِ المُكذِّبين؛ لأنَّ إنكارَهم البعثَ تَكذيبٌ للرَّسولِ وإجرامٌ، والوعيدُ بأنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم، إلَّا أنَّها هنالك عُطِفَت بـ﴿ثُمَّ ٱنظُرُوا۟﴾

---

= جعفر الغرناطي (٢/ ٣٦٩)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٢/ ١٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٧٣، ٥٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥، ٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦).

[الأنعام: ١١]، وهنا بالفاءِ ﴿فَٱنظُرُواْ﴾، وذُكِرَ هنالك عاقبةُ المُكذِّبين، وذُكِرَ هنا عاقبةُ المُجرِمين، والمُكذِّبون مُجرِمون؛ والاختلافُ بيْنَ الحكايتينِ للتَّفنُّنِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦).

## الآيات (٧١-٧٥)

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَدِفَ لَكُم﴾: أي: اقتَرَب لكم، ودنا منكم، وأصلُ (ردف): يدُلُّ على اتِّباعِ الشَّيءِ[1].

﴿تُكِنُّ﴾: أي: تُخفي، مِن أكننتُ الشَّيءَ: إذا ستَرْتَه وصُنتَه، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن استبعادِ المشركينَ ليومِ القيامةِ، فيقولُ: ويَقولُ المُشرِكون: متى هذا الوعدُ بالعذابِ إن كنتُم صادقين في قَولِكم؟!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه بالرَّدِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: قد دنا لكم بعضُ ما كنتُم تَستَعجِلونَه مِن العذابِ.

ثمَّ يبيِّنُ سبحانَه بعضَ مظاهرِ فضلِه على النَّاسِ وشمولِ عِلمِه، فيقولُ: وإنَّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

ربَّك -يا محمَّدُ- لَذو فَضلٍ على النَّاسِ بعدَم تَعجيلِ عِقابِهم، والإحسانِ إليهم مع ظُلمِهم، ولكنَّ أكثَرَهم لا يَشكُرونَ اللهَ على ما أنعَمَ عليهم.

وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لَيعلَمُ ما يُخفونَه في صُدورِهم وما يُظهِرونَه، وما مِن شَيءٍ غائبٍ في السَّماءِ والأرضِ إلَّا يَعلَمُه اللهُ، وهو مُثبَتٌ في اللَّوحِ المَحفوظِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: ويقولُ المُشرِكون: متى سيأتينا عَذابُ اللهِ -يا محمَّدُ- إنْ كنتُم صادِقينَ فيما تَعِدونَنا به مِن العذابِ[1]؟!

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا استعجلَتْ قُرَيشٌ بأمرِ الساعةِ، أو بالعذابِ الذي وُعِدوا به، وسألوا عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

وممَّن فسَّر الوعدَ المذكورَ بالعذابِ: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ أيضًا: مقاتلُ بنُ سليمان، ويحيى بنُ سلام. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٦١).

وقيل: المرادُ به: وُقوعُ البعثِ بعدَ الموتِ ومجيءُ يومِ القيامةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: السمرقنديُّ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: العذابُ، والسَّاعةُ، والبعثُ، والمجازاةُ: ابنُ عطية، والبِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٢).

وقتِه على سبيلِ الاستِهزاءِ، قيل له: (قلْ: عسى أنْ يكونَ رَدِفَكم بعضُه)[١].

﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: قد دنا لكم[٢] بعضُ العذابِ الَّذي تَستعجِلونَ وُقوعَه[٣].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لَذو فَضلٍ كبيرٍ على النَّاسِ، بإمهالِهم والإحسانِ إليهم مع ظُلمِهم أنفُسَهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٥).

(٢) قال ابن عطية: (ورَدِفَ معناه: قرُب وأَزِفَ، قاله ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه، ولكنَّها عبارةٌ عمَّا يجيءُ بعْدَ الشَّيءِ قريبًا منه، ولِكَونِه بمعنَى هذه الأفعالِ الواقعةِ تعدَّى بحرفٍ، وإلَّا فبابُه أن يَتجاوَزَ بنفْسِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٦٩).

وقال ابن كثير: (إنَّما دخَلت «اللام» في قولِه: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾؛ لأنَّه ضُمِّن معنى «عَجِل لكم»، كما قال مجاهدٌ في روايةٍ عنه: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾: عجِل لكم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩).

وقال البِقاعي: (ولَمَّا قصَر الفعلَ وضمَّنه معنى ما يَتعدَّى باللَّامِ لأجْلِ الاختصاصِ قال: ﴿لَكُم﴾، أي: لأجْلِكم خاصَّةً). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وهذا إشارةٌ إلى ما سيحُلُّ بهم يومَ بدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

وممَّن قال بنحوِ ذلك: الواحديُّ، والزمخشري، والقرطبي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن =

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه، ويُشرِكون معه غيرَه في العبادةِ، ويَستعجِلونَ عَذابَه[1].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الإمهالُ قد يكونُ مِن الجَهلِ بذُنوبِ الأعداءِ، قال نافيًا لذلك[2]:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ ٧٤﴾.

أي: وإنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- لَيعلَمُ ما يُخفونَه في قُلوبِهم، وما يُظهِرونَه مِن أقوالِهم وأفعالِهم، لا يخفَى عليه منها شَيءٌ[3].

﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ ٧٥﴾.

---

= كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٢٨).

قال البقاعي: (﴿صُدُورُهُمۡ﴾ أي: النَّاسِ كلِّهم، فضلًا عن قومِك). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢١١).

وقال الألوسي: (﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ أي: ما تُخفيه مِن الأسرارِ الَّتي مِن جُملتِها عداوتُك ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ أي: وما يُظهِرونَه مِن الأقوالِ والأفعالِ الَّتي من جُملتِها ما حُكيَ عنهم؛ فليس تأخيرُ عُقوبتِهم لخَفاءِ حالِهم عليه سُبحانَه؛ فيُجازيهم على ذلك). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٢٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٥).

أي: وما مِن شَيءٍ مَخفيٍّ عن العبادِ في السَّماءِ والأرضِ إلَّا يَعلَمُه اللهُ، وهو مثبَتٌ في كتابٍ واضحٍ بيِّنٍ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٩)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

قال القرطبي: (ما مِن خَصلةٍ غائبةٍ عن الخَلقِ إلَّا واللهُ عالِمٌ بها، قد أثبَتَها في أمِّ الكتابِ عندَه، فكيف يخفى عليه ما يُسِرُّ هؤلاء وما يُعلِنونَه؟! وقيل: أيْ: كُلُّ شَيءٍ هو مُثبَتٌ في أمِّ الكتابِ، يُخرِجُه للأجَلِ المؤجَّلِ له، فالَّذي يَستعجِلونَه مِن العذابِ له أجَلٌ مَضروبٌ لا يتأخَّرُ عنه ولا يتقَدَّمُ عليه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١).

قال البيضاوي: (﴿مُّبِينٍ﴾ بيِّنٌ، أو مُبينٌ ما فيه لِمَن يُطالِعُه). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٧).

وقال ابنُ عجيبة: (المُبينُ: الظَّاهِرُ البَيِّنُ لِمَن ينظُرُ فيه مِن الملائكةِ. أو: مُبينٌ لِما فيه مِن تفاصيلِ المقدوراتِ. والله تعالى أعلمُ). ((البحر المديد)) (٤/ ٢١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مُّبِينٍ﴾: بيِّنٌ ظاهرٌ: مقاتلُ بن سليمان، وابن أبي زمنين، والواحدي، والزمخشري، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٣).

قال ابن جرير: (يعني بقولِه: ﴿مُّبِينٍ﴾ أنَّه يَبينُ لِمَنْ نَظَر إليه، وقَرَأ ما فيه مِمَّا أثْبَت فيه رَبُّنا جلَّ ثَناؤُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦).

وقال ابن عاشور: (والمُبينُ: المُفَصَّلُ؛ لأنَّ الشَّيءَ المُفَصَّلَ يكونُ بَيِّنًا واضحًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٩).

أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تحذيرُ هؤلاء -وغيرِهم أيضًا- مِن أنْ يُكِنُّوا في صدورِهم ما لا يَرضاه اللهُ، لأنَّ إخبارَ اللهِ بأنَّه يَعْلَمُ ذلك معناه التَّحذيرُ؛ أنْ نَحْذَرَ مِن أنْ نُكِنَّ في صُدورِنا ما لا يرضاه اللهُ عزَّ وجلَّ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ إبطالُ قَولِ مَن قال: «إنَّه لا نعمةَ للهِ على الكفارِ»[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أنَّ البلاءَ مُوكَلٌ بالمنطقِ، وأنَّ الإنسانَ إذا استعجلَ الشَّرَّ وَقَعَ فيه؛ لِقَولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ﴾، وعسى -كما قال ابنُ عبَّاسٍ- إذا جاءتْ في كلامِ اللهِ فهي للوُجوبِ[٣]؛ لأنَّ معناها التوقُّعُ، وأنَّ هذا أمرٌ قد حان وقتُه؛ إذْ إنَّ التَّرجِّيَ بالنِّسبةِ إلى اللهِ غيرُ ممكِنٍ؛ لأنَّ التَّرجِّيَ طلبُ ما فيه عُسرٌ، ولا شَيءَ عسيرٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٦). وينظر أيضًا: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٢٢-١٢٥)

٣- قَولُه تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ فيه سَعَةُ حِلْمِ اللهِ، فقد قال: ﴿بَعۡضُ﴾ دونَ الجميعِ، وهذا مِن حِلْمِ اللهِ تعالى على عبادِه[١].

٤- العقلُ يدُلُّ على وجوبِ شُكرِ المُنعِم؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ وهذا على سبيلِ الذَّمِّ، فيكونُ مَن لا يَشكرُ مذمومًا عقلًا ونقلًا[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ أشار بصِفةِ الرُّبوبيَّةِ المضافةِ إلى نبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى إمهالِهم؛ إحسانًا إليه، وتَشريفًا له[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ فيه أنَّ عِلْمَ اللهِ تعالى بما بَطَن كعِلْمِه بما ظَهَر؛ لقولِه: ﴿مَا تُكِنُّ﴾ و﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾، فلا فرقَ بيْنَ هذا وهذا عندَ اللهِ؛ فالآيةُ فيها بيانُ سَعَةِ عِلمِ اللهِ، وأنَّه لا يخفى عليه شَيءٌ[٤].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنۡ غَآئِبَةٖ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ فيه كتابةُ اللهِ تعالى كلَّ شيءٍ في اللَّوحِ المحفوظِ، ويَلزمُ مِن الكتابةِ العِلمُ؛ لأنَّه لا يُكتبُ المجهولُ[٥]! فالآيةُ فيها إثباتُ مرتبتَينِ مِن مراتبِ القضاءِ والقَدَرِ؛ هما: العِلمُ، والكتابةُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر أيضًا: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٩)، ((أعلام السنة المنشورة)) لحافظ حكمي (ص: ٧٨ - ٨٩).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ الرَّدُّ على القَدَرِيَّةِ الَّذين يُنكِرون القَدَرَ، ويقولون: إنَّ اللهَ لا يعلمُ ما يَعمَلُه العبادُ إلَّا بعدَ وُقوعِه منهم[1]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ فيه التَّعبيرُ بالمُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك القولِ منهم، أي: لم يَزالوا يقولونَ[2].

- قولُه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ الاستِفهامُ بـ﴿مَتَىٰ﴾ تَهكُّمٌ منهم؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أمَر اللهُ نَبيَّه بالجوابِ عن قولِهم؛ لأنَّ هذا مِن عِلْمِ الغَيبِ الَّذي لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ ومَن أطْلَعه على شَيءٍ منه مِن عِبادِه المُصطفَينَ. والجوابُ جارٍ على الأسلوبِ الحكيمِ بحمْلِ استِفهامِهم على حقيقةِ الاستفهامِ؛ تَنبيهًا على أنَّ حقَّهم أنْ يَسألوا عن وَقتِ الوعيدِ؛ لِيَتقدَّموه بالإيمانِ[4].

- قولُه: ﴿قُلْ عَسَىٰٓ...﴾ (عسى) و(لعلَّ) و(سوف) في وَعدِ الملوكِ ووَعيدِهم يَدُلُّ على صِدقِ الأمرِ وجِدِّه وما لا مَجالَ للشَّكِّ بعْدَه، وإنَّما يَعْنُون بذلك: إظهارَ وَقارِهم، وأنَّهم لا يَعجَلون بالانتقامِ؛ لإدلالِهم بقَهْرِهم وغَلَبتِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ووُثوقِهم أنَّ عَدُوَّهم لا يَفوتُهم، وأنَّ الرَّمزةَ إلى الأغراضِ كافيةٌ مِن جِهَتِهم؛ فعلى ذلك جَرى وعْدُ اللهِ ووَعيدُه(١).

- وإيثارُ ما عليهِ النَّظمُ الكريمُ على أنْ يُقالَ: (عَسى أنْ يَرْدَفَكم...) إلخ؛ لِكَونِه أدَلَّ على تَحقُّقِ الوعدِ(٢).

- قولُه: ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ فيه حذْفُ مُتعلَّقِ ﴿تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، والتَّقديرُ: تَستعجِلون به(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ مَوقِعُ هذا مَوقعُ الاستِدراكِ على قولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢]، أي: إنَّ تأخيرَ العذابِ عنهم هو مِن فضْلِ اللهِ عليهم. وهذا خبرٌ خاصٌّ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ تَنبيهًا على أنَّ تأخيرَ الوعيدِ أثَرٌ مِن آثارِ رَحمةِ اللهِ؛ لأنَّ أزمنةَ التَّأخيرِ أزمنةُ إمهالٍ، فهُم فيها بنِعمةٍ؛ لأنَّ اللهَ ذو فضْلٍ على النَّاسِ كلِّهم(٤).

- والتَّعبيرُ بـ ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ الفضلَ مِن شُؤونِه. وتَنكيرُ ﴿فَضۡلٍ﴾؛ للتَّعظيم. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) واللَّام منظورٌ فيه إلى حالِ النَّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فالتَّأكيدُ واقعٌ مَوقعَ التَّعريضِ بهم، بقَرينةِ قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ﴾. و(لكنَّ) استِدراكٌ ناشئٌ عن عُمومِ الفضلِ منه تعالى؛ فإنَّ عُمومَه وتَكرُّرَه يَستحِقُّ بأنْ يَعلَمَه النَّاسُ، فيَشْكُروه، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٨).

يَشْكُرون كهؤلاء الَّذين قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [النمل: ٧١]؛ فإنَّهم يَستعجِلون العذابَ تَهكُّمًا وتَعجيزًا في زَعمِهم، غيرَ قادرينَ قَدْرَ نِعمةِ الإمهالِ(١).

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [النمل: ٧٣] يُثيرُ سُؤالًا في نُفوسِ المؤمنينَ أنْ يَقولوا: إنَّ هؤلاء المُكذِّبين قد أضْمَروا المكْرَ وأعْلَنوا الاستِهزاءَ، فحالُهم لا يَقْتضي إمهالَهم. فيُجابُ بأنَّ الذي أمْهَلَهم مُطَّلِعٌ على ما في صُدورِهم وما أعْلَنوه، وأنَّه أمْهَلَهم مع عِلْمِه بهم؛ لِحكمةٍ يَعلَمُها. وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم يُكِنُّون أشياءَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وللمؤمنينَ. وهذا الاستئنافُ لَمَّا كان ذا جِهةٍ مِن معنَى وَصْفِ اللهِ بإحاطةِ العِلْم، عُطِفَت جُملتُه على جُملةِ وَصْفِ اللهِ بالفضلِ؛ فحصَلَ بالعطْفِ غرَضٌ ثانٍ مُهِمٌّ، وحصَلَ معنى الاستئنافِ البَيانيِّ مِن مَضمونِ الجُملةِ(٢).

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) واللَّام في قولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ ...﴾ مَنظورٌ فيه إلى حالِ النَّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فالتَّأكيدُ واقعٌ مَوقِعَ التَّعريضِ بهم. ويجوزُ أنْ يكونَ لتَنزيلِ السَّائلِ مَنزلةَ المُتردِّدِ؛ وذلك تَلويحٌ بالعِتابِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أسنَدَ الإعلانَ إلى ذَواتِهم؛ لأنَّ الإعلانَ مِن أفعالِ الجَوارحِ. ولَمَّا كان المُضمَرُ في الصَّدرِ هو الدَّاعيَ لِمَا يَظهَرُ على الجَوارحِ، والسَّببَ في إظهارِه؛ قُدِّمَ الإكنانُ على الإعلانِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٦).

وقيل: إنَّما قُدِّمَ الإسرارُ على الإعلانِ؛ للإيذانِ بافْتِضاحِهم، ووُقوعِ ما يَحْذَرونه مِن أوَّلِ الأمرِ، والمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلْمِه تعالى المُحيطِ لجَميعِ المعلوماتِ، كأنَّ عِلْمَه بما يُسِرُّونه أقْدَمُ منه بما يُعْلِنونه، مع كَونِهما في الحقيقةِ على السَّوِيَّةِ[1].

- وفيه: إيذانٌ بأنَّ لهم قبائحَ غيرَ ما يُظْهِرونَه، وأنَّه تعالى يُجازِيهم على الكلِّ[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤]، وهو في معنَى التَّذييلِ للجُملةِ المذكورةِ؛ لأنَّها ذُكِرَ منها عِلْمُ اللهِ بضَمائرِهم، فذُيِّلَ ذلك بأنَّ اللهَ يَعلَمُ كلَّ غائبةٍ في السَّماءِ والأرضِ، وإنَّما جاء مَعطوفًا؛ لأنَّه جديرٌ بالاستِقلالِ بذاتِه مِن حيثُ إنَّه تَعليمٌ لِصِفةِ عِلْمِ اللهِ تعالى، وتَنبيهٌ لهم مِن غَفْلتِهم عن إحاطةِ عِلْمِ اللهِ لِمَا تُكِنُّ صُدورُهم وما يُعلِنون[3].

- قولُه: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما مِن شَيءٍ سِرٍّ في السَّمواتِ والأرضِ وعلانيةٍ؛ فاكْتَفَى بذِكْرِ السِّرِّ عن مُقابِلِه. وسُمِّيَ الشَّيءُ الذي يَغِيبُ ويَخفى (غائبةً) و(خافيةً)؛ فكانتِ التَّاءُ فيهما بمَنزلتِها في (العاقبةِ) و(العافيةِ). ويجوزُ أنْ يَكونَا صِفَتينِ، وتاؤهما للمُبالَغةِ، كأنَّه قال: وما مِن شَيءٍ شديدِ الغَيبوبةِ والخفاءِ، إلَّا وقد عَلِمَه اللهُ وأحاط به[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١١٨، ٦/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧).

## الآيات (٧٦-٨٢)

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصُّمَّ﴾: جمعُ الأصَمِّ، وهو الَّذي لا يسمَعُ، والصَّمَمُ: فِقدانُ حاسَّةِ السَّمعِ، وبه يُوصَفُ مَن لا يُصغِي إلى الحقِّ ولا يَقْبَلُه، وأصلُ (صمم): يدُلُّ على تضامٍّ الشَّيءِ، وزوالِ الخرقِ والسمِّ (الثقبِ)[1].

﴿دَآبَّةً﴾: كلُّ شيءٍ دبَّ على وجهِ الأرضِ فهو دابَّةٌ، ويُطْلَقُ عُرفًا على الخَيلِ والحِمارِ والبغلِ، ويُستعملُ في كلِّ حيوانٍ، وأصلُ (دبب): حركةٌ على الأرضِ أخَفُّ مِنَ المشيِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مادحًا كتابَه الكريمَ: إنَّ هذا القرآنَ يُبيِّنُ لبني إسرائيلَ الحَقَّ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٢٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

في أكثَرِ ما يختَلِفون فيه، ولو اتَّبَعوه لاهتَدَوا به، وإنَّ هذا القرآنَ لَهُدًى ورحمةٌ للمُؤمنينَ.

ثمَّ يقولُ تعالى: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- سيَحكُمُ بيْنَ عبادِه المُختَلفينَ يومَ القيامةِ بحُكمِه العادِلِ، وهو العزيزُ في انتِقامِه، الغالِبُ القاهِرُ لعبادِه، العليمُ بكُلِّ شَيءٍ مِن أعمالِ العبادِ ونيَّاتِهم وغيرِ ذلك؛ فاعتَمِدْ -يا محمَّدُ- على اللهِ وَحْدَه، وفَوِّضْ جميعَ أمورِك إليه؛ إنَّك على الحقِّ الظَّاهِرِ الواضحِ.

إنَّك -يا محمَّدُ- لا تستطيعُ هدايةَ هؤلاءِ الكفَّارِ الَّذين أعرَضوا كلَّ الإعراضِ عن قَبولِ الحقِّ وسماعِه، فحالُهم كحالِ الموتَى الَّذين لا يُدرِكون، وكحالِ الصُّمِّ الَّذين لا يَسمعونَ. وما أنتَ -يا محمَّدُ- بهادي الكُفَّارِ الَّذين عَمُوا عن الحَقِّ، فرادِّهِم عن ضَلالِهم؛ إنَّك ما تُسمِعُ الحقَّ إلَّا الَّذين يُؤمِنون بآياتِنا، ويَنقادونَ للعَمَلِ بها خاضِعينَ مُخلِصينَ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى بعضَ أشراطِ السَّاعةِ وعلاماتِها، فيقولُ: وإذا نزَل الوعدُ بعذابِ هؤلاء الكافرينَ أخرَجْنا لهم دابَّةً مِنَ الأرضِ تُخاطِبُ الكافرينَ بأنَّ النَّاسَ كانوا لا يُؤمِنون بآياتِ اللهِ تعالى.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالى المبدأَ والمعادَ؛ ذَكَر ما يَتعلَّقُ بالنُّبوَّةِ، وكان المعتمَدُ الكبيرُ في إثباتِ نبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ هو القرآنَ، ومِن جملةِ إعجازِه إخبارُه بما

تضمَّنَ مِن القَصَصِ الموافقِ لِمَا في التَّوراةِ والإنجيلِ[١].

وأيضًا فللآيةِ مُناسَبةٌ بقولِه: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]؛ فإنَّ القرآنَ وحْيٌ مِن عندِ اللهِ إلى رسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فكلُّ ما فيه فهو مِن آثارِ عِلْمِ اللهِ تعالى، فإذا أراد اللهُ تَعليمَ المسلمينَ شيئًا ممَّا يَشتمِلُ عليه القرآنُ، فهو العِلْمُ الحقُّ إذا بلَغَتِ الأفهامُ إلى إدراكِ المُرادِ منه. ومِن ذلك ما اشتمَلَ عليه القرآنُ مِن تَحقيقِ أُمورِ الشَّرائعِ الماضيةِ والأُمَمِ الغابرةِ ممَّا خَبَطَتْ فيه كُتبُ بني إسرائيلَ خبْطًا، ولِمَا في القرآنِ مِن الأصولِ الصَّريحةِ في الإلهيَّاتِ ممَّا يَكشِفُ سُوءَ تأويلِ بني إسرائيلَ لِكَلِماتِ كِتابِهم[٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: إنَّ هذا القُرآنَ يُبيِّنُ لبني إسرائيلَ الحَقَّ في أكثَرِ ما يختَلِفونَ فيه، فلو اتَّبَعوه لاهتَدَوا[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ * قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٣).

وممَّا اختلفوا فيه: أمرُ عيسى عليه السَّلامُ، وقِصَّةُ عُزَيرٍ، وأحوالُ الجنَّةِ والنَّارِ، إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٢).

تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۞ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۞ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۞ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٢ - ٦٨].

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤].

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بان بما سبَق دليلُ عِلْمِه؛ أتْبَعه دليلَ فضْلِه وحِلْمِه[1].

﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٧٧﴾.

أي: وإنَّ القرآنَ لهُدًى مِن كلِّ ضلالةٍ، ومُوصِلٌ إلى المقصودِ، ورحمةٌ للمُؤمِنينَ العامِلينَ به، في دينِهم ودُنياهم وأُخْراهم[2].

كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُم بِحُكۡمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ٧٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا سَبَق ذِكْرُ المشركين بطَعْنِهم في القرآنِ، وتكذيبِهم بوعيدِه، وذِكْرُ بني

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

إسرائيلَ بما يقتضي طعْنَهم فيه، وذِكْرُ المؤمنينَ بأنَّهم اهتَدَوْا به؛ وكان لهم رحمةً فهُم مُوقِنونَ بما فيه؛ تَمَخَّض الكلامُ عن خلاصةٍ هي افتراقُ الناسِ في القرآنِ فريقَينِ: فريقٍ طاعِنٍ، وفريقٍ موقنٍ، فلا جَرَمَ اقتضى ذلك حدوثَ تدافُعٍ بيْنَ الفريقينِ، وهو ممَّا يُثيرُ في نفوسِ المؤمنينَ سؤالًا عن مدَى هذا التَّدافُعِ والتَّخالُفِ بينَ الفريقينِ، ومتى يَنكشِفُ الحقُّ[1]؟

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ سبحانه دليلَ فَضلِه؛ أتبَعَه دليلَ عَدلِه، فقال مستأنِفًا لجوابِ مَن ظَنَّ أنَّ فضْلَه دائمُ العمومِ على الفريقَينِ[2]:

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- سيَحكُمُ يومَ القيامةِ بيْنَ عِبادِه المُختَلِفينَ[3] بحُكمِه العادِلِ، ويُجازيهم بما يَستحِقُّون[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٣).

(٣) قيل: المرادُ بهم هنا: بنو إسرائيلَ الذين اختلفوا. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والقرطبي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٠، ٤٣١).

وقال يحيى بن سلام: (قولُه عز وجل: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ﴾ بيْنَ المؤمنينَ والكافرين في الآخرةِ؛ فيُدخِلُ المؤمنينَ الجنَّةَ، ويُدخِلُ الكافرين النَّارَ). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٦٣).

وقال السعدي: (إنَّ اللهَ تعالى سيَفصِلُ بيْنَ المُختصِمينَ، وسيَحكُمُ بيْنَ المُختلِفينَ بحُكمِه العدل، وقضائِه القِسْط، فالأمورُ وإنْ حصَل فيها اشتباهٌ في الدُّنيا بيْنَ المُختلفينَ لخفاءِ الدَّليلِ أو لبعضِ المَقاصِدِ، فإنَّه سيَبينُ فيها الحقُّ المُطابِقُ للواقِعِ حينَ يَحكُمُ اللهُ فيها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٠، ٤٣١).

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان القضاءُ يَقتضي تنفيذَ ما يَقضي به، والعِلمَ بما يَحكُمُ به؛ جاءت هاتان الصِّفتانِ عقِبَه[1]، فقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ في انتِقامِه، الغالِبُ القاهِرُ لعبادِه، المُمتَنِعُ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، العليمُ بكلِّ شَيءٍ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِ العبادِ ونيَّاتِهم وغيرِ ذلك، ويَعلَمُ ما يحكُمُ به بيْنَهم، ويُجازيهم بما يَستَحِقُّونَ[2].

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ثَبَت له العِلمُ والحِكمةُ، والعَظَمةُ والقُدرةُ؛ تسَبَّب عن ذلك قَولُه[3]:

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: فاعتَمِدْ -يا محمَّدُ- على اللهِ وَحْدَه، وثِقْ به، وفوِّضْ جميعَ أمورِك إليه[4].

﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾.

أي: إنَّك -يا محمَّدُ- على الحقِّ الظَّاهِرِ الواضِحِ غايةَ الوُضوحِ، فلا خَفاءَ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٦).

ولا اشتِباهَ، وإنْ خالَفَك مَنْ خالَفَك فلا يَحزُنْك تكذيبُ المُعرِضينَ وخِلافُهم، ولا يَضُرَّك ضَلالُهم، وامْضِ لِما أُمِرْتَ به؛ فإعراضُهم ليس عن خَلَلٍ في دعوتِك، وإنَّما الخَلَلُ في عقولِهم وإدراكِهم[1].

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾.

أي: إنَّك -يا محمَّدُ- لا تَهدي الكُفَّارَ الَّذين ماتت قلوبُهم بعْدَ أن خَتَم اللهُ عليها، فلا تَقدِرُ على إسماعِهم سَماعَ هُدًى ونَفعٍ وقَبولٍ يَستَجيبون معه للحَقِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المُرادَ بـ﴿ٱلْمُبِينِ﴾: الواضحُ البَيِّنُ الظَّاهرُ: مقاتلُ بن سليمان، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٩).

وقيل: ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ أي: المُظهِرِ لِمَن تدبَّرَ وجْهَ الصَّوابِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢).

قال البِقاعي: (﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أي: البَيِّنِ في نفْسِه، الموضحِ لغيرِه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢١٤).

لكنْ ذكر ابنُ عثيمين أنَّ الأنسَبَ تفسيرُ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ بالبَيِّنِ، على أنَّه مِن بانَ يَبينُ فهو بَيِّنٌ، فهذا الحقُّ بَيِّنٌ ظاهرٌ، لا تفسيرُه على أنَّه مِن أبانَ يُبينُ فهو مُبينٌ بمعنَى مُظهِر. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٩، ٤٤٠).

ويَنقادونَ إليه، إلَّا أن يَشاءَ اللهُ هِدايتَهم[١].

كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يَسۡمَعُ الصُّمُّ﴾ بالرَّفعِ، بجَعلِ المُعرِضينَ هم الفاعلينَ، أي: لا يَنقادُون للحقِّ؛ لِعنادِهم[٢].

٢- قِراءةُ ﴿تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ بالنَّصبِ، على الخِطابِ لِرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أي: إنَّك -يا محمَّدُ- لا تَقدِرُ أن تُسمِعَ دُعاءَك الصُّمَّ المُعرِضينَ عنك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٩٨)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((أهوال القبور)) لابن رجب (ص: ٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٤ - ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٤٥).

قيل: المرادُ أنَّهم موتى القلوبِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٤).

وقيل: هذا تشبيهٌ بالموتى في عدَمِ سماعِهم. وممَّن قال بذلك: ابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٤).

(٢) قرأ بها ابنُ كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٦)، ((الكشف)) لمكِّي (٢/ ١٦٥، ١٦٦).

﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾.

أي: ولا تَقدِرُ -يا محمَّدُ- أن تُسمِعَ الحَقَّ الكفَّارَ الَّذين أصَمَّ اللهُ آذانَهم، إذا أعرَضوا عن سَماعِ الحَقِّ وتدَبُّرِه[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾.

أي: وما أنتَ -يا محمَّدُ- بهادي الكُفَّارِ الَّذين عَمُوا عن الحَقِّ، فتُخرِجَهم مِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

أي: لا تَقدِرُ -يا محمَّدُ- على أن تُفهِمَ الحَقَّ أحَدًا إلَّا الذين يُؤمِنونَ بآياتِنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٨، ١١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

فيَسمَعونَها ويتفكَّرونَ فيها، ويَنقادونَ للعَمَلِ بها بإخلاصٍ وخُضوعٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٦].

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا فَرَغ سُبحانَه مِن عظيمِ زجْرِهم بتَسليتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ في أمْرِهم، وخَتَم بالإسلام؛ عَطَفَ عليه ذِكْرَ ما يُوعَدونَ مِمَّا تقَدَّمَ استِعجالُهم له استهزاءً به، وبدَأَ منه بالدَّابَّةِ الَّتي تُميِّزُ المسلمَ مِن غَيرِه[٢].

وأيضًا فبَعْدَ أنْ ذكَرَ سُبحانَه ما يدُلُّ على كمالِ عِلمِه وقُدرتِه، وأبانَ بعدَئذٍ إمكانَ البَعثِ والحَشرِ والنَّشرِ، ثمَّ فَصَّل القَولَ في إعجازِ القُرآنِ، ونبَّه بذلك إلى إثباتِ نبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ- أردَفَ ذلك ذِكرَ مُقَدِّماتِ القيامةِ وما يحدُثُ مِنَ الأهوالِ حينَ قيامِها[٣].

﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وإذا حلَّ الوَعدُ بالعذابِ والسَّخَطِ على الكافِرينَ[٤]، أخرَجْنا لهم دابَّةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ٢١).

(٤) وممَّن قال: إنَّ المرادَ بوُقوعِ القولِ: هو حلولُ العذابِ والسَّخَطِ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٩). =

مِنَ الأرضِ[١].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ:

---

= وممَّن اقتصر في تفسيرِه على العذابِ: مقاتلُ بن سليمان، والسمعاني، وابن عطية، وابن جُزَي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٨).

وممَّن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ: العذابُ: ابنُ عباس، ومجاهدٌ، وابنُ جريجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٩).

قال ابنُ جزي: (﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: إذا حانَ وقتُ عذابِهم الَّذي تضَمَّنه القولُ الأزَليُّ مِنَ الله في ذلك، وهو قضاؤُه، والمعنَى: إذا قرُبَتِ السَّاعةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٧).

وقال الشوكاني: (واختُلِفَ في معنَى وُقوعِ القولِ عليهم؛ فقالَ قتادةُ: وَجَب الغضبُ عليهم. وقالَ مجاهدٌ: حَقَّ القولُ عليهم بأنَّهم لا يؤمنونَ. وقيلَ: حَقَّ العذابُ عليهم. وقيلَ: وجَب السُّخْطُ. والمعاني مُتقاربةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٤).

ثمَّ قال مستكملًا باقيَ الأقوالِ: (وقيلَ: المرادُ بالقولِ ما نَطَق به القرآنُ مِنْ مجيءِ السَّاعةِ، وما فيها مِن فنونِ الأهوالِ الَّتي كانوا يَستعجِلونها، وقيل: وَقَع القولُ بموتِ العلماءِ وذهابِ العلمِ. وقيلَ: إذا لم يأمُروا بالمعروفِ ويَنهَوْا عن المنكَرِ). ((المصدر السابق)). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٦٩).

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

قال ابن عاشور: (رُوِيَت في وَصفِ هذه الدَّابَّةِ ووقتِ خروجِها ومكانِه: أخبارٌ مُضطَرِبةٌ ضَعيفةُ الأسانيدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٩).

((ثلاثٌ إذا خرَجْنَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إيمانُها لم تكُنْ آمَنَت مِن قَبْلُ أو كَسَبَت في إيمانِها خيرًا: طُلوعُ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، والدَّجَّالُ، ودابَّةُ الأرضِ))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((بادِروا بالأعمالِ سِتًّا: الدَّجَّالَ، والدُّخَانَ، ودابَّةَ الأرضِ، وطُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، وأمْرَ العامَّةِ(٢)، وخُوَيْصَّةَ أحَدِكم(٣))(٤).

وعن حُذيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: اطَّلَعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ علينا ونحن نَتَذاكَرُ، فقال: ((ما تَذاكَرون؟ قالوا: نَذْكُرُ السَّاعةَ، قال: إنَّها لن تَقومَ حتَّى تَرَوْنَ قَبْلَها عَشْرَ آياتٍ، فذكَرَ: الدُّخَانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، ونُزولَ عيسى ابنِ مريمَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ويَأجوجَ ومَأجوجَ، وثلاثةَ خُسوفٍ: خَسفٌ بالمشرِقِ، وخَسفٌ بالمغرِبِ، وخَسفٌ

---

(١) رواه مسلم (١٥٨).

قال الشنقيطي: (طلوعُ الشَّمسِ والدَّابَّةُ مُترادِفانِ، بيْنَهما قليلٌ، جاء في بعضِ الأحاديثِ أنَّ الشَّمسَ إذا طلَعت مِن مَغْرِبِها خرَجت الدَّابَّةُ ضُحًى [ينظر ما أخرجه مسلم (٢٩٤١) من حديث عبد الله بن عَمرٍو رضي الله عنهما، مرفوعًا]،... قال بعضُ العلماءِ: والحكمةُ في إتيانِ الدَّابَّةِ بعدَ الشَّمسِ: أنَّ الشمسَ إذا طلَعت مِن مَغرِبِها خُتِم على الأعمالِ، ولم يُقبَلْ مِن كافرٍ إيمانٌ، ولم يُقبلْ مِن عاصٍ توبةٌ، وانقطع تجديدُ إيمانٍ جديدٍ، أو تَوبةٍ جديدةٍ، فيُرسِلُ اللهُ بعدَ ذلك الدَّابَّةَ، فتَكتُبُ على جبهةِ كلِّ إنسانٍ: «سعيد» أو «شقي» يَعرِفُه مَن يَراه؛ لِتُبيِّنَ حالَ النَّاسِ عندَ انقطاعِ أعمالِهم: مَن هو الكافرُ منهم، ومَن هو السعيدُ؟). ((العذب النمير)) (٢/ ٥٩٧).

(٢) أمْر العامَّةِ: قيل: أي: الفِتنة الَّتي تَعُمُّ النَّاسَ، وقيل: القيامة؛ لأنَّه يَعُمُّ الخلائقَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٨٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٥٠).

(٣) خُوَيْصَّة: تصغيرُ خاصَّة، أي: الوقعة الَّتي تخُصُّ أحدَكم؛ قيل: يريدُ الموتَ، وقيل: هي ما يختصُّ به الإنسانُ مِن الشَّواغلِ المُتعلِّقةِ في نفْسِه ومالِه وما يهتَمُّ به، وصُغِّرَتْ؛ لاستِصغارِها في جنبِ سائرِ الحَوادثِ مِنَ البعثِ والحسابِ وغيرِ ذلك. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) (٨/ ٣٤٥٠).

(٤) رواه مسلم (٢٩٤٧).

بجزيرةِ العرب، وآخِرُ ذلك نارٌ تخرُجُ مِنَ اليَمَنِ، تَطرُدُ النَّاسَ إلى مَحْشَرِهم))[١].

﴿تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾.

أي: تخاطِبُ الدَّابَّةُ الكافرينَ[٢] بأنَّ[٣] النَّاسَ لا يُؤمِنونَ بآياتِ اللهِ تعالى إيمانًا

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠١).

(٢) ممَّن نصَّ على أنَّ معنى ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾: تُحَدِّثُهم: مقاتلُ بن سليمان، والفَرَّاء، والسمرقندي، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وابنُ عباسٍ في روايةٍ، وقَتادةُ، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠).

وقيل: معنى ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾: تَجرَحُهم، مِنَ الكَلْم: وهو الجَرْحُ، والتَّشديدُ على معنى التَّكثيرِ. وممَّن ذكر هذا المعنى: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٥).

وأنكر ابنُ عثيمين هذا المعنى وردَّه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥٩).

وذكر الأزهريُّ أن قراءة (تَكْلِمُهُم) مِن الكَلْم: شاذَّةٌ لا يُعرَّجُ عليها. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٤٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ١٤٧)، ((الكامل في القراءات)) للهذلي (ص: ٦١٣).

قال ابن كثير: (وقال ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ: تَجْرَحُهم. وعنه روايةٌ: قالَ: كُلًّا تَفعَلُ، يعني هذا وهذا. وهو قولٌ حسنٌ، ولا مُنافاةَ، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٢٦).

(٣) اختلف المفسِّرون في تفسير قَولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ ...﴾ فقيل: هو مِن كلامِ الدَّابَّةِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والسعدي، ونسبه ابن عثيمين إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٠).

وممَّن رُويَ عنه أنَّه قال بهذا القولِ مِن السلفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وابنُ عباس، وقتادة، وعطاء الخراساني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠). =

تامًّا لا شكَّ فيه ولا شُبهةَ[١].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إنَّما قصَّ عليهم أكثَرَ ما اختَلَفوا، وهو ما في بيانِ الحَقِّ منه نفعٌ للمُسلِمينَ، وأعرَض عمَّا دُونَ ذلك، وأكثَرُ الَّذي يختَلِفونَ فيه هو ما جاء في القُرآنِ مِن إبطالِ قَولِهم فيما يَقتضي إرشادُهم إلى الحَقِّ أن يُبيَّنَ لهم، وغيرُ الأكثَرِ ما لا مَصلَحةَ في بيانِه لهم[٢]، وما لا فائدةَ مِن ذِكْرِه، أو ما لا داعيَ

---

= لكنْ قال ابنُ كثيرٍ: (وفي هذا القولِ نظرٌ لا يخفَى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠).

وممَّن جعَله تعليلًا لخروج الدَّابَّةِ، أي: أنَّنا أخرَجْناها؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا بآياتِنا لا يوقِنون: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٨).

وفي ﴿أَنَّ﴾ قراءاتان: قراءةٌ بفتحِ الهمزةِ، وقرأ بها عاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ، وقراءةٌ بكسر الهمزة، وقرأ بها الباقون، قال السمرقنديُّ: (فمَن قرَأ بالنَّصبِ، يكونُ حكايةَ قولِ الدَّابَّةِ، ومعناه: تُكلِّمُهم بأنَّ النَّاسَ كانوا بآياتِنا لا يوقِنونَ، أي: لا يؤْمِنون بآياتِ ربِّهم، وهي خروجُ الدَّابَّةِ. ومَن قرَأ بالكسرِ يكونُ بمعنَى الابتِداءِ، ويتِمُّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾، ثمَّ يقولُ الله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾). ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٢). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((المحتسب)) لابن جِنِّي (٢/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

مِنَ المفسِّرينَ مَن قصَرَ معنى الآياتِ هنا على خروجِ الدَّابَّةِ. ومنهم: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٢).

وقال ابنُ جُزَي: (يحتَمِلُ قَولُه: ﴿لَا يُوقِنُونَ﴾ بخروجِ الدَّابَّةِ، ولا يوقِنونَ بالآخِرةِ وأمورِ الدِّينِ، وهذا أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٠، ٣١).

لذِكْرِه، ويُستفادُ مِن ذلك أنَّه ينبغي أنْ يُعتنَى بما هو مهِمٌّ؛ ويُترَكَ ما لا فائدةَ منه؛ لأنَّه إضاعةٌ للوقتِ، وتطويلٌ للكلامِ بلا فائدةٍ؛ لأنَّه لم يَقُصَّ عليهم جميعَ ما يَختلفون فيه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ بيانُ أنَّ المُحِقَّ حقيقٌ بنُصرةِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يُخذَلُ[٢]. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الَّذي يَعلَمُ أنَّ الحقَّ في جانِبِه حقيقٌ بأنْ يَثِقَ بأنَّ اللهَ مُظهِرٌ حقَّه ولو بعْدَ حينٍ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ أنَّ كَوْنَ العبدِ على الحقِّ يقتضي تحقيقَ مقامِ التَّوكُّلِ على اللهِ، والاكتِفاءَ به، والإيواءَ إلى رُكنِه الشَّديدِ؛ فإنَّ اللهَ هو الحقُّ، وهو وَلِيُّ الحقِّ وناصرُه ومُؤيِّدُه، وكافي مَن قام به[٤].

٤- في ذِكْرِ أمْرِه سُبحانَه بالتَّوكُّلِ، مع إخبارِه بأنَّه على الحقِّ في قَولِه تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾، دَلالةٌ على أنَّ الدِّينَ بمَجموعِه في هذَينِ الأمْرينِ: أنْ يَكونَ العبدُ على الحقِّ في قولِه وعملِه واعتقادِه ونيَّتِه، وأنْ يكونَ متَوكِّلًا على اللهِ واثقًا به؛ فالدِّينُ كلُّه في هذَين المقامَينِ[٥].

٥- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾ فيه شهادةُ اللهِ تعالى لِمَا جاء به الرسولُ بأنَّه حَقٌّ، ومِن هذه الفائدةِ نستفيدُ فائدةً أخرى، وهي: التَّرغيبُ في سُلوكِ طريقِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ما دام حقًّا؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ عاقلٍ يختارُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٢٧).

الحقَّ على الباطلِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ تعالى، والشَّاهدُ قولُه: ﴿يَقُصُّ﴾؛ والقصصُ لا يكونُ إلَّا قولًا، فإذا كان القرآنُ هو الذي يَقُصُّ؛ فهو كلامُ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الذي قَصَّ هذه القصصَ؛ قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣]؛ وحينَئذٍ يكونُ القرآنُ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أنَّه يجوزُ أنْ يُخَصَّ طائفةٌ ممَّن يُخاطَبون؛ مِن أجْلِ إقامةِ الحُجَّةِ عليهم؛ فإنَّ ﴿ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وغيرِهم، لكنَّ بني إسرائيلَ اعتنى بهم هنا؛ لأنَّ الموضوعَ فيما يتعلَّقُ بهم[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه لا يَنالُ هذا الهدى وتلك الرَّحمةَ إلَّا المؤمنون، ولا مُعارَضةَ بيْنَ هذه الآيةِ وبيْنَ قولِه تعالى في وصْفِ القرآنِ ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

والجمعُ بيْنَهما: أنَّ الإثباتَ هنا والإثباتَ هناك مُختَلِفَا الجهةِ؛ فهناك ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ بمعنى: دليلٍ لهم، فهو دليلٌ لكلِّ الناسِ، فهو نَفْسُه صالحٌ للهدايةِ لجميعِ البشرِ، ففي حالةِ العمومِ معناه: دالٌّ، ومَوضِعُ دَلالةٍ، وفي حالةِ التَّقييدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٤).

بالمؤمنينَ والمُتَّقينَ: فمعناه أنَّهم المُنتفِعونَ به، المُوَفَّقونَ للاهتِداءِ به[١].

فالهدى يُستعمَلُ في القرآنِ استِعمالَينِ: أحدُهما عامٌّ، والثَّاني خاصٌّ؛ أمَّا الهدى العامُّ فمعناه إبانةُ طريقِ الحقِّ وإيضاحُ المَحَجَّةِ، سواءٌ سَلَكها المُبَيَّنُ له أمْ لا، ومنه بهذا المعنى قولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: بَيَّنَّا لهم طريقَ الحقِّ على لسانِ نبيِّنا صالح عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّهم لم يَسلُكوها؛ بدليلِ قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

ومنه أيضًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، أي: بَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ؛ بدليلِ قولِه: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وأمَّا الهدى الخاصُّ فهو تفضُّلُ اللهِ بالتَّوفيقِ على العبدِ، ومنه بهذا المعنى قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٩٠]، وقولُه سُبحانَه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

فإذا عَلِمتَ ذلك، فاعلَمْ أنَّ الهدى الخاصَّ بالمُتَّقينَ والمؤمنينَ هو الهدى الخاصُّ، وهو التفضُّلُ بالتَّوفيقِ عليهم، والهدى العامَّ للنَّاسِ هو الهدى العامُّ، وهو إبانةُ الطَّريقِ وإيضاحُ المَحَجَّةِ، وبهذا يرتفِعُ الإشكالُ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا، كان أقوى اهتِداءً بالقُرآنِ، وهذا مأخوذٌ مِن قاعدة: «إنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ، قَوِيَ ذلك الحُكمُ بقوَّةِ ذلك الوصفِ، وضَعُفَ بضَعفِ ذلك الوصفِ»، فما دامتِ الهدايةُ والرَّحمةُ مُعَلَّقةً بوصفِ الإيمانِ؛ فكلَّما ازداد هذا الوصفُ ازداد الهدى وازدادتِ الرَّحمةُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٨، ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٢٩).

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾؛ في قَولِه: ﴿بِحُكْمِهِۦ﴾ أضاف الحُكْمَ إلى اللهِ سبحانه وتعالى لأمورٍ:

**الأمرِ الأولِ**: أنه حُكْمٌ متضمنٌ للعدلِ.

**والأمرِ الثاني**: أنه حُكْمٌ لا يُعَقَّبُ، بل لا بُدَّ أنْ ينفُذَ[١].

**والأمرِ الثالثِ**: الإصلاحُ، يعني ما دام حُكْمًا مضافًا إلى اللهِ سبحانه وتعالى -وقد عُلِمَ أنَّه سبحانه وتعالى حكيمٌ-؛ فإنَّ هذا الحُكْمَ لا بُدَّ أنْ يكونَ مناسبًا وموافقًا لمحَلِّه، وكلُّ حُكْمٍ وافقَ مَحَلَّه فهو إصلاحٌ، وهذا بخلافِ حُكمِ غيرِه[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يؤخَذُ مِن جمْعِ هذَينِ الوصفَينِ لله سُبحانَه وتعالى عَقِبَ ذِكرِ الحُكمِ: تمامُ حُكْمِ الله، حيث كان مَبنيًّا على العِزَّةِ والعِلمِ؛ فبالعِزَّةِ يَكونُ التَّنفيذُ، وبالعِلمِ يكونُ الصَّوابُ، فمِن شُروطِ الحُكمِ العِلمُ والعِزَّةُ؛ فالعِلمُ لِيَحكُمَ بالصَّوابِ، والعِزَّةُ لِينفذَ ما حكَم به، وإنَّ خَلَلَ الحُكمِ يأتي إمَّا مِنَ الجهلِ، وإمَّا مِنَ الضَّعفِ؛ إمَّا لجهلِ الحاكمِ فيحكُم بغيرِ الصَّوابِ، وإمَّا لِضَعفِه فلا يستطيع أن ينفذَ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾، في قَولِه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ سؤالٌ: ما الحِكمةُ في تقديم «العِزَّةِ» هنا على «العلم»، مع أنَّ العِلمَ سابقٌ مِن حيثُ التَّرتيبُ الحُكمِيُّ؛ إذ إنَّه يَعلمُ ثمَّ يَحكمُ ثمَّ يُنَفِّذُ، والعِزَّةُ تَتعلَّقُ بالتَّنفيذِ الَّذي يكونُ بعدَ الحُكمِ؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٣٥).

**الجوابُ**: لأنَّ المقامَ هنا يقتضي بيانَ قوَّةِ حُكمِ اللهِ سُبحانه وتعالى، وأنَّ هذا الحُكمَ لا بُدَّ أنْ يُنَفَّذَ؛ لِكَونِه صادرًا عن عزيزٍ، فكان مِن المناسِبِ تقديمُ «العِزَّةِ» على «العِلمِ»(١).

٨- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ فيه فضيلةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ حيثُ كان مَسلَكُه الحقَّ المبينَ؛ ، فهذا فيه شهادةٌ مِن اللهِ وتزكيةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أنَّ كلَّ ما خالَفَ ما كان عليه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فهو باطلٌ؛ لأنَّنا لو قُلْنا: إنَّه حقٌّ لَلَزِم الجمْعُ بينَ النَّقيضَينِ! فلا بُدَّ أنَّ أحدَهما هو الحقُّ؛ ولهذا يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ويقولُ تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ -إحداها- ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]، فإنْ كانتِ المخالَفةُ تامَّةً فهو باطلٌ كلُّه، وإنْ كانتِ المخالفةُ جزئيَّةً كان فيه مِن الباطلِ بقدرِ ما خالفَ ما كان عليه الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ أنَّ بيانَ الحقِّ لا يَلْزَمُ منه أنْ يكونَ بَيِّنًا لكلِّ أحدٍ، فإنَّ الخفافيشَ تَعمى بضياءِ النَّهارِ! فلا يلزمُ مِن كَونِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على الحقِّ المبينِ ألَّا يُعرِضَ عنه أحدٌ! ولهذا أعقبَه بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، يعني: لا تَظُنَّ أنَّ هؤلاء الَّذين أَعرَضوا أَعرَضوا لأنَّك على باطلٍ، بل لِعَدَمِ قابليَّةِ المَحَلِّ، وكما هو معروفٌ أنَّ الشَّيءَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

-وإنْ كان تامًّا- إذا لم يَجِدْ محلًّا قابلًا لم يكُنْ له تأثيرٌ، فما كان عليه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الحقِّ المُبينِ، وهو حقٌّ مُبيْن بلا شكٍّ؛ بَيِّنٌ ظاهرٌ، وعدَمُ سماعِ هؤلاء له ليس لخللٍ فيه؛ فالسَّببُ تامٌّ، لكنَّ الخللَ في المَحَلِّ، فهو غيرُ قابلٍ لهذا الحقِّ(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ حَسُنَ جعْلُه سببًا للأمرِ بالتَّوكُّلِ؛ لأنَّ الإنسانَ ما دام يَطْمَعُ في أحدٍ أنْ يأخُذَ منه شَيئًا فإنَّه لا يقوى قلْبُه على إظهارِ مُخالَفتِه، فإذا قَطَعَ طمَعَه عنه قَويَ قلْبُه على إظهارِ مخالَفتِه، فاللهُ سبحانه وتعالى قَطَعَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ عنهم بأنْ بَيَّنَ له أنَّهم كالموتى وكالصُّمِّ وكالعُمْيِ؛ فلا يَفهَمون ولا يَسمَعون ولا يُبصِرون ولا يَلتَفِتون إلى شَيءٍ مِنَ الدَّلائلِ، وهذا سببٌ لقوَّةِ قلْبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على إظهارِ الدِّينِ كما ينبغي(٢).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ بيانُ أنَّ مُجَرَّدَ دعائِك وتبليغِك وحِرصِك على هُدى النَّاسِ، ليس بموجِبٍ ذلك، وإنَّما يَحصُلُ ذلك إذا شاء اللهُ هُداهم، فشَرَح صدورَهم للإسلامِ(٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا وَلَّى مُدْبِرًا عن الشَّرعِ فإنَّه قد يُعاقَبُ بالصَّمَمِ عن سَماعِ الحقِّ، بحيثُ إنَّه لا يَنتَفِعُ بمَوعظةٍ ولا نصيحةٍ، وهذا هو الغالِبُ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَملِكُ هدايةَ الخلْقِ، ولا يُعارِضُ هذا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأنَّ الهدايةَ المُثبَتةَ غيرُ الهدايةِ المنفيَّةِ؛ الهدايةُ المُثبَتةُ هدايةُ الدَّلالةِ والعِلمِ والبيانِ، فالرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُعَلِّمٌ ومُبَيِّنٌ ودالٌّ للخلْقِ على الحقِّ، وأمَّا التَّوفيقُ لذلك فهو بيدِ اللهِ، فالجمْعُ بيْنَ الهدايةِ المُثْبَتةِ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، والمَنْفيَّةِ عنه أن نقولَ: ما أُثبِتَ للرَّسولِ فهو هدايةُ العِلمِ والبيانِ، وما نُفيَ عنه فهو هدايةُ التَّوفيقِ والعملِ، فلا يستطيعُ هذا أبدًا[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أنَّه كُلَّما قَوِيَ إيمانُ الإنسانِ بآياتِ اللهِ قوِيَ انتفاعُه بها؛ لأنَّه عُلِّقَ على وصْفِ الإيمانِ بهذه الآياتِ؛ فكُلَّما قَوِيَ هذا الوصفُ قَوِيَ الانتفاعُ[٢].

١٦- قال الله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ في قَولِه: ﴿فَهُمۡ مُّسۡلِمُونَ﴾ أنَّ الإيمانَ يَستلزِمُ الإسلامَ[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِمۡ أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ مِن أشراطِ الساعةِ الكبرى خروجَ الدَّابَّةِ[٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَخۡرَجۡنَا لَهُمۡ دَآبَّةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ تُكَلِّمُهُمۡ﴾ بيانُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ كانت هذه الدَّابَّةُ تُكَلِّمُ الناسَ بكلامٍ يَفهمونه؛ مع أنَّ الحيواناتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٢).

تَتكلَّمُ بكلامٍ لا يَفْهَمُه الإنسُ إلَّا مَن عَلَّمَه اللهُ تعالى مَنْطِقَها، كما في قصَّةِ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أنَّ عدَمَ اليقينِ بآياتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى سببٌ للـهَلاكِ، وأنَّه لا يكفي التَّردُّدُ أو الإيمانُ الضَّعيفُ، بل لا بُدَّ مِن إيقانٍ؛ فالمترَدِّدُ بما يجبُ الإيمانُ به ليس بمؤمِنٍ، فلا بُدَّ مِن اليقينِ بما يجبُ الإيمانُ به[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ إبطالٌ لقولِ الذين كَفَروا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨]، ومَوقِعُ هذه الآيةِ استكمالُ نَواحي هَدْيِ القرآنِ للأُمَمِ؛ فإنَّ السُّورةَ افتُتِحَتْ بأنَّه هُدًى وبُشرى للمؤمنينَ، وأنَّ المشركين الَّذين لا يُؤمِنون بالآخرةِ يَعْمَهون في ضَلالِهم، فلمْ يَنتفِعوا بهَدْيِه؛ فاسْتَكمَلَتْ هذه الآيةُ ما جاء به مِن هَدْيِ بني إسرائيلَ لِمَا يُهِمُّ ممَّا اخْتَلفوا فيه[٣].

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) مَنظورٌ فيه إلى حالِ النَّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فالتَّأكيدُ واقعٌ مَوقِعَ التَّعريضِ بهم[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَعريضٌ كالتَّذييلِ[٥]، وهذا راجعٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٨٠).

إلى قولِه في طالعِ السُّورةِ: ﴿ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النمل: ٢]؛ ذُكِرَ هنا لاستيعابِ جِهاتِ هَدْيِ القرآنِ(١).

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) واللَّام أيضًا مَنظورٌ فيه إلى حالِ النَّاسِ لا إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فالتَّأكيدُ واقعٌ مَوقِعَ التَّعريضِ بهم(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ، فيُعلَمُ أنَّ القضاءَ يَقْتضي مُختَلِفينَ، وأنَّ كلمةَ (بيْن) تَقْتضي مُتعدِّدًا، فأفاد أنَّ اللهَ يَقْضي بيْنَ المؤمنينَ بالقرآنِ والطَّاعنينَ فيه قضاءً يُبيِّنُ المُحِقَّ مِنَ المُبطِلِ. وهذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وللمؤمنينَ عن اسْتبطائِهم النَّصرَ؛ فإنَّ النَّبيَّ أوَّلُ المؤمنينَ، وإنَّما تَقلَّدَ المؤمنون ما أنْبَأَهم به؛ فالقضاءُ للمؤمنينَ قضاءٌ له بادئَ ذي بَدْءٍ(٣).

- قولُه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ في تَوجيهِ الخِطابِ إلى جنابِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وإسنادِ القضاءِ إلى اللهِ في شأْنِه بعُنوانِ أنَّه ربٌّ له: إيماءٌ بأنَّ القضاءَ سَيكونُ مُرْضِيًا له وللمؤمنينَ -فجُعِلَ الرَّسولُ في هذا الكلامِ بمَقامِ المُبلِّغِ، وجُعِلَ القضاءُ بيْنَ أُمَّتِه مؤمنِهم وكافرِهم-، وتَعجيلٌ لِمَسَرَّةِ الرَّسولِ بهذا الإيماءِ(٤).

- وإسنادُ القضاءِ إلى اللهِ، وتَعليقُ حُكمٍ مُضافٍ إلى ضَميرِه به في قولِه: ﴿ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، يعني: أنَّ ربَّك يَقْضي بيْنَهم بحُكْمِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المعروفِ المُشتهِرِ، اللَّائقِ بعُمومِ عِلْمِه واطِّرادِ عَدْلِه. أو يكونُ الحُكْمُ بمعنى الحِكمةِ، وهو إطلاقٌ شائعٌ؛ قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]، ولم يكُنْ يَحيى عليه السلامُ حاكِمًا، وإنَّما كان حَكيمًا نَبيًّا؛ فيكونُ المعنى على هذا: إنَّ ربَّك يَقْضي بيْنَهم بحِكمتِه، أي: بما تَقْتضيهِ الحِكمةُ، أي: مِن نَصْرِ المُحِقِّ على المُبطِلِ. ومآلُ التَّأويلَينِ إلى معنًى واحدٍ، وبه يَظهَرُ حُسنُ مَوقِعِ الاسمينِ الجليلينِ في تَذييلِه بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ فإنَّ العزيزَ لا يُصانِعُ، والعِليمَ لا يَفوتُه الحقُّ، ويَظهَرُ حُسنُ مَوقِعِ التَّفريعِ بقولِه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ كأنَّه قِيل له صَلَواتُ اللهِ عليه: أَعرِضْ عنهم وتارِكْهم؛ لأنَّك بالَغْتَ في الإنذارِ وأعْذَرْتَ، وأنَّهم لا يُؤمِنون الْبَتَّةَ، ولم يَبْقَ لك إلَّا الاستِنصارُ، والتَّوكُّلُ على الغالبِ القاهرِ لأعدائِه، النَّاصرِ والمُتولِّي لِأوليائِه؛ لأنَّ الأصلَ: فتَوَكَّلْ عليه؛ لقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم﴾؛ فوُضِعَ اسمُ الذَّاتِ ﴿ٱللَّهِ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ فأفاد في هذا المقامِ هذا المعنى[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لتَرتيبِ الأمْرِ على ما ذُكِرَ مِن شُؤونِه عزَّ وجلَّ؛ فإنَّها مُوجِبةٌ للتَّوكُّلِ عليهِ، وداعيةٌ إلى الأمْرِ بهِ[3]، وفُرِّعَت الفاءُ على الإخبارِ بأنَّ ربَّ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَقْضي بيْنَ المُختلِفينَ في شأْنِ القرآنِ أمْرًا للرَّسولِ بأنْ يَطْمئِنَّ بالًا، ويَتوكَّلَ على ربِّه فيما يَقْضي به؛ فإنَّه يَقْضي له بحَقِّه، وعلى مُعانِدِه بما يَستحِقُّه؛ فالأمْرُ بالتَّوكُّلِ مُستعمَلٌ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٢، ٣٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٩).

كِنايتِه وصَريحِه؛ فإنَّ مِن لازِمِه أنَّه أدَّى رِسالةَ ربِّه، وأنَّ إعراضَ المُعرِضينَ عن أمْرِ اللهِ ليس تَقصيرًا مِن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وهو معنًى تكرَّرَ في القرآنِ؛ كقولِه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ ﴾ [الكهف: ٦]، وقولِه: ﴿ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ ﴾[1] [النمل: ٧٠].

- قولُه: ﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ التَّوكُّلُ: تَفعُّلٌ مِن: وكَلَ إليه الأمْرَ: إذا أسنَدَ إليه تَدبيرَه ومُباشَرتَه؛ فالتَّفعُّلُ للمُبالَغةِ[2].

- وفي قولِه: ﴿ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ جِيءَ في فِعلِ التَّوكُّلِ بعُنوانِ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ ذلك الاسمَ يَتضمَّنُ معانيَ الكمالِ كلَّها، ومِن أعلاها العدْلُ في القضاءِ ونَصرُ المُحِقِّ، وذلك بعْدَ أنْ عُجِّلَتْ مَسرَّةُ الإيماءِ إلى أنَّ القضاءَ في جانبِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بإسنادِه القضاءَ إلى عُنوانِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ الرَّسولِ[3].

- وجاءت جُملةُ ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴾ مَجيءَ التَّعليلِ للأمْرِ بالتَّوكُّلِ على اللهِ؛ إشعارًا بأنَّه على الحقِّ، فلا يَترقَّبُ مِن تَوكُّلِه على الحَكَمِ العدْلِ إلَّا أنْ يكونَ حُكمُه في تأْييدِه ونفْعِه، وشأْنُ (إنَّ) إذا جاءت في مَقامِ التَّعليلِ أنْ تكونَ بمعنى (الفاءِ)؛ فلا تُفيدُ تأْكيدًا، ولكنَّها للاهتِمامِ[4].

- ووَقَعت ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴾ مَوقِعًا لم يُخاطِبِ اللهُ تعالى أحدًا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٣، ٣٤).

رُسلِه بمِثْلِه؛ فكان ذلك شَهادةً لرسولِه بالعَظَمةِ الكاملةِ المُنزَّهةِ عن كلِّ نقْصٍ؛ لِمَا دلَّ عليه حرفُ (على) مِن التَّمكُّنِ، وما دلَّ عليه اسمُ (الحقِّ) مِن معنًى جامعٍ لحقائقِ الأشياءِ، وما دلَّ عليه وصْفُ (مُبين) مِن الوُضوحِ والنُّهوضِ[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ جوابًا عمَّا يَخطُرُ في بالِ السَّامعِ عقِبَ قولِه: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، مِن التَّساؤلِ عن إعراضِ أهْلِ الشِّركِ لِمَا عليه الرَّسولُ مِن الحقِّ المُبينِ[2].

- وهو أيضًا تعليلٌ آخَرُ للأمْرِ بالتَّوكُّلِ على اللهِ -الذي هو عبارةٌ عن التَّبتُّلِ إلى اللهِ تعالَى، وتَفويضِ الأمرِ إليهِ، والإعراضِ عن التَّشبُّثِ بما سِواهُ-؛ فمَوقِعُ حرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) فيه كمَوقعِه في التَّعليلِ بالجُملةِ التي قبْلَه، وهذا عُذْرٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وتَسليةٌ له، ولكونِه تَعليلًا لجانبٍ مِن التَّركيبِ -وهو الجانبُ الكِنائيُّ- غيرَ الذي عُلِّلَ بجُملةِ ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]؛ لم تُعطَفْ هذه الجُملةُ على التي قبْلَها؛ تَنبيهًا على استِقلالِها بالتَّعليلِ[3].

- قولُه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ شُبِّهوا بالمَوتى وهم أحياءٌ صِحاحُ الحَواسِّ؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا ما يُتْلى عليهم مِن آياتِ اللهِ لا تَعِيهِ آذانُهم، فكانت حالُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٤).

-لانتفاءِ جَدْوى السَّماعِ- كحالِ المَوتى الَّذين فَقَدوا الحياةَ، وكذلك تَشبيهُهم بالصُّمِّ الَّذين يُنعَقُ بهم فلا يَسْمَعون. ولعلَّ المُرادَ تَشبيهُ قُلوبِهم بالمَوتى فيما ذُكِرَ مِن عدَمِ الشُّعورِ؛ فإنَّ القلبَ مَشْعَرٌ مِن المُشاعرِ أُشِيرَ إلى بُطلانِه بالمرَّةِ، ثمَّ بُيِّن بُطلانُ مَشْعَرَيِ الأُذنِ والعَينِ، كما في قولِه تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وإلَّا فبَعْدَ تَشبيهِ أنفُسِهم بالمَوتى لا يَظهَرُ لتَشبيهِهم بالصُّمِّ والعُمْيِ مَزيدُ مَزِيَّةٍ[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ لَمَّا كان المَيتُ لا يُمكِنُ أنْ يَسمَعَ لم يُذكَرْ له مُتعلَّقٌ، بلْ نفَى الإسماعَ، أي: لا يقَعُ منك إسماعٌ لهم الْبَتَّةَ؛ لعَدمِ القابليَّةِ. وأمَّا الأصَمُّ فقد يكونُ في وقْتٍ يُمكِنُ إسماعُه وسماعُه؛ فأتى بمُتعلَّقِ الفِعلِ، وهو الدُّعاءُ[٢].

- وقولُه: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ مِن بابِ التَّتميمِ[٣]؛ فتَقييدُ الصُّمِّ بزَمانِ تَوَلِّيهم مُدْبرينَ؛ لأنَّ تلك الحالةَ أوغَلُ في انتفاءِ إسماعِهم؛ لأنَّ الأصمَّ إذا كان مُواجِهًا للمُتكلِّمِ قد يَسمَعُ بعضَ الكلامِ بالصُّراخِ ويَستفيدُ بَقيَّتَه بحَركةِ الشَّفتينِ، فأمَّا إذا ولَّى مُدبِرًا فقد ابتَعَدَ عن الصَّوتِ، ولم يُلاحِظْ حَركةَ الشَّفتينِ؛ فذلك أبعَدُ له عن السَّمعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٣) تقدم تعريفه.

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠)، ((الجدول في إعراب =

٦- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ شُبِّهوا بالعُمْي حيثُ يَضِلُّون الطَّريقَ، ولا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يَنزِعَ ذلك عنهم، وأنَّ يَجعَلَهم هُداةً بُصراءَ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ففي الآيةِ حَصرٌ مُستفادٌ مِن تَقديمِ الضَّميرِ (أنت) وذِكْرِ حَرفِ النَّفيِ (ما) بعْدَه[1].

- وعُدِلَ في هذه الجُملةِ عن صِيغتَيِ النَّفْيَيْنِ السَّابقَينِ في قولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠] الواقعَينِ على مُسندَينِ فِعليَّينِ، إلى تَسليطِ النَّفيِ هنا على جُملةٍ اسميَّةٍ ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ النَّفيِ. وأُكِّدَ ذلك الثَّباتُ بالباءِ المَزيدةِ لتأكيدِ النَّفيِ. ووَجْهُ إيثارِ هذه الجُملةِ بهذينِ التَّحقيقينِ: هو أنَّه لَمَّا أفْضى الكلامُ إلى نفْيِ اهتِدائِهم، وكان اهتِداؤُهم غايةَ مَطمَحِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ كان المَقامُ مُشعِرًا ببَقيَّةٍ مِن طَمَعِه في اهتدائِهم حِرْصًا عليهم؛ فأُكِّدَ له ما يَقلَعُ طمَعَه، وهذا كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، وقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾[2] [ق: ٤٥].

- وقولُه: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لِتَرقُّبِ السَّامعِ

---

= القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٥، ٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٧).

مَعرفةَ مَن يَهْتَدون بالقرآنِ[١]. وإيرادُ الإسماعِ في النَّفيِ والإثباتِ دونَ الهِدايةِ مع قُرْبِها، بأنْ يُقالَ: إنْ تَهْدي إلَّا مَن يُؤمِنُ... إلخ؛ لِمَا أنَّ طريقَ الهِدايةِ هو إسماعُ الآياتِ التَّنزيليَّةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ أُوثِرَ التَّعبيرُ بالمُضارِعِ؛ لِيَشمَلَ مَن آمَنوا مِن قبْلُ؛ فيُفِيد المُضارِعُ استمرارَ إيمانِهم ومَن سيُؤْمِنون[٣].

- وفرَّعَ على قولِه: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ قولَه: ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ المُفيدَ للدَّوامِ والثَّباتِ؛ لأنَّهم إذا آمَنوا فقد صار الإسلامُ راسخًا فيهم، ومُتَمَكِّنًا منهم، وكذلك الإيمانُ حين تُخالِطُ بَشاشَتُه القلوبَ[٤]. وقيل: هو تَعليلٌ لإيمانِهم بها، كأنَّه قِيلَ: فإنَّهم مُنقادونَ للحقِّ، وقيلَ: مُخلِصون للهِ تعالى[٥].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ بَيانٌ لِمَا أُشِيرَ إليه بقولِه تعالى: ﴿بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢] مِن بقيَّةِ ما يَستعجِلونَهُ مِن السَّاعةِ ومَباديها[٦]. وانتِقالٌ إلى التَّذكيرِ بالقيامةِ وما ادُّخِرَ لهم مِن الوعيدِ؛ فهذه الجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُمَلِ قبْلَها عطْفَ قِصَّةٍ على قصَّةٍ[٧].

- وقولُه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ فيه التَّعبيرُ عن وُقوعِه بصِيغةِ الماضي؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٨).

لتَقريبِ زَمنِ الحالِ مِن المُضِيِّ، أي: أشرَفَ وُقوعُه، على أنَّ فِعلَ المُضِيِّ مع (إذا) يَنقلِبُ إلى الاستِقبالِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ المُرادُ بـ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ ما نطَقَ مِن الآياتِ الكريمةِ بمَجيءِ السَّاعةِ وما فيها مِن فُنونِ الأَهوالِ التي كانُوا يَستعجِلُونها، وبوُقوعِه قِيامُها وحُصولُها -وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ-؛ عبَّرَ عن ذلكَ به للإيذانِ بشِدَّةِ وقْعِها وتأْثيرِها، وإسنادُه إلى القولِ؛ لِمَا أنَّ المُرادَ بَيانُ وُقوعِها مِن حيثُ إنَّها مِصْداقٌ للقولِ النَّاطقِ بمَجيئِها[٢].

- قولُه: ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ في التَّعبيرِ عنها باسمِ الجِنسِ ﴿دَآبَّةً﴾ وتأكيدِ إبهامِه بالتَّنوينِ التَّفخيميِّ، مِنَ الدَّلالةِ على غَرابةِ شأنِها، وخُروجِ أوصافِها عن طَورِ البَيانِ: ما لا يَخْفى[٣].

- وجُملةُ ﴿أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ تَعليلٌ لإظهارِ هذا الخارِقِ للعادةِ؛ حيث لم يُوقِنِ المُشرِكون بآياتِ القرآنِ، فجُعِلَ ذلك إلجاءً لهم حينَ لا يَنفَعُهم[٤]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- وفي قولِه: ﴿كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ وصَفَهم بعَدمِ الإيقانِ بها مع أنَّهم كانُوا جاحِدينَ بها؛ للإيذانِ بأنَّه كان مِن حقِّهم أنْ يُوقِنوا بها ويَقْطَعوا بصِحَّتِها، وقد اتَّصَفوا بنَقيضِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٦/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠١).

## الآيات (٨٢-٨٥)

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَوْجًا﴾: أي: زُمْرةً وجماعةً، والفَوجُ: الجماعةُ مِن الناسِ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجمُّعٍ[1].

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُدفَعونَ، ويُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، وأصلُ (الوَزْع): الكفُّ والمنعُ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبَيِّنًا بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ نجمَعُ من

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

قال الشنقيطيُّ: (﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُرَدُّ أوَّلُهم إلى آخِرِهم، ويلحقُ آخِرُهم بأوَّلِهم، حتَّى يجتمِعوا جميعًا، ثمَّ يُدفَعون في النَّارِ، وهو مِن قولِ العربِ: وَزَعْتُ الجَيشَ؛ إذا حبسْتَ أوَّلَه على آخِرِه حتَّى يَجتمِعَ. وأصلُ الوَزْعِ: الكَفُّ، تقولُ العربُ: وَزَعَه يَزَعُه وَزْعًا فهو وازِعٌ له؛ إذا كفَّه عن الأمرِ... وبما ذكَرْنا تَعلَمُ أنَّ أصلَ معنَى ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يُكَفُّ أوَّلُهم عن التَّقدُّمِ، وآخِرُهم عن التَّأخُّرِ حتَّى يَجتمِعوا جميعًا. وذلك يدُلُّ على أنَّهم يُساقُون سَوقًا عنيفًا، يُجمَعُ به أوَّلُهم مع آخِرِهم). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥).

كلِّ أمةٍ جماعةً كثيرةً ممَّن يُكذِّبُ بآياتِ القُرآنِ وحُجَجِه، فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم حتَّى يجتَمِعوا جَميعًا، فلمَّا جاؤوا قال اللهُ لهم مُوبِّخًا: أكذَّبتُم بآياتي وأنتم جاهِلونَ بها لم تَعرِفوها حقَّ مَعرفتِها، أم ما الَّذي كنتُم تَعملونَه؟!

ونزَل عذابُ اللهِ وغضَبُه يومَ القيامةِ على أولئك المكَذِّبينَ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم، فهم لا يَنطِقونَ بحُجَّةٍ أو عُذرٍ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مِن فِعلِ الدَّابَّةِ التَّمييزُ بيْنَ المؤمِنِ والكافِرِ بما لا يَستطيعون دَفْعَه، تلاه بتمييزِ كُلِّ فَريقٍ منهما عن صاحِبِه بجَمعِهم يومَ القيامةِ في ناحيةٍ، وسَوقِهم مِن غيرِ اختلاطٍ بالفريقِ الآخَرِ، فقال عاطفًا على العامِلِ في ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾[1]:

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾.

أي: واذكُرْ[2] يومَ نَجمَعُ مِن كُلِّ أمَّةٍ مِن الأُمَمِ جماعةً كثيرةً مِمَّن[3] يُكذِّبُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٨).

(٢) قال الشوكاني: (﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ العاملُ في الظَّرفِ، فِعلٌ محذوفٌ خُوطِب به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ...، ومعنَى الآيةِ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ نجمعُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ...). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٧).

(٣) قيل ﴿مِن﴾ هنا بيانيَّةٌ، فيكونُ فَوجُ كُلِّ أمةٍ هو جماعةَ المكذِّبينَ منها، أي: يُحشَرُ مِن الأمَّةِ كُفَّارُها، ويبقَى صالحوها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٧).

وقيل: يجوزُ جَعْلُ (مِن) تبعيضيَّةً؛ بأن يكونَ المعنى إخراجَ فَوجٍ مِن المكذِّبينَ مِن كُلِّ أمَّةٍ، وهذا الفَوجُ هو زُعَماءُ المكَذِّبين وأئمَّتُهم، فيكونون في الرَّعيلِ الأوَّلِ إلى العذابِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٠).

بآياتِ القُرآنِ وحُجَجِنا الدَّالَّةِ على الحَقِّ[١].

﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾.

أي: فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، فيَجتَمِعونَ جميعًا[٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا أَمَّاذَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨٤﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبۡتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمۡ تُحِيطُواْ بِهَا عِلۡمًا﴾.

أي: فلمَّا جاؤوا إلى الموضِعِ الذي أراده اللهُ لِتَبكيتِهم، قال لهم مُوبِّخًا: أكذَّبتُم بآياتِ كِتابي وحُجَجي، والحالُ أنَّكم جاهِلونَ بها لم تَعرِفوها حقَّ مَعرِفتِها[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

قيل: المرادُ: يُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم لِيَجتَمِعوا ثُمَّ يُساقون إلى النَّارِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والرازي، والعليمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٧١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥).

وقيل: إنَّما يُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم حتَّى يَجتمِعوا ثُمَّ يُساقون إلى مَوضِعِ الحِسابِ لِيَعُمَّهم السُّؤالُ والتَّوبيخُ واللَّومُ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والنسفي، وأبو السعود، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير =

﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: أم ما الَّذي كنتُم تَعمَلونَه[١]؟!

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟﴾.

أي: ووجَبَ عذابُ اللهِ وغَضَبُه يومَ القيامةِ على أولئك المكَذِّبينَ؛ بسَبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم في الدُّنيا بتكذيبِهم آياتِ اللهِ سُبحانَه[٢].

﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾.

أي: فلا يَستطيعُ أولئك المكَذِّبونَ أن يَنطِقوا بحُجَّةٍ أو عُذرٍ يَدفَعُ عنهم العَذابَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٥ - ٣٧].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ هذه الآيةُ تُوجِبُ أنَّ الإنسانَ لا يُكذِّبُ إلَّا بخبرٍ يعلَمُ ويَعرِفُ أنَّه كَذِبٌ،

---

= ابن عاشور)) (٢٠/ ٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٠، ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٢).

والخبَرُ المجهولُ يَسكُتُ عنه، كقَولِه تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]، فلا يُكذِّبُ به ولا يَقْفُوه ويَتْبَعُه، كما أمَر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فيما حدَّثَنا أهلُ الكِتابِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ سؤالٌ: هذه الآيةُ يدُلُّ ظاهرُها على أنَّ الحشرَ خاصٌّ بهؤلاءِ الأفواجِ المكَذِّبةِ، وقولُه بعدَ هذا بقليلٍ: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] يدُلُّ على أنَّ الحشرَ عامٌّ، كما صرَّحتْ به الآياتُ القرآنيةُ عن كثرةٍ؟

**الجوابُ**: أنَّ قولَه: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] يُرادُ به الحشرُ العامُّ، وقولَه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: بعْدَ الحشرِ العامِّ يَجمَعُ اللهُ المكذِّبين للرُّسُلِ مِن كلِّ أُمَّةٍ؛ لأجْلِ التَّوبيخِ المنصوصِ عليه بقَولِه: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فالمرادُ بالفَوجِ مِن كلِّ أُمَّةٍ: الفَوجُ المكذِّبُ للرُّسلِ يُحشَرُ للتَّوبيخِ حَشرًا خاصًّا؛ فلا يُنافي حشرَ الكلِّ لفَصلِ القَضاءِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ عِظَمُ الإمامةِ في السُّوءِ، كما أنَّها أيضًا عَظيمةٌ في الخيرِ؛ فالإمامُ في الخَيرِ له أجرُ مَن اتَّبَعَه، والإمامُ في الشَّرِّ عليه وِزرُ مَن اتَّبعَه؛ فالإمامةُ في الخَيرِ أو في الشَّرِّ هي أمرٌ عَظيمٌ، وخيرُ النَّاسِ مَن دَلَّهم إلى الخَيرِ، وشَرُّ النَّاسِ مَن دَلَّهم على الشَّرِّ[٣]، وذلك على أحدِ الأقوالِ

---

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيميَّة (٨/ ٢٨٨).

ويُنظر ما أخرجه البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٢).

في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ فيه مِن الدَّلالةِ على كَثرةِ عَدَدِهم وتَباعُدِ أطْرافِهم ما لا يَخْفى[١].

٤- في قَولِ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إثباتُ الكلامِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم﴾، وأنَّه بحَرفٍ؛ لأنَّ الجُمَلَ الَّتي هي مَقولُ القولِ حُروفٌ، وأنَّه بصوتٍ؛ لأنَّهم لولا أنَّهم يَسمَعونَ لم يكُنْ لهذا فائدةٌ، ولا سماعَ إلَّا بصَوتٍ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا﴾ ذَمٌّ لِمَن كذَّبَ بما لم يُحِطْ بعِلمِه[٣]، والتَّكذيب يزدادُ قُبْحُه إذا لم يُحِطِ الإنسانُ علمًا بما كَذَّبَ به[٤].

٦- قَولُه تعالى: ﴿بِمَا ظَلَمُوا۟﴾ فيه إثباتُ السَّبَبِ؛ لأنَّ الباءَ هنا للسَّببيَّةِ، وإثباتُ الأسبابِ هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وأنَّ الأمورَ مَقرونةٌ بأسبابِها[٥].

٧- قولُه تعالَى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ ظاهرُه أنَّ الكفَّارَ لا يَنطقونَ يومَ القيامةِ، كما يُفهَمُ ذلك مِن قولِه تعالَى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦]، وقولِه تعالَى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ الآيةَ [الإسراء: ٩٧]، مع أنَّه بَيَّنَتْ آياتٌ أُخَرُ مِن كتابِ اللهِ أنَّهم يَنطِقونَ يومَ القيامةِ ويَعتذِرونَ؛ كقولِه تعالَى عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٦).

كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقولِه تعالَى عنهم: ﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨]، وقولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ الآيةَ [السجدة: ١٢]، وقولِه تعالَى عنهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦، ١٠٧]، وقولِه تعالَى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ [الزخرف: ٧٧]؟

**فالجوابُ عن ذلك**: أنَّ القيامةَ مواطِنُ؛ ففي بعضِها يَنطِقونَ، وفي بعضِها لا يَنطِقونَ، فإثباتُ النُّطقِ لهم ونفْيُه عنهم كِلاهما منزَّلٌ على حالٍ ووقتٍ غيرِ حالِ الآخَرِ ووقتِه.

وقيل: إنَّ نُطقَهم المُثبَتَ لهم خاصٌّ بما لا فائدةَ لهم فيه، والنُّطْقَ المَنفِيَّ عنهم خاصٌّ بما لهم فيه فائدةٌ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ بَيانٌ إجماليٌّ لحالِ المُكذِّبينَ عندَ قِيامِ السَّاعةِ بعدَ بَيانِ بعضِ مَبادِيها[٢]. وتَوجيهُ الأمْرِ بالذِّكرِ إلى الوقتِ -مع أنَّ المقصودَ تَذكيرُ ما وقَعَ فيه مِن الحوادثِ-؛ لِمَا أنَّ إيجابَ ذِكْرِ الوقتِ إيجابٌ لذِكْرِ ما وقَعَ فيه بالطَّريقِ البُرهانيِّ، ولأنَّ الوقتَ مُشتمِلٌ عليها، فإذا استُحضِرَ كانت حاضرةً بتَفاصيلِها كأنَّها مُشاهَدةٌ عِيانًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٣، ١٤٤)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ على وَجْهِ انتصابِ (يَوْمَ) على أنَّه ظرفٌ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم﴾ [النمل: ٨٤]؛ فيكونُ مُقدَّمًا عليه للاهتمامِ به[١].

٢- قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ لم يُذكَرِ المَوضِعُ الذي جاؤوه؛ لِظُهورِه، وهو مكانُ العذابِ، أي: جهنَّم، كما قال في الآيةِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا﴾[٢] [فصلت: ٢٠].

- قولُه: ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ فيه التِفاتٌ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ؛ لتَربيةِ المَهابةِ[٣].

- يجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ ﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِى﴾ تَوبيخيًّا مُستعمَلًا في لازِمِه، وهو الإلجاءُ إلى الاعترافِ بأنَّ المُستفهَمَ عنه واقعٌ منهم تَبْكيتًا لهم، ولهذا عُطِفَ عليه قولُه: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ فحَرْفُ (أَمْ) فيه بمَعنى (بلْ) للانتقالِ، ومُعادِلُ همْزةِ الاستفهامِ المُقدَّرةِ مَحذوفٌ؛ دلَّ عليه قولُه: ﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، والتَّقديرُ: أكذَّبْتُم بآياتي أمْ لم تُكذِّبوا، فماذا كُنتم تَعمَلون إنْ لم تُكذِّبوا؛ فإنَّكم لم تُوقِنوا، فماذا كُنتم تَعمَلون في مدَّةِ تَكريرِ دَعوتِكم إلى الإسلامِ؟ ومِن هنا حصَلَ الإلجاءُ إلى الاعترافِ بأنَّهم كذَّبوا. ومِن لطائفِ البلاغةِ أنَّه جاء بالمُعادِلِ الأوَّلِ مُصرَّحًا به؛ لأنَّه المُحقَّقُ منهم، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢).

﴿أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾، وحُذِفَ مُعادِلُه الآخَرُ؛ تَنبيهًا على انتفائِه، كأنَّه قيل: أهوَ ما عُهِدَ منكم مِن التَّكذيبِ أمْ حدَثَ حادثٌ آخَرُ؟ فجُعِلَ هذا المُعادِلُ مُتردِّدًا فيه، وانتَقَلَ الكلامُ إلى استفهامٍ، وهذا تبْكيتٌ لهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ تَقْريريًّا، وتكونَ (أَمْ) مُتَّصِلةً، وما بعْدَها هو مَعادِلَ الاستفهامِ باعتبارِ المعنى، كأنَّه قيل: أكذَّبْتم أمْ لم تُكَذِّبوا، فماذا كُنتم تَعمَلون إنْ لم تُكذِّبوا؛ فإنَّكم لم تَتَّبِعوا آياتي[1]؟!

- وفِعلُ ﴿قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي﴾ هو صَدرُ الجُملةِ في التَّقديرِ، وما قبْلَه ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ مُقدَّمٌ مِن تأخيرٍ للاهتمامِ، والتَّقديرُ: وقال: أكذَّبْتُم بآياتي يومَ نَحشُرُ مِن كلِّ أُمَّةٍ فوجًا، وحين جاؤوا...[2].

- قولُه: ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ أي: لم يُحِطْ عِلْمُكم بها؛ فعُدِلَ عن إسنادِ الإحاطةِ إلى العلْمِ إلى إسنادِها إلى ذواتِ المُخاطَبينَ؛ لِيَقَعَ تأكيدُ الكلامِ بالإجمالِ في الإسنادِ، ثمَّ التَّفصيلِ بالتَّمييزِ. وإحاطةُ العِلْمِ بالآياتِ مُستعمَلةٌ في تَمكُّنِ العِلمِ، حتَّى كأنَّه ظَرفٌ مُحِيطٌ بها، وهذا تَعييرٌ لهم وتَوبيخٌ بأنَّهم كذَّبوا بالآياتِ قبْلَ التَّدبُّرِ فيها[3].

- وأيضًا جُملةُ ﴿وَلَمْ تُحِيطُواْ بِهَا عِلْمًا﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ، مُفيدةٌ لزيادةِ شَناعةِ التَّكذيبِ وغايةِ قُبْحِه، ومُؤكِّدةٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُواْ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ

---

(١) يُنظر: ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٢).

الواوُ للحالِ، والمعنى: يُقال لهم: أكذَّبْتم بآياتي وقد وقَعَ القولُ عليهم. وهذا القولُ هو القولُ السَّابقُ في آيةِ ﴿وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ [النمل: ٨٢]؛ فإنَّ ذلك القولَ مُشتمِلٌ على حوادثَ كثيرةٍ، فكُلَّمَا تحقَّق شَيءٌ منها فقد وقَعَ القولُ، والتَّعبيرُ بالماضي ﴿وَقَعَ﴾ هنا على حَقيقتِه، وأُعِيدَ ذِكْرُه تَعظيمًا لِهَولِه. ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ عاطفةً، والقولُ هو القولَ الأوَّلَ، وعُطِفَت الجُملةُ على الجُملةِ المُماثِلةِ لها؛ لِيُبْنَى عليها سبَبُ وُقوعِ القولِ، وهو أنَّه بسَببِ ظُلْمِهم، ولِيُفرَّعَ عليه قولُه: ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾. والتَّعبيرُ بفِعلِ المُضِيِّ على هذا الوجْهِ؛ لأنَّه مُحقَّقُ الحصولِ في المُستقبَلِ، فجُعِلَ كأنَّه حصَلَ ومَضى(١).

- وجُملةُ ﴿فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ مُفرَّعةٌ على ﴿وَقَعَ ٱلْقَوْلُ﴾، أي: وقَعَ عليهم وُقوعًا يَمنَعُهم الكلامَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٨٦-٨٨)

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿الصُّورِ﴾: أي: القرنُ يَنفخُ فيه إسرافيلُ[1].

﴿دَاخِرِينَ﴾: أي: صاغِرينَ أذِلَّاءَ، وأصلُ (دخر): يدُلُّ على الذُّلِّ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى منبِّهًا على قدرتِه التَّامَّةِ، وسلطانِه العظيمِ: ألم يَرَ أولئك المكَذِّبون بآياتِنا أنَّا جعَلْنا اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِيَستريحوا فيه مِنَ النَّصَبِ والتَّعَبِ، وجعَلْنا النَّهارَ ضياءً؛ لِيَنتَشِروا فيه طَلبًا لمعايشِهم؟ إنَّ في خَلقِ اللَّيلِ والنَّهارِ واختِلافِهما لَدَلالاتٍ لِقَومٍ يُؤمِنونَ باللهِ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى أهوالَ يومِ القيامةِ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُنفَخُ في البُوقِ فيَفزَعُ كُلُّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ إلَّا مَن شاء اللهُ، وكُلُّهم جاؤوا اللهَ خاضِعينَ ذليلينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

وترى الجبالَ تَظُنُّها ثابتةً، ولكِنَّها في الحقيقةِ تتحرَّكُ كالسَّحابِ، خَلْقَ اللهِ الَّذي أجاد وأحكَمَ كُلَّ شَيءٍ، إنَّ اللهَ يعلَمُ ما تفعَلون وسيُجازيكم عليه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا خوَّفَهم اللهُ سُبحانَه وتعالى بأحوالِ القيامةِ؛ ذَكَرَ كلامًا يَصلُحُ أنْ يكونَ دليلًا على التَّوحيدِ وعلى الحَشرِ وعلى النُّبوَّةِ؛ مبالغةً في الإرشادِ إلى الإيمانِ والمنعِ مِن الكُفرِ، فقال[1]:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾.

أي: ألم يَرَوا[2] أنَّا جعَلْنا اللَّيلَ مُظلِمًا لِتَسكُنَ فيه أبدانُهم عن الحَركةِ، ويَستريحوا فيه مِن النَّصَبِ والتَّعَبِ؛ وجعَلْنا النَّهارَ ضياءً لِيَنتشِروا فيه؛ طلبًا لمعايشِهم وغيرِها، فجعَلْناهما مختَلِفَينِ ومُتعاقِبَينِ لمصالحِهم[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٣).

(٢) قيل: المرادُ: ألم يَرَ أولئك المكَذِّبون بآياتِنا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠، ١٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٧٣).

وذهَب مقاتلُ بنُ سليمانَ والسمرقنديُّ إلى أنَّ المرادَ كفَّارُ مكةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٤).

والرُّؤيةُ هنا قيل: يجوزُ أن تكونَ عِلميَّةً، ويجوزُ أن تكونَ بصَريَّةً. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٣).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: الرُّؤيةُ العِلميَّةُ والبصَريَّةُ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتًا ۞ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ۞ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ [النبأ: ٩ - ١١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾.

أي: إنَّ في خَلقِ اللَّيلِ والنَّهارِ واختِلافِهما على تلك الصِّفةِ لَدَلالاتٍ لِقَومٍ يُؤمِنونَ باللهِ، ومِن ذلك الدَّلالةُ على توحيدِه وقُدرتِه على إحياءِ الموتى[1].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦].

﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ الحَشرَ الخاصَّ، والدَّليلَ على مُطلَقِ الحَشرِ والنَّشرِ؛ ذكَرَ الحَشرَ العامَّ؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّه إنما يُحشَرُ الكافِرُ، فقال مُشيرًا إلى عُمومِهم بالموتِ كما عَمَّهم بالنَّومِ، وعُمومِهم بالإحياءِ كما عَمَّهم بالإيقاظِ[2]:

﴿ وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾.

---

= كثير)) (٦/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢١).

أي: واذكُرْ[١] يومَ يَنفُخُ المَلَكُ بأمرِ اللهِ في البُوقِ[٢] فيَنزعِجُ ويَرتاعُ كُلُّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ، إلَّا مَن شاء اللهُ ألَّا يَفزَعَ[٣].

---

(١) قال الألوسي: (و«يَوْمَ» منصوبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ، خُوطِب به نبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ، أي: اذكُرْ يومَ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٣٦).

(٢) ممَّن اختار أنَّهما نفختان: نفخةُ الفزعِ والصَّعقِ، ونفخة البَعثِ: القرطبيُّ، وابن حجر، وابن باز، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٤٦)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين-سورة النمل)) (ص: ٤٨٦).

ومنهم مَن رجَّح أنَّها ثلاثُ نَفَخاتٍ: نفخةُ الفَزَعِ أوَّلًا، وهي للأحياءِ الذين بَقُوا في آخِرِ ساعاتِ الدُّنيا، ثمَّ نفخةُ الصَّعقِ والموتِ لهم، ثمَّ نفخةُ البعثِ والقيامِ مِن القبورِ لرَبِّ العالمينَ، وهي لجميعِ الخلائق. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ تيميَّةَ، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٧٨).

ومنهم مَن رجَّح أنَّ النَّفَخاتِ أربعٌ: اثنتان قبْلَ يومِ القيامةِ، واثنتانِ في يومِ القيامةِ؛ فأمَّا النَّفختانِ قبْلَ القيامةِ فهُما نفخةٌ للموتِ، ونفخةٌ للبعثِ -قيل: هما المذكورتان في سورةِ (يس)-. وأمَّا النَّفختانِ يومَ القيامةِ: فنَفخةُ الفَزَعِ والصَّعقِ الَّتي يغشى فيها الخلائِقُ -ولا يموتون- إلَّا مَن شاء اللهُ، ثمَّ نفخةٌ أخرى لقيامِهم وإفاقتِهم. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٢٢، ٢٢٣) و (١٦/ ٥٥١، ٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٤، ١٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٣٩، ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٦).

قيل: إنَّ الَّذين استثناهم اللهُ تعالى في هذا الموضِعِ مِن أن يَنالَهم الفَزَعُ يومَئذٍ: هم الشُّهداءُ؛ وذلك أنَّهم أحياءٌ عندَ ربِّهم يُرزَقون، وإن كانوا في عِدادِ الموتى عندَ أهلِ الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى ذلك: القرطبيُّ، وابن كثير، ونسبه الرسعني لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٠٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو هريرةَ، وابنُ عبَّاس، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٢).

وقيل: الاستثناءُ مجمَلٌ يبيِّنُه قولُه تعالى بعْدَه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] إلى =

﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾.

أي: وكُلُّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ جاؤوا إلى اللهِ بذُلٍّ وخُضوعٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَرَ تعالى دخورَهم، أتبَعَه بدُخُورِ ما هو أعظمُ منهم، بقَولِه تعالى[٢]:

﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾.

أي: وترَى[٣] .....

---

= قولِه: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٦).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤١).

قال ابن عثيمين: (وهذا المبهَمُ في الآيةِ الصَّحيحُ أنَّه ليس معلومًا لنا؛ ولذلك أشكَلَ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: هل كان موسى ممَّن صَعِقَ أو ممَّن استثنى اللهُ، فدَلَّ هذا على أنَّه ليس معلومًا للنَّاسِ مَن هم المُستثنَون، وهذا يرجِعُ إلى كمالِ ربوبيَّةِ الله سُبحانَه وتعالى). ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٤٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٧).

(٣) قيل: المخاطَبُ هو النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعلبي، =

الجِبالَ تظُنُّها ثابتةً ساكِنةً، ولكِنَّها في الحقيقةِ تتحرَّكُ كالسَّحابِ[1].

= ومكِّي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٩).

وقيل: المخاطَبُ هو الإنسانُ عُمومًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٩٤).

وقال القاسمي: (إنه خِطابٌ لجَنابِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وإيذان الأمرِ له بالأصالةِ مع اشتراكِ غيرِه في هذه الرُّؤيةِ). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٤، ١٤٥).

ممَّن ذهب إلى أنَّ هذا الأمرَ يقَعُ يومَ القيامةِ: ابنُ عطية، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٩٤).

وممَّا يدُلُّ على أنَّ قولَه: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يكونُ يومَ القيامةِ، أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿فَفَزِعَ﴾، وذلك المعطوفُ عليه مُرَتَّبٌ بالفاءِ على قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآيةَ، أي: ويومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، فيَفزَعُ مِن في السَّمواتِ وتَرى الجِبالَ؛ فدلَّتْ هذه القرينةُ القُرآنيَّةُ الواضحةُ على أنَّ مَرَّ الجبالِ مَرَّ السَّحابِ كائنٌ يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، لا الآنَ. فالجبالُ في الدُّنيا راكدةٌ ثابتةٌ، أرساها اللهُ وجعَلَها أوْتادًا للأرضِ، وأمَّا يومَ القيامةِ فتَسيرُ الجبالُ وتذهَبُ وتَضمَحِلُّ؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا * وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]، وهذا المعنى هو الغالبُ في القرآنِ؛ لأنَّ جميعَ الآياتِ الَّتي فيها حرَكةُ الجبالِ كلُّها في يومِ القيامةِ.

وأمَّا قولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فقد جاء نحوُه في آياتٍ كثيرةٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وقولِه تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، وتسييرُ الجبالِ وإيجادُها ونصْبُها قبْلَ تسييرِها، كلُّ ذلك =

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

أي: ذلك مِن فِعْلِ وخَلْقِ اللهِ الذي أجاد وأوثَقَ وأحكَمَ كُلَّ شَيءٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يعلَمُ ما تَفعلونَه مِن خيرٍ وشرٍّ، وسيُجازيكم على جَميعِ أعمالِكم؛ فلْتَحذَروا مُخالَفةَ أمرِه(٢).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أنَّه ينبغي للعاقلِ أنْ يَعتبرَ بهذه الآياتِ، وأنَّ الاعتبارَ بها مِن الإيمانِ؛ لقولِه تعالى

---

= صُنْعٌ مُتْقَنٌ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٦)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٢٧/ ٣٢٤).

وذهب بعضُ المفسِّرينَ المعاصرين -كابن عاشور، والشعراوي، والجزائري- إلى أنَّ هذا واقعٌ في الدُّنيا، وأنَّه إشارةٌ إلى دوَرانِ الأرضِ حولَ الشَّمسِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٨ - ٥٠)، ((تفسير الشعراوي)) (١٧/ ١٠٨٥٧ - ١٠٨٥٩)، ((أيسر التفاسير)) للجزائري (٤/ ٤٧).

ونسَبَ القاسميُّ هذا القولَ إلى بعضِ علماءِ الفلكِ، وذكر ما احتجُّوا به على قولِهم. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٠٨-٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٠).

بعدَها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ تحذيرُ المرءِ أن يَعمَلَ ما يُخالِفُ حُكمَ اللهِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ سؤالٌ: لَمَّا قال: ﴿جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، فلِمَ لم يَقُلْ: «والنَّهارَ لِيُبصِروا فيه»؟!

**الجوابُ**: لأنَّ السُّكونَ في اللَّيلِ هو المقصودُ مِن اللَّيلِ، وأمَّا الإبصارُ في النَّهارِ فليس هو المقصودَ، بل هو وسيلةٌ إلى جَلبِ المنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ الانتفاعَ بالآياتِ هو بقَدْرِ ما مع الإنسانِ مِن الإيمانِ؛ لأنَّها رُتِّبَت على وصْفٍ، والمرتَّبُ على وصفٍ يَزيدُ بزيادتِه، ويَنقُصُ بنُقصانِه[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه كمالُ الرُّبوبيَّةِ والسُّلطانِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ ووجْهُ ذلك أنَّ العظيمَ إذا أَبْهَم ما يَتَصَرَّفُ به دلَّ هذا على أنه لا مُعارِضَ له[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ سؤالٌ: كيف قال ﴿دَٰخِرِينَ﴾ أي: صاغِرينَ أَذِلَّاءَ بعْدَ البعثِ، مع أنَّ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءَ والصَّالحينَ يأتون عَزيزينَ مُكرَّمينَ؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٨٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٩٢).

**الجوابُ**: المرادُ صَغارُ العبوديَّةِ والرِّقِّ وذُلُّهما، لا ذُلُّ المعاصي والذُّنوبِ، وذلك يَعُمُّ الخلْقَ كلَّهم، كما في قولِه تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[1] [مريم: ٩٣].

٥- قال تعالى: ﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ (كُلٌّ) لَفْظُها لفظُ واحدٍ، ومعناها معنى جمْعٍ؛ فلذلك عاد إليها ضميرُ جمْعٍ هنا: ﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾، وعاد إليها ضميرُ واحدٍ في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وأُفرِدَ خبَرُها في قولِه تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]، وجُمِع في قوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾[2].

٦- قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ بظاهرِها على أنَّ الجبالَ يَظنُّها الرَّائي ساكنةً وهي تسيرُ، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على أنَّ الجبالَ راسيةٌ، والرَّاسي هو الثابتُ في مَحَلٍّ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، وقولِه: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الحجر: ١٩]، وقولِه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ [المرسلات: ٢٧]!

ووجْهُ الجمعِ ظاهرٌ، وهو أنَّ قولَه: ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ ونحوَه يعني في الدُّنيا، وقولَه: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ يعني: في الآخرةِ؛ بدليلِ قولِه: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، ثمَّ عَطَف على ذلك قولَه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ﴾. وممَّا يدُلُّ على ذلك النُّصوصُ القرآنيَّةُ على أنَّ سيرَ الجبالِ في يومِ القيامةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]، وقولِه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٥٩).

فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[١] [النبأ: ٢٠].

٧- قوله تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ فيه جوازُ إضافةِ الصُّنعِ إلى اللهِ، ولا يؤخَذُ منه إثباتُ اسمِ الصانعِ للهِ، لكنْ يُخبَرُ به عن اللهِ، فيقالُ: إنَّ اللهَ تعالى صانِعُ كلِّ شيءٍ -على سبيلِ الخبريَّةِ-، وأمَّا إثباتُ اسمِ الصَّانعِ فلا[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ إثباتُ الحِكمةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه لا إتقانَ إلَّا بحكمةٍ، فلا يمكِنُ أنْ يُتقَنَ الشَّيءُ إلَّا بعِلمٍ مِن المُتقِنِ كيف يُتقِنُه، والثَّاني: بحِكمةٍ؛ بحيثُ يُنزِلُ كلَّ شيءٍ مَنزلتَه، وإلَّا فاتَ الإتقانُ، فلا يُتقِنُ الشَّيءَ مَن لا يَعلَمُ كيف يُتقِنُه، فهذا ليس بمُمكنٍ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ قطعُ اعتراضِ كلِّ معترِضٍ على ما يَحدثُ في الكونِ مِن تدبيراتٍ أو تشريعاتٍ، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ أتقَنَه، واللهُ تبارك وتعالى أعلَمُ وأحكمُ مِن عبادِه، فأنت متى عَلِمْتَ هذا الشَّيءَ انقطعَ عنك كلُّ اعتراضٍ، سواءٌ سَمِعتَه مِن غيرِك أو أورَدْتَه على نفْسِك[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ كمالُ عِلمِ اللهِ سبحانه وتعالى، وذلك بالخبرةِ الَّتي هي أخَصُّ مِن مُطلَقِ العِلمِ؛ لأنَّ الخبرةَ هي العِلمُ ببواطنِ الأمورِ[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ سؤالٌ؛ وهو أنَّه كان مقتضى

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠٣).

السِّياقِ ألَّا تُخْتَمَ الآيةُ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾، بل تُخْتَمُ بقولِه: «إنَّه عليمٌ حكيمٌ» أو «إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ» وما أشبَهَ ذلك؛ لقولِه: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾، وهذا يقتضي أنْ تُخْتَمَ الآيةُ بما يدُلُّ على القدرةِ والحكمةِ؛ ولكنها خُتِمَتْ بما يدُلُّ على العِلمِ والخبرةِ -العِلمِ بما يفعلُ العِبادُ-. فما الجوابُ عن هذا العدولِ؛ عن الأوَّلِ إلى الثَّاني؟

**الجوابُ -واللهُ أعلمُ-**: أنَّ الحكمةَ مِن ذلك هي أنَّ قولَه: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ جملةٌ معترِضةٌ بالنِّسبةِ للمعنى، لا بالنِّسبةِ للإعرابِ، وأنَّ المقامَ يقتضي الإخبارَ بأنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يَعْلَمُ ما يَفعلون؛ لأنَّ يومَ القيامةِ هو يومُ الجزاءِ، والجزاءُ مُرَتَّبٌ على العِلمِ؛ فلهذا قال: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧]، فيكونُ هنا ذِكْرُ العلمِ بما يفعلُ النَّاسُ في سياقِ يومِ القيامةِ للإشارةِ إلى أنَّ هذا اليومَ هو يومُ الجزاءِ الَّذي يجبُ على المرءِ أن يَعمَلَ له ويَحتاطَ له[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِيَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَوَقَعَ ٱلۡقَوۡلُ عَلَيۡهِم بِمَا ظَلَمُواْ﴾ [النمل: ٨٥]، أي: بما أشْرَكوا، فذَكَّرَهم بدَلائلِ الوَحدانيَّةِ بذِكْرِ أظْهَرِ الآياتِ وأكثَرِها تَكرارًا على حَواسِّهم، وأجدَرِها بأنْ تكونَ مُقنِعةً في ارْعوائِهم عن شِرْكِهم. وهي آيةٌ مُلازِمةٌ لهم طولَ حَياتِهم، تَخطُرُ ببالِهم مرَّتينِ كلَّ يومٍ على الأقلِّ. وفيها تَذكيرٌ بتَمثيلِ الموتِ والحياةِ بعْدَه، بسُكونِ اللَّيلِ وانبثاقِ النَّهارِ عَقِبَه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٩٨).

والجُملةُ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم﴾ [النمل: ٨٥] وجُملةِ ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ [النمل: ٨٧]؛ لِيُتَخلَّلَ الوعيدُ بالاستِدلالِ.

- والاستفهامُ في ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ كِنايةٌ عن التَّعجُّبِ مِن حالِهم؛ لأنَّها لِغَرابتِها تَستلزِمُ سُؤالَ مَن يَسأَلُ عن عَدمِ رُؤيتِهم؛ فهذه عَلاقةُ أو مُسوِّغُ استِعمالِ الاستفهامِ في التَّعجُّبِ(١).

- والرُّؤيةُ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يجوزُ أنْ تكونَ قلْبيَّةً، وجُملةُ ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ سادَّةً مَسَدَّ المفعولينِ، أي: كيف لم يَعلَموا أنَّا جعَلْنا اللَّيلَ لِيَسكُنوا فيه والنَّهارَ مُبصِرًا، مع أنَّ ذلك واضحُ الدَّلالةِ على هذا الجَعلِ؟! واختِيرَ مِن أفعالِ العِلْمِ فِعلُ الرُّؤيةِ؛ لِشَبَهِ هذا العِلمِ بالمعلوماتِ المُبصَرةِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بَصَريَّةً، والمصدرُ المُنسبِكُ مِن الجُملةِ مَفعولَ الرُّؤيةِ، والمعنى: كيف لم يُبصِروا جَعْلَ اللَّيلِ للسُّكونِ والنَّهارِ للإبصارِ، مع أنَّ ذلك بمَرأًى مِن أبصارِهم؟! والجَعلُ مُرادٌ منه أثَرُه، وهو اضطرارُ النَّاسِ إلى السُّكونِ في اللَّيلِ وإلى الانتشارِ في النَّهارِ؛ فجُعِلَت رُؤيةُ أثَرِ الجَعلِ بمَنزلةِ رُؤيةِ ذلك الجَعلِ، وهذا واسعٌ في العربيَّةِ: أنْ يُجعَلَ الأثرُ مَحَلَّ المُؤثِّرِ، والدَّالُّ مَحَلَّ المَدلولِ(٢).

- وجاء ما في اللَّيلِ مِن الخُصوصيَّةِ بصِيغةِ التَّعليلِ باللَّامِ بقولِه: ﴿لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، وما في النَّهارِ بصِيغةِ مَفعولِ الجَعلِ بقولِه: ﴿مُبْصِرًا﴾؛ تفنُّنًا، ولِمَا يُفيدُه ﴿مُبْصِرًا﴾ مِن المُبالَغةِ، والمعنى على التَّعليلِ، والمفعولُ واحدٌ في المآلِ؛ ففي الآيةِ ما يُعرَفُ في عِلْمِ البديعِ بالاحتِباكِ؛ حيثُ حُذِفَ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٢، ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٤٣).

كُلِّ جُملةٍ ما دلَّ عليه المذكورُ في الجُملةِ الأخرى، مع التَّقابُلِ؛ إذ المعنى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ﴾ مُظلِمًا ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾، فالَّذي حُذِفَ مِن هذا (مُظلِمًا)، وذُكِرَ مُقابِلُه ﴿مُبْصِرًا﴾، وحُذِفَ مِن قولِه: ﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ (لِيَنتشِروا ولِيَتصَرَّفوا فيه)، وذُكِرَ مُقابِلُه ﴿لِيَسْكُنُوا فِيهِ﴾[1].

- وجُعِلَ الإبصارُ للنَّهارِ، وهو لأهلِه؛ تنبيهًا على كمالِ هذه الصِّفةِ فيه[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ تَعليلٌ للتَّعجُّبِ مِن حالِهم؛ إذ لم يَستدِلُّوا باختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ على الوَحدانيَّةِ ولا على البعثِ[3].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشعارِ ببُعدِ دَرجتِه في الفضلِ[4].

- ووَجْهُ جَعلِ ذلك آياتٍ، ولم يُجعَلْ آيتينِ، وكَوْنُ الآياتِ في ذلك كثيرةً -كما اقتضاهُ الجمْعُ-: هو أنَّ في نِظامِ اللَّيلِ آياتٍ على الانفرادِ بخلْقِ الشَّمسِ وخلْقِ نُورِها الخارقِ للظُّلماتِ، وخلْقِ الأرضِ، وخلْقِ نِظامِ دَورانِها اليوميِّ تُجاهَ أشِعَّةِ الشَّمسِ، وهي الدَّورةُ التي تُكوِّنُ اللَّيلَ والنَّهارَ، وفي خلْقِ طبْعِ الإنسانِ بأنْ يَتلقَّى الظُّلمةَ بطَلبِ السُّكونِ؛ لِمَا يَعْتري الأعصابَ مِن الفُتورِ دونَ بعضِ الدَّوابِّ التي تَنشَطُ في اللَّيلِ؛ كالهَوامِّ والخفافيشِ، وفي ذلك أيضًا دَلالَةٌ على تعاقُبِ الموتِ والحياةِ. فتلك آياتٌ، وفي كلِّ آيةٍ منها دقائقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٣).

ونُظُمٌ عظيمةٌ، لو بُسِطَ القولُ فيها لَأوعَبَ مُجلَّداتٍ مِن العلوم. وفي جَعلِ النَّهارِ مُبصِرًا آياتٌ كثيرةٌ على الوَحدانيَّةِ ودِقَّةِ صُنعٍ تُقابِلُ ما تقدَّمَ في آياتِ جَعلِ اللَّيلِ سكنًا. وفيه دَلالةٌ على أنْ لا إحالةَ ولا استبعادَ في البعثِ بعدَ الموتِ، وأنَّه نظيرُ بَعثِ اليقظةِ بعدَ النَّومِ، وفي جليلِ تلك الآياتِ ودَقيقِها عِدَّةُ آياتٍ(١).

- ومعنى ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾: لِناسٍ شأْنُهم الإيمانُ والاعترافُ بالحُجَّةِ؛ ولذلك جُعِلَ الإيمانُ صِفةً جاريةً على (قوم)؛ لأنَّ إناطةَ الحُكْمِ بلفظِ (قوم) يُومِئُ إلى أنَّ ذلك الحُكْمَ مُتمكِّنٌ منهم، حتَّى كأنَّه مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، أي: في ذلك آياتٌ لِمَن شِعارُهم التَّدبُّرُ والإنصافُ، أي: فهؤلاء ليسوا بتِلك المنزلةِ. ولِكَونِ الإيمانِ مَقصودًا به أنَّه مَرْجُوٌّ منهم، جِيءَ فيه بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ إذ ليس المقصودُ: إنَّ في ذلك لآياتٍ لِلَّذِينَ آمَنوا؛ لأنَّ ذلك حاصلٌ بالفَحوى والأَولويَّةِ، فصار المعنى: إنَّ في ذلك لآياتٍ للمُؤمنينَ ولِمَن يُرجَى منهم الإيمانُ عندَ النَّظرِ في الأدلَّةِ(٢).

- ولَمَّا كان لا يَنتفِعُ بالفِكرِ في هذه الآياتِ إلَّا المؤمنون؛ خُصُّوا بالذِّكْرِ، وإنْ كانت آياتٍ لهم ولغَيرِهم(٣). وكذلك لِمَّا كان مِن مَباني السُّورةِ تَخصيصُ الهِدايةِ بالمؤمنينَ؛ خَصَّهم بالآياتِ لاختِصاصِهم بالانتفاعِ بها، وإنْ كان الكلُّ مُشترِكينَ في كَونِها دَلالةً لهم(٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيثُ خُولِفَ بيْنَ ما هنا وبيْنَ ما في سُورةِ (يُونسَ)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٢).

إذْ قال هنا: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا الَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وقال في سُورةِ (يُونسَ): ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: ٦٧]. ووَجْهُه: أنَّ آيةَ سُورةِ (يُونسَ) مَسوقةٌ مَساقَ الاستِدلالِ والامتِنانِ؛ فخاطَبَ بها جميعَ النَّاسِ مِن مُؤمِنٍ وكافرٍ؛ فجاءتْ بصِيغةِ الخِطابِ، وجُعِلَتْ دَلالتُها لكلِّ مَن يَسمَعُ أدلَّةَ القرآنِ، فمنهم مُهتَدٍ وضالٌّ؛ ولذلك جِيءَ فيها بفِعْلِ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ المُؤْذِنِ بالامتثالِ والإقبالِ على طَلَبِ الهُدى. وأمَّا هذه الآيةُ فمَسوقةٌ مَساقَ التَّعجيبِ والتَّوبيخِ، فجُعِلَ ما فيها آياتٍ لِمَنِ الإيمانُ مِن شأْنِهم؛ لِيُفيدَ بمَفهومِه أنَّه لا تَحصُلُ منه دَلالةٌ لِمَن ليس مِن شأْنِهم الإنصافُ والاعترافُ؛ ولذلك أُوثِرَ فيه فِعلُ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا﴾ [النمل: ٨٣]؛ عاد به السِّياقُ إلى المَوعظةِ والوعيدِ؛ فإنَّهم لَمَّا ذُكِّرُوا بـ (يومَ يُحشَرون إلى النَّارِ)، ذُكِّروا أيضًا بما قبْلَ ذلك، وهو يومُ النَّفخِ في الصُّورِ؛ تَسجيلًا عليهم بإثباتِ وُقوعِ البَعثِ، وإنذارًا بما يَعقُبُه ممَّا دلَّ عليه قولُه: ﴿أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾، وقولُه: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[2].

- وجِيءَ بصِيغةِ الماضي ﴿فَفَزِعَ﴾ مع أنَّ النَّفخَ مُستقبَلٌ؛ للإشعارِ بتَحقُّقِ الفزَعِ، وأنَّه واقعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ الفعلَ الماضي يدُلُّ على وُجودِ الفعلِ وكَونِه مقطوعًا به، فصِيغةُ الماضي كِنايةٌ عن التَّحقُّقِ، وقرينةُ الاستقبالِ ظاهرةٌ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المُضارِعِ في قولِه: ﴿يُنفَخُ﴾[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ؛ حيث قال هنا: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي (الزُّمَرِ): ﴿فَصَعِقَ﴾ [الزمر: ٦٨]؛ فخُصَّتْ هذه السُّورةُ بقولِه: ﴿فَفَزِعَ﴾ مُوافَقةً لقولِه: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩]، وخُصَّتِ سُورةُ (الزُّمَرِ) بقولِه: ﴿فَصَعِقَ﴾ مُوافَقةً لقولِه: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]؛ لأنَّ معناه: مات[٢].

- ولعلَّ تأخيرَ بَيانِ الأحوالِ الواقعةِ عندَ ابتداءِ النَّفخةِ عن بَيانِ ما يقَعُ بعْدَها مِن حَشرِ المُكذِّبينَ مِن كلِّ أُمَّةٍ -يعني في قولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٣ - ٨٥]-؛ لِتَثنيةِ التَّهويلِ بتكريرِ التَّذكيرِ؛ إيذانًا بأنَّ كلَّ واحدٍ منهما طامَّةٌ كُبْرى وداهيةٌ دَهْياءُ، حقيقةٌ بالتَّذكيرِ على حِيالِها، ولو رُوعِيَ التَّرتيبُ الوُقوعيُّ لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ الكلَّ داهيةٌ واحدةٌ قد أُمِرَ بذِكْرِها[٣].

- وحُذِفَ الضَّميرُ مِن (كُلٍّ)، والتَّقديرُ: وكلُّهم، كما قال: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[٤] [مريم: ٩٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٦)، ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ١٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٣٥٠).

- والتَّعبيرُ بالمُضِيِّ في ﴿أَتَوْهُ﴾؛ للإشعارِ بتَحقُّقِ الإتيانِ، فكأنَّه قد وقَع حتَّى عُبِّر عنه بلفظِ الماضي[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾

- قوله: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ مَنشأُ الحِسْبانِ المَذكورِ أنَّ الأجرامَ المُجتمِعةَ المُتكاثِرةَ العددِ على وجهِ الالتِصاقِ إذا تحرَّكَتْ نحوَ سَمْتٍ لا تَكادُ تَبينُ حرَكتُها، والمشهورُ في وجْهِ الشَّبَهِ السُّرعةُ[٢].

- قد أُدمِجَ في هذا التَّشبيهِ حالُ الجِبالِ بحالِ السَّحابِ في تَخلْخُلِ الأجزاءِ وانتفاشِها، كما في قولِه تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾[٣] [القارعة: ٥].

- في قولِه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ طِباقٌ عجيبٌ بيْنَ الجُمودِ والحركةِ السَّريعةِ؛ حيث جُعِلَ ما يَبْدو لِعَينِ النَّاظرِ كالجبلِ في جُمودِه ورُسوخِه، ولكنَّه سريعٌ يمُرُّ مُرورًا حَثيثًا كما يمُرُّ السَّحابُ[٤].

- وقولُه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ لمَضمونِ ما قبْلَه[٥]، أي: صنَعَ اللهُ ذلك

---

(١) يُنظر: ((عروس الأفراح)) للبهاء السبكي (١/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٦٤).

(٥) وهو مِن إضافةِ المصدرِ المؤكدِ إلى الفاعلِ، أي: صَنَعَ اللهُ صُنْعًا، كقولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، فإنَّه لَمَّا قال جلَّ وعزَّ: ﴿مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾، وقال: ﴿أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾؛ عُلِم أنَّه خَلْقٌ وصُنْعٌ، ولكنَّه وكَّدَ وثبَّتَ للعِبادِ. ومِثلُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ [النساء: ١٢٢]، أي: وَعَدَ اللهُ وعدًا حقًّا. يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٣٥٩).

صُنعًا، على أنَّه عبارةٌ عمَّا ذُكِرَ مِن النَّفخِ في الصُّورِ وما ترتَّبَ عليهِ جميعًا، قُصِدَ به التَّنبيهُ على عِظَمِ شأْنِ تلك الأفاعيلِ وتَهويلُ أمْرِها، والإيذانُ بأنَّها ليستْ بطريقِ إخلالِ نِظامِ العالَمِ وإفسادِ أحوالِ الكائناتِ بالكُلِّيَّةِ مِن غيرِ أنْ يَدعوَ إليها داعيةٌ أو يكونَ لها عاقبةٌ، بلْ هي مِن قَبيلِ بدائعِ صُنعِ اللهِ تعالى المَبْنيَّةِ على أساسِ الحِكمةِ المُستتبِعةِ للغاياتِ الجميلةِ، الَّتي لِأجْلِها رُتِّبَت مُقدِّماتُ الخلْقِ ومَبادئُ الإبداعِ على الوجهِ المَتينِ والنَّهجِ الرَّصينِ[1].

- ووَصْفُ اللهِ تعالى بـ﴿ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ تَعميمٌ؛ قُصِدَ به التَّذييلُ، أي: ما هذا الصُّنعُ العجيبُ إلَّا مُماثِلًا لأمثالِه مِن الصَّنائعِ الإلهيَّةِ الدَّقيقةِ الصُّنعِ[2].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ تَعليلٌ لِكَونِ ما ذُكِرَ صُنْعًا مُحْكَمًا له تعالى، ببَيانِ أنَّ عِلمَهُ تعالى بظَواهرِ أفعالِ المُكلَّفينَ وبواطنِها ممَّا يَدْعو إلى إظهارِها، وبَيانِ كَيفيَّاتِها على ما هي عليه مِن الحُسنِ والسُّوءِ، وتَرتيبِ أجْزِيَتِها عليها بعْدَ بَعثِهم وحَشْرِهم، وجَعْلِ السَّمواتِ والأرضِ والجِبالِ على وَفْقِ ما نطَقَ به التَّنزيلُ؛ لِيَتحقَّقُوا بمُشاهَدةِ ذلك أنَّ وعْدَه حقٌّ لا ريبَ فيه[3]. وقيل: قولُه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ تَذييلٌ أو اعتراضٌ في آخرِ الكلامِ؛ للتَّذكيرِ والوعظِ والتَّحذيرِ، عقِبَ قولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾؛ لأنَّ إتقانَ الصُّنعِ أثَرٌ مِن آثارِ سَعةِ العلْمِ، فالَّذي بعِلْمِه أتقَنَ كلَّ شَيءٍ هو خبيرٌ بما يَفعَلُ الخلْقُ؛ فلْيَحْذَروا أنْ يُخالِفوا عن أمْرِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥١).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ﴾ تَنبيهٌ على الشُّروعِ في الحسابِ والأخذِ في الجزاءِ على سبيلِ الاستئنافِ، وأنَّه جوابٌ لقولِ مَن يَسألُ: فماذا يكونُ بعْدَ هذه القَوارِعِ؟ فقِيل: إنَّ اللهَ خبيرٌ بعَمَلِ العامِلينَ، فيُجازِيهم على أعمالِهم؛ حَسَنِها وسَيِّئِها[1].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٥٩٥).

## الآيات (٨٩-٩٢)

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٩٠ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعۡرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٩٣﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿فَكُبَّتۡ﴾: أي: أُلقِيَتْ وطُرِحَتْ، والكبُّ: إسقاطُ الشَّيءِ على وجْهِه، وأصلُ (كَبَبَ): يدُلُّ على جَمعٍ وتَجمُّعٍ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا جزاءَ مَن أحسَن، وجزاءَ مَن أساء: مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ فله ثوابٌ عظيمٌ عندَ اللهِ، وهم آمِنون مِنَ الفَزَعِ الواقِعِ يومَ القيامةِ، ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ فيُلْقَوْنَ على وُجوهِهم في النَّارِ، ويُقالُ لهم: لا تُجْزَوْنَ إلَّا بأعمالِكم الَّتي كنتُم تعمَلونها في الدُّنيا.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يُبيِّنَ منهجَه في دعوتِه، فيقولُ: وقلْ -يا محمَّدُ- لقَومِك مِن قُرَيش: إنَّما أمَرَني اللهُ أن أعبُدَه وَحْدَه، هو رَبُّ هذه البَلْدةِ -مكَّةَ- الَّذي جعَلَها حَرَمًا آمِنًا، وله كُلُّ الأشياءِ خَلْقًا ومِلكًا وتصَرُّفًا، وأمَرَني أن أكونَ مِن المُستسلِمينَ له بالتَّوحيدِ، وأن أقرأَ القُرآنَ وأتَّبعَ ما فيه، فمَنْ آمَنَ بالقُرآنِ واتَّبَع الحَقَّ فإنَّما ثوابُ اهتدائِه راجِعٌ إليه، ومَن كفَرَ بالقُرآنِ وأعرَضَ، فقُلْ له:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥).

إنَّما أنا مِن المُنذِرينَ عذابَ اللهِ وسَخَطَه.

ثمَّ يقولُ الله تعالى: وقُلْ -يا محمَّدُ-: الحمدُ لله، سيُريكم في الدُّنيا آياتِ عَذابِه ودَلائلَ وحدانيَّتِه وقدرتِه، فتَعرِفونَها، وما ربُّك بغافِلٍ عمَّا تعمَلونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ ٨٩﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تكلَّمَ سُبحانَه في علاماتِ القيامةِ؛ شرَحَ بعْدَ ذلك أحوالَ المكلَّفِينَ بعدَ قيامِ القيامةِ، فقال تعالى[1]:

﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾.

أي: مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ[2] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٤).

(٢) والمرادُ بالحَسَنةِ هنا: الحَسَنةُ الكامِلةُ، وهي الإيمانُ والتَّوحيدُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والبقاعي. وحكى القرطبيُّ الإجماعَ عليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الله بن مسعود، وابن عباس، وأبو هريرة، وعلي ابن الحسين، وسعيد بن جُبَير، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وأبو صالح، ومحمد بن كعب، والنَّخَعي، والضَّحَّاك، والزُّهْريُّ، وعِكْرِمةُ، وزيد بن أسلَمَ، وقَتادةُ، وإبراهيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٣٤).

قال القرطبي: (هو إجماعٌ مِن أهل التَّأويلِ في أنَّ الحَسَنةَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ السَّيِّئةَ: الشِّركُ، في هذه الآيةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥).

قال ابنُ تيميَّةَ معلِّلًا هذا القولَ، وأنَّهم إنَّما (قالوه؛ لأنَّ أعمالَ البرِّ داخلةٌ في التَّوحيدِ؛ فإنَّ عبادةَ اللهِ بما أمَر به كما قالَ: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ الآيةَ [البقرة: ١١٢]. وقالَ تعالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ﴾ الآيةَ [إبراهيم: ٢٤]. =

فله ثَوابٌ عظيمٌ عندَ اللهِ(١).

= فالكلمةُ الطَّيِّبةُ التَّوحيدُ، وهي كالشَّجرةِ، والأعمالُ ثمارُها في كلِّ وقتٍ، وكذلك السَّيِّئةُ هي العملُ لغيرِ اللهِ، وهذا هو الشِّركُ؛ فإنَّ الإنسانَ حارثٌ همَّامٌ، لا بُدَّ له مِنْ عملٍ، ولا بُدَّ له مِن مقصودٍ يعملُ لأجلِه. وإنْ عَمِل للهِ ولغيرِه فهو شركٌ. والذُّنوبُ مِنَ الشِّركِ؛ فإنَّها طاعةٌ للشَّيْطانِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٤٤٠).

وقيل: المرادُ بالحَسَنةِ هنا: جِنسُ الحَسَناتِ، فأيُّ حَسنةٍ مِن الحسناتِ فهي مرادةٌ في الآيةِ. وممَّن قال بذلك: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٥). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٥، ١٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥)، ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٦).

اختلف المفسِّرون في معنى قَولِه تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾؛ فقيل: خيرٌ هنا صيغةُ تفضيلٍ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ رجب، والنيسابوري، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٦).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدٍ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٣٠). ونسَبَه ابنُ الجَوزيِّ لِزَيدِ بنِ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٣).

وقيل في بيانِ الخَيريَّةِ: إنَّها بمُضاعَفةِ الحَسَناتِ، وبأنَّ العَمَلَ مُنقَضٍ والثَّوابَ دائمٌ، ولأنَّ العَمَلَ فِعلُ العبدِ، والثَّوابَ فِعلُ اللهِ تعالى. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٤٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٥، ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٦، ٥٠٧).

وقيل: خيرٌ هنا ليست صيغةَ تفضيلٍ، وإنَّما المعنى: أنَّ مَن جاء بالحَسَنةِ فله منها خيرٌ حاصِلٌ بسَبَبِها. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عباس، والحسن، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، وقتادة، =

﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾.

أي: وهم آمِنونَ يومَ القيامةِ مِن الفَزَعِ الحاصِلِ للخَلقِ[1].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

وقال سُبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

---

= وابن جُرَيج، وعِكْرِمة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٦).

قيل: يحتَمِلُ أنَّهم لا يفزَعون مطلقًا، ويحتَمِلُ أنهم يَفزَعون ولكِنَّهم آمِنون، فيَكونُ هذا الفزَعُ مجرَّدَ شعورٍ بما يُفزَعُ منه فقط. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٨، ٥٠٩).

ممَّن اختار أنَّهم آمِنُونَ مِن فزَعِ يومِ القيامةِ وأهوالِه: الماتريدي، والسمرقندي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٦).

وذكر ابنُ جريرٍ أنَّهم يَأْمَنون مِن فزَعِ الصَّيحةِ الكبرى، وهي النَّفخُ في الصُّورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩).

وممَّن قال بأنَّهم يَأمنون وإن كانوا يَفزَعون مع الخَلقِ: الرازي، والبيضاوي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١).

وذكر الرازيُّ أنَّ الفزعَ المنفيَّ هو الخَوفُ مِنَ العذابِ، أمَّا الفزعُ المُثبَتُ في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فهو ما لا يخلو منه أحدٌ عندَ الإحساسِ لشِدَّةٍ تقعُ، وهو يَفجأ مِن رعبٍ وهَيْبة، وإن كان المُحسِنُ يَأمن وُصولَ ذلك الضَّررِ إليه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥).

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾.

أي: ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ(١) فيُلْقَوْنَ في النَّارِ على وُجوهِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗاۖ مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرٗا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: يُقالُ لهم(٣): .....

---

(١) المرادُ بالسيِّئةِ هنا: الشِّركُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والبقاعي، وحكى القرطبيُّ الإجماعَ عليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوجيز)) (ص: ٨١١)، ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: أبو هريرة، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس، وأنس بن مالك، وأبو وائل، وعطاء، والحسن، وسعيد بن جُبَير، ومجاهد، وعِكْرِمة، والنَّخَعي، وأبو صالح، والزُّهْري، وزيد بن أَسْلَمَ، ومحمد بن كعب القُرَظي، والسُّدِّيُّ، وقتادة، والضَّحَّاك، وابن زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٣٥).

وقيل: المرادُ: جِنسُ السِّيئاتِ عُمومًا، فتشمَلُ أيَّ عَمَلٍ سَيِّئٍ. وممَّن قال بذلك: السعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٢، ٥٣).

قال ابنُ عثيمين بناءً على القولِ بأنَّ المرادَ بالسَّيِّئةِ جنسُ السيئاتِ: (إنَّ قَولَه: ﴿فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ لا يلزمُ منه الخلودُ، بل قد تُكَبُّ وُجوهُهم في النَّارِ ثمَّ يَنجُون. فإذا قال قائلٌ: إذا كانوا عُصاةً فإنَّ مَوضِعَ السُّجودِ لا تأكُلُه النَّارُ، فكيف نقولُ: كُبَّت وُجوهُهم في النَّارِ؟ قُلنا: إذا كُبَّ على وجهِه أصابَتْه النَّارُ إلَّا موضِعَ السُّجودِ، وهذا لا يَمنَعُ أن يُكَبَّ على وجهِهِ وتُحمى مواضِعُ السُّجودِ مِن النَّارِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٣).

(٣) قيل: يجوزُ أن يكونَ مِن قَولِ الله. ويجوزُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥).

وذكر البغويُّ أنَّه مِن قَولِ خَزَنةِ جَهنَّمَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٠). =

لا تُجازَونَ إلَّا بحَسَبِ أعمالِكم الَّتي كنتُم تَعمَلونَها في الدُّنيا[١].

كما قال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس: ٥٤].

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أَتَمَّ سبحانه الدِّينَ بذِكرِ الأصولِ الثَّلاثةِ: المبدأِ والمعادِ، والنُّبوَّةِ، ومقَدِّماتِ القيامةِ وأحوالِها، وبعضِ صفتِها وما يكونُ مِن أهوالِها، وذلك كمالُ ما يَتعلَّقُ بأصولِ الدِّينِ على وجوهٍ مُرَغِّبةٍ أتَمَّ ترغيبٍ، مُرَهِّبةٍ أعظَمَ ترهيبٍ؛ أوجَبَ هذا التَّرغيبُ والتَّرهيبُ لكلِّ سامعٍ أن يقولَ: فما الذي نعملُ؟ ومَن نعبُدُ؟ فأجابَه المخاطَبُ بهذا الوحيِ، المأمورُ بإبلاغِ هذه الجوامِعِ، الدَّاعي لِمَن سمِعَه، الهادي لِمَنِ اتَّبَعَه؛ بأنَّه يَرضى له ما رَضيَ لنَفْسِه، وهو ما أمَرَه به ربُّه، فقال[٢]:

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِقَومِك مِن قُرَيشٍ: إنَّما أمرَني اللهُ أن أعبُدَ رَبَّ هذه البلدةِ

---

= وذكر ابنُ جريرٍ أنَّ هذا يُقالُ لهم ذلك وقتَ كَبِّهم في النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٣، ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٧).

-مكَّةَ- الذي جعَلَها حَرَمًا آمِنًا؛ حرَّم فيها على خَلقِه أن يَسفِكوا دمًا حرامًا، أو يَظلِموا أحدًا، أو يَصيدوا فيها، أو يَقطَعوا شَجَرَها[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ١١، ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ * ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣، ٤].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يومَ افتتَحَ مَكَّةَ: لا هِجرةَ، ولكِنْ جِهادٌ ونِيَّةٌ، وإذا استُنفِرتُم فانفِروا[٢]؛ فإنَّ هذا بلدٌ حَرَّمَ اللهُ يومَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وهو حرامٌ بحُرمةِ الله إلى يومِ القيامةِ، وإنَّه لم يَحِلَّ القِتالُ فيه لأحدٍ قَبْلي، ولم يَحِلَّ لي إلَّا ساعةً مِن نهارٍ؛ فهو حرامٌ بحُرمةِ اللهِ إلى يومِ القيامةِ: لا يُعضَدُ شَوكُه[٣]، ولا يُنفَّرُ صَيدُه، ولا يَلتَقِطُ لُقَطَتَه إلَّا مَن عَرَّفها، ولا يُختَلى خَلَاها[٤]، قال العبَّاسُ: يا رسولَ اللهِ، إلَّا الإذخِرَ؛ فإنَّه لِقَيْنِهم[٥] ولِبُيوتِهم، قال: إلَّا الإذخِرَ))[٦].

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٦).

(٢) إذا استُنفِرتُم فانفِروا: أي: إذا طُلِبَ منكم النُّصرةُ، فأجيبوا وانفِروا خارجينَ إلى الإعانةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٩٢).

(٣) لا يُعضَدُ شَوكُه: أي: لا يُقطَعُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٣٠٤).

(٤) لا يُختلى خَلاها: أي: لا يُقطَعُ نباتُها الرَّطبُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٣٠٩).

(٥) قَيْنِهم: هو الحَدَّاد والصَّائِغُ، ومعناه: يَحتاجُ إليه القَيْنُ في وَقودِ النَّارِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٢٧).

(٦) رواه البخاري (١٨٣٤) واللفظ له، ومسلم (١٣٥٣).

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت إضافةُ البلدةِ إليه إنَّما هي لمحضِ التَّشريفِ، قال احتراسًا عمَّا لعلَّه يُتَوَهَّمُ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ أي: مِن غيرِها ممَّا أشرَكْتُموه به وغيره خلْقًا ومُلْكًا ومِلْكًا[1]!

﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾.

أي: ولله- رَبِّ مَكَّةَ- الأشياءُ كُلُّها خَلقًا ومِلكًا وتصرفًا[2].

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أكونَ مِن المُستسلِمينَ له بالتَّوحيدِ، المنقادينَ له بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه[3].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ ما أُمِرَ به في نَفْسِه؛ أتبَعَه ما تَعُمُّ فائِدتُه غيرَه، فقال[4]:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٨).

﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾.

أي: وأمَرَني اللهُ أن أقرأَ القرآنَ وأتَّبِعَ ما فيه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [الأحزاب: ٢].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٤].

﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾.

أي: فمَنْ آمَنَ بالقُرآنِ وعَمِلَ به واتَّبَع الحَقَّ الَّذي فيه، فإنَّما ثَوابُ ذلك ونَفْعُه يعودُ إليه[2].

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ﴾ [يونس: ١٠٨].

﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١).

قال أبو السعود: (﴿ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ أي: أواظِبَ على تلاوتِه؛ لتنكَشِفَ لي حقائقُه الرَّائِعةُ المخزونةُ في تضاعيفِه شَيئًا فشيئًا، أو على تلاوتِه على النَّاسِ بطريقِ تكريرِ الدَّعوةِ وتثنيةِ الإرشادِ؛ فيكونَ ذلك تنبيهًا على كفايتِه في الهدايةِ والإرشادِ مِن غيرِ حاجةٍ إلى إظهارِ مُعجزةٍ أخرى). ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١).

أي: ومَن كفَرَ بالقُرآنِ وأعرَضَ عن العمَلِ بما فيه، فقُلْ له: إنَّما أنا مِن الرُّسُلِ المخَوِّفِينَ عذابَ اللهِ وسَخَطَه وعواقِبَ ضَلالِكم؛ فليس علَيَّ إلَّا البلاغُ المُبينُ، وقد أبلَغْتُكم وخوَّفتُكم، وهدايتُكم ليسَت بيدي، ولا وَبالُ ضَلالِكم علَيَّ[1].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَاۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: المتَّصِفُ بالكَمالِ هو اللهُ تعالى الذي أنعَمَ علينا وهدانا، وبيَّن آياتِه وأقام الحُجَّةَ على عبادِه، سيُريكم في الدُّنيا آياتِ عذابِه ودلائِلَ وحدانيَّتِه وقُدرتِه، فيتبيَّنُ لكم صِدقُ ما أخبَرَكم اللهُ به، وصِدقُ ما دَعوتُكم إليه وتوعَّدتُكم به[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٨، ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٣٧، ٥٣٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالآياتِ آياتُ عذابِه وسخطِه: ابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٨٠).

وممَّن اختار أنَّ الآياتِ المرادُ بها العذابُ في الدُّنيا: مقاتلُ بن سليمان، والثعلبي، وهو =

كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى ﴿تَعْمَلُونَ ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿تَعْمَلُونَ ﴾ على الخِطابِ. قيل: المعنى: عمَّا تعمَلُه أنت وأتْباعُك

---

= ظاهر اختيار مكِّي، واختاره البغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: العذابُ في الدُّنيا والآخرةِ: ابنُ عطية، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٦٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الآياتُ في الأنفُسِ وفي جميعِ ما خلَقَ اللهُ: الزجَّاجُ، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٠).

قال القرطبي: (﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ أي: في أنفُسِكم وفي غيرِكم، كما قال: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [فصلت: ٥٣]. ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾ أي: دَلائلَ قُدرتِه ووَحْدانيَّتِه في أنفُسِكم وفي السَّمواتِ وفي الأرضِ، نظيرُه قولُه تعالى: ﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٦).

واختار ابنُ عثيمينَ العُمومَ، وأنَّ الآياتِ تشملُ الآياتِ الدَّالَّةَ على صِدقِ ما وعَدَ به الرَّسولُ وما تَوعَّدَ به مِنَ الآياتِ الكونيَّةِ، وتشملُ أيضًا الآياتِ الشَّرعيَّةَ الدَّالَّةَ على كمالِ شريعتِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٣٨).

-يا محمَّدُ- مِن الطَّاعةِ، وما يَعمَلُه أولئك المُشرِكون مِن المعصيةِ[١].

٢- قِراءةُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ أي: ما يَعمَلُه أولئك المُشرِكون المكَذِّبون[٢].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وما ربُّك بغافلٍ عمَّا تعملونَه، بل هو شَهيدٌ على كلِّ أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها، ولا يَحزُنْك -يا محمَّدُ- تكذيبُهم لك؛ فإنِّي لهم بالمِرْصادِ، ولك الغَلَبةُ والنَّصرُ، ولهم الذُّلُّ والخِزْيُ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الثوابَ أفضَلُ مِن العَمَلِ[٤]، وذلك على أحدِ القولَينِ في التَّفسيرِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ سؤالٌ، وهو: كيف يُؤتَى بالحَسَناتِ وهي أعمالٌ مَضَتْ، والأعمالُ مَعانٍ وليست أجسامًا؟!

**الجواب**: أنَّ اللهَ تبارك وتعالى على كلِّ شيءٍ قديرٌ، يَقْلِبُ هذه المعانيَ إلى

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وحفصٌ، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٤٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٥١٠).

أجسامٍ مِثلَما قَلَبَ الموتَ -وهو معنًى- إلى جسم، وهو الكَبشُ[١]؛ فاللهُ تعالى على كلِّ شَيءٍ قديرٌ، قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأصحابِه: ((مَن تَعُدُّون المُفلِسَ فيكم؟ قالوا: مَن لا دِرْهمَ عندَه ولا مَتاعَ، فقال: المُفلِسُ مَن يأتي يومَ القيامةِ بحَسَناتٍ أمثالِ الجِبالِ...)) إلى آخرِ الحديثِ[٢]، فالمجيءُ بالأعمالِ يومَ القيامةِ ليس بمُمتَنِعٍ؛ لأنَّ الله تعالى على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ﴾ أنَّ العِبرةَ بالمجيءِ بالحَسَنةِ لا بعَمَلِها؛ وذلك لأنَّ عامِلَ الحسنةِ في الدُّنيا قد لا يأتي بها يومَ القيامةِ؛ حيثُ يحصلُ ما يُبطِلُها؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فقد يعمَلُ الإنسانُ الحَسَنةَ، لكنْ يأتي بشَيءٍ يُبْطِلُها فلا يأتي بها يومَ القيامةِ، والمدارُ على الإتيانِ بها يومَ القيامةِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ سؤالٌ: أليس قال تعالى في أوَّلِ الآيةِ: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فكيف نفى الفَزَعَ هاهنا؟!

**الجوابُ**: أنَّ الفزعَ الأوَّلَ لا يَخلو منه أحدٌ عندَ الإحساسِ بشدَّةٍ تقعُ أو هَولٍ يَفجَأُ إلَّا ما استُثنِي -وإنْ كان المحسِنُ آمنًا مِن لَحاقِ الضَّررِ-، وأمَّا الثَّاني فهو الخَوفُ مِن العَذابِ[٥].

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخُدْري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٧٨).

٥- أنَّ مَن جاء بالسَّيِّئةِ فإنه لا يأمنُ مِن الفَزَعِ، وهو مأخوذٌ مِن مَفهومِ قولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا وَهُم مِّن فَزَعٖ يَوۡمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ يعني: أمَّا مَن جاء بالسَّيِّئةِ فإنَّه لا يأمنُ؛ ولهذا تُكَبُّ وُجوهُهم في النارِ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيه كمالُ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ فالمعنى: ما ظَلَمْناكم، بل أنتم الَّذين ظلَمْتُم أنفُسَكم، فعَمِلتُم ما استَحْقَقْتُم به هذا العذابَ[2].

٧- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أنَّ عذابَ أهلِ النارِ -والعياذُ باللهِ- عذابٌ نفْسيٌّ وبَدَنيٌّ؛ بَدَنيٌّ حيثُ تُكَبُّ وجوهُهم في النَّارِ، ونفْسيٌّ حيثُ يُوَبَّخون ويُقرَعون: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ وجوبُ العبادةِ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِقَولِه: ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ﴾، كما تجِبُ العبادةُ على غيرِه، ويجبُ عليه هو -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنْ يَشهدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّه رسولُ اللهِ، فهذا مقتضى الإسلامِ، وفي الآية بُطلانُ القولِ بأنَّ الوليَّ يَصِلُ إلى دَرَجةٍ يَسقطُ بها عنه التَّكليفُ، وهذا موجودٌ عندَ الصُّوفيةِ وغيرِهم؛ يقولون: هذه العباداتُ التي نُكَلَّفُ بها وسائِلُ إلى غايةٍ، والغايةُ: اليقينُ، قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، فإذا وَصَلَ الإنسانُ إلى اليقينِ سقطتْ عنه العبادةُ! فإذا كان الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أُمِرَ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يعبُدَ اللهَ، فغَيرُه من بابِ أَولى[١].

٩- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ في قَولِه: ﴿حَرَّمَهَا﴾ تعديدُ نِعمتِه على قُرَيشٍ في رَفعِ الله تعالى عن بلَدِهم الغاراتِ والفِتَنَ الشَّائعةَ في جميعِ بلادِ العَرَبِ[٢].

١٠- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ فيه فضيلةُ مكَّةَ مِن وَجهَينِ: مِن إضافةِ الرُّبوبيَّةِ إليها ﴿رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾، ومِن كونِه تعالى حَرَّمَها ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾؛ ففيه فضيلةُ مكَّةَ على سائرِ البلادِ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ سؤالٌ: وهو أنَّ الذي حَرَّمَ مكةَ هو اللهُ، ألَا يُعارِضُ ذلك ما ثَبَت عن رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن قولِه: ((إنَّ إبراهيمَ حَرَّمَ مكَّةَ))[٤]؟!

**الجوابُ**: أنَّه أُضيفَ في هذه الآيةِ التَّحريمُ إلى اللهِ تعالى من حيثُ ذلك بقَضائِه وسابِقِ عِلمِه، وأضافه النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى إبراهيمَ عليه السلامُ في قَولِه: ((إنَّ إبراهيمَ حرَّم مكَّةَ)) مِن حيث كان ظهورُ ذلك بدُعائِه ورَغبتِه وتبليغِه لأمَّتِه؛ فليس بيْنَ الآيةِ والحديثِ تعارُضٌ[٥].

١٢- في قَولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ الرَّدُّ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ الذين يقولون: إنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢١٢٩)، ومسلم (١٣٦٠) من حديث عبد الله بن زيدٍ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢٣).

الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه، فإنَّه على قَولِهم يَخرجُ بعضُ الأشياءِ عن مُلْكِ اللهِ! واللهُ تعالى يقولُ: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾[1].

١٣- في قَولِه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾ ثم قولِه بعدَ ذلك: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ سؤالٌ، وهو: أليسَتِ العبادةُ هي الإسلامَ؟

**الجوابُ**: بلى، العبادةُ هي الإسلامُ، لكنَّه قال: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾، والعِبادةُ هي التَّذلُّلُ له بالطَّاعةِ، ثمَّ قال: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أيْ: أنْ أُحَقِّقَ هذه العِبادةَ بالاستِسلامِ التَّامِّ لأوامرِ الله تبارك وتعالى، فالإنسانُ قد يكونُ عابدًا في الأصلِ لَكِنِ الانقيادُ التَّامُّ بجميعِ مشروعاتِ الإسلامِ يُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾، أي: مِنَ المُنقادينَ لحُكمِ الله سبحانه وتعالى انقيادًا تامًّا، لا مُعارَضةَ عندَهم ولا استكبارَ[2].

١٤- أنَّ الإسلامَ والإيمانَ شَيءٌ واحدٌ؛ لأنَّ قولَه: ﴿أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ لا شكَّ أنَّ ما أُمِرَ به هو أعلى الحالاتِ، وهو الإيمانُ. والإسلامُ عندَ الإطلاقِ يشملُ الإيمانَ، والإيمانُ عند الإطلاقِ يشملُ الإسلامَ، وأمَّا عندَ التَّقييدِ وأن يُقرَنَ بيْنَهما فإنَّ الإيمانَ يكونُ ما وقَرَ في القَلبِ، والإسلامَ ما قامت به الجوارِحُ؛ لأنَّ الإسلامَ مِنَ الاستِسلامِ، وهو عدَمُ المعارَضةِ، بل الموافَقةُ؛ فالمنافِقون الَّذين لا يُظهِرونَ مُعارَضةً نُسَمِّيهم مُسلِمينَ، لكِنْ لا نُسَمِّيهم مُؤمِنينَ؛ لعدَمِ وُجودِ الإيمانِ في قلوبِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٢٠، ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٢٧).

١٥- في قوله: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ هناك مُسلِمينَ، فهل اليهودُ والنَّصارى مسلمون؟

**الجواب**: حينَ كانت شرائعُهم قائمةً فهم مسلمون، أمَّا بعدَ أن نُسِختْ فإنَّهم إذا لم يَلتزموا بالشَّريعةِ النَّاسخةِ لم يكونوا مُسلِمينَ، فالإسلامُ هو الدِّينُ عندَ الله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وبعدَ بَعثةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا إسلامَ إلَّا باتِّباعِ شريعتِه، وإلَّا فأصلُ الإسلام -كما هو معروفٌ- مِنَ الاستِسلامِ، وهو الانقيادُ، وهذا يشملُ كلَّ انقيادٍ لله سبحانه وتعالى، سواءٌ في عصرِ هذه الأُمَّةِ أو قبْلَها، فنوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢]، مِثلَما قيل للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وقال عن يعقوبَ: إنَّه قال لِبَنِيه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقالت بِلْقيسُ: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [النمل: ٤٤].

١٦- قَولُه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فيه وُجوبُ تبليغِ القرآنِ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

١٧- حقيقةُ التِّلاوةِ في قولِه: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ وغيرِه مِنَ المَواضِعِ كقولِه تعالي: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١] هي التِّلاوةُ المُطْلَقةُ التَّامَّةُ، وهي تلاوةُ اللَّفظِ والمعنى؛ فتِلاوةُ القرآنِ تَتناوَلُ تِلاوةَ لفظِه ومعناه، وتِلاوةُ اللَّفظِ جُزءُ مُسمَّى التِّلاوةِ المُطْلَقةِ، وحقيقةُ اللَّفظِ إنَّما هي الاتِّباعُ، فتِلاوةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٣٦).

اللَّفظِ وسيلةٌ وطريقٌ، والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيقيَّةُ، وهي تلاوةُ المعنى واتِّباعُه؛ تصديقًا بخبرِه، وائْتِمارًا بأمرِه، وانتهاءً عن نَهْيِه، وائتمامًا به، حيثُما قادك انقَدْتَ معه، فتِلاوةُ المعنى أشرَفُ مِن مجرَّدِ تلاوةِ اللَّفظِ، وأهلُها هم أهلُ القرآنِ الَّذين لهم الثَّناءُ في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإنَّهم أهلُ مُتابَعةٍ وتِلاوةٍ حقًّا[1].

١٨- قولُه تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾، أي: أُواظِبَ على تِلاوتِه على النَّاسِ بطَريقِ تَكريرِ الدَّعوةِ وتَثنيةِ الإرشادِ؛ فيكونُ ذلك تَنبيهًا على كِفايتِه في الهِدايةِ والإرشادِ مِن غَيرِ حاجةٍ إلى إظْهارِ مُعجزةٍ أُخرى[2]؛ ففيه فَضيلةُ القرآنِ وشَرَفُه[3].

١٩- كان ما أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَه للمُعاندين مُشتمِلًا على أنَّ اللهَ هداهُ للدِّينِ الحقِّ مِن التَّوحيدِ وشرائعِ الإسلامِ، وأنَّ اللهَ هدَى به النَّاسَ بما أنزَلَ اللهُ عليه مِن القرآنِ المَتلُوِّ، وأنَّه جعَله في عِدادِ الرُّسلِ المُنذِرينَ؛ فكان ذلك مِن أعظَمِ النِّعمِ عليه في الدُّنيا، وأبْشَرِها بأعظَمِ دَرجةٍ في الآخرةِ؛ مِن أجْلِ ذلك أُمِرَ بأنْ يَحمَدَ اللهَ بالكلمةِ الَّتي حمِدَ اللهُ بها نفْسَه، وهي كلمةُ (الحمدُ للهِ) الجامعةُ لِمَعانٍ مِن المحامِدِ؛ قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[4].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ كلامٌ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٢). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٨).

مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّمهيدِ لِختامِ السُّورةِ بإجمالِ مَصيرِ المُحسِنِ والمُسيءِ[١].
وقِيل: بَيانٌ لِمَا أُشِيرَ إليه بإحاطةِ عِلْمِه تعالى بأفْعالِهم مِن تَرتيبِ أَجْزِيتِها عليها[٢].

- قولُه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ ...﴾ بَيانٌ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]؛ لأنَّ الفزَعَ مُقتَضٍ الحشرَ والحضورَ للحسابِ[٣].

- وقَوله: ﴿فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ﴾ فأضاف الفَزَعَ إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّه فَزَعٌ لا نظيرَ له في الدُّنيا[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ خُصَّتِ الوُجوهُ بالذِّكرِ هنا؛ لأنَّها أشرَفُ الأعضاءِ، ويلْزَمُ مِن كَبِّها في النَّارِ كبُّ الجميعِ. أو عُبِّرَ بالوجْهِ عن جُملةِ الإنسانِ، كما يُعبَّرُ عنها بالرَّأسِ والرَّقَبةِ، كما قال: ﴿فَكُبْكِبُواْ فِيهَا﴾ [الشعراء: ٩٤]، فكأنَّه قِيل: فكُبُّوا في النَّارِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ذِكْرُ الوُجوهِ إيذانًا بأنَّهم يُكَبُّون على وُجوهِهم فيها مَنكوسينَ. ويجوزُ أنْ يكونَ ذلك كِنايةً عن طرْحِهم في النَّارِ[٥].

- في قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ * وَمَن

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٣/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥١، ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٣).

جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ﴾ احتباكٌ[١]؛ حيث ذَكَرَ الخيريَّةَ والأمْنَ أوَّلًا دليلًا على حذْفِ المِثْلِ؛ وعلى الخوفِ ثانيًا، وذَكَر الكَبَّ في النَّارِ ثانيًا دليلًا على الإكرامِ عنه أوَّلًا[٢].

- قولُه: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تَذييلٌ للزَّواجرِ المُتقدِّمةِ؛ فالخِطابُ للمُشركين الذين يسْمَعون القرآنَ على طَريقةِ الالتفاتِ مِن الغَيبةِ بذِكْرِ الأسماءِ الظَّاهرةِ -وهي مِن قَبيلِ الغائبِ- وذِكْرِ ضَمائرِها ابتداءً مِن قولِه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [النمل: ٨٠] وما بعْدَه مِن الآياتِ إلى هنا. ومُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: هلْ يُجْزَون إلَّا ما كانوا يعْمَلون؛ فكانت هذه الجُملةُ كالتَّلخيصِ لِمَا تقدَّمَ، وهو أنَّ الجزاءَ على حسَبِ عقائدِهم وأعمالِهم، وما العقيدةُ إلَّا عمَلُ القلْبِ؛ فلذلك وُجِّهَ الخِطابُ إليهم بالمُواجَهةِ. ويجوزُ أنْ تكونَ مَقولًا لقولٍ مَحذوفٍ يُوجَّهُ إلى النَّاسِ يَومَئذٍ، أي: يُقالُ لكلِّ فريقٍ: هلْ تُجْزَون إلَّا ما كُنتم تعْمَلون[٣]؟

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ استفهامٌ في مَعنى النَّفيِ؛ بقَرينةِ الاستثناءِ. ولعلَّ أصلَ ذلك أنَّه استفهامٌ عن النَّفيِ لقَصدِ التَّقريرِ بالنَّفيِ، والتَّقديرُ: هلْ لا تُجْزَون إلَّا ما كُنتم تعْمَلون، فلمَّا اقترَن به الاستثناءُ

---

(١) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٣).

غالبًا والحرفُ الزَّائدُ في النَّفيِ في بعضِ المواضعِ، حَذَفوا النَّافيَ، وأشْرَبوا حرفَ الاستفهامِ معنى النَّفيِ؛ اعتمادًا على القرينةِ، فصار مُفادُ الكلامِ نفْيًا، وانسلَخَتْ (هل) عن الاستفهامِ، فصارت مُفيدةً النَّفيَ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هذه الخاتمةُ كالمُتارَكةِ للمُشركينَ، وهي خاتمةٌ تُدهِشُ العقولَ، وتُحيِّرُ الأفهامَ؛ فإنَّه تعالى لَمَّا ختَمَ الآياتِ الواردةَ في أمْرِ البعثِ والحشرِ على أتمِّ ما يَنْبغي بقولِه: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على الحصرِ، ووضَعَ مَوضِعَ حَرفِ النَّفيِ الاستفهامَ تأكيدًا؛ أمَرَ حَبيبَه صلواتُ اللهِ عليه بخُوَيْصَّةِ نفْسِه مِن الاشتغالِ بعِبادةِ ربِّه، فاختار له مِن الأمكنةِ أفضَلَ البِقاعِ، وخصَّها مِن الأوصافِ ما كلُّ وَصفٍ دونَها، وجعَلَ دخولَ كلِّ شَيءٍ تحتَ مَلكوتِه كالتَّابعِ لدُخولِها تحتَه. ومِن المِلَّةِ خيرَ المِلَلِ وأقْومَها؛ ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. ومِن الكُتبِ أسْمى الكُتبِ وأسْناها؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ثمَّ أمَرَ بعدَ ذلك كلِّه بالتَّحميدِ حمْدًا على ما أَولاهُ مِن نِعَمِ التَّبليغِ، واستفراغِ الطَّوقِ والجُهدِ فيه، ومِن اختصاصِ اللهِ بالعِبادةِ في أشرَفِ البقاعِ، ومِن الدُّخولِ في المِلَّةِ الحنيفيَّةِ، ومِن تِلاوةِ هذا الكتابِ الكريمِ، ثمَّ طبَعَ الكتابَ بالتَّهديدِ بقولِه: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣]، يعني: حينَ أعْرَضوا عن واعظِ اللهِ، وأمَرْنا الرَّسولَ بالمُتارَكةِ، سنَفرُغُ لهم وحْدَنا، ونُلجِئُهم إلى المعرفةِ والإقرارِ بآياتِنا حينَ لا تَنفَعُهم المعرفةُ، كقولِه تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ۞ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٣١، ٣٢]، واللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٤).

يقولُ الحقَّ، وهو يَهْدي السَّبيلَ[١].

- وقد اسْتُؤنِفَ الكلامُ استئنافًا يكونُ فَذْلَكَةَ الحسابِ، وخِتامًا للسُّورةِ وفصْلَ الخِطابِ؛ أفسَدَ به على المُشركينَ ازدهاءَهم بما يَحسَبون أنَّهم أفْحَموا الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بما ألْقَوه عليه، ويَزيدُ الرَّسولَ تَثبيتًا وتطْمينًا بأنَّه أرْضى ربَّه بأداءِ أمانةِ التَّبليغِ؛ وذلك بأنْ أمَرَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يقولَ لهم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾، فهذا تلْقينٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ. والجُملةُ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ما عُطِفَ عليه في هذه الآيةِ مرَّتينِ، وهو ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ٩٢، ٩٣]؛ فإنَّ الأوَّلَ مُفرَّعٌ عليه، فهو مُتَّصلٌ به، والثَّانيَ معطوفٌ على أوَّلِ الكلامِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾ فيه افتتاحُ الكلامِ بأداةِ الحصْرِ؛ لإفادةِ حَصرٍ إضافيٍّ باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه مُحاوَراتُهم السَّابقةُ مِن طَلبِ تعجيلِ الوعيدِ، وما تَطاوَلوا به مِن إنكارِ الحشرِ[٣].

- وأدْمَجَ في خلالِ هذا الكلامِ: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ﴾؛ تَنويهًا بشأْنِ مكَّةَ، وتَعريضًا بهم بكُفرِهم بالَّذي أسْكَنَهم بها وحرَّمَها، فانتَفَعوا بتَحريمِها، وأشْعَرَهم بأنَّهم لا يَملِكُون تلك البلدةَ؛ فكاشَفَهم اللهُ بما تُكِنُّه صُدورُهم مِن خواطرِ إخراجِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ مِن مكَّةَ؛ وذلك مِن جُملةِ ما اقتضاهُ قولُه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٠١، ٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُعۡلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤]؛ فلهذه النُّكتِ أُجْرِيَ على اللهِ صِلَةُ حرَمِ تلك البلدةِ، دونَ أنْ يكونَ المَوصولُ للبلدةِ؛ فلذا لم يَقُلْ: الَّتي حرَّمَها اللهُ؛ لِمَا تَتضمَّنُه الصِّلةُ مِن التَّذكيرِ بالنِّعمةِ عليهم، ومِن التَّعريضِ بضَلالِهم؛ إذ عَبَدوا أصنامًا لا تَملِكُ مِن البلدةِ شيئًا، ولا أكسَبَتْها فضْلًا ومَزِيَّةً، وهذا كقولِه: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾[1] [قريش: ٣].

- قولُه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا﴾ البلدةُ هي مكَّةُ المُعَظَّمةُ، وتَخصيصُها بالإضافةِ؛ لتَفخيمِ شأْنِها، وإجلالِ مكانِها، والتَّعرُّضُ لتَحريمِه تعالى إيَّاها: تَشريفٌ لها بعدَ تَشريفٍ، وتعظيمٌ إثْرَ تَعظيمٍ، مع ما فيه مِن الإشعارِ بعلَّةِ الأمرِ ومُوجِبِ الامتثالِ به، ومِن الرَّمزِ إلى غايةِ شَناعةِ ما فعَلُوا فيها؛ ألَا تَرى أنَّهم مع كَونِها مُحرَّمةً مِن أنْ تُنتهَكَ حُرمَتُها باختِلاءِ خَلاها، وعَضدِ شَجَرِها، وتَنفيرِ صَيدِها، وإرادةِ الإلحادِ فيها بوَجهٍ مِن الوجوهِ؛ قد استمَرُّوا فيها على تَعاطِي أفجَرِ أفرادِ الفُجورِ، وأشنعِ آحادِ الإلحادِ؛ حيثُ ترَكُوا عِبادةَ ربِّها، ونصَبُوا فيها الأوثانَ وعكفُوا على عِبادتِها[2]؟!

- وإنَّما اختَصَّها مِن بيْنِ سائرِ البلادِ بإضافةِ اسْمِه إليها؛ لأنَّها أحَبُّ بِلادِه إليه، وأكرَمُها عليه، وأعظَمُها عندَه، وأشار إليها إشارةَ تَعظيمٍ لها وتقْريبٍ، دالًّا على أنَّها مَوطِنُ نبيِّه ومَهْبطُ وَحْيِه، ووصَفَ ذاتَه بالتَّحريمِ الَّذي هو خاصُّ وَصْفِها، فأجزَلَ بذلك قَسْمَها في الشَّرفِ والعُلوِّ، وجعَلَ دُخولَ كلِّ شيءٍ تحتَ رُبوبيَّتِه ومَلكوتِه كالتَّابعِ لدُخولِها تحتَهما؛ فأضافَ الرَّبَّ إلى البلدةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦).

إضافةَ تمْليكٍ، وهو بمعنى مالكٍ، ثمَّ عقَّبَ ذلك بقولِه: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ على وَجهِ التَّتميم؛ لِيُؤذِنَ بالفرْقِ بيْنَ المِلْكين، وأنَّ أحدَهما كالتَّابعِ، والآخَرَ كالمتبوعِ. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ مَلِكًا قد ملَكَ مِثلَ هذه البلدةِ عظيمُ الشَّأنِ قد ملَكَها، وملَكَ إليها كلَّ شَيءٍ[1]. وقيل: تحتَ قولِه: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖ﴾ فائدةٌ أُخرى سِوى ذلك؛ ففيهِ احتراسٌ بَديعٌ، فقد أضاف سُبحانه اسْمَه إلى مكَّةَ تَشريفًا لها وذِكرًا لتَحريمِها، ولَمَّا أضاف اسمَه إلى البلدةِ المَخصوصةِ بهذا التَّشريفِ أتبَعَ ذلك إضافةَ كلِّ شَيءٍ سِواها إلى مِلْكِه؛ قطْعًا لتَوهُّمِ اختصاصِ ملكِه بالبلدةِ المُشارِ إليها، وتَنبيهًا على أنَّ الإضافةَ الأُولى إنَّما قُصِدَ بها التَّشريفُ، لا لأنَّها مِلكُ اللهِ تعالى خاصَّةً[2].

- والعُدولُ عن ذِكرِ مكَّةَ باسْمِها العَلمِ إلى طَريقةِ الإشارةِ ﴿هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ﴾؛ لِمَا تَقْتضيهِ الإشارةُ مِن التَّعظيمِ[3].

- قولُه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فيه تَكريرُ (أُمِرْتُ)؛ للإشارةِ إلى الاختلافِ بيْن الأمْرَينِ؛ فإنَّ الأوَّلَ أمْرٌ يَعمَلُه في خاصَّةِ نفْسِه، وهو أمْرُ إلْهامٍ؛ إذ عصَمه اللهُ مِن عِبادةِ الأصنامِ مِن قبْلِ الرِّسالةِ. والأمْرُ الثَّاني أمْرٌ يَقْتضي الرِّسالةَ، وقد شمَلَ دعوةَ الخلْقِ إلى التَّوحيدِ. ولهذه النُّكتةِ لم يُكرِّرْ (أُمِرْت) في قولِه: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [النمل: ٩٢]؛ لأنَّ كلًّا مِن الإسلامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٨٨، ٣٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٦).

والتِّلاوةِ مِن شُؤونِ الرِّسالةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ تَنويهٌ بهذه الأُمَّةِ؛ إذ جعَلَ اللهُ رسولَه مِن آحادِها، وذلك نُكتةُ العُدولِ عن أنْ يقولَ: (أن أكونَ مُسلِمًا)[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ فيه حذْفُ مُتعلَّقِ التِّلاوةِ؛ لظُهورِه، أي: أنْ أتلُوَ القرآنَ على النَّاسِ.

- قولُه: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ فرَّعَ على التِّلاوةِ ما يَقْتضي انقسامَ النَّاسِ إلى مُهتَدٍ وضالٍّ، أي: مُنتفِعٍ بتِلاوةِ القرآنِ عليه وغيرِ مُنتفِعٍ، مُبيِّنًا أنَّ مَن اهْتَدى فإنَّما كان اهتداؤُه لفائدةِ نفْسِه. وهذا زِيادةٌ في تَحريضِ السَّامعينَ على الاهتداءِ بهَدْيِ القرآنِ؛ لأنَّ فيه نَفْعَهم كما آذنَتْ به اللَّامُ[٣].

- قولُه: ﴿فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ فيه إظهارُ فِعلِ القولِ؛ لتَأكيدِ أنَّ حظَّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن دَعوةِ المُعرضين الضَّالِّين أنْ يُبلِّغَهم الإنذارَ؛ فلا يَطْمَعوا أنْ يَحمِلَه إعراضُهم على أنْ يُلِحَّ عليهم في قَبولِ دَعوتِه[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنْ يَحمَدَ اللهَ بالكلمةِ التي حمِدَ اللهُ بها نفْسَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ثمَّ استأنَفَ بالاحتراسِ ممَّا يَتوهَّمُه المُعانِدون حين يسْمَعون آياتِ التَّبرُّؤِ مِن مَعرفةِ الغيبِ، وقصْرِ مَقامِ الرِّسالةِ على الدَّعوةِ إلى الحقِّ مِن أنْ يكونَ في ذلك نقْضٌ للوعيدِ بالعذابِ؛ فختَمَ الكلامَ بتَحقيقِ أنَّ الوعيدَ قريبٌ لا مَحالةَ، وأنَّ اللهَ لا يُخلِفُ وعْدَه، فتَظهَرُ لهم دَلائلُ صِدقِ اللهِ في وعْدِه؛ ولذلك عبَّرَ عن الوعيدِ بالآياتِ إشارةً إلى أنَّهم سيَحُلُّ بهم ما فيه تَصديقٌ لِمَا أخْبَرَهم به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّمَ حينَ يُوقِنون أنَّ ما كان يقولُ لهم هو الحقُّ؛ فمعنى ﴿فَتَعْرِفُونَهَا﴾: تَعرِفون دَلالتَها على ما بلَّغَكم الرَّسولُ مِن النِّذارةِ؛ لأنَّ المعرفةَ لَمَّا عُلِّقَت بها بعُنوانِ أنَّها آياتُ اللهِ، كان مُتعلَّقُ المعرفةِ هو ما في عُنوانِ الآياتِ مِن معنى الدَّلالةِ والعلامةِ[1].

- قولُه: ﴿سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ تَهديدٌ لأعدائِه بما سَيُريهم اللهُ مِن آياتِه التي تُلجِئُهم إلى المعرفةِ والإقرارِ بأنَّها آياتُ اللهِ، وذلك حينَ لا تَنفعُهم المعرفةُ. وقيل: هو كقولِه: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣] الآيةَ، وكلُّ عمَلٍ يَعمَلونه فاللهُ عالِمٌ به، غيرُ غافلٍ عنه؛ لأنَّ الغفلةَ والسَّهوَ لا يَجوزانِ على اللهِ[2].

- قولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كلامٌ مَسوقٌ مِن جِهتِه تعالى بطَريقِ التَّذييلِ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، مُتضمِّنٌ للوعدِ والوعيدِ، كما يُنبِئُ عنه إضافةُ الرَّبِّ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وتَخصيصُ الخِطابِ أوَّلًا به صلَّى الله عليه وسلَّمَ وتَعميمُه ثانيًا للكَفَرةِ تغْليبًا. وعلى قِراءةِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على الغَيبةِ فهُو وَعيدٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١١/ ٦٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٧٧).

مَحضٌ، والمعنى: وما ربُّك بغافلٍ عن أعمالِهم، فسَيُعذِّبُهم الْبتَّةَ[١].

- وقولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ مِن تَمامِ ما أُمِرَ الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ يقولَه للمُشرِكين، وفيه زِيادةُ إنذارٍ بأنَّ أعمالَهم تَستوجِبُ ما سيَرونَه مِن الآياتِ. والمُرادُ: ما يَعمَلونه في جانبِ تلقِّي دَعوةِ رَسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ وقُرآنِه؛ لأنَّ نفْيَ الغفلةِ عن اللهِ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بأنَّه منهم بالمرصادِ، لا يُغادِرُ لهم مِن عمَلِهم شيئًا. وعلى قِراءةِ ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ بياءِ الغَيبةِ، فهو عطْفٌ على (قُلْ)، والمقصودُ تَسليةُ الرَّسولِ عليه السَّلامُ بعْدَما أُمِرَ به مِن القولِ بأنَّ اللهَ أحْصى أعمالَهم، وأنَّه مُجازِيهم عنها؛ فلا يَيأْسُ مِن نَصرِ اللهِ[٢].

- وقد جاءت هذه الآيةُ خاتمةً جامعةً بالِغةً أقصَى حَدٍّ مِن بلاغةِ حُسنِ الخِتامِ[٣].

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّاني والعشرونَ**

**ويليه المجلدُ الثَّالثُ والعشرونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ القَصصِ**

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

# الفهرس

# الفهرس

أسماءُ السُّورةِ ..... ٧
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٧
موضوعاتُ السورةِ ..... ٧
الآيات (١-٦) ..... ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩
المعنى الإجماليُّ ..... ١٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٦
الآيات (٧-١٤) ..... ٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٠
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٨
الآيات (١٥ - ١٩) ..... ٨١

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٨١
المعنى الإجماليُّ ..... ٨٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٨٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٩٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٠٩
الآيات (٢٠-٢٨) ..... ١٢١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٢١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٢٢
المعنى الإجماليُّ ..... ١٢٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٢٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٣٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٤٨
الآيات (٢٩-٣٧) ..... ١٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٦١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٦٢
المعنى الإجماليُّ ..... ١٦٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٦٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٧٤

بلاغةُ الآياتِ ..... ١٧٩
الآيات (٣٨-٤٤) ..... ١٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٨٧
المعنى الإجماليُّ ..... ١٨٨
تفسيرُ الآياتِ ..... ١٨٩
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٠٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢١١
الآيات (٤٥-٥٣) ..... ٢١٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢١٨
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٢٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٢١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٢١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٣٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٣٧
الآيات (٥٤-٥٨) ..... ٢٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٤٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٤٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٥٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٥٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٥٦
الآيات (٥٩-٦٤) ..... ٢٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٦٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٦٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٨١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٨٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٩٠
الآيات (٦٥-٧٠) ..... ٣٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٠٦
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٠٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٠٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٠٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣١٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣١٨
الآيات (٧١-٧٥) ..... ٣٢٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٢٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٢٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٢٧

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٣١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٣٣
الآيات (٧٦-٨٢) ..... ٣٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٣٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٣٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٣٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٥٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٥٨
الآيات (٨٣-٨٥) ..... ٣٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٦٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٦٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٧٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٧١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٧٣
الآيات (٨٦-٨٨) ..... ٣٧٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٧٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٧٨

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٨٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٨٧
الآيات (٨٩-٩٣) ..... ٣٩٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٩٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٩٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٠٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤١٣
الفهرس ..... ٤٢٥

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر للقرآن الكريم

(سورة القصص وسورة العنكبوت)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف


المجلد الثالث والعشرون


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة القصص وسورة العنكبوت)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثالث والعشرون - سورة القصص وسورة العنكبوت/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ - الظهران، ١٤٤٢ هـ

٦٨٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٨٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٤٨٩٧

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٤٨٩٧

ردمك: ٢-٨٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ القَصَصِ

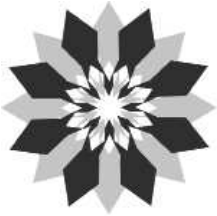

# سورةُ القَصَصِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (القَصَصِ)[١].

## بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ القَصَصِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الاتِّفاقُ على ذلك[٣].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بـ(سورة القَصَص)؛ لوُقوعِ لَفظِ القَصَصِ فيها عندَ قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥] أي: قَصَّ موسى على الرَّجُلِ الصَّالحِ ما لَقِيَه في مِصرَ قبلَ خروجِه منها، ولا يُعرَفُ لهذه السُّورةِ اسمٌ آخَرُ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦١).

قال ابنُ عاشور: (فلمَّا حُكِيَ في السُّورةِ ما قَصَّه موسى كانت هاتِه السُّورةُ ذاتَ قَصَصٍ لحكايةِ قَصَصٍ، فكان القَصَصُ متوَغِّلًا فيها. وجاء لفظُ القصَصِ في سورة «يوسُفَ»، ولكِنَّ سورةَ «يوسُفَ» نزَلَتْ بعدَ هذه السُّورةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦١).

وقد وردَتْ بعضُ الآثارِ فيها تسميةُ هذه السُّورةِ بهذا الاسمِ؛ منها ما أخرجه النَّحَّاسُ (ص: ٦١٢)، وابنُ الضُّرَيْسِ، وابنُ مَرْدَوَيْهِ -كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٨٩)-، عن ابن عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما.

وكذلك ما أخرجه ابنُ مَرْدَوَيْهِ -كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٣٨٩)- عن عبد الله بنِ الزُّبَيرِ رضيَ الله عنهما.

(٢) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحدةً نزلت بالجُحْفةِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]. وقيل: مكِّيَّةٌ إلا الآياتِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢] إلى قَولِه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]؛ فمَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩١).

(٣) ممَّن نقل الاتِّفاقَ على ذلك: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٣).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصدِ هذه السُّورةِ:**

١- بيانُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى في إهلاكِ الظَّالِمينَ والمغرورين، حتَّى ولو سانَدَتْهم جميعُ قُوى الأرضِ[١].

٢- تَثبيتُ المؤمِنينَ، وتَقويةُ عزائِمِهم، وتَبشيرُهم بأنَّ العاقِبةَ لهم[٢].

٣- التَّواضُعُ لله، المُستَلزِمُ لرَدِّ الأمرِ كُلِّه إليه[٣].

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ موضوعاتِ هذه السُّورةِ:**

١- التَّنويهُ بشأنِ القُرآنِ، والتَّعريضُ بأنَّ بُلَغاءَ المُشرِكينَ عاجِزونَ عن الإتيانِ بسورةٍ مِثلِه.

٢- ذِكرُ طُغيانِ فِرعَونَ وإفسادِه، ووعْدُ اللهِ بإنقاذِ المُضطهَدِينَ، وعُقوبةِ المفسِدينَ.

٣- ذِكرُ ميلادِ موسى عليه السَّلامُ، ورعايةِ اللهِ له وحِفظِه، وإيتائِه الحُكْمَ والعِلمَ.

٤- حديثُ القِبطيِّ والإسرائيليِّ، وهِجرةُ موسى عليه السَّلامُ مِن مِصرَ إلى مَدْينَ، وسَقْيُه للمَرأتينِ، وزواجُه مِن ابنةِ الرَّجُلِ الصَّالحِ مُقابِلَ العَمَلِ لديه، ثمَّ خروجُه مِن مَدْينَ، وظُهورُ آثارِ النُبُوَّةِ، وتأييدُ الله له بالمُعجِزاتِ، وبَعْثُه وأخيه

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٠/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٣).

هارونَ عليه السَّلامُ إلى فِرعَونَ.

٥- تسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا أصابَه مِن قَومِه، وبيانُ ما يدُلُّ على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ الله، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يستطيعُ أن يَهديَ مَن يحِبُّه، وأنَّ الهدايةَ بيدِ الله وحْدَه، وحكايةُ جانبٍ مِن أقوالِ المشركينَ مع الرَّدِّ عليها، وحكايةُ جانبٍ مِن المصيرِ السَّيِّئِ الَّذي ينتظرُهم يومَ القيامةِ.

٦- قِصَّةُ قارونَ، وبَغيُه على قَومِ موسى عليه السَّلامُ، واغترارُه بمالِه، وعاقِبةُ البَغيِ والتَّكَبُّرِ.

٧- خُتِمت السُّورةُ بالأمرِ بإخلاصِ العبادةِ لله، والنَّهيِ عن الإشراكِ به.

## الآيات (١-٦)

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ
بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ
طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ
عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ
لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ۝٦﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِيَعًا﴾: أي: فِرَقًا وأصنافًا، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ ومُساعفةٍ[1].

﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾: أي: يَترُكُهنَّ أحياءً فلا يقتُلهنَّ، مِن الحياةِ، وهي خِلافُ الموتِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

تبدأُ السُّورةُ ببَعضِ الحُروفِ المقَطَّعةِ، التي تُبيِّنُ إعجازَ القرآنِ، وتُبرِزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثلِه، مع أنَّه مرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثون بها.

تلك الآياتُ العظيمةُ آياتُ القُرآنِ الواضحِ الجليِّ، المظهرِ الحقَّ مِن الباطلِ.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما سيَقُصُّه على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذه السُّورةِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٩).

فيقول: نحن نقُصُّ عليك -يا محمَّدُ- في هذا القُرآنِ مِن خبَرِ موسى وفِرعَونَ بالحَقِّ الَّذي لا شَكَّ فيه لِقَومٍ يُؤمِنون.

إنَّ فِرعَونَ طغى وتكبَّرَ في أرضِ مِصرَ، وجعل أهلَ مملكتِه فِرَقًا وأصنافًا مختلفةً، يستعبِدُ بني إسرائيل ويُهينُهم ويُذِلُّهم؛ بذبحِ أبنائِهم الذُّكورِ، وتَرْكِ إناثِهم أحياءً، إنَّه كان مِن المُفسِدين.

ونريدُ أن نُنعِمَ على بني إسرائيلَ المُستضعَفينَ في الأرضِ، فنُهلِكَ أعداءَهم، ونجعَلَهم أئمَّةً متَّبَعينَ، ونجعَلَهم الوارثينَ لفِرعَونَ وآلِه مِن بعدِ إهلاكِهم، ونمكِّنَ لبني إسرائيلَ في أرضِ مِصرَ، ونُريَ فِرعَونَ وهامانَ وجُنودَهما ما كانوا يخافونَه مِن زوالِ مُلكِهم على أيدي بني إسرائيلَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿طسٓمٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾.

أي: تلك الآياتُ العَظيمةُ العاليةُ آياتُ القُرآنِ الواضحِ الجليِّ، المظهِرِ الحقَّ مِن الباطلِ، ولكلِّ أمرٍ يحتاجُ إليه العبادُ؛ مِن معرفةِ ربِّهم، وحقوقِه، وأوليائِه وأعدائِه، ووقائعِه وأيامِه، إلى غيرِ ذلك، الكاشفِ عن حقائقِ الأمورِ، ومنها أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

نُبوَّةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حقٌّ، وأنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ[١].

﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ ﴾.

أي: نقرأُ ونقُصُّ عليك -يا محمَّدُ- في هذا القُرآنِ مِن[٢] خبَرِ موسى وفِرعَونَ بالصِّدقِ الَّذي لا شَكَّ فيه، لِقَومٍ يُؤمِنونَ بهذا القُرآنِ، فهُم به يهتَدونَ ويعتَبِرونَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف: ٣].

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ طغَى وتجبَّر وتكبَّر في الأرضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧، ٨).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿ تِلْكَ ﴾ أي: هذه ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ أي: الواضحِ الجَليِّ، الكاشفِ عن حقائقِ الأمورِ، وعِلْمِ ما قد كان وما هو كائنٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠).

(٢) قال الألوسي: (الظَّاهِرُ أنَّ ﴿مِن﴾ تبعيضيَّةٌ، وجوَّز بعضُهم كونَها بيانيَّةً، وكَوْنَها صِلةً على رأيِ الأخفَشِ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٥٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤٩، ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠).

قال الماوَرْديُّ: (وهذه الأرضُ أرضُ مِصرَ؛ لأنَّ فِرعَونَ مَلَكَ مِصرَ، ولم يَملِكِ الأرضَ =

﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾.

أي: وجعَلَ فِرعَونُ أهلَ مملكتِه أقسامًا وأصنافًا متفرِّقةً[١].

---

= كُلَّها، ومِصرُ تُسمَّى الأرضَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٧٧).

قال ابن عاشور: (يجوزُ أن تجعَلَ المرادَ بالأرضِ جميعَ الأرضِ، يعني: المشهورَ المعروفَ منها، فإطلاقُ الأرضِ كإطلاقِ الاستِغراقِ العُرفيِّ...، فالمعنى: أرضُ مملكتِه، وكان عُلُوِّه أقوى مِن عُلوِّ ملوكِ الأرضِ وسادةِ الأقوامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٧).

وقال الماوَرْدي: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحدُها: ببَغْيِه في استِعبادِ بني إسرائيلَ وقتْلِ أولادِهم، قاله قَتادةُ. الثَّاني: بكُفرِه وادِّعاءِ الرُّبوبيَّةِ. الثَّالثُ: بمُلكِه وسُلطانِه... وفي عُلوِّه وجهانِ؛ أحدُهما: هو لِظُهورِه في غلَبتِه. الثَّاني: كِبْرُه وتَجَبُّرُه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٣٩).

وقال الواحديُّ: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾... قال المفسِّرون: استكبرَ وتجبَّر وبغى، وتعظَّمَ وطغى. كلُّ هذا مِن ألفاظِهم). ((البسيط)) (١٧/ ٣٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: فِرَقًا وأصنافًا في أنواعِ الخدمةِ والتَّسخيرِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الواحديُّ، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٣).

وقيل: جعَلَهم شِيعًا، أي: فِرَقًا على أهواءٍ مختلفةٍ، وألقَى بيْنَهم التَّشاحنَ، وأغرَى بينَ القبطِ وبني إسرائيلَ، وشتَّت كلمتَهم؛ لِيَتمكَّنَ مِن التسلُّطِ عليهم. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٠٥). =

﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾.

أي: يستعبِدُ فِرعَونُ منهم بني إسرائيلَ(١)، ويُهينُهم ويُذِلُّهم(٢).

﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾.

أي: يأمُرُ بذَبحِ أبناءِ بني إسرائيلَ الذُّكورِ(٣)، .....

---

= وقيل: المُرادُ بالشِّيَعِ ما فسَّره بقولِه: ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ أي: يستخدمُهم ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٨).

(١) قال ابن عاشور: (الطَّائفةُ المُستضعَفةُ هي طائفةُ بني إسرائيلَ، وضميرُ ﴿مِّنْهُمْ﴾ عائدٌ إلى ﴿أَهْلَهَا﴾ لا إلى ﴿شِيَعًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

قيل: إنَّه كان يَستعمِلُهم في أخَسِّ الأعمالِ، ويُسَخِّرُهم في الأعمالِ الشاقَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

(٣) واختُلِف في السَّببِ الَّذي مِن أجْلِه أمَر فرعونُ بتذبيحِ أبنائِهم:

فقيل: خوفًا مِن أن يَكثُروا فيَغمُروا بلادَه، فيَصيرَ النُّفوذُ والمُلكُ إليهم. وممَّن قال بذلك: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٩). ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٤).

وقيل: لأنَّ المنجِّمينَ في ذلك العصرِ أخبَروه أنَّه يَذهَبُ مُلْكُه على يدِ مولودٍ مِن بني إسرائيلَ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠، ٢٢١).

وضعَّف الرازيُّ إسنادَ مِثلِ هذا الخبرِ إلى المنجِّمينَ والكهَنةِ، وذكر أنَّ الأَولى بالقَبولِ أن يكونَ بعضُ الأنبياءِ قبْلَ موسى هم الَّذين بشَّروا بهذا، فوصَل إلى مَسامعِ فِرعونَ ما بشَّروا به. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٨).

قال ابن كثير: (وكانت القِبْطُ قد تَلقَّوْا هذا [أي: ذهابَ ملكِ فرعونَ وهلاكَه على يدِ هذا المولودِ] مِن بَني إسرائيلَ فيما كانوا يَدرُسونَه مِن قولِ إبراهيمَ الخليلِ، حينَ وَرَد الدِّيارَ المِصريَّةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢١). =

ويَترُكُ إناثَهم أحياءً[١].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ كان مِن المفسِدينَ في الأرضِ، بالكُفرِ والعِصيانِ، والتجبُّرِ وعَمَلِ السُّوءِ؛ ومِن ذلك سَعيُه بالتَّفريقِ بينَ الخَلقِ[٢].

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةً وَنَجۡعَلَهُمُ

---

= وقال ابن عثيمين: (ولا يَبعُدُ أن يكونَ الأمْرانِ جميعًا قد صارَا عِلَّةً لهذا الفعلِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٣).

وقال الواحدي: (قوله: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ [القصص: ٤]، والمرادُ بذلك: أنَّه يأمرُ بالذبحِ فيُمتَثَلُ أمرُه). ((البسيط)) (٣/ ٩٣).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٩، ٧٠).

قيل: هذا بيانٌ لمجمَلِ قولِه تعالى: ﴿يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةً مِّنۡهُمۡ﴾. وممَّن نصَّ على ذلك: الواحديُّ، والبقاعي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٠).

والمقصدُ مِن استحياءِ النساءِ: قيل: يَتركونَهُنَّ أحياءً للخدمةِ. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والنسفي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (١/ ٥١)، ((تفسير النسفي)) (١/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٧٦).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ﴾ إهانةً لهم واحتقارًا، وخوفًا مِن أن يوجَدَ منهم الغلامُ الَّذي كان قد تَخوَّفَ هو وأهلُ مملكتِه مِن أن يوجَدَ منهم غلامٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٠).

وقيل: يَستَحْيُونَ النِّساءَ للاسترقاقِ والاستِخدامِ. واختاره الماوَرْديُّ، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٩).

وقيل: هذا الاستِحْياءُ للإناثِ كان المقصدُ منه خبيثًا، وهو أن يَعتَدوا على أعراضِهِنَّ ولا يجِدْنَ بُدًّا مِن الإجابةِ بحُكمِ الأسرِ والاسترقاقِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣).

ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾.

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ونريدُ أن نتفضَّلَ ونُنعِمَ على بني إسرائيلَ الَّذين استضعَفَهم فِرعَونُ في الأرضِ، فنُهلِكَ أعداءَهم، ونُزيلَ السُّوءَ عنهم[1].

﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾.

أي: ونجعَلَ بني إسرائيلَ أئمَّةً[2] متَّبَعينَ، يُقتدَى بهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٠).

(٢) قيل: أئمَّةً: أي: في الدِّين، وقادةً في الخيرِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلٌ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٣٣).

وقيل: المعنى: وُلاةً ومُلوكًا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٨٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٣).

وقال الشوكاني: (﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً ﴾ أي: قادةً في الخيرِ ودعاةً إليه، وولاةً على الناسِ وملوكًا فيهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٣).

قال ابن عاشور: (فأمَّا جَعْلُهم أئمَّةً فذلك بأن أخرَجَهم مِن ذُلِّ العبوديَّةِ، وجعَلَهم أُمَّةً حُرَّةً مالِكةً أمرَ نفْسِها، لها شريعةٌ عادلةٌ، وقانونُ مُعامَلاتِها، وقوَّةٌ تَدفَعُ بها أعداءَها، ومملكةٌ خالصةٌ لها، وحضارةٌ كاملةٌ تَفوقُ حضارةَ جيرتِها، بحيث تَصيرُ قُدوةً للأُمَمِ في شؤونِ الكمالِ وطلَبِ الهَناءِ، فهذا معنَى جَعْلِهم أئمَّةً، أي: يَقتدي بهم غيرُهم، ويَدْعون النَّاسَ إلى الخيرِ، وناهيك بما بلغه مُلكُ بني إسرائيلَ في عهدِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٠).

كما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾.

أي: ونجعَلَ بني إسرائيلَ وارِثينَ لملكِ فِرعَونَ وأرضِه مِن بعدِ إهلاكِنا له[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾[الأعراف: ١٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ونُوطِّئَ لبني إسرائيلَ في الأرضِ، ونجعَلَهم مُقتَدِرينَ على التَّصرُّفِ والاستقرارِ فيها[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣). =

﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾.

أي: ونريدُ أن نُريَ فِرعَونَ وهامانَ[1] وجُنودَهما ما كانوا يخافونَه مِن زَوالِ مُلكِهم على أيدي بني إسرائيلَ[2].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ مَن علا في الأرضِ، وطَلَبَ العُلُوَّ على الخلْقِ؛ فهو شبيهٌ بفِرعَونَ ووارثُه، وبئسَ الرَّجُلُ مَن كان فِرعَونُ إمامَه[3]!

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تمهيدُ القِصَّةِ بعُلُوِّ فِرعَونَ وفسادِ أعمالِه يشيرُ إلى أنَّ ذلك هو سببُ الانتقامِ منه، والأخْذِ بنصرِ المستضعَفينَ؛ لِيَحذرَ الجبابرةُ سوءَ عاقبةِ ظُلمِهم، ولِيَرجوَ الصابرون على الظُّلمِ أنْ تكونَ العاقبةُ لهم[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أنَّ العُلُوَّ في

---

= قيل: الأرضُ هنا هي أرضُ مِصرَ والشَّامِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، وأبو السعود. يُنظر: المصادر السابقة.

(١) قال ابن عطية: (وهامانُ هو وزيرُ فِرعونَ، وأكبرُ رجالِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٦).
وممَّن ذكر أنَّه كان وزيرَ فِرعَونَ: البِقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

الأرضِ، والعُتُوَّ على الخلْقِ، والسَّعْيَ بيْنَهم بالتَّفريقِ: يُعَدُّ مِن الإفسادِ، وذلك من قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، ويَتَّضِحُ مِن الآيةِ أنَّه مَن كان على نقيضِ ذلك؛ مِن التَّواضُعِ للحقِّ والخلْقِ، وجَمْعِ شمْلِ الأُمَّةِ، وقَصْرِ عُدوانِه عنها: يكونُ مِن المصلِحينَ، وكما قيلَ: «وبضِدِّها تتميَّزُ الأشياءُ»[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ أنَّ الأُمَّةَ المُستضعَفةَ -ولو بلغتْ في الضَّعْفِ ما بلغَتْ- لا ينبغي لها أنْ يستوليَ عليها الكَسلُ عن طَلَبِ حقِّها، ولا الإياسُ مِن ارتقائِها إلى أعلَى الأمورِ، خصوصًا إذا كانوا مظلومين، كما استنقذَ اللهُ أُمَّةَ بني إسرائيلَ -الأُمَّةَ الضَّعيفةَ- مِن أسْرِ فِرعَونَ ومَلَئِه، ومَكَّنَهم في الأرضِ، ومَلَّكَهم بلادَهم[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ إظهارُ أنَّ العُلُوَّ الحقَّ للهِ تعالى وللمؤمِنينَ، وأنَّ عُلُوَّ فِرعَونَ لم يُغْنِ عنه شَيئًا في دفْعِ عواقبِ الجَبروتِ والفسادِ؛ لِيَكونَ ذلك عِبرةً لجبابرةِ المُشرِكين مِن أهلِ مكَّةَ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ هذا القرآنَ مكتوبٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾، ومعلومٌ أنَّ كتابةَ القرآنِ مُتحقِّقةٌ في ثلاثةِ أماكنَ: في اللَّوحِ المحفوظِ، وفي صُحُفِ الملائكةِ، وفي المصاحفِ الَّتي بينَ أيدينا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ آياتِ اللهِ تعالى وعِبَرَه وأيَّامَه في الأمم السَّابقةِ إنَّما يَستفيدُ بها ويَستنيرُ المؤمِنون، فعلى حَسَبِ إيمانِ العبدِ تكونُ عِبرَتُه، وإنَّ اللهَ تعالى إنَّما يَسوقُ القَصَصَ لأجْلِهم، وأمَّا غيرُهم فلا يَعبَأُ اللهُ بهم، وليس لهم منها نورٌ وهدًى[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾، في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا﴾ أنَّ بني إسرائيلَ هم مِن أهلِ مصرَ، مع أنَّهم في الأصلِ مِن أهلِ الشَّام، فيتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّ مَن سَكَنَ أرضًا وأقامَ فيها -وإنْ لم يكُنْ مِن أهلِها في الأصلِ- نُسِبَ إليها، وصار مِن أهلِها[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أنَّ تفريقَ الأُمَّةِ سببٌ لفَشَلِها وذُلِّها، وفِرعَون هو أوَّلُ مَن جَعَل أهلَ الأرضِ شِيَعًا؛ حتى يَسُودَ عليهم[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وقولِه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، وقولِه: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]؛ دَلالةٌ على أنَّ الأفعالَ قد تكونُ قبيحةً مذمومةً قبْلَ مجيءِ الرَّسولِ إلى النَّاسِ، فقد أخبرَ سُبحانَه عن فِرعَونَ أنَّه ظالمٌ وطاغٍ ومُفسِدٌ هو وقَومُه -وهذه أسماءُ ذَمِّ الأفعالِ-؛ والذَّمُّ إنَّما يكونُ في الأفعالِ السَّيِّئةِ القبيحةِ؛ إلَّا أنَّهم لا يَستحِقُّونَ العذابَ إلَّا بعدَ مجيءِ الرَّسولِ إليهم؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[4] [الإسراء: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٣٧).

٦- النَّاسُ أربَعةُ أقسامٍ:

**القِسْمُ الأوَّلُ**: يُريدونَ العُلُوَّ على النَّاسِ والفسادَ في الأرضِ، وهو مَعصيةُ اللهِ، وهؤلاء الملوكُ والرُّؤساءُ المُفسِدونَ؛ كفِرعَونَ وحِزبِه. وهؤلاء هم شِرارُ الخَلقِ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، وقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ ...))، ثمَّ قال: ((الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ النَّاسِ))[1]. فبطَرُ الحَقِّ: دَفْعُه وجَحْدُه. وغَمْطُ النَّاسِ: احتِقارُهم وازدِراؤُهم، وهذا حالُ مَن يريدُ العلُوَّ والفَسادَ.

**والقِسْمُ الثَّاني**: الَّذين يريدونَ الفَسادَ بلا علُوٍّ؛ كالسُّرَّاقِ، والمجرِمينَ مِن سَفِلةِ النَّاسِ.

**والقِسمُ الثَّالثُ**: يريدونَ العُلُوَّ بلا فسادٍ؛ كالَّذين عندَهم دِينٌ يُريدون أن يَعلُوا به على غيرِهم مِنَ النَّاسِ.

**وأمَّا القِسمُ الرَّابعُ**: فهُم أهلُ الجنَّةِ الَّذين لا يريدونَ علوًّا في الأرضِ ولا فَسادًا، مع أنَّهم قد يكونونَ أعلَى مِن غَيرِهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2] [المنافقون: ٨].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وكم ممَّن يريدُ العُلوَّ ولا

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٩٢).

يَزيدُه ذلك إلَّا سُفولًا؟! وكم ممَّن جُعِلَ مِن الأعلَينَ، وهو لا يريدُ العلُوَّ ولا الفَسادَ؟! وذلك لأنَّ إرادةَ العُلوِّ على الخَلقِ ظُلْمٌ؛ لأنَّ النَّاسَ مِن جنسٍ واحدٍ؛ فإرادةُ الإنسانِ أن يكونَ هو الأعلَى، ونظيرُه تحتَه: ظُلْمٌ، ومع أنَّه ظُلمٌ فالنَّاسُ يُبغِضونَ مَن يكون كذلك ويُعادونَه؛ لأنَّ العادلَ منهم لا يحِبُّ أن يكونَ مَقهورًا لِنَظيرِه، وغيرُ العادلِ منهم يُؤْثِرُ أن يكونَ هو القاهِرَ، ثمَّ إنَّه مع هذا لا بُدَّ له -في العَقلِ والدِّينِ- مِن أن يكونَ بَعضُهم فوقَ بَعضٍ، كما أنَّ الجَسَدَ لا يَصلُحُ إلَّا برأسٍ؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فجاءت الشَّريعةُ بصَرفِ السُّلطانِ والمالِ في سَبيلِ الله. فإذا كان المقصودُ بالسُّلطانِ والمالِ هو التقرُّبَ إلى اللهِ، وإنفاقَ ذلك في سَبيلِه؛ كان ذلك صلاحًا للدِّينِ والدُّنيا، وإن انفرَدَ السُّلطانُ عن الدِّينِ، أو الدِّينُ عن السُّلطانِ؛ فسَدَت أحوالُ النَّاسِ(١).

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أرادَ فرعونُ بحَوْلِه وقوَّتِه أنْ ينجوَ مِن موسَى، فما نَفَعه ذلك مع قَدَرِ الملِكِ العظيمِ الَّذي لا يُخالَفُ أمرُه القَدَريُّ، بل نَفَذ حُكمُه، وجرَى قَلَمُه في القِدَمِ بأنْ يكونَ إهلاكُ فِرعونَ على يَدَيه، بل يكونُ هذا الغلامُ الَّذي احترَزْتَ مِن وُجودِه، وقتلْتَ بسببِه ألوفًا مِنَ الوِلْدانِ إنَّما مَنْشَؤُه ومَرْباهُ على فِراشِكَ وفي دارِك، وغذاؤُه مِن طعامِكَ وشرابِكَ، وأنت تُرَبِّيه وتُدلِّلُه وتتَفَدَّاه، ثمَّ يكونُ حَتْفُك وهلاكُكَ وهلاكُ جنودِك على يدَيه؛ لِتَعلَمَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٩٣).

أنَّ ربَّ السَّمواتِ العُلا هو القادرُ الغالبُ العظيمُ، العزيزُ القويُّ الشَّديدُ المِحالِ، الَّذي ما شاءَ كان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ[١].

٩- أنَّ مَنِ استُضعِفَ لقيامِه بالحقِّ، فلا بُدَّ أنْ تكونَ العاقبةُ له؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وإنْ كان في سياقِ بني إسرائيلَ، فغيرُهم داخلٌ في العمومِ اللَّفظيِّ إذا قُلْنا ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ في أيِّ مكانٍ وزمانٍ، أو العمومِ المعنويِّ وذلك بقياسِ غيرِهم عليهم.

**فإن قيل**: إنَّ هناك أُناسًا استُضعِفوا بالحقِّ، وقُتِلوا، أو طُرِدوا، أو ما أشبَهَ ذلك؛ فأين العاقبةُ الَّتي تزعمون؟!

**فالجوابُ**: أنَّ العاقبةَ لا تكونُ للشَّخصِ الجسديِّ فقط! بل تكونُ أيضًا لِلشَّخصِ المعنويِّ؛ فمقالتُه هذه لا بُدَّ أنْ تُنْصَرَ، فالنَّصرُ لقائلِ الحقِّ في حياتِه، أو لمقالتِه بعدَ وفاتِه[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ الإشارةُ إلى حكمةِ قولِه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] في جانبِ بني إسرائيلَ، و قولِه: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦] في جانبِ فِرعَونَ؛ إذْ كانوا فَرِحينَ باستخدامِ بني إسرائيلَ، وتدبيرِ قطْعِ نسْلِهم[٣]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ أنَّ المسلمينَ إذا استَولَوا على بلادِ الكفَّارِ مَلَكوها، والوارثُ يَمْلِكُ ما وَرِثَ، فهُمُ الَّذين يَجعلُهم اللهُ الوارثينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢١)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٤، ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

ولهذا قال أهلُ العلمِ: «إنَّ الأراضيَ تُمْلَكُ»[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ تمكينَ الإنسانِ في الأرضِ هو مِن نعمةِ اللهِ عليه؛ لأنَّ هذا مِن جملةِ ما أُنعِمَ به على بني إسرائيلَ: أنْ مَكَّنَهم في الأرضِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ أنَّ الحَذَرَ لا يُنجي مِن القَدَرِ[٣].

١٤- هنا إشكالٌ، وهو: كيف أَراهم اللهُ تعالى ما كانوا يَحذَرونَ مع أنَّهم هلَكوا؟

**والجوابُ**: أنَّهم أدركوا ذلك في آخرِ لحظاتِ حياتِهم، وقبْلَ خروجِ الرُّوحِ، وذلك ظاهرٌ في قولِ فِرعَونَ عندَما أدرَكَه الغرقُ: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [يونس: ٩٠].

وقال بعضُهم في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾: ليس المرادُ الهلاكَ، بل المرادُ: بما كانوا يَحذرون مُنازعةَ آلِ فِرعَونَ؛ فإنَّ بني إسرائيلَ لَمَّا بُعِث موسى استَقْوَوْا، وقِصَّةُ السَّحَرةِ واضحةٌ في هذا، لَمَّا اجتَمَعوا واجتمَعَ النَّاسُ في يومِ عيدِهم، وفي الضُّحى في رابعةِ النَّهارِ، وصارت الهزيمةُ على آلِ فِرعَونَ، هزيمةً حِسِّيَّةً ومعنويَّةً: هُزِموا حِسًّا بأنَّ عصا موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جعلَتْ تَلْقَفُ ما يَأْفِكون، وهُزِموا معنًى بأنَّ السَّحرةَ أنفُسَهم آمَنوا، وصرَّحوا للمَلأِ بأنَّ فِرعَونَ هو الَّذي أكرَهَهم على السِّحرِ، وبَيَّنوا أنَّ الرَّبَّ الحقيقيَّ هو ربُّ موسى وهارُونَ سُبحانَه وتعالى، فهذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

هزيمةٌ معنويَّةٌ، بالإضافةِ إلى الهزيمةِ الحِسِّيَّةِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ المُشارُ إليه ما هو مَقروءٌ يومَ نُزولِ هذه الآيةِ مِن القُرآنِ؛ تَنويهًا بشأْنِ القرآنِ، وأنَّه شأنٌ عظيمٌ[٢].

- وفي الإشارةِ إليه بالبُعدِ ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ﴾ بيانُ عِظَمِ القرآنِ وعُلُوِّهِ[٣].

- وحَذْفُ مُتَعَلَّقِ ﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يُستفادُ منه عمومُ إبانةِ القرآنِ لكلِّ شيءٍ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ هذه الجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، ومهَّدَ لـ ﴿ نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ بقولِه: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ ﴾؛ للتَّشويقِ لهذا النَّبأِ؛ لِمَا فيه مِن شتَّى العِبَرِ بعَظيمِ تَصرُّفِ اللهِ في خلْقِه[٥].

- وفي قولِه: ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ ﴾ جُعِلَت التِّلاوةُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه الَّذي يَتلقَّى ذلك المَتلُوَّ. وعُبِّرَ عن هذا الخبرِ بالنَّبأِ؛ لإفادةِ أنَّه خبرٌ ذو شأْنٍ وأهمِّيَّةٍ[٦].

- قولُه: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيه تَخصيصُ المؤمنينَ بذلكَ مع عُمومِ الدَّعوةِ والبَيانِ للكلِّ؛ لأنَّهم المُنتفِعونَ بِه[٧]. والمُرادُ بـ (قومٍ يُؤمِنون) قومٌ الإيمانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٣، ٦٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير أبي =

شأْنُهم وسَجيَّتُهم. وللإشارةِ إلى معنى تَمكُّنِ الإيمانِ مِن نُفوسِهم أُجْرِيَ وَصفُ الإيمانِ على كلمةِ (قَوم)؛ لِيُفيدَ أنَّ كَوْنَهم مُؤمِنينَ هو مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم. وجِيءَ بصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم مَوجودٌ في الحالِ، ومُستمِرٌّ مُتجدِّدٌ. وفي هذا إعراضٌ عن العَبْءِ بالمُشرِكين في سَوقِ هذه القصَّةِ بما يُقصَدُ فيها مِن العِبرةِ والموعظةِ؛ فإنَّهم لم يَنتفِعوا بذلك، وإنَّما انتفَعَ بها مَنْ آمَنَ ومَنْ سيُؤمِنُ بعدَ سماعِها[1].

- واللَّامُ في ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: نَتلو عليك لأجْلِ قومٍ يُؤمِنون؛ فكانتِ الغايةُ مِن تِلاوةِ النَّبأِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هي أنْ يَنتفِعَ بذلك قومٌ يُؤمِنون؛ فالنَّبيُّ يُبلِّغُ ذلك للمؤمِنين[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ابتُدِئَت القصَّةُ بذِكْرِ أسبابِها؛ لتَكونَ عِبرةً للمُؤمِنينَ يَتَّخِذون منها سُننًا يَعلَمون بها عِلَلَ الأشياءِ ومَعلولاتِها، ويَسيرون في شُؤونِهم على طَرائقِها؛ فلولا تجبُّرُ فِرعونَ -وهو مِن قَبيحِ الخِلالِ- ما حلَّ به وبقَومِه الاستِئصالُ، ولَمَا خرَجَ بنو إسرائيلَ مِن ذُلِّ العُبوديَّةِ. وهذا مِصداقُ المثَلِ: مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائدُ، وقولِه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وصُوِّرَت عَظَمةُ فِرعونَ في الدُّنيا بقولِه: ﴿عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لِتَكونَ العِبرةُ بهَلاكِه بعدَ ذلك العُلوِّ أكبَرَ العِبَرِ[3].

---

= حيان)) (٨/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٦).

- قولُه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ جُملةٌ مُسْتأنَفةٌ، وهي جاريةٌ مجرَى التَّفسيرِ؛ كالتَّفسيرِ للمُجمَلِ الموعودِ، كأنَّ قائلًا قال: وكيف كان نَبؤُهما؟ فقال:...، وهذه الجُملةُ وما عُطِفَ عليها بيانٌ لجُملةِ ﴿ نَتْلُواْ ﴾ [القصص: ٣]، أو بيانٌ لـ ﴿نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ ﴾ [القصص: ٣]؛ فقُدِّمَ له الإجمالُ؛ للدَّلالةِ على أنَّه نبأٌ له شأنٌ عظيمٌ، وخَطرٌ بما فيه مِن شَتَّى العِبَرِ[١].

- وتَصديرُ الجُملةِ بحَرفِ التَّأكيدِ؛ للاهتِمامِ بالخَبرِ، وللاعتناءِ بتَحقيقِ مَضمُونِ ما بعدَه، أي: إنَّه تَجبَّر وطغَا في أرضِ مِصرَ، وجاوَزَ الحُدودَ المَعهودةَ في الظُّلمِ والعُدوانِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا ﴾ احتِباكٌ[٣]؛ فقد ذَكَر العُلُوَّ أوَّلًا دليلًا على السُّفولِ ثانيًا؛ والافتِراقَ ثانيًا دليلًا على الاجتماعِ أوَّلًا[٤].

- ومِن البَلاغةِ اختِيارُ قولِه: ﴿شِيَعًا ﴾ هنا؛ لِيَدُلَّ على أنَّه جعَلَ أهلَ بلادِ القِبطِ فِرَقًا ذاتَ نَزعاتٍ تَتشيَّعُ كلُّ فِرقةٍ إليه، وتُعادي الفِرقةَ الأخرى؛ لِيَتِمَّ له ضَربُ بعضِهم ببعضٍ، وقد أغْرى بيْنَهم العداوةَ؛ لِيَأمَنَ تألُّبَهم عليه، كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٦).

(٣) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِنَ الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِنَ الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٠).

يُقال: فرِّقْ تَحكُمْ، وهي سِياسةٌ لا تَليقُ إلَّا بالمكرِ بالضِّدِّ والعَدوِّ، ولا تَليقُ بسِياسةِ وَليِّ أمْرِ الأُمَّةِ الواحِدةِ[1]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- جُملةُ ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أُبدِلَتْ مِن جُملةِ ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ بَدلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّه ما فعَلَ ذلك بهم إلَّا لأنَّه عَدَّهم ضُعفاءَ، أي: أذِلَّةً، فكان يَسومُهم العذابَ، ويُسخِّرُهم للأعمالِ الشَّاقَّةِ[2].

- قَولُه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ صِفةُ الكِبْرِ هي أمُّ المفاسدِ وجِماعُها؛ ولذلك قُدِّمتْ على ما يُذكَرُ بعدَها، ثمَّ أُعقِبَت بأنَّه كان مِن المُفسِدين[3].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ إذ ليس في ذلك إلَّا مُجرَّدُ الفَسادِ. وقولُه: ﴿مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: الكامِلينَ في الفَسادِ، والمعدودينَ في زُمْرَتِهم، وهو دالٌّ على شِدَّةِ تَمكُّنِ الإفسادِ مِن خُلقِه ممَّا لو قِيل: كان فاسدًا، ولِفِعلِ الكونِ إفادةُ تمكُّنِ خَبرِ الفِعلِ مِن اسمِه؛ فحصَلَ تأكيدٌ لمَعنى تَمكُّنِ الإفسادِ مِن فِرعونَ؛ ذلك أنَّ فِعلَه هذا اشتَمَلَ على مَفاسدَ عظيمةٍ[4].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾

- عُطِفَت جُملةُ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ ...﴾ على جُملةِ ﴿إِنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٧، ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٦٨).

فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ لمُناسَبةِ ما في تلك الجُملةِ مِن نَبأ تَذبيح الأبناءِ، واستِحياءِ النِّساءِ؛ فذلك مِن عُلوِّ فِرعونَ في الأرضِ، وهو بَيانٌ لـ﴿نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ ﴾؛ فإنَّ إرادةَ اللهِ الخيرَ بالَّذين استَضْعَفهم فِرعونُ مِن تَمامِ نَبأِ مُوسى وفِرعونَ، وهو مَوقِعُ عِبرةٍ عظيمةٍ مِن عِبَرِ هذه القصَّةِ. وجِيءَ بصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿ وَنُرِيدُ ﴾ في حِكايةِ إرادةٍ مَضَتْ؛ لاستِحضارِ ذلك الوقتِ كأنَّه في الحالِ؛ لأنَّ المعنى: أنَّ فِرعونَ يَطْغى عليهم، واللهُ يُرِيدُ في ذلك الوقتِ إبطالَ عمَلِه، وجَعْلَهم أمَّةً عَظيمةً[١].

- ونُكتةُ إظهارِ الاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ﴾ دونَ إيرادِ ضَميرِ الطَّائفةِ؛ للتَّنبيهِ على ما في الصِّلةِ مِن التَّعليلِ؛ فإنَّ اللهَ رَحيمٌ بعِبادِه، ويَنصُرُ المُستضعفينَ المظلومينَ الَّذين لا يَسْتطيعون حِيلةً ولا يَهتَدون سَبيلًا[٢]. وأيضًا لإبانةِ قَدْرِ النِّعمةِ في المِنَّةِ بذِكْرِ حالتِهم السَّابقةِ المُباينةِ لها[٣].

- وخُصَّ بالذِّكرِ مِن المَنِّ أربعةُ أَشياءَ، عُطِفَت على فِعلِ ﴿نَّمُنَّ﴾ عطْفَ الخاصِّ على العامِّ؛ وهي: جَعلُهم أئمَّةً، وجَعلُهم الوارثينَ، والتَّمكينُ لهم في الأرضِ، وأنْ يكونَ زوالُ مُلكِ فِرعونَ على أيدِيهم، في نِعَمٍ أُخرَى جمَّةٍ، ذُكِرَ كثيرٌ منها في سُورةِ البقرةِ[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴾ تَعريفُ الجِنسِ المفيدُ أنَّهم أهلُ الإرثِ الخاصِّ، وهو إرثُ السُّلطةِ في الأرضِ بعدَ مَن كان قبْلَهم مِن أهْلِ السُّلطانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وقيل: ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لجَميعِ ما كان مُنتظِمًا في سلْكِ مُلكِ فِرعونَ وقومِه وِراثةً مَعهودةً فيما بيْنَهم، كما يُنبِئُ عنه تَعريفُ ﴿ٱلْوَٰرِثِينَ﴾. وتأخيرُ ذِكْرِ وِراثتِهم له عن ذِكْرِ جَعلِهم أئمَّةً -مع تَقدُّمِها عليه زَمانًا-؛ لانحِطاطِ رُتبتِها عن الإمامةِ، ولئلَّا يَنفصِلَ عنه ما بعْدَه مع كَونِه مِن رَوادفِه، أي: قولُه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ فيه احتباكٌ[2]، حيثُ ذَكَرَ الاستِضعافَ أوَّلًا دليلًا على القوَّةِ ثانيًا، وإراءةَ المحذورِ ثانيًا دليلًا على إرادةِ المحبوبِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنه ذَكَرَ المُسَلِّي والمُرجِّي ترغيبًا في الصبرِ وانتظارِ الفرجِ[3].

- وخُصَّ هامانُ بالذِّكْرِ -وهو وزيرُ فِرعونَ وأحدُ رِجالِه-؛ لِنَباهتِه في قَومِه ومَحلِّه مِن الكُفرِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣).

(٢) تقدم تعريفه قريبًا.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٦).

## الآيات (٧-١٢)

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَـٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَـٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَـٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْيَمِّ﴾: أي: البَحرِ، ويُطلَقُ اليَمُّ على ما كان ماؤُه مِلحًا، وعلى النَّهرِ الكبيرِ العَذبِ الماءِ، والمرادُ هنا نهرُ النِّيلُ[1].

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾: يُقالُ: قَرَّتْ عينُه تَقَرُّ: سُرَّتْ، وقيل لِمَن يُسَرُّ به: قُرَّةُ عينٍ، وأصلُه مِن القُرِّ، أي: البَردِ، فقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بَرَدَتْ فصَحَّتْ، وقيل: هو مِن القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللهُ ما تَسكُنُ به عينُه، فلا يطمَحُ إلى غيرِه، وقيل: أقرَّ الله عينَه، أي: أنامَها[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((الغريبين =

﴿رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾: أي: شَدَدْنا عليه وثبَّتْناه، وألهَمْناها الصَّبرَ، وأصلُ (ربط): يدُلُّ على شدٍّ وثباتٍ[١].

﴿قُصِّيهِ﴾: أي: تتبَّعي أثَرَه، والقَصُّ: تتبُّعُ الأثَرِ، وأصلُ (قصص): يدُلُّ على تتبُّعِ الشَّيءِ[٢].

﴿عَن جُنُبٍ﴾: أي: عن بُعدٍ، وأصلُ (جنب): يدُلُّ على بُعدٍ[٣].

﴿يَكْفُلُونَهُۥ﴾: أي: يَضُمُّونَه إليهم، وأصلُ (كفل): يدُلُّ على تضمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفصِّلًا الحديثَ عن موسَى عليه السلامُ: وأوحَيْنا إلى أمِّ موسى أن أرضِعي موسى، فإذا خِفْتِ عليه مِن فِرعَونَ وجُندِه فضَعِيه في تابوتٍ

---

= في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٣، ٧٣٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦).

وألْقيه في نهرِ النِّيلِ، ولا تخافي على موسى مِن الغَرَقِ، ولا تحزني على فِراقِه؛ إنَّا رادُّوه إليكِ، وجاعِلوه من رسُلِ اللهِ.

فأخَذ آلُ فِرعَونَ موسى؛ لِيَكونَ عدوًّا لهم وحَزَنًا بزَوالِ مُلكِهم على يديه، إنَّ فِرعَون وهامانَ وجنودَهما كانوا عصاةً آثمينَ.

وقالت امرأةُ فِرعَونَ: هذا الطِّفلُ سرورٌ لي ولك يا فِرعَونُ، لا تقتُلوه؛ لعلَّه ينفَعُنا أو نجعَلُه لنا ولدًا، وهم لا يَعلَمونَ أنَّ هلاكَهم سيَكونُ على يدَيْ هذا الطِّفلِ!

وأصبَحَ فؤادُ أمِّ موسى فارغًا مِن كلِّ شيءٍ إلَّا مِن أمرِ موسى! وقد قارَبَتْ أن تُظهِرَ للنَّاسِ ما تكتُمُه في قَلبِها مِن شأنِ موسى، لولا أن ثبَّتْنا قَلْبَها لِتَكونَ مِن المؤمنينَ بوعدِ اللهِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى ما فعَلَتْه أمُّ موسى بعدَ ذلك، فيقولُ: وقالت لأختِ موسى: اذهَبي فتتَبَّعي أثَرَ موسى؛ لِتَعلمي خبَرَه. فذهَبَتْ أختُه فرَأَتْه مِن بعيدٍ، وهم لا يَعلمونَ أنَّها أختُ موسى، وأنَّها تُراقِبُه.

ثمَّ يخبِرُ تعالى عن مَظهرٍ مِن مظاهرِ حكمتِه وقدرتِه وتدبيرِه لِكَيْ يعودَ موسَى عليه السَّلامُ إلى أمِّه، فيقولُ: ومنَعْنا موسى مِن الرَّضاعِ مِن أيِّ مُرضِعٍ غيرِ أُمِّه، فقالت أختُ موسى لآلِ فِرعَونَ: هل أدُلُّكم على أهلِ بَيتٍ يَضُمُّون هذا الطِّفلَ، ويقومون بحَضانتِه وإرضاعِه، وهم مُخلِصون في ذلك، مُشفِقون عليه؟

فردَدْنا موسى إلى أمِّه لِكَيْ تُسَرَّ به، ولا تحزَنَ على فِراقِه، ولِتَعلَمَ أنَّ ما وعَدَها اللهُ به مِن ردِّ موسى إليها حَقٌّ، ولكنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾.

أي: وأوحَيْنا[1] إلى أمِّ موسى أن أرضِعي موسى ما دُمتِ آمِنةً عليه[2].

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾.

أي: فإذا خِفْتِ على موسى مِن فِرعَونَ وجُندِه، فاطرَحيه في نهرِ النِّيلِ بعدَ وَضعِه في التَّابوتِ[3].

كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ۝ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [طه: ٣٨، ٣٩].

﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾.

أي: ولا تخافي على موسى مِن الهَلاكِ من الغَرَقِ أو غيرِه، ولا تحزني على

---

(١) قال السمعاني: (أكثرُ المفَسِّرينَ على أنَّ معنى قولِه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ هو إلهامُها، وألقَى هذا المعنى في قَلبِها. وقال بعضُهم: رَأَتْ ذلك رُؤْيا. وقال بعضُهم: هو الوَحْيُ حقيقةً، وأتاها المَلَكُ بهذا مِن الله، إلَّا أنَّها لم تكُنْ نبيَّةً). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٢).

وقال ابنُ عطية: (أجمَع الكُلُّ على أنَّها لم تكُنْ نبيَّةً). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

قال السمعاني: (اليمُّ: البَحرُ، والمرادُ منه هاهنا على قَولِ جميع المفسِّرينَ هو النِّيلُ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٣).

فِراقِه[١].

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الخَوفُ عمَّا يَلْحَقُ المتوقَّعَ، والحزنُ عمَّا يَلْحَقُ الواقعَ؛ عَلَّلَ نَهْيَه عن الأمْرَينِ بقَولِه[٢]:

﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

أي: إنَّا رادُّو ابنِك موسى إليكِ، وجاعِلوه مِن رُسلِ اللهِ إلى عِبادِه[٣].

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾﴾.

﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾.

أي: فأخَذ آلُ فِرعَونَ موسى؛ لِيَكونَ[٤] عدوًّا لهم في دينِهم، وحَزَنًا يَحزُنُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

(٤) اختلف المفسِّرون في اللَّام مِن قَولِه تعالى: ﴿لِيَكُونَ﴾؛ فقيل: هي لامُ العاقبةِ والصَّيرورةِ، أي: أخَذوه فكان عاقبةُ أمرِهم أنْ صار موسى عدوًّا لهم وحَزَنًا. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن العربي، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

قال ابن تيميَّة: (لام العاقبةِ إنَّما تجيءُ في حقِّ مَن لا يكونُ عالمًا بعواقبِ الأمورِ ومصايرِها، =

بزَوالِ مُلكِهم، وهَلاكِهم على يديه[١].

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ وهامانَ وجُنودَهما كانوا عُصاةً آثِمينَ[٢].

---

= فيفعلُ الفعلَ الَّذي له عاقبةٌ لا يَعلَمُها؛ كآلِ فِرعونَ، فأمَّا مَن يكونُ عالمًا بعواقبِ الأفعالِ ومصايرِها فلا يُتصَوَّرُ منه أن يَفعلَ فِعلًا له عاقبةٌ لا يَعلَمُ عاقبتَه، وإذا عَلِم أنَّ فِعلَه له عاقبةٌ فلا يقصدُ بفعلِه ما يعلمُ أنَّه لا يكونُ؛ فإنَّ ذلك تَمَنٍّ وليس بإرادةٍ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٨٧).

وقال أيضًا: (لام الصَّيرورةِ إمَّا أن تكونَ لِمَن لا يُريدُ الغايةَ، وذلك إنَّما يكونُ لجهلِ الفاعلِ بالغايةِ؛ كقولِه: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾. وإمَّا لعجزِه عن دفْعِها، وإنْ كان كارهًا لها). ((بيان تلبيس الجهمية)) (١/ ٢١٧).

وقيل: اللَّامُ هنا للتَّعليلِ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ القيم، وابن كثير، ورجَّحه الشنقيطيُّ وردَّ القولَ الآخَر. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٠).

قال ابن كثير: (قال محمَّدُ بنُ إسحاقَ وغيرُه: «اللَّامُ» هنا لامُ العاقبةِ، لا لامُ التَّعليلِ؛ لأنَّهم لم يُريدوا بالتقاطِه ذلك. ولا شكَّ أنَّ ظاهِرَ اللَّفظِ يقتضي ما قالوه، ولكِنْ إذا نُظِرَ إلى معنى السياقِ فإنَّه تبقى اللَّامُ للتَّعليلِ؛ لأنَّ معناه: أنَّ الله تعالى قيَّضَهم لالتقاطِه؛ لِيَجعَلَه لهم عدوًّا وحَزَنًا، فيَكونَ أبلَغَ في إبطالِ حَذَرِهم منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٥٩، ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥).

قيل: هذه الجملةُ تعليلٌ للجملةِ السَّابقةِ، أي: يكونُ موسى عدوًّا وحَزَنًا لهم؛ لأنَّهم كانوا خاطِئينَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤).

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾.

﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَ﴾.

أي: وقالت امرأةُ فِرعَونَ: هذا الطِّفلُ سُرورٌ لي ولك يا فِرعَونُ[1].

﴿لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا﴾.

أي: لا تَقتُلوه؛ لعلَّه ينفَعُنا فنَنالَ منه خيرًا، أو نجعَلُه لنا ولدًا فنتبَنَّاه[2]!

﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾.

أي: وفِرعَونُ وآلُه لا يَعلَمونَ ما هو كائِنٌ مِن أنَّ هلاكَهم على يَدَيْ هذا الطِّفلِ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٧، ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢).

قيل: المرادُ: نجعَلُه مِن الخَدَمِ الَّذين يَسْعَون في نفعِنا وخِدمتِنا، أو نرقِّيه لمنزلةٍ أعلى فنجعَلُه ولدًا نُكرِمُه ونُجِلُّه. وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩).

قال الرسعني: (قال المفسِّرونَ: كان فرعونُ لا يُولَدُ له إلَّا البناتُ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١٢).

وقال ابن عثيمين: (قد يدُلُّ تبنِّيها لموسى على أنَّها كانت عاقرًا لا تلِدُ، وقد لا يدُلُّ على ذلك؛ فالمرأةُ قد تتَّخِذُ الولدَ زيادةً على ما عندَها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠).

وظاهرُ هذه الجملةِ أنَّها مِن كلامِ الله تعالى. وممَّن نصَّ على ذلك: القرطبيُّ، والسعدي، وابن عثيمين ونسبه الواحدي لأكثرِ المفسرين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير =

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ﴾.

أي: وأصبحَ[1] قلبُ أمِّ موسى فارغًا مِن كلِّ شيءٍ إلَّا مِن أمرِ موسى، فلا تفكِّرُ فيما سِواه، ولا تَحمِلُ همًّا غيرَه[2].

---

= السعدي)) (ص: ٦١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣٨).

وقيل: هذا مِن تمامِ كلامِ المرأةِ، والمعنى: وبنو إسرائيلَ لا يَدْرون أنَّا التقَطْناه. واستبَعْده الشوكانيُّ جدًّا. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٥).

(١) قال القرطبيُّ: (في قولِه تعالى: ﴿ وَأَصْبَحَ ﴾ وجهان؛ أحدُهما: أنَّها ألقَتْه ليلًا فأصبَح فؤادُها في النَّهارِ فارغًا. الثَّاني: ألقَتْه نهارًا، ومعنى: ﴿ وَأَصْبَحَ ﴾ أي: صار). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٢، ٤٣).

وممَّن قال بهذا المعنى لفراغِ فؤادِها: ابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٦).

قال الرسعني: (قال ابنُ عبَّاسٍ وجمهورُ المفسِّرينَ: أصبَح قلبُها فارِغًا مِن كُلِّ شَيءٍ إلَّا مِن ذِكرِ موسى). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ إضافةً إلى ابنِ عبَّاسٍ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقتادةُ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، ومطَرٌ الوَرَّاقُ، وأبو عبيدةَ، والحسنُ البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣).

وقيل في معنى فراغِ فؤادِها غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٦٨-١٧٠)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٦).

﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾.

أي: قاربَتْ أمُّ موسَى أن تُظهِرَ للنَّاسِ ما تكتُمُه في قَلْبِها مِن شأنِ موسَى[1].

﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: كادت أمُّ موسى أن تُظهِرَ ما تُخفيه لو لا أن ثبَّتْنا قَلْبَها؛ لِتَكونَ مِنَ المُؤمِنينَ بوَعدِ اللهِ، الموقِنينَ به[2].

﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١﴾.

﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٠، ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

قوله تعالى: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ﴾ الهاءُ ترجعُ إلى موسى. واختُلف متى أرادت هذا على ثلاثةِ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه حين فارَقَتْه كادت تقولُ: يا بُنَيَّاه. وهو قولُ ابنِ عبَّاسٍ. قال قتادةُ: وذلك مِن شدَّةِ وجْدِها.

والثَّاني: حين حُمِلت لِرَضاعِه كادت تقولُ: هو ابني. قاله السُّدِّيُّ.

والثَّالثُ: أنَّه لَمَّا كَبِر وسَمِعَت النَّاسَ يقولون: موسى بنُ فِرعون، كادت تقولُ: لا، بل هو ابني. قاله ابنُ السَّائبِ.

وقيل: الهاءُ ترجعُ إلى الوحيِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

قولُه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قيل: المرادُ: لِتَكونَ مِن المؤمنينَ المُوقِنينَ بما وعَدَها اللهُ به مِن شأنِ موسى. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٥-٤٦).

أي: وقالت أمُّ موسى لأختِ موسى: اذهَبي فتَتبَّعي أثَرَ موسى، وابحَثي عنه؛ لِتَعلَمي خبَرَه[١].

﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾.

أي: فذهبَتْ تَتبَعُ أثَرَه، فرَأَتْه مِن بعيدٍ، وكأنَّها لا تَقصِدُه[٢].

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: وقَومُ فِرعَونَ لا يعلَمونَ أنَّها أختُ موسى، وأنَّها تُراقِبُه[٣].

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ومَنَعْنا موسى مِن قَبْلُ[٤] مَنْعًا قَدَريًّا أن يَقبَلَ الرَّضاعَ مِن أيِّ مُرضِعٍ غيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٢).

قال البقاعي: (ليس لهم شعورٌ؛ لا بنَظَرِها، ولا بأنَّها أختُه، بل هم في صِفةِ الغَفلةِ الَّتي هي في غايةِ البُعدِ عن رُتبةِ الإلهيَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٥٠).

(٤) قال الشوكاني: (ومعنَى ﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قبْلِ أنْ نَرُدَّه إلى أُمِّه، أو مِن قبلِ أنْ تأتيَه أُمُّه، أو مِن قبلِ قَصِّها لأثَرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٦). =

أمِّه[١].

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾.

أي: فقالت أختُ موسى لآلِ فِرعَونَ: هل أدُلُّكم على أهلِ بَيتٍ يَضُمُّونَ هذا الطِّفلَ، ويَضْمَنونَ لكم القيامَ بحَضانتِه ومَصالِحِه وإرضاعِه، وهم مُخلِصون في ذلك، مُشفِقون عليه، لا يُقَصِّرون في إرضاعِه وتربيتِه[٢]؟

---

= وممَّن اختار الأوَّلَ: مقاتلُ بن سليمان، ومكِّي، وابنُ الجوزي، والرسعني، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٤٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: من قَبلِ مَجيءِ أمِّه: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: مِن قبلِ قَصِّها أثرَه: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥١٦).

وقيل: المرادُ: مِن قَبلِ التِقاطِ آلِ فِرعَونَ له. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٤).

قال ابن عاشور: (وهو إيذانٌ بأنَّ ذلك التَّحريمَ ممَّا تعلَّقَ به عِلمُ الله وإرادتُه في الأزَلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٣، ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٤).

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾.

أي: فردَدْنا موسى إلى أمِّه؛ لكيْ تُسَرَّ به وتفرَحَ، ولا تحزَنَ على فِراقِه[1]!

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

أي: ولِتَعلَمَ أمُّ موسى عِلمًا هو عينُ اليقينِ أنَّ ما وعَدَها اللهُ مِن ردِّ موسى إليها، وجَعْلِه رَسولًا: صِدقٌ ثابِتٌ لا بدَّ مِن وُقوعِه[2].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَهم[3] لا يَعلَمونَ أنَّ وَعْدَ اللهِ حقٌّ كائنٌ، ولا يُصَدِّقونَ به، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٧-٥٩).

(٣) قيل: المرادُ: أكثَرُ المشركين. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٠٠).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ آلِ فِرعَون. وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ أهلِ مِصرَ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٩).

وقيل: المرادُ: أكثرُ النَّاسِ. وممَّن قال بهذا المعنى: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٩).

قوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ قيل: لا يَعلمونَ ما يُرادُ بهم. وقيل: لا يَعلمون مِثلَ عِلمِها. وقيل: لا يَعلمون أنَّ وعدَ الله حقٌّ. وقيل: لا يعلمونَ أنَّ اللهَ وعَدَها بأنْ يَرُدَّه إليها. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) =

يَعلَمونَ حِكَمَه العَظيمةَ في أفعالِه وقَدَرِه سُبحانَه[١].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ دَليلٌ على أنَّه ينبغي أنْ تُستعمَلَ الأساليبُ التي تُحَقِّقُ المقصودَ؛ فإنَّ هذا القولَ منها -سواءٌ كانت تتوقَّعُ ذلك أو لا تتوقَّعُه- لا بُدَّ أنْ يكونَ سببًا في مُوافقةِ فِرعَونَ لِمَا بَلَغَه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أنَّ العبدَ -ولو عَرَفَ أنَّ القضاءَ والقَدَرَ ووَعْدَ اللهِ نافِذٌ لا بُدَّ منه- فإنَّه لا يُهمِلُ فِعلَ الأسبابِ الَّتي أُمِرَ بها، ولا يكونُ ذلك منافيًا لإيمانِه بخَبَرِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ قد وَعَدَ أُمَّ موسى أنْ يَرُدَّه عليها، ومع ذلك اجتهدتْ على رَدِّهِ، وأرسلتْ أختَه لِتَقُصَّه وتطلُبَه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ...﴾ تعليمُ أنَّ اللهَ بالِغٌ أمْرَه بتهيئةِ الأسبابِ المُفضيةِ إليه، ولو شاء اللهُ لأهْلَكَ فِرعَونَ ومَن معه بحادثٍ سماويٍّ، ولَمَا قَدَّرَ لإهلاكِهم هذه الصُّورةَ المرَتَّبةَ، ولأَنْجى موسى وبني إسرائيلَ إنجاءً أسرَعَ، ولكِنَّه أراد أنْ يَحصُلَ ذلك بمشاهَدةِ تنقُّلاتِ الأحوالِ، ابتِداءً مِن إلقاءِ موسى في اليَمِّ، إلى أنْ رَدَّه إلى أُمِّهِ؛ فتكونَ في ذلك

---

= (٤/ ١٢٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٥٩، ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

عِبرةٌ للمُشرِكين الَّذين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ولِيَتوسَّموا مِن بَوارقِ ظهورِ النَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وانتقالِ أحوالِ دعوتِه في مَدارِجِ القوَّةِ: أنَّ ما وَعَدَهم به واقِعٌ بأَخَرةٍ[١]، فاللهُ تعالى إذا أراد أمرًا هَيَّأَ أسبابَه، وأتَى بها شَيئًا فشَيئًا بالتَّدريجِ؛ لا دَفْعةً واحدةً[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنَّ اللهَ يُقدِّرُ على عبْدِه بعضَ المَشاقِّ لِيُنيلَه سرورًا أعظَمَ مِن ذلك، أو يَدفعَ عنه شرًّا أكثرَ منه، كما قَدَّرَ على أُمِّ موسى ذلك الحُزنَ الشَّديدَ، والهمَّ البليغَ، الَّذي هو وسيلةٌ إلى أنْ يَصِلَ إليها ابنُها على وجهٍ تَطمئِنُّ به نفْسُها، وتَقَرُّ به عينُها، وتَزدادُ به غِبْطةً وسرورًا[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ سؤالٌ؛ إن قيل: ما فائدةُ وحْيِ اللهِ تعالى إلى أُمِّ موسى بإرضاعِه؛ مع أنها تُرضِعُه طبعًا وإنْ لم تُؤْمَرْ بذلك؟!

**الجوابُ**: أَمَرها بإرْضاعِه لِيألَفَ لبنَها؛ فلا يَقْبَلَ ثديَ غيرِها بعدَ وقوعِه في يدِ فِرعَونَ، فلو لم يأمُرْها به؛ رُبَّما كانت تُسترضَعُ له مُرضِعةٌ فيَفوتُ المقصودُ[٤].

وأيضًا: أمَرَها اللهُ بإرضاعِه لِتَقْوَى بِنْيَتُه بِلِبانِ أُمِّه؛ فإنَّه أسعَدُ بالطِّفلِ في أوَّلِ عُمُرِه مِن لِبانِ غيرِها، ولِيَكونَ له مِنَ الرَّضاعةِ الأخيرةِ قبْلَ إلقائِه في اليَمِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٧).

قُوتٌ يَشُدُّ بِنْيَتَه فيما بيْنَ قَذْفِه في اليَمِّ وبيْن التِقاطِ آلِ فِرعونَ إيَّاهُ وإيصالِه إلى بيتِ فِرعونَ وابتِغاءِ المَراضِعِ ودَلالةِ أُختِه إيَّاهم على أُمِّه إلى أن أُحضِرَتْ لإرضاعِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ أنَّ الخَوْفَ الطَّبيعيَّ مِن الخلْقِ لا يُنافي الإيمانَ، ولا يُزيلُه، كما جرى لأمِّ موسى ولموسى مِن تلك المخاوفِ[٢].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ هذا مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على كمالِ قُدرةِ الله عزَّ وجَلَّ، وأنَّ اللهَ إذا حَمى أحدًا، فإنَّ الأسبابَ المؤدِّيةَ إلى الهلاكِ لا تؤثِّرُ؛ لأنَّ قُدرةَ اللهِ فوقَ الأسبابِ، فإن إلقاءَه في البحرِ معناه استعجالُ الهلاكِ له، وكذلك أن يعيشَ بينَ أحضانِ فِرعَونَ، الَّذي كان يَتتبعُ أولادَ بني إسرائيلَ، فيقتلُ أبناءَهم، فهذا مِن آياتِ الله عزَّ وجلَّ، وكذلك فإنَّ النَّارَ مُحرِقةٌ بلا شَكٍّ، ولكن صارتْ على إبراهيمَ بَردًا وسَلامًا[٣].

٦- إن قيل: ما وجْهُ الجمعِ بيْنَ إثباتِ الخَوفِ في قولِه: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾، ثمَّ نفْيِه بقولِه: ﴿وَلَا تَخَافِي﴾؟

**والجوابُ**: أنَّ المعنَى: فإذا خِفتِ عليه القتلَ، فألْقيه في اليَمِّ، ولا تخافي عليه الغرَقَ، فاندفَعَ ما يُتوَهَّمُ مِن تناقضٍ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنَّه ينبغي طَمْأنةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٧، ٤٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٨٥).

المحزونِ ببشارتِه بمُستقبَلِه[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ أنَّ أتْباعَ الرَّجُلِ وحاشيتَه هم مِن آلِه[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ تعليلٌ لقضاءِ الله سُبحانَه بالتِقاطِه وتقديرِه له -على أحدِ القولَين في اللَّام-؛ فإنَّ التقاطَهم له إنَّما كان بقضائِه وقدرِه، فهو سُبحانَه قدَّر ذلك وقضَى به؛ لِيَكونَ لهم عدوًّا وحزنًا، وذَكَرَ سُبحانَه فِعْلَهم دونَ قضائِه؛ لأنَّه أبلَغُ في كَونِه حَزَنًا لهم وحسرةً عليهم؛ فإنَّ مَنِ اختارَ أخْذَ ما يكونُ هلاكُه على يديه إذا أُصيبَ به كان أعظَمَ لحُزْنِه وغَمِّه وحسرتِه مِن ألَّا يكونَ فيه صُنْعٌ ولا اختيارٌ، فإنَّه سُبحانَه أراد أنْ يُظهِرَ لِفِرعَونَ وقَومِه ولغيرِهم مِن خلْقِه كمالَ قدرتِه وعِلْمِه وحكمتِه الباهرةِ، وأنَّ هذا الَّذي يُذَبِّحُ فِرعَونُ الأبناءَ في طلبِه هو الَّذي يَتولَّى تربيتَه في حِجْرِه وبيتِه باختيارِه وإرادتِه، ويكونُ في قبضتِه وتحتَ تصَرُّفِه! فذِكْرُ فِعْلِهم به في هذا أبلَغُ وأعجبُ مِن أنْ يَذْكُرَ القضاءَ والقَدَرَ، وقد أعلَمَنا سُبحانَه أنَّ أفعالَ عبادِه كلَّها واقعةٌ بقضائِه وقدَرِه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ أنَّ الإنسانَ قد يسعى لِمَا فيه حتْفُه؛ لأنَّ هؤلاء سَعَوا فيما فيه حتْفُهم؛ فقد التَقَطوا هذا الطِّفلَ الَّذي سيكونُ عدوًّا لهم وحَزَنًا[٤].

١١- إنَّ إصابةَ قومِ فِرعَونَ بَغتةً مِن قِبَلِ مَن أَمَّلوا منه النَّفعَ: أشدُّ عِبرةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦).

للمعتبِرِ، وأوقعُ حسرةً على المستبصِرِ، وأدَلُّ على أنَّ انتقامَ اللهِ يكونُ أعظَمَ مِن انتقامِ العدُوِّ، كما قال: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ مع قولِه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1].

١٢- وجودُ الصَّالِحينَ مِن بيْنِ المفسِدينَ يُخَفِّفُ مِن لَأْوَاءِ فسادِ المفسِدينَ؛ فإنَّ وجودَ امرأةِ فِرعَونَ كان سببًا في صَدِّ فِرعَونَ عن قتْلِ الطِّفلِ، فقالتِ امرأتُه: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[2].

١٣- أنَّ الإنسانَ يكونُ على حالٍ، فإذا نَزَلَ به البلاءُ تَغَيَّرَ حالُه؛ فهذه أُمُّ موسى كانت في البدايةِ مُطمئنَّةً، ولذلك وضعتْه في التَّابوتِ، ثمَّ وضعَتْه في اليَمِّ، وهذا يدُلُّ على أعلى درجاتِ الطُّمأنينةِ، ولكنَّها أصبحتْ بعدَما فارقَتْه كما قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، فقد صار قلْبُها الآنَ فارغًا، وأصبحتْ قَلِقةً، كأنَّه ليس في الدُّنيا سِوى ابنِها! فالواقعُ أنَّ الإنسانَ له حالٌ قبْلَ نزولِ البلاءِ، وله حالٌ بعدَ نزولِه؛ ولهذا لا ينبغي للإنسانِ أنْ يُعَرِّضَ نفْسَه للبلاءِ[3].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ دليلٌ على أنَّ ما تقتضيه الطَّبيعةُ البشريَّةُ لا يُؤاخَذُ به المرءُ، ووجْهُ ذلك: أنَّ فؤادَ أُمِّ موسى كان ينبغي ألَّا يكونَ فارغًا مِن ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ ومِن الدَّارِ الآخرةِ! لكنَّه أصبحَ فارغًا، ليس فيه شيءٌ أبدًا لِذِكْرِه سِوى ذِكْرِ موسى، وهذا مقتضى الطبيعةِ البشريَّةِ؛ لأنَّ الأمورَ العظيمةَ التي تَنزِلُ بالمرءِ تُنسيه كلَّ شيءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨).

١٥- أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ، وأنَّ مِن أعظمِ ما يَزيدُ به الإيمانُ، ويَتِمُّ به اليقينُ: الصَّبرَ عندَ المُزعِجاتِ، والتَّثبيتَ مِن اللهِ عند المُقلِقاتِ، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لِيَزدادَ إيمانُها بذلك، ويَطمئِنَّ قلْبُها[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ استمرارَ الجَزَعِ مع العبدِ دليلٌ على ضَعفِ إيمانِه[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ مِن أعظمِ نِعَمِ اللهِ على عبْدِه، وأعظَمِ معونةٍ للعبدِ على أمورِه: تثبيتَ اللهِ إيَّاه، ورَبْطَ جأْشِه وقلْبِه عندَ المَخاوِفِ، وعندَ الأمورِ المُذهِلةِ؛ فإنَّه بذلك يَتمكَّنُ مِن القَولِ الصَّوابِ، والفعلِ الصَّوابِ، بخلافِ مَن استمرَّ قلَقُه ورَوعُه وانزعاجُه؛ فإنَّه يضيعُ فِكرُه، ويَذهَلُ عقلُه، فلا يَنتفِعُ بنفْسِه في تلك الحالِ[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ دليلٌ على أنَّ المرءَ مُفتقِرٌ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى في كلِّ أحوالِه؛ ولا سيَّما عندَ نزولِ الحوادثِ، ولولا معونةُ اللهِ ما فَعَل الإنسانُ شيئًا، فلا صَبَرَ على بلاءٍ، ولا شَكَرَ عندَ الرخاءِ[٤].

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في قَولِه: ﴿لِتَكُونَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٨).

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دليلٌ على إثباتِ العِلَلِ والأسبابِ[١].

٢٠- قولُه تعالى: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ لا يخفَى ما يسبقُ إلى الذِّهن مِن أنَّ المرأةَ ليست مِن الرِّجالِ، وهو تعالى لم يقُلْ: (مِن المؤمناتِ).

**الجواب**: هو إطباقُ أهلِ اللِّسانِ العربيِّ على تغليبِ الذَّكرِ على الأُنثَى في الجَمعِ[٢].

٢١- قال الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ﴾ التَّحريمُ هنا هو التَّحريمُ الكَونيُّ، ويقابلُه التَّحريمُ الدِّينيُّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ﴾[٣] [المائدة: ٣].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ ﴾ جوازُ أخْذِ الأُجرةِ على الكَفالةِ والرَّضاعِ، والدَّلالةِ على مَن يَفعلُ ذلك[٤].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ جوازُ خروجِ المرأةِ في حوائجِها، وتكليمِها للرِّجالِ مِن غيرِ محذورٍ، كما جرى لأختِ موسى هنا، وابنتَيْ صاحبِ مَدْيَنَ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾[٥] [القصص: ٢٣].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ إيماءٌ إلى تذكيرِ المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بأنَّ نصْرَهم حاصلٌ بعدَ حينٍ، ووعيدٌ للمُشركينَ بأنَّ وعيدَهم لا مَفَرَّ لهم منه[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أنَّ اللهَ مِن رحمتِه بعبدِه الضعيفِ الذي يريدُ إكرامَه، أنَّه يُريه مِن آياتِه، ويُشهدُه مِن بيِّناتِه ما يَزيدُ به إيمانُه، كما رَدَّ اللهُ موسى على أُمِّهِ؛ لِتَعلمَ أنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌّ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [القصص: ٥]؛ إذ الكلُّ مِن أجزاءِ النَّبأِ. وتَتضمَّنُ هذه الجُملةُ تَفصيلًا لمُجمَلِ قولِه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ [القصص: ٥]؛ فإنَّ الإرادةَ لَمَّا تعلَّقَت بإنقاذِ بني إسرائيلَ مِن الذُّلِّ، خلَقَ اللهُ المُنقِذَ لهم[٣].

- وقولُه: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ الأمْرُ بإرضاعِه يُؤذِنُ بجُمَلٍ طُوِيَتْ؛ وهي أنَّ اللهَ لَمَّا أراد ذلك قدَّرَ أنْ يكونَ مظهرُ ما أرادهُ هو الجنينَ الَّذي في بطْنِ أُمِّ مُوسى، ووَضَعَتْه أُمُّه، وخافَتِ اعتِداءَ أنصارِ فِرعونَ على وَلِيدِها، وتحيَّرَت في أمْرِها، فأُلْهِمَت أو أُرِيَتْ ما قَصَّه اللهُ هنا وفي مواضعَ أُخرى[٤].

- قَولُه: ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ لقائلٍ أنْ يقولَ: ما الفرقُ بيْن الخَوفِ والحُزنِ حتَّى عُطِفَ أحدُهما على الآخَرِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٣).

**والجوابُ**: أن هذا مِن بابِ الإطنابِ، بلْ هو قِسمٌ نادرٌ مِن أجمَلِ أقسامِه؛ وهو أنْ يُذكَرَ الشَّيءُ فيُؤتَى فيه بمَعانٍ مُتداخِلةٍ، إلَّا أنَّ كلَّ معنًى مُختَصٌّ بخَصِيصةٍ ليست للآخَرِ؛ فالخوفُ هو غمٌّ يُصِيبُ الإنسانَ لأمْرٍ يُتوقَّعُ نُزولُه في المُستقبَلِ، أمَّا الحُزنُ فهو غَمٌّ يُصِيبُه لأمْرٍ وقَعَ فِعلًا ومَضى؛ فنُهِيَتْ عنهما جميعًا[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ في مَوقعِ العِلَّةِ للنَّهْيَينِ -النَّهي عن الخَوفِ، والنَّهي عن الحُزنِ-؛ لأنَّ ضَمانَ رَدِّه إليها يَقْتضي أنَّه لا يَهلِكُ، وأنَّها لا تَشتاقُ إليه بطولِ المَغيبِ. وأمَّا قولُه: ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فإدْخالٌ للمَسرَّةِ عليها[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إيثارُ الجُملةِ الاسميَّةِ، وتَصديرُها بحَرفِ التَّحقيقِ (إنَّ)؛ للاعتناءِ بتَحقيقِ مَضمونِها، أي: إنَّا فاعِلونَ لِرَدِّه وجَعلِه مِن المُرسَلينَ لا مَحالةَ[٣].

- وأيضًا هذه الآيةُ مِن مُعجزاتِ الإيجازِ؛ لاشْتمالِها على خَبرَيْنِ، وأمْرَينِ، ونَهيَينِ، وبِشارتيْنِ، في أسهَلِ نَظْمٍ، وأسلَسِ لَفظٍ، وأوجَزِ عِبارةٍ؛ فالخبَرانِ هما: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ وقولُه: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾؛ لأنَّه يُشعِرُ بأنَّها ستَخافُ عليه. والأمْرانِ هما: ﴿أَرْضِعِيهِ﴾ و(أَلْقِيهِ). والنَّهيانِ: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي﴾. والبِشارتانِ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٤، ٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٨٦). =

٢- قولُه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ﴾ فَصيحةٌ مُفصِحةٌ عن عَطْفِه على جُملةٍ مُترتِّبةٍ على ما قبْلَها مِن الأمْرِ بالإلقاءِ؛ قد حُذِفَت تَعويلًا على دَلالةِ الحالِ، وإيذانًا بكَمالِ سُرعةِ الامتثالِ، أي: فألْقَتْهُ في اليَمِّ بعْدَما جَعلَتْهُ في التَّابوتِ حسبَما أُمِرَت، فالْتقَطَه آلُ فِرعونَ[1].

- قولُه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ جُعِلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نَفْسَ الحَزنِ؛ إيذانًا بقُوَّةِ سببيَّتِه لِحُزْنِهم[2]. ولَمَّا كانت عاقبةُ أمْرِه إهلاكَهم، وكان العاقلُ -لا سيَّما المُتحذلِقُ- لا ينبغي له أنْ يُقْدِمَ على شَيءٍ حتى يَعلَمَ عاقبتَه -فكيف إذا كان يدَّعي أنَّه إلهٌ-؛ عَبَّرَ سُبحانَه بلامِ العاقبةِ الَّتي معناها التَّعليلُ تهكُّمًا بفِرعَون[3].

- ويحتملُ في قولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ أنْ يكونَ في الكَلامِ حذْفٌ، أي: فكان لهم عدُوًّا وحَزنًا، أي: لأنَّهم كانوا خاطِئينَ، لم يَرجِعوا إلى دِينِه، وتَعمَّدوا الجرائمَ والكُفرَ باللهِ[4].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾ اعتراضيَّةٌ

---

= قال الماوَرْدي: (وحكَى الأصمعيُّ قال: سمِعتُ جاريةً أعرابية تُنشِدُ:...، قال: فقلتُ: قاتلَكِ اللهُ! ما أفصحَكِ! فقالت: أوَ يُعَدُّ هذا فصاحةً مع قولِه تعالى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ...﴾ الآيةَ، فجمَع في آيةٍ واحدةٍ بيْنَ أمْرَينِ، ونَهيَينِ، وخبَرَينِ، وبِشارتَينِ؟!). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣، ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧).

واقعةٌ بيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه، مُؤكِّدةٌ لمَعنى خَطئِهم. أو لبَيانِ المُوجِبِ لِمَا ابْتُلُوا به[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا﴾ أُضِيفَ الجُندُ هنا وفيما قبْلُ إلى فِرعونَ وهامانَ، وإنْ كان هامانُ لا جُنودَ له؛ لأنَّ أمْرَ الجُنودِ لا يَستقيمُ إلَّا بالملِكِ والوَزيرِ؛ إذ بالوزيرِ تُحصَّلُ الأموالُ، وبالمَلِكِ وقَهرِه يُتوصَّلُ إلى تَحصيلِها، ولا يكونُ قِوامُ الجُندِ إلَّا بالأموالِ[٢].

- وما أحسَنَ نَظْمَ هذا الكَلامِ عندَ المُرتاضِ بعِلمِ مَحاسنِ النَّظمِ؛ وذلك أنَّ قولَه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النمل: ٤] وقولَه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [النمل: ٥] تَفصيلٌ لقولِه: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [النمل: ٣]، وما أجمَلَ ثمَّ فصَّلَ وخَصَّ بلفظِ الإنباءِ إلَّا لاشتِمالِ هذا المُنبَّأِ به على أمْرٍ له شأْنٌ، وليس ذلك إلَّا لبَيانِ أنَّ ما قدَّرَه اللهُ كائنٌ لا مَحالةَ، وأنَّ الحَذرَ لا يُغْني عن القدَرِ، وإذا جاء القَضاءُ عَمِيَ البصرُ؛ فإنَّ فِرعونَ وقومَه لَمَّا قُضِيَ هلاكُهم على يَدِ الكليمِ عليه السَّلامُ واجْتَهدوا في الدَّفعِ، فَعَلوا ما لا طائلَ تحتَه، بلْ عَكَسوا؛ حيث أُفنِيَ البريءُ مِن قَتْلِ الأبناءِ، ورُبِّيَ مَن عليه دمارُه، فسُلِبَت عُقولُهم، فالْتَقَطوه لِيَكونَ لهم عدُوًّا وحَزنًا وهم لا يَشعُرون؛ فحسُنَ لذلك أنْ يؤكِّدَ بقولِه: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [النمل: ٨] على التَّفصيلِ؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ ذلك الجَمَّ الغفيرَ بعدَ ذلك التَّحذيرِ زَلُّوا عن دَفعِ التَّقديرِ؛ فاللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٧، ٢٨٨).

وَحَزَنًا ﴾ [النمل: ٨] مُجْرًى على حَقيقتِه. وتَمامُ تَقريرِه أن يُقالَ: إنَّا أرَدْنا أنْ نَمُنَّ على المُستضعَفينَ، وأنْ نَجعَلَهم الوارثينَ، وأنْ نُرِيَ فِرعونَ وهامانَ وجُنودَهما ما كانوا يَحذَرون؛ فدبَّرْنا ما دَبَّرْنا: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [النمل: ٧]، فامتثَلَتْ أمْرَنا وألْقَتْه في اليَمِّ، وألقاهُ اليمُّ بالسَّاحلِ، فقَضَينا على آلِ فِرعونَ الْتقاطَه؛ لِيَظهَرَ مِن لَطيفِ تَقديرِنا عَداوتُه وسَببُ حُزنِه، وهم لا يَشعُرون بذلك. فما أحسَنَ نَظْمَ هذا الكلامِ، وما أظْهَرَه مِن سُلطانٍ على القَولِ بالقضاءِ والقدَرِ[1]!

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ ﴾ (قُرَّةُ العينِ) كِنايةٌ عن السُّرورِ، وهي كِنايةٌ ناشِئةٌ عن ضِدِّها، وهو سُخنةُ العينِ التي هي أثَرُ البُكاءِ اللَّازمِ للأسفِ والحزنِ؛ فلمَّا كُنِيَ عن الحزنِ بسُخنةِ العينِ في قولِهم في الدُّعاءِ بالسُّوءِ: أسخَنَ اللهُ عَينَه، أتْبَعوا ذلك بأنْ كَنَوْا عن السُّرورِ بضِدِّ هذه الكِنايةِ، فقالوا: قُرَّةُ عَينٍ، وأقرَّ اللهُ عَينَه، فحَكَى القرآنُ ما في لُغةِ امرأةِ فِرعونَ مِن دَلالةٍ على معنى المَسَرَّةِ الحاصلةِ للنَّفْسِ ببَليغِ ما كَنَى به العربُ عن ذلك، وهو ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ ﴾. ومِن لَطائفِه في الآيةِ: أنَّ المَسرَّةَ المَعْنيَّةَ هي مَسرَّةٌ حاصلةٌ مِن مَرأى مَحاسنِ الطِّفلِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى ﴾[2] [طه: ٣٩].

- وابتَدَأتْ بنفْسِها في ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى ﴾ قبْلَ ذِكرِ فِرعونَ؛ إدلالًا عليه لِمكانَتِها عندَه، أرادتْ أنْ تَبتدِرَه بذلك حتَّى لا يَصدُرَ عنه الأمرُ بقتْلِ الطِّفلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٧٩).

- وضَميرُ الجمْعِ في قولِها: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ يَجوزُ أنْ يُرادَ به فِرعونُ؛ نَزَّلَتْه مَنزلةَ الجَماعةِ على وَجهِ التَّعظيم. ويجوزُ أنْ يُرادَ به خِطابُ فِرعونَ داخلًا فيه أهلُ دَولتِه، وهذا أحسَنُ؛ لأنَّ فيه تمْهيدًا لإجابةِ سُؤلِها حينَ أسْنَدَت مُعظمَ القتلِ لأهلِ الدَّولةِ، وجعَلَت لفِرعونَ منه حظَّ الواحدِ مِن الجماعةِ؛ فكأنَّها تُعرِّضُ بأنَّ ذلك يَنْبغي ألَّا يكونَ عن رأْيِه، فتُهَوِّن عليه عُدولَه في هذا الطِّفلِ عمَّا تقرَّرَ مِن قتْلِ الأطفالِ. وقِيل: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ الْتفاتٌ عن خِطابِ فِرعونَ إلى خِطابِ المُوكَّلينَ بقَتْلِ أطفالِ بني إسرائيلَ؛ فمَوقِعُ جُملةِ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ مَوقعُ التَّمهيدِ والمُقدِّمةِ للعَرْضِ، ومَوقِعُ جُملةِ ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ مَوقعُ التَّفريعِ عن المُقدِّمةِ؛ ولذلك فُصِلَت عنها، أي: لم تُعْطَفْ[1].

- قولُه: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ في مَوقعِ العِلَّةِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾؛ فاتِّصالُها بها كاتِّصالِ جُملةِ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ بها، ولكنَّ نظْمَ الكلامِ قَضَى بهذا التَّرتيبِ البليغِ بأنْ جُعِلَ الوازعُ الطَّبيعيُّ عن القَتْلِ -وهو وازعُ المحبَّةِ- هو المُقدِّمةَ؛ لأنَّه أشدُّ تعلُّقًا بالنَّفْسِ؛ فهو يُشبهُ المعلومَ البديهيَّ. وجُعِلَ الوازعُ العَقليُّ بعدَ النَّهيِ عِلَّةً؛ لاحتِياجِه إلى الفِكرِ، فتَكونُ مُهلةُ التَّفكيرِ بعدَ سَماعِ النَّهيِ المُمهَّدِ بالوازعِ الطَّبيعيِّ، فلا يُخْشى جِماحُ السَّامعِ مِن النَّهيِ ورَفْضُه إيَّاه[2].

- قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جُملةٌ اعتراضيَّةٌ، واختِيرَ ﴿يَشْعُرُونَ﴾ هنا؛ لأنَّه مِن العلْمِ الخَفِيِّ، أي: لا يَعلَمون هذا الأمرَ الخَفيَّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٨٠).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾

- جُملةُ ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا ﴾ تكونُ -على تَفسيرِ أنَّ فؤادَها فارِغٌ مِن الخَوفِ والحزنِ، فأصبَحَت واثقةً بحُسنِ عاقبتِه- استئنافًا بَيانيًّا لِمَا اقتضاهُ فِعلُ (أصبَحَ) مِن أنَّها كانتْ على حالةٍ غيرِ حالةِ فَراغٍ، فبُيِّنَتْ بأنَّها كادَتْ أنْ تُظهِرَ أمْرَ ابنِها مِن شِدَّةِ الاضْطِرابِ؛ فإنَّ الاضطرابَ يَنُمُّ بها. وعلى تَفسيرِ أنَّ فُؤادَها فارِغًا مِن كلِّ شَيءٍ إلَّا ذِكْرَ مُوسى؛ تكونُ جُملةُ ﴿إِن كَادَتۡ ﴾ بمَنزلةِ عطْفِ البَيانِ على معنى ﴿فَٰرِغًا ﴾، وهي دَليلٌ على الاستِثناءِ المحذوفِ[1].

- قولُه: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا ﴾ الرَّبطُ على القَلبِ: كِنايةٌ عن قَرارِه واطمئنانِه؛ شُبِّه بما يُربَطُ مَخافةَ الانفِلاتِ[2].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِ ﴾ فيه التَّعبيرُ عنها بأُخُوَّتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دونَ أنْ يُقالَ: (لِبنتِها)؛ للتَّصريحِ بمَدارِ المحبَّةِ المُوجِبةِ للامتِثالِ بالأمْرِ[3].

- قولُه: ﴿فَبَصُرَتۡ بِهِۦ ﴾ بصُرَ بالشَّيءِ: صار ذا بصَرٍ به، أي: باصِرًا له؛ فهو يُفيدُ قوَّةَ الإبصارِ، أي: قوَّةَ استعمالِ حاسَّةِ البصرِ، وهو التَّحديقُ إلى المُبصَرِ، فـ (بَصُرَ) أشدُّ مِن (أبصَرَ)؛ فالباءُ الدَّاخلةُ على مَفعولِه باءُ السَّببيَّةِ؛ للدَّلالةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥).

شِدَّةِ العِنايةِ برُؤيةِ المَرئيِّ حتَّى كأنَّه صار باصِرًا بسَببِه. ويجوزُ جَعْلُ الباءِ زائدةً لتأكيدِ الفِعلِ، فتُفيدُ زِيادةَ مُبالَغةٍ في مَعنى الفِعلِ[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَقَالَتْ﴾ فَصيحةٌ تُؤذِنُ بجُملةٍ مُقدَّرةٍ، أي: فأظْهَرَت أُختُه نفْسَها، كأنَّها مرَّت بهم عن غيرِ قَصْدٍ[٢].

- وقد عرَضَت سَعْيَها في ذلك بطَريقِ الاستِفهامِ المُستعمَلِ في العرْضِ فقالتْ: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؛ تلطُّفًا مع آلِ فِرعونَ، وإبعادًا للظِّنَّةِ عن نفْسِها[٣].

- والعُدولُ عن الجُملةِ الفِعليَّةِ إلى الاسميَّةِ في قولِه: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾؛ لقَصدِ تأْكيدِ أنَّ النُّصحَ مِن سَجاياهم، وممَّا ثبَتَ لهم؛ فلذلك لم يُقَلْ: (ويَنصَحون له) كما قِيل: ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾؛ لأنَّ الكَفالةَ أمْرٌ سَهلٌ، بخِلافِ النُّصحِ والعِنايةِ[٤].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في الكَلامِ حَذْفٌ، تَقديرُه: فمَرَّتْ بهم إلى أُمِّه، فكلَّمُوها في إرضاعِه، أو فجاءتْ بأُمِّه إليهم، فكَلَّمُوها في شأْنِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فأرضَعَتْه، فالْتقَمَ ثَدْيَها...[١].

- وقولُه: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فيه تأكيدُ حَرفِ (كي) بمُرادِفِه -وهو لامُ التَّعليلِ-؛ للتَّنصيصِ مِن أوَّلِ وَهلةٍ على أنَّه مَعطوفٌ على الفِعلِ المُثبَتِ ﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، لا على الفِعلِ المَنْفيِّ ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٥).

## الآيات (١٤-١٧)

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤ وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ١٧﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: الأَشَدُّ: استحكامُ قوَّةِ شبابِه وسِنِّه، قيل: هو جمعُ شَدٍّ، وقيل: جمعُ شِدَّةٍ، وقيل: هو جمعٌ لا واحدَ له، وقد اختُلف في وقتِ بُلوغِ الأشُدِّ، وأصلُ (بلغ): وصولٌ إلى شَيءٍ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾: أي: تمَّ خَلْقُه، واعتدلَ، واستَحْكَم شبابُه واستقرَّ، فلم تكُنْ فيه زيادةٌ، وقيل: بلَغ أربعينَ سنةً، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بيْنَ شيئينِ[2].

﴿شِيعَتِهِۦ﴾: أي: أصحابِه وأتباعِه، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ ومُساعَفةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٦٦٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١) و (٣/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧).

﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ﴾: أي: طلَبَ غَوْثَه ونَصْرَه، وأصلُ (غوث): يدُلُّ على النُّصرةِ عندَ الشِّدَّةِ[1].

﴿فَوَكَزَهُۥ﴾: أي: دفَعَه وضرَبَه بجُمْعِ كَفِّه في صَدرِه[2].

﴿ظَهِيرٗا﴾: أي: مُساعِدًا ومُعِينًا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[3].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن حياةِ موسَى عليه السَّلامُ، فيقولُ: ولَمَّا بلَغَ موسى عليه السَّلامُ مُنتهى قوَّتِه، واكتمَلَ خَلْقُه واستحكَمَ؛ آتَيْناه حُكمًا ومَعرِفةً قبْلَ النُّبوَّةِ، وكذلك نجزي كُلَّ مَن أحسَنَ عمَلَه.

ودخل موسى المدينةَ في وقتٍ لا يشعُرُ فيه أحدٌ بدُخولِه، فوجَد فيها رجُلينِ يتقاتلانِ؛ أحدُهما مِن شيعتِه بني إسرائيلَ، والآخرُ قِبطيٌّ مِن قَومِ فِرعَونَ، فطلَب الرَّجلُ الإسرائيليُّ مِن موسى أن يُعينَه ويَنصُرَه على خَصمِه القِبطيِّ، فضرَبَ موسى القِبطيَّ بجُمْعِ كَفِّه فقتَلَه بتلك الضَّربةِ!

قال موسى: هذا القَتلُ مِن إغواءِ الشَّيطانِ لي ووسوَستِه؛ إنَّ الشَّيطانَ عدوٌّ يسعى في إضلالِ الإنسانِ، ظاهِرُ العداوةِ والإضلالِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١).

قال موسى: ربِّ إنِّي ظَلمتُ نفْسي، فاغفِرْ لي ذنْبي، فغفَرَ اللهُ له ذَنْبَه؛ لأنَّه هو الغَفورُ الرَّحيمُ.

قال موسى: ربِّ بسبَبِ إنعامِك علَيَّ فلن أكونَ مُعِينًا للمجرمينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٤﴾.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا﴾.

أي: ولَمَّا بلغَ موسى عليه السَّلامُ مُنتهى شِدَّتِه وقوَّتِه، وتناهى شبابُه، واكتَمَل خَلْقُه واستحكَمَ؛ آتَيْناه حُكمًا[1] .....

---

(١) قال الماوَرْدي: (في الحُكم أربعةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنَّه العقلُ، قاله عِكْرِمةُ. الثَّاني: النُّبوَّةُ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: القوَّةُ، قالَه مجاهدٌ. الرَّابعُ: الفقهُ، قاله ابنُ إسحاقَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالحُكم هنا: الفَهمُ في الدِّينِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٠١).

وقيل: المرادُ به: الحِكمةُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطية، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٧).

وقيل: المرادُ به: الفِقهُ والعقلُ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والسمعاني، والبَغويُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٦).

وقيل: المرادُ به: النُّبوَّةُ. وممَّن قال بذلك: النسفيُّ. ينظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٣).

ممَّن اختار أنَّ إيتاءَه الحُكمَ والعِلمَ كان قبلَ النُّبوَّةِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والبغوي، والعليمي، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٦٢).

وعِلمًا قبْلَ النُّبوَّةِ[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: وكما جازَيْنا موسى بإيتائِه الحُكْمَ والعِلمَ بسَبَبِ إحسانِه، نُثيبُ أيضًا كُلَّ مَن أحسَنَ عمَلَه في عبادةِ اللهِ، أو في إحسانِه للخَلقِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ [الزمر: ١٠].

﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ بتهيُّئِه لنُبوَّتِه؛ أخبَرَ بما هو سَبَبٌ لِهجرتِه إلى مَدْيَنَ، وتوالي الأحداثِ الجِسامِ عليه[٣]:

﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾.

أي: ودخَل موسى مدينةً في مِصرَ في وقتٍ لا يَشعُرُ فيه أهلُها بدُخولِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٠ - ١٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٥)، ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

أي: فوجَدَ موسى في المدينةِ رجُلينِ يتضارَبانِ ويتنازَعانِ؛ أحدُهما مِن بني إسرائيلَ، والآخَرُ قِبطيٌّ مِن قَومِ فِرعَونَ[١].

﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.

أي: فطلَبَ الرَّجلُ الإسرائيليُّ مِن موسى أن يُعينَه ويَنصُرَه على خَصمِه الرَّجلِ القِبطيِّ[٢].

﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾.

أي: فضرَبَ موسى القِبطيَّ بجُمْعِ كَفِّه (بقبضةِ يدِه)[٣].

﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾.

أي: فقتَلَه بتلك الضَّربةِ[٤].

﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

---

= (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٦٩-٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٨).

قال السعدي: (استغاثتُه لموسى دليلٌ على أنَّه بلغ موسى عليه السَّلامُ مَبلغًا يُخافُ منه، ويُرجَى مِن بيتِ المملكةِ والسُّلطانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

أي: قال موسى: هذا القَتلُ قد وقَع بسبَبِ إغواءِ الشَّيطانِ لي، وتَزيينِه ووَسوستِه[١].

﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ عدُوٌّ يسعَى في إضلالِ بني آدَمَ عن الحَقِّ، ظاهِرُ العداوةِ والإضلالِ لهم[٢].

وفي حديثِ الشَّفاعةِ الطَّويلِ عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((... فيأتونَ موسى فيقولونَ: يا موسى، أنتَ رسولُ اللهِ، فَضَّلَك اللهُ برِسالتِه وبكَلامِه على النَّاسِ، اشفَعْ لنا إلى ربِّك، ألَا ترى إلى ما نحنُ فيه؟ فيقولُ: إنَّ ربِّي قد غَضِبَ اليومَ غضَبًا لم يَغضَبْ قَبْلَه مِثْلَه، ولن يغضَبَ بعْدَه مِثلَه، وإنِّي قد قتلتُ نفْسًا لم أُومَرْ بقَتلِها، نفْسي نفْسي نفْسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهَبوا إلى عيسى...))[٣].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) رواه البخاري (٤٧١٢) واللفظ له، ومسلم (١٩٤).

قال الشوكاني: (موسى عليه السَّلامُ ما زال نادمًا على ذلك، خائفًا مِن العقوبةِ بسببِه، حتى إنَّه يومَ القيامةِ عندَ طلَبِ النَّاسِ الشَّفاعةَ منه يقولُ: «إنِّي قتلتُ نفسًا لم أُومَرْ بقَتلِها»، كما ثبَت ذلك في حديثِ الشَّفاعةِ الصَّحيحِ... ولا شَكَّ أنَّهم معصومون مِن الكبائرِ، والقَتلُ الواقعُ منه لم يكُنْ عن عَمدٍ، فليس بكبيرةٍ؛ لأنَّ الوَكْزةَ في الغالبِ لا تَقتُلُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٠).

أي: قال موسى: ربِّ إنِّي ظَلمتُ نفْسي بقَتلِ نَفْسٍ لم تأمُرْني بقَتلِها، فاستُرْ ذَنْبي، ولا تؤاخِذْني به[١].

﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: فغَفَر اللهُ لموسى ذنْبَه، ولم يُعاقِبْه عليه؛ لأنَّ اللهَ هو الغفورُ لِذُنوبِ عبادِه، الرَّحيمُ بهم[٢].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: قال موسى: ربِّ بسبَبِ إنعامِك عليَّ[٣] فأُعاهِدُك ألَّا أكونَ مُعينًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٢).

قال الألوسي: (ترتيبُ «غفَرَ» على ما قبْلَه بالفاءِ يُشعِرُ بأنَّ المرادَ: غفَرَ له لاستِغفارِه. وجملةُ ﴿إِنَّهُۥ...﴾ إلخ كالتَّعليلِ للعِلِّيَّةِ، أي: إنَّه تعالى هو المبالِغُ في مغفرةِ ذنوبِ عبادِه ورحمتِهم؛ ولذا كان استغفارُه سببًا للمغفرةِ له). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٤).

(٣) قيل: المرادُ بالإنعامِ هنا: العفوُ عن قتلِ تلك النَّفْسِ، والمغفرةُ وعدَمُ المُعاقَبةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والثعلبي، والسمعاني، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٠٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٧). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

وقيل: المرادُ بالإنعامِ هنا: المعرفةُ والحِكمةُ والتَّوحيدُ. وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٢).

وقيل: الجاهُ والعِزُّ والمَنَعةُ. وممَّن قال بذلك: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥).

قال الشوكاني: (والمرادُ بما أنعَمَ به عليه: هو ما آتاه مِن الحُكمِ والعِلمِ، أو بالمغفرةِ، أو الجميعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٩).

للمجرمين[١].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ﴾ إثباتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

قال الألوسي: (والمجرمين جمعُ مُجرِمٍ، والمرادُ به: مَن أوقَعَ غيرَه في الجُرمِ، أو مَنْ أدَّتْ مُعاونَتُه إلى جُرمٍ؛ كالإسرائيليِّ الَّذي خاصمَه القِبطيُّ فأدَّتْ مُعاوَنتُه إلى جُرمٍ في نظَرِ موسى عليه السَّلامُ... وجُوِّز أن يُرادَ بذلك الكفَّارُ، وعنى بهم مَنِ استغاثه ونحوَه؛ بناءً على أنَّه لم يكُنْ أسلَمَ. وقيل: أراد بالمجرمين فِرعونَ وقَومَه، والمعنى: أُقسِمُ بإنعامِكَ عليَّ لأَتُوبَنَّ فلن أكونَ مُعينًا للكفَّارِ بأنْ أصحَبَهم وأُكثِّرَ سَوادَهم، وقد كان عليه السَّلامُ يَصحَبُ فِرعونَ ويَركبُ برُكوبِه؛ كالولدِ مع الوالدِ، وكان يُسمَّى ابنَ فِرعونَ). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لِلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: المشركين الكافرين: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٨٠).

قال الواحدي: (﴿فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] قال ابنُ عبَّاسٍ: عَوْنًا للكافرين. وهذا يدُلُّ على أنَّ الإسرائيليَّ الذي أعانه موسى كان كافرًا، وهو قولُ مُقاتلٍ). ((الوسيط)) (٣/ ٣٩٣).

وممَّن اختار أنَّ الإسرائيليَّ الَّذي نصَرَه موسى عليه السَّلامُ كان كافرًا: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، وابن الجوزي، والخازن، والعليمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٨٠).

قيل: وإنَّما ذكَر تعالى أنَّه مِن شِيعَتِه؛ لأنَّه كان إسرائيليًّا، ولم يُرِدِ الموافقةَ في الدِّينِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٢).

العَداوةِ والوَلايةِ، وهو أصلٌ في الدِّينِ؛ فإنَّ وَلايةَ المؤمِنينَ مِن واجبِ المؤمنِ، والبراءةَ مِن الكُفَّارِ مِن واجبِ المؤمنِ؛ قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الممتحنة: ٤]، فهذا أمرٌ لا بُدَّ منه، فلا بُدَّ أنْ يَتبرَّأَ الإنسانُ مِن كلِّ كافرٍ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ندَمُ موسى عليه السَّلامُ حمَلَه على الخُضوعِ لربِّه، والاستغفارِ عن ذَنْبٍ باءَ به عندَه تعالى، فغفَرَ اللهُ خطأه ذلك. قال قَتادةُ: (عرَفَ -واللهِ- المَخرَجَ فاستغفَرَ)[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ فيه فضلُ الاعترافِ بالذُّنوبِ، لعَلَّامِ الغُيوبِ، وهو استِكانةٌ موجِبةٌ لعطفِه ولُطفِه، بغَفْرِ الذُّنوبِ وسَترِ العُيوبِ، وهذا دأبُ المُصْطَفَيْنَ مِن عِبادِ الله؛ ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨]. وعلَّمَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رضيَ الله عنه دعاءً يدعو به في صلاتِه، قال: ((قُلْ: اللَّهُمَّ إنِّي ظلَمتُ نفْسي ظُلمًا كثيرًا، ولا يغفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت، فاغفِرْ لي مغفرةً مِن عِندِكَ، وارحَمْني؛ إنَّك أنت الغفورُ الرَّحيمُ))[٣]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعائشةَ رضيَ الله عنها: ((إنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٠).

(٣) رواه البخاري (٨٣٤، ٦٣٢٦، ٧٣٨٧)، ومسلم (٢٧٠٥) من حديث أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه.

العبدَ إذا اعترَفَ بذَنْبِه، ثمَّ تاب؛ تاب اللهُ عليه))[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ ﴾ هذا وعدٌ مِن موسى عليه السَّلامُ؛ بسبَبِ مِنَّةِ الله عليه: ألَّا يُعِينَ مُجرِمًا، كما فعَلَ في قَتلِ القِبطيِّ، وهذا يُفيدُ أنَّ النِّعَمَ تقتضي مِن العبدِ فِعْلَ الخيرِ، وترْكَ الشَّرِّ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ قال الحسَنُ: (مَن أحسنَ عبادةَ الله فِي شَبيبتِه، لقَّاه الله الحِكمةَ عند كِبَرِ سِنِّه)[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ جوازُ دفْعِ الصائلِ ولو أدَّى إلى قتْلِه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ﴾ جوازُ الاستغاثةِ بالمخلوقِ فيما يَقدِرُ عليه، أمَّا ما لا يَقدِرُ عليه فلا يجوزُ؛ وعليه فلا تجوزُ الاستغاثةُ بالأمواتِ[٥].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ إنَّما أغاثه؛ لأنَّ نَصرَ المظلومِ دِينٌ في المِلَلِ كُلِّها، وفَرضٌ في جميعِ الشَّرائِعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٦٧).

والحديث رواه البخاري (٢٦٦١، ٤٧٥٠)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٢).

(٦) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٤٩٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أنَّ المعاصيَ مِن أوامرِ الشَّيطانِ وأعمالِه[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ لَمَّا كان الشيطانُ عدوًّا للإنسانِ، وكانت له مَسالكُ إلى النُّفوسِ؛ استدلَّ موسى عليه السَّلامُ بفِعلِه المؤدِّي إلى قتْلِ نَفْسٍ أنَّه فِعلٌ ناشِئٌ عن وَسوسةِ الشَّيطانِ، ولولاها لكان عَمَلُه جاريًا على الأحوالِ المأذونةِ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الأصلَ في النَّفْسِ الإنسانيَّةِ هو الخيرُ، وأنَّه الفِطرةُ، وأنَّ الانحرافَ عنها يحتاجُ إلى سَبَبٍ غيرِ فِطريٍّ، وهو تخلُّلُ نَزْغِ الشَّيطانِ في النَّفْسِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ أنَّ قتْلَ الكافرِ الذي له عَهدٌ بعَقدٍ أو عُرْفٍ: لا يجوزُ؛ فإنَّ موسى عليه السَّلامُ عَدَّ قَتْلَه القِبطيَّ الكافِرَ ذنْبًا، واستغفرَ اللهَ منه[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ إثباتُ أنَّ الرُّسلَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ قد يُخطِئون، لكِنْ لا يقعُ منهم فَسادُ الأخلاقِ وشُربُ الخمورِ وما أشبهَ ذلك، أمَّا الغَيرةُ والحَميَّةُ فهذا قد يقَعُ منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٤).

الأنبياءُ معصومون مِنَ الوُقوعِ في الكبائرِ، ومِن فِعلِ الصَّغائرِ الَّتي فيها نقصٌ أو شَيْنٌ أو خِسَّةٌ، وقد نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ. أمَّا ما عدا ذلك مِنَ الصَّغائرِ فمَذهَبُ مُعظَمِ الفُقهاءِ والمُحَدِّثينَ والمتكلِّمينَ مِنَ السَّلفِ والخلَفِ على جوازِ وُقوعِها منهم، فإنْ وقَع منهم شَيءٌ مِن ذلك فإنَّهم يَتدارَكونه بصِدقِ الإنابةِ إلى الله حتَّى يَبْلُغوا بذلك درجةً أعلى مِن درجةِ مَن لم =

٩- قد أخبَر سُبحانَه أنَّ الصِّدِّيقينَ المتَّقينَ لهم أعمالٌ سيِّئةٌ يُكفِّرُها، ولا رَيْبَ أنَّها ظُلْمٌ للنَّفْسِ، فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥]، وقال موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وقال آدمُ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال يونسُ عليه السَّلامُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ * إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النمل: ١٠-١١]. فظُلْمُ النَّفْسِ لا يُنافي الصِّدِّيقيَّةَ والولايةَ، ولا يُخرِجُ العبدَ عن كَونِه مِنَ المتَّقينَ، بل يجتمِعُ فيه الأمْرانِ: يكونُ وليًّا لله صِدِّيقًا مُتَّقيًا، وهو مُسيءٌ ظالمٌ لنفْسِه. ونُكتةُ المسألةِ أنَّ الاصطِفاءَ والولايةَ والصِّدِّيقيَّةَ وكَوْنَ الرَّجُلِ مِنَ الأبرارِ ومِنَ المُتَّقينَ ونحو ذلك كلُّها مراتبُ تَقْبَلُ التَّجزُّؤَ والانقِسامَ، والكمالَ والنُّقْصانَ، كما هو ثابتٌ باتِّفاقِ المسلمينَ في أصلِ الإيمانِ[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ جوازُ التَّوسُّلِ إلى اللهِ سُبحانه وتعالى بحالِ الدَّاعي[2]، فالطَّالبُ السَّائلُ تارةً يَسألُ بصيغةِ الطَّلَبِ، وتارةً يَسألُ بصيغةِ الخبَرِ؛ إمَّا بوصفِ حالِه، وإمَّا بوصفِ حالِ المسؤولِ، وإمَّا بوصفِ الحالَينِ. وقولُه: ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ فيه وصْفُ حالِ النَّفْسِ، والطَّلَبُ[3].

---

= يقَعْ منه ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣٠٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٥٤)، ((أضواء البيان) للشنقيطي (٤/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٣، ٢٢٥).

١١- ينبغي على العَبدِ إضافةُ السَّيِّئاتِ إلى نفْسِه، مع عِلْمِه بأنَّ اللهَ خالِقُ كلِّ موجودٍ مِن الأعيانِ والصِّفاتِ، والحَركاتِ والسَّكَناتِ، كما قال موسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، وقال آدمُ عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال الخليلُ عليه السَّلامُ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقيل لخاتَمِ الرُّسلِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد: ١٩]، وأمثالُ هذا كثيرٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾ إثباتُ أنَّ الدُّعاءَ سببٌ، خِلافًا لِمَن أنكَرَ سَببيَّتَه[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا يجوزُ مُعاوَنةُ الظَّلَمةِ والفَسَقةِ[٣]، وعلى أنَّ مُظاهَرةَ المجرمِ تُنافي الشُّكرَ، فهي مُحرَّمةٌ؛ لأنَّها إجرامٌ حقيقةً، بل تكونُ مُساعَدةُ المجرمِ بمنعِ إجرامِه؛ ولذلك قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مَظلومًا. فقال رجُلٌ: يا رسولَ الله، أنصُرُه إذا كان مظلومًا، أفرأيتَ إذا كان ظالِمًا، كيفَ أنصُرُه؟ قال: تَحْجُزُه -أو تَمنَعُه- مِنَ الظُّلْمِ؛ فإنَّ ذلك نصْرُه))[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٧٩).

والحديث أخرجه البخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

هذا اعتِراضٌ بيْنَ أجزاءِ القصَّةِ المُرتَّبةِ على حسَبِ ظُهورِها في الخارجِ. وهذا الاعتِراضُ نشَأَ عن جُملةِ ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣]؛ فإنَّ وعْدَ اللهِ لها قد حُكِيَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، فلمَّا انتَهَى إلى حِكايةِ رَدِّه إلى أُمِّه بقولِه: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١٣] إلى آخِرِه، كَمَّلَ ما فيه وفاءُ وَعْدِ اللهِ إيَّاها بهذا الاستِطرادِ في قولِه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾؛ وإنَّما أُوتِيَ الحُكْمَ -أي: النُّبوَّةَ، على أحدِ الأقوالِ- بعدَ خُروجِه مِن أرضِ مَدْينَ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ في سُورةِ (يُوسفَ) إلَّا قولَه: ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾؛ ووجهُ ذلك أنَّ الأشُدَّ كَمالُ القوَّةِ، وأنَّ الاستواءَ كَمالُ البِنْيةِ؛ ولهذا أُريدَ لمُوسى الوصْفُ بالاستواءِ، ولم يُوصَفْ يُوسفُ إلَّا ببُلوغِ الأشُدِّ خاصَّةً؛ لأنَّ مُوسى كان رجُلًا طُوالًا، كما في الحَديثِ: ((كأنَّه مِن رِجالِ شَنُوءةَ))[٢]؛ فكان كاملَ الأعضاءِ، ولذلك كان وَكْزُه القِبطيَّ قاضيًا على المَوكوزِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ طُوِيَت أخبارٌ كَثيرةٌ تُنْبِئُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٩)، ومسلم (١٦٥) من حديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما.
وطُوال: معناه: طويل، وهما لغتان. وشَنُوءة: حيٌّ مِنَ اليَمنِ، مَعرفون بالطُّولِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٢٢٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار)) للكرماني (ص: ١٩٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٤).

عنها القصَّةُ؛ وذلك أنَّ مُوسى يَفَعَ وشَبَّ في قَصرِ فِرعونَ، فكان مَعدودًا مِن أهلِ بيتِ فِرعونَ. وجُملةُ ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] عطْفَ جُزءِ القصَّةِ على جُزءٍ آخَرَ منها[١].

- قولُه: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ المقصودُ مِن ذِكْرِ هذا الوقتِ الإشارةُ إلى أنَّ قتْلَه القِبطيَّ لم يَشعُرْ به أحدٌ؛ تَمهيدًا لقولِه بعدُ: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] الآياتِ، ومُقدِّمةً لذِكْرِ خُروجِه مِن أرضِ مِصرَ[٢].

- والإشارتانِ في قولِه: ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ تَفصيلٌ لِمَا أُجمِلَ في قولِه: ﴿رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾[٣].

- جُملةُ ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ كأنَّ سائلًا سَألَ: ماذا كان مِن أمْرِ مُوسى حينَ فُوجِئَ بمَوتِ القِبطيِّ؟ وحِكايةُ ذلك للتَّنبيهِ على أنَّ مُوسى لم يَخطُرْ ببالِه حينَئذٍ إلَّا النَّظرُ في العاقبةِ الدِّينيَّةِ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ تَعليلٌ لكَونِ شِدَّةِ غَضبِه مِن عَمَلِ الشَّيطانِ؛ إذ لولا الخاطرُ الشَّيطانيُّ لَاقتصَرَ على زَجْرِ القِبطيِّ، أو كَفِّه عن الَّذي مِن شِيعَتِه[٥].

- ومُتعلِّقُ ﴿عَدُوٌّ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المقامِ، أي: عدُوٌّ لآدَمَ وذُرِّيَّةِ آدَمَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ رُتِّبَ على الإخبارِ عنه بالعَداوةِ وَصْفُه بالإضلالِ؛ لأنَّ العَدُوَّ يَعمَلُ لإلحاقِ الضُّرِّ بعَدُوِّه(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- تَوسيطُ الفِعلِ ﴿قَالَ﴾ بينَ كلامَيْ موسى عليه السَّلامُ؛ لإبانةِ ما بيْنَهما مِن المُخالَفةِ مِن حَيثُ إنَّه مُناجاةٌ ودُعاءٌ، بخِلافِ الأوَّلِ(٢).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ للتَّعقيبِ، أي: استجابَ استغفارَه، فعجَّلَ له بالمغفرةِ(٣).

- وجُملةُ ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ وجُملةِ ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [القصص: ١٧]؛ كان اعتراضُها إعلامًا لأهْلِ القرآنِ بكرامةِ مُوسى عليه السَّلامُ عندَ ربِّه(٤).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾؛ علَّلَ المغْفرةَ له بأنَّه شَديدُ الغُفرانِ، ورحيمٌ بعِبادِه، مع تأْكيدِ ذلك بصِيغةِ القصْرِ (تَعريف المُبتدَأ والخَبر)؛ إيماءً إلى أنَّ ما جاء به هو مِن ظُلمِ نفْسِه(٥).

٤- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ﴾ إعادةُ الفِعلِ (قال) أفاد تأكيدًا لفِعلِ ﴿قَالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦، ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩١، ٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٩٢).

رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القصص: ١٦]؛ أُعِيدَ القولُ للتَّنبيهِ على اتِّصالِ كلامِ مُوسى؛ حيث وقَعَ الفصْلُ بيْنَه بجُملتَيْ ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1] [القصص: ١٦].

- قولُه: ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ قَسَمًا جوابُه مَحذوفٌ، تَقديرُه: أُقسِمُ بإنعامِك علَيَّ بالمغفرةِ لَأَتُوبَنَّ، فلنْ أكونَ ظَهيرًا للمُجرِمينَ، وأنْ يكونَ استِعطافًا؛ كأنَّه قال: ربِّ اعْصِمني بحَقِّ ما أنعَمْتَ علَيَّ مِن المغفرةِ، فلنْ أكونَ -إنْ عصَمْتني- ظهيرًا للمُجرِمين. ويجوزُ أنْ تكونَ الباءُ للسَّببيَّةِ؛ فحينَئذٍ لا يكونُ قَسَمًا، ولا استِعطافًا؛ فالمعنى: بسَببِ ما أنعمْتَ علَيَّ مِن القوَّةِ أشكُرُك، فلنْ أستعمِلَ القوَّةَ إلَّا في مُظاهَرةِ أوليائِك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٢).

## الآيات (١٨-٢١)

﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَرَقَّبُ﴾: أي: ينتظرُ سوءًا يَنالُه منهم، أو ينتظرُ الأخبارَ، والترقُّبُ: انتظارُ المكروهِ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتصابٍ لمراعاةِ شَيءٍ[١].

﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾: أي: يستغيثُ به، ويطلُبُ ما يُزيلُ ما يَصرُخُ بسببِه مِن الضرِّ، وأصلُ (صرخ): يدُلُّ على صَوتٍ رفيعٍ[٢].

﴿لَغَوِيٌّ﴾: أي: لَمُضِلٌّ، والغَوِيُّ: الشَّديدُ الغَوايةِ، وهي الضَّلالُ، وسُوءُ النَّظَرِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٣)، ((تذكرة الاريب)) لابن الجوزي (٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

﴿يَبۡطِشَ﴾: البَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): أخْذُ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ[١].

﴿جَبَّارًا﴾: الجبارُ: القاتلُ ظُلمًا بغيرِ حقٍّ، والَّذي لا يَتواضعُ لأمرِ اللهِ، ويُقالُ لِمَن يَجبُرُ نقيصتَه بادِّعاءِ منزلةٍ مِنَ التَّعالي لا يَستحِقُّها، وأصلُ الجَبْرِ: إصلاحُ الشَّيءِ بضربٍ مِن القهرِ، وقد يقالُ الجبرُ تارةً في الإصلاحِ المجرَّدِ، وتارةً في القهرِ المجرَّدِ، وأصلُ (جبر): جنسٌ مِن العظمةِ والعُلُوِّ والاستقامةِ[٢].

﴿ٱلۡمَلَأَ﴾: أي: أشرافَ النَّاسِ ووجوهَهم ورؤساءَهم، ويُقالُ: فلانٌ مِلءُ العيونِ، أي: معظَّمٌ عندَ مَن رآه، كأنَّه ملأَ عينَه مِن رؤيتِه، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكمالِ في الشَّيءِ[٣].

﴿يَأۡتَمِرُونَ﴾: أي: يَتشاورونَ، ويأمُرُ بَعضُهم بَعضًا، يُقالُ: ائتمَرَ القَومُ في كذا وتآمَروا: إذا شاوَرَ بعضُهم بعضًا، وأصلُه مِن الأمرِ الَّذي هو ضِدُّ النَّهيِ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما كان مِن أمرِ موسى عليه السَّلامُ: فأصبَحَ موسى في المدينةِ الَّتي قَتَل فيها القِبطيَّ خائِفًا يُراقِبُ ما يتحدَّثُ به النَّاسُ في شأنِه، فإذا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ٣١٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ١٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠).

بالرَّجُلِ الإسرائيليِّ الَّذي طلب منه النُّصرةَ على القِبطيِّ بالأمسِ يَصرُخُ طالِبًا منه أن يَنصُرَه على قِبطيٍّ آخَرَ! فقال موسى للإسرائيليِّ الَّذي استغاث به: إنَّك لَظاهِرُ الغَوايةِ، كثيرُ الاقتتالِ لِمَن لا تُطيقُ دَفعَ شَرِّه!

فلمَّا أراد موسى أن يأخُذَ القِبطيَّ الذي هو عدوٌّ له وللإسرائيليِّ ويَضربَه، قال: يا موسى، أتُريدُ أن تقتُلَني اليَومَ كما قتلْتَ القِبطيَّ بالأمسِ؟! ما تريدُ إلَّا أن تكونَ قاهِرًا متكَبِّرًا في الأرضِ، وما تريدُ أن تكونَ مِن المُصلِحينَ.

وجاء رجُلٌ مِن آخِرِ المدينةِ مُسرِعًا إلى موسى، قال له ناصِحًا: يا موسى، إنَّ أشرافَ قَومِ فِرعَونَ يَتشاوَرونَ في قَتلِك، فاخرُجْ مِن هذه المدينةِ، إنِّي لك مِن النَّاصِحينَ.

فخرَج موسى مِنَ المدينةِ خائفًا يَتلفَّتُ خَشيةَ أن يلحَقوا به فيَقتُلوه، وقال داعيًا ربَّه: رَبِّ نجِّني مِن قَومِ فِرعَونَ الظَّالمينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ١٨ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكرَ سُبحانَه القَتلَ، وأتبَعَه ما هو الأهَمُّ مِن أمْرِه بالنَّظَرِ إلى الآخرةِ؛ ذَكَر ما تسبَّبَ عنه مِن أحوالِ الدُّنيا، فقال[1]:

﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ ﴾.

أي: فأصبَحَ موسى في المدينةِ -التي قُتِلَ فيها القِبطيُّ- خائفًا أن يُؤخَذَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩).

بجنايتِه، يُراقِبُ الأخبارَ، وينتَظِرُ ما يتحدَّثُ به النَّاسُ في شأنِه[١]!

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾.

أي: فتفاجَأ موسى بالرَّجُلِ الإسرائيليِّ الَّذي طلَبَ منه النُّصرةَ على الفِرعَونيِّ بالأمسِ يَصرُخُ ويَصيحُ به اليَومَ، طالِبًا أن يَنصُرَه على فِرعَونيٍّ آخَرَ[٢]!

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾.

أي: قال موسى للإسرائيليِّ الَّذي استغاث به: إنَّك ظاهِرُ الغَوايةِ، كَثيرُ المُخاصَمةِ والمُنازَعةِ لِمَن لا تُطيقُ دَفْعَ شَرِّه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٠).

قال ابن كثير: (يخبرُ تعالى أنَّ موسَى أصبَح بمدينةِ مصرَ خائفًا أي: مِن فرعونَ وملئِه، أن يعلموا أنَّ هذا القتيلَ الذي رُفِع إليه أمرُه إنَّما قتَله موسى في نصرةِ رجلٍ مِن بني إسرائيلَ، فتقوَى ظنونُهم أنَّ موسى منهم، ويترتَّبُ على ذلك أمرٌ عظيمٌ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٤٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿يَتَرَقَّبُ﴾: يَنتظِرُ الأخبارَ، ويُراقِبُ ما يُقالُ في شأنِه، وما يَتحدَّثُ به النَّاسُ ممَّا هم صانِعون في أمرِه وأمرِ قتيلِه: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٤١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٣).

وقيل: المرادُ: يَنتظِرُ سُوءًا يَنالُه منهم بسببِ قتلِه القِبطيَّ. وممَّن اختاره في الجملةِ: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرسعني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ ١٩ ﴾.

﴿ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا ﴾.

أي: فلمَّا أراد موسى أن يأخُذَ القِبطيَّ الذي هو عدوٌّ له وللإسرائيليِّ بعُنفٍ وشِدَّةٍ، ويَضرِبَه[1].

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ ﴾.

أي: قال[2]: .....

---

= (١٣/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

قال السمعاني: (قولُه: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ﴾ الأكثرونَ أنَّ هذا قاله موسَى للإسرائيليِّ... ويُقالُ: إنَّ هذا قالَه للقبطيِّ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٢٩).

وممَّن نصَّ على أنَّ الخِطابَ هنا للاسرائيليِّ: ابنُ جرير، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

(٢) قيل: القائِلُ هو الإسرائيليُّ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والواحديُّ -وحكَى فيه الإجماعَ-، وابنُ الجوزي، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، وقَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٥٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٠١). =

يا موسى، أتُريدُ أن تقتُلَني اليومَ كما قتَلْتَ القِبطيَّ بالأمسِ[١]؟!

﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ما تُريدُ -يا موسى- بقَتلِك النَّاسَ ظُلمًا بغيرِ حَقٍّ إلَّا أن تكونَ قاهِرًا غالِبًا، تأخُذُ النَّاسَ بالشِّدَّةِ والقوَّةِ، فلا يكونُ فوقَك أحَدٌ[٢]!

﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾.

---

= قال ابنُ الجوزي: (هذا قَولُ الإسرائيليِّ مِن غيرِ خِلافٍ عَلِمناه بيْنَ المفسِّرين، قالوا: لَمَّا رأى الإسرائيليُّ غَضَبَ موسى عليه حينَ قال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ ورآه قد هَمَّ أن يبطِشَ بالفِرعَونيِّ، ظنَّ أنه يُريدُه، فخاف على نفْسِه فـ ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى﴾؟!). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٨).

قال جمهورُ المفسِّرينَ -كما نسَبه إليهم الشوكاني-: ولم يَكُنْ قد عَلِم أحدٌ مِن أصحابِ فرعونَ أنَّ موسَى هو الَّذي قَتَل القِبطيَّ بالأمسِ حتَّى أفشَى عليه الإسرائيليُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠).

وقيل: القائلُ: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ هو القِبطيُّ. وممَّن استظهر هذا القَولَ: الرازيُّ، والشوكانيُّ، وقال به السعديُّ، ورجَّحه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٤، ٨٥).

قال الشوكاني: (وهذا هو الظَّاهرُ، وقد سبَقَ ذِكرُ القِبطيِّ قبلَ هذا بلا فَصلٍ؛ لأنَّه هو المرادُ بقولِه: ﴿عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾، ولا مُوجبَ لمُخالفةِ الظَّاهرِ حتَّى يَلزَمَ منه أنَّ المؤمنَ بموسى المُستغيثَ به المَرَّةَ الأُولى والمرَّةَ الأُخرى هو الَّذي أفشى عليه. وأيضًا أنَّ قولَه: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يَليقُ صُدورُ مِثلِه إلَّا مِن كافرٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٥).

أي: وما تريدُ أن تكونَ ممَّن يعملُ في الأرضِ بما فيه صلاحُ أهلِها مِنْ طاعَةِ اللَّهِ، وما هكذا يكونُ الإصلاحُ(١).

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ٢٠﴾.

﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ﴾.

أي: وجاء رجُلٌ مِن آخِرِ المدينةِ وأبعَدِها يمشي مُسرِعًا إلى موسى(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٤).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى: ﴿مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ أيْ: مِنَ الَّذينَ يُصلِحونَ بيْنَ النَّاسِ بالقولِ والفعلِ، فتدفَع التَّخاصُمَ بالَّتي هي أحسَنُ: القرطبيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

وممن اختار أنَّ معنى: ﴿مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ﴾ أي: المطيعين لله: مقاتل بن سليمان، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٢).

وقال ابنُ جرير: (ما تريدُ أنْ تكونَ مِمَّنْ يعملُ في الأرضِ بما فيه صلاحُ أهلِها، مِنْ طاعَةِ اللَّهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٧، ٨٨).

قال ابنُ عاشور: (الظَّاهرُ أنَّ ﴿أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ هو ناحيةُ قُصورِ فِرعونَ وقومِه؛ فإنَّ عادةَ الملوكِ السُّكنَى في أطْرافِ المُدُنِ؛ تَوقِّيًا مِن الثَّوراتِ والغاراتِ؛ لِتكونَ مَساكنُهم أسعَدَ بخُروجِهم عندَ الخوفِ. وقد قِيل: الأطرافُ منازِلُ الأشرافِ... وبهذا يَظهَرُ وجْهُ ذِكْرِ المكانِ الَّذي جاء منه الرَّجلُ، وأنَّ الرَّجلَ كان يَعرِفُ مُوسى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٥).

وقال ابنُ عثيمين: (قد يكونُ هذا الإسراعُ... حتى يَسبِقَ مَن أُرسِلَ إلى موسى لِيَقتُلَه، وقد =

﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾.

أي: قال ناصِحًا لموسى: يا موسَى، إنَّ الأشرافَ والرُّؤساءَ مِن قَومِ فِرعَونَ يَتشاوَرونَ في قَتلِك، ويأمُرُ بَعضُهم بَعضًا بذلك[١].

﴿فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

أي: فاخرُجْ مِن هذه المدينةِ، إنِّي مِن النَّاصِحينَ لك في أمرِك بالخُروجِ منها[٢].

﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾.

﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ﴾.

أي: فخرَج موسى مِنَ المدينةِ وهو خائِفٌ مِن قَومِ فِرعَونَ، يتلفَّتُ ويَنظُرُ: هل يَلحَقونَ به ويدركونَه[٣]؟!

---

= يكونُ خَوفًا مِن تنفيذِ ما ائتَمَروا عليه في شأنِه، والأخيرُ هو الأفضَلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال القِنَّوْجي: (﴿يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ﴾ أي: يتشاورونَ في قتلِك ويتآمَرونَ بسببِك، وإنَّما سُمِّي التَّشاورُ ائتمارًا؛ لأنَّ كلًّا مِن المتشاورين يأمرُ الآخَرَ ويأتمرُ به). ((تفسير القنوجي)) (١٠/ ١٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤).

قال الواحديُّ: (معنَى الائتمارِ في كلامِ العربِ: المُشاوَرةُ، وهو يعودُ إلى أن يأمُرَ بعضُهم بعضًا). ((البسيط)) (١٧/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: قال موسى داعيًا رَبَّه، وهو هارِبٌ مِن مدينةِ فِرعَونَ: رَبِّ خَلِّصْني مِن قَومِ فِرعَونَ الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالكُفرِ، وإرادةِ قَتلي على ما وقَع منِّي مِن قتلٍ بالخَطأِ[1]!

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- النَّميمةُ مَفسَدةٌ محرَّمةٌ، لكنَّها جائزةٌ أو مأمورٌ بها إذا اشتملَتْ على مصلحةٍ للمَنْمومِ إليه، مثالُه: إذا نُقِل إلى مسلمٍ أنَّ فلانًا عزَم على قتلِه في ليلةِ كذا وكذا، أو على أخذِ مالِه في يومِ كذا وكذا، أو على التعرُّضِ لأهلِه في وقت كذا وكذا، فهذا جائزٌ، بل واجبٌ؛ لأنَّه توسُّلٌ إلى دفعِ هذه المفاسدِ عن المسلمِ، وإنْ شئتَ قلْتَ: لأنَّه سبُّبٌ إلى تحصيلِ مصالحِ أضْدادِ هذه المفاسدِ. ويدُلُّ على ذلك كلِّه قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الآيةَ[2]، فإخبارُ الرَّجُلِ غيرَه بما قيلَ فيه على وجهِ التَّحذيرِ له مِن شَرٍّ يقعُ فيه: لا يكونُ ذلك نميمةً، بل قد يكونُ واجبًا، كما أخبَرَ ذلك الرَّجلُ موسى ناصِحًا له ومُحذِّرًا[3].

٢- في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ

---

= (٦/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((قواعد الأحكام في مصالح الأنام)) للعز بن عبد السلام (١/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٣).

يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾ المُسارَعةُ إلى النُّصحِ في الدِّماءِ، وكذلك المُسارَعةُ في كلِّ أمرٍ دينيٍّ يُخافُ فَوْتُه. وقد تجبُ المُسارَعةُ؛ كالمُسارَعةِ في النُّهوضِ إلى القتال، وكما لو رأَيْنا مَن يَقتُلُ مسلِمًا لو تَبَطَّأْنا عليه لَقَتَلَه، فالمُسارَعةُ إلى تخليصِه واجبةٌ؛ إذْ ليستِ الأناةُ محمودةً في كلِّ شَيءٍ، بل لها مَواطِنُ تُحمَدُ فيها، ومَواطِنُ تُذَمُّ فيها، وكذلك المُسارَعةُ واللِّينُ والغِلظةُ وغيرُها[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ مَن قَتَل النُّفوسَ بغيرِ حقٍّ، وزَعَمَ أنَّه يريدُ الإصلاحَ في الأرضِ، وتَهييبَ أهلِ المعاصي، فإنَّه كاذبٌ في ذلك، وهو مُفسِدٌ، كما حكى اللهُ قولَ القِبطيِّ -على أحدِ القولينِ-: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ على وجهِ التَّقريرِ له، لا الإنكارِ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ وصفه بالرُّجوليَّةِ؛ لأنَّه خالَفَ الطَّريقَ، فسلَك طريقًا أقرَبَ مِن طريقِ الَّذين بُعِثوا وراءَه، فسبَق إلى موسَى[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا ﴾ أنَّه إذا خاف الإنسانُ القَتلَ والتَّلَفَ في الإقامةِ، فإنَّه لا يُلقي بيدِه إلى التَّهلُكةِ، ولا يَستَسلِمُ لذلك، بل يذهَبُ عنه، كما فَعَلَ موسى عليه السَّلامُ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا ﴾ أنَّه عندَ تزاحُمِ المفسدتَينِ -إذا كان لا بُدَّ

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

مِن ارتكابِ إحداهما- أنَّه تُرتكَبُ الأخَفُّ منهما والأسلَمُ، كما أنَّ موسى -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- لَمَّا دار الأمرُ بيْنَ بقائِه في مِصرَ ولكنَّه يُقتلُ، أو يذهَبُ إلى بعضِ البُلْدانِ البعيدةِ الَّتي لا يَعرِفُ الطَّريقَ إليها، وليس معه دليلٌ يدُلُّه غير ربِّه -ولكنَّ ذلك يكونُ أقرَبَ للسَّلامةِ مِن بقائِه- اختار موسى ما هو أقرَبُ لسلامتِه[1].

٥- قال موسى عليه السلامُ: ﴿رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وصَفَهم بالظُّلْم؛ لأنَّهم مُشرِكون، ولأنَّهم رامُوا قتْلَه قِصاصًا عن قتْلٍ خطَأٍ، وذلك ظُلْمٌ؛ لأنَّ الخطَأَ في القتْلِ لا يَقْتضي الجزاءَ بالقتْلِ في نَظَرِ العقلِ والنَّقلِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ الاستِصراخُ: المُبالَغةُ في الصُّراخِ، أي: النِّداءِ، وهو المُعبَّرُ عنه في القصَّةِ الماضيةِ بالاستِغاثةِ؛ فخُولِفَ بيْنَ العِبارتينِ للتَّفنُّنِ[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾

- أشارَ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ ...﴾ إلى المبادَرةِ إلى إصراخِه، قيل: أثبَتَ الحرْفَ الَّذي أصلُه المصدرُ؛ تأكيدًا لمعنَى الإرادةِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٩٤).

فقال: ﴿أَنۡ أَرَادَ﴾[١]. وقيل: إنَّما زادَ (أنْ) للإشعارِ بأنَّ مُوسى عليه السَّلامُ لم تكُنْ مُسارعتُه الى قَتْلِ الثاني كما كانتْ مُسارعتُه إلى قَتْلِ الأوَّلِ، بل كان عِندَه إبطاءٌ في بَسْطِ يَدِه إليه؛ فعبَّرَ القرآنُ عن ذلك الإبطاءِ بزِيادةِ (أنْ)[٢].

- والتَّنوينُ في ﴿عَدُوّٞ﴾ للتَّفخيمِ، أي: عَدوٌّ عظيمُ العَداوةِ، ولإرادةِ ذلك لم يُضِفْهُ[٣].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلۡمَلَأَ يَأۡتَمِرُونَ بِكَ لِيَقۡتُلُوكَ فَٱخۡرُجۡ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى هنا: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾، وفي سُورةِ (يس) في قصَّةٍ أُخرَى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]؛ فقَدَّمَ في الأُولى ﴿رَجُلٞ﴾ على ﴿مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾، وفي الثَّانيةِ أَخَّرَها؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ قِصَّةَ سُورةِ (القصصِ) فيها اهتمامٌ بالخبرِ الَّذي جاء به ذلك الرَّجلُ؛ فقُدِّمَ ذِكْرُه على ذِكْرِ المكانِ، فكَوْنُه جاء مِنَ الأقصَى أو مِن الأدنَى لا يُؤَثِّرُ، أمَّا في قصَّةِ الرُّسُلِ الثَّلاثةِ في سُورةِ (يس) ففيها اهتمامٌ بكونِ هذا الرَّجلِ بعيدًا عن الرُّسلِ، وما جاء إلَّا لِيُؤكِّدَ صِحَّةَ ما جاؤوا به قبْلَه؛ فلَمَّا كان الأمرُ في سُورةِ (القَصصِ) مُهِمًّا يَحتاجُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢٠/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٤).

إلى مَزيدِ عزْمٍ، وعِظَمِ قوَّةٍ؛ قَدَّمَ فاعلَ المَجيءِ على مُتعلَّقِه، بخلافِ ما في سورةِ (يس).

- وقيل: الفائدةُ في تَقديمِ ذِكْرِ الرَّجلِ في (القَصصِ) وتأْخيرِه في (يس): أنَّ ذِكْرَ الأوصافِ قبْلَ ذِكْرِ الموصوفِ أبلَغُ في المدْحِ مِن تَقديمِ ذِكْرِه على وَصْفِه؛ فإنَّ النَّاسَ يقولونَ: الرَّئيسُ الأجَلُّ فُلانٌ؛ فالَّذي زِيدَ في مَدْحِه -وهو صاحبُ (يس)- أمَرَ بالمعروفِ، وأعانَ الرُّسلَ، وصبَرَ على القتْلِ، والآخَرُ إنَّما حذَّرَ مُوسَى مِن القتْلِ، فسَلِمَ مُوسَى بقَبولِه مَشورتَه؛ فالأوَّلُ هو الآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المُنكَرِ، والثَّاني هو ناصحُ الآمرِ بالمعروفِ؛ فاستحَقَّ الأوَّلُ الزِّيادةَ. وذُكِرَ (أقصى المدينةِ)؛ لأنَّ الرَّجلينِ جاءَا مِن بُعدٍ في الأمرِ بالمعروفِ، ولم يَتقاعَدا لبُعدِ الطَّريقِ[1].

- ﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ قيل: ضُمِّن معنى (يَهُمُّون)؛ فعُدِّي بالباءِ، فكأنَّه قيل: يأتمرونَ ويَهمُّون بقتلِك[2].

- قولُه: ﴿فَٱخْرُجْ﴾ مُتعلَّقُ الخُروجِ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ المقامِ عليه، أي: فاخرُجْ مِن المدينةِ[3].

- قولُه: ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ تَعليلٌ لأمْرِه بالخُروجِ. وتَقديمُ المجرورِ ﴿لَكَ﴾؛ لرِعايةِ الفاصلةِ[4].

---

(١) هذه الفائدةُ للوزيرِ ابنِ هُبَيْرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس))، كما في: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٢-٢٥)

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تِلْقَآءَ﴾: أي: تُجاهَ ونَحوَ، والتِّلْقاءُ: جِهةُ اللِّقاءِ والمُقابَلةِ، وأصلُ (لقي): يدُلُّ على توافي شَيئينِ[1].

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: قَصْدَ الطَّريقِ ووسَطَه، وأصلُ السَّواءِ: الوَسَطُ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ وامتدادِه[2].

﴿وَرَدَ﴾: أي: بلَغَ ووصَلَ، والوُرودُ: قَصْدُ الماءِ، ثمَّ يُستعمَلُ في غيرِه، وأصلُ (ورد): يدُلُّ على الموافاةِ إلى الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٧).

﴿أُمَّةَ﴾: أي: جماعةً، والأُمَّةُ: كلُّ جماعةٍ يَجمَعُهم أمرٌ ما؛ إمَّا دِينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءٌ كان ذلك الأمرُ الجامعُ تسخيرًا أو اختيارًا، وأصلُ (أمم): الأصلُ والمرجِعُ، والجماعةُ والدِّينُ[١].

﴿تَذُودَانِ﴾: أي: تَكُفَّانِ، وتَحبِسانِ غَنَمَهما، والذَّوْدُ أكثرُ ما تُستعمَلُ في الغَنَمِ والإبلِ، وأصلُه يدُلُّ على تنحيةِ الشَّيءِ عن الشَّيءِ[٢].

﴿خَطْبُكُمَا﴾: أي: أمْرُكما وشأنُكما، والخطبُ: الأمرُ يقعُ؛ وإنَّما سُمِّيَ بذلك لِمَا يقعُ فيه مِن التَّخاطُبِ والمراجعةِ، وأصلُ (خطب): يدُلُّ على الكلامِ بينَ اثنينِ[٣].

﴿يُصْدِرَ﴾: أي: يرجِعَ ويَفرُغَ، وأصلُ (صدر): يدُلُّ على خِلافِ الوِرْدِ[٤].

﴿ٱلرِّعَآءُ﴾: جمعُ راعٍ، وأصلُ (رعي): يدُلُّ على مُراقَبةٍ وحِفظٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٩).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولَمَّا خرجَ موسى مِن مِصرَ وتوجَّهَ إلى مَدْيَنَ، قال: عسى أن يُرشِدَني ربِّي إلى الطَّريقِ الموصِلِ إلى مَدْينَ.

ولَمَّا وصَلَ ماءَ مَدْينَ وجَدَ على الماءِ جماعةً كثيرةً مِن النَّاسِ يَسْقونَ مواشِيَهم، ووجَدَ مِن دُونِهِمُ امرأتَينِ تَمنعانِ غَنَمَهما؛ لئلَّا تختَلِطَ بأغنامِ النَّاسِ.

قال موسى للمرأتَينِ: ما شأنُكما؟! قالَتا: لا نَسْقي غنَمَنا إلَّا بعد أن يَصرِفَ الرُّعاةُ مواشيَهم، وأبونا شيخٌ كبيرٌ لا يستطيعُ سَقْيَ الغَنَمِ بنَفْسِه.

فسقَى موسى لهما غنَمَهما بلا أُجرةٍ، ثمَّ انصرَفَ إلى الظِّلِّ، فقال: ربِّ إنِّي مُحتاجٌ إلى أيِّ شَيءٍ أنزَلْتَه إلَيَّ مِن أيِّ خيرٍ كان.

فجاءت إحدى المرأتينِ إلى موسى تمشي مُستَحِيةً، قالت لموسى عليه السَّلامُ: إنَّ أبي يدعوك لِيُكافِئَك على سَقْيِك لنا الغَنَمَ.

فلمَّا جاء موسى إلى أبيها وقَصَّ عليه خبَرَه مع فِرعَونَ وقَومِه، قال له الأبُ: لا تخَفْ؛ فقد نجَوتَ مِن هؤلاء القَومِ الظَّالمينَ؛ إذ لا حُكمَ لهم بأرضِنا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: ولَمَّا خرَج موسى مِن مِصرَ، وقَصَد جِهةَ مَدْينَ بلا دليلٍ يَهديه، وخَشِيَ أن يَضِلَّ الطَّريقَ؛ قال: عسى[1] أن يُبَيِّنَ لي ربِّي الطَّريقَ المُوصِلَ بسُهولةٍ ويُسرٍ إلى مَدْينَ[2].

---

(١) قال البقاعي: (﴿عَسَىٰ﴾ أي: خليقٌ وجديرٌ وحقيقٌ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٢، ٢٠٣)، =

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ﴾.

أي: ولَمَّا بلَغَ موسى ماءَ مَدْينَ وجَدَ على الماءِ جماعةً كثيرةً مِن النَّاسِ يَسقُونَ مَواشِيَهم[1].

﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾.

أي: ووجَدَ مِن دونِ[2] .....

---

= ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ موسى أراد بدُعائِه الهدايةَ إلى الطَّريقِ الحِسِّيةِ المُوصِلةِ إلى مَدْيَنَ: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والواحدي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، والسُّدِّيُّ، وقتادةُ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٣، ٢٠٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٦٠، ٢٩٦١)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٥).

وقيل: أراد موسى سَبيلَ الهدى إلى الحَقِّ. وممَّن استَحْسَنَه ومال إليه: ابنُ عطيَّة، واستظهَرَه ابنُ جُزَي، واختاره ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال الثعلبي: (﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ ﴾ وهو بئرٌ كانت لهم). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦).

(٢) قال الشوكاني: (﴿مِن دُونِهِمُ﴾ أي: مِن دونِ النَّاسِ الَّذينَ يَسْقونَ ما بيْنَهم وبينَ الجِهةِ الَّتي جاءَ منها. وقيلَ: معناه: في مَوضعٍ أسفلَ مِنهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩١). =

تلك الجَماعةِ امرأتينِ تَحبِسانِ غَنَمَهما عن النَّاسِ[١].

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾.

أي: قال موسى للمَرأتينِ: ما شأنُكما تكُفَّانِ غنَمَكما، ولا تَسقيانِ مع النَّاسِ[٢]؟!

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾.

أي: قالَتَا لموسى: عادَتُنا أنَّنا لا نَسْقي أغنامَنا إلَّا بعدَ أن يَصرِفَ الرُّعاةُ مواشِيَهم[٣].

﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾.

---

= وممَّن اختار أنَّ المرادَ: في مَوضعٍ أسفَلَ مِن موضعِ الجماعةِ، ومكانٍ أسفَلَ مِن مكانِهم: الزمخشريُّ، والرازي، والرسعني، والبيضاوي، والبقاعي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٨٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٨٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿مِن دُونِهِمُ﴾ أي: مِن سِواهم: الواحديُّ، والسمعاني، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٧، ٢١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال الماوَرْديُّ: (وفي امتناعِهما مِن السَّقيِ حتَّى يُصدِرَ الرِّعاءُ وجهانِ؛ أحدُهما: تصَوُّنًا عن الاختلاطِ بالرِّجالِ. الثَّاني: لِضَعفِهما عن المزاحمةِ بماشيتِهما). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٦).

ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١١)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

أي: وأبونا كبيرٌ في السِّنِّ، يَضعُفُ عن سَقيِ الغَنَمِ بنَفْسِه[١].

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ﴾.

أي: فسقَى موسى للمَرأتَينِ غَنَمَهما بلا أُجرةٍ؛ رأْفةً ورحمةً بهما[٢].

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال القرطبي: (أكثَرُ النَّاسِ على أنَّهما ابنتا شُعَيبٍ عليه السَّلامُ، وهو ظاهِرُ القرآن). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧٠).

وممَّن قال بأنَّه ليس بشُعَيبٍ النَّبيِّ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٦١-٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٤).

قال السعدي: (وهذا الرَّجلُ أبو المرأتينِ؛ صاحِبُ مَدْينَ: ليس بشُعَيبِ النَّبيِّ المعروفِ، كما اشتَهَر عند كثيرٍ مِن النَّاسِ؛ فإنَّ هذا قَولٌ لم يَدُلَّ عليه دليلٌ، وغايةُ ما يكونُ أنَّ شُعَيبًا عليه السَّلامُ قد كانت بلَدُه مَدْيَنَ، وهذه القضيَّةُ جَرَت في مَدْيَنَ، فأين الملازَمةُ بيْنَ الأمْرَينِ؟! وأيضًا فإنَّه غيرُ معلومٍ أنَّ موسى أدرك زمانَ شُعَيبٍ، فكيف بشَخصِه؟! ولو كان ذلك الرَّجلُ شُعَيبًا لذكَرَه اللهُ تعالى، ولَسَمَّتْه المرأتانِ. وأيضًا فإنَّ شُعَيبًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد أهلك الله قَومَه بتكذيبِهم إيَّاه، ولم يَبْقَ إلَّا مَن آمَنَ به، وقد أعاذ الله المؤمِنينَ أن يَرضَوا لِبنْتَي نبيِّهم بمنَعِهما عن الماءِ، وصَدِّ ماشيتِهما حتَّى يأتيَهما رجُلٌ غريبٌ فيُحسِنَ إليهما، ويَسقيَ ماشيتَهما! وما كان شُعيبٌ لِيَرضى أن يرعَى موسى عندَه ويكونَ خادِمًا له، وهو أفضَلُ منه وأعلى درَجةً. والله أعلم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠١).

أي: ثمَّ انصرَفَ موسى إلى ظِلٍّ هناك[١].

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

أي: فقال: ربِّ، إنِّي مُحتاجٌ إلى أيِّ شَيءٍ أنزَلْتَه إلَيَّ مِن أيِّ خيرٍ كان[٢].

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾.

أي: فجاءت إحدى المرأتَينِ إلى موسى، وهي تَمشي مُسْتحِيةً مُستَتِرةً، غيرَ مُتَبخترةٍ ولا مُبْدِيةٍ زِينةً[٣].

﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾.

أي: قالت لِموسى عليه السَّلامُ: إنَّ أبي يَدْعوك لِيُكافِئَك؛ جزاءً على سَقْيِك أغنامَنا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٢).

وحكى السمعانيُّ والقرطبيُّ إجماعَ المفسِّرينَ على أنَّ موسى عليه السَّلامُ طلَبَ مِن الله الطَّعامَ لجُوعِه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢١٨)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (٨/ ٥٥١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٨).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فلمَّا جاء موسى إلى أبيها وحدَّثَه بأخبارِه وأنبائِه مع فِرعَونَ وقَومِه، وسببِ خُروجِه مِن مِصرَ؛ قال له الأبُ: لا تخَفْ؛ فقد نجَوْتَ مِن فِرعَونَ وقَومِه الظَّالمينَ؛ إذْ لا سُلطانَ لهم بأرضِنا(١).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنَّ النَّاظِرَ في العِلمِ عندَ الحاجةِ إلى التَّكلُّمِ فيه، إذا لم يَترجَّحْ عندَه أحدُ القَولَينِ فإنَّه يَستهدي ربَّه، ويَسألُه أنْ يَهديَه الصَّوابَ مِن القَولَينِ، بعدَ أنْ يَقصِدَ بقلبِه الحقَّ ويبحَثَ عنه؛ فإنَّ اللهَ لا يُخَيِّبُ مَن هذه حالُه، كما خَرَجَ موسى تِلْقاءَ مَدْيَنَ، فقال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ في القِصَّةِ ترغيبٌ في الخَيرِ، وحَثٌّ على المعاونةِ على البِرِّ، وبَعْثٌ على بَذْلِ المعروفِ مع الجُهدِ(٣).

٣- أنَّه لا ينبغي أنْ يُحكَمَ على الأمورِ إلَّا بعدَ معرفةِ الأسبابِ؛ فإنَّ موسى لم يَحكُمْ على المرأتينِ بأيِّ حُكمٍ إلَّا بعدَ أنْ سألَهما، قال: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾، يعني:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٤، ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٧).

لِماذا تَذُودانِ غنَمَكما عن السَّقي[١]؟

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ أنَّ الرَّحمةَ بالخلْقِ، وإحسانَ المرء إلى مَن يَعرِفُ ومَن لا يعرِفُ: مِن أخلاقِ الأنبياءِ[٢]، ومِنَ الإحسانِ سقْيُ الماشيةِ الماءَ، وإعانةُ العاجزِ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ دليلٌ على أنَّ شكوى الضُّرِّ إلى الله مُباحةٌ، وسُؤالَه الغَوثَ جائزٌ، وليس على مَن أصابه ذلك أنْ ينتظِرَ إتيانَه مِن اللهِ قبْلَ المسألةِ؛ اعتمادًا على أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه يَعلَمُ حالَه فيأتيه برزقِه؛ لأنَّه -وإنْ كان كذلك- فلم يَحْظُرِ المسألةَ، بل نَدَبَ إليها، وعَمِلَ بها نبيُّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما ترى، فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٤] [غافر: ٦٠].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ بيانُ كمالِ خُلُقِ هاتينِ المرأتينِ؛ حيثُ جاءت إحداهما تمشي غيرَ مُسرِعةٍ ولا مُهَرْوِلةٍ، بل تمشي بهُدوءٍ، وهذا دليلٌ على كمالِ أدَبِها، وكذلك كونُها على استحياءٍ فيه أيضًا مِن كمالِ الأدبِ[٥]، وعن عمرَ رضي الله عنه قال: (جاءَت تمشي على استحياءٍ، قائلةً بثوبِها على وجهِها، ليست بسَلْفَعٍ[٦]، خرَّاجةٍ ولَّاجةٍ)[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠١).

(٦) السلفع: هي الجريئةُ على الرِّجالِ. ينظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٩٠).

(٧) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١٨/ ٢١٩)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٩/ ٢٩٦٥). =

٧- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾ أنَّ الحياءَ -خصوصًا مِن الكرامِ- هو مِن الأخلاقِ الممدوحةِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ أنَّ المكافأةَ على الإحسانِ لم تَزَلْ دأبَ الأُممِ السَّابقينَ[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ كمالُ الأدبِ في الأساليبِ، وإزالةُ الوحشةِ عنِ المخاطَبِ، لا سيَّما في المكانِ الذي تعتريه الوَحشةُ. وكما ينبغي أن يكونَ ذلك في اللَّفظِ، ينبغي أن يكونَ ذلك في حالِ المرءِ، بحيثُ يقابِلُ غَيرَه بالبشرِ والسَّماحةِ وانطلاقِ الوَجهِ؛ ولهذا كان من أوصافِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه كان دائمَ البِشرِ، كثيرَ التبَسُّمِ. وضِدُّه العُبوسُ والتَّقطيبُ وعدمُ الانشراحِ؛ فإنَّ هذا يوجِبُ لِغَيرِك أن يَنفِرَ منك[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ أسْنَدَتِ الدَّعوةَ إلى أبيها، وعلَّلَتْها بالجزاءِ؛ لئلَّا يُوهِمَ كلامُها رِيبةً، وفيهِ مِن الدَّلالةِ على كَمالِ العقلِ والحياءِ والعِفَّةِ ما لا يَخْفَى[٤]، وفيه مِن كمالِ الذَّكاءِ؛ لأنَّ نِسبةَ الدَّعوةِ إلى الأبِ أقرَبُ إلى إجابةِ موسى للدَّعوةِ؛ حيثُ يكونُ الدَّاعي له رجُلًا[٥]، .....

---

= وصحح إسناده ابن كثير في ((تفسيره)) (٦/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠١).

وأيضًا فإنَّما بيَّنَت له الغرَضَ مِن دَعوتِه؛ مُبادرةً بالإكرامِ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ أنَّ قَصَّ الأخبارِ لا يُعَدُّ شِكايةً؛ فلو قصَصْتَ على إنسانٍ ما جرى عليك مِن المصائِبِ، لا يُعتبَرُ ذلك مِن الشِّكايةِ إليه؛ ولهذا يقالُ: هذا إخبارٌ؛ فالمريضُ يقولُ -مثلًا- لِمَن سألَه عن حالِه: إنِّي مريضٌ، فهذا إخبارٌ لا شكوى. والفرقُ بيْنَهما أنَّ الشَّكوى تتضمَّنُ طَلَبَ إزالةِ الشَّيءِ، والتَّضَجُّرَ منه، وأمَّا الخبرُ فإنَّه مجرَّدٌ عن ذلك؛ فهو مجرَّدُ إخبارٍ عن أمرٍ وَقَع[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ البِشارةُ بالأمنِ، وتسكينُ الخائفِ، وقد قالت الملائكةُ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠]، وبِشارةُ الخائفِ وتطمينُه ضرْبٌ مِنَ الإحسانِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- يُستفادُ مِن سؤالِ موسى عليه الصَّلاة والسَّلامُ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَا خَطۡبُكُمَا﴾ جوازُ مكالَمةِ الأجنبيَّةِ فيما يَعُنُّ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ مُباشَرةُ المرأةِ الأعمالَ، والسَّعيُ في طُرُقِ المعيشةِ، ومُعالجتُها أمورَ مالِها، وظُهورُها في مجامِعِ النَّاسِ إذا كانت تَستُرُ ما يَجِبُ سَترُه[٥]، معَ عدمِ مزاحمةِ الرِّجالِ، وأن يكونَ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠١).

للحاجةِ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، قَولُه: ﴿فَقَالَ رَبِّ﴾ فيه أنَّه ينبغي تقديمُ الدُّعاءِ بذِكْرِ الرَّبِّ، والدُّعاءُ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ هو أكثرُ ما يُتقَبَّلُ به الدُّعاءُ[٢]. ويَكثُرُ في القرآنِ مجيءُ النِّداءِ باسمِ الرَّبِّ المُقتضِي للقيامِ بأمورِ العِبادِ وإصلاحِها؛ فكأنَّ العبدَ مُتعلِّقٌ بمَن شأنُه التَّربيةُ والرِّفقُ والإحسانُ، قائلًا: يا مَن هو المُصلِحُ لِشُؤوننا على الإطلاقِ أتِمَّ لنا ذلك بكذا، وهو مُقتضى ما يَدعو به، وإنَّما أتَى «اللَّهُمَّ» في مَواضِعَ قليلةٍ، ولِمَعانٍ اقتَضَتْها الأحوالُ[٣]، فيُصَدَّرُ الدُّعاءُ المُتضَمِّنُ لِلثَّناءِ والطَّلبِ بلَفْظةِ «اللَّهُمَّ»، وأمَّا الدُّعاءُ المُجَرَّدُ فيُصَدَّرُ بلَفظِ الرَّبِّ، وسِرُّ ذلك أنَّ اللهَ تعالى يُسألُ برُبوبيَّتِه المُتضَمِّنةِ قُدرتَه وإحسانَه وتربيتَه عبْدَه وإصلاحَ أمْرِه، ويُثنَى عليه بإلهيَّتِه المُتضَمِّنةِ إثباتَ ما يجِبُ له مِنَ الصِّفاتِ العُلى، والأسماءِ الحُسْنى. وتدبَّرْ طريقةَ القُرآنِ، تَجِدْها كما ذكرتُ لك[٤].

٤- مِن أنواعِ التَّوسُّلِ الجائزةِ الشَّرعيَّةِ: التَّوسُّلُ إلى اللهِ تبارك وتعالى بذِكْرِ حالِ الدَّاعي، وأنَّه مُحتاجٌ ومُضْطَرٌّ إلى اللهِ، وهو ممَّا يُستجلَبُ به رحمةُ اللهِ -عزَّ وجلَّ- وفَضْلُه وإحسانُه، وهو مِن جُملةِ التَّوسُّلِ المَشروعِ في الدُّعاءِ، كما في قَولِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فهنا سأل اللهَ تبارك وتعالى بوَصفِ حالِه، وأنَّه مُحتاجٌ مُفتَقِرٌ إلى اللهِ تبارك وتعالى[٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير آيات من القرآن الكريم)) (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب) (٥/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٩٣، ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٦٦) و(١٢/ ١٨٣، ١٨٤).

وهو مُتضَمِّنٌ لِسُؤالِ اللهِ إنزالَ الخَيرِ إليه[١]؛ فدلَّ على جوازِ الاقتِصارِ في الدُّعاءِ على ذِكْرِ حالِ الدَّاعي بدونِ طَلَبٍ[٢].

٥- في قَولِ موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (وكان قد بلَغ به الجُوعُ ما بلغَ، وإنَّه لأَكْرَمُ الخَلقِ يَومَئذٍ على اللهِ). وفي هذا مُعتبَرٌ وحاكِمٌ بهَوانِ الدُّنيا على اللهِ تعالى[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ﴾ عُلُوُّ اللهِ؛ فإنَّه لا يكونُ إنزالُه للشَّيءِ إلَّا إذا كان عاليًا؛ فهو سُبحانه وتعالى عالٍ بذاتِه وصفاتِه، فعُلُوُّه نَوعانِ: عُلُوُّ ذاتٍ، وعُلُوُّ صِفةٍ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أنَّ العبدَ إذا فَعَلَ العملَ للهِ تعالى، ثمَّ حَصَلَ له مكافأةٌ عليه مِن غيرِ قصْدٍ بالقَصدِ الأولِ؛ أنَّه لا يُلامُ على ذلك، كما قَبِلَ موسى مجازاةَ صاحِبِ مَدْيَنَ عن معروفِه الَّذي لم يَبْتَغِ له، ولم يَستشرِفْ بقَلبِه عِوَضًا[٥].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فيه استِخدامُ الوالدِ لأولادِه[٦].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ﴾ سؤالٌ؛ كيف ساغ لموسى -عليه السلامُ- أنْ يَعملَ بقولِ امرأةٍ؛ وأنْ

---

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٦) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٨٣).

يمشيَ معها وهي أجنبيَّةٌ؛ فإنَّ ذلك يُورِثُ التُّهمةَ العظيمةَ؟!

**الجوابُ**: أنَّ الخبرَ يُعمَلُ فيه بقولِ امرأةٍ، فإنَّ الخبرَ يُعملُ فيه بقولِ الواحدِ -حرًّا كان أو عبدًا؛ ذكرًا كان أو أنثى-، وما كانت مُخبِرةً إلَّا عن أبيها، وأمَّا المشْيُ مع المرأةِ مع الاحتياطِ والتَّورُّعِ فلا بأسَ به[1].

١٠- قال الله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾ مِن عَجيبِ صُنعِ اللهِ: أنَّ هذا الكلامَ جاء مُطابِقًا لسُؤالِ موسى؛ فموسى قد دعا ربَّه عندَما خَرَجَ خائفًا مِنَ المدينةِ ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]، فجاء الجوابُ هنا مِن هذا الرَّجُلِ: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فقولُه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ إجابةٌ لِقَولِه: ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، وقولُه: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إجابةٌ لِقَولِه: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وهكذا تكونُ إجابةُ اللهِ تعالى للمُضْطَرِ مُطابِقةً تمامًا لسُؤالِه؛ إذْ لا سُلطانَ لفِرعَونَ على مَدْيَنَ، وهذا هو الظَّاهرُ[2].

١١- قال: ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ولم يقُلْ: (نجوتَ مِن الظالم) فدلَّ على أنَّ جنودَ الظَّالمِ ظَلَمةٌ، فالطَّاعةُ فيما فيه ظُلْمٌ محرمةٌ، وهي طاعةٌ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ عَطْفٌ على جُمَلٍ مَحذوفةٍ؛ إذِ التَّقديرُ: ولَمَّا خرَجَ مِن المدينةِ هائمًا على وَجْهِه، فاتَّفقَ أنْ كان مَسيرُه في طَريقٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).

يُؤدِّي إلى أرضِ مَدْيَنَ، حينَئذٍ قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾

- تُرِكَ المفعولُ غيرَ مَذكورٍ في قولِه: ﴿يَسۡقُونَ﴾ و﴿تَذُودَانِ﴾؛ لأنَّ الغرَضَ هو الفِعلُ لا المفعولُ؛ ألَا تَرى أنَّه إنَّما رحِمَهما لأنَّهما كانتَا على الذِّيادِ، وهم على السَّقيِ، ولم يَرْحَمْهما؛ لأنَّ مَذُودَهما غنَمٌ ومَسْقِيَّهم إبلٌ مَثلًا، وكذلك قولُهما: ﴿لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ المقصودُ فيه السَّقيُ لا المَسقِيُّ. وهذا مِن تَنزيلِ الفِعلِ المُتعدِّي مَنزلةَ اللَّازمِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾

- قَولُه: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ اقترانُ فِعلِ (سقى) بالفاءِ يُؤْذِنُ بأنَّه بادَرَ فسَقى لهنَّ، وذلك بفَورِ وُرودِه[٣]. وحُذِفَ مَفعولُه أيضًا؛ لِمَا أنَّ الغرَضَ هو بَيانُ السَّقيِ لا ما يُسْقَى[٤].

- والتَّولِّي: الرُّجوعُ على طريقِه، وذلك يُفيدُ أنَّه كان جالسًا مِن قبْلُ في ظِلٍّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٩٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨).

فرجَع إليه. ويَظهَرُ أنَّ ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ مُرادِفُ (ولَّى)، ولكنَّ زِيادةَ المَبْنى مِن شأْنِها أنْ تَقتضِيَ زِيادةَ المعنى، فيكون (تولَّى) أشَدَّ مِن (ولَّى)[1].

- قولُه: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أعقَبَ إيواءَه إلى الظِّلِّ بمُناجاتِه ربَّه، إذ قال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ لَمَّا استراح مِن مَشقَّةِ الـمَـتْحِ -أي: استخراجِ الدَّلوِ مِن البئرِ وجَذبِها- والسَّقيِ لِماشيةِ المَرأتينِ، والاقتِحامِ بها في عَددِ الرِّعاءِ العَديدِ، ووَجَد بَرْدَ الظِّلِّ؛ تَذكَّرَ بهذه النِّعمةِ نِعَمًا سابقةً أسْداها اللهُ إليه؛ مِن نَجاتِه مِن القَتْلِ، وإيتائِه الحِكمةَ والعِلْمَ، وتَخليصِه مِن تَبِعةِ قتْلِ القِبطيِّ، وإيصالِه إلى أرضٍ مَعمورةٍ بأُمَّةٍ عظيمةٍ بعدَ أنْ قَطَعَ فَيافِيَ ومَفازاتٍ؛ تَذكَّرَ جميعَ ذلك وهو في نِعمةِ بَرْدِ الظِّلِّ، والرَّاحةِ مِن التَّعبِ، فجاء بجُملةٍ جامعةٍ للشُّكرِ والثَّناءِ والدُّعاءِ، وهي: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾؛ فقولُه: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ﴾ شُكرٌ على نِعَمٍ سلَفَت، وثَناءٌ على اللهِ بأنَّه مُعطِي الخيرِ. والخيرُ: ما فيه نفْعٌ ومُلاءمةٌ لِمَن يَتعلَّقُ هو به؛ فمنه خيرُ الدُّنيا، ومنه خيرُ الآخرةِ الَّذي قد يُرى في صُورةِ مَشَقَّةٍ؛ فإنَّ العِبرةَ بالعواقبِ، وقد أراد النَّوعينِ، كما يَرمُزُ إلى ذلك التَّعبيرُ عن إيتائِه الخيرَ بفِعلِ ﴿أَنزَلْتَ﴾ المُشعِرِ برِفعةِ المُعطِي، فأوَّلُ ذلك إيتاءُ الحِكمةِ والعِلْمِ[2].

- قولُه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، أي: إنِّي لأيِّ شَيءٍ أنزَلْتَ إلَيَّ: قليلٍ أو كثيرٍ، غَثٍّ أو سَمينٍ، لـ ﴿فَقِيرٌ﴾؛ فـ (ما) مَوصوفةٌ، والتَّنكيرُ للشُّيوعِ. ويَحتمِلُ أنْ يُريدَ: أي: إنِّي فقيرٌ مِنَ الدُّنيا؛ لِأجْلِ ما أنزَلْتَ إلَيَّ مِن خيرِ الدِّينِ، والغرَضُ منه إظهارُ التَّبجُّحِ والشُّكرِ على ذلك؛ فـ (ما) على هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٠٢).

التَّأويلِ مَوصولةٌ، و(مِن) بَيانٌ، والتَّنكيرُ في (خيرٍ) للنَّوعِ والتَّعظيمِ. وفائدةُ الماضي في (مَا أَنْزَلْتَ) على التَّأويلِ الأوَّلِ للاستِعطافِ، أي: ربِّ إنِّي سائلٌ الآنَ ما كُنتُ أعْهَدُه في الأيَّامِ الماضيةِ ممَّا أسُدُّ به جَوعَتي مِن قليلٍ أو كثيرٍ، غثٍّ أو سَمينٍ؛ لأنِّي مُحتاجٌ إليه[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ في الكلامِ حَذفٌ، والتَّقديرُ: فذهَبَتا إلى أبيهما مِن غيرِ إبطاءٍ في السَّقيِ، وقَصَّتا عليه أمْرَ الَّذي سقَى لهما، فأمَرَ إحداهما أنْ تَدعُوَه له، فجاءَتْه إحداهما[٢].

- وأشْعَرَت فاءُ التَّعقيبِ في قولِه: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا﴾ باستِجابةِ اللهِ له بأنْ ألْهَمَ أباهما أنْ يُرسِلَ وراءَه؛ لِيُنزِلَه عندَه، ويُزوِّجَه بنتَه، فذلك يَضمَنُ له أُنسًا في دارِ غُربةٍ، ومَأوًى وعَشيرًا صالحًا. وتُؤذِنُ الفاءُ أيضًا بأنَّ شُعيبًا -على قولٍ في التَّفسيرِ- لم يَتريَّثْ في الإرسالِ وراءَه، فأرسَلَ إحدى البِنتَينِ اللَّتينِ سَقَى لهما، فجاءتْه وهو لم يَزُلْ عن مكانِه في الظِّلِّ[٣].

- وذكَرَ ﴿تَمْشِى﴾؛ لِيَبْنِيَ عليه قولَه: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾، وإلَّا فإنَّ فِعلَ (جاءَتْه) مُغْنٍ عن ذِكْرِ ﴿تَمْشِى﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ولَمَّا كان الحياءُ كأنَّه مَرْكِبٌ لها؛ وهي متمكِّنةٌ منه مالِكةٌ لزِمامِه؛ عَبَّرَ بأداةِ الاستِعلاءِ؛ فقال: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي: حياءٍ موجودٍ منها؛ لأنها كُلِّفَتِ الإتيانَ إلى رجُلٍ أجنبيٍّ تُكَلِّمُه وتُماشيه[١].

- قولُه: ﴿عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ الاستحياءُ مُبالَغةٌ في الحياءِ، مِثلُ الاستجابةِ. وتَنكيرُ ﴿ٱسْتِحْيَآءٍ﴾؛ للتَّفخيمِ[٢].

- قولُه: ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ استئافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ مَجيئِها إيَّاه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ كأنَّه قِيلَ: فماذا قالتْ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ فقيلَ: قالتْ:...[٣].

- وتأكيدُ الجُملةِ في قولِه: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ حِكايةٌ لِمَا في كَلامِها مِن تَحقيقِ الخبرِ؛ للاهتِمامِ به، وإدخالِ المَسرَّةِ على المُخبَرِ به[٤].

- قَولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّه لا عِيشةَ لخائفٍ؛ فكان أهَمُّ ما إلى الإنسانِ الأمانَ؛ قدَّمَ له التَّأمينَ، يعني: تقديمَ قولِه: ﴿لَا تَخَفْ﴾ قبْلَ قولِه: ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥].

- وجُملةُ ﴿نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الخَوفِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥).

## الآيات (٢٦-٢٨)

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾: الاستِئجارُ: طَلَبُ الشَّيءِ بالأُجرةِ، وأصلُ (أجر) هنا: يدُلُّ على الكِراءِ على العَمَلِ[1].

﴿حِجَجٍ﴾: أي: سِنينَ، جمعُ حِجَّةٍ، وأصلُ (حج): يدُلُّ على قَصدٍ، لَمَّا كان الحَجُّ في السَّنةِ لا يكونُ إلَّا مرَّةً واحدةً، فكأنَّ العامَ سُمِّيَ بما فيه مِن الحَجِّ حِجَّةً[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما أشارَتْ به إحدَى الفتاتينِ على أبيها: قالت إحدى المرأتَينِ: يا أبتِ استأجِرْ هذا الرَّجُلَ؛ لِرَعيِ غَنَمِنا وسَقْيِها، إنَّ خيرَ مَن تستأجِرُه القويُّ الأمينُ. قال الأبُ لموسى: إنِّي أريدُ أنْ أُزَوِّجَك إحدى ابنَتَيَّ هاتينِ على أن ترعَى لي الغنَمَ ثمانيَ سِنينَ، فإنْ أتممْتَ المدَّةَ إلى عشْرِ سِنينَ فذلك تفضُّلٌ وإحسانٌ منك، وما أُريدُ أن أُكَلِّفَك ما يَشُقُّ عليك، ستَجِدُني إن شاء الله مِن

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٨).

الصَّالحينَ.

قال موسى له: ذلك الذي اتَّفَقْنا عليه واجِبٌ بيْني وبيْنَك، على كُلِّ واحدٍ مِنَّا الوفاءُ لصاحِبِه بما أوجَبَ له على نفْسِه، أيَّ الأجلينِ -الثَّماني أو العَشر سِنينَ- قضَيْتُ، فليس لك أن تَظلِمَني وتُطالِبَني بأكثَرَ مِن ذلك، واللهُ على ما قُلْنا حفيظٌ وشاهِدٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ﴾.

أي: قالت إحدَى المرأتينِ اللَّتينِ سقَى لهما موسى عليه السَّلامُ: يا أبتِ استأجِرْ هذا الرَّجُلَ؛ لِرَعيِ غَنَمِنا وسَقْيِها[1].

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾.

أي: إنَّ خيرَ مَن تَستأجِرُه القَويُّ على عَمَلِه، الأمينُ الَّذي لا يَخونُ ما ائتُمِنَ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

قال ابن الجوزي: (وإنَّما سمَّتْه قويًّا، لرفعِه الحجَرَ على رأسِ البئرِ. وقيل: لأنَّه استقَى بدَلْوٍ لا يُقِلُّها إلَّا العددُ الكثيرُ مِن الرِّجالِ، وسمَّتْه أمينًا؛ لأنَّه أمَرَها أن تمشيَ خلفَه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٤/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٦٩).

وقيل: الأمانةُ والقوةُ أُخِذَتا مِن سَقْيِه، فأمَّا القوَّةُ فعُرِفتْ مِن نزعِه الدَّلْوَ، وأمَّا الأمانةُ فلِكَونِه =

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾.

﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾.

أي: قال أبو المرأتَينِ لِموسى: إنِّي أُريدُ أن أزَوِّجَك إحدى ابنتَيَّ هاتينِ على أن ترعى لي الغَنَمَ ثمانيَ سِنينَ[1].

﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَ﴾.

أي: فإنْ أتممْتَ رعْيَ أغنامي عَشْرَ سِنينَ، فهذه الزِّيادةُ تفَضُّلٌ وإحسانٌ منك، وليسَت بواجبةٍ عليك[2].

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾.

أي: وما أُريدُ أن أكَلِّفَك ما يَشُقُّ عليك[3].

---

= يَسْقي سقيًا كاملًا، فيدَعُ الغنَمَ حتَّى تَروَى، ولأنَّه لم يأخذْ شيئًا منها. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٢٩، ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١٣).

قال السَّعدي: (﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَ﴾ فأُحَتِّمَ عَشْرَ السِّنينَ، أو ما أُريدُ أن أستأجِرَك لأُكَلِّفَك أعمالًا شاقَّةً، وإنَّما استأجِرُك لعمَلٍ سَهلٍ يسيرٍ لا مشَقَّةَ فيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: ستَجِدُني إن شاء اللهُ مِنَ الصَّالحينَ في حُسنِ المعاملةِ والصُّحبةِ، ولِينِ الجانبِ، والوفاءِ بالمعاهدةِ(١).

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾.

أي: قال موسى لأبي المرأتينِ: ذلك الذي قُلْتَه وشارَطْتَني عليه قد رَضِيتُ به، وتمَّ فيما بيْني وبيْنَك، لا يَخرُجُ كِلانا عنه؛ لا أنا عمَّا شَرَطْتَ علَيَّ، ولا أنت عمَّا شرَطْتَ على نفْسِك، وعلى كلِّ واحدٍ مِنَّا الوفاءُ لصاحِبِه(٢).

﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾.

أيْ: أيَّ أجَلٍ مِن الأجَلَينِ قَضَيتُ -أطولَهما الذي هو العَشرُ، أو أقصَرَهما الَّذي هو الثَّمانِي- فليس لك أن تَظلِمَني وتعتدِيَ علَيَّ، فتُطالِبَني بأكثَرَ مِن ذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٩).
قال الزمخشري: (المرادُ باشتراطِ مَشيئةِ الله فيما وعَدَ مِن الصَّلاحِ: الاتِّكالُ على توفيقِه فيه ومعونتِه، لا أنَّه يَستعمِلُ الصَّلاحَ إنْ شاء الله، وإنْ شاء استعمَلَ خِلافَه!). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾.

أي: واللهُ على ما قُلْنا وتعاقَدْنا عليه حَفيظٌ وشاهدٌ علينا، مُراقِبٌ لنا؛ فليس لأيٍّ مِنَّا الخروجُ عن شَيءٍ ممَّا اتفَقْنا عليه[١].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ مشورةُ الأدنَى للأعلَى؛ لِقَولِها: ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾؛ لأنَّ الأمرَ هنا ليس للإلزام، ولكنْ للمَشورةِ والعَرْضِ؛ فقد يكونُ الأدنَى أعلَى مِن الأعلَى في بعضِ الأمورِ، كما أنَّ المفضولَ قد يكونُ أفضلَ مِن الفاضلِ في بعضِ الأمورِ[٢]، ويُستفادُ بيانُ أنَّ مَشورةَ الإنسانِ على أبيه لا تُعَدُّ مِنَ التَّنقُّصِ له[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ تَلَطُّفُ هذه المرأةِ في مُخاطبةِ أبيها؛ لِقَولِها: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾، ولهذا قالوا: لا ينبغي للإنسانِ أنْ يُناديَ والدَه باسمِه، كأنْ يقولَ مثلًا: يا عبدَ الرَّحمنِ! يا عبدَ العزيزِ! وما أشبَهَ ذلك، حتى إنَّ بعضَهم يقولُ: إذا نادى أباه باسمِه يُعَزَّرُ؛ لأنه نوعٌ مِن الاحتقارِ له، وأمَّا الخبرُ عنه باسمِه فلا بأسَ، مِثْلَ أنْ يقولَ: قال فُلانٌ، فلا حَرَجَ؛ ولهذا كثيرًا ما نَسمَعُ في الأحاديثِ أنَّ ابنَ عُمَرَ يقولُ: «قال عُمَرُ» وما أشبَهَ ذلك، وهذا لا بأسَ به، بخِلافِ النداءِ؛ فالنِّداءُ له حالٌ، والخبرُ له حالٌ أخرى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ الاستِثناءُ في غيرِ الدُّعاءِ[١]، وقد قال إسماعيلُ لأبيه إبراهيمَ عليهما السَّلامُ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقال موسى للخَضِرِ عليهما السَّلامُ: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ [الكهف: ٦٩]. والاستِثناءُ في غيرِ الدُّعاءِ توحيدٌ وتفويضٌ إلى الله، وبَراءةٌ مِنَ الحَوْلِ والقوَّةِ[٢].

٤- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّه لا ينبغي للمَرءِ أنْ يَعزِمَ على فِعلِ الشَّيءِ إلَّا مَقرونًا بالمشيئةِ، بل إنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى نهى نبيَّه أن يَعزِمَ على فِعلِ الشَّيءِ بدونِ قَرْنِه بالمشيئةِ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٣] [الكهف: ٢٣، ٢٤].

٥- أنَّ مِن مكارِمِ الأخلاقِ أنْ يُحسِنَ المرءُ خُلُقَه لأجيرِه وخادمِه، ولا يَشُقَّ عليه بالعَمَلِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فصاحِبُ مَدْيَنَ قد رَغَّب موسى عليه السَّلامُ في سهولةِ العملِ، وفي حُسنِ المعامَلةِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ الرَّجُلَ الصَّالحَ ينبغي له أن يُحسِنَ خُلُقَه مهما أمْكَنَه، وأنَّ الَّذي يُطلَبُ منه أبلَغُ مِن غيرِه[٤].

---

(١) عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا دعا أحدُكم فلْيَعْزِمِ المسألةَ، ولا يَقُولَنَّ: اللَّهُمَّ إنْ شِئتَ فأَعْطِني؛ فإنَّه لا مُسْتَكْرِهَ له)). رواه البخاري (٦٣٣٨)، ومسلم (٢٦٧٨).

وعن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((لا يَقُولَنَّ أحدُكم: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي إنْ شِئتَ، اللَّهُمَّ ارحَمْني إنْ شِئتَ، لِيَعْزِمِ المسألةَ؛ فإنَّه لا مُكْرِهَ له)). رواه البخاري (٦٣٣٩) واللفظ له ومسلم (٢٦٧٩).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٠٣، ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥، ٦١٩).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- العِبرةُ مِن سِياقةِ هذا الجُزءِ مِن القِصَّةِ المُفتتَح بقَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٢٢] إلى قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] هو ما تضمَّنَتْه مِن فضائِلِ الأعمالِ، ومناقِبِ أهلِ الكمالِ، وكيف هيَّأَ الله تعالى موسى لِتَلَقِّي الرِّسالةِ بأنْ قَلَّبَه في أطوارِ الفَضائِلِ، وما تتضَمَّنُه مِن خِصالِ المروءةِ والفُتوَّةِ التي استكَنَّتْ في نفْسِه؛ مِن فِعلِ المعروفِ، وإغاثةِ الملهوفِ، والرَّأفةِ بالضَّعيفِ، والزُّهدِ، والقَناعةِ، وشُكرِ رَبِّه على ما أسدى إليه، ومِن العَفافِ، والرَّغبةِ في عِشرةِ الصَّالحينَ، والعملِ لهم، والوَفاءِ بالعَقدِ، والثَّباتِ على العَهدِ، حتَّى كان خاتِمةَ ذلك تشريفُه بالرِّسالةِ؛ لِيَعتبِرَ المُشرِكون بذلك -إن كان لهم اعتِبارٌ- في مُقايَسةِ تلك الأحوالِ بأجناسِها مِن أحوالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فيَهتَدوا إلى أنَّ ما عَرَفوه به مِن زَكيِّ الخِصالِ قبْلَ رِسالتِه، وقَويمِ سيرتِه، وزَكاءِ سَريرتِه، وإعانتِه على نوائِبِ الحَقِّ، وتزَوُّجِه بأفضَلِ امرأةٍ مِن نِساءِ قَومِه: إنْ هي إلَّا خِصالٌ فاذَّةٌ فيه بيْنَ قَومِه، وإنْ هي إلَّا بَوارِقُ لانهطالِ سَحابِ الوَحيِ عليه. واللهُ أعلَمُ حيثُ يجعَلُ رِسالاتِه؛ ولِيأتسيَ المُسلِمونَ بالأُسوةِ الحَسَنةِ مِن أخلاقِ أهلِ النُّبوَّةِ والصَّلاحِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ أنَّ هذين الوَصفَينِ ينبغي اعتبارُهما في كلِّ مَن يَتولَّى للإنسانِ عَمَلًا بإجارةٍ أو غَيرِها؛ فإنَّ الخَللَ لا يكونُ إلَّا بفَقْدِهما أو فَقْدِ إحداهما، وأمَّا باجتماعِهما فإنَّ العَمَلَ يتمُّ ويَكمُلُ[2]. فهذا الكلامُ كلامٌ جامِعٌ للمَقصودِ؛ لأنَّ مَنِ اجتمَعَت فيه الكفاءةُ والأمانةُ جَديرٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٠، ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٤).

بتَفويضِ الأشغالِ إليه، والتَّعويلِ في النُّهوضِ بأعبائِها عليه[١].

٣- في تقديمِ القوَّةِ على الأمانةِ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ دَليلٌ على أنَّها أهَمُّ مِن الأمانةِ؛ لأنَّه كم مِن إنسانٍ أمينٍ، ولا يُخشى منه الخيانةُ أبدًا، لكِنَّه ضعيفٌ لا يُنتِجُ ولا يُثمِرُ! وكم مِن إنسانٍ قويٍّ في أداءِ عمَلِه، لكِنَّه ضعيفٌ في أمانتِه! فالثَّاني أحسَنُ لإقامةِ العَمَلِ؛ ولهذا تجدُ كثيرًا مِن الناس -الَّذين لَدَيْهم قوَّةٌ وحزمٌ وتصرُّفٌ- تجدُهم يُنتِجونَ مِن الأعمالِ أكثرَ بكثيرٍ مِن قَومٍ ضُعَفاءَ وعِندَهم أمانةٌ[٢]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ دَليلٌ على أنَّ ظاهِرَ عَمَلِ الطَّاعةِ في الإنسانِ يُستدَلُّ به على عدالتِه وأمانتِه[٣].

٥- الزَّواجُ مِن سُنَنِ المُرسَلينَ، كما قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]، وكما فعَلَ صاحِبُ مَدْينَ مع موسى بنِ عِمْرانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ قال له: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ﴾[٤].

٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: اعتِبارُ الإيجابِ والقَبولِ في عقْدِ النِّكاحِ[٥]: الإيجابِ مِن صاحِبِ مَدْيَنَ؛ لِقَولِه: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى﴾ [القصص: ٢٧]، والقَبولِ مِن موسى، بقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٥/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٥٦).

(٤) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٧٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٣).

﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾، ومعناه: إنِّي مُوافِقٌ وقابِلٌ[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ احتَجَّ بها بعضُهم على جوازِ أنْ يُكتَبَ في الصَّدَاقِ «أنكَحْتُه إيَّاها»، خلافًا لِمَنِ اختارَ «أنكحتُها إيَّاه» قائلًا: لأنَّه إنَّما يملكُ النِّكاحَ عليها لا عليه[٢]!

٨- قَولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ اليَسارَ لا يُعتبَرُ في الكفاءةِ؛ فإنَّ موسى عليه السَّلامُ كان حينَئذٍ فَقيرًا[٣].

٩- قال صاحِبُ مَدْيَنَ لموسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ﴾ ولم يقُلْ: (أنكَحْتُك على أن تَأْجُرَني)، وهذا يدُلُّ على أنَّ العُقودَ تنعقِدُ بما دلَّ عليها؛ لأنَّ الإرادةَ عن الشَّيءِ ليست هي الشَّيءَ؛ ولذلك فلو قال الرَّجُلُ لامرأتِه: أُريدُ أنْ أُطَلِّقَكِ، فلا يكونُ طلاقًا؛ لأنَّ الإرادةَ غيرُ الفِعلِ، لكِنْ هذا يدُلُّ على القَولِ الرَّاجِحِ، وهو أنَّ العُقودَ تنعَقِدُ بما دلَّ عليها، وليس لها صِيغةٌ مُعَينةٌ، حتى إنَّه رُبَّما تنعقِدُ بالفِعلِ كما في انعقادِ البَيعِ بالمُعاطاةِ[٤].

١٠- قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ ...﴾ الآيةَ. فيه عَرْضُ الوليِّ ابنتَه على الرَّجلِ، وهذه سُنَّةٌ قائمةٌ؛ عرَضَ صالحُ مَدْيَنَ ابنتَه على صالحِ بني إسرائيلَ، وعرَض عمرُ بنُ الخطَّابِ ابنتَه حفصةَ على أبي بكرٍ وعثمانَ، قال ابنُ عمرَ: لَمَّا تأيَّمَتْ حفصةُ قال عمرُ لعثمانَ: إنْ شِئْتَ أنكحْتُك حفصةَ بنتَ عمرَ...

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٤). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١١٦).

الحديثَ[١]. فمِنَ الحسَنِ عَرْضُ الرَّجُلِ وليَّتَه على الرَّجلِ الصَّالحِ؛ اقتِداءً بالسَّلفِ الصَّالحِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ دليلٌ على أنَّ وَلِيَّ البنتِ في التَّزويجِ أبوها[٣]، فالإنكاحُ إلى الوَليِّ، لا حقَّ للمرأةِ فيه، خِلافًا لأبي حَنيفةَ في بعضِ صُوَرِه، بأنْ تكونَ بالغةً عالِمةً بمصالحِ نفْسِها؛ فإنَّها تَعقِدُ على نفْسِها بمَحضَرٍ مِن الشُّهودِ[٤]!

١٢- قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ﴾ استدَلَّ مالكٌ بهذه الآيةِ على إنكاحِ البكرِ بغيرِ استئمارٍ؛ لأنَّه لم يَذكُرْ فيها استِئْمارًا[٥]، وهو أخذٌ بظاهرِ الآيةِ[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٩).

لا يصِحُّ النِّكاحُ بدونِ وليٍّ، وهو مذهبُ الجمهورِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٢٢٠)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٧/ ٥٠)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٤٨).

وذلك خلافًا للحنفيَّةِ. يُنظر: ((فتح القدير)) للكمال ابن الهُمام (٣/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٠٧).

قال ابن العربي: (وقال به الشَّافعيُّ، وكثيرٌ مِنَ العلماءِ. وقال أبو حنيفةَ: إذا بلغَتِ الصَّغيرةُ فلا يُزَوِّجُها أحدٌ إلَّا برضاها؛ لأنَّها بلغَتْ حدَّ التَّكليفِ، فأمَّا إذا كانت صغيرةً فإنَّه يُزَوِّجُها بغيرِ رِضاها؛ لأنَّه لا إذْنَ لها، ولا رِضاءَ، بغيرِ خِلافٍ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٠٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٩).

ثمَّ قال: (ولِمَن يَمنَعُ ذلك أن يقولَ: إنَّ عدَمَ التَّعرُّضِ له لا يَقتضي عدَمَ وُقوعِه). ((المصدر السابق)).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أنَّه تجوزُ الإجارةُ بالمَنفعةِ، ولو كانتِ المنفعةُ بُضعًا[١].

١٤- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ دلَّ على أنَّه يجوزُ أن يُشْرَطَ لِلْوَليِّ منفعةٌ وعلى أنَّ عَقدَ النِّكاحِ لا تُفسِدُه الشُّروطُ التي لا يُوجِبُها العَقدُ[٢].

١٥- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ استُدِلَّ به على صِحَّةِ الإجارةِ بالطُّعمةِ والكِسوةِ،كما جرَتْ به العادةُ[٣].

١٦- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ فيه جوازُ الإجارةِ على كلِّ عملٍ معلومٍ في نفعٍ معلومٍ أو زمنٍ مسمًّى، وأنَّ مَرَدَّ ذلك إلى العُرفِ[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإجارةَ على ما لا يمكِنُ أن يَخلُصَ مِن المجهولِ، وليس في وُسْعِ الأجيرِ والمستأجِرِ: جائزةٌ حلالٌ لا يُفسِدُها المجهولُ الَّذي لا يمكِنُ تَعريتُها منه؛ إذ لو جَهِدَ الرَّاعي أو صاحِبُ الغنَمِ أنْ يُسَمِّيَا موضِعَ المَرْعَى والمسرَحِ، ومِقدارَه، والسَّقْيَ وأورادَه؛ ما قَدَروا عليه بوجهٍ مِن الوُجوهِ[٥].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ أنَّه يجوزُ أنْ يَجعلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تيسير اللطيف المنان)) للسعدي (١/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦١).

الإنسانُ العَمَلَ عَمَلين: عَمَلًا واجبًا، وعَمَلًا تبرُّعًا؛ فيجوزُ للإنسانِ أنْ يَطلُبَ استئجارَ شَيءٍ ما -مثلًا- عَشْرَ سنَواتٍ بالأجْرِ، وسَنَتينِ تبَرُّعًا مِن صاحبِها برَغبتِه ومَشيئتِه(١).

١٩- قَولُ الله تعالى حِكايةً عن صاحِبِ مَدْيَنَ مُخاطِبًا موسى عليه السَّلامُ: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ليس هذا مِن تزكيةِ النَّفْسِ المَنهيِّ عنه؛ لأنَّ المَنْهيَّ عنه ما قَصَد به قائِلُه الفَخرَ والتَّمَدُّحَ؛ فأمَّا ما كان لغَرَضٍ في الدِّينِ أو المعامَلةِ، فذلك حاصِلٌ لداعٍ حَسَنٍ، كما قال يوسُفُ عليه السَّلامُ: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾(٢) [يوسف: ٥٥].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ العُقودَ ليست لها صِيَغٌ مُعَيَّنةٌ، فتَنعَقِدُ بما دَلَّتْ عليها، وكذلك الفُسوخُ، وكذلك الوِلاياتُ؛ كلُّ التصَرُّفاتِ مِن عُقودٍ وفُسوخٍ ووِلاياتٍ فإنَّها تَصِحُّ بما دلَّ عليها، ولا يُشتَرطُ لها لَفظٌ مُعَيَّنٌ، بل تجري على ما يَتعارَفُه النَّاسُ بيْنَهم(٣).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ أنَّ العُقودَ عهودٌ في الحقيقةِ، وهو كذلك؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يَعقِدُ مع شخصٍ فَقَدِ التزَمَ ألَّا يَخونَه، والتزمَ أنْ يفيَ له بمقتضى هذا العَقدِ؛ فيكونُ بذلك عهدًا(٤).

٢٢- جوازُ عقْدِ الإجارةِ وغيرِها مِن العقودِ مِن دونِ إشهادٍ؛ لِقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩). =

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ جوازُ تخصيصِ العمومِ لغَرَض، أي: جوازُ تعليقِ الشَّيءِ العامِّ بأمرٍ خاصٍّ بغَرَضٍ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ يقتضي تخصيصَ وكالةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بما قالاهُ فقط، ولكِنَّ الأمرَ ليس كذلك، إنَّما خُصِّصَ هذا لغَرَضِ العنايةِ به[1].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ جوازُ إشهادِ اللهِ على العَقدِ، ولكنْ شرعًا لا يُقتصَرُ على ذلك، لكنْ باطنًا فيما بيْنَهم وبيْنَ اللهِ يُكتفى به؛ ويستفيدُ الرَّجُلُ إذا أشهدَ اللهَ أو جَعَلَه الوكيلَ الحفيظَ المراقِبَ أنْ يُذَكِّرَ بانتقامِ اللهِ منه إذا خالَفَ أو خان؛ فمَن أشهدَ اللهَ ثمَّ خان فقد استَخَفَّ به، وهي كذلك في حقِّ المخلوقينَ، فما بالُك أنْ تكونَ في حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ[2]؟!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ حُذِفَ ما لَقِيَه مُوسى مِن الجَزاءِ بإضافتِه وإطعامِه، وانتُقِلَ منه إلى عَرضِ

---

= واستُدِلَّ بالآيةِ أيضًا على عدمِ اشتراطِ الإشهادِ في النِّكاحِ؛ لأنَّه اكتفَى بشهادةِ الله، ولم يُشهِدْ أحدًا مِن الخلْقِ. يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٠٤). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٠٩).

لكنَّ مذهبَ الجمهورِ مِنَ الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ عدَمُ صحَّةِ عَقدِ النِّكاحِ بدونِ شُهودٍ. يُنظر: ((الفتاوى الهندية)) (١/ ٢٦٧)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٧/ ٤٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٦٥).

أمَّا المالكيَّةُ فيَرَوْنَ أنَّ الإشهادَ واجبٌ وهو مندوبٌ عندَ العقدِ، فإن لم يحصُلِ الإشهادُ عندَ العقدِ فإنَّه يكونُ واجبًا عندَ البناءِ، وإن بنى بها بدونِ إشهادٍ فُسِخَ النِّكاحُ بطلقةٍ مِن قِبَلِ الحاكِمِ. يُنظر: ((الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إحدَى المرأتينِ على أبِيها أنْ يَستأجِرَه للعملِ في ماشِيَتِه؛ إذ لم يكُنْ لهم ببَيتِهم رجُلٌ يقومُ بذلك، وقد كبِرَ أبوهما، فلمَّا رأتْ أمانتَه ووَرَعَه رأتْ أنَّه خيرُ مَن يُسْتأجَرُ للعملِ عندَهم؛ لقُوَّتِه على العملِ وأمانتِه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تَعليلٌ جارٍ مَجرى الدَّليلِ على أنَّه حَقيقٌ بالاستِئجارِ[٢]. وهو أيضًا كلامٌ حكيمٌ جامعٌ؛ لأنَّه إذا اجتَمَعتْ هاتانِ الخَصْلتانِ -الكِفايةُ والأمانةُ- في القائمِ بالأمرِ، فقد فرَغَ البالُ، وتمَّ المُرادُ، وقد اسْتغْنَتْ بإرسالِ هذا الكلامِ الذي سِياقُه سِياقُ المثَلِ والحِكمةِ أنْ تقولَ: استأْجِرْه لِقُوَّتِه وأمانتِه. وهو أيضًا أجمَلُ في مَدْحِ النِّساءِ للرِّجالِ مِن المدْحِ الخاصِّ، وأبْقَى للحِشْمةِ، وخُصوصًا إنْ كانتْ فَهِمَتْ أنَّ غرَضَ أبِيها أنْ يُزَوِّجَها منه[٣].

- وأيضًا مَجيءُ هذا العمومِ ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ عقِبَ الحديثِ عن شخصٍ مُعيَّنٍ يُؤذِنُ بأنَّ المُتحدَّثَ عنه ممَّن يَشمَلُه ذلك العمومُ؛ فكان ذلك مُصادِفًا المَحَزَّ مِن البلاغةِ؛ إذ صار إثباتُ الأمانةِ والقوَّةِ لهذا المُتحدَّثِ عنه إثباتًا للحُكمِ بدليلٍ، فتَقديرُ معنى الكلامِ: استأْجِرْه؛ فهو قويٌّ أمينٌ، وإنَّ خيرَ مَنِ استأْجَرَ مُستأْجِرٌ القَويُّ الأمينُ؛ فكانت الجُملةُ مُشتمِلةً على خُصوصيَّةِ تَقديمِ الأهَمِّ، وعلى إيجازِ الحذْفِ، وبذلك استوَفَتْ غايةَ مُقْتضى الحالِ؛ فكانتْ بالِغةً حدَّ الإعجازِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٦).

- وجُعِلَ ﴿خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ اسمًا لـ (إنَّ)، وجُعِلَ ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ خبرًا، مع صِحَّةِ جَعلِ ﴿ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ هو اسم (إنَّ) -فإنَّهما مُتساويانِ في المعرفةِ- مِن حيثُ إنَّ المُرادَ بالتَّعريفِ في الموصولِ المُضافِ إليه ﴿خَيْرَ﴾، وفي المُعرَّفِ باللَّامِ هنا: العُمومُ في كِلَيهما؛ فأُوثِرَ بالتَّقديمِ في جُزأَيِ الجُملةِ ما هو أهَمُّ وأولَى بالعِنايةِ، وهو: خيرُ أجيرٍ؛ لأنَّ الجُملةَ سِيقَتْ مَساقَ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾، فوَصْفُ الأجيرِ أهَمُّ في مَقامِ تَعليلِها، ونفْسُ السَّامعِ أشدُّ تَرقُّبًا لحالِه. أو هو مِن القَلْبِ للمُبالَغةِ. ولَمَّا كان مُقْتضى الحالِ -أي: شَيخوختُه وحياؤُهما- هو الَّذي أوجَبَ قَيِّمًا يَهتَمُّ بها، ومُستأْجَرًا يَستأجِرونه لها؛ كان ذلك مطلوبًا لِذَاتِه، وكانت القوَّةُ والأمانةُ تابعتينِ له تُعرَفُ بالذَّوقِ. أو يُقال: إنَّ الفاصلةَ هي التي استَدْعَت تأخيرَ ﴿ٱلْأَمِينُ﴾، و﴿ٱلْأَمِينُ﴾ اسْتَدْعى مُقارَنةَ ﴿ٱلْقَوِىُّ﴾ معه[1].

- ووَرَدَ الفِعلُ ﴿ٱسْتَـْٔجَرْتَ﴾ بلَفظِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّه أمْرٌ قد جُرِّبَ وعُرِفَ[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَـٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَـٰنِىَ حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾

- في قولِه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ﴾ إيجازٌ بَليغٌ؛ فحَقيقةُ: شقَقْتُ عليه، وشقَّ عليه الأمْرُ: أنَّ الأمرَ إذا تَعاظَمَك، فكأنَّه شقَّ عليك ظنُّك باثنَينِ؛ تقولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٣، ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٠٥، ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٦).

تارةً: أُطِيقُه، وتارةً: لا أُطِيقُه، فهو مُترجِّحٌ بيْن اليأسِ والرَّجاءِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ ۖ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ وقَعَتْ (ما) في ﴿أَيَّمَا﴾ صِلَةً للتَّأكيدِ؛ لِيَصيرَ الموصولُ شَبيهًا بأسماءِ الشَّرطِ؛ لأنَّ تأكيدَ (ما) في اسمِ الموصولِ مِن الإبهامِ يُكسِبُه عُمومًا، فيُشْبِهُ الشَّرطَ؛ فلذلك جُعِلَ له جوابٌ كجَوابِ الشَّرطِ[٢].

- وقولُه: ﴿فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ أبلَغُ في إثباتِ الخِيَرةِ، وتَساوي الأجَلَينِ في القضاءِ مِن أنْ يُقالَ: (إنْ قضَيْتُ الأقصَرَ فلا عُدوانَ علَيَّ)[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠).

## الآيات (٢٩-٣٥)

﴿ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ءَانَسَ﴾: أي: أبصَرَ وأحَسَّ، والإيناسُ: الرُّؤيةُ، والإحساسُ بالشَّيءِ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ[1].

﴿ٱلطُّورِ﴾: الطُّورُ اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وقيل: اسمٌ لكلِّ جبلٍ، وقيل: هو الجبلُ المنبتُ دونَ غيرِه، وأصلُ (طور): يدُلُّ على الامتدادِ في شَيءٍ مِن مكانٍ أو زمانٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ٢٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩).

﴿جَذْوَةٍ﴾: أي: قِطعةٍ غَليظةٍ مِنَ الحَطَبِ فيها نارٌ لا لهبَ فيها[١].

﴿تَصْطَلُونَ﴾: أي: تَستَدفِئونَ، والصَّلا: النَّارُ العظيمةُ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ[٢].

﴿شَٰطِئِ﴾: أي: جانِبِ[٣].

﴿ٱلْبُقْعَةِ﴾: أي: القطعةِ مِن الأرضِ المتميِّزةِ عن غيرِها، وأصلُ (بقع): مُخالَفةُ الألوانِ بعضِها بعضًا[٤].

﴿جَآنٌّ﴾: جِنسٌ من الحيَّاتِ خَفيفٌ سَريعٌ، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَتْرٍ[٥].

﴿يُعَقِّبْ﴾: أي: يَرجِعْ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٣)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ١٤)، ((غريب =

﴿ ٱسۡلُكۡ ﴾: أي: أدْخِلْ، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ[١].

﴿جَيۡبِكَ ﴾: أي: جَيبِ قَميصِك، وهو مَدخَلُ الرَّأسِ منه المفتوحُ إلى الصَّدرِ[٢].

﴿جَنَاحَكَ ﴾: أي: يَدَك، وأصلُ (جنح): يدُلُّ على المَيلِ، وسُمِّيَ الجناحانِ جَناحَينِ؛ لِمَيلِهما في الشِّقَّينِ[٣].

﴿ٱلرَّهۡبِ ﴾: أي: الخَوفِ والرَّهبةِ، والرَّهْبةُ والرَّهْبُ: مخافةٌ مع تحرُّزٍ واضْطِرابٍ، وأصلُ (رهب): يدُلُّ على خَوفٍ[٤].

﴿فَذَٰنِكَ﴾: أي: العصا واليدُ، وذانِك: اسمُ إشارةٍ، تثنيةُ (ذاك)، وبالتَّشديدِ (ذَانِّكَ) تثنيةُ (ذلك)[٥].

﴿رِدۡءٗا ﴾: أي: مُعينًا، يُقالُ: فلانٌ رِدْءٌ لفُلانٍ: أي: يَنصُرُه ويَشُدُّ ظَهرَه، وأصلُه مِن قَولِهم: ردأتُ الحائِطَ: إذا دعَمْتَه بخَشَبٍ أو نحوِه؛ لئلَّا يَسقُطَ[٦].

---

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩١، ٤٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨١).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٩)، =

﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾: أي: سنُعينُك، ونقَوِّيك، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ، والعَضُدُ: ما بيْنَ المِرفَقِ إلى الكَتِفِ، وكلُّ مُعينٍ فهو عضُدٌ، وعاضَدَني فلانٌ، أي: عاوَنَني، وشَدُّ العَضُدِ مَثَلٌ في التَّقويةِ والإعانةِ؛ وذلك أنَّ مَن قَوَّيتَ عَضُدَه فقد أعَنْتَه(١).

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: حُجَّةً، وبُرهانًا، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا(٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فلمَّا أنهى موسى سَنواتِ رَعْيِه للغنَمِ، وسار بأهلِه إلى مِصرَ؛ أبصَرَ مِن جهةِ الجبَلِ نارًا مُضيئةً، فقال لأهلِه: الزَموا مكانَكم؛ فإنِّي أبصَرْتُ نارًا، سأذهَبُ إليها؛ لعلِّي أرجِعُ إليكم مِن عندِها بخبرٍ يدُلُّنا على الطَّريقِ، أو آتي بقِطعةٍ مُشتعِلةٍ مِن النَّارِ؛ لِتَستدفِئوا بها مِن البَردِ.

فلمَّا أتَى موسى إلى النَّارِ ناداه اللهُ مِن عن يمينِ موسى في البُقعةِ المبارَكةِ مِن ناحيةِ الشَّجَرةِ، فقال له: يا موسى، إنِّي أنا اللهُ ربُّ العالَمينَ الَّذي يكَلِّمُك، واطرَحْ عَصاك. فألقى موسى عصاهُ، فلمَّا رآها تتحرَّكُ بسُرعةٍ كأنَّها حيَّةٌ، ولَّى مُسرِعًا ولم يلتَفِتْ؛ لشِدَّةِ خَوفِه، فقال اللهُ له: يا موسى، ارجِعْ ولا تخَفْ؛ إنَّك

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٩) و(٤/ ٣٤٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٥١) و(١٧/ ٣٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

مِنَ الآمِنينَ، أدخِلْ يَدَك في جَيبِك -وهو فَتحةُ الثَّوبِ مكانَ دُخولِ الرَّأسِ- تخرُجْ بَيضاءَ بياضًا عظيمًا مِن غيرِ عَيبٍ أو مَرَضٍ، واضمُمْ يَدَك إلى صَدرِك؛ فيذهَبَ ما أصابك مِن الخَوفِ، فهاتان آيتانِ مِن رَبِّك إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه؛ إنَّهم كانوا قومًا كافرينَ خارِجينَ عن طاعةِ الله.

قال موسى: ربِّ إنِّي قتَلْتُ مِن قَومِ فِرعَونَ نفْسًا، فأخافُ أن يقتُلوني، وأخي هارونُ هو أفصَحُ مني لِسانًا، وأحسَنُ بيانًا؛ فاجعَلْه رَسولًا معي إلى فِرعَونَ، ومُعينًا لي على دَعوتِهم؛ إنِّي أخافُ أن يكَذِّبوني.

قال اللهُ له: سنُقَوِّيك بإرسالِ أخيك معك، ونجعَلُ لكما حُجَّةً على فِرعَونَ وقَومِه، وتمتَنِعانِ منهم بسبَبِ آياتِنا؛ فلا يُصيبونَكما بضَرَرٍ، أنتما وأتباعُكما غالِبونَ لهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾.

أي: فلمَّا أنهى موسى سَنَواتِ رَعْيِه للغَنَمِ، وسار بزَوجِه إلى مِصرَ؛ أبصَرَ مِن جِهةِ الجَبَلِ نارًا مُضيئةً[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٤، ٢٣٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

قال السعدي: (﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ يحتمِلُ أنَّه قضَى الأجلَ الواجبَ، أو الزائدَ عليه، كما هو الظنُّ بموسى ووفائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)

ممن اختار أنَّه قضَى العشرَ سنين: مقاتلُ بن سليمان، ومكي، وابنُ كثير، والشوكاني، والشنقيطي، ونسبه ابنُ عثيمين إلى أكثرِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٣)، =

عن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (سألَني يهوديٌّ مِن أهلِ الحِيرةِ: أيَّ الأجَلَينِ قضى موسى؟ قلتُ: لا أدري، حتَّى أقدَمَ على حَبرِ العَربِ فأسألَه، فقَدِمتُ فسألتُ ابنَ عبَّاسٍ، فقال: قضى أكثَرَهما وأطْيَبَهما؛ إنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا قال فعَلَ)[1].

﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾.

أي: قال موسى لامرأتِه: أقيموا مَكانَكم؛ فإنِّي أبصَرْتُ نارًا، سأذهَبُ إليها راجيًا أن أرجِعَ إليكم مِن عندِها بخبَرٍ عن الطَّريقِ[2].

---

= ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٤).

وممن اختار هذا القولَ مِن السلف: ابنُ عبَّاسٍ، ثبَت ذلك عنه، وأخرَجه البخاريُّ في ((صحيحه)) (٢٦٨٤) بسندِه عن سعيدِ بنِ جبيرٍ عندَما سأَله يهوديٌّ: أيَّ الأجلينِ قضَى موسَى؟ فسأَل سعيدُ ابنُ جُبيرٍ ابنَ عبَّاسٍ رضِي الله عنهما، فأجابَه بأنَّ موسى عليه السلامُ قضَى أكثرَهما.

وذكَر ابنُ كثيرٍ أنَّه قد يُستفاد هذا أيضًا مِن الآيةِ الكريمةِ مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ﴾ أي: الأكملَ منهما. ينظر:((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤).

وأيضًا فهذا هو الظنُّ بموسَى عليه السلامُ وكرمِه ووفائِه. ينظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٤).

ويحتملُ أنَّه قضَى الأجلَ الواجبَ ثماني سنين؛ فإنَّه هو الواجبُ عليه، وموسَى كان في اشتياقٍ إلى بلادِه بمصرَ، وقد قال فيما سبَق معتذرًا ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّ﴾، وهذه جملةٌ قد تشيرُ إلى أنَّه يريدُ أن يقتصرَ على الأجلِ الواجبِ، وإلا فمِن المعلومِ أنَّه إذا قضَى الأجلَ الواجبَ فإنَّه لا أحدَ يلومُه، أو يعتدي عليه. ينظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٤).

قال البقاعي: (والظَّاهِرُ أنَّه مكَثَ عندَه بعدَ الأجَلِ أيضًا مدَّةً؛ لأنَّه عطف بالواو قَولَه: ﴿وَسَارَ﴾، ولم يجعَلْه جوابًا لِلَمَّا). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٧٧).

(١) رواه البخاري (٢٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن =

﴿أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

أي: أو آتيكم مِن النَّارِ بقِطعةِ حَطَبٍ مُشتَعلةٍ، راجيًا أن تَستدفِئوا بها مِن البَردِ[1].

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾.

أي: فلمَّا أتَى موسَى إلى النَّارِ الَّتي أبصَرَها عندَ الجَبَلِ، ناداه اللهُ تعالى مِن جانِبِ الوادي الواقِعِ على يمينِ موسى عليه السَّلامُ[2].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

---

= كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٥، ١٣٦).

واختار الزَّجَّاجُ ومكِّيٌّ أنَّ معنى ﴿لَعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي: لعلِّي أعلَمُ لِمَ أُوقِدَتْ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٣٩، ٢٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤٠، ١٤١).

قال ابنُ كثير: (أي: مِن جانِبِ الوادي ممَّا يلي الجبَلَ عن يمينِه، مِن ناحيةِ الغَربِ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤]، فهذا ممَّا يُرشِدُ إلى أنَّ موسى قصَدَ النَّارَ إلى جهةِ القِبْلةِ، والجَبَلَ الغربيَّ عن يمينِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٢).

﴿فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

أي: ناداه في قِطعةِ الأرضِ الَّتي أحَلَّ اللهُ فيها البَرَكةَ[١] مِن ناحيةِ الشَّجَرةِ الَّتي في جانِبِ الوادي الأيمَنِ[٢].

﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: نادَى اللهُ موسَى فقال له: يا موسَى، إنَّ الَّذي يُكَلِّمُك هو أنا اللهُ ربُّ جميعِ الخلائِقِ، الَّذي لا إلهَ غيري[٣].

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾.

أي: واطرَحْ عصاك الَّتي معك على الأرضِ[٤].

﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾.

---

(١) قال الواحدي: (﴿ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ بتكليمِ الله سُبحانَه فيها موسى عليه السَّلامُ، وإتيانِه النُّبوَّةَ). ((الوجيز)) (ص: ٨١٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤١-١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن فورك)) (١/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤٩).

أي: فألقَى موسَى عصاه، فلمَّا رآها تتحرَّكُ وتَضْطَرِبُ كأنَّها حيَّةٌ في سُرعةِ حَرَكتِها، وشِدَّةِ اهتزازِها؛ هرَبَ منها مُسرِعًا ولم يَرجِعْ أو يلتَفِتْ؛ لشِدَّةِ خَوفِه[١].

﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾.

أي: قال اللهُ له: يا موسى، عُدْ إلى مكانِك ولا تخَفْ؛ إنَّك في أمنٍ مِن أن ينالَك مَكروهٌ[٢].

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٣٢﴾.

﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾.

أي: أدخِلْ يَدَك في فَتحةِ قَميصِك -وهي الفتحةُ العُلويَّةُ مكانَ دُخولِ الرَّأسِ- فإذا أخرَجْتَها تخرُجُ بيضاءَ بياضًا عظيمًا مِن غيرِ عَيبٍ أو مَرَضٍ[٣]!

﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾.

أي: واضمُمْ يَدَك إلى صَدرِك؛ فيذهَبَ ما أصابَك مِن الخَوفِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، (نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤٩، ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٤١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٥٦، ١٥٧). =

﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾.

أي: فهاتانِ آيَتانِ وحُجَّتانِ مِن رَبِّك -تَحَوُّلُ عَصاكَ إلى حَيَّةٍ، وخُروجُ يَدِك مِن جَيبِك بَيضاءَ مِن غيرِ سُوءٍ- تَدُلَّانِ على الحَقِّ، أُرسِلُك بهما إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه وكُبَرائِهم(١).

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

أي: أُرسِلُك بهاتينِ الآيَتَينِ؛ لأنَّ فِرعَونَ ومَلأَه قَومٌ مَطبوعونَ على الكُفرِ، مُتَّصِفونَ بالخُروجِ عن طاعةِ اللهِ(٢).

كما قال تعالى لموسى عليه السَّلامُ: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢].

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

---

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ ضَمُّ اليَدِ إلى الصَّدرِ؛ لإذهابِ خَوفِه: يحيى بنُ سلام، وابن جرير، والسمعاني، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الواحدي: (وقوله: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ قال مجاهدٌ: اضمُمْ إليك يدَك مِنَ الفَرَقِ. وهذا قولُ جميعِ المفسِّرينَ؛ قالوا: لَمَّا ألقى موسى عصاه فصارتْ جانًّا رَهِبَ وفَزِعَ، فأمَرَه الله أن يَضُمَّ إليه جَناحَه؛ لِيَذهَبَ عنه الفَزَعُ). ((البسيط)) (١٧/ ٣٨٥).

وقيل: المرادُ ضَمُّ يَدِه الَّتي صارت بيضاءَ إلى جَسدِه؛ لِتَعودَ إلى لَونِها الطَّبيعيِّ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٨١).

قال العُلَيمي: (إذا هالَكَ أمرُ يدِك، وما تَرَى مِن شعاعِها، فأدخِلْها في جيبِك، تَعُدْ إلى حالتِها الأُولَى). ((تفسير العليمي)) (٥/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٦، ٢٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) (١٤/ ٢٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٥٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ تضمَّنَ ذلك أنْ يذهَبَ موسى بهذينِ البُرهانَينِ إلى فِرعَونَ وقَومِه؛ فعندَ ذلك طَلَبَ مِن اللهِ تعالى ما يُقوِّي قلْبَه، ويُزيلُ خَوفَه، فقال[1]:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: قال موسى: ربِّ إنِّي قَتلْتُ مِن قَومِ فِرعَونَ نفْسًا، فأخافُ -إنْ رأَوْني وحيدًا بلا ظَهيرٍ ومُعِينٍ يُبَيِّنُ لهم ما أُريدُ مِنَ القَولِ- أن يَقتُلوني قبلَ أن أتمكَّنَ مِن دَعوتِهم إلى الحَقِّ[2].

﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾.

أي: وأخي هارونُ هو أحسَنُ مِنِّي بيانًا؛ فاجعَلْه رَسولًا معيَ إلى فِرعَونَ وقَومِه، ووزيرًا ومُعِينًا لي على دَعوتِهم، يُبَيِّنُ ما أقولُ لهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٣)، ((الفواتح الإلهية)) للشيخ علوان (٢/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).
قال الرازي: (أجمَع المفسِّرون على أنَّ المرادَ منه قَتْلُ ذلك القِبطيِّ بذلك الوَكزِ). ((تفسير الرازي)) (١٠/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٤٩، ٢٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((الفواتح الإلهية)) للشيخ علوان (٢/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).
قال ابنُ عاشور: (معنى تصديقِه إيَّاه: أن يكونَ سَببًا في تصديقِ فِرعَونَ وَملَئِه إيَّاه؛ بإبانتِه عن الأدلَّةِ الَّتي يُلقيها موسى في مقامِ مُجادَلةِ فِرعَونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٩).

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ موسى: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي * يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي * وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي * وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي * كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا * وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾ [طه: ٢٧ - ٣٥].

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾.

أي: أيِّدْني بأخي هارونَ؛ لأنِّي أخافُ ألَّا يُصَدِّقَني فِرعَونُ وقَومُه(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ * وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرۡسِلۡ إِلَىٰ هَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ١٢، ١٣].

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾.

أي: قال اللهُ لِموسى: سنُقوِّيك ونُعينُك بإرسالِ أخيك معك(٢).

﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾.

أي: ونجعَلُ لكما حُجَّةً على فِرعَونَ وقَومِه، ومَهابةً في قُلوبِهم منكما، فيكونُ لكما الظُّهورُ والغَلَبةُ عليهم، وتَمتَنِعانِ منهم؛ بسَبَبِ آياتِنا، فلا يؤذونَكما(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٣٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((تفسير المظهري)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٨، ١٦٩). =

﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾

أي: أنتما وأتْباعُكما المنصورونَ على فِرعَونَ ومَلَئِه، القاهِرونَ لهم[1].

---

= اختلَف المفسِّرون في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ على عدَّةِ أقوالٍ؛ منها: أنَّ المعنى: تمتنعانِ منهم بآياتِنا وحُجَجِنا، فلا يَصِلُون إليكما. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: القرطبيُّ، وابن كثير، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٩-١٧١).

وقيل: هو مُتعلِّقٌ بما بعْدَه، فالمعنى: بآياتِنا أنتما ومَنِ اتَّبَعكما الغالِبون، أي: تَغلِبون بآياتِنا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢٧٢).

قال ابن كثير: (ووجَّه ابنُ جريرٍ على أنَّ المعنى: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾، ثمَّ يَبتدئُ فيقولُ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، تقديرُه: أنتُما ومَنِ اتَّبَعكما الغالِبون بآياتِنا. ولا شكَّ أنَّ هذا المعنى صحيحٌ، وهو حاصلٌ مِنَ التَّوجيهِ الأوَّلِ، فلا حاجةَ إلى هذا، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧).

وقيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، تقديرُه: ونجعَلُ لَكما سُلطانًا بآياتِنا، فلا يَصِلُون إليكما. وممَّن جوَّز هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٧).

وقيل: عنى بالآياتِ هنا: سائرَ مُعجزاتِ موسى عليه السَّلامُ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨).

قال ابن عاشور: (وعلى الوُجوهِ كلِّها فالآياتُ تشمَلُ خوارِقَ العاداتِ المُشاهَدةَ؛ مِثلُ: الآياتِ التِّسعِ، وتشمَلُ المعجزاتِ الخفيَّةَ؛ كصَرفِ قَومِ فِرعَونَ عن الإقدامِ على أذاهما معَ ما لَدَيْهم من القُوَّةِ، وما هم عليه مِن العَداوةِ، بحيث لولا الصَّرفةُ مِن اللهِ لأهلَكوا موسى وأخاه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ سؤالٌ: أنَّ قولَه: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ خطابُ جماعةِ الذكورِ؛ فما وجهُ خِطابِ المرأةِ بخِطابِ جماعةِ الذُّكورِ؟

**الجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:**

**الأوَّل:** أنَّ الإنسانَ يُخاطِبُ المرأةَ بخِطابِ الجماعةِ؛ تعظيمًا لها، ونظيرُه قولُ الشَّاعرِ[١]:

فإنْ شِئتِ حَرَّمتُ النِّساءَ سِواكُمُ

**الثَّاني:** أنَّ معها خادمًا، والعرَبُ رُبَّما خاطبَتِ الاثنينِ خِطابَ الجماعةِ.

**الثَّالثِ:** أنَّه كان له مع زوجتِه ولَدانِ له[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ دَليلٌ على حُسنِ مُعاملةِ موسى لأهلِه؛ إذْ جَعَلَ يَتطلَّبُ لهم ما يُدفِّئُهم، وقد قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((خَيرُكم خَيرُكم لأهلِه، وأنا خَيرُكم لأهلي))[٣].

---

(١) ينظر: ((ديوان العرجي)) (ص ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٩). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ أنَّ اتِّخاذَ الأعْوانِ هو مِن أسبابِ النَّجاةِ، وهذا أمرٌ مَعلومٌ مِن قديمِ الزَّمانِ وحَديثِه؛ أنَّه كلَّما كان الإنسانُ معه مَن يُعينُه ويُساعِدُه، كان ذلك أقرَبَ إلى نجاحِه مِن انفرادِه[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ﴾ إثباتُ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى قد يُقَدِّرُ للمَرءِ مِن الأسبابِ ما يُوصِلُه إلى الكَمالِ؛ ذلك أنَّ رَعْيَ الغَنَمِ فيه مَصلَحةٌ لِرعايةِ الخلْقِ فيما بَعدُ؛ ولهذا أخبرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه ((ما بَعَثَ اللهُ نبيًّا إلَّا رعَى الغَنَمَ))[٢]، فإذا كان الإنسانُ يَتعوَّدُ الرِّعايةَ ومَسؤوليةَ الرَّعيَّةِ، فإنَّ هذا فيه تَوطِئةٌ لِمَا يُوكَلُ إليه فيما بَعْدُ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ للرَّجُلِ أن يذهَبَ بأهلِه حيثُ شاء؛ لِما له عليها مِن فَضلِ القواميَّةِ، وزيادةِ الدَّرجةِ، إلَّا أن يلتَزِمَ لها أمرًا؛ فالمؤمِنونَ عند شُروطِهم، و((أحَقُّ الشُّروطِ أن تُوفُوا به ما استَحلَلْتُم به الفُروجَ))[٤].

---

= والحديث أخرجه الترمذي (٣٨٩٥)، وابن حبان (٤١٧٧) واللَّفظُ لهما، والبيهقيُّ (١٦١١٧) مختصرًا، مِن حديثِ عائشةَ رضي الله عنها.

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ صحيحٌ)، وصحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((تهذيب الآثار- مسند عمر)) (١/ ٤٠٨)، وصحَّحه الشَّوكانيُّ في ((فتح القدير)) (١/ ٦٣٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٨٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥١١). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ -حتَّى قبْلَ النُّبوَّةِ- هم كغيرِهم مِن البشَرِ؛ يُحِسُّون بآلامِ البَردِ، وكذلك بآلامِ الجوعِ وغيرِه، ويَهتَدون إلى الطَّريقِ، وقد يَضِلُّون عنه، فهنا فائدتانِ شَرعيَّتانِ:

**الأُولى**: أنَّهم لا يَعلمونَ الغَيبَ؛ إذْ لو كانوا يَعلمونَ الغيبَ ما ضَلُّوا عن الطَّريقِ.

**الثَّانيةُ**: أنَّهم لا يَملِكونَ لأنفُسِهم نفعًا ولا ضَرًّا، فإذا كانوا لا يَملكون ضَرًّا ولا نفعًا لأنفُسِهم، فلِغَيرِهم مِن بابِ أَولى، وهذا مُصَرَّحٌ به في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وقال اللهُ تعالى لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ۞ قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾[1] [الجن: ٢١، ٢٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى إذا أراد أمرًا هَيَّأَ أسبابَه؛ فإنَّ اللهَ لَمَّا أراد أنْ يوحِيَ إلى نبيِّه موسى عليه السَّلامُ في ذلك المكانِ، هَيَّأَ له أسبابًا تُوصِلُه إلى النَّارِ الَّتي رآها وقَصَدَها[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ أنَّ اتِّخاذَ الأسبابِ لا يُنافي التَّوكُّلَ، بل هو مِن تمامِ التَّوكُّلِ، ومِن

---

= والحديث أخرجه البخاري (٢٧٢١) واللفظ له، ومسلم (١٤١٨) من حديثِ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تمامِ معرفةِ الإنسانِ باللهِ سُبحانَه وتعالى، لكنَّ المحظورَ أنْ يَعتمِدَ الإنسانُ على السَّبَبِ، ويَظُنَّ أنَّه هو الغايةُ[١]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ إثباتُ كلامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ المُناديَ في قَولِه: ﴿نُودِيَ﴾ هو اللهُ؛ لِقَولِه تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾[٢] [النازعات: ١٦]. والنِّداءُ لا يكونُ إلَّا صَوتًا مَسموعًا، ولا يُعقَلُ في لُغةِ العَرَبِ لفظُ النِّداءِ بغيرِ صَوتٍ مَسموعٍ، لا حَقيقةً ولا مَجازًا[٣]، وفيه رَدٌّ على الأشاعرةِ الَّذين يقولون: «إنَّ كَلامَ اللهِ هو المعنى القائمُ بنَفْسِه»، ولا شكَّ أنَّ المعنى القائمَ بالنَّفْسِ لا يُسمَّى كلامًا، ولا يُسمَعُ، وكلامُ اللهِ تعالى يُسمَعُ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ الرَّدُّ على الجَهميَّةِ والمُعتَزلةِ الَّذين يقولون: «إنَّ كلامَ اللهِ مخلوقٌ»، ووجْهُ ذلك: أنَّه ثَبَتَ أنَّ النِّداءَ مِن اللهِ سُبحانه وتعالى، والنِّداءُ قَولٌ، والقَولُ لا يُؤخَذُ إلَّا بقائلٍ؛ فيكونُ القَولُ قولَ اللهِ، وكلُّ صفةٍ مِن صفاتِ اللهِ فإنَّها غيرُ مخلوقةٍ؛ لأنَّها وصْفٌ لِمَنِ اتَّصفَ بها، فإذا كانت وَصْفًا للخالقِ فهي غيرُ مَخلوقةٍ[٥].

٨- قولُه تعالى: ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه إثباتُ أنَّ كلامَ اللهِ سُبحانَه وتعالى بحرفٍ؛ لأنَّ هذه جُمَلٌ مُكَوَّنةٌ مِن حروفٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٣/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡ﴾ أنَّه يجوزُ على الأنبياءِ ما يجوزُ على غَيرِهم مِن الخَوفِ الطَّبيعيِّ، مع أنَّ موسى عليه السَّلامُ -كما هو معلومٌ- كان مِن الرِّجالِ الأقوياءِ، لكِنَّه يَعتريه ما يعتري غيرَه مِن البَشَرِ[١].

١٠- قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، قولُه: ﴿أَقۡبِلۡ﴾ يقتضي الأمرَ بإقبالِه، ويجبُ عليه الامتثالُ، ولكن قد يكونُ إقبالُه وهو لم يزلْ في الأمرِ المخوفِ، فقال: ﴿وَلَا تَخَفۡ﴾، ولكن يبقَى احتمالٌ، وهو أنَّه قد يُقبِلُ وهو غيرُ خائفٍ، ولكن لا تحصُلُ له الوقايةُ والأمنُ مِن المكروهِ، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾، فحينئذٍ اندفَع المحذورُ مِن جميعِ الوجوهِ، فأقبَل موسى عليه السلامُ غيرَ خائفٍ ولا مرعوبٍ، بل مطمئنًّا، واثقًا بخبرِ ربِّه، قد ازداد إيمانُه، وتمَّ يقينُه، فهذه آيةٌ، أراه الله إيَّاها قبلَ ذهابِه إلى فرعونَ، ليكونَ على يقينٍ تامٍّ، فيكونَ أجرأَ له، وأقوَى وأصلبَ[٢].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ رُبَّما إذا استعمل أحَدٌ ذلك على سبيلِ الاقتداءِ، فوضَعَ يَديه على فؤادِه؛ فإنَّه يَزولُ عنه ما يجِدُ أو يَخِفُّ، إن شاء اللهُ، وبه الثِّقةُ[٣]، قال ابنُ عبَّاس: (ليس مِن أحدٍ يَدخُلُه رُعبٌ بعدَ موسَى، ثمَّ يُدخِلُ يدَه فيَضعُها على صدرِه؛ إلَّا ذهَب عنه الرُّعبُ)[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ١٧٩).

قال ابن كثير: (وهذا وإن كان خاصًّا به، إلَّا أنَّ ببركةِ الإيمانِ به حقَّ الإيمانِ ينتفعُ مَن استعمَل ذلك على وجهِ الاقتداءِ بالأنبياءِ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٥٧).

اللهَ تعالى يُعطي الأنبياءَ مِن الآياتِ ما يُناسِبُ الوقتَ وحالَ المُرسَلِ إليهم؛ لأنَّ هذا مِن الحِكمةِ أنْ تأتيَ الآياتُ مُطابِقةً للواقعِ[١]، فموسى عليه السَّلامُ كانت مُعجِزتُه ممَّا يُناسِبُ أهلَ زمانِه، فكانوا سَحَرةً أذكياءَ، فبُعِث بآياتٍ بَهَرَتِ الأبصارَ، وخضعَتْ لها الرِّقابُ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُجَدِّدُ لهذه الأُمَّةِ دينَها كُلَّما خرَجوا عنه؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ يُرسِلُ الرُّسلَ عندَ الحاجةِ إليهم، وعندَما لا يكونُ هناك رسولٌ -كحالِ أُمَّتِنا- يَبعثُ دُعاةً صالحينَ مُصلِحينَ للخَلْقِ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ أنَّ الخَوفَ الطَّبيعيَّ لا يُنافي مقامَ الرِّسالةِ[٤]، وإنَّما هو مُباحٌ في الأصلِ، لكنْ إنْ حمَل على ترْكِ واجبٍ أو فِعلِ محرَّمٍ؛ فهو محرَّمٌ، وإنِ استَلزَمَ شيئًا مباحًا كان مباحًا[٥].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ أنَّ فَصاحةَ اللِّسانِ لها تأثيرٌ قَويٌّ في القَبولِ أو الرَّفضِ، وقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ مِن البَيانِ لَسِحْرًا))[٦].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ فَضيلةُ موسى عليه الصَّلاةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٧).

والحديث أخرجه البخاري (٥٧٦٧) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمرَ رضي الله عنهما.

والسَّلامُ؛ لإقرارِه بالفَضلِ لأخيه[١]!

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ﴾ أنَّ الخَبرَ يَزدادُ ثبوتًا وتَبيينًا بتَعَدُّدِ مُخبِريه؛ ولهذا طلَب موسى عليه السَّلامُ من الله أن يُرسِلَ معه هارُونَ؛ لِتزدادَ رسالتُه قوَّةً ووُضوحًا عندَ آلِ فِرعَونَ؛ لأنَّ الرِّسالةَ خبرٌ، فإذا كان معه مَن يُقَوِّيه على هذا الخَبرِ ويُثَبِّتُه ويُصَدِّقُه، فإنه يكونُ أقوى، والآيةُ شاهِدٌ له[٢].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ استَجابَ اللهُ له دَعْوَتَيه، وزادَهُ تَفضُّلًا بما لم يَسأَلْه؛ فاستِجابةُ الدَّعوةِ الثَّانيةِ بقولِه: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾، واستِجابةُ الأُولى بقولِه: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَا﴾، والتَّفضُّلُ بقولِه: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾، فأعطَى مُوسى ما يُماثِلُ ما لهارونَ مِن المَقدِرةِ على إقامةِ الحُجَّةِ؛ إذ قال: ﴿وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾[٣].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ أنَّ التمَسُّكَ بشريعةِ اللهِ سببٌ للغلبةِ، فإذا كان هذا في بني إسرائيلَ: أنَّه مَن اتَّبَعَ موسى عليه السَّلامُ فهو الغالبُ؛ فمِن بابِ أَولى مَن اتَّبَعَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فإنَّه غالِبٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، ومعنى ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾: يُعلِيَه؛ لأنَّ الظَّهرَ والظُّهورَ كلُّه يدُلُّ على الغَلَبةِ[٤].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٣).

يُنصَرُ ويَغلِبُ باتِّبَاعِ الرُّسُلِ، وأنَّه لا طريقَ إلى النَّصرِ والغَلَبةِ إلَّا بالدُّخولِ في طريقِ الرُّسلِ، واتِّباعِهم، وعليه فتكونُ مِن هذه قاعدةُ: (كلُّ مَن كان للرَّسولِ أتبَعَ، كان إلى النَّصرِ أقربَ؛ وكلُّ مَن كان مِن اتِّباعِ الرَّسولِ أبْعَدَ، كان عن النَّصرِ أبعَدَ)؛ لأنَّه مِن المعلومِ في القواعدِ المقرَّرةِ: (أنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ كان ثبوتُه -قوَّةً وضَعفًا، ووُجودًا وعدمًا- بحَسَبِ ذلك الوَصفِ)[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ لم يَذكُرِ القرآنُ أيَّ الأجلَينِ قَضى مُوسى؛ إذ لا يَتعلَّقُ بتَعيينِه غرَضٌ في سِياقِ القصَّةِ[٢].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ فَصيحةٌ، أي: فعَقَدَا العَقدينِ، وباشَرَ مُوسى ما الْتزَمهُ، فلمَّا أتمَّ الأجَلَ...[٣].

- قَولُه: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ الجَذوةُ: العودُ الغليظُ، قيل: مُطلقًا، وقيل: المُشتعِلُ؛ فإنْ كان الأوَّلَ؛ فوَصْفُ الجَذوةِ بأنَّها مِن النَّارِ وصْفٌ مُخصِّصٌ، وإنْ كان الثَّانيَ فهو وصْفٌ كاشفٌ، و(مِن) على الأوَّلِ بَيانيَّةٌ، وعلى الثَّاني تَبعيضيَّةٌ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١١).

- التَّعريفُ في ﴿ٱلشَّجَرَةِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وعُدِلَ عن التَّنكيرِ؛ للإشارةِ إلى أنَّها شَجرةٌ مَقصودةٌ، وليس التَّعريفُ للعهْدِ؛ إذ لم يَتقدَّمْ ذِكْرُ الشَّجرةِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى في سُورةِ (النَّملِ): ﴿نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [النمل: ٨]، وقال في (طه): ﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١- ١٢]، وقال هاهنا: ﴿نُودِيَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ولا مُنافاةَ بيْنَ هذه الأشياءِ؛ فهو تعالى ذَكَرَ الكُلَّ، إلَّا أنَّه حَكَى في كُلِّ سُورةٍ بَعضَ ما اشتَمَلَ عليه ذلك النِّداءُ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ فَصيحةٌ مُفصِحةٌ عن جُمَلٍ قد حُذِفَت؛ تَعويلًا على دَلالةِ الحالِ عليها، وإشعارًا بغايةِ سُرعةِ تَحقُّقِ مَدلولاتِها، أي: فألْقاها، فصارت ثُعبانًا، فاهتزَّتْ...[٣].

- قَولُه: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡ﴾ زِيادةُ ﴿أَقۡبِلۡ﴾ هنا -وهي تَصريحٌ بمَضمونِ قولِه: (لَا تَخَفْ) في سُورةِ (النَّملِ) ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠]-؛ لأنَّه لَمَّا أدْبَر خَوفًا مِن الحيَّةِ كان النَّهيُ عن الخَوفِ يدُلُّ على معنى طَلبِ إقبالِه؛ فكان الكلامُ هنالك إيجازًا، وكان هنا مُساواةً[٤]؛ تفنُّنًا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢).

(٤) المساواةُ: هي أن يكونَ اللَّفظُ مُساويًا للمعنى بحيثُ لا يَزيدُ عليه ولا يَنقُصُ عنه، بأن يكونَ لِكُلِّ معنًى قصَدَه المتكلِّمُ لفظٌ يدُلُّ عليه، ظاهرٌ أو مُقَدَّرٌ، فإذا نقَصَتِ الألفاظُ عن عددِ المعاني =

حِكايةِ القصَّتينِ. وكذلك زِيادةُ ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ هنا، ولم يُحْكَ في سُورةِ (النَّملِ)، وهو تأكيدٌ لِمُفادِ ﴿وَلَا تَخَفْ﴾. وفيه زِيادةُ تَحقيقِ أمْنِه بما دلَّ عليه التَّأكيدُ بـ(إنَّ)، وجَعْلِه مِن جُملةِ الآمِنينَ؛ فإنَّه أشَدُّ في تَحقيقِ الأمْنِ مِن أنْ يُقالَ: إنَّك آمِنٌ[1]؛ وذلك لِيَتذكَّرَ أنَّ هناك آمِنينَ، فإذا كان هناك آمِنونَ فإنَّه لا غَرابةَ أنْ تأْمَنَ؛ فالإنسانَ إذا ذُكِّرَ بما حدَثَ لغَيرِه صار أشدَّ طُمأنينةً في حُصولِ ذلك الشَّيءِ، ونَظيرُه بالعَكْسِ، هو قولُ فِرعونَ: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، ولم يقُلْ: لأسجُنَنَّك؛ لأجْلِ أنْ يُرْهِبَه بأنَّ عندَه مَن هو مَسجونٌ، وأنَّه ليس يُعجِزُنا أنْ نَسجُنَك. والحاصلُ: أنَّ مِثلَ هذا يُقالُ مِن أجْلِ أنْ يَتذكَّرَ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّ هناك أناسًا آمِنينَ، فيَأمَنَ أكثرَ[2].

٤- قولُه تَعالَى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

- قد جُعِلَ الجَناحُ -وهو اليَدُ- في أحدِ الموضِعَين مَضمومًا، وفي الآخَرِ مَضمومًا إليه؛ وذلك قولُه هنا: ﴿وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾، وقولُه في سُورةِ

---

= مع إيفائِها بجميعِ تلك المعاني، فذلك (الإيجازُ). وإذا زادَتِ الألفاظُ على عددِ المعاني مع عدَمِ زيادةِ المعاني، فذلك (الإطنابُ).

قيل: ومِن المساوةِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٠]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]. يُنظر: ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر (ص: ٥٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٧٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٣٠)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٨٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٥١).

(طه): ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [طه: ٢٢]؛ لأنَّ المُرادَ بالجَناحِ المضمومِ هو اليَدُ اليُمْنى، وبالمَضمومِ إليه اليدُ اليُسرى، وكلٌّ واحدةٍ مِن يُمْنى اليدينِ ويُسراهما جَناحٌ(١).

- قولُه: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾، أي: انْكفِفْ عن التَّخوُّفِ مِن أمْرِ الرِّسالةِ. وفي الكلامِ إيجازٌ، وهو ما دَلَّ عليه قولُه بعْدَه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، فقولُه: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ في معنَى قولِه تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾(٢) [القصص: ٣٥].

- قولُه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: كائنانِ منه، وكذلك قولُه: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، أي: مُرْسَلانِ، أو واصِلانِ إليهم(٣). وقيل: يتعلَّقُ بمَحذوفٍ دَلَّ عليه المعنى، تَقديرُه: اذهَبْ إلى فِرعونَ...(٤).

- قولُه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ﴾؛ لِتَضمُّنِها أنَّهم بحيث يُقرَعونَ بالبراهينِ، فبيَّنَ أنَّ سببَ ذلك تَمكُّنُ الكُفرِ مِن نُفوسِهم حتَّى كان كالجِبِلَّةِ فيهم، وبه قِوامُ قَوْمِيَّتِهم؛ لِمَا يُؤذِنُ به قولُه: ﴿كَانُواْ﴾، وقولُه: ﴿قَوۡمٗا﴾(٥).

- قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٢١، ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٥).

ٱلشَّجَرَةِ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِ﴾ [القصص: ٣٠ - ٣٢]، تقدَّمَ مِثلُ هذا في سُورةِ (النَّملِ)، إلَّا مُخالفةَ ألْفاظٍ؛ مِثلُ ﴿أَتَىٰهَا﴾ هنا و﴿جَآءَهَا﴾ [النمل: ٨] هناك، ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ هنا، ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٩] هناك، بضَميرٍ عائدٍ إلى الجَلالةِ هنالك، وضَميرُ الشَّأنِ هنا، وهما مُتساويانِ في المَوقعِ؛ لأنَّ ضَميرَ الجلالةِ شأْنُه عظيمٌ. وقولُه هنا: ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقولُه هنالك: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، وهذا يَقْتضي أنَّ الأوصافَ الثَّلاثةَ قِيلَت له حينَئذٍ. والقولُ في نُكتةِ تَقديمِ صِفةِ اللهِ تعالى قبْلَ إصدارِ أمْرِه له بإلقاءِ العصَا: أنَّ وصْفَ ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ جميعَ الخلائقِ مُسَخَّرةٌ له؛ لِيَثْبُتَ بذلك قلْبُ مُوسى مِن هَولِ تلقِّي الرِّسالةِ. ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ﴾ هنا، ﴿وَأَلۡقِ﴾ هناك [النمل: ١٠]، و﴿ٱسۡلُكۡ﴾ هنا، ﴿وَأَدۡخِلۡ﴾ هناك [النمل: ١٢]، وتلك المُخالَفةُ تفنُّنٌ في تَكريرِ القصَّةِ؛ لِتُجدِّدَ نَشاطَ السَّامعِ لها، وإلَّا زِيادةَ ﴿مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلۡتُ مِنۡهُمۡ نَفۡسٗا فَأَخَافُ أَن يَقۡتُلُونِ﴾ جَرَى التَّأكيدُ على الغالِبِ في استِعمالِ أمثالِه مِن الأخبارِ الغريبةِ؛ لِيَتحقَّقَ السَّامعُ وُقوعَها، وإلَّا فإنَّ اللهَ قد عَلِمَ ذلك لَمَّا قال له: (اضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)، والمعنى: فأخافُ أنْ يَذكُروا قَتْليَ القِبطيَّ فيَقْتُلوني؛ فهذا كالاعتِذارِ، وهو يَعلَمُ أنَّ رِسالةَ اللهِ لا يُتخلَّصُ منها بعُذرٍ، ولكنَّه أرادَ أنْ يَكونَ في أمْنٍ إلهيٍّ مِن أعدائِه؛ فهذا تَعريضٌ بالدُّعاءِ، ومُقدِّمةٌ لطَلبِ تأْييدِه بهارونَ أخيه[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا فَأَرۡسِلۡهُ مَعِيَ رِدۡءٗا يُصَدِّقُنِيٓ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١١٥).

إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ هذا سُؤالٌ صَريحٌ يدُلُّ على أنَّ مُوسى لا يُريدُ بالأوَّلِ التَّنصُّلَ مِن التَّبليغِ، ولكنَّه أراد تأْييدَه بأخيه. وإنَّما عيَّنَه ولم يَسأَلْ مُؤيِّدًا ما؛ لعِلْمِه بأمانتِه وإخلاصِه للهِ ولأخيهِ، وعِلْمِه بفَصاحةِ لِسانِه[١].

- وجُملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾ تَعليلٌ لسُؤالِ تأْييدِه بهارونَ؛ فهذه مَخافةٌ ثانيةٌ مِن التَّكذيبِ، والأُولى مَخافةٌ مِن القتْلِ[٢]. ولَمَّا كان جُلُّ غَرضِه عليه السَّلامُ الدِّينَ، وكان يُؤْثِرُه على حَظِّ نفْسِه؛ جاء بـ (إنَّ) في هذا التَّعليلِ، وبالفاءِ في الأوَّلِ ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾؛ لأنَّه تَعليلٌ لتَصديقِ القَومِ، كأنَّه قِيل: أرْسِلْه معي رِدْءًا لِأنْ يُصدِّقَني قَومي؛ لأنِّي أخافُ أنْ يُكذِّبونِي[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ﴾ لَمَّا أكَّدَ أمْرَ الطَّلبِ بهارونَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، أكَّد له سُبحانَه أمْرَ الإجابةِ بقولِه مُستأنِفًا: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ ﴾، وذَكَر أَوْلَى الأعضاءِ بمُزاولةِ المَكارِهِ، فقال: ﴿عَضُدَكَ ﴾؛ فشَدُّ عَضُدِه كِنايةٌ عن تَقويتِه؛ لأنَّ اليَدَ تشتَدُّ بشِدَّةِ العَضُدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (٢٠/ ٧٨).

## الآيات (٣٦-٤٢)

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾: أي: العاقِبةُ المحمودَةُ أو خاتمةُ الخَيرِ، وعاقبةُ كلِّ شَيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ، وإتيانُه بعْدَ غيرِه[1].

﴿صَرۡحٗا﴾: أي: قَصرًا عاليًا مُرتفِعًا، وأصلُ (صرح): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُروزِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢).

﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾: أي: فألقَيْناهم، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على إلقاءِ الشَّيءِ وطَرحِه[١].

﴿ٱلْيَمِّ﴾: البحرِ[٢].

﴿ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾: أي: المَوسُومينَ بحالةٍ مُنكَرةٍ، أو المُبعَدِينَ المَطرودينَ، أو المُشَوَّهينَ، والقبيحُ: ما يَنْبو عنه البصرُ مِن الأعيانِ، وما تَنبو عنه النَّفْسُ مِنَ الأعمالِ والأحوالِ، والقبحُ: الإبعادُ، وأصلُ (قبح): يدُلُّ على خلافِ الحُسْنِ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: فلمَّا جاء موسى فِرعَونَ وقومَه بالمُعجِزاتِ والحُجَجِ الظَّاهرةِ، قالوا: ما هذا إلَّا سِحرٌ باطِلٌ مُختلَقٌ، وما سَمِعْنا بمِثلِ هذا في آبائِنا الأوَّلينَ!

قال موسى مُجيبًا لهم: ربِّي أعلَمُ بالَّذي جاء بالحقِّ والهُدى مِن عندِه، وبمَن تكونُ له العاقِبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ: نحنُ أمْ أنتم؛ إنَّه لا يَفوزُ الظَّالِمون.

وقال فِرعَونُ لِسادةِ قَومِه: لا أعلَمُ لكم إلهًا غيري! فأَوقِدِ النَّارَ يا هامانُ على الطِّينِ لِتَجفيفِه فيكونَ آجُرًّا تَبني لي به بِناءً مرتفعًا؛ لَعَلِّي أنظُرُ إلى إلهِ موسى، وإنِّي لأَظُنُّ موسى كاذبًا في زَعمِه!

وتكبَّرَ فِرعَونُ وجُنودُه في الأرضِ عُدوانًا وظُلمًا مِن غيرِ بُرهانٍ، وظَنُّوا أنَّهم لا يَرجِعونَ إلينا فنُحاسِبُهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٩).

فأخَذْنا فِرعَونَ وجُنودَه فألْقَيْناهم في البَحرِ فأغرَقْناهم أجمَعين، فانظُرْ كيف كانت نهايةُ الظَّالمينَ؟

وجعَلْنا فِرعونَ وقَومَه في الدُّنيا أئمَّةً مَتبوعينَ يَدْعونَ النَّاسَ إلى أعمالِ أهلِ النَّارِ، ويومَ القيامةِ لا يُنصَرون، وأتْبَعْناهم في الدُّنيا لَعنةً، ويومَ القيامةِ هم مِن المَمقوتينَ المُستقذَرةِ أفعالُهم وأشكالُهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٦﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾.

أي: فلمَّا جاء موسى فِرعَونَ وقومَه بالمعجزاتِ والحُجَجِ الظَّاهِرةِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على صِدقِه، وصِحَّةِ ما جاء به مِن الحَقِّ، قال فِرعَونُ وقَومُه: ما هذا الَّذي جاء به موسى إلَّا سِحرٌ باطِلٌ افتراه واختَلَقه؛ فهو تخييلٌ لا حقيقةَ له، وليس مُعجِزةً إلهيَّةً كما يزعُمُ[1]!

كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

﴿وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٥، ١٧٦).
قال ابنُ عاشور: (الآياتُ البيِّناتُ هي خوارِقُ العاداتِ الَّتي أظهَرَها، أي: جاءهم بها آيةً بعدَ آيةٍ في مواقِعَ مختلِفةٍ، قالوا عندَ كلِّ آيةٍ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨، ١١٩).

أي: وما سَمِعْنا مَن يدعو آباءَنا إلى مِثلِ ما تَدعو إليه[١].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا أخبَرَ تعالى بقَولِهم، عَطَفَ عليه الإخبارَ بقَولِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيوازِنَ السَّامِعُ بيْنَ الكلامَينِ، ويَتبصَّرَ بعقلِه ما الفاسِدُ منهما؛ «فبِضِدِّها تَتبيَّنُ الأشياءُ»[٢].

وأيضًا لَمَّا قالوا قولًا صريحًا في تكذيبِه، واستَظْهَروا على قَولِهم بأنَّ ما جاء به موسى شَيءٌ ما عَلِمَه آباؤُهم، أجاب موسَى كلامَهم بمِثلِه في تأييدِ صِدقِه؛ فإنَّه يَعلَمُه اللهُ، فما عِلْمُ آبائِهم في جانبِ عِلمِ اللهِ بشَيءٍ، فلمَّا تمسَّكوا بعِلمِ آبائِهم تمسَّك موسى بعِلمِ الله تعالى[٣].

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ ﴾.

أي: وقال موسى مُجيبًا لهم: ربِّي أعلَمُ بالَّذي جاء بالحقِّ والرَّشادِ مِن عندِه: نحنُ أو أنتم[٤].

﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

أي: وربِّي أعلَمُ بمَن تكونُ له العاقِبةُ المحمودةُ في الدَّارِ الدُّنيا والآخرةِ: نحنُ أو أنتم[١].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: إنَّه لا يفوزُ الظَّالِمون بالعاقبةِ الحَميدةِ والبَقاءِ في النَّعيمِ[٢].

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣٨﴾.

﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾.

أي: وقال فِرعَونُ لِسادةِ قَومِه: يا أيُّها الأشرافُ، لا أعلَمُ أنَّ لكم معبودًا غيري

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٤).

قيل: الظالِمون هنا بمعنى: الكافرين أو المشركين. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٧٨).

وقيل: يُحمَلُ معنى ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ على العمومِ؛ لِيَشمَلَ كُلَّ ظالمٍ، سواءٌ وقَع في الكُفرِ أو فيما هو دُونَه مِن أنواعِ الظُّلْمِ، فينتفي عنه مِنَ الفَلاحِ بحسَبِ ظُلْمِه، أمَّا الظُّلْمُ الأكبرُ فيَفوتُ به الفلاحُ كلُّه. وذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٥).

كما يزعُمُ موسى؛ فلا إلهَ في الحقيقةِ سِوايَ[١]!

كما قال تعالى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ * فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٣، ٢٤].

﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾.

أي: قال فِرعَونُ: فأوقِدِ النَّارَ يا هامانُ على الطِّينِ؛ لِتَجفيفِه، فيكونَ آجُرًّا تبني لي به بناءً مُرتَفِعًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

﴿لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾.

أي: ابنِ لي صَرْحًا لعلِّي أنظُرُ إلى معبودِ موسى الَّذي يَدْعونا إلى عبادتِه، وأقِفُ على شَأنِه[٣].

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾.

أي: وإنِّي لأظُنُّ موسى كاذِبًا في زَعمِه أنَّ للخَلقِ إلهًا غيري[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨).

﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: واستعظَمَ فِرعَونُ وجُنودُه وتعالَوا في الأرضِ[1] عن اتِّباعِ الهُدى؛ عُدوانًا وظُلمًا مِن غيرِ حُجَّةٍ أو بُرهانٍ[2].

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴾.

أي: وظنَّ فِرعَونُ وجُنودُه أنَّهم لا يُبعَثونَ بعدَ الموتِ فيَرجِعونَ إلينا للحِسابِ والجَزاءِ؛ فلذا تَجرَّؤوا على الاستكبارِ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ[3].

﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾.

---

(١) المرادُ بالأرضِ: الأرضُ المعهودةُ، أي: أرضُ مِصرَ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عثيمين، ونسبه الألوسيُّ للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

قال السعدي: (استكبَروا على عِبادِ الله، وسامُوهم سُوءَ العذابِ، واستكبَروا على رُسلِ الله، وما جاؤوهم به مِن الآياتِ، فكذَّبوها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

أي: فأخَذْنا فِرعَونَ وجُنودَه أخْذَ قَهرٍ ونِقمةٍ، فطرَحْناهم في البَحرِ، فأغرَقْناهم أجمَعينَ[١].

﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: فانظُرْ[٢] كيف كان آخِرُ أمرِ فِرعَونَ وقَومِه الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بالكُفرِ باللهِ، وتَكذيبِ رَسولِه؛ كان شَرًّا وخسارةً وهلاكًا لهم[٣]!

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ٤١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مَن سَنَّ سُنَّةً حسنةً كان له أجْرُها وأجرُ مَن عَمِلَ بها إلى يَومِ القيامةِ، ومَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئةً كان عليه وِزْرُها وَوِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ[٤]؛ قال اللهُ تعالى[٥]:

﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٧).
والبحرُ الذي هلَك فيه فِرعَون هو البحرُ الأحمرُ (القُلْزُم)، ونسَبَ ذلك ابنُ عطيَّةَ إلى أكثرِ الناسِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٣).

(٢) قيل: الخطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقيل: الخِطابُ لكُلِّ مَن يصِحُّ توجيهُ الخِطابِ إليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٥).

(٤) يُنظر ما أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جَرِيرِ بنِ عبدِ الله رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٠٢).

أي: وجعَلْنا فِرعَونَ وقَومَه في الدُّنيا زُعماءَ مَتبوعينَ على الكُفرِ، يَدْعُونَ النَّاسَ إلى أعمالِ أهلِ النَّارِ[١].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الغالِبُ مِن حالِ الأئمَّةِ النُّصرةَ، وكان قد أخبَرَ عن خِذْلانِهم في الدُّنيا؛ قال[٢]:

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾.

أي: ويَومَ القيامةِ لا يَنصُرُ أحَدٌ فِرعَونَ وقَومَه، ولا يدفَعُ عنهم عذابَ اللهِ تعالى[٣].

﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَأَتْبَعْنَـٰهُمْ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾.

أي: وجعَلْنا اللَّعنةَ تَتبَعُهم بعْدَ هَلاكِهم؛ يَلعَنُهم اللهُ، ويَلعَنُهم العِبادُ؛ فهُم مَطرودونَ مِن رَحمةِ اللهِ تعالى[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾ [هود: ٩٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧).

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾.

أي: ويومَ القيامةِ هم مِنَ المُهلَكِينَ المَمقوتينَ، المُبعَدينَ المَخْزِيِّينَ، المُستقذَرةِ أفعالُهم، الشَّنيعةِ أحوالُهم وأقوالُهم، مع قُبحِ وُجوهِهم وأشكالِهم[١].

## الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أنَّه لا ينبغي للمَرءِ أنْ يَثْنِيَه عن قَولِ الحَقِّ ردُّه أو وصْفُه هو بالعُيوبِ؛ لأنَّ موسى لم يتوقَّفْ عنِ الدَّعوةِ حينَما قالوا له هذا، بل استمَرَّ في الدَّعوةِ، وبه قامتِ الحُجَّةُ، مع أنَّه هُدِّدَ بالسَّجنِ، ولكِنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُبَالِ بها؛ فينبغي للدَّاعي إلى اللهِ أن يَصبرَ ما دام يَعلَمُ أنَّه على الحَقِّ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ، والتَّرغيبُ في العدلِ؛ لأنَّ التَّحذيرَ مِنَ الشَّيءِ ترغيبٌ في ضِدِّه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّ مَنِ استكبَرَ عنِ الحقِّ فيه شَبَهٌ مِن فِرعَونَ وجنودِه[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّه يُطلَبُ مِنَ المَرءِ -إمَّا وُجوبًا أو استِحبابًا- أن يَتأمَّلَ في عاقبةِ الظَّالِمينَ، وأنَّه ينبغي لنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧).
قال البقاعي: (﴿مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾، أي: المُبْعَدينَ أيضًا، المَخْزِيِّينَ، مع قُبحِ الوُجوهِ والأشكالِ، والشَّناعةِ في الأقوالِ والأفعالِ والأحوالِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٣).

أن نَتَّعِظَ بعاقبةِ هؤلاء، فلا نَظلِمَ مِثْلَهم؛ لأنَّه ما دام عاقبةُ الظالمِ الهلاكَ، فإنَّ الإنسانَ يخشى أنْ يَهلِكَ إذا ظَلَمَ(١).

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ ما أُقيمَ عليه البُرهانُ حقٌّ، وإنْ لم يَسبِقْ به قَولٌ متقَدِّمٌ، وأنَّ الرَّادَّ لِمَا لم يَسبِقْ به قولٌ مُتَشَبِّهٌ بهؤلاء القَومِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ التَّنَزُّلُ مع الخَصمِ على وجْهٍ لا يكونُ فيه تقويضٌ لدعوى المدَّعي(٣).

٣- مَن دعا على أخيه -وهو ظالمٌ له-؛ فإنَّ اللهَ لا يُجيبُ دعاءَه؛ لأنَّه لو أُجيبَ لكان نصرًا له؛ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾(٤).

٤- قولُه: ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا﴾ فيه إسنادُ الفعلِ إلى الآمرِ به لِمَن كانت له سُلطةُ الأمرِ، فمعلومٌ أنَّ هامانَ لم يُباشِرِ البناءَ، بل باشرَه العمَّالُ؛ ولكنَّه نُسِبَ الفعلُ إليه لأنَّه الآمِرُ به، والفقهاءُ رحمهم اللهُ اعتبَروا هذا، فقالوا: لو أَمَرَ بالقتلِ غيرَ مُكَلَّفٍ، فقَتَل؛ فالقَوَدُ على الآمِرِ؛ لأنه هو السَّببُ، والحُكمُ إليه(٥).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٩).

مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ حُجَّةٌ على مَن يزعُمُ أنَّ اللهَ بنَفْسِه في الأرضِ، حالٌّ في كُلِّ مَكانٍ، ويُنكِرُ كَيْنونتَه بنَفْسِه في السَّماءِ، وعِلمَه في الأرضِ؛ إذ مُحالٌ أن يقولَ فِرعَونُ هذا القَولَ إلَّا وقد دَلَّه موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ إلهَه في السَّماءِ دونَ الأرضِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّهم كانوا عارِفينَ باللهِ تعالى، إلَّا أنَّهم كانوا يُنكِرون البعثَ؛ فلأجْلِ ذلك تَمَرَّدوا وطَغَوا[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ حِكمةُ اللهِ سُبحانه وتعالى؛ حيثُ كان إهلاكُ فِرعَونَ وقَومِه بالماءِ الذي كان يَفتخِرُ به بقَولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١]! فإنَّ هذا الَّذي كان يَفتخِرُ به كان مَحَلَّ هلاكِه[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إشارةٌ عظيمةٌ بأعظَمِ بِشارةٍ بأنَّ كلَّ ظالمٍ تكونُ عاقِبتُه هكذا إنْ صابَرَه المظلومُ المُحِقُّ، ورابَطَه حتَّى يَحكُمَ اللهُ وهو خيرُ الحاكِمينَ[٤].

٩- اللهُ سُبحانَه وتعالى هو الَّذي جَعَلَ العبدَ فاعلًا، كما قال: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]، ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، فهو سُبحانَه الَّذي جعَلَ أئمَّةَ الهدى يَهْدُونَ بأمرِه؛ وجعَلَ أئمَّةَ الضَّلالِ والبِدَعِ يَدْعونَ إلى النَّارِ[٥]، وفيه رَدٌّ على المعتَزِلةِ؛ لأنَّ جَعْلَه لهم أئمَّةً لا يخلو مِن أنْ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٦).

يكونَ خَلْقًا أو صَيْرورةً، وكِلاهما حُجَّةٌ عليهم خانِقةٌ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإمامةَ تكونُ في الشَّرِّ كما تكونُ في الخَيرِ؛ لأنَّ معناها أن يَصيرَ المرءُ قُدوةً يُؤتَمُّ به فيما يكونُ مُقيمًا عليه[٢]، وفَرْقٌ بيْنَ مَن يَقودُ النَّاسَ بأمرِ اللهِ أو مَن يَقودُونَهم بشريعتِه، وبيْنَ مَن يَدْعون إلى النَّارِ[٣]! فمِن أعظَمِ العُقوباتِ أنْ يكونَ الإنسانُ إمامًا في الشَّرِّ، وذلك بحسَبِ مُعارَضَتِه لآياتِ اللهِ وبيِّناتِه، كما أنَّ أعظَمَ نِعمةٍ أنعَمَ اللهُ بها على عبدِه أن يَجعَلَه إمامًا في الخَيرِ هاديًا مَهْدِيًّا[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أنَّ الدُّعاءَ إلى النارِ -وإلى الخَيرِ أيضًا- كما يكونُ بالقولِ يكونُ بالفعلِ، وقد يكونُ ما هو بالقولِ أقوى، وقد يكونُ ما هو بالفعلِ أقوى، إنَّما على كلِّ حالٍ الدُّعاءُ بهذا وبهذا ثابتٌ؛ فإنَّ فرعونَ وقومَه كانوا يَدْعون النَّاسَ بمقالِهم وبحالِهم[٥].

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فيه تحقيرُ الدُّنيا، فالدُّنيا مؤنَّثُ «أدنى»، وهي مِن الدُّنوِّ الحِسِّيِّ والمَعنويِّ؛ أمَّا الدُّنوُّ الحِسِّيُّ فلِسَبْقِها على الآخرةِ، فهي أدنَى إلى المخلوقِينَ مِنَ الآخرةِ، وأمَّا الدُّنوُّ المعنويُّ فلِمَا تَتضَمَّنُه مِنَ النَّقصِ في جميعِ كمالاتِها، فما مِن كمالٍ في الدُّنيا إلَّا وهو ناقصٌ، والآنَ لو تأمَّلْتَ جميعَ المَضارِّ والمنافعِ الدُّنيويَّةِ تجدُها مَشُوبةً بالضَّررِ والخطرِ -حتَّى الزَّمانُ-، كما قال الشاعرُ:

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) .

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠١).

فـيَـومٌ عـلـيـنـا، ويـومٌ لنا ويـومٌ نُسـاءُ، ويـومٌ نُسَـرُّ[١]

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ صريحٌ في أنَّ فِرعَونَ عدوُّ اللهِ في الآخرةِ،كما كان عدوَّه في الدنيا، ففيه ردٌّ على مَن يقولُ: إنَّه مات مؤمنًا، وإنَّه لا صريحَ في القرآنِ بأنَّه مِن أهلِ النارِ[٢]! وقد قال تعالى في حقِّ فِرعونَ وقَومِه: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۞ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٨، ٩٩]، وقال سُبحانَه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ طُوِيَ ما بيْنَ نِداءِ اللهِ إيَّاه وبيْنَ حُضورِه عندَ فِرعونَ مِن الأحداثِ؛ لعَدَمِ تعلُّقِ العِبرةِ به[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ أُسنِدَ المَجيءُ بالآياتِ إلى مُوسى عليه السَّلامُ وحْدَه دونَ هارونَ؛ لأنَّه الرَّسولُ الأصليُّ الَّذي تأْتي المُعجزاتُ على يَدَيه، بخِلافِ قولِه: ﴿فَأَذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ في سُورةِ (الشُّعراءِ) [١٥]، وقولِه: ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]؛ إذ جعَلَ تَعلُّقَ الآياتِ بضَميرَيْهما؛ لأنَّ معنى المُلابَسةِ معنًى مُتَّسِعٌ؛ فالمُصاحِبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٤).
والبيت للنَّمرِ بنِ تَوْلب، يُنظر ((ديوانه)) (ص: ٦٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨).

لصاحبِ الآياتِ هو مُلابِسٌ له[١].

- قولُه: ﴿سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾، أي: سِحرٌ تَعمَلُه أنتَ، ثمَّ تَفْتريه على اللهِ. أو: سِحرٌ ظاهرٌ افتراؤُه. أو: مَوصوفٌ بالافتراءِ كسائرِ أنواعِ السِّحرِ، وليس بمُعجزةٍ مِن عندِ اللهِ؛ فعلى هذا الوَجْهِ ﴿مُّفْتَرًى﴾ باقٍ على إطلاقِه، وهو صِفةٌ مُؤكِّدةٌ، وعلى الوجْهِ الأوَّلِ صِفةٌ مُخصِّصةٌ مُقيِّدةٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الإشارةُ إلى ادِّعاءِ الرِّسالةِ مِن عِندِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك هو الَّذي يُسمَعُ، وأمَّا الآياتُ فلا تُسمَعُ؛ فمَرجِعُ اسْمَي الإشارةِ في قَولِه: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مُختلِفٌ، أي: ما سَمِعْنا مَن يَدْعو آباءَنا إلى مِثْلِ ما تَدْعو إليه؛ فالكَلامُ على حَذْفِ مُضافٍ دَلَّ عليه حَرْفُ الظَّرفيَّةِ، أي: في زمَنِ آبائِنا[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كان مُقْتضى الاستِعمالِ أنْ يُحكَى كلامُ مُوسى بفِعلِ القولِ غيرِ مَعطوفٍ بالواوِ شأْنَ حِكايةِ المُحاوَراتِ، فخُولِفَ ذلك هنا بمَجيءِ حَرفِ العطْفِ؛ لأنَّه قُصِدَ هنا التَّوازُنُ بيْنَ حُجَّةِ مَلأِ فِرعونَ وحُجَّةِ مُوسى؛ لِيَظهَرَ للسَّامعِ التَّفاوُتُ بيْنَهما في مُصادَفةِ الحقِّ، ويَتبصَّرَ فسادَ أحدِهما وصِحَّةَ الآخَرِ، وبضِدِّها تَتبيَّنُ الأشياءُ؛ فلهذا عُطِفَت الجُملةُ جرْيًا على الأصلِ غيرِ الغالبِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ فيه خُصوصيَّةً غيرَ المَعهودةِ في مِثْلِه؛ فتكونُ مَعرفةُ التَّفاوُتِ بيْنَ المُحتَجِّينَ مُحالةً على النَّظرِ في مَعناهما. وعلى القِراءةِ بدُونِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٨، ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٩).

واوٍ[١] على أصلِ حِكايةِ المُحاوَراتِ، وقد حصَلَ مِن مَجموعِ القِراءتَينِ الوفاءُ بحقِّ الخُصوصيَّتَينِ مِن مُقْتضى حالَي الحِكايةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ ...﴾ عَبَّرَ عن اللهِ تَعالَى بوَصفِ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضَميرِه؛ للتَّنصيصِ على أنَّ الَّذي يَعلَمُ الحقَّ هو الإلهُ الحقُّ، لا آلِهتُهم المزعومةُ[٣].

- وعَبَّرَ في جانبِ (مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى) بفِعلِ المُضِيِّ، وفي جانبِ (مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ) بالمُضارِعِ؛ لأنَّ المَجيءَ بالهُدى المُحقَّقِ والمزعومِ أمْرٌ قد تَحقَّقَ ومَضى، سواءٌ كان الجائيَ به مُوسى أمْ آباؤُهم الأوَّلون وعُلماؤُهم. وأمَّا كِيانُ عاقبةِ الدَّارِ لِمَنْ فمَرْجُوٌّ لَمَّا يَظهَرْ بعْدُ؛ ففي قولِه: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ إشهادٌ للهِ تعالى وكلامٌ مُنصِفٌ[٤].

- وفي قولِه: ﴿أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قالَه هنا بزِيادةِ الباءِ، وقاله بعْدُ بدُونِها في قولِه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ [القصص: ٨٥]؛ تقْويةً للعاملِ هنا بحسَبِ الظَّاهرِ؛ لِضَعفِه عن العَملِ، وحَذَفه بَعْدُ؛ اكتِفاءً بدَلالةِ الأوَّلِ عليه[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ تَفويضٌ إلى ما سيَظهَرُ مِن نَصرِ أحدِ

---

(١) قرأ بها ابنُ كثيرٍ بدونِ واوٍ، وقرأ الباقون بالواو. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١١٩، ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣١).

الفريقَينِ على الآخَرِ، وهو تَعريضٌ بالوعيدِ بسُوءِ عاقِبَتِهم[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ كلامُ فِرعونَ المَحْكيُّ هنا واقعٌ في مَقامٍ غيرِ مَقامِ المُحاوَرةِ مع موسى؛ فهو كلامٌ أقبَلَ به على خِطابِ أهلِ مجلِسِه إثرَ المُحاورةِ مع موسى؛ فلذلك حُكِيَ بحَرفِ العطفِ (الواو)؛ عَطفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ؛ فهذه قصَّةُ مُحاوَرةٍ بيْنَ فِرعونَ ومَلَئِه في شأنِ دَعوةِ مُوسى؛ فهي حقيقةٌ بحَرفِ العطفِ[٢].

- قولُه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ قيل: نَفَى عِلمَه بذلك؛ إظهارًا للنَّصَفةِ، وأنَّه ما قَصَد غِشَّهم، وذلك منه واضحٌ في أنَّه قَصَد تَشكيكَهُم؛ إشارةً منه إلى أن انتِفاءَ عِلمِه بوُجودِه ما هو إلَّا لانتِفاءِ وُجودِه[٣]، فعَبَّرَ بنَفْيِ عِلمِه عن نفْيِ المعلومِ؛ تدليسًا على مَلَئِه، وتلبيسًا على عُقولِهمُ السَّخيفةِ، ففِرعونُ كان يَدَّعي الإلهيَّةَ، ويُعامِلُ عِلمَه مُعاملةَ عِلمِ اللهِ تعالى في أنَّه لا يَعزُبُ عنه شَيءٌ؛ فمِن ثَمَّ طَغَى وتَكبَّرَ[٤].

- ولم يقُلْ: (ما وجَدْتُ لكُم)؛ لأنَّه لو قال: ما وجَدْتُ لكم، لكَذَّبوه؛ إذْ سيُحاجُّونَه بأنَّه لم يَذهَبْ لأيِّ مَكانٍ، ولم يُفارِقْهُم، فلمْ يَذهَبْ لِيَطلُبَ اللهَ ولم يَجِدْه، فنَفَى أنْ يَكونَ عالِمًا بذلك، فقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾؛ لأجْلِ أن يُفرِّعَ عليه، ثمَّ قال: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فتَتِمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٤، ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٠).

له حيلتُه؛ يَقولُ: أنا لا أَعلَمُ لكُم مِن إلهٍ غَيري، لكنْ لا مانعَ مِن أن نَبحَثَ[١].

- وإنَّما قال: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ ولم يقُلْ: اطبُخْ لي الآجُرَّ واتَّخِذْه؛ لأنَّ هذه العِبارةَ أَحسَنُ طِباقًا لفَصاحةِ القرآنِ وعُلوِّ طَبقتِه، وأَشبَهُ بكَلامِ الجبابرةِ. كأنَّه قال: أَوقِدْ لي على هذا الشَّيءِ المُسمَّى بالطِّينِ؛ كأنَّه شَيءٌ حَقيرٌ لا يَصلُحُ مِن مِثلِ الملوكِ أن يُتلفَّظَ به، ويَدخُلُ في تَسميتِه في زُمرةِ العامَّةِ، أو أنَّ كلمةَ الآجُرِّ ونَحوِها -كالقَرْمَدِ، والطُّوبِ- كلماتٌ مُبتذَلةٌ، فذَكَر بلفظِ الطِّينِ. وأظهَرُ مِن هذا: أنَّ العُدولَ إلى الطِّينِ؛ لأنَّه أَخَفُّ وأَفصَحُ. أو عَبَّرَ عنِ الآجُرِّ بالطِّينِ؛ لأنَّه قِوامُ صُنعِ الآجُرِّ، وهو طِينٌ معروفٌ، وكأنَّه لم يَأمُرْه ببناءٍ مِن حَجَرٍ وكِلْسٍ؛ قَصدًا للتَّعجيلِ بإقامةِ هذا الصَّرحِ المُرتفعِ؛ إذْ ليس مطلوبًا طولُ بقائِه بإحكامِ بنائِه على مَرِّ العُصورِ، بلِ المرادُ سُرعةُ الوُصولِ إلى ارتفاعِه؛ كَيْ يَشهَدَه النَّاسُ، ويَحصُلَ اليأسُ، ثمَّ يُنقَضَ مِنَ الأساسِ[٢].

- وأَمْرُ هامانَ -وهو وزيرُه ورَديفُه- بالإيقادِ على الطِّينِ مُنادًى باسمِه بـ (يا) في وسَطِ الكلامِ: دليلُ التَّعظيمِ والتَّجبُّرِ؛ فهامانُ كان حاضرًا بيْنَ المَلأِ، وداخلًا في الخِطابِ؛ بل هو المُخاطَبُ الأوَّلُ لكَونِه وزيرَه ومُشيرَه؛ فاختِصاصُه مِن بيْنِهم بالنِّداءِ، ثمَّ بـ (يا) الدَّالَّةِ على البَعيدِ، ثمَّ تصريحُه باسمِه- ما كان إلَّا إظهارًا للكبرياءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٢، ١٢٣)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (٢٠/ ٢٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٢، ٦٣).

- وأراد بقولِه: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ أن يَأمُرَ هامانُ العَمَلةَ أن يَطبُخوا الطِّينَ ليَكونَ آجُرًّا ويَبنُوا به؛ فكُنِّيَ عنِ البناءِ بمُقدِّماتِه، وهي إيقادُ الأفرانِ لتَجْفيفِ الطِّينِ المُتَّخَذِ آجُرًّا[1]. وابتَدأَ بأمْرِه بأوَّلِ أشغالِ البِناءِ؛ للدَّلالةِ على العنايةِ بالشُّروعِ مِن أوَّلِ أوقاتِ الأمرِ؛ لأنَّ ابتِداءَ البناءِ يَتأخَّرُ إلى ما بعْدَ إحضارِ مَوادِّه؛ فلذلك أمَرَه بالأخذِ في إحضارِ تلك المَوادِّ الَّتي أوَّلُها الإيقادُ، أي: إشعالُ التَّنانيرِ لطَبخِ الآجُرِّ[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ بحذْفِ ﴿أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وقال في (غافر) بذِكْرِه؛ لأنَّ ما هنا تَقدَّمَه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ مِن غَيرِ ذِكرِ أرضٍ وغَيرِها؛ فناسَبَه الحذْفُ، وما هناك تَقدَّمَه ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]؛ فناسَبَه مُقابَلتُه بالسَّماءِ في قولِه: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[3] [غافر: ٣٦، ٣٧].

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أقوَى مِن: (كاذِبًا)؛ فهو يدُلُّ على أنَّه يَعُدُّه مِنَ الطَّائفةِ الَّذينَ شأْنُهمُ الكذِبُ[4].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ مَعلومٌ بالفَحْوى مِن كُفرِهم باللهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٣).

وإنَّما صَرَّح به؛ لأهمِّيَّةِ إبطالِه؛ فلا يُكتفَى فيه بدَلالةِ مفهومِ الفَحْوى[١]، ولأنَّ في التَّصريحِ به تعريضًا بالمُشركينَ في أنَّهم وإيَّاهُم سواءٌ، فلْيَضَعوا أنفُسَهم في أيِّ مَقام مِن مَقاماتِ أهلِ الكُفرِ. ومعنَى ذلك: ظَنُّوا أنْ لا بَعْثَ ولا رُجوعَ؛ لأنَّهم كَفروا بالمَرجوعِ إليه؛ فذَكَر ﴿إِلَيْنَا﴾ لحِكايةِ الواقعِ، وليس بقَيدٍ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المعنَى: وظَنُّوا أنَّهم في مَنَعةٍ مِن أنْ يَرجِعوا في قَبضةِ قُدرتِنا، كما دَلَّ عليه قولُه في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٤، ٢٥] استِعجابًا مِن ذلك. وعلى هذا الاحتِمالِ فالتَّعريضُ بالمُشركينَ باقٍ على حالِه؛ فإنَّهم ظَنُّوا أنَّهم في مَنَعةٍ مِنَ الاستِئْصالِ، فقالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[٢] [الأنفال: ٣٢].

- وقُدِّم ﴿إِلَيْنَا﴾ على عامِلِه ﴿يُرْجَعُونَ﴾؛ لأجْلِ الفاصلةِ[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ الدُّعاءُ إلى النَّارِ هو الدُّعاءُ إلى العملِ الَّذي يوقِعُ في النَّارِ؛ فهي دَعوةٌ إلى النَّارِ بالمآلِ. ومناسَبةُ عطْفِ ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ هي أنَّ الدُّعاءَ يَقتَضي جُندًا وأتْباعًا يَعتَزُّون بهم في الدُّنيا، ولكنَّهُم لا يُجْدُونَ عنهُم يَومَ

---

(١) فَحْوى الخِطاب: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به لِلمَسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، وهو نوعان: تنبيهٌ بالأقَلِّ على الأكثَرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نبَّه بالنَّهيِ عن قولِ أُفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك. وتنبيهٌ بالأكثَرِ على الأقَلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٤، ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٢٤).

القيامةِ؛ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوۡ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنۡهُمۡ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ﴾[1] [البقرة: ١٦٧].

٦- قوله تعالى: ﴿ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴾

- الإشارةُ إلى الدُّنيا بـ﴿هَٰذِهِ﴾؛ لتَهوينِ أمْرِ الدُّنيا بالنِّسبةِ للآخِرةِ[2].

- ولم يَقُلِ: (الحياة)؛ لأنَّ السِّياقَ لتحقيرِ أمْرِهم، ودناءةِ شأنِهم[3].

- والتَّخالُفُ بيْن صِيغتَيْ قَولِه: ﴿ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ ﴾ وقَولِه: ﴿هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴾؛ لأنَّ اللَّعنةَ في الدُّنيا قد انتَهى أمْرُها بإغراقِهم، أو لأنَّ لَعْنَ المؤْمِنينَ إيَّاهُم في الدُّنيا يَكونُ في أحيانٍ يَذْكُرونَهم، فكِلَا الاحتِمالَينِ لا يَقتَضي الدَّوامَ؛ فجِيءَ معه بالجملةِ الفِعليَّةِ. وأمَّا تقبيحُ حالِهم يَومَ القِيامةِ فهو دائمٌ معهم، مُلازِمٌ لهم، فجِيءَ في جانبِه بالاسميَّةِ المُقتضيةِ الدَّوامَ والثَّباتَ. وضَميرُ (هُم) في قولِه: ﴿هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ ﴾ ليس ضَميرَ فصْلٍ، ولكنَّه ضميرُ مبتدَأٍ، وبه كانتِ الجُملةُ اسميَّةً دالَّةً على ثَباتِ التَّقبيحِ لهم يَومَ القِيامةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٧).

## الآيات (٤٢-٤٦)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْقُرُونَ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقرنُ: القَومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المقترِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْرِ مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مُدَّةُ القرنِ مِئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقترانِ، وهو اجتِماعُ شيئَينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿بَصَآئِرَ﴾: أي: ضياءً، وقيل: عبرةً، وقيل: دلالاتٍ، جمعُ بصيرةٍ؛ سُمِّيَ بصيرةً اشتِقاقًا مِن بَصَرِ العَينِ[2].

﴿ثَاوِيًا﴾: أي: مُقيمًا، والثَّواءُ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ، وأصلُه: يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ١٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩).

الإقامةِ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما امتَنَّ به على نبيِّه موسى عليه السَّلامُ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ مِن بعدِ ما أهلَكْنا واستأْصَلْنا الأمَمَ الماضيةَ الَّتي كذَّبَت رُسُلَها؛ آتَيْناه التَّوراةَ ضياءً لبني إسرائيلَ وهُدًى ورَحمةً لهم؛ لِيَتذَكَّروا.

ثمَّ يقولُ تعالى منَبِّهًا على بُرهانِ نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حيثُ أخبَرَ بهذه الغُيوبِ الماضيةِ: وما كنتَ -يا محمَّدُ- حاضِرًا بجانبِ الغربيِّ الَّذي كلَّمْنا فيه موسى وأوحَيْنا إليه، وما كنتَ مُشاهِدًا لِما جرى هناك، ولكنَّا خلَقْنا أُمَمًا مِن بَعدِ موسى، فطالت مُدَّةُ انقِطاعِ الوَحيِ، فنُسِيَ عَهدُ الله؛ فأرسَلْناك -يا محمَّدُ- رسولًا للنَّاسِ.

وما كنتَ -يا محمَّدُ- مُقيمًا في أهلِ مَدْيَنَ؛ فتقرأَ على أهلِ مكَّةَ خَبرَهم وما وقَعَ لهم مع موسى، ولكِنَّا أرسَلْناك وأنزَلْنا عليك هذه الأخبارَ في القرآنِ، ولولا ذلك لَمَا عَلِمْتَها.

وما كنتَ -يا محمَّدُ- بجانِبِ الجبَلِ حينَ كلَّمْنا موسى وأوحَيْنا إليه، ولكنَّا أوحَيْنا إليك ما جرى؛ رحمةً منَّا، لتُحَذِّرَ قومَك الَّذين لم يأتِهم رَسولٌ مِن قَبْلِك؛ لِيَتذَكَّروا ويُنيبوا إلى اللهِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَرَ تعالى ما آلَ إليه فِرعونُ وقَومُه مِن غَضَبِ اللهِ عليهم، وإغراقِه لهم؛ ذَكَرَ ما امتَنَّ به على رَسولِه موسى عليه السَّلامُ[1].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ ﴾.

أي: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ مِن بَعدِ ما أهلَكْنا بعذابِ الاستِئصالِ الأُمَمَ الماضيةَ الَّتي كذَّبتْ رُسُلَها؛ كقَومِ نُوحٍ، وعادٍ، وثَمودَ، وغيرِهم[2].

﴿ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: آتَيْنا موسى التَّوراةَ ضِياءً لبني إسرائيلَ يُبصِرون به ما ينفَعُهم، وهُدًى إلى الحَقِّ مِن الضَّلالةِ، ورَحمةً لهم؛ لِيَتذكَّروا ويَتَّعِظوا[3].

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه في هذه السُّورةِ مِن غرائبِ أمرِ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وخَفيِّ أحوالِه ما بَيَّنَ، وكانت هذه الأخبارُ لا يَقدِرُ أهلُ الكتابِ على إنكارِها نوعًا مِن الإنكارِ، وكان مِنَ المشهورِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَعرِفْها ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ١٠٠، ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩).

سِواها مِن غيرِ الواحدِ القهَّارِ؛ أشار إلى ذلك سُبحانَه بقَولِه[١]:

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾.

أي: وما كنتَ حاضِرًا -يا محمَّدُ- في المكانِ[٢] الَّذي كلَّمْنا فيه موسى وأوحَيْنا إليه[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٢).

(٢) قال أبو حيَّان: (﴿بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾: مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفَتِه عندَ قَوم، ومِن حذفِ المَوصوفِ وإقامةِ الصِّفةِ مقامَه عندَ قومٍ. فعلى القَولِ الأوَّلِ أصْلُه: بالجانبِ الغربيِّ، وعلى الثَّاني أصْلُه: بجانبِ المكانِ الغربيِّ، والتَّرجيحُ بيْنَ القولَينِ مذكورٌ في النَّحوِ. و﴿ٱلْغَرْبِيِّ﴾ قال قَتادةُ: غَرْبيِّ الجبَلِ. وقال الحسَنُ: بعَثَ اللهُ موسى بالغَربِ. وقال أبو عُبَيدةَ: حيثُ تَغرُبُ الشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ. وقيل: هنا جبلٌ غربيٌّ. وقيل: الغَربيِّ مِنَ الوادي. وقيل: مِنَ البحرِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٨).

ممَّن اختار أنَّه مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفتِه، والمرادُ: الجانبُ الغَربيُّ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٣).

وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ: بجانبِ غَربيِّ الجبلِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير يحيى ابن سلام)) (٢/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦١٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٥١).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: بجانبِ الجبلِ الغربيِّ، فيكونُ مِن حذفِ المَوصوفِ وإقامةِ صفتِه قيامَه: الزَّجَّاجُ، والرسعنيُّ، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٤٦)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٠).

﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

أي: وما كُنتَ مُشاهِدًا بعينيك تفاصيلَ ما جرَى هنالِك[1].

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾.

أي: ولكنَّا خلَقْنا أُمَمًا مِن بَعدِ موسى، فطالت مدَّةُ انقِطاعِ الوَحيِ، فنُسيَ عَهدُ الله، وتُرِك أمْرُه، واندرَس العِلمُ؛ فأرسَلْنا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نَفَى العِلمَ بتفاصيلِ ما جرَى بطريقِ الشُّهودِ؛ نفَى سببَ العلمِ بذلك[3]، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٥، ٢١٦).

قال القرطبي: (﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا﴾ أي: مِن بَعدِ موسى ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ حتَّى نَسُوا ذِكرَ الله، أي: عهْدَه وأمْرَه. نظيرُه: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]. وظاهرُ هذا يوجِبُ أن يكونَ جرى لِنَبيِّنا عليه السَّلامُ ذِكرٌ في ذلك الوقتِ، وأنَّ الله سيَبعَثُه، ولكنْ طالَتِ المُدَّةُ، وغلَبَتِ القَسْوةُ، فنسيَ القَومُ ذلك. وقيل: آتَيْنا موسى الكِتابَ، وأخَذْنا على قَومِه العُهودَ، ثمَّ تَطاوَلَ العهدُ فكفروا، فأرسَلْنا محمَّدًا مجَدِّدًا لِلدِّينِ، وداعيًا الخَلْقَ إليه). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٤).

﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا﴾.

أي: وما كُنتَ -يا محمَّدُ- مقيمًا ومُستقِرًّا زمنًا طويلًا في أهلِ مَدْيَنَ؛ فتقرأَ على أهلِ مكَّةَ خبَرَ ما وقعَ مِن شأنِ موسى في مَدْيَنَ(١).

﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ﴾.

أي: لم يقَعْ ذلك، ولكِنَّا أرسَلْناك وأوحَيْنا إليك في القُرآنِ بتلك الأخبارِ الماضيةِ(٢).

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾.

أي: وما كُنتَ -يا محمَّدُ- بجانِبِ الجَبَلِ حينَ كلَّمْنا موسى وأوحَيْنا إليه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧).

قيل: النِّداءُ المذكورُ لموسى في هذه الآيةِ وقَع حينَ ناداه الله لِميقاتِ الأربعينَ لَيلةً وأنزَل إليه الألواحَ، وهو غيرُ النِّداءِ الأوَّلِ حينَ أوحى إليه في ابتِداءِ الأمرِ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٨).

قال القرطبي: (قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ أي: كما لم تحضُرْ جانِبَ المكانِ =

كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

﴿وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: ما كُنتَ حاضِرًا بجانِبِ الطُّورِ، ولكِنَّا أوحَيْنا إليك ما جرى؛ رحمةً منَّا بك وبالعِبادِ[١].

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ تعالى أنَّ نبيَّه محمَّدًا عليه السَّلامُ لم يكُنْ في تلك الأحوالِ حاضرًا؛ بَيَّنَ تعالى أنَّه بَعَثه وعَرَّفه هذه الأحوالَ؛ رحمةً للعالَمينَ، ثمَّ فَسَّرَ تلك الرَّحمةَ بأنْ قال[٢]:

﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾.

أي: لتُحذِّرَ العَرَبَ الَّذينَ لم يأتِهم رَسولٌ مِن قَبْلِك، مِن الكُفرِ والشِّركِ والضَّلالِ[٣].

---

= الغربيِّ إذْ أرسَل اللهُ موسَى إلى فِرعونَ، فكذلك لم تحضُرْ جانبَ الطُّورِ إذْ نادَيْنا موسى لَمَّا أتى الميقاتَ مع السَّبعينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٢).

وقال ابنُ كثيرٍ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾: (هذا -والله أعلمُ- أشبَهُ بقولِه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾. ثُمَّ أخبَر هاهنا بصيغةٍ أُخرَى أخَصَّ مِن ذلك، وهو النِّداءُ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ﴾ [الشُّعراء: ١٠]، وقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النَّازعات: ١٦]، وقال: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٤).

كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [السجدة: ٢، ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦].

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: لِيَتذكَّروا خطَأَ ما هم عليه مِن الكُفرِ والشِّركِ والضَّلالِ، ويتَّعِظوا ويُنيبوا إلى اللهِ؛ فيُطيعوه ويَعبُدوه وَحْدَه لا شريكَ له[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ موسى عليه السَّلامُ لَمَّا ذهبَ إلى فِرعَونَ لم تكُنِ التَّوراةُ قد نَزَلتْ، وإنَّما أُنزلتِ التَّوراةُ بعد أنْ غَرِقَ فِرعَونُ، وخَلَصَ موسى عليه السلامُ ببني إسرائيلَ، فاحتاجوا إلى شريعةٍ يَعمَلونَ بها[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ هذا دَليلٌ على أنَّه بعدَ نزولِ التَّوراةِ انقطعَ الهلاكُ العامُّ، وشُرِعَ جهادُ الكُفَّارِ بالسَّيفِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٥٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٢١) و (٥/ ٤٧٥، ٤٧٦) و (٦/ ٢٣٩، ٥٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أنَّ الكتبَ النَّازِلةَ مِن السَّماءِ أنوارٌ للنَّاسِ يَهتَدونَ بها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾[1].

٤- في قولِه تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إثباتُ الحكمةِ في أفعالِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وكذلك في شرائعِه؛ لأنَّ «لعل» معناها التَّعليلُ، والَّذين أنكَروا الحكمةَ هم الجَهْميَّةُ؛ حيثُ يقولون: إنَّ اللهَ تعالى ليست له حِكمةٌ فيما يَفعلُ وما يَشاءُ؛ وإنَّما هو لِمُجَرَّدِ المشيئةِ[2]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يُقبَلُ خبرُه إلَّا إذا كان حاضِرًا يَسمَعُ، أو شاهِدًا يَرى؛ لِقَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾، وقولِه أيضًا: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾؛ فإنَّ الذي يمكِنُ أنْ يُخبِرَ هو مَن حَضَرَ فسَمِعَ، أو مَن قَرُبَ فشاهَدَ، أمَّا الإخبارُ دُونَ شهادةٍ، أو شهودٍ أو حُضورٍ؛ فمثلُ هذا لا يُقبَلُ، وهذا أمرٌ معلومٌ مِن الشَّرعِ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ دَلالةٌ على رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ حيثُ أخبرَ بذلك تفصيلًا مُطابِقًا، وتأصيلًا مُوافِقًا؛ قَصَّه قصًّا صَدَّقَ به المرسَلينَ، وأيَّدَ به الحقَّ المُبينَ، مِن غيرِ حضورِ شَيءٍ مِن تلك الوَقائِعِ، ولا مُشاهَدةٍ لموضِعٍ واحدٍ مِن

---

= قال ابنُ عثيمين: (استنبَط بعضُ العلماءِ مِن قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أنَّه لم تهلِكْ أُمَّةٌ على العُمومِ بعدَ نزولِ التَّوراةِ... وهذا الاستنباطُ ليس ببعيدٍ؛ لأنَّ الواقعَ يُصَدِّقُه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٤).

تلك المَواضِعِ، ولا تلاوةِ دَرسٍ فيها شَيءٌ مِن هذه الأمورِ، ولا مُجالَسةِ أحدٍ مِن أهلِ العلمِ، إنْ هو إلَّا رسالةُ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، ووحْيٌ أنزلَه عليه الكريمُ المنَّانُ؛ لِيُنذِرَ به قومًا جاهلينَ، وعن النُّذُرِ والرُّسُلِ غافِلينَ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ أنَّ الوحْيَ يُسمَّى قضاءً(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ذِكرُ إهلاكِ القُرونِ الأُولى إدماجٌ(٣) للنَّذارةِ في ضِمنِ الاستِدلالِ. وجُملةُ ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ تَخلُّصٌ مِن قصَّةِ بَعثةِ موسى عليه السَّلامُ إلى تأييدِ بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ثُمَّ إنَّ القُرآنَ أعرَضَ عن بَيانِ حِكمةِ الفِترِ الَّتي تَسبِقُ إرسالَ الرُّسلِ، واقتَصَر على بيانِ الحِكمةِ في الإرسالِ عَقِبَها؛ لأنَّه المُهِمُّ في مَقامِ نَقْضِ حُجَّةِ المُبطِلينَ للرِّسالةِ، أو اكتِفاءً بأنَّ ذلك أمْرٌ واقعٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٩). ويُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٣).

(٣) الإدماجُ: هو أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجَتِ المبالغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

لا يُستطاعُ إنكارُه، وهو المقصودُ هنا[١].

- وإنَّما أَوقعَ ﴿بَصَآئِرَ﴾ حالًا مِنَ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ ليُؤْذِنَ بشِدَّةِ احتِياجِ القَومِ إلى ما تُفتَحُ به قُلوبُهمُ العَمياءُ، وإنَّما أردَفَها بقَولِه: ﴿وَهُدًى﴾؛ ليُنبِّهَ على أنَّهم كانوا يَخبِطونَ في ضَلالٍ، وعَقَّبَهما بقولِه: ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ ليُناديَ بأنَّهم كانوا بُعَداءَ مِن رحمةِ اللهِ، وما عَمِلوا بمُقتضَى الكِتابِ؛ لأنَّهم لو عَمِلوا به لوَصَلوا إلى رحمةِ اللهِ؛ فألفاظُ الآيةِ كلُّها تعريضاتٌ باليهودِ، ودَلَّ على مكانِ التَّعريضِ قَولُه: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ فيه تأكيدُ الجُملةِ بلامِ القَسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)؛ لِتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ المُنكِرينَ لوُقوعِ ذلك، حتَّى يُحتاجَ معهم إلى التَّأكيدِ بالقسَمِ، فمَوقعُ التَّأكيدِ هو قولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾[٣].

- والتَّعرُّضُ لبَيانِ كَونِ إيتاءِ التَّوراةِ بعْدَ إهلاكِ القُرونِ الأُولى؛ للإشعارِ بمساسِ الحاجةِ الدَّاعيةِ إليه؛ تمهيدًا لما يَعقُبُه مِن بيانِ الحاجةِ الدَّاعيةِ إلى إنزالِ القُرآنِ الكريمِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ إهلاكَ القُرونِ الأُولَى مِن مُوجِباتِ اندِراسِ مَعالِمِ الشَّرائعِ، وانطِماسِ آثارِها وأحكامِها، المؤَدِّيَينِ إلى اختلالِ نظامِ العالَمِ، وفَسادِ أحوالِ الأُمَمِ، المُستدعِيَينِ للتَّشريعِ الجديدِ بتقريرِ الأُصولِ الباقيةِ على مَرِّ الدُّهورِ، وترتيبِ الفروعِ المُتبدِّلةِ بتَبدُّلِ العُصورِ، وتَذكيرِ أحوالِ الأُممِ الخاليةِ الموجِبةِ للاعتِبارِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٨، ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٦، ٤١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩).

كأنَّه قيلَ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ على حينِ حاجةٍ إلى إيتائِها[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ لَمَّا بَطَلَتْ شُبهتُهم الَّتي حاوَلوا بها إحالةَ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، نَقَل الكلامَ إلى إثباتِ رِسالتِه بالحُجَّةِ الدَّامِغةِ، وذلك بما أَعلَمَه اللهُ به مِن أخبارِ رِسالةِ موسى عليه السَّلامُ، ممَّا لا قِبَلَ له بعِلمِه، لولا أنَّ ذلك وَحْيٌ إليه مِنَ اللهِ تعالى؛ فهذا تَخلُّصٌ مِنَ الاعتِبارِ بدَلالةِ الالتِزامِ في قِصَّةِ موسى إلى الصَّريحِ مِن إثباتِ نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ أعجَبُ احتِراسٍ وقَع في القرآنِ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال حكايةً عن موسى: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، فلمَّا نفى سُبحانَه عن رسولِه أن يكونَ بالمكانِ الَّذي قضى لموسى فيه الأمرَ عرَّف المكانَ بالغربيِّ، ولم يقُلْ في هذا الموضعِ: الأيمَن، كما قال: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]؛ أدبًا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يَنفيَ عنه كَوْنَه بالجانبِ الأيمَنِ، أو يَسلُبَ عنه لَفْظًا مُشتَقًّا مِنَ اليُمنِ أو مُشارِكًا لِمادَّتِه، ولَمَّا أخبَر عن موسى عليه السَّلامُ ذكَرَ الجانبَ الأيمَنَ؛ تشريفًا لموسى، فراعى في المَقامَينِ حُسْنَ الأدَبِ معهما؛ تعليمًا للأُمَّةِ، وهو أصلٌ عظيمٌ في الأدبِ في الخِطابِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ شُروعٌ في بيانِ أنَّ إنزالَ القرآنِ الكريمِ أيضًا واقعٌ في زمانِ شدَّةِ مساسِ الحاجةِ إليه، واقتِضاءِ الحِكمةِ له البَتَّةَ. وقد

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٢٩، ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٦).

صُدِّرَ بتحقيقِ كَونِه وَحْيًا صادقًا مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ ببيانِ أنَّ الوُقوفَ على ما فُصِّل مِنَ الأحوالِ لا يَتسنَّى إلَّا بالمُشاهَدةِ أو التَّعلُّمِ ممَّن شاهَدَها، وحيثُ انتَفَى كِلاهُما تَبيَّنَ أنَّه بوَحْيٍ مِن علامِ الغُيوبِ لا مَحالةَ، على طريقةِ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ...﴾ الآيةَ[1] [آل عمران: ٤٤].

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ بدَأَ أوَّلًا بنَفْيِ شَيءٍ خاصٍّ، وهو أنَّه لم يَحضُرْ وقْتَ قَضاءِ اللهِ لموسى الأمرَ، ثمَّ ثنَّى بكَونِه لم يكُنْ مِنَ الشَّاهِدينَ، أي: مِنَ الشَّاهِدينَ بجَميعِ ما أعلَمْناك به؛ فهو نفْيٌ لشَهادتِه جَميعَ ما جرَى لموسى؛ فكان عُمومًا بعْدَ خُصوصٍ[2].

وقيل: إنَّما قال: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾؛ لأنَّ مَن كان في الجانبِ قد يَرى، وقد لا يَرى، فإذا قال قائلٌ: لماذا لم يُقتصَرْ على قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾؟

**الجوابُ**: لأنَّ الإنسانَ قد يُشاهِدُ مِن بُعْدٍ ولكنْ قليلٌ، فهنا تضمَّنَ أنه قريبٌ، وأنَّه شاهدٌ، ففَرْقٌ بيْنَ أنْ نقولَ: ما كنتَ شاهدًا، أي: ما كنتَ حاضرًا مُشاهِدًا بعينِك -ولو كنتَ بعيدًا-، ولهذا ليس في الآيةِ الكريمةِ تَكرارٌ؛ ولكنْ فيها شَيءٌ مِن التَّوكيدِ، يعني: لا حَضَرَ، ولا نَظَرَ، فيكونُ ما أخبَرَ به عن ذلك مِن بابِ الوحْيِ، لا مِن بابِ المشاهَدةِ، ولا مِن بابِ السَّماعِ؛ ولكنَّه وحْيٌ أُوحيَ إليه[3].

- قَولُه: ﴿إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ فسمَّى اللهُ تعالى الوحيَ «الأمر» بـ «ال» الدَّالةِ على العظَمةِ والكمالِ، ولا ريبَ أنَّ أعظمَ الأمورِ ما جاءتْ به الرُّسلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥، ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٣).

مِن وحْيِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لِمَا فيه مِن مصلحةِ البلادِ والعبادِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ خَفيَ اتِّصالُ هذا الاستِدراكِ بالكلامِ الَّذي قَبْلَه، وكيف يَكونُ استِدراكًا وتعقيبًا للكلامِ الأوَّلِ برفْعِ ما يُتوهَّمُ ثُبوتُه؟ فبيانُه أنَّ قَولَه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ مَسوقٌ مَساقَ إبطالِ تَعجُّبِ المُشركينَ مِن رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ لم يَسبِقْها رِسالةُ رَسولٍ إلى آبائِهمُ الأوَّلينَ، فذَكَّرَهم بأنَّ اللهَ أرسَلَ موسى كذلك بعْدَ فَترةٍ عظيمةٍ، وأنَّ الَّذينَ أُرسِل إليهم موسى أثارُوا مِثلَ هذه الشُّبهةِ، فقالوا: (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) [القصص: ٣٦]، فكما كانتْ رسالةُ مُوسى عليه السَّلامُ بعْدَ فَترةٍ مِنَ الرُّسلِ، كذلك كانت رسالةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فالمعنَى: فكان المُشركونَ حَقيقِينَ بأنْ يُنَظِّروا رسالةَ محمَّدٍ برسالةِ موسى. ولكنَّ اللهَ أنشأَ قُرونًا -أي: أُمَمًا- بيْنَ زمَنِ موسى وزمَنِهم، فتَطاوَلَ الزَّمَنُ، فنَسيَ المُشركونَ رسالةَ موسى، فقالوا: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [ص: ٧]. وحُذِف بقيَّةُ الدَّليلِ، وهو تقديرُ: فنَسُوا؛ للإيجازِ؛ لظُهورِه مِن قَولِه: ﴿فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾، كما قال تعالى عن اليَهودِ حينَ صارُوا ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، وقال عن النَّصارَى: ﴿أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٤]، وقال لأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، فضَميرُ الجَمعِ في قَولِه: ﴿عَلَيْهِمُ﴾ عائدٌ إلى المُشركينَ، لا إلى القُرونِ. فتَبيَّنَ أنَّ الاستِدراكَ مُتَّصِلٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢١٤).

بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٤٣]، وأنَّ ما بيْنَ ذلك وبيْنَ هذا استِطرادٌ. وهذا أحسَنُ في بيانِ اتِّصالِ الاستِدراكِ، وهو بهذا مُخالِفٌ لمَوقعِ الاستِدراكَينِ الآتِيَينِ بعْدَه؛ مِن قَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[1] [القصص: ٤٦].

- وقيلَ: اتَّصَلَ هذا الاستِدراكُ بالكلامِ قَبْلَه؛ لأنَّه ليس الاعتِبارُ بصُورةِ النَّفيِ والإثباتِ، وإنَّما المُعتبَرُ المعنَى؛ فإنَّه تعالى لَمَّا نفَى عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّلًا كَوْنَه بجانبِ الغَربيِّ، وكَوْنَه مُشاهِدًا لِلوَحيِ إلى موسى عليه السَّلامُ وقَضاءِ الأمرِ له؛ مِنَ المُكالَمةِ وكِتْبةِ التَّوراةِ وغَيرِهما، والمرادُ نفْيُ عِلمِه بذلك- أثبَتَ له العِلمَ ثانيًا بتِلك القِصَّةِ وبسائرِ قِصَصِ الأنبياءِ؛ فكأنَّه قيل: ما كنتَ داريًا بذلك بطريقٍ مِن طُرُقِ العِلمِ؛ لكنْ جعَلْناك داريًا بطريقِ الوَحيِ، بأنْ أرسَلْناك أحْوَجَ ما يكونُ النَّاسُ إلى إرسالِك؛ لفُتورِ الوَحيِ مدَّةً مُتطاوِلةً؛ فوُضِع قَولُه: ﴿أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ مَوضِعَ: (أرسَلْناكَ وكَسَبْنا لك العِلمَ)؛ وَضْعًا للسَّببِ مَوضعَ المُسبَّبِ؛ لأنَّ إطالةَ فَترةِ الوَحيِ واندِراسِ العُلومِ سببٌ لإرسالِ الرُّسُلِ وكَسْبِهمُ العُلومَ[2].

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تكريرٌ للدَّليلِ بمثَلٍ آخَرَ، مِثلُ ما في قَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾[3] [القصص: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٠، ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٧)، ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ٢٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٧٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣١).

- وعُدِل عن أن يُقالَ: (ولكنَّا أوحَيْنا بذلك)، إلى قَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؛ لأنَّ المَقصَدَ الأهمَّ هو إثباتُ وُقوعِ الرِّسالةِ مِنَ اللهِ للرَّدِّ على المُشركينَ في قَولِهم وقَولِ أمثالِهم: (مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) [القصص: ٣٦]. وتُعلَمُ رسالةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بدَلالةِ الالتزامِ[١] مع ما يأتي مِن قَولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ [القصص: ٤٦] الآيةَ، فالاحتِجاجُ والتَّحدِّي في هذه الآيةِ والآيةِ الَّتي قَبْلَها تَحَدٍّ بما عَلِمَه النَّبيُّ علَيهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن خبَرِ القصَّةِ الماضيةِ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ جانبُ الطُّورِ: هو جانبُ الغَربيِّ -وذلك على قولٍ-، وهو الجانبُ الأَيمَنُ المُتقدِّمُ وصْفُه بذَيْنِكَ الوَصفَينِ؛ فعُرِّيَ هنا عنِ الوَصفِ؛ لأنَّه صار معروفًا. وحُذِف مفعولُ النِّداءِ؛ لظُهورِ أنَّه نِداءُ مُوسى مِن قِبَلِ اللهِ تعالى[٣].

- والاستِدراكُ في قَولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ناشِئٌ عن دَلالةِ قَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾، على معنَى: ما كان عِلمُك بذلك لحُضورِكَ، ولكنْ كان عِلمُك ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؛ فانتِصابُ ﴿رَّحْمَةً﴾ مؤْذِنٌ بأنَّه مَعمولٌ لعاملِ نَصبٍ مأخوذٍ مِن سِياقِ الكلامِ: إمَّا على تَقديرِ كَونٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه نَفْيُ الكَونِ في قولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾، والتَّقديرُ: ولكنْ كان عِلمُك رحمةً مِنَّا، وإمَّا على المفعولِ المُطْلَقِ

---

(١) دلالةُ الالتزامِ: هي دلالةُ اللفظِ على لازمِه، كدلالةِ الأسدِ على الشجاعةِ. يُنظر: ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٢، ١٣٣).

الآتي بدَلًا مِن فِعلِه، والتَّقديرُ: ولكنْ رَحِمْناك رَحمةً بأنْ عَلَّمْناك ذلك بالوَحيِ رحمةً؛ بقَرينةِ قَولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾. ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿رَّحْمَةً﴾ منصوبًا على المفعولِ لأجْلِه، معمولًا لِفعلِ ﴿لِتُنذِرَ﴾؛ فيَكونَ فِعلُ ﴿لِتُنذِرَ﴾ مُتعلِّقًا بكَوْنٍ مَحذوفٍ هو مَصَبُّ الاستِدراكِ. وفي هذه التَّقاديرِ توفيرُ مَعانٍ، وذلك مِن بليغِ الإيجازِ[1]. وقد اكتُفيَ عن ذِكرِ المُستدرَكِ هاهنا بذِكْرِ ما يوجِبُه مِن جِهَتِه تعالى، كما اكتُفيَ عنه في الأوَّلِ بذِكرِ ما يُوجِبُه مِن جِهةِ النَّاسِ، وصُرِّح به فيما بيْنَهما؛ تَنصيصًا على ما هو المقصودُ، وإشعارًا بأنَّه المرادُ فيهما أيضًا. ولله دَرُّ شأنِ التَّنزيلِ[2].

- والالتِفاتُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ إلى اسمِ الرَّبِّ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الرَّحمةِ، وتَشريفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالإضافةِ[3].

- وعُدِل عن: (رحمةً مِنَّا)، إلى ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بالإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِما يُشعِرُ به معنَى الرَّبِّ المُضافِ إلى ضميرِ المُخاطَبِ مِنَ العنايةِ به عنايةَ الرَّبِّ بالمَربوبِ[4].

- قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ القَومُ: قُرَيشٌ والعرَبُ؛ فهُمُ المُخاطَبونَ ابتِداءً بالدِّينِ، وكُلُّهم لم يأتِهم نَذيرٌ قبْلَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنَّما اقتُصِر على قُرَيشٍ أو على العرَبِ دُونَ سائرِ الأُمَمِ الَّتي بُعِث إليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ المِنَّةَ عليهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٤).

أَوْفَى؛ إذْ لم تَسبِقْ لهم شَريعةٌ مِن قَبْلُ، فكان نِظامُهم مُختَلًّا غَيرَ مَشوبٍ بأَثارةٍ مِن شَريعةٍ مَعصومةٍ؛ فكانوا في ضرورةٍ إلى إرسالِ نذيرٍ، وللتَّعريضِ بكُفرانِهم هذه النِّعمةَ[1].

- وتغييرُ التَّرتيبِ الوُقوعيِّ بيْن قَضاءِ الأمرِ والثَّواءِ في أهْلِ مَدْيَنَ والنِّداءِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ كُلًّا مِن ذلك بُرهانٌ مُستقِلٌّ على أنَّ حكايتَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للقصَّةِ بطريقِ الوَحيِ الإلهيِّ. ولو ذُكِر أوَّلًا نَفْيُ ثَوائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أهلِ مَدْيَنَ، ثمَّ نَفْيُ حُضورِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِندَ النِّداءِ، ثمَّ نفْيُ حُضورِه عِندَ قضاءِ الأمرِ -كما هو الموافِقُ للتَّرتيبِ الوُقوعيِّ- لَرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّ الكُلَّ دليلٌ واحدٌ على ما ذُكِرَ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦، ١٧).

## الآيات (٤٧-٥٠)

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِيَ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَظَٰهَرَا﴾: أي: تَعاوَنا، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله سبحانه مُبطِلًا ما يَتعلَّلُ به المُشرِكون مِن معاذيرَ: ولولا أن يُعذِّبَ اللهُ مُشرِكي قُرَيشٍ بسَبَبِ كُفرِهم، فيقولوا: ربَّنا هلَّا أرسلْتَ إلينا رَسولًا قبْلَ أن تعَذِّبَنا؛ فنتَّبِعَ آياتِك ونكونَ مِنَ الموحِّدينَ المؤمِنينَ- لَعاجَلْناهم بالعذابِ، فلمَّا جاءهم القرآنُ مِن عندِنا قالوا: هلَّا أُوتيَ محمَّدٌ القرآنَ جُملةً واحِدةً كما أُوتيَ موسى التَّوراةَ دَفعةً واحِدةً، وهلَّا أُوتيَ مُعجزاتٍ كالَّتي أُوتيَها موسى؟! أوَلَمْ يَكفُروا بالتَّوراةِ والمُعجِزاتِ الَّتي آتاها اللهُ موسى مِن قَبْلُ؟! قالوا: التَّوراةُ والقرآنُ سِحْرانِ تَعاوَنَا وتَناصَرَا على إضلالِ النَّاسِ بسِحْرِهما، وصدَّق كلٌّ منهما الآخَرَ، وقالوا: إنَّا بكُلٍّ مِنَ التَّوراةِ والقُرآنِ كافِرونَ!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

قُلْ -يا محمَّدُ- لكفَّارِ قُرَيشٍ: فهاتوا إذَنْ كتابًا مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ هو أهدى للحَقِّ منهما؛ فأعمَلَ به، إنْ كنتُم صادقينَ في دَعْواكم.

فإنْ لم يَستَجيبوا لك ويتَّبِعوا الحَقَّ، فاعلَمْ -يا محمَّدُ- أنَّهم يتَّبِعونَ أهواءَهم، ولا أحَدَ أضَلُّ عن الحَقِّ ممَّن اتَّبَع هَوى نفْسِه وترَك هُدى اللهِ، إنَّ اللهَ لا يهدي القومَ الظَّالمينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان انتفاءُ إنذارِهم قَبْلَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نافيًا للحُجَّةِ في عذابِهم بما أوجبَه اللهُ -وله الحُجَّةُ البالِغةُ، لا يُسألُ عمَّا يَفعَلُ- على نَفْسِه الشَّريفةِ؛ فَضلًا منه ورحمةً؛ ذَكَر أنَّ إرسالَه ممَّا لا بُدَّ منه لذلك، فقال[1]:

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: ولولا أن يُعذِّبَ اللهُ مُشركي قُرَيشٍ بسَبَبِ كُفرِهم ومعاصيهم قبْلَ إرسالِك -يا محمَّدُ-، فيقولوا محتَجِّينَ: يا رَبَّنا، هلَّا أرسَلْتَ إلينا رَسولًا قبْلَ أن تعَذِّبَنا؛ فنتَّبِعَ آياتِ القُرآنِ، ونَكونَ مِنَ الموحِّدينَ المُؤمِنينَ بك وبرَسولِك- لَعاجَلْناهم بالعذابِ، ولَكِنَّا أقَمْنا الحُجَّةَ عليهم بإرسالِك إليهم[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حكى سُبحانَه عنهم أنَّهم عندَ الخَوفِ قالوا: «هلا أرسلْتَ إلينا رَسولًا فنتَّبِعَ آياتِك»؛ بَيَّنَ أيضًا أنَّه بعْدَ الإرسالِ إلى أهلِ مكَّةَ ﴿قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾، فهؤلاء قبْلَ البَعثةِ يَتعلَّقون بشُبهةٍ، وبعدَ البَعثةِ يَتعلَّقونَ بأُخرى؛ فظهرَ أنَّه لا مَقصودَ لهم سِوى الزَّيغِ والعِنادِ(١).

وأيضًا لَمَّا بَهَرتْهم آياتُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لم يَجِدوا مِن المعاذيرِ إلَّا ما لَقَّنَهم اليَهودُ؛ وهو أن يقولوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾(٢).

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾.

أي: فلمَّا جاء كُفَّارَ قُرَيشٍ القُرآنُ الَّذي أُنزِلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه

---

= (٦/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٥، ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٧).

وسلَّمَ، قالوا: هلَّا أُوتيَ مُحمَّدٌ القُرآنَ جُملةً واحِدةً، كما أُوتيَ موسى التَّوراةَ دَفعةً واحِدةً، وهلَّا أُوتيَ مُعجِزاتٍ كالَّتي أُوتِيَها موسى؛ مِثلُ العصا الَّتي تَنقَلِبُ حَيَّةً، واليَدِ الَّتي تَخرُجُ بَيضاءَ[1]!

﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: أوَلَمْ يَكفُرْ كُفَّارُ قُرَيشٍ بالتَّوراةِ والمُعجِزاتِ الَّتي آتاها اللهُ موسى مِن قَبْلِ بَعثةِ مُحمَّدٍ؟! فكيف يَطلُبونَ مِن مُحمَّدٍ مِثلَ ما أُوتيَ موسى[2]؟!

﴿قَالُواْ سِحۡرَانِ تَظَٰهَرَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٢٧-٢٢٩).

قال ابن عثيمين: (والحقُّ بمعنى: الشَّيءِ الثَّابتِ، وهو بالنِّسبةِ للأخبارِ: الصِّدقُ، وبالنِّسبة للأحكامِ: العدلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٥).

ممَّن قال بأنَّ الضميرَ هنا عائِدٌ إلى كُفَّارِ قُرَيشٍ: الواحديُّ، والسمعانيُّ، والرازيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على اليهودِ في زمَنِ النَّبيِّ، أي: أوَلَمْ يكفُرِ اليَهودُ بما أُوتيَ موسى مِن قَبْلِك، فلَمْ يُؤمِنوا بها؟ وممَّن قال بهذا القَولِ: ابنُ جرير، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٠).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على اليهودِ في زمَنِ موسى. وممَّن قال بهذا القولِ: الزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٩، ٤٢٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٤٧).

وقال البقاعي: (﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ﴾ أي: العَرَبُ ومَن بلغَتْهم الدَّعوةُ مِن بني إسرائيلَ، أو مَن شاء اللهُ منهم، أو أبناءُ جِنسِهم ومَن كان مِثلَهم في البشَريَّةِ والعَقلِ في زمنِ موسى عليه السَّلامُ ﴿بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ﴾). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٠٩).

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ ﴿سِحْرَانِ﴾ على معنى: أنَّهم يَقصِدون التَّوراةَ والقُرآنَ[١].

٢- قِراءةُ ﴿سَاحِرَانِ﴾ على معنى: أنَّهم يَقصِدونَ موسى ومحمَّدًا، وقيل: موسى وهارونَ. عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾.

أي: قال كُفَّارُ قُرَيش: التَّوراةُ والقُرآنُ سِحرانِ تَعاوَنَا وتَناصَرَا على إضلالِ النَّاسِ بسِحْرِهما، وصدَّق كُلٌّ منهما الآخَرَ[٣].

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تَضَمَّنَ قولُهم ذلك الكُفرَ؛ صَرَّحوا به[٤].

﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾.

---

(١) قرأ بها عاصم، وحمزة، والكِسائي، وخلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤١، ٣٤٢). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٤٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٢). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٦٥)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٨)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١١٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٠).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنَّا بكُلٍّ مِنَ التَّوراةِ والقُرآنِ كافِرونَ لا نُؤمِنُ بهما[١].

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أجاب اللهُ تعالى عن شُبَهِهم؛ ذَكَر الحُجَّةَ الدَّالَّةَ على صِدقِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال[٢]:

﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قُرَيشٍ: فهاتُوا إذَن كِتابًا مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ أكثَرَ هِدايةً للحَقِّ منهما؛ فأعمَلَ به[٣].

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

أي: إنْ كُنتُم صادقينَ في دَعْواكم أنَّ التَّوراةَ والقُرآنَ سِحرانِ، وأنَّ الحقَّ في غَيرِهما[٤]!

﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٥٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٥).
وذهب ابنُ جرير إلى أنَّ المعنى: وقالت اليهودُ: إنَّا بكُلِّ كِتابٍ في الأرضِ -مِن توراةٍ، وإنجيلٍ، وزَبورٍ، وفُرقانٍ- كافِرونَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٠). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦١٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٥)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ٢٠٠).

هُدًى مِّنَ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

﴿ فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾.

أي: فإنْ لم يأتِ الزَّاعِمونَ أنَّ التَّوراةَ والقُرآنَ سِحرانِ بكتابٍ أهدَى منهما، ويتَّبِعوا الحَقَّ؛ فاعلَمْ -يا مُحمَّدُ- أنَّهم يُؤْثِرونَ أهواءَهم وما تستَحسِنُه نفوسُهم ويُحَبِّبُه لهم الشَّيطانُ، ولا يتَّبِعونَ الحَقَّ، ولا حُجَّةَ لهم على ما يَزعُمونَ مِن الكَذِبِ والباطِلِ[1].

﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ولا أحَدَ أضَلُّ عن الحَقِّ ممَّن اتَّبَع هوى نفْسِه، وتَرَك الهُدى بغيرِ بَيانٍ وحُجَّةٍ مِن عندِ اللهِ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ والهُدى القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم وغَيرَهم، وصار ذلك وَصفًا لازِمًا لهم، ومِن جُملةِ ذلك الانهِماكُ في مُتابعةِ الهوى[3].

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤١).

قال ابن عاشور: (المرادُ بالظَّالمينَ: الكامِلونَ في الظُّلْمِ، وهو ظُلْمُ الأنفُسِ وظُلمُ النَّاسِ، وأعظَمُه الإشراكُ وإتيانُ الفَواحِشِ والعُدوانُ... وهم مع ذلك مُتفاوِتونَ في انتفاءِ هُدى الله عنهم على تَفاوُتِهم في التَّصلُّبِ في ظُلمِهم، فقد يَستمِرُّ أحدُهم زمانًا على ضَلالِه ثمَّ يُقَدِّرُ اللهُ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أنَّه ينبغي في مَقام المُناظَرةِ والمُجادَلةِ أنْ يُفحَمَ الخَصمُ بإبطالِ قَولِه بقَولِه أو بفِعلِه، فيُبطَلُ قَولُه بما جرى منه هو؛ لأنَّ ما جرى منه لا يُمكِنُ أنْ يُنكِرَه، ولو أنكَرَه ما قُبِلَ؛ فكَونُنا نقيمُ الحُجَّةَ على الخَصمِ مِن فِعلِه وقَولِه- هذا أبلغُ في إفحامِه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ أنَّه ينبغي عندَ المناظرةِ إبطالُ قَولِ الخَصمِ بالأمرِ الواقعِ؛ فإنَّ الآياتِ الَّتي جاء بها موسى وأبطلَها هؤلاء: كُذِّبَتْ وما آمَنَ بها البشرُ، إذَنْ فالمدارُ ليس على جِنسِ الآياتِ، ولكنَّ المدارَ على حالِ المخاطَبِ، وإلَّا فالآياتُ قائمةٌ بَيِّنَةٌ، لكنْ ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[2] [يونس: ١٠١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ طَمْأنةُ أتْباعِ الرُّسُلِ، وتَثبيتُهم على أنَّهم سيَنالُهم مِن ألقابِ السُّوءِ ومِن المُعاداةِ مِثلُ ما نال الرُّسلَ؛ فعليهم أن يُقابِلوا ذلك بالصَّبرِ والثَّباتِ والقوَّةِ، لا أنْ يُخذَلوا، بل عليهم أنْ يكونوا كما كان مَتبوعُهم الَّذي أمَرَه اللهُ قائلًا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل

---

= له الهدى... ولأجْلِ هذا التَّفاوُتِ في قابليَّةِ الإقلاعِ عن الضَّلالِ استمَرَّتْ دَعوةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيَّاهم للإيمانِ في عُمومِ المَدْعوِّينَ؛ إذْ لا يَعلَمُ إلَّا اللهُ مَدى تَفاوُتِ النَّاسِ في الاستِعدادِ لقَبولِ الهُدى، فالهُدى المَنْفيُّ عن أن يَتعلَّقَ بهم هنا هو الهدى التَّكوينيُّ، وأمَّا الهُدى بمعنى الإرشادِ فهو مِن عُمومِ الدَّعوةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[1] [الأحقاف: ٣٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنَّه مِن العَدلِ التَّنزُّلُ مع الخَصمِ إلى حالٍ يُقِرُّ بها؛ فإنَّه مِن المعلومِ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَعلَمُ أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يأتوا بما طُلِبَ منهم، وذلك حينَ طُلِبَ منهم أنْ يأتوا بكتابٍ أهدَى مِن التَّوراةِ والقرآنِ، أي: أنتم ائْتُوا بكتابٍ أهدَى مِن التَّوراةِ والقرآنِ وأنا ألتَزِمُ باتِّباعِه، فإذا لم يأتوا فمعناه: ألزِمْهم أن يَتَّبِعوا التَّوراةَ والقرآنَ[2].

٥- عدمُ مجادَلةِ المتَّبِعِ هواه المُكابرِ؛ فليس هناك سبيلٌ لإقناعِه، فهو يريدُ أنْ يَنتصِرَ لنفْسِه فقط، ويَتَّبِعَ هواه! فما دام الرَّجُلُ صاحِبَ هوًى، فالجِدالُ معه لا فائدةَ منه؛ قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾[3].

٦- ليس لأحدٍ أن يعمَلَ في الدِّينِ إلَّا ما شرَعَه اللهُ ورسولُه، دونَ ما يشتهيه ويَهْواه؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[4].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على بُطلانِ قَولِ الَّذين يقولونَ: إنَّ أعمالَ المُشركينَ قبْلَ البَعثةِ ليست قَبيحةً لِذَاتِها، بل إنَّما قَبُحَت بالنَّهيِ فقط؛ وبُطلانِ قَولِ الَّذين يقولونَ: إنَّها قَبيحةٌ ويَستحِقُّونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٠١).

عليها العُقوبةَ عَقلًا بدُونِ البَعثةِ- فنَظَمَتِ الآيةُ بُطلانَ قَولِ الطَّائفَتينِ، ودلَّت على القَولِ الوَسَطِ: أنَّ هذه الأعمالَ قَبيحةٌ في نفْسِها، ولا يَستحِقُّونَ العِقابَ إلَّا بعد إقامةِ الحُجَّةِ بالرِّسالةِ؛ فلا تَلازُمَ بيْنَ ثُبوتِ الحُسْنِ والقُبْحِ العقليَّينِ، وبينَ استِحقاقِ الثَّوابِ والعِقابِ؛ فالأدلَّةُ إنَّما اقتَضَتِ ارتباطَ الثَّوابِ والعِقابِ بالرِّسالةِ، وتَوَقُّفَهما عليها، ولم تَقتَضِ تَوَقُّفَ الحُسنِ والقُبحِ بكلِّ اعتِبارٍ عليها، وفَرْقٌ بيْنَ الأمْرَينِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ أنَّ ما خالفَ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فهو باطلٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، فكلُّ خبرٍ يَتضمَّنُ تكذيبَ خبرِ اللهِ ورسولِه فهو الكذبُ، وإذا شَرَّعَ الإنسانُ قوانينَ مخالِفةً للشَّرعِ؛ قُلْنا: هذا باطلٌ وضلالٌ؛ لأنَّ الحقَّ فيما جاء به الشَّرعُ فقط[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ أنَّ قُرَيشًا كان عندَهم بعضُ المعلوماتِ عن الرُّسلِ السَّابِقينَ، حيثُ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ وقد حصَلوا على هذا العلمِ عن طريقِ اليهودِ[٣].

٤- أنَّ أهلَ الباطلِ يُلَقِّبون أهلَ الحقِّ بألقابِ السُّوءِ؛ تنفيرًا للناسِ عن قَبولِ ما جاؤوا به، يُؤخَذُ هذا مِن قولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ﴾ أو ﴿سَاحِرَانِ﴾ على القراءةِ الأُخرَى، فسَواءٌ وَصَفوا ما جاءَتْ به الرُّسلُ بالسِّحرِ، أو وَصَفوا الرُّسلَ أنفُسَهم بالسِّحرِ؛ فإنَّ المقصودَ بذلك تنفيرُ الناسِ عن قَبولِ ما جاءتْ به الرُّسلُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).

٥- التَّحدِّي يَكونُ بالوَصفِ كما يكونُ بالفِعلِ؛ فقولُه تعالى: ﴿فَأْتُوا﴾ تَحَدٍّ بفِعلٍ ما هم بآتينَ به، وقولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ تَحَدٍّ بالوَصفِ؛ أي: إنْ كان ما أنتم عليه حقًّا فأْتُوا بهذا، وإلَّا فأنتم مِن الكاذِبينَ؛ ولهذا قال: ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بيانُ أنَّه سُبحانَه لم يُنزِلْ كتابًا أهدى مِن التَّوراةِ والقُرآنِ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ﴾ أنَّه لا يَلزَمُ الإنسانَ الانتِقالُ عمَّا كان عليه إلى غَيرِه إلَّا إذا كان أهدَى منه[3].

٨- جوازُ التَّعليقِ بالشَّرطِ فيما هو مُحقَّقُ الوُقوعِ، وهذا في قَولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ هذا مُحقَّقُ الوُقوعِ؛ فليس فيه احتمالُ أنْ يَستَجيبوا، فيجوزُ تعليقُ الشَّيءِ المحقَّقِ بالشَّرطِ، ولو كان مُحقَّقًا أنَّه لن يكونَ، وكذلك لو كان محقَّقًا أنَّه كائنٌ؛ فإنَّ الانتِفاءَ هنا كائنٌ لا محالةَ، ومع ذلك عُلِّقَ بالشَّرطِ، وفي الحديثِ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: ((وإنَّا إنْ شاء اللهُ بكم لاحِقون))[4] في قَولِه لأهلِ المقابرِ، ومعلومٌ أنَّ هذا الأمرَ مُحقَّقٌ[5].

٩- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ جعَل سُبحانَه وتعالى المتَّبَعَ قِسْمَينِ لا ثالثَ لهما؛ إمَّا ما جاءَ به الرسولُ، وإمَّا الهوَى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٦).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٩) مطولًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٩).

فمَنِ اتَّبَع أحدَهما لم يُمكِنْه اتِّباعُ الآخَرِ، فاللهُ سُبحانَه وتعالى جعَل الهوَى مُضادًّا لِما أنزَلَه على رَسولِه، وجعَلَ اتِّباعَه مُقابِلًا لِمُتابَعةِ رُسُلِه، وقَسَّم النَّاسَ إلى قِسمَينِ: أتْباعِ الوَحيِ، وأتْباعِ الهوى، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ(١).

١٠- جميعُ المعاصي إنَّما تنشأُ مِن تَقديمِ هوى النُّفوسِ على مَحبَّةِ اللهِ ورَسولِه، وقد وصَف اللهُ المُشرِكينَ باتِّباعِ الهوى في مواضِعَ مِن كِتابِه؛ قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾. وكذلك البِدَعُ إنَّما تنشأُ مِن تقديمِ الهوَى على الشَّرعِ؛ ولهذا يُسمَّى أهلُها أهلَ الأهواءِ(٢).

١١- اتِّباعُ الأهواءِ في الدِّياناتِ أعظَمُ مِن اتِّباعِ الأهواءِ في الشَّهواتِ؛ فإنَّ الأوَّلَ حالُ الَّذين كفَروا مِن أهلِ الكِتابِ والمُشرِكينَ، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقالَ تعالَى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]؛ ولهذا كان مَن خرَج عن موجَبِ الكِتابِ والسُّنَّةِ مِن العُلَماءِ والعبَّادِ يُجعلُ مِن أهلِ الأهواءِ، كما كان السَّلَفُ يُسَمُّونَهم أهلَ الأهواءِ؛ وذلك أنَّ كُلَّ من لم يتَّبِعِ العِلمَ فقد اتَّبَع هواه، والعِلمُ بالدِّينِ لا يكونُ إلَّا بهُدَى الله الَّذي بعَثَ به رَسولَه؛ ولهذا قال تعالى في مَوضِعٍ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال في موضِعٍ آخَرَ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ

---

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٠٤، ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٩٧).

بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ﴾[١] [القصص: ٥٠].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ كلَّ مَن لم يَستجِبْ للرَّسولِ، وذَهَب إلى قَولٍ مُخالِفٍ لِقَولِ الرَّسولِ؛ فإنَّه لم يَذهَبْ إلى هدًى، وإنَّما ذَهَبَ إلى هوًى[٢].

١٣- اختِلافُ النَّاسِ في الضَّلالِ والهدى وتفاوتُهم فيهما؛ فليسوا على حَدٍّ سَواءٍ في الضَّلالِ، كما أنَّهم ليسُوا على حَدٍّ سَواءٍ في الهُدى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ دَليلٌ على أنَّ الهوى قد يكونُ في الحَقِّ أيضًا إذا كان فيه هُدًى مِن اللهِ[٤].

١٥- أصْلُ الهوى محبَّةُ النَّفْسِ، ويَتبَعُ ذلك بُغضُها؛ ونَفْسُ الهوى -وهو الحُبُّ والبُغضُ الَّذي في النَّفْسِ- لا يُلامُ عليه المرءُ؛ فإنَّ ذلك قد لا يُملَكُ، وإنَّما يُلامُ على اتِّباعِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٥] [ص: ٢٦].

١٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ الظُّلمَ سببٌ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٣٢). ويُنظر أيضًا: ((ذم الهوى)) لابن الجوزي (ص: ١٢، ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٧٠).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٣٢).

لحرمانِ الظَّالمِ مِن الهُدى[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ردٌّ على القَدَريَّةِ الذين يُنكِرونَ قَدَرَ اللهِ بالنِّسبةِ للأفعالِ، فيَرَون أنَّ الإنسانَ يُمكِنُ أن يهتديَ بنَفْسِه، وليس لله تبارك وتعالى عليه أيُّ سُلطةٍ[٢]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ردٌّ على الجَبْريةِ الجَهْميَّةِ -الذين يقولون بعَكسِ القَدَريَّةِ- يقولون بأنَّ اللهَ تعالى نَسَبَ هؤلاء بفِعلِهم إلى الظُّلْم، ولو كانوا مُجبَرينَ عليه لكانت نِسبةُ الظُّلمِ إليهم ظُلمًا، واللهُ تبارك وتعالى لا يَظْلِمُ أحدًا[٣]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ لَمَّا كانتْ أَكثَرُ الأعمالِ تُزاوَلُ بالأيدي- جُعِل كلُّ عمَلٍ مُعبَّرًا عنه باجتِراحِ الأيدي، وتَقديمِ الأيدي، وإنْ كان مِن أعمالِ القُلوبِ، وهذا مِنَ الاتِّساعِ في الكَلامِ، وتَصييرِ الأقَلِّ تابِعًا للأكثَرِ، وتغليبِ الأكثَرِ على الأقَلِّ[٤].

- قولُه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ إنْ قيلَ: كيف استَقامَ هذا المعنَى وقد جُعِلَتِ العُقوبةُ هيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٩، ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٠).

السَّببَ في الإرسالِ لا القَولُ؛ لدُخولِ حَرفِ الامتِناعِ عليها دُونَه؟

فالجوابُ: القولُ هو المقصودُ بأنْ يَكونَ سببًا لإرسالِ الرُّسلِ، ولكنَّ العُقوبةَ لَمَّا كانت هيَ السَّببَ للقَولِ، وكان وُجودُه بوُجودِها- جُعِلَتِ العقوبةُ كأنَّها سَببُ الإرسالِ بواسطةِ القَولِ؛ فأُدخِلَتْ عليها (لولا)، وجِيءَ بالقولِ معطوفًا عليها بالفاءِ المُعطِيةِ معنَى السَّببيَّةِ، ويَؤُولُ مَعناهُ إلى قَولِك: ولولا قَولُهم هذا إذا أصابَتْهم مُصيبةٌ لَمَا أَرسَلْنا، ولكنِ اختيرَتْ هذه الطَّريقةُ لنُكتةٍ؛ وهي: أنَّهم لو لم يُعاقَبوا مثَلًا على كُفرِهم وقد عايَنوا ما أُلجِئُوا به إلى العِلمِ اليقينِ- لم يَقولوا: لولا أَرسَلْتَ إلينا رسولًا، وإنَّما السَّببُ في قَولِهم هذا هو العِقابُ لا غيرُ، لا التَّأسُّفُ على ما فاتَهم مِنَ الإيمانِ بخالِقِهم. وفي هذا مِنَ الشَّهادةِ القَويَّةِ على استِحكامِ كُفرِهم ورُسوخِه فيهم ما لا يَخفَى، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾[1] [الأنعام: ٢٨].

- وأيضًا في عطْفِ سَببِ السَّببِ على السَّببِ الأصليِّ في قولِه: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾: مَزيدُ العِنايةِ بسَببِ السَّببِ؛ لكَوْنِه مَقصودَ السِّياقِ. وأيضًا في هذا النَّظمِ تنبيهٌ على سَببيَّةِ كلٍّ واحدٍ منهما: أمَّا الأوَّلُ ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم﴾؛ فلاقترانِه بحَرفِ التَّعليلِ وهو ﴿أَن﴾. والثَّاني ﴿فَيَقُولُوا۟﴾ بالفاءِ، ولا يُعطى هذا المعنَى إلَّا مِنَ المَتْلُوِّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٧١، ٧٢).

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ﴾ [القصص: ٤٤]، وقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [القصص: ٤٥]، وقولُه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ [القصص: ٤٦]: تَخلُّصاتٌ مِن ذِكرِ مُوسى إلى إثباتِ نُبوَّةِ سيِّدنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإلزامِ الحُجَّةِ على المُعانِدينَ مِن أهلِ الكِتابِ والمُشركينَ. يعني: إنَّك تُخبِرُ عن هذِه الغُيوبِ، وهُم عالِمون أنَّك أُمِّيٌّ لم تَقرأْ، ولم تَأخُذْ مِن أحَدٍ، ولا أنتَ حَضَرْتَ هناك فتُخبِرُ عنها؛ بحيثُ لم تَخرِمْ حَرفًا، ولم يكُنْ ذلك إلَّا مِن طَريقِ الوَحيِ، كما قال: ﴿وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ﴾ [القصص: ٤٦]، والقومُ الَّذين ما أَتاهُم مِن نَذيرٍ هُم مُشركو العرَبِ، ولا بدَّ مِن إرسالِك إليهم؛ وإلَّا فلَهُم أن يَقولوا -إذا عُوقِبوا بما قَدَّموا مِنَ الشِّركِ والمعاصي-: هَلَّا أَرسَلْتَ إلينا رسولًا فنَتَّبِعَ آياتِك؟ ويَعضُدُ هذا التَّرتيبَ الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا﴾ [القصص: ٤٨]، ووضْعُ المُظهَرِ -وهو ﴿ٱلْحَقُّ﴾- موضعَ المُضمَرِ؛ فإنَّ فيه الإشعارَ بقطْعِ الحُجَّةِ، وأنَّه المؤيَّدُ بالمُعجِزاتِ القاهرةِ، والآياتِ الباهرةِ، والهادي إلى ما يُزلِفُهم إلى المَقامِ الأَسْنى، والدَّرَجاتِ الحُسنى، ويُبعِدُهم عمَّا يوقِعُهم في وَرَطاتِ الرَّدى، ونحوها ممَّا يَدخُلُ تحتَ معنَى الحقِّ، أي: فلمَّا جاءَهُم مِثلُ هذا الحقِّ السَّاطعِ، والنُّورِ اللَّامعِ، عِندَما كانوا أفقرَ شيءٍ إلَيهِ- تَعامَوْا وتَصامُّوا، واقترَحُوا عليه مِنَ الآياتِ ما ظَهَر به عِنادُهُم وتَمرُّدُهم؛ فقالوا: ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾[1] [القصص: ٤٨].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤١٨، ٤١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٧٢).

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ، وتَقديرُ الكَلام: فإنْ كان مِن مَعذِرتِهم أنْ يَقولُوا ذلك، فقد أَرسَلْنا إليهم رَسولًا بالحَقِّ، فلمَّا جاءَهمُ الحقُّ لَفَّقوا المَعاذيرَ، وقالوا: لا نؤْمِنُ به حتَّى نُؤتَى مِثلَ ما أُوتيَ موسَى[١].

- والهَمزةُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّقريريِّ[٢].

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا﴾ استِئنافٌ مَسُوقٌ لتقريرِ كُفرِهمُ المُستفادِ مِنَ الإنكارِ السَّابقِ، وبيانِ كيفيَّتِه[٣].

- قولُه: ﴿سِحْرَانِ﴾ بتقديرِ مُضافٍ، بمعنَى: ذَوَا سِحْرٍ، أو جَعَلوهُمَا سِحْرَينِ مُبالَغةً في وصْفِهما بالسِّحرِ[٤].

- قولُه: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ فيه تَصريحٌ بكُفرِهم بهما، وتأكيدٌ لكُفرِهم المفهومِ مِن تَسميتِهما سِحرًا؛ وذلك لغايةِ عُتوِّهِم وتَماديهم في الكفرِ والطُّغيانِ[٥].

- وتقديمُ المعمولِ في قَولِه: ﴿بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ يُفيدُ الحصرَ؛ مع أنَّهم كفَروا بهما وبغيرِهما، لكنِ المقصودُ بهذا الحصرِ إغاظةُ الخَصمِ، كأنَّهم يقولون: (لو آمَنَّا بكلِّ شَيءٍ ما كَفَرْنا إلَّا بهما!)[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ مِثلُ هذا الشَّرطِ ممَّا يأتي به مَن يُدِلُّ بوُضوحِ حُجَّتِه، وسُنوحِ مَحَجَّتِه؛ لأنَّ الإتيانَ بما هو أَهدَى مِنَ الكِتابَينِ أمْرٌ بيِّنُ الاستِحالةِ، فيُوسِّعُ دائرةَ الكلامِ للتَّبكيتِ والإفحامِ. وفي إيرادِ كلمةِ ﴿إِن﴾ مع امتِناعِ صِدْقِهم: نَوعُ تَهكُّمٍ بهم[1].

- ووصْفُ الكِتابِ بأنَّه ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ إدماجٌ[2] لمَدحِ القُرآنِ والتَّوراةِ بأنَّهما كِتابانِ مِن عِندِ اللهِ[3].

٤- قولُه تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

- جِيءَ بحَرفِ (إنْ) الغالِبِ في الشَّرطِ المَشْكوكِ على طريقةِ التَّهكُّمِ، أو لأنَّها الحَرفُ الأصليُّ[4].

- قولُه: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ ﴾ أي: فإنْ لم يَفعلُوا ما كَلَّفْتَهم مِنَ الإتيانِ بكِتابٍ أَهدَى مِنهُما، وإنَّما عُبِّر عنه بالاستِجابةِ؛ إيذانًا بأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على كَمالِ أمْنٍ مِن أمْرِه، كأنَّ أمْرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لهُم بالإتيانِ بما ذُكِر دُعاءٌ لهم إلى أمْرٍ يُريدُ وُقوعَه[5].

وفِعلُ الاستِجابةِ يَقتَضي دُعاءً، ولا دُعاءَ في قَولِه: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٠).

(٢) تقدم تعريفه: (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨).

ٱللَّهِ هُوَ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمَآ﴾ [القصص: ٤٩]، بل هو تَعجيزٌ؛ فالتَّقديرُ: فإنْ عَجَزوا ولم يَستَجيبوا لدَعْوَتِك بعْدَ العَجزِ، فاعلَمْ أنَّما يَتَّبِعونَ أهواءَهم. وقَولُه: ﴿أَتَّبِعۡهُ﴾ جوابُ ﴿فَـأۡتُواْ﴾، أي: إنْ تَأْتُوا به أتَّبِعْه، وهو مُبالَغةٌ في التَّعجيزِ؛ لأنَّه إذا وَعَدهم بأن يتَّبعَ ما يأْتُون به فهو يَتَّبِعُهم أنفُسَهم، وذلك ممَّا يوفِّرُ دَواعيَهُم على مُحاوَلةِ الإتيانِ بكِتابٍ أهْدَى مِن كِتابِه لوِ استَطاعوه، فإنْ لم يَفعَلوا فقد حَقَّ علَيهِمُ الحقُّ، ووجَبَتْ عليهِمُ المَغلوبيَّةُ؛ فكان ذلك أدَلَّ على عَجزِهِم، وأَثبَتَ في إعجازِ القرآنِ. وهذا مِنَ التَّعليقِ على ما تَحقَّقَ عدَمُ وُقوعِه؛ فالمُعلَّقُ حِينَئذٍ مُمتنِعُ الوُقوعِ؛ كقوله: ﴿قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الزخرف: ٨١]. ولكَونِه مُمتنِعَ الوُقوعِ أمَر اللهُ رسولَه أنْ يَقولَه. وقد فُهِم مِن قَولِه: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ﴾ ومِن إقحامِ ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾ أنَّهم لا يَأْتون بذلك البتَّةَ، وهذا مِنَ الإعجازِ بالإخبارِ عن الغَيبِ(١).

- قوله: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ (أنَّما) المفتوحةُ الهمزةِ تُفيدُ الحَصرَ، مِثلَ (إنَّما) المكسورةِ الهمزةِ، فالتَّقديرُ: فاعلَمْ أنَّهم ما يَتَّبِعون إلَّا أهواءَهُم. وإقحامُ فِعلِ ﴿فَٱعۡلَمۡ﴾؛ للاهتِمامِ بالخبرِ الَّذي بَعدَه(٢).

- وجاءَ في آخِرِ الكَلامِ قولُه: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ وهو تَذييلٌ عجيبٌ؛ أنَّه لا أحَدَ أشَدُّ ضَلالًا مِن أحَدٍ اتَّبَعَ هَواهُ المُنافي لهُدى اللهِ. و(مَنْ) اسمُ استِفهامٍ عن ذاتٍ مُبهَمةٍ، وهو استِفهامُ الإنكارِ؛ فأفادَ الانتِفاءَ؛ فصار معنَى الاسميَّةِ الَّذي فيه في معنَى نَكِرةٍ في سِياقِ النَّفيِ أفادَتِ العُمومَ؛ فشَمِلَ هؤلاءِ الَّذينَ اتَّبَعوا أهواءَهم وغَيْرَهم، وبهذا العُمومِ صار تَذييلًا، وهو كقَولِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٣٩، ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٠).

تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[١] [البقرة: ١٤٠].

- قولُه: ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تقييدُ اتِّباعِ الهوَى بعدَمِ الهُدى مِنَ اللهِ تعالى؛ لزِيادةِ التَّقريعِ، والإشباعِ في التَّشنيعِ والتَّضليلِ، وإلَّا فمُقارَنتُه لهِدايتِه تعالى بَيِّنةُ الاستِحالةِ. وقيل: هذا الحالُ قَيْدٌ في اتِّباعِ الهوَى؛ لأنَّه قد يَتَّبِعُ الإنسانُ ما يَهْواهُ ويَكونُ ذلك الَّذي يَهْواهُ فيه هُدًى مِنَ اللهِ؛ لأنَّ الأهواءَ كلَّها تَنقسِمُ إلى ما يَكونُ فيه هُدًى، وما لا يَكونُ فيه هُدًى؛ فلذلك قُيِّد بهذه الحالِ[٢].

- وجَعَل الهُدَى مِنَ اللهِ؛ لأنَّه حقُّ الهُدَى؛ لأنَّه واردٌ مِنَ العالِمِ بكلِّ شيءٍ، فيَكونُ معصومًا مِنَ الخلَلِ والخَطأِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ذَيَّل هذا التَّذييلَ -﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾- بما هو تَمامُه؛ إذْ فيه تَعيينُ هذا الفريقِ المُبهَمِ الَّذي هو أشَدُّ الضَّالِّينَ ضلالًا؛ فإنَّه الفريقُ الَّذين كانوا قَومًا ظالِمينَ، أي: كان الظُّلْمُ شأْنَهم، وقِوامَ قَوْميَّتِهم؛ ولذلك عَبَّر عنهُم بالقَومِ[٤].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ احتباكٌ[٥]؛ حيثُ أثبتَ أوَّلًا اتِّباعَ الهوى دليلًا على حذْفِه ثانيًا، وثانيًا الظُّلْمَ دليلًا على حذْفِه أوَّلًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٢٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٢).

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي: لا أحدَ أضَلُّ، وهو استِفهامٌ مَنفيٌّ، وقال في آيةٍ أُخرى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٥]؛ والجَمْعُ بيْنَهُما: أنَّ آيةَ (الأحقافِ) في مَقامِ الدُّعاءِ؛ وهذه الآيةَ في مَقامِ الاتِّباعِ؛ فقد تَكونُ كلُّ آيةٍ لها مَعنًى لا يَتعلَّقُ بالثَّاني، فضلالُ الغايةِ باعتِبارِ ما هو مِن جِنسِها[1]، هذا وجْهٌ. وهناك وجْهٌ آخَرُ: وهو أنَّهُما في مرتبةٍ واحدةٍ في الضَّلالِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ لا يَمنعُ أنْ يوجَدَ شَيءٌ يُساويهِ في ذلك؛ فيَكونُ كلٌّ مِنَ الأمْرَينِ قد بَلَغ الغايةَ في الضَّلالِ[2].

---

(١) أي: أنَّ كلَّ موضعٍ يختصُّ بالمذكورِ معه؛ ففي المفترينَ: لا أحدَ أظلمُ ممَّن افترَى على الله كذبًا. وفي المانعينَ: لا أحدَ أظلمُ ممَّن منَع مساجدَ الله... وفي المُعرِضينَ: لا أحدَ أظلَمُ ممن ذُكِّر بآياتِ ربِّه ثمَّ أعرَض عنها... وهكذا. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٨).

والقاعدةُ: «أنَّ نفْيَ التَّفضيلِ لا يَستلزِمُ نفْيَ المُساواةِ»، فغايةُ ما يدُلُّ عليه نفي التَّفضيلُ هو أنَّه لا مَزيدَ على وصْفِ المذكورِ، إلَّا أنَّ ذلك لا يعني أنَّه لا يُعادِلُه ويُساويه أحدٌ في تلك المرتبةِ أو الصِّفةِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٥٢٨، ٥٢٩).

## الآيات (٥١-٥٦)

﴿ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ﴾: أي: أنزَلْنا القرآنَ يَتْبَعُ بعضُه بعضًا، فاتَّصَل عندَهم، وأصلُ (وصل): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ حتَّى يَتعلَّقَ به[1].

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾: أي: يَدفَعونَ، وأصلُ (درء): يدُلُّ على دَفعِ الشَّيءِ[2].

﴿ٱللَّغْوَ﴾: أي: الباطِلَ مِنَ الكَلامِ، وأصلُ (لغو): يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[3].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٥).

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مؤكِّدًا على قطعِ أعذارِ المشركينَ وحُجَجِهم: ولقد أنزَلْنا القُرآنَ يَتبَعُ بَعضُه بعضًا، وبيَّنَّا فيه الوَعدَ والوَعيدَ؛ ليتَّعِظَ كُفَّارُ العَرَبِ وأهلُ الكتابِ ويَعتَبِروا.

ثمَّ يمدحُ الله تعالى طائفةً مِن أهلِ الكتابِ آمنَتْ، فيقولُ: الَّذين آتَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ مِن قَبلِ القُرآنِ يُؤمِنونَ بالقُرآنِ، وإذا سَمِعوه يُتلى عليهم قالوا: آمَنَّا به؛ لأنَّه حَقٌّ مِن عندِ رَبِّنا، إنَّا كُنَّا مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ على محمَّدٍ موحِّدينَ لله.

ثمَّ يُبيِّنُ ما أعدَّه لهم، فيقولُ: أولئك يُؤتيهم اللهُ ثوابَهم مُضاعَفًا، ومِن صفاتِهم أنَّهم يَدفَعونَ السَّيِّئةَ بالحسَنةِ، ويُنفِقونَ ممَّا رزَقَهم الله، وإذا سَمِعوا الكلامَ الباطِلَ أعرَضوا عن الاستِماعِ له، وقالوا: لنا دينُنا، ولكم دينُكم، لن نُؤذيَكم بقَولٍ أو فِعلٍ؛ فلا نُريدُ مُجادَلةَ السُّفَهاءِ!

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا أنَّ الهِدايةَ منه وحْدَه: إنَّك -يا محمَّدُ- لا تَهدي مَن أحبَبْتَ لاتِّباعِ الحَقِّ، ولكِنَّ الله وحْدَه يَهدي مَن يشاءُ أنْ يَهديَه، وهو أعلَمُ بمَن سبَقَ في عِلمِه أنَّه يَستحِقُّ الهدايةَ ويَقبَلُها، فيُوَفِّقُه لها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ولقد أتبَعْنا القُرآنَ بَعضَه بَعضًا وشَيئًا فشَيئًا لكُفَّارِ العَربِ وأهلِ الكِتابِ، وبَيَّنَّا فيه الوَعدَ والوَعيدَ، والتَّرغيبَ والتَّرهيبَ، والمواعِظَ، وأخبارَ الماضينَ؛ لِيَعتبِروا ويتَّعِظوا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي =

عن رِفاعةَ القُرَظيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (نَزَلت هذه الآيةُ في عَشَرةِ رَهْطٍ أنا أحَدُهم: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾)[1].

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾.

أي: الَّذين آتَيْناهم التَّوراةَ والإنجيلَ مِن قبْلِ القُرآنِ يُؤمِنونَ بالقُرآنِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٢١].

---

= (١٤/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٢).

(١) أخرجه الطبراني في ((المعجم الكبير)) (٥/ ٥٣) (٤٥٦٣)، وأبو نُعَيم في ((معرفة الصحابة)) (٢٧٣٢) واللَّفظُ لهما، وابن مَنْدَه في ((معرفة الصحابة)) (ص: ٦٣٢) باختلاف يسير.
وثَّق رجالَه الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٩١)، وصَحَّح إسنادَه ابنُ العراقي في ((طرح التثريب)) (٧/ ٩٤)، وجوَّد إسنادَه السيوطي في ((الدر المنثور)) (٦/ ٤٢٢)، والشوكانيُّ في ((تفسيره)) (٤/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٦، ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٥-٢٤٩).
قال الشنقيطي: (... قد كان في اليهودِ قَومٌ هم على دِينِ موسى حتَّى ماتوا على ذلك، وقَومٌ كانوا على دين موسى وآمَنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وهؤلاء الَّذين كانوا على دينِ موسى وأدرَكوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فآمَنوا به هم الَّذين ذكَر الله في سورةِ «القصص» أنَّ لهم أجْرَهم مرَّتَينِ: أجْرَ إيمانِهم الأوَّلِ، وأجرَ إيمانِهم الثَّاني). ((العذب النمير)) (٤/ ٢٩٤).
قال ابن الجوزي: (﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وفيهم ثلاثةُ أقوالٍ:
أحدها: أنَّهم مؤمنو أهلِ الكتابِ، رواه العوفيُّ عن ابنِ عباسٍ، وبه قال مجاهدٌ.
والثاني: مسلمو أهلِ الإنجيلِ...
والثالث: مسلمو اليهودِ، كعبدِ الله بنِ سلامٍ، وغيرِه، قاله السُّديُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٧).

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًاۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾.

أي: وإذا سَمِعوا القُرآنَ يُتلَى عليهم قالوا: آمَنَّا بالقُرآنِ؛ لأنَّه حَقٌّ نزَل مِن عندِ رَبِّنا بالخَبرِ الصَّادِقِ، والحُكْمِ العادِلِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤].

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾.

أي: إنَّا كنَّا مِن قبْلِ نُزولِ القُرآنِ على محمَّدٍ مُوحِّدينَ للهِ، مُنقادينَ لطاعتِه، مُؤمِنينَ بنُبوَّةِ محمَّدٍ؛ فلهذا بادَرْنا إلى الإذعانِ للحَقِّ، وآمَنَّا بهذا القُرآنِ(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠).

أي: أولئك الَّذين تقدَّمَت صِفتُهم -الَّذين يُؤمِنونَ بكِتابِهم وبالقُرآنِ-، يؤتيهم اللهُ ثوابَهم مُضاعَفًا؛ بسبَبِ صَبرِهم على العَمَلِ بهما، وعلى ما يَلْقَونَه مِنَ الأذَى[١].

عن أبي موسى الأَشْعَريِّ رضيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ثَلاثةٌ يُؤْتَونَ أجْرَهم مرَّتَينِ: رجُلٌ مِن أهلِ الكِتابِ آمَنَ بنَبيِّه، وأدرَكَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فآمَنَ به، واتَّبَعَه وصَدَّقَه؛ فله أجْرانِ، وعبدٌ مَمْلوكٌ أدَّى حَقَّ اللهِ تعالى وحَقَّ سَيِّدِه، فله أجْرانِ، ورجُلٌ كانت له أَمَةٌ فغَذَّاها فأحسَنَ غِذاءَها، ثمَّ أدَّبَها فأحسَنَ أدَبَها، ثمَّ أعتَقَها وتزَوَّجَها؛ فله أجْرانِ))[٢].

وعن أبي سُفيانَ رضيَ الله عنه: أنَّه جاء في الكتابِ الَّذي بعَثَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى هِرَقْلَ: ((بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، مِن محمَّدٍ عبدِ اللهِ ورَسولِه إلى هِرَقْلَ عَظيمِ الرُّومِ: سلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهدَى، أمَّا بعْدُ، فإنِّي أدعوك بدِعايةِ الإسلامِ؛ أسلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أجرَك مرَّتينِ...)) الحديثَ[٣].

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

أي: ومِن صِفاتِهم أنَّهم يَدفَعونَ السَّيِّئةَ بالحَسَنةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) رواه البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤) واللفظ له.

(٣) رواه البخاري (٧) واللفظ له، ومسلم (١٧٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠). =

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

أي: وممَّا رَزَقْناهم مِنَ الأموالِ يُنفِقونَ في أوجُهِ البِرِّ والخَيرِ(١).

---

= قيل: المعنى: يَدفَعونَ بما يَعملون مِن الحَسَناتِ ما سبَق أنْ عَمِلوه مِنَ السَّيِّئاتِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ؛ فقال: يَدفعونَ بشَهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ الشِّركَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٣٩).

وقيل: المعنى: أنَّهم لا يُقابِلونَ المُسيءَ إليهم بإساءةٍ، ولكِنْ يُقابِلونَه بالإحسانِ إليه بالقَولِ الحميدِ، والفِعلِ الجميلِ. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَير، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٩١).

وممَّن ذهب إلى الجَمعِ بيْنَ كِلا المعنَيَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٣).

وقال ابنُ عجيبة: (﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ يَدفَعونَ الخَصلةَ القَبيحةَ بالخَصلةِ الحَسَنةِ؛ يَدفَعونَ الأذى بالسِّلم، والمعصيةَ بالطَّاعةِ). ((البحر المديد)) (٤/ ٢٦١).

قال ابن عثيمين: (والحَسَنةُ الَّتي تَدرَأُ السَّيِّئةَ تنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: قِسمٌ يُزيلُ السَّيِّئةَ مِن بابِ المُقابَلةِ، وقِسمٌ آخَرُ يُزيلُ السَّيِّئةَ مِن بابِ المحوِ والإزالةِ؛ فإن كانت الحسنةُ المَدْروءُ بها السَّيِّئةُ مِن بابِ التَّوبةِ، فهو مِن بابِ المحوِ والإزالةِ، وإن كانت حسنةً أخرى، كما لو دفَعَ السَّيِّئاتِ بالصَّلاةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]؛ فهذا الدَّرءُ مِن بابِ المُقابَلةِ، أي: إنَّ ثَوابَ الحَسَنةِ يُقابَلُ بعقوبةِ السَّيِّئةِ مِن بابِ الموازَنةِ؛ فإذا رجَحَ ثَوابُ الحسنةِ انمَحَت السَّيِّئةُ، وإلَّا فلا. والأوَّلُ أكمَلُ؛ لأنَّه إذا حصَل صارت الحَسَنةُ الثَّانيةُ زيادةَ رفعةٍ في الدَّرَجاتِ، وليست بمقابَلةٍ بالسَّيِّئةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٤).

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه كيفيَّةَ اشتِغالِهم بالطَّاعاتِ والأفعالِ الحَسَنةِ؛ بَيَّنَ كيفيَّةَ إعراضِهم عن الجُهَّالِ، فقال[1]:

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾.

أي: وإذا سَمِعوا الكَلامَ الباطِلَ[2] أعرَضوا عن الاستِماعِ والإصغاءِ له، ولم يَلتَفِتوا إليه، ولم يَرُدُّوا على مَن آذاهم بالكَلامِ القَبيحِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢].

﴿وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾.

أي: وقالوا: لنا دِينُنا الَّذي رَضِينا به لأنفُسِنا، ولكم دِينُكمُ الَّذي رَضيتُم به لأنفُسِكم، وسيُجازي اللهُ كُلًّا مِنَّا على عَمَلِه ثَوابًا أو عِقابًا، لا على عَمَلِ غَيرِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٦٠٨).

(٢) قال ابن عطية: (اللَّغوُ سَقَطُ القولِ، والقولُ يَسقُطُ لِوُجوهٍ يَعِزُّ حصْرُها؛ فالفُحشُ لَغْوٌ، والسَّبُّ لغوٌ، واليمينُ لغوٌ -حسَبَ الخِلافِ فيها-، وكلامُ مُستمِعِ الخُطبةِ لغوٌ. والمرادُ مِن هذا في هذه الآيةِ ما كان سبًّا وأذًى، فأدَبُ أهلِ الإسلامِ الإعراضُ عنه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٢).
وقال ابن عثيمين: (الأصحُّ أنَّه يَشمَلُ كلَّ كلامٍ لا خيرَ فيه، سواءٌ كان فيه أذًى وشرٌّ، أم لم يكُنْ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٠، ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠).

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦].

﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

أي: أنتم سالِمونَ مِن أن نُؤذِيَكم بقَولٍ أو فِعلٍ، لا نُريدُ مُجادَلةَ السُّفَهاءِ المُخالِفينَ للحَقِّ، والمُعتَدِينَ على الخَلقِ؛ ولا نُصاحِبُهم، ولا نُحِبُّ طَريقَتَهم[1].

كما قال تعالى في صِفاتِ عِبادِ الرَّحمنِ: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾.

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن المُسَيِّبِ بنِ حَزْنٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ أبا طالبٍ لَمَّا حَضَرتْه الوفاةُ دخَل عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وعِندَه أبو جَهلٍ، فقال: أيْ عَمِّ، قُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ كَلِمةً أُحاجُّ لك بها عندَ اللهِ، فقال أبو جَهلٍ وعبدُ اللهِ بنُ أبي أُمَيَّةَ: يا أبا طالبٍ، تَرغَبُ عن مِلَّةِ عبدِ المطَّلِبِ؟! فلَمْ يَزالَا يُكَلِّمانِه حتَّى قال آخِرَ شَيءٍ كلَّمَهم به: على مِلَّةِ عبدِ المُطَّلِبِ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لَأَسْتَغفِرَنَّ لك ما لم أُنْهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٠-٢٧٢).
قال العُلَيمي: (﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ سلامُ توديعٍ ومُتارَكةٍ، وليس هو سلامَ التَّحيَّةِ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٠٦). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٥١).

عنه، فنزلَتْ: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]، ونزلَتْ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾))[١].

وعن أبي هُرَيرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لعَمِّه عندَ الموتِ: ((قُلْ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، أَشهَدْ لك بها يَومَ القيامةِ، فأبَى، فأنزَل اللهُ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ الآيةَ))[٢].

﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾.

أي: إنَّك -يا مُحمَّدُ- لا تُوفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ مَن أحبَبْتَه[٣].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ وحْدَه هو مَن يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ مَن يَشاءُ أن يَهدِيَه[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٤) واللفظ له، ومسلم (٢٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٨، ٢٧٩).

قال الزجاج: (أجمَع المفَسِّرون أنَّها نزلَتْ في أبي طالبٍ، وجائزٌ أن يكونَ ابتداءُ نُزولِها في أبي طالبٍ، وهي عامَّةٌ؛ لأنَّه لا يَهدي إلَّا اللهُ، ولا يُرشِدُ ولا يوفِّقُ إلَّا هو، وكذلك هو يُضِلُّ مَن يشاءُ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٤٩).

وقال ابنُ حجرٍ: (لم تختلِفِ النقلةُ في أنَّها نزَلت في أبي طالبٍ، واختلَفوا في المرادِ بمتعلقِ ﴿أَحۡبَبۡتَ ﴾؛ فقيل: المرادُ: أحببْتَ هِدايتَه، وقيل: أحببْتَه هو لقرابتِه منك). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠).

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

أي: واللهُ أعلَمُ بمَن سبَقَ في عِلمِه أنَّه يَستَحِقُّ الهِدايةَ ويَقبَلُها؛ فيُوَفِّقُه لاتِّباعِ الحَقِّ(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- جوازُ ثناءِ المرءِ على نَفْسِه بالصِّفاتِ المحمودةِ؛ لِقَولِه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾، وهذا أمرٌ واقعٌ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومِن الصَّحابةِ، ومِن أهلِ العلمِ؛ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أنا النَّبيُّ لا كَذِب، أنا ابنُ عبدِ المطَّلِب))(٢)، فيجوزُ للإنسانِ أنْ يُثنيَ علي نَفْسِه بصِفاتِ الحَمدِ، ولكن ذلك مشروطٌ بشَرطينِ:

**الشَّرطُ الأولُ**: ألَّا يُريدَ بذلك الافتِخارَ على غيرِه، ووجهُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه إذا قَصَد بذلك الافتخارَ والعُلُوَّ على النَّاسِ، فهذا قَصدٌ مُحَرَّمٌ؛ ولهذا قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أنا سيِّدُ ولدِ آدمَ يومَ القيامةِ ولا فَخرَ))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٢، ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي (٣١٤٨) مطوَّلًا واللَّفظُ له، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأحمد (١٠٩٨٧) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٤٨)، وصحَّحه لغيرِه شعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠٩٨٧).

**الشَّرطُ الثَّاني**: أنْ يكونَ في ذلك مَصلَحةٌ؛ لأنَّه إذا لم تكُنْ فيه مَصلَحةٌ كان لَغوًا مِن القَولِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ فضيلةُ الصَّبرِ، طالما أنَّ الصبرَ سببٌ للأجرِ؛ فلا شكَّ أنَّه صفةٌ حميدةٌ وفاضلةٌ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أنَّه ينبغي مُقابَلةُ المُسيءِ بالإحسانِ، فالحَسَناتُ يُذْهِبنَ السَّيِّئاتِ؛ فالآيةُ عامَّةٌ لِدَرْئِهم سَيِّئاتِهم بحَسَناتِهم، ودَرئِهم سيِّئاتِ غَيرِهم بالإحسانِ إليهم، لكنَّ دَرْءَ سيِّئاتِ الآخَرين بالإحسانِ إليهم ثَقيلٌ على المرءِ جدًّا؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٣] [فصلت: ٣٥].

٤- مِن أسبابِ دَفعِ شرِّ الحاسدِ عن المحسودِ -وهو مِن أصعبِ الأسبابِ على النفسِ وأشقِّها عليها، ولا يُوفَّقُ له إلَّا مَن عظُم حظُّه مِن الله- إطفاءُ نارِ الحاسدِ والباغي والمؤذي بالإحسانِ إليه، فكلَّما ازداد أذًى وشرًّا وبغيًا وحسدًا، ازددْتَ إليه إحسانًا، وله نصيحةً، وعليه شفقةً. وما أظنُّك تصدِّقُ بأنَّ هذا يكونُ، فضلًا عن أنْ تتعاطاه، فاسمَعِ الآنَ قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وقولَه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[٤] [فصلت: ٣٤- ٣٦]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٤٣).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فيه فضيلةُ الإنفاقِ مِن رزقِ اللهِ[١].

٦- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ أنَّه ينبغي الإعراضُ عن اللَّغوِ، وهو الكَلامُ الذي لا فائِدةَ فيه، ولا خيرَ منه، والفِعلُ يُقاسُ عليه؛ فلا ينبغي للإنسانِ أن يُمضيَ وَقتَه في أفعالٍ لا خيرَ فيها[٢]، فقد أثنى الله سبحانه على مَن أعرَضَ عن اللَّغوِ إذا سمِعه، وهذه الآيةُ معناها عامٌّ مُتناوِلٌ لِكُلِّ مَن سمِع لَغْوًا فأعرَضَ عنه، وقال بلسانِه أو بقلبِه لأصحابِه: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أنَّه لا ينبغي للعاقلِ طَلَبُ السُّفَهاءِ، فَضلًا عن الجُلوسِ معهم؛ لأنَّ طَلَبَهم في الحقيقةِ يؤدِّي إلى الجُلوسِ معهم، والجلوسُ مع الجاهِلينَ إثمٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨]؛ فلا ينبغي للإنسانِ أنْ يَتطلَّبَ أهلَ السَّفَهِ ويجلِسَ إليهم، أو على الأقلِّ يأنَس بما يفعَلونَ؛ فإنَّ هذا مِن الصِّفاتِ الَّتي ليس عليها أهلُ الخَيرِ والإيمانِ[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ الحِكمةَ مِنَ الوَحيِ: التَّذكُّرُ والاتِّعاظُ[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إثباتُ العِلَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٤).

في أحكامِ اللهِ الكَونيَّةِ والشَّرعيَّةِ، وأنَّه لا يَفعلُ شيئًا ولا يُشَرِّعُه إلَّا لحِكمةٍ، وقد خالَفَ في ذلك الأشاعرةُ، والجَهْميَّةُ هم الأصلُ، قالوا: أفعالُ الله لا تُعلَّلُ، وأحكامُه لا تُعلَّلُ[1]، و(لعلَّ) في كلامِ الله سُبحانَه وتعالى للتَّعليلِ مُجَرَّدةٌ عن معنى التَّرجِّي؛ فإنَّها إنَّما يُقارِنُها معنى التَّرجِّي إذا كانت مِنَ المخلوقِ، وأمَّا في حقِّ مَن لا يَصِحُّ عليه التَّرجِّي فهي للتَّعليلِ المَحْضِ[2].

٣- إنَّ الله تعالى حيثُ قال: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ لم يكونوا إلَّا مَمْدوحينَ مُؤمنين، وإذا أراد ذمَّهم والإخبارَ عنهم بالعنادِ وإيثارِ الضَّلالِ أتى بلفظِ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ مبنيًّا للمفعولِ، فالأولُ كقولِه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ ... ﴾ الآيات. وكقولِه تعالى: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤]، فهذا في سياقِ مدحِهم والاستشهادِ بهم، ليس في سياقِ ذمِّهم والإخبارِ بعنادِهم وجحودِهم.

وأمَّا الثاني فكقولِه: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ * وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة: ١٤٤، ١٤٥]؛ فهذا شهادتُه سبحانَه للذين أوتوا الكتابَ، والأولُ شهادتُه للذين آتاهم الكتابَ بأنَّهم مؤمنونَ. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ [النساء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ﴾ [آل عمران:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٦).

٢٠] ، وهذا خطابٌ لمَن لم يُسلِمْ منهم، وإلا فلم يُؤمَرْ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ هذا لمَن أسلمَ منهم، وصدَّق به.

ولهذا لا يذكُرُ سبحانَه الذين أُوتوا نصيبًا مِن الكتابِ إلَّا بالذمِّ أيضًا، كقولِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾ [النساء: ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ الآية [النساء: ٥١]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[1] [آل عمران: ٢٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ سؤالٌ: أنَّ التقديمَ يُفيدُ الاختِصاصَ، وهنا لا يتأتَّى ذلك؛ لأنَّهم لو خَصُّوا إيمانَهم بهذا الكتابِ فقط لَزِمَ كُفْرُهم بما عَداه، وهو عكسُ المرادِ! وقد أبدَى أهلُ البيانِ هذا في قولِه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ [الملك: ٢٩]، فقالوا: لو قُدِّمَ «به» لأوهَمَ الاختِصاصَ بالإيمانِ باللهِ وحْدَه دونَ ملائكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليومِ الآخرِ، وهذا بعَيْنِه جارٍ هنا!

**والجوابُ**: أنَّ الإيمانَ بغيرِه معلومٌ؛ فانصَبَّ الغرضُ إلى الإيمانِ بهذا[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ إثباتُ عدْلِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ حيثُ لم يُضَيِّعْ أجرَهم الأوَّلَ بالأجرِ الثَّاني؛ ولا الأجرَ الثَّانيَ بالأجرِ الأوَّلِ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ أنَّ الثَّوابَ على قَدْرِ العملِ؛ قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٥).

شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]، فهؤلاء كان ثوابُهم مرَّتَين؛ لأنَّهم عَمِلوا مرَّتَين[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أنَّ الحسناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أنَّ المُنفِقَ لم يُنْفِقْ ممَّا صَنَعَه أو اكتسبَه بنَفْسِه، ولكنْ يُنفِقُ مِن رزقِ اللهِ، فاللهُ هو الَّذي رَزَقَك، وهو الَّذي أَمَرَك، فأنت في الحقيقةِ خادمٌ، عبدٌ متصرِّفٌ حسَبَ أمرِ سيِّدِك، قال لك: اكتسِبْ؛ فاكتسَبْتَ، قال لك: أنفِقْ؛ فأنفَقْتَ[٣].

٩- قَولُهم: ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ هذا مِن أحسَنِ ما يُجابُ به السُّفَهاءُ، وهو أقرَبُ لإصلاحِهم، وأسلَمُ مِن تَزايُدِ سَفَهِهم[٤].

١٠- أنَّ الإنسانَ إذا جَدَّ واجتهَدَ في دعوةِ النَّاسِ إلى الهُدى فلمْ يَهتَدوا؛ فإنَّ عليه أنْ يَتلوَ هذه الآيةَ، وهي: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، وإلَّا فكثيرٌ مِنَ النَّاسِ الآنَ عندَهم أقارِبُ -إمَّا معهم في البُيوتِ، أو خارجَ البُيوتِ- يَدْعونهم إلى الهدَى فلا يَهْتَدونَ! فنقولُ: الحمدُ لله أنْ بَيَّنَ سُبحانَه وتعالى أنَّ هذا الأمرَ ليس إلينا، إنَّما هو إليه سُبحانَه، وإنِ اهتَدَوا فلَهُم ولنا ثَوابُ دَلالتِهم، وإنْ لم يَهتَدُوا فلَنا ثَوابُ الدَّلالةِ والدَّعوةِ، وعليهم وِزْرُ الغَيِّ[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إشكالٌ مِن جِهةِ أنَّ ظاهِرَه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُحِبُّ أبا طالبٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٢).

**وجوابُ ذلك:**

إمَّا أن يُقالَ: إنَّه على تقديرِ أنَّ المفعولَ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ «مَن أحببتَ هِدايتَه»، لا مَن أحبَبْتَه هو.

أو يُقالَ: إنَّه أحَبَّ عمَّه مَحَبَّةً طبيعيَّةً كمَحبَّةِ الابنِ أباه ولو كان كافِرًا.

أو يُقالَ: إنَّ ذلك قبْلَ النَّهيِ عن محبَّةِ المُشرِكينَ. والأوَّلُ أقرَبُ، أي: مَن أحبَبْتَ هدايتَه لا عَيْنَه، وهذا عامٌّ لأبي طالبٍ وغيرِه[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ خانِقةٌ لهم مِن جِهَتينِ:

**إحداهما:** نِسبةُ الهِدايةِ إليه جَلَّ وتعالى جُملةً، كما هو في سائرِ القُرآنِ.

**والأخرى:** أنَّ قولَهم في تأويلِ الهِدايةِ: إنَّها البيانُ لا الاضْطِرارُ إليها- خطأٌ لا مَحالةَ؛ بدَلالةِ هذه الآيةِ مِن حيثُ لا يُنكِرونَ، لو أنصَفوا واستَبْصَروا؛ فإنَّا لا نَشُكُّ -ولا هُم- أنَّ اللهَ جلَّ جَلالُه قد بَيَّنَ لكُلِّ مَن خاطَبَه بالإيمانِ طَريقَ الهِدايةِ، ورَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد بَيَّنَها لكُلِّ مَن أُرسِلَ إليه، وأحَبَّها له، وأنَّه لم يَحرِصْ على إيمانِ عمِّه إلَّا وقد بَيَّنَ له طَريقَ الهِدايةِ مرَّةً بعْدَ أخرى؛ فهل تَكونُ الهِدايةُ الَّتي لم يَقْدِرْ عليها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِعَمِّه إلَّا هدايةَ الاضْطِرارِ والإجبارِ، لا هِدايةَ البيانِ الَّتي قد كان فَرَغ منها، وأدَّى أمْرَ اللهِ إلى أهلِه فيها[2]؟

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ مع

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٧١).

قَولِه سُبحانَه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الشورى: ٥٢] إيهامُ تَعارُضٍ.

**وجوابُه**: أنَّه لا تَناقُضَ في الآيتَينِ؛ إذ المُرادُ بالهِدايةِ التي نفاها الله عن نبيِّه صلى الله عليه وسلم في الآيةِ الأُولى هِدايةُ التَّوفيقِ، وهي الهدايةُ المستلزمةُ للاهتداءِ، فلا يتخلَّفُ عنها، وهذه لا يقدِرُ عليها ولا يَملِكُها إلَّا اللهُ وحْدَه، والمرادُ بالهدايةِ المثبتَةِ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم في الآيةِ الثَّانيةِ هِدايةُ الدَّلالةِ والبيانِ والإرشادِ، وهذه تكونُ مِنَ الله تعالى ومِن غيرِه، فتَكونُ مِنَ الرُّسلِ ووَرَثَتِهم مِنَ العلماءِ الرَّبَّانيِّينَ(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ﴾ اللَّامُ و(قَدْ) كِلاهُما للتَّأكيدِ ردًّا عليهم؛ إذ جَهِلُوا حِكمةَ تَنْجيمِ نُزولِ القُرآنِ، وذُكِرَتْ لَهُمْ حِكمةُ تَنْجيمِه هنا بما يَرْجِعُ إلى فائدتِهم بقولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وذُكِرَ في سورةِ (الفُرقانِ) حِكمةٌ أُخرى راجِعةٌ إلى فائدةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، وفُهِمَ مِن ذلك أنَّهم لم يَتَذَكَّروا(٢).

- و(وَصَّلَ) قيل: إنَّه مُضمَّنٌ معنى «بَيَّنَ»؛ ففيه أنَّ الوَحيَ مُشتمِلٌ على غايةِ البَيانِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٤٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾.

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ لَمَّا أفْهَمَ قولُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١] أنَّهم لم يَفْعَلُوا، ولم يَكونُوا عندَ رَجاءِ الرَّاجي؛ عَقَّبَ ذلك بهذه الجُملةِ المُستأْنَفةِ استِئْنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّها جوابٌ لسؤالِ مَنْ يَسألُ: هلْ تَذَكَّرَ غيرُهم بالقرآنِ، أو استَوى النَّاسُ في عدَمِ التَّذكُّرِ به؟

فأُجيبَ: بأنَّ الَّذينَ أُوتُوا الكتابَ مِن قَبْلِ نُزولِ القرآنِ يُؤمِنونَ به إيمانًا ثابتًا[1].

- قولُه: ﴿هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه: ﴿هُم﴾، على الخبَرِ الفِعليِّ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لِتَقَوِّي الخَبرِ، وأيضًا ضَميرُ الفَصْلِ ﴿هُم﴾ مُفيدٌ للقَصْرِ الإضافيِّ، أيْ: هُمْ يُوقِنونَ، بخِلافِ هؤلاءِ الَّذينَ وصَّلْنا لهمُ القَولَ. ومَجيءُ المُسنَدِ: ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ إيمانِهم وتجدُّدِه[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ فيه حِكايةُ إيمانِهم بالمُضِيِّ في قولِه: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾، مع أنَّهم يَقولونَ ذلكَ عند أوَّلِ سَماعِهم القرآنَ؛ لأنَّ المُضِيَّ مُستعمَلٌ في إنشاءِ الإيمانِ مِثلَ استِعمالِه في صِيَغِ العُقودِ، أو للإشارةِ إلى أنَّهم آمَنوا به مِن قبْلِ نُزولِه، أيْ: آمَنُوا بأنَّه سيَجيءُ رسولٌ بكتابٍ مُصَدِّقٍ لِمَا بيْنَ يدَيْه؛ يعني: إيمانًا إجْماليًّا يَعقُبُه إيمانٌ تفصيليٌّ عندَ سَماعِ آياتِه[3].

- قولُه: ﴿إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ استِئْنافٌ لِبَيانِ ما أوْجَب إيمانَهم به، وقولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ استِئنافٌ آخَرُ؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيمانَهم به ليس ممَّا أَحْدَثوه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٣، ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٤).

حينَئذٍ، وإنَّما هو أمرٌ تقادَمَ عَهْدُه لَمَّا رأَوْا ذِكْرَه في الكُتبِ المُتقَدِّمةِ، وكَوْنَهم على دِينِ الإسلامِ قبْلَ نُزولِ القرآنِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ التَّعبيرُ عنهم باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ هنا؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أَحْرِياءُ بما سيُذْكَرُ بعدَ اسمِ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ الأوصافِ الَّتي ذُكِرَتْ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٢]، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للدَّلالةِ على عُلُوِّ رُتْبتِهم، وبُعْدِ مَنزلَتِهم في الشَّرَفِ والفضيلةِ[٣].

- قولُه: ﴿يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ أيْ: يُؤْتَونَ أجْرَيْنِ على إيمانِهم، أيْ: يُضاعَفُ لهمُ الثَّوابُ لأجْلِ أنَّهم آمَنوا بكِتابِهم مِن قَبْلُ، ثمَّ آمَنوا بالقُرآنِ؛ فعَبَّرَ عن مُضاعَفةِ الأجرِ ضِعْفَيْنِ بالمرَّتَينِ؛ تَشبيهًا للمُضاعَفةِ بتَكريرِ الإيتاءِ، وإنَّما هو إيتاءٌ واحدٌ. وفائدةُ هذا إظهارُ العِنايةِ حتَّى كأنَّ المُثيبَ يُعطي، ثمَّ يُكرِّرُ عَطاءَه[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾.

- قولُه: ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ أيْ: أعمالُنا مُستَحَقَّةٌ لنا، وهو كِنايةٌ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٤، ١٤٥).

مُلازَمَتِهم إيَّاها، وقولُهم: ﴿وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ تَتْميمٌ[١]، على حدِّ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٢] [الكافرون: ٦].

- وقد أَنطَقَهُمُ اللهُ بحكمةٍ جَعَلَها مُستأْهِلةً لأنْ تُنظَمَ في سِلْكِ الإعجازِ، فأَلْهَمهم تلك الكَلِماتِ، ثمَّ شَرَّفَها بأنْ حِيكَتْ في نَسْجِ القرآنِ، ولعلَّ القرآنَ غيَّرَ مَقالَتَهم بالتَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ لِتكونَ مُشتمِلةً على الخُصوصيَّةِ المُناسِبةِ للإعجازِ؛ لأنَّ تأخيرَ الكلامِ الَّذي فيه المُتارَكةُ إلى آخِرِ الخِطَابِ أَوْلَى؛ لِيَكونَ فيه بَراعةُ المَقْطَعِ[٣].

- قولُه: ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ تَعليلٌ للمُتارَكةِ، أيْ: لِأَنَّا لا نُحِبُّ مُخالَطةَ أهلِ الجَهالةِ باللهِ وبدِينِ الحقِّ، وأهْلِ خُلُقِ الجهلِ الَّذي هو ضِدُّ الحِلْمِ؛ فاستُعمِلَ الجهلُ في مَعنَيَيْهِ المُشتَرَكِ فيهما[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

---

(١) التَّتميم: من أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةِ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و (٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١، ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- جملةُ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ﴾ استِئْنافٌ ابتِدائيٌّ، وافتِتاحُها بحرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) اهتِمامٌ باستِدْعاءِ إقبالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عِلْمِ ما تضَمَّنَتْه، وهو كِنايةٌ عن الأمرِ بالتَّفويضِ في ذلك إلى اللهِ تعالى[1].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ مَفعولُ فِعْلِ المَشيئةِ مَحْذوفٌ؛ لِدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، أي: مَن يَشاءُ اهتِداءَه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٤٨).

## الآيات (٥٧-٥٩)

﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُتَخَطَّفۡ﴾: أي: نُؤخَذْ لقِلَّتِنا، والتَّخَطُّفُ: الانتِزاعُ بسُرعةٍ، وأصلُ (خطف): يدُلُّ على استِلابٍ في خِفَّةٍ(١).

﴿يُجۡبَىٰٓ﴾: أي: يُجمَعُ ويُجلَبُ، مِن قَولِهم: جَبَيتُ الماءَ في الحَوضِ: إذا جمَعْتَه فيه، والاجتباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصلُه: يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ(٢).

﴿بَطِرَتۡ﴾: أي: أشِرَتْ وطَغَتْ وبَغَتْ، وأصلُ (بطر): يدُلُّ على الطُّغيانِ في النِّعمةِ(٣).

﴿أُمِّهَا﴾: أي: أصلِها وأعظمِها، قيل: المرادُ مكَّةُ، ويُقالُ لكلِّ ما كان أصلًا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٠٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ٢٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

لوجودِ شيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أمٌّ، وأصلُ (أمم) هنا: الأصلُ والمرجعُ[١].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾

قَولُه: ﴿مَعِيشَتَهَا ﴾: فيه أوجُهٌ:

**أحَدُها**: أنَّه مفعولٌ به على تَضمينِ ﴿بَطِرَتْ ﴾ معنى «خَسِرَت».

**الثَّاني**: أنَّه مَنصوبٌ على نَزعِ الخافِضِ «في»، أي: في مَعيشتِها.

**الثَّالِثُ**: أنَّه منصوبٌ على التمييزِ عندَ مَن يُجَوِّزُ تعريفَه، وهو قَريبٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذْكُرُ الله تعالى بعضَ الأعذارِ الواهيةِ التي تعلَّق بها المشركونَ في عدَمِ اتِّباعِ الهُدى، ويَرُدُّ عليها، فيقولُ: وقال كُفَّارُ قُرَيش: إنْ نُؤمِنْ بك -يا محمَّدُ- ونَعْبُدِ اللهَ وحْدَه، يُخرِجْنا مُشرِكو العرَبِ مِن مكَّةَ، أو يَقتُلونا؛ لِمُخالَفتِنا دينَهم. أوَلَمْ نجعَلْ لأهلِ مكَّةَ بلدًا آمِنًا مِن انتِهاكِ حُرمتِه بقِتالٍ وغَيرِه، تُجلَبُ إليه الثَّمَراتُ المتنَوِّعةُ مِن مختَلَفِ البلادِ، عطاءً من عِندِنا؟ ولكِنَّ أكثَرَ كُفَّارِ مكَّةَ لا يَعلمونَ، ويَكفُرون ولا يَشكُرونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٠٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٢٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٨٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٠٥).

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه الأسبابَ الَّتي تؤدِّي إلى الهلاكِ وزَوالِ النِّعَم، مُعَرِّضًا بأهلِ مَكَّةَ، فيقولُ: وما أكثَرَ القُرى الَّتي أهلَكْناها لَمَّا طغى أهلُها وتكَبَّروا! فتلك بيوتُهم لم يَسْكُنْها أحدٌ مِن بعدِ هَلاكِهم إلَّا قليلًا مِنَ السُّكنَى لبَعضِ مَن يَمُرُّ بها، وكنَّا نحن الوارِثينَ لِمَساكِنِهم.

ولم يكُنْ ربُّك -يا محمَّدُ- لِيُهلِكَ القُرى حتَّى يَبعَثَ في أصْلِها الَّذي تتبَعُه هذه القُرى رَسولًا يَتْلو عليهم آياتِ اللهِ، ولم نكُنْ مُهلِكينَ القُرى إلَّا وأهلُها ظالِمونَ مُستَحِقُّون للهَلاكِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أنْ ذَكَرَ اللهُ سُبحانَه بعضَ شُبَهِ المشركينَ وأجاب عنها بالأجوبةِ الواضِحةِ، وبَيَّنَ أنَّ وُضوحَ الدَّلائلِ لا يكفي ما لم يَنضَمَّ إليه هِدايةُ اللهِ تعالى؛ حكَى عنهم شُبهةً أخرى مُتعَلِّقةً بأحوالِ الدُّنيا[1]، فقال تعالى:

﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنْ نُؤمِنْ بك -يا مُحمَّدُ- فنَعبُدِ اللهَ وَحْدَه، ينتَزِعْنا مُشرِكو العَرَبِ سَريعًا مِن مكَّةَ، فيُخرِجونا منها أو يَأْسِرونا أو يَقتُلونا؛ لِمُخالَفتِنا دينَهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣١٩)، ((تفسير =

﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾.

أي: أوَلَمْ نجعَلْ لأهلِ مكَّةَ بلَدًا حرَّمْنا على النَّاسِ انتِهاكَ حُرمتِه بقِتالٍ وغيرِه، فجعَلْناه آمِنًا[1]؟

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَصَفَ سُبحانَه الحَرَمَ بالأمنِ؛ أتْبَعَه بما تَطلُبُه النَّفْسُ بعْدَه، فقال[2]:

﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

أي: تُجمَعُ وتُجلَبُ إليه الثَّمَراتُ الكَثيرةُ المُتنوِّعةُ مِن البُلدانِ المُختَلِفةِ[3].

---

= السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٨).

قال ابنُ جُزَي: (والهُدى هو الإسلامُ، ومعناه: الهُدى على زَعمِك. وقيل: إنَّهم قالوا: قد عَلِمْنا أنَّ الَّذي تقولُ حَقٌّ، ولكِنْ إنِ اتَّبَعْناك تَخَطَّفَتْنا العرَبُ، أي: أهلَكونا بالقِتالِ؛ لِمُخالَفةِ دينِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٥، ٢٨٦).

قال ابن كثير: (فقال الله تعالى مجيبًا لهم: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ يعني: هذا الَّذي اعتَذَروا به كَذِبٌ وباطِلٌ؛ لأنَّ اللهَ جعَلَهم في بلدٍ أمينٍ، وحَرَم مُعَظَّمٍ آمِنٍ منذُ وُضِعَ، فكيف يكونُ هذا الحَرَمُ آمِنًا في حالِ كُفرِهم وشِرْكِهم، ولا يكونُ آمِنًا لهم وقد أسلَموا وتابَعوا الحقَّ؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٨، ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّآ﴾.

أي: عَطاءً خاصًّا مِن عِندِنا[١].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ كُفَّارِ مكَّةَ لا يَعلَمونَ أنَّ مَن رزَقَهم وأمَّنَهم فيما مضَى حالَ كُفرِهم يَرزُقُهم لو أسلَموا، ويمنَعُ الكُفَّارَ عنهم حالَ إسلامِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ٣، ٤].

﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ۝٥٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

ذَكَر سُبحانَه إهلاكَ القُرى السَّابقةِ لأجْلِ أن يُقالَ لِقُرَيشٍ: «الكفرُ لا يمنَعُ الخَوفَ، ولا يمنَعُ العُقوبةَ»، بل إنَّه سببُ العُقوبةِ، فأنتم تقولونَ: «إنَّنا إذا آمَنَّا تخطَّفَنا النَّاسُ»! هذا ليس بالحقيقةِ، بل العكسُ هو الحَقيقةُ؛ ولهذا قال: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَا﴾، فكأنَّ اللهَ يُدَلِّلُ لتكذيبِ هؤلاء بأنَّ الكُفرَ

---

= (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٦، ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٧).

أهلَكَ الأُمَمَ السَّابقةَ الَّتي بَطِرَتْ مَعيشتَها[١].

وأيضًا لَمَّا قال الكُفَّارُ: «إنَّا لا نُؤمِنُ؛ خَوفًا مِن زَوالِ نِعمةِ الدُّنيا»؛ بَيَّن اللهُ تعالى لهم أنَّ الإصرارَ على عدَمِ قَبولِ الإيمانِ هو الَّذي يُزيلُ هذه النِّعَمَ؛ لا الإقدامَ على الإيمانِ[٢]!

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾.

أي: وما أكثَرَ القُرَى الَّتي طغَى أهلُها بالنِّعَمِ وتكَبَّروا بها، وألْهَتْهم وأشْغَلَتْهم عن شُكرِ رَبِّهم؛ فكَفَروا به، فأهلَكَهم وأزال عنهم نِعَمَه[٣]!

كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [النحل: ١١٢، ١١٣].

﴿ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تَسَبَّبَ عن الإخبارِ السَّابقِ تَشَوُّفُ النَّفْسِ إلى آثارِ هذه الدِّيارِ؛ سَبَّبَ عنه الإشارةَ بأداةِ البُعدِ إلى مَنازِلِهم؛ تَنبيهًا على كَثرتِها، وسُهولةِ الوُصولِ إليها في كلِّ مكانٍ؛ لِكَونِها بحيثُ يُشارُ إليها، وعلى بُعْدِ رُتبتِها في الهلاكِ دليلًا على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٨٩، ٢٩٠).

الجُملةِ التي قَبْلَها، فقال: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾، ولَمَّا كان المعنى أنَّها خاويةٌ على عروشِها؛ وَصَل به قولَه: ﴿لَمْ تُسْكَن﴾[١].

﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: فتلك بُيوتُ القَومِ الَّذين أهلَكْناهم لم يَسكُنْها أحَدٌ مِن بعْدِ هلاكِهم إلَّا قَليلًا مِن السُّكْنى حينَ يَنزِلُ بعضُ المارَّةِ فيما بَقِيَ منها[٢].

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

أي: وكُنَّا نحنُ الوارِثينَ لِمَساكِنِهم، ولم يَملِكْها أحدٌ مِن بَعْدِهم[٣].

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أُعْقِبَ الاعتِبارُ بالقُرَى المُهْلَكةِ ببيانِ أشراطِ هلاكِها وسببِه؛ استِقصاءً للإعذارِ لِمُشرِكي العَربِ[٤].

وأيضًا فإنَّ الله سبحانَه لَمَّا ذَكَر أنَّه أهْلَك تلك القُرَى بسببِ بَطَرِ أهلِها، فكأنَّ سائلًا أورَدَ سؤالًا: لماذا ما أهلَك اللهُ الكفَّارَ قبْلَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع أنَّهم كانوا مُستغرِقينَ في الكفرِ والعِنادِ؟ فأجاب عن هذا السُّؤالِ بقولِه[٥]:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧).

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾.

أي: ولم يكُنْ ربُّك -يا محمَّدُ- لِيُهلِكَ القُرى حتَّى يَبعَثَ في أعظَمِها وأصْلِها الَّذي تَتْبَعُه القُرى رَسولًا يَتْلو على أهلِها آياتِ اللهِ الدَّالَّةَ على صِدقِ رِسالتِه، فيُقيمَ الحُجَّةَ عليهم(١).

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٢، ١٥٣).

قال ابنُ عطيَّة: (إن كانتِ الإرادةُ بـ﴿ٱلْقُرَىٰ﴾ المُدُنَ الَّتي في عصرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فـ «أُمُّ القُرى» مكَّةُ، وإن كانتِ الإرادةُ القُرى بالإطلاقِ في كلِّ زمَنٍ؛ فـ ﴿أُمِّهَا﴾ في هذا المَوضِعِ: أعظَمُها وأفْضَلُها الَّذي هو بمَثابةِ مكَّةَ في عصرِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإن كانتْ أمَّ القرى كلِّها أيضًا مِن حيثُ هي أوَّلُ ما خُلِقَ مِن الأرضِ، ومِن حيثُ فيها البيتُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بـأُمِّ القُرى: مكَّةُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، والقرطبي، وابن كثير، وابن عاشور. ونسَبَه الواحديُّ لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٢٩٩٧).

قال ابن عاشور: (وقُرى بِلادِ العَرَبِ كثيرةٌ؛ مِثلُ مكَّةَ، وجدَّةَ، ومِنًى، والطَّائفِ، ويَثْرِبَ، وما حَوْلَها مِنَ القُرى؛ وكذلك قُرى اليَمَنِ، وقُرى البَحرَينِ. وأُمُّ القُرى هي القريةُ العظيمةُ منها، وكانت مكَّةُ أعظَمَ بلادِ العربِ شُهرةً، وأَذْكَرَها بيْنَهم، وأكثَرَها مارَّةً وزُوَّارًا؛ لِمكانِ الكعبةِ فيها، والحجِّ لها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٢). =

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾.

أي: وما كُنَّا لِنُهلِكَ القُرى إلَّا وأهلُها مُستَحِقُّون للهَلاكِ؛ بسبَبِ اتِّصافِهم بالظُّلمِ -بالكُفرِ وغيرِه- وذلك مِن بَعْدِ الإعذارِ إليهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ دَلالةٌ على صِحَّةِ الحِجاجِ الَّذي يُتوصَّلُ به إلى إزالةِ شُبهةِ المُبطِلينَ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أنَّ فِعلَ العبدِ خَلْقُ اللهِ تعالى، وبيانُه أنَّ

---

= وممَّن اختار أنَّ القرَى على عُمومِها، وأنَّ المرادَ بأُمِّها: أعْظَمُها: الواحديُّ، والبيضاوي، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

قال ابن كثير: (وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ أي: أصْلِها وعَظيمتِها؛ كأُمَّهاتِ الرَّساتِيقِ والأقاليم. حكاه الزمخشريُّ وابنُ الجوزي وغيرُهما، وليس ببعيدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦).

تلك الأرزاقَ إنَّما كانت تَصِلُ إليهم؛ لأنَّ النَّاسَ كانوا يَحمِلونَها إليهم، فلو لم يكُنْ فِعلُ العبدِ خَلْقًا للهِ تعالى لَمَا صَحَّتْ تلك الإضافةُ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ وهي مكَّةُ -على قولٍ في التفسيرِ- ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ النبيَّ الأُميَّ، وهو محمَّدٌ، صلواتُ الله وسلامُه عليه، المبعوثُ مِن أمِّ القُرَى، رسولٌ إلى جميعِ القُرَى، مِن عربٍ وأعجامٍ، كما قال تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾(٢) [هود: ١٧].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ أنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بظُلمِه، وإقامةِ الحُجَّةِ عليه(٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿نُتَخَطَّفْ﴾ التَّخطُّفُ مُبالَغةٌ في الخَطْفِ، وهو انتِزاعُ شَيءٍ بسُرعةٍ(٤).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ استِفْهامُ إنكارٍ أنْ يكونَ اللهُ لم يُمَكِّنْ لهم حَرَمًا، ووَجْهُ الإنْكارِ أنَّهم نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَنْفي أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٨).

ذلكَ الحَرَمَ مِن تَمْكينِ اللهِ، فاستُفْهِموا على هذا النَّفْيِ استِفهامَ إنكارٍ، وهذا الإنكارُ يَقتضي تَوبيخًا على هذه الحالةِ الَّتي نُزِّلوا لأجْلِها مَنزِلةَ مَن يَنفي أنَّ اللهَ مَكَّنَ لهم حَرَمًا(١).

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حَصَل في خلالِ الرَّدِّ لقَولِهم إدْماجٌ(٢) للامْتِنانِ عليهم بهذه النِّعمةِ؛ ليَحْصُلَ لهم وازِعانِ عن الكُفْرِ بالمُنْعِمِ؛ وازِعُ إبْطالِ مَعْذِرتِهم عن الكُفرِ، ووازِعُ التَّذْكيرِ بنِعْمةِ المَكْفورِ به(٣).

- وفي قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نَفْيُ العِلْمِ عن أكثَرِهم؛ لأنَّ بعضَهم أصحابُ رأْيٍ، فلو نَظَروا وتَدَبَّروا لَمَا قالوا مَقالتَهم تلكَ(٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَخْويفِ أهْلِ مكَّةَ مِن سُوءِ مَغَبَّةِ مَنْ كانوا في نِعمةٍ، فغَمَطُوها وقابَلُوها بالأَشَرِ والبَطَرِ(٥). وقيل: هو عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القصص: ٥٧]، باعتِبارِ ما تَضَمَّنَتْه مِنَ الإنكارِ والتَّوبيخِ؛ فإنَّ ذلك يَقتضي التَّعرُّضَ للانتِقامِ شأنَ الأُمَمِ الَّتي كَفَرَتْ بنِعَمِ اللهِ؛ فهو تَخْويفٌ لقُريشٍ مِنْ سُوءِ عاقبةِ أقوامٍ كانوا في مِثْلِ حالِهم مِنَ الأمنِ والرِّزقِ، فغَمَطُوا النِّعمةَ، وقابَلُوها بالبَطَرِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٥٤).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٠).

- قولُه: ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ الإشارةُ بـ (تِلْكَ) إلى مَساكِنِهم الَّذي بُيِّنَ به اسمُ الإشارةِ؛ لأنَّه في قوَّةِ تلكَ المَساكِنِ، وبذلك صارَتِ الإشارةُ إلى حاضِرٍ في الذِّهْنِ مُنَزَّلٍ مَنزِلةَ الحاضرِ بمَرْأَى السَّامِعِ[١].

- وقولُه: ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أيْ: لم يَتْرُكوا فيها خَلَفًا لهم، وذلك كنايةٌ عن انقِراضِهم على بَكْرةِ أبيهم[٢].

- وقولُه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ احتِراسٌ، أيْ: إلَّا إقامةَ المارِّينَ بها المُعتَبِرينَ بهَلاكِ أهلِها، والسَّكَنُ القليلُ هو مُطلَقُ الحُلولِ بغيرِ نيَّةِ إطالةٍ؛ فهي إلْمامٌ لا سُكْنَى؛ فإطلاقُ السُّكْنَى على ذلك مُشاكَلةٌ لِيَتأتَّى الاستِثْناءُ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ قَصْرُ إرْثِ تلكَ المَساكِنِ على اللهِ تعالى، أيْ: لا يَرِثُها غيرُنا، وهو كِنايةٌ عن حِرْمانِ تلكَ المَساكِنِ مِنَ السَّاكِنِ، وتلكَ الكِنايةُ رمْزٌ إلى شِدَّةِ غَضَبِ اللهِ تعالى على أهْلِها الأوَّلينَ؛ بحيثُ تَجاوَزَ غضَبُه السَّاكِنينَ إلى نَفْسِ المَساكِنِ، فعاقَبَها بالحِرمانِ مِن بَهْجةِ المَساكِنِ؛ لأنَّ بَهجةَ المَساكِنِ سُكَّانُها[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بَيانٌ للعِنايةِ الرَّبَّانيَّةِ إثْرَ بَيانِ إهْلاكِ القُرى المَذكورةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥١، ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠).

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا ...﴾ المُرادُ بإهْلاكِ القُرى: إهْلاكُ أهلِها، وإنَّما عُلِّقَ الإهلاكُ بالقُرى؛ للإشارةِ إلى أنَّ شِدَّةِ الإهلاكِ بحيثُ يأتي على الأُمَّةِ وأهلِها، وهو الإهلاكُ بالحَوادثِ الَّتي لا تَستَقِرُّ معها الدِّيارُ، بخِلافِ إهلاكِ الأُمَّةِ؛ فقد يكونُ بطاعُونٍ ونحوِه، فلا يَترُكُ أثرًا في القُرى[1].

وقيل: خُصَّتِ القُرى بالذِّكْرِ؛ لأنَّ العِبْرةَ بها أظْهَرُ؛ لأنَّها إذا أُهْلِكَتْ بَقِيَتْ آثارُها وأَطْلالُها، ولم يَنقَطِعْ خَبَرُها مِنَ الأجيالِ الآتيةِ بعْدَها، ويُعْلَمُ أنَّ الخِيامَ مِثْلُها بحُكْمِ دَلالةِ الفَحْوى[2].

- وإفراغُ النَّفْيِ في صيغةِ (ما كان فاعِلًا) ونَحْوِه مِن صِيَغِ الجُحُودِ؛ كما في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ ...﴾؛ يُفيدُ رُسوخَ هذِه العادةِ واطِّرادَها[3].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ في إسنادِ الخبَرِ إلى اللهِ بعُنوانِ رُبوبيَّتِه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ﴿رَبُّكَ﴾؛ إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ بهذا الإنذارِ هم أُمَّةُ محمَّدٍ الَّذينَ كَذَّبوا -أي: مِن أمةِ الدعوةِ-؛ فالخِطابُ للنَّبيِّ عليه السَّلامُ لهذا المَقصدِ؛ ولهذا وقَعَ الالتِفاتُ عنه إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ في قولِه: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الآياتِ مِن عندِ اللهِ، وأنَّ الدِّينَ دينُ اللهِ[4]. وقيل: الالتِفاتُ إلى نُونِ العَظَمةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٢).

وقد تقدم تعريف فحوى الخطاب (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٣).

لتَربيةِ المَهابةِ، وإدخالِ الرَّوْعةِ[١].

- وحصَلَ في هذه الجُملةِ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ تفنُّنٌ في الأساليبِ؛ إذْ جَمَعَتِ الاسمَ الظَّاهرَ، وضمائرَ الغَيْبةِ والخِطابِ والتَّكَلُّمِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٣).

## الآيات (٦٠-٦٧)

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٦١ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ٦٢ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ كَمَا غَوَيۡنَاۖ تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ ٦٣ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ ٦٤ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٦٥ فَعَمِيَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَنۢبَآءُ يَوۡمَئِذٖ فَهُمۡ لَا يَتَسَآءَلُونَ ٦٦ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ ٦٧﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَمَتَٰعُ﴾: المتاعُ: المتعةُ، والانتفاعُ، وأصلُ (متع): المنفعةُ، وامتِدادُ مدَّةٍ في خيرٍ[1].

﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾: أي: أضْلَلْنا، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ[2].

﴿فَعَمِيَتۡ﴾: أي: خَفِيَتْ والْتَبَسَتْ، وأصلُ (عمي): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٩).

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى حقارةَ الدُّنيا وما فيها مِن متاعٍ بالنِّسبةِ لِما أعَدَّه للمؤمنينَ في الآخرةِ مِنَ النَّعيمِ العظيمِ، فيقولُ: وما آتاكم اللهُ مِنَ النِّعَمِ واللَّذَّاتِ فإنَّما هو متاعٌ تتمَتَّعونَ به في حياتِكم الدُّنيا، ثمَّ لا يلبَثُ أن يَزولَ، وما عندَ اللهِ في الجنَّةِ خَيرٌ وأدوَمُ لأهلِه؛ فإنَّه ثوابٌ لا ينفَدُ، أفلا تَعقِلون؟!

ثمَّ يَنفي التَّسويةَ بينَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ، فيقولُ: أفمَن وعَدْناه الجنَّةَ، فهو لاقٍ ما وُعِدَه، وصائرٌ إلى ثوابِ اللهِ في الآخرةِ، كمَنْ هو كافرٌ مُكَذِّبٌ بلِقاءِ اللهِ، مُؤْثِرٌ لَذَّةَ العاجلةِ، مُمَتَّعٌ في الحياةِ الدُّنيا فحسْبُ، ثمَّ هو يومَ القيامةِ مِن المُحضَرينَ للجَزاءِ؟!

ثمَّ يحكي الله تعالى جانبًا مِن أحوالِ المشركينَ يومَ القيامةِ، وما يُوبِّخُهم به، فيقولُ: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ فيَقولُ لهم: أين شُرَكائيَ الَّذين كنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ؟ قال الدُّعاةُ إلى الكُفرِ والضَّلالِ الَّذين وجَبَ عليهم عذابُ اللهِ وغَضَبُه: يا ربَّنا، هؤلاء الَّذين دَعَوْناهم إلى الباطِلِ فأطاعونا، أضلَلْناهم مِثلَما كُنَّا ضالِّينَ، تَبَرَّأْنا إليك منهم؛ فما كانوا في الدُّنيا يَعبُدونَنا، إنَّما كانوا يَتَّبِعون أهواءَهم!

وقيل للمُشرِكين: ادعُوا الَّذين كنتُم تَعبدونَهم وتَزعُمونَهم شُرَكاءَ لله؛ لِيَنفَعوكم اليومَ، فدعاهم المُشرِكون فلمْ يُجيبوهم، ورأَوْا جميعًا -التَّابعُ منهم والمَتبوعُ- العذابَ الَّذي سيَحُلُّ بهم. لو أنَّ المُشرِكين كانوا في الدُّنيا مُهتَدينَ للحَقِّ، لَمَا اتَّبَعوا شُرَكاءَ مِن دونِ الله.

واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، فيَقولُ لهم: ماذا أَجبتُمُ المُرسَلينَ؟ هل آمَنتُم بهم واتَّبَعتُموهم، أمْ كفَرْتُم بهم وكذَّبْتُموهم؟ فخَفِيَتِ الحُجَجُ عليهم

يومَ القيامةِ ولم يَهتَدوا إلى جوابٍ صحيحٍ، فهم لا يَسألونَ أحدًا عمَّا يُجيبونَ به اللهَ فيما سألهَم عنه. فأمَّا مَن تاب وآمَنَ وعَمِلَ عمَلًا صالِحًا، فهو في الآخرةِ مِنَ الفائزينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٠﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا هو الجوابُ الثَّالثُ عن شُبْهَتِهم الَّتي حاصلُها أنْ قالوا: تَرَكْنا الدِّينَ لِئَلَّا تَفُوتَنا الدُّنيا، فبَيَّن تعالى أنَّ ذلك خطأٌ عظيمٌ؛ لأنَّ ما عندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقَى[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَّرهم اللهُ بنِعَمِه عليهم تذكيرًا أُدْمِجَ في خلالِ الرَّدِّ على قولِهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآ﴾ بقولِه: ﴿يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القَصَص: ٥٧]؛ أعْقَبه بأنَّ كلَّ ما أُوتُوه مِن نعمةٍ هو مِن متاعِ الحياةِ الدُّنيا، وزينَتِها، وأمَّا ما عندَ اللهِ مِن نعيمِ الآخرةِ فهو خيرٌ مِن ذلك وأبقَى؛ لئلَّا يَحْسَبوا أنَّ ما هم فيه مِنَ الأمنِ والرِّزْقِ هو الغايةُ المطلوبةُ فلا يَتَطَلَّبوا ما به تحصيلُ النَّعيمِ العظيمِ الأبَدِيِّ، وتحصيلُه بالإيمانِ[2].

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَا﴾.

أي: وما آتاكم اللهُ مِن الأموالِ والأولادِ وغَيرِها مِنَ النِّعَمِ واللَّذَّاتِ، فإنَّما هو مَتاعٌ تَتمَتَّعونَ به في حياتِكم الدُّنيا، وتَتزيَّنونَ به فيها، ثمَّ يَزولُ عنكم سريعًا، ولا يَنفَعُكم بشَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

كما قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [سبأ: ٣٧].

وعن المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يَجعَلُ أحَدُكم إِصبَعَه هذه في اليَمِّ؛ فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!))[1].

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾.

أي: وما عندَ اللهِ في الجنَّةِ أفضَلُ وَصفًا وكَمِّيَّةً مِن مَتاعِ الدُّنيا وزينتِها، وأدوَمُ لأهلِه؛ لأنَّه ثوابٌ لا يَنفَدُ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

أي: أفلا تَتدَبَّرونَ -أيُّها النَّاسُ- بعُقولِكم، فتَعرِفونَ بها أنَّ ثوابَ الآخِرةِ الباقيةِ خَيرٌ مِن نَعيمِ الدُّنيا الفانيةِ[3]؟!

---

(١) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تَفاوُتَ ما بيْنَ ما أُوتوه مِنَ المتاعِ والزِّينةِ، وما عندَ اللهِ مِنَ الثَّوابِ؛ قال: أفَبَعْدَ هذا التَّفاوُتِ الظَّاهرِ يُسوى بيْنَ أبناءِ الآخرةِ وأبناءِ الدُّنيا[1]؟!

وأيضًا لَمَّا أنبأهمُ اللهُ بأنَّ ما هم فيه مِنَ التَّرَفِ إنْ هو إلَّا مَتاعٌ قليلٌ، قابَلَ ذلك بالنَّعيمِ الفائقِ الخالدِ الَّذي أعَدَّ للمُؤمِنينَ[2].

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ ﴾.

أي: أفمَنْ وعَدْناه على طاعتِه إيَّانا الجنَّةَ، فآمَنَ بما وعَدْناه وأطاعَنا، فهو لاقٍ ما وُعِدَ، وصائِرٌ إلى ثَوابِ اللهِ في الآخرةِ لا مَحالةَ[3].

﴿ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾.

أي: كمَن هو كافرٌ مُكَذِّبٌ بلِقاءِ اللهِ ووَعْدِه ووَعيدِه، مُؤْثِرٌ اللَّذَّةَ العاجِلةَ على الآجِلةِ، فهو مُمَتَّعٌ في الحياةِ الدُّنيا فحَسْبُ، ثمَّ هو يومَ القيامةِ إذا ورَدَ على اللهِ مِنَ المُحضَرينَ للجَزاءِ[4]؟!

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٥).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَتَ أنَّ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ قد عَرَفوا بُطْلانَ ما كانوا عليه، وعَرَفوا صِحَّةَ التَّوحيدِ والنُّبوَّةِ بالضَّرورةِ؛ قال لهم: أينَ ما كنتُم تَعبُدونَه وتَجعَلونَه شَريكًا في العبادةِ، وتَزعُمونَ أنَّه يَشفَعُ؟ أين هو لِيَنصُرَكم ويُخَلِّصَكم مِن هذا الَّذي نزَلَ بكم[1]؟

وأيضًا لَمَّا ذَكَرَ أنَّ المُمَتَّعينَ في الدُّنيا يُحضَرونَ إلى النَّارِ؛ ذَكَرَ شَيئًا مِن أحوالِ يومِ القيامةِ[2].

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ فيَقولُ لهم يومَ القيامةِ: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ، وأنَّهم يَنفَعونَكم ويَنصُرونَكم ويَشفَعونَ لكم[3]؟

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٦).

أي: قال الَّذين وجَبَ عليهم عذابُ اللهِ وغَضَبُه مِنَ الدُّعاةِ إلى الكُفرِ والضَّلالِ: يا ربَّنا، هؤلاءِ التَّابِعونَ لنا الَّذينَ دعَوْناهم إلى الباطِلِ فأطاعونا، أضْلَلْناهم مِثلَما كنَّا ضالِّينَ(١).

﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

أي: تبرَّأْنا إليك مِنَ الَّذينَ أطاعونا وممَّا اختارُوه مِنَ الكُفرِ؛ هَوًى منهم للباطِلِ، ومَقْتًا للحَقِّ، فما كانوا في الدُّنيا يَعبُدونَنا، إنَّما كانوا يَتَّبِعونَ أهواءَهم وشَهَواتِهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥ - ١٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

قال ابنُ الجوزي: (﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجَبَ عليهم العذابُ، وهم رُؤساءُ الضَّلالةِ، وفيهم قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّهم رُؤوسُ المشركين، والثَّاني: أنَّهم الشياطين). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ۞ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ﴾.

أي: وقيلَ للمُشرِكينَ: ادعُوا الَّذينَ كُنتُم تَعبدونَهم في الدُّنيا، وتَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لله؛ لِيَنفعوكم ويَنصُروكم[1].

﴿ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ ﴾.

أي: فدعاهم المُشرِكونَ فلمْ يُجيبوهم، ولم يَنفَعوهم بشَيءٍ[2].

﴿ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾.

أي: ورأى المُشرِكونَ بأعيُنِهم -التَّابِعُ منهم والمَتبوعُ- العذابَ الَّذي سيَحُلُّ بهم[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا قَولُه: ﴿ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ ﴾ فهذا دعاءُ المسألةِ، يُبَكِّتُهم اللهُ ويُخزيهم يومَ القيامةِ، بإرائِهم أنَّ شُرَكاءَهم لا يَستجيبونَ لهم دَعوَتَهم، وليس المرادُ: اعبُدوهم. وهو نظيرُ قَولِه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ ﴾ [الكهف: ٥٢]). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ۞ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣].

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾.

أي: لو أنَّ المُشرِكينَ كانوا في الدُّنيا مُهتَدينَ للحَقِّ؛ لَمَا اتَّبَعوا شُرَكاءَ مِن دونِ اللهِ، ولَمَا رأَوُا العَذابَ في الآخرةِ[1].

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أشار إلى أنَّه لا خَلاصَ مِن ذلك الرَّدَى إلَّا بالهُدى؛ أتْبَعَه الإعلامَ بأنَّه لا يُمكِنُ أحدًا هناك أن يَفعَلَ ما قد يَروجُ على سائلِه، كما يُفعَلُ في هذه الدَّارِ مِن إظهارِ ما لم يكُنْ، فقال مُكرِّرًا لتَهويلِ ذلك اليَومِ وتبشيعِه، وتعظيمِه وتفظيعِه، سائلًا عن حقِّ رُسلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بعْدَ السُّؤالِ عن حقِّه سُبحانَه، مُناديًا بعَجزِ الشُّرَكاءِ في الأُخرَى كما كانوا عاجِزينَ في الأُولى[2]:

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، فيَقولُ لهم: ماذا أجَبْتُمُ المُرسَلينَ الَّذين أرسَلْتُهم إليكم؟ هل آمَنْتُم بهم واتَّبَعْتُموهم، أو كفَرْتُم بهم وكذَّبْتُموهم ولم تُطيعوهم[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

كما قال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف: ٦].

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾.

أي: فخَفِيَت الحُجَجُ على المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، ولم يَهتَدوا إلى جوابٍ صَحيحٍ حينَ يَسألُهم اللهُ عن حالِهم في الدُّنيا مع الرُّسلِ، فيَسكُتون حَيارَى لا يَقدِرونَ على الإجابةِ بشَيءٍ[1].

﴿ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾.

أي: فلا يَسألونَ أحدًا عمَّا يُجيبونَ به اللهَ فيما سألَهم عنه[2].

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا عُلِمَ حالُ مَن أصَرَّ على كُفْرِه وعَمِلَ سَيِّئًا بطَريقِ العِبارةِ، وأُشيرَ إلى حالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٦).

قال القاسمي: (﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أي: لا يَسألُ بعضُهم بعضًا عن الجوابِ؛ لِفَرْطِ الدَّهشةِ، أو لِعلمِه بأنَّه مِثلُه في العجزِ عن الجَوابِ، أو لعَجزِهم عن النُّطقِ، وكَوْنِهم مَختومًا على أفواهِهم). ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٣١).

وقال ابنُ جرير: (وقولُه: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ قيل: فهم لا يَتساءَلونَ بالأنسابِ والقرابةِ... وقيلَ: معنَى ذلك: فعَمِيَتْ عليهم الحُجَجُ يومئذٍ، فسَكَتوا، فهم لا يَتساءَلونَ في حالِ سُكوتِهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٧).

مَن تاب فوُعِدَ الوعدَ الحسَنَ بألطَفِ إشارةٍ؛ تَسَبَّبَ عن ذلك: التشَوُّفُ إلى التَّصريحِ بحالِهم[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه حالَ المعَذَّبينَ مِن الكفَّارِ، وما يَجري عليهم مِنَ التَّوبيخِ؛ أَتْبَعَه بذِكْرِ مَن يَتوبُ منهم في الدُّنيا؛ ترغيبًا في التَّوبةِ، وزجرًا عن الثَّباتِ على الكفرِ، فقال[٢]:

﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

أي: فأمَّا مَن تاب مِنَ الشِّركِ، وآمَنَ باللهِ ورُسُلِه، وعَمِلَ عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فإنَّه يكونُ في الآخرةِ مِنَ الفائِزينَ النَّاجينَ مِن العَذابِ، الخالدينَ في الجنَّةِ[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ هذا حَضٌّ مِن اللهِ لِعبادِه على الزُّهدِ في الدُّنيا، وعَدَمِ الاغترارِ بها، وعلى الرَّغبةِ في الأُخرَى، وجَعْلِها مَقصودَ العَبدِ ومَطلوبَه، ويُخبِرُهم أنَّ جميعَ ما أُوتِيَه الخَلقُ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، والحيواناتِ والأمتعةِ، والنِّساءِ والبَنينَ، والمآكِلِ والمشارِبِ واللَّذَّاتِ: كُلُّها متاعُ الحياةِ الدُّنيا وزينتُها، أي: يُتمتَّعُ به وقتًا قَصيرًا مَتاعًا قاصِرًا محشوًّا بالمنَغِّصاتِ، ممزوجًا بالغُصَصِ. ويُزَيَّنُ به زمانًا يسيرًا للفَخرِ والرِّياءِ، ثمَّ يزولُ ذلك سريعًا، وينقضي جميعًا، ولم يَستَفِدْ صاحِبُه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٧-٢٩٩).

منه إلَّا الحسرةَ والنَّدمَ، والخَيبةَ والحرمانَ[١]!

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكونُ لكم عقولٌ، بها تَزِنونَ أيُّ الأمورِ أَوْلَى بالإيثارِ، وأيُّ الدَّارَينِ أحَقُّ للعملِ لها؟ فدَلَّ ذلك أنَّه بحَسَبِ عَقْلِ العبدِ فإنَّه يُؤْثِرُ الأُخرَى على الدُّنيا، وأنَّه ما آثَرَ أحَدٌ الدُّنيا إلَّا لِنَقصٍ في عقْلِه؛ ولهذا نبَّه العُقولَ على الموازَنةِ بيْنَ عاقبةِ مُؤْثِرِ الدُّنيا ومُؤثِرِ الآخِرةِ، فقال: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾[٢].

٣- طالبُ العلمِ يجبُ عليه أنْ يَتلقَّى المسائلَ بدَلائلِها، وهذا هو الَّذي يُنجيه عندَ الله سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ اللهَ سيَقولُ له يومَ القيامةِ: ﴿مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؟ ولن يقولَ: «ماذا أجبتُم المؤلِّفَ الفُلانيَّ»! فإذَنْ لا بُدَّ أنْ نعرِفَ ماذا قالتِ الرُّسلُ لِنَعمَلَ به، ولكنَّ التَّقليدَ عندَ الضَّرورةِ جائزٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، فإذا كُنَّا لا نستطيعُ أن نعرِفَ الحقَّ بدليلِه فلا بُدَّ أن نسألَ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أمَّا أنَّه خيرٌ؛ فلِوَجهَينِ؛ أحدِهما: أنَّ المنافعَ هناك أعظَمُ، وثانيهما: أنَّها خالِصةٌ عن الشوائبِ؛ ومنافعُ الدُّنيا مَشوبةٌ بالمَضارِّ؛ بل المَضارُّ فيها أكثرُ.

وأمَّا أنَّها أبقَى فلِأنَّها دائمةٌ غيرُ مُنقطِعةٍ، ومَنافِعُ الدُّنيا منقطعةٌ، ومتى قُوبِلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٢١).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١/ ١٦).

المُتناهي بغيرِ المتناهي كان عدمًا؛ فكيف ونصيبُ كلِّ أحدٍ -بالقياسِ إلى منافعِ الدُّنيا كلِّها- كالذَّرَّةِ بالقياسِ إلى البحرِ؟! فظَهَر مِن هذا أنَّ منافعَ الدُّنيا لا نِسبةَ لها إلى مَنافعِ الآخرةِ الْبَتَّةَ، فكان مِن الجهلِ العظيمِ ترْكُ منافعِ الآخرةِ لاسْتِبقاءِ منافعِ الدُّنيا(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾، وقولِه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ إثباتُ صِفةِ الكلامِ له سُبحانَه مِن وجهَينِ: النِّداءِ والقَولِ، وهذه الآياتُ -الَّتي فيها إثباتُ كلامِه سُبحانَه- تدُلُّ بمجموعِها على أنَّ اللهَ يَتكلَّمُ بكلامٍ حقيقيٍّ، متى شاءَ، بما شاءَ، بحرفٍ وصَوتٍ مسموعٍ، لا يُماثِلُ أصواتَ المخلوقينَ(٢).

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ وقولُه: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾: النِّداءُ الأوَّلُ عن سؤالِ التَّوحيدِ، والثَّاني فيه إثباتُ النُّبوَّاتِ(٣)، فالنَّاسُ يُسألونَ عن إيمانِهم بالرُّسلِ، كما يُسألونَ عن التَّوحيدِ(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ أنَّه لا يُغني أحَدٌ عن أحدٍ يومَ القيامةِ، ولا يُنقِذُه ممَّا وَقَع فيه(٥).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٤)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٥).

ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ فضيلةُ هذه الأوصافِ الثَّلاثةِ: التَّوبةِ، والإيمانِ، والعملِ الصَّالحِ، وأنَّها سببٌ للفلاحِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أنَّ العملَ لا يَنفعُ إلَّا إذا كان صالِحًا، وهو ما جَمَعَ شَرطينِ؛ هما: الإخلاصُ، والمتابعةُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ ...﴾ فيه الْتِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ في قَولِه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا﴾ [القصص: ٥٧] إلى الخِطابِ بقولِه: ﴿أُوتِيتُم﴾؛ لأنَّ ما تَقدَّمَ مِنَ الكلامِ أَوْجَب تَوجيهَ التَّوبيخِ مُواجَهةً إليهم[٣].

- وفي قَولِه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ حيثُ قالَه هنا بالواوِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾، وفي سُورةِ (الشُّورَى) قال: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦] بالفاءِ؛ لأنَّ ما هنا لم يَتَعَلَّقْ بما قبْلَه كبيرَ تعلُّقٍ، فناسَبَ الإتيانُ به بالواوِ المُقْتَضِيةِ لمُطْلَقِ الجَمْعِ، وما هناك مُتعلِّقٌ بما قبْلَه أشَدَّ تعلُّقٍ؛ لأنَّه عَقَّبَ ما لهم مِنَ المَخافَةِ بما لهم مِنَ الأمَنَةِ، فناسَبَ الإتيانُ به بالفاءِ المُقْتَضِيةِ للتَّعقيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار)) للكرماني (ص: ١٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٢).

- وأيضًا قولُه: ﴿فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَا﴾ قالَهُ هنا بزيادةِ: ﴿وَزِينَتُهَا﴾، وفي (الشُّورَى) بحَذْفِه؛ لأنَّ ما هنا -لسَبْقِهِ- قُصِدَ فيه ذِكْرُ جميعِ ما بُسِطَ مِنْ رِزْقِ أعْراضِ الدُّنيا، فذَكَرَ ﴿وَزِينَتُهَا﴾ مع المَتاعِ؛ لِيَسْتَوْعِبَ جميعَ ذلك؛ إذِ المتاعُ ما لا بُدَّ منه في الحياةِ؛ مِنْ مَأكولٍ، ومَشْروبٍ، ومَلْبُوسٍ، ومَسْكَنٍ، ومَنْكُوحٍ، والزِّينةُ ما يَتجَمَّلُ به الإنسانُ وقد يُسْتَغنى عنه؛ كالثِّيابِ الفاخرةِ، والمراكبِ الرَّائقةِ، والدُّورِ المجصَّصةِ، والأطعمةِ الملبَّقةِ (اللَّيِّنةِ)، وحذَفَه في (الشُّورى) اختِصارًا، أو لأنه لم يُقصَدِ الاستيعابُ، بلْ ما هو مطلوبُهم في تلك الحالةِ مِن النَّجاةِ والأمْنِ في الحياةِ، فلم يُحْتَجْ إلى ذِكْرِ الزِّينةِ[1].

- وقيل: إنَّ سُورةَ (القصصِ) تضمَّنت ذِكْرَ قارونَ وما أُوتِيَه مِن المالِ الَّذي هو زينةُ الحياةِ الدُّنيا، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦]، ثمَّ أخبَرَ تعالى عن زَهْوِه واختيالِه بمالِه وظَنِّه استِحقاقَه إيَّاه، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩]، حتَّى قال مَن غفَلَ عن آخرتِه ولم يَعلَمْ ما أعدَّ اللهُ فيها للمؤمنينَ: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ﴾ [القصص: ٧٩]، فقدَّم سُبحانَه للمُعتبِرينَ مِن عِبادِه المؤمنينَ، وتنبيهًا للغافِلينَ؛ لتَحصُلَ السَّلامةُ للسُّعداءِ ممَّن عصَمَ بما ابْتَلى به قارونَ؛ فقال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ -أي: للمؤمنينَ- ﴿خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠]، وقد أخبَرَهم سُبحانَه في موضعٍ آخَرَ أنَّ الدُّنيا وحياتَها غُرورٌ، وأخبَرَهم أنَّ الآخرةَ هي دارُ القرارِ، وبعْدَ تَحذيرِ المؤمنينَ ورَدَت قِصَّةُ قارونَ، فالتَحمَتِ الآيةُ بتلك القِصَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار)) للكرماني (ص: ١٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٢).

وقيلَ هنا: ﴿وَزِينَتُهَا﴾، كما قيل في تلك: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ [القصص: ٧٩]، ومَنِ الَّذي يَعدِلُ عمَّا عندَ اللهِ سُبحانَه إلى ما جعَلَه تعالى سببًا لإهلاكِ المشركينَ؟! فتناسَبَ هذا كلُّه وتلاءَمَ.

ولم يقَعْ في آيةِ (الشُّورى) ذِكْرُ (وزينتُها)؛ إذ لم يَرِدْ فيها ما ورَدَ هنا ممَّا اسْتَدعَى هذه المناسبةَ، ولم يَرِدْ في سُورةِ (الشُّورى) مِن أوَّلِها إلى آخرِها ذِكْرُ بسْطِ حالٍ دُنياويٍّ لأحدٍ، بلْ تضمَّنَت حقارةَ الدُّنيا ونَزارةَ رِزْقِها، وأنَّه مَقْدورٌ غيرُ مبسوطٍ، وتلك حالُ الأكثرِ، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٢٧]، وقال عندَ ذِكرِ مَنِ اختارَ الدُّنيا ومالَ إليها: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [الشورى: ٢٠]، فقال: ﴿مِنْهَا﴾ بأداةِ التَّبعيضِ، فلم يقَعْ في هذه السُّورةِ ما يَسْتدعي ذِكْرَ الزِّينةِ الماليَّةِ؛ فلذلك لم تُذْكَرْ، واللهُ أعلَمُ[1].

- وأيضًا عُقِّبَت الآيةُ هنا بقولِه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، وفي سُورةِ (الشُّورى) بقولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الشورى: ٣٦]؛ وذلك لأنَّ قولَه تعالى في آيةِ (القصصِ): ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مُلتحِمٌ أوضحَ الْتِحامٍ بما اتَّصلَ به مِن قولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، فكأنْ قد قِيل بعْدَ قولِه: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [القصص: ٦٠]، وكأنْ قد قيل: أفلا تعقِلون ما بيْنَ الأمْرَينِ؟! ثمَّ أخبرَ بقولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في العذابِ الذي لا آخِرَ له، فقولُه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ مِن تَمامِ ما قبْلَه، وذلك بَيِّنُ التَّناسُبِ.

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٨٤، ٣٨٥).

ولَمَّا ورَدَ قبْلَ آيةِ (الشُّورى): ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، وقولُه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ إلى قولِه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [الشورى: ١٣ - ١٥]، وقولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨]، وقولُه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ [الشورى: ٢٢]، وقولُه: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [الشورى: ٣١]؛ ناسبَ هذا المتقدِّمَ مِن التَّخويفِ ما يُنبِّئُ المؤمنينَ المستجيبينَ بأصنافِ قولِه: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾؛ فقولُه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الشورى: ٣٦] أي: بكلِّ هذا، وبما يجبُ الإيمانُ به، وعَلِمُوا انفرادَه سُبحانَه بالخلْقِ والأمْرِ، فتوكَّلوا عليه؛ فأُعْقِبَت كلُّ آيةٍ منها بما يُناسِبُها، ووردَتْ على ما يجبُ، واللهُ أعلَمُ[1].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ استِفْهامٌ تَوْبيخيٌّ وتَقْريريٌّ على عدَمِ عَقْلِ المُخاطَبينَ، تَفرَّعَ على الخبَرِ السَّابقِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾؛ لأنَّهم لَمَّا لم يَسْتَدِلُّوا بعُقولِهم على طريقِ الخَيرِ نُزِّلُوا مَنزِلةَ مَنْ أفْسَدَ عَقْلَه، فسُئِلُوا: أهُمْ كذَلكَ[2]؟

- وقُرِئَ قولُه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾: (أَفَلَا يَعْقِلُونَ) بيَاءِ الغَيْبةِ[3] على الالْتِفاتِ عن خِطابِهم؛ لِتَعَجُّبِ المُؤمنينَ مِنْ حالِهم، وقيلَ: لأنَّهم لَمَّا كانوا لا يَعْقِلونَ نُزِّلوا مَنزلةَ الغائبِ؛ لبُعْدِهم عن مَقامِ الخِطابِ[4].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٢)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي =

٢- قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ هذه الآيةُ كالنَّتيجةِ للَّتي قَبْلَها؛ ولذلكَ رُتِّبَتْ عليها بالفاءِ، وهي أيضًا تقريرٌ وإيضاحٌ للَّتي قَبْلَها؛ أمَّا كَونُها تقريرًا فإنَّه ضَرَبَ المَعْنَيينِ -﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾- مَثَلًا في هذه الآيةِ، وأخْرَجَهما مُخْرَجَ المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ به، وأدْخَلَ همزةَ الإنكارِ على فاءِ التَّعْقيبِ العاطفةِ لهذه الجملةِ على الأُولَى: ﴿أَفَمَن﴾، فموقِعُ هذه الفاءِ أنَّه قد ذَكَر في الآيةِ الَّتي قبْلَها مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا وما عِنْدَ اللهِ وتَفاوُتَهما، ثمَّ عقَّبَه بقولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ...﴾ على معنى: أبَعْدَ هذا التَّفاوُتِ الظَّاهرِ يُسوَّى بيْنَ أبناءِ الآخِرَةِ وأبناءِ الدُّنيا؟! فهو تَرْتيبُ إنكارِ التَّشابُهِ بينَ أهلِ الدُّنيا وأهلِ الآخرةِ على ما قَبْلَها مِنْ ظُهورِ التَّفاوُتِ بيْنَ مَتاعِ الحياةِ الدُّنيا وبينَ ما عِنْدَ اللهِ تعالى.

وأمَّا البَيانُ فإنَّهُ تعالى ذَكَر أنَّ ما أُوتُوا مِنْ شيءٍ فهو تمتُّعٌ وزينةٌ أيامًا قَلائلَ، ولم يُبَيِّنْ في تلكَ الآيةِ مآلَها وسُوءَ مغَبَّتِها؛ فبَيَّنَ في هذِه الآيةِ أنَّ المَآلَ أنَّهم يَحْضُرونَ النَّارَ، وذَكَر فيها أنَّ ما عِنْدَ اللهِ خيرٌ وأبْقى، ولم يُبَيِّنِ العاقِبةَ فيه؛ فبَيَّنَ في هذِه أنَّ المَوْعودَ الجنَّةُ[1]؛ فمَوْقِعُ فاءِ التَّفْريعِ هنا: أنَّ ممَّا أَوْمَأَ إليه قولُه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص: ٦٠] ما كان المُشركونَ يَتَبَجَّحُونَ به على المُسلمينَ مِنْ وَفْرةِ الأموالِ ونَعيمِ التَّرَفِ، في حينِ كان مُعظَمُ المُسلمينَ فُقراءَ ضُعَفاءَ؛ فيَظْهَرُ مِنْ آياتِ القُرآنِ أنَّ المُشركينَ كان مِن دأْبِهمُ التَّفاخُرُ بما هم فيه مِنَ النِّعمةِ، وهي تُفيدُ مع ذلكَ تحقيقَ مَعنى الجملةِ الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ الثانيةَ زادَتِ الأُولى بَيانًا بأنَّ ما أُوتُوهُ زائِلٌ زَوالًا مُعَوَّضًا بضِدِّ المتاعِ والزِّينةِ، وذلكَ

---

= حيان)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٨٧، ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١).

قولُه: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾[١].

- والاستِفْهامُ في قَولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ﴾ مُستعمَلٌ في إنكارِ المُشابَهةِ والمُماثَلةِ الَّتي أفادَها كافُ التَّشْبيهِ؛ فالمَعنى: أنَّ الفريقَينِ ليسُوا سواءً؛ إذْ لا يَستَوي أهلُ نعيمٍ عاجلٍ زائلٍ، وأهلُ نعيمٍ آجلٍ خالدٍ[٢].

- وجملةُ ﴿فَهُوَ لَقِيهِ﴾ مُعترِضةٌ؛ لِبَيانِ أنَّه وعْدٌ مُحقَّقٌ، وقولُه: ﴿فَهُوَ لَقِيهِ﴾ أيْ: مُدْرِكُه لا مَحالةَ لامْتِناعِ الخُلْفِ في وَعْدِه تعالى؛ جِيءَ بالجُملةِ الاسْمِيَّةِ المُفيدةِ لتحقُّقِه البَتَّةَ، وعُطِفَتْ بالفاءِ المُنْبِئةِ عن مَعنى السَّبَبِيَّةِ؛ لأنَّ لِقاءَ المَوْعودِ مُسَبَّبٌ عن الوَعْدِ الَّذي هو الضَّمانُ في الخيرِ[٣].

- وجُملةُ ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ فهيَ مِن تَمامِ صِلَةِ المَوصولِ، داخلٌ معه في حَيِّزِ الصِّلةِ، مُؤكِّدٌ لإنكارِ التَّشابُهِ، ومُقرِّرٌ له؛ كأنَّه قِيلَ: كمَنْ متَّعْناهُ مَتاعَ الحياةِ الدُّنْيا، ثم نُحْضِرُه أو أحْضَرْناه يومَ القيامةِ النَّارَ أوِ العذابَ. وإيثارُ الجُملةِ الاسْمِيَّةِ؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ حَتْمًا. وفي جَعْلِه مِن جُملةِ المُحْضَرينَ مِن التَّهويلِ ما لا يَخْفى[٤].

- و(ثُمَّ) قيلَ: للتَّراخي في الزَّمانِ، وقيلَ: للتَّراخي الرُّتَبي؛ لبيانِ أنَّ رُتبةَ مَضْمُونِها في الخَسارةِ أعظَمُ مِن مضمونِ الَّتي قبْلَها، أيْ: لم تَقْتَصِرْ خَسارتُهم على حِرْمانِهم مِن نعيمِ الآخرةِ، بل تَجاوَزَتْ إلى التَّعويضِ بالعَذابِ الأليمِ؛ فـ (ثُمَّ) لتَراخي حالِ الإحْضارِ عن حالِ التَّمْتيعِ، لا لِتَراخِي وقتِه عن وقتِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٤، ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١).

وذلك لأنَّه أبلَغُ وأكثرُ إفادةً؛ لأنَّ تأخُّرَ زمانِ الإحْضارِ عن زمانِ التَّمْتيعِ ظاهرٌ بَيِّنٌ، لا يَحتاجُ إلى التَّنْبيهِ عليه[1].

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أيْ: مِنَ المُحْضَرينَ للجَزاءِ؛ على ما دَلَّ عليه التَّوبيخُ في ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠]، والمُقابَلَةُ في قَولِه: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا...﴾ المُقْتَضِيةُ أنَّ الفريقَ المُعَيَّنَ مَوْعُودونَ بضِدِّ الحَسَنِ؛ فحُذِف مُتعلَّقُ المُحْضَرينَ اختِصارًا[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تَخلُّصٌ مِن إثباتِ بَعثةِ الرُّسُلِ وبَعْثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى إبْطالِ الشُّركاءِ للهِ؛ فالجملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ: ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ [القصص: ٦١]، مُفيدةٌ سببَ كَونِهم مِنَ المُحْضَرينَ، أيْ: لأنَّهم اتَّخَذُوا مِن دونِ اللهِ شُركاءَ، وزَعَموا أنَّهم يَشْفَعُونَ لهم، فإذا هم لا يَجِدونَهم يومَ يُحضَرونَ للعذابِ، فيَجوزُ أنْ يكونَ مَبدأُ الجُملةِ قولَه: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾، فيَكونَ عَطْفًا على جُملةِ: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]، أيْ: يُحْضَرونَ ويُنادِيهم فيقولُ: أينَ شُركائي... إلخ، ويَجوزُ جَعْلُ مَبدأِ الجُملةِ قولَه: (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ)، وجَعْلُه عَطْفَ مُفرداتٍ؛ فيَكونُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) عَطْفًا على ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١]؛ فيَكونُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) عَيْنَ يومِ القيامةِ، وكان حقُّه أنْ يأتيَ بدَلًا مِن يومِ القيامةِ، لكنَّه عدَلَ عن الإبْدالِ إلى العَطْفِ؛ لاخْتِلافِ حالِ ذلكَ اليومِ باخْتِلافِ العُنوانِ، فنُزِّلَ مَنزِلةَ يومٍ مُغايِرٍ؛ زيادةً في تَهْويلِ ذلكَ اليومِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٥).

ويَجُوزُ جَعْلُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) مَنصوبًا بِفِعْلٍ مُقَدَّرٍ بعْدَ واوِ العطفِ بتَقْديرِ: (اذْكُرْ)، أو بتَقْديرِ فِعْلٍ دَلَّ عليه مَعنى النِّداءِ. واستِفْهامُ التَّوبيخِ مِن حُصُولِ أمْرٍ فَظيعٍ، تقْديرُه: يومَ يُنادِيهِمْ يكونُ ما لا يُوصَفُ مِن الرُّعْبِ(١).

- قولُه: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ الاستِفْهامُ بكلمةِ (أينَ) ظاهِرُه استِفْهامٌ عنِ المكانِ الَّذي يُوجَدُ فيه الشُّركاءُ، ولكنَّه مُستَعْمَلٌ كنايةً عن انْتِفاءِ وُجودِ الشُّركاءِ المَزْعومينَ يَومَئذٍ، فالاستِفْهامُ مُستَعْمَلٌ في الانْتِفاءِ(٢)، وقال: ﴿شُرَكَآءِىَ﴾ بِناءً على زَعْمِهم، وفيه تهكُّمٌ بهم(٣).

- ومَفْعولَا ﴿تَزْعُمُونَ﴾ مَحْذُوفانِ؛ دَلَّ عليهما ﴿شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾، أيْ: تَزْعُمونَهم شُركائِيَ، وهذا الحَذْفُ اختِصارٌ؛ لدَلالةِ الكَلامِ عليهما(٤).

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾

- جُرِّدَتْ جُملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ عن حَرْفِ العَطْفِ؛ لأنَّها وَقَعَتْ في مَوقِعِ المُحاوَرةِ؛ فهي جوابٌ عن قولِه تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢](٥).

- وقيلَ: إنَّ قولَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ استِئْنافٌ مَبنيٌّ على حكايةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٧).

السُّؤالِ؛ كأنَّه قيلَ: فمَاذَا صدَرَ عنهُم حينَئذٍ؟ فقيلَ: قالَ...[١].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ وهمْ شُركاؤُهم مِنَ الشَّياطينِ، أو رُؤَساؤُهمُ الَّذينَ اتَّخذُوهمْ أربابًا مِن دُونِ اللهِ تعالى، وتَخْصيصُهم بهذا الحُكْم -مع شُمولِه للأتْباعِ أيضًا- لأصالَتِهم في الكُفرِ واستِحْقاقِ العذابِ، ومُسارَعَتُهم إلى الجوابِ مع كَوْنِ السُّؤالِ للعَبَدَةِ؛ إمَّا لِتَفَطُّنِهم أنَّ السُّؤالَ عنهم لاستِحْضارِهم وتَوْبيخِهم بالإضْلالِ، وجَزْمِهم بأنَّ العَبَدَةَ سيَقولونَ: هؤلاءِ أضَلُّونا، وإمَّا لأنَّ العَبَدَةَ قد قالُوه اعتِذارًا، وهؤلاءِ إنَّما قالوا ما قالوا ردًّا لقولِهم، إلَّا أنَّه لم يُحْكَ قولُ العَبَدَةِ إيجازًا؛ لِظُهورِه[٢].

- وفي قَولِهم: ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغۡوَيۡنَآ﴾ ابتَدَؤُوا جَوابَهم بتَوْجيهِ النِّداءِ إلى اللهِ بعُنوانِ أنَّه ربُّهم؛ نداءً أُريدَ منه الاستِعطافُ بأنَّه الَّذي خلَقَهم؛ اعترافًا منهم بالعُبوديَّةِ، وتَمْهيدًا للتَّنصُّلِ مِن أنْ يَكُونوا هُمُ المُخْتَرِعينَ لدِينِ الشِّرْكِ؛ فإنَّهم إنَّما تَلَقَّوْه عن غيرِهم مِن سَلَفِهم، والإشارةُ بـ (هؤلاءِ) إلى بقيَّةِ المُنادَينَ معهم؛ قَصْدًا لأنْ يَتَمَيَّزوا عمَّنْ سِواهُمْ مِن أهلِ المَوقِفِ، وذلكَ بإلهامٍ مِنَ اللهِ؛ ليَزْدادوا رُعبًا، وأن يكونَ لهم مَطْمَعٌ في التَّخليصِ[٣].

- وفيه حَذْفُ مَفعولِ فِعْلِ ﴿أَغۡوَيۡنَآ﴾ الأوَّلِ -وهو العائدُ مِنَ الصِّلةِ إلى المَوصولِ- لكَثرةِ حَذْفِ أمْثالِه؛ لأنَّ اسمَ المَوصولِ (الَّذينَ) مُغْنٍ عن ذِكْرِه ودالٌّ عليه؛ فكان حَذْفُ العائدِ اختِصارًا، وذِكْرُ مَفعولِ فِعْلِ ﴿أَغۡوَيۡنَٰهُمۡ﴾ الثَّاني اهتِمامًا بذِكْرِه؛ لعدَمِ الاستِغْناءِ عنه في الاستِعْمالِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٧، ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٥٩).

- وقولُهم: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ هو الجوابُ حَقيقةً، وما قبْلَه تمهيدٌ له، وهو اسْتِئنافٌ للدَّلالةِ على أنَّهم غَوَوْا باخْتِيارِهم، وأنَّهم لم يَفْعَلوا بهم إلَّا وَسْوَسةً وتَسْويلًا، وما أكْرَهوهم على الغَيِّ بالقَسْرِ والإلْجاءِ، ولكنَّهم غَوَوْا باخْتِيارِهم غَيًّا مِثْلَ غَيِّنا باخْتِيارِنا[1]؛ فجُملةُ ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ استِئْنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾؛ لأنَّ اعْترافَهم بأنَّهم أغْوَوْهُم يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ مُتعَجِّبٍ: كيفَ يَعْتَرِفونَ بمِثْلِ هذا الجُرْمِ؟ فأرادوا بَيانَ الباعثِ لهم على إغْواءِ إخْوانِهم، وهو أنَّهم بَثُّوا في عامَّةِ أتْباعِهم الغَوايةَ المُستقِرَّةَ في نُفُوسِهم، وظَنُّوا أنَّ ذلكَ الاعترافَ يُخفِّفُ عنهم مِن العذابِ؛ بقَرينةِ قولِهم: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، وإنَّما لم يَقْتَصِرْ على جُملةِ: ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾؛ لقَصْدِ الاهتمامِ بذِكْرِ هذا الإغْواءِ بتَأكيدِه اللَّفظيِّ، وبإجْمالِه في المرَّةِ الأُولى، وتَفْصيلِه في المرَّةِ الثانيةِ؛ فلَيسَتْ إعادةُ فِعْلِ (أَغْوَيْنَا) لمجَرَّدِ التَّأكيدِ[2].

- وفيه احتباكٌ[3]، حيثُ حُذِفَ أوَّلًا (فغَوَوا)؛ لدَلالةِ ﴿غَوَيْنَا﴾ عليه، وثانيًا (لَمَّا أغْوانا مَن قَبْلَنا)؛ لدَلالةِ ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ﴾ عليه[4].

- وإخلاءُ الجُملتَيْنِ ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ مِنَ العاطفِ؛ لِكَونِهما مُقرِّرتَينِ لمَعنى الجملةِ الأُولى[5]، وجملةُ ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ استِئْنافٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١، ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٨).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٢٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢).

والمُتَبَرَّأُ منه هو مَضمونُ جملةِ: ﴿مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾؛ فهي بَيانٌ لإجْمالِ التَّبَرُّؤِ[1].

- وتقديمُ ﴿إِيَّانَا﴾ على ﴿يَعۡبُدُونَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (يَعْبُدُونَنَا)؛ للاهْتِمامِ بهذا التَّبَرُّؤِ، مع رعايةِ الفاصِلةِ[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ أمْرٌ على سَبيلِ التَّهكُّمِ والاسْتِهْزاءِ بهم، أو التَّبْكيتِ لهم؛ لأنَّه يَعلَمُ أنه لا فائدةَ في دُعائِهم[3].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ﴾ فيه إسنادُ فِعْلِ القَوْلِ ﴿وَقِيلَ﴾ إلى المَفعولِ؛ لأنَّ الفاعلَ مَعلومٌ ممَّا تَقَدَّمَ، أيْ: وقالَ اللهُ. وإضافةُ الشُّركاءِ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّهمُ الَّذينَ ادَّعَوْا لهمُ الشَّركةَ كما في آيةِ (الأنعامِ): ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾[4] [الأنعام: ٩٤].

- قولُه: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ عطْفًا على جملةِ: ﴿فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ﴾، والرُّؤيةُ بَصَريَّةٌ، والعذابُ عذابُ الآخرةِ، أيْ: أحْضَرَ لهم آلةَ العذابِ ليَعْلَمُوا أنَّ شُركاءَهم لا يُغْنُونَ عنهم شيئًا، وعلى هذا تكونُ جُملةُ: ﴿لَوۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ يَهۡتَدُونَ﴾ مُستأْنَفةً ابتِدائيَّةً مُستَقِلَّةً عن جملةِ: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٠).

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الواوُ للحالِ، والرُّؤيةُ أيضًا بصَريَّةً، والعذابُ عذابَ الآخرةِ، أيْ: وقد رأَوُا العذابَ فارْتَبَكوا في الاهْتِداءِ إلى سبيلِ الخَلاصِ، فقيلَ لهم: ادْعُوا شُركاءَكُم لخَلاصِكُم، وتكونَ جملةُ: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ كذلكَ مُسْتَأْنَفةً ابتِدائيَّةً.

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ الرُّؤيةُ عِلْميَّةً، وحُذِفَ المفعولُ الثَّاني اختِصارًا، والعذابُ عذابَ الآخرةِ، والمَعنى: وعَلِمُوا العذابَ حائِقًا بهم، والواوُ للعطفِ أوِ الحالِ، وجملةُ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ مُستَأْنَفَةٌ استِئْنافًا بيانيًّا، كأنَّ سائلًا سأَلَ: ماذا صَنَعُوا حينَ تَحَقَّقُوا أنَّهمْ مُعَذَّبونَ؟ فأُجيبَ: بأنَّهم لو أنَّهم كانُوا يَهْتَدونَ سبيلًا لَسَلَكُوه، ولكنَّهم لا سَبيلَ لهم إلى النَّجاةِ. وعلى هذه الوُجوهِ الثلاثةِ تكونُ (لو) حرفَ شرطٍ، وجوابُها مَحذوفًا دَلَّ عليه حَذْفُ مفعولِ ﴿يَهْتَدُونَ﴾، أيْ: يَهتَدُونَ خَلاصًا أو سبيلًا، والتَّقديرُ: لَتَخَلَّصُوا منه. وعلى الوُجوهِ الثلاثةِ فَفِعْلُ ﴿كَانُوا﴾ مَزيدٌ في الكلامِ لِتَوكيدِ خبَرِ (أنَّ)، أيْ: لو أنَّهم يَهْتَدونَ اهتِداءً مُتمَكِّنًا مِن نُفوسِهم، وفي ذلك إيماءٌ أنَّهم حينَئذٍ لا قَرارةَ لنُفوسِهم، وصيغةُ المضارعِ في ﴿يَهْتَدُونَ﴾ دالَّةٌ على التَّجدُّدِ، فالاهتِداءُ مُنقَطِعٌ عنهُمْ، وهو كنايةٌ عن عدَمِ الاهْتِداءِ مِن أصْلِه.

ويَحْتَمِلُ أن تكونَ (لو) للتَّمَنِّي المُستَعْمَلِ في التَّحسُّرِ عليهم، والمرادُ اهْتِداؤُهم في حياتِهمُ الدُّنيا؛ كَيْلا يقَعُوا في هذا العذابِ، وفِعْلُ ﴿كَانُوا﴾ حينَئذٍ في مَوقعِه الدَّالِّ على الاتِّصافِ بالخبَرِ في الماضي، وصِيغةُ المُضارعِ في ﴿يَهْتَدُونَ﴾ لقَصْدِ تجدُّدِ الهُدى المُتحَسَّرِ على فَواتِه عنهم؛ فإنَّ الهُدَى لا يَنْفَعُ صاحبَه إلَّا إذا استَمَرَّ إلى آخِرِ حياتِه.

ويَحْتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بالعذابِ عذابَ الدُّنيا، والكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ تقديرُه: ورَأَوْا آثارَ العذابِ، والرُّؤيةُ بصَريَّةٌ، أيْ: وَهُمْ رأَوُا العذابَ في حياتِهم،

أيْ: رأَوْا آثارَ عذابِ الأُمَمِ الَّذينَ كذَّبُوا الرُّسُلَ، وهذا في مَعنى قولِه تعالى في سورة (إبراهيم): ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ [إبراهيم: ٤٥]، وجملةُ ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾ شَرْطٌ، جَوابُه مَحذوفٌ دَلَّ عليه: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴾، أيْ: بالاتِّعاظِ وبالاسْتِدلالِ بحُلولِ العذابِ في الدُّنيا على أنَّ وَراءَه عذابًا أعْظَمَ منه، لاهْتَدَوْا فأقْلَعوا عنِ الشِّرْكِ، وصدَّقوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ وهذا لأنَّهُ يُفيدُ مَعنًى زائدًا على ما أفادَتْه جملةُ ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾.

فهذه عِدَّةُ مَعانٍ يُفيدُها لَفْظُ الآيةِ، وكلُّها مَقْصودةٌ؛ فالآيةُ مِن جَوامعِ الكَلِمِ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ هو كقولِه: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ [القصص: ٦٢]؛ كُرِّر الحديثُ عنه باعتِبارِ تعدُّدِ ما يَقَعُ فيهِ؛ لأنَّ مَقامَ المَوعِظةِ يَقتَضي الإطْنابَ في تَعْدادِ ما يُستحَقُّ به التَّوبيخُ، وكُرِّرَتْ جملةُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ)؛ لأنَّ التَّكْرارَ مِن مُقتَضياتِ مَقامِ المَوعظةِ، وهذا تَوْبيخٌ لهُمْ على تَكْذيبِهم الرُّسُلَ بعدَ انقِضاءِ تَوبيخِهم على الإشْراكِ باللهِ[2].

- والاستِفهامُ بـ ﴿مَاذَآ ﴾ صُوريٌّ، مَقْصودٌ منه إظْهارُ بَلْبَلَتِهم[3].

٧- قولُه تعالى: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ ﴾ أصْلُه: (فعَمُوا عنِ الأَنْباءِ)، وقد عَكَسَ هنا؛ للمُبالَغةِ، والتَّنبيهِ على أنَّ ما يَحْضُرُ الذِّهْنَ يفيضُ عليه، ويَصِلُ إليه مِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٠، ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦١، ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦٢).

خارجٍ، فإذا أَخْطَأَه لم يَكُنْ له حيلةٌ إلى اسْتِحضارِه، وتَعْدِيةُ الفِعْلِ بـ (على)؛ لِتَضَمُّنِه مَعنى الخَفاءِ والاشْتِباهِ[١].

- وأتَى بلَفْظِ الماضي ﴿ فَعَمِيَتْ ﴾؛ لِتَحقُّقِ وُقوعِه[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴾ تَخَلَّلَ بينَ حالِ المُشركينَ ذِكْرُ حالِ الفريقِ المُقابِلِ -وهو فريقُ المُؤمنينَ- على طريقةِ الاعْتِراضِ؛ لأنَّ الأحوالَ تَزْدادُ تميُّزًا بذِكْرِ أضْدادِها، والفاءُ في ﴿ فَأَمَّا ﴾ للتَّفريعِ على ما أفادَه قولُه: ﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ ﴾ [القصص: ٦٦] مِنْ أنَّهم حَقَّ عليهم العذابُ[٣].

- ولَمَّا كانتْ (أَمَّا) تُفيدُ التَّفصيلَ -وهو: التَّفكيكُ والفَصْلُ بيْنَ شَيئَينِ أو أشياءَ في حُكمٍ- فهي مُفيدةٌ هنا أنَّ غيرَ المُؤمنينَ خاسِرونَ في الآخرةِ، وذلكَ ما وَقَعَ الإيماءُ إليه بقولِه: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [القصص: ٦٦]؛ فإنه يَكتَفي بتَفْصيلِ أحدِ الشَّيئينِ عن ذِكْرِ مُقابِلِه[٤].

- قولُه: ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ التَّوبةُ هنا: الإقْلاعُ عن الشِّركِ، والنَّدَمُ على تقَلُّدِه، وعَطْفُ الإيمانِ عليها؛ لأنَّ المَقصودَ حُصولُ إقْلاعٍ عن عقائدِ الشِّرْكِ، وإحْلالِ عَقائدِ الإسلامِ مَحلَّها؛ ولذلكَ عَطَفَ عليه: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾؛ لأنَّ بعضَ أهْلِ الشِّرْكِ كانوا شاعِرينَ بفَسادِ دينِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ (عَسَى) للتَّحقيقِ على عادةِ الكرامِ، أو للتَّرجِّي مِنْ قِبَلِ التَّائبِ، بمعنى: فلْيَتَوَقَّعِ الإفْلاحَ؛ فهي تَرَجٍّ لتَمْثيلِ حالِهم بحالِ مَنْ يُرجى منه الفَلاحُ[1].

- وقولُه: ﴿أَن يَكُونَ مِنَ ٱلۡمُفۡلِحِينَ﴾ أشَدُّ في إثباتِ الفَلاحِ مِن: (أَنْ يُفْلِحَ)؛ لأنَّه يُفيدُ أنَّهم مِن جُملةِ المفلحينَ وزُمْرَتِهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٤).

## الآيات (٦٨-٧٠)

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْخِيَرَةُ﴾: أي: الاختيارُ، وأصلُ (خير): العَطفُ والميلُ[1].

﴿تُكِنُّ﴾: أي: تُخفي، وتَستُرُ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى أنَّ مَرَدَّ الأمورِ جميعِها إليه، وأنَّه هو صاحبُ الخَلقِ والأمرِ، فيقولُ: وربُّك -يا مُحمَّدُ- يخلُقُ ما يشاءُ خَلْقَه، ويختارُ ما يَشاءُ مِن الأمورِ والأشياءِ، ما كان للنَّاسِ أن يَختاروا على اللهِ أن يفعَلَ ما يَشاؤونَ، بل اللهُ وَحْدَه يَختارُ ما يشاءُ، تَنَزَّهَ اللهُ وتقدَّس عَمَّا يُشرِكون، وربُّك -يا مُحمَّدُ- يَعلَمُ ما تُخفي صدورُ عبادِه وما يُظهِرونَه مِن الأقوالِ والأفعالِ، وهو اللهُ لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو، هو وحْدَه المُستَحِقُّ للحَمدِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وله وحْدَه الحُكمُ في الدُّنيا والآخرةِ، وإليه وحْدَه تُرَدُّون بعدَ مَوتِكم فيُحاسِبُكم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا متَّصِلٌ بذِكرِ الشُّركاءِ الَّذين عبَدوهم واختاروهم للشَّفاعةِ، أي: الاختيارُ إلى اللهِ تعالى في الشُّفعاءِ لا إلى المشركينَ[١].

وأيضًا بعدَ أن وبَّخهم فيما سلَف على اتِّخاذِهم الشُّركاءَ، وذكَر أنَّه يَسألُهم عنهم يومَ القيامةِ تهكُّمًا بهم وتقريعًا لهم- أردَفَ ذلك بتجهيلِهم على اختيارِ ما أشرَكوه، واصطفائِهم إيَّاه للعبادةِ، وأبانَ لهم أنَّ تمييزَ بعضِ المخلوقاتِ عن بعضٍ، واصطفاءَه على غيرِه مِن حقِّ الله لا مِن حقِّكم أنتم[٢].

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾.

أي: وربُّك -يا مُحمَّدُ- يخلُقُ ما يَشاءُ خَلْقَه، ويختارُ ما يَشاءُ مِن الأمورِ والأشياءِ، فيَصطفي مَن يشاءُ للرِّسالةِ والهِدايةِ، ويُفضِّلُ مَن يشاءُ مِنَ الملائكةِ والنَّاسِ، والأمكِنةِ والأزمِنةِ، وغَيرِ ذلك[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النور: ٤٥، ٤٦].

وعن واثِلةَ بنِ الأَسْقَعِ رضيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ: ((إنَّ اللهَ اصطفَى كِنانةَ مِن ولَدِ إسماعيلَ، واصطفَى قُرَيشًا مِن كِنانةَ، واصطفَى مِن قُرَيشٍ بني هاشِمٍ، واصطفاني مِن بني هاشِمٍ))(١).

﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾.

أي: ما كان للنَّاسِ أن يَختاروا على اللهِ أن يَفعَلَ ما يَشاؤونَ، بل اللهُ يختارُ وَحْدَه ما يَشاءُ(٢).

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ وتقدَّسَ وارتفَعَ عن شِركِ المُشرِكينَ وكَذِبِهم عليه؛ فهو وَحْدَه

---

(١) رواه مسلم (٢٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥١، ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٢).

قال ابن عطية: (ويحتَمِلُ أن يريدَ: ويختارُ اللهُ تعالى الأديانَ والشَّرائعَ، وليس لهم الخِيَرةُ في أن يَميلوا إلى الأصنامِ ونَحوِها في العبادةِ، ويؤيِّدُ هذا التأويلَ قَولُه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٦).

المتفرِّدُ بالخَلقِ والاختيارِ دونَ آلهتِهم الَّتي لا تَخلُقُ ولا تَختارُ شَيئًا[١].

﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

أي: وربُّك -يا مُحمَّدُ- يَعلَمُ ما تُخفي وتُضمِرُ نفوسُ عبادِه، وما يُظهِرونَه مِن الأقوالِ والأفعالِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ ﴾ [الأنعام: ٣].

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ۖ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه فَسادَ طريقِ المُشرِكينَ مِن قَولِه: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ ﴾ [القصص: ٦٢] خَتَم الكلامَ في ذلك بإظهارِ هذا التَّوحيدِ، وبيانِ أنَّ الحَمدَ والثَّناءَ لا يَليقُ إلَّا به[٣].

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

أي: وهو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو دونَ ما سِواه[٤].

﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

أي: هو وَحْدَه المُستَحِقُّ للحَمدِ في الدُّنيا والآخِرةِ على أفعالِه وإحسانِه، وأسمائِه وصِفاتِه[١].

﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾.

أي: وللهِ وَحْدَه الحُكمُ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ ففي الدُّنيا يَحكُمُ بينَ عِبادِه بِشَرْعِه وقَدَرِه، وفي الآخرةِ يَقضي بيْنَهم بعَدْلِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم، فيُحاسِبُكم في الآخرةِ، ويُجازي كُلًّا منكم بعمَلِه مِن خيرٍ أو شَرٍّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ التَّحذيرُ والتَّرغيبُ؛ تحذيرُ الإنسانِ أنْ يُضمِرَ أو يُعلِنَ سوءًا؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُ به، وتَرغيبُه في أن يُضمِرَ أو يُعلِنَ خيرًا؛ لأنَّ اللهَ يَعلَمُه، واللهُ أعلمُ بما أضمَرَ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، ومعناه أنَّه لن يَضيعَ؛ فهو مَعلومٌ، كما قال اللهُ تبارك وتعالى في آياتٍ كثيرةٍ إنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٨٤)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

يَعلَمُ، ويُخبِرُ يومَ القيامةِ عمَّا عَمِلَ هؤلاء[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ الآيةُ تعليلٌ لبُطلانِ آلهةِ المُشرِكينَ، وإثباتٌ للألوهيَّةِ للهِ، وذلك عن طريقِ إثباتِ الخَلْقِ؛ فإنَّ الخالِقَ هو الَّذي يجِبُ أنْ يُعبَدَ؛ لقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، فإنَّ هذا الوصفَ تعليلٌ للأمرِ؛ فإنَّ الخالقَ يجبُ أن يكونَ هو الإلهَ المعبودَ، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]، فإذا كانوا لا يَخلُقون فكيف يَستحِقُّون أن يُعبَدوا؟ قال إبراهيمُ لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢]. فهنا قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لإلزامِ هؤلاءِ المشركينَ بعبادتِه سُبحانَه وَحْدَه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ لمْ يَقُلْ: «مَن يشاءُ» لِيَشملَ الأعيانَ والأوصافَ، فاللهُ تعالى خالِقُ كلِّ شيءٍ: الأعيانِ والأوصافِ؛ ولهذا فإنَّ مِن مَذهَبِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ اللهَ تعالى خالقٌ للعبدِ، ولأفعالِ العبدِ -الَّتي هي أوصافُه-، فاللهُ تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٩).

وقال ابنُ القيمِ: («ما» اسمٌ مبهَمٌ في غايةِ الإبهامِ، حتَّى إنَّها تقعُ على كلِّ شَيءٍ، وتقعُ على ما ليس بشَيءٍ، ألَا تراكَ تقولُ: إنَّ اللهَ يعلمُ ما كان وما لم يكُنْ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٣١).

ويُنظر: ((نتائج الفكر)) للسهيلي (ص: ١٣٩).

٣- إثباتُ الإرادةِ للهِ سُبحانَه وتعالى؛ لِقَولِه: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، والإرادةُ هنا إنْ نظَرْنا إلى قرْنِها بالخَلْقِ قُلْنا: هي الكَونيَّةُ، وإنْ نظَرْنا إلى لفْظِها -بقَطعِ النَّظَرِ عن اقترانِها بالخَلْقِ- قُلْنا: إنَّها شامِلةٌ لِلْكَونيَّةِ وللشَّرعيَّةِ؛ لأنَّه سُبحانَه وتعالى يَختارُ كَونًا وشَرْعًا ما يَشاءُ، وهذا العُمومُ أَولى[1].

٤- احتجَّ الجَبريَّةُ بقولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ على مذهبِهم، فقالوا: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الإنسانَ لا اختيارَ له، وأنَّه مُجبَرٌ على فِعْلِه!

**والجوابُ عن ذلك:** أنَّ معنَى الآيةِ: ما كان للنَّاسِ أن يَختاروا على اللهِ أن يَفعَلَ ما يَشاؤونَ، بل اللهُ يختارُ وَحْدَه ما يَشاءُ[2]، فليس في الآيةِ نفْيٌ لأصلِ صِفةِ الاختيارِ عن الإنسانِ.

ويُجابُ أيضًا بأنَّ المرادَ: ما كان لهم الخِيَرةُ المُطْلَقةُ، أي: الَّتي تكونُ بدُونِ اللهِ، فالنَّفيُ مُسَلَّطٌ هنا على الخِيَرةِ المُطلَقةِ؛ لأنَّ الآياتِ تَشهدُ بأنَّ الإنسانَ يختارُ، وله إرادةٌ ومشيئةٌ، ومنها قولُه تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، فهو سُبحانَه وتعالى أثبَتَ للإنسانِ مَشيئةً.

والواقعُ أيضًا يَشهَدُ بأنَّ للإنسانِ خِيَرةً، فالإنسانُ يُفَرِّقُ بيْنَ الفِعلِ الاختياريِّ، والفِعلِ غيرِ الاختياريِّ؛ فالإنسانُ إذا نَزَل مِنَ السَّطحِ بالدَّرَجِ فنُزولُه اختياريٌّ، ولكنْ إذا دَفَعَه أحَدٌ مِن أعلى الدَّرَجِ فتدحرَجَ، فنُزولُه غيرُ اختياريٍّ، والعُلماءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥١).

يقولون في كثيرٍ مِن الكَفَّاراتِ: يُخَيَّرُ بينَ كذا وكذا[١]، لكنَّ مشيئةَ الإنسانِ تابعةٌ لمشيئةِ الله عزَّ وجلَّ؛ قال الله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢] [التكوير: ٢٨، ٢٩].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾ انفرادُ اللهِ عزَّ وجلَّ بالإرادةِ المُطْلَقةِ؛ فلا مُعَقِّبَ لحُكْمِه، ولا رادَّ لِقَضائِه[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعۡلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾ سؤالٌ: هَلَّا اكتفى بقَولِه تعالى: ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمۡ﴾ عن قَولِه: ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾؟

**الجوابُ**: أنَّ عِلْمَ الخَفيِّ لا يَستلزِمُ عِلْمَ الجَليِّ؛ إمَّا لبُعْدٍ، أو لَغَطٍ، أو اختِلاطِ أصواتٍ يَمنعُ تمييزَ بعضِه عن بعضٍ، أو غيرِ ذلك؛ لهذا قال: ﴿وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ سؤالٌ: أنَّ الحمدَ في الدُّنيا ظاهرٌ؛ فما الحمدُ في الآخرةِ؟

**الجوابُ**: أنَّهم يَحمَدونَه بقَولِهم: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، والتَّوحيدُ هناك على وَجهِ اللَّذَّةِ لا الكُلْفةِ، وفي الحَديثِ ((يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ))[٥]. وفي حديثِ الشَّفاعةِ قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ويُلهِمُني مَحامِدَ أَحْمَدُه بها لا تَحْضُرُني الآنَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١١٤).

والحديث أخرجه مسلم (٢٨٣٥) مطولًا من حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما.

فأحْمَدُه بتلك المحامِدِ))[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ ظهورُ كمالِ صفاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى في الدُّنيا والآخرةِ، لأنَّ الحمدَ وصفُ المحمودِ بالكمالِ[٢].

٩- اختِصاصُ اللهِ تعالى بالحُكمِ؛ وأنه وحْدَه هو الحاكمُ؛ لقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، وما ذُكِرَ مِن إثباتِ الحُكمِ لغيرِه فهو أمرٌ مُقَيَّدٌ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ كالتَّذْييلِ، وبيانِ أنَّه هو الَّذي يَخْلُقُ ما يَشاءُ؛ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ، ويَهدِي مَنْ يَشاءُ، ليس لأحدٍ أنْ يَتَصَرَّفَ في مُلكِه ويُشارِكَه في خَلْقِه؛ ولهذا خَتَمَه بقولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[٤].

- قولُه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ الابْتِداءُ بقولِه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ تَمهيدٌ للمَقصودِ، وهو قولُه: ﴿وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾، أيْ: كمَا أنَّ الخَلْقَ مِنْ خَصائصِه، فكذلكَ الاخْتِيارُ[٥].

- وقولُه: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿وَيَخْتَارُ﴾؛ لأنَّ مَعناهُ: ويَخْتارُ ما يَشاءُ؛ ولهذا لم يَدْخُلِ العاطِفُ[٦]، وهو استِئْنافٌ مُؤكِّدٌ لمعنَى

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥١٠) واللَّفظُ له، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢).

القَصْرِ؛ لِئَلَّا يُتَوَهَّمَ أنَّ الجُملةَ قَبْلَه مُفيدةٌ مُجرَّدَ التَّقَوِّي. وصِيغةُ (ما كانَ) تدُلُّ على نَفْيٍ للكَونِ يُفيدُ أَشَدَّ ممَّا يُفيدُ لو قِيلَ: ما لهمُ الخِيرَةُ[١].

- واللَّامُ في ﴿لَهُمُ﴾ للمِلْكِ، أيْ: ما كانوا يَمْلِكونَ اختيارًا في المَخلوقاتِ حتَّى يقولوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، ونَفْيُ المِلْكِ عنهم مُقابِلٌ لقولِه: ﴿مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنَّ ﴿مَا يَشَآءُ﴾ يُفيدُ مَعنى مِلْكِ الاخْتِيارِ. وفي ذِكْرِ اللهِ تعالى بعُنوانِ كَوْنِه ربًّا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إشارةٌ إلى أنَّه اخْتارَه لأنَّه ربُّه وخالِقُه، فهو قد عَلِمَ اسْتِعْدادَه لقَبولِ رسالَتِه[٢].

- قولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ؛ لإنْشاءِ تَنزيهِ اللهِ وعُلُوِّه على طريقةِ الثَّناءِ عليه بتنَزُّهِه عن كلِّ نَقْصٍ، وهي مُعترضةٌ بينَ المُتعاطفَيْنِ[٣].

- وأُضِيفَ ﴿سُبْحَٰنَ﴾ إلى اسمِه العَلَمِ دُونَ أنْ يُقالَ: (وسُبحانَه)، بَعْدَ أنْ قال: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ﴾ [القصص: ٦٩]؛ لأنَّ اسمَ الجلالةِ مُخْتَصٌّ به تعالى، وهو مُستَحِقٌّ للتَّنْزيهِ بذاتِه؛ لأنَّ استِحْقاقَ جَميعِ المَحامِدِ ممَّا تَضمَّنَه اسمُ الجلالةِ في أصْلِ معناهُ قبْلَ نَقْلِه إلى العَلَمِيَّةِ[٤].

- ووَجْهُ تَقْييدِ التَّنزيهِ والتَّرفيعِ بـ(مَا يُشْرِكُونَ): أنَّه لم يَجترِئْ أحَدٌ أنْ يَصِفَ اللهَ تعالى بما لا يَليقُ به ويَسْتحيلُ عليه إلَّا أهْلُ الشِّرْكِ بزَعْمِهم أنَّ ما نسَبُوه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦٥، ١٦٦).

إلى اللهِ إنَّما هو كَمالٌ، مِثْلُ اتِّخاذِ الوَلَدِ، أو هو ممَّا أنبَأَهُم اللهُ به، وزَعَموا أنَّ الآلهةَ شُفَعاؤُهمْ عندَ اللهِ، وقالوا في التَّلْبِيَةِ: لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لكَ، إلَّا شَرِيكًا هو لكَ، تَمْلِكُه وما مَلَكَ[1]! وأمَّا ما عَدَا ذلك فهُم مُعترِفُون بالكَمالِ للهِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ عَطْفٌ على ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، أيْ: هو خالِقُهُم ومُرَكِّبُهُم على النِّظامِ الَّذي تَصْدُرُ عنه الأفعالُ والاعتِقاداتُ؛ فَضميرُ ﴿صُدُورُهُمْ﴾ عائدٌ إلى (ما) مِنْ قولِه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [القصص: ٦٨] باعتِبارِ معناها، أيْ: ما تُكِنُّ صُدورُ المَخْلوقاتِ وما يُعلِنونَ. وحيثُ أُجرِيَتْ عليهِمْ ضَمائرُ العُقلاءِ، فَقَدْ تَعيَّنَ أنَّ المَقصودَ البَشَرُ مِنَ المَخْلوقاتِ، وهمُ المَقصودُ مِنَ العُمومِ في ﴿مَا يَشَآءُ﴾ [القصص: ٦٨]؛ فبِحَسَبِ ما يَعْلَمُ منهم يختارُهم ويُجازيهم؛ فحَصَل بهذا إيماءٌ إلى عِلَّةِ الاخْتِيارِ، وإلى الوَعْدِ والوَعيدِ، وهذا مُنتَهَى الإيجازِ[3].

- وفي إحْضارِ الجلالةِ بعُنوانِ ﴿وَرَبُّكَ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ ممَّا تُكِنُّهُ صُدورُهُمْ: بُغْضَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨] الآيةَ، والمَقصودُ هو قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾، وإنَّما قَدَّمَ عليه ما هو دَليلٌ على أنَّه المُنفَرِدُ بالحُكْمِ مع إدْماجِ صِفاتِ عَظَمَتِه الذَّاتيَّةِ المُقتَضِيةِ افْتِقارَ الكُلِّ إليه؛ ولذلكَ ابتُدِئَتِ الجملةُ بضَميرِ الغائِبِ؛ ليَعودَ إلى المُتحدَّثِ عنه بجَميعِ

(١) يُنظر ما رواه مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما تَقَدَّمَ مِنْ قولِه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨] إلى هُنا، أي: الموصوفُ بتِلْكَ الصِّفاتِ العظيمةِ، والفاعلُ لتلكَ الأفعالِ الجَليلةِ، والمَذكورُ بعُنوانِ ﴿وَرَبُّكَ﴾ هو المُسمَّى الله اسمًا جامِعًا لجَميعِ معاني الكَمالِ[1].

- وأفادَ جَعْلُ اسم ﴿ٱللَّهِ﴾ خبرًا لـ ﴿وَهُوَ﴾ أنَّهُ المُستأثِرُ بالإلهيَّةِ المُختَصُّ بها؛ ولهذا كان ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تَقْريرًا له[2].

- وقولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خبرٌ ثانٍ عن ضَميرِ الجلالةِ، وفي هذا الخبرِ الثَّاني زِيادةُ تَقريرٍ لمَدلولِ الخبرِ الأوَّلِ؛ فإنَّ اسمَ الجلالةِ اختُصَّ بالدَّلالةِ على الإلهِ الحقِّ، إلَّا أنَّ المُشركينَ حرَّفوا أو أثْبَتوا الإلهيَّةَ للأصنام، مع اعترافِهم بأنَّها إلهيَّةٌ دونَ إلهيَّةِ اللهِ تعالى؛ فكان مِن حقِّ النَّظَرِ أن يُعْلَمَ أنْ لَا إلَهَ إلَّا هو؛ فكان هذا إبْطالًا للشِّرْكِ بعدَ إبْطالِه بحِكايةِ تَلاشيه عن أهْلِ مِلَّتِه يومَ القيامةِ بقولِه: ﴿وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾[3] [القصص: ٦٤].

- وأخْبَرَ عن اسْمِ الجَلالةِ خَبرًا ثانيًا بقولِه: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾، وهو اسْتِدلالٌ على انْتِفاءِ إلهيَّةِ غيرِه؛ بحُجَّةِ أنَّ الناسَ مُؤمِنَهُم وكافِرَهُم لا يَحمَدُونَ في الدُّنيا إلَّا اللهَ؛ فلا تَسْمَعُ أحدًا مِنَ المُشركينَ يقولُ: الحَمْدُ للعُزَّى مثلًا؛ فاللَّامُ في ﴿لَهُ﴾ لِلْمِلْكِ، أيْ: لا يَمْلِكُ الحمدَ غيرُه. وتَقْديمُ المَجرورِ (لَهُ)؛ لإفادةِ الاخْتِصاصِ، وهو اخْتِصاصٌ حَقيقيٌّ. وتعريفُ ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ تعريفُ الجنسِ المفيدُ للاسْتِغراقِ، أيْ: لَهُ كلُّ حَمْدٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ إدْماجٌ[١]؛ فإنَّ هذِه الآيةَ أُدْمِجَتْ فيها المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انْفِرادَه سُبحانَه بالحَمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحْمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في وَصْفِ ذاتِه بالانْفِرادِ والحمدِ، وهذِه -وإنْ خَرَجَ الكلامُ فيهما مَخْرَجَ المُبالَغةِ في الظَّاهِرِ- فالأمرُ فيها حَقيقةٌ في الباطنِ؛ لأنَّهُ أَوْلَى بالحمدِ في الدَّارَيْنِ[٢].

- وقولُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ اللَّامُ فيه أيضًا للمِلْكِ، والتَّقديمُ للاخْتِصاصِ أيضًا، وحَذْفُ المُتعلَّقِ بالحُكمِ؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عليه، أيْ: له الحُكْمُ في الدَّارَينِ[٣].

- وأمَّا جملةُ: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فمَسُوقةٌ مَساقَ التَّخصيصِ بَعْدَ التَّعميمِ؛ بَعْدَ أنْ أُثبِتَ للهِ كلُّ حَمدٍ وكلُّ حُكمٍ، أيْ: إنَّكم تَرْجِعونَ إليه في الآخِرةِ فتُمَجِّدُونَه، ويُجري عليكم حُكْمَه، والمَقصودُ بهذا إلْزامُهم بإثْباتِ البَعْثِ[٤].

- وتَقديمُ المجرورِ في ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، وللاهتِمامِ بالانتهاءِ إليه، أي: إلى حُكْمِه[٥].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٢٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٧١-٧٥)

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَرْمَدًا﴾: أي: دائِمًا، وأصلُه مِن (سرد): إذا وَصَلَ -والميمُ فيه زائدةٌ-، فكأنَّه زمانٌ متَّصِلٌ بَعضُه ببَعضٍ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُذكِّرَ النَّاسَ بمظاهرِ قدرتِه، وعظيمِ نعمتِه، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: أخبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم اللَّيلَ دائِمًا مُستمِرًّا بلا نهارٍ، مَنْ إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بنهارٍ تُبصِرونَ فيه؟ أفلا تَسمَعونَ سَماعَ فَهمٍ وقَبولٍ؟! وقُلْ لهم: أخبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم النَّهارَ دائِمًا مستَمِرًّا بلا ليلٍ، مَن إلهٌ غيرُ اللهِ يأتيكم بليلٍ تستَقِرُّونَ فيه وتستريحونَ؟ أفلا تَرَوْنَ ذلك بأبصارِكم فتُوحِّدونَ الله؟!

ومِن رحمةِ اللهِ بكم -أيُّها النَّاسُ- أنْ خلَقَ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ يَتعاقَبانِ على الدَّوامِ؛ لمصالِحِكم، فجعَلَ اللهُ اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِتَسكنوا فيه وتَستريحوا، وجعَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٨).

النَّهارَ مُضيئًا؛ لطلَبِ معايشِكم وأرزاقِكم، ولِتَشكروه على إنعامِه عليكم بهما.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى بعضَ مَشاهِدِ القيامةِ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ فيَقولُ لهم: أين الَّذين كنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَهم شُرَكائي في العبادةِ؟

وأحضَرْنا مِن كلِّ قومٍ نبيَّهم؛ لِيَشهَدَ عليهم بالتَّبليغِ، فقُلْنا لكلِّ أُمَّةٍ كذَّبَت نبيَّها: هاتوا حُجَّتَكم على صِحَّةِ إشراكِكم بالله، فعَلِموا حينَئذٍ أنَّ اللهَ هو المستحِقُّ وحْدَه للعبادةِ، وأنَّ ما جاءت به رُسُلُه صِدْقٌ وحَقٌّ، وغاب عنهم ما كانوا يَفتَرونَه على اللهِ في الدُّنيا مِن أنَّ معه شُرَكاءَ، فلَمْ يَنفعوهم في الآخرةِ بشَيءٍ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: أخْبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم اللَّيلَ دائِمًا مُستَمِرًّا بلا نهارٍ يأتي بعْدَه إلى يومِ القيامةِ[1].

﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾.

أي: مَن مَعبودٌ غيرُ اللهِ يَقدِرُ على أن يأتيَكم بنَهارٍ مُنيرٍ تُبصِرونَ فيه[2]؟

﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٠).

أي: أفلا تَسْمَعونَ ذلك سَماعَ فَهمٍ وقَبولٍ وانقيادٍ، وتتفكَّرونَ فيه فتَتَّعِظونَ، وتَستَدِلُّونَ بذلك على توحيدِ اللهِ واستِحقاقِه للعِبادةِ وَحْدَه[1]؟!

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: أخبِروني إنْ جعَلَ اللهُ عليكم النَّهارَ دائِمًا مُستَمِرًّا بلا لَيلٍ يأتي بعْدَه إلى يومِ القيامةِ[2].

﴿مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾.

أي: مَن مَعبودٌ غيرُ اللهِ يَقدِرُ على أنْ يأتيَكم بلَيلٍ تَستَقِرُّونَ فيه وتَستريحونَ[3]؟

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

أي: أفلا تَرَونَ ذلك بأبصارِكم، فتَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، وأنَّ عِبادةَ مَنْ سِواه ضَلالٌ مُبينٌ[4]؟!

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨).

﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

أي: ومِن رَحمةِ اللهِ بكم -أيُّها النَّاسُ- أنْ خَلَقَ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ مختلِفَينِ بالظُّلمةِ والضِّياءِ، يَتعاقَبانِ على الدَّوامِ لِمَصالحِكم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٣].

﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾.

أي: جعَلَ اللهُ اللَّيلَ مُظلِمًا؛ لِتَسكُنوا فيه، وتَستريحوا مِن تَعَبِ أعمالِكم في النَّهارِ[2].

﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ النَّهارَ مُضيئًا؛ لِطَلَبِ مَعايِشِكم وأرزاقِكم[3].

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ لكم اللَّيلَ والنَّهارَ؛ لِتَشكُروه على إنعامِه عليكم بهما، وتَعبُدوه وَحْدَه فيهما[4].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا هجَّنَ طريقةَ المُشرِكين أوَّلًا، ثُمَّ ذَكَر التَّوحيدَ ودلائِلَه ثانيًا؛ عاد إلى تَهجينِ طريقتِهم مرَّةً أخرى، وشَرَحَ حالَهم في الآخرةِ، فقال[1]:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ، فيقولُ لهم يومَ القيامةِ: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تدَّعُونَ كَذِبًا أنَّهم شُرَكائي في العبادةِ، وأنَّهم يَنفَعونكم ويَنصُرونكم[2]؟

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾.

أي: وأخرَجْنا وأحضَرْنا مِن كلِّ قَومٍ نبيَّهم؛ لِيَشهَدَ على أمَّتِه بالتَّبليغِ وبما أجابَتْه في دَعوتِه إلى الحَقِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٥، ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٦، ٣٤٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالشَّهيدِ هنا: النَّبيُّ أو الرَّسولُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، =

كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

﴿فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾.

أي: فقُلْنا لكلِّ أمَّةٍ كذَّبَت نبيَّها: هاتُوا حُجَّتكم على صِحَّةِ إشراكِكم باللهِ(١).

﴿فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾.

أي: فعَلِموا حينَئذٍ أنَّ اللهَ هو المُستَحِقُّ وَحْدَه للعبادةِ، وأنَّ ما جاءت به رُسُلُه صِدقٌ وحَقٌّ مِن عِندِه(٢).

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

---

= والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، وابن جُزَي، والبِقاعي. يُنظر: المصادر السابقة، و((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومُجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٠٤).

وقال الواحدي: (شهيدُها: رسولُها الَّذي يَشهدُ عليها بالبلاغِ، وبما كان منها؛ في قولِ ابنِ عبَّاسٍ والمفسِّرينَ)). ((البسيط)) (١٧/ ٤٤٥).

وقيل: هم الشُّهداءُ الَّذين يَشهَدون على النَّاسِ في كلِّ زمانٍ، ويَدخُلُ في جُملتِهِمُ الأنبياءُ، قال الرازيُّ: (وهذا أقرَبُ؛ لأنَّه تعالى عَمَّ كلَّ أُمَّةٍ وكلَّ جماعةٍ بأن يَنزِعَ منهم الشَّهيدَ، فيَدخُلُ فيه الأحوالُ الَّتي لم يوجَدْ فيها النَّبيُّ، وهي أزمنةُ الفَتراتِ، والأزمنةُ الَّتي حصلَتْ بعدَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّمَ). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣).

وقيل: المرادُ بالشُّهَداءِ هنا: رُؤساءُ مُنتخَبونَ مِن رُؤساءِ المكَذِّبينَ يَتصَدَّونَ للمُجادَلةِ نيابةً عن إخوانِهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: السعديُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢).

أي: وغاب عن المُشرِكينَ واضمَحَلَّ ما كانوا يَختَلِقونَه على اللهِ في الدُّنيا مِن أنَّ معه شُرَكاءَ، فلَمْ يَنفَعوهم في الآخِرةِ بشَيءٍ[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ إلى قَولِه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تَنبيهٌ إلى أنَّ العَبدَ ينبغي له أنْ يَتدبَّرَ نِعَمَ اللهِ عليه، ويَستبصِرَ فيها، ويَقيسَها بحالِ عَدَمِها؛ فإنَّه إذا وازَنَ بيْنَ حالةِ وُجودِها وبينَ حالةِ عَدَمِها، تَنَبَّه عَقلُه لِمَوضعِ المِنَّةِ، بخِلافِ مَن جرى مع العوائِدِ، ورأى أنَّ هذا أمرٌ لم يَزَلْ مُستمِرًّا ولا يزالُ، وعَمِيَ قلْبُه عن الثَّناءِ على اللهِ بنِعَمِه، ورُؤْيةِ افتِقارِه إليها في كلِّ وقتٍ؛ فإنَّ هذا لا يُحْدِثُ له فِكرةَ شُكرٍ ولا ذِكْرٍ[٢].

٢- الحَثُّ على التَّبَصُّرِ في آياتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ لِقَولِه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأنَّ هذا يُفيدُ حَثَّ الإنسانِ أن يتبَصَّرَ فيما جعَلَه اللهُ عزَّ وجَلَّ في هذه الآياتِ؛ حتَّى يَستَدِلَّ بها على كَمالِ قُدرةِ الخالِقِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا ...﴾ هو مِن أبدَعِ الاستِدلالِ؛ حيثُ اختيرَ للاستِدلالِ على وحدانيَّةِ اللهِ هذا الصُّنعُ العَجيبُ المتكرِّرُ كلَّ يومٍ مرَّتينِ، والَّذي يَستوي في إدراكِه كلُّ مميِّزٍ، والَّذي هو أجلَى مَظاهِرِ التَّغَيُّرِ في هذا العالَمِ؛ فهو دَليلُ الحُدوثِ، وهو ممَّا يَدخُلُ في التَّكيُّفِ به جميعُ الموجوداتِ في هذا العالَمِ حتَّى الأصنامُ؛ فهي تُظْلِمُ وتَسْوَدُّ أجسامُها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٢٢).

بظَلامِ اللَّيلِ، وتُشْرِقُ وتُضيءُ بضياءِ النَّهارِ، وكان الاستِدلالُ بتعاقُبِ الضِّياءِ والظُّلمةِ على النَّاسِ أقوى وأوضَحَ مِنَ الاستِدلالِ بتَكوينِ أحدِهما لو كان دائِمًا؛ لأنَّ قُدرةَ خالقِ الضِّدَّينِ، وجاعلِ أحدِهما يَنْسَخُ الآخَرَ كلَّ يوم: أظهَرُ منها لو لم يَخلُقْ إلَّا أقواهما وأنفعَهما، ولأنَّ النِّعمةَ بتَعاقُبِهما دومًا أشدُّ مِن الإنعامِ بأفضَلِهما وأنفَعِهما؛ لأنَّه لو كان دائمًا لكان مَسؤومًا[1]، ولحَصَلتْ منه طائِفةٌ مِن المنافِعِ وفُقِدَت مَنافِعُ ضِدِّهِ؛ فالتَّنَقُّلُ في النِّعَمِ مَرغوبٌ فيه، ولو كان تنَقُّلًا إلى ما هو دُونٌ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ أنَّه لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يُغَيِّرَ سُنَّةَ اللهِ في الكَونِ، فلو جَعَله سَرْمَدًا ما استطاع أحدٌ أنْ يُزيلَه[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ بيانُ نِعمةِ اللهِ على العبادِ بضياءِ النَّهارِ، فكم تَستَهلِكُ الأُمَّةُ مِن طاقةٍ في إضاءةِ اللَّيلِ الَّذي لا يكونُ مثلَ إضاءةِ النَّهارِ؟ وبهذا نَعرِفُ قدْرَ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بهذا الضِّياءِ الَّذي يَصِلُ إلى النَّاسِ بكَمِّيَّاتٍ كبيرةٍ[4].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ أنَّ نَومَ اللَّيلِ أفيَدُ للجِسمِ مِن نَومِ النَّهارِ؛ حيثُ جَعَلَ اللهُ اللَّيلَ محَلَّ سَكَنٍ ووَقْتَه، وهذا أمرٌ مُشاهَدٌ[5].

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وقَولُه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ إنَّما قاله؛ لأنَّ

---

(١) أي: مُمَلًّا، يقالُ: سَئِم مِن الشَّيءِ، أي: مَلَّهُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لأبي عبد الله الرازي (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٢).

الغرَضَ مِن ذلك الانتِفاعُ بما يَسمَعونَ ويُبصِرونَ مِن جِهةِ التَّدَبُّرِ، فلمَّا لم يَنتَفِعوا نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن لا يَسمَعُ ولا يُبصِرُ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّه وإنْ كان السُّكونُ في النَّهارِ مُمكِنًا، وابتغاءُ فَضلِ اللهِ باللَّيلِ مُمكِنًا، فإنَّ الألْيَقَ بكلٍّ واحدٍ منهما ما ذَكَرَه اللهُ تعالى به؛ فلِهذا خَصَّه به[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ اللَّيلَ للسَّكَنِ، والنَّهارَ لطَلَبِ المعاشِ؛ فقَولُه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ في اللَّيلِ، وقَولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ في النَّهارِ، وتتفَرَّعُ على هذه المسألةِ فائِدةٌ في القِسمةِ بيْنَ الزَّوجَتَينِ: إذا كانت للإنسانِ زَوجتانِ، وأراد أنْ يَقْسِمَ بيْنَهما؛ فإنَّ مدارَ القَسْمِ على اللَّيلِ لِمَن معاشُه في النَّهارِ، والنَّهارِ لِمَن معاشُه في اللَّيلِ، فإذا أَشْكَلَ علينا الأمرُ فالعِمادُ هو اللَّيلُ؛ لأنَّه محَلُّ السَّكَنِ[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ؛ حيثُ قال: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾ أي: لِتَطلُبوا؛ فالرِّزقُ لا يأتي مِن السَّماءِ ويَنزِلُ، بل لا بُدَّ فيه مِن طَلَبٍ، وإذا لم تفعَلْ هذا السَّبَبَ الذي تحصُلُ به على الرِّزقِ، لم يَحصُلِ الرِّزقُ؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى حكيمٌ رَبَطَ الأسبابَ بمُسَبَّباتِها[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ الرِّزقَ هو مِن اللهِ عزَّ وجلَّ وفَضْلِه وعَطائِه؛ فليس حاصِلًا بمجَرَّدِ كَدِّ الإنسانِ وكَدْحِه؛ فكم مِن إنسانٍ يَكُدُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٩).

ويَكدَحُ، ومع ذلك يكونُ رِزقُه ضَيِّقًا! وكم مِن إنسانٍ يَفْعَلُ أسبابًا أقَلَّ ممَّا فَعَله الأوَّلُ، ثمَّ يُوَسَّعُ له في الرِّزقِ[1]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ انتقالٌ مِن الاستِدلالِ على انفِرادِه تعالَى بالإلهيَّةِ بصِفاتِ ذاتِه، إلى الاستِدلالِ على ذلكَ ببَديعِ مَصْنوعاتِه، وفي ضِمْنِ هذا الاستِدلالِ إدماجُ الامْتِنانِ على النَّاسِ، وللتَّعريضِ بكُفرِ المُشركينَ جَلائلَ نِعَمِه. وسِيقَ إليهم هذا الاستِدلالُ بأُسلوبِ تَلقينِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَقولَه لهم؛ اهتمامًا بهذا التَّذكيرِ لهذا الاستِدلالِ، ولاشْتِمالِه على ضِدَّينِ مُتعاقِبَيْنِ، حتَّى لو كانتْ عُقولُهم قاصِرةً عن إدراكِ دَلالةِ أحَدِ الضِّدَّينِ لَكانَ في الضِّدِّ الآخرِ تَنْبيهٌ لهم، ولو قَصَّرُوا عن حِكمةِ كُلِّ واحدٍ منهما كان في تعاقُبِهما ما يَكْفي للاستدلالِ. وجِيءَ في الشَّرطَينِ بحرفِ (إن)؛ لأنَّ الشَّرطَ مَفْروضٌ فرضًا مُخالفًا للواقعِ، وعُلِمَ أنَّه قَصَد الاستِدلالَ بعِبْرةِ خَلْقِ النُّورِ؛ فلِذلكَ فُرِضَ استِمرارُ اللَّيلِ، والمقصودُ ما بَعْدَه، وهو قولُه: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾[2].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ تَقريريٌّ، والاستِفهامُ في ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ إنكاريٌّ، وهم مُعتَرِفونَ بهذا الانتفاءِ، وأنَّ خالِقَ اللَّيلِ والنَّهارِ هو اللهُ تعالى لا غيرُه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨، ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٦٩).

- قولُه: ﴿يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ﴾ صِفةٌ أُخرى لـ﴿إِلَٰهٌ﴾، عليها يَدورُ أمْرُ التَّبْكيتِ والإلزامِ؛ كما في قولِه تعالَى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١]، وقولِه تعالَى: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] ونَظائرِهما، غَيرَ أنَّه قُصِدَ بيانُ انتِفاءِ المَوصوفِ بانتِفاءِ الصِّفةِ، ولم يُقَلْ: (هل إلَهٌ... إلخ)؛ لإيرادِ التَّبكيتِ والإلزامِ على زَعْمِهم[١].

- قولُه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

- قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ كرَّرَ الأمرَ بالقَولِ في مَقامِ التَّقريرِ؛ لأنَّ التَّقريرَ يُناسِبُه التَّكريرُ، مِثْلَ مَقامِ التَّوبيخِ ومَقامِ التَّهويلِ[٣].

- ووَصْفُ اللَّيلِ بـ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ إدماجٌ[٤] للمِنَّةِ في أثناءِ الاستِدلالِ؛ للتَّذكيرِ بالنِّعْمةِ المُشتَمِلةِ على نِعَمٍ كثيرةٍ، وتلكَ هي نِعمةُ السُّكونِ فيه؛ فإنَّها تَشْملُ لَذَّةَ الرَّاحةِ، ولَذَّةَ الخَلاصِ مِن الحَرِّ، ولَذَّةَ استعادةِ نشاطِ المَجموعِ العَصبيِّ الَّذي به التَّفكيرُ والعملُ، ولَذَّةَ الأمنِ مِن العدوِّ. ولم يُوصَفِ الضِّياءُ بشَيءٍ؛ لكثرةِ مَنافعِه، واختِلافِ أنواعِها[٥]، فلمْ يَقُلْ: (بنَهارٍ تَتَصَرَّفونَ فيه)، كما قيلَ: ﴿بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾، بل ذَكَرَ الضياءَ -وهو ضَوْءُ الشَّمسِ-؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

(٤) تقدم تعريفه: (ص: ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

لأنَّ المنافعَ الَّتي تَتَعَلَّقُ به مُتكاثِرةٌ، ليس التَّصرُّفُ في المَعاشِ وَحْدَه، والظَّلامُ ليس بتلكَ المنزلَةِ، ومِن ثَمَّةَ قَرَنَ بالضِّياءِ ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ لأنَّ السَّمعَ يُدرِكُ ما لا يُدْرِكُه البصرُ مِنْ ذِكْرِ مَنافِعِه، ووَصْفِ فوائدِه، وقَرَنَ باللَّيلِ ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لأنَّ غيرَكَ يُبْصِرُ مِن مَنفعةِ الظلامِ ما تُبْصِرُه أنتَ مِنَ السُّكونِ ونحوِه[١].

- وعَبَّرَ بالضِّياءِ دونَ النهارِ؛ لأنَّ ظُلمةَ اللَّيلِ قد تَخِفُّ قليلًا بنورِ القَمرِ؛ فكانَ ذِكْرُ الضِّياءِ إيماءً إلى ذلك[٢].

- وفيه احتِباكٌ[٣]؛ حيثُ ذَكَرَ الضِّياءَ أوَّلًا دليلًا على حذفِ الظَّلامِ ثانيًا؛ واللَّيْلَ والسُّكونَ ثانيًا دليلًا على حذفِ النهارِ والانتشارِ أوَّلًا[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خَتَمَ آيةَ اللَّيلِ بقولِه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، وآيةَ النَّهارِ بقولِه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لمُناسَبةِ اللَّيلِ المُظْلِمِ السَّاكنِ للسَّماعِ، ومُناسَبَةِ النهارِ النَّيِّرِ للإبصارِ[٥].

- وقُدِّمَ اللَّيلُ على النَّهارِ؛ ليَسْتَريحَ الإنسانُ فيه، فيَقومَ إلى تَحصيلِ ما هو مُضطَرٌّ إليه مِن عبادةٍ وغيرِها بنَشاطٍ وخِفَّةٍ، ألَا تَرَى أنَّ الجنةَ نهارُها دائمٌ؛ إذْ لا تَعَبَ فيها يحتاجُ إلى لَيْلٍ يَستريحُ أهلُها فيه[٦]؟ ولأنَّ ذَهابَ اللَّيلِ بطُلوعِ الشَّمسِ أكثرُ فائِدةً مِن ذَهابِ النَّهارِ بدُخولِ اللَّيلِ[٧]، ولأنَّ تَقديمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٢٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٦).

اللَّيلِ على النَّهارِ جارٍ على ما بَنَتِ العَرَبُ عليه حِسابَ شُهورِها مِن تقديمِ اللَّيلِ، وجَعْلِ النَّهارِ تابِعًا له، ولم يَرِدْ في كتابِ اللهِ تعالى على كثرةِ تَردادِه إلَّا ذلك[١]، ولأنَّ آيةَ اللَّيلِ عَدَميَّةٌ، وهي أسبَقُ[٢].

- وفي تَعْدِيةِ فِعْلِ ﴿يَأْتِيكُم﴾ في المَوضعَيْنِ إلى ضميرِ المُخاطَبينَ؛ إيماءٌ إلى أنَّ إيجادَ الضِّياءِ وإيجادَ اللَّيلِ نِعمةٌ على النَّاسِ، وهذا إدماجٌ للامتنانِ في أثناءِ الاستدلالِ على الانْفِرادِ بالإلهيَّةِ، وإذْ قد استَمَرَّ المُشركونَ على عِبادةِ الأصنامِ بعدَ سُطُوعِ هذا الدَّليلِ، وقد عَلِموا أنَّ الأصنامَ لا تَقْدِرُ على إيجادِ الضِّياءِ؛ جُعِلُوا كأنَّهم لا يَسْمَعُونَ هذه الآياتِ الَّتي أقامتِ الحُجَّةَ الواضحةَ على فَسادِ مُعتَقَدِهم، ففُرِّعَ على تلكَ الحُجَّةِ الاستفهامُ الإنكاريُّ عن انتفاءِ سَماعِهم بقولِه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾، أي: أفلا تَسْمَعُونَ الكلامَ المُشتَمِلَ على التَّذكيرِ بأنَّ اللهَ هو خالِقُ اللَّيلِ والضِّياءِ، ومِنه هذه الآيةُ، وليس قولُه: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ تَذْييلًا[٣].

- وتَفَرَّعَ على هذا الاستدلالِ أيضًا تَنْزيلُهم مَنزِلةَ مَن لا يُبْصرونَ الأشياءَ الدَّالَّةَ على عظيمِ صُنْعِ اللهِ وتفرُّدِه بصُنْعِها، وهي منهم بمَرأَى الأعيُنِ، وناسَبَ السَّمعَ دَليلُ فَرْضِ سَرْمَدَةِ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ لو كانَ دائمًا لم تكُنْ للنَّاسِ رُؤيةٌ؛ فإنَّ رُؤيةَ الأشياءِ مَشْروطةٌ بانتشارِ شَيءٍ مِن النورِ على سَطْحِ الجسمِ المَرئيِّ؛ فالظُّلْمةُ الخالصةُ لا تُرى فيها المَرْئيَّاتُ؛ ولذلكَ جِيءَ في جانِبِ فَرْضِ دَوامِ اللَّيلِ بالإنكارِ على عدَمِ سَماعِهم، وجِيءَ في جانِبِ فَرْضِ دوامِ النَّهارِ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠).

بالإنكارِ على عدَمِ إبصارِهم، وليس قولُه: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تَذْييلًا[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تَصريحٌ بنِعمةِ تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ على النَّاسِ بقولِه: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، وذلكَ ممَّا دلَّتْ عليه الآيةُ السَّابقةُ بطريقِ الإدماجِ بقولِه: ﴿يَأْتِيكُم﴾، وبقولِه: ﴿تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (مِنْ) هنا للسَّببِ، أي: وبسببِ رحمتِه إيَّاكُم جَعَل لكمُ اللَّيلَ والنَّهارَ، ثمَّ علَّلَ جَعْلَ كلٍّ واحدٍ منهُما؛ فبَدَأَ بعلَّةِ الأوَّلِ، وهو اللَّيلُ، وهو ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾، ثمَّ بعلَّةِ الثَّاني وهو: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾، ثمَّ بما يُشْبِهُ العلَّةَ لِجَعْلِ هذَينِ الشَّيئينِ وهو: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، أي: هذه الرَّحمةَ والنِّعمةَ، وهذا النَّوعُ مِن عِلْمِ البديعِ يُسمَّى التَّفسيرَ، وهو أنْ تَذْكُرَ أشياءَ ثم تُفسِّرَها بما يُناسِبُها[٣].

- وقدَّمَ المَجرورَ (مِنْ رَحْمَتِهِ) على عامِلِه ﴿جَعَلَ﴾؛ للاهتِمامِ بمِنَّةِ الرحمةِ[٤].

- والضَّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ عائدٌ على اللَّيلِ، وفي ﴿فَضْلِهِۦ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ عائدًا على اللهِ، والتَّقديرُ: مِنْ فَضْلِه، أي: مِن فَضْلِ اللهِ فيه، أي: في النهارِ، وحُذِف لِدَلالةِ المَعنى، ولدَلالةِ لفظِ ﴿فِيهِ﴾ السَّابقِ عليه. ويَحتَمِلُ أن يَعودَ على النَّهارِ، أي: مِن فَضْلِ النهارِ، ويكونَ أضافَه إلى ضَميرِ النَّهارِ لَمَّا كانَ الفضلُ حاصلًا فيه أُضيفَ إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢١، ٣٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٢).

- وسَلَك في قولِه: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ طريقةَ اللَّفِّ والنَّشْرِ المرَتَّبِ[١]؛ فإنَّ قولَه: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ يَعودُ إلى ﴿ٱلَّيْلَ﴾، ويَعودُ قولُه: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إلى (النَّهارِ)، والتَّقديرُ: ولِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِه فيه؛ فحُذِفَ الضَّميرُ وجارُه إيجازًا؛ اعتمادًا على المُقابَلةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ الابتغاءُ مِن فَضْلِ اللهِ كنايةٌ عنِ العملِ والطَّلبِ

---

(١) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرُ أشياءُ على عدَد ذلك، كلُّ واحدٍ يَرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفَوَّضُ إلى عقلِ السَّامِعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به.
فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحِقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دُونَ تعيينٍ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.
واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلِّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كما في قولِه تعالى هنا: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.
وغيرُ المرتَّب -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس»-: هو أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعْدَها نَشْرٌ غيرُ مُرتَّب؛ فجُملةُ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى ومتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ ومتعلِّقةٌ بها.
يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧٠).

لتحصيلِ الرِّزْقِ؛ قال تعالَى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[1] [المزمل: ٢٠].

- قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ عُطِفَ على العِلَّتَينِ رجاءُ شُكْرِهم على هاتينِ النِّعمتينِ اللَّتين هُما مِن جملةِ رحمتِه بالناسِ؛ فالشأنُ أنْ يَتَذَكَّروا بذلكَ مَظاهرَ الرَّحمةِ الرَّبَّانيَّةِ، وجلائلَ النِّعَمِ، فيَشكُروه بإفرادِه بالعبادةِ، وهذا تعريضٌ بأنَّهم كَفَروا فلمْ يَشْكُروا[2].

- وفي هذه الآيةِ ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ما يُعرَفُ بصِحَّةِ المُقابَلاتِ[3]، حيثُ جاءَ اللَّيلُ والنَّهارُ في صَدْرِ الكلامِ، وهما ضِدَّانِ، وجاء السُّكونُ والحركةُ في عَجُزِه، وهما ضِدَّانِ، ومُقابَلةُ كلِّ طَرَفٍ منه بالطَّرَفِ الآخَرِ على التَّرتيبِ، وعَبَّرَ سُبحانَه عن الحركةِ بلفظِ الإردافِ[4]؛ فاسْتَلْزَمَ الكلامُ ضَرْبًا مِن المَحاسِنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧٢).

(٣) صِحَّة المُقابلاتِ: عِبارةٌ عن توخِّي المتكلِّمِ ترتيبَ الكلامِ على ما يَنبغي، فإذا أَتَى بأشياءَ في صَدْرِ كلامِه قابَلَها في عَجُزِه بأَضْدادِها أو بأَغْيارِها مِن المُخالِفِ والمُوافِقِ على التَّرتيبِ؛ بحيثُ يُقابَلُ الأوَّلُ بالأوَّلِ، والثَّاني بالثَّاني، ولا يَخْرِمُ مِن ذلك شيئًا في المُخالِفِ والمُوافِقِ، ومتى أَخَلَّ بالتَّرتيبِ كان الكلامُ فاسِدَ المُقابَلةِ، وهذه الآيةُ مِن مُعجِزِ هذا البابِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٧٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧٠).

(٤) الإرداف: هو أنْ يُريدَ المُتكلِّمُ معنًى، فلا يُعبِّرُ عنه بلَفظِه الموضوعِ له، ولا بلفظِ الإشارةِ الدَّالِّ على المعاني الكثيرةِ، بلْ بلَفظٍ هو رِدفُ المعْنى الخاصِّ وتابِعُه، قَريبٍ مِن لَفظِ المعْنى الخاصِّ قُرْبَ الرَّديفِ مِن الرِّدفِ. ومثالُه قولُه تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ مِنَ الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وحقيقةُ ذلك: وهلَكَ مَن قضَى اللهُ هلاكَه، ونجا مَن قضى نجاتَه، وإنَّما عُدِل عن هذه =

زائدًا على المُقابَلةِ، والَّذي أَوْجَب العُدولَ عن لفظِ الحركةِ إلى لفظِ ابتغاءِ الفضلِ: كَوْنُ الحركةِ تكونُ لِمَصلحةٍ ولِمَفْسَدةٍ، وابتغاءُ الفضلِ حَركةٌ للمَصلحةِ دونَ المَفْسدةِ، والآيةُ سِيقَتْ للاعتدادِ بالنِّعَمِ؛ فوَجَب العُدولُ عن لَفظِ الحركةِ إلى لفظٍ هو رِدْفُه وتابعُه؛ لِيَتمَّ حُسْنُ البيانِ، فتَضَمَّنَتْ هذه الكلماتُ -الَّتي هي بَعْضُ آيةٍ- عِدَّةً مِن المنافعِ والمصالحِ، الَّتي لو عُدِّدَتْ بألفاظِها المَوضوعةِ لها لاحْتاجَتْ في العبارةِ عنها إلى ألفاظٍ كثيرةٍ؛ فحَصَل بهذا الكلامِ بهذا السَّببِ عِدَّةُ ضُروبٍ مِن المَحاسِنِ؛ فقد جَعَل سُبحانَه العِلَّةَ في وُجودِ اللَّيلِ والنَّهارِ حُصولَ مَنافعِ الإنسانِ، حيث قال: ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾ و(لِتَبْتَغُوا) بلامِ التَّعليلِ؛ فجَمَعَتْ هذه الكَلِماتُ المُقابَلةَ والتَّعليلَ، والإشارةَ والإردافَ، والائْتِلافَ[1] وحُسْنَ النَّسَقِ[2] .....

---

= الحقيقةِ إلى لفظِ الإردافِ مِن الإيجازِ، والتَّنبيهِ على أنَّ هلاكَ الهالكِ ونجاةَ النَّاجي كان بأمرِ آمرٍ مُطاعٍ، وقضاءِ مَن لا يُرَدَّ قضاؤُه، والأمرُ يَستلزِمُ آمرًا، وقضاؤُه يدُلُّ على قدرةِ الآمرِ به، وطاعةُ المأمورِ تدُلُّ على قدرةِ الآمرِ وقَهرِه، وأنَّ الخَوفَ مِن عِقابِه ورجاءَ ثَوابِه يَحُضَّانِ على طاعةِ الآمرِ، ولا يَحصُلُ ذلك كلُّه مِنَ اللَّفظِ الخاصِّ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٠٧)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٠٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٦٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٨٠).

(١) الائتلاف: هو أن يكونَ اللَّفظُ مع اللَّفظِ المُجاوِرِ له في الكلامِ مؤتلِفَينِ، وهذا يَلزَمُ منه أن تكونَ الألفاظُ في الكلامِ مُتآلِفةً يُلائمُ بعضُها بعضًا، بحيثُ تكونُ كلُّ لفظةٍ لا يَصلُحُ مكانَها غيرُها. يُنظر: ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٥٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٢٠).

(٢) حُسْنُ النَّسَقِ: هو عبارةٌ عن أن يأتيَ المتكلِّمُ بالكلماتِ مِن النَّثرِ والأبياتِ مِن الشِّعرِ مُتتاليات مُتلاحماتٍ تلاحُمًا سليمًا مُستحسَنًا، لا مَعيبًا مُستهجَنًا، وأن تكونَ كلُّ واحدةٍ منها قابلةً لأنْ تَستقِلَّ بنفْسِها لو أُفرِدَتْ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٢٥)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٦٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٦٢).

وحُسْنَ البيانِ[١]؛ لمَجيءِ الكلامِ فيها مُتلاحِمًا، آخِذَةً أعناقُ بعضِه بأعناقِ بعضِه، ثمَّ أخْبَرَ بالخبَرِ الصَّادقِ أنَّ جميعَ ما عدَّدَه مِن النِّعَمِ الَّتي هي مِن لَفْظَي الإشارةِ والإردافِ بعضُ رحمتِه؛ حيثُ قال بحرفِ التبْعيضِ: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، وكلُّ هذا في بَعضِ آيةٍ عِدَّتُها إحْدَى عَشْرةَ لفظةً، فالْحَظْ هذه البلاغةَ الظَّاهرةَ، والفصاحةَ المُتظاهِرةَ[٢]!

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تَقْريعٌ بعدَ تَقْريعٍ، وَسَلَكَتْ هذه الآيةُ طَريقةَ اللَّفِّ في تَكريرِ التَّوبيخِ باتِّخاذِ الشُّركاءِ؛ للإشعارِ والإيذانِ بأنَّه لا شَيءَ أَجْلَبُ لغضَبِ اللهِ مِن الإشراكِ به، كما لا شَيءَ أَدْخَلُ في مَرْضاتِه مِن توحيدِه سُبحانَه. أو الأوَّلُ لتقريرِ فَسادِ رأيِهم، والثَّاني لبيانِ أنَّه لم يَكُنْ عن سَنَدٍ، وإنَّما كان مَحضَ تَشَهٍّ وهوًى[٣]. أو كُرِّرَ هنا على جهةِ الإبلاغِ والتَّأكيدِ[٤]. وقيل: كُرِّرَتْ جُملةُ (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) مرَّةً ثانيةً؛ لأنَّ التَّكريرَ مِن مُقتضياتِ مَقامِ التَّوبيخِ؛ فلذلكَ لم يقُلْ: (ويومَ نَنْزِعُ مِنْ كلِّ أُمَّةٍ شهيدًا)، فأُعيدَ ذِكْرُ أنَّ اللهَ يُناديهم بهذا الاستفهامِ التَّقريعيِّ، ويَنْزِعُ مِن كلِّ أمَّةٍ

---

(١) حُسْنُ البيانِ: حقيقتُه: إخراجُ المعنى في أحسَنِ الصُّورِ الموضحةِ له، وإيصالُه إلى فَهْمِ المُخاطَبِ بأقرَبِ الطُّرقِ وأسهلِها، وقد تأتي العبارةُ عنه مِن طريقِ الإيجازِ، وقد تأتي مِن طريقِ الإطنابِ؛ بحسَبِ ما تقتضيه الحالُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٨٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ١٢٩، ١٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٢).

شهيدًا، فظاهرُ الآيةِ أنَّ ذلكَ النِّداءَ يُكرَّرُ يومَ القيامةِ. ويَحتَمِلُ أنَّه إنَّما كُرِّرَتْ حِكايتُه، وأنَّه نِداءٌ واحدٌ يقَعُ عقِبَه جوابُ الَّذينَ حَقَّ عليهم القولُ مِن مُشركي العربِ، ويَقَعُ نَزْعُ شهيدٍ مِن كلِّ أمةٍ عليهم؛ فهو شاملٌ لمُشركي العربِ وغيرِهم مِن الأُممِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

- جِيءَ بفعلِ المُضِيِّ في (نَزَعْنَا)؛ إمَّا للدَّلالةِ على تَحقيقِ وُقوعِه، حتَّى كأنَّه قد وَقَعَ، وإمَّا لأنَّ الواوَ للحالِ، فهو حالٌ مِن فاعِلِه بإضمارِ (قد)[٢].

- والالْتِفاتُ إلى نونِ العظَمةِ في قولِه: ﴿وَنَزَعْنَا﴾؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتِناءِ بشأنِ النَّزعِ وتَهْويلِه[٣]، أو لإظهارِ عَظَمةِ التَّكلُّمِ[٤].

- وعُطِفَ ﴿فَقُلْنَا﴾ على ﴿وَنَزَعْنَا﴾؛ لأنَّه المَقْصودُ[٥].

- قولُه: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ الأمرُ مُستَعْمَلٌ في التَّعجيزِ؛ فهو يَقتضي أنَّهم على الباطلِ فيما زَعَمُوه مِن الشُّركاءِ[٦].

- قوله: ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ ﴿عَنْهُم﴾ مُتعلِّقٌ بفعلِ (ضَلَّ)، والمرادُ: ضَلَّ عن عقولِهم وعن مقامِهم، وعُلِّقَ بالضَّلالِ ضميرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧٣).

ذواتِهم؛ ليَشْمَلَ ضَلالَ الأمْرَينِ، فيُفيدَ أنَّهم لم يَجِدُوا حُجَّةً يُرَوِّجُونَ بها زَعْمَهم إلهيَّةَ الأصنامِ، ولم يَجِدوا الأصنامَ حاضرةً للشَّفاعةِ فيهم، فوَجَموا عن الجوابِ، وأيْقَنُوا بالمُؤاخَذةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٣).

## الآيات (٧٦-٧٨)

﴿ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَبَغَىٰ﴾: أي: تكبَّرَ، وتجاوَزَ حَدَّه، وأصلُه: يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الفَسادِ[1].

﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ﴾: أي: تُثقِلُهم وتُميلُهم بثِقْلِها، يُقالُ: ناءَ به الحِملُ: إذا أثقَلَه حتَّى أمالَه. والعُصبةُ: الجماعةُ الكَثيرةُ، وقيل: هم مِن الرِّجالِ عَشَرةٌ. وأصلُ (نوء): يدُلُّ على نُهوضٍ بثِقلٍ، وأصلُ (عصب): يدُلُّ على رَبطِ شَيءٍ بشَيءٍ، فسُمِّيَتْ العصبةُ بذلك؛ لأنَّها قد عُصِبَتْ، أي: كأنَّها رُبِطَ بعضُها ببعضٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا قصَّةَ قارونَ: إنَّ قارونَ كان مِن قَومِ موسى الإسرائيليِّينَ، فتكبَّر على قَومِه واحتقَرَهم بسبَبِ غِناه، وقد آتاه اللهُ أموالًا كثيرةً مُدَّخَرةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (١/ ١٧٦، ٢٩٠) و (٣/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((أمالي القالي)) (٢/ ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣٦) و(٥/ ٣٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٠).

لا يَستطيعُ حَمْلَ مفاتيحِها الجَماعةُ الأشِدَّاءُ مِن الرِّجالِ؛ فهي تُميلُهم بثِقْلِها، إذ قال له قَومُه: لا تفرَحْ وتَبطَرْ؛ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحينَ البَطِرينَ، واطلُبْ ثوابَ الآخرةِ فيما آتاك اللهُ إيَّاه، فاستَعمِلْه في طاعةِ اللهِ، وأنفِقْ منه في الخَيرِ، ولا تترُكْ حظَّك مِن الدُّنيا أن تعمَلَ فيها لآخِرتِك، وأحسِنْ في عبادةِ اللهِ وإلى خَلْقِ اللهِ، كما أحسَنَ اللهُ إليك، ولا تطلُبِ الفَسادَ في الأرضِ بَغيًا وتكَبُّرًا؛ إنَّ اللهَ لا يحِبُّ المفسِدينَ.

قال قارونُ: إنَّما أُوتِيتُ هذه الكُنوزَ؛ لأنِّي أهلٌ لذلك! أوَلَمْ يعلَمْ أنَّ اللهَ قد أهلك مِن قَبْلِه مِن الأُمَمِ الماضيةِ مَن كان أقوى منه وأكثَرَ جَمعًا للأموالِ؟! ولا يُسألُ المُجرِمونَ عن ذُنوبِهم، بل يُعاقِبُهم اللهُ تعالى عليها؛ لِعلمِه بها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعْدَ أنْ ذكَر سبحانَه حديثَ أهلِ الضَّلالةِ وما يَلْقَونَه مِن الإهانةِ والاحتقارِ يومَ القيامةِ، ومُناداتَهم على رؤوسِ الأشهادِ بما يَفضَحُهم، ويُبيِّنُ لهم سوءَ مَغَبَّتِهم؛ أعْقَبه بقصصِ قارونَ، لِيُبيِّنَ عاقبةَ أهلِ البغْيِ والجبروتِ في الدُّنيا والآخرةِ[1].

وأيضًا لهذه القصَّةِ اتِّصالٌ بانتهاءِ قِصَّةِ جُندِ فِرعونَ المنتهيةِ عندَ قولِه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ الآيةَ[2] [القصص: ٤٦].

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٤).

أي: إنَّ قارونَ كان مِن بني إسرائيلَ مِن عَشيرةِ موسى، فتكبَّرَ على قَومِه، وتَجاوَزَ الحدَّ في احتِقارِهم؛ بسَبَبِ غِناه[١].

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَرَ بَغْيَه؛ ذَكَرَ سببَه الحقيقيَّ، فقال[٢]:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾.

أي: وآتَيْنا قارونَ أموالًا كثيرةً مُدَّخَرةً يُثقِلُ حَمْلُ مَفاتيحِها الجَماعةَ الأشِدَّاءَ مِن الرِّجالِ، وتُميلُهم بثِقْلِها؛ لِكَثرتِها[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٠٩، ٣١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٦).

قال الرَّسْعَنيُّ: (اختلَفوا في قَرابتِه مِن موسى؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ وقَتادةُ ومُقاتلٌ وأكثَرُ المفسِّرينَ: كان ابنَ عمِّ موسى). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٦٥).

وقال ابن كثير: (وهكذا قال إبراهيمُ النَّخَعيُّ، وعبدُ اللهِ بنُ الحارثِ بنِ نَوْفَلٍ، وسِماكُ بنُ حربٍ، وقَتادةُ، ومالكُ بنُ دينارٍ، وابنُ جُرَيْجٍ، وغيرُهم: أنَّه كان ابنَ عمِّ موسَى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣١٢ - ٣١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٦، ١٧٧).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المفاتحَ هنا: جمعُ مِفتاحٍ، وهي الأداةُ الَّتي يُفتحُ بها: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والألوسي، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ﴾.

أي: إذ[1] قال له قَومُه ناصِحينَ: لا تَفرَحْ بهذه الدُّنيا وتَبطَرْ بما أُوتيتَ فيها مِن الكُنوزِ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾.

---

= (١٨/ ٣١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٦، ١٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: خَيْثَمةُ، ومُجاهدٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٢).

وذهب مقاتلُ بنُ سليمانَ، والفَرَّاءُ، والزجَّاجُ، والواحِديُّ -ونَسَبه للأكثرينَ- إلى أنَّ المَفاتحَ هي خزائنُ الأموالِ نَفْسُها، لا ما تُفتحُ به. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٥)، ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٣١٠)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٤/ ١٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو صالحٍ، والضَّحَّاكُ، وأبو رَزِينٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣١٣)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٠٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الكنوزُ إمَّا أن يكونَ هو كَنَزَها، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤]، وإمَّا أن يكونَ اطَّلَع على كنائِزَ مدفونةٍ، وهو الرِّكازُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٩/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(١) قال أبو حيان: (قال الحوفي: النَّاصِبُ له محذوفٌ، تقديرُه: «اذكُرْ»... ويظهَرُ أن يكونَ تقديرُه: فأظهَرَ التَّفاخُرَ والفَرَحَ بما أُوتيَ من الكنوزِ إذ قال له قَومُه: لا تَفرَحْ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٥).

وقال ابنُ عاشور: (﴿إِذْ﴾ ظرفٌ مَنصوبٌ بفِعلِ «بغى عليهم»، والمقصودُ مِن هذا الظَّرفِ القِصَّةُ، وليس القَصدُ به توقيتَ البَغيِ؛ ولذلك قَدَّره بعضُ المفَسِّرينَ مُتعَلِّقًا بـ «اذكر» محذوفًا، وهو المعنيُّ في نظائِرِه مِنَ القَصَصِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحينَ بزينةِ الدُّنيا، البَطِرينَ بما أُوتُوا مِن مَتاعِها الفاني[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

وقال سبحانه: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٦].

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نَهَوه عن الفَرَحِ المُطغِي، أمَروه بأنْ يَطْلُبَ فيما آتاه اللهُ مِن الكُنوزِ وسَعةِ الرِّزقِ ثوابَ الدَّارِ الآخرةِ، بأنْ يَفعَلَ فيه أفعالَ البِرِّ، ويجعلَه زادَه إلى الآخِرةِ[٢].

﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾.

أي: واطلُبْ -يا قارونُ- ثوابَ الآخرةِ ونَعيمَها بما آتاك اللهُ مِنَ الدُّنيا، ووهَبَك مِن أموالِها، فاستَعْمِلْه في طاعةِ اللهِ والتَّقَرُّبِ إليه، والإنفاقِ في أوجُهِ الخَيرِ[٣].

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

قال ابنُ الجوزي: (﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ يعني: الأَشِرينَ، ولم يُرِدِ الفرحَ بنعمةِ الله تعالى). ((صفة الصفوة)) (١/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٨).

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سبَقَ شديدَ المشَقَّةِ على النُّفوسِ، مع ما فيه مِن شائبةِ الاتِّهامِ؛ قالوا[1]:

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: لا تَترُكْ حظَّك مِن الدُّنيا أن تعمَلَ فيها لآخِرتِك[2].

﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٦٩).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: لا تَترُكْ حظَّك مِن الدُّنيا أن تعمَلَ فيها لآخرتِك؛ لأنَّ حقيقةَ نَصيبِ الإنسانِ مِن الدُّنيا ما عَمِلَ فيها لآخِرتِه: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جرير، والزجَّاج، وابن أبي زمنين، والسمعاني، والخازن، ونسَبَه الواحديُّ والرَّسْعَنيُّ لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٦٩).

وممَّن يُروى عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وعَوْنُ بنُ عبدِ الله، ومجاهدٌ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠١٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٤٣).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: ولا تَترُكْ حظَّك مِنَ التَّنعُّم بما أحلَّ اللهُ لك في الدُّنيا؛ مِنَ المآكِلِ والمَشارِبِ، والملابِسِ والمساكِنِ، والمَناكِحِ وغَيرِها: ابنُ العربيِّ، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤٣-٣٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٥٧).

قال الشوكانيُّ عن هذا القولِ: (وهذا أَلْصَقُ بِمعنَى النَّظمِ القرآنيِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٥).

أي: وأحسِنْ -يا قارونُ- في عبادةِ اللهِ وإلى خَلْقِ اللهِ، كما أحسَنَ اللهُ إليك بالرِّزقِ الواسِعِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانتِ النَّفْسُ مِن شأنِها -إنْ لم تُزَمَّ بزِمامِ الشَّرعِ- الإسرافُ والإجحافُ، قالوا[٢]:

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولا تَطلُبْ -يا قارونُ- الفسادَ في الأرضِ بالمعاصي والبَغيِ والتكَبُّرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤٧).

قيل: المرادُ بالإحسانِ هنا: الإحسانُ إلى عِبادِ الله. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن جُزَي، وابن كثير، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

وقيل: المرادُ بالإحسانِ هنا: طاعةُ الله وعبادتُه. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البَغَويُّ، والقُرطُبيُّ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٤).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (أحسِنْ بأداءِ ما افترَضَ الله عليك، كما في إحسانِه إليك). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٦٩).

وممَّن ذهب هنا إلى الجمعِ بيْنَ الإحسانِ في عبادةِ الله والإحسانِ إلى خَلْقِ الله: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٥٨)، ((تفسير =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسِدينَ في الأرضِ بالكُفرِ والمعاصي، والبَغيِ والظُّلمِ[1].

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٧٨﴾.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾.

أي: قال قارونُ: إنَّما أُوتيتُ هذه الكُنوزَ؛ لأنِّي أهلٌ لذلك[2].

---

= البغوي)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤، ٢٥٥).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ ...﴾ فيه خمسةُ أوجُه؛ أحَدُها: أي: بقوَّتي وعِلمي، قاله يحيى بنُ سلَّام. الثَّاني: على خيرٍ وعِلمٍ عندي، قاله قَتادةُ. الثَّالثُ: لِرضا الله عنِّي، ومعرفتِه باستِحقاقي، قاله ابنُ زَيدٍ. الرَّابعُ: على عِلمٍ بوجْهِ المكاسِبِ، قاله ابنُ عيسى. الخامسُ: العِلمُ بصَنعةِ الكيمياءِ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٦٨).

ممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ أي: على عِلمٍ مِنَ الله بحالي وفَضلي عليكم، واستِحقاقي لذلك المالِ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠١٢).

وممَّن قال: إنَّ المرادَ: إنَّما نِلْتُ هذا المالَ؛ بسَبَبِ ما لَدَيَّ مِن العِلمِ والمعرفةِ: البِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٣، ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨١). =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٩، ٥٠].

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾.

أي: أوَلَمْ يعلَمْ قارونُ أنَّ اللهَ قد أهلَكَ مِن قَبْلِه مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ مَن كان أقوى منه وأكثَرَ جَمعًا للأموالِ؟ فلا مانِعَ إذَنْ مِن إهلاكِ قارونَ، كما أُهلِكَ مَن هو مِثلُه أو أعظَمُ، وقد فَعَل ما يُوجِبُ الهلاكَ(١)!

﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

أي: ولا يُسألُ المُجرِمونَ عن ذُنوبِهم، فيُعاقِبُهم اللهُ تعالى عليها مِن غيرِ أن يَستَعلِمَهم عنها؛ لعِلْمِه بها كُلِّها(٢).

---

= قال ابنُ كثير: (وقد رُوي عن بعضِهم أنَّه أراد: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ أي: أنَّه كان يُعاني عِلمَ الكيمياءِ، وهذا القولُ ضعيفٌ؛ لأنَّ علمَ الكيمياءِ في نفسِه علمٌ باطلٌ؛ لأنَّ قلبَ الأعيانِ لا يقدِرُ أحدٌ عليها إلَّا الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٤). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ٣٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

قال البقاعي: (﴿قُوَّةً﴾ أي: في البدَنِ، والمعاني مِنَ العِلمِ وغَيرِه، والأنصارِ والخَدَمِ، ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ في المالِ والرِّجالِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٢).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مِن حُسْنِ الدَّعوةِ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى أنَّه إذا ذُكِرَ الحُكمُ تُذكَرُ العِلَّةُ؛ تخويفًا أو تَرغيبًا، إنْ كان مَنصوحًا بطلَبٍ تُذكَرُ العِلَّةُ ترغيبًا، وإنْ كان منصوحًا بنَهيٍ فإنَّها تُذكَرُ تخويفًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾، وقولِه: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾، فينبغي للدَّاعي أنْ يُذَكِّرَ المدعُوَّ بنِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ الإنسانَ إذا ذُكِّرَ بالنِّعمةِ فقد يَخْجَلُ مِن اللهِ فلا يَعْصيه، أمَّا إذا ذُكِرَ له الأمرُ والنَّهيُ مجرَّدًا عن الأسبابِ والوسائلِ الَّتي تحمِلُه على الفِعلِ أو التَّركِ؛ فإنَّ هذه الدَّعوةَ تكون قاصِرةً؛ فالَّذي ينبغي للدَّاعي أنْ يُذَكِّرَ المرءَ المَدْعُوَّ بما يقتضي إقبالَه وقَبولَه[1].

٢- قال تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ الفرَحُ المنهيُّ عنه هو المفرطُ منه، أي: الذي تمحَّض للتَّعلُّقِ بمتاعِ الدُّنيا ولَذَّاتِ النَّفْسِ به؛ لأنَّ الانكبابَ على ذلك يُميتُ مِن النَّفْسِ الاهتمامَ بالأعمالِ الصَّالحةِ والمنافسةَ لاكتسابِها، فيَنحدِرُ به التَّوغُّلُ في الإقبالِ على اللَّذَّاتِ إلى حَضيضِ الإعراضِ عن الكمالِ النَّفْسانيِّ، والاهتِمامِ بالآدابِ الدِّينيَّةِ، والمُبالَغةُ في الفرَحِ تَقتضي شدَّةَ الإقبالِ على ما يُفرَحُ به، وهي تَستلزِمُ الإعراضَ عن غيرِه[2]. ومتى كان الفرَحُ بالله، وبما مَنَّ الله به، مُقارنًا لِلخَوفِ والحذَرِ؛ لم يَضُرَّ صاحبَه، ومتى خلا عن ذلك ضرَّه، ولا بُدَّ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤١، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٠٨).

آتاه اللهُ مالًا أنْ يُحسِنَ النِّيَّةَ والقَصدَ في بَذْلِه، وقد أشار إلى ذلك النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ قال لسعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ: ((إنَّك لن تُنفِقَ نَفَقةً تَبتَغي بها وَجْهَ اللهِ إلَّا أُجِرْتَ عليها، حتَّى ما تَجعَلُ في فِي امرأتِك))[١]، فقد قيَّدَها بقَولِه: ((تبتغي بها وَجْهَ اللهِ))[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ أنَّ مَن اعتقَدَ أنَّ ما رزقَه اللهُ هو مِن كَسْبِه، ولم يَنسبِ الفضلَ لله؛ فهو مُشابِهٌ لقارونَ في عدَمِ اعترافِه بنِعمةِ اللهِ؛ فالإنسانُ الَّذي يقولُ: حَصَّلْتُ هذا بيَدي، وبمَعرِفتي بالأمورِ والمكاسِبِ، نقولُ له: أنت مُشابِهٌ لقارونَ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾، وقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩] النَّهيُ عن إضافةِ النِّعَمِ إلى أسبابِها دُونَ المُنعِمِ بها. وإضافةُ النِّعَمِ إلى أسبابِها جَحْدٌ لإنعامِ الله، وكذلك إضافةُ النِّعَمِ إلى غيرِه ممَّن يَعجِزُ عنها. ولا بأسَ بإضافتِها إلى الأسبابِ مع مُلاحَظةِ كَوْنِها أسبابًا، وأنَّ المُنعِمَ بها هو اللهُ وحْدَه؛ فإنَّا قد أُمِرْنا بشُكرِ الأسبابِ أيضًا؛ قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾[٤] [لقمان: ١٤].

٦- لِيَحذَرِ الإنسانُ كُلَّ الحَذَرِ مِن طُغيانِ «أنا»، و «لي»، و«عندي»؛ فإنَّ هذه الألفاظَ الثَّلاثةَ ابتُلِيَ بها إبليسُ، وفِرعَونُ، وقارونُ؛ فـ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [الأعراف: ١٢] لإبليسَ، و﴿لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ [الزخرف: ٥١] لِفرعَونَ، و ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦) واللفظ له، ومسلم (١٦٢٨) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٥١).

عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ لِقارونَ، وأحسنُ ما وُضِعت «أنا» في قولِ العبدِ: أنا العبدُ المذنبُ، المستغفِرُ، المعترِفُ ونحوِه. «ولي»، في قولِه: لي الذنبُ، ولي الجرمُ، ولي المسكنةُ. «وعندي» في قولِه[1]: ((اغْفِرْ لي جِدِّي، وهَزلي، وخَطئي، وعَمدي، وكلُّ ذلك عِندي)) [2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ أنَّ القَوميَّةَ لا تنفَعُ أصحابَها، إنَّما النَّافِعُ هو الإيمانُ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ فهذا الرَّجلُ مِن قَومِ موسى، ومع ذلك بغَى عليهم[3]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ﴾ أنَّ الغِنى سَبَبٌ للطُّغيانِ؛ لأنَّ قارونَ إنَّما بغَى وطغَى بسببِ ما آتاه اللهُ تعالى مِن المالِ[4].

٣- الإيتاءُ المضافُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى يكونُ كَوْنيًّا، ويكونُ شَرعيًّا؛ مِثالُ الكَونيِّ قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾، ومِثالُ الشَّرعيِّ قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾[5] [الإسراء: ٢].

٤- جاء الفَرَحُ في القُرآنِ على نَوعينِ: مُطلَقٌ، ومُقَيَّدٌ:

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري (٦٣٩٩)، ومسلم (٢٧١٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٨٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (واللهُ سُبحانَه قد بيَّنَ في كتابِه في كلِّ واحدةٍ مِنَ: «الكَلِماتِ» و«الأمرِ» و«الإرادةِ» و«الإذنِ» و«الكتابِ» و«الحُكمِ» و«القضاءِ» و«التَّحريمِ» ونحوِ ذلك ما هو دينيٌّ مُوافِقٌ لِمحَبَّةِ الله ورِضاهُ وأمرِه الشَّرعيِّ، وما هو كَوْنيٌّ موافِقٌ لمَشيئتِه الكَونيَّةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٢٤).

فالمُطلَقُ: جاء في الذَّمِّ، كقَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]، وقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

والمقَيَّدُ نوعانِ أيضًا:

**الأولُ**: مُقيَّدٌ بالدُّنيا يُنسي صاحِبَه فضْلَ اللهِ ومِنَّتَه، فهو مذمومٌ، كقَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

**والثاني**: مُقيَّدٌ بفَضلِ اللهِ وبِرَحمتِه، وهو نوعانِ أيضًا:

فَضلٌ ورحمةٌ بالسَّبَبِ، وفَضلٌ بالمُسَبَّبِ؛ فالأوَّلُ: كقَولِه تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، والثَّاني: كقَولِه تعالى: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٧٠]؛ فالفَرَحُ باللهِ وبرَسولِه، وبالإيمانِ وبالسُّنَّةِ، وبالعِلمِ وبالقرآنِ: مِن أعلى مقاماتِ العارفينَ؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: ٣٦]. فالفَرَحُ بالعِلمِ والإيمانِ والسُّنَّةِ: دَليلٌ على تعظيمِه عندَ صاحِبِه، ومحبَّتِه له، وإيثارِه له على غيرِه؛ فإنَّ فَرَحَ العبدِ بالشَّيءِ عندَ حُصولِه له: على قَدْرِ محبَّتِه له، ورغبتِه فيه، فمَن ليس له رغبةٌ في الشَّيءِ لا يُفرِحُه حُصولُه له، ولا يَحزُنُه فَواتُه؛ فالفَرَحُ تابعٌ للمحَبَّةِ والرَّغبةِ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ يُؤخَذُ منه إثباتُ المحبَّةِ للهِ، مع أنَّ المرادَ نَفْيُ المحبَّةِ، ولكِنْ ما نفاها عن هؤلاء إلَّا وهي ثابتةٌ لضِدِّه؛ ولهذا استدَلَّ العلماءُ بأنَّ المؤمِنينَ يَرونَ ربَّهم بقَولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٤٩، ١٥٠).

[المطففين: ١٥]، قالوا: فلمَّا حُجِبَ هؤلاء عن ربِّهم؛ دلَّ على أنَّ غَيرَهم غيرُ محجوبينَ، فلو كان الكُلُّ محجوبينَ ما كان لِتَخصيصِ هؤلاء فائِدةٌ(١).

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ هذه الجملةُ المرادُ منها أنَّ اللهَ لا يُحِبُّ، ولازمُها أنه يَكرَهُ، وإنْ كانتِ القِسمةُ العقليَّةُ لا تقتضي ذلك؛ فنَفْيُ المحبَّةِ لا يَلْزَمُه إثباتُ الكُرهِ، لكنَّ السِّياقَ يقتضيه، لأنّ كلَّ شَيءٍ نفَى اللهُ عنه حُبَّه نَجِدُ أنَّه ممَّا يَكرَهُه اللهُ، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤]؛ وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]، وقال تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فالظَّاهرُ مِن السِّياقاتِ أنَّ المرادَ إثباتُ الكراهةِ، لكنَّه أتَى بنَفْيِ المحَبَّةِ؛ لأنَّ المَحَبَّةَ محبوبةٌ؛ فكأنَّ هذا الَّذي أحَبَّ الفسادَ أو أحَبَّ الفرحَ وما أشبَهَ ذلك يُقابَلُ بنقيضِ قَصْدِه(٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ في قَولِه: ﴿نَصِيبَكَ﴾ إضافةُ النَّصيبِ إلى ضَميرِه؛ ففيه دَلالةٌ على أنَّه حَقُّه، وأنَّ للمَرءِ الانتِفاعَ بمالِه فيما يُلائِمُه في الدُّنيا خاصَّةً ممَّا ليس مِن القُرُباتِ، ولم يكُنْ حَرامًا(٣). وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ﴾ فيه تحريمُ نيَّةِ الفَسادِ في الأرضِ؛ وإذا حُرِّمَتْ نِيَّةُ الفَسادِ، فالفسادُ نَفْسُه مِن بابِ أولَى(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥٢).

٩- كُلُّ مَن عصى اللهَ فقد طلَبَ الفَسادَ في الأرضِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالمعصيةِ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ بَيانُ أنَّ عَطاءَه سُبحانَه ليس دليلًا على حُسْنِ حالةِ المُعْطَى[٢].

١١- قال تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾، وقال سبحانَه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك؛ منها قَولُه تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦]، فهذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ اللهَ يَسألُ جَميعَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، ونَظيرُها قَولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

**والجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: وهو أوجَهُها؛ لِدَلالةِ القُرآنِ عليه، وهو أنَّ السُّؤالَ قِسمانِ: سؤالُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ، وأداتُه غالِبًا: (لِـمَ)؛ وسُؤالُ استِخبارٍ واستِعلامٍ، وأداتُه غالِبًا: (هل)؛ فالمُثبَتُ هو سُؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سؤالُ الاستِخبارِ والاستِعلامِ.

**الوجهُ الثاني**: أنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعَدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسأَلونَ، وفي بَعضِها لا يُسأَلونَ.

**الوجهُ الثالثُ**: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عن التَّوحيدِ وتصديقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

الرُّسُلِ، وعَدَمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يَستَلزِمُه الإقرارُ بالنُّبُوَّاتِ مِن شرائِعِ الدِّينِ وفُروعِه، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ لذِكْرِ قِصَّةٍ ضُرِبَتْ مثلًا لحالِ بعضِ كُفَّارِ مَكَّةَ، وهم سادَتُهم؛ مِثلَ: الوليدِ بنِ المُغيرةِ، وأبي جهلِ بنِ هشام، ولها مَزيدُ تعلُّقٍ بجملةِ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَا﴾، إلى قولِه: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾(٢) [القصص: ٦٠، ٦١].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بحرفِ التوكيدِ (إنَّ) يَجوزُ أنْ يكونَ لإفادةِ تأكيدِ خبَرِ (إنَّ) وما عُطِفَ عليه وتَعلَّقَ به ممَّا اشْتَمَلَتْ عليه القِصَّةُ، وهو سُوءُ عاقبةِ الَّذين تَغُرُّهم أموالُهم وتَزْدَهيهم؛ فلا يَكتَرِثونَ بشُكرِ النِّعمةِ، ويَسْتخِفُّونَ بالدِّينِ، ويَكْفُرونَ بشرائعِ اللهِ؛ لظُهورِ أنَّ الإخبارَ عن قارونَ بأنَّه ﴿مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ﴾ ليس مِن شأنِه أن يَتَرَدَّدَ فيه السَّامعُ حتَّى يُؤكَّدَ له؛ فمَصَبُّ التَّأكيدِ هو ما بعْدَ قولِه: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ﴾... إلى آخرِ القصَّةِ المُنتَهيةِ بالخَسْفِ. ويَجوزُ أن تكونَ (إنَّ) لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبرِ، ومَناطُ الاهتمامِ هو مَجموعُ ما تَضَمَّنَتْه القصَّةُ مِن العِبَرِ، الَّتي منها أنَّه مِن قومِ مُوسى، فصار عدوًّا له

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠، ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٤).

ولأتْباعِه؛ فأمْرُه أغْرَبُ مِن أمْرِ فِرعونَ. وعَدَل عن أنْ يُقالَ: (كان مِن بَني إسرائيلَ)؛ لِمَا في إضافةِ ﴿قَوْمِ﴾ إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ مِن الإيماءِ إلى أنَّ لقارونَ اتِّصالًا خاصًّا بمُوسى؛ فهو اتِّصالُ القَرابةِ[١].

- وفي الإخبارِ عنه بأنَّه مِن قومِ موسى تمهيدٌ للكِنايةِ بهذا الخبَرِ، عن إرادةِ التَّنظيرِ بما عَرَضَ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بَغْيِ بَعضِ قَرابتِه مِن المُشركينَ عليه[٢].

- وجُملةُ ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ مُعترِضةٌ بينَ جملةِ ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ وجملةِ ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾، والفاءُ فيها للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ؛ للتَّعجُّبِ مِنْ بَغيِ أحَدٍ على قَومِه[٣].

- قولُه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ بُولِغَ في وَصْفِ كُنوزِ قارونَ؛ حيثُ ذَكَرها جَمْعًا، وجَمَع المفاتحَ أيضًا، وذَكَر النَّوْءَ والعُصْبةَ وأُولِي القُوَّةِ، وهذه المُبالَغةُ في القُرآنِ مِنْ أحسَنِ المُبالَغاتِ وأغرَبِها عندَ الحُذَّاقِ؛ وهي أنْ يُتقصَّى جميعُ ما يَدُلُّ على الكَثرةِ وتعدُّدِ ما يَتَعَلَّقُ بما يَمْلِكُه[٤].

- في قولِه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ حُسْنُ تُعليلٍ بجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾؛ لأنَّ الفرَحَ المَحضَ في الدُّنيا -مِن حيثُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٥، ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٢٩٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٨٠).

إنَّها دُنْيا- مَذْمومٌ على الإطلاقِ، وأيُّ فَرَحٍ بشَيءٍ زائلٍ، وظِلٍّ حائلٍ[١]؟!

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتَين الحافتَينِ بها، والواوُ اعتراضيَّةٌ، والنَّهيُ في ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ﴾ مُستَعْملٌ في الإباحةِ، والنِّسيانُ كِنايةٌ عن التَّرْكِ. وهذا احتِراسٌ في الموعظةِ خَشْيَةَ نُفورِ المَوعوظِ مِن موعظةِ الواعظِ؛ لأنَّهم لَمَّا قالوا لِقارونَ: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾؛ أوْهَموا أنْ يَتْرُكَ حُظوظَ الدُّنيا؛ فلا يَستَعمِلُ مالَه إلَّا في القُرُباتِ؛ فأُفيدَ أنَّ له استِعمالَ بعضِه فيما هو مُتَمَحِّضٌ لنَعيمِ الدُّنيا إذا آتَى حَقَّ اللهِ في أموالِه، فقيلَ: أرادُوا أنَّ لكَ أنْ تأخُذَ ما أَحَلَّ اللهُ لكَ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَا﴾ تَتْميمٌ[٣] لا بُدَّ منه؛ لأنَّه إذا لم يَغْتَنِمْها ليَعْمَلَ للآخِرةِ، لم يكنْ له نَصيبٌ في الآخِرةِ[٤]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

- قولُه: ﴿وَأَحۡسِن﴾ الإحسانُ داخلٌ في عُمومِ ابتِغاءِ الدَّارِ الآخِرةِ، ولكنَّه ذُكِرَ هنا ليَبْنِيَ عليه الاحتِجاجَ بقولِه: ﴿كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾، وحُذِفَ مُتعلَّقُ الإحسانِ لتَعْميمِ ما يُحْسِنُ إليه؛ فيَشملُ نفسَه وقَومَه ودوابَّه ومخلوقاتِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٨، ١٧٩).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٢٩٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٨٢).

الدَّاخِلةَ في دائرةِ التَّمكُّنِ مِن الإحسانِ إليها[١].

- وعَطَفَ ﴿وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للتَّحذيرِ مِنْ خَلْطِ الإحسانِ بالفَسادِ؛ فإنَّ الفسادَ ضِدُّ الإحسانِ؛ فالأمرُ بالإحسانِ يَقتضي النَّهيَ عن الفسادِ، وإنَّما نَصَّ عليه؛ لأنَّه لَمَّا تَعدَّدتْ مَواردُ الإحسانِ والإساءةِ فقد يَغيبُ عن الذِّهْنِ أنَّ الإساءةَ إلى شَيءٍ مع الإحسانِ إلى أشياءَ يُعتبَرُ غيرَ إحسانٍ[٢].

- وجملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ عِلَّةٌ للنَّهيِ عن الإفسادِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ جوابٌ عن مَوعظةِ واعظِيه مِن قَومِه، وقد جاء على أُسلوبِ حِكايةِ المُحاوَراتِ؛ فلمْ يُعْطَفْ، وهو جوابُ مُتصَلِّفٍ -أي: مُتكبِّرٍ- حاوَلَ به إفحامَهم، وأنْ يَقْطَعوا مَوعظتَهم؛ لأنَّها أَمَرَّتْ بَطَرَه وازْدِهاءَه[٤].

- و(إنَّما) أداةُ الحَصْرِ، وبُنِيَ الفِعلُ للنائبِ ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾؛ للعِلْمِ بالفاعلِ مِن كلامِ واعِظيهِ[٥].

- وقولُه: ﴿عِندِيٓ﴾ صِفةٌ لـ﴿عِلۡمٍ﴾ -على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ- ؛ تأكيدًا لتَمكُّنِه مِن العِلْمِ وشُهرَتِه به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨١).

- قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ إقبالٌ على خِطابِ المسلمينَ. والهمزةُ في ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ؛ تعجيبًا مِن عدَمِ جَرْيِهِ على موجَبِ عِلْمِه بأنَّ اللهَ أَهْلَكَ أُمَمًا على بَطَرِهمُ النِّعمةَ، وإعجابِهم بقوَّتِهم، ونِسيانِه، حتَّى صارَ كأنَّه لم يَعْلَمْه؛ تعجُّبًا مِن فَواتِ مُراعاةِ ذلكَ منه مع سَعَةِ عِلْمِه بغَيْرِه[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ ...﴾ تعجُّبٌ وتوبيخٌ على اغترارِه بقُوَّتِه وكَثرةِ مالِه مع عِلْمِه بذلك؛ لأنَّه قَرَأَه في التَّوراةِ، وسَمِعَه مِن حُفَّاظِ التَّواريخِ، أو رَدٌّ لادِّعائِه للعِلْمِ وتعَظُّمِه به بنَفْيِ هذا العِلمِ عنه[2]. وقيل: الظَّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ﴾ تَقريرٌ لعِلمِه ذلك، وتنبيهٌ على خَطَئِه في اغْتِرارِه، أي: قد عَلِمَ أنَّ اللهَ قد أهْلَكَ مِن القُرونِ قَبْلَه مَن هو أقوى منه وأغْنى؛ لأنَّه قد قَرَأَه وأخْبَرَ به مُوسى وسَمِعه، كأنَّه قيلَ: أوَلَمْ يَعْلَمْ في جُملةِ ما عِندَه مِنَ العِلْمِ هذا؛ حتى لا يَغْتَرَّ بكثرةِ مالِه وقوَّتِه؟ ويَجوزُ أنْ يكونَ نعتًا لعِلْمِه بذلكَ؛ لأنَّه لَمَّا قال: أُوتيتُه على عِلْمٍ عندي، فتَنَفَّحَ بالعلمِ وتَعَظَّمَ به، قيلَ: أعِنْدَهُ مِثلُ ذلكَ العِلمِ الَّذي ادَّعاهُ؟ وأُرِيَ نفْسَه به مُستَوْجِبةً لكلِّ نعمةٍ، ولم يَعْلَمْ هذا العِلمَ النَّافعَ حتَّى يَقِيَ نفْسَه مَصارِعَ الهالِكينَ[3]!

- قولُه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ولا يُسألُ سُؤالَ استعلامٍ -فإنه تعالَى مُطَّلِعٌ عليها- أو مُعاتَبةٍ؛ فإنَّهم يُعَذَّبونَ بها بَغْتةً؛ كأنَّهُ لَمَّا هدَّدَ قارونَ بذِكْرِ إهلاكِ مَن قَبْلَه ممَّن كانوا أقوَى منه وأغنَى؛ أكَّدَ ذلك بأنْ بَيَّنَ أنه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٦).

لم يَكُنْ مُطَّلِعًا على ما يَخُصُّهم، بلِ اللهُ مُطَّلِعٌ على ذُنوبِ المُجرمينَ كلِّهم، مُعاقِبُهم عليها لا مَحالةَ[١].

- والواوُ في قَولِه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ عاطفةٌ؛ لِتَربطَ الجُملةَ بما قَبْلَها على سَبيلِ التَّهديدِ والوعيدِ، أي: إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على ذُنوبِ المجرمينَ لا يَحتاجُ إلى سُؤالٍ عنها[٢].

- وقيل: قولُه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ تَذْييلٌ للكلام؛ فهو استئنافٌ وليس عَطفًا على أنَّ اللهَ قد أهلَكَ مَن قبْلَهُ، والسُّؤالُ المنفيُّ: السُّؤالُ في الدُّنيا، وليس سؤالَ الآخِرةِ، ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ السُّؤالُ كِنايةً عن عدَمِ الحاجةِ إلى السُّؤالِ عن ذُنوبِهم؛ فهو كنايةٌ عن عِلْمِ اللهِ تعالَى بذُنوبِهم، وهو كِنايةٌ عن عِقابِهم على إجرامِهم؛ فهي كِنايةٌ بوَسائطَ، والكلامُ تهديدٌ للمُجرمينَ؛ ليَكونوا بالحذَرِ مِنْ أن يُؤْخَذوا بَغْتةً، ويَحتَمِلُ أن يكونَ السُّؤالُ بمَعناه الحقيقيِّ، أي: لا يُسأَلُ المجرمُ عن جُرْمِه قبْلَ عِقابِه؛ لأنَّ اللهَ قد بَيَّنَ للنَّاسِ على ألْسِنةِ الرُّسُلِ بحَدَّيِ الخَيرِ والشَّرِّ، وأَمْهَلَ المجرِمَ؛ فإذا أَخَذَهُ أَخَذَهُ بَغْتةً، وهذا كقولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾[٣] [الأنعام: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٢).

## الآيات (٧٩-٨٤)

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾: أي: يُوفَّقُ لها، وأصلُ (لقي) هنا: يدُلُّ على تَوافِي شَيئَيْنِ[1].

﴿وَيْكَأَنَّ﴾: (وَيْ) كَلِمةُ تنبيهٍ وتنَدُّمٍ على أمرٍ سبَقَ، يقولُها المُتنَدِّمُ عندَ إظهارِ ندامتِه، ويَقولُها المنَدِّمُ لِغَيرِه، والمنبِّهُ له، و(كَأَنَّ) للتَّشبيهِ، ووقَع التَّشبيه هنا على أحَدِ مَعنَيينِ؛ أحدهما: أنَّهم أوقعوا التَّشبيهَ على ما في عِلمِهم وعُرفِهم. الثَّاني: أن يكونَ التَّشبيهُ ليس على أصلِه، بل المرادُ به التَّحقيقُ، أي: إنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ، وإنَّ الأمرَ لا يُفلِحُ الكافِرونَ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٧٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٥)، ((التذييل والتكميل)) لأبي حيان الأندلسي (٥/ ٢٠). =

﴿وَيَقۡدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، يقال: قَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: إذا ضيَّقْتَه، كأنَّما جعَلْتَه بقَدْرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ﴾

﴿وَيۡكَأَنَّ﴾ فيه أقوالٌ؛ الأوَّلُ: أنَّ (وَيْ) كلمةٌ برأسِها، وهي اسمُ فِعلٍ معناها: أعجَبُ، والكافُ في (كأنَّ) للتَّعليلِ، وأنَّ وما في حَيِّزِها مجرورةٌ بها، أي: أعجَبُ لأنَّ الله يَبسُطُ. الثَّاني: أنَّ (وي) كلمةُ تنبيهٍ وتندُّمٍ على أمرٍ سبَق، وهي منفصِلةٌ مِن (كأنَّ)، لكنْ وُصِلَت في الخطِّ لكثرةِ الاستعمالِ، ومعنى (كأنَّ الله يبسطُ الرِّزقَ) وإنْ كان لفظُه لفظَ التَّشبيهِ، فمعناه التَّحقيقُ، أي: تَنَبَّهْ، إنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ، أي: تنَبَّهْ لِبَسْطِ اللهِ الرِّزقَ. الثَّالثُ: أنَّ (ويْكأنَّ) كلَّها كلمةٌ مُتَّصِلةٌ بسيطةٌ، ومعناها: ألم تَرَ. الرَّابعُ: أنَّ (ويكَ) كَلِمةٌ برأسِها، والكافَ حرفُ خِطابٍ، و (أنَّ اللهَ يبسطُ الرزقَ) معمولٌ لمحذوفٍ، أي: اعلَمْ أنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ، وأنَّ (وَيْكَ) بمعنى (وَيْلَكَ)، وحُذِفتِ اللامُ لكثرةِ استعمالِ هذه اللفظةِ في الكلامِ[2].

---

= ويُنظر أيضًا: ((الكتاب)) لسيبويه (٢/ ١٥٤، ١٥٥)، ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (٢/ ٤٨٠-٤٨٢)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ١٨٣-١٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٧)، ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠١)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ١٨٣-١٨٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٢٧)، ((ارتشاف الضَّرَب)) لأبي حيان الأندلسي (٥/ ٢٢٩٢)، ((التذييل والتكميل)) لأبي حيان الأندلسي (٥/ ٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٦٩٧).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فخرَجَ قارونُ على قَومِه مِن بَني إسرائيلَ في زِينةٍ عَظيمةٍ، فقال الَّذينَ يُريدونَ الحياةَ الدُّنيا مِن ضِعافِ الإيمانِ حينَ رأَوْا زينةَ قارونَ: يا لَيْتَ لنا مِثلَ الَّذي أُوتِيَه قارونُ؛ إنَّه لَذو نَصيبٍ وافرٍ مِن مَتاعِ الدُّنيا!

فقال لهم أهلُ العِلمِ: ويْلَكم، نعيمُ الجنَّةِ الَّذي أعَدَّه اللهُ في الآخرةِ لِمَن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا: خيرٌ مِن مُلكِ قارونَ، ولا يُوفَّقُ لذلك إلَّا الصَّابِرونَ!

فخَسَفْنا بقارونَ وبدارِه في باطِنِ الأرضِ، فلمْ يكُنْ لقارونَ جماعةٌ يَمنعونَه مِن عذابِ اللهِ، وما كان مِنَ المنتَصِرينَ بنَفْسِه أو قوَّتِه.

وأصبَحَ الَّذين تمَنَّوا مِن قَبْلُ أن يكونَ لهم ما لِقارونَ يقولونَ: ويْكَأنَّ اللهَ يوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يشاءُ مِن عبادِه، ويُضيِّقُه على مَن يَشاءُ، لولا أنْ منَّ اللهُ علينا لَكُنَّا قد طَغَيْنا مِثلَ طُغيانِ قارونَ، فخَسَفَ اللهُ بنا كما خَسَفَ به، ويْكَأنَّه لا يَفوزُ الكافِرونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى سُنَّةً مِن سُنَنِه الَّتي لا تتخلَّفُ، فيقولُ: تلك الدَّارُ -وهي الجنَّةُ- نجعَلُها لِلَّذينَ لا يُريدونَ تكبُّرًا في الأرضِ، ولا إفسادًا فيها بالمعاصي، والعاقِبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ للمُتَّقينَ.

مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ، فله ثوابٌ عظيمٌ عندَ اللهِ، ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ فلا يُثابُ إلَّا جزاءَ ما عَمِلَ، ولا يُظلَمُ بعِقابِه على ما لم يَعمَلْ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى قارونَ ونَعْتَه، وما آتاه مِن الكُنوزِ، وفَرَحَه بذلك فرَحَ البَطِرينَ، وادِّعاءَه أنَّ ما أُوتيَ مِن ذلك إنَّما أُوتيَه على عِلْمٍ- ذَكَرَ ما هو ناشئٌ عن التكبُّرِ والسُّرورِ بما أُوتيَ، فقال[1]:

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ ﴾.

أي: فخرَج قارونُ على قَومِه مِن بني إسرائيلَ مُتجَمِّلًا في زينةٍ عَظيمةٍ[2].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ ﴾.

أي: قال ضِعافُ الإيمانِ الَّذين يُريدونَ الحَياةَ الدُّنيا، حينَ رأَوْا زينةَ قارونَ: يا لَيْتَ لنا مِثلَ الَّذي أُوتِيَه قارونُ مِن زينةِ الحياةِ الدُّنيا ومَتاعِها[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

قال ابنُ عاشور: (الزِّينةُ: ما به جمالُ الشَّيءِ والتَّباهي به مِنَ الثِّيابِ والطِّيبِ والمراكبِ والسِّلاحِ والخدَمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٣).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا ...﴾... هذا التَّركيبُ مُتكرِّرٌ في القرآنِ الكريم، والنَّحْويُّون اختلَفوا فيه على هذَينِ الوجهَينِ؛ منهم مَن يقولُ: هو لِمُجَرَّدِ التَّنبيهِ، وليس هناك نداءٌ ولا مُنادى، ومنهم مَن يقولُ: هو لِلنِّداءِ، وأنَّ المُنادى محذوفٌ، فالتَّقديرُ -مثلًا- هنا: يا قَوْمَنا، لَيْتَ لنا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥٩).

ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٤)، ((همع الهوامع)) للسيوطي (١/ ٢٨)، ((شرح التصريح على التوضيح)) لخالد لأزهري (١/ ٣١)، ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥٤).

﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

أي: قالوا: إنَّ قارونَ لَصاحِبُ نَصيبٍ كبيرٍ وافرٍ مِن مَتاعِ الدُّنيا(١).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

أي: وقال أهلُ العِلمِ النَّافِعِ العارِفونَ بحَقيقةِ الدُّنيا للَّذينَ تَمَنَّوا مِثلَ ما أُوتيَ قارونُ: وَيْلَكم(٢)! نَعيمُ الجنَّةِ الَّتي أعَدَّها اللهُ في الآخرةِ لِمَن آمَنَ باللهِ ورُسُلِه، وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالحاتِ: خَيرٌ ممَّا أُوتيَ قارونُ مِن زينةِ الدُّنيا(٣).

كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾.

أي: ولا يُوفَّقُ للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ والزُّهدِ في الدُّنيا الموصِلِ لثَوابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٠).

(٢) قال الزمخشري: («ويلك»: أصلُه الدُّعاءُ بالهلاكِ، ثم استُعْمِل في الزَّجرِ والرَّدعِ والبعثِ على تركِ ما لا يُرتضَى). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالثَّوابِ هنا: الأُخرويُّ: ابنُ جريرٍ، والقُرطُبيُّ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ به: الثَّوابُ العاجِلُ في الدُّنيا بِلَذَّةِ العبادةِ، ومحبَّةِ الله تعالى، والإنابةِ إليه، والإقبالِ عليه. والثَّوابُ الآجِلُ في الجنَّةِ وما فيها من النَّعيمِ. وممَّن قال بذلك: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

الآخرةِ إلَّا الصَّابِرونَ على الطَّاعاتِ، وعن المعاصي، وعلى أقدارِ الله المؤلِمةِ؛ كالفَقرِ[١].

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾.

أي: فغيَّبْنا قارونَ ودارَه في باطِنِ الأرضِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ الضَّميرَ في قوله تعالى: ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ يعودُ إلى القوَّةِ في الدِّينِ بالإيمانِ والعمَلِ الصالحِ، بحيثُ يُؤْثِرُ صاحِبُها الآخرةَ على الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ عطيَّة، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الكَلِمةِ أو الوصيَّةِ الَّتي قالها الَّذين أُوتوا العِلمَ: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أي: لا يوفَّقُ لِقَولِ ذلك إلَّا الصَّابرون. وممَّن قال بهذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ جَرير، والزَّجَّاجُ، والثَّعلبيُّ، ومكِّي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٦٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٢٠).

قال ابن كثير مُعلِّقًا على هذا القولِ الذي اختاره ابنُ جريرٍ: (وكأنَّه جعَل ذلك مقطوعًا مِن كلام أولئك، وجعَلَه مِن كلامِ الله عزَّ وجلَّ وإخبارِه بذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٥).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى الجنَّةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠١٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((بَيْنَما رجُلٌ يَجُرُّ إزارَه مِنَ الخُيَلاءِ[١]، خُسِفَ به؛ فهو يَتجَلْجَلُ[٢] في الأرضِ إلى يَومِ القيامةِ))[٣].

وعن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((بَيْنَما رجُلٌ يمشي في حُلَّةٍ[٤]، تُعجِبُه نَفْسُه، مُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ[٥]؛ إذ خَسَفَ اللهُ به؛ فهو يَتجَلْجَلُ إلى يومِ القيامةِ))[٦].

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فلمْ يكُنْ لِقارونَ جَماعةٌ يمنَعونَ عنه عذابَ اللهِ حينَ نَزَل به[٧].

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾.

أي: ولم ينتَصِرْ لِنَفْسِه فيَمنَعَ العذابَ بقُوَّتِه حينَ خُسِفَ به[٨]!

---

(١) الخيلاء: البَطَرُ والكِبْرُ والزَّهْوُ والتَّبَختُرُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٦٠).

(٢) يَتجَلْجَلُ: أي: يَتحرَّكُ وينزلُ مُضْطَرِبًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٦٤).

(٣) رواه البخاري (٣٤٨٥).

(٤) الحُلَّة: ثَوبانِ أحَدُهما فوقَ الآخَرِ، وقيل: لا تُسمَّى حُلَّةً إلَّا أن تكونَ ثَوبَينِ مِن جنسٍ واحدٍ، وقيل: إزارٌ ورِداءٌ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٣٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٦٠).

(٥) مُرَجِّل: مِنَ التَّرجيلِ -بالجيم-، وهو تسريحُ شَعرِ الرَّأسِ، والجُمَّة: مجتمعُ شعرِ الرَّأسِ، وهو أكبَرُ مِنَ الوَفرةِ، ويُقالُ: هو الشَّعرُ الَّذي يتدلَّى مِنَ الرَّأسِ إلى المَنكِبَينِ وإلى أكثَرَ مِن ذلك. ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) للعيني (٢١/ ٢٩٨).

(٦) رواه البخاري (٥٧٨٩) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا صَدَرَ منهم تمنِّي حالِ قارونَ، وشاهَدوا الخسفَ؛ كان ذلك زاجرًا لهم عن حُبِّ الدُّنيا، وداعيًا إلى الرِّضا بقَدَرِ اللهِ، فتنبَّهوا لخطَئِهم[1].

﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾.

أي: وأصبحَ الَّذين رَغِبوا مِن قَبْلُ وطَمِعوا في أن تكونَ لهم حالُ قارونَ ومَنزِلتُه في الدُّنيا يقولونَ: ويْكَأنَّ[2] اللهَ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عبادِه بحِكمتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٩).

(٢) قيل: معناها: (ألم تَرَ) أو (ألم تعلَمْ). وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البخاريُّ، وابن جرير. يُنظر: ((صحيح البخاري)) كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ الآيةَ (٤/ ١٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

قال السمعانيُّ: (ومِن المعروفِ في التَّفاسيرِ عن العلماءِ المتقدِّمينَ: ويْكأنَّ اللهَ: ألم تَرَ أنَّ اللهَ، وحُكيَ مِثلُ هذا عن أبي عُبَيدةَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦١). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٤).

وقيل: معناها: التَّندُّم والتَّوجُّعُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

وقيل: معناها: ويْلَكَ اعلَمْ أنَّ، ولكِنْ خُفِّفَت، فقيل: «ويْكَ»، ودلَّ فتحُ «أنَّ» على حذفِ «اعلَمْ». وممَّن ذكَر هذا القولَ: ابنُ كثير، وقال: (الظَّاهر أنَّه قويٌّ). يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٨). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٤، ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) =

لا لِفَضلِ مَنزِلتِه أو لكَرامتِه عليه، سواءٌ كان فَطِنًا وحاذِقًا في أسبابِ الرِّزقِ أمْ لا، ويُضيِّقُه على مَن يشاءُ منهم بحِكمتِه لا لِهَوانِه عندَه، سواءٌ كان فَطِنًا حاذِقًا أمْ لا؛ فاللهُ يُعطي ويمنَعُ، ويُضَيِّقُ ويُوسِّعُ، ويَخفِضُ ويَرفَعُ، وله سُبحانَه الحِكمةُ البالِغةُ التَّامَّةُ[1].

﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾.

أي: لولا أنَّ اللهَ تفضَّل علينا بأنْ صرَف عنَّا ما تمنَّيْناه مِن حالِ قارونَ، لَكُنَّا قد طغَيْنا مِثلَ طُغيانِه؛ فخَسَف اللهُ بنا كما خَسَفَ به[2].

﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أي: ويْكأنَّه لا يَنجَحُ ولا يَفوزُ الكافِرونَ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ[3].

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

---

= (١٣/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٣٨، ٥٣٩).

قال ابنُ عاشور بعدَ ذِكْرِه عدَّةَ أقوالٍ: (ومعنى الآيةِ على الأقوالِ كُلِّها: أنَّ الَّذين كانوا يَتَمَنَّون منزلةَ قارونَ نَدِموا على تمنِّيهم لَمَّا رأَوْا سوءَ عاقبتِه، وامتلَكَهم العَجَبُ مِن تلك القِصَّةِ، ومِن خَفيِّ تصَرُّفاتِ الله تعالى في خَلقِه، وعَلِموا وُجوبَ الرِّضا بما قُدِّر للنَّاسِ مِن الرِّزقِ؛ فخاطَبَ بعضُهم بعضًا بذلك وأعلَنوه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٩ - ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٦٠-٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٦، ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مِن قَولِ أهلِ العلمِ والإيمانِ ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ ذَكَر مَحَلَّ الثوابِ، وهو الدَّارُ الآخرةُ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَر تعالى قارونَ وما أُوتيَه مِن الدُّنيا، وما صار إليه عاقبةُ أمرِه، وأنَّ أهلَ العِلمِ قالوا: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾؛ رغَّب تعالى في الدَّارِ الآخرةِ، وأخبَر بالسَّببِ الموصلِ إليها، فقال[٢]:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾.

أي: نعيمُ الجنَّةِ في الآخرةِ نَجعَلُه للَّذين لا يُريدونَ أيَّ تكبُّرٍ في الأرضِ عن الحَقِّ برَدِّه، أو على الخَلقِ بظُلمِهم، ولا يُريدونَ أيَّ عَمَلٍ بمعاصي اللهِ سُبحانَه[٣].

عن عِيَاضٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام فينا رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ يَومٍ خَطيبًا، فقال: إنَّ اللهَ أوحى إلَيَّ أنْ تواضَعوا حتَّى لا يَفخَرَ أحَدٌ على أحدٍ، ولا يَبغِيَ أحدٌ على أحدٍ))[٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ، قال رجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يحِبُّ أن يكونَ ثَوبُه حَسَنًا ونَعلُه حَسنةً! قال: إنَّ اللهَ جميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ، الكِبْرُ بَطَرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٩، ١٩٠).

(٤) رواه مسلم (٢٨٦٥).

الحَقِّ[١]، وغَمْطُ النَّاسِ[٢]))[٣].

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: والعاقِبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ لِلَّذينَ يَتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وعَذابَه؛ بِفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه، فيَنصُرُهم اللهُ في الدُّنيا، ويُدخِلُهم الجنَّةَ في الآخِرةِ[٤].

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ سُبحانَه أنَّ الدَّارَ الآخرةَ ليست لِمَن يريدُ علوًّا في الأرضِ ولا فَسادًا، بل هي للمتَّقين؛ بَيَّنَ بعدَ ذلك ما يحصُلُ لهم[٥].

وأيضًا لَمَّا تَحَرَّرَ الفَرقُ بيْنَ أهلِ الدَّارَينِ، وكان لا بُدَّ مِن إتيانِ الآخرةِ، وعُلِمَ أنَّ الآخرةَ إنَّما هي جزاءُ الأعمالِ؛ فاستُؤنِفَ تفصيلُ ذلك -جوابًا لِمَن كأنَّه قال: ما لِمَنْ أحسَنَ ومَن أساءَ عندَ القدومِ؟- بقَولِه[٦]:

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾.

---

(١) بَطَرُ الحَقِّ: أي: دَفعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٢) غَمْطُ النَّاسِ: أي: احتقارُهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) رواه مسلم (٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٢)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٧٦ - ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٣).

أي: مَن جاء يومَ القيامةِ بالحَسَنةِ، فله ثوابٌ عَظيمٌ عندَ اللهِ[١].

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر جزاءَ الإحسانِ؛ أعقَبَ بضِدِّ ذلك، مع مُقابَلةِ فضْلِ اللهِ تعالى على المُحسِنِ بعَدْلِه مع المُسيءِ، على عادةِ القرآنِ مِن قَرْنِ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ، فقال[٢]:

﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ومَن جاء يومَ القيامةِ بالسَّيِّئةِ[٣] فلا يُثابُ أصحابُها إلَّا جَزاءَ ما عَمِلوه بلا زيادةٍ، ولا يُظلَمونَ بتَعذيبِهم على ما لم يَعمَلوا[٤].

كما قال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- العاقِلُ يَغبِطُ مَن أنفَقَ مالَه في سبيلِ الخَيراتِ، ونَيلِ عُلُوِّ الدَّرَجاتِ، والجاهِلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٤/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٠٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥١٩).

وقد تقدَّم تفسيرُ نظيرِ هذه الآيةِ في سورة النملِ الآية (٨٩) مع بيان الخلافِ الواقع في تفسير الحَسَنة، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَهُۥ خَيۡرٌ مِّنۡهَا﴾.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩١).

(٣) تقدَّم تفسيرُ نظيرِها في سورةِ النمل الآية (٨٩) مع بيان الخلافِ الواقِعِ في تفسيرِ السَّيِّئةِ.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٤٧).

يَغبطُ مَن أنفقَ مالَه في الشَّهَواتِ، وتوصَّلَ به إلى اللَّذَّاتِ المحَرَّماتِ؛ قال الله تعالى حاكيًا عن قارونَ: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠] إلى قَولِه: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1] [القصص: ٨٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴾ عُبِّرَ بالجَمعِ تَرغيبًا في التَّعاوُنِ؛ إشارةً إلى أنَّ الدِّينَ لصُعوبتِه لا يَستَقِلُّ به الواحِدُ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾ التَّحذيرُ مِن التَّعالي والبَغيِ على الخلْقِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ مَدْحُ مَن لا يريدُ العلوَّ في الأرضِ ولا الفَسادَ، وهو أعظمُ مِن مَدْحِ مَن لا يَعلو ولا يُفسِدُ، ووجْهُ ذلك: أنَّ انتفاءَ الإرادةِ يَلزَمُ منه انتفاءُ الفِعلِ، أمَّا انتفاءُ الفِعلِ فلا يَلزَمُ منه انتفاءُ الإرادةِ؛ فقد يريدُ الإنسانُ العلوَّ والفسادَ ولكنْ لا يَعلو ولا يُفسدُ؛ لعدَمِ تَمَكُّنِه، أو لسَبَبٍ مِن الأسبابِ، أمَّا الَّذي لا يريدُ فهو أكمَلُ[4].

٥- طلَبُ شرَفِ الدُّنيا والرِّفعةِ فيها، والرِّياسةِ على النَّاسِ والعُلوِّ في الأرضِ أضَرُّ على العبدِ مِن طلَبِ المالِ، وضرَرُه أعظَمُ، والزُّهدُ فيه أصعَبُ؛ فإنَّ المالَ

---

(١) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٧٧).

يُبذَلُ في طلبِ الرِّياسةِ والشَّرَفِ.

**والحِرصُ على الشَّرَفِ على قِسْمَينِ:**

**أحدهما:** طلَبُ الشَّرفِ بالولايةِ والسُّلطانِ والمالِ. وهذا خطرٌ جدًّا، وهو الغالبُ، يمنعُ خيرَ الآخرةِ وشرَفَها، وكرامتَها وعِزَّها؛ قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ...﴾ الآيةَ. وقَلَّ مَن يَحرِصُ على رياسةِ الدُّنيا بطلَبِ الولاياتِ فوُفِّقَ؛ بل يُوكَلُ إلى نفْسِه.

**الثَّاني:** طلَبُ الشَّرفِ والعُلوِّ على النَّاسِ بالأمورِ الدِّينيَّةِ؛ كالعِلمِ والعملِ والزُّهدِ، فهذا أفحَشُ مِنَ الأوَّلِ وأقبَحُ وأشَدُّ فسادًا وخطرًا؛ فإنَّ العِلمَ والعملَ والزُّهدَ إنَّما يُطلبُ بها ما عندَ الله مِنَ الدَّرَجاتِ العُلَى والنَّعيمِ المُقيمِ، ويُطلَبُ بها ما عندَ الله والقُرب منه والزُّلْفى لَديهِ[1].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يؤخَذُ منه فضيلةُ التَّقْوى[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذَمَّ سُبحانَه وتعالى مُتَمَنِّي الدُّنيا والغِنى والسَّعةِ فيها، ومَدَح مَن أنْكَر عليهم وخالفَهم، فقال تعالى عن أغنى أهلِ زمانِه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٧٠-٧١، ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٢).

قَـٰرُونُ ﴾ أنَّ ذوي النَّظَرِ القاصرِ يَتمنَّونَ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا[١].

٣- قالوا: ﴿يَـٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَـٰرُونُ﴾ ولم يَقولوا: يا لَيْتَ لنا ما أُوتيَ قارونُ، بل قالوا: مِثلَه؛ قيل: لأنَّهم لو قالوا: لَيْتَ لنا ما أُوتيَ قارونُ، كان ذلك حسَدًا؛ لأنَّهم يَتمَنَّوْنَ بذلك زَوالَ النِّعمةِ عنه[٢].

٤- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ إنَّما لم يُوصَفوا بإرادةِ ثَوابِ الآخِرةِ؛ تَنْبيهًا على أنَّ العِلْمَ بأحوالِ النَّشْأتينِ يَقتضِي الإعراضَ عن الأُولى، والإقبالَ على الثَّانيةِ حتمًا، وأنَّ تَمَنِّي المُتَمَنِّينَ ليس إلَّا لعدمِ عِلْمِهم بهما كما يَنبغي[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ﴾ إيثارُ ثَوابِ الآجِلِ على العاجِلِ هي حالةُ العُلَماءِ، فمَن كان هكذا فهو عالِمٌ، ومَن آثَرَ العاجِلَ على الآجِلِ فليس بعالِمٍ[٤]، فأهلُ العلمِ الَّذين يَعلمونَ حقائقَ الأمورِ يَدرونَ أنَّ هذه الدُّنيا ليست بشَيءٍ، وأنَّ ثوابَ الآخرةِ أعظَمُ وأجَلُّ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ إخبارٌ أنَّه ما يُلَقَّى الأعمالَ الصَّالحةَ وجزاءَها والحُظوظَ العظيمةَ إلَّا أهلُ الصَّبرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦).

(٤) هذه الفائدةُ للوزيرِ ابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس))، كما في ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٣).

(٦) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٥٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ إنَّما كانت عقوبتُه بالخَسفِ؛ لأنَّه كان باغيًا عاليًا متكبِّرًا، فأُخِذَ بما يُناسِبُ حالَه، فالعالي أشدُّ عقُوبةٍ له أنْ يُنزَلَ مِن مكانتِه العاليةِ؛ ولهذا كانتِ العقوبةُ مُناسِبةً للعَمَلِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وممَّن خَسَفَ اللهُ به الأرضَ قارونُ ودارُه[١]، فإنَّه لَمَّا انتَهَتْ بقارونَ حالةُ البَغيِ والفَخرِ، وازَّيَّنتِ الدُّنيا عندَه، وكَثُرَ بها إعجابُه؛ بَغَتَه العذابُ؛ جزاءً مِن جنسِ عَمَلِه، فكما رَفَعَ نفْسَه على عبادِ اللهِ، أنزَلَه اللهُ أسفَلَ سافلينَ هو وما اغترَّ به مِن دارِه وأثاثِه ومَتاعِه[٢]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ أنَّ هذا الخَسفَ خارِقٌ للعادةِ؛ لأنَّه لم يتناوَلْ غيرَ قارونَ ومَن ظاهَرَه، وغيرَ دارِ قارونَ؛ فهو معجزةٌ لموسى عليه السَّلامُ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى إذا أنزَلَ العقوبةَ بأحدٍ؛ فليس له ناصرٌ دونَ اللهِ، ولو عَظُمَتْ قوَّتُه، وكَثُرَ جندُه[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ سؤالٌ: ألَا يُشْكِلُ على هذا ما كان عليه أهلُ الكفرِ مِن النَّعيمِ والتَّرفِ في الدُّنيا؟

**الجوابُ**: لا يُشْكِلُ؛ لأنَّهم لم يُفلحوا، حتَّى وإنْ نُعِّمُوا في الدُّنيا فلا يُفيدُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٦٦).

النَّعيمُ، وهم إذا ماتوا انتقَلوا إلى الجحيم، فهذا النَّعيمُ في الحقيقةِ يكونُ وبالًا عليهم؛ لأنَّه يَتحوَّلُ بعدَ ذلك إلى عذابٍ(١).

١١- قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فمَن أرادَ العُلُوَّ في الأرضِ والفَسادَ لم يكُنْ مِن أهلِ السَّعادةِ في الآخِرةِ(٢).

١٢- قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لَمَّا كان المقصودُ الأعظمُ طَهارةَ القلبِ الَّذي عنه يَنشأُ عَمَلُ الجَوارحِ، قال: ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾، ولم يَقُلْ: «يَتعاطَونَ» مثلًا؛ تعظيمًا لضَرَرِ الفَسادِ بالتَّنفيرِ مِن كلِّ ما كان منه تَسَبُّبٌ؛ إعلامًا بأنَّ النُّفوسَ ميَّالةٌ إليه، نزَّاعةٌ له، فمهما رَتَعَتْ قريبًا منه اقتحمَتْه لا محالةَ(٣).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ فيه أنَّ النِّيَّةَ لها أثرٌ؛ فالإرادةُ بمعنى النِّيَّةِ(٤).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ لم يُعَلِّقْ تعالى الوعدَ بتركِ العلوِّ والفَسادِ، ولكنْ بتركِ إرادتِهما ومَيلِ القلوبِ إليهما، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [هود: ١١٣]، فعَلَّقَ الوعيدَ بالرُّكونِ(٥).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ العاقبةُ هي النِّهايةُ الَّتي تَعقُبُ ما سَبَقَها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢١).

وهذه للمُتَّقينَ، فمَن كان مُتَّقيًا لله عزَّ وجلَّ فالعاقبةُ له في كلِّ حالٍ، ولكنَّها تكونُ له باعتبارِ شخصِه وعملِه أحيانًا، وتكونُ له باعتبارِ عملِه دونَ شخصِه، فالإنسانُ المتَّقي للهِ عزَّ وجلَّ لا بُدَّ أنْ تكونَ العاقبةُ له، حتَّى لو اعتدَى عليه مَن يعتدي؛ فإنَّ العاقبةَ له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1] [الأنبياء: ١٠٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ أنَّ جَزاءَ الحسنةِ خيرٌ منها بالكَمِّيَّةِ والكيفيَّةِ؛ أمَّا الكَمِّيَّةُ فالحسنةُ بعَشرِ أمثالِها، وأمَّا الكيفيَّةُ فإنَّ جزاءَ الحَسَنةِ دائِمٌ، وفِعْلَ الحسنةِ ليس بدائمٍ؛ فالفعلُ ينتهي بموتِ الإنسانِ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾[2] [الأعلى: ١٦، ١٧].

١٧- ثوابُ اللهِ سبحانه وتعالى دائرٌ بينَ العَدلِ والفَضلِ، وهذان قِسْمانِ: الفَضلُ بالنِّسبةِ للمُحسِنينَ، كما قال تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ﴾، والعَدلُ بالنِّسبةِ للمُسيئينَ، كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أمَّا الجَورُ فهذا ممتنِعٌ في حقِّ اللهِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، فجزاءُ اللهِ تعالى دائرٌ بيْنَ الفضلِ والعدلِ؛ فهو محمودٌ على كلِّ حالٍ؛ لأنَّه إمَّا عَدْلٌ، وإمَّا فَضْلٌ[3].

١٨- قال الله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مَن جَاءَ﴾ في الموضِعَينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٢).

إشارةٌ إلى أنَّ المدارَ على مجيءِ الإنسانِ بذلك، لا على عَمَلِه؛ فقد يعمَلُ الحَسَنةَ ثمَّ يَرِدُ عليها ما يُبطِلُها، فمثلًا: هناك إنسانٌ عَمِلَ صَدَقةً، ثم مَنَّ بها أو آذَى مَن تصَدَّقَ عليه، فلا تكونُ هذه صَدقةً، بل تَبطُلُ، ولا يُثابُ عليها يومَ القيامةِ. وإنسانٌ آخَرُ عَمِلَ سَيِّئةً، لكِنَّه تاب منها، فذَهَبت السَّيِّئةُ، فلا يأتي بها يومَ القيامةِ[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أنَّ عدَمَ مُضاعَفةِ السَّيِّئةِ عامٌّ في مكَّةَ وفي غيرِها، ووجْهُه: أنَّ الآيةَ عامَّةٌ ليس فيها استِثناءٌ، ثمَّ إنَّ سورةَ (القَصَص) مكِّيَّةٌ؛ نزلتْ بمكَّةَ، والآيةُ نزلتْ بمكَّةَ، ولم يَستثنِ شيئًا، لكنَّ السَّيِّئةَ في مكَّةَ تكونُ عقوبتُها أشدَّ وأبلغَ إيلامًا؛ فالسَّيِّئةُ لا تكونُ عشرَ سيِّئاتٍ، لكِنَّ جزاءَها يكونُ أشدَّ؛ فهي تُضاعَفُ لا مِن جهةِ الكَمِّيَّةِ، ولكِنْ مِن جهةِ الكيفيَّةِ، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[2] [الحج: ٢٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ دلَّتِ الفاءُ على أنَّ خروجَه بينَ قومِه في زينَتِه بعدَ ذلكَ كلِّه كان مِن أجْلِ أنَّه لم يُقَصِّرْ عن شَيءٍ مِن سيرَتِه، ولم يَتَّعِظْ بتلكَ المواعظِ ولا زمنًا قصيرًا، بل أعْقَبَها بخُروجِه هذه الخِرْجةَ المَليئةَ صَلَفًا وازْدِهاءً[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٠، ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٢، ١٨٣).

- وإنَّما فُصِلَتْ جملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ ولم تُعطَفْ على الَّتي قَبْلَها؛ لأنَّها تَتَنَزَّلُ مَنزلةَ بدَلِ الاشتمالِ؛ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه الزِّينةُ مِن أنَّها ممَّا يَتَمَنَّاهُ الرَّاغبونَ في الدُّنيا، وذلكَ جامِعٌ لأحوالِ الرَّفاهيةِ، وعلى أخْصَرِ وَجهٍ؛ لأنَّ الَّذين يُريدونَ الحياةَ الدُّنيا لهم أميالٌ مُختلفةٌ، ورَغباتٌ مُتفاوِتةٌ؛ فكلٌّ يَتَمَنَّى أُمنيَّةً ممَّا تَلبَّسَ به قارونُ مِن الزِّينةِ، فحَصَل هذا المَعنى مع حُصولِ الإخبارِ عن انْقِسامِ قومِه إلى مُغتَرِّينَ بالزَّخارفِ العاجلةِ عن غيرِ عِلْمٍ، وإلى عُلماءَ يُؤْثِرونَ الآجِلَ على العاجلِ. ولو عُطِفَتْ جملةُ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بالواوِ وبالفاءِ لَفاتتْ هذه الخُصوصيَّةُ البَليغةُ؛ فصارتِ الجملةُ إمَّا خبَرًا مِن جملةِ الأخبارِ عن حالِ قَومِه، أو جُزءَ خبرٍ مِن قِصَّتِه[1].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ تعليلٌ لتَمنِّيهم، وتأكيدٌ له[2]، والتَّوكيدُ كِنايةٌ عن التَّعجُّبِ؛ حتَّى كأنَّ السَّامعَ يُنكِرُ حَظَّه فيُؤكِّدُه المتكلِّمُ[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ فهي مُشارِكَةٌ لها في مَعناها؛ لأنَّ ما تَشتَمِلُ عليه خِرْجةُ قارونَ وما تدُلُّ عليه مَلامِحُه مِن فتنةٍ ببَهْرَجَتِه وبِزَّتِه؛ دالَّةٌ على قِلَّةِ اعتِدادِه بثوابِ اللهِ، وعلى تَمَحُّضِه للإقبالِ على لَذَائذِ الدُّنيا ومَفاخِرِها الباطلةِ؛ ففي كلامِ الَّذينَ أُوتوا العِلْمَ تَنبيهٌ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٣).

ذلكَ، وإزالةٌ لِمَا تَستَجلِبُه حالةُ قارونَ مِن نُفوسِ المُبْتَلَينَ بزَخارِفِ الدُّنيا[١].

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه في قولِه: ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ﴾؛ ليَتَمَكَّنَ الخبرُ في ذِهْنِ السامِعينَ؛ لأنَّ الابتداءَ بما يَدُلُّ على الثَّوابِ المُضافِ إلى أَوْسَعِ الكُرَماءِ كَرَمًا؛ ممَّا تَسْتَشْرِفُ إليه النَّفْسُ[٢].

- وعُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى المَوصوليَّةِ في قولِه: ﴿لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ دونَ: (خَيْرٌ لَكُمْ)؛ لِمَا في الإظهارِ مِن الإشارةِ إلى أنَّ ثوابَ اللهِ إنَّما يَنالُه المؤمنونَ الَّذين يَعمَلون الصَّالحاتِ، وأنَّه على حَسَبِ صِحَّةِ الإيمانِ ووفْرَةِ العمَلِ، مع ما في الموصولِ مِن الشُّمولِ لِمَنْ كان منهم كذلكَ ولغَيْرِهم ممَّن لم يَحْضُرْ ذلك المَقامَ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾

- دَلَّتِ الفاءُ في قولِه: ﴿فَخَسَفْنَا﴾ على تَعْقيبِ ساعةِ خُروجِ قارونَ في ازْدِهائِه، وما جَرَى فيها مِن تَمَنِّي قومٍ أنْ يكونوا مِثْلَه، وما أنْكَر عليهم عُلَماؤُهم مِن غَفْلَتِهم عن التَّنافُسِ في ثوابِ الآخرةِ بتَعْجيلِ عِقابِه في الدُّنيا بمَرْأًى مِنَ الَّذينَ تَمَنَّوْا أنْ يَكونوا مِثْلَه[٤].

- قولُه: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ﴾ (مِنْ) صِلةٌ، أي: مِن جماعةٍ تُفيدُ استِغْراقَ الفِئاتِ، وإذا انْتَفَتِ الجُملةُ، ولم يُقْدَرْ على نَصْرِه؛ فانتِفاءُ الواحدِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٨٥).

عن نُصْرتِه أبلَغُ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ ... ﴾ (أَصْبَحَ) إذا حُمِلَ على ظاهِرِه دلَّ على أنَّ الخَسْفَ به وبِدارِه كان ليلًا، وهو أفْظَعُ العذابِ؛ إذِ اللَّيلُ مَقَرُّ الرَّاحةِ والسُّكونِ، والأمسُ يَحتمِلُ أنْ يُرادَ به الزَّمانُ الماضي، ويَحتمِلُ أن يُرادَ به ما قبْلَ يومِ الخَسْفِ، وهو يومُ التَّمنِّي، ويدُلُّ عليه العطفُ بالفاءِ الَّتي تَقْتَضِي التَّعقيبَ في قولِه: ﴿ فَخَسَفْنَا ﴾؛ فيَكونُ فيه اعتِقابُ العذابِ خروجَه في زينَتِه، وفي ذلك تعجيلُ العذابِ[٢].

- قوله: ﴿ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ﴾ فائدةُ البيانِ بقولِه: ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ الإيماءُ إلى أنَّه في بَسْطَةِ الأرزاقِ وقَدْرِها مُتصَرِّفٌ تصرُّفَ المالِكِ في مِلْكِه؛ إذِ المَبْسوطُ لهم والمَقْدورُ عليهم كلُّهم عَبيدُه؛ فحَقُّهمُ الرِّضا بما قسَمَ لهم مَولاهُم[٣].

- وأعادَ ﴿ وَيْكَأَنَّ ﴾ بعدُ؛ لاتِّصالِ كلٍّ منهما بما لم يتَّصِلْ به الآخَرُ[٤]. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ تكريرٌ للتَّعجُّبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٨).

٥- قولُه تعالَى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ انْتَهَتْ قِصَّةُ قارونَ بما فيها مِنَ العِبَر مِن خَيرٍ وشرٍّ، فأُعقِبَتْ باستِئنافِ كلامٍ عنِ الجَزاءِ على الخيرِ وضِدِّه في الحياةِ الأبَديَّةِ، وأنَّها مُعَدَّةٌ لِلَّذينَ حالُهم بضِدِّ حالِ قارونَ، مع مُناسَبةِ ذِكْرِ الجَنَّةِ بعُنوانِ الدَّارِ لذِكْرِ الخَسْفِ بدارِ قارونَ؛ للمُقابَلةِ بيْنَ دارٍ زائلةٍ ودارٍ خالدةٍ، وابتُدِئَ الكلامُ بابْتِداءٍ مُشَوِّقٍ وهو اسمُ الإشارةِ إلى غيرِ مَذكورٍ مِن قَبْلُ؛ ليَسْتَشْرِفَ السَّامعُ إلى مَعرفةِ المُشارِ إليه فيَعْقُبُه بيانُه بالاسمِ المُعَرَّفِ باللامِ[١].

- قولُه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ﴾ إشارةُ تَعظيمٍ وتفخيمٍ لها؛ كأنَّه قيلَ: تلكَ الَّتي سَمِعتَ خبَرها وبلغَك وَصْفُها[٢]. والآخِرةُ: مُرادٌ به الدَّائِمةُ، أي: الَّتي لا دارَ بعْدَها؛ فاللَّفظُ مُستَعْمَلٌ في صَريحِ مَعناهُ وكِنايتِه[٣].

- وفي تَعليقِ المَوعِدِ بتَرْكِ إرادةِ العُلوِّ والفسادِ ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ لا بتَرْكِ أنفُسِهما؛ مَزيدُ تَحذيرٍ منهما[٤].

- ومَعنى ﴿لَا يُرِيدُونَ﴾ قيل: هي كِنايةٌ عن: (لا يَفْعلونَ)؛ لأنَّ مَن لَا يُريدُ الفِعلَ لا يَفْعَلُه إلَّا مُكْرَهًا[٥].

- وجاءَ التركيبُ بـ (لا) في قولِه: ﴿وَلَا فَسَادًا﴾؛ فدَلَّ على أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٠).

العُلُوِّ والفسادِ مَقصودٌ، لا مجموعُهما[١].

- قولُه: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تَذْييلٌ، وهو مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ...﴾، وبه صارتْ جملةُ ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ...﴾ كلُّها تَذْييلًا؛ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه مِن إثباتِ الحُكْمِ للعامِّ بالمَوصولِ مِن قولِه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والمُعرَّف بلامِ الاستِغراقِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

- تَتَنَزَّلُ جُملةُ ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ مَنزِلةَ بدَلِ الاشتِمالِ لجُملةِ ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ العاقِبةَ ذاتُ أحوالٍ مِن الخَيرِ، ودَرَجاتٍ مِن النَّعيمِ، وهي على حَسَبِ ما يَجيءُ به المُتَّقونَ مِن الحَسَناتِ، فتَفاوُتُ درجاتِهم بتفاوُتِها، واختيارُ فِعْلِ ﴿عَمِلُوا۟﴾ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ لِما فيه مِن التَّنْبيهِ على أنَّ عمَلَهم هو عِلَّةُ جَزائِهم؛ زِيادةٌ في التَّنبيهِ على عَدْلِ اللهِ تعالَى[٣].

- و(مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ) مَاصَدَقُه[٤]: ﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، و﴿ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الثَّاني هو عَيْنُ (مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ)؛ فكانَ المَقامُ مَقامَ الإضمارِ بأنْ يُقالَ: ومَنْ جاءَ بالسَّيئةِ فلا يُجْزَوْنَ... إلخ، ولكنَّه عَدَل عن مُقتَضَى الظاهرِ؛ لأنَّ في التَّصريحِ بوَصْفِهم بـ ﴿عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ تَكْريرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٠، ١٩١).

(٤) الماصَدَق عندَ المَناطِقةِ: الأفرادُ الَّتي يَتحقَّقُ فيها معنَى الكُلِّيِّ، ويُقابِلُه (المفهوم). يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار (٢/ ١٢٨٤).

لإسنادِ عَمَلِ السَّيِّئاتِ إليهم؛ لقَصْدِ تَهجينِ هذا العمَلِ الذَّميمِ، وتَبْغيضِ السَّيِّئةِ إلى قُلوبِ السَّامِعينَ مِن المُؤمنينَ(١).

- وفي قولِه: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ استِثناءٌ مُفَرَّغٌ -ناقصٌ مَنفيٌّ- عن فِعْلِ ﴿يُجْزَى﴾ المَنْفِيِّ المُفيدِ بالنَّفْيِ عُمومَ أنواعِ الجَزاءِ، والمستثنَى تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: جزاءٌ شِبْهُ الَّذي كانوا يَعْمَلونَه(٢).

- قولُه: ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلَّا مِثْلَ ما كانوا يَعمَلون؛ فحُذِفَ المِثْلُ، وأُقيمَ مُقامَه ﴿مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ مُبالَغةً في المُماثَلةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧).

## الآيات (٨٥-٨٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ﴾: أي: لا يَصْرِفُنَّكَ، والصُّدودُ والصَّدُّ قد يكونُ انصِرافًا عن الشَّيءِ وامتناعًا؛ إذا كان لازمًا غيرَ مُتَعَدٍّ، وقد يكونُ صَرفًا ومنعًا؛ إذا كان مُتعدِّيًا، بمعنى: يصَدُّون غيرَهم، وأصلُ (صدد): إعراضٌ وعدولٌ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُبَشِّرًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ اللهَ الَّذي أنزَلَ عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- وأوجَبَ عليك تِلاوتَه وتَبليغَه والعملَ به؛ سوف يَرُدُّك إلى مكَّةَ مِن بعدِ خُروجِك منها.

ثمَّ يأمُرُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يرُدَّ على دعاوى المشركينَ، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ مِن قَومِك: ربِّي أعلَمُ بمَن جاء بالحقِّ مِن عندِه ومَن هو في ضَلالٍ واضِحٍ.

ثمَّ يُذكِّرُ الله تعالى نبيَّه بنعمتِه العظيمةِ عليه وعلى العبادِ إذْ أرْسَله إليهم، فيقولُ: وما كنتَ تظُنُّ أن يُنزِلَ اللهُ عليك القُرآنَ، لكنَّ اللهَ أنزَلَه عليك رحمةً منه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨ب/ ١٣٩).

سُبحانَه؛ فلا تَكونَنَّ -يا محمَّدُ- مُعينًا للكافرينَ، ولا يَصرِفَنَّك هؤلاء الكفَّارُ عن آياتِ القُرآنِ بعدَ أن أنزَلْناها إليك، وادْعُ النَّاسَ إلى عبادةِ رَبِّك، ولا تَكونَنَّ مِنَ المُشرِكينَ، ولا تَعبُدْ مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ؛ فإنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ، كُلُّ شَيءٍ فانٍ إلَّا ذاتَ اللهِ سُبحانَه وبِحَمدِه، وله وَحْدَه الحُكْمُ بيْنَ عِبادِه، وإليه وحْدَه تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم للجَزاءِ والحِسابِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح سُبحانَه لرَسولِه أمْرَ القيامةِ واستَقصَى في ذلك؛ شَرَحَ له ما يتَّصِلُ بأحوالِه[1].

وأيضًا بعدَ أنْ ذكر قصصَ موسى وقَومِه مع قارونَ، وبيَّن بَغْيَ قارونَ واستِطالتَه عليهم، ثمَّ هلاكَه، ونُصرةَ أهلِ الحقِّ عليه؛ أردَف هذا قصصَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه مع قومِه، وإيذائِهم إيَّاه، وإخراجِهم له مِن مَسقِطِ رأسِه، ثمَّ إعزازِه إيَّاه بالإعادةِ إلى مكَّةَ، وفتْحِه إيَّاها منصورًا ظافرًا[2].

وأيضًا لَمَّا قَرَّرَ ذِكْرَ الآخرةِ الَّتي هي المرجِعُ، وكَرَّرَه، وأثبَتَ الجزاءَ فيها، وأنَّ العاقبةَ للمُتَّقينَ؛ أتْبَعَه ما هو في بيانِ ذلك كالعلَّةِ؛ فقال مستأنِفًا مقَرِّرًا مؤكِّدًا لِمَا تقرَّرَ في أذهانِهم مِن إنكارِ الآخرةِ وما يقتضيه حالُ خروجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ١٠٤).

مِن مكَّةَ المُشرَّفةِ مِن استبعادِ رَدِّه إليها[١]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الَّذي أنزل عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- وأوجَبَ عليك تِلاوتَه وتَبليغَه والعملَ به: لَرادُّك إلى مكَّةَ مِن بَعدِ خُروجِك منها[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٤٥، ٣٥١، ٣٥٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٧، ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٤-٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٣-٣٨٥).

قال الزَّجَّاجُ: (معنَى ﴿فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: أنزلَه عليك وألْزَمَك، وفرَضَ عليك العملَ بما يُوجِبُه القرآنُ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٥٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: مكَّة: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والفَرَّاءُ، والسمرقندي، والواحدي، والرازي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والألوسي، ونسبه السمعانيُّ للأكثَرينَ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٥٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١١)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ يومُ القيامةِ، وأنَّ المَعادَ هو البعثُ: الماتُريديُّ، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عثيمين، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ، ونسَبَه مكِّيٌّ للزَّجَّاجِ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٨/ ٥٥٨٧). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٥٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: المقامُ المحمودُ: أبو السُّعودِ، والشربينيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٤١).

قال البِقاعي: (﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أي: مَرجِعٍ عظيمٍ يا لَه مِن مرجعٍ! يُجزى فيه كلُّ أحدٍ بما عمِل، =

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

وجهُ تَعَلُّقِ هذه الآيةِ بما قبْلَها أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا وَعَد رسولَه الرَّدَّ إلى مَعادٍ، قال: ﴿قُل﴾ للمشركينَ ﴿رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾ يعني: نفْسَه، وما يَستحِقُّه مِنَ الثَّوابِ في المعادِ، والإعزازِ بالإعادةِ إلى مكَّةَ، ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ يَعْنيهم وما يَستحِقُّونَ مِنَ العقابِ في مَعادِهم[1].

﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: ربِّي أعلَمُ بالَّذي جاء بالحَقِّ مِن عِندِه أنا أو أنتم، وأعلَمُ بمَن هو منَّا ومِنكم في ضَلالٍ واضِحٍ[2].

---

= فيَبعَثُك ربُّك فيه -ثوابًا على إحسانِك في العملِ- مقامًا محمودًا يَغبِطُك فيه الأوَّلونَ والآخِرونَ، بما عانَيْتَ في أمرِه مِن هذه المشَقَّاتِ الَّتي لا تَحمِلُها الجبالُ، ولولا الرَّدُّ إلى إلى هذا المَعادِ لكانت هذه التَّكاليفُ -الَّتي لا يعملُ أكثرُهم بأكثَرِها، ولا يُجازى على المخالفةِ فيها- مِنَ العبثِ المعلومِ أنَّ العاقلَ مِنَ الآدَميِّينَ مُتنزِّهٌ عنه، فكيف بأحكَمِ الحاكِمينَ؟! فاجتهِدْ فيما أنت فيه لعِزِّ ذلك اليومِ؛ فإنَّ العاقبةَ لك). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٧٥).

وقال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَر ما جاء عن ابنِ عبَّاسٍ مِن رواياتٍ في معنى ذلك، ومنها أنَّ المرادَ: لَرادُّك إلى الجنَّةِ، وفي روايةٍ: إلى يومِ القيامةِ، وفي روايةٍ: إلى الموتِ، وفي روايةٍ: إلى مكَّةَ- قال: (وجْهُ الجَمعِ بينَ هذه الأقوالِ: أنَّ ابنَ عبَّاسٍ فسَّر ذلك تارةً برُجوعِه إلى مكَّةَ، وهو الفَتحُ الَّذي هو عندَ ابنِ عبَّاسٍ أمَارةٌ على اقتِرابِ أجَلِه... وفسَّر ابنُ عبَّاسٍ تارةً أخرى قَولَه: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ بالموتِ، وتارةً بيومِ القيامةِ الَّذي هو بعدَ الموتِ، وتارةً بالجنَّةِ الَّتي هي جزاؤُه ومَصيرُه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٢٨٢).

﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ ٨٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان رجوعُه صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى مكَّةَ غايةَ البُعدِ؛ لكثرةِ الكفَّارِ، وقِلَّةِ الأنصارِ؛ قرَّبه تعالى بقولِه مُعلِمًا أنَّ كثيرًا مِن الأمورِ تكونُ على غيرِ رجاءٍ، بل وعلى خِلافِ القياسِ[1].

﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: وما كُنتَ -يا مُحمَّدُ- تَظُنُّ أن يُنزِلَ اللهُ عليك القُرآنَ، لكِنَّ اللهَ أنزله عليك رحمةً منه بك وبِعبادِه[2].

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تَسَبَّبَ عمَّا تَقَدَّمَ الاجتِهادُ في تحريكِ الهِمَمِ إلى العُكوفِ على أمْرِ اللهِ؛ طَمَعًا فيما عِندَه سُبحانَه مِن الثَّوابِ، وشُكرًا على إنزالِ الكِتابِ- قال في سياقِ التَّأكيدِ؛ لأنَّ الطَّبعَ البَشريَّ يقتضي إدراكَ مُظاهَرةِ الكُفَّارِ لأمرٍ مِن التَّوفيقِ عَظيمٍ؛ لِكَثرتِهم وقُوَّتِهم وعِزَّتِهم[3]:

﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٧٩).

أي: فلا تكونَنَّ -يا مُحمَّدُ- مُعينًا للكافِرينَ[١].

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾.

أي: ولا يَصرِفَنَّك الكُفَّارُ -يا مُحمَّدُ- بكَذِبِهم وأذاهم ومَكرِهم عن آياتِ القُرآنِ بعدَ أن أنزَلْناها إليك؛ لِتَتلوَها عليهم، وتعمَلَ بها؛ فلا تُبالِ بهم، ولا تتأثَّرْ بمُخالفتِهم لك، واتِّباعِ أهوائِهم، وامْضِ لِما أُمِرْتَ به[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ۞ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٣، ٧٤].

وقال سبحانه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٥، ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٨).

قال جلال الدين المحلي: (﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ ﴾ أصْلُه يَصُدُّونَنَّكَ، حُذِفَت نُونُ الرَّفعِ للجازمِ، والواوُ للفاعلِ؛ لالْتِقائِها مع النُّونِ السَّاكنةِ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٢٠).

أي: لَمَّا دخلت (لا) النَّاهيةُ على (يَصُدُّونَنَّكَ) وجَب حذفُ النُّونِ الأولى للجزمِ، فصارت: يَصُدونَّك، فلمَّا حُذِفَتِ النُّونُ الأُولى الْتَقَتْ واوُ الفاعلِ السَّاكنةُ مع النُّونِ المُشَدَّدةِ، وهي عبارةٌ عن نُونَينِ: الأُولى ساكنةٌ والثَّانيةُ مُتحرِّكةٌ، وإذا الْتَقى ساكِنانِ وجَب حذْفُ الأوَّلِ منهما. يُنظر: ((تفسير العثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٧). ويُنظر أيضًا: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ٢٩١) و(٨/ ٧٠١).

﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾.

أي: وادْعُ النَّاسَ -يا مُحمَّدُ- إلى رَبِّك؛ لِعبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له[1].

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: ولا تَكونَنَّ -يا مُحمَّدُ- مَعدودًا مِنَ المُشرِكينَ[2].

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾.

﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨١).

قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاس: هو مُخاطَبةٌ لأهلِ دينِه. يعني: أنَّ هذا الخِطابَ وإن كان ظاهِرُه له، فالمرادُ به أهلُ دينِه، أي: لا تُظاهِروا الكفَّارَ ولا توافِقوهم، وكذلك قولُه: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: لا تَعبُدْ معه غيرَه. قال ابنُ عبَّاس: هذا تخويفٌ للمشركين، وأمَّا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقد عصَمَه الله مِن أن يَتَّخِذَ معه إلهًا آخَرَ. يريدُ: أنَّه إذا نُهيَ عن عبادةِ غيرِ الله، كان ذلك تخويفًا لِمَن عبَدَ معه غيرَه. وهذا فائدةُ النَّهيِ عن عبادةِ غيرِه بعدَ أن عُصِم عن ذاك، وحُكِم له بالنُّبوَّةِ في سابقِ الحُكم). ((البسيط)) (١٧/ ٤٧٨).

وقال السمعاني: (وقَولُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ أي: اثْبُتْ على التَّوحيدِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٣).

وقال ابن جرير: (﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ يقولُ: ولا تَترُكَنَّ الدُّعاءَ إلى رَبِّك، وتبليغَ المشركينَ رسالَتَه، فتكونَ مِمَّنْ فَعَلَ فِعْلَ المشركينَ بمعصيَتِه رَبَّه، وخِلافِه أمْرَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣).

أي: ولا تَعبُدْ -يا مُحمَّدُ- مع اللهِ مَعبودًا غَيْرَه، وأخلِصْ عِبادتَك للهِ وَحْدَه[١].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وَحْدَه، وكُلُّ مَعبودٍ سِواه فهو باطِلٌ[٢].

﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾.

أي: كلُّ شَيءٍ فانٍ إلَّا ذاتَ اللهِ تعالى، وكُلُّ عَمَلٍ باطلٌ إلَّا ما أُريدَ به وَجْهُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨١، ٣٨٢).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالوَجهِ هنا: الذَّاتُ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠٥، ٤٠٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٧).

وفي قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ إن أُريدَ بالوَجهِ الذَّاتُ، بمعنى: أنَّ الله تعالى يبقى هو نفْسُه مع إثباتِ الوَجهِ لله، فهذا صَحيحٌ، ويكون هنا عبَّرَ بالوجهِ عن الذَّاتِ لِمَن له وَجهٌ، ويكون المرادُ بالآيةِ: إلَّا ذاتَه المتَّصِفةَ بالوَجهِ.

وإنْ أُريدَ بتفسيرِ الوجهِ بالذَّاتِ: أنَّ الوَجهَ عبارةٌ عن الذَّاتِ بدونِ إثباتِ الوَجهِ، فهذا غيرُ مَقبولٍ، وهو تحريفٌ. يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٤٣).

وقيل: المرادُ به: إخلاصُ العَمَلِ لله تعالى، فكُلُّ عَمَلٍ باطِلٌ إلَّا ما أُريدَ به وَجهُه سبحانه. ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ لجمهورِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٨٣).

قال ابن تيميَّة: (قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ يَقْتَضي أظهرَ الوجهَيْنِ، وهو أنَّ كلَّ شيءٍ هالِكٌ إلَّا ما كان لوجهِه مِن الأعيانِ والأعمالِ وغيرِهما). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤٢٧). =

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أصدَقُ كَلِمةٍ قالها الشَّاعِرُ كَلِمةُ لَبيدٍ:

أَلَا كُلُّ شَيءٍ ما خلا اللهَ باطِلُ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((قال اللهُ تبارك وتعالى: أنا أغْنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ، مَن عَمِلَ عمَلًا أشرَكَ فيه معيَ غَيري ترَكْتُه وشِرْكَه))(٢).

﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾.

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، والثَّوريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾: إخبارٌ بأنَّه الدَّائمُ الباقي الحيُّ القَيُّومُ، الَّذي تموتُ الخلائقُ ولا يموتُ، كما قال تعالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]، فعبَّر بالوجهِ عن الذاتِ، وهكذا قولُه هاهنا: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي: إلَّا إيَّاه... وقال مجاهدٌ والثَّوريُّ في قَولِه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أيْ: إلَّا ما أُريدَ به وجهُه،... وهذا القولُ لا ينافِي القولَ الأوَّلَ؛ فإنَّ هذا إخبارٌ عن كلِّ الأعمالِ بأنَّها باطِلةٌ إلَّا ما أُريدَ بها وجهُ اللهِ عزَّ وجلَّ مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ المطابقةِ للشَّريعةِ. والقولُ الأوَّلُ مُقتضاهُ أنَّ كلَّ الذَّواتِ فانيةٌ وهالكةٌ وزائلةٌ إلَّا ذاتَه تعالَى؛ فإنَّه الأوَّلُ الآخِرُ، الَّذي هو قبْلَ كلِّ شَيءٍ، وبعدَ كلِّ شيءٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦١).

وقال البقاعي: (لعلَّه عَبَّرَ عن الذَّاتِ بالوجهِ؛ لِيشملَ ما قُصِدَ به مِن العملِ الصَّالحِ، مع ما هو معروفٌ مِن تسويغِه لذلك بكَونِه أشرَفَ الجملةِ، وبكونِ النَّظرِ إليه هو الحامل على الطَّاعةِ بالاستحياءِ، وما في معناه). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٣٨٢).

(١) رواه البخاري (٣٨٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٢٥٦).

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٥).

أي: لله وَحْدَه الحُكمُ بينَ عِبادِه في الدُّنيا والآخرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازي كُلًّا مِنكم بعَمَلِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قوله تعالى: ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ دَلالةٌ على نُبُوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه أَخبرَ عن الغيبِ ووَقَعَ ما أخبَرَ به، فيكونُ مُعجِزًا[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ فيه إثباتُ عِلْمِ اللهِ، وأنَّه أكمَلُ العُلومِ؛ لأنَّ ﴿أَعْلَمُ﴾ اسمُ تفضيلٍ؛ فيقتضي أنْ يكونَ أفضلَ العُلومِ[٤].

٣- في قولِه تعالى: ﴿أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أنَّ ما عدا الهدَى فهو ضلالٌ؛ وأنَّه ليس ثمَّةَ واسطةٌ بينَ الهدَى والضلالِ، ومِن شواهدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٦٨).

قال ابنُ عثيمين: (الصَّحيحُ أنَّه يشملُ الحُكمَ الكونيَّ والشَّرعيَّ، وله القَضاءُ النَّافِذُ على كلِّ أحدٍ، وله أيضًا الفَصلُ بيْنَ الخَلقِ بالأحكامِ الشَّرعيةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٨).

هذا الأمرِ قولُه تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ [يونس: ٣٢]، ومِثْلُ قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١] [سبأ: ٢٤].

٤- بيانُ تكذيبِ الذين قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]؛ فالكُفَّارُ يقولونَ: إنَّما يُعَلِّمُ محمَّدًا القُرآنَ بشرٌ. فلو كان الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتعلَّمُ مِن بَشَرٍ لكان متطلِّعًا لهذا القرآنِ، واللهُ يقولُ: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾، فالرسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما كان يَتَطَلَّبُ الرسالةَ، ولا خطرتْ له على بالٍ[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أنَّ هذا القرآنَ الذي جاء به محمدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رحمةٌ للخلْقِ، رحمةٌ في الدنيا والآخرةِ، ففي الدنيا تستقرُّ الأمورُ، وتصْلُحُ أحوالُهم، ويَعلو أمْرُهم، وفي الآخرةِ يكونون في جناتِ النعيمِ، فهذا القرآنُ رحمةٌ أولًا وآخرًا، وهو أعظمُ نعمةٍ مِن اللهِ سبحانه وتعالى، وأعظمُ مِن نزولِ المطرِ الذي تحيا به الأرضُ؛ لأنَّ القرآنَ تحيا به القلوبُ، وتصْلُحُ به الأعمالُ، وبحياة القلوبِ والأعمالِ تحيا الأرضُ، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣] [الأعراف: ٩٦].

٦- قَولُه تعالى: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ فيه إثباتُ ربوبيَّةِ اللهِ الخاصَّةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فهذا يقتَضي ربوبيَّةً خاصَّةً، كما أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ له عُبوديةٌ خاصَّةٌ. فعبوديَّتُه خاصةٌ، وربوبيَّةُ اللهِ له خاصَّةٌ أيضًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ تحريمُ مُظاهرةِ الكُفَّارِ -أي: مُعاونتِهم-؛ لأنَّ النَّهيَ للتَّحريمِ، لا سيَّما وقد أُكِّدَ بنونِ التَّوكيدِ[١].

٨- إذا قيل: ما الفائِدةُ مِن قَولِه: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾، وأصلُ النَّهي ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ لا يَقَعُ إلَّا إذا كانت نازِلةً؟ فهل هذا الكَلامُ لَغوٌ لا فائدةَ منه؟

**الجوابُ**: لا، ليس لَغوًا لا فائِدةَ منه، بل فيه فائِدةٌ، وهو تذكيرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ الإنزالِ، حتى يكونَ ذلك أثبَتَ له؛ فإنَّها إذا كانت أُنزِلَت إليه مِن عندِ الله فإنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أن يَصُدَّه عنه[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ سؤالٌ: أنَّ هذا لا يَقَعُ منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فما فائدةُ ذلك النَّهيِ؟

**الجوابُ مِن أوجُهٍ:**

**أولًا**: أنَّه ذُكِرَ للتَّهييجِ والإلهابِ، وقَطعِ أطماعِ المُشركينَ عن مُساعدتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ لهم، وإظهارِ أنَّ المنهيَّ عنه في القُبحِ والشَّرِّيةِ بحيثُ يُنهَى عنه من لا يُمكِنُ صُدورُه عنه أصلًا[٣].

**ثانيًا**: أنَّ الخطابَ وإنْ كان معه، لكِنَّ المرادَ غيرُه، كما في قَولِه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٤] [الزمر: ٦٥] فهذه الأوامِرُ والنواهي وإن كان خِطابُها مُتَوجِّهًا إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فالمقصودُ بها أتباعُه، ولعَلَّها إنَّما وُجِّهَت إليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٨، ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٣).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ أمرَ الرئيسِ أدعى لأتباعِه إلى القَبولِ[١].

**ثالثًا:** أنَّ النهيَ عن الشيءِ قد يُوَجَّه إلى مَن لم يقعْ منه كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، فمن المعلومِ أنهم لم يصدُّوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن آياتِ الله! وأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يقَعْ منه شركٌ! والغرضُ مِن توجيهِ النهيِ إلى مَن لا يقعُ منه: التنديدُ بمَن وقعَ منهم؛ والتحذيرُ مِن منهاجهم[٢].

١٠- قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذا النفيُ لا يَتعارضُ مع ما قَبْلَه ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾! لأنَّ ما قَبْلَه باعتبارِ أنَّه إلهٌ باطلٌ، والثاني باعتبارِ أنَّه إلهٌ حقٌّ؛ فلا إلهَ حقٌّ إلَّا اللهُ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أنَّ اللهَ تعالى شَيءٌ، لأنَّه استثنَى مِن قولِه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ استثناءً يُخرِجُ ما لولاه لوَجَبَ أو لَصَحَّ دخولُه تحتَ اللَّفظِ؛ فوَجَبَ كونُه شيئًا، يؤكِّدُه ما في سورةِ الأنعامِ، وهو قولُه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾[٤] [الأنعام: ١٩]، فيصحُّ إطلاقُ لفظةِ (شيء) على الله عَزَّ وجلَّ أو على صفةٍ مِن صفاتِه، لكن لا يقالُ: (الشيء) اسمٌ مِن أسمائِه تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (المقدمة/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٢١٧).

قال البخاري: (باب ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾. وسَمَّى اللَّهُ تعالَى نفْسَه شيئًا، وسمَّى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ القرآنَ شيئًا وهو صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ. وقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾). (كتاب بَدْء الوحي) من ((صحيح البخاري)) (٩/ ١٥١).

١٢- خُلِقت الجَنَّةُ وما فيها، وخُلِقَت النَّارُ وما فيها؛ خلَقَهما اللهُ عَزَّ وجَلَّ وخَلَقَ الخَلْقَ لهما، ولا يَفْنَيانِ ولا يفنى فيهما ما فيهما أبدًا، فإذا احتَجَّ مُبتَدِعٌ أو زِنديقٌ بقَولِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ وبنَحوِ هذا مِن مُتشابهِ القُرآنِ، قيل له: كُلُّ شَيءٍ مِمَّا كَتَب اللهُ عليه الفَناءَ والهلاكَ هالِكٌ، والجنَّةُ والنَّارُ خَلَقهما اللهُ للبَقاءِ لا للفَناءِ ولا للهَلاكِ، وهما مِنَ الآخرةِ لا مِنَ الدُّنيا(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إثباتُ صِفةِ الوَجهِ لله عزَّ وجَلَّ، وهو ثابتٌ بالقُرآنِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلَفِ(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ الآيةُ ابتِداءُ كَلامٍ؛ للتَّنويهِ بشأنِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَثْبيتِ فُؤادِه، ووعْدِه بحُسْنِ العاقبةِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وإنَّ إنكارَ أهلِ الضَّلالِ رسالتَه لا يَضيرُه؛ لأنَّ اللهَ أعْلَمُ بأنَّه على هدًى، وأنَّهم على ضلالٍ بعدَ أنْ قَدَّمَ لذلكَ مِن أحوالِ رِسالةِ موسى عليه السَّلامُ ما فيه عبرةٌ بالمقارنةِ بينَ حالَي الرَّسولَينِ وما لَقِيَاهُ مِن المُعْرِضينَ(٣).

- وافتِتاحُ الكَلامِ بحَرْفِ التأكيدِ للاهتِمامِ به، وجِيءَ بالمُسنَدِ إليه اسمٌ مَوصولٌ (الَّذي) دونَ اسمِه تعالَى العلَم؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن الإيماءِ إلى وَجْهِ بِناءِ الخبَرِ، وأنَّه خبَرُ الكَرامةِ والتَّأْييدِ، أي: إنَّ الذي أعطاكَ القُرآنَ ما كان إلَّا مُقَدِّرًا نَصْرَكَ وكرامتَكَ؛ لأنَّ إعطاءَ القرآنِ شيءٌ لا نظيرَ له؛ فهو دَليلٌ على

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩١، ١٩٢).

كَمالِ عِنايةِ اللهِ بالمُعطَى، وفيه إيماءٌ إلى تَعظيمِ شَأْنِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: مَعادٍ ليس لغَيرِكَ مِن البَشَرِ، وتَنكيرُ المعادِ لذلكَ. وقيلَ: المرادُ به مَكَّةُ، ووجْهُه أنْ يُرادَ ردُّه إليها يومَ الفَتْحِ؛ ووجْهُ تَنكيرِه أنَّها كانتْ في ذلكَ اليومِ مَعادًا له شأنٌ، ومَرجِعًا له اعتِدادٌ؛ لغَلَبَةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليها، وقَهْرِه لأهلِها، ولِظُهورِ عزِّ الإسلامِ وأهلِه، وذُلِّ الشِّرْكِ وحِزْبِه[٢]. وقيل: والتَّنكيرُ في مَعادٍ للتعظيمِ كما يَقْتَضِيهِ مَقامُ الوَعْدِ والبِشارَةِ، والمَعادُ يَجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا في مَعنَى آخِرِ أحوالِ الشَّيءِ وقَرارِه الذي لا انتقالَ منه تَشبيهًا بالمكانِ العائدِ إليه، بَعْدَ أنْ صَدَر منه، أو كِنايةً عنِ الأَخارَةِ، فيَكونُ مُرادًا به الحياةُ الآخرةُ؛ فتَنكيرُ ﴿مَعَادٍ﴾ أَفَادَ أنَّه عظيمُ الشأنِ، وتَرتُّبُه على الصِّلةِ أفاد أنَّه لا يُعطَى لغيرِه مِثْلُه؛ كما أنَّ القُرآنَ لم يُفْرَضْ على أحَدٍ مثلِه، ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالمَعادِ مَعْناهُ المَشهودُ القريبُ مِن الحَقيقةِ، وهو ما يَعودُ إليه المرءُ إنْ غابَ عنه، فيُرادُ به هنا بلَدُه الذي كانَ به وهو مَكَّةُ، وهذا الوجهُ يَقتَضي أنَّه كِنايةٌ عن خُروجِه منه ثم عَودُه إليه؛ لأنَّ الرَّدَّ يَستَلْزِمُ المُفارقَةَ، وإذ قدْ كانتِ السُّورةُ مكيَّةً ورسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَكَّةَ؛ فالوَعْدُ بالرَّدِّ كِنايةٌ عن الخُروجِ منْهُ قَبْلَ أن يُرَدَّ عليه[٣].

- وجُملةُ ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بالنِّسبةِ إلى الوَجْهِ الأولِ بمَنزلةِ التَّفْريعِ على جُملةِ ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾، أي: رادُّكَ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٣١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٢، ١٩٣).

يومِ المعادِ؛ فمُظْهِرٌ المُهْتديَ والضَّالِّينَ؛ فيكونُ عِلْمُ اللهِ بالمُهتدي والضالِّ مُكَنًّى به عنِ اتِّضاحِ الأمرِ بلا رَيْبٍ؛ لأنَّ عِلْمَ اللهِ تعالَى لا يَعْتَرِيهِ تَلْبيسٌ، وتكونُ هذه الكِنايةُ تَعْريضًا بالمشركينَ أنَّهم الضالُّونَ، وأنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو المُهتَدِي، ولهذِه النُّكتةِ عَبَّرَ عنْ جانبِ المُهتَدِي بفِعْلِ ﴿مَن جَآءَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُهتَدِيَ هو الَّذي جاءَ بِهَدْيٍ لم يَكُنْ مَعروفًا مِنْ قَبْلُ؛ كما يَقْتَضِيه: جاءَ بكذا. وبالنسبةِ إلى الوَجْهِ الثاني تكونُ بمَنزلةِ المُوادَعَةِ والمُتارَكَةِ وقَطْعِ المُجادَلَةِ، فالمعنى: عُدْ عن إثباتِ هُداكَ وضَلالِهم، وكِلْهم إلى يومِ ردِّكَ إلى مَعادِك يومَ يَتَبَيَّنُ أنَّ اللهَ نَصَرَكَ وخَذَلَهم، وعلى المَعْنَيَيْنِ؛ فجملة ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ ...﴾ مُستَأْنَفَةٌ استِئنافًا بيانيًّا عن جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ جوابًا لسؤالِ سائلٍ يُثيرُه أحَدُ المَعْنَيَينِ، وفي تقديمِ جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ على جملةِ ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ إعدادٌ لصَلاحِيَةِ الجملةِ الثانيةِ للمعنيَيْنِ المذكورَينِ؛ فهذا مِن الدَّلالةِ على مَعاني الكلامِ بمَواقعِه، وتَرتيبِ نِظامِه، وتقديمِ الجملِ عنْ مَواضِعِ تأخيرِها لتَوْفيرِ المعاني[1].

- وعَبَّر عن جانبِ الضَّالِّينَ بالجُملةِ الاسميةِ ﴿وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ المُقْتَضِيَةِ ثَباتَ الضَّلالِ المُشْعِرِ بأنَّ الضَّلالَ هو أَمْرُهم القديمُ الراسخُ فيهم، مع ما أفادَه حَرْفُ الظَّرفيةِ (في) مِن انغماسِهم في الضَّلالِ وإحاطَتِه بهم، ويكونُ المَعنى حينَئذٍ على حَدِّ قولِه تعالَى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ لظُهورِ أنَّ المُبَلِّغَ لهذا الكلامِ لا يُفرَضُ في حَقِّه أنْ يكونَ هو الشِّقَّ الضالَّ؛ فيَتَعَيَّنُ أنَّ الضالَّ مَن خالَفَه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٣، ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٩٣).

- قولُه: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ تقريرٌ للوعيدِ السَّابقِ، وكذا قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾[1].

- قوله: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ في ذلكَ مُتارَكَةٌ للكفَّارِ وتوبيخٌ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾

- جُملةُ ﴿وَمَا كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ عَطْفٌ على جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ ...﴾ إلخ؛ باعتبارِ ما تضمَّنَتْه مِن الوعدِ بالثَّوابِ الجزيلِ، أو بالنَّصرِ المُبينِ، أي: كما حمَّلك تبليغَ القرآنِ؛ فكانَ ذلكَ علامةً على أنَّهُ أَعَدَّ لكَ الجزاءَ بالنَّصْرِ في الدُّنيا والآخرةِ، كذلك إِعطاؤُه إياكَ الكتابَ عن غيرِ ترقُّبٍ منكَ، بل بمَحْضِ رحمةِ ربِّك، أي: هو كذلكَ في أنَّه علامةٌ لك على أنَّ اللهَ لا يَتْرُكُ نصرَك على أعدائِكَ؛ فإنَّه ما اختارَكَ لذلكَ إلَّا لأنَّه أَعَدَّ لكَ نصرًا مُبينًا، وثوابًا جزيلًا، وهذا أيضًا مِن دَلالةِ الجُملةِ على مَعنًى غيرِ مُصَرَّحٍ به، بل على مَعنًى تعريضيٍّ بدَلالةِ مَوقعِ الجُملةِ[3].

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ الظَّهيرُ: المُعينُ، والمُظاهَرَةُ: المُعاوَنَةُ، وهي مَراتبُ؛ أعْلاها: النُّصْرَةُ، وأَدْناها: المُصانَعَةُ والتسامُحُ؛ لأنَّ في المُصانَعَةِ على المَرغوبِ إعانةً لراغبِه، فلَمَّا شَمِلَ النَّهْيُ جميعَ أكوانِ المُظاهَرَةِ لهمُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٨/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٩٤).

اقْتَضَى النَّهْيَ عن مُصانَعَتِهم والتسامُحِ معهم، وهو يَستَلْزِمُ الأمرَ بضِدِّ المُظاهَرَةِ؛ فيكونُ كِنايةً عنِ الأمرِ بالغِلْظَةِ عليهم؛ كصَريحِ قولِه تعالَى: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ [التوبة: ٧٣]، وهذا المَعنى يُناسِبُ كَوْنَ هذه الآياتِ آخِرَ ما نَزَلَ قَبْلَ الهِجرةِ وبعدَ مُتارَكَتِه المشركينَ ومُغادَرَتِه البَلدَ الذي يَعْمُرونَه، وقيل: النَّهْيُ للتَّهْييجِ لإثارةِ غَضَبِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم، وتَقْوِيَةِ داعي شِدَّتِه معهم. ووَجْهُ تأويلِ النَّهْيِ بصَرْفِه عن ظاهرِه أو عن بَعضِ ظاهرِه؛ هو أنَّ المَنْهِيَّ عنه لا يُفْرَضُ وُقوعُه مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى يُنْهَى عنه؛ فكان ذلك قرينةً على أنَّه مُؤَوَّلٌ. وتَوجيهُ النَّهْيِ إليه عنْ أنْ يَصُدُّوه عن آياتِ اللهِ في قولِه: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ كِنايةٌ عن نَهْيِه عن أن يَتَقَبَّلَ منهم ما فيه صَدٌّ عن آياتِ اللهِ؛ كما يقولُ العربُ: لا أعْرِفَنَّك تفعلُ كذا، كَنَّوْا به عن: أنه لا يَفْعَلُه، فيَعْرِفُ المُتكلِّمُ الناهي فعلَه. والمقصودُ تَحْذيرُ المُسلمينَ مِن الرُّكونِ إلى الكافرينَ في شَيءٍ مِن شُؤونِ الإسلامِ؛ فإنَّ المشركينَ يُحاوِلونَ صَرْفَ المُسلمينَ عن سَماعِ القرآنِ؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾، وقيل: هو للتَّهْييجِ أيضًا، وتأويلُ هذا النَّهْيِ آكَدُ مِن تأويلِ قولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرٗا لِّلۡكَٰفِرِينَ * وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[القصص: ٨٥]، وما عُطِفَ عليها وما تَخَلَّلَ بينَهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٥، ١٩٦).

ممَّا اقْتَضى جميعُه الوعدَ بنَصْرِه، وظُهورَ أَمْرِه وفَوزَه في الدُّنيا والآخِرةِ، وأنَّه جاء مِن اللهِ إلى قَومٍ هم في ضَلالٍ مُبينٍ، وأنَّ الذي رحِمَه فآتاهُ الكتابَ على غيرِ ترقُّبٍ منه لا يَجْعَلُ أمْرَه سُدًى، فأعْقَب ذلك بتَحْذيرِه مِنْ أدنَى مُظاهَرةٍ للمُشركينَ، فإنَّ فِعْلَ الكَونِ لَمَّا وَقَع في سِياقِ النَّهيِ -وكان سِياقُ النَّهْيِ مِثْلَ سِياقِ النَّفْيِ؛ لأنَّ النَّهْيَ أَخُو النَّفْيِ في سائرِ تَصاريفِ الكلامِ- كانَ وُقوعُ فِعْلِ الكَوْنِ في سِياقِه مُفيدًا تَعميمَ النَّهْيِ عنْ كلِّ كَونٍ مِن أَكْوانِ المُظاهَرَةِ للمُشركينَ[1].

- والتَّقييدُ بالبَعْديَّةِ في قَولِه: ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ لتَعليلِ النَّهْيِ، والأمرُ في قولِه: ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ مُستَعْمَلٌ في الأمرِ بالدَّوامِ على الدَّعوةِ إلى اللهِ، لا إلى إيجادِ الدعوةِ؛ لأنَّ ذلكَ حاصِلٌ، أي: لا يَصْرِفُكَ إعراضُ المشركينَ عن إعادةِ دَعْوتِهم إعذارًا لهم، ويجوزُ أنْ يكونَ الدُّعاءُ مُستَعمَلًا في الأكمَلِ مِن أنواعِه، أي: إنَّك بعدَ الخُروجِ مِن مَكَّةَ أشَدُّ تَمكُّنًا في الدعوةِ إلى اللهِ ممَّا كنتَ مِنْ قَبْلُ؛ لأنَّ تَشْغيبَ المُشركينَ عليه كان يُرنِّقُ صَفاءَ تفرُّغِه للدعوة، وجميعُ هذه النَّواهي والأوامرِ داخِلَةٌ في حَيِّزِ التَّفْريعِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾. أمَّا قولُه: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فإنْ حُمِلَتْ (مِن) فِيه على مَعنى التَّبْعيضِ؛ كان النَّهْيُ مُؤَوَّلًا بمِثْلِ ما أَوَّلُوا به النَّهْيَيْنِ اللَّذينِ قَبْلَهُ أنه للتَّهْييجِ، أو أنَّ المقصودَ به المُسلمونَ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذا النَّهْيُ مُوَجَّهٌ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٩٦).

في الظاهرِ، والمَقصودُ به إبطالُ الشِّرْكِ وإظهارُ ضَلالِ أهلِه؛ إذْ يَزْعُمون أنهم مُعترِفونَ بإلهيَّةِ اللهِ تعالَى، وأنَّهم إنما اتَّخَذوا له شُركاءَ وشُفعاءَ؛ فبَيَّنَ لهم أنَّ اللهَ لا إلَهَ غيرُه، وأنَّ انفرادَه بالإلهيَّة في نفْسِ الأمرِ يَقضي ببُطلانِ الإشْراكِ في الاعتقادِ ولو أَضْعَفَ إشراكٍ؛ فجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في مَعنى العِلَّةِ للنَّهْي الذي في الجُملةِ قَبْلَها[1].

- وجملةُ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ علَّةٌ ثانيةٌ للنَّهْي؛ لأنَّ هَلاكَ الأشياءِ التي منها الأصنامُ وكلُّ ما عُبِدَ مع اللهِ وأُشْرِكَ به، دَليلٌ على انتفاءِ الإلهيَّةِ عنها؛ لأنَّ الإلهيَّةَ تُنافي الهلاكَ، وهو العدَمُ[2].

- وجملةُ ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تَذْييلٌ؛ فلذلكَ كانتْ مَفْصُولةً عمَّا قبْلَها، أي: لم تُعطَفْ عليها. وتقديمُ المجرورِ باللَّامِ ﴿لَهُ﴾ لإفادةِ الحَصرِ، والمَحْصورُ فيه هو الحُكمُ الأتَمُّ، أي: الذي لا يَرُدُّه رادٌّ[3].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيه تقديمُ المجرورِ بـ (إلى) للاهتِمامِ بالخبَرِ؛ لأنَّ المشركينَ نَفوا الرُّجوعَ مِن أصلِه، ولم يَقولوا بالشَّرِكةِ في ذلكَ حتَّى يكونَ التَّقديمُ للتَّخْصيصِ[4].

- والمَقصودُ مِن تَعدُّدِ هذه الجُملةِ إثباتُ أنَّ اللهَ مُنفَرِدٌ بالإلهيَّةِ في ذاتِه، وهو مدَلْولُ جُملةِ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وذلك أيضًا يدُلُّ على صِفةِ الأوليَّةِ، وأنَّه الأوَّلُ الَّذي ليس قبْلَه شَيءٌ؛ لأنه لَمَّا انْتَفَى جِنْسُ الإلهيَّةِ عن غيرِه تعالَى؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَعَيَّن أنَّه لم يُوجِدْه غيرُه؛ فثَبَت أنَّ الله تعالى قبْلَ كلِّ شَيءٍ، وأنَّه باقٍ لا يَعْتَرِيهِ العدَمُ، وذلك مَدْلولُ ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾، وأنَّه تعالَى مُنفَرِدٌ في أفعالِه بالتصرُّفِ المُطلَق الذي لا يَرُدُّه غيرُه، فيَتَضَمَّنُ ذلك إثباتَ الإرادةِ والقدرةِ. وفي كلِّ هذا رَدٌّ على المشركينَ الَّذين جَوَّزُوا شَرِكَتَهُ في الإلهيَّةِ، وأَشْرَكوا معه آلهتَهم في التصرُّفِ بالشفاعةِ والغَوْثِ، ثمَّ أَبْطَلَ إنكارَهمُ البعثَ بقولِه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ١٩٧).

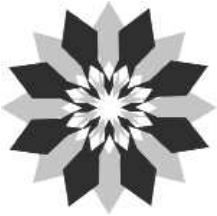

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ العَنكَبوتِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ العَنكَبوتِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (العَنكَبوتِ)[١].

## بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ العَنكبوتِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ سُورةِ العَنكَبوتِ:**

ذِكرُ الابتلاءِ والامتحانِ، وبيانُ حالِ أهلِ البلوَى في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أبرَزِ مَوضوعاتِ سُورةِ العَنكبوتِ:**

١- بيانُ حَقيقةِ الإيمانِ، وسُنَّةِ الابتلاءِ والفِتنةِ، ومَصيرِ المؤمِنينَ والمُنافِقينَ والكافِرين، والوصيَّةُ بالوالِدَينِ، وبيانُ حالِ المُنافِقينَ، وبيانُ فِتنةِ الإغواءِ والإغراءِ مِنَ الَّذين كفَروا.

٢- بيانُ طَرَفٍ مِن أخبارِ الرُّسُلِ مع أقوامِهم، ومنها قِصَّةُ نُوحٍ، وإبراهيمَ،

---

(١) سُمِّيت سورةَ العنكبوتِ؛ لتكَرُّرِ ذِكْرِها فيه. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٩). وقد ورَدت في تسميتِها بذلك بعضُ الآثارِ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٤٩).

(٢) وقيل: السُّورةُ مكِّيَّةٌ إلَّا الآياتِ (١-١١) فمدَنيَّةٌ. وقيل: إنَّها مدَنيَّةٌ إلَّا الآياتِ مِن (١-١٠) فنزلتْ بمكَّةَ. وقيل: مدنيَّةٌ كُلُّها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٩٨).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٧).

ولُوطٍ، وشُعَيبٍ، وهُودٍ، وصالحٍ، وموسى عليهم صلَواتُ الله وسلامُه، ثمَّ اختِتامُ هذه القصصِ ببيانِ العاقبةِ السَّيِّئةِ الَّتي لَحِقَتِ المكذِّبينَ مِن أقوامِ هؤلاء الرُّسلِ.

٣- ضرْبُ المثَلِ لحالِ الكفَّارِ بالعَنكبوتِ الَّتي اتخذَتْ بيتًا هو أَوْهَنُ البُيوتِ.

٤- توجيهُ الأمرِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَتلوَ الكِتابَ، وأن يُقيمَ الصَّلاةَ.

٥- النَّهيُ عن مُجادَلةِ أهلِ الكتابِ إلَّا بالحُسنى إلَّا الَّذين ظَلَموا منهم، وإرشادُ المؤمنينَ إلى ما يَقولون لهم.

٦- إقامةُ بعضِ الأدِلَّةِ على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ الله.

٧- بيانُ بعضِ ما عليه المشركونَ مِن تناقُضاتٍ، فهُم يَعترِفون أنَّ الله خالقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومع ذلك يُشرِكون! وإذا كانوا في السُّفُنِ، وأحاطتْ بهم الأمواجُ أخلَصوا الدُّعاءَ لله، ثمَّ إذا نجَّاهم إلى البَرِّ أشركوا!

٨- وعْدُ المؤمنينَ الَّذين جاهَدوا في الله بالهدايةِ، وحُسنِ العاقبةِ.

## الآيات (١-٧)

﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٤ مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٥ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٧﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُفۡتَنُونَ﴾: أي: يُختَبَرونَ، ويُمتَحنونَ، والفِتْنةُ مأخوذةٌ مِنَ الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾

قولُه تعالى: ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾: مَصدَرٌ مُؤَوَّلٌ سَدَّ مَسَدَّ مَفعولَي (حَسِبَ). و﴿أَن يَقُولُوٓاْ﴾ مَنصوبٌ على نزعِ الخافِضِ، وهو الباءُ، أو اللَّامُ، أي: بأن يَقولوا، أو لِأن يقولوا. وقيل: بدَلٌ مِنْ ﴿أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾[2].

## المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالحروفِ المقَطَّعةِ؛ لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ إذ تُبرِزُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثلِه، مع أنَّه مُرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٣٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣، ٦٢٤).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٥٩)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥).

العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثون بها!

ثمَّ قال تعالى: أَحَسِبَ النَّاسُ إذا آمَنوا أنَّهم يُترَكُونَ مِن غيرِ أن يُمتحَنوا؟! ولقد اختبَرْنا الَّذين مِن قَبْلِهم وابتَلَيْناهم، فلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الصَّادقينَ في إيمانِهم مع البلاءِ، ولَيَعلَمَنَّ الكاذبينَ في دَعْوى الإيمانِ عِلمَ مُشاهَدةٍ يَترتَّبُ عليه جزاؤُهم، بل أَظَنَّ الَّذين يَرتَكِبونَ السَّيِّئاتِ أنَّهم يُعجِزونَنا ويُفلِتونَ مِنَّا فلا نُعَذِّبُهم؟! فما أسْوأَه مِن ظَنٍّ، وما أفسَدَه مِن اعتقادٍ!

ثمَّ ذكَر الله تعالى ما يُشعِرُ المؤمنينَ بالطُّمأنينةِ، ويُدخِلُ عليهم السُّرورَ، فقال: مَن كان يَطمَعُ في لقاءِ اللهِ يومَ القيامةِ فإنَّ القيامةَ واقِعةٌ لا مَحالةَ، واللهُ وَحْدَه هو السَّميعُ العَليمُ، ومَن جاهَدَ نفْسَه على فِعلِ ما أمَرَه اللهُ وترْكِ ما نهاه عنه، فإنَّما نَفْعُ ذلك لنَفْسِه في الدُّنيا والآخرةِ؛ إنَّ اللهَ غنيٌّ عن جميعِ خَلْقِه. والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ لَنُكَفِّرنَّ عنهم سيِّئاتِهم، ولا نؤاخِذُهم بها، ولَنُثيبَنَّهم بأحسَنِ ما كانوا يَعمَلونَه مِنَ الطَّاعاتِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقَطَّعةُ الَّتي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مُرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين - الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

أي: أظَنَّ النَّاسُ أنَّهم يَسْلَمونَ مِن الفِتنةِ إذا آمَنوا فيُترَكُونَ مِن غَيرِ أن يُمتحَنوا[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ النَّاسِ أشَدُّ بَلاءً؟ قال: الأنبياءُ، ثمَّ الأمثَلُ فالأمثَلُ، فيُبتلَى الرَّجُلُ على حَسَبِ دِينِه؛ فإنْ كان دينُه صُلْبًا اشتَدَّ بَلاؤُه، وإنْ كان في دينِه رِقَّةٌ ابتُلِيَ على حَسَبِ دينِه، فما يَبرَحُ البلاءُ بالعبدِ حتَّى يَترُكَه يمشي على الأرضِ ما عليه خَطيئةٌ))[٢].

وعن حُذَيْفةَ رَضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تُعرَضُ الفِتَنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٨٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٣)، ((اختيار الأولى)) لابن رجب (ص: ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) واللَّفظُ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٤٨١)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وأحمد (١٤٩٤).

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صحيحٌ)، وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٩٨)، وذكر ثبوتَه ابنُ القيِّمِ في ((طريق الهجرتين)) (١٩٣)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٣/ ٥٢).

على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا[١]، فأيُّ قلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ[٢] فيه نُكتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بَيضاءُ، حتَّى تَصيرَ على قَلبينِ: على أبيضَ مِثلِ الصَّفا[٣]، فلا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبادًّا[٤]، كالكُوزِ مُجَخِّيًا[٥]، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلَّا ما أُشرِبَ مِن هَواهُ))[٦].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: ولقد اختبَرْنا الماضِينَ مِن قَبلِ هذه الأُمَّةِ وابتَلَيْناهم[٧].

عن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو مُتوَسِّدٌ بُرْدةً[٨] له في ظِلِّ الكَعبةِ، قُلْنا له: ألَا تَستَنصِرُ لنا؟ ألَا تدعو اللهَ لنا؟ قال: كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دِينِه،

---

(١) أي: تَظهَرُ بها فِتنةٌ بعدَ أخرى، كما يُنسَجُ الحَصيرُ عُودًا عُودًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٢) نُكِتَ: أي: نُقِطَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٣) الصَّفا: أي: الحَجَرِ الأملَسِ الَّذي لا يَعلَقُ به شَيءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٤) مِرْبادًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ، مِنَ الرُّبْدةِ: لَونٌ بيْنَ السَّوادِ والغُبْرةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٥) مُجَخِّيًا: أي: مائِلًا مَنكوسًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٣).

(٦) رواه مسلم (١٤٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٤).

(٨) أي: كِساءً مُخَطَّطًا، والمعنى: جاعِلٌ البُرْدةَ وِسادةً له، مِن تَوسَّدَ الشَّيءَ: جعَلَه تحتَ رأسِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٤٧).

ويُمْشَطُ بأمْشاطِ الحديدِ ما دُونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه، واللهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمرُ حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ لا يَخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولَكِنَّكم تَستَعجِلونَ))[1].

﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾.

أي: فلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الصَّادِقينَ في إيمانِهم الثَّابِتينَ عليه مع البلاءِ، ولَيَعْلَمَنَّ الكاذِبينَ في دَعْوى الإيمانِ، عِلمَ رؤيةٍ ومُشاهَدةٍ يَترتَّبُ عليه الجزاءُ، ويُظهِرُه لعِبادِه، وقد كان عَلِمَه في الأزَلِ[2].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤، ١٥).

قال ابن جُزَي: (﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ أي: يعلمُ صدقَهم علمًا ظاهرًا في الوجودِ، وقد كان علِمه في الأزلِ، والصِّدقُ والكذِبُ في الآيةِ يعني بهما: صِحَّةَ الإيمانِ والثُّبوتَ عليه، أو ضِدَّ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٢).

وقال البخاري في ((صحيحه)) (٦/ ١١٣): (﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾: عَلِمَ اللهُ ذلك، إنَّما هي بمنزلةِ: فلِيَميزَ اللهُ؛ كقولِه: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١١٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أُعْقِب تَثْبيتُ المؤمِنينَ على ما يُصيبُهم مِن فُتونِ المشركينَ وما في ذلك مِنَ الوعدِ والوعيدِ، بزَجْرِ المشركينَ على ما يَعملونَه مِنَ السَّيِّئاتِ في جانبِ المؤمنينَ، وأعظَمُ تلك السَّيِّئاتِ فُتونُهم المسلمينَ(١).

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ﴾.

أي: بل(٢) أظَنَّ الَّذين يَرتَكِبونَ السَّيِّئاتِ(٣) أنَّهم يُعجِزونَنا ويُفلِتونَ مِنَّا، فلا نُعَذِّبُهم(٤)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦).

(٢) قال السمينُ الحلبيُّ: (﴿ أَمْ ﴾ هذه مُنقطِعةٌ، فتُقدَّرُ بـ «بل» والهمزةِ عندَ الجمهورِ، والإضرابُ انتِقالٌ لا إبطالٌ). ((الدر المصون)) (٩/ ٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨).

وقيل: ﴿ أَمْ ﴾ مُعادلةٌ للألفِ في قولِه: ﴿ أَحَسِبَ ﴾ [العنكبوت: ٢]. وممَّن اختاره: ابنُ عطية، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣٠).

(٣) قيل: المرادُ بالسَّيِّئاتِ هنا: الكُفرُ والشِّركُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٠).

وقيل: السَّيِّئاتُ هنا: فِتنةُ المؤمِنينَ وتَعذيبُهم والتَّنكيلُ بهم؛ فالَّذين يَعملونَ السَّيِّئاتِ هم الفاتِنونَ للمُؤمِنينَ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦).

وقال ابنُ عطيَّة: (لفظُ الآيةِ يَعُمُّ كلَّ عاصٍ وعاملِ سَيِّئةٍ مِن المسلمينَ وغيرِهم... ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفرُ وما اشتمَلَ عليه، ويَدخُلُ في ذلك المعاصي مِن المؤمنينَ مع الأعمالِ الصَّالحاتِ واجتنابِ الكبائرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٦، ٣٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٢).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النور: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا * وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧، ٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠].

﴿ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾.

أي: بِئسَ ما يَظُنُّه المُشرِكونَ مِن أنَّهم يُعجِزونَ اللهَ ويُفلِتونَ منه، فلا يُؤاخِذُهم بسَيِّئاتِهم الَّتي عَمِلوها، وهو القاهِرُ القادِرُ على كُلِّ شَيءٍ، فما أسْوَأَه مِن ظَنٍّ، وما أفسَدَه مِن اعتقادٍ[1]!

﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ﴾.

أي: مَن كان يَطمَعُ في لِقاءِ اللهِ يومَ القيامةِ، فإنَّ القيامةَ واقِعةٌ قَريبًا لا مَحالةَ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٤٦٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو السَّميعُ لجَميعِ الأصواتِ، العَليمُ بكُلِّ الكائناتِ؛ فهو السَّميعُ لِقَولِ مَن قال: آمَنَّا بالله، العليمُ بصِدقِ أو كَذِبِ دَعواهم، ويَعلَمُ مَن كان صادِقًا في رَجاءِ لِقائِه، فيُثيبُه ويَمنَحُه ما يَرجوه[1].

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حَثَّ اللهُ تعالى على العَمَلِ؛ بيَّن أنَّه ليس إلَّا لِنَفعِ العامِلِ[2]، فقال:

﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾.

أي: ومَن بَذَلَ جُهدَه في حَمْلِ نفْسِه على فِعْلِ ما أمَرَه اللهُ، وتَرْكِ ما نهاه عنه؛ وتحمَّلَ المَشاقَّ في سَبيلِ اللهِ، وقِتالِ أعدائِه، ومُجاهَدةِ شَيطانِه- فإنَّما نَفْعُ ذلك وثَوابُه لِنَفْسِه في الدُّنيا والآخِرةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غَنيٌّ عن جَميعِ خَلْقِه، فلا تَنفَعُه أعمالُهم وعِبادتُهم، كما لا تَضُرُّه مَعصيتُهم[1].

عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روَى عن اللهِ تبارَكَ وتعالى أنَّه قال: ((... يا عِبادي إنَّكم لن تَبلُغوا ضَرِّي فتَضُرُّوني، ولن تَبلُغوا نَفعي فتَنفَعوني، يا عِبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أتقَى قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ، ما نقَص ذلك مِن مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني، فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسألتَه، ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البَحرَ))[2].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن الله تعالى إجمالًا أنَّ مَن يَعملُ صالحًا فلِنَفْسِه؛ بيَّن مفصِّلًا بعضَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٧))، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

التَّفصيلِ جزاءَ المطيعِ، الصَّالحِ عمَلُه؛ فقال[١]:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وثَبَتوا على إيمانِهم عندَ البَلاءِ، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ لَنُبطِلَنَّ سَيِّئاتِهم، ولَنعفُونَّ عن مؤاخَذتِهم بها[٢].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [النحل: ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤].

﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ولَنُثيبَنَّ أولئك المؤمِنينَ الَّذين يَعمَلونَ الصَّالِحاتِ بأحسَنِ ما كانوا يَعمَلونَه مِن الطَّاعاتِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٨٣٠).

قال الزمخشري: (إمَّا أن يريدَ قَومًا مُسلِمينَ صالحينَ قد أساؤوا في بعضِ أعمالِهم، وسيِّئاتُهم مَغمورةٌ بحَسَناتِهم، فهو يُكَفِّرُها عنهم، أي: يُسقِطُ عِقابَها بثوابِ الحسَناتِ... وإمَّا قومًا مُشرِكينَ آمنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فاللهُ عزَّ وجَلَّ يُكفِّرُ سيِّئاتِهم بأن يُسقِطَ عِقابَ ما تقدَّمَ لهم مِنَ الكُفرِ والمعاصي). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- لا بُدَّ أنْ يُبتلَى المرءُ في أمرِ اللهِ ونَهْيِه؛ تارةً يَترُكُ ما يَهوى، وتارةً يَفعَلُ ما يَكرهُ، كما يُبتلَى في الحوادِثِ المقَدَّرةِ بمِثلِ ذلك، وقد قال سُبحانَه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1].

٢- إنَّ المؤمنَ لا بدَّ أن يُفتنَ بشَيءٍ مِن الفِتَنِ المؤلِمةِ الشَّاقَّةِ عليه؛ ليُمتحَنَ إيمانُه، كما قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا

---

= ممَّن اختار أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَحۡسَنَ﴾: يعودُ إلى العمَلِ، أي: نُجازيهم بأحسَنِ أعمالِهم، الَّتي هي الطَّاعاتُ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٣٥).

قال السعدي: (﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وهي أعمالُ الخَيرِ؛ مِن واجباتٍ ومستحَبَّاتٍ، فهي أحسَنُ ما يعملُ العبدُ؛ لأنَّه يعملُ المباحاتِ أيضًا وغيرَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٦).

وقيل: ﴿أَحۡسَنَ﴾ يعودُ إلى الجزاءِ، أي: يجازيهم اللهُ أحسَنَ جزاءٍ على ما عَمِلوه. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٢).

قال ابن عثيمين: (وأحسَنُ جزاءٍ بيَّنه الله تعالى في قولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فهذا الجزاءُ أحسَنُ جزاءٍ؛ لأنَّ الجزاءَ غايتُه أن يكونَ مِثلَما فعَلَ الفاعلُ، لكن هنا يُجازَى بأحسَنَ وأعظَمَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٠).

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٠٤).

يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾، ولكن الله يَلطُفُ بعبادِه المؤمنينَ في هذه الفِتَنِ، ويُصَبِّرُهم عليها، ويُثَبِّتُهم فيها، ولا يُلقيهم في فتنةٍ مُهلِكةٍ مُضِلَّةٍ تَذهَبُ بدينِهم، بل تَمُرُّ عليهم الفِتَنُ وهم منها في عافيةٍ(١).

٣- الفِتنةُ كِيرُ القُلوبِ، ومَحَكُّ الإيمانِ، وبها يتبيَّنُ الصَّادِقُ مِنَ الكاذِبِ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾، فالفِتنةُ قَسَّمت النَّاسَ إلى صادقٍ وكاذبٍ، ومؤمنٍ ومنافقٍ، وطَيِّبٍ وخبيثٍ؛ فمَن صبَرَ عليها كانت رحمةً في حَقِّه، ونجا بصبرِه مِن فِتنةٍ أعظَمَ منها، ومَن لم يصبِرْ عليها وقعَ في فتنةٍ أشَدَّ منها؛ فالفِتنةُ لا بُدَّ منها في الدُّنيا والآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ ۞ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤]، فالنَّارُ فِتنةُ مَن لم يصبِرْ على فِتنةِ الدُّنيا، ومَن صبَر كانت الفِتنةُ مُمَحِّصةً له، ومُخَلِّصةً مِنَ الذُّنوبِ، كما يُخلِّصُ الكِيرُ خَبَثَ الذَّهبِ والفِضَّةِ(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ فيه أنَّ هذه سُنَّةٌ قَديمةٌ جاريةٌ في الأُمَمِ كُلِّها؛ فلا ينبغي أن يُتوَقَّعَ خِلافُها(٣).

٥- قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾، وقال أيضًا: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ

---

(١) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٨).

وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗ﴾ [التوبة: ١٦]. في هذه الآياتِ سِرٌّ لطيفٌ، وعِبرةٌ وحكمةٌ، وذلك أنَّ أبانا آدَمَ كان في الجنَّةِ يأكُلُ منها رَغَدًا حيثُ شاءَ في أتَمِّ نعمةٍ، وأكمَلِ سُرورٍ، وأرْغَدِ عَيشٍ، ولو تَناسَلْنا فيها لَكُنَّا في أرغَدِ عَيشٍ وأتمِّ نعمةٍ، ولكنَّ إبليسَ عليه لعائنُ اللهِ احتالَ بمَكْرِه وخِداعِه على أبَوَيْنا حتَّى أخرَجَهما مِنَ الجنَّةِ إلى دارِ الشَّقاءِ والتَّعبِ، وحينَئذٍ حكَم اللهُ تعالَى أنَّ جنَّتَه لا يَدخُلُها أحدٌ إلَّا بعدَ الابتلاءِ بالشَّدائدِ وصعوبةِ التَّكاليفِ؛ فعلى العاقلِ مِنَّا معاشِرَ بني آدمَ أنْ يَتصَوَّرَ الواقعَ، ويَعلَمَ أنَّنا في الحقيقةِ سَبْيٌ سَباه إبليسُ بمكرِه وخِداعِه مِنْ وطنِه الكريمِ إلى دارِ الشَّقاءِ والبلاءِ، فيُجاهِدَ عدوَّه إبليسَ ونفْسَه الأمَّارةَ بالسُّوءِ حتَّى يَرجِعَ إلى الوطنِ الأوَّلِ الكريمِ؛ ولهذه الحكمةِ أكثرَ اللهُ تعالَى في كتابِه مِن ذِكرِ قِصَّةِ إبليسَ مع آدمَ لِتكونَ نُصْبَ أعيُنِنا دائمًا[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ هذه الآيةُ وإن كانت واردةً في شأنِ المُشرِكينَ المُؤْذِينَ للمُؤمِنينَ -على أحدِ الأقوالِ-؛ فهي تُشيرُ إلى تحذيرِ المُسلِمينَ مِن مُشابهتِهم في اقترافِ السَّيِّئاتِ، استِخفافًا بوعيدِ اللهِ عليها؛ لأنَّهم في ذلك يأخُذونَ بشَيءٍ مِن مُشابهةِ حِسْبانِ الانفِلاتِ، وإن كان المؤمِنُ لا يَظُنُّ ذلك، ولكِنَّه يُنَزَّلُ مَنزِلةَ مَن يَظُنُّه؛ لإعراضِه عن الوعيدِ حين يَقتَرِفُ السَّيِّئةَ[2].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٧).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ * وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يُوجِبُ إكثارَ العبدِ من العَمَلِ الصَّالحِ، وإتقانَه له؛ وذلك لأنَّ مَن يَفعلُ فِعلًا لأجْلِ مَلِكٍ، ويَعلَمُ أنَّ المَلِكَ يَراه ويُبصِرُه؛ يُحسِنُ العملَ ويُتقِنُه، وإذا عَلِمَ أنَّ نَفْعَه له، ومُقَدَّرٌ بقَدْرِ عَمَلِه؛ يُكثِرُ منه، فإذا قال اللهُ: (إنَّه سميعٌ عَليمٌ)، فالعَبدُ يُتقِنُ عَمَلَه ويُخلِصُه له، وإذا قال بأنَّ جِهادَه لِنَفْسِه، يُكثِرُ منه[1].

٨- مَن آمَنَ بالرُّسُلِ وأطاعَهم عاداه أعداؤُهم وآذَوْهُ، فابتُلِيَ بما يؤْلِمُه، وإنْ لم يؤْمِنْ بهم ولم يُطِعْهم عُوقِبَ في الدُّنيا والآخرةِ، فحصَلَ له ما يؤْلِمُه، وكان هذا المؤْلِمُ له أعظَمَ ألَمًا وأَدْوَمَ مِن ألَمِ اتِّباعِهم؛ فلا بُدَّ مِن حصولِ الألمِ لكلِّ نفْسٍ آمنَتْ أو رَغِبَتْ عن الإيمانِ، لكنَّ المؤْمِنَ يَحصُلُ له الألمُ في الدُّنيا ابتداءً، ثمَّ تَكونُ له العاقبةُ في الدُّنيا والآخرةِ، والمُعْرِضَ عن الإيمانِ تَحصُلُ له اللَّذَّةُ ابتِداءً، ثمَّ يَصيرُ إلى الألمِ الدَّائمِ.

ولَمَّا كان الألمُ لا مَحِيصَ منه الْبَتَّةَ، عَزَّى اللهُ سبحانَه مَنِ اختار الألمَ اليسيرَ المُنقطِعَ على الألمِ العظيمِ المُستمِرِّ، بقولِه: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، فضرَبَ لمُدَّةِ هذا الألمِ أجَلًا لا بُدَّ أنْ يأتيَ، وهو يومُ لقائِه، فيَلْتَذَّ العبدُ أعظَمَ اللَّذَّةِ بما تحَمَّلَ مِنَ الألمِ مِنْ أجْلِه وفي مَرْضاتِه، وتَكونُ لَذَّتُه وسُرورُه وابتِهاجُه بقَدْرِ ما تحمَّلَ مِنَ الألمِ في اللهِ وللهِ[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ مَن لم يُجاهِدْ فإنَّ ضَرَرَه على نفْسِه؛ لأنَّه إذا كانت منفعةُ الجهادِ له؛ فمَضَرَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٣-١٥).

تَركِه عليه[١].

١٠- قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ قيل: هذا تَعزيةٌ للمُشتاقينَ وتَسليةٌ لهم، أي: أنا أعلَمُ أنَّ مَن كان يرجو لقائي فهو مُشتاقٌ إلَيَّ؛ فقد أجَّلْتُ له أجَلًا يكونُ عن قَريبٍ، فإنَّه آتٍ لا مَحالةَ، وكُلُّ آتٍ قريبٌ، وفيه لطيفةٌ أخرى: وهي تعليلُ المُشتاقينَ برَجاءِ اللِّقاءِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ هذه الحروفُ الهجائيَّةُ ليس لها معنًى، وابتداءُ السُّورةِ بهذه الحروفِ المقطَّعةِ له مَغزًى؛ وهو الإشارةُ إلى أنَّ هذا القرآنَ الكريمَ -الَّذي أعجَزَكم مَعْشَرَ العربِ، وأعجَزَ غيرَكم- لَمْ يأتِ بحروفٍ جديدةٍ لا تَعرِفونها، وإنَّما أتَى بحروفٍ تَعرِفونها، وتُرَكِّبُون منها كلامَكم، ومع ذلك أعجَزَكم! ولهذا لا تَكادُ تَجِدُ سورةً مَبدوءةً بهذه الحروفِ الهجائيَّةِ إلَّا وجدْتَ بعدَها ذِكْرَ القرآنِ أو ما هو مِن خصائصِ القرآنِ، انظرْ قولَه سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقوله: ﴿الٓمٓ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١ - ٣]، وهكذا. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ فليس فيه ذِكْرُ القرآنِ، لكنْ فيها ذِكْرُ ما هو مِن لازِمِ القرآنِ، وهو قولُه: ﴿أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾؛ فإنَّ مَن آمَنَ بالقرآنِ لا بُدَّ أنْ يُفْتَنَ[٣].

٢- لفظُ الفِتنةِ في كتابِ الله تعالى يُرادُ بها الامتحانُ الَّذي لم يَفتَتِنْ صاحبُه، بل خلَص مِن الافتِتانِ، ويُرادُ بها الامتِحانُ الَّذي حصَل معه افتِتانٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠).

فمِنَ الأوَّلِ: قولُه تعالى لموسى عليه السَّلامُ: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠].

ومِنَ الثَّانى: قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال:٣٩]، وقولُه: ﴿أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْ﴾ [التوبة: ٤٩].

ويُطلَقُ على ما يَتناوَلُ الأمْرَين؛ كقولِه تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1].

٣- ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المُسيءِ مُجمَلًا بقولِه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَا﴾ إشارةً إلى التَّعذيبِ مُجمَلًا، وذكر حالَ المُحسِنِ مُجمَلًا بقولِه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ﴾، ومُفَصَّلًا بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ ليكونَ ذلك إشارةً إلى أنَّ رحمتَه أتَمُّ مِن غَضَبِه، وفَضْلَه أعَمُّ مِن عَدلِه[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ هذا إبطالٌ لمذهَبِ مَن يقولُ: (التَّكاليفُ إرشاداتٌ، والإيعادُ عليه ترغيبٌ وترهيبٌ، ولا يُوجَدُ مِنَ الله تعذيبٌ، ولو كان يُعَذِّبُ ما كان عاجزًا عن العذابِ عاجلًا، فلمَ كان يؤخِّرُ العقابَ؟!)، فقال تعالى: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَا﴾، يعني: ليس كما قالوا، بل يُعَذِّبُ مَن يُعَذِّبُ، ويُثيبُ مَن يثيبُ بحُكمِ الوعدِ والإيعادِ، واللهُ لا يُخلِفُ الميعادَ، وأمَّا الإمهالُ فلا يُفضي إلى الإهمالِ، والتَّعجيلُ في جزاءِ الأعمالِ شُغلُ مَن يخافُ الفَوتَ لولا الاستِعجالُ[3].

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٧).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ فيه سؤالٌ: كيف وقَعَ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ جوابًا للشَّرطِ؟

**الجوابُ**: أنَّه إذا كان وقتُ اللِّقاءِ آتيًا كان اللِّقاءُ آتيًا لا محالةَ، كما تقولُ: (من كان يرجو لِقاءَ المَلِك، فإنَّ يومَ الجُمُعةِ قَريبٌ)، إذا عُلِمَ أنَّه يَقعُدُ للنَّاسِ يومَ الجُمُعةِ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ فيه سؤالٌ: قَولُه ﴿فَإِنَّمَا﴾ يقتضي الحَصرَ، فينبغي أن يكونَ جِهادُ المرءِ لِنَفْسِه فحَسْبُ، ولا يَنتفِعُ به غيرُه، وليس كذلك؛ فإنَّ مَن جاهَدَ يَنتفِعُ به ومَن يريدُ هو نَفعَه، حتَّى إنَّ الوالِدَ والولَدَ ببَرَكةِ المجاهِدِ وجِهادِه ينتَفِعانِ؟

**الجوابُ**: ذلك نَفعٌ له؛ فإنَّ انتِفاعَ الولَدِ انتِفاعٌ للأبِ، والحَصرُ هاهنا معناه أنَّ جِهادَه لا يَصِلُ إلى الله منه نَفعٌ، ويدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٢].

٧- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖ﴾ قال بعضُ العارِفينَ: (لَمَّا عَلِمَ اللهُ شَوقَ المحبِّينَ إلى لقائِه، ضرَبَ لهم مَوعِدًا لِلِقاءٍ تَسكُنُ به قلوبُهم)[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ يُشيرُ إلى أنَّ الإنسانَ -وإن اجتهَدَ- لا بُدَّ مِن أن يَزِلَّ عن الطَّاعةِ؛ لأنَّه مَجبولٌ على النَّقصِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٢٥).

- الاستفهامُ في ﴿ أَحَسِبَ ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، أي: إنكارِ حِسْبانِ ذلك[١].

- قولُه: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا ... ﴾ المُرادُ بالنَّاسِ كلُّ الَّذين آمَنوا، فالقولُ كِنايةٌ عن حُصولِ المَقولِ في نفْسِ الأمْرِ، أي: أحسِبَ النَّاسُ وُقوعَ تَركِهم لأنْ يَقولوا: آمَنَّا[٢]!

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ انتِقالٌ إلى التَّنويهِ بالفُتونِ لأجْلِ الإيمانِ باللهِ بأنَّه سُنَّةُ اللهِ في سالِفِ أهلِ الإيمانِ. وتأْكيدُ الجُملةِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (لَقَدْ)؛ لتَنزيلِ المُؤمنينَ حينَ استَعظَموا ما نالَهم مِنَ الفِتنةِ مِن المُشركين، واستَبْطَؤوا النَّصرَ على الظَّالمين، وذُهولِهم عن سُنَّةِ الكَونِ في تلك الحالةِ: مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ مَن يُخالِفُ الدَّهْماءَ في ضَلالِهم، ويَتجافَى عن أخلاقِهم ورَذالتِهم لا بُدَّ أنْ تَلحَقَه منهم فِتنةٌ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ... ﴾ مَوصولٌ بـ ﴿ أَحَسِبَ ﴾ أو بـ ﴿لَا يُفۡتَنُونَ﴾؛ فإذا اتَّصَل بـ ﴿لَا يُفۡتَنُونَ﴾ دخَلَ في حيِّزِ مُتعلَّقِ الحِسْبانِ المُنكَرِ، أي: أحَسِبوا ألَّا يَكونوا كغيرِهم، وليس لهم أُسوةٌ بالأُمَمِ السَّالِفةِ؟! فيكونُ حالًا مِن فاعلِ ﴿لَا يُفۡتَنُونَ﴾، وإذا اتَّصَل بـ ﴿ أَحَسِبَ ﴾ كان حالًا مُقرِّرةً لِجَهةِ الإنكارِ، أي: أحصَلَ الحِسْبانُ والحالةُ هذه؟! وفي هذا تَنبيهٌ على الخطأِ، وفي الأوَّلِ تَخطئةٌ[٤].

- قولُه: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ﴾ فيه الْتِفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٣٣).

حيث عدَلَ عن طَريقِ التَّكلُّم إلى طريقِ الغَيبةِ بإظهارِ اسمِ الجَلالةِ على أُسلوبِ الالتِفاتِ؛ لِمَا في هذا الإظهارِ مِن الجَلالةِ، ولإدخالِ الرَّوعةِ، وتربيةِ المَهابةِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ الجزاءَ على ذلك جزاءُ مالِكِ المُلْكِ[١].

- وتَكريرُ الجوابِ ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ﴾؛ لزيادةِ التَّأكيدِ والتَّقريرِ[٢].

- وتعريفُ المُتَّصفِينَ بصِدقِ الإيمانِ بالموصولِ والصِّلةِ الماضَويَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾؛ لإفادةِ أنَّهم اشتَهَروا بحَدَثانِ صِدقِ الإيمانِ، وأنَّ صِدْقَهم مُحقَّقٌ. وأمَّا تعريفُ المتَّصفِينَ بالكذِبِ بطريقِ التَّعريفِ باللَّامِ وبصِيغةِ اسمِ الفاعلِ ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾؛ فلإفادةِ أنَّهم عُهِدوا بهذا الوصفِ وتميَّزوا به، مع ما في ذلك مِنَ التَّفنُّنِ والرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٣].

وقيل: إنَّ وَقتَ نُزولِ الآيةِ كانت الحِكايةُ عن قَومٍ قَريبي العَهدِ بالإسلامِ في أوائلِ إيجابِ التَّكاليفِ، وعن قومٍ مُستَديمينَ للكُفرِ مُستمِرِّينَ عليه، فقال في حَقِّ المؤمِنينَ: ﴿ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ بصيغةِ الفِعلِ، أي: وُجِدَ منهم الصِّدقُ؛ فإنَّه لا يُفهَمُ مِن صيغةِ الفِعلِ التَّكرارُ والرُّسوخُ، وقال في حَقِّ الكافِرِ: ﴿ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ بالصِّيغةِ المُنبِئةِ عن الثَّباتِ والدَّوامِ، وهي اسمُ الفاعِلِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٧).

- قولُه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ (أمْ) مُنقطِعةٌ، وما فيها مِن معنى (بلْ) للإضرابِ والانتقالِ عن التَّوبيخِ بإنكارِ حِسْبانِهم مَتروكينَ غيرَ مَفتونينَ إلى التَّوبيخِ بإنكارِ ما هو أبطَلُ مِن الحِسْبانِ الأوَّلِ، وهو حِسْبانُهم ألَّا يُجازَوْا بسَيِّئاتِهم[1].

- وقولُه: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ذمٌّ لحِسْبانِهم ذلك وإبطالٌ له، فهي مُقرِّرةٌ لِمَعنى الإنكارِ في جُملةِ ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾، فلها حُكْمُ التَّوكيدِ؛ فلذلك فُصِلَت[2]. والحُكمُ هنا مُستعمَلٌ في مَعنى الظَّنِّ والاعتقادِ؛ تهكُّمًا بهم بأنَّهم نَصَبوا أنفُسَهم مَنصِبَ الَّذي يَحكُمُ فيُطاعُ[3].

- والمَجيءُ بالمُضارِعِ ﴿يَحْكُمُونَ﴾ قيل: للإشعارِ بأنَّ حُكْمَهم مَذمومٌ حالًا واستِقبالًا، وقيل: لأجْلِ الفاصِلةِ وقَعَ المضارِعُ مَوقِعَ الماضي اتِّساعًا[4].

٤- قولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ مَسوقٌ للمؤمنينَ خاصَّةً؛ لأنَّهم الَّذين يَرْجُون لِقاءَ اللهِ؛ فالجُملةُ مُفيدةٌ التَّصريحَ بما أَوْمَأَ إليه قولُه: ﴿أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤] مِن الوعْدِ بنصْرِ المؤمنينَ على عدُوِّهم، مُبَيِّنةٌ لها؛ ولذلك فُصِلَت، أي: لم تُعطَفْ على الَّتي قبْلَها، ولولا هذا الوقْعُ لكان حقُّ الإخبارِ بها أنْ يَجيءَ بواسطةِ حرْفِ العطْفِ[5].

- وفي قَولِه: ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ جَعْلُ فِعلِ الشَّرطِ فِعلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

الكَونِ؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ هذا الرَّجاءِ مِن فاعِلِ فِعلِ الشَّرطِ[١].

- وعُبِّرَ بفِعلِ الرَّجاءِ ﴿يَرۡجُواْ﴾ عن ترقُّبِ البعثِ؛ لأنَّ الكلامَ مَسوقٌ للمؤمنينَ، وهم ممَّن يَرجو لِقاءَ اللهِ؛ لأنَّهم يَترقَّبونَ البعثَ؛ لِمَا يَأْمُلون مِنَ الخَيراتِ فيه[٢].

- و﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ الوقتَ الَّذي عيَّنَه اللهُ في عِلْمِه للبعثِ والحسابِ؛ فيكونَ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، ومَقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (فإنَّه لآتٍ)، فعُدِلَ إلى الإظهارِ، كما في إضافةِ ﴿أَجَلَ﴾ إلى اسمِ الجَلالةِ مِن الإيماءِ إلى أنَّه لا يُخلَفُ، والمقصودُ الاهتمامُ بالتَّحريضِ على الاستعدادِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بـ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ الأجَلَ الَّذي عيَّنَه اللهُ لنصْرِ المؤمنينَ، وانتهاءِ فِتنةِ المشركينَ إيَّاهم باستِئصالِ مَساعيرِ[٣] تلك الفِتنةِ، وهم صَناديدُ قُريشٍ؛ وذلك بما كان مِنَ النَّصرِ يومَ بدْرٍ، ثمَّ ما عَقِبَه إلى فتْحِ مكَّةَ؛ فيكونَ الكلامُ تَثبيتًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمؤمنينَ حينَ اسْتبطَأَ المؤمنونَ النَّصرَ للخلاصِ مِن فِتنةِ المشركينَ حتَّى يَعْبُدوا اللهَ لا يَفْتِنوهم في عِبادتِه. وتأكيدُ جُملةِ الجزاءِ بحرْفِ التَّوكيدِ على الوجْهِ الأوَّلِ للتَّحريضِ والحثِّ على الاستعدادِ لِلقاءِ اللهِ، وعلى الوجْهِ الثَّاني لقصْدِ تَحقيقِ النَّصرِ الموعودِ به؛ تَنزيلًا لاستِبطائِه مَنزِلةَ التَّردُّدِ؛ لقَصْدِ إذكاءِ يَقينِهم بما وعَدَ اللهُ، ولا يُوهِنُهم طولُ المدَّةِ الَّذي يُضَخِّمُه الانتظارُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٠٩).

(٣) المَساعيرُ: جمع مِسْعَرٍ ومِسْعارٍ، وهو: ما سُعِرَتْ به النَّارُ، أي: ما تُحَرَّكُ به النَّارُ مِن حَديدٍ أو خَشَبٍ. ويُقالُ لموقِدِ الحربِ: مِسْعَرُ حربٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٢/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٨).

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ في جُملةِ ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ -مع كونِ مُقْتضى الظَّاهرِ الإضمارَ؛ لتَقدُّمِ اسمِ الجَلالةِ في جُملةِ الشَّرطِ ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾-؛ لئلَّا يَلتبِسَ مُعادُ الضَّميرِ بأنْ يُعادَ إلى (مَن)؛ إذ المقصودُ الإعلامُ بأجَلٍ مَخصوصٍ، وهو وقْتُ النَّصرِ الموعودِ[1].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ﴾ مِن فُنونِ البلاغةِ: الحذْفُ؛ فيجوزُ أنْ يكونَ الجوابُ مَحذوفًا، أي: فلْيَختَرْ مِنَ الأعمالِ ما يُؤدِّي إلى حُسنِ الثَّوابِ، ولْيَحذَرْ ما يَسوقُه إلى سُوءِ العذابِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وفيه مِن الوعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى. وقيل: فلْيُبادِرْ إلى ما يُحقِّقُ أمَلَه، ويُصَدِّقُ رجاءَهُ، أو ما يُوجِبُ القُربةَ والزُّلفَى[2].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ تَذييلٌ لتَحقيقِ حُصولِ المَرْجُوِّ والمَخُوفِ وعْدًا ووَعيدًا[3]، ووقَعَ التَّذييلُ بوَصفَي ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ دونَ غيرِهما مِن الصِّفاتِ العُلى؛ للإيماءِ بوصْفِ السَّميعِ إلى أنَّ اللهَ تعالى سمِعَ مَقالةَ بعضِهم مِنَ الدُّعاءِ بتَعجيلِ النَّصرِ، والإيماءِ بوصْفِ العليمِ إلى أنَّ اللهَ عَلِمَ ما في نُفوسِهم مِن استعجالِ النَّصرِ[4]. وقيل: لأنَّه سبَقَ القَولُ في قَولِه: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ﴾، وسَبَق الفِعلُ بقَولِه: ﴿وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾، وبقَولِه: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾، وبقَولِه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ﴾، ولا شَكَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٠٨، ٢٠٩).

أنَّ القَولَ يُدرَكُ بالسَّمعِ، والعَمَلَ منه ما لا يُدرَكُ بالبَصَرِ، ومنه ما يُدرَكُ به، كالقُصودِ، والعِلمَ يَشمَلُهما؛ وهو السَّميعُ: يَسمَعُ ما قالوه، وهو العليمُ: يعلَمُ مَن صَدَق فيما قال ممَّن كَذَب، وأيضًا عَليمٌ يَعلَمُ ما يُعمَلُ، فيُثيبُ ويُعاقِبُ[1].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ القصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) هو قصْرُ الجهادِ على الكَونِ لنفْسِ المجاهِدِ، أي: الصَّالحِ نفْسِه؛ إذ العِلَّةُ لا تَتعلَّقُ بالنَّفْسِ، بلْ بأحوالِها، أي: جِهادٌ لفائدةِ نفْسِه، لا لِنَفْعٍ يَنجَرُّ إلى اللهِ تعالى؛ فالقصْرُ الحاصلُ بأداةِ (إنَّما) قصرٌ ادِّعائيٌّ؛ للتَّنبيهِ إلى ما يَغفُلون عنه مِنَ الفوائدِ المُنجَرَّةِ إلى أنفُسِ المُجاهِدينَ؛ ولذلك عقَّبَ الرَّدَّ المُستفادَ مِنَ القصْرِ بتَعليلِه بأنَّ اللهَ غَنيٌّ عن العالَمينَ، فلا يَكونُ شَيءٌ مِن الجِهادِ نافعًا للهِ تعالى، ولكنَّ نفْعَه للأُمَّةِ[2].

- وأكَّدَ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لأنَّ كثرةَ الأوامرِ رُبَّما أَوجَبَت للجاهلِ ظَنَّ الحاجةِ، وذلك نُكتةُ الإتيانِ باسمِ الجلالة (الله)[3].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على جُملةِ ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسۡبِقُونَاۚ﴾ [العنكبوت: ٤]؛ لِمَا تَضمَّنَتْه الجُملةُ المعطوفُ عليها مِن التَّهديدِ والوعيدِ، فعطَفَ عليها ما هو وعدٌ وبشارةٌ لِلَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، مع ما أفْضَى إلى ذِكْرِ هذا الوعدِ مِن قولِه قبْلَه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٤).

[العنكبوت: ٦]؛ فإنَّ مَضمونَ جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ يُفيدُ بَيانَ كَونِ جِهادِ مَن جاهَدَ لنفْسِه. ويجوزُ أنْ تكونَ عطْفًا على جُملةِ ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفۡسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦]، وسُلِكَ بها طريقُ العطْفِ باعتبارِ ما أَومَأَ إليه الموصولُ وصِلَتُه مِن أنَّ سبَبَ هذا الجزاءِ الحسَنِ هو أنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، وهو على هذا الوجْهِ: إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لنُكتةِ هذا الإيماءِ[1].

- وتَقديرُ قولِه: ﴿أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾: ولَنجزيَنَّهم جزاءً أحسَنَ. وإضافتُه إلى ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ لإفادةِ عِظَمِ الجزاءِ كلِّه؛ فهو مُقدَّرٌ بأحسَنِ أعمالِهم[2]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢١٢).

## الآيتان (٨-٩)

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى أنَّ طاعتَه يجبُ أنْ تُقَدَّمَ على كلِّ طاعةٍ، فيقولُ: وعَهِدْنا إلى الإنسانِ أن يُبالِغَ في الإحسانِ إلى والِدَيه، وإنْ جاهَداك لِتَجعَلَ لله شَريكًا لا تعلَمُ حُجَّةً على ألوهيَّتِه، فلا تُطِعْهما في ذلك، إلَيَّ مَصيرُكم يومَ القيامةِ فأُخبِرُكم بما كُنتُم تَعمَلونَ مِن خيرٍ وشَرٍّ. والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ لَنُدخِلنَّهم في جُملةِ الصَّالحينَ.

### تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ثوابَ مَن حَقَّق التَّكاليفَ؛ أُصولَها وفُروعَها؛ تحريضًا للمُكَلَّفِ على الطَّاعةِ- ذكَرَ المانِعَ، ومَنَعَه مِن أن يختارَ اتِّباعَه، فقال: الإنسانُ إنِ انقاد لأحدٍ ينبغي أن ينقادَ لأبوَيه، ومع هذا لو أمَرَاهُ بالمعصيةِ لا يجوزُ اتِّباعُهما، فضلًا عن غيرِهما، فلا يمنَعَنَّ أحَدَكم شَيءٌ مِن طاعةِ الله، ولا يَتبَعَنَّ أحَدٌ مَن يأمُرُ بمعصيةِ اللهِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه أنَّه لا بُدَّ مِن الفِتنةِ، وحذَّرَ مَن كَفَر، وبشَّرَ مَن صَبَر؛ قال عاطِفًا على ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ مُشيرًا إلى تَعظيمِ حُرمةِ الوالِدِ؛ حيثُ جعَلَها في سياقِ تَعظيمِ الخالِقِ، وإلى أنَّها أعظَمُ فِتنةٍ(١):

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: (حلَفَتْ أمُّ سَعدٍ ألَّا تُكَلِّمَه أبدًا حتَّى يَكفُرَ بدينِه، ولا تأكُلَ ولا تَشرَبَ. قالتْ: زعَمْتَ أنَّ اللهَ وصَّاك بوالِدَيك، وأنا أمُّك، وأنا آمُرُك بهذا! قال: مَكثَتْ ثلاثًا حتَّى غُشِيَ عليها مِنَ الجَهدِ، فقام ابنٌ لها يُقالُ له: عُمارةُ، فسَقاها، فجعَلَت تدعو على سَعدٍ، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ في القُرآنِ هذه الآيةَ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾)(٢).

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾.

أي: وأمَرْنا الإنسانَ أمرًا مؤكَّدًا وعَهِدْنا إليه أن يُحسِنَ إلى والِدَيه قَولًا وفِعلًا، وأن يُحافِظَ على ذلك(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٥).

(٢) رواه مسلم (١٧٤٨).

قال النيسابوري: (اتَّفق المفسِّرون على أنَّ هذه الآيةَ نزلت في سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ وفي أمِّه حَمْنةَ بنتِ أبي سُفيانَ). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣، ٣٤).

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾.

أي: وإنْ بذَلَ والِداك -أيُّها المُسلِمُ- جُهدَهما لِتَجعَلَ لي شَريكًا لا تَعلَمُ حُجَّةً على ألوهيَّتِه، فلا تُطِعْهما في ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًاۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

عن عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا طاعةَ في مَعصيةٍ، إنَّما الطَّاعةُ في المَعروفِ))[2].

﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: إلَيَّ مَصيرُكم يومَ القيامةِ، فأُخبِرُكم بجَميعِ أعمالِكم: ظاهِرِها وخَفيِّها، خَيرِها وشَرِّها؛ وأُجازيكم عليها، ومِن ذلك إحسانُكم إلى والِديكم، وصَبرُكم وثباتُكم على دينِكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٣، ٢١٤).

(٢) رواه البخاري (٧١٤٥، ٧٢٥٧)، ومسلم (١٨٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٥).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ٩﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله ومُتابعةٍ لِشَرعِه: لَنُدخِلَنَّهم[1] في جُملةِ الصَّالحينَ[2].

كما قال تعالى عن نبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ

---

(١) قيل: المرادُ: لَنُدخِلَنَّهم مُدخَلَ الصَّالحينَ، وهو الجنَّةُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

وقيل: المعنى: في زُمْرتِهم وجُملتِهم، يُحشَرونَ معهم يومَ القيامةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والرَّسْعَنيُّ، وابن كثير، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٤٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٣٧).

قال الواحدي: (﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: في زُمرتِهم وجملتِهم، ومعناه: لَنَحشُرَنَّهم معهم). ((الوجيز)) (ص: ٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

قيل: المرادُ بالصَّالحينَ هنا: الأنبياءُ والأولياءُ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والبَغَويُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٤٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٣٧).

وقيل: المرادُ بهم: الأنبياءُ فقط. وممَّن قال بذلك: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠، ٤١).

ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ [النساء: ٦٩].

وقال يوسفُ عليه السَّلامُ فيما حكاه اللهُ عنه: ﴿تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال سُلَيمانُ عليه السَّلامُ فيما حكاه اللهُ عنه: ﴿وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النمل: ١٩].

وقال سُبحانَه عن الأنبياءِ: ﴿ وَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ فِي رَحۡمَتِنَآۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۞ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۞ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۞ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا ﴾ يَحُثُّ الإنسانَ على برِّ الوالِدَينِ والإحسانِ إليهما بالقَولِ والعَمَلِ، وأن يحافِظَ على ذلك، ولا يَعُقَّهما ويُسيءَ إليهما في قَولِه وعَمَلِه[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ مَنْ آمَنَ باللهِ وعَمِلَ صالِحًا، فإنَّ اللهَ وعَدَه أن يُدخِلَه الجنَّةَ في جُملةِ عبادِه الصَّالحينَ؛ مِنَ النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالحينَ، كلٌّ على حسَبِ درَجتِه ومَرتبتِه عندَ اللهِ؛ فالإيمانُ الصَّحيحُ والعمَلُ الصَّالحُ عُنوانٌ على سعادةِ صاحِبِه، وأنَّه مِن أهلِ الرَّحمنِ والصَّالحينَ مِن عبادِ اللهِ تعالى[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ فلا طاعةَ لِمَخلوقٍ -وإنْ عَظُمَ- في مَعصيةِ الخالِقِ، وهذا مُوجِبٌ لئلَّا يقَعَ مِن أحدٍ شِركٌ أصلًا؛ فإنَّه لا رَيْبَ أصلًا في أنَّه لا شُبهةَ تقومُ على أنَّ غَيرَه تعالى يَستحِقُّ الإلهيَّةَ، فكيف بدَليلٍ يُوجِبُ عِلمًا؟! والمقصودُ مِن سياقِ الكلامِ إظهارُ النَّصَفةِ، والتَّنبيهُ على النَّصيحةِ؛ لِيَكونَ أدعَى إلى القَبولِ[1].

٢- قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ قوله: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ موافَقةٌ للواقعِ؛ فلا مفهومَ له[2]، فهو بيانٌ للواقعِ أنَّ كلَّ شِرْكٍ باللهِ فإنَّه لا عِلْمَ به عندَ الإنسانِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومعلومٌ أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى ما جَعَل شِركًا فيه سُلطانٌ؛ فكلُّ الشِّركِ ليس فيه سلطانٌ، بل إنَّ الشركَ قد قام السُّلطانُ والعِلْمُ الصَّحيحُ على أنَّه باطلٌ، فصار قولُه: ﴿لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ معناه: أنَّه موافِقٌ للواقِعِ، فيكونُ كالتَّعليلِ لتَحريمِ الشِّركِ، كأنَّه يقولُ: على أنْ تشركَ بي والحالُ أنَّ الشِّركَ ليس لك به عِلْمٌ؛ فإنَّ الشِّركَ قطعًا لا يمكنُ أنْ يقومَ الدَّليلُ على وجودِه، بل إنَّ الدَّليلَ الصَّحيحَ على انتفائِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى لا شَريكَ له سُبحانَه[3].

٣- قولُه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: بإلهيَّتِه، عبَّرَ عن نفْيِها بنَفْيِ العِلْمِ بها؛ للإيذانِ بأنَّ ما لا يُعلَمُ صِحَّتُه لا يجوزُ اتِّباعُه وإنْ لم يُعلَمْ بطلانُه، فكيف بما عُلِمَ بُطلانُه[4]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير أبي =

٤- قال الله تعالى: ﴿لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، مِن لَطيفِ مُناسبةِ هذا الظَّرفِ في هذا المَقامِ: أنَّ المؤمنَ لَمَّا أُمِرَ بعِصيانِ والدَيْه إذا أمَراهُ بالشِّركِ، كان ذلك ممَّا يُثيرُ بيْنَه وبيْنَ أبوَيْه جَفاءً وتَفرِقةً، فجعَلَ اللهُ جزاءً عن وَحشةِ تلك التَّفرِقةِ أُنْسًا بجَعْلِه في عِدادِ الصَّالحينَ يأنَسُ بهم[1].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بيَّنَ اللهُ بهذه الآيةِ ما على المُسلمِ في مُعامَلةِ أنْسِبائِه مِن المُشركين، وخصَّ بالذِّكرِ منها نسَبَ الوالِدَينِ؛ لأنَّه أقرَبُ نسَبٍ؛ فيَكونُ ما هو دونَه أَوْلى بالحُكْمِ الَّذي يُشْرَعُ له[2].

- والمقصودُ مِن الآيةِ هو قولُه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي ...﴾ إلى آخرِه، وإنَّما افْتُتِحَت بـ (وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا)؛ لأنَّه كالمُقدِّمةِ للمقصودِ؛ ليَعلَمَ أنَّ الوِصايةَ بالإحسانِ إلى الوالِدَينِ لا تَقتَضي طاعتَهما في السُّوءِ ونحْوِه، ولِقَصْدِ تَقريرِ حُكْمِ الإحسانِ للوالدينِ في كلِّ حالٍ إلَّا في حالِ الإشراكِ؛ حتَّى لا يَلتبِسَ على المُسلمينَ وجْهُ الجمْعِ بيْنَ الأمرِ بالإحسانِ للوالدينِ وبيْن الأمرِ بعِصيانِهما إذا أمَرَا بالشِّركِ؛ لإبطالِ قَولِ مَن يقولُ: أليس مِن دِينِ محمَّدٍ البرُّ بالوالدينِ؟! ونحوِه[3].

- وفي قَولِه: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حُسۡنٗا﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ذَكرَه في (الأحقافِ) ﴿إِحۡسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وحَذَفَه في (لُقمانَ)؛ لأنَّ الوصيَّةَ

---

= السعود)) (٧/ ٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢١٣).

هنا وفي (الأحقافِ) جاءت في سِياقِ الإجمالِ، وفي (لُقمانَ) جاءت مُفصَّلةً؛ لِمَا تقدَّمَها مِن تَفصيلِ كلامِ لُقمانَ لابْنِه، ولأنَّ قولَه بعْدَها: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] قائمٌ مَقامَه؛ فحسُنَ حذْفُه(١).

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال هنا: ﴿لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وقال في (لُقمانَ): ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ﴾ [لقمان: ١٥]؛ مُوافقةً هنا لفظًا لِلَفْظِ اللَّامِ في قَولِه: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦]، وحمْلًا للمعنَى بطَريقِ التَّضمينِ في (لُقمانَ)؛ إذِ التَّقديرُ: وإنْ حَمَلاكَ على أنْ تُشرِكَ بي...(٢).

- وجُملةُ ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لزِيادةِ تَحقيقِ ما أشارتْ إليه مُقدِّمةُ الآيةِ مِن قولِه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾؛ لأنَّ بقيَّةَ الآيةِ لَمَّا آذَنَتْ بفَظاعةِ أمْرِ الشِّركِ، وحذَّرتْ مِن طاعةِ المرْءِ والدَيْه فيه؛ كان ذلك ممَّا يُثِير سؤالًا في نُفوسِ الأبناءِ: أنَّهم هل يُعامِلون الوالدينِ بالإساءةِ لأجْلِ إشْراكِهما؟ فأُنْبِئوا أنَّ عِقابَهما على الشِّركِ مُفَوَّضٌ إلى اللهِ تعالى؛ فهو الَّذي يُجازي المحسنينَ والمُسيئينَ(٣).

- قولُه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الإنباءُ: الإخبارُ، وهو مُستعمَلٌ كِنايةً عن عِلْمِه تعالى بما يَعمَلونه مِن ظاهرِ الأعمالِ وخَفِيِّها، أي: ما يُخْفُونه عن المسلمينَ وما يُكِنُّونه في قُلوبِهم، وذلك أيضًا كِنايةٌ عن الجزاءِ عليه مِن خَيرٍ أو شرٍّ؛ ففي قَولِه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ كِنايتانِ: أُولاهما إيماءٌ، وثانيتُهما تلويحٌ، أي: فأُجازِيكم ثوابًا على عِصيانِهما فيما يأْمُرانِ، وأُجازِيهما عذابًا

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٤، ٢١٥).

على إشراكِهما[١].

٢- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كرَّر تعالى ما رتَّبَ للمؤمنينَ مِن دُخولِهم في الصَّالحينَ؛ لِيُحرِّكَ النُّفوسَ إلى نَيْلِ مَراتبِهم[٢]. وهذه الآيةُ تَصريحٌ ببعضِ ما أفادَتْه الكِنايةُ الَّتي في قَولِه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ اهتِمامًا بجانبِ جزاءِ المؤمنينَ. وقد أُشِيرَ إلى شرَفِ هذا الجزاءِ بأنَّه جزاءُ الصَّالحينَ الكاملينَ، كقولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٣] [النساء: ٦٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٥).

## الآيتان (١٠-١١)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١ ﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى جانبًا مِن أحوالِ أصحابِ القلوبِ المريضةِ، فيقولُ: ومِنَ النَّاسِ مَن يقولُ بلِسانِه: آمَنَّا بالله، فإذا آذاه الكُفَّارُ لِيَرجِعَ عن دينِه، جعَلَ أذى النَّاسِ له كعذابِ اللهِ، فيَرتَدُّ لِيَسْلَمَ مِن أذاهم، ولَئِنْ جاء نصرٌ مِن ربِّك -يا محمَّدُ- لعِبادِه المؤمِنينَ به، لَيَقولَنَّ أولئك المرتَدُّونَ عن دينِهم: إنَّا كنَّا مُؤمِنينَ معكم؛ لِيَأخُذوا نصيبَهم مِنَ الغنائِمِ! أوَليس اللهُ بأعلَمَ بما في قُلوبِ خَلقِه؟! ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ عِلمَ مُشاهَدةٍ يَترتَّبُ عليه جزاؤُهم، وكذلك المنافِقونَ.

### تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

إنَّ أقسامَ المُكلَّفينَ ثلاثةٌ: مُؤمِنٌ ظاهِرٌ بحُسنِ اعتِقادِه، وكافِرٌ مُجاهِرٌ بكُفرِه وعِنادِه، ومُذَبْذَبٌ بيْنَهما؛ يُظهِرُ الإيمانَ بلِسانِه، ويُضمِرُ الكُفرَ في فؤادِه، واللهُ تعالى لَمَّا بَيَّنَ القِسْمَينِ بقَولِه تعالى: ﴿فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، وبيَّن أحوالَهما بقَولِه: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾

[العنكبوت: ٤] إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [العنكبوت: ٧]- بيَّن القِسْمَ الثَّالثَ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه لا بُدَّ أن يُمتَحَنَ مَنِ ادَّعى الإيمانَ؛ لِيَظهَرَ الصَّادِقُ مِن الكاذِبِ؛ بيَّن تعالى أنَّ مِن النَّاسِ فَريقًا لا صبرَ لهم على المِحَنِ، ولا ثباتَ لهم على بَعضِ الزَّلازِلِ، فقال(٢):

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾.

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: (كان قَومٌ مِن أهلِ مكَّةَ أسلَموا، وكانوا يَستَخْفُونَ بإسلامِهم، فأخرَجَهم المُشرِكونَ يومَ بَدرٍ معهم، فأُصيبَ بَعضُهم، وقُتِلَ بَعضٌ، فقال المُسلِمونَ: كان أصحابُنا هؤلاء مُسلِمينَ وأُكرِهوا؛ فاستَغفِروا لهم، فنزلت: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ٩٧]، فكُتِبَ إلى مَن بَقِيَ بمكَّةَ مِنَ المُسلِمينَ بهذه الآيةِ: أنْ لا عُذرَ لهم؛ فخرجوا، فلَحِقَهم المُشرِكونَ، فأعطَوْهُمُ الفِتنةَ(٣)، فنَزَلت فيهم هذه الآيةُ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾، فكتب المُسلِمونَ إليهم بذلك، فخَرَجوا وأَيِسُوا مِن كلِّ خَيرٍ، ثمَّ نَزَلت فيهم: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٣) أي: كفَروا بعدَ إسلامِهم. يُنظر: حاشية (٢) من ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٠٣) بتحقيق أحمد شاكر، ومحمود شاكر.

رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل: ١١٠]، فكَتَبوا إليهم بذلك: إنَّ اللهَ قد جعَل لكم مَخرَجًا، فخرَجوا، فأدرَكهم المُشرِكونَ، فقاتَلوهم، حتَّى نجا مَن نجا، وقُتِل مَن قُتِل)[1].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يقولُ بلِسانِه: آمَنَّا باللهِ فوحَّدْناه، فإذا آذاه الكُفَّارُ لِيَرجِعَ عن إيمانِه باللهِ، جعَل أذَى النَّاسِ له كعَذابِ اللهِ، فيَرتَدُّ ويَترُكُ الحَقَّ لِيَسْلَمَ مِن أذى الخَلقِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ ﴾.

أي: ولَئِنْ جاء نَصرٌ مِن ربِّك -يا مُحمَّدُ- لحِزبِ اللهِ الثَّابِتي الإيمانِ، وفَتْحٌ ومَغانِمُ- لَيَقولَنَّ أولئك الجاعِلونَ فِتنةَ النَّاسِ كعَذابِ اللهِ، المُرتَدُّونَ عن إيمانِهم:

---

(١) أخرجه البزَّار كما في ((كشف الأستار)) للهيثمي (٢٢٠٤)، وابن جرير في ((التفسير)) (١٠٢٦٠) واللفظ له، والطحاوي في ((مشكل الآثار)) (٣٣٧٧)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (١٧١٧٠)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (٢١٥).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٠): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ محمَّدِ بنِ شَرِيكٍ، وهو ثقةٌ). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٦٠)، وشعيب الأرنؤوط في تحقيق ((مشكل الآثار)) (٨/ ٤٥٠)، وأورده الوادعي في ((الصحيح من أسباب النزول)) (١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٦).

إنَّا كنَّا معكم مُؤمِنينَ؛ لِيَأخُذوا نصيبَهم مِن الغنائِمِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٧٢، ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١].

﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: أوَليس اللهُ بأعلَمَ مِن كُلِّ أحدٍ بما في قُلوبِ جَميعِ خَلقِه، إخلاصًا كان أو نِفاقًا؟ فهو العالِمُ بما يُخفِي المُنافِقونَ، وإن أظهَروا للمُؤمِنينَ خِلافَ ما في قُلوبِهم؛ فكيف يُخادِعونَ مَن لا تَخفَى عليه خافيةٌ، ولا يَستَتِرُ عنه سِرٌّ ولا علانيةٌ[٢]؟!

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه أعلَمُ بما في قُلوبِ العالَمينَ؛ بيَّن أنَّه يَعلَمُ المؤمِنَ المحِقَّ وإن لم يتكَلَّمْ، والمنافِقَ وإن تكَلَّمَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٤، ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥).

وأيضًا لَمَّا أنكرَ اللهُ تعالى عدَمَ العِلمِ، صرَّحَ بالعِلمِ، فقال[١]:

﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾

أي: ولَيَعْلَمَنَّ اللهُ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ الثَّابتينَ على إيمانِهم، ولَيَعْلَمَنَّ المُنافِقينَ الكاذِبينَ في دَعْوى الإيمانِ، عِلمَ مُشاهَدةٍ يترتَّبُ عليه جزاؤُهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((بادِروا بالأعمالِ فِتَنًا كقِطَعِ اللَّيلِ المُظلِمِ؛ يُصبِحُ الرَّجُلُ مُؤمِنًا ويُمسي كافِرًا، أو يُمسي مُؤمِنًا ويُصبِحُ كافِرًا، يبيعُ دينَه بعَرَضٍ مِن الدُّنيا!))[٣].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تحذيرٌ مِن أنْ يقولَ الإنسانُ خِلافَ ما في قَلبِه[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ ﴾، لم يقُلْ: (آمنْتُ)، مع أنَّه وحَّد الأفعالَ الَّتي بعْدَه، كقَولِه: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ ﴾، وقَولِه: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ ﴾؛ وذلك لأنَّ المنافِقَ كان يُشَبِّهُ نفْسَه بالمؤمِنِ، ويقول: (إيماني

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٧، ٤٨).

(٣) رواه مسلم (١١٨).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد)) لابن عثيمين (٢/ ٧٧).

كإيمانِك!)، فقال: ﴿ءَامَنَّا﴾، يعني: أنا والمؤمِنُ حقًّا آمَنَّا؛ إشعارًا بأنَّ إيمانَه كإيمانِه! وهذا كما أنَّ الجبانَ الضَّعيفَ إذا خرج مع الأبطالِ في القِتالِ، وهَزَموا خُصومَهم، يقولُ الجبانُ: خرَجْنا وقاتَلْناهم وهزَمْناهم! فيَصِحُّ مِن السَّامعِ لكلامِه أن يقولَ: وماذا كنت أنتَ فيهم حتَّى تقولَ: خرَجْنا وقاتَلْنا؟! وهذا الرَّدُّ يدُلُّ على أنَّه يُفهَمُ مِن كلامِه أنَّ خُروجَه وقِتالَه كخُروجِهم وقتالِهم؛ لأنَّه لا يَصِحُّ الإنكارُ عليه في دعوى نفْسِ الخُروجِ والقتالِ، فهُم لَمَّا أرادوا إظهارَ كَونِ إيمانِهم كإيمانِ المحِقِّينَ، كان الواحِدُ يقولُ: ﴿ءَامَنَّا﴾، أي: أنا والمِحقُّ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: هذا يقتضي مَنْعَ المؤمِنِ مِن إظهارِ كَلِمةِ الكُفرِ بالإكراهِ؛ لأنَّ مَن أظهَرَ كَلِمةَ الكُفرِ بالإكراهِ احترازًا عن التَّعذيبِ العاجِلِ، يكونُ قد جعَل فِتنةَ النَّاسِ كعذابِ اللهِ؟

**الجوابُ**: ليس الأمرُ كذلك؛ لأنَّ مَن أُكرِهَ على الكُفرِ وقَلبُه مُطمَئِنٌّ بالإيمانِ، لم يَجعَلْ فِتنةَ النَّاسِ كعَذابِ اللهِ؛ لأنَّ عذابَ اللهِ يُوجِبُ تَركَ ما يُعذَّبُ عليه ظاهِرًا وباطِنًا، وهذا المؤمِنُ المُكرَهُ لم يجعَلْ فِتنةَ النَّاسِ كعَذابِ الله، بحيثُ يَترُكُ ما يُعذَّبُ عليه ظاهِرًا وباطِنًا، بل في باطِنِه الإيمانُ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ لم يقُلْ: (عذابَ النَّاسِ)؛ لأنَّ فِعلَ العبدِ ابتلاءٌ وامتحانٌ مِن الله، وفِتنَتَه تسليطُ بعضِ النَّاسِ على مَن أظهَرَ كَلِمةَ الإيمانِ لِيُؤذيَه؛ فتَبينَ مَنزِلتُه، كما جعَل التَّكاليفَ ابتلاءً وامتِحانًا، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ الصَّبرَ على البَليَّةِ الصَّادرةِ ابتلاءً وامتحانًا مِن الإنسانِ، كالصَّبرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤).

على العباداتِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ﴾ لم يَقُلْ: (مِنَ اللهِ) مع أنَّ ما تقدَّم كان كُلُّه بذِكرِ اللهِ، كقَولِه: ﴿أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾، وقَولِه: ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ وذلك لأنَّ (الرَّبَّ) اسمٌ مَدلولُه الخاصُّ به الشَّفَقةُ والرَّحمةُ، و(اللهُ) اسمٌ مَدلولُه الهَيْبةُ والعَظَمةُ؛ فعندَ النَّصرِ ذُكِرَ اللَّفظُ الدَّالُّ على الرَّحمةِ والعاطفةِ، وعندَ العذابِ ذُكِرَ اللَّفظُ الدَّالُّ على العَظَمةِ[٢]، أو باعتبارِ أنَّ النَّصرَ مِن أفعالِ الرُّبوبيَّةِ.

٥- عبَّرَ في حالةِ الشِّدَّةِ في قَولِه: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ بالإفرادِ؛ لِئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّ الجمعَ قَيدٌ، وجَمَع في قَولِه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾ دَلالةً على أنَّهم لا يَستَحْيُونَ مِنَ الكَذِبِ، ولو على رُؤوسِ الأشهادِ[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بيَّن اللهُ تعالى أنَّهم أرادوا التَّلبيسَ، ولا يَصِحُّ ذلك لهم؛ لأنَّ التَّلبيسَ إنَّما يكونُ عندَما يخالِفُ القَولُ القَلبَ، فالسَّامِعُ يَبني الأمرَ على قَولِه، ولا يَدري ما في قَلبِه؛ فيَلتَبِسُ الأمرُ عليه، وأمَّا اللهُ تعالى فهو عليمٌ بذاتِ الصُّدورِ، وهو أعلَمُ بما في صَدرِ الإنسانِ مِن الإنسانِ؛ فلا يَلتَبِسُ عليه الأمرُ، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ الاعتبارَ بما في القَلبِ؛ فالمنافِقُ الَّذي يُظهِرُ الإيمانَ ويُضمِرُ الكُفرَ: كافِرٌ، والمؤمِنُ المُكرَهُ الَّذي يُظهِرُ الكُفرَ ويُضمِرُ الإيمانَ: مُؤمِنٌ. واللهُ أعلَمُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ أنَّ الحِكمةَ مِنَ الامتِحانِ إظهارُ المؤمنِ مِنَ المنافقِ[١]، فلذلك قدَّر اللهُ مِحَنًا وابتلاءً، لِيَظهَرَ عِلمُه فيهم، فيُجازيَهم بما ظهَر منهم، لا بما يَعلمُه بمُجَرَّدِه؛ لأنَّهم قد يَحتَجُّون على الله أنَّهم لو ابتُلوا لَثَبَتوا[٢].

٨- إنْ قيل: إنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ، فكيف ذكَرَ اللهُ تعالى فيها النِّفاقَ في قولِه: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾، مع أنَّ النِّفاقَ لم يَظهَرْ إلَّا بالمدينةِ؟

**والجواب**: أنَّ هذه الآيةَ مِنَ الإخبارِ بالغَيبِ، واللهُ تعالى يَذكُرُ المنافقينَ في السُّورِ المكِّيَّةِ تحَسُّبًا لِما يقَعُ، واستِعدادًا لهم[٣].

وقيل: الآيةُ إخبارٌ عن حالِ المنافقينَ في الدَّارِ الآخرةِ[٤].

## بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ حالِ المنافقينَ بعدَ أنْ بيَّنَ حالَ المؤمنينَ والكافرينَ فيما تقدَّمَ[٥].

- والخبرُ مِن قولِه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ... ﴾ إلى قولِه: ﴿ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ مُكنًّى به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٤٨).

وقيل: الآيةُ بناءً على أنَّ النِّفاقَ ظهَرَ في المدينةِ مدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٠٥).

عن الذَّمِّ والاستِحماقِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾، وقال في سُورةِ (آلِ عِمرانَ): ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾ [آل عمران: ١٩٥]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ المُرادَ بتلك الآيةِ الصَّابرون على أذيَّةِ الكافرينَ، والمُرادُ هاهنا الَّذين لم يَصبِروا عليها؛ فقال هناك: ﴿وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي﴾، وقال هاهنا: ﴿أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ﴾، ولم يقُلْ: (في سبيلِ اللهِ)؛ واللَّطيفةُ فيه: أنَّ اللهَ أراد بَيانَ شرَفِ المُؤمِنِ الصَّابرِ، وخِسَّةِ المنافقِ الكافرِ، فقال هناك: أُوذِيَ المؤمِنُ في سبيلِ اللهِ ليَترُكَ سبيلَه ولم يَترُكْه، وأُوذِيَ المنافقُ الكافرُ فترَكَ اللهَ بنفْسِه، وكان يُمكِنُه أنْ يُظهِرَ مُوافقتَهم إنْ بلَغَ الإيذاءُ إلى حدِّ الإكراهِ، ويكون قلْبُه مُطمئنًّا بالإيمانِ، فلا يَترُكُ اللهَ، ومع هذا لم يَفعَلْه، بلْ ترَكَ اللهَ بالكُلِّيَّةِ، والمؤمِنُ أُوذِيَ ولم يَترُكْ سبيلَ اللهِ، بلْ أظهَر كَلِمَتَي الشَّهادةِ، وصبَرَ على الطَّاعةِ والعِبادةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ ...﴾ فيه تأْكيدُ جُملةِ الشَّرطِ باللَّامِ المُوطِّئةِ للقَسَمِ؛ لتَحقيقِ حُصولِ الجوابِ عندَ حُصولِ الشَّرطِ، وهو يَقْتضي تَحقيقَ وُقوعِ الأمْرَينِ؛ ففيه وعدٌ بأنَّ اللهَ تعالى ناصِرٌ المسلمينَ، وأنَّ المنافقينَ قائلونَ ذلك حينَئذٍ[٣].

- قولُه: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ. والاستِفهامُ إنكاريٌّ إنكارًا عليهم قولَهم: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وقولَهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡ﴾؛ لأنَّهم قالوا قولَهم ذلك ظنًّا منهم أنْ يَرُوجَ كَذِبُهم ونِفاقُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٣، ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٧).

على رسولِ اللهِ، فكان الإنكارُ عليهم مُتضَمِّنًا أنَّهم كاذِبونَ في قَولَيْهِم المَذكورَينِ، والخِطابُ مُوَجَّهٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَصْدِ إسماعِهم هذا الخطابَ؛ فإنَّهم يَحضُرون مجالِسَ النَّبيِّ والمؤمنينَ، ويَستمِعون ما يَنزِلُ مِن القرآنِ وما يُتْلى منه بعدَ نُزولِه، فيَشعُرون أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على ضَمائرِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ تَقريريًّا، وجَّهَ اللهُ به الخِطابَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في صورةِ التَّقريرِ بما أنعَمَ اللهُ به عليه مِن إنبائِه بأحوالِ المُلْتبِسينَ بالنِّفاقِ. وهذا الأسلوبُ شائعٌ في الاستِفهامِ التَّقريريِّ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ خُصَّ بالذِّكْرِ فَريقانِ هما ممَّن شَمِلَه عُمومُ قولِه: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠]؛ اهتِمامًا بهذينِ الفريقينِ وحالَيْهما: فريقِ الَّذين آمَنوا، وفريقِ المُنافقينَ؛ لأنَّ العِلْمَ بما في صُدورِ الفريقَينِ مِن إيمانٍ ونِفاقٍ يَترتَّبُ عليه الجزاءُ المُناسِبُ لحالَيْهما في العاجلِ والآجِلِ؛ فذلك ترغيبٌ وترهيبٌ. ووجْهُ تأكيدِ كِلَا الفِعلينِ بلامِ القسَمِ ونونِ التَّوكيدِ: أنَّ المقصودَ مِن هذا الخبرِ رَدُّ اعتقادِ المُنافقينَ أنَّ اللهَ لا يُطلِعُ رسولَه على ما في نُفوسِهم؛ فالمقصودُ مِن الخبرينِ هو ثانِيهما، وهو قولُه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فهو تَمهيدٌ لِمَا بعْدَه، وتَنصيصٌ على عدَمِ الْتِباسِ الإيمانِ المكذوبِ بالإيمانِ الحقِّ. وفي هذا أيضًا إرادةُ المعنى الكِنائيِّ مِن العِلْمِ، وهو مُجازاةُ كلِّ فريقٍ على حسَبِ ما عَلِمَ اللهُ مِن حالِه[2].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ مُخالَفةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢١٨).

بيْنَ المؤمنينَ والمُنافقين في التَّعبيرِ عن الأوَّلِينَ بطريقِ المَوصولِ والصِّلةِ الماضَويَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وعن الآخرينَ بطريقِ اللَّامِ واسمِ الفاعلِ ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ لِما يُؤْذِنُ به المَوصولُ مِن اشتِهارِهم بالإيمانِ، وما يُؤذِنُ به الفِعلُ الماضي مِن تمَكُّنِ الإيمانِ منهم وسابقِيَّتِه، وما يُؤذِنُ به التَّعريفُ باللَّامِ مِن كونِهم عُهِدوا بالنِّفاقِ وطَرَيانِه عليهم بعدَ أنْ كانوا مُؤمِنينَ؛ ففيه تعريفٌ بسُوءِ عاقِبَتِهم، مع ما في ذلك مِن التَّفنُّنِ، ورِعايةِ الفاصلةِ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيث قال تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقال قبلُ: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [العنكبوت:٣]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا كان الذِّكْرُ هناك للمُؤمنِ والكافرِ، والكافرُ في قَولِه كاذِبٌ؛ فإنَّه يقولُ: اللهُ أكثَرُ مِن واحدٍ، والمؤمنُ في قَولِه صادقٌ؛ فإنَّه كان يقولُ: اللهُ واحدٌ، ولم يكُنْ هناك ذِكْرُ مَن يُضمِرُ خلافَ ما يُظهِرُ؛ فكان الحاصِلُ هناك قِسْمَينِ: صادقًا، وكاذبًا، وكان هاهنا المنافقُ صادقًا في قَولِه؛ فإنَّه كان يقولُ: اللهُ واحدٌ، فاعْتَبَرَ أمْرَ القلْبِ في المنافقِ، فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، واعْتَبَرَ أمْرَ القلْبِ في المؤمنِ، وهو التَّصديقُ، فقال: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٨، ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥).

## الآيتان (١٢-١٣)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ١٣﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَثۡقَالَهُمۡ﴾: أي: أوزارَهم وآثامَهم، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ[1].

﴿يَفۡتَرُونَ﴾: يَختلِقون، ويَكذِبون؛ فـ(الافتراء) الاختِلاقُ، وهو ما عَظُم مِن الكَذِبِ، ومنه قيل: افترَى فُلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري): قَطْعُ الشَّيءِ، ومِن ذلك: فَرَيتُ الشَّيءَ أفْريه فَرْيًا، وهو قطْعُه لإصلاحِه، وأفرَيْتَه: إذا أنت قطَعْتَه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى بعضَ دعاوى الكفَّارِ الباطِلةِ مُفَنِّدًا لها، فيقولُ: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ للمُؤمِنينَ: اتَّبِعوا طريقَتَنا ودينَنا، وسنتحَمَّلُ عنكم خطاياكم! وما هؤلاء الكُفَّارُ بحامِلينَ شيئًا مِن آثامِ مَنِ اتَّبَعوهم؛ فهم كاذِبونَ في زَعمِهم هذا.

ولَيَحْمِلَنَّ هؤلاء الدَّاعُونَ إلى الكُفرِ والضَّلالِ ذُنوبَ أنفُسِهم، وذُنوبَ مَن أضَلُّوهم، ولَيُسْأَلُنَّ يومَ القيامةِ عمَّا كانوا يختَلِقونَه مِنَ الكَذِبِ والضَّلالِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤، ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٢﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى حالَ المؤمنينَ والمنافقينَ؛ ذكَر مقالةَ الكافرينَ قولًا واعتقادًا[١].

وأيضًا فالآيةُ بَيانٌ لِحَمْلِهم للمؤمنينَ على الكفْرِ بالاستِمالةِ، بعدَ بَيانِ حَمْلِهم لهم عليه بالأذيَّةِ والوعيدِ[٢].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ مُخاطِبينَ المُؤمِنينَ: اتَّبِعوا طريقَتَنا في الدِّينِ، وسنتحَمَّلُ عنكم آثامَكم -إن كان في اتِّباعِها إثمٌ- فيكونُ العذابُ علينا، دونَ أن يكونَ عليكم شَيءٌ[٣]!

﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾.

أي: ولن يَتحمَّلَ الكُفَّارُ شَيئًا مِن آثامِ مَنِ اتَّبَعوا طريقَتَهم الباطِلةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٠، ٥١).

قال ابن عاشور: (محاولةُ المشركينَ ارتدادَ المسلمينَ بمحاولاتِ فتنةٍ بالشَّكِّ والمغالَطةِ لِلَّذينَ لم يَقدِروا على فِتنتِهم بالأذى والعذابِ؛ إمَّا لعِزَّتِهم وخشيةِ بأسِهم... وإمَّا لكثرتِهم حينَ كثُرَ المسلمون وأَعْيَتِ المشركينَ حِيَلُ الصَّدِّ عن الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۝ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ۝ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠ - ١٤].

﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: إنَّهم لَكاذِبونَ في زَعمِهم أنَّهم يَحمِلونَ ذُنوبَ المؤمِنينَ إن اتَّبَعوهم[١].

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ قد يُوهِمُ أنَّ الدُّعاةَ لن يَحمِلوا شيئًا مِن أوزارِ المَدْعُوِّينَ[٢]؛ عطَف عليه ما أفاد أنَّهم غيرُ ناجِينَ مِن حملِ تَبِعاتٍ لأقوامٍ آخَرينَ، وهم الأقوامُ الَّذين أضَلُّوهم، وسَوَّلوا لهم الشِّركَ والبُهتانَ على وجهِ التَّأكيدِ بحملِهم ذلك[٣]، فقال:

---

= (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦).

قال ابن عثيمين: (فصارت الآيةُ مُتضَمِّنةً لِلنَّفْيِ حُكمًا شرعيًّا، وللنَّفي حُكمًا واقعيًّا؛ فهُم في الشَّرعِ لا يَحمِلونَ أوزارَهم، وهم في الواقِعِ لا يحمِلونَ أوزارَهم أيضًا، ولو قالوا ما صدَقوا، ولكنْ يريدون أن يخدَعوهم ويَغُرُّوهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢١).

﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ ﴾.

أي: ولَيَحمِلَنَّ أولئك الدَّاعونَ إلى طَريقِ الضَّلالِ ذُنوبَ أنفُسِهم، وذُنوبَ أتْباعِهم الضَّالِّينَ، مِن غيرِ أن يَنقُصَ مِن ذُنوبِ الأتْباعِ شَيءٌ[1].

كما قال تعالى: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل: ٢٥].

﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴾.

أي: ولَيُسْأَلَنَّ أولئك الكافِرونَ يومَ القيامةِ سُؤالَ تَوبيخٍ وتَقريعٍ عَمَّا كانوا يختَلِقونَه مِن الضَّلالِ، وتزيينِه للنَّاسِ[2].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴾ يُخبِرُ تعالى عن افتِراءِ الكُفَّارِ ودَعوتِهم للمُؤمِنينَ إلى دينِهم، وفي ضِمنِ ذلك تحذيرُ المؤمِنينَ مِن الاغترارِ بهم، والوُقوعِ في مَكرِهم[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ ﴾ فيه أنَّ كُلَّ مَن أسْلَك أحدًا طريقًا، كان شَريكَه في عَمَلِه فيها؛ فكان عليه مِثلُ وِزرِه إن كانت طريقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧).

رَدًى، وله مِثلُ أجرِه إن كانت سَبيلَ هُدًى؛ فمَن سنَّ سُنَّةً سَيِّئةً فعليه وِزْرُها ووِزْرُ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ، مِن غيرِ أن يَنقُصَ أحَدُهم مِن حِمْلِ الآخَرِ شَيئًا[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ حِرْصُ الكافرين على إغواءِ المؤمنينَ[٢].

٢- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ نرى في المُتَّسِمينَ بالإسلامِ مَن يَستَنُّ بأولئك فيَقولُ لصاحِبِه -إذا أراد أن يُشَجِّعَه على ارتكابِ بعضِ العظائِمِ-: افعَلْ هذا، وإثمُه في عُنُقي! وكم مِن مَغرورٍ بمثلِ هذا الضَّمانِ مِن ضَعَفةِ العامَّةِ وجَهَلتِهم[٣]!

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ قال بعْدَه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾، فهناك نفى الحَملَ، وهاهنا أثبتَ الحَملَ، فكيف الجَمعُ بيْنَهما؟

**الجوابُ**: أنَّ الحَملَ المنفيَّ هو ما كان المقصودُ منه دفْعَ التَّبِعةِ عن الغيرِ، وتبرئَتَه مِن جناياتِه؛ فلا ينافيه إثباتُ حَملٍ آخَرَ عليهم هو حَملُ المؤاخَذةِ على التَّضليلِ في قَولِه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ إثباتُ عَدْلِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥، ٣٦)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٩).

اللهِ؛ حيثُ لا يَحْمِلُ أحدٌ خطيئةَ أحدٍ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيه سؤالٌ: الصِّيغةُ في قَولِهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ أمرٌ، والأمرُ لا يَدخُلُه التَّصديقُ والتَّكذيبُ، فكيف يُفهَمُ قَولُه: ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؟

**الجوابُ**: أنَّ معناه شَرطٌ وجَزاءٌ، فكأنَّهم قالوا: إن تتَّبِعونا نَحمِلْ خطاياكم، وهم كَذَبوا في هذا؛ فإنَّهم لا يَحمِلونَ شَيئًا[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَيُسۡـَٔلَنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ التَّعبيرُ بصيغةِ الافتِعالِ في ﴿يَفۡتَرُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّهم كانوا يَعلَمونَ صِدقَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويَتعمَّدونَ الكَذِبَ في وَعدِهم لِمَن غَرُّوه[٣].

## بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍۖ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ وَصْفُهم بالكُفْرِ هاهنا دونَ ما سبَقَ؛ لِمَا أنَّ مَساقَ الكلامِ لبَيانِ جِناياتِهم، وفيما سبَقَ لبَيانِ جِنايةِ مَن أضَلُّوه[٤].

- وإنَّما أمَرُوا أنفُسَهم بالحمْلِ عاطفينَ على أمْرِهم بالاتِّباعِ؛ مُبالَغةً في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٢).

تعليقِ الحمْلِ بالاتِّباعِ، والوعْدِ بتَخفيفِ الأوزارِ عنهم -إنْ كانت- تَشجيعًا لهم عليه[١].

- وأخبَرَ أنَّهم يَحمِلون خَطاياهم على جِهَةِ التَّشبيهِ بالنَّقلِ، لكنَّهم أخْرَجوه في صِيغةِ الأمْرِ؛ لأنَّها أوجَبُ وأشَدُّ تأكيدًا في نفْسِ السَّامعِ مِنَ المُجازاةِ[٢]، ولفائدةِ تنزيلِ الشَّيءِ المُخْبَرِ عنه مَنزِلةَ المفروضِ المُلْزَمِ به[٣].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ مَجيءُ الأمْرِ بمعنى الخبَرِ؛ فأصْلُ الكلامِ: إنْ تَتَّبِعونا نَحمِلْ خَطاياكم؛ فعُدِلَ عنه إلى ما ذُكِرَ ممَّا هو خلافُ الظَّاهرِ مِن أمْرِهم بالحَملِ[٤]، وقد حَكى اللهُ تعالى عنهم قولَهم: ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ بصِيغةِ الأمْرِ بلامِ الأمْرِ: إمَّا لأنَّهم نَطَقوا بمِثْلِ ذلك؛ لبَلاغتِهم، وإمَّا لإفادةِ ما تَضمَّنَتْه مقالتُهم مِن تأْكيدِ تحمُّلِهم ذلك؛ فصِيغَةُ أمْرِهم أنفُسَهم بالحمْلِ آكَدُ مِن الخبرِ عن أنفُسِهم بذلك، ومِن الشَّرطِ وما في معناهُ؛ لأنَّ الأمْرَ يَسْتدعي الامتثالَ، فكانت صِيغةُ الأمرِ دالَّةً على تَحقيقِ الوفاءِ بالحَمالةِ. وواوُ العطْفِ لجُملةِ ﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ على جُملةِ ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ مُرادٌ منها المَعِيَّةُ بيْنَ مَضمونِ الجُملتينِ في الأمرِ، وليس المُرادُ منه الجمْعَ في الحُصولِ؛ فالجُملتانِ في قوَّةِ جُملتَيْ شرطٍ وجزاءٍ، والتَّعويلُ على القرينةِ؛ فكان هذا القولُ أدَلَّ على تأكيدِ الالتزامِ بالحالةِ -إنِ اتَّبَعَ المسلِمون سبيلَ المشركينَ- مِن أنْ يُقالَ: إنْ تَتَّبِعوا سبيلَنا نَحمِلْ خَطاياكم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((الأصول من علم الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤١٠).

بصِيغةِ الشَّرطِ، أو أنْ يُقالَ: اتَّبِعوا سبيلَنا فنَحمِلَ خَطاياكم، بفاءِ السَّببيَّةِ[١].

- وكذلك دلَّ قولُه: ﴿خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ على العُمومِ؛ لأنَّه جمْعٌ مُضافٌ، وهو مِن صِيَغِ العمومِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ إبطالٌ لقولِهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾؛ نقَضَ العمومَ في الإثباتِ بعُمومٍ في النَّفْيِ؛ لأنَّ (شيء) في سِياقِ النَّفْيِ يُفِيدُ العُمومَ؛ لأنَّه نَكِرةٌ، وزِيادةُ حرْفِ (مِن) تنصيصٌ على العُمومِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾ تَضمَّنَت خُلُوَّ قولِهم: ﴿وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ عن مُطابَقتِه للواقعِ في شَيءٍ، وذلك يَشتمِلُ على أنَّ مَضمونَها كذِبٌ صريحٌ؛ فكان مضمونُ جُملةِ ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ ممَّا اشتمَلَ عليه مَضمونُ جُملةِ ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ﴾، وليس مَضمونُ الثَّانيةِ عينَ مَضمونِ الأُولى، بلِ الثَّانيةُ أَوْفى بالدَّلالةِ على أنَّ كذِبَهم مُحقَّقٌ، وأنَّه صِفةٌ لهم في خبَرِهم هذا وفي غَيرِه؛ ولهذا لم تُعطَفْ جُملةُ ﴿إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لكَمالِ الاتِّصالِ بيْنَها وبيْن ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنۡ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيۡءٍ﴾[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٠، ٢٢١).

- قولُه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ﴾ بَيانٌ لِمَا يَستتبِعُه قولُهم ذلك في الآخرةِ مِنَ المَضَرَّةِ لأنفُسِهم، بعدَ بَيانِ عدَمِ مَنفعتِه لِمُخاطبِيهم أصلًا. والتَّعبيرُ عن الخَطايا بالأثقالِ؛ للإيذانِ بغايةِ ثِقَلِها وكَونِها فادحةً. واللَّامُ جوابُ قَسَمٍ مُضمَرٍ، أيْ: وباللهِ لَيَحمِلُنَّ أثقالَ أنفُسِهم كاملةً[1].

- وفائدةُ ذِكْرِ ﴿أَثۡقَالَهُمۡ﴾ -مع أنَّه لو قِيل: (ولَيحمِلُنَّ أثقالًا مع أثقالِهم) لَأفادَ-: أنَّه أُرِيدَ بَيانُ استقلالِ أثقالِ أنفُسِهم، وأنَّها بَهَظَتْهم واستفرَغَتْ جُهْدَهم، ومع ذلك جُعِلَت أثقالُ الَّذين يُضِلُّونهم كالعِلاوةِ عليها[2].

- قولُه: ﴿وَلَيُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ تَذييلٌ جامعٌ لمُؤاخَذتِهم بجميعِ ما اختَلَقوه مِن الإفكِ والتَّضليلِ؛ سواءٌ ما أضَلُّوا به أتْباعَهم، وما حاوَلُوا به تَضليلَ المسلمينَ فلم يَقَعوا في أشْراكِهم، وقد شمِلَ ذلك كلَّه لَفْظُ الافتراءِ، كما عبَّرَ عن مُحاولتِهم تَغريرَ المسلمينَ بأنَّهم فيه كاذِبونَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢١).

## الآيتان (١٤-١٥)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلطُّوفَانُ﴾: أي: السَّيلُ العَظيمُ، والماءُ المُتناهي فِي الكَثرةِ، وأصلُ (طوف): يدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وأن يَحُفَّ به[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ابتلاءَ نوحٍ عليه السَّلامُ بقومِه: ولقد أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه فمكَثَ فيهم داعيًا لهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه تِسعَمئةٍ وخمسينَ سنةً، فأغرَقَهم الطُّوفانُ وهم ظالِمونَ لأنفُسِهم بالشِّركِ والتَّكذيبِ، وأنجَيْنا نوحًا ومَنْ حمَلَهم معه في السَّفينةِ، وجعَلْنا تلك السَّفينةَ عِبرةً للعالَمينَ.

### تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان السِّياقُ للبَلاءِ والامتِحانِ، والصَّبرِ على الهَوانِ، وإثباتِ عِلمِ اللهِ وقُدرتِه على إنجاءِ الطَّائِعِ وتعذيبِ العاصي؛ ذَكَرَ مِنَ الرُّسُلِ الكِرامِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- مَن طال صَبرُه على البلاءِ، ولم يَفتُرْ عَزمُه عن نصيحةِ العبادِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨١).

على ما يُعامِلونَه به مِن الأذى؛ تسليةً لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولتابعيه رَضيَ الله تعالى عنهم، وتثبيتًا لهم، وتهديدًا لِقُريشٍ[١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ، فأقام فيهم نبيًّا داعيًا لهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه تِسعَمئةٍ وخَمسينَ سَنةً[٢].

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾.

أي: فأهلَكَهم الماءُ الكثيرُ الَّذي نزَل مِن السَّماءِ، ونَبَع مِن الأرضِ، فأغرَقَهم وهم ظالِمونَ لأنفُسِهم بالشِّركِ والتَّكذيبِ؛ فاستَحَقُّوا عذابَ اللهِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾.

أي: فأنجَيْنا مِنَ الغَرَقِ والهلاكِ نوحًا ومَن حمَلَهم معه في السَّفينةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٥٨، ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٠، ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٠، ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٨). =

كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الأعراف: ٦٤].

﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وجعَلْنا تلك السَّفينةَ عِبرةً للعالَمينَ وحُجَّةً عليهم، وعلامةً على قُدرةِ اللهِ وعِلمِه، وإنجائِه للطَّائِعِ، وإهلاكِه للعاصي(١).

قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٢١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

---

= قال ابن عثيمين: (أي: أهلُ نوحٍ كُلُّهم -إلَّا ابنَه الكافِرَ وامرأتَه-، والمؤمِنون مِن قَومِه، وكذلك أيضًا الحيواناتُ ﴿مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢، ٢٢٣).

قال ابن كثير: (قولُه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: وجعَلْنا تلك السَّفينةَ باقيةً؛ إمَّا عَيْنُها كما قال قَتادةُ: إنَّها بَقِيت إلى أوَّلِ الإسلامِ على جبلِ الجُودِيِّ، أو نَوْعُها جعَلَه للنَّاسِ تَذكرةً لِنِعَمِه على الخَلْقِ، كيف نجَّاهم مِنَ الطُّوفانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٢-٦٤).

وقال القرطبيُّ: (الهاءُ والألِفُ في «جَعَلْناها» لِلسَّفينةِ، أو لِلْعقوبةِ، أو لِلنَّجاةِ؛ ثلاثةُ أقوالٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٤).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ ابتُدِئت القِصصُ بقِصَّةِ أوَّلِ رَسولٍ بعَثَه اللهُ لأهلِ الأرضِ؛ فإنَّ لِأَوَّليَّاتِ الحوادِثِ وَقعًا في نفوسِ المتأمِّلينَ في التَّاريخ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائدةُ في ذِكرِ مُدَّةِ لُبثِه؟

**الجوابُ**: كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَضيقُ صَدرُه بسبَبِ عَدَمِ دُخولِ الكُفَّارِ في الإسلامِ، وإصرارِهم على الكُفرِ؛ فقال: إنَّ نوحًا لَبِث ألْفَ سَنةٍ -تقريبًا- في الدُّعاءِ، ولم يؤمِنْ مِن قَومِه إلَّا قليلٌ، وصبَرَ وما ضَجِرَ، فأنت أَوْلى بالصَّبرِ؛ لقِلَّةِ مُدَّةِ لُبثِك، وكثرةِ عَدَدِ أمَّتِك، وأيضًا كان الكُفَّارُ يَغترُّونَ بتأخيرِ العذابِ عنهم أكثَرَ، ومع ذلك ما نَجَوا، فبهذا المِقدارِ مِن التَّأخيرِ لا ينبغي أن يَغترُّوا؛ فإنَّ العذابَ يَلحَقُهم[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ فيه سؤالٌ: الاستِثناءُ في العدَدِ تكلُّمٌ بالباقي؛ فإذا قال القائلُ: لفُلانٍ علَيَّ عَشَرةٌ إلَّا ثلاثةً، فكأنَّه قال: علَيَّ سَبعةٌ، إذا عُلِمَ هذا فقَولُه: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ كقَولِه: تِسعمئةٍ وخمسين سنةً، فما الفائدةُ في العُدولِ عن هذه العبارةِ إلى غيرِها؟

**الجوابُ: في ذلك فائدتانِ**

**الفائدةُ الأولى**: أنَّ الاستِثناءَ يدُلُّ على التَّحقيقِ، وتركُه قد يُظَنُّ به التَّقريبُ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٦).

فإنَّ مَن قال: عاش فلانٌ ألْفَ سَنةٍ، يُمكِنُ أن يُتوهَّمَ أن يقولَ: ألف سنةٍ تقريبًا لا تحقيقًا، فإذا قال: إلَّا شهرًا أو إلَّا سنةً، يَزولُ ذلك التَّوهُّمُ، ويُفهَمُ منه التَّحقيقُ.

**الفائدةُ الثَّانيةُ**: أنَّ ذِكرَ لُبثِ نوحٍ عليه السَّلامُ في قَومِه كان لبيانِ أنَّه صبَر كثيرًا، ولم يؤمِنْ مِن قومِه إلا قليلٌ؛ ولذلك أتَى بعقدِ الألفِ؛ لأنَّه أعظمُ وأفخمُ، فهو أعلَى مراتِبِ الأعدادِ الَّتي لها اسمٌ مُفرَدٌ مَوضوعٌ، فالنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أولى بالصَّبرِ مع قِصَرِ مُدَّةِ دُعائِه، وكثرةِ مَن آمَن به[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ استُدِلَّ به على جَوازِ الاستِثناءِ مِن العدَدِ[2].

٥- قول الله تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾، فيه ردٌّ على مَن قال: لا يُستثنَى مِن العَدَدِ عَقْدٌ صحيحٌ[3].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى لطيفةٍ، وهي: أنَّ اللهَ تعالى لا يُعذِّبُ على مجرَّدِ وجودِ الظُّلمِ، وإلَّا لَعَذَّبَ مَن ظلَمَ وتاب؛ فإنَّ الظُّلمَ وُجِدَ منه، وإنَّما يُعذِّبُ على الإصرارِ على الظُّلمِ؛ فقَولُه: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ يعني: أهلَكَهم وهم على ظُلمِهم، ولو كانوا ترَكوه لَما أهلَكَهم[4].

٧- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾، استَدلَّ بعضُهم بهذه الآيةِ على أنَّ ساكنَ الدَّارِ يُدعَى (صاحِبَها)، وإن لم تكُنْ له مِلكًا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤١٠).

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: يَعتَبِرونَ بها على أنَّ مَن كذَّب الرُّسُلَ آخِرُ أمرِه الهلاكُ، وأنَّ المؤمِنينَ سيَجعَلُ اللهُ لهم مِن كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا، ومِن كُلِّ ضِيقٍ مَخرَجًا[١].

## بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ شُروعٌ في بَيانِ ابتلاءِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأذيَّةِ أُمَمِهم إثْرَ بَيانِ ابتِلاءِ المؤمنينَ بأذيَّةِ الكفَّارِ؛ تأكيدًا للإنكارِ على الَّذين يَحسَبون أنْ يُتْرَكوا بمُجرَّدِ الإيمانِ بلا ابتِلاءٍ، وحثًّا لهم على الصَّبرِ؛ فإنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ حيث ابْتُلوا بما أصابَهم مِن جِهَةِ أُمَمِهم مِن فُنونِ المكارِهِ وصَبرُوا عليها، فَلأنْ يَصبِرَ هؤلاءِ أَولى وأحْرى[٢].

- وذِكْرُ هذه القصَّةِ تَسليةٌ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِمَا كان يَلْقَى مِن أذَى الكفَّارِ، فذُكِرَ ما لَقِيَ أوَّلُ الرُّسلِ -وهو نوحٌ عليه السَّلامُ- مِن أذَى قَومِه المُدَدَ المُتطاوِلةَ؛ تَسليةً لخاتمِ الرُّسلِ صلواتُ اللهِ عليه[٣]. وسِيقَت هذه القصَّةُ واللَّاتي بعْدَها شواهدَ على ما لَقِيَ الرُّسلُ والَّذين آمَنوا معهم مِن تَكذيبِ المشركينَ، كما صرَّحَ به قولُه عَقِبَ القصَّتينِ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٨] على أحدِ الوجهَينِ في تَفسيرِها[٤].

- وفي قَولِه: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ جاء المُميِّزُ أوَّلًا بالسَّنةِ، وثانيًا بالعامِ؛ لأنَّ تَكريرَ اللَّفظِ الواحدِ في الكلامِ الواحدِ حقيقٌ بالاجتنابِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

البلاغةِ، إلَّا إذا وقَعَ ذلك لأجْلِ غرَضٍ يَنْتَحِيه المُتكلِّمُ؛ مِن تَفخيمٍ، أو تَهويلٍ، أو تَنويهٍ، أو نحوِ ذلك[١]. وقِيل: أُوثِرَ تَمييزُ ﴿أَلْفَ﴾ بـ﴿سَنَةٍ﴾؛ لطلَبِ الخِفَّةِ بلفظِ (سَنَةٍ)، ومُيِّزَ ﴿خَمْسِينَ﴾ بلفْظِ ﴿عَامًا﴾؛ لئلَّا يُكرِّرَ لفْظَ سَنةٍ[٢]. أو عُبِّرَ بلفْظِ ﴿سَنَةٍ﴾ ذمًّا لأيَّامِ الكُفْرِ، وقال: ﴿عَامًا﴾ إشارةً إلى أنَّ زمانَ حياتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعدَ إغراقِهم كان رغَدًا واسعًا حَسنًا بإيمانِ المؤمنينَ، وخِصْبِ الأرضِ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ؛ فقد طُوِيَ ذِكْرُ ما تَرتَّبَ عليه أخْذُهم بالطُّوفانِ، وهو استِمرارُ تَكذيبِهم[٤].

- وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ أبلَغُ مِن قولِه: «فأغرقَهم»؛ لأنَّ الأخْذَ يكونُ في مُقابَلةِ عملٍ؛ فهو جزاءٌ[٥].

- وقولُه: ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: أخَذَهم وهم مُتلَبِّسون بالظُّلمِ -أي: الشِّركِ، وتكذيبِ الرَّسولِ- تلَبُّسًا ثابتًا لهم مُتقرِّرًا، وهذا تَعريضٌ للمشركينَ بأنَّهم سيأخُذُهم عذابٌ[٦].

٢- قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

- وفاءُ ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ عطْفٌ على ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾، وهذا إيماءٌ إلى أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

اللهَ مُنْجِي المؤمنينَ مِن العذابِ[١].

- وإنَّما قال: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الشَّاملَ لجَميعِ سكَّانِ الأرضِ؛ لأنَّ مَن لمْ يُشاهِدْ بَقايا سفينةِ نُوحٍ فإنَّه يُشاهِدُ السُّفنَ، فيَتذكَّرُ سَفينةَ نُوحٍ وكيف كان صُنْعُها بوَحْيٍ مِن اللهِ لإنْجاءِ نوحٍ ومَن شاء اللهُ نَجاتَه، ولأنَّ الَّذين مِن أهْلِ قَريتِها يُخبِرون عنها، وتُنقَلُ أخبارُهم، فتَصِيرُ مُتواتِرةً[٢].

- وأفرَدَ ﴿آيَةً﴾، وجاء بالفاصلةِ ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنَّ إنجاءَ السُّفنِ أمْرٌ مَعهودٌ؛ فالآيةُ إنجاؤُه تعالى أصحابَ السَّفينةِ وقْتَ الحاجةِ، ولأنَّها بَقِيَت أعوامًا حتَّى مرَّ عليها النَّاسُ ورَأَوها، فحصَلَ العِلْمُ بها لهم؛ فناسَبَ ذلك قولُه: ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٧).

## الآيات (١٦-١٨)

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوْثَٰنًا﴾: أي: أصنامًا، والوثَنُ: هو ما كان يُعبدُ مِن حجارةٍ أو جصٍّ، وقيل: الصَّنمُ: ما كان مصَوَّرًا، والوثنُ: ما كان مِن غيرِ صورةٍ، وقيل: الوثنُ كلُّ ما كان منحوتًا مِن خشبٍ أو حجرٍ، والصَّنمُ: ما كان مِن ذهبٍ أو فضَّةٍ أو نُحاسٍ، واشتِقاقُه مِن قولِهم: وَثَنَ الشَّيءُ، إذا قام في مكانِه وثبَت، فسُمِّي الصَّنمُ وثنًا؛ لأنَّه يُنصَبُ ويُركزُ في مكانٍ، فلا يَبرَحُ عنه[1].

﴿إِفْكًا﴾: أي: كَذِبًا، وقيل: الإفكُ هو أسْوَأُ الكذِبِ؛ لأنَّه قلْبٌ للكلامِ عن الحقِّ إلى الباطلِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قلبِ الشَّيءِ، وصَرْفِه عن جِهتِه[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ابتلاءَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بقومِه: واذكُرْ إبراهيمَ إذ قال لقَومِه: اعبُدوا اللهَ واتَّقوه؛ ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتُم تعلَمونَ، إنَّما تَعبُدونَ مِن دونِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٧٩) و(١٧/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥).

اللهِ أوثانًا، وتَصنعونَ بأيديكم تلك الأوثانَ فتُسَمُّونَها آلهةً كَذِبًا! إنَّ أوثانَكم الَّتي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ لا تَملِكُ لكم رِزقًا؛ فاطلُبوا الرِّزقَ مِن اللهِ وَحْدَه، واعبُدوه واشكُروه على رِزقِه، إليه وحْدَه تُرجَعونَ يومَ القيامةِ.

وإن تُكَذِّبوا فقد كذَّبَتْ جماعاتٌ مِن قَبْلِكم، فأهلَكَهم اللهُ، وما على الرَّسولِ إلَّا أن يُبَلِّغَ قَومَه بلاغًا واضِحًا، وليس عليه هِدايتُهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان بلاءُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عظيمًا في قَذفِه في النَّارِ، وإخراجِه مِن بلادِه؛ أتْبَع نوحًا به، فقال[1]:

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾.

أي: واذكُرْ[2] إبراهيمَ إذ قال لِقَومِه: اعبُدوا اللهَ وَحْدَه، واتَّقوا سَخَطَه وعذابَه بِفعلِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٦).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المعنى: واذكرْ إبراهيمَ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٦٦).

ويجوزُ أن يكونَ (إبْراهِيمَ) معطوفًا على (نوح)، أي: وأرسَلْنا إبراهيمَ. ويجوزُ أن يكونَ معطوفًا على الضَّميرِ في ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ [العنكبوت: ١٥]. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: عبادةُ اللهِ وَحْدَه وتَقْواهُ خيرٌ لكم في دُنياكم وأُخْراكم مِن تَركِ ذلك، إن كنتُم تَعلَمونَ؛ فلا يَعقِلُ خَيريَّةَ عِبادةِ اللهِ وَحْدَه وتَقْواهُ إلَّا ذو عِلمٍ[1].

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَهم بعبادةِ اللهِ وتَقْواه؛ نهاهم عن عبادةِ الأصنامِ، وبيَّن لهم نَقْصَها، وعَدَمَ استِحقاقِها للعبوديَّةِ، فقال[2]:

﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: إنَّما تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ أوثانًا لا تَستَحِقُّ شَيئًا مِن رُتبةِ الألوهيَّةِ[3].

﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾.

أي: وتَصنَعونَ بأيديكم تلك الأوثانَ، وتُسَمُّونَها آلهةً، وتَختَلِقون الكذِبَ بالأمرِ بعِبادتِها[4]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٦، ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٧-٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٤، ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٥)، ((تفسير =

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾.

أي: إنَّ أوثانَكم الَّتي تَعبُدونَها ناقِصةٌ وعاجِزةٌ، لا تَستطيعُ أن تَرزُقَكم أيَّ شَيءٍ مِن الرِّزقِ ولو قليلًا[1].

﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾.

---

= ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٥).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ أي: تَقولون كذِبًا: ابنُ أبي زمنين، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٧٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦١١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٧).

وذلك على أنَّ معنى تَخْلُقونَ: تَكذِبون، فهو مِن اختِلاقِ الكذِبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٧).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: تَعمَلون الأصنامَ بأيديكم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٣).

قال ابن جُزَي: (﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ هو مِنَ الخِلقةِ، يُريدُ به نحْتَ الأصنامِ، فسَمَّاهُ خِلْقةً على وجهِ التَّجَوُّزِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٣).

وقال السعدي: (قال: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ تَنحِتونها وتَخلُقونها بأيديكم، وتَخلُقون لها أسماءَ الآلهةِ، وتَختلِقون الكذِبَ بالأمرِ بعبادتِها، والتَّمسُّكِ بذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

وقال الزمخشريُّ: (واختلاقُهم الإفكَ: تَسميتُهمُ الأوثانَ آلهةً وشُركاءَ لله أو شُفعاءَ إليه. أو سمَّى الأصنامَ: إفْكًا، وعمَلَهم لها ونَحْتَهم: خَلْقًا للإفكِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٥).

أي: فاطلُبوا الرِّزقَ كُلَّه مِنَ اللهِ وَحْدَه، ولا تَطلُبوه ممَّن سِواه مِن الأوثانِ وسائرِ الخَلقِ[١].

﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾.

أي: واعبُدوا اللهَ وَحْدَه وتذَلَّلوا له، واشكُروه على رِزقِه وسائرِ نِعَمِه[٢].

﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

أي: إلى الله وَحْدَه تُرجَعونَ يومَ القيامةِ، فيُحاسِبُكم ويُجازيكم على أعمالِكم[٣].

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا فرَغَ مِن بيانِ التوحيدِ؛ أتى بَعْدَه بالتَّهديدِ، فقال[٤]:

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ﴾.

أي: وإن تُكذِّبوا بالحَقِّ فقد كذَّبَتْ به جماعاتٌ مِن قَبْلِكم، فأهلَكَهم اللهُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٢، ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٣).

قيل: هذا مِن كلامِ إبراهيمَ لِقَومِه. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، وهو ظاهِرُ اختيارِ البِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٤). =

﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: وما على رَسولِ اللهِ إلَّا أن يُبَلِّغَ قَومَه ما أمَرَه اللهُ بتبليغِه لهم بلاغًا واضِحًا مُوضِّحًا للحَقِّ، وليس عليه هِدايتُهم(١).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- يَنبوعُ الخَيرِ وأصْلُه: إخلاصُ العَبدِ لِرَبِّه عِبادةً واستِعانةً، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وفي قَولِه تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وفي قَولِه تعالى هنا: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾، بحيث يَقطَعُ العبدُ تعلُّقَ قَلبِه مِن المخلوقينَ انتِفاعًا بهم أو عملًا لأجْلِهم، ويَجعَلُ هِمَّتَه رَبَّه تعالى، وذلك بمُلازَمةِ الدُّعاءِ له في كُلِّ مَطلوبٍ؛ مِن فاقةٍ وحاجةٍ ومَخافةٍ وغيرِ ذلك، والعَمَلِ له بكلِّ محبوبٍ، ومَن أحْكَمَ هذا فلا يمكِنُ أن يُوصَفَ ما يُعقِبُه ذلك(٢).

---

= وقيل: هذا مِن كلام الله تعالى خِطابًا لكُفَّار قُرَيش. أي: وإن تُكَذِّبوا رسولَنا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن قالَ بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٦، ٢٢٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِنَ السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٤٥).

وقيل: هذا مِن كلام النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم لكُفَّارِ قُرَيش. يعني: قُلْ لهم يا محمَّدُ: وإن تُكَذِّبوا فقد كذَّب أمَمٌ مِن قَبْلِكم. وممَّن قال بذلك: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٧، ٤٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٤).

قال ابن عاشور: (إن كان مِن كلام إبراهيمَ فالمرادُ بالرَّسولِ إبراهيمُ... وإن كان مِن خِطابِ الله مُشرِكي قُرَيشٍ فالمرادُ بالرَّسولِ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٥٩، ٦٦٠).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ أي: عِبادةً يَقبَلُها تعالى، وهي ما كان خالِصًا عن الشِّركِ؛ فإنَّ مَن يكونُ كذلك يَستَحِقُّ ذلك، ويُثيبُ العابِدَ له، ويُعاقِبُ الزَّاهِدَ فيه، فلا يَشغَلْكم ابتِغاءُ الرِّزقِ بالأسبابِ الظَّاهِرةِ عن عبادتِه؛ فإنَّها هي الأسبابُ الحقيقيَّةُ، فرُبَّما حُرِمَ العبدُ الرِّزقَ بالذَّنْبِ يُصيبُه[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ فأخبَرَ أنَّهم يَخلُقونَ إفْكًا قبْلَ النَّهيِ؛ ففيه بيانُ قُبْحِ أعمالِ الكُفَّارِ قبْلَ النَّهيِ، وقبلَ إنكارِ الرُّسُلِ عليهم -خلافًا لِمَن لا يُثبِتُ حَسَنًا ولا قبيحًا إلَّا بالأمرِ وَالنَّهيِ- فما فعَلُوه قبْلَ مجيءِ الرُّسلِ كان سَيِّئًا وقبيحًا وشرًّا؛ لكنْ لا تَقومُ عليهم الحُجَّةُ إلَّا بالرَّسولِ[2].

٢- قولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى تفرُّقِ الهَمِّ بكَثرةِ المعبودِ، والكَثرةُ يَلْزَمُها الفُرقةُ، ولا خيرَ في الفُرقةِ، ومادَّةُ «وثن» بجَميعِ تقاليبِها -واويَّةً ويائيَّةً ومَهموزةً- تَدورُ على الزِّيادةِ والكثرةِ، ويَلزَمُها الفُرقةُ مِن اختِلافِ الكَلِمةِ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًا﴾ دَلالةٌ على صحَّةِ إطلاقِ الخَلْقِ على فِعلِ المخلوقِ[4].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٨- ٦٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (٧/ ٢٦٤).

أنَّه ينبغي الاستِدلالُ بالمحسوسِ على المعقولِ؛ فهنا دليلٌ محسوسٌ، ووجهُ الاستِدلالِ بالمحسوسِ على المعقولِ أنَّ المحسوسَ لا يُنكِرُه أحدٌ، لكنَّ المعقولَ قد لا يَتصَوَّرُه الإنسانُ فضلًا عن كَونِه يُقِرُّ به، فالاستدلالُ بالشَّيءِ المحسوسِ على المعقولِ مِن طُرُقِ المُناظَرةِ وإقامةِ الحُجَّةِ والإلزامِ[١]، وقد سلَك إبراهيمُ عليه السَّلامُ مَسلَكَ الاستِدلالِ بالنِّعَمِ الحِسِّيَّةِ؛ لأنَّ إثباتَها أقرَبُ إلى أذهانِ العُمومِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ دَلالةٌ على الأمرِ بمسألةِ الخالقِ، والنَّهيِ عن مسألةِ المَخلوقِ، فلَمْ يَقُلْ سُبحانَه: «فابتغوا الرِّزقَ عندَ اللهِ»؛ لأنَّ تقديمَ الظَّرفِ يُشْعِرُ بالاختِصاصِ والحَصْرِ، كأنَّه قال: «لا تَبتغوا الرِّزقَ إلَّا عندَ اللهِ»[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ أشار بصيغةِ الافتِعالِ إلى السَّعيِ فيه؛ لأنَّه أجرَى عادتَه سُبحانَه أنَّه في الغالِبِ لا يُؤتيه إلَّا بكَدٍّ مِنَ المرزوقِ وجُهدٍ[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إشارَةٌ إلى عدَمِ المنفعةِ في الحالِ وفي المآلِ؛ وهذا لأنَّ النَّفعَ إمَّا في الوجودِ، وإمَّا في البقاءِ، لكنْ ليس منهم نفعٌ في الوجودِ؛ لأنَّ وُجودَهم منكم حيثُ تَخلُقونَها وتَنحِتونَها، ولا نفعَ في البقاءِ؛ لأنَّ ذلك بالرِّزقِ، وليس منهم ذلك، ثُمَّ بَيَّن أنَّ ذلك كلَّه حاصلٌ مِنَ اللهِ، فقال: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾، فقَولُه: ﴿ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى استِحقاقِ عُبوديَّتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٢، ٤١٣).

لِذَاتِه، وقولُه: ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ إشارةٌ إلى حصولِ النَّفعِ منه عاجِلًا وآجِلًا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أنَّ مِن أسبابِ تَحصيلِ الرِّزقِ وبقائِه: العِبادةَ والشُّكرَ؛ فقَولُه: ﴿وَٱعۡبُدُوهُ﴾ هذا سببٌ للرِّزقِ، وقولُه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ هذا سَبَبٌ للبقاءِ[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ وُجوبُ شُكْرِ النِّعمةِ[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيه إثباتُ الجزاءِ على الأعمالِ؛ لأنَّ الفائدةَ مِن هذا الإخبارِ بأنَّهم سيُبْعَثُون ويُجازَون، ليس مُجَرَّدَ بَعْثٍ بدونِ جزاءٍ! بل لا بُدَّ فيه مِن جزاءٍ[٤].

١١- قولُ الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ يدُلُّ على أنَّ تأخيرَ البيانِ عن وَقتِ الحاجةِ لا يجوزُ؛ لأنَّ الرَّسولَ إذا بلَّغ شَيئًا ولم يُبَيِّنْه، فإنَّه لم يأتِ بالبلاغِ المُبينِ، فلا يكونُ آتيًا بما عليه[٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أنَّ الرُّسُلَ لا يجبُ عليهم هِدايةُ الخَلْقِ، فليس عليهم إلَّا البلاغُ، أمَّا الهدايةُ فإلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وكذلك الحسابُ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾[٦] [الرعد: ٤٠].

١٣- في قولِ الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أنَّ القرآنَ مُتضَمِّنٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٣).

لجميع الأحكام العقديَّةِ والعمليَّةِ، وأنَّه أتَى بذلك على أكمَلِ وجهٍ وأبْيَنِه؛ لقوله: ﴿إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ فعليه البلاغُ لِكُلِّ ما أُرسِلَ به، والنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُرسِلَ بعقائدَ صحيحةٍ سليمةٍ، وبأعمالٍ قَويمةٍ، وبأقوالٍ مستقيمةٍ، وعلى هذا نَستدِلُّ بهذه الآيةِ على أنَّ جميعَ الشَّريعةِ بَيِّنةٌ مُكَمَّلةٌ واضحةٌ، فنَرُدُّ بها على جميعِ أهلِ البِدعِ؛ لأنَّ أهلَ البدعِ يَستَلْزِمُ قولُهم ألَّا يكونَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بَلَّغَ البلاغَ المُبينَ!

فإن قال قائل: يوجَدُ وقائعُ الآنَ تقعُ ولا نرى لها ذِكْرًا في القرآنِ ولا في السُّنَّةِ!

**فالجوابُ**: إنَّها مُبَيَّنةٌ بيانَ الجنسِ، فليس بلازِمٍ أنَّ يأتيَ القرآنُ بكُلِّ فردٍ، أو أنَّ السُّنَّةَ تأتي بكُلِّ فردٍ؛ لأنَّ أفرادَ القضايا لا حَصْرَ لها، ولو أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالى ذَكَر في القرآنِ كلَّ قضيَّةٍ تأتي إلى يومِ القيامةِ، فكم يكونُ القرآنُ مِن مجلَّدٍ؟! لَكِنَّنا نقولُ: هذه الأفرادُ -أفرادُ هذه المسائلِ- موجودةٌ بأجناسِها وعِلَلِها وقَواعدِها؛ إمَّا أن تكونَ بالقياسِ، وإمَّا أنَّها مَسكوتٌ عنها، والسُّكوتُ في مَقامِ البيانِ بيانٌ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إيرادُ قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ليس إلَّا إرادةً للتَّنفيسِ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنْ تكونَ مَسْلَاةً له، وسبيلَ تفريجٍ عليه بأنَّ أباهُ إبراهيمَ خَليلَ اللهِ كان قد مُنِيَ بنَحْوِ ما مُنِيَ به؛ مِن شِركِ قومِه، وعِبادتِهم الأوثانَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٤، ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٧).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بعِبادةِ اللهِ. وقد أُجْمِلَ الخبرُ في هذه الجُملةِ، وفُصِّلَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ الآيةَ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ بَيانٌ لبُطلانِ دِينِهم وشَرِّيَّتِه في نفْسِه، بعدَ بَيانِ شَرِّيَّتِه بالنِّسبةِ إلى الدِّينِ الحقِّ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [العنكبوت: ١٦]. وقصْرُهم على عِبادةِ الأوثانِ يجوزُ أنْ يكونَ قصْرًا على عِبادتِهم الأوثانَ، أي: دونَ أنْ يَعبُدوا اللهَ، فهو قَصرٌ حقيقيٌّ؛ إذ كان قومُ إبراهيمَ لا يَعبُدون اللهَ؛ فالقصْرُ مُنصَبٌّ على قولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: إنَّما تَعبُدون غيرَ اللهِ، وبذلك يكونُ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حالًا مِن ﴿أَوۡثَٰنٗا﴾، أي: حالَ كونِها مَعبودةً مِن دونِ اللهِ، وهذا مُقابِلُ قولِه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، دونَ أنْ يقولَ لهم: (لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ)، لكنَّ قومَ إبراهيمَ قد وُصِفُوا بالشِّركِ في قَولِه تعالى في سُورةِ (الأنعام): ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]؛ فهُم مِثْلُ مُشرِكي العربِ؛ فالقصرُ فيه مُنصَبٌّ على عِبادتِهم المَوصوفةِ بالوَثنيَّةِ، أي: ما تَعبُدون إلَّا صُوَرًا لا إدراكَ لها؛ فيكونُ قصْرَ قلْبٍ لإبطالِ اعتِقادِهم إلهيَّةَ تلك الصُّوَرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٤، ٢٢٥).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ بَيانٌ لشَرِّيَّةِ ما يَعبُدونَه مِن حيثُ إنَّه لا يَكادُ يُجْدِيهم نَفعًا[1].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾ إنْ كان قومُ إبراهيمَ يَعترِفون للهِ تعالى بالإلهيَّةِ والخلْقِ والرِّزقِ، ولكنَّهم يَجعَلون له شُركاءَ في العِبادةِ لِيَكونوا لهم شُفعاءَ، كحالِ مُشرِكي العرَبِ؛ تكونُ الجُملةُ تَعليلًا لجُملةِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]، أي: هو المُستحِقُّ للعِبادةِ التي هي شُكْرٌ على نِعَمِه. وإنْ كان قومُه لا يُثبِتون إلهيَّةً لغيرِ أصنامِهم، كانتْ جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مُستأنَفةً ابتدائيَّةً؛ إبطالًا لاعتِقادِهم أنَّ آلهتَهم تَرزُقهم، ويُرجِّحُ هذا الاحتِمالَ التَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ تَنكيرُ ﴿رِزۡقٗا﴾ في سِياقِ النَّفيِ يدُلُّ على عُمومِ نفْيِ قُدرةِ أصنامِهم على كلِّ رِزقٍ ولو قليلًا. وتَفريعُ الأمْرِ بابتِغاءِ الرِّزقِ مِن اللهِ إبطالٌ لِظَنِّهم الرِّزقَ مِن أصنامِهم، أو تَذكيرٌ بأنَّ الرَّازقَ هو اللهُ؛ فابتغاءُ الرِّزقِ منه يَقْتضي تَخصيصَه بالعِبادةِ كما دلَّ عليه عطْفُ ﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ﴾. ولامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾ لامُ الجنسِ المفيدةُ للاستِغراقِ بمَعونةِ المقامِ، أي: فاطْلُبوا كلَّ رِزقٍ قَلَّ أو كَثُرَ مِن اللهِ دونَ غيرِه. والمُعَرَّفُ بلامِ الجنسِ في قوَّةِ النَّكرةِ، فكأنَّه قِيل: فابْتَغوا عندَ اللهِ رِزقًا[3]. وخَصَّ الرِّزقَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٥، ٢٢٦).

لِمَكانتِه مِن الخَلْقِ، ونكَّره؛ لأنَّ المقصودَ أنَّهم لا يَقدِرونَ على شَيءٍ منه[١].

- وأيضًا نكَّرَ الرِّزقَ في قَولِه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾، ثمَّ عرَّفه في قَولِه: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾؛ لأنَّه أراد لا يَستطيعون أنْ يَرزُقوكم شيئًا مِن الرِّزقِ، فابْتَغوا عندَ اللهِ الرِّزقَ كلَّه؛ فإنَّه هو الرَّزَّاقُ وحْدَه، لا يَرزقُ غيرُه؛ فنكَّر أوَّلًا للتَّعليلِ مُبالَغةً في النَّفيِ، ثمَّ عرَّفَ للاستِغراقِ؛ لِيَشْملَ كلَّ ما يُسمَّى رِزقًا[٢].

- وفي قَولِه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ﴾ عُدِّيَ الشُّكرُ باللَّامِ جرْيًا على أكثَرِ استعمالِه في كلامِ العربِ؛ لِقَصدِ إفادةِ ما في اللَّامِ مِن معنى الاختِصاصِ، أي: الاستِحقاقِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بعِبادتِه وشُكْرِه، أي: لأنَّه الَّذي يُجازي على ذلك ثَوابًا، وعلى ضِدِّه عِقابًا؛ إذ إلى اللهِ لا إلى غيرِه مَرجِعُكم بعدَ الموتِ. وفي هذا إدماجُ تَعليلِ العِبادةِ بإثباتِ البعثِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مِن بقيَّةِ مَقالةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ بأنْ يكونَ رأى منهم مَخائِلَ التَّكذيبِ، ففرَضَ وُقوعَه، أو يكونَ سبَقَ تَكذيبُهم إيَّاهُ مَقالتَه هذه؛ فيكونَ الغرَضُ مِن هذه الجُملةِ لازِمَ الخبَرِ، وهو أنَّ تَكذيبَهم إيَّاهُ ليس بعَجيبٍ، فلا يَضِيرُه، ولا يَحْسَبوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّهم يَضِيرونه به ويَتَشَفَّون منه؛ فإنَّ ذلك قد انتابَ الرُّسلَ قبْلَه مِن أُمَمِهم. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُعترِضةً، والواوُ اعتراضيَّةً، واعترَضَ هذا الكلامُ بيْنَ كلامِ إبراهيمَ وجوابِ قومِه؛ فهو كلامٌ مُوَجَّهٌ مِن جانبِ اللهِ تعالى إلى المشركينَ، الْتفَتَ به مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ تَسجيلًا عليهم، والمقصودُ منه بَيانُ فائدةِ سَوقِ قصَّةِ نُوحٍ وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ، وأنَّ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أُسوةً برُسلِ الأُمَمِ الَّذين قبْلَه، وخاصَّةً إبراهيمَ جدَّ العربِ المقصودينَ بالخِطابِ على هذا الوجْهِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ إعلامٌ للمُخاطَبينَ بأنَّ تكذيبَهم لا يَلحَقُه منه ما فيه تَشَفٍّ منه؛ فإنْ كان مِن كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ فالمرادُ بالرَّسولِ إبراهيمُ، سلَكَ مَسلكَ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإيذانِ عُنوانِ الرَّسولِ بأنَّ واجِبَه إبلاغُ ما أُرسِلَ به بيِّنًا واضحًا، وإنْ كان مِن خِطابِ اللهِ مُشركي قُرَيشٍ فالمرادُ بالرَّسولِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقد غلَبَ عليه هذا الوصْفُ في القُرآنِ، مع الإيذانِ بأنَّ عُنوانَ الرِّسالةِ لا يَقْتضي إلَّا التَّبليغَ الواضحَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٧).

## الآيات (١٩-٢٢)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُبْدِئُ﴾: أي: يُنشئُ ويَخترِعُ ويَستأنِفُ، وأصلُ (بدأ): مِن افتِتاحِ الشَّيءِ[1].

﴿تُقْلَبُونَ﴾: أي: تُرجَعونَ وتُرَدُّونَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جهةٍ إلى جهةٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على أنَّ البعثَ حقٌّ، وأنَّه تعالى لا شيءَ يُعجِزُه، فيقولُ: أوَلَمْ يَرَ أولئك المُشرِكونَ المُنكِرونَ للبَعثِ كيف يَبتدِئُ اللهُ الخَلْقَ، ثمَّ يُعيدُه مِن بعدِ فنائِه؟ إنَّ ذلك على اللهِ تعالى أمرٌ سَهلٌ.

ويأمُرُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَلفِتَ أنظارَ قَومِه إلى النَّظرِ والتَّأمُّلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

قائلًا له: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: سيروا في الأرضِ، فانظُروا كيف بدَأ اللهُ الخَلْقَ مِن العَدَمِ، ثمَّ هو سُبحانَه يُنشِئُ الخَلقَ نَشأةً ثانيةً بعدَ فَنائِه، إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ.

يُعذِّبُ سُبحانَه مَن يَشاءُ، ويَرحَمُ مَن يشاءُ، وإليه وَحْدَه تُرَدُّونَ يومَ القيامةِ، وما أنتم بمُفلِتينَ مِن عذابِ اللهِ، سواءٌ أكُنتُم في الأرضِ أم في السَّماءِ، وليس لكم مِن دونِ اللهِ وليٌّ ولا نصيرٌ.

ثمَّ يبيِّنُ مصيرَ الكافرينَ، فيقولُ: والَّذين كفَروا بآياتِ اللهِ وأنكَروا البَعثَ أولئك يَئِسوا مِن رحمتي، وأولئك لهم عذابٌ مؤلِمٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الأصلَ الأوَّلَ، وهو: التَّوحيدُ، وأشار إلى الأصلِ الثَّاني، وهو: الرِّسالةُ، بقَولِه: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ شرَع في بيانِ الأصلِ الثَّالثِ، وهو: الحَشرُ. وهذه الأصولُ الثَّلاثةُ لا يَكادُ يَنفَصِلُ بَعضُها عن بعضٍ في الذِّكرِ الإلهيِّ؛ فأينَما يَذكُرِ اللهُ تعالى منها اثنَينِ يَذكُرِ الثَّالِثَ[1].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

أي: أوَلَمْ يَرَ[2] المُشرِكونَ المُنكِرونَ للبَعثِ كيف يَبتَدِئُ اللهُ الخَلْقَ بعدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٣٩).

(٢) قال ابنُ عاشور: (الرُّؤيةُ يجوزُ أن تكونَ بَصَريَّةً، والاستِدلالُ بما هو مُشاهَدٌ مِن تجدُّدِ المخلوقاتِ في كُلِّ حينٍ بالولادةِ وبُروزِ النَّباتِ دليلٌ واضِحٌ لكُلِّ ذي بصَرٍ... ويجوزُ أن تكونَ الرُّؤيةُ عِلميَّةً مُتعَدِّيةً إلى مفعولَينِ، أنكَر عليهم تركَهم النَّظرَ والاستِدلالَ الموصِلَ إلى عِلمِ =

العدَمِ، ثمَّ يُعيدُه مِن بَعدِ فَنائِه وبَلائِه مرَّةً أُخرَى[1]؟

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

---

= كيف يُبدئُ الله الخلْقَ ثم يُعيدُه؛ لأنَّ أدلَّةَ بَدءِ الخلقِ تُفضي بالنَّاظِرِ إلى العِلمِ بأنَّ الله يعيدُ الخلْقَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٨، ٢٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٨، ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٤، ٤١٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الخَلْقُ والبعثُ، أي: خَلْقُ الإنسانِ نُطْفةً ثمَّ عَلَقةً ثمَّ مُضْغةً حتَّى يَتكامَلَ خَلْقُه، ثُمَّ إعادتُه حيًّا في الآخرةِ عندَ البعثِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، ومكِّي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٠).

وقال القرطبي: (وقيل: المعنى: أوَلَمْ يَرَوْا كيف يُبْدِئُ اللهُ الثِّمارَ فتَحْيا، ثُمَّ تَفنى، ثمَّ يعيدُها أبدًا. وكذلك يَبدأُ خلْقَ الإنسانِ، ثُمَّ يُهْلِكُه بعدَ أنْ خَلَق منه وَلَدًا، وخَلَقَ مِنَ الولدِ وَلَدًا. وكذلك سائِرُ الحيوانِ. أي: فإذا رأيْتُم قُدرَتَه على الإبداءِ والإيجادِ، فهو القادِرُ على الإعادةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٦).

وقال ابنُ القَيِّم: (فالحيوانُ والنَّباتُ في مَبدأٍ ومَعَادٍ، وزمانُ العالَمِ في مبدأٍ ومَعَادٍ، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾). ((التبيان في أيمان القرآن)) (١/ ١٧٩).

تنبيه: قال الرَّسْعَنيُّ: (قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ ليس بمَعطوفٍ على ﴿يُبْدِئُ﴾، وليست الرُّؤيةُ واقعةً عليه، وإنَّما هو إخبارٌ مُستأنَفٌ بالإعادةِ بعدَ الموتِ، ونحوُه قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٠]؛ فإنَّ النَّظَرَ وقَعَ على الابتِداءِ، دونَ الإنشاءِ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٠٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير العثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٨).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

أي: إنَّ ذلك[١] أمرٌ سَهلٌ على اللهِ تعالى، والَّذي قَدَر على الإبداءِ قادِرٌ على الإعادةِ، وهو إذا أراد شَيئًا قال له: كُنْ؛ فيَكونُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٢].

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ساق الدَّليلَ المشاهَدَ فى الأنفُسِ؛ أرشَد إلى الاعتِبارِ بما فى الآفاقِ مِنَ الآياتِ المُشاهَدةِ، فقال[٣]:

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾.

---

(١) قيل: المشارُ إليه هنا: الإبداءُ والإعادةُ. وممَّن قال بذلك: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٩).
وقيل: المرادُ بها: الإعادةُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: تفسير ((مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ١٢٧).

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ المُنكِرينَ للبَعثِ بعدَ الموتِ: سافِروا في الأرضِ؛ لِتَنظُروا كيف بدأ اللهُ الخَلْقَ مِنَ العَدَمِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾.

أي: ثمَّ اللهُ الَّذي بَدأ الخَلقَ مِنَ العَدَمِ، يُنْشِئُه نَشْأَةً ثانيةً بعدَ فَنائِه(٢).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُعجِزُه فِعلُ شَيءٍ، ومِن ذلك بَعْثُ خَلقِه كما كانوا قبْلَ مَوتِهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [ق: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠).
قال السعدي: (﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فإنَّكم ستَجِدون أُمَمًا مِنَ الآدميِّينَ والحيواناتِ لا تَزالُ تُوجَدُ شيئًا فشيئًا، وتَجِدون النَّباتَ والأشجارَ كيف تَحدُثُ وَقتًا بعدَ وقتٍ، وتَجِدونَ السَّحابَ والرِّياحَ ونحوَها مُستمِرَّةً في تَجدُّدِها، بل الخَلْقَ دائمًا في بَدءٍ وإعادةٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣١).

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُۖ وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ٢١ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النَّشْأَةَ الآخِرةَ؛ ذكَرَ ما يَكونُ فيها، وهو: تعذيبُ أهلِ التَّكذيبِ عَدلًا وحِكمةً، وإثابةُ أهلِ الإنابةِ فَضْلًا ورَحمةً[1]، فقال:

﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾.

أي: يُعذِّبُ اللهُ مَن يَشاءُ تَعذيبَه على ذُنوبِه بعَدلِه، ويَرحَمُ مَن يشاءُ رَحمتَه مِنَ المؤمِنينَ بفَضلِه[2].

﴿وَإِلَيۡهِ تُقۡلَبُونَ ﴾.

أي: وإلى اللهِ تُرَدُّونَ يومَ القيامةِ فيَبعثُكم بعدَ مَوتِكم للحِسابِ والجَزاءِ[3].

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٢٢ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا لم يُبقِ اللهُ تعالى للقُدرةِ على إعادتِهم مانِعًا يُدَّعَى إلَّا مُمانعَتَهم منها؛ أبطَلَها على تقديرِ ادِّعائِهم لها، فقال[4]:

﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٨).

أي: وما أنتم[١] بمُفلِتينَ مِن عذابِ اللهِ، سواءٌ أكنتُم في الأرضِ أمْ في السَّماءِ؛ فاللهُ قادِرٌ على أن يُعَذِّبَكم أينَما كُنتُم[٢].

كما قال تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمن: ٣٣].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا آيَسَهم اللهُ تعالى مِن الانفِلاتِ بأنفُسِهم في جميعِ الأمكِنةِ؛ أعْقَبَه بتأييسِهم مِن الانفِلاتِ مِنَ الوعيدِ بسَعْيِ غَيرِهم لهم؛ مِنَ أولياءَ يَتَوسَّطونَ في دَفعِ العَذابِ عنهم بنَحوِ السِّعايةِ أو الشَّفاعةِ، أو مِن نُصَراءَ يُدافِعونَ عنهم بالمُغالَبةِ والقُوَّةِ[٣].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾.

أي: وليس لكم مِن دونِ اللهِ وليٌّ يَتولَّاكم، ولا نصيرٌ يَنصُرُكم، ويدفَعُ عَذابَ اللهِ عنكم[٤].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ

---

(١) قال ابن عثيمين: (الخِطابُ إمَّا أن يكونَ للكافرين، وإمَّا أن يكونَ لعُمومِ النَّاسِ، وكَوْنُه لعُمومِ النَّاسِ أَوْلى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٦، ٩٧).

عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ[1] وأنكَروا البَعثَ بعدَ الموتِ: أولئك يَئِسوا مِن رحمةِ اللهِ، ولن يُدخِلَهم جنَّتَه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا

---

(١) قيل: المرادُ بها هنا: القرآنُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧).

وقيل: المرادُ: عُمومُ الدَّلائلِ والحُجَجِ؛ فتَشملُ الآياتِ الكَونيَّةَ والشَّرعيَّةَ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٩، ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٩-١٠٢).

قيل: المرادُ أنَّ يأسَهم يَقَعُ في الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي، والعُلَيمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦١٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٥٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

وقيل: المرادُ يأسُهم في الدُّنيا، فهم لا يَطمَعونَ في رحمةِ الله في الآخرةِ؛ ولذلك لم يَعمَلوا ما يُقَرِّبُهم إلى الله. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤١٩، ٤٢٠).

لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

أي: وأولئك الكُفَّارُ لهم عَذابٌ[١] مُؤلِمٌ مُوجِعٌ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ لأنَّه إذا كان المرجِعُ إلى اللهِ فاحذَرْ مِن مُخالَفتِه؛ فإنَّ هذا يُشبِهُ التَّهديدَ والوعيدَ مِن المخالَفةِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لا ينبغي للمُؤمِنِ أن يَيأسَ مِن رَوحِ اللهِ، ولا مِن رحمتِه، ولا أنْ يأمَنَ عذابَه وعِقابَه؛ فصِفةُ المؤمِنِ أن يكونَ راجيًا لله خائِفًا[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ﴾ فيه سُؤالٌ: علَّقَ تعالى الرُّؤيةَ بالكيفيَّةِ، لا بالخَلقِ، وما قال: (أولَمْ يَرَوا أنَّ الله خلَقَ)، (أو بَدأ

---

(١) قيل: المرادُ به: عذابُ جهنَّمَ في الآخرةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: يحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ.
يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٢٩).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٤).
وقيل: المرادُ به العذابُ في الدُّنيا وفي الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).
قال السعدي: (وكأنَّ هذه الآياتِ مُعتَرِضاتٌ بيْنَ كلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لِقَومِه، وردِّهم عليه. واللهُ أعلَمُ بذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٣٣).

الخَلْقَ)، والكيفيَّةُ غيرُ مَعلومةٍ؟

**الجوابُ**: أنَّ هذا القَدْرَ مِن الكيفيَّةِ مَعلومٌ، وهو أنَّه خلَقَه ولم يكُنْ شَيئًا مَذكورًا، وأنَّه خلَقَه مِن نُطفةٍ هي مِن غذاءٍ هو مِن ماءٍ وتُرابٍ، وهذا القَدْرُ كافٍ في حُصولِ العِلمِ بإمكانِ الإعادةِ؛ فإنَّ الإعادةَ مِثلُه[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ هذه الآيةُ مع الَّتي قبْلَها رُبمَّا يَظهَرُ فيهما إشكالٌ؛ لأنَّ الأُولى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ تقريرٌ لهم بأنَّهم يَرونَ كيف يُبدِئُ اللهُ الخَلْقَ ثمَّ يُعيدُه، وهنا يقولُ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فيقتضي أنَّهم حتَّى الآنَ لم يَعلَموا كيف بدَأ اللهُ الخَلقَ؟!

**والجوابُ على ذلك**: أنَّهم وإنْ كانوا يَرَوْنَ كيف بَدأ اللهُ الخَلْقَ، لكنَّهم قد يُنكِرونَه؛ فأمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه أنْ يأمُرَهم بالسَّيرِ في الأرضِ: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ امشُوا في الأرضِ، وانظُروا مَثَلًا إلى الوُحوشِ، وانظُروا إلى الحَشَراتِ، وانظُروا إلى مخلوقاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى كيف تَنْشَأُ هذه الأشياءُ بدونِ أنْ نرى لها خالقًا سِوى اللهِ سُبحانه وتعالى، فهذا مِن بابِ إلزامِهم، ولا سيَّما إذا قُلْنا: إنَّ الرُّؤيةَ الأُولى عِلْميَّةٌ، فهي مِن بابِ إلزامِهم بما يُشاهِدونَه في الأرضِ بعدَ أنْ يَسيروا فيها[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟﴾ فأمَرَ بالسَّيرِ في الأرضِ؛ لأنَّ السَّيرَ يُدْني إلى الرَّائي مُشاهَداتٍ جَمَّةً مِن مُختلِفِ الأرَضينَ بجِبالِها وأنهارِها ومَحْويَّاتِها، ويمُرُّ به على مَنازِلِ الأُمَمِ حاضِرِها وبائِدِها، فيَرى كثيرًا مِن أشياءَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨١).

وأحوالٍ لم يَعْتَدْ رُؤيةَ أمثالِها، فإذا شاهَدَ ذلك جالَ نظَرُ فِكْرِه في تَكوينِها بعْدَ العدَم جَوَلانًا لم يكُنْ يَخطُرُ له ببالٍ حينَما كان يُشاهِدُ أمثالَ تلك المخلوقاتِ في دِيارِ قَومِه؛ لأنَّه لَمَّا نشَأَ فيها مِن زمَنِ الطُّفولةِ فما بعْدَه قبْلَ حُدوثِ التَّفكيرِ في عقْلِه، اعتادَ أنْ يَمُرَّ ببَصرِه عليها دونَ استِنتاجٍ مِن دَلائلِها، حتَّى إذا شاهَدَ أمْثالَها ممَّا كان غائبًا عن بصَرِه، جالتْ في نفْسِه فِكرةُ الاستِدلالِ؛ فالسَّيرُ في الأرضِ وسيلةٌ جامعةٌ لمُختلِفِ الدَّلائلِ؛ فلذلك كان الأمرُ به لهذا الغرَضِ مِن جَوامِعِ الحِكمةِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ الاستِدلالُ بالمَبدَأِ على المَعادِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّها مِن تمامِ قُدرتِه جلَّ وعلا؛ كالمجيءِ، والنُّزولِ، والاستواءِ على العَرشِ، والضَّحِكِ، والعَجَبِ، وما أشْبَهَ ذلك[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ سؤالٌ: كيف نُسَمِّيها نشأةً وهي إعادةٌ؟

**الجوابُ**: أنَّ هذه الإعادةَ تختلِفُ عن سابقتِها اختِلافًا كثيرًا، فهي بالنِّسبةِ إليها نَشْأةٌ؛ لأنَّ حياةَ الآخِرةِ ليست مِثلَ حياةِ الدُّنيا؛ فحَياةُ الآخرةِ حياةٌ أبَديَّةٌ، وحَياةُ الدُّنيا حياةُ فَناءٍ؛ ولذلك تَجِدُها ناقِصةً، يُخلَقُ الإنسانُ مِن ضَعْفٍ إلى قوَّةٍ إلى ضَعفٍ، أمَّا في الإعادةِ فإنَّه يُخلَقُ للأبدِ؛ فلذلك سُمِّيَتْ نَشأةً وإنْ كانت هي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إعادةً؛ لاختلافِ الحالَينِ[١].

وأيضًا فالتَّعبيرُ عن الإعادةِ الَّتي هي مَحَلُّ النِّزاعِ بالنَّشأةِ الآخِرةِ المُشعِرةِ بكَونِ البَدْءِ نَشأةً أُولى؛ للتَّنبيهِ على أنَّهما شأْنٌ واحدٌ مِن شُؤونِ اللهِ تعالى حَقيقةً واسمًا، مِن حيثُ إنَّ كلًّا منهما اختراعٌ وإخراجٌ مِن العدمِ إلى الوجودِ، ولا فرْقَ بيْنَهما إلَّا بالأوَّليَّةِ والآخِريَّةِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أنَّه ينبغي للمُستَدِلِّ أنْ يَستَدِلَّ بالمُشاهَدِ على الغائبِ؛ لِيَقتَنِعَ الخَصمُ بذلك[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ أنَّ الرَّحمةَ لا تُطلَبُ إلَّا مِن اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿وَيَرْحَمُ﴾، وهذا في مقامِ التَّقسيمِ يدُلُّ على الاختِصاصِ، ﴿يُعَذِّبُ﴾ ﴿وَيَرْحَمُ﴾، فلا تُطلَبُ الرَّحمةُ إلَّا مِنَ اللهِ، حتَّى الَّذين يَرحمون مِن الخَلْقِ ينبغي عندَما تَطلُبُ رحمتَهم أنْ تَجعلَ ذلك مُتعلِّقًا باللهِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لو شاء ألَّا يَرحَموك لم يَرحَموك[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ دَليلٌ على المعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ -أي: في مذهبِهم في الوعدِ والوعيدِ بوُجوبِ إثابةِ المُطيعِ وتعذيبِ العاصي-؛ لأنَّه ذَكَر بَدْءَ الخَلْقِ وإنشاءَهم عامَّةً، ولم يَذْكُرْهم بعَمَلٍ صالحٍ ولا طالحٍ، بل ذَكَر مَشيئتَه في رحمةِ بعضِهم وعذابِ بعضِهم -كما ترى- فهل يكونُ الكافرُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٢).

هذا إلَّا مُرَادًا بالعَذابِ، والمؤمنُ إلَّا مُرَادًا بالرَّحمةِ[١]؟! أي: على سبيلِ الحكمةِ والفضلِ، وليس على سبيلِ الإيجابِ كما تزعمُ المعتزلةُ!

١٠- الرَّحمةُ صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى الذَّاتيَّةِ الفِعليَّةِ؛ فهي باعتبارِ أصلِ ثُبوتِها للهِ صِفةٌ ذاتيَّةٌ، وباعتبارِ تَجَدُّدِ مَن يَرحَمُه اللهُ صِفةٌ فِعليَّةٌ؛ ولهذا علَّقَها اللهُ سبحانه وتعالى بالمشيئةِ في قولِه تعالى: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي ﴾ وُجوبُ الإيمانِ بلِقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عاقَبَ الَّذين لا يؤمِنون بذلك باليأسِ مِن رحمتِه[٣].

١٢- قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي ﴾ في قَولِه: ﴿وَلِقَآئِهِۦٓ﴾ إثباتُ رؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ استدَلُّوا بذلك على إثباتِ الرُّؤيةِ، لأنَّ المُلاقاةَ إذا لم يكُنْ مانعٌ فلا بُدَّ حينَئذٍ مِن الرُّؤيةِ؛ ولا مانعَ يَمنَعُ[٤].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عندَ ذِكرِ الرَّحمةِ أضافها إلى نفْسِه، فقال: ﴿رَّحۡمَتِي﴾، وعندَ العذابِ لم يُضِفْه؛ لِسَبْقِ رحمتِه، وإعلامًا لعِبادِه بعُمومِها لهم، ولُزومِها له[٥].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٣).

قال ابنُ القيِّم: (وأجمَع أهلُ اللِّسانِ على أنَّ اللِّقاءَ متى نُسِب إلى الحَيِّ السَّليمِ مِن العمَى والمانعِ، اقتضَى المُعايَنةَ والرُّؤيةَ). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ أنَّ الكُفَّارَ لا يَدخُلونَ الجَنَّةَ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، مَسوقٌ مِن جِهتِه تعالَى؛ للإنكارِ على تَكذيبِهم بالبعثِ مع وُضوحِ دَليلِه، وسُنوحِ سَبيلِه[٢]. وعلى وجْهِ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ...﴾ [العنكبوت: ١٨] خارجًا عن مَقالةِ إبراهيمَ؛ يكونُ ضميرُ الغائبِ في ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ الْتِفاتًا. والالتِفاتُ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ لنُكتةِ إبعادِهم عن شرَفِ الحضورِ بعدَ الإخبارِ عنهم بأنَّهم مُكَذِّبون[٣].

- قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ﴾ الهمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ عن عدَمِ الرُّؤيةِ، نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن لم يَرَ؛ فأُنكِرَ عليهم[٤]. والاستِفهامُ بـ(كيف) مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ ولَفْتِ النَّظرِ، لا في طلَبِ الإخبارِ[٥].

- وجِيءَ ﴿يُبۡدِئُ﴾ بصِيغةِ المضارِعِ؛ لإفادةِ تَجدُّدِ بَدْءِ الخلْقِ كلَّما وجَّهَ النَّاظرُ بصَرَه في المخلوقاتِ[٦].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ مُبيِّنةٌ لِمَا تَضمَّنَه الاستِفهامُ مِن إنكارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٢٨).

عدَم الرُّؤيةِ المُؤدِّيةِ إلى العِلْمِ بوُقوعِ الإعادةِ؛ إذ أحالُوها مع أنَّ إعادةَ الخلْقِ إنْ لَم تكُنْ أيسَرَ مِن الإعادةِ في العُرْفِ، فلا أقَلَّ مِن كَونِها مُساويةً لها. ووجْهُ توكيدِ الجُملةِ بـ (إنَّ) ردُّ دَعْواهم أنَّه مُستحيلٌ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ اعتِراضٌ انتِقاليٌّ مِن الإنكارِ عليهم ترْكَ الاستِدلالِ بما هو بمَرْأًى منهم، إلى إرشادِهم للاستِدلالِ بما هو بعيدٌ عنهم مِن أحوالِ إيجادِ المخلوقاتِ، وتعاقُبِ الأُمَمِ؛ فإنَّ تَعَوُّدَ النَّاسِ بما بيْنَ أيدِيهم يَصرِفُ عُقولَهم عن التَّأمُّلِ فيما وراءَ ذلك مِن دَلائلِ دقائقِها على ما تدُلُّ عليه؛ فلذلك أمَرَ اللهُ رسولَه أنْ يَدْعُوَهم إلى السَّيرِ في الأرضِ؛ لِيُشاهِدوا آثارَ خلْقِ اللهِ الأشياءَ مِن عدَمٍ، فيُوقِنوا أنَّ إعادتَها بعدَ زَوالِها ليس بأعجَبَ مِن ابتداءِ صُنْعِها[2].

- وجِيءَ في جانِبِ بَدْءِ الخلْقِ بالفِعلِ الماضي ﴿بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾؛ لأنَّ السَّائرَ ليس له مِن قَرارٍ في طَريقِه؛ فنَدَرَ أنْ يَشهَدَ حُدوثَ بَدْءِ مخلوقاتٍ، ولكنَّه يَشهَدُ مخلوقاتٍ مَبدوءةً مِن قبْلُ، فيَفْطِنُ إلى أنَّ الَّذي أوجَدَها إنَّما أوجَدَها بعدَ أنْ لم تكُنْ، وأنَّه قادرٌ على إيجادِ أمثالِها، فهو بالأحْرى قادرٌ على إعادتِها بعدَ عدَمِها، والاستِدلالُ بالأفعالِ الَّتي مَضَتْ أمكَنُ؛ لأنَّ للشَّيءِ المُتقرِّرِ تحقُّقًا مَحسوسًا. وأيضًا جِيءَ في هذا الاستِدلالِ بفِعلِ النَّظرِ ﴿فَٱنظُرُوا۟﴾؛ لأنَّ إدراكَ ما خلَقَه اللهُ حاصلٌ بطريقِ البصَرِ، وهو بفِعلِ النَّظرِ أَولَى وأشهَرُ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٠).

لِيَنتقِلَ منه إلى إدراكِ أنَّه يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرةَ[١].

- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾، فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال في الآيةِ الأُولى بلفْظِ الرُّؤيةِ، وفي الثَّانيةِ بلفْظِ النَّظرِ؛ وذلك لأنَّ العِلْمَ الحَدسِيَّ (الحاصل مِن غيرِ طلبٍ) أتَمُّ مِن العِلْمِ الفِكْريِّ، والرُّؤيةَ أتَمُّ مِن النَّظرِ؛ لأنَّ النَّظرَ يُفْضي إلى الرُّؤيةِ، يُقال: نظرْتُ فرأيتُ، والمُفْضي إلى الشَّيءِ دونَ ذلك الشَّيءِ؛ فقال في الأوَّلِ: أمَا حصَلَتْ لكم الرُّؤيةُ، فانْظُروا في الأرضِ؛ لِتَحصُلَ لكم الرُّؤيةُ[٢].

- وفي الآيةِ الأُولى صرَّحَ باسْمِه تعالى في قولِه: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾، ثمَّ أضمَرَ في قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، وهنا عكَسَ؛ حيثُ أضمَرَ في ﴿بَدَأَ﴾، ثمَّ أبْرَزَه في قولِه: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ﴾؛ حتَّى لا تَخْلُوَ الجُملتانِ مِن صَريحِ اسْمِه تعالى[٣]. والإفصاحُ باسْمِه مع إيقاعِه مُبتدأً في قولِه: ﴿ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ بعدَ إضْمارِه في قولِه: ﴿كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ -وكان القِياسُ أنْ يُقالَ: كيف بدَأَ اللهُ الخلْقَ، ثمَّ يُنشِئُ النَّشأةَ الآخرةَ-؛ لأنَّ الكلامَ معهم كان واقعًا في الإعادةِ، فلمَّا قرَّرَهم في الإبداءِ بأنَّه مِن اللهِ، احتجَّ عليهم بأنَّ الإعادةَ إنشاءٌ مِثلُ الإبداءِ، فإذا كان اللهُ الَّذي لا يُعجِزُه شَيءٌ هو الَّذي لم يُعجِزْه الإبداءُ، فهو الَّذي وجَبَ ألَّا تُعجِزَه الإعادةُ؛ فكأنَّه قال: ثمَّ ذاك الَّذي أنشَأَ النَّشْأَةَ الأُولى هو الَّذي يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرةَ؛ فلِلدَّلالةِ والتَّنبيهِ على هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٠، ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٩).

المعنى أبرَزَ اسْمَه وأوقَعَهُ مُبتدأً[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ النَّشْأةُ بوَزْنِ (فَعْلَة): المرَّةُ مِن النَّشْءِ، وهو الإيجادُ، عبَّرَ عنها بصِيغةِ المَرَّةِ؛ لأنَّها نَشْأةٌ دَفعيَّةٌ تُخالِفُ النَّشْءَ الأوَّلَ[٢].

- وفي وصْفِها بـ ﴿ٱلْأَخِرَةَ﴾ إيماءٌ بأنَّها مُساوِيةٌ للنَّشْأةِ الأُولى؛ فلا شُبْهةَ لهم في إحالةِ وُقوعِها. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: ٦٢]، فذلك على سَبيلِ المُشاكَلةِ التَّقديريَّةِ؛ لأنَّ قولَه قبْلَه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١] يَتضمَّنُ النَّشْأةَ الآخرةَ، فعبَّرَ عن مُقابلتِها بالنَّشأةِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه بطريقِ التَّحقيقِ؛ فإنَّ مَن عَلِمَ قُدرتَه تعالى على جَميعِ الأشياءِ الَّتي مِن جُملتِها الإعادةُ، لا يُتَصوَّرُ أنْ يَتردَّدَ في قُدرتِه عليها ولا في وُقوعِها بعدَما أخبَرَ به[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تَذييلٌ، أي: قديرٌ على البعثِ، وعلى كلِّ شَيءٍ إذا أرادهُ. وإظهارُ اسمِ الجلالةِ؛ لِتكونَ جُملةُ التَّذييلِ مُستقِلَّةً بنفْسِها، فتَجْري مَجرى الأمثالِ[٥].

٣- قولُه: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ ابتُدِئَ بذِكْرِ العِقابِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣١).

لأنَّ الخِطابَ جارٍ مع مُنْكري البعثِ الَّذين حظُّهم فيه هو التَّعذيبُ[١].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾ تقديمُ المجرورِ على عامِلِه للاهتِمامِ والتَّأكيدِ؛ إذ ليس المَقامُ للحصْرِ؛ إذ ليس ثمَّةَ اعتقادٌ مَردودٌ. وفي هذا إعادةُ إثباتِ وُقوعِ البعثِ، وتعريضٌ بالوعيدِ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لم يَقُل: (لا تُعجِزون) بصيغةِ الفِعلِ؛ وذلك لأنَّ نَفْيَ الفِعلِ لا يدُلُّ على نفْيِ الصَّلاحيَّةِ؛ فإنَّ مَن قال: (إنَّ فُلانًا لا يَخيطُ) لا يدُلُّ على ما يدُلُّ عليه قَولُه: (إنَّه ليس بخيَّاطٍ)[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، واقتصَرَ في (الشُّورى) على ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٣١]؛ وذلك لأنَّه لَمَّا تقدَّمَ في سُورةِ (العنكبوتِ) قولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، وهذا مِن أشَدِّ الوعيدِ؛ إذ حاصِلُه أنَّه لا يَفوتُه سُبحانه أحدٌ، ولا مَهرَبَ منه تعالى إلَّا إليه؛ ناسَبَ هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، كما قال: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ١٤٨]، إلى ما ورَدَ مِن هذا، وذلك تناسُبٌ بَيِّنٌ، ولَمَّا لم يَرِدْ في سُورةِ الشُّورى مِن أوَّلِها إلى الآيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٣).

مِثلُ هذا الوعيدِ الشَّديدِ، ولا كان فيها ما يَسْتدعي هذا التَّعميمَ والاستيفاءَ الوعيديَّ، ورَدَتِ الآيةُ مُناسِبةً لذلك؛ فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٣١]، ولم يكُنِ التَّعميمُ هنا لِيُناسِبَ؛ فورَدَ كلٌّ على ما يجِبُ(١). وقيل غيرُ ذلك(٢).

- قوله: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فيه حذْفُ مَفعولِ (مُعجِزين)؛ للعِلْمِ به، أي: بمُعجِزين الله(٣).

- وقدَّم الأرضَ على السَّماءِ، والوليَّ على النَّصيرِ؛ لأنَّ هَرَبَهم المُمكِنَ: في الأرضِ، فإنْ كان يقَعُ منهم هَرَبٌ يكونُ في الأرضِ، ثمَّ إنْ فَرَضْنا لهم قُدرةً غيرَ ذلك، فيكونُ لهم صعودٌ في السَّماءِ، وأمَّا الدَّفعُ فإنَّ العاقِلَ ما أمْكَنَه الدَّفعُ بأجمَلِ الطُّرُقِ فلا يرتقي إلى غيرِه، والشَّفاعةُ أجمَلُ، ولأنَّ ما مِن أحدٍ في الشَّاهِدِ إلَّا ويكونُ له شَفيعٌ يَتكَلَّمُ في حَقِّه عندَ مَلِكٍ، ولا يكونُ كُلُّ أحدٍ له ناصرٌ يُعادي المَلِكَ لأجْلِه(٤).

- وعطْفُ ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ احتِراسٌ وتأْييسٌ مِن الطَّمعِ في النَّجاةِ، وإنْ كانوا لا مَطمَعَ لهم في الالتِحاقِ بالسَّماءِ(٥).

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٠٥-١٠٠٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٢).

وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ بَيانٌ لِمَا في قولِه: ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ [العنكبوت: ٢١]؛ وإنَّما عُطِفَ لِمَا فيه مِن زِيادةِ الإخبارِ بأنَّهم لا يَنالُهم اللهُ برَحمةٍ، وأنَّه يُصِيبُهم بعذابٍ أليمٍ(١).

- والتَّعبيرُ بالاسمِ الظَّاهرِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دونَ ضَميرِ التَّكلُّمِ؛ للتَّنويهِ بشأْنِ الآياتِ حيثُ أُضِيفَت إلى الاسمِ الجليلِ؛ لِمَا في الاسمِ الجَليلِ مِن التَّذكيرِ بأنَّه حقيقٌ بألَّا يُكفَرَ بآياتِه(٢).

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحۡمَتِي﴾ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُفيدُ أنَّ ما سيُذكَرُ بعْدَه نالَهم مِن أجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن أوصافٍ(٣).

- وأخبَرَ عن يأْسِهم مِن رَحمةِ اللهِ بالفِعلِ الماضي ﴿يَئِسُواْ﴾؛ تَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه، والمعنى: أولئك سيَيْئَسُون مِن رحمةِ اللهِ لا مَحالةَ(٤)، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والعُدولُ إلى التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿رَّحۡمَتِي﴾ الْتِفاتٌ، عاد به أُسلوبُ الكلامِ إلى مُقْتضَى الظَّاهرِ(٥).

- وإعادةُ اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾؛ لتأْكيدِ التَّنبيهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

على استحقاقِهم ذلك[١]. وأيضًا في تَكريرِ اسمِ الإشارةِ، وتَكريرِ الإسنادِ، وتَنكيرِ العذابِ، ووَصْفِه بالأليمِ: مِن الدَّلالةِ على كَمالِ فَظاعةِ حالِهم ما لا يَخْفَى[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٦).

## الآيات (٢٤-٢٧)

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يَقُصُّ الله سبحانَه ما قاله قومُ إبراهيمَ له، وما ردَّ به عليهم، وما أنعَم به عليه، فيقولُ: فما كان جوابَ قَوم إبراهيمَ حينَ دعاهم إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه إلَّا أن قالوا: اقتُلوا إبراهيمَ أو حرِّقوه بالنَّارِ، فأنجاه اللهُ مِنَ النَّارِ بقُدرتِه، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ للمُؤمِنينَ على قُدرةِ اللهِ تعالى.

وقال إبراهيمُ لِقَومِه: إنَّما اتَّخَذْتُم أَوْثانًا تَعبدونَها مِن دونِ اللهِ؛ لِمَحبَّتِكم ومَوَدَّتِكم الدُّنيويَّةِ، ففي يوم القيامةِ يَتبَرَّأُ كلٌّ منكم مِن الآخَرِ ويَلعَنُه، ويَنقَطِعُ ما كان بيْنَكم في الدُّنيا مِنَ المَوَدَّةِ، ومصيرُكم النَّارُ، وليس لكم أنصارٌ يَنصُرونَكم مِن عذابِ اللهِ.

فصدَّق لُوطٌ إبراهيمَ فيما جاء به مِن الحَقِّ، وانقاد له. وقال إبراهيمُ: إنِّي مهاجِرٌ إلى ربِّي، تاركًا أرضَ قَومي المشركينَ إلى أرضٍ أعبُدُ اللهَ فيها، إنَّ رَبِّي هو القَويُّ الغالِبُ الحَكيمُ.

ورزَقْنا إبراهيمَ بعدَ هجرتِه مِن أرضِ قَومِه ولدَه إسحاقَ، وولدَ ولدِه يعقوبَ،

وجعَلْنا الأنبياءَ مِن نسْلِ إبراهيمَ، وأنزَلْنا عليهم الكُتُبَ، وآتَيْنا إبراهيمَ جزاءَ عَمَلِه في الدُّنيا، وإنَّه في الدَّارِ الآخرةِ مِنَ الصَّالحينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ قَومَه بعبادةِ اللهِ، وبَيَّن سَفَهَهم في عبادةِ الأوثانِ، وظهَرَت حُجَّتُه عليهم؛ رجَعوا إلى الغَلَبةِ، فجعَلوا القائِمَ مَقامَ جَوابِه فيما أمَرَهم به قَولَهم: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾[1].

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

أي: فما كان جوابَ قَومِ إبراهيمَ حينَ دعاهم إلى اللهِ وعبادتِه وَحْدَه إلَّا أنْ قالوا: اقتُلوا إبراهيمَ أو حرِّقوه بالنَّارِ؛ لِمُخالَفتِه دينَكم[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

أي: فأَلْقَوا إبراهيمَ في النَّارِ، فسلَّمه اللهُ بقُدرتِه مِن أذاها[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في إنجائِنا لإبراهيمَ مِن النَّارِ بَعْدَما أُلقيَ فيها لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ على قُدرةِ اللهِ، وغيرِها، وذلك للمُؤمِنينَ باللهِ تعالى وبرُسُلِه[٢].

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وقال إبراهيمُ لِقَومِه: إنَّما اتَّخَذْتُم أوثانًا تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ؛ اتِّباعًا مِن بَعضِكم لِبَعضٍ، وحِفظًا لِمَحبَّتِكم ومَوَدَّتِكم الدُّنيويَّةِ، فتلك مَوَدَّةٌ كائِنةٌ في حياتِكم الدُّنيا فحَسْبُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨١)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٥).

قال البِقاعي: (﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالاجتِماعِ عندَها، والتَّواصُلِ في أمرِها بالتَّناصُرِ والتَّعاضُدِ، كما يتَّفِقُ ناسٌ على مذهَبٍ فيَكونُ ذلك سبَبَ تَصادُقِهم). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٢٣). =

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾.

أي: ثمَّ يومَ القيامةِ يَتبرَّأُ كلٌّ منكم مِن الآخَرِ، ويَجحَدُه ويَلعَنُه، ويَنقطِعُ ما كان بيْنكم في الدُّنيا مِنَ المَوَدَّةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ومَصيرُكم النَّارُ جميعًا(٢).

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾.

أي: وليس لكم حينَ تَدخُلونَ النَّارَ أنصارٌ يُنقِذونَكم منها(٣).

كما قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٦].

---

= وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن تكونَ مقالتُه هذه سابقةً على إلقائِه في النَّارِ، وأن تكونَ بعدَ أن أنجاه اللهُ مِن النَّارِ، والأظهرُ مِن ترتيبِ الكلامِ أنَّها كانت بعدَ أن أنجاه اللهُ مِن النَّارِ، أراد به إعلانَ مُكابَرتِهم الحَقَّ، وإصرارِهم على عبادةِ الأوثانِ بعدَ وُضوحِ الحُجَّةِ عليهم بمعجزةِ سَلامتِه مِن حَرقِ النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾.

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ﴾.

أي: فصدَّقَ لُوطٌ إبراهيمَ فيما جاء به مِن الحَقِّ، وانقادَ له[1].

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾.

أي: وقال إبراهيمُ[2]: إنِّي خارِجٌ ومُنتَقِلٌ مِن أرضِ قَومي المُشرِكينَ؛ لأعبُدَ اللهَ في أرضٍ غَيرِها[3].

كما قال تعالى: ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٢٠-١٢٣).

(٢) ممَّن اختار أنَّ القائلَ هو إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٢٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ جُرَيْجٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٤).

وقيل: يحتملُ عَودُ الضَّميرِ على لوطٍ عليه السَّلامُ، ويكونُ هو القائلَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩).

قال يحيى بنُ سلام: (هاجَر مِن أرضِ العراقِ إلى أرضِ الشَّامِ). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٦). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٤).

أي: إنَّ رَبِّي هو القَويُّ الغالِبُ في أمرِه، الَّذي لا يَذِلُّ مَن نَصَره، بل يَمنَعُه ممَّن أرادَه بسوءٍ، الَّذي لا عِزَّةَ إلَّا به، وهو جديرٌ بإعزازِ مَن انقطَعَ وهاجَرَ إليه، الحَكيمُ في أقوالِه وأفعالِه وشَرعِه وتَدبيرِ خَلْقِه، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[1].

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾.

أي: ورَزَقْنا إبراهيمَ بعدَ هِجرتِه مِن أرضِ قَومِه وَلَدَه إسحاقَ، وولدَ ولَدِه يعقوبَ بنَ إسحاقَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ﴾ [الأنعام: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود: ٧١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٤٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٢٦-١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

قال القرطبيُّ: (إنَّما وَهَب له إسحاقَ مِن بعدِ إسماعيلَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٠).

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾.

أي: وجعَلْنا الأنبياءَ مِن نَسْلِ إبراهيمَ، وعليهم تُنَزَّلُ الكُتُبُ الإلهيَّةُ؛ فلَمْ يَبعَثِ اللهُ نبيًّا بعدَ إبراهيمَ إلَّا مِن صُلبِه، ولا نَزَّل كتابًا إلَّا على ذُرِّيَّتِه[1].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وآتَيْنا إبراهيمَ جَزاءَ عَمَلِه في الدُّنيا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

وقال عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٨).
قال ابن عاشور: («الْكِتَابَ» مرادٌ به الجنسُ؛ فالتَّوراةُ، والإنجيلُ، والزَّبورُ، والقرآنُ: كُتُبٌ نزلَتْ في ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣١).
قال ابنُ كثير: (جمَع اللهُ له بيْنَ سعادةِ الدُّنيا المَوصولةِ بسعادةِ الآخرةِ؛ فكان له في الدُّنيا الرِّزقُ الواسِعُ الهنيُّ، والمنزِلُ الرَّحْبُ، والمَوردُ العَذبُ، والزَّوجةُ الحَسَنةُ الصَّالحةُ، والثَّناءُ الجميلُ، والذِّكرُ الحَسَنُ؛ فكُلُّ أحدٍ يُحِبُّه ويَتولَّاه عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: وإنَّه في الدَّارِ الآخرةِ في عِدادِ الصَّالحينَ، وله فيها جزاؤُه الَّذي لا يَنقُصُ شَيءٌ منه بما أُعطِيَ في الدُّنيا مِنَ الثَّوابِ العاجِلِ(١).

## الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- ما عَلَّقَ العبدُ رجاءَه وتوكُّلَه بغيرِ اللهِ إلَّا خاب مِن تلك الجهةِ، ولا استنصَرَ بغيرِه إلَّا خُذِلَ؛ قال تعالى عن إمامِ الحُنَفاءِ أنَّه قال للمُشرِكينَ: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾(٢) [يس: ٧٤، ٧٥].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ هذا شأنُ كلِّ مُشترِكينَ في غَرَضٍ؛ يَتَوادُّون ما داموا مُتساعِدينَ على حُصولِه، فإذا انقطعَ ذلك الغرضُ أعقَبَ ندامةً وحُزنًا وألَمًا، وانقلبَتْ تلك المَوَدَّةُ بُغضًا ولَعنةً وذمًّا مِن بَعضِهم لبَعضٍ لَمَّا انقلبَ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٩).

قال ابن عثيمين: (المرادُ هنا أعلى أنواعِ الصَّالحينَ، وهم الأنبياءُ أو الرُّسلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٢). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٦١).

الغرضُ حُزنًا وعَذابًا، كما يُشاهَدُ في هذه الدَّارِ مِن أحوالِ المُشتركينَ في خِزيِهم إذا أُخِذوا وعُوقِبوا؛ فكلٌّ مُتساعِدَينِ على باطلٍ مُتَوادَّينِ عليه: لا بُدَّ أن تَنقَلِبَ مَوَدَّتُهما بُغضًا وعَداوةً[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يَدخُلُ فيه كُلُّ مَن وافَق أصحابَه مِن أهلِ المعاصي أو البَطالةِ على الرَّذائِلِ؛ لِيَعدُّوه حَسَنَ العِشرةِ، مُهَذَّبَ الأخلاقِ، لَطيفَ الذَّاتِ، أو خَوفًا مِن أن يَصِفوه بكثافةِ الطَّبعِ، وسُوءِ الصُّحبةِ، ولقد عَمَّ هذا -لَعَمْري- أهلَ الزَّمانِ؛ لِيُوصَفوا بمُوافاةِ الإخوانِ، ومُصافاةِ الخِلَّانِ، مُعرِضينَ عن رِضا المَلِكِ الدَّيَّانِ[٢]!

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ لَمَّا كان في قولِه: ﴿مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ﴾ شائبةُ ثُبوتِ مَنفعةٍ لهم في عِبادةِ الأوثانِ؛ إذ يَكتسِبون بذلك مَوَدَّةَ بيْنِهم تَلَذُّ لنُفوسِهم- قرَنَه بقولِه: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ﴾؛ تَنبيهًا لسُوءِ عاقبةِ هذه المَوَدَّةِ، وإزالةً للغُرورِ والغَفلةِ؛ لِيَعلَموا أنَّ اللَّذَّاتِ العاجلةَ لا عِبرةَ بها إنْ كانت تُعقِبُ نَدامةً آجِلةً[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٧).

ٱلدُّنۡيَا﴾ هذا دالٌّ على أنَّ جَمْعَ الفُسوقِ لأهلِ الدُّنيا هو العادةُ المستَمِرَّةُ، وأنَّ الحُبَّ في اللهِ والاجتِماعَ له عزيزٌ جدًّا؛ لِما فيه مِن قَطعِ علائِقِ الدُّنيا وشَهَواتِها الَّتي زُيِّنَت للنَّاسِ بما فيها مِن الإلباسِ، وعَظيمِ البأسِ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ﴾ فيه سؤالٌ: كيف سمَّى قَولَهم ﴿ٱقۡتُلُوهُ﴾ جَوابًا، مع أنَّه ليس بجوابٍ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّه خرَج منهم مخرجَ كلامِ المتكبِّرِ، كما يقولُ الملِكُ لرَسولِ خَصمِه: (جوابُكم السَّيفُ)، مع أنَّ السَّيفَ ليس بجوابٍ، وإنَّما معناه: لا أقابِلُه بالجوابِ، وإنَّما أقابِلُه بالسَّيفِ، فكذلك قالوا: لا تُجيبوا عن بَراهينِه، واقتُلوه أو حَرِّقوه.

**الوجهُ الثاني**: أنَّ الله أراد بيانَ ضَلالِهم، وهو أنَّهم ذَكَروا في مَعرِضِ الجوابِ هذا، مع أنَّه ليس بجوابٍ؛ فتبيَّنَ أنَّهم لم يكُنْ لهم جوابٌ أصلًا؛ وذلك لأنَّ مَن لا يُجيبُ غَيرَه ويَسكُتُ، لا يُعلَمُ أنَّه لا يَقدِرُ على الجوابِ؛ لجوازِ أن يكونَ سُكوتُه لِعَدَمِ الالتِفاتِ، أمَّا إذا أجاب بجوابٍ فاسدٍ عُلِمَ أنَّه قصَدَ الجوابَ وما قدَرَ عليه[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقۡتُلُوهُ أَوۡ حَرِّقُوهُ﴾ حُجَّةٌ في جوازِ تَركِ الخَبرِ قبْلَ إتمامِه، والأخْذِ في غَيرِه ثُمَّ الرُّجوعِ إليه، ولا يكونُ ذلك عَيبًا على قائلِه، ولا حَطًّا مِن فصاحَتِه؛ ألَا ترى أنَّه جلَّ جلالُه ابتَدأَ الخبرَ عن إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِه: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِ ٱعۡبُدُواْ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٤).

ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٦]، ثُمَّ حالَ بيْنَ إتمامِه بقَولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩]، وبقَولِه: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، حتَّى رَجَعَ في تمامِ قِصَّةِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ...﴾[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ هكذا كلُّ إنسانٍ لا يستطيعُ رَدَّ الحقِّ، فإنَّه يُهَدِّدُ بالقُوَّةِ إذا كانت له قوَّةٌ على خَصْمِه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ الآياتِ الكَونيَّةَ والشَّرعيَّةَ لا يَنتَفِعُ بها إلَّا المؤمِنُ، أمَّا غيرُ المؤمنِ فلا يَنتَفِعُ بآياتِ اللهِ؛ لأنَّها تَمُرُّ عليه وكأنَّها أمرٌ عاديٌّ أو بمُقتَضى الطَّبيعةِ، كالزَّلازلِ والبَراكينِ الَّتي تُصيبُ النَّاسَ فيقولُ عنها بَعضُهم: إنَّها ظواهِرُ طبيعيَّةٌ! وكأنَّها ليست عُقوبةً مِنَ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا لا يُنافي ما جاء في عدَّةِ آياتٍ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] وما أشْبَهَ ذلك؛ لأنَّ العقلَ والتَّفَكُّرَ ونحوَهما مِن مُقتضَياتِ الإيمانِ؛ فكلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا كان أكثرَ عقلًا وتَفَكُّرًا، والتَّفَكُّرُ أيضًا يدعو إلى الإيمانِ؛ فهُما مُتلازِمانِ[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ فيه سُؤالٌ: ما تَعلُّقُ قَولِه: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ بما تقدَّمَ؟

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٣).

**الجوابُ**: لَمَّا بالَغَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ في الإرشادِ، ولم يَهتَدِ قَومُه، وحَصَل اليأسُ الكُلِّيُّ حيثُ رأى القَومُ الآيةَ الكُبرى ولم يُؤمِنوا؛ وَجَبَتِ المُهاجَرةُ؛ لأنَّ الهاديَ إذا هدى قَومَه ولم ينتَفِعوا فبَقاؤه فيهم مَفسَدةٌ؛ لأنَّه إنْ دام على الإرشادِ كان اشتِغالًا بما لا يُنتفَعُ به، مع عِلمِه، وإن سَكَت -والسُّكوتُ دَليلُ الرِّضا- فيُقالُ بأنَّه صار مِنَّا، ورَضِيَ بأفعالِنا! وإذا لم يَبقَ للإقامةِ وَجْهٌ وَجَبت المُهاجَرةُ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أنَّ ابنَ الابنِ ابنٌ؛ لأنَّ يعقوبَ ابنُ ابنِ إبراهيمَ، وجَعَل اللهُ عزَّ وجلَّ إسحاقَ مَوهوبًا لإبراهيمَ، ويدُلُّ لذلك قولُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الحَسَنِ بنِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ: ((إنَّ ابني هذا سَيِّدٌ))[2]، والعُلَماءُ أجمَعوا في بابِ الميراثِ أنَّ ابنَ الابنِ بمنزلةِ الابنِ عندَ فَقْدِه[3]، وإذا كان ابنُ الابنِ ابنًا؛ لَزِمَ أنْ يكونَ أبو الأبِ أبًا[4].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تَدُلُّ على أنَّ النُّبوَّةَ والكِتابَ في خُصوصِ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وقد ذُكِرَ في سورةِ (الحديدِ) ما يدُلُّ على اشتراكِ نوحٍ معه في ذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٦].

**الجوابُ**: أنَّ وجْهَ الاقتصارِ على إبراهيمَ: أنَّ جَميعَ الرُّسلِ بعْدَه مِن ذُرِّيَّتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

(٣) قال ابنُ حزم: (وأجمَعوا على ابنِ الابنِ أنَّه يَرِثُ ميراثَ الابنِ إذا لم يَكُنِ ابنٌ). ((المحلى بالآثار)) (٨/ ٣٢٨).

وقال ابنُ حَجَرٍ: (واتَّفَقوا على أنَّ ابنَ الابنِ بمَنزِلةِ الابنِ في حَجبِ الزَّوجِ عن النِّصفِ، والمرأةِ عن الرُّبُعِ، والأمِّ عن الثُّلثِ؛ كالابنِ سواءً). ((فتح الباري)) (١٢/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٢).

وذُكِرَ نوحٌ معه لأمْرَينِ؛ أحدُهما: أنَّ كُلَّ مَن كان مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ فهو مِن ذُرِّيةِ نوحٍ. والثَّاني: أنَّ بعضَ الأنبياءِ مِن ذُرِّيَّةِ نوحٍ، ولم يكُنْ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ: كهُودٍ وصالحٍ ولُوطٍ، ويونُسَ -على خلافٍ فيه-، ولا ينافي ذلك الاقتِصارَ على إبراهيمَ؛ لأنَّ المرادَ مَن كان بعدَ إبراهيمَ، لا مَن كان قَبْلَه أو في عَصرِه، كلُوطٍ عليهما وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ[1]. وأيضًا فإنَّ الآيةَ جِيءَ بها لسِياقِ المدحِ والثَّناءِ على الخليلِ، وقد أخبَر أنَّ لوطًا اهتدَى على يديه، ومَن اهتدَى على يديه أكمَلُ ممَّن اهتدَى مِن ذُرِّيَّتِه بالنِّسبةِ إلى فضيلةِ الهادي[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّ الإنسانَ قد يُعَجَّلُ له الجَزاءُ في الدُّنيا، وتَعجيلُ الجزاءِ للإنسانِ في الدُّنيا لا يُعَدُّ حِرمانًا له مِن أجرِ الآخِرةِ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، ويَنْبَني على هذه الفائدةِ أنَّ تَعجيلَ الثَّوابِ للإنسانِ في الدُّنيا هو مِن نِعمةِ اللهِ على العَبدِ؛ لأنَّ الإنسانَ يَرى أثَرَ عَمَلِه فيَنشَطُ على العملِ، سَواءٌ كان هذا الأثرُ في الأشياءِ الخارجيَّةِ، أو كان في نَفْسِ الإنسانِ، أي: في باطِنِه[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أنَّه يجوزُ الوَصفُ بالمعنى الأعَمِّ دونَ الأخَصِّ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ وَصْفَ الصَّلاحِ أعَمُّ مِن وَصْفِ النُّبوَّةِ، ويجوزُ أنْ يُوصَفَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والأنبياءُ في لَيلةِ المِعراجِ كانوا يقولونَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَرحبًا بالأخِ الصَّالحِ، والنَّبيِّ الصَّالحِ))[4].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٤). =

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ كان ذلك قولَ بعضِهم، لكنْ لَمَّا قِيلَ فيهم، ورضِيَ به الباقونَ؛ أُسْنِدَ إلى كلِّهم[١].

- وجِيءَ بصِيغةِ حَصْرِ الجوابِ في قولِهم: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم لم يَترَدَّدوا في جَوابِه، وكانت كَلِمتُهم واحدةً في تَكذيبِه وإتلافِه، وهذا مِن تصَلُّبِهم في كُفْرِهم[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ جاء هنا التَّرديدُ بيْنَ قتْلِه وإحراقِه؛ فقد يكونُ ذلك مِن قائلينَ: ناسٌ أشاروا بالقتْلِ، وناسٌ أشاروا بالإحراقِ، وفي سُورةِ (الأنبياءِ) ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فاقتَصَروا على أحدِ الشَّيئينِ، وهو الَّذي فَعَلوه؛ رَمَوه في النَّارِ ولم يَقتُلوه[٣].

- قولُه: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ، أي: فألقَوْهُ في النَّارِ، فأنجاهُ اللهُ تعالى منها[٤].

- قوله: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ

---

= والحديث أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٦).

حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ بالجمْعِ، وقال قَبْلُ في إنجاءِ نُوحٍ وأصحابِ السَّفينةِ: (جَعَلْنَاهَا آيَةً) [العنكبوت: ١٥] بالمُفرَدِ؛ وذلك لأنَّ الإنجاءَ بالسَّفينةِ شَيءٌ تتَّسِعُ له العقولُ؛ فلم يكُنْ فيه مِن الآيةِ إلَّا بسَببِ إعلامِ اللهِ إيَّاهُ بالاتِّخاذِ وقْتَ الحاجةِ؛ فإنَّه لولاهُ لَمَا اتَّخَذَه؛ لِعدَمِ حُصولِ عِلْمِه بما في الغَيبِ، وبسَببِ أنَّ اللهَ صانَ السَّفينةَ عن المُهلِكاتِ؛ كالرِّياحِ العاصفةِ، وأمَّا الإنجاءُ مِن النَّارِ فعَجيبٌ، فقال فيه: (آيات)[١]. وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه جمَعَ هنا لأنَّ الإنجاءَ مِن النَّارِ، وجَعْلَها بَرْدًا وسلامًا، وأنَّها في الحَبْلِ الَّذي كانوا أوْثَقوه به دونَ الجِسمِ: هو مَجموعُ آياتٍ؛ فناسَبَ ذلك الجَمْعُ، بخِلافِ الإنجاءِ مِن السَّفينةِ؛ فإنَّه آيةٌ واحدةٌ[٢]. وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّه جعَلَ الإنجاءَ آياتٍ، ولم يُجعَلْ آيةً واحدةً؛ لأنَّه آيةٌ لِكُلِّ مَن شَهِدَه مِن قَومِه، ولأنَّه يدُلُّ على قُدرةِ اللهِ، وكرامةِ رسولِه، وتَصديقِ وعْدِه، وإهانةِ عَدُوِّه، وأنَّ المخلوقاتِ كلَّها جليلَها وحَقيرَها مُسَخَّرةٌ لقُدْرةِ اللهِ تعالى[٣]. ومِن الآياتِ: إبطالُ كَيدِ هؤلاء. ومنها: صَبرُ إبراهيمَ وتحمُّلُه؛ لأنَّ حَقيقةَ الأمرِ أنَّ هذا شَيءٌ لا يَقوى عليه إلَّا أمثالُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فهو مِن أُولي العَزمِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. ومنها: انقلابُ هذه الحرارةِ إلى بُرودةٍ. ومنها: انقلابُ كَونِها سببًا للهَلاكِ إلى أن كانت سَلامًا عليه[٤].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا قولُه هنا: ﴿فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، ثمَّ قال بَعْدُ: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١١١).

لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٤٤]، فجمَعَ الآياتِ الأُولى، ووحَّدَها في الثَّانيةِ؛ وذلك لأنَّ الأُولى إشارةٌ إلى إثباتِ النُّبوَّةِ، وفي النَّبيِّينَ -صلواتُ اللهِ عليهم- كَثرةٌ، والثَّانيَ إشارةٌ إلى التَّوحيدِ، وهو سُبحانه واحدٌ لا شريكَ له[1]. وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّه جمَعَ هنا وأفرَدَ (آية) في الثَّانيةِ، مع أنَّ هذه الثَّانيةَ أعظَمُ؛ وذلك لأنَّ الإشارةَ في الآيةِ الأُولى بقولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ ليست لقِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وإنجائِه مِن النَّارِ فقط، بل الإشارةُ لمَجموعِ مُعتبَراتٍ؛ منها لُبْثُ نوحٍ عليه السَّلامُ في قومِه ألْفَ سَنةٍ إلَّا خمسينَ عامًا يَدْعوهم إلى اللهِ ويُريهم الآياتِ، فما آمَنَ معه إلَّا قليلٌ، ومنها آيةُ أخْذِهم بالطُّوفانِ، وتَعميمُ الغرَقِ لجَميعِ أهْلِ الأرضِ، ومنها إنجاءُ أهلِ السَّفينةِ، وجعْلُها آيةً للعالَمينَ، ومنها ما أُحيلوا عليه مِن الاعتبارِ بمَن قبْلَهم في قولِه: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ﴾ [العنكبوت: ١٨]، ومنها دعوةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وعظيمُ بَيانِه، وما استجرَّ دُعاؤُه إيَّاهم مِن الآياتِ والبراهينِ على نُبوَّتِه، ومنها ما أُحيلوا عليه آخِرَ الآياتِ في قولِه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ﴾ [العنكبوت: ١٩]، فلمَّا تقدَّمَ تفصيلُ الآياتِ، ورَدَ التَّنبيهُ بالإشارةِ إلى جَميعِها، فقيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾. أمَّا قولُه في الآيةِ الأُخرى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾ فالإشارةُ إلى المصدرِ، وهو الخلْقُ المفهومُ مِن قولِه: ﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ﴾؛ فكلٌّ مِن الآيتينِ على ما يجِبُ[2].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال قَبْلُ: ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]،

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٩٠).

وقال هاهنا: ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ فخصَّ الآياتِ بالمؤمنينَ؛ وذلك لأنَّ السَّفينةَ بقِيَتْ أعوامًا حتَّى مرَّ عليها النَّاسُ ورَأَوْها، فحَصَلَ العِلْمُ بها لكلِّ أحدٍ، وأمَّا تبْريدُ النَّارِ فإنَّه لم يَبْقَ، فلمْ يَظهَرْ لِمَن بَعْدَه إلَّا بطريقِ الإيمانِ به والتَّصديقِ[١].

- وجِيءَ هنا بلفْظِ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾؛ ليَدُلَّ على أنَّ إيمانَهم مُتمكِّنٌ منهم ومِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم. وفيه تَعريضٌ بأنَّ تلك الآياتِ لم يُصدِّقْ بها قومُ إبراهيمَ؛ لشِدَّةِ مُكابَرتِهم، وكَونِ الإيمانِ لا يُخالِطُ عُقولَهم[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ محَطُّ القصْرِ بـ (إنَّما) هو المفعولُ لأجْلِه ﴿مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ﴾، أي: ما اتَّخذْتُم أوثانًا إلَّا لأجْلِ مَوَدَّةِ بعضِكم بعضًا. ووجْهُ الحَصْرِ أنَّه لم تَبْقَ لهم شُبهةٌ في عِبادةِ الأوثانِ بعدَ مُشاهَدةِ دَلالةِ صِدْقِ الرَّسولِ الَّذي جاء بإبطالِها؛ فتَمحَّضَ أنْ يكونَ سبَبُ بقائِهم على عِبادةِ الأوثانِ هو مَوَدَّةَ بعضِهم بعضًا الدَّاعيةَ لإبايةِ المُخالَفةِ[٣].

- وهذا الخَبرُ ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم ...﴾ مُستعمَلٌ في غيرِ إفادةِ الحُكْمِ، بلْ في التَّنبيهِ على الخطَأِ؛ بقَرينةِ قولِه عَقِبَه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٦).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، على لفْظِ الجَمْعِ، وقال قبْلُ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢]، على لفْظِ الواحدِ، والحِكمةُ فيه: أنَّهم لَمَّا أرادوا إحراقَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، قالوا: نحنُ نَنصُرُ آلهتَنا، كما حَكَى اللهُ تعالى عنهم: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فقال: أنتم ادَّعَيْتُم أنَّ لهؤلاء ناصِرينَ، فما لكمْ ولهم -أي: للأوثانِ وعبَدتِها- مِن ناصرينَ. وأمَّا هناك فلَمْ يَسبِقْ منهم دَعوى النَّاصرينَ، فنَفى الجِنسَ بقولِه: ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾[1].

وقيل: جمَعَ النَّاصرَ؛ لوُقوعِه في مُقابَلةِ الجمْعِ، أي: ما لأحدٍ منكُم مِن ناصرٍ أصلًا[2]. وقيل: إنَّه جِيءَ في نفْيِ (النَّاصرِ) بصِيغةِ الجمْعِ هنا، خِلافًا لقولِه آنِفًا: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢]؛ لأنَّهم لَمَّا تألَّبوا على إبراهيمَ، وتجَمَّعوا لنُصرةِ أصنامِهم، كان جزاؤُهم حِرمانَهم مِنَ النُّصراءِ؛ مُطابَقةً بيْنَ الجزاءِ والحالةِ الَّتي جُوزوا عليها، على أنَّ المفردَ والجمْعَ في حَيِّزِ النفيِ سواءٌ في إفادةِ نفْيِ كلِّ فردٍ مِن الجنسِ[3].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال قبْلُ: (مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) [العنكبوت: ٢٢]، وما ذكَرَ الوليَّ هاهنا؛ وذلك أنَّه لَمَّا كان المرادُ بالوليِّ الشَّفيعَ، وهاهنا لَمَّا كان الخِطابُ دخَلَ فيه الأوثانُ، أي: ما لكمْ كلِّكم؛ لم يقُلْ: (شفيع)؛ لأنَّهم كانوا مُعترِفين أنَّ كلَّهم ليس لهم شافعٌ؛ لأنَّهم كانوا يَدَّعون أنَّ آلهتَهم شُفعاءُ، كما قال تعالى عنهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا﴾ [يونس: ١٨]، والشَّفيعُ لا يكونُ له شفيعٌ، فما نَفى عنهم الشَّفيعَ؛ لعَدمِ الحاجةِ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٧).

نفْيه؛ لاعترافِهم به، وأمَّا هناك فكان الكلامُ معهم وهُم كانوا يدَّعون أنَّ لأنفُسِهم شُفعاءَ، فنفى[١].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال قبْلُ: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢]، فذكَرَ على معنى الاستثناءِ؛ فيُفْهَمُ أنَّ لهم ناصرًا ووليًّا هو اللهُ، وليس لهم غيرُه وليٌّ وناصرٌ، وقال هاهنا: (مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) مِن غيرِ استِثناءٍ؛ لأنَّ قوله: (مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) كان واردًا على أنَّهم في الدُّنيا، فقال لهم في الدُّنيا: لا تَظُنُّوا أنَّكم تُعجِزون اللهَ؛ فما لكم أحدٌ يَنصُرُكم، بل اللهُ تعالى يَنصُرُكم إنْ تُبْتُم، فهو ناصرٌ لكم، متى أردْتُم استَنْصَرْتُموهُ بالتَّوبةِ، أمَّا قولُه: (مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) فهذا يومَ القِيامةِ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾، وعدَمُ النَّاصرِ عامٌّ؛ لأنَّ التَّوبةَ في ذلك اليومِ لا تُقبَلُ، فسواءٌ تابوا أو لمْ يَتوبوا لا يَنصُرُهم اللهُ، ولا ناصرَ لهم غيرُه؛ فلا ناصرَ لهم مُطلقًا[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الإخبارِ عن إبراهيمَ اعتراضَ التَّفريعِ. وأفادتِ الفاءُ مُبادَرةَ لُوطٍ بتَصديقِ إبراهيمَ عليهما السَّلامُ[٣].

- قولُه: ﴿وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ المُفاعَلةُ للمُبالَغةِ، أو لأنَّ الَّذي يَهجُرُ قَومَه يكونونَ هم قد هَجَروه أيضًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٣٨).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ واقِعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لمَضمونِ ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾؛ لأنَّ مَن كان عزيزًا يَعتَزُّ به جارُه ونَزيلُه. وإتْباعُ وصْفِ العزيزِ بـ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لإفادةِ أنَّ عِزَّتَه مُحْكَمةٌ، واقِعةٌ مَوقعَها المحمودَ عندَ العقلاءِ؛ مِثلُ نصْرِ المظلومِ، ونصرِ الدَّاعي إلى الحقِّ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بمعنى الحاكمِ، فيكونَ زِيادةَ تأكيدِ معنى العزيزِ[1].

٤- قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ فيه ذِكْرُ إسحاقَ وعَقِبه، وعدَمُ ذِكرِ إسماعيلَ عليهما السَّلامُ؛ لأنَّه قد دَلَّ على إسماعيلَ في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾، وكفى الدَّليلُ لشُهْرةِ أمْرِه، وعُلوِّ قدْرِه، ولا يَلتبِسُ على كلِّ ذي بَصيرةٍ أنَّ النُّبوَّةَ والكتابَ لم يَستقِرَّا في أحدٍ مِنَ الأنبياءِ استِقرارَه لِنبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ فكان في ذِكْرِه ذِكرُ جَدِّه إسماعيلَ صَلَواتُ الله عليهما[2]. وقيل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولدًا ونافلةً حينَ أيِسَ مِن الولادةِ مِن عجوزٍ عاقرٍ؛ ولذلك لم يَذكُرْ إسماعيلَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣).

## الآيات (٢٨-٣٠)

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أي: الفَعلةَ القَبيحةَ الشَّنيعةَ، وهي هنا إتيانُ الذُّكورِ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[1].

﴿نَادِيكُمُ﴾: أي: مَجلِسِكم، وأصلُ (ندي) هنا: يدُلُّ على تجمُّعٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبَيِّنًا ابتلاءَ لُوطٍ بقومِه وابتلاءَهم به: واذكُرْ -يا محمَّدُ- لوطًا حينَ قال لِقَومِه: إنَّكم لَتَفعَلونَ الفاحِشةَ الشَّنيعةَ ما سبَقَكم بها أحدٌ مِن العالَمينَ؛ أئِنَّكم لَتُجامِعونَ الرِّجالَ، وتَقطَعونَ الطَّريقَ على المسافِرينَ، وتأتونَ في مَجالِسِكم قَبيحَ الأقوالِ والأعمالِ! فما كان جوابَ قَومِ لوطٍ إلَّا أنْ قالوا له: ائْتِنا بعَذابِ اللهِ إنْ كُنتَ مِن الصَّادِقينَ، قال لوطٌ: رَبِّ انصُرْني على هؤلاءِ القَومِ المُفسِدينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٦٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٣٠٤).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الانتِقالُ مِن رِسالةِ إبراهيمَ إلى قَومِه، إلى رِسالةِ لوطٍ؛ لِمُناسَبةِ أنَّه شابَهَ إبراهيمَ في أن أنجاه اللهُ مِن عذابِ الرِّجزِ[١].

وأيضًا لَمَّا قَصَّ اللهُ علينا قَصَصَ إبراهيمَ وما لاقاه مِن قَومِه، ثمَّ نَصْرَه له نَصرًا مُؤَزَّرًا- أعقَبَه بقَصَصِ لُوطٍ؛ إذ كان مُعاصِرًا له، وكان إبراهيمُ سَبَقَه إلى الدَّعوةِ إلى اللهِ[٢].

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- نَبيَّنا لُوطًا حينَ قال لِقَومه المُشرِكينَ: إنَّكم لَتَفعَلونَ ما تَجاوَزَ الحَدَّ في القُبحِ والشَّناعةِ، وذلك بإتيانِ الذُّكورِ في أدبارِهم[٣]!

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ما سَبَقكم إلى فِعلِ هذه الفاحِشةِ أحَدٌ مِن الأُمَمِ قَبْلَكم، وإنَّما هو شَيءٌ ابتَدَعْتُموه أنتم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٠/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾.

أي: أئنَّكم لَتُجامِعونَ الرِّجالَ في أدبارِهم[1]؟!

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأعراف: ٨١].

﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾.

أي: وتَقطَعونَ الطَّريقَ على المارَّةِ والمُسافِرينَ[2]؟!

﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾.

أي: وتَفعَلونَ في مَجالِسِكم التي تجتَمِعونَ فيها ما قَبُحَ مِن الأقوالِ والأعمالِ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠).

قال ابنُ عاشور: (قَطعُ السَّبيلِ: قَطعُ الطَّريقِ، أي: التَّصدِّي للماريِّنَ فيه بأخذِ أموالِهم، أو قَتلِ أنفُسِهم، أو إكراهِهم على الفاحِشةِ، وكان قومُ لوطٍ يَقعُدونَ بالطُّرقِ؛ ليأخُذوا مِن المارَّةِ مَن يَختارونَه؛ فقَطعُ السبيلِ فسادٌ في ذاتِه، وهو أفسَدُ في هذا المقصدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠).

وقال الشوكاني: (الظَّاهِرُ أنَّهم كانوا يَفعَلونَ ما يكونُ سببًا لِقَطعِ الطريقِ، مِن غيرِ تقييدٍ بسبَبٍ خاصٍّ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٣، ١٤٤).

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾.

أي: فما كان جوابَ قَومِ لُوطٍ على دَعوتِه لهم، وإنكارِه عليهم إلَّا أنْ قالوا له: ائْتِنا بعذابِ اللهِ إن كُنتَ مِن الصَّادِقينَ في زَعمِك أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللهِ، وفيما تَتوعَّدُنا به مِنَ العذابِ على أعمالِنا[1]!

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾.

أي: قال لوطٌ: رَبِّ انصُرْني بإهلاكِ هؤلاء القَومِ المُشرِكينَ العاصينَ بإتيانِ القبائحِ، الَّذين يُفسِدونَ أنفُسَهم وغَيرَهم مِنَ النَّاسِ[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُخۡرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٧ - ١٦٩].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ﴾ الأمرُ بذِكْرِ هؤلاءِ الفُضَلاءِ مِن الأنبياءِ ليس لمجرَّدِ الثَّناءِ عليهم، وإعلاءِ رُتبَتِهم بيْنَ النَّاسِ، بل لهذا الغَرَضِ ولِغَرَضٍ آخَرَ، وهو الاقتداءُ بهم، واتِّباعُهم، والصَّبرُ كما صَبَروا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩).

قال ابن عطية: (أي: إنَّ ذلك لا يكونُ ولا تَقدِرُ عليه! وهم لم يَقولوا هذا إلَّا وهم مُصَمِّمون على اعتقادِ كَذِبِه، وليس يَصِحُّ في الفِطرةِ أن يكونَ مُعانِدٌ يقولُ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٥).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّه يَنبغي ذِكْرُ ما يُنَفِّرُ عن العَمَلِ السَّيِّئِ، ووجْهُ كونِه مُنَفِّرًا أنَّهم ليس لهم قُدوةٌ حتَّى يُعذَرُوا بها، وكذلك آثامُ مَن بعْدَهم تكونُ عليهم[١]!

٣- قال الله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا ينبغي للمُجتَمِعينَ أن يَتعاشَروا إلَّا على ما يُقَرِّبُ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ولا ينبغي أن يجتَمِعوا على الهُزءِ واللَّعِبِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنَّ لوطًا حَذَّرَهم مِن عذابِ اللهِ؛ ففيه أنَّه ينبغي للدَّاعِيةِ أنْ يَدعوَ مُبَشِّرًا ومُنْذِرًا، ولا يقولَ: إذا أنذَرتُ نَفَّرْتُ؛ لأنَّ الإنذارَ قد يكونُ لا بُدَّ منه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- هذه القِصَّةُ كغَيرِها مِن القِصصِ تَرِدُ في القرآنِ الكريمِ على وُجوهٍ مُتنَوِّعةٍ، فكيف نجمَعُ بيْنَ هذه الوُجوهِ في قِصَّةٍ واحدةٍ؟

نقولُ في الجَمعِ: إن كان ممَّا يمكِنُ أن يَتكَرَّرَ فإنَّها تكونُ قد تكرَّرت على الوجهَينِ، وإن كان ممَّا لا يمكِنُ تكَرُّرُه فإنَّ الله تعالى يحكيها بالمعنى هذا تارةً، وبالمعنى هذا تارةً.

مِثالُ ذلك: يقولُ اللهُ سُبحانَه وتعالى في هذه الآيةِ في قِصَّةِ لُوطٍ: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وفي آيةٍ أخرى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]؛ ففي هذه الآيةِ قال سُبحانَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٦).

وتعالى: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، وفي الآيةِ الأولى قال: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهذا اختِلافٌ، والجَمعُ بيْنَهما هو تعدُّدُ القَولِ؛ فمَرَّةً قال لهم: ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾، ومرَّةً قال لهم: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهذا لا إشكالَ فيه؛ فإذا أمكنَ التَّعَدُّدُ -سواءٌ مِن القائِلِ أو بالقَولِ- حُمِلَ عليه، فإذا لم يُمكِنِ التَّعدُّدُ يكونُ مِن بابِ نَقلِه بالمعنى، واللهُ سُبحانَه وتعالى يَتكلَّمُ به في كُلِّ موضِعٍ بما يُناسِبُه، وبما تقتضيه البلاغةُ(١).

٢- لم يأْتِ في قِصَّةِ لُوطٍ أنَّه دعَا قومَه إلى عِبادةِ اللهِ، كما جاء في قصَّةِ إبراهيمَ وقصَّةِ شُعَيبٍ؛ لأنَّ لُوطًا كان مِن قومِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وفي زَمانِه، وسبَقَه إبراهيمُ إلى الدُّعاءِ لعِبادةِ اللهِ وتَوحيدِه، واشتُهِرَ أمْرُه بذلك عندَ الخلْقِ؛ فذكَرَ لُوطٌ ما اختُصَّ به مِن المنْعِ مِن الفَحشاءِ وغيرِها، وأمَّا إبراهيمُ وشُعيبٌ فجاءَا بعدَ انقراضِ مَن كان يَعبُدُ اللهَ؛ فلذلك دَعَوَا إلى عِبادةِ اللهِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّها كانت فاحِشةً عندَهم قبْلَ أن يَنهاهم، بخِلافِ قَولِ مَن يَقولُ: «ما كانت فاحِشةً ولا قَبيحةً ولا سيِّئةً حتَّى نهاهم عنها»! ولهذا قال لهم: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾، وهذا خِطابٌ لِمَن يَعرِفونَ قُبحَ ما يَفعَلونَ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ عَبَّرَ بالإتيانِ كنايةً عن الجِماعِ؛ لأنَّ القُرآنَ يُكَنِّي عمَّا يُستَقبَحُ ذِكرُه بما يدُلُّ عليه، وهذا كَثيرٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ، ومثالٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٣). ويُنظر ما تقدم في ((التفسير المحرر)) (٢٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٨٠).

آخَرُ مِن القُرآنِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فكَنَّى عنِ الجِماعِ بالإتيانِ(١).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه تشديدٌ في الإنكارِ عليهم في أنَّهم الَّذين سَنُّوا هذه الفاحِشةَ السَّيِّئةَ للنَّاسِ، وكانت لا تخطُرُ لأحدٍ ببالٍ، وإنَّ كثيرًا مِن المفاسِدِ تكونُ النَّاسُ في غَفلةٍ عن ارتكابِها؛ لعَدَمِ الاعتيادِ بها، حتَّى إذا أقْدَمَ أحدٌ على فِعلِها وشُوهِدَ ذلك منه، تَنبَّهَت الأذهانُ إليها، وتعَلَّقَت الشَّهَواتُ بها(٢).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ عبَّروا باسمِ الجلالة (الله)؛ زيادةً في الجُرأةِ(٣)!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ مُجرَّدَ الإيمانِ باللهِ رَبًّا مُدَبِّرًا لا يُدخِلُ الإنسانَ في الإيمانِ؛ فإنَّ هؤلاءِ القَومَ كانوا مُقِرِّينَ باللهِ؛ لِقَولِهم: ﴿بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ فليس مُجَرَّدُ كَونِ الإنسانِ يُؤْمِنُ بأنَّ للخليقةِ رَبًّا مُدَبِّرًا يُدْخِلُه في الإيمانِ(٤).

٨- قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ذَكَر حالَ المَدْعوِّ عليهم مِن بابِ التَّوسُّلِ؛ لأنَّ كلَّ وَصْفٍ يَستوجِبُ الإجابةَ فإنه يُعَدُّ وَسيلةً، فالتَّوسُّلُ إلى الله عزَّ وجلَّ أنواعٌ، ومنها: التَّوسُّلُ بحالِ المدعوِّ عليهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٨).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أنَّ اللِّواطَ مِن الإفسادِ في الأرضِ[١]، وكذلك قَطْعُ السبيلِ، وإتيانُ المنكَرِ.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- توكيدُ الجُملةِ بـ (إنَّ) واللَّام توكيدٌ لتَعلُّقِ النِّسبةِ بالمفعولِ لا تأكيدٌ للنِّسبةِ؛ فالمقصودُ تحقيقُ أنَّ الَّذي يَفعَلونه فاحشةٌ، أي: عمَلٌ قبيحٌ بالِغٌ الغايةَ في القُبْحِ؛ لأنَّ الفُحْشَ بُلوغُ الغايةِ في شَيءٍ قَبيحٍ؛ لأنَّهم كانوا غيرَ شاعِرينَ بشَناعةِ عمَلِهم وقُبْحِه، وهو إخبارٌ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ[٢].

- قَولُه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه عَرَّفَ الفاحشةَ في اللِّواطِ، وذلك يفيدُ أنَّه جامِعٌ لمعاني اسمِ الفاحِشةِ، كما تقولُ: «زَيْدٌ الرَّجُلُ، ونِعْمَ الرَّجُلُ زَيدٌ»، أي: أتأتونَ الخَصلةَ الَّتي استقَرَّ فُحْشُها عندَ كلِّ أحدٍ؟! فهي لِظُهورِ فُحْشِها وكَمالِه غَنِيَّةٌ عن ذِكْرِها؛ بحيثُ لا يَنصرِفُ الاسمُ إلى غيرِها، ثُمَّ أَكَّدَ سبحانه بيانَ فُحْشِها بأنَّها لم يَعمَلْها أحدٌ مِنَ العالَمينَ قَبْلَهم: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣]!

- قولُه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لفَحاشةِ تلك الفعلةِ، كأنَّ قائلًا قال: لِمَ كانت فاحشةً؟ فقِيلَ له:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٠).

لأنَّ أحدًا قبْلَهم لم يُقدِمْ عليها اشمئزازًا منها في طِباعِهم؛ لإفراطِ قُبْحِها، حتَّى أقدَمَ عليها قومُ لوطٍ؛ لخبثِهم وقذَرِ طِباعِهم. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ، كأنَّه قال: أتأتونَ الفاحشةَ مُبتدعينَ لها، غيرَ مَسبوقينَ بها[1]؟!

٢- قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

- جُملةُ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ [العنكبوت: ٢٨]، باعتبارِ ما عُطِفَ على جُملةِ ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ مِن قولِه: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ ...﴾؛ لأنَّ قطْعَ السَّبيلِ وإتيانَ المُنكَرِ في ناديهم ممَّا يَشتمِلُ عليه إتيانُ الفاحِشةِ. وأدخَلَ استِفهامَ الإنكارِ على جَميعِ التَّفصيلِ، وأُعيدَ حَرْفُ التَّأكيدِ؛ لِتَتطابَقَ جُملةُ البَدلِ مع الجُملةِ المُبدَلِ منها؛ لأنَّ الجزءَ الأوَّلَ مِن هذه الجُملةِ المُبدَلةِ عندَ قَطْعِ النَّظرِ عمَّا عُطِفَ عليها تكونُ مِن الجُملةِ المُبدَلِ منها بمَنزلةِ البدَلِ المُطابِقِ[2].

- واستَفهَمَ استِفهامَ إنكارٍ وتَوبيخٍ وتقريعٍ، وبيَّن ما تلك الفاحِشةُ المُبهمةُ في قولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾، وإنْ كانت مُعَيَّنةً أنَّها إتيانُ الذُّكورِ في الأدبارِ بقولِه: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا﴾، فقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ ...﴾[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٣).

- وفيه مُناسَبَةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، وقال في سُورة (النمل): ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾ [النمل: ٥٦]، والجمْعُ بيْنَهما: أنَّهم أوَّلًا قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ إنَّه لَمَّا كثُرَ منه الإنكارُ، وتكرَّر ذلك منه نَهيًا ووعْظًا ووَعِيدًا، قالوا: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ﴾، وهي المرَّةُ الأخيرةُ مِن مرَّاتِ المُقاولاتِ الجاريةِ بيْنَهم وبيْنَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

- ومِن المُناسَبةِ كذلك: أنَّه لَمَّا كان إنَّما يأمُرُهم بتَرْكِ الفواحشِ وما كانوا يَصنَعونه مِن قَبيحِ المعاصي، ويَعِدُ على ذلك بالعذابِ، وكانوا يقولونَ: إنَّ اللهَ لم يُحرِّمْ هذا، ولا يُعذِّبُ عليه، وهو يقولُ: إنَّ اللهَ حرَّمَه ويُعذِّبُ عليه، قالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾؛ فكانوا ألطَفَ في الجوابِ مِن قومِ إبراهيمَ بقولِهم: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾؛ لأنَّه كان يَذُمُّ آلهتَهم، وعَمَد إلى أصنامِهم فكسَرَها، فكان فِعلُه هذا معهم أعظَمَ مِن قولِ لوطٍ لقَومِه، فكان جوابُهم له أنْ قالوا: ﴿ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾[2].

- والأمْرُ في ﴿ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ للتَّعجيزِ، وهو يَقْتضي أنَّه أنْذَرَهم العذابَ في أثناءِ دَعوتِه، ولم يَتقدَّمْ ذِكْرُ ذلك في قِصَّةِ لُوطٍ فيما مَضَى، لكنَّ الإنذارَ مِن شُؤونِ دَعوةِ الرُّسلِ[3].

٣- قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

- وصَفَهم بقولِه: ﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ مُبالَغةً في استِنزالِ العَذابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

عليهم، وإشعارًا بأنَّهم أحِقَّاءُ بأنْ يُعجَّلَ لهم العذابُ[١]. وأيضًا وَصَفهم بـ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾؛ لأنَّهم يُفسِدون أنفُسَهم بشَناعاتِ أعمالِهم، ويُفسِدون النَّاسَ بحَمْلِهم على الفَواحشِ وتَدريبِهم بها، وفي هذا الوَصفِ تَمهيدٌ للإجابةِ بالنَّصرِ؛ لأنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسدينَ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤١).

## الآيات (٢١-٢٥)

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقينَ في عذابِ اللهِ، والغابرُ مِن الأضْدادِ؛ يُرادُ به الباقي والماضي، وأصلُ (غبر): يدُلُّ على البقاءِ[1].

﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾: أي: ساءَه مُجيئُهم، والسُّوءُ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ[2].

﴿ذَرْعًا﴾: أي: صدرًا أو طاقةً، وأصلُه: يدُلُّ على امتدادٍ، وتحرُّكٍ إلى قُدُمٍ[3].

﴿رِجْزًا﴾: أي: عذابًا، وأصلُ المعنى: الاضْطِرابُ، والحركةُ العنيفةُ، والارتعاشُ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٣).

ويُطلَقُ على العذابِ؛ لإزعاجِه النَّاسَ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولَمَّا جاءت رُسُلُنا مِن الملائكةِ إلى إبراهيمَ بالبِشارةِ بإسحاقَ ويعقوبَ، قالوا لإبراهيمَ: إنَّ اللهَ أرسَلَنا لِنُهلِكَ أهلَ قريةِ لُوطٍ؛ لأنَّهم كانوا ظالِمينَ. قال إبراهيمُ للمَلائكةِ: إنَّ في تلك القريةِ لُوطًا. قالت الملائكةُ: نحن أعلَمُ بمَن فيها، لَنُنَجِّينَّ لُوطًا وأهلَه إلَّا امرأتَه؛ فهي مِن الباقينَ في العذابِ.

ولَمَّا جاءت الملائِكةُ إلى لوطٍ ساءَه مجيئُهم، واغتمَّ بقُدومِهم؛ خَوفًا عليهم مِن قَومِه، فقالت له الملائكةُ: لا تخَفْ ولا تحزَنْ، إنَّا سنُنَجِّيك وأهلَك مِن العذابِ إلَّا امرأتَك؛ فهي مِن الباقينَ مع قَومِها في العذابِ، إنَّا مُنزِلونَ على أهلِ هذه القريةِ حِجارةً من السَّماءِ؛ بسبَبِ فِسْقِهم.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ حِكْمتَه اقتضَتْ أن يجعَلَ آثارَهم باقيةً بعْدَهم، فيقولُ: ولقد أبقَيْنا مِن قريةِ قَومِ لُوطٍ عَلامةً ظاهِرةً لِقَومٍ يَعقِلونَ ويَتفكَّرونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا دعا لوطٌ على قَومِه بقَولِه: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾، استجابَ اللهُ دُعاءَه، وأمَرَ ملائكَتَه بإهلاكِهم، وأرسَلَهم مُنذِرينَ ومُبَشِّرينَ بذُرِّيَّةٍ طَيِّبةٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٧٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٠).

﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾.

أي: ولَمَّا جاءَتْ رُسلُنا مِنَ الملائِكةِ إلى إبراهيمَ بالبِشارةِ بإسحاقَ وَلَدًا له، وبيَعقوبَ وَلَدًا لإسحاقَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ ٦٩ فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ٧٠ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٦٩ - ٧١].

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لإبراهيمَ: إنَّ اللهَ أرسَلَنا؛ لِنُهلِكَ أهلَ قَريةِ لُوطٍ(٢).

﴿إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾.

أي: لأنَّ أهلَها كانوا ظالِمينَ بالكُفرِ والمعاصي(٣).

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗا﴾.

أي: قال إبراهيمُ للمَلائكةِ: إنَّ في تلك القَريةِ لُوطًا، وليس مِنَ الظَّالِمينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

كقَومِه[١]!

﴿قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَا﴾.

أي: قالت الملائِكةُ: نحن أعلَمُ بمَن في تلك القَريةِ مِن المُؤمِنينَ والظَّالِمينَ[٢].

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾.

أي: لَنُنَجِّينَّ لوطًا وأهلَه إلَّا امرأتَه؛ فهي مِنَ الباقينَ في العَذابِ[٣].

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٨، ١٥٩).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ للغابِرينَ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، والنسفي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

قال الشنقيطيُّ: (﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾: جمعُ الغابرِ، والغابرُ اسمٌ مشتركٌ مِنَ الأضْدادِ؛ يُطلَقُ على الماضي وعلى الباقي، يُقالُ الغابرُ للماضي، والغابرُ للباقي. والمرادُ بها هنا: الباقين. ﴿مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أي: مِنَ الباقينَ في الهلاكِ. فعلى القولِ بأنَّه لم يَسْرِ بها فالكلامُ ظاهرٌ، وعلى القولِ بأنَّه أسْرى بها: عندَما خرَج بها التفَتَتْ فهلَكَتْ، فكأنَّها بَقِيَتْ معهم، فهي باقيةٌ معهم في الهلاكِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٦٦).

قال النحاسُ: (والأكثَرُ في اللُّغةِ أن يكونَ الغابرُ الباقي). ((معاني القرآن)) (٣/ ٥١).

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾.

أي: ولَمَّا جاء رُسلُ اللهِ مِنَ الملائكةِ إلى لُوطٍ، ساءَه مجيئُهم إليه، واغتمَّ بقُدومِهم؛ لخَوفِه عليهم مِن قَومِه، وعَجزِه عن حِفظِهم منهم(١)!

﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ﴾.

أي: وقالت الملائِكةُ لِلُوطٍ: لا تخَفْ ولا تحزَنْ(٢).

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ [هود: ٨١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٦٠).

قيل: معنى ﴿لَا تَخَفۡ﴾ أي: علينا أن يَصِلَ إلينا قَومُك ويَتمكَّنوا مِنَّا. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، والعليمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٦٠).

وقيل: معنى ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ﴾ أي: ممَّا أخبَرْناك مِن أنَّا مُهلِكوهم، أو بإهلاكِنا إيَّاهم. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٤٦).

وقيل: المرادُ: ولا تَحزَنْ علينا بسببِ التَّفكُّرِ في أمْرِنا؛ فإنَّهم لا يَقدِرون علينا. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الخازنُ، والنَّيسابوريُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

وقال الألوسي: (ولا تحزَنْ على قَصدِهم إيَّانا وعَدَمِ اكتراثِهم بك). ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٦٠).

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

أي: إنَّا سنُنَجِّيك -يا لُوطُ- وأهلَك مِنَ العذابِ النَّازِلِ بقَومِك إلَّا امرأتَك؛ فهي مِنَ الباقينَ معهم في العَذابِ[1].

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ لِلُوطٍ: إنَّا مُنزِلونَ على أهلِ هذه القَريةِ عَذابًا، وهو حِجارةٌ تَنزِلُ عليهم مِن السَّماءِ[2].

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

أي: وذلك العَذابُ واقِعٌ بهم؛ بسَبَبِ ما كانوا عليه مِنَ الكُفرِ، وفِعْلِ الفاحِشةِ والمُنكَرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

وكانت امرأةُ لوطٍ في الظاهرِ مسلمةً على دينِ زوجِها لوطٍ، وفي الباطنِ منافقةً على دينِ قومِها؛ ردءًا لهم على دينِهم، وعلى طريقتِهم في رضاها بأفعالِهم القبيحةِ، والمعاونةِ عليها، فكانت تدلُّهم على ضيفانِ لوطٍ، ليأتوا إليهم، لا أنَّها كانت تفعلُ الفواحشَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: ولقد أبقَيْنا مِن قَريةِ قومِ لُوطٍ علامةً ظاهِرةً واضِحةً[1] لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ حُجَجَه، ويَتفكَّرونَ في مَواعِظِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ أنَّ الاتِّصالَ بالصَّالحِ لا يَستلزِمُ أنْ يكونَ المتَّصِلُ صالحًا، وإنْ كان الاتِّصالُ بالصَّالحِ مِن أسبابِ الصَّلاحِ، لكنَّه ليس بلازمٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾، فهلَكَتْ مع الهالكينَ، مع أنَّها امرأةُ رجُلٍ صالحٍ؛ نبيٍّ مِن الأنبياءِ[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾ إزالةُ المؤذِي قبْلَ حُصولِ السَّارِّ؛ لِقَولِه: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، فبَدَؤوا بنَفْيِ الخَوفِ والحزنِ، ثُمَّ أعقَبوه

---

(١) قال القرطبي: (قال قتادةُ: هي الحِجارةُ الَّتي أُبقِيَت. وقاله أبو العاليةِ. وقيل: إنَّه يُرجَمُ بها قَومٌ مِن هذه الأمَّةِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: هي آثارُ مَنازِلِهم الخَربةِ. وقال مجاهدٌ: هو الماءُ الأسوَدُ على وجهِ الأرضِ. وكُلُّ ذلك باقٍ، فلا تَعارُضَ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٣). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٧٦، ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٢).

بالبِشارةِ؛ ولهذا مِن الكَلِماتِ المشهورةِ عندَ أهلِ العلم يقولون: «التَّخليةُ قبْلَ التَّحليةِ»، يعني: جَرِّدِ الشَّيءَ ممَّا يَشوبُه مِن النَّقصِ، ثُمَّ بعدَ ذلك كَمِّلْه بالتَّحليةِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، جعَلَهم اللهُ مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ، لكِنِ البِشارةُ أثَرُ الرَّحمةِ، والإنذارُ بالإهلاكِ أثَرُ الغَضَبِ، ورَحمتُه سبَقَتْ غضَبَه؛ فقدَّم البِشارةَ على الإنذارِ، وقال: ﴿جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، ثمَّ قال: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ﴾ إثباتُ أنَّ الملائكةَ أجسامٌ وليسوا أرواحًا أو عُقولًا -كما ادَّعاه بعضُهم- كيف نقولُ: إنَّهم أرواحٌ ومَعانٍ وعُقولٌ، وهم لهم أجنِحةٌ، ويأتون ويَذهَبون ويَتكَلَّمونَ؟! فجبريلُ عليه السَّلامُ رآه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وله سِتُّمئةِ جَناحٍ قد سَدَّ الأفُقَ[٣]! لكنَّ هذه الأجسامَ ليست كأجسامِ بني آدمَ؛ فإنَّ فيها مِن الخِفَّةِ والقُوَّةِ ما ليس لبني آدمَ، واللهُ عزَّ وجلَّ قد يَجعلُهم على صورةٍ غيرِ الصُّورةِ الأصليَّةِ، مثلُ: مجيءِ جبريلَ بصورةِ دِحْيَةَ الكَلْبيِّ[٤]، وبصورةِ رجُلٍ شديدِ بَياضِ الثِّيابِ، شَديدِ سوادِ الشَّعرِ[٥]... إلخ[٦].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ حينَ ذَكَروا البُشرى ما عَلَّلوا وقالوا:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ما أخرجه البخاري (٤٨٥٦-٤٨٥٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٣٤)، ومسلم (٢٤٥١) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٥) يُنظر ما أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٥).

إنا نُبَشِّرُك؛ لأنَّك رسولٌ، أو لأنَّك مُؤمِنٌ، أو لأنَّك عادِلٌ، وحينَ ذكَروا الإهلاكَ عَلَّلوا وقالوا: إنَّ أهلَها كانوا ظالِمينَ؛ وذلك لأنَّ ذا الفَضلِ لا يكونُ فَضلُه بعِوَضٍ، والعادِلَ لا يكونُ عذابُه إلَّا على جُرمٍ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أنَّ الفرحَ بالولدِ لا يُنافي كمالَ المرتبةِ؛ فإبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الكُمَّلِ مِن الرُّسُلِ، ومع ذلك استبشَرَ بالأولادِ، وفَرِحَ بهم، فلا يقالُ: الفرَحُ بالأولادِ ينافي الكمالَ(٢)!

٥- قولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ مِن لُطْفِ اللهِ بإبراهيمَ أنْ قدَّمَ له البُشرى قبْلَ إعلامِه بإهلاكِ قومِ لُوطٍ؛ لعِلْمِه تعالى بحِلْمِ إبراهيمَ(٣).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾، لَمَّا كان المَقامُ للابتلاءِ والامتحانِ، أجمَلَ البُشْرَى، وفصَّل النُّذْرَى(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ﴾ أنَّ الهلاكَ في الأصلِ إذا جاء يَشمَلُ الصَّالحَ وغيرَ الصَّالحِ؛ فلولا أنَّه يَشمَلُ الجَميعَ ما نَبَّهَهُم على هذا، بل إنَّ اللهَ ذَكَر ما يدُلُّ على ذلك صريحًا؛ قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٥) [المؤمنون: ٩٣، ٩٤]، وفي الحديثِ عن زينبَ بنتِ جحشٍ زَوجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قالت: ((خرَج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومًا فَزِعًا مُحْمَرًّا وجْهُه، يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وَيْلٌ للعرَبِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٦).

مِن شرٍّ قدِ اقترَبَ! فُتِح اليَومَ مِن رَدمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مِثلُ هذِه، وحلَّقَ بإصبَعِه الإبهامِ والَّتي تَليها. قالت: فقُلْتُ: يا رسولَ اللهِ، أنَهلِكُ وفينا الصَّالحونَ؟ قال: نعَمْ، إذا كَثُرَ الخَبَثُ))[1].

٨- عن قَتادةَ رَضِيَ الله عنه في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ قال: (لا تلقَى المؤمِنَ إلَّا يرحَمُ المؤمِنَ، ويَحوطُه حيثُما كان)[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ إثباتُ القَولِ والعِلْمِ للمَلائكةِ؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّهم ذَوو عُقولٍ، وذَوو نُطقٍ، خلافًا لِمَن قال: إنَّهم لا عُقولَ لهم! وهذا مِن أغرَبِ ما يكونُ؛ أن يكونَ هؤلاءِ الملائكةُ الَّذين يُسَبِّحون اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفتُرونَ، والَّذين وَصَفَهم الله تعالى بأنَّهم عِبادٌ مُكرَمونَ؛ أن يَكونوا لا عُقولَ لهم، فمَن له عقلٌ بعدَ ذلك[3]؟!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ﴾ اعتبارُ القَسَمِ المُقَدَّرِ، بمعنى أنَّه لا يُشترَطُ في القَسَمِ أنْ تَنْطِقَ به، فلو قال قائلٌ: «لَأَفعَلَنَّ كذا» يكونُ مُقْسِمًا؛ لأنَّ هذه الجملةَ تكونُ جوابًا لقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، ولو قال: «لَئِنْ آتانيَ اللهُ مِن فَضْلِه لَأَتَصَدَّقَنَّ» يكونُ نَذْرًا، قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥، ٧٦]، فجَعَلَ هذا نذرًا؛ لأنَّ النَّذْرَ ليس له صيغةٌ مُعَيَّنةٌ، بل كلُّ ما دلَّ على الالتزامِ فهو نَذْرٌ -بأيِّ صيغةٍ-، وقد يكونُ نذرًا مقرونًا بالقَسَمِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في ((تفسيره)) (٣/ ٥)، وابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ٣٠٥٦)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٥٠/ ٣١٠)، ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٠).

فيُفيدُ التَّوكيدَ[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ فيه سؤالٌ: القَومُ عُذِّبوا بسبَبِ ما صدَرَ منهم مِنَ الفاحِشةِ، وامرأتُه لم يَصدُرْ منها تلك، فكيف كانت مِنَ الغابِرينَ معهم؟

**الجواب**: أنَّ الدَّالَّ على الشَّرِّ له نصيبٌ، كفاعِلِ الشَّرِّ، كما أنَّ الدَّالَّ على الخيرِ كفاعِلِه، وهي كانت تدُلُّ القومَ على ضيوفِ لوطٍ، حتَّى كانوا يَقصِدونَهم؛ فبِالدَّلالةِ صارت واحِدةً منهم[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ﴾ أنَّ الزَّوجةَ داخِلةٌ في الأهلِ؛ لأنَّهم استَثْنَوا مِن ذلك امرأتَه، والأصلُ في الاستثناءِ الاتِّصالُ؛ لأنَّه لولا أنَّها مِن المُستثنَى ما احتِيجَ إلى إخراجِها، وينبني على هذه الفائِدةِ أنَّ أزواجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هم مِن أهلِ بيتِه ولا شكَّ، خلافًا للرَّافضةِ الَّذين يُخرِجونَ زَوجاتِه مِن أهلِ بَيتِه، وفي القرآنِ ما يَدُلُّ على ذلك صَريحًا؛ قال تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا﴾[٣] [الأحزاب: ٣٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ﴾ أنَّ الأنبياءَ كغيرِهم مِن البَشَرِ؛ تَلْحَقُهم المَساءةُ والأحزانُ والسُّرورُ؛ فالعوارِضُ البَشَريةُ لا تُنافي كمالَ الرِّسالاتِ؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكم؛ أَنسَى كما تَنسَونَ))[٤]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٢).

(٤) أخرجه البخاري (٤٠١)، ومسلم (٥٧٢) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وكذلك يَعتري الأنبياءَ البَردُ والحَرُّ، والجوعُ والعَطَشُ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ الاستِدلالُ على الأحوالِ بالملامِحِ؛ لأنَّهم رَأَوْا مِن العلاماتِ الظَّاهرةِ على ملامحِه ما يدُلُّ على خَوفِه. وفيها أيضًا: العملُ بالقرائنِ، والعملُ بالقرائنِ ثابتٌ في القرآنِ، ودليلُه مِن قصَّةِ يوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في قَولِ اللهِ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧]؛ فهذه قَرينةٌ[٢].

١٥- قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ استِثناءُ امرأتِه مِن عُمومِ أهلِه استثناءٌ مِن التَّعليلِ لا مِنَ النَّهيِ؛ ففي ذلك مَعذِرةٌ له بما عسى أن يحصُلَ له مِن الحُزنِ على هلاكِ امرأتِه مع أنَّه كان يحسَبُها مُخلِصةً له[٣].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى غَفلةِ المُخاطَبينَ بهذه القِصَّةِ مِنَ العَرَبِ وغَيرِهم، وأنَّه ليس بيْنَهم وبيْنَ الهُدى إلَّا تفَكُّرُهم في أمْرِهم، مع الانخلاعِ مِن الهَوى، وإنَّما يكونُ ذلك ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، أي: يَتدَبَّرونَ؛ فعَدَّ مَن لم يَستبصِرْ بذلك غيرَ عاقِلٍ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٣٨).

هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴾

- أُضيفَ الإهلاكُ والإنجاءُ إليهم، وإنَّما سُبحانَه هو المُهلِكُ والمُنَجِّي، ولكنْ لَمَّا كانوا هم الجائينَ به مِن عِندِه بهذا الإهلاكِ والإنجاءِ أُضيفَ إليهم[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ تَعليلٌ لإهلاكِهم لهم بإصرارِهم وتَماديهم في ظُلْمِهم الَّذي هو الكفرُ وأنواعُ المعاصي[٢]. وقُصِدَ به استِئْناسُ إبراهيمَ لقَبولِ هذا الخبرِ المُحزِنِ، وأيضًا لأنَّ العدْلَ يَقْتضي ألَّا يكونَ العِقابُ إلَّا على ذنْبٍ يَقْتضيه[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًاۚ قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ في التَّذكيرِ بسُنَّةِ اللهِ مع رُسلِه مِن الإنجاءِ مِن العذابِ الَّذي يحُلُّ بأقوامِهم؛ فهو مِن التَّعريضِ للملائكةِ بتَخصيصِ لُوطٍ ممَّن شمِلَتْهم القريةُ في حُكْمِ الإهلاكِ، ولُوطٌ وإنْ لم يكُنْ مِن أهْلِ القريةِ بالأصالةِ فإنَّ كَوْنَه بيْنَهم يَقْتضي الخَشيةَ عليه مِن أنْ يَشمَلَه الإهلاكُ؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ بحرْفِ الظَّرفيَّةِ (في)، ولم يقُلْ: إنَّ منها[٤].

- قولُه: ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾؛ فلذلك لم تُعطَفْ عليها وفُصِلَت[٥].

- قولُه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ فِعْلُ (كانت) مُستعمَلٌ في

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٤٤).

معنى (تكونُ)، فعبَّرَ بصِيغةِ الماضي؛ تَشبيهًا للفِعلِ المُحقَّقِ وُقوعُه بالفِعلِ الَّذي مضَى، مِثْلُ قولِه: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]. ويجوزُ أنْ يكونَ مُرادًا به الكَوْنُ في عِلْمِ اللهِ وتقديرِه، كما في قولِه: ﴿قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ [النمل: ٥٧]، فتكونَ صِيغةُ الماضي حقيقةً[١]. وقيل: (كان) هنا مَسلوبةُ الزَّمنِ، والمرادُ اتِّصافُ اسمِها بخبرِها، أي: اتَّصفَتْ بكَونِها مِن الغابرينَ[٢].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ (أَنْ) صِلَةٌ أكَّدَتْ وُجودَ الفِعلَينِ ﴿جَآءَتۡ﴾ و﴿سِيٓءَ﴾، مُترتِّبًا أحدُهما على الآخَرِ في وَقتينِ مُتجاوِرَينِ لا فاصِلَ بيْنَهما، كأنَّهما وُجِدَا في جُزءٍ واحدٍ مِن الزَّمانِ؛ كأنَّه قِيل: لَمَّا أحَسَّ بمَجيئهم فاجأَتْه المَساءةُ مِن غيرِ رَيثٍ؛ خِيفةً عليهم مِن قَومِه[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا﴾، وقال مِن قبْلُ في السُّورةِ نفْسِها: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [العنكبوت: ٣١]؛ وذلك لحِكمةٍ بالغةٍ، وهي أنَّ الواقعَ في وقْتِ المجيءِ هناك قولُ الملائكةِ: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾، وهو لم يكُنْ مُتَّصِلًا بمَجيئِهم؛ لأنَّهم بشَّروا أوَّلًا ولَبِثوا، ثمَّ قالوا: ﴿إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ﴾، وأيضًا فالتَّأنِّي واللُّبثُ بعدَ المَجيءِ، ثمَّ الإخبارُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٨، ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٤).

بالإهلاكِ حَسَنٌ؛ فإنَّ مَن جاء ومعه خبرٌ هائلٌ يَحسُنُ منه ألَّا يُفاجِئَ به، والواقعُ هاهنا هو خَوفُ لُوطٍ عليهم، والمُؤمِنُ حينَما يَشعُرُ بمَضرَّةٍ تصِلُ بريئًا مِن الجِنايةِ، يَنْبغي أنْ يَحزَنَ ويَخافَ عليه مِن غيرِ تأْخيرٍ، إذا عُلِمَ هذا فقولُه هاهنا: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا﴾ يُفِيدُ الاتِّصالَ، يعني: خاف حِينَ المَجيءِ[1].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّ قولَه: ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ وقَعَ في (هودٍ): ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ﴾ [هود: ٧٧] بغيرِ (أنْ)؛ وذلك لأنَّ (لَمَّا) يَقْتضي جوابًا، وإذا اتَّصلَ به (أنْ) دلَّ على أنَّ الجوابَ وقَعَ في الحالِ مِن غيرِ تَراخٍ، كما في هذه السُّورةِ، وهو قولُه: ﴿سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾، وفي (هُودٍ) اتَّصلَ به كلامٌ بعدَ كلامٍ، إلى قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَ﴾ [هود: ٨١]، فلمَّا طال لم يَحسُنْ دُخولُ (أنْ)[2]. وقيل: لم تقَعْ (أنْ) المُؤكِّدةُ في آيةِ سُورةِ (هودٍ)؛ لأنَّ في تلك السُّورةِ تَفصيلًا لسَببِ إساءتِه، وضِيقِ ذَرْعِه؛ فكان ذلك مُغْنِيًا عن التَّنبيهِ عليه في هذه الآيةِ، فكان التَّأكيدُ هنا ضرْبًا مِن الإطنابِ[3].

- وبِناءُ فِعلِ ﴿سِيٓءَ﴾ للمَجهولِ؛ لأنَّ المقصودَ حُصولُ المفعولِ دونَ فاعِلِه. وعُطِفَتْ عليه جُملةُ ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾؛ لأنَّها مِن جُملةِ ما وقَعَ عقِبَ مَجِيءِ الرُّسلِ لُوطًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٢٩-١٠٣٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٩٩)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٤٥).

- وهاهنا إيجازٌ؛ فقد طُوِيَت جُمَلٌ دلَّ عليها قولُه: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾، وهي الجُمَلُ الَّتي ذُكِرَت مَعانيها في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾، إلى قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ في سُورةِ (هُودٍ)[1] [٧٨ - ٨١].

- قولُه: ﴿وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ قدَّموا تأْمينَه قبْلَ إعلامِه بأنَّهم مُنزِلون العذابَ على أهْلِ القريةِ؛ تَعجيلًا بتَطْمينِه. وعطْفُ ﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾ على ﴿لَا تَخَفْ﴾ جمْعٌ بيْنَ تأْمينِه مِن ضُرِّ العذابِ وبيْن إعلامِه بأنَّ الَّذين سيُهْلَكون لَيسوا أهْلًا لِأَنْ يَحزَنَ عليهم[2]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الأمْرينِ[3].

- فإنْ قِيل: قولُهم: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ لا يُناسِبُه ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾؛ لأنَّ خَوْفَه ما كان على نفْسِه!

**فالجوابُ**: أنَّ بيْنَهما مُناسبةً في غايةِ الحُسنِ؛ وهي أنَّ لُوطًا عليه السَّلامُ لَمَّا خاف عليهم، وحَزِنَ لِأجْلِهم -على قولٍ في التفسيرِ-، قالوا له: لا تخَفْ علينا ولا تَحزَنْ لأجْلِنا؛ فإنَّا ملائكةٌ، ثمَّ قالوا له: يا لوطُ، خِفْتَ علينا، وحَزِنْتَ لأجْلِنا؛ ففي مُقابَلةِ خوفِك وقتَ الخوفِ نُزيلُ خوفَك ونُنجِّيك، وفي مُقابَلةِ حُزْنِك نُزيلُ حُزْنَك، ولا نَتركُك تُفجَعُ في أهْلِك، فقالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾، وقال لإبراهيمَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٣).

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُۥ﴾ [العنكبوت: ٣٢] بصِيغةِ الفِعلِ؛ وذلك أنَّ هناك لَمَّا قال لهم إبراهيمُ: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾، وعَدُوه بالتَّنجيةِ، ووعْدُ الكريم حتْمٌ، وهاهنا لَمَّا قالوا لِلُوطٍ -وكان ذلك بعدَ سبْقِ الوعْدِ مرَّةً أُخرى- قالوا: ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ﴾، أي: ذلك واقعٌ مِنَّا، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠]؛ لِضَرورةِ وُقوعِه[١].

٤- قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ، وقَعَتْ بَيانًا لِمَا في جُملةِ ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: ٣٣] مِن الإيذانِ بأنَّ ثمَّةَ حادِثًا يُخافُ منه، ويُحزَنُ له[٢]. وقيل: هي استئنافٌ مَسُوقٌ لبَيانِ ما أُشِيرَ إليه بوَعدِ التَّنجيةِ مِن نُزولِ العذابِ عليهم[٣].

٥- قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ...﴾ [العنكبوت: ٢٨] عطْفَ آيةٍ على آيةٍ؛ لأنَّ قِصَّةَ لُوطٍ آيةٌ بما تضمَّنَتْه مِن الخبرِ، وآثارَ قَريةِ قومِه آيةٌ أُخرى بما يُمكِنُ مُشاهَدتُه لأهْلِ البصرِ. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةً مُعترِضةً في آخرِ القصَّةِ. وعلى كِلَا الوجهَينِ فهو مِن كلامِ اللهِ تعالى[٤].

- ومَفعولُ ﴿تَّرَكْنَا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ﴿ءَايَةًۢ﴾، فيُجعَلُ (مِن) حرْفَ جرٍّ، وهو مَجرورٌ وصْفًا لـ ﴿ءَايَةًۢ﴾؛ قُدِّمَ على مَوصوفِه للاهتمامِ، فيُجعَلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦).

حالًا مِن ﴿ءَايَةٗ﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ (مِن) للابتداءِ، أي: ترَكْنا آيةً صادرةً مِن آثارِها، ومَعرفةِ خَبرِها. ويجوزُ جَعلُ (مِن) اسمًا بمعنى (بعضٍ)؛ فتكونُ (مِن) مفعولًا مُضافًا إلى ضَميرِ (قرية)[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال في السَّفينةِ: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، ولم يقُلْ: (بيِّنة)، وقال هاهنا: ﴿ءَايَةٗ بَيِّنَةٗ﴾؛ وذلك لأنَّ الإنجاءَ بالسَّفينةِ أمْرٌ يتَّسِعُ له كلُّ عقْلٍ، وقد يقَعُ في وهْمِ جاهلٍ أنَّ الإنجاءَ بالسَّفينةِ لا يَفتقِرُ إلى أمْرٍ آخَرَ، وأمَّا الآيةُ هاهنا الخسْفُ، وجعْلُ دِيارٍ مَعمورةٍ عالِيَها سافلَها، وهو ليس بمُعتادٍ، وإنَّما ذلك بإرادةِ قادرٍ يُخصِّصُه بمكانٍ دونَ مكانٍ، وفي زمانٍ دونَ زمانٍ؛ فهي بيِّنةٌ لا يُمكِنُ لجاهلٍ أنْ يقولَ: هذا أمرٌ يكونُ كذلك، وكان له أنْ يقولَ في السَّفينةِ: النَّجاةُ بها أمْرٌ يكونُ كذلك، إلى أنْ يُقالَ له: فمِن أين عَلِمَ أنَّه يَحتاجُ إليها، ولو دام الماءُ حتَّى يَنفَدَ زادُهم كيف كان يَحصُلُ لهم النَّجاةُ؟ ولو سلَّطَ اللهُ عليهم الرِّيحَ العاصفةَ كيف يكونُ أحوالُهم[٢]؟

وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّها آيةٌ واضحةٌ دائمةٌ على طُولِ الزَّمانِ إلى الآنَ؛ ولذلك وُصِفَت بـ ﴿بَيِّنَةٗ﴾، ولم تُوصَفْ آيةُ السَّفينةِ بـ (بيِّنة) في قولِه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]؛ لأنَّ السَّفينةَ قد بَلِيَت ألْواحُها وحديدُها، أو بقِيَ منها ما لا يَظهَرُ إلَّا بعدَ تَفتيشٍ إنْ كان[٣].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا قولُه هاهنا: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾، وقال هناك:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٣، ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٦).

﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]؛ وذلك لأنَّ السَّفينةَ مَوجودةٌ في جميعِ أقطارِ العالَم، فعندَ كلِّ قومٍ مِثالٌ لسَفينةِ نُوحٍ يَتذكَّرون بها حالَه، وإذا رَكِبوها يَطلُبون مِن اللهِ النَّجاةَ، ولا يثِقُ أحدٌ بمُجرَّدِ السَّفينةِ، بلْ يكونُ دائمًا مُرتجِفَ القلْبِ، مُتضَرِّعًا إلى اللهِ تعالى؛ طلَبًا للنَّجاةِ، وأمَّا أثَرُ الهلاكِ في بِلادِ لُوطٍ ففي مَوضعٍ مَخصوصٍ لا يطَّلِعُ عليه إلَّا مَن يمُرُّ بها ويصِلُ إليها، ويكونُ له عقْلٌ يَعلَمُ أنَّ ذلك مِن اللهِ المُريدِ؛ بسَببِ اختِصاصِه بمكانٍ دونَ مكانٍ، ووُجودِه في زمانٍ بعدَ زمانٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٤).

## الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَعْثَوْا﴾: أي: تُفسِدوا، وتَسعَوا، وتَطغَوا، وأصلُ العيثِ: يدُلُّ على الفَسادِ[١].

﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾: أي: الزَّلزلةُ الشَّديدةُ، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على اضْطِرابٍ[٢].

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: موتَى، لاصِقينَ بالأرضِ على رُكَبِهم ووُجوهِهم، وقيل: مُلقًى بعضُهم فوقَ بعضٍ، والجُثومُ: البُروكُ على الرُّكَبِ، وأصلُ الجثومِ: هو أن يكونَ الإنسانُ مُنْكَبًّا على وجهِه، رُكْبَتاه في الأرضِ، وأصلُ (جثم): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[٣].

### المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وأرسَلْنا إلى مَدْيَنَ أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا، فقال شُعَيبٌ لِقَومِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٥)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٣٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٣).

يا قومِ، اعبُدوا اللهَ وَحْدَه وارجُوا ثوابَ الآخرةِ، ولا تُفسِدوا في الأرضِ بالكُفرِ والعِصيانِ والبَغْيِ على النَّاسِ. فكذَّبوا نبيَّهم شُعَيبًا، فأهلكَتْهم رَجْفةُ العذابِ؛ فأصبَحوا في ديارِهم أجسادًا هامِدةً لا أرواحَ فيها!

## تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦﴾.

﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾.

أي: وأرسَلْنا إلى مَدْيَنَ[1] أخاهم في النَّسَبِ شُعَيبًا[2].

﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾.

أي: فقال شُعَيبٌ لِقَومِه: يا قَومِ، اعبُدوا اللهَ وَحْدَه، وذِلُّوا له بطاعتِه، وارجُوا اليومَ الآخِرَ خوفًا مِن العقابِ، وطمعًا في الثوابِ[3].

---

(١) قال ابن عطية: (قيل في مَدْيَنَ: إنَّه اسمُ بلدٍ وقُطرٍ، وقيل: اسمُ قبيلةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٤٢٦).

وقال ابن عاشور: (مَدْيَنُ: اسمُ أحدِ أبناءِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، سكنَتْ ذُرِّيَّتُه في مَواطِنَ تُسمَّى الأَيْكةَ على شاطئِ البحرِ الأحمرِ جنوبَ عَقَبةِ أَيْلةَ، وغلَبَ اسمُ القبيلةِ على الأرضِ، وصار عَلَمًا للمكانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٥، ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

قال أبو حيان: (والأمرُ بالرِّجاءِ أمرٌ بفِعلِ ما يَترتَّبُ الرَّجاءُ عليه، أقام المُسَبَّبَ مقامَ السَّبَبِ. والمعنى: وافعَلوا ما تَرجُونَ به الثَّوابَ مِن الله، أو يكونُ أمرًا بالرَّجاءِ على تقديرِ تحصيلِ شَرطِه، وهو الإيمانُ بالله. وقال أبو عبيدةَ: وارجوا: خافُوا جزاءَ اليومِ الآخِرِ مِن انتِقامِ الله منكم إن لم تَعبُدوه). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٦). =

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾.

أي: ولا تُفْسِدُوا في الأرضِ في حالِ كَونِكم مُفْسِدينَ، ولا تَعمَلوا بمعصيةِ الله، والبَغْيِ على النَّاسِ: ببَخْسِ المَكاييلِ والمَوازينِ، وقطعِ الطُّرُقِ، مع كُفرِكم بالله؛ فإنَّه أَصْلُ كلِّ فسادٍ، ولكنْ تُوبوا إلى الله مِن ذلك، وأَنِيبوا إليه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ

---

= ممَّن اختار أنَّ الرَّجاءَ على بابِه: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، والثعالبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٤/ ٢٩٤).

وقال الرَّسْعَني: (قال عامَّةُ المفسِّرينَ: الرَّجاءُ هاهنا بمعنى الخشيةِ، المعنى: اخْشَوُا اليَومَ الَّذي تُجازَوْن فيه بأعمالِكم). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦١٣).

وممَّن اختار أنَّ الرَّجاءَ هنا بمعنى الخَوفِ والخشيةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والبغويُّ، وذكر ابنُ الجوزي أنَّه قولُ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٧).

وقال ابن عثيمين: (يجوزُ أن نحملَه على المعنيَينِ جميعًا، أي: ارْجُوه خوفًا مِن العقابِ، وطمعًا في الثوابِ...، والرَّاجحُ عندي -وهو قولٌ لبعضِ العلماءِ- جوازُ استعمالِ المشتركِ في معنيَينِ إذا لم يكُنْ بيْنَهما تنافٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨١).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي: تَوَقَّعوه وافعَلوا اليومَ مِن الأعمالِ ما يَدفَعُ عذابَه عنكم: أبو السعودِ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٢٧).

قال ابن عثيمين: (المرادُ: الإفسادُ الحِسِّيُّ... والإفسادُ المعنويُّ كلاهما؛ فالإفسادُ في الأرضِ يَشملُ الإفسادَ بالمعاصي، ويَشملُ الإفسادَ الحِسِّيَّ المادِّيَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٢) بتصرف.

وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٨٥، ٨٦].

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾.

أي: فكذَّبوا نَبيَّهم شُعَيبًا، فأهلكَتْهم رَجْفةُ العذابِ[1].

﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾.

أي: فأصبَح قَومُ شُعَيبٍ في بَلَدِهم مُنكَبِّينَ على وُجوهِهم مَوْتَى، قد فارَقتْ أرواحُهم أبدانَهم، ليس منهم داعٍ ولا مجيبٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالرَّجفةِ هنا: زَلزلةُ الأرضِ: البيضاويُّ، وابن كثير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٤).

وقيل: المرادُ بها: الصَّيحةُ. أي: إنَّ الصَّيحةَ رَجَفتْ بقُلوبِهم. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٥٩).

قال الشنقيطيُّ: (قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ لم يُبيِّنْ هنا سببَ رَجْفةِ الأرضِ بهم، ولكنَّه بيَّن في موضعٍ آخَرَ أنَّ سببَ ذلك صيحةُ الملَكِ بهم، وهو قولُه: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ الآيةَ [هود: ٦٧]، والظَّاهرُ أنَّ الملَكَ لَمَّا صاحَ بهم رَجَفَتْ بهم الأرضُ مِن شِدَّةِ الصَّيحةِ، وفارَقَتْ أرواحُهم أبدانَهم). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) =

كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [هود: ٩٤، ٩٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ وُجوبُ الاستعدادِ لِلْيَومِ الآخِرِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ تَسليةُ الدُّعاةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ إذا عُورِضوا في دَعوتِهم؛ وجهُ ذلك: أنَّ الرُّسلَ كُذِّبوا، فهُم مِن بابِ أَولى؛ ولهذا يُسَلِّي اللهُ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمِثلِ هذا، قال سُبحانَه وتعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ﴾ [الأنعام: ٣٤]؛ فالدَّاعي إلى اللهِ لا ينبغي أنْ يأنَفَ مِن أنْ يُكَذَّبَ؛ فإنَّ هذا هو طَريقُ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأتْباعُهم سيَكونون مِثلَهم[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * فَكَذَّبُوهُ﴾ فيه سؤالٌ: ما حُكِيَ عن شُعَيبٍ أمرٌ ونَهيٌ، والأمرُ لا يُصَدَّقُ ولا يُكَذَّبُ، فإنَّ مَن قال لغيرِه: قُمْ. لا يصِحُّ أن يقولَ له: كذَبْتَ؟

---

= (٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٣).

وقال ابن جرير: (﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ جُثُومًا بعضُهم على بعضٍ؛ موتَى). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٦).

**الجواب**: كان شُعَيبٌ يقولُ: الله واحِدٌ فاعبُدوه، والحشرُ كائِنٌ فارجوه، والفَسادُ مُحرَّمٌ فلا تَقرَبوه. وهذه الأشياءُ فيها إخباراتٌ، فكذَّبوه فيما أخبَرَهم به[١].

أو: كَذَّبُوهُ فيما تضمَّنه كلامُه مِن أنَّهم إن لم يمتثِلوا أمرَه ونهيَه وقَع بهم العذابُ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾، أمْرُه إيَّاهم بترَقُّبِ اليومِ الآخِرِ، يدُلُّ على أنَّهم كانوا لا يُؤمِنونَ بالبعثِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ أنَّ الشَّرائعَ تَجمَعُ بيْنَ الأمْرَينِ: الإيجابيِّ، والسَّلبيِّ؛ الإيجابيُّ بالأوامرِ، والسَّلبيُّ بالنَّواهي، يعني: أنَّ الشَّرائعَ أفعالٌ وتُروكٌ، ولا يُصلِحُ العِبادَ إلَّا هذا؛ لأنَّ الإنسانَ قد تُناسِبُه الأوامرُ ولا تُناسِبُه النَّواهي، وقد يكونُ العكسُ؛ فجَمَعَ اللهُ سبحانه وتعالى في شرائعِه بيْنَ الأمرِ والنَّهيِ[٤].

٤- قَولُه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ أخبَر تعالَى هاهنا أنَّهم أخذَتْهم الرَّجفةُ، كما أرجَفوا شُعَيبًا وأصحابَه، وتوَعَّدوهم بالجلاءِ[٥].

## بلاغةُ الآيتينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ في قولِه: (إلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٦) ((تفسير الألوسي)) (١٠/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٨).

مَدْيَنَ)؛ لِيتأتَّى الإيجازُ في وَصْفِ شُعَيبٍ بأنَّه أخوهم بالإضمارِ حيثُ أُريدَ وصفُ شُعيبٍ بأنَّه مِن إخوةِ مَدْيَنَ وَمِن صَميمِهم، مِن غيرِ احتياجٍ إلى إعادةِ لفظِ (مدينَ)، ومع تجنُّبِ عَودِ الضَّميرِ على مُتأخِّرٍ لفظًا ورُتْبةً، فقيلَ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾[1].

- وفيه أيضًا مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقال في نُوحٍ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [العنكبوت: ١٤]، فقدَّم نُوحًا في الذِّكْرِ، وعرَّفَ القومَ بالإضافةِ إليه، وكذلك في إبراهيمَ ولُوطٍ، وهاهنا ذكَرَ القومَ أوَّلًا، وأضاف إليهم أخاهم شُعيبًا؛ وذلك لأنَّ الأصلَ في جميعِ المواضعِ أنْ يُذكَرَ القومُ، ثمَّ يُذكَرَ رَسولُهم؛ لأنَّ المُرسِلَ لا يَبعَثُ رسولًا إلى غيرِ مُعيَّنٍ، وإنَّما يَحصُلُ قومٌ أو شخصٌ يَحتاجون إلى إنباءٍ مِن المُرسِلِ، فيُرسِلُ إليهم مَن يَختارُه، غيرَ أنَّ قومَ نوحٍ وإبراهيمَ ولوطٍ لم يكُنْ لهم اسمٌ خاصٌّ، ولا نِسبةٌ مَخصوصةٌ يُعرَفون بها، فعُرِفوا بالنَّبيِّ، فقِيل: قومُ نوحٍ وقومُ لُوطٍ. وأمَّا قومُ شُعيبٍ وهودٍ وصالحٍ، فكان لهم نسَبٌ معلومٌ اشتُهِرُوا به عندَ النَّاسِ؛ فجَرى الكلامُ على أصْلِه، وقال اللهُ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥][2].

- قولُه: ﴿وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ أي: افْعَلوا ما تَرْجُون به ثوابَه -على أحدِ الأقوالِ في التفسيرِ-؛ فأُقِيمَ المُسبَّبُ مُقامَ السَّببِ، فيكونُ عطْفُ ﴿وَٱرْجُواْ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧)، و(٨-ب/ ٢٠٠).

ووصفُ (شعيب) بأنَّه أخو مَدْيَنَ لأنَّه كان مِن نَسَبِهم، كما يُقالُ: يا أخا العربِ، أي: يا عربيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٢/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٤).

على ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ للبيانِ والتَّفسيرِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾

- قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ أبلَغُ مِن قولِه: «أصابتْهم»؛ لأنَّ الأخذَ دليلٌ على أنَّه لا هَوادةَ فيه، وأنه مُدَمِّرٌ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾، أي: الزَّلزلةُ الشَّديدةُ، وقال في سُورةِ (هودٍ): ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ [هود: ٩٤]، أي: صَيحةُ جِبريلَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّها المُوجِبةُ للرَّجفةِ[٣]. وقيل: سُمِّيَت بالصَّيحةِ في سورةِ (هود)؛ لأنَّ لتلك الرَّجفةِ صوتًا شديدًا كالصَّيحةِ[٤]. وقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]، والتَّحقيقُ أنَّ قومَ شُعَيبٍ -أهلَ مَدْيَنَ- اجتَمَعت لهم الصَّيحةُ والرَّجفةُ والظُّلَّةُ؛ لأنَّه صاح بهم المَلَكُ مِن فوق، فرجَفَت بهم الأرضُ مِنْ تحتِهم، ثمَّ إنَّ الله أرسَل عليهم ظُلَّةً فأحرَقَتْهم، وذلك على القَولِ بأنَّ أصحابَ الظُّلَّةِ هم أصحابُ الصَّيحةِ والرَّجفةِ[٥].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه حيثُ قال: (أَخَذَتهم... الصَّيْحَةُ) قال: ﴿فِي دَارِهِمۡ﴾ [هود: ٦٧، ٩٤]، وحيث قال: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ قال: ﴿فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٣٩، ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ١٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٩).

دَارِهِمْ﴾؛ وذلك لأنَّ الرَّجفةَ هائلةٌ في نفْسِها؛ فلم يَحتَجْ إلى مُهوِّلٍ، وأمَّا الصَّيحةُ فغيرُ هائلةٍ في نفْسِها، لكنَّ تلك الصَّيحةَ لَمَّا كانت عظيمةً عندَ كلِّ أحدٍ، فلم يَحتَجْ إلى مُعظِّمٍ لأمْرِها[1]. وقيل: قولُه: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ﴾، أي: في بَلَدِهم أو دُورِهم، ولم يُجمَعْ؛ لأمْنِ اللَّبْسِ[2].

وقيل: الدَّارُ هنا معناه: الدِّيارُ؛ لأنَّ الدارَ اسمُ جنسٍ، وهو إذا أُضيفَ إلى معرفةٍ فهو عَامٌّ. فمعنَى ﴿فِي دَارِهِمْ﴾ و﴿دِيَـٰرِهِمْ﴾ واحدٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٥، ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٣، ٤٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٣٢).

## الآيات (٢٨-٤٠)

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبًا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾: أي: ذَوي بصائِرَ تُمكِّنُهم مِن تمييزِ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على عِلمٍ بالشَّيءِ[1].

﴿حَاصِبًا﴾: أي: ريحًا شَديدةً تَرميهم بالحَصى، والحَصباءُ: جِنسٌ مِن الحَصى، والحَصْبُ: الرَّميُ[2].

﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: أي: الصَّوتُ الشَّديدُ، وأصلُ (صيح): يدُلُّ على الصَّوتِ العالي[3].

﴿خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي: غَيَّبناه فيها، يُقالُ: خسَفَ اللهُ به الأرضَ، أي: غابَ به فيها، وأصلُ (خسف): يدُلُّ على ذَهابٍ وغُؤورٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٠)، ((البسيط)) =

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وأهلَكْنا عادًا وثَمودَ، وقد ظهَرَ لكم هَلاكُهم مِن آثارِ مَساكِنِهم الخاليةِ مِنهم، وحسَّنَ الشَّيطانُ لهم سُوءَ أعمالِهم، فصَرَفَهم عن طريقِ الحَقِّ، وكانوا قَومًا عُقَلاءَ بُصَراءَ يَتمكَّنونَ مِنَ النَّظَرِ والفِكرِ!

وأهلَكْنا قارونَ وفِرعَونَ وهامانَ، ولقد جاءَهم موسى بالدَّلالاتِ الواضِحةِ، فاستكبَروا عن قَبولِها، وما كانوا فائِتينَ اللهَ ولا مُفلِتينَ مِن عذابِه، فكُلًّا منهم أهلَكْنا بسبَبِ ذَنْبِه؛ فمِنهم مَن أرسَلْنا عليهم ريحًا شَديدةً ترميهم بالحَصى حتَّى هلَكوا، وهم عادٌ، ومنهم مَن أرسَلَ اللهُ عليه الصَّيحةَ الشَّديدةَ، وهم ثَمودُ، ومِنهم مَن خَسَفَ اللهُ به الأرضَ، وهو قارونُ، ومِنهم مَن أغرَقَه اللهُ، وهما فِرعَونُ وهامانُ، وما كان اللهُ تعالى ظالِمًا لهم بعُقوبتِهم، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بشِركِهم باللهِ، وتَكذيبِهم رُسُلَه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا جرَى ذِكرُ أهلِ مَدْيَنَ وقَومِ لُوطٍ؛ أُكمِلَت القِصصُ بالإشارةِ إلى عادٍ وثمودَ؛ إذ قد عُرِف في القُرآنِ اقتِرانُ هذه الأُمَمِ في نَسَقِ القَصَصِ[1].

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ ﴾.

---

= للواحدي (١٣/ ٣٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٨).

أي: وأهلَكْنا[١] عادًا قَومَ هُودٍ، وثمودَ قَومَ صالحٍ، وقد ظَهَرَ لكم هلاكُهم مِن آثارِ مَساكِنِهم الخاويةِ منهم[٢]!

ثُمَّ بَيَّن سببَ ما جرَى عليهم، فقالَ[٣]:

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وحسَّن الشَّيطانُ لعادٍ وثمودَ أعمالَهم الشَّنيعةَ مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ والمعاصي، فردَّهم وصرَفَهم عن طَريقِ الحَقِّ[٤].

﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾.

أي: صدَّهم الشَّيطانُ عن الحَقِّ، والحالُ أنَّهم كانوا عُقَلاءَ بُصَراءَ، مُتمَكِّنينَ مِنَ النَّظَرِ والفِكرِ، وقد عَرَفوا الحَقَّ مِنَ الباطِلِ بواسطةِ الرُّسُلِ والأدِلَّةِ؛ فلا عُذرَ لهم في مخالفةِ طَريقِ الحَقِّ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٨).

قال الرازي: (قال تعالَى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ﴾ أي: وأهلَكْنا عادًا وثمودَ؛ لأنَّ قولَه تعالَى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ دلَّ على الإهلاكِ). يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٦).

وقيل: الفعلُ المحذوفُ تقديرُه: واذكروا. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٠، ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ ٣٩﴾.

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ﴾.

أي: وأهلَكْنا[1] قارونَ صاحِبَ الكُنوزِ الكثيرةِ، وأهلَكْنا فِرعَونَ مَلِكَ مِصرَ، وأهلَكْنا هامانَ[2].

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: ولقد جاء موسى كلًّا مِن قارونَ وفِرعَونَ وهامانَ بالمُعجِزاتِ والدَّلالاتِ الواضِحاتِ[3].

---

= (١٣/ ٣٤٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦، ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٢-١٩٤).

قال ابن جُزَي: (﴿وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ قيل: معناه: لهم بصيرةٌ في كفرِهم، وإعجابٌ به. وقيل: لهم بصيرةٌ في الإيمانِ، ولكنَّهم كفَروا عنادًا. وقيل: معنى ﴿مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾: عقلاءَ متمكِّنينَ مِن النَّظرِ والاستدلالِ، ولكنَّهم لم يفعلوا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٦).

وقال ابنُ جرير: (وكانوا مُستبصرينَ في ضلالتِهم، مُعجَبينَ بها، يَحسَبون أنَّهم على هُدًى وصوابٍ، وهم على الضَّلالِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٩).

وقال الزجاج: (أتَوْا ما أتَوْه وقدْ بَيَّن لهم أنَّ عاقبتَه عذابُهم). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٣٨).

وقيل: التَّقديرُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- قارونَ وفِرعونَ وهامانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨).

قال ابنُ عطيةَ: (وهامانُ هو وزيرُ فرعونَ، وأكبرُ رجالِه...). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٠).

﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: فاستَكبَروا عن الحَقِّ الَّذي جاءَهم به موسى[١].

﴿وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ﴾.

أي: وما كان قارونُ وفِرعَونُ وهامانُ فائِتينَ اللهَ، ولا مُفلِتينَ مِن عَذابِه وحُكمِه فيهم[٢].

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٠﴾.

﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾.

أي: فأهلَكْنا عادًا وثمودَ وقارونَ وفِرعَونَ وهامانَ؛ كُلًّا بسَبَبِ ذَنْبِه، وعلى قَدْرِه، وبِعُقوبةٍ تُناسِبُه[٣].

﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا﴾.

أي: فمِنهم مَن أرسَلْنا عليه ريحًا شَديدةً تَرميهم بالحَصى حتَّى هَلَكوا، وهم عادٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٠٠، ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠). =

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٨ - ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾.

أي: ومِنهم مَن أهلَكَهم اللهُ بالصَّيحةِ الشَّديدةِ، وهم ثمودُ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ *

---

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم قومُ عادٍ: ابنُ كثير، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠).

وقيل: المرادُ بهم: قومُ لوطٍ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٤).

قال ابن عثيمين: (هذا فيه نظرٌ؛ لأنَّ قَومَ لوطٍ أرسَلَ الله عليهم حاصبًا مِن السَّماءِ، وهي حجارةٌ مِن سِجِّيلٍ تحصِبُهم، كالَّتي أُرسِلَت على أصحابِ الفيلِ، وليست هي الحَصباءَ الَّتي تَذريها الرِّياحُ، وليس في عِلْمِنا أنَّ الله تعالى أرسل الرياحَ على قَومِ لوطٍ، ولو كانت رياحًا تحمِلُ الحَصباءَ لَبيَّنَها الله عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٠١).

وقال ابن جُزَي: (الحاصِبُ: الحِجارةُ، والحاصِبُ أيضًا: الرِّيحُ الشَّديدةُ، ويحتَمِلُ عندي أنَّه أراد به المعنيَينِ؛ لأنَّ قَومَ سيِّدِنا لوطٍ أُهلِكوا بالحِجارةِ، وعادٌ أُهلِكوا بالرِّيحِ... لأنَّ المقصودَ هنا ذِكرُ عمومِ أخْذِ أصنافِ الكُفَّارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم: ثمودُ: ابنُ كثير، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ بهم: ثمودُ ومَدْيَنُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥).

كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴾ [القمر: ٣١].

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ ﴾.

أي: ومِنهم مَن أهلَكَه اللهُ بأنْ غيَّبَه في الأرضِ، وهو قارونُ(١).

كما قال تعالى: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١].

﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾.

أي: ومِنهم مَن أهلَكَه اللهُ بالغَرَقِ، وهما فِرعَونُ وهامانُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

أي: وما يَنبغي لله سُبحانَه أن يُهلِكَهم ظُلمًا مِن غيرِ ذَنبٍ منهم، أو يُهلِكَهم بذُنوبِ غيرِهم، أو يُهلِكَهم مِن غيرِ إنذارِهم وإمهالِهم، وبعْثِ الرُّسلِ إليهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٠).

وممَّن قال بأنَّهم فِرعونُ ومَن معه: السمرقنديُّ، وابن كثير، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ بهم: قومُ نوحٍ، وفِرعونُ وقَومُه. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥).

وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم؛ إذ تَسَبَّبوا في عذابِها بوُقوعِهم في الشِّركِ باللهِ، ومَعصيتِه، وتكذيبِ رُسُلِه؛ فاستَحَقُّوا عِقابَه[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾ فيه أنَّه ينبغي الاعتِبارُ بأحوالِ مَن مضَى؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡ﴾ يعني: فاعتَبِروا واتَّعِظوا[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ التَّحذيرُ مِن تَزيينِ الأعمالِ، ويُفهَمُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّ هذه الأعمالَ أصلُها قَبيحٌ لكِنَّها زُيِّنَتْ؛ فيَجِبُ الحَذَرُ مِن تَزيينِ الشَّيطانِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مَن عَرَفَ اللهَ بقَلْبِه ولم يُقِرَّ بلِسانِه لم يَكُنْ مُؤمِنًا، كما قال تعالى عن قَومِ عادٍ وقَومِ صالحٍ: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسۡتَبۡصِرِينَ﴾، وكما قال تعالى عن قَومِ فِرعَونَ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ﴾[٤] [النمل: ١٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّه أضاف التَّزيينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٠٩).

إلى الشَّيطانِ؛ وفي آيةٍ أُخرى أضاف التَّزيينَ إلى نفْسِه عزَّ وجلَّ، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، والجَمعُ بيْنَ الآيتَينِ: أنَّ الإضافةَ باعتِبارِ السَّبَبِ وباعتِبارِ الفاعلِ الحَقيقيِّ؛ فالفاعِلُ الحقيقيُّ هو اللهُ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ كلَّ شَيءٍ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، والسَّببُ هو الشَّيطانُ، وأُضيفَ التَّزيينُ إليه لأنَّه مُباشِرٌ له؛ فيُضافُ إلى اللهِ تعالى خَلْقًا وتَقديرًا، ويُضافُ إلى الشَّيطانِ على سَبيلِ المباشَرةِ(١).

وهذا التَّزيينُ منه سُبحانَه خَلقًا ومشيئةً، وهو منه حَسَنٌ؛ إذ هو ابتلاءٌ واختبارٌ؛ ليتميَّزَ المطيعُ منهم من العاصي، والمؤمِنُ مِن الكافِرِ، وهو من الشَّيطانِ قَبيحٌ، وأيضًا فتزيينُه سُبحانَه للعَبدِ عَمَلَه السَّيِّئَ: عُقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيدِه وعبوديَّتِه، وإيثارِ سَيِّئِ العمَلِ على حَسَنِه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُعَرِّفَه سُبحانَه السَّيِّئَ مِن الحَسَنِ، فإذا آثرَ القبيحَ واختاره وأحبَّه ورَضِيَه لنَفسِه، زيَّنه سُبحانَه له وأعماه عن رؤيةِ قُبحِه بعد أن رآه قبيحًا، وكُلُّ ظالمٍ وفاجرٍ وفاسِقٍ لا بدَّ أن يرُيهَ اللهُ تعالى ظُلمَه وفُجورَه وفِسقَه قَبيحًا، فإذا تمادى عليه ارتفَعَت رؤيةُ قُبحِه مِن قَلبِه، فربَّما رآه حسَنًا عُقوبةً له؛ فتزيينُ الرَّبِّ تعالى عَدلٌ، وعُقوبتُه حِكمةٌ، وتزيينُ الشَّيطانِ إغواءٌ وظُلمٌ، وهو السَّبَبُ الخارجُ عن العبدِ، والسَّبَبُ الداخِلُ فيه حُبُّه وبُغضُه وإعراضُه، والرَّبُّ سُبحانَه خالِقُ الجميعِ، والجميعُ واقِعٌ بمشيئتِه وقُدرتِه، ولو شاء لهدَى خَلْقَه أجمعينَ، والمعصومُ مَن عَصمَه اللهُ، والمخذولُ من خذَلَه اللهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾(٢) [الأعراف: ٥٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٣، ١٠٤).

فقد نسَب الله تعالى الأعمالَ إلى الخَلْقِ؛ فإذا نُسِبَ العملُ إليهم فمعنى ذلك أنَّهم فاعِلونَ حَقيقةً[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ بَشاعةُ الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ مع البَصيرةِ؛ فإنَّ الجُملةَ هنا حاليَّةٌ على تقديرِ «قد»، يعني: فصَدَّهم وقد كانوا مُستبصِرينَ! والمُستبصِرُ كان بصَدَدِ ألَّا يُصَدَّ، لكنَّ قوَّةَ السَّببِ وضَعْفَ المانعِ هو الَّذي أوجَبَ لهم ذلك، والعياذُ باللهِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قَولُه: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى ما يُوضِّحُ قِلَّةَ عَقلِهم في استكبارِهم؛ وذلك لأنَّ مَن في الأرضِ أضعَفُ أقسامِ المكَلَّفينَ، ومَن في السَّماءِ أقواهم، ثم إنَّ مَن في السَّماءِ لا يَستكبِرُ على اللهِ وعن عبادتِه، فكيف يَستكبِرُ مَن في الأرضِ[٣]؟!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وكلُّ ما جاء في القرآنِ مِن «لام» للتَّعليلِ أو «باءٍ» للسَّبَبيَّةِ فإنَّها تدُلُّ على إثباتِ الأسبابِ والحِكَمِ، وفي هذا ردٌّ على الجبريَّةِ ومَن وافَقَهم مِن الأشعريَّةِ الَّذين يُنْكِرون الأسبابَ، وأمَّا نحنُ -أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ- فنؤمنُ بالأسبابِ؛ لكنَّنا لا نقولُ: إنَّ هذه أسبابٌ مؤثِّرةٌ بنَفْسِها، لكنْ بخَلْقِ اللهِ سبحانه وتعالى فيها التَّأثيرَ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ أنَّ العقوباتِ لا تأتي مِن نوعٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٠٤، ٢٠٥)، ويُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

واحدٍ، بل تأتي مِن أنواعٍ متعددةٍ بحسَبِ حالِ المعاقَبِ، فهذه الأنواعُ الأربعةُ ذِكْرُها له حكمةٌ؛ لأنَّ قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ هذا إهلاكٌ مِن فوقٍ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ هذا إهلاكٌ مِن تحتٍ، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ هذا إهلاكٌ بالقولِ والصَّوتِ، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ هذا إهلاكٌ بالماءِ[1].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ فيه كَمالُ عَدلِه سُبحانه وتعالى، وهذه الصِّفةُ مِن الصِّفاتِ السَّلبيةِ، والصِّفاتُ السَّلبيةُ لا تكونُ مَدحًا إلَّا إذا تضَمَّنتْ ثُبوتًا؛ فمُجَرَّدُ النَّفيِ ليس بمَدحٍ إلَّا إذا تَضَمَّنَ ثُبوتًا؛ إذا نفى اللهُ الظُّلمَ عن نفْسِه فليس معناه أنَّه لا يَظْلِمُ فقط، بل لِكَمالِ عَدْلِه لا يَظلِمُ، وليس المعنى أنَّه غيرُ قادرٍ على الظُّلم، بل هو قادِرٌ سُبحانه وتعالى على أنْ يَظلِمَ، لكِنَّه لِكَمالِ عَدْلِه لا يَظلِمُ، بل لا يُريدُ الظُّلمَ، ولو كان غيرَ قادرٍ على الظُّلمِ لم يكُنْ نَفْيُ الظُّلمِ عن نفْسِه مَدْحًا[2]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ الاستِبصارُ: البَصارةُ بالأُمورِ، والسِّينُ والتَّاءُ للتَّأكيدِ[3].

٢- قولُه: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٤٩).

فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾

- قولُه: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ﴾ معطوفٌ على ﴿ وَعَادًا ﴾ [العنكبوت: ٣٨]، وتَقديمُ قارُونَ؛ لشَرفِ نَسَبِه[١]، وقُدِّمَ فرعونُ على هامانَ؛ لعُلُوِّ مرتبتِه، وليس هذا التَّرتيبُ مِن بابِ البُداءةِ بالأدنى؛ لأنَّه لو كان كذلك لقال: «قارونُ وهامانُ وفرعونُ»[٢].

- وتَعليقُ قولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ بـ ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ استِكبارَ كلٍّ منهم كان في جَميعِ البِلادِ الَّتي هو منها، فيُومِئُ ذلك أنَّ كلَّ واحدٍ مِن هؤلاء كان سيِّدًا مُطاعًا في الأرضِ؛ فالتَّعريفُ في (الأرض) للعهْدِ، فيَصِحُّ أنْ يكونَ المعهودُ هو أرضَ كلٍّ منهم، أو أنْ يكونَ المعهودُ الكُرَةَ الأرضيَّةَ؛ مُبالَغةً في انتشارِ استكبارِ كلٍّ منهم في البلادِ، حتَّى كأنَّه يعُمُّ الدُّنيا كلَّها[٣].

- وذِكرُ فِعلِ الكَونِ بعدَ النَّفيِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴾؛ لأنَّ المَنْفيَّ هو ما حَسِبوه نَتيجةَ استِكبارِهم، أي: أنَّهم لا يَنالُهم أحدٌ لِعَظَمَتِهم[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ تَفسيرٌ لِمَا يُنبِئُ عنه عدَمُ سبْقِهم بطريقِ الإبهامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: فكلَّ واحدٍ مِنَ المذكورينَ[١]، وأفادتِ الفاءُ التَّفريعَ على الكلامِ السَّابقِ؛ لِمَا اشتمَلَ عليه مِن أنَّ الشَّيطانَ زيَّنَ لهم أعمالَهم، ومِن استِكبارِ الآخَرينَ، أي: فكان مِن عاقبةِ ذلك أنْ أخَذَهم اللهُ بذُنوبِهم العظيمةِ النَّاشئةِ عن تَزيينِ الشَّيطانِ لهم أعمالَهم، وعن استِكبارِهم في الأرضِ، وليس المُفرَّعُ هو أخْذَ اللهِ إيَّاهم بذُنوبِهم؛ لأنَّ ذلك قد أشعَرَ به ما قبْلَ التَّفريعِ، ولكنَّه ذُكِرَ لِيُفْضَى بذِكْرِه إلى تفصيلِ أنواعِ أخْذِهم، وهو قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ إلى آخِرِه؛ فالفاءُ في قولِه: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ ...﴾ لِتَفريعِ ذلك التَّفصيلِ على الإجمالِ الَّذي تَقدَّمَه، فتَحصُلُ خُصوصيَّةُ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ، وللدَّلالةِ على عَظيمِ تصرُّفِ اللهِ[٢].

- قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ فأمَّا الَّذينَ أُرسِل عليهم حاصِبٌ فهم عادٌ، والَّذينَ أخذَتْهم الصَّيحةُ هم ثمودُ، والَّذينَ خَسَفَتْ بهم الأرضُ هو قارونُ وأهلُه، والَّذين أغرَقَهم: فرعونُ وهامانُ ومَن معَهما مِن قَومِهما؛ جاء هذا على طَريقةِ النَّشرِ على تَرتيبِ اللَّفِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ؛ إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلَفظٍ يَشتمِلُ على متعدِّدٍ- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: =

- والاستِدراكُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ ناشئٌ عن نفْيِ الظُّلمِ عن اللهِ في عِقابِهم؛ لأنَّه يُتوهَّمُ منه انتِفاءُ مُوجِبِ العِقابِ؛ فالاستِدراكُ لرفْعِ هذا التَّوهُّمِ[1].

= ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَين؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوسِ». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ٢٣١، ٢٣٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

## الآيات (٤١-٤٤)

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوۡهَنَ﴾: أي: أَوْهَى وأضْعَفَ، وأصلُ (وهن): ضَعْفٌ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يَضرِبُ الله تعالَى مثَلًا لِمَن يتَّخِذُ مِن دونِه آلهةً، ويَتوعَّدُ مَن يفعلُ ذلك بأشدِّ أنواعِ العذابِ، فيقولُ تعالى: مَثَلُ الَّذين اتَّخذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ مِن مَعبوداتٍ وغَيرِها؛ طَلبًا لِنَفعِها ونَصرِها، كمَثَلِ العَنكبوتِ اتَّخذَتْ لِنَفسِها بيتًا هو أوهَنُ البُيوتِ؛ فكذلك هؤلاءِ الأولياءُ الَّذين اتَّخَذوهم مِن دونِ اللهِ لن يَنفَعوهم بشَيءٍ، لو كانوا يَعلمونَ أنَّ ذلك مَثَلُهم!

إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما يَدْعُونَ مِن دُونِه مِن معبوداتٍ، ويَعلَمُ حالَها وضَعْفَها، وهو مُجازيهم على كُفرِهم، وهو القَويُّ القاهِرُ الحَكيمُ في شَرعِه.

وتلك الأمثالُ المذكورةُ في القُرآنِ نَضرِبُها للنَّاسِ، وما يَفهَمُها إلَّا العالِمونَ باللهِ وآياتِه.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه ما يدُلُّ على عظيمِ قُدرتِه، فيقولُ: خلَقَ اللهُ السَّمواتِ والأرضَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢).

بالحَقِّ، ولم يَخلُقْهما لَعِبًا ولا عَبثًا، إنَّ في ذلك لَعلامةً للمُؤمِنينَ على وحدانيَّةِ اللهِ، وتفرُّدِه بالخَلقِ والتَّدبيرِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتًاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّه أهلَكَ مَن أشرَكَ عاجِلًا، وعذَّبَ مَن كذَّبَ آجِلًا، ولم يَنفَعْه في الدَّارَينِ مَعبودُه، ولم يَدفَعْ ذلك عنه رُكوعُه وسُجودُه- مثَّلَ اتِّخاذَه ذلك مَعبودًا باتِّخاذِ العَنكَبوتِ بَيتًا لا يُجيرُ آويًا، ولا يُريحُ ثاويًا[1]!

وأيضًا لما بُيِّنتْ لهم الأشباهُ والأمثالُ مِن الأمم التي اتَّخذَتِ الأصنامَ مِن دونِ الله فما أغنَتْ عنهم أصنامُهم لما جاءهم عذابُ الله؛ أعْقَب ذلك بضربِ المثلِ لحالِ جميعِ أولئكَ، وحالِ مَن ماثَلهم مِن مشركي قريشٍ في اتخاذِهم ما يحسبونَه دافعًا عنهم، وهو أضعفُ مِن أنْ يدفعَ عن نفسِه، بحالِ العنكبوتِ تتَّخِذُ لنفسِها بيتًا تحسَبُ أنَّها تعتصِمُ به مِن المعتدي عليها، فإذا هو لا يصمدُ ولا يثبتُ لأضعفِ تحريكٍ، فيسقطُ ويتمزَّقُ[2].

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتًاۖ ﴾.

أي: مَثَلُ الَّذين اتَّخَذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ مِن مَعبوداتٍ وغَيرِها، فيَطلُبونَ نَفعَها، ويَرجُونَ نَصْرَها؛ كمَثَلِ العَنكَبوتِ اتَّخَذَت لنفْسِها بَيتًا تَأْوي إليه، لا يَدفَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

عنها حَرًّا ولا بردًا، ولا مطرًا ولا ضَرًّا، وكذلك ما اتَّخَذُوهُ وَلِيًّا مِن دُونِ اللهِ لا يَملِكُ لهم نفعًا ولا ضرًّا بوجْهٍ مِن الوُجوهِ[١].

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾.

أي: وإنَّ أضْعَفَ البُيوتِ هو بَيتُ العَنكَبوتِ[٢]

﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: لو كانوا يَعلَمونَ أنَّ ذلك مَثَلُهم، وأنَّ اتِّخاذَهم الأولياءَ مِن دونِ اللهِ كاتِّخاذِ العَنكَبوتِ بيتًا؛ لَمَا اتَّخَذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ، لكنَّهم يجهَلون ذلك، فيَحسَبونَ أنَّهم يَنفعونَهم ويُقَرِّبونَهم إلى اللهِ زُلْفَى[٣]!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نفى عنهم العِلمَ بما تضَمَّنَه التَّمثيلُ مِن حَقارةِ أصنامِهم الَّتي يَعبُدونَها وقِلَّةِ جَدواها بقَولِه: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ المُفيدِ أنَّهم لا يَعلَمونَ؛ أعقَبَه بإعلامِهم بعِلمِه بدقائِقِ أحوالِ تلك الأصنامِ على اختِلافِها واختِلافِ مُعتَقَداتِ القبائِلِ الَّتي عَبَدَتْها، وأنَّ مِن آثارِ عِلمِه بها ضَرْبَ ذلك المَثَلِ لحالِ مَن عَبَدوها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣).

وحالِها أيضًا[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى نهايةَ ضَعفِ آلهةِ المُشرِكينَ؛ ارتقَى مِن هذا إلى ما هو أبلَغُ منه، وأنَّها ليست بشَيءٍ، بل هي مجَرَّدُ أسماءٍ سَمَّوها، وظُنونٍ اعتَقَدوها، وعندَ التَّحقيقِ يتبيَّنُ للعاقِلِ بُطلانُها وعَدَمُها[٢].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ ما[٣] يَدْعُونَ مِن دُونِه -دُعاءَ مَسألةٍ أو عِبادةٍ- مِن أيِّ مَعبودٍ كان، ويَعلَمُ حالَها ووَهْنَها، وأنَّها مَعبوداتٌ باطِلةٌ كالعَدَمِ لا تَنفَعُ صاحِبَها بشَيءٍ، وهو مُجازيهم على كُفرِهم وشِرْكِهم[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣١).

(٣) قيل: «ما» هنا موصولةٌ بمعنى الَّذي. وممَّن قال بذلك: القرطبي، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٦).

وقيل: «ما» نافيةٌ، بمعنى: أنَّ الله يَعلَمُ أنَّهم لا يَدْعُونَ في الحقيقةِ شيئًا موجودًا ولا إلهًا له حقيقةٌ، ولكِنَّهم يَدْعونَ أمورًا عَدَمِيَّةً. وممَّن ذهب إلى ذلك: السعدي، وجوَّزه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣، ٢٥٤).

وقيل: هي للاستِفهامِ. وممَّن ذهب إليه أبو عليٍّ الفارسيُّ. يُنظر: ((المسائل البصريات)) لأبي علي الفارسي (١/ ٥٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٥، ٤٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٦، ٢١٧).

يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس: ٦٦].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي: واللهُ هو القَويُّ القاهِرُ الَّذي لا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ أرادَه، الغالبُ، المنتقِمُ ممَّن أشرَكَ معه في عبادتِه غيرَه، الحَكيمُ في شَرعِه وقَدَرِه، وفي تدبيرِ خَلْقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، ومِن ذلك إهلاكُه مَن أراد إهلاكَه في الحالِ، وتأخيرُ مَن أراد تأخيرَ هَلاكِه[1].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه بعدَ أن بَيَّنَ اللهُ لهم فَسادَ مُعتَقَدِهم في الأصنامِ، وأعقَبَه بتوقيفِهم على جَهلِهم بذلك؛ نعَى عليهم هنا أنَّهم ليسوا بأهلٍ لتَفَهُّمِ تلك الدَّلائِلِ الَّتي قُرِّبَت إليهم بطَريقةِ التَّمثيلِ[2].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾.

أي: وتلك الأمثالُ المذكورةُ في القُرآنِ نَجعَلُها للنَّاسِ؛ لنُبيِّنَ لهم المعانيَ والحُجَجَ، ونُقَرِّبَها إلى أفهامِهم؛ لِيَنتَفِعوا بها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٧-٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٢٢، ٢٢٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧].

﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾.

أي: وما يَفهَمُ أمثالَ القُرآنِ ويَتبيَّنُ له مَغْزاها إلَّا ذَوو العِلمِ باللهِ وآياتِه[1].

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قَدَّم أنَّه لا مُعجِزَ له سُبحانَه، ولا ناصِرَ لِمَن أخَذَ، وصَحَّح ذلك بالمُشاهَدةِ في القُرونِ البائِدةِ، وقَرَّبَه إلى الأذهانِ بالمَثَلِ المُستولي على غايةِ البيانِ، وختَم ذلك أنَّه حَجَب فَهْمَه عن أكثَرِ خَلْقِه- دَلَّ على ذلك كُلِّه بقَولِه مُظهِرًا لِقُوَّتِه وسائِرِ صِفاتِ كَمالِه، بعدَما حَقَّق أنَّ أولياءَهم في أنزَلِ مراتِبِ الضَّعفِ[2]:

﴿ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: خلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالحَقِّ[3]، ولم يَخلُقْهما باطلًا لغيرِ شَيءٍ على وَجْهِ العبثِ واللَّعبِ، إنَّما خلَقهما لأمرٍ هو كائنٌ، ولِيَكونا دلائلَ على قدرتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٥).

(٣) قال أبو السعود: (﴿... بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: مُحقًّا مُراعيًا للحِكَمِ والمَصَالحِ على أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿ خَلَقَ ﴾، أو ملتبسةً بالحقِّ الَّذي لا مَحيدَ عنه، مُستتبعةً للمَنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ على أنَّه حالٌ مِن مفعولِه؛ فإنَّها مع اشتمالِها على جميعِ ما يتعلَّقُ به معايشُهم شواهدُ دالَّةٌ على شؤونِه تعالى المتعلِّقةِ بذاتِه وصِفاتِه). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١).

وعَظَمتِه وحِكمتِه، ولِيَقومَ أمرُه وشرعُه، ولِتَتِمَّ نعمتُه على عبادِه، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يُحصَى[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إنَّ في خَلقِ اللهِ السَّمواتِ والأرضَ لَعَلامةً للمُؤمِنينَ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وتفرُّدِه بالخَلقِ والتَّدبيرِ، وكَمالِ قُدرتِه، وعلى غيرِ ذلك مِنَ المطالِبِ الإيمانيَّةِ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ مَن اتَّخذَ مِن دونِ اللهِ وليًّا يَتعزَّزُ به، ويَتكبَّرُ به، ويَستنصِرُ به؛ لم يَحصُلْ له به إلَّا ضِدُّ مَقصودِه[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ هذا مَدحٌ للأمثالِ الَّتي يَضرِبُها اللهُ تعالى، وحَثٌّ على تدَبُّرِها وتَعقُّلِها، ومَدحٌ لِمَن يَعقِلُها، وأنَّه عُنوانٌ على أنَّه مِن أهلِ العِلمِ؛ فعُلِمَ أنَّ مَن لم يَعقِلْها ليس مِنَ العالِمينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣١).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ فائدةُ ضَربِ الأمثالِ، وأنَّه نوعٌ مِن التَّعليمِ والتَّوجيهِ[١]؛ فينبغي لمُعَلِّمِ النَّاسِ أن يَضربَ لهم الأمثالَ؛ لِيُقَرِّبَ لهم المعقولَ بصورةِ المحسوسِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ فضيلةُ العلمِ[٣]، وأنَّه يَنبغي التَّأمُّلُ في الأمثالِ؛ فالعالِمُ هو الَّذي يَتأمَّلُ ويَنظُرُ حتَّى يَعقِلَ[٤].

٥- اطمِئنانُ المؤمنِ بما يُحدِثُه اللهُ في السَّمواتِ والأرضِ؛ وجْهُ ذلك قولُه سُبحانَه وتعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ ﴾، فإذا عَرَفَ المؤمنُ أنَّ ما حَدَثَ مِن جوعٍ ومَرَضٍ وزلازلَ وفَيضاناتٍ أنَّه بالحقِّ، اطمأنَّ ورَضِيَ وسَلَّمَ، ولا راحةَ في الحقيقةِ للإنسانِ إلَّا بهذا، أي: بالإيمانِ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وأنَّه حَقٌّ، وإلَّا فإنَّه سيَتكَدَّرُ؛ لأنَّه ما مِن ساعةٍ تَمُرُّ إلَّا يَجِدُ الإنسانُ فيها ما يَسوؤُه؛ إمَّا في نفْسِه، أو أهلِه، أو صَحْبِه، أو بلدِه، أو البلادِ الإسلاميَّةِ عامَّةً[٥].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ﴾ قال: ﴿أَوْلِيَآءَ ﴾ ولم يَقُلْ: (آلهةً)؛ إشارةً إلى إبطالِ الشِّركِ الخَفيِّ أيضًا؛ فإنَّ مَن عبَدَ اللهَ رِياءً لِغَيرِه، فقد اتَّخَذ وليًّا غَيرَه[٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٥٨).

ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتًا ﴾ تقبيحُ هؤلاء المُشركينَ، وتَنزيلُ مَرتبتِهم؛ حيثُ شُبِّهوا بالعناكِبِ، لأنَّ تَشبيهَ الإنسانِ بالحيوانِ إذلالٌ له، وتَنزيلٌ لِمَرتبتِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾[1] [الإسراء: ٧٠].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ﴾ جوازُ ضَرْبِ الأمثالِ بالدُّونِ حسَبَ ما تقتضيه الحالُ؛ فإنَّ العنكبوتَ مِن أدنى ما يكونُ مِن المخلوقاتِ، وقد قال تعالى في سورةِ البقرةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا ﴾ [البقرة: ٢٦]، وقد ضَرَبَ اللهُ مثلًا بالذُّبابِ، وبالحِمارِ، وبالكلبِ، وبالبَعوضةِ، وبالعَنكبوتِ؛ كلُّ هذا حسَبَ ما يقتضيه المقامُ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ﴾ سؤالٌ؛ أنَّ العَنكبوتَ قد تَنتفِعُ مِن بيتِها، أمَّا عُبَّادُ الأصنامِ فلا يَنتفعون قطعًا؛ فلا مُشابَهةَ بيْنَهما! فما وجْهُ الشَّبَهِ بيْنَهما؟

**الجوابُ**: عُبَّادُ الأصنامِ أيضًا قد يَنتفِعون بما يَحصُلُ لهم مِن منفعةٍ مادِّيَّةٍ مِن الوافدينَ لعبادتِها والتَّبرُّكِ بها، لكنَّ هذه المنافعَ مادِّيَّةٌ، أمَّا النَّفعُ الحقيقيُّ الَّذي هم يَرجون -وهو دَفْعُ الضُّرِّ عنهم، وجَلْبُ النفعِ لهم- فليس بحاصلٍ، فلا تَنفَعُهم آلهتُهم ولا تَمنَعُهم، كما أنَّ بيتَ العَنكبوتِ لا يَنْفَعُها ولا يَمْنَعُها؛ فيأتيها الهواءُ والبَردُ والمطرُ، ويَعْلَقُ بها التُّرابُ؛ فلا تَنتفِعُ به الانتفاعَ الكاملَ[3].

٥- قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فذَكَر سُبحانَه أنَّهم ضُعَفاءُ، وأنَّ الَّذين اتَّخَذوهم أولياءَ أضعَفُ منهم؛ فهم في ضَعفِهم وما قَصَدوه مِن اتِّخاذِ الأولياءِ كالعَنكبوتِ اتَّخَذت بيتًا، وهو أوهَنُ البُيوتِ وأضعَفُها! وتحتَ هذا المَثَلِ أنَّ هؤلاء المُشرِكينَ أضعَفُ ما كانوا؛ حيثُ اتَّخَذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ، فلمْ يَستَفيدوا بمَنِ اتَّخَذوهم أولياءَ إلَّا ضَعفًا[1]!

٦- لا يجوزُ تَعدِّي أمثلةِ القُرآنِ؛ لهذا لا يُقالُ عن بيتٍ: إنَّه أوهَى مِن بيتِ العنكبوتِ، فأيُّ معنًى أبلَغُ مِن معنًى أكَّدَه اللهُ مِن سِتَّةِ أوجُهٍ؛ حيث قال: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، فأدخَلَ (إنَّ)، وبنى أفعَلَ التَّفضيلِ، وبناه مِن الوَهْنِ، وأضافه إلى الجَمعِ، وعَرَّفَ الجمعَ باللامِ، وأتى في خبرِ إنَّ باللَّامِ[2]. لكن يجوزُ أن نقولَ: «حُجَّةُ هذا الرَّجُلِ أوهَى مِن بيتِ العنكبوتِ»؛ لأنَّ الحُجَّةَ ليست بيتًا، فهذا لا بأسَ به؛ لأنَّه ليس فيه مُعارَضةٌ للقرآنِ[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ إثباتُ العلمِ للهِ سُبحانَه وتعالى فيما يَتعلَّقُ بالخَلْقِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وعلا ما حَكَمَ على هؤلاء المشركين بمشابهتِهم للعَنكبوتِ إلَّا عن عِلْمٍ بأنَّ هذه الأصنامَ لا تَنفَعُ ولا فائدةَ منها، فالآيةُ كالتَّعليلِ لِمَا قَبْلَها. وفيه أيضًا الرَّدُّ على غُلاةِ القَدَريَّةِ الَّذين قالوا: إنَّ اللهَ لا يَعلَمُ الأشياءَ المتعلِّقةَ بالخَلْقِ إلَّا بعدَ وُقوعِها[4]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ سؤالٌ: أنَّه لو قال قائلٌ: إنَّ المناسِبَ أن يُقالَ: «وهو السَّميعُ العليمُ»؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿يَعْلَمُ﴾، فمُقتضى الظَّاهرِ أن تُختمَ الآيةُ بالعِلمِ!

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٠).

**الجوابُ**: هذا حَقٌّ بالنِّسبةِ لظاهرِ الكلامِ، لكنْ عندَ التأمُّلِ نَجدُ أنَّ ختامَه بالعِزَّةِ والحِكمةِ أبلَغُ؛ فإنَّهم يُريدونَ الاستِنصارَ بهذه الأصنامِ، والغَلَبَةَ والظُّهورَ، وأكبرُ شاهدٍ لذلك قَولُ أبي سُفيانَ يومَ أُحُدٍ: «اُعْلُ هُبَلُ»[1]! فاعتِزازُهم بهذه الأصنامِ مُقابَلٌ بعِزَّةِ مَن لا يُغْلَبُ، وهو اللهُ جلَّ وعلا؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالِبُ لهذه الأصنامِ ولعابِديها[2].

٩- يَقرِنُ اللهُ عزَّ وجلَّ العِزَّةَ بالحِكمةِ كما في قولِه تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ لأنَّ بعضَ أهلِ العِزَّةِ مِن الخَلقِ تَحمِلُهم العِزَّةُ على التَّهوُّرِ، وعدَمِ التَّثبُّتِ، وعَدَمِ تنزيلِ الأشياءِ منازِلَها. ودليلُ ذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، وكَوْنُ العِزَّةِ تأخُذُه بالإثمِ خِلافُ الحِكمةِ؛ فلهذا يَقْرِنُ اللهُ سبحانه وتعالى «العزيزَ» بـ «الحكيمِ»؛ إشارةً إلى أنَّ عِزَّتَه تبارك وتعالى مَقرونةٌ بالحِكمةِ، فهو وإنْ كان عزيزًا غالبًا قاهرًا له السُّلطانُ الكاملُ، فإنَّه عزَّ وجلَّ لا يُدَبِّرُ الأمرَ إلَّا على وجهِ الحِكمةِ البالغةِ. ثُمَّ إنَّه على تفسيرِ ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ بأنَّه ذو الحُكْمِ والحِكمةِ؛ فإنَّ عِزَّتَه عزَّ وجلَّ مَقرونةٌ بحُكْمِه، وأنَّ له الحُكمَ المُطلَقَ في عبادِه سُبحانَه وتعالى[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّه لا يَنتفِعُ بالآياتِ إلَّا المؤمِنونَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّه كُلَّما كَمَلَ إيمانُ العَبدِ ازدادَ انتِفاعًا بالآياتِ؛ وجْهُه: أنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ ازدادَ قوَّةً بقوَّتِه، وضَعفًا بضَعْفِه؛ فكُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا ظَهَرَ له مِن آياتِ اللهِ في هذه المَخلوقاتِ ما لم

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٨).

يَظهَرْ لِمَن هو دونَه[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗا﴾ فيه تَمثيلٌ وتَشبيهٌ مُركَّبٌ، والمعنى: مَثَلُ الَّذين اتَّخذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ، فيما اتَّخذوه مُعتَمدًا ومُتَّكلًا في دِينِهم، وتَوَلَّوه مِن دُونِ اللهِ تعالى؛ كمثَلِ العَنكبوتِ فيما نَسجَتْه واتَّخذَتْه بَيتًا، والغرَضُ تقريرُ وَهْنِ أمْرِ دِينِهم، وأنَّه بلَغَ الغايةَ الَّتي لا غايةَ بعْدَها، ومَدارُ قُطْبِ التَّشبيهِ أنَّ أولياءَهم بمَنزلةِ مَنسوجِ العنكبوتِ؛ ضَعْفِ حالٍ، وعدَمِ صُلوحِ اعتمادٍ عليه، وعلى هذا يكونُ قولُه تعالى: (إِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ...) تَذييلًا يُقرِّرُ الغرَضَ مِن التَّشبيهِ[٢]. أو هو مَثَلُ المُشرِكِ الذي يَعبُدُ الوثَنَ بالقِياسِ إلى المؤمِنِ الَّذي يَعبُدُ اللهَ، مثَلُ عَنكبوتٍ يتَّخِذُ بيتًا، بالإضافةِ إلى رجُلٍ يَبْني بيتًا بآجُرٍّ وجَصٍّ، أو يَنحِتُه مِن صَخْرٍ، وكما أنَّ أوهَنَ البيوتِ إذا استَقْرَيْتَها بيتًا بيتًا بيتُ العنكبوتِ، كذلك أضعَفُ الأديانِ -إذا استَقرَيْتَها دِينًا دِينًا- عِبادةُ الأوثانِ لو كانوا يَعلَمون[٣].

أو شَبَّه اللهُ تعالى الكفَّارَ في عِبادتِهم الأصنامَ، وبِنائِهم أُمورَهم عليها بالعَنكبوتِ الَّتي تَبْني وتَجتهِدُ، وأمْرُها كلُّه ضَعيفٌ؛ فكذلك أمْرُ أولئك، وسَعْيُهم مُضْمحِلٌّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ١٤٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (٢٠/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٣٧).

لا قوَّةَ له ولا مُعتمَد[١].

- وقولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عَبَّرَ بـ «الدُّونِ»؛ لِدُنُوِّ مَرتبتِه بالنِّسبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

- وقَولُه: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾، عبَّر عنها بالتَّأنيثِ -وإن كانت تُقالُ بالتَّذكيرِ- تعظيمًا لِضَعفِها؛ لأنَّ المقامَ لِضَعفِ ما تَبنيه[٣].

- وجُملةُ ﴿ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، وهي قَيدٌ في التَّشبيهِ. وهذه الهيئةُ المُشبَّهُ بها مع الهَيئةِ المُشبَّهةِ قابلةٌ لِتَفريقِ التَّشبيهِ على أجزائِها؛ فالمُشرِكون أشْبَهوا العنكبوتَ في الغُرورِ بما أعَدُّوه، وأَولياؤهم أَشْبَهوا بيتَ العنكبوتِ في عدَمِ الغَناءِ عمَّن اتَّخذوها وقْتَ الحاجةِ إليها وتَزولُ بأقلِّ تَحريكٍ، وأقْصى ما يَنتفِعون به منها نفْعٌ ضَعيفٌ، وهو السُّكنى فيها، وتَوهُّمُ أنْ تَدفَعَ عنهم، كما يَنتفِعُ المُشرِكون بأوهامِهم في أصنامِهم. وهو تَمثيلٌ بَديعٌ مِن مُبتكَراتِ القرآنِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ مُعترِضةٌ مُبيِّنةٌ وجْهَ الشَّبهِ. وهذه الجُملةُ تَجْري مَجْرى المثَلِ، فيُضرَبُ لِقلَّةِ جَدوى شَيءٍ؛ فاقْتَضى ذلك أنَّ الأديانَ الَّتي يَعبُدُ أهْلُها غيرَ اللهِ هي أحقَرُ الدِّياناتِ وأبعَدُها عن الخيرِ والرُّشدِ، وإنْ كانت مُتفاوِتةً فيما يَعرِضُ لتلك العِباداتِ مِن الضَّلالاتِ، كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٢).

قال أبو السعود: (والعنكبوتُ يقعُ على الواحدِ والجمعِ، والمذكَّرِ والمؤنَّثِ، والغالبُ في الاستعمالِ التَّأنيثُ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٢).

تَتفاوَتُ بُيوتُ العنكبوتِ في غِلَظِها بحسَبِ تفاوُتِ الدُّوَيْباتِ الَّتي تَنسُجُها في القوَّةِ والضَّعفِ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾

- قولُه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ ﴾ على إضمارِ القولِ، أي: قُلْ للكَفَرةِ:...[٢].

- وقولُه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ ﴾ تَوكيدٌ للمَثلِ وزِيادةٌ عليه، حيثُ لم يَجعَلْ ما يَدْعونه شيئًا -هذا على تقديرِ كونِ ( ما ) نافيةً-. وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ فيه تَجهيلٌ لهم؛ حيثُ عَبَدوا ما ليس بشَيءٍ؛ لأنَّه جَمادٌ ليس معه مُصحِّحُ العِلْمِ والقُدرةِ أصلًا، وتَرَكوا عِبادةَ القادِرِ القاهرِ على كلِّ شَيءٍ، الحَكيمِ الَّذي لا يَفعَلُ شيئًا إلَّا بحِكمةٍ وتَدبيرٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ تَعليلٌ؛ فإنَّ إشراكَ ما لا يُعَدُّ شيئًا بمَن هذا شأنُه مِن فرطِ الغباوةِ، وإنَّ الجَمادَ بالنِّسبةِ إلى القادِرِ القاهِرِ على كُلِّ شَيءٍ، البالِغِ في العِلْمِ وإتقانِ الفِعلِ الغايةَ القاصيةَ: كالمعدومِ البَحْتِ، وأنَّ مَن هذه صِفاتُه قادرٌ على مُجازاتِهم[٤]. أو: تَذييلٌ لجُملةِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ ﴾؛ لأنَّ الجُملةَ على كِلَا المعنيينِ في مَعاني ﴿مَا﴾ تدُلُّ على أنَّ الَّذي بيَّن حَقارةَ حالِ الأصنامِ واختِلالَ عُقولِ عابِدِيها، فلم يَعبَأْ بفَضْحِها وكَشْفِها بما يَسُوؤُها، مع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٣٦).

وَفْرةِ أتْباعِها، ومع أوهامِ أنَّها لا يَمَسُّها أحدٌ بسُوءٍ إلَّا كانتْ مجتَمِعةً عليه بالعداوةِ؛ فلو كان للأصنامِ حَظٌّ في الإلهيَّةِ لَمَا سَلِمَ مِن ضَرِّها مَن يُحَقِّرُها، كقولِه تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]، وأنَّه لَمَّا فضَحَ عُقولَ عُبَّادِها، لم يَخْشَهم على أوليائِه، بَلْهَ ذاتَه؛ فهو عَزيزٌ لا يُغلَبُ، وحَكيمٌ لا تَنْطلي عليه الأوهامُ والسَّفاسطُ، بخِلافِ حالِ هاتيكَ وأولئك[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ اسمُ الإشارةِ (تِلك) للتَّنويهِ بالأمثالِ المَضروبةِ في القُرآنِ الَّتي منها هذا المَثَلُ بالعَنكبوتِ. وجُملةُ ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ خبرٌ عن اسمِ الإشارةِ، وهذه الجُملةُ الخبَريَّةُ مُستعمَلةٌ في الامتِنانِ والطَّوْلِ؛ لأنَّ في ضرْبِ الأمثالِ تقريبًا لِفَهمِ الأمورِ الدَّقيقةِ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ تَعريضٌ بأنَّ الذين لم يَنتفِعوا بها جُهلاءُ العقولِ؛ فما بالُك بالَّذين اعْتاضُوا عن التَّدبُّرِ في دَلالتِها باتِّخاذِها هُزءًا وسُخريَّةً[3]؟!

٤- قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ بعدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تعالى عدَمَ انتفاعِ المُشركينَ بالحُجَّةِ ومُقدِّماتِها ونتائجِها المُوصِلةِ إلى بُطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ، مُستوفاةً مُغْنيةً لِمَن يُريدُ التَّأمُّلَ والتَّدبُّرَ في صِحَّةِ مُقدِّماتِها بإنصافٍ؛ نقَلَ الكلامَ إلى مُخاطَبةِ المؤمنينَ؛ لإفادةِ التَّنويهِ بشأْنِ المؤمنينَ؛ إذِ انْتَفعوا بما هو أدَقُّ مِن ذلك، وهو حالةُ النَّظرِ والفِكرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في دَلالةِ الكائناتِ على أنَّ خالقَها هو اللهُ، وأنَّه ليس شَيءٌ غيرُه حَقيقًا بمُشارَكتِه في إلهيَّتِه، فأفاد أنَّ المؤمنينَ قدِ اهتَدَوا إلى العِلْم ببُطلانِ إلهيَّةِ الأصنام، خِلافًا للمُشركينَ الَّذين لم يَهْتَدُوا بذلك، فأفهَمَ ذلك أنَّ مَن لم يَعقِلوها لَيسوا بعالِمينَ؛ أخْذًا مِن مَفهومِ الصِّفةِ في قولِه: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا اعتُبِرَ المعنى الوَصْفيُّ مِن قولِه: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، أو أخْذًا مِنَ الاقتصارِ على ذِكْرِ المؤمنينَ في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذا اعتُبِرَ عُنوانُ المؤمنينَ لَقبًا. والاقتِصارُ عندَ ذِكْرِ دَليلِ الوَحدانيَّةِ على انتفاعِ المؤمنينَ بتلك الدَّلالةِ المُفيدِ بأنَّ المشركينَ لم يَنتفِعوا بذلك يُشْبِهُ الاحتباكَ بيْنَ الآيتَينِ[1].

- قولُه: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فيه تَنبيهٌ على صِغَرِ قَدْرِ الأوثانِ الَّتي عَبَدوها[2].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَخصيصُ المؤمنينَ بالذِّكْرِ مع عُمومِ الهِدايةِ والإرشادِ في خَلْقِهما للكلِّ؛ لأنَّهم المُنتفِعون بذلكَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١).

## الآيات (٤٥-٤٧)

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: اقرَأْ -يا محمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن هذا القُرآنِ واتَّبِعْه واعمَلْ به، وأقِمِ الصَّلاةَ؛ إنَّ الصَّلاةَ تُبعِدُ صاحِبَها مِنَ الوُقوعِ في الفَحشاءِ والمُنكَرِ، وما في الصَّلاةِ مِن ذِكرِ اللهِ أكبَرُ مِن كَونِها تنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، واللهُ يعلَمُ ما تصنَعونَ.

ولا تُجادِلوا -أيُّها المُسلِمونَ- اليهودَ والنَّصارى إلَّا بأحسَنِ طريقةٍ -وذلك بالرِّفقِ واللِّينِ- إلَّا المعانِدينَ المُعتَدينَ منهم. وقُولوا لهم: آمَنَّا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ إلينا، وبما أنزَلَه اللهُ إليكم مِن التَّوراةِ والإنجيلِ غيرِ المحرَّفَينِ، ومَعبودُنا ومَعبودُكم واحِدٌ، وهو اللهُ سُبحانَه، ونحن له تعالى خاضِعونَ مُنقادونَ بالطَّاعةِ والعبادةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه موقفَ النَّاسِ مِن الكتابِ الَّذي أنزلَه على رسولِه، فيقولُ: وكما أنزَلْنا على الرُّسُلِ السَّابِقينَ كُتُبًا أنزَلْنا إليك -يا محمَّدُ- كِتابًا، وهو القُرآنُ، فعُلماءُ أهلِ الكتابِ مِن اليَهودِ والنَّصارى يُؤمِنونَ بالقُرآنِ، ومِن هؤلاءِ الَّذين هم بيْنَ ظَهرانَيْكَ مَن يُؤمِنُ بالقُرآنِ، وما يَجحَدُ بأدِلَّتِنا وحُجَجِنا إلَّا الكافِرونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه بعدَ أن ضَرَب اللهُ للنَّاسِ المَثَلَ بالأُمَمِ السَّالِفةِ، وجاء بالحُجَّةِ المُبيِّنةِ فَسادَ مُعتَقَدِ المُشرِكينَ، ونَوَّهَ بصِحَّةِ عَقائِدِ المؤمِنينَ بمُنتهَى البيانِ الَّذي ليس وراءَه مَطلَبٌ- أقبَل على رَسولِه بالخِطابِ الَّذي يَزيدُ تثبيتَه على نَشرِ الدَّعوةِ، ومُلازَمةِ الشَّرائِعِ، وإعلانِ كَلِمةِ اللهِ بذلك، وما فيه زيادةُ صلاحِ المؤمِنينَ الَّذين انتَفَعوا بدَلائِلِ الوحدانيَّةِ؛ وما الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا قُدوةٌ للمُؤمِنينَ وسَيِّدُهم، فأمْرُه أمْرٌ لهم[1].

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾.

أي: اقرَأْ -يا مُحمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن هذا القُرآنِ بتدَبُّرٍ، واتَّبِعْه واعمَلْ به، وأبلِغْه للنَّاسِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٧، ٢٥٨).
قال ابن القيم: (حقيقةُ التِّلاوَةِ ... هي التِّلاوةُ المُطْلَقةُ التَّامَّةُ، وهي تلاوةُ اللَّفظِ والمعنَى، فتلاوةُ اللَّفْظِ جُزْءُ مُسَمَّى التِّلاوةِ المُطْلقةِ، وحقيقةُ اللَّفظِ إنَّما هي الاتِّباعُ ... وسُمِّيَ تالي الكلامِ تاليًا؛ لأنَّه يُتبِعُ بعضَ الحروفِ بعضًا، لا يُخرِجُها جُملةً واحدةً، بل يُتبِعُ بعضَها بعضًا مُرَتَّبةً، كلَّما انقضَى حرفٌ أو كلمةٌ أتْبَعَه بحرفٍ آخَرَ وكلمةٍ أخرَى، وهذه التِّلاوةُ وسيلةٌ وطريقةٌ، والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيقيَّةُ، وهي تِلاوةُ المعْنى واتِّباعُه؛ تصديقًا بخَبَرِه، وائْتِمارًا بأمْرِه، وانتِهاءً بنَهْيِه، وائْتِمامًا به، حيثُ ما قادك انقَدْتَ معه؛ فتِلاوةُ القرآنِ تَتناوَلُ تِلاوةَ لَفظِه ومعناه، وتِلاوةُ المعْنى أشرَفُ مِن مُجَرَّدِ تِلاوةِ اللَّفظِ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ٤٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَ ...﴾ [النمل: ٩١، ٩٢].

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأَدِّ -يا مُحمَّدُ- الصَّلَواتِ تامَّةً بشُروطِها وأركانِها وواجباتِها[١].

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾.

أي: إنَّ الصَّلاةَ المُقامةَ بحُدودِها وخُشوعِها مِن شأنِها أن تَدعُوَ صاحِبَها إلى اجتِنابِ الوُقوعِ في الفَحشاءِ والمُنكَرِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٣٧، ٢٣٨).

قال ابن جرير: (فإنْ قال قائل: وكيف تَنهى الصَّلاةُ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ إن لم يكُنْ مَعْنِيًّا بها ما يُتْلَى فيها؟

قيل: تَنهى مَن كان فيها، فتَحولُ بيْنَه وبيْنَ إتيانِ الفَواحشِ؛ لأنَّ شُغلَه بها يَقطَعُه عن الشُّغلِ بالمُنكَرِ؛ ولذلك قال ابنُ مسعودٍ: «مَن لم يُطِعْ صلاتَه، لم يَزْدَدْ مِنَ الله إلَّا بُعدًا»؛ وذلك أنَّ طاعتَه لها إقامتُه إيَّاها بحدودِها، وفي طاعتِه لها مُزْدَجَرٌ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٠).

وقال ابن عطية: (وعندي أنَّ المعنى ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ على الإطلاقِ أي هو الذي ينهَى عن الفحشاءِ والمنكرِ، فالجزءُ الذي منه في الصلاةِ يفعلُ ذلك، وكذلك يفعلُ في غيرِ الصلاةِ؛ لأنَّ الانتهاءَ لا يكونُ إلَّا مِن ذاكرٍ مراقبٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٠).

وقد ذكر ابنُ القيِّمِ أنَّ الفحشاءَ هي ما ظهَر قُبحُه لكلِّ أحدٍ، واستَفحَشَه كلُّ ذي عقلٍ سليمٍ، =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: إنَّ فُلانًا يُصَلِّي باللَّيلِ، فإذا أصبَحَ سَرَق! قال: إنَّه سيَنْهاهُ ما تَقولُ))[1].

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان النَّاهي في الحَقيقةِ إنَّما هو ذِكرُ اللهِ؛ أتْبَع ذلك الحثَّ على رُوحِ الصَّلاةِ والمَقصدِ الأعظَمِ منها، وهو المُراقَبةُ لِمَن يُصَلِّي له، حتَّى كأنَّه يراه؛ لِيَكونَ بذلك في أعظَمِ الذِّكْرِ، فقال[2]:

﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

أي: وما في الصَّلاةِ مِن ذِكرِ اللهِ أكبَرُ مِن كَونِها تنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ[3].

---

= وأنَّ المُنكَرَ هو الَّذي تَستنكِرُه العُقولُ والفِطَرُ. فما استقَرَّ قُبحُه في الفِطَرِ والعقولِ واشتدَّ الإنكارُ له فهو فاحشةٌ، وما لم يُعرَفْ حُسْنُه ولم يُؤْلَفْ فهو المُنكَرُ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

وقال الواحدي: (الفَحشاءُ: ما قَبُح مِن العَمَلِ، والمنكَرُ: ما لا يُعرَفُ في شريعةٍ ولا سُنَّةٍ). ((الوسيط)) (٣/ ٤٢١).

(١) أخرجه أحمد (٩٧٧٨)، والبزار (٩٢١٧)، وابن حبان (٢٥٦٠).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٦١): رجالُه رجالُ الصحيح. وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١١٩٣)، والأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٩٧٧٨)، وصَحَّح الحديثَ الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (١٣٩٣) وقال: رجاله رجالُ الصَّحيحِ.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٤٤) و (٢٠/ ١٩٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

وممَّن ذهب إلى القَولِ بأنَّ ذِكرَ الله -الَّذي في الصَّلاةِ- أكبَرُ وأعظَمُ مقصودًا مِن كَونِها تَنهى عن الفَحشاءِ والمنكَرِ؛ فتحصيلُ المحبوبِ أكبَرُ وأهَمُّ مِن دَفعِ المكروهِ: ابنُ تيميَّةَ، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. =

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الله تعالى أمرينِ، وهما تلاوةُ الكتابِ، وإقامةُ الصَّلاةِ؛ بَيَّن ما يُوجِبُ أنْ يكونَ الإتيانُ بهما على أبلغِ وُجوهِ التَّعظيم فقال: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ فيَنْبَغي أنْ يكونَ على أبلغِ وُجوهِ التَّعظيمِ، وأمَّا الصَّلاةُ فكذلك؛ لأنَّ اللَّهَ يعلمُ ما تَصنعونَ[1].

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ ما تَصنَعونَه -أيُّها النَّاسُ- وسيُجازيكم عليه[2].

---

= وممَّن قال بنحو هذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عون. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٦).

وقيل: المعنى: ولَذِكرُ اللهِ إيَّاكم أفضَلُ من ذِكرِكم إيَّاه. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والراغب الأصفهانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ، وسَلْمانُ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وعطيَّةُ العَوْفيُّ، ومُجاهدٌ، وأبو قُرَّةَ، وشُعْبةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٩).

قال الرَّسْعَنيُّ: (وإلى هذا المعنى ذهَب ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ وعطيَّةُ وجمهورُ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦١٩).

وقيل: المعنى: ولذِكرُ اللهِ أكبَرُ وأفضَلُ مِن كُلِّ شَيءٍ في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى ذلك: الواحديُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: أبو الدَّرْداءِ، وسَلْمانُ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٩).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦١).

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى طريقةَ إرشادِ المُشرِكينَ؛ بيَّن طَريقةَ إرشادِ أهلِ الكِتابِ، فقال[1]:

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

أي: ولا تُجادِلوا -أيُّها المُسلِمونَ- اليَهودَ والنَّصارى إلَّا بأحسَنِ طَريقةٍ، وذلك بدُعائِهم إلى الحَقِّ بالرِّفقِ واللِّينِ، والقَولِ الحَسَنِ، وبأقرَبِ الحُجَجِ وأقْواها المُوصِلةِ للمَقصودِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: إلَّا المُعانِدينَ للحَقِّ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، المُعتَدينَ الَّذين لم يَقبَلوا النُّصحَ، ولم يَنفَعْ فيهم الرِّفقُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٠)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٤٥-٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٧)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٥٠، ٢٥١).

قال الماوَرْدي: (﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فيه أربعةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنَّهم أهلُ الحربِ، قاله مجاهدٌ. الثَّاني: مَن منَعَ الجِزيةَ منهم، رواه خُصَيْفٌ. الثَّالثُ: ظَلَموا بالإقامةِ على كُفرِهم =

﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾.

أي: وقولوا لهم: آمَنَّا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ إلينا، وآمَنَّا بما أنزَلَه إليكم مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ، ممَّا لم يُحَرَّفْ ويُبَدَّلْ(١).

---

= بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، قاله ابنُ زَيدٍ. الرَّابعُ: ظلَموا في جِدالِهم فأغلَظوا لهم، قاله ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٨٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الَّذين منَعوا الجزيةَ، ونصَبوا الحربَ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، وابنُ الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٥٣).

قال الرَّسْعَني: (وقال أكثرُ المفسِّرينَ: معناه: إلَّا الذين ظلَموا بالإقامةِ على الكفرِ، ونَصْبِ رايةِ الحربِ، فقاتِلوهم حتَّى يُسْلِموا أو يُعطُوا الجزيةَ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٢٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الَّذين ظلَموا في جدالِهم بالفُحشِ في المقالِ أو العِنادِ وعدَمِ قَبولِ النُّصحِ، أو جادَلوا على وجهِ المُشاغَبةِ والمُغالَبةِ: الزمخشريُّ، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

وقال ابن عثيمين: (وهل الآيةُ تدُلُّ على أنَّهم يُترَكون، أم أنَّ الآيةَ تدُلُّ على أنَّهم يُجادَلونَ بالَّتي هي أسْوَأُ؟

اختلَف كلامُ المفَسِّرينَ في هذه المسألةِ؛ فمنهم مَن قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فاترُكوهم ولا تُجادِلوهم؛ لأنَّه لا فائدةَ مِن جِدالِهم ما دام قد ظهَرَ عِنادُهم وظُلمُهم. ومنهم مَن قال... فجادِلوهم بالسَّيفِ حتَّى يُسلِموا أو يُعطُوا الجزيةَ. وعندي أنَّ الآيةَ تحتَمِلُ المعنيينِ جميعًا، وأنَّه ينبغي أن تُنَزَّلَ على الحالينِ، وتُستعمَلَ كلُّ حالٍ بما يليقُ ويُناسِبُ؛ فإذا كان المقامُ يقتضي أن نجادِلَهم بالسَّيفِ، وذلك بأن يكونَ لدينا مِنَ القُوَّةِ والقُدرةِ ما نَتمكَّنُ به مِن ذلك، وإذا لم يكُنْ لنا قدرةٌ وكانت المصلحةُ تقتضي تَرْكَهم فإنَّنا نَترُكُهم، وهذا -واللهُ أعلم- هو السِّرُّ في أنَّ الله عزَّ وجَلَّ لم يذكُرْ حُكمَ هذا المُستثنى صريحًا، فلم يَقُلْ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فجادِلوهم بالَّتي هي أسوأُ، ولم يَقُل: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فلا تُجادِلوهم. بل جعَلَه صالحًا للأمْرَينِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٥٠، ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢). =

﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾.

أي: ومَعبودُنا ومَعبودُكم واحِدٌ، وهو اللهُ سُبحانَه[١].

﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: ونحن -مَعشَرَ المُسلِمينَ- خاضِعونَ لله مُنقادونَ، ومُتذَلِّلونَ له بالطَّاعةِ، لا نُشرِكُ به شَيئًا[٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

أي: وكما أنزَلْنا على الرُّسُلِ السَّابِقينَ كُتُبًا أنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ- كِتابًا، وهو القُرآنُ[٣].

﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾.

أي: فعُلَماءُ أهلِ الكِتابِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى يُؤمِنونَ بالقُرآنِ[٤].

---

= قال البقاعي: (يعني في أنَّ أصلَه حَقٌّ، وإن كان قد نُسِخَ منه ما نُسِخَ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٥٠).
وقال الشوكاني: (لا يَدخُلُ في ذلك ما حرَّفوه وبدَّلوه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣). =

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ ﴾ [الرعد: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ * وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٢، ٥٣].

﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ ﴾.

أي: ومِن هؤلاء الَّذين هم بينَ ظَهرانَيْكَ[1] -يا محمَّدُ- مَن يؤمِنُ بالقُرآنِ[2].

---

= قيل: المعنى: الَّذين آتَيْناهم الكِتابَ مِن قَبْلِك مِن بني إسرائيلَ كانوا يؤمِنونَ بك وبالقُرآنِ؛ لِما في كُتُبِهم مِن صِفتِك. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢١).

وممَّن قال مِن السلفِ: إنَّ المرادَ اليهودُ والنَّصارى: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣٠٧٠).

وقيل: المرادُ: فالَّذين آتَيْناهم الكِتابَ؛ كعبدِ اللهِ بنِ سَلام وأمثالِه ممَّن أسلَمَ مِن اليهودِ والنَّصارى. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٢).

(١) قيل: المرادُ: مَن أسلمَ مِن أهلِ الكتابِ؛ كعبدِ اللهِ بنِ سلام. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢١).

وقيل: العَرَبُ مِن قُرَيشٍ وغيرِهم. وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والبقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٥٩).

وقيل: المرادُ: أهلُ مكَّةَ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والنسفي، والعليمي، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

أي: وما يَجحَدُ بأدِلَّتِنا وحُجَجِنا مع ظُهورِها إلَّا الرَّاسِخونَ في الكُفرِ، فيَستُرونَ الحقَّ ويُنكِرونَه بعدَ مَعرِفتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾ [النمل: ١٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ فيه أنَّ الصَّلاةَ مِن شَأنِها أنَّها إذا أُدِّيَت على ما يجِبُ مِن فُروضِها وسُنَنِها والخُشوعِ فيها، والتدَبُّرِ لِما يتلو فيها، وتقديرِ المُثولِ بيْنَ يَدَي اللهِ تعالى- أن تنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ(٢)، ووجهُ كَونِ الصَّلاةِ تَنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ: أنَّ العَبدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

قال ابن عاشور: (وعَبَّر عن الكتابِ بـ «الآيات»؛ لأنَّه آياتٌ دالَّةٌ على أنَّه مِن عندِ اللهِ بسببِ إعجازِه وتَحَدِّيه وعجزِ المعاندينَ عن الإتيانِ بسورةٍ مِثْلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

وقال ابن عثيمين: (وقوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: الشَّرعيةِ والكَونيَّةِ؛ فإنَّ مِن النَّاسِ مَن جَحَد الآياتِ الكونيَّةَ؛ جَحَد أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُحيي الموتى، بل مِنَ النَّاسِ مَن جَحَد أن تكونَ هذه الخليقةُ بخَلقٍ! وأمَّا جَحدُ الآياتِ الشَّرعيَّةِ فكثيرٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٥٩).

المُقيمَ لها، المتمِّمَ لأركانِها وشُروطِها وخُشوعِها: يَستنيرُ قَلبُه، ويتطَهَّرُ فؤادُه، ويَزدادُ إيمانُه، وتَقوى رغبتُه في الخيرِ، وتَقِلُّ أو تَعدَمُ رَغبتُه في الشَّرِّ؛ فبالضَّرورةِ مُداومتُها والمحافظةُ عليها على هذا الوَجهِ تَنهى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، فهذا مِن أعظَمِ مَقاصِدِها وثَمَراتِها(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أنَّ الظَّالمَ لم يُؤْمَرْ بجِدالِه بالَّتي هي أحسَنُ؛ فمَن كان ظالِمًا مُستَحِقًّا للقِتالِ غيرَ طالبٍ للعِلمِ والدِّينِ، فهو مِن هؤلاء الظَّالِمينَ الَّذين لا يُجادَلون بالَّتي هي أحسَنُ، بخِلافِ مَن طلَبَ العِلمَ والدِّينَ، ولم يَظهَرْ منه ظُلمٌ، سواءٌ كان قَصْدُه الاسترشادَ، أو كان يَظُنُّ أنَّه على حقٍّ يَقصِدُ نَصْرَ ما يَظُنُّه حَقًّا. ومَن كان قَصْدُه العِنادَ، ويَعلمُ أنَّه على باطلٍ ويُجادِلُ عليه؛ فهذا لم يُؤْمَرْ بمُجادَلتِه بالَّتي هي أحسَنُ، لكنْ قد نُجادِلُه بطُرُقٍ أخرى نُبَيِّنُ فيها عِنادَه وظُلمَه وجَهلَه؛ جزاءً له بموجَبِ عمَلِه(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ فيه النَّهيُ عن مُجادَلةِ أهلِ الكتابِ إذا كانت مِن غيرِ بَصيرةٍ مِن المجادِلِ، أو بغيرِ قاعدةٍ مَرْضيَّةٍ، وألَّا يُجادَلوا إلَّا بالَّتي هي أحسَنُ؛ بحُسنِ خُلُقٍ، ولُطفٍ ولِينِ كَلامٍ، ودَعوةٍ إلى الحَقِّ وتَحسينِه، ورَدٍّ عن الباطِلِ وتهجينِه، بأقرَبِ طريقٍ مُوصِلٍ لذلك، وألَّا يكونَ القَصدُ منها مُجرَّدَ المجادَلةِ والمغالَبةِ وحُبِّ العُلُوِّ، بل يكونُ القَصدُ بيانَ الحَقِّ، وهِدايةَ الخَلقِ، إلَّا مَن ظلَمَ مِن أهلِ الكِتابِ، بأن ظهَرَ مِن قَصدِه وحالِه أنَّه لا إرادةَ له في الحَقِّ، وإنَّما يُجادِلُ على وَجهِ المُشاغَبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢١٩).

والمُغالَبةِ، فهذا لا فائدةَ في جِدالِه؛ لأنَّ المقصودَ منها ضائعٌ[١].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ أي: ولْتكُنْ مُجادَلتُكم لأهلِ الكِتابِ مَبنيَّةً على الإيمانِ بما أُنزِلَ إليكم وأُنزِلَ إليهم، وعلى الإيمانِ برَسولِكم ورَسولِهم، وعلى أنَّ الإلهَ واحِدٌ، ولا تَكُنْ مُناظَرتُكم إيَّاهم على وَجهٍ يَحصُلُ به القَدحُ في شَيءٍ مِنَ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، أو بأحدٍ مِنَ الرُّسُلِ، كما يفعَلُه الجاهِلُ عند مُناظَرةِ الخُصومِ؛ يَقدَحُ في جَميعِ ما معهم مِن حَقٍّ وباطلٍ! فهذا ظُلمٌ وخروجٌ عن الواجِبِ وآدابِ النَّظَرِ؛ فإنَّ الواجِبَ أن يَرُدَّ ما مع الخَصمِ مِن الباطِلِ، ويَقبَلَ ما معه مِن الحَقِّ، ولا يَرُدَّ الحَقَّ لأجْلِ قَولِه، ولو كان كافِرًا[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَحۡسَنُ﴾ اسمُ تفضيلٍ مُطلَقٌ، يَعُمُّ الحُسنَ في سياقِ الأدِلَّةِ، ويَعُمُّ الحُسنَ في كيفيَّةِ المجادَلةِ؛ فلا بُدَّ مِن الأمْرَينِ: مِن حُسْنِ الطَّريقِ -بمعنى: أنْ تأتيَ بأقرَبِ الطُّرُقِ لإقناعِ الخصمِ- ومِن كيفيَّةِ عَرْضِ هذه الطَّريقةِ[٣].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وُجوبُ تلاوةِ القرآنِ على الوُجوهِ الثَّلاثةِ: تِلاوةِ اللَّفظِ، والمعنى، والاتِّباعِ[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ إن قيلَ: كم مِن مُصَلٍّ يَرتَكِبُ الفَحشاءَ والمُنكَرَ ولا تَنْهاه صلاتُه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٢).

**فالجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ الصَّلاةَ الَّتي تَنهى عن الفَحشاءِ والمُنكرِ هي الصَّلاةُ المُقامةُ الَّتي أقامَها الإنسانُ على الوجهِ الَّذي ينبغي(١).

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ مَن كان مُراعيًا للصَّلاةِ جَرَّه ذلك إلى أن يَنتهيَ عن السَّيِّئاتِ يومًا ما، وعلى كلِّ حالٍ فإنَّ المُراعيَ للصَّلاةِ لا بدَّ أن يكونَ أبعَدَ مِنَ الفَحشاءِ والمُنكَرِ مِمَّن لا يُراعيها.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّه كم مِن مُصَلِّينَ تَنهاهم الصَّلاةُ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، واللَّفظُ لا يَقتضي ألَّا يَخرُجَ واحِدٌ مِنَ المصَلِّينَ عن قَضيَّتِها، كما تقولُ: (إنَّ زَيدًا ينهَى عن المنكَرِ)، فليس غَرَضُك أنَّه يَنهى عن جميعِ المناكيرِ، وإنَّما تُريدُ أنَّ هذه الخَصلةَ مَوجودةٌ فيه، وحاصِلةٌ منه، مِن غيرِ اقتِضاءٍ للعُمومِ(٢).

**الوجهُ الرابعُ**: أنَّ المقصودَ أنَّ الصَّلاةَ تُيَسِّرُ للمُصلِّي تَرْكَ الفَحشاءِ والمُنكَرِ، وليس المعنى أنَّ الصَّلاةَ صارِفةٌ المُصَلِّيَ عن أن يَرتكِبَ الفَحشاءَ والمُنكَرَ؛ فإنَّ المُشاهَدَ يُخالِفُه؛ إذ كم مِن مُصَلٍّ يُقيمُ صَلاتَه، ويقتَرِفُ بَعضَ الفَحشاءِ والمُنكَرِ.

**الوجهُ الخامِسُ**: أنَّ الصَّلاةَ تَشتَمِلُ على مُذكِّراتٍ باللهِ مِن أقوالٍ وأفعالٍ مِن شأنِها أن تَكونَ للمُصَلِّي كالواعِظِ المُذَكِّرِ باللهِ تعالى؛ إذ يَنهى سامِعَه عن ارتكابِ ما لا يُرضي اللهَ(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه معلومٌ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُقيمُ الصَّلاةَ، وأنَّه أقْوَمُ المصلِّينَ صَلاةً، فكيف وُجِّهَ إليه الخِطابُ

---

(١) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٨، ٢٥٩).

بإقامةِ الصَّلاةِ؟!

**الجوابُ**: توجيهُ الخِطابِ لِمَن يَتَّصِفُ به: المرادُ به الاستِمرارُ عليه، لا تَجديدُه؛ لأنَّه موجودٌ؛ مِثلُ قَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، فالخِطابُ ليس عَبثًا حتَّى نقولَ: إنَّ هذا أمرٌ بالإيمانِ! لأنَّ الأمرَ بالإيمانِ تحصيلُ الحاصلِ؛ لأنهم مُؤمِنونَ، فالخِطابُ المرادُ منه الاستِمرارُ على الإيمانِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ التَّعبيرُ بالنَّهيِ، وهو أبلغُ مِن التَّعبيرِ بالمنعِ؛ فإنَّ المانعَ قد لا يكونُ مُحَذِّرًا، لكنْ في النَّهيِ تحذيرٌ، وهو أشدُّ مِن المنعِ؛ لأنَّها تُوجِبُ في القَلبِ كراهةً لهذا الشَّيءِ ونفورًا منه، ومجرَّدُ المنعِ لا يقتَضي ذلك؛ فكأنَّ الصَّلاةَ فيها سِرٌّ يقتَضي أنْ يَبعُدَ الإنسانُ عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ، كأنَّها تُؤَنِّبُ ضميرَه: لماذا تَفعَلُ هذا؟! فالصَّلاةُ توجِبُ المنعَ مِن المعاصي(٢).

٥- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ إنَّ الصَّلاةَ فيها دَفعُ مَكروهٍ وهو الفَحشاءُ والمُنكَرُ، وفيها تحصيلُ محبوبٍ وهو ذِكرُ اللهِ، وحُصولُ هذا المحبوبِ أكبَرُ مِن دَفعِ ذلك المكروهِ؛ فإنَّ ذِكرَ اللهِ عِبادةٌ لله، وعِبادةُ القَلبِ لله مقصودةٌ لِذاتِها، وأمَّا اندفاعُ الشَّرِّ عنه فهو مقصودٌ لِغَيرِه على سَبيلِ التَّبَعِ(٣)، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ وقَولِه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أنَّ الأمورَ الإيجابيَّةَ أكمَلُ مِن الأمورِ السَّلبيةِ؛ لأنَّ ذِكْرَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((العبودية)) لابن تيمية (ص: ٩٠).

أمرٌ إيجابيٌّ؛ ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾، والنَّهْيَ عنِ الفَحشاءِ والمُنكَرِ أمرٌ سَلبيٌّ؛ ولهذا قال العُلَماءُ: إنَّ الصَّبرَ على طاعةِ اللهِ أكملُ مِن الصبرِ عن مَعصيةِ اللهِ؛ لأنَّه صبْرٌ على فِعلِ مُعاناةٍ ومَشقَّةٍ؛ فالإنسانُ يجاهِدُ نفْسَه بالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ مِن وَجهَينِ: مِن جهةِ إلزامِها بها، ومِن جهةِ الصَّبرِ والتَّحمُّلِ لهذه الأفعالِ والأقوالِ[1].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ عبَّرَ بلَفظِ (الصَّنعةِ) الدَّالِّ على مُلازَمةِ العَمَلِ؛ تَنبيهًا على أنَّ إقامةَ ما ذُكِرَ تحتاجُ إلى تمرُّنٍ عليه وتدرُّبٍ؛ حتَّى يَصيرَ طبعًا صَحيحًا، ومَقصودًا صَريحًا[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ إثباتُ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعُمومِ علمِه بقَولِه (ما)، وتَعَلُّقِه بفِعلِ العِبَادِ بقَولِه: ﴿تَصْنَعُونَ﴾، وفيه رَدٌّ على غُلاةِ القَدَريَّةِ؛ لأنَّهم كانوا قديمًا يُنكِرون تَعَلُّقَ عِلمِ اللهِ بفِعلِ العبدِ، ويقولون: إنَّ الأمرَ أُنُفٌ، أي: مُستأنَفٌ، وأنَّ اللهَ لا يَعلَمُ بأفعالِ العِبَادِ إلَّا إذا عَمِلوها! ولا شكَّ أنَّ هذا كُفرٌ، كما قال الشافعيُّ وغيرُه: «جادِلوهم بالعلمِ، فإنْ أقَرُّوا به خُصِمُوا، وإنْ أنكَروه كَفَروا»[3].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَا تَصْنَعُونَ﴾ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للعبدِ، ونِسبتُها إليه، وفيها أيضًا رَدٌّ على الجَبريَّةِ[4].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٤).

ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ هو أصلٌ في آدابِ المُناظَرةِ والجَدَلِ[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ جيءَ في النَّهيِ بصيغةِ الجَمعِ؛ لِيَعُمَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم والمُسلِمينَ؛ إذ قد تَعرِضُ للمُسلِمينَ مُجادَلاتٌ مع أهلِ الكِتابِ في غيرِ حَضرةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أو قبْلَ قُدومِه المدينةَ[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ وَجهُ الوِصايةِ بالحُسنى في مُجادَلةِ أهلِ الكِتابِ: أنَّ أهلَ الكتابِ مُتأهِّلونَ لِقَبولِ الحُجَّةِ، غيرُ مَظنونٍ بهم المُكابَرةُ، ولأنَّ آدابَ دينِهم وكِتابِهم أكسَبَتْهم مَعرِفةَ طَريقِ المُجادَلةِ؛ فينبغي الاقتصارُ في مُجادَلتِهم على بيانِ الحُجَّةِ دونَ إغلاظٍ؛ حذَرًا مِن تَنفيرِهم، بخِلافِ المُشرِكينَ؛ فقد ظهَر مِن تصَلُّبِهم وصَلَفِهم وجَلافتِهم ما أيْأَسَ مِن إقناعِهم بالحُجَّةِ النَّظَريَّةِ، وعيَّن أنْ يُعامَلوا بالغِلظةِ، وأن يُبالَغَ في تَهجينِ دينِهم، وتَفظيعِ طَريقتِهم؛ لأنَّ ذلك أقرَبُ نُجوعًا لهم[٣].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مع أنَّ جميعَ أهلِ الكِتابِ ظالِمونَ؛ لأنَّهم كافِرونَ، قال تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؟

**الجوابُ**: أنَّ المرادَ بالظُّلمِ هنا: الامتِناعُ عن قَبولِ عَقدِ الذِّمَّةِ، أو نَقضُ العَهدِ بعدَ قَبولِه[٤]. وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٩).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ سُلوكُ ما يقتضي اطمِئنانَ الخَصمِ في المُناظرةِ، وسُلوكُ ما يقتضي إلزامَه، فنقولُ لهؤلاءِ المجادِلينَ مِن أهلِ الكِتابِ: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا﴾ وهو القرآنُ، ﴿وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ وهو التَّوراةُ إذا كانوا مِن اليَهودِ، والإنجيلُ إذا كانوا مِن النَّصارى، فنحنُ لا نُنكِرُ ما أُنزِلَ إليكم، بل نقولُ: إنَه حَقٌّ، لكِنْ نُؤمِنُ بما أُنزِلَ إلينا ونقولُ: إنَّه حَقٌّ، وإذا آمَنَّا بهذا فبأيِّهما يكونُ الحُكمُ؟

**الجواب**: بما نَزَل أخيرًا وهو القُرآنُ؛ لأنَّه ناسِخٌ، وحينَئذٍ يكونُ في قَولِنا هذا تهدِئةٌ لِنُفوسِهم، وإلزامٌ لهم بالإيمانِ بما أُنزِلَ إلينا؛ لأنَّ الإنسانَ بَشَرٌ، فإذا قيلَ له: أنا آمَنتُ بما أُنزِلَ إليك فآمِنْ بما أُنزِلَ إليَّ، فسيَقولُ في نفْسِه: كيف يؤمِنُ هذا الرَّجُلُ بما أُنزِلَ إلَيَّ وما أُنزِلَ إليه، وأنا أُكَذِّبُ ما أُنزِلَ إليه[1]؟!

١٥- قولُه تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ تعليمٌ لمُقدِّمةِ المُجادَلةِ بالَّتي هي أحسَنُ، وهذا ممَّا يُسمَّى (تحريرَ مَحلِّ النِّزاعِ)، و(تقريبَ شُقَّةِ الخلافِ)، وذلك تأصيلُ طُرقِ الإلزامِ في المُناظَرةِ؛ وهو أنْ يُقالَ: قدِ اتَّفَقْنا على كذا وكذا، فلْنحتَجَّ على ما عَدا ذلك، فإنَّ ما أُمِروا بقولِه هنا ممَّا اتَّفقَ عليه الفريقانِ، فيَنْبغي أنْ يكونَ هو السَّبيلَ إلى الوِفاقِ، وليس هو بداخِلٍ في حيِّزِ المُجادَلةِ؛ لأنَّ المُجادَلةَ تقَعُ في مَوضعِ الاختلافِ، ولأنَّ ما أُمِروا بقولِه هنا هو إخبارٌ عمَّا يَعتقِدُه المسلمون، وإنَّما تكونُ المُجادلةُ فيما يَعتقِدُه أهلُ الكتابِ ممَّا يُخالِفُ عقائدَ المسلمينَ، مِثلُ قولِه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٥١-٢٥٢، ٢٥٧).

قولِه: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١] [آل عمران: ٦٥- ٦٧].

١٦- قولُه تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ مِن بَلاغةِ القرآنِ؛ حيثُ لم يقُلْ: (وما قُلْتم)، أو: (ما جِئتُم به)، بل قال: ﴿بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾؛ وذلك لأنَّ لدَيهم مِن التَّحريفِ والتَّبديلِ ما لا يُمكِنُ معه أنْ نقبَلَ كلَّ ما جاؤوا به، لكنْ نُؤمِنُ بالمُنزَّلِ إليهم؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصَّحيحِ: ((لا تُصَدِّقوا أهلَ الكتابِ ولا تُكذِّبوهم، وقولوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾))[٢]، فنحن مُؤمِنون بالمُنزَّلِ لا المُبدَّلِ، وصِفةُ الإيمانِ بما أُنزِلَ إلينا ليس كصِفَةِ الإيمانِ بما أُنزِلَ إليهم؛ لأنَّ إيمانَنا بما أُنزِلَ إلينا مُلزِمٌ بالاتِّباعِ، وإيمانَنا بما أُنزِلَ إليهم ليس مُلْزِمًا، فإذا وُجِدَ في شَرْعِنا ما يُخالِفُ شرْعَهم؛ فالمُتَّبَعُ شَرعُنا[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ﴾ أنَّ أهلَ الكتابِ يُقِرُّون بألوهيَّةِ اللهِ[٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ؛ وأنَّه كلامُه -حروفُه ومعانيه- لقولِه: ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، والَّذي يُكْتَبُ هو الحروفُ[٥].

١٩- الاستِشهادُ بالغيرِ على صِحَّةِ المُدَّعَى به، يعني أنَّ الإنسانَ يَستشهِدُ بغَيرِه مِن خُصومِه، كما قال سُبحانَه وتعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وهذه الآيةُ أيضًا: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٣).

يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، فيُقالُ: ممَّن أُوتيَ الكِتابَ منكم -أيُّها اليهودُ أو النَّصارى- مَن آمَنَ بهذا القُرآنِ، وهذه الحُجَّةُ مُفيدةٌ جدًّا عندَ المناظَرةِ: أنْ تَحتجَّ على الطَّائفةِ بقَولِ بعضِ عُلَمائِها(١).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ مَن لم يُؤمنْ بهذا القرآنِ أو بشَيءٍ منه؛ فهو كافرٌ(٢)، وهذا يَشْملُ جَحْدَ الآياتِ عمومًا، وجَحْدَ أفرادِها، فمَن جَحَدَ بعضَ القرآنِ وأقَرَّ ببعضِه حُكِمَ بكُفْرِه، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا * أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾(٣) [النساء: ١٥٠، ١٥١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾

- قوله: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ حُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿ٱتْلُ﴾؛ لِيَعُمَّ التِّلاوةَ على المسلمينَ وعلى المشركينَ(٤)، أي: أُمِر بأن يَتلوَهُ على هؤلاء وعلى هؤلاء.

- قولُه: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾ فيه تَعليلُ الأمرِ بإقامةِ الصَّلاةِ بالإشارةِ إلى ما فيها مِن الصَّلاحِ النَّفسانيِّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٨).

فمَوقعُ (إنَّ) هنا مَوقعُ فاءِ التَّعليلِ، فاقتصَرَ على تَعليلِ الأمْرِ بإقامةِ الصَّلاةِ دونَ تَعليلِ الأمْرِ بتِلاوةِ القُرآنِ؛ لِمَا في هذا الصَّلاحِ الَّذي جَعَله اللهُ في الصَّلاةِ مِن سِرٍّ إلهيٍّ لا يَهْتدي إليه النَّاسُ إلَّا بإرشادٍ منه تعالى، فأخبَرَ أنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عن الفحشاءِ والمُنكَرِ[1].

- قولُه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ولَلصَّلاةُ أكبَرُ مِن غَيرِها مِن الطَّاعاتِ -على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ-. وسمَّاها بذِكْرِ اللهِ كما قال: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، وإنَّما عبَّر عنها به؛ للتَّعليلِ بأنَّ اشتِمالَها على ذِكْرِه هو العُمدةُ في كَونِها مُفضَّلةً على الحسناتِ، ناهيةً عن السَّيِّئاتِ؛ فهو مِن وضْعِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ مِن غيرِ لَفظِه السَّابقِ؛ للإشعارِ بالعِلِّيَّةِ، ولو جِيءَ بظاهرٍ لم يُفِدْ هذا المعنى؛ فيجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ عطفًا على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ فيكونَ عطْفَ عِلَّةٍ على عِلَّةٍ، ويكونَ المُرادُ بذِكْرِ اللهِ هو الصَّلاةَ، ويكونَ العُدولُ عن لَفظِ الصَّلاةِ -الَّذي هو كالاسمِ لها- إلى التَّعبيرِ عنها بطَريقِ الإضافةِ؛ للإيماءِ إلى تَعليلِ أنَّ الصَّلاةَ تَنهى عن الفحشاءِ والمُنكَرِ، أي: إنَّما كانت ناهيةً عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ لأنَّها ذِكْرُ اللهِ، وذِكْرُ اللهِ أمْرٌ كبيرٌ، فاسمُ التَّفضيلِ مَسلوبُ المُفاضَلةِ، مَقصودٌ به قوَّةُ الوصْفِ، كما في قولِنا: اللهُ أكبَرُ، لا تُريد أنَّه أكبَرُ مِن كبيرٍ آخَرَ. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفًا على جُملةِ ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، والمعنى: واذْكُرِ اللهَ؛ فإنَّ ذِكْرَ اللهِ أمْرٌ عظيمٌ، فيَصِحُّ أنْ يكونَ المُرادُ مِن الذِّكْرِ: تَذكُّرَ عَظَمةِ اللهِ تعالى. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: ذِكْرَ اللهِ باللِّسانِ؛ لِيَعُمَّ ذِكْرَ اللهِ في الصَّلاةِ وغيرِها، واسمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٥٨).

التَّفضيلِ أيضًا مَسلوبُ المُفاضَلةِ، ويكون في مَعنى قولِ مُعاذِ بنِ جَبلٍ رضيَ الله عنه: (ما عَمِلَ آدميٌّ عملًا أنْجَى له مِن عذابِ اللهِ مِن ذِكْرِ اللهِ)[1]. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بالذِّكْرِ: تَذكُّرَ ما أمَرَ اللهُ به ونَهى عنه، أي: مُراقبةَ اللهِ تعالى، وحذَرَ غضَبِه، فالتَّفضيلُ على بابِه، أي: ولَذِكْرُ اللهِ أكبَرُ في النَّهيِ عن الفحشاءِ والمُنكَرِ مِن الصَّلاةِ في ذلك النَّهيِ؛ وذلك لإمكانِ تَكرارِ هذا الذِّكْرِ أكثَرَ مِن تَكرُّرِ الصَّلاةِ. ولك أنْ تقولَ: ذِكْرُ اللهِ هو الإيمانُ بوُجودِه وبأنَّه واحدٌ، فلمَّا أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأراد أمْرَ المُؤمنينَ بعمَلينِ عَظيمينِ مِن البرِّ؛ أرْدَفَه بأنَّ الإيمانَ باللهِ هو أعظَمُ مِن ذلك؛ إذ هو الأصْلُ، وذلك مِن رَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ، عاد به إلى تَعظيمِ أمْرِ التَّوحيدِ وتفظيعِ الشِّركِ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ﴾ [العنكبوت: ٤٢] إلى هنا[2].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا قبْلَه، وهو وعْدٌ ووعيدٌ، باعتبارِ ما اشتمَلَ عليه قولُه: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وقولُه: ﴿تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾[3].

٢- قولُه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] الآيةَ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه بعد حديث (٣٧٩٠)، ومالك في ((الموطأ)) (١/ ٢١١)، والحاكم بعد حديث (١٨٢٥).

صحَّح إسنادَه الألبانيُّ في تخريج ((مشكاة المصابيح)) (٢٢٢٤)

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٦١).

باعتبارِ ما تَستلزِمُه تلك مِن مُتارَكةِ المشركينَ، والكَفِّ عن مُجادلتِهم بعدَ قولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وهذه توطِئةٌ لِمَا سيَحدُثُ مِن الدَّعوةِ في المدينةِ بعدَ هِجرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ مُجادَلةَ أهلِ الكتابِ لا تَعرِضُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولا للمُؤمنينَ في مكَّةَ، ولكنْ لَمَّا كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في إبَّانِ نُزولِ أواخرِ هذه السُّورةِ على وَشْكِ الهِجرةِ إلى المدينةِ، وكانتِ الآياتُ السَّابقةُ مُجادِلةً للمشركين، غليظةً عليهم مِن تَمثيلِ حالِهم بحالِ العَنكبوتِ، وقولِه: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]؛ هيَّأَ اللهُ لرسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ طريقةَ مُجادَلةِ أهْلِ الكتابِ. وهي مُعترِضةٌ بيْن مُحاجَّةِ المشركينَ والعَودِ إليها في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٤٧] الآياتِ[١].

- قولُه: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ التفضيلُ ﴿أَحْسَنُ﴾ على بابِه؛ فيُقدَّرُ المُفضَّلُ عليه ممَّا دلَّتْ عليهِ القرينةُ، أي: بأحسَنَ مِن مُجادَلتِكم المشركينَ، أو بأحسَنَ مِن مُجادَلتِهم إيَّاكم، كما تدُلُّ عليه صِيغةُ المُفاعَلةِ. ويجوزُ كونُ اسْمِ التَّفضيلِ مَسلوبَ المُفاضَلةِ؛ لِقَصْدِ المُبالغةِ في الحُسْنِ، أي: إلَّا بالمُجادَلةِ الحُسْنى، كقولِه تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢] [النَّحل: ١٢٥].

- ولأجْلِ أنَّ مضمونَ هذه الآيةِ ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا ...﴾ لا يَدخُلُ في حَيِّزِ المُجادَلةِ عُطِفَتْ على ما قبْلَها، ولو كانتْ ممَّا شمِلَتْه المُجادَلةُ لَكان ذلك مُقتضيًا فصْلَها -أي: عدَمَ عَطفِها على ما قَبْلَها-؛ لأنَّها مِثْلُ بدَلِ الاشتمالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧). =

- والمرادُ بـ (الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا) القرآنُ، والتَّعبيرُ عنه بهذه الصِّلةِ؛ للتَّنبيهِ على خطَأِ أهْلِ الكتابِ؛ إذ جَحَدوا أنْ يُنزِّلَ اللهُ كِتابًا على غيرِ أنْبيائِهم؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾. وقولُه: ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ عطْفُ صِلَةِ اسمٍ مَوصولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: والَّذي أُنزِلَ إليكم[1].

- قولُه: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ فيه تَقديمُ المَجرورِ على عامِلِه في قولِه: ﴿لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ؛ تَعريضًا بالمشركينَ الَّذين لم يُفْرِدوا اللهَ بالإلهيَّةِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ﴾ تَجْريدٌ للخِطابِ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، و(ذلك) إشارةٌ إلى مَصدرِ الفِعلِ الَّذي بعْدَه، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلةِ المُشارِ إليه في الفضْلِ[3].

- وإنَّما قال: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (فأهْلُ الكتابِ)؛ لأنَّ في ﴿ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تَذكيرًا لهم بأنَّهم أُمَناءُ عليه، كما قال

---

= قال البيضاوي: (﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ هو مِن المجادَلةِ بالَّتي هي أحسَنُ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٠).

وقال الرَّسْعَني: (هذا مِن المجادَلةِ بالَّتي هي أحسَنُ؛ لِما فيه مِن مُلايَنتِهم، واستِمالتِهم إلى المُناصَفةِ، وترْكِ المُشاغَبةِ). ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧، ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢).

تعالى: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾[١] [المائدة: ٤٤].

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ جِيءَ بصِيغَةِ المُضارِعِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه سيَقَعُ في المُستقبَلِ، أو للدَّلالةِ على تَجدُّدِ إيمانِ هذا الفريقِ به، أي: إيمانُ مَن آمَنَ منهم مُستمِرٌّ، يَزْدادُ عددُ المؤمنينَ يومًا فيومًا[٢].

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ أُريدَ بهم عبدُ الله بنُ سَلَام وأضرابُه مِن أهلِ الكتابَينِ خاصَّةً، كأنَّ مَن عَداهُم لم يُؤتَوُا الكِتابَ؛ حيثُ لَم يَعمَلوا بما فيهِ. أو مَنْ تقدَّمَ عهدَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منهم؛ حيثُ كانُوا مُصدِّقينَ بنُزولِه حسَبما شاهَدُوا في كتابَيهما، وتَخصيصُهم بإيتاءِ الكتابِ؛ للإيذانِ بأنَّ مَن بعْدَهم مِن مُعاصري رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد نُزِعَ عنهم الكتابُ بالنَّسخِ فلم يُؤْتَوه، والفاءُ لِتَرتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها؛ فإنَّ إيمانَهم به مُترتِّبٌ على إنزالِه[٣].

- والإشارةُ بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى أهْلِ مكَّةَ -على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ- بتَنزيلِهم مَنزلةَ الحاضرينَ عندَ نُزولِ الآيةِ؛ لأنَّهم حاضِرون في الذِّهْنِ بكَثرةِ مُمارَسةِ أحوالِهم وجِدالِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فيه أُضِيفتْ الآياتُ إلى نُونِ العظَمةِ؛ لِمَزيدِ تَفخيمِها، وغايةِ تَشنيعِ مَن يَجحَدُ بها[٥].

- وقد أشار قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ إلى أنَّ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٢، ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٣).

هؤلاء الَّذين يُؤمِنون بالقُرآنِ مِن أهلِ الكِتابِ وأهلِ مَكَّةَ مَن يَكتُمُ إيمانَه؛ جُحودًا منهم لأجْلِ تَصَلُّبِهم في الكُفْرِ، فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على معنى الكمالِ في الوصْفِ المُعرَّفِ، أي: إلَّا المُتوغِّلون في الكُفْرِ، الرَّاسِخون فيه؛ ليَظهَرَ وجْهُ الاختلافِ بيْنَ (مَا يَجْحَدُ) وبيْنَ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ إذ لولا الدَّلالةُ على معنَى الكَمالِ لصار معنى الكَلامِ: وما يَجحَدُ إلَّا الجاحِدون[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقال بعْدَه: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، وأولئك ظالِمون كما أنَّ هؤلاء كافِرونَ، واختِصاصُ الأُولى بتلك الصِّفةِ والثَّانيةِ بهذه الصِّفةِ؛ لأنَّ مَن جحَدَ آياتِ اللهِ فقد كفَرَ نِعَمَه، وهذا أوَّلُ ما يَفعلُه؛ لأنَّ ذلك مُتعلِّقٌ بما قبْلَه ممَّن تولَّى خلْقَه وأنعَمَ عليه بما استَوجَبَ به شُكْرَه؛ فأوَّلُ فِعلِه كُفْرُ نِعَمِ اللهِ، ثمَّ إنَّه مُسِيءٌ إلى نفْسِه، ظالمٌ لها بأنْ أبدَلَها مِن النِّعمِ عذابًا لا يُطِيقُه، فكُفْرُه أوَّلُ في الذِّكْرِ، وظُلْمُه ثانٍ؛ لأنَّه فوَّتَ نفْسَه عِظَمَ الأجْرِ، فهو آخِرٌ في العمَلِ، فقدَّمَ (الكافرين) على (الظَّالمين) لذلك[2].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّ الظُّلمَ وإنْ كان يُطلَقُ على الكُفْرِ وعلى ما دُونَه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ فإنَّه إذا ذُكِرَ بعدَ الكفْرِ، ووُصِفَ به مَن قد وُصِفَ بالكفْرِ؛ أفْهَمَ زيادةَ مُرتكَبٍ على الكُفْرِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩]، وعلى هذا ورَدَ في القُرآنِ؛ فوضَحَ ما ورَدَتْ عليه آيتَا (العنكبوتِ)[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠١٢، ١٠١٣).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٩١).

وقيل: إنَّ الجحودَ الأوَّلَ مُعلَّقٌ بالواحْدنيَّةِ، والثَّانيَ مُعلَّقٌ بالنُّبوَّةِ، وخُتِمَت تلك بالكافرِ؛ لأنَّه قسيمُ المؤمنينَ في قولِه: ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ﴾ [العنكبوت: ٤٧]، وهذه بالظَّالمين؛ لأنَّه جحْدٌ بعدَ إقامةِ الدَّليلِ على كونِ الرَّسولِ صدَرَ منه القرآنُ مُنزَّلًا عليه، وهو أُمِّيٌّ لا يَقرَأُ ولا يَكتُبُ، فهم الظَّالمون بعدَ ظُهورِ المعجزةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٤).

## الآيات (٤٨-٥٢)

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَّٱرْتَابَ﴾: أي: لَشَكَّ، والرِّيبةُ: قلَقُ النَّفْسِ واضْطِرابُها، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ، وكَوْنُ الأمرِ مشكوكًا فيه ممَّا تَقلقُ له النَّفْسُ ولا تَستقِرُّ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى الأدِلَّةَ الواضحةَ على أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه تعالى، فيقولُ: وما كنتَ تقرأُ -يا محمَّدُ- كِتابًا مِن قبْلِ هذا القُرآنِ، ولا تَكتُبُه بيَمينِك؛ فلو كنتَ تَقرأُ أو تكتُبُ قبْلَ نبُوَّتِك لَشَكَّ في صِدقِك هؤلاء الكافِرونَ، بل هذا القُرآنُ آياتٌ واضِحاتٌ محفوظةٌ في صَدرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمِنينَ، وما يَجحَدُ بآياتِنا إلَّا الظَّالِمونَ.

ثمَّ يَذكُرُ تعالى طرَفًا مِن أقوالِ المشركينَ الفاسدةِ، فيقولُ: وقال مُشرِكو

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩١).

قُرَيشٍ: لولا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجِزاتٌ مِن رَبِّه.

ثمَّ يُرشِدُ الله تعالى نبيَّه إلى الرَّدِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: إنَّما المُعجِزاتُ عندَ اللهِ، وإنَّما أنا نذيرٌ مُبينٌ، ليس مِن شأني إلَّا إنذارُكم.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مُنكِرًا عليهم: أوَلم يَكفِهم أنَّا أنزَلْنا عليك القُرآنَ يُتلى عليهم؟! إنَّ في ذلك لَرَحمةً وذِكرى للمُؤمِنينَ.

ثمَّ يرشِدُ الله تعالى النَّبيَّ إلى جوابٍ آخَرَ يرُدُّ به عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: حَسْبيَ اللهُ شاهِدًا بيْنَنا، يَعلَمُ جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، وسيُجازي كلًّا بما يَستحِقُّ، والَّذين آمَنوا بالباطِلِ وكفَروا باللهِ -وهو الحقُّ سُبحانَه- أولئك هم الخاسِرونَ في الدُّنيا والآخِرةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أشار إلى أنَّ المنكِرَ لأصلِ الوَحيِ مُتوغِّلٌ في الكُفرِ، دلَّ على ذلك بحالِ المُنزَلِ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال مُسَلِّيًا له[1]:

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾.

أي: وما كنتَ -يا محمَّدُ- تقرأُ كتابًا مِن قبْلِ هذا القرآنِ[2].

﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

أي: وما كنتَ -يا محمَّدُ- تُحسِنُ الكتابةَ[١].

﴿إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾.

أي: لو كنتَ -يا محمَّدُ- تقرأُ أو تكتُبُ قبْلَ نبُوَّتِك، لَشَكَّ في صِدقِك الكافِرونَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠).

قيل: المرادُ بالمُبطِلينَ هنا: أهلُ الكتابِ. أي: فلو كان النَّبيُّ غيرَ أمِّيٍّ لَقالوا: الَّذي نجِدُه في كُتُبِنا أنَّه رَسولٌ أمِّيٌّ لا يكتُبُ ولا يَقرأُ. وممَّن قال بهذا القولِ: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥١).

وممَّن فسَّر المُبطِلينَ بأنَّهم اليهودُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٥(.

وقيل: المرادُ بهم: كُفَّارُ قُرَيشٍ. أي: فلو كان النَّبيُّ غيرَ أمِّيٍّ لارتاب هؤلاء وقالوا: إنَّما أخَذ القُرآنَ وتَعلَّمَه مِن كِتابٍ سابقٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والخازنُ، والألوسيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٦).

وممَّن قال بأنَّهم: أهلُ الكتابِ والعَرَبِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٣، ٤٥٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٨).

وقيل: يعمُّ لفظُه كلَّ مكذبٍ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولكنْ عظَّم الإشارةَ به إلى قريشٍ؛ لأنَّهم الأهمُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٢).

ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ﴾.

أي: بل[1] القُرآنُ آياتٌ واضِحاتُ الدَّلالةِ على الحَقِّ، وهو محفوظٌ في صَدرِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- والمُؤمِنينَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ [سبأ: ٦].

﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: وما يَجحَدُ بآياتِنا مع ظُهورِها، ودَلالتِها الواضِحةِ على الحَقِّ، ويُنكِرُها

---

(١) قال ابنُ عثيمين: («بل» هنا للإضرابِ، والإضرابُ نَوعان: انتِقاليٌّ وإبطاليٌّ، وهنا يحتَمِلُ أنَّ الإضرابَ للإبطالِ...؛ لأنَّه أبطلَ قَولَهم: إنَّه جاء به مِن عندِه. ويحتَمِلُ أن يكونَ الإضرابُ انتِقاليًّا؛ لأنَّه لَمَّا نفى ما يكونُ به مُتقَوِّلًا على الله، أثبَتَ أنَّه آياتٌ مِن الله؛ فيكون انتِقالًا مِنَ النَّفْيِ إلى الإيجابِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١، ١٢).
ممَّن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿هُوَ﴾ أي: القرآنُ-: يحيى بنُ سلام، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر المصادر السابقة.
وقيل: المرادُ بقوله: ﴿هُوَ﴾: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. وعلى هذا ففي المرادِ بالآيةِ قَولانِ:
(أحدهما: أنَّ المعنى: بل وِجدانُ أهلِ الكتابِ في كُتُبِهم أنَّ مُحمَّدًا صَلَّى الله عليه وسلَّمَ لا يكتُبُ ولا يَقرأُ، وأنَّه أُمِّيٌّ: آياتٌ بيِّناتٌ في صدورِهم، وهذا مذهَبُ ابنِ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكِ، وابنِ جُرَيجٍ.
والثَّاني: أنَّ المعنى: بل محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذو آياتٍ بيِّناتٍ في صدورِ الَّذين أُوتوا العِلْمَ مِن أهلِ الكِتابِ؛ لأنَّهم يَجِدونَه بنَعتِه وصِفتِه. قاله قَتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٠).
وقيل: يحتملُ أن يعودَ على أمرِ محمد صلَّى الله عليه وسلَّم في أنَّه لم يتلُ ولا خطَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٢).

بعدَ مَعرِفتِها إلَّا المتَّصِفونَ بظُلمِ أنفُسِهم بالكُفرِ والمُكابَرةِ والعِنادِ[١].

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَرَ الدَّليلَ على أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ، وليس بمُفترًى مِن عندِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أردَفَ هذا شُبهةً أُخرى لهم[٢].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر الجاحِدينَ لآيةِ القرآنِ ثلاثَ مرَّاتٍ، ووصَفَهم بالكافِرينَ والمُبطلينَ والظَّالِمينَ؛ انتَقَل الكلامُ إلى مَقالَتِهم النَّاشئةِ عن جُحودِهم[٣].

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ: لولا أُنزِلَ على محمَّدٍ مُعجزاتٌ مِن رَبِّه -كمُعجِزاتِ صالحٍ وموسى وعيسى- تكونُ حُجَّةً له علينا؛ فنُصَدِّقَه[٤].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧٩-٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣].

وقال تعالى حاكيًا عن الكفَّارِ قولَهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥].

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إنَّما المُعجِزاتُ عندَ اللهِ، وليست عندي، فلا يأتي بها إلَّا هو إن شاءَ[1].

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: وإنَّما أنا نذيرٌ مُبينٌ[2] ليس مِن شأني إلَّا إنذارُكم عذابَ اللهِ، وليست لي قُدرةٌ على الإتيانِ بمُعجِزاتٍ[3].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

وقيل: الضميرُ في ﴿وَقَالُوا۟﴾ لقريشٍ ولبعضِ اليهودِ؛ لأنَّهم كانوا يعلِّمون قريشًا مثلَ هذه الحجةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٢).

(٢) قوله: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: مبينٌ لإنذارِه مِن (أبان)، أو نذيرٌ بيِّنُ الإنذارِ مِن (بان). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٨٧).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّه مِن أبانَ إبانةً، أي: أبانَ لكم إنذارَه وما أُوتيَه مِنَ الآياتِ بالدَّلائلِ الواضحةِ: ابنُ جرير، والرَّسْعَنيُّ، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٢٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٦١).

واختار ابنُ كثيرٍ أنَّ المعنى: بَيِّنُ النِّذارةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه ردٌّ على الَّذينَ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[1].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: أوَلم يَكْفِ هؤلاء المُشرِكينَ المُقترِحينَ نُزولَ الآياتِ عليك -يا محمَّدُ- أنَّا أنزَلْنا عليك القُرآنَ الَّذي تتتابَعُ قراءتُه عليهم؟! فهو كافٍ في إثباتِ صِدقِك، وهدايتِهم إلى الحَقِّ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في ذلك القُرآنِ لَرَحمةً في الدُّنيا والآخرةِ للمُؤمِنينَ، وذِكرى لهم؛ يَتذكَّرونَ بما فيه مِن عِبرةٍ وعِظةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣).

ممَّن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ المرادَ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾: القرآنُ-: ابنُ جرير، والقرطبي، والبيضاوي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الإشارةُ تعودُ إلى: إنزالِ الكِتابِ. وممَّن اختاره: الماتُريديُّ، والواحدي، والبغوي، وابن عادل، والبِقاعي. وجعله ابنُ عثيمين احتمالًا. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٢٣٧)، = = ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٣٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٤، ٢٩٥).

قال ابن عثيمين: (فالقرآنُ في الحقيقةِ ذِكْرى مِن الوجهَينِ: مِن جهةِ أنَّه نزَل مِن عندِ الله، =

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: حَسْبيَ اللهُ شاهِدًا يَعلَمُ المحِقَّ مِنَّا مِن المُبطِلِ، فيَحكُمُ بَيْني وبيْنَكم[1].

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: اللهُ يَعلَمُ جَميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، فلا يخفَى عليه المحِقُّ مِن المُبطِلِ، وسيُجازي كلًّا بما يَستَحِقُّ[2].

---

= ومجرَّدُ شعورِ الإنسانِ بأنَّه نزَل مِن عندِ الله لا شكَّ أنَّه يَتذكَّرُ به ويُعَظِّمُه؛ لأنَّه كلامُ ربِّه، وكذلك أيضًا ما فيه مِن المعاني العظيمةِ والآثارِ الحميدةِ هي أيضًا آيةٌ مِن آياتِ الله... فاللهُ عزَّ وجلَّ أنزَلَ القرآنَ رحمةً للنَّاسِ، وأيضًا ذِكْرى، يعني: عِظةً يَتذكَّرُ به النَّاسُ، فبه يَتراحمونَ ويَرحَمون؛ فهو ذِكْرى ولكنْ ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٠١).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ، وكَفَروا باللهِ -وهو الحَقُّ وَحْدَه-: أولئك هم المتَّصِفونَ بالخَسارةِ أبدًا في الدُّنيا والآخِرةِ[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ فمَدَحَ سُبحانَه أهلَ العِلمِ وأثنى عليهم وشَرَّفَهم بأن جَعَلَ كتابَه آياتٍ بَيِّناتٍ في صُدورِهم، وهذه خاصَّةٌ ومَنقَبةٌ لهم دونَ غيرِهم[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ فالكِتابُ كافٍ عن كلِّ آيةٍ لِمَن تدَبَّرَه وتعَقَّلَه، وعَرَف معانيَه، وانتَفَع بأخبارِه، واتَّعَظ بقَصَصِه؛ فإنَّه يُغْني عن كلِّ شَيءٍ مِن الآياتِ، لكِنَّ الَّذي يجعَلُنا لا نُحِسُّ بهذه الآياتِ العظيمةِ أنَّنا لا نَقرأُ القرآنَ على وجهٍ نَتدَبَّرُه ونتَّعِظُ بما فيه، كثيرٌ مِن المُسلِمينَ -إن لم يكُنْ أكثَرُ المُسلِمينَ- يَتلُونَ الكتابَ للتَّبَرُّكِ والأجرِ فقط[3]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ أنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا كان أكثرَ انتِفاعًا بالقرآنِ، وكلَّما كان أضعَفَ إيمانًا أو أكثرَ مَعصيةً كان أبعَدَ عن فَهمِ القُرآنِ والانتِفاعِ به، بل إنَّ المعاصيَ تَحولُ بيْنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٠٢- ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) للعثيمين (٢/ ١٤٢).

الإنسانِ وبيْنَ فَهمِ القُرآنِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قد أشار قولُه: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ وما بعْدَه إلى خمْسِ مزايَا للقرآنِ على غيرِه مِن المعجزاتِ:

**المَزِيَّةُ الأولى**: ما أشار إليه قولُه: ﴿يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ مِن انتشارِ إعجازِه وعُمومِه في المجامعِ والآفاقِ والأزمانِ المختلِفةِ، بحيث لا يَختَصُّ بإدراكِ إعجازِه فريقٌ خاصٌّ في زمَنٍ خاصٍّ شأْنَ المُعجزاتِ المَشهودةِ، مِثلُ عصَا مُوسى، وناقةِ صالحٍ، فهو يُتْلى، ومِن ضمْنِ تِلاوتِه الآياتُ الَّتي تحدَّتِ النَّاسَ بمُعارَضتِه، وسجَّلتْ عليهم عجْزَهم عن المعارَضةِ مِن قبْلِ مُحاوَلتِهم إيَّاها، فكان كما قال؛ فهو مُعجِزةٌ باقيةٌ، والمُعجزاتُ الأخرى مُعجزاتٌ زائلةٌ.

**المَزِيَّةُ الثَّانيةُ**: كَوْنُه ممَّا يُتْلَى؛ فإنَّ ذلك أرفَعُ مِن كَونِ المعجزاتِ الأُخرَى أحوالًا مَرئيَّةً؛ لأنَّ إدراكَ المَتلُوِّ إدراكٌ عقْليٌّ فِكريٌّ، وهو أعلى مِن المُدرَكاتِ الحِسِّيَّةِ، فكانت مُعجزةُ القرآنِ أَلْيَقَ بما يَستقبِلُ مِن عصورِ العِلْمِ الَّتي تهيَّأَت إليها الإنسانيَّةُ.

**المَزِيَّةُ الثَّالثةُ**: ما أشار إليه قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةً﴾، فالكِتابُ المَتلُوُّ مُشتمِلٌ على ما هو رحمةٌ لهم اشتِمالَ الظَّرفِ على المظروفِ؛ لأنَّه يَشتمِلُ على إقامةِ الشَّريعةِ، وهي رحمةٌ وصلاحٌ للنَّاسِ في دُنياهم، فالقرآنُ مع كَونِه مُعجِزةً دالَّةً على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُرشِدةً إلى تَصديقِه -مِثل غيرِه مِن المُعجزاتِ-؛ هو أيضًا وسيلةُ عِلْمٍ وتشريعٍ وآدابٍ للمَتلوِّ عليهم، وبذلك فضَلَ غيرَه مِن المُعجزاتِ الَّتي لا تُفيدُ إلَّا تَصديقَ الرَّسولِ الآتي بها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٦).

**المَزِيَّةُ الرَّابعةُ**: ما أشار إليه قولُه: ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾؛ فإنَّ القرآنَ مُشتمِلٌ على مواعظَ ونُذُرٍ، وتعريفٍ بعواقبِ الأعمالِ، وإعدادٍ إلى الحياةِ الثَّانيةِ، ونحوِ ذلك ممَّا هو تَذكيرٌ بما في تذَكُّرِه خيرُ الدَّارينِ، وبذلك فضَلَ غيرَه مِن المعجزاتِ الصَّامتةِ الَّتي لا تُفيدُ أزْيَدَ مِن كَونِ الآتيةِ على يَدَيه صادقًا.

**المَزِيَّةُ الخامسةُ**: أنَّ كَوْنَ القرآنِ كتابًا مَتْلوًّا مُستطاعًا إدراكُ خَصائصِه لكلِّ عربيٍّ، ولكلِّ مَن حذَقَ العربيَّةَ مِن غيرِ العرَبِ، مِثلُ أئمَّةِ العربيَّةِ؛ يُبعِدُه عن مُشابَهةِ نَفَثاتِ السَّحَرةِ والطَّلاسم، فلا يستطيعُ طاعنٌ أنْ يَزعُمَ أنَّه تخيُّلاتٌ، كما قال قومُ فِرعونَ لمُوسى: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ [الزخرف: ٤٩]، وقال تعالى حِكايةً عن المشركينَ حينَ رأَوْا مُعجزةَ انشِقاقِ القمَرِ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ [القمر: ٢]، فأشار قولُه: ﴿يُعۡرِضُواْ﴾ إلى أنَّ ذلك القولَ صدَرَ عنهم في مُعجزةٍ مرئيَّةٍ. وعُلِّقَ بالرَّحمةِ والذِّكرى قولُه: ﴿لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ تلك مَنافِعُ مِن القرآنِ زائدةٌ على ما في المُعجزاتِ الأُخرى مِن المنفعةِ الَّتي هي مَنفعةُ الإيمانِ بما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فهذه مَزايَا عظيمةٌ لمُعجزةِ القرآنِ، حاصِلةٌ في حضْرةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وغَيْبتِه، ومُستقِلَّةٌ عن الحاجةِ إلى بيانِه وتكميلِه بالدَّعوةِ وبتَكريرِها[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ فيه أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان أمِّيًّا لا يقرأُ ولا يكتُبُ، وفيه ردٌّ على مَن زعَمَ أنَّه كَتَب[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥، ١٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٥). ويُنظر أيضًا: ((كتاب مناهل العرفان للزرقاني- دراسة وتقويم)) للسبت (ص: ٤٥٥ - ٤٦٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿إِذًا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ سمَّاهم مُبطِلينَ؛ لأنَّ ارتيابَهم على تقديرِ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم يقرأُ ويَكتُبُ: ظُلْمٌ منهم؛ لِظُهورِ نَزاهتِه، ووُضوحِ مُعجزاتِه[1]؛ لذا لَمْ يَقُلْ: «لارتابَ النَّاسُ»؛ لأنَّه لو فُرِضَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتْلُو كتابًا مِن قَبْلِ ذلك، ويَخُطُّه بيمينِه، وأتَى بهذا القرآنِ مع وُجودِ الآياتِ الدَّالَّةِ على صِدْقِه؛ فإنه لا يَحصُلُ ارتيابٌ، لكنَّ المُبْطِلَ قد يَحتجُّ بالشُّبهةِ ويَراها بَيِّنةً[2].

وأيضًا فوَصفُ المكَذِّبينَ بالمُبطِلينَ منظورٌ فيه لحالِهم في الواقِعِ؛ لأنَّهم كَذَّبوا مع انتِفاءِ شُبهةِ الكَذِبِ، فكان تكذيبُهم الآنَ باطِلًا، فهم مُبطِلونَ مُتَوَغِّلونَ في الباطِلِ؛ فالقَولُ في وَصفِهم بالمُبطِلينَ كالقَولِ في وَصفِهم بالكافِرينَ[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾، الرَّيْبُ شكٌّ بقلَقٍ، فالمُبطِلُ شَكُّهُ مُقترنٌ بالقلَقِ؛ لأنَّه ليس شَكًّا مَبْنيًّا على أصلٍ، فهو قَلِقٌ منه: هل يَكونُ ذلك الشَّكُّ حقيقةً أو مُجرَّدَ شبهةٍ واشتِباهٍ! بخِلافِ الشَّكِّ الَّذي له أصلٌ حقيقيٌّ؛ فنَجِدُ صاحبَه ليس بقَلِقٍ منه؛ كما لو شكَّ في عددِ ركَعاتِ الصَّلاةِ[4].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾، ووجْهُ التَّلازُمِ بيْنَ التِّلاوةِ والكِتابةِ المُتقدِّمَينِ على نُزولِ القُرآنِ، وبيْنَ حُصولِ الشَّكِّ في نُفوسِ المشركين: أنَّه لو كان ذلك واقعًا لاحتمَلَ عندَهم أنْ يكونَ القرآنُ مِن جِنسِ ما كان يَتْلوه مِن قبْلُ مِن كُتبٍ سالِفةٍ، وأنْ يكونَ ممَّا خطَّه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٧٢، ٢٧٧).

قبْلُ مِن كلام تلَقَّاهُ، فقام اليومَ يَنشُرُه ويَدْعو إليه. وإنَّما جعَلَ ذلك مُوجِبَ رَيبٍ دونَ أنْ يكونَ مُوجِبَ جزْمٍ بالتَّكذيبِ؛ لأنَّ نظْمَ القرآنِ وبلاغتَه وما احْتَوى عليه مِن المعاني يُبطِلُ أنْ يكونَ مِن نوعِ ما سبَقَ مِن الكتُبِ والقَصصِ والخُطَبِ والشِّعرِ، ولكنْ ذلك لَمَّا كان مُستدعِيًا تأمُّلًا لم يَمنَعْ مِن خُطورِ خاطرِ الارتيابِ على الإجمالِ قبْلَ إتمامِ النَّظرِ والتَّأمُّلِ بحيث يكونُ دوامُ الارتيابِ بُهتانًا ومُكابَرةً[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ أنَّ مَحَلَّ العقلِ والوعيِ القلبُ -والقلوبُ في الصُّدورِ-، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[2] [الحج: ٤٦].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ الثَّناءُ على حَفَظةِ القرآنِ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ إقرارُ المشركين بعُلُوِّ اللهِ جلَّ وعلا، فيكونُ اعتقادُ المشركين في اللهِ مِن حيثُ العُلُوُّ أكملَ مِن اعتقادِ المعتزلةِ والجهميَّةِ والأشاعرةِ؛ لأنَّ هؤلاء يُنْكِرون عُلُوَّ اللهِ الذَّاتيَّ، ويقولون: إنَّ اللهَ لا داخلَ العالَمِ ولا خارجَه، ولا مُتَّصِلًا ولا مُباينًا[4]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ مِن بلاغةِ الكلامِ أنْ يكونَ الخِطابُ موافِقًا لمقتَضى الحالِ؛ وجْهُ ذلك: الحَصرُ في ذِكْرِ الإنذارِ فقط؛ فالرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَشيرٌ ونذيرٌ، لكنَّ المقامَ مقامُ مُحاجَّةِ الكافِرينَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٨).

فكان مقتضى الحالِ ذِكْرَ صِفةِ الإنذارِ فقط، وعدَمَ ذِكرِ كَونِه بَشيرًا[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّه بمُجرَّدِ تِلاوةِ القرآنِ على شخصٍ فقد قامتْ عليه الحُجَّةُ، ويكونُ ذلك مُلزِمًا له بالاتِّباعِ؛ لأنَّ اللهَ لم يَذْكُرْ أكثرَ مِن التِّلاوةِ، ولهذا فإنَّ الجنَّ وَلَّوْا إلى قومِهم مُنذِرينَ بمُجرَّدِ سماعِهم القرآنَ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]، لكنْ إذا كان الشَّخصُ لا يَفْهَمُ لُغةَ القرآنِ فلا تكونُ مُلْزِمةً، لقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، ولا يَحصلُ البيانُ وهو لا يدري لغةَ القرآنِ[٢].

١١- القرآنُ هو الآيةُ الكبرَى للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ المشركين قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنكر سُبحانَه وتعالى على مَن لم يَكْتَفِ بالوحيِ عن غيرِه[٤].

١٣- قولُه تعالى: ﴿أَنزَلْنَا﴾ فيه إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٩٤).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٥).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾، أدخَل الجارَّ فقال ﴿مِن قَبْلِهِۦ﴾؛ لأنَّ المرادَ نفْيُ التِّلاوةِ عن كثيرِ الزَّمنِ الماضي وقليلِه، وأكَّد استِغراقَ الكُتبِ فقال: ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ أصلًا[1].

- قولُه: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ فيه إطنابٌ لا بُدَّ منه؛ فذِكْرُ اليمينِ -وهي الجارحةُ الَّتي يُزاوَلُ بها الخطُّ-: زِيادةُ تَصويرٍ لِمَا نفى عنه مِن كَونِه كاتبًا؛ ألَا ترى أنَّك إذا قلْتَ في الإثباتِ: رأيتُ الأميرَ يخُطُّ هذا الكتابَ بيَمينِه، كان أشدَّ لإثباتِك أنَّه تَولَّى كِتابتَه؟ فكذلك النَّفيُ[2].

- قولُه: ﴿إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (إذًا) جوابٌ وجزاءٌ لشرْطٍ مُقدَّرٍ بـ(لو)، دلَّ عليه قولُه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ﴾، ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ﴾، والتَّقديرُ: لو كنتَ تَتْلو قبْلَه كتابًا أو تخُطُّه لَارتابَ المُبطِلون[3].

٢- قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ إبطالٌ لِمَا اقتضاهُ الفرْضُ مِن قولِه: ﴿إِذًا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٠/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠).

لَٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، أي: بلِ القرآنُ لا ريْبَ يَتطرَّقُه في أنَّه مِن عندِ اللهِ؛ فهو كلُّه آياتٌ دالَّةٌ على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّه مِن عندِ اللهِ(١).

- قولُه: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ على القولِ بأنَّ المُرادَ مِن: (صُدورِ الذين أُوتوا العِلْمَ) صدْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ عُبِّرَ عنه بالجمْعِ تعظيمًا له؛ فالمنفيُّ هو أنْ يكونَ مَتْلُوًّا قبْلَ نُزولِه. وهذا الَّذي يَقتضيه سِياقُ الإضرابِ عن أنْ يكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتْلو كِتابًا قبْلَ هذا القرآنِ بحيث يُظَنُّ أنَّ ما جاء به مِن القرآنِ ممَّا كان يَتْلوه مِن قبْلُ، فلمَّا انْتَفى ذلك ناسَبَ أنْ يُكشَفَ عن حالِ تلقِّي القرآنِ؛ فذلك هو مَوقِعُ قولِه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾، كما قال: ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [الفرقان: ٣٢]. وأمَّا الإخبارُ بأنَّه آياتٌ بيِّناتٌ فذلك تَمهيدٌ للغرَضِ، وإكمالٌ لِمُقتضاهُ؛ فالجارُّ والمجرورُ في قولِه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ خبرٌ ثانٍ عن الضَّميرِ، والتَّقديرُ: وما كنتَ تَتْلو مِن قبْلِه مِن كتابٍ ولا تخُطُّه بيَمينِك، بلْ هو أُلْقِيَ في صَدْرِك، وهو آياتٌ بيِّناتٌ. وعلى أنَّ المُرادَ بـ ﴿صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ صُدورُ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحُفَّاظِ المسلمينَ؛ فهذا يَقْتضي أنْ يكونَ قولُه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ تَتميمًا للثَّناءِ على القُرآنِ، وأنَّ الغرَضَ هو الإخبارُ عن القرآنِ بأنَّه آياتٌ بيِّناتٌ، فيكون المجرورُ صِفةً لـ ﴿ءَايَٰتُۢ ﴾، والإبطالُ مُقتصِرٌ على قولِه: ﴿ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ ﴾(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١، ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٢).

- قولُه: ﴿يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تَذييلٌ يُؤْذِنُ بأنَّ المشركينَ جَحَدوا آياتِ القرآنِ على ما هي عليه مِن وُضوحِ الدَّلالةِ على أنَّها مِن عندِ اللهِ؛ لأنَّهم ظالِمون لا إنصافَ لهم، وشأْنُ الظَّالِمينَ جحْدُ الحقِّ، يَحمِلُهم على جَحْدِه هوَى نُفوسِهم للظُّلم، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]، فهم مُتَوَغِّلون في الظُّلم(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أفادتْ (إنَّما) قصْرَ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على صِفةِ النِّذارةِ، أي: الرِّسالةِ، لا يَتجاوَزُها إلى خلْقِ الآياتِ أو اقتِراحِها على ربِّه، فهو قصْرُ إفرادٍ(٢)؛ ردًّا على زعْمِهم أنَّ مِن حقِّ المَوصوفِ بالرِّسالةِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاح البلاغيِّينَ هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارِ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسام: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّركةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتِراكَ اللهِ والأصنام في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكم لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحييُّ المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْران، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

يأتِيَ بالخَوارقِ المُشاهَدةِ. وخصَّ بالذِّكْرِ مِن أحوالِ الرِّسالةِ وصْفَ النَّذيرِ؛ تَعريضًا بالمشركينَ بأنَّ حالَهم يَقْتضي الإنذارَ، وهو توقُّعُ الشَّرِّ[١].

٤- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ...﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ واردٌ مِن جِهَتِه تعالى ردًّا على اقتِراحِهم، وبَيانًا لِبُطلانِه. والهمزةُ للإنكارِ والنَّفيِ، والواوُ للعطفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أقَصُرَ ولم يَكْفِهم آيةً مُغْنيةً عن سائرِ الآياتِ أنَّا أنزَلْنا...[٢]؟! أو: هو عطْفٌ على جُملةِ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، وهو ارتقاءٌ في المُجادَلةِ. والاستِفهامُ تَعجبيٌّ إنكاريٌّ، والمعنى: وهلْ لا يَكْفِيهم مِن الآياتِ آياتُ القرآنِ[٣]؟!

- و(الكِتاب): القرآنُ، وعُدِلَ عن لفْظِ (القرآنِ) الَّذي هو كالعَلَمِ عليه إلى لَفْظِ (الكتابِ) المعهودِ؛ لإيمائِه إلى معنى تَعظيمِه بأنَّه المُشتهِرُ مِن بيْنِ كُتبِ الأنبياءِ، واللَّامُ في (الكتاب) للجنْسِ؛ فدلَّ على الكَمالِ، أو للعهْدِ؛ فدلَّ على ما عُرِفَ واشتُهِرَ في البَلاغةِ[٤]، وهو القرآنُ الكريمُ العظيمُ.

- قولُه: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ مُستأنَفةٌ أو حالٌ؛ لأنَّ الكتابَ مَعلومٌ غيرُ مُحتاجٍ للوصْفِ؛ لِمَا تُشعِرُ به مادَّةُ التِّلاوةِ مِنَ الانتِشارِ والشُّيوعِ. واختِيرَ المُضارِعُ دونَ الوصْفِ بأنْ يُقالَ: مَتْلُوًّا عليهم؛ لِمَا يُؤْذِنُ به المُضارِعُ مِن الاستمرارِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣، ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤).

فحصَلَ مِن مادَّةِ (يُتْلى) ومِن صِيغةِ المُضارِعِ دَلالةٌ على عُمومِ الأمكنةِ والأزْمنةِ[١]. وقال: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لَمْ يَقُلْ: «تتلوه عليهم»؛ لأنَّه أَعَمُّ، لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتلوه على النَّاسِ، ثُمَّ يُعَلِّمُ بعضُهم بعضًا[٢].

- جملةُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ واردةٌ مَوردَ التَّعليلِ؛ للتَّعجيبِ مِن عدَمِ اكتِفائِهم بالكتابِ، وفي التَّعليلِ تَتميمٌ لِمَا اقتضاهُ التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ وبـ ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، فالإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الكتابِ؛ لِيُسْتَحضَرَ بصِفاتِه كلِّها، وللتَّنويهِ به بما تَقْتضيهِ الإشارةُ مِن التَّعظيمِ. وتنْكيرُ (رحمة)؛ للتَّعظيمِ، أي: لا يُقادَرُ قَدْرُها[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيه استِحضارُ المُؤمنينَ بعُنوانِ: (قَومٍ يُؤمِنونَ) دونَ أنْ يُقالَ: (للمؤمنينَ)؛ لِمَا في لفظِ (قوم) مِن الإيماءِ إلى أنَّ الإيمانَ مِن مُقَوِّماتِ قَوميَّتِهم، أي: لِقَومٍ شِعارُهم أنْ يُؤمِنوا، يعني: لقومٍ شِعارُهم النَّظرُ والإنصافُ، فإذا قامَتْ لهم دَلائلُ الإيمانِ آمَنوا، ولم يُكابِروا ظُلْمًا وعُلوًّا؛ فالفِعلُ مُرادٌ به الحالُ القريبةُ مِن الاستقبالِ. وفيه تَعريضٌ بالَّذين لم يَكْتَفوا بمُعجِزتِه، واقتَرَحوا آياتٍ أُخرى لا نِسبةَ بيْنَه وبيْنَها[٤].

٥- قوله تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ هذا الكلامُ ورَدَ مَورِدَ الإنصافِ، أي: على أُسلوبِ الاستِدراجِ والكلامِ المُنصِفِ؛

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٦).

وذلك أنَّ قولَه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيةَ، كلامٌ فيه وعيدٌ شديدٌ، وتَهديدٌ عظيمٌ، لكنْ لم يُكافِحْ به مَن خُوطِبَ بأنْ لم يَقُلْ: والَّذين آمَنوا بالباطلِ منكم، بلْ جِيءَ به عامًّا على الغَيبةِ، ولم يُصرِّحْ بما كان منهم مِن الجَحدِ والتَّكذيبِ؛ ليَتفكَّروا فيه، ويَنظُروا: هلْ هم مِن الجاحدينَ للحقِّ أو مِن المُنْصفينَ، أو مِن الَّذين آمَنوا باللهِ وكَفَروا بالطَّاغوتِ أو خِلافِه، أو كانوا مُحقِّينَ أو مُبطِلين؟ فحينَئذٍ يُنصِفون مِن أنفُسِهم، ويُذْعِنون للحقِّ[1].

- والباءُ في قولِه: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ مَزيدةٌ؛ للتَّوكيدِ[2].

-وقال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ فذكَرَ سُبحانَه أنَّه «شهيدٌ بيْنَه وبيْنَهم»، ولم يَقُلْ: «شاهِدٌ علينا»، ولا «شاهِدٌ لي»؛ لأنَّه ضَمَّنَ الشَّهادةَ الحُكمَ، فهو شَهيدٌ يَحكُمُ بشَهادتِه بيْني وبيْنَكم، والحُكمُ قَدْرٌ زائدٌ على مُجرَّدِ الشَّهادةِ؛ فإنَّ الشَّاهِدَ قد يؤدِّي الشَّهادةَ، وأمَّا الحاكِمُ فإنَّه يَحكُمُ بالحَقِّ للمُحِقِّ على المُبطِلِ، ويأخُذُ حقَّه منه، ويُعامِلُ المُحِقَّ بما يَستَحِقُّه، والمُبطِلَ بما يَستحِقُّه[3].

- وجُملةُ ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُقرِّرةٌ لمعنى الاكتِفاءِ به شهيدًا؛ فهي تَتنزَّلُ منها مَنزِلةَ التَّوكيدِ[4].

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ الإيمانُ بما سِوى اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) (٢١/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧).

كُفرٌ به، فيكونُ كُلُّ مَن آمَنَ بالباطِلِ فقد كفَرَ بالله، وفي هذا العَطفِ فائدةٌ غيرُ التَّأكيدِ، وهي أنَّه ذَكَر الثَّانيَ لِبَيانِ قُبحِ الأوَّلِ، كقَولِ القائِلِ: أتَقولُ بالباطِلِ وتَترُكُ الحَقَّ؟! لِبَيانِ أنَّ القَولَ باطِلٌ قَبيحٌ[1].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُفيدُ التَّنبيهَ على أنَّ المُشارَ إليهم أحْرِياءُ بالحُكْمِ الواردِ بعدَ اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ الأوصافِ الَّتي ذُكِرَت لهم قبْلَ اسمِ الإشارةِ[2].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ جُزْأَيْ جُملةِ ﴿هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قَصْرٌ ادِّعائيٌّ[3]؛ للمُبالَغةِ في اتِّصافِهم بالخُسرانِ العظيمِ، بحيث إنَّ كلَّ خُسرانٍ في جانبِ خُسرانِهم كالعدَمِ، فكأنَّهم انفَرَدوا بالخُسرانِ، فأُطلِقَ عليهم المُركَّبُ المفيدُ قصْرَ الخُسرانِ عليهم؛ وذلك لأنَّهم حقَّت عليهم الشَّقاوةُ العُظْمى الأبَديَّةُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧).

(٣) القَصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمُبالَغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧، ١٨).

## الآيات (٥٢-٥٥)

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَغْشَىٰهُمُ﴾: أي: يُصيبُهم، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا سَفاهةَ المشركينَ وجهْلَهم: ويَستعجِلُك مُشرِكو قَومِك -يا محمَّدُ- بوُقوعِ عذابِ اللهِ عليهم، ولولا قَضاءُ اللهِ بنُزولِ العذابِ عليهم في وقتٍ محدَّدٍ لجاءَهم وقتَ استِعجالِهم به! ولَيأتيَنَّهم عذابُ اللهِ فَجأةً وهم لا يَشعرونَ بوَقتِ مَجيئِه.

يَستعجِلُك مُشرِكو قَومِك بالعذابِ، وإنَّ جهنَّمَ لَمُحيطةٌ بهم وبكُلِّ كافرٍ، يومَ يَغْشاهم عذابُ النَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تحتِ أرجُلِهم، ويقولُ اللهُ للكافرينَ: ذُوقوا جزاءَ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها عطفٌ على جملةِ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[العنكبوت:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٧).

٥٠]؛ استِقصاءً في الرَّدِّ على شُبُهاتِهم، وإبطالًا لتَعِلَّاتِ إعراضِهم النَّاشئِ عن المُكابَرةِ(١).

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾.

أي: ويَطلُبُ منك مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- أن تُعجِّلَ وُقوعَ عَذابِ اللهِ عليهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨].

﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾.

أي: ولولا تَقديرُ اللهِ لِعذابِ المُشرِكينَ بأن يَنزِلَ عليهم في وَقتٍ محدَّدٍ لا يَتقدَّمُ ولا يَتأخَّرُ، لجاءهم في وَقتِ استِعجالِهم إيَّاه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣١١، ٣١٢).

قال البِقاعي: (يجعلون تأخُّرَه عنهم شُبهةً لهم فيما يَزعُمونَ مِن التَّكذيبِ). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٦٢).

وقال ابن عثيمين: (هؤلاء يَستَعجِلونَ بالعذابِ لا أنَّهم يُريدونَ العذابَ، بل يَستعجِلونَه تَحدِّيًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣١١).

وقال الماوردي: (قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أنَّ استعجالَهم له شدةُ عنادِهم لنبيِّه. الثاني: أنَّه استهزاؤُهم بقولِهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢]). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

أي: ولَيأتيَنَّهم عذابُ اللهِ فجأةً دونَ أن يَشعُروا بوَقتِ مَجيئِه[1].

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: ويَستعجِلُك كُفَّارُ قَومِك -يا مُحمَّدُ- بوُقوعِ عذابِ اللهِ عليهم، وإنَّ جهنَّمَ لَمُحيطةٌ بهم وبكُلِّ كافرٍ، فلا بدَّ لهم مِن دُخولِها يومَ القيامةِ[2].

ثُمَّ ذَكَر سبحانَه كيفِيَّةَ إحاطةِ العذابِ بهم، فقالَ[3]:

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾.

أي: إنَّ جَهنَّمَ مُحيطةٌ بالكافِرينَ يومَ يَغشاهم عَذابُها مِن فَوقِهم، ويَغشاهم مِن

---

= (٦/ ٢٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤).

قال ابن عثيمين: (ظاهِرُ الآيةِ الكريمةِ أنَّ هذا في الدُّنيا، ولا فَرقَ بيْنَ أن يكونَ هذا العذابُ على يدِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأصحابِه، أو مِنَ الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣١٤).

وقال ابن عاشور: (وقد حلَّ بهم عذابُ يومِ بدرٍ بَغْتةً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ [الأنفال: ٤٢]، فاستأصَل صناديدَهم يومَئذٍ، وسُقِطَ في أيديهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤).

وقال ابن عطية: (هو الذي ظهَر يومَ بدرٍ، وفي السنينِ السبعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٠).

تحتِ أرجُلِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩، ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦].

﴿وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ويَقولُ اللهُ للكافِرينَ: ذُوقوا جزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن كُفرانٍ وعِصيانٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ * ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٣ - ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أنَّ أفعالَ اللهِ سُبحانَه وتعالى مُقَدَّرةٌ مُنظَّمةٌ، لا تأتي مُصادَفةً بغيرِ عِلْمٍ ولا بغيرِ رُشْدٍ، بل هو سُبحانَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١).
قال الشوكانيُّ: (القائلُ: هو الله سُبحانَه، أو بَعضُ ملائكتِه بأمرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٠).

وتعالى كامِلُ العِلمِ والحِكمةِ[١].

٢- قال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أراد الله تأخيرَه لحِكَمٍ عَلِمها؛ منها: إمهالُهم ليؤمِنَ منهم مَنْ آمَنَ بعدَ الوعيدِ، ولِيَعلموا أنَّ الله لا يَستفِزُّه استِعجالُهم العذابَ؛ لأنَّه حكيمٌ لا يُخالفُ ما قدَّره بحكمتِه، حليمٌ يُمهِلُ عِبادَه[٢].

٣- في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ واضحةٌ؛ لأنَّ العذابَ في هذا الموضعِ لا يَخلو مِن أنْ يكونَ هلاكَ موتٍ أو غيرَه مِن أنواعِ العذابِ، وأيُّهما كان فلا يَتقدَّمُ الأجَلَ المضروبَ! وهم يَزعمون أنَّ الإنسانَ قد يموتُ بغيرِ أجَلِه، ويُنْكِرون أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه ضرَب أجلًا لأحدٍ في هلاكٍ؛ مَخافةَ ما يَلْزَمُهم في الكتابِ السَّابقِ بشَيءٍ مِن الأشياءِ[٣]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ عِظَمُ هذا العذابِ؛ حيثُ إنه يَغلُظُ عليهم مِن ناحيتينِ: مِن العُلُوِّ، ومِن السُّفْلِ؛ لأنَّه يكونُ كالغِطاءِ والوِطاءِ، كأنَّهم يُطبَقُ عليهم بنارٍ، ومُوقَدٌ مِن تحتِهم نارٌ، هذا عَدَا ما يأتيهم مِن كلِّ جانبٍ؛ لقوله تعالى: ﴿لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٤].

٥- في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ تعذيبَ الكفارِ جِسْميٌّ ونَفْسيٌّ: الجِسْميُّ ما يَذوقونه مِن أنواعِ العذابِ، والنَّفْسيُّ ما يحصُلُ لهؤلاء المعذَّبينَ مِن التَّقريعِ والتَّوبيخِ الَّذي فيه الألَمُ النَّفْسيُّ؛ لقولِه: ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، والألَمُ النَّفْسيُّ قد يكونُ أشدَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٦).

مِن الألَمِ الجِسميِّ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إثباتُ العَدلِ؛ حيث كان الجزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه الرَّدُّ على الجبريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ لا يُضافُ إليه العَمَلُ إلَّا على سبيلِ المَجازِ فقط! فعَمَلُ الإنسانِ عندَهم كإحراقِ النَّارِ لِمَا تُحرِقُه؛ فهو شيءٌ مُجبَرٌ عليه بدونِ اختيارِه[٣]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ حُكِيَ استِعجالُهم العذابَ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لاستِحضارِ حالِ استِعجالِهم؛ لإفادةِ التَّعجيبِ منها[٤].

- قولُه: ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُبيِّنةٌ لِمَا أُشِيرَ إليه في الجُملةِ السَّابقةِ، مِن مَجيءِ العذابِ عندَ مَحلِّ الأجلِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أعقَبَ إنذارَهم بعذابِ يومِ بَدرٍ -على قولٍ- بإنذارِهم بالعذابِ الأعظَمِ؛ لأنَّه سُبحانَه قد أعدَّ لهم عذابًا أعظَمَ مِن عذابِ يومِ بَدرٍ، وهو عذابُ جهنَّمَ الَّذي يعُمُّ جميعَهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٤).

وأُعِيدَ لأجْلِه ذِكْرُ استِعجالِهم بالعذابِ مُعترِضًا بيْنَ المُتعاطِفَينِ؛ إيماءً إلى أنَّ ذلك جوابُ استِعجالِهم؛ فإنَّهم استَعجَلوا العذابَ فأُنذِروا بعذابَينِ، أحدُهما أعجَلُ مِن الآخَرِ. وفي إعادةِ ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾ تَهديدٌ وإنذارٌ بأخْذِهم؛ فجُملةُ ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً ﴾؛ فهُما عذابانِ كما هو مُقْتضى ظاهرِ العَطْفِ[1].

- قولُه: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِغايةِ تَجْهيلِهم، ورَكاكةِ رأْيِهم، وفيه دَلالةٌ على أنَّ ما اسْتَعْجلوه عذابُ الآخرةِ، أي: يَستعجِلونك بالعذابِ، والحالُ أنَّ مَحلَّ العذابِ الَّذي لا عذابَ فوقَه مُحِيطٌ بهم، كأنَّه قِيل: يَستعجِلونك بالعذابِ، وإنَّ العذابَ لَمُحيطٌ بهم، أي: سيُحِيطُ بهم، وإنَّما جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ دَلالةً على تحقُّقِ الإحاطةِ واستِمرارِها، أو تَنزيلًا لحالِ السَّببِ مَنزلةَ حالِ المُسبَّبِ؛ فإنَّ الكُفْرَ والمعاصيَ المُوجِبةَ لدُخولِ جهنَّمَ مُحِيطةٌ بهم[2].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ اللَّامُ في (الكافرين) للعهْدِ على وَضْعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، أو للجِنْسِ؛ فيكونُ استِدلالًا بحُكْمِ الجنْسِ على حُكْمِهم[3].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ الإحاطةُ كِنايةٌ عن عدَمِ إفلاتِهم منها، والمرادُ بالكافرينَ المُستعجِلون، واستُحْضِروا بوصْفِ الكافرينَ؛ للدَّلالةِ على أنَّه مُوجِبُ إحاطةِ العذابِ بهم. واستُعْمِلَ اسمُ الفاعلِ (محيط)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٧، ١٩٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٤، ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥).

في الإحاطةِ المُستقبَلةِ، مع أنَّ شأْنَ اسمِ الفاعلِ أنْ يُفِيدَ الاتِّصافَ في زمَنِ الحالِ؛ تَنزيلًا للمُستقبَلِ مَنزِلةَ زمانِ الحالِ؛ تَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه؛ لِصُدورِه عمَّن لا خِلافَ في إخبارِه[1].

٣- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرفٌ لِمُضْمرٍ قد طُوِيَ ذِكْرُه؛ إيذانًا بغايةِ كَثرتِه وفَظاعتِه، كأنَّه قِيلَ: يومَ يَغشاهُم العذابُ -الذي أُشيرَ إليه بإحاطةِ جهنَّمَ بهم- يكونُ مِن الأحوالِ والأهوالِ ما لا يَفِي به المَقالُ. وقِيل: ظرفٌ للإحاطةِ[2].

- وفي قولِه: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ تَصويرٌ للإحاطةِ، وقولُه: ﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ بيانٌ للغِشْيانِ؛ لتَصويرِه تفظيعًا لحالِه -كقولِه: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]- وتأْكيدًا لِمعنى الغِشْيانِ؛ فهو في مَوضعِ الحالِ مِن العذابِ، وهي حالٌ مُؤكِّدةٌ. وقولُه: ﴿وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ احتِراسٌ عمَّا قد يُوهِمُه الغِشْيانُ مِن الفوقيَّةِ خاصَّةً، أي: تُصِيبُهم نارٌ مِن تحتِهم تَتوهَّجُ إليهم وهم فوقَها، والمقصودُ مِن هذه الكِنايةِ أنَّ العذابَ مُحِيطٌ بهم؛ فلذلك لم يُذكَرِ الجانبانِ الأيمَنُ والأيسَرُ؛ لأنَّ الغرَضَ مِن الكِنايةِ قد حصَلَ، والمقامُ مَقامُ إيجازٍ؛ لأنَّه مَقامُ غضبٍ وتَهديدٍ[3].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ التَّقديرُ: ويقولُ اللهُ، وعدَلَ عن ضَميرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩، ٢٠).

التَّكلُّمِ -على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ- على طَريقةِ الالتِفاتِ، أو يُقدَّرُ: ويقولُ الملَكُ المُوكَّلُ بجهنَّمَ[١].

- وقولُه: ﴿وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ جَعَل ذلك عيْنَ ما كانوا يعملونَ؛ لِلمُبالَغةِ بطريقِ إطلاقِ اسمِ المسَبَّبِ على السَّبَبِ، فإنَّ عمَلَهم كان سَبَبًا لعذابِهم[٢]، فهم في الحقيقةِ لا يَذوقون ما كانوا يعملون، إنَّما يَذوقون جزاءَه، لكنَّه مِن بابِ التَّعبيرِ بالسَّببِ عن المسبَّبِ. وأيضًا هو أشدُّ في التَّقريعِ؛ لأنَّ هذا العملَ اختاروه بأنفُسِهم، والجزاءُ لَمْ يختاروه بأنفُسِهم؛ فكأنَّه يقولُ: هذا هو الَّذي اختَرْتُم تمامًا[٣]. وأيضًا لأنَّ الجزاءَ لما كان بقدرِ المجزيِّ أُطلِق عليه اسمُه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١).

## الآيات (٥٦-٥٩)

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٥٨ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٥٩ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم ﴾: أي: لَنُنزِلَنَّهم، ولَنُسْكِنَنَّهم، يُقالُ: بوَّأْتُه منزلًا، إذا أنزلتَه ومكَّنْتَ له فيه، وأصل (بوأ): يدُلُّ على الرُّجوعِ إلى الشَّيءِ[1].

﴿غُرَفًا ﴾: أي: مَنازِلَ عاليةً في الجنَّةِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى عِبادَه المؤمنينَ بالهجرةِ مِن البلدِ الَّذي لا يَقدِرونَ فيه على إقامةِ الدِّينِ، فيقولُ تعالى: يا عِباديَ الَّذين آمَنوا، إنْ ضُيِّقَ عليكم في عبادتِكم في بلدٍ، فهاجِروا إلى مَوضِعٍ تَتمَكَّنونَ فيه مِنَ العبادةِ؛ فإنَّ أرضي واسِعةٌ، فأخلِصوا العبادةَ لي وحْدي.

ويُبَيِّنُ تعالى لهم أنَّ الموتَ سيُدرِكُهم في كلِّ مكانٍ؛ وذلك ترغيبًا لهم في الهجرةِ، فيقولُ: كلُّ نفْسٍ مُفارِقةٌ للحياةِ، ثمَّ تُرجَعونَ إلينا؛ لِنُجازيَكم على أعمالِكم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢).

ويخبرُ سُبحانَه عمَّا أعَدَّه للمؤمنينَ الصادِقينَ مِن حُسنِ الجزاءِ، فيقولُ: والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ لَنُسْكِنَنَّهم في مَنازِلَ عاليةٍ مِن الجنَّةِ، تَجري مِن تحتِ تلك المنازِلِ أنهارُ الجنَّةِ، خالِدينَ فيها أبدًا، نِعْمَ جزاءُ العامِلينَ تلك المنازِلُ العاليةُ، وهم الَّذين صَبَروا على طاعةِ اللهِ والأذى في سبيلِه، وعلى رَبِّهم وَحْدَه يَعتَمِدونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ٥٦ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ حالَ المُشرِكينَ على حِدةٍ، وحالَ أهلِ الكتابِ على حِدةٍ، وجمَعَهما في الإنذارِ، وجعَلَهما مِن أهلِ النَّارِ؛ اشتَدَّ عِنادُهم، وزاد فَسادُهم، وسَعَوا في إيذاءِ المُؤمِنينَ، ومَنَعوهم مِن العبادةِ؛ فقال مُخاطِبًا للمُؤمِنينَ[1]:

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾.

أي: يا عباديَ الَّذين آمَنوا، إن لم تَتمَكَّنوا مِن طاعتي وعِبادتي في بلدٍ، فإنَّ أرضي واسِعةٌ؛ فهاجِروا إلى مَوضِعٍ تتمَكَّنونَ فيه مِن ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٧].

﴿ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٣، ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦١).

أي: فلِي وَحْدي أخلِصوا العبادةَ، وأَظهِروا طاعتي حيثُما يُمكِنُكم مِنَ الأرضِ، ولا تُشرِكوا باللهِ شَيئًا، ولا تُطيعوا في مَعصيتِه أحدًا[١].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمرَ اللهُ تعالى المؤمِنينَ بالمُهاجَرةِ، صعُبَ عليهم تَركُ الأوطانِ ومُفارَقةُ الإخوانِ، فقال لهم: إنَّ ما تَكرَهونَ لا بُدَّ مِن وُقوعِه؛ فإنَّ كُلَّ نفْسٍ ذائِقةُ الموتِ، والموتَ مُفَرِّقٌ الأحبابَ، فالأَولى أن يكونَ ذلك في سَبيلِ اللهِ، فيُجازيكم عليه؛ فإنَّ إلى اللهِ مَرجِعَكم[٢].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى عِبادَه بالحِرصِ على العبادةِ وصِدقِ الاهتِمامِ بها، حتَّى يتطَلَّبوا لها أوفَقَ البلادِ وإنْ بَعُدَت، وشَقَّ عليهم تَركُ الأوطانِ ومُفارَقةُ الإخوانِ- خوَّفَهم بالموتِ؛ لِتَهونَ عليهم الهِجرةُ[٣].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٥٧﴾.

كُلُّ نفْسٍ مخلوقةٍ واجِدَةٌ مَرارةَ الموتِ وكربَه لا مَحالةَ، والموتُ لا بدَّ نازلٌ بكم، وأيْنَما كنتُم يُدرِكُكم، ثمَّ تُرَدُّون بعْدَه إلى اللهِ، فيُجازيكم على أعمالِكم: خَيرِها وشَرِّها؛ فكُونوا في طاعةِ اللهِ وحيثُ أمرَكم؛ فهو خيرٌ لكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٥)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۞ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ الله تعالى بيَّنَ ما يكونُ للمُؤمِنينَ وقتَ الرُّجوعِ إليه، كما بيَّنَ مِن قبْلُ ما يكونُ للكافِرينَ، بقَولِه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1] [العنكبوت: ٥٤].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ لَنُسكِنَنَّهم في الجنَّةِ مَنازِلَ عاليةً[2].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١].

---

= الرسعني)) (٥/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤).

قال الواحدي: (المعنى: لا بُدَّ مِن الموتِ، وكُلُّ أحدٍ مَيِّتٌ أيْنَما كان؛ فلا تُقيموا بدارِ الشِّركِ خَوفًا مِن الموتِ). ((البسيط)) (١٧/ ٥٤٨).

وقال ابنُ عثيمين: (عبَّرَ عن حقيقةِ الموتِ بالذَّوقِ؛ لأنَّ الإنسانَ يَذوقُ مرارةَ الموتِ وألَمَ فِراقِ الحياةِ، إلَّا إذا كان مُؤمِنًا؛ فإنَّه يَذوقُه مِن وجهٍ، لكنْ يَهونُ عليه الأمرُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٥، ٤٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٤٨).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهلَ الجَنَّةِ يَتراءَونَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم، كما يَتراءَونَ الكَوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ في الأُفُقِ[1]، مِنَ المَشرقِ أو المَغربِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم! قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك مَنازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غَيرُهم؟ قال: بلى، والَّذي نفْسي بيَدِه، رِجالٌ آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ))[2].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرو رَضيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ غُرْفةً يُرى ظاهِرُها مِن باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها! فقال أبو موسى الأَشْعَريُّ: لِمَن هي يا رسولَ الله؟ قال: لِمَن أَلانَ الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وبات لله قائِمًا والنَّاسُ نِيامٌ))[3].

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: تجري مِن تحتِ تلك المنازِلِ العاليةِ أنهارُ الجنَّةِ[4].

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ

---

(١) الدُّرِّيَّ: أي: الشَّديدَ الإضاءةِ. الغابِرَ في الأُفُقِ: أي: الذَّاهِبَ الماشيَ الَّذي تدلَّى للغُروبِ وبَعُدَ عن العُيونِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٦٩)، ((شرح القَسْطَلَّاني)) (٥/ ٢٨٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٦) واللفظ له، ومسلم (٢٨٣١).

(٣) أخرجه أحمد (٦٦١٥)، والحاكم (١٢٠٠).

صحَّحه الحاكِمُ على شرط مُسلم، وحسَّن إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٢٨٩)، والهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٥٧)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ١١١)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٦١٧): حسَنٌ صحيحٌ.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٤٧).

قال البِقاعي: (ومِن المعلومِ أنَّه لا يكونُ في موضِعٍ أنهارٌ إلَّا كان به بساتينُ كِبارٌ، وزُروعٌ ورياضٌ وأزهارٌ، فيُشرِفونَ عليها مِن تلك العلالي). ((نظم الدرر)) (١٤/ ٤٦٧).

لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥].

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾.

أي: ماكِثينَ في غُرَفِ الجنَّةِ أبدًا، فلا يُخرَجونَ منها ولا يَموتونَ[١].

﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾.

أي: نِعْمَ جزاءُ العامِلينَ في الدُّنيا بطاعةِ اللهِ؛ تلك المنازِلُ العاليةُ الَّتي يُسكِنُهم اللهُ إيَّاها في جنَّتِه، وتَجري مِن تحتِها الأنهارُ خالِدينَ فيها[٢].

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

أي: الَّذين صَبَروا على طاعةِ اللهِ وإقامةِ دينِه، وتحمَّلوا أذَى المُشرِكينَ، وصَبَروا على مُفارَقةِ أوطانِهم؛ فِرارًا مِنَ الفِتَنِ، وعلى رَبِّهم وَحْدَه يَعتَمِدونَ في أمورِ دينِهم ودُنياهم، فلا يَستعينونَ بغيرِ اللهِ في جهادِ أعدائِهم، وطلَبِ أرزاقِهم، وغيرِ ذلك مِن أمورِهم[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴾ يجِبُ على كُلِّ مَن كان في بلدٍ يُعمَلُ فيها بالمعاصي، ولا يُمكِنُه تغييرُ ذلك: أن يُهاجِرَ إلى حيثُ تتهيَّأُ له العِبادةُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٧، ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ تحقيرٌ لأمرِ الدُّنيا ومخاوفِها، كأنَّ بعضَ المُؤمِنينَ نَظَر في عاقبةٍ تلحَقُه في خروجِه مِن وطنِه أنَّه يموتُ أو يجوعُ أو نحوُ هذا، فحَقَّر اللهُ تعالى شأنَ الدُّنيا، أي: أنتم لا محالةَ مَيِّتونَ ومَحشورونَ إلينا؛ فالبِدارُ إلى طاعةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، والهجرةُ إليه أَوْلى ما يُمتثَلُ[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يُنَبِّهُ على أنَّ الإنسانَ لا ينفَكُّ عن أمرٍ شاقٍّ يَنبغي الصَّبرُ عليه[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أنَّه ينبغي للصَّابرِ أنْ يَعتمِدَ على ربِّه في صَبرِه، وفائدةُ اعتِمادِه في صَبرِه على ربِّه: أوَّلًا: الثَّباتُ على ذلك؛ فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يقولُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. ثانيًا: أنَّ صَبرَه يكونُ عبادةً؛ لأنَّ بعضَ الناسِ يَصْبِرُ ويَتَجَلَّدُ على حَدِّ قولِ الشَّاعرِ:

وتَجلُّدِي للشَّامِتينَ أُرِيهُمُ ... أنِّي لِرَيْبِ الدَّهرِ لا أَتَضَعْضَعُ[3]

فهذا الصَّبرُ لا شكَّ أنَّه خُلُقٌ جميلٌ، لكنَّه لا يُثابُ عليه، وإنَّما يُثابُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٨).

(٣) البيتُ لأبي ذؤيبٍ خويلدِ بنِ خالدٍ الهُذَليِّ، وهو شاعرٌ مخضرمٌ، أدرَك الجاهليَّةَ والاسلامَ. يُنظر: ((معجم الأدباء)) للحموي (٣/ ١٢٧٥، ١٢٧٧).

ريبُ الدهرِ: أي: حَوادثُه وصُروفُه. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٤٤٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢/ ٥٤٧).

لا أَتَضَعْضَعُ: أي: لا أخضَعُ أو أذِلُّ، ولا أتكَسَّرُ للمصيبةِ، فتَشَمتَ بي الأعداءُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٥٠)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢١/ ٤١٥).

الصَّبرِ المقرونِ بالتَّوكُّلِ على اللهِ سُبحانَه وتعالى، فهو الَّذي يكونُ فيه الثَّوابُ والأجرُ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ فيه سؤالٌ: قَولُه تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾ يُفهَمُ منه كَونُهم عابدينَ، فما الفائِدةُ في الأمرِ بالعبادةِ بقَولِه: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾؟

**الجواب: أنَّ فيه فائدتينِ:**

**الفائدة الأولى**: المُداوَمةُ، أي: يا مَن عَبَدْتُموني في الماضي، اعبُدوني في المُستقبَلِ.

**الفائدة الثَّانية**: الإخلاصُ، أي: يا مَن تَعبُدُني، أخلِصِ العمَلَ لي، ولا تعبُدْ غيري[٢].

فالأمرُ الموَجَّهُ لِمَن يَتَّصِفُ به يُرادُ به أمْرانِ؛ هما: تحقيقُه، والاستِمرارُ فيه وتكميلُه، كما لو قلتَ: يا رجُلُ كُنْ رجُلًا؛ أي: اثْبُتْ على هذا، وحَقِّقِ الرُّجولةَ وكَمِّلْها[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ يُشعِرُ بأنَّ عِلَّةَ الأمرِ لهم بالهِجرةِ هي تمكينُهم مِن إظهارِ التَّوحيدِ، وإقامةِ الدِّينِ، وهذا هو المعيارُ في وجوبِ الهِجرةِ مِنَ البلَدِ الَّذي يُفتَنُ فيه المُسلِمُ في دينِه، وتَجري عليه فيه أحكامٌ غيرُ إسلاميَّةٍ[٤]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢).

فالحكمةُ مِن الهجرةِ القيامُ بعبادةِ اللهِ، وعليه إذا تَمَكَّنَ الإنسانُ مِن عبادةِ اللهِ فلا تجبُ عليه الهجرةُ؛ لكنَّ الأفضلَ الهجرةُ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ دليلٌ على جوازِ اختيارِ الأرضِ، والنُّقلَةِ مِن مَوضعٍ إلى موضعٍ؛ فرارًا مِن المعصيةِ، وصيانةً للدِّينِ، وخَلاصًا ممَّن لا يُساعِدُ على الآخرةِ، ويدعو إلى الدُّنيا[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مُقتضى العُبوديَّةِ والإيمانِ أنْ يقومَ الإنسانُ بحقيقةِ ما تقتضيه هذه العبوديَّةُ، بحيثُ لا يَرى لنَفْسِه حقًّا بجانبِ حقِّ اللهِ، بمعنى ألَّا يُقَدِّمَ حُظوظَ نفْسِه على حقوقِ ربِّه، وليس المعنى ألَّا يقومَ بالأمْرَينِ؛ فإنَّ الإنسانَ مأمورٌ بأنْ يقومَ بالأمْرَينِ، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لعبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضيَ الله عنهما: ((إنَّ لِرَبِّك عليك حَقًّا، ولنفْسِك عليك حَقًّا))[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ أنَّ دارَ الإسلامِ تُضافُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّها مكانُ عبادتِه، وهذه الإضافةُ ليست إضافةَ خَلْقٍ وتكوينٍ؛ لأنَّ كلَّ الأراضي للهِ عزَّ وجلَّ، ولكنْ إضافةُ تشريفٍ، وأخَصُّ مِن ذلك إضافةُ المكانِ المُعَيَّنِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، مِثْلُ المساجدِ؛ فهي بيوتُ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

٦- في قولِه تعالى: ﴿أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ إشعارٌ بالوعْدِ مِن الضِّيقِ إلى السَّعةِ، وقد أنجَزَ اللهُ وعْدَه في المدينةِ[٥]؛ ففيه أنَّ المهاجِرَ سيَجِدُ سَعَةً في أرضِ اللهِ، ويَشْهَدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٣).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩٦).

لهذا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]، فهؤلاء تَرَكوا بلادَهم الَّتي ضُيِّقَ عليهم فيها؛ فعَوَّضَهم اللهُ بلادًا لا يَجِدون فيها الضِّيقَ، بل يَجِدونها ذاتَ سَعةٍ، ومَن تَرَكَ شيئًا للهِ عَوَّضَه اللهُ خيرًا منه[١].

٧- في قوله تعالى: ﴿فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ﴾ وُجوبُ الإخلاصِ للهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٨- مُفارَقةُ الجسدِ للرُّوحِ لا تَقَعُ إلَّا بعدَ ألَمٍ عظيم تَذوقُه الرُّوحُ والجسدُ جميعًا؛ فإنَّ الرُّوحَ قد تَعَلَّقَتْ بهذا الجسدِ، وألِفَتْه، واشتدَّتْ إلْفَتُها له، وامتِزاجُها به، ودُخولُها فيه حتَّى صارا كالشَّيءِ الواحدِ؛ فلا يَتفارَقانِ إلَّا بجُهدٍ شديدٍ، وألَمٍ عظيمٍ، ولم يَذُقِ ابنُ آدمَ في حياتِه ألَمًا مِثْلَه، وإلى ذلك الإشارةُ بقولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾[٣]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنَّ الإيمانَ إذا قُرِنَ بالعَمَلِ الصَّالحِ فالمرادُ به ما في القَلبِ، ووجْهُ ذلك: أنَّ العَطفَ يَقتضي المُغايَرةَ، أمَّا إذا ذُكِرَ الإيمانُ وحْدَه فإنَّه يَدخُلُ فيه العَمَلُ الصالحُ[٤].

١٠- مِن اللَّطائفِ: مُقابَلةُ غِشيانِ العذابِ للكفَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تحتِ أرجُلِهم، في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، بغِشْيانِ النَّعيم للمؤمنينَ مِن فوقِهم بالغُرفِ ومِن تحتِهم بالأنهارِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤).

١١- قال الله تعالى: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ لا بصيغةِ الأمرِ؛ لتَفريحِ قُلوبِ المؤمِنينَ، وقال في حَقِّ الكافِرينَ: ﴿ذُوقُواْ﴾ [العنكبوت:٥٥] بصيغة الأمرِ؛ لإيلامِ قُلوبِهم بلَفظِ الأمرِ؛ وذلك لأنَّ لَفظَ الأمرِ يدُلُّ على انقِطاعِ التَّعَلُّقِ بعْدَه؛ فإنَّ مَن قال لأجيرِه: (خُذْ أُجرَتَك) يُفهَمُ منه أنَّه بذلك يَنقَطِعُ تَعَلُّقُه عنه، وأمَّا إذا قال: (ما أتَمَّ أُجرَتَك عندي!) أو (نِعْمَ ما لَك مِن الأجرِ!) فيُفهَمُ منه أنَّ ذلك عِندَه، ولم يَقُلْ هاهنا: خُذوا أُجرَتَكم أيُّها العامِلونَ، وقال هناك: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1] [العنكبوت:٥٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ سَمَّى اللهُ تعالى الثَّوابَ أجرًا؛ مِن بابِ إظهارِ كَرَمِه على عبادِه، كأنَّهم أُجَراءُ، فيَكونُ هذا الثَّوابُ واجبًا وُجوبَ الأُجرةِ للأجيرِ، وهذا لا شكَّ أنَّه مِن نعمةِ اللهِ سُبحانه وتعالى وفَضْلِه، وإلَّا فهو المُتفضِّلُ أوَّلًا وآخِرًا[2].

١٣- في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ؛ حيثُ أضاف العملَ إليهم، فدلَّ هذا على أنَّهم يَعملون باختيارِهم، وإلَّا لَمَا استحَقُّوا الثَّناءَ، فلولا أنَّ الإنسانَ يَعمَلُ باختيارِه ما استَحقَّ أنْ يُثْنَى عليه بالعملِ الصَّالحِ، ولا أنْ يُذَمَّ بالعملِ السَّيِّئِ! ومِن ثَمَّ قالتِ الجبريَّةُ: إنَّ أفعالَ اللهِ غيرُ مُعَلَّلَةٍ! فاللهُ عندَهم يَظْلِمُ مَن شاء؛ وإنْ كان هو الَّذي أَجْبَرَه على العملِ! ويُثِيْبُ مَن شاء؛ وإنْ كان هو الَّذي أَجْبَرَه على العملِ، ولا حكمةَ في ذلك! فهُم لا يُعَلِّلُون أفعالَ اللهِ؛ بل أفعالُ اللهِ عندَهم لِمُجَرَّدِ المشيئةِ[3]!

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ نصَّ على التَّوكُّلِ وإن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٢).

كان داخِلًا في الصَّبرِ؛ لأنَّه يُحتاجُ إليه في كُلِّ فِعلٍ وتَركٍ مأمورٍ به، ولا يَتِمُّ إلَّا به[١].

١٥- ذِكرُ الصَّبرِ والتَّوكُّلِ هنا مناسِبٌ؛ فإنَّ قَولَه تعالى في الآياتِ السَّابِقةِ: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ﴾ كان لبيانِ أنَّه لا مانِعَ مِن العبادةِ، ومَن يُؤذَى في بُقعةٍ فَلْيَخرُجْ منها، فحَصَل النَّاسُ على قِسْمَينِ: قادِرٌ على الخروجِ، وهو مُتوَكِّلٌ على رَبِّه، يَترُكُ الأوطانَ، ويُفارِقُ الإخوانَ. وعاجِزٌ وهو صابِرٌ على تحمُّلِ الأذى، ومُواظِبٌ على عبادةِ اللهِ تعالى[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴾

- قولُه: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ وقَعَ اعتِراضًا بيْنَ الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ: جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وجُملةِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا ﴾[٣] [العنكبوت: ٥٨].

- قولُه: ﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ النِّداءُ بعُنوانِ التَّعريفِ بالإضافةِ؛ لتَشريفِ المُضافِ، ومُصطلحُ القرآنِ: أنَّ (عِباد) إذا أُضِيف إلى ضَميرِ الجلالةِ، فالمرادُ بهم المؤمنونَ غالبًا إلَّا إذا قامَتْ قرينةٌ، كقولِه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَضۡلَلۡتُمۡ عِبَادِي هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [الفرقان: ١٧]؛ وعليه فالوصفُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ لِمَا في المَوصولِ مِن الدَّلالةِ على أنَّهم آمَنوا باللهِ حقًّا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٦٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢).

- قولُه: ﴿فَإِيَّـٰىَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِيَّـٰىَ﴾ فاءُ التَّفريعِ، والفاءُ ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ جوابُ شَرطٍ مَحذوفٍ؛ إذِ المعنى: إنَّ أرْضي واسعةٌ إنْ لم تُخْلِصوا العِبادةَ لي في أرضٍ فأخْلِصُوها في غَيرِها، ثمَّ حُذِفَ الشَّرطُ وعُوِّضَ عنه تَقديمُ المفعولِ، مع إفادةِ تَقديمِه معنَى الاختِصاصِ والإخلاصِ. وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾ إمَّا مُؤكِّدةٌ للْفاءِ الأُولى؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ التَّفريعِ في الفِعلِ وفي مَعمولِه، أي: فلا تَعبُدوا غيري، فاعْبُدونِ، وإمَّا مُؤْذِنةٌ بمَحذوفٍ هو ناصبُ ضَميرِ المُتكلِّمِ تأكيدًا للعِبادةِ، والتَّقديرُ: وإيَّاي اعْبُدوا فاعبُدونِ، وهو أنسَبُ بدَلالةِ التَّقديمِ على الاختصاصِ؛ لأنَّه لَمَّا أفاد الأمرُ بتَخصيصِه بالعِبادةِ، كان ذِكْرُ الفاءِ علامةَ تَقديرٍ على تَقديرِ فِعلٍ مَحذوفٍ قُصِدَ مِن تَقديرِه التَّأكيدُ[1].

- وحُذِفَت ياءُ المُتكلِّمِ بعدَ نُونِ الوِقايةِ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾؛ تخفيفًا، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ جِيءَ بها حثًّا على المُسارَعةِ في الامتثالِ بالأمرِ[3]. وقيل: قولُه: ﴿كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ اعتِراضٌ ثانٍ بيْن الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ؛ قُصِدَ منها تأْكيدُ الوعيدِ الَّذي تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ...﴾ [العنكبوت: ٥٢] إلى آخرِها، وتأكيدُ الوعْدِ الَّذي تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ [العنكبوت: ٥٨]، أي: الموتُ مُدرِكٌ جميعَ الأنفُسِ، ثمَّ يُرجَعون

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥).

إلى اللهِ. وقُصِدَ منها أيضًا تَهوينُ ما يُلاقِيه المؤمنونَ مِن الأذى في اللهِ، ولو بلَغَ إلى الموتِ بالنِّسبةِ لِمَا يَترقَّبُهم مِن فضْلِ اللهِ وثوابِه الخالدِ، وفيه إيذانٌ بأنَّهم يَترقَّبُهم جِهادٌ في سبيلِ اللهِ(١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾ جِيءَ بـ (ثمَّ)؛ لأنَّ بيْنَ الموتِ والمُثولِ بيْنَ يَدَيِ الملِكِ الجبَّارِ في دارِ الجزاءِ تراخيًا، كأنَّه قيل: ثمَّ إنَّكم ميِّتونَ فتُقبَرونَ، ثمَّ تُنشَرونَ، فواصِلون عَقِيبَه إلى الجزاءِ(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وجِيءَ بالموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى وجْهِ بِناءِ الخبرِ، أي: نُبوِّئَنَّهم غُرفًا لأجْلِ إيمانِهم وعمَلِهم الصَّالحِ(٣).

- قولُه: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ إنشاءُ ثَناءٍ وتَعجُّبٍ على الأجْرِ الَّذي أُعْطُوه؛ فلذلك قُطِعَت عن العطْفِ(٤).

- قولُه: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ المخصوصُ بالمدْحِ مَحذوفٌ؛ ثِقَةً بدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: الجنَّةُ(٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢، ٢٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٥).

وقال في سُورةِ (آلِ عمرانَ): ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦]؛ فاختصَّ ما في سُورةِ (آلِ عمرانَ) بالواوِ في قولِه: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾، وخلَّى ما في سُورةِ (العنكبوتِ) منها؛ وذلك لأنَّ الآيةَ في سُورةِ (آلِ عِمرانَ) مَبنيَّةٌ على تَداخُلِ الأخبارِ؛ لأنَّ أوَّلَها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ﴾؛ فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مُبتدأٌ، و﴿جَزَآؤُهُم﴾ مُبتدأٌ ثانٍ، و﴿مَّغۡفِرَةٞ﴾ خبرُ المُبتدأِ الثَّاني، وهو مع خبَرِه خبرُ المُبتدأِ الأوَّلِ، والجزاءُ هو الأجْرُ؛ فكأنَّه قال: أولئك أجْرُهم على أعمالِهم مَحْوُ ذُنوبِهم، وإدامةُ نَعيمِهم، أي: هو ترْكُ المُؤاخَذةِ بالذَّنْبِ، والتَّنعيمُ في جنَّةِ الخُلْدِ؛ فهذا الأجرُ مُفصَّلٌ على كلِّ أجرٍ يُعْطاه عاملٌ على عمَلِه؛ فنُسِقَت الأخبارُ بعضُها على بعضٍ؛ للتَّنبيهِ على النِّعمِ الَّتي هُيِّئَتْ لِرَجاءِ الرَّاجينَ. والخبرُ إذا جاء بعدَ خبَرٍ في مِثلِ هذا التَّفصيلِ، فحقُّه أنْ يُعطَفَ على ما قبْلَه بالواوِ، وكقولِك: هذا الجزاءُ كذا وكذا.

وأمَّا الآيةُ في سُورةِ (العنكبوتِ): فإنَّ ما قبْلَها مَبْنيٌّ على أنْ يُدرَجَ الكلامُ فيه على جُملةٍ واحدةٍ، وهي: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾؛ فقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مُبتدأٌ، وقولُه: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ في مَوضعِ خَبرِه، وهذا الخبرُ يتَّصِلُ به مَفعولانِ؛ الأوَّلُ: قولُه: (هُمْ)، والثَّاني: قولُه: ﴿غُرَفٗا﴾، وقولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حالٌ مِن التَّبوئةِ؛ فلمَّا جُعِلَت هذه الأشياءُ كلُّها في درَجِ كلامٍ واحدٍ، وهو جُملةُ ابتداءٍ وخبَرٍ، واحتمَلَ قولُه: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أنْ يَرِدَ بالواوِ وأنْ يَجيءَ مِن دُونِها؛ اختيرَ مَجيئُها بغيرِ (واوٍ)؛ لِيُشْبِهَ ما تقدَّمَ مِن عَقدٍ بخبَرٍ، لا على سَبيلِ عطْفٍ ونسَقٍ، فجاء بغيرِ (واوٍ). ويَحتمِلُ أنْ يكونَ في مَوضعِ خبرِ مُبتدأٍ، فكأنَّه قال: ذلك نِعمَ أجْرُ العاملينَ، ويكون قولُه: ﴿ذَٰلِكَ﴾

إشارةً إلى ما ذكَرَ اللهُ تعالى مِن إسكانِهم الجنَّةَ؛ فجَرى بلا (واوٍ) مَجرَى ما هو مِن تَمامِ الكلامِ الأوَّلِ؛ فقولُه: ﴿نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ أي: ذلك نِعمَ أجْرُ العامِلينَ، مُشارٌ إليه بالتَّفضيلِ على أُجورِ العامِلينَ؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[1].

٤- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ فيه تَقديمُ المَجرورِ على مُتعلَّقِه مِن قولِه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ للاهتمامِ[2]، وإفادةِ الحصرِ[3].

- وحذفُ مُتعلَّقِ التَّوكُّلِ يُفيدُ أنَّهم مُفَوِّضونَ الأمرَ كلَّه إليه[4].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص:١٠١٤-١٠١٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٣٨٥).

## الآيات (٦٠-٦٤)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَكَأَيِّن ﴾: بمعنى كَمْ، ويُرادُ بها التَّكثيرُ، وهي لَفْظةٌ مرَكَّبةٌ مِن كافِ التَّشبيهِ، و(أيٍّ)، والنُّونُ هي التَّنوينُ، أُثْبِتتْ في الخطِّ على غيرِ القياسِ[١].

﴿يُؤْفَكُونَ ﴾: أي: يُصرَفونَ عن الحَقِّ ويَحيدون، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[٢].

﴿يَبْسُطُ ﴾: أي: يُوَسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[٣]

﴿وَيَقْدِرُ ﴾: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونهايتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٦، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((التبيان لابن الهائم)) (ص: ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب =

﴿ٱلۡحَيَوَانُ﴾: أي: الحياةُ الدَّائِمةُ الَّتي لا زوالَ لها، ولفظُ الحيوانِ مصدرٌ كالحياةِ، وأصلُ (حيي): يدُلُّ على خِلافِ الموتِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى أنَّ هجرةَ مَن هاجرَ لن تُضيِّعَ شيئًا مِن رزقِه الَّذي كتَبه الله له؛ وذلك ترغيبًا لهم في الهجرةِ، فيقولُ: كم مِن دابَّةٍ لا تدَّخِرُ غِذاءَها لِغَدٍ، ولا تَحمِلُ رِزقَها؛ اللهُ يَرزُقُها مِن حيثُ لا تعلَمُ، ويَرزُقُكم أيُّها المهاجِرونَ وإن لم يكُنْ معكم زادٌ ولا نَفقةٌ؛ فلا تَخافوا عَيْلةً ولا إقْتارًا، وهو السَّميعُ لكُلِّ قَولٍ، العَليمُ بكُلِّ فِعلٍ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى ما عليه المشركونَ مِن تناقضٍ، فيقولُ: ولَئِنْ سألْتَهم -يا محمَّدُ-: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، وذلَّل الشَّمسَ والقَمَرَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه خالِقُ هذه الأشياءِ. فكيف يُصرَفونَ عن التَّوحيدِ بعدَ قيامِ الدَّليلِ؟!

ويخبِرُ سبحانَه أنَّ الأرزاقَ جميعَها بيَدِه، فيقولُ تعالى: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضيِّقُه على مَن يشاءُ منهم؛ إنَّ اللهِ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

ولَئِنْ سألْتَهم: مَنِ الَّذي نزَّل مِنَ السَّحابِ مَطَرًا فأحْيا بسَبَبِه الأرضَ مِن بعدِ جَدْبِها؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي فعَلَ ذلك. فقُلْ -يا محمَّدُ: الحمدُ لله على إنزالِه للحُجَجِ، وتَيسيرِه للنِّعَمِ، بل أكثَرُ المُشرِكين لا يَعقِلون!

---

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢).

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حقيقةَ هذه الحياةِ الدُّنيا بالنِّسبةِ للدَّارِ الآخرةِ، فيقولُ: وما هذه الحياةُ الدُّنيا إلَّا لهوٌ ولَعِبٌ، لا بقاءَ لها، وإنَّ الدَّارَ الآخرةَ لَهِيَ دارُ الحياةِ الدَّائمةِ الَّتي لا زوالَ لها ولا انقِطاعَ. لو كان المُشرِكون يَعلَمونَ ذلك لآمَنوا باللهِ وَحْدَه، ولم يُؤْثِروا الدُّنيا الفانيةَ على الآخرةِ الباقيةِ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى الَّذين صَبَروا وعلى ربِّهم يتوكَّلون؛ ذكَرَ ما يُعِينُ على التَّوكُّلِ، وهو بيانُ حالِ الدَّوابِّ الَّتي لا تدَّخِرُ شَيئًا لغدٍ، ويأتيها كُلَّ يومٍ برِزقٍ رَغَدٍ[1].

وأيضًا لَمَّا أمرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن أسْلَم بمكَّةَ بالهجرةِ، خافُوا الفقرَ فقالوا: غُربةٌ في بلادٍ لا دارَ لنا فيها ولا عَقارٌ، ولا مَن يُطْعِمُ. فمَثَّلَ لهم بأكثرِ الدَّوابِّ الَّتي تَتَقَوَّتُ ولا تَدَّخِرُ، ولا تَرَوَّى في رِزْقِها[2].

وهذه الآيةُ عَطفٌ على جُملةِ: ﴿ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ [العنكبوت: ٥٧]؛ فإنَّ اللهَ لَمَّا هوَّنَ بها أمْرَ الموتِ في مَرْضاةِ الله، وكانوا ممَّن لا يَعبَأُ بالموتِ؛ عَلِمَ أنَّهم يقولونَ في أنفُسِهم: إنَّا لا نخافُ الموتَ، ولكِنَّا نخافُ الفَقرَ والضَّيعةَ، واستِخفافُ العَرَبِ بالموتِ سَجِيَّةٌ فيهم، كما أنَّ خَشيةَ المَعَرَّةِ مِن سجاياهم؛ فأعقَبَ ذلك بأنْ ذكَّرَهم بأنَّ رِزقَهم على اللهِ، وأنَّه لا يُضَيِّعُهم، ولِلمُناسَبةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٥).

و(رَوَّى) في الأمرِ: نَظَر فيه وفَكَّر. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٣٢).

قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ [العنكبوت: ٥٦] مِن توقُّعِ الَّذين يُهاجِرونَ مِن مكَّةَ ألَّا يَجِدوا رِزقًا في البلادِ الَّتي يهاجِرونَ إليها، وهو أيضًا مناسِبٌ لِوُقوعِه عَقِبَ ذِكرِ التَّوكُّلِ في قَولِه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1] [العنكبوت: ٥٩].

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾.

أي: هاجِروا وجاهِدوا في اللهِ -أيُّها المُؤمِنونَ- ولا تَخافوا عَيْلةً أو إقتارًا؛ فكثيرٌ مِن الدَّوابِّ ذاتُ حاجةٍ إلى غذاءٍ وطعامٍ وشرابٍ، ولا تُطيقُ جَمْعَه وتحصيلَه، ولا تؤخِّرُ شَيئًا منه لغَدٍ، فيُقَيِّضُ لها اللهُ رِزْقَها على ضَعفِها، ويُيَسِّرُه لها؛ فكذلك يُيَسِّرُ اللهُ لكم أرزاقَكم أيُّها النَّاسُ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا...﴾ [هود: ٦].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو السَّميعُ لأقوالِ عبادِه ودُعائِهم، العليمُ بأعمالِهم ونيَّاتِهم، ومِن ذلك أنَّه يَعلَمُ توكُّلَكم ورَجاءَكم منه الرِّزقَ، كما أنَّه لا تَهلِكُ دابَّةٌ مِن عدَمِ الرِّزقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٨).

ذكر ابن عاشور أنَّه يجوزُ أن يكونَ معنى قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾ أي: تَسيرُ غيرَ حاملةٍ رِزقَها. وأنَّه يجوزُ أن يكونَ المرادُ بحملِ الرِّزقِ: التَّكَلُّفَ له، أي: لا تتكَلَّفُ لرِزقِها، وهذا حالُ مُعظَمِ الدَّوابِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٥).

وقال ابن عثيمين: (ليس بصَوابٍ أن نقولَ: لا تَحمِلُ رِزقَها؛ لِضَعفِها؛ لأنَّ هذا التَّعليلَ معناه أنَّها لا تحمِلُ رِزقَها لأنَّها ضعيفةٌ؛ إمَّا ضعيفةٌ في الإرادةِ، أو ضعيفةٌ في البَدنِ، فليس هذا معنى الآيةِ، بل معناها: لا تَستطيعُ أن تكتَسِبَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٦١، ٣٦٢).

لخفائِها عليه؛ إذ لا يخفَى عليه شيءٌ سُبحانَه[١].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هَوَّن سُبحانَه أمرَ الرِّزقِ بخِطابِه مع المؤمِنينَ بعدَ أن كان قد أبلَغَ في تَنبيهِ الكافِرينَ بإيضاحِ المقالِ، وضَرْبِ الأمثالِ، ولِينِ المحاورةِ في الجِدالِ، ولَمَّا كان المَلِكُ لا يَتمَكَّنُ غايةَ التَّمكُّنِ مِن ترزيقِ مَن في غيرِ مَملكتِه؛ قال[٢]:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾.

أي: ولَئِنْ سألْتَهم[٣] -يا محمَّدُ-: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وذلَّل لكم الشَّمسَ والقَمَرَ يَجْريانِ لِمَنافِعِكم ومَصالِحِكم؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو مَن خلَقَ وسخَّرَ ذلك دونَ مَن سِواه[٤].

﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

أي: فكيف يُصرَفونَ إذَن عمَّن خلَقَ وسخَّرَ ذلك، فيَعدِلونَ عن التَّوكُّلِ عليه، أو يَترُكونَ إخلاصَ العبادةِ له[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٦٩).

(٣) قيل: المرادُ بهم: المُشرِكون. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦).

﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان قد يُشكِلُ على التَّفاوُتِ المذكورِ في الرِّزقِ عندَ كُلِّ مَن لم يَتأمَّلْ حَقَّ التأمُّلِ، فيُقالُ: يَكِلُ الخَلْقَ والرِّزقَ له، فما بالُهم مُتفاوِتينَ في الرِّزقِ؟ قال[1]:

﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ منهم وَفْقًا لِما فيه مَصلحةٌ ونَفعٌ لهم، بحَسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه سُبحانَه؛ فلا يَصُدَّنَّكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عن الهِجرةِ وجِهادِ عَدوِّكم خَوفٌ مِنَ الافتِقارِ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بمصالحِ عبادِه، فيَعلَمُ ما يُصلِحُهم ويُفسِدُهم مِن الغِنى والفَقرِ، ولا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أحوالِهم[3].

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١).

أي: ولَئِنْ سألْتَهم -يا مُحمَّدُ-: مَنِ الَّذي نزَّل مِن السَّحابِ مَطَرًا، فأحيا بسبَبِه الأرضَ اليابِسةَ بالنَّباتِ مِن بعدِ جُدوبِها وقُحوطِها؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي فعَلَ ذلك دونَ غيرِه[1].

﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

أي: وإذا قالوا ذلك فقُلْ -يا محمَّدُ-: الحَمدُ لله[2] على إنزالِه الحُجَجَ، وتَبيينِه الحقَّ مِن الباطِلِ، وتيسيرِه النِّعَمَ[3].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي: بل[4] أكثَرُ المُشرِكينَ بالله لا يَعقِلونَ الآياتِ، فلا يَعرِفونَ الحَقَّ مِن الباطِلِ، ولا يتَّبِعونَه[5]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٢) قال ابن القيم: (الحمدُ إخبارٌ عن مَحاسِنِ المحمودِ، مع حُبِّه وإجلالِه وتعظيمِه). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٨٤).

(٤) قال ابن عثيمين: (﴿بَلْ﴾ هنا للإضرابِ الانتِقاليِّ، يعني: بعدَ أن ثبَت الأمرُ، وقامَتِ الحُجَّةُ، واستحقَّ الباري الحمدَ؛ حينَئذٍ يصِحُّ أن يُسجَّلَ عليهم الجهلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٢).

وقال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأنَّ العُقَلاءَ منهم آمَنوا، لما وضَحَت لهم تلك الحُجَجُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠).

وقيل: المرادُ بالأكثرِ: الجميعُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٣).

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الكافِرينَ يَعترِفونَ بكَونِ اللهِ هو الخالِقَ، وكَونِه هو الرَّزاقَ، وهم يَترُكونَ عِبادتَه، ولا يَترُكونَها إلَّا لِزينةِ الحياةِ الدُّنيا؛ بيَّنَ أنَّ ما يَميلونَ إليه ليس بشَيءٍ، بقَولِه[1]:

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾.

أي: وما هذه الحياةُ الدُّنيا الَّتي يتمَتَّعُ بها النَّاسُ إلَّا شَيءٌ يُتلَهَّى به ويُلعَبُ، لا حَقيقةَ لها ولا ثباتَ، وهي مُنقَطِعةٌ وزائِلةٌ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾.

أي: وإنَّ الدَّارَ الآخرةَ هي دارُ الحياةِ الدَّائِمةِ الباقيةِ، الَّتي لا زَوالَ لها ولا انقِطاعَ، ولا موتَ فيها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠، ٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٣)، =

﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فلو كان المُشرِكونَ يَعلَمونَ ذلك لآمَنوا باللهِ وَحْدَه، ولم يُؤْثِروا الدُّنيا الفانيةَ على الآخرةِ الباقيةِ[1].

---

= ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٥، ٤٧٦).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ يحتملُ أن يكونَ المعنى: وإنَّ حياةَ الدَّارِ الآخرةِ هي الحياةُ؛ لأنَّه لا نقْصَ فيها، ولا نَفادَ لها، أي: فتلك الحياةُ هي الحياةُ، لا الَّتي يَشوبُها ما يَشوبُ الحياةَ في هذه الدَّارِ، فيكونَ ﴿ٱلۡحَيَوَانُ﴾ مَصْدرًا على هذا. ويجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلۡحَيَوَانُ﴾ الَّذي هو خِلافُ المَوَتانِ، وقيل للدَّارِ الآخرةِ: الحيوانُ؛ لأنَّها لا تَزولُ ولا تَبيدُ كما تَبيدُ هذه الدَّارُ وتَزولُ، فتَكونَ الدَّارُ وُصِفَتْ بالحياةِ لهذا المعنى، والمرادُ أهلُها.

ويجوزُ أن يكونَ التَّقديرُ في قولِه: ﴿لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ هي ذات الحيوانِ، أي: دارُ الآخرةِ هي دارُ الحياةِ، كأنَّه لم يَعتَدَّ بحياةِ هذه الدَّارِ حياةً). ((البسيط)) (١٧/ ٥٥٨).

وقال ابن جرير: (﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ يقولُ: وإنَّ الدَّارَ الآخرةَ لَفيها الحياةُ الدَّائمةُ الَّتي لا زوالَ لها، ولا انقطاعَ، ولا موتَ معها). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠).

وقال ابنُ القيم: (قال تعالى ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ والمرادُ: الجنَّةُ عندَ أهلِ التَّفسيرِ، قالوا: وإنَّ الآخرةَ يعني: الجَنَّةَ ﴿لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُ﴾ لَهِيَ دارُ الحياةِ الَّتي لا موتَ فيها). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٩٨).

وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بالدَّارِ الآخرةِ: الجنَّةُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والواحديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٨٩)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٣).

قال السعدي: (وأمَّا الدَّارُ الآخرةُ فإنَّها دارُ الحَيَوانِ، أي: الحياةِ الكاملةِ، الَّتي مِن لَوازِمِها أن تكونَ أبدانُ أهلِها في غايةِ القوَّةِ، وقُواهم في غايةِ الشِّدَّةِ؛ لأنَّها أبدانٌ وقُوًى خُلِقَتْ للحياةِ، وأن يكونَ موجودًا فيها كلُّ ما تَكمُلُ به الحياةُ، وتَتِمُّ به اللَّذَّاتُ؛ مِن مُفرِحاتِ القلوبِ، وشَهَواتِ الأبدانِ؛ مِنَ المآكِلِ، والمَشارِبِ، والمَناكِحِ، وغيرِ ذلك، ممَّا لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قلبِ بَشَرٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ﴾ فيه الإرشادُ إلى النَّظَرِ في مخلوقاتِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أخبَرنا بذلك لأجْلِ أنْ نَتفكَّرَ في هذه الدَّوابِّ الَّتي لا تَحمِلُ رِزقَها[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ الَّذين يَعلَمونَ لا بُدَّ أن يُؤْثِروا الآخِرةَ على الدُّنيا؛ لِما يَعلَمونَه مِن حالةِ الدَّارَينِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تحديدُ النَّسلِ خوفًا مِن ضيقِ الرِّزقِ سوءُ ظَنٍّ باللهِ تعالى؛ فاللهُ سُبحانَه وتعالى إذا خلَقَ خَلْقًا فلا بُدَّ أنْ يَرزُقَه؛ قال الله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فيه إقرارُ المشركين برُبوبيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي هذا أنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ لا يكفي في التَّوحيدِ، وبهذا نَعرِفُ بُطْلانَ تفسيرِ مَن فَسَّرَ الإلهَ بالقادرِ على الاختراعِ! فإنَّ المتكلِّمينَ يُفَسِّرُون الإلهَ بالقادرِ على الاختراعِ، وإذا فَسَّرُوا الإلهَ بهذا التَّفسيرِ لم يكن هناك فَرْقٌ بيْنَ توحيدِهم وبينَ توحيدِ المشركين! وأهلُ السُّنَّةِ يقولون: الإلهُ هو المعبودُ حقًّا، وإنْ كان المعبودُ

---

= (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٣) يُنظر: ((الزواج)) لابن عثيمين (ص: ٣٤).

بالباطلِ يُسمَّى إلهًا؛ لأنه يُعْبَدُ، لكنَّ أُلوهيَّتَه باطلةٌ[١].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ هذا استِدلالٌ على المُشرِكينَ المكَذِّبينَ بتوحيدِ الإلهيَّةِ والعبادةِ، وإلزامٌ لهم بما أثبَتوه مِن توحيدِ الرُّبوبيَّةِ، فهل تجِدُ أضعفَ عقلًا وأقَلَّ بصيرةً ممَّن أتَى إلى حجرٍ، أو قبرٍ ونحوِه، وهو يَدري أنَّه لا ينفعُ ولا يضُرُّ، ولا يَخلُقُ ولا يَرزُقُ، ثمَّ صرَف له خالصَ الإخلاصِ، وصافيَ العُبوديَّةِ، وأشرَكه مع الرَّبِّ الخالقِ الرَّازقِ، النَّافعِ الضَّارِّ[٢]؟!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ حُسنُ مُناظَرةِ القُرآنِ ومُجادَلتِه، وأنَّ مُناظَراتِه ومُجادلاتِه تكونُ مُلزِمةً؛ وجْهُ ذلك: أنَّ إقرارَهم بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ مُلزِمٌ لهم أن يُقِرُّوا بتوحيدِ الألوهيَّةِ، وكمالِ صفاتِه جلَّ وعلا[٣].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾، فيه سؤالٌ: ما الفَرقُ بيْنَ اللَّهوِ واللَّعِبِ حتَّى يَصِحَّ عطفُ أحدِهما على الآخَرِ؟

**الجوابُ: الفرقُ مِن عدَّةِ أوجُهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ:** أنَّ اللَّهْوَ للقلبِ، واللَّعِبَ للجوارحِ؛ ولهذا يُجمَعُ بيْنَهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٠). ويُنظر أيضًا: ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٥٤).

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ كلَّ شغلٍ يَعرِضُ فإنَّ المُكلَّفَ إذا أقبَلَ عليه، لَزِمه الإعراضُ عن غيرِه، ومَن لا يَشغلُه شأنٌ عن شأنٍ هو الله تعالى، فالَّذي يُقْبِلُ على الباطلِ لِلَذَّةٍ يسيرةٍ زائلةٍ فيه، يَلزَمُه الإعراضُ عن الحقِّ، فالإقبالُ على الباطلِ لَعِبٌ، والإعراضُ عن الحقِّ لَهْوٌ، فالدُّنيا (لَعِبٌ) أي: إقبالٌ على الباطلِ، و(لَهْوٌ) أي: إعراضٌ عن الحقِّ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: هو أنَّ المُشتَغِلَ بشَيءٍ يُرجِّحُ ذلك الشَّيءَ على غيرِه -لا مَحالةَ- حتَّى يَشتَغِلَ به؛ فإمَّا أن يكونَ ذلك التَّرجيحُ على وَجهِ التَّقديمِ بأنْ يقولَ: أقَدِّمُ هذا، وذلك الآخَرُ آتي به بَعْدَه، أو يكونَ على وَجهِ الاستِغراقِ فيه والإعراضِ عن غَيرِه بالكُلِّيَّةِ؛ فالأوَّلُ لَعِبٌ، والثَّاني لهوٌ[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ فيه بيانُ حَقَارةِ الدنيا؛ فظاهِرُ الآيةِ أنَّ الدُّنيا لهوٌ ولَعِبٌ على سَبيلِ الإطلاقِ، أو أنَّ ذلك على سبيلِ المُقارَنةِ بالآخِرةِ؛ لِقَولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ غيرُ مَقصودٍ منه إفادةُ الحُكْمِ، بلْ هو مُستعمَلٌ في لازمِ مَعناهُ، وهو الاستِدلالُ على ضَمانِ رِزقِ المُتوكِّلينَ مِنَ المؤمنينَ. وتَمثيلُه للتَّقريبِ بضَمانِ رِزقِ الدَّوابِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٤).

الكثيرةِ الَّتي تَسيرُ في الأرضِ لا تَحمِلُ رِزقَها، والقرينةُ على هذا الاستِعمالِ هو قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ﴾ الَّذي هو استِئْنافٌ بَيانيٌّ لبَيانِ وجْهِ سَوقِ قولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا﴾؛ ولذلك عُطِفَ ﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾ على ضَميرِ دابَّةٍ، والمقصودُ: التَّمثيلُ في التَّيسيرِ والإلهامِ للأسبابِ المُوصِلةِ، وإنْ كانت وسائلُ الرِّزقِ مُختلِفةً(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ هذا الكلامُ عائدٌ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٢]؛ تَعجُّبًا مِن نقائضِ كُفْرِهم(٢).

- وقولُه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ فيه تَخصيصُ تَسخيرِ الشَّمسِ والقمَرِ بالذِّكْرِ مِن بيْنِ مَظاهرِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِمَا في حَرَكتِهما مِن دَلالةٍ على عَظيمِ القُدرةِ، مع ما في ذلك مِن المِنَّةِ على النَّاسِ؛ إذ ناطَ بحَركتِهما أوقاتَ اللَّيلِ والنَّهارِ، وضبْطَ الشُّهورِ والفُصولِ(٣)؛ فالنُّجومُ والكواكبُ ليس فيها مَصالحُ ظاهِرةٌ لنا، وإلَّا فقد سَخَّرَ اللهُ الشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ، فكلُّها مُسَخَّرةٌ، لكنَّ المصالحَ في الشَّمسِ والقَمَرِ أظهَرُ وأبيَنُ(٤).

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ إنكارٌ وتَعجُّبٌ واستبعادٌ مِن جِهَتِه تعالى لتَرْكِهم العَملَ بمُوجبِه، أي: فكيفَ يُصْرَفون عن الإقرارِ بتفرُّدِه تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٣).

في الإلهيَّةِ، مع إقرارِهم بتفرُّدِه تعالى فيما ذكَرَ مِن الخلْقِ والتَّسخيرِ[١]؟!

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ ﴾ تكميلٌ لمَعنى قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡ ﴾ [العنكبوت: ٦٠]؛ لأنَّ الأوَّلَ الكلامُ في المَرزوقِ وعُمومِه، وهذا في الرِّزقِ وبَسْطِه وقَتْرِه. وقولُه: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ﴾ [العنكبوت: ٦١] مُعترِضٌ لتَوكيدِ مَعنى الآيتَينِ، وتعرُّضٌ بأنَّ الَّذين اعتَمَدْتُم عليهم في الرِّزقِ مُقِرُّون بقُدرتِنا؛ كقولِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾[٢] [الذاريات: ٥٨].

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ هذا إلزامٌ آخَرُ لهم بإبطالِ شِرْكِهم، وافتِضاحِ تَناقضِهم؛ فإنَّهم كانوا مُعترِفينَ بأنَّ الرَّازقَ هو اللهُ تعالى، كما قال سُبحانَه: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ ﴾، إلى قولِه: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١]، وإنَّما جاء أُسلوبُ هذا الاستِدلالِ مُخالِفًا لأُسلوبِ الَّذي قبْلَه والَّذي بعْدَه، حيثُ عُدِلَ عن تَركيبِ (ولئنْ سألْتَهم)؛ تفَنُّنًا في الأساليبِ؛ لِتَجديدِ نَشاطِ السَّامعِ. وأُدمِجَ في الاستِدلالِ على انفرادِه تعالى بالرِّزقِ التَّذكيرُ بأنَّه تعالى يَرزُقُ عِبادَه على حسَبِ مَشيئتِه؛ دَليلًا على أنَّه المُختارُ في تَصرُّفِه، وليس ذلك على مَقاديرِ حاجاتِهم، ولا على ما يَبْدو مِن الانتفاعِ بما يُرْزَقونَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧).

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يَبْسُطُ﴾ (يَقْدِرُ)؛ لإفادةِ تجدُّدِ البَسْطِ والقَدْرِ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ؛ لإفادةِ أنَّ ذلك كلَّه جارٍ على حِكمةٍ لا يطَّلِعُ عليها النَّاسُ، وأنَّ اللهَ يَعلَمُ صبْرَ الصَّابرينَ، وجزَعَ الجازِعينَ[2].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أُعِيدَ هنا أسلوبُ السُّؤالِ والجوابِ؛ لِيتَّصِلَ ربْطُ الأدِلَّةِ بعضِها ببعضٍ على قرْبٍ؛ فقد كان المُشرِكون لا يَدَّعونَ أنَّ الأصنامَ تُنزِلُ المطَرَ، كما صرَّحتْ به الآيةُ، فقامَتِ الحُجَّةُ عليهم، ولم يُنكِروها وهي تَقرَعُ أسماعَهم، وأُدمِجَ في الاستِدلالِ عليهم بانفرادِه تعالى بإنزالِ المطَرِ: أنَّ اللهَ أحْيَا به الأرضَ بعدَ مَوتِها، وإنْ كان أكثَرُ المشركينَ يَنسُبون المُسبَّباتِ إلى أسبابِها العاديَّةِ، وقد اعترَفوا بأنَّ سبَبَ الإنباتِ -وهو المطَرُ- مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، فيَلزَمُهم أنَّ الإنباتَ مِن اللهِ على كلِّ تَقديرٍ. وفي هذا الإدماجِ استِدلالٌ تَقريبيٌّ لإثباتِ البعثِ، كما قال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠]، وقال: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾[3] [الروم: ١٩].

- وقد أشار قولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ إلى موتِ الأرضِ، أي: موتُ نَباتِها يكونُ بإمساكِ المطَرِ عنها في فُصولِ الجَفافِ، أو في سِنينِ الجدْبِ؛ لأنَّه قابَلَه بكونِ إنزالِ المطَرِ لإرادتِه إحياءَ الأرضِ بقولِه: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾، فلا جرَمَ أنْ يكونَ موتُها بتَقديرِ اللهِ؛ للعِلْمِ بأنَّ موتَ الأرضِ كان بعدَ حياةٍ سبَقَت مِن نوعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٨، ٢٩).

هذه الحياةِ؛ فصارتِ الآيةُ دالَّةً على أنَّه المُتصرِّفُ بإحياءِ الأرضِ وإماتتِها، ويُعلَمُ منه أنَّه مُحْيِي الحيوانِ ومُميتُه بطريقةِ لَحْنِ الخِطابِ[1]. فانتظَمَ مِن هذه الآياتِ المُفتتَحةِ بقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٦١] إلى هنا، أُصولُ صِفاتِ أفعالِ اللهِ تعالى، وهي: الخلْقُ، والرزقُ، والإحياءُ، والإماتةُ؛ مِن أجْلِ ذلك عُقِّبَت بأمْرِ اللهِ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَحمَدَه بكلامٍ يَدُلُّ على تَخصيصِه بالحمْدِ[2].

- قولُه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إضرابُ انتقالٍ مِن حَمْدِ اللهِ على وُضوحِ الحُجَجِ، إلى ذَمِّ المشركينَ بأنَّ أكثَرَهم لا يَتفطَّنون لنُهوضِ تلك الحُجَجِ الواضحةِ، فكأنَّهم لا عقْلَ لهم؛ لأنَّ وُضوحَ الحُجَجِ يَقْتضي أنْ يَفطُنَ لِنتائجِها كلُّ ذي مُسْكةٍ مِن عقْلٍ؛ فنُزِّلوا مَنزلةَ مَن لا عُقولَ لهم. وإنَّما أُسنِدَ عدَمُ العقْلِ إلى أكثَرِهم دونَ جَميعِهم؛ لأنَّ مِن عُقلائهم وأهلِ الفِطَنِ منهم مَن وضَحَت له تلك الحُجَجُ، فمِنهم مَن آمَنوا، ومِنهم مَن أصَرُّوا على الكفْرِ عِنادًا[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثيةِ): ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الجاثية: ٥]، وقال

---

(١) لحنُ الخطاب: هو أن يكونَ المسكوتُ عنه موافقًا للمنطوقِ في الحُكم، ويُسمَّى أيضًا: فحوى الخطاب. وقيل: إنْ كان أَوْلى بالحُكمِ مِن المنطوقِ به فيُسَمَّى فَحْوى الخطابِ، وإن كان مساويًا فيُسَمَّى لحنَ الخطابِ. وقيل: هو مفهومُ المخالَفةِ. وقيل: هو دَلالةُ الاقتِضاءِ أي: دلالةُ اللفظِ التزامًا على ما لا يستقلُّ الحكمُ إلَّا به، وإن كان اللفظُ لا يقتضيه وضعًا. يُنظر: ((شرح تنقيح الفصول)) للقرافي (ص: ٥٣)، ((نفائس الأصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((المختصر في أصول الفقه)) لابن اللحام (ص: ١٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٠).

في سُورةِ (البقرةِ): ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤]؛ فخُصَّت سُورةُ (العنكبوتِ) بـ (مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾، وأُخلِيَ الموضعانِ الآخَرانِ منها؛ لأنَّه لَمَّا كان سِياقُ الكلامِ هنا في مَساقِ التَّقريرِ، كان المَقامُ مُقْتضيًا للتَّأكيدِ بزِيادةِ (مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾؛ إلْجاءً لهم إلى الإقرارِ بأنَّ فاعلَ ذلك هو اللهُ دونَ أصنامِهم؛ فلذلك لم يكُنْ مُقْتضًى لزِيادةِ (مِن) في آيةِ (البَقرة) وفي آيةِ (الجاثية): ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1] [البقرة: ١٦٤، الجاثية: ٥].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا أنَّه قال هنا: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، وقال في سُورةِ (لُقمانَ): ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]؛ فاختُصَّت الأُولى بقولِه: ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، والثَّانيةُ بقولِه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الأوَّلَ في التَّنبيهِ على البَعثِ والإحياءِ بعدَ الموتِ، فاستُعْمِلَ فيه ﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: لا يَفهَمون عن هذا الفِعلِ مِثْلَه، وفي مِثلِ هذا يُقال: عقَلْتُ كلامَه؛ إذا استَدْرَكْتَ وفهِمْتَ، ومَن تنبَّهَ على الشَّيءِ وعلِمَه بعدَ أنْ لم يكُنْ مُتنبِّهًا عليه، يُستعمَلُ فيه مِثلُ: فطِنَ له، وعقَلَه، وأدْرَكَه، وشعَرَ به، وإنْ صحِبَ كلَّ ذلك العِلْمُ، إلَّا أنَّه عِلْمٌ على وصْفٍ. وليس كذلك الآيةُ في سُورةِ (لُقمانَ)؛ لأنَّ الكفَّارَ فيها مُقِرُّون بأنَّ اللهَ وحْدَه خالقُ السَّمواتِ والأرضِ، وهم يَعلَمون ذلك، ويُثبِتون معه آلهةً، فكأنَّهم لا يَعلَمون؛ فلذلك قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فإذا عَبَدوا الأصنامَ العِبادةَ الَّتي تَحِقُّ لِمَن خلَقَ السَّمواتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩).

ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٢٤، ١٠٢٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٩، ٤٤٠).

والأرضَ بإقرارِهم، فكأنَّهم لم يَعلَموا ما أقَرُّوا به، وثبَتَ معلومًا لهم[١].

- وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه وصَفَ أكثَرَهم هنا بعدَمِ العقْلِ للتَّعريفِ بإفراطِ قُصورِهم حتَّى استحَقُّوا الوصْفَ بصِفاتِ البهائمِ ومَن لا يصِحُّ خِطابُه؛ وذلك أنَّ العقْلَ فُضِّلَ به الإنسانُ، وبه امتيازُه عن البَهيمةِ، ولا يُمكِنُ العِلْمُ بشَيءٍ إلَّا بعدَ حُصولِه والاتِّصافِ به، وهو مَناطُ التَّكليفِ، فإذا فُقِدَ لَحِقَ فاقِدُه بالبهائمِ؛ فإنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ وهو ماءٌ واحدٌ يكونُ عنه مُختلِفُ النَّباتِ، وضروبُ الأشجارِ، وأنواعُ الثَّمرِ المختلِفِ الحالاتِ مع وَحدةِ المادَّةِ؛ فمَن عقَل هذا عقَل وُجودَ الإنسانِ مِن نُطفةٍ واحدةٍ، كوحدةِ الماءِ النَّازلِ مِن السَّماءِ، ثمَّ يكونُ عن تلك النُّطفةِ شكْلُ الإنسانِ، وما يَنْطوي عليه خلْقُه، وتَشتمِلُ عليه جُملتُه، والمادَّةُ واحدةٌ؛ فالتَّلاقي والشَّبهُ بيْنَ الماءَينِ وما يُوجِدُه سُبحانه عنهما أوضَحُ شَيءٍ لِمَن عقَلَ، فكيف يَستبعِدُ العَودةَ مَن يُشاهِدُ ذلك أو يَعتبِرُ به[٢]؟!

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ إشارةُ تَحقيرٍ وقلَّةِ اكتِراثٍ، وكيف لا وهي لا تَزِنُ عندَ اللهِ جَناحَ بعَوضةٍ[٣]؟!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فقد زادَتْ هذه الآيةُ بتَوجيهِ اسمِ الإشارةِ إلى الحَياةِ، ولم تُوَجَّهِ الإشارةُ إلى الحياةِ في سُورةِ (الأنعامِ): ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٢٦-١٠٢٨).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١).

لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ هذه الآيةَ لم يَتقدَّمْ فيها ما يَقْتضي تَحقيرَ الحياةِ؛ فجِيءَ باسمِ الإشارةِ لإفادةِ تَحقيرِها، وأمَّا آيةُ سُورةِ (الأنعام) فتقدَّمَ قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً قَالُواْ يَٰحَسۡرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطۡنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١]، فذكَرَ لهم في تلك الآيةِ ما سيَظهَرُ لهم إذا جاءتْهمُ السَّاعةُ مِن ذَهابِ حَياتِهم الدُّنيا سُدًى(١).

- وأمَّا تقديمُ ذِكْرِ اللَّهوِ هنا في قولِه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾ وذِكْرِ اللَّعِبِ في سُورةِ (الأنعام)؛ فلأنَّ آيةَ سُورةِ (الأنعام) لم تَشتمِلْ على اسمِ إشارةٍ يُقصَدُ منه تَحقيرُ الحياةِ الدُّنيا، فكان الابتداءُ بأنَّها لَعِبٌ مُشيرًا إلى تَحقيرِها؛ لأنَّ اللَّعِبَ أعرَقُ في قِلَّةِ الجَدْوى مِن اللَّهوِ(٢).

- والحَصرُ في قولِه: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞ﴾ حَصْرٌ ادِّعائيٌّ، يُقصَدُ به المُبالَغةُ؛ لأنَّ الأعمالَ الحاصلةَ في الحياةِ كثيرةٌ؛ منها اللَّهوُ واللَّعِبُ، ومنها غيرُهما، والمقصودُ مِن ذِكرِ الحياةِ هنا ما يَحصُلُ فيها ممَّا يُحِبُّها النَّاسُ لأجْلِه، وهو المُلائماتِ. ووجهُ حَصرِ الحياةِ الدُّنيا في اللَّهوِ واللَّعِبِ -مع كَونِ المُلائماتِ كثيرةً، ومنها ما ليس بلَعِبٍ ولَهْوٍ-: أنَّه لَمَّا كان مُعظمُ المُلائماتِ يَستدعي صرْفَ هِمَّةٍ وعَملٍ كانت مُشتمِلةً على شَيءٍ مِن التَّعبِ، وهو منافرٌ؛ فكان مُعظَمُ ما يُحِبُّ الناسُ الحياةَ لأجْلِه هو اللَّهوَ واللَّعِبَ؛ لأنَّه الأغلبُ على أعمالِ النَّاسِ في أوَّلِ العُمُرِ، والغالبُ عليهم فيما بعدَ ذلك، إلَّا مَن آمَنَ وعَمِلَ صالحًا؛ فلذلك وقَعَ القصرُ الادِّعائيُّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٩٤) و(٢١/ ٣١).

وقد تقدم تعريف القصر الادعائي(ص: ٦٠٨).

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: لَهِيَ دارُ الحياةِ الحقيقيَّةِ؛ لامتِناعِ طرَيانِ الموتِ عليها، أو هي في ذاتِها حَياةٌ؛ للمُبالَغةِ، و(الحيوانُ) مَصدرُ (حَيي) سُمِّيَ به ذو الحياةِ، وهو أبلَغُ مِن الحياةِ؛ لِمَا في بِناءِ (فَعَلان) مِن الحركةِ والاضْطِرابِ اللَّازمِ للحياةِ، وهو أَمَارةٌ على قوَّةِ الحَيويَّةِ في الشَّيءِ مِثْلَ الغَليانِ، والمقامُ يَقْتضي المُبالَغةَ؛ لأنَّه واقعٌ في مُقابلِ حياةِ الدُّنيا؛ فكما بُولِغَ في قلَّةِ ثَباتِها وسُرعةِ تَقَضِّيها -حيثُ جُعِلَت لهوًا ولعِبًا تشبيهًا بلَعِبِ الصِّبيانِ، يَلْعَبون ساعةً ثمَّ يتفرَّقون- بُولِغَ في دوامِها وثباتِها[1].

- ولَمَّا أُشِيرَ في هذه الآيةِ إلى الحياةِ الآخرةِ في قولِه: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا﴾ [العنكبوت: ٦٣]، زادَهُ تَصريحًا بأنَّ الحياةَ الآخرةَ هي الحياةُ الحقُّ، وهمْ قد جَهِلوا الحياةَ الآخرةَ مِن أصْلِها؛ فلذلك قال: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّه قال في (الأنعام): ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال هاهنا: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان الحالُ هناك حالَ إظهارِ الحسْرةِ، ما كان المُكلَّفُ يَحتاجُ إلى رادعٍ قَويٍّ، فقال: ﴿ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾، ولمَّا كان هاهنا الحالُ حالَ الاشتغالِ بالدُّنيا، احتاجَ إلى رادعٍ قَويٍّ، فقال: لا حياةَ إلَّا حياةُ الآخرةِ، وهذا كما أنَّ العاقلَ إذا عُرِضَ عليه شَيئانِ، فقال في أحدِهما: هذا خيرٌ مِن ذلك، يكونُ هذا تَرجيحًا فحسْبُ، ولو قال: هذا جيِّدٌ، وهذا الآخرُ ليس بشَيءٍ؛ يكونُ تَرجيحًا مع

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١).

المُبالَغةِ، فكذلك هاهنا بالَغَ؛ لِكَونِ المُكلَّفِ مُتوغِّلًا فيها[١].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّه قال في (الأنعام): ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢]، ولم يقُلْ هاهنا إلَّا: ﴿لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ﴾؛ وذلك لأنَّ الآخرةَ خيرٌ للمُتَّقي فحسْبُ، أي: المُتَّقي عن الشِّركِ، وأمَّا الكافرُ: فالدُّنيا جنَّتُه، فهي خيرٌ له مِن الآخرةِ، وأمَّا كَوْنُ الآخرةِ باقيةً، فيها الحياةُ الدَّائمةُ، فلا يَختَصُّ بقَومٍ دونَ قومٍ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٦).

## الآيات (٦٥-٦٩)

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفُلْكِ﴾: السُّفنِ، وواحِدُه وجَمْعُه بلَفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلك: الاستِدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلْكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[1].

﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾: أي: يُقتَلُ، ويُسلَبُ، ويُنهَبُ، ويُسْبَى، والخطفُ: الأخذُ بسُرعةٍ، وأصلُه: استِلابٌ في خِفَّةٍ[2].

﴿مَثْوًى﴾: أي: مَنزِلٌ، وأصْلُ الثَّوَاءِ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ؛ يُقالُ: ثَوَى يَثْوي ثَواءً[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى حالَ المشركينَ عندَما يَنزِلُ بهم البلاءُ، ويُحيطُ بهم، فيقولُ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

فإذا رَكِبَ المُشرِكون في السَّفينةِ وخافوا الغَرَقَ، أخلَصوا الدُّعاءَ لله وأفرَدوه بالطَّاعةِ؛ ليُخَلِّصَهم مِنَ الهلاكِ، فلمَّا نجَّاهم اللهُ مِن الهلاكِ وأَمِنوا إلى البَرِّ، أشرَكوا باللهِ غيرَه! لِيَجحَدوا نِعمةَ الله عليهم، ولِيَتمتَّعوا حتَّى حينٍ، فسوف يَعلَمونَ عاقِبةَ كُفرِهم!

ثمَّ يُذَكِّرُهم الله تعالى بنِعمةِ الحرَمِ الآمِنِ الَّذي يَعيشونَ في جِوارِه، فيقولُ: أوَلم يَرَ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ أنَّا جعَلْنا مكَّةَ حَرَمًا آمِنًا سالِمًا أهلُه مِن كُلِّ سوءٍ، وغَيرُهم مِنَ العَرَبِ حوْلَهم خائِفونَ في بلادِهم مِنَ القَتلِ والنَّهبِ والسَّبْيِ؟! أفبِالباطِلِ يُؤمِنونَ، وبنِعمةِ الله الَّتي أنعَمَ بها عليهم يَجحَدونَ، فيُشرِكونَ بعِبادةِ اللهِ غَيرَه؟!

ثمَّ يُخبِرُ أنَّه لا أحدَ أظلَمُ ممَّن اختلَقَ على اللهِ كَذِبًا، أو كذَّب بالنَّبيِّ وبالقُرآنِ حينَ جاءَه، أليس في جهنَّمَ مأْوًى للكافرينَ؟!

ثمَّ يَختمُ الله تعالى السُّورةَ ببيانِ عاقبةِ المُجاهِدينَ، فيقولُ: والَّذين جاهَدوا في اللهِ بعَمَلِ مَراضِيه وترْكِ مَساخِطِه لَنُوفِّقنَّهم إلى الطُّرُقِ الموصِلةِ إلى الرِّضوانِ، وإنَّ الله لَمَعَ المُحسِنينَ بالنَّصرِ والهِدايةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا خَتَم الآيةَ السَّابِقةَ بما أفهَمَ أنَّ المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ، والَّتي قَبْلَها بأنَّ أكثَرَهم لا يَعقِلونَ؛ سَبَّب عن ذلك قَولَه: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ

لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، فصَحَّ أنَّهم لا يَعلَمونَ؛ لأنَّهم لا يَعقِلونَ؛ حيثُ يُقِرُّونَ بعَجزِ آلهتِهم ويُشرِكونَها معه! ففي ذلك أعظَمُ التهَكُّمِ بهم(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ مُقِرُّونَ باللهِ إذا سُئِلوا: مَن خَلَقَ العالَمَ، ومَن نزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً؛ ذكَرَ أيضًا حالةً أخرى يَرجِعونَ فيها إلى اللهِ، ويُقِرُّونَ بأنَّه هو الفاعِلُ لِما يُريدُ، وذلك حينَ رُكوبِ البَحرِ، واضْطِرابِ أمواجِه، واختلافِ رياحِه(٢).

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾.

أي: فإذا رَكِبَ المُشرِكونَ في السَّفينةِ، وخافوا الغَرَقَ والهلاكَ، أخلَصوا لله الدُّعاءَ، وأفرَدوا له الطاعةَ؛ لِيُخَلِّصَهم مِن تلك الشِّدَّةِ، وتَرَكوا اللُّجوءَ إلى آلهتِهم وقد عَلِموا أنَّها لا تَنفَعُهم(٣)!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

ممَّن قال: إنَّ المرادَ بالدِّينِ هنا: الدُّعاءُ: الثَّعلبيُّ، وجلال الدين المحلي، والعليمي، وابن عاشور: يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٤/ ١٩٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٢).

قال أبو السعودِ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ يونسَ الآية (٢٢): (﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ مِن غيرِ أنْ يُشرِكوا به شيئًا مِن آلهتِهم، لا مخصِّصينَ للدُّعاءِ به تعالى فقط، بل للعبادةِ أيضًا؛ فإنَّهم بمُجَرَّدِ تخصيصِ الدُّعاءِ به تعالى لا يَكونون مُخلِصينَ له الدِّينَ). ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ١٣٤).

وقال ابن جرير: (﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ يقولُ: أخلَصوا لله عندَ الشِّدَّةِ الَّتي نزلَتْ بهم التَّوحيدَ، وأفرَدوا له الطَّاعةَ، وأذعَنوا له بالعُبودةِ، ولم يَستغيثوا بآلهتِهم وأنْدادِهم، ولكنْ بالله الَّذي خلَقَهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤١).

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

أي: فلمَّا نجَّى اللهُ المُشرِكينَ مِنَ الهلاكِ في البَحرِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ آمِنينَ؛ انقَلَبوا مُشرِكينَ باللهِ غَيرَه، وترَكوا دُعاءَه وعبادتَه وَحْدَه[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَلْيَتَمَتَّعُوا﴾ بإسكانِ اللامِ، وهي لامُ وعيدٍ وتهديدٍ فِي لفظِ الأمرِ، كقَولِه تعالى: ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾[2] [فصلت: ٤٠].

٢- قِراءةُ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُوا۟﴾ بكَسرِ اللَّامِ. قيل: اللامُ هنا للتَّعليلِ، وقيل: هي للأمرِ في معنى الوعيدِ والتَّهديدِ، فتكونُ بمعنى القراءةِ الأولى[3].

﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٥).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٨٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٦١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٥٥).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٨٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٦١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٥٥).

أي: يُشرِكُ أولئك الكُفَّارُ بعدَ إنجائِهم؛ لِيَجحَدوا نِعمةَ اللهِ عليهم، ولِيَتَمتَّعوا بدُنياهم القَصيرةِ الفانيةِ بَقيَّةَ أعمارِهم، ثمَّ لا يكونُ لهم نصيبٌ في الآخِرةِ الدَّائِمةِ الباقيةِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣).

ممَّن اختار أنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ وقولِه: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ للتَّعليلِ، أي: (لام كَيْ): الزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٤).

وقيل: اللَّامُ في ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ للأمرِ على معنى الوعيدِ. والمعنى: لِيَجحَدوا نعمةَ الله، ولِيَتمتَّعوا بباقي عُمُرِهم؛ فسوف يَعلَمونَ عاقبةَ كُفرِهم. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) (٣/ ٤٢٦).

وقال ابنُ جرير: (لام قولِه ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ صلَحَتْ أن تكونَ بمعنَى كَيْ؛ لأنَّها شرطٌ لقَولِه: ﴿إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ باللهِ، كيْ يَكْفُروا بما آتَيْناهم مِن النِّعَم، وليس ذلك كذلك في قولِه: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾؛ لأنَّ إشراكَهم باللهِ كان كفرًا بنعمتِه، وليس إشراكُهم به تَمَتُّعًا بالدُّنيا، وإنْ كان الإشراكُ به يُسَهِّلُ لهم سبيلَ التَّمَتُّعِ بها، فإذْ كان ذلك كذلك، فتوجيهُه إلى معنَى الوعيدِ أَوْلَى وأحَقُّ مِن توجيهِه إلى معنَى: وكَيْ يتَمَتَّعوا). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٢).

وممَّن اختار أنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿لِيَكۡفُرُواْ﴾ لامُ الأمر: البَغَويُّ، وابن الجوزي، وابن جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٦٤).

وقيل: اللَّامُ في كِلا الفِعلَين: لامُ العاقبةِ. والمعنى: ولكِنْ شِرْكُهم هذا بعْدَ نِعمتِنا عليهم بالنَّجاةِ مِن البَحرِ؛ لِيَكونَ عاقبتُه كُفرَ ما آتَيْناهم، ومُقابَلةَ النِّعمةِ بالإساءةِ، ولِيُكمِلوا تمتُّعَهم في الدُّنيا الَّذي هو كتمَتُّعِ الأنعامِ، ليس لهم همٌّ إلَّا بُطونُهم وفُروجُهم. وممَّن قال بهذا: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

وقيل: اللَّامُ هنا للعاقبةِ في حَقِّ هؤلاء المشركين، وأمَّا بالنِّسبةِ إلى تقديرِ الله عليهم ذلك فهي لامُ التَّعليلِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥). =

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسوف يَعلَمُ الكُفَّارُ عاقِبةَ كُفرِهم حين يَرَونَ ما يَلقَونَ مِن عذابِ اللهِ[1]!

ثمَّ ذكَّرهم الله تعالَى بنِعَمِه[2]، فقال:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَّرَ اللهُ تعالى المُشرِكينَ حالَهم عندَ الخَوفِ الشَّديدِ، ورأَوا أنفُسَهم في تلك الحالةِ راجِعةً إلى اللهِ تعالى؛ ذكَّرَهم حالَهم عندَ الأمنِ العَظيمِ؛ فإنَّهم في أخوَفِ ما كانوا دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ ومُعترِفينَ بأنَّ هذه النِّعمةَ لا تكونُ إلَّا مِنَ اللهِ، وفي آمَنِ ما حَصَلوا عليه كَفَروا بالله، وهذا مُتناقِضٌ[3]!

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾.

أي: أوَلَمْ يَرَ هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ أنَّا جعَلْنا بلَدَهم مكَّةَ حَرَمًا مَصونًا

---

= قال ابن كثير: (هذه اللَّامُ يُسَمِّيها كثيرٌ مِن أهلِ العربيَّةِ والتَّفسيرِ وعُلماءِ الأصولِ: لامَ العاقبةِ؛ لأنَّهم لا يَقصِدون ذلك، ولا شَكَّ أنَّها كذلك بالنِّسبةِ إليهم، وأمَّا بالنِّسبةِ إلى تقديرِ الله عليهم ذلك وتقييضِه إيَّاهم لذلك فهي لامُ التَّعليلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥).

قال ابنُ عاشور: (الكفرُ هنا ليس هو الشِّركَ، ولكنَّه كُفْرانُ النِّعمةِ؛ بقرينةِ قَولِه: ﴿بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾؛ فإنَّ الإيتاءَ بمعنى الإنعام، وبقرينةِ تفريعِه على ﴿يُشْرِكُونَ﴾؛ فالعِلَّةُ مُغايِرةٌ للمَعلولِ، وكُفرانُ النِّعمةِ مُسَبَّبٌ عن الإشراكِ؛ لأنَّهم لَمَّا بادَروا إلى شؤونِ الإشراكِ فقد أخَذوا يَكفُرونَ النِّعمةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٦، ٧٧).

مِنَ النَّهبِ والتَّعدِّي، سالِمًا أهلُه مِن كُلِّ سوءٍ، والحالُ أنَّ غيرَهم مِنَ العَرَبِ حوْلَهم يَنْهَبُ بعضُهم بعضًا، ويَقتُلُ بعضُهم بعضًا، ويَسْبي بعضُهم بعضًا[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۞ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۞ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ١ - ٤].

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تبيَّنَ أنَّه لا وجْهَ لِشِرْكِهم ولا لِكُفرِهم هذه النِّعمةَ الظَّاهِرةَ المكشوفةَ، تسَبَّب الإنكارُ في قَولِه[2]:

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾.

أي: أفبِالشِّركِ يُؤمِنُ أولئك القَومُ، وبالنِّعمةِ الَّتي أنعَمَ بها عليهم[3] يَجحَدونَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٣).

قال القرطبي: (فأذكَرَهم اللهُ عزَّ وجلَّ هذه النِّعمةَ؛ لِيُذْعِنوا له بالطَّاعةِ، أي: جعلْتُ لهم حرَمًا آمِنًا أَمِنوا فيه مِنَ السَّبْيِ والغارةِ والقَتلِ، وخلَّصْتُهم في البَرِّ كما خلَّصْتُهم في البحرِ، فصاروا يُشرِكون في البَرِّ، ولا يُشرِكونَ في البحرِ! فهذا تعجُّبٌ مِن تناقُضِ أحوالِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٩).

(٣) قيل: المرادُ بهذه النِّعمةِ: خُصوصُ نعمةِ الأمنِ في مكَّةَ الَّتي اختَصَّهم اللهُ تعالى بها. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥). =

فيَجعَلونَ مَوضِعَ شُكرِهم له شِرْكَهم بعبادةِ غَيرِه[١]!

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أوفَى الله تعالى المشركينَ ما يَستأهِلونَه مِن تَشنيعِ أحوالِهم، وسُوءِ انتظامِ شُؤونِهم، جاء في عَقِبِه بتَذييلٍ يَجمَعُها في أنَّها افتِراءٌ على اللهِ، وتكذيبٌ بالحقِّ، ثمَّ جَزاهم الجزاءَ الأَوفَى اللَّائقَ بحالِهم؛ وهو أنَّ النَّارَ مَثواهُم[٢].

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ﴾

أي: ولا أحدَ أظلَمُ مِمَّن اختلَقَ على اللهِ كَذِبًا، فادَّعى عليه ما لم يَقُلْه وما لا يَرضاه؛ كمَن زعَم أنَّ له شريكًا، أو كذَّب بمُحَمَّدٍ وبالقرآنِ حينَ جاءَه، مِن غيرِ أن يُمهِلَ نَفْسَه للنَّظَرِ والتَّأمُّلِ[٣].

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: أليس في جهنَّمَ مأوًى ومقامٌ دائِمٌ للكافِرينَ[٤]؟!

---

= وقيل: المرادُ: جِنسُ النِّعَمِ الَّتي أُوتوها؛ كإنجائِهم مِن الغرَقِ وغيرِ ذلك. وممَّن قال بذلك: البِقاعي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠٧، ٤٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤)، ((نظم الدرر)) =

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٦٩ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر حالَ المشركينَ الجاحِدينَ للتَّوحيدِ، الكافِرينَ بنِعَمِ الله؛ أرْدَفه بحالِ عبادِه الصَّالحينَ، فقالَ[1]:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾.

أي: والَّذين بَذَلوا جُهْدَهم للعَمَلِ بما يُرضي اللهَ، وتَرْكِ ما يُسخِطُه[2] لَنَدُلَّنَّهم

---

= للبقاعي (١٤/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١١، ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٥).

(٢) ممَّن اختار العمومَ في معنى الجهادِ: الزمخشريُّ، وأبو حيان، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٧/ ٥٦٥).

قال أبو حيان: (﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾: أطْلَق المجاهَدةَ، ولم يُقيِّدْها بمُتعلَّقٍ؛ ليتَناوَلَ المُجاهَدةَ في النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، والشَّيطانِ، وأعداءِ الدِّينِ. وما وَرَد مِن أقوالِ العلماءِ فالمقصودُ بها المثالُ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧).

وقال ابن عطيَّة: (هي قبْلَ الجهادِ العُرفيِّ، وإنَّما هو جهادٌ عامٌّ في دينِ الله، وطلَبِ مَرْضاتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٦).

وقيل: المرادُ: بقولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ أي: مُجاهَدةُ الكفَّارِ والمشركين، وقتالُ أعداءِ الله. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، ومكِّي، والواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرسعني، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ٦٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِنَ السَّلفِ: ابن زيد، وأبو سورة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٠).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا ﴾ يعني: جِهادَ النَّفْسِ؛ مِنَ الصَّبرِ على إذايةِ الكفَّارِ، =

ونُوَفِّقَنَّهم إلى الطُّرُقِ المُوصِلةِ إلينا وإلى رِضْوانِنا في الدُّنيا والآخرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [محمد: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: وإنَّ الله لَمَعَ المُحسِنينَ بالحِفظِ والنَّصرِ، والإعانةِ والهدايةِ[٢].

---

= واحتمالِ الخروجِ عن الأوطانِ، وغيرِ ذلك. وقيل: يعني: القتالَ، وذلك ضعيفٌ؛ لأنَّ القتالَ لم يكن مأمورًا به حينَ نُزولِ الآيةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦).

وقال الألوسي: (﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ في شأنِنا ومِن أجْلِنا ولوجهِنا خالصًا؛ ففيه مُضافٌ مُقدَّرٌ). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٥).

وقال ابن القيم: (قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾، وقال ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾ ... وهذا يُفهَمُ منه معنيان؛ أحدُهما: أنَّ ذلك في مَرْضاتِه وطاعتِه وسَبيلِه، وهذا فيما يفعَلُه الإنسانُ باختيارِه ... والثَّاني: أنَّه بسبَبِه وبجهتِه حَصَل ذلك، وهذا فيما يُصيبُه بغيرِ اختيارِه، وغالِبُ ما يأتي قَولُهم: «ذلك في اللهِ» في هذا المعنى، فتأمَّلْ قَولَه...: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾؛ فإنَّه يترتَّبُ عليه الأذى فيه سُبحانَه، وليست «في» هاهنا للظرفيَّةِ، ولا لمجرَّدِ السَّببيَّةِ، وإن كانت السَّببيةُ هي أصْلَها). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١٣).

قال ابن عاشور: (سُبُلُ الله: الأعمالُ الموصِلةُ إلى رِضاهُ وثَوابِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦، ٣٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١٦).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾[النحل: ١٢٨].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَومًا بارِزًا للنَّاسِ، إذْ أتاه رجُلٌ يمشي... قال: يا رَسولَ اللهِ، ما الإحسانُ؟ قال: الإحسانُ أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ))[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ فلا ينبغي للمؤمنِ أنْ يَستَنَّ بالكافرِ، فلا يَفزَعَ إلى الدُّعاءِ إلَّا عندَ الشَّدائدِ[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ سَفَهُ مَن يَجعَلُ النِّعَمَ سببًا للأشَرِ والبَطَرِ؛ فإنَّ مَن فَعَل ذلك فيه شَبَهٌ مِن هؤلاء المشركينَ؛ لأنَّ الواجبَ على مَن أنعَمَ اللهُ عليه بنِعمةٍ أنْ يَزدادَ عِبادةً للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ العبادةَ مِن الشُّكرِ، فإذا أنعَمَ عليك ربُّك بنِعمةٍ فازدَدْ له شُكرًا[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ دَليلٌ على أنَّ مَعرِفةَ الرَّبِّ في فِطرةِ كُلِّ إنسانٍ، وأنَّهم إنْ غفَلوا في السَّرَّاءِ فلا شَكَّ أنَّهم يَلُوذونَ إليه في حالِ الضَّرَّاءِ؛ فعُلِمَ أنَّ الاشتِغالَ بالدُّنيا هو الصَّادُّ عن كلِّ خَيرٍ، وأنَّ الانقِطاعَ عنها مُعِينٌ للفِطرةِ الأولى المُستَقيمةِ؛ ولهذا نَجِدُ الفُقَراءَ أقرَبَ إلى كلِّ خيرٍ[٤].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٧) واللفظ له، ومسلم (٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٧).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ الحَذَرُ الشَّديدُ ممَّا عليه بعضُ المُسلِمينَ اليومَ، الَّذين ليس لهم هَمٌّ إلَّا التَّمتُّعَ بالدُّنيا فقط؛ فهؤلاء لا يَتحدَّثون إلَّا عن الرَّفاهيةِ والتَّرفيهِ، لكنْ أمراضُ القلوبِ وعِلَلُ وانحرافاتُ القلوبِ قَلَّ أن يَتكلَّموا عنها، مع أنَّها هي الأصلُ، فإذا مَرِضَتِ القُلوبُ، فما الفائدةُ مِن ترفيهِ الأبدانِ؟! ثُمَّ إنْ نَزلَتْ نِقمةٌ مِن اللهِ ازدادوا حَسرةً -والعياذُ باللهِ، فترفيهُ القلوبِ بطاعةِ اللهِ سبحانه وتعالى هو الَّذي فيه الفائِدةُ الحقيقيَّةُ للبدنِ وللقَلبِ ولكُلِّ شَيءٍ؛ قال سُبحانَه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1] [النحل: ٩٧].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ أحرَى النَّاسِ بموافَقةِ الصَّوابِ أهلُ الجهادِ[2].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ مَن أحسَنَ فيما أُمِرَ به أعانه اللهُ، ويسَّرَ له أسبابَ الهدايةِ[3].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ مَن جَدَّ واجتهد في طلَبِ العِلمِ الشَّرعيِّ، فإنَّه يَحصُلُ له مِن الهدايةِ والمَعونةِ على تحصيلِ مَطلوبِه أمورٌ إلهيَّةٌ خارجةٌ عن مَدرَكِ اجتهادِه، وتيسَّر له أمرُ العِلمِ؛ فإنَّ طلَبَ العِلمِ الشَّرعيِّ مِن الجهادِ في سبيلِ الله، بل هو أحَدُ نَوْعَيِ الجهادِ الَّذي لا يقومُ به إلَّا خواصُّ الخَلقِ، وهو الجِهادُ بالقَولِ واللِّسانِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للكُفَّارِ والمُنافِقينَ، والجِهادُ على تعليمِ أمورِ الدِّينِ، وعلى ردِّ نزاعِ المخالِفينَ للحَقِّ، ولو كانوا مِن المُسلِمينَ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ عَلَّقَ سُبحانَه الهِدايةَ بالجهادِ، فأكمَلُ النَّاسِ هدايةً أعظَمُهم جِهادًا، وأفرَضُ الجهادِ: جِهادُ النَّفْسِ، وجهادُ الهوى، وجِهادُ الشَّيطانِ، وجِهادُ الدُّنيا؛ فمَن جاهدَ هذه الأربعةَ في اللهِ هَداه اللهُ سُبُلَ رِضاهُ الموصِلةَ إلى جنَّتِه، ومَن تَرَكَ الجهادَ فاتَه مِن الهُدَى بحسَبِ ما عَطَّلَ مِن الجِهادِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المانِعَ مِن التَّوحيدِ هو الحياةُ الدُّنيا، وبيانُ ذلك هو أنَّهم إذا انقطَع رجاؤُهم عن الدُّنيا رجَعوا إلى الفِطرةِ الشَّاهِدةِ بالتوحيدِ، ووَحَّدوا وأخلَصوا، فإذا أنجاهم وأرجأَهم عادوا إلى ما كانوا عليه مِن حُبِّ الدنيا، وأشرَكوا[٣]!

٢- في قولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أنَّ اللُّجوءَ إلى اللهِ في حالِ الشِّدَّةِ أمرٌ فِطْرِيٌّ؛ بدليلِ أنَّ هؤلاء غَلَبَتْهم فِطْرَتُهم حتَّى دَعَوُا اللهَ وحْدَه مُخلِصينَ له الدِّينَ[٤].

٣- في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٩).

إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أنَّه سبحانَه يَستجيبُ للمُضْطَرِّ، ولو كان كافرًا؛ لِمَوضِعِ اضْطِرارِه وإخلاصِه، وللإخلاصِ عندَه سُبحانَه مَوقِعٌ وذِمَّةٌ، وُجِد مِن مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ[1].

٤- في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أنَّ الكافرَ كان يُوَحِّدُ اللهَ في الشِّدَّةِ والبلاءِ، دونَ النِّعمةِ والرَّخاءِ[2]؛ وعليه فإنَّ إشراكَ السَّابقينَ أهْوَنُ مِن إشراكِ مَن أشرَكَ مِن المتأخِّرينَ مِن هذه الأمَّةِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ المتأخِّرينَ يُشرِكون في الرَّخاءِ وفي الشِّدَّةِ، وأيضًا لا يَدْعونَ اللهَ سبحانه وتعالى، لكنْ يَدْعُون أولياءَهم[3]!

٥- في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ سؤالٌ: أنَّه يُشكِلُ على هذا أنَّ مِثلَ هذه الصِّيغةِ تأتي في سياقاتٍ أخرَى، وقد جَمَعهم اللهُ تعالى في آيةٍ واحدةٍ؛ قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وأيضًا قولُه تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [البقرة: ١١٤]، ووردَ في الحديثِ: ((ومَن أظْلَمُ ممَّن ذَهَب يَخْلُقُ كخَلْقي))[4]!

**والجوابُ مِن أحدِ وجهَينِ:**

**الأوَّل:** أنَّ هذه الأشياءَ جميعَها اشتركَتْ في المرتبةِ العُليا مِن الظُّلمِ؛ فكلُّها في مقامِ الأظْلَميَّةِ، فـ (أفعلُ التَّفضيلِ) لا تمنعُ التَّساويَ، ولكنَّها تمنعُ الزِّيادةَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٣)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٣٨/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٨).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه.

وعلى ذلك فلا مُعارَضةَ ألبتَّةَ بينَ الآياتِ؛ فهؤلاءِ المذكورونَ لا يُوجَدُ أحدٌ أظلَمُ منهم، وهم مُتساوونَ في مرتبةِ الظُّلْمِ.

**الثَّاني**: أنَّ هذه المواضعَ تتخصَّصُ بصِلاتِها، ومعنَى (تتخصَّصُ بصِلاتِها): أنَّ كُلَّ واحدٍ منها تُفَسِّرُه صِلةُ مَوصُولِه، أي: أنَّ كلَّ واحدةٍ تختصُّ ببابِها؛ فيكونُ المعنَى: لا أحدَ مِنَ المُفْتَرِينَ أظلَمُ مِمَّنِ افترَى على اللهِ كَذِبًا، ولا أحدَ مِنَ المانِعِينَ أظلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَساجِدَ اللهِ، ولا أحدَ مِنَ المُعْرِضِينَ أظلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ فأَعرَضَ عنها... إلخ[1].

٦- ذَكَر اللهُ تعالى لفظةَ «السَّبيلِ» في القرآنِ بصيغةِ الإفرادِ، كقولِه سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وذَكَر في مواطنَ أُخرَى في القرآنِ الكريمِ لفظةَ «السَّبيلِ» بصيغةِ الجَمْعِ، كقولِه سبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾، وقولِه: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ﴾ [إبراهيم: ١٢]، ووجْهُ ذلك: أنَّ السَّبيلَ المضافَ إلى اللهِ تعالى تارةً يكونُ مفردًا، وتارةً يكونُ جمعًا؛ لكنْ إذا كان جمعًا غيرَ مضافٍ إلى اللهِ فهو سُبُلُ الضَّلالِ، يُفْرَدُ السَّبيلُ المضافُ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه سبيلٌ واحدٌ يُوصِلُ إلى اللهِ -وهو الإسلامُ-، وتُجْمَعُ سُبُلُ الضَّلالِ؛ لأنَّها متفرِّقةٌ: هذا نصرانيٌّ، وهذا يهوديٌّ، وهذا شيوعيٌّ، وهذا بعثيٌّ، وهذا مُلْحِدٌ، إلى آخِرِه، فهي سُبُلٌ متفرِّقةٌ، وكلُّها ضلالٌ، وما جَمَعَه اللهُ تعالى مِن السَّبيلِ المضافِ إليه؛ فإنَّما يَجْمَعُه لِتَنَوُّعِ العباداتِ الَّتي هي سبيلُ اللهِ عزَّ وجلَّ:

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢، ٥١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١٠).
والوجهُ الأوَّلُ مخرَّجٌ على قاعدةِ: (نفْيُ التَّفضيلِ لا يَستلزِمُ نفْيَ المساواةِ). يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٢٨).

هذه صلاةٌ، وهذه زكاةٌ، وهذا صيامٌ، وهذا حجٌّ، وهذا جهادٌ، وهذا أمرٌ بمعروفٍ ونهيٌ عن منكَرٍ، وهذه دعوةٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فصار جمْعُه له وجهٌ، وإفرادُه له وجهٌ آخَرُ، أمَّا سُبُلُ الضَّلالِ فإنَّها مُتفرِّقةٌ؛ فلا تكونُ إلَّا مجموعةً[1].

٧- المؤمِنُ يُثابُ على الحَسَنةِ بحسنةٍ أُخرَى، فإذا عَمِلَ بعِلمِه وَرَّثَه اللهُ عِلْمَ ما لم يَعلَمْ، وإذا عَمِل بحَسَنةٍ دَعَتْه إلى حَسَنةٍ أخرى؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾، وقال أيضًا: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[2] [محمد: ١٧].

٨- الجِهادُ مُوجِبٌ للهدايةِ الَّتي هي مُحيطةٌ بأبوابِ العلمِ، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾، فجَعَل سُبحانَه لِمَن جاهدَ فيه هِدايةَ جميعِ سُبُلِه تعالى، ولهذا قال الإمامانِ عبدُ اللهِ بنُ المُبارَكِ وأحمدُ بنُ حَنْبَلٍ وغيرُهما: (إذا اختَلَف النَّاسُ في شَيءٍ فانظُروا ماذا عليه أهلُ الثَّغْرِ؛ فإنَّ الحقَّ معهم؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾)[3].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ لم يَقُلْ: «لَنَهْدِيَنَّهم إلى»، بل قال: ﴿سُبُلَنَا﴾، فعَدَّى الهدايةَ بنَفْسِها إلى المفعولِ الثَّاني؛ فيَشْملُ ذلك هِدايةَ الدَّلالةِ وهدايةَ التَّوفيقِ، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ في سورةِ الفاتحةِ: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] لم يَقُلْ: «اهدِنا إلى الصِّراطِ المستقيم»، بل قال: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ﴾؛ فيَشملُ الهِدايةَ إليه، ويَشملُ الهدايةَ فيه؛ فالهدايةُ إليه: الدَّلالةُ إليه، أي: يَدُلُّك على الصِّراطِ المستقيمِ، والهدايةُ فيه: أن يُوَفِّقَك للعَمَلِ في إطارِ هذا الصِّراطِ؛

---

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٤٢).

فقولُه تعالى: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ يَشملُ الأمْرَينِ: هِدايةَ الدَّلالةِ والعِلمِ، وهدايةَ التَّوفيقِ والإرشادِ[1].

١٠- مَن تأمَّل فاتحةَ هذه السُّورةِ ووسَطَها وخاتمَها وجَد في ضِمْنِها أنَّ أوَّلَ الأمرِ ابتلاءٌ وامتحانٌ، ووسَطَه صبرٌ وتَوكُّلٌ، وآخِرَه هدايةٌ ونصرٌ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ هذا انتِقالٌ إلى إلزامِهم بما يَقْتضيهِ دُعاؤهم حينَ لا يُشرِكون فيه إلهًا آخَرَ مع اللهِ، بعدَ إلْزامِهم بمُوجباتِ اعترافاتِهم؛ فإنَّهم يَدْعون أصنامَهم في شُؤونٍ مِن أحوالِهم ويَستنصِرونهم، ولكنَّهم إذا أصابهم هَوْلٌ توجَّهوا بتضَرُّعِهم إلى اللهِ. وإنَّما خصَّ بالذِّكرِ حالَ خَوفِهم مِن هَولِ البحرِ في هذه الآيةِ وفي آياتٍ كثيرةٍ -مِثْلُ ما في سُورةِ (يُونسَ)، وما في سُورةِ (الإسراءِ)-؛ لأنَّ أسفارَهم في البَرِّ كانوا لا يَعْتَريهم فيها خَوفٌ يعُمُّ جميعَ السَّفرِ؛ لأنَّهم كانوا يُسافِرون قوافِلَ، معهم سلاحُهم، ويَمُرُّون بسُبُلٍ يأْلَفونها، فلا يَعترِضُهم خَوفٌ عامٌّ، فأمَّا سَفَرُهم في البحرِ فإنَّهم يَفْرَقون مِن هَولِه، ولا يَدفَعُه عنهم وَفْرةُ عدَدٍ، ولا قوَّةُ عُدَدٍ، فهم يَضَّرَّعون إلى اللهِ بطَلبِ النَّجاةِ، ولعلَّهم لا يَدْعُون أصنامَهم حينَئذٍ، فأمَّا تَسخيرُ المخلوقاتِ فما كانوا يطْمَعون به إلَّا مِن اللهِ تعالى، وأيضًا كان يُخامِرُهم الخَوفُ عندَ رُكوبِهم في البحرِ؛ لقِلَّةِ إلْفِهم برُكوبِه؛ إذ كان مُعظَمُ أسفارِهم في البَراري[3].

- وأفادتِ الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ تَفريعَ ما بعْدَها على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٢).

ما قبْلَها، والمُفرَّعُ عليه مَحذوفٌ، ليس هو واحدًا مِن الأخبارِ المُتقدِّمةِ بخُصوصِه، ولكنَّه مجموعُ ما تدُلُّ عليه قوَّةُ الحديثِ عنهم وما تَقْتضيهِ الفاءُ، والتَّقديرُ: همْ -أي: المُشرِكون- على ما وُصِفوا به مِن الغفلةِ عن دَلائلِ الوَحدانيَّةِ، وإلْغائِهم ما في أحوالِهم مِن دَلائلِ الاعترافِ للهِ بها؛ لا يَضَّرَّعون إلَّا إلى اللهِ، فإذا رَكِبوا في الفُلْكِ دَعَوُا اللهَ؛ فضمائرُ جمْعِ الغائبينَ عائدةٌ إلى المشركينَ[1].

- والرُّكوبُ هو الاستعلاءُ على الشَّيءِ المُتحرِّكِ، وهُو مُتعَدٍّ بنفْسِه كما في قولِه تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا ﴾ [النحل: ٨]، واستعمالُه هاهنا وفي أمثالِه بكلمةِ (في)؛ للإيذانِ بأنَّ المركوبَ في نفْسِه مِن قَبيلِ الأمكنةِ، وحَركتَه قَسْريةٌ غيرُ إراديَّةٍ[2].

- وفي قولِه: ﴿إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴾ جِيءَ بحرْفِ المُفاجأةِ (إذا)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم ابتَدَروا إلى الإشراكِ في حِينِ حُصولِهم في البَرِّ، أي: أسْرَعوا إلى ما اعْتادوهُ مِن زِيارةِ أصنامِهم والذَّبحِ لها[3]!

- وفي تَسميتِهم مُخلِصينَ: ضرْبٌ مِن التَّهكُّمِ[4]؛ فأمَّا على أنَّ المرادَ بالدِّينِ المِلَّةُ فظاهرٌ، وأمَّا على أنَّ المرادَ الطَّاعةُ؛ فلأنَّهم لا يَستمِرُّونَ على هذه الحالِ، فهي قبيحةٌ باعتِبارِ المآلِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٤).

٢- قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾

- الأمرُ في قولِه: ﴿لِيَكْفُرُوا .. وَلِيَتَمَتَّعُوا﴾ على سَبيلِ التَّهديدِ، كقولِه: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠][1]، وذلك على القولِ بأنَّ اللَّامَ فيهما لامُ الأمرِ.

٣- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ هذا تَذكيرٌ خاصٌّ لأهلِ مكَّةَ، وإنَّما خُصُّوا مِن بيْنِ المشركينَ مِن العربِ؛ لأنَّ أهلَ مكَّةَ قُدوةٌ لجميعِ القبائلِ، وأكثَرُ قبائلِ العربِ كانوا يَنتظِرون ماذا يكونُ مِن أهْلِ مكَّةَ، فلمَّا أسلَمَ أهْلُ مكَّةَ يومَ الفتْحِ، أقبَلَتْ وُفودُ القبائلِ مُعلِنةً إسلامَهم. والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، باعتبارِ ما اشتمَلَت عليه تلك الجُملةُ مِن تَقريعِهم على كُفرانِ نِعَمِ اللهِ تعالى؛ ولذلك عُقِّبَت هذه الجُملةُ بقولِه: ﴿وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾[2].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، جُعِلَت نِعمةُ أمْنِ بلَدِهم كالشَّيءِ المُشاهَدِ، فأنكَرَ عليهم عدَمَ رُؤيتِه[3].

- قوله: ﴿حَرَمًا آمِنًا﴾ أي: آمِنًا أهْلُه عمَّا يَسوؤُهم مِن السَّبْيِ والقتلِ، على أنَّ أمْنَه كِنايةٌ عن أمْنِ أهلِه، أو على أنَّ في الكلامِ مضافًا مقدَّرًا[4]. وقيل: لَمَّا أمِنَ كُلُّ مَن دخَله، كان كأنَّه هو نفْسَه الآمِنُ[5]. وقيل: بل الصَّوابُ أنَّ الحرَمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٣، ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٤٧٨).

نفْسَه آمِنٌ؛ ولهذا عصَمه الله سبحانه وتعالى مِن كلِّ أحدٍ(١).

- والمُضارِعُ في المواضعِ الثَّلاثةِ -﴿وَيُتَخَطَّفُ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يَكْفُرُونَ﴾-: دالٌّ على تجدُّدِ الفِعلِ(٢).

- قولُه: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ فيه تَقديمُ الصِّلتَينِ ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ﴾ ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ للاهتِمامِ، أو الاختِصاصِ على طَريقِ المُبالَغةِ(٣)، أو لإظهارِ كَمالِ شَناعةِ ما فَعَلوا(٤).

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

- افتتَحَ تَشخيصَ حالِهم بالاستِفهامِ عن وُجودِ فريقٍ هم أظلَمُ مِن هؤلاء الَّذين افتَرَوا على اللهِ، وكذَّبوا بالحقِّ؛ تَوجيهًا لأذهانِ السَّامعينَ نحْوَ البحثِ هلْ يَجِدون أظلَمَ منهم؟ حتَّى إذا أجادوا التَّأمُّلَ، واستَقْرَوْا مَظانَّ الظُّلَمةِ، واستَعْرَضوا أصنافَهم؛ تَيَقَّنوا أنْ ليس ثَمَّةَ ظُلْمٌ أشَدُّ مِن ظُلْمِ هؤلاء(٥).

- وتَقْييدُ الافتِراءِ بالحالِ المُوكِّدةِ في قولِه: ﴿كَذِبًا﴾؛ لِزيادةِ تَفظيعِ الافتِراءِ؛ لأنَّ اسمَ الكَذِبِ مُشتهَرُ القُبْحِ في عُرْفِ النَّاسِ، وإنَّما اختيرَ الافتِراءُ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم يَتعمَّدونَ الاختلاقَ تعمُّدًا لا تُخالِطُه شُبْهةٌ(٦).

- وتَقْييدُ تَكذيبِهم بالحقِّ بقولِه: ﴿لَمَّا جَآءَهُۥٓ﴾؛ لإدماجِ ذَمِّ المُكذِّبين بنُكرانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٥).

نِعمةِ إرسالِ الحقِّ إليهم الَّتي لم يَقْدُروها قَدْرَها، وكان شأْنُ العُقلاءِ أنْ يَتطلَّبوا الحقَّ، ويَرحَلوا في طَلبه، وهؤلاء جاءهم الحقُّ بيْنَ أيدِيهم فكذَّبوا به! وأيضًا فإنَّ (لَمَّا) التَّوقيتيَّةَ تُؤْذِنُ بأنَّ تَكذيبَهم حصَلَ بِدارًا عندَ مَجيءِ الحقِّ، أي: دونَ أنْ يَترُكوا لأنفُسِهم مُهلةَ النَّظرِ[1].

- وجُملةُ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وتَقريرٌ لها؛ لأنَّ في جُملةِ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ﴾ إلى آخرِها، إيذانًا إجماليًّا بجزاءٍ فَظيعٍ يَترقَّبُهم، فكان بَيانُه بمَضمونِ جُملةِ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾، وهو بألفاظِه ونظْمِه يُفيدُ تمَكُّنَهم مِن عذابِ جهنَّمَ؛ إذ جُعِلَت مَثْواهم؛ فالمَثْوى: مكانُ الثَّواءِ، والثَّواءُ: الإقامةُ الطَّويلةُ والسُّكْنى. وعُلِّق ذلك بعُنوانِ الكافرينَ؛ للتَّنبيهِ على استِحقاقِهم ذلك لأجْلِ كُفْرِهم[2].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ تَقريرٌ لِثَوائِهم في جهنَّمَ، أي: أَلَا يَستوجبونَ الثَّواءَ فيها، وقد فعَلوا ما فعَلوا مِنَ الافتراءِ على اللهِ تعالى، والتَّكذيبِ بالحقِّ الصَّريحِ؟! أو إنكارٌ واستِبعادٌ لاجترائِهم على ما ذُكِرَ مِن الافتراءِ والتَّكذيبِ مع عِلْمِهم بحالِ الكَفَرةِ، أي: أَلَمْ يَعْلَموا أنَّ في جهنَّمَ مَثْوًى للكافرينَ حتَّى اجْتَرؤوا هذه الجَراءةَ[3]؟! فالهمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ، وأصْلُها: إمَّا الإنكارُ بتَنزيلِ المُقِرِّ مَنزِلةَ المُنكِرِ؛ لِيَكونَ إقرارُه أشَدَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٥، ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٨).

لُزومًا له، وإمَّا أنْ تكونَ للاستفهامِ، فلمَّا دخَلَت على النَّفي أفادَتِ التَّقريرَ؛ لأنَّ إنكارَ النَّفْيِ إثباتٌ للمَنْفيِّ، وهو إثباتٌ مُستعمَلٌ في التَّقريرِ على وجْهِ الكِنايةِ. وهذا تَقريرٌ لمَنْ يَسمَعُ هذا الكلامَ، وجُعِلَ كَوْنُ جهنَّمَ مَثْواهم أمْرًا مُسَلَّمًا معروفًا -بحيث يُقِرُّ به كلُّ مَن يُسْألُ عنه- كِنايةً عن تَحقُّقِ المَغَبَّةِ على طَريقةِ إيماءِ الكِنايةِ[1].

- والتَّعريفُ في (الكافرين) تعريفُ العهْدِ، أي: لهؤلاء الكافرينَ، وهم الَّذين ذُكِروا مِن قبْلُ بأنَّهم افتَرَوا على اللهِ كذِبًا، وكذَّبوا بالحقِّ، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ الإتيانَ بضَميرِهم، فعُدِلَ عنه إلى الاسمِ الظاهرِ؛ لإحضارِهم بوصْفِ الكُفْرِ[2].

٥- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ختَمَ تَوبيخَ المشركينَ وذَمَّهم بالتَّنويهِ بالمؤمنينَ؛ إظهارًا لمَزيدِ العِنايةِ بهم، فلا يَخْلو مَقامُ ذَمِّ أعدائِهم عن الثَّناءِ عليهم؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ الأعداءَ غيظًا وتَحقيرًا. والَّذين جاهَدوا في اللهِ هم المؤمنونَ الأوَّلونَ؛ فالمَوصولُ بمَنزلةِ المُعرَّفِ بلامِ العهْدِ. وجِيءَ بالمَوصولِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ الصِّلةَ سببُ الخَبرِ[3].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ؛ فقد أطلَقَ المُجاهَدةَ ولم يُقيِّدْها بمَفعولٍ؛ لِيَتناوَلَ كلَّ ما يجِبُ مُجاهَدتُه؛ مِن النَّفْسِ الأمَّارةِ بالسُّوءِ، والشَّيطانِ، وأعداءِ الدِّينِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لصافي (٢١/ ٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٦١).

- وفي قولِه: ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ إيماءٌ إلى تَيسيرِ طَريقِ الهجرةِ الَّتي كانوا يتأَهَّبون لها أيَّامَ نُزولِ هذه السُّورةِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تَذييلٌ للآيةِ، مُؤكَّدٌ بكَلِمتَي التَّوكيدِ (إنَّ) واللَّام[٢]. وإنَّما جِيءَ بها مَعطوفةً؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُهِمَّ مِن سَوقِها هو ما تَضمَّنَتْه مِن أحوالِ المؤمنينَ، فعُطِفَت على حالتِهم الأُخرى، وأفادَتِ التَّذييلَ بعُمومِ حُكْمِها[٣].

- والمُرادُ بـ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جميعُ الَّذين كانوا مُحسنينَ، أي: كان عمَلُ الحَسناتِ شِعارَهم، وهو عامٌّ. وفيه تَنويهٌ بالمؤمنينَ بأنَّهم في عِدادِ مَن مَضى مِن الأنبياءِ والصَّالحينَ، وهذا أوقَعُ في إثباتِ الفوزِ لهم ممَّا لو قِيل: فأولئك المُحسِنون؛ لأنَّ في التَّمثيلِ بالأُمورِ المُقرَّرةِ المشهورةِ تَقريرًا للمَعاني[٤].

- وهذه خاتمةٌ شريفةٌ للسُّورةِ؛ لأنَّها مُجاوِبةٌ لِمُفْتَتَحِها، ناظرةٌ إلى فَريدةِ قِلادتِها ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]، لامِحةٌ إلى واسطةِ عِقْدِها ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وهي في نفْسِها جامعةٌ فاذَّةٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٠٦).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّالثُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ الرَّابعُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الرُّومِ

# الفهرس

# الفهرس


سورةُ القَصَصِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ١٣

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ..... ١٣

مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٤

موضوعاتُ السُّورةِ..... ١٤

الآيات (١-٦) ..... ١٦

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٦

المعنى الإجماليُّ..... ١٦

تَفسيرُ الآياتِ..... ١٧

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٤

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٢٥

بلاغةُ الآياتِ ..... ٣١

الآيات (٧-١٣)..... ٣٧

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٧

المعنى الإجماليُّ..... ٣٨

تَفسيرُ الآياتِ..... ٤٠

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٤٩

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٤٩

بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٦

الآيات (١٤-١٧) ..... ٦٥

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٥

المعنى الإجماليُّ..... ٦٦

تَفسيرُ الآياتِ..... ٦٧

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٧٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٧٤

بلاغةُ الآياتِ ..... ٧٧

الآيات (١٨-٢١) ..... ٨٢

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٨٢

المعنى الإجماليُّ..... ٨٣

تَفسيرُ الآياتِ..... ٨٤

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٩٠

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٩١

بلاغةُ الآياتِ ..... ٩٢

الآيات (٢٢-٢٥) ..... ٩٥

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩٥

المعنى الإجماليُّ..... ٩٧

تَفسيرُ الآياتِ..... ٩٧

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٠٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٠٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٠٨
الآيات (٢٦-٢٨) ..... ١١٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١١٣
المعنى الإجماليُّ ..... ١١٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١١٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١١٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٢٥
الآيات (٢٩-٣٥) ..... ١٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٢٩
المعنى الإجماليُّ ..... ١٣٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٣٣
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٤٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٤٩
الآيات (٣٦-٤٢) ..... ١٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٥٥
المعنى الإجماليُّ ..... ١٥٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٥٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٦٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٦٨
الآيات (٤٣-٤٦) ..... ١٧٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٧٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٨٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٨٥
الآيات (٤٧-٥٠) ..... ١٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٩٤
المعنى الإجماليُّ ..... ١٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٠١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٠٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٠٧
الآيات (٥١-٥٦) ..... ٢١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢١٥
المَعنى الإجماليُّ ..... ٢١٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢١٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٢٦

بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٣١
الآيات (٥٧-٥٩) ..... ٢٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٣٦
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٣٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٣٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٤٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٤٥
الآيات (٦٠-٦٧) ..... ٢٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٥٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٥١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٥٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٦١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٦٣
الآيات (٦٨-٧٠) ..... ٢٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٧٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٧٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٧٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٨٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٨٦
الآيات (٧١-٧٥) ..... ٢٩١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٩١
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٩١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٩٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٩٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٠٠
الآيات (٧٦-٧٨) ..... ٣١١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣١١
المعنى الإجماليُّ ..... ٣١١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣١٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٢٢
بلاغُة الآياتِ ..... ٣٢٦
الآيات (٧٩-٨٤) ..... ٣٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٣٢
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٣٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٣٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٣٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٤٣

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٤٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٥٠
الآيات (٨٥-٨٨) ..... ٣٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٥٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٥٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٦٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٧٠
سورةُ العَنكَبوتِ
أسماءُ السُّورةِ ..... ٣٨١
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٣٨١
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣٨١
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٣٨١
الآيات (١-٧) ..... ٣٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٨٣
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٨٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٨٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٩٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٩٩
الآيتان (٨-٩) ..... ٤٠٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٠٧
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٤٠٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٤١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤١٢
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٤١٣
الآيتان (١٠-١١) ..... ٤١٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٤١٦
تَفسيرُ الآيتينِ ..... ٤١٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٤٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٢٠
بلاغةُ الآيتينِ ..... ٤٢٣
الآيتان (١٢-١٣) ..... ٤٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٢٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢٧
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٤٢٨
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٤٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٣١
بلاغةُ الآيتينِ ..... ٤٣٢
الآيتان (١٤-١٥) ..... ٤٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٣٦

المعنى الإجماليُّ ..... ٤٣٦
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٤٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٣٩
بلاغةُ الآيتينِ ..... ٤٤١
الآيات (١٦-١٨) ..... ٤٤٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٤٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٤٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٤٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٤٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٥٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٥٣
الآيات (١٩-٢٣) ..... ٤٥٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٥٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٥٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٥٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٦٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٧١
الآيات (٢٤-٢٧) ..... ٤٧٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٧٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٨٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٤٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٨٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٩٢
الآيات (٢٨-٣٠) ..... ٤٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٩٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٠٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٥٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥٠٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٠٦
الآيات (٣١-٣٥) ..... ٥١٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥١٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٥١١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥١٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٢١
الآيتان (٣٦-٣٧) ..... ٥٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٢٩
المَعنى الإجماليُّ ..... ٥٢٩
تَفسيرُ الآيتينِ ..... ٥٣٠

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٣٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٥٣٣
بلاغةُ الآيتينِ ..... ٥٣٤
الآيات (٣٨-٤٠) ..... ٥٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٣٨
المَعنى الإجماليُّ..... ٥٣٩
تَفسيرُ الآياتِ..... ٥٣٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٥٤٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٤٨
الآيات (٤١-٤٤) ..... ٥٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٥٢
المعنى الإجماليُّ..... ٥٥٢
تَفسيرُ الآياتِ..... ٥٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٥٥٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٦٣
الآيات (٤٥-٤٧) ..... ٥٦٨
المعنى الإجماليُّ..... ٥٦٨
تَفسيرُ الآياتِ..... ٥٦٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٥٧٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٨٦
الآيات (٤٨-٥٢) ..... ٥٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٩٤
المعنى الإجماليُّ..... ٥٩٤
تَفسيرُ الآياتِ..... ٥٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٠٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٦٠٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٠٨
الآيات (٥٣-٥٥) ..... ٦١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦١٥
المعنى الإجماليُّ..... ٦١٥
تَفسيرُ الآياتِ..... ٦١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٦١٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٢٠
الآيات (٥٦-٥٩) ..... ٦٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٢٤
المعنى الإجماليُّ..... ٦٢٤
تَفسيرُ الآياتِ..... ٦٢٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٦٣١

بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٣٥
الآيات (٦٠-٦٤) ..... ٦٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٤٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٦٤١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦٤٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٦٤٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٥١
الآيات (٦٥-٦٩) ..... ٦٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٦١
المعنى الإجماليُّ ..... ٦٦١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦٦٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٦٧٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٧٧
الفهرس ..... ٦٨٧

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة الروم وسورة لقمان وسورة السجدة)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف


**المجلد الرابع والعشرون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الروم وسورة لقمان وسورة السجدة)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثالث والعشرون - سورة الروم ولقمان والسجدة/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ - الظهران، ١٤٤٢ هـ

٥٧٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٨-٩٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن - سورة الروم - تفسير ٢- القرآن - سورة لقمان - تفسير

٣- القرآن - سورة السجدة - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٥٧٩٥

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٥٧٩٥

ردمك: ٨-٩٠-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الرُّومِ

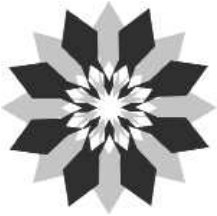

# سورةُ الرُّومِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (الرُّومِ)[١]:

فعن أبي رَوحٍ رَضِيَ الله عنه ((أنَّه صلَّى مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصُّبحَ فقرَأ بالرُّومِ، فترَدَّد في آيةٍ، فلمَّا انصرَف قال: إنَّه يَلْبِسُ علينا القرآنَ أنَّ أقوامًا منكم يُصَلُّون معنا لا يُحْسِنونَ الوُضوءَ، فمَن شَهِد الصَّلاةَ معنا فلْيُحْسِنِ الوُضوءَ))[٢].

## بيانُ المَكِّي والمَدَنيِّ:

سورةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ[٣]، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٤].

---

(١) سُمِّيت سورةَ الرُّومِ؛ لِما فيها مِن ذِكرِ غَلَبةِ الرُّومِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (١٥٨٧٤) واللَّفظُ له، وابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنف)) (٣٤).

حَسَّنه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٢٢٢)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٢٥/ ٢١١). وقال المُنْذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ١٣٨): رجاله محتجٌّ بهم في الصَّحيح. وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٢٤٦): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ.

وبنحوه أخرجه النَّسائيُّ (٩٤٧)، وأحمد (١٥٨٧٣) من حديثِ شَبيبٍ أبي رَوْحٍ، عن رجُلٍ من أصحاب النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

حسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٩٤٧)، وحسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((التفسير)) (٦/ ٣٢٩)، وشعيب الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (٢٥/ ٢٠٩).

(٣) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا قولَه تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧]؛ فمَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٦).

(٤) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٥)،((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٤٨).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أبرزِ مقاصِدِ سورةِ الرُّومِ:**

١- بَسْطُ دَلائلِ وحدانيَّةِ الله، وإبطالُ الشِّركِ[١].

٢- تقريرُ البَعثِ والجزاءِ في الآخرةِ[٢].

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أبرزِ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتْها سورةُ الرُّومِ:**

١- الإخبارُ عن حربِ الرُّومِ والفُرسِ وانتهائها بانتصارِ الفُرسِ، والوَعدُ بأنَّ الرُّومَ سيَنتصرونَ بعدَ ذلك عليهم.

٢- حثُّ الكُفَّارِ على التَّفَكُّرِ فيما خلَقَ اللهُ مِن السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، والسَّيرِ في الأرضِ؛ لِيَنظُروا كيف كان مَصيرُ الأُمَمِ قَبْلَهم، وتوعُّدُهم بسوءِ المصيرِ.

٣- ذِكرُ قَضيَّةِ الخَلقِ والإعادةِ، وأنَّها لله وحْدَه، وإليه يُرجَعُ جميعُ المخلوقاتِ.

٤- بيانُ بَعضِ ما يجري يومَ القيامةِ، ومصيرِ المؤمنينَ والكُفَّارِ.

٥- تَعدادُ بَعضِ آياتِ الله العَظيمةِ الَّتي تدُلُّ على وَحدانيَّتِه تعالى.

٦- الحَثُّ على التَّمَسُّكِ بالدِّينِ الحقِّ واتِّباعِه، والنَّهيُ عن اتِّباعِ طَريقِ المُشركين.

٧- الإخبارُ عن أحوالِ النَّاسِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، والدَّعوةُ إلى التَّعاطُفِ والتَّراحمِ، والتَّحذيرُ مِنَ الرِّبا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١).

٨- الإخبارُ بأنَّ اللهَ تعالى هو مَن يَخلُقُ ويَرزُقُ، ويُحيي ويُميتُ، وأنَّ ما يتَّخِذُه المُشرِكونَ مِن شُرَكاءَ لا يَملِكونَ مِن ذلك شَيئًا.

٩- الإخبارُ عن ظُهورِ الفَسادِ في البَرِّ والبَحرِ، وتوضيحُ أنَّ سَبَبَ ذلك هو ما كَسَبتْه أيدي النَّاسِ.

١٠- تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسَبَبِ تكذيبِ قَومِه، بأنَّ هذا هو حالُ الأنبياءِ، وأنَّ الله انتقَمَ اللهُ مِنَ الَّذين أجرَموا، وتكفَّل بنَصرِ المؤمِنينَ.

١١- بيانُ أطوارِ حياةِ الإنسانِ الرَّئيسةِ، وذِكرُ بعضِ أهوالِ يومِ القيامةِ.

١٢- الإخبارُ عن تعنُّتِ الكفَّارِ، وأمْرُ الله تعالى نبيَّه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصَّبرِ والثَّباتِ.

## الآيات (١-٧)

﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالحروفِ المقطَّعةِ؛ لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ إذ تُبرِزُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بالإتيانِ بشَيءٍ مِن مِثْلِه، مع أنَّه مرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّة الَّتي يَتحدَّثون بها.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن المعركةِ الَّتي دارَتْ بيْنَ الفُرسِ والرُّومِ وانتهَتْ بهزيمةِ الرُّومِ، ويُبشِّرُ المؤمنينَ بانتصارِ الرُّومِ بعدَ ذلك، فيقولُ: غَلَب أهلُ فارسَ المُشركونَ الرُّومَ مِن أهلِ الكِتابِ في أدنى الأرضِ، والرُّومُ مِن بعدِ هزيمتِهم مِنَ الفُرسِ سيَنتَصِرونَ عليهم خِلالَ بِضْعِ سِنينَ، لله وحْدَه الحُكمُ والتَّقديرُ والأمرُ النَّافِذُ مِن قَبلِ انتصارِ الرُّومِ على الفُرسِ، ومِن بَعدِ انتصارِهم عليهم، ويومَ يَنتَصِرُ الرُّومُ على الفُرسِ يفرَحُ المؤمِنونَ بنَصرِ الله؛ ينصُرُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عبادِه، وهو الغالِبُ القاهِرُ لأعدائِه، الرَّحيمُ بعِبادِه المؤمنينَ.

وعَدَ اللهُ المؤمِنينَ بانتصارِ الرُّومِ على الفُرسِ وعْدًا لا بُدَّ مِن وُقوعِه، لا يُخلِفُ اللهُ وعْدَه، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ. يَعلَمونَ ما يَتعلَّقُ بشُؤونِ دُنياهم فحَسْبُ، وهم عن أمرِ آخرتِهم غافِلونَ، لا يُفَكِّرونَ في شأنِها، ولا يَعمَلونَ لأجْلِها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ الَّتي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها(١).

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢﴾.

أي: غَلَب أهلُ فارسَ المُشرِكونَ، الرُّومَ أهلَ الكِتابِ، وقَهَروهم(٢).

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣﴾.

﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: انتصَر الفُرسُ على الرُّومِ في أدنى الأرضِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٤٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

قال ابن كثير: (نزلَتْ هذه الآياتُ حينَ غلَب سابورُ ملكُ الفُرسِ على بلادِ الشَّامِ وما والاها مِن بلادِ الجزيرةِ وأقاصي بلادِ الرُّومِ، واضطَرَّ هِرَقلَ ملكَ الرُّومِ حتَّى ألْجأه إلى القُسْطَنْطينيَّةِ، وحاصَره فيها مدَّةً طويلةً، ثمَّ عادَتِ الدَّولةُ لهِرَقْلَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٧).

وقال القاسمي: (اتَّفَق المؤرِّخون مِنَ المسلمينَ وأهلِ الكتابِ على أنَّ مَلِكَ فارسَ كان غزا بلادَ الشَّامِ، وفتَحَ دِمَشْقَ وبيتَ المَقْدِسِ: الأُولى سنةَ ٦١٣، والثَّانية سنةَ ٦١٤. أي: قبْلَ الهجرةِ النَّبويَّةِ بسَبْعِ سِنينَ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٤٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣). =

﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾.

أي: والرُّومُ مِن بعدِ أن غلَبَهم أهلُ فارسَ سيَغلِبونهم(١).

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤﴾.

﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾.

---

= قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾: في أقرَبِ أرضِ الرُّومِ إلى بلادِ العربِ. ومِمَّن قال بهذا القول: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٣).

وقال البيضاوي: (﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ أرضِ العرَبِ منهم؛ لأنَّها الأرضُ المعهودةُ عندَهم، أو في أدنى أرضِهم مِن العربِ، واللَّامُ بدَلٌ مِن الإضافةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠١). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٦، ٢٤٧).

وقيل: المعنى: أقرَبُ أرضِ الشَّامِ إلى بلادِ فارسَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٥٨، ٤٦٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧٠).

وقال الألوسي: (المرادُ بالأرضِ أرضُ الرُّومِ على أنَّ «أل» نائبةٌ مَنابَ الضَّميرِ المُضافِ إليه، والأقربيَّةُ بالنَّظرِ إلى أهلِ مكَّةَ؛ لأنَّ الكلامَ معهم. أو المرادُ بها أرضُ مكَّةَ ونواحيها؛ لأنَّها الأرضُ المعهودةُ عندَهم، والأقربيَّةُ بالنَّظرِ إلى الرُّومِ. أو المرادُ بالأرضِ أرضُ الرُّومِ؛ لذِكْرِهم، والأقربيَّةُ بالنَّظرِ إلى عدُوِّهم -أعني: فارسَ- لحديثِ المَغلوبيَّةِ. وقد جاء مِن طرُقٍ عديدةٍ أنَّ الحربَ وقعتْ بيْنَ أَذْرِعاتَ وبُصْرَى. وقال ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّيُّ: بالأُرْدُنِّ وفِلَسْطينَ. وقال مجاهدٌ: بالجزيرةِ، يعني: الجزيرةَ العُمَريةَ، لا جزيرةَ العربِ). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٥٨، ٤٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٤).

قوله: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ غَلَب مصدرٌ، يقال: غَلَبْتُه غَلْبًا وغَلَبَةً وغَلَبًا، وهي مِن بابِ إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ، أي: غلبةِ غيرِهم عليهم، وإنَّما أضاف الغلبةَ إليهم؛ لاتصالِها بهم، واتصالُ الغلبةِ بهم وُقوعُها عليهم، والمعنى: وهم من بعدِ غلبِ فارسَ إيَّاهم سيغلبون فارسَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٩٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦١١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥).

أي: سيقَعُ انتِصارُ الرُّومِ على الفُرسِ فيما بيْنَ ثلاثِ سِنينَ إلى تِسعٍ[١].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في قَولِ الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، قال: ((غُلِبَت وغَلَبت؛ كان المُشرِكون يُحِبُّون أن يظهَرَ أهلُ فارسَ على الرُّومِ؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهلُ أوثانٍ، وكان المُسلِمونَ يُحِبُّونَ أن يظهَرَ الرُّومُ على فارسَ؛ لأنَّهم أهلُ كتابٍ، فذَكَروه لأبي بكرٍ، فذكره أبو بكرٍ لِرَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: أمَا إنَّهم سيَغْلِبونَ، فذكره أبو بكرٍ لهم، فقالوا: اجعَلْ بيْنَنا وبيْنَك أجَلًا؛ فإنْ ظهَرْنا كان لنا كذا وكذا، وإنْ ظهَرْتُم كان لكم كذا وكذا، فجعَل أجَلًا خمسَ سِنينَ، فلمْ يَظهَروا، فذكَر ذلك للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ألَا جعَلْتَه إلى دُون -قال: أُراه العَشر- قال الرَّاوي: والبِضعُ ما دونَ العَشرِ- قال: ثمَّ ظهَرَت الرُّومُ بعدُ. قال: فذلك قَولُه تعالى: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۞ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤، ٥]))[٢].

وعن نِيَارِ بنِ مُكْرَمٍ الأسلَميِّ رَضِيَ الله عنه، قال: (لَمَّا نزلت: ﴿الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ١٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

قال الواحدي: (أجمَع المفسِّرونَ أنَّ الرُّومَ غَلَبت فارسَ بعدَما أخبَرَ الله بهذه الآيةِ أنَّهم سيَغلِبونَ، في السَّنةِ السَّابعةِ). ((البسيط)) (١٨/ ١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٠، ٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (اتَّفَقت الرِّواياتُ على أنَّ غَلَبَ الرُّومِ للفُرسِ وقَع بعدَ مُضِيِّ سَبْعِ سِنينَ مِن غَلَبِ الفُرسِ على الرُّومِ، الَّذي نزلتْ عندَه هذه السُّورةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٠).

ونسَبه الثعلبيُّ إلى قولِ أكثرِ المفسِّرينَ. ينظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٣١٩٣)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٣٨٩)، وأحمد (٢٤٩٥).

قال التِّرمذيُّ: حسَنٌ صحيحٌ غريب. وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٩٣)، وقال ابن القيم في ((الفروسية)) (ص: ٩٢، ٢٠٧): إسنادُه على شرطِ الصَّحيحِ. وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦٨).

ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾ [الروم: ١ - ٣]، فكانت فارسُ يومَ نزلت هذه الآيةُ قاهرينَ للرُّوم، وكان المُسلِمونَ يُحِبُّون ظُهورَ الرُّوم عليهم؛ لأنَّهم وإيَّاهم أهلُ كتابٍ، وفي ذلك قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الروم: ٤، ٥]، فكانت قُرَيشٌ تُحِبُّ ظُهورَ فارِسَ؛ لأنَّهم وإيَّاهم ليسوا بأهلِ كتابٍ، ولا إيمانٍ ببعثٍ، فلمَّا أنزَل الله تعالى هذه الآيةَ خرَج أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ يَصيحُ في نواحي مكَّةَ: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾ [الروم: ١ - ٤]، قال ناسٌ مِن قُرَيشٍ لأبي بكرٍ: فذلك بيْنَنا وبيْنَكم، زَعَم صاحِبُك أنَّ الرُّومَ ستَغلِبُ فارِسَ في بِضعِ سِنينَ، أفلا نُراهِنُك على ذلك؟ قال: بلى -وذلك قبْلَ تحريمِ الرِّهانِ- فارتَهَن أبو بكرٍ والمُشرِكونَ وتَواضَعوا الرِّهانَ، وقالوا لأبي بكرٍ: كم تجعَلُ؟ البِضعُ ثلاثُ سِنينَ إلى تسعِ سِنينَ، فسَمِّ بيْنَنا وبيْنَك وسَطًا تنتهي إليه، قال: فسَمَّوا بيْنَهم ستَّ سِنينَ، قال: فمَضَتِ السِّتُّ سِنينَ قبْلَ أن يَظهَروا، فأخَذ المُشرِكون رَهنَ أبي بكرٍ، فلمَّا دخلَتِ السَّنةُ السَّابِعةُ ظَهَرت الرُّومُ على فارِسَ، فعاب المُسلِمونَ على أبي بكرٍ تَسميةَ ستِّ سِنينَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ ﴾، قال: وأسلَمَ عندَ ذلك ناسٌ كثيرٌ)[1].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٩٤) واللفظ له، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٧/ ٤٤٢).

قال الترمذي: صحيحٌ حسَنٌ غريبٌ. وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣١٩٤).

وقال ابن القيم: (قولُه: «وذلك قبل تحريمِ الرِّهانِ» مِن كلام بعضِ الرُّواةِ؛ ليس مِن كلامِ أبي بكرٍ، ولا مِن كلامِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ). ((الفروسية)) (ص: ٩٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذه المُراهَنةُ هي مِثلُ المراهَنةِ في سِباقِ الخَيلِ، والرَّميِ بالنُّشَّابِ، وكانت جائزةً؛ لأنَّها مَصلحةٌ للإسلامِ؛ لأنَّ فيها مَصلحةَ بيانِ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما أخبَرَ به مِن أنَّ الرُّومَ سيَغلِبونَ بعدَ ذلك، وفيها ظُهورُ أقرَبِ الطَّائِفَتينِ إلى المسلِمينَ على =

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾.

أي: لله وَحْدَه الحُكمُ والتَّدبيرُ والتَّقديرُ والتَّصَرُّفُ في خَلقِه بما يَشاءُ مِن قَبلِ أن تَغلِبَ الرُّومُ فارِسَ، ومِن بعدِ غَلَبَتِهم لهم؛ فغَلَبةُ أحَدِهما الآخَرَ واقِعةٌ بأمرِ اللهِ وقَضائِه وقَدَرِه، فحينَ غَلَبتْ فارِسُ الرُّومَ كان الأمرُ لله، وحينَ تَغلِبُ الرُّومُ فارِسَ يكونُ الأمرُ لله، فاللهُ وحْدَه هو الَّذي يَحكُمُ في خَلقِه بما يَشاءُ، ويَنصُرُ مَن يَشاءُ[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ...﴾.

---

= أبعَدِهما، وهذا فَعَله الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، وأقَرَّه عليه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يُنكِرْه عليه، ولا قال: هذا مَيسِرٌ وقِمارٌ، والصِّدِّيقُ أجَلُّ قَدْرًا مِن أن يقامِرَ؛ فإنَّه لم يَشرَبِ الخَمرَ في جاهليَّةٍ ولا إسلامٍ، وهي أشهى إلى النُّفوسِ مِن القِمارِ! وقد ظَنَّ بَعضُهم أنَّ هذا قِمارٌ، لكِنَّ فِعْلَه هذا كان قبْلَ تحريمِ القِمارِ، وهذا إنَّما يُقبَلُ إذا ثبت أنَّ مِثلَ هذا ثابتٌ فيما حَرَّمه اللهُ مِن المَيسِرِ، وليس عليه دليلٌ شرعيٌّ أصلًا، بل هي مجرَّدُ أقوالٍ لا دليلَ عليها، وأقْيِسةٌ فاسِدةٌ يَظهَرُ تناقُضُها لِمَن كان خبيرًا بالشَّرعِ). ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (٤/ ٦٩).

وقال ابن القيم: (وَقد اختلف أهلُ العلمِ فِي إحكامِ هذا الحديثِ ونسخِه على قولَيْنِ: فادَّعت طَائِفَةٌ نسخَه بنهيِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الغرَرِ والقمارِ... وإلى هذا القولِ ذهَب أصحابُ مالكٍ وَالشَّافعيُّ وأحمدُ. وَادعت طائِفَةٌ أنَّه مُحكمٌ غيرُ منسوخٍ وأنَّه ليس معَ مدَّعي نسخِه حجَّةٌ يتَعَيَّنُ المصيرُ إليها... وإلى هذا ذهب أصحابُ أبي حنيفةَ وشيخُ الإسلامِ ابْنُ تيميةَ). ((الفروسية)) (ص: ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦، ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٦).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ حينَ غلَبَت الرُّومُ فارِسَ، وهذا قولُ الجميعِ). ((البسيط)) (١٨/ ١٣).

أي: ويَومَ يَنتَصِرُ الرُّومُ على الفُرسِ يَفرَحُ المؤمِنونَ بنَصرِ اللهِ للرُّومِ أهلِ الكِتابِ على الفُرسِ المُشرِكينَ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٧).

قال السمعاني: (إنَّما فَرِحوا بذلك؛ لصِدقِ وَعدِ الله تعالى، ولأنَّهم قالوا: كما نصَرَ اللهُ أهلَ الكتابِ على غيرِ أهلِ الكتابِ، كذلك ينصُرُنا عليكم). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٩٧).

وقال الزمخشري: (يفرَحُ المؤمِنونَ بنَصرِ الله وتغليبِه مَن له كتابٌ على مَن لا كتابَ له، وغَيظِ مَن شَمِت بهم مِن كُفَّارِ مكَّةَ. وقيل: نَصْرُ الله: هو إظهارُ صِدقِ المؤمنينَ فيما أخبَروا به المُشرِكينَ مِن غَلَبةِ الرُّوم. وقيل: نَصرُ الله أنَّه ولَّى بعضَ الظَّالِمينَ بَعضًا، وفرَّقَ بيْنَ كَلِمِهم حتَّى تفانَوا وتناقَصوا، وفَلَّ هؤلاءِ شوكةَ هؤلاء، وفي ذلك قوَّةٌ للإسلامِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٧).

وقال ابن عطية: (ويشبِهُ أنْ يعلِّلَ ذلك بما يَقتضيه النظرُ مِن محبةِ أنْ يغلبَ العدوُّ الأصغرُ؛ لأنَّه أيسرُ مؤنةً، ومتى غلَبَ الأكبرُ كثُر الخوفُ منه، فتأمَّلْ هذا المعنى معَ ما كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ترجَّاه مِن ظهورِ دينِه وشرعِ الله الذي بعَثه به، وغلبتِه على الأُمم، وإرادةِ كفَّارِ مكَّةَ أنَ يرميَه الله بملكٍ يستأصِلُه ويريحُهم منه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦).

وقال ابن كثير: (قد كانت نُصرةُ الرُّوم على فارسَ: يومَ وَقعةِ بَدرٍ، في قولِ طائفةٍ كبيرةٍ مِن العُلَماءِ؛ كابنِ عبَّاسٍ، والثَّوريِّ، والسُّدِّيِّ، وغيرِهم.. وقال آخَرون: بل كان نُصرةُ الرُّوم على فارِسَ: عامَ الحُدَيبيَةِ؛ قاله عِكْرِمةُ، والزُّهْريُّ، وقَتادةُ، وغيرُهم.. والأمرُ في هذا سَهلٌ قريبٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٣، ٣٠٤).

وقال ابن القيم: (وهذه الغلبةُ مِن الرومِ لفارسَ كانت عامَ الحُديبيةِ بلا شكٍّ، ومَن قال: كانت عامَ وقعةِ بدرٍ فقد وهِم؛ لما ثبت في «صحيح البخاري»...). ((الفروسية)) (ص: ٢٠٧، ٢٠٨).

وقال السعدي: (أي: يَفرَحونَ بانتصارِهم على الفُرسِ، وإن كان الجميعُ كُفَّارًا، ولكِنَّ بَعضَ الشَّرِّ أهوَنُ مِن بَعضٍ، ويَحزَنُ يومَئذٍ المُشرِكونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

وقال ابن عاشور: (﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: بنَصرِ اللهِ إيَّاهم على الَّذين كانوا غَلَبوهم مِن قَبلُ، وكان غَلَبُهم السَّابِقُ أيضًا بنَصرِ اللهِ إيَّاهم على الرُّومِ؛ لحِكمةٍ اقتَضَت هذا التعاقُبَ، وهي تهيئةُ أسبابِ انتِصارِ المُسلِمينَ على الفريقَينِ إذا حاربوهم بعدَ ذلك؛ لِنَشرِ دينِ اللهِ في بلادِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٧).

﴿... يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾.

﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: يَنصُرُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عبادِه على مَن يشاءُ منهم، وَفْقَ ما تَقتَضيه حِكمَتُه سُبحانَه، كما نَصَرَ فارِسَ على الرُّومِ، ثمَّ الرُّومَ على فارِسَ، ثمَّ نَصَر المؤمِنينَ على فارِسَ والرُّومِ الكافِرين[١].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الغالِبُ القاهِرُ القَويُّ المُنتَقِمُ مِن أعدائِه بلا مانِعٍ يمنَعُه مِن ذلك، وهو الرَّحيمُ بعبادِه المُؤمِنينَ[٢].

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٦﴾.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وَعَدَ اللهُ المؤمِنينَ بانتِصارِ الرُّومِ على الفُرسِ وَعدًا لا مَحالةَ مِن وُقوعِه[٣].

﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾.

أي: لا يُخلِفُ اللهُ ما وَعَد به عِبادَه، سواءٌ فيما يَتعلَّقُ بنَصرِ الرُّومِ أو بِغَيرِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((البسيط)) الواحدي (١٨/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٢).

قال ابن كثير: (لأنَّ اللهَ قد جرتْ سُنَّتُه أن يَنصُرَ أقرَبَ الطَّائِفَتينِ المقتَتِلَتينِ إلى الحَقِّ، ويجعَلَ لها العاقِبةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥).

مِن الأُمورِ، فما أخبَرَ بوقوعِه لا بدَّ مِن تحقُّقِه؛ لِكَمالِ قُدرتِه، وكَمالِ صِدقِه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ ما لله مِن صِفاتِ الكَمالِ، ومِن ذلك أنَّ وَعْدَه حَقٌّ لا يُخلَفُ؛ فهم يَجهَلونَ حِكمَتَه وقُدرَتَه، وصِدقَ خَبَرِه، ويُكَذِّبونَ بآياتِه[2].

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾.

﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: أكثَرُ النَّاسِ يَعلَمونَ ما يَتعلَّقُ بشُؤونِ دُنياهم فحَسْبُ؛ كعُمرانِهم، وتدبيرِ مَعايشِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٢، ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٣، ٣٤).

قال البقاعي: (﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: ليس لهم عِلمٌ أصلًا؛ ولذلك لا نظَرَ لهم يؤدِّي إلى أنَّه وعدٌ، وأنَّه لا بدَّ مِن وقوعِ ما وعَدَ به في الحالِ الَّتي ذكرَها؛ لأنه قادرٌ وحكيمٌ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧).

قال ابنُ عثيمين: (أثبت لهم العِلمَ، ولكِنَّه عِلمٌ قاصرٌ من وجهَينِ:

الوجهُ الأوَّلُ: أنَّهم يَعلَمونَ ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا لا باطنًا، وكم مِن الأمورِ الخفيَّةِ في هذه =

كما قال تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠].

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾.

أي: وهم عن أمرِ آخِرتِهم غافِلونَ؛ فلا يُفَكِّرونَ في شَأنِها، ولا يَعمَلونَ لأجْلِها[1].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه أدَبٌ عَظيمٌ للمُسلِمينَ؛ لِكَيْلا يُعلِّلوا الحوادِثَ بغيرِ أسبابِها، ويَنتَحِلوا لها عِلَلًا تُوافِقُ الأهواءَ، كما كانت تَفعَلُه الدَّجاجِلةُ مِن الكُهَّانِ وأضرابِهم[2].

---

= الحياةِ لا يعلَمُها أولئك الكُفَّارُ... الوجهُ الثَّاني: أنَّهم يَعلَمونَ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا وليس كلَّ ظاهرٍ... يعني: أنَّهم لا يَعلَمونَ كُلَّ ظاهرٍ، إنَّما يَعلَمونَ ظاهِرًا منها فقط، وأنَّ هناك ظواهِرَ أُخرى لا يَعلَمونَها أيضًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ٣٥، ٣٦).

وقال ابن جزي: (﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا ﴾ قيل: معناه: يعلمون ما يُدرَكُ بالحواسِّ دونَ ما يُدرَكُ بالعقولِ، فهم في ذلك مثلُ البهائم، وقيل: الظاهرُ ما يُعلَمُ بالنَّظرِ بأوائلِ العقولِ، والباطنُ ما يُعلَمُ بالنَّظرِ والدَّليلِ، وقيل: هو مِن الظُّهورِ بمعنى العلوِّ في الدُّنيا، وقيل: ظاهرٌ بمعنى زائلٍ ذاهبٍ، والأظهرُ أنَّه أراد بالظاهرِ: المعرفةَ بأمورِ الدُّنيا ومصالِحها؛ لأنَّه وصَفهم بعدَ ذلك بالغفلةِ عن الآخرةِ، وذلك يقتضي عدمَ معرفتِهم بها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٠).

وقال ابنُ عطيةَ: (قال ابنُ عبَّاسٍ والحسنُ والجمهورُ: معناه ما فيه الظهورُ والعلوُّ في الدنيا مِن إتقانِ الصناعاتِ والمباني ومظانِّ كسبِ الأموالِ والفلاحاتِ ونحوِ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٦-٣٨).

قال البقاعي: (فلذلك لا يُصَدِّقونَ الوَعدَ بإدالةِ الرُّوم؛ لِما رسَخَ في نفوسِهم مِن أنَّ الأمورَ تجري بيْنَ العِبادِ على غيرِ قانونِ الحِكمةِ؛ لأنَّهم كثيرًا ما يَرَونَ الظَّالمَ يموتُ ولم يُقتَصَّ منه، وهم في غفلةٍ عن أنَّه أُخِّرَ جزاؤُه إلى يومِ الدِّينِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٧).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ ذَمٌّ للَّذين يَتكالَبونَ على العُلومِ الدُّنيويَّةِ مع غَفلتِهم عن الآخِرةِ[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ مَدحٌ لِمَن يُقبِلونَ على الآخِرةِ ويَحرِصونَ عليها وإنْ فاتهم شَيءٌ مِن أمورِ الدُّنيا؛ لأنَّه إذا ذَمَّ مَن كان على العَكسِ فذَمُّ الضِّدِّ مَدحٌ لضِدِّه؛ فالَّذين يُقْبِلُون على الآخرةِ -وإنْ كان ليس عندَهم إلَّا علومٌ قليلةٌ مِن الدُّنيا- أكملُ بكثيرٍ مِن الَّذين يُقبِلُون على الدُّنيا ويَغفُلونَ عن الآخِرةِ، وهذا ما تدُلُّ عليه هذه الآياتُ[٢].

٤- الغَلَبةُ لا تَدُلُّ على الحَقِّ، بل اللهُ قد يَزيدُ ثوابَ المؤمِنِ، فيَبتليه ويُسَلِّطُ عليه الأعاديَ، وقد يختارُ تَعجيلَ العذابِ الأدنى دُونَ العذابِ الأكبَرِ قبْلَ يومِ المَعادِ؛ قال الله تعالى: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ قد توجَّهَت قلوبُهم وأهواؤُهم وإراداتُهم إلى الدُّنيا وشَهَواتِها وحُطامِها، فعَمِلَت لها وسَعَتْ، وأقبَلَتْ بها وأدبَرَتْ، وغَفَلتْ عن الآخرةِ؛ فلا الجنَّةُ تَشتاقُ إليها، ولا النَّارُ تخافُها وتخشاها، ولا المَقامُ بيْنَ يدَيِ اللهِ ولِقائِه يُرَوِّعُها ويُزعِجُها، وهذا عَلامةُ الشَّقاءِ، وعُنوانُ الغَفلةِ عن الآخِرةِ[٤]!

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يجِبُ على كُلِّ مُسلمٍ في هذا الزَّمانِ أن يتدَبَّرَ آيةَ «الرومِ» هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٦).

تدَبُّرًا كثيرًا، ويُبَيِّنَ ما دلَّت عليه لكُلِّ مَن استطاع بيانَه له مِنَ النَّاسِ. وإيضاحُ ذلك أنَّ مِن أعظَمِ فِتَنِ آخرِ الزمانِ الَّتي ابتلى اللهُ بها ضِعافَ العُقولِ مِن المُسلِمينَ شِدَّةَ إتقانِ الإفرنجِ لأعمالِ الحياةِ الدُّنيا، ومهارتَهم فيها على كَثرتِها واختلافِ أنواعِها، مع عَجزِ المُسلِمينَ عن ذلك! فظنُّوا أنَّ مَن قَدَر على تلك الأعمالِ أنَّه على الحَقِّ، وأنَّ مَن عجَزَ عنها متخَلِّفٌ، وليس على الحَقِّ! وهذا جَهلٌ فاحِشٌ، وغَلَطٌ فادِحٌ! وفي هذه الآيةِ الكريمةِ إيضاحٌ لهذه الفِتنةِ، وتخفيفٌ لشأنِها، أنزَلَه اللهُ في كتابِه قبْلَ وُقوعِها بأزمانٍ كثيرةٍ، فسُبْحانَ الحكيمِ الخبيرِ! ما أعلَمَه! وما أعظَمَه! وما أحسَنَ تعليمَه! فقد أوضَح جَلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ، ويَدخُلُ فيهم أصحابُ هذه العلومِ الدُّنيويَّةِ دُخولًا أوَّليًّا؛ فقد نفَى عنهم جلَّ وعلا اسمَ العِلمِ بمعناه الصَّحيحِ الكامِلِ؛ لأنَّهم لا يَعلَمونَ شَيئًا عَمَّن خَلَقَهم، فأبرزَهم مِنَ العَدَمِ إلى الوجودِ ورزَقَهم، وسوف يُميتُهم ثمَّ يُحييهم، ثمَّ يجازيهم على أعمالِهم، ولم يَعلَموا شيئًا عن مَصيرِهم الأخيرِ الَّذي يُقيمونَ فيه إقامةً أبديَّةً في عذابٍ فظيعٍ دائمٍ! ومَن غَفَل عن جميعِ هذا فليس معدودًا مِن جِنسِ مَن يَعلَمُ كما دلَّت عليه الآياتُ القُرآنيَّةُ المذكورةُ، ثمَّ لَمَّا نفَى عنهم جلَّ وعلا اسمَ العِلمِ بمعناه الصَّحيحِ الكامِلِ، أثبَت لهم نوعًا مِن العِلمِ في غايةِ الحقارةِ بالنِّسبةِ إلى غيرِه، وعاب ذلك النَّوعَ المذكورَ مِن العِلمِ بعَيبينِ عَظيمَينِ:

**أحدُهما**: قِلَّتُه وضِيقُ مجالِه؛ لأنَّه لا يُجاوِزُ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا، والعِلمُ المقصورُ على ظاهرٍ مِن الحياةِ الدُّنيا: في غايةِ الحقارةِ وضِيقِ المجالِ بالنِّسبةِ إلى العِلمِ بخالقِ السَّمَواتِ والأرضِ جَلَّ وعلا، والعِلمِ بأوامِرِه ونواهيه، وبما يُقَرِّبُ عَبْدَه منه، وما يُبعِدُه عنه، وما يُخلِّدُ في النَّعيمِ الأبَديِّ والعذابِ الأبديِّ مِن أعمالِ الخَيرِ والشَّرِّ.

**والثَّاني منهما:** هو دناءةُ هَدَفِ ذلك العِلم، وعدَمُ نُبلِ غايتِه؛ لأنَّه لا يَتجاوَزُ الحياةَ الدُّنيا، وهي سريعةُ الانقِطاعِ والزَّوالِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ فيه سؤالٌ: ما الحِكمةُ في افتِتاحِ هذه السُّورةِ بحُروفِ التَّهجِّي؟ **الجوابُ:** أنَّ هذه السُّورةَ ذُكِرَ في أوَّلِها ما هو مُعجِزةٌ، وهو الإخبارُ عن الغَيبِ؛ فقُدِّمَت الحروفُ الَّتي لا يُعلَمُ معناها؛ لِيتنَبَّهَ السَّامِعُ، فيُقبِلَ بقَلبِه على الاستِماعِ، ثمَّ تَرِدَ عليه المُعجِزةُ، وتَقرَعَ الأسماعَ[٢].

٢- تأمَّلْ سِرَّ: ﴿الٓمٓ﴾ كيفَ اشتمَلت على هذه الحروفِ الثَّلاثةِ، فالألفُ إذا بُدِئ بها أوَّلًا كانت همزةً، وهي أوَّلُ المخارجِ مِن أقصَى الصدرِ، واللامُ مِن وسطِ المخارجِ، وهي أشدُّ الحروفِ اعتمادًا على اللسانِ، والميمُ آخرُ الحروفِ، ومخرجُها مِن الفمِ، وهذه الثلاثةُ هي أصولُ مخارجِ الحروفِ؛ أعني الحلقَ واللسانَ والشفتينِ، وترتَّبَتْ في التنزيلِ مِن البدايةِ إلى الوسطِ إلى النِّهايةِ. فهذه الحروفُ تعتمِدُ المخارجَ الثلاثةَ التي يتفرَّعُ منها ستةَ عشرَ مخرجًا، فيصيرُ منها تسعةٌ وعشرونَ حرفًا عليها مدارُ كلامِ الأممِ الأوَّلينَ والآخرينَ، معَ تضمُّنِها سرًّا عجيبًا، وهو أنَّ الألفَ البدايةُ، واللامَ التوسُّطُ، والميمَ النهايةُ، فاشتملت الأحرفُ الثلاثةُ على البدايةِ والنهايةِ والواسطةِ بينهما، وكلُّ سورةٍ استُفْتِحتْ بهذه الأحرفِ الثلاثةِ فهي مشتملةٌ على بدءِ الخلقِ ونهايتِه وتوسطِه، فمشتملةٌ على تخليقِ العالمِ وغايتِه وعلى التوسطِ بينَ البدايةِ والنهايةِ مِن التشريعِ والأوامرِ، فتأمَّلْ ذلك في (البقرةِ) و(آلِ عمرانَ) و(تنزيل السجدةِ) وسورةِ (الرومِ)[٣].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٧٩، ٨٠).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٧٣).

٣- لو حَصَل نزاعٌ، وكان المتنازِعانَ مُبطِلَين -كأهلِ الكِتابِ والمُشرِكينَ إذا تجادَلوا أو تقاتَلوا- كان المشروعُ نصْرَ أهلِ الكتابِ على المُشرِكينَ بالقَدْرِ الَّذي يُوافِقُهم عليه المؤمِنونَ، إذا لم يكُنْ في ذلك مَفسَدةٌ تُقاوِمُ هذه المصلَحةَ؛ فإنَّ ذلك مِن الحَقِّ الَّذي يَفرحُ به المؤمِنونَ، كما قال تعالى: ﴿الٓمٓ * غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ * بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾ فيه سؤالٌ: أيَّةُ فائدةٍ في ذِكرِ قَولِه تعالى: ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾، مع أنَّ قَولَه: ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾ بعدَ قَولِه: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ لا يكونُ إلَّا مِن بَعدِ الغَلَبةِ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: الفائِدةُ فيه إظهارُ القُدرةِ، وبيانُ أنَّ ذلك بأمرِ اللهِ؛ لأنَّ مَن غَلَب بعدَ غَلَبِه -أي: هزيمتِه- لا يكونُ إلَّا ضعيفًا، فلو كان غلَبَتُهم لِشَوكتِهم لكان الواجِبُ أن يَغلِبوا قبْلَ غَلَبِهم، فإذا غَلَبوا بعدَما غُلِبوا، دَلَّ على أنَّ ذلك بأمرِ اللهِ، فذُكِرَ ﴿مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ﴾؛ لِيتفَكَّروا في ضَعفِهم، ويَتذكَّروا أنَّ ذلك إنَّما كان بأمرِ اللهِ تعالى[2].

**الوجهُ الثاني**: التَّنبيهُ على عِظَمِ تلك الهزيمةِ عليهم، وأنَّها بحيثُ لا يُظَنُّ نَصرٌ لهم بعْدَها[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ * فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ *

---

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٤).

فِي بِضْعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ في هذا الإخبارِ دَليلٌ على نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ الرُّومَ غَلَبَتْها فارِسُ، فأخبَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ الرُّومَ ستَغلِبُ فارِسَ في بِضعِ سِنينَ، وأنَّ المؤمِنينَ يَفرَحونَ بذلك؛ لأنَّ الرُّومَ أهلُ كتابٍ، فكان هذا مِن عِلمِ الغَيبِ الَّذي أخبَرَ الله عزَّ وجَلَّ به ممَّا لم يكُنْ عَلِموه[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ رَدٌّ على القدَريَّةِ الَّذين يقولونَ باستِقلالِ العَبدِ بفِعلِه؛ فهم يقولون: «إنَّ العبدَ مُستقِلٌّ بفِعلِه، وليس لله تعالى فيه تقديرٌ ولا أمْرٌ، ولا إنشاءٌ ولا مَشيئةٌ»[2]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ جوازُ فَرَحِ المؤمِنينَ بانتِصارِ بَعضِ الكُفَّارِ على بَعضٍ، إذا كان في ذلك مَصلحةٌ للإسلامِ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقدَريَّةِ في بابِ الوعيدِ؛ لأنَّه جَلَّ جلالُه قد أكَّدَ في إنجازِ وعدِه، وأخبَرَ عن الوفاءِ به في غيرِ مَوضِعٍ مِن كتابِه، ولم يفعَلْ ذلك في بابِ الوعيدِ؛ لأنَّ تَرْكَ إنجازِه كَرَمٌ لا خُلْفٌ[4].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ سَمَّاه وَعدًا؛ نظرًا لحالِ المؤمِنينَ الَّذي هو أهَمُّ هنا، وهو أيضًا وَعيدٌ للمُشرِكينَ بخِذلانِ أشياعِهم ومَن يفتَخِرونَ بمُماثَلةِ دينِهم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٨).

١٠- قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ عن الحسَنِ رَضيَ الله عنه في الآيةِ قال: (لَيبلُغُ مِن حِذْقِ أحَدِهم بأمرِ دُنياه أنَّه يُقَلِّبُ الدِّرهَمَ على ظُفرِه، فيُخبِرُك بوَزنِه، وما يُحسِنُ يُصَلِّي!)[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ العِلْمَ الحقيقيَّ هو العِلْمُ بالله تعالى وأسمائِه وصفاتِه، لا العِلمُ بالدُّنيا؛ لقولِه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ثمَّ قال في الآيةِ الَّتي بعدَها: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا ﴾، فنفَى العِلْمَ عنهم؛ لأنَّ عِلْمَ الدُّنيا في الحقيقةِ ليس بعِلْم، فالعِلْمُ الحقيقيُّ الَّذي يُمدَحُ عليه المرءُ هو العِلْمُ بالله وأسمائِه وصِفاتِه وأحكامِه[٢].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يُفيدُ أنَّ للدُّنيا ظاهِرًا وباطِنًا؛ فظاهِرُها ما يَعرِفُه الجُهَّالُ مِن التمَتُّعِ بزخارِفِها والتَّنَعُّمِ بمَلاذِّها، وباطِنُها وحقيقتُها أنَّها مَجازٌ للآخرةِ، يُتزوَّدُ إليها منها بالطَّاعةِ والأعمالِ الصَّالحةِ[٣].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ مَحطُّ الذَّمِّ هو جملةُ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾، فأمَّا مَعرِفةُ الحياةِ الدُّنيا فليست بمذَمَّةٍ؛ لأنَّ المؤمِنينَ كانوا أيضًا يَعلَمونَ ظاهِرَ الحياةِ الدُّنيا، وإنَّما المذمومُ أنَّ المُشرِكينَ يَعلَمونَ ما هو ظاهِرٌ مِن أمورِ الدُّنيا، ولا يَعلَمونَ أنَّ وراءَ عالَمِ المادَّةِ عالَمًا آخَرَ هو عالَمُ الغَيبِ[٤].

١٤- في الآيات دَلالةٌ على قُصورِ عِلْمِ المرءِ؛ لقولِه تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا

---

(١) أخرجه ابنُ المُنْذرِ وابنُ أبي حاتم وابنُ مرْدَوَيْه كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٨٤).
وأخرجه أبو حاتم في ((الزهد)) (ص: ٦٣) بنحوه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠).

مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، ليس كلَّ الظاهرِ، وليس الباطنَ، فالمرءُ عِلْمُه قاصرٌ حتَّى في أمورِ الدُّنيا أيضًا؛ فلا يُمكِنُ للمرءِ الإحاطةُ بعِلمِ الدُّنيا(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾

- قولُه: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ خَبرٌ مُستعمَلٌ في لازمِ فائدتِه على طَريقِ الكِنايةِ، أي: نحن نَعلَمُ بأنَّ الرُّومَ غُلِبَت؛ فلا يَهْنِكُم -أي: يسرَّكم- ذلك، ولا تُطاوِلوا به على رُسولِنا وأوليائِنا؛ فإنَّا نَعلَمُ أنَّهم سيَغلِبون مَن غَلَبوهم بعدَ بِضعِ سِنينَ بحيث لا يُعَدُّ الغلَبُ في مِثْلِه غَلَبًا؛ فالمقصودُ مِن الكلامِ هو جُملةُ ﴿وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝ فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٣، ٤]، وكان ما قبْلَه تَمهيدًا له(٢).

- وفي قولِه: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ أُسنِدَ الفِعلُ إلى المجْهولِ؛ لأنَّ الغرَضَ هو الحديثُ على المغلوبِ لا على الغالِبِ، ولأنَّه قد عُرِفَ أنَّ الَّذين غَلَبوا الرُّومَ هم الفُرْسُ(٣). وقيل: الحِكمةُ -واللهُ أعلَمُ- في حذْفِ الفاعلِ لسَببينِ: السَّببِ الأوَّلِ: لِيَكونَ ذلك أعظَمَ إهانةً للفُرْسِ، وأنَّهم لَيسوا أهلًا للذِّكْرِ. السَّببِ الثَّاني: لِيَكونَ هذا أخْفى بالنِّسبةِ لذُلِّ الرُّومِ وخِذلانِها، أي: تَهوينًا للأمْرِ على الرُّومِ؛ لأنَّه إذا قيلَ للإنسانِ: أنت غُلِبْتَ، أهْوَنُ مِن أنْ يُقالَ له: غَلَبَك فُلانٌ؛ فإنَّه إذا قيل له: غَلَبَك فُلانٌ، فمعناهُ: أنَّه ذليلٌ لهذا الرَّجلِ المذكورِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين -سورة الروم)) (ص: ١٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ﴾

- حُذِفَ مَفعولُ ﴿سَيَغۡلِبُونَ﴾؛ للعِلْمِ بأنَّ تَقديرَه: سيَغلِبون الَّذين غَلَبوهم، أي: الفُرسَ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ لفْظُ (بِضْع) كِنايةٌ عن عدَدٍ قليلٍ لا يَتجاوَزُ العَشَرةَ، وحِكْمةُ إبهامِ عدَدِ السِّنينَ أنَّه مُقْتضى حالِ كلامِ العظيمِ الحكيمِ: أنْ يَقتصِرَ على المقصودِ إجمالًا، وألَّا يَتنازَلَ إلى التَّفصيلِ؛ لأنَّ ذلك التَّفصيلَ يَتنزَّلُ مَنزِلةَ الحشْوِ عندَ أهْلِ العقولِ الرَّاجحةِ، ولِيَكونَ للمسلمينَ رجاءٌ في مدَّةٍ أقرَبَ ممَّا ظهَرَ؛ ففي ذلك تَفريجٌ عليهم[٢].

وقيل: فائدةُ هذا الإبهامِ: التَّفخيمُ وإدخالُ الرَّهبةِ في قُلوبِ المشركينَ في كلِّ وقْتٍ، والإشعارُ بأنَّ زهْوَهم بأنفُسِهم واعتدادَهم بقوَّتِهم ليس إلَّا إلى حِينٍ، يَطولُ أو يَقصُرُ، ولكنَّه آيِلٌ إلى الانتهاءِ، ومُفْضٍ إلى العاقبةِ الحتميَّةِ، وهي الارتدادُ والانتكاسُ[٣].

- قولُه: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ﴾ تَقديمُ المجرورِ ﴿لِلَّهِ﴾؛ لإبطالِ تَطاوُلِ المشركينَ الَّذين بهَجَهم غلَبُ الفُرْسِ على الرُّومِ؛ لأنَّهم عَبَدةُ أصنامٍ مِثْلُهم؛ لاستِلزامِه الاعتقادَ بأنَّ ذلك الغلَبَ مِن نصْرِ الأصنامِ عُبَّادَها؛ فبيَّنَ لهم بُطلانَ ذلك، وأنَّ التَّصرُّفَ للهِ وحْدَه في الحالَينِ، كما دلَّ عليه التَّذييلُ بقولِه: ﴿يَنصُرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٧٢).

مَن يَشَآءُ﴾[١] [الروم: ٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿بِنَصۡرِ ٱللَّهِ﴾ أُضِيفَ النَّصرُ إلى اسمِ الجَلالةِ؛ للتَّنويهِ بذلك النَّصرِ، وأنَّه عِنايةٌ لأجْلِ المسلمينَ[٢].

- وقولُه: ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُ﴾[٣]. وأيضًا جُملةُ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ النَّصرَ المذكورَ فيها عامٌّ بعُمومِ مَفعولِه، وهو ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ فكلُّ مَنصورٍ داخلٌ في هذا العُمومِ، أي: مَن يشاءُ نصْرَه لحِكَمٍ يَعلَمُها؛ فالمشيئةُ هي الإرادةُ، أي: يَنصُرُ مَن يُرِيد نصْرَه، وإرادتُه تعالى لا يُسأَلُ عنها، ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ فإنَّ العَزيزَ المُطلَقَ هو الَّذي يَغلِبُ كلَّ مُغالِبٍ له، وعقَّبَه بـ ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ عِزَّتَه تعالى لا تَخْلو مِن رَحمةٍ بعِبادِه، ولولا رَحمتُه لَمَا أدالَ للمَغلوبِ دَولةً على غالِبِه، مع أنَّه تعالى هو الَّذي أراد غَلَبةَ الغالِبِ الأوَّلِ؛ فكان الأمْرُ الأوَّلُ بعِزَّتِه، والأمْرُ الثَّاني برَحمتِه للمَغلوبِ المنْكوبِ، وترتيبُ الصِّفتَينِ العِلِّيَّتَينِ مَنظورٌ فيه لمُقابَلةِ كلِّ صِفَةٍ منهما بالَّذي يُناسِبُ ذِكْرَه مِن الغَلبينِ، فالمُرادُ رَحمتُه في الدُّنيا[٤].

وقيل: إنْ نَصَرَ اللهُ المحِبَّ فلِعِزَّتِه واستغنائِه عن العَدُوِّ، ورَحمتِه على المحِبِّ؛ وإن لم يَنصُرِ المحِبَّ فلِعزَّتِه واستغنائِه عن المحِبِّ، ورحمتُه في الآخِرةِ واصِلةٌ إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٧، ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨١).

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيه تَقديمُ وصْفِ العِزَّةِ على وصْفِ الرَّحمةِ؛ لتَقدُّمِه في الاعتبارِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قدَّمَ المصدرَ ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ على الفِعلِ ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾، وفي سُورةِ (الأنفالِ) قدَّمَ الفِعلَ على المصدرِ في قولِه: ﴿أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: ٦٢]؛ وذلك لأنَّ المقصودَ هاهنا بَيانُ أنَّ النُّصرةَ بيَدِ اللهِ؛ إنْ أرادَ نَصَرَ، وإنْ لم يُرِدْ لا يَنصُرُ، وليس المقصودُ النُّصرةَ ووُقوعَها، والمقصودُ هناك إظهارُ النِّعمةِ عليه بأنَّه نصَرَه؛ فالمقصودُ هناك الفِعلُ ووُقوعُه؛ فقدَّم هناك الفِعلَ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ ذلك الفِعلَ مصدرُه عندَ اللهِ، والمقصودُ هاهنا كونُ المصدرِ عندَ اللهِ؛ إنْ أراد فعَلَ، فقدَّم المصدرَ[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ في إضافةِ الوعْدِ إلى اللهِ: تلْويحٌ بأنَّه وَعدٌ مُحقَّقُ الإيفاءِ؛ لأنَّ وعْدَ الصَّادقِ القادرِ الغنيِّ لا مُوجِبَ لإخلافِه[٣].

- وجُملةُ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ بَيانٌ للمقصودِ مِن جُملةِ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّها دلَّت على أنَّه وعْدٌ مُحقَّقٌ بطريقِ التَّلويحِ؛ فبيَّنَ ذلك بالصَّريحِ بجُملةِ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾. ولكَونِها في مَوقِعِ البَيانِ فُصِلَت ولم تُعطَفْ على الَّتي قَبْلَها، وفائدةُ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ: تقريرُ الحُكْمِ؛ لِتأْكيدِه، ولِمَا في جُملةِ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ مِن إدخالِ الرَّوعِ على المشركينَ بهذا التَّأكيدِ. وسمَّاهُ وعْدًا؛ نظَرًا لحالِ المؤمنينَ الذي هو أهمُّ هنا. وهو أيضًا وَعيدٌ للمشركينَ بخِذلانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٨).

أشياعِهم ومَن يَفتخِرون بمُماثَلةِ دِينِهم[١].

- قولُه: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجليلِ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لتَعليلِ الحُكْمِ وتَفخيمِه. والجُملةُ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَعنى المَصدرِ[٢].

- ومَوقعُ الاستدراكِ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ هو ما اقتَضاهُ الإجمالُ وتَفصيلُه؛ مِن كونِ ذلك أمْرًا لا ارتيابَ فيه، وأنَّه وعدُ اللهِ الصَّادقِ الوعدِ، القادرِ على نصْرِ المغلوبِ، فيَجعَلُه غالبًا؛ فاستَدرَكَ بأنَّ مُراهَنةَ المشركينَ على عدَمِ وُقوعِه نشأَتْ عن قُصورِ عُقولِهم، فأحالوا أنْ تكونَ للرُّومِ بعدَ ضَعْفِهم دَولةٌ على الفُرْسِ الَّذين قهَرُوهم في زمَنٍ قصيرٍ هو بِضْعُ سِنينَ، ولم يَعلَموا أنَّ ما قدَّرهُ اللهُ أعظَمُ، فالمُرادُ بـ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ ابتداءً المشركونَ؛ لأنَّهم سَمِعوا الوعدَ وراهَنوا على عدَمِ وُقوعِه، ويَشملُ المرادُ أيضًا كلَّ مَن كان يَعُدُّ انتصارَ الرُّومِ على الفُرْسِ في مِثلِ هذه المدَّةِ مُستحيلًا؛ فلذلك عبَّرَ عن هذه الجَمهرةِ بـ ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ بصِيغَةِ التَّفضيلِ. والتَّعريفُ في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ للاستغراقِ[٣].

- ومَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿سَيَغۡلِبُونَ * فِي بِضۡعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٣، ٤]، والتَّقديرُ: لا يَعلَمون هذا الغلَبَ القريبَ العجيبَ. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ تَنزيلَ الفِعلِ مَنزلةَ اللَّازمِ؛ بأنْ نُزِّلوا مَنزلةَ مَن لا عِلْمَ عندَهم أصْلًا؛ لأنَّهم لَمَّا لم يَصِلوا إلى إدراكِ الأمورِ الدَّقيقةِ وفَهْمِ الدَّلائلِ القياسيَّةِ، كان ما عِندَهم مِن بعضِ العِلْمِ شَبيهًا بالعدَمِ؛ إذ لم يَبلُغوا به الكَمالَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود) (٧/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٨، ٤٩).

الَّذي بلَغَه الرَّاسِخونَ أهْلُ النَّظرِ؛ فيَكونَ في ذلك مُبالغةٌ في تَجهيلِهم، وهو ممَّا يَقْتضيهِ المَقامُ[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ يَعۡلَمُونَ ﴾ بَدَلٌ مِن قولِه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ﴾، وفي هذا الإبدالِ مِن النُّكتةِ: أنَّه أبدَلَه منه، وجعَلَه بحيث يقومُ مَقامَه ويَسُدُّ مَسدَّه؛ لِيُعلِمَك أنَّه لا فرْقَ بيْنَ عدَمِ العِلْمِ الَّذي هو الجهْلُ، وبيْن وُجودِ العِلْمِ الَّذي لا يَتجاوَزُ الدُّنيا؛ فأصْلُ الكلامِ: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ يَعلَمون ظاهرَ ما يتعيَّشون به في الدُّنيا مِن التِّجاراتِ والمكاسبِ، ولا يَعلَمون باطِنَها مِن تِجاراتِ الآخرةِ والفوزِ بالفَلاحِ؛ فوُضِعَ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ -وهو مُطلَقٌ، فيُفيدُ سلْبَ العِلْمِ رأسًا- مَوضِعَ ﴿يَعۡلَمُونَ ﴾، ونُكِّرَ ﴿ظَٰهِرٗا﴾، ووُضِعَ مَوضِعَ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ بإظهارِ قولِه: ﴿وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾؛ لِيُفيدَ تلك الفوائدَ[٢].

- وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿يَعۡلَمُونَ ﴾ جُملةٌ استئنافيَّةٌ لبَيانِ مُوجِبِ جَهلِهم بوَعْدِ اللهِ؛ فالمعنى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ أنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌّ، وأنَّ للهِ الأمْرَ مِن قبْلُ ومِن بعْدُ، وأنَّه يَنصُرُ المؤمنينَ على الكافرينَ، ويَقذِفُ بالحقِّ على الباطلِ فيَدْمَغُه؛ لِيَكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ؛ لأنَّهم يَعلَمون ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا، وهم عن أسْرارِ اللهِ -مِن أنَّه تعالى ما خلَقَ الخلْقَ لِلَّهْوِ واللَّعِبِ، بلْ خلَقَهم ليَعرِفوه ويَعبُدوه، ويَتزَوَّدوا لدارِ القرارِ- غافلونَ. ومِن ثَمَّ أتبَعَ ذلك بقولِه: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۚ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٥١).

مُسَمًّى﴾ [الروم: ٨]، وختَمَه بقولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾[١].

- وفي تَنكيرِ ﴿ظَٰهِرًا﴾: أنَّهم لا يَعلَمون إلَّا ظاهرًا واحدًا مِن جُملةِ الظَّواهرِ[٢]. وقيل: بلْ تَنكيرُ ﴿ظَٰهِرًا﴾ للتَّحقيرِ والتَّخسيسِ، دونَ الواحدةِ -كما تُوهِّمَ- أي: يعلمونَ ظاهرًا حقيرًا خَسيسًا مِن الدُّنيا، وقيل: هو بمعنى الزَّائلِ الذَّاهبِ، أي: يعلمونَ أمرًا زائلًا لا بقاءَ له، ولا عاقبةَ مِن الحياة الدُّنيا، ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ التي هي الغايةُ القصوى والمطلبُ الأسنى ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لا تخطرُ ببالِهم، فكيفَ يتفكَّرونَ فيها، وفيما يؤدِّي إلى معرفتِها مِن الدُّنيا وأحوالِها[٣]؟! وقيل: فيه تَقليلُ مَعلومِهم، وتقليلُه يُقرِّبُه مِن النَّفي حتَّى يُطابقَ المُبدَلَ منه، وهو قولُه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤]. وقيل: أي: يعلمونَ ظواهرَ ما في الدُّنيا، أي: ولا يَعلَمون دقائقَها، والكلامُ يُشعِرُ بذَمِّ حالِهم، ومَحطُّ الذَّمِّ هو جُملةُ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[٥].

- قولُه: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ اقتصَرَ في تَجهيلِهم بعالَمِ الغَيبِ على تَجْهيلِهم بوُجودِ الحياةِ الآخِرةِ اقتِصارًا بَديعًا، حصَلَ به التَّخلُّصُ مِن غرَضِ الوعْدِ بنصْرِ الرُّومِ إلى غرَضٍ أهَمَّ، وهو إثباتُ البعثِ، مع أنَّه يَستلزِمُ إثباتَ عالَمِ الغَيبِ، ويكونُ مثالًا لِجَهْلِهم بعالَمِ الغيبِ، وذمًّا لجَهْلِهم به بأنَّه أوقَعَهم في وَرطةِ إهمالِ رَجاءِ الآخرةِ، وإهمالِ الاستعدادِ لِمَا يَقتَضيهِ ذلك

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠).

الرَّجاءُ؛ فذلك مَوقعُ قولِه: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾. وعبَّرَ عن جَهْلِهم الآخِرةَ بالغفْلةِ كِنايةً عن نُهوضِ دَلائلِ وُجودِ الحياةِ الآخِرةِ، لو نَظَروا في الدَّلائلِ المُقْتضيةِ وُجودَ حياةٍ آخِرَةٍ؛ فكان جَهْلُهم بذلك شَبيهًا بالغفلةِ؛ لأنَّه بحيث يَنكشِفُ لو اهتَمُّوا بالنَّظرِ[١].

- وإيرادُ جُملةِ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِهم مِن الغَفلةِ عن الآخِرةِ، واستِمرارِ غَفْلتِهم ودوامِها[٢].

- قولُه: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ فيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّعطُّفِ -وهو إعادةُ اللَّفظةِ بعَينِها في الجُملةِ-؛ فقد ردَّدَ (هم)؛ للمُبالَغةِ في تأْكيدِ غفْلَتِهم عن الآخرةِ[٣].

- و(هم) الثَّانيةُ يجوزُ أنْ يكونَ مُبتدأً، و(غافِلون) خبَرَه، والجُملةُ خبرَ (هم) الأُولى، وأنْ يكونَ تَكريرًا للأُولى، و(غافِلون) خبرَ الأُولى، وهو على الوَجهينِ مُنادٍ على تمَكُّنِ غَفْلتِهم عن الآخِرةِ المُحقِّقةِ لمُقْتضَى الجُملةِ المُتقدِّمةِ؛ تَقريرًا لِجَهالتِهم، وتَشبيهًا لهم بالبهائمِ المقصورِ إدراكاتُها مِن الدُّنيا على ظواهِرِها الخَسيسةِ، دونَ أحوالِها الَّتي هي مَبادئُ العلْمِ بأمُورِ الآخِرةِ، وإشعارًا بأنَّ العِلْمَ المذكورَ وعدَمَ العلمِ رأْسًا سِيَّانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٠، ٥١).

## الآيات (٨-١٠)

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: وَقْتٍ مُعَيَّنٍ مُحَدَّدٍ، وأصلُ الأجَلِ: غايةُ الوَقتِ، والمُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ، ومُسَمًّى: أي: مُثبَتٌ مُعَيَّنٌ(١).

﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ﴾: أي: حَرَثوها، وقلَّبوها للزِّراعةِ، والإثارةُ: تحريكُ الشَّيءِ حتَّى يرتَفعَ تُرابُه، وأصلُ (ثور): يدُلُّ على انبعاثِ الشَّيءِ(٢).

﴿وَعَمَرُوهَا﴾: العِمارةُ: نَقيضُ الخرابِ، وأصلُ (عمر): يدُلُّ على بقاءٍ وامتِدادِ زَمانٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩، ٨٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦).

﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾: فُعلَى مِنَ السُّوءِ، تأنيثُ الأسوأِ، وهو: الأقبحُ، وقيل: هي مصدرٌ بمنزلةِ الإساءةِ، وقيل: هي اسمٌ لجهنَّمَ، سمِّيتْ سُوأَى؛ لِكَونِها تَسوءُ صاحِبَها، أو لقُبحِ منظرِها، أو هي عبارةٌ عن كلِّ ما يَقبحُ، والسُّوءُ: كلُّ ما يغُمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، وأصلُ (سوء): القبحُ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى منَبِّهًا على التَّفكُّرِ في مخلوقاتِه، الدَّالَّةِ على وحدانيَّتِه: أوَلم يَتفَكَّروا في أنفُسِهم فيَعلَموا أنَّ اللهَ وَحْدَه خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما بالحَقِّ، إلى وقتٍ محدَّدٍ عِندَه تعالى، ثمَّ تَفنى يومَ القيامةِ، وإنَّ كثيرًا من النَّاسِ كافِرونَ بوُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ.

ثمَّ ينبِّهُ الله تعالى على صدقِ رُسلِه فيما جاؤوا به، فيقولُ: أوَلم يَسِرْ في الأرضِ هؤلاء المكَذِّبونَ بالبَعثِ، فيَنظُروا كيف كان عاقِبةُ الَّذين مِن قَبْلِهم، فيَعتَبِروا؟! فقد كان هؤلاء الَّذين مِن قَبلِهم أشَدَّ منهم قوَّةً وتصَرُّفًا في الأرضِ، وجَعَلوها أكثَرَ عُمرانًا ممَّا فعَلوا، وجاءَتْهم رُسلُهم بالبَيِّناتِ فكَذَّبوا، فأهلكهم اللهُ، ولمْ يكُنْ سُبحانَه لِيُهلِكَهم قبْلَ إرسالِ الرُّسلِ إليهم وإقامةِ الحجَّةِ عليهم، ولكِنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم بالكُفرِ والتَّكذيبِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانه المصيرَ السَّيِّئَ الَّذي حلَّ بهؤلاء الكافرين، فيقولُ: ثمَّ كان عاقِبةَ الَّذين أساؤوا أنْ حلَّ بهم عذابُ اللهِ؛ بسبَبِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ سُبحانَه، واستِهزائِهم بها.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٩).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَر المشركون الإلهَ بإنكارِ وعْدِه، وأنكَروا البعثَ كما قال: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]- أردَف هذا أنَّ الأدلَّةَ مُتظاهِرةٌ في الأنفُسِ والآفاقِ على وُجودِه وتفرُّدِه بخَلْقِها، وأنَّه لا إلهَ غيرُه، ولا ربَّ سِواه[1].

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: أوَلم يتفكَّرْ أولئك الَّذين يَعلَمونَ ظاهِرًا مِن الحياةِ الدُّنيا وهم غافِلونَ عن الآخرةِ، في أنفُسِهم[2]، فيَعلَموا أنَّ اللهَ وحْدَه خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما بالحَقِّ؛ لِيَعبُدَه النَّاسُ ويُطيعوه فيما يأمُرُهم ويَنهاهم، ثمَّ هو يَبعَثُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٣٠).

(٢) اختلف المفسِّرون في قَولِه تعالى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾: هل النَّفْسُ هنا هي محلُّ التَّفكُّرِ، أو آلةُ التَّفكُّرِ؟ فقيل: المرادُ: التَّفكُّرُ في خلْقِ أنفُسِهم. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧).
وقيل: قَولُه تعالى: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ ظرفٌ للتَّفَكُّرِ، وليس بمفعولٍ، فلم يُؤمَروا بالتَّفكُّرِ في خلْقِ أنفُسِهم، كأنَّه قال: أوَ لم يَتفكَّروا بعُقولِهم فيَعلموا أنَّ اللهَ ما خلَق السَّمواتِ والأرضَ إلَّا بالحقِّ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وهو اختيارُ ابنِ جُزَي، وظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثير، ومال إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٩، ٤٠).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨، ٤٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥١، ٥٢).

لِمُجازاتِهم ثَوابًا أو عِقابًا؟! فما خَلقَ الكَونَ باطِلًا وعَبَثًا بلا غَرَضٍ صحيحٍ، وحِكمةٍ بالغةٍ، وإنَّما خَلَقه مُقترِنًا بالحَقِّ، مَصحوبًا بالحِكمةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ويَعلَموا أنَّ للسَّمواتِ والأرضِ وَقتًا محدَّدًا عندَ اللهِ، تَنتهي إليه، وتَفْنى فيه، وهو يومُ القيامةِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه العِبادَ للحِسابِ والجزاءِ[2]؟

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾.

أي: وإنَّ كثيرًا مِنَ النَّاسِ كافِرونَ بوُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ، جاحِدونَ لحُصولِ الجزاءِ يومَ القيامةِ[3].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقام اللهُ تعالى على المشركينَ الدَّليلَ؛ أتْبَعه التَّهديدَ والتَّهويلَ[١].

﴿ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾.

أي: أوَلم يَسِرْ في الأرضِ[٢] هؤلاءِ المكَذِّبونَ بالبَعثِ، الغافِلونَ عن الآخِرةِ؛ فيَنظُروا كيف كان آخِرُ أمرِ الَّذين مِن قَبلِهم، فيَعتَبِروا ويتَّعِظوا حينَ يَرَوا آثارَ إهلاكِ اللهِ لهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم وشِرْكهم، وتَكذيبِهم رُسُلَهم[٣]؟!

﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ ﴾.

أي: قد أُعطِيَ أولئك مِنَ القُوَّةِ[٤] ما لم يُعطَوها هم[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠).

(٢) قال ابن عطية: (ولا يَتوجَّهُ للكَفَرةِ أن يُعارِضَ منهم مَن لم يَسِرْ، فيَقولَ: لم أَسِرْ؛ لأنَّ كافَّةَ مَن سار مِنَ النَّاسِ قد نَقَلَت إلى مَن لم يَسِرْ؛ فاستَوَتِ المعرفةُ، وحصَل اليقينُ للكُلِّ، وقامت الحُجَّةُ، وهذا بيِّنٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٦).

(٤) قيل: المرادُ بالقوَّةِ هنا: قوَّةُ الأبدانِ. ومِمَّن قال بذلك: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٣).
وقيل: المرادُ: قوَّةُ الأبدانِ والعُقولِ. ومِمَّن قال بذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١).
قال ابن عاشور: (القوَّةُ: ... مجموعُ صِفاتٍ يكونُ بها بقاءُ الشَّيءِ على أكمَلِ أحوالِه، كما في قَولِه: ﴿ نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ ﴾ [النمل: ٣٣]؛ فقوَّةُ الأمَّةِ مجموعُ ما به تَدفَعُ العَواديَ عن كِيانِها، وتَستبقي صلاحَ أحوالِها؛ مِن عُدَدٍ حَربيَّةٍ، وأموالٍ، وأبناءٍ، وأزواجٍ. وحالةُ مُشركي قُرَيشٍ لا تُداني أحوالَ تلك الأمَمِ في القوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾.

أي: وقَلَّبوا الأرضَ[١] وجَعَلوها أكثرَ عُمرانًا مِمَّا فَعَلوا هم[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

---

(١) قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ﴾: حرَثوها وقَلَّبوهَا لزِراعتِها. ومِمَّن قال بذلك: السمعانيُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٥٣).

ومِمَّن قال بهذا القولِ من السَّلَفِ: مجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٤٨٥).

وقيل: المرادُ: قَلَّبوها لاستنباطِ المياهِ، واستِخراجِ المعادِنِ، وزَرعِ البُذورِ، وغيرِ ذلك، فأخرَجوا ما فيها مِنَ المنافعِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ عطيَّة، والبيضاوي، والبِقاعي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

وقيل: الأقرَبُ أن يكونَ (أثاروا) هنا تمثيلًا لحالِ شِدَّةِ تصَرُّفِهم في الأرضِ وتغَلُّبِهم على مَن سِواهم، بحالِ مَن يُثيرُ ساكِنًا ويُهيجُه. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

قال ابن عاشور: (ومعنى: عِمارةِ الأرضِ: جَعْلُها عامرةً غيرَ خلاءٍ؛ وذلك بالبناءِ والغَرسِ والزَّرعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٧).

وقال ابن عثيمين: (عَمَروا الأرضَ بالتِّجارةِ والبناءِ والمصانعِ وغيرِها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٥٤).

أي: وجاءتْهم رُسلُهم بالبَيِّناتِ الدَّالَّاتِ على الحقِّ، وعلى صِدقِهم وصِحَّةِ ما جاؤوهم به مِن عندِ الله تعالى، فكذَّبوهم، فلمْ يَقدِروا على الامتِناعِ مِن عذابِ اللهِ مع شِدَّةِ قُواهم، فما نفَعَتْهم قوَّتُهم، ولا أغنَتْ عنهم إثارتُهم الأرضَ وعِمارتُهم لها[1]!

﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ﴾.

أي: فلمْ يكُنِ اللهُ ليُعَذِّبَهم بلا ذنْبٍ أتَوه، ولم يكُنْ لِيُهلِكَهم مِن قَبلِ إرسالِ الرُّسلِ إليهم، وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم[2].

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾.

أي: ولكنْ كانوا يَظلِمونَ أنفُسَهم؛ بالكُفرِ باللهِ، والإشراكِ به، وتكذيبِ رُسُلِه، ومَعصيتِه[3].

﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ١٠﴾.

أي: ثمَّ كان آخِرَ أمرِ أهلِ السُّوءِ[4] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٥/ ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

(٤) قيل: المعنى: أساؤوا بكُفرِهم وشِركِهم. ومِمَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والزجَّاج، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩).

وقال الشوكاني: (أي: عَمِلوا السَّيِّئاتِ مِن الشِّركِ والمعاصي). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٤٨).

أنْ حلَّ بهم عذابُ اللهِ[١]؛ بسبَبِ تكذيبِهم بآياتِ اللهِ سُبحانَه، واستِهزائِهم المستَمِرِّ بها[٢].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ فيه الحثُّ على التَّفكُّرِ، وتوبيخُ مَن أعرَضَ عنه، فدلَّ ذلك على أهمِّيَّةِ التَّفكُّرِ؛ لأنَّ اللهَ لا يَحُثُّ على شَيءٍ ويُوَبِّخُ على تركِه إلَّا لِمَا فيه مِن الفائدةِ والمصلحةِ[٣]، فالتَّفكُّرُ في الأنفُسِ وفي خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ونحوِ ذلك يدُلُّ على كمالِ قُدرةِ الصَّانعِ، وكمالُ قُدرتِه دالٌّ على

---

(١) قيل: السُّوأى: هي النَّارُ في الدَّارِ الآخرةِ. ومِمَّن قال بذلك: الزجَّاجُ، وابن أبي زمنين، والسمعاني، والزمخشري، والرازي، والشنقيطي، ونسَبَه الواحديُّ للأكثرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٧٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٢٩).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦).

وقيل: المرادُ: الدَّمارُ والهلاكُ في الدُّنيا، وعذابُ النَّارِ في الآخرةِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، قال: العذابُ في الدُّنيا والآخرةِ. يُنظر: ((تفسير الماوَرْدي)) (٤/ ٣٠١).

وقيل: السُّوأى بمعنى الإساءةِ، أو الحالةِ السَّيِّئةِ الشَّنيعةِ، فيكونُ المعنى: أنَّهم أساؤوا بذُنوبِهم وعِصيانِهم حتَّى وقَعوا في آخِرِ الأمرِ في التَّكذيبِ بآياتِ الله، والاستهزاءِ بها. ومِمَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

ومِمَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عُيَيْنةَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٦، ٤٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٤٤).

عَظَمتِه، ومُلاحظةُ عظَمتِه داعٍ إلى طاعتِه[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فيه إشارةٌ إلى البَعثِ والنُّشورِ، وفسادِ بِنْيَةِ هذا العالَمِ[٢].

٢- قال تعالى: ﴿مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ في التَّنصيصِ على ذِكرِ ما بينَ السَّمواتِ والأرضِ دليلٌ على أنَّ ما بيْنَهما أمرٌ عظيمٌ يُقارَنُ بنفْسِ السَّمواتِ والأرضِ، حيثُ استحقَّ أنْ يُجعلَ قَسيمًا لهما، فهذه ثلاثةُ أشياءَ: (السَّمواتُ، والأرضُ، وما بينهما)، ومِن المعلومِ عِظَمُ الأرضِ وعِظَمُ السَّماءِ؛ إذَنْ: فعِظَمُ ما بيْنَهما مُوازٍ لهما[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ لم يقُلْ: (أكثَرَ ممَّا أثاروها)؛ لِكَونِ قُرَيشٍ لم تكُنْ لهم إثارةٌ في الأرضِ؛ إذ كانوا بِوادٍ غيرِ ذي زَرعٍ، إنَّما كان لهم عِمارةٌ في الأرضِ من غرسٍ قليلٍ وبِناءٍ وتفجيرٍ، ولكنَّه يَتضاءلُ أمامَ عمارةِ الأُمَمِ السَّالِفةِ مِن عادٍ وثَمودَ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ دَلالةٌ على أنَّ إثارةَ الأرض -أي: الاشتغالَ بالزِّراعةِ- مِن أسبابِ القوَّةِ بلا شكٍّ، وكذلك عُمرانُ الأرضِ بغيرِ الإثارةِ -بالبناءِ والتِّجارةِ وما أشبَهَ

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٨).

ذلك- مِن أسبابِ القُوَّةِ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾، وقال في حَقِّ الَّذين أحسَنوا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٧]، فذَكَر (الزِّيادةَ) في حَقِّ المحسِنِ، ولم يَذكُرِ الزِّيادةَ في حَقِّ المُسيءِ؛ لأنَّ جزاءَ سَيِّئةٍ سَيِّئةٌ مِثلُها[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾، وقال في حقِّ الذين أحسَنوا: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٧]، فلم يذكُرْ في المحسِنِ أنَّ له الحُسنى بأنَّه صَدَّقَ، وذكَرَ في المُسيءِ أنَّ له السُّوأى بأنَّه كذَّب؛ لأنَّ الحُسنى للمُحسِنينَ فَضلٌ، والمتفَضِّلُ لو لم يكُنْ تفَضُّلُه لِسَببٍ يكونُ أبلَغَ، وأمَّا السُّوأى للمُسيءِ فعَدلٌ، والعادِلُ إذا لم يكُنْ تَعذيبُه لِسَببٍ لا يكونُ عَدلًا؛ فذُكِرَ السَّببُ في التَّعذيبِ، وهو الإصرارُ على التَّكذيبِ، ولم يُذكَرِ السَّبَبُ في الثَّوابِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۖ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمۡ لَكَٰفِرُونَ ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ ﴾ استِفهامُ إنكارٍ واستِقباحٍ؛ لِقَصرِ نَظَرِهم على ما ذُكِرَ مِن ظاهِرِ الحياةِ الدُّنيا مع الغَفلةِ عن الآخِرةِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ[٤]. وقيل: الاستفهامُ تَعجُّبيٌّ مِن غَفلتِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥١).

وعدَمِ تفكُّرِهم[١].

- و﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ مَعمولٌ لـ ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾؛ إمَّا على تَقديرِ مُضافٍ، أي: في خلْقِ أنفُسِهم لِيَخرُجوا مِن الغَفْلةِ، فيَعْلموا أنَّهم يَعلَمون ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا فقط، ويَستدِلُّوا بذلك على الإلهِ الخالِقِ. وإمَّا على أنْ يكونَ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ ظرْفًا للفِكرةِ في خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فيكونَ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ توكيدًا لقولِه: ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾، كما تقولُ: أبصِرْ بعَينِك، واسمَعْ بأُذُنِك؛ كأنَّه قال: أوَلَمْ يُحدِثوا التَّفكُّرَ في أنفُسِهم؟ أي: في قُلوبِهم الفارغةِ مِن الفِكرِ. والفِكرُ لا يكونُ إلَّا في القلوبِ، ولكنَّه زِيادةُ تَصويرٍ لحالِ المُتفكِّرينَ، كقولِك: اعتقِدْه في قلْبِك، وأضْمِرْه في نفْسِك. أو يكونَ صِلةً للتَّفكُّرِ، كقولِك: تَفكَّرَ في الأمْرِ وأجال فِكْرَه. و﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ مُتعلِّقٌ بالقولِ المحذوفِ، معناه: أوَلَمْ يَتفكَّروا، فيقولوا هذا القولَ؟ وقيل: معناه: فيَعلَموا؛ لأنَّ في الكلامِ دليلًا عليه، وهو قولُه: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾[٢].

- وحرْفُ (في) مِن قَولِه: ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ يجوزُ أنْ يكونَ للظَّرفيَّةِ الحقيقيَّةِ الاعتباريَّةِ؛ فيكونَ ظَرفًا لمَصدَرِ ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾، أي: تَفكُّرًا مُستقِرًّا في أنفُسِهم. ومَوقعُ هذا الظَّرفِ ممَّا قبْلَه مَوقعُ مَعنى الصِّفَةِ للتَّفكُّرِ. وإذ قدْ كان التَّفكُّرُ إنَّما يكونُ في النَّفْسِ، فذُكِرَ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾؛ لتَقْويةِ تَصويرِ التَّفكُّرِ، وهو كالصِّفةِ الكاشفةِ؛ لتَقرُّرِ معنَى التَّفكُّرِ عندَ السَّامعِ، وتكون جُملةُ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ...﴾ إلخ على هذا مُبيِّنةً لِجُملةِ ﴿يَتَفَكَّرُواْ﴾؛ إذ مَدلولُها هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥١).

ما يَتفكَّرون فيه. وقيل غيرُ ذلك[١].

- وفائدةُ ذِكرِ السَّمواتِ هنا في قولِه: ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أنَّ في أحوالِ السَّمواتِ -مِن شمْسِها وكواكبِها وملائكتِها- ما هو مِن جُملةِ الحقِّ الذي خُلِقَت مُلابِسةً له، أمَّا ما وراءَ ذلك مِن أحوالِها الَّتي لا نَعرِفُ نِسبةَ تعلُّقِها بهذا العالَم؛ فنَكِلُ أمْرَه إلى اللهِ، ونَقِيسُ غائبَه على الشَّاهدِ، فنُوقِنُ بأنَّه ما خُلِقَ إلَّا بالحقِّ كذلك؛ فشَواهدُ حَقِّيَّةِ البعثِ والجزاءِ باديةٌ في دقائقِ خَلْقِ المخلوقاتِ؛ ولذلك أعقَبَه بقولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾، وهذا كقولِه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[٢] [المؤمنون: ١١٥].

- قولُه: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عطْفٌ تَفسيريٌّ على قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ وذلك أنَّ هذا في حقِّ مُنكِري البعثِ؛ بدليلِ تَعقيبِه بقولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ تَقْريعًا وتَوبيخًا[٣].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ تَذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه ببَيانِ أنَّ أكثَرَهم غيرُ مُقتصِرينَ على ما ذُكِرَ مِن الغَفلةِ عن أحْوالِ الآخرةِ، والإعراضِ عن التَّفكُّرِ فيما يُرشِدُهم إلى مَعرفتِها مِن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما مِن المَصنوعاتِ، بلْ هم مُنكِرون جاحِدونَ بلِقاءِ حِسابِه تعالى وجَزائِه بالبعثِ[٤]. وتأْكيدُه بـ (إنَّ)؛ لتَنزيلِ السَّامعِ مَنزلةَ مَن يشُكُّ في وُجودِ مَن يَجحَدُ لِقاءَ اللهِ بعدَ هذا الدَّليلِ الَّذي مَضى، بَلْهَ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٢).

الكافرونَ به كثيرًا[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قدَّمَ هنا دَلائلَ الأنفُسِ ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ على دَلائلِ الآفاقِ ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾ -وهذا على جعلِ الأنفسِ محلَّ التفكُّرِ لا ظرفًا له-، وقدَّمَ في قولِه: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [فصلت: ٥٣] دَلائلَ الآفاقِ على دَلائلِ الأنفُسِ؛ وحِكمةُ ذلك: أنَّ المُفيدَ يَذكُرُ الفائدةَ على وجْهٍ يَختارُها، فإنْ فُهِمَت، وإلَّا انتقَلَ إلى الأبْيَنِ، والمُستفيدُ يَفهَمُ أوَّلًا الأبْيَنَ، ثمَّ يَرْتَقي إلى الأخْفى، وفي ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ﴾ بفِعلٍ مُسنَدٍ إلى السَّامعِ؛ فبدَأَ بما يَفهَمُ أوَّلًا، ثمَّ ارْتَقى إليه ثانيًا. وفي ﴿سَنُرِيهِمۡ﴾ أُسنِدَ إلى المُفيدِ، فذكَرَ أوَّلًا الآفاقَ، فإنْ لم يَفهَموا، فالأنفُسُ؛ إذ لا ذُهولَ للإنسانِ عن دَلائلِها، بخلافِ دَلائلِ الآفاقِ؛ لأنَّه قد يَذهَلُ عنها، وهذا مُراعًى في ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا﴾ [آل عمران: ١٩١] الآيةَ؛ بدَأَ بأحوالِ الأنفُسِ، ثمَّ بدَلائلِ الآفاقِ[٢].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّه قال هنا: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾، وقال قبْلُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٦]؛ وذلك أنَّ هنا ذكَرَ ﴿كَثِيرٗا﴾ بعدَ ذِكْرِ الدَّلائلِ الواضحةِ، وهما: ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾، و﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾، والإيمانُ بعدَ الدَّلائلِ أكثَرُ مِن الإيمانِ قبْلَها، فبَعْدَ ذِكرِ الدَّليلِ لا بُدَّ أنْ يُؤمِنَ مِن ذلك الأكثَرِ جمْعٌ، فلا يَبْقى الأكثرُ[٣]. وقِيل: لم يُعبِّرْ هنا بـ (أَكْثَر النَّاس)؛ لأنَّ المُثبتينَ للبعثِ كثيرونَ؛ مِثلُ أهلِ الكتابِ والصَّابئةِ، والمَجوسِ والقِبطِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٥).

٢- قولُه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ تَقْريرُ تَوبيخٍ لهمْ بعدَم اتِّعاظِهم بمُشاهَدةِ أحوالِ أمثالِهم الدَّالَّةِ على عاقِبَتِهم ومآلِهم. والهمزةُ في ﴿ أَوَلَمْ ﴾ لِتَقريرِ المنْفيِّ، والهمزةُ أصْلُها: إمَّا الإنكارُ بتَنزيلِ المُقِرِّ مَنزلةَ المُنكِرِ؛ لِيَكونَ إقرارُه أشدَّ لُزومًا له، وإمَّا أنْ تكونَ للاستفهامِ، فلمَّا دخَلَت على النَّفيِ أفادَتِ التَّقريرَ؛ لأنَّ إنكارَ النَّفيِ إثباتٌ للمَنْفيِّ، وهو إثباتٌ مُستعمَلٌ في التَّقريرِ على وجْهِ الكِنايةِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أقَعَدُوا في أماكنِهم ولم يَسِيرُوا[1]؟!

- وقد جمَعَ قولُه: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وَعيدًا على تَكذيبِهم النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتجْهيلًا لإحالتِهم المُمكِنَ؛ حيث أيْقَنوا بأنَّ الفُرْسَ لا يُغلَبون بعدَ انتِصارِهم؛ فهذه آثارُ أُمَمٍ عظيمةٍ كانت سائدةً على الأرضِ، فزال مُلْكُهم، وخلَتْ بِلادُهم مِن سبَبِ تغلُّبِ أُمَمٍ أُخرى عليهم[2].

- قولُه: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾، أي: أكثَرَ مِن عِمارةِ أهْلِ مكَّةَ، وأهْلُ مكَّةَ أهْلُ وادٍ غيرِ ذي زرْعٍ، لا تبسُّطَ لهم في غيرِه، وفيه تهكُّمٌ بهم مِن حيثُ إنَّهم مغترونَ بالدُّنيا مفتخِرونَ بها، وهم أضعفُ حالًا

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٦ و٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٦).

فيها؛ إذْ مَدارُ أمْرِها على التَّبسُّطِ في البلادِ، والتَّسلُّطِ على العِبادِ، والتَّقلُّبِ في أكنافِ الأرضِ بأصنافِ التَّصرُّفاتِ، وهمْ ضَعفةٌ مُلْجَئون إلى وادٍ لا نفْعَ فيه، يخافُون أنْ يَتخطَّفَهم النَّاسُ، ففي ذِكرِ (أفعل) تهكُّمٌ بهم؛ إذ لا مناسبةَ بينَ كفَّارِ مكةَ وأولئك الأممِ المهلكَةِ[1].

- وفي قولِه: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ أُطلِقَت الإثارةُ على قلْبِ تُرابِ الأرضِ بجَعْلِ ما كان باطنًا ظاهرًا، وهو الحرْثُ، ويجوزُ أنْ يكونَ (أَثَارُوا) هنا تمْثيلًا لحالِ شِدَّةِ تصرُّفِهم في الأرضِ، وتغلُّبِهم على مَن سِواهم، بحالِ مَن يُثيرُ ساكنًا ويُهَيِّجُه، وهذا الاحتمالُ أنسَبُ بالمقصودِ الَّذي هو وصْفُ الأُمَمِ بالقوَّةِ والمَقدِرةِ مِن احتمالِ أنْ تكونَ الإثارةُ بمعنى حرْثِ الأرضِ؛ لأنَّه يَدخُلُ في العِمارةِ[2].

- وتفْريعُ قولِه: ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ على قولِه: ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إيجازُ حَذْفٍ بَديعٌ؛ لأنَّ مَجيءَ الرُّسلِ بالبيِّناتِ يَقْتضي تَصديقًا وتكذيبًا، فلمَّا فرَّعَ عليه أنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم، عُلِمَ أنَّهم كذَّبوا الرُّسلَ، وأنَّ اللهَ جازاهُم على تَكذيبِهم رُسُلَه؛ بأنْ عاقَبَهم عِقابًا لو كان لغيرِ جُرْمٍ لَشابَهَ الظُّلمَ، فجعَلَ مِن مَجموعِ نفْيِ ظُلْمِ اللهِ إيَّاهم، ومِن إثباتِ ظُلْمِهم أنفُسَهم؛ مَعرفةَ أنَّهم كذَّبوا الرُّسلَ وعانَدوهُم، وحلَّ بهم ما هو مَعلومٌ مِن مُشاهَدةِ دِيارِهم، وتناقُلِ أخبارِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٨).

- وقولُه: ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ استِدراكٌ ناشئٌ على ما يَقْتضيهِ نفْيُ ظُلْمِ اللهِ إيَّاهم مِن أنَّهم عُومِلوا مُعامَلةً سيِّئةً، لو لم يَستحِقُّوها لكانت مُعامَلةَ ظُلْمٍ. وعبَّرَ عن ظُلْمِهم أنفُسَهم بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ ظُلْمِهم وتكرُّرِه، وأنَّ اللهَ أمْهَلَهم، فلم يُقلِعوا حتَّى أخَذَهم بما دلَّت عليه تلك العاقبةُ، والقرينةُ قولُه: ﴿كَانُوٓاْ﴾[1].

- وتَقديمُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾ وهو مفْعولُ ﴿يَظۡلِمُونَ﴾ على فِعلِه؛ للاهتِمامِ بأنفُسِهم في تَسْليطِ ظُلْمِهم عليها؛ لأنَّه ظُلْمٌ يُتعجَّبُ منه، مع ما فيه مِن الرِّعايةِ على الفاصلةِ[2]. وقيل: قُدِّمَ المفعولُ ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾؛ لإفادةِ الحَصرِ، أي: لا يَظلِمونَ بهذا إلَّا أنفُسَهم، أمَّا اللهُ تبارك وتعالى فإنَّهم لا يَظلِمونَه؛ لأنَّه سُبحانَه وبِحَمدِه لا يَتضَرَّرُ بمَعصيتِهم، كما لا يَنتفعُ بطاعتِهم[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى في الدَّليلينِ المُتقدِّمَينِ في سُورةِ العنكبوتِ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ كَيۡفَ يُبۡدِئُ ٱللَّهُ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ [العنكبوت: ١٩]، و﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٧]، بلفْظِ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾، ولم يقُلْ: (أولمْ يَسِيروا)؛ إذ لا حاجةَ هناك إلى السَّيرِ بحُضورِ النَّفْسِ والسَّماءِ والأرضِ، وقال هاهنا: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ ... فَيَنظُرُواْ﴾، ذكَّرهم بحالِ أمثالِهم، ووَبالِ أشْكالِهم، ثمَّ ذكَرَ أنَّهم أَولى بالهَلاكِ؛ لأنَّ مَن تقدَّمَ مِن عادٍ وثمودَ كانوا أشدَّ منهم قوَّةً، ولم تَنفَعْهم قُواهُم، وكانوا أكثَرَ مالًا وعِمارةً، ولم يَمنَعْ عنهم الهلاكَ أمْوالُهم وحُصونُهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ... ﴾، أي: ثمَّ كان عاقبتُهم العاقبةَ السُّوأى أو الخَصلةَ السُّوأى؛ فوُضِعَ الظَّاهرُ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ للدَّلالةِ على ما اقْتَضى أنْ تكونَ تلك عاقبتَهم، وأنَّهم جاؤوا بمِثلِ أفعالِهم(١).

- قولُه: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ لأنَّ هذه العاقبةَ أعظَمُ رُتبةً في السُّوءِ مِن عذابِ الدُّنيا؛ فيجوزُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ تَذييلًا لحِكايةِ ما حلَّ بالأُمَمِ السَّالفةِ مِن قولِه: ﴿ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ [الروم: ٩]، والمعنى: ثمَّ كان عاقبةُ كلِّ مَن أساؤُوا السُّوأى مِثْلَهم، فيكونَ تَعريضًا بالتَّهديدِ لِمُشركي العرَبِ، كقولِه تعالى: ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ﴾ [محمد: ١٠]، فالمرادُ بـ ﴿ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ﴾ كلُّ مُسيءٍ مِن جِنسِ تلك الإساءةِ، وهي الشِّركُ. ويجوزُ أنْ يكونَ إنْذارًا لِمُشركي العرَبِ المُتحدَّثِ عنهم مِن قولِه: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦]، فيكونوا المُرادَ بـ ﴿ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ﴾، ويكونَ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهرِ؛ لِقصْدِ الإيماءِ بالصِّلةِ، أي: أنَّ سبَبَ عاقِبَتِهم السُّوأى هو إساءتُهم، وهذا إنذارٌ بعدَ الموعظةِ، ونصٌّ بعدَ القِياسِ؛ فإنَّ اللهَ وعَظَ المكذِّبين للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعواقبِ الأُمَمِ الَّتي كَذَّبت رُسلَها؛ لِيَكونوا على حذَرٍ مِن مِثلِ تلك العاقبةِ بحُكْمِ قِياسِ التَّمثيلِ، ثمَّ أعقَبَ تلك الموعظةَ بالنِّذارةِ بأنَّهم ستَكون لهم مِثلُ تلك العاقبةِ، وأوقَعَ فِعلَ (كان)

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

الماضي في مَوقعِ المُضارِعِ؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه، مِثلُ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]؛ إتمامًا للنِّذارةِ. ويَحتمِلُ أنْ يُرادَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ الأُمَمُ الَّذين أثارُوا الأرضَ وعَمَروها، فتَكونَ مِن وضْعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ توسُّلًا إلى الحُكْمِ عليهم بأنَّهم أساؤوا واسْتَحَقُّوا السُّوأى، وهي جهنَّمُ، على قولٍ في التَّفسيرِ[١].

- ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ صِلةَ الفِعلِ ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾، و﴿أَن كَذَّبُواْ﴾ تابِعَها -أي: بدلًا أو عطفَ بيانٍ-، والخبرُ مَحذوفٌ؛ للإبهامِ والتَّهويلِ. وأنْ تكونَ (أَنْ) مُفسِّرةً؛ لأنَّ الإساءةَ إذا كانت مُفسَّرةً بالتَّكذيبِ والاستهزاءِ كانت مُتضمِّنةً مَعنى القولِ[٢].

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فيه تقْديمُ المجرورِ ﴿بِهَا﴾؛ للاهتمامِ بشأْنِ الآياتِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٥٩، ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٠).

## الآيات (١١-١٦)

﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١١ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ١٤ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ١٦﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُبۡلِسُ﴾: أي: يَيأسُ، وتَنقَطِعُ حُجَّتُه، وأصلُ (بلس): يدُلُّ على يأسٍ[1].

﴿رَوۡضَةٖ﴾: الرَّوضةُ: هي البُستانُ الَّذي هو فِي غايةِ النَّضارةِ والحُسنِ، والمرادُ بها الجنَّةُ، والرَّوضةُ: كلُّ أرضٍ ذاتِ نباتٍ وماءٍ، وأصلُ (روض): يدُلُّ على اتِّساعٍ[2].

﴿يُحۡبَرُونَ﴾: أي: يُسَرُّونَ ويُنعَّمونَ، والحَبْرةُ: السُّرورُ، وأصلُ (حبر): يدُلُّ على الأثَرِ في حُسنٍ وبَهاءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما يدُلُّ على قُدرتِه، ويذكرُ أحوالَ الناسِ وأقسامَهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه يبدأُ إنشاءَ الخَلقِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُه فيُحييه مرَّةً ثانيةً بعدَ فَنائِه، ثمَّ يَرجِعُ الخَلقُ جميعًا إليه وحْدَه يومَ القيامةِ.

ثمَّ يبيِّنُ حالَ المجرمينَ فيقولُ: ويومَ القيامةِ يَيئسُ المُشرِكونَ مِن رحمةِ اللهِ، وتَنقَطِعُ حُجَّتُهم ويَندَمونَ، ولم يكُنْ لهم ممَّا أشرَكوه مِن دُونِه سُبحانَه شُفَعاءُ يَشفَعونَ لهم يومَ القيامةِ، وكَفَر هؤلاء المُشرِكونَ بمَن اتَّخذُوهم شُرَكاءَ لله تعالى.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى تفرُّقَ النَّاسِ يومَ القيامةِ وكيفيَّةَ هذا التَّفرُّقِ، فيقولُ: ويومَ القيامةِ يَتفرَّقُ الخَلقُ بيْنَ أهلِ إيمانٍ باللهِ، وأهلِ كُفرٍ به؛ فأمَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ فهم في رياضِ الجنَّةِ يُنَعَّمونَ ويُسَرُّونَ، وأمَّا الَّذين كَفَروا وكذَّبوا بآياتِ اللهِ وأنكَروا البَعثَ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجَزاءِ، فأولئك في عذابِ اللهِ مُحضَرونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ عاقِبةَ الكافِرينَ إلى الجَحيمِ، وكان في ذلك إشارةٌ إلى الإعادةِ والحَشرِ؛ لم يَترُكْه دَعوى بلا بيِّنةٍ[1].

وأيضًا لَمَّا كان حاصِلُ ما مضَى أنَّه سُبحانَه وتعالى قادِرٌ على الإعادةِ، كما قَدَر على الابتداءِ، وكان للتَّصريحِ مع النَّفْسِ حالةٌ ليست لِغَيرِه- قال ذاكِرًا نتيجةَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٤).

ما مضى ومُحَصِّلَه؛ تصريحًا بالمقصودِ، وتلخيصًا للدَّليلِ[١]:

﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾.

أي: اللهُ وحْدَه الَّذي يَبدأُ إنشاءَ جميعِ المَخلوقاتِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُها فيُحييها مرَّةً ثانيةً بعدَ فَنائِها[٢].

﴿ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾.

أي: ثمَّ تُردُّونَ يومَ القيامةِ إلى الله وحْدَه، فيُجازيكم بأعمالِكم[٣].

﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى الرُّجوعَ؛ أتْبَعَه ببَعضِ أحوالِه، بقَولِه تعالى[٤]:

﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ١٢ ﴾.

أي: ويومَ القيامةِ يَيئَسُ المُشرِكونَ مِن رَحمةِ اللهِ، وتَنقَطِعُ حُجَّتُهم ويَندَمونَ[٥].

﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ١٣ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٦٨، ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٢، ٧٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه ذكَرَ أحدَ أسبابِ الإبلاسِ وأعظَمَها حينَئذٍ، وهو أنَّهم لم يَجِدوا شُفَعاءَ مِن آلهتِهم الَّتي أشرَكوا بها، وكانوا يحسَبونَها شُفَعاءَ عندَ اللهِ(١).

﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ ﴾.

أي: ولم يكُنْ للمُشرِكينَ مِن معبوداتِهم الباطلةِ -الَّتي جعَلوها شُرَكاءَ للهِ- شُفَعاءُ يَشفَعونَ لهم في الآخِرةِ، فيَجلِبونَ لهم نَفعًا، أو يَدفَعونَ عنهم ضُرًّا(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ [القصص: ٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيۡنَكُمۡ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾.

أي: ويَكفُرُ أولئك المُشرِكونَ بمَنِ اتَّخَذوهم شُرَكاءَ للهِ تعالى(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٤، ٧٥).
ممَّن ذهب إلى أنَّ معنى شُركائِهم: مَعبوداتُهم الَّتي اتَّخَذوها شُركاءَ لله في عبادتِه: السمعانيُّ، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.
وقيل: معنى شركائِهم: الَّذين كانوا يتَّبِعونَهم على ما دَعَوْهم إليه مِن الضَّلالةِ، فيُشاركونَهم في الكفرِ بالله، والمُعاوَنةِ على أذى رُسُلِه. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١)، ((تفسير ابن =

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّن أمرًا آخَرَ يكونُ في يومِ القيامةِ، وهو الافتِراقُ، فكأنَّ هذه الحالةَ مُتَرتِّبةٌ على الإبلاسِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إبلاسَ المُشرِكينَ المُشعِرَ بتوقُّعِهم السُّوءَ والعذابَ؛ أعقَبَ بتَفصيلِ أحوالِ النَّاسِ يومَئذٍ، مع بيانِ مَغَبَّةِ إبلاسِ الفَريقِ الكافِرينَ(٢).

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: ويَومَ القيامةِ يتفرَّقُ الخَلقُ بيْنَ مُؤمِنينَ وكافِرينَ(٣).

---

= كثير)) (٦/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

مِمَّن قال بأنَّ المرادَ: كُفرُ المشركينَ بآلهتِهم المزعومةِ وتبرُّؤُهم منهم: السمعانيُّ، وابن عطية، والرسعني، والبقاعي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٧).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: كُفرُ معبوداتِهم بهم: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٦).

قال القرطبي: ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ قالوا: ليسوا بآلِهةٍ، فتَبرَّؤُوا منها، وتبَرَّأَتْ منهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧٢).

وقال السعديُّ: (تبرَّأ المشركون ممَّن أشرَكوهم مع الله، وتبرَّأ المعبودون وقالوا: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]، والْتَعَنوا وابتعَدوا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

وقال ابن عثيمين: (المعبودون يَكفرون، والعابِدون أيضًا يَكفرون؛ كلٌّ منهم يَكفُرُ ببعضٍ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٧).

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: فأمَّا الَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فهُم في بساتينَ مُشتَمِلةٍ على المياهِ والأزهارِ، والأشجارِ والنَّباتاتِ البَهيجةِ، والرَّوائحِ الطَّيِّبةِ والمَناظِرِ الجميلةِ: يُسَرُّون فيها سُرورًا شديدًا، يَظهَرُ أثرُه وحُسْنُه عليهم(١).

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

أي: وأمَّا الَّذين كَفَروا وكذَّبوا بآياتِ اللهِ، وأنكَروا البَعثَ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجزاءِ: فأولئك يُؤتَى بهم إلى النَّارِ، فيَبقَونَ فيها، لا يَغيبُ عنهم عذابُها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢، ١٣)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٧٨-٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤).

قال الماوَرْدي: (قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ فيه خمسةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: مُدْخَلون، قاله يحيى بنُ سلَّام.

الثَّاني: نازِلون، ومنه قولُه: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [البقرة: ١٨٠] و [المائدة: ١٠٦]، أي: نزَل به. الثَّالثُ: مُقيمون، قاله ابنُ شجرة. الرابعُ: مُعَذَّبون. الخامسُ: مَجموعون. ومعاني هذه التَّأويلاتِ مُتقارِبةٌ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٠٢). ويُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٤٨).

وقال ابن عاشور: (و﴿مُحۡضَرُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مِن الإحضارِ، أي: جَعْلِ الشَّيءِ حاضِرًا، أي: لا يَغيبونَ عنه، أي: لا يَخرُجونَ منه...، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ بمعنَى: مَأْتِيٌّ بهم إلى العذابِ، فقد كَثُر في القرآنِ استعمالُ مُحْضَرٍ ونحوِه بمعنَى مُعاقَبٍ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [سبأ: ٣٨].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ دَلالةٌ على أنَّ البعثَ ليس ابتِداءَ خَلقٍ، ولكِنَّه إعادةٌ، خلافًا لِمَن قال: «إنَّ البعثَ ابتِداءُ خَلقٍ»؛ فقَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ الضَّميرُ يعودُ إلى الخَلقِ المُبتدَأ، ولو كانتِ الإعادةُ ابتِداءَ خَلقٍ جديدٍ لكان يُعذِّبُ مَن لم يَعمَلْ، ويُنَعِّمُ مَن لم يعمَلْ، ولكِنَّ البعثَ إعادةٌ لِمَا سَبقَ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ ذكَرَ في المؤمِنِ العَمَلَ الصَّالحَ، ولم يذكُرْ في الكافِرِ العَمَلَ

---

= وممَّن ذهَب في الجملةِ إلى أنَّ المعنى: أنَّهم حاضِرون العذابَ، مُقيمون فيه، لا يَغيبون عنه: الزمخشريُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وأبو السعود، والعُلَيمي، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٧).

وقال ابن جرير: (﴿مُحۡضَرُونَ﴾ قد أحْضَرهم اللهُ إيَّاها، فجَمَعهم فيها لِيَذوقوا العذابَ الَّذي كانوا به في الدُّنيا يُكَذِّبونَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٨٢).

وقال البِقاعي: (﴿مُحۡضَرُونَ﴾ مِن أيِّ محضَرٍ كان، بالسَّوقِ الحَثيثِ، والزَّجرِ العنيفِ، فإذا وصَلوا إلى مقرِّه وُكِّل بهم مَن يُديمُ كَوْنَهم كذلك -لإفادةِ الجملةِ الاسميَّةِ الدَّوامَ-، فلا يَغيبون عنه، ولا يُخفَّفُ عنهم). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٧٠).

السَّيِّئَ؛ لأنَّ العَمَلَ الصَّالحَ مُعتَبَرٌ مع الإيمانِ، وأمَّا الكافِرُ فهو في الدَّرَكاتِ بمُجَرَّدِ كُفرِه، فلو قال: (والذين كفَروا وعَمِلوا السَّيِّئاتِ في العذابِ مُحضَرونَ)، لكان العذابُ لِمن يَصدُرُ منه المجموعُ(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو شُروعٌ فيما أُقِيمَت عليه هذه السُّورةُ مِن بسْطِ دَلائلِ انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في النَّاسِ؛ بإيجادِهم وإعدامِهم، وبإمدادِهم وأطْوارِ حَياتِهم؛ لإبطالِ أنْ يكونَ لِشُركائِهم شَيءٌ مِن التَّصرُّفِ في ذلك؛ فهي دَلائلُ ساطعةٌ على ثُبوتِ الوَحدانيَّةِ الَّتي عَمُوا عنها؛ فقولُه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ استِدلالٌ بما لا يَسَعُهم إلَّا الاعترافُ به، وهو بَدْءُ الخلْقِ؛ إذ لا يُنازِعون في أنَّ اللهَ وحْدَه هو خالقُ الخلْقِ؛ ولذلك قال اللهُ تعالى: ﴿أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الرعد: ١٦] الآيةَ. وحسَّنَ مَوقعَ الاستئنافِ وُرودُه بعدَ ذِكْرِ أُمَمٍ غابرةٍ وأُمَمٍ حاضرةٍ خلَفَ بعضُها بعضًا، وإذ كان ذلك مِثالًا لإعادةِ الأشخاصِ بعْدَ فَنائِها، وذِكْرِ عاقبةِ مَصيرِ المُكذِّبينَ للرُّسلِ في العاجلةِ؛ ناسَبَ في مَقامِ الاعتبارِ أنْ يُقامَ لهم الاستِدلالُ على إمكانِ البَعثِ؛ لِيَقَعَ ذِكْرُ ما يَعقُبُه مِن الجزاءِ مَوقعَ الإقناعِ لهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٠ - ٦١).

وذكَر ابنُ عاشورٍ: أنَّ هذه السُّورةَ اشتمَلَتْ على آياتٍ فصَّلَت دَلائلَ إبطالِ دِينِ الشِّركِ على أربعةِ استئنافاتٍ مُتماثِلةِ الأُسلوبِ، ابتُدِئَ كلُّ واحدٍ منها باسمِ الجلالةِ مُجْرًى عليه إخبارٌ عن حقائقَ لا قِبَلَ لهم بدَحْضِها؛ لأنَّهم لا يَسَعُهم إلَّا الإقرارُ ببَعضِها أو العجْزُ عن نقْضِ دَليلِها؛ فالاستئنافُ الأوَّلُ المَبْدوءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾، والثَّاني المَبْدوءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾ [الروم: ٤٠]، والثَّالثُ المَبْدوءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: ٤٨]، والرَّابعُ المَبْدوءُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ﴾ [الروم: ٥٤]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦١).

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ تَقديمُ اسمِ الجَلالةِ على المُسنَدِ الفِعليِّ لمُجرَّدِ التَّقَوِّي[1].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ إدْماجٌ[2]؛ لأنَّه إذا سُلِّمَ له بَدْءُ الخَلْقِ، كان تَسليمُ إعادتِه أَولى وأجدَرَ[3].

- (ثمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ -كما هو شأْنُها في عطْفِ الجُمَلِ-؛ وذلك أنَّ شأْنَ الإرجاعِ إلى اللهِ أعظَمُ مِن إعادةِ الخلْقِ؛ إذ هو المَقصدُ مِن الإعادةِ ومِن بَدْءِ الخَلْقِ[4].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ مُقْتضَى الظَّاهرِ الغَيبةُ، لكنَّه عدَلَ عنه إلى خِطابِ المشركينَ؛ لِمُكافَحتِهم بالوعيدِ، ومُواجهتِهم بالتَّهديدِ، والمُبالَغةِ في إيهامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦١).

(٢) الإدماجُ: هو أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيُقرنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المَسوقِ له الكلامُ، ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجَتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة: البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّه مَخصوصٌ بهم. وتَقديمُ ﴿إِلَيۡهِ﴾؛ للتَّخصيصِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]؛ تَبْيينًا لحالِ المُشركينَ في وقْتِ ذلك الإرجاعِ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقال: ويومئذٍ يُبلِسُ المُجرمون، أو يومَئذٍ تُبْلِسون، أي: ويومَ تُرجَعون إليه يُبلِسُ المُجرمون؛ فعُدِلَ عن تَقديرِ الجُملةِ المُضافِ إليها (يوم) الَّتي يدُلُّ عليها ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الروم: ١١]، بذِكْرِ جُملةٍ أُخرى هي في مَعناها؛ لِتَزيدَ الإرجاعَ بَيانًا أنَّه إرجاعُ النَّاسِ إليه يومَ تقومُ السَّاعةُ؛ فهو إطنابٌ لأجْلِ البَيانِ، وزيادةِ التَّهويلِ؛ لِمَا يَقْتَضيه إسنادُ القيامِ إلى السَّاعةِ مِن المُباغَتةِ والرُّعبِ. ويدُلُّ لهذا القصْدِ تَكريرُ هذا الظَّرفِ في الآيةِ بعْدَها بهذا الإطنابِ[٢].

- والمُجرِمون: المُشرِكون، وهمُ الَّذين أُجْرِيَت عليهم ضَمائرُ الغَيبةِ وضمائرُ الخِطابِ؛ بقرينةِ قولِه: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ﴾، والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإجراءِ وصْفِ الإجرامِ عليهم. ووُصِفوا بالإجرامِ؛ لتَحقيرِ دِينِ الشِّركِ، وأنَّه مُشتمِلٌ على إجرامٍ كبيرٍ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٢).

- قولُه: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ ﴾ فيه نفْيُ فِعلِ (يكُن) بـ(لمْ) الَّتي تُخَلِّصُ المُضارعَ للمُضِيِّ؛ للإشارةِ إلى تَحقيقِ حُصولِ هذا النَّفيِ[١].

- ومُقابَلةُ ضَميرِ الجمْعِ بصِيغةِ جمْعِ الشُّركاءِ في قولِه: ﴿ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ ﴾ مِن بابِ التَّوزيعِ، أي: لم يكُنْ لأحدٍ مِن المُجرِمين أحَدٌ شَفيعٌ فضْلًا عن عِدَّةِ شُفعاءَ، وكذلك قولُه: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾؛ لأنَّ المرادَ أنَّهم يَكفُرون بهم يومَ تقومُ السَّاعةُ[٢].

- قولُه: ﴿وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴾ معناه: ويكونُ عندَ مُعاينَتِهم أمْرَ اللهِ، وفسادَ حالِ الأصنامِ، عبَّرَ بالماضي؛ لِتَيقُّنِ الأمْرِ، وصِحَّةِ وُقوعِه[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ ﴾ أُعِيدَ؛ لِتَهويلِه، وتَفظيعِ ما يقَعُ فيه[٤]، فقيامُ الساعةِ أمرٌ هائلٌ؛ فكرَّره تأكيدًا للتخويفِ[٥].

- قولُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ تَهْويلٌ له إثْرَ تَهويلٍ[٦]، وكرَّرَ ﴿يَوۡمَئِذٖ ﴾؛ لِتأْكيدِ حَقيقةِ الظَّرفيَّةِ[٧].

- والتَّفرُّقُ: انقسامُ الجمْعِ، وتشتُّتُ أجزاءِ الكلِّ، وقد كُنِّيَ به هنا في قولِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٣).

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ عن التَّباعُدِ؛ لأنَّ التَّفرُّقَ يُلازِمُه التَّباعدُ عُرْفًا. وقد فُصِّلَ التَّفرُّقُ هنا بقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ إلى آخِرِه[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ تَفصيلٌ وبَيانٌ لأحوالِ ذَيْنِكَ الفَريقينِ[٢].

- وبدأ بذِكرِ حالِ الَّذين آمَنوا، مع أنَّ الموضِعَ مَوضِعُ ذِكرِ المُجرِمينَ؛ لأنَّ المؤمِنَ يُوصَلُ إليه الثَّوابُ قبْلَ أن يُوصَلَ إلى الكافِرِ العِقابُ؛ حتَّى يرى ويَتحَقَّقَ أنَّ المؤمِنَ وَصَل إلى الثَّوابِ، فيَكونَ أنكَى، ولو أُدخِلَ الكافِرُ النَّارَ أوَّلًا لكان يَظُنُّ أنَّ الكُلَّ في العذابِ مُشتَرِكونَ؛ فقدَّم ذلك زيادةً في إيلامِهم[٣].

- قولُه: ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ إنَّما خَصَّ جلَّ ثناؤُه ذِكْرَ الرَّوضةِ في هذا الموضعِ؛ لأنَّه لم يكُنْ عندَ الطَّرفينِ أحسَنُ مَنظرًا، ولا أطيَبُ نَشْرًا مِن الرِّياضِ[٤].

- وجاء لَفظُ ﴿رَوْضَةٍ﴾ مُنكَّرًا، والتَّنكيرُ لإبهامِ أمْرِها وتَفخيمِه[٥].

- وجاء ﴿يُحْبَرُونَ﴾ بالفِعلِ المُضارِعِ؛ لاستِعمالِه للتَّجدُّدِ؛ لأنَّهم كلَّ ساعةٍ يأْتِيهم ما يُسَرُّون به مِن مُتجدِّداتِ الملاذِّ وأنواعِها المُختلِفةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٠).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ صرَّحَ بذلك مع اندارجِه في تكذيبِ الآياتِ؛ للاعتِناءِ بأمْرِه[1].

- وقولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المَوصولِ، باعتبارِ اتِّصافِه بما في حيِّزِ الصِّلةِ مِن الكُفْرِ والتَّكذيبِ بآياتِه تعالى وبلقاءِ الآخِرةِ؛ للإيذانِ بكَمالِ تَميُّزِهم بذلكَ عن غيرِهم، وانتظامِهم في سلْكِ المُشاهَداتِ، وما فيهِ مِن معنَى البُعدِ مع قُرْبِ العهْدِ بالمُشارِ إليهِ؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرِّ[2].

- وجاء ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ باسمِ الفاعلِ في قولِه: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾؛ لاستعمالِه للثُّبوتِ، فهمْ إذا دَخَلوا العذابَ يَبْقَون فيه مُحضَرينَ، فهو وصْفٌ لازِمٌ لهم[3].

- وأيضًا ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مِن الإحضارِ، أي: جعْلِ الشَّيءِ حاضرًا، أي: لا يَغِيبون عنه، أي: لا يَخرُجون منه، وهو يُفِيدُ التَّأبيدَ بطريقِ الكِنايةِ؛ لأنَّه لَمَّا ذُكِرَ بعدَ قولِه: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾، ناسَبَ ألَّا يكونَ المقصودُ مِن وصْفِهم بالمُحضَرينَ أنَّهم كائِنون في العذابِ؛ لئلَّا يكونَ مُجرَّدَ تأْكيدٍ بمَدلولِ (في) الظَّرفيَّةِ؛ فإنَّ التَّأسيسَ أوقَعُ مِن التَّأكيدِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ بمعنى: مأْتيٌّ بهم إلى العذابِ؛ فقد كَثُرَ في القرآنِ استعمالُ (مُحضَرٍ) ونحوِه بمعنى مُعاقَبٍ؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾[4] [الصافات: ١٥٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٤).

## الآيات (١٧-٢٢)

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَعَشِيًّا﴾: أي: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو مِن الظُّهرِ إلى نِصفِ اللَّيلِ، أو صلاةَ العصرِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ، وقِلَّةِ وُضوحٍ في الشَّيءِ[1].

﴿تُظْهِرُونَ﴾: أي: تَدخُلونَ في وقتِ الظَّهيرةِ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى أنواعًا متعدِّدةً مِن الأدلَّةِ والبراهينِ على وحدانيَّتِه، فيقولُ: تَنزَّهَ اللهُ تعالى عن كلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، فنزِّهوه وسَبِّحوه -أيُّها النَّاسُ- حين تُمْسونَ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١).

وحينَ تُصبِحونَ، وله سُبحانَه الحَمدُ في السَّمَواتِ والأرضِ، فهو المحمودُ فيهما، ونَزِّهوه وسَبِّحوه أيضًا وقتَ العَشِيِّ ووقتَ الظَّهيرةِ. يُخرِجُ اللهُ بقُدرتِه الحَيَّ مِن الميِّتِ، كالإنسانِ مِن النُّطفةِ، ويُخرِجُ الميِّتَ مِن الحيِّ، كالنُّطفةِ مِن الإنسانِ، ويُحيي الأرضَ بالماءِ بعدَ جُدوبِها وقُحولِها، وكما يُحيي اللهُ الأرضَ بعدَ موتِها يُحييكم -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوتِكم.

ومِنَ العلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ اللهِ تعالى -كوحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى-: أنَّه ابتدَأَ خَلْقَكم مِن تُرابٍ؛ فخَلَق أباكم آدَمَ منه، ثمَّ إذا أنتم بشَرٌ أحياءٌ تَنتَشِرونَ في الأرضِ وتَسعَونَ فيها.

ومِنَ العلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ الله تعالى: أنَّه خلَقَ لكم مِن أنفُسِكم أزواجًا؛ لِيَحصُلَ بيْنَكم السَّكَنُ والأُلْفةُ، وجعَلَ بيْنَكم محبَّةً ورَحمةً، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ على قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه لِقَومٍ يتفَكَّرونَ.

ومِنَ العلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى: خَلْقُ السَّمَواتِ والأرضِ مِنَ العَدَمِ، واختِلافُ لُغاتِكم وألوانِكم مع أنَّ أصْلَكم واحدٌ؛ مِن أبيكم آدَمَ، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ لأُولي العِلمِ.

ومِنَ العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى: نَومُكم في اللَّيلِ والنَّهارِ لِراحةِ أبدانِكم، وطَلَبُكم رِزقَ اللهِ فيهما؛ إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ لِقَومٍ يَسمَعونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ تعالى عظيمَ قُدرتِه في خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ بالحقِّ - وهي حالةُ

ابتِداءِ العالَمِ-، وفي مَصيرِهم إلى الجنَّةِ والنَّارِ -وهي حالَةُ الانتهاءِ-؛ أمَرَ تعالى بتنزيهِه مِن كلِّ سُوءٍ(١).

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ سُبحانَه المبدأَ بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ، والمَعادَ بالجَنَّةِ والنَّارِ، وأنَّهم كَذَّبوا به، وكان تكذيبُهم به مُستَلزِمًا لاعتقادِ نقائِصَ كثيرةٍ؛ منها العَجزُ، وإخلافُ الوَعدِ، وتَرْكُ الحِكمةِ- كان ذلك سببًا لأن يُنَزِّهَ سُبحانَه نفْسَه المُقَدَّسةَ، ويأمُرَ بتَنزيهِها(٢).

وأيضًا بعدَ ما بُيِّن حالُ فَريقَيِ المؤمنينَ العاملينَ للصَّالحاتِ، والكافرينَ المكذِّبينَ بالآياتِ، وما لَهُما مِن الثَّوابِ والعذابِ؛ أُمِرُوا بما يُنجِّي مِن الثَّاني، ويُفْضِي إلى الأوَّلِ؛ مِن تَنْزيهِ اللهِ عزَّ وجلَّ عن كلِّ ما لا يَليقُ بشَأنِه سُبحانَه، ومِن حمْدِه تعالى على نِعَمِه العِظَامِ(٣).

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ تعالى عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، فنَزِّهوه -أيُّها النَّاسُ- حينَ حُلولِ المساءِ، وحينَ حُلولِ الصَّباحِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥-٦٧).

قيل: المرادُ بالتَّسبيحِ هنا: الصَّلاةُ، والمرادُ بقَولِه تعالى: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: صلاةُ المغربِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

وقيل: المراد بِقَولِه: ﴿تُمْسُونَ﴾ المغربُ والعِشاءُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، =

= والزجَّاجُ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والسمعاني، والخازن، وابن تيميَّة، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٠٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٨٨، ٩٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

وقيل: المراد بقَولِه: ﴿تُمْسُونَ﴾: صلاةُ العصر وصلاةُ المغربِ. وممَّن اختاره: الثعلبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿تُصْبِحُونَ﴾: صلاةُ الفَجرِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، والسمرقندي، والثعلبي، ومكي، والسمعاني، والخازن، وابن تيمية، وجلال الدين المحلي، والبقاعي، والعليمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٨٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٨٨، ٩٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ هنا: تنزيهُ اللهِ تعالى عندَ المساءِ وهو إقبالُ اللَّيلِ بظَلامِه، وعندَ الصَّباحِ وهو إسفارُ النَّهارِ عن ضيائِه: ابنُ كثير، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٢).

واختار الرازيُّ أنَّ المعنى: نَزِّهوه عن صِفاتِ النَّقصِ، وصِفُوه بصِفاتِ الكمالِ، ثمَّ قال: (لأنَّ التَّنزيهَ المأمورَ به يَتناوَلُ التَّنزيهَ بالقلبِ وهو الاعتقادُ الجازِمِ، وباللِّسانِ مع ذلك وهو الذِّكرُ =

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ ما يدُلُّ على خُصوصِ التَّنزيهِ؛ أتْبَعَه ما يُعَرِّفُ بعُمومِ الكمالِ[1]:

---

= الحسَنُ، وبالأركانِ معهما جميعًا وهو العملُ الصَّالحُ، والأوَّلُ هو الأصلُ، والثَّاني ثمرةُ الأوَّلِ، والثالثُ ثمرةُ الثَّاني؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا اعتقَد شيئًا ظهَرَ مِن قلبِه على لسانِه، وإذا قال ظهَر صِدقُه في مَقالِه مِن أحوالِه وأفعالِه، واللِّسانُ تَرْجُمانُ الجَنانِ، والأركانُ بُرهانُ اللِّسانِ، لكنِ الصَّلاةُ أفضَلُ أعمالِ الأركانِ، وهي مُشتمِلةٌ على الذِّكرِ باللِّسانِ، والقصدِ بالجَنانِ، وهو تنزيهٌ في التَّحقيقِ، فإذا قال: نَزِّهوني، وهذا نوعٌ مِن أنواعِ التَّنزيهِ، والأمرُ المُطْلَقُ لا يختصُّ بنوعٍ دُونَ نوعٍ؛ فيجبُ حملُه على كلِّ ما هو تنزيهٌ؛ فيكونُ أيضًا هذا أمرًا بالصَّلاةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٦).

وقال ابن جُزَي: (﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هذا تعليمٌ للعِبادِ، أي: قُولوا: سُبحانَ الله ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣١).

وممَّن ذهب إلى العمومِ: السعديُّ، فقال: (فهذه الأوقاتُ الخمسةُ أوقاتُ الصَّلواتِ الخَمسِ، أمَرَ اللهُ عِبادَه بالتَّسبيحِ فيها والحَمدِ، ويَدخُلُ في ذلك الواجِبُ منه، كالمُشتمِلةِ عليه الصَّلواتُ الخَمسُ، والمُستحَبُّ، كأذكارِ الصَّباحِ والمساءِ وأدبارِ الصَّلَواتِ، وما يَقتَرِنُ بها مِن النَّوافِلِ؛ لأنَّ هذه الأوقاتَ الَّتي اختارها اللهُ لأوقاتِ المفروضاتِ هي أفضَلُ مِن غيرِها؛ فالتَّسبيحُ والتَّحميدُ فيها والعبادةُ فيها: أفضَلُ مِن غيرِها، بل العبادةُ وإن لم تَشتَمِلْ على قَولِ: «سُبحانَ الله» فإنَّ الإخلاصَ فيها تنزيهٌ لله بالفِعلِ أن يكونَ له شريكٌ في العبادةِ، أو أن يَستحِقَّ أحَدٌ مِنَ الخَلقِ ما يَستَحِقُّه مِن الإخلاصِ والإنابةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥-٦٧).

قال الزجَّاج: (ومعنى: سُبحان اللهِ: تنزيهُ اللهِ من السُّوءِ. هذا لا اختلافَ فيه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٨١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٠).

﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: وهو وَحْدَه المُستَحِقُّ وَصْفَه بصِفاتِ الكَمالِ مع محبَّتِه وتَعظيمِه، في السَّمواتِ والأرضِ(١).

﴿وَعَشِيّٗا﴾.

أي: ونزِّهوا اللهَ -أيُّها النَّاسُ- وَقْتَ العَشِيِّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٠).

قيل: المرادُ: أنَّه المحمودُ مِن أهلِ السَّمَواتِ ومِن أهلِ الأرضِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٦٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٦).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٧٣).

وقال ابنُ كثير: (أي: هو المحمودُ على ما خَلَقَ في السَّمَواتِ والأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧).

واختار ابنُ عثيمين أنَّ الآيةَ أعَمُّ مِن قولِ مَن قال: يَحمَدُه أهلُ السَّمواتِ والأرضِ، مع تقريرِه أنَّ هذا المعنى داخلٌ في الآيةِ، وأنَّ المعنى: أنَّ الله تعالى مُستحِقٌّ للحمدِ على ما خلَقَه في السَّمواتِ والأرضِ، سواءٌ حُمِد أو لم يُحمَدْ، فكلُّ ما في السَّمواتِ والأرضِ فإنَّ الله تعالى يُحمَدُ عليه، سواءٌ أمورُ الخَيرِ أو الشَّرِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٠).

وقيل: الآيةُ إرشادٌ إلى الحمدِ، وأنَّ على المُمَيِّزينَ كلِّهم مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ أن يَحمَدوه. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: النسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٠٤)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٧).

قيل: المرادُ بالعَشيِّ هنا: صلاةُ العصرِ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابن تيميَّةَ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية =

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥].

﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾.

أي: ونزِّهوا اللهَ وَقْتَ الإظهارِ(١).

﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

وَجهُ تَعلُّقِ إخراجِ الحَيِّ مِنَ الميِّتِ والميِّتِ مِنَ الحَيِّ بما تقَدَّمَ عليه: أنَّه عندَ الإصباحِ يَخرُجُ الإنسانُ مِن شِبهِ الموتِ -وهو النَّومُ- إلى شِبهِ الوجودِ -وهو اليَقَظةُ-، وعندَ العِشاءِ يَخرُجُ الإنسانُ مِن اليَقَظةِ إلى النَّومِ(٢).

---

= (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٢).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

وقيل: العَشِيُّ هنا إشارةٌ إلى صلاةِ العِشاءِ. ومِمَّن قال بذلك: الثعلبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٢٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٢).

وقيل: العَشِيُّ: شِدَّةُ الظَّلامِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٧).

قيل: المرادُ بالإظهارِ هنا: صلاةُ الظُّهرِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((جامع المسائل)) لابن تيميَّةَ (٦/ ٣٤٤).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٤).

وقيل: هو قوَّةُ الضِّياءِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٩).

وأيضًا أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الإبداءَ والإعادةَ؛ ناسَبَ ذِكرَه: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾[1].

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾.

أي: يُخرِجُ اللهُ بقُدرتِه الحَيَّ مِن الميِّتِ؛ كالإنسانِ مِن النُّطفةِ، والنَّباتِ مِن الحَبِّ، والدَّجاجِ مِن البَيضِ، والمؤمِنِ مِن الكافِرِ[2].

﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾.

أي: ويُخرِجُ اللهُ بقُدرتِه الميِّتَ مِن الحَيِّ؛ كالنُّطفةِ مِن الرَّجُلِ، والحَبِّ مِن النَّباتِ، والبَيضِ مِن الدَّجاجِ، والكافِرِ مِن المؤمِنِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٥).

قال ابن عثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمرانَ، الآية (٢٧): (والمرادُ بالحيِّ: الحيُّ حياةً حِسِّيَّةً ومَعنويَّةً؛ وذلك لأنَّ اللَّفظَ صالحٌ لِلمَعنَيَينِ، وإذا صلَح اللَّفظُ للمَعنيَينِ بدُونِ تَنافٍ بيْنَهما، فالواجبُ حمْلُه عليهما.

الحيُّ حياةً حِسِّيَّةً أمثلتُه كثيرةٌ، فالإنسانُ مخلوقٌ مِن نُطفةٍ، وهي ميتةٌ بالمعنى اللُّغَويِّ، فصار حيًّا مِن مَيتٍ... أو يُخرِجُ حيًّا ناميًا مُتحَرِّكًا مِن شَيءٍ لا ينمو، فهو ميتٌ؛ كإخراجِ الفَرخِ مِنَ البَيضةِ؛ فإنَّ البيضةَ مَيتةٌ يخرُجُ منها فرخٌ حيٌّ. هذا الموتُ الحِسِّيُّ.

أمَّا المعنويُّ: فيُخرِجُ الحيَّ مِنَ المَيتِ أي: المؤمنَ مِنَ الكافرِ؛ لأنَّ المؤمنَ حيٌّ حياةً قلبيَّةً، والكافرَ ميتٌ؛ يُخرِجُ الحيَّ العالِمَ مِنَ الميتِ الجاهلِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة آل عمران)) (١/ ١٦٤).

وقال ابنُ كثيرٍ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنعام، الآية (٩٥): (وقد عبَّروا عن هذا وهذا بعباراتٍ كلُّها مُتقاربةٌ مؤدِّيةٌ للمعنى؛ فمِن قائلٍ: يُخرِجُ الدَّجاجةَ مِنَ البَيضةِ، والبيضةِ مِنَ الدَّجاجةِ، ومِن قائلٍ: يُخرِجُ الولدَ الصَّالحَ مِنَ الكافرِ، والكافرِ مِنَ الصَّالحِ، وغير ذلك مِنَ العِباراتِ الَّتي تَنتظِمُها الآيةُ وتَشملُها). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: ويُنزِلُ اللهُ الماءَ على الأرضِ اليابسةِ القاحِلةِ، فتَنبُتُ بعدَ جُدوبِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ [يس: ٣٣، ٣٤].

﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

أي: وكما يُحيي اللهُ الأرضَ بعدَ مَوتِها، فيُخرِجُ نباتَها وزَرْعَها بقُدرتِه، يُحييكم -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوتِكم، ويُخرِجُكم أحياءً مِن قُبورِكم يومَ القيامةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

---

= (٢١/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٥، ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩).

قال ابنُ عثيمين: (ظاهِرُ الآياتِ الكريماتِ أنَّ خُروجَ النَّاسِ مِن القبورِ يُشبِهُ خُروجَ النَّباتِ مِن الأرضِ، وخُروجُ النَّباتِ من الأرضِ يكونُ بنزولِ المطرِ عليها، فيكونُ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى ما ورد في الحديثِ مِن أنَّ الله تعالى يُمطِرُ على القُبورِ مطَرًا... تَنبُتُ منه الأجسادُ في القبورِ، ثمَّ بعدَ ذلك تخرُجُ إذا نُفِخَ في الصُّورِ،... وظاهِرُ القرآنِ أيضًا يشيرُ إليه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٩٧).

عن عبدِ الله بنِ عمرٍو، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ... ثمَّ يرسلُ الله -أو قال: ينزلُ الله- مطرًا كأنَّه الطَّلُّ أو الظِّلُّ فتنبتُ منه أجسادُ الناسِ، ثمَّ يُنفخُ فيه أخرَى، فإذا هم قيامٌ ينظرونَ)). أخرجه مسلم في ((صحيحه)) (٢٩٤٠).

وعن أبي هريرةَ مرفوعًا: ((ثم ينزلُ الله مِن السماءِ ماءً، فينبتونَ كما ينبتُ البقلُ)). أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٧، ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ [فاطر: ٩]

وقال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ الله تعالى بالتَّسبيحِ عن النَّقائِصِ والعيوبِ، وذكَرَ أنَّ الحَمدَ له على خَلقِ جَميعِ الأشياءِ، وبيَّنَ قُدرتَه على الإماتةِ والإحياءِ بقَولِه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾- ذكَرَ ما هو حُجَّةٌ ظاهِرةٌ وآيةٌ باهِرةٌ على ذلك، ومِن جُملتِها خَلْقُ الإنسانِ مِن تُرابٍ[1]، فقال:

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ اللهِ تعالى، كوحدانيَّتِه وكَمالِ قُدرتِه: أنَّه ابتدَأ خَلْقَكم مِن تُرابٍ، فخَلَق أباكم آدَمَ منه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠١-١٠٢، ١٠٤).

وقال ابن عثيمين: (يجوزُ أنَّ نَفْسَ الإنسانِ فيه مادَّةٌ تُرابيَّةٌ، والآنَ هم يقولونَ: إنَّ الإنسانَ فيه =

كما قال سُبحانَه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ... ﴾ الآيةَ [الحج: ٥].

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴾.

أي: ثمَّ[١] تَصيرونَ مِن هذا التُّرابِ الجامِدِ بَشَرًا أحياءً تَنتَشِرونَ في الأرضِ، وتَسعَونَ فيها[٢].

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ خَلْقَ الإنسانِ؛ بَيَّن أنَّه لَمَّا خَلَق الإنسانَ ولم يكُنْ مِن الأشياءِ الَّتي تَبقى وتَدومُ سِنينَ مُتطاوِلةً، أبقى نوعَه بالأشخاصِ، وجعَلَه بحيثُ يَتوالَدُ، فإذا مات الأبُ يقومُ الابنُ مَقامَه؛ لِئَلَّا يُوجِبَ فَقْدُ الواحِدِ ثُلْمةً في العِمارةِ لا تَنسَدُّ[٣].

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على صِفاتِ الله تعالى: أنَّه خَلَق لكم مِن أنفُسِكم[٤]

---

= مِن جميعِ معادِنِ الأرضِ؛ فيه رَصاصٌ، ونُحاسٌ، وجيرٌ، وحديدٌ، وترابٌ، وكُلُّ شَيءٍ؛ فنَفْسُ الجسمِ مُكَوَّنٌ مِن هذه الأشياءِ، فلا يَبعُدُ أن تكونَ هذه السُّلالةُ الَّتي تَخرجُ منه فيها هذه الموادُّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٣، ١٠٤).

(١) قال ابنُ عثيمين: («ثمَّ» دالَّةٌ على المهلةِ؛ لأنَّه بعدَ خَلقِ آدَمَ لم يأتِ الأولادُ مُباشرةً). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩١).

(٤) قيل: المرادُ بـ ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾: جِنسُكم، أي: خلَقَ لكم مِن جِنسِكم أزواجًا، فجعَل النَّاسَ =

أزواجًا؛ لِتَحصُلَ المناسَبةُ والأُلْفةُ والاطمِئنانُ بيْنكم[١].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ بيْنَكم -أيُّها الأزواجُ- مَحبَّةً عَظيمةً، ورَحمةً يَعطِفُ بها بَعضُكم على بعضٍ[٢].

---

= يَتزاوَجونَ مِن جِنسِهم البَشَريِّ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابن كثير، وابن عاشور، ومال إليه ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٨).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: الكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٠).

وقيل: معنى ﴿أَنفُسِكُمْ﴾: ذواتِكم، أي: إنَّ اللهَ خلَقَ حوَّاءَ مِن ضِلَعٍ مِن أضلاعِ آدَمَ، فهي بعضٌ منه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٧٧).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨).

وظاهِرُ عبارةِ البِقاعيِّ الجَمعُ بينَ المعنيَينِ؛ حيث قال: (ولَمَّا كان إيجادُ الأنثى مِن الذَّكَرِ خاصًّا لم يكُنْ إلَّا مرَّةً واحدةً كالخَلقِ مِن التُّرابِ؛ عَبَّرَ بالماضي، فقال: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ أي: لأجْلِكم؛ لِيَبقى نوعُكم بالتَّوالُدِ. وفي تقديمِ الجارِّ دَلالةٌ على حُرمةِ التَّزَوُّجِ مِن غيرِ النَّوعِ. والتَّعبيرُ بالنَّفسِ أظهَرُ في كَونِها مِن بَدَنِ الرَّجُلِ، في قَولِه: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: جِنسِكم، بعدَ إيجادِها مِن ذاتِ أبيكم آدَمَ عليه السَّلامُ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٦٦، ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٨، ١٠٩).

قال ابن تيميَّةَ: (فيَسكُنُ الرَّجُلُ إلى المرأةِ بقَلبِه وبَدَنِه جميعًا). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٤)، ((تفسير ابن =

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ في خَلْقِ اللهِ لكم أزواجًا مِن أنفُسِكم لِتَسكُنوا إليها، وما جعَل بيْنَكم مِن المَودَّةِ والرَّحمةِ- لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ على قُدرةِ اللهِ، وحِكمتِه ورَحمتِه، وغيرِها، لِقَومٍ يُعمِلونَ فِكرَهم في ذلك[1].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى دَلائِلَ الأنفُسِ؛ ذكَرَ دَلائلَ الآفاقِ، وأظهَرُها خَلْقُ السَّمَواتِ والأرضِ[2].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: ومِنَ العَلاماتِ الدَّالَّةِ على توحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه العظيمةِ، وغيرِ ذلك: إيجادُه السَّمَواتِ والأرضَ مِنَ العَدَمِ، وعلى تَقديرٍ ونظامٍ بديعٍ، مع ما فيهما مِن المخلوقاتِ العَظيمةِ المُتنَوِّعةِ[3].

---

= كثير)) (٦/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٠٩، ١١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١١٧، ١١٨).

﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ أيضًا: اختِلافُ لُغاتِكم وألوانِ أجسادِكم، مع أنَّ أصلَكم واحدٌ؛ مِن أبيكم آدَمَ(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ...﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ ﴿لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ بكَسرِ اللَّامِ الثَّانيةِ: جمعُ عالِمٍ، أي: هذه الآياتُ للعُلَماءِ؛ لأنَّ العالِمَ أقرَبُ إلى الاعتبارِ مِن الجاهِلِ(٢).

٢- قراءة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ الثَّانيةِ: جَمعُ عالَمٍ(٣).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾.

أي: إنَّ في خَلْقِ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ، واختلافِ ألسُنِ البشَرِ وألوانِهم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٣، ٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١١٨-١٢١).

(٢) قرأ بها حَفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٦٤)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٨٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٥٧، ٥٥٨).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٦٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٥٨).

لَعَلاماتٍ وأدِلَّةً لأُولي العِلم، ومِن ذلك الاستِدلالُ بها على وحدانيَّةِ الله تعالى وقُدرتِه على إعادةِ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم[١].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى بَعضَ الأعراضِ اللَّازمةِ، وهو الاختِلافُ؛ ذكَرَ الأعراضَ المُفارِقةَ، ومِن جُملتِها النَّومُ باللَّيلِ، والحَركةُ في النَّهارِ؛ طَلَبًا للرِّزقِ[٢].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾.

أي: ومِنَ العلاماتِ أيضًا مَنامُكم في اللَّيلِ والنَّهارِ؛ لِراحةِ أبدانِكم، وطَلَبُكم رِزقَ اللهِ فيهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٢٤، ١٢٥).

وممَّن قال بأنَّ الآيةَ تعني أنَّ النَّومَ وطَلَبَ الرِّزقِ كليهما يَكونانِ في اللَّيلِ وفي النَّهارِ: ابنُ عطية، والبيضاوي، والبِقاعي، وأبو السعود، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠).

وقيل المرادُ في الآية: أنَّ النَّومَ في اللَّيلِ، والابتغاءَ مِن فَضلِه: في النَّهارِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٦).

قال ابنُ عطية: (ذكَرَ تعالى النَّومَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وعُرْفُ النَّومِ إنَّما هو باللَّيلِ وحْدَه، ثمَّ ذَكَر الابتغاءَ مِن فَضلِه كأنَّه فيهما، وإنَّما معنى ذلك: أنَّه عَمَّ باللَّيلِ والنَّهارِ، فسَمَّى الزَّمانَ، وقَصَد =

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾.

أي: إنَّ في مَنامِكم باللَّيلِ والنَّهارِ، وابتغائِكم مِن فَضلِ اللهِ فيهما: لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ لِقَومٍ يَسمَعونَ سَماعَ تدَبُّرٍ وتفَهُّمٍ، ومِن ذلك الاستِدلالُ بهما على رحمةِ اللهِ، وتَوحيدِه، وقُدرتِه على بَعثِ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ فيه الحثُّ على النَّظرِ في البعثِ، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ

---

= مِن ذلك تعديدَ آيةِ النَّومِ وتعديدَ آيةِ ابتغاءِ الفَضلِ؛ فإنَّهما آيتانِ تكونانِ في لَيلٍ ونهارٍ، والعُرفُ يجيزُ كُلَّ واحدةٍ مِن النِّعمَتينِ، أي محلَّها مِن الأغلَبِ. وقال بعضُ المفَسِّرينَ: في الكلامِ تَقديمٌ وتأخيرٌ. وهذا ضعيفٌ، وإنَّما أراد أن يرتِّبَ النَّومَ لِلَّيلِ، والابتِغاءَ للنَّهارِ، ولَفظُ الآيةِ لا يُعطي ما أراد). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٣).

وقال الشوكاني: (قيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقديرُ: ومِن آياتِه مَنامُكم باللَّيلِ، وابتغاؤُكم مِن فَضلِه بالنَّهارِ. وقيل: المعنى صحيحٌ مِن دونِ تقديمٍ وتأخيرٍ، أي: ومِن آياتِه العظيمةِ أنَّكم تنامون باللَّيلِ، وتنامون [بالنَّهارِ] في بَعضِ الأحوالِ للاستِراحةِ، كوقتِ القَيلولةِ؛ وابتغاؤكم مِن فَضلِه فيهما؛ فإنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يقَعُ فيه ذلك، وإن كان ابتغاءُ الفَضلِ في النَّهارِ أكثَرَ. والأوَّلُ: هو المناسِبُ لسائرِ الآياتِ الواردةِ في هذا المعنى، والآخِرُ: هو المناسِبُ للنَّظمِ القرآنيِّ هاهنا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٩).

قال القُرطبي: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ يريدُ: سَماعَ تفَهُّمٍ وتدَبُّرٍ. وقيل: يَسمَعونَ الحَقَّ فيتَّبِعونَه. وقيل: يَسمَعونَ الوَعظَ فيَخافونَه. وقيل: يَسمَعونَ القُرآنَ فيُصَدِّقونَه، والمعنى متقارِبٌ. وقيل: كان منهم مَن إذا تُليَ القرآنُ وهو حاضِرٌ سَدَّ أُذُنَيه؛ حتَّى لا يَسمَعَ، فبَيَّنَ اللهُ عزَّ وجَلَّ هذه الدَّلائِلَ عليه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨).

مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [الحج: ٥]. والنَّظرُ في البعثِ وسيلةٌ إلى الاستِعدادِ له، والتَّزيُّنِ لِلقاءِ الله تعالى(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ هذه آيةٌ فيها عِظةٌ وتذكيرٌ بنِظامِ النَّاسِ العامِّ، وهو نِظامُ الازدِواجِ، وكينونةِ العائلةِ، وأساسِ التَّناسُلِ، وهو نظامٌ عَجيبٌ جَعَله الله مُرتَكِزًا في الجِبِلَّةِ لا يَشِذُّ عنه إلَّا الشُّذَّاذُ، وهي آيةٌ تَنطوي على عِدَّةِ آياتٍ؛ منها: أنْ جَعَل للإنسانِ ناموسَ التَّناسُلِ، وأنْ جَعَل تَناسُلَه بالتَّزاوُجِ، ولم يجعَلْه كتَناسُلِ النَّباتِ مِن نَفسِه، وأنْ جَعَل أزواجَ الإنسانِ مِن صِنفِه، ولم يجعَلْها مِن صِنفٍ آخَرَ؛ لأنَّ التَّآنُسَ لا يَحصُلُ بصِنفٍ مُخالِفٍ، وأنْ جَعَل في ذلك التَّزاوُجِ أُنْسًا بيْنَ الزَّوجَينِ، ولم يجعَلْه تزاوجًا عنيفًا أو مُهلِكًا كتزاوُجِ الضَّفادعِ، وأنْ جَعَل بيْنَ كلِّ زَوجينِ مَودَّةً ومحبَّةً؛ فالزَّوجانِ يَكونانِ مِن قَبلِ التَّزاوُجِ مُتجاهِلَينِ، فيُصبِحانِ بعدَ التَّزاوُجِ مُتحابَّينِ، وأنْ جَعَل بيْنَهما رحمةً؛ فهما قبْلَ التَّزاوُجِ لا عاطِفةَ بيْنَهما، فيُصبِحانِ بعدَه مُتَراحِمَينِ، كرَحمةِ الأُبوَّةِ والأمومةِ. ولأجْلِ ما يَنطوي عليه هذا الدَّليلُ، ويَتبَعُه مِنَ النِّعَمِ والدَّلائلِ؛ جُعِلَت هذه الآيةُ آياتٍ عِدَّةً في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، وهذه الآيةُ كائِنةٌ في خَلقِ جَوهرِ الصِّنفَينِ مِن الإنسانِ: صِنفِ الذَّكَرِ، وصِنفِ الأُنثى، وإبداعِ نِظامِ الإقبالِ بيْنَهما في جبِلَّتِهما، وذلك مِنَ الذَّاتيَّاتِ النِّسبيَّةِ بيْنَ الصِّنفَينِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المَودَّةَ لا

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٠، ٧١).

تُنالُ بالكَسبِ، يعني: أنَّ اللهَ قد يجعَلُها في قَلبِ الإنسانِ، فأنت لو أرَدْتَ أنْ تُجْبِرَ نفْسَك على محبَّةِ شَيءٍ، والله عزَّ وجلَّ لم يجعَلْ في قَلبك مَودَّتَه، فلن تُحِبَّه؛ ولهذا مَنَّ اللهُ على المؤمِنينَ بقَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [الحجرات: ٧]، وأنت تقولُ في الدُّعاءِ: ((أسألُك حُبَّك، وحُبَّ مَن يُحِبُّك، وحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إلى حُبِّك))[١]، إذنْ فالمَودَّةُ يُلقيها اللهُ عزَّ وجَلَّ في القَلبِ؛ فأنت ينبغي لك أنْ تسألَ اللهَ دائمًا أنْ تكونَ محبَّتُك لله وفي الله؛ لِتكونَ المحبَّةُ باللهِ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ أخَّرَ الابتِغاءَ، وقَرَنَه في اللَّفظِ بالفَضلِ؛ إشارةً إلى أنَّ العَبدَ ينبغي ألَّا يَرى الرِّزقَ مِن كَسْبِه وبحِذْقِه، بل يَرى كُلَّ ذلك مِن فَضلِ رَبِّه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ التَّسبيحِ في الصَّلاةِ؛ لأنَّ القاعدةَ: «أنَّه إذا أُطلِقَ على العبادةِ جزءٌ منها؛ دلَّ ذلك على أنَّ هذا الجزءَ مِن واجباتِها، وأنَّه لا بُدَّ منه»[٤]. هذا على القولِ بأنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ الصَّلاةُ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥)، وأحمد (٢٢١٠٩) من حديث مُعاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه.
قال البخاري كما في ((سنن الترمذي)) (٣٢٣٥): حسن صحيح. وكذا قال الترمذي، وصححه ابن العربي في ((أحكام القرآن)) (٤/ ٧٣)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٣٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١١٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٩٣).

دَلالةٌ على أنَّه وَحْدَه المُستَحِقُّ لأنْ يُحمَدَ على وَجهِ الإطلاقِ، ووجهُ ذلك تقديمُ الخبَرِ في قَولِه: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ﴾[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ قياسُ الغائبِ على الشَّاهِدِ؛ فإنَّ قياسَ الغائبِ على الشَّاهِدِ لِيُحْمَلَ على الإقرارِ به: طريقةٌ متَّبَعةٌ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ تعالى يُخرِجُ مِن غُلاةِ المُشرِكينَ أفاضِلَ مِن المؤمِنينَ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ إثباتُ قيامِ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ عزَّ وجَلَّ، والأفعالُ الاختياريَّةُ: هي الَّتي يفعَلُها بمَشيئتِه؛ إنْ شاءَ فَعَلَ، وإنْ شاء لم يَفعَلْ؛ فإنَّ البَعْديَّةَ في قَولِه تعالى: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تقتَضي حُدوثَ هذا الشَّيءِ[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ في هذا دَليلٌ على صِحَّةِ القياسِ[٥].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ هذا دليلٌ قاطِعٌ وبُرهانٌ ساطِعٌ على أنَّ الَّذي أحيا الأرضَ بعدَ مَوتِها، فإنَّه يُحيي الأمواتَ؛ فلا فَرْقَ في نظَرِ العَقلِ بينَ الأمرَينِ، ولا مُوجِبَ لاستبعادِ أحَدِهما مع مُشاهَدةِ الآخَرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٣٨).

٨- قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ * وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ خارِجٌ على سَعَةِ لِسانِ العرَبِ؛ لأنَّ المخلوقَ مِن تُرابٍ آدمُ وَحْدَه، والمخلوقَ له مِن نفْسِه زوجتُه؛ فلمَّا كان البَشَرُ جميعًا مِن نَسْلِه سمَّاهم بذلك؛ بِناءً على سَعةِ اللِّسانِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ دَلالةٌ على إبطالِ النَّظريةِ الخاطِئةِ «نظريةِ النُّشوءِ والتطُّورِ» الَّتي كان قائدُها «دارون»؛ فهي نظريةٌ خاطِئةٌ وباطِلةٌ بلا شَكٍّ؛ ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ يقولُ: ﴿أَنْ خَلَقَكُم﴾، فيُخاطِبُ البشَرَ باعتبارِه بَشَرًا، إذَن فهو بشرٌ منذُ أُنشِئَ مِن التُّرابِ إلى اليَومِ[٢]!

١٠- قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ فيه تنبيهٌ على عَظيمِ قُدرتِه سبحانه بخلْقِ الإنسانِ مِن تُرابٍ، وهو أبعدُ الأشياءِ عن دَرجةِ الإحياءِ؛ لأنَّه باردٌ يابسٌ، والحياةُ بالحرارةِ والرُّطوبةِ[٣].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ فيه دَلالةٌ ظاهرةٌ على حرمةِ التزوُّجِ مِن غيرِ الجنسِ، كالجنِّ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مِن أهَمِّ أغراضِ النِّكاحِ ومَقاصِدِه السُّكونَ إلى الزَّوجةِ، والاطمِئنانَ إليها، والحياةَ معها حياةً سَعيدةً؛ فالحِكمةُ مِن الزَّوجيَّةِ هي السُّكونُ، أي: سُكونُ أحدِ الزَّوجَينِ إلى الآخَرِ، ويتفرَّعُ على ذلك أنَّه إذا حَصَل التَّنافُرُ واستمرَّ، فإنَّ مِن الحِكمةِ التَّفريقَ بيْنَهما؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾، فإذا

---

(١) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٦٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٦٦).

فاتتْ هذه الحِكمةُ فإنَّه لا زَواجَ[١]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ دَلالةٌ على أنَّ محبَّةَ الزَّوجاتِ لا لَومَ على المُحِبِّ فيها، بل هي مِن كَمالِه؛ فقد امتَنَّ اللهُ سُبحانَه بها على عِبادِه[٢]، إلَّا إذا شغَلَه ذلك عن محبَّةِ ما هو أنفَعُ له؛ مِن محبَّةِ اللهِ ورَسولِه، وزاحَمَ حُبَّ الله وحُبَّ رَسولِه؛ فإنَّ كُلَّ مَحبَّةٍ زاحَمَت محبَّةَ اللهِ ورَسولِه بحيثُ تُضعِفُها وتَنقُصُها فهي مَذمومةٌ، وإن أعانت على محبَّةِ اللهِ ورَسولِه وكانت مِن أسبابِ قُوَّتِها فهي محمودةٌ[٣].

١٤- قولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾؛ لأنَّ ذلك لا يُدرَكُ إلَّا بالفِكرِ في تأليفٍ بينَ شَيئينِ لم يكُنْ بيْنَهما تَعارُفٌ[٤].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ﴾، استُدِلَّ به على أنَّ اللُّغاتِ تَوقيفيَّةٌ، على أنَّ المعنى: ومِن آياتِه خَلْقُ اللُّغاتِ المُختَلِفةِ الَّتي تَجري على الألسِنةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٧).

ومعنى كَونِها توقيفيَّةً: أنَّ الله تعالى هو الَّذي وضَعها، ووقَفَ خَلْقَه عليها. يُنظر الخلافُ في المسألةِ في: ((نفائس الأصول في شرح المحصول)) للقرافي (١/ ٤٤٩)، ((تشنيف المسامع بجمع الجوامع)) للزركشي (١/ ٣٩٣)، ((الغيث الهامع شرح جمع الجوامع)) لأبي زرعة (ص: ١٤٥).

١٦- قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ وجْهُ ذِكرِ النَّومِ والابتغاءِ هاهنا وجَعْلِهما مِن جملةِ الأدِلَّةِ على البَعثِ: أنَّ النَّومَ شَبيهٌ بالموتِ، والتَّصَرُّفَ في الحاجاتِ والسَّعيَ في المكاسِبِ شَبيهٌ بالحياةِ بعدَ الموتِ(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾

- الفاءُ في ﴿ فَسُبْحَٰنَ ﴾ تَقْتضي اتِّصالَ ما بعْدَها بما قبْلَها، وهي فاءٌ فصيحةٌ، أو عطْفُ تَفريعٍ على ما قبْلَها، وقد كان أوَّلُ الكلامِ قولَه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الروم: ٨]، والضَّميرُ عائدٌ إلى ﴿ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ ﴾ في قولِه: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦]، والمُرادُ بهم الكُفَّارُ؛ فالتَّفريعُ أو الإفصاحُ ناشِئٌ عن ذلك، فيكونُ المَقصودُ مِن ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ إنشاءَ تَنْزيهِ اللهِ تعالى عمَّا نَسَبوه إليه مِن العجْزِ عن إحياءِ النَّاسِ بعْدَ مَوتِهم، وإنشاءَ ثَناءٍ عليه. والخِطابُ في ﴿ تُمْسُونَ ﴾ و﴿ تُصْبِحُونَ ﴾ تابعٌ للخِطابِ الَّذي قبْلَه في قولِه: ﴿ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم: ١١]، وهو مُوجَّهٌ إلى المشركينَ على طَريقةِ الالْتِفاتِ مِن ضَمائرِ الغَيبةِ المُبتدِئةِ مِن قولِه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ﴾ [الروم: ٨] إلى آخرِها(٢).

- قولُه: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴾ فيه تَقديمُ التَّسبيحِ على التَّحميدِ؛ لِمَا أنَّ التَّخليةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥).

مُتقدِّمةٌ على التَّحليةِ. والفاءُ لتَرتيبِ ما بعدَها على ما قبْلَها، أي: إذا عَلِمْتُم ذلك فسَبِّحوا اللهَ تعالى تَسبيحَه اللَّائقَ في هذه الأوقاتِ واحْمَدُوه؛ فإنَّ الإخبارَ بثُبوتِ الحمْدِ له تعالى ووُجوبِه على المُميِّزينَ مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ في معنَى الأمْرِ به على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه. وتَوسيطُه بينَ أوقاتِ التَّسبيحِ؛ للاعتناءِ بشأْنِه، والإشعارِ بأنَّ حقَّهما أنْ يُجمعَ بينَهما، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الحجر: ٩٨]. وتَخصيصُهما بتلكَ الأوقاتِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما يَحدُثُ فيها مِن آياتِ قُدرتِه وأحكامِ رَحمتِه ونِعمتِه، شواهدُ ناطقةٌ بتَنزُّهِه تعالى، واسْتحقاقِه الحمْدَ، ومُوجِبةٌ لِتَسبيحِه وتَحميدِه حتْمًا[١].

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ ظُروفٌ مُتعلِّقةٌ بما في إنشاءِ التَّنزيهِ مِن مَعنى الفِعلِ، أي: يُنشأُ تَنزيهُ اللهِ في هذه الأوقاتِ، وهي الأجزاءُ الَّتي يَتجزَّأُ الزَّمانُ إليها، والمَقصودُ التَّأبيدُ، كما تقولُ: سُبحانَ اللهِ دَومًا، وسُلِكَ به مَسلَكَ الإطنابِ؛ لأنَّه مُناسِبٌ لمَقامِ الثَّناءِ[٢].

- وقيل: تَخْصيصُ التَّسبيحِ بالمساءِ والصَّباحِ؛ لأنَّ آثارَ القُدْرةِ والعظَمةِ فيهما أظهَرُ. وتَخصيصُ الحمْدِ بالعَشِيِّ الَّذي هو آخِرُ النَّهارِ والظَّهيرةِ الَّتي هي وسَطُه؛ لأنَّ تجدُّدَ النِّعَمِ فيهما أكثرُ[٣].

وقيل: خصَّ بعضَ الأوقاتِ بالأمرِ بالتَّسبيحِ؛ وذلك لأنَّ أفضلَ الأعمالِ أدومُها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٤، ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٨٦).

- وجُوِّزَ أنْ يكونَ ﴿ فَسُبْحَٰنَ ﴾ هنا مَصدرًا واقعًا بدلًا عن فِعلِ أمْرٍ بالتَّسبيحِ، كأنَّه قِيل: فسَبِّحوا اللهَ سُبحانًا. فـ (سُبحان) أمْرٌ بأنْ يَقولوا: سُبحانَ اللهِ، وهو كِنايةٌ عن الصَّلاةِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ تَشتمِلُ على قولِ: سُبحانَ ربِّيَ الأعلى وبحَمْدِه. وقولُه: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ إلى آخرِه، إشارةٌ إلى أوقاتِ الصَّلواتِ، وهو يَقْتضي أنْ يكونَ الخِطابُ مُوجَّهًا إلى المؤمنينَ. والمُناسَبةُ مع سابِقِه: أنَّه لَمَّا وعَدَهم بحُسنِ مَصيرِهم، لقَّنَهم شُكرَ نِعمةِ اللهِ بإقامةِ الصَّلاةِ في أجزاءِ اليومِ واللَّيلةِ. وهذا التَّفريعُ يُؤذِنُ بأنَّ التَّسبيحَ والتَّحميدَ الواقعَينِ إنشاءَ ثَناءٍ على اللهِ، كنايةٌ عن الشُّكرِ عن النِّعمةِ؛ لأنَّ التَّصدِّيَ لإنشاءِ الثَّناءِ عقِبَ حُصولِ الإنعامِ أو الوعْدِ به يدُلُّ على أنَّ المادِحَ ما بعَثَه على المدْحِ في ذلك المَقامِ إلَّا قصْدُ الجزاءِ على النِّعمةِ بما في طَوقِه. وليست الصَّلواتُ الخمْسُ وأوقاتُها هي المُرادَ مِن الآيةِ، ولكنْ نُسِجَت على نسْجِ صالحٍ لشُمولِه الصَّلواتِ الخمْسَ وأوقاتَها، وذلك مِن إعجازِ القرآنِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ وإنْ كان فيها تَسبيحٌ ويُطلَقُ عليها السُّبْحةُ، فلا يُطلَقُ عليها: سُبحانَ اللهِ[1].

- قولُه: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ فيه تقديمُ الإمساءِ على الإصباحِ، كما قُدِّمَ في قولِه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ [الحج: ٦١]، والظُّلماتُ على النُّورِ، وقابَلَ بالعَشِيِّ الإمساءَ، وبالإظهارِ الإصباحَ؛ لأنَّ كلًّا منهما يُعقَبُ بما يُقابِلُه؛ فالعشِيُّ يَعقُبُه الإمساءُ، والإصباحُ يَعقُبُه الإظهارُ[2]. وقيل: قدَّمَ فِعلَ الإمساءِ على فِعلِ الإصباحِ: إمَّا لأنَّ الاستعمالَ العربيَّ يَعتبِرون فيه اللَّياليَ مَبدأَ عَددِ الأيَّامِ كثيرًا، قال تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨]، وإمَّا لأنَّ الكلامَ لَمَّا وقَعَ عقِبَ ذِكرِ الحشرِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

قولِه: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [الروم: ١١]، وذِكْرِ قِيامِ السَّاعةِ؛ ناسَبَ أنْ يكونَ الإمساءُ -وهو آخِرُ اليومِ- خاطِرًا في الذِّهنِ، فقدَّمَ لهم ذِكْرَه[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الظُّروفِ تُفيدُ أنَّ تَسْبيحَ المؤمنينَ للهِ ليس لِمَنفعةِ اللهِ تعالى، بلْ لِمَنفعةِ المُسبِّحينَ؛ لأنَّ اللهَ مَحمودٌ في السَّمواتِ والأرضِ؛ فهو غَنِيٌّ عن حمْدِنا[٢]. وقِيل: اعتِراضٌ، معناه: إنَّ على المُميِّزينَ كلِّهم مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ أنْ يَحمَدوه[٣].

- وتَقْديمُ المَجْرورِ في ﴿ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ ﴾؛ لإفادةِ القصْرِ الادِّعائيِّ[٤] لِجنْسِ الحمْدِ على اللهِ تعالى؛ لأنَّ حمْدَه هو الحمْدُ الكاملُ، على نحوِ قولِهم: فلانٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١).

(٤) القَصرُ أو الحَصرُ -في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. وينقسمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مَبْنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرُ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

الشُّجاعُ. ويجوزُ أنْ يكونَ التَّقديمُ للاهتمامِ بضَميرِ الجَلالةِ[١].

- قولُه: ﴿وَعَشِيًّا﴾ عطْفٌ على ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾، وتقْديمُه على ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾؛ لمُراعاةِ الفواصلِ. وتغْييرُ الأُسلوبِ؛ لِمَا أنَّ (العَشيَّ) لا يَجيءُ منه الفِعلُ بمعنَى الدُّخولِ في العَشِيِّ، كالمساءِ -والفعلُ منه (أمسَى)-، والصَّباحِ -والفعلُ منه (أصبَح)-، والظَّهيرةِ -والفعلُ منه (أظهَر)-، ولعلَّ السِّرَّ في ذلك: أنَّه ليس مِن الأوقاتِ الَّتي تَختلِفُ فيها أحوالُ النَّاسِ وتتغيَّرُ تغيُّرًا ظاهرًا مُصحِّحًا لِوَصفِهم بالخروجِ عمَّا قبْلَها والدُّخولِ فيها كالأوقاتِ المذكورةِ؛ فإنَّ كلًّا منها وقتٌ تَتغيَّرُ فيه الأحوالُ تغيُّرًا ظاهرًا؛ أمَّا في المساءِ والصَّباحِ فظاهرٌ، وأمَّا في الظَّهيرةِ فلأنَّها وقتٌ يُعتادُ فيه التَّجرُّدُ عن الثِّيابِ للقَيلولةِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ هذا نوعُ تَفصيلٍ لقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[٣].

- وجُملةُ ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ١١]. ويجوزُ أيضًا أنْ تكونَ مَوقعَ العلَّةِ لجُملةِ ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم: ١٧] وما عُطِفَ عليها، أي: هو مُستحِقٌّ للتَّسبيحِ والحمْدِ؛ لِتَصرُّفِه في المخلوقاتِ بالإيجادِ العَجيبِ، وبالإحياءِ بعْدَ الموتِ. واختيرَ مِن تَصرُّفاتِه العظيمةِ تَصرُّفُ الإحياءِ والإماتةِ في الحيوانِ والنَّباتِ؛ لأنَّه تَخلُّصٌ للغرَضِ المقصودِ مِن إثباتِ البعثِ، ردًّا للكلامِ على ما تقدَّمَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٦، ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٥).

قولِه: ﴿ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [الروم: ١١]؛ فتحصَّلَ مِن ذلك أنَّ الأمْرَ بتَسبيحِه وحمْدِه مَعلولٌ بأمْرَينِ: إيفاءِ حقِّ شُكرِه، المُفادِ بفاءِ التَّفريعِ في قولِه: ﴿ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ [الروم: ١٧]، وإيفاءِ حقِّ التَّعظيمِ والإجلالِ، والمقصودُ هو إخراجُ الحيِّ مِن الميِّتِ(١).

- وعطْفُ ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾؛ للاحتِراسِ مِن اقتصارِ قُدرتِه على بعضِ التَّصرُّفاتِ، ولإظهارِ عَجيبِ قُدرتِه أنَّها تَفعَلُ الضِّدَّينِ(٢).

- والإتيانُ بصِيغةِ المُضارِعِ في ﴿ يُخۡرِجُ ﴾؛ لاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ؛ فهذا الإخراجُ والإحياءُ آيةٌ عظيمةٌ على استِحقاقِه التَّعظيمَ والإفرادَ بالعِبادةِ؛ إذ أودَعَ هذا النِّظامَ العجيبَ في المَوجوداتِ، فجعَلَ في الشَّيءِ الَّذي لا حَياةَ له قوَّةً وخصائصَ تجْعَلُه يُنتِجُ الأشياءَ الحيَّةَ الثَّابتةَ المُتصرِّفةَ، ويَجعَلُ في تُرابِ الأرضِ قُوًى تُخرِجُ الزَّرعَ والنَّباتَ حيًّا ناميًا(٣).

- والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴾ راجعٌ إلى ما يَصلُحُ له مِن المَذكورِ قبْلَه؛ وهو ما فيه إنشاءُ حياةِ شَيءٍ بعْدَ مَوتِه؛ بناءً على أنَّ قولَه: ﴿وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ ﴾ ليس مَقصودًا مِنَ الاستِدلالِ، ولكنَّه احتراسٌ وتَكمِلةٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ التَّشبيهُ راجِعًا إلى أقرَبِ مَذكورٍ، وهو إحياءُ الأرضِ بعْدَ مَوتِها، أي: وكإخراجِ النَّباتِ مِن الأرضِ بعْدَ مَوتِه فيها يكونُ إخراجُكم مِن الأرضِ بعْدَ أنْ كنتُم أمْواتًا فيها، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا * ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾ [نوح: ١٧، ١٨]. ولا وَجْهَ لاقتِصارِ التَّشبيهِ على الثَّاني

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٦٨).

دونَ الأوَّلِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ لَمَّا كان الاستِدلالُ على البَعثِ مُتضمِّنًا آياتٍ على تَفرُّدِه تعالى بالتَّصرُّفِ، ودَلالتِه على الوَحدانيَّةِ؛ انتقَلَ مِن ذلك الاستِدلالِ إلى آياتٍ على ذلك التَّصرُّفِ العظيمِ، غيرَ ما فيه إثباتُ البَعثِ؛ تَثْبيتًا للمؤمنينَ، وإعذارًا لمَن أشْرَكوا في الإلهيَّةِ، وقد سبَقَت ستُّ آياتٍ على الوَحدانيَّةِ، وابتُدِئَت بكَلمةِ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ﴾؛ تنْبيهًا على اتِّحادِ غرَضِها؛ فهذه هي الآيةُ الأُولى، ولها شَبَهٌ بالاستِدلالِ على البَعثِ؛ لأنَّ خلْقَ النَّاسِ مِن تُرابٍ وبثَّ الحياةِ والانتشارَ فيهم، هو ضَربٌ مِن ضُروبِ إخراجِ الحيِّ مِن الميِّتِ؛ فلذلك كانت هي الأُولى في الذِّكرِ؛ لِمُناسَبتِها لِمَا قبْلَها، فجُعِلتْ تخلُّصًا مِن دَلائلِ البَعثِ إلى دَلائلِ عظيمِ القُدرةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ لَمَّا كان تَمامُ البشريَّةِ يَنشَأُ عن تطوُّرِ التُّرابِ إلى نَباتٍ، ثمَّ إلى نُطفةٍ، ثمَّ إلى أطْوارِ التَّخلُّقِ في أزْمنةٍ مُتتاليةٍ؛ عُطِفَت الجُملةُ بحرْفِ المُهلَةِ (ثُمَّ) الدَّالِّ على تَراخي الزَّمنِ، مع تَراخي الرُّتبةِ الَّذي هو الأصْلُ في عطْفِ الجُمَلِ بحرْفِ (ثم)[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ صُدِّرَت الجُملةُ بحرْفِ المُفاجأةِ (إذا)؛ لأنَّ الكَونَ بشَرًا يَظهَرُ للنَّاسِ فجْأةً بوضْعِ الأجِنَّةِ، أو خُروجِ الفِراخِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٦٨، ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧٠).

مِن البَيضِ، وما بيْنَ ذلك مِن الأطوارِ التي اقْتَضاها حرْفُ المُهلَةِ هي أطوارٌ خَفِيَّةٌ غيرُ مُشاهَدةٍ؛ فكان الجمْعُ بيْن حرْفِ المُهلَةِ وحرْفِ المُفاجأةِ تَنبيهًا على ذلك التَّطوُّرِ العجيبِ. وحصَلَ مِن المُقارَنةِ بيْن حرْفِ المُهلةِ وحرْفِ المُفاجأةِ شِبْهُ الطِّباقِ، وإنْ كان مَرجِعُ كلٍّ مِن الحرفينِ غيرَ مَرجِعِ الآخَرِ[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أُدمِجَ في الاعتِبارِ بهذه الآيةِ امتِنانٌ بنِعمةٍ في هذه الآيةِ أشارَ إليها قولُه: ﴿لَكُم ﴾، أي: لأجْلِ نَفْعِكم[٢].

- قولُه: ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾ ضَمَّنَ السُّكونَ معنى المَيلِ، فعَدَّاه بـ «إلى»؛ إذْ لم يقُلْ: «لِتسكُنوا منها» ولا «عِندَها»، ولكِنْ ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾؛ ولهذا كان الرَّجُلُ مَيَّالًا بطَبعِه إلى المرأةِ وساكِنًا إليها، ولا سيَّما إذا وُفِّقَ لامرأةٍ تكونُ ملائِمةً له؛ فإنَّ هذا يبدو ظاهِرًا جدًّا مِن التَّعليلِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ تَذْييلٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه، مع التَّنبيهِ على أنَّ ما ذُكِرَ ليس بآيةٍ فذَّةٍ، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾، بلْ هي مُشتمِلةٌ على آياتٍ شَتَّى[٤]. وإنَّما جُعِلَ في ذلك آياتٌ كثيرةٌ باعتبارِ اشْتمالِ ذلك الخلْقِ على دَقائقَ كثيرةٍ، مُتولِّدٌ بعضُها عن بعضٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٦).

يُظهِرُها التَّأمُّلُ والتَّدبُّرُ، بحيث يَتجمَّعُ منها آياتٌ كثيرةٌ[١].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ، مع قُربِ العهْدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِه[٢].

- وجُعِلَت الآياتُ لقومٍ يَتفكَّرون؛ لأنَّ التَّفكُّرَ والنَّظرَ في تِلك الدَّلائلِ هو الذي يُجْلِي كُنْهَها، ويَزِيدُ النَّاظرَ بَصارةً بمَنافعَ أُخرى في ضِمْنِها؛ فالقصْدُ في خلْقِ الأزواجِ السُّكونُ إليها، وإلْقاءُ المَحبَّةِ بيْنَ الزَّوجينِ، ليس لمُجرَّدِ قَضاءِ الشَّهوةِ الَّتي يَشترِكُ فيها البهائمُ، بلْ لِتَكثيرِ النَّسلِ، وبقاءِ نَوعِ المُتفكِّرينَ الَّذين يُؤدِّيهم الفِكرُ إلى المعرفةِ والعِبادةِ الَّتي ما خُلِقَت السَّمواتُ والأرضُ إلَّا لها؛ فناسَبَ ذلك التَّفكُّرُ[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾

لَمَّا كان أشرَفُ ما على الأرضِ نَوعَ الإنسانِ، قرَنَ ما في بعضِ أحوالِه مِن الآياتِ بما في خلْقِ الأرضِ مِن الآياتِ، وخُصَّ مِن أحوالِه المُتخالِفةُ؛ لأنَّها أشدُّ عِبرةً؛ إذ كان فيها اختلافٌ بيْن أشياءَ مُتَّحِدةٍ في الماهيَّةِ، ولأنَّ هاتِه الأحوالَ المُختلِفةَ لهذا النَّوعِ الواحدِ نجِدُ أسبابَ اختلافِها مِن آثارِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فاختلافُ الألْسنةِ مِن أسبابِه القرارُ بأوطانٍ مُختلِفةٍ مُتباعِدةٍ، واختلافُ الألوانِ مِن أسبابِه اختلافُ الجِهاتِ المَسْكونةِ مِن الأرضِ، واختلافُ مُسامَتةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧١).

أشعَّةِ الشَّمسِ لها؛ فهي مِن آثارِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ. ولذلك فالظَّاهرُ أنَّ المَقصودَ هو آيةُ اختلافِ اللُّغاتِ والألوانِ، وأنَّ ما تَقدَّمَه مِن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ تَمْهيدٌ له، وإيماءٌ إلى انطواءِ أسبابِ الاختلافِ في أسرارِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ. وقد كانتْ هذه الآيةُ مُتعلِّقةً بأحوالٍ عرَضيَّةٍ في الإنسانِ مُلازِمةً له، فبتلك المُلازَمةِ أشْبَهَتِ الأحوالَ الذَّاتيَّةَ المُطلَقةَ، ثمَّ النِّسبيَّةَ؛ فلذلك ذُكِرَت هذه الآيةُ عقِبَ الآيتَينِ السَّابقتَينِ حسَبَ التَّرتيبِ السَّابقِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡ﴾ إنَّما نُظِمَ هذا في سِلْكِ الآياتِ الآفاقيَّةِ مِن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، مع كَونِه مِن الآياتِ الأنفُسيَّةِ الحَقيقةِ بالانتظامِ في سِلْكِ ما سبَقَ مِن خَلْقِ أنفُسِهم وأزواجِهم؛ للإيذانِ باستِقلالِه، والاحترازِ عن تَوهُّمِ كَونِه مِن تَتمَّاتِ خلْقِهم[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ جُعِلَ في ذلك آياتٌ باعتِبارِ اشْتمالِ ذلك الخلْقِ على دَقائقَ كثيرةٍ، مُتولِّدٌ بعضُها عن بعضٍ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ جُعِلتِ الآياتُ للعالِمين -على قِراءةِ كسْرِ اللَّامِ-؛ لكونِ المُنتفِعِ بها إنَّما همْ أهْلُ العِلْمِ، كقولِه: ﴿وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٣]. وعلى قِراءةِ ﴿لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ -بفَتحِ اللَّامِ-؛ جُعِلتْ لهم لأنَّها آيةٌ مَكشوفةٌ للعالَمِ، ويُمكِنُهم الشُّعورُ بآياتِه بمُجرَّدِ الْتفاتِ الذِّهنِ دونَ إمعانِ نظَرٍ، وفيه دَلالةٌ على كَمالِ وُضوحِ الآياتِ، وعدَمِ خَفائِها على أحدٍ مِن الخلْقِ كافَّةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤)، =

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ...﴾ هذا مِن بابِ اللَّفِّ[1]، وتَرتيبُه: ومِن آياتِه مَنامُكم وابتغاؤُكم مِن فضْلِه باللَّيلِ والنَّهارِ، فلَفَّ وضَمَّ بيْن الزَّمانينِ والفِعلينِ بعاطفينِ -وهما الواوانِ-؛ إشعارًا بأنَّ كلًّا مِن الزَّمانينِ وإنِ اختَصَّ بأحدِهما فهو صالحٌ للآخَرِ عندَ الحاجةِ، ويُؤيِّدُه سائرُ الآياتِ الواردةِ فيه، خَلَا أنَّه فصَلَ بينَ القرينَينِ الأوَّلَينِ بالقَرينينِ الأخيرَينِ؛ لأنَّهما زمانٌ، والزَّمانُ مع ما وقَعَ فيه كشَيءٍ واحدٍ مع إعادةِ اللَّفِّ على الاتِّحادِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ: مَنامُكم في الزَّمانينِ، وابتِغاؤكم فِيهما؛ فعلى هذا لا يكونُ مِن بابِ اللَّفِّ، بلْ مِن المُقابَلةِ؛ فحُذِفَ في إحْدى المُتقابلينِ ما

---

= ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٢، ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٥).

(١) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئين أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا. والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجمالي. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين؛ الوجه الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّف، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ». الوجه الثاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

يُقابِلُ الآخَرَ؛ لدَلالةِ التَّقابُلِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ﴾ الابتِغاءُ مِن فضْلِ اللهِ: طلَبُ الرِّزقِ بالعمَلِ؛ لأنَّ فضْلَ اللهِ الرِّزقُ، وجُعِلَ هذا كِنايةً عن الهُبوبِ إلى العمَلِ؛ لأنَّ الابتغاءَ يَستلزِمُ الهُبوبَ مِن النَّومِ، وذلك آيةٌ أُخرى؛ لأنَّه نَشاطُ القوَّةِ بعْدَ أنْ خارَتَ وفشِلَتْ. ولِكَونِ ابتِغاءِ الرِّزقِ مِن خَصائصِ النَّهارِ، أُطلِقَ هنا، فلم يُقيَّدْ باللَّيلِ والنَّهارِ. ولك أنْ تَجعَلَ عدَمَ تَقْييدِه بمِثْلِ ما قُيِّدَ به مَنامُكم؛ للاستغناءِ بدَلالةِ القَيدِ الَّذي قبْلَه، بتَقديرِ: وابْتغاؤُكم مِن فضْلِه فيهما[٢].

- وقدَّمَ المنامَ باللَّيلِ على الابتِغاءِ بالنَّهارِ في الذِّكرِ؛ لأنَّ الاستراحةَ مَطلوبةٌ لِذاتِها، والطَّلَبَ لا يكونُ إلَّا لحاجةٍ، فلا يبتغي إلَّا محتاجٌ في الحالِ، أو خائفٌ مِن المآلِ[٣]. أو باعتبارِ أنَّ اللَّيلَ سابقٌ للنَّهارِ.

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ وجْهُ جَعلِ ذلك آياتٍ؛ لِمَا يَنْطوي عليه مِن تَعدُّدِ الدَّلالاتِ بتَعدُّدِ المُستدِلِّينَ، وتَولُّدِ دَقائقِ تلك الآيةِ بعضِها عن بعضٍ[٤].

- وأُجْرِيَت صِفةُ ﴿يَسۡمَعُونَ﴾ على (قَوم)؛ للإيماءِ إلى أنَّ السَّمعَ مُتمكِّنٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٢، ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٩٢، ٤٩٣).

قال ابن عاشور: (وقد تكَلَّف صاحبُ الكشَّافِ فجَعَل الكلامَ مِن قبيلِ اللَّفِّ وَالنَّشْرِ على أنَّ اللَّفَّ وَقَع فيه تفريقٌ، ووَجَّهَه مُحَشِّيه القزوينِيُّ بأنَّ التَّقديمَ للاهتمامِ بآيَةِ اللَّيلِ وَالنَّهارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٧).

منهم، حتَّى كأنَّه مِن مُقَوِّماتِ قَوميَّتِهم[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾ جُعِلَت دَلالاتُ المَنامِ والابتِغاءِ مِن فضْلِ اللهِ لِقَومٍ يسْمَعون؛ لِوَجهينِ: أحدِهما: أنَّ هذينِ حالتانِ مُتعاوِرتانِ على النَّاسِ قد اعْتادُوهما، فقَلَّ مَن يَتدبَّرُ في دَلالتِهما على دَقيقِ صُنْعِ اللهِ تعالى ممَّا يَشعُرُ به صاحبُ النَّومِ مِن أحوالِ نَومِه؛ لأنَّ النَّائمَ لا يَعرِفُ مِن نَومِه إلَّا الاستعدادَ له، وإلَّا أنَّه حِين يَهُبُّ مِن نَومِه يَعلَمُ أنَّه كان نائمًا، فأمَّا حالةُ النَّائمِ في حينِ نَومِه، ومِقدارُ تَنبُّهِه لمَن يُوقِظُه، وشُعورُه بالأصواتِ الَّتي تقَعُ بقُرْبِه، والأضواءِ الَّتي تَنتشِرُ على بصَرِه، فتُنبِّهُه أو لا تُنبِّهُه؛ كلُّ ذلك لا يَتلقَّاه النَّائمُ إلَّا بطَريقِ الخبَرِ مِن الَّذين يَكونون أيْقاظًا في وقْتِ نَومِه، فطَريقُ العِلْمِ بتَفاصيلِ أحوالِ النَّائمينَ واختلافِها السَّمعُ، وقد يُشاهِدُ المرْءُ حالَ نَومِ غيرِه، إلَّا أنَّ عِبرتَه بنَومِه الخاصِّ به أشَدُّ؛ فطَريقُ السَّمعِ هو أعمُّ الطُّرقِ لِمَعرفةِ تَفاصيلِ أحوالِ النَّومِ؛ فلذلك قِيل: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾. وأيضًا لأنَّ النَّومَ يَحولُ دونَ الشُّعورِ بالمَسموعاتِ بادِئَ ذي بَدْءٍ قبْلَ أنْ يَحولَ دونَ الشُّعورِ بالمُبصَراتِ[٢].

- وقيل: إنَّما قال: ﴿لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾؛ لأنَّه لَمَّا كان مِن أفعالِ العِبادةِ قد يُتوهَّمُ أنَّه لا يَحتاجُ إلى مُرشِدٍ، فنُبِّه على السَّماعِ، وجُعِلَ البالُ مِن كلامِ المُرشِدِ[٣]. وقيل: ختَمَها بقولِه: ﴿لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ﴾؛ لأنَّ مَن يَسمَعُ سَماعَ تدبُّرٍ أنَّ النَّومَ مِن صُنعِ اللهِ الحكيمِ، لا يُقدَرُ على اجتِلابِه إذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧٦، ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٥).

امْتنَعَ، ولا على رفْعِه إذا ورَدَ؛ يَعلَمُ أنَّ له صانعًا مُدبِّرًا[١].

- وقيل: خُصَّ قولُه: ﴿مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ﴾ باللَّيلِ ﴿وَٱبۡتِغَآؤُكُم﴾ بالنَّهارِ بالسَّمعِ؛ لأنَّ أكثَرَ النَّاسِ مُنسَدِحون[٢] باللَّيلِ كالأمواتِ، ومُتردِّدون كالبهائم بالنَّهارِ، لا يَدْرون فِيمَ همْ؟ ولِمَ ذلك؟ لكنْ مَن أَلْقى السَّمعَ وهو شهيدٌ يَتنبَّهُ لِواعظِ اللهِ ويُصْغي إليه؛ لأنَّ مرَّ اللَّيالي وكرَّ النَّهارِ يُناديانِ بلِسانِ الحالِ: (الرَّحيلَ الرَّحيلَ مِن دارِ الغُرورِ إلى دارِ القرارِ)، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا﴾[٣] [الفرقان: ٦٢].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٣).

(٢) السَّدْحُ: الإِضْجاعُ، والصَّرْعُ على الوَجْهِ، والإِلْقاءُ على الظَّهْرِ، والمنسدحُ: المُسْتَلْقي على ظهرِه، المُفَرِّجُ بينَ رِجْلَيْه. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٢٢٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١).

## الآيات (٢٤-٢٧)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَٰنِتُونَ﴾: أي: مُطيعونَ خاضِعونَ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ[1].

﴿ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: أي: الصِّفةُ العُليا، وهي أنَّه لا إلهَ غيرُه، والمثَلُ يَرِدُ بمعنَى الصِّفةِ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على عَظمةِ اللهِ تعالى وغَيرِها مِن صفاتِه الحسنى: أن يُريَكم البَرْقَ؛ فتَخافوا وتَطمَعوا، ويُنزِّلُ اللهُ مِن السَّماءِ مَطَرًا فيُحيي به الأرضَ بعدَ جُدوبِها، إنَّ في ذلك لَعَلاماتٍ لِقَومٍ يَعقِلونَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢) و(٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٣/ ١٠٣٣).

ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى: قيامُ السَّماءِ والأرضِ بقُدرتِه وتَدبيرِه تعالى، ثمَّ إذا دعاكم اللهُ دَعوةً واحِدةً وأنتم موتَى في بَطنِ الأرضِ، إذا أنتم تَخرُجونَ أحياءً مِن قُبورِكم يومَ البَعثِ.

ولله وَحْدَه مَنْ في السَّمواتِ والأرضِ، كلٌّ له سُبحانَه خاضِعونَ مُنقادونَ.

واللهُ هو الذي يَبدأُ إنشاءَ الخَلقِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُهم بعدَ مَوتِهم فيُحييهم ثانيةً، وإعادةُ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم أيسَرُ عليه مِن ابتداءِ خَلْقِهم.

وله وَحْدَه سُبحانَه الوَصفُ الأكمَلُ في السَّمَوات والأرضِ، وهو العزيزُ القاهِرُ لخَلقِه، الحَكيمُ في أفعالِه وأقوالِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أن ذكَر ما يَعرِضُ للأنفُسِ مِنَ الأوصافِ؛ ذكَر ما يَعرِضُ للأكوانِ والآفاقِ ونُشاهِدُه رأيَ العَينِ الفَيْنَةَ بعدَ الفَينةِ، ممَّا فيه العِبرةُ[1].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على عظَمةِ اللهِ تعالى وغَيرِها: أنْ يُبدِيَ لكم البَرْقَ، فتَخافوا وتَطمَعوا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨، ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠). =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾.

أي: ويُنزِّلُ اللهُ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فيُحيي به الأرضَ اليابِسةَ، فتُخرِجُ نباتَها بعدَ جُدوبِها[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

---

= قال ابن عاشور: (المراد: خوفًا تخافونَه، وطَمعًا تَطمعونَه؛ فالمصدران مؤوَّلان بمعنى الإرادةِ، أي: إرادةَ أن تخافوا خَوفًا وتطمَعوا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩).

واختلفت أقوالُ المفسِّرينَ في المرادِ بالخوفِ والطَّمَعِ هنا على أقوالٍ:

فقيل: المرادُ: خَوفًا للمسافِرِ، وطمعًا للمقيم. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزجَّاج، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٢).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤٧٥).

وردَّ ابنُ عطيَّةَ هذا المعنى، فقال: (لا وجْهَ لهذا التَّخصيصِ ونحوِه، بل فيه الخَوفُ والطَّمَعُ لكُلِّ بشَرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٤). وبنحوِه قال ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٣٢).

وقيل: المعنى: تارةً تخافونَ ممَّا يحدُثُ بعدَه مِن أمطارٍ مُزعِجةٍ، أو صواعِقَ مُتلِفةٍ، وتارةً تَرجونَ وَميضَه وما يأتي بعدَه مِن المطرِ المُحتاجِ إليه. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ كثير. وبنحوِه قال البِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٣).

قال ابن عاشور: (خَوفًا مِن أن يكونَ اللهُ سَلَّطه عقابًا، وطَمعًا في أن يكونَ أراد به خيرًا للنَّاسِ، فيَطمعونَ في نزولِ المطرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٨).

وقيل: المرادُ: خَوفًا أن يكونَ البرقُ بَرقًا خُلَّبًا لا يُمطِرُ، وطمعًا أن يكونَ مُمطِرًا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٣).

أي: إنَّ في إظهارِ الله لكم البَرْقَ، وإنزالِه المطَرَ، وإحياءِ الأرضِ به: لَعَلاماتٍ يَستَدِلُّ بها القَومُ الَّذين يَعقِلونَ حُجَجَ اللهِ، ومِن ذلك الاستِدلالُ بها على قُدرةِ الله على البَعثِ[1].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان جميعُ ما مضَى مِنَ الآياتِ المرئيَّاتِ ناشِئًا عن هذَينِ الخَلْقَينِ العَظيمَينِ -السَّماءِ والأرضِ- المحيطَينِ بمَن أُنزِلَت عليهم هذه الآياتُ المسموعاتُ؛ بيانًا لِمَن أَشْكَلَ عليه أمرُ الآياتِ المرئيَّاتِ- ذكَرَ أمرًا جامِعًا للكُلِّ، وهو مِن الوضوحِ بحيث لا يحتاجُ إلى أكثَرَ مِن العَقلِ المختومِ به ما قَبْلُ، فقال[2]:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

أي: ومِن العلاماتِ الدَّالَّةِ على قُدرةِ اللهِ وغيرِها: قيامُ السَّماءِ والأرضِ بقُدرتِه وتدبيرِه؛ خُضوعًا وطاعةً لأمرِه لها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

قيل: المرادُ بقيامِ السَّمَواتِ والأرضِ: استِمساكُها بلا عَمَدٍ، فلا تَسقُطُ السَّماءُ أو الأرضُ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾.

أي: ثمَّ إذا دعاكم اللهُ دَعوةً واحِدةً وأنتم مَوتى في بَطنِ الأرضِ، إذا أنتم سَريعًا تَخرُجونَ أحياءً مِن قُبورِكم يومَ القيامةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أن أقام الأدِلَّةَ على الوحدانيَّةِ وهي الأصلُ الأوَّلُ، وعلى القُدرةِ على الحشرِ وهي الأصلُ الثَّاني- أعقَبَ ذلك بهاتَينِ الآيتَينِ، وجعَلَهما كالنَّتيجةِ لِما

---

= ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢).

وقيل: المرادُ أعَمُّ مِن ذلك، فيَشمَلُ القيامَ الحِسِّيَّ والمعنويَّ؛ القيامُ الحِسِّيُّ: بما فيها مِنَ الانتظام، وإيداعِها مصالحَ الخَلقِ. والقيامُ المعنويُّ: لأنَّها تَصلُحُ وتقومُ بالعَمَلِ فيها بطاعةِ الله، كما أنَّ المعاصيَ إفسادٌ للأرضِ. قاله ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٣٧، ١٣٨).

قال ابن عثيمين: (... وعلى هذا يكونُ المرادُ بالأمرِ الأمرَ الكونيَّ، والأمرَ الشَّرعيَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٣٨-١٤٠).

سلَف[١].

﴿ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: ولله وَحْدَه ملْكُ مَنْ في السَّمَواتِ والأرضِ مِن الملائِكةِ والإنسِ والجِنِّ وجَميعِ المخلوقاتِ؛ فكُلُّهم عَبيدُه ومماليكُه[٢].

﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾.

أي: كُلُّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ مِن خَلْقِ اللهِ خاضِعونَ للهِ وَحْدَه؛ فَهُم له أذِلَّاءُ مَقهورونَ لإرادتِه الكَونيَّةِ، فيَتصَرَّفُ فيهم بما يَشاءُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤٢، ١٤٣).

قال ابنُ جرير: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ القَولُ الَّذي ذكَرْناه عن ابنِ عبَّاسٍ: وهو أنَّ كُلَّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ مِن خَلقِ الله: مُطيعٌ في تصَرُّفِه فيما أراد تعالى ذِكرُه من حياةٍ وموتٍ، وما أشبَهَ ذلك، وإنْ عصاه فيما يَكتسِبُه بقُواهُ، وفيما له السَّبيلُ إلى اختيارِه، وإيثارِه على خِلافِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٤، ٤٨٥).

وقال ابنُ القيِّم: (القنوتُ هنا هو العبوديَّةُ العامَّةُ الَّتي يشتَرِكُ فيها أهلُ السَّمَواتِ والأرضِ، لا يختَصُّ بها بعضُهم عن بعضٍ، ولا يختَصُّ بزَمانٍ دونَ زمانٍ، وهي عبوديَّةُ القَهرِ؛ فالقُنوتُ هنا قُنوتُ قَهرٍ وذُلٍّ، لا قُنوتُ طاعةٍ ومحبَّةٍ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢١٥).

وقال ابن كثير: (﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴾ أي: خاضِعونَ خاشِعونَ، طَوعًا وكَرهًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ [آل عمران: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ [الرعد: ١٥].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٧﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي يَبدأُ إنشاءَ الخَلقِ مِن العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُهم بعدَ مَوتِهم فيُحييهم ثانيةً[1].

﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾.

أي: وإعادةُ الخَلقِ بعدَ مَوتِهم أيسَرُ[2] .....

---

= وقال ابنُ عاشور: (ظاهِرُ معنى القُنوتِ: امتِثالُ الأمرِ، فيجوزُ أن يكونَ المعنى: أنَّهم مُنقادون لأمرِه، وإذ قد كان في العُقَلاءِ عُصاةٌ كثيرونَ، تعَيَّنَ تأويلُ القُنوتِ باستعمالِه في الامتِثالِ لأمرِ التَّكوينِ، أو في الشَّهادةِ لله بالوحدانيَّةِ بدَلالةِ الحالِ، وهذا هو المقصودُ هنا... ويجوزُ أن تكونَ جملةُ ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ تكمِلةً لجُملةِ ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥] على معنى: وله يومَئذٍ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ كُلٌّ له قانِتونَ، فالقُنوتُ بمعنى الامتثالِ الواقعِ في ذلك اليوم، وهو امتِثالُ الخُضوعِ؛ لأنَّ امتثالَ التَّكليفِ قد انقضى بانقِضاءِ الدُّنيا، أي: لا يَسَعُهم إلَّا الخضوعُ فيما يأمُرُ الله به مِن شأنِهم يومَ تَشهَدُ عليهم ألسِنَتُهم وأيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يَعمَلونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٢، ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤٥).

(٢) اختلَف المفسِّرونَ هنا في المرادِ بقَولِه تعالى: ﴿أَهۡوَنُ﴾؛ فقيل: ﴿أَهۡوَنُ﴾ بمعنى: هَيِّن، =

على اللهِ مِن ابتِداءِ خَلْقِهم[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال الله: كَذَّبَني ابنُ آدَمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشَتَمَني ولم يكُنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقَولُه: لن يُعيدَني كما بدَأَني! وليس أوَّلُ الخَلْقِ بأهْوَنَ عليَّ مِن إعادتِه. وأمَّا شَتْمُه إيَّايَ فقَولُه: اتَّخَذ اللهُ ولَدًا! وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لم أَلِدْ ولم أُولَدْ، ولم يكُنْ لي كُفْئًا أحَدٌ))[٢].

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

## مُناسبتُها لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَر مِن الآياتِ العظيمةِ ما به يَعتبِرُ المُعتَبرونَ، ويَتذكَّرُ المؤمِنونَ، ويَتبصَّرُ المُهتدونَ؛ ذكَر الأمرَ العظيمَ، والمطلبَ الكبيرَ، فقال[٣]:

---

= أي: الإعادةُ هَيِّنةٌ عليه؛ لأنَّه ليس شَيءٌ أهوَنَ على اللهِ مِن شَيءٍ، فالكُلُّ هَيِّنٌ عليه، وهو عندَه سَواءٌ. ومِمَّن قال بذلك: القرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٤٧).

وهذا بناءً على أنَّ صيغةَ التَّفضيلِ قد تُطلقُ في القرآنِ واللُّغةِ مرادًا بها الاتِّصافُ، لا تفضيلُ شَيءٍ على شَيءٍ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٢٥٨ - ٢٦١).

وقيل: هو اسمُ تَفضيلٍ، والمرادُ: أهوَنُ عليه باعتبارِ المفهومِ لدى المخاطَبينَ، فمِنَ المتقَرِّر لدى النَّاسِ أنَّ إعادةَ الشَّيءِ أسهَلُ مِن ابتِدائِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، والسعدي، واستحسنه ابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤٦، ١٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٥ - ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١، ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١١، ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٣).

(٢) رواه البخاري (٤٩٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو المُستَحِقُّ للوَصفِ الأكمَلِ في السَّمَواتِ والأرضِ؛ فلا إلهَ إلَّا هو، وليس كمِثْلِه شَيءٌ، وكُلُّ صِفةِ كَمالٍ في المخلوقاتِ فالخالِقُ أَحَقُّ بالاتِّصافِ بها على وَجهٍ لا يُشارِكُه فيها أَحَدٌ، وكلُّ صِفةِ نَقصٍ في المخلوقِ فتَنزيهُ الخالِقِ عنها أَولى وأحرى، لا يدخُلُ السُّوءُ في أسمائِه، ولا النَّقصُ والعَيبُ في صفاتِه، ولا العَبَثُ والجَورُ في أفعالِه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٧٦)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٤٨).

قال الرسعني: (﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي: الوصفُ الأعلى الَّذي لا يُشارَكُ فيه، قد وُصِف به في السَّمواتِ والأرضِ على ألْسِنةِ الخلائقِ وألسِنةِ الدَّلائلِ، وهو أنَّه القادرُ الَّذي لا يُعجِزُه ما شاء مِنَ الإعادةِ والإنشاءِ وغيرِهما). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٢). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤).

وقال السعدي: (﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ هو كلُّ صِفةِ كمالٍ، والكمالُ مِن تلك الصِّفةِ والمحبَّةُ والإنابةُ التَّامَّةُ الكاملةُ في قلوبِ عِبادِه المُخلصينَ والذِّكرُ الجليلُ والعبادةُ منهم؛ فالمثَلُ الأعلى هو وصْفُه الأعلى وما ترتَّبَ عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

وقال ابن القيِّم: (المثَلُ الأعلى يَتضمَّنُ الصِّفةَ العُليا، وعِلْمَ العالَمينَ بها ووُجودَها العِلميَّ، والخبرَ عنها وذِكْرَها، وعِبادةَ الرَّبِّ سُبحانَه بواسِطةِ العِلمِ والمعرفةِ القائمةِ بقُلوبِ عابِديه وذاكِريه؛ فهاهنا أربعةُ أمورٍ:

ثُبوتُ الصِّفاتِ العُلْيا لله سبحانه في نفْسِ الأمرِ، عَلِمَها العِبادُ أو جَهِلوها. وهذا معنَى قولِ مَن فسَّره بالصِّفةِ.

الثَّاني: وُجودُها في العِلمِ والتَّصوُّرِ. وهذا معنَى قولِ مَن قال مِنَ السَّلفِ والخلَفِ: إنَّه ما في قُلوبِ عابِديه وذاكِريه مِن معرفتِه وذِكرِه ومحبَّتِه وإجلالِه وتعظيمِه، وهذا الَّذي في قلوبِهم مِنَ المثَلِ الأعلى لا يَشترِكُ فيه غيرُه معه، بل يختصُّ به في قلوبِهم، كما اختصَّ في ذاتِه. وهذا معنى قولِ مَن قال مِنَ المفسِّرينَ: أهلُ السَّماءِ يُعَظِّمونه ويُحِبُّونه ويَعبُدونه، وأهلُ الأرضِ =

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ ذو العِزَّةِ الكامِلةِ؛ فهو القاهِرُ لخَلقِه فلا يُغالَبُ، المنتَقِمُ مِن أعدائِه فلا يُمانَعُ، وهو الحَكيمُ في أفعالِه وأقوالِه؛ شَرعًا وقَدَرًا، ومِن ذلك حِكمتُه في تدبيرِ خَلْقِه، وتَصريفِهم فيما أرادَه بهم مِن إحياءٍ وإماتةٍ، وبَعثٍ ونُشورٍ[1].

---

= يُعَظِّمونه ويُجِلُّونه وإن أشرَك به مَن أشرَكَ، وعصاه مَن عصاه، وجحَدَ صِفاتِه مَن جحَدَها، فكلُّ أهلِ الأرض مُعَظِّمون له، مُجِلُّون له، خاضِعون لِعَظَمتِه، مُستَكِينون لِعِزَّتِه وجَبَروتِه؛ قال تعالى: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦]، فلستَ تَجِدُ أحدًا مِن أوليائِه وأعدائِه إلَّا واللهُ أكبَرُ في صدرِه وأكمَلُ وأعظَمُ مِن كلِّ سِواه.

الثَّالثُ: ذِكرُ صِفاتِه، والخبَرُ عنها، وتنزيهُها عن النَّقائصِ والعيوبِ والتَّمثيلِ.

الرَّابعُ: محبَّةُ المَوصوفِ بها، وتوحيدُه، والإخلاصُ له، والتَّوكُّلُ عليه، والإنابةُ إليه، وكُلَّما كان الإيمانُ بالصِّفاتِ أكمَلَ كان هذا الحُبُّ والإخلاصُ أقوى.

فعِباراتُ السَّلفِ تَدورُ حوْلَ هذه المعاني الأربعةِ لا تَتجاوَزُها). ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) (٣/ ١٠٣٤).

وقال ابن عاشور: (وقوله: ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ صِفةٌ للمَثَلِ، أو حالٌ منه، أي: كان استِحقاقُه المثَلَ الأعلى مُستقرًّا في السَّمواتِ والأرضِ، أي: في كائناتِ السَّمواتِ والأرضِ، فالمرادُ: أهلُها، على حدِّ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: هو موصوفٌ بأشرَفِ الصِّفاتِ وأعظَمِ الشُّؤونِ على ألْسِنةِ العُقلاءِ، وهي الملائكةُ والبشَرُ المُعتَدُّ بعُقولِهم، ولا اعتِدادَ بالمُعطِّلينَ منهم لِسَخافةِ عُقولِهم، وفي دَلائلِ الأدِلَّةِ الكائنةِ في السَّمواتِ وفي الأرضِ؛ فكلُّ تلك الأدِلَّةِ شاهِدةٌ بأنَّ لله المثَلَ الأعلى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤).

وقال ابن عثيمين: (﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يعني: عندَ أهلِ السَّمواتِ مِنَ الملائكةِ، وعندَ أهلِ الأرضِ؛ فكُلُّ الفِطَرِ السَّليمةِ تَعترِفُ بأنَّ المثَلَ الأعلى والصِّفةَ العُلْيا لله وحْدَه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

يتفَرَّعُ على إثباتِ الحِكمةِ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قَطعُ الاعتِراضِ على الخَلْقِ والشَّرعِ، بمعنى أنَّك لا تَعترضُ على خَلْقِ اللهِ أو على شَرعِه، وإنما تُسَلِّمُ؛ لأنَّك إذا آمَنْتَ بالحِكمةِ وأنَّ اللهَ تعالى حَكيمٌ، فحينَئذٍ يَنقَطِعُ الاعتراضُ نهائيًّا، فلا تَقُلْ: «لِمَ؟» ولا «مِن أينَ؟» إلَّا على سَبيلِ الاسترشادِ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ في إضافةِ الفِعلِ إلى فاعِلِ ذلك الفِعلِ [وأنَّ ذلك لا يدفعُ فِعلَ الله به، وإرادتَه فيه]، ألا ترى أنَّه قال قبْلَ هذا: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]، ثمَّ قال هاهنا: ﴿إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾، فكيف يُنكِرونَ -وَيْحَهم- أنْ تكونَ أفعالُ المعاصي يَفعلُها العاصون وتُنسَبُ إليهم، ويكونَ محكومًا عليهم بها، جارونَ على محتومِ القَضاءِ عليهم فيها؟! فلا يبقى عليهم عندَ ذلك إلَّا الإقرارُ بعُزوبِ عِلْمِهم عن عَدْلِ عادلٍ لا يضُرُّهم جَهْلُه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مَقَرَّ بني آدمَ الأرضُ، ويؤيِّدُ ذلك قولُه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، فالمعمولُ في هذه الآيةِ «فيها» و «منها» مُقَدَّمٌ، وتقديمُ المعمولِ يدُلُّ على الحصر مِن هذا الشَّيءِ لا مِن غيرِه، إذَنْ فالحياةُ على الكواكبِ متعَذِّرةٌ بالنِّسبةِ لبني آدَمَ، فظاهرُ الآياتِ أنَّ بني آدَمَ خُلِقوا مِن الأرض،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦١٠).

ويُرجَعون إلى الأرض، ويُدْعَون يومَ القيامة مِن الأرض[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الخَلقَ حادِثٌ بعدَ أنْ لم يكُنْ، فيَكونُ في الآية رَدٌّ لِقَولِ الفَلاسِفةِ القائِلينَ بِقِدَمِ العالَم، والصَّوابُ أنَّ العالَمَ حادِثٌ بعدَ أنْ لم يكُنْ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ﴾[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عَقَّبَ بِقَولِه: ﴿وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ قَولَه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ مجرَّدُ تَقريبٍ لأفهامِهم، أي: ثَبَت له واستَحَقَّ الشَّأنَ الأتَمَّ الَّذي لا يُقاسُ بشُؤونِ النَّاسِ المُتعارَفةِ، وإنَّما لِقَصدِ التَّقريبِ لأفهامِكم[٣].

٥- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ هذا ابتِداءٌ بتوجيهِ الكلامِ إلى المشركِينَ لرُجوعِه إلى نَظيرِه المَسوقِ إليهم، وهذا أشبَهُ بالتَّسليمِ الجَدَليِّ في المُناظَرةِ؛ ذلك لأنَّهم لَمَّا اعتَرفوا بأنَّ اللهَ هو بادِئُ خلْقِ الإنسانِ، وأنْكَروا إعادتَه بعدَ الموتِ، واسْتُدِلَّ عليهم هنالك بقِياسِ المُساواةِ، ولَمَّا كان إنكارُهم الإعادةَ بعْدَ الموتِ مُتضَمِّنًا تَحديدَ مَفعولِ القُدرةِ الإلهيَّةِ؛ جاء التَّنازُلُ في الاستِدلالِ إلى أنَّ تَحديدَ مَفعولِ القُدرةِ لو سُلِّمَ لهم، لَكان يَقْتضي إمكانَ البعْثِ بقياسِ الأَحْرى؛ فإنَّ إعادةَ المَصْنوعِ مرَّةً ثانيةً أهْوَنُ على الصَّانعِ مِن صَنعتِه الأُولى، وأدخَلُ تحتَ تأثيرِ قُدرتِه فيما تَعارَفَه النَّاسُ في مَقدُوراتِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٨٣).

٦- الأقْيسةُ في بابِ صفاتِ اللهِ هي أقيسةُ الأَولى؛ فإنَّ العَبدَ إذا كان هذا الكَمالُ ثابتًا له، فاللهُ الَّذي له المَثَلُ الأعلى أحَقُّ بذلك؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، فكُلُّ صِفةِ كَمالٍ في المخلوقاتِ فخالِقُها أحَقُّ بالاتِّصافِ بها على وَجهٍ لا يُشارِكُه فيها أحدٌ، وكُلُّ نَقصٍ في المخلوقِ يُنزَّهُ عنه، فتَنزيهُ الخالِقِ عنه مِن بابِ أَولى وأحرَى[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ قدَّمَ عرَضيَّاتِ الآفاقِ المُفارِقةِ؛ مِن إراءةِ البرْقِ وإنزالِ المطَرِ على ما هو مِن الأرضِ، وهو الإتيانُ والإحياءُ، كما قدَّمَ السَّمواتِ على الأرضِ، وقدَّمَ البرْقَ على الإنزالِ؛ لأنَّه كالمُبشِّرِ يَجيءُ بيْن يَدَيِ القادمِ[3].

- ومِن بَديعِ الاستِعمالِ تفنُّنُ هذه الآياتِ في التَّعبيرِ عن مَعاني المصدرِ بأنواعِ صِيَغِه الواردةِ في الاستِعمالِ؛ مِن تَعبيرٍ بصِيغةِ صَريحِ المصدرِ تارةً، كقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٢]، وقولِه: ﴿وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣]، وبالمَصدرِ الَّذي يَنسَبِكُ مِن اقترانِ (أنْ) المَصدريَّةِ بالفِعلِ الماضي ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ [الروم: ٢١]، واقْترانِها بالفِعلِ المُضارعِ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، وباسمِ المَصدرِ تارةً ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٣]،

---

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٥).

ومرَّةً بالفِعلِ المُجرَّدِ المُؤوَّلِ بالمصدرِ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ ﴾[١] [الروم: ٢٤].

- وفي قولِه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ المَجرورُ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿يُرِيكُمُ ﴾، وتكونَ (مِن) ابتِدائيَّةً في مَوضعِ الحالِ مِن ﴿ٱلْبَرْقَ﴾، وتكونَ جُملةُ ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الروم: ٢٣] إلخ، فيَكونَ تَغْييرُ الأُسلوبِ لأنَّ مَناطَ هذه الآيةِ هو تَقْريرُ النَّاسِ بها؛ إذ هي غيرُ مُتَّصِلةٍ بذَواتِهم، فليس حظُّهم منها سِوى مُشاهَدتِها والإقرارِ بأنَّها آيةٌ بيِّنةٌ؛ فهذا التَّقريرُ كالَّذي في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: ٢]، ولِيَتأتَّى عطْفُ ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ عليه؛ لأنَّه تَكمِلةٌ لهذه الآيةِ[٢].

- وأعقَبَ رُؤيةَ البرْقِ بقولِه: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾؛ لأنَّ نُزولَ المطَرِ ممَّا يَخطُرُ بالبالِ عندَ ذِكْرِ البرْقِ[٣].

- وأفرَد السَّماءَ والأرضَ؛ لأنَّ السَّماءَ الأُولى والأرضَ الأُولى لا تَقْبَلُ النِّزاعَ؛ لأنَّها مُشاهَدةٌ، مع صلاحيةِ اللَّفظِ بالكلِّ؛ لأنَّه جنسٌ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ جُعِلَت هذه الآيةُ آياتٍ؛ لانطوائِها على دَقائقَ عَظيمةٍ في خلْقِ القُوى الَّتي هي أسبابُ البرْقِ، ونُزولُ المطَرِ، وخروجُ النَّباتِ مِن الأرضِ بعْدَ جَفافِها ومَوتِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٨، ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩).

- وإنَّما قال هنا: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّ البَرقَ والإنزالَ ليس أمْرًا عاديًّا فيُتَوهَّمَ أنَّه طبيعةٌ؛ إذ يقَعُ ذلك ببَلدةٍ دونَ أُخرى، ووقْتًا دونَ وقْتٍ، وقويًّا وضَعيفًا؛ فهو أظْهَرُ في العقْلِ دَلالةً على الفاعلِ المُختارِ، فقال: هو آيةٌ لِمَن عقَلَ بأنْ لم يَتفكَّرْ تفكُّرًا تامًّا[١]. وقيل: قال: ﴿يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنَّها مِن الظُّهورِ بحيث يَكْفي في إدراكِها مُجرَّدُ العقْلِ عندَ استعمالِه في استنباطِ أسْبابِها، وكيفيَّةِ تكَوُّنِها[٢]. وقيل: نِيطَ الانتفاعُ بهذه الآياتِ بأصحابِ صِفَةِ العقْلِ؛ لأنَّ العقْلَ المُستقيمَ غيرَ المَشُوبِ بعاهةِ العِنادِ والمُكابَرةِ، كافٍ في فَهْمِ ما في تلك المَذْكوراتِ مِن الدَّلائلِ والحِكَمِ[٣]. وقيل: لأنَّ العقْلَ مَلاكُ الأمْرِ، وهو المُؤدِّي إلى العِلْمِ -فيما ذُكِرَ- وغيرِه[٤].

- وإجْراءُ ﴿يَعۡقِلُونَ﴾ على لفْظِ (قومٍ)؛ للإيماءِ إلى أنَّ العقْلَ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ أي: بإرادتِه تعالى لِقيامِهما، والتَّعبيرُ عنها بالأمْرِ؛ للدَّلالةِ على كَمالِ القُدرةِ، والغِنى عن المَبادئِ والأسبابِ، وعن الآلةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٧).

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ خُتِمَت الآياتُ بقِيامِ السَّمواتِ والأرضِ، وذلك مِن العوارِضِ اللَّازمةِ؛ فإنَّ كلًّا مِن السَّماءِ والأرضِ لا يَخرُجُ عن مكانِه، فيُتعجَّبُ مِن وُقوفِ الأرضِ وعدَمِ نُزولِها، ومِن عُلوِّ السَّماءِ وثَباتِها مِن غَيرِ عمَدٍ. ثمَّ أتبَعَ ذلك بالنَّشأةِ الأُخرى، وهي الخروجُ مِن الأرضِ، وذكَرَ تعالى مِن كلِّ بابٍ أمْرَينِ: مِن الأنفُسِ ﴿خَلَقَكُم﴾ ﴿خَلَقَ لَكُم﴾، ومِن الآفاقِ السَّماءَ والأرضَ، ومِن لَوازمِ الإنسانِ اختلافَ الألْسنةِ واختلافَ الألْوانِ، ومِن خواصِّه المَنامَ والابتغاءَ، ومِن عوارضِ الآفاقِ البرْقَ والمطَرَ، ومِن لوازمِه قِيامَ السَّماءِ وقِيامَ الأرضِ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿أَن تَقُومَ﴾، وقال قبْلَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ [الروم: ٢٤]، ولم يقُلْ: (وأنْ يُرِيَكم)؛ وذلك لأنَّ القِيامَ لَمَّا كان غيرَ مُتغيِّرٍ، أُخرِجَ الفِعلُ بـ (أنْ)، وجُعِلَ في تأْويلِ المَصْدرِ؛ لِيَدُلَّ على الثُّبوتِ، وإراءةُ البَرقِ لَمَّا كانت مِن الأُمورِ المُتجدِّدةِ، لم يُذكَرْ معها ما يدُلُّ على المَصْدرِ[2].

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ حيثُ كانتْ هذه الآيةُ مُتأخِّرةً عن سائرِ الآياتِ المَعدودةِ، مُتَّصِلةً بالبعثِ في الوُجودِ؛ أُخِّرَت عنهنَّ وجُعِلَت مُتَّصِلةً به في الذِّكرِ أيضًا، فقيلَ: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾؛ فإنَّه كَلامٌ مَسوقٌ للإخبارِ بوُقوعِ البَعثِ ووُجودِه بعْدَ انقضاءِ أجَلِ قِيامِهما، مُترتِّبٌ على تَعدادِ آياتِه الدَّالَّةِ عليه، غيرُ مُنتظمٍ في سِلْكِها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٨).

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ عطَفَ هذا على قِيامِ السَّمواتِ والأرضِ بـ (ثمَّ)؛ بَيانًا لِعظَمِ ما يكونُ مِن ذلك الأمْرِ واقتِدارِه على مِثْلِه؛ وهو أنْ يقولَ: يا أهلَ القُبورِ قُوموا، فلا تَبْقى نَسَمةٌ مِن الأوَّلينَ والآخِرينَ إلَّا قامت تَنظُرُ[1].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ المقصودُ مِن هذه الجُملةِ الاحتِراسُ عمَّا قد يُتوهَّمُ مِن قولِه: ﴿أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ مِن أبَديَّةِ وُجودِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فأفادَتِ الجُملةُ أنَّ هذا النِّظامَ الأرضيَّ يَعْتورُه الاختلالُ إذا أراد اللهُ انقضاءَ العالَمِ الأرضيِّ وإحضارَ الخلْقِ إلى الحشْرِ؛ تَسْجيلًا على المشركينَ بإثباتِ البعثِ؛ فمَضمونُ جُملةِ ﴿إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ ليس مِن تَمامِ هذه الآيةِ السَّادسةِ، ولكنَّه تكملةٌ وإدماجٌ مُوَجَّهٌ إلى مُنكِري البعثِ[2].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ المُرادُ تَشبيهُ سُرعةِ ترتُّبِ حُصولِ ذلك على تعلُّقِ إرادتِه بلا توقُّفٍ واحتياجٍ إلى تجشُّمِ عمَلٍ، بسُرعةِ ترتُّبِ إجابةِ الدَّاعي المُطاعِ على دُعائِه، و(ثمَّ) إمَّا لِتَراخي زَمانِه، أو لِعِظَمِ ما فيه[3].

- يجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿تَخْرُجُونَ﴾، قُدِّمَ عليه للاهتِمامِ؛ تَعريضًا بخَطئِهم؛ إذْ أحالوا أنْ يكونَ لهم خُروجٌ مِن الأرضِ مِن بَعدِ صَيرورتِهم فيها في قولِهم المَحْكيِّ عنهم بقولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٥).

أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]، وقولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾[1] [النمل: ٦٧].

- وجِيءَ بحرْفِ المُفاجأةِ (إذا) في قولِه: ﴿إِذَآ أَنتُم تَخْرُجُونَ﴾؛ لإفادةِ سُرعةِ خُروجِهم إلى الحشْرِ، كقوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، و(إذا) الفُجائيَّةُ تَقْتضي أنْ يكونَ ما بعْدَها مُبتدأً. وجِيءَ بخَبرِ المُبتدأِ جُملةً فِعليَّةً ﴿تَخْرُجُونَ﴾؛ لإفادةِ التَّقَوِّي الحاصلِ مِن تَحمُّلِ الفِعلِ ضَميرَ المُبتدأِ، فكأنَّه أُعِيدَ ذِكْرُه. وجِيءَ بالمُضارعِ ﴿تَخْرُجُونَ﴾؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ العَجيبةِ في ذلك الخُروجِ، كقولِه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[2] [يس: ٥١].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾

أَتْبَعَ ذِكْرَ إقامةِ اللهِ تعالى السَّمواتِ والأرضَ بالتَّذكيرِ بأنَّ كلَّ العُقلاءِ في السَّمواتِ والأرضِ عَبيدٌ للهِ تعالى؛ فيَكونُ مِن مُكمِّلاتِ ما تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]؛ فعُطِفَت عليها هذه الجُملةُ زِيادةً لِبَيانِ معنى إقامتِه السَّماءَ والأرضَ، وهذه الآيةُ أُورِدَت بعْدَ ذِكرِ الآياتِ السِّتِّ إيرادَ الفَذْلَكةِ[3] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلِمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و (الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذلكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة =

بإثباتِ الوَحدانيَّةِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي: يُعيدُه بعْدَ مَوتِهم، وتقدَّمَ نَظيرُ صدْرِ هذه الآيةِ في هذه السُّورةِ، وأُعِيدَ هنا لزِيادةِ التَّقريرِ، والتَّمهيدِ لِمَا بعْدَه؛ لِيُبْنَى عليه قولُه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ تكملةً للدَّليلِ؛ إذ لم تُذكَرْ هذه التَّكملةُ هناك؛ فهذا ابتداءٌ بتَوجيهِ الكلامِ إلى المشركينَ؛ لِرُجوعِه إلى نَظيرِه المَسوقِ إليهم[٢]. وذكَّرَ الضَّميرَ في قولِه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ والمرادُ به الإعادةُ -وهي مُؤنَّثةٌ-؛ لأنَّ معناهُ: وأنْ يُعِيدَه أهْونُ عليه[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أُخِّرَت الصِّلةُ في قولِه: ﴿وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾، وقُدِّمت في قولِه: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾ [مريم: ٩]؛ ووجْهُه: أنَّ مَقامَ خرْقِ العادةِ في سُورةِ (مَريمَ) اقْتَضى التَّقديمَ، فقيل: ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ﴾، يعني: كأنَّ العادةَ تأبَى أنْ يَحصُلَ الولدُ بينَ الشَّيخِ الكبيرِ والمرأةِ العاقرِ؛ لِمَا جُرِّبَ وعُلِمَ بالاستقراءِ؛ فقِيل: أنا القادرُ وَحْدي أنْ أخْرِقَ العادةَ دونَ غيري، وأمَّا هاهنا فلا معنَى للاختِصاصِ؛ لأنَّ العادةَ حاكمةٌ قاطعةٌ بأنَّ مَن أعاد صَنعةَ شَيءٍ كانت أسهَلَ عليه وأهوَنَ مِن إنْشائِها، لكنَّ الدَّهْريَّ المَخذولَ يُنكِرُ فِعلَه؛

---

= النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨١، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٨).

فجِيءَ بالجُملةِ المُفيدةِ لِتَقوِّي الحُكْمِ على مَجْرى العُرْفِ والعادةِ، فلو قُدِّمت الصِّلةُ لَتَغيَّرَ المعنى[١].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مِن جُملةِ المثَلِ الأعلى عِزَّتُه وحِكمتُه تعالى، وخُصَّا بالذِّكْرِ هنا؛ لأنَّهما الصِّفتانِ اللَّتانِ تَظهَرُ آثارُهما في الغرَضِ المُتحدَّثِ عنه، وهو بَدْءُ الخلْقِ وإعادتُه؛ فالعِزَّةُ تَقْتضي الغِنَى المُطلَقَ، فهي تَقْتضي تَمامَ القُدْرةِ، والحِكمةُ تَقْتضي عُمومَ العِلْمِ، ومِن آثارِ القُدْرةِ والحِكمةِ أنَّه يُعِيدُ الخلْقَ بقُدْرتِه، وأنَّ الغايةَ مِن ذلك الجزاءُ، وهو مِن حِكمتِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٤).

## الآيتان (٢٨-٢٩)

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا قُبحَ الشركِ: مَثَّل اللهُ لكم -أيُّها المُشرِكونَ- مَثَلًا مِن أنفُسِكم يوضِّحُ قُبحَ الشِّركِ وبُطلانَه؛ هل لكم مِن مَماليكِكم شُرَكاءُ فيما رزَقْناكم، فتَسْتَوا فيه أنتم وهم، تخافونَهم مِنَ التَّصَرُّفِ فيه كما يَخافُ الرَّجُلُ الحُرُّ منكم شَريكَه الحُرَّ في المالِ يكونُ بيْنَهما؟! فإذا لم تَرضَوا لأنفُسِكم بأن يكونَ مماليكُكم شُرَكاءَ لكم في رِزقِكم، فكيف تجعَلونَ لله مِن عَبيدِه شُرَكاءَ في مُلكِه؟! هكذا نُبَيِّنُ الآياتِ لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ الأمثالَ فيُوحِّدونَه.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ المشركينَ إنَّما عبَدوا غيرَه سفهًا مِن أنفُسِهم وجهلًا، فيقولُ: بل اتَّبَع هؤلاء المُشرِكونَ أهواءَهم؛ جَهلًا منهم بالحَقِّ، فلا أحدَ يَهدي مَن قدَّر اللهُ إضلالَه بسبَبِ ظُلمِه، وليس لهم مِن ناصِرينَ مِن عذابِ اللهِ.

### تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تعالى أتْبَعَ ضَرْبَ المَثَلِ لإمكانِ إعادةِ الخَلقِ عَقِبَ دَليلِ بَدْئِه بضَربِ مَثَلٍ لإبطالِ الشِّركِ عَقِبَ دليلَيه المتقَدِّمَينِ في قَولِه تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ [الروم: ١٩]، وقَولِه: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ١٩]؛ لِيَنتظِمَ الدَّليلُ على هذينِ الأصلينِ المُهِمَّينِ: أصلِ الوَحدانيَّةِ، وأصلِ البَعثِ، ويَنكَشِفَ بالتَّمثيلِ والتَّقريبِ بعدَ نُهوضِه بدليلِ العَقلِ. والخِطابُ للمُشرِكينَ[1].

وأيضًا: بعدَ أن بَيَّن القُدرةَ على الإعادةِ بإقامةِ الأدِلَّةِ عليها، ثمَّ ضَرَب لذلك مثَلًا- أعقَبَ ذلك بذِكرِ المَثَلِ على الوَحدانيَّةِ بعدَ إقامةِ الدَّليلِ عليها[2].

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.

أي: مثَّل اللهُ لكم قُبحَ الشِّركِ وبُطلانَه لأجْلِ إفهامِكم -أيُّها المُشرِكونَ- بمَثَلٍ تَعرِفونَه؛ لِكَونِه مأخوذًا مِن أحوالِكم[3].

﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: هل مِن رَقيقِكم الَّذين تَملِكونَهم -مَعْشَرَ المُشرِكينَ الأحرارِ- مَن يُشارِكُكم فيما أعطَيْناكم مِنَ الرِّزقِ، فتكونوا أنتم وهم فيه مُتساوِينَ، تَخافونَهم مِنَ التَّصَرُّفِ فيه كما يَخافُ الرَّجُلُ الحُرُّ منكم شَريكَه الحُرَّ أن يَتصَرَّفَ في مالِهما بشَيءٍ دونَ رِضاه أو إذنِه، أو بما فيه ضَرَرٌ عليه؟! هذا لا يكونُ، فكما لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٥).

يَرضى أحَدٌ منكم أن يكونَ عَبيدُه شُرَكاءَ له في رِزقِهِ، فاللهُ لا يَرضى أن يكونَ له شَريكٌ مِن عَبيدِه في عبادتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزۡقِهِمۡ عَلَىٰ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَهُمۡ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ [النحل: ٧١].

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

أي: مِثْلَ ذلك التَّفصيلِ والتبيينِ نُفَصِّلُ آياتِ القُرآنِ؛ لِيَتبَيَّنَ الحَقُّ لِقَومٍ ذَوي عَقلٍ وفَهمٍ(٢).

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه إذا عُلِمَ مِن المثالِ السَّابِقِ أنَّ مَنِ اتَّخَذَ مِن دُونِ اللهِ شَريكًا يَعبُدُه ويَتوكَّلُ عليه في أمورِه، فإنَّه ليس معه مِنَ الحَقِّ شَيءٌ، فما الَّذي أوجَبَ له الإقدامَ على أمرٍ باطِلٍ وضَحَ له بُطلانُه وظهَرَ بُرهانُه؟ لقد أوجَبَ لهم ذلك اتِّباعُ الهوى؛ فلهذا قال(٣):

---

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٨٩-٤٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٣٥٤، ٣٦٥) و(١/ ١٥٦) و(٣/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٩٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٢، ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٧٩-٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٥٧-١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٦١-١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٦٤٠).

﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾.

أي: لم يَعقِلْ أولئك الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ آياتِ القُرآنِ المُفصَّلةَ، فيتَّبِعوها، وإنَّما اتَّبَعوا أهواءَهم؛ جَهلًا منهم بالحَقِّ، ودونَ برهانٍ لديهم على صِحَّةِ شِركِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيۡرِ هُدٗى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾.

أي: فلا أحَدَ يُوفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ مَن قدَّرَ اللهُ إضلالَه بسَبَبِ ظُلمِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

أي: وليس لِلَّذينَ أضَلَّهم اللهُ مِن ناصِرينَ يُنقِذونَهم مِن عَذابِ اللهِ، أو يَهدونَهم مِن الضَّلالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٧، ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٦٩).

قال ابن عاشور: (معنى ﴿مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾: مَن قدَّر له الضَّلالَ، وطُبِع على قَلبِه؛ فإسنادُ الإضلالِ إلى اللهِ إسنادٌ لِتَكوينِه على ذلك، لا للأمرِ به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ الحثُّ على طلَبِ العِلمِ، والعَمَلِ به[١]؛ فالجاهِلُ لا يَكُفُّه شَيءٌ، أمَّا العالِمُ فإنَّه إذا اتَّبَع هواه فرُبَّما ردَعَه عِلمُه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾ لَفْتُ انتباهِ الإنسانِ إلى سُؤالِ الهدايةِ مِن رَبِّه دائِمًا، فإذا عَلِمْتَ أنَّه لا أحدَ يَهدي مَن أضَلَّ اللهُ، لا تَلجَأُ في طَلَبِ الهِدايةِ إلَّا إليه، ولا تعتَمِدُ إلَّا عليه، وتسأَلُه دائِمًا الثَّباتَ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إثباتُ القياسِ، ووجْهُ ذلك ضَربُ المَثَلِ ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ﴾[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ يَحتَجُّ سُبحانَه عليهم بما في عُقولِهم مِن قُبحِ كَونِ مَملوكِ أحَدِهم شَريكًا له، فإذا كان أحَدُكم يَستَقبِحُ أن يكونَ مملوكُه شَريكَه، ولا يَرضى بذلك، فكيف تَجعَلونَ لي مِن عَبيدي شُرَكاءَ تَعبُدونَهم كعِبادتي؟! وهذا يُبَيِّنُ أنَّ قُبْحَ عبادةِ غيرِ اللهِ تعالى مُستَقِرٌّ في العُقول والفِطَرِ، والسَّمعُ نَبَّهَ العُقولَ وأرشدَها إلى مَعرفةِ ما أُودِعَ فيها مِن قُبْحِ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٤).

٣- قال الله تعالى: ﴿لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم إن لم يَعمَلوا بمُقتضى ذلك كانوا مجانينَ؛ لأنَّ التَّمثيلَ يَكشِفُ المعانيَ بالتَّصويرِ والتَّشكيلِ كَشفًا لا يَدَعُ لَبسًا، فمَن خَفِيَ عليه لم يكُنْ له تمييزٌ[1].

٤- مُتَّبِعُ الهَوى ليس أهلًا أن يُطاعَ، ولا يكونُ إمامًا ولا مَتبوعًا؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى عَزَلَه عن الإمامةِ، ونَهى عن طاعتِه؛ أمَّا عَزْلُه فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قال لخليلِه إبراهيمَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: لا ينالُ عهدي بالإمامةِ ظالمًا، وكُلُّ مَن اتَّبَع هواه فهو ظالمٌ، كما قال الله تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾. وأمَّا النَّهيُ عن طاعتِه فلِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[2] [الكهف: ٢٨].

## بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَل لَّكُم ...﴾ إلخ تَصْويرٌ للمثَلِ، وتَكرَّرَ (مِن) ثلاثَ مرَّاتٍ في قولِه تعالى: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾، و﴿مِّن مَّا مَلَكَتۡ﴾، و﴿مِّن شُرَكَآءَ﴾؛ فالأُولى للابتداءِ، كأنَّه قال: أخَذَ مثَلًا وانْتزَعَه مِن أقرَبِ شَيءٍ منكم، وهي أنفُسُكم، ولم يَبعُدْ، والثَّانيةُ للتَّبعيضِ، والثَّالثةُ مَزيدةٌ مُؤكِّدةٌ لِمَعنى النَّفيِ المُستفادِ مِن الاستفهامِ الإنكاريِّ في قولِه: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٧٥).

شُرَكَآءَ ﴾؛ فالجمْعُ بيْنَ هذه الحروفِ في كلامٍ واحدٍ مِن قَبيلِ الجِناسِ[١] التَّامِّ[٢].

- وهذا المثَلُ تَشبيهُ هَيئةٍ مُركَّبةٍ بهَيئةٍ مُركَّبةٍ؛ شُبِّهَت الهيئةُ المُنتزَعةُ مِن زعْمِ المشركينَ أنَّ الأصنامَ شُركاءُ للهِ في التَّصرُّفِ، ودافِعون عن أوليائِهم ما يُرِيدُه اللهُ مِن تسلُّطِ عِقابٍ أو نحْوِه؛ إذ زَعَموا أنَّهم شُفعاؤُهم عندَ اللهِ، وهمْ مع ذلك يَعترِفون بأنَّها مَخلوقةٌ للهِ؛ فإنَّهم يَقولون في تَلبيتِهم: «لبَّيكَ لا شريكَ لك، إلَّا شريكًا هو لك»[٣]. هذه الهيئةُ شُبِّهَت بهَيئةِ ناسٍ لهمْ عبيدٌ صاروا شُركاءَ في أرزاقِ سادتِهم شَرِكةً على السَّواءِ، فصار سادتُهم يَحْذَرون إذا أرادوا أنْ يَتصرَّفوا في تلك الأرزاقِ أنْ يكونَ تَصرُّفُهم غيرَ مَرْضيٍّ لِعَبيدِهم، وهذا التَّشبيهُ وإنْ كان مُنصرِفًا لِمَجموعِ المُركَّبِ مِن الهَيئتينِ قد

---

(١) الجِناسُ (أو التَّجنيسُ): هو تشابُه لفظينِ في النُّطقِ، واختِلافُهما في المعنى، وهو مِنَ المحاسِنِ اللَّفظيَّةِ، وفنٌّ بديعٌ في اختيارِ الألفاظِ الَّتي تُوهِمُ في البَدْءِ التَّكريرَ، لكنَّها تُفاجِئُ بالتَّأسيسِ واختِلافِ المعنى. ويَنقسِمُ الجِناسُ إلى نوعَينِ: لَفظيٍّ، ومعنويٍّ، وكلٌّ منهما يَندرِجُ تحتَه أنواعٌ. ومِن أنواعِ الجناسِ المعنويِّ: الجِناسُ المصحَّفُ، ويُسمَّى أيضًا جِناسَ الخطِّ: وهو تشابُه اللَّفظَينِ في الكتابةِ مع الاختلافِ في نقطِ الحروفِ؛ مِثلُ: جنَّةٍ وحبَّةٍ، و(يَسْقي) و(يَشفي) في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ * وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٩، ٨٠]. كما يَنقسِمُ إلى: جِناسٍ مماثِلٍ: وهو الجِناسُ التَّامُّ، الَّذي يكونُ اللَّفظانِ المُتشابِهانِ فيه مِن نوعٍ واحدٍ مِن أنواعِ الكلامِ؛ كاسمَينِ، أو فِعلَينِ. وجِناسٍ مُغايِرٍ «محرَّف»: وهو ما اختلَف فيه اللَّفظانِ في هيئةِ الحُروفِ، واتَّفَقَا في نَوعِها وعدَدِها وترتيبِها. وله فروعٌ أخرى. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤٥٠-٤٥٢)، ((الإتقان)) للسيوطي (٥/ ١٧٥٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٨٥، ٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٢٥ وما بعدها).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٥).

(٣) ينظر ما أخرجه مسلم (١١٨٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

بلَغَ غايةَ كَمالِ نَظائرِه؛ إذ هو قابلٌ للتَّفريقِ في أجزاءِ ذلك المُركَّبِ بتَشبيهِ مالِكِ الخلْقِ كلِّهم بالَّذين يَملِكون عَبيدًا، وتَشبيهِ الأصنامِ الَّتي هي مَخلوقةٌ للهِ تعالى بمَماليكِ النَّاسِ، وتَشْبيهِ تَشريكِ الأصنامِ في التَّصرُّفِ مع الخالقِ في مُلْكِه بتَشريكِ العبيدِ في التَّصرُّفِ في أرزاقِ سادتِهم، وتَشْبيهِ زعْمِهم عُدولَ اللهِ عن بعضِ ما يُريدُه في الخلْقِ لأجْلِ تلك الأصنامِ وشفاعتِها؛ بِحَذَرِ أصحابِ الأرزاقِ مِن التَّصرُّفِ في حُظوظِ عَبيدِهم الشُّركاءِ تصرُّفًا يأْبَونَه. فهذه الهيئةُ المُشبَّهُ بها هَيئةٌ قَبيحةٌ مُشَوَّهةٌ في العادةِ لا وُجودَ لأمْثالِها في عُرْفِهم؛ فكانتِ الهيئةُ المُشبَّهةُ مَنْفيَّةً مُنكَرةً، ولذلك أُدخِلَ عليها استفهامُ الإنكارِ والجُحودِ؛ لِيُنتِجَ أنَّ الصُّورةَ المزعومةَ للأصنامِ صُورةٌ باطلةٌ بطَريقِ التَّصويرِ والتَّشكيلِ؛ إبرازًا لذلك المعنى الاعتقاديِّ الباطلِ في الصُّورةِ المَحْسوسةِ المُشوَّهةِ الباطلةِ[١].

- والغرَضُ مِن ذِكرِ التَّمثيلِ تقْبيحُ شأْنِ الشِّركِ، وإبْرازُه في ذِهْنِ السَّامعِ بصُورةٍ يَشمَئِزُّ منها؛ وذلك بأنْ يَتصوَّرَ حالةَ سيِّدٍ له رقيقٌ مُستبِدٌّ مُتصرِّفٌ في أموالِه تصرُّفَ الشُّركاءِ مِن غيرِ تَفْصلةٍ، بحيث إنْ أراد السَّيِّدُ التَّصرُّفَ هاب منه[٢].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، ومَناطُ الإنكارِ قولُه: ﴿فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ إلى آخرِه، أي: مِن شُركاءَ لهمْ هذا الشَّأنُ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ تَحْقيقٌ لِمعنَى الشَّركةِ، وبَيانٌ لِكَونِهم وشُركائِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٥).

مُتساوينَ في التَّصرُّفِ فيما ذُكِرَ مِن غيرِ مَزيَّةٍ لهمْ عليها، على أنَّ هناك مَحذوفًا مَعطوفًا على (أنتُم)، لا أنَّه عامٌّ للفريقينِ بطَريقِ التَّغليبِ، أي: هلْ تَرضَون لأنفُسِكم -والحالُ أنَّ عبيدَكم أمْثالُكم في البشَريَّةِ وأحْكامِها- أنْ يُشارِكوكم فِيما رَزقْناكم وهو مُعَارٌ لكم، فأنتم وهمْ فيه سَواءٌ، يَتصرَّفون فيه كتَصرُّفِكم مِن غيرِ فرْقٍ بيْنَكم وبيْنَهم[1]؟!

- وفي ذِكْرِ لفْظِ (قوم) وإجراءِ الصِّفةِ عليه: إيماءٌ إلى أنَّ هذه الآياتِ لا يَنتفعُ بها إلَّا مَن كان العقْلُ مِن مُقوِّماتِ قَوْمِيَّتِه[2].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فيه تخْصيصُ القومِ العاقِلينَ بالذِّكرِ -مع عُمومِ تَفْصيلِ الآياتِ للكلِّ-؛ لأنَّهم المُنتفِعون بها[3]. وقيل: نِيطَ الانتفاعُ بهذه الآياتِ بأصحابِ صِفةِ العقْلِ؛ لأنَّ العقْلَ المُستقيمَ غيرَ المَشُوبِ بعاهةِ العِنادِ والمُكابَرةِ، كافٍ في فَهْمِ ما في تلك المَذْكوراتِ مِن الدَّلائلِ والحِكَمِ[4].

- وأيضًا في إيثارِ وَصْفِ العَقْلِ هنا دونَ غيرِه مِن أوصافِ النَّظرِ والفِكْرِ: تَعريضٌ بالمُتصلِّبينَ في شِرْكِهم بأنَّهم لَيسوا مِن أهلِ العقولِ، ولَيسوا ممَّن يَنتفِعون[5].

- ولَمَّا كان ضَرْبُ الأمثالِ لإدناءِ المُتوهَّمِ إلى المَعقولِ، وإرادةِ المُتخيَّلِ في صُورةِ المُحقَّقِ؛ أتَى في هذه الفاصِلةِ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٧٩، ٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٨٧).

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾، وكذلك في الآيةِ السَّابقةِ: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٤]؛ لأنَّ ذلك تَمثيلٌ لإحياءِ النَّاسِ، وإنشارِ المَوتى[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

- في قولِه: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إضرابٌ إبْطاليٌّ لِمَا تضمَّنَه التَّعريضُ الَّذي في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨]؛ إذ اقْتَضى أنَّ الشَّأنَ أنْ يَنتفِعَ النَّاسُ بمِثْلِ هذا المثَلِ، فيُقلعَ المشرِكونَ منهم عن إشْراكِهم ويَلِجُوا حَظيرةَ الإيمانِ، ولكنَّهم اتَّبَعوا أهْواءَهم وما تُسَوِّلُه لهم نُفوسُهم، ولم يَطلُبوا الحَقَّ ويَتفهَّموا دَلائلَه؛ فهُمْ عن العِلْمِ بمَنأًى؛ فالتَّقديرُ: فما نفَعَتْهمُ الآياتُ المُفصَّلةُ، بلِ اتَّبَعوا أهواءَهم[٢].

- قولُه: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وَضْعُ المَوصولِ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للتَّسجيلِ عليهم بأنَّهم في ذلك الاتِّباعِ ظالِمون، واضِعون للشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، أو ظالِمون لأنفُسِهم بتَعريضِها للعذابِ الخالدِ[٣].

- وتقْييدُ اتِّباعِ الهَوى بأنَّه بغيرِ عِلْمٍ تَشنيعٌ لهذا الاتِّباعِ؛ فإنَّه اتِّباعُ شَهوةٍ مع جَهالةٍ؛ فالجاهلُ يَهيمُ على وجْهِه بلا مُرجِّحٍ -غيرَ المَيلِ كالبَهيمةِ- لا يَرُدُّه شَيءٌ، فإنَّ العالِمَ إذا اتَّبع الهَوى كان مُتحرِّزًا مِن التَّوغُّلِ في هواهُ؛ لعِلْمِه

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٥٩).

بفَسادِه[١].

- والفاءُ في ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ للتَّفريعِ، أي: يَترتَّبُ على اتِّباعِهم أهواءَهم بغَيرِ عِلْمٍ انتفاءُ الهُدى عنهم أبدًا. و(مَن) اسمُ استفهامٍ إنكاريٍّ بمَعنى النَّفيِ؛ فيُفيدُ عُمومَ نفْيِ الهادِي لهمْ؛ إذ التَّقديرُ: لا أحَدَ يَهْدي مَن أضَلَّ اللهُ؛ لا غيرُهم ولا أنفُسُهم؛ فإنَّهم مِن عُمومِ ما صَدَق[٢] ﴿فَمَن يَهۡدِي﴾[٣].

- وقولُه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ كالتَّتميمِ لِمَعنى إرادةِ الإضلالِ والمنْعِ مِن الهِدايةِ؛ وذلك أنَّه تعالى عَقيبَ ما عدَّدَ الآياتِ البيِّناتِ والشَّواهدَ الدَّالَّةَ على الوَحدانيَّةِ ونفْيِ الشَّريكِ، وإثباتِ القولِ بالمَعادِ وضرْبِ المثَلِ، وفصَّلَ ذلك بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨]؛ أراد أنْ يُسلِّيَ حبيبَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُوطِّنَه على اليأْسِ مِن إيمانِهم، فأضْرَبَ عن ذلك وقال: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾، وجعَلَ السَّببَ في ذلك أنَّه تعالى ما أراد هِدايتَهم، وأنَّه مَختومٌ على قُلوبِهم؛ ولذلك رتَّبَ عليهم قولَه: ﴿فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ على التَّقريعِ والإنكارِ، ثمَّ ذيَّلَ الكلَّ بقولِه: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾، يعني: إذا أراد اللهُ منهم ذلك لا مُخلِّصَ لهم منه، ولا أحَدَ يُنقِذُهم؛ لا أنتَ ولا غيرُك، فلا تَذْهَبْ نفْسُك عليهم حسَراتٍ، فاهتَمَّ بخاصَّةِ نفْسِك ومَن تَبِعَك، وأقِمْ وجْهَك معهم للدِّينِ حَنيفًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).

(٢) الماصَدَق -عند المناطقة-: الأفرادُ الَّتي يتحقَّقُ فيها معنى الكلِّيِّ، ويُقابِلُه: المفهومُ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و (٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٢).

## الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَنِيفًا﴾: أي: مُقبلًا على عبادةِ اللهِ، مائِلًا عن الشِّركِ، والحنفُ: ميلٌ في إبهامَي القدَمَينِ، كل واحدةٍ على صاحبتِها، وأصلُ (حنف): يدُلُّ على مَيلٍ[1].

﴿فِطْرَتَ﴾: أي: خِلْقَةَ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[2].

﴿ٱلْقَيِّمُ﴾: أي: المُستقيمُ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزمٍ[3].

﴿مُنِيبِينَ﴾: أي: تائِبينَ راجِعينَ إلى اللهِ مُقْبِلينَ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

وقيل: إنَّ الحنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ، والحنفَ: الاستقامةُ، وجعَلوا الرَّجُلَ الَّذي تُقْبِلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قِيل له: أحنَفُ، على جهة التَّفاؤلِ، كما قِيل للمَهْلَكةِ مِن البلادِ: المَفازَةُ، بمعنَى الفوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ، وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تَفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشبَهَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٢).

اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليه[١].

﴿شِيَعًا﴾: أي: فِرَقًا وأحزابًا مُختَلِفينَ، وأصلُ (شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ[٢].

﴿حِزْبٍ﴾: أي: شيعةٍ وفِرقةٍ، يُقالُ: تحزَّب القومُ: اجتَمَعوا، وأصلُ (حزب): تَجَمُّعُ الشَّيءِ[٣].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ مَنصوبٌ على الإغراءِ، أي: الزَموا فِطرةَ اللهِ تعالى.

﴿مُنِيبِينَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في (الزَموا) المحذوفِ، وقَولُه: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، ﴿وَأَقِيمُوا۟﴾، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾ مَعطوفٌ على هذا الفِعلِ المحذوفِ. وقيل: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ؛ لأنَّ الكَلامَ دلَّ على: فَطَر اللهُ الخَلْقَ فِطرةً، و﴿مُنِيبِينَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في (أَقِمْ)، وإنَّما جُمِعَ ﴿مُنِيبِينَ﴾؛ لأنَّه مَردودٌ على المعنى؛ فالخِطابُ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو خِطابٌ لأمَّتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((تحفة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢).

فكأنَّه قيل: أقيموا وُجوهَكم مُنيبِينَ إليه[١].

## المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى نبيَّه -والمؤمنون داخِلونَ في الخِطابِ- أن يَثبُتَ على الحقِّ الَّذي هداه إليه، فيقولُ: فسَدِّدْ وَجْهَك وقَصْدَك كُلَّه -يا مُحمَّدُ- نحوَ جِهةِ الإسلامِ الَّذي شرَعَه اللهُ لك، مُقبلًا على عبادةِ اللهِ وَحْدَه، مائلًا عن الشِّركِ، فَطَر اللهُ النَّاسَ على ذلك فِطرةً، لا تغييرَ لدينِ اللهِ، ولا يُخلَقُ الخَلقُ على غيرِ الفِطرةِ.

وإقامةُ الوَجهِ للإسلامِ الَّذي شرَعَه اللهُ هو الدِّينُ الكامِلُ الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا نَقصَ، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ؛ فأقِمْ وَجْهَك -يا مُحمَّدُ- ومَن معك راجِعينَ إلى اللهِ وحْدَه، واتَّقوه بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه، وأدُّوا الصَّلَواتِ على وَجهِها التَّامِّ، ولا تكونوا مِنَ المُشرِكينَ؛ مِنَ الَّذين بدَّلوا دينَ اللهِ ففارَقوه وكانوا أحزابًا وفِرَقًا، كُلُّ فِرقةٍ منهم فَرِحونَ مَسرورونَ، يَحسَبونَ أنَّ الصَّوابَ معهم دونَ غَيرِهم!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾.

أي: فانصِبْ -يا محمَّدُ- قَلْبَك وقَصْدَك كُلَّه إلى جِهةِ الإسلامِ الَّذي شَرَعه اللهُ لك، واستَمِرَّ عليه، واجتَهِدْ في طَلَبِه واتِّباعِه، مُقبلًا على عبادةِ اللهِ وَحْدَه،

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٩٤٩)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٠).

مائِلًا عن الشِّركِ وعن جميعِ الأديانِ الباطِلةِ، والفِرَقِ المُبتَدِعةِ[١].

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾.

أي: دينَ اللهِ[٢]: الإسلامَ الَّذي خلَق جميعَ الناسِ مُهَيَّئِينَ لِمَعرفتِه وقَبولِه، والتَّصديقِ والإقرارِ بعَقائدِه، والانقيادِ إليه، والعَمَلِ بأحكامِه، وقد جعَل الله تعاليمَه مُناسِبةً لخِلقتِهم، غيرَ مُخالِفةٍ لها[٣].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٦)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٨٠)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٧٣-١٧٥).
قال الشوكاني: (هذا الخِطابُ وإن كان خاصًّا برَسولِ اللهِ، فأُمَّتُه داخِلةٌ معه فيه. قال القرطبي: باتِّفاقٍ مِن أهلِ التَّأويلِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٨). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٧٤، ١٧٥).

(٢) قيل: المعنى: اتَّبِعْ فِطرةَ الله؛ لأنَّ معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾: اتَّبِعِ الدِّينَ، واتَّبِعْ فِطرةَ الله. وقيل: هي مصدرٌ مِن معنى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾؛ لأنَّ معنى ذلك: فطَرَ اللهُ النَّاسَ على الدِّينِ. وقيل: المعنى: الزَموا فِطرةَ الله، أو عليكم فِطرةَ الله. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٩ - ٩٢).
قال ابنُ عبد البَرِّ: (أجمَعوا في قَولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ على أنْ قالوا: فِطرةُ الله: دِينُ اللهِ؛ الإسلامُ). ((التمهيد)) (١٨/ ٧٢).

مِن مَولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطْرةِ، فأبَواه يُهَوِّدانِه ويُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه، كما تُنتَجُ البَهيمةُ بَهيمةً جَمعاءَ[١]، هل تُحِسُّونَ فيها مِن جَدْعاءَ[٢]؟! ثمَّ يقولُ أبو هُريرةَ رَضيَ الله عنه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾))[٣].

وعن عِياضِ بنِ حِمارٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلَّم قال ذاتَ يومٍ في خُطبتِه: ((ألَا إنَّ رَبِّي أمَرَني أنْ أُعَلِّمَكم ما جَهِلْتُم ممَّا عَلَّمَني يَومي هذا: كُلُّ مالٍ نَحَلْتُه[٤] عَبدًا حَلالٌ، وإنِّي خَلَقْتُ عِبادي حُنَفاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشَّياطينُ فاجتالَتْهم[٥] عن دينِهم، وحرَّمتْ عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمَرَتْهم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنَزِّلْ به سُلْطانًا))[٦].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لا يُخلَقُ الخَلْقُ على غيرِ الفِطرةِ؛ فالله تعالى سَوَّى بينَ جَميعِ خَلْقِه في الفِطرةِ على الجِبِلَّةِ المُستَقيمةِ والتهَيُّؤِ لِقَبولِ دينِه، لا يُولَدُ أحدٌ إلَّا على ذلك[٧].

---

(١) الجَمعاءُ مِن البهائِم: الَّتي لم يذهَبْ مِن بدَنِها شَيءٌ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٠/ ٤٥٩).

(٢) جَدْعاءَ: أي: مقطوعةَ الأطرافِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٧).

(٣) رواه البخاري (١٣٥٩) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨).

(٤) نحَلْتُه: أعطَيْتُه، والنِّحْلةُ: العَطيَّةُ. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) للمازَري (٦/ ٧١١).

(٥) فاجْتَالَتْهم: أي: استخَفَّتْهم فجالوا معهم في الضَّلال؛ يُقال: جالَ واجتالَ: إذا ذهَب وجاءَ، ومنه الجَوَلانُ في الحَربِ، واجتالَ الشَّيءَ: إذا ذَهَب به وساقَه، والجائلُ: الزَّائلُ عن مَكانِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣١٧).

(٦) رواه مسلم (٢٨٦٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١). =

﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

أي: إقامةُ الوَجهِ للإسلامِ الَّذي شَرَعَه اللهُ بلا تَغيير، وطاعةُ اللهِ بلا شِركٍ: هو الدِّينُ الكامِلُ الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا نَقْصَ؛ فهو الطَّريقُ المُستَقيمُ السَّالِمُ مِن الانحِرافاتِ والضَّلالاتِ، الموصِلُ إلى اللهِ ورِضوانِه وجَنَّتِه[1].

---

= ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّة، وابن القيم، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: لا تُبَدِّلوا دينَ اللهِ الَّذي فَطَر عليه عبادَه، فتكونُ الجملةُ خَبرًا بمعنى النَّهي. ومِمَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، واستحسنه ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٤). ويُنظر أيضًا: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

قال الثعلبي: (﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لِدينِ الله، أي: لا يَصلُحُ ذلك، ولا ينبغي أن يُفعلَ، ظاهرُه نفْيٌ، ومعناه نهْيٌ، هذا قولُ أكثَرِ العلماءِ والمفسِّرينَ). ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٠١).

وقيل: المرادُ: أنَّ الإسلامَ هو الدِّينُ الحَنيفُ الَّذي ليس فيه تبديلٌ لخلقِ الله، بخلافِ دينِ أهلِ الشِّركِ، كما قال تعالى عن الشَّيطانِ: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩]. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

وقيل: المرادُ: لا أحَدَ يَستطيعُ أن يغَيِّرَ ما خَلَق اللهُ، ولا يجوزُ لأحدٍ أن يُغَيِّرَ هذه الفِطرةَ الَّتي خُلِقَ النَّاسُ عليها؛ مِن الإخلاصِ إلى الشِّركِ. ومِمَّن قال بهذا: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨٤).

قال البقاعي: (لا يَقدِرُ أحدٌ أن يجعلَ طِفلًا في أوَّلِ أمرِه خَبيثَ الفِطرةِ لا يَنقادُ لِما يُقادُ إليه، ولا يَستسلِمُ لِمن يُربِّيه، وكُلَّما كَبرَ وطَعَن في السِّنِّ رجَع لِما طُبِعَ عليه مِن كُفرٍ أو إيمانٍ، أو طاعةٍ أو عصيانٍ، أو نُكرٍ أو عِرفانٍ، قليلًا قليلًا، حتَّى يَنساقَ إلى ذلك عندَ البُلوغِ أو بعدَه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٨، ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣، ٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ الدِّينَ الحَقَّ، فهم يُشرِكونَ باللهِ، ويتَّبِعونَ غيرَ ما شَرَعه اللهُ[١].

﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٣١﴾.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾.

أي: راجِعينَ إلى اللهِ وَحْدَه؛ مِنَ الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، ومِنَ المَعصيةِ إلى الطَّاعةِ، ومِنَ البِدَعِ والضَّلالاتِ إلى التَّمَسُّكِ بالشَّرعِ[٢].

﴿وَٱتَّقُوهُ﴾.

أي: واجعَلوا بيْنَكم وبينَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه حاجِزًا؛ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[٣].

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأدُّوا الصَّلَواتِ على وَجْهِها التَّامِّ؛ بالمحافَظةِ على أركانِها وواجِباتِها، وغَيرِ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١). =

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: ولا تكونوا ممَّن يَدخُلُ في عِدادِ المُشرِكينَ بأن تَعمَلوا بمِثلِ ما يَعمَلونَ[1].

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾.

أي: لا تَكونوا مِنَ المُشرِكينَ الَّذين بدَّلوا دينَ اللهِ الَّذي فطَرَ العِبادَ عليه، وشَرَعَه لهم، فلم يَلتَزِموا به مِثْلَما أمَرَهم رَبُّهم[2].

---

= قال ابنُ عثيمين: (إقامتُها على نوعَينِ: إقامةٌ واجِبةٌ لا بُدَّ لِصِحَّةِ الصَّلاةِ منها، وذلك الإتيانُ بالشُّروطِ والأركانِ والواجِباتِ. وإقامةٌ مُكَمِّلةٌ، وهي إضافةُ المُستحَبَّاتِ إلى ما ذُكِرَ... ومِن إقامتِها المُكَمِّلةِ أن يأتيَ الإنسانُ بالنَّوافِلِ؛ لأنَّ النَّوافِلَ صلاةُ تَطوُّعٍ تُكَمَّلُ بها الفرائِضُ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨٧، ١٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٠).

قال البقاعي: (هو عامٌّ في كُلِّ شِركٍ؛ سواءٌ كان بعبادةِ صَنَمٍ أو نارٍ أو غيرِهما، أو بالتَّدَيُّنِ بما يخالِفُ النُّصوصَ مِن أقوالِ الأحبارِ والرُّهبانِ وغيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾: أنَّهم فارَقوا الدِّينَ الصَّحيحَ، والفِطرةَ السَّليمةَ، وكانوا أحزابًا وفِرَقًا، كُلٌّ منهم يَعبُدُ شَيئًا، ويَدينُ بدِينٍ مُختَلِفٍ؛ كاليهودِ والنَّصارى. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٨٩، ١٩٠).

وقال ابنُ كثير: (أي: لا تَكونوا من المشرِكينَ الَّذين قد فَرَّقوا دينَهم، أي: بدَّلوه وغَيَّروه، وآمَنوا ببعضٍ وكَفَروا ببعضٍ.

وقرأ بعضُهم: ﴿فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾ أي: ترَكوه وراءَ ظُهورِهم، وهؤلاء كاليهودِ والنَّصارى، والمجوسِ وعَبَدةِ الأوثانِ، وسائِرِ أهلِ الأديانِ الباطلةِ، ممَّا عدا أهلَ الإسلامِ، كما قال تعالى: =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء: ١١٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تفرَّقَت اليَهودُ على إحدى وسَبعينَ أو اثنتَينِ وسَبعينَ فِرقةً، والنَّصارى مِثلَ ذلك، وتفترِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسَبعينَ فِرقةً))(١).

---

= ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٩]؛ فأهلُ الأديانِ قَبْلَنا اختلَفوا فيما بيْنَهم على آراءٍ ومِلَلٍ باطلةٍ، وكُلُّ فرقةٍ منهم تزعُمُ أنَّهم على شَيءٍ، وهذه الأمَّةُ أيضًا اختلَفوا فيما بيْنَهم على نِحَلٍ كُلُّها ضلالةٌ إلَّا واحدةً، وهم أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، المتمَسِّكونَ بكتابِ الله وسُنَّةِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وبما كان عليه الصَّدرُ الأوَّلُ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ، وأئمَّةِ المسلِمينَ في قديمِ الدَّهرِ وحَديثِه)). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٦).

وقال الأزهري بعدَ أنْ ذكَر أنَّ قراءةَ ﴿فَارَقُوا﴾ قرأ بها حمزةُ والكسائيُّ، وقراءةَ ﴿فَرَّقُوا۟﴾ بغيرِ ألفٍ قرأ بها الباقونَ، قال: (مَنْ قَرَأَ ﴿فَارَقُوا دِينَهُمْ﴾ ففيه قولانِ:

أحدهما: أنَّهم تركوا دينَهم وفارقوه، فلم يَدُوموا عليه.

والقولُ الثاني: أن ﴿فَارَقُوا﴾ و﴿فَرَّقُوا۟﴾ بمعنى واحدٍ، كما يُقالُ: ضَعَّفَ وضاعف، وعالى وعَلَّى، وصَاعَر وصعَّر، ومعناهما: اختلافُهم في دينِهم وتفرُّقُهم فيه، ويُقوِّي هذا القولَ قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾، أي: فِرَقًا شَتَّى). ((معاني القراءات)) (١/ ٣٩٦). ويُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٦).

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠) واللفظ له، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد (٨٣٩٦). قال الترمذي: حسَنٌ صحيحٌ. وكذا قال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٦٤٠). وقال =

﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾.

أي: وكانوا فِرَقًا وأحزابًا، كُلُّ فِرقةٍ مِنهم تألَّفَت وتحالَفَت وتعَصَّبَت على نَصرِ ما معها مِن الباطِلِ، ومُنابَذةِ ومُحاربةِ مَن خالَفَها[1].

﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

أي: أتْباعُ كُلِّ طائفةٍ وفِرقةٍ منهم مُبتَهِجونَ ومُعجَبونَ بما تحالَفوا وتآلَفوا عليه مِنَ الضَّلالاتِ، يَحسَبونَ أنَّهم على الحَقِّ دونَ غَيرِهم[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٢ - ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- يأمُرُ اللهُ تعالى بالإخلاصِ له في جميعِ الأحوالِ، وإقامةِ دينِه، في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾، أي: انصِبْه ووَجِّهْه إلى الدِّينِ الَّذي هو الإسلامُ والإيمانُ والإحسانُ؛ بأن تَتوجَّهَ بقَلبِك وقَصْدِك وبَدَنِك إلى إقامةِ شرائعِ الدِّينِ

---

= الشوكاني في ((الفتح الرباني)) (١/ ٢٠٦): رجالُه رجالُ الصَّحيحِ. وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٠، ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٦).

الظَّاهِرةِ، كالصَّلاةِ، والزَّكاةِ، والصَّومِ والحَجِّ، ونحوِها؛ وشرائِعِه الباطِنةِ، كالمحَبَّةِ والخَوفِ، والرَّجاءِ، والإنابةِ؛ والإحسانِ في الشَّرائعِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، بأن تَعبُدَ اللهَ فيها كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراه فإنَّه يَراك[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذا تَفسيرٌ لإقامةِ الوَجهِ للدِّينِ؛ فإنَّ الإنابةَ إنابةُ القَلبِ، وانجذابُ دَواعيه لِمَراضي اللهِ تعالى، ويَلزَمُ مِن ذلك حمْلُ البَدَنِ بمُقتَضى ما في القَلبِ، فشَمِلَ ذلك العباداتِ الظَّاهِرةَ والباطِنةَ، ولا يَتِمُّ ذلك إلَّا بتَركِ المعاصي الظَّاهِرةِ والباطِنةِ؛ فلذلك قال: ﴿وَٱتَّقُوهُ﴾، فهذا يَشملُ فِعلَ المأموراتِ، وتَرْكَ المَنهيَّاتِ. وخَصَّ مِن المأموراتِ الصَّلاةَ؛ لِكَونِها تدعو إلى الإنابةِ والتَّقْوى؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ فهذا إعانتُها على التَّقْوى، ثمَّ قال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فهذا حَثُّها على الإنابةِ، وخَصَّ مِن المَنهيَّاتِ أصْلَها، والَّذي لا يُقبَلُ معه عَمَلٌ، وهو الشِّركُ، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾؛ لِكَونِ الشِّركِ مُضادًّا للإنابةِ الَّتي رُوحُها الإخلاصُ مِن كُلِّ وَجهٍ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾ أي: خافوا أن تَزيغوا عن سَبيلِه تعالى، فإذا خِفتُموه فلَزِمتُموها كُنتُم ممَّن تخلَّى عن الرَّذائِلِ، ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تَصيروا ممَّن تحلَّى بالفَضائِلِ، وهكذا دأبُ الدِّينِ أبدًا: تخليةٌ ثمَّ تحليةٌ؛ أوَّلُ الدُّخولِ إلى الإسلامِ التَّنزيهُ، وأوَّلُ الدُّخولِ في القُرآنِ الاستعاذةُ، وهو أمرٌ ظاهِرٌ مَعقولٌ، مِثالُه: مَن أرادَ أن يكتُبَ في شَيءٍ إن مَسَح ما فيه مِنَ الكتابةِ انتَفَع بما كَتَب، وإلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أفسَدَ الأوَّلَ ولم يُقرَأِ الثَّاني. واللهُ الموَفِّقُ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ في هذا تحذيرٌ للمُسلِمينَ مِن تَشَتُّتِهم وتفَرُّقِهم فِرَقًا، كُلُّ فَريقٍ يتعَصَّبُ لِما معه مِن حَقٍّ وباطِلٍ، فيَكونونَ مُشابِهينَ بذلك للمُشرِكينَ في التَّفَرُّقِ، بل الدِّينُ واحِدٌ، والرَّسولُ واحِدٌ، والإلهُ واحِدٌ.

وأكثرُ الأمورِ الدِّينيَّةِ وَقَع فيها الإجماعُ بينَ العلماءِ والأئمَّةِ، والأُخُوَّةُ الإيمانيَّةُ قد عَقَدها اللهُ ورَبَطها أتمَّ رَبطٍ، فما بالُ ذلك كُلِّه يُلْغَى ويُبْنَى التَّفرُّقُ والشِّقاقُ بيْن المُسلِمينَ على مَسائِلَ خَفيَّةٍ أو فُروعٍ خِلافيَّةٍ يُضَلِّلُ بها بَعضُهم بعضًا، ويتميَّزُ بها بعضُهم عن بعضٍ؟! فهل هذا إلَّا مِن أكبَرِ نَزَغاتِ الشَّيطانِ وأعظَمِ مَقاصِدِه الَّتي كاد بها للمُسلِمينَ؟ وهل السَّعيُ في جَمعِ كَلِمتِهم، وإزالةِ ما بيْنَهم مِنَ الشِّقاقِ المَبنيِّ على ذلك الأصلِ الباطِلِ إلَّا مِن أفضَلِ الجهادِ في سَبيلِ اللهِ، وأفضَلِ الأعمالِ المقَرِّبةِ إلى اللهِ[٢]؟!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾ بيَّن سُبحانَه أنَّ إقامةَ الوَجهِ -وهو إخلاصُ القَصْدِ، وبَذْلُ الوُسْعِ لدينِه، المُتضَمِّنُ محبَّتَه وعبادتَه، حنيفًا مُقْبِلًا عليه، مُعرِضًا عمَّا سِواه- هو فِطرتُه الَّتي فَطَرَ عليها عبادَه، فلو خُلُّوا ودواعيَ فِطَرِهم لَمَا رَغِبوا عن ذلك، ولا اختاروا سِواه، ولكنْ غُيِّرَتِ الفِطَرُ وأُفسِدَتْ، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن مَولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرةِ، فأبَواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه،

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٠).

كما تُنْتَجُ البَهيمةُ بهيمةً جَمعَاءَ، هل تُحِسُّونَ فيها مِن جَدْعَاءَ؟! ثمَّ يقولُ أبو هريرةَ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ﴾))[1].

٢- سَبَبُ الاجتِماعِ والأُلْفةِ جمْعُ الدِّينِ، والعَمَلُ به كُلِّه، وهو عِبادةُ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له كما أمَرَ به، باطِنًا وظاهِرًا، وسَبَبُ الفُرقةِ: تَرْكُ حَظٍّ ممَّا أُمِرَ العبدُ به، والبَغيُ بيْنَهم؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أنَّ هذا الدِّينَ المَبنيَّ على الإخلاصِ اجتَمَعَ فيه الشَّرعُ والفِطرةُ؛ أمَّا الشَّرعُ فلأنَّه أُمِرَ به، وأمَّا الفِطرةُ فلأنَّ النَّاسَ خُلِقوا عليها وجُبِلوا عليها، ولولا ما يَحصُلُ مِن الموانعِ والعَوارِضِ لِبَني آدمَ لَكانَ النَّاسُ كلُّهم مُؤمِنينَ على الفِطرةِ، كما جاء في الحَديثِ: ((فأبواه يُهَوِّدانِه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه))[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أنَّ التَّفَرُّقَ والاختِلافَ يُوجِبُ الشِّركَ، ويُنافي حقيقةَ التَّوحيدِ الَّذي

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨٧).
والحديث تقدَّم تخريجُه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٨٤).
والحديث تقدَّم تخريجُه.

هو إخلاصُ الدِّينِ كلِّه لله[١]، فالتَّوحيدُ أبدًا قرينُ الاجتماعِ؛ لأنَّ الاجتماعَ فيه الوحدةُ. والتَّفرُّقُ لا بُدَّ فيه مِن التَّثنيةِ والتَّعدُّدِ، كما أنَّ الإشراكَ مَقرونٌ بالتَّفرُّقِ[٢].

٥- القَلبُ إنْ لم يكُنْ حَنيفًا مُقبلًا على الله مُعرِضًا عمَّا سِواه، وإلَّا كان مُشرِكًا؛ قال الله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾، إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ كُلَّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ، أخرج الشَّيخانِ عن أبي هُريرةَ قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن مَولودٍ يُولَدُ إلَّا على الفِطرةِ))، ثمَّ يقولُ [أي: أبو هُريرةَ]: اقرَؤوا: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[٤].

٧- إنَّ أقْوَمَ الأديانِ ما بُنِيَ على الإخلاصِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾، فالمُشارُ إليه هو ما سَبَق مِن الفِطرةِ الَّتي فَطَرَ النَّاسَ عليها، وهي الَّتي أمَرَ اللهُ بها في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ أكثَرَ النَّاسِ في هذا البابِ على جَهلٍ وضَلالٍ؛ فهُم بيْنَ أمْرينِ: إمَّا عالِمٌ مُستكبِرٌ،

---

(١) يُنظر: ((قاعدة في المحبة)) لابن تيمية (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٧).

والحديث تقدَّم تخريجُه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٨٤).

فعِلْمُه لم ينفَعْه، وإمَّا جاهِلٌ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ دَليلٌ على شَرَفِ الصَّلاةِ وفَضلِها، وأنَّها أهمُّ أعمالِ الجوارحِ؛ فإنَّه سُبحانَه خَصَّ بالذِّكرِ إقامةَ الصَّلاةِ، فلم يَذكُرْ مِن أعمالِ الجوارحِ باسمِه الخاصِّ سِواها[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ تَمْثيلٌ لإقبالِه على الدِّينِ، واستِقامَتِه وثَباتِه عليه، واهتِمامِه بتَرتيبِ أسبابِه؛ فإنَّ مَنِ اهتمَّ بشَيءٍ مَحسوسٍ بالبصَرِ عقَدَ عليه طَرْفَه، وسدَّدَ إليه نظَرَهُ، وقوَّمَ له وجْهَه، مُقبِلًا به عليه[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَقِمْ﴾ فَصيحةٌ، والتَّقديرُ: إذا علِمْتَ أحوالَ المُعرِضينَ عن دَلائلِ الحقِّ، فأقِمْ وجْهَك للدِّينِ حَنيفًا[٤].

- والأمْرُ في قولِه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ، والمقصودُ: ألَّا تَهْتَمَّ بإعراضِهم[٥].

- وذكَرَ الوجْهَ هنا؛ لأنَّه جامعُ حواسِّ الإنسانِ، وأشرَفُه[٦]. وقيل: خصَّ اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٩).

إقامةَ الوجْهِ؛ لأنَّ إقبالَ الوجْهِ تبَعٌ لإقبالِ القلْبِ، ويَترتَّبُ على الأمْرينِ سَعْيُ البدَنِ؛ ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾، أي: مُقبِلًا على اللهِ في ذلك، مُعرِضًا عمَّا سِواهُ[١].

- و(حَنِيف): صِيغةُ مُبالَغةٍ في الاتِّصافِ بالحَنَفِ، وهو المَيلُ، وغلَبَ استِعمالُ هذا الوصْفِ في المَيلِ عن الباطلِ، أي: العُدولِ عنه بالتَّوجُّهِ إلى الحقِّ[٢].

- قوله: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن ﴿حَنِيفًا﴾ -على أحدِ الأقوالِ-؛ فهو في معنى الحالِ مِن (الدِّينِ) أيضًا، وهو حالٌ ثانيةٌ؛ فإنَّ الحالَ كالخبَرِ تَتعدَّدُ بدونِ عطْفٍ. وهذا أحسَنُ؛ لأنَّه أصرَحُ في إفادةِ أنَّ هذا الدِّينَ مُختَصٌّ بوَصفينِ؛ هما: التَّبرُّؤُ مِن الإشراكِ، ومُوافقَتُه الفِطرةَ؛ فيُفِيدُ أنَّه دِينٌ سَمْحٌ سهْلٌ، لا عنَتَ فيه[٣].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ بَيانٌ لِمَعنى الإضافةِ في قولِه: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾، وتصْريحٌ بأنَّ اللهَ خلَقَ النَّاسَ سالِمةً عُقولُهم ممَّا يُنافي الفِطرةَ مِن الأديانِ الباطلةِ والعاداتِ الذَّميمةِ، وأنَّ ما يَدخُلُ عليهم مِن الضَّلالاتِ ما هو إلَّا مِن جرَّاءِ التَّلَقِّي والتَّعوُّدِ[٤].

- وقولُه: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ تَعْليلٌ للأمْرِ بلُزومِ فِطرتِه تعالَى، أو لِوُجوبِ الامتِثالِ به[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ جُملةٌ مُبيِّنةٌ لِمَعنى ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٠).

فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَا ﴾، فهي جاريةٌ مَجرَى حالٍ ثالثةٍ مِن (الدِّينِ)، على تَقديرِ رابطٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: لا تَبْديلَ لِخلْقِ اللهِ فيه، أي: في هذا الدِّينِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾ مُعترِضةً؛ لإفادةِ النَّهيِ عن تَغييرِ خَلْقِ اللهِ فيما أودَعَه الفِطرةَ؛ فتكونَ ﴿لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾ خبرًا مُستعمَلًا في معنَى النَّهيِ على وَجْهِ المُبالَغةِ، كقولِه: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩]؛ فنَفْيُ الجِنسِ مُرادٌ به جِنسٌ مِن التَّبديلِ خاصٌّ بالوصْفِ، لا نفْيُ وُقوعِ جِنسِ التَّبديلِ؛ فهو مِن العامِّ المُرادِ به الخُصوصُ بالقَرينةِ[١].

- دلَّ قولُه: ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾ على أنَّ معنَى ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ﴾: الخَلْقُ، وأنَّه مِن إقامةِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ مِن غيرِ لَفْظِه السَّابقِ، وفائدتُه: الإشعارُ بأنَّ أصْلَ الجِبِلَّةِ السَّليمةِ المُتهيِّئةِ لقَبولِ الحقِّ: ألَّا تُغيَّرَ ولا تُترَكَ لِمَحْضِ التَّقليدِ؛ فإنَّه مُجاوِبٌ للعقْلِ[٢].

- ولِعِظَمِ المقامِ كرَّرَ الاسمَ الأعظَمَ، فقال: ﴿لِخَلۡقِ ٱللَّهِ ﴾[٣].

- والتَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾؛ لزِيادةِ تَمْييزِ هذا الدِّينِ مع تَعظيمِه[٤].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ ﴾ القيِّمُ: وصْفٌ بوزْنِ (فَيعِل)، مِثلُ هَيِّنٍ ولَيِّنٍ، يُفيدُ قوَّةَ الاتِّصافِ بمَصْدَرِه، أي: البالِغُ قوَّةَ القيامِ، مِثلُ (استقامَ) الَّذي هو مُبالَغةٌ في (قام)[٥]. وإطلاقُ القيِّمِ على الدِّينِ فيه تَشبيهُ انتفاءِ الخطَأِ عنه باستقامةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

العُودِ، وهو مِن تَشْبيهِ المَعقولِ بالمَحْسوسِ[١].

- والاستِدراكُ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لِدفْعِ تَوهُّمِ واهِمٍ يقولُ: إذا كان هذا الدِّينُ هو دِينَ الفِطرةِ، وهو القيِّمُ؛ فكيف أعرَضَ كَثيرٌ مِن النَّاسِ عنه بعْدَ تَبليغِه؟! فاسْتدرَكَ ذلك بأنَّهم جُهَّالٌ لا عِلْمَ عِندَهم، فإنْ كان قد بلَغَهُم فإنَّهم جَهِلوا مَعانِيَه؛ لإعراضِهم عن التَّأمُّلِ، ولا يَعلَمون منه إلَّا ما لا يُفيدُهم مُهِمَّهم؛ لأنَّهم لم يَسْعَوا في أنْ يَبلُغَهم على الوجْهِ الصَّحيحِ؛ ففِعلُ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ غيرُ مُتطلِّبٍ مَفعولًا، بلْ هو مُنزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ؛ لأنَّ المعنى: لا عِلْمَ عِندَهم[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾

وحَّدَ الخِطابَ أوَّلًا في قولِه: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗا﴾، ثمَّ جمَعَ بعْدَ ذلك ﴿مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ﴾؛ لأنَّه قد خُوطِبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّلًا، وخِطابُ الرَّسولِ خِطابٌ لِأُمَّتِه، مع ما فيه مِن التَّعظيمِ للإمامِ، ثمَّ جمَعَ بعْدَ ذلك؛ للبَيانِ والتَّلخيصِ[٣].

- والأمْرُ الَّذي في قولِه: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٥).

- قولُه: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ ﴾ أُعيدَ حَرفُ «مِن» في قَولِه تعالى: ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ﴾؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ الثَّانيَ بَدَلٌ مِن الأوَّلِ ﴿مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾، والبَدَلُ هو المقصودُ بالكَلام، وما قبْلَه تَوطِئَةٌ له[١]، وإظهارُ حرْفِ الجرِّ ثانيةً مع الاستِغناءِ عنه بالبدَليَّةِ، تأكيدٌ بإظهارِ العامِلِ[٢]. وفائدةُ الإبدالِ التَّحذيرُ عن الانْتِماءِ إلى حِزبٍ مِن أحزابِ المشركينَ؛ ببَيانِ أنَّ الكلَّ على الضَّلالِ المُبينِ[٣].

- وجملةُ ﴿ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه مِن تَفريقِ دِينِهم، وكَونِهم شِيَعًا[٤].

- وقيل: يَجوزُ أنْ يكونَ ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ ﴾ مُنقطِعًا ممَّا قبْلَه، ومعناهُ: مِنَ المُفارقينَ دِينَهم كلُّ حِزْبٍ فَرِحينَ بما لَديهم؛ فكان مِن حقِّ الظَّاهرِ أنْ يُجَرَّ ﴿فَرِحُونَ ﴾؛ لِكَونِه صِفةً ﴿حِزۡبِۭ ﴾؛ لأنَّ الصِّفةَ في الأعدادِ وما هو مِن قَبيلِها يَنْبغي أنْ تكونَ للمُضافِ إليه؛ لقولِه تعالى: ﴿سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ ﴾ [يوسف: ٤٣]، ولكنَّه وصَفَ هاهنا المُضافَ؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ الفرَحَ شامِلٌ للكلِّ، وهو أبلَغُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٠، ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٧٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٠، ٣٩١).

## الآيات (٢٢-٢٧)

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ضُرٌّ﴾: أي: فقرٌ وقحطٌ وسُوءُ حالٍ، وأشباهُ ذلك، وأصلُ (ضرر) هنا: خلافُ النَّفعِ[١].

﴿سُلْطَٰنًا﴾: أي: حُجَّةً، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقَهرُ، مِنَ التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّيَ السُّلطانُ سُلطانًا[٢].

﴿يَقْنَطُونَ﴾: أي: يَيْأسُونَ مِنَ الفَرَجِ، والقُنُوطُ هو: الإِياسُ مِن الخيرِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأْسِ مِنَ الشَّيءِ[٣].

﴿يَبْسُطُ﴾: أي: يُوسِّعُ ويُكثِّرُ، وأصلُ (بسط): امْتِدادُ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٢)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (٩/ ٥٦٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٤٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، =

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، يُقالُ: قَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: إذا ضيَّقتَه، كأنَّما جعَلْتَه بقَدْرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه[1].

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا أحوالَ النَّاسِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ: وإذا أصاب النَّاسَ ضُرٌّ ما، كمَرَضٍ في أبدانِهم، أو قِلَّةٍ في أموالِهم؛ أخلَصوا الدُّعاءَ لله تائبينَ مِنَ الشِّركِ؛ لعِلمِهم أنَّه لا يَكشِفُ الضُّرَّ غيرُه سُبحانَه، ثمَّ إذا رَحِمَهم اللهُ فكشَفَ ما أصابَهم مِن الضُّرِّ، وأكرَمَهم بعافيةٍ أو سَعةِ رِزقٍ؛ إذا جماعةٌ منهم يُشرِكونَ مع اللهِ غيرَه؛ لِيَكفُروا بما أعطَيْناهم مِن النِّعَمِ، فتمَتَّعوا -أيُّها المُشرِكونَ- فسوف تَعلَمونَ ما يُصيبُكم مِنَ العذابِ يومَ القيامةِ! فهل أنزَلْنا على هؤلاءِ المُشرِكينَ حُجَّةً ظاهِرةً بصِحَّةِ شِركِهم، حتَّى يَثبُتُوا على شِركِهم؟!

وإذا أصَبْنا النَّاسَ برَحمةٍ مِنَّا فَرِحوا بها، وإن تُصِبْهم حالٌ سَيِّئةٌ بسَبَبِ ذُنوبِهم إذا هم يَيئَسونَ مِن رَحمةِ اللهِ وفَرَجِه، أوَلَم يَرَوا أنَّ اللهَ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ؟ إنَّ في ذلك لَدَلائِلَ للمُؤمِنينَ يَستدِلُّونَ بها على رَحمةِ اللهِ وحِكمتِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى التَّوحيدَ بالدَّليلِ وبالمَثَلِ؛ بيَّنَ أنَّ لهم حالةً يُعرَفونَ بها، وإن كانوا يُنكِرونَها في وقتٍ، وهي حالةُ الشِّدَّةِ(١).

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾.

أي: وإذا أصاب النَّاسَ ضَرَرٌ، كمَرَضٍ في أبدانِهم، أو قِلَّةٍ في أموالِهم، أو قَحطٍ وشِدَّةٍ في مَعيشتِهم؛ أخلَصوا الدُّعاءَ للهِ مُقبِلينَ عليه وَحْدَه، تائِبينَ مِنَ الشِّركِ؛ لِعِلْمِهم أنَّه لا يَكشِفُ الضُرَّ إلَّا اللهُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: ثمَّ إذا رَحِمَهم اللهُ فكَشَفَ ما أصابَهم مِنَ الضُّرِّ، وأصابَهم بنِعمةٍ منه، كعافيةٍ أو سَعةِ رزقٍ وغيرِ ذلك؛ إذا جماعةٌ منهم يُبادِرونَ بنَقضِ تلك الإنابةِ الصَّادرةِ منهم، فيُشرِكونَ معه غَيرَه في عبادتِه، ولا يَشكُرونَه على نِعَمِه(٣)!

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٤﴾.

﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٢، ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤١).

أي: يُشرِكونَ لِيَكفُروا[١] بما[٢] أعطَيْناهم مِنَ النِّعَمِ، وصَرَفْنا عنهم مِنَ النِّقَمِ[٣]!

﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فتمَتَّعوا -أيُّها المُشرِكونَ- مُدَّةَ حياتِكم بما أعطاكم اللهُ مِنَ النِّعَمِ، فسوفَ تَعلَمونَ ما ستَلقَونَه مِنَ العذابِ يومَ القيامةِ[٤].

---

(١) قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ اللَّامُ هي لامُ العاقبةِ عند بَعضِهم، ولامُ التَّعليلِ عندَ آخَرينَ، ولكنَّها تعليلٌ لِتَقييضِ اللهِ لهم ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٧).

ومِمَّن قال بأنَّها للعاقبةِ: السمعانيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٧٩) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٥).

وممَّن اختار أنَّها لامُ كَيْ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عطية، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٧٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٠).

وقيل: يجوزُ أن تكونَ لامَ الأمرِ، ومعناه التَّهديدُ، نحو: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت:٤٠]. وممَّن اختاره: مكِّي، وابنُ الجوزي، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤١٣، ٤٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٢٨، ٤٢٩) و(٢/ ١٣٤). ويُنظر أيضًا: ((الدر المصون)) للحلبي (٩/ ٤٦).

(٢) قيل: المعنى: أنَّهم يَكفرون بهذا الَّذي آتَيْناهم، فيَجحَدونه ولا يَشكُرونه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

وقيل: الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: لِيَكفُروا بسَببِ ما آتَيْناهم مِنَ الرَّحمةِ، والإنقاذِ مِنَ الشِّدَّةِ، فصار ذلك سببًا لِكُفرِهم. ذكَرَ هذا المعنى احتمالًا: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢)، ((تفسير ابن =

﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: فهل أنزَلْنا على المُشرِكينَ حُجَّةً ظاهِرةً تَشهَدُ بصِحَّةِ شِركِهم، حتَّى يُوجِبَ لهم ذلك شِدَّةَ التَّشَبُّثِ بالشِّركِ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧].

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ﴾.

أي: وإذا أصَبْنا النَّاسَ برَحمةٍ، كحُصولِ الخِصْبِ والعافيةِ، فَرِحوا بذلك[2].

---

= عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠٦-٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾: أي فَرِحَ بَطَرٍ بلا شُكرٍ لله على رحمتِه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢).

وقيل: الفرَحُ هنا وَصفٌ لحالِ النَّاسِ عندَما تُصيبُهم الرحمةُ؛ لِيُبنى عليه ضِدُّه في قَولِه: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾؛ لِما يَقتَضيه القُنوطُ مِن التَّذَمُّرِ والغَضَبِ. والمعنى: أنَّهم كما يَفرَحونَ عندَ الرَّحمةِ، ولا يخطُرُ ببالِهم زوالُها، ولا يحزَنونَ مِن خَشيتِه؛ فكذلك ينبغي أن يَصبِروا عندَما يَمَسُّهم الضُّرُّ، ولا يَقنَطوا مِن زوالِه؛ لأنَّ قُنوطَهم مِن زوالِه غيرُ جارٍ على قياسِ حالِهم عندَما تُصيبُهم رَحمةٌ حينَ لا يَتوقَّعونَ زوالَها. قاله: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٠).

قال ابن عاشور: (فليس في الكلامِ تَعريضٌ بإنكارِ الفَرَحِ حتَّى نُضطرَّ إلى تفسيرِ الفَرَح بالبَطَرِ =

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾.

أي: وإنْ تُصِبْهم حالٌ تَسوؤُهم -كقِلَّةٍ في أموالِهم، أو شِدَّةٍ في مَعيشَتِهم- بسَبَبِ ذُنوبِهم، أصابَهم يأسٌ شديدٌ مِن حُصولِ الرَّحمةِ والفَرَجِ، وزَوالِ تلك الحالِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾.

أي: أوَلم يَرَ هؤلاءِ الَّذين يَفرَحونَ عندَ الرَّخاءِ، ويَيئَسونَ عندَ الشِّدَّةِ أنَّ اللهَ يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ؟ فهو وَحْدَه المتصَرِّفُ في عبادِه بحِكمتِه؛ فيُغْني مَن يَشاءُ، ويُفقِرُ مَن يَشاءُ[2]!

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: إنَّ في تَوسيعِ اللهِ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ وتَضييقِه على مَن يَشاءُ لَدَلائِلَ وعَلاماتٍ للمُؤمِنينَ، يَستَدِلُّونَ بها على رَحمةِ اللهِ وحِكمتِه، وكَمالِ قُدرتِه،

---

= ونحوِه؛ لأنَّه عدولٌ عن الظَّاهِرِ بلا داعٍ... فالقُنوطُ هو محلُّ الإنكارِ عليهم، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩]. ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢١٤، ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨).

وغَيرِ ذلك[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ فينبغي للعبدِ أن يَعبُدَ اللهَ في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وألَّا يكونَ مِمَّن يَعبُدونَ اللهَ للدُّنيا، فإذا آتاهم رَضُوا، وإذا منَعَهم سَخِطوا وقَنَطوا[٢]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾ فالقُنوطُ بعدَما عُلِمَ أنَّ الخيرَ والشَّرَّ مِنَ اللهِ، والرِّزقَ -سَعَتَه وضِيقَه- مِن تقديرِه: ضائعٌ ليس له مَحَلٌّ، فلا تَنظُرْ أيُّها العاقِلُ لمُجَرَّدِ الأسبابِ، بل اجعَلْ نَظَرَك لِمُسَبِّبِها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾، فهم الذين يَعتَبِرونَ بَسْطَ اللهِ لِمَن يَشاءُ وقَبْضَه، ويَعرِفونَ بذلك حِكمةَ اللهِ ورَحمَتَه، وَجُودَه وجَذْبَ القُلوبِ لِسُؤالِه في جميعِ مَطالِبِ الرِّزقِ[٣]. فالمُحَقِّقُ ينبغي ألَّا يكونَ نَظَرُه على ما يُوجَدُ، بل إلى مَن يُوجِدُ، وهو اللهُ تعالى[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ دَليلٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٧، ٩٨)، ((البحر المديد)) لابن عجيبة (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

أنَّ مَعرِفةَ الرَّبِّ في فِطرةِ كُلِّ إنسانٍ، وأنَّهم إن غَفَلوا في السَّرَّاءِ، فلا شَكَّ أنَّهم يَلوذونَ إليه في حالِ الضَّرَّاءِ[١]، فطبيعةُ الإنسانِ عندَ الضَّرَّاءِ اللُّجوءُ إلى رَبِّه، ويتفَرَّعُ على هذا أنَّ أولئك الَّذين إذا مَسَّهم الضُّرُّ لجَؤوا إلى غيرِ اللهِ، أنَّهم خالَفوا جميعَ فِطَرِ البَشَرِ[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تهديدٌ للكافِرينَ، وأنَّ انبِساطَهم بنِعَمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى ضَرَرٌ عليهم؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ أنَّ مَن صَنَعَ شيئًا بدَليلٍ صحيحٍ فلا لَومَ عليه؛ يُؤخَذُ ذلك مِن قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾، يعني: لو كان لهم سُلطانٌ لا نَلومُهم ولا نُعَذِّبُهم[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ أنَّ المجتَهِدَ المتأوِّلَ لا إثمَ عليه؛ لاعتِمادِه في اجتِهادِه على دَليلٍ[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشۡرِكُونَ﴾ قَولُه: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾ فيه معنًى لطيفٌ، وهو: أنَّ المتكَلِّمَ مِن غَيرِ دَليلٍ، كأنَّه لا كلامَ له؛ لأنَّ الكلامَ هو المسموعُ، وما لا يُقبَلُ فكأنَّه لم يُسمَعْ، فكأنَّ المتكَلِّمَ لم يتكَلَّمْ به، وما لا دليلَ عليه لا يُقبَلُ، فإذا جاز سَلْبُ الكلامِ عن المتكَلِّمِ عندَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عدَمِ الدَّليلِ وحَسُنَ، جاز إثباتُ التكَلُّمِ للدَّليلِ وحَسُنَ[١].

٦- قال تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ فيه أنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ السُّلطانُ أو الحُجَّةُ الَّتي يحتَجُّونَ بها واضِحةً؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَهُوَ يَتَكَلَّمُ﴾، والتَّعبيرُ بالكَلامِ هو أوضَحُ ما يكونُ مِن الإظهارِ[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ لم يَذكُرْ عند النِّعمةِ سَببًا لها؛ لتفَضُّلِه بها، وذَكَر عندَ العَذابِ سَببًا؛ لأنَّ الأوَّلَ يَزيدُ في الإحسانِ، والثَّانيَ يُحَقِّقُ العَدلَ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ فيه أنَّ المصائِبَ مُسَبَّبةٌ عن الذُّنوبِ[٤].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: مِن المُخالَفاتِ، وأسنَدَه إلى اليَدِ؛ لأنَّ أكثَرَ العَمَلِ بها[٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دَلالةٌ على إثباتِ الاختيارِ للبَشَرِ، فيكونُ في ذلك رَدٌّ لِقَولِ الجَبريَّةِ الَّذين يَقولونَ: «إنَّ الإنسانَ ليس له اختيارٌ في العملِ»[٦]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢١٨).

رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ [الروم: ٣٢]، أي: فرَّقوا دِينَهم وكانوا شِيعًا، وإذا مسَّهم ضُرٌّ، فدَعَوُا اللهَ وحْدَه فرَحِمهم؛ عادوا إلى شِرْكِهم وكُفْرِهم نِعمةَ الَّذي رحِمَهم؛ فالمقصودُ مِن الجُملةِ هو قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، فمَحلُّ انتظامِه في مَذامِّ المشركينَ أنَّهم يَرجِعون إلى الكفْرِ، بخِلافِ حالِ المؤمنينَ؛ فإنَّهم إذا أذاقَهم اللهُ رحمةً بعدَ ضُرٍّ، شَكَروا نِعمةَ ربِّهم، وذلك مِن إنابتِهم إلى اللهِ. ونُسِجَ الكلامُ على هذا الأُسلوبِ؛ ليكونَ بمَنزلةِ التَّذييلِ بما في لفْظِ (النَّاس) مِن العُموم، وإدْماجًا لِفَضيلةِ المؤمنينَ الَّذين لا يَكفُرون نِعمةَ الرَّحيمِ؛ فالتَّعريفُ في (النَّاسِ) للاستغراقِ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ إشراكَهم باللهِ بعْدَ الدُّعاءِ والإنابةِ وحُصولِ رَحمتِه، أعجَبُ مِن إشراكِهم السَّابقِ؛ ففي التَّراخي الرُّتبيِّ معنَى التَّعجيبِ مِن تَجدُّدِ إشراكِهم[٢].

- وعُبِّرَ بالإذاقةِ؛ لأنَّ المعنى أصابَتْهم الرَّحمةُ حتَّى يَتحقَّقوها كما يَتحقَّقُ الإنسانُ الطَّعامَ في فَمِه[٣]. وقيل: اختِيرَ فِعلُ الإذاقةِ؛ لِمَا يدُلُّ عليه مِن إسراعِهم إلى الإشراكِ عندَ ابتداءِ إصابةِ الرَّحمةِ لهم، فالإذاقةُ: تُطلَقُ على الإصابةِ، وحقيقتُها: إصابةُ المَطْعومِ بطَرَفِ اللِّسانِ، وهي أضعَفُ إصاباتِ الأعضاءِ للأجسامِ؛ فهي أقلُّ مِن المَضْغِ والبلْعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٦، ٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٧).

وقيل: الذَّوقَ يُقالُ في القَليلِ؛ فإنَّ العُرفَ أنَّ مَن أكلَ مأكولًا كثيرًا لا يقولُ: ذُقتُ، ويقالُ في النَّفيِ: ما ذُقتُ في بيتِه طعامًا، نفيًا للقليلِ؛ لِيَلزَمَ نَفْيُ الكثيرِ بالأَولى، ثمَّ إنَّ تلك الرَّحمةَ لَمَّا كانت خاليةً مُنقَطِعةً، ولم تكُنْ مُستمِرَّةً في الآخرةِ؛ إذ لهم في الآخرةِ عذابٌ- قال: ﴿أَذَاقَهُم﴾؛ ولهذا قال في العذابِ: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٨]، ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥]، ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]؛ لأنَّ عذابَ اللهِ الواصِلَ إلى العَبدِ بالنِّسبةِ إلى الرَّحمةِ الواصِلةِ إلى عَبيدٍ آخَرينَ: في غايةِ القِلَّةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أسنَدَ الرَّحمةَ إليه؛ تَعظيمًا للأدَبِ، وإنْ كان الكلُّ منه[٢].

- وتَقْديمُ المجرورِ ﴿مِّنْهُ﴾؛ للاهتمامِ به؛ لِيَظْهَرَ أنَّ الَّذي أصابَهم هو مِن فضْلِ اللهِ وتقْديرِه، لا غير ذلك[٣].

- قولُه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾، أي: فاجَأَ فريقٌ منهم الإشراكَ، وذلك بنِسبةِ خَلاصِهم إلى غيرِه تعالى مِن صنَمٍ أو كَوكبٍ أو نحوِ ذلك مِنَ المخلوقاتِ، وتَخْصيصُ هذا الفِعلِ ببعضِهم؛ لِمَا أنَّ بعضَهم ليسُوا كذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢]، أي: مُقيمٌ على الطَّريقِ القصْدِ، أو مُتوسِّطٌ في الكفْرِ؛ لانْزِجارِه في الجُملةِ[٤]. وقيل: جاء هنا ﴿فَرِيقٌ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ﴾ عامٌّ للمؤمنِ والكافرِ، فلا يُشرِكُ إلَّا الكافرُ، و﴿ضُرٌّ﴾ هنا مُطلَقٌ، وفي آخِرِ (العَنكبوتِ): ﴿إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٢).

[العنكبوت: ٦٥]؛ لأنَّه في مَخصوصينَ مِن المُشركينَ عُبَّادِ الأصنام، والضُّرُّ فيها مُعيَّنٌ، وهو ما يُتخوَّفُ مِن رُكوبِ البحرِ؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[1] [العنكبوت: ٦٥].

- وحرْفُ المفاجأةِ (إذا) في قَولِه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يُفيدُ أنَّ هذا الفَريقَ أسْرَعوا العَودةَ إلى الشِّركِ بحِدْثانِ ذَوقِ الرَّحمةِ؛ لِتَأصُّلِ الكفْرِ منهم، وكُمونِه في نُفوسِهم[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَكْفُرُوا۟﴾ قيل: هي لامُ التَّعليلِ، وهي مُستعارةٌ لِمَعنى التَّسبُّبِ الَّذي حقُّه أنْ يُفادَ بالفاءِ[3]. وقيل: اللَّامُ فيه للعاقِبةِ، وقيل: للأمْرِ بمعنى التَّهديدِ، كقولِه تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾، غيرَ أنَّه التَفَت فيه مُبالَغةً[4].

- قولُه: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ الْتفَتَ عن الغَيبةِ إلى الخِطابِ بقولِه: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾؛ تَوبيخًا لهم وإنْذارًا، وجِيءَ بفاءِ التَّفريعِ في قولِه: ﴿فَتَمَتَّعُوا۟﴾؛ لأنَّ الإنذارَ والتَّوبيخَ مُفرَّعانِ عن الكلامِ السَّابقِ. والأمْرُ في (تَمَتَّعُوا) مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والتَّوبيخِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

- والفاءُ في ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تَفريعٌ للإنذارِ على التَّوبيخِ، وهو رشيقٌ. و(سوفَ تَعلَمونَ) إنْذارٌ بأنَّهم يَعلَمون في المُستقبَلِ شيئًا عَظيمًا، والعِلْمُ كِنايةٌ عن حُصولِ الأمْرِ الَّذي يُعلَمُ، أي: عن حُلولِ مَصائبَ بهمْ لا يَعلَمون كُنْهَها الآنَ؛ وهو إيماءٌ إلى عظَمَتِها، وأنَّها غيرُ مُترَقَّبةٍ لهم[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾

- (أمْ) بمَعنى (بل)، والهمزةِ؛ و(بل) للإضرابِ عن الكَلامِ السَّابقِ، والهمزةُ للاستفهامِ عن الحُجَّةِ استفهامَ إنكارٍ وتَوبيخٍ[٢]. فالتَّقديرُ: بلْ أأنْزَلْنا عليهم سُلطانًا؟! أي: ما أنْزَلْنا عليهم سُلطانًا، ومعنى الاستفهامِ الإنكاريِّ أنَّه تَقريرٌ على الإنكارِ، كأنَّ السَّائلَ يَسألُ المسؤولَ؛ لِيُقِرَّ بنفْيِ المَسؤولِ عنه، وحيثُما وقَعَت (أمْ) فالاستفهامُ مُقدَّرٌ بعْدَها؛ لأنَّها مُلازِمةٌ لِمَعنى الاستفهامِ[٣].

- والالْتِفاتُ إلى الغَيبةِ في قولِه تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾؛ للإيذانِ بالإعراضِ عنهم، وتَعْديدِ جِناياتِهم لِغَيرِهم بطَريقِ المُباثَّةِ[٤].

- وقدَّمَ ﴿بِهِ﴾ على ﴿يُشْرِكُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالتَّنبيهِ على سَببِ إشراكِهم الدَّاخلِ في حيِّزِ الإنكارِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٠).

- في هذه الآيةِ قُدِّمَت إصابةُ الرَّحمةِ على إصابةِ السَّيِّئةِ، عكْسَ الآيةِ الَّتي قبْلَها -في قولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ [الروم: ٣٣]-؛ للاهتِمامِ بالحالةِ الَّتي جُعِلَت مَبدأَ العِبرةِ، وأصْلَ الاستِدلالِ؛ فقولُه: ﴿فَرِحُوا۟ بِهَا﴾ وصْفٌ لحالِ النَّاسِ عندَما تُصِيبُهم الرَّحمةُ؛ لِيُبْنَى عليه ضِدُّه في قولِه: ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾؛ لِمَا يَقْتضيهِ القُنوطُ مِن التَّذمُّرِ والغضَبِ[1].

- وعبَّر عِندَ الرَّحمةِ بأداةِ التحقيقِ (إذا)؛ إشارةً إلى أنَّ الرحمةَ أكثرُ مِن النِّقمةِ، وأَسنَد الفِعلَ إليه في مَقامِ العظَمةِ؛ إشارةً إلى سَعةِ جُودِه، فقال: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا﴾، وجرَى الكلامُ على النَّمطِ الماضي في العمومِ؛ لمُناسَبةِ مَقصودِ السُّورةِ في أنَّ الأمرَ كُلَّه له في كُلِّ شيءٍ، وعِندَ المصيبةِ قال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ بأداةِ الشَّكِّ (إنْ)؛ دَلالةً على أنَّ المصائبَ أقَلُّ وُجودًا. وقال: ﴿تُصِبْهُمْ﴾ غيرَ مُسنِدٍ لها إليه؛ تأْدِيبًا لعِبادِه، وإعلامًا بغَزيرِ كَرَمِه[2].

- وأدمَجَ في خلالِ الإنكارِ عليهم قولَه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لِتَنْبيههم إلى أنَّ ما يُصِيبُهم مِن حالةٍ سيِّئةٍ في الدُّنيا، إنَّما سَبَبُها أفْعالُهم، فما على النَّاسِ إلَّا أنْ يُحاسِبوا أنفُسَهم، ويَتدارَكوا ما فات؛ فذلك أنْجَى لهم مِن السَّيِّئاتِ، وأجدَرُ مِن القُنوطِ[3].

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٤، ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠١).

لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ ... ﴾ استفهامُ إنكارٍ؛ أنكَرَ عليهم إهمالَ التَّأمُّلِ في سُنَّةِ اللهِ الشَّائعةِ في النَّاسِ: مِن لَحاقِ الضُّرِّ وانْفراجِه، ومِن قِسمةِ الحُظوظِ في الرِّزقِ بيْنَ بَسْطٍ وتَقْتيرٍ؛ فإنَّه كثيرُ الوُقوعِ كلَّ حِينٍ، فكما أنَّهم لم يَقْنَطوا مِن بَسْطِ الرِّزقِ عليهم في حِينِ تَقتيرِه، فكَدَحوا في طلَبِ الرِّزقِ بالأسبابِ والدُّعاءِ؛ فكذلك كان حقُّهم أنْ يَتلقَّوُا السُّوءَ النَّادرَ بمِثْلِ ما يَتلقَّون به ضِيقَ الرِّزقِ، فيَسْعَوا في كشْفِ السَّيِّئةِ بالتَّوبةِ، والابتهالِ إلى اللهِ، وبتَعاطي أسبابِ زَوالِها مِن الأسبابِ الَّتي نصَبَها اللهُ تعالى؛ فجُملةُ ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ ﴾ إلخ، عطْفٌ على جُملةِ ﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَا ﴾. والاستِفهامُ إنكاريٌّ في مَعنى النَّفيِ؛ أنْكَرَ عليهم عدَمَ الرُّؤيةِ تَنزيلًا لِرُؤيتِهم ذلك مَنزِلةَ عدَمِ الرُّؤيةِ؛ لإهمالِ آثارِها مِن الاعتبارِ بها، فالتَّقديرُ: إذا همْ يَقنَطون، كيف لم يَرَوا بَسْطَ اللهِ الرِّزقَ وتقْتيرَه؟! كأنَّهم لم يَرَوا ذلك[1]!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ ... ﴾ الآيةَ، بلفْظِ ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾، وفي (الزُّمَرِ) بلفظِ: ﴿ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ ﴾ [الزمر: ٥٢]؛ وذلك لأنَّ بسْطَ الرِّزقِ ممَّا يُرى؛ فناسَبَ ذِكْرُ الرُّؤيةِ، وما في (الزُّمَرِ) تقدَّمَه ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الزمر: ٤٩]، فناسَبَ ذِكْرُ العِلْمِ[2].

- وقولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ تذْييلٌ، أي: في جَميعِ ما ذُكِرَ آياتٌ كثيرةٌ حاصلةٌ كَثْرتُها مِن اشتِمالِ كلِّ حالةٍ مِن تلك الأحوالِ على أسبابٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٣، ٤٤٤).

خَفيَّةٍ وظاهرةٍ، ومُسبِّباتِها كذلك، ومِن تَعدُّدِ أحوالِ النَّاسِ مِن الاعتبارِ بها، والأخْذِ منها، كلٌّ على حسَبِ استِعدادِه[١].

- وقيل: كانت الفاصلةُ قولَه تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ إيذانًا بأنَّ بسْطَ الرِّزقِ وتَقْديرَه بمَحْضِ مَشيئتِه تعالى، وبأنْ ليس الغِنى بفِعلِ العبْدِ وجهْدِه، ولا العُدْمُ بعَجْزِه وتَقاعُدِه، ولا يَعرِفُ ذلك إلَّا مَن آمَنَ بأنَّ ذلك تقْديرُ العزيزِ العليمِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٣).

## الآيات (٢٨-٤٠)

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِّيَرۡبُوَاْ﴾: أي: لِيَزدادَ، وأصلُ الرِّبا: الزِّيادةُ[1].

﴿ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾: أي: ذَوُو المُضاعَفةِ والزِّيادةِ مِنَ الحَسَناتِ، وأصلُ (ضعف): يدُلُّ على أن يُزادَ الشَّيءُ مِثلَه[2].

### المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: فآتِ قَريبَك حَقَّه من البِرِّ والصِّلةِ، والمِسكينَ والمسافِرَ المُنقَطِعَ عن أهلِه، ذلك خيرٌ للمُخلِصينَ الَّذين يُريدونَ بذلك النَّظرَ إلى وجهِ اللهِ يومَ القيامة، وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخرةِ، وما آتيتُم -أيُّها النَّاسُ- مِن مالٍ تُريدونَ به زيادةً مِن أموالِ النَّاسِ بأن يَرُدُّوه إليكم أكثَرَ ممَّا آتَيْتُموهم، فلا يَنمو عندَ اللهِ، ولا خيرَ فيه؛ وما آتيتُم مِن زكاةٍ تُريدونَ بها وجهَ اللهِ فأولئك هم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥، ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٤).

الَّذين لهم الضِّعفُ مِنَ الأجرِ والثَّوابِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه مظاهرَ فضلِه على النَّاسِ، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خلَقَكم مِنَ العدَمِ، ثم رزَقَكم، ثمَّ يُميتُكم مِن بَعدِ حياتِكم، ثمَّ يُحييكم للبَعثِ يومَ القيامةِ. هل مِن آلهتِكم -أيُّها المُشرِكونَ- مَن يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن ذلك؟! تنزَّه اللهُ وتقدَّس عن شِركِ هؤلاء المُشرِكينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكر أنَّه تعالى هو الباسِطُ القابِضُ، وجعَلَ في ذلك آيةً للمُؤمِنِ؛ أمَر نبيَّه بالإحسانِ لِمَن به فاقةٌ واحتياجٌ؛ لأنَّ مِن الإيمانِ الشَّفَقةَ على خَلقِ الله؛ فخاطبَ مَن بَسَط له الرِّزقَ بأداءِ حَقِّ اللهِ مِن المالِ، وصَرْفِه إلى مَن يَقرُبُ منه؛ في رحِمٍ، وإلى غيرِه مِن مِسكينٍ وابنِ سَبيلٍ(١).

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ أنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ وَيقدِرُ، فلا ينبغي أن يَتوقَّفَ الإنسانُ في الإحسانِ؛ فإنَّ اللهَ إذا بسَطَ الرِّزقَ لا يَنقُصُ بالإنفاقِ، وإذا قَدَرَ لا يَزدادُ بالإمساكِ(٢).

وأيضًا فوَجهُ تعَلُّقِ الآيةِ بما قَبْلَها: هو أنَّ الله تعالى لَمَّا بيَّن أنَّ العبادةَ لا ينبغي أن تكونَ مقصورةً على حالةِ الشِّدَّةِ، بقَولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ [الروم: ٣٣]، ولا أن تكونَ مَقصورةً على حالةِ أخذِ شَيءٍ مِن الدُّنيا، بِقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

﴿ وَإِذَآ أَذَقۡنَا ٱلنَّاسَ رَحۡمَةٗ فَرِحُواْ بِهَا ﴾، وبيَّن أنَّه ينبغي أن يكونَ -في حالةِ بَسطِ الرِّزقِ وقَدْرِه عليه- نَظَرُه على اللهِ الخالقِ الرَّازقِ؛ لِيَحصُلَ الإرشادُ إلى تعظيمِ الله. والإيمانُ قِسْمانِ: تَعظيمٌ لأمرِ اللهِ، وشَفَقةٌ على خَلقِ اللهِ، فقال بعد ذلك[1]:

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

أي: فآتِ[2] قريبَك حقَّه مِنَ البرِّ والصِّلةِ، والمِسكينَ حَقَّه مِنَ الصَّدَقةِ، والمسافِرَ المُنقَطِعَ حَقَّه مِنَ الإعانةِ على سَفَرِه[3].

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: إيتاءُ الأقاربِ والمساكِينِ وأبناءِ السَّبيلِ حُقوقَهم الشَّرعيَّةَ خَيرٌ للمُخلِصينَ الذين يُريدونَ بذلك وجهَ اللهِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

(٢) قال القرطبي: (الخِطابُ للنبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمرادُ هو وأمَّتُه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٢٣-٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٤).

قال القاسمي: (﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ ﴾ أي: النَّظَرَ إليه يومَ القيامةِ. وهو الغايةُ القُصْوى. أو يريدون ذاتَه بمعروفِهم، لا رياءً ولا سُمْعةً، ولا مُكافأةَ يَدٍ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ ﴾: أي: النَّظَرَ إليه سُبحانَه: ابنُ كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٢٦).

وقال ابن جرير: (خيرٌ لِلذَّين يُريدونَ الله بإتيانِهم ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢).

وقال محمد رشيد رضا: (هذا التَّعبيرُ يَدُلُّ على الإخلاصِ للهِ تعالَى في العملِ، وابتغاءِ مَرْضاتِه به وحْدَه، وعدمِ الرِّياءِ فيه). ((تفسير المنار)) (٧/ ٣٦٤).

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

أي: وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِۖ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ٣٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَر الله تعالى العملَ الَّذي يُقصَدُ به وجْهُه مِن النَّفَقاتِ، ذكَر العملَ الَّذي يُقصَدُ به مَقصدٌ دُنيويٌّ[٢].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا جرى التَّرغيبُ والأمرُ بذلك المالِ لِذوي الحاجةِ، وصِلةِ الرَّحِمِ، وما في ذلك مِن الفَلاحِ؛ أعقَبَ بالتَّزهيدِ في ضَربٍ آخَرَ مِن إعطاءِ المالِ لا يَرضى اللهُ تعالى به، وكان الرِّبا فاشيًا في زَمَنِ الجاهليَّةِ وصَدرِ الإسلامِ، وخاصَّةً في ثَقيفٍ وقُرَيشٍ؛ فلمَّا أرشَد اللهُ المسلِمينَ إلى مُواساةِ أغنيائِهم فُقراءَهم؛ أتْبَعَ ذلك بتهيئةِ نُفوسِهم للكَفِّ عن المعامَلةِ بالرِّبا للمُقتَرِضينَ منهم؛ فإنَّ المعاملةَ بالرِّبا تُنافي المواساةَ؛ لأنَّ شَأنَ المُقتَرِضِ أنَّه ذو حاجةٍ، وشأنَ المُقرِضِ أنَّه ذو سَعَةٍ، فمُعامَلتُه المُقتَرِضَ منه بالرِّبا استِغلالٌ لحاجتِه لاضْطِرارِه، وذلك لا يليقُ بالمُؤمِنينَ[٣].

﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وما آتَيتم -أيُّها النَّاسُ- مِن عَطاءٍ تُريدونَ به زيادةً وأرباحًا تَحصُلُ لكم مِن أموالِ النَّاسِ، بأن يَرُدُّوه إليكم بأكثَرَ مِمَّا آتيتُموه؛ فلا يَزْكو ويَنمو عندَ اللهِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٤، ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٥).

فهو مالٌ مَمْحوقُ البَرَكةِ، ولا ثوابَ فيه[١].

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ ما زيادتُه نَقصٌ؛ أتْبَعَه ما نَقصُه زيادةٌ، فقال[٢]:

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾.

أي: وما آتيتُم مِن زكاةٍ عن إخلاصٍ لله تعالى، تريدونَ بها وجهَه؛ فأولئك هم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٥، ١٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٣٢-٢٣٤).

قال السمعاني: (أكثرُ أهلِ التَّفسيرِ أنَّ المرادَ مِنَ الآيةِ هو أن يُعطيَ الرَّجُلُ غيرَه عَطيَّةً لِيُعطيَه أكثَرَ منها، وهذا جائزٌ للنَّاسِ أن يَفعلوا، غيرَ أنَّه في القيامةِ لا يُثابُ عليه، فهو معنَى قولِه: ﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢١٥).

وقال ابن كثير: (﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مَن أَعطى عَطيَّةً يُريدُ أن يَرُدَّ النَّاسُ عليه أكثَرَ ممَّا أَهدى لهم، فهذا لا ثَوابَ له عندَ الله. بهذا فسَّره ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ، والشَّعْبيُّ. وهذا الصَّنيعُ مُباحٌ وإن كان لا ثَوابَ فيه، إلَّا أنَّه قد نُهِيَ عنه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ خاصَّةً، قاله الضَّحَّاكُ، واستدَلَّ بقولِه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦]، أي: لا تُعطِ العطاءَ تُريدُ أكثَرَ منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨).

وقيل: هذه الآيةُ في معنى قولِه تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦] سواءً بسَواءٍ، وأنَّ المرادَ: ما أعطَيْتُم مِن أموالِكم على وجهِ الرِّبا فلا يَزْكو عندَ الله. وممَّن اختاره في الجملةِ: الزمخشريُّ، والنسفيُّ، وابنُ جُزَي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠١).

الذين يُضاعِفُ اللهُ لهم ثوابَ صَدَقاتِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما تصدَّقَ أحَدٌ بصَدقةٍ مِن طَيِّبٍ -ولا يقبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه وإن كانت تمرةً، فتَربو في كَفِّ الرَّحمنِ حتى تكونَ أعظَمَ مِن الجَبَلِ، كما يُرَبِّي أحَدُكم فَلُوَّه[٢] أو فَصيلَه[٣]!))[٤].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىۡءٍۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٤٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٣٥-٢٣٧).

قال البقاعي: (﴿ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ أي: الذين ضاعَفوا أموالَهم في الدُّنيا بسَبَبِ ذلك الحِفظِ والبرَكةِ، وفي الآخرةِ بكَثرةِ الثَّوابِ عند اللهِ مِن عشرةِ أمثالٍ إلى ما لا حَصْرَ له). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٠١، ١٠٢).

(٢) الفَلُوُّ: المُهرُ، وهو الصَّغيرُ من أولادِ الفَرَسِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه فُصِلَ وعُزِلَ عن أمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٣) الفَصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِلَ مِن إرضاعِ أمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٤) رواه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤)، واللفظ له.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا وَضَح أنَّه لا زيادةَ إلَّا فيما يَزيدُه اللهُ، ولا خيرَ إلَّا فيما يختارُه اللهُ، فكان ذلك مُزَهِّدًا في زيادةِ الاعتناءِ بطَلَبِ الدُّنيا- بيَّن ذلك بطريقٍ لا أوضحَ منه، فقال[١]:

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خَلَقكم مِنَ العَدَمِ، ثمَّ رَزَقكم وأنتم لا تَملِكونَ شَيئًا، ثمَّ يميتُكم مِن بعدِ حَياتِكم، ثمَّ يُحييكم للبَعثِ يومَ القيامةِ[٢].

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ﴾.

أي: هل مِن آلهتِكم -أيُّها المُشرِكونَ- مَن يَقدِرُ على فِعلِ شَيءٍ مِن ذلك[٣]؟

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

أي: تنزَّه اللهُ وتقدَّسَ وتعالى عن شِركِ هؤلاءِ المُشرِكينَ[٤]!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ فاللهُ سُبحانَه لا يَقبَلُ إلَّا ما كان خالِصًا لِوَجهِه، لا رياءَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

فيه[١].

٢- قال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ مَن بَذَلَ مالَه مِن أجلِ الحُصولِ على أمْرِ الدُّنيا، فإنَّه لا أَجْرَ له في ذلك، تؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ ﴾ تَنبيهٌ على أهميَّةِ الإخلاصِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فيه سؤالٌ: ذُكِر الأقارِبُ بلَفظِ ﴿ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾، ولم يُذكَرِ المِسكينُ بلَفظِ (ذي المَسكَنة).

**الجوابُ**: ذلك لأنَّ القرابةَ لا تتجدَّدُ؛ فهي شيءٌ ثابتٌ، و (ذو كذا) لا يقالُ إلَّا في الثَّابتِ؛ فإنَّ مَن صدَرَ منه رأيٌ صائِبٌ مرَّةً، أو حصَلَ له جاهٌ يومًا واحِدًا، أو وُجِدَ منه فَضلٌ في وقتٍ؛ لا يقالُ: (ذو رأيٍ) و(ذو جاهٍ)، و(ذو فضلٍ)، وإذا دام ذلك له، أو وُجِدَ منه ذلك كثيرًا؛ يقالُ له: (ذو الرَّأيِ) و(ذو الفَضلِ)؛ فقال: ﴿ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ هذا حَقٌّ مُتأكِّدٌ ثابتٌ.

وأمَّا المَسكَنةُ فتطرَأُ وتَزولُ؛ ولهذا المعنى قال: ﴿مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ ﴾ [البلد: ١٦]؛ فإنَّ المسكينَ يدومُ له كَونُه ذا مَتربةٍ ما دامت مَسكَنتُه، أو يكونُ كذلك في أكثَرِ الأمرِ[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ المعطَى مالٌ، ويُقوِّي

---

(١) يُنظر: ((نظم الدر)) للبقاعي (١٥/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٣).

ذلك وقوعُ الآيةِ عَقِبَ قَولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ﴾[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ فيه سؤالٌ: خَصَّصَ اللهُ تعالى الأقسامَ الثَّلاثةَ بالذِّكرِ دونَ غَيرِهم، مع أنَّه تعالى ذكَرَ الأصنافَ الثَّمانيةَ في الصَّدَقاتِ؟

**الجوابُ**: أراد هاهنا بيانَ مَن يجِبُ الإحسانُ إليه على كُلِّ مَن له مالٌ، سواءٌ كان زكَويًّا أو لم يكُنْ، وسواءٌ كان بعد الحَولِ أو قَبْلَه؛ لأنَّ المقصودَ هاهنا الشَّفَقةُ العامَّةُ، وهؤلاء الثَّلاثةُ يجِبُ الإحسانُ إليهم وإنْ لم يكُنْ للمُحسِنِ مالٌ زائدٌ؛ أمَّا القريبُ فتَجِبُ نفقَتُه وإن كان لم تجِبْ عليه زكاةٌ، كعَقارٍ أو مالٍ لم يَحُلْ عليه الحَولُ، والمِسكينُ كذلك؛ فإنَّ مَن لا شيءَ له إذا بَقِيَ في ورطةِ الحاجةِ حتى بلَغ الشِّدَّةَ، يجِبُ على مَن له مَقدِرةٌ دَفعُ حاجتِه، وإن لم يكُنْ عليه زكاةٌ، وكذلك من انقطعَ في مَفازةٍ ومع آخَرَ دابَّةٌ يُمكِنُه بها إيصالُه إلى مَأمَنٍ، يلزَمُه ذلك وإنْ لم تكُنْ عليه زكاةٌ، والفَقيرُ داخِلٌ في المِسكينِ؛ لأنَّ مَن أوصى للمساكينِ شَيئًا، يُصرَفُ إلى الفُقَراءِ أيضًا، وإذا نظَرْتَ إلى الباقينَ مِن الأصنافِ رأيتَهم لا يجِبُ صَرفُ المالِ إليهم إلَّا على الذين وَجَبَت الزكاةُ عليهم، واعتُبِرَ ذلك في العامِلِ، والمُكاتَبِ، والمؤلَّفةِ، والمَديونِ[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ لم يَذكُرْ غَيرَه مِن الأفعالِ، كالصَّلاةِ وغَيرِها؟

**الجوابُ**: الصَّلاةُ مَذكورةٌ مِن قَبلُ؛ لأنَّ الخِطابَ هاهنا بقَولِه: ﴿فَآتِ﴾ مع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم، وغَيرُه تَبَعٌ، وقد قال له مِن قَبلُ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم: ٣٠]، وقال: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾[١] [الروم: ٣١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ إثباتُ الوَجهِ للهِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مَن فَعَلَ مثلَ هذه الأمورِ لله، فإنَّه سوف يرى اللهَ عزَّ وجلَّ ويلقاه، كما ثبت ذلك في الكِتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ السَّلَفِ: أنَّ المُؤمِنينَ يَرَونَ ربَّهم كما يَرَونَ القَمَرَ ليلةَ البَدرِ[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ ﴾ فيه أنَّ كُلَّ ما لا يَربو عندَ اللهِ، فهو ممحوقٌ لا وُجودَ له، فمآلُه إلى فَناءٍ وإن كَثُرَ[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ ﴾ عبَّرَ عنها بذلك؛ لِيُفيدَ الطَّهارةَ والزِّيادةَ، أي: تُطهِّرونَ بها أموالَكم مِنَ الشُّبَهِ، وأبدانَكم مِن موادِّ الخبَثِ، وأخلاقَكم مِنَ الغِلِّ والدَّنَسِ[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾ لَمَّا كان الإخلاصُ عزيزًا، أشار إلى عَظَمتِه بتكريرِه، بقَولِه عَزَّ وجَلَّ: ﴿تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾، وقد قال في الآيةِ التي قبلَه: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ﴾[٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ الصَّدَقةَ تزيدُ المالَ[١]، وذلك على أحدِ القولينِ في الآيةِ.

١١- إنَّ مَن تَفرَّدَ بخَلقِ العَبدِ وبهِدايتِه، وبرزقِه وإحيائِه وإماتتِه في الدُّنيا، وبمَغفرةِ ذُنوبِه في الآخرةِ: مُستَحِقٌّ أنْ يُفرَدَ بالإلهيَّةِ والعبادةِ، والسُّؤالِ والتضَرُّعِ إليه، والاستكانةِ له؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ فاءُ التَّفريعِ تُفيدُ أنَّ الكلامَ بعْدَها مُترتِّبٌ على الكلامِ الذي قبْلَها، وقدِ اشتمَلَ الكلامُ قبْلَها على لَحاقِ آثارِ رَحمةِ اللهِ بالنَّاسِ، وإصابةِ السُّوءِ إيَّاهم، وعلى أنَّ ما يُصِيبُهم مِن السُّوءِ بما قدَّمَتْ أيدي النَّاسِ، وذُكِرَ بسْطُ الرِّزقِ وتقْديرُه، وتضمَّنَ ذلك أنَّ الفرَحَ يُلْهِيهم عن الشُّكرِ، وأنَّ القُنوطَ يُلْهِيهم عن المُحاسَبةِ في الأسبابِ؛ فكان الأمْرُ بإيتاءِ الضُّعفاءِ والمنكوبينَ إرشادًا إلى وسائلِ شُكرِ النِّعمةِ عندَ حُصولِها شُكْرًا مِن نَوعِها واستكشافِ الضُّرِّ عندَ نُزولِه، وإلى أنَّ مِن الحقِّ التَّوسعةَ على المُضيَّقِ عليهم الرِّزقُ، كما يُحِبُّ أنْ يُوسَّعَ عليه رِزْقُه[٣].

- وفي قولِه: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ قُدِّمَ ذُو القُرْبى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٢).

على المسكينِ وابنِ السَّبيلِ؛ للاهتِمامِ به؛ لأنَّ بِرَّه صَدقةٌ وصِلَةٌ[١]، ولَمَّا كان المِسكينُ حاجتُه ليست مختَصَّةً بمَوضِعٍ، كان مُقَدَّمًا على مَن حاجتُه مختَصَّةٌ بموضِعٍ دونَ مَوضِعٍ[٢].

- والتعبيرُ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾؛ للتَّنويهِ بالمأْمورِ به[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ صِيغَةُ قَصْرٍ مِن أجْلِ ضَميرِ الفَصْلِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[٤]، أي: أولئك المُتفرِّدونَ بالفلاحِ، وهو نجاحُ عَمَلِهم في إيتاءِ مَن ذُكِرَ لوجْهِ اللهِ تعالى لا للرِّياءِ والفخْرِ، فمَن آتَى للرِّياءِ والفخْرِ فلا فلاحَ له مِن إيتائِه[٥].

- وبيْن قولِه: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ وقولِه: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ ...﴾ مُقابَلَةٌ، وممَّا يدلُّ على أنَّ الآيتَينِ مُتقابلتانِ: تَكريرُ ﴿يُرِيدُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩١، ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٤).

(٤) القَصرُ الإضافي: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه، أو ادَّعاه المقصود بالكلامِ، أو إزالة شكِّه وترددِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حولَ احتمالينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

وينظر ما تقدم في تعريف القصر (ص: ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٤، ١٠٥).

وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ فيهما، وتَخصيصُ كلٍّ مِن الآيتينِ باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على أنَّ ما قبْلَه جَديرٌ بما بعْدَه؛ لأجْلِ ذِكْرِ مُوجِبِه(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ (ما) شرطيَّةٌ تُفيدُ العُمومَ، فالجُملةُ مُعترِضةٌ بعدَ جُملةِ ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ [الروم: ٣٨] إلخ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، ومَضمونُ هذه الجُملةِ بمَنزلةِ الاستدراكِ؛ للتَّنبيهِ على إيتاءِ مالٍ هو ذَميمٌ. وجِيءَ بالجُملةِ شرطيَّةً؛ لأنَّها أنسَبُ بمَعنى الاستدراكِ على الكلامِ السَّابقِ(٢).

- قولُه: ﴿ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ ﴾، أي: تَحصُلُ فيه زِيادةٌ تكونُ أموالُ النَّاسِ ظرْفًا لها؛ فهو كِنايةٌ عن أنَّ الزِّيادةَ التي يأخُذُها المُرْبِي مِن أموالِهم لا يَملِكُها أصْلًا(٣).

- ومعنى ﴿ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أنَّه عمَلٌ ناقصٌ عندَ اللهِ غيرُ زاكٍ عِنده، والنَّقصُ يُكْنى به عن المَذمَّةِ والتَّحقيرِ(٤).

- قولُه: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴾ فيه التعبيرُ باسمِ الإشارةِ (أولئك)؛ للتَّنويهِ بهؤلاء، والدَّلالةِ على أنَّهم أحْرياءُ بالفلاحِ. وكذلك اسمُ الإشارةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ اقْتضاهُ مَقامُ اجتلابِ اسمِ الإشارةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٠٦، ١٠٧).

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾، أي: ذوو الأضْعافِ مِن الثَّوابِ، أو الذين ضَعَّفوا ثوابَهم وأموالَهم بالبركةِ، وفي تَغْييرِ النَّظمِ الكريمِ والالْتِفاتِ ما لا يَخْفى مِن المُبالَغةِ والتَّعظيمِ؛ كأنَّه خاطَبَ به الملائكةَ وخواصَّ الخلْقِ تَعريفًا لحالِهم: فأولئك الذين يُريدون وجْهَ اللهِ بصَدقاتِهم، همُ المُضْعِفون؛ فهو أمدَحُ لهمْ مِن أنْ يقولَ: (فأنتم المُضعِفون)؛ لأنَّه إذا التفَتَ إلى الغيرِ شاكرًا لِصَنيعِهم، واستِحمادًا منه لهم، وترْغيبًا له فيما نالوا به هذه المَنزِلةَ؛ كان أبلَغَ وأنبَلَ ممَّا لو قال لهم: فأنتُم المُضعِفون. أو للتَّعميمِ؛ كأنَّه قال: فمَن فعَلَ ذلك ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾. وأيضًا فيه إشعارٌ بأنَّ أولئك مُحِقُّون بأنْ يَكونوا مُضعِفينَ؛ لاكتسابِهم تلك الفضيلةَ، وليس في (فأنتم المُضعِفون) مِن ذلك شَيءٌ[1].

- وضَميرُ الفصْلِ (هم) في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ لِقَصْرِ جِنسِ المُضْعِفينَ على هؤلاء، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ للمُبالَغةِ؛ لعَدَمِ الاعتدادِ بإضعافِ مَن عَداهم؛ لأنَّ إضعافَ مَن عَداهم إضعافٌ دُنيويٌّ زائلٌ[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

استئنافٌ ممَّا أُقيمَ عليه دلائلُ انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في النَّاسِ، وإبطالِ ما زَعَموه مِن الإشراكِ في الإلهيَّةِ، مُؤكِّدًا بالإنكارِ على ما دلَّ عليه البُرهانُ والعِيَانُ، ووقَعَ عليه الوِفاقُ، ثمَّ اسْتنتَجَ مِن ذلك تقدُّسَه عن أنْ يكونَ له شُركاءُ، فقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٦).

﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. وفيه إدماجٌ[١] للاستدلالِ على وُقوعِ البعثِ[٢].

- قولُه: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ في مَعنى النَّفيِ؛ ولذلك زِيدَت (مِن) الدَّالَّةِ على تَحقيقِ نفْيِ الجِنسِ كلِّه في قولِه: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾. والمعنى: ما مِن شُركائِكم مَن يَفعَلُ شيئًا مِن ذلِكُم؛ فـ (مِن) الأُولى بَيانيَّةٌ هي بَيانُ الإبهامِ الذي في ﴿مَّن يَفْعَلُ﴾، فيكونُ ﴿مَّن يَفْعَلُ﴾ مُبتدأً، وخبَرُه مَحذوفٌ دلَّ عليه الاستفهامُ، تقديرُه: حصَلَ، أو وُجِدَ، أو هي تَبعيضيَّةٌ صِفَةٌ لِمُقدَّرٍ، أي: هلْ أحدٌ مِن شُركائِكم. و(مِن) الثَّانيةُ في قولِه: ﴿مِن ذَٰلِكُم﴾ تَبعيضيَّةٌ في مَوضعِ الحالِ ﴿مِّن شَيْءٍ﴾. و(مِن) الثَّالثةُ زائدةٌ لاستغراقِ النَّفيِ، وكلٌّ منها مُستقِلَّةٌ بتأْكيدٍ؛ لتَعجيزِ الشُّركاءِ وتَجهيلِ عَبَدتِهم[٣]. وقيل: هو استفهامٌ على جِهَةِ التَّقريرِ لهم والتَّوبيخِ[٤].

- قولُه: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيْءٍ﴾ إضافةُ (شُركاء) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ مِن المُشركينَ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ همُ الذين خَلَعوا على الأصنامِ وصْفَ الشُّركاءِ للهِ؛ فكانوا شُركاءَ بزَعْمِ المُخاطَبينَ، وليسوا شُركاءَ في نفْسِ الأمْرِ، وهذا جارٍ مَجْرى التَّهكُّمِ[٥].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٧، ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٨).

- وجُملةُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ مُستأْنفةٌ لإنشاءِ تَنزيهِ اللهِ تعالى عن الشَّريكِ في الإلهيَّةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الْتفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ باقْتضاءِ ذِكْرِ قَبائحِهم للإعراضِ عنهم، وطَرْحِهم عن رُتبةِ الخِطابِ[٢].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يُشْرِكُونَ﴾؛ لِمَا في الشِّركِ مِن الغَرابةِ، أو للإشعارِ باستمرارِه وتجدُّدِه منهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٧).

## الآيات (٤١-٤٥)

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْقَيِّمِ﴾: أي: المستقيمِ الَّذي لا عِوجَ فيه، وأصلُ (قوم) هنا: يدلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ[1].

﴿يَصَّدَّعُونَ﴾: أي: يتَفَرَّقونَ فيَصيرونَ فريقًا في الجنَّةِ وفريقًا في السَّعيرِ، وأصلُ (صدع): يدُلُّ على انفراجٍ في شَيءٍ[2].

﴿يَمْهَدُونَ﴾: أي: يُهَيِّئونَ ويُوطِّئونَ، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على توطئةٍ وتَسهيلٍ للشَّيءِ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا الآثارَ السَّيئةَ التي تترتَّبُ على الكفرِ والمعاصي: ظهرَ الجَدْبُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٤١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٤).

وقِلَّةُ النَّباتِ ومَحْقُ البركاتِ وكَثرةُ الشُّرورِ في بَرِّ الأرضِ وبَحرِها؛ بسبَبِ وُقوعِ النَّاسِ في الشِّركِ والمعاصي؛ جزاءً لهم على بَعضِ ذُنوبِهم؛ لعلَّهم يتوبونَ إليه سُبحانَه ويَرجِعونَ إليه.

ثمَّ يأمرُ الله نبيَّه أن يلفتَ الأنظارَ إلى سوءِ عاقبةِ المشركينَ، فيقول: قلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: سيروا في الأرضِ، فانظُروا كيف كانت نهايةُ المكَذِّبينَ مِن قَبلِكم، كان أكثَرُهم مُشرِكينَ؛ فأهلَكَهم اللهُ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى نبيَّه بالثباتِ على الحقِّ، مؤكدًا عليه، فيقولُ: فانصِبْ قَصْدَك وأقبِلْ على دينِ الإسلامِ المُستقيمِ الذي لا اعوِجاجَ فيه، من قَبلِ أن يأتيَ يَومُ القيامةِ الذي لا يَقدِرُ أحَدٌ على رَدِّه؛ ذلك اليومُ الذي يتفَرَّقُ النَّاسُ فيه إلى فريقينِ: فريقٍ في الجنَّةِ، وفريقٍ في النَّارِ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى الفريقينِ فيقولُ: من كفَرَ باللهِ فإثمُ كُفرِه واقعٌ عليه، ومن عَمِلَ عَملًا صالِحًا فإنَّما يُهَيِّئونَ ويُوطِّئونَ لأنفُسِهم منازِلَهم في الجنَّةِ؛ لِيَجزيَ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ ثوابًا حَسَنًا مِن فَضلِه، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافرينَ به.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّنَ اللهُ سُبحانَه مِن حَقارةِ شُرَكائِهم ما كان حقُّهم به أن يَرجِعوا، فلم يَفعَلوا؛ أتبَعَه ما أصابَهم به على غيرِ ما كان في أسلافِهم؛ عُقوبةً لهم على قَبيحِ

ما ارتكَبوا؛ استِعطافًا للتَّوبةِ[١].

وأيضًا فوَجهُ تعلُّقِ هذه الآيةِ بما قَبْلَها هو أنَّ الشِّركَ سَبَبُ الفسادِ، كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وإذا كان الشِّركُ سَبَبَه، جَعَلَ اللهُ إظهارَهم الشِّركَ مُورِثًا لِظُهورِ الفَسادِ[٢].

﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾.

أي: ظَهَر نَقصُ الخَيراتِ، وفِقدانُ المنافِعِ ومَحقُ البَرَكاتِ، وكَثرةُ الشُّرورِ وحُدوثُ المضارِّ والآفاتِ: في بَرِّ الأرضِ وبَحرِها؛ بسَبَبِ وُقوعِ النَّاسِ في الشِّركِ والكُفرِ والظُّلمِ، وارتكابِهم الذُّنوبَ والمعاصِيَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٣٢)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٦٤، ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٤، ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٠ - ١١٢).

قيل: المرادُ بظُهورِ الفسادِ: قحطُ المطرِ، ونقصُ الثِّمارِ. ﴿فِى ٱلْبَرِّ﴾ حيثُ لا يجري نهرٌ، وهو البَوادي، ﴿وَٱلْبَحْرِ﴾ وهو كلُّ قريةٍ على ماءٍ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٠).

قال ابن جُزَي: (﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قيل: البَرُّ: البلادُ البعيدةُ مِنَ البحرِ، والبحرُ: هو البلادُ الَّتي على ساحِلِ البحرِ... والصَّحيحُ أنَّ البَرَّ والبحرَ المعروفانِ؛ فظُهورُ الفسادِ في البَرِّ بالقَحطِ والفِتَنِ وشِبهِ ذلك، وظُهورُ الفسادِ في البحرِ بالغرَقِ وقِلَّةِ الصَّيدِ وكَسادِ التِّجاراتِ وشبهِ ذلك، وكلُّ ذلك بسببِ ما يَفعَلُه النَّاسُ مِن الكفرِ والعِصيانِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٤).

وقال السعدي: (أي: فسادُ مَعايشِهم ونقْصُها، وحُلولُ الآفاتِ بها، وفي أنفُسِهم مِن الأمراضِ والوباءِ وغيرِ ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

أي: ابتلاهم اللهُ بنَقصِ الخيراتِ وغَيرِها مِن أنواعِ الفَسادِ؛ جزاءً لهم على بَعضِ ذُنوبِهم[1]، لعلَّهم يتوبونَ إليه، ويَترُكونَ الكُفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ

---

= وقيل: المرادُ: ظهَرَتْ مَعاصي الله في كلِّ مكانٍ؛ مِن برٍّ وبحرٍ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٩٤).

قال ابن القيِّم: (والظَّاهرُ -والله أعلَمُ- أنَّ الفَسادَ المرادُ به: الذُّنوبُ ومُوجباتُها، ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، فهذا حالُنا، وإنَّما أذاقَنا الشَّيءَ اليسيرَ مِن أعمالِنا، ولو أذاقنا كلَّ أعمالِنا لَما ترَكَ على ظَهرِها مِن دابَّةٍ). ((الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)) (ص: ٦٥).

وقال الشوكاني: (والظَّاهرُ مِن الآيةِ ظُهورُ ما يصِحُّ إطلاقُ اسمِ الفسادِ عليه؛ سواءٌ كان راجعًا إلى أفعالِ بني آدَمَ مِن معاصيهم، واقترافِهم السَّيِّئاتِ، وتَقاطُعِهم وتَظالُمِهم وتَقاتُلِهم، أو راجعًا إلى ما هو مِن جهةِ الله سُبحانَه بسببِ ذُنوبِهم؛ كالقَحطِ، وكثرةِ الخَوفِ، والمُوتانِ [أي: الموت الكثير الوقوع]، ونُقصانِ الزَّرائعِ، ونُقصانِ الثِّمارِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

قال البقاعي: (ويعفو عن كثيرٍ إمَّا أصلًا ورأسًا، وإمَّا المعاجلةُ به، ويؤخِّرُه إلى وقتٍ ما في الدُّنيا، أو إلى الآخرةِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٥٦، ٢٥٧).

يَرۡجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُۚ كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ ٤٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُشرِكينَ بظُهورِ الفَسادِ في أحوالِهم؛ بسَبَبِ فَسادِ أقوالِهم؛ بيَّن لهم هلاكَ أمثالِهم وأشكالِهم الَّذين كانت أفعالُهم كأفعالِهم[1].

﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلُ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: سافِروا في الأرضِ، فانظُروا كيف كانت نهايةُ الأُمَمِ مِن قَبلِكم[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

﴿كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّشۡرِكِينَ﴾.

أي: كان أكثَرُ الأُمَمِ الماضيةِ مُشرِكينَ، فعاقِبَتُهم كانت شَرَّ العواقِبِ؛ إذ أهلَكَهم اللهُ؛ فاحذَروا أن تَفعَلوا كأفعالِهم، فيُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم[3].

﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۖ يَوۡمَئِذٖ يَصَّدَّعُونَ ٤٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٤).
قال السعدي: (الأمرُ بالسَّيرِ في الأرضِ يَدخُلُ فيه السَّيرُ بالأبدانِ، والسَّيرُ في القلوبِ لِلنَّظرِ والتَّأمُّلِ بعواقِبِ المُتقدِّمينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٦٣، ٢٦٤).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نهى اللهُ تعالى الكافِرَ عمَّا هو عليه، أمَرَ المؤمِنَ بما هو عليه، وخاطَبَ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيَعلَمَ المؤمِنُ فَضيلةَ ما هو مُكَلَّفٌ به؛ فإنَّه أمَرَ به أشرَفَ الأنبياءِ، وللمُؤمِنينَ في التَّكليفِ مَقامُ الأنبياءِ[1].

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: فانصِبْ قَصْدَك، وأقبِلْ بقَلبِك على دينِ الإسلامِ الذي جعَلَه اللهُ مُعتَدِلًا مُستقيمًا لا اعوِجاجَ فيه، وبادِرْ إلى العَمَلِ بأوامِرِه واجتِنابِ نواهيه مِن قَبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الذي لا يُمكِنُ ردُّ مَجيئِه[2].

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه إبراهيمَ: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾.

أي: يومَ القيامةِ يتفَرَّقُ النَّاسُ فريقَينِ: فريقٌ في الجنَّةِ، وفريقٌ في النَّارِ[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٧٠، ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٤).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴾ [الروم: ١٤ - ١٦].

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ ﴾.

أي: مَن كفَرَ باللهِ فإنَّما وَبالُ كُفرِه واقِعٌ عليه، ولا يَضُرُّ بكُفرِه إلَّا نَفْسَه[١].

﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ ﴾.

أي: ومَن عَمِلَ عَمَلًا صالحًا بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابعةٍ لِشَرعِه، فإنَّما يُهَيِّئونَ لأنفُسِهم النَّجاةَ مِنَ النَّارِ، والفَوزَ بالجنَّةِ[٢].

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر زيادةَ تَفصيلٍ لِما يُمَهِّدُه المؤمِنُ لِفعلِه الخيرَ وعَمَلِه الصَّالحِ، وهو الجزاءُ الَّذي يُجازيه به اللهُ، والمَلِكُ إذا كان كبيرًا كريمًا، ووعَدَ عَبدًا مِن عبادِه بأنِّي أُجازيك؛ يَصِلُ إليه منه أكثَرُ ممَّا يتوقَّعُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سور الروم)) (ص: ٢٧٤).

قال البقاعي: (﴿يَمۡهَدُونَ ﴾ أي: يُسَوُّونَ ويُوطِّئونَ مَنازِلَ في القُبورِ والجنَّةِ، بل وفي الدُّنيا؛ فإنَّ اللهَ يُعِزُّهم بعِزِّ طاعتِه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦).

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

أي: لِيَجزيَ[1] اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ ثوابًا حَسَنًا كريمًا مِن فَضْلِه[2].

كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الكافِرينَ به؛ بسَبَبِ كُفرِهم، وهو مُعاقِبُهم سُبحانَه بعَدلِه[3].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فيه أنَّ النَّاسَ لا يُعاقَبون إلَّا بكسبِهم؛

---

(١) قيل: قَولُه سُبحانَه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ مُتعلِّقٌ بِقَولِه تعالى: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكي، وابن عطية، وأبو السعود، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٦٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١١).

وقيل: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلق بـ ﴿يَمْهَدُونَ﴾. وممَّن اختاره: الزمخشري، والقرطبي، والنسفي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٧٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٥٠).

وقيل: هو متعلِّقٌ بـ «يأتي» في قَولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ﴾. وقيل: هو خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: ذلك. والمشارُ إليه ما سبق. واستحسن ابنُ عثيمين هذين القولين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٧٨-٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١١، ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٢٨٤، ٢٨٥).

فيتفَرَّعُ على ذلك أنَّ مَن أراد أنْ تُرفَعَ عنه العُقوبةُ فليَتُبْ إلى الله؛ فإنَّ التوبةَ مِن أسباب رَفْعِ العُقوبةِ وجَلْبِ المَثوبةِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ أي: أقبِلْ بقَلبِك، وتوجَّهْ بوَجهِك، واسْعَ ببَدَنِك؛ لإقامةِ الدِّينِ القَيِّمِ المُستقيمِ؛ فنفِّذْ أوامِرَه ونواهِيَه بجِدٍّ واجتِهادٍ، وقُمْ بوظائِفِه الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وبادِرْ زَمانَك وحياتَك وشبابَك ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ وهو يومُ القيامةِ الذي إذا جاء لا يُمكِنُ ردُّه، ولا يُرجَأُ العامِلونَ أن يَستأنِفوا العَمَلَ، بل فُرِغَ مِنَ الأعمالِ لم يَبْقَ إلَّا جزاءُ العُمَّالِ(٢)!

٣- قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ ينبغي لِمَن أَمَرَ بشَيءٍ أنْ يَذكُرَ ما يُغري به ويُرَغِّبُ فيه؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿ٱلْقَيِّمِ﴾؛ فالإنسانُ إذا عَرَفَ أنَّ الدِّينَ قَيِّمٌ، لا شَكَّ أنَّه يتَّجِهُ إليه، فأنت إذا أردْتَ أنْ تأمُرَ بشَيءٍ فاذكُرِ الأسبابَ التي تُوجِبُ للنَّاسِ الإقبالَ عليه بأوصافِه المحبوبةِ، وثَمَراتِه الحَميدةِ(٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن آثارِ الذُّنوبِ والمعاصي أنَّها تُحدِثُ في الأرضِ أنواعًا مِن الفَسادِ؛ في المياهِ والهواءِ، والزَّرعِ والثِّمارِ والمساكِنِ؛ قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٤)- فالفسادُ سببُه أعمالُ بني آدمَ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٥٧).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ الرَّجاءُ المُستفادُ مِن (لعلَّ) يُشيرُ إلى أنَّ ما ظهَرَ مِن فسادٍ: كافٍ لإقلاعِهم عمَّا اكتَسَبوه، وأنَّ حالَهم حالُ مَن يُرجَى رُجوعُه؛ فإنْ هم لم يرجِعوا فقد تبيَّنَ تمرُّدُهم وعَدَمُ إجداءِ الموعِظةِ فيهم، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1] [التوبة: ١٢٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ، وأنَّ أفعالَ اللهِ عزَّ وجلَّ معلَّلَةٌ لا بُدَّ لها مِن علَّةٍ؛ تُؤخذُ هذه مِن قَولِه سُبحانَه: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، ولا شكَّ أنَّ أفعالَ اللهِ تعالى وأحكامَه مُعلَّلَةٌ؛ لأنَّ مِن أسمائِه الحكيمَ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، وبقَدْرِ العَمَلِ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ أنَّ العُقوباتِ قد تكونُ سَببًا في الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى[4].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴾ أنَّ أسبابَ هلاكِ الأُممِ السَّابِقينَ إشراكُ أكثرِهم[5].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

قال: ﴿فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ ولم يُبيِّنْ، وقال في المؤمِن: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ تحقيقًا لِكَمالِ الرَّحمةِ؛ فإنَّه عندَ الخيرِ بيَّنَ وفصَّلَ؛ بِشارةً، وعندَ غيرِه أشار إليه إشارةً[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ قال: ﴿فَعَلَيۡهِ﴾ فوحَّد الضَّميرَ، وقال: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾ فجمَعَه؛ إشارةً إلى أنَّ الرحمةَ أعَمُّ مِن الغَضَبِ، فتَشمَلُه وأهلَه وذُرِّيَّتَه، أمَّا الغَضَبُ فمَسبوقٌ بالرَّحمةِ، لازِمٌ لِمن أساء[٢]. وفيه ترغيبٌ في العملِ مِن غيرِ نظرٍ إلى مُساعِدٍ، وبأنَّه يَنفعُ نفْسَه وغيرَه؛ لأنَّ المؤمنَ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضًا، وأقَلُّ ما ينفَعُ والِدَيْهِ وشيخَه في ذلك العملِ[٣].

٩- قَولُه تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ فيه أنَّ الجزاءَ ليس واجبًا على اللهِ تعالى، لكِنَّه أوجَبَه على نفسِه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام: ٥٤]، فهو الذي أوجَبَه سُبحانَه[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إثباتُ صفةِ المحبَّةِ لله؛ لأنَّه إذا انتَفَتْ محبَّتُه عن الكافِرينَ لَزِمَتْ محبَّتُه للمُؤمِنينَ، فإنْ لم يكُنْ، لم يكُنْ فرْقٌ بين المؤمِنينَ وبينَ الكافِرينَ[٥]!

١١- أنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ بمُشتقٍّ فهو دليلٌ على أنَّ ذلك المُشتقَّ هو عِلَّةُ الحُكْمِ، وهذه فائدةٌ أصوليَّةٌ؛ مثلًا قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ العِلَّةُ هنا كُفْرُهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٤).

أي: أنَّ الحُكمَ بعَدَمِ حُبِّهم عُلِّقَ على وَصفٍ هو كُفرُهم؛ إذَن فالكُفرُ عِلَّةُ انتفاءِ المحبَّةِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

هذه الآيةُ مِن جوامعِ كَلِمِ القرآنِ، والمَقصِدُ منها هو الموعظةُ بالحوادثِ ماضِيها وحاضِرِها؛ للإقلاعِ عن الإشراكِ، وعن تَكْذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ هذه الآيةُ مُتَّصلةً بقولِه قبْلَها: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩] الآياتِ، فلمَّا طُولِبوا بالإقرارِ على ما رَأَوه مِن آثارِ الأُمَمِ الخاليةِ، أو أنكَرَ عليهم عدَمَ النَّظرِ في تلك الآثارِ؛ أتْبَعَ ذلك بما أدَّى إليه طريقُ المَوعظةِ مِن قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [الروم: ٢٧]، ومِن ذِكْرِ الإنذارِ بعَذابِ الآخِرةِ، والتَّذكيرِ بدَلائلِ الوَحدانيَّةِ ونِعَمِ اللهِ تعالى، وتَفْريعِ استحقاقِه تعالى الشُّكرَ لِذاتِه ولأجْلِ إنعامِه استِحقاقًا مُستقِرًّا إدراكُه في الفِطرةِ البشريَّةِ، وما تخلَّلَ ذلك مِن الإرشادِ والموعظةِ؛ عاد الكلامُ إلى التَّذكيرِ بأنَّ ما حلَّ بالأُمَمِ الماضيةِ مِن المصائبِ ما كان إلَّا بما كسَبَت أيدِيهم، أي: بأعمالِهم؛ فيُوشِكُ أنْ يحُلَّ مِثْلُ ما حلَّ بهم بالمُخاطَبين الذين كسَبَتْ أيدِيهم مِثْلَ ما كسَبَت أيدِي أولئك؛ فمَوقِعُ هذه الجُملةِ على هذا الوجْهِ مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٩).

مَجموعِ الاستِدلالِ، أو مَوقعُ الاستئنافِ البَيانيِّ، بتَقديرِ سُؤالٍ عن سببِ ما حلَّ بأولئك الأُمَمِ.

ويجوزُ أنْ تقَعَ هذه الآيةُ مَوقعَ التَّكملةِ لقولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم﴾ [الروم: ٣٣] الآيةَ، فهي خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّنديمِ على ما حلَّ بالمُكذِّبين المُخاطَبين مِن ضُرٍّ؛ لِيَعْلَموا أنَّ ذلك عِقابٌ مِن اللهِ تعالى، فيُقْلِعوا عنه؛ خَشيةَ أنْ يُحيطَ بهم ما هو أشدُّ منه، كما يُؤذِنُ به قولُه عقِبَ ذلك: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾؛ فالإتيانُ بلَفْظِ النَّاسِ في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِزيادةِ إيضاحِ المقصودِ، ومُقْتَضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (بما كسَبَت أيديهم)، فالآيةُ تُشِيرُ إلى مَصائبَ نزَلَتْ ببِلادِ المشركينَ، وعطَّلَت مَنافِعَها، ولعلَّها ممَّا نشَأَ عن الحرْبِ بينَ الرُّومِ وفارسَ، وكان العربُ مُنقسِمينَ بينَ أنصارِ هؤلاء وأنصارِ أولئك، فكان مِن جرَّاءِ ذلك أنِ انقطَعَت سُبلُ الأسفارِ في البرِّ والبحرِ، فتعطَّلَت التِّجارةُ، وقلَّتِ الأقواتُ بمكَّةَ والحجازِ، كما يَقْتضيهِ سَوقُ هذه الموعظةِ في هذه السُّورةِ المُفتتَحةِ بـ ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: ٢]؛ فمَوقعُ هذه الجُملةِ على هذا الوجْهِ مَوقعُ الاستِئنافِ البَيانيِّ لِسبَبِ مَسِّ الضُّرِّ إيَّاهم، حتَّى لَجَؤوا إلى الضَّراعةِ إلى اللهِ، وما بيْنها وبيْن جُملةِ ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾ [الروم: ٣٣] إلى آخِرِه، اعتراضٌ واستطرادٌ تخلَّلَ في الاعتراضِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ مَوقِعُها مَوقعَ الاعتراضِ بيْن ذِكْرِ ابتهالِ النَّاسِ إلى اللهِ إذا أحاط بهمْ ضُرٌّ، ثمَّ إعراضِهم عن عِبادتِه إذا أذاقَهم منه رحمةً، وبيْن ذِكْرِ ما حلَّ بالأُمَمِ الماضيةِ اعتراضًا يُنبِئُ أنَّ الفسادَ الذي يَظهَرُ في العالمِ ما هو إلَّا مِن جرَّاءِ اكتسابِ النَّاسِ، وأنْ لو اسْتَقاموا لكان حالُهم على صَلاحٍ.

وعلى هذه الوُجوهِ الثَّلاثةِ يكونُ الباءُ في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾

للعِوَضِ، أي: جزاءً لهم بأعمالِهم، كالباءِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، ويكونُ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ على معنى التَّعليلِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ بالفسادِ الشِّركَ، فتكونَ هذه الآيةُ مُتَّصلةً بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ﴾ إلى قولِه: ﴿هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الروم: ٤٠]، فتكونَ الجُملةُ إتْمامًا للاستدلالِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى؛ تَنْبيهًا على أنَّ اللهَ خلَقَ العالَمَ سالِمًا مِن الإشراكِ، وأنَّ الإشراكَ ظهَرَ بما كسَبَت أيدِي النَّاسِ مِن صَنيعِهم؛ فذِكْرُ البَرِّ والبحرِ لتَعميمِ الجِهاتِ، بمعنى: ظهَرَ الفسادُ في جميعِ الأقطارِ الواقعةِ في البَرِّ، والواقعةِ في الجزائرِ والشُّطوطِ، ويكون الباءُ في قولِه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ للسَّببيَّةِ، ويكون اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ لامَ العاقبةِ[1].

- قولُه: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ إسنادُ الكَسْبِ إلى الأيدِي جَرَى مَجْرى المَثلِ في فِعلِ الشَّرِّ والسُّوءِ مِن الأعمالِ كلِّها، دونَ خُصوصِ ما يُعمَلُ منها بالأيدِي؛ لأنَّ ما يَكسِبُه النَّاسُ يكونُ بالجوارحِ الظَّاهرةِ كلِّها، وبالحواسِّ الباطنةِ مِن العَقائدِ الضَّالَّةِ والأدواءِ النَّفْسيَّةِ[2]، ولأنه لَمَّا كان أكثَرُ الأفعالِ باليَدِ، أسنَدَ إليها ما يُرادُ به الجُملةُ، مُصَرِّحًا بعُمومِ كُلِّ ما له أهليَّةُ التحرُّكِ[3].

- والبعضيَّةُ في قولِه: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ تَبْعيضٌ للجزاءِ؛ فالمُرادُ بَعضُ الجزاءِ على جميعِ العمَلِ، لا الجزاءُ على بعضِ العمَلِ، أي: إنَّ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٩ - ١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٠٥).

يُذِيقُهم مِن العذابِ هو بَعضُ ما يَستحِقُّونه. وفي هذا تَهديدٌ إنْ لم يُقلِعوا عن مَساوي أعمالِهم، كقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥]. والعُدولُ عن أنْ يُقالَ: (بعضَ أعمالِهم) إلى ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى ما في الموصولِ مِن قوَّةِ التَّعريفِ، أي: أعمالُهم المَعروفةُ عندَهم، المُتقرِّرُ صُدورُها منْهم[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾

لَمَّا وعَظَهم بما أصابَهم مِن فسادِ الأحوالِ، ونبَّهَهم إلى أنَّها بعضُ الجزاءِ على ما كسَبَت أيدِيهم؛ عرَّضَ لهم بالإنذارِ بفَسادٍ أعظمَ قد يحُلُّ بهم مِثْلُه؛ وهو ما أصاب الذين مِن قبْلِهم بسبَبِ ما كانوا عليه مِن نَظيرِ حالِ هؤلاء في الإشراكِ، فأمَرَهم بالسَّيرِ في الأرضِ والنَّظرِ في مَصيرِ الأُمَمِ التي أشْرَكَت وكذَّبَت، مِثْلُ عادٍ، وثمودَ، وقومِ لُوطٍ، وغيرِهم؛ لأنَّ كثيرًا مِن المشركينَ قد اجْتازُوا في أسْفارِهم بدِيارِ تلك الأُمَمِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]؛ فهذا تَكريرٌ وتأْكيدٌ لقولِه السَّابقِ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، وإنَّما أُعِيدَ اهتمامًا بهذه العِبرةِ، مع مُناسبةِ قولِه: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾[2] [الروم: ٤١].

- وقولُه: ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئنافٌ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ما أصابَهم لِفُشوِّ الشِّركِ فيما بيْنَهم، أو كان الشِّركُ في أكثَرِهم، وما دُونه مِن المَعاصي في قَليلٍ منهم، أو أنَّ الشِّركَ وحْدَه لم يكُنْ سبَبَ تدْميرِهم، وأنَّ ما دُونه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١١٤).

المعاصي يكونُ سببًا لذلك[١].

- وحِين ذكَرَ امتنانَه قالَ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]، فذكَرَ الوجودَ، ثمَّ البَقاءَ بسَببِ الرِّزقِ. وحِينَ ذكَرَ خِذلانَهم بالطُّغيانِ، سلَب البقاءَ بإظهارِ الفسادِ، ثمَّ سلَب الوجودَ بالإهلاكِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ تَفرَّعَ على الإنذارِ والتَّحذيرِ مِن عواقبِ الشِّركِ تَثبيتُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على شَريعتِه، ووعْدٌ بأنْ يأْتِيَه النَّصرُ، مع التَّعريضِ بالإرشادِ إلى الخَلاصِ مِن الشِّركِ باتِّباعِ الدِّينِ القيِّمِ. وهذا تأْكيدٌ للأمْرِ بإقامةِ الوجْهِ للدِّينِ في قولِه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ [الروم: ٣٠]؛ فإنَّ ذلك لَمَّا فُرِّعَ على قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، وما اتَّصَلَ مِن تَسلسُلِ الحُجَجِ والمواعظِ؛ فُرِّعَ أيضًا نَظيرُه هذا على قولِه: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾[٣] [الروم: ٤٢].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا الأمْرِ: إعراضٌ عن صَريحِ خِطابِ المشركينَ، والمَقصودُ التَّعريضُ بأنَّهم حَرَموا أنفُسَهم مِن اتِّباعِ هذا الدِّينِ العَظيمِ الذي فيه النَّجاةُ؛ يُؤخَذُ هذا التَّعريضُ مِن أمْرِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالدَّوامِ على الإسلامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٤، ١١٥).

ومِن قولِه عَقِبَ ذلك: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾[١].

- قولُه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ يَتعلَّق بـ ﴿يَأْتِيَ﴾؛ والمعنَى: مِن قبْلِ أنْ يأتِيَ مِن اللهِ يومٌ لا يرُدُّه أحدٌ. وقيل: يتعلَّقُ بـ ﴿مَرَدَّ﴾، على معنَى: لا يرُدُّه هو بعْدَ أنْ يَجيءَ به، ولا رَدَّ له مِن جِهَتِه. والوجْهُ الأوَّلُ أبلَغُ؛ لإطلاقِ الرَّدِّ وتَفخيمِ اليومِ، وأنَّ إتْيانَه مِن جِهَةِ عظيمٍ قادرٍ ذي سُلطانٍ قاهرٍ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

هذه الجُملةُ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ البَيانِ لإجمالِ الجُملةِ التي قبْلَها، وهي ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]؛ إذ التَّثبيتُ على الدِّينِ بعدَ ذِكْرِ ما أصاب المُشركينَ مِن الفسادِ بسَببِ شِركِهم يَتضمَّنُ تَحْقيرَ شأْنِهم عندَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ، فبيَّن ذلك بأنَّهم لا يَضُرُّون بكُفْرِهم إلَّا أنفُسَهم، والذي يَكشِفُ هذا المعنى تقْديمُ المُسنَدِ في قولِه: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾؛ فإنَّه يُفيدُ تَخصيصَه بالمُسنَدِ إليه، أي: فكُفْرُه عليه لا عليكَ ولا على المؤمنينَ، ولهذا ابتُدِئَ بذِكْرِ حالِ مَن كفَرَ، ثمَّ ذكَرَ بعْدَه مَن عمِلَ صالحًا[٣].

- وهذا التَّركيبُ ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ مِن جوامعِ الكَلِمِ؛ لدَلالتِه على ما لا يُحْصى مِن المَضارِّ في الكفْرِ على الكافرِ، وأنَّه لا يَضُرُّ غيرَه، مع تَمامِ الإيجازِ، وهو وعيدٌ؛ لأنَّه في معنى: مَن كفَرَ فجزاؤهُ عِقابُ اللهِ، فاكْتُفِيَ عن التَّصريحِ بذلك؛ اكتفاءً بدَلالةِ (على) مِن قولِه: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾، وبمُقابَلةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦).

حالِهم بحالِ مَن عمِلَ صالحًا بقولِه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[1] [الروم: ٤٥].

- وتَقديمُ الظَّرفِ في الموضعينِ ﴿فَعَلَيْهِ﴾ ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختِصاصِ، أي: أنَّ ضرَرَ الكفْرِ لا يَعودُ إلَّا على الكافرِ لا يتعدَّاهُ. ومَنفعةُ الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ تَرجِعُ إلى المؤمنِ لا تَتجاوَزُه. وقِيل: التَّقديمُ للاهتمامِ، وليس للاختصاصِ[2].

- وأيضًا اقْتَضى حرْفُ الاستعلاءِ (على) في قولِه: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أنَّ في الكفْرِ تَبعةً وشِدَّةً وضرًّا على الكافرِ؛ لأنَّ (على) تَقْتضي ذلك في مِثْلِ هذا المقامِ، كما اقْتَضى اللَّامُ في قولِه: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ أنَّ لِمَجْرورِها نفْعًا وغَنْمًا[3].

- وأفرَدَ ضَميرَ كلمةِ ﴿كُفْرُهُۥ﴾؛ رعْيًا لِلَفْظِ (مَن)[4].

- قولُه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ بَيانٌ لِمَا في جُملةِ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ [الروم: ٤٣]؛ مِن الأمْرِ بمُلازَمةِ التَّحلِّي بالإسلامِ، وما في ذلك مِن الخيرِ العاجلِ والآجلِ، مع ما تَقْتضيهِ عادةُ القرآنِ مِن تَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ، والتَّرهيبِ بالتَّرغيبِ؛ فهو كالتَّكملةِ للبَيانِ. وإنَّما قُوبِلَ ﴿مَن كَفَرَ﴾ بـ (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا)، ولم يُقابَلْ: بـ (مَن آمَنَ)؛ للتَّنويهِ بشأْنِ المؤمنينَ بأنَّهم أهلُ الأعمالِ الصَّالحةِ دونَ الكافرينَ، فاسْتُغْنِيَ بذِكْرِ العملِ الصَّالحِ عن ذِكْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٩٦، ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦).

الإيمانِ؛ لأنَّه يَتضمَّنُه، ولِتَحريضِ المؤمنينَ على الأعمالِ الصَّالحةِ(١).

- وأظهرَ قَولَه تعالى ﴿صَٰلِحًا﴾، ولم يُضمِرْ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ عَودُ الضَّميرِ على مَن كَفَر، وبشارةً بأنَّ أهلَ الجنَّةِ كَثيرٌ، وإن كانوا قليلًا؛ لأنَّ الله تعالى هو مَولاهم، فهو مُزكِّيهم(٢).

- وقولُه: ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ فيه تَقديمُ ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ﴾ على ﴿يَمۡهَدُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، مع الاهتمامِ بذِكْرِ أنفُسِ المؤمنينَ؛ لأنَّ قَرينةَ عدَمِ الاختصاصِ واضحةٌ. ورُوعِيَ في جمْعِ ضَميرِ ﴿يَمۡهَدُونَ﴾ معنَى (مَن) دونَ لَفْظِها، مع ما تَقْتَضِيه الفاصلةُ مِن ترْجيحِ تلك المُراعاةِ(٣).

٥- قَولُه تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يَمۡهَدُونَ﴾، وهو تَعليلٌ له(٤).

- وعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾؛ للاهتمامِ بالتَّصريحِ بأنَّهم أصحابُ صِلَةِ الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ، وأنَّ جزاءَ اللهِ إيَّاهم مُناسِبٌ لذلك؛ لِتَقريرِ ذلك في الأذهانِ، مع التَّنويهِ بوَصْفِهم ذلك بتَكريرِه وتَقريرِه، كما أنبَأَ عن ذلك قولُه عَقِبَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ المُقْتضي أنَّه يُحِبُّ الذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٦، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٩)، ((حاشية =

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ تقْريرٌ بعدَ تَقريرٍ، على الطَّردِ والعكْسِ؛ فإنَّه تعالى قال أوَّلًا: ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾، ثمَّ علَّلَه بقولِه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾، وكان مِن حقِّ الظَّاهرِ: (لِيَجْزِيَهم)؛ فوُضِعَ المُظهَرُ مَوضِعَ المُضمَرِ إشعارًا بالعِلِّيَّةِ، وأنَّ الإيمانَ والعمَلَ آذَنَا بأنَّ اللهَ وليُّ صاحبِهما، حيث يَجْزِيه مِن فضْلِه؛ فيكونُ مَفهومُ ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ الموافقُ: أنَّه يُحِبُّ المؤمنَ الصَّالحَ، ومَفهومُه المُخالِفُ: أنَّه لا يُحِبُّ الكافرَ، فقولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بمَنطوقِه مُقرِّرٌ لِمَفهومِ السَّابقِ، وبالعكْسِ[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وعيدٌ، ولم يُفصِّلْه، وهذا الإجمالُ فيه كالتَّفصيلِ؛ فإنَّ عدَمَ المَحبَّةِ مِن اللهِ تعالى غايةُ العذابِ. أو لأنَّ عدَمَ مَحبَّتِه تعالى كِنايةٌ عن بُغضِه المُوجِبِ لِغَضَبِه المُستتبِعِ للعُقوبةِ لا مَحالةَ[2].

- والظَّاهرُ أنَّ قولَه تعالى: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ ٱلۡقَيِّمِ﴾ الآيةَ، كالموردِ للسُّؤالِ، والخِطابُ لكلِّ أحدٍ مِن المُكلَّفينَ. وقولُه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ الآيةَ، واردٌ على الاستِئنافِ، مُنطَوٍ على الجوابِ؛ فكأنَّه لَمَّا قِيل: أقِيموا على الدِّينِ القيِّمِ قَبْلَ مَجيءِ يَومٍ يَتفرَّقون فيه، فقِيل: ما للمُقيمينَ على الدِّينِ؟ وما على المُنحرِفين عنه؟ وكيفَ يَتفرَّقون؟ فأُجِيبَ: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ الآيةَ. وأمَّا قولُه: ﴿لِيَجۡزِيَ

---

= الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٣).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ الآيةَ؛ فيَنْبغي أنْ يكونَ تَعليلًا للكلِّ؛ لِيَفْصِلَ ما تَرتَّبَ على ما لهمْ وعليهم، ولكنْ يَتعلَّقُ بـ﴿يَمْهَدُونَ﴾ وحْدَه؛ لشِدَّةِ العِنايةِ بشأْنِ الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ وعدَمِ العبْءِ بعمَلِ الكافرِ؛ ولذلك وُضِعَ مَوضعُه ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

- وفي هذه الآيةِ لَطيفةٌ ومُناسَبةٌ حَسَنةٌ، وهي أنَّ اللهَ تعالى عندما أسْنَدَ الكُفْرَ والإيمانَ إلى العبْدِ قدَّمَ الكافرَ، وعنْدَما أسنَدَ الجَزاءَ إلى نفْسِه قدَّمَ المؤمِنَ؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَن كَفَرَ﴾ وعيدٌ للمُكلَّفِ؛ لِيَمتنعَ عمَّا يَضُرُّه، فيُنقِذَه مِن الشَّرِّ. وقولُه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ تَحريضٌ له وتَرغيبٌ في الخيرِ؛ لِيُوصِلَه إلى الثَّوابِ، والإيعادُ مُقدَّمٌ، وأمَّا عندَ الجزاءِ ابتدَأَ بالإحسانِ؛ إظهارًا للكرَمِ والرَّحمةِ[2].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٠).

## الآيات (٤٦-٥٢)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ
فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ
فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ
فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم
مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ
ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟
مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾
وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفُلْكُ﴾: أي: السُّفنُ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (الفلك): الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[1].

﴿فَتُثِيرُ﴾: أي: فتُنشِئُ، وأصلُ (ثور): يدُلُّ على انبعاثِ الشَّيءِ[2].

﴿فَيَبْسُطُهُۥ﴾: أي: يَنشُرُه، والبَسطُ: النَّشرُ، وأصلُ (بسط): يَدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢١).

﴿كِسَفًا﴾: أي: قِطَعًا، وأصلُ (كسف): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[١].

﴿ٱلْوَدْقَ﴾: أي: المطَرَ، وأصلُ (ودق): يدُلُّ على إتيانٍ؛ لأنَّ المطَرَ يَجيءُ مِنَ السَّماءِ[٢].

﴿لَمُبْلِسِينَ﴾: أي: لَيائِسينَ، وأصْلُ (بلس): يدُلُّ على يأسٍ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا آياتِه الدَّالَّةَ على قدرتِه، ومظاهرِ فضلِه على النَّاسِ ورحمتِه بهم: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وكَمالِ قُدرتِه وغَيرِ ذلك: أن يُرسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ لكم بما فيه نَفعُكم، كنُزولِ المطَرِ، ولِيُصيبَكم ببَعضِ نِعَمِه، ولِتَسيرَ السُّفُنُ في البِحارِ بأمرِه تعالى، ولِتَلتَمِسوا الرِّزقَ بالسَّيرِ في البَحرِ، ولعلَّكم تَشكُرونَ رَبَّكم على هذه النِّعَمِ.

ولقد أرسَلْنا مِن قَبلِك -يا مُحمَّدُ- رُسُلًا إلى قَومِهم، فجاؤُوهم بالآياتِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على صِدقِهم، فأهلَكْنا الَّذين كَفَروا وكذَّبوا، وكان واجِبًا علينا نصرُ المؤمنينَ.

اللهُ وَحْدَه الَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ فتُنشِئُ سَحابًا وتُسَيِّرُه، فيَنشُرُه في السَّماءِ كما

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٧)، ((التبيان لابن الهائم)) (ص: ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٤)، ((التبيان لابن الهائم)) (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣، ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

يَشاءُ، ويجعَلُه قِطَعًا، فتَرى المطَرَ يَقطُرُ مِن بَينِ السَّحابِ، فإذا أصاب ذلك المطَرُ مَن يشاءُ اللهُ مِن عبادِه، فَرِحوا به، والحالُ أنَّهم كانوا قبْلَ نُزولِ المطَرِ عليهم يائِسينَ، فانظرْ إلى آثارِ المطَرِ الَّذي يُنزِلُه اللهُ رَحمةً لِعِبادِه، كيف يُحيي به اللهُ الأرضَ اليابِسةَ بعدَ جُدوبِها؟!

إنَّ اللهَ الَّذي أحيا الأرضَ الميِّتةَ بالمطَرِ لَمُحيي الموتَى في الآخرةِ بقُدرتِه، وهو على كلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

ولَئِنْ أرسَلْنا ريحًا أفسَدَت زَرْعَهم فرآه أصحابُه قد اصفَرَّ ويَبِسَ بعدَما كان أخضَرَ، لَظَلُّوا مِن بعدِ ذلك يَكفُرون برَبِّهم ويَجحَدونَ نِعَمَه سُبحانه!

ثمَّ يسلِّي الله تعالى نبيَّه عمَّا لَحِقه منهم مِن أذى، فيقولُ: فإنَّك -يا محمَّدُ- لا تُسمِعُ هؤلاء الكُفَّارَ الَّذين ماتت قلوبُهم، ولا تُسمِعُ الكُفَّارَ الَّذين أصَمَّ اللهُ آذانَهم سَماعًا ينتَفِعونَ به، وما أنت بهادي الكُفَّارِ الَّذين أعمى اللهُ قلوبَهم فتَرُدَّهم عن ضَلالتِهم إلى الإيمانِ؛ ما تُسمِعُ -يا محمَّدُ- الحَقَّ سَماعَ انتِفاعٍ به إلَّا الَّذين يُؤمِنونَ بآياتِنا، فهم خاضِعونَ لله، مُنقادونَ لطاعتِه سُبحانَه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالى ظُهورَ الفَسادِ والهلاكِ بسبَبِ الشِّركِ؛ ذكَرَ ظُهورَ الصَّلاحِ، ولم يذكُرْ أنَّه بسَبَبِ العَمَلِ الصَّالحِ؛ لأنَّ الكريمَ لا يَذكُرُ لإحسانِه عِوَضًا، ويَذكُرُ لأضْدادِه سَببًا؛ لئَلَّا يُتوهَّمَ به الظُّلمُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٧).

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعِلمِه ورَحمتِه، وحِكمتِه وكَمالِ قُدرتِه، وغَيرِ ذلك: أنْ يُرسِلَ الرِّياحَ مُبَشِّراتٍ لكم بحُصولِ ما فيه نَفعُكم، مِن نُزولِ المطَرِ أو غَيرِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾.

أي: ولِيُصيبَكم ببَعضِ نِعَمِه[2].

﴿ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ ﴾.

أي: ولِتَسيرَ السُّفُنُ في البِحارِ عندَ هُبوبِها بأمرِ اللهِ لها، وتقديرِه وتَسخيرِه ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٣، ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (ص: ٦٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٣، ١١٤).

قال البقاعي: (من المياهِ العَذبةِ، والأشجارِ الرَّطبةِ، وصِحَّةِ الأبدانِ، وخِصبِ الزَّمانِ، وما يَتبَعُ ذلك من أمورٍ لا يُحصيها إلَّا خالِقُها، ولا يتصَوَّرُها حَقَّ تصَوُّرِها إلَّا مَن فَقَد الرِّياحَ؛ من وجودِ الرَّوحِ، وزكاءِ الأرضِ، وإزالةِ العُفونةِ مِن الهواءِ، والإعانةِ على تذريةِ الحُبوبِ، وغيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٩).

قال القرطبي: (وإنما زاد ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾؛ لأنَّ الرِّياحَ قد تَهُبُّ ولا تكونُ مؤاتيةً، فلا بُدَّ مِن إرساءِ =

﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: ولِتَلتَمِسوا بالسَّيرِ في البَحرِ مِن رِزقِ اللهِ[١].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: ولعلَّكم تَشكُرونَ رَبَّكم على تلك النِّعَمِ الإلهيَّةِ، فتَقومونَ بتَوحيدِه وطاعتِه سُبحانَه[٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى البراهينَ، ولم ينتَفِعْ بها الكُفَّارُ؛ سلَّى قَلبَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، وقال: حالُ مَن تقدَّمَك كان كذلك، وجاؤوا أيضًا بالبيِّناتِ، وكان في قَومِهم كافِرٌ ومُؤمِنٌ كما في قَومِك، فانتقَمْنا مِنَ الكافرينَ، ونصَرْنا المؤمِنينَ[٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

أي: ولقدْ أرسَلْنا مِن قَبْلِك -يا محمَّدُ- رُسُلًا إلى قَومِهم الكافِرينَ، فجاؤوهم

---

= السُّفُنِ والاحتيالِ بحَبسِها، وربمَّا عَصَفت فأغرقَتْها بأمرِه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٤، ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٨).

بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ على صِدقِهم[١].

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾.

أي: فأهلَكْنا الَّذين كَفَروا وكَذَّبوا بآياتي ورُسُلي؛ فكذلك نُهلِكُ مَن كَفَر وكَذَّب بالحَقِّ مِن قَومِك يا محمَّدُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۞ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: ونجَّيْنا المؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه، وكان واجِبًا علينا ذلك؛ فحَقٌّ علينا أيضًا أن ننصُرَك -يا محمَّدُ- والمؤمِنينَ بك[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه الذي يُرسِلُ الرِّياحَ مَرَّةً بعدَ أخرى، فتُحرِّكُ سَحابًا مِن سُكونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٨، ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: المصادر السابقة.

وتُسَيِّرُه، فيَمُدُّه اللهُ ويَنشُرُه في السَّماءِ على الهيئةِ والصِّفةِ الَّتي يَشاؤُها سُبحانَه بحِكمتِه[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾ [فاطر: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ ﴾ [النور: ٤٣].

﴿ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿ كِسَفٗا ﴾ قراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿كِسْفًا﴾ قيل: هي اسمٌ مُفردٌ بمعنى: قِطعةٍ واحِدةٍ، وقيل: هي جَمعُ كِسْفةٍ، فتكونُ ﴿كِسْفًا﴾ بمعنى: قِطَعًا، وهي معنى القراءةِ الثانيةِ[٢].

٢- قِراءةُ ﴿ كِسَفًا ﴾ أي: قِطَعًا، جمعُ كِسْفةٍ، وهي القِطعةُ[٣].

﴿ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٠٨).

(٢) قرأ بها هشامٌ بخُلفٍ عنه، وابن ذكوان، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠٠، ١٠١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٥١، ٥٢).

(٣) قرأ بها الباقون، وهو الوجه الثاني لهشام. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٠٩). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٠٠، ١٠١)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ٥١).

أي: ويجعَلُ اللهُ السَّحابَ قِطَعًا[١].

﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾.

أي: فترى المطَرَ يَقطُرُ مِن بينِ السَّحابِ[٢].

﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

أي: فإذا أنزل اللهُ المطَرَ على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، تراهم يَفرَحونَ بنُزولِه[٣].

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: والحالُ أنَّهم قَبلَ نُزولِ المطَرِ عليهم كانوا حزينينَ يائِسينَ باحتِباسِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٩).

قال البقاعي: (﴿كِسَفًا﴾ أي: قِطَعًا غيرَ متَّصِلٍ بَعضُها ببعضٍ اتِّصالًا يمنَعُ نزولَ الماءِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١١٩، ١٢٠).

وقال ابن عثيمين: (قال بعضُ المفَسِّرين: معنى كونِه كِسَفًا: أنَّه قِطَعٌ مُتراكِبةٌ بَعضُها فوقَ بعضٍ، حتَّى يَسْوَدَّ ويَدْلَهِمَّ ويحصُلَ فيه الرَّعدُ والبَرقُ، وهذا أَولى، وهو في الغالِبِ أكثَرُ مَطرًا). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٠٨).

قال ابنُ كثير: (﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قال مجاهدٌ، وأبو عمرِو بنُ العلاءِ، ومطرٌ الورَّاقُ، وقَتادةُ: يعني قِطَعًا. وقال غيره: مُتراكِمًا، قاله الضَّحَّاكُ. وقال غيره: أسوَدُ مِن كثرةِ الماءِ، تراه مُدْلَهِمًّا ثقيلًا قريبًا مِن الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٠٩).

قال ابن عاشور: (الخِطابُ في ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ خِطابٌ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ، وهو كُلُّ مَن يتأتَّى منه سماعُ هذا، وتتأتَّى منه رؤيةُ الوَدْقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢).

عنهم[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣١١).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ يعودُ إلى المطرِ. ومِمَّن قال بذلك: ابن جرير، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧).

وقيل: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ تكريرٌ معناه التَّأكيدُ. وممن اختاره الأخفشُ، والشوكاني، ونسَبه النَّحاسُ إلى أكثَر النَّحْويِّينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٦)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٢٦٨).

قال الشوكاني بعدَ أنْ رجَّح هذا الوجهَ: (ما بعدَه مِن هذه الوجوهِ كُلِّها ففي غايةِ التَّكلُّفِ والتَّعسُّفِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٦).

وقيل: الضَّميرُ عائِدٌ إلى استبشارِهم. ومِمَّن قال بهذا المعنى: البقاعي، وأبو السعود، واستحسَنه ابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣١٣).

وقيل: الضميرُ يعود إلى القَبْلِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم﴾، فهُم مِن قَبلِ هذا القَبلِ مُبلِسونَ؛ إشارةً إلى أنَّ الإبلاسَ مُستَمِرٌّ معهم مِن قديمِ الزمان. ذكر هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣١٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمُبۡلِسِينَ﴾ فهي مِن أشكَلِ ما أُورِدَ، وممَّا أعضَلَ على النَّاسِ فَهمُها... وأمَّا قَولُه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡهِم مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ فليس مِن التَّكرارِ، بل تحتَه معنًى دقيقٌ، والمعنى فيه: وإن كانوا من قَبلِ أن يُنَزَّلَ عليهم الوَدْقُ مِن قَبلِ هذا النُّزولِ لَمُبلِسينَ؛ فهنا قبليَّتانِ: قبليَّةٌ لِنُزولِه مُطلقًا، وقبليَّةٌ لذلك النُّزولِ المعَيَّنِ ألَّا يكونَ متقَدِّمًا على ذلك الوَقتِ؛ فيَئِسوا قبلَ نُزولِه يأسَينِ: يأسًا لِعَدمِه مَرئيًّا، ويأسًا لتأخُّرِه عن وَقتِه؛ فـ «قَبلُ» الأولى: ظرفُ اليأسِ، و«قبلُ» الثَّانيةُ: ظرفُ المجيءِ والإنزالِ؛ ففي الآيةِ ظَرفانِ مَعمولانِ وفِعلانِ مُختَلِفانِ عاملانِ فيهما، وهما الإنزالُ والإبلاسُ، فأحدُ الظَّرفَينِ متعَلِّقٌ بالإبلاسِ، والثَّاني متعَلِّقٌ بالنُّزولِ؛ وتمثيلُ هذا: أن تقولَ إذا كنتَ مُعتادًا للعطاءِ مِن شَخصٍ فتأخَّرَ عن ذلك الوَقتِ ثمَّ أتاك به: قد كنتُ آيِسًا). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٧٧-٢٧٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٣).

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٥٠ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه رَتَّب على ما تقرَّر مِن استِحضارِ صورةِ تكوينِ أسبابِ المطَرِ، واستِبشارِ النَّاسِ بنُزولِه بعدَ الإبلاسِ: أنِ اعترَضَ بذِكرِ الأمرِ بالنَّظَرِ إلى أثَرِ الرَّحمةِ، وإغاثةِ اللهِ عِبادَه حينَ يُحيي لهم الأرضَ بعدَ مَوتِها بالجَفافِ(١).

﴿ فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآ ﴾.

أي: فانظُرْ إلى آثارِ المطَرِ الَّذي رَحِمَ اللهُ به عِبادَه: كيف يُحيي به اللهُ الأرضَ اليابِسةَ، فيُنبِتُها بعدَ قُحوطِها وجُدوبِها(٢)؟

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴾ [الحج: ٥].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الَّذي أحيا الأرضَ المَيتةَ بالمطَرِ، لَمُحْيي الموتى في الآخِرةِ بقُدرتِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۞ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۞ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ﴾ [ق: ٩ - ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٣).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

أي: واللهُ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ، لا يُعجِزُه شَيءٌ سُبحانَه، ومِن ذلك: بعْثُ عِبادِه بعدَ مَوتِهم[1].

﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ٥١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّهم عندَ توقُّفِ الخيرِ يكونونَ مُبلِسينَ آيِسينَ، وعندَ ظُهورِه يكونونَ مُستَبشِرينَ؛ بيَّنَ أنَّ تلك الحالةَ أيضًا لا يَدومونَ عليها، فهم مُتقَلِّبونَ غيرُ ثابتينَ؛ لِنَظَرِهم إلى الحالِ لا إلى المآلِ[2].

﴿وَلَئِنۡ أَرۡسَلۡنَا رِيحٗا فَرَأَوۡهُ مُصۡفَرّٗا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ يَكۡفُرُونَ ٥١﴾.

أي: ولَئِنْ أرسَلْنا ريحًا مُفسِدةً للزَّرعِ، فرأى أصحابُ الزَّرعِ زَرعَهم قد فَسَد بالرِّيحِ فاصفَرَّ ويَبِسَ؛ لَظَلُّوا مِن بعدِ هذه الحالِ[3] يَكفُرونَ برَبِّهم، فيَيئَسونَ مِن رَحمتِه، ويَجحَدونَ نِعَمَه سُبحانَه[4]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٠٩).

(٣) قيل: المرادُ: مِن بعدِ اصفِرارِ زَرعِهم بالرِّيحِ. ومِمَّن قال بذلك: السمرقندي، وابن الجوزي، والبقاعي والعليمي والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٠).

وقيل: المرادُ: مِن بعدِ استبشارِهم وفرحتِهم بزَرعِهم الأخضرِ قبلَ اصفرارِه. ومِمَّن قال بذلك: ابن جرير، ومكي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي =

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٧].

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عَلَّمَ رَسولَه أنواعَ الأدِلَّةِ وأصنافَ الأمثلةِ، ووعَدَ وأوعَدَ، ولم يَزِدْهم دعاؤُه إلَّا فِرارًا، وإنباؤُه إلَّا كُفرًا وإصرارًا؛ قال له[1]:

﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

أي: فإنَّك -يا محمَّدُ- لا تَستطيعُ أن تُسمِعَ هؤلاء الكُفَّارَ الَّذين ماتت قُلوبُهم سَماعًا ينتَفِعونَ به، إنْ لم يُرِدِ اللهُ أن يَهديَهم[2].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

= (١٥/ ١٢٣-١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٥).

وقيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ يعودُ إلى الرِّيحِ. ومِمَّن قال بذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٥).

قال القرطبي: (الريحُ يجوزُ تذكيرُه. قال محمَّدُ بنُ يزيدَ: لا يمتَنعُ تذكيرُ كُلِّ مُؤنَّثٍ غيرِ حقيقيٍّ، نحو: أعجبَني الدَّارُ، وشِبهُه. وقيل: فرأوا السَّحابَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: الزَّرعَ، وهو الأثَرُ، والمعنى: فرَأَوُا الأثَرَ مُصفَرًّا، واصفِرارُ الزَّرعِ بعدَ اخضِرارِه يدُلُّ على يُبسِه، وكذا السَّحابُ يدُلُّ على أنَّه لا يُمطِرُ، والرِّيحُ على أنَّها لا تُلقِحُ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٥). ويُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٢٨-٣٣٠).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢].

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قراءةُ ﴿يَسْمَعُ﴾ بفَتحِ الياءِ والميم، و﴿الصُّمُّ﴾ بالرَّفعِ فاعِلًا للفِعلِ، أي: لا يَنقادون للحَقِّ كما لا يُجيبُ الأصَمُّ النِّداءَ الموَجَّهَ إليه[١].

٢- قراءةُ ﴿تُسْمِعُ﴾ بالتَّاءِ المضمومةِ وكَسرِ الميم، و﴿ٱلصُّمَّ﴾ بالنَّصبِ مَفعولًا به، والخِطابُ لِرَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، أي: إنَّك لا تَقدِرُ أن تُسمِعَ دُعاءَك الصُّمَّ المعرِضينَ عنك[٢].

﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾.

أي: ولا تَقدِرُ -يا مُحمَّدُ- أن تُسمِعَ الحَقَّ الكُفَّارَ الَّذين أصَمَّ اللهُ آذانَهم سَماعًا ينتَفِعونَ به، إذا أعرَضوا عن سَماعِ الحَقِّ وتدَبُّرِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءًۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

---

(١) قرأ بها ابن كثير. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٣٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٣٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٣٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٠، ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٨).

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢، ٢٣].

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بدأ بفاقِدِ حاسَّةِ السَّمعِ؛ لأنَّها أنفَعُ مِن حيثُ إنَّ الإنسانَ إنَّما يفارِقُ غيرَه مِن البهائِمِ بالكلامِ، أتْبَعَها حاسَّةَ البصَرِ[1].

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ﴾.

أي: وما أنت -يا مُحمَّدُ- بهادِي الكُفَّارِ الَّذين أعمى اللهُ بصائِرَهم وقُلوبَهم عن الحَقِّ؛ فتَصرِفَهم عن ضَلالِهم وكُفرِهم، وتَرُدَّهم إلى الإيمانِ[2].

﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾.

أي: ما تُسمِعُ -يا مُحمَّدُ- الحَقَّ سَماعَ انتِفاعٍ به إلَّا الَّذين يُؤمِنونَ بآياتِنا، فهم مُتذَلِّلونَ وخاضِعونَ لله، مُنقادونَ لطاعتِه سُبحانَه[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٤).

## الفَوائِدُ التربويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: هؤلاءِ الَّذين ينفَعُ فيهم إسماعُ الهُدى: المؤمِنونَ بآياتِنا بقُلوبِهم، المُنقادونَ لأوامِرِنا، المُسلِمونَ لنا؛ لأنَّ معهم الدَّاعيَ القَويَّ لِقَبولِ النَّصائِحِ والمواعِظِ، وهو استِعدادُهم للإيمانِ بكُلِّ آيةٍ مِن آياتِ اللهِ، واستِعدادُهم لِتَنفيذِ ما يَقدِرونَ عليه مِن أوامِرِ اللهِ ونواهيه[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾، فجمَع الرِّياحَ هنا؛ إشارةً إلى باهِرِ القُدرةِ؛ فإنَّ تحويلَ الرِّيحِ الواحدةِ مِن جهةٍ إلى أخرى أمرٌ عظيمٌ، لا قُدرةَ لغيرِه عليه في الفضاءِ الواسِعِ، وكذا إسكانُه، فكيف إذا كانت رياحٌ مُعاكِسةٌ؟ ففي إثارتِها كذلك ثمَّ إسكانِها مِن باهِرِ القُدرةِ ما لا يَعلَمُه إلَّا أُولو البصائِرِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ في أفعالِ اللهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾؛ لأنَّها للتعليلِ[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا﴾ تنبيهًا على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاتَمُ النَّبيِّينَ، بتَخصيصِ إرسالِ غَيرِه بما قبْلَ زَمانِه[4].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أنَّ الرِّسالاتِ السَّابقةَ خاصَّةٌ، ويُبيِّنُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧٤).

الحديثُ الثَّابتُ في الصَّحيحَينِ: ((وكان النَّبيُّ يُبعثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عامَّةً[١]))[٢].

٥- في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جعَلَ عزَّ وجَلَّ على نفْسِه حقًّا لِعبادِه المؤمنينَ، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وفي الصَّحيحَينِ: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال لِمُعاذِ بنِ جبَلٍ وهو رَديفُه: يا مُعاذُ، أتَدْري ما حقُّ الله على عِبادِه؟ قُلْتُ: الله ورسولُه أعلَمُ، قال: حقُّه عليهم أن يَعبُدوه، ولا يُشرِكوا به شيئًا. أتَدري ما حقُّ العِبادِ على الله إذا فعَلوا ذلك؟ قلتُ: الله ورسولُه أعلَمُ. قال: حقُّهم عليه ألَّا يُعَذِّبَهم))[٣]. فهذا حقٌّ وجَبَ بكَلِماتِه التَّامَّةِ، ووعْدِه الصَّادِقِ، وقد اتَّفَقَ العلماءُ على وُجوبِ ما يجِبُ بوَعْدِه الصَّادِقِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ قال: ﴿يُرْسِلُ﴾ ﴿فَتُثِيرُ﴾ فأضاف الإثارةَ إلى السَّحابِ؛ لأنَّها سَبَبُ هذه الإثارةِ، فتُثيرُ سَحابًا فيَبسُطُه في السَّماءِ كيف يشاءُ؛ فلا بأسَ بإضافةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه مع اعتِقادِ أنَّه سَبَبٌ محضٌ، وأنَّ خالِقَ السَّبَبِ هو اللهُ عزَّ وجَلَّ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أنَّ السَّماءَ تُطلَقُ على كُلِّ ما علا؛ فإنَّ السَّحابَ لا يُبسَطُ في السَّماءِ التي هي السَّقفُ المحفوظُ، وإنَّما

---

(١) أخرجه مطولًا البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١) من حديث جابرِ بنِ عبدِ الله رَضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٠١).

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٥٦، ٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠) من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٠٩، ٣١٠).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ١٢٣).

يُبسَطُ في الجوِّ العالي[١].

٨- في قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ دليلٌ على جواز التَّأكيدِ في القرآن وزيادةِ البيان -على القولِ بأنَّ ﴿مِن قَبْلِ﴾ للتأكيدِ-، وهو رَدٌّ على مَن قال: «ليس ذلك في القرآن»[٢]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجَمادَ يُوصَفُ بالحياةِ والموتِ؛ ففيه رَدٌّ على الفلاسِفةِ الَّذين يقولونَ: «إنَّ الجَمادَ لا يمكِنُ أن يُوصَفُ بالحياةِ والموتِ؛ لأنَّه غيرُ قابلٍ لها»، فنقولُ: إنَّ اللهَ وَصَفَ الجمادَ بأنَّه حَيٌّ ومَيِّتٌ كما في هذه الآيةِ، وكما في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾[النحل: ٢٠، ٢١] مع أنَّها أصنامٌ مِن الأحجارِ والأشجارِ وما أشبَهَها[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ﴾ بيانُ أنَّ مُجَرَّدَ دُعائِك وتبليغِك وحِرصِك على هُدى النَّاسِ: ليس بموجِبٍ ذلك، وإنَّما يَحصُلُ ذلك إذا شاء اللهُ هُداهم فشَرَح صدورَهم للإسلامِ، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ﴾[٤] [النحل: ٣٧].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ لَمَّا نفى إسماعَ الميِّتِ والأصَمِّ، وأثبت إسماعَ المؤمِنِ بآياتِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الرُّوم)) (ص: ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩١).

لزِمَ أن يكونَ المؤمِنُ حَيًّا سَميعًا، وهو كذلك؛ لأنَّ المؤمِنَ تَرِدُ على قَلبِه أمطارُ البراهينِ، فتَنبُتُ في قَلبِه العقائِدُ الحَقَّةُ، ويَسمَعُ زواجِرَ الوَعظِ، فتَظهَرُ منه الأفعالُ الحَسَنةُ(١).

١٢- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡ﴾ سُمُّوا عُمْيًا؛ إمَّا لعَمَى قُلوبِهم، أو لِفَقْدِهم المقصودَ الحَقيقيَّ مِن الإبصارِ(٢). فإنَّه يُقالُ لكلِّ صحيحِ البصَرِ ولا يُعمِلُ بصَرَه: أعمى، وإنَّما يُرادُ به: أنَّه قد حلَّ محلَّ مَن لا يُبصِرُ الْبَتَّةَ، إذا لم يُعمِلْ بصَرَه، وكذلك يُقالُ للسَّميعِ الَّذي لا يَقْبَلُ: أصَمُّ، قال الله جلَّ ذِكرُه: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨]، كما قال جل ثناؤه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]، وكذلك: ﴿إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، وقوله عز وجل: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءًۚ﴾(٣) [البقرة: ١٧١].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾ أشار بالإفرادِ في الشَّرطِ إلى أنَّ لَفتَ الواحِدِ عن رأيِه أقرَبُ مِن لَفتِه وهو مع غيرِه، وأشار بالجَمعِ في الجزاءِ إلى أنَّ هذه الطَّريقةَ إن سُلِكَت كثُرَ التَّابعُ، فقال: ﴿فَهُم مُّسۡلِمُونَ﴾(٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَلِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ بِأَمۡرِهِۦ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ عَوْدٌ إلى تَعدادِ الآياتِ الدَّالَّةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((الكامل في اللغة والأدب)) للمبرد (٢/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٧).

تفرُّدِه بالإلهيَّةِ؛ فهو عَطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، وما تَخلَّلَ بيْنَهما مِن أفانينِ الاستِدلالِ على الوَحدانيَّةِ والبعثِ ومِن طرائقِ الموعظةِ، كان لِتَطْريةِ نَشاطِ السَّامعينَ لهذه الدَّلائلِ المُوضِّحةِ المُبيِّنةِ[1].

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ ليس تَبشيرُها مُقتَصرًا به على المطَرِ، بلْ لها تبْشيراتٌ بسبَبِ السُّفنِ والسَّيرِ بها إلى مَقاصدِ أهْلِها؛ وكأنَّه بدَأَ أوَّلًا بشَيءٍ عامٍّ، وهو التَّبشيرُ، ثمَّ ذكَرَ مِن أعظَمِ تَباشيرِها إذاقةَ الرَّحمةِ، وهي نُزولُ المطَرِ، ويَتبَعُه حُصولُ الخِصْبِ، والرِّيحِ الذي معه الهُبوبُ، وإزالةِ العُفونةِ مِن الهواءِ، وتَذْريةِ الحُبوبِ، وغيرِ ذلك[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثيةِ): ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢]، فزادَ: ﴿فِيهِ﴾ في سُورةِ (الجاثيةِ)، وترَكَها في سُورةِ (الرُّومِ)؛ وذلك لأنَّ الهاءَ في قولِه: ﴿فِيهِ﴾ عائدةٌ إلى البحرِ، وقد ذُكِرَ في سُورةِ (الجاثيةِ)، فعاد إليه الضَّميرُ، وهو قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الجاثية:١٢]، ولم يَتقدَّمْ للبحرِ ذِكْرٌ في الآيةِ التي ذكَرَ فيها جَرْيَ الفُلكِ في سُورةِ (الرُّومِ)، وإنَّما نبَّهَ على النِّعمةِ بالرِّياحِ وإظهارِ آياتِه فيها، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ [الروم:٤٦]، أي: باجتِلابِ السَّحابِ واعتِصارِه للأمطارِ، وهو الذي يُذيقُنا مِن رَحمتِه، مع ما تُلقِّحُ منه الأشجارُ في وقْتِه، وقال: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨).

بِأَمْرِهِۦ﴾، أي: بالرِّياحِ إذا أذِنَ اللهُ تعالى[١].

- قولُه: ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ﴾ التَّقييدُ بقولِه: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾ تَعليمٌ للمؤمنينَ وتَحقيقٌ للمِنَّةِ، أي: لولا تَقديرُ اللهِ ذلك وجعْلُه أسبابَ حُصولِه؛ لَمَا جَرَتِ الفُلْكُ، وتحتَ هذا مَعانٍ كثيرةٌ يَجمَعُها إلهامُ اللهِ البشرَ لِصُنْعِ الفُلْكِ، وتَهذيبِ أسبابِ سَيْرِها. وخلَقَ نِظامَ الرِّيحِ والبحرِ؛ لِتَسخيرِ سَيرِها، كما دلَّ على ذلك قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

- وإنَّما زاد ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾؛ لأنَّ الرِّيحَ قد تهُبُّ ولا تكونُ مُوافِقةً، فلا بُدَّ مِن إرساءِ السُّفنِ، والاحتيالِ لِحبْسِها، وربَّما عصَفَت فأغْرَقَتْها[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لعلَّ توسيطَ هذه الآيةِ الكريمةِ بطَريقِ الاعتراضِ بيْنَ ما سبَقَ وما لَحِقَ مِن أحوالِ الرِّياحِ وأحكامِها؛ لإنذارِ الكَفَرةِ وتَحْذيرِهم عن الإخلالِ بمَواجبِ الشُّكرِ المطلوبِ بقولِه تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، بمُقابَلةِ النِّعمِ المَعدودةِ المَنُوطةِ بإرسالِها؛ كيْلَا يحُلَّ بهم مِثْلُ ما حَلَّ بأولئك الأُمَمِ مِن الانتقامِ[٤]. فجاءتْ هذه الآيةُ تأْنيسًا للرَّسولِ وتَسليةً، ووعْدًا بالنَّصرِ، ووَعيدًا لأهْلِ الكُفْرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٥٤، ١٠٥٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠١)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨).

- وفي قولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ [الروم: ٤٧]، وقولِه السابقِ في هذه السُّورةِ: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩]: إنْ قِيل: لِمَ لمْ يَرِدْ ذِكْرُ أخْذِهم بالانتقامِ منهم لَمَّا أجْرَموا مُتَّصِلًا بالتَّذكيرِ بالاعتبارِ بهم، وكان يَحصُلُ ذلك كلُّه في كلامٍ مُتَّصلٍ بعضُه ببَعضٍ؟ ولِمَ وقَعَ ذِكْرُ أخْذِهم بالانتقامِ منهم لمَّا كذَّبوا مُتأخِّرًا عن الواردِ مِن حالِهم أوَّلًا التي أُمِرَ هؤلاء ونُهُوا عن الاعتبارِ بها؟

**فالجوابُ**: جَرى ذلك على المُعتادِ منه سُبحانه في دُعاءِ الخلْقِ إلى الإيمانِ مِن التَّلطُّفِ والرِّفقِ في الدُّعاءِ، وهذا في القرآنِ كثيرٌ، فلمَّا أُمِرَ هؤلاء وذُكِّروا بالاعتبارِ بمَن تقدَّمَ مِن القُرونِ، ولم يَتقدَّمْ قبْلَ الآيةِ إلَّا التَّلطُّفُ والتَّأنيسُ؛ لم يكُنْ لِيُناسِبَ ذلك مِن أخْذِ المُكذِّبين إلَّا ما يكونُ إيماءً وإشارةً لا إفصاحًا؛ فلذلك اكْتَفى أوَّلًا مِن الإشارةِ إلى أخْذِهم بقولِه سُبحانه: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ [الروم: ٩]، وترَكَ الإفصاحَ بالانتقامِ إلى أنْ ورَدَ إخبارًا منه سُبحانَه لِنَبيِّه -عليه السَّلامُ- في غيرِ مَعرضِ الدُّعاءِ إلى الإيمانِ، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ [الروم: ٤٧]، وحصَلَ التَّعريفُ بغايةِ حالِ المَذْكورين قبْلُ في تَكذيبِهم؛ فهذا مُوجِبُ تَفريقِ هذا الإخبارِ[1].

- وقد اختصَرَ طريقَ الإفصاحِ عن غرَضِ الوعْدِ بالنَّصرِ والوعيدِ له؛ فأدرَجَ تحتَ ذِكْرِ النَّصرِ معنى الانتِصارِ، وأدْرَجَ ذِكْرَ الفريقينِ: فريقِ المُصدِّقين

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٩٥).

المَوعودِ، وفريقِ المُكذِّبين المُتوعَّدِ، وقد أُخلِيَ الكلامُ أوَّلًا عن ذِكْرِهما. وفي هذا تَبشيرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ بالنَّصرِ في العاقبةِ على المُكذِّبين، وأكَّدَ ذلك بقولِه: ﴿حَقًّا﴾[1].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ فَصيحةٌ، أي: فكذَّبُوهم فانْتَقمْنا منهم، وإنَّما وُضِعَ ضَميرُهم الموصولُ؛ للتَّنبيهِ على مكانِ المَحذوفِ، والإشعارِ بكَونِه عِلَّةً للانتقامِ[2].

- قولُه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ في لفْظِ ﴿حَقًّا﴾ مُبالَغةٌ في التَّحتُّمِ، وتعْظيمٌ للمؤمنينَ، ورفْعٌ مِن شأْنِهم، وتأْهيلٌ لكَرامةٍ سَنيَّةٍ، وإظهارٌ لفضْلِ سابقةٍ ومَزيَّةٍ؛ حيث جعَلَهم مُستَحقِّينَ على اللهِ أنْ يَنصُرَهم، مُستوجِبينَ عليه أنْ يُظهِرَهم ويُظفِرَهم[3].

- والظَّاهرُ أنَّ ﴿حَقًّا﴾ خبَرُ (كان)، و﴿نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ الاسمُ، وأُخِّرَ لكونِ ما تعلَّقَ به فاصلةً؛ للاهتمامِ بالجزاءِ؛ إذ هو مَحطُّ الفائدةِ[4].

- ومَوقعُ قولِه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مَوقعُ التَّوكيدِ والتَّذييلِ والتَّعليلِ مِن قولِه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾؛ لأنَّ المعنى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، فكذَّبوهم واسْتَهزؤوا بهم وقَصَدوا الفتْكَ بهم، ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ منهم ونصَرْنا المؤمنينَ، وقد جرَتْ سُنَّةُ اللهِ بالانتقامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٨).

والنَّصرِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ ما أُجْمِلَ فيما سبَقَ مِن أحوالِ الرِّياحِ[٢].

- وقد جاءتِ المُناسَبةُ هنا لذِكْرِ الاستِدلالِ بإرسالِ الرِّياحِ في قولِه: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرۡسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٖ ﴾ [الروم: ٤٦]؛ استِدلالًا على التَّفرُّدِ بالتَّصرُّفِ، وتَصويرِ الصُّنْعِ الحكيمِ الدَّالِّ على سَعةِ العِلْمِ، ثمَّ أعقَبَ بالاستدلالِ بإرسالِ الرِّياحِ؛ توسُّلًا إلى ذِكْرِ إحياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها المُستدَلِّ به على البَعثِ؛ فقد أفادَتْ صِيغَةُ الحصْرِ بقولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَاحَ ﴾ أنَّه هو المُتصرِّفُ في هذا الشَّأنِ العَجيبِ دونَ غيرِه، وكَفى بهذا إبطالًا لإلَهيَّةِ الأصنامِ؛ لأنَّها لا تَستطيعُ مِثْلَ هذا الصُّنعِ الذي هو أقرَبُ التَّصرُّفاتِ في شُؤونِ نفْعِ البشَرِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَاحَ ﴾ جمَعَ الرِّياحَ؛ لِمَا شاع في استعمالِهم مِن إطلاقِها بصِيغَةِ الجمْعِ على رِيحِ البِشارةِ بالمطَرِ؛ لأنَّ الرِّياحَ التي تُثِيرُ السِّحابَ هي الرِّياحُ المُختلفةُ جِهاتُ هُبوبِها بين: جَنوبٍ، وشِمالٍ، وصَبًا ودَبورٍ، بخلافِ اسمِ الرِّيحِ المُفرَدةِ؛ فإنَّه غلَبَ في الاستعمالِ إطلاقُه على رِيحِ القوَّةِ والشِّدَّةِ؛ لأنَّها تتَّصِلُ واردةً مِن صَوبٍ واحدٍ، فلا تَزالُ تَشتَدُّ[٤].

- والتَّعبيرُ بصِيغَةِ المُضارعِ في ﴿يُرۡسِلُ﴾ و﴿فَتُثِيرُ﴾ و﴿فَيَبۡسُطُهُۥ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٢١).

﴿وَيَجْعَلُهُۥ﴾؛ لاستحضارِ الصُّورِ العجيبةِ في تلك التَّصرُّفاتِ، حتَّى كأنَّ السَّامعَ يُشاهِدُ تَكوينَها، مع الدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك(١).

- وذِكْرُ اختلافِ أحوالِ العِبادِ في وقْتِ نُزولِ المطَرِ، وفي وقْتِ انحباسِه بيْن استبشارٍ وإبلاسٍ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾: إدْماجٌ(٢) للتَّذكيرِ برَحمةِ اللهِ إيَّاهم، وللاعتبارِ باختلافِ تأثُّراتِ نُفوسِهم في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى عظيمِ تَصرُّفِ اللهِ في خِلْقةِ الإنسانِ؛ إذ جعَلَهُ قابلًا لاختلافِ الانفعالِ مع اتِّحادِ العقْلِ والقلْبِ، كما جعَلَ السَّحابَ مُختلفَ الانفعالِ مِن بسْطٍ وتقطُّعٍ مع اتِّحادِ الفِعلِ، وهو خُروجُ الودْقِ مِن خِلالِه(٣).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ﴾

- قولُه: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ مِن بابِ التَّكريرِ والتَّوكيدِ وتَقريرِه في نُفوسِ السَّامعينَ -على قولٍ-؛ وهذا التَّأكيدُ قِيل: إنَّه قد أفادَ الإعلامَ بسُرعةِ تقلُّبِ قُلوبِ البشَرِ مِن الإبلاسِ إلى الاستبشارِ؛ فإعادةُ قولِه: ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ زيادةُ تَنْبيهٍ على الحالةِ التي كانت مِن قبْلِ نُزولِ المطَرِ. وقِيل: فيه الدَّلالةُ على أنَّ عَهْدَهم بالمطَرِ قد تطاوَلَ، فاسْتَحْكَم إبلاسُهم، فكان الاستبشارُ على قدْرِ اغتمامِهم؛ ففائدةُ إعادةِ ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أنَّ مدَّةَ ما قبْلَ نُزولِ المطَرِ مُدَّةٌ طويلةٌ، فأُشِيرَ إلى قوَّتِها بالتَّوكيدِ(٤). .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٠، ١٢١).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) =

وقيل: ليس مِن التكرار[١].

- وأخَّرَ الإبلاسَ عن الاستبشارِ، وأبْرَزَه في صُورةِ الشَّرطيَّةِ؛ إرادةً للمُبالَغةِ، وتثْنيةً للتَّقريعِ؛ إذ لو أُريدَ الظَّاهرُ لَقيلَ: فإذا أصابَ به القانِطينَ فَعَلوا كذا، كقولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨]، ولذلك قطَعَ ما هو مُتَّصِلٌ بأصلِ الكلامِ مِن قولِه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾، وعلَّقَ به نوعًا آخرَ مِن التَّوبيخِ؛ إشعارًا بتَعديدِ النِّعَمِ، وتَكريرِ تَلقِّيهم إيَّاها بالكُفْرانِ؛ ألَا ترَى كيف عقَّبَ ذلك بقولِه: ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الروم: ٥٢] الآيةَ[٢]؟

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالةِ على سُرعةِ ترتُّبِ النِّعَمِ المُترتِّبةِ على تَنزيلِ المَطرِ؛ مِن النَّباتِ، والأشجارِ، وأنواعِ الثِّمارِ[٣].

- والمُرادُ بالأمْرِ بالنَّظرِ التَّنبيهُ على عِظَمِ قُدرتِه تعالى وسَعَةِ رَحمتِه، مع ما فيه مِن التَّمهيدِ لِمَا يَعقُبُه مِنْ أمْرِ البعثِ[٤].

- وفي قوله: ﴿فَٱنظُرْ﴾ جاء الخِطابُ بالنَّظرِ لغَيرِ مُعيَّنٍ؛ ليَعُمَّ كلَّ مَن يتأتَّى

---

= (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٩٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٢، ١٢٣).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٧٨). وقد تقدَّم ذكرُ توجيهِه لذلك تحتَ تفسيرِ الآيةِ.

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٥).

منه النَّظرُ[١].

- قولُه: ﴿كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ ﴿يُحْيِ﴾ حِكايةُ حالٍ ماضيةٍ؛ بدَليلِ قولِه: ﴿فَٱنظُرْ﴾؛ لأنَّ الأمْرَ بالنَّظرِ مَسبوقٌ بوُجودِ المَنظورِ إليه، وإنَّما عُدِلَ إلى المُضارعِ؛ لإحضارِ تِلك الحالةِ العجيبةِ الشَّأْنِ في مُشاهَدةِ السَّامعِ، وهي اخضرارُ الأرضِ بآثارِ رَحمةِ اللهِ بعدَ جَفافِها[٢].

- وعبَّرَ عن الجَفافِ بالموتِ؛ لأنَّ قِوامَ الحياةِ الرُّطوبةُ، وعُبِّرَ عن ضِدِّه بالإحياءِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ استِئنافٌ، وهو إدْماجٌ؛ أدْمَجَ دليلَ البعثِ عقِبَ الاعتبارِ بإحياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها. وحرْفُ التَّوكيدِ يُفِيدُ مع تَقريرِ الخبرِ زِيادةَ معنَى فاءِ التَّسبُّبِ[٤].

- واسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ عائدٌ إلى اسمِ اللهِ تعالى بما أُجْرِيَ عليه مِن الإخبارِ بإحياءِ الأرضِ بعدَ مَوتِها؛ لِيُفِيدَ اسمُ الإشارةِ معنَى أنَّه جديرٌ بما يَرِدُ بعْدَه مِن الخبَرِ عن المُشارِ إليه، وعُدِلَ عن الموصولِ إلى الإشارةِ؛ للإيجازِ، ولِمَا في الإشارةِ مِن التَّعظيمِ[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لَمَّا كان وعْدُ اللهِ مَقطوعَ الحُصولِ، جِيءَ في التَّنزيلِ ﴿لَمُحْيِ﴾ اسمًا مع اللَّامِ خبرًا لـ (إنَّ)، واسْمُه اسمُ الإشارةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٢٣، ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٢٤).

وذُيِّلَت بقولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١].

- وقولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تَذْييلٌ؛ فإنَّه يعُمُّ جميعَ الأشياءِ، والبعثُ مِن جُملتِها؛ إذ ليس هو إلَّا إيجادَ خَلْقٍ، وهو مَقدورٌ للهِ تعالى، كما أنشأَ الخلْقَ أوَّلَ مرَّةٍ، والشَّبَهُ تامٌّ؛ لأنَّ إحياءَ الأرضِ إيجادُ أمثالِ ما كان عليها مِن النَّباتِ، فكذلك إحياءُ الموتَى إيجادُ أمثالِهم[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ سِيقَت هذه الجُملةُ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الكُفرانَ مَطْبوعٌ في نُفوسِهم، بحيث يُعاوِدُهم بأدْنى سبَبٍ؛ فهمْ إذا أصابَتْهم النِّعمةُ اسْتَبْشروا ولم يَشكُروا، وإذا أصابَتْهم البأْساءُ أسْرَعوا إلى الكُفرانِ؛ فصوَّرَ لِكُفْرِهم أعجَبَ صُورةٍ؛ وهي إظهارُهم إيَّاهُ بحِدْثانِ ما كانوا مُسْتبشرينَ منه؛ إذ يكونُ الزَّرعُ أخضَرَ، والأملُ في الارتزاقِ منه قريبًا، فيُصِيبُه إعصارٌ، فيَحترِقُ، فيَضِجُّون مِن ذلك، وتكونُ حالُهم حالةَ مَن يَكفُرُ باللهِ، وتَجْري على أقوالِهم عباراتُ السَّخَطِ والقُنوطِ[٣]؛ فهذه الآيةُ ناعيةٌ على الكفَّارِ بقِلَّةِ تَثَبُّتِهم وعدَمِ تَدبُّرِهم، وسُرعةِ تَزَلْزُلِهم؛ لِعدَمِ تفكُّرِهم وسُوءِ رأْيِهم؛ فإنَّ النَّظرَ السَّوِيَّ يَقْتضي أنْ يَتوكَّلوا على اللهِ، ويَلْتجِئوا إليه بالاستغفارِ إذا احتَبَسَ القَطْرُ عنهم، ولا يَيْئَسوا مِن رَحمتِه، وأنْ يُبادِروا إلى الشُّكرِ والاستدامةِ بالطَّاعةِ إذا أصابَهم برَحمتِه، ولم يُفرِطُوا في الاستبشارِ، وأنْ يَصبِروا على بلائِه إذا ضرَبَ زُروعَهم بالاصفِرارِ، ولا يَكْفُروا نِعَمَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٤، ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٥، ٤٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥).

- والفاءُ في ﴿فَرَأَوْهُ﴾ فَصيحةٌ، واللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لَّظَلُّواْ﴾ لامُ جوابِ القسَمِ سادٍّ مَسدَّ الجوابينِ، أي: وباللهِ لَئِنْ أرسَلْنا رِيحًا حارَّةً أو باردةً، فضَرَبتْ زرْعَهُم بالصَّفارِ، فرأَوَه مُصفرًّا لِيَظَلُّنَّ...[1].

- و(المُصفَرُّ): اسمُ فاعلٍ مُقتضٍ الوصفَ بمعناهُ في الحالِ، أي: فرأَوهُ يَصِيرُ أصفَرَ، فالتَّعبيرُ بـ ﴿مُّصْفَرًّا﴾؛ لتَصويرِ حِدْثانِ الاصفرارِ عليه دونَ أنْ يُقالَ: فرأَوهُ أصفَرَ[2].

- والإتيانُ بفِعلِ التَّصييرِ ﴿لَّظَلُّواْ﴾، مع الإخبارِ عنه بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يَكْفُرُونَ﴾؛ لِتَصويرِ مُبادرتِهم إلى الكفْرِ، ثمَّ استمرارِهم عليه، واعْلَمْ أنَّ الإتيانَ بالأفعالِ الثَّلاثةِ ماضيةٌ؛ لأنَّ وُقوعَها في سِياقِ الشَّرطِ يُمحِّضُها للاستقبالِ، فأُوثِرَت صِيغَةُ المُضِيِّ؛ لأنَّها أخفُّ[3].

وقيل: عبَّرَ بالماضي مَوضِعَ المُستقبَلِ نحوَ: (لَيظلَلْنَ واللهِ)؛ تأكيدًا لتحقيقِه[4].

- فإنْ قِيل: مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُوضَعَ مَوضِعَ ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (لم يَحْمَدوا)، ومَوضِعَ ﴿لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ (لَضَجُّوا وجَزِعوا).

**فالجوابُ**: إنَّما عدَلَ في الأوَّلِ؛ لِيُؤْذِنَ بأنَّ الفرَحَ المُفرِطَ بطَرٌ وأشَرٌ، وليس ذلك مِن شأْنِ الشَّاكرِ الحامِدِ، بلْ مِن دَيْدَنِ الكافرِ، وأشعَرَ بالثَّاني أنَّ فُقدانَ الصَّبرِ عندَ نُزولِ البلاءِ دَليلٌ على عدَمِ الرِّضا بالقضاءِ، وهو إخراجٌ لِرِبْقةِ العُبوديَّةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٦٩).

٧- قَولُه تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ الفاءُ للتَّرتيبِ على قولِه: ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ [الروم: ٥١] المُفيدِ أنَّ الكفْرَ غالبُ أحوالِهم؛ لأنَّهم بيْن كُفْرٍ باللهِ وبيْن إعراضٍ عن شُكْرِه. أو الفاءُ فَصيحةٌ تَدلُّ على كلامٍ مُقدَّرٍ، أي: إنْ كَبُرَ عليك إعراضُهم، وساءَكَ استِرسالُهم على الكُفْرِ؛ فإنَّهم كالمَوتى، وإنَّك لا تُسمِعُ المَوتى. وهذا مَعذِرةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونِداءٌ على أنَّه بذَلَ الجهْدَ في التَّبليغِ[1].

- وتقْييدُ الحُكْمِ المَذكورِ بقولِه: ﴿إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾؛ لِبَيانِ كَمالِ سُوءِ حالِ الكَفَرةِ، والتَّنبيهِ على أنَّهم جامِعُون لِخَصْلتَيِ السُّوءِ: نُبُوِّ أسْماعِهم عن الحقِّ، وإعراضِهم عن الإصغاءِ إليهِ، ولو كانَ فيهم إحداهُما لَكفاهُم ذلك، فكيفَ وقدْ جمَعُوهما؟! فإنَّ الأصمَّ المُقبلَ إلى المُتكلِّم ربَّما يَفطُنُ مِن أوضاعِه وحرَكاتِه لشَيءٍ مِن كلامِه وإنْ لم يَسْمَعْهُ أصلًا، وأمَّا إذا كانَ مُعرِضًا عنه، فلا يَكادُ يَفهَمُ منه شيئًا[2].

٨- قَولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾

- ومِن المُناسَبةِ الحَسنةِ في قولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴾ وقولِه: ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ *

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٥، ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٥).

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ۞ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾: أنَّ تَعدادَ التَّشابيهِ في هذه الآياتِ مَنظورٌ فيه إلى اختلافِ أحوالِ طوائفِ المُشرِكين، فكان لكلِّ فريقٍ تَشبيهٌ: فمنْهم مَن غلَبَ عليهم التَّوغُّلُ في الشِّركِ، فلا يُصدِّقون بما يُخالِفُه، ولا يَتأثَّرون بالقرآنِ، والدَّعوةِ إلى الحقِّ، فهؤلاء بمَنزلةِ الأمواتِ؛ أشباحٌ بلا إدراكٍ، وهؤلاء همْ دَهْماؤهم وأغلَبُهم، ولذلك ابتُدِئَ بهم. ومِنهم مَن يُعرِضُ عن استماعِ القرآنِ، وهم الذين يَقولون: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، ويقولون: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، وهؤلاء همْ ساداتُهم ومُدبِّرو أمْرِهم؛ يَخافون إنْ أصْغَوا إلى القرآنِ أنْ يَملِكَ مَشاعِرَهم؛ فلذلك يَتباعَدون عن سَماعِه؛ ولهذا قُيِّدَ الذي شُبِّهوا به بوقْتِ تَولِّيهم مُدْبِرين إعراضًا عن الدَّعوةِ؛ فهو تَشبيهُ تَمثيلٍ. ومنهم مَن سَلَكوا مَسلَكَ ساداتِهم، واقْتَفَوا خُطاهم، فانحرَفَتْ أفْهامُهم عن الصَّوابِ، فهمْ يسْمَعون القرآنَ، ولا يَسْتطيعون العمَلَ به، وهؤلاء همُ الذين اعْتادُوا مُتابَعةَ أهوائِهم، وهمُ الذين قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، ويَحصُلُ مِن جميعِ ذلك تشْبيهُ جَماعتِهم بجماعةٍ تَجمَعُ أمواتًا وصُمًّا وعُمْيًا، فليس هذا مَن تَعدُّدِ التشبيهِ لِمُشبَّهٍ واحدٍ، كالذي في قولِه تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[1] [البقرة: ١٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٦).

## الآيات (٥٤-٥٧)

﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ يُؤْفَكُونَ ﴾: أي: يُصرَفون عن الحقِّ، ويُصَدُّون عن الصواب، يُقالُ: أفَكَ الرَّجلُ عن كذا: إذا عدَل عنه، والإفْكُ: كلُّ مصروفٍ عن وجهِه الَّذي يحقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): قلْبُ الشَّيءِ، وصَرْفُه عن جهتِه[1].

﴿يُسْتَعْتَبُونَ ﴾: أي: يُطلَبُ منهم أن يُزيلوا غَضَبَ رَبِّهم بالتَّوبةِ وصالحِ العَمَلِ؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجُوعُ عن الإساءةِ، والتَّعَرُّضُ لِطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغضَبُ والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتبَه: إذا أزالَ عنه عَتْبَه، واستَعْتَبَه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣/ ٣٠٩)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٣/ ٢٢٣).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا الناسَ بمراحلِ حياتِهم، وسَعةِ عِلمِه وعظيمِ اقتِدارِه، وكمالِ حكمتِه: اللهُ الَّذي خَلَقَكم -أيُّها النَّاسُ- مِن ضَعفٍ، ثمَّ جَعَل لكم مِن بَعدِ ضَعفِكم قُوَّةً، ثمَّ جَعَل فيكم مِن بَعدِ قُوَّتِكم ضَعفًا بالشَّيبِ والهرَمِ، يخلُقُ اللهُ ما يشاءُ، وهو العَليمُ القَديرُ.

ثمَّ يُذكِّرُهم بأحوالِهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: ويومَ تقومُ القيامةُ يُقسِمُ الكُفَّارُ بأنَّهم ما مَكَثوا غيرَ ساعةٍ واحدةٍ، كذلك كانوا يُكَذِّبونَ ويُصرَفونَ عن الحَقِّ في الدُّنيا.

وقال الَّذين أُعطوا العِلمَ لأولئك الكُفَّارِ الكاذِبينَ: لقد مكَثْتُم الوَقتَ الَّذي كتَبَه اللهُ في اللَّوحِ المحفوظِ إلى يومِ بَعثِكم، ولم تَلبَثوا ساعةً كما زعمتُم! فهذا هو يومُ القيامةِ، ولكِنَّكم كُنتُم في الدُّنيا لا تَعلَمونَ -أيُّها الكُفَّارُ- أنَّكم تُبعَثونَ بعدَ مَوتِكم وتُحاسَبونَ، فيومَ القيامةِ لا يَنفَعُ المكَذِّبينَ بالبَعثِ اعتِذارُهم، ولا يُطلَبُ منهم أن يَرجِعوا إلى ما يُرضي اللهَ عنهم بالتَّوبةِ والإيمانِ حتَّى تُزالَ عنهم المُعاتبةُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أعاد سُبحانَه مِنَ الدَّلائِلِ الَّتي مَضَت دليلًا مِن دلائِلِ الآفاقِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]، وذكَرَ أحوالَ

الرِّيحِ مِن أوَّلِه إلى آخِرِه؛ أعاد دليلًا مِن دلائِلِ الأنفُسِ، وهو خَلقُ الآدميِّ، وذكَرَ أحوالَه[١]، فقال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾.

أي: اللهُ الَّذي خلَقَكم -أيُّها النَّاسُ- وابتدأَ إنشاءَكم مِن ضَعفٍ[٢].

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾.

أي: ثمَّ جَعَل اللهُ لكم قُوَّةً مِن بَعدِ ضَعفِكم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿مِّن ضَعْفٍ﴾ أي: مِن نُطفةٍ ضَعيفةٍ. ومِمَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، والسمرقندي، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٦).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦).

وقيل: المرادُ: بدَأكم وأنشأكم على ضَعفٍ، وجعَلَ الخَلْقَ مِن ضَعفٍ؛ لكثرةِ ضَعفِ الإنسانِ أوَّلَ نشأتِه وطفوليَّتِه. وممَّن اختاره في الجملةِ: الخازنُ، وأبو حيان، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٣٦).

وذكر ابن عثيمين أنَّ هذا الضَّعفَ يَبتدئُ بعدَ نَفخِ الرُّوحِ في الجنينِ؛ إذا صار حيًّا في بطنِ أمِّه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الروم)) (ص: ٣٣٦).

وممَّن جمَع بينَ القولينِ في الجملةِ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾.

أي: ثمَّ جَعَل اللهُ فيكم ضَعفًا مِن بَعدِ قُوَّتِكم، فتَهرَمونَ وتَشيبونَ[1].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡ لَا يَعۡلَمَ بَعۡدَ عِلۡمٖ شَيۡـًٔا﴾ [النحل: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ [يس: ٦٨].

﴿يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: يَخلُقُ اللهُ ما يَشاءُ في عِبادِه مِن ضَعفٍ وقُوَّةٍ، ويتصَرَّفُ في خَلقِه بما يريدُ بحَسَبِ حِكمتِه سُبحانَه[2].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾.

أي: واللهُ هو العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بتدبيرِ عِبادِه، وهو القادِرُ على كُلِّ شَيءٍ[3].

﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ٥٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ الله سبحانه وتعالى لَمَّا ذكَر الإبداءِ -والإعادةُ كالإبداءِ- ذكَر أحوالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٢٩).

الإعادةِ وأوقاتَها[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى عَدَمَ انتِفاعِ المُشرِكينَ بآياتِ القُرآنِ، وشُبِّهوا بالأمواتِ والصُّمِّ والعُمْيِ، فظَهَرت فَظاعةُ حالِهم في العاجِلةِ؛ أتْبع ذلك بوَصفِ حالِهم حينَ تقومُ السَّاعةُ[٢].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾.

أي: ويومَ تأتي القيامةُ يُقسِمُ الكُفَّارُ بأنَّهم ما مَكَثوا مِن قَبْلُ[٣] غيرَ ساعةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٨).

(٣) اختلف المفسِّرون في موضِعِ هذا المُكثِ الَّذي يُقسِمُ المجرِمونَ أنَّهم لم يَلبَثوا فيه سِوى ساعةٍ واحدةٍ. فقيلَ: المرادُ به: القَبرُ. ومِمَّن قال بذلك: ابن جرير، والواحدي، وابن عطية، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: الكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٣).

قال ابن عاشور: (يريدونَ أن يُقنِعوا أنفُسَهم بصحَّةِ دليلِهم القديم، ويلتَمِسونَ اعتلالًا لتخَلُّفِ المدلولِ بعِلَّةِ أنَّ بَعْثَهم ما كان إلَّا بعد ساعةٍ قليلةٍ مِن وقتِ الدَّفنِ قَبْلَ أن تنعَدِمَ أجزاءُ أجسامِهم! فيُخيَّلُ إليهم أنَّهم مُحِقُّونَ في إنكارِه في الدُّنيا؛ إذ كانوا قد أُخبِروا أنَّ البعثَ يكونُ بعدَ فناءِ الأجسام، فهم أرادوا الاعتذارَ عن إنكارِهم البعثَ حين تحقَّقوه بما حاصِلُه: أنَّهم لو عَلِموا أنَّ البَعثَ يكونُ بعد ساعةٍ مِن الحلولِ في القبرِ لأقَرُّوا به. وقد أنبأ عن هذا تسميةُ كلامِهم هذا معذرةً بقَولِه عَقِبَه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ [الروم: ٥٧]. وهذه فِتنةٌ أُصيبوا بها حينَ البَعثِ جَعَلَها اللهُ لهم؛ لِيَكونوا هُزْأةً لأهلِ النُّشورِ، ويتَّضِحَ غَلَطُهم وسوءُ فَهمِهم، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى بعدَ ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ ...﴾ [الروم: ٥٦]، وقد أومأَ إلى أنَّ هذا هو المرادُ مِن الآيةِ أنَّه قال عَقِبَ ذلك: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كهذا الخطأِ كانوا في الدُّنيا يُصرَفونَ عن الحَقِّ بمثلِ هذه التُّرَّهاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩).

وقيل: المرادُ: الدُّنيا. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥). =

واحِدةٍ[١].

﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾.

أي: كما كذَّبَ الكُفَّارُ وصُرِفوا عن الحَقِّ في قَسَمِهم بأنَّهم ما لَبِثوا غيرَ ساعةٍ، كانوا يُكَذِّبونَ ويُصرَفونَ عن الحَقِّ والصَّوابِ في الدُّنيا أيضًا، فذاك خُلُقٌ قَبيحٌ تخَلَّقوا به، فصار لهم سَجِيَّةً وطَبعًا[٢].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالى الجاهِلينَ؛ أتبَعَه صِفةَ العُلَماءِ[٣].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ﴾.

---

= ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٠٢).

قال ابن كثير: (ومقصودُهم بذلك عدَمُ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، وأنَّهم لم يُنظَروا حتى يُعذَرَ إليهم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨).

وممَّن جمَع بيْنَ القَولَينِ: يحيى بنُ سلام، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٧، ٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩، ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣١).

أي: وقال أهلُ العِلمِ المُؤمِنونَ باللهِ[١] لأولئك الكُفَّارِ الكاذِبينَ: واللهِ لقد مكَثْتُم الوَقتَ الَّذي قدَّرَه اللهُ لكم وكَتَبه في اللَّوحِ المحفوظِ إلى يومِ بَعثِكم، ولم تَلبَثوا ساعةً كما زعَمْتُم[٢].

﴿فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

أي: فهذا هو يومُ القيامةِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه النَّاسَ مِن قُبورِهم، ولكِنَّكم كنتُم في الدُّنيا -أيُّها الكُفَّارُ- لا تَعلَمونَ أنَّكم تُبعَثونَ بعدَ مَوتِكم، بل كان دَأْبُكم الإنكارَ والتَّكذيبَ بذلك[٣].

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ٥٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت الآياتُ دالَّةً على أنَّ هذه الدَّارَ دارُ عمَلٍ، وأنَّ الآخِرةَ دارُ جزاءٍ،

---

(١) قال الشوكاني: (اختُلِفَ في تعيينِ هؤلاء الَّذين أُوتوا العِلمَ؛ فقيل: الملائِكةُ. وقيل: الأنبياءُ. وقيل: عُلماءُ الأُمَمِ. وقيل: مؤمِنو هذه الأمَّةِ. ولا مانِعَ مِن الحَملِ على الجميعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

قال البيضاوي: (﴿لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في عِلمِه أو قَضائِه، أو ما كتَبَه لكم، أي: أوجَبَه، أو اللَّوحِ، أو القرآنِ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١١).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: فيما كتَب الله لكم في سابِقِ عِلمِه: الثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، وابن عادل. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٤٣٠).

وقيل: إنَّ في الآيةِ تقديمًا وتأخيرًا، تقديرُه: وقال الَّذين أُوتوا العِلمَ بكتابِ الله والإيمانَ بالله عزَّ وجَلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١، ١٣٢).

وأنَّ البَرزخَ حائِلٌ بيْنَهما، فلا يكونُ في واحدةٍ منهما ما للأخرى؛ تسَبَّب عن ذلك قَولُه تعالى[١]:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾.

أي: فيومَ القيامةِ لا يَنفَعُ المكَذِّبينَ بالبَعثِ اعتِذارُهم[٢].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

أي: ولا يُطلَبُ يومَ القيامةِ مِن الظَّالِمينَ أن يَرجِعوا إلى ما يُرضي اللهَ -عزَّ وجَلَّ- بالتَّوبةِ والإيمانِ والطَّاعةِ، حتى تُزالَ عنهم المُعاتَبةُ والمُؤاخَذةُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- بعدَ الأربعينَ يأخُذُ ابنُ آدَمَ في النُّقصانِ وضَعفِ القُوى على التَّدريجِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

قيل: المرادُ: اعتذارُهم بقَولِهم: ما عَلِمْنا أنَّ القيامةَ كائنةٌ، ولا أنَّا نُبعَثُ. ومِمَّن قال بذلك: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٠٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: لا ينفَعُهم اعتذارُهم عَمَّا فَعَلوا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨).

وقال السعدي: (﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فإن كَذَّبوا وزَعَموا أنَّهم ما قامت عليهم الحُجَّةُ، أو ما تمكَّنوا من الإيمانِ؛ ظهَر كَذِبُهم بشهادةِ أهلِ العلمِ والإيمانِ، وشهادةِ جُلودِهم وأيديهم وأرجُلِهم، وإن طَلَبوا الإعذارَ وأنَّهم يُرَدُّونَ ولا يعودونَ لِما نُهُوا عنه، لم يُمَكَّنوا؛ فإنَّه فات وقتُ الإعذارِ، فلا تُقبَلُ مَعذِرتُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٣).

كما أخَذ في زيادتِها على التَّدريجِ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾، فقُوَّتُه بيْنَ ضَعفَينِ، وحياتُه بيْن مَوتَينِ[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ مِن حِكمتِه تعالى أن يُريَ العَبدَ ضَعْفَه، وأنَّ قُوَّتَه محفوفةٌ بضَعفَينِ، وأنَّه ليس له مِن نَفْسِه إلَّا النَّقصُ، ولولا تقويةُ اللهِ له لَما وصَلَ إلى قوَّةٍ وقُدرةٍ، ولو استمرَّت قوَّتُه في الزِّيادةِ لطغَى وبغَى وعتا، ولِيَعلمَ العبادُ كَمالَ قُدرةِ اللهِ التي لا تزالُ مُستَمِرَّةً يَخلَقُ بها الأشياءَ، ويُدبِّرُ بها الأمورَ، ولا يَلحَقُها إعياءٌ ولا ضَعفٌ ولا نَقصٌ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ والمعنَى: أنَّ ذلك خُلُقٌ تَخَلَّقوا به وصارَ لهم كالسَّجيَّةِ في حياتِهم الدُّنْيا، حتَّى إذا أعاد اللهُ إليهم أرواحَهم صَدَرَ عنهم ما كانوا تَخَلَّقوا به، وفي هذا الخبَرِ أدَبٌ عظيمٌ للمُسلِمينَ: أن يَتحامَوُا الرَّذائلَ والكبائرَ في الحياةِ الدُّنيا؛ خشيةَ أن تَصيرَ لهم خُلُقًا، فيُحشَروا عليها[3].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ المؤمِنينَ يَسمَعونَ تحاجَّ المُشرِكينَ بَعضِهم مع بَعضٍ، فيُبادِرونَ بالإنكارِ عليهم؛ لأنَّ تغييرَ المنكَرِ سَجيَّتُهم التي كانوا عليها، وفي هذا أدَبٌ إسلاميٌّ، وهو أنَّ الذي

(١) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٠).

يَسمَعُ الخطأَ في الدِّينِ والإيمانِ: لا يُقِرُّه، ولو لم يكُنْ هو المخاطَبَ به[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ في التَّعبيرِ بنَفي العِلمِ وقَصدِ نَفيِ الاهتمامِ به والعنايةِ بتلقِّيه: إشارةٌ إلى أنَّ التصَدِّيَ للتعلُّمِ وَسيلةٌ لحُصولِه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ سُمِّيَت القيامةُ بالسَّاعةِ؛ إعلامًا بيُسْرِها عليه سُبحانَه وتعالى[٣].

٢- ليس العِلمُ في الحقيقةِ إلَّا ما أخبَرَت به الرُّسُلُ عن اللهِ عَزَّ وجَلَّ طَلبًا وخَبرًا، فهو العِلمُ المزكِّي للنُّفوسِ، المكَمِّلُ للفِطَرِ، المصَحِّحُ للعُقولِ، الَّذي خَصَّه الله باسمِ العِلمِ، وسمَّى ما عارَضَه ظَنًّا لا يُغْني من الحَقِّ شَيئًا، وخَرْصًا وكَذِبًا؛ فقال تعالى: ﴿فَمَنۡ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٦١]، وشَهِدَ لأهلِه أنَّهم أولو العِلمِ، فقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ ﴾، وقال: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ [آل عمران: ١٨]، والمرادُ أولو العِلمِ بما أنزَلَه على رُسُلِه ليس إلَّا، وليس المرادُ أولي العِلمِ بالمنطِقِ والفَلسفةِ وفُروعِهما[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ فيما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٧٦).

يَزعُمونَ «أنَّ الإيمانَ مُكتسَبٌ غيرُ مَوهوبٍ»[١]!

٤- قال الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يُنافي قولَه تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦] المُقْتضيَ نفْيَ وُقوعِ الاعتذارِ منهم؛ لأنَّ الاعتذارَ المَنفيَّ هو الاعتذارُ المأذونُ فيه، أي: المقبولُ؛ لأنَّ اللهَ لو أذِنَ لهم في الاعتذارِ لكان ذلك تَوطئةً لِقَبولِه اعتذارَهم، نظيرُ قولِه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والمُثبَتُ هنا مَعذِرةٌ مِن تِلقاءِ أنفُسِهم لم يُؤذَنْ لهم بها، فهي غيرُ نافعةٍ لهم، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨]، وقولِه: ﴿لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾[٢] [المؤمنون: ٦٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف جُعِلوا غيرَ مُستَعتَبينَ في بعضِ الآياتِ، وغَيرَ مُعتَبِينَ في بَعضِها، وهو قَولُه: ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت: ٢٤]؟

**الجوابُ**: أمَّا كَونُهم غيرَ مُستَعتَبِينَ، فمعناه: أي: لا يُقالُ لهم: أرْضُوا ربَّكم بتوبةٍ وطاعةٍ، وأمَّا كَونُهم غيرَ مُعتَبِينَ، فمعناه: أنَّهم غيرُ راضينَ بما هم فيه؛ فشُبِّهَت حالُهم بحالِ قَومٍ جُنيَ عليهم، فهم عاتِبونَ على الجاني، غيرُ راضينَ منه، فإنْ يَستعتِبوا اللهَ، أي: يَسألوه إزالةَ ما هم فيه، فما هم مِنَ المجابِينَ إلى إزالتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((النُّكَت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٢، ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ استِئنافٌ يُفِيدُ الاستِدلالَ على عَظيمِ القُدْرةِ في مُختلَفِ المَصنوعاتِ مِن العوالِمِ، ولِتَقريرِ إمكانيَّةِ البَعثِ، وتَقريبِ حُصولِه إلى عُقولِ مُنْكريه؛ لأنَّ تَعدُّدَ صُوَرِ إيجادِ المَخلوقاتِ وكيفيَّاتِه؛ مِن ابتدائِها عن عدَمٍ، أو مِن إعادتِها بعدَ انعدامِها، وبِتَطوُّرٍ وبدونِه؛ ممَّا يَزيدُ إمكانَ البعثِ وُضوحًا عندَ مُنكريه؛ فمَوقعُ هذه الآيةِ كمَوقعِ قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] ونَظائرِها؛ ولذلك جاءتْ فاتحتُها على أُسلوبِ فواتحِ نظائرِها، وهذا ما يُؤذِنُ به تَعقيبُها بقولِه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [الروم: ٥٥] الآيةَ[١].

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ...﴾ الآيةَ، قال ذلك، مع أنَّ الضَّعفَ صِفةٌ، والمُخاطَبون لم يُخْلَقوا مِن صِفةٍ بلْ مِن عَينٍ، وهي الماءُ أو التُّرابُ؛ لأنَّ المُرادَ بالضَّعفِ الضَّعيفُ؛ مِن إطلاقِ المصدرِ على اسمِ الفاعلِ، كقولِهم: رجُلٌ عَدْلٌ، أي: عادلٌ، فمعناه: مِن ضَعيفٍ، وهو النُّطفةُ[٢]. وقيل: (مِن) ابتِدائيَّةٌ، أي: مُبتدَأُ خلْقِه مِن ضَعفٍ، أي: مِن حالةِ ضَعفٍ، يدُلُّ على تمكُّنِ الوصْفِ مِن الموصوفِ حتَّى كأنَّه مُنتزَعٌ منه[٣]. وقيل: جعَلَ الخلْقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٧، ١٢٨).

مِن ضَعفٍ؛ لكثرةِ ضَعفِ الإنسانِ أوَّلَ نشْأتِه وطُفوليَّتِه[١].

- وفي كلمةِ ﴿ضَعْفٍ﴾ تَنكيرٌ مع التَّكريرِ؛ لأنَّ المُتأخِّرَ ليس عَينَ المُتقدِّمِ[٢]. وقيل: تَنكيرُ (ضَعْفٍ) و(قُوَّةٍ) للنَّوعيةِ؛ فـ (ضَعْفٌ) المذكورُ ثانيًا هو عينُ (ضَعْفٍ) المذكورِ أوَّلًا، و(قُوَّةٌ) المذكورةُ ثانيًا عَينُ (قُوَّةٍ) المذكورةِ أوَّلًا. وقولُهم: النَّكرةُ إذا أُعِيدَتْ نَكرةً كانتْ غيرَ الأُولى، يُرِيدون به التَّنكيرَ المقصودَ منه الفرْدُ الشَّائعُ، لا التَّنكيرَ المرادَ به النَّوعيَّةُ[٣].

- وعطَفَ ﴿وَشَيْبَةً﴾ على ﴿ضَعْفًا﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ هذا الضَّعفَ لا قُوَّةَ بعْدَه، وأنَّ بعْدَه العدَمَ بما شاع مِن أنَّ الشَّيبَ نَذيرُ المَوتِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ ذكَرَ وصْفَ العِلْمِ والقُدرةِ؛ لأنَّ التَّطوُّرَ هو مُقْتضى الحِكمةِ، وهي مِن شُؤونِ العِلْمِ، وإبرازُه على أحكَمِ وجْهٍ هو مَن أثَرِ القُدرةِ[٥].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾

- جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ غَرابةَ حالِهم مِن فسادِ تَقديرِ المُدَّةِ والقَسَمِ عليه، مع كونِه تَوهُّمًا؛ يُثِيرُ سُؤالَ سائلٍ عن مَثارِ هذا الوهْمِ في نُفوسِهم، فكان قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ بَيانًا لذلك.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٨).

و﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى انصرافِهم عن الحقِّ يومَ البعْثِ، والمُشارُ إليه هو المُشبَّهُ به، والمُشبَّهُ مَحذوفٌ دلَّ عليه كافُ التَّشبيهِ، والتَّقديرُ: إفكًا مِثلَ إفْكِهم هذا كانوا يُؤفَكونَ به في حياتِهم الدُّنيا. والمقصودُ مِن التَّشبيهِ المُماثَلةُ والمُساواةُ(١).

- ولم يُسنَدْ إفْكُهم إلى آفكٍ مُعيَّنٍ في قولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾؛ لأنَّ بعضَ صَرْفِهم يكونُ مِن أوليائِهم وأئمَّةِ دِينِهم، وبعْضَه مِن طَبْعِ اللهِ على قُلوبِهم(٢). وقيل: لعلَّه بَنى الفِعلَ للمجهولِ؛ إشارةً إلى سُهولةِ انقيادِهم إلى الباطلِ مع أيِّ صارفٍ كان(٣).

- وذِكرُ فِعلِ ﴿ كَانُوا۟ ﴾ في قولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُرادَ في زمانٍ قبْلَ ذلك الزَّمنِ، أي: في زمَنِ الحياةِ الدُّنيا، والمعنى: أنَّ ذلك خُلُقٌ تَخلَّقوا به، وصار لهم كالسَّجيَّةِ في حياتِهم الدُّنيا، حتَّى إذا أعاد اللهُ إليهم أرواحَهم صَدَرَ عنهم ما كانوا تَخلَّقوا به(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ... ﴾ فيه رَدٌّ لِمَا قاله المُجرِمون مِن إنكارِ البَعْثِ، وأكَّدَ باليمينِ في (لقد)(٥).

- وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّحزينِ والتَّرويعِ، باعتبارِ ما يَرِدُ بعْدَه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢٩، ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦).

الإفصاحِ عن حُضورِ وقْتِ عذابِهم[١].

- وعطَف الإيمانَ على العلمِ للاهتمامِ به؛ لأنَّ العلمَ بدونِ إيمانٍ، لا يرشدُ إلى العقائدِ الحقِّ التي بها الفوزُ في الحياةِ الآخرةِ[٢].

- وعَبَّرَ بقَولِه: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾؛ تنبيهًا على شُكرِ مَن آتاهموه، وبناه للمَجهولِ؛ إشارةً إلى تَسهيلِ أخْذِه عليهم مِنَ الجَليلِ والفَقيرِ[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ فاءُ الفصيحةِ؛ أفْصَحَتْ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، وتُفيدُ معنى المُفاجأةِ، أي: إذا كان كذلك فهذا يَومُ البَعثِ[٤]. وقيل: الفاءُ في ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ عاطفةٌ لهذه الجُملةِ المَقولةِ على الجُملةِ التي قبْلَها، وهي ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ﴾، اعْتَقَبها في الذِّكرِ[٥].

- قولُه: ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ هذا تَوبيخٌ لهم وتَهديدٌ، وتعْجيلٌ لإساءتِهم بما يَترقَّبُهم مِن العذابِ. والاقتِصارُ على ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾؛ لِيَتوقَّعوا كلَّ سُوءٍ وعذابٍ[٦]. وفيه تبْكيتٌ واستهزاءٌ بهم[٧].

- وفي التَّعبيرِ بنفْيِ العِلْمِ في قولِه: ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقَصْدِ نفْيِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣١).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٦).

الاهتمامِ به، والعِنايةِ بتَلقِّيه: إشارةٌ إلى أنَّ التَّصدِّيَ للتَّعلُّمِ وسَيلةٌ لحُصولِه[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ تَفْريعٌ على جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥]، و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هم المُشركون الذين أقْسَموا: ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾؛ فالتَّعبيرُ عنهم بـ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ إظهارٌ في مَقام الإضمارِ؛ لِغرَضِ التَّسجيلِ عليهم بوَصْفِ الظُّلمِ، وهو الإشراكُ باللهِ؛ لأنَّه جامعٌ لفُنونِ الظُّلمِ؛ ففيه الاعتداءُ على حَقِّ اللهِ، وظُلْمُ المُشرِكِ نفْسَه بتَعريضِها للعذابِ، وظُلْمُهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّكذيبِ، وظُلْمُهم المُؤمنينَ بالاعتداءِ على أمْوالِهم وأبشارِهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٥٨-٦٠)

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُبْطِلُونَ﴾: أي: أصحابُ باطلٍ، والباطِلُ: نقيضُ الحقِّ، والإبطالُ يُقالُ في إفسادِ الشَّيءِ وإزالتِه؛ حقًّا كان ذلك الشيءُ أو باطلًا، وأصلُ (بطل): ذَهابُ الشَّيءِ وقِلَّةُ مُكْثِه ولُبْثِه[1].

﴿يَطْبَعُ﴾: أي: يختِمُ، وطبْعُ القلبِ: الختمُ عليه حتَّى لا يَصِلَ إليه هُدًى، والطَّبْعُ: أنْ تصوِّرَ الشَّيءَ بصورةٍ ما، وهو أعمُّ مِن الختمِ وأخصُّ مِن النَّقشِ، وبه اعتُبِرُ الطَّبْعُ والطَّبيعةُ الَّتي هي السَّجيَّةُ؛ فإنَّ ذلك هو نقْشُ النَّفْسِ بصورةٍ ما؛ إمَّا مِن حيثُ الخِلقةُ، وإمَّا مِن حيثُ العادةُ، وأصلُ (طبع): هو مَثَلٌ على نهايةٍ يَنْتَهي إليها الشَّيءُ حتَّى يُخْتَمَ عندَها[2].

﴿يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾: أي: يُزعِجَنَّك ويَستفِزَّنَّك عن اعتِقادِك، وأصلُ (خفف): يدُلُّ على خِلافِ الثِّقَلِ والرَّزانةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا فضائلَ القرآنِ، وشِدَّةَ تعنُّتِ الكافرين: ولقدْ ذكَرْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ، ولَئِنْ جِئتَ الكُفَّارَ -يا محمَّدُ- بدَلالةٍ تُثبتُ صِدقَك، لَيَقولُنَّ: ما أنتم إلَّا مُتَّبِعونَ للباطِلِ! كذلك الخَتمِ يخَتِمُ اللهُ على قُلوبِ الكُفَّارِ، فَلا يُؤمِنونَ أبدًا.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ والثَّباتِ، فيقولُ: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على دَعوةِ الكُفَّارِ وعِنادِهم؛ فإنَّ ما وعَدَكَ اللهُ به حَقٌّ، ولا يَستفِزَّك عن اتِّباعِ الحقِّ الَّذين لا يُوقِنونَ بوَعدِ اللهِ، فتَترُكَ الثَّباتَ على الحَقِّ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا انتهَى ما أُقيمَت عليه السُّورةُ مِن دلائِلِ الوحدانيَّةِ، وإثباتِ البَعثِ؛ عقَّبَ ذلك بالتَّنويهِ بالقُرآنِ، وبلوغِه الغايةَ القُصوى في البيانِ والهُدى[1].

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾.

أي: ولقَدْ ذكَرْنا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ كُلَّ مَثَلٍ تتبيَّنُ به الحقائِقُ، وتنقَطِعُ به الحُجَّةُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩].

﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾.

أي: ولَئِنْ جِئتَ الكُفَّارَ -يا محمَّدُ- بأيِّ علامةٍ ودَلالةٍ تُثبِتُ صِدقَك، لَيقولُنَّ: ما أنتُم -أيُّها الرَّسولُ والمُؤمِنونَ به- إلَّا مُتَّبِعونَ للباطِلِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٧].

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

أي: مِثْلَما خَتَمَ اللهُ على قُلوبِ أولئك الكُفَّارِ فلا يَفقَهونَ آياتِ اللهِ، يَختِمُ أيضًا على قُلوبِ غَيرِهم مِنَ الكُفَّارِ، فلا يُؤمِنونَ بالحَقِّ أبدًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٤).

قيل: المرادُ بالَّذين لا يَعلَمونَ: أي: الَّذين لا يَعلَمونَ حَقيقةَ ما يأتيهم به محمَّدٌ مِن عندِ الله مِن هذه العِبَرِ والعِظاتِ، والآياتِ البيِّناتِ؛ فلا يَفقَهونَ عن الله حُجَّةً، ولا يَفهَمونَ عنه ما يَتلو عليهم مِن آيِ كتابِه؛ فهم لذلك في طُغيانِهم يَتردَّدونَ. قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٩). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٠٧).

وقيل: الذين لا يَعلَمونَ توحيدَ الله. ومِمَّن قال به: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٢٩٧). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٤). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦، ٧].

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾.

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على دَعوةِ الكُفَّارِ وتَعَنُّتِهم وعِنادِهم؛ فإنَّ ما وعَدَ اللهُ به مِن نَصرِ المؤمِنينَ، وإهلاكِ الكافِرينَ في الدُّنيا والآخرةِ: آتٍ لا مَحالةَ[1].

﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾.

أي: ولا يَستَفِزَّك -يا مُحمَّدُ- عن اتِّباعِ الحقِّ وتَبليغِه: الَّذين لا يُوقِنونَ بوَعدِ اللهِ، فيَحمِلوك بأقوالِهم أو أفعالِهم على الطَّيشِ وعدَمِ الصَّبرِ، فتَترُكَ الثَّباتَ على الحَقِّ[2].

---

= وقيل المعنى: لا يَطلُبون عِلمَ ما يَجهَلونه، ولا يَتحرَّون الحقَّ، بل يُصِرُّون على خرافاتٍ اعتقَدوها، وتُرَّهاتٍ ابتدعُوها. وممَّن قال به في الجملةِ: البيضاوي، والبقاعي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٧-١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٥).

قال القرطبي: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ أمَّتُه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٤٩).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ * وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٨، ٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ هذا ممَّا يُعينُ على الصَّبرِ؛ فإنَّ العَبدَ إذا عَلِمَ أنَّ عَمَلَه غيرُ ضائعٍ، بل سيَجِدُه كامِلًا؛ هانَ عليه ما يَلْقاه مِنَ المكارِهِ، ويُسِّرَ عليه كلُّ عسيرٍ، واستقَلَّ مِن عَمَلِه كُلَّ كَثيرٍ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ فيه الحثُّ على التَّصلُّبِ في الدِّينِ، وقد قال تعالى: ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾ [الواقعة: ٨١] أي: متهانون؟! وقال السَّحرةُ لِفرعونَ لَمَّا تَهدَّدَهم: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ﴾[2] [طه: ٧٢].

٣- وفي هذا الخِتامِ الجليلِ لهذه السُّورةِ الجليلةِ: دَعوةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وللمؤمنينَ معه إلى الصَّبرِ على المَكارهِ، واحتمالِ الشَّدائدِ، على طريقِ الإيمانِ، وذلك بما يمتلئُ به القلبُ من إيمانٍ باللهِ، ومِن يقينٍ راسخٍ في لِقاءِ ما وعَدَ اللهُ النَّبيَّ والمؤمنينَ مِن نصرٍ وإعزازٍ وتمكينٍ، وأنَّهم إذا كانوا على يَقينٍ مِن الفَوزِ والرِّضوانِ في الآخِرةِ، فلْيَكونوا على هذا اليقينِ مِن النَّصرِ والتَّمكينِ في الدُّنيا، وأنَّه إذا طالَ انتظارُهم لِمَا وُعِدَوا به في الدُّنيا، فهو -على أيِّ حالٍ-

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٥).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٣).

أقرَبُ ممَّا وُعِدَوا به في الآخرةِ. فلْيَصبِروا إذَنْ حتَّى يَلْقَوا ما وَعدَهم اللهُ به في الدُّنيا؛ لِيَزدادَ يقينُهم بما وعَدَهم اللهُ به في الآخِرةِ(١).

٤- قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾، فمَن وَفَى الصَّبرَ حقَّه، وتيَقَّنَ أنَّ وعْدَ الله حقٌّ؛ لم يَستفِزَّه المُبطِلون، ولم يَستخِفَّه الَّذين لا يوقِنون، ومتى ضَعُفَ صبرُه ويقينُه أو كِلاهما، استفَزَّه هؤلاء، واستخَفَّه هؤلاء، فجذَبوه إليهم بحسَبِ ضَعفِ قوَّةِ صبرِه ويقينِه، فكُلَّما ضَعُف ذلك منه قَوِيَ جَذْبُهم له، وكُلَّما قَوِيَ صبرُه ويقينُه قَوِيَ انجذابُه منهم، وجَذْبُه لهم(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ فيه إشارةٌ إلى إزالةِ الأعذارِ، والإتيانِ بما فوقَ الكفايةِ مِن الإنذارِ، وإلى أنَّه لم يبقَ مِن جانبِ الرَّسولِ تقصيرٌ(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ واضِحةٌ في إنكارِهم أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ مِنَ اللهِ تعالى(٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾

- قوله: ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ ضَميرُ جمْعِ المُخاطَبِ

---

(١) يُنظر: ((التفسير القرآني للقرآن)) لعبد الكريم الخطيب (١١/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢٣).

في ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَصْدِ تَعظيمِه مِن جانبِ اللهِ تعالى، وإنَّما يقولُ الَّذين كَفَروا: إنْ أنت إلَّا مُبطِلٌ، فحُكِيَ كلامُهم بالمعنى؛ للتَّنويهِ بشأْنِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وقِيل: الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمِنينَ؛ فهو حِكايةٌ باللَّفظِ. وهذا تأْييسٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن إيمانِ مُعانديه، أي: أئمَّةِ الكُفْرِ منهم؛ ولذلك اعترَضَ بعْدَه بجُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بيْنَ الجُملتينِ المُتعاطفتَينِ؛ تَمْهيدًا للأمْرِ بالصَّبرِ على غُلَوائِهم[1].

- وفي تَوحيدِ الخِطابِ بقولِه: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم﴾، والجمْعِ في قولِه: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ لَطيفةٌ؛ وهي: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: ولئنْ جِئتَهم بكلِّ آيةٍ جاءتْ بها الرُّسلُ، فيُمكِنُ أنْ يُجاوِبوه بقولِه: أنتم كلُّكم أيُّها المُدَّعون الرِّسالةَ مُبطِلون[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مُرادٌ به الَّذين كَفَروا أنفُسُهم؛ فعُدِلَ عن الإضمارِ؛ لزِيادةِ وَصْفِهم بانتفاءِ العِلْمِ عنهم بعدَ أنْ وُصِفوا بالمُجْرِمين، والَّذين ظَلَموا، والَّذين كَفَروا[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱصْبِرْ﴾ الأمْرُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ، تفرَّعَ على جُملةِ ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ [الروم: ٥٨]؛ لتَضمُّنِها تأْييسَه مِن إيمانِهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٤).

وحُذِفَ مُتعلَّقُ الأمْرِ بالصَّبرِ؛ لدَلالةِ المَقامِ عليه، أي: اصبرْ على تَعنُّتِهم. وجُملةُ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالصَّبرِ، وهو تأْنيسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَحقيقِ وعْدِ اللهِ مِن الانتقامِ مِن المُكذِّبينَ، ومِن نصْرِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

- وظاهرُ النَّظمِ الكريمِ في قولِه: ﴿وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ وإنْ كان نهْيًا للكَفَرةِ عن استِخفافِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لكنَّه في الحَقيقةِ نهْيٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن التَّأثُّرِ مِن استخفافِهم على طَريقِ الكِنايةِ[2].

- والاستخفافُ: مُبالَغةٌ في جَعْلِه خفيفًا؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للتَّقويةِ، مِثْلُها في نحْوِ: استجابَ واستمسَكَ[3].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ همُ المُشرِكون الذين أُجْرِيَت عليهم الصِّفاتُ المُتقدِّمةُ مِن الإجرامِ، والظُّلمِ، والكُفرِ، وعدَمِ العِلْمِ؛ فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّصريحِ بمَساويهم[4].

- ومِن تناسُبِ فواتحِ سورةِ الرُّومِ مع خواتيمِها: أنَّها بدأتْ بوعدِ الله تعالى بغلبةِ الروم ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ...﴾ إلى قوله: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ١- ٦]، وفي خاتمتِها قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]؛ ففي البداية ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ ...﴾، وفي الختام: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾[5]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٣٥، ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٣٨)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ١٠٣).

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ لُقمانَ

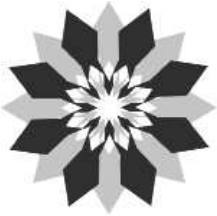

# سورةُ لُقمانَ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (لُقمانَ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ لُقمانَ مَكِّيَّةٌ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصدِ هذه السُّورةِ:**

مُخاطَبةُ النَّفْسِ البَشَريَّةِ بما مِن شأنِه أن يُسعِدَها ويُحيِيَها حياةً طَيِّبةً[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي تناولَتْها هذه السُّورةُ:**

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ، وأنَّه هِدايةٌ ورَحمةٌ للمُؤمِنينَ، مع ذِكرِ بَعضِ

---

(١) سُمِّيَت سورةَ لقمانَ؛ لاشتِمالِها على قِصَّتِه وجُمَلٍ مِن حِكمتِه الَّتي أدَّبَ بها ابنَه. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٧).

قال ابنُ عاشور: (وليس لها اسمٌ غيرُ هذا الاسم، وبهذا الاسم عُرِفَت بينَ القُرَّاءِ والمفَسِّرينَ، ولم أقِفْ على تصريحٍ به فيما يُروَى عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بسَندٍ مَقبولٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٧).

(٢) وقيل: مكِّيَّةٌ إلَّا الآياتِ الثَّلاثَ مِن قَولِه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ [لقمان: ٢٧] إلى آخرِ الآيةِ الثَّالثة: ﴿... وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٢٩]؛ فمَدَنيَّةٌ. وقيل: قَولُه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ... ﴾ والآيةُ الَّتي بعْدَها مَدَنيَّتان. وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [لقمان: ٤]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ١٠٨).

صِفاتِهم.

٢- ذِكرُ جانِبٍ مِن صِفاتِ المُشرِكينَ الَّذين يَستَهزِئونَ بآياتِ اللهِ تعالى، ويُعرِضونَ عنها.

٣- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه.

٤- ذِكرُ لُقمانَ وما أُعطِيَ مِن الحِكمةِ، ووصاياه لابنِه المُشتَمِلةِ على الدَّعوةِ إلى العَقيدةِ الصَّحيحةِ، ومكارمِ الأخلاقِ، وأداءِ العباداتِ، ومُراقبةِ اللهِ.

٥- بيانُ ألوانٍ مِن نِعَمِ اللهِ على عِبادِه، وإحاطةِ عِلمِه سُبحانَه بكُلِّ شَيءٍ.

٦- النَّعيُ على المُشرِكينَ في رُكونِهم إلى التَّقليدِ إذا دُعُوا إلى النَّظَرِ في الكَونِ، وعِبادةِ اللهِ تعالى الَّذي خَلَقَه.

٧- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على عَدَمِ إيمانِ المُشرِكينَ.

٨- دعوةُ النَّاسِ جَميعًا إلى تَقْوى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وعَدَمِ الاغترارِ بالدُّنيا.

٩- ذِكرُ مَفاتيحِ الغَيبِ الخَمسةِ الَّتي استأثَرَ اللهُ بعِلمِها.

## الآيات (١-٥)

﴿الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

افتتَح الله تعالى هذه السُّورةَ ببعضِ الحروفِ المقطَّعةِ، وتقدَّم الكلامُ عن الحروفِ المُقطَّعةِ في تَفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّومِ. ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ تلك الآياتِ آياتُ الكِتابِ الحَكيمِ، حالَ كَونِها هُدًى مِن كُلِّ ضَلالةٍ، ورَحمةً للمُحسِنينَ الَّذين يؤَدُّون الصَّلَواتِ تامَّةً، ويؤدُّونَ الزَّكاةَ للمُستحِقِّينَ لها، ويُؤمِنونَ بالآخِرةِ وما يكونُ فيها إيمانًا جازمًا، أولئك على هُدًى مِن رَبِّهم، وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخرةِ.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓ ١﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّومِ[1].

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢﴾.

أي: تلك الآياتُ العاليةُ الرُّتبةِ، العَظيمةُ الشَّأنِ: آياتُ الكتابِ المُشتَمِلِ على الحِكمةِ، المحكَمِ في ألفاظِه ومعانيه، فلا نَقصَ فيه، ولا تناقُضَ، ولا خلَلَ[2].

---

(١) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠، ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣-١٥).

قيل: الإشارةُ هنا تعودُ إلى جميعِ آياتِ القُرآنِ الكريمِ. وهو ظاهرُ اختيارِ السعديِّ، واختيار =

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ٣﴾.

أي: تلك آياتُ الكتابِ حالَ كَونِها هُدًى مِن كُلِّ ضَلالةٍ، ورَحمةً في الدُّنيا والآخرةِ للمُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، المُحسِنينَ إلى عبادِ اللهِ[1].

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ٤﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: أولئك المُحسِنونَ هم الَّذين يُؤَدُّونَ الصَّلَواتِ تامَّةً مُستقيمةً على الوجهِ الَّذي شرَعَه اللهُ تعالى، ويؤدُّونَ زكاةَ أموالِهم لأهلِها المُستَحِقِّينَ لها، كما فرَضَ

---

= ابنِ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣).

وقيل: الإشارةُ هنا ترجِعُ إلى آياتِ هذه السُّورةِ؛ سورةِ لُقمانَ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٠).

قال الشوكاني: (و﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ إمَّا أن يكونَ بمعنَى مُفْعَلٍ، أو بمعنَى فاعلٍ، أو بمعنَى ذي الحكمةِ أو الحكيمِ قائلُه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٦٩).

وقال ابن عطية: (و﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ يَصِحُّ أن يكونَ مِنَ الحكمةِ، ويصِحُّ أن يكونَ مِنَ الحُكمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٥).

وقال الفيروزابادي: (وإذا وُصِف القرآنُ بالحكمةِ فلِتَضَمُّنِه الحكمةَ، نحو: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]. وقيل: معنى الحكيمِ: المحكَمُ، نحو: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]. وكِلا المعنيَينِ صحيحٌ). ((بصائر ذوي التمييز)) (٢/ ٤٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣١، ٥٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٦، ١٧).

اللهُ تعالى[١].

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾.

أي: وهم يُؤمِنونَ إيمانًا جازِمًا لا شكَّ فيه بالآخِرةِ، وما يكونُ فيها مِن ثوابٍ وعِقابٍ، وبَعثٍ ونُشورٍ وغَيرِ ذلك[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٥﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾.

أي: أولئك المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ: على هُدًى حاصِلٍ لهم مِن رَبِّهم الَّذي لولا إحسانُه إليهم وتَربيتُه الخاصَّةُ لهم لَمَا تمكَّنوا مِن هُداه[٣].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

أي: وأولئك هم الفائِزونَ في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ الإحسانَ سببٌ لِنَيلِ العِلمِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ فالله تعالى جَعَل القرآنَ هُدًى ورَحمةً للمُحسِنينَ، هدًى في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٩، ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٢، ٢٣).

العِلم، ورحمةً في العمل[١]، وأنَّه كُلَّما ازدادَ إحسانُ العبدِ ازدادَ عِلمُه وعمَلُه الصالحُ؛ لأنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ على وَصفٍ ازدادَ بزيادتِه، ونَقَصَ بنَقصِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ حَثٌّ على إقامةِ الصَّلاةِ؛ يُؤخَذُ ذلك مِن ثناء اللهِ تعالى على المقيمينَ لها، والثَّناءُ لا يكونُ إلَّا على فِعْلِ شَيءٍ محبوبٍ مَرغوبٍ مِن اللهِ تعالى[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ مِن إحكامِ آياتِ الكِتابِ: أنَّها جاءت بأجَلِّ الألفاظِ وأفصَحِها وأبيَنِها، الدَّالَّةِ على أجَلِّ المعاني وأحسَنِها.

ومِن إحكامِها: أنَّها مَحفوظةٌ مِنَ التَّغييرِ والتَّبديلِ، والزِّيادةِ والنَّقصِ والتَّحريفِ.

ومِن إحكامِها: أنَّ جميعَ ما فيها مِنَ الأخبارِ السَّابقةِ واللَّاحِقةِ والأمورِ الغَيبيَّةِ: كُلُّها مُطابِقةٌ للواقِعِ، مُطابِقٌ لها الواقِعُ، لم يخالِفْها كِتابٌ مِنَ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، ولم يُخبِرْ بخلافِها نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ، ولم يأتِ ولن يأتيَ عِلمٌ مَحسوسٌ ولا مَعقولٌ صَحيحٌ يناقِضُ ما دلَّت عليه.

ومِن إحكامِها: أنَّها ما أمَرَت بشَيءٍ إلَّا وهو خالِصُ المَصلَحةِ أو راجِحُها، ولا نَهَت عن شَيءٍ إلَّا وهو خالِصُ المَفسَدةِ أو راجِحُها، وكثيرًا ما يجمَعُ بيْنَ الأمرِ بالشَّيءِ مع ذِكرِ حِكمتِه وفائِدتِه، والنَّهيِ عن الشَّيءِ مع ذِكرِ مَضَرَّتِه.

ومِن إحكامِها: أنَّها جَمَعت بينَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والوَعظِ البَليغِ الَّذي تعتَدِلُ به النُّفوسُ الخَيِّرةُ وتحتَكِمُ، فتَعمَلُ بالحَزمِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١).

ومِن إحكامِها: أنَّك تجِدُ آياتِه المتكَرِّرةَ -كالقَصَصِ والأحكامِ ونَحوِها- قد اتَّفَقَت كُلُّها وتواطأَتْ، فليس فيها تناقُضٌ ولا اختِلافٌ؛ فكلَّما ازداد بها البَصيرُ تدَبُّرًا، وأعمَل فيها العَقلَ تفكُّرًا؛ انبهَرَ عَقلُه، وذَهَل لُبُّه مِن التَّوافُقِ والتَّواطُؤِ، وجَزَم جزمًا لا يُمترى فيه أنَّه تنزيلٌ مِن حكيمٍ حَميدٍ[١].

٢- قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ القرآنُ الكريمُ جمعَ الخيرَ كلَّه، فهو هدايةٌ ورحمةٌ، مَن تمسَّك به نجا واهتدَى، فمَنْ أراد العِلمَ النَّافعَ فعليه بالقرآنِ؛ لأنَّه هدًى، ومَن أراد الرَّحمةَ فعليه بالقرآنِ؛ لأنَّه رحمةٌ، ولا تُنالُ الرحمةُ إلَّا بالعملِ الصَّالحِ[٢].

٣- إقامةُ الصَّلاةِ مِن الإحسانِ؛ لأنَّ قولَه سُبحانَه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بيانٌ لقولِه: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ وصَفَهم اللهُ تعالى بالعَمَلِ، وخَصَّ مِن العَمَلِ عمَلَينِ فاضِلَينِ: الصَّلاةَ المُشتَمِلةَ على الإخلاصِ، ومُناجاةِ الله تعالى، والتعبُّدِ العامِّ للقَلبِ واللِّسانِ والجوارحِ المُعِينةِ على سائِرِ الأعمالِ؛ والزَّكاةَ الَّتي تُزَكِّي صاحِبَها مِن الصِّفاتِ الرَّذيلةِ، وتنفَعُ أخاه المُسلِمَ وتسُدُّ حاجتَه، ويَبينُ بها أنَّ العَبدَ يُؤْثِرُ محبَّةَ الله على محبَّتِه للمالِ، فيُخرِجُ محبوبَه مِن المالِ لِما هو أحَبُّ إليه، وهو طَلَبُ مَرضاةِ الله[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾

- صُدِّرَت هذه السُّورةُ بالتَّنويهِ بهَدْيِ القرآنِ؛ لِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّه لا يَشتمِلُ إلَّا على ما فِيه هُدًى وإرشادٌ للخيَرِ، ومُثُلُ الكَمالِ النَّفسانيِّ؛ فلا الْتِفاتَ فيه إلى أخبارِ الجَبابرةِ، وأهْلِ الضَّلالِ إلَّا في مقامِ التَّحذيرِ ممَّا همْ فيه ومِن عواقِبِه؛ فكان صدْرُ هذه السُّورةِ تَمْهيدًا لقِصَّةِ لُقمانَ[١].

- قولُه: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ في اسمِ الإشارةِ ﴿ تِلْكَ ﴾ تَنْبيهٌ على تَعظيمِ قَدْرِ تلك الآياتِ بما دَلَّ عليه اسمُ الإشارةِ مِن البُعدِ المُستعمَلِ في رِفعةِ القَدْرِ، وبما دلَّتْ عليه إضافةُ (الآيات) إلى (الكِتاب) الموصوفِ بأنَّه الحكيمُ، وأنَّه هدًى ورحمةٌ وسبَبُ فلاحٍ[٢].

- في قولِه: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ وصَفَ الكِتابَ بالحَكيمِ؛ لاشتمالِه على الحِكَمِ، أو لأنَّه كلامٌ حَكيمٌ، أو مُحكَمٌ آياتُه لم يُنسَخْ شَيءٌ منها. ويجوزُ أنْ يكونَ الأَصلُ: ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴾ قائلُه؛ فحُذِفَ المضافُ، وأُقِيمَ المضافُ إليه مُقامَه[٣].

- وفي وصْفِ الكِتابِ بهذا الوصْفِ ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴾ بَراعةُ استهلالٍ للغرَضِ مِن ذِكرِ حِكْمةِ لُقمانَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٨، ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٠).

٢- قوله تعالى: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾

- في قولِه: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً ﴾ زِيادةُ وصْفِ الكِتابِ بـ (رَحْمة) بعدَ (هُدًى)؛ لأنَّه لَمَّا كان المقصدُ مِن هذه السُّورةِ قِصَّةَ لُقمانَ، نبَّه على أنَّ ذِكْرَ القصَّةِ رحمةٌ لِمَا تَتضمَّنُه مِن الآدابِ والحِكمةِ؛ لأنَّ في ذلك زِيادةً على الهُدَى: أنَّه تخلَّقَ بالحِكمةِ، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾[1] [البقرة: ٢٦٩].

- قولُه: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ خُصَّ المُحسِنونَ؛ لأنَّهم هم الَّذين انتَفَعوا به، ونَظَروه بعَينِ الحَقيقةِ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ بَيانٌ لِمَا عَمِلَ المُحسِنونَ مِن الحسناتِ، إنْ أُريدَ بقولِه: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾: العاملونَ للحَسَناتِ المشهورةِ المعهودةِ في الدِّينِ. وإنْ أُريدَ بها جَميعُ الحَسناتِ، فهو تَخصيصٌ لهذه الثَّلاثِ (إقامة الصَّلاة- إيتاء الزَّكاة- الإيقان بالآخرة) بالذِّكرِ مِن بينِ سائرِ شُعَبِها؛ لإظهارِ فَضْلِها وعُلوِّها على غَيرِها، وفيه إيجازٌ بليغٌ[3].

- قَولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ قَدَّمَ الصَّلاةَ على إيتاءِ الزَّكاةِ؛ لأنَّ الصَّلاةَ أحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى؛ ومع أنَّ إيتاءَ الزَّكاةِ فيه نَفعٌ مُتَعَدٍّ للغيرِ، ولكِنَّ الصَّلاةَ أحَبُّ إلى الله تعالى منها وأفضَلُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٨٩، ٤٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢١).

- قولُه: ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ﴾ فيه تكريرُ الضَّميرِ (هم)؛ للتَّوكيدِ، ولأنَّه فُصِلَ بيْنَه وبيْنَ خَبَرِه[١].

٤- قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

- ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أتى بـ «على» الدَّالَّةِ على الاستِعلاءِ، يعني: أنَّهم على هدًى يَسيرونَ عليه، وهم به عالونَ مرتفعونَ؛ لارتفاعِ مَرتبتِهم[٢].

- قولُه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ كرَّرَ الإشارةَ إليهم؛ تنْبيهًا على عِظَمِ قَدْرِهم[٣].

- والحصرُ في قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أفاد أنَّه لا سبيلَ إلى الفَلاحِ إلَّا بما سَبق[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٣).

## الآيات (٦-٩)

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ ﴾: أي: باطِلَه وما يَشغَلُ عن الخَيرِ، أو الغِناءَ والمعازِفَ، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بِشَيءٍ[1].

﴿وَقۡرٗا ﴾: أي: ثِقلًا، وصَمَمًا، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلِ الشَّيءِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حالَ الَّذين أعرَضوا عن القرآنِ، مُشتغِلينَ بغيرِه: ومِنَ النَّاسِ مَن يَشتري الحديثَ الباطِلَ المُلْهيَ؛ لِيَصُدَّ عن اتِّباعِ سَبيلِ اللهِ بغيرِ عِلمٍ، ويَستهزِئَ بسَبيلِ اللهِ ويَسخَرَ منها؛ أولئك لهم عذابٌ مُهينٌ مُذِلٌّ، وإذا تُتلَى عليه آياتُ القُرآنِ أعرَضَ عنها متكَبِّرًا عن قَبولِها، كأنَّه لم يَسمَعْها، كأنَّ في أُذُنَيه صَمَمًا يَحولُ دونَ سَماعِه لها؛ فبَشِّرْه بعذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى الجزاءَ الحسَنَ الَّذي أعدَّه للمؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ لهم في الآخرةِ جَنَّاتُ النَّعيمِ، ماكِثينَ فيها أبدًا، وعَدَهم الله هذا وعدًا حقًّا، وهو العزيزُ الحَكيمُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ القُرآنَ كِتابٌ حَكيمٌ، يَشتَمِلُ على آياتٍ حَكيمةٍ؛ بيَّنَ مِن حالِ الكُفَّارِ أنَّهم يَترُكونَ ذلك، ويَشتَغِلونَ بِغَيرِه[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى المُهتَدينَ بالقُرآنِ المُقبِلينَ عليه؛ ذكَرَ مَن أعرَضَ عنه، ولم يرفَعْ به رأسًا، وأنَّه عوقِبَ على ذلك، بأن تعوَّضَ عنه كُلَّ باطلٍ مِن القَولِ، فترَكَ أعلى الأقوالِ، وأحسَنَ الحديثِ، واستبدَلَ به أسفَلَ قَولٍ وأقبَحَه[2]!

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ ﴾.

### القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿لِيَضِلَّ﴾ بفَتحِ الياءِ، على معنى: أنَّه يَضِلُّ هو نَفْسُه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

(٣) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٦). =

٢- قراءةُ ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضَمِّ الياءِ، على معنى: أنَّه يُضِلُّ غَيرَه، وإذا أضلَّ غيرَه فقد أضلَّ نفْسَه أيضًا[١].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾.

أي: ومِنَ النَّاسِ مَن يَشتري[٢] الحديثَ الباطِلَ المُلْهيَ للقُلوبِ[٣]؛ لِيَصُدَّ عن

---

= قال ابنُ كثيرٍ: (على قراءةِ فَتحِ الياءِ تكونُ اللَّامُ لامَ العاقبةِ، أو تعليلًا للأمرِ القَدَريِّ، أي: قُيِّضوا لذلك؛ لِيَكونوا كذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣١).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٦).

قال ابن عثيمين: (وفائدةُ القراءتينِ هنا: اشتِمالُ هذه الكَلِمةِ على المعنيَينِ، وهما: الضَّلالُ بنفْسِه، وإضلالُ غَيرِه). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٥).

(٢) قال الرسعني: (قولُه تعالى: ﴿يَشۡتَرِي﴾ إمَّا أن يكونَ على حقيقتِه... أو على مجازِه، وهو إيثارُ اللَّهوِ، واختيارُه). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٧).

وممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١).

وممَّن اختار الثَّانيَ، أي: يختارُ ويرغَبُ رَغبةَ مَن يَبذُلُ الثَّمَنَ في الشَّيءِ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٦).

قال الواحدي: (قال أهلُ المعاني: ويَدخُلُ في هذا كُلُّ مَن اختار اللَّهوَ والغناءَ والمزاميرَ والمعازفَ على القرآنِ. وإنْ كان اللَّفظُ قد ورد بالشِّراءِ). ((البسيط)) (١٨/ ٩٥).

(٣) قيل: المرادُ به: الغِناءُ. وممَّن ذهب إليه: القرطبي، وابنُ جُزَي، وابن كثير، ونسَبه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٥١، ٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤١).

وقيل: المرادُ به العمومُ؛ فيَعُمُّ كُلَّ حديثٍ باطلٍ ومُلْهٍ عن سبيلِ الله، فيَدخُلُ فيه الغِناءُ، وأخبارُ الأعاجمِ ومُلوكِها، ونحو ذلك. وممَّن قال بالعموم: ابنُ جرير، وابن القيم، والبِقاعي، =

اتِّباعِ الهُدى والحَقِّ بلا عِلمٍ[1].

= والشوكاني، والألوسي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢٨).

قال الشوكاني: (ولهوُ الحديثِ: كلُّ ما يُلْهي عن الخيرِ؛ مِن الغناءِ، والملاهي، والأحاديثِ المكذوبةِ، وكلُّ ما هو منكَرٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٠).

وقال ابنُ القيِّم: (لا تَعارُضَ بينَ تفسيرِ «لهوِ الحديثِ» بالغِناءِ، وتفسيرِه بأخبارِ الأعاجِمِ ومُلوكِها وملوكِ الرُّومِ، ونحو ذلك ... فكِلاهما لهوُ الحديثِ؛ ولهذا قال ابنُ عبَّاسٍ: «لهوُ الحديثِ: الباطِلُ والغِناءُ»، فمِنَ الصَّحابةِ مَن ذكَرَ هذا، ومنهم مَن ذكَرَ الآخَرَ، ومنهم مَن جمَعَهما). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٣٤، ٥٣٩، ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

قال الرسعني: (قوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ في محلِّ الحالِ مِن الضَّميرِ في ﴿يَشْتَرِي﴾، أو في ﴿لِيُضِلَّ﴾، فهو تجهيلٌ للمُضِلِّ أو تجهيلٌ للمشتري، حيثُ لم يَهتَدِ إلى التِّجارةِ الرَّابحةِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٦).

قيل: المرادُ بقَولِه: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: أنَّه جاهلٌ فيما يَفعلُ، لا يَفعلُه عن عِلمٍ، بل عن جهلٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، والبَغَوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٠١).

وقيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾: الجَهلُ بعاقبةِ ذلك وإثمِه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٠).

وقيل: المرادُ أنَّ فِعلَه هذا ناشئٌ عن الجَهلِ باللهِ عزَّ وجَلَّ، وعن الجَهلِ بشَرعِه، وعن الجَهلِ بحَقيقةِ ما خُلِقَ له. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٦).

وقيل: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بحالِ ما يَشتريه، أو بالتِّجارةِ وما يَنفعُ منها وما يَضُرُّ، حيثُ استبدَلَ الشَّرَّ البَحتَ بالخَيرِ المَحضِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: أبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٠).

كما قال الله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾.

أي: وليَستهزِئَ بسَبيلِ اللهِ، ويَسخَرَ منها[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

أي: أولئك لهم عذابٌ يُخزيهم، ويُهينُهم، ويُذِلُّهم[٢].

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان الإنسانُ قد يكونُ غافِلًا، فإذا نُبِّه انتبَه؛ نبَّه سبحانَه وتعالى على أنَّ هذا الإنسانَ المُنهَمِكَ في أسبابِ الخُسرانِ لا يَزدادُ على مَرِّ الزَّمانِ إلَّا مُفاجأةً لكُلِّ ما يَرِدُ عليه مِنَ البَيانِ بالبَغيِ والطُّغيانِ[٣].

﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾.

أي: وإذا تُتلَى عليه آياتُ القُرآنِ؛ لِيُؤمِنَ بها، ويَنقادَ إليها، أعرَضَ عنها وهو شَديدُ التَّكَبُّرِ عن قَبولِها، فلم تَدخُلْ قَلْبَه ولا انتفَعَ بها، بل أدبَرَ عنها، كأنَّه لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٩).

يَسمَعُها[١]!

﴿ كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا ﴾.

أي: كأنَّ في أُذُنَيه صَمَمًا وثِقلًا يمنَعُه مِن سَماعِها[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعۡرَضَ عَنۡهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا ﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

أي: فبَشِّرْه بعَذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ * يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ * وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ * مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [الجاثية: ٧ - ١٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٤٠، ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

قال السَّعدي: (﴿فَبَشِّرۡهُ ﴾ بِشارةً تُؤثِّرُ في قَلبِه الحُزنَ والغَمَّ، وفي بَشَرتِه السُّوءَ والظُّلْمةَ والغَبَرةَ ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مُؤلِمٍ لِقَلبِه ولِبَدنِه، لا يُقادَرُ قَدْرُه، ولا يُدرَى بعظيمِ أمرِه، وهذه بِشارةُ أهلِ الشَّرِّ، فلا نِعْمَتِ البِشارةُ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ مَن إذا تُتلَى عليه الآياتُ ولَّى؛ بيَّنَ حالَ مَن يُقبِلُ على تلك الآياتِ ويَقبَلُها[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَر الله تعالى عذابَ مَن يُضِلُّ عن سبيلِه؛ أتْبَع ببِشارةِ المحسنينَ[٢].

وأيضًا لَمَّا كانت معرفةُ ما لأحدِ الحِزبَينِ باعثةً على السُّؤالِ عمَّا للحزبِ الآخَرِ، وكانت إجابةُ السُّؤالِ عن ذلك مِن أتمِّ الحكمةِ؛ استأنَف تعالى قولَه مؤكِّدًا لأجْلِ إنكارِ الكفرةِ[٣]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ٨﴾.

أي: إنَّ الذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ بإخلاصٍ لله تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه: لهم في الآخرةِ جَنَّاتٌ يتنعَّمونَ فيها بأنواعِ النَّعيمِ[٤].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٩﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ماكِثينَ فيها أبدًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾.

أي: وَعَدهم اللهُ هذا وعْدًا حَقًّا، لا يُمكِنُ أن يَتخَلَّفَ وُقوعُه، أو يَتغيَّرَ ويَتبدَّلَ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي له كَمالُ العِزَّةِ؛ فقَهَر وغلَبَ كُلَّ شَيءٍ، ودانَ له كُلُّ شَيءٍ، ومِن عِزَّتِه أنَّه لا يمنَعُه شَيءٌ مِن تنفيذِ وَعدِه ووعيدِه، وله كَمالُ الحِكمةِ والإحكامِ في أقوالِه وأفعالِه، ومِن عِزَّتِه وحِكمتِه أنَّه وَفَّق مَن وَفَّق مِن عبادِه، وخَذَل مَن خَذَل منهم[٢].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ...﴾ ذمٌّ لِمَن يَركَنُ إلى لَهْوِ الحديثِ، وهو ما لا خيرَ فيه[٣] مِن كُلِّ كلامٍ مُحرَّمٍ، وكُلِّ لَغْوٍ وباطلٍ وهَذَيانٍ مِن الأقوالِ المرَغِّبةِ في الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ، ومِن أقوالِ الرَّادِّينَ على الحَقِّ، المجادِلينَ بالباطِلِ؛ لِيُدْحِضوا به الحَقَّ، ومِن غِيبةٍ ونَميمةٍ، وكَذِبٍ وشَتمٍ وسَبٍّ، ومِن غِناءٍ ومَزاميرِ شَيطانٍ، ومِن الماجَرَياتِ[٤] المُلْهيةِ الَّتي لا نَفْعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

قال الخازنُ: (﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ يعني: وعَدَكم الله ذلك وعْدًا حقًّا). ((تفسير الخازن)) (٢/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٣٣).

(٤) الماجريات: جمعُ (ما جرَى)، مولَّدٌ، يُرادُ به الأمورُ التي يُسألُ عنها بـ (ما جرَى؟). ((معجم متن اللغة)) لأحمد رضا (١/ ٥١٩).

فيها في دينٍ ولا دُنيا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ذمٌّ لكُلِّ ما يَصُدُّ عن سَبيلِ الله تعالى، ثمَّ إنْ كان يُضِلُّ عن واجبٍ صار حَرامًا، وإنْ كان يُضِلُّ عن مُستحَبٍّ لم يكُنْ حَرامًا، لكِنَّه يُذَمُّ بلا شَكٍّ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ دليلٌ على تحريمِ الغِناءِ وما أخَذَ أخْذَه ممَّا يُضِلُّ عن سَبيلِ اللهِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: ما مَعنى إضافةِ اللَّهوِ إلى الحَديثِ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ معناها التَّبيينُ، وهي الإضافةُ بمعنى (مِن)، وأن يُضافَ الشَّيءُ إلى ما هو منه، كقَولِه: (صُفَّةُ خَزٍّ، وبابُ ساجٍ)، والمعنى: مَن يشتري اللَّهوَ مِن الحديثِ؛ لأنَّ اللَّهوَ يكونُ مِن الحديثِ ومِن غَيرِه، فبُيِّنَ بالحديثِ، والمرادُ بالحديثِ: الحَديثُ المُنكَرُ.

**الوجهُ الثاني**: أنَّه يجوزُ أنْ تكونَ الإضافةُ بمعنى (مِن) التَّبعيضيَّةِ، كأنَّه قيل: ومِنَ النَّاسِ مَن يَشتري بعضَ الحديثِ الَّذي هو اللَّهوُ منه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ ثُبوتُ المدحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٣٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩١).

والثَّناءِ لِمَن كان على العَكسِ مِن ذلك؛ لأنَّ الذَّمَّ على صِفةٍ يَقتضي مَدْحَ مَنِ اتَّصَفَ بضِدِّها، وهذه قاعدةٌ مُفيدةٌ، فيؤخَذُ منه: مَدْحُ مَن إذا تُلِيَتْ عليه آياتُ الرَّحمنِ أقْبَل إليها واستمَعَ إليها[1].

٤- قولُه: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ فيه رمْزٌ إلى أنَّ مَن سمِعَها لا يُتصوَّرُ منه التَّوليةُ والاستِكبارُ؛ لِمَا فيها مِنَ الأمورِ المُوجِبةِ للإقبالِ عليها، والخضوعِ لها[2].

٥- حُجَّةُ اللهِ برُسُلِه قامتْ بالتَّمَكُّنِ مِن العِلمِ، فليس مِن شَرْطِ حُجَّةِ اللهِ تعالى عِلْمُ المَدْعوِّينَ بها؛ ولهذا لم يكُنْ إعراضُ الكُفَّارِ عن استِماعِ القرآنِ وتدَبُّرِه مانِعًا مِن قيامِ حُجَّةِ اللهِ تعالى عليهم، وكذلك إعراضُهم عن استِماعِ المنقولِ عن الأنبياءِ، وقراءةِ الآثارِ المأثورةِ عنهم: لا يمنعُ الحُجَّةَ؛ إذِ المُكْنة حاصِلةٌ؛ فلذلك قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [فصلت: ٢٦، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[3] [الفرقان: ٣٠، ٣١].

٦- قال تعالى هنا: ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ على سَبيلِ التَّشبيهِ، وصَرَّح في غيرِ هذا الموضعِ أنَّه جعَلَ في أُذُنَيه الوَقرَ بالفِعلِ، في قَولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]، والظَّاهِرُ أنَّ الوَقْرَ المذكورَ: على سَبيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((الرَّد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٩٩).

التَّشبيهِ بالوَقرِ الحِسِّيِّ؛ لأنَّ الوَقْرَ المعنويَّ يُشبِهُ الوَقرَ الحِسِّيَّ، والوَقْرُ المجعولُ على آذانِهم بالفِعلِ: هو الوَقرُ المعنويُّ المانِعُ مِن سَماعِ الحَقِّ فقط دونَ سَماعِ غَيرِه، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى(١).

٧- قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ﴾ تَضمَّنتْ هذه الآيةُ ذمَّ المُشتري لِلَهْوِ الحَديثِ مِن وُجوهٍ: التَّوليةِ عن الحِكمةِ، ثمَّ الاستِكبارِ، ثمَّ عدَمِ الالتِفاتِ إلى سماعِها كأنَّه غافلٌ عنها، ثمَّ الإيغالِ في الإعراضِ بكَونِ أُذنَيْه كأنَّ فيهما صَممًا يَصُدُّه عن السَّماعِ(٢).

٨- في قولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أنَّ البِشارةَ تُطْلَقُ على ما يَسوءُ(٣)، وهي تُطلَقُ غالِبًا على الإخبارِ بما يَسُرُّ(٤).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أنَّ الإيمانَ لا يكفي، بل لا بُدَّ مِن عَمَلٍ صالحٍ؛ فمُجَرَّدُ العقيدةِ لا يكفي إذا لم يَكُنْ عَمَلٌ صالحٌ، بل رُبَّما نقولُ: إنَّه إذا لم يكُنْ عَمَلٌ صالحٌ فهو دَليلٌ على أنَّه لا عقيدةَ؛ لأنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ: ((أَلَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه))(٥).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٤٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٥٠).

والحديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) مطوَّلًا من حديثِ النُّعمانِ بنِ بشيرٍ رضي الله عنهما.

لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ تنكيرُ العذابِ، وتَعريفُ الجنَّةِ بالإضافةِ إلى المعرَّفِ: إشارةٌ إلى أنَّ الرَّحيمَ يُبيِّنُ النِّعمةَ ويُعَرِّفُها؛ إيصالًا للرَّاحةِ إلى القَلبِ، ولا يُبيِّنُ النِّقمةَ، وإنَّما ينبِّهُ عليها تنبيهًا(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾ دَلالةٌ على أنه لا مرضَ في الجنَّةِ، ووجهُه قولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴾؛ لأنَّ المرضَ يُنافي النَّعيمَ؛ وعلى أنَّه ليس فيها شَيخوخةٌ؛ لأنَّ الشَّيْخوخةَ تُنافي ذلك أيضًا؛ وعلى أنَّه ليس فيها هَمٌّ أو كَدَرٌ أو تَنغِيصٌ أبدًا، كلُّ هذا يُنافي النَّعيمَ(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ ... ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾، وهذا مِن مُقابَلةِ الثَّناءِ على آياتِ الكِتابِ الحَكيمِ بضِدِّ ذلك في ذَمِّ ما يأْتي به بعضُ النَّاسُ، وهذا تخلُّصٌ مِن المُقدِّمةِ إلى مَدخلٍ للمقصودِ(٣).

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾؛ للتَّشويقِ إلى تلقِّي خبَرِه العَجيبِ(٤).

- قَولُه: ﴿مَن يَشۡتَرِي ﴾ عبَّرَ عن الاختيارِ بالاشتِراءِ، وهو إشارةٌ إلى حِرصِهم على هذا الأمرِ؛ لأنَّ الاشتراءَ إنَّما يكونُ بالمُعاوَضةِ، فكأنَّهم لِقُوَّةِ اختيارِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٤٢).

هذا الشَّيءَ بذَلوا فيه أموالَهم لِيَنالوه[١].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وما فيهِ مِن مَعنى البُعْدِ، مع قُرْبِ العهْدِ بذِكْرِ المُشارِ إليهِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرارةِ، أي: أولئك المَوصوفون بما ذُكِرَ مِنَ الاشتراءِ للإضلالِ ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[٢]. واختيرَ اسمُ الإشارةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن الخبرِ إنَّما استحَقَّه لِأجْلِ ما سبَقَ اسمَ الإشارةِ مِن الوصْفِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا ...﴾ تمْثيلٌ للإعراضِ عن آياتِ اللهِ، كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ﴾ [النازعات: ٢٢]، وشُبِّه في ذلك بالَّذي لا يَسمَعُ الآياتِ الَّتي تُتْلَى عليه، ووجْهُ الشَّبهِ هو عدَمُ التَّأثُّرِ ولو تأثُّرًا يَعقُبُه إعراضٌ، كتأثُّرِ الوَليدِ بنِ المُغيرةِ. و(كأنْ) مُخفَّفةٌ مِن (كأنَّ)، وكرَّرَ التَّشبيهَ؛ لتَقْويتِه مع اختِلافِ الكَيفيَّةِ في أنَّ عدَمَ السَّمْعِ مرَّةً مع تمكُّنِ آلةِ السَّمْعِ، ومرَّةً مع انعدامِ قوَّةِ آلَتِه؛ فشُبِّهَ ثانيًا بمَن في أُذنَيْه وقْرٌ، وهو أخصُّ مِن معنى ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾[٤].

- قولُه: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قيل: ذِكْرُ البِشارةِ؛ للتَّهكُّمِ[٥]، وذلك على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٥).

القَولِ بأنَّ البِشارةَ هي الخبرُ السَّارُّ الَّذي ليس عندَ المُخبَرِ عِلمٌ به[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ورَدَ قولُه: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ...﴾ هنا بزيادةِ ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، وفي (الجاثيةِ) بحَذْفِه: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ [الجاثية: ٨]، ووجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى بالَغَ في ذَمِّه هنا؛ فناسَبَ زِيادةُ ذلك، بخِلافِ ما في (الجاثيةِ): لم يُبالِغْ فيها هذه المُبالَغةَ؛ لِمَا ذَكَر بعدَه ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٩]؛ لأنَّ العِلْمَ لا يَحصُلُ إلَّا بالسَّماعِ، أو ما يقومُ مَقامَه مِن خَطٍّ أو غيرِه[٢].

وفيه وجْهٌ آخرُ: أنَّ آيةَ (الجاثيةِ) لَمَّا تقدَّمَ فيها: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ [الجاثية: ٧، ٨] فوصَفَه بسَماعِ آياتِ اللهِ؛ لم يكُنْ لِيُطابِقَه ذِكْرُ الوقْرِ في الأُذُنِ؛ لأنَّه قد ذكَرَ سماعَه الآياتِ، والوقْرُ مانعٌ مِن السَّمعِ؛ فلم يُناسِبِ الإعلامَ بالسَّماعِ ذِكْرُ الوقْرِ المانعِ منه. ولَمَّا لم يقَعْ ذِكْرُ سماعِ الآياتِ في آيةِ (لُقمانَ)، وتقدَّمَ ذِكْرُ المُشارِ إليه فيها بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ [لقمان: ٦]، وهذه زِيادةُ مُرتكَبٍ؛ فناسَبَها ذِكْرُ زِيادةِ الوقْرِ، مع أنَّه لم يَرِدْ فيها ذِكْرُ سماعِه الآياتِ كما ورَدَ في آيةِ (الجاثيةِ)، فازدادَ وُضوحُ التَّلاؤُمِ، وإنْ عُكِسَ الواردُ لا يُلائِمُ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ بَيانٌ لحالِ المُؤمنينَ بآياتِه تعالى، إثْرَ بَيانِ حالِ الكافرينَ بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩).

- قولُه: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: النَّعيم الكثيرِ، وإضافةُ الجنَّاتِ إليه باعتبارِ اشتمالِها عليه، نظيرُ قولِك: (كتب الفقهِ)[1]. وقيل: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: نَعيمُ جَنَّاتٍ؛ فعُكِسَ للمُبالَغةِ[2].

٤- قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا﴾ (وَعْدَ) و(حَقًّا) مَصْدَرانِ مُؤكِّدانِ: الأوَّلُ لنفْسِه، والثَّاني لغَيرِه؛ لأنَّ قولَه تعالَى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ في معنى: وعَدَهم اللهُ جنَّاتِ النَّعيمِ؛ فأكَّدَ معنى الوعْدِ بالوعْدِ، وأمَّا ﴿حَقّٗا﴾ فدالٌّ على معنَى الثَّباتِ، أكَّدَ به معنى الوعْدِ، ومُؤكَّدُهما جميعًا ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾[3].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيه إجراءُ هذَينِ الاسمينِ الجَليلينِ على ضَميرِ الجلالةِ؛ لتَحقيقِ وعْدِه؛ لأنَّه -لعِزَّتِه- لا يُعجِزُه الوفاءُ بما وعَدَ، ولحِكمْتِه لا يُخطِئُ، ولا يَذهَلُ عمَّا وعَدَ؛ فمَوقعُ جُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مَوقعُ التَّذييلِ بالأعمِّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٩، ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٥).

## الآيتان (١٠-١١)

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جِبالًا ثوابِتَ، وأصلُ (رسي): يدُلُّ على ثَباتٍ[١].

﴿تَمِيدَ﴾: أي: تَميلَ وتَضطَرِبَ، والمَيْدُ: الحَركةُ والمَيلُ، وأصلُ (ميد): يدُلُّ على حَركةٍ[٢].

﴿وَبَثَّ﴾: أي: فرَّق ونشَرَ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على تفريقِ الشَّيءِ[٣].

﴿زَوۡجٖ﴾: أي: لَونٍ وصِنفٍ، يُقالُ لِكُلِّ ما يَقترِنُ بآخَرَ مُماثِلًا له أو مُضادًّا: زَوجٌ، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٠).

## المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله تعالى عبادَه عن بعضِ آثارِ قدرتِه، وبدائعِ حكمتِه، ونِعَمِه الَّتي هي مِن آثارِ رحمتِه، فيقولُ: خلَقَ اللهُ السَّمَواتِ مَرفوعةً بغيرِ أعمِدةٍ كما تَرَونَها، وجعَلَ في الأرضِ جِبالًا ثابتةً؛ لئَلَّا تَميلَ الأرضُ وتَضطَرِبَ بكم، ونشَرَ في الأرضِ مِن كُلِّ الدَّوابِّ، وأنزَل اللهُ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فأنبَتَ بسَبَبِه مِن كُلِّ أصنافِ النَّباتاتِ الكثيرةِ المنافعِ، الحَسَنةِ المنظَرِ.

هذا خَلْقُ اللهِ وَحْدَه؛ فأرُوني -أيُّها المُشرِكونَ- ماذا خلَقَ الَّذين تَعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ، بل المُشرِكونَ في ضَلالٍ واضحٍ ظاهرٍ بِتَركِهم عِبادةَ رَبِّهم، وعبادتِهم سِواه.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ١٠ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا خَتَم الله تعالى الآيةَ السَّابقةَ بصِفتَيِ العِزَّةِ -وهي غايةُ القُدرةِ- والحِكمةِ -وهي ثمرةُ العِلمِ-: دلَّ عليها بإتقانِ أفعالِه وإحكامِها، فقال[1]:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا ﴾.

أي: خلَقَ اللهُ السَّمَواتِ السَّبْعَ مَرفوعةً بلا أعمِدةٍ، كما تَرَونَها[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٢٨، ٤٢٩) و(٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٥٤). =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾.

أي: وجعَلَ اللهُ في الأرضِ جِبالًا ثابتةً؛ لِئَلَّا تَتمايَلَ الأرضُ، وتَضطَرِبَ بكم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧].

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾.

أي: وفرَّق اللهُ في الأرضِ ونشَرَ مِن كُلِّ أنواعِ الدَّوابِّ[2].

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾.

أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ مَطرًا، فأنبَتْنا بسَبَبِه مِن كُلِّ أصنافِ النَّباتاتِ الحَسَنةِ المنظَرِ، الكثيرةِ المنافِعِ[3].

---

= قال ابن جُزَي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الرَّعدِ، الآية (٢): (﴿تَرَوْنَهَا﴾ قيل: الضَّميرُ لِلسَّمواتِ، و﴿تَرَوْنَهَا﴾ على هذا في موضعِ الحالِ، أو استئنافًا. وقيل: الضَّميرُ للعَمَدِ، أي: ليس لها عَمَدٌ مَرئيَّةٌ، فيَقتضي المفهومُ مِن أنَّ لَها عَمَدًا لا تُرى. وقال الجمهورُ: لا عَمَدَ لها الْبَتَّةَ، فالمرادُ نَفْيُ العَمَدِ، ونفْيُ رُؤيتِها). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٩٩).

قال الرَّسْعَني: (لأنَّها لو احتاجتْ إلى عَمَدٍ لافتقَرَ العَمَدُ إلى دِعامةٍ أيضًا، وتَسلسَل إلى ما لا نهايةَ له). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٤٣٧). ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الرعد من ((التفسير المحرر)) (١٢/ ١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٦).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّن نَّبَاتٖ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [الحج: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ۞ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۞ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾ [ق: ٩ - ١١].

﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثبَتَ بهذا الخَلقِ العظيمِ على هذا الوَجهِ المُحكَمِ: عِزَّتُه تعالى وحِكمتُه؛ ثَبَتتْ ألوهيَّتُه، فألزَمَ الكافِرينَ وُجوبَ تَوحيدِه في العبادةِ كما تَوحَّدَ بالخَلقِ؛ لأنَّ ذلك عَينُ الحِكمةِ، كما كان خَلقُه لهذا الخَلقِ على هذا النِّظامِ -لِيَدُلَّ عليه سُبحانَه- سِرَّ الحِكمةِ(١).

﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

أي: هذا الَّذي تقَدَّمَ ذِكرُه مِن خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما هو خَلْقُ اللهِ وَحْدَه؛ فأرُوني -أيُّها المُشرِكونَ- أيَّ شَيءٍ خَلَق الَّذين تَعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ حتَّى استحَقُّوا تلك العبادةَ منكم(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٦٧).

كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي: بل المُشرِكونَ في ذَهابٍ عن الحَقِّ واضِحٍ ظاهِرٍ؛ حيثُ عَبَدوا ما لا يَخلُقُ شَيئًا، وتَرَكوا عِبادةَ الخالِقِ وحْدَه سُبحانَه[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ﴾ بيانُ قدرةِ الله عزَّ وجلَّ ببَثِّ هذه الدَّوابِّ في الأرضِ، ووجهُ دَلالتِها على القُدرةِ اختِلافُ هذه الدَّوابِّ في أجناسِها وأنواعِها، وأشكالِها وأحوالِها[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ إنزالُ الماءِ نِعمةٌ ظاهِرةٌ مُتكرِّرةٌ في كُلِّ زمانٍ، مُتكَثِّرةٌ في كُلِّ مكانٍ؛ فأسندَه تعالى إلى نَفْسِه صَريحًا؛ ليَتنَبَّهَ الإنسانُ لِشُكرِ نِعمتِه، فيَزيدَ له مِن رحمتِه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ دَليلٌ على الرَّحمةِ؛ حيث كان نُزولُه مِن العُلوِّ لأجْلِ أنْ يَشملَ المرتَفعَ والمنخَفِضَ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا ﴾ إثباتُ الأسبابِ، ويُؤخَذُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٦٥).

إثباتُ الأسبابِ مِن فاءِ السَّببيَّةِ ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾، وإثباتُ الأسبابِ مِن حِكمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فالمنكِرُ للأسبابِ طاعِنٌ في حِكمةِ اللهِ تعالى لا شَكَّ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ بيانُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على تصنيفِ هذا النَّباتِ، مع أنَّ أرضَه واحِدةٌ وماءَه واحدٌ؛ لِقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿مِن كُلِّ زَوۡجٖ﴾، أي: مِن كُلِّ صِنفٍ، فتَرى هذه الشَّجرةَ كبيرةً وهذه صَغيرةً، وهذه خَضراءَ وهذه بُنِّيَّةً؛ هذه زهرتُها بَيضاءُ، وهذه صَفراءُ، وهذه بِلَونٍ آخَرَ؛ ألوانٌ مختلِفةٌ مع أنَّ الماءَ واحدٌ والأرضَ واحدةٌ! وهذا دليلٌ على كَمالِ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ الاستِدلالُ بتوحيدِ الرُّبوبيةِ على توحيدِ الألوهيَّةِ؛ فالمُشرِكونَ يُقِرُّونَ بأنَّه خَلْقُ اللهِ تعالى، فإذا أقَرُّوا به يَلزَمُهم الإقرارُ بتَوحيدِ الألوهيَّةِ[3]، فتَوحيدُ الرُّبوبيَّةِ أعظَمُ دليلٍ على توحيدِ الإلهيَّةِ؛ ولذلك وقَع الاحتِجاجُ به في القرآنِ أكثَرَ ممَّا وقَع بغيرِه؛ لِصِحَّةِ دَلالتِه، وظُهورِها، وقَبولِ العُقولِ والفِطَرِ لها، ولاعتِرافِ أهلِ الأرضِ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ، وكذلك كان عُبَّادُ الأصنامِ يُقِرُّون به، ويُنكِرونَ توحيدَ الإلهيَّةِ، ويقولون: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، مع اعتِرافِهم بأنَّ اللهَ وحْدَه هو الخالقُ لهم ولِلسَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، وأنَّه المُنفرِدُ بملْكِ ذلك كلِّه، فأرسَل اللهُ تعالى الرُّسلَ تُذَكِّرُهم بما في فِطَرِهم الإقرارُ به مِن تَوحيدِه وحْدَه لا شريكَ له، وأنَّهم لو رجَعوا إلى فِطَرِهم وعُقولِهم لَدَلَّتْهم على امتناعِ إلهٍ آخَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٦٦). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٢٣٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٠).

معه، واستِحالتِه وبُطلانِه[١].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ فللَّهِ ما أحلَى هذا اللَّفْظَ وأوجَزَه، وأدَلَّه على بُطلانِ الشِّركِ! فإنَّهم إن زعَموا أنَّ آلهتَهم خَلَقت شيئًا مع اللهِ طُولِبوا بأنْ يُرُوه إيَّاه، وإن اعترَفوا بأنَّها أعجَزُ وأضعَفُ وأقَلُّ مِن ذلك كانت إلهيَّتُها باطِلًا ومُحالًا[٢]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الاستِدلالُ بالأظهَرِ على ما يُنكِرُه الخَصمُ؛ فإنَّ هذا استِدلالٌ بأمرٍ ظاهرٍ واضِحٍ على أمرٍ يُنكِرُه الخَصمُ، وهو إنكارُ انفرادِ اللهِ تعالى بالأُلوهيَّةِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ استِعمالُ التَّحدِّي في المُناظَرةِ[٤].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ استئنافٌ للاستِدلالِ على الَّذين دأْبُهم الإعراضُ عن آياتِ اللهِ بأنَّ اللهَ هو خالِقُ المخلوقاتِ، فلا يَستحِقُّ غيرُه أنْ تُثْبَتَ له الإلهيَّةُ؛ فكان ادِّعاءُ الإلهيَّةِ لغيرِ اللهِ هو العِلَّةَ للإعراضِ عن آياتِ الكتابِ الحكيمِ؛ فهمْ لَمَّا أثْبَتوا الإلهيَّةَ لِمَا لا يَخلُقُ شيئًا، كانوا كمَن يَزعُمُ أنَّ الأصنامَ مُماثِلةٌ لله تعالى في أوصافِه؛ فذلك يَقْتضي

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

انتِفاءَ وصْفِ الحِكمةِ عنه، كما هو مُنتَفٍ عنها؛ ولذا فإنَّ مَوقعَ هذه الآياتِ مَوقعُ دَليلِ الدَّليلِ، وهو المقامُ المُعبَّرُ عنه في عِلمِ الاستِدلالِ بالتَّدقيقِ؛ وهو ذِكْرُ الشَّيءِ بدَليلِه ودَليلِ دَليلِه[١].

- وأدمَجَ في أثناءِ دَلائلِ صِفَةِ الحِكمةِ الامتِنانَ بما في ذلك مِن منافِعَ للخَلْقِ بقولِه: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ فإنَّ مِن الدَّوابِّ المَبثوثةِ ما يَنتفِعُ به النَّاسُ؛ مِن أكْلِ لُحومِ أوانسِها ووُحوشِها، والانتِفاعِ بألْبانِها وأصوافِها، وجُلودِها وقُرونِها وأسنانِها، والحمْلِ عليها، والتَّجمُّلِ بها في مَرابطِها، وغُدوِّها ورَواحِها، ثمَّ مِن نِعمةِ مَنافعِ النَّباتِ؛ مِن الحَبِّ والثَّمرِ، والكلأِ والكَمْأَةِ. وإذ كانتِ البحارُ مِن جُملةِ الأرضِ، فقد شمِلَ الانتِفاعَ بدَوابِّ البحرِ؛ فاللهُ كما أبدَعَ الصُّنعَ أسبَغَ النِّعمةَ، فأَرانا آثارَ الحِكمةِ والرَّحمةِ[٢].

- وقولُه: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئنافٌ جِيءَ بِه للاستِشهادِ على ما ذُكِرَ مِن خَلْقِه تعالى لها غيرَ مَعهودةٍ بمُشاهَدتِهم لها كذلك. أو صِفَةٌ لـ﴿عَمَدٍ﴾، أي: خلَقَها بغيرِ عمَدٍ مَرئيَّةٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾، في قولِه: ﴿وَبَثَّ﴾ التِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في الفِعلينِ (أَنْزَلْنَا) و﴿فَأَنْبَتْنَا﴾؛ للاهتِمامِ بهذه النِّعمةِ الَّتي هي أكثَرُ دوَرانًا عندَ النَّاسِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٥، ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٦).

٢- قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ جُملةُ ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ إلى آخرِها، نتيجةُ الاستدلالِ بخلْقِ السَّماءِ والأرضِ، والجبالِ والدَّوابِّ، وإنزالِ المطَرِ. و﴿ هَٰذَا ﴾ إشارةٌ إلى ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ إلى قولِه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾، والإتيانُ به مُفردًا بتأْويلِ: (المذكور)[١].

- وفي قولِه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ... ﴾ بكَّتَهم بأنَّ هذه الأشياءَ العظيمةَ ممَّا خلَقَه اللهُ وأنشَأَه؛ ففيه توبيخٌ للكفَّارِ، وإظهارٌ للحُجَّةِ عليهم[٢].

- والانتِقالُ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ الْتِفاتًا؛ لزِيادةِ التَّصريحِ بأنَّ الخِطابَ واردٌ مِن جانبِ اللهِ؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾، وكذلك يكونُ الانتقالُ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ الْتفاتًا؛ لمُراعاةِ العَودِ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾[٣].

- ويجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ مِن قولِه: ﴿فَأَرُونِي ﴾ عِلْميَّةً، أي: فأَنْبِئوني، والفعلُ مُعلَّقًا عن العمَلِ بالاستفهامِ بـ(ماذا)؛ فيتعيَّنُ أنْ يكونَ ﴿فَأَرُونِي ﴾ تهكُّمًا؛ لأنَّهم لا يُمكِنُ لهم أنْ يُكافِحوا اللهَ، زِيادةً على كَونِ الأمرِ مُستعمَلًا في التَّعجيزِ، لكنَّ التَّهكُّمَ أسبَقُ؛ للقطْعِ بأنَّهم لا يَتمكَّنون مِن مُكافَحةِ اللهِ قبْلَ أنْ يَقطَعوا بعَجْزِهم عن تعْيينِ مَخلوقٍ خلَقَه مَن دونَ اللهِ قطْعًا نظَريًّا، وصَوْغُ أمْرِ التَّعجيزِ مِن مادَّةِ الرُّؤيةِ البصَريَّةِ أشدُّ في التَّعجيزِ؛ لاقتِضائِها الاقتناعَ منهم بأنْ يُحضِروا شيئًا يَدَّعون أنَّ آلهتَهم خلَقَتْه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ فيه إجراءُ اسم مَوصولِ العُقلاءِ (الَّذين) على الأصنامِ؛ مُجاراةً للمُشركين؛ إذ يَعُدُّونهم عُقلاءَ[١].

- وفي قولِه: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إضرابٌ عن تَبْكيتِهم إلى التَّسجيلِ عليهم بالضَّلالِ الَّذي لا يَخْفَى على ناظرٍ، المُستدعي للإعراضِ عن مُخاطَبتِهم بالمُقدِّماتِ المَعقولةِ الحقَّةِ؛ لاستحالةِ أنْ يَفْهَموا منها شيئًا، فيَهْتدوا به إلى العِلمِ ببُطلانِ ما هُم عليه، أو يَتأثَّروا مِن الإلزامِ والتَّبكيتِ، فيَنزجِرُوا عنه، وهذا يدُلُّ على أنَّهم في حَيْرةٍ واضحةٍ لمَن يَتدبَّرُ؛ لأنَّ مَن عبَدَ صَنمًا وترَكَ خالِقَه جديرٌ بأنْ يكونَ في حَيرةٍ وتِيهٍ لا يُقلِعُ عنه[٢].

- وفي قولِه: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وَضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ ضَميرِهم -حيثُ لم يقُلْ: (بل هم)-؛ للدَّلالةِ على أنَّهم بإشراكِهم واضِعونَ للشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، ومُتعَدُّون عن الحُدودِ، وظالِمون لأنفُسِهم بتَعريضِها للعذابِ الخالِدِ[٣].

- وجِيءَ بحرْفِ الظَّرفيةِ (فِي)؛ لإفادةِ اكتِنافِ الضَّلالِ بهم في سائرِ أحوالِهم، أي: شدَّةِ مُلابسَتِه إيَّاهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

## الآيتان (١٢-١٣)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾

قَولُه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾: في (أَنْ) وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها مُفَسِّرةٌ؛ لأنَّ إيتاءَ الحِكمةِ في معنى القَولِ دونَ حُروفِه، ففسَّرَ إيتاءَ الحِكمةِ بالبَعثِ على الشُّكرِ. وجملةُ ﴿ٱشْكُرْ﴾ تَفسيريَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. والثَّاني: أن تكونَ مَصدريَّةً في موضعِ نَصبٍ أو جَرٍّ على إسقاطِ حَرفِ الجَرِّ، أي: (بأنِ اشكُرْ لله) أو (لِأَنِ اشكُرْ لله)، أو المصدَرُ المؤَوَّلُ (أنِ اشكُرْ) بدَلُ اشتِمالٍ مِن الحِكمةِ[1].

### المَعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى عن امتنانِه على عبدِه لُقْمانَ بالحكمةِ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا لُقمانَ العِلمَ والفِقهَ في الدِّينِ؛ أنِ اشكُرْ لله على ما آتاك مِن فَضلِه، ومَن يَشكُرِ اللهَ فإنَّما يَعودُ نَفعُ شُكرِه إلى نَفْسِه، ومَن كفَرَ نِعَمَ اللهِ عليه فالله غنيٌّ عنه، محمودٌ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه سُبحانَه، حامِدٌ لِمَن يَشكُرُه.

ثمَّ يحكي الله تعالى طرَفًا ممَّا قاله لقمانُ لابنِه على سبيلِ النُّصحِ والإرشادِ ممَّا يدُلُّ على حكمتِه، فيقولُ: وإذ قال لُقمانُ لابنِه واعِظًا له: يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٣)، ((المجتبى)) لأحمد الخراط (٣/ ٩٤٦).

باللهِ؛ إنَّ الشِّركَ لَذَنْبٌ عَظيمٌ.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بَيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ فَسادَ اعتِقادِ المُشرِكينَ بإشراكِ مَن لا يَخلُقُ شَيئًا بمَن خلَق كُلَّ شَيءٍ، ثمَّ بَيَّن أنَّ المُشرِكَ ظالِمٌ ضالٌّ- أعقَبَ ذلك ببَيانِ أنَّ نِعَمَه الظَّاهِرةَ فى السَّمَواتِ والأرضِ، والباطِنةَ؛ مِن العِلمِ والحِكمةِ: تُرشِدُ إلى وحدانيَّتِه، وقد آتاها لِبَعضِ عبادِه، كلُقْمانَ[1]، فقال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾.

أي: ولقدْ آتَيْنا لُقمانَ[2] الفَهمَ والعِلمَ والفِقهَ في الدِّينِ، والإصابةَ في القَولِ والعَمَلِ؛ أي: اشكُرْ للهِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ٧٩).

(٢) قال ابنُ كثير: (جمهورُ السَّلَفِ على أنَّه لم يكُنْ نَبيًّا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٤).
ونسَب النووي ذلك إلى الجماهيرِ مِن العلماءِ، وذكَر أنَّ مَن قال: إنَّه نبيٌّ قد شذَّ، ولا التفاتَ إليه، ولا تعريجَ عليه. يُنظر: ((الأذكار)) (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٧).
ممَّن اختار أنَّ ﴿أَنِ﴾ تفسيريَّةٌ، وأنَّ المعنى: أي: اشكُرْ لله: ابنُ جرير، والزمخشري، والرازي، والرسعني، والنسفي، وأبو السعود، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٧١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٧٣، ٧٦). =

كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

عن أنسٍ رضيَ الله عنه: (أنَّ لُقمانَ كان عندَ داودَ وهو يَسْرُدُ الدِّرعَ[١]، فجعَل يَفتِلُه هكذا بيَدِه، فجعَل لُقمانُ يتعجَّبُ ويُريدُ أن يَسألَه، فتَمنَعُه حِكمتُه أن يَسألَ، فلمَّا فرَغ منها ضمَّها على نفْسِه، وقال: نِعْمَ دِرعُ الحربِ هذه! فقال لقمانُ: إنَّ الصَّمتَ مِن الحُكمِ[٢]، وقليلٌ فاعِلُه، كنتُ أريدُ أن أسألَك فسكَتُّ حتَّى كَفَيْتَني)[٣].

﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

أي: ومَن يَشكُرِ اللهَ على نِعَمِه، فإنَّما يَعودُ نَفْعُ ذلك وثَوابُه إليه لا إلى اللهِ سُبحانَه[٤].

---

= قال ابنُ عطية: (يجوزُ أن تكونَ مفسِّرةً، أي: كانت حكمتُه دائرةً على الشُّكرِ لله ومعانيه، وجميعُ العباداتِ والمعتقَداتِ داخلةٌ في شكرِ الله تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨).

وقيل: إنَّ (أن) هنا مصدريَّةٌ. وممَّن اختاره الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٩٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٣).

وقيل: المرادُ: أنه لمـَّا آتاه الله تعالى الحكمةَ أمَرَه بأن يَشكُرَه على ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(١) يسرُدُ الدِّرعَ، أي: يَنسُجُها ويُدخِلُ الحِلَقَ بَعضَها في بَعضٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٤٥).

(٢) الحُكم: أي: الحِكمة؛ لأنَّه يَمنَعُ مِن الجَهلِ والسَّفَهِ. يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصنعاني (٧/ ٧٠).

(٣) أخرجه الحاكم (٣٥٨٢)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٥٠٢٦) واللفظ له.

صحَّحه الحاكمُ على شرطِ مسلم، وصحَّحه البيهقيُّ، وأقرَّه العِراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/ ١٠٨)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٥٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

أي: ومَن كَفَر نِعَمَ اللهِ عليه، فإنَّما يَرجِعُ ضَرَرُ كُفرِه ووَبالُه عليه؛ فاللهُ غَنيٌّ عن شُكرِ العبادِ، فشُكرُهم لا يَنفَعُ اللهَ بشَيءٍ، وكُفرُهم لا يضُرُّ اللهَ في شَيءٍ؛ فهو مَحمودٌ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه على كُلِّ حالٍ، وهو حامِدٌ لِمَن يَشكُرُه سُبحانَه[1].

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ مَضمونَ هذه الجُملةِ يُفَسِّرُ بَعضَ الحِكمةِ الَّتي أُوتِيَها لُقمانُ، وهذا انتِقالٌ مِن وَصفِه بحِكمةِ الاهتِداءِ إلى وَصفِه بحِكمةِ الهُدى والإرشادِ[2]، فعُلُوُّ مَرتَبةِ الإنسانِ بأن يكونَ كامِلًا في نَفْسِه، ومُكَمِّلًا لِغَيرِه؛ فقَولُه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ إشارةٌ إلى الكَمالِ، وقَولُه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ إشارةٌ إلى التَّكميلِ[3].

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾.

---

= (١٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٥).

قال ابنُ عثيمين: (الشُّكرُ هو القيامُ بطاعةِ المنعِمِ؛ اعترافًا بالقَلبِ، وثَناءً باللِّسانِ، وطاعةً بالأركانِ؛ فمُتعَلَّقُ الشُّكرِ ثلاثةٌ: اللِّسانُ، والقَلبُ، والجوارحُ، وسَبَبُه واحِدٌ، وهو النِّعمةُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٣، ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩).

أي: واذكُرْ إذ[١] أوصَى لُقمانُ ابنَه بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه، وحَذَّره مِنَ الشِّركِ، فقال له ناصِحًا بما يَنفَعُه، ويُهَذِّبُ نفْسَه، ويُرقِّقُ قلْبَه: يا بُنَيَّ لا تُشرِكْ باللهِ شَيئًا[٢].

﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: إنَّ الشِّركَ باللهِ خَطأٌ وذَنْبٌ عَظيمٌ؛ فالمُشرِكُ يَظلِمُ نفْسَه بصَرفِ العِبادةِ إلى مَن لا يَستَحِقُّها[٣]!

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] قُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، أيُّنا لا يَظلِمُ نَفْسَه؟! قال: ليس كما تَقولونَ؛ (لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) بشِركٍ، أوَلَم تَسمَعوا إلى قَولِ لُقمانَ لابنِه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾؟))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٠، ١٦١).

وقيل: (إذ) ظرفٌ متعلِّقٌ بالفعلِ المقدَّرِ الَّذي دلَّت عليه واوُ العطفِ، والتَّقديرُ: (وآتَيْناه الحكمةَ إذ قال لابنِه). وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّجَّاجُ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٣، ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (٢/ ٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

قال ابنُ عطيةَ: (ظاهرُ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ أنَّه مِن كلامِ لقمانَ، ويَحتمِلُ أن يكونَ خبرًا مِن الله تعالى منقطعًا مِن كلامِ لقمانَ، متَّصلًا به في تأكيدِ المعنَى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٨).

(٤) رواه البخاري (٣٣٦٠) واللفظ له، ومسلم (١٢٤).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ تَنْبيهٌ منه سُبحانه على أنَّ الحِكمةَ الأصليَّةَ والعِلْمَ الحقيقيَّ هو العمَلُ بهما، أو عِبادةُ اللهِ والشُّكرُ له؛ حيث فسَّرَ إيتاءَ الحِكمةِ بالبعثِ على الشُّكرِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى أنَّ بالشُّكرِ لا ينتفعُ إلَّا الشَّاكِرُ، بقَولِه: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، وأنَّ بالكُفرانِ لا يتضَرَّرُ غَيرُ الكافِرِ، بقَولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ أي: أنَّ اللهَ غَيرُ مُحتاجٍ إلى شُكرٍ حتَّى يتضَرَّرَ بكُفرانِ الكافِرِ، وهو في نَفْسِه محمودٌ، سَواءٌ شَكَرَه النَّاسُ أو لم يَشكُروه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ﴾ مُلاطَفةُ المخاطَبِ لاستِدعاءِ قَبولِه لِمَا يُوَجَّهُ إليه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾، فإنَّ هذا مِن بابِ المُلاطَفةِ[٣]، فخاطَبَه بأحَبِّ ما يُخاطَبُ به، مع إظهارِ التَّرحُّمِ والتَّحَنُّنِ والشَّفَقةِ؛ لِيَكونَ ذلك أدعى لِقَبولِ النُّصحِ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ فيه حَثٌّ على التَّخَلُّقِ بما مُدِحَ به لُقمانُ بما يَحمِلُ على الصَّبرِ والشُّكرِ والمُداوَمةِ على كُلِّ خَيرٍ، وعلى تأديبِ الوَلَدِ، بسَوقِ الكَلامِ على وَجهٍ يدُلُّ على تكريرِ وَعظِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ تَوجيهُ المواعِظِ مِن الآباءِ إلى أبنائِهم؛ لأنَّ هذا مِن الحِكمةِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أنَّ كلَّ مَنْ مَنَّ اللهُ تعالى عليه بالحِكمةِ، فعليه أنْ يَشكُرَ اللهَ تعالى أكثرَ مِن غَيرِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لا ينتَفِعُ بطاعةِ الطَّائِعينَ، بل طاعةُ الطَّائِعينَ لأنفُسِهم، ويتفَرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّ أمرَ اللهِ عزَّ وجلَّ عِبادَه بطاعتِه أو بعبادتِه: أنَّه مُجَرَّدُ إحسانٍ إليهم؛ لأنَّ هذا النَّفعَ لهم، كما لو كنتَ تربِّي الصَّغيرَ وتقولُ: كُلْ مِن هذا الطَّعامِ، والْبَسْ هذا الثَّوبَ، واشرَبْ هذا الماءَ؛ فأنت تأمُرُه، لكِنَّ الأمرَ لمصلحتِه هو[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أنَّ شُكْرَ اللهِ تعالى مِن الحِكمةِ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ ﴾ هذا مِن تفسيرِ الحِكمةِ، والشُّكرُ لله لا شَكَّ أنَّه مِن الحِكمةِ؛ لأنَّ الحِكمةَ هي مُوافَقةُ الصَّوابِ، أو وَضْعُ الشَّيءِ في مَوضِعِه، ولا شَكَّ أنَّ شُكْرَ اللهِ تعالى مُوافِقٌ للصَّوابِ، وأنَّه وَضعٌ للشَّيءِ في مَوضِعِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٦).

قال ابن القيم: (الحكمةُ: فِعلُ ما ينبغي، على الوجهِ الذي يَنْبغي، في الوقتِ الذي يَنْبغي). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٤٤٩).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾ فيه لَطيفةٌ، وهي أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ لُقمانَ، وشَكَر سَعْيَه حيثُ أرشَدَ ابنَه؛ لِيُعلَمَ منه فضيلةُ النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- الَّذي أرشَدَ الأجانِبَ والأقارِبَ؛ فإنَّ إرشادَ الوَلَدِ أمرٌ مُعتادٌ، وأمَّا تحمُّلُ المشَقَّةِ في تعليمِ الأباعِدِ فلا[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ وُجوبُ توحيدِ اللهِ سبحانه وتعالى؛ لأنَّ النَّهيَ عن الشِّركِ يقتضي وُجوبَ التَّوحيدِ[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ فظُلْمُه ظاهِرٌ مِن جِهاتٍ عديدةٍ جِدًّا؛ أظهَرُها: أنَّه تَسويةُ المملوكِ -الَّذي ليس له مِن ذاتِه إلَّا العَدَمُ، فلا نِعمةَ منه أصلًا- بالمالِكِ الَّذي له وُجوبُ الوُجودِ؛ فلا خيرَ ولا نِعمةَ إلَّا منه، وفي هذا تنبيهٌ لِقُريشٍ وكُلِّ سامِعٍ على أنَّ هذه وصيَّةٌ لا يُعدَلُ عنها؛ لأنَّها مِن أبٍ حَكيمٍ لابنٍ محنُوٍّ عليه محبوبٍ، وأنَّ آباءَهم لو كانوا حُكَماءَ ما فَعَلوا إلَّا ذلك؛ لأنَّه يترتَّبُ عليها ما عليه مَدارُ النِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، العاجِلةِ والآجِلةِ، وهو الأمنُ والهدايةُ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[٣] [الأنعام: ٨٢].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ كلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ بُطلانِ الشِّركِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦١، ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

- وافتِتاحُ القصَّةِ بحَرْفَيِ التَّوكيدِ: (لامِ القسَمِ) و(قد)؛ للإنباءِ بأنَّها خَبرٌ عن أمْرٍ مُهِمٍّ واقعٍ(١).

- قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ الشُّكرُ هو مبدَأُ الكمالاتِ عِلْمًا، وغايتُها عمَلًا، وللتَّنبيهِ على هذا المعنى أعقَبَ اللهُ الشُّكرَ المأمورَ به ببَيانِ أنَّ فائدتَه لنفْسِ الشَّاكرِ لا للمشكورِ بقولِه: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأنَّ آثارَ شُكرِ اللهِ كمالاتٌ حاصلةٌ للشَّاكرِ، ولا تَنفَعُ المشكورَ شيئًا؛ لغِناهُ سُبحانه عن شُكرِ الشَّاكرينَ، ولذلك جِيءَ به في صُورةِ الشَّرطِ؛ فإنَّ الشَّرطَ أدَلُّ على ذلك مِن الإخبارِ. وجِيءَ بصِيغةِ حَصْرِ نَفْعِ الشُّكرِ في الثُّبوتِ للشَّاكرِ بقولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، أي: ما يَشكُرُ إلَّا لفائدةِ نفْسِه، ولامُ التَّعليلِ مُؤذِنةٌ بالفائدةِ. وزيدَ ذلك تبيُّنًا بعطْفِ ضِدِّه بقولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾؛ لإفادةِ أنَّ الإعراضَ عن الشُّكرِ بعدَ استِشعارِه كُفْرٌ للنِّعمةِ، وأنَّ اللهَ غَنِيٌّ عن شُكْرِه، بخِلافِ شأْنِ المخلوقاتِ؛ إذ يُكسِبُهم الشُّكرُ فوائدَ بيْنَ بني جِنسِهم تجُرُّ إليهم منافِعَ الطَّاعةِ، أو الإعانةِ، أو الإغناءِ، أو غير ذلك مِن فوائدِ الشُّكرِ للمشكورينَ، على تفاوُتِ مَقاماتِهم، واللهُ غنيٌّ عن جميعِ ذلك(٢).

- ومِن بلاغةِ القرآنِ وبديعِ إيجازِه: أنْ كان قولُه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ جامعًا لِمَبدأِ الحِكمةِ التي أُوتِيها لُقمانُ، ولأمْرِه بالشُّكرِ على ذلك؛ فقد جمَعَ قولُه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ الإرشادَ إلى الشُّكرِ، مع الشُّروعِ في الأمْرِ المشكورِ عليه؛ تنْبيهًا على المُبادَرةِ بالشُّكرِ عندَ حُصولِ النِّعمةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٥٢، ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٥٣).

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه، مُوجِبٌ للامتثالِ بالأمْرِ[١]. وجِيءَ في فِعلِ (يَشكُر) بصِيغَةِ المُضارِعِ؛ للإيماءِ إلى جدارةِ الشُّكرِ بالتَّجديدِ، واللَّامُ في قولِه: ﴿يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦ﴾ داخلةٌ على مَفعولِ الشُّكرِ، وهي لامٌ مُلتزَمٌ زِيادتُها مع مادَّةِ الشُّكرِ؛ للتَّأكيدِ والتَّقويةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ قُوبِلَ الإعراضُ عن الشُّكرِ بوصْفِ اللهِ بأنَّه حميدٌ؛ لأنَّ الحَمْدَ والشُّكرَ مُتقاربانِ؛ فلمَّا لم يكُنْ في أسماءِ اللهِ تعالى اسمٌ مِن مادَّةِ الشُّكرِ إلَّا اسمَه الشَّكورَ، وهو بمعنى شاكرٍ، أي: شاكرٌ لعِبادِه عِبادتَهم إيَّاه؛ عُبِّر هنا باسمِه ﴿حَمِيدٌ﴾[٣].

- وعدَمُ التَّعرُّضِ لكونِه تعالى مَشكُورًا؛ لأنَّ الحمدَ مُتضمِّنٌ للشُّكرِ، بلْ هو رأْسُه؛ فإثباتُه له تعالى إثباتٌ للشُّكرِ له قطعًا[٤].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ قال في الشُّكرِ: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ﴾ بصيغةِ المُستقبَلِ، وفي الكُفرانِ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾، وإن كان الشَّرطُ يَجعَلُ الماضيَ والمُستقبَلَ في معنًى واحدٍ، كقَولِ القائلِ: مَن دخَلَ داري فهو حُرٌّ، ومَن يدخُلْ داري فهو حُرٌّ، وذلك فيه إشارةٌ إلى مَعنًى، وإرشادٌ إلى أمرٍ، وهو أنَّ الشُّكرَ ينبغي أن يتكرَّرَ في كُلِّ وَقتٍ لتكرُّرِ النِّعمةِ، فمَن شَكَر ينبغي أن يُكرِّرَ؛ والكُفرَ ينبغي أن ينقَطِعَ، فمَن كفَرَ ينبغي أن يترُكَ الكُفرانَ، وأيضًا لأنَّ الشُّكرَ مِن الشَّاكِرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

لا يقَعُ بكَمالِه، بل أبدًا يكونُ منه شَيءٌ في العَدَمِ يريدُ الشَّاكِرُ إدخالَه في الوُجودِ، كما قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [النمل: ١٩]، وكما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فأشار إليه بصيغةِ المُستقبَلِ؛ تنبيهًا على أنَّ الشُّكرَ بكَمالِه لم يُوجَدْ، وأمَّا الكُفرانُ فكُلُّ جُزءٍ يقَعُ منه تامٌّ، فقال بصيغةِ الماضي(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، فقدَّم الشُّكرَ على الكُفرانِ، وقال في سُورةِ (الرُّوم): ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، فقدَّمَ الكُفرانَ؛ ووجْهُه: أنَّ الذِّكرَ في سُورةِ (الرُّوم) للتَّرهيبِ؛ لقولِه تعالى مِن قبْلُ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم: ٤٣]، والذِّكرُ هاهنا للتَّرغيبِ؛ لأنَّ وَعْظَ الأبِ للابنِ يكونُ بطريقِ اللُّطفِ والوعْدِ، وقولُه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [الروم: ٤٤] يُحقِّقُ ما ذكَرْنا أوَّلًا؛ لأنَّ المذكورَ في سُورةِ (الرُّوم) لَمَّا كان بعدَ اليومِ الَّذي لا مرَدَّ له، تكونُ الأعمالُ قد سبَقَت، فقال بلفظِ الماضي: ﴿وَمَنْ عَمِلَ﴾ [الروم: ٤٤]، وهاهنا لَمَّا كان المذكورُ في الابتداءِ قال: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ بلفظِ المُستقبَلِ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [لقمان: ١٢]؛ لأنَّ الواوَ نائبةٌ مَنابَ الفِعلِ؛ فمَضمونُ هذه الجُملةِ يُفسِّرُ بَعضَ الحِكمةِ الَّتي أُوتِيَها لُقمانُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٣، ١٥٤).

- وافتِتاحُ المَوعظةِ بقولِه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بنداءِ المَخاطَبِ المَوعوظِ، مع أنَّ تَوجيهَ الخِطابِ مُغْنٍ عن ندائِه؛ لحُضورِه بالخِطابِ؛ فالنِّداءُ مُستعمَلٌ في طلَبِ حُضورِ الذِّهنِ لوعْيِ الكلامِ، وذلك مِن الاهتمامِ بالغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ[١].

- قولُه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ بصيغةِ التَّصْغيرِ؛ لِتَنزيلِ المُخاطَبِ الكبيرِ مَنزلةَ الصَّغيرِ؛ كِنايةً عن الشَّفقةِ به والتَّحبُّبِ له، وهو في مَقامِ المَوعظةِ والنَّصيحةِ إيماءٌ وكِنايةٌ عن إمْحاضِ النُّصحِ، وحُبِّ الخيرِ، ففيه حثٌّ على الامتثالِ للموعظةِ[٢].

- قولُه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ابْتدَأَ لُقمانُ مَوعظةَ ابنِه بنَهْيِه عن الشِّركِ باللهِ؛ لأنَّ النَّفْسَ المُعرَّضةَ للتَّزكيةِ والكَمالِ يجِبُ أنْ يُقدَّمَ لها قبْلَ ذلك تَخليتُها عن مَبادِئِ الفسادِ والضَّلالِ؛ فإنَّ إصلاحَ الاعتقادِ أصْلٌ لإصلاحِ العمَلِ[٣].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، أو للانتِهاءِ عن الشِّركِ، وتهْويلٌ لأمْرِه؛ فإنَّه ظُلْمٌ لحُقوقِ الخالِقِ، وظُلْمُ المرْءِ لنفْسِه؛ إذ يضَعُ نفْسَه في حَضيضِ العُبوديَّةِ لأخَسِّ الجَماداتِ، وظُلْمٌ لأهْلِ الإيمانِ الحقِّ؛ إذ يَبعَثُ على اضْطِهادِهم وأذاهُمْ، وظُلْمٌ لحَقائقِ الأشياءِ بقلْبِها، وإفسادِ تعلُّقِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٥).

## الآيتان (١٤-١٥)

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَهْنًا﴾: أي: ضَعْفًا، وأصلُ (وهن): يدُلُّ على ضَعفٍ[1].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: أي: فِطامُه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[2].

﴿أَنَابَ﴾: أي: رجَعَ وتابَ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ، ورُجوعٍ إليه[3].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾

قَولُه: ﴿وَهْنًا﴾ مَنصوبٌ على الحالِ مِن ﴿أُمُّهُۥ﴾ أي: ذاتَ وَهْنٍ، أو مَوهونةً؛ أو مِن مَفعولِ ﴿حَمَلَتْهُ﴾ وهو: الولدُ، أي: حملَتْه ضعيفًا؛ عَلَقةً، ثمَّ نُطْفةً، ثُمَّ مُضغةً. و﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ صِفةٌ لـ ﴿وَهْنًا﴾.

قَولُه تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي﴾: (أنْ) مُفَسِّرةٌ لِفعلِ (وَصَّينا)؛ لأنَّ فيه معنى القَولِ دونَ حُروفِه، وجملةُ (اشكُرْ) تفسيريَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. ويجوزُ أن تكونَ (أن) مَصدريَّةً في مَوضِعِ نَصبٍ أو جَرٍّ على حَذفِ الخافِضِ، وهو مُتعَلِّقٌ بـ (وصَّينا)، أي: (بأن اشكُرْ)، أو (لأنِ اشكُرْ)، أو يكونُ مَوضِعُ المصدَرِ المؤَوَّلِ: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ بدَلَ اشتِمالٍ من (والِدَيه)، كأنَّه قيل: وصَّيْنا الإنسانَ بوالِدَيه بشُكرِهما. وعلى هذه الأوجُهِ يكونُ قَولُه تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ إلى ﴿عَامَيْنِ﴾ اعتِراضًا للتَّعليلِ مُؤكِّدًا للتَّوصيةِ في حَقِّ الأُمِّ خُصوصًا.

قَولُه: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ﴿مَعْرُوفًا﴾ نائِبٌ عن المَصدَرِ مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ، صِفةٌ لِمَصدرٍ مَحذوفٌ، أي: صِحابًا، أو مُصاحَبًا مَعروفًا[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا علوَّ منزلةِ الوالدينِ: وعَهِدْنا إلى الإنسانِ ببرِّ والِدَيه والإحسانِ إليهما؛ ثمَّ يُبيِّنُ سبحانه السَّببَ الموجبَ لذلك، فيَذكُرُ ما بذَلَتْه الأُمُّ مِن جهدٍ يُوجِبُ الإحسانَ إليها، فيقولُ: حملَتْه أمُّه في بَطنِها، وعانت في حَملِه ضَعْفًا على ضَعفٍ، وثِقْلًا وشِدَّةً، وفِطامُه في عامَينِ مِن وِلادتِه، ووصَّيْنا الإنسانَ

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ١٩٦)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٦٥)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١٠٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٥).

بالشُّكرِ لله تعالى، ولِوالِدَيه؛ فإلى الله وَحْدَه لا إلى غَيرِه المرجِعُ والمآبُ، فيَسألُك -أيُّها الإنسانُ- عن شُكرِه وشُكرِ والِدَيك، ويُجازيك على عَمَلِك.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه حدودَ الطَّاعةِ للوالدينِ، فيقولُ: وإن كان والِداك مُشرِكَينِ، وجاهَداك على أن تُشرِكَ باللهِ ما لا بُرهانَ على صِحَّةِ ألوهيَّتِه؛ فلا تُطِعْهما، وصاحِبْهما في الدُّنيا مُصاحَبةً حَسَنةً.

ثمَّ يرشِدُ سبحانَه إلى وجوبِ اتِّباعِ أهلِ الحقِّ، فيقول: واسلُكْ طَريقَ الَّذين تابوا إلَيَّ، واقتَدِ بهم، ثمَّ إلَيَّ مَصيرُكم جَميعًا -أيُّها النَّاسُ- فأُنَبِّئُكم بجَميعِ أعمالِكم، وأُجازيكم عليها.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّنَ لُقمانُ لابنِه أنَّ الشِّركَ ظُلْمٌ، ونهاه عنه؛ كان ذلك حَثًّا على طاعةِ اللهِ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الطَّاعةَ أيضًا تكونُ للأبوَينِ، وبيَّنَ السَّبَبَ في ذلك[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما أوصى به لُقمانُ وَلَدَه مِن شُكرِ المُنعِمِ الأوَّلِ الَّذي لم يَشرَكْه في إيجادِه أحَدٌ، وذكَرَ ما عليه الشِّركُ مِن الفَظاعةِ والشَّناعةِ والبَشاعةِ- أتبَعَه سُبحانَه وصيَّتَه للولَدِ بالوالِدِ؛ لِكَونِه المنعِمَ الثَّانيَ، المتفرِّدَ سُبحانَه بكَونِه جَعَلَه سَبَبَ وُجودِ الوَلَدِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٢، ١٦٣).

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾.

أي: وعَهِدْنا إلى الإنسانِ وأمَرْناه ببرِّ والِدَيه، والإحسانِ إليهما[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[النساء: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ...﴾[الإسراء: ٢٣، ٢٤].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾.

**مناسبتُها لما قبلَها:**

لما خصَّ الله تعالى الأُمَّ بالمشقَّاتِ مِن الحَملِ والنِّفاسِ والرَّضاعِ والتَّربيةِ؛ نبَّه على السببِ الموجِبِ للإيصاءِ بها[2]، فقال:

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾.

أي: حمَلَت الأمُّ ولَدَها في بَطنِها، وهي تزدادُ ضَعفًا على ضَعفٍ، وثِقلًا وشِدَّةٍ، إلى أن تضَعَه بمشَقَّةٍ وألمٍ[3].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾.

أي: وفِطامُ الولَدِ في عامَينِ مِن ولادتِه، فلا ينفَصِلُ مِن أمِّه إلَّا بعدَ عامَينِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

تُعاني فيهما الأمُّ مَشقَّةَ رَضاعِه، وتَربيتِه، والقيامِ على شُؤونِه[١].

﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾.

أي: ووصَّيْنا الإنسانَ أنِ اشكُرِ اللهَ على إنعامِه عليك، وذلك بالقيامِ بعُبوديَّتِه وطاعتِه وَحْدَه، وأداءِ حُقوقِه، واشكُرْ والِدَيك على تحمُّلِهما ما لَقِيَا مِنَ المشَقَّةِ، وما بَذَلاه مِنَ الجُهدِ لأجْلِك؛ فأطِعْهما، وأحسِنْ إليهما[٢].

﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: إلَيَّ لا إلى غَيري مَرجِعُك -أيُّها الإنسانُ- فأسألُك عن شُكري، وشُكرِ والِدَيك، وأُجازيك على عَمَلِك[٣].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه وَصِيَّتَه بالوالِدَينِ، وأكَّد حَقَّهما؛ أتبَعَه الدَّليلَ على ما ذَكَر

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

قال القُشَيْرِيُّ: (أوجَب الله شُكرَ نفْسِه وشُكرَ الوالدَينِ. ولَمَّا حصَل الإجماعُ على أنَّ شُكْرَ الوالدينِ بدَوامِ طاعتِهما، وألَّا يُكْتَفى فيه بمُجرَّدِ النُّطقِ بالثَّناءِ عليهما؛ عُلِم أنَّ شُكرَ الحقِّ لا يَكفي فيه مجرَّدُ القولِ ما لم تَكُنْ فيه موافقةُ العملِ؛ وذلك بالتِزامِ الطَّاعةِ، واستِعمالِ النِّعمةِ في وجهِ الطَّاعةِ، دُونَ صَرفِها في الزَّلَّةِ). ((تفسير القشيري)) (٣/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

لُقمانُ مِن قَباحةِ الشِّركِ، فقال[١]:

﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا ﴾.

أي: وإن اجتَهَد والِداك المُشرِكانِ -أيُّها المسلِمُ- وحَرَصا كُلَّ الحِرصِ على أن تجعَلَ لي شَريكًا، لا بُرهانَ على صِحَّةِ ألوهيَّتِه؛ فلا تُطِعْهما فيما يأمُرانِك به مِنَ الشِّركِ[٢].

عن عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا طاعةَ في مَعصيةٍ، إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ))[٣].

﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا ﴾.

أي: وصاحِبْهما في الدُّنيا[٤] مُصاحَبةً حَسَنةً؛ بالإحسانِ إليهما، والطَّاعةِ لهما فيما لا إثمَ فيه عليك[٥].

﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(٣) رواه البخاري (٧٢٥٧) واللفظ له، ومسلم (١٨٤٠).

(٤) قيل: المرادُ: مُصاحبَتُهما في أمورِ الدُّنيا الَّتي لا تَتعلَّقُ بالدِّينِ مُدَّةَ حياتِهما. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٦٨).
قال ابنُ عثيمين: (يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بالدُّنيا شُؤونَها، يعني: في أمورِ الدُّنيا صاحِبْهما مَعروفًا، أمَّا في أمور الدِّينِ فلا تَتعَدَّ ما أمَرَك الله به. ويحتمِلُ أن يكونَ ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا ﴾ أي: في هذه الدُّنيا. لكِنَّ المعنى الأوَّلَ أبلَغُ؛ لأنَّه مِنَ المعلومِ أنَّ المصاحَبةَ بينَ الوالِدَينِ والولَدِ إنَّما تكونُ في الدُّنيا، فلا حاجةَ إلى التَّقديرِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

أي: واسلُكْ طَريقَ الَّذين أقبَلوا علَيَّ، ورَجَعوا وتابوا إلَيَّ، واقتَدِ بهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ثمَّ إلَيَّ مَصيرُكم جميعًا -أيُّها النَّاسُ- فأُنَبِّئُكم بجَميعِ أعمالِكم: خَيرِها وشَرِّها[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾، في قولِه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ بيانُ عِظَمِ حُقوقِ الوالِدَينِ؛ ولهذا جعَلَها اللهُ وَصيَّةً، والوصيَّةُ: هي أنْ يُعهَدَ إلى شَخصٍ بأمرٍ هامٍّ[٣]، ثمَّ قال: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ أي: بالإحسانِ إليهما؛ بالقَولِ اللَّيِّنِ، والكَلامِ اللَّطيفِ، والفِعلِ الجَميلِ، والتَّواضُعِ لهما، وإكرامِهما وإجلالِهما، والقيامِ بمَؤونتِهما، واجتنابِ الإساءةِ إليهما مِن كُلِّ وَجهٍ، بالقَولِ والفِعلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٩٥، ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ أنَّه يَنبغي أنْ يُذكَرَ للمُخاطَبِ ما يحمِلُه على امتِثالِ ما وُجِّهَ إليه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ أنَّه ينبغي تقويةُ الجانبِ الضَّعيفِ بما يُقَوِّيه؛ فإنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ ما يَحسُنُ للأمِّ إغراءً للقيامِ بحَقِّها، ولم يَذْكُرْ ما يَحسُنُ للأبِ؛ لأنَّ الأمَّ ضَعيفةٌ تحتاجُ إلى مَن يُقوِّي جانِبَها[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾ تَحريمُ طاعةِ الوالِدَينِ إذا أمَرَا بالشِّركِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾، ويُقاسُ على ذلك كلُّ مَعصيةٍ أمَرَا بها، فإنَّهما لا يُطاعان؛ لِقَولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((لا طاعةَ في معصيةِ الله، إنَّما الطاعةُ في المعروفِ))[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ * وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ فأمَرَ اللهُ بمُصاحَبةِ الوالِدَينِ بالمعروفِ في الدُّنيا مع أنَّهما مُشرِكانِ ويُجاهِدانِ ولَدَهما على الشِّركِ؛ فدَلَّ هذا على أنَّ المعاصيَ لا تُوجِبُ قَطيعةَ الرَّحِمِ، ولا عُقوقَ الوالِدَينِ[٤]، ففُسوقُ الوالِدَينِ وكُفرُهما لا يُسقِطُ حقَّهما مِن البِرِّ[٥]، فذِكرُ ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٦).

والحديث تقدَّم تخريجُه قريبًا.

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٩٧).

ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ إثرَ قَولِه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾ فُهِمَ منه أنَّ الأمرَ بمُعاشَرتِهما بالمعروفِ شامِلٌ لحالةِ كَونِ الأبوَينِ مُشرِكَينِ؛ فإنَّ على الابنِ مُعاشَرتَهما بالمعروفِ، كالإحسانِ إليهما وصِلَتِهما[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ حقَّ الأمِّ أوجَبُ مِن حَقِّ الأبِ؛ فاللهُ تعالى ذَكَرَ ما تُعانيه الأمُّ مِن المَشاقِّ؛ إشارةً إلى أنَّها أحَقُّ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ أنَّ أقلَّ الحَملِ ستَّةُ أشهرٍ، وقد قال تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]؛ فإذا أَسقَطْتَ عامَينِ مِن ثلاثينَ شَهرًا بَقِيَ ستَّةُ أشهُرٍ[3].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ يُفهَمُ منه اجتِنابُ ما يُنكَرُ في مُصاحَبتِهما، فشَمِلَ ذلك مُعامَلةَ الابنِ أبوَيه بالمُنكَرِ، وشَمِلَ ذلك أن يدعُوَ الوالِدُ إلى ما يُنكِرُه اللهُ ولا يَرضى به؛ ولذلك لا يُطاعانِ إذا أمَرَا بمَعصيةٍ[4].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣، ١١٤).

وذكَر ابنُ كثيرٍ أنَّ عليًّا رَضِيَ الله عنه استدلَّ بقولِه تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ [الأحقاف: ١٥] معَ قولِه: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقَولِه: ﴿وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]: على أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَملِ ستَّةُ أشهُرٍ، ثم قال: (وهو استِنباطٌ قَويٌّ صَحيحٌ، ووافَقَه عليه عثمانُ وجماعةٌ مِن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١).

تُطِعۡهُمَا﴾ قولُه: ﴿مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا يُمكِنُ أن يَدُلَّ عِلمٌ مِن أنواعِ العُلومِ على شَيءٍ مِنَ الشِّركِ بنَوعٍ مِن أنواعِ الدَّلالاتِ، بل العُلومُ كُلُّها دالَّةٌ على الوحدانيَّةِ على الوَجهِ الَّذي تطابَقَت عليه العُقولُ، وتظافَرَت عليه مِنَ الأنبياءِ والرُّسُلِ النُّقولُ[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ فيه حَثٌّ على مَعرفةِ الرِّجالِ بالحَقِّ، وأمرٌ بحَكِّ المشايخِ وغَيرِهم على مَحَكِّ الكِتابِ والسُّنَّةِ، فمَن كان عَمَلُه مُوافِقًا لهما اتُّبِعَ، ومَن كان عمَلُه مُخالِفًا لهما اجتُنِبَ[٢].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ أنَّه سُبحانَه أرحمُ بالوالِدَينِ مِن أولادِهما؛ لأنَّ اللهَ تعالى أوصَى الأولادَ بالوالِدَينِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لَمَّا خَصَّ تعالى الأمَّ بدَرَجةِ ذِكرِ الحَملِ، وبدَرَجةِ ذِكرِ الرَّضاعِ، حَصَل لها بذلك ثلاثُ مراتِبَ، وللأبِ واحِدةٌ، وأشبَهَ ذلك قَولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ جاء إليه رجُلٌ، فقال: ((يا رسولَ الله، مَن أحقُّ بحُسنِ صَحابتي؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ أبوك))[٤]. فجعَل له الرُّبُعَ مِنَ المبَرَّةِ كما في هذه الآيةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٩، ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٨٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٧١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾، ذكَرَ الفِصالَ في مَعرِضِ تَعليلِ حَقِّيَّةِ الأمِّ بالبِرِّ؛ لأنَّه يَستلزِمُ الإرضاعَ مِن قبْلِ الفِصالِ، وللإشارةِ إلى ما تَتحمَّلُه الأمُّ مِن كدَرِ الشَّفقةِ على الرَّضيعِ حينَ فِصالِه، وما تُشاهِدُه مِن حُزْنِه وألَمِه في مَبدأِ فِطامِه[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾، التَّعبيرُ بـ(في) يشيرُ إلى أنَّ الوالِدَين لهما أن يَفطِماه قبْلَ تمامِهما، على حَسَبِ ما يحتَمِلُه حالُه، وتدعو إليه المصلَحةُ مِن أمْرِه[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ فيه رَدٌّ على مَن قال: مُدَّةُ الرَّضاعِ ثلاثونَ شَهرًا، أو ثلاثُ سِنينَ[3].

٦- قَولُه تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ هو قَيدٌ لبيانِ الواقعِ، وليس قَيدًا احترازيًّا؛ لأنَّه لا يمكِنُ أنْ يوجَدَ عِلْمٌ بأنَّ لله تعالى شَريكًا، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. فإنْ قال قائِلٌ: ما فائِدةُ هذا القَيدِ، وقد عُلِمَ أنَّه لن يُوجَدَ؟

**فالجوابُ**: أنَّ الفائِدةَ فيه تحقيقُ هذا الأمرِ حتَّى لا يحاوِلَ أحدٌ أن يبحَثَ ويَطلُبَ عِلمًا أو بُرهانًا بأنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى له شَريكٌ، فكأنَّه يقولُ: هذا هو حَقيقةُ الواقعِ، وما كان حقيقةَ الواقعِ فلا يمكِنُ أنْ يَتخلَّفَ[4].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾، وكذا في قَولِه سُبحانَه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٩٠).

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]- دَلالةٌ على وُجوبِ الإنفاقِ على الأقارِبِ وإنِ اختلفَ الدِّينانِ؛ فإنَّه ليس مِن الإحسانِ ولا مِن المعروفِ تَرْكُ الإنسانِ لأبيه وأمِّه في غايةِ الضَّرورةِ والفاقةِ، وهو في غايةِ الغِنى(١).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على الأمرِ ببرِّ الوالِدَينِ الكافِرَينِ، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يُفهَمُ منها خِلافُ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ثمَّ نصَّ على دُخولِ الآباءِ في هذا بقَولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]؟

**الجوابُ**: أنَّه لا مُعارَضةَ بينَ الآيتَينِ، ووجهُ الجَمعِ بيْنَهما أنَّ المصاحَبةَ بالمعروفِ أعَمُّ مِن الموادَّةِ؛ لأنَّ الإنسانَ يُمكِنُه إسداءُ المعروفِ لِمَن يَوَدُّه ومَن لا يَوَدُّه، والنَّهيُ عن الأخَصِّ لا يَستلزِمُ النَّهيَ عن الأعَمِّ؛ فكأنَّ الله تعالى حَذَّر مِن الموَدَّةِ المُشعِرةِ بالمحبَّةِ، والموالاةِ بالباطِنِ لجَميعِ الكُفَّارِ، يدخُلُ في ذلك الآباءُ وغَيرُهم، وأمَرَ الإنسانَ بألَّا يفعَلَ لوالِدَيه إلَّا المعروفَ، وفِعلُ المعروفِ لا يَستلزِمُ الموَدَّةَ؛ لأنَّ المودَّةَ مِن أفعالِ القُلوبِ لا مِن أفعالِ الجوارحِ، وممَّا يدُلُّ لذلك إذْنُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأسماءَ بنتِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ أن تَصِلَ أمَّها، وهي كافِرةٌ(٢)، وقال بعضُ العُلَماءِ: إنَّ قِصَّتَها سَبَبٌ لِنُزولِ قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾(٣) [الممتحنة: ٨].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾ فيه وُجوبُ اتِّباعِ السَّلَفِ، لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٧٩١).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٢).

السَّلَفَ المؤمنينَ مُنِيبُون[١]، وكُلٌّ مِنَ الصَّحابةِ مُنيبٌ إلى اللهِ، فيَجِبُ اتِّباعُ سَبيلِه، وأقوالُه واعتِقاداتُه مِن أكبَرِ سَبيلِه، والدَّليلُ على أنَّهم مُنيبونَ إلى اللهِ تعالى أنَّ الله تعالى قد هداهم، وقد قال: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[٢] [الشورى: ١٣].

١٠- قوله تعالَى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ يدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الإجماعِ؛ لأنَّ في الأُمَّةِ لا مَحالةَ مَنْ أنابَ إليه، فوَجَب اتِّباعُ جَماعَتِها، فإذا أجْمَعَت الأُمَّةُ على شَيءٍ فقد عَلِمْنا أنَّ المُنيبينَ الَّذين فيها قد قالوا ذلك واعتَقَدوه، فهو حُكْمُ اللهِ تعالَى لا مَحالةَ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وُجوبُ اتِّباعِ سَبيلِ المؤمِنينَ، ويؤيِّدُه قولُه سُبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾[٤] [النساء: ١١٥].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾

- الآيتانِ ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ و﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، اعتُرِضَ بهِ على نَهجِ الاستِطرادِ في أثناءِ وصيَّةِ لُقمانَ؛ تأْكيدًا لِما فيها مِن النَّهيِ عن الشِّركِ، كأنَّه قال: وقد وصَّيْنا بمِثلِ ما وصَّى به[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((الفصول في الأصول)) للجصاص (٣/ ٢٦٣). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير أبي =

وذَكَرَ الوالدينِ؛ للمُبالَغةِ في ذلك؛ فإنَّهما مع أنَّهما تِلْوَ الباري في استِحقاقِ التَّعظيمِ والطَّاعةِ لا يجوزُ أنْ يَستحِقَّاهُ في الإشراكِ، فما ظنُّك بغَيرِهما[1]؟!

- وهذا الكلامُ اعتراضٌ بيْنَ كلامَيْ لُقمانَ؛ لأنَّ صِيغةَ هذا الكلامِ مَصوغةٌ على أُسلوبِ الإبلاغِ والحِكايةِ لقولٍ مِن أقوالِ اللهِ، والضَّمائرُ ضمائرُ العَظَمةِ جرَّتْه مُناسَبةُ حِكايةِ نهْيِ لُقمانَ لابنِه عن الإشراكِ وتَفظيعِه بأنَّه ظُلْمٌ عظيمٌ، فذكَرَ اللهُ هذا؛ لتأْكيدِ ما في وَصيَّةِ لُقمانَ مِن النَّهيِ عن الشِّركِ بتَعميمِ النَّهيِ في الأشخاصِ والأحوالِ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ النَّهيَ خاصٌّ بابنِ لُقمانَ أو ببعضِ الأحوالِ؛ فحَكى اللهُ أنَّ اللهَ أَوصى بذلك كلَّ إنسانٍ، وأنْ لا هوادةَ فيه ولو في أحرَجِ الأحوالِ؛ وهي حالُ مُجاهَدةِ الوالدَينِ أولادَهم على الإشراكِ. وأحسَنُ مِن هذه المُناسَبةِ: أنْ تُجعَلَ مُناسَبةُ هذا الكلامِ أنَّه لَمَّا حكى وِصايةَ لُقمانَ لابنِه بما هو شُكْرُ اللهِ بتَنزيهِه عن الشِّركِ في الإلهيَّةِ؛ بيَّن اللهُ أنَّه تعالى أسبَقُ مِنَّةً على عِبادِه؛ إذ أَوصى الأبناءَ ببِرِّ الآباءِ؛ فدخَلَ في العُمومِ المِنَّةُ على لُقمانَ جزاءً على رَعْيِه لحقِّ اللهِ في ابتداءِ مَوعظةِ ابنِه، فاللهُ أسبَقُ بالإحسانِ إلى الَّذين أحْسَنوا برَعْيِ حَقِّه. ويُقوِّي هذا التَّفسيرَ اقترانُ شُكْرِ اللهِ وشُكْرِ الوالدينِ في الأمْرِ[2].

- وجُملةُ ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ في مَوضعِ التَّعليلِ للوِصايةِ بالوالدينِ؛ قصْدًا لتأْكيدِ تلك الوِصايةِ؛ لأنَّ تَعليلَ الحُكْمِ يُفيدُه تأْكيدًا، ولأنَّ في مَضمونِ هذه الجُملةِ ما يُثيرُ الباعثَ في نفْسِ الولَدِ على أنْ يَبَرَّ بأُمِّه ويَستتبِعَ البِرَّ بأبيه.

---

= حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٦، ١٥٧).

وإنَّما وقَعَ تَعليلُ الوِصايةِ بالوالدينِ بذِكرِ أحوالٍ خاصَّةٍ بأحَدِهما -وهي الأمُّ-؛ اكتِفاءً بأنَّ تلك الحالةَ تَقْتضي الوِصايةَ بالأبِ أيضًا للقياس؛ فإنَّ الأبَ يُلَاقي مَشاقَّ وتعَبًا في القيامِ على الأمِّ؛ لتَتمكَّنَ مِن الشُّغلِ بالطِّفلِ في مُدَّةِ حَضانتِه، ثمَّ هو يَتولَّى تربيتَه والذَّبَّ عنه حتَّى يَبلُغَ أشُدَّهُ ويَسْتغنيَ عن الإسعافِ، كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٤]، فجمَعَهما في التَّربيةِ في حالِ الصِّغَرِ ممَّا يَرجِعُ إلى حِفْظِه وإكمالِ نشْأتِه، فلمَّا ذُكِرَت هنا الحالةُ الَّتي تَقْتضي البِرَّ بالأمِّ مِن الحمْلِ والإرضاعِ، كانتْ مُنبِّهةً إلى ما للأبِ مِن حالةٍ تَقْتضي البِرَّ به على حِسابِ ما تَقْتضيهِ تلك العلَّةُ في كِلَيْهما قوَّةً وضَعفًا. وقد نبَّه على هذا القياسِ تَشْريكُهما في الحُكْمِ عقِبَ ذلك بقولِه: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾، وقولِه: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾، وحصَلَ مِن هذا النَّظمِ البديعِ قَضاءُ حقِّ الإيجازِ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ المفسَّرِ والمُفسِّرِ، بينَ الوَصيَّةِ والمُوصَى به، وهو اعتِراضٌ في أعلَى درجاتِ الحُسْنِ؛ لأنَّه لَمَّا وصَّى بالوالدينِ، ذَكَر ما تُكابِدُه الأمُّ وتُعانيه مِن المَشاقِّ والمَتاعبِ في حمْلِه وفِصالِه هذه المُدَّةَ المُتطاوِلةَ؛ إيجابًا للتَّوصيةِ بالوالدةِ خُصوصًا، وتذْكيرًا بحَقِّها العظيمِ مُفْردًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٨).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كانت الأمُّ في مَقامِ الاحتقارِ؛ لِما للأبِ مِن العَظَمةِ بالقُوَّةِ والعَقلِ والكَدِّ عليها وعلى وَلَدِها؛ نَوَّهَ بها، ونبَّه على ما يختَصُّ بها من أسبابِ وُجودِ الولَدِ وبقائه عن الأبِ؛ مِمَّا حَصَل لها مِنَ المشَقَّةِ بسَبَبِه، وما لها إليه مِن التربيةِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٤، ٤٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧١).

- وانتصَبَ ﴿وَهْنًا﴾ على الحالِ مِن ﴿أُمُّهُۥ﴾؛ مُبالَغةً في ضَعْفِها، حتَّى كأنَّها نفْسُ الوهْنِ[١].

- وذكَرَ لِمُدَّةِ فِطامِه أقْصاها -وهو عامانِ-؛ لأنَّ ذلك أنسَبُ بالتَّرقيقِ على الأمِّ[٢].

- وجُملةُ ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تَفسيرٌ لفِعلِ (وصَّينا)، وما بيْنَهما اعْتِراضٌ مُؤكِّدٌ للوصيَّةِ في حَقِّها خاصَّةً، وإنَّما فُسِّرتِ الوصيَّةُ بالوالدَينِ بما فيه الأمْرُ بشُكْرِ اللهِ مع شُكْرِهما على وجْهِ الإدماجِ[٣]؛ تمْهيدًا لقولِه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي﴾[٤].

- وجُملةُ ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ استئنافٌ للوعْظِ، والتَّحذيرِ مِن مُخالَفةِ ما أوْصى اللهُ به مِن الشُّكرِ له[٥]. وتَعليلٌ أيضًا لوُجوبِ الامتثالِ، أي: إلَيَّ الرُّجوعُ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٥٩).

(٣) الإدماجُ: هو أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٠).

إلى غيرِي، فأُجازِيك على ما صَدَر عنْك مِن الشُّكرِ والكُفرِ[١].

- وتَعريفُ المصيرِ في قولِه: ﴿إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تعريفُ الجِنسِ، أي: مَصيرُ النَّاسِ كلِّهم. ولك أنْ تَجعَلَ (أل) عِوَضًا عن المُضافِ إليه. وتقْديمُ المجرورِ للحصْرِ، أي: ليس للأصنامِ مَصيرٌ في شَفاعةٍ ولا غيرِها[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ المقصودُ مِن هذا الكلامِ -﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ ...﴾ إلى قولِه: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾- هو قولُه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾ إلى آخِرِه، وما قَبْلَه تمْهيدٌ له، وتقريرٌ لواجبِ برِّ الوالدينِ؛ لِيَكونَ النَّهيُ عن طاعتِهما إذا أمَرَا بالإشراكِ باللهِ نهْيًا عنه في أَولى الحالاتِ بالطَّاعةِ؛ حتَّى يكونَ النَّهيُ عن الشِّركِ فيما دونَ ذلك مِن الأحوالِ مَفهومًا بفَحْوى الخِطابِ[٣]، مع ما في ذلك مِن حُسنِ الإدماجِ المُناسِبِ لحِكمةِ لُقمانَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي﴾ أشارَ بصِيغةِ المُفاعَلةِ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٠).

(٣) فَحْوى الخِطابِ: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطَريقِ الأَولى، وهو نوعانِ:
الأوَّلُ: تَنبيهٌ بالأَقَلِّ على الأكثَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نبَّه بالنَّهيِ عن قَولِ أُفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].
الثَّاني: تنبيهٌ بالأكثَرِ على الأقَلِّ، كقَولِه تعالى: ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٥٧).

مُخالفَتِهما، وإنْ بالَغا في الحَمْلِ على ذلك، وأشارَ بأداةِ الاستِعلاءِ إلى أنَّه لا مَطْمَعَ لِمَن أطاعَهُما في ذلك -ولو باللَّفظِ فقطْ- أنْ يكونَ في عِدادِ المحسنينَ، وإنْ كان الوالدانِ في غايةِ العُلوِّ والتَّمكُّنِ مِن الأسبابِ الفاتنةِ له، بخِلافِ سُورةِ (العنكبوتِ)؛ فإنَّها لِمُطلَقِ الفِتنةِ، وليست لقوَّةِ الكفَّارِ، فعبَّرَ فيها بلامِ العِلَّةِ، فقال: ﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ [العنكبوت: ٨]؛ إشارةً إلى مُطلَقِ الجِهادِ الصَّادقِ بقَوِيِّهِ وضَعيفِه، ففي الموضعينِ نوعُ رمْزٍ إلى أنَّه إنْ ضعُفَ عنهما أطاع باللِّسانِ، ولم يُخرِجْه ذلك عن الإيمانِ، كما أخْرَجَه هنا عن الوصْفِ بالإحسانِ، ولذلك حذَّرَ في الآيةِ الَّتي بعدَ تلك مِن النِّفاقِ؛ لأجْلِ الفِتنةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فنٌّ عكْسِ الظَّاهرِ، أو نفْيُ الشَّيءِ بإيجابِه؛ فقد أراد بنفْيِ العِلْمِ نفْيَه، أي: لا تُشرِكْ بي ما ليس بشَيءٍ، يُرِيد الأصنامَ، على حدِّ قولِ الشَّاعرِ[٢]:

على لاحبٍ لا يُهتَدى بمَنارِه[٣]

أي: ما ليس بإلهٍ، فيكون لك عِلْمٌ بإلهيَّتِه[٤].

- وذِكرُ ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾؛ لِتَهوينِ أمرِ الصُّحبةِ، والإشارةِ إلى أنَّها في أيامٍ قلائِلَ وَشيكةِ الانقِضاءِ، فلا يَضُرُّ تحَمُّلُ مَشقَّتِها؛ لِقلَّةِ أيَّامِها، وسُرعةِ انصرامِها.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) القائلُ هو امرُؤ القيسِ. يُنظر: ((ديوان امرئ القيس)) (ص: ٩٦).

(٣) اللاحبُ: الطَّريقُ الواضحُ، ولم يُرِدْ أن فيه منارًا لا يُهتدَى به، ولكنَّه نفَى أن يكون به منارٌ. والمعنى: لا منارَ فيه فيُهتدَى به. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٣٩).

وقيل: للإشارةِ إلى أنَّ الرِّفقَ بهما في الأمورِ الدُّنيويَّةِ دونَ الدِّينيَّةِ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ مَعطوفٌ على الجُمَلِ السَّابقةِ، و(ثمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ المُفيدِ للاهتمامِ بما بعْدَها. وتقْديمُ المَجرورِ؛ للاهتِمامِ بهذا الرُّجوعِ، أو هو للتَّخصيصِ، أي: لا يَنفَعُكم شَيءٌ ممَّا تَأملُونه مِن الأَصنامِ. وجُملَةُ ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ وعْدٌ ووَعيدٌ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في هذه الضَّمائرِ تَغليبُ الخِطابِ على الغَيبةِ؛ لأنَّ الخِطابَ أهمُّ؛ لأنَّه أعرَفُ[٣].

- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ بُلوغُ الغايةِ في البلاغةِ في القُرآنِ الكريمِ، فلم يَقُلْ سُبحانَه: «فأُجازيكم»؛ وذلك أنَّه قد يُنَبَّأُ الإنسانُ يومَ القيامة بما عَمِلَ، ثمَّ يُغفَرُ له، فذَكَرَ اللهُ تعالى الإنباءَ لأنَّه مُؤكَّدٌ، أمَّا المجازاةُ فإنَّ اللهَ تعالى قد يغفِرُ للمُذنِبِ ذُنوبَه[٤]. وقيل: الإنباءُ كِنايةٌ عن إظْهارِ الجزاءِ على الأعمالِ؛ لأنَّ المُلازَمةَ بيْنَ إظهارِ الشَّيءِ وبيْنَ العِلْمِ به ظاهرةٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١، ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦١).

## الآيات (١٦-١٩)

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِثۡقَالَ﴾: أي: زِنةَ، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ[١].

﴿خَرۡدَلٖ﴾: الخَردَلُ: حُبوبٌ دَقيقةٌ كحَبِّ السِّمسِمِ هي بُزورُ شَجَرٍ يُسَمَّى عند العَرَبِ الخَرْدَلَ. ويُضرَبُ به المَثَلُ في الصِّغَرِ والحَقارةِ[٢].

﴿تُصَعِّرۡ﴾: أي: تُعْرِضْ بوَجهِك وتتكبَّرْ، والتَّصعيرُ: إمالةُ الخَدِّ عن النَّظَرِ؛ عُجْبًا، وأصلُ (صعر): يدُلُّ على مَيلٍ[٣].

﴿مَرَحًا﴾: أي: اختيالًا وبطرًا وكبرًا وفخرًا، والمَرَحُ: شدَّةُ الفرحِ والتَّوسُّعُ فيه، وأصلُ (مرح): يدلُّ على مَسَرَّةٍ لا يكادُ يستَقِرُّ معها المرءُ طَرَبًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٢٠٣)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٩٧)، ((مقاييس =

﴿مُخْتَالٍ﴾: أي: مُتكَبِّرٍ ذي فَخرٍ وخُيَلاءَ، والاختيالُ: مأخوذٌ مِنَ (التَّخَيُّل)، والتخيُّلُ: التَّشبُّهُ بالشَّيءِ، فالمُختالُ يَتَخيَّلُ في صورةِ مَن هو أعظَمُ منه؛ كِبْرًا، وأصلُ (خيل): يدُلُّ على حركةٍ في تلَوُّنٍ، والمختالُ في مِشيتِه يتلَوَّنُ في حركتِه ألوانًا[1].

﴿وَٱقۡصِدۡ﴾: أي: تَواضَعْ واعتَدِلْ، وأصلُ القَصدِ: استِقامةُ الطَّريقِ[2].

﴿وَٱغۡضُضۡ﴾: أي: أنقِصْ واخْفِضْ، يقالُ: غضَّ منه، إذا نقَص منه، وأصلُ (غضض) هنا: يدُلُّ على كَفٍّ ونقصٍ[3].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ﴾: الضَّميرُ (ها) في ﴿إِنَّهَآ﴾ ضميرُ

---

= اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٦/ ١٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

قال الشنقيطي: (وأصلُ المرحِ في اللُّغةِ: شِدَّةُ الفرحِ والنَّشاطِ، وإطلاقُه على مشْيِ الإنسانِ مُتَبَخْتِرًا مَشْيَ المُتكبِّرينَ؛ لأنَّ ذلك مِن لوازمِ شِدَّةِ الفرحِ والنَّشاطِ عادةً). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٣٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣).

القِصَّةِ، والجملةُ الشَّرطيَّةُ في محلِّ رفعٍ خبَرُ (إنِّ)، أو الضَّميرُ في ﴿إِنَّهَآ﴾ للخَصلةِ مِن الإساءةِ والإحسانِ، أو يَعودُ على ما يُفهَمُ مِن سياقِ الكلام، أي: إنَّ الَّتي سألْتَ عنها (إنْ تَكُ). و﴿مِثْقَالَ﴾ بالنَّصبِ خَبَرُ ﴿تَكُ﴾ النَّاقصةِ، واسمُها مُضمَرٌ فيها يعودُ على (ها) في ﴿إِنَّهَآ﴾. وقُرِئَ برَفعِ ﴿مِثْقَالَ﴾[1] على أنَّه فاعِلُ ﴿تَكُ﴾ مِن «كان» التَّامَّةِ، ولَحِقَت فِعلَه تاءُ المضارَعةِ للمُؤنَّثة، وأُعيدَ عليه الضَّميرُ في ﴿بِهَا﴾ مُؤنَّثًا، مع أنَّ ﴿مِثْقَالَ﴾ لفظٌ غيرُ مُؤنَّثٍ؛ لأنَّه أُضيفَ إلى ﴿حَبَّةٍ﴾ فاكتسَبَ التَّأنيثَ منها، أو لأنَّه بمعنى: زِنةُ حبَّةٍ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى بقيَّةَ وصايا لُقمانَ لابنِه، وأنَّه قال له: يا بُنيَّ، لو كان العملُ مِن خيرٍ أو شرٍّ زِنةَ حبَّةٍ مِن خَردلٍ، فكان في صَخرةٍ أو في جِهةٍ ما في السَّمواتِ أو في الأرضِ؛ فإنَّ اللهَ يأتي به يومَ القيامةِ، ويُوَفِّي جَزاءَه. إنَّ اللهَ يعلَمُ دقائقَ الأشياءِ وخفايا الأُمورِ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه. يا بُنيَّ، أدِّ الصَّلاةَ تامَّةً، وأْمُرِ النَّاسَ بطاعةِ اللهِ، وانهَهم عن الشِّركِ والمعاصي، وتحمَّلْ ما أصابَك في سَبيلِ ذلك مِن بلاءٍ وأذًى؛ إنَّ ذلك مِن الأمورِ الَّتي أوجَبَها اللهُ على عِبادِه، عَزمًا منه تعالى.

ولا تُمِلْ خَدَّك وتُعرِضْ بوَجهِك عن النَّاسِ؛ تكبُّرًا عليهم، ولا تَمشِ في الأرضِ مُتبختِرًا؛ إنَّ اللهَ لا يحِبُّ كُلَّ مُتكبِّرٍ فَخورٍ على النَّاسِ بما أُعطِيَ مِنَ النِّعَمِ، واعتَدِلْ في مِشيَتِك فامشِ بسَكينةٍ ووَقارٍ وتواضُعٍ، واخفِضْ مِن صَوتِك،

---

(١) قرأه بالرَّفعِ: نافعٌ وأبو جعفرٍ، وقرأه الباقونَ بالنَّصبِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٠٦).

إنَّ أقبَحَ الأصواتِ لَصوتُ الحَميرِ إذا رفَعَت صَوتَها بالنَّهيقِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا نهى لُقمانُ ابنَه عن الشِّركِ؛ نبَّهَه على قُدرةِ اللهِ، وأنَّه لا يُمكِنُ أن يتأخَّرَ عن مَقدورِه شَيءٌ[1].

﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ ﴾.

أي: قال لُقمانُ لابنِه: يا بُنَيَّ، لو كان العملُ مِن خيرٍ أو شرٍّ زِنةَ حبَّةٍ مِن خَردلٍ، فكان في صَخرةٍ أو في جِهةٍ ما في السَّمواتِ أو في الأرضِ؛ فإنَّ اللهَ يأتي به يومَ القيامةِ، ويحاسِبُ عليه، ويُوَفِّي جَزاءَه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّ الله تعالى يحاسِبُ على الأعمالِ مهما دقَّت وصَغُرت وخَفِيَت، فيأتي بها يومَ القيامةِ، ويحاسِبُ عليها، كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ممَّن اختار هذا في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن جُزَي، والبِقاعي، والعليمي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٥، ٥٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٠٠، ١٠١). =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ دقائِقَ الأشياءِ، ويَسلُكُ في إيصالِها لبُلوغِ أمرٍ يُريدُه مَسلَكَ الرِّفقِ، بالوُجوهِ الخَفيَّةِ الغامِضةِ، وهو بالغُ العِلمِ بخَفايا الأمورِ وبواطِنِها؛ فلا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه[1].

﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾.

---

= قال الزجاج: (هذا مَثَلٌ لأعمالِ العبادِ، أنَّ الله يأتي بأعمالِهم يومَ القيامةِ؛ ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ * وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ١٩٧).

وقيل: هذا القَولُ مِن لُقمانَ إنَّما قَصَد به إعلامَ ابنِه بقَدْرِ قُدرةِ الله تعالى، وهذه الغايةُ الَّتي أمكَنَه أن يفهِّمَه؛ لأنَّ الخَرْدَلَةَ يُقالُ: إنَّ الحسَّ لا يُدرِكُ لها ثِقَلًا، إذ لا تُرَجِّحُ ميزانًا. أي: لو كان للإنسانِ رِزقٌ مِثقالَ حبَّةِ خَرْدَلٍ في هذه المواضِعِ، جاء الله بها حتَّى يَسوقَها إلى مَن هي رِزقُه، أي: لا تهتمَّ للرِّزقِ حتَّى تشتغِلَ به عن أداءِ الفرائضِ، وعن اتِّباعِ سبيلِ مَن أناب إلَيَّ. قاله القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٠).

والضَميرُ في ﴿إِنَّهَآ﴾ قيل: إنه عائدٌ إلى الخَصلةِ السَّيِّئةِ أو الحَسَنةِ. وممَّن قال بذلك: القاسمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٠٠).

وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الخطيئةِ. وممَّن اختار ذلك: البغوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٧).

وقيل: الضَميرُ للقِصَّةِ والحادثةِ، وهو المسمَّى بضميرِ الشَّأنِ، ويقَعُ بصورةِ ضَميرِ المُفرَدةِ المؤنَّثةِ بتأويلِ القِصَّةِ. وممَّن قال: الضَّميرُ ضميرُ القصَّةِ: أبو حيَّان، والسمين الحلبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٤).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نهى لُقمانُ ابنَه أوَّلًا عن الشِّركِ، وأخبَرَه ثانيًا بعِلمِه تعالى وباهِرِ قُدرتِه؛ أمَرَه بما يتوسَّلُ به إلى اللهِ مِن الطَّاعاتِ، فبدأ بأشرَفِها، وهو الصَّلاةُ؛ حيث يَتوجَّهُ إليه بها، ثمَّ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، ثمَّ بالصَّبرِ على ما يُصيبُه مِنَ المِحَنِ جميعِها، أو على ما يُصيبُه بسَبَبِ الأمرِ بالمعروفِ ممَّن يَبعَثُه عليه، والنَّهيِ عن المنكَرِ ممَّن يُنكِرُه عليه؛ فكثيرًا ما يُؤذَى فاعِلُ ذلك[١].

وأيضًا انتَقَل مِن تعليمِه أصولَ العَقيدةِ إلى تعليمِه أصولَ الأعمالِ الصَّالحةِ، فابتدَأها بإقامةِ الصَّلاةِ[٢].

﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

أي: يا بُنَيَّ، أدِّ الصَّلاةَ تامَّةً مُستقيمةً، كما أمَرَ الله تعالى[٣].

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ بتكميلِه في نَفْسِه؛ توفيةً لحَقِّ الحَقِّ؛ عَطَف على ذلك تَكميلَه لِنَفسِه بتكميلِ غَيرِه؛ توفيةً لحَقِّ الخَلقِ؛ وذلك أنَّه لَمَّا كان النَّاسُ في هذه الدَّارِ سَفْرًا، وكان المسافِرُ إنْ أهملَ رَفيقَه حتَّى أُخِذَ، أوشَكَ أن يُؤخَذَ هو- أمَرَه بما يُكَمِّلُ نجاتَه بتكميلِ رَفيقِه، فقال[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٣، ١٧٤).

﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

أي: وأْمُرِ النَّاسَ بتَوحيدِ اللهِ وطاعتِه، واتِّباعِ شَرْعِه[١].

﴿وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾.

أي: وانْهَ النَّاسَ عن الشِّركِ باللهِ ومَعصِيَتِه[٢].

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا علِم أنَّه لا بدَّ أن يُبتلَى إذا أمَر ونهَى، وأنَّ في الأمرِ والنَّهيِ مَشَقَّةً على النُّفوسِ؛ أمَره بالصَّبرِ على ذلك[٣]، فالقابِضُ على دينِه في غالِبِ الأزمانِ كالقابِضِ على الجَمرِ؛ لأنَّه يُخالِفُ المُعظَمَ، فيَرمونَه عن قَوسٍ واحدةٍ، لا سيَّما أنَّه أمَرَهم ونهاهم[٤].

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾.

أي: وتحمَّلْ ما أصابَك مِن بلاءٍ وأذًى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٥).

قيل: المرادُ: الصَّبرُ على ما يَنالُه مِن أذَى الخَلقِ؛ بسَبَبِ أمْرِهم بالمعروفِ، ونَهْيِهم عن المنكَرِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن =

كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ١٠٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾.

أي: إنَّ ذلك[1] مِن الأمورِ الَّتي أوجبَها اللهُ تعالى على عِبادِه، وتحتاجُ إلى حَزمٍ وعَزمٍ للقيامِ بها[2].

---

= سليمان)) (٣/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وابنُ جُرَيْجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٢٣).

وقيل: المرادُ: عمومُ الصَّبرِ على كُلِّ بلاءٍ، سواءٌ كان ما يَلحَقُ الإنسانَ مِن أذى الخَلقِ؛ لقيامِه بعبادةِ الله تعالى، أو لأمْرِهم بالمعروفِ ونَهْيِهم عن المنكَرِ، أو لغيرِ ذلك مِن الأسبابِ، كالمَرَضِ وغَيرِه. وممَّن ذهب إلى العمومِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥).

قال القرطبي: (قيل: أمَرَه بالصَّبرِ على شدائدِ الدُّنيا، كالأمراضِ وغَيرِها، وألَّا يَخرُجَ مِنَ الجَزَعِ إلى معصيةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ، وهذا قولٌ حَسَنٌ؛ لأنَّه يعُمُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٨).

(١) قيل: الإشارةُ تعودُ إلى المذكورِ مِن إقامةِ الصَّلاةِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المنكرِ، والصَّبرِ على ما أصاب المرءَ. وممَّن قال بذلك: العُليمي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

وقيل: تعودُ إلى الأمرِ والنَّهيِ والصَّبرِ. وممَّن اختاره: الواحدي، والبغوي يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٨٩).

وقيل: تعودُ إلى الصَّبرِ على أذى النَّاسِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

قال ابن جُزَي: (﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ يحتملُ أن يُريدَ: ممَّا أمَر الله به على وجهِ العزمِ والإيجابِ، أو مِن مكارِمِ الأخلاقِ الَّتي يعزِمُ عليها أهلُ الحزمِ والجِدِّ، ولفظُ العزمِ مصدَرٌ يُرادُ به =

كما قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذًى كَثِيرًاۚ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

انتقَلَ لُقمانُ بابنِه إلى الآدابِ في مُعاملةِ النَّاسِ، فنهاه عن احتِقارِ النَّاسِ، وعن التَّفَخُّرِ عليهم، وهذا يقتَضي أمْرَه بإظهارِ مُساواتِه مع النَّاسِ، وعَدِّ نَفْسِه كواحِدٍ منهم[١].

وأيضًا لَمَّا كان مِن آفاتِ العبادةِ -لا سِيَّما الأمرِ والنَّهيِ؛ لتصَوُّرِهما بصورةِ الاستِعلاءِ- الإعجابُ الدَّاعي إلى الكِبْرِ، قال مُحَذِّرًا مِن ذلك مُعَبِّرًا عن الكِبْرِ بلازِمِه؛ لأنَّ نَفْيَ الأعَمِّ نَفيٌ للأخَصِّ، مُنبِّهًا على أنَّ المطلوبَ في الأمرِ والنَّهيِ اللِّينُ لا الفَظاظةُ والغِلظةُ الحامِلانِ على النُّفورِ[٢]:

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾.

أي: ولا تُمِلْ خَدَّك، وتُعرِضْ بوَجهِك عن النَّاسِ؛ تكَبُّرًا عليهم، وتهاوُنًا واستِحقارًا لشَأنِهم[٣].

---

= المفعولُ، أي: مِن معزوماتِ الأمورِ. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٨٠).

عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال لي النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَحقِرَنَّ مِنَ المعروفِ شَيئًا، ولو أنْ تَلْقَى أخاك بوَجهٍ طَلْقٍ))(١).

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾.

أي: ولا تَمشِ في الأرضِ فَرِحًا مُتبَختِرًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُتكَبِّرٍ، مَزهُوٍّ، مُعجَبٍ بنَفْسِه، شديدِ الفَخرِ على النَّاسِ بما أُعطِيَ مِن النِّعَمِ(٣).

﴿وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ١٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نهَى لُقمانُ ابنَه عن الخُلُقِ الذَّميمِ؛ أمَرَه بالخُلُقِ الكريمِ(٤).

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩).

قال القرطبي عن المرَحِ: (هو النَّشاطُ والمشْيُ فَرَحًا في غيرِ شُغلٍ وفي غيرِ حاجةٍ، وأهلُ هذا الخُلُقِ ملازِمونَ للفَخرِ والخُيَلاء، فالمرِحُ مختالٌ في مِشيَتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٥).

وأيضًا بعدَ أن بيَّنَ لُقمانُ لابنِه آدابَ حُسنِ المعامَلةِ مع النَّاسِ؛ قفَّاها بحُسنِ الآدابِ في حالتِه الخاصَّةِ، وتلك حالتا المَشيِ والتَّكَلُّمِ، وهما أظهَرُ ما يَلوحُ على المرءِ مِن آدابِه[١].

﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ ﴾.

أي: وتوسَّطْ، واعتَدِلْ في مِشيَتِك بلا تكَبُّرٍ ولا استِعجالٍ، بل امشِ بسَكينةٍ ووَقارٍ وتواضُعٍ، بلا سُرعةٍ ولا تباطُؤٍ[٢].

﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ ﴾.

أي: واخفِضْ مِن صَوتِك، فلا ترفَعْه مِن غيرِ حاجةٍ[٣].

﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾.

أي: إنَّ أقبَحَ الأصواتِ وأشنَعَها لَصَوتُ الحَميرِ إذا رفَعَت صَوتَها بالنَّهيقِ[٤]!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى حكايةً عن لُقمانَ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨).

قال القرطبي: (فإنَّ الجَهرَ بأكثَرَ مِنَ الحاجةِ تكَلُّفٌ يؤذي. والمرادُ بذلك كُلِّه التَّواضُعُ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١).

وقال السعدي: (﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ ﴾ أدَبًا مع النَّاسِ ومع اللهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾؛ لِسَعةِ عِلمِه، وتمامِ خبرتِه، وكمالِ قُدرتِه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطفَ في علمِه وخبرتِه، حتَّى اطَّلَع على البواطنِ والأسرارِ، وخفايا القِفارِ والبحارِ، والمقصودُ مِن هذا: الحثُّ على مُراقَبةِ الله، والعملِ بطاعتِه، مهما أمكَن، والتَّرهيبُ مِن عملِ القبيحِ، قَلَّ أو كثُر(١).

٢- قال الله تعالى حكايةً عن لُقمانَ: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ * يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ دَعَت هذه الآياتُ إلى معالي الأخلاقِ، وهي أمَّهاتُ الفضائلِ الثَّلاثِ: الحِكمةِ، والعِفَّةِ، والشَّجاعةِ؛ وأمَرَت بالعَدلِ فيها، وهي وظيفةُ التَّقسيطِ الَّذي هو الوَسَطُ الَّذي هو مَجمَعُ الفضائلِ، ونَهَت عن مساوئِ الأخلاقِ، وهي الأطرافُ الَّتي هي مَبدأُ الرَّذائلِ، الحاصِلُ بالإفراطِ والتَّفريطِ؛ فإقامةُ الصَّلاةِ الَّتي هي رُوحُ العبادةِ المبنيَّةِ على العِلمِ هي سِرُّ الحِكمةِ، والأمرُ والنَّهيُ أمرٌ بالشَّجاعةِ ونهيٌ عن الجُبنِ، وفي النَّهيِ عن التَّصعيرِ وما معه نهيٌ عن التَّهوُّرِ، والقَصدُ في المشيِ والغَضُّ في الصَّوتِ أمرٌ بالعِفَّةِ، ونهيٌ عن الاستِماتةِ والجُمودِ، والخَلاعةِ والفُجورِ(٢).

٣- يؤخَذُ مِن قَولِ لُقمانَ لابنِه -فيما حكاه الله عنه-: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ تلَطُّفُ الإنسانِ بمُخاطَبةِ ابنِه، لا سيَّما في مقامِ الموعِظةِ، ويتفَرَّعُ على هذا بيانُ سوءِ معاملةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٠).

بعضِ الآباءِ: إذا أراد أنْ يَعِظَ ابنَه عامَلَه بالعُنفِ والشِّدَّةِ! وهذا خطأٌ، وقد قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ اللهَ رفيقٌ يحِبُّ الرِّفقَ، ويُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العُنفِ))[١]، وأنت إذا عَمِلْتَ بهذا فإنَّك سوف تُعامَلُ بالرِّفقِ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم أخبَرَ بأنَّ اللهَ تعالى يُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العُنفِ، فإذا كان يحصُلُ لك مَقصودُك بالعُنفِ؛ فإنَّ حُصولَه بالرِّفقِ مِن بابِ أَولى[٢].

٤- الصَّبرُ على أذَى الخَلقِ عندَ الأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المنكَرِ: إن لم يُستعمَلْ لَزِمَ أحدُ أمْرَينِ: إمَّا تعطيلُ الأمرِ والنَّهيِ، وإمَّا حُصولُ فِتنةٍ ومَفسَدةٍ أعظَمَ مِن مَفسَدةِ تَركِ الأمرِ والنَّهيِ، أو مِثلِها، أو قريبٍ منها، وكِلاهما معصيةٌ وفَسادٌ؛ قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، فمَن أمَرَ ولم يصبِرْ، أو صبَرَ ولم يأمُرْ، أو لم يأمُرْ ولم يصبِرْ: حَصَل مِن هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ مَفسَدةٌ، وإنَّما الصَّلاحُ في أن يأمُرَ ويَصبِرَ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، وقَولُه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقَولُه: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨] هذا عامٌّ في وُلاةِ الأُمورِ وفي الرَّعيَّةِ: إذا أمَروا بالمَعروفِ ونَهَوا عن المنكَرِ، فعليهم أن يَصبِروا على ما أُصيبوا به في ذاتِ اللهِ، كما يَصبِرُ المجاهِدونَ على ما يُصابُ مِن أنفُسِهم وأموالِهم؛ فالصَّبرُ على الأذى في العِرْضِ أوْلَى وأوْلَى؛ وذلك لأنَّ مَصلحةَ الأمرِ والنَّهيِ لا تَتِمُّ إلَّا بذلك، وما لا يَتِمُّ الواجِبُ إلَّا به فهو واجِبٌ، ويَندرِجُ في ذلك وُلاةُ الأمورِ؛

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٣) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٣/ ٢٠٦).

فإنَّ عليهم مِن الصَّبرِ والحِلمِ ما ليس على غَيرِهم، كما أنَّ عليهم مِنَ الشَّجاعةِ والسَّماحةِ ما ليس على غَيرِهم؛ لأنَّ مَصلحةَ الإمارةِ لا تَتِمُّ إلَّا بذلك. فكما وَجَب على الأئمَّةِ الصَّبرُ على أذى الرَّعيَّةِ وظُلْمِها إذا لم تَتِمَّ المصلحةُ إلَّا بذلك، أو كان تَركُه يُفضي إلى فسادٍ أكثَرَ منه- فكذلك يجبُ على الرَّعيَّةِ الصَّبرُ على جَورِ الأئمَّةِ وظُلمِهم، إذا كان في تَركِ الصَّبرِ مَفسَدةٌ راجِحةٌ[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ يَستلزِمُ العِلمَ بالمعروفِ ليأمُرَ به، والعِلمَ بالمُنكَرِ لِيَنهَى عنه، والأمرَ بما لا يَتِمُّ الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكَرِ إلَّا به؛ مِنَ الرِّفقِ والصَّبرِ، وقد صَرَّح به في قَولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، ومِن كَونِه فاعِلًا لِما يَأمُرُ به، كافًّا لِما ينهَى عنه، فتضَمَّن هذا تكميلَ نَفْسِه بفِعلِ الخَيرِ، وتَركِ الشَّرِّ، وتكميلَ غَيرِه بذلك بأمرِه ونَهيِه[2].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ الأمرُ بأن يأمُرَ بالمعروفِ ويَنهى عن المنكَرِ يَقتضي إتيانَ الأمرِ وانتهاءَه في نَفْسِه؛ لأنَّ الَّذي يأمُرُ بفِعلِ الخَيرِ ويَنهى عن فِعلِ الشَّرِّ: يعلَمُ ما في الأعمالِ مِن خيرٍ وشَرٍّ، ومصالِحَ ومفاسِدَ؛ فلا جَرَمَ أن يَتوقَّاها في نَفْسِه بالأولويَّةِ مِن أمْرِه النَّاسَ ونَهْيِه إيَّاهم[3].

٨- قال تعالى حكايةً عن لقمانَ: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾، فالآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المنكَرِ إذا أمَر ونهَى، فلا بُدَّ أن يُؤذَى في العادةِ؛ فعليه أن يَصبِرَ ويَحلُمَ[4].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ تنبيهٌ على فَضيلةِ العَزمِ في

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٣٨).

الأمورِ، وكلَّما كان الإنسانُ عازمًا في أمورِه، كان ذلك أنجحَ له وأحسَنَ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ زَجْرٌ عن احتِقارِ النَّاسِ، ومِشْيةِ الخُيَلاءِ؛ وحثٌّ على التَّواضُعِ، وأخْذِ السَّكينةِ والوَقارِ[٢].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ أي: اختيالًا وتَبختُرًا؛ ومشيُ الأشَرِ والبطَرِ والتَّكبرِ جديرٌ بأن يظلِمَ صاحِبُه ويُفحِشَ ويَبغيَ، بل امْشِ هَونًا؛ فإنَّ ذلك يُفضي بك إلى التَّواضُعِ، فتَصِلُ إلى كلِّ خيرٍ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يكونَ مَشيُه قَصْدًا: لا إسراعًا مُخِلًّا، ولا دَبيبًا مُتباطِئًا؛ فالإسراعُ الَّذي فيه التَّهوُّرُ والعَجَلةُ والطَّيشُ: مذمومٌ، والتَّباطؤُ والدَّبيبُ أيضًا مَذمومٌ[٤].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾، قيل: ﴿ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾: إشارةٌ إلى الأفعالِ، وقَولُه: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾: إشارةٌ إلى الأقوالِ؛ فنبَّه على التَّوسُّطِ في الأفعالِ والأقوالِ، وعلى الإقلالِ مِن فُضولِ الكلامِ[٥].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإجهارَ الشَّديدَ في المنطِقِ مذمومٌ[٦].

١٥- قوله تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ (مِنْ) هذه للتَّبعيضِ، فلم يقُلْ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٤٢٧).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٦٢٧).

(اغضضْ صوتَك)، بل قال: (منه)؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ لا يُحْمَدُ على رفعِ الصَّوتِ جدًّا، ولا على خَفضِه جدًّا، بل يكونُ أيضًا قَصْدًا بينَ رفعِ الصَّوتِ والإخفاءِ[١].

١٦- قال تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَ﴾، النَّهيُ عن رفعِ الصَّوتِ فوقَ الحاجةِ، فيه إشارةٌ إلى أنَّ فاعلِ ما لا حاجةَ إليه غيرُ حكيمٍ[٢].

١٧- قال الله تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ هذه الآيةُ أدَبٌ مِنَ اللهِ تعالى بتَركِ الصِّياحِ في وُجوهِ النَّاسِ تهاوُنًا بهم، أو بتَركِ الصِّياحِ جُملةً، وكانت العَرَبُ تَفخَرُ بجَهارةِ الصَّوتِ الجَهيرِ وغيرِ ذلك؛ فمَن كان منهم أشَدَّ صَوتًا كان أعَزَّ، ومَن كان أخفَضَ كان أذَلَّ[٣]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ أبلَغُ مِن قَولِ القائِلِ: (يَعلَمُها اللهُ)؛ لأنَّ مَن يَظهَرُ له الشَّيءُ، ولا يَقدِرُ على إظهارِه لغَيرِه، يكونُ حالُه في العِلمِ دونَ حالِ مَن يَظهَرُ له الشَّيءُ، ويُظهِرُه لِغَيرِه[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، قيل: خَفاءُ الشَّيءِ يُعرَفُ بصِغَرِه عادةً، وبُعْدِه عن الرَّائي، وبكَونِه في ظُلمةٍ وباحتجابِه؛ فـ ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾ إشارةٌ إلى الحِجابِ، و﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إشارةٌ إلى البُعدِ، و﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إشارةٌ إلى الظُّلمةِ؛ فإنَّ جوفَ الأرضِ أظلَمُ الأماكنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٥).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ بدأ هذه الوَصيَّةَ بالصَّلاةِ، وختَمَها بالصَّبرِ؛ لأنَّهما مِلاكُ الاستِعانةِ ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[1] [البقرة: ٤٥].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يُعلَمُ منه أنَّ الصَّلاةَ كانت في سائرِ المِلَلِ، غيرَ أنَّ هيئتَها اختلَفَت[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ لذِكْرِ الحِمارِ مِن بلاغةِ الذَّمِّ والشَّتمِ ما ليس لِغَيرِه؛ ولذلك يُستهجَنُ التَّصريحُ باسمِه، وهذا يُفهِمُ أنَّ الرَّفعَ مع الحاجةِ غَيرُ مَذمومٍ؛ فإنَّه ليس بمُستنكَرٍ ولا مُستَبشَعٍ[3].

٦- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ رَفْعَ الصَّوتِ في غيرِ محَلِّهِ مُحرَّمٌ؛ لأنَّ هذا التَّشبيهَ يقتضي التَّنفيرَ منه، وقد قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ليس لنا مَثَلُ السَّوءِ))[4].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴾ هذا شُروعٌ في حِكايةِ بقيَّةِ وَصايا لُقْمانَ، بعدَ تَقريرِ ما في مَطْلَعِها مِن النَّهيِ عن الشِّركِ، وتأْكيدِه بالاعتراضِ[5].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١١٧).

والحديث أخرجه البخاري (٢٦٢٢) من حديث عبد الله بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٢).

- وتَكريرُ النِّداءِ ﴿ يَٰبُنَيَّ ﴾؛ لِتَجديدِ نشاطِ السَّامعِ لوَعْيِ الكلامِ[١]، وفيه تنبيهٌ على فَرطِ النَّصيحةِ؛ لِفَرطِ الشَّفَقةِ[٢].

- وقدِ اجتمَعَ في هذه الجُملةِ ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ ... ﴾ ثلاثةُ مُؤكِّداتٍ: النِّداءُ، و(إنَّ)، وضميرُ القصَّةِ -على قولٍ-؛ لِعِظَمِ خطَرِ ما بعْدَه، المُفيدِ تقْريرَ وصْفِه تعالى بالعلْمِ المحيطِ بجميعِ المعلوماتِ مِن الكائناتِ، ووَصْفِه بالقُدْرةِ المُحيطةِ بجميعِ المُمْكناتِ؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾. وقد أُفيدَ ذلك بطَريقِ دَلالةِ الفَحْوى[٣]؛ فذُكِر أدَقُّ الكائناتِ حالًا مِن حيثُ تعلُّقُ العِلْمِ والقُدرةِ به، وذلك أدقُّ الأجسامِ المُخْتفي في أصلَبِ مكانٍ أو أقصاهُ وأعَزِّه مَنالًا، أو أوسَعِه وأشَدِّه انتشارًا؛ لِيُعلَمَ أنَّ ما هو أقْوى منه في الظُّهورِ والدُّنُوِّ مِن التَّناوُلِ أَولى بأنْ يُحيطَ به عِلْمُ اللهِ وقُدْرتُه[٤].

- وفي قولِه: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ ... ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّتميمِ[٥]، والمعنى -على قولٍ-: أنَّه تمَّمَ خَفاءَ الخَطيئةِ في نفْسِها بخَفاءِ مكانِها مِن الصَّخرةِ، والأخْفى مِن الصَّخرةِ؛ كأنْ تكونَ في صَخرةٍ مُستقرَّةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٣).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٢).

(٥) التَّتميم: هو أن يُؤتَى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفضلةٍ تُفيدُ نكتةً. أو بعبارةٍ أخرى هو: الإتيانُ بكلِمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ، لرَفْعِ اللَّبسِ عنه، وتقريبِه للفَهمِ، أو لزيادةِ حسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِح مِن الكلامِ نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

في أغوارِ الأرضِ السَّحيقةِ، أو في الأعالي مِن أجوازِ[١] الفضاءِ[٢].

- وقولُه: ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عطْفٌ على ﴿فِي صَخۡرَةٍ﴾؛ لأنَّ الصَّخرةَ مِن أجزاءِ الأرضِ، فذكَرَ بعْدَها ﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، على مَعنى: أو كانت في أعزَّ مَنالًا مِن الصَّخرةِ، وعطَفَ عليه ﴿أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وإنَّما الصَّخرةُ جُزءٌ مِن الأرضِ؛ لقصْدِ تَعميمِ الأمكنةِ الأرضيَّةِ؛ فإنَّ الظَّرفيَّةَ تَصدُقُ بهما، أي: ذلك كلُّه سواءٌ في جانبِ عِلمِ اللهِ وقُدرتِه، كأنَّه قال: فتكُنْ في صَخرةٍ، أو حيث كانت مِن العالَمِ العُلويِّ والعالَمِ السُّفليِّ[٣].

- قولُه: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ قيل: الإتيانُ كِنايةٌ عن التَّمكُّنِ منها، وهو أيضًا كِنايةٌ رَمْزيَّةٌ عن العِلْمِ بها؛ لأنَّ الإتيانَ بأدقِّ الأجسامِ مِن أقْصى الأمكنةِ وأعمَقِها وأصلَبِها، لا يكونُ إلَّا عن عِلْمٍ بكَونِها في ذلك المكانِ، وعِلْمٍ بوسائلِ استخراجِها منه[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مِن كلامِ لُقْمانَ؛ فهي كالمَقصدِ مِن المُقدِّمةِ، أو كالنَّتيجةِ مِن الدَّليلِ؛ ولذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ؛ لأنَّ النَّتيجةَ كبدَلِ الاشتِمالِ يَشتمِلُ عليها القياسُ؛ ولذلك جِيءَ بالنَّتيجةِ كُلِّيَّةً بعدَ الاستدلالِ بجُزئيَّةٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً بيْنَ كلامِ لُقْمانَ؛

---

(١) جوزُ كلِّ شَيءٍ: وَسَطُه، والجمعُ أجوازٌ. قيل: مِن هذا اشتقاقُ الجَوزاءِ؛ لأنَّها تعترِضُ جوزَ السَّماءِ، أي: وسَطَها. يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دُرَيد (١/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٣/ ٤٩٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٩٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَعليمًا مِن اللهِ للمُسلِمينَ[١].

- واللَّطيفُ: مَن يَعلَمُ دقائقَ الأشياءِ، ويَسلُكُ في إيصالِها إلى مَن تَصلُحُ به مَسلَكَ الرِّفقِ؛ فهو وصْفٌ مُؤْذِنٌ بالعِلْمِ والقُدرةِ الكامِلَينِ؛ ففي تَعقيبِ ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ بوَصْفِه بـ (اللَّطيف) إيماءٌ إلى أنَّ التَّمكُّنَ منها وامتلاكَها بكَيفيَّةٍ دَقيقةٍ، تُناسِبُ فَلْقَ الصَّخرةِ، واستخراجَ الخَرْدَلةِ منها، مع سَلامتِهما وسلامةِ ما اتَّصلَ بهما مِن اختلالِ نِظامِ صُنْعِه[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾

- قولُه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ خَصَّ الصَّلاةَ؛ لأنَّها أكبَرُ العباداتِ البَدَنيَّةِ[٣].

- وقَدَّم الأمرَ بالمعروفِ -وإن كان مِن جَلبِ المصالحِ- لأنَّه يَستَلزِمُ تَرْكَ المنكَرِ، وأمَّا تَركُ المُنكَرِ فلا يَستلزِمُ فِعلَ الخَيرِ؛ فإنَّك إذا قُلتَ: لا تأتِ مُنكَرًا، لم يَتناوَلْ ذلك في العُرفِ إلَّا الكَفَّ عن فِعلِ المعصيةِ، لا فِعلَ الطَّاعةِ[٤].

- وفيه تَعقيبُ الأمْرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ بمُلازَمةِ الصَّبرِ؛ ووجْهُه: أنَّ الأمْرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المُنكَرِ قد يَجُرَّانِ للقائمِ بهما مُعاداةً مِن بعضِ النَّاسِ، أو أذًى مِن بعضٍ، فإذا لم يَصبِرْ على ما يُصيبُه مِن جرَّاءِ الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، أوشَكَ أنْ يَترُكَهما. ولَمَّا كانت فائدةُ الصَّبرِ عائدةً على الصَّابرِ بالأجْرِ العظيمِ، عُدَّ الصَّبرُ هنا في عِدادِ الأعمالِ القاصرةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٣، ١٧٤).

على صاحِبِها، ولم يُلتفَتْ إلى ما في تَحمُّلِ أذَى النَّاسِ مِن حُسنِ المُعامَلةِ معهم، حتَّى يُذكَرَ الصَّبرُ مع قولِه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ [لقمان: ١٨]؛ لأنَّ ذلك ليس هو المقصودَ الأوَّلَ مِن الأمْرِ بالصَّبرِ(١).

- قَولُه: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾ حقَّق بالماضي أنَّه لا بُدَّ مِنَ المُصيبةِ؛ لِيَكونَ الإنسانُ على بصيرةٍ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ فيه التَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ للاهتمامِ(٣). والإشارةُ بـ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إلى كلِّ ما ذُكِرَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ مع قُرْبِ العهْدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِه في الفضْلِ(٤).

- وأيضًا جملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ تَعليلٌ لوُجوبِ الامتِثالِ بما سبَقَ مِن الأمرِ والنَّهيِ، وإيذانٌ بأنَّ ما بعْدَها ليس بمَثابتِه(٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ١٧]، وقال في سُورةِ (الشُّورى): ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى: ٤٣]؛ فأكَّدَ الخبَرَ في هذه الآيةِ، وسقَطَ التَّوكيدُ مِن الأُولى في سُورةِ (لُقمانَ)؛ وذلك لأنَّ آيةَ (الشُّورى) لَمَّا دخَلَها معنى القسَمِ، وكانتْ على تَقديرِه؛ إذِ اللَّامُ في قولِه: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ ﴾ تَوطئةٌ له، ودالَّةٌ على تَضمينِ الآيةِ معناهُ؛ ناسَبَ ذلك زِيادةُ لامِ التَّأكيدِ في خبَرِ (إنَّ)، وذلك ظاهرٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في معنَى الآيةِ. وأمَّا آيةُ (لُقمانَ) فقولُه فيها: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ مُجرَّدُ إخبارٍ عن حالِ ما وقَعَت الوصيَّةُ به، ولا مَدخَلَ للقسَمِ هنا، ولا معنَى له، فلم تَدخُلْ لامُ التَّأكيدِ في الخبَرِ؛ إذ ليس في الآيةِ معنَى قسَمٍ يَسْتدعِيها، ولا وقَعَ في اللَّفظِ ما يُطابِقُها، فورَدَ كلٌّ على ما يجِبُ ويُناسِبُ، ولو قُدِّرَ العكْسُ لَمَا ناسَبَ[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ الصَّعَرُ: داءٌ يُصِيبُ البَعيرَ، فيَلْوي منه عُنقَه، فكأنَّه صِيغَ له صِيغةُ تَكلُّفٍ، بمعنى تَكلُّفِ إظهارِ الصَّعرِ، وهو تَمثيلٌ للاحتِقارِ؛ لأنَّ مُصاعَرةَ الخدِّ هَيئةُ المُحتقِرِ المُستخِفِّ في غالبِ الأحوالِ، والمعنى: لا تَحتقِرِ النَّاسَ؛ فالنَّهيُ عن الإعراضِ عنهم احتقارًا لهم، لا عن خُصوصِ مُصاعرةِ الخدِّ، فيَشملُ الاحتقارَ بالقولِ والشَّتْمِ وغيرِ ذلك، فهو قريبٌ مِن قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، إلَّا أنَّ هذا تَمثيلٌ كِنائيٌّ، والآخَرُ كِنايةٌ لا تَمْثيلَ فيها[2].

- قولُه: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ تَمثيلٌ كِنائيٌّ عن النَّهيِ عن التَّكبُّرِ والتَّفاخُرِ، لا عن خُصوصِ المشْيِ في حالِ المرَحِ؛ فيَشملُ الفخْرَ عليهم بالكلامِ وغيرِه[3].

- ومَوقِعُ قولِه: ﴿ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾ بَعدَ (لَا تَمْشِ)، مع أنَّ المشْيَ لا يكونُ إلَّا في الأرضِ؛ هو الإيماءُ إلى أنَّ المشْيَ في مكانٍ يَمْشي فيه النَّاسُ كلُّهم

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٦٦، ١٦٧).

قَوِيُّهم وضعيفُهم؛ ففي ذلك مَوعظةٌ لِلماشي مرَحًا أنَّه مُساوٍ لسائرِ النَّاسِ[١]، وتذكيرٌ بأنَّ أصلَه ترابٌ، وهو لا يقدرُ أن يَعدُوَه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ أو مُوجِبِه، وتأْخيرُ الفَخورِ -مع كَونِه بمُقابَلةِ المُصعِّرِ خَدَّه- عن المُخْتالِ -وهو بمُقابَلةِ الماشِي مَرَحًا-؛ لرِعايةِ الفَواصلِ[٣].

- وصِيغةُ الافتعالِ في كَلمةِ ﴿مُخۡتَالٖ﴾؛ للمُبالَغةِ في الوصْفِ[٤].

- جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مِن كلامِ لُقْمانَ؛ فهي كالمَقصدِ مِن المُقدِّمةِ، أو كالنَّتيجةِ مِن الدَّليلِ، ولذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ؛ لأنَّ النَّتيجةَ كبدَلِ الاشتمالِ يَشتمِلُ عليها القياسُ، ولذلك جِيءَ بالنَّتيجةِ كُلِّيَّةً بعدَ الاستدلالِ بجُزئيَّةٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً بيْن كلامِ لُقْمانَ؛ تَعليمًا مِن اللهِ للمُسلِمين[٥].

- وفي هذه الآيةِ لَطيفةٌ، وهي: أنَّ اللهَ تعالى قَدَّمَ الكمالَ على التَّكميلِ؛ حيثُ قال: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، وفي النَّهيِ قدَّمَ ما يُورِثُه التَّكميلُ على ما يُورِثُه الكَمالُ؛ حيثُ قال: ﴿وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا﴾؛ لأنَّ في طَرَفِ الإثباتِ مَن لا يكونُ كاملًا لا يُمكِنُ أنْ يَصِيرَ مُكمِّلًا؛ فقدَّمَ الكَمالَ، وفي طَرفِ النَّفيِ مَن يكونُ مُتكبِّرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٦٤، ١٦٧).

على غيرِه يكونُ مُتبختِرًا؛ لأنَّه لا يَتكبَّرُ على الغَيرِ إلَّا عندَ اعتقادِه أنَّه أكبَرُ منه مِن وَجْهٍ، وأمَّا مَن يكونُ مُتبختِرًا في نَفْسِه لا يَتكبَّرُ ويَتوهَّمُ أنَّه يَتواضعُ للنَّاسِ؛ فقدَّمَ نَفْيَ التَّكبُّرِ، ثمَّ نَفْيَ التَّبختُرِ؛ لأنَّه لو قد نَفى التَّبختُرَ لَلَزِمَ منه نَفْيُ التَّكبُّرُ، فلا يَحتاجُ إلى النَّهيِ عنه[1].

٤- قوله تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾

- جِيءَ بـ (مِن) الدَّالَّةِ على التَّبعيضِ؛ لإفادةِ أنَّه يغُضُّ بَعضَه، أي: بعضَ جَهْرِه، أي: يَنقُصُ مِن جُهورتِه، ولكنَّه لا يَبلُغُ به إلى التَّخافُتِ والسِّرارِ[2].

- ومِن بديعِ البَلاغةِ في قولِه: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ أنَّه أتَى بالتَّمثيلِ مُؤكَّدًا بـ (إنَّ) أوَّلًا، وعزَّزَ هذا التَّأكيدَ باللَّامِ، فصار الكلامُ خَبرًا إنْكاريًّا؛ كأنَّ التَّمثيلَ أمْرٌ مَبْتوتٌ فيه لا يَتطرَّقُ إليه الشَّكُّ، وهو مُوضِّحٌ لِتَعليلِ الأمرِ بخفْضِ الصَّوتِ، مَبْنيٌّ على تَشبيهِ الرَّافعينَ أصواتَهم بالحميرِ، وتَمثيلِ أصواتِهم بالنُّهاقِ، وفيه إفراطٌ في التَّحذيرِ عن رفْعِ الصَّوتِ، والتَّنفيرِ عنه[3].

- قولُه: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ وُحِّدَ صَوتُ الحَميرِ ولم يُجمَعْ؛ لأنَّه ليس المُرادُ أنْ يُذكَرَ صوتُ كلِّ واحدٍ مِن آحادِ هذا الجِنسِ حتَّى يُجمَعَ، وإنَّما المرادُ أنَّ كلَّ جِنسٍ مِن الحيوانِ النَّاطقِ له صَوتٌ، وأنكَرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٤٥ ٥٤٨).

أصواتِ هذه الأجناسِ صوتُ هذا الجِنسِ؛ فوجَبَ توحيدُه[١]. وإنَّما جمَعَ الحميرَ في نَظْمِ القرآنِ، مع أنَّ (صوت) مُفردٌ، ولم يقُلِ: (الحِمارِ)؛ لأنَّ المُعرَّفَ بلامِ الجِنسِ يَسْتوي مُفردُه وجمْعُه، وإنَّما أُوثِرَ لفْظُ الجمْعِ؛ لأنَّ كَلِمةَ (الحَميرِ) أنسبُ لفواصلِ الآياتِ؛ فإنَّ الفواصلَ المُتقدِّمةَ هي: ﴿حَمِيدٌ﴾، ﴿عَظِيمٌ﴾، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾، ﴿خَبِيرٌ﴾، ﴿ٱلْأُمُورِ﴾، ﴿فَخُورٍ﴾، ﴿ٱلْحَمِيرِ﴾[٢]، ولأنَّ المَقصودَ مِن الجَمعِ التَّتميمُ والمبالغةُ في التَّنفيرِ؛ فإنَّ الصَّوتَ إذا تَوافقتْ عليه الحَميرُ كان أنكَرَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٦٨، ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٠٠).

## الآيات (٢٠-٢٤)

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَسْبَغَ﴾: أي: أتمَّ ووسَّعَ وأكمَلَ، وأصلُ (سبغ): يدُلُّ على تمامِ الشَّيءِ وكَمالِه[1].

﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾: أي: بأوثَقِ الأسبابِ. والعُروةُ: ما يُتعلَّقُ به؛ نحوُ عُروةِ الدَّلْوِ والكُوزِ، والوُثقَى: المُحكَمةُ الشَّدِّ[2].

﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾: أي: نُلجِئُهم ونَسوقُهم، أو نُورِدُهم على كُرهٍ منهم، والاضْطِرارُ: حمْلُ الإنسانِ على ما يَضُرُّه، والاضطرارُ في الأصلِ: الإلجاءُ، يُقالُ: اضْطَرَّه إلى كذا، أي: ألجَأه إليه، وأصلُ (ضرَّ) هنا: خلافُ النَّفْعِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٦)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، =

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُنَبِّهًا خلْقَه على نِعَمِه عليهم في الدُّنيا والآخرةِ: ألم تَرَوا -أيُّها النَّاسُ- أنَّ اللهَ وَحْدَه سخَّر لكم ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ مِن منافعَ كثيرةٍ لا تُحصى، وأتمَّ عليكم نِعَمَه ظاهِرةً وباطِنةً، وغمَركم بها، ومع كُلِّ هذا فمِنَ النَّاسِ مَن يُخاصِمُ في دينِ اللهِ وشَرعِه وتَوحيدِه بلا عِلمٍ عِندَه، وبغيرِ هُدًى ولا كِتابٍ مُبينٍ للحَقِّ!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى عِنادَ هؤلاء المجادِلينَ في اللهِ، وتقليدَهم الأعمى، وأنَّهم إذا قيل لهم: اتَّبِعوا ما أنزَلَ اللهُ على رَسولِه، قالوا: بل نتَّبِعُ ما وَجَدْنا عليه آباءَنا! ويَرُدُّ الله تعالى عليهم، فيقولُ: أيَتَّبِعونَ آباءَهم الضَّالِّينَ ولو كان الشَّيطانُ يدعوهم إلى عذابِ النَّارِ الَّتي تَستَعِرُ بهم؟!

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى حالَ المؤمنِ المُستسلِمِ لأمرِ الله، وحُسْنَ عاقبتِه، فيقولُ: ومَن يُخلِصْ عَمَلَه وقَصْدَه لله وحْدَه، وهو مُطيعٌ لله مُتَّبِعٌ لِشَرعِه؛ فقد تَمسَّك بأوثَقِ رِباطٍ يؤدِّي إلى الفَوزِ والنَّجاةِ، وإلى اللهِ وَحْدَه نهايةُ كُلِّ أمرٍ.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ومَن كَفَر باللهِ فلا يَحزُنْك -يا مُحمَّدُ- كُفرُه؛ إلينا وَحْدَنا مَصيرُهم، فنُخبِرُهم يومَ القيامةِ بما عَمِلوه، إنَّ اللهَ عليمٌ بما تُخفي صدورُهم، نمتِّعُهم في الدُّنيا قليلًا، ثمَّ نُلجِئُهم إلى عذابٍ شديدٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٧) و(٢١/ ١٧٩).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا فَرَغ سبحانَه مِن قصَّةِ لُقمانَ؛ رَجَع إلى توبيخِ المشركينَ، وتبكيتِهم، وإقامةِ الحُجَجِ عليهم(١).

وأيضًا لَمَّا استدَلَّ سُبحانَه بقولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ [لقمان: ١٠] على الوَحدانيَّةِ، وبيَّنَ بحِكمةِ لُقمانَ أنَّ مَعرِفةَ ذلك غيرُ مُختصَّةٍ بالنُّبوَّةِ؛ استدَلَّ ثانيًا على الوحدانيَّةِ بالنِّعَمِ، بقولِه تعالى(٢):

﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ألم تَرَوا -أيُّها النَّاسُ- أنَّ اللهَ وَحْدَه هو مَنْ ذلَّل لأجْلِكم وقيامِ مَصالِحِكم ما في السَّمواتِ مِن شَمسٍ وقَمَرٍ ونُجومٍ وسَحابٍ ورياحٍ وغَيرِها، وما في الأرضِ مِن حَيواناتٍ وزُروعٍ وأشجارٍ وأنهارٍ وبحارٍ ومعادِنَ، وغيرِ ذلك مِن منافِعَ كثيرةٍ لا تُحصى(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤).

قال ابنُ عاشور: (والخِطابُ في ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ﴾ يجوزُ أن يكونَ لجميعِ النَّاسِ؛ مُؤمِنِهم ومُشرِكِهم؛ لأنَّه امتِنانٌ، ويجوزُ أن يكونَ لخُصوصِ المُشرِكينَ باعتبارِ أنَّه استدلالٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الخِطابَ هنا لعُمومِ النَّاسِ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

وممَّن قال بأنَّ الخِطابَ للمُشرِكين: السمرقنديُّ، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) =

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓ﴾ [النحل: ١٢، ١٣].

﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾.

أي: وأتَمَّ عليكم نِعَمَه الكثيرةَ الوافيةَ، وأوسعَكم وغَمَرَكم بها، ظاهِرةً كانت أو باطِنةً(١).

---

= (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤، ١٧٥).

قيل: ظاهِرة على الألسُنِ قَولًا، وعلى الجوارِحِ عَمَلًا، وباطِنة في القُلوبِ اعتِقادًا ومَعرِفةً. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣١٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٢٦).

وقيل: الظَّاهِرةُ: الَّتي نعلَمُ بها، والباطِنةُ: الَّتي تخفَى علينا. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣١٨).

قال ابنُ عاشور: (الظَّاهرةُ: الواضِحةُ. والباطنةُ: الخفيَّةُ، وما لا يُعلَمُ إلَّا بدليلٍ، أو لا يُعلَمُ أصلًا. وأصلُ الباطنةِ: المُستقرَّةُ في باطنِ الشَّيءِ، أي: داخله... فكم في بدنِ الإنسانِ وأحوالِه مِن نِعَمٍ يَعلَمُها النَّاسُ أو لا يعلمُها بعضُهم، أو لا يعلمُها إلَّا العلماءُ، أو لا يعلمُها أهلُ عصرٍ ثمَّ تنكشفُ لِمَن بعدَهم، وكِلا النَّوعَينِ أصنافٌ دينيَّةٌ ودنيويَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٥). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٤٩٩).

وقيل: ﴿ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾: أي: محسوسةً ومعقولةً، ما تَعرِفونَه وما لا تَعرِفونه. وممَّن اختار ذلك في الجملةِ: البيضاويُّ، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣). =

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾.

أي: ولكِنْ مع إسباغِ هذه النِّعَمِ على النَّاسِ، فثَمَّةَ مَن يُخاصِمُ منهم في اللهِ؛ كأن يخاصِمَ في وُجودِه، أو في توحيدِه، أو في أسمائِه وصِفاتِه، أو في دِينِه وأحكامِه وشَرْعِه، بلا عِلمٍ عِندَه، وبِغَيرِ هُدًى[1]، وبلا كِتابٍ مُبينٍ للحَقِّ[2] يُبَيِّنُ

---

= وقيل: الظَّاهِرةُ: هي البَيِّنةُ للعِيانِ، والظَّاهرةُ لكلِّ أحدٍ، والباطنةُ هي الَّتي لا يَعلمُها إلَّا الإنسانُ المنعَمُ عليه وحْدَه. وأيضًا الظَّاهرةُ تعني أنَّه مِن الواضحِ أنَّها نعمةٌ، وأمَّا الباطنةُ فلا يَتبيَّنُ أنَّها نعمةٌ إلَّا فيما بعدُ، مِن خلالِ معرفةِ آثارِها. قاله: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٢١).

(١) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَلَا هُدٗى﴾: أي: بغيرِ بيانٍ وحُجَّةٍ وبرهانٍ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن الجوزي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَلَا هُدٗى﴾ أي: مِن رسولٍ. وممَّن اختاره: البيضاوي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣).

وقال السعدي: (إنَّه الهديُ الَّذي يَقتدي به بالمُهتدينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩).

وقال ابن عاشور: (إنَّه التَّلَقِّي مِن عالِمٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٥).

(٢) قال الزمخشري في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الحجِّ: (والمرادُ بالعِلمِ: العِلمُ الضَّروريُّ، وبالهدَى: الاستِدلالُ والنَّظرُ؛ لأنَّه يَهدي إلى المعرفةِ، وبالكتابِ المُنيرِ: الوحْيُ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٤٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٨٨)، ((تفسير النسفي)) (٢/ ٤٢٩).

وقال الشوكاني معقبًا على هذا القولِ: (والأَولى حمْلُ العلمِ على العمومِ، وحملُ الهدَى على معناه اللُّغَويِّ، وهو الإرشادُ. والمرادُ بالكتابِ المُنيرِ هو القرآنُ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥١٩).

وقال الرازي: (هذه أمورٌ ثلاثةٌ مرتَّبةٌ: العِلمُ والهدَى والكتابُ، والعِلمُ أعلَى مِن الهدَى، والهدَى مِن الكِتابِ، وبيانُه هو أنَّ العلمَ تدخُلُ فيه الأشياءُ الواضحةُ اللَّائحةُ الَّتي تُعلَمُ مِن غيرِ هدايةِ هادٍ، ثُمَّ الهدَى يدخُلُ فيه الَّذي يكونُ في كتابٍ والَّذي يكونُ مِن إلهامٍ ووحْيٍ، فقال تعالَى: =

صِحَّةَ دَعواه[١].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ ﴾.

أي: وإذا قيل لأولئك المجادِلينَ في اللهِ: اتَّبِعوا ما أنزَلَ اللهُ على رَسولِه، قالوا مُعارِضينَ: لن نتَّبِعَ ذلك، وإنَّما نتَّبِعُ ما وجَدْنا عليه آباءَنا مِنَ الدِّينِ، ونقَلِّدُهم فيه؛ فإنَّهم كانوا على الحَقِّ[٢]!

﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

أي: أيتَّبِعونَ آباءَهم الضَّالِّينَ حتى لو كان الشَّيطانُ البَعيدُ مِنَ الرَّحمةِ، الشَّديدُ العداوةِ لهم: يَدعوهم بتَزيينِه الباطِلَ لهم إلى أن يُعذَّبوا في النَّارِ الَّتي تَستَعِرُ وتلتَهِبُ؟! فهل هذا مُوجِبٌ لاتِّباعِهم على طريقتِهم، أم أنَّ ذلك مُحَذِّرٌ مِن سُلوكِ سَبيلِهم[٣]؟!

﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

---

= يُجادِلُ ذلك المجادِلُ لا مِن عِلمٍ واضحٍ، ولا مِن هدًى أتاهُ مِن هادٍ، ولا مِن كتابٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن حالَ المُشرِكِ والمجادِلِ في اللهِ، بيَّن حالَ المسلِمِ المستسلِمِ لأمرِ الله[1]؛ ليَبِينَ الفَرْقُ، وتتحرَّكَ النُّفوسُ إلى طلبِ الأفضلِ[2].

﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾.

أي: ومَن يُخلِصْ عَمَلَه وقَصْدَه لله وحْدَه، وهو مع إخلاصِه مُطيعٌ لله في أمْرِه ونَهْيِه كأنَّه يَراه، ومُتَّبِعٌ لشَريعةِ نبيِّه، ومُحسِنٌ إلى خَلْقِه: فقد تَمسَّك بأَوثَقِ رِباطٍ يَتمسَّكُ به مَن يريدُ الفَوزَ والنَّجاةَ مِنَ الضَّلالِ والعَذابِ[3].

كما قال تعالى: ﴿ بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة: ١١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بارِزًا يَومًا للنَّاسِ، فأتاه جِبريلُ... قال: ما الإحسانُ؟ قال: أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراك))[4].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٣٣، ١٣٤).

(٤) رواه البخاري (٥٠) واللفظ له، ومسلم (٩).

أي وإلى الله وَحْدَه تَرجِعُ نهايةُ كُلِّ أمرٍ؛ فأمورُ مَن أسلَمَ وَجهَه إلى اللهِ صائرةٌ إلى اللهِ، ومَوكولةٌ إليه؛ فهو يَنصُرُهم ويُجازيهم إذا قَدِموا عليه جزاءً حَسَنًا وافيًا[1].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا خلا ذَمُّ الَّذين كَفَروا عن الوعيدِ، وانتُقِل منه إلى مَدحِ المُسلِمينَ ووَعْدِهم؛ عُطِف عِنانُ الكلامِ إلى تَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَهوينِ كُفرِهم عليه؛ لأنَّ مَرجِعَهم إلى اللهِ، فيُريهم الجزاءَ المناسِبَ لكُفرِهم[2].

﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ ﴾.

أي ومَن كَفَر باللهِ وبما جاءَه مِنَ الحَقِّ، فلا يَحزُنْك -يا محمَّدُ- كُفرُه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴾ [النمل: ٧٠].

﴿إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

أي: إلينا وَحْدَنا مَصيرُهم، فنُخبِرُهم يومَ القيامةِ بما عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي، ونُجازيهم عليه[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُخفي صُدورُهم مِنَ العَقائدِ الباطِلةِ، والإراداتِ السَّيِّئةِ، ولا تخفَى على الله منهم خافيةٌ[2].

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾.

أي: نمتِّعُ هؤلاء الكافِرينَ في الدُّنيا تمتيعًا قَليلًا[3].

﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

قال ابنُ عاشور: (التَّمتيعُ: العَطاءُ الموقَّتُ، فهو إعطاءُ المتاعِ، أي: الشَّيءِ القليلِ. وقليلًا: صِفةٌ لمصدرٍ مفعولٍ مطلقٍ، أي: تمتيعًا قليلًا، وقِلَّتُه بالنِّسبةِ إلى ما أعدَّ الله للمُسلِمينَ، أو لِقِلَّةِ مُدَّتِه في الدُّنيا بالنِّسبةِ إلى مُدَّةِ الآخرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: قِلَّةُ التَّمتُّعِ في وصْفِه ونَوعِه وفي زمَنِه: البِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٤٣، ١٤٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: قِلَّةُ زمنِ التَّمتُّعِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥).

أي: ثمَّ نُورِدُهم على كُرهٍ منهم إلى عذابٍ شَديدٍ ثَقيلٍ، ونُلجِئُهم إليه[١].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ * مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

وقال سُبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ * مَتَٰعٞ فِي ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلۡعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أنَّه ينبغي للمُجادِل أنْ يكونَ له دليلٌ مِن العقلِ أو مِن النَّقلِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ فهذا العِلمُ الذَّاتيُّ الَّذي يكونُ بطريقِ العَقلِ، وقَولُه تعالى: ﴿وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ هذا العِلمُ المكتَسَبُ؛ فالهُدى مِن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والكتابُ المُنيرُ: القُرآنُ[٢]. وذلك على أحدِ الأقوالِ في الآيةِ.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَن يُسۡلِمۡ وَجۡهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ وإسلامُ الوَجهِ لله يَتضَمَّنُ إخلاصَ العَمَلِ لله، والإحسانُ هو إحسانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

قال البقاعي: (لا يَنقَطِعُ عنهم أصلًا، ولا يجِدونَ لهم منه مَخلَصًا مِن جهةٍ مِن جِهاتِه، فكأنَّه في شِدَّتِه وثِقْلِه جِرمٌ غَليظٌ جِدًّا إذا بَرَك على شَيءٍ لا يُقدَرُ على الخَلاصِ منه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ١٩٢).

وقال ابنُ عثيمين: (اعلَمْ أنَّ هذا الاضطرارَ يكونُ عندَ خروجِ الرُّوحِ، ويكونُ كذلك في الآخرةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٢٧).

العَمَلِ لله، وهو فِعلُ ما أمَرَ به فيه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]؛ فإنَّ الإساءةَ في العَمَلِ الصَّالحِ تتضَمَّنُ الاستِهانةَ بالأمرِ به، والاستِهانةَ بنَفسِ العَمَلِ، والاستهانةَ بما وَعَدَه اللهُ مِنَ الثَّوابِ، فإذا أخلصَ العبدُ دِينَه لله، وأحسَنَ العملَ له؛ كان ممَّن أسلَمَ وَجْهَه لله وهو مُحسِنٌ؛ فكان مِنَ الَّذين لهم أجرُهم عندَ رَبِّهم ولا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحزَنونَ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أنَّ أوثَقَ ما يَستمسِكُ به الإنسانُ مِن نجاةٍ هو الإخلاصُ والمتابَعةُ؛ لأنَّ كلِمةَ ﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ اسمُ تفضيلٍ؛ فهي مِثلُ (أوثق) في المذَكَّرِ، والإخلاصُ يؤخَذُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والمتابعةُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ الإشارةُ إلى أنَّه ينبغي لِمَن أسلَمَ وجْهَه لله تعالى وهو مُحسِنٌ: أنْ يَصبرَ؛ لأنَّ العاقِبةَ له، فلا يتعجَّلْ أو يَستبعِدِ الفَرَجَ، أو يَستبعِدِ النَّصرَ؛ لأنَّ الأمورَ كلَّها تَرجِعُ إلى ربِّ العزَّةِ سُبحانه وتعالى[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تخويفٌ مِن مخالَفةِ الإنسانِ باطِنًا[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ مُراقبةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى دائِمًا؛ لأنَّك إذا عَلِمْتَ بذلك وأيقَنْتَ به، أوجَبَ لك ذلك

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤١).

مُراقبةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، والرَّغبةَ إليه، وأنْ تكونَ هِمَّتُك دائمًا في طَلَبِ ما يُرضي اللهَ سُبحانَه وتعالى[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يُحِبُّ أنْ يُتمَدَّحَ بما أسْدَى إلى عِبادِه مِن النِّعَمِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ جوازُ استِخدامِ ما في هذا الكَونِ في السَّمواتِ والأرضِ لِمَصالحِنا؛ لأنَّه مُسَخَّرٌ لنا، فإذا كان مُسَخَّرًا لنا فلَنا أنْ ننتَفِعَ به فيما أحلَّ اللهُ تعالى لنا[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ تنْبيهٌ على الصَّنعةِ الدَّالَّةِ على الصَّانعِ مِن تَسخيرِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ تحريمُ التَّقليدِ مع ظُهورِ الحُجَّةِ أيًّا كان المُقَلَّدُ؛ إذا بانتِ الحُجَّةُ فإنَّه لا تقليدَ، ولكنْ تُتَّبَعُ الحُجَّةُ[٥]. فالآيةُ حُجَّةٌ على المقلِّدينَ في تَركِهم اتِّباعَ كِتابِ رَبِّهم واتباعِ سَلَفِهم؛ لأنَّ اللهَ جلَّ جَلالُه لم يُنكِرْ منهم اتِّباعَ الآباءِ خاصَّةً مِن جهةِ النَّسَبِ، إنَّما أنكَرَ تَرْكَ كِتابِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣١).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٦٢٩).

٥- قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذه مُناظَرةٌ حكاها اللهُ بينَ المُسلمينَ والكُفَّارِ؛ فإنَّ الكُفَّارَ لَجَؤوا إلى تقليدِ الآباءِ، وظَنُّوا أنَّه مُنَجِّيهم لإحسانِهم ظَنَّهم بهم، فحَكَم اللهُ بيْنَهم بقَولِه: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾، وفي مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وفي مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾ [الزخرف: ٢٤]، فأخبَرَ عن بُطلانِ هذه الحُجَّةِ، وأنَّها لا تُنجِّي من عذابِ اللهِ تعالى؛ لأنَّها تقليدُ مَن ليس عندَه عِلمٌ ولا هُدًى مِنَ الله، والمعنى: ولو كان الشَّيطانُ يَدعوهم إلى عذابِ السَّعيرِ يُقَلِّدونَهم؟! ولو كانوا لا عِلمَ عِندَهم ولا هُدًى يُقَلِّدونَهم أيضًا؟! وهذا شأنُ مَن لا غَرَضَ له في الهُدى ولا في اتِّباعِ الحَقِّ، إنْ غَرَضُه بالتَّقليدِ إلَّا دَفْعُ الحَقِّ والحُجَّةِ إذا لَزِمَتْه؛ لأنَّه لو كان مَقصودُه الحَقَّ لاتَّبَعَه إذا ظَهَر له، وقد جِئتُكم بأهدى ممَّا وَجدْتُم عليه آباءَكم، فلو كُنتُم ممَّن يتَّبِعُ الحَقَّ لاتَّبعتُم ما جِئتُكم به؛ فأنتم لم تُقَلِّدوا الآباءَ لِكَونِهم على حَقٍّ؛ فقد جِئتُكم بأهدى مِمَّا وجَدْتُموهم عليه، وإنَّما جَعلْتُم تقليدَهم جُنَّةً لكم تَدفَعونَ بها الحَقَّ الَّذي جِئتُكم به[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ ذمُّ الجَدَلِ بغير بُرهانٍ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ أنَّ الجَدَلَ بالعِلمِ والهُدى والدَّليلِ مِن القرآنِ لا يُذَمُّ صاحِبُه؛ لأنَّه حَقٌّ[3].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ لَمَّا كان ضَلالُ الجَمعِ أعجَبَ مِن ضَلالِ الواحِدِ، وكان التَّعجيبُ مِن جِدالِ الواحِدِ تَعجيبًا مِن جدالِ الاثنَينِ فأكثَرَ مِن بابِ الأَولى- أفرَدَ أوَّلًا فقال: ﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾، وجمَعَ بعدَ ذلك فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ﴾[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ذمُّ مَن خالفَ الحقَّ لاتِّباعِ الآباءِ[2].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ أكثَرُ دياناتِ الخَلقِ إنَّما هي عاداتٌ أخَذوها عن آبائِهم وأسلافِهم، وتَقليدِهم في التَّصديقِ والتَّكذيبِ، والحُبِّ والبُغضِ، والمُوالاةِ والمُعاداةِ[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أنَّ مُخالفةَ الدَّليلِ؛ للتَّقليدِ: هو مِن إجابةِ الشَّيطانِ، وفِعلُ كلِّ شَيءٍ يُوجِبُ العقوبةَ هو مِن تلبيةِ طَلَبِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ هو الَّذي يدعو إلى عذابِ السَّعيرِ[4].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ التَّحذيرُ مِن وَساوِسِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ هذا للتَّوبيخِ والإنكارِ، ووَسوسةُ الشَّيطانِ الَّتي يُلقيها في قلبِ بني آدمَ هي مِن الدَّعوةِ[5].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((قاعدة في المحبة)) لابن تيمية (ص: ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أنَّ مَن دعا إلى ما يُوجِبُ العِقابَ فهو شبيهٌ بالشَّياطينِ، بل لنا أنْ نقولَ: إنَّه شيطانٌ! ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الَّذي يُمانعُ إذا مُنعَ مِن المرورِ بيْنَ يدَيِ المُصَلِّي، قال: ((فإنْ أبَى فلْيُقاتِلْه؛ فإنَّما هو شَيطانٌ))[1]، وقال الله سبحانَه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[2] [الأنعام: ١١٢].

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾، التَّعبيرُ هنا بالماضي ﴿كَفَرَ﴾، وفي الأوَّلِ بالمُضارعِ ﴿يُسَلِّمُ﴾؛ بِشارةٌ بدُخولِ كَثيرٍ في هذا الدِّينِ، وأنَّهم لا يَرتَدُّون بعدَ إسلامِهم، وتَرغيبٌ في الإسلامِ لكلِّ مَن كان خارجًا عنه[3].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ في قَولِه: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ أنّ كلامَه عزَّ وجلَّ بصَوتٍ مسموعٍ؛ لأنَّ ما لا يُسمعُ لا يكونُ فيه إنباءٌ، فلا إنباءَ إلَّا بصَوتٍ مسموعٍ[4].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دليلٌ على أنَّ الكافرَ يُحاسَبُ على عَمَلِ القلبِ -وهو كذلك-؛ لأنَّه لولا أنه يُحاسَبُ لم يكُنْ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كبيرُ فائدةٍ[5].

١٧- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، (ذاتُ الصُّدورِ): هي النِّيَّاتُ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٩)، ومسلم (٥٠٥) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٤١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأعراضُ النَّفْسِ؛ مِن نَحوِ الحِقدِ، وتَدبيرِ المَكْرِ، والكُفْرِ، ومُناسَبتُه هنا أنَّ كُفْرَ المشركينَ بَعضُه إعلانٌ، وبعضُه إسرارٌ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ هذا رُجوعٌ إلى تَعدادِ دَلائلِ الوَحدانيَّةِ وما صحِبَ ذلك مِن مِنَّةٍ على الخلْقِ؛ فالكلامُ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ عن الكلامِ السَّابقِ، ورُجوعٌ إلى ما سلَفَ في أوَّلِ السُّورةِ في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [لقمان: ١٠]؛ فإنَّه بعدَ الاستِدلالِ بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ والحيوانِ والأمطارِ، عادَ هنا الاستِدلالُ والامتِنانُ بأنْ سخَّرَ لنا ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ[٢]. وقيل: هو رُجوعٌ الى سَننِ ما سلَفَ قبْلَ قِصَّةِ لُقمانَ مِن خِطابِ المشركينَ، وتَوبيخٌ لهم على إصرارِهم على ما همْ عليه مع مُشاهَدتِهم لدَلائلِ التَّوحيدِ[٣].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تَقريرٌ أو إنكارٌ لعدَمِ الرُّؤيةِ، بتَنزيلِهم مَنزلةَ مَن لم يَرَوا آثارَ ذلك التَّسخيرِ؛ لعدَمِ انتفاعِهم بها في إثباتِ الوَحدانيَّةِ[٤].

- قولُه: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾ في الإضافةِ إلى ضَميرِ اللهِ تنْويهٌ بهذه النِّعَمِ[٥].

- والواوُ في قولِه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ﴾ واوُ الحالِ، والمعنى: قد رأيتُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٧٣، ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٤).

أنَّ اللهَ سخَّرَ لكمْ ما في السَّمواتِ، وأنعَمَ عليكم نِعَمًا ضافيةً، في حالِ أنَّ بعضَكم يُجادِلُ في وَحدانيَّةِ اللهِ، ويَتعامَى عن دَلائلِ وَحدانيَّتِه! وجُملةُ الحالِ هنا خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن حالِ هذا الفريقِ. ويجوزُ جَعْلُ الواوِ اعتراضيَّةً، والجُملةِ مُعترِضةً بيْنَ جُملةِ ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾[1] [لقمان: ٢٥].

- وقولُه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ كأنَّه قِيل: ومِنكم، و(مِن) تَبعيضيَّةٌ[2].

- ونكَّرَ ﴿عِلْمٍ﴾؛ لِيُفيدَ السَّلبَ العامَّ لكُلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ العِلمِ، أي: لأنَّهم لا عِلمَ لهم بشَيءٍ مِن حالِ السَّبيلِ ولا حالِ غَيرِها، عِلمًا يَستَحِقُّ إطلاقَ العِلمِ عليه، بكَونِه يفيدُ رِبحًا، أو يُبقي على رأسِ مالٍ مِن دينٍ أو دُنيا؛ فإنَّ هذا حالُ مَنِ استبدَلَ الباطِلَ بالحَقِّ، والضَّلالَ بالهُدى[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ جاء بِناءُ الفِعلِ ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّه أخصَرُ؛ فلو ذُكِر الآمِرونَ لطالَ الكلامُ؛ لأنَّ الآمِرَ بذلك هو الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ومَن يَتبعُه مِنَ المؤمنينَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٢/ ١٠٣).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للإنكارِ والتَّعجُّبِ مِن فَظاعةِ ضَلالِهم وعَماهم؛ بحيث يتَّبِعون مَن يَدْعوهم إلى النَّارِ، وهذا ذمٌّ لهم[1]، وهذا التَّركيبُ مِن بَديعِ التَّراكيبِ العربيَّةِ وأعلاها إيجازًا؛ فـ (لو) للشَّرطِ، وجوابُها محذوفٌ دلَّ عليه الكلامُ السَّابقُ، تقديرُه: لاتَّبَعوهم، والمستفهَمُ عنه هو الارتباطُ الَّذي بيْنَ الشَّرْطِ وجوابِه[2].

- وعبَّر بالمضارعِ ﴿يَدْعُوهُمْ﴾؛ تصويرًا لحالِهم في ضلالِهم، وأنَّه مستمرٌّ[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ هذا مُقابِلُ قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: ٢٠]، إلى قولِه: ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١]؛ فأولئك الَّذين اتَّبَعوا ما وَجَدوا آباءَهم عليه مِن الشِّركِ على غيرِ بَصيرةٍ، فوقَعُوا في العَذابِ، وهؤلاء الَّذين لم يَتمسَّكوا بدِينِ آبائِهم وأسلَمُوا للهِ لَمَّا دَعاهُم إلى الإسلامِ، فلمْ يَصُدَّهم عن اتِّباعِ الحقِّ إلْفٌ ولا تَقْديسُ آباءٍ؛ فأولئك تَعلَّقوا بالأوهامِ واستَمْسَكوا بها لإرضاءِ أهوائِهم، وهؤلاء استَمْسَكوا بالحقِّ إرضاءً للدَّليلِ، وأولئك أرْضَوُا الشَّيطانَ، وهؤلاء اتَّبعوا رِضا اللهِ[4].

- قولُه: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عُدِّيَ الفِعلُ ﴿يُسْلِمْ﴾ هنا بـ (إلى)، وقد عُدِّيَ باللَّامِ في سورةِ البقرةِ، في قولِه: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ مَن أسلَمَ للهِ أعلى دَرجةً ممَّن يُسلِمُ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦).

اللهِ؛ لأنَّ (إلى) للغايةِ، واللَّامَ للاختِصاصِ، يقولُ القائلُ: (أسلمْتُ وَجْهي إليك)، أي: توجَّهْتُ نحوَك، ويُنبِئُ هذا عن عدَمِ الوُصولِ؛ لأنَّ التَّوجُّهَ إلى الشَّيءِ قبْلَ الوُصولِ، وقولُه: (أسلمْتُ وَجْهي لك) يُفيدُ الاختِصاصَ، ولا يُنبِئُ عن الغايةِ الَّتي تدُلُّ على المسافةِ وقَطْعِها للوُصولِ، إذا عُلِمَ هذا؛ فإنَّ في (البقرةِ) قالتْ اليهودُ والنَّصارى: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾، فقال اللهُ ردًّا عليهم: ﴿تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: ١١١]، ثمَّ بيَّن فسادَ قولِهم بقولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، أي: أنتُمْ مع أنَّكم تَترُكون اللهَ للدُّنيا، وتَولَّونَ عنه للباطلِ، وتَشترُون بآياتِه ثمَنًا قليلًا؛ تَدخُلون الجنةَ، ومَن كان بكُلِّيَّتِه للهِ لا يَدخُلُها! هذا كلامٌ باطلٌ؛ فأورَدَ عليهم مَن أسلَمَ للهِ، ولا شكَّ أنَّ النَّقضَ بالصُّورةِ الَّتي هي أَلْزَمُ أَولى، فأورَدَ عليهم المُخلِصَ الَّذي ليس له أمْرٌ إلَّا اللهُ[1].

- وإسلامُ الوجْهِ إلى اللهِ تَمْثيلٌ لإفرادِه تعالى بالعِبادةِ، كأنَّه لا يُقبِلُ بوَجْهِه على غيرِ اللهِ[2].

- وفي تَذْييلِ الآيةِ بقَولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ﴾ إيماءٌ إلى وَعْدِهم بلِقاءِ الكرامةِ عندَ اللهِ في آخِرِ أمْرِهم، وهو الحياةُ الآخرةُ[3].

- والتَّعريفُ في كَلمةِ ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ للاستِغراقِ، وهو تَعميمٌ يُرادُ به أنَّ أُمورَ المسلمينَ -الَّتي هي مِن مَشْمولاتِ عُمومِ الأُمورِ- صائرةٌ إلى اللهِ، ومَوكولةٌ إليه؛ فجَزاؤهم بالخَيرِ مُناسِبٌ لِعَظَمةِ اللهِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وتَقديمُ قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾؛ للاهتِمامِ، والتَّنبيهِ إلى أنَّ الرَّاجعَ إليه يُلاقِي جَزاءَه وافيًا[١].

وقيل: تقديمُ الخبرِ الدَّالِّ على الحصرِ أفاد أنَّه لا أحدَ يستطيعُ أنْ يُدَبِّرَ الكَونَ إلَّا اللهُ، و(إلى) تفيدُ الغايةَ، فغايةُ عاقبةِ الأمورِ إليه، لا إلى غيرِه[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ هوَّن عليه كُفْرَهم؛ تَسليةً له، وتَعريضًا بقِلَّةِ العِبْءِ بهم؛ لأنَّ مَرجِعَهم إلى اللهِ، فيُريهمُ الجزاءَ المناسِبَ لكُفْرِهم؛ فهو تَعريضٌ لهم بالوعيدِ[٣].

- وأفرَد الضَّميرَ باعتبارِ لفظِ (مَن)؛ لإرادةِ التَّنصيصِ على كلِّ فردٍ، فقال: ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾[٤].

- وفي التعبيرِ هنا بالماضي ﴿كَفَرَ﴾ وفي الأوَّلِ بالمضارعِ ﴿يُسْلِمْ﴾ بشارةٌ بدخولِ كثيرٍ في هذا الدِّينِ، وأنَّهم لا يرتدُّونَ بعدَ إسلامِهم، وترغيبٌ في الإسلامِ لكلِّ مَن كان خارجًا عنه؛ فالآيةُ مِن الاحتِباكِ[٥]: ذكَر الحزنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٧)

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٠).

(٥) الاحتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

ثانيًا دليلًا على حذفِ ضِدِّه أوَّلًا، وذكَر الاستِمْساكَ أوَّلًا دليلًا على حذفِ ضدِّه ثانيًا(١).

- وجُملةُ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ واقعةٌ مَوقِعَ التَّعليلِ للنَّهيِ، وهي أيضًا تَمهيدٌ لِوَعْدِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ يَتولَّى الانتِقامَ منهم، المَدلولَ عليه بقولِه: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾، مُفرَّعًا على جُملةِ ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾؛ كِنايةً عن المُجازاةِ؛ استُعمِلَ الإنباءُ، وأُريدَ لازمُه، وهو الإظهارُ(٢).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾؛ فمَوقعُ حَرفِ (إنَّ) هنا مُغْنٍ عن فاءِ التَّسبُّبِ(٣).

٥- قوله تعالى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ [لقمان: ٢٣] يُثيرُ في نُفوسِ السَّامِعينَ سُؤالًا عن عدَمِ تَعجيلِ الجزاءِ إليهم؛ فبيَّنَ بأنَّ اللهَ يُمهِلُهم زمَنًا، ثمَّ يُوقِعُهم في عذابٍ لا يَجِدون منه مَنْجًى. وهذا الاستِئنافُ وقَعَ مُعترِضًا بيْنَ الجُمَلِ المُتعاطِفةِ(٤).

- وأيضًا قولُه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: نُمتِّعُهم زَمانًا قليلًا في دُنياهم، ثمَّ نُلجئُهم إلى عذابٍ شديدٍ في جَهنَّمَ؛ فشبَّه إلزامَهم التَّعذيبَ، وإرهاقَهم إيَّاه باضْطِرارِ المُضْطَرِّ إلى الشَّيءِ الَّذي لا يَقدِرُ على الانفكاكِ منه، والمرادُ: الشِّدَّةُ والثقلُ على المُعذَّبِ، فيَثقُلُ عليهم العذابُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٨، ١٧٩).

ثقلَ الأجرامِ الغِلاظِ، أو يُضَمُّ إلى الإحراقِ الضَّغطُ[١].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ احتِراسٌ مِن أنْ يَغترَّ الكافرُ بأنَّ تخويلَه النِّعَمَ في الدُّنيا يُؤذِنُ برِضا اللهِ؛ فلذلك ذُكِرَ العذابُ هنا. وحرْفُ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ كشأنِها في عَطفِ الجُمَلِ مِن غيرِ التِفاتٍ إلى كَونِ مَصيرِهم إلى العذابِ مُتأخِّرًا عن تَمتيعِهم بالمتاعِ القَليلِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧١٧).

## الآيات (٢٥-٢٧)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾.

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما عليه هؤلاء الكافرونَ مِن تناقضٍ، ويُقيمُ عليهم الحُجَّةَ، فالمنفردُ بالخَلْقِ والتَّدبيرِ هو الَّذي يَنبغي أن يُفردَ بالعبادةِ، فيقولُ: ولَئِنْ سألْتَ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ. قُلْ لهم: الحَمدُ لله الَّذي أظهرَ الحُجَّةَ وأقامها عليكم باعترافِكم، بل أكثَرُهم لا يَعلَمونَ!

ثمَّ يُبيِّنُ عزَّ وجلَّ ما يدُلُّ على عظيمِ قدرتِه، فيقولُ: لله وَحْدَه ما في السَّمَواتِ والأرضِ، إنَّ اللهَ هو الغنيُّ المحمودُ في ذاتِه وصفاتِه.

ثمَّ يذكُرُ الله سبحانَه أنَّ كَلِماتِه لا نَفادَ لها، فيقولُ مقرِّبًا هذا المعنى إلى الأذهانِ: ولو أنَّ أشجارَ الأرضِ صارت أقلامًا، وصار البَحرُ مِدادًا لها، ويَمُدُّ هذا البَحرَ سَبعةُ أبحُرٍ؛ لتُكتَبَ كلماتُ اللهِ بتلك الأقلامِ وهذا المِدادِ؛ لانتهَتْ تلك الأقلامُ، وفَنِيَ ذلك المِدادُ، ولم تَنفَدْ كلماتُ الله سُبحانَه وتعالى، إنَّ اللهَ عزيزٌ حَكيمٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

**الآيةُ مُتعَلِّقةٌ بما قَبْلَها مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** لَمَّا استدَلَّ اللهُ تعالى بخَلقِ السَّمَواتِ بغيرِ عَمدٍ، وبنِعَمِه الظَّاهِرةِ والباطِنةِ؛ بَيَّن أنَّهم مُعترِفونَ بذلك غيرُ مُنكِرينَ له، وهذا يقتَضي أن يكونَ الحَمدُ كُلُّه لله؛ لأنَّ خالِقَ السَّمَواتِ والأرضِ يَحتاجُ إليه كُلُّ ما في السَّمَواتِ والأرضِ، وكَوْنُ الحَمدِ كُلِّه لله يقتَضي ألَّا يُعبَدَ غَيرُه.

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا سلَّى قَلبَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّمَ بقَولِه: ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ كُفۡرُهُۥٓۚ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ فَنُنَبِّئُهُم﴾ [لقمان: ٢٣]، أي: لا تَحزَنْ على تَكذيبِهم؛ فإنَّ صِدْقَك وكَذِبَهم يَتبيَّنُ عن قريبٍ عندَ رُجوعِهم إلينا، قال: وليس لا يتَبَيَّنُ إلَّا ذلك اليومَ، بل هو يتبَيَّنُ قبْلَ يومِ القيامةِ؛ لأنَّهم مُعترِفونَ بأنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ مِنَ اللهِ، وهذا يُصَدِّقُك في دَعوى الوحدانيَّةِ، ويُبَيِّنُ كَذِبَهم في الإشراكِ؛ فقُلِ الحَمدُ للهِ على ظُهورِ صِدقِك، وكَذِبِ مُكَذِّبيك[1].

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾.

أي: ولَئِنْ سألْتَ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ[2].

﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

أي: قُلْ لهم: الحَمدُ لله الَّذي أظهَرَ الحُجَّةَ، وأقامها عليكم باعترافِكم[١].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: بل أكثَرُهم لا يَعلَمونَ استِحقاقَ اللهِ تعالى للحَمدِ، ولا يَتدَبَّرونَ أنَّ الخالِقَ هو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه[٢].

﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أثبَتَ اللهُ تعالى أنَّ له الحمدَ، وأنَّه قد أحاط بأوصافِ الكَمالِ؛ شَرَع يَستَدِلُّ على ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٥٠، ١٥١).

ممَّن قال بالمعنى المذكورِ: ابنُ عطية، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٥٠، ١٥١).

وقيل: إنَّ المعنى: الحَمدُ لله على خَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠، ٥٧١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٣٥).

وجوَّز ابنُ عثيمين ضمَّ هذا القولِ إلى القولِ الأوَّلِ؛ جمعًا بيْنَ المعنيَينِ. ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٥١).

وقيل: المرادُ: قُلِ الحَمدُ لله على ما هدانا له مِن دينِه، وليس الحَمدُ لغيرِه. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٥).

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: لله وَحْدَه جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ، فهو خالِقُ كُلِّ شَيءٍ ومالِكُه ومُدَبِّرُه[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

أي: إنَّ الله هو الغنيُّ عمَّا سِواه، المحمودُ في ذاتِه وصفاتِه وأفعالِه، وعلى نِعَمِه، وتدبيرِ خَلْقِه[٢].

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر سبحانَه أنَّ له ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ أتْبَعه بما يدُلُّ على أنَّ له وراءَ ذلك ما لا يحيطُ به عَدَدٌ، ولا يُحصَرُ بحَدٍّ[٣].

وأيضًا لَمَّا احتجَّ على المشركينَ بما احتجَّ، بَيَّن أنَّ كلِماتِه سبحانَه لا تَنْفَدُ، وأنَّها لا نهايةَ لها[٤].

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٦).

أي: ولو فُرِضَ أنَّ كُلَّ أشجارِ الأرضِ بُرِيتْ أقلامًا، وصار البَحرُ لها مِدادًا، ويَمُدُّ البَحرَ إذا نَشِفَ سَبعةُ أبحُرٍ(١)؛ لِيُكتَبَ كلامُ اللهِ بتلك الأقلامِ والمِدادِ؛ لانتَهَت تلك الأقلامُ، وفَنِيَ ذلك المِدادُ، ولم تَنفَدْ كَلِماتُ اللهِ سُبحانَه وتعالى(٢)!

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غالِبٌ وقاهِرٌ لكُلِّ شَيءٍ، فلا مانعَ لِما أراد، ولا رادَّ لحُكمِه، حَكيمٌ

---

(١) قال ابنُ كثير: (إنَّما ذُكِرَت «السَّبعةُ» على وجهِ المبالَغةِ، ولم يُرَدِ الحَصرُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((المنار المُنيف)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٢).

قال محمد رشيد رضا: (﴿كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ...: كَلِماتُ التَّكوينِ أنفُسُها، لا مُتَعَلَّقاتُها الَّتي هي الموجوداتُ). ((تفسير المنار)) (٢/ ٩).

وقال القاسمي: (﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: الَّتي أوجَد بها الكائناتِ، وسيُوجِدُ بها ما لا غايةَ لحصرِه ومُنتهاه). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤).

وقال السمعاني: (﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: كلامُ الله وعِلمُه). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣٥).

وفي الآيةِ اختصارٌ تقديرُه: ولو أنَّ ما في الأرضِ مِن شجرةٍ أقلامٌ والبحرُ يَمُدُّه مِن بَعدِه سبعةُ أبحرٍ يُكتبُ بها كلامُ الله ما نَفِدَتْ كلماتُ الله. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٩١).

قال السعدي: (هذا التَّمثيلُ مِن بابِ تقريبِ المعنى، الَّذي لا يُطاقُ الوُصولُ إليه إلى الأفهامِ والأذهانِ، وإلَّا فالأشجارُ وإن تضاعفَتْ على ما ذُكِر، أضعافًا كثيرةً، والبحورُ لو امتدَّتْ بأضعافٍ مُضاعَفةٍ، فإنَّه يُتصَوَّرُ نفادُها وانقضاؤُها؛ لِكَونِها مخلوقةً. وأمَّا كلامُ الله تعالى، فلا يُتصوَّرُ نَفادُه، بل دلَّنا الدَّليلُ الشَّرعيُّ والعقليُّ على أنَّه لا نَفادَ له، ولا منتهَى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١).

وقال ابن تيميَّةَ: (الأبحرُ إذا قدِّرتْ مِدادًا تَنفَدُ، وكلِماتُ الله لا تَنفَدُ؛ ولهذا قال أئمَّةُ السُّنَّةِ: لم يَزَلِ الله متكلِّمًا كيفَ شاء، وبما شاء). ((مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية)) (٣/ ٢٢).

في أفعالِه وأقوالِه وشَرْعِه، وفي تدبيرِ عِبادِه[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ دَليلٌ على أنَّ المُشرِكينَ في عَهدِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُقِرُّونَ برُبوبيَّةِ اللهِ تعالى[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أنَّ هذا التَّوحيدَ -توحيدَ الرُّبوبيَّةِ- لا ينفَعُ مَن أقَرَّ به فقط؛ لأنَّ هؤلاء المُشرِكينَ لم ينتَفِعوا بهذا الإقرارِ، بل لا بُدَّ مِن أنْ يُضافَ إليه توحيدُ الأُلوهيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفَى سُبحانَه العِلمَ عنهم؛ لانتِفاءِ فائِدتِه، والشَّيءُ قد يُنفَى لانتِفاءِ فائِدتِه، فأكثرُ هؤلاء المعانِدينَ والمُشرِكينَ كانوا لا يَعلَمونَ؛ إمَّا للجَهلِ، وإمَّا لِعَدَمِ الانتِفاعِ بعِلمِهم[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ عطْفٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥١، ١٥٤).

جُملةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾ [لقمان: ٢١]، باعتِبارِ أنَّ ما وَجَدوا عليه آباءَهم هو الإشراكُ مع اللهِ في الإلهيَّةِ، وإنْ سألَهم سائلٌ: مَن خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ؟ يَقولوا: خلَقَهنَّ اللهُ، وذلك تَسخيفٌ لِعُقولِهم الَّتي تَجمَعُ بيْنَ الإقرارِ للهِ بالخلْقِ، وبيْنَ اعتِقادِ إلهيَّةِ غيرِه[1]!

- قولُه: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ إلْزامٌ لهم على إقرارِهم بأنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ هو اللهُ وَحْدَه، وأنَّه يجِبُ أنْ يكونَ له الحمْدُ والشُّكرُ، وألَّا يُعبَدَ معه غيرُه، يعني: لَمَّا اعتَرَفْتُم بأنَّ خالِقَ السَّمواتِ والأرضِ هو اللهُ، يجِبُ عليكم أنْ تَعرِفوا أنَّ العِبادةَ مُختصَّةٌ به؛ لأنَّ كلَّ فَضيلةٍ ونِعمةٍ منه لا مِن غيرِه؛ فلا تَشكُروا إلَّا إيَّاهُ؛ فيَكونُ قولُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ تَتْميمًا للتَّبكيتِ المُستفادِ مِن قولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[2].

- قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾، لَمَّا كان الأنسَبُ للحِكمةِ -الَّتي هي مَطلعُ السُّورةِ- الاقتِصارَ على مَحلِّ الحاجةِ، لم يَزِدْ هنا على المُسنَدِ إليه، بخلافِ سُورةِ (الزُّخرفِ): ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]؛ فمَبْناها الإبانةُ[3].

- وقولُه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ إيغالٌ[4]؛ لأنَّ النُّكتةَ فيه تَجهيلُهم، وأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٣).

(٤) الإيغال: هو استكمالُ الكلامِ قبْلَ الإتيانِ بمَقطعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيد معنًى زائدًا على معنى ذلك الكلام، وهو ضربان: الأول: إيغالُ تخييرٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]؛ إذ إنَّ المعنى قد تمَّ بقَولِه: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا﴾، =

جَهلَهم انْتَهى إلى أنَّهم لا يَعلَمون أنَّ الحمْدَ للهِ إلْزامٌ لهم[١].

- وعبَّرَ هنا بـ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وفي سُورةِ (العنكبوتِ) بـ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]؛ تَفنُّنًا في المُخالَفةِ بيْنَ القِصَّتينِ مع اتِّحادِ المعنى[٢]، ولأنَّ العِلمَ أبلغُ درجةً مِن العَقلِ، ودَعْواهم هنا أبلَغُ لقولِهم: ﴿بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ﴾؛ فكان الأنسَبُ نفْيَ كلٍّ بما يُناسِبُه[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ مَوقعُ هذه الجُملةِ مِن الَّتي قبْلَها مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ في قولِه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ فلذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ؛ لأنَّها بمَنزِلةِ بدَلِ الاشتمالِ مِن الَّتي قبْلَها؛ فإنَّه لَمَّا تقرَّرَ إقرارُهم للهِ بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، لَزِمَهم إنتاجُ أنَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ مِلكٌ للهِ، ومِن جُملةِ ذلك أصنامُهم. والتَّصريحُ بهذه النَّتيجةِ؛ لِقَصْدِ التَّهاوُنِ بهم في كُفْرِهم بأنَّ اللهَ يَملِكُهم، ويَملِكُ ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ فهو غَنِيٌّ عن

---

= ولَمَّا احتاجَ الكلامُ إلى فاصلةٍ تُناسِبُ ما قبْلَها وما بعدَها، أتتْ هذه الفاصلةُ ﴿لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ لتُفيدَ معنًى زائدًا، لولاها لم يَحصُلْ؛ وذلك أنَّه لا يَعلَمُ أنَّ حُكمَ الله أحسَنُ مِن كلِّ حُكمٍ إلَّا مَن أَيقنَ أنَّه واحدٌ حكيمٌ عادلٌ. الضَّربُ الثَّاني: إيغالُ احتياطٍ، وهو استكمالُ معنَى الكلامِ قبْلَ قَطْعِه، فإذا أُريدَ الإتيانُ بذلك أُتيَ بما يُفيد معنًى زائدًا تتمَّةً للمُبالَغةِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، ثم علم عزَّ وجلَّ أنَّ الكلامَ يحتاجُ إلى فاصلةٍ تماثِلُ مقاطعَ ما قبْلَها وما بعدَها، فأتى بها مفيدةً معنًى زائدًا على معنَى الكلامِ، حيث قال: ﴿إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]. فإنْ قيل: ما معنى مُدبرينَ وقد أغنى عنها ذِكرُ التَّولِّي؟ قيل: ذلك لا يُغني عنها؛ إذ التَّولِّي قد يكونُ بجانبٍ دونَ جانبٍ، كما يكونُ الإعراضُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٢٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٤٩٩ - ٥٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩).

عِبادتِهم، مَحمودٌ مِن غيرِهم[١].

- وضَميرُ الفَصلِ (هو) مُفادُه اختصاصُ الغِنى والحمْدِ باللهِ تعالى، وهو قصْرُ قلْبٍ[٢]، أي: ليس لآلهتِهم المَزعومةِ غِنًى، ولا تَستحِقُّ حَمْدًا[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ قدْ نُظِمَت هذه الآيةُ بإيجازٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٠).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو الله وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٠).

بَديع؛ إذ ابتُدِئَت بحَرفِ (لو)؛ فعُلِمَ أنَّ مَضمونَها أمْرٌ مَفروضٌ، فالمعنى: لو فُرِضَ إرادةُ اللهِ أنْ يَكتُبَ كلامَه كلَّه صُحفًا، ففُرِضَت الأشجارُ كلُّها مُقسَّمةً أقلامًا، وفُرِضَ أنْ يكونَ البحرُ مِدادًا، فكُتِبَ بتلك الأقلامِ وذلك المِدادِ؛ لَنَفِدَ البحرُ ونَفِدَتِ الأقلامُ، وما نَفِدَت كلِماتُ اللهِ في نفْسِ الأمْرِ[1].

- وفي قولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ وحَّدَ (الشَّجرةَ)؛ لِمَا تَقرَّرَ في عِلمِ المعاني أنَّ استِغراقَ المُفرَدِ أشمَلُ، فكأنَّه قال: كلُّ شَجرةٍ شَجرةٍ، حتَّى لا يَبْقَى مِن جِنسِ الشَّجرةِ واحدةٌ إلَّا وقد بُرِيَت أقلامًا. وجمَعَ (الأقلامَ)؛ لِقَصدِ التَّكثيرِ، أي: لو أنْ يُعَدَّ كلُّ شَجرةٍ مِن الشَّجرِ أقلامًا[2]. وقيل: ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ بَيانٌ لـ (مَا) الموصولةِ، وهو في معنى التَّمييزِ؛ فحقُّه الإفرادُ، ولذلك لم يَقُلْ: مِن أشجارٍ[3].

- قولُه: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ كان المُطابِقُ لِأوَّلِه أنْ يُقالَ: (وما في الأبْحُرِ مِن ماءٍ مِدادٌ)، ولكنَّه عُدِلَ عنه إلى قولِه: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾، واستَغْنى عن المِدادِ بقولِه: ﴿يَمُدُّهُۥ﴾ مِن: مَدَّ الدَّواةَ، أي: زادها مِدادًا؛ فجعَلَ البحرَ المُحيطَ بمَنزلةِ الدَّواةِ، والأبحُرَ السَّبعةَ مَملوءةً مِدادًا أبدًا لا تَنقطِعُ، وأشار بـ(لَو) إلى أنَّ البِحارَ غيرُ مَوجودةٍ، أي: لو مَدَّتَ البِحارَ المَوجودةَ سَبعةُ أبحُرٍ أُخرى، وذِكْرُ السَّبعةِ ليس للحصْرِ، بلْ للمُبالَغةِ، وإنَّما خُصَّت بالذِّكْرِ؛ لكَثرةِ ما يُعَدُّ بها؛ كالكواكبِ السَّيَّارةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٢).

والسَّمواتِ والأرَضينَ، وغيرِها[١]، والسَّبعةُ تُستعمَلُ في الكِنايةِ عن الكَثرةِ كَثيرًا، فليس لهذا العدَدِ مَفهومٌ، أي: والبَحرُ يمُدُّه أبحُرٌ كثيرةٌ[٢].

- قولُه: ﴿سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ لَمَّا كان لفظُ (سَبعة) ليس موضوعًا في الأصلِ للتَّكثيرِ، وإنْ كان مُرادًا به التَّكثيرُ؛ جاء مُميِّزُه بلَفظِ القِلَّةِ، وهو ﴿أَبْحُرٍ﴾، ولم يَقُلْ: بُحورٍ -وإنْ كان لا يُرادُ به أيضًا إلَّا التَّكثيرُ-؛ لِيُناسِبَ بيْنَ اللَّفظَينِ[٣].

- وفي هذا الكلامِ مِن المُبالَغةِ في تَكثيرِ الأقلامِ والمِدادِ ما يَنْبغي أنْ يُتأمَّلَ؛ وذلك أنَّ الأشجارَ مُشتمِلٌ كلُّ واحدةٍ منها على الأغصانِ الكثيرةِ، وتلك الأغصانُ كلُّ غُصنٍ منها يُقطَعُ على قَدْرِ القلَمِ، فيَبلُغُ عَددُ الأقلامِ في التَّناهي إلى ما لا يَعلَمُ به ولا يُحيطُ إلَّا اللهُ تعالى[٤].

- إذا قيل: الكَلِماتُ في قوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ جَمعُ قِلَّةٍ، والموضِعُ مَوضِعُ التَّكثيرِ لا التَّقليلِ، فهلَّا قيل: كَلِمُ اللهِ؟

والجوابُ: معناه أنَّ كَلِماتِه لا تَفي بكِتابتِها البِحارُ، فكيف بكَلِمِه[٥]؟! فجمْعُ القِلَّةِ هنا أبلغُ في المقصودِ؛ لأنَّ جمْعَ القِلَّةِ إذا لم ينفَدْ بما ذُكِر مِن الأقلامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٧، ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠١).

لكن قال أبو حيان: (وعلى تسليم أنَّ «كَلِماتٍ» جمعُ قِلَّةٍ، فجُموعُ القِلَّةِ إذا تَعَرَّفَتْ بالألفِ واللَّامِ غيرِ العهديَّةِ، أو أُضيفَتْ؛ عَمَّتْ وصارَتْ لا تَخُصُّ القليلَ، والعامُّ مستغرقٌ لجميعِ الأفرادِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٢).

والمِدادِ، فكيفَ يَنفَدُ به جمعُ الكثرةِ[١]؟!

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ؛ فهو لِعِزَّتِه لا يَغلِبُه الَّذين يَزعُمون عدَمَ الحاجةِ إلى القرآنِ يَنتظِرون انْفحامَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو لِحِكْمتِه لا تَنحصِرُ كَلماتُه؛ لأنَّ الحِكمةَ الحقَّ لا نِهايةَ لها[٢]. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ كالتَّعليلِ لإثباتِ العِلمِ الواسعِ، كأنَّه قال: لا نَفادَ لعِلْمِه الواسعِ؛ لأنَّ المَعلوماتِ إمَّا كثيفةٌ تَحتاجُ في إدراكِها إلى عِلمٍ مَتينٍ، فهو عَزيزٌ لا يُعجِزُه شَيءٌ عمَّا يُريدُه، وإمَّا لطيفةٌ يَفتقِرُ لإدراكِها إلى عِلمٍ دَقيقٍ؛ فهو حكيمٌ يُدرِكُ بدَقيقِ حِكمتِه تلك المعانيَ والجواهرَ اللَّطيفةَ، فتكونُ الفاصلةُ كالتَّتميمِ لِمَا سبَقَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣١٢).

## الآيات (٢٨-٢٠)

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدخِلُ، أو يأخُذُ منه، فيَطولُ ذلك ويَقصُرُ هذا، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ[1].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّل، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصل (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يذكُرُ الله تعالى مِن عظَمتِه وكمالِ قدرتِه الَّتي لا يمكِنُ أن يَتصوَّرَها العقلُ، فيقولُ: ما خَلْقُكم ولا بَعْثُكم يومَ القيامةِ إلَّا كخَلقِ نَفْسٍ واحدةٍ وبَعْثِها، إنَّ اللهَ سَميعٌ بَصيرٌ.

ثمَّ يُخبرُ سبحانَه عن بعضِ مظاهرِ قُدرتِه، وانفرادِه بالتَّصرُّفِ والتَّدبيرِ، فيقولُ: ألم ترَ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ، وذلَّل اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ لِنَفعِ العبادِ، وكلٌّ منهما يجري إلى وقتٍ معلومٍ؟ وأنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

بما تَعمَلونَ خَبيرٌ لا يخفى عليه شَيءٌ. ذلك الَّذي تقَدَّم وَصْفُه مِن صُنعِ اللهِ: بسبَبِ أنَّه الإلهُ الحَقُّ القادِرُ على ذلك، وبأنَّ ما يدعوه المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ هو الباطِلُ، وبأنَّ اللهَ هو العَليُّ الكبيرُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى كَمالَ قُدرتِه وعِلمِه؛ ذكَرَ ما يُبطِلُ استِبعادَ المُشرِكينَ للحَشرِ[1].

وأيضًا لَمَّا خَتَم بهاتَينِ الصِّفَتينِ ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] بعدَ إثباتِ القُدرةِ على الإبداعِ مِن غَيرِ انتِهاءٍ؛ ذكَرَ بَعضَ آثارِهما في البَعثِ الَّذي تقَدَّمَ أوَّلَ السُّورةِ وأثناءَها[2].

﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾.

أي: ما خَلْقُكم أوَّلَ مَرَّةٍ ولا بَعثُكم يومَ القيامةِ إلَّا كخَلْقِ نَفْسٍ واحِدةٍ، وبَعثِ نفْسٍ واحدةٍ؛ لكَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، فالقَليلُ والكثيرُ سَواءٌ بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه سُبحانَه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٣).

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١، ٨٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَسمَعُ جَميعَ المَسموعاتِ، ومِن ذلك سَمعُه لِما يقولُ المُشرِكونَ ويَفتَرونَه على رَبِّهم، مِن ادِّعائِهم له الشُّرَكاءَ وغَيرَ ذلك، وهو مُبصِرٌ لجَميعِ المبصَراتِ، ومِن ذلك إبصارُه ما يَعمَلُه المُشرِكونَ وغَيرُهم مِنَ الأعمالِ، وهو مُجازيهم على ذلك[1].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لُقمان: ٢٠] على وجهِ العمومِ؛ ذكَر منها بعضَ ما هو فيهما على وجهِ الخصوصِ، بقولِه: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾، وقولِه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ إشارةً إلى ما في السمواتِ، وقولِه بعدَ هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ [لُقمان: ٣١] إشارةً إلى ما في الأرضِ.

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا ذكَر البعثَ، وكان مِن الناسِ مَن يقولُ: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، والدَّهرُ هو اللَّيالي والأيَّامُ؛ قال الله تعالى: هذه اللَّيالي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩).

والأيَّامُ الَّتي تَنسبونَ إليها الموتَ والحياةَ هي بقدرةِ الله تعالى[١].

وأيضًا لَمَّا قرَّر الله تعالى هذه الآيةَ: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾؛ دلَّ عليها بأمرٍ محسوسٍ، يُشاهَدُ كلَّ يومٍ مرَّتينِ، مع دَلالتِه على تسخيرِ ما في السَّمواتِ والأرضِ[٢].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾.

أي: ألمْ تَرَ -يا مُحمَّدُ[٣]- أنَّ اللهَ يُدخِلُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ١٩٩).

(٣) قال ابنُ عطية: (هذا تنبيهٌ خُوطِبَ به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ به جميعُ العالَم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٧١).

وقال ابنُ جرير: (خرَج هذا الكلامُ خِطابًا لرسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، والمَعْنيُّ به المشركون؛ وذلك أنَّه تعالى ذِكْرُه نَبَّهَ بقولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ على موضع حُجَّتِه- مَنْ جَهِلَ عَظَمتَه، وأشرَكَ في عِبادَتِه معه غَيْرَه، يدُلُّ على ذلك قَولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ أنَّه يأخُذُ مِنَ اللَّيلِ فيَطولُ النَّهارُ زَمَنَ الصَّيفِ، وأنَّه يأخُذُ مِنَ النَّهارِ فيَطولُ اللَّيلُ زَمَنَ الشِّتاءِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩، ٣٥٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٦).

قال ابنُ عثيمين بعد ذِكرِ القولَينِ: (وكِلاهما معنًى صَحيحٌ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٧١، ١٧٢).

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجريانِ؛ تَحقيقًا لمصالحِ العِبادِ ومَنافِعِهم في دينِهم ودُنياهم(١).

﴿كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

أي: كُلٌّ مِنَ الشَّمسِ والقَمَرِ يَجريانِ في السَّماءِ إلى وقتٍ محدَّدٍ مَعلومٍ(٢).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان اللَّيلُ والنَّهارُ مَحَلَّ الأفعالِ، بيَّنَ أنَّ ما يقَعُ في هذينِ الزَّمانَينِ اللَّذَينِ هما بتصَرُّفِ اللهِ: لا يخفَى على اللهِ(٣).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ بما تَعمَلونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ: ذو خِبرةٍ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٥).

قيل: المرادُ بالأجَلِ المسمَّى: يومُ القيامة. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الأجَلُ المسمَّى للشَّمسِ هو آخِرُ السَّنةِ، وللقَمَرِ آخِرُ الشَّهرِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البيضاوي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٠).

قال ابنُ كثير: (﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ كُلّٞ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ قيل: إلى غايةٍ محدودةٍ. وقيل: إلى يومِ القيامةِ. وكِلا المعنيَينِ صَحيحٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٠).

أعمالِكم، وهو مُجازيكم عليها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٣٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ثَبَت بهذه الأوصافِ الحُسنى والأفعالِ العُلا أنْ لا مُوجِدَ بالحَقيقةِ إلَّا اللهُ؛ قال[٢]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: ذلك الَّذي وَصَف اللهُ تعالى مِن الأفعالِ الهائِلةِ والأوصافِ الباهِرةِ؛ كإيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ، وغَيرِ ذلك: إنَّما فَعَله بسَبَبِ أنَّه الإلهُ الحَقُّ القادِرُ على ذلك، الَّذي يَستَحِقُّ العبادةَ وحْدَه دونَ ما سِواه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٧٥).

قال القرطبي: (﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: مَن قدَر على هذه الأشياءِ، فلا بدَّ مِن أن يكونَ عالِمًا بها، والعالِمُ بها عالِمٌ بأعمالِكم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٧٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملة: ابنُ جرير، والزمخشري، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: فَعَل الله تعالى ذلك لِتَعلَموا وتَستدِلُّوا به على أنَّ الله هو الحقُّ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٠).

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

أي: وأنَّ ما يَدعوه المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مِنَ الأصنامِ وغَيرِها: هو الباطِلُ الذي يَضمَحِلُّ فلا يبقَى، ولا تنفَعُ عِبادتُه(١).

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ هو العَلِيُّ على كُلِّ شَيءٍ بذاتِه وصِفاتِه، الكبيرُ في ذاتِه وصفاتِه، وكُلُّ شَيءٍ دونَه مُتذَلِّلٌ مُنقادٌ، وله مُتصاغِرٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ المناسَبةُ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ بعدَ قَولِه سُبحانَه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أنَّ هذا مِن بابِ التَّهديدِ، فهو سَميعٌ لأقوالِكم، بَصيرٌ بأفعالِكم؛ فإيَّاكم أنْ تُنكِروا شيئًا وأنتم تَعرِفونَ عَظَمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تحذيرُ المرءِ مِن المُخالَفةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لُقمان)) (ص: ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (١٧/ ٣٥).

أي: فاحذَروا أن تُخالِفوا في أعمالِكم؛ فالله سُبحانَه وتعالى عَليمٌ بها[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ الاستِدلالُ بالمشهودِ على الموعودِ؛ فالمشهودُ الخَلْقُ، والموعودُ البعثُ، وقد قَرَنهما اللهُ سُبحانه وتعالى جميعًا؛ لإثباتِ كُلِّ واحدٍ منهما، وأنَّه كما قَدَرَ على الخَلقِ أوَّلًا، فهو قادِرٌ على البَعثِ ثانيًا[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ استِدلالٌ على ما تَضمَّنتْه الآيةُ قبْلَها مِن كَونِ الخلْقِ الثَّاني -وهو البعثُ- في مُتناوَلِ قُدرةِ اللهِ تعالى؛ بأنَّه قادرٌ على تَغييرِ أحوالِ ما هو أعظَمُ حالًا مِن الإنسانِ، وذلك بتَغييرِ أحوالِ الأرضِ وأُفُقِها بيْنَ لَيلٍ ونَهارٍ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، تَغييرًا يُشبِهُ طُرُوَّ الموتِ على الحياةِ في دُخولِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وطُرُوَّ الحياةِ على الموتِ في دُخولِ النَّهارِ على اللَّيلِ، وبأنَّه قادرٌ على أعظَمَ مِن ذلك بما سَخَّرَه مِن سَيرِ الشَّمسِ والقمَرِ؛ فهذا الاستدلالُ على إمكانِ البعثِ بقِياسِ التَّمثيلِ[٣] بإمكانِ ما هو أعظَمُ منه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٠).

(٣) قياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، مثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ (إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما). يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

شُؤونِ المخلوقاتِ، بعدَ أنِ استدَلَّ عليه بالقِياسِ الكُلِّيِّ الَّذي اقتضاهُ قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨]؛ مِن إحاطةِ العِلْمِ الإلهيِّ بالمعلوماتِ، المُقْتضي إحاطةَ قُدرتِه بالمُمكِناتِ؛ لأنَّها جُزئيَّاتُ المعلوماتِ وفَرْعٌ عنها(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، زِيادةُ قولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ لهذا النِّظامِ الشَّمسيِّ أمَدًا يَعلَمُه اللهُ تعالى، فإذا انْتَهى ذلك الأمَدُ بطَلَ ذلك التَّحرُّكُ والتَّنقُّلُ، وهو الوقتُ الَّذي يُؤْذِنُ بانقراضِ العالَمِ؛ فهذا تَذكيرٌ بوَقتِ البعثِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أنّ كلَّ ما يَصدُرُ عن الله سبحانه وتعالى فهو حقٌّ؛ لأنه لا يصدُرُ عن الحقِّ إلَّا الحقُّ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الحقَّ مِن أسماءِ الله الحسنَى(٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ [لقمان: ٢٣]؛ لأنَّه كُلَّما ذُكِرَ أمْرُ البَعثِ هجَسَ في نُفوسِ المشرِكينَ استِحالةُ إعادةِ الأجسامِ بعْدَ اضْمِحْلالِها؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٤، ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨١).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (رقْم اللقاء: ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((الصفات الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ١٣٥).

فيَكثُرُ في القُرآنِ تَعقيبُ ذِكرِ البَعثِ بالإشارةِ إلى إمكانِه وتَقريبِه، وكانوا أيضًا يَقولونَ: إنَّ اللهَ خلَقَنا أطْوارًا؛ نُطْفةً، ثمَّ علَقةً، ثمَّ مُضغةً، ثمَّ لَحمًا وعَظْمًا؛ فكيف يَبعَثُنا خلْقًا جديدًا في ساعةٍ واحدةٍ؟! وكيف يُحيِي جميعَ الأُمَمِ والأجيالِ الَّتي تَضمَّنَتْها الأرضُ في القُرونِ الكثيرةِ[1]؟!

- وفي قولِه: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لِقَصْدِ مُجابهَتِهم بالاستِدلالِ المُفحِمِ[2].

- وفي قولِه: ﴿كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ حذْفُ مُضافٍ دَلَّ عليه ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾، والتَّقديرُ: إلَّا كخَلْقِ وبَعْثِ نفْسٍ واحدةٍ؛ وذلك إيجازٌ[3].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ إمَّا واقعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ لِكَمالِ القُدرةِ على ذلك الخلْقِ العجيبِ، استِدلالًا بإحاطةِ عِلْمِه تعالى بالأشياءِ والأسبابِ، وتَفاصيلِها وجُزئيَّاتِها، ومِن شأْنِ العالِمِ أنْ يَتصرَّفَ في المَعلوماتِ كما يَشاءُ؛ لأنَّ العجْزَ عن إيجادِ بعضِ ما تَتوجَّهُ إليه الإرادةُ إنَّما يَتأتَّى مِن خَفاءِ السَّببِ المُوصِلِ إلى إيجادِه، وإذ قد كان المُشركون -أو عُقلاؤهم- يُسَلِّمون أنَّ اللهَ يَعلَمُ كلَّ شَيءٍ، جعَلَ تَسليمَهم ذلك وَسيلةً إلى إقناعِهم بقُدرتِه تعالى على كلِّ شَيءٍ. وإمَّا واقعةٌ مَوقعَ الاستِئنافِ البَيانيِّ؛ لِمَا يَنشَأُ عن الإخبارِ بأنَّ بَعْثَهم كنَفْسٍ مِن تَعجُّبِ فَريقٍ ممَّن أسَرُّوا إنكارَ البَعثِ في نُفوسِهم، الَّذين أومَأَ إليهم قولُه آنِفًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [لقمان: ٢٣]؛ ولأجْلِ هذا لم يقُلْ: إنَّ اللهَ عليمٌ قَديرٌ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ ...﴾ الرُّؤيةُ علميَّةٌ، والاستِفهامُ لإنكارِ عَدمِ الرُّؤيةِ بتَنزيلِ العالِمينَ مَنزلةَ غيرِ العالمينَ؛ لِعَدمِ انتفاعِهم بعِلْمِهم[1].

- في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالمُخالَفةِ في الصِّيغةِ؛ ففي قولِه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ مُخالَفةٌ في الصِّيغةِ بيْن (سخَّر) المعطوفِ (وَيُولِجُ) المعطوفِ عليه؛ لأنَّ إيلاجَ أحَدِ المَلَويْنِ (اللَّيل، النَّهار) في الآخَرِ مُتجدِّدٌ كلَّ حِينٍ، فعبَّرَ عنه بالصِّيغةِ المُتجدِّدةِ حِينًا بعدَ حِينٍ، وأمَّا تَسخيرُ النَّيِّرَيْنِ (الشَّمْس، والقَمَر) فهو أمْرٌ لا يَتجدَّدُ ولا يَتعدَّدُ، بل هو دَيمومةٌ مُتَّصلةٌ مُتتابِعةٌ، فعبَّرَ عنه بالصِّيغةِ الماضيةِ الكائنةِ، وإنَّما التَّعدُّدُ والتَّجدُّدُ في آثارِه، وقد أُشِيرَ إلى ذلك؛ حيثُ قِيل: ﴿كُلٌّ يَجْرِىٓ﴾، أي: بحسَبِ حَركتِه الخاصَّةِ وحَركَتِه القَسريَّةِ على المَداراتِ اليوميَّةِ المُتخالِفةِ المُتعدِّدةِ حسَبَ تَعدُّدِ الأيَّامِ جَرْيًا مُستمِرًّا[2].

- والابتداءُ باللَّيلِ؛ لأنَّ أمْرَه أعجَبُ؛ كيف تَغْشى ظُلمتُه تلك الأنوارَ النَّهاريَّةَ؟! والجمْعُ بيْن إيلاجِ اللَّيلِ وإيلاجِ النهارِ لتَشخيصِ تَمامِ القُدرةِ؛ بحيث لا تُلازِمُ عمَلًا مُتماثِلًا[3].

- وقدَّمَ الشَّمسَ على القَمَرِ، مع تقدُّمِ اللَّيلِ -الَّذي فيه سُلطانُ القَمَرِ- على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٥).

النَّهارِ الَّذي فيه سُلطانُ الشَّمسِ؛ وذلك أنَّ تَقديمَ اللَّيلِ كان لأنَّ الأنفُسَ تَطلُبُ سببَه أكثَرَ ممَّا تَطلُبُ سَبَبَ النَّهارِ، وهاهنا كذلك؛ لأنَّ الشَّمسَ لَمَّا كانت أكبَرَ وأعظَمَ، كانت أعجَبَ، والنَّفْسُ تَطلُبُ سَبَبَ الأمرِ العَجيبِ أكثَرَ ممَّا تَطلُبُ سَبَبَ الأمرِ الَّذي لا يَكونُ عَجيبًا[1].

- وجُملةُ ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ -على تَقديرِ عُمومِ الخِطابِ لكلِّ أحَدٍ- اعتِراضٌ بيْنَ المَعطوفينِ؛ لبَيانِ الواقعِ بطَريقِ الاستِطرادِ. وعلى تَقديرِ اختصاصِ الرُّؤيةِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يَجوزُ أنْ يكونَ حالًا مِن الشَّمسِ والقَمرِ؛ فإنَّ جَرَيانَهما إلى يومِ القيامةِ مِن جُملةِ ما في حَيِّزِ رُؤيتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقد جُعِل جَرَيانُهما عِبارةً عن حَرَكتِهما الخاصَّةِ بهما في فَلَكِهما، والأجَلُ المُسمَّى عن مُنْتهى دَورتِهما، وجُعِلَ مُدَّةُ الجَرَيانِ للشَّمسِ سَنةً، وللقَمَرِ شَهرًا -على قولٍ-؛ فالجُملةُ حينَئذٍ بَيانٌ لِحُكمِ تَسخيرِهما، وتَنبيهٌ على كَيفيَّةِ إيلاجِ أحَدِ المَلَوينِ في الآخَرِ، وكونُ ذلك بحسَبِ اختلافِ جَرَيانِ الشَّمسِ على مَداراتِها اليوميَّةِ[2].

- والجَرْيُ: المَشْيُ السَّريعُ، عُبِّرَ به عن انتِقالِ الشَّمسِ في فَلَكِها، وانتقالِ الأرضِ حوْلَ الشَّمسِ، وانتقالِ القَمرِ حوْلَ الأرضِ؛ تَشبيهًا بالمَشْيِ السَّريعِ؛ لأجْلِ شُسوعِ المسافاتِ الَّتي تُقطَعُ في خلالِ ذلك[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾، وقال في سُورةِ (فاطرٍ) و(الزُّمَرِ): ﴿كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٥).

[فاطر: ١٣] [الزمر: ٥]؛ فاختصَّ ما في سُورةِ (لُقمانَ) بقولِه: ﴿يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وما سِواهُ إنَّما هو: ﴿يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾؛ وذلك لأنَّ معنى قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: لِبُلوغِ أجَلٍ، ومعنى قولِه: ﴿يَجْرِي إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ معناه: لا يَزالُ كلٌّ مِن الشَّمسِ والقمَرِ جاريًا حتَّى يَنتهِيَ إلى آخِرِ وقْتِ جَرْيِه المُسمَّى له، وإنَّما خصَّ ما في سُورةِ لُقمانَ بـ(إلى) الَّتي للانتِهاءِ -واللَّامُ تُؤدِّي معناها-؛ لأنَّها تدُلُّ على أنَّ جَرْيَها لِبُلوغِ الأجَلِ المُسمَّى؛ لأنَّ الآياتِ الَّتي تَكتنِفُها آياتٌ مُنبِّهةٌ على النِّهايةِ والحشرِ والإعادةِ؛ فقَبْلَها: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وبعدَها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣]، فكان المعنى: كلٌّ يَجْري إلى ذلك الوقتِ.

والمواضعُ الَّتي ذُكِرَت فيها اللَّامُ إنَّما هي في الإخبارِ عن ابتِداءِ الخلْقِ، وهو قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ * خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٥، ٦]؛ فالآياتُ التي تَكتنِفُها في ذِكرِ ابتداءِ الخلْقِ، وابتداءِ جَرْيِ الكواكبِ، وهي إذْ ذاك تَجْري لِبُلوغِ الغايةِ. وكذلك قولُه في سُورةِ (فاطر) إنَّما هو في ذِكرِ النِّعَمِ الَّتي ابتدَأَ بها في البَرِّ والبَحرِ؛ إذ يقولُ: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٢، ١٣]؛ فاختصَّ ما عندَ ذِكرِ النِّهايةِ بحَرْفِها (إلى)، واختصَّ ما عِندَ الابتداءِ بالحرْفِ الدَّالِّ على العِلَّةِ الَّتي يقَعُ الفِعلُ مِن أجْلِها (اللَّام)[1]. .....

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٥٦-١٠٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٢)، ((فتح =

وقيل غيرُ ذلك[١].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عَطْفٌ على ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾؛ فهو داخلٌ في الاستِفهامِ الإنكاريِّ بتَنزيلِ العالِمِ مَنزلةَ غيرِه؛ لِعَدمِ جَرْيِه على مُوجَبِ العِلمِ؛ فهم يَعلَمون أنَّ اللهَ خَبيرٌ بما يَعمَلون، ولا يَجْرون على ما يَقْتضيهِ هذا العِلمُ في شَيءٍ مِن أحوالِهم[٢].

- وقدَّمَ الجارَّ؛ إشارةً إلى تمامِ عِلمِه بالأعمالِ[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ مَوقِعُ هذه الجُملةِ مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ؛ فإنَّهم مُعترِفون بأنَّ اللهَ هو فاعلُ ذلك، فلَزِمَهم الدَّليلُ ونَتيجتُه، والمعنى: أنَّ إيلاجَ اللَّيلِ في النَّهارِ، وعكْسَه، وتَسخيرَ الشَّمسِ والقمَرِ؛ مُسبَّبٌ عن انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ؛ فالباءُ للسَّببيةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ ...﴾[٤].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما تُلِيَ مِن الآياتِ الكَريمةِ، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِها في الفضْلِ[٥].

- وأيضًا أتَى باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ بعدَ إجْراءِ تلك الصِّفاتِ على الذَّاتِ المُتميِّزةِ؛ لِيُؤذِنَ بأنَّ تلك الصِّفاتِ إنَّما تَثبُتُ له لأنَّه هو الإلهُ الثَّابتُ الإلهيَّةُ؛ لِمَا تَقرَّرَ أنَّ مَن كان إلهًا كان قادرًا خالِقًا عالِمًا، مَعبودًا رازقًا؛ فهذه الآيةُ

---

= الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٨، ٤٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٦).

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٠٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٦).

كالفَذْلَكةِ[١] لتِلك الآياتِ مِن لَدُنْ قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [لقمان: ٢٥]، وكلٌّ مِن فواصلِها -نحوُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾- مُتضمِّنةٌ لأسرارٍ لا يَعلَمُ كُنْهَها إلَّا اللَّطيفُ الخبيرُ، وكما أنَّ قولَه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ كالمُجمَلِ لتلك المُفصَّلِ، كذلك قَرينتُها -أي: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾- فَذْلَكةٌ لتلك الفواصلِ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ التَّصريحُ بذلك -مع أنَّ الدَّلالةَ على اختصاصِ حَقِّيَّةِ الإلهيَّةِ به تعالى مُستتبِعةٌ للدَّلالةِ على بُطلانِ إلهيَّةِ ما عَداهُ-؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بأمْرِ التَّوحيدِ، وللإيذانِ بأنَّ الدَّلالةَ على بُطلانِ ما ذُكِرَ ليستْ بطَريقِ الاستتباعِ فقطْ، بلْ بطَريقِ الاستقلالِ أيضًا[٣].

- وضَميرُ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ مُفيدٌ للاختصاصِ، أي: هو الحقُّ، لا أصنامُكم ولا غيرُها ممَّا يُدَّعى إلهيَّتُه غَيرَه تعالى. ولم يُؤْتَ بضَميرِ الفصْلِ في الشِّقِّ الثَّاني ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾؛ لأنَّ ما يَدْعُونه مِن دُونِ اللهِ مِن أصنامِهم يَشترِكُ معها في أنَّه باطلٌ، وذكَرَ ضَميرَ الفَصلِ في نَظيرِه مِن سُورةِ (الحجِّ) ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]؛ لاقتضاءِ المَقامِ هناك ذلك[٤].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ١١٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٦، ١٨٧).

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ واقعٌ مَوقِعَ الفَذْلكةِ لِمَا تَقدَّمَ مِن دَلالةِ إيلاجِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وتَسخيرِ الشَّمسِ والقمَرِ؛ لأنَّه إذا استقَرَّ أنَّ ما ذُكِرَ دالٌّ على أنَّ اللهَ هو الحقُّ بالإلهيَّةِ، ودالٌّ على أنَّ ما يَدْعُونه باطلٌ؛ ثبَتَ أنَّه العليُّ الكبيرُ دونَ أصنامِهم، وقد اجتُلِبَ ضَميرُ الفصْلِ هنا ﴿هُوَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختصاصِ، وسَلْبِ العُلوِّ والعَظَمةِ عن أصنامِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٧).

## الآيتان (٣١-٣٢)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَٱلظُّلَلِ﴾: أي: كقِطَعِ السَّحابِ أو كالجِبالِ، وأصلُ (ظلل): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشَيءٍ[1].

﴿مُّقْتَصِدٌ﴾: المقتصِدُ: الفاعلُ للقَصدِ، وهو التَّوسُّطُ بينَ طرَفَينِ، وقصَدَ في الأمرِ: إذا لم يجاوِزْ فيه الحدَّ، ورضِيَ بالتَّوسُّطِ، وأصلُ معنى الاقتصادِ: التَّوسُّطُ في الأمرِ، وأصلُ (قصد) هنا: يدُلُّ على وصل يدل إتيانِ شَيءٍ، وأَمِّه[2].

﴿خَتَّارٍ﴾: أي: غَدَّارٍ، والخَترُ أقبَحُ الغَدرِ، وأصلُ (ختر): يدُلُّ على تَوانٍ وفُتورٍ؛ وذلك أنَّه إذا خَتَرَ فقدْ قَعَدَ عن الوَفاءِ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يذكُرُ الله سبحانَه نعمةً عظيمةً امتنَّ بها على العبادِ مِن جملةِ النِّعَمِ الَّتي لا تُحصَى، فيقولُ: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ السُّفُنَ تجري في البَحرِ بتَسخيرِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٧).

تعالى؛ نِعمةً منه على عِبادِه؛ لِيُريَكم بعضَ آياتِه، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ لكُلِّ صَبَّارٍ شَكورٍ لله على نِعَمِه.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى بعضَ أحوالِ الناسِ عندَما تُصيبُهم الشَّدائدُ وهم في البحرِ، فيقولُ: وإذا غطَّى أولئك المُشرِكينَ عندَ رُكوبِهم البَحرَ مَوجٌ كالجِبالِ أو الغَمامِ، وخافوا الغَرَقَ دَعَوُا اللهَ وَحْدَه أن يُنَجِّيَهم، ولم يَستغيثوا بغَيرِه، فلما نجَّاهم اللهُ مِن الغَرَقِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ فمنهم مُقتَصِدٌ، وما يَكفُرُ بأدِلَّتِنا ويُنكِرُها إلَّا كلُّ غدَّارٍ جَحودٍ نِعَمَ اللهِ عليه.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى آيةً سَماويَّةً بقَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [لقمان: ٢٩]، وأشار إلى السَّبَبِ والمُسَبَّبِ؛ ذكَرَ آيةً أرضيَّةً، وأشارَ إلى السَّبَبِ والمُسَبَّبِ؛ فقَولُه: ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى﴾ [لقمان: ٣١] إشارةٌ إلى المسَبَّبِ، وقَولُه: ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى السَّبَبِ، أي: إلى الرِّيحِ الَّتي هي بأمرِ اللهِ ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ يعني: يُريَكم بإجرائِها بنِعمتِه مِن آياتِه، أي: بَعضَ آياتِه[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى تَسخيرَ النَّيِّرَينِ، وامتِنانَه بذلك علينا؛ ذكَرَ أيضًا مَن سخَّرَ الفُلْكَ مِن العالَمِ الأرضيِّ؛ بجامِعِ ما اشتَرَكا فيه مِنَ الجَرَيانِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ألم ترَ -يا محمَّدُ- أنَّ السُّفُنَ تَجري في البَحرِ بلُطفِ اللهِ وتَسخيرِه؛ نعمةً منه على عِبادِه[1].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥].

﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾.

أي: لِيُريَكم اللهُ بعضَ آياتِه، فتَستَدِلُّوا بها على وُجودِه ووَحدانيَّتِه، وعِلمِه وقُدرتِه، وغيرِ ذلك[2].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تَقَدَّم ذِكرُ جَرْيِ الفُلكِ فِي البحرِ، وكان في ذلك ما لا يخفَى على راكِبِه مِنَ الخَوفِ، وتَقَدَّم ذِكرُ النِّعمةِ؛ ناسَبَ الختمُ بِالصَّبرِ على ما يُحْذَرُ، وبالشُّكرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

قال ابن عطية: (المخاطَبُ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمرادُ النَّاسُ أجمَعُ... وقَولُه: ﴿بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ ما تحمِلُه السُّفُنُ مِنَ الطَّعامِ والأرزاقِ والتِّجاراتِ؛ فالباءُ للإلصاقِ، ويحتَمِلُ أن يريدَ الرِّيحَ وتَسخيرَ اللهِ البَحرَ، ونحوَ هذا؛ فالباءُ باءُ السَّبَبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٥، ٣٥٦).

قال ابن عثيمين: (والآيةُ تحتَمِلُ المعنيَينِ بدُونِ مُناقَضةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٨٤).

على ما أنْعَمَ به تعالَى[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

أي: إنَّ في جَريِ الفُلكِ في البَحرِ لَعَلاماتٍ ودَلالاتٍ واضِحاتٍ على ما له سُبحانَه مِن صِفاتِ الكَمالِ، يَستَدِلُّ بها كُلُّ كثيرِ الصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعلى أقدارِه المؤلِمةِ، وعن معاصيه؛ وكُلُّ كثيرِ الشُّكرِ للهِ على نِعَمِه[٢].

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: وإذا علا المُشرِكينَ عندَ رُكوبِهم البَحرَ مَوجٌ يُغَطِّيهم، كالجِبالِ أو الغَمامِ الَّذي يُظِلُّ مَن تحتَه، فخافوُا الغَرَقَ والهلاكَ: دَعَوُا اللهَ وَحْدَه أن يُنَجِّيَهم، ولم يَستَغيثوا بغَيرِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾.

أي: فلمَّا نجَّاهم اللهُ مِنَ الغَرَقِ، وأوصَلَهم إلى البَرِّ، فمنهم مُقتَصِدٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن =

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

أي: وما يَكفُرُ بأدِلَّتِنا وحُجَجِنا، ويُكَذِّبُ بها ويُنكِرُها[1] إلَّا كلُّ غدَّارٍ شَديدِ الغَدرِ بعَهدِه، جَحودٍ عَظيمِ الجَحدِ لنِعَمِ رَبِّه؛ فهو يَنقُضُ ما عاهَدَ اللهَ عليه، ولا يَشكُرُه على ما آتاه مِن نِعَمِه[2].

---

= عاشور)) (٢١/ ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٨٨).

قيل: المرادُ: فمنهم متوَسِّطٌ في الكُفرِ والظُّلم، خَفَضَ مِن غُلَوائِه، وانزجَرَ بعضَ الانزجارِ، فلم يُسرِفْ في كُفرِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنَى: الزمخشريُّ، والرسعني، وابن عاشور، وذكره ابنُ جُزي احتِمالًا. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٧/ ٣٢٢).

وقيل: المرادُ بالمُقتَصِدِ: المتوسِّطُ في إيمانِه، فلمْ يَقُمْ بشُكرِ الله على وَجهِ الكَمالِ؛ فيَكونُ ذلك مِن بابِ الإنكارِ على مَن شاهَدَ تلك الأهوالَ والأمورَ العِظامَ والآياتِ الباهراتِ في البَحرِ، ثمَّ بعدَما أنعَمَ عليه مِن الخلاصِ كان ينبغي أن يقابِلَ ذلك بالعَمَلِ التَّامِّ، والدُّؤوبِ في العبادةِ، والمُبادَرةِ إلى الخَيراتِ، فمَنِ اقتصَدَ بعدَ ذلك كان مُقَصِّرًا والحالةُ هذه. ذكر هذا المعنى احتِمالًا: ابنُ جُزَي، وابن كثير، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

وقيل: المرادُ: عَدْلٌ مُوفٍ في البَرِّ بما عاهَدَ الله عليه في البحرِ مِنَ التَّوحيدِ وإخلاصِ الدِّينِ لله، يعني: ثَبَتَ على إيمانِه. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والخازن، والعليمي، والشربيني، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٩٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ١٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨١).

(١) قال القرطبي: (وجَحْدُ الآياتِ: إنكارُ أعيانِها، والجَحدُ بالآياتِ: إنكارُ دَلائِلِها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٨٩). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾، فالمؤمنُ متذكِّرٌ عندَ الشِّدَّةِ والبلاءِ، وعندَ النِّعَمِ والآلاءِ، فيَصبرُ إذا أصابَتْه نِقمةٌ، ويَشكُرُ إذا أتَتْه نعمةٌ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ التَّحذيرُ مِنَ الغَدرِ؛ لأنَّه قد يكونُ سَببًا في الكُفرِ والجَحْدِ؛ ولهذا قال الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أرْبَعٌ مَن كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا))، وذَكَر منها: ((إذا عَاهَدَ غَدَرَ))[٢]، فإذا كان لا يَجحَدُ بالآياتِ إلَّا الغَدَّارُ، فمعنى ذلك أنَّ الغَدْرَ يكونُ سَببًا للجَحْدِ والكُفرِ[٣].

---

= قيل: المرادُ أنَّ نِعَمَ الله تعالى على العِبادِ كأنَّها عُهودٌ ومِنَنٌ يَلزَمُ عنها أداءُ شُكرِها، فمَن كفَر ذلك وجحَدَ به فكأنَّه خَتَرَ (غدَر) وخانَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٥، ٣٥٦).

وقيل: المرادُ أنَّ كلَّ إنسانٍ قد عاهَد ربَّه بمُقتضَى فِطْرَتِه أن يُؤمِنَ به، فإذا كفَر صار غادرًا لم يَفِ بالعهد. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٩٠).

وقيل: المرادُ: نقْضُ العهدِ الفِطْريِّ، ونقْضُ عقدِ العزيمةِ وقتَ الهَولِ البَحْريِّ، ورفْضُ ما كان عليه في البحرِ. وممَّن اختاره: القنوجي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (١٠/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبدِ الله بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٩٥).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الإيمانُ نِصْفانِ: نِصفٌ صَبْرٌ، ونِصفٌ شُكْرٌ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[١].

٢- في ذِكْرِ «الصَّبَّارِ الشَّكورِ» بعدَ ذِكرِ أنَّ ﴿ٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ مُناسَبةٌ ظاهِرةٌ جِدًّا؛ لأنَّ هذه الفُلكَ الَّتي تجري في البَحرِ: تارةً تَعصِفُ بها الأمواجُ، ويَتأذَّى الإنسانُ بذلك، ورُبَّما يتضَرَّرُ؛ فيُقابِلُ ذلك بالصَّبرِ، وقد يكونُ الأمرُ بالعَكسِ فيَشمَلُ العُبورَ على البَحرِ، ويَحصُلُ بذلك خَيرٌ كثيرٌ؛ فيُقابِلُ ذلك بالشُّكرِ، فلمَّا كانت هذه السُّفُنُ بها سَرَّاءُ وضَرَّاءُ، خَتَمَ اللهُ تعالى الآيةَ بقَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ إثباتُ رِسالةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، لأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما رَكِبَ البَحرَ حتَّى يَعرِفَ هذه الأمواجَ، وأنَّها كالظُّلَلِ! ولكِنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عَلِمَ بها مِن خَبَرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾[٣].

٤- في قَولِه تعالى عن المُشرِكينَ: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ﴾ أنَّهم يُقِرُّونَ بالرُّبوبيَّةِ؛ فهم لا يَدْعونَه إلَّا لأنَّهم يَعلَمونَ أنَّه قادِرٌ على إنقاذِهم؛ وإلَّا فلا يُمكِنُ أن يَدْعُوا مَن لا يَعتَقِدونَ أنَّه قادِرٌ[٤]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ إجابةُ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩١).

دَعوةِ المُضْطَرِّ ولو كان كافِرًا؛ فهؤلاء أجاب اللهُ تعالى دَعوتَهم مع عِلمِه بأنَّهم كُفَّارٌ وسيَكفُرونَ[١]. فالله تعالى ضَمِن إجابةَ المضطرِّ إذا دعاه، وأخبَر بذلك عن نفْسِه، والسَّببُ في ذلك أنَّ الضرورةَ إليه باللجأ ينشأُ عن الإخلاصِ، وقطعِ القلبِ عمَّا سواه، وللإخلاصِ عنده سبحانه موقعٌ وذمةٌ، وُجِد مِن مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فأجابهم عندَ ضرورتِهم ووقوعِ إخلاصِهم، مع علمِه أنَّهم يعودون إلى شركِهم وكفرِهم[٢].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنۡ ءَايَٰتِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ اِستئنافٌ، جاء على سَننِ الاستِئنافينِ اللَّذَينِ قبْلَه في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [لقمان: ٢٠]، وقولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ [لقمان: ٢٩]، وجِيءَ بها غيرَ مُتعاطِفةٍ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ السَّامعُ أنَّ العَطْفَ على ما تَخلَّلَ بيْنَها، وجاء هذا الاستئنافُ الثَّالثُ دليلًا ثالثًا على عَظيمِ حِكمةِ اللهِ في نِظامِ هذا العالَمِ، وتَوفيقِ البَشرِ للانتفاعِ بما هيَّأَهُ اللهُ لانتفاعِهم به، فلمَّا أتَى الاستئنافانِ الأوَّلانِ على دَلائلِ صُنْعِ اللهِ في السَّمواتِ والأرضِ، جاء في هذا الثَّالثِ دليلٌ على بَديعِ صُنْعِ اللهِ بخَلْقِ البَحرِ، وتَيسيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٣).

الانتفاعِ به في إقامةِ نِظامِ المُجتمَعِ البَشَريِّ[١].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ الهَمزةُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ التَّقريريِّ[٢].

- ووَصَفَ هذا الجَرْيَ بمُلابَسةِ نِعمةِ اللهِ؛ لأنَّه خلَقَ البحرَ على هذه الصِّفةِ العظيمةِ مُيسَّرًا للانتفاعِ بالأسفارِ فيه حينَ لا تُغْني طُرقُ البَرِّ في التَّنقُّلِ غَناءً؛ فجعَلَهُ قابلًا لِحَمْلِ المَراكبِ العظيمةِ، وألْهَمَ الإنسانَ لِصُنْعِ تلك المَراكبِ على كَيفيَّةٍ تَحْفَظُها مِن الغرَقِ في عُبابِ البَحرِ، وعصَمَهم مِن تَوالِي الرِّياحِ والمَوجِ في أسفارِهم، وهَداهُم إلى الحِيلةِ في مُصانَعتِها إذا طرَأَت حتَّى تَنجلِيَ[٣].

- ويَتعلَّقُ ﴿لِيُرِيَكُم﴾ بـ ﴿تَجْرِى﴾، أي: تَجْري في البَحرِ جَرْيًا، عِلَّةُ خَلْقِه أنْ يُرِيَكم اللهُ بعضَ آياتِه، أي: آياتِه لكم، فلمْ يَذكُرْ مُتعلَّقَ الآياتِ؛ لِظُهورِه مِن قولِه: ﴿لِيُرِيَكُم﴾[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لها مَوقعُ التَّعليلِ لِجُملةِ ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾. ولها مَوقعُ الاستئنافِ البَيانيِّ؛ إذ يَخطُرُ ببالِ السَّامعِ أنْ يَسأَلَ: كيف لم يَهتَدِ المشرِكون بهذه الآياتِ؟ فأُفِيدَ أنَّ الَّذي يَنتفِعُ بدَلالتِها على مَدلولِها هو كلُّ صبَّارٍ شَكورٍ؛ ثَناءً على هذا الفريق صَريحًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٨، ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وتَعريضًا بالَّذين لمْ يَنتفِعوا بدَلالتِها. واقتِرانُ الجُملةِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّه يُفيدُ في مِثلِ هذا المَقامِ معنَى التَّعليلِ والتَّسبُّبِ. وجُعِلَ ذلك عِدَّةَ آياتٍ؛ لأنَّ في ذلك دَلائلَ كثيرةً[١].

- وصِيغتَا ﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ بِنْيَتَا مُبالَغةٍ، و(فعَّالٌ) أبلَغُ؛ لِزيادةِ حُروفِه، والصَّبَّارُ: مُبالَغةٌ في المَوصوفِ بالصَّبرِ، والشَّكورُ كذلك، أي: الَّذين لا يُفارِقُهم الوَصْفانِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ كِنايةٌ رَمْزيَّةٌ عن المؤمنينَ، وتَعريضٌ رَمْزيٌّ بالمشرِكينَ، ووَجْهُ إيثارِ خُلُقَيِ الصَّبرِ والشُّكرِ هنا للكِنايةِ بهما مِن بيْنِ شُعَبِ الإيمانِ: أنَّهما أنسَبُ بمَقامِ السَّيرِ في البحرِ؛ إذ راكبُ البحرِ بيْنَ خطَرٍ وسلامةٍ، وهما مَظهَرُ الصَّبرِ والشُّكرِ[٣].

- وخصَّ هذه الدَّلالةَ بأنَّها دَلالةٌ لِلصَّبَّارِ الشَّكورِ، دونَ سائرِ الخلْقِ؛ لأنَّ الصَّبرَ والشُّكرَ مِن أفعالِ ذوي الحِجَى والعقولِ، فأخبَر أنَّ في ذلك لَآياتٍ لكلِّ ذي عقلٍ؛ لأنَّ الآياتِ جعَلها الله عِبَرًا لِذَوي العقولِ والتَّمييزِ[٤]. ولأنَّ الآيةَ -وهي العَلامةُ- لا تَستَبينُ في صَدرِ كُلِّ مُؤمِنٍ، إنَّما تَستَبينُ لِمَن صَبَرَ على البلاءِ، وشَكَر على الرَّخاءِ[٥]، فلا يَنتَفِعُ بالآياتِ إلَّا مَن جَمَعَ بينَ الصَّبرِ والشُّكرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٨٩، ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٥).

- وفي قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ حُسْنُ تَخلُّصٍ إلى التَّفصيلِ الَّذي عقِبَه في قولِه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ ...﴾ الآيةَ؛ فعُطِفَ على آياتِ سَيرِ الفُلْكِ إشارةً إلى أنَّ الناسَ يَذْكُرون اللهَ عندَ تلك الآياتِ عندَ الاضطرارِ، وغَفلَتِهم عنها في حالِ السَّلامةِ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ فَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ فيه الْتِفاتٌ؛ حيثُ خرَجَ مِن ضَميرِ الخِطابِ في ﴿لِيُرِيَكُم﴾ إلى ضَميرِ الغَيبةِ في ﴿غَشِيَهُم﴾[2]، وهذا إنْ كانَ ضميرُ ﴿غَشِيَهُم﴾ مُتَّحِدًا بضميرِ المخاطَبينَ قبْلَه؛ ففي الكلامِ التِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وإلَّا فلا التِفاتَ[3]، وكذلك في الانتِقالِ مِن الغَيبةِ في ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ إلى التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، وهذا الالتفاتُ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الناسَ يَذْكُرونَ اللهَ عِندَ تلك الآياتِ وعِندَ الاضطرارِ، مع غَفْلتِهم في حالِ السَّلامةِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك الإخلاصَ الحادِثَ عِندَ الخَوفِ قلَّما يبقَى لأحدٍ عندَ زَوالِ الخوفِ، والمعنى: أنَّ حالَ الناسِ في النِّعمةِ غيرُ حالِهم في الشِّدَّةِ؛ فتتغيَّرُ أحوالُهم بتغيُّرِ المواقفِ[4]!

- و﴿مَّوۡجٞ﴾ اسمُ جنسٍ، واحِدُه مَوجةٌ، وتَنكيرُه للتَّعظيمِ والتَّكثيرِ؛ ولذا أُفرِدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦، ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٢).

مع جَمْعِ المُشبَّهِ به في قولِه تعالى: ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾[١]. وقيل: أفرَدَ ﴿مَّوْجٌ﴾؛ لأنَّه لشِدَّةِ اضطرابِه، وإتيانِه شَيئًا في إثْرِ شَيءٍ مُتتابِعًا؛ يركَبُ بَعضَه كأنَّه شَيءٌ واحِدٌ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ شبَّهَ المَوجَ في ارتفاعِه واسْوِدادِه واضْطِرابِه بالظُّلَلِ، وهو السَّحابُ. وقِيل: ﴿كَٱلظُّلَلِ﴾ كالجبالِ[٣].

- قَولُه: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ اقتضَى الحالُ حَذْفَ ما دَعَوا به؛ لتَعظيمِ الأمرِ فيه لِما اقتَضاه مِنَ الشَّدائِدِ؛ لِتَذهَبَ النَّفْسُ فيه كُلَّ مَذهَبٍ[٤].

- قولُه: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ في وصْفِهم بالمُخلِصينَ ضرْبٌ مِن التَّهَكُّمِ؛ لأنَّه لَمَّا نَجَّاهم فاجأتْهم السَّجيَّةُ فأشْرَكوا باللهِ، وكان منهم مُقتصِدٌ في شُكرِه[٥]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ هذه ضُمِّنَتْ معنى الإيصالِ، يعني: نجَّاهم وأوصلَهم إلى البَرِّ، لم يقُلْ: فلمَّا نجَّاهم مِن هذه الظُّلَلِ فقط! بل نجَّاهم إنجاءً وصَلوا فيه إلى شاطئِ السَّلامةِ؛ إلى البَرِّ[٦].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ تدُلُّ على مُقدَّرٍ، كأنَّه قِيل: فلمَّا نَجَّاهم انقَسَموا؛ فمنهم مُقتصِدٌ، ومنهم غيرُه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٣٦٦، ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩١).

- وجُملةُ ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّها تعُمُّ كلَّ جاحدٍ؛ سواءٌ مَن جحَدَ آيةَ سَيرِ الفُلكِ وهَولِ البحرِ، ويَجحَدُ نِعمةَ اللهِ عليه بالنَّجاةِ، ومَن يَجحَدُ غيرَ ذلك مِن آياتِ اللهِ ونِعَمِه[1].

- وضُمِّنَ «الجَحْدُ» معنى التَّكذيبِ؛ لأنَّ الجَحْدَ الَّذي بمعنى الكِتمانِ يتعَدَّى بنَفْسِه، فيُقالُ: «جَحَدَه» أي: كَتَمَه، لكِنْ هنا ضُمِّنَ معنى التَّكذيبِ؛ ولذلك تَعَدَّى بالباءِ، فقيلَ: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي: ما يُكَذِّبُ بها[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ ختَمَ هنا في قولِه: ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٖ كَفُورٖ﴾ بصِيغَتَيْ مُبالَغةٍ، وهما: (ختَّارٌ) و(كَفورٌ)، وفي الآيةِ قبْلَها قال: ﴿صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾؛ فالصَّبَّارُ الشَّكُورُ مُعترِفٌ بآياتِ اللهِ، والختَّارُ الكَفورُ يَجحَدُ بها؛ فتَوازَنَت هذه الكلماتُ لَفظًا ومعنًى؛ أمَّا لَفظًا فظاهرٌ، وأمَّا معنًى: فالختَّارُ هو الغدَّارُ، والغَدْرُ لا يكونُ إلَّا مِن قِلَّةِ الصَّبرِ؛ لأنَّ الصَّبَّارَ يُفوِّضُ أمْرَه إلى اللهِ، وأمَّا الغدَّارُ فيُعاهِدُ ويَغدِرُ، فلا يَصبِرُ على العَهدِ، وأمَّا الكَفورُ فمُقابَلتُه معنًى للشَّكورِ واضحةٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٣، ٤٢٤).

## الآيتان (٣٣-٣٤)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَغُرَّنَّكُمُ﴾: أي: تخدَعَنَّكم، والغِرَّةُ: الغفلةُ، ويُقالُ: غَرَرْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَه، والغَرُّ والغُرورُ: إظهارُ الأمرِ المضرِّ في صورَةِ النَّافِعِ، أو: إظهارُ النُّصحِ مع إبطانِ الشَّرِّ، والغُرورُ بالضمِّ: الباطلُ، و﴿ٱلۡغَرُورُ﴾: بالفتحِ: الشَّيطانُ، أو: كلُّ ما يغرُّ الإنسانَ مِن شيطانٍ أو دنيا أو مالٍ وغيرِ ذلك، وأصلُ ذلك مِن (الغُرِّ)، وهو الأثرُ الظَّاهرُ مِن الشَّيءِ[1].

﴿ٱلۡغَيۡثَ﴾: أي: المطرَ، أو: هو مطرٌ في إبَّانِه وإلَّا فمطرٌ. وسُمِّيَ المطرُ غَيْثًا؛ لأنَّه يُغيثُ الخلْقَ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يختمُ الله سبحانه آياتِ هذه السُّورةِ بدعوةِ النَّاسِ إلى تَقْواه، والاستعدادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣، ٦٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٢).

قال القرطبي: (والغَيثُ ما كان نافعًا في وقتِه، والمطرُ قد يكونُ نافعًا وضارًّا، في وقتِه وغيرِ وقتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩).

ليومِ الحسابِ، فيقولُ: يا أيُّها النَّاسُ اتَّقوا ربَّكم بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه، واخشَوا يومَ القيامةِ الَّذي لا يُغْني فيه والِدٌ عن ولدِه شَيئًا، ولا مولودٌ يُغْني فيه عن والِدِه شَيئًا، إنَّ وَعْدَ اللهِ بالبَعثِ حَقٌّ واقِعٌ لا مَحالةَ؛ فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدُّنيا بزينتِها، ولا يَغُرَّنَّكم الشَّيطانُ فيَصرِفَكم عن طاعةِ الله.

ثمَّ يُبيِّنُ الله عزَّ وجلَّ الأمورَ الَّتي استأثرَ بعلمِها، فلا يَعلَمُها نبيٌّ مرسَلٌ، ولا ملَكٌ مقرَّبٌ، فضلًا عن غيرِهما، فيقولُ: إنَّ اللهَ وَحْدَه عِندَه عِلمُ السَّاعةِ، ويُنَزِّلُ المطَرَ، ويَعلَمُ ما في أرحامِ الأمَّهاتِ، ولا تدري نَفْسٌ ماذا تَكسِبُ غَدًا، ولا تدري نفْسٌ في أيِّ أرضٍ تموتُ، إنَّ اللهَ عَليمٌ خَبيرٌ لا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمًا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الدَّلائِلَ على الوحدانيَّةِ والحَشرِ مِن أوَّلِ السُّورةِ، أمَرَ بالتَّقْوى على سَبيلِ الموعِظةِ والتَّذكيرِ بهذا اليَومِ العظيمِ[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ اجعَلوا بيْنَكم وبينَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً؛ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾.

أي: واخشَوا يومَ القيامةِ الَّذي لا يُغْني فيه والِدٌ عن وَلَدِه[1].

﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: ولا مولودٌ يُغْني فيه عن والِدِه شَيئًا[2].

كما قال سُبحانَه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

أي: إنَّ ما وعَدَ اللهُ عِبادَه مِن البَعثِ يومَ القيامةِ واقِعٌ لا محالةَ[3].

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: فلا تَخدَعنَّكم الحياةُ الدُّنيا بزينتِها ولَذَّاتِها عن التَّزَوُّدِ والاستِعدادِ للآخِرةِ[4].

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾.

أي: ولا يَخدَعَنَّكم الشَّيطانُ[5] فيَصرِفَكم عن طاعةِ اللهِ، ويَغُرَّكم بحِلمِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٥) ممَّن اختار أنَّ الغَرورُ هو الشَّيطانُ: الواحدي، والسمعاني، وابن القيِّم، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي =

وإمهالِه، ويُمَنِّيكم بالأمانيِّ الباطِلةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٥، ٦]

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾.

---

= (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٠)، ((الرُّوح)) لابن القيم (ص: ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ١٩٧-١٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٣٠).

قال الشنقيطي: (سُمِّي الشيطانُ غَرورًا؛ لكثرةِ غرورِه للآدَميِّينَ بتزيينِه ووساوسِه). ((العذب النمير)) (٥/ ١٠٧).

وقيل: الغَرورُ هو ما غَرَّ الإنسانَ مِن شَيءٍ، كائنًا ما كان؛ شيطانًا كان، أو إنسانًا، أو دُنيا. وممَّن قال بهذا المعنى: أبو عُبيدةَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٤٠).

قال الرازي: (قال تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ يعني: الدُّنيا؛ لا يَنْبَغي أنْ تَغُرَّكم بنفْسِها، ولا يَنْبَغي أنْ تغترُّوا بها، وإنْ حَمَلكم على مَحَبَّتِها غارٌّ مِن نفْسٍ أمَّارةٍ أو شيطانٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مِنَ الأمرِ الواضِحِ أنَّ لِسانَ حالِهم بعدَ السُّؤالِ عن تحقُّقِ ذلك اليَومِ يَسألُ عن وَقتِه؛ إمَّا تعنُّتًا واستِهزاءً، وإمَّا حقيقةً- أجاب عن ذلك ضامًّا إليه أخواتِه مِن مفاتيحِ الغَيبِ(١).

وأيضًا لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: ٣٣]، وذكَرَ أنَّه كائِنٌ بقَولِه: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾، كأنَّ قائلًا قال: فمتى يكونُ هذا اليومُ؟ فأُجيبَ بأنَّ هذا العِلمَ ممَّا لم يَحصُلْ لِغَيرِ الله، وذلك قولُه سبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، ثمَّ ذكَرَ الدَّليلَينِ على البَعثِ؛ أحَدُهما: إحياءُ الأرضِ بعدَ مَوتِها، المشارُ إليه بقولِه تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾، وثانيهما: الخَلقُ ابتِداءً، المشارُ إليه بقولِه سبحانَه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾، فكأنَّه قال عزَّ وجلَّ: يا أيُّها السَّائِلُ، إنَّك لا تَعلَمُ وَقتَها، ولكِنَّها كائنةٌ، واللهُ قادِرٌ عليها كما هو قادِرٌ على إحياءِ الأرضِ، وعلى الخلْقِ في الأرحامِ(٢).

وأيضًا لَمَّا جرَى في الآياتِ قَبْلَها ذِكرُ يَومِ القيامةِ، أُعقِبَت بأنَّ وَقتَ السَّاعةِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، وجَمَع معها الجُمَلَ الأربَعَ الَّتي بَعدَها(٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه عِندَه عِلمُ وَقتِ القيامةِ، الَّذي تقومُ فيه(٤).

كما قال سُبحانَه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٢).

لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ ...﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ...﴾ [الأنعام: ٥٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((خَمسٌ مِنَ الغَيبِ لا يَعلَمُهنَّ إلَّا اللهُ، ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾))[1].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَفاتِحُ الغَيبِ خَمسٌ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾))[2].

﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ﴾.

أي: ويُنَزِّلُ اللهُ وَحْدَه المطَرَ بقُدرتِه، ويَعلَمُ وَحْدَه وَقْتَ نُزولِه، وغيرَ ذلك مِن شُؤونِه[3].

﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ وَحْدَه ما في أرحامِ الأمَّهاتِ مِمَّا يُريدُ اللهُ أن يَخلُقَه فيها[4].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (١٠) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٤٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٦، ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ ﴾ [الرعد: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧].

﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗا﴾.

أي: ولا تدري نفْسٌ ما الَّذي ستَكسِبُه في يومِ غَدٍ مِن كسْبِ دينِها ودُنياها؛ فاللهُ وَحْدَه يَعلَمُ ذلك[١].

عن مَسروقٍ، عن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها قالت: (مَن حدَّثك أنَّه يَعلَمُ ما في غدٍ، فقد كَذَب، ثمَّ قرأَتْ: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗا﴾)[٢].

﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُ﴾.

أي: ولا تَدري نَفْسٌ في أيِّ أرضٍ يكونُ مَوتُها؛ فاللهُ وَحْدَه مَن يختَصُّ بعِلمِ ذلك[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا خصَّص الله تعالى هذه الأمورَ الخمسةَ السابقةَ بالذِّكرِ؛ عمَّم عِلمَه بجميعِ الأشياءِ، فقال[٤]:

---

= (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٨).

(٢) رواه البخاري (٤٨٥٥) واللفظ له، ومسلم (١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو علم بكلِّ شيءٍ، مُحيطٌ بالظَّواهِرِ والبواطِنِ، والخفايا والسَّرائِرِ، لا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمًا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فيه لَفتُ النَّظَرِ لهذا اليَومِ العظيمِ، ممَّا يقوِّي العبدَ، ويُسَهِّلُ عليه تَقْوى اللهِ، وهذا مِن رحمةِ اللهِ بالعِبادِ: يأمُرُهم بتَقْواه الَّتي فيها سعادتُهم، ويَعِدُهم عليها الثَّوابَ، ويحَذِّرُهم مِنَ العِقابِ، ويُزعِجُهم إليه بالمواعِظِ والمُخَوِّفاتِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تَمْتَروا فيه، ولا تَعمَلوا عَمَلَ غَيرِ المصَدِّقِ؛ فلهذا قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ بزينتِها وزَخارِفِها وما فيها مِن الفِتَنِ والمِحَنِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ الَّذي هو الشَّيطانُ، الَّذي ما زال يخدَعُ الإنسانَ ولا يَغفُلُ عنه في جميعِ الأوقاتِ؛ فإنَّ لله على عبادِه حَقًّا، وقد وعَدَهم مَوعِدًا يُجازيهم فيه بأعمالِهم، وهل وَفَّوا حَقَّه أم قَصَّروا فيه. وهذا أمرٌ يجِبُ الاهتِمامُ به، وأن يجعَلَه العَبدُ نُصْبَ عَينيه، ورأسَ مالِ تجارتِه الَّتي يسعَى إليها، ومِن أعظَمِ العوائِقِ عنه والقواطِعِ دُونَه: الدُّنيا الفتَّانةُ، والشَّيطانُ المُوَسوِسُ المُسَوِّلُ؛ فنهَى تعالى عبادَه أن تَغُرَّهم الدُّنيا، أو يَغُرَّهم باللهِ الغَرورُ: ﴿يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[3] [النساء: ١٢٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة لقمان)) (ص: ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قَال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، النَّاسُ على أقسام؛ منهم مَن تدعوه الدُّنيا إلى نفْسِها، فيَميلُ إليها، ومنهم مَن يُوَسْوِسُ في صدرِه الشَّيطانُ، ويزيِّنُ في عينِه الدُّنيا، ويؤَمِّلُه، ويقولُ: إنَّك تحصلُ بها الآخرةَ، أو تلتذُّ بها ثمَّ تتوبُ فتجتمعُ لك الدُّنيا والآخرةُ! فنهاهم عن الأمْرَينِ، وقال: كونوا قِسْمًا ثالثًا، وهم الَّذين لا يَلتفِتونَ إلى الدُّنيا، ولا إلى مَن يحسِّنُ الدُّنيا في الأعيُنِ[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ مِن أعظَمِ الغرةِ أن تراه يُتابعُ عليك نِعَمَه، وأنت مقيمٌ على ما يَكرهُ، فالشيطانُ موكلٌ بالغرورِ، وطبْعُ النَّفْسِ الأمَّارةِ الاغترارُ، فإذا اجتَمع الرَّأيُ والبغْيُ والشَّيطانُ الغَرورُ والنَّفْسُ المُغتَرَّةُ لم يقَعْ هناك خلافٌ، فالشَّياطينُ غَرُّوا المغترِّينَ بالله، وأطمَعوهم مع إقامتِهم على ما يُسخِطُ اللهَ، ويُغضبُه في عفوِه وتجاوزِه، وحدَّثوهم بالتَّوبةِ؛ لتسكُنَ قلوبُهم، ثمَّ دافعوهم بالتَّسويفِ حتَّى هجَم الأجَلُ، فأُخِذوا على أسْوَأِ أحوالِهم، وقال تعالى ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾[2] [الحديد: ١٤].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فيه سؤالٌ: هذه الآيةُ تَدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ يومَ القيامةِ لا يَنفَعُ فيه والِدٌ وَلَدَه، وقد جاءت آيةٌ أخرى تدُلُّ على رَفعِ دَرَجاتِ الأولادِ؛ بسَبَبِ صلاحِ آبائِهم، حتَّى يَكونوا في دَرَجةِ الآباءِ، مع أنَّ عَمَلَهم -أي: الأولادِ- لم يُبَلِّغْهم تلك الدَّرَجةَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٤٤، ٢٤٥).

إقرارًا لعُيونِ الآباءِ بوُجودِ الأبناءِ معهم في منازِلِهم مِنَ الجنَّةِ، وذلك نَفعٌ لهم، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ [الطور: ٢١] فما وَجْهُ الجَمعِ بيْنَهما؟

**الجوابُ**: وَجهُ الجَمعِ أُشيرَ إليه بالقَيدِ الَّذي في هذه الآيةِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾، وعيَّنَ فيها النَّفعَ بأنَّ إلحاقَهم بهم في دَرَجاتِهم يُقيَّدُ بالإيمانِ؛ فهي أخَصُّ مِن الآيةِ الأخرى، والأخَصُّ لا يُعارِضُ الأعَمَّ، وعلى قَولِ مَن فَسَّرَ الآيةَ بأنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ لا يَقضي عنه حَقًّا لَزِمَه، ولا يَدفَعُ عنه عذابًا حَقَّ عليه؛ فلا إشكالَ في الآيةِ[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾، في قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أنَّ الدُّنيا مِن أكبرِ الأسبابِ الَّتي تَحولُ بينَ المَرءِ وخَشيتِه لليَومِ الآخِرِ؛ لأنَّه سبحانه فرَّعَها مِن قَولِه تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ في التَّعبيرِ بـ (هو) إشعارٌ بأنَّ المنفيَّ نَفْعُه بنَفْسِه؛ ففيه ترجيةٌ بأنَّ اللهَ قد يأذَنُ له في نَفْعِه إذا وُجِدَ الشَّرطُ[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٢، ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٢).

خَبِيرٌ ﴾ مَن ادَّعى أنَّه يَعلَمُ شَيئًا مِن هذه، فقد كَفَر بالقُرآنِ؛ لأنَّه قد خالفَه[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ لَمَّا كان سُبحانَه قد نَصَب على السَّاعةِ أماراتٍ تُوجِبُ ظُنونًا في قُربِها، وكَشَف بعضَ أمرِها، عبَّرَ تعالى بالعِلمِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِ ﴾ قال سُبحانَه: «مَا» دون «مَن»؛ لأنَّ عِلْمَ ما في الأرحامِ مِن حيثُ الصِّفةُ أبلَغُ مِن عِلمِه مِن حيثُ الذَّاتُ، أي: أبلغُ مِن حيثُ كَونُه ذَكَرًا أو أنثى؛ فالجنينُ الَّذي في الرَّحِمِ ليس العِلمُ المختَصُّ به مجرَّدَ كَونِه ذكرًا أو أنثى، أو طَويلًا أو قَصيرًا، أو صَغيرًا أو كَبيرًا، بل هناك ما هو أبلَغُ مِن ذلك، وهو صِفاتُ هذا الجَنينِ: هل يكونُ شقيًّا أم سَعيدًا؟ طويلَ العُمُرِ أم قصيرَ العُمُرِ؟ وهل عَمَلُه صالحٌ أو عَمَلُه فاسِدٌ؟ ولهذا جاء التَّعبيرُ بـ «مَا» الَّتي تُلاحَظُ فيها الصِّفاتُ؛ لأنَّ عِلْمَ ما في الأرحامِ مِن هذه الوجهةِ أعظَمُ مِن كَونِه ذَكَرًا أو أُنثى[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُ ﴾ عبَّرَ في جانبِ نفْيِ مَعرفةِ النَّاسِ بفِعلِ الدِّرايةِ؛ لأنَّ الدِّرايةَ عِلمٌ فيه مُعالَجةٌ للاطِّلاعِ على المعلومِ؛ ولذلك لا يُعبَّرُ بالدِّرايةِ عن عِلمِ اللهِ تعالى، فلا يقالُ: (اللهُ يَدري كذا)، فيفيدُ انتفاءَ عِلمِ النَّاسِ بعدَ الحِرصِ على عِلمِه[٤]. وقيل: أُسنِد

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٨).

العِلمُ إلى اللهِ، والدِّرايةُ للنَّفْسِ؛ لِما في الدِّرايةِ مِن معنى الخَتْلِ والحيلةِ[١].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ مَوقعُ هذه الآيةِ بعْدَ ما تقدَّمَها مِن الآياتِ مَوقعُ مَقصدِ الخُطبةِ بعدَ مُقدِّماتِها؛ إذ كانتِ المُقدِّماتُ الماضيةُ قد هيَّأَتِ النُّفوسَ إلى قَبولِ الهِدايةِ، والتَّأثُّرِ بالمَوعظةِ الحَسنةِ، وإنَّ لاصطيادِ الحُكماءِ فُرَصًا يَحرِصون على عدَمِ إضاعتِها، ولاعتبارِ هذا الموقعِ جُعِلَت الجُملةُ استِئنافًا؛ لأنَّها بمَنزلةِ الفَذْلكةِ والنَّتيجةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا ﴾ الأمْرُ بخَشيةِ يومِ القِيامةِ يَتضمَّنُ وُقوعَه؛ فهو كِنايةٌ عن إثباتِ البَعثِ، وذلك حظُّ المشركينَ منه الَّذين لا يُؤمِنون به حتَّى صار سِمَةً عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ﴾[٣] [الفرقان: ٢١].

- قولُه: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا ﴾ فيه حُسْنُ تَرتيبٍ وتَناسُبٍ؛ فإنَّه لَمَّا كان الوالدُ أكثَرَ شَفقةً على الولدِ مِن الولَدِ على أبيهِ، بَدَأَ به أوَّلًا، وأتَى في الإسنادِ إلى الوالدِ بالفِعلِ المُقْتضي للتَّجدُّدِ؛ لأنَّ شَفقتَه مُتجدِّدةٌ على الولَدِ في كلِّ حالٍ، وأتَى في الإسنادِ إلى الولَدِ باسمِ الفاعلِ؛ لأنَّه يدُلُّ على الثُّبوتِ، والثُّبوتُ يَصدُقُ بالمرَّةِ الواحدةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٢، ١٩٣).
وتقدَّم تعريفُ الفذلكةِ (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤).

وقيل: إنَّ الفِعلَ يَتأتَّى وإن كان ممَّن لا ينبغي ولا يكونُ مِن شَأنِه؛ لأنَّ المَلِكَ إذا كان يَخِيطُ شَيئًا، يقال: إنَّه يَخيطُ، ولا يُقالُ: هو خَيَّاطٌ، وكذلك مَن يَحيكُ شَيئًا ولا يكونُ ذلك صَنعَتَه، يقال: هو يَحِيكُ، ولا يقالُ: هو حائِكٌ؛ فالابنُ مِن شأنِه أن يكونَ جازيًا عن والِدِه؛ لِما له عليه من الحُقوقِ، والوالِدُ يَجزي؛ لِما فيه مِنَ الشَّفَقةِ، وليس بواجِبٍ عليه ذلك، فقال في الوالِدِ: ﴿لَّا يَجۡزِي﴾، وقال في الوَلَدِ: ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ﴾[1].

- وأُوثِرَت جُملةُ ﴿وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ بطُرقٍ مِن التَّوكيدِ لمْ تَشتمِلْ على مِثلِها جِملةُ ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾؛ فإنَّها نُظِمَت جُملةً اسميَّةً، ووُسِّطَ فيها ضَميرُ الفَصلِ، وجُعِلَ النَّفْيُ فيها مُنصَبًّا إلى الجنسِ. ونُكتةُ هذا الإيثارِ: مُبالَغةُ تَحقيقِ عَدمِ جَزْءِ هذا الفَريقِ عن الآخَرِ؛ إذ كان مُعظَمُ المؤمنينَ مِن الأبناءِ والشَّبابِ، وكان آباؤهم وأُمَّهاتُهم في الغالبِ على الشِّركِ؛ فأُرِيدَ حَسمُ أطماعِ آبائهم، وما عَسَى أنْ يكونَ مِن أطماعِهم أنْ يَنفَعوا آباءَهم في الآخِرةِ بشَيءٍ[2].

- أو: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أكَّدَ الوصيَّةَ على الآباءِ، وقرَنَ شُكرَهم بوُجوبِ شُكرِه عزَّ وجلَّ، وأوجَبَ على الولَدِ أنْ يَكفِيَ والدَه ما يَسُوؤُه بحسَبِ نِهايةِ إمكانِه وغايةِ طَوقِه؛ قطَعَ هنا وَهمَ الوالِدِ في أنْ يكونَ الولَدُ في القِيامةِ مَظِنَّةً لأنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٦٨).

لكن قال ابن المُنَيِّر: (هذا الجواب تتوقَّفُ صحَّتُه على أنَّ هذا الخِطابَ كان خاصًّا بالموجودينَ حينَئذٍ، والصَّحيحُ أنَّه عامٌّ لهم، ولكلِّ مَن ينطلقُ عليه اسمُ النَّاسِ). ((حاشية ابن المنير على الكشاف)) (٣/ ٥٠٤). وذكر الألوسي قولَ مَن ردَّ عليه. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٠٤).

يَجْزِيَه حقَّه عليه، ويَكْفيَه ما يَلْقاهُ مِن أهوالِ القيامةِ، كما أوجَبَ اللهُ عليه في الدُّنيا ذلك في حقِّه، ولَمَّا كان إجزاءُ الولَدِ عن الوالدِ مَظِنَّةَ الوُقوعِ ومَوطِنَ الأمَلِ -لأنَّ اللهَ حضَّه عليه في الدُّنيا-؛ كان جَديرًا بتَأكيدِ النَّفيِ؛ لإزالةِ هذا الوهْمِ، وهذا غيرُ واردٍ في حقِّ الولَدِ على الوالدِ. وقيل: الابنُ مِن شأنِه أنْ يكونَ جازيًا عن والدِه؛ لِمَا له عليه مِن الحُقوقِ، والوالدُ يَجْزي؛ لِمَا فيه مِن الشَّفقةِ، وليس الثَّاني كالأوَّلِ[1].

- وعُبِّرَ بـ﴿مَوْلُودٌ﴾ دونَ (ولدٍ)؛ لإشعارِ (مَولودٍ) بالمعنى الاشتقاقيِّ دونَ (ولد) الَّذي هو اسمٌ بمَنزلةِ الجَوامدِ؛ لِقَصدِ التَّنبيهِ على أنَّ تلك الصِّلةَ الرَّقيقةَ لا تُخوِّلُ صاحبَها التَّعرُّضَ لِنَفعِ أبيه المُشرِكِ في الآخِرةِ؛ وفاءً له بما تُومِئُ إليه المَولوديَّةُ مِن تَجشُّمِ المَشقَّةِ مِن تَربيتِه؛ فلعلَّه يَتجشَّمُ الإلحاحَ في الجَزاءِ عنه في الآخِرةِ حَسْمًا لِطَمَعِه في الجزاءِ عنه، فهذا تَعكيسٌ للتَّرقيقِ الدُّنيويِّ في قولِه تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا﴾ [الإسراء: ٢٤]، وقولِه: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾[2] [لقمان: ١٥].

- وأيضًا فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، فإنَّه ذكَرَ الوالدَ والولَدَ هنا؛ لأنَّهما أشدُّ مَحبَّةً وحَميَّةً مِن غيرِهم، فيُعلَمُ أنَّ غيرَهما أَولى بهذا النَّفيِ، ووَجْهُ اختيارِ هذه الطَّريقةِ في إفادةِ عُمومِ النَّفيِ هنا دونَ طريقةِ قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ في سُورةِ البقرةِ [٤٨، ١٢٣]: أنَّ هذه الآيةَ نزَلَتْ بمكَّةَ، وأهْلُها يومئذٍ خليطٌ مِن مُسلمينَ وكافرينَ، وربَّما كان الأبُ مُسلِمًا والولَدُ كافرًا، ورُبَّما كان العكسُ، وقد يَتوهَّمُ بعضُ الكافرينَ حينَ تُداخِلُهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري – حاشية ابن المنير)) (٣/ ٥٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٤).

الظُّنونُ في مَصيرِهم بعدَ الموتِ: أنَّه إذا ظهَرَ صِدقُ وَعيدِ القُرآنِ إيَّاهم، فإنَّ مَن له أبٌ مُسلِمٌ أو ابنٌ مُسلمٌ يَدفَعُ عنه هنالك بما يَدِلُّ به على ربِّ هذا الدِّينِ، وقد كان قارًّا في نُفوسِ العرَبِ التَّعويلُ على المَولى والنَّصيرِ، تَعويلًا على أنَّ الحَمِيَّةَ والأَنَفةَ تَدفَعُهم إلى الدِّفاعِ عنهم في ذلك الجَمْعِ، وإنْ كانوا مِن قَبْلُ مُختلِفينَ، فهم لِضِيقِ عطَنِ أفهامِهم يَقيسُون الأمورَ على مُعتادِهم. وهذا أيضًا وَجْهُ الجَمْعِ بيْن نَفْيِ جَزاءِ الوالدِ عن ولَدِه وبيْن نَفْيِ جزاءِ الولَدِ عن والدِه؛ لِيَشمَلَ الفريقينِ في الحالتينِ، فلا يُتوهَّمُ أنَّ أحَدَ الفريقينِ أرْجى في المَقصودِ[1].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ عِلَّةٌ لِجُملتَيْ ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا﴾، وأكَّدَ الخبرَ بـ (إنَّ)؛ مُراعاةً لِمُنْكري البَعثِ[2].

- وإذ قد كانتْ شُبْهتُهم في إنكارِه مُشاهَدةَ النَّاسِ يَموتون ويَخلُفُهم أجيالٌ آخَرونَ، ولم يَرجِعْ أحَدٌ ممَّن مات منهم، وقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وقالوا: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]؛ فرَّعَ على هذا التَّأكيدِ إبطالَ شُبهتِهم بقولِه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: لا تَغُرَّنَّكم حالةُ الحياةِ الدُّنيا بأنْ تَتوهَّموا الباطلَ حقًّا، والضُّرَّ نَفعًا[3].

- وعطَفَ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾؛ لأنَّه أدخَلُ في تَحذيرِهم ممَّن يُلْقُون إليهم الشُّبَهَ، أو مِن أوهامِ أنفُسِهم الَّتي تُخيِّلُ لهم الباطلَ حقًّا لِيَتَّهِموا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٣، ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٩٤، ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٩٥).

آراءَهم. وإذا أُرِيدَ بالغَرورِ الشَّيطانُ أو ما يَشملُه، فذلك أشدُّ في التَّحذيرِ؛ لِمَا تَقرَّرَ مِن عَداوةِ الشَّيطانِ للإنسانِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]؛ ففي التَّحذيرِ شَوبٌ مِن التَّنفيرِ(١).

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ...﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لِوُقوعِها جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ في نُفوسِ النَّاسِ، والجُمَلُ الأربَعُ الَّتي بعْدَها إدماجٌ(٢) لِجمْعِ نَظائرِها؛ تَعليمًا للأُمَّةِ(٣).

- وقد أفادَ تَأكيدُ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ بحَرْفِ (إنَّ) تَحقيقَ عِلمِ اللهِ تعالى بوَقتِ السَّاعةِ، وذلك يَتضمَّنُ تأْكيدَ وُقوعِها، وفي كَلمةِ ﴿عِندَهُۥ﴾ إشارةٌ إلى اختِصاصِه تعالى بذلك العِلمِ؛ لأنَّ العِنْديَّةَ شأْنُها الاستئثارُ. وتَقديمُ (عند) -وهو ظَرفٌ مُسنَدٌ- على المُسنَدِ إليه، يُفِيدُ التَّخصيصَ بالقَرينةِ الدَّالَّةِ على أنَّه ليس مُرادًا به مُجرَّدُ التَّقوِّي(٤).

- ولَمَّا كانوا قد ألَحُّوا في السُّؤالِ عن وَقتِها، وكانت أبعَدَ الخَمسِ عن عِلمِ الخَلْقِ، وكان شَيئًا واحِدًا لا يتجَزَّأُ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]؛ أبرَزَها سُبحانَه في جملةٍ اسميَّةٍ دالَّةٍ على الدَّوامِ والثُّبوتِ على طَريقِ الحَصرِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٥).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ١٩٦، ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٥).

- وجُملةُ ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ الخَبرِ، والتَّقديرُ: وإنَّ اللهَ يُنزِّلُ الغَيثَ؛ فيُفيدُ التَّخصيصَ بتَنزيلِ الغَيثِ. والمقصودُ أيضًا: عندَه عِلمُ وَقتِ نُزولِ الغَيثِ، وليس المقصودُ مُجرَّدَ الإخبارِ بأنَّه يُنزِّلُ الغَيثَ؛ لأنَّ ذلك ليس ممَّا يُنكِرونه، ولكنْ نُظِمَتِ الجُملةُ بأُسلوبِ الفِعلِ المُضارِعِ ﴿وَيُنَزِّلُ﴾؛ لِيَحصُلَ مع الدَّلالةِ على الاستئثارِ بالعِلمِ به الامتِنانُ بذلك المَعلومِ الَّذي هو نِعمةٌ. وفي اختيارِ الفِعلِ المُضارِعِ إفادةُ أنَّه يُجدِّدُ إنزالَ الغَيثِ المرَّةَ بعدَ المرَّةِ عندَ احتياجِ الأرضِ[1].

- وأيضًا لَمَّا كان المُشرِكونَ يَنسُبونَ الغَيثَ إلى الأنواءِ، أسنَدَ الإنزالَ إليه سُبحانَه؛ لِيُفيدَ الامتِنانَ[2].

- قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ أي: يَنفرِدُ بعِلمِ جميعِ أطوارِه؛ مِن نُطفةٍ، وعَلَقةٍ، ومُضْغةٍ، ثمَّ مِن كونِه ذكَرًا أو أُنْثى، وإبَّان وَضْعِه بالتَّدقيقِ. وجِيءَ بالمُضارَعِ ﴿وَيَعْلَمُ﴾؛ لإفادةِ تَكرُّرِ العِلمِ بتَبدُّلِ تلك الأطوارِ والأحوالِ، والمعنى: يَنفرِدُ بعِلمِ جميعِ تلك الأطوارِ الَّتي لا يَعلَمُها الناسُ؛ لأنَّه عطْفٌ على ما قُصِدَ منه الحصْرُ؛ فكان المُسنَدُ الفِعليُّ المُتأخِّرُ عن المُسنَدِ إليه مُفيدًا للاختصاصِ بالقَرينةِ[3].

- وأيضًا في هذه الآيةِ أضافَ فيها العِلمَ إلى نفْسِه في الثَّلاثةِ مِن الخَمسةِ المَذكورةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾، ونَفى العِلمَ عن العِبادِ في الأخيرَينِ منها في قولِه: ﴿وَمَا تَدْرِي

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧).

نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ ﴾ -مع أنَّ الخمْسةَ سَواءٌ في اختِصاصِ اللهِ تعالى بعِلْمِها، وانتفاءِ عِلمِ العِبادِ بها-؛ وذلك لأنَّ الثَّلاثةَ الأُوَلَ أمْرُها أعظَمُ وأفخَمُ؛ فخُصَّتْ بالإضافةِ إليه تعالى، والأخيرَينِ مِن صِفاتِ العِبادِ؛ فخُصَّا بالإضافةِ إليهم، مع أنَّه إذا انْتَفى عنهم عِلْمُهما، كان انتفاءُ عِلمِ ما عَداها مِن الخمْسةِ[1].

- والنُّكتةُ الَّتي دعَتْ إلى العُدولِ عن المُثبَتِ إلى المَنفيِّ في قولِه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾: هي أنَّ في نَفْيِ الدِّرايةِ المَخصوصةِ وتَكريرِها واختِصاصِها بالذِّكرِ دونَ العِلمِ -لِمَا فيها مِن معنى الحِيلةِ والخِداعِ- وفي تَكريرِ النَّفْسِ، وتَنكيرِها، وإيقاعِها في سِياقِ النَّفيِ، وتَخصيصِ ما هو مِن خُوَيْصَّةِ كلِّ نفْسٍ: الدَّلالةَ على أنَّ النَّفْسَ إنْ لم تَعرِفْ ما يُلصَقُ بها ويَختَصُّ بها وإنْ أعمَلَتْ حِيلتَها، ولا شَيءَ أخصُّ بالإنسانِ مِن كَسبِه وعاقبتِه، فإذا لم يكُنْ له طريقٌ إلى مَعرفتِهما، كان مِن مَعرفةِ ما عداهما أبعَدَ، أي: مِن مَعرفةِ وَقتِ الساعةِ، وإبَّانِ إنزالِ الغَيثِ، ومَعرفةِ ما في الأرحامِ[2].

- وقد نُسِخَ قولُه: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ على مِنوالٍ آخَرَ مِن النَّظمِ؛ بحيثُ جُعِلَ سُداهُ نَفْيَ عِلمِ أيِّ نَفْسٍ بأخَصِّ أحوالِها؛ وهو حالُ اكتِسابِها القَريبُ منها في اليَومِ المُوالي يومَ تأمُّلِها ونَظرِها، وكذلك مكانُ انقضاءِ حياتِها؛ للنِّداءِ عَليهم بقِلَّةِ عِلْمِهم، فإذا كانوا بهذه المنزلةِ في قِلَّةِ العِلمِ؛ فكيف يَتطلَّعون إلى عِلمِ أعظَمِ حوادثِ هذا العالَمِ؟! وهو حادثُ فَنائِه وانقراضِه واعتياضِه بعالَمِ الخُلودِ؟! وهذا

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢٥).

النَّفيُ للدِّرايةِ بهَذينِ الأمْرينِ عن كلِّ نَفْسٍ فيه كِنايةٌ عن إثباتِ العِلمِ بما تَكسِبُ كلُّ نَفْسٍ، والعِلمِ بأيِّ أرضٍ تَموتُ فيها كلُّ نَفْسٍ إلى اللهِ تعالى؛ فحَصَلَت إفادةُ اختصاصِ اللهِ تعالى بهَذينِ العِلمَينِ، فكانا في ضَميمةِ ما انتُظِمَ معهما ممَّا تَقدَّمَهما. وقد حصَلَ إفادةُ اختِصاصِ اللهِ تعالى بعِلمِ هذه الأُمورِ الخَمْسةِ بأفانينَ بَديعةٍ مِن أفانينِ الإيجازِ البالغِ حدَّ الإعجازِ[1].

- وفي قولِه: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ مُناسَبَةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم يَقُلْ: (بأيِّ وَقتٍ تموتُ)، مع أنَّ كُلًّا منهما غيرُ مَعلومٍ لِغَيرِه، بل نَفْيُ العِلمِ بالزَّمانِ أَوْلى؛ لأنَّ مِن الناسِ مَن يَدَّعي عِلمَه، بخِلافِ المكانِ؛ وذلك أنَّه إنَّما خَصَّ المكانَ بنَفْيِ عِلمِه؛ لأنَّ الكَونَ في مكانٍ دونَ مَكانٍ في وُسعِ الإنسانِ واختيارِه، فاعتِقادُه عِلمَ مكانِ مَوتِه أقرَبُ، بخلافِ الزَّمانِ، ولأنَّ للمكانِ دونَ الزَّمانِ تأثيرًا في جَلبِ الصِّحَّةِ والسَّقمِ، أو تَأثيرُه فيهما أكثَرُ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ مُستأْنَفةٌ ابتدائيَّةٌ واقعةٌ مَوقعَ النَّتيجةِ لِمَا تَضمَّنَه الكلامُ السابقُ مِن إبطالِ شُبْهةِ المشركينَ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣]، أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بمَدَى وَعدِه، خبيرٌ بأحوالِكم ممَّا جمَعَه قولُه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ...﴾؛ ولذا جمَعَ بيْن الصِّفتَينِ: صِفةِ عليمٍ، وصِفةِ خَبيرٍ؛ لأنَّ الثَّانيةَ أخصُّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٤٩، ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٩٩).

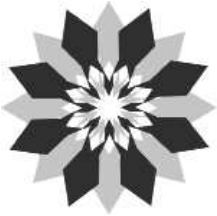

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ السَّجْدةِ

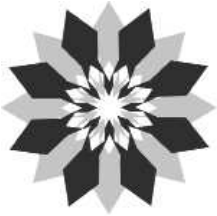

# سُورةُ السَّجْدةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

**سُمِّيَت هذه السُّورةُ بعدَّةِ أسماءٍ؛ منها:**

١- سورةُ السَّجدةِ[١].

٢- سورةُ (﴿الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدةِ):

فعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرأُ في الجُمُعةِ في صلاةِ الفَجرِ ﴿الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدةَ، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾))[٢].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

استِحبابُ القراءةِ بها في صلاةِ الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ.

وذلك لحديثِ أبي هُريرةَ المتقدِّمِ[٣].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ السَّجدةِ؛ لاشتِمالِها على سَجدةِ التِّلاوةِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٣).

قال ابن عاشور: (أشهرُ أسماءِ هذه السُّورةِ هو سورةُ السَّجدةِ، وهو أخصَرُ أسمائِها، وهو المكتوبُ في السَّطرِ المجعولِ لاسمِ السُّورةِ مِن المصاحفِ المُتداوَلةِ. وبهذا الاسمِ تَرْجَم لها التِّرمذيُّ في «جامِعِه»، وذلك بإضافةِ كلمةِ سورةٍ إلى كلمةِ السَّجدةِ. ولا بُدَّ مِن تقديرِ كلمةِ «الم» محذوفةً للاختصارِ؛ إذْ لا يَكفي مجرَّدُ إضافةِ «سورةٍ» إلى «السَّجدةِ» في تعريفِ هذه السُّورةِ، فإنَّه لا تكونُ سجدةٌ مِن سجودِ القرآنِ إلَّا في سورةٍ مِن السُّوَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠١).

وقال البِقاعي: (اسمُها السَّجدةُ مُنطَبِقٌ على ذلك بما دَعَت إليه آياتُها مِن الإخباتِ، وتَركِ الاستكبارِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٨٩١) واللفظ له، ومسلم (٨٨٠).

(٣) والحكمةُ في استحبابِ قراءةِ سورةِ (السجدةِ) و(الإنسانِ) في فجرِ يومِ الجمعةِ لِما اشتملَتْ عليه هاتان السُّورتانِ ممَّا كان ويكونُ مِن المبدأِ والمَعادِ، وحشرِ الخلائقِ، وبَعْثِهم مِن القبورِ =

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ السَّجْدةِ مَكِّيَّةٌ(١)، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك(٢).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أبرزِ المقاصِدِ الَّتي تَضمَّنَتْها سورةُ السَّجْدةِ:**

١- بَيانُ عَظَمةِ اللهِ تعالى في صِفاتِه، وكَمالِ قُدرتِه في الخَلقِ والأمرِ، والبَعثِ والجَزاءِ.

٢- التَّنويهُ بشأنِ القُرآنِ؛ لأنَّه جامعُ الهُدى الَّذي تضمَّنَتْه هذه السُّورةُ وغَيرُها(٣).

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أبرزِ المَوضوعاتِ الَّتي تناوَلَتْها سورةُ السَّجْدةِ:**

١- التَّنويهُ بالقُرآنِ وبيانُ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، والرَّدُّ على المُشرِكينَ في ادِّعائِهم أنَّه مُفترًى.

---

= إلى الجنَّةِ والنَّارِ، ففيهما بَدْءُ خلْقِ الإنسانِ، وآدمُ خُلِق يومَ الجُمُعةِ، وفيهما ذِكرُ القيامةِ، وفي يومِ الجمعةِ تقومُ السَّاعةُ؛ فاستُحِبَّ قراءةُ هاتَينِ السُّورتَينِ في هذا اليومِ تذكيرًا للأمَّةِ بما كان فيه، ويكونُ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٦٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠٨).

(١) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ منها، مِن قَولِه تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ... ﴾ إلى تمامِ الآياتِ الثَّلاثِ [السجدة: ١٨- ٢٠]. وقيل: إلَّا خَمسَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ ﴾ [السجدة: ١٦] إلى قولِه تعالى: ﴿ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٦).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٣).

(٣) ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٢٢).

٢- ذِكرُ انفِرادِ اللهِ تعالى بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ، وبيانُ بعضِ مَظاهرِ قُدرتِه، وبديعِ خَلقِه، ونشأةِ الإنسانِ.

٣- عَرْضُ جانبٍ مِن شُبهاتِ المشركينَ حوْلَ البَعثِ مع الرَّدِّ عليها.

٤- عَرضُ مَشهَدٍ مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ: مَشهَدِ المجرِمينَ وهم بيْنَ يدَيِ اللهِ يومَ القيامةِ.

٥- ذِكرُ بعضِ صفاتِ المؤمنينَ، وما أعَدَّه اللهُ لهم مِن نعيمٍ، وما أعدَّه للفاسِقينَ مِن نارِ الجَحيمِ.

٦- الإشارةُ إلى موسى عليه السَّلامُ، وما امتَنَّ الله به عليه مِن إعطائِه التَّوراةَ، وما امتنَّ به على الصَّالِحينَ مِن قَومِه؛ مِن جَعْلِهم أئمَّةً.

٧- دعوةُ المشركينَ إلى التَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ في آياتِ الله.

٨- حكايةُ جانبٍ مِن سفاهاتِ المشركين، مع أمْرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالرَّدِّ عليهم وتهديدِهم.

٩- أمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم، ووعْدُه بالنَّصرِ عليهم، وأن يَنتظِرَ.

## الآيات (١-٥)

﴿الٓمٓ ١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ٣ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٤ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ٥﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾: أي: لا شكَّ فيه، والرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو شكٌّ مع قلَقٍ وريبةٍ، وهو مصدرُ (رابَني الشَّيءُ): إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وحقيقةُ الرِّيبةِ: قلَقُ النَّفْسِ واضْطِرابُها، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شكٍّ، أو شكٍّ وخَوفٍ[1].

﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾: أي: اختلَقه، وكذَبَه، وافتعَله، والافتراءُ: الاختلاقُ، ومنه قيل: افترَى فلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفه بما ليس فيه، وأصلُ (فري): قطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[2].

﴿نَّذِيرٖ﴾: بمعنى مُنذِرٍ، أي: محَذِّرٍ، والإنذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يكادُ يكونُ إلَّا في التَّخويفِ، وأصلُ (نذر): تخويفٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾: أي: عَلا، وارتَفَع، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ، واعتِدالٍ بينَ شيئَينِ[١].

﴿وَلِيٍّ﴾: أي: ناصرٍ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[٢].

﴿شَفِيعٍ﴾: أي: شافعٍ، يُقالُ: شفَع لِفُلانٍ: إذا جاء مُلتمِسًا مَطلَبَه، ومُعِينًا له؛ وأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه[٣].

﴿يُدَبِّرُ﴾: أي: يَقضي ويُمضي، والتَّدبيرُ: تنزيلُ الأمورِ في مراتبِها على أحكامِ عَواقبِها، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه، خِلافُ قُبُلِه[٤].

﴿يَعۡرُجُ﴾: أي: يَصعَدُ، وأصلُ (صعد): يدُلُّ على ارتفاعٍ ومَشَقَّةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٤١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٦١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ١٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٩).

قال محمد رشيد رضا: (التَّدبيرُ في أصلِ اللُّغةِ: التَّوفيقُ بينَ أوائلِ الأمورِ ومَبادِئِها، وأدبارِها وعواقِبِها، بحيثُ تكونُ المبادِئُ مُؤَدِّيةً إلى ما يُريدُ مِن غاياتِها، كما أنَّ تَدَبُّرَ الأمرِ أو القَولِ هو التَّفَكُّرُ في دُبُرِه، وهو ما وراءَه وما يُرادُ منه ويَنْتَهي إليه). ((تفسير المنار)) (١١/ ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

## المعنى الإجماليُّ:

افتتَح الله تعالى هذه السُّورةَ ببعضِ الحروفِ المقطَّعةِ، وتقدَّم الكلامُ عن الحروفِ المُقطَّعةِ في تَفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّومِ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ بلا شكٍّ نزَلَ مِن عندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ، ثمَّ يُخاطِبُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا: بل أيَقولُ المُشرِكونَ: اختلَقْ هذا القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه؟! ليس الأمرُ كما يقولونَ؛ فالقرآنُ هو الحقُّ المنَزَّلُ إليك مِن رَبِّك؛ لِتُنذِرَ به قَومًا لم يأتِهم رَسولٌ يُنذِرُهم مِن قَبلِك؛ لعلَّهم يَعرِفونَ الحقَّ فيَهتَدونَ!

ثمَّ أثنَى الله سبحانَه على ذاتِه، فقال: الَّذي يَستحِقُّ العِبادةَ وَحْدَه هو الَّذي خلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِن الخَلقِ في ستَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ علا على عَرشِه كما يليقُ بجَلالِه سُبحانَه، ليس لكم مِن دونِه سُبحانَه وليٌّ يَتولَّى أمرَكم، ولا شَفيعٌ يَشفَعُ لكم عِندَه، أفلا تَتذَكَّرونَ؟!

يُدبِّرُ اللهُ أمْرَ خَلْقِه فيَنزِلُ قَضاؤُه مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، ثمَّ يَصعَدُ إليه في يومٍ كان مِقدارُه ألْفَ سَنةٍ، كما تَحسُبونَ مِن أيَّامِكم في الدُّنيا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿الٓمٓ ١﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الرُّومِ[1].

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾.

أي: هذا القُرآنُ لا شكَّ أنَّه نَزَل مِن عندِ اللهِ الخالِقِ المالِكِ المدَبِّرِ لجَميعِ

(١) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠-١١).

العالَمينَ[١].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

أي: بل أيَقولُ[٢] المُشرِكونَ: اختلَقَ مُحمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبَه إلى اللهِ كَذِبًا[٣]؟!

﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَقولونَ؛ فالقُرآنُ هو الصِّدقُ الثَّابِتُ المنَزَّلُ إليك مِن عندِ رَبِّك يا مُحمَّدُ[٤].

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾.

أي: لِتُنذِرَ بالقُرآنِ وتُحَذِّرَ به قَومًا لم يأتِهم رَسولٌ يُنذِرُهم مِن قَبْلِك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٤، ١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥).

قال القرطبي: (﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ قال قَتادةُ: يعني: قُرَيشًا، كانوا أُمَّةً أُمِّيَّةً لم يأتِهم نذيرٌ مِن قبْلِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... وقيل: المرادُ بالقَومِ: أهلُ الفَترةِ بينَ عيسى ومحمَّدٍ عليهما =

كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦].

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

أي: لعلَّهم يَعرِفونَ الحَقَّ ويُؤمِنونَ به ويتَّبِعونَه[١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الرِّسالةَ، بيَّنَ ما على الرَّسولِ مِن الدُّعاءِ إلى التَّوحيدِ، وإقامةِ الدَّليلِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان الرُّكنُ الأعظَمُ مِن أركانِ هُدى الكتابِ هو إثباتَ الوحدانيَّةِ للإلهِ، وإبطالَ الشِّركِ: عقَّب الثَّناءَ على الكِتابِ بإثباتِ هذا الرُّكنِ[٣].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: المعبودُ الَّذي لا تَصلُحُ العِبادةُ إلَّا له: هو الَّذي أوجَدَ السَّمواتِ السَّبْعَ

---

= الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومُقاتِلٌ. وقيل: كانت الحُجَّةُ ثابتةً لله عزَّ وجَلَّ عليهم بإنذارِ مَن تقَدَّم مِن الرُّسُلِ وإنْ لم يَرَوا رَسولًا). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بهم: قُرَيشٌ: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بهم: العَرَبُ كافَّةً: الواحدي، والبِقاعي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١١).

والأرَضِينَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ في سِتَّةِ أيَّامٍ؛ أوجَدَها مِنَ العَدَمِ بتَقديرٍ ونِظامٍ[١].

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾.

أي: ثمَّ علا اللهُ تعالى وارتفَع على عَرشِه كما يَليقُ بجَلالِه سُبحانَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍ﴾.

أي: ليس لكم[٣] ممَّن سِوَى اللهِ وَلِيٌّ يتولَّى أمْرَكم ويَنفَعُكم، ولا شَفيعٌ يَشفَعُ لكم عندَ رَبِّكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٢٠، ٢١).

قال القرطبي: (﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مِن يومِ الأحَدِ إلى آخِرِ يومِ الجُمُعةِ. قال الحَسَنُ: مِن أيَّامِ الدُّنيا. وقال ابنُ عبَّاسٍ: إنَّ اليومَ مِن الأيَّامِ السِّتَّةِ الَّتي خلَقَ اللهُ فيها السَّمَواتِ والأرضَ مِقْدارُه ألْفُ سَنةٍ مِن سِنِي الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٢٣-٢٩).

(٣) قيل: الخِطابُ لِعُمومِ النَّاسِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٢٩).

وقيل: الخِطابُ للكافِرينَ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٢٩، ٣٠).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (فالوَليُّ: الَّذي يَتولَّى أمْرَكَ كُلَّه، والشَّفيعُ: الَّذي يكونُ شافِعًا فيه، أي: عَونًا؛ فليس للعبدِ دونَ اللهِ مِن وليٍّ يَستَقِلُّ، ولا ظَهيرٍ مُعينٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١/ ٧٣).

﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: أفلا تَتذَكَّرونَ ما تَعلَمونَه مِن أنَّه الخالِقُ وحْدَه الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، واستوى على عَرشِه، ومِن أنَّه لا حُجَّةَ لِشَيءٍ ممَّا أشرَكتُموه به؟! فهو الَّذي انفردَ بتَدبيرِكم وتَولِّيكم، وله الشَّفاعةُ كُلُّها، وهو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له[1].

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى الخَلْقَ؛ بيَّنَ الأمرَ، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، والعَظَمةُ تتبيَّنُ بهما؛ فإنَّ مَن يَملِكُ مماليكَ كثيرينَ عُظَماءَ تكونُ له عَظَمةٌ، ثمَّ إذا كان أمْرُه نافِذًا فيهم يَزدادُ في أعيُنِ الخَلقِ، وإن لم يكُنْ له نَفاذُ أمرٍ يَنقُصُ مِن عَظَمتِه[2].

وأيضًا لَمَّا نفَى اللهُ تعالى أن يكونَ له شَريكٌ أو وَزيرٌ في الخَلقِ؛ ذكَرَ كيف يَفعَلُ في هذا المُلكِ العَظيمِ الَّذي أبدَعَه في سِتَّةِ أيَّامٍ؛ مِن عالَمِ الأرواحِ والأمرِ[3].

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٣٠، ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣٢).

أي: يُدَبِّرُ اللهُ أمرَ خَلْقِه بما يَشاءُ، فيَنزِلُ تَقديرُه وقَضاؤُه مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ[١]، ثمَّ يَصعَدُ إليه مِنَ الأرضِ إلى السَّماءِ في[٢] يومٍ كان مِقدارُه ألْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَحسُبونَ مِن أيَّامِكم في الدُّنيا[٣].

---

(١) قال السعدي: (﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ القَدَريَّ والأمرَ الشَّرعيَّ، الجميعُ هو المتفَرِّدُ بتدبيرِه، نازلةٌ تلك التَّدابيرُ مِن عندِ المليكِ القَديرِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، فيُسعِدُ بها ويُشقي، ويُغْني ويُفقِرُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويُكرِمُ ويُهينُ، ويَرفَعُ أقوامًا ويَضَعُ آخَرينَ، ويُنزِلُ الأرزاقَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

(٢) قال الشوكاني: (هذا اليومُ هو عبارةٌ عن زَمانٍ يتقَدَّرُ بألْفِ سَنَةٍ، وليس المرادُ به مُسمَّى اليومِ الَّذي هو مُدَّةُ النَّهارِ بينَ ليلتَينِ، والعَرَبُ قد تعبِّرُ عن المدَّةِ باليوم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٦).
وقال ابن عثيمين: ( «في» للظَّرفيَّةِ، ولا تَستلزِمُ الاستيعابَ، يعني: ليس بلازمٍ أنَّ الأمرَ يَنزِلُ مَثلًا عندَ صلاةِ الفَجرِ، ولا يَعرُجُ إلَّا في الغروبِ؛ فقد يَنزِلُ ويَعرُجُ في لحظةٍ حَسَبَ ما أراد اللهُ عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٣٦، ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٢، ٥٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).
قال السمعاني: (﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ فيه قولانِ؛ أحدُهما: ثمَّ يَعرُجُ الملَكُ إليه بعدَ نُزولِه بالأمرِ. والقولُ الثَّاني: ثمَّ يَعرُجُ إليه أي: يَعرُجُ الأمرُ إليه، ومعنى عُروجِ الأمرِ إليه: صَيرورةُ الأمرِ كلِّه إليه، وسقوطُ أمرِ الخَلقِ كلِّهم). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٧، ٤٣٨).
ممَّن اختار أنَّ المعنَى: عروجُ ذلك الأمرِ إليه ونزولُه إلى الأرضِ في ألْفِ سَنةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ مِن أيَّامِكم: ابنُ جرير، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).
وقال العُلَيمي: (ينزلُ الملَكُ بالوحْيِ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ، ثمَّ يَرجِعُ إلى مَقَرِّه منها). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢١).
وقال الواحدي: (﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: القَضاءَ مِنَ السَّماءِ فيُنزِلُه إلى الأرضِ مدَّةَ أيَّامِ الدُّنيا ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أيْ: يَرجِعُ الأمرُ والتَّدبيرُ إلى السَّماءِ ويعودُ إليه بعدَ =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ تَوبيخُ مَن لا يَتذكَّرُ بعدَ هذا البَيانِ، وهذه الفائِدةُ تترتَّبُ عليها فائِدةٌ أخرى، وهي: وُجوبُ التَّذَكُّرِ بآياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ الإنسانَ يَتذَكَّرُ بآياتِ اللهِ، ولا يَمُرُّ عليها كأنَّها ألفاظٌ عابِرةٌ[1]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ؛ فإنَّ النُّزولَ لا يكونُ إلَّا مِن أعلَى[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا القرآنَ مُلْزَمٌ به جميعُ الناسِ، فإذا كان ربُّهم الَّذي أنزَله؛ فمعناه أنَّه يَلْزَمُهم جميعًا العملُ بهذا القرآنِ، فإنه لَمَّا أراد أنْ يُتَّبَعَ أمرُ القُرآنِ مِن حيثُ هو قرآنٌ؛ بَيَّنَ أنَّه نازِلٌ مِن ربِّ العالَمينَ الَّذي يَعتمِدُ عليه هؤلاء العالَمونَ، فنَزَّلَ عليهم الكِتابَ؛ لأنَّه لَمَّا كان ربَّ العالَمينَ وَجَبَ على جميعِ العالَمينَ أن يَقبَلوا هذا[3].

٣- إن قيلَ: كيف الجَمعُ بينَ قَولِه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:

---

= انقِضاءِ الدُّنيا وفَنائِها ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وهو يومُ القيامةِ). ((الوجيز)) (ص: ٨٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣، ١٤).

٢٤] وبينَ قَولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾؟

**فالجوابُ**: أنَّهم لم يأتِهم نَذيرٌ مُعاصِرٌ لهم، فلا يُعارِضُ ذلك مَن تقدَّمَ قبْلَ عَصرِهم.

وأيضًا فإنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أنَّ نبُوَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ليست ببِدْعٍ؛ فلا ينبغي أن تُنكَرَ؛ لأنَّ اللهَ أرسَلَه كما أرسَلَ مَن قَبْلَه، والمرادُ بقَولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أنَّهم مُحتاجونَ إلى الإنذارِ؛ لِكَونِهم لم يتقَدَّمْ مَن يُنذِرُهم؛ فاختلَفَ سياقُ الكلامِ، فلا تَعارُضَ بيْنَهما[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه سُؤالٌ: التَّخصيصُ بالذِّكرِ يدُلُّ على نَفْيِ ما عداه؛ فقَولُه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم﴾ يُوجِبُ أن يكونَ إنذارُه مُختَصًّا بمَنْ لم يأتِه نذيرٌ، لكِنَّ أهلَ الكتابِ قد أتاهم نذيرٌ، فلا يكونُ الكِتابُ مُنزَّلًا إلى الرَّسولِ لِيُنذِرَ أهلَ الكِتابِ، فلا يكونُ رَسولًا إليهم؟!

**الجوابُ: أنَّ هذا فاسِدٌ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ التَّخصيصَ لا يُوجِبُ نفْيَ ما عَداه.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ مَن يقولُ: التَّخصيصُ يُوجِبُ نَفْيَ ما عَداه، يوافِقُ غيرَه في أنَّ التَّخصيصَ إن كان له سَبَبٌ غيرُ نفْيِ ما عَداه، لا يُوجِبُ نَفْيَ ما عداه، وهاهنا وُجِدَ ذلك؛ لأنَّ إنذارَهم كان أَولى، فوقع التَّخصيصُ لأجْلِ ذلك، ألَا ترى أنَّه تعالى قال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ولم يُفهَمْ منه أنَّه لا يُنذِرُ غيرَهم، أو لم يُؤمَرْ بإنذارِ غَيرِهم.

---

(١) يُنظر: (( تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٤).

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّه على ما ذُكِرَ لا يَرِدُ ذلك أصلًا؛ لأنَّ أهلَ الكتابِ كانوا قد ضَلُّوا، ولم يأتِهم نذيرٌ مِن قَبْلِ محمَّدٍ بعدَ ضَلالِهم؛ فلَزِمَ أن يكونَ مُرسَلًا إلى الكُلِّ على درجةٍ سواءٍ(١).

٥- أيَّدَ اللهُ كَوْنَ القُرآنِ غيرَ مُفترًى، وأنَّه الحقُّ ببَيانِ غايتِه، حيثُ قال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ فإنَّ بَيانَ غايةِ الشَّيءِ وحِكمتِه -لا سيَّما عندَ كَونِها غايةً حَميدةً، مُستتبِعةً لِمَنافعَ جليلةٍ في وَقتِ شِدَّةِ الحاجةِ إليها- ممَّا يُقرِّرُ وُجودَ الشَّيءِ ويُؤكِّدَه لا مَحالةَ(٢).

٦- قولُه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إنْ قِيل: ما الحِكمةُ في خَلْقِها في ستَّةِ أيَّامٍ، وكان قادرًا على خلْقِها في طَرْفةِ عَينٍ؟

قِيل: لأنَّ خَلْقَها على التَّأنِّي أدَلُّ على حكمتِه، ولُطفِ تدبيرِه، وفيه أيضًا تعليمُ النَّاس، وتنبيهُ العِبادِ على التَّأنِّي في الأُمورِ، وأنَّ لكلِّ شَيءٍ عندَه أجَلًا(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ إبطالُ قَولِ الملاحِدةِ القائلينَ بقِدَمِ العالَمِ، وأنَّ اللهَ سُبحانَه لم يَخْلُقْه بقُدرتِه ومَشيئتِه، ومَن أثبَتَ منهم وُجودَ الرَّبِّ جَعَلَه لازِمًا لِذاتِه أوَّلًا وأبدًا غيرَ مخلوقٍ، كما هو قولُ بعضِ الفلاسفةِ وأتْباعِهم مِن الملاحدةِ الجاحدينَ لِمَا اتَّفَقَت عليه الرُّسُلُ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- والكُتُبُ، وشَهِدَت به العُقولُ والفِطَرُ(٤).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أنَّ بينَ السَّمواتِ والأرضِ مِن الآياتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٩٥).

شيئًا كبيرًا؛ حيث جعلَه قَسيمًا لِخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ومقابلًا له[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ خَلْقَ العَرشِ قبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإنَّه يقتَضي أنَّه استَوى على العَرشِ بعدَ خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولم يَذكُرْ أنَّه خَلَقَه حينَئذٍ، ولو كان خَلَقَه حينَئذٍ لكان قد ذَكَر خَلْقَه ثمَّ استِواءَه عليه، ولأنَّ ذِكْرَه للاستِواءِ عليه دونَ خَلْقِه دَليلٌ على أنَّه كان مَخلوقًا قبْلَ ذلك[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ دَلالةٌ على بُطلانِ تأويلِ الاستِواءِ بمعنى المِلْكِ؛ لأنَّه سُبحانَه أخبَرَ أنَّه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّام، ثمَّ استوى على العَرشِ استواءً يليقُ بجلالِه، وقد أخبرَ أنَّ العَرشَ كان مَوجودًا قبْلَ خَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، كما دلَّ على ذلك الكِتابُ والسُّنَّةُ، وحينَئذٍ فهو مِن حِينِ خلَقَ العَرشَ مالِكٌ له مُستَولٍ عليه؛ فكيف يكونُ الاستواءُ عليه -على تأويلِه بالمِلْكِ- مؤخَّرًا عن خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؟! وأيضًا فاللهُ مالِكٌ لكُلِّ شَيءٍ، مُستَولٍ عليه؛ فكيف يُخَصُّ العرشُ بالاستواءِ على هذا التأويلِ[٣]؟!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إثباتُ قيامِ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الاستِواءَ مِن الأفعالِ الَّتي يفعَلُها بمَشيئتِه، وهي الَّتي يُعَبَّرُ عنها أحيانًا بالصِّفاتِ الفِعليَّةِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ إثباتُ استواءِ اللهِ على عَرشِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣١).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٢).

وهو عُلُوُّه واستِقرارُه عليه بدونِ تكييفٍ[١]، وإبطالُ قولِ المُعطِّلةِ والجهميَّةِ الَّذين يقولون: ليس على العرشِ شَيءٌ سِوى العَدَمِ! وإنَّ اللهَ ليس مُستويًا على عرشِه! إلى غيرِ ذلك مِن أقوالِهم الباطلةِ[٢]!

وقد وَصَفَ الله تعالى نفسَه بالاستواءِ على العرشِ في سبعِ آياتٍ مِن كتابِه؛ في هذه السورةِ وفي (الأعرافِ) و(يونسَ) و(الرعدِ) و(طه) و(الفرقانِ) و(الحديدِ)، ولم يذكُرْ صفةَ الاستواءِ في أحدِ تلك المواضعِ السبعةِ إلا مقرونةً بشيءٍ مِن صفاتِ الكمالِ والجلالِ يُبْهِرُ العقولَ، ويقضي بأنَّه العظيمُ الأعظمُ التي لا يُماثلُه شيءٌ في شيءٍ مِن صفاتِه، ولا في ذاتِه، ولا أفعالِه، وأنَّ جميعَ تلك الصفاتِ بما فيها الاستواءُ لا يجوزُ جَحْدُ شيءٍ منها ولا إنكارُه[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ الَّذين يَدَّعونَ أنَّ أمرَ الإنسانِ مُستقِلٌّ به؛ لأنَّنا نقولُ: إنَّ فِعلَ الإنسانِ مِن الأمرِ، والَّذي يُدبِّرُه هو اللهُ عزَّ وجلَّ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فقَولُه تعالى: ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا النُّزولُ، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ هذا الصُّعودُ، ولا نُزولَ إلَّا مِن عالٍ، ولا صعودَ إلَّا إلى عالٍ؛ فيُستفادُ عُلُوُّ اللهِ تعالى مِن الجُملتينِ؛ مِن كلٍّ واحدةٍ على انفرادٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٢).

(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٧). ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٣٣).

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال في سُورةِ (السَّجدة): ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾، وقال في سُورةِ (المعارج): ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٤]؛ فوقَعَ اختلافٌ في تَقديرِ اليومِ.

ووَجْهُ ذلك: أنَّ المُرادَ في سُورةِ (الحجِّ) تَبْيينُ أفْعالِه سُبحانَه، وأنَّه لا تكلُّفَ فيها ولا مُعالجةَ؛ فكأنْ قد قِيل لهم: إذا شاء هذا بكمْ وأراد إنفاذَهُ، كان وتَحصَّلَ في الوقتِ الوَجيزِ القريبِ منه ما تُقدِّرونَ حُصولَه ومُعالَجةَ وُقوعِه، أو تُقدِّرون تَهيئتَهُ ونُفوذَه بألْفِ سَنةٍ مِن أيَّامِكم، وإذا أراد سُبحانَه وُقوعَ ذلك كان عن أمْرِه (كُن) أعجَلَ مِن كلِّ عاجِلٍ؛ فلِمَ يَسْتعجِلون ما لا تَكلُّفَ في وُقوعِه وحُلولِه؟! وعلى هذا قولُه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾؛ فالمُرادُ أنَّ بُعْدَ هذه المسافةِ لا تَحولُ دونَ استعجالِ نُفوذِ تَدبيرِه، وإمضاءِ مَقاديرِه، وأنَّه سُبحانَه لَيُدَبِّرُها، ثمَّ تَرجِعُ إليه في وَقْتٍ لو وُكِّلَ ذلك إليكم، وكان مِن مَقدوراتِكم؛ لَفَعلتُموهُ في ألْفِ سَنةٍ. وأمَّا آيةُ (المعارِجِ) فالمُرادُ باليومِ المذكورِ فيها يومُ القيامةِ؛ ففيه مِن الأعمالِ المُتعلِّقةِ بالخَلْقِ ما يَتقدَّرُ وُقوعُه وتخلُّصُه مِن أيَّامِ الدُّنيا على مُتعارفِها -مع عَظيمِ أهْوالِه، وشِدَّةِ كُروبِه- مِن أيَّامِنا بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ[1]. وقيل: يومُ الألْفِ في سُورةِ (السَّجدةِ) هو مِقدارُ سَيرِ الأمْرِ وعُروجِه إليه تعالى. ويومُ الألْفِ في سُورةِ (الحجِّ) هو أحَدُ الأيَّامِ السِّتَّةِ الَّتي خلَقَ اللهُ فيها السَّمواتِ. ويومُ الخمسينَ ألْفًا هو يومُ القيامةِ. وقيل: المُرادُ بها جَميعِها يومُ القيامةِ، وإنَّ الاختلافَ باعتبارِ حالِ المُؤمِنِ والكافِرِ؛ بدليلِ قولِه: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٦٠، ٣٦١).

يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾[١] [المدثر: ٩، ١٠].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ افتُتِحَتِ السُّورةُ بالتَّنويهِ بشَأْنِ القُرآنِ؛ لأنَّه جامعُ الهُدى الَّذي تَضمَّنَتْه هذه السُّورةُ وغيرُها، ولأنَّ جِماعَ ضَلالِ الضَّالِّينَ هو التَّكذيبُ بهذا الكتابِ؛ فاللهُ جعَلَ القُرآنَ هُدًى للنَّاسِ، وخصَّ العرَبَ أنْ شَرَّفَهم بجَعلِهم أوَّلَ مَن يَتلقَّى هذا الكِتابَ، وبأنْ أنزَلَه بلُغَتِهم؛ فكان منهم أشدُّ المُكذِّبينَ بما جاء به، لا جَرَمَ أنَّ تكذيبَ أولئك المُكذِّبينَ أعرَقُ في الضَّلالةِ، وأوغَلُ في أفَنِ الرَّأيِ[٢].

- وافتِتاحُ الكلامِ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾؛ لِدَلالتِها على الدَّوامِ والثَّباتِ[٣].

- وجِيءَ بالمُسنَدِ إليه ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ مُعرَّفًا بالإضافةِ لإطالتِه؛ لِيَحصُلَ بتَطويلِه ثُمَّ تَعقيبِه بالجُملةِ المُعترضةِ التَّشويقُ إلى مَعرفةِ الخبَرِ، وهو قولُه: ﴿ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، ولولا ذلك لَقِيل: (قُرآنٌ مُنزَّلٌ مِن ربِّ العالَمينَ)، أو نحوُ ذلك[٤].

- وإنَّما عُدِلَ هنا عن أُسلوبِ قولِه: ﴿ الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ في سُورةِ البقرةِ [١- ٢]؛ لأنَّ سُورةَ (البَقرةِ) نازلةٌ بيْن ظَهرانَي المُسلمينَ، ومَن يُرْجَى إسلامُهم مِن أهلِ الكِتابِ، وهمُ (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا

---

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٣، ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) [البقرة: ٤]، وأمَّا هذه السُّورةُ (السَّجدة) فقد جابَهَ اللهُ بها المُشركينَ الَّذين لا يُؤمِنون بالإلهِ الواحدِ، ولا يُوقِنون بالآخرةِ؛ فهم أصلَبُ عُودًا، وأشدُّ كُفْرًا وصُدودًا[١].

- ووقَعَت جُملةُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بأُسلوبِ المَعلومِ المُقرَّرِ؛ فلم تُجعَلْ خَبرًا ثانيًا عن المُبتدأِ؛ لِزيادةِ التَّشويقِ إلى الخبَرِ؛ لِيُقرَّرَ كَونُه مِن ربِّ العالَمينَ[٢].

- واستِحضارُ الجَلالةِ بطَريقِ الإضافةِ بوَصفِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دونَ الاسمِ العَلَمِ وغيرِه مِن طُرقِ التَّعريفِ؛ لِمَا فيه مِن الإيماءِ إلى عُمومِ الشَّريعةِ، وكَوْنِ كِتابِها مُنزَّلًا للنَّاسِ كلِّهم، بخِلافِ ما سبَقَ مِن الكُتبِ الإلهيَّةِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مِن جُملةِ دَواعي تَكذيبِهم به: أنَّه كيفَ خَصَّ اللهُ برِسالتِه بَشرًا منهم؟! حَسَدًا مِن عندِ أنفُسِهم؛ لأنَّ رُبوبيَّةَ اللهِ للعالَمينَ تُنبِئُ عن أنَّه لا يُسأَلُ عمَّا يَفعَلُ، وأنَّه أعلَمُ حيث يَجعَلُ رِسالاتِه[٣]، وأيضًا لأنَّ كِتابَ مَن يكونُ رَبَّ العالَمينَ يكونُ فيه عجائِبُ العالَمينَ، فتدعو النَّفْسُ إلى مُطالعتِه[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ (أم) للإضرابِ عن الكلامِ السَّابقِ إضرابَ انتقالٍ، وهي (أَم) المُنقطِعةُ الَّتي بمعنى (بَل)، وهي مُؤْذِنةٌ باستِفهامٍ بالهَمزةِ، والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَها هنا تَعجُّبيٌّ؛ لأنَّهم قالوا هذا القولَ الشَّنيعَ، وعَلِمَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٣٥).

النَّاسُ عنهم؛ فلا جَرَمَ كانوا أحِقَّاءَ بالتَّعجُّبِ مِن حالِهم ومَقالِهم؛ لأنَّهم أبْدَوا به أمْرًا غَريبًا يَعجَبُ منه العُقلاءُ ذَوو الأحلامِ الرَّاجحةِ، والنُّفوسِ المُنصِفةِ؛ إذ دَلائلُ انتفاءِ الرَّيبِ عن كَونِه مِن ربِّ العالَمينَ واضحةٌ، بَلْهَ[1] الجَزْمَ بأنَّه مُفترًى على اللهِ تعالى[2]!

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ صِيغَ الخَبرُ عن قَولِهم العَجيبِ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لاستِحضارِ حالةِ ذلك القولِ؛ تَحقيقًا للتَّعجُّبِ منه؛ حتَّى لا تَغفُلَ عن حالِ قَولِهم أذهانُ السَّامعينَ، وفي المُضارعِ مع ذلك إيذانٌ بتَجدُّدِ مَقالتِهم هذه، وأنَّهم لا يُقلِعون عنها على الرَّغمِ ممَّا جاءهم مِن البيِّناتِ رَغْمَ افتِضاحِهم بالعَجْزِ عن مُعارَضتِه[3].

- وأضرَبَ على قَولِهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضرابَ إبطالٍ بقولِه: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لإثباتِ أنَّ القُرآنَ حقٌّ. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْحَقُّ﴾ تَعريفُ الجِنسِ المُفيدُ تَحقيقَ الجِنسيَّةِ فيه، أي: هو حقٌّ، ذلك الحقُّ المَعروفةُ ماهيَّتُه مِن بيْنِ الأجناسِ، والمُفارقُ لِجِنسِ الباطلِ، وفي تَعريفِ المُسندِ بلامِ الجِنسِ ذَريعةٌ إلى اعتبارِ كَمالِ هذا الجِنسِ في المُسنَدِ إليه، وهو مَعنى القَصرِ الادِّعائيِّ[4]

---

(١) بَلْهَ: بمعنَى دَعْ، وهي مَبْنِيَّةٌ على الفتحِ. وقيلَ: مَعْناها: سِوَى. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٧).

(٤) القَصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمُبالَغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه، كقولِه تعالى: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا﴾ [النساء: ١١٧]، مع أنَّهم دَعَوْا هُبَلَ ويَغُوثَ ويَعُوقَ، لكنَّهم لَمَّا أكثَروا دَعوةَ اللَّاتِ والعُزَّى ومَنَاةَ جُعِلوا كالَّذي لا يدعو إلَّا إناثًا. وقولِه تعالى في حقِّ المنافقين: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: =

للمُبالَغةِ، والحقُّ الواردُ مِن قِبَلِ اللهِ لا جَرَمَ أنَّه أكمَلُ جِنسِ الحقِّ[١].

- وفي قولِه: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ استُحْضِرَتِ الذَّاتُ العَلِيَّةُ هنا بعُنوانِ ﴿رَّبِّكَ﴾؛ لأنَّ الكلامَ جاء ردًّا على قولِهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، يَعْنون النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكان مَقامُ الرَّدِّ مُقتضيًا تأْييدَ مَن أَلْصَقوا به ما هو بَرِيءٌ منه؛ بإثباتِ أنَّ الكتابَ حَقٌّ مِن ربِّ مَن أَلْصَقوا به الافتراءَ؛ تَنْويهًا بشَأْنِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَخلُّصًا إلى تَصديقِه؛ لأنَّه إذا كان الكِتابُ الَّذي جاء به حقًّا مِن عِندِ اللهِ، فهو رسولُ اللهِ حقًّا؛ فقولُه: ﴿رَّبِّكَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تَخصيصٌ بعدَ تَعميمٍ؛ للتَّخلُّصِ إلى إثباتِ نُبوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والإيذانِ بأنَّ المُنزَّلَ الكائنَ مِن جِهةِ مالكِ العالَمينَ، ومُدبِّرِ أُمورِ المخلوقاتِ كلِّها هو الثَّابتُ مِن جِهةِ مَن هو مالكُك ومُدبِّرُ أمْرِك خاصَّةً؛ فدلَّ التَّخصيصُ بعدَ التَّعميمِ على عِظَمِ شأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ التَّصريحُ باسمِ الذَّاتِ والحَضرةِ الجامعةِ، وإثباتُ الخالقيَّةِ والمُدَبِّريَّةِ بعدَ الحُكمِ بإنزالِ هذا القرآنِ، دلَّ على تَعظيمِ شأنِ هذا المُنزَّلِ والمنزَّلِ عليه، كأنَّه قيلَ: هو الحقُّ مِن ربِّك ذلك الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، ثمَّ استوَى على العَرشِ؛ فهو مِن بابِ ترتُّبِ الحُكمِ على الوَصفِ[٢].

- قولُه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ المَقصودُ به: تَذكيرُهم بأنَّهم

---

= ٤]، مع أنَّ المتظاهِرينَ بالشِّركِ والكفرِ أعداءٌ، لكنْ لَمَّا كانت مَضَرَّةُ عَداوةِ المنافقينَ أشَدَّ جُعِلَتْ عَداوةُ غَيرِهم كلا عَداوةٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و (٣/ ٦)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٧، ٢٠٨).

أحوَجُ الأقوامِ إلى نَذيرٍ؛ إذ لم يَكونوا على بَقيَّةٍ مِن هُدًى، وإثارةُ هِمَمِهم لاغتباطِ أهلِ الكتابِ؛ لِيَتقبَّلوا الكِتابَ الَّذي أُنزِلَ إليهم، ويَسبِقوا أهلَ الكتابِ إلى اتِّباعِه؛ فيَكونَ للمُؤمنينَ منه السَّبْقُ في الشَّرعِ الأخيرِ، كما كان لِمَن لم يُسلِمْ مِن أهْلِ الكتابِ السَّبقُ ببَعضِ الاهتداءِ ومُمارَسةِ الكِتابِ السَّابقِ(٣).

- ولَمَّا حَكَى تعالى عنهم أنَّهم يَقولون: إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ افتراهُ ورَدَّ عليهم، اقتَصَرَ في ذِكرِ ما جاء به القُرآنُ على الإنذارِ، وإنْ كان قد جاء له وللتَّبشيرِ؛ لِيَكونَ ذلك رَدْعًا لهم، ولأنَّه إذا ذُكِرَ الإنذارُ، صار عندَ العاقلِ فِكرٌ فيما أُنذِرَ به؛ فلعلَّ ذلك الفِكرَ يكونُ سَببًا لِهدايتِه(٤).

- وقد جاءتْ هذه الآيةُ على أُسلوبٍ بَديعِ الإحكامِ؛ إذ ثبَتَ أنَّ الكتابَ تَنزيلٌ مِن ربِّ جميعِ الكائناتِ، وأنَّه يَحِقُّ ألَّا يَرتابَ فيه مُرتابٌ، ثمَّ انتقَلَ إلى الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن الَّذين جَزَموا بأنَّ الجائيَ به مُفتَرٍ على اللهِ، ثمَّ ردَّ عليهم بإثباتِ أنَّه الحقُّ الكاملُ مِن ربِّ الَّذي نَسَبوا إليه افتِراءَه، فلو كان افتَراهُ لَقَدَرَ اللهُ على إظْهارِ أمْرِه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤- ٤٧]، ثمَّ جاء بما هو أنْكَى للمُكذِّبينَ، وأبلَغُ في تَسفيهِ أحلامِهم، وأوغَلُ في النِّداءِ على إهمالِهم النَّظرَ في دَقائقِ المعاني؛ فبيَّنَ ما فيه تَذكرةٌ لهم ببَعضِ المَصالحِ الَّتي جاء لِأجْلِها هذا الكتابُ بقولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾؛ فقد جَمَعوا مِن الجَهالةِ ما هو ضِغْثٌ على إبَّالةٍ(٥)؛ فإنَّ هذا الكتابَ على أنَّ حَقِّيَّتَه مُقتضيةٌ المُنافَسةَ في

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٠).

(٥) ضِغْثٌ على إبَّالةٍ: أي: بليَّةٌ على أُخرى، والإبَّالةُ: الحُزمةُ مِن الحَطَبِ، والضِّغثُ: قَبضةٌ مِن =

الانتفاعِ به ولو لم يُلْفَتوا إلى تَقلُّدِه، وعلى أنَّهم دُعوا إلى الأخْذِ به، وذلك ممَّا يُوجِبُ التَّأمُّلَ في حقِّيَّتِه؛ على ذلك كلِّه فهُم كانوا أحْوَجَ إلى اتِّباعِه مِن اليهودِ والنَّصارى والمجوسِ؛ لأنَّ هؤلاء لم تَسبِقْ لهم رِسالةُ مُرسَلٍ؛ فكانوا أبعَدَ عن طُرقِ الهُدَى بما تَعاقَبَ عليهم مِن القُرونِ دونَ دَعوةِ رسولٍ، فكان ذلك كافيًا في حِرصِهم على التَّمسُّكِ به، وشُعورِهم بمَزيدِ الحاجةِ إليه؛ رَجاءً منهم أنْ يَهتَدوا[1].

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ جِيءَ باسمِ الجَلالةِ مُبتدأً؛ لإحضارِه في الأذهانِ بالاسمِ المُختصِّ به؛ قَطعًا لِدابرِ عَقيدةِ الشَّريكِ في الإلهيَّةِ، وجِيءَ باسمِ المَوصولِ (الَّذي)؛ للإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخبَرِ، وأنَّه الانفرادُ بالرُّبوبيَّةِ لجَميعِ الخلائقِ في السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، ومِن أولئك: المُشرِكون المَعْنيُّون بالخَبرِ. والخِطابُ مُوجَّهٌ إلى المُشركينَ على طَريقةِ الالْتفاتِ[2].

- قولُه: ﴿مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ﴾ (مِن) زائدةٌ؛ لِتأكيدِ النَّفيِ، أي: لا وَليَّ لكم ولا شَفيعَ لكم غيرُ اللهِ؛ فلا وِلايةَ للأصنامِ، ولا شَفاعةَ لها؛ إبطالًا لِمَا زَعَموه

---

= حشيشٍ، مُختَلطةُ الرَّطبِ باليابسِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٦١٩)، ((مجمع الأمثال)) للميداني (١/ ٤١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١١).

لأصنامِهم مِن الوَصفينِ إبطالًا راجعًا إلى إبطالِ الإلهيَّةِ عنها[١].

- وفُرِّعَ على هذا الدَّليلِ إنكارٌ على عَدمِ تَدبُّرِهم في ذلك، وإهمالِهم النَّظرَ بقولِه: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾؛ فهو استِفهامٌ إنكاريٌّ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾

- قولُه: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ المَقصودُ مِن حَرفَي الابتِداءِ والانتِهاءِ (مِن وإلى) شُمولُ تَدبيرِ اللهِ تعالى الأُمورَ كلَّها في العالَمَينِ العُلويِّ والسُّفليِّ، تَدبيرًا شاملًا لها مِن السَّماءِ إلى الأرضِ؛ فأفادَ حَرفُ الانتهاءِ شُمولَ التَّدبيرِ لأُمورِ كلِّ ما في السَّمواتِ والأرضِ وفيما بيْنَهما. والتَّعريفُ في كلمةِ ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ مُفيدٌ لاستِغراقِ الأُمورِ كلِّها، لا يَخرُجُ عن تَصرُّفِه شَيءٌ منها[٣].

- وقيل: (ألْفٌ) يَجوزُ أنْ يُستعمَلَ كِنايةً عن الكَثرةِ الشَّديدةِ، كما يُقال: زُرْتُك ألْفَ مرَّةٍ، وقولُه تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، وهو هنا بتَقديرِ كافِ التَّشبيهِ، أو كلمةِ (نَحو)، أي: كان مِقدارُه كألْفِ سَنةٍ، أو نَحوَ ألْفِ سَنةٍ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. ويَجوزُ أنْ يكونَ (ألْفٌ) مُستعمَلًا في صَريحِ مَعناهُ. وقولُه: ﴿مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي: ممَّا تَحْسُبون في أعدادِكم، و(ما) مَصدريةٌ أو مَوصوليَّةٌ، وهو وَصفٌ لـ ﴿أَلْفَ سَنَةٍ﴾. وهذا الوصفُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لا يَقْتضي كَوْنَ اسمِ (ألْفٍ) مُستعمَلًا في صَريحِ معناهُ؛ لأنَّه يَجوزُ أنْ يكونَ إيضاحًا للتَّشبيهِ؛ فهو قَريبٌ مِن ذِكرِ وَجهِ الشَّبهِ مع التَّشبيهِ، وقد يَترجَّحُ أنَّ هذا الوَصفَ لَمَّا كان في مَعنى الموصوفِ صار بمَنزلةِ التَّأكيدِ اللَّفظيِّ لِمَدلولِه، فكان رافعًا لاحتِمالِ المجازِ في العدَدِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٤).

## الآيات (٦-١١)

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٦ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٩ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠ ۞ قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَسۡلَهُۥ﴾: أي: ولدَه وذرِّيَّتَه، وسُمِّي نسلًا لأنَّه يَنسَلُّ -أي: ينفصلُ- مِن أصلِه، والنَّسْلُ: الانفصالُ عن الشيءِ، وتَناسَلوا: وُلِد بعضُهم مِن بعضٍ، وأصلُ (نسل): يَدُلُّ على سَلِّ شيءٍ وانسلالِه[1].

﴿سُلَٰلَةٖ﴾: السُّلالةُ: فُعالةٌ مِن السَّلِّ، وهو استِخراجُ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، ومِن هذا يُقالُ للنُّطفةِ: سُلالةٌ، وللوَلَدِ: سَلِيلٌ وسُلالةٌ، وأصلُ (سل): يدُلُّ على مَدِّ الشَّيءِ في رِفقٍ وخَفاءٍ[2].

﴿مَّهِينٖ﴾: أي: ضَعيفٍ مُمتَهَنٍ لا يُعبأُ به، وأصلُ (مهن): يدُلُّ على احتِقارٍ وحَقارةٍ في الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، =

﴿ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾: جمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ذلك الإلهُ هو سُبحانَه العالِمُ بكُلِّ ما غاب عن خَلقِه، وبكُلِّ ما هو مُشاهَدٌ، وهو العزيزُ الرَّحيمُ، الَّذي أتقَن خَلْقَ كلِّ شَيءٍ، وخلَق آدَمَ مِن طينٍ، ثمَّ خَلَق ذُرِّيَّتَه مِن مَنيٍّ ضَعيفٍ رقيقٍ، ثمَّ سَوَّاه اللهُ خَلْقًا مُعتَدِلًا، ونفَخَ فيه الرُّوحَ، وجعَل اللهُ لكم السَّمعَ والأبصارَ والأفئدةَ، ثم أنتم مع كلِّ هذه النِّعَمِ قليلًا ما تَشكُرونَه!

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى شُبُهاتِ المشركينَ، ويرُدُّ عليها، فيقولُ: وقال المُشرِكونَ استِبعادًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: أئِذا تفرَّقَت أجسادُنا في الأرضِ وبَلِيَت أئِنَّا لَنَعودُ أحياءً ثانيةً؟! بل هؤلاء المُشرِكونَ يَجحَدونَ لقاءَ رَبِّهم.

قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُشرِكينَ: يَتوفَّاكم ملَكُ الموتِ الَّذي وكَّلَه اللهُ بقَبضِ أرواحِكم، ثمَّ تُرَدُّونَ بعدَ مَوتِكم إلى ربِّكم فيُجازيكم على أعمالِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تقرَّر نَفاذُ أمرِ اللهِ تعالى، ودَلَّ ذلك على شُمولِ القُدرةِ، وكان شامِلُ القُدرةِ

---

= ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

لا بُدَّ أن يكونَ مُحيطَ العِلمِ؛ كانت نتيجتُه لا مَحالةَ[١]:

﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾.

أي: ذلك الإلهُ العَظيمُ الشَّأنِ، العالي القَدْرِ، الَّذي فَعَل ما وُصِفَ في الآياتِ السَّابقةِ: هو العالِمُ بكُلِّ ما غاب عن خَلْقِه[٢]، وهو العالِمُ بكُلِّ ما هو مُشاهَدٌ أو مُدرَكٌ مِن خَلْقِه[٣].

﴿ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾.

أي: العَظيمُ القَدْرِ، الممتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الغالِبُ القاهِرُ، الشَّديدُ المنتَقِمُ مِن أعدائِه، الرَّحيمُ بعبادِه[٤].

﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الدَّليلَ الدَّالَّ على الوحدانيَّةِ مِنَ الآفاقِ بقَولِه: ﴿خَلَقَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) قال ابن عثيمين: (الغَيبُ: ما غاب عن الخَلقِ، وهو نوعانِ: غَيبٌ مُطلَقٌ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، وغَيبٌ نِسْبيٌّ بحيث يكونُ غائبًا عن شَخصٍ، غيرَ غائبٍ عن آخَرَ، والمرادُ كِلاهما). ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٣٩، ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٣٩).

قال ابن عاشور: (عَالِمُ الغَيبِ، أي: ما غاب عن حَواسِّ الخَلقِ، وعالِمُ الشَّهادةِ، وهو ما يَدخُلُ تحتَ إدراكِ الحواسِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٤).

وقال القرطبي: (في الكلامِ معنى التَّهديدِ والوعيدِ، أي: أخلِصوا أفعالَكم وأقوالَكم؛ فإنِّي أُجازِي عليها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٠، ٤١).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ [السجدة: ٤]، وأتَمَّه بتَوابِعِه ومكَمِّلاتِه- ذكَرَ الدَّليلَ الدَّالَّ عليها مِن الأنفُسِ؛ فشرَعَ يَذكُرُ خَلقَ الإنسانِ، فقال[١]:

﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾.

أي: الَّذي أتقَنَ خَلْقَ كلِّ شَيءٍ، وأحكَمَه وَفْقَ ما يَليقُ به، ويُناسِبُ المقصودَ مِن خَلْقِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ [الملك: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢].

﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾.

أي: وخلَق آدَمَ أبا البَشَرِ مِن طينٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٠)، ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٣).

وممَّن صَرَّح بأنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا: آدَمُ عليه السَّلامُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ جُزَي، وابن رجب، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٢)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِنَ السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٤٠). =

﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: ثمَّ جعَلَ اللهُ تعالى ذُرِّيَّةَ آدَمَ مُستَخلَصةً مِن مَنِيٍّ ضَعيفٍ رَقيقٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

---

= وقيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: جِنسُ البَشَرِ. وابتِداءُ خَلْقِه هو خَلْقُ أصلِه آدَمَ عليه السَّلامُ. وممَّن صرَّح بذلك: ابنُ عاشور. وجعَلَه ابنُ عثيمينَ ممَّا تحتَمِلُه الآيةُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٣، ٤٤).

ممَّن اختار أنَّ ﴿مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيف: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والسمعاني، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٦).

ووُصِف بالضَّعفِ؛ لأنَّه لا يَسيلُ سيَلانَ الماءِ، فهو يسيلُ ببُطءٍ. قاله ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٤).

وقيل: ﴿مَّهِينٍ﴾ أي: مُمْتَهَنٍ لَا خَطَرَ له عندَ النَّاسِ. وممَّن اختاره: البيضاوي، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

قال ابنُ عاشور: (المَهِينُ: الشَّيءُ الممتَهَنُ الَّذي لا يُعبَأُ به، والغَرَضُ مِن إجراءِ هذا الوَصفِ عليه: الاعتِبارُ بنِظامِ التَّكوينِ؛ إذ جعَلَ اللهُ تكوينَ هذا الجِنسِ المكتَمِلِ التَّركيبِ، العَجيبِ الآثارِ: مِن نَوعِ ماءٍ مُهراقٍ لا يُعبأُ به ولا يُصانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

وقال القاسميُّ جامعًا بيْن القولَينِ السابقَينِ: (﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ أي: ضعيفٍ مُمتهَنٍ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩).

وقال سُبحانَه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٦، ٧].

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾.

أي: ثمَّ جعَلَه اللهُ خَلْقًا مُستَوِيًا مُستَقيمًا مُعتَدِلًا، وجعَلَ فيه الرُّوحَ؛ فصار حَيًّا[1].

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١، ٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٧ - ٣٩].

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

أي: وأنعَمَ اللهُ عليكم -أيُّها النَّاسُ- بالسَّمعِ؛ لِتَسمَعوا الأصواتَ، وبالأبصارِ لِتُبصِروا المرئيَّاتِ، وبالأفئِدةِ لِتُدرِكوا بها المعقولاتِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٤٤، ٤٥).

قيل: الضميرُ هنا: لآدَمَ عليه السَّلامُ. وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جرير، وذهب إليه ابنُ كثير، واستظهره ابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. وهو قولُ مُقاتلِ بنِ سُلَيمانَ أيضًا، يُنظر ((تفسيره)) (٣/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

أي: ثمَّ أنتم -معَ ما أنعَمَ اللهُ به عليكم- قليلًا ما تَشكُرونَ[١]!

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ١٠ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩]، بيَّنَ عَدَمَ شُكرِهم بإتيانِهم بضِدِّه، وهو: الكُفرُ، وإنكارُ قُدرتِه تعالى على إحياءِ الموتى[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الرِّسالةَ بقَولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ﴾ [السجدة: ٣]، والوَحدانيَّةَ بقَولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ ...﴾ [السجدة: ٤] إلخ؛ أردفَ ذلك ذِكرَ البَعثِ، واستِبعادَ المُشرِكينَ له، ثمَّ الرَّدَّ عليهم[٣].

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ ﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ استِبعادًا للبَعثِ: أإذا ذَهَبَت في الأرضِ أجسادُنا، وتفرَّقَت

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨).

قوله تعالى: ﴿قَلِيلٗا﴾ يجوزُ أن يُرادَ به: كَوْنُ الشَّيءِ حاصلًا ولكنَّه غيرُ كثيرٍ، ويجوزُ أن يكونَ استُعمِل في معنى المعدومِ، وأنَّ المرادَ به العدَمُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨).

ممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٥).

قال الشوكاني في قوله: ﴿قَلِيلٗا﴾: (صفةُ مصدرٍ محذوفٍ، أي: شكرًا قليلًا، أو صِفةُ زمانٍ محذوفٍ، أي: زمانًا قليلًا. وفي هذا بيانٌ لِكُفْرِهم لِنِعَمِ اللَّهِ، وتَرْكِهم لشُكْرِها إلَّا فيما نَدَر مِن الأحوالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ، وهو أنَّهم لا يَشكرونَ الله فيوحِّدونه، بل يَكفرون به: الواحديُّ، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

فيها لحومُنا وعِظامُنا، وغابت في التُّرابِ وصارت مِثلَه، دون أن يتميَّزَ بَعضُه مِن بَعضٍ: أنَعودُ أحياءً مِن بعدِ تلك الحالِ[١]؟!

كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ذَكَروا؛ فهؤلاء المُشرِكونَ لا يَجحَدونَ قُدرةَ اللهِ على كلِّ شيءٍ، ولكِنَّهم يَجحَدونَ لِقاءَ رَبِّهم للحِسابِ والجَزاءِ، بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ[٢]!

﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾.

﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاءِ المُشرِكينَ: يَستوفي ملَكُ الموتِ -الَّذي وكَّلَه اللهُ بقَبضِ أرواحِكم- نُفوسَكم، فلا يَترُكُ منها شَيئًا، وعَدَدَكم فلا يُبقي منكم أحدًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨، ٢١٩).

قال الرسعني: (قال أكثَرُ المفسِّرينَ: المعنى: صِرْنا ترابًا، وذهَبْنا مُختلِطينَ بتُرابِ الأرضِ لا نَتمَيَّزُ منه). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٥٤، ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

قيل: هذا ردٌّ لِشُبهتِهم في إنكارِ البَعثِ بقَولِهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٍ جَدِيدٍ﴾، فمُمازَجةُ الرُّوحِ للبَدَنِ أشَدُّ مِن مُمازَجةِ ترابِ البدَنِ لبقيَّةِ التُّرابِ، وإذا كان هذا فِعلَ عَبدٍ =

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: ثمَّ أنتم بعدَ مَوتِكم تُرَدُّونَ أحياءً يومَ القيامةِ إلى ربِّكم، فيُجازيكم على أعمالِكم[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ينبغي للإنسانِ أنْ يكونَ شُكْرُه على حسَبِ النعمةِ؛ ففي السَّمعِ يَستعمِلُ السَّمعَ فيما يُقَرِّبُ إلى اللهِ، ويمنعُه عمَّا حَرَّمَ اللهُ -وكذلك في البصرِ-، أمَّا القلبُ فيَجِبُ عليه أنْ يُعْرِضَ بقلبِه عن كُلِّ ما حَرَّمَ اللهُ؛ وأنْ يُقْبِلَ بقلبِه على كلِّ ما أمَرَ اللهُ به[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ذَمُّ مَن لا يَشْكُرُ[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إثباتُ هذَينِ الاسمَينِ مِن أسمائِه تعالى: «العزيزِ» و«الرَّحيمِ» وما تضَمَّناه مِن الصِّفةِ، وهي العِزَّةُ والرَّحمةُ، وكمالُ عِزَّتِه ورحمتِه باجتِماعِهما: أنَّه مع كَونِه عزيزًا قاهرًا غالبًا، فهو أيضًا رَحيمٌ؛ لأنَّ بعضَ الأعِزَّاءِ إذا عَزَّ لا يَرحَمُ، وبعضَ الرُّحماءِ تَصِلُ به الرَّحمةُ إلى أنْ يكونَ في مَقامِ الذُّلِّ؛ فهو سُبحانه وتعالى جامِعٌ بيْنَ العِزِّ والرَّحمةِ، وهذا مِن كمالِه، يعني: أنَّ الجَمعَ بينَ العِزَّةِ والرَّحمةِ فيه كَمالٌ أكثرُ مِن إثباتِ العِزَّةِ والرَّحمةِ، وهو أنَّ

---

= مِن عبيدِه صَرَّفَه في ذلك فقامَ به، فكيف يُستبعَدُ شَيءٌ مِن الأشياءِ على رَبِّ العالَمينَ، ومُدبِّرِ الخلائقِ أجمعينَ؟! قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠).

رَحمتَه مَقرونةٌ بعزٍّ، ليست رَحمةَ ذُلٍّ، وأنَّ عِزَّتَه أيضًا مَقرونةٌ برَحمةٍ، ليست عِزَّةَ جَبَروتٍ لا رَحمةَ فيها[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيه إيماءٌ بأنَّه تعالى يُراعي المصالحَ تفَضُّلًا وإحسانًا[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أنَّ كلَّ مخلوقٍ خُلِقَ على ما يُناسبُ حالَه؛ لأنَّه لو لم يكُنِ الأمرُ كذلك لَمَا كان إحسانُ خَلْقٍ[٣]! فإذا نظَرْتَ إلى الأشياءِ رأيتَها على ما ينبغي: صَلابةُ الأرضِ للنَّباتِ، وسَلاسةُ الهواءِ للاستِنشاقِ، وسَيَلانُ الماءِ لِنَقدِرَ عليه في كُلِّ موضعٍ، وحركةُ النَّارِ إلى فَوقٍ؛ لأنَّها لو كانت مِثلَ الماءِ تتحَرَّكُ يَمنةً ويَسرةً لاحترقَ العالَمُ؛ فخُلِقت طالبةً لجِهةِ فَوقٍ؛ حيثُ لا شَيءَ هناك يَقبَلُ الاحتراقَ[٤].

٤- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾، فإحسانُ خَلْقِه يتضَمَّنُ تَسويتَه وتَناسُبَ خَلْقِه وأجزائِه، بحيثُ لم يحصُلْ بيْنَها تفاوُتٌ يُخِلُّ بالتَّناسُبِ والاعتدالِ؛ فالخَلقُ: الإيجادُ، والتَّسويةُ: إتقانُه وإحسانُ خَلقِه؛ فالتَّسويةُ شامِلةٌ لجميعِ مخلوقاتِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]. وما يُوجَدُ مِن التَّفاوُتِ وعَدَمِ التَّسويةِ فهو راجِعٌ إلى عدَمِ إعطاءِ التَّسويةِ للمَخلوقِ؛ فإنَّ التَّسويةَ أمرٌ وُجوديٌّ تتعَلَّقُ بالتَّأثيرِ والإبداعِ، فما عَدِمَ منها فلِعَدمِ إرادةِ الخالِقِ للتَّسويةِ، وذلك أمرٌ عَدَميٌّ يكفي فيه عدَمُ الإبداعِ والتَّأثيرِ. فتأمَّلْ ذلك؛ فإنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤١).

يُزيلُ عنك الإشكالَ في قَولِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]؛ فالتَّفاوُتُ حاصِلٌ بسَبَبِ عَدَمِ مَشيئةِ التَّسويةِ، كما أنَّ الجَهلَ والصَّمَم والعَمى والخَرَس والبَكَم: يكفي فيها عدَمُ مَشيئةِ خَلْقِها وإيجادِها. والمقصودُ: أنَّ كُلَّ مخلوقٍ فقد سَوَّاه خالقُه سُبحانَه في مَرتبةِ خَلْقِه، وإنْ فاتَتْه التَّسويةُ مِن وَجهٍ آخَرَ لم يُخلَقْ له(١).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ذلك، مع أنَّ في مخلوقاتِه -تعالى- قَبيحًا كالشُّرورِ والمعاصي؟

**الجوابُ**: أنَّ ﴿أَحۡسَنَ﴾ بمعنى: أتقَنَ وأحكَمَ، أو ﴿أَحۡسَنَ﴾ بمعنى: عَلِمَ، كما يقالُ: فُلانٌ لا يُحسِنُ شَيئًا، أي: لا يَعلَمُه(٢). ولله سُبحانَه في كلِّ ما يَخلُقُه حِكمةٌ يُحِبُّها ويَرضاها، وهو سُبحانَه أحسَنَ كلَّ شَيءٍ خَلَقَه، وأتقَنَ كلَّ ما صنَع، فما وقَع مِنَ الشَّرِّ الموجودِ في المخلوقاتِ فقد وُجِد لأجْلِ تلك الحكمةِ المطلوبةِ المحبوبةِ المَرْضيَّةِ، فهو مِن الله حسَنٌ جميلٌ، وهو سُبحانَه محمودٌ عليه، وله الحمدُ على كلِّ حالٍ، وإن كان شرًّا بالنِّسبةِ إلى بعضِ الأشخاصِ(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ * ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ المرادُ بالإنسانِ: آدمُ عليه السَّلامُ، ومَعلومٌ أنَّ تَسويتَه ونَفْخَ الرُّوحِ فيه كان قبْلَ جَعْلِ نَسْلِه مِن سُلالةٍ مِن ماءٍ مَهينٍ، لكنْ لَمَّا كان المقصودُ ذِكرَ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في مبدأِ خَلْقِ آدَمَ وخَلقِ نَسْلِه، عَطَف ذِكْرَ أحدِهما على الآخَرِ، وأخَّرَ ذِكْرَ تَسويةِ آدَمَ ونَفْخِ الرُّوْحِ فيه، وإنْ كان

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٩٩).

ذلك مُتوسِّطًا بيْن خَلْقِ آدَمَ مِن طينٍ وبيْن خَلْقِ نَسْلِه. واللهُ أعلمُ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ تَكذيبُ النَّظريَّةِ الكاذِبةِ، وهي نظريةُ «داروين» الَّذي يقولُ: إنَّ الخَلْقَ نَشَأَ بالتَّطَوُّرِ، وإنَّ أصلَ الإنسانِ قِردٌ، ثمَّ صار على طولِ الزَّمَنِ إنسانًا[٢]! وهذا القولُ لا شكَّ أنَّه كفرٌ وتكذيبٌ صريحٌ للقرآنِ؛ فيَجِبُ علينا أنْ نُنكِرَه إنكارًا بالغًا[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ المضافُ إلى الله سبحانَه نوعانِ: صفاتٌ لا تقومُ بأنفسِها، كالعِلمِ والقُدرةِ والكلامِ والسَّمعِ والبصرِ، فهذه إضافةُ صفةٍ إلى الموصوفِ بها، فعلمُه وكلامُه وإرادتُه وقدرتُه وحياتُه صفاتٌ له غيرُ مخلوقةٍ، وكذلك وجهُه ويدُه سبحانَه.

والثاني إضافةُ أعيانٍ منفصلةٍ عنه، كالبيتِ والنَّاقةِ والعبدِ والرَّسولِ والرُّوحِ، فهذه إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقِه، ومصنوعٍ إلى صانعِه، لكنَّها إضافةٌ تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميَّزُ به المضافُ عن غيرِه، كبيتِ الله، وإن كانت البيوتُ كلُّها مِلكًا له، وكذلك ناقةُ الله، والنُّوقُ كلُّها مِلكُه وخلقُه، لكنْ هذه إضافةٌ إلى إلهيتِه تقتضي محبتَه لها وتكريمَه وتشريفَه، بخلافِ الإضافةِ العامَّةِ إلى ربوبيتِه حيثُ تقتضي خلقَه وإيجادَه[٤].

٩- وفي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ امتنانٌ بقُوى الحَواسِّ وقُوى العَقلِ، وهو أقْوى مِنَ الامتِنانِ بالخلْقِ وتَسويتِه؛ لأنَّ الانتِفاعَ بالحَواسِّ

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٨٢٨).

(٤) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٤).

والإدراكِ مُتكرِّرٌ مُتجدِّدٌ؛ فهو مَحسوسٌ، بخلافِ التَّكوينِ والتَّقويمِ؛ فهو مُحتاجٌ إلى النَّظرِ في آثارِه[1].

١٠- قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾، فذَكَر طَريقَ الفَهمِ ومكانَ الفَهمِ؛ فطَريقُ الفَهمِ هو السَّمْعُ والبَصَرُ، ومَحَلُّ الفَهمِ والوَعيِ هو القَلبُ؛ ولهذا يكونُ السَّمعُ والبَصَرُ كقَناتَينِ تَصُبَّانِ في القَلبِ، فيتَلَقَّى ما يَسمَعُ أو يُبصِرُ ثمَّ يَصُبَّانِ في القَلبِ، وهو محلُّ الوَعيِ والإدراكِ، ولم يَذكُرِ «الشَّمَّ والذَّوقَ واللَّمسَ»؛ لأنَّ الاتِّعاظَ بالآياتِ يكونُ بالسَّمعِ والبَصَرِ[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ إبطالُ قَولِ مَن يقولُ: «إنَّ البعثَ إيجادٌ مِن عَدَمٍ»؛ فقولُهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلۡنَا﴾ يقولونَ: كيف بعدَما نَغيبُ في الأرضِ ونكونُ ترابًا، كيف نُبعَثُ؟! فدلَّ هذا على أنَّ البَعثَ هو إعادةُ ما سَبَقَ، وليس باستِدعاءِ خَلْقٍ جديدٍ[3].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ فيه سُؤالٌ: لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الرِّسالةَ ذكَرَ مِن قَبْلُ دَليلَها، وهو التَّنزيلُ الَّذي لا رَيبَ فيه، ولَمَّا ذكَرَ الوحدانيَّةَ ذكَرَ دليلَها، وهو خَلقُ السَّمَواتِ والأرضِ، وخَلْقُ الإنسانِ مِن طينٍ، ولَمَّا ذكَرَ إنكارَهم الحَشرَ لم يَذكُرِ الدَّليلَ؟

**الجوابُ**: ذكَرَ دَليلَه أيضًا؛ وذلك لأنَّ خَلْقَ الإنسانِ ابتداءً دَليلٌ على قُدرتِه على إعادتِه؛ ولهذا استدَلَّ اللهُ تعالى على إمكانِ الحَشرِ بالخَلقِ الأوَّلِ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٥).

ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩]، وكذلك خَلقُ السَّمَواتِ، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ﴾[1] [يس: ٨١].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ يُنبِئُ عن بقاءِ الأرواحِ؛ فإنَّ التَّوفِّيَ: الاستيفاءُ، والقَبضَ هو الأخذُ؛ والإعدامُ المحضُ ليس بأخذٍ[2].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ فيه سؤالٌ: أسنَدَ في هذه الآيةِ الكريمةِ التَّوفِّيَ إلى مَلَكِ الموتِ، وأسنَده إلى المَلائكةِ في قَولِه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [محمد: ٢٧]، وأسنَدَه إلى نَفْسِه جلَّ وعلا، في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

**الجوابُ**: أنَّ إسنادَ التوفِّي إلى مَلَكِ الموتِ في قَولِه هنا: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ [السجدة: ١١]؛ لأنَّه هو المأمورُ بقَبضِ الأرواحِ؛ وأنَّ إسنادَه للمَلائكةِ في قَولِه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [محمد: ٢٧]، ونحوِها مِنَ الآياتِ؛ لأنَّ لِمَلَكِ الموتِ أعوانًا يَعمَلونَ بأمْرِه، ويَنزِعونَ الرُّوحَ إلى الحُلقومِ، فيَأخُذُها مَلَكُ الموتِ؛ وقد جاء في حديثِ البَراءِ بنِ عازِبٍ الطَّويلِ المشهورِ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ العبْدَ المؤمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِن الآخِرَةِ، نزَل إليه ملائكةٌ مِن السَّماءِ ...)) وفيه: ((ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ، حتَّى يجلِسَ عندَ رأسِه، فيقول: أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مغفرةٍ مِن اللهِ ورِضوانٍ. فتَخرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقاءِ، فيأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعوها في يَدِه طَرْفةَ عَيْنٍ حتَّى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَأخُذوها...)) الحديثَ[١]. وأنَّ إسنادَه إلى اللهِ تعالى في قَولِه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]؛ لأنَّ كُلَّ شَيءٍ كائنًا ما كان لا يكونُ إلَّا بقَضاءِ الله وقَدَرِه، ومَلَكُ الموتِ لا يَقدِرُ أن يَقبِضَ رُوحَ أحدٍ إلَّا بإذنِ اللهِ ومَشيئتِه تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗا ﴾[٢] [آل عمران: ١٤٥].

١٥- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ﴾ هذا التَّوكيلُ ليس توكيلًا لحاجةٍ، ولكِنَّه توكيلُ سُلطانٍ وعَظَمةٍ، فالله عَزَّ جَلَّ لا يحتاجُ، وإذا أراد شيئًا قال له: كُنْ، فيَكونُ، لكِنَّه يُوكِّلُ ذلك توكيلَ سُلطانٍ وعَظَمةٍ؛ لِبَيانِ سُلطانِه وعظَمتِه، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ في خِدمتِه سُبحانَه وتعالى، وفي عبادتِه[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

- قولُه: ﴿ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ جِيءَ بالإشارةِ إلى اسمِ الجَلالةِ بعدَما أُجرِيَ عليه مِن أوصافِ التَّصرُّفِ بخَلْقِ الكائناتِ، وتَدبيرِ أُمورِها؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه باسمِ الإشارةِ حَقيقٌ بما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقاربةٍ.
صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠)، وصحَّحَه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٨٤، ١٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٥٨).

أجْلِ تلك الصِّفاتِ المُتقدِّمةِ[١].

- قولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ المَقصودُ هو عِلمُ الغَيبِ؛ لأنَّهم لَمَّا أنْكَروا البَعثَ وإحياءَ المَوتَى، كانت شُبهتُهم في إحالتِه أنَّ أجزاءَ الأجسامِ تَفرَّقَتْ وتَخلَّلت الأرضَ؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه بعْدَه: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ﴾ [السجدة: ١٠]، وأمَّا عَطفُ (الشَّهادةِ) على (الغَيبِ) فتَكميلٌ واحتِراسٌ[٢].

- وقدَّمَ العِلمَ بالغَيبِ؛ لأنَّه أقوى وأشَدُّ إنباءً عن كمالِ العِلمِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مُناسَبةُ وَصفِه تعالى بالعَزيزِ الرَّحيمِ عقِبَ ما تَقدَّمَ: أنَّه خلَقَ الخلْقَ بمَحضِ قُدرتِه بدُونِ مُعِينٍ؛ فالعِزَّةُ -وهي الاستِغناءُ عن الغَيرِ- ظاهرةٌ، وأنَّه خلَقَهم على أحوالٍ فيها لُطفٌ بهم؛ فهو رَحيمٌ بهم فيما خَلَقهم؛ إذ جعَلَ أُمورَ حَياتِهم مُلائمةً لهم، فيها نَعيمٌ لهم، وجنَّبَهم الآلامَ فيها؛ فهذا سَببُ الجمْعِ بيْن صِفَتيِ العزيزِ والرَّحيمِ هنا على خِلافِ الغالِبِ مِن ذِكرِ الحكيمِ مع العزيزِ[٤]. وفيه إيماءٌ إلى أنَّه تعالى مُتفضِّلٌ في جَميعِ ما ذُكِرَ، فاعلٌ بالإحسانِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ قُرِئَ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ بفَتْحِ اللَّامِ، فِعلًا ماضيًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨١).

صِفةً لـ ﴿كُلَّ﴾ أو لـ ﴿شَيْءٍ﴾. وقُرِئَ بسُكونِ اللَّام[١]: ﴿خَلْقَهُ﴾ قيل: هو بدلُ اشتمالٍ، والمبدَلُ منه ﴿كُلَّ﴾، أي: أحْسَن خَلْقَ كلِّ شيءٍ، فالضميرُ في ﴿خَلْقَهُ﴾ عائدٌ على ﴿كُلَّ﴾. وقيل: الضميرُ في ﴿خَلْقَهُ﴾ عائدٌ على الله، فيكونُ انتصابُه نصبَ المصدرِ المؤكِّدِ لمضمونِ الجملة؛ أي: خلَقه خَلْقًا، وهو أبلَغُ في الامتِنانِ؛ لأنَّه إذا قال: (أحسَنَ كلَّ شَيءٍ)، كان أبلَغَ مِن: (أحسَنَ خلْقَ كلِّ شَيءٍ)؛ لأنَّه قد يُحسِنُ الخلْقَ، ولا يكونُ الشَّيءُ في نَفْسِه حَسنًا، فإذا قال: أحسَنَ كلَّ شَيءٍ، اقتَضى أنَّ كلَّ شَيءٍ خلَقَه حَسنٌ، بمعنى: أنَّه وضَعَ كلَّ شَيءٍ في مَوضعِه[٢].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ ارْتقاءٌ في الاستِدلالِ، مَشوبٌ بامتنانٍ على النَّاسِ أنْ أحسَنَ خَلْقَهم في جُملةِ إحسانِ خَلْقِ كلِّ شَيءٍ، وبتَخصيصِ خَلْقِ الإنسانِ بالذِّكرِ، والمَقصودُ: أنَّه الَّذي خَلَقَ كلَّ شَيءٍ، وخاصَّةً الإنسانَ خلْقًا بعدَ أنْ لم يكُنْ شيئًا مَذكورًا، وأخرَجَ أصْلَه مِن تُرابٍ، ثمَّ كوَّنَ فيه نِظامَ النَّسلِ مِن ماءٍ؛ فكيف تُعجِزُه إعادةُ أجزائِه؟! وتَخلَّصَ مِن هذا الوَصفِ العامِّ إلى خَلْقِ الإنسانِ؛ لأنَّ في خِلقةِ الإنسانِ دَقائقَ في ظاهرِه وباطنِه[٣]. وقيل: لَمَّا كان الحيوانُ أشرَفَ الأجناسِ، وكان الإنسانُ أشرَفَه- خصَّه بالذِّكرِ؛ لِيَقومَ دَليلُ الوَحدانيَّةِ بالأنفُسِ كما قام قَبلُ بالآفاقِ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾

---

(١) قرأه بفتح اللَّام: نافعٌ وعاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ، والباقون بسكونها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٧)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٥، ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴾، وقال في سُورةِ (المؤمنون): ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾؛ لأنَّ المَذكورَ هنا صِفةُ ذُرِّيَّةِ آدَمَ، والمَذكورَ ثَمَّ صِفةُ آدَمَ عليه السَّلامُ[1].

٤- قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ ذِكرُ التَّسويةِ ونَفخِ الرُّوحِ في جانبِ النَّسلِ؛ يُؤذِنُ بأنَّ أصْلَه كذلك؛ فالكلامُ إيجازٌ[2].

- قولُه: ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾ النَّفخُ: تَمثيلٌ لِسَريانِ اللَّطيفةِ الرُّوحانيَّةِ في الكَثيفةِ الجَسديَّةِ، مع سُرعةِ الإيداعِ[3].

- وفي إضافةِ الرُّوحِ إلى ذاتِه سُبحانه تَشريفٌ للإنسانِ، وإيذانٌ بأنَّه خلْقٌ عَجيبٌ، وصُنعٌ بَديعٌ لا يَعلَمُ كُنْهَه إلَّا هو، وأنَّ له شأنًا، وله مُناسبةٌ إلى حَضرةِ الرُّبوبيةِ، وأنَّ أقْصَى ما تَنْتهي إليه العُقولُ البشَريَّةُ مِن مَعرفتِه هذا القَدرُ الَّذي يُعبَّرُ عنه تارةً بالإضافةِ إليه تعالى، وأُخرى بالنِّسبةِ إلى أمْرِه تعالى، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[4] [الإسراء: ٨٥].

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾، في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ﴾ الْتفاتٌ، فانتقَل مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ مِن أفرادِ النَّاسِ، وجَعْلُ السَّمعِ والأبصارِ والأفئدةِ للنَّاسِ كلِّهم، غير خاصٍّ بالمُخاطَبينَ،

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨١).

فلمَّا انتهَضَ الاستِدلالُ على عَظيمِ القُدرةِ، وإتقانِ المُرادِ مِن المَصنوعاتِ المُتحدَّثِ عنهم بطَريقِ الغَيبةِ الشَّاملِ للمُخاطَبينَ وغيرِهم؛ ناسَبَ أنْ يُلتفَتَ إلى الحاضِرينَ بنَقلِ الكلامِ إلى الخِطابِ؛ لأنَّه آثَرُ بالامتِنانِ، وأسعَدُ بما يَرِدُ بعدَه مِن التَّعريضِ بالتَّوبيخِ في قولِه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[1]. وأيضًا في حِكايةِ أحوالِ الإنسانِ مِن مَبدأِ فِطرتِه، إلى نَفخِ الرُّوحِ فيه بطَريقِ الغَيبةِ، وحِكايةِ أحوالِه بعدَ ذلك بطَريقِ الخِطابِ المُنبئِ عن استعدادِه للفَهمِ وصَلاحيَّتِه له: مِن الجَزالةِ ما لا غايةَ وَراءَه[2].

- والجَعلُ هنا إبداعيٌّ، واللَّامُ في ﴿لَكُمُ﴾ مُتعلِّقةٌ به، وتَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿لَكُمُ﴾ على المَفعولِ الصَّريحِ ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾؛ للاهتِمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، مع ما فيه مِن نَوعِ طُولٍ يُخِلُّ تَقديمُه بجَزالةِ النَّظمِ الكريمِ[3].

- والعُدولُ عن أنْ يُقالَ: (وجعَلَكم سامعينَ مُبصِرين عالِمينَ) إلى قولِه: (جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ)؛ لأنَّ ذلك أعرَقُ في الفَصاحةِ، ولِمَا تُؤذِنُ به اللَّامُ مِن زِيادةِ المِنَّةِ في هذا الجَعلِ؛ إذ كان جَعْلًا لِفائدتِهم ولِأجْلِهم، ولِمَا في تَعليقِ الأجناسِ مِن السَّمعِ والأبصارِ والأفئدةِ بفِعلِ الجَعلِ مِن الرَّوعةِ والجَلالِ في تَمكُّنِ التَّصرُّفِ، ولأنَّ كَلمةَ (الأفئدة) أجمَعُ مِن كَلمةِ (عاقِلِين)؛ لأنَّ الفؤادَ يَشمَلُ الحواسَّ الباطنةَ كلَّها، والعقلُ بعضٌ منها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

- وكذلك في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ أفرَدَ السَّمعَ؛ لأنَّه مَصدرٌ لا يُجمَعُ، وجمَعَ الأبصارَ والأفئدةَ باعتبارِ تَعدُّدِ النَّاسِ[1]. وقيل: الحِكمةُ في ذِكرِه المصدَرَ في السَّمعِ، وفي البَصَرِ والفُؤادِ الاسمَ، ولذا جمَعَهما دونَ السَّمعِ؛ لأنَّه مَصدَرٌ وهو لا يُجمَعُ: أنَّ السَّمعَ قُوَّةٌ واحدةٌ، ولها محلٌّ واحِدٌ، وهو الأُذُنُ، ولا اختيارَ لها فيه، وأنَّ الصَّوتَ مِن أي جانبٍ -كان- واصِلٌ إليه، ولا قُدرةَ للأُذُنِ على تخصيصِ السَّمعِ بإدراكِ البَعضِ دونَ البعضِ؛ وأمَّا البصَرُ فمحَلُّه العينُ، ولها فيه اختيارٌ؛ فإنَّها تتحَرَّكُ إلى جانبِ المرئيِّ دونَ غيرِه؛ وكذلك الفؤادُ: محلُّه الإدراكُ، وله نوعُ اختيارٍ؛ يَلتَفِتُ إلى ما يُريدُ دُونَ غَيرِه. فالسَّمعُ أصلٌ دونَ محلِّه؛ لعدمِ الاختيارِ له. والعَينُ كالأصلِ، وقُوَّةُ الإبصارِ آلتُها. والفؤادُ كذلك، وقوَّةُ الفَهمِ آلتُه؛ فذَكَرَ في السَّمعِ المصدَرَ الَّذي هو القُوَّةُ، وفي الإبصارِ والأفئدةِ الاسمَ الَّذي هو محلُّ القوَّةِ، ولأنَّ السَّمعَ قُوَّةٌ واحِدةٌ لها محلٌّ واحدٌ؛ ولهذا لا يَسمَعُ الإنسانُ في زمانٍ واحدٍ كلامَينِ على وَجهٍ يَضبِطُهما، ويَرى في زمانٍ واحدٍ صُورتينِ فأكثَرَ ويُثبِتُهما[2]. وقيل: وحَّد السَّمعَ؛ لقلَّةِ التَّفاوُتِ فيه إذا كان سالِمًا[3].

- وفي تَقديمِ السَّمعِ على البَصرِ في مَواقعِه مِن القُرآنِ دليلٌ على أنَّه أفضَلُ فائدةً لِصاحبِه مِن البَصرِ؛ فإنَّ التَّقديمَ مُؤذِنٌ بأهمِّيَّةِ المُقدَّمِ؛ وذلك لأنَّ السَّمعَ آلةٌ لِتَلقِّي المعارِفِ الَّتي بها كَمالُ العقلِ، وهو وَسيلةُ بُلوغِ دَعوةِ الأنبياءِ إلى أفهامِ الأُمَمِ على وَجهٍ أكمَلَ مِن بُلوغِها بِواسطةِ البصَرِ لو فُقِدَ السَّمعُ، ولأنَّ السَّمعَ تَرِدُ إليه الأصواتُ المَسموعةُ مِن الجِهاتِ السِّتِّ بدُونِ تَوجُّهٍ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

بخِلافِ البَصرِ؛ فإنَّه يَحتاجُ إلى التَّوجُّهِ بالالْتفاتِ إلى الجِهاتِ غيرِ المُقابِلةِ. وتَقديمُ السَّمعِ والأبصارِ على الأفئدةِ هنا، عَكْسَ آيةِ (البقرةِ)؛ لأنَّه رُوعِيَ هنا تَرتيبُ حُصولِها في الوُجودِ؛ فإنَّه يَكتسِبُ المَسموعاتِ والمُبصَراتِ قبْلَ اكتسابِ التَّعقُّلِ[1]، فالإنسانُ يَسمَعُ أوَّلًا كَلامًا، فيَنظُرُ إلى قائلِه لِيَعرِفَه، ثمَّ يتفكَّرُ بقَلبِه في ذلك الكلامِ لِيَفهَمَ مَعناه[2]. وقيل: لعلَّه قَدَّمهما؛ لأنَّه يُنتفَعُ بهما حالَ الولادةِ، وقدَّمَ السَّمعَ؛ لأنَّه يكونُ إذ ذاك أمتَنَ مِنَ البَصَرِ، وأمَّا العَقلُ فإنَّما يَحصُلُ بالتَّدريجِ؛ فلذا أخَّرَ مَحلَّه[3].

وقيل: قدَّم السَّمعَ هاهنا، والقَلبَ في آيةِ سورةِ (البقرةِ)؛ لأنَّه عندَ الإعطاءِ ذَكَر الأدنى وارتقى إلى الأعلى، فقال: أعطاكم السَّمعَ، ثمَّ أعطاكم ما هو أشرَفُ منه وهو القَلبُ؛ وعندَ السَّلبِ قال: ليس لهم قَلبٌ يُدرِكون به، ولا ما هو دونَه، وهو السَّمعُ الَّذي يَسمَعونَ به، ممَّن له قَلبٌ يَفهَمُ الحقائِقَ ويَستَخرِجُها[4].

- قولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بَيانٌ لِكُفرِهم بتلك النِّعمِ بطَريقِ الاعتِراضِ التَّذييليِّ، ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿قَلِيلًا﴾ مُستعمَلًا في حَقيقتِه؛ وهي كَوْنُ الشَّيءِ حاصلًا ولكنَّه غيرُ كَثيرٍ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ كِنايةً عن العدَمِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦]، وعلى الوَجهينِ يَحصُلُ التَّوبيخُ؛ لأنَّ النِّعمَ المُستحِقَّةَ للشُّكرِ وافِرةٌ دائمةٌ؛ فالتَّقصيرُ في شُكرِها وعَدمُ الشُّكرِ سَواءٌ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٥٨) و(٢١/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨).

٥- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ أباطيلِهم بطَريقِ الالْتفاتِ؛ إيذانًا بأنَّ ما ذُكِرَ مِن عَدمِ شُكرِهم بتلك النِّعمِ مُوجِبٌ للإعراضِ عنهم، وتَعديدِ جِناياتِهم لِغَيرِهم بطَريقِ المُباثَّةِ[١].

- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ ﴾ قال تعالى في تكذيبِ الكافِرينَ الرَّسولَ في الرِّسالةِ: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ﴾ [السجدة: ٣] بلَفظِ المُستَقبَلِ، وقال هنا في تَكذيبِهم إيَّاه في الحَشرِ: ﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾ بلَفظِ الماضي؛ وذلك لأنَّ تَكذيبَهم إيَّاه في رِسالتِه لم يكُنْ قبْلَ وُجودِه، وإنَّما كان ذلك حالةَ وُجودِه، فقال: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ يعني: هم فيه، وأمَّا إنكارُهم للحَشرِ فكان سابِقًا صادِرًا منهم ومِن آبائِهم، فقال ﴿ وَقَالُوٓاْ ﴾[٢].

- والاستِفهامُ في قولِهم: ﴿ أَءِذَا ضَلَلۡنَا ﴾ للتَّعجُّبِ والإحالةِ، أي: أظْهَروا في كلامِهم استبعادَ البَعثِ بعدَ فَناءِ الأجسادِ واختِلاطِها بالتُّرابِ؛ مُغالَطةً للمؤمنينَ، وتَرويجًا لِكُفرِهم[٣].

- قولُه: ﴿ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭ ﴾ بهَمزتينِ؛ أُولاهما للاستِفهامِ، والثَّانيةُ تأكيدٌ لِهَمزةِ الاستِفهامِ الدَّاخلةِ على ﴿ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾، والمعنى على تَأْكيدِ الإنكارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢).

والمُباثَّة: مِن قَولِهم: بثَّ الرَّجُلُ الحديثَ: إذا أذاعه ونَشَره. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٢، ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٩).

- فإنْ قِيل: إذا كانتِ الجُملةُ الاستفهاميَّةُ هنا للإنكارِ؛ فكيف تَأْتي اللَّامُ الدَّالَّةُ على التَّوكيدِ ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟

**فالجوابُ**: أنَّ المرادَ أنَّهم يُنكِرون أنْ يَتأكَّدَ ذلك، يعني: أيَتأكَّدُ أنَّنا في خلْقٍ جديدٍ بعدَ أنْ تَأكُلَنا الأرضُ؟! وهو كقَولِ إخوةِ يُوسفَ: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]؛ فهذا التَّأكيدُ كأنَّهم يُنكِرون ما أُكِّدَ مِن كَونِهم يُرجَعون[١].

- وتَأكيدُ جُملةِ ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بحَرفِ (إنَّ)؛ لأنَّهم حَكَوُا القولَ الَّذي تَعجَّبوا منه، وهو ما في القُرآنِ مِن تَأكيدِ تَجديدِ الخلْقِ، فحَكَوه بالمَعنى[٢].

- قولُه: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ لَمَّا ذكَرَ كُفرَهم بالإنشاءِ؛ أضرَبَ عنه إلى ما هو أبلَغُ في الكُفرِ؛ وهو أنَّهم كافِرون بجَميعِ ما يكونُ في العاقبةِ، لا بالإنشاءِ وَحْدَه؛ فقد خُوطِبوا بتَوفِّي ملَكِ الموتِ، وبالرُّجوعِ إلى ربِّهم بعدَ ذلك مَبعوثينَ للحِسابِ والجَزاءِ[٣].

- قولُه: ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ﴾ الإتيانُ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لإفادةِ الدَّوامِ على كُفرِهم والثَّباتِ عليه. وتَقديمُ المَجرورِ ﴿بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ على ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ[٤].

٦- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ...﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ جارٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٩).

على طَريقةِ حِكايةِ المُقاولاتِ؛ لأنَّ جُملةَ (قُل) في معنى جَوابٍ لِقَولِهم: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠]؛ أمَرَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يُعِيدَ إعلامَهم بأنَّهم مَبعوثونَ بعدَ المَوتِ؛ فالمَقصودُ مِن الجُملةِ هو قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾؛ إذ هو مَناطُ إنْكارِهم، وأمَّا أنَّهم يَتوفَّاهم ملَكُ المَوتِ، فذَكَره لِتَذكيرِهم بالمَوتِ، وهم لا يُنكِرون ذلك، ولكنَّهم ألْهَتْهم الحياةُ الدُّنيا عن النَّظرِ في إمكانِ البعثِ والاستِعدادِ له، فذُكِّروا به، ثمَّ أُدمِجَ فيه ذِكرُ ملَكِ الموتِ؛ لِزيادةِ التَّخويفِ مِن الموتِ، والتَّعريضِ بالوَعيدِ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾؛ فإنَّه مُوكَّلٌ بكلِّ مَيِّتٍ بما يُناسِبُ مُعامَلتَه عندَ قَبضِ رُوحِه، وفيه إبطالٌ لِجَهلِهم بأنَّ الموتَ بيَدِ اللهِ تعالى، وأنَّه كما خلَقَهم يُمِيتُهم، وكما يُمِيتُهم يُحيِيهُم، وأنَّ الإماتةَ والإحياءَ بإذْنِه وتَسخيرِ ملائكتِه في الحالينِ؛ وذلك إبطالٌ لِقَولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، فأعْلَمَهم اللهُ أنَّهم لا يَخرُجون عن قَبضةِ تَصرُّفِه طَرْفةَ عَينٍ؛ لا في حالِ الحياةِ، ولا في حالِ المَماتِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٠).

## الآيات (١٢-١٤)

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾: أي: مُطَأْطِئُوها، وأصلُ (نكس): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ على رأسِه[1].

﴿حَقَّ﴾: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابقةُ والموافقةُ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[2].

﴿عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾: أي: الدَّائمَ الَّذي لا ينقطِعُ أبدًا، والخُلدُ: البقاءُ والدوامُ كالخُلودِ، وأصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والمُلازمةِ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ هؤلاء الكافرينَ يومَ القيامةِ عندمَا يَقِفونَ للحسابِ: ولو تَرى -يا مُحمَّدُ- حينَ يُنَكِّسُ المُجرِمونَ رُؤوسَهم يومَ القيامةِ عندَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٢).

تعالى، يقولونَ: ربَّنا أبصَرْنا وسَمِعْنا ما كُنَّا نُنكِرُه مِن الحَقِّ، فارجِعْنا إلى الدُّنيا نَعمَلْ صالِحًا؛ إنَّا الآنَ مُوقِنونَ بالحَقِّ!

ثمَّ يَرُدُّ الله تعالى عليهم، فيقولُ: ولو شِئْنا لهَدَيْنا كلَّ إنسانٍ في الدُّنيا إلى الحَقِّ، ولكِنْ حَقَّ القَولُ مِنِّي أنْ أمْلأَ جهنَّمَ مِن كُفَّارِ الجِنِّ والنَّاسِ أجمَعينَ، فيُقالُ لهم: ذوقوا العذابَ -أيُّها الكافِرونَ- بسَبَبِ تَكذيبِكم بيَومِ القيامةِ، إنَّا سنَتْرُكُكم في هذا العَذابِ، وذوقوا العذابَ غيرَ المُنقَطِعِ؛ بسَبَبِ كُفرِكم وتَكذيبِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى رجوعَهم إليه يومَ القيامةِ؛ ذكَرَ حالَهم في مُقامِهم بينَ يَديه[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ إنكارَهم البَعثَ؛ أردفَ بتصويرِ حالِ المُنكِرينَ أثَرَ البَعثِ، وذلك عندَ حَشرِهم إلى الحِسابِ[2].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ولو ترى -يا مُحمَّدُ- حينَ يُطأطِئُ المُجرِمونَ[3] رُؤوسَهم يومَ القيامةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٣) قيل: المرادُ بهم هنا: القائِلونَ: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: ١٠] مِن مُنكِري البعثِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١). =

عندَ اللهِ تعالى[١]؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم وعِصيانِهم[٢]!

﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

أي: يَقولونَ: يا رَبَّنا أبصَرْنا وسَمِعْنا ما كُنَّا نُنكِرُه أو نَشُكُّ فيه مِنَ الحَقِّ، فارجِعْنا إلى الدُّنيا؛ لِنَعمَلَ فيها عَمَلًا صالِحًا، إنَّا الآنَ مُوقِنونَ بالحَقِّ[٣]!

كما قال سُبحانَه: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

---

= وقيل: يجوزُ أن يكون المرادُ كُلَّ مُجرِمٍ، ويدخُلُ فيهم أولئك المنكِرونَ للبَعثِ دُخولًا أوَّليًّا. وممَّن قال بذلك: الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩١).

(١) قيل: ناكِسو رؤوسِهم حياءً وخجلًا. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢).

وممَّن أضاف إلى الحياءِ أو الخجَلِ: النَّدمَ: ابنُ الجوزي، والرسعني، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٨١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩١).

وقال القرطبي: (﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: مِن النَّدمِ والخِزْيِ والحزنِ والذُّلِّ والغَمِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٦٦).

وقال البقاعي: (﴿نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ﴾ أي: مُطَأْطِئوها خجلًا وخوفًا، وخِزْيًا وذُلًّا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١، ٢٢٢).

قيل: جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ، تقديرُه: لرأيتَ أمرًا عَجَبًا عَظيمًا. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

وقيل: المعنى: يا محمَّدُ، قُلْ للمُجرِمِ: ولو تَرى إذِ المجرِمونَ ناكِسو رؤوسِهم عند رَبِّهم، لَنَدِمْتَ على ما كان منك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٥).

وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ [الشورى: ٤٤].

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ هذا جوابٌ عن قَولِهم: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا﴾ [السجدة: ١٢]، وبيانُه هو أنَّه تعالى قال: إنِّي لو أردْتُ منكم الإيمانَ لَهَديتُكم في الدُّنيا، ولَمَّا لم أهْدِكم تبيَّنَ أنِّي ما أردتُ وما شِئتُ إيمانَكم، فلا أرُدُّكم[1].

﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾.

أي: ولو شِئْنا لهَدَينا كُلَّ إنسانٍ في الدُّنيا إلى الحَقِّ، فوفَّقْناه للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ فمَشيئةُ اللهِ تعالى صالحةٌ لذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾

أي: ولكِنْ وجَبَ القَولُ منِّي، وثَبَت ثُبوتًا لا تغيُّرَ فيه: أنْ أمْلأَ جهنَّمَ مِن كُفَّارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١، ٢٢٢).

الجِنِّ والنَّاسِ، فأُعَذِّبَهم فيها جميعًا[١].

كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥].

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ لهم أنَّه لا رُجوعَ إلى الدُّنيا، أنَّبَهم على ما عَمِلوا مِن تَدْسِيةِ نُفوسِهم بفِعلِ المعاصي، وتَرْكِ الطَّاعةِ له، فقال[٢]:

﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾.

أي: فذُوقوا العذابَ -أيُّها الكافِرونَ- بسَبَبِ نِسيانِكم يومَ القيامةِ وتَكذيبِكم به، وتَرْكِكم العمَلَ استِعدادًا لِلِقاءِ اللهِ تعالى فيه، إنَّا نَترُكُكم في العذابِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٤، ٦٥٥).

والمرادُ بالقولِ هو قولُه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٥).

قال الواحدي: (وتأويلُ النِّسيانِ هاهنا التَّركُ في قولِ المفسِّرينَ وأهلِ المعاني). ((البسيط)) (١٨/ ١٤٧).

=

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [الجاثية: ٣٤].

﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

أي: وذوقوا عَذابًا تُخلَّدونَ فيه إلى الأبدِ؛ بسَبَبِ ما كُنتُم تَعملونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ والعِصيانِ(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ الَّذين يقولون: إنَّ الإنسانَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه، ليس لله سُبحانه وتعالى فيه تقديرٌ ولا خَلْقٌ! يَشاءُ لنَفْسِه، ويفعَلُ بنَفسِه! وليس لله تَعلُّقٌ بفِعلِه(٢)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إثباتُ الكلامِ للهِ، وأنَّ كلامَه تعالى بحرفٍ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ حروفٌ، وفيه الرَّدُّ على مَن زَعَم أنَّ كلامَ اللهِ هو المعنى القائِمُ بالنَّفْسِ؛ إذْ لو كان كذلك لَقال سُبحانَه وتعالى: «ولكِنْ أردتُ أنْ أمْلأَ»، ولم يقُلْ: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ﴾(٣).

---

= وقال ابنُ كثير: (﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: [إنَّا] سنعامِلُكم معاملةَ النَّاسي؛ لأنَّه تعالى لا ينسَى شيئًا، ولا يضِلُّ عنه شيءٌ، بل مِن بابِ المقابلةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢).

وقال القاسمي: (﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ أي: جازَيْناكم جزاءَ نسيانِكم. أو ترَكْناكم في العذابِ تركَ المنسيِّ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أنَّ كُفَّارَ الجِنِّ في النارِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف جعَلَ جَميعَ الإنسِ والجِنِّ ممَّا يَملأُ بهم النَّارَ؟

**الجوابُ**: أنَّ هذا لبيانِ الجِنسِ، أي: جهنَّمُ تُملَأُ مِن الجِنِّ والإنسِ لا غَيرُ؛ أمْنًا للملائِكةِ، ولا يقتضي ذلك دُخولَ الكُلِّ، كما يقولُ القائِلُ: (ملأتُ الكِيسَ مِن الدَّراهِمِ)، لا يلزَمُ ألَّا يبقَى دِرهَمٌ خارِجَ الكيسِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أنَّ أهلَ النارِ يُوَبَّخونَ بتركِهم العملَ للنَّجاةِ منها، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ: زيادةُ التَّعذيبِ بالتَّعذيبِ القلبيِّ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا وُبِّخَ على عمَلٍ عَمِلَه؛ فإنَّه يَزدادُ حسرةً وندمًا[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ لو قال قائِلٌ: النِّسيانُ لا يكونُ إلَّا في المعلومِ أوَّلًا إذا جُهِلَ آخِرًا؟

**فالجَوابُ**: لَمَّا ظَهَرت براهينُه فكأنَّه ظَهَر وعُلِمَ، ولَمَّا تَرَكوه بعْدَ الظُّهورِ ذُكِرَ بلَفظِ النِّسيانِ؛ إشارةً إلى كَونِهم مُنكِرينَ لأمرٍ ظاهرٍ، كمَنْ يُنكِرُ أمرًا كان قد عَلِمَه[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٥)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٦).

وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما أنَّهم أفنَوا حياتَهم في مَعصيةِ اللهِ؛ فإنَّ حياتَهم الآخِرةَ أيضًا ستكونُ في عذابِ اللهِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ إطلاقُ النِّسيانِ على التَّركِ[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾ -يعني: تَرَكْناكم- إثباتُ الأفعالِ الاختياريةِ للهِ، وهذا يدُلُّ على أنَّه تعالى يَتْرُكُ مَن شاء، ويُقْبِلُ على مَن شاء[٣].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمۡ﴾، وقولُه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقولُه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقولُه: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٦]، وقولُه: ﴿وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤]، لا يُعارِضُ قولَه تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وقولَه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا﴾ [مريم: ٦٤]؛ لأنَّ معنى النِّسيانِ المُثبَتِ: هو تَرْكُهم في العذابِ مَحرومينَ مِن كلِّ خيرٍ، فالنِّسيانُ المثبَتُ بمعنَى التَّركِ، والمَنْفيُّ عنه تعالَى هو الَّذي بمعنَى السَّهْوِ؛ لأنَّه مُحالٌ على اللهِ تعالَى[٤].

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡخُلۡدِ﴾ أي: العذابَ غَيرَ المُنقَطِعِ؛ فإنَّ العذابَ إذا كان له أجَلٌ وغايةٌ، كان فيه بعضُ التَّنفيسِ والتَّخفيفِ، وأمَّا عذابُ جَهنَّمَ -أعاذنا اللهُ منه- فليس فيه رَوحُ راحةٍ، ولا انقِطاعَ لِعَذابِهم فيها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٢)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ جِيءَ في تَصويرِ حالِ المنكرينَ للبعثِ عندَ حَشرِهم إلى الحسابِ بطَريقةِ حَذفِ جَوابِ (لو)، حَذفًا يُرادِفُه أنْ تَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهبٍ مِن تَصويرِ فَظاعةِ حالِهم، وهَولِ مَوقفِهم بيْن يَدَيْ ربِّهم[1]؛ والخِطابُ لكلِّ أحدٍ ممَّن يَصلُحُ له كائنًا مَن كانَ؛ إذِ المُرادُ بَيانُ كَمالِ سُوءِ حالِهم، وبُلوغِها مِن الفَظاعةِ إلى حيثُ لا يَختَصُّ استِغرابُها واستفظاعُها بِرَاءٍ دونَ راءٍ ممَّن اعتادَ مُشاهَدةَ الأُمورِ البَديعةِ، والدَّواهي الفظيعةِ، بل كلُّ مَن يَتأتَّى منه الرُّؤيةُ يَتعجَّبُ مِن هَولِها وفَظاعتِها[2]، فتوجيهُ الخِطابِ إلى غَيرِ مُعيَّنٍ لإفادةِ تَناهِي حالِهم في الظُّهورِ حتَّى لا يَختَصَّ به مُخاطَبٌ[3].

- وقيل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ ...﴾ يجوزُ أنْ يكونَ خِطابًا لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وفيه وَجهانِ: أنْ يُرادَ به التَّمنِّي، كأنَّه قال: ولَيْتَك تَرى؛ لأنَّه تَجرَّعَ منهم الغُصَصَ ومِن عَداوتِهم وضِرارِهم، فجعَلَ اللهُ له تَمنِّيَ أنْ يَراهم على تلك الصِّفةِ الفظيعةِ؛ مِن الحياءِ، والخِزْيِ، والغَمِّ؛ لِيَشمَتَ بهم، وأنْ تكونَ (لو) الامتناعيَّةُ قد حُذِفَ جَوابُها، وهو: لَرأيتَ أمْرًا فظيعًا، أو: لَرأيتَ أسوَأَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

وردَّ أبو السعودِ هذا القولَ، فقال: (ومَنْ علَّل عُمومَ الخِطابِ بالقصدِ إلى بيانِ أنَّ حالَهم قد بلغتْ مِن الظُّهورِ إلى حيث يمتنعُ خَفاؤها البتَّةَ، فلا تختصُّ رؤية راءٍ دونَ راءٍ، بل كلُّ مَن يتأتَّى منه الرُّؤيةُ فله مدخَلٌ في هذا الخِطابِ: فقد نأى عن تحقيقِ الحقِّ؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ كمالِ فظاعةِ حالِهم كما يُفصِحُ عنه الجوابُ المحذوفُ، لا بيانُ كمالِ ظهورِها؛ فإنَّه مَسوقٌ مَساقَ المسلَّماتِ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٣).

حالٍ تُرى. ويَجوزُ أنْ يُخاطَبَ به كلُّ أحدٍ[١].

- قولُه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ (لو) و(إذ) كِلاهما للمُضِيِّ، وإنَّما جازَ ذلك؛ لأنَّ المُترقَّبَ مِن اللهِ بمَنزلةِ المَوجودِ المَقطوعِ به في تَحقُّقِه[٢].

- والمُجرِمون همُ الَّذين قالوا: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ [السجدة: ١٠] -على قولٍ-؛ فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِقَصدِ التَّسجيلِ عليهم بأنَّهم في قَولِهم ذلك مُجرِمون، أي: آتُونَ بجُرمٍ؛ وهو جُرمُ تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعطيلِ الدَّليلِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عُدولٌ عن الجُملةِ الفِعليَّةِ إلى الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ﴾؛ لِتَقريرِ ثَباتِهم على نَكسِ رُؤوسِهم؛ خجَلًا، وحَياءً، وخِزْيًا، عندَما تَبْدو مَثالِبُهم وهَنَاتُهم بصُورةٍ دَميمةٍ شَوهاءَ، تَبعَثُ على الهُزءِ بهم، والسُّخريةِ منهم، كأنَّما استمرَّ ذلك منهم؛ لا يَرتفِعُ لهم رأْسٌ، ولا يَمتدُّ منهم طَرْفٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢١).

وقال أبو حيان متعقِّبًا كلامَ الزمخشري: (والتَّمنِّي بـ «لو» في هذا الموضعِ بعيدٌ، وتَسميةُ «لو» الامتناعيَّةَ ليس بجيِّدٍ، بل العبارةُ الصحيحةُ «لو» لِمَا كان سيَقَعُ لِوُقوعِ غَيرِه، وهي عِبارةُ سيبويه. وقولُه: قد حُذِفَ جوابُها، وتقديرُه: ولَيْتَك ترَى، ممَّا يدُلُّ على أنَّها إذا كانتْ للتَّمنِّي لا جوابَ لها، والصَّحيحُ: أنَّها إذا أُشرِبَتْ معنى التَّمنِّي، يكونُ لها جوابٌ كحالِها إذا لم تُشْرَبْه). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٥). ويُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٤/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٨١).

- وجُملةُ ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا ...﴾ إلى آخِرِها، مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ هو في مَوضعِ الحالِ، أي: ناكِسو رُؤوسِهم، يَقولون أو قائلِينَ: أبصَرْنا وسمِعْنا. وحُذِفَ مَفعولُ ﴿أَبۡصَرۡنَا﴾ ومَفعولُ (سَمِعْنَا)؛ لِدَلالةِ المَقامِ، أي: أبصَرْنا مِن الدَّلائلِ المُبصَرةِ ما يُصدِّقُ ما أُخبِرْنا به -فقد رأَوُا البَعثَ مِن القُبورِ، ورَأَوْا ما يُعامَلُ به المُكذِّبون-، وسَمِعْنا مِن أقوالِ الملائكةِ ما فيه تَصديقُ الوعيدِ الَّذي تُوعِّدْنا[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ تَعليلٌ لِتَحقيقِ الوَعدِ بالعمَلِ الصَّالحِ؛ بأنَّهم صاروا مُوقِنينَ بحَقِّيَّةِ ما يَدْعوهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليه؛ فكانتْ (إنَّ) مُغْنيةً غَناءَ فاءِ التَّفريعِ المُفيدةِ للتَّعليلِ[2].

- وعُدِلَ عن الجُملةِ الفِعليَّةِ إلى الاسميَّةِ المُؤكَّدةِ في قولِه: ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم ثابِتون على الإيقانِ، راغِبونَ فيه بعدَ أنْ ظهَرَت لهم المَغابُّ (العواقبُ) مُناديةً عليهم بالوَيلِ والثُّبورِ، وكلُّ ذلك للجِدِّ في الاستِدعاءِ؛ طمَعًا في الإجابةِ إلى ما سَألوه مِن الرَّجعةِ، وأنَّى لهم ذلك[3]؟!

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا﴾ اعتراضٌ بيْنَ القولِ المُقدَّرِ قبْلَ قولِه: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا﴾ [السجدة: ١٢]، وبيْنَ الجوابِ عنه بقولِه: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ﴾ [السجدة: ١٤]؛ فالواوُ الَّتي في صَدرِ الجُملةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٨١).

اعتراضيَّةٌ، وهي مِن قَبيلِ واوِ الحالِ. ومَفعولُ فِعلِ المَشيئةِ مَحذوفٌ؛ استِغناءً عن المَفعولِ بما يدُلُّ عليه جوابُ الشَّرطِ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إيجازٌ يَبلُغُ مَبلَغَ الإعجازِ؛ إذ حُذِفَ مُعظَمُ ما أُريدَ بحَرفِ الاستِدراكِ الواردِ على قولِه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾؛ فإنَّ مُقتَضَى الاستدراكِ أنْ يُقدَّرَ: ولكنَّا لمْ نَشَأْ ذلك، بلْ شِئْنا أنْ نَخلُقَ النَّاسَ مُختارينَ بيْنَ طَريقَيِ الهُدى والضَّلالِ، ووَضَعْنا لهم دَواعيَ الرَّجاءِ والخَوفِ، وأرَيْناهم وَسائلَ النَّجاةِ والارتباكِ بالشَّرائعِ؛ قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: الطَّريقينِ، وحَقَّقْنا الأخبارَ عن الجَزاءينِ بالوَعدِ والوعيدِ بالجنَّةِ وجَهنَّمَ، فلَأمْلَأنَّ جهنَّمَ بأهْلِ الضَّلالِ مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمعينَ، فدخَلَ هذا في قولِه تعالى: ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بما يُشبِهُ دَلالةَ الاقتضاءِ، وإنَّما اختيرَ الاقتصارُ في المَنطوقِ به الدَّالِّ على المَحذوفِ على شِقِّ مَصيرِ أهلِ الضَّلالِ؛ لأنَّه الأنسَبُ بسِياقِ الاعتراضِ إثْرَ كلامِ أهْلِ الضَّلالةِ في يَومِ الجزاءِ، ولأنَّه أظهَرُ في تَعلُّقِ مَضمونِ جُملةِ الاعتراضِ بمَضمونِ اقتراحِهم(٢).

- وعُدِلَ عن الإضافةِ في ﴿حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾، فلمْ يَقُلْ: (حقَّ قَولي)؛ لأنَّه أُريدَ الإشارةُ إلى قَولٍ مَعهودٍ، وهو ما في سُورةِ (ص): ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥]، أي: حَقَّ القولُ المعهودُ. واجتُلِبَت (مِن) الابتدائيَّةُ؛ لِتَعظيمِ شَأنِ هذا القولِ بأنَّه مِن اللهِ، وعُدِلَ عن ضَميرِ العَظَمةِ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢٣، ٢٢٤).

ضَميرِ النَّفْسِ ﴿مِنِّي﴾؛ لإفادةِ الانفرادِ بالتَّصرُّفُ، ولأنَّه الأصلُ، مع ما في هذا الاختلافِ مِن التَّفنُّنِ(١).

- قَولُه ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾، أي: الجِنِّ؛ طائِفةِ إبليسَ، وكأنَّه أنَّثَهم تحقيرًا لهم عندَ مَن يَستَعظِمُ أمْرَهم(٢).

- قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ﴾ بدأ بالجِنِّ؛ لاستِعظامِ الكافِرينَ لهم، ولأنَّ المقامَ مقامُ تحقيرٍ لهم(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ جوابٌ عن قولِهم: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ [السجدة: ١٢]؛ فالفاءُ لِتَفريعِ جوابٍ عن إقرارِهم؛ إلْزامًا لهم بمُوجَبِ إقرارِهم، أي: فيَتفرَّعُ على اعترافِكم بحَقِّيَّةِ ما كان الرَّسولُ يَدْعوكم إليه أنْ يَلحَقَكم عذابُ النَّارِ. ومَجيءُ التَّفريعِ مِن المُتكلِّمِ على ما هو مِن كلامِ المُخاطَبِ فيه إلْزامٌ بالحُجَّةِ(٤).

- وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَذُوقُوا۟﴾ لِتَرتيبِ الأمْرِ بالذَّوقِ على ما يُعرِبُ عنه ما قبْلَه مِن نَفْيِ الرَّجعِ إلى الدُّنيا، أو على الوَعيدِ المَحكيِّ، والباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ تَعذيبَهم ليس لِمُجرَّدِ سَبقِ الوَعيدِ به فقطْ، بلْ هو وسَبْقُ الوعيدِ أيضًا بسَببٍ مُوجبٍ له مِن قِبَلِهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير القنوجي)) (١١/ ٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٤، ٢٢٥).

كأنَّه قِيل: لا رَجْعَ لكمْ إلى الدُّنيا أو: حقَّ وَعِيدي، فذُوقوا بسَببِ نِسيانِكم لِقاءَ هذا اليومِ الهائلِ، وتَرْكِكُم التَّفكُّرَ فيه، والاستِعدادَ له بالكُلِّيَّةِ[١].

- ومَفعولُ (ذُوقوا) مَحذوفٌ دلَّ عليه السِّياقُ، أي: فَذُوقوا ما أنتم فيه ممَّا دَعاكم إلى أنْ تَسْألوا الرُّجوعَ إلى الدُّنيا[٢].

- قولُه: ﴿بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ في إضافةِ (يومٍ) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ تَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّهم كانوا يُنكِرونه، فلمَّا تَحقَّقوه جُعِلَ كأنَّه أشدُّ اختِصاصًا بهم. والإشارةُ بـ﴿هَٰذَآ﴾ إلى اليومِ؛ تَهويلٌ له[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ مُستأْنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ المُجرِمينَ إذا سَمِعوا ما عَلِموا منه أنَّهم مُلاقو العَذابِ مِن قولِه: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾، تَطلَّعوا إلى مَعرفةِ مَدَى هذا العذابِ المَذوقِ؟ وهل لَهم منه مَخلَصٌ؟ وهلْ يُجابون إلى ما سَأَلوا مِن الرَّجعةِ إلى الدُّنيا؛ لِيَتدارَكوا ما فاتَهم مِن التَّصديقِ؟ فأُعلِمُوا بأنَّ اللهَ مُهمِلٌ شَأْنَهم، أي: لا يَستجيبُ لهم، وهو كِنايةٌ عن تَركِهم فيما أُذِيقوه[٤].

- وقد حُقِّقَ هذا الخبَرُ بمُؤكِّداتٍ؛ وهي: حَرفُ التَّوكيدِ (إنَّ)، وإخراجُ الكلامِ في صِيغةِ الماضي على خِلافِ مُقْتضى الظاهرِ مِن زَمنِ الحالِ؛ لإفادةِ تَحقُّقِ الفِعلِ حتَّى كأنَّه مَضى ووَقَعَ. وصُدِّرتِ الجملةُ بـ (إنَّ)، وعُطِفَ الطَّلَبيُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٦).

على الخَبَريِّ؛ تشديدًا للانتقامِ منهم[١].

- قولُه: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عَطفٌ على ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾، وهو وإنْ أفادَ تَأكيدَ تَسليطِ العذابِ عليهم، فإنَّ عَطْفَه مُراعًى فيه ما بيْنَ الجُملتينِ مِن المُغايَرةِ بالمُتعلِّقاتِ والقُيودِ، مُغايرةً اقتَضَت أنْ تُعتبَرَ الجُملةُ الثَّانيةُ مُفيدةً فائدةً أُخرى؛ فالجُملةُ الأُولى تَضمَّنتْ أنَّ مِن سَببِ استِحقاقِهم تلك الإذاقةَ: إهمالَهم التَّدبُّرَ في حُلولِ هذا اليومِ، والجُملةُ الثَّانيةُ تَضمَّنَت أنَّ ذلك العذابَ مُستمِرٌّ، وأنَّ سببَ استمرارِ العذابِ، وعَدمِ تَخفيفِه؛ أعمالُهم الخاطئةُ، وهي أعمُّ مِن نِسيانِهم لِقاءَ يَومِهم ذلك[٢]. وفي إبهامِ المَذوقِ أوَّلًا، وبَيانِه ثانيًا بتَكريرِ الأمْرِ، وتَوسيطِ الاستئنافِ المُنبئِ عن كَمالِ السَّخطِ بيْنَهما: مِن الدَّلالةِ على غايةِ التَّشديدِ في الانتقامِ منهم ما لا يَخْفَى[٣].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤).

## الآيات (١٥-١٧)

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿خَرُّوا۟﴾: الخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِن عُلُوٍّ إلى الأرضِ، وخرَّ: سقَط على وَجهِه، وأصلُ (خَرَّ): هو اضْطِرابٌ، وسُقوطٌ مع صوتٍ[١].

﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾: أي: ترتَفِعُ وتَتنحَّى عن الفِراشِ، وأصلُ (جفو): يدُلُّ على نبوٍّ (أي: ارتفاعِ أو تنحِّي) الشَّيءِ عن الشَّيءِ[٢].

﴿ٱلْمَضَاجِعِ﴾: جمْع مَضْجَعٍ، وهو موضِعُ الضُّجوعِ والنَّومِ، وأصلُ (ضجع): اللُّصوقُ بالأرضِ على جَنْبٍ[٣].

﴿قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾: أي: ما تَلَذُّه وتَشتَهيه، وهي مأخوذةٌ مِن القُرِّ، أي: البَردِ، يُقالُ: قَرَّتْ عينُه، أي: بَرَدَت، فقد قيل: دَمعُ الفَرَحِ بارِدٌ، بخِلافِ دَمعِ الحُزنِ، وقيلَ: مأخوذةٌ مِنَ القَرارِ، والمعنى: أعطاهم اللهُ ما تَسكُنُ به أعينُهم فلا تطمَحُ إلى غَيرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٩)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((تفسير =

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ المؤمنينَ الصادقينَ، وما أعدَّ لهم مِن ثوابٍ: إنَّما يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ الَّذين إذا ذُكِّرُوا بها خَرُّوا إلى الأرضِ ساقِطينَ على وُجوهِهم سُجَّدًا؛ خُضوعًا لرَبِّهم، وإقرارًا بعُبوديَّتِه سُبحانَه، ونزَّهوا اللهَ تعالى في سُجودِهم عن كُلِّ النَّقائِصِ والعُيوبِ، وهم لا يَستكبِرونَ.

تَتباعَدُ جُنوبُهم عن فُرُشِهم، ويَتركُونَ النَّومَ لِمُناجاةِ رَبِّهم؛ خَوفًا مِن عذابِه، وطَمَعًا في ثوابِه، ويُنفِقونَ مِمَّا رَزَقهم اللهُ تعالى، فلا يَعلَمُ أيُّ أحدٍ ما أخفَى اللهُ لأولئك المؤمِنينَ مِمَّا تَقَرُّ به أعينُهم مِنَ النَّعيمِ؛ ثوابًا لهم بما كانوا يَعمَلونَه مِنَ الصَّالحاتِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الكافِرينَ بآياتِه، وما أعَدَّ لهم مِنَ العذابِ؛ ذكَرَ المؤمِنينَ بها ووصْفَهم، وما أعَدَّ لهم مِنَ الثَّوابِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ﴾ قد أشار إلى أنَّ الحامِلَ لهم على الكُفرِ الكِبْرُ، وذكَرَ سُبحانَه أنَّه قَسَّم النَّاسَ قِسْمَينِ لأجْلِ الدَّارَينِ: تشَوَّفَت النَّفْسُ إلى ذِكرِ علامةِ أهلِ الإيمانِ، كما ذُكِرَتْ علامةُ أهلِ الكُفرانِ؛

---

= ابن عطية)) (٤/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

فقال تعالى[١]:

﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا ﴾.

أي: إنَّما يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ[٢] الَّذين إذا ذُكِّروا بها بادَروا إلى إظهارِ التَّذَلُّلِ والخُضوعِ لله، فهَوَوا إلى الأرضِ ساقِطينَ على وُجوهِهم سُجَّدًا؛ تَعظيمًا وخُضوعًا لرَبِّهم، وإقرارًا بعُبوديَّتِه سُبحانَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

﴿وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) قيل: المرادُ بها هنا: القرآنُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٧).

وقيل: المرادُ: العُمومُ، فتَشملُ الآياتِ الكونيَّةَ، وتَشملُ الآياتِ الشَّرعيَّةَ على سبيلِ العُمومِ حتَّى فيما سبَق. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٧، ٢٢٨).

قال البقاعي: (﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ أي: بادَروا إلى السُّجودِ مُبادرةَ مَن كأنَّه سَقَط مِن غيرِ قَصدٍ، خُضَّعًا للهِ مِن شِدَّةِ تواضُعِهم وخَشيتِهم وإخباتِهم له، خُضوعًا ثابتًا دائمًا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٥٤).

أي: ونزِّهوا اللهَ تعالى في سُجودِهم عن جَميعِ النَّقائِصِ والعُيوبِ، تنزيهًا مُتلبِّسًا بحَمدِه، وإثباتِ صِفاتِ كَمالِه[١].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ في رُكوعِه وسُجودِه: ((سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبَّنا وبحَمدِك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي))[٢].

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: يَسجُدونَ للهِ، ويُسَبِّحونَ بحَمدِه، والحالُ أنَّهم لا يَستَكبِرونَ[٣].

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾.

أي: تَرتَفِعُ وتَتباعَدُ جُنوبُ هؤلاءِ المؤمِنينَ مُتنَحِّيةً عن فُرُشِهم، فيَهجُرونَ النَّومَ لِمُناجاةِ اللهِ تعالى في اللَّيلِ؛ خَوفًا مِن غَضَبِه وسَخَطِه وعَذابِه، وطَمَعًا في رِضاهُ ورَحمتِه ومَغفِرتِه وثَوابِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٧، ٦٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٢).

(٢) رواه البخاري (٧٩٤) واللفظ له، ومسلم (٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٨٠).

قيل: لا يَستكبِرونَ عن السُّجودِ والتَّسبيحِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨). واقتصَر مقاتلُ بنُ سُليمانَ على السُّجودِ. يُنظر ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٥١).

وقيل: لا يَستكبِرونَ عن آياتِ رَبِّهم، فهم يتَّبِعونَها، ويَنقادونَ إليها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨، ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٩٩ - ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: =

كما قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ إيثارَهم التَّقرُّبَ إلى اللهِ على حُظوظِ لَذَّاتِهم الجَسديَّةِ؛ ذكَرَ معه إيثارَهم

---

= ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٨، ٢٢٩).

قيل: المقصودُ هنا: قيامُ اللَّيلِ. وقد مال إليه ابنُ جرير، وذهب إليه ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٣، ٦١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ، ومجاهدٌ، وعطاءٌ، وأبو العاليةِ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٠).

وقيل: يَشملُ ذلك كلَّ مَن ترَك النَّومَ باللَّيلِ لذِكرِ الله ودعائِه، فيَدخُلُ فيه مَن صلَّى بيْن العِشاءينِ، ومَنِ انتظَر صلاةَ العِشاءِ فلمْ يَنَمْ حتَّى يُصَلِّيَها، لا سيَّما مع حاجتِه إلى النَّومِ، ومُجاهَدةِ نفْسِه على تَركِه لأداءِ الفريضةِ، ويَدخُلُ فيه مَن نام ثمَّ قام مِن نَومِه باللَّيلِ لِلتَّهَجُّدِ، ورُبَّما دخل فيه مَن ترَك النَّومَ عندَ طُلوعِ الفَجرِ، وقام إلى أداءِ صلاةِ الصُّبحِ، لا سيَّما مع غَلَبةِ النَّومِ عليه. قاله: ابن رجب. يُنظر: ((جامع العلوم والحِكَم)) (٢/ ١٤٢، ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٢).

وقيل: تَجافي الجَنبِ: هو أن يُصلِّيَ الرَّجُلُ العِشاءَ والصُّبحَ في جماعةٍ. وممَّن استحسَنَ هذا المعنى: القرطبيُّ، وقال: (العادةُ أنَّ مَن حافَظَ على هذه الصَّلاةِ في أوَّلِ الوَقتِ يقومُ سَحَرًا يَتوضَّأُ ويُصَلِّي، ويَذكُرُ اللهَ عزَّ وجلَّ إلى أن يَطلُعَ الفَجرُ، فقد حصل التَّجافي أوَّلَ اللَّيلِ وآخِرَه، يؤيِّدُ هذا ما رواه مُسلِمٌ [٦٥٦] مِن حديثِ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: «مَن صلَّى العِشاءَ في جماعةٍ فكأنَّما قام نِصفَ اللَّيلِ، ومَن صلَّى الصُّبحَ في جماعةٍ فكأنَّما قام اللَّيلَ كُلَّه»). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو الدَّرْداءِ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤١).

إيَّاهُ على ما به نَوالُ لَذَّاتٍ أُخرى، وهو المالُ؛ إذ يُنفِقون منه ما لو أبْقَوه لَكان مَجلبةَ راحةٍ لهم، فقال[١]:

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

أي: ومِمَّا رزَقَهم ربُّهم يُنفِقونَ في سَبيلِه سُبحانَه[٢].

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ جَزاءَ المُستَكبِرينَ، فتشَوَّفَتِ النَّفْسُ إلى جزاءِ المتواضِعينَ؛ أشار إلى جزائِهم بفاءِ السَّبَبِ؛ إشارةً إلى أنَّه هو الذي وفَّقَهم لهذه الأعمالِ برَحمتِه، وجعَلَها سَبَبًا إلى دُخولِ جَنَّتِه، ولو شاء لَكان غيرُ ذلك[٣].

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

أي: فلا يَعلَمُ أيُّ أحَدٍ[٤] ما أخفَى اللهُ لأولئكَ المؤمِنينَ مِنَ النَّعيمِ العَظيمِ في الجنَّةِ، مِمَّا تَقَرُّ به أعينُهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٤) قيل: يَدخُلُ في هذا العُمومِ: الملائِكةُ. وممَّن صرَّح بذلك: الزمخشريُّ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٠).

وقيل: المرادُ: أصحابُ النُّفوسِ البَشَريَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قال اللهُ: أعدَدْتُ لِعِباديَ الصَّالحينَ ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ؛ فاقرَؤوا إن شِئتُم: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾))[١].

وعنِ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((سأل موسى رَبَّه: ما أدنى أهلِ الجنَّةِ مَنزِلةً؟ قال: هو رجُلٌ يَجيءُ بعدَ ما أُدخِلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، فيُقالُ له: ادخُلِ الجنَّةَ، فيَقولُ: أيْ رَبِّ، كيف وقد نزَلَ النَّاسُ مَنازِلَهم، وأَخَذوا أَخَذاتِهم[٢]؟! فيُقالُ له: أتَرضَى أن يكونَ لك مِثلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِن مُلوكِ الدُّنيا؟ فيَقولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فيقولُ: لك ذلك، ومِثلُه ومِثلُه ومِثلُه ومِثلُه، فقال في الخامسةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فيقولُ: هذا لك وعَشَرةُ أمثالِه، ولك ما اشتَهَت نَفْسُك، ولَذَّتْ عَينُك! فيقولُ: رَضِيتُ رَبِّ. قال: رَبِّ، فأعلاهم مَنزِلةً؟ قال: أولئك الَّذين أرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرامَتَهم بيَدِي، وخَتَمتُ عليها، فلَمْ تَرَ عَينٌ، ولم تَسمَعْ أُذُنٌ، ولم يَخطُرْ على قَلبِ بَشَرٍ، قال: ومِصْداقُه في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾))[٣].

﴿ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾.

أي: أعدَّ اللهُ لهم ذلك النَّعيمَ العظيمَ في الجنَّةِ؛ ثَوابًا لهم على أعمالِهم الصَّالحةِ الَّتي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا[٤].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٤).

(٢) أَخَذوا أَخَذاتِهم: هو ما أَخَذوه مِن كرامةِ مَولاهم وحصَّلوه، أو يكون معناه: قصَدوا منازلَهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٤٦).

(٣) رواه مسلم (١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٣).

كما قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ أنَّ التَّعصُّبَ في التَّقليدِ ليس مِن طَريقِ المؤمِنينَ؛ لِقَولِه: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، ويُوجَدُ في المتعَصِّبينَ في التَّقليدِ مَن يَستكبِرُ عن الحَقِّ؛ إذا عُرِضَ عليه أبَى[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ فيه أنَّ الَّذي يؤمِنُ إيمانًا حَقيقيًّا: يُوجَدُ منه شواهِدُ الإيمانِ، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ﴾ بآياتِ رَبِّهم فتُلِيَت عليهم آياتُ القُرآنِ، وأتَتْهم النَّصائِحُ على أيدي رُسلِ اللهِ، ودُعُوا إلى التَّذَكُّرِ: سَمِعوها فقَبِلوها، وانقادوا و﴿خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ أي: خاضِعينَ لها خُضوعَ ذِكرٍ لله، وفَرَحٍ بمَعرفتِه، ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ لا بقُلوبِهم ولا بأبدانِهم فيمتَنِعونَ مِن الانقيادِ لها، بل مُتواضِعون لها، قد تلَقَّوها بالقَبولِ والتَّسليمِ، وقابَلوها بالانشِراحِ والتَّسليمِ، وتوصَّلوا بها إلى مَرضاةِ الرَّبِّ الرَّحيمِ، واهتَدَوا بها إلى الصِّراطِ المُستقيمِ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا ...﴾ الاستِدلالُ بالقَرائِنِ والأحوالِ على حَقيقةِ الشَّيءِ، وهذه مُفيدةٌ غايةَ الفائِدةِ للقُضاةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٨١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا ﴾ أنَّ مِن عَلامةِ المؤمِنِ انقيادَه للمَواعِظِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أنَّ مِن صِفاتِ المؤمنِ التَّواضُعَ للحقِّ وللخَلْقِ[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ في قَولِه: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ أنَّه ينبغي للدَّاعِي وللعاملِ العابدِ أنْ يكونَ دعاؤُه وعبادتُه بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ لَمَّا كانت العِبادةُ تَقطَعُ عن التَّوسُّعِ في الدُّنيا، فرُبَّما دَعَت نَفْسُ العابدِ إلى التَّمَسُّكِ بما في يَدِه؛ خَوفًا مِن نَقصِ العبادةِ عن الحاجةِ؛ لِتَشوُّشِ الفِكرِ والحَركةِ لِطَلَبِ الرِّزقِ: حثَّ على الإنفاقِ منه؛ اعتمادًا على الخلَّاقِ الرَّزَّاقِ الَّذي ضَمِنَ الخَلَفَ؛ لِيَكونوا بما ضَمِنَ لهم أوثَقَ منهم بما عِندَهم، وإيذانًا بأنَّ الصَّلاةَ سَبَبٌ للبَرَكةِ في الرِّزقِ[٤]. وأيضًا فقد يَنشَطُ العبدُ في العبادةِ البدنيَّةِ، لكنَّه يَبخَلُ فلا يَجودُ بنفقةٍ؛ لذا أثنَى الله تعالى على مَن جمَع بينَ الأمرينِ.

٨- تأمَّلْ في قَولِه تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٦).

كيف قابَلَ سُبحانَه ما أخفَوه مِن قيامِ اللَّيلِ، بالجَزاءِ الَّذي أخفاه لهم ممَّا لا تَعْلَمُه نَفْسٌ، وكيف قابَلَ قَلَقَهم وخَوفَهم واضْطِرابَهم على مَضاجِعِهم حينَ يقومون إلى صَلاةِ اللَّيلِ، بِقُرَّةِ الأعيُنِ في الجَنَّةِ[١]! قال الحَسَنُ البَصريُّ: (أخفى قَومٌ عَمَلَهم، فأخفَى اللهُ لهم ما لم تَرَ عَينٌ، ولم يَخطُرْ على قَلبِ بَشَرٍ)[٢]، فكما صَلَّوا في اللَّيلِ ودَعَوا وأخفَوُا العَمَلَ، جازاهم مِن جِنسِ عَمَلِهم؛ فأخفَى أجْرَهم[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ هذه الآيةُ أوردَ عليها بعضُ العُلَماءِ إشكالًا، وقال: هل لكُلِّ مَن ذُكِّرَ بآياتِ اللهِ أن يَسجُدَ؟ فإذا قُرِئَ عليه آيةُ سَجَد، أو إذا ما وعَظْتَه بمَوعظةٍ سَجَد؟

**والجوابُ عن هذه الآيةِ**: قال بَعضُهم: المرادُ بـ﴿خَرُّوا۟﴾: سَجَدوا في موضِعِ السُّجودِ، يعني: خَرُّوا سُجَّدًا؛ إذا مَرَّت بهم آياتُ سَجدةٍ سجَدوا، أمَّا إذا ذُكِّروا بآياتِ رَبِّهم بدونِ أن تَمُرَّ بهم آياتُ سَجدةٍ فإنَّهم لا يَسجُدونَ.

ولكِنَّ الصَّوابَ خِلافُ ذلك؛ فالصَّوابُ أنَّ المعنى: الَّذين إذا ذُكِّروا بها انقادوا لها، وخَضَعوا لها، ولا يلزَمُ مِن ذلك أن يكونَ السُّجودُ مُباشِرًا للتَّذكيرِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ يعني: حتَّى في المُستقبَلِ؛ فلا يلزَمُ أن يكونَ جوابُ الشَّرطِ مُباشِرًا له[٤].

وأيضًا فهذه الآيةُ وإن تناوَلَت سُجودَ التِّلاوةِ فتَناوُلُها لِسُجودِ الصَّلاةِ أعظَمُ؛

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٧٩).

فإنَّ احتياجَ الإنسانِ إلى هذا السُّجودِ أعظَمُ على كُلِّ حالٍ؛ فقد جَعَل الخُرورَ إلى السُّجودِ مِمَّا لا يَحصُلُ الإيمانُ إلَّا به[1]، فقَولُه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ليس يعني بها آياتِ السُّجودِ فقط، بل جميعَ القُرآنِ، فلا بُدَّ أن يكونَ إذا ذُكِّرَ بجَميعِ آياتِ القُرآنِ يَخِرُّ ساجِدًا، وهذا حالُ المصَلِّي؛ فإنَّه يُذكَّرُ بآياتِ اللهِ بقراءةِ الإمامِ، والإمامُ يُذكَّرُ بقراءةِ نَفْسِه، فلا يكونون مُؤمِنينَ حتَّى يخِرُّوا سُجَّدًا، وهو سُجودُهم في الصَّلاةِ، وهو سُجودٌ مُرَتَّبٌ، ينتَقِلونَ أوَّلًا إلى الرُّكوعِ، ثمَّ إلى السُّجودِ، والسُّجودُ مَثْنى كما بَيَّنه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَجتَمِعَ فيه خُروران: خرورٌ مِن قيامٍ، وهو السَّجدةُ الأولى، وخرورٌ مِن قُعودٍ، وهو السَّجدةُ الثَّانيةُ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ السُّجودَ مِن الإيمانِ -وهو رَدٌّ على المُرجئةِ، فإنْ كانت السَّجدةُ فرضًا كانت جزءًا مِن أجزاءِ فَرْضِه؛ وإنْ كانت تَطَوُّعًا فهي مِن أجزاءِ نَوافلِه[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ المؤمِنينَ ليسُوا مُنحَصِرينَ فيمَنِ اتَّصَف بهذه الصِّفةِ، ولا أنَّ هذه الصِّفةَ شَرطٌ في تحقُّقِ الإيمانِ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوجهُ الأوَّلُ:** المرادُ بـ﴿ذُكِّرُواْ﴾: وُعِظوا، وبالسُّجودِ: الخُشوعُ والخُضوعُ، والتَّواضُعُ في قَبولِ الموعِظةِ، وذلك شَرطٌ في تحقُّقِ الإيمانِ.

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٣٤).

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ المرادَ بالمؤمِنِ: الكامِلُ إيمانًا[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ استُدِلَّ به على كُفْرِ تارِكِ الصَّلاةِ، ووجْهُ الاستِدلالِ بالآيةِ أنَّه سُبحانَه نفَى الإيمانَ عمَّن إذا ذُكِّرُوا بآياتِ اللهِ لم يَخِرُّوا سُجَّدًا مُسَبِّحِيْنَ بحَمْدِ ربِّهم -ومِن أَعْظَمِ التَّذكيرِ بآياتِ الله التَّذكيرُ بآيات الصلاةِ-؛ فمَن ذُكِّرَ بها ولم يَتذَكَّرْ، ولم يُصَلِّ؛ لم يُؤمِنْ بها! لأنَّه سُبحانَه خَصَّ المؤمنينَ بها بأنَّهم أهلُ السُّجودِ، وهذا مِن أحسَنِ الاستِدلالِ وأقْرَبِه؛ فلمْ يؤمِنْ بقولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ١١٠] إلَّا مَنِ التزمَ إقامتَها[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الإيمانَ المُطلَقَ مُستَلزِمٌ للأعمالِ؛ فنفى سُبحانَه الإيمانَ عن غيرِ هؤلاء؛ فمَن كان إذا ذُكِّرَ بالقُرآنِ لا يَفعَلُ ما فَرَضَه اللهُ عليه مِن السُّجودِ، لم يكُنْ مِن المؤمِنينَ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ الجَمعُ بيْنَ انتِفاءِ العَيبِ والنَّقصِ عن اللهِ تعالى مع ثُبوتِ الكَمالِ له، ففي التَّسبيحِ تَنزيهٌ، وفي الحَمدِ كَمالٌ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ أنَّ في الجنةِ مِن قُرَّةِ العَينِ في المأكولِ والملبوسِ والمنكوحِ والمسكنِ ما لا يَخطُرُ على البالِ؛ لأنَّ كلَّ هذه الأربعةِ تَقَرُّ بها العَينُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٨٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٠).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَقريرِ عَدمِ استِحقاقِ المجرمينَ لإيتاءِ الهُدى، والإشعارِ بعَدمِ إيمانِهم لو أُوتُوه بتَعيينِ مَن يَستحِقُّه بطَريقِ القصْرِ، كأنَّه قِيل: إنَّكم لا تُؤمِنون بآياتِنا، ولا تَعمَلونَ بمُوجَبِها عمَلًا صالحًا، ولو رَجَعْناكم إلى الدُّنيا كما تَدَّعون[١].

- قولُه: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ أفادَتْ (إنَّما) قَصرًا إضافيًّا، أي: يُؤمِنُ بآياتِ اللهِ الَّذين إذا ذُكِّروا بها تَذكيرًا بما سبَقَ لهم سَماعُه، لم يَتريَّثوا عن إظهارِ الخُضوعِ للهِ، دُونَ الَّذين قالوا: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ﴾ [السجدة: ١٠]، وهذا تَأييسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن إيمانِهم، وتَعريضٌ بهم بأنَّهم لا يَنفَعون المُسلمينَ بإيمانِهم، ولا يَغيظونَهم بالتَّصلُّبِ في الكُفرِ[٢].

- وأُوثِرَت صِيغةُ المُضارِعِ ﴿يُؤْمِنُ﴾؛ لِمَا تُشعِرُ به مِن أنَّهم يَتجدَّدون في الإيمانِ، ويَزْدادونَ يَقينًا وَقتًا فَوَقتًا؛ وإلَّا فإنَّ المؤمنينَ قد حصَلَ إيمانُهم فيما مَضى؛ ففِعلُ المُضِيِّ آثَرُ بحِكايةِ حالِهم في الكلامِ المُتداوَلِ لولا هذه الخُصوصيَّةُ؛ ولهذا عُرِّفوا بالمَوصوليَّةِ والصِّلةِ الدَّالِّ مَعناها على أنَّهم راسِخونَ في الإيمانِ، فعُبِّرَ عن إبلاغِهم آياتِ القُرآنِ وتِلاوتِها على أسماعِهم، بالتَّذكيرِ المُقتضِي أنَّ ما تَتضمَّنُه الآياتُ حَقائقُ مُقرَّرةٌ عِندَهم، لا يُفادُونَ بها فائدةً لم تكُنْ حاصِلةً في نُفوسِهم، ولكنَّها تكسِبُهم تَذكيرًا؛ ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣] [الذاريات: ٥٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ دلَّتِ الجُملةُ الشَّرطيَّةُ على اتِّصالِ تَعلُّقِ حُصولِ الجوابِ بحُصولِ الشَّرطِ وتَلازُمِهما(١).

- قولُه: ﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ التَّعرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ بطَريقِ الالْتِفاتِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِهم؛ للإشعارِ بعِلَّةِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ، وبأنَّهم يَفعَلونهما بمُلاحَظةِ رُبوبيَّتِه تعالى لهم(٢).

- قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ جِيءَ في نَفْيِ التَّكبُّرِ عنهم بالمُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ لإفادةِ اختِصاصِهم بذلك، أي: دُونَ المُشرِكين الَّذين كان الكِبْرُ خُلُقَهم؛ فهم لا يَرضَون لأنفُسِهم بالانقيادِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ منهم، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾(٣) [الفرقان: ٢١].

٢- قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

- جُملةُ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ مُستأْنَفةٌ لِبَيانِ بَقيَّةِ مَحاسِنِهم، وهم المُتهجِّدونَ(٤). وقيل: حالٌ مِن المَوصولِ، أي: الَّذين إذا ذُكِّروا بها خَرُّوا، ومَن حالُهم تَتجافَى جُنوبُهم عن المَضاجعِ، أو استئنافٌ، وجِيءَ بالمُضارِعِ؛ لإفادةِ تكرُّرِ ذلك وتَجدُّدِه منهم في أجزاءٍ كثيرةٍ مِن الأوقاتِ المُعَدَّةِ للاضْطِجاعِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٤).

وهي الأوقاتُ الَّتي الشَّأنُ فيها النَّومُ[١].

- و(أل) في ﴿ٱلْمَضَاجِعِ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: عن مَضاجعِهم، كقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤١]. وهذا تَعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ يَمْضُون ليلَهم بالنَّومِ، لا يَصرِفُه عنهم تَفكُّرٌ، بلْ يَسقُطون كما تَسقُطُ الأنعامُ[٢].

- وذكَر الطَّمعَ الَّذي هو الرَّجاءُ؛ لأنَّ الدُّعاءَ مَبْنيٌّ عليه؛ فإنَّ الدَّاعيَ ما لم يَطمَعْ في سُؤالِه ومَطلوبِه لم تَتحرَّكْ نفْسُه لطَلبِه، إذ طلَبُ ما لا يُطمَعُ فيه مُمتنعٌ[٣].

وقيل: عبَّرَ بـ(طَمَعًا) دونَ الرَّجاءِ؛ إشارةً إلى أنَّهم -لشِدَّةِ مَعرفتِهم بنقائِصِهم- لا يَعُدُّونَ أعمالَهم شَيئًا، بل يَطلُبونَ فَضْلَه بغيرِ سَبَبٍ، وإذا كانوا يَرجُونَ رَحمتَه بغيرِ سَبَبٍ، فهم مع السَّببِ أرجى، فهم لا يَيْأَسونَ مِن رَوْحِه[٤].

- قَولُه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ لم يَذكُرْ قَيْدَ النَّفَقةِ، ولا المُنفَقَ عليه؛ لِيَدُلَّ على العُمومِ، فإنَّه يَدخُلُ فيه النَّفَقةُ الواجِبةُ، كالزَّكواتِ، والكفَّاراتِ، ونَفَقةِ الزَّوجاتِ والأقارِبِ؛ والنَّفَقةُ المُستحَبَّةُ في وُجوهِ الخَيرِ، والنَّفَقةُ والإحسانُ الماليُّ خَيرٌ مُطلَقًا؛ سواءٌ وافَقَ غَنيًّا أو فقيرًا، قريبًا أو بعيدًا، ولكِنَّ الأجرَ يَتفاوَتُ بتَفاوُتِ النَّفعِ، فهذا عَمَلُهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

٣- قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ ﴾ رابطةٌ لِلَّاحقةِ بالسَّابقةِ، مُرتِّبةٌ لها عليها تَرتُّبَ الفاءِ في قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمۡ ﴾، وكان الأصلُ: تَتجافَى جُنوبُهم عن المَضاجِعِ، يَدْعون ربَّهم خوفًا وطمَعًا، وممَّا رَزقْناهم يُنفِقون، فلا يَعلَمون ما أُخفِيَ لهم، فيَجزِيهم اللهُ الجزاءَ الأَوفَى؛ بشَهادةِ قولِه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾؛ فوَضَعَ النَّفْسَ مَوضعَ الضَّميرِ، ونكَّرَها تَنكيرَ تَفخيم، لو وُصِفَتْ بكلِّ وَصفٍ ما بلَغَ هذا المَبلَغَ، ثمَّ رُوعِيَت المُناسَبةُ في قولِه: ﴿مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم ﴾؛ حيثُ أُبْهِمَ الجزاءُ، ولم يُعيَّنِ الفاعلُ؛ تَعظيمًا له[1]، فالإبهامُ يَدُلُّ على التَّفخيم، وفي ذلك دَلالةٌ على عِظَمِ نَعيمِ الجنَّةِ[2]؛ لِيَذهَبَ الفِكرُ في المَخفيِّ كُلَّ مَذهَبٍ. وقيل: بُني للمَفعولِ؛ للعِلمِ بأنَّه اللهُ تعالى الَّذي أخْفَوا نوافِلَ أعمالِهم لأجْلِه[3].

- قولُه: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ ﴾ (نفْسٌ) نَكِرةٌ في سِياقِ النَّفيِ؛ فيَعُمُّ جَميعَ الأنفُسِ ممَّا ادَّخَرَ اللهُ تعالى لأولئك، وأخفاهُ مِن جَميعِ خَلائقِه ممَّا تَقَرُّ به أعيُنُهم، لا يَعلَمُه إلَّا هو، وهذه عِدَةٌ عظيمةٌ لا تَبلَغُ الأفهامُ كُنْهَها، بلْ ولا تَفاصيلَها، ولا مَطمَحَ وراءَها[4].

- وعبَّرَ عن تلك النِّعمِ بـ﴿مَّآ أُخۡفِيَ ﴾؛ لأنَّها مُغَيَّبةٌ لا تُدرَكُ إلَّا في عالَمِ الخُلودِ[5].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٠).

- في قَولِه: ﴿أُخْفِيَ لَهُم﴾ بلامِ التَّمليكِ: زيادةُ إكرام؛ لأنَّ مَن قال لِغَيرِه: (اسكُنْ هذه الدَّارَ) يكونُ ذلك محمولًا على العارِيَّةِ، وله استِردادُه؛ وإذا قال: (هذه الدَّارُ لك) يكونُ ذلك محمولًا على نِسبةِ المِلْكيَّةِ إليه، وليس له استِردادُه بحُكمِ قَولِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٨).

## الآيات (١٨-٢٢)

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾: أي: المَثوى والمَسكَنُ، وأصْلُ (أوى) هنا: يدُلُّ على التَّجمُّعِ[1].

﴿نُزُلًا﴾: أي: ثَوابًا ورِزقًا، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازِلِ مِنَ الزَّادِ، ويُهَيَّأُ للضَّيفِ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا عدَمَ التَّسويةِ بيْنَ المؤمنينَ والكافرين: أفمَن كان مُؤمِنًا باللهِ ورُسُلِه كمَن كان كافِرًا مُكَذِّبًا؟! لا يَستَوونَ.

ثمَّ يُفصِّلُ أحوالَ المؤمنينَ والكافرينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: أمَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ فلَهُم عندَ رَبِّهم جنَّاتٌ يَأوُونَ إليها، ويُقيمونَ فيها

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٩).

أبدًا؛ ضيافةً كريمةً مُعَدَّةً لهم بسَبَبِ ما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا مِن الصَّالحاتِ.

وأمَّا الَّذين خَرَجوا عن طاعةِ اللهِ بالكُفرِ والعِصيانِ فمَقَرُّهم النَّارُ، كُلَّما أرادوا أن يَخرُجوا منها أُعيدوا فيها مُكرَهينَ، وقيلَ لهم: ذوقُوا عذابَ النَّارِ الَّذي كُنتُم تُكَذِّبونَ بوُقوعِه.

ولَنُصيبَنَّ هؤلاء المكَذِّبينَ بأنواعٍ مِن العَذابِ قبْلَ يومِ القيامةِ دونَ العَذابِ الأكبَرِ في الآخِرةِ؛ لعلَّهم يَتوبونَ إلى اللهِ تعالى.

ثمَّ يُبيِّنُ حالَ مَن يُدْعَى إلى الهُدى فيُعرِضُ عنه، فيقولُ: ولا أحَدَ أظلَمُ ممَّن ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه، ثمَّ أعرَضَ عنها استِكبارًا، إنَّا مُنتَقِمونَ مِن هؤلاءِ المُجرِمينَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المجرِمِ والمؤمِنِ، قال للعاقِلِ: هل يَستوي الفَريقانِ؟ ثمَّ بيَّن أنَّهما لا يَستويانِ[1].

﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗا ﴾.

أي: أفمَن كان مُؤمِنًا بآياتِ اللهِ متَّبِعًا لرُسُلِه، فهو مُؤمِنٌ بوَعدِه ووَعيدِه، طائعٌ له في أمْرِه ونَهْيِه: أيَكونُ في حُكمِ اللهِ كمَن كان كافِرًا مُكَذِّبًا، خارِجًا عن دائرةِ الإيمانِ وطاعةِ الرَّحمنِ[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٩٢).

كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾.

أي: لا يَستوي المؤمِنونَ والفاسِقونَ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ؛ فلِكُلٍّ جزاءٌ مُختَلِفٌ بحَسَبِ ما قدَّموه[1].

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه تَفصيلٌ لِمَراتبِ الفَريقَينِ في الآخِرةِ، بعدَ ذِكرِ أحوالِهما في الدُّنيا[2].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ أنَّ المؤمِنَ والفاسِقَ لا يَستويانِ بطريقِ الإجمالِ؛ بيَّنَ عَدَمَ استوائِهما على سَبيلِ التَّفصيلِ، فقال تعالى[3]:

﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

أي: أمَّا الَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٩٢).
قال ابنُ جرير: (قال: ﴿لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ فجَمَع، وإنَّما ذكَرَ قبْلَ ذلك اثنَينِ: مُؤمِنًا، وفاسِقًا؛ لأنَّه لم يُرِدْ بالمؤمِنِ مُؤمِنًا واحِدًا، وبالفاسِقِ فاسِقًا واحِدًا، وإنَّما أُريدَ به جميعُ الفُسَّاقِ، وجميعُ المؤمِنينَ باللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٤، ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٥/ ٤٨٧).

بإخلاصٍ للهِ تعالى ومُتابعةٍ لِشَرعِه: فلَهُم في الآخِرةِ جَنَّاتٌ يَأوُونَ إليها، فهم فيها مُقيمونَ، ومنها لا يَخرُجونَ[١].

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٣ - ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

﴿نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ضِيافةً كريمةً مُهَيَّأةً لهم؛ بسَبَبِ ما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا مِنَ الإيمانِ باللهِ تعالى وطاعتِه[٢].

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: وأمَّا الَّذين خَرَجوا عن الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، فكَفَروا به وعَصَوه؛ فمَسْكَنُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ٩٤، ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٢).

قال البقاعي: (﴿نُزُلًۢا﴾ أي: عِدادًا لهم أوَّلَ قُدومِهم، في قَولِ الحَسَنِ وعطاءٍ... فإذا كانت هذه الجنَّاتُ نُزُلًا، فما ظنُّك بما بعدَ ذلك؟!). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٥٩).

وقال ابنُ عاشور: (النُّزُلُ -بضَمَّتينِ-: مُشتَقٌّ مِن النُّزولِ، فيُطلَقُ على ما يُعَدُّ للنَّزيلِ مِنَ العَطاءِ والقِرَى. قال في «الكشاف»: النُّزُلُ: عطاءُ النَّازِلِ، ثمَّ صار عامًّا، أي: يُطلَقُ على العطاءِ ولو بدُون ضيافةٍ... قلتُ: ويُطلَقُ على محَلِّ نُزولِ الضَّيفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٢).

ومَقَرُّهم الَّذي يأوُونَ إليه، ويُقيمونَ في الآخرةِ فيه: هو النَّارُ[١].

﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾.

أي: كلَّما أرادوا أن يَخرُجوا مِنَ النَّارِ أُعيدوا فيها مُكرَهينَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنۡ حَدِيدٖ ۝ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢١، ٢٢].

﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

أي: ويُقال لهم: ذُوقوا عذابَ النَّارِ الَّذي كُنتُم في الدُّنيا تُكَذِّبونَ بوُقوعِه[٣].

ثم بيَّن أنَّ عذابَ الآخرةِ له مُقدِّماتٌ في الدنيا؛ لأنَّ الذَّنْبَ مُستَوجِبٌ لنتائجِه عاجلًا وآجلًا، فقال[٤]:

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢١﴾.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾.

أي: ولَنُصِيبَنَّ هؤلاء الفاسِقينَ المكَذِّبينَ مِن العذابِ الَّذي يكونُ قبلَ يومِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٣).

قال الواحدي: (كلَّما حاولوا الخُروجَ مِن النَّارِ؛ لِما يَلحَقُهم مِن الغَمِّ والكَربِ الَّذي أخَذَ بأنفاسِهم، حتَّى ليس لها مخرجٌ- رُدُّوا إليها بالمقامِعِ. قال المفسِّرون: إنَّ جهنَّمَ لَتَجيشُ بهم فتُلقيهم إلى أعلاها، فيُريدونَ الخُروجَ، فيَرُدُّهم الخُزَّانُ فيها). ((البسيط)) (١٥/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٢٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١١٥).

القيامةِ، دونَ العذابِ الأكبَرِ في الآخِرةِ[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

قيل: المرادُ بالعذابِ الأدنى: عذابُ الدُّنيا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن كثير، والعُلَيمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

قيل: إنَّه ما أصابهم يومَ بَدرٍ، وهو روايةٌ عن ابنِ مسعودٍ، وقولُ قَتادةَ، والسُّدِّيِّ.

وقيل: سِنُونَ أُخِذوا بها، وهو روايةٌ عن ابنِ مسعودٍ، وقولُ النَّخَعيِّ.

وقيل: مصائبُ الدُّنيا، قاله أُبَيُّ بنُ كعبٍ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وأبو العاليةِ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ.

وقيل: الحدودُ، وهو روايةٌ عن ابنِ عبَّاسٍ.

وقيل: القتلُ والجوعُ، قاله مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٢).

وقيل: المرادُ: ما قبْلَ يومِ القيامةِ؛ فيَشملُ ذلك عذابَ الدُّنيا وعذابَ القبرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

وممَّن قال به مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣١).

قال الشوكاني: (قال الحسَنُ، وأبو العاليةِ، والضَّحَّاكُ، والنَّخَعيُّ: هو مَصائبُ الدُّنيا وأسقامُها. وقيل: الحدودُ. وقيل: القتلُ بالسَّيفِ يومَ بدرٍ. وقيل: سِنينُ الجوعِ بمكَّةَ. وقيل: عذابُ القبرِ. ولا مانِعَ مِن الحَملِ على الجميعِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ممَّا هم فيه مِن الشِّركِ والمعاصي بسببِ ما يَنزِلُ بهم مِن العذابِ، إلى الإيمانِ والطَّاعةِ، ويَتوبونَ عمَّا كانوا فيه. وفي هذا التَّعليلِ دليلٌ على ضَعفِ قولِ مَن قال: إنَّ العذابَ الأدنَى هو عذابُ القبرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٧).

وقال السعدي: (أي: ولَنُذيقَنَّ الفاسِقينَ المكَذِّبينَ نموذَجًا مِنَ العذابِ الأدنى، وهو عذابُ البَرزخِ، فنُذيقُهم طَرَفًا منه قبْلَ أن يموتوا؛ إمَّا بعذابٍ بالقتلِ ونَحوِه، كما جرَى لأهلِ بَدرٍ مِن المشركينَ، وإمَّا عندَ الموتِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]، ثمَّ يُكمِلُ لهم العذابَ الأدنى في بَرزخِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦). =

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: لَعلَّهم يَتوبونَ إلى اللهِ مِن كُفرِهم وعِصيانِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾.

أي: ولا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه(٢)، ثمَّ أعرَضَ عنها مُستكبِرًا عن

---

= عن أُبَيِّ بنِ كعبٍ، في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ قال: «مصائِبُ الدُّنيا، والرُّومُ، والبَطْشةُ، أو الدُّخَانُ» شُعْبةُ الشَّاكُّ في البطشةِ أو الدُّخَانِ. أخرجه مسلم (٢٧٩٩).

قال ابن عاشور في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧] بعدَ أن بيَّن أنَّ كلمةَ ﴿دُونَ﴾ تُطلَقُ على الأقلِّ والسَّابقِ وبمعنى «غير»، فقال: (المرادُ عذابٌ في الدُّنيا، وهو أقلُّ مِن عذابِ الآخرةِ، قال تعالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، وهو أسبقُ مِن عذابِ الآخرةِ؛ لقولِه تعالَى: ﴿دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾، وهو مُغايِرٌ له كما هو بيِّنٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

(٢) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾: حُجَجُه وعلاماتُه. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٨).

وقيل: المرادُ بها: القُرآنُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسمعاني، والشربيني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

وقيل: المرادُ: الكُتُبُ السَّماويَّةُ، فتَشملُ القرآنَ والتَّوراةَ وغَيرَهما. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٣، ١٠٤). =

قَبولِها، مُستَنكِفًا عن الانقيادِ إليها[١].

﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾.

أي: إنَّا سنَنتَقِمُ مِنَ الَّذين أعرَضوا، وكَفَروا، وكَذَّبوا، واكتَسَبوا السَّيِّئاتِ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ يُنَبِّهُ العُقولَ على ما تقَرَّرَ فيها مِن عَدَمِ تَساوي المتفاوِتَينِ المتباينَينِ، وأنَّ حِكمَتَه تقتَضي عدَمَ تساويهما؛ فمَن قد عَمَر قَلبُه بالإيمانِ، وانقادت جوارِحُه لشرائِعِه، واقتَضى إيمانُه آثارَه ومُوجباتِه؛ مِن تَركِ مَساخِطِ اللهِ، الَّتي يضُرُّ وُجودُها بالإيمانِ: لا كمَنَ قد خَرِبَ قَلبُه، وتعطَّلَ مِن الإيمانِ، فلمْ يكُنْ فيه وازِعٌ دِينيٌّ، فأسرَعَت جوارِحُه بمُوجباتِ الجَهلِ والظُّلمِ؛ مِن كُلِّ إثمٍ ومَعصيةٍ، وخرَجَ بفِسقِه عن طاعةِ اللهِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أنَّ الإنسانَ يجبُ أنْ يَقْبَلَ التَّذكيرَ ممَّن يُذكِّرُه أيًّا مَن كان، فالله تعالى لم يَقُلْ: «مِمَّنْ ذَكَّرَهُ الرَّسولُ» أو: «ذَكَّرَهُ فُلانٌ أو فُلانٌ»! فإذا أتاك التَّذكيرُ مِن أيِّ جهةٍ فالواجبُ عليكَ القَبولُ[٤].

---

= وقال ابن جرير: (وأيُّ النَّاسِ أَظْلَمُ لِنَفْسِه مِمَّنْ وَعَظه اللهُ بحُجَجِه، وآيِ كِتابِه ورُسُلِه، ثُمَّ أعْرَض عن ذلك كلِّه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أنَّ الإعراضَ بعدَ العِلمِ أقبَحُ منه حالَ الجَهلِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ هذا أعظَمَ الفِسقِ: أن تُذكَّرَ ثمَّ تُعرِضَ، لكِنْ مَن أعرَضَ بدُونِ تَذَكُّرٍ فهو أهوَنُ[١].

٤- المؤمِنُ مأمورٌ بلَومِ نَفْسِه على ما فَعلَتْ مِن الذُّنوبِ الَّتي وَجَد عاقِبَتَها في الدُّنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، فإذا أصابه في الدُّنيا بلاءٌ رجَع إلى نفْسِه باللَّومِ، ودعاه ذلك إلى الرُّجوعِ إلى اللهِ بالتَّوبةِ والاستِغفارِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ إلَّا بالعملِ الصَّالحِ؛ فلا يكفي مجرَّدُ العقيدةِ! بل لا بُدَّ مِن عمَلٍ صالحٍ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ استدَلَّ بعُمومِه مَن قال: إنَّ الفاسِقَ لا يَلي النِّكاحَ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾ دَليلٌ على أنَّ اسمَ الفِسقِ واقِعٌ على الكُفرِ والمعصيةِ معًا[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٩٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٠٩).

ومَذهَبُ الشَّافعيَّةِ والحنابلةِ أنَّه يُشترَطُ في الوليِّ أن يكونَ عدلًا. يُنظر: ((مغني المحتاج)) للشربيني (٤/ ٢٥٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٥٤)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣٠/ ٨).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٣٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٩٦).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ﴾ لَمَّا كان الكُفرُ إذا جاء فلا التِفاتَ إلى الأعمالِ، لم يَقُلْ: (وأمَّا الَّذين فسَقُوا وعَملوا السَّيِّئاتِ)؛ لأنَّ المرادَ مِن ﴿فَسَقُواْ﴾: كَفَروا. ولو جُعِلَ العِقابُ في مُقابَلةِ الكُفرِ والعَمَلِ، لَظُنَّ أنَّ مُجرَّدَ الكُفرِ لا عِقابَ عليه[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أنَّ أهلَ النَّارِ يُجْمَعُ لهم بينَ العذابِ الجِسميِّ والعذابِ القلبيِّ للتَّوبيخِ[٢].

٧- بيانُ حِكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيما يَبتلي به مِن المصائِبِ؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ و﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣] [الروم: ٤١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ أنَّ عذابَ الدُّنيا لا يُنْسَبُ إلى عذابِ الآخرةِ؛ لِما بيْنَهما مِن الفَرقِ العظيمِ -فهذا أدنَى، وذاك أكبرُ-؛ يعني: كِلاهما في طَرَفَيْ نقيضٍ، يعني: «أدنى» اسمُ تفضيلٍ، و«أكبرُ» اسمُ تفضيلٍ، ولا يُنْسَبُ أدنَى شَيءٍ إلى أعلَى شَيءٍ[٤]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ حُجَّةٌ على عذابِ القبرِ، فإنَّه سبحانَه أخْبَرَ أنَّ له فيهم عذابينِ «أدنى وأكبر» فأخبَرَ أنَّه يُذيقُهم بعضَ الأدنَى لِيَرجِعوا؛ فدَلَّ على أنَّه بَقِيَ لهم مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٧، ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأدنَى بقيَّةٌ يُعَذَّبُون بها بعدَ عذابِ الدُّنيا؛ ولهذا قال: ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾، ولم يقُلْ: «ولَنُذيقَنَّهُمُ العذابَ الأدنى»! فتأمَّلْه[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ قَبولُ التَّوبةِ مِن الكافِرِ[2].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾، قَولُه سُبحانَه ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ﴾ أتَى بالرُّبوبيَّةِ المُقتَضيةِ للانقيادِ؛ لأنَّه ما دام التَّذكيرُ بآياتِ رَبٍّ لك، فأنت مَربوبٌ عَبدٌ، والمربوبُ في تدبيرِ رَبِّه[3].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ مِثلُ هذه العبارةِ جاءت في غيرِ هؤلاء، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٢١، ٩٣] و[هود: ١٨] و[العنكبوت: ٦٨]، وفي السُّنَّةِ: ((ومَن أظلَمُ ممَّن ذهَب يَخلُقُ كخَلْقي))[4]، فكيف نجمعُ بيْنَ هذه النُّصوصِ؟

**الجوابُ: أنَّ الجَمعَ بيْنَها يكونُ بأحَدِ وَجهَينِ:**

**الوجهُ الأوَّلُ:** أنَّ هذه الأشياءَ جميعَها اشتركَتْ في المرتبةِ العُليا مِن الظُّلمِ؛ فكلُّها في مقامِ الأظلميَّةِ، فأفْعَلُ التَّفضيلِ لا يمنعُ التَّساويَ، ولكنَّه يمنعُ الزِّيادةَ. وعلى ذلك فلا مُعارَضةَ ألْبَتَّةَ بينَ النُّصوصِ؛ فهؤلاءِ المذكورونَ لا يُوجَدُ أحدٌ أظلَمُ منهم، وهم مُتساوونَ في مرتبةِ الظُّلْمِ.

**والوجهُ الثَّاني:** أنَّ هذه المواضعَ تتخصَّصُ بصِلاتِها، أي: أنَّ كُلَّ واحدٍ منها

---

(١) يُنظر: ((الرُّوح)) لابن القيم (ص: ٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).

(٤) أخرجه البخاري (٥٩٥٣) واللفظ له، ومسلم (٢١١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

تُفَسِّرُه صِلةُ مَوصُولِه، فكلُّ واحدةٍ تختصُّ ببابِها، فيكونُ المعنَى: لا أحَدَ مِنَ المُفْتَرِينَ أظلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللهِ كَذِبًا، ولا أحدَ مِنَ المانِعِينَ أظلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مساجدَ الله، ولا أحدَ مِنَ المُعْرِضِينَ أظلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّهِ فأعْرَض عنها[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ الإعراضَ عن آياتِ اللهِ بعدَ التَّذكيرِ بها إجرامٌ[٢].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ جوازُ إضافةِ الانتقامِ إلى اللهِ مُقَيَّدًا، يعني: الإخبارَ عن اللهِ بأنَّه مُنتَقِمٌ، إخبارًا مُقَيَّدًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢، ٥١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٢، ١٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابن عثيمين رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مقيَّدةٌ: أي: مُنتقِمون مِنَ المجرمينَ، وبهذا نَعرِفُ أنَّ المُنتقِمَ ليس مِن أسماءِ الله؛ لأنَّ الاسمَ مِن أسماءِ الله يكونُ مُطْلَقًا دالًّا على المعنَى الأحسَنِ على كلِّ تقديرٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فكلُّ كلمةٍ تحتمِلُ هذا وهذا فإنَّها لا تكونُ مِن أسماءِ الله؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، والانتقامُ لا شكَّ أنَّه حسَنٌ في محلِّه؛ وعليه فلا يَصِحُّ أن يوصَفَ اللهُ به على سبيلِ الإطلاقِ، وهو معدودٌ مِن الأسماءِ الحُسْنى المشهورةِ، لكنَّ هذه الأسماءَ الحُسْنى المشهورةَ كما قال شيخُ الإسلامِ وغيرُه مِن أهلِ التَّحقيقِ رحمهم الله: «ليست ثابتةً عن الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ»؛ لأنَّ فيها أشياءَ مِن الأسماءِ لا تصِحُّ اسمًا لله.

إذَنْ: فهل يوصَفُ اللهُ بالانتقامِ مُطْلَقًا، فيُقالُ: المُنتقِمُ؟

والجوابُ: لا؛ لأنَّه ما ورَدَ إلَّا مُقَيَّدًا، وورَدَ ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤] [المائدة: ٩٥] [إبراهيم: ٤٧] نَكِرةً في سياقِ الإثباتِ؛ فلا تدُلُّ على العُمومِ؛ لأنَّ النَّكِرةَ في سياقِ الإثباتِ -كما هو معروفٌ- لا تُفيدُ العُمومَ، وإنَّما تفيدُ العُمومَ إذا كانت في سياقِ النَّفْيِ أو النَّهيِ أو الشَّرطِ أو الاستِفهامِ الإنكاريِّ، كما ذكره أهلُ الأصولِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٥).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ فُرِّعَ بالفاءِ على ما تَقدَّمَ مِن الآياتِ مِن الوَعدِ للمُؤمنينَ والوعيدِ للكافرينَ: استِفهامٌ بالهَمزةِ، مُستعمَلٌ في إنكارِ المُساواةِ بيْن المُؤمنِ والكافرِ، وهو إنكارٌ بتَنزيلِ السَّامعِ مَنزلةَ المُتعجِّبِ مِن البَونِ بيْنَ جَزاءِ الفَريقَينِ في ذلك اليومِ؛ فكان الإنكارُ مُوجَّهًا إلى ذلك التَّعجُّبِ في معنى الاستِئنافِ البَيانيِّ[١].

- قولُه: ﴿لَّا يَسْتَوُونَ ﴾ التَّصريحُ بعَدمِ المُساواةِ في الشَّرفِ والمَثوبةِ، مع إفادةِ الإنكارِ لِنَفْيِ المُشابَهةِ بالمرَّةِ على أبلَغِ وَجهٍ وآكَدِه؛ لِبِناءِ التَّفصيلِ الآتي عليه[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

- أكَّدَ كِلَا الجَزاءَينِ بذِكرِ مُرادِفٍ لِمَدلولِه، مع زِيادةِ فائدةٍ؛ فجُملةُ ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ...﴾ إلى آخِرِها، مُؤكِّدةٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم ﴾ [السجدة: ١٧] إلى آخِرِها[٣].

- وإضافةُ جنَّاتٍ إلى المَأْوى في قولِه: ﴿جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ ﴾ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ؛ لِقَصدِ التَّخفيفِ، والمعنى: فلَهُمُ الجنَّاتُ المَأْوى لهم، أي: المَوعودونَ بها[٤]. وقيل: أُضِيفَت الجنَّةُ إلى المَأْوى؛ لأنَّها المَأْوى الحَقيقيُّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإنَّما الدُّنيا مَنزِلٌ مُرتحَلٌ عنه لا مَحالةَ. وقيل: المَأْوى جنَّةٌ مِن الجنَّاتِ، وأيًّا ما كان فلا يَبعُدُ أنْ يكونَ فيه رَمزٌ إلى ما ذُكِرَ مِن تَجافِيهم عن مَضاجِعِهم الَّتي هي مَأْواهم في الدُّنيا(١).

٣- قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾

- جُملةُ ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ إلى آخِرِها، مُؤكِّدةٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ إلى ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٢) [السجدة: ١٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، ولم يَقُلْ: (فلَهُمْ نارُ المَأْوى) كما قال قَبْلُ في المؤمنينَ: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، والفارقُ: أنَّ النَّارَ كلُّ أحدٍ لا يُحِبُّ أنْ تكونَ مَأْواهُ بخِلافِ الأوَّلِ؛ فالجنَّةُ كلٌّ يُحِبُّ أنْ تكونَ هي المَأْوى، وأمَّا هذا فلا؛ فأتى في ذِكرِ الجنَّةِ بما يُفِيدُ الاختِصاصَ -تقديم الخبرِ على المُبتدأ ﴿فَلَهُمْ﴾-؛ تَشويقًا، وإنْ كان هذا الفَرْقُ قد يَختلِفُ في بعضِ الآياتِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، ولكنْ لكلِّ مَقامٍ مَقالٌ؛ فهنا المَقامُ مَقامُ مُعادَلةٍ ومُوازَنةٍ، فلهذا فرَّقَ بيْنَهما؛ قال: ﴿جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، وقال: ﴿فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾، أمَّا في سُورةِ (النَّازعاتِ) فليس هناك مُعادَلةٌ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ أنَّ قومًا يَدَّعون لأنفُسِهم أنَّهم على الحقِّ، فأنكَرَ اللهُ ذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٠).

- قولُه: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فيه ذِكرُ النَّارِ مُظْهَرًا، ولَمْ يُستَغْنَ بالضَّميرِ لِتَقدُّمِ الذِّكْرِ؛ لأنَّ سِياقَ الآيةِ للتَّهديدِ، والتَّخويفِ، وتَعظيمِ الأمْرِ، وفي ظاهرِ ذِكْرِ النَّارِ مِن ذلك ما ليس في الضَّميرِ[1].

- قولُه: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ كَيفيَّةِ كَونِ النَّارِ مَأْواهم، وكَلمةُ (في)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مُستقِرُّون فيها، وإنَّما الإعادةُ مِن بَعضِ طَبقاتِها إلى بعضٍ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ...﴾، فذَكَّرَ الوَصفَ والضَّميرَ، فوصَف العذابَ، وأعاد عليه الضَّميرَ، وقال في سُورةِ (سَبأ): ﴿عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٢]، فأنَّثَ الوَصفَ والضَّميرَ، فوصَف النَّارَ، وأعاد عليها الضَّميرَ.

وبيانُ ذلك مِن ثلاثةِ أوجُهٍ؛ الأوَّلُ: أنَّه خصَّ العذابَ في السَّجدةِ بالوصفِ فقال: ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ اعتِناءً به لما تكرَّر ذِكرُه في قولِه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾. والثَّاني: أنَّه قدَّم في (السَّجدة) ذِكرَ النَّارِ، فكان الأصلُ أن يَذكُرَها بعدَ ذلك بلفظِ الضَّميرِ، لكنَّه جعَل الظَّاهرَ مكانَ المُضْمَرِ، فكما لا يوصَفُ المُضمَرُ لم يوصَفْ ما قام مَقامَه وهو النَّارُ، ووصَفَ العذابَ ولم يَصِفِ النَّارَ. الثَّالثُ -وهو الأقوى: أنَّه امتنَع في السَّجدةِ وصْفُ النَّارِ، فوصَفَ العذابَ، وإنَّما امتنَع وصْفُها؛ لِتَقدُّمِ ذِكرِها، فإنَّك إذا ذكَرْتَ شيئًا ثمَّ كرَّرْتَ ذِكرَه لم يَجُزْ وصْفُه، كقولِك: رأيتُ رجُلًا فأكرمتُ الرَّجُلَ، فلا يجوزُ

---

(١) يُنظر: ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ١٥٢، ١٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٦).

وصْفُه؛ لئلَّا يُفهَمَ أنَّه غيرُه[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾ تَعريضٌ بتَهديدِهم؛ لأنَّهم يَسمَعون هذا الكَلامَ، أو يُبلَّغُ إليهم. وهذا إنذارٌ بما لَحِقَهم بعدَ نُزولِ الآيةِ[٣].

- فإنْ قِيل: العذابُ الأدْنَى في مُقابلَتِه العذابُ الأقْصى، والعذابُ الأكبَرُ في مُقابَلتِه العذابُ الأصغَرُ؛ فما الحِكمةُ في مُقابلةِ الأدْنى بالأكبَرِ؟

**فالجوابُ**: أنَّه حصَلَ في عذابِ الدُّنيا أمْرانِ؛ أحدُهما: أنَّه قَريبٌ، والآخَرُ: أنَّه قليلٌ صَغيرٌ. وحصَلَ في عذابِ الآخِرةِ أيضًا أمْرانِ؛ أحدُهما: أنَّه بعيدٌ، والآخَرُ: أنَّه عظيمٌ كثيرٌ، لكنَّ القُرْبَ في عَذابِ الدُّنيا هو الَّذي يَصلُحُ للتَّخويفِ به؛ فإنَّ العَذابَ العاجلَ وإنْ كان قَليلًا قد يَحترِزُ منه بعضُ الناسِ أكثَرَ ممَّا يَحترِزُ مِن العذابِ الشَّديدِ إذا كان آجِلًا، وكذا الثَّوابُ العاجِلُ؛ قد يَرغَبُ فيه بعضُ النَّاسُ، ويَستبعِدُ الثَّوابَ العظيمَ الآجِلَ، وأمَّا في عذابِ الآخِرةِ فالَّذي يَصلُحُ للتَّخويفِ به هو العظيمُ والكبيرُ لا البَعيدُ؛ لِمَا بيَّنَّا، فقال في عذابِ الدُّنيا: ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ﴾؛ لِيَحترِزَ العاقلُ عنه، ولو قال: (لَنُذِيقَنَّهم مِن العذابِ الأصغَرِ) ما كان يَحترِزُ عنه؛ لِصِغَرِه، وعَدمِ فَهمِ كَونِه عاجِلًا، وقال في عذابِ الآخِرةِ: ﴿ٱلْأَكْبَرِ﴾ لذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٦٦، ١٠٦٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٥١)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٠٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

المعنى، ولو قال: (دونَ العذابِ الأبعدِ الأقْصى) لَمَا حصَلَ التَّخويفُ به مِثلَ ما يَحصُلُ بوَصفِه بالكُبْرِ، وبالجُملةِ: فقد اختارَ اللهُ تعالى في العذابَينِ الوَصفَ الَّذي هو أصلَحُ للتَّخويفِ مِن الوَصفينِ الآخَرينِ فيهما لِحكمةٍ بالغةٍ[1].

- جُملةُ ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لِحكمةِ إذاقتِهم العذابَ الأدْنى في الدُّنيا بأنَّه لِرَجاءِ رُجوعِهم، أي: رُجوعِهم عن الكُفرِ بالإيمانِ، والمُرادُ: رُجوعُ مَن يُمكِنُ رُجوعُه، وهمُ الأحياءُ منهم. وإسنادُ الرُّجوعِ إلى ضَميرِ جَميعِهم باعتبارِ القَبيلةِ والجَماعةِ، أي: لعلَّ جَماعتَهم تَرجِعُ[2].

٥- قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ بَيانٌ إجْماليٌّ لحالِ مَن قابَلَ آياتِ اللهِ تعالى بالإعراضِ، بعْدَ بَيانِ حالِ مَن قابَلَها بالسُّجودِ، والتَّسبيحِ، والتَّحميدِ[3].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ[4].

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قالَه هنا بـ﴿ثُمَّ﴾، وقال في آيةٍ أُخرى: ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]، والفرْقُ: أنَّ المعنى في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٤٨، ١٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٤).

آيةِ ﴿فَأَعۡرَضَ﴾: أنَّه بادَرَ بالإعراضِ، وفي الثَّانيةِ: بعْدَما فكَّرَ وقدَّرَ أعرَضَ، والنَّاسُ هكذا؛ منهم مَن يُعرِضُ لأوَّلِ وَهْلةٍ، ولا يَلتفِتُ ولا يُفكِّرُ، ومنهم مَن قد يُفَكِّرُ، ولكنْ في النِّهايةِ يُعرِضُ[1]، فتكونُ (ثمَّ) على بابِها للتَّراخي الزَّمنيِّ؛ لِيَكونَ المعنى: أنَّ مَن وقَعَ له التَّذكيرُ بها في وَقتٍ ما، فأخَذَ يَتأمَّلُ فيها، ثمَّ أعرَضَ عنها بعدَ ذلك ولو بألْفِ عامٍ؛ فهو أظلَمُ الظَّالمينَ، ويَدخُلُ فيه ما دونَ ذلك مِن بابِ الأَولى؛ لأنَّه أجدَرُ بعَدمِ النِّسيانِ؛ فهي أبلَغُ هنا مِن التَّعبيرِ بالفاءِ -كما في سُورةِ (الكهفِ)- ويكونُ عدَلَ إلى الفاءِ هناك؛ شَرحًا لِمَا يكونُ مِن حالِهم عندَ بَيانِ سُؤالِهم، الَّذي جَعَلوا بَيانَه آيةَ الصِّدقِ، والعَجزَ عنه آيةَ الكَذِبِ. وقيل: لَمَّا بلَغَتْ هذه الآياتُ مِن الوُضوحِ أقْصَى الغاياتِ؛ فكان الإعراضُ عنها مُستبعَدًا بعْدَه؛ عبَّرَ عنه بأداةِ البُعدِ لذلك (ثُم)، فقال: ﴿ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ﴾، وذلك ضِدُّ ما عَمِله الَّذين لم يَتَمالكوا أنْ خَرُّوا سُجَّدًا؛ فالتَّعبيرُ بأداةِ التَّراخي استبعادٌ وتَعجُّبٌ مِن حالِهم[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا، ناشئًا عن تَفظيعِ ظُلمِ الَّذي ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه فأعرَضَ عنها؛ لأنَّ السَّامعَ يَترقَّبُ جَزاءَ ذلك الظَّالمِ[3]. والمرادُ بـ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ المُشركونَ، والكلامُ ذَمٌّ للمُعرِضينَ، وهذا الأسلوبُ أذَمُّ لهمْ مِن ذلك؛ لأنَّه يُقرِّرُ أنَّ الكافِرَ إذا وُصِفَ بالفِسقِ والظُّلمِ والجُرْمِ، حُمِلَ على نِهايةِ كُفْرِه وغايةِ تَمرُّدِه؛ لأنَّ هذه الآيةَ كالخاتمةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٣٩، ٤٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٤).

لأحوالِ المُكذِّبينَ القائلينَ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾[١] [السجدة: ٣].

- والجُملةُ الاسميَّةُ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ تدُلُّ على دَوامِ ذلك عليهم في الدُّنيا؛ إمَّا باطنًا بالاستِدراجِ بالنِّعَمِ، وإمَّا ظاهِرًا بإحلالِ النِّقَمِ، وفي الآخرةِ بدَوامِ العذابِ على مَرِّ الآبادِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عبَّر في الآيةِ بقولِه: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ بَدلًا مِن أنْ يُقالَ: (إنَّا مَنْهُ مُنتقِمون)، أي: مِن المُجرِمِ؛ لأنَّه لَمَّا جعَلَه أظلَمَ مِن كلِّ ظالمٍ، ثمَّ تَوعَّدَ المُجرِمينَ عامَّةً بالانتقامِ منهم؛ فقد دلَّ على إصابةِ الأظلَمِ النَّصيبَ الأوفَرَ مِن الانتقامِ، ولو قالَه بالضَّميرِ لمْ يُفِدْ هذه الفائدةَ. وقِيل: عدَلَ عن ذِكرِ ضَميرِ المُجرِمينَ، فلمْ يَقُلْ: (إنَّا منهم مُنتقِمون)؛ لزِيادةِ تَسجيلِ فَظاعةِ حالِهم بأنَّهم مُجرِمون مع أنَّهم ظالِمون، وقد يُقالُ: إنَّ (المُجرمينَ) أعَمُّ مِن (الظَّالمينَ)؛ فيكونُ دُخولُهم في الانتقامِ مِن المُجرمينَ أُخْرويًّا، وتَصيرُ جُملةُ ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ تَذْييلًا[٣]. فقولُه: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ دون أن يقالَ: (إنَّا مَنْهُ مُنتقِمون)، أفاد أنَّ هذا مُجْرِمٌ، وأنَّ الحُكْمَ يَعُمُّه وغيرَه مِن المجرمينَ[٤].

- قَولُه: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ عبَّرَ بصِيغةِ العَظَمةِ؛ تنبيهًا على أنَّ الَّذي يحصُلُ لهم مِنَ العذابِ: لا يَدخُلُ تحتَ الوَصفِ على مُجَرَّدِ العِدادِ في الظَّالِمينَ، فكيف وقد كانوا أظلَمَ الظَّالِمينَ[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٣).

## الآيات (٢٣-٢٥)

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِرْيَةٍ﴾: أي: شكٍّ، والمِرْيةُ كذلك: التَّردُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِن الشَّكِّ[1].

﴿أَئِمَّةً﴾: أي: قادَةً في الخيرِ، يُقْتَدَى بهم، ويُهتدَى بِهَدْيِهم، وأئِمَّة جمعُ إمامٍ، والإمامُ الَّذي يُؤْتَمُّ به في خيرٍ أو شرٍّ، وأصل (أمم): الأصلُ والمرجِعُ والجماعةُ والدِّينُ[2].

﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: يَعلَمونَ عِلمًا متمكِّنًا في نفوسِهم لا يمكِنُ أن يدخُلَه شكٌّ، وأصلُه مِن: يَقِنَ الماءُ، أي: ثبَت وسكَن، واليقينُ: زوالُ الشَّكِّ، وقيل: هو العِلمُ الَّذي يحصُلُ بعدَ استِدلالٍ ونظرٍ، وقيل: هو سكونُ الفَهمِ مع ثباتِ الحكمِ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ، فلا تكُنْ -يا محمَّدُ- في شَكٍّ مِن لِقائِه، وجعَلْنا التَّوراةَ دَليلًا مُرشِدًا لبني إسرائيلَ إلى الحَقِّ، وجعَلْنا مِن بَني

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

إسرائيلَ أئمَّةً يُرشِدونَ النَّاسَ إلى الحَقِّ لَمَّا صَبَروا، وكانوا يُوقِنونَ بآياتِ اللهِ.

إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- هو وَحْدَه يَحكُمُ بيْنَهم يومَ القيامةِ فيما كانوا فيه يَختَلِفونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى آياتِه الَّتي ذكَّرَ بها عبادَه، وهو: القُرآنُ الَّذي أنزَلَه على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ذكَرَ أنَّه ليس ببِدْعٍ مِنَ الكتُبِ، ولا مَن جاء به بغَريبٍ مِنَ الرُّسُلِ؛ فقد آتى اللهُ موسى الكتابَ الَّذي هو التَّوراةُ المصَدِّقةُ للقُرآنِ، الَّتي قد صَدَّقَها القُرآنُ؛ فتَطابَقَ حَقُّهما، وثَبَت بُرهانُهما(١).

وأيضًا لَمَّا جَرى ذِكرُ إعراضِ المُشركينَ عن آياتِ اللهِ -وهي آياتُ القُرآنِ، على قولٍ في التَّفسيرِ- في قَولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢]، استطرَدَ إلى تسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ ما لَقِيَ مِن قَومِه هو نظيرُ ما لَقِيَه موسى مِن قَومِ فِرعَونَ، الَّذين أُرسِلَ إليهم(٢).

وأيضًا لَمَّا قَرَّر الأصولَ الثَّلاثةَ: الرِّسالةَ، وبَدْءَ الخلقِ، والمَعادَ؛ عاد إلى الأصلِ الَّذي بَدَأ به، وهو الرِّسالةُ، أي: لسْتَ بِدْعًا في الرِّسالةِ، إذْ قد سَبَق قبْلَكَ رُسلٌ(٣).

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٠).

أي: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ[١].

﴿فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾.

أي: فلا تَكُنْ -يا محمَّدُ- في شَكٍّ وتردُّدٍ مِن لِقائِه[٢].

﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

أي: وجعَلْنا كِتابَ مُوسى مُرشِدًا ودَليلًا لبني إسرائيلَ إلى الحَقِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧١).

قيل: المرادُ: فلا تكُنْ -يا محمَّدُ- في مِريةٍ مِن لقائِك موسى. وممَّن قال بذلك: الزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو العاليةِ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٣).

وقيل: المرادُ: لا تكُنْ مُمتَريًا -يا محمَّدُ- في أن يَنالَك ما لَقِيَه موسى مِن أذى قَومِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور، وذكره ابن عثيمين احتِمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٣).

وقيل: يُحتمَلُ أن يكونَ الخِطابُ لموسى على معنَى: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ قائلينَ له: لا تكُنْ في مِرْيةٍ مِن لقاءِ الجزاءِ على هذا الكتابِ؛ فلا بُدَّ أن يُحاسَبَ عليه مَن نزَلَ إليهم حتَّى يلاقُوا جزاءَهم. ذكره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٠٩).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالضَّميرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ عائدٌ إلى الكتابِ: الواحديُّ، وذكر أنَّه قولُ الجميعِ، وذهَب إليه ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٩٤). =

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟﴾.

أي: وجعَلْنا مِن بني إسرائيلَ قادةً في الخيرِ، يَدُلُّونَ النَّاسَ، ويُرشِدونَهم إلى الحَقِّ بأمرِ اللهِ تعالى[1] حينَ صَبَروا على طاعتِنا، وصَبَروا عن المعاصي وشَهَواتِ الدُّنيا، وتحمَّلوا مَصائِبَها[2].

---

= وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى موسى عليه السَّلامُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٧).

قال ابنُ عاشور: (ضَميرُ النَّصبِ في ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى﴾ يجوزُ أن يعودَ على الكتابِ، أو على موسى، وكِلاهما سَبَبُ هُدًى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٦).

(١) قال الشوكاني: (﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: بأمْرِنا لهم بذلك، أو لأجْلِ أمْرِنا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٦).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: يَهْدون أتْباعَهم وأهلَ القَبولِ منهم بإذْنِنا لهم بذلك، وتَقويَتِنا إيَّاهم عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بِأَمْرِنَا﴾ أي: بوَحْيِنا: السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥٣).

وقال ابن عاشور: (والأمرُ يَشملُ الوحْيَ بالشَّريعةِ؛ لأنَّه أمْرٌ بها، ويشملُ الانتِصابَ للإرشادِ؛ فإنَّ اللهَ أمَر العُلماءَ أن يُبيِّنوا الكتابَ، ويُرشِدوا إليه، فإذا هَدَوْا فإنَّما هَدَوْا بأمرِه وبالعِلمِ الَّذي أتاهم به أنبياؤُهم وأحبارُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٧).

وقيل: الأمرُ هنا شامِلٌ للأمرِ القَدَريِّ الكونيِّ، والأمرِ الشَّرعيِّ. والقَدَريُّ يعني: يَهدُونَ النَّاسَ بقَدَرِنا وتَقديرِنا. والشَّرعيُّ يعني: يَهدون النَّاسَ إلى دينِ الله. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٩)، ((تفسير =

﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

أي: وكانوا يُوقِنونَ بآياتِ اللهِ بعِلمٍ ثابتٍ مُستَقِرٍّ؛ فهم لا يَشُكُّونَ فيها، ولا فيما دَلَّت عليه مِنَ الحَقِّ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- هو وَحْدَه مَنْ يحكُمُ يومَ القيامةِ بينَ جَميعِ خَلْقِه -ومنهم بنو إسرائيلَ- فيما كانوا في الدُّنيا يختَلِفونَ فيه مِن شَأنِ الدِّينِ، فيَجزي كلَّ مُحِقٍّ ومُبطِلٍ بما يَستَحِقُّه(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤].

---

= ابن كثير)) (٦/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٨)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

وذكر ابنُ عثيمين أنَّ قولَه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ يَشملُ الآياتِ الشَّرعيَّةَ والكَونيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١١٥، ١١٦).

قال البقاعي: (وأمَّا غيرُ ما اختَلَفوا فيه، فالحُكمُ فيه لهم أو عليهم لا بيْنَهم، وما اختلَفوا فيه لا على وَجهِ القَصدِ فيَقَعُ في محلِّ العَفوِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٦٧).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال سُفْيانُ بنُ عُيَيْنةَ في قولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾: (لَمَّا أخَذوا برأسِ الأمرِ جعَلْناهم رُؤوسًا)[١].

٢- الطَّريقُ إلى اللهِ تعالى خالٍ مِن أهلِ الشَّكِّ، ومِنَ الَّذين يتَّبعونَ الشَّهَواتِ، وهو مَعمورٌ بأهلِ اليَقينِ والصَّبرِ، وهم على الطَّريقِ كالأعلامِ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ فيه أنَّهم نالوا هذه الدَّرَجةَ العاليةَ بالصَّبرِ على التعلُّمِ والتَّعليمِ، والدَّعوةِ إلى اللهِ، والأذى في سَبيلِه، وكَفُّوا أنفُسَهم عن جِماحِها في المعاصي، واسترسالِها في الشَّهَواتِ، ووصَلوا في الإيمانِ بآياتِ اللهِ إلى دَرَجةِ اليَقينِ، وهو العِلمُ التَّامُّ الموجِبُ للعَمَلِ، وإنَّما وصَلوا إلى دَرَجةِ اليَقينِ؛ لأنَّهم تَعلَّموا تعلُّمًا صحيحًا، وأخَذوا المسائِلَ عن أدِلَّتِها المفيدةِ لليَقينِ؛ فما زالوا يتعلَّمونَ المسائِلَ، ويَستَدِلُّونَ عليها بكَثرةِ الدَّلائِلِ، حتَّى وصلوا لذاك؛ فبالصَّبرِ واليَقينِ تُنالُ الإمامةُ في الدِّينِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ﴾ فضيلةُ الصَّبرِ؛ تُؤْخَذُ مِن الجزاءِ عليه؛ أي: مِن كَونِ الصَّابرِ يكون إمامًا، وهذا دليلٌ على أنَّ الصَّبرَ محبوبٌ إلى الله، ويُجازي عليه بهذا الجزاءِ العظيمِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ٩٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١١٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ بالصَّبرِ تُترَكُ الشَّهَواتُ، والإراداتُ الفاسدةُ، وباليَقينِ تُدفَعُ الشُّكوكُ، والشُّبُهاتُ(١).

٦- الإيمانُ مَبنيٌّ على رُكنَينِ: يقينٍ وصَبرٍ، وهما الرُّكنانِ المذكورانِ في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾، فباليَقينِ يَعلَمُ حَقيقةَ الأمرِ والنَّهيِ والثَّوابِ والعِقابِ، وبالصَّبرِ يُنفِّذُ ما أُمِرَ به، ويَكُفُّ نَفْسَه عمَّا نُهيَ عنه، ولا يَحصُلُ له التَّصديقُ بالأمرِ والنَّهيِ أنَّه مِن عندِ اللهِ، وبالثَّوابِ والعقابِ: إلَّا باليقينِ، ولا يمكِنُه الدَّوامُ على فِعلِ المأمورِ، وكَفِّ النَّفسِ عن المحظورِ إلَّا بالصَّبرِ؛ فصار الصَّبرُ نِصفَ الإيمانِ، والنِّصفُ الثَّاني الشُّكرُ، بفِعلِ ما أُمِرَ به، وبِتَركِ ما نُهيَ عنه(٢).

٧- جَعَل الله تعالى الإمامةَ فِي الدِّينِ مَوروثةً عن الصَّبرِ واليقينِ بقولِه: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾؛ فإنَّ الدِّينَ كُلَّه عِلمٌ بالحقِّ وعمَلٌ به، والعملُ به لا بدَّ فيه مِن الصَّبرِ، بل وطلَبُ علمِه يحتاجُ إلى الصَّبرِ(٣).

٨- العِلمُ بالمطلوبِ وبطَريقِه لا يُحصِّلانِ المقصودَ إلَّا مع الإرادةِ الجازمةِ، والإرادةُ الجازمةُ لا تكونُ إلَّا مع الصَّبرِ؛ ولهذا قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣]، وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا

---

(١) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٢٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣٩).

صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[السجدة: ٢٤]، فاليَقينُ هو العِلمُ الثَّابتُ المُستَقِرُّ، والصَّبرُ لا بُدَّ منه لتَحقيقِ الإرادةِ الجازِمةِ(١).

٩- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ، والمرادُ أمَّتُه؛ تحذيرًا مِن ذلك، وإيماءً إلى وُجوبِ تجَنُّبِ الاختِلافِ الَّذي لا يدعو إليه داعٍ في مَصلَحةِ الأمَّةِ، وفَهمِ الدِّينِ(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ﴾ دَليلٌ على أنَّ الأئمَّةَ يُتَّبَعونَ على الهدايةِ بأمرِ اللهِ لا بآرائِهم، وأنَّ فَضْلَ إمامتِهم لا يُثبِتُ حُجَّةً على غَيرِهم إذا لم يَهدوهم بأمرِ اللهِ، وأمرُه كِتابُه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، واللهُ أعلمُ(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ﴾ أنَّه سُبحانَه هو الَّذي جَعَل العَبدَ فاعِلًا؛ فهو سُبحانَه الَّذي جَعَل أئمَّةَ الهدى يَهدونَ بأمرِه، وجَعَل أئمَّةَ الضَّلالِ والبِدَعِ يَدْعونَ إلى النَّارِ، كما في قَولِه سُبحانَه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ [القصص: ٤١]، فأخبَر أنَّ الإمامةَ والهدايةَ والدَّعوةَ بجَعْلِه، مع كَونِ ذلك كَسْبًا وفِعلًا للأئمَّةِ، فهي مجعولةٌ له، وفِعلٌ لهم(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ أنَّه لا وِفاقَ بيْنَ المؤمنينَ والكافرين، فأيُّ إنسانٍ يُحاوِلُ أنْ يُقارِبَ بيْنَ الإسلامِ والنَّصرانيَّةِ، أو بيْنَ الإسلامِ واليهوديَّةِ؛ فإنَّه أراد أنْ يَرُدَّ اللَّبَنَ في الضَّرْعِ! وهذا غيرُ ممكنٍ؛ فكلُّ كافرٍ مهما

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٥، ١٣٦).

كان -سواءٌ انتَسَبَ إلى الإسلامِ أمْ كان كافرًا مُعْلِنًا كُفْرَه- فإنَّه لا يمكِنُ أن يَتوافَقَ مع المؤمنينَ أبدًا، ومَن زَعَم ذلك فقد أبْعَدَ النُّجْعةَ، وحاوَلَ شيئًا مستحيلًا[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ ليس مِن هذا الاختِلافِ اختِلافُ أئمَّةِ الدِّينِ في تفاريعِ الأحكام، وفي فَهمِ الدِّينِ، ممَّا لا يَنقُضُ أُصولَه، ولا يُخالِفُ نُصوصَه، وإنَّما هو إعمالٌ لأصولِه ولأدِلَّتِه في الأحوالِ المناسِبةِ لها، وحَمْلُ مُتعارِضِها بَعضِه على بَعضٍ؛ فإنَّ ذلك كلَّه مَحمودٌ غيرُ مَذموم، وقد اختلفَ أصحابُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في حياتِه، فلم يُعَنِّفْ أحدًا، واختلفوا بعدَ وفاتِه فلم يُعَنِّفْ بَعضُهم بعضًا[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ذكَرَ مُوسَى عليه السَّلامُ؛ لِقُربِ زَمانِه، وإلْزامًا لِمَن كان على دِينِه، ولم يَذكُرْ عِيسى؛ لأنَّ مُعظمَ شَريعتِه مُستفادٌ مِن التَّوراةِ، ولأنَّ أتْباعَ مُوسى لا يُوافِقون على نُبوَّتِه، وأتْباعَ عيسى مُتَّفِقون على نُبوَّةِ مُوسى[٣]. وقيل: اختيارُ موسى عليه السَّلامُ لِحكمةٍ، وهي أنَّ أحدًا مِنَ الأنبياءِ لم يُؤذِه قومُه إلَّا الَّذين لم يُؤمِنوا به، وأمَّا الَّذين آمَنوا به فلم يُخالِفوه، غيرَ قَومِ موسى؛ فإنَّ مَن لم يؤمِنْ به آذاه، مِثلُ: فِرعونَ وغَيرِه، ومَنْ آمَنَ به مِن بني إسرائيلَ أيضًا آذاه بالمُخالَفةِ، وطَلَبِ أشياءَ منه، مثلُ: طَلَبِ رُؤيةِ اللهِ جَهرةً، ومِثلُ قَولِهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ ﴾ [المائدة: ٢٤]! فقِيلَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: تذكَّرْ حالَ موسى ولا تحزَنْ؛ فإنَّه لَقِيَ ما لَقِيتَ، وأُوذِيَ كما أُوذيتَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١١٦، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٠).

- والكتابُ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ هو التَّوراةُ؛ عبَّرَ عنها باسمِ الجِنسِ؛ لِتَحقيقِ المُجانَسةِ بيْنَه وبيْنَ الفُرقانِ، والتَّنبيهِ أنَّ إيتاءَه لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كإيتائِه لِمُوسى عليه السَّلامُ[1]. وقيل: أُرِيدَ بقولِه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾: أرسَلْنا مُوسى؛ فذِكْرُ إيتائِه الكِتابَ كِنايةٌ عن إرسالِه، وإدماجُ ذِكرِ الكتابِ؛ للتَّنويهِ بشَأْنِ مُوسى، وليس داخِلًا في تَنظيرِ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ مُوسى عليه السَّلامُ في تَكذيبِ قَومِه إيَّاهُ؛ لأنَّ مُوسى لم يُكذِّبْه قَومُه؛ ألَا تَرى إلى قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ...﴾ الآياتِ، ولِيَتأتَّى مِن وَفرةِ المَعاني في هذه الآيةِ ما لا يَتأتَّى بدُونِ ذِكرِ الكِتابِ[2].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّسليةِ بالتَّنظيرِ والتَّمثيلِ؛ فهذه الجُملةُ وما بعْدَها إلى قولِه: ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥] مُعترِضاتٌ، ومَوقعُ التَّأكيدِ بلامِ القسَمِ، وحَرفِ التَّحقيقِ (قدْ) هو ما استُعْمِلَ فيه الخبَرُ مِن التَّسليةِ، لا لأصلِ الأخبارِ؛ لأنَّه أمْرٌ لا يَحتاجُ إلى التَّأكيدِ، وبه تَظهَرُ رَشاقةُ الاعتِراضِ بتَفريعِ ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ على الخبَرِ الَّذي قبْلَه[3].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فالنَّهيُ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ على انتِفاءِ الشَّكِّ؛ فهو نَهْيٌ مَقصودٌ منه التَّثبيتُ، كقولِه: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [هود:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٤).

١٠٩]، وليس لِطَلبِ إحداثِ انكِفافٍ عن المِرْيةِ؛ لأنَّها لمْ تَقَعْ مِن قبْلُ[١].

- قولُه: ﴿فَلَا تَكُن فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ قيل: (اللِّقاءُ) مَصدرٌ مُضافٌ إلى فاعِلِه، أي: ممَّا لقِيَ مُوسى مِن قَومِ فِرعونَ مِن تَكذيبٍ، أي: مِن مِثلِ ما لقِيَ مُوسى، وهذا المُضافُ يدُلُّ عليه المَقامُ، أو يكونُ جاريًا على التَّشبيهِ البليغِ، كقولِه: هو البدْرُ، أي: مِن لِقاءٍ كلِقائِه. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿لِّقَآئِهِۦ﴾ عائدًا إلى مُوسى، على معنى: مِن مِثلِ ما لقِيَ مُوسى مِن إرسالِه؛ وهو أنْ كانتْ عاقبةُ النَّصرِ له على قَومِ فِرعونَ، وحُصولُ الاهتداءِ بالكتابِ الَّذي أُوتِيَه، وتَأْييدُه باهتداءِ بني إسرائيلَ، فيَكونَ هذا المعنى بِشارةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اللهَ سيُظهِرُ هذا الدِّينَ. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿لِّقَآئِهِۦ﴾ عائدًا إلى الكِتابِ، لكنْ على أنْ يكونَ المعنى: فلا تكُنْ في شَكٍّ مِن لِقاءِ الكتابِ، أي: مِن أنْ تَلْقى مِن إيتائِك الكتابَ ما هو شِنْشَنَةُ (طَبيعةُ) تَلقِّي الكُتبِ الإلهيَّةِ كما تَلقَّاها مُوسى؛ فالنَّهيُ مُستعمَلٌ في التَّحذيرِ ممَّن ظنَّ ألَّا يَلحَقَه في إيتاءِ الكتابِ مِن المَشقَّةِ ما لَقِيَه الرُّسلُ مِن قبْلِه. ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ في قولِه: ﴿فَلَا تَكُن﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ، وهو مُوجَّهٌ لِلَّذين امْتَرَوا في أنَّ القُرآنَ أُنزِلَ مِن عندِ اللهِ، سواءٌ كانوا المُشركينَ، أو الَّذين يُلَقِّنونَهم مِن أهلِ الكتابِ، أي: لا تَمتَروا في إنزالِ القُرآنِ على بشَرٍ؛ فقدْ أُنزِلَ الكِتابُ على مُوسى، فلا تَكونوا في مِريةٍ مِن إنزالِ القُرآنِ على محمَّدٍ؛ فالنَّهيُ مُستعمَلٌ في حَقيقتِه، مِن طَلبِ الكفِّ عن المِرْيةِ في إنزالِ القُرآنِ[٢].

- قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ هُدٗى لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ ضَميرُ النَّصبِ في ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٥، ٢٣٦).

يجوزُ أنْ يَعودَ على الكِتابِ، أو على مُوسى، فوُصِفَ بأنَّه هُدًى؛ للمُبالَغةِ في حُصولِ الاهتداءِ به، وهو مَعطوفٌ على ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾، وما بيْنَهما اعتِراضٌ. وهذا تَعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ لمْ يَشكُروا نِعمةَ اللهِ على أنْ أرسَلَ إليهم مُحمَّدًا بالقُرآنِ لِيَهتَدوا، فأعْرَضوا، وكانوا أحقَّ بأنْ يَحْرِصوا على الاهتِداءِ بالقُرآنِ وبهَدْيِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

- وخَصَّ بني إسرائيلَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه لم يَتعبَّدْ بما فيها وَلَدَ إسماعيلَ[2].

٢- قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فيه تَعريضٌ بالبِشارةِ لأصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّهم يَكونون أئمَّةً لِدينِ الإسلامِ، وهُداةً للمسلمينَ؛ إذ صَبَروا على ما لَحِقَهم في ذاتِ اللهِ مِن أذَى قَومِهم، وصَبَروا على مَشاقِّ التَّكليفِ، ومُعاداةِ أهْلِهم وقَومِهم، وظُلْمِهم إيَّاهم[3].

- وعلى أنَّ المُرادَ مِن الآياتِ في قولِه: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ هو ما في التَّوراةِ مِن الشَّرائعِ والمواعظِ؛ فإطلاقُ اسمِ الآياتِ عليها مُشاكلةٌ تَقديريَّةٌ لِما هو شائعٌ بيْنَ المسلمينَ مِن تَسميةِ جُمَلِ القُرآنِ آياتٍ؛ لأنَّها مُعجِزةٌ في بَلاغتِها، خارجةٌ عن طَوقِ تَعبيرِ البشَرِ[4].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ على ﴿يُوقِنُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالآياتِ[5].

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٧).

- قولُه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ يُثِيرُ سُؤالًا في نفْسِ السَّامعِ مِنَ المؤمنينَ الَّذين سَمِعوا ما في القُرآنِ مِن وَصفِ اختِلافِ بني إسرائيلَ، وانحرافِهم عن دِينِهم، وشاهَدَ كثيرٌ منهم بني إسرائيلَ في زَمانِه غيرَ مُتَحَلِّينَ بما يُناسِبُ ما قامَتْ به أئمَّتُهم مِن الهِدايةِ، فيَوَدُّ أنْ يَعلَمَ سببَ ذلك؛ فكان في هذه الآيةِ جوابُ ذلك؛ تَعليمًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وللمُؤمنينَ[1].

- وضَميرُ (هو) في قولِه: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ﴾ ضَميرُ فَصلٍ؛ لِقَصرِ الفَصلِ عليه تَعالى؛ إيماءً إلى أنَّ ما يُذكَرُ في القرآنِ مِن بَيانِ بَعضِ ما اختَلفوا فيه على أنبيائِهم، ليس مَطْموعًا منه أنْ يَرتدِعوا عن اختلافِهم، وإنَّما هو للتَّسجيلِ عليهم، وقَطْعِ مَعذرتِهم؛ لأنَّهم لا يَقبَلون الحُجَّةَ، فلا يُفصَلُ بيْنَهم إلَّا يومَ القيامةِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٣٩).

## الآيات (٢٦-٣٠)

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾: أي: يُبَيِّنْ أو يَتبيَّنْ لهم، وأصلُ (هدي) هنا: التَّقدُّمُ للإرشادِ[1].

﴿ٱلْقُرُونِ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقَرْنُ: القَومُ المُقترِنُونَ في زمنٍ واحدٍ، أو الأمَّةُ مِن النَّاسِ، قيل: مدَّةُ القَرنِ مئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وقيل: غيرُ مُقَدَّرةٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصل (قرن): يدُلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[2].

﴿ٱلْجُرُزِ﴾: أي: اليابِسةِ الَّتي لا نباتَ فيها، وأصلُ (جرز): القَطعُ؛ كأنَّ الأرضَ الجُرُزَ -وهي الَّتي لا نبتَ بها- قُطِع نَباتُها عنها[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩١).

﴿ٱلْفَتْحِ﴾: أي: الحُكْمُ، وأصلُ (فتح): يدُلُّ على خِلافِ الإغلاقِ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى داعيًا المشركينَ إلى الاعتبارِ بالأُممِ السَّابقةِ: أولَم يَتبيَّنْ لأولئك المُشرِكينَ كَثرةُ مَن أهلَكْنا قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، وهم يَمشونَ في مَنازِلهم فلا يَرَونَ فيها أحَدًا منهم، قد هَلَكوا جميعًا؟! إنَّ في إهلاكِ أولئك القَومِ لَعِبَرًا لِمُشرِكي قُرَيشٍ وغَيرِهم، أفلا يَسمَعونَ؟!

ثمَّ يُنبِّهُ الله سبحانَه إلى نعمةٍ مِن نِعَمِه الكثيرةِ، فيقولُ: أوَلَمْ يَرَ أولئك المُشرِكونَ أنَّا نَسوقُ بقُدرتِنا الماءَ إلى الأرضِ اليابِسةِ الَّتي لا نباتَ فيها، فنُخرِجُ به زَرعًا يأكُلونَ منه، وتَأكُلُ منه مَواشيهم، أفلا يُبصِرونَ؟!

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى ما كان عليه المشركونَ مِن استِخفافٍ بالوعيدِ، فيقولُ: ويقولُ أولئك المُشرِكونَ: متى يجيءُ الفَصلُ بيْنَنا وبيْنَكم فيُعَذِّبُنا اللهُ ويَنصُرُكم علينا إنْ كنتُم صادقينَ؟!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه بالرَّدِّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ-: يومَ الفَصلِ لا يَنفَعُ أولئك الكُفَّارَ إيمانُهم، ولا هم يُمهَلونَ فيُؤخَّرُ عنهم العذابُ لِيَتوبوا؛ فأعرِضْ -يا محمَّدُ- عنهم، وانتَظِرْ حتَّى يُنزِلَ اللهُ عَذابَه بهم، إنَّهم مُنتَظِرونَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٩٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن أعاد اللهُ تعالى ذِكرَ الرِّسالةِ في قَولِه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ ﴾؛ أعاد هنا ذِكرَ التَّوحيدِ مع ذِكرِ البُرهانِ عليه بما يَرونَه مِن المُشاهَداتِ الَّتي يُبصِرونَها(١).

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ﴾.

أي: أوَلَمْ يَتبيَّنْ للمُشرِكينَ إهلاكُنا كثيرًا مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ قَبْلَهم، كعادٍ وثَمودَ وقَومِ لُوطٍ، وهم يَمشونَ في منازِلِهم فلا يَرَونَ فيها أحدًا منهم، قد أُهلِكوا جميعًا؛ بسَبَبِ ظُلمِهم(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٥، ٤٦].

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾.

أي: إنَّ في ذَهابِ أولئك القَومِ ودَمارِهم وخَلاءِ مَساكِنِهم؛ بسَبَبِ ظُلمِهم وتَكذيبِهم: لَدَلالاتٍ وعِبَرًا وعِظاتٍ لِمُشرِكي قُرَيشٍ وغَيرِهم، أفلا يَسمَعونَ آياتِ اللهِ وأخبارَ الماضِينَ سَماعَ تدَبُّرٍ واتِّعاظٍ؛ فيَتوبوا ويَترُكوا الشِّركَ؛ كيلا يُصيبَهم مِثلُ ما أصاب مَنْ قَبْلَهم مِنَ الهَلاكِ(٣)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥١)، ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٣٩، ٦٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن =

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أقام اللهُ تعالى الحُجَّةَ على الكَفَرةِ، بالأُممِ السَّالِفةِ الَّذين كَفَروا فأُهلِكوا؛ أقامها عليهم بإظهارِ قُدرتِه، وتَنبيهِهم على البَعثِ[1].

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ ﴾.

أي: أوَلَمْ يَرَ المُشرِكونَ المكَذِّبونَ بالبَعثِ أنَّا نَسوقُ بقُدرتِنا الماءَ -كماءِ المطَرِ والسَّيلِ- إلى الأرضِ اليابِسةِ الَّتي لا نَباتَ فيها[2]؟!

﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾.

أي: فنُخرِجُ بذلك الماءِ زَرعًا تأكُلُ منه مَواشيهم، وتتغَذَّى به أبدانُهم[3].

﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾.

أي: أفلَا يَرَونَ كيفَ أحيا اللهُ الأرضَ بعدَ مَوتِها؛ فيَعلَموا بذلك قُدرةَ اللهِ

---

= كثير)) (٦/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة السجدة)) (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٥، ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٢، ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

قال الزمخشري: (الجُرُزُ: الأرضُ الَّتي جُرِز نباتُها، أي: قُطِع؛ إمَّا لعدمِ الماءِ، وإمَّا لأنَّه رُعِي وأُزيل، ولا يُقالُ للَّتي لا تُنبِتُ كالسِّباخِ: جُرُزٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

تعالى على إحياءِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم[١]؟!

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن الرِّسالةَ والتَّوحيدَ؛ بَيَّن الحشرَ بقولِه تعالَى[٢]:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ويَقولُ أولئك المُشرِكونَ: متى يَجيءُ هذا الحُكْمُ الَّذي يَفصِلُ اللهُ به بيْنَنا وبيْنَكم، فيُعَذِّبُنا ويَنصُرُكم علينا إنْ كُنتُم صادِقينَ -أيُّها الرَّسولُ والمؤمِنونَ- في أنَّنا مُعاقَبونَ على شِرْكِنا وتَكذيبِنا[٣]؟!

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: يومَ الحُكم ومَجيءِ العَذابِ الَّذي تَسألونَ عنه لا تَستفيدون شَيئًا؛ فإنَّه إذا جاء انقَضَى الأمرُ، وحِينَها لا يَنفَعُ الكُفَّارَ إيمانُهم[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٣، ٦٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٢).

معنَى الفتحِ هو القضاءُ والحُكْمُ عندَ أكثرِ المفسِّرينَ، نسَبَه إليهم الرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٩٣).

قال الواحدي: (والقضاءُ بيْنَ الخلْقِ، وهو يوم البعثِ، يَقضي الله فيه بين المؤمنينَ والكافرين). ((الوسيط)) (٣/ ٤٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧). =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

أي: ولا يُمهَلونَ فيُؤخَّرَ عنهم العذابُ؛ ليتُوبوا[١].

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت نتيجةُ سَماعِ المُشرِكينَ لهذه الأدِلَّةِ استِهزاءَهم حتَّى بسؤالِهم عن يومِ الفَتحِ، وأجابهم سُبحانَه عن تَعيينِه بذِكرِ حالِه، وكان صلَّى الله عليه وسلَّم -لشِدَّةِ حِرصِه على نَفعِهم- ربَّما أحَبَّ إعلامَهم بما طلبوا، وإن كان يَعلَمُ أنَّ ذلك منهم استهزاءٌ؛ رجاءَ أن ينفَعَهم نفعًا ما: سبَّب سُبحانَه عن إعراضِه عن إجابتِهم أمْرَه لهذا الدَّاعي الرَّفيقِ والهادي الشَّفيقِ بالإعراضِ عنهم أيضًا[٢].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن المسائلَ وأتْقَن الدَّلائلَ ولم ينفَعْهم؛ قالَ تعالَى[٣]:

---

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ بيوم الفتحِ: يومُ القيامةِ: السمعانيُّ، والبغوي، وابن جزي، والبقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٩٨).
وقال ابن كثير: (﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ أي: إذا حل بكم بأسُ الله وسَخَطُه وغضَبُه في الدُّنيا، وفي الأخرى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥١).

﴿ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ ﴾.

أي: فأعرِضْ -يا مُحمَّدُ- عن هؤلاء المُشرِكينَ الَّذين يَستَعجِلونَك بالعَذابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [النجم: ٢٩].

﴿وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴾.

أي: وانتَظِرْ حتَّى يُنزِلَ اللهُ عَذابَه بالكافِرين، ويَنصُرَك عليهم؛ إنَّهم مُنتَظِرونَ[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖۖ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴾ أنَّ في إهلاكِ الأممِ عِبْرةً وآيةً؛ فهو آيةٌ لِكَونِ اللهِ تعالى أخذَهم وأهلَكَهم مع قُوَّتِهم، وهي عِبرةٌ لأنَّ اللهَ أخَذَهم لِمُخالَفتِه، كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

قيل: المرادُ: إنَّهم مُنتَظِرونَ ما تَعِدُهم مِنَ العذابِ ومجيءِ السَّاعةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٧٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٤٦).

وقيل: المرادُ: إنَّهم مُنتَظِرونَ بك حوادِثَ الأزمانِ؛ لِيَستريحوا منك، ويَتَرَبَّصون بكم دَوائرَ السَّوءِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: الواحديُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

وقيل: مُنتَظِرونَ الفُرصةَ لحَربِكم، أو لإخراجِكم. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٤).

ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ [غافر: ٢١]، وقال في الآيةِ الأخرى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩]، وكلُّ هذا يُفيدُ بأنَّه يجبُ علينا نحن أنْ نَعتبرَ بهذه الآياتِ، وأن نخافَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ ﴾ وُجوبُ النَّظَرِ في الآياتِ؛ لأنَّ الاستفهامَ هنا للتَّوبيخِ واللَّومِ لِمَن لم يَنتفعْ بذلك[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ الحَثُّ على النَّظَرِ والتَّبَصُّرِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ الاستِدلالُ بالشَّيءِ المحسوسِ على الشَّيءِ المعقولِ، أو بعبارةٍ أخرى: الاستِدلالُ بعينِ اليَقينِ على صِدقِ عِلْمِ اليَقينِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ هذا عِلمُ اليَقينِ، وقولُه تعالى: ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ﴾ هذا عينُ اليَقينِ[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ نيطَ الاستِدلالُ هنا بالكَثرةِ الَّتي أفادَتْها (كم) الخَبريَّةُ؛ لأنَّ تكَرُّرَ حُدوثِ القُرونِ وزَوالِها: أقوى دَلالةً مِن مُشاهَدةِ آثارِ أمَّةٍ واحِدةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٩).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ ﴾ إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا ﴾ نِيطَ الاستِدلالُ هنا بالرُّؤيةِ؛ لأنَّ إحياءَ الأرضِ بعدَ مَوتِها، ثمَّ إخراجَ النَّبتِ منها: دَلالةٌ مُشاهَدةٌ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾ أنَّ الأصلَ فيما نَبَتَ في الأرضِ الحِلُّ، فالأصلُ فيما نَبَتَ في الأرضِ أنه حلالٌ حتَّى يقومَ دليلٌ على التَّحريمِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ ﴾ أنَّ العذابَ قد يُؤَجَّلُ قبْلَ نُزولِه؛ فظاهِرُ الآيةِ: أنَّه لو كان هذا الإيمانُ قبْلَ نُزولِ العَذابِ، فإنَّ اللهَ تعالى يَرفَعُه بالإيمانِ؛ ولهذا أمَرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عندَ الكُسوفِ بالصَّلاةِ والدُّعاءِ والاستِغفارِ[٤]، والصَّدَقةِ والتَّكبيرِ[٥]؛ مِن أجْلِ أنْ يُرفَعَ العذابُ الَّذي هذا إنذارٌ به؛ فإنَّ الكُسوفَ إنذارٌ بالعَذابِ، وهو نفْسُه ليس عذابًا، لكِنَّه إنذارٌ بأنْ يُعَذَّبَ الخَلْقُ، فإذا فَزِعوا إلى الصَّلاةِ وإلى الذِّكرِ والدُّعاءِ والاستِغفارِ، رُفِعَ عنهم[٦].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٢٦).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (١٠٥٩)، ومسلم (٩١٢) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر ما أخرجه البخاري (١٠٤٤)، ومسلم (٩٠١) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ١٢٩).

فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍۖ أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴾ في هذه الآيةِ مُناسَبةٌ حسَنةٌ في المعاني، حيثُ قال اللهُ تعالى في صَدْرِها: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ ﴾ وهي مَوعظةٌ سَمعيَّةٌ؛ لِكَونِهم لم يَنظُروا إلى القُرونِ الهالِكةِ، وإنَّما سَمِعوا بها؛ فناسَبَ أنْ يأتِيَ بعْدَها بقولِه: ﴿أَفَلَا يَسۡمَعُونَ ﴾، أمَّا بعدَ الموعظةِ المرئيَّةِ -وهي قولُه: ﴿ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا نَسُوقُ ٱلۡمَآءَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡجُرُزِ ﴾- فقد ناسَبَ أنْ يقولَ: ﴿أَفَلَا يُبۡصِرُونَ ﴾؛ لأنَّ الزَّرعَ مَرئيٌّ لا مَسموعٌ؛ لِيُناسِبَ آخِرُ كلِّ كلامٍ أوَّلَه[1].

- وقولُه: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡ ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآ ﴾ [السجدة: ٢٢]، ولَمَّا كان ذلك التَّذكيرُ مُتَّصِلًا كقولِه: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٍ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ [السجدة: ١٠]، كان الهَدْيُ -أي العِلمُ المُستفهَمُ عنه بهذا الاستِفهامِ- شاملًا للهَدْيِ إلى دَليلِ البعثِ، وإلى دَليلِ العِقابِ على الإعراضِ عن التَّذكيرِ؛ فأفاد قولُه: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ ﴾ مَعنيَينِ؛ أحدُهما: إهلاكُ أُمَمٍ كانوا قبْلَهم، فجاء هؤلاء المُشركون بَعْدَهم؛ وذلك تَمثيلٌ للبَعثِ، وتَقريبٌ لإمكانِه. وثانيهما: إهلاكُ أُمَمٍ كذَّبوا رُسلَهم؛ ففيهم عِبرةٌ لهم أنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم[2].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿ أَوَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ[3].

- وقد جُوِّزَ أنْ يكونَ الفاعلُ لـ﴿يَهۡدِ﴾ ضَميرَه تعالى؛ فيَكونَ قولُه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٩).

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا ...﴾ استِئنافًا مُبيِّنًا لِكَيفيَّةِ هِدايتِه تعالى[١].

- اختِيرَ فِعلُ الهِدايةِ في هذه الآيةِ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾؛ لإرادةِ الدَّلالةِ الجامعةِ للمُشاهَدةِ، ولِسماعِ أخبارِ تلك الأُمَمِ؛ تَمهيدًا لقولِه في آخِرِها: ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾، ولأنَّ كثرةَ ذلك المُستفادةَ مِن (كَم) الخَبريَّةِ إنَّما تَحصُلُ بتَرتيبِ الاستِدلالِ في تَواتُرِ الأخبارِ، ولا تَحصُلُ دَفْعةً كما تَحصُلُ دَلالةُ المُشاهَداتِ[٢].

- ولَمَّا كان الَّذي يُؤْثَرُ مِن أخبارِ تلك الأُمَمِ، وتَقلُّباتِ أحوالِها، وزَوالِ قُوَّتِها ورَفاهيَّتِها؛ أشَدَّ دَلالةً ومَوعظةً للمشركينَ؛ فُرِّعَ عليه ﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ استِفهامًا تَقْريريًّا مَشوبًا بتَوبيخٍ؛ لأنَّ اجتِلابَ المُضارِعِ -وهو ﴿يَسْمَعُونَ﴾- مُؤْذِنٌ بأنَّ استِماعَ أخبارِ تلك الأُمَمِ مُتكرِّرٌ مُتجدِّدٌ؛ فيكونُ التَّوبيخُ على الإقرارِ المُستفهَمِ عنه أوقَعَ، بخِلافِ ما بعْدَه مِن قولِه: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[٣] [السجدة: ٢٧].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ لَمَّا ذكَرَ القُرونَ والمَساكنَ بالجَمْعِ؛ حَسُنَ جمْعُ الآياتِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾

- اختِيرَ في التَّعبيرِ هنا الفِعلُ المُضارِعُ ﴿نَسُوقُ﴾؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٥).

العَجيبةِ الدَّالَّةِ على القُدرةِ الباهرةِ[١].

- قولُه: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ الزَّرعُ: ما نبَتَ بسَببِ بَذرِ حُبوبِه في الأرضِ؛ كالشَّعيرِ والبُرِّ، وأكْلُ الأنعامِ غالِبُه مِن الكلأِ، لا مِن الزَّرعِ، فذِكْرُ الزَّرعِ بلَفْظِه، ثمَّ ذِكْرُ أكْلِ الأنعامِ؛ يَدُلُّ على تَقديرِ: وكَلأً...؛ ففي الكلامِ اكتِفاءٌ[٢]. والتَّقديرُ: ونُخرِجُ به زَرعًا وكَلأً تأكُلُ منه أنعامُهم وأنفسُهم، والمَقصودُ: الاستِدلالُ على البَعثِ وتَقريبِه وإمكانِه، بإخراجِ النَّبتِ مِن الأرضِ بعدَ أنْ زالَ فَوْجُهُ الأوَّلُ. وأُدْمِجَ في هذا الاستِدلالِ امتنانٌ بقولِه: ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ﴾ خُصَّ الزَّرعُ بالذِّكْرِ -وإنْ كان يُخرِجُ اللهُ به أنواعًا كثيرةً؛ مِن الفَواكهِ والبُقولِ، والعُشبِ المُنتفَعِ به في الطِّبِّ وغيرِه-؛ تَشريفًا للزَّرعِ، ولأنَّه أعظَمُ ما يُقصَدُ مِن النَّباتِ[٤].

- وقُدِّمَت الأنعامُ؛ لأنَّ ما يَنبُتُ يَأكُلُه الأنعامُ أوَّلَ فأوَّلَ، مِن قبْلِ أنْ يَأكُلَ بَنو آدَمَ الحَبَّ، أو لأنَّه غِذاءُ الدَّوابِّ، والإنسانُ قد يَتغذَّى بغَيرِه؛ مِن حَيوانٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٢) الاكتِفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المَقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّة. ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٢).

وغيرِه، أو بَدَأ بالأدْنى، ثمَّ تَرقَّى إلى الأشرَفِ، وهم بَنو آدَمَ[١]. أو قدَّمَها لِمَوقعِ الامتنانِ بها؛ لأنَّ بها قِوامَهم في مَعايشِهم وأبدانِهم، ولأنَّ السِّياقَ لِمُطلَقِ إخراجِ الزَّرعِ، وأوَّلُ صلاحِه إنَّما هو لأكْلِ الأنعامِ، بخِلافِ ما في سُورةِ (عبَسَ)؛ فإنَّ السِّياقَ لِطَعامِ الإنسانِ الَّذي هو نِهايةُ الزَّرعِ؛ حيث قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤]، ثمَّ قال: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: ٢٧]، وذكَرَ مِن طَعامِه مِن العِنَبِ وغيرِه ما لا يَصلُحُ للأنعامِ[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ[٣].

- ولَمَّا كانتْ هذه الآيةُ مُبصَرةً، وكانتْ في وُضوحِها في الدَّلالةِ على البَعثِ لا يَحتاجُ الجاهلُ بها في الإقرارِ سِوى رُؤيتِها؛ قال: ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ مَن رآهَا وتَنبَّه على ما فيها مِن الدَّلالةِ، وأصرَّ على الإنكارِ؛ لا بَصَرَ له ولا بَصيرةَ[٤].

٣- قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حِكايةُ قَولِهم بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لإفادةِ التَّعجيبِ منه، مع إفادةِ تَكرُّرِ ذلك منهم، واتِّخاذِهم إيَّاهُ[٥].

- واسمُ الإشارةِ في ﴿هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ مع إمكانِ الاستغناءِ عنه بذِكْرِ مُبيِّنِه، مَقصودٌ منه التَّحقيرُ، وقِلَّةُ الاكتِراثِ به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أمَرَ اللهُ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُجيبَهم على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيم؛ بأنَّ يومَ الفتْحِ الحقَّ هو يومُ القيامةِ، وهو يومُ الفصْلِ، وحينَئذٍ يَنقطِعُ أمَلُ الكفَّارِ في النَّجاةِ، والاستفادةِ مِن النَّدامةِ والتَّوبةِ، ولا يَجِدون إنظارًا لِتَدارُكِ ما فاتَهم، مع ما في هذا الجوابِ مِن الإيماءِ إلى أنَّ زمَنَ حُلولِه غيرُ مَعلوم للنَّاس، وأنَّه ممَّا استأثَرَ اللهُ به؛ فعَلى مَن يَحتاطُ لِنَجاةِ نفْسِه أنْ يَعمَلَ له مِن الآنَ؛ فإنَّه لا يَدْري متى يَحِلُّ به، فـ ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]؛ ففي هذا الجوابِ سُلوكُ الأُسلوبِ الحكيمِ مِن وَجهينِ: مِن وَجهِ العُدولِ عن تَعيينِ يومِ الفتْحِ، ومِن وَجهِ العُدولِ بهم إلى يومِ الفتْحِ الحقِّ، وهمْ إنَّما أرادوا بالفتْحِ نَصْرَ المسلمينَ عليهم في الحياةِ الدُّنيا(١).

- وقيل: العُدولُ عن تَطبيقِ الجوابِ على ظاهرِ سُؤالِهم؛ للتَّنبيهِ على أنَّه ليس ممَّا يَنبغِي أنْ يُسألَ عنه؛ لكَونِه أمْرًا بيِّنًا غنيًّا عن الإخبارِ به، وكذا إيمانُهم واستِنْظارُهم يَومَئذٍ، وإنَّما المُحتاجُ إلى البَيانِ عَدمُ نفْعِ ذلك الإيمانِ، وعَدمُ الإنظارِ؛ كأنَّه قِيل: لا تَستعجِلوا؛ فكأنِّي بكمْ قد آمنتُم فلمْ يَنفَعْكم، واستَنْظَرتُم فلم تُنْظَروا(٢).

- وقيل: المُناسَبةُ بيْن السُّؤالِ والجوابِ: أنَّه لَمَّا كان سُؤالُهم سُؤالَ تَكذيبٍ واستهزاءٍ بيَومِ القيامةِ، لا سُؤالَ استفهامٍ؛ أُجيبوا بالتَّهديدِ المُطابِقِ للتَّكذيبِ والاستهزاءِ، لا ببَيانِ حَقيقةِ المُوقَّتِ. وإنْ فُسِّرَ الفتْحُ بفَتحِ مكَّةَ أو بيَومِ بَدْرٍ، كان المُرادُ أنَّ المُتولِّينَ لم يَنفَعْهم إيمانُهم حالَ القتلِ، كما لمْ يَنفَعْ فِرعونَ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٨).

إيمانُه، بخِلافِ الطُّلَقاءِ الَّذين آمَنوا بعْدَ الأسْرِ؛ فالجوابُ بذلك مُطابِقٌ للسُّؤالِ مِن غَيرِ تَأويلٍ(١).

- وإظهارُ وَصْفِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في مَقامِ الإضمارِ، مع أنَّهم همُ القائِلونَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ﴾؛ لِقَصدِ التَّسجيلِ عليهم بأنَّ كُفْرَهم هو سَببُ خَيبتِهم(٢).

٥- قولُه تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ فُرِّعَ على جَميعِ هذه المُجادَلاتِ والدَّلالاتِ تَوجيهُ اللهِ خِطابَه إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُعرِضَ عن هؤلاء القائلينَ المُكذِّبين، وألَّا يَزيدَ في الإلحاحِ عليهم؛ تَأييسًا مِن إيمانِ المُجادِلينَ منهم، المُتصَدِّينَ للتَّمويهِ على دَهْمائِهم(٣).

- وحُذِفَ مَفعولُ (انْتَظِرْ) للتَّهويلِ، أي: انتظِرْ أيَّامًا يكونُ لك فيها النَّصرُ، ويكونُ لهم فيها الخُسرانُ؛ ففي الأمرِ بالانتظارِ تَعريضٌ بالبِشارةِ للمُؤمنينَ بالنَّصرِ، وتَعريضٌ بالوَعيدِ للمشركينَ بالعذابِ في الدَّارَينِ(٤).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ تَعليلٌ لِمَا تَضمَّنَه الأمرُ بالانتظارِ مِن إضمارِ العذابِ لهم(٥).

- ومَفعولُ ﴿مُّنتَظِرُونَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه السِّياقُ، أي: مُنتظِرون لكمُ الفُرصةَ لِحَرْبِكم، أو لإخراجِكم(٦). وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٥، ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٤٤).

تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الرَّابعُ والعشرونَ

ويليه المجلدُ الخامسُ والعشرونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الأحزابِ

# الفهرس

# الفهرس

## سورةُ الرُّومِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ١٣
بيانُ المَكِّي والمَدَنيِّ ..... ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٤
موضوعاتُ السُّورةِ ..... ١٤
الآيات (١-٧) ..... ١٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٢
الآيات (٨-١٠) ..... ٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٤١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٩
الآيات (١١-١٦) ..... ٥٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٨

المعنى الإجماليُّ ..... ٥٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٥
الآيات (١٧-٢٣) ..... ٧١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٧١
المعنى الإجماليُّ ..... ٧١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٧٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٨٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٩٢
الآيات (٢٤-٢٧) ..... ١٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٠٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٠٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١١٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١١٨
الآيتان (٢٨-٢٩) ..... ١٢٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٢٦
تَفسيرُ الآيتينِ ..... ١٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٣٠

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٣٠
بلاغةُ الآيتينِ ..... ١٣١
الآيات (٣٠-٣٢) ..... ١٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٣٧
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٣٨
المَعنى الإجماليُّ ..... ١٣٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٣٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٤٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٤٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٥١
الآيات (٣٣-٣٧) ..... ١٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٥٦
المَعنى الإجماليُّ ..... ١٥٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٥٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٦٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٦٤
الآيات (٣٨-٤٠) ..... ١٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٧٢
المَعنى الإجماليُّ ..... ١٧٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٧٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٧٨

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٧٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٨٢
الآيات (٤١-٤٥) ..... ١٨٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٨٨
المعنى الإجماليُّ ..... ١٨٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٨٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٩٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٩٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٩٩
الآيات (٤٦-٥٣) ..... ٢٠٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٠٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٢١٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢١١
الفَوائِدُ التربويَّةُ ..... ٢٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٢٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٢٦
الآيات (٥٤-٥٧) ..... ٢٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٣٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٤٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٤٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٤٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٤٨

بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٥٠
الآيات (٥٨-٦٠) ..... ٢٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٥٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٥٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٥٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٦٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٦٠

## سورةُ لُقمانَ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٢٦٥
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٢٦٥
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٢٦٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٢٦٥
الآيات (١-٥) ..... ٢٦٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٦٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٧٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٧٢
الآيات (٦-٩) ..... ٢٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٧٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٧٥

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٨٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٨٦
الآيتان (١٠-١١) ..... ٢٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٩٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٩١
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٢٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٩٤
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٢٩٦
الآيتان (١٢-١٣) ..... ٣٠٠
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٠٠
المَعنى الإجماليُّ ..... ٣٠٠
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٣٠١
الفَوَائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٠٦
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٣٠٧
الآيتان (١٤-١٥) ..... ٣١٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣١٢
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣١٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٣١٣
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٣١٤
الفَوَائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣١٨

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٢١
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٣٢٤
الآيات (١٦-١٩) ..... ٣٣١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٣١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٣٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٣٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٣٤
الفَوَائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٤٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٤٧
الآيات (٢٠-٢٤) ..... ٣٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٥٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٥٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٥٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٦٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٧١
الآيات (٢٥-٢٧) ..... ٣٧٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٧٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٨٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٨٣

الآيات (٢٨-٣٠) ..... ٣٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٩٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٩٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٩١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٩٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٩٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٩٨
الآيتان (٣١-٣٢) ..... ٤٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٠٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٠٦
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٤٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤١٢
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٤١٣
الآيتان (٣٣-٣٤) ..... ٤١٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤١٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٤١٩
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٤٢٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٢٧
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٤٣٠

## سُورةُ السَّجْدةِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٤٤١
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ..... ٤٤١
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٤٤٢
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٤٤٢
موضوعاتُ السُّورةِ ..... ٤٤٢
الآيات (١-٥) ..... ٤٤٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٤٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٤٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٥٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٥٨
الآيات (٦-١١) ..... ٤٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٦٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٧٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٨٠
الآيات (١٢-١٤) ..... ٤٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٩٠

المعنى الإجماليُّ ..... ٤٩٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٩٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٩٨
الآيات (١٥-١٧) ..... ٥٠٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٠٥
المَعنى الإجماليُّ ..... ٥٠٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٠٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥١٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥١٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥١٧
الآيات (١٨-٢٢) ..... ٥٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٢٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٢٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٣٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٣٤
الآيات (٢٣-٢٥) ..... ٥٤١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٤١
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٤١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٤٢

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٤٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٤٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٤٩
الآيات (٢٦-٣٠) ..... ٥٥٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٥٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٥٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٥٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٦١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٦٢
الفهرس ..... ٥٧٣

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر للقرآن الكريم

(سورة الأحزاب)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الدمام

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف


**المجلد الخامس والعشرون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

## (سورة الأحزاب)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد الخامس والعشرون – سورة الأحزاب/

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٤٦٣ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٩١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٢/٦٠٨٢

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٦٠٨٢

ردمك: ٥-٩١-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الأحزابِ

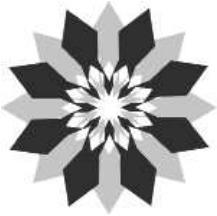

# سورةُ الأحزابِ

## أسماءُ السُّورة:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (الأحزاب)[١].

فعن زِرٍّ، قال: قال أُبَيُّ بنُ كعبٍ: (كم تَعُدُّون سورةَ الأحزابِ آيةً؟ قُلْنا: ثلاثةً وسبعينَ...)[٢].

## بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الأحزابِ مَدَنيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الأحزابِ:**

١- الحضُّ على التَّوجُّهِ إلى الخالقِ مِن غيرِ مراعاةٍ بوجْهٍ ما للخلائقِ[٤].

---

(١) سُمِّيت سورةَ الأحزابِ؛ لاشتمالِها على قِصَّةِ الأحزابِ مِن المشركينَ مِن قُرَيشٍ ومَن تحزَّب معهم، أرادوا غزوَ المسلمينَ في المدينةِ، فرَدَّ الله كيْدَهم، وكفَى اللهُ المؤمنينَ القتالَ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٥).

(٢) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٧١٥٠) واللفظ له، وعبدُ الله بنُ أحمدَ في ((زوائد المسند)) (٢١٢٠٧).

حسَّنه ابنُ حَجَر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (٢/ ٣٠٤)، وصحَّح إسنادَه ابنُ جرير في ((مسند عمر)) (٢/ ٨٧٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (٤/ ٤٠٠)، وابن حزم في ((المحلى)) (١١/ ٢٣٥)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٢٩١٣) وحسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٦/ ٣٧٦).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والرازي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٦/ ٣٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٧٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٧٣).

٢- بيانُ عنايةِ اللهِ بنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحمايةِ جَنابِه[١].

٣- التَّعرُّضُ لكثيرٍ مِن الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، والآدابِ الاجتِماعيَّةِ، والاهتمامُ بتنظيمِ المجتمَعِ الإسلاميِّ[٢].

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي تناوَلَتْها سُورةُ الأحزابِ:**

١- توجيهُ النِّداءِ إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ببعضِ التَّوجيهاتِ؛ بتقْوى اللهِ، وعدَمِ الطَّاعةِ للكافِرينَ والمنافِقينَ، واتِّباعِ ما يُوحِي إليه رَبُّه، والتَّوكُّلِ عليه وحْدَه.

٢- إبطالُ بَعضِ العاداتِ الَّتي كانت سائدةً؛ كالظِّهارِ، والتَّبَنِّي.

٣- ذِكرُ بعضِ الأحكامِ التَّشريعيَّةِ؛ كطاعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتقريرِ كَوْنِ أزواجِه أُمَّهاتِهم، ووُجوبِ التَّوارُثِ بينَ الأقاربِ -كما هو مبيَّنٌ في آياتٍ أُخَرَ-، وإبطالِ التَّوارُثِ عن طريقِ المؤاخاةِ.

٤- ذِكرُ غزوَتَي الأحزابِ وبَني قُرَيْظةَ.

٥- ذِكرُ قصَّةِ تخييرِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وبيانُ فضلِهنَّ، وتوجيهُ بعضِ الإرشاداتِ والأوامرِ لهنَّ.

٦- ذِكرُ قِصَّةِ تزويجِ زينبَ بنتِ جَحشٍ رضيَ الله عنها مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ طلاقِها مِن زَيدِ بنِ حارثةَ رضيَ الله عنه، والحِكمةِ مِن ذلك، وهي إبطالُ آثارِ التَّبَنِّي.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ١٦٧).

٧- الأمرُ بالإكثارِ مِن ذكرِ اللَّه تعالى ومِن تسبيحِه وتنزيهِه، وبيانُ وظيفةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٨- بيانُ حكمِ المطَلَّقاتِ قبلَ الدُّخولِ.

٩- ذِكرُ خصائصِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النِّكاحِ، ومَن تَحِلُّ له مِن النِّساءِ المؤمناتِ، ومَن تَحْرُمُ عليه.

١٠- ذِكرُ عَلاقةِ المسلمينَ ببيوتِ النَّبيِّ وزَوجاتِه، في حياتِه وبعدَ وفاتِه.

١١- الأمرُ بالصَّلاةِ والسَّلامِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

١٢- بيانُ جزاءِ الَّذين يُؤْذونَ اللهَ ورسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، ويُؤْذونَ المؤمنينَ والمؤمناتِ.

١٣- الأمرُ بالحجابِ.

١٤- تهديدُ المنافقينَ والَّذين في قلوبِهم مرَضٌ، والمُرجِفينَ.

١٥- سؤالُ النَّاسِ عن السَّاعةِ، والإجابةُ عن هذا التَّساؤلِ، وذِكرُ أحدِ مَشاهدِ يومِ القيامةِ.

١٦- الأمرُ بتقوى الله والقَولِ السَّديدِ، وبيانُ جزاءِ ذلك.

١٧- تحمُّلُ الإنسانِ للأمانةِ.

## الآيات (١-٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ٢ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٣﴾.

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفتتِحًا السُّورةَ بهذا الخِطابِ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: يا أيُّها النَّبيُّ اتَّقِ اللهَ ودُمْ على تَقْواه، ولا تُطِعِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ؛ إنَّ اللهَ عَليمٌ بكلِّ شَيءٍ، وبما تُضمِرُه نُفوسُهم، حَكيمٌ في تدبيرِ أمورِ خَلْقِه فيما شَرَع.

واتَّبِعْ ما أوحاه اللهُ إليك؛ إنَّ اللهَ كان بما تَعمَلونَ خَبيرًا، وتَوكَّلْ على اللهِ، وحَسْبُك باللهِ تعالى وَكيلًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ اتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه، ودُمْ على تَقْواه[1].

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾.

أي: ولا تُطِعْ -أيُّها النَّبيُّ- الكافِرينَ المُظهِرينَ للكُفرِ، والمُنافِقينَ المُبطِنينَ له؛ فهؤلاء أعداؤُك، وليسوا أهلَ نُصحٍ لك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١١-١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّقْوى، ونهاه عن طاعةِ الكافرينَ؛ بيَّن أنَّ هذا الأمرَ صادرٌ عن عِلمٍ وحِكمةٍ، وأنَّه تعالى أعلَمُ بما يَكيدُه هؤلاء الأعداءُ مِن الكفَّارِ والمُنافِقين[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ كان ولم يَزَلْ عَليمًا بعواقِبِ الأمورِ، وبما تُضمِرُه نفوسُ الكافِرينَ والمنافِقينَ، حكيمًا في تدبيرِ جميعِ أمورِ خَلقِه، وفيما شرَعَ لهم مِن دينِه[٢].

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه يُقَرِّرُ ما ذُكِرَ مِن أنَّه تعالى حَكيمٌ؛ فاتِّباعُه هو الواجِبُ[٣].

﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾.

أي: واعمَلْ -يا مُحمَّدُ- بما أوحاه إليك ربُّك، وشَرَع لك مِن دينِه، واستَمِرَّ

---

= (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٤، ١٥).

قال ابن عاشور: (والطَّاعةُ: العملُ على ما يأمُرُ به الغيرُ أو يُشيرُ به لأجْلِ إجابةٍ مرغوبةٍ...، ووُقوعُ اسمِها في سياقِ النَّهيِ يقتَضي النَّهيَ عن كُلِّ ما يتحَقَّقُ فيه أدنى ماهِيَّتِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٤).

على ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ كان ولم يَزَلْ بما تَعمَلونَ خَبيرًا لا يخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها[٢].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: واعتَمِدْ -يا مُحمَّدُ- في أمورِك كُلِّها على اللهِ وَحْدَه، وثِقْ به سُبحانَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨).
قال السعدي في بيانِ معنى هذه الآيةِ: (فإنْ وقع في قَلبِك أنَّك إنْ لم تُطِعْهم في أهوائِهم المُضِلَّةِ، حصَلَ عليك منهم ضرَرٌ، أو حصَلَ نَقصٌ في هدايةِ الخَلقِ: فادفَعْ ذلك عن نَفسِك، واستعمِلْ ما يُقاوِمُه ويُقاوِمُ غيرَه، وهو التَّوكُّلُ على الله). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

أي: وحَسْبُك اللهُ تعالى وَحْدَه؛ فهو الحافِظُ لكُلِّ شَيءٍ، القادِرُ على تحقيقِ كُلِّ شَيءٍ، والمدبِّرُ لجَميعِ الخَلقِ؛ فلا تَلتَفِتْ في شَيءٍ مِن أمْرِك إلى غيرِه سُبحانَه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أنَّ الإنسانَ مهما بَلَغ مِن المرتبةِ فإنَّ التَّكاليفَ لا تَسقُطُ عنه، وعلى هذا فيَتفرَّعُ مِن هذه القاعدةِ: بيانُ ضَلالِ أولئكَ الصُّوفيَّةِ الَّذين يقولونَ: «إنَّ الإنسانَ إذا وصلَ إلى دَرَجةِ المعايَنةِ سَقَطت عنه التَّكاليفُ»! قُلْنا: لا؛ لأنَّه لا أحدَ يَبلُغُ مرتبةَ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عندَ اللهِ سُبحانَه وتعالى، ومع ذلك لم تَسقُطْ عنه التَّكاليفُ[٢]!

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ قَولُه سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ التَّقْوى ينبغي أن تكونَ عن صَميمِ قَلبِك؛ فإنَّ الله تعالى هو العليمُ[٣]، وفيه تحذيرُ الإنسانِ مِن المخالَفةِ، كما لو قيل: اذهَبْ وأنا أعلَمُ ما تفعلُ؛ فإنَّ المرادَ بذلك: التَّهديدُ والتَّحذيرُ مِن المخالَفةِ، فكلُّ نَصٍّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى فيه أنَّه يَعْلَمُ ما نعملُ فهو تحذيرٌ لنا مِن مخالفتِه[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فيه زجْرٌ عن اتِّباعِ مراسِمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥).

الجاهِليَّةِ، وأمرٌ بجِهادِهم ومُنابَذتِهم، وفيه دَليلٌ على تَركِ اتِّباعِ الآراءِ مع وُجودِ النَّصِّ، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولأُمَّتِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ ما يُوجِبُ للإنسانِ صِدْقَ الاعتِمادِ على اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنْ يَعتمِدَ على اللهِ وحْدَه؛ فاجعَلِ اعتمادكَ على اللهِ فإنَّه كافيكَ[٢]، ومَن صدَقَ توكُّلُه على الله في حصولِ شَيءٍ، ناله[٣]، وكَفَى به وَكيلًا تُوكَلُ إليه الأمورُ، فيقومُ بها، وبما هو أصلَحُ للعبدِ؛ وذلك لِعلمِه بمَصالحِ عبدِه -مِن حيثُ لا يعلمُ العبدُ-، وقدرتِه على إيصالِها إليه -مِن حيثُ لا يَقدِرُ عليها العبدُ-، وأنَّه أرحَمُ بعبدِه مِن نفْسِه، ومِن والديه، وأرأفُ به مِن كلِّ أحدٍ، خصوصًا خواصَّ عبيدِه، الَّذين لم يَزَلْ يُرَبِّيهم ببِرِّه، ويُدِرُّ عليهم بَرَكاتِه الظَّاهرةَ والباطنةَ، خصوصًا وقد أمرَه بإلقاءِ أمورِه إليه، ووعَده، فهناك لا تَسألْ عن كلِّ أمرٍ يَتيسَّرُ، وصعبٍ يَسهلُ، وخُطوبٍ تَهونُ، وكُروبٍ تَزولُ، وأحوالٍ وحوائجَ تُقضَى، وبَرَكاتٍ تَنزِلُ، ونِقَمٍ تُدفَعُ، وشرورٍ تُرفَعُ[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه في ندائِه (يا محمَّدُ) كما قال في نداءِ غيرِه (يا موسى، يا عيسى، يا داود)، بل عدَل إلى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾؛ لوجهَينِ:

**الوجه الأوَّل:** لِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّه رسولُ الله؛ لِيُلَقِّبوه بذلك، ويدعوه به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٧).

**الوجه الثَّاني**: أنَّه نُودِيَ بوصفِ النُّبوَّةِ دونَ اسمِه العَلَم تشريفًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بفَضلِ هذا الوَصفِ؛ لِيَربأَ بمَقامِه عن أن يُخاطَبَ بمثلِ ما يُخاطَبُ به غيرُه؛ ولذلك لم يُنادَ في القُرآنِ بغيرِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ أو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٦٧]، بخلافِ الإخبارِ عنه؛ فقد يجيءُ بهذا الوَصفِ، كقَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ [التحريم: ٨]، ويجيءُ باسمِه العَلَم، كقَولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقد يَتعيَّنُ إجراءُ اسْمِه العلَم؛ لِيُوصَفَ بعدَه بالرِّسالةِ، كقولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقولِه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وتلك مَقاماتٌ يُقصَدُ فيها تَعليمُ النَّاسِ بأنَّ صاحبَ ذلك الاسمِ هو رسولُ اللهِ، أو تَلقينٌ لهم بأنْ يُسَمُّوه بذلك ويَدْعوه به؛ فإنَّ عِلْمَ أسمائِه مِن الإيمانِ؛ لئلَّا يَلتبِسَ بغَيرِه[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ لا مُنافاةَ بيْنَه وبينَ قَولِه في آخرِ الآيةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢] بصيغةِ الجَمعِ؛ لدُخولِ الأمَّةِ تحتَ الخِطابِ الخاصِّ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه قُدوتُهم[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وُجوبُ التَّقْوى على الأُمَّةِ، فإذا كان الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُؤمَرُ بالتَّقوى؛ فغيرُه مِن بابِ أَولى، هذا وجهٌ. ووجهٌ آخَرُ: أنَّ الخِطابَ المُوَجَّهَ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مُوَجَّهٌ له ولأُمَّتِه، ما لم يَقُمْ دَليلٌ على تَخصيصِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٩، ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٧).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ توجيهُ الأمرِ لِمَن هو مُتَّصِفٌ به[١]، فلا مانعَ مِن أنْ يقولَ الإنسانُ لأتقَى النَّاسِ: اتَّقِ اللهَ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عبدٌ مأمورٌ مُكَلَّفٌ -لأمْرِه بالتَّقْوى؛ وعدَمِ إطاعةِ الكافرين والمنافقين[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أنَّ النَّهيَ عن الشَّيءِ لا يدُلُّ على وقوعِه، بل يدُلُّ على أنَّه ممنوعٌ منه؛ لئلَّا يقَعَ فيما بَعْدُ، فهنا الآيةُ لا تدُلُّ على أنَّه كان يُطيعُهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ أنَّ الكافرَ والمنافقَ لا يمكنُ أنْ يكونَ ناصحًا للمؤمنينَ أبدًا! ولو كان يمكنُ أنْ يكونَ فيه نُصْحٌ ما نَهَى تعالى عن طاعتِهم مطلقًا؛ لأنَّ الناصحَ يُطاعُ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ افتِتاحُ السُّورةِ بخِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونِدائِه بوَصْفِه؛ مُؤذِنٌ بأنَّ الأهمَّ مِن سَوقِ هذه السُّورةِ يَتعلَّقُ بأحوالِ النَّبيِّ

(١) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ١٤٨).
(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٦٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨).
(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٥٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٩).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ المرادُ بالتَّقْوى المأْمورِ بها الثَّباتُ عليها، والازديادُ منها؛ وذلك لِتكونَ مانعًا له عمَّا نُهِيَ عنه، ولأنَّ التَّقوى بابٌ لا يُبلَغُ آخِرُه. والظَّاهرُ أنَّه أمْرٌ للنَّبيِّ، وإذا كان هو مأْمورًا بذلك، فغَيرُه أَولى بالأمْرِ. وقِيل: هو خِطابٌ له لَفظًا، وهو لِأُمَّتِه[٢].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ الأمْرُ للنَّبيِّ بتَقْوى اللهِ تَوطئةٌ للنَّهي عن اتِّباعِ الكافرينَ والمنافقينَ؛ لِيَحصُلَ مِنَ الجُملتينِ قَصرُ تَقواهُ على التَّعلُّقِ باللهِ دونَ غيرِه؛ فإنَّ مَعنى (لَا تُطِعِ) مُرادِفُ مَعنى: لا تتَّقِ الكافرينَ والمنافقينَ؛ فإنَّ الطَّاعةَ تَقْوى، فصار مَجموعُ الجُملتينِ مُفيدًا معنَى: يا أيُّها النَّبيُّ لا تتَّقِ إلَّا اللهَ، فعُدِلَ عن صِيغةِ القَصرِ -وهي أشهَرُ في الكلامِ البليغِ، وأوجَزُ- إلى ذِكرِ جُمْلتَيْ أمْرٍ ونَهْيٍ؛ لِقَصدِ النَّصِّ على أنَّه قَصرٌ إضافيٌّ[٣] أُرِيدَ به ألَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٩).

(٣) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقع، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو الله وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلام، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. =

يُطِيعَ الكافرينَ والمنافقينَ؛ لأنَّه لو اقتُصِرَ على أنْ يُقالَ: (لا تتَّقِ إلَّا اللهَ) لَمَا أصاخَتْ إليه الأسماعُ إصاخةً خاصَّةً؛ لأنَّ تَقوى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ربَّه أمْرٌ مَعلومٌ، فسُلِكَ مَسلَكُ الإطنابِ لهذا؛ فإنَّ أصلَ صِيغةِ القصرِ أنَّها مُختصَرةٌ مِن جُملتَيْ إثباتٍ ونَفْيٍ، ولِكَونِ هذه الجُملةِ كتَكملةٍ للَّتي قبْلَها، عُطِفَت عليها؛ لاتِّحادِ الغرَضِ منهما. وقد تعيَّنَ بهذا أنَّ الأمْرَ في قولِه: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، والنَّهيَ في قولِه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ مُستعمَلانِ في طَلبِ الاستمرارِ على ما هو مُلازِمٌ له مِن تَقوى اللهِ، فأشعَرَ ذلك أنَّ تَشريعًا عَظيمًا سَيُلْقى إليه لا يَخْلو مِن حَرجٍ عليه فيه، وعلى بَعضِ أُمَّتِه، وأنَّه سيَلْقَى مَطاعنَ الكافرينَ والمنافقينَ. وفائدةُ هذا الأمْرِ والنَّهيِ التَّشهيرُ لهم بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَقبَلُ أقوالَهم؛ لِيَيْئسوا مِن ذلك؛ لأنَّهم كانوا يُدبِّرون مع المشركينَ المكايدَ، ويُظهِرونَ أنَّهم يَنصَحون النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُلِحُّون عليه بالطَّلباتِ نُصحًا، تَظاهُرًا بالإسلامِ[1].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ هنا وفي الآية (٤٨) مناسبةٌ

---

= والقصرُ لادِّعائيٌّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكور منزلةَ العدَمِ، وقصْر الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٠، ٢٥١).

حسنةٌ، فقد قدَّم الكافرينَ على المنافقينَ، بينَما في مواضعَ يُقَدِّمُ المنافقينَ على الكافرينَ؛ ففي مقامِ الجزاءِ يُقَدِّمُ المنافقين، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، وقولِه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٧٣]؛ لأنَّ ذَنْبَ المنافقِ أعظمُ مِن ذَنْبِ الكافرِ الصريحِ، وأمَّا هنا فالذي يُعارِضُ الرسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم صراحةً هو الكافرُ؛ ولهذا قَدَّمَهُ على المنافقِ؛ لأنَّ المنافقَ لا يَأْمُرُ بمخالفةِ الشرعِ كما يَأْمُرُ بها الكافرُ! إذْ إنه يَتَسَتَّرُ بنفاقه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فبدأ بهم؛ لأنَّ معارضتَهم للشرعِ أبينُ وأظهرُ مِن المنافقينَ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تَعليلٌ للأمرِ والنَّهي، مُؤكِّدٌ لِوُجوبِ الامتثالِ بهما، ودُخولُ (إنَّ) على الجُملةِ قائمٌ مَقامَ فاءِ التَّعليلِ، ومُغْنٍ غَناءَها. وقِيل: هي تَسليةٌ للرَّسولِ، أي: عَليمًا بمَن يتَّقي، حكيمًا في هَدْيِ مَن شاء، وإضلالِ مَن شاء[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ تَمهيدٌ لِمَا يَرِدُ مِن الوَحيِ في شأْنِ أحكامِ التَّبنِّي وما يَتَّصِلُ بها؛ ولذلك جِيءَ بالفِعلِ المضارعِ الصَّالحِ للاستقبالِ، وجُرِّدَ مِن عَلامةِ الاستقبالِ؛ لأنَّه قريبٌ مِن زَمنِ الحالِ. والمَقصودُ مِن الأمْرِ باتِّباعِه أنَّه أمْرٌ باتِّباعٍ خاصٍّ؛ تأْكيدًا للأمْرِ العامِّ باتِّباعِ الوَحيِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص:١٤، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٢).

- والتَّعرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه: ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾؛ لِتأكيدِ وُجوبِ الامتثالِ بالأمْرِ(١).

- وفي إفرادِ الخِطابِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه: ﴿ وَٱتَّبِعۡ ﴾، وجمْعِه بما يَشمَلُه وأُمَّتَه في قولِه: ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ إيماءٌ إلى أنَّ فيما سيَنزِلُ مِن الوَحيِ ما يَشتمِلُ على تَكليفٍ يَشملُ تَغييرَ حالةٍ كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُشارِكًا لِبَعضِ الأُمَّةِ في التَّلبُّسِ بها؛ وهو حُكمُ التَّبنِّي؛ إذ كان النَّبيُّ مُتبنِّيًا زيدَ بنَ حارثةَ مِن قبْلِ بَعثتِه(٢).

- ذُيِّلَت جُملةُ ﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ بجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾؛ تَعليلًا للأمْرِ بالاتِّباعِ، وتأْنيسًا به؛ لأنَّ اللهَ خبيرٌ بما في عَوائدِكم ونُفوسِكم، فإذا أبطَلَ شيئًا مِن ذلك فإنَّ إبطالَه مِن تَعلُّقِ العِلمِ بلُزومِ تَغييرِه، فلا تَتريَّثوا في امتثالِ أمْرِه في ذلك؛ فجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ في مَوقعِ العِلَّةِ؛ فلذلك فُصِلَت؛ لأنَّ حرْفَ التَّوكيدِ مُغنٍ غَناءَ فاءِ التَّفريعِ(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ قيل: الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والجمْعُ للتَّعظيمِ. وقيل: له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمؤمنينَ، وأيًّا ما كانَ فالجُملةُ تَعليلٌ للأمْرِ وتأكيدٌ لمُوجبِه؛ بطريقِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ كأنَّه قِيل: إنَّ الله خَبيرٌ بما تَعملونَه مِن الامتثالِ وتَرْكِه، فيُرتِّبُ على كلٍّ منهما جَزاءَه ثوابًا وعِقابًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٨٩).

- وقرَأَ الجُمهورُ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ على خِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والأُمَّةِ؛ لأنَّ هذا الأمْرَ أعلَقُ بالأُمَّةِ. وقرَأَ أبو عَمرٍو وحْدَه (بما يَعْمَلُونَ) بالمُثنَّاةِ التَّحتيَّةِ على الغَيبةِ[1]، على أنَّه راجعٌ للنَّاسِ كلِّهم، شاملٌ للمسلمينَ والكافرينَ والمنافقينَ؛ لِيُفيدَ -مع تَعليلِ الأمْرِ بالاتِّباعِ- تَعريضًا بالمشركينَ والمنافقينَ بمُحاسَبةِ اللهِ إيَّاهم على ما يُبيِّتونه مِن الكَيدِ، وكِنايةً عن إطْلاعِ اللهِ رسولَه على ما يَعلَمُ منهم في هذا الشَّأْنِ. وهذا المعنى الحاصلُ مِن هذه القراءةِ لا يَفوتُ في قِراءةِ الجُمهورِ بالخِطابِ؛ لأنَّ كلَّ فريقٍ مِن المخاطَبينَ يَأخُذُ حظَّه منه[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾ زِيادةُ تَمْهيدٍ وتَوطئةٍ لِتلقِّي تَكليفٍ يُترقَّبُ منه أذًى مِن المنافقينَ، فأمَرَه بتَقْوى ربِّه دونَ غيرِه، وأتْبَعَه بالأمْرِ باتِّباعِ وَحْيِه، وعزَّزه بالأمرِ بما فيه تأْييدُه؛ وهو أنْ يُفوِّضَ أُمورَه إلى اللهِ[3].

(١) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٤-٦)

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ جَوْفِهِۦ ﴾: الجَوفُ: باطِنُ الإنسانِ؛ صَدرُه وبَطنُه، وهو مَقَرُّ الأعضاءِ الرَّئيسةِ عدا الدِّماغَ[١].

﴿ تُظَٰهِرُونَ ﴾: الظِّهارُ: قولُ الرَّجُلِ لامرأتِه: أنتِ عليَّ كظَهرِ أُمِّي، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قوَّةٍ وبروزٍ[٢].

﴿ أَدْعِيَآءَكُمْ ﴾: أي: مَن تَبنَّيتُموهم، جَمْعُ دَعِيٍّ: فَعيلٌ بمعنى مفعولٍ؛ لأنَّه مَدعُوٌّ بالبُنُوَّةِ، وأصلُه مِنَ الادِّعاءِ: وهو زَعمُ الزَّاعِمِ الشَّيءَ حَقًّا له؛ مِن مالٍ أو نَسَبٍ أو نحوِ ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دُرَيد (٢/ ١٠٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٨).

﴿أَقْسَطُ﴾: أي: أعدَلُ، والقِسْطُ: العدْلُ، يقالُ: أَقسَط يُقسِطُ فهو مُقسِطٌ: إذا عدَل[١].

﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾: أي: محرَّروكم، وقيل: أولياؤُكم في الدِّينِ، والمَوالي جمْعُ مَوْلًى، ويُطلقُ على المعتَقِ والحَليفِ وابنِ العمِّ وغيرِ ذلك، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[٢].

﴿جُنَاحٌ﴾: أي: إثمٌ؛ وأصلُ (جنح): الميلُ والعدوانُ، وسُمِّيَ الإثمُ بذلك؛ لِمَيلِه عن طريقِ الحقِّ[٣].

﴿مَسْطُورًا﴾: أي: مكتوبًا مبيَّنًا، ومُثبَتًا محفوظًا، وأصلُ (سطر): اصْطِفافُ الشَّيءِ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله سبحانه مبطِلًا بعضَ ما كان متفشِّيًا في المجتمَعِ: ما خَلَق اللهُ لرجُلٍ قَلبَينِ في صَدرِه، وما جَعَل أزواجَكم -أيُّها الرِّجالُ- اللَّاتي تُظاهِرونَ مِنهُنَّ بقَولِ أحَدِكم لامرأتِه: أنتِ عليَّ كظَهرِ أمِّي؛ ما جعَلَهنَّ أمَّهاتٍ لكم! وما جَعل

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧، ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٦).

اللهُ مَن تَتبنَّونَهم أبناءً لكم في الحقيقةِ، بحيثُ تجري عليهم أحكامُ الأبناءِ مِن الصُّلبِ، ذلكم قَولٌ باطِلٌ تقولونَه بأفواهِكم فحسْبُ، واللهُ تعالى يقولُ الحَقَّ، ويُبيِّنُ لعبادِه الطَّريقَ المُستقيمَ.

ثمَّ يرشِدُهم الله تعالى إلى طريقةِ معاملةِ الابنِ المتبنَّى، فيقولُ: انسُبوا الأدعياءَ المُتبنَّينَ لآبائِهم؛ هو أعدَلُ عند اللهِ، وأصدَقُ قَولًا، فإنْ لم تَعلَموا آباءَهم فهم إخوانُكم في الإسلامِ ومحرَّروكم.

ثمَّ يُبيِّنُ جانبًا مِن مظاهرِ اليُسرِ ورفْعِ الحرَجِ، فيقولُ: وليس عليكم إثمٌ فيما أخطأتُم فيه، ولكِنْ تُؤاخَذونَ بما تَعمَّدَتْه قلوبُكم، وكان اللهُ غفورًا رحيمًا.

ثمَّ يَذكُرُ سبحانه ما يجبُ على المؤمنينَ نحوَ نبيِّهم صلَّى الله عليه وسلَّمَ ونحوَ أزواجِه، وما يجبُ للأقاربِ فيما بيْنَهم، فيقولُ: النَّبيُّ محمَّدٌ أحَقُّ بالمؤمنينَ مِن أنفُسِهم، وأزواجُه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أمَّهاتُ المؤمِنينَ في حُرمةِ نِكاحِهنَّ، ووُجوبِ تَعظيمِهنَّ وإكرامِهنَّ؛ وذَوُو القَراباتِ أَولى بالتَّوارُثِ فيما بيْنَهم في كتابِ اللهِ مِنَ الأنصارِ والمُهاجِرينَ، إلَّا أنْ تُحسِنوا إلى أوليائِكم بالصِّلةِ والمعروفِ والوصيَّةِ، كان ذلك مكتوبًا في اللَّوحِ المحفوظِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

وجْهُ نَظمِ هذهِ الآيةِ بما قبْلَها: أنَّه تعالى لَمَّا أمَرَ بالتَّقْوى، كان مِن حقِّها ألَّا

يكونَ في القلْبِ تَقوى غيرِ اللهِ؛ فإنَّ المرْءَ ليس له قَلبانِ يتَّقي بأحدِهما اللهَ، وبالآخَرِ غيرَه، وهو لا يَتَّقي غيرَه إلَّا بصَرْفِ القلْبِ عن جِهةِ اللهِ إلى غيرِه، ولا يَليقُ ذلك بمَن يَتَّقي اللهَ حقَّ تُقاتِه[1].

وأيضًا بعدَ أنْ أمرَ سُبحانَه نبيَّه بتَقْواه، والخَوفِ منه، وحذَّرَه مِن طاعةِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ، والخَوفِ منهم- ضرَبَ لنا الأمثالَ؛ ليُبَيِّنَ أنَّه لا يجتَمِعُ خَوفٌ مِن اللهِ وخَوفٌ مِن سِواه، فذكَرَ أنَّه ليس للإنسانِ قَلْبانِ حتَّى يُطيعَ بأحَدِهما، ويَعصيَ بالآخَرِ، فمتى اتَّجَه لأحدِ الشَّيئَينِ صُدَّ عن الآخَرِ، وأنَّه لا تجتَمِعُ الزَّوجيَّةُ والأُمومةُ في امرأةٍ، والبُنُوَّةُ الحقيقيَّةُ والتَّبنِّي في إنسانٍ[2].

﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾.

أي: ما خَلَق اللهُ لأيِّ رَجُلٍ قَلبَينِ في صَدرِه؛ فيَعقِلَ بهما[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٢٦).

قال الشوكاني: (ذَكَر سبحانَه مَثَلًا توطئةً وتمهيدًا لِما يَتَعَقَّبُه مِن الأحكامِ القرآنيَّةِ، الَّتي هي مِن الوحيِ الَّذي أمَره الله باتِّباعِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((حاشية الخفاجي على البيضاوي)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣-٣٦).

قال الزمخشري: (ما جمَعَ اللهُ قلبينِ في جوفٍ، ولا زوجيَّةً وأُمومةً في امرأةٍ، ولا بُنُوَّةً ودِعْوةً في رَجُلٍ. والمعنى: أنَّ اللهَ سبحانَه كما لم يَرَ في حِكمتِه أنْ يجعَلَ للإنسانِ قلبينِ؛ لأنَّه لا يخلو إمَّا أن يفعَلَ بأحَدِهما مِثلَ ما يَفعَلُ بالآخَرِ مِن أفعالِ القُلوبِ، فأحدُهما فَضلةٌ غيرُ مُحتاجٍ إليها، وإمَّا أن يَفعلَ بهذا غيرَ ما يَفعلُ بذاك، فذلك يؤدِّي إلى اتِّصافِ الجُملةِ بكَونِه مُريدًا كارِهًا، عالِمًا ظانًّا، موقِنًا شاكًّا في حالةٍ واحدةٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٠).

وقال ابنُ عطية: (يظهَرُ مِن الآيةِ أنَّها بجُملتِها نفْيٌ لأشياءَ كانت العربُ تعتَقِدُها في ذلك =

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

أي: وما جَعل اللهُ زوجاتِكم -أيُّها الرِّجالُ- اللَّاتي تقولونَ لهُنَّ: أنتُنَّ علينا كظُهورِ أمَّهاتِنا، فتُحَرِّمونَ بذلك نِساءَكم على أنفُسِكم حُرمةً مُؤبَّدةً، ما جَعَلهنَّ أمَّهاتٍ لكم في الحقيقةِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢].

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾.

أي: وما جَعَل اللهُ مَن تَتبنَّونَهم أبناءً لكم في الحقيقةِ، بحيثُ يَحِلُّ لهم إرثُكم، وتَحرُمُ عليكم زَوجاتُهم، وغير ذلك من الأحكامِ؛ فهم أبناءُ غَيرِكم وإنِ ادَّعيتُم نِسْبتَهم إليكم[2].

---

= الوقتِ، وإعلامٌ بحقيقةِ الأمرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٧١))، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧، ٣٨).

قال الواحدي: (هو أن يقولَ لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي، وكانت العربُ تُطلِّقُ نساءَها في الجاهليَّةِ بهذا اللَّفظِ، فلمَّا جاء الإسلامُ نُهُوا عنه، وأُوجِبَت الكفَّارةُ على مَن ظاهرَ مِن امرأتِه). ((الوسيط)) (٣/ ٤٥٨).

وقال السعدي: (أمُّك مَن ولدَتْك وصارت أعظَمَ النِّساءِ عليك حُرمةً وتحريمًا، وزَوجتُك أحَلُّ النِّساءِ لك، فكيف تُشَبِّهُ أحدَ المُتناقِضَينِ بالآخَرِ؟! هذا أمرٌ لا يجوزُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨، ٣٩). =

﴿ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ﴾.

أي: ذلِكم[١] قَولٌ باطِلٌ تَقولونَه فحَسْبُ، ولا حقيقةَ له في الوُجودِ[٢].

﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾.

أي: واللهُ يَقولُ الصِّدقَ والعَدلَ والقَولَ الثَّابِتَ الَّذي يُوافِقُ ظاهِرُه باطِنَه، ومِن ذلك: أمْرُه لكم بدَعوةِ أبناءِ النَّاسِ إلى آبائِهم، وتَرْكِ تبَنِّيهم، ولا يقولُ اللهُ الكَذِبَ والباطِلَ؛ فصَدِّقوا قَولَه، واتَّبِعوا شَرْعَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء: ١٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلۡحَقُّ أَقُولُ﴾ [ص: ٨٤].

﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾.

---

= قال القرطبي: (أجمَع أهلُ التَّفسيرِ على أنَّ هذا نزلَ في زَيدِ بنِ حارِثةَ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١١٨).

(١) قيل: الإشارةُ بقَولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ تعودُ إلى ما تقدَّم مِن ذِكرِ الظِّهارِ، وادِّعاءِ البُنُوَّةِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠١).

وقيل: الإشارةُ إلى ادِّعاءِ البُنُوَّةِ. وممَّن قال بذلك: الواحديُّ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٤، ٢٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٤١، ٤٤).

أي: واللهُ يُبيِّنُ لعبادِه طَريقَ الحَقِّ، ويَدُلُّهم عليه[١].

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء: ١٧٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النور: ٤٦].

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥﴾.

﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾.

أي: انْسُبوا الأدعِياءَ المُتَبَنَّينَ لآبائِهم الَّذين ولَدوهم[٢].

عن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: (ما كُنَّا ندعو زَيْدَ بنَ حارِثَةَ إلَّا زيدَ ابنَ مُحمَّدٍ، حتَّى نزَل في القُرآنِ: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾)[٣].

﴿هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

قال ابنُ كثير: (هذا أمرٌ ناسِخٌ لِما كان في ابتداءِ الإسلامِ مِن جوازِ ادِّعاءِ الأبناءِ الأجانِبِ، وهم الأدْعياءُ؛ فأمَرَ اللهُ تعالى بِرَدِّ نَسَبِهم إلى آبائِهم في الحَقيقةِ، وأنَّ هذا هو العَدلُ والقِسطُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٧).

(٣) رواه البخاري (٤٧٨٢)، ومسلم (٢٤٢٥) واللفظ له.

أي: نِسْبَتُكم الأبناءَ لآبائِهم أعدَلُ عندَ اللهِ، وأصدَقُ وأصوَبُ قَولًا وحُكمًا مِن نِسبَتِكم لهم إلى الَّذين تَبنَّوهم[1].

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾.

أي: فإنْ لم تَعلَموا -أيُّها المُسلِمونَ- آباءَ الأدعياءِ لِتَنسُبوهم إليهم، فهم إخوانُكم في الإسلامِ إن كانوا مُسلِمينَ، ومحرَّروكم[2]؛ فقُولوا عِوَضًا عمَّا فاتَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المولَى: هو المحرَّرُ المعتَقُ، فسَبَبُ الولاءِ هو الإنعامُ بالإعتاقِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن تيميَّة، والخازن، والفيروزابادي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٠٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٠٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٦٩٨).

وقيل: المرادُ: الموالاةُ في الدِّينِ. وممَّن قال بذلك: الرسعني، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، والعليمي، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

وقيل: المرادُ بمواليكم: أرقَّاؤُكم مع بقاءِ الرِّقِّ أو مع العِتقِ؛ على كِلْتا الحالتَينِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٨٨).

وقال ابن عاشور: (والمرادُ بالولاءِ في قولِه: ﴿وَمَوَٰلِيكُمْ﴾ وَلاءُ المُحالَفةِ، لا ولاءُ العِتقِ، فالمُحالَفةُ مِثلُ الأُخوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٣).

وقيل: المرادُ: بنو عمِّكُم. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، ومكِّي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٤٩).

مِنَ النَّسَبِ: أخي ومَوْلاي، ولا تقولوا: ابنُ فُلانٍ[١].

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: (أنَّ أبا حُذَيفةَ بنَ عُتبةَ بنِ رَبيعةَ بنِ عَبدِ شَمسٍ -وكان ممَّن شَهِدَ بدرًا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- تبنَّى سالِمًا، وأنكَحَه بنتَ أخيه هندَ بنتَ الوليدِ بنِ عُتبةَ بنِ رَبيعةَ، وهو مَولًى لامرأةٍ مِن الأنصارِ، كما تبنَّى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم زَيدًا، وكان مَن تبنَّى رَجُلًا في الجاهليَّةِ دعاه النَّاسُ إليه، ووَرِثَ مِن ميراثِه، حتَّى أنزلَ اللهُ: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾، إلى قَولِه: ﴿وَمَوَٰلِيكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٥]، فرُدُّوا إلى آبائِهم، فمَن لم يُعلَمْ له أبٌ، كان مَوْلًى وأخًا في الدِّينِ)[٢].

﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ﴾.

أي: وليس عليكم إثمٌ في شَيءٍ أخطَأْتُم فيه بلا قَصدٍ منكم للخَطَأِ، كأن تَنسُبوا إنسانًا لغَيرِ أبيه؛ جَهلًا، أو على سَبيلِ النِّسيانِ، أو سَبقِ اللِّسانِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٥٠، ٥٢).

قال ابن عطية: (وقالت فِرقةٌ: خطؤهم فيما كان سلَفَ مِن قَولِهم ذلك. وهذا ضعيفٌ؛ لا يتصفُ ذلك بخطأٍ إلَّا بعدَ النَّهيِ، وإنَّما الخطأُ هنا بمعنَى النِّسيانِ، وما كان مُقابِلَ العَمدِ)). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٦٩).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((أنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعَلْتُ))[١].

وعن عَمرِو بنِ العاصِ وأبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا حَكَم الحاكِمُ فاجتَهَد ثمَّ أصاب فله أجْرانِ، وإذا حَكَم فاجتهَدَ ثمَّ أخطأَ فله أجرٌ))[٢].

﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

أي: ولكِنْ يؤاخِذُكم اللهُ بما تتعَمَّدونَه بقُلوبِكم، كأن تَنسُبوا إنسانًا إلى غيرِ أبيه، وأنتم تَعلَمونَ أنَّه ليس كذلك[٣].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ وأبي بَكْرةَ الثَّقَفيِّ رَضِيَ الله عنهما، كِلاهما يقولُ: سَمِعَتْه أُذُناي، ووعاه قلبي مُحمَّدًا[٤] صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((مَنِ ادَّعى إلى غيرِ أبيه وهو يَعلَمُ أنَّه غَيرُ أبيه؛ فالجنَّةُ عليه حَرامٌ))[٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((إنَّ اللهَ تجاوَزَ لأُمَّتي ما حَدَّثَت به أنفُسَها،

---

(١) رواه مسلم (١٢٦).

(٢) رواه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣، ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨).

(٤) نصَب (محمَّدًا) على البدلِ مِن الضميرِ في (سمِعَتْه). يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٥٣).

(٥) رواه البخاري (٤٣٢٦)، ومسلمٌ (٦٣) واللَّفظُ له.

ما لم يتكَلَّموا أو يَعمَلوا به))[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: واللهُ هو المتَّصِفُ بالمَغفرةِ؛ فيَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، وهو المتَّصِفُ بالرَّحمةِ؛ ومِن رَحمتِه بعبادِه أنْ بيَّنَ لهم أحكامَ دينِه، وشرَعَ لهم ما يُصلِحُهم، ومِن ذلك رَفْعُ المؤاخَذةِ عن فِعلِ الخَطَأِ[٢].

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أن أبان سُبحانَه فيما سَلَف: أنَّ الدَّعِيَّ ليس ابنًا لِمَن تَبنَّاه، فمُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس أبًا لزَيدِ بنِ حارِثةَ، ثمَّ أعقَبَ ذلك بالإرشادِ إلى أنَّ المؤمِنَ أخو المؤمِنِ فى الدِّينِ، فلا مانعَ أن يقولَ إنسانٌ لآخَرَ: أنت أخي فى الدِّينِ- أردَف ذلك بيانَ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس أبًا لواحدٍ مِن أُمَّتِه، بل أُبُوَّتُه عامَّةٌ، وأزواجُه أمَّهاتُهم، وأُبُوَّتُه أشرَفُ مِن أُبُوَّةِ النَّسَبِ[٣].

وأيضًا لَمَّا نهَى سُبحانَه عن التَّبَنِّي، وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم قد تبنَّى زيدَ بنَ حارِثةَ مَولاه لَمَّا اختاره على أبيه وأمِّه؛ علَّل سُبحانَه النَّهْيَ فيه

---

(١) رواه البخاري (٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٢٩).

بالخُصوصِ[١].

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾.

أي: النَّبيُّ محمَّدٌ أحَقُّ بالمؤمِنينَ مِن أنفُسِهم؛ فيَجِبُ عليهم تقديمُ طاعتِه، وقَبولُ حُكمِه، واتِّباعُ هَدْيِه، وتقديمُ محَبَّتِه على محبَّةِ أنفُسِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ما مِن مُؤمِنٍ إلَّا وأنا أَولى به في الدُّنيا والآخِرةِ؛ اقرَؤوا إن شِئتُم: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾، فأيُّما مُؤمِنٍ مات وترَكَ مالًا فلْيَرِثْه عَصَبتُه[٣] مَن كانوا، ومَن تَرَكَ دَيْنًا أو ضَياعًا[٤] فلْيَأتِني؛ فأنا مَولاه))[٥].

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى أكونَ أحَبَّ إليه مِن والِدِه وولَدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤، ١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٣) العَصَبةُ عندَ أهلِ الفرائضِ: اسمٌ لِمَن يَرِثُ جميعَ المالِ إذا انفرَد، والفاضلَ بعدَ فرضِ ذَوي السِّهامِ. وقيل: العَصَبةُ: قَرابةُ الرَّجُلِ لأبيه، سُمُّوا بذلك مِن قولِهم: عَصَبَ القَومُ بفُلانٍ، أي: أحاطوا به، وهم كلُّ مَن يَلتقي مع الميتِ في أبٍ أو جدٍّ، ويَكونون مَعلومينَ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٢/ ٢٣٥).

(٤) ضَياعًا: أي عيالًا محتاجينَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٢٢٢).

(٥) رواه البخاري (٢٣٩٩) واللفظ له، ومسلم (١٦١٩).

(٦) رواه البخاري (١٥) واللفظ له، ومسلم (٤٤).

وعن عبدِ اللهِ بنِ هِشامٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو آخِذٌ بيَدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فقال له عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، لَأنتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن كُلِّ شَيءٍ إلَّا مِن نَفْسي، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: لا والَّذي نفْسي بيَدِه حتَّى أكونَ أحَبَّ إليك مِن نَفْسِك. فقال له عُمَرُ: فإنَّه الآنَ واللهِ لَأنتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسي. فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: الآنَ يا عُمَرُ!))[1].

﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾.

أي: وأزواجُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم هُنَّ أمَّهاتُ المُؤمِنينَ في حُرمةِ نِكاحِهنَّ، ووُجوبِ تعظيمِهنَّ وإكرامِهنَّ[2].

﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾.

أي: وذَوُو القَراباتِ أولَى بالتَّوارُثِ[3] .....

---

(١) رواه البخاري (٦٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩).

قال الواحدي: (قال جميعُ المفسِّرينَ: أي: في حُرمةِ نكاحِهنَّ؛ فلا يحِلُّ لأحدٍ التَّزوُّجُ بواحدةٍ منهنَّ، كما لا يحِلُّ التَّزوُّجُ بالأمِّ، وهذه الأمومةُ تعودُ إلى حُرمةِ نكاحِهنَّ لا غيرُ؛ لأنَّه لم يَثبُتْ شَيءٌ مِن أحكامِ الأُمومةِ بيْنَ المؤمِنينَ وبينهنَّ سِوى هذه الواحِدةِ). ((البسيط)) (١٨/ ١٧٦).

وقال ابن تيميَّةَ: (أجمَع المسلِمونَ على تحريمِ نِكاحِ هؤلاء بعدَ مَوتِه على غيرِه، وعلى وُجوبِ احترامِهنَّ؛ فهُنَّ أمَّهاتُ المؤمِنينَ في الحُرمةِ والتَّحريمِ، ولَسْنَ أمَّهاتِ المؤمِنينَ في المَحْرَميَّةِ؛ فلا يجوزُ لغيرِ أقاربِهنَّ الخَلْوةُ بهنَّ، ولا السَّفَرُ بهنَّ، كما يخلو الرَّجُلُ ويُسافِرُ بذَواتِ مَحارِمِه). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٣٦٩).

(٣) قال ابنُ كثير: (وهذه ناسِخةٌ لِما كان قَبْلَها مِنَ التَّوارُثِ بالحِلْفِ والمؤاخاةِ الَّتي كانت بيْنَهم، كما قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: كان المُهاجِريُّ يَرِثُ الأنصاريَّ دونَ قراباتِه وذوي رَحِمِه؛ للأُخُوَّةِ الَّتي آخَى بيْنَهما رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. وكذا قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وغيرُ واحدٍ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨١). =

فيما بيْنَهم في كتابِ اللهِ[١] مِنَ الأنصارِ والمهاجِرينَ الَّذين كانوا في أوَّلِ الإسلامِ يَتوارَثونَ فيما بيْنَهم؛ بسَبَبِ حَقِّ الأُخوَّةِ الإيمانيَّةِ والهِجرةِ، وإنْ لم يكُنْ بيْنَهم رَحِمٌ[٢].

﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾.

أي: لكِنْ لكم -أيُّها المهاجِرونَ والأنصارُ- أن تُحسِنوا إلى أوليائِكم[٣] ممَّن

---

= وممَّن قال بأنَّ المعنى: أُولو الأرحامِ بَعضُهم أَولى ببعضٍ مِنَ المهاجِرينَ والأنصارِ في الإرثِ: ابنُ جرير، والزمخشري، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩).

وقيل: هم أَولى منهم في جميعِ المنافِعِ العامَّةِ للدَّعوةِ والإرثِ والنُّصرةِ والصِّلةِ، وليس في الإرثِ فحَسْبُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

قيل: المرادُ بكتابِ اللهِ هنا: حُكمُه وقَضاؤه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٠).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ به القرآنُ؛ إشارةً إلى ما تضَمَّنَتْه آيةُ المواريثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٠).

ورجَّح ابنُ عثيمين أنَّ كتابَه هنا بمعنى مكتوبِه، والمرادُ به إمَّا أن يكونَ اللَّوحَ المحفوظَ، وإمَّا أن يكونَ القُرآنَ الكريمَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الاحزاب)) (ص: ٦٦، ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٠، ٢٧١).

(٣) قال ابن جُزَي: (واختُلِف هل يعني بالأولياءِ المؤمنينَ خاصَّةً، أو المؤمنينَ والكافرينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الأولياءُ في الدِّينِ: ابنُ جريرٍ، والزمخشري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤).

وممَّن اختار أنَّه يشملُ القريبَ مِن المشركينَ: الثعلبيُّ، ومكِّي، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير =

سِوَى أقارِبِكم، بالوصِيَّةِ[١] والنُّصرةِ والصِّلةِ، وغيرِ ذلك مِن المعروفِ، قليلًا كان أو كثيرًا[٢].

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾.

أي: إنَّ توارُثَ أُولي الأرحامِ بَعضِهم مِن بَعضٍ: مكتوبٌ في اللَّوحِ المَحفوظِ؛ فلا بُدَّ مِن تَشريعِه ونَسخِ ما كان في أوَّلِ الإسلامِ مِنَ التَّوارُثِ بالأُخوَّةِ الإيمانيَّةِ والهِجرةِ[٣].

---

= الثعلبي)) (٨/ ٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٠).

(١) بما لا يَزيدُ على الثُّلثِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٢).

وقيل: معنى المعروفِ هنا: الوصيَّةُ. وممَّن قال بذلك: الواحدي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، والرازي، والعليمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٤٢).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿مَّعْرُوفًا﴾: الإحسانُ والنَّفعُ والصِّلةُ في الحياةِ، والوصيَّةُ عندَ الموتِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن عطية، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٢).

وعلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَوْلِيَآئِكُم﴾ يدخُلُ فيه الكفارُ، فلَو أوصَى لهم جازَ، وإن كانوا لا يَرِثونَ المسلمينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٢).

وممَّن قال بأنَّ الكتابَ هنا هو اللَّوحُ المحفوظُ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٦٨). =

## الفَوائدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ اتِّباعَ ما أنزَل الله خيرٌ مِن الأخذِ بقولِ الغيرِ[١]، وأنَّه يَجِبُ على المرءِ أنْ يَلجأَ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ في سؤالِه الهِدايةَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ وُجوبُ تقديمِ محبَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على النَّفْسِ؛ فهو أَولى بك مِن نفْسِك، ووُجوبُ طاعةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وتقديمِها على طاعةِ النَّفْسِ[٣]. فقَولُه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: في كُلِّ شَيءٍ مِن أمورِ الدِّينِ والدُّنيا ﴿مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾، ولهذا أطلَقَ ولم يُقَيِّدْ؛ فيَجِبُ عليهم أن يكونَ أَحَبَّ إليهم مِن أنفُسِهم، وحُكمُه أنفَذَ عليهم مِن حُكمِها، وحَقُّه آثَرَ لَدَيْهم من حُقوقِها، وشَفَقتُهم عليه أقدَمَ مِن شفَقَتِهم عليها، وأن يَبذُلوها دونَه، ويَجعَلوها فِداءَه إذا أعضَلَ خَطْبٌ، ووِقاءَه إذا لَقِحَت حَربٌ[٤]، وألَّا يتَّبِعوا ما تَدْعوهم إليه نفوسُهم، ولا ما تَصرِفُهم عنه، ويتَّبِعوا كُلَّ ما دعاهم إليه رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصَرَفهم عنه؛ لأنَّ كلَّ ما دعا إليه فهو إرشادٌ لهم إلى نَيلِ النَّجاةِ، والظَّفَرِ بسَعادةِ الدَّارَينِ، وما صرَفَهم عنه فآخِذٌ بحُجَزِهم لئَلَّا يَتهافَتوا فيما يَرمي بهم إلى الشَّقاوةِ وعذابِ النَّارِ[٥]،

---

= وقيل: المرادُ به القرآنُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٩٢، ٢٩٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٧٦).

قال البقاعي: (﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: الحُكمُ العظيمُ ﴿فِي ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: القرآنِ في آخرِ سورةِ الأنفالِ ﴿مَسۡطُورٗا﴾ بعبارةٍ تَعُمُّه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٩).

(٤) أي: هاجَتْ بعدَ سكونٍ. يُنظر: ((كتاب الأفعال)) لابن القطاع (٣/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٣).

فلا نجاةَ لأحدٍ مِن عذابِ الله، ولا وُصولَ له إلى رحمةِ الله إلَّا بواسِطةِ الرَّسولِ: بالإيمانِ به، ومحبَّتِه ومُوالاتِه واتِّباعِه. وهو الَّذي يُنجِّيه الله به مِن عذابِ الدُّنيا والآخرةِ، وهو الَّذي يوصِلُه إلى خيرِ الدُّنيا والآخرةِ. وهو أنصحُ وأنفعُ لكلِّ أحدٍ مِن نفْسِه ومالِه؛ فإنَّه الَّذي يُخرِجُ الله به مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، لا طريقَ له إلَّا هو، وأمَّا نفْسُه وأهلُه فلا يُغْنون عنه مِن الله شيئًا[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ مَن لم يَكُنِ الرَّسولُ أَولى به مِن نفْسِه فليس مِن المؤمِنينَ، وهذه الأولويَّةُ تتضَمَّنُ أمورًا:

منها: أنْ يكونَ أحَبَّ إلى العبدِ مِن نفْسِه؛ لأنَّ الأولَويَّةَ أصلُها الحُبُّ، ونَفْسُ العبدِ أحَبُّ له مِن غَيرِه، ومع هذا يجبُ أنْ يكونَ الرَّسولُ أَولى به منها، وأحَبَّ إليه منها؛ فبذلك يحصُلُ له اسمُ الإيمانِ، ويَلزَمُ مِن هذه الأولويَّةِ والمحبَّةِ كمالُ الانقيادِ والطَّاعةِ والرِّضا والتَّسليمِ، وسائرُ لوازمِ المحبَّةِ مِن الرِّضا بحُكمِه، والتَّسليمِ لأمرِه، وإيثارِه على ما سِواه.

ومنها: ألَّا يكونَ للعبدِ حُكمٌ على نَفْسِه أصلًا، بلِ الحُكمُ على نفْسِه للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، يَحكُمُ عليها أعظَمَ مِن حُكمِ السَّيِّدِ على عَبدِه، أو الوالِدِ على ولَدِه؛ فليس له في نفْسِه تَصَرُّفٌ قَطُّ إلَّا ما تَصَرَّفَ فيه الرَّسولُ الَّذي هو أَولى به منها[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦ﴾ فيه سؤالٌ: وهو

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التَّبوكيَّة)) لابن القيم (ص: ٢٩).

أنَّه يدُلُّ بفحوى خِطابه[١] أنَّه لم يجعَلْ لامرأةٍ مِن قلبَينِ في جَوفِها، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يُوهِمُ ظاهِرُها خِلافَ ذلك، وهي قَولُه تعالى في حَفصةَ وعائِشةَ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، فقد جمَعَ القلوبَ لهما رَضِيَ الله عنهما!

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّ المُثَنَّى إذا أُضيفَ إليه شيئانِ هما جُزآه، جاز في ذلك المُضافِ الَّذي هو شيئانِ الجَمعُ والتَّثنيةُ والإفرادُ، وأفصَحُها الجَمعُ، فالإفرادُ، فالتَّثنيةُ على الأصَحِّ، سواءٌ كانت الإضافةُ لفظًا أو معنًى؛ فاللَّفظُ مِثالُه: (شويت رُؤوسَ الكَبشَينِ أو رأسَهما أو رأسَيْهما). فإنْ فُرِّق المثنَّى، فالمختارُ الإفرادُ، نحوَ قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨]، وإن كان الاثنانِ المُضافانِ مُنفصِلَينِ عن المثنَّى المضافِ إليه، أي: كانا غيرَ جُزأَيه، فالقياسُ الجَمعُ، وِفاقًا للفَرَّاءِ، وفي الحديثِ: ((ما أخرَجَكما مِن بُيُوتِكما))[٢]، و: ((إذا أوَيْتُما إلى فِراشِكما، أو أخَذْتُما مَضاجِعَكما))[٣]. واعلَمْ أنَّ الضَّمائِرَ الرَّاجِعةَ إلى هذا المضافِ يجوزُ فيهما الجَمعُ نظرًا إلى اللَّفظِ، والتثنيةُ نظرًا إلى المعنى.

**الوجهُ الثَّاني:** هو أنَّ أقلَّ الجَمعِ اثنانِ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ﴾ [النساء: ١١]، أي: أخَوانِ فصاعِدًا[٤].

---

(١) فَحْوى الخِطابِ -ويُسَمَّى تنبيهَ الخِطابِ، ومَفهومَ الموافَقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأوْلَى. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣١٨) واللفظ له، ومسلم (٢٧٢٧) من حديث عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٥، ١٨٦).

٢- قال الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ القَلبُ ليس له إلَّا وجهةٌ واحِدةٌ، إذا مال بها إلى جِهةٍ لم يَمِلْ إلى غَيرِها، وليس للعَبدِ قلبانِ يُطيعُ اللهَ ويتَّبِعُ أمْرَه ويَتوكَّلُ عليه بأحَدِهما، والآخَرُ لِغَيرِه، بل ليس إلَّا قَلبٌ واحِدٌ، فإنْ لم يُفرِدْ بالتوكُّلِ والمحبَّةِ والتَّقوى ربَّه وإلَّا انصرَفَ ذلك إلى غَيرِه(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ... ﴾ مُقَدِّمةٌ لِما أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم باتِّباعِه مِمَّا يُوحى إليه، وهو تَشريعُ الاعتِبارِ بحقائِقِ الأشياءِ ومَعانيها، وأنَّ مَواهيَ (جمعُ ماهيَّةٍ) الأمورِ لا تتغيَّرُ بما يُلصَقُ بها مِنَ الأقوالِ المنافيةِ للحَقائِقِ، وأنَّ تلك المُلصَقاتِ بالحقائِقِ هي الَّتي تَحجُبُ العُقولَ عن التَّفَهُّمِ في الحقائِقِ الحَقِّ، وهي الَّتي تَرينُ على القُلوبِ بتَلبيسِ الأشياءِ.

**وذُكِرَ هنا نوعانِ مِن الحقائِقِ:**

**أحدُهما:** مِن حقائِقِ المُعتَقَداتِ؛ لأجْلِ إقامةِ الشَّريعةِ على العقائِدِ الصَّحيحةِ، ونَبْذِ الحقائِقِ المصنوعةِ المخالِفةِ للواقِعِ؛ لأنَّ إصلاحَ التَّفكيرِ هو مِفتاحُ إصلاحِ العَمَلِ، وهذا ما جعَل تأصيلَه إبطالَ أن يكونَ اللهُ جعَل في خَلقِ بعضِ النَّاسِ نِظامًا لم يجعَلْه في خَلقِ غَيرِهم.

**وثاني النَّوعَينِ:** مِن حقائِقِ الأعمالِ؛ لتقُومَ الشَّريعةُ على اعتبارِ مَواهي الأعمالِ بما هي ثابتةٌ عليه في نفْسِ الأمرِ، لا بالتَّوهُّمِ والادِّعاءِ؛ وهذا يرجِعُ إلى قاعدةِ أنَّ حقائِقَ الأشياءِ ثابتةٌ، وهو ما أُشيرَ إليه بقَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾(٢) [الأحزاب: ٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴾ التَّنبيهُ

---

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٤).

على تحريم الظِّهارِ، فإذا كان اللهُ تعالى لم يجعَلْ ذلك فإنَّه لا يَحِلُّ لنا أنْ نجعَلَ شَيئًا لم يَجعَلْه اللهُ تعالى؛ لأنَّ الأمرَ إلى اللهِ تعالى وحْدَه[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أنه يُكرَهُ للرَّجُلِ أن يُناديَ زوجتَه ويُسَمِّيَها باسمِ مَحارِمِه؛ كقولِه: «يا أُمِّي»، «يا أُختي» ونحوِه؛ لأنَّ ذلك يُشبِهُ المُحَرَّمَ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أنَّ الأبناءَ الأدعياءَ ليسوا بأبناءٍ حَقيقةً ولا شَرعًا[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أنَّه إذا لم يَكُنِ الابنُ الدَّعِيُّ ابنًا لا شرعًا ولا حقيقةً، فإنَّه لا يحتاجُ إلى قَيدٍ يُخرِجُه مِن معنى البُنُوَّةِ؛ لأنه غيرُ داخلٍ فيها أصلًا حتَّى نحتاجَ إلى قَيدٍ نُخرِجُه به، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: بيانُ ضَعفِ قولِ مَن يقولُ: «إنَّ الاحترازَ في قَولِه تعالى: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] عن ابنِ التَّبَنِّي»؛ لأنَّنا نقولُ: إنَّه أصلًا لم يَدخُلْ حتَّى يُحتاجَ إلى قَيدٍ يُخرِجُه[٤]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أنَّ كلامَ اللهِ سُبحانَه وتعالى ليس فيه تناقُضٌ -والتَّناقضُ لا يكونُ إلَّا في الباطلِ-؛ فالحقُّ لا يمكنُ أن يَتناقَضَ[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ أنَّ ما وَصَفَ اللهُ سُبحانَه وتعالى به نفْسَه في كتابِه فهو على حقيقتِه -وليس فيه تحريفٌ أو تأويلٌ-؛ لأنَّه لو كان خِلافَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤).

ظاهرِه لكان ظاهرُه يدُلُّ على باطلٍ! وإذا قُلْنا: إنَّه على خِلافِ الظَّاهرِ لَزِمَ أنْ يكونَ دالًّا على باطلٍ! فإذا قُلْنا: إنَّ المرادَ بآياتِ الصِّفاتِ خِلافُ الظَّاهرِ صار الظَّاهرُ باطلًا -لأنَّه خِلافُ المرادِ- وهذا يُنافي قولَه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾، فهو سُبحانَه وتعالى لا يقولُ إلَّا الحقَّ[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ أنَّ طريقَ الحقِّ واحدٌ؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ وهو مُفْرَدٌ، وهكذا تَجِدُ أنَّ السُّبُلَ تأتي جمعًا فيما يُخالِفُ الحقَّ، قال سُبحانَه وتعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾[2] [الأنعام: ١٥٣].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ يُفهَمُ منه النَّهيُ عن أن يُنسَبَ أحدٌ إلى غيرِ أبيه بطريقِ لحنِ الخِطابِ[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ أنَّ الإنسانَ يُدْعى لأبيه بظاهِرِ فِراشِ أُمِّه، ويَثبُتُ به النَّسَبُ والميراثُ، وتجري به الأحكامُ، وأنَّ اللهَ جَلَّ جَلالُه قد تجاوَزَ عمَّا يُمكِنُ في الباطنِ مِن إحداثِ الأمِّ[4].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ وُجوبُ دَعوةِ الإنسانِ إلى أبيه، يعني: «انْسُبُوهم لآبائِهم» لَفظًا وحقيقةً؛ أمَّا لفظًا فتقولُ: «يا فُلانَ بنَ فُلانٍ»، وأمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٥).

لحنُ الخطابِ: هو إفهامُ الشيءِ مِن غيرِ تصريحٍ، وهذا معناه لغةً، والمرادُ به هنا مفهومُ المخالفةِ، وهو إثباتُ نقيضِ حكمِ المنطوقِ به للمسكوتِ عنه، ويُطلَقُ لحنُ الخطابِ أيضًا على (دلالةِ الاقتضاءِ)، وعلى (مفهومِ الموافقةِ). يُنظر: ((الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدليل)) للباجي (ص: ٢٨٨)، ((نفائس الأصول في شرح المحصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٤١).

حقيقةً بأنْ تعتقِدَ أنَّ البُنُوَّةَ الحقَّ إنَّما هي للأبِ الحقيقيِّ الَّذي وُلِدَ الإنسانُ مِن صُلْبِه، لا للأبِ الَّذي ادَّعى أنَّه أبٌ[١].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ يَخرُجُ مِنَ النَّهيِ قَولُ الرَّجُلِ لآخَرَ: (أنت أبي)، و(أنا ابنُك) على قَصدِ التَّعظيمِ والتَّقريبِ، وذلك عند انتِفاءِ اللَّبسِ[٢].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ يدُلُّ على زَوالِ الحَرَجِ فيما وقَعَ بعدَ النَّهيِ على سَبيلِ النِّسيانِ أو سَبقِ اللِّسانِ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ سَعةُ رَحمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ حيث أسقَطَ الإثمَ عمَّن كان مُخطِئًا[٤].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فيه أنَّ الخطَأَ مَرفوعٌ، ولا إثمَ على المُخطِئِ[٥].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أنَّ مَدارَ الأحكامِ والمؤاخَذةِ عليها هو القَلبُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٨).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٩).

١٩- قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ هذه الآيةُ أزال الله تعالى بها أحكامًا كانت في صدرِ الإسلامِ؛ منها: أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم كان لا يُصلِّي على ميتٍ عليه دَيْنٌ، فلمَّا فتَح الله عليه الفُتوحَ قال: ((أنا أوْلَى بالمؤمنينَ مِن أنفُسِهم، فمَنْ تُوُفِّيَ وعليه دَيْنٌ فعلَيَّ قَضاؤُه، ومَن ترَك مالًا فهو لِوَرثَتِه))[١]. وقال أيضًا ((فأيُّكم ترَك دَيْنًا أو ضَياعًا فأنا مَوْلاه))[٢].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ فيه سؤالٌ: هذا يدُلُّ بدَلالةِ الالتِزام على أنَّه -صلَّى الله عليه وسلَّم- أبٌ لهم؛ لأنَّ أُمومةَ أزواجِه لهم تَستلزِمُ أُبُوَّتَه صلَّى الله عليه وسلَّم لهم، وهذا المدلولُ عليه بدَلالةِ الالتِزامِ مُصرَّحٌ به في قراءةِ أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه؛ لأنَّه يقرؤُها: (وأزواجُه أُمَّهاتُهم وهو أبٌ لهم)[٣]، وهذه القراءةُ مَرويَّةٌ أيضًا عن ابنِ عبَّاس[٤]، وقد جاءت آيةٌ أخرى -وهي قَولُه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٠]- تُصَرِّحُ بخِلافِ هذا المدلولِ عليه بدَلالةِ الالتزامِ والقراءةِ الشَّاذَّةِ المذكورةِ عن أُبَيٍّ وابنِ عبَّاسٍ؟

**الجوابُ**: أنَّ الأبوَّةَ المُثبَتةَ دينيَّةٌ، والأبوَّةَ المَنفيَّةَ طِينيَّةٌ، وبهذا يرتَفعُ الإشكالُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ مع قَولِه: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖ﴾[٥] [الأحزاب:٥٣].

٢١- قال الله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ في هذه الآيةِ أُنزِلْنَ مَنزِلتَهنَّ في

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩٨)، ومسلم (١٦١٩) (١٤) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٨١)، ومسلم (١٦١٩) (١٥) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر ما أخرجه عبد الرزاق في ((تفسيره)) (٢٣١٧).

وأخرجه أيضًا (٢٣١٦) بلفظ: (وهو أبٌ لهم، وأزواجُه أمَّهاتُهم).

(٤) يُنظر ما أخرجه الحاكم في ((المستدرك)) (٣٥٥٦)، والبيهقيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٣٤٢٠).

(٥) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٦).

الحُرمةِ، كما يُقالُ: زَيْدٌ الشَّمسُ، أي: أُنزِلَ في حُسنِه مَنزِلةَ الشَّمسِ، وحاتمٌ البَحرُ، أي: أُنزِلَ في عُمومِ جُودِه بمَنزلةِ البَحرِ؛ كُلُّ ذلك تكرِمةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وحِفظٌ لقَلبِه مِن التَّأذِّي بالغَيرةِ(١).

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ ما قال سُبحانَه: «النَّبيُّ أبٌ للمُؤمِنينَ وأزواجُه أمهاتُهم»، بل قال سُبحانَه وتعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ فأبوك ليس أَولى بكَ مِن نَفْسِك، لكِنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أَولى بك مِن نفْسِك، فهذا أعظَمُ مِن قولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾؛ ومِن أجْلِ هذه الوَلايةِ كانت أزواجُه أمَّهاتٍ لنا مِن قِبَلِهنَّ ومِنْ قِبَلِنا؛ يعني: هُنَّ يَنظُرْنَ إلينا كالنَّظَرِ إلى الأبناءِ، ونحن ننظُرُ إليهنَّ كالنَّظَرِ إلى الأمَّهاتِ(٢).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ أنَّ مَن قال: إنَّ عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها ليست أُمًّا له؛ فليس مِن المؤمِنينَ(٣).

٢٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يَلزَمُ الإنسانَ أن يسألَ أُمَّه مِن وراءِ حِجابٍ ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖ﴾ [الأحزاب: ٥٣]؟

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٦٢).

وأيضًا أراد الله تعالى أنَّ أُمَّةَ نبيِّه يَدْعُون أزواجَه بأشرَفِ ما تُنادى به النِّساءُ، وهو الأمُّ، وأشرَفُ ما يُنادى به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لفظُ (الرَّسولِ) لا الأبِ.

وقيل أيضًا: لأنَّه تعالى لو جعَلَه أبًا للمؤمنينَ، لكان أبًا للمؤمناتِ أيضًا، فيَحرُمْنَ عليه، وقد جعَلَ زوجاتِه كالأمَّهاتِ؛ إجلالًا لِنَبيِّه؛ لئلَّا يَطمَعَ أحدٌ في نِكاحِهنَّ بعْدَه. يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٧، ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٢٢٣).

**الجوابُ**: أنهنَّ أمَّهاتٌ في الحُرمةِ والاحترامِ، والتَّوقيرِ والإكرامِ، لا في الخَلوةِ بهِنَّ، ولا في حُرمةِ بناتِهنَّ ونحوِ ذلك[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ تحريمُ نكاحِ زَوجاتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَه؛ لِكَونِهنَّ أمَّهاتِ المؤمنينَ[٢].

٢٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ فيه سؤالٌ: لو قال قائلٌ: كيف قال: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾، وقال مِن قبْلُ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] إشارةً إلى أنَّ غيرَ مَن وَلَدت لا تصيرُ أمًّا بوَجهٍ؛ ولذلك قال تعالى في موضِعٍ آخَرَ: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢]؟

**الجوابُ**: أنَّ قَولَه تعالى في الآيةِ المتقدِّمةِ: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ جوابٌ عن هذا، ومعناه أنَّ الشَّرعَ مِثلُ الحقيقةِ؛ ولهذا يَرجِعُ العاقِلُ عندَ تعَذُّرِ اعتبارِ الحقيقةِ إلى الشَّريعةِ، كما أنَّ امرأتَينِ إذا ادَّعَت كُلُّ واحدةٍ ولدًا بعَينِه، ولم يكُنْ لهما بيِّنةٌ، وحلَفَت إحداهما دونَ الأخرى؛ حُكِمَ لها بالولَدِ، وإن تبيَّنَ أنَّ الَّتي حلَفَت دونَ البُلوغِ أو بِكْرٌ، ببيِّنةٍ؛ لا يُحكَمُ لها بالولَدِ؛ فعُلِمَ أنَّ عندَ عدَمِ الوُصولِ إلى الحقيقةِ يُرجَعُ إلى الشَّرعِ، لا بل في بَعضِ المواضِعِ على النُّدورِ تَغلِبُ الشَّريعةُ الحقيقةَ! فإنَّ الزَّانيَ لا يُجعَلُ أبًا لولدِ الزِّنا.

إذا ثَبَت هذا فالشَّارِعُ له الحُكمُ؛ فقَولُ القائلِ: (هذه أمِّي) قَولٌ يُفهَمُ لا عن حقيقةٍ، ولا يترتَّبُ عليه حقيقةٌ، وأمَّا قَولُ الشَّارعِ فهو حَقٌّ؛ فله أن يسمِّيَ أيَّ امرأةٍ أمًّا، ويُعطيَها حُكمَ الأمومةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٧).

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ دليلٌ على أنَّ أُمومةَ المؤمِنينَ هي لأزواجِه صلَّى الله عليه وسلَّم دونَ سَرارِيِّه[١].

٢٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ استدَلَّ به مَن قال بتَحريمِ الكافِرةِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو تزوَّجَها كانت أُمًّا للمُؤمِنينَ[٢].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ﴾ أنَّ مَن كان أقرَبَ مِن ذَوِي الأرحامِ فهو أحَقُّ بالإرثِ؛ وجْهُه: أنَّه إذا عُلِّقَ الحُكمُ على وَصفٍ، فكلَّما كان الوصفُ في شَيءٍ أقوى كان الحُكمُ فيه أَولى، فما دام أُولو الأرحامِ أَولى -لأنَّهم ذَوو أرحامٍ- فمَن كانت رحِمُه أقوَى فهو أولَى؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أَلحِقوا الفرائِضَ بأهلِها، فما بَقِيَ فلِأَوْلَى رجُلٍ ذَكَرٍ))[٣].

٣٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ حُجَّةٌ على وِلايةِ ذَوي الأرحامِ في جميعِ الوِلاياتِ؛ كوِلايةِ النِّكاحِ والمالِ وغيرِ ذلك[٤].

٣١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ﴾ استدَلَّ به مَن ورَّث ذَوي الأرحامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٧١).

والحديث أخرجه البخاري (٦٧٣٧) واللفظ له، ومسلم (١٦١٥) من حديث عبد الله بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٠).

وهو مذهب الحنفية. يُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نُجَيم (٨/ ٥٧٧). ويُنظر الخلاف في هذه المسألة في: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣/ ٥٣).

٣٢- الله تعالى إنَّما أثْبَت الولايةَ بيْنَ أُولي الأرحام بشَرطِ الإيمانِ، كما قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾[1].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ جَوازُ الوصيَّةِ لِمَن بينَك وبينَه مُوالاةٌ، وظاهِرُ الآيةِ الإطلاقُ، لكنَّه مُقَيَّدٌ بالنُّصوصِ الدَّالَّةِ على أنَّ الوصيَّةَ لا تَزيدُ على الثُّلُثِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ﴾

- قولُه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ ابتداءَ المُقدِّمةِ للغرَضِ بعدَ التَّمهيدِ له بما قبْلَه، والمقدِّمةُ أخصُّ مِن التَّمهيدِ؛ لأنَّها تَشتمِلُ على ما يُوضِّحُ المقصدَ، بخلافِ التَّمهيدِ. والمَقصودُ: التَّنبيهُ إلى بُطلانِ أُمورٍ كان أهلُ الجاهليَّةِ قد زَعَموها وادَّعَوها. وابتُدِئَ مِن ذلك بما دَليلُ بُطلانِه الحِسُّ والاختبارُ؛ لِيُعلَمَ مِن ذلك أنَّ الَّذين اختَلَقوا مَزاعمَ يَشهَدُ الحِسُّ بكَذِبِها، يَهونُ عليهم اختلاقُ مَزاعمَ فيها شُبَهٌ وتَلبيسٌ للباطلِ في صُورةِ الحقِّ؛ فيُتلقَّى ذلك بالإذعانِ والامتثالِ[3].

- قولُه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ هذا مثَلٌ ضَربَه اللهُ تعالى

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٣، ٢٥٤).

-على قولٍ-بطَريقةِ قِياسِ التَّمثيل[١]؛ تَمهيدًا لِمَا يَعقُبُه مِن قولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾، وتَنبيهٌ على أنَّ كَوْنَ المُظاهَرِ منها أُمًّا، وكَوْنَ الدَّعِيِّ ابنًا -أي: بمَنزلةِ الأُمِّ والابنِ في الآثارِ والأحكامِ المعهودةِ فيما بيْنَهم- في الاستِحالةِ بمَنزلةِ اجتماعِ قَلبينِ في جَوفٍ واحدٍ[٢].

- قولُه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ التَّنكيرُ في (رَجُلٍ)، وإدخالُ (مِن) الاستِغراقيَّةِ على ﴿قَلْبَيْنِ﴾؛ تَأكيدانِ لِمَا قُصِدَ مِن المعنى، ووُقوعُ فِعلِ ﴿جَعَلَ﴾ في سِياقِ النَّفيِ يَقْتضي العُمومَ، كأنَّه قال: ما جعَلَ اللهُ لأُمَّةِ الرِّجالِ ولا لواحدٍ منهم قَلبينِ الْبتَّةَ في جَوفِه[٣].

- وتخصيصُ الرَّجُلِ بالذِّكرِ؛ لكَمالِ لوازمِ الحياةِ فيه، فإذا لم يكُنْ ذلك له فكيف بغيرِه مِنَ الإناثِ[٤]؟! فعبَّرَ بالرَّجُلِ؛ لأنَّه أقوى جِسمًا وفَهمًا، فيُفهَمُ غَيرُه مِن بابِ الأَولى[٥].

- وفائدةُ ذِكرِ الجَوفِ -وإنْ كان المعلومُ أنَّ القلبَ لا يكونُ إلَّا في الجوفِ- زِيادةُ تَصويرِ المدلولِ عليه؛ لأنَّه إذا سمِعَ به صَوَّرَ لِنفْسِه جَوفًا يَشتمِلُ على

---

(١) قياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشتَرَكَ الكُلِّيَّ، مثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ (إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما). يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٨٣).

قلبينِ، فكان أسرَعَ إلى الإنكارِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ تَمهيدٌ ثانٍ لِتَشريعِ إبطالِ التَّبنِّي بشَبهِ أنَّ كِلَيهما تَرتيبُ آثارٍ تَرتيبًا مَصنوعًا باليَدِ، غيرُ مَبنيٍّ على جَعلٍ إلهيٍّ، إلَّا أنَّ هذا التَّمهيدَ الثَّانيَ أقرَبُ إلى المقصودِ؛ لأنَّه مِن الأحكامِ التَّشريعيةِ[٢].

- والمُرادُ بالجَعلِ المَنفيِّ في قولِه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ الجَعلُ الخِلْقيُّ، وذلك كِنايةٌ عن انتفاءِ الأثرِ الشَّرعيِّ الَّذي هو مِن آثارِ الجَعلِ الخِلْقيِّ؛ لأنَّ الإسلامَ هو الفِطرةُ الَّتي فطَرَ اللهُ النَّاسَ عليها، قال تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾[٣] [المجادلة: ٢].

- وعُدِّيَ الفعلُ بـ (مِن) في قولِه: ﴿تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ﴾؛ لِأَنَّ الظِّهارَ كان طلاقًا في الجاهليَّةِ، فيتجَنَّبونَ المُظاهَرَ منها، كما يَتجنَّبونَ المطَلَّقَةَ، والمعنَى: أنَّه تباعَدَ منها بجِهةِ الظِّهارِ وغيرِه، أي مِن امرأتِه، فلَمَّا ضُمِّنَ معنَى التَّباعُدِ، عُدِّيَ بـ (مِن)[٤].

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ هذا هو المقصودُ الَّذي وُطِّئَ بالآيتَينِ قبْلَه؛ ولذلك أُسهِبَ الكلامُ بعْدَه بتَفاصيلِ التَّشريعِ فيه. وعُطِفَت هاتِه الجُملةُ على اللَّتينِ قبْلَها؛ لاشتراكِ ثلاثتِها في أنَّها نفَتْ مَزاعمَ لا حقائقَ لها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٨).

- إذا تَقرَّرَ أنَّ المزاعمَ الثَّلاثةَ -﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾- لا تَعْدو أنْ تكونَ ألفاظًا ساذَجةً لا تَحقُّقُ لِمَدلولاتِها في الخارجِ، اقْتَضى ذلك انتفاءَ الأمْرينِ اللَّذَينِ جُعِلَا تَوطئةً وتَمهيدًا للمَقصودِ، وانتفاءَ الأمْرِ الثَّالثِ المقصودِ، وهو التَّبنِّي؛ فاشتَرَكَ التَّمهيدُ والمقصودُ في انتفاءِ الحقِّيَّةِ، وهو أتمُّ في التَّسويةِ بيْن المقصودِ والتَّمهيدِ؛ وهذا كلُّه زِيادةُ تَحريضٍ على تَلقِّي أمْرِ اللهِ بالقَبولِ والامتِثالِ، ونَبْذِ ما خالَفَه[1].

- قولُه: ﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ استئنافٌ اعتراضيٌّ بيْنَ التَّمهيدِ والمَقصودِ مِن التَّشريعِ، وهو فَذْلَكةٌ[2] للجُمَلِ الثَّلاثِ الَّتي نفَتْ جَعْلَهم ما ليس بواقعٍ واقعًا، ولذلك فُصِلَت الجُملةُ؛ لأنَّها تَتنزَّلُ مَنزلةَ البَيانِ بالتَّحصيلِ لِمَا قبْلَها[3].

- وذِكرُ ﴿ بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ مع العِلمِ به؛ إشارةٌ إلى أنَّه قولٌ لا تَتجاوزُ دَلالتُه الأفواهَ إلى الواقعِ ونفْسِ الأمْرِ، فليس له مِن أنواعِ الوجودِ إلَّا الوُجودُ في اللِّسانِ، والوُجودُ في الأذهانِ، دونَ الوُجودِ في العِيانِ، وزادَه تَصريحًا بقولِه: ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾؛ فأومَأَ إلى أنَّ قولَهم ذلك قولٌ كاذبٌ، ولهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٢) الفَذْلَكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلِمةٌ منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، كقولِه تعالى: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ بعدَ قولِه: ﴿ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٥٩).

عُطِفَت عليه جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾؛ لأنَّه داخلٌ في الفَذْلَكةِ لِمَا تقدَّمَ مِن قولِه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ﴾ إلخ(١).

- وقيل: قولُه: ﴿قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡ﴾ فيه لَطيفةٌ؛ وهو أنَّ الكلامَ الَّذي بالفَمِ فحسْبُ يُشبِهُ صوتَ البهائمِ الَّذي يُوجَدُ لا عن قلْبٍ(٢).

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ في الإخبارِ عن اسمِ الجَلالةِ وضَميرِه بالمُسندَينِ الفِعليَّينِ إفادةُ قَصرِ القلْبِ، أي: هو يقولُ الحقَّ، لا الَّذين وَضَعوا لكمْ تلك المزاعمَ، وهو يَهدي السَّبيلَ، لا الَّذين أضَلُّوا النَّاسَ بالأوهامِ. ولَمَّا كان الفِعلانِ مُتعدِّيَينِ (يقول) و(يَهدي)، استُفِيدَ مِن قَصرِهما قَصرُ مَعمولَيهما بالقرينةِ. ثمَّ لَمَّا كان قولُ اللهِ في المواضعِ الثَّلاثةِ هو الحقَّ والسَّبيلَ، كان كِنايةً عن كَونِ ضِدِّه باطلًا ومَجهلةً، فالمعنى: وهمْ لا يقولونَ الحقَّ، ولا يَهدونَ السَّبيلَ(٣).

- وقال: ﴿وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ ولم يَقُلْ: (ويهدي السبيلَ)؛ لأجْلِ أنْ تكونَ الجملةُ الثَّانيةُ مستقِلَّةً برُكْنَيْها -بمبتدئِها وخبرِها-، لأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَهُوَ يَهۡدِي﴾ هو مبتدؤُها، وجملةَ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ خبرُها، فكانتِ الجملةُ مُستقِلَّةً عن الأُولى؛ لأنَّ ذلك أبلَغُ في بيانِ أنَّ الهدايةَ بيدِ اللهِ سُبحانَه وتعالى(٤).

٢- قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥).

تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

- قولُه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ﴾ استِئنافٌ بالشُّروعِ في المَقصودِ مِن التَّشريعِ؛ لإبطالِ التَّبنِّي، وتَفصيلٌ لِمَا يَحِقُّ أنْ يُجرِيَه المسلمونَ في شأْنِه[1].

- وجُملةُ ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ كأنَّ سائلًا قال: لماذا لا نَدْعوهم لِلَّذينَ تَبنَّوهم؟ فأُجِيبَ ببَيانِ أنَّ ذلك القِسطُ، فاسمُ التَّفضيلِ مَسلوبُ المُفاضَلةِ -أي: ليس على بابِه-، والغرَضُ مِن هذا الاستئنافِ تَقريرُ ما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]؛ لِتُعلَمَ عِنايةُ اللهِ تعالى بإبطالِ أحكامِ الجاهليَّةِ في التَّبنِّي، ولتَطمئِنَّ نُفوسُ المسلمينَ مِن المُتَبَنِّينَ والأدعياءِ ومَن يَتعلَّقُ بهم بقَبولِ هذا التَّشريعِ الَّذي يَشُقُّ عليهم؛ إذ يَنزِعُ منهم إلْفًا أَلِفُوه؛ ولهذا المعنى الدَّقيقِ فُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ﴾، فجمَعَ فيه تأكيدًا للتَّشريعِ بعَدمِ التَّساهُلِ في بَقاءِ ما كانوا عليه بعُذْرِ أنَّهم لا يَعلَمون آباءَ بعضِ الأدعياءِ، وتأْنيسًا للنَّاسِ أنْ يَعتاضوا عن ذلك الانتِسابِ المكذوبِ اتِّصالًا حقًّا لا يَفوتُ به ما في الانتسابِ القديمِ مِن الصِّلةِ، ويُتجافَى به عمَّا فيه مِن المَفسَدةِ[2].

- وقيل: ﴿أَقْسَطُ﴾ أفعلُ تفضيلٍ قُصد به الزيادةَ مطلقًا مِن القِسْطِ، فعبَّر بـ (أفعل) التَّفضيلِ هنا؛ لِبَيانِ أنَّ هذا غايةُ ما يكونُ مِن العدلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨).

- وفي فَصْلِ هذه الجُمَلِ ووَصْلِها -أي: في إخلاءِ العاطفِ وإثباتِه مِن الجُمَلِ- مِن مُفتتَحِ السُّورةِ إلى هنا؛ مِن الحُسنِ والفَصاحةِ ما لا يَخْفَى، وبيانُه: أنَّ الأوامرَ والنَّهيَ في قولِه: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ [الأحزاب: ٢]، ﴿وَتَوَكَّلۡ﴾ [الأحزاب: ٣]؛ وارداتٌ على نسَقٍ عَجيبٍ، وتَرتيبٍ أنِيقٍ؛ فإنَّ الاستهلالَ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١] دالٌّ على أنَّ الخِطابَ مُشتمِلٌ على أمْرٍ مَعنيٍّ شأْنُه، لائحٍ فيه معنى التَّهييجِ والإلهابِ، ومِن ثَمَّ عطَفَ عليه ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ كما يُعطَفُ الخاصُّ على العامِّ، وأردَفَ النَّهيَ بالأمْرِ، على نَحوِ قولِك: لا تُطِعْ مَن يَخذُلُك، واتَّبِعْ ناصِرَك، ولا يَبعُدُ أنْ يُسمَّى بالطَّردِ والعكْسِ. ثمَّ أمَرَ بالتَّوكُّلِ؛ تَشجيعًا على مُخالَفةِ أعداءِ الدِّينِ، والْتِجاءً إلى حَريمِ جَلالِ اللهِ؛ لِيَكفِيَه شُرورَهم. ثمَّ عقَّبَ كُلًّا مِن تلك الأوامرِ بما يُطابِقُه على سَبيلِ التَّتميمِ[1]، وعلَّلَ ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الأحزاب: ١]؛ تَتميمًا للارتداعِ، وعلَّلَ قولَه: ﴿وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ﴾ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢]؛ تَتميمًا أيضًا، وذيَّلَ قولَه: ﴿وَتَوَكَّلۡ

---

(١) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

عَلَى ٱللَّهِ﴾ بقولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٣]؛ تَقريرًا وتَوكيدًا، وفصَلَ قولَه: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤] على سَبيلِ الاستئنافِ؛ تَنبيهًا على بعضٍ مِن أباطيلِهم وتَمحُّلاتِهم، وقولُه: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] فَذْلَكةٌ لتلك الأحوالِ، آذَنَتْ بأنَّها مِن البُطلانِ، وحَقيقٌ بأنْ يُذَمَّ قائلُها، فضْلًا عن أنْ يُطاعَ. ثمَّ وصَلَ قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] على هذه الفَذْلَكةِ بجامعِ التَّضادِّ على مِنوالِ ما سبَقَ في المُجمَلِ في ﴿وَلَا تُطِعِ﴾ ﴿وَٱتَّبِعْ﴾. وفصَلَ قولَه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، وقولَه: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٦]، وهلُمَّ جرًّا إلى آخِرِ السُّورةِ؛ تَفصيلًا لقولِ الحقِّ، والاهتداءِ إلى السَّبيلِ القويمِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ...﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾؛ لأنَّ الأمْرَ فيها للوُجوبِ، فهو نَهْيٌ عن ضِدِّه لِتَحريمِه؛ كأنَّه قِيل: ولا تَدْعوهم لِلَّذينَ تَبنَّوهم إلَّا خطَأً، وبهذا تقرَّرَ إبطالُ حُكمِ التَّبنِّي[٢].

- قولُه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ وُقوعُ (جُناح) في سِياقِ النَّفيِ بـ (ليس) يَقْتضي العُمومَ، فيُفيدُ تَعميمَ انتفاءِ الإثْمِ عن العمَلِ الخطَأِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تَعليلٌ لِنَفيِ الجُناحِ عن الخطَأِ؛ بأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٦٥).

نَفْيَ الجُناحِ مِن آثارِ اتِّصافِ اللهِ تعالى بالمَغفرةِ والرَّحمةِ بخَلْقِه[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾

- قولُه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقولَه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، كان قد شمِلَ في أوَّلِ ما شَمِلَه إبطالَ بُنوَّةِ زَيدِ بنِ حارثةَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان بحيث يُثِيرُ سُؤالًا في نُفوسِ النَّاسِ عن مَدى صِلَةِ المؤمنينَ بنَبيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ فلِأجْلِ تَعليمِ المؤمنينَ حُقوقَ النَّبيِّ وحُرْمتَه، جاءت هذه الآيةُ مُبيِّنةً أنَّ النَّبيَّ أَولى بالمؤمنينَ مِن أنفُسِهم[٢].

- قولُه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الكلامُ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: أَولى بمَنافعِ المؤمنينَ، أو بمَصالحِ المؤمنينَ، فهذا المُضافُ حُذِفَ؛ لِقَصدِ تَعميمِ كلِّ شأْنٍ مِن شُؤونِ المؤمنينَ الصَّالحةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ عطَفَ على حُقوقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حُقوقَ أزواجِه على المسلمينَ؛ لِمُناسَبةِ جَرَيانِ ذِكرِ حقِّ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فجعَلَ اللهُ لهنَّ ما للأمَّهاتِ مِن تَحريمِ التَّزوُّجِ بهنَّ، وكذلك ما عدَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٦).

حُكْمَ الزَّواجِ مِن وُجوهِ المُعامَلةِ غيرَ ما يَرجِعُ إلى التَّعظيمِ؛ ولهذه النُّكتةِ جِيءَ بالتَّشبيهِ البليغِ[١]؛ للمُبالَغةِ في شَبهِهنَّ بالأمَّهاتِ للمؤمنينَ[٢].

- قولُه: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ قيل: أُريدَ بالمُؤمنينَ خُصوصُ الأنصارِ؛ بقَرينةِ مُقابَلتِه بعَطفِ ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾، على معنى أصحابِ الإيمانِ الكاملِ؛ تَنويهًا بإيمانِ الأنصارِ؛ لأنَّهم سَبَقوا بإيمانِهم قبْلَ كَثيرٍ مِن المهاجرينَ الَّذين آمَنوا بعْدَهم؛ فإنَّ الأنصارَ آمَنوا دَفعةً واحدةً لَمَّا أبلَغَهم نُقباؤُهم دَعوةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيَّاهُم بعْدَ بَيعةِ العَقَبةِ الثَّانيةِ[٣]. وقيل: تخصيصُ المهاجرينَ بالعطفِ يدُلُّ على شَرَفِهم وفضلِهم؛ لأنَّ المهاجِرَ مؤمنٌ، ففيه فضيلةُ الهجرةِ[٤].

- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ بلاغةُ القرآنِ في الاحترازِ في موضعِ الإيهامِ؛ لأنَّه لَمَّا قال تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ قد يَتوهَّمُ الإنسانُ أنَّ مَن بينَه وبينَهم موالاةٌ لا يُمكِنُ أنْ يَنتَفِعَ بشَيءٍ مِن مالِه؛ فاحترزَ عزَّ وجلَّ بقَولِه: ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾[٥].

---

(١) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به للمُشبَّهِ. ويَنقسِمُ التشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّة.
والتشبيهُ البليغُ: هو ما كانتْ أداةُ التَّشبيهِ فيه مَحذوفةً. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٧٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ تَذييلٌ لهذه الأحكام، وخاتمةٌ لها مُؤْذِنةٌ بانتهاءِ الغرَضِ مِن الأحكام الَّتي شُرِعَت مِن قولِه: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] إلى هنا؛ فالإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المَذكورِ مِن الأحكامِ المَشروعةِ؛ فكان هذا التَّذييلُ أعمَّ ممَّا اقتَضاهُ قولُه: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾. وبهذا الاعتبارِ لم يكُنْ تَكريرًا له، ولكنَّه يَتضَمَّنُه ويَتضمَّنُ غيرَه، فيُفِيدُ تَقريرَه وتَوكيدَه تبَعًا[1].

- وفِعلُ (كان) في قولِه: ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾؛ لِتَقويةِ ثُبوتِه في الكتابِ مَسطورًا؛ لأنَّ (كان) إذا لم يُقصَدْ بها أنَّ اسمَها اتَّصَفَ بخَبرِها في الزَّمنِ الماضي، كانت للتَّأكيدِ غالِبًا[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٢).

## الآيتان (٧-٨)

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِيثَـٰقَهُمْ﴾: الميثاقُ: عقدٌ مؤكَّدٌ بيمينٍ وعهدٍ، أو العهدُ المُحكَمُ، وأصلُه: العقدُ والإحكامُ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالعهدِ الَّذي أخَذه عليه وعلى الأنبياءِ مِن قبْلِه: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إذ أخَذْنا مِنَ النَّبيِّينَ مِيثاقًا وعهدًا مُؤكَّدًا على اتِّباعِ ما أوحى اللهُ به، وتبليغِ الدِّينِ وإقامتِه، وأخَذْنا منك -يا محمَّدُ- هذا الميثاقَ، ومِن نوحٍ، وإبراهيمَ، وموسى، وعيسى ابنِ مريمَ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- وأخَذْنا منكم جميعًا ميثاقًا مُؤكَّدًا؛ لِيَسألَ اللهُ الصَّادقينَ عن صِدقِهم، وأعدَّ اللهُ للكافِرينَ عذابًا مُؤلِمًا في نارِ جَهنَّمَ.

### تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالاتِّقاءِ، بقَولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٦) و(١٩/ ٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣).

ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وأكَّده بالحكايةِ الَّتي خَشِيَ فيها النَّاسَ؛ لِكَيلا يَخشى فيها أحدًا غَيرَه، وبيَّن أنَّه لم يرتكِبْ أمرًا يوجِبُ الخَشيةَ، بقَولِه: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٦]- أكَّدَه بوَجهٍ آخَرَ وقال: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ﴾ الآيةَ، كأنَّه قال: اتَّقِ اللهَ ولا تخَفْ أحدًا، واذكُرْ أنَّ الله أخَذ ميثاقَ النَّبيِّينَ في أنَّهم يُبَلِّغونَ رِسالاتِ اللهِ، ولا يَمنَعُهم مِن ذلك خَوفٌ ولا طمَعٌ[1].

وأيضًا لَمَّا كان ما سبَق أحكامًا عن الله تعالى، وكان فيها أشياءُ ممَّا كانت في الجاهليَّةِ، وأشياءُ في الإسلامِ نُسِخَت؛ أتْبَعَه بقَولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ﴾، أي: في تبليغِ الشَّرائعِ، والدُّعاءِ إلى اللهِ؛ فلَسْتَ بِدْعًا في تبليغِك عن اللهِ[2].

وأيضًا لَمَّا كان نَقضُ العوائِدِ وتغييرُ المألوفاتِ ممَّا يَشُقُّ كثيرًا على النُّفوسِ، ويُفَرِّقُ المجتَمِعينَ، ويَقطَعُ بيْنَ المُتواصِلينَ، ويُباعِدُ بيْن المتقارِبينَ؛ قال الله تعالى مُذكِّرًا للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بما أخَذَ على مَن قَبْلَه مِن نَسخِ أديانِهم بدِينِه، وتغييرِ مألوفاتِهم بإلْفِه، ومِن نصيحةِ قَومِهم بإبلاغِهم كُلَّ ما أُرسِلوا به[3]:

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إذْ[4] أخَذْنا مِنَ النَّبيِّينَ عَهدًا مُؤكَّدًا على تَصديقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩٣).

(٤) (إذْ) هنا: مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: اذكرْ. أي: اذكُرْ للنَّاسِ إذ أخَذْنا، أو: اذكُرْ لنفْسِك مذَكِّرًا إيَّاها إذْ أخَذْنا مِن النَّبيِّينَ ميثاقَهم. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٧٥).

بَعضِهم بَعضًا، وتبليغِ الدِّينِ وإقامتِه، والقيامِ بتقوى اللهِ، ونَبْذِ طاعةِ الكافِرينَ والمنافِقينَ، واتِّباعِ ما أَوحَى اللهُ به، وأخَذْنا هذا الميثاقَ مِنك -يا محمَّدُ- ومِن نُوحٍ، وإبراهيمَ، وموسى، وعيسى ابنِ مَريمَ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾.

أي: وأخَذْنا مِن جميعِ هؤلاءِ الأنبياءِ عَهدًا عَظيمًا مُؤكَّدًا على القيامِ بدِينِ اللهِ وتَبليغِه، وتَصديقِ بَعضِهم بَعضًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾.

أي: أخَذ اللهُ الميثاقَ مِن أولئك الأنبياءِ؛ لكيْ يَسألَ الصَّادِقينَ[3] عن قيامِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩).

(٣) قيل: السُّؤالُ للأنبياءِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والنسفي، والرَّسْعَني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢١٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٧٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦١١)، =

بهذا العَهدِ المؤكَّدِ، فيُثيبَهم الجنَّةَ[١].

﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وأعدَّ اللهُ للكافِرينَ باللهِ ورُسُلِه مِن جميعِ الأُمَمِ عَذابًا مُؤلِمًا موجِعًا في النَّارِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا * لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فيه أنَّه تعالى أرسَلَ الرُّسُلَ، وعاقِبةُ المكَلَّفينَ إمَّا حِسابٌ وإمَّا عَذابٌ؛ لأنَّ الصَّادِقَ مُحاسَبٌ، والكافِرَ مُعذَّبٌ، وهذا كما قال عليٌّ

---

= ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٠٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والحسَنُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٠٢).

قال الزَّجَّاج: (وتأويلُ مسألةِ الرُّسلِ -واللهُ يَعلَمُ أنَّهم صادِقون- التَّبكيتُ لِلَّذين كفَروا بهم، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢١٧).

وقيل: السُّؤالُ لأُمَمِ الأنبياءِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٦).

وقيل: السُّؤالُ للأنبياءِ ولأُمَمِهم الَّذين دعَوهم. وممَّن قال بهذا: السعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٨٤، ٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٣).

رضِيَ الله عنه: (الدُّنيا حلالُها حِسابٌ، وحَرامُها عذابٌ)[١]، وهذا ممَّا يُوجِبُ الخَوفَ العامَّ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾ أنَّ مَن أنعَمَ اللهُ تعالى عليه بنِعمةٍ، فإنَّ لله تعالى عليها شُكرًا خاصًّا غيرَ النِّعمةِ العامَّةِ، كقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿مِيثَـٰقَهُمْ﴾؛ فإنَّ الإضافةَ هنا تدُلُّ على التَّخصيصِ -أي: الميثاقَ الخاصَّ بهم-؛ فكلُّ مَن أنعَمَ اللهُ تعالى عليه بنِعمةٍ، فإنَّ لله تعالى عليه فيها عَهدًا أنْ يَقومَ بهذه النِّعمةِ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أتْبَعَه بقيَّةَ أُولي العَزمِ الَّذين هم أصحابُ الكُتُبِ، ومشاهيرُ أربابِ الشَّرائعِ؛ لأنَّ مَن عَلِمَ له شَريكًا في أمرٍ اجتهَدَ في سَبقِه فيه[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذا كان الأنبياءُ يُسألَونَ -وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ-، فكيف بمَن سِواهم[٥]؟!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أنَّ السُّؤالَ ليس سُؤالًا خاصًّا بالمعانِدينَ والكافِرين، حتَّى الصَّادِقُ يُسألُ عن صِدقِه -وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ-. فيتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ: وُجوبُ الحَذَرِ، ووُجوبُ الاستِعدادِ لهذا السُّؤالِ؛ فإذا كان الصَّادِقُ يُسألُ فما بالُك بالكاذِبِ؟! الكاذِبُ جزاؤُه ﴿وَأَعَدَّ

---

(١) أخرجه من طرق أبو داود في ((الزهد)) (١٠٩)، والدِّينَوريُّ في ((المجالسة وجواهر العلم)) (٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٦).

﴿لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ لأنَّ الكافِرينَ لا يُسأَلونَ سُؤالًا يُحاسَبونَ عليه كمُحاسَبةِ أهلِ الخَيرِ[١]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ عِظَمُ المَسؤوليَّةِ على الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى خَصَّصَهم بأخْذِ الميثاقِ، ويُستفادُ منها فَرعًا على هذه الفائِدةِ: عِظَمُ المسؤوليَّةِ على أهلِ العلمِ؛ لأنَّهم وَرَثةُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أنَّ النارَ موجودةٌ الآنَ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ﴾ بلفظِ الماضي، والإعدادُ بمعنى: التَّهيئةِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ دليلٌ على أنَّ أهلَ النارِ يَذوقونَ العذابَ ويتألَّمونَ منه؛ لقولِه تعالى: ﴿أَلِيمًا﴾؛ فيكونُ في هذه الفائدةِ رَدٌّ على قولِ مَن يقولُ: «إنَّ أهلَ النارِ يكونون جَهنَّميِّينَ؛ فلا يُحِسُّونَ بعذابٍ»! لأنَّهم إذا كانوا لا يُحِسُّونَ بعذابٍ انتفَى العذابُ[٤]!

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا * لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ هاتانِ الآيتانِ لهما مَوقعُ المُقدِّمةِ لِقصَّةِ الأحزابِ؛ لأنَّ ممَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٨).

أَخَذَ اللهُ عليه مِيثاقَ النَّبِيِّينَ: أنْ يَنصُروا الدِّينَ الَّذي يُرسِلُه اللهُ به، وأنْ يَنصُروا دِينَ الإسلامِ[١].

- قولُه: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ في ذِكْرِ ضَميرِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبْلَ الأنبياءِ المذكورينَ إيماءٌ إلى تَفضيلِه على جَميعِهم، ثمَّ جُعِل تَرتيبُ ذِكرِ البقيَّةِ على تَرتيبِهم في الوُجودِ. ولهذه النُّكتةِ خُصَّ ضَميرُ النَّبيِّ بإدخالِ حَرْفِ (مِن) عليه بخُصوصِه، ثمَّ أُدخِلَ حَرْفُ (مِن) على مَجموعِ الباقينَ؛ فكان قد خُصَّ باهتِمامَينِ: اهتِمامُ التَّقديمِ، واهتمامُ إظهارِ اقترانِ الابتِداءِ بضَميرٍ بخُصوصِه غيرِ مُندمِجٍ في بَقيَّتِهم عليهم السَّلامُ[٢].

- وأيضًا جاء قولُه: ﴿وَمِنكَ﴾ عقِبَ ذِكرِ النَّبيِّينَ؛ تَنبيهًا على أنَّ شأنَ الرُّسلِ واحِدٌ، وأنَّ سُنَّةَ اللهِ فيهم مُتَّحِدةٌ؛ فهذه الآيةُ لها مَعنى التَّذييلِ لقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ...﴾ [الأحزاب: ١-٣] الآياتِ الثَّلاثَ، ولكنَّها جاءتْ مَعطوفةً بالواوِ؛ لِبُعدِ ما بيْنَها وما بيْن الآياتِ الثَّلاثِ المُتقدِّمةِ[٣].

- وتَخصيصُ هؤلاء الأنبياءِ بالذِّكْرِ -مع اندراجِهم في النَّبيِّينَ اندارجًا بَيِّنًا-؛ للإيذانِ بمَزيدِ مَزيَّتِهم وفَضْلِهم، وكَونِهم مِن مَشاهيرِ أربابِ الشَّرائعِ، وأساطينِ أُولي العزْمِ مِن الرُّسلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي =

وأيضًا لأنَّ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ كان لهما في زمانِ نبيِّنا قَومٌ وأمَّةٌ، فذكَرَهما احتِجاجًا على قَومِهما، وإبراهيمُ عليه السَّلامُ كان العَرَبُ يقولونَ بفَضلِه، وكانوا يتَّبِعونَه في الشَّعائِرِ بَعضِها، ونوحًا عليه السَّلامُ لأنَّه كان أصلًا ثانيًا للنَّاسِ؛ حيث وُجِدَ الخَلقُ منه بعدَ الطُّوفانِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قُدِّمَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هنا في قولِه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾؛ وذلك لِكَونِه أفضَلَ منْهم، وأكثَرَهم أتْباعًا. وقُدِّمَ نُوحٌ عليه السَّلامُ في آيةِ (الشُّورى) في قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]؛ لأنَّ إيرادَه على خِلافِ الإيرادِ؛ فهناك أورَدَه على طَريقِ وَصفِ دِينِ الإسلامِ بالأصالةِ، فكأنَّه قال: شرَعَ لكمُ الدِّينَ الأصيلَ، الَّذي بُعِثَ عليه نُوحٌ في العهدِ القديمِ، وبُعِثَ عليه محمَّدٌ خاتمُ الأنبياءِ في العهدِ الحديثِ، وبُعِثَ عليه مَن تَوسَّطَ بيْنَهما مِن الأنبياءِ المشاهيرِ(٢).

- وجُملةُ ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ أعادَتْ مَضمونَ جُملةِ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ﴾؛ لزِيادةِ تَأكيدِها، ولِيُبْنى عليها وَصفُ المِيثاقِ بالغليظِ، أي: عظيمًا جليلَ الشَّأنِ في جِنسِه؛ فإنَّ كلَّ مِيثاقٍ له عِظَمٌ، فلمَّا وُصِفَ هذا بـ﴿غَلِيظًا﴾، أفاد أنَّ له عِظَمًا خاصًّا، ولِيُعلِّقَ به لامَ التَّعليلِ مِن قولِه: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾. وقِيل: المُرادُ بالمِيثاقِ الغليظِ: هو اليمينُ باللهِ تعالى على الوفاءِ

---

= السعود)) (٧/ ٩١، ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٨).

بما حُمِّلوا، وعليه فلا إعادةَ؛ لاختلافِ المِيثاقَينِ[١].

- وفي تَعقيبِ أمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أوَّلِ هذه السُّورةِ بالتَّقوى، ومُخالَفةِ الكافرينَ والمنافقينَ، والتَّثبيتِ على اتِّباعِ ما يُوحى إليه، وأمْرِه بالتَّوكُّلِ على اللهِ بهذه الآيةِ، وجَعْلِها قبْلَ قولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ ﴾ [الأحزاب: ٩]... إلخ: إشارةٌ إلى أنَّ ذلك التَّأييدَ الَّذي أيَّدَ اللهُ به رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ معه -إذ رَدَّ عنهم أحزابَ الكُفَّارِ والمنافقينَ بغَيظِهم لم يَنالوا خيرًا- ما هو إلَّا أثَرٌ مِن آثارِ المِيثاقِ الَّذي أخَذَه اللهُ على رسولِه حينَ بَعَثَهُ[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾

- قولُه: ﴿لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بمُضمَرٍ مُستأنَفٍ، مَسوقٍ لِبَيانِ ما هو داعٍ إلى ما ذُكِرَ مِن أخْذِ الميثاقِ، وغايةٌ له، لا بـ ﴿أَخَذۡنَا﴾؛ فإنَّ المقصودَ تَذكيرُ نفْسِ الميثاقِ، ثمَّ بَيانُ الغرَضِ منه بَيانًا قَصديًّا، كما يُنبِئُ عنه تَغييرُ الأُسلوبِ بالالتِفاتِ إلى الغَيبةِ، أي: فعَل الله ذلك لِيَسألَ يومَ القيامةِ الأنبياءَ، ووضَعَ الصَّادقينَ مَوضِعَ ضميرِهم للإيذانِ من أولِ الأمرِ بأنَّهم صادِقونَ فيما سُئِلوا عنه، وإنَّما السُّؤالُ لحكمةٍ تقتضِيه، أي: لِيَسألَ الأنبياءَ الَّذين صدَقوا عهْدَهم عمَّا قالُوه لقومِهم، أو عن تصديقِ أقوامِهم إيَّاهم، وسؤالُهم عليهم السَّلامُ عن ذلك على الوجهينِ لِتَبكيتِ الكفرةِ المكذِّبينَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٦).

- وإنَّما صَرَّحَ بسُؤالِ الصَّادقِ؛ بِشارةً له بتَشريفِه في ذلك الموقفِ العظيمِ، وطَوَى سُؤالَ الكفَّارِ؛ إشارةً إلى استِهانتِهم بفَضيحةِ الكَذِبِ(١).

- قولُه: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ حُذِفَ مِن الأوَّلِ ما أُثيبَ به الصَّادقونَ، وهمُ المُؤمِنون، وذُكِرَت العِلَّةُ، وحُذِفَ مِن الثَّاني العِلَّةُ، وذُكِرَ ما عُوقِبوا به، وكأنَّ التَّقديرَ: لِيَسأَلَ الصَّادقينَ عن صِدقِهم، فأثابَهم، ويَسأَلَ الكافرينَ عمَّا أجابوا به رُسلَهم؛ فحُذِفَ مِن الأوَّلِ ما أُثبِتَ مُقابِلُه في الثَّاني، ومِن الثَّاني ما أُثبِتَ مُقابِلُه في الأوَّلِ، وهذه طريقةٌ بَليغةٌ(٢). ويُعرَفُ هذا بالاحتِباكِ.

- وجُملةُ ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾، وغُيِّرَ فيها الأُسلوبُ، وعُبِّرَ بالفِعلِ الماضي ﴿وَأَعَدَّ﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ عذابِ الكافرينَ؛ حتَّى لا يُتوهَّمَ أنَّهم يُسأَلون سُؤالَ مَن يُسمَعُ جَوابُهم أو مَعذِرتُهم، ولإفادةِ أنَّ إعدادَ عذابِهم أمْرٌ مَضى وتقرَّرَ في عِلمِ اللهِ(٣).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨]، وفيما بعْدُ مِن السُّورةِ: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤]، فاختلَفَ ما أُعقِبَت به كلٌّ مِن الآيتينِ مع تَقارُبِ ما بُنِيَ عليه التَّعقيبُ؛ ووَجْهُه: أنَّ اختِلافَ التَّعقيبِ مَرْعِيٌّ فيه ما تَقدَّمَ قبْلَ كلِّ واحدةٍ مِن الآيتَينِ؛

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٦).

أمَّا الأُولى: فالمُتقدِّمُ قبْلَها قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١]، ثمَّ لم يَعُدِ الكلامُ إلى شَيءٍ مِن مُرتكَباتِ المنافقينَ، ولا تَفصيلِ أحوالِهم، فناسَبَ هذا قولُه: ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٨]، والكافرُ بالنِّفاقِ كالكافرِ المتظاهِرِ بكُفْرِه.

وأمَّا الآيةُ الثَّانيةُ فتَقدَّمها قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢]، ثمَّ تَتابعَتِ الآيُ مُعرِّفةً بسُوءِ مُرتكَبِهم وقَبيحِ أفعالِهم في ثَماني آياتٍ أو نَحوِها، إلى قولِه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، ثمَّ أعقَبَ هذا بذِكرِ حالِ المؤمنينَ، وذُكِرُوا بأحْسَنِ ما يَتحلَّى به الصَّادقُ في إيمانِه، فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، إلى عَظيمِ ما وصَفَهم به سُبحانه، ثمَّ أعقَبَ بذِكرِ حالِ الفريقَينِ؛ فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤]، وقد أبقَى سُبحانه عليهم بقولِه: ﴿إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾؛ جَرْيًا على المطَّرِدِ مِن عَظيمِ حِلمِه وسَعةِ عَفوِه ورَحمتِه، وكلٌّ مِن هذا واردٌ على أعظَمِ مُناسَبةٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٥).

## الآيات (٩-١١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَاغَتِ ﴾: أي: مالَت وشَخَصَت، وأصلُ الزَّيغِ: المَيلُ عن الاستِقامةِ[١].

﴿ٱلۡحَنَاجِرَ ﴾: جمعُ حنجرةٍ، وهي آخرُ الحَلْقِ مما يَلِي الفمَ، أو: طرَفُ المَرِيءِ ممَّا يَلي الفمَ، وترَاه ناتِئًا مِن خارِجِ الحَلْقِ[٢].

﴿ٱبۡتُلِيَ ﴾: أي: اختُبِروا ومُحِّصوا، وأصلُ (بلي) هنا: يدُلُّ على الاختِبارِ[٣].

﴿وَزُلۡزِلُواْ ﴾: أي: أُزعِجوا وحُرِّكوا بالخَوفِ والمرَضِ، وأصلُ (زلزل): يدُلُّ على الاضطِرابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البَر (٢٣/ ٣٢٥)، ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قرقول (٢/ ٣١٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا قصَّةَ غزوةِ الأحزابِ، وفضْلَ الله تعالى على المؤمنينَ فيها: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم حينَ أذهَبَ الكُفَّارَ عنكم بإرسالِ ريحٍ شَديدةِ الهبوبِ عليهم، وأرسَلَ عليهم جُنودًا مِنَ الملائِكةِ لم تَرَوها، وكان اللهُ بما تَعمَلونَ -أيُّها المؤمِنونَ- بَصيرًا.

إذ جاءكم الأحزابُ مِن جِهةِ المَشرِقِ ومِن جِهةِ المغرِبِ، وإذ مالت أبصارُكم؛ مِن شِدَّةِ فَزَعِكم، وزالت قلوبُكم عن أماكِنِها فبَلَغت الحناجِرَ؛ مِن شِدَّةِ الخَوفِ والرُّعبِ! وتَظُنُّونَ باللهِ ظُنونًا كثيرةً، فعندَ تلك الشِّدَّةِ العظيمةِ ابتُلِيَ المؤمِنونَ، وأُزعِجوا إزعاجًا شَديدًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أكَّد سُبحانَه وُجوبَ الصَّدعِ بكُلِّ أمرِه وإن عَظُمَت مَشقَّتُه؛ اعتمادًا على تدبيرِه، وعظيمِ أمرِه في تقديرِه- ذكَّرَهم بدليلٍ شُهوديٍّ هو أعظَمُ وقائِعِهم في حُروبِهم، وأشَدُّ ما دهمَتْهم مِن كُروبِهم[1].

وأيضًا بعدَ أن أمَرَ سُبحانَه عبادَه بتَقْواه، وعدَمِ الخَوفِ مِن سِواه؛ ذكَرَ هنا تحقيقَ ما سلَفَ، فأبان أنَّه أنعَمَ على عبادِه المؤمِنينَ؛ إذ صرَفَ عنهم أعداءَهم وهَزَمهم حينَ تألَّبوا عليهم عامَ الخَندقِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٣٦).

وأيضًا اختيرتْ للتَّذكيرِ بهذا اليومِ مُناسَبةُ الأمرِ بعدَمِ طاعةِ الكافِرينَ والمنافِقينَ؛ لأنَّ مِن النِّعَمِ الَّتي حفَّت بالمؤمِنينَ في يومِ الأحزابِ: أنَّ اللهَ ردَّ كَيدَ الكافِرينَ والمنافِقينَ، فذُكِّرَ المؤمنونَ بسابِقِ كَيدِ المنافِقينَ في تلك الأزمةِ؛ لِيَحذَروا مكايدَهم وأراجيفَهم في قضيَّةِ التبَنِّي، وتزوُّجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُطلَّقةَ مُتَبنَّاه[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم في صَرفِه الكفَّارَ عنكم حينَ حاصَروكم[2].

﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا ﴾.

أي: حينَ جاءَتكم جُنودُ الكُفَّارِ، فأرسَلْنا عليهم ريحًا شَديدةَ الهُبوبِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٥٩).

قال ابنُ كثير: (وذلك عامَ الخَندقِ، وذلك في شوَّالٍ سنةَ خمسٍ مِن الهجرةِ على الصَّحيحِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (تحزَّب عليهم عامَّةُ المشركين الَّذين حوْلَهم، وجاؤوا بجُموعِهم إلى المدينةِ؛ لِيَستأصِلوا المؤمنينَ، فاجتمعَتْ قُرَيشٌ وحُلفاؤها مِن بني أسدٍ، وأشجَعَ، وفَزارةَ، وغَيرِهم مِن قبائِلِ نَجْدٍ، واجتمعتْ أيضًا اليهودُ مِن قُرَيْظةَ والنَّضيرِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٤٣).

وقال ابنُ عاشور: (الرِّيحُ المذكورةُ هنا هي ريحُ الصَّبا، وكانت باردةً، وقلَعت الأوتادَ والأطنابَ، وسفَّت التُّرابَ في عُيونِهم، وماجَتِ الخَيلُ بَعضُها في بعض، وهلَك كثيرٌ مِن خَيلِهم وإبِلِهم وشائِهم، وفيها قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبورِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٩).

عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((نُصِرْتُ بالصَّبَا، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ))(١).

﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾.

أي: وأرسَلْنا عليهم جُنودًا مِنَ الملائِكةِ لم تَرَوها(٢).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

في قَولِه تعالى: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على معنى عَودِ الضَّميرِ على الجُنودِ والأحزابِ الَّذين تألَّبوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنينَ معه(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

قال ابن حجر: (قولُه: «نُصِرْتُ بالصَّبَا» ... هي الرِّيحُ الشَّرقيَّةُ. والدَّبورُ ... مُقابِلُها. يُشيرُ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى قولِه تعالَى في قصَّةِ الأحزابِ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾). ((فتح الباري)) (٦/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٨٥)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٢/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٩).

وممَّن قال بأنَّ الجنودَ هنا هم الملائكةُ: الواحدي، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٩).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ، ويَزيدُ بنُ رُومانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨، ٢٩).

وقيل: هم الملائكةُ وغيرُهم مِنَ البشَرِ؛ كنُعَيمِ بنِ مسعودٍ الغَطَفانيِّ الَّذي أوهَنَ الأحزابَ بكَيدِه وتخذيلِه لهم. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٢٩٨).

(٣) قرأ بها: أبو عمرو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

ويُنظَرُ لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٠).

٢- قِراءةُ: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ على معنى أنَّه خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن معه مِن المؤمِنينَ(١).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

أي: وكان اللهُ بما تَعمَلونَ -أيُّها المؤمِنونَ- بَصيرًا بأعمالِكم الصَّالحةِ في تلك الغَزوةِ، وسيُجازيكم عليها(٢).

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾.

أي: إذْ(٣) جاءَتْكم جنودُ الأحزابِ -أيُّها المؤمِنونَ- مِن فَوقِكم مِن جِهةِ المَشرِقِ(٤).

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٩٦).

قال البقاعي في قولِه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: (مِن حَفْرِ الخَندقِ وغيرِه مِنَ الصِّدقِ في الإيمانِ وغيرِه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٠٠).

(٣) قيل: ﴿إِذْ﴾ متعلقةٌ بما قبْلَها. أي: وكان اللهُ بما تعملون بصيرًا إذ جاءَتْكم جنودُ الأحزاب مِن فوقِكم ومِن أسفَلَ منكم. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩).

وقيل: ﴿إِذْ﴾ في موضعِ نَصبٍ، بمعنى: واذكُرْ. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤).

قال الواحدي: (وقوله: ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ ﴿إِذْ﴾ بدَلٌ مِن قَولِه: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾، و﴿إِذْ﴾ ظرفٌ لإنعام الله عليهم، كأنَّه قيل: اذكُروا إنعامَ الله عليكم بالكفايةِ حينَ جاءَتْكم جُنودٌ، حينَ جاؤُوكم ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾). ((البسيط)) (١٨/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦).

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾، قالت: (كان ذاك يومَ الخَندَقِ)[١].

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾.

أي: وجاؤوكم مِن أسفَلَ منكم مِن جِهةِ المغرِبِ[٢].

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾.

أي: وإذ مالَتْ أبصارُ المُسلِمينَ عَن مقَرِّها؛ مِن شِدَّةِ الخَوفِ والفَزَعِ[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤١٠٣) واللفظ له، ومسلم (٣٠٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤، ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٠).
قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: (زَاغَتِ الْأَبْصَارُ): شخصَتِ الأبصارُ مِن الخَوفِ، ومالَتْ عن مستوى نظَرِها حَيْرةً، وعدَلَت عن مقَرِّها. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والسمعاني، والقرطبي، والبيضاوي، وابن جُزَي، والخازن، والعُلَيمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤، ٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٥٤).
وقيل: المرادُ: زاغت عن كُلِّ شَيءٍ فلم تلتَفِت إلَّا إلى عَدُوِّها مُقبِلًا مِن كلِّ جانبٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ الجوزي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠٥).
قال ابن عاشور: (الزَّيغُ: المَيلُ عن الاستواءِ إلى الانحرافِ، فزَيغُ البَصَرِ ألَّا يرى ما يتوجَّهُ =

﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾.

أي: وزالت القُلوبُ عن أماكنِها في الصُّدورِ؛ مِن شِدَّةِ الخَوفِ والرُّعبِ، فبلَغَت الحناجِرَ[1].

﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾.

أي: وتَظنُّونَ باللهِ ظُنونًا شَتَّى[2].

---

= إليه، أو أن يريدَ التَّوجُّهَ إلى صَوبٍ فيَقَعَ إلى صَوبٍ آخَرَ؛ مِن شِدَّةِ الرُّعبِ والانذِعارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٠١).

واختلَف المفسِّرون في معنى بُلوغِ القلوبِ الحناجِرَ؛ فقيل: إنَّه مَثَلٌ مَضروبٌ لشِدَّةِ اضْطِرابِ القُلوبِ وخَفَقانِها مِنَ الفَزَعِ والهَلَعِ؛ فكأنَّها لذلك تَتجاوَزُ مَقارَّها حتَّى تبلُغَ الحَنجرةَ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٠، ٢٨١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عِكْرِمةُ. يُنظر: ((مصنَّف ابن أبي شيبة)) (٧/ ٢١٦).

وقيل: المعنى على حقيقتِه، فإذا اشتَدَّ خَوفُ الإنسانِ انتفَخَت رئتُه، فإذا انتفَخَت دفَعَت القَلبَ إلى الحَنجرةِ؛ ولهذا يقال للجَبَانِ: انتفَخَ سَحْرُه، أي: رِئتُه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحدي، والبيضاوي، وأبو السعود، والبقاعي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠١، ٣٠٢). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٨٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨١).

قال البقاعي: (﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ أي: أنواعَ الظَّنِّ؛ أمَّا بالنِّسبةِ إلى الأشخاصِ فواضِحٌ، وذلك بحسَبِ قوَّةِ الإيمانِ وضَعفِه، وأمَّا بالنِّسبةِ إلى الشَّخصِ الواحِدِ فحَسَبَ تغيُّرِ الأحوالِ؛ فتارةً يَظُنُّ الهلاكَ للضَّعفِ، وتارةً النَّجاةَ؛ لأنَّ اللهَ قادِرٌ على ذلك، ويظُنُّ المنافِقونَ ومَن قاربَهم مِن ضُعَفاءِ =

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: فعندَ تلك الشِّدَّةِ العَظيمةِ اختبَرَ اللهُ إيمانَ القَومِ ومحَّصَهم؛ لِيَتمَيَّزَ المؤمِنُ مِنَ المنافِقِ[1].

﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾.

أي: وحُرِّكوا وأُزعِجوا إزعاجًا شَديدًا[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ

---

= القُلوبِ ما حكى اللهُ عنهم). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٣).

قال الماوَرْدي: (﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ فيه أربعةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: حُرِّكوا بالخَوفِ تحريكًا شديدًا. قاله يحيى بنُ سلام. الثَّاني: أنَّه اضْطِرابُهم عمَّا كانوا عليه؛ فمنهم مَنِ اضْطَرَب في نفْسِه، ومنهم مَن اضطرَبَ في دِينِه.

الثَّالث: أنَّه حرَّكهم الأمرُ بالثَّباتِ والصَّبرِ. وهو محتَمِلٌ.

الرَّابع: هو إزاحتُهم عن أماكِنِهم حتَّى لم يكُنْ لهم إلَّا مَوضِعُ الخَندقِ. قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٨٠).

وقال ابنُ عثيمينَ: (النُّفوسُ تزلزلَتْ وحصَل عليها شَيءٌ عظيمٌ؛ لأنَّه اجتمَع في هذه الغزوةِ اجتِماعُ الأحزابِ مع العربِ، ونَقضُ بني قُرَيظةَ، والجوعُ والتَّعَبُ والإعياءُ والبَردُ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٠٥).

ٱلظُّنُونَا۠﴾ كان الأمرُ في غايةِ الشِّدَّةِ والخَوفِ، بالِغًا إلى الغايةِ، واللهُ دفَعَ القَومَ عنهم مِن غَيرِ قِتالٍ، وآمنَهم مِنَ الخَوفِ؛ فينبغي ألَّا يَخافَ العَبدُ غَيرَ رَبِّه؛ فإنَّه كافٍ أمْرَه، وألَّا يأمَنَ مَكْرَه؛ فإنَّه قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ، فكان قادِرًا على أن يَقهَرَ المُسلِمينَ بالكُفَّارِ، مع أنَّهم كانوا ضُعَفاءَ، كما قَهَر الكافِرينَ بالمؤمِنينَ مع قوَّتِهم وشَوكتِهم[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ﴾ أنَّه ينبغي للمُذَكِّرِ أن يُفَصِّلَ فيما ذَكَّرَ به؛ ليَكونَ ذلك أبلَغَ في تَذَكُّرِ المخاطَبِ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في خِطابِ اللهِ للمُؤمِنينَ في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مع قَولِه سُبحانَه لهم: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أنَّ الصَّحابةَ رَضِيَ الله عنهم -على ما هم عليه مِن المرتَبةِ العاليةِ- قد تعتَرِضُهم الظُّنونُ بسَبَبِ الضِّيقِ؛ فهم لشِدَّةِ الضِّيقِ قد تَعتَريهم مِثلُ هذه الوَساوِسِ، لكِنَّها في الحَقيقةِ سَحابةُ صَيفٍ؛ عندَما يَرجِعُ الإنسانُ إلى وَعْدِ اللهِ عزَّ وجلَّ يَزولُ عنه هذا كلُّه ويتبَدَّدُ[3].

٢- قال تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا﴾ كانت هذه الرِّيحُ مُعجِزةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم والمسلِمينَ كانوا قريبًا منها، لم يكُنْ بيْنَهم وبيْنَها إلَّا عَرضُ الخَندَقِ، وكانوا في عافيةٍ منها، ولا خبَرَ عِندَهم بها[4].

٣- قال تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ فسلَّط عليهم هواءً فَرَّق

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤).

شَمْلَهم، كما كان سبَبُ اجتماعِهم مِنَ الهوى، وهم أخلاطٌ مِن قبائِلَ شتَّى؛ أحزابٌ وآراءٌ، فناسَبَ أن يُرسِلَ عليهم الهواءَ الَّذي فرَّق جماعتَهم[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا﴾ رَدٌّ على مَن يقولُ: إنَّ الاسمَ إذا وَقَعَ على شَيءٍ لم يَجُزْ أن يَقَعَ على غَيرِه إلَّا أنْ يُشبِهَه بجَميعِ صِفاتِه، وهذه الملائِكةُ والمُشرِكونَ مِن الأحزابِ قد شَمِلَهما معًا اسمُ «الجُنودِ» على اختِلافِ صِفاتِهما؛ فكيفَ لا تتَّفِقُ الأسماءُ، وتختَلِفُ الصِّفاتُ[٢]؟!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ أنَّ خَوفَ الإنسانِ مِن المَخلوقِ الخَوْفَ الطَّبيعيَّ لا يُعَدُّ شِركًا؛ فإنَّ ما ذُكِر مِن شدَّةِ الخَوفِ كان خَوفًا مِن مخلوقٍ، لكنَّ الباعثَ عليه الأمرُ الطبيعيُّ، وإذا كان الأمرُ طبيعيًّا فإنَّه لا يُؤاخَذُ به الإنسانُ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أنَّ المخاوِفَ تُربِكُ الإنسانَ حتَّى في تصَوُّراتِه؛ فإنَّ الإنسانَ المُستقِرَّ لا تكونُ عندَه ظُنونٌ مُتباينةٌ مُتعارِضةٌ؛ لأنَّه مُستَقِرٌّ، لكنْ عندَما يحصُلُ الفَزَعُ، وعندَما يحصُلُ الخوفُ تأتي الظُّنونُ مِن كلِّ وَجهٍ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ أنَّ الإنسانَ إذا غَلَبَتْهُ الحالُ حتَّى وردتَ عليه مِثلُ هذه الظُّنونِ؛ فإنَّه لا يَحُطُّ مِن مَرتبتِه، لكنْ إذا استقرَّتْ به الحالُ، وهدأَتْ هذه الظُّنونُ؛ عَرَفَ الحقَّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٤).

٨- قال تعالى: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ فبُنِيتْ للمفعولِ، والمُبتَلِي هو اللهُ سُبحانَه وتعالى، فهو سبحانَه في مقامِ الخَيرِ يُضيفُ الشَّيءَ إلى نَفْسِه تَمَدُّحًا، وفي مَقامِ خِلافِ ذلك تأتي الأفعالُ مَبنيَّةً للمَفعولِ، فالقاعدةُ العامَّةِ؛ «أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَذكُرُ النِّعَمَ مُضافةً إليه، ويَذكُرُ النِّقَمَ غالبًا مَبنيَّةً للمَفعولِ»(١).

٩- قولُه: ﴿ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ سمَّى اللهُ ما أصابَ المؤمنينَ ابتلاءً؛ إشارةً إلى أنَّه لم يُزَعْزِعْ إيمانَهم(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ ابتِداءٌ لِغَرضٍ عظيمٍ مِن أغراضِ نُزولِ هذه السُّورةِ، والَّذي حُفَّ بآياتٍ وعِبَرٍ مِن ابتدائِه ومِن عَواقبِه؛ تَعليمًا للمؤمنينَ وتَذكيرًا؛ لِيَزيدَهم يَقينًا وتَبصيرًا، فافتُتِحَ الكلامُ بتَوجيهِ الخِطابِ إلى المؤمنينَ؛ لأنَّهم أهلُه وأحِقَّاءُ به، ولأنَّ فيه تَخليدَ كَرامتِهم ويَقينِهم، وعِنايةَ اللهِ بهم، ولُطْفَه لهم، وتَحقيرًا لِعَدُوِّهم ومَن يَكيدُ لهم، وأُمِروا أنْ يَذْكُروا هذه النِّعمةَ ولا يَنْسَوها؛ لأنَّ في ذِكرِها تَجديدًا للاعتزازِ بدِينِهم، والثِّقةِ برَبِّهم، والتَّصديقِ لِنَبيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٣).

- وذُكِرَ قولُه: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ تَوطئةً لقولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا ...﴾ إلخ؛ لأنَّ ذلك هو مَحلُّ المِنَّةِ(٤).

- وفي قولِه: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ ﴾ ذُكِرَ (جُنودٌ) هنا بلَفظِ الجمْعِ، معَ أنَّ مُفردَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٧٩).

مُؤذِنٌ بالجماعةِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١]؛ فجمَعَه هنا لأنَّهم كانوا مُتجمِّعينَ مِن عدَّةِ قَبائلَ، لكلِّ قَبيلةٍ جيشٌ، خَرَجوا مُتساندينَ لِغَزْوِ المسلمينَ في المدينةِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه[٢]. وقيل: إنَّها في مَوقعِ الحالِ مِن اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿نِعْمَةَ ٱللَّهِ﴾، وهي إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ نصَرَهم على أعدائِهم؛ لأنَّه عَليمٌ بما لَقِيَه المسلمونَ مِن المشَقَّةِ والمُصابَرةِ في حَفْرِ الخندقِ، والخُروجِ مِن دِيارِهم إلى مَعسكرِهم خارجَ المدينةِ، وبَذْلِهم النُّفوسَ في نَصْرِ دِينِ اللهِ؛ فجازاهُمُ اللهُ بالنَّصرِ المُبينِ، كما قال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾[٣] [الحج: ٤٠].

٢- قوله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾

- قولُه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ لَمَّا كان المُرادُ الفَوقيَّةَ مِن جِهَةِ عُلوِّ الأرضِ، أوضَحَها بقولِه: ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ دونَ أنْ يقولَ: أسْفَلكم، وأفادَ ذلك أيضًا أنَّ مَن في الأسفلِ إنَّما أحاطوا ببَعضِ جِهَةِ الرِّجالِ فقط، ولم يَقُلْ: (ومِن تَحتِكم)؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّه فوقَ الرُّؤوسِ وتحتَ الأرجُلِ، ولم يَقُلْ في الأوَّلِ: (مِن أعلى مِنكم)؛ لئلَّا يكونَ فيه وَصفٌ للكفَرةِ بالعُلوِّ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ قد يكونُ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠١).

على معنى المُبالَغةِ، أي: جاؤوكم مِن جَميعِ الجِهاتِ، كأنَّه قِيل: إذ جاؤوكم مُحيطينَ بكم[١].

- قولُه: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي: مالتْ عن سَننِها ومُستوى نَظرِها، وهو كِنايةٌ عن الحَيرةِ، والشُّخوصِ، وشِدَّةِ الرَّوعِ[٢].

- قولُه: ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ بُلوغُ القُلوبِ الحناجرَ تَمثيلٌ لِشِدَّةِ اضْطرابِ القلوبِ مِن الفزَعِ والهلَعِ -على قولٍ-، حتَّى كأنَّها لاضْطِرابِها تَتجاوَزُ مَقارَّها، وتَرتفِعُ طالبةً الخُروجَ مِن الصُّدورِ، فإذا بلَغَتِ الحناجرَ لم تَستطِعْ تَجاوُزَها مِن الضِّيقِ؛ فشُبِّهَت هيئةُ قلْبِ الهَلوعِ المَرعودِ بهَيئةِ قلْبٍ تَجاوَزَ مَوضعَه، وذهَبَ مُتصاعِدًا طالبًا الخُروجَ، فالمُشبَّهُ القلْبُ نفْسُه باعتبارِ اختلافِ الهَيئتينِ[٣].

- قَولُه: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ لَمَّا كانت هذه حالةً عَرَضتْ، ثمَّ كان مِن أمرِها أنَّها إمَّا زالت، أو ثبَتَت إلى انقِضاءِ الأمرِ؛ عبَّرَ عنها بالماضي لذلك، وتحقيقًا لها[٤].

- قولُه: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ جِيءَ بالفِعلِ المُضارعِ؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ، والدَّلالةِ على استِمرارِ تلك الظُّنونِ وتَجدُّدِها بتَجدُّدِ أسبابِها؛ كِنايةً عن طُولِ مُدَّةِ هذا البَلاءِ. وفي صِيغةِ المضارعِ ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ معنى التَّعجُّبِ مِن ظُنونِهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٢).

لإدماجِ العِتابِ بالامتِنانِ؛ فإنَّ شِدَّةَ الهلَعِ الَّذي أزاغَ الأبصارَ، وجعَلَ القلوبَ بمِثلِ حالةِ أنْ تَبلُغَ الحناجرَ؛ دلَّ على أنَّهم أشْفَقوا مِن أنْ يُهزَموا؛ لِمَا رأَوا مِن قوَّةِ الأحزابِ، وضِيقِ الحِصارِ، أو خافوا طُولَ مُدَّةِ الحربِ، وفَناءَ الأنفُسِ، أو أشْفَقوا مِن أنْ تكونَ مِن الهزيمةِ جَراءةٌ للمشركينَ على المسلمينَ، أو نحوُ ذلك مِن أنواعِ الظُّنونِ، وتَفاوُتِ دَرجاتِ أهْلِها[١].

- وفي قولِه: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ حُذِفَ مَفعولَا (تظنُّون) دونَ وُجودِ دَليلٍ يَدُلُّ على تَقديرِهما؛ فهو حَذْفٌ لِتَنزيلِ الفِعلِ مَنزِلةَ اللَّازمِ، والمقصودُ مِن هذا التَّنزيلِ أنْ تَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ[٢].

- وتعريفُ: ﴿ٱلظُّنُونَا۠﴾ باللَّامِ هو تَعريفُ الجِنسِ، وجَمْعُه للدَّلالةِ على أنواعٍ مِن الظَّنِّ[٣]، يعني: أنَّ الظُّنونَ كانت تدورُ في أذهانِهم أو في أفكارِهم مختلِفةً طولًا وعَرضًا، يعني: هل سيَزولُ هؤلاء الأحزابُ؟ هل سيَقضون علينا؟ هل سننتصرُ[٤]؟

٣- قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ لم يؤكِّدِ الابتِلاءَ بالشِّدَّةِ؛ لِدَلالةِ الافتِعالِ عليها[٥].

- قولُه: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ الزِّلزالُ: اضْطِرابُ الأرضِ، وهو مُضاعَفُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٠١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٣).

(زلَّ) تَضعيفًا يُفِيدُ المُبالَغةَ، والمرادُ به هنا اختلالُ الحالِ اختلالًا شديدًا، بحيثُ تُخَيَّلُ مُضطرِبةً اضطرابًا شديدًا كاضْطرابِ الأرضِ، وهو أشدُّ اضطرابًا؛ لِلحاقِه أعظَمَ جِسمٍ في هذا العالَمِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٣).

## الآيات (١٢-١٧)

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غُرُورًا﴾: أي: باطلًا مِن القولِ، وغَرَرْتُ فلانًا: أصَبْتُ غِرَّتَه، ونِلْتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، وأصلُ (غرر): نقصانٌ[١].

﴿عَوْرَةٌ﴾: أي: مَكشوفةٌ ليست بحَصينةٍ، وأصلُ العَورةِ: ما ذهَبَ عنه السَّترُ والحِفظُ، وكأنَّ الرِّجالَ سَترٌ وحِفظٌ للبُيوتِ، فإذا ذَهَبوا عنها أعوَرَت البُيوتُ[٢].

﴿أَقْطَارِهَا﴾: أي: جوانِبِها ونواحيها، واحِدُها قُطرٌ، والقُطرُ: الجانِبُ والنَّاحيةُ[٣].

﴿ٱلْفِتْنَةَ﴾: أي: الكُفرَ والشِّركَ، والفَتنُ: إدخالُ الذَّهَبِ النَّارَ؛ لِتظهَرَ جودتُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٩٨).

مِن رداءتِه، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتِلاءٍ واختِبارٍ[١].

﴿تَلَبَّثُواْ﴾: أي: احْتَبَسوا، أو: أبطَؤوا، والتَّلَبُّثُ: اللُّبْثُ، أي: الاستقرارُ في المكانِ، يُقالُ: لَبِث بالمكانِ: أقامَ، وأصلُ (لبث): يدُلُّ على تَمَكُّثٍ[٢].

﴿يَعْصِمُكُم﴾: أي: يَمنعُكم ويُجيرُكم، والاعتِصامُ: التَّمسُّكُ بالشَّيءِ، والامتناعُ به، وأصلُ (عصم): يدُلُّ على إمساكٍ ومَنْعٍ ومُلازَمةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).
قال الشنقيطي: (الفتنة أُطْلِقَتْ في القرآنِ ثلاثةَ إطلاقاتٍ، وبعضُهم يقولُ: أربعةُ إطلاقاتٍ. أمَّا الإطلاقاتُ الثَّلاثُ الَّتي لم يُخالِفْ فيها أحَدٌ:
فمنها إطلاقُ الفِتنةِ على «الاختبارِ»، وهو أشهَرُها في القرآنِ.
ومنها إطلاقُ الفتنةِ على «الإحراقِ بالنارِ»؛ لأن العربَ تقولُ: فَتَنْتُ الذَّهبَ، إذا سَبَكْتَه في النَّارِ وأذَبْتَه، أي: لِيَتَبَيَّنَ أخالِصٌ هو أم زائِفٌ. ومِن إطلاقِ الفِتنةِ على مُطْلَقِ الوضعِ في النَّارِ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣] أي: يُحْرَقون بالنَّارِ -والعياذُ بالله...
وكذلك تُطْلَقُ الفِتنةُ على نتيجةِ الاختبارِ إن كانت سيِّئةً خاصَّةً؛ كالمعاصي والكفرِ، فإنَّ الكفَّارَ والعُصاةَ اختَبَرَهم اللهُ بالأوامرِ والنَّواهي، فكانت نتيجةُ الاختبارِ فيهم غيرَ محمودةٍ، حيث كفَروا وعَصَوْا؛ ولذَا يُطْلَقُ اسمُ «الفتنةِ» على الكفرِ والمعاصي، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣] أي: حتَّى لا يَبقى شِرْكٌ.
الرَّابعُ: إطلاقُ الفتنةِ بمعنَى «الحجَّةِ»، كما قاله بعضُ العلماءِ في قولِه...: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣] أي: حُجَّتُهم). ((العذب النمير)) (١/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩)، ((ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن)) لغلام ثعلب (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٠).

﴿وَلِيًّا﴾: أي: يَلِيهم بالكفايةِ، أو: قريبًا يَنْفَعُهم، والوليُّ: الحَليفُ والنَّاصرُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما جرَى مِن المنافقينَ في غزوةِ الأحزابِ: واذكُرْ إذ يقولُ المُنافِقونَ: ما وعَدَنا اللهُ ورَسولُه إلَّا وُعودًا كاذِبةً لا حقيقةَ لها! وإذ قالت طائفةٌ مِن هؤلاءِ المُنافِقينَ: يا أهلَ يَثرِبَ لا إقامةَ لكم هنا للقِتالِ؛ فارجِعوا إلى بُيوتِكم. ويَستأذِنُ فَريقٌ منهم النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للانصرافِ إلى منازِلِهم، يقولونَ مُعتَذِرينَ: إنَّ بُيوتَنا مَكشوفةٌ للعَدُوِّ، فنَخشى أن يَهجُمَ عليها العَدُوُّ!

وليست بيوتُ هؤلاءِ المُنافِقينَ مَكشوفةً للعَدُوِّ، ولكِنَّهم يُريدونَ الفِرارَ مِن الجِهادِ، ولو دَخَل الأحزابُ المدينةَ مِن نواحيها على هؤلاءِ الَّذين يقولونَ إنَّ بُيوتَنا مَكشوفةٌ، ثمَّ سَألوهم الرُّجوعَ مِن الإيمانِ إلى الكفرِ لأجابوهم فيما طُلِبَ منهم، وما تَرَدَّدوا عن إجابتِهم إلَّا زَمَنًا قَليلًا، ولقد عاهَدَ هؤلاءِ المُنافِقونَ اللهَ مِن قَبْلِ هذه الغَزوةِ ألَّا يَفِرُّوا، فأخلَفوا العَهدَ، وكان عهدُ اللهِ مَسؤولًا عنه.

قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الَّذين يَستأذِنونَك في الانصرافِ عن الجِهادِ: لن يَنفَعَكم الفِرارُ إن فرَرتُم مِن الموتِ أو القَتلِ؛ فلن يَزيدَ ذلك في أعمارِكم شَيئًا، وإنَّما ستُمَتَّعونَ في الدُّنيا قليلًا، ثمَّ تُرجَعونَ إلى اللهِ تعالى.

قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: مَن هذا الَّذي يمنَعُكم مِن اللهِ إن أراد بكم سُوءًا أو أراد بكم رَحمةً؟! ولا يجِدُ أولئك المنافِقونَ مِن دونِ اللهِ وَليًّا يَتولَّى أمورَهم، ولا نصيرًا يَدفَعُ عنهم عذابَ الله!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٤).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها عَطفٌ على ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأحزاب: ١٠]؛ فإنَّ ذلك كُلَّه ممَّا أَلحقَ بالمُسلِمينَ ابتلاءً، فبَعضُه مِن حالِ الحَربِ، وبَعضُه مِن أذى المنافِقينَ؛ لِيَحذَروا المنافِقينَ فيما يَحدُثُ مِن بَعْدُ، ولئلَّا يَخشَوا كَيْدَهم؛ فإنَّ اللهَ يَصرِفُه كما صرَفَ أشَدَّه يومَ الأحزابِ[1].

﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ إذْ[2] يقولُ المنافِقونَ وضِعافُ الإيمانِ الَّذين في قُلوبِهم شَكٌّ وشُبهةٌ: ما وعَدَنا اللهُ ورَسولُه مِنَ النَّصرِ والتَّمكينِ إلَّا وُعودًا كاذِبةً باطِلةً لا وَفاءَ لها[3]!

﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٨، ٣٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمرضِ: الشَّكُّ وضَعفُ الاعتِقادِ: البيضاويُّ، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٠٦).

وقيل: المرضُ: الشُّبهةُ. وممَّن اختاره: ابنُ كثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥٥).

وقال أبو حيَّان: (الَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ: هم ضُعفاءُ الإيمانِ، الَّذين لم يَتمكَّنِ الإيمانُ مِن قُلوبِهم، فهم على حَرفٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٩).

ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما هو الأصلُ في نِفاقِ المنافِقينَ، وهو التَّكذيبُ؛ أتْبَعَه ما تفرَّع عليه[١].

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾.

أي: وإذ قالت طائفةٌ مِنَ المنافِقينَ: يا أهلَ يَثرِبَ لا إقامةَ لكم هنا للرِّباطِ والقِتالِ؛ فارجِعوا إلى بُيوتِكم هارِبينَ، واترُكوا الرَّسولَ وأصحابَه[٢].

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾.

أي: ويَطلُبُ فَريقٌ مِنَ المنافِقينَ الإذْنَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالانصرافِ إلى منازِلِهم، يَقولونَ مُعتَذِرينَ: إنَّ بُيوتَنا ليست بحَصينةٍ، فنَخشَى أن يَهجُمَ عليها العدُوُّ، فنُريدُ الانصِرافَ لحِراستِها[٣].

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾.

أي: وليست بُيوتُ هؤلاء المنافِقينَ مَكشوفةً للعَدُوِّ كما يدَّعونَ، ولكِنَّهم يُريدونَ بهذا الفِرارَ مِنَ الجِهادِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢، ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٤، ١٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥١، ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١١٦، ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٤٩)، ((مجموع =

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:

في قوله تعالى: ﴿لَآتَوْهَا﴾ قِراءتان:

١- ﴿لَأَتَوْهَا﴾ مقصورةٌ بغيرِ مَدٍّ؛ أي: لَجاؤُوها[١].

٢- ﴿لَآتَوْهَا﴾ بالمدِّ، أي: لَأَعْطَوْها مِن أنفُسِهم، وأجابوا إليها[٢].

﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا ﴾.

أي: ولو دخَلَ الكُفَّارُ المتحَزِّبونَ المدينةَ مِن نواحيها على هؤلاء الَّذين يَقولونَ: إنَّ بُيوتَنا عَورةٌ، ثمَّ سألوهم الرُّجوعَ مِن الإيمانِ إلى الكفرِ[٣]، لَفَعَلوا

---

= الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(١) قرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٨)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٤٥٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٨٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٨٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٧٤).

قال السمين: (المعنى: ولو دُخِلَتِ البُيوتُ أو المدينةُ مِن جميعِ نواحيها، ثمَّ سُئِل أهلُها الفِتنةَ لم يَمتنِعوا مِن إعطائها. وقراءةُ المَدِّ تَستلزِمُ قِراءةَ القَصرِ مِن غيرِ عكسٍ بهذا المعنى الخاصِّ). ((الدر المصون)) (٩/ ١٠٢).

(٣) قال الواحدي: (﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا﴾ يعني: الشِّركَ، في قَولِ الجميعِ). ((الوسيط)) (٣/ ٤٦٢). وممَّن قال بأنَّ الفِتنةَ هنا هي الكُفرُ أو الشِّركُ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والواحدي، والسمعاني، وابن الجوزي، وابن تيميَّة، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٠)، ((تفسير =

ما طُلِبَ منهم[١]!

﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا﴾.

أي: ولَأَسرعَ المُنافِقونَ إلى إعطائِهم ما سألوهم مِنَ الفِتنةِ، ولم يَترَدَّدوا عن إجابتِهم إلَّا زمَنًا قَليلًا[٢]!

---

= السمعاني)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٢٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٨٠).

وقيل: الفتنةُ: القتالُ في العصَبيَّةِ. قاله الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٠).

وقيل: الفِتنةُ هي الخُروجُ مِنَ المدينةِ فارِّينَ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٠٨).

وقال ابنُ عاشور: (والفتنةُ هي أن يَفْتِنوا المسلمينَ، أي: الكَيْدُ لهم، وإلقاءُ التَّخاذُلِ في جيشِ المسلمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٨).

قال ابنُ عثيمين: («أتى» بمعنى جاء، و«آتى» بمعنى أعطى، وتفسيرُ القِراءتَينِ أو مجموعُ التَّفسيرِ يدُلُّ على أنَّهم يُعطُون ما سُئِلوا، ويَأتونَ إليه بانقيادٍ... فهؤلاء قومٌ يُعطُون ما سُئِلوا عن اختيارٍ؛ ولهذا في القِراءةِ الثَّانيةِ: ﴿لَأَتَوْهَا﴾ أي: لَجاؤُوها). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٢٤) بتصرف.

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥، ٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

قيل: المرادُ: أسرَعوا إلى الإجابةِ إلى الشِّركِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير، والسعدي، ونسبه القرطبيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥).

وذهب الفرَّاءُ والقرطبيُّ إلى أنَّ المعنى: ولم يلبَثِ المنافِقونَ بالمدينةِ بعدَ كُفرِهم إلَّا قليلًا =

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ﴾.

أي: ولقد كان هؤلاءِ المُنافِقونَ المُنصَرِفونَ عن الجِهادِ مع رَسولِ اللهِ، القائلونَ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ عاهَدوا اللهَ مِن قَبلِ هذه الغَزوةِ وحالةِ الخَوفِ الَّتي أصابَتْهم: ألَّا يَفِرُّوا، فأخلَفوا اللهَ ما وَعَدوه[1].

﴿ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴾.

أي: وكان عَهدُ اللهِ مَسؤولًا عنه؛ فسيَسأَلُهم اللهُ يومَ القيامةِ، ويُحاسِبُهم عن العَهدِ الَّذي نَقَضوه[2].

---

= حتَّى يَهلِكوا. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢١).

وقيل: المعنى: لو سَأَل الجَيشُ الدَّاخِلُ الفريقَ المُستأذِنينَ أن يُلْقُوا الفِتنةَ في المُسلِمينَ بالتَّفريقِ والتَّخذيلِ، لخرَجوا لذلك القَصدِ مُسرِعينَ، ولم يُثبِّطْهم الخَوفُ على بُيوتِهم أن يَدخُلَها اللُّصوصُ أو يَنهَبَها الجيشُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

قال القرطبي: (قولُه تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ أي: مِن قبْلِ غزوةِ الخندقِ وبعدَ بَدْرٍ. قال قَتادةُ: وذلك أنَّهم غابوا عن بدرٍ ورَأَوْا ما أعطَى اللهُ أهلَ بدرٍ مِن الكرامةِ والنَّصرِ، فقالوا: لَئِنْ أشْهَدنا اللهُ قتالًا لَنُقاتِلَنَّ. وقال يَزيدُ بنُ رُومانَ: هم بنو حارِثةَ، هَمُّوا يومَ أُحُدٍ أنْ يَفْشَلوا مع بَني سَلِمةَ، فلَمَّا نَزَل فيهم ما نَزَل عاهَدوا اللهَ ألَّا يَعودوا لمِثْلِها، فذَكَر اللهُ لهم الَّذي أعْطَوْه مِن أنفسِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٩).

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لأولئك الَّذين يَستأذِنونَك في الانصِرافِ عن الجِهادِ: لن يَنفَعَكم الهرَبُ -الَّذي ما كان استِئذانُكم إلَّا بسَبَبِه- إنْ هرَبتُم مِنَ الموتِ أو القَتلِ؛ فهو لا يُؤخِّرُ آجالَكم، فمَن حَضَر أجَلُه فلا بُدَّ مِن وُقوعِ ما كتَبَه اللهُ عليه بلا تأخيرٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٧، ٧٨].

﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: وإذا فَرَرتُم مِنَ الموتِ أو القَتلِ فلن يَزيدَ ذلك في أعمارِكم شَيئًا، وإنَّما ستُمَتَّعونَ في الدُّنيا قليلًا إلى الوَقتِ الَّذي تنقَضي فيه أعمارُكم المكتوبةُ عندَ اللهِ تعالى[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩١).

كما قال سُبحانَه: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ - ٢٠٧].

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء الَّذين يَنصَرِفونَ عن الجِهادِ هَرَبًا مِنَ القَتلِ: مَنِ الَّذي يمنَعُكم مِن اللهِ إن أراد بكم سُوءًا في أنفُسِكم، كقَتلٍ أو بلاءٍ؛ أو أراد بكم رَحمةً، كعافيةٍ وسَلامةٍ ونَصرٍ؟ فاللهُ تعالى وَحْدَه هو المعطي المانِعُ، الَّذي لا يأتي بالخَيرِ إلَّا هو، ولا يدفَعُ الشَّرَّ إلَّا هو؛ فلا الفِرارُ مانعٌ مِنَ السُّوءِ إن أراد اللهُ تعالى وُقوعَه بكم، ولا البَقاءُ جالبٌ للرَّحمةِ[1].

﴿ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

أي: ولا يجِدُ أولئك المنافِقونَ وَليًّا يَتولَّى أمورَهم وينفَعُهم، ولا يجِدونَ نَصيرًا يَدفَعُ عنهم عذابَ اللهِ حينَ يَنزِلُ بهم[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ المُنافِقينَ أصحابُ غَدرٍ وخِيانةٍ؛ لِقَولِه تعالى عنهم: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾، وهم هنا يُحاوِلونَ الإدبارَ، لكِنَّهم يُمَوِّهون

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٣٨).

بسُؤالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم واستِئذانِه، ويتفرَّع على ذلك أنَّه إذا كان الغَدرُ مِن صِفاتِ المنافِقينَ فالواجِبُ على المؤمِنِ البُعدُ عنه، ولو لم يكُنْ مِن الغَدرِ إلَّا أنَّه مِن صِفاتِ المنافِقينَ لَكان ذلك كافيًا في وُجوبِ البُعدِ والحَذَرِ منه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الأمورَ مُقَدَّرةٌ، لا يمكِنُ الفِرارُ مِمَّا وقع عليه القَرارُ، وما قدَّرَه اللهِ كائِنٌ؛ فمَن أُمِرَ بشَيءٍ، إذا خالفَه يبقَى في وَرْطةِ العِقابِ آجِلًا، ولا ينتَفِعُ بالمخالَفةِ عاجِلًا[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ المقصودُ مِن الآيةِ تخليقُ المُسلِمينَ بخُلُقِ استِضعافِ الحياةِ الدُّنيا، وصَرْفُ هِمَمِهم إلى السَّعيِ نحوَ الكَمالِ الَّذي به السَّعادةُ الأبَديَّةُ؛ سَيْرًا وراءَ تعاليمِ الدِّينِ الَّتي تقودُ النُّفوسَ إلى أوْجِ المَلَكيَّةِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ يُبَيِّنُ أنَّ الأسبابَ كُلَّها لا تُغْني عن العَبدِ شَيئًا إذا أراده اللهُ بسُوءٍ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ حَثٌّ على تَعَلُّقِ الإنسانِ باللهِ سُبحانَه وتعالى دونَ غَيرِه، فإذا كان الأمرُ كلُّه بيدِ اللهِ تعالى، فإنَّ الإنسانَ يتعلَّقُ برَبِّه دونَ غَيرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦١، ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٠).

٦- قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ فأخبَرَ سُبحانَه أنَّ العبدَ لا يَعصِمُه أحدٌ مِنَ اللهِ إن أراد به سوءًا غيرَ الموتِ الَّذي فَرَّ منه؛ فإنَّه فرَّ مِن الموتِ لَمَّا كان يَسوؤُه، فأخبر اللهُ سُبحانَه أنَّه لو أراد به سوءًا غَيرَه لم يعصِمْه أحدٌ مِن الله، وأنَّه قد يَفِرُّ ممَّا يَسوؤُه مِن القَتلِ فى سبيلِ الله، فيَقعُ فيما يسوؤُه ممَّا هو أعظَمُ منه، وإذا كان هذا فى مُصيبةِ النَّفسِ، فالأمرُ هكذا فى مُصيبةِ المالِ والعِرضِ والبَدَنِ؛ فإنَّ مَن بَخِل بمالِه أن يُنفِقَه فى سَبيلِ اللهِ تعالى وإعلاءِ كَلمتِه، سلَبَه اللهُ إيَّاه، أو قيَّض له إنفاقَه فيما لا ينفَعُه دُنيا ولا أخرى، بل فيما يعودُ عليه بمضَرَّتِه عاجِلًا وآجِلًا، وإنْ حَبَسَه وادَّخَره مَنَعَه التمَتُّعَ به، ونَقَله إلى غيرِه؛ فيكونُ له مَهنَؤُه وعلى مُخلِّفِه وِزرُه! وكذلك مَن رَفَّه بدَنَه وعِرضَه، وآثَرَ راحتَه على التَّعَبِ لله وفى سَبيلِه، أتعَبَه الله سُبحانَه أضعافَ ذلك فى غيرِ سَبيلِه ومَرضاتِه، وهذا أمرٌ يَعرِفُه النَّاسُ بالتَّجارِبِ(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ هذه عادةُ المنافِقِ عندَ الشِّدَّةِ والمِحنةِ: لا يَثبُتُ إيمانُه، ويَنظُرُ بعَقلِه القاصِرِ إلى الحالةِ القاصِرةِ، ويُصدِّقُ ظَنَّه(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ﴾ بيانُ إرْجَافِ المنافقينَ بالمؤمنينَ، والإرْجافُ: هو أنْ يُذْكَرَ للإنسانِ ما يكونُ به الخوفُ والقلقُ، فهؤلاء مُرْجِفُونَ، ويقولونَ: ليس هنا مُقَامٌ لكم؛ لأنَّه خطرٌ عليكم! ولهذا قالوا: ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾، فيُستفادُ منه أنَّ المنافقينَ مِن شأنِهم الإرجافُ بالمؤمنينَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١١٩).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ ﴾ أنَّ كلَّ مَن دعا إلى الرُّجوعِ عن الحقِّ ففيه شَبَهٌ بالمنافِقينَ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ عَدَلوا عن الاسم الذي وسَمَها به النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم -من المدينةِ وطَيبةَ، مع حُسنِه- إلى الاسمِ الَّذي كانت تُدعَى به قديمًا، مع احتمالِ قُبحِه؛ باشتِقاقِه مِن (الثَّرْبِ) الذي هو اللَّومُ والتَّعنيفُ؛ إظهارًا للعُدولِ عن الإسلامِ[٢].

٥- أنَّ الاعتزازَ بالوطنِ حَميَّةً للوَطَنِ: مِن صِفاتِ المنافِقينَ؛ لِقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾، وقصْدُهم بذلك إحماءُ حَميَّتِهم الوَطنيَّةِ، وأمَّا الحديثُ الَّذي يُروى: (حُبُّ الوطنِ مِن الإيمانِ) فإنَّه كَذِبٌ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وليس بصَحيحٍ. أمَّا الاعتزازُ بالوطَنِ؛ لِكَونِه إسلاميًّا: فهذا لا بأسَ به[٣]، فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّ الدِّينَ والأُخُوَّةَ الإيمانيَّةَ ليس له في قُلوبِهم قَدرٌ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ دَليلٌ على تمويهِ المنافِقِ، وإظهارِ حالِه بحالِ المؤمِنِ المُنقادِ الَّذي لا يَنصرِفُ إلَّا بعدَ الاستئذانِ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٦).

وفي الحديثِ: ((يقولونَ يَثْرِبُ، وهي المدينةُ)) أخرجه البخاري (١٨٧١) ومسلم (١٣٨٢)، قال النووي: (قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم «يقولونَ: يثربُ، وهي المدينةُ» يعني أنَّ بعضَ النَّاسِ مِن المنافقينَ وغيرِهم يُسمُّونها «يثربَ»، وإنَّما اسمُها «المدينةُ وطابةُ وطيبةُ»، ففي هذا كراهةُ تسميتِها «يثربَ»... وأمَّا تسميتُها في القرآنِ «يثربَ» فإنَّما هو حكايةٌ عن قولِ المنافقينَ والذين في قلوبِهم مرضٌ). ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٢١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ مشروعيَّةُ إبطالِ قولِ النَّاطقِ بالباطلِ[١].

٨- في قَولِه تعالى -عن المنافقين-: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ أنَّ كلَّ مَن نَقَضَ العهدَ ففيه شَبَهٌ مِن المنافقين؛ ولهذا جاء الحديثُ عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((أربَعٌ مَن كُنَّ فيه كان مُنافِقًا خالصًا))، ومنها: ((إذا عَاهَدَ غَدَر))[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ تحريمُ توليةِ الأدبارِ عندَ ملاقاةِ العدوِّ؛ وجهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر هذا عن المنافقينَ تحذيرًا منه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ دَليلٌ على أنَّ عَهدَ اللهِ يَدخُلُ فيه ما عَقَده المَرءُ على نفْسِه، وإنْ لم يكُنِ اللهُ قد أمَرَ بنَفسِ ذلك المعهودِ عليه قبْلَ العَهدِ[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ شَديدةٌ مُسكِتةٌ؛ لذِكرِ «إرادةِ السُّوءِ» بلَفظِه، فإنْ قالوا: لا يُريدُ سوءًا، إنَّما مَثَّلَ فقال: إنْ أرادَ، وهو لا يُريدُ. قيل له: فما تُنكِرونَ على مَن يقولُ لكم: والرَّحمةُ أيضًا لم يُرِدْها، ولكِنَّه مَثَّلَ! وهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٦).

والحديث أخرجه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨) من حديث عبد الله بن عَمرٍو رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٩/ ١٣٨).

وذاك جَهْلٌ؛ يريدُ اللهُ بخلْقِه السُّوءَ بعَدلِه، لا مُعَقِّبَ لحكمِه، ويُريدُ بهم الرَّحمةَ بفَضلِه[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ... ﴾ فيه التَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارِعِ (يَقُولُ)؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ القولِ، واستحضارِ صُورتِه[٢].

- قولُه: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ... ﴾ ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ همُ المُظهِرون الإيمانَ، المُبطِنون الكفْرَ. و(الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) همْ ضُعفاءُ الإيمانِ الَّذين لمْ يَتمكَّنِ الإيمانُ مِن قُلوبِهم -على قَولٍ-، فهُمْ على حَرْفٍ، والعطْفُ دالٌّ على التَّغايُرِ؛ نَبَّه عليهم على جِهَةِ الذَّمِّ[٣].

- وقولُ المُنافقينَ: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ يَحتمِلُ أنْ يَكونوا قالوهُ عَلنًا بيْنَ المسلمينَ، قَصَدوا به إدخالَ الشَّكِّ في قُلوبِ المؤمنينَ؛ لعلَّهم يَرُدُّونَهم عن دِينِهم، فأوْهَموا بقولِهم: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ... ﴾ إلخ، أنَّهم ممَّن يُؤمِنُ باللهِ ورسولِه؛ فنِسبةُ الغُرورِ إلى اللهِ ورسولِه إمَّا على معنَى التَّشبيهِ البليغِ، وإمَّا لأنَّهم بجَهْلِهم يُجوِّزون على اللهِ أنْ يَغُرَّ عِبادَه! ويَحتمِلُ أنَّهم قالوا ذلك بيْنَ أهْلِ مِلَّتِهم، فيكونُ نِسبةُ الوعدِ إلى اللهِ ورسولِه تَهكُّمًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٤).

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾

- نِداؤُهم إيَّاهم بعُنوانِ أهليَّتِهم لها ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾: تَرشيحٌ لِمَا بعْدَه مِن الأمْرِ بالرُّجوعِ إليها[١].

- ومُرادُهم بقولِهم: ﴿فَٱرْجِعُواْ﴾ الأمرُ بالفِرارِ، لكنَّهم عبَّروا عنه بالرُّجوعِ؛ تَرويجًا لِمَقالِهم، وإيذانًا بأنَّه ليس مِن قَبيلِ الفِرارِ المَذمومِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ﴾ جِيءَ بالفِعلِ المُضارعِ في ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لاستِحضارِ الصُّورةِ، وللإشارةِ إلى أنَّهم يُلِحُّون في الاستئذانِ ويُكَرِّرونَه ويُجَدِّدونه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّه لمْ يَأذَنْ لهمْ[٣].

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ استِئنافٌ مَبْنيٌّ على السُّؤالِ عن كيفيَّةِ الاستِئذانِ. والعَورةُ في الأصلِ: الخلَلُ؛ أُطلِقَت على المُختَلِّ مُبالَغةً، وهو أنسَبُ بمَقامِ الاعتِذارِ، كما يُفصِحُ عنه تَصديرُ مَقالِهم بحَرْفِ التَّحقيقِ (إنَّ)[٤].

- وأيضًا التَّأكيدُ بحَرْفِ (إنَّ) في قولِهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾: تَمويهٌ؛ لإظهارِ قولِهم: ﴿بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ في صُورةِ الصِّدقِ. ولَمَّا عَلِموا أنَّهم كاذِبونَ، وأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعلَمُ كَذِبَهم؛ جَعَلوا تَكذيبَه إيَّاهم في صُورةِ أنَّه يَشُكُّ في صِدقِهم، فأكَّدوا الخبَرَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٦).

- وقولُه: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ تكذيبٌ لهم، ولمْ يُقرَنْ هذا التَّكذيبُ بمُؤكِّدٍ؛ لإظهارِ أنَّ كَذِبَهم واضحٌ غيرُ مُحتاجٍ إلى تأكيدٍ(١).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ مَوقعُ هذه الآيةِ زِيادةُ تَقريرٍ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]؛ فإنَّها لِتكذيبِهم في إظهارِهم التَّخوُّفَ على بُيوتِهم، ومُرادُهم خَذْلُ المسلمينَ، ومَساقُ نَظمِ الآيةِ؛ لِبَيانِ أنَّهم إذا دُعُوا إلى الحقِّ تعلَّلوا بشَيءٍ يَسيرٍ، وإنْ دُعوا إلى الباطلِ سارَعوا إليه آثِرَ ذي أثيرٍ(٢)، مِن غيرِ صارفٍ يَلْويهم، ولا عاطفٍ يَثْنِيهم(٣).

- قولُه: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ حُذِفَ الفاعلُ؛ للإيماءِ بأنَّ دُخولَ هؤلاء المُتحزِّبينَ عليهم، ودُخولَ غيرِهم مِن العساكرِ، سِيَّانِ في اقتضاءِ الحُكمِ المُرتَّبِ عليه(٤). أو لِظُهورِ أنَّ فاعلَ الدُّخولِ قَومٌ غُزاةٌ(٥).

- وإضافةُ (أقطار) -وهو جمْعٌ- تُفيدُ العُمومَ، أي: مِن جميعِ جوانبِ المدينةِ، لا مِن بَعضِها دونَ بعضٍ(٦).

- وأسنَدَ الدُّخولَ إلى بُيوتِهم، وأوقَعَ ﴿عَلَيْهِم﴾؛ لِمَا أنَّ المرادَ فَرْضُ دُخولِها وهمْ فيها، لا فرْضُ دُخولِها مُطلقًا، كما هو المفهومُ لو لم يُذكَرِ الجارُّ والمجرورُ، ولا فَرْضُ الدُّخولِ عليهم مُطلقًا، كما هو المفهومُ لو أُسنِدَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٦).

(٢) آثِرَ ذي أثيرٍ: أي: أوَّلَ كُلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٧).

(٦) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

الجارِّ والمجرورِ[١].

- وعبَّر بأداةِ الاستعلاءِ، فقال: ﴿عَلَيْهِم﴾؛ إشارةً إلى أنَّه دخولُ غَلَبةٍ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا﴾ (ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ، وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُعطَفَ بالواوِ لا بـ (ثُم)؛ لأنَّ المذكورَ بعدَ (ثمَّ) هنا داخلٌ في فِعلِ شَرْطِ (لو)، وَواردٌ عليه جوابُها؛ فعُدِلَ عن الواوِ إلى (ثُمَّ) للتَّنبيهِ على أنَّ ما بعْدَ (ثُمَّ) أهَمُّ مِن الَّذي قبْلَها[٣].

- والاستثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ يَظهَرُ أنَّه تَهكُّمٌ بهمْ؛ فيكونُ المقصودُ تَأكيدَ النَّفيِ بصُورةِ الاستثناءِ. ويَحتمِلُ أنَّه على ظاهِرِه، أي: إلَّا رَيْثما يَتأمَّلون، فلا يُطِيلون التَّأمُّلَ؛ فيكونُ المَقصودُ مِن ذِكرِه تأْكيدَ قِلَّةِ التَّلبُّثِ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾ تَأكيدُ الخبَرِ بلامِ القَسَمِ، وحَرفِ التَّحقيقِ (قدْ)، وفِعلِ (كان) -مع أنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ إلى المؤمنينَ-؛ تَنزيلًا للسَّامعينَ مَنزِلةَ مَن يَتردَّدُ في أنَّهم عاهَدوا اللهَ على الثَّباتِ، وزِيادةُ ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك العهدَ قَديمٌ مُستقِرٌّ[٥].

- وتَوليةُ الأدبارِ: كِنايةٌ عن الفِرارِ، فإنَّ الَّذي استَأْذَنوا لأجْلِه في غَزوةِ الخندقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٨٩).

أرادوا منه الفرارَ؛ ألَا تَرى قولَه: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، والفرارَ ممَّا عاهَدوا اللهَ على تَرْكِه[١].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾، والمسؤولُ: كِنايةٌ عن المُحاسَبِ عليه؛ فهذا تَهديدٌ ووَعيدٌ[٢].

٥- قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

- قولُه: ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم ...﴾ جوابٌ عن قولِهم: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣]؛ ولذلك فُصِلَت -أي: لم تُعطَفْ على ما قَبْلَها-؛ لأنَّها جرَتْ على أُسلوبِ التَّقاوُلِ والتَّجاوُبِ. وما بيْنَ الجُملتينِ مِن قولِه: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ إلى قولِه: ﴿مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب: ١٤، ١٥]، اعتراضٌ[٣]. وهو خِطابُ تَوبيخٍ، وإعلامٍ أنَّ الفِرارَ لا يُنجِّي مِن القدَرِ، وأنَّه تَنقطِعُ أعمارُهم في يَسيرٍ مِن المُدَّةِ[٤].

- قولُه: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ جَوابٌ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه المذكورُ، أي: إنْ خُيِّلَ إليكم أنَّ الفِرارَ نفَعَ الَّذي فَرَّ في وَقتٍ ما، فما هو إلَّا نفْعٌ زَهيدٌ؛ لأنَّه تأخيرٌ في أجَلِ الحَياةِ، وهو مَتاعٌ قليلٌ[٥].

٦- قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩١).

رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

- قولُه: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ... ﴾ الظَّاهرُ أنَّ هذه الجُملةَ واقعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم﴾ الآيةَ [الأحزاب: ١٦]، فكأنَّه قِيل: فمَن ذا الذي يَعصِمُكم مِن اللهِ؟ أي: فلا عاصمَ لكمْ مِن نُفوذِ مُرادِه فيكم. وإعادةُ فِعلِ (قُل) تَكريرٌ؛ لأجْلِ الاهتمامِ بمَضمونِ الجُملةِ[1].

- والاستِفهامُ الإنكاريُّ في قولِه: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ في مَعنى النَّفيِ لاعتِقادِهم أنَّ الحِيلةَ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَنفَعُهم، وأنَّ الفِرارَ يَعصِمُهم مِن الموتِ إنْ كان قِتالٌ[2].

- قولُه: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ في الآيةِ اختصارٌ؛ فقد جُعِلَت الرَّحمةُ قَرينةَ السُّوءِ في العِصمةِ، ولا عِصمةَ إلَّا مِن السُّوءِ؛ وذلك لأنَّ معناهُ: أو يُصِيبُكم بسُوءٍ إنْ أراد بكمْ رحمةً، فاختُصِرَ الكلامُ، أو حُمِلَ الثَّاني على الأوَّلِ؛ لِمَا في العِصمةِ مِن مَعنى المنْعِ[3].

- قولُه: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾ قُوبِلَ السُّوءُ بالرَّحمةِ؛ لأنَّ المُرادَ سُوءٌ خاصٌّ، وهو السُّوءُ المَجعولُ عَذابًا لهم على مَعصيةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو سُوءُ النِّقمةِ؛ فهو سُوءٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٢).
قال أبو حيان: (أمَّا الوجهُ الأوَّلُ ففيه حذفُ جملةٍ لا ضرورةَ تدعُو إلى حذفِها، والثَّاني هو الوجهُ، لا سِيَّما إذا قُدِّر مضافٌ محذوفٌ، أي: يمنعُكم مِن مرادِ الله). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٢).

خاصٌّ مُقدَّرٌ مِن اللهِ لأجْلِ تَعذيبِهم إنْ أرادهُ؛ فيَجْري على خِلافِ القوانينِ المُعتادةِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ الكلامُ مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وليس هو مِن قَبيلِ الالتِفاتِ، والمقصودُ لازِمُ الخبَرِ؛ وهو إعلامُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ببُطلانِ تَحيُّلاتِهم، وأنَّهم لا يَجِدون نَصيرًا غيرَ اللهِ، وقد حرَمَهم اللهُ النَّصرَ؛ لأنَّهم لم يَعقِدوا ضَمائرَهم على نَصرِ دِينِه ورسولِه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٩٣).

## الآيات (١٨-٢٠)

﴿ ۞ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨ أَشِحَّةً عَلَيۡكُمۡۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلۡخَوۡفُ سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلۡخَيۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ١٩ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ٢٠ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمُعَوِّقِينَ﴾: أي: المُثَبِّطينَ الصَّارِفينَ عن طَريقِ الخَيرِ، يُقالُ: عاقه واعتاقَه وعَوَّقه: إذا صَرَفه عن الوَجهِ الَّذي يُريدُه، والتَّعويقُ: ترغيبُ النَّاسِ عن الخيرِ[١].

﴿هَلُمَّ﴾: أي: تَعالَوا إلينا، وهي كَلِمةٌ تدُلُّ على دَعوةٍ إلى شَيءٍ[٢].

﴿ٱلۡبَأۡسَ﴾: أي: القِتالَ والحَربَ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضاهاها[٣].

﴿أَشِحَّةً﴾: أي: بُخلاءَ ليس فيهم خَيرٌ، والشُّحُّ: بُخلٌ مع حِرصٍ، وأصلُ (شحح): يدُلُّ على مَنعٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ١٥٤))، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٨)، =

﴿سَلَقُوكُم بِأَلۡسِنَةٍ حِدَادٍ﴾: أي: آذَوكم بالكَلامِ بألسِنةٍ سَليطةٍ، والسَّلقُ: قُوَّةُ الصَّوتِ والصِّياحِ، وبَسطُ اللِّسانِ[1].

﴿ٱلۡأَحۡزَابُ﴾: أي: الجماعاتِ، وهم كفَّارُ قريشٍ، ومَن معهم، جمعُ حِزبٍ، والحزبُ: الجماعةُ مِن النَّاسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، أو: كلُّ طائفةٍ هواهم واحدٌ، يُقالُ: تحزَّب القومُ: إذا تجمَّعوا فصاروا أحزابًا، والطَّائفةُ مِن كُلِّ شَيءٍ حِزْبٌ، وأصلُ (حزب): تَجَمُّعُ الشَّيءِ[2].

﴿بَادُونَ﴾: أي: مُقيمونَ في الباديةِ، يقالُ: بَدا يَبْدو بَداوةً: إذا خرَجَ إلى الباديةِ، والبَدْوُ: ضِدُّ الحَضَرِ؛ سُمِّيَ بَدْوًا لأنَّ سُكَّانَه بادُونَ، أي: ظاهِرونَ لكُلِّ واردٍ؛ إذ لا تَحجُبُهم جُدرانٌ، ولا تُغلَقُ عليهم أبوابٌ، وأصلُ (بدو): يدُلُّ على الظُّهورِ والبُروزِ[3].

﴿ٱلۡأَعۡرَابِ﴾: جَمعُ أعرابيٍّ، وهم أهلُ البَدْوِ، وأصلُ (عرب): يدُلُّ على إبانةٍ وإفصاحٍ[4].

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٠).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مهدِّدًا هؤلاءِ المنافقينَ، ومبيِّنًا أنَّ عِلمَه محيطٌ بهم، وأنَّهم لن يُفلِتوا مِن عِقابِه: قد يَعلَمُ اللهُ المثبِّطينَ الَّذين يَصُدُّونَ النَّاسَ عن الخُروجِ للجِهادِ، والقائِلينَ لإخوانِهم: أقبِلوا إلينا ودَعُوا الجِهادَ، ولا يَشهَدونَ الحَربَ إلَّا زَمَنًا قليلًا رياءً وسُمْعةً.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى بعضَ صفاتِ المنافقينَ، فيقولُ: أشِحَّةً على المؤمِنينَ، بُخلاءَ بكُلِّ خَيرٍ يَصِلُ إليهم، فإذا جاء القِتالُ رأيتَ المنافِقينَ مِن شِدَّةِ خَوفِهم يَنظُرونَ إليك -يا مُحمَّدُ- تدورُ أعينُهم كدَوَرانِ عَينِ مَن يُغشَى عليه عندَ مَوتِه، فإذا ذهَبَ الخَوفُ وأمِنَ المنافِقونَ، تكَلَّموا بكلامٍ شَديدٍ قَوِيٍّ، بُخلاءَ بكلِّ ما فيه للمؤمنينَ مَنفعةٌ. أولئك المنافِقونَ لم يُؤمِنوا فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم، وكان إحباطُ اللهِ أعمالَهم سَهلًا عليه سُبحانَه.

يظُنُّ أولئك المنافِقونَ -لشِدَّةِ خَوفِهم- أنَّ الكُفَّارَ المتحَزِّبينَ عليكم ما زالوا حوْلَ المدينةِ ولم يذهَبوا، وإن يرجِعِ الكُفَّارُ مَرَّةً أخرى لقِتالِكم يَوَدَّ أولئك المنافِقونَ -مِن شِدَّةِ خَوفِهم- لو كانوا في الباديةِ يَسألونَ النَّاسَ عن أخبارِكم -أيُّها المسلِمونَ-، ولو كان المنافِقونَ معكم ما قاتَلوا إلَّا قِتالًا قليلًا؛ رياءً وسُمْعةً.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلۡمُعَوِّقِينَ مِنكُمۡ وَٱلۡقَآئِلِينَ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ هَلُمَّ إِلَيۡنَاۖ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلۡبَأۡسَ إِلَّا قَلِيلًا ١٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه بما عَلِمَ ممَّا أوقَعَه المنافِقونَ مِن أسرارِهم، وأمَرَ النَّبيَّ

صلَّى الله عليه وسلَّم بوَعظِهم؛ حذَّرَهم بدوامِ عِلمِه لِمَن يَخونُ منهم، فقال محقِّقًا مُقَرِّبًا مِن الماضي، ومُؤْذِنًا بدَوامِ هذا الوَصفِ له[١]:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾.

أي: قد يَعلَمُ اللهُ المثبِّطينَ منكم[٢] الَّذين يَصُدُّونَ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن الخُروجِ معه للجِهادِ في سَبيلِ اللهِ[٣].

﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾.

أي: ويَعلَمُ القائِلينَ[٤] لإخوانِهم[٥]: أقبِلوا إلينا، وتَعالَوا إلى ما نحنُ فيه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٣).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ والصَّحابةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

قال مقاتل: (يعني: عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ وأصحابَه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٨١).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (الخِطابُ لِمَن كان في الظَّاهِرِ مُسلِمًا مُؤمِنًا وليس مُؤمِنًا... فهو منكم في الظَّاهِرِ لا الباطِنِ؛ ولهذا لَمَّا استُؤذِنَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في قَتلِ بَعضِ المنافِقينَ قال: «لا يتحَدَّثُ النَّاسُ أنَّ مُحمَّدًا يقتُلُ أصحابَه»؛ فإنَّهم من أصحابِه في الظَّاهِرِ عندَ مَن لا يعرِفُ حقائِقَ الأمورِ، وأصحابُه الَّذين هم أصحابُه ليس فيهم نِفاقٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٤١٩).

(٤) قال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ القائلونَ لإخوانِهم: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ هم المعوِّقينَ أنفُسَهم، فيكونَ مِن عَطفِ صِفاتِ الموصوفِ الواحدِ... ويجوزُ أن يكونوا طائفةً أخرى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٤).

وممَّن قال بأنَّهم طائفتانِ: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٦).

(٥) قيل: المرادُ بهم: أصحابُهم وعُشَراؤُهم، وخُلَطاؤُهم وأولياؤُهم. وممَّن قال بهذا: السمرقندي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠). =

مِنَ الرَّاحةِ والنَّعيمِ، ودَعُوا محمَّدًا، واترُكوا الجِهادَ معه؛ فإنَّا نخافُ عليكم الهَلاكَ(١).

﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: ولا يَشهَدونَ الحَربَ أو مَكانَها إلَّا زَمنًا قليلًا؛ رياءً وسُمعةً(٢).

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟

---

= وقيل: المراد: لإخوانِهم مِن ساكِني المدينةِ مِن أنصارِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ. وممَّن اختار ذلك في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشري، والبيضاوي، والرسعني، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٢١)، (تفسير القاسمي)) (٨/ ٥٧).

قال ابن عثيمين: (سُمُّوا إخوانَهم في النَّسَبِ، وليسوا إخوانَهم في الدِّينِ، اللَّهمَّ إلَّا أن يُرادَ الأُخُوَّةُ الظَّاهرةُ؛ فإنَّ هؤلاء يَتظاهَرون بأنَّهم مؤمنون). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٣، ١٤٤).

قال ابن تيميَّةَ: (قال العُلَماءُ: كان مِنَ المنافِقينَ مَن يرجِعُ مِنَ الخندقِ فيَدخُلُ المدينةَ، فإذا جاءهم أحدٌ قالوا له: ويْحَكَ، اجلِسْ فلا تخرُجْ! ويَكتُبون بذلك إلى إخوانِهم الَّذين بالعَسكرِ: أن ائتُونا بالمدينةِ فإنَّا ننتظِرُكم؛ يُثَبِّطونَهم عن القتالِ. وكانوا لا يأتون العَسكرَ إلَّا ألَّا يجِدوا بُدًّا، فيأتون العَسكَرَ لِيَرى النَّاسُ وُجوهَهم، فإذا غُفِل عنهم عادوا إلى المدينةِ... فوصَفَ المثَبِّطينَ عن الجهادِ -وهم صنفانِ- بأنَّهم إمَّا أن يكونوا في بلدِ الغُزاةِ أو في غيرِه؛ فإن كانوا فيه عَوَّقوهم عن الجِهادِ بالقَولِ أو بالعَمَلِ أو بهما، وإن كانوا في غيرِه راسَلوهم أو كاتَبوهم بأن يخرُجوا إليهم مِن بلدِ الغُزاةِ؛ لِيَكونوا معهم بالحُصونِ أو بالبُعدِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٥٥، ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٥).

فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها انتِقالٌ مِنَ القَولِ الَّذي أُمِرَ الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأن يَقولَه لهم، إلى كَشفِ أحوالِهم للرَّسولِ والمُسلِمينَ(١).

﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾.

أي: أشِحَّةً على المؤمِنينَ بكُلِّ ما فيه مَنفَعةٌ لهم، حريصينَ على مَنعِ كُلِّ خَيرٍ مِنَ الوُصولِ إليهم(٢).

﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾.

أي: فإذا جاء القِتالُ فحضَرَ الخَوفُ، رأيتَ المنافِقينَ -يا محمَّدُ- يَنظُرونَ إليك وأعينُهم تَدورُ سَريعًا مُحَملِقةً في الجِهاتِ المحيطةِ؛ مِن شِدَّةِ جُبنِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢، ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٩٠، ٥٩١) و (٢٨/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٧).

قال ابنُ جرير: (اختَلف أهلُ التَّأويلِ في المعنى الَّذي وَصَف اللهُ به هؤلاء المنافقينَ في هذا الموضِعِ مِن الشُّحِّ؛ فقال بعضُهم: وصَفَهم بالشُّحِّ عليهم في الغنيمةِ... وقال آخَرون: بل وصَفهم بالشُّحِّ عليهم بالخَيرِ. وقال غيرُه: معناه: ﴿ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ﴾ بالنَّفقةِ على ضُعَفاءِ المؤمنينَ منكم. والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ وصَفَ هؤلاء المنافِقينَ بالجُبنِ والشُّحِّ، ولم يَخْصُصْ وَصْفَهم مِن معاني الشُّحِّ بمعنًى دونَ معنًى؛ فهم -كما وصَفهم اللهُ به- أشِحَّة على المؤمِنينَ بالغنيمةِ والخَيرِ والنَّفَقةِ في سَبيلِ الله، على أهلِ مَسكَنةِ المُسلِمينَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١).

وقال ابن جُزي: (معناه: يَشِحُّون بأنفُسهم فلا يُقاتِلون. وقيل: يَشِحُّون بأموالِهم. وقيل: معناه: أشِحَّةً عليكم وقْتَ الحربِ، أي: يُشفِقون أن يُقتَلوا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٨).

وخَوفِهم مِنَ القَتلِ، كدَوَرانِ عَينِ مَن يُغمَى عليه بسَبَبِ النَّزعِ عندَ مَوتِه[١]!

﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾.

أي: فإذا انقطَعَت الحَربُ فذهَبَ الخَوفُ، واطمأنَّ المنافِقونَ وأمِنوا؛ تكَلَّموا بكلامٍ شَديدٍ قَوِيٍّ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٤، ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣ - ٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

قال الماوَرْدي: (﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ فيه وجهانِ:

أحدُهما: أي: رفَعوا أصواتَهم عليكم بألْسِنةٍ حِدادٍ، أي: شديدةٍ ذَرِبةٍ.

الثَّاني: معناه: آذَوْكم بالكلامِ الشَّديدِ. والسَّلْقُ: الأذَى، قاله ابنُ قُتَيْبَةَ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٨٥). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٩).

وقال ابن تيميَّةَ: (وهذا السَّلْقُ بالألسنةِ الحادَّةِ يكونُ بوُجوهٍ: تارَةً يقولُ المنافقونَ للمؤمنينَ: هذا الَّذي جَرَى علينا بشُؤْمِكم؛ فإنَّكم أنتم الَّذينَ دعوتُم النَّاسَ إلى هذا الدِّينِ وقاتَلْتُم عليه وخالَفْتُموهم؛ فإنَّ هذه مقالَةُ المنافقينَ للمؤمنينَ مِن الصَّحابةِ. وتارَةً يقولونَ: أنتم الَّذين أشَرْتُم علينا بالمقامِ هنا والثَّباتِ بهذا الثَّغْرِ إلى هذا الوقتِ، وإلَّا فلو كُنَّا سافَرْنا قبْلَ هذا لَمَا أصابَنا هذا. وتارَةً يَقولونَ: أنتم مع قِلَّتِكم وضَعْفِكم تُريدونَ أنْ تكسِروا العدُوَّ وقد غَرَّكم دينُكم، كما قال تعالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩]. وتارَةً يقولونَ: أنتم مجانينُ لا عقلَ لكم، تُريدونَ أنْ تُهْلِكوا أنفسَكم والنَّاسَ معَكم. وتارَةً يَقولونَ أنواعًا مِن الكلامِ المُؤذي الشَّديدِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٥٧، ٤٥٨).

وقال ابن كثير: (﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ أي: فإذا كان الأمنُ، تَكَلَّموا كلامًا بليغًا فصيحًا عالِيًا، وادَّعَوا لأنفُسِهم المقاماتِ العاليةَ في الشَّجاعةِ والنَّجْدةِ، وهم يَكذِبونَ في ذلكَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٠). =

﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾.

أي: بُخلاءَ بكلِّ ما فيه للمؤمنينَ مَنفعةٌ، فليس فيهم خيرٌ[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ

---

= وقال ابنُ جرير: (وقد اختلَف أهلُ التَّأويلِ في المعنى الَّذي وصَفَ -تعالى ذِكْرُه- هؤلاء المنافقين أنَّهم يَسْلُقون المؤمنينَ به؛ فقال بعضُهم: ذلك سَلْقُهم إيَّاهم عندَ الغنيمةِ بمسألتِهم القَسْمَ لهم... وقال آخَرون: بل ذلك سَلْقُهم إيَّاهم بالأذى... وقال آخَرون: بل معنى ذلك: أنَّهم يَسْلُقونَهم مِن القَولِ بما تُحِبُّونَ؛ نِفاقًا منهم). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤، ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

قال الماوَرْدي: (﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: على قِسمةِ الغَنيمةِ. قاله يحيى بنُ سلام. الثَّاني: على المالِ يُنفِقونَه في سبيلِ اللهِ. قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بظَفَرِه). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٨٦). ويُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٠٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ، وأنَّ المرادَ: أنَّهم حريصونَ على الأموالِ والغنائمِ الَّتي ظَفِرَ بها المؤمِنونَ، فيُطالِبونَهم بنَصيبٍ منها: ابنُ جرير، والرَّسْعَني، وابنُ تيميَّةَ، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٥٨١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: أنَّهم شَحيحون بالمالِ الَّذي عندَهم: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣١٥).

وقيل: المرادُ أنَّهم أشِحَّةٌ على فِعلِ الخَيرِ. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥٧).

وممَّن اختار العمومَ: ابنُ عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

قال ابنُ عطية: (وهذا الشُّحُّ قيل: هو بأنفُسِهم يَشُحُّونَ على المؤمِنينَ بها، وقيل: هو بإخوانِهم، وقيل: بأموالِهم في النَّفَقاتِ في سَبيلِ الله، وقيل: بالغنيمةِ عندَ القَسم. والصَّوابُ: تعميمُ الشُّحِّ أن يكونَ بكُلِّ ما فيه للمؤمنينَ مَنفعةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٥).

يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وصَفَهم سُبحانَه بهذه الدَّنايا؛ أخبَرَ بأنَّ أساسَها وأصْلَها الَّذي نشأتْ عنه عَدَمُ الوُثوقِ باللهِ؛ لعَدَمِ الإيمانِ، فقال[1]:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

أي: أولئك المنافِقونَ البُغَضاءُ البُعَداءُ لم يُؤمِنوا بقُلوبِهم وإن أقرَّت ألسِنَتُهم، ولم يُخلِصوا في أعمالِهم؛ فأبطَلَها اللهُ سُبحانَه، فلا يُثيبُهم عليها في الآخِرةِ[2].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾.

أي: وكان إحباطُ اللهِ لأعمالِ المُنافِقينَ سَهلًا عليه، ولا يَعبَأُ بهم[3].

﴿ يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا ٢٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ حالَ المنافِقينَ والَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ؛ مِن فِتنتِهم في المُسلِمينَ، وأذاهم حينَ مَجيءِ جُنودِ الأحزابِ، وحينَ زاغَت الأبصارُ وبلَغَتِ القُلوبُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٥١).

الحناجِرَ- ثَنى عِنانَ الكلامِ الآنَ إلى حالِهم حينَ أنعَمَ اللهُ على المُسلِمينَ بانكِشافِ جُنودِ الأحزابِ عنهم[١].

﴿ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ﴾.

أي: يَظُنُّ المنافِقونَ -بسَبَبِ جُبنِهم وشِدَّةِ خَوفِهم- أنَّ الكُفَّارَ المتحَزِّبينَ ما زالوا حوْلَ المدينةِ لم يَنصَرِفوا عنها[٢].

﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ﴾.

أي: وإنْ يَرجِعِ الكُفَّارُ مَرَّةً أخرى للقِتالِ أو حِصارِ المدينةِ يَتمَنَّ المنافِقونَ -مِن شِدَّةِ جُبنِهم وخَوفِهم- أنَّهم غائِبونَ في الباديةِ مع البَدْوِ[٣] يَسألونَ النَّاسَ عن أخبارِكم أيُّها المُسلِمونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٥٦، ١٥٩).

قال ابنُ تيميَّة: (هذه حالُ الجبانِ الَّذي في قَلبِه مَرَضٌ؛ فإنَّ قَلبَه يُبادِرُ إلى تصديقِ الخبرِ المَخُوفِ، وتكذيبِ خَبَرِ الأمنِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٥٩).

(٣) قال البِقاعي: (الَّذين هم عِندَهم في محَلِّ النَّقصِ، وممَّن تُكرَهُ مُخالَطتُه، ولو كان تمنِّيهم في ذلك الحينِ مُحالًا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

قال البقاعي: (﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كُلَّ وَقتٍ ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾ العَظيمةِ معهم؛ جريًا على ما هم عليه مِنَ النِّفاقِ؛ لِيُبقوا لهم عندَكم وَجهًا، كأنَّهم مُهتَمُّونَ بكم، يُظهِرونَ بذلك تحرُّقًا على غَيبتِهم عن هذه الحَربِ، أو لِيُخفُوا غَيبتَهم ويُظهِروا أنَّهم كانوا بيْنكم في الحَربِ، بأمارةِ أنَّه وقَعَ لكم في وقتِ كذا أو مكانِ كذا- كذا، ويُكابِروا على ذلك مِن غيرِ استحياءٍ؛ لأنَّ النِّفاقَ صار لهم خُلُقًا لا يَقدِرونَ على الانفِكاكِ عنه، ويُرشِدُ إلى هذا المعنى قراءةُ يعقوبَ [مِن روايةِ رُوَيْسٍ] ﴿يَسَّـَٔلُونَ﴾ بالتَّشديدِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٢٢). =

﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: ولو كان المنافِقونَ حاضِرينَ معكم حينَ يأتي الكُفَّارُ مَرَّةً أُخرى، فلن يُقاتِلوهم إلَّا قِتالًا قَليلًا؛ رياءً وسُمْعةً، بلا احتِسابٍ منهم للأجرِ(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا * أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ...﴾ فيه التَّحذيرُ مِن هذه الصِّفاتِ الَّتي يتَّصِفُ بها المنافِقُ حتَّى وإنْ كان الإنسانُ مُؤمِنًا؛ لِقَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟﴾؛ لأنَّها صِفاتُ غيرِ المؤمِنينَ، والمؤمِنُ مَنهيٌّ عن الاتِّصافِ بصِفاتِ غيرِ المؤمِنينَ(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ هذا شَرُّ ما في الإنسانِ: أن يكونَ شَحيحًا بما أُمِرَ به، شَحيحًا بمالِه أن يُنفِقَه في وَجهِه، شَحيحًا في بَدَنِه أن يُجاهِدَ أعداءَ اللهِ أو يدعُوَ إلى سَبيلِ اللهِ، شَحيحًا بجاهِه، شَحيحًا بعِلمِه ونَصيحتِه ورَأيِه(٣).

---

= وقيل: السُّؤالُ عن الأنباءِ لقَصدِ التَّجَسُّسِ على المُسلِمينَ للمُشرِكينَ، ولِيَسُرَّهم ما عسى أن يَلحَقَ المُسلِمينَ مِن الهزيمةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠١).

وقال الشوكاني: (والمعنَى: أنَّهم يَتَمَنَّوْنَ أنَّهم بعيدٌ عنكم، يَسألونَ عن أخبارِكم مِن غيرِ مشاهَدةٍ للقتالِ؛ لفَرْطِ جُبْنِهم، وضَعفِ نِيَّاتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ الاسمَ الواحدَ يُنْفَى ويُثْبَتُ بحسَبِ الأحكامِ المتعلِّقةِ به، فلا يجبُ إذا أُثْبِتَ أو نُفِيَ في حُكم أنْ يكونَ كذلك في سائرِ الأحكامِ! وهذا في كلامِ العربِ وسائرِ الأممِ؛ لأنَّ المعنى مفهومٌ، فالمنافقونَ قد يُجعلونَ مِن المؤمنينَ في مَوضعٍ، وفي موضعٍ آخَرَ يُقالُ: «ما هم منهم»، فقولُه تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ إلى قوله سُبحانَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩] فهنا جَعَل هؤلاء المنافقينَ الخائفينَ مِن العدوِّ، النَّاكِلينَ عن الجهادِ، النَّاهينَ لغيرِهم، الذَّامِّينَ للمؤمنينَ- منهم. وقال في آيةٍ أخرى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ [التوبة: ٥٦]، فكَذَّبَهم اللهُ، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾، وهناك قال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾، فالخِطابُ لِمَن كان في الظاهرِ مسلمًا مؤمنًا وليس مؤمنًا؛ بأنَّ «منكم» مَن هو بهذه الصِّفةِ وليس مؤمنًا! بل أحْبَطَ اللهُ عملَه، فهو منكم في الظَّاهرِ لا الباطنِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ إحاطةُ عِلْمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بكلِّ شَيءٍ؛ فقَولُ هؤلاء: ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ وتعويقُهم: فَردٌ مِن أفرادِ العالَمِ، ومَسألةٌ جزئيَّةٌ منه، ومع ذلك يَعلَمُه اللهُ سُبحانَه وتعالى، والعالِمُ بالدَّقيقِ عالِمٌ بالجَليلِ مِن بابِ أَولى؛ ففيها إثباتُ إحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى بكلِّ شَيءٍ جملةً وتَفصيلًا، وعِلْمِه بالمستقبلِ؛ لأنَّه قال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾ بصيغةِ المضارعِ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٥).

﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ سُنَّةُ اللهِ في أنَّ كُلَّ مَن عامَلَ النَّاسَ بالخِداعِ، كان قليلَ الثَّباتِ عندَ القِراعِ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ البُخلُ شَبيهُ الجُبنِ، فلمَّا ذكَرَ البُخلَ بيَّن سَبَبَه وهو الجُبنُ، والَّذي يدُلُّ عليه هو أنَّ الجبانَ يَبخَلُ بمالِه، ولا يُنفِقُه في سبيلِ اللهِ؛ لأنَّه لا يتوقَّعُ الظَّفَرَ، فلا يرجو الغنيمةَ، فيقولُ: هذا إنفاقٌ لا بدَلَ له، فيتوقَّفُ فيه، وأمَّا الشُّجاعُ فيتيقَّنُ الظَّفَرَ والاغتِنامَ، فيهونُ عليه إخراجُ المالِ في القتالِ؛ طمعًا فيما هو أضعافُ ذلك، وأمَّا بالنَّفسِ والبَدنِ فكذلك(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ شِدَّةُ محبَّةِ المنافِقينَ للحَياةِ؛ لأنَّهم إنَّما بلَغوا هذا المَبلَغَ مِن الخَوفِ حِرصًا على الحياةِ، وخَوفًا مِن الموتِ بالقِتالِ(٣).

٦- أنَّ للموتِ سكَراتٍ، لقولِه تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ -وهذا بالنِّسبةِ للموتِ العاديِّ-؛ أمَّا الموتُ المُباغِتُ فقد لا يكونُ فيه سكَراتٌ، فقد يموتُ الإنسانُ بَغْتةً كالَّذي يَحْدُثُ بالحوادثِ وسكتاتِ القلوبِ وما أشْبَهَها(٤).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فيه سؤالٌ: هل يَثبُتُ للمُنافِقِ عَمَلٌ حتَّى يَرِدَ عليه الإحباطُ؟

**الجوابُ**: لا، ولكِنَّه تعليمٌ لِمَن عسَى يظُنُّ أنَّ الإيمانَ باللِّسانِ إيمانٌ، وإنْ لم

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٢).

يُواطِئْه القَلبُ، وأنَّ ما يَعمَلُ المنافِقُ مِن الأعمالِ يُجدي عليه؛ فبيَّن أنَّ إيمانَه ليس بإيمانٍ، وأنَّ كُلَّ عَمَلٍ يُوجَدُ منه: باطِلٌ[١].

وأيضًا فإنَّ المرادَ بأعمالِهم الأعمالُ الَّتي صُورَتُها صورةُ الطَّاعةِ، وإلَّا فلا عَمَلَ لِكافِرٍ.

أو يكونُ المرادُ بها ما كانوا قد عَمِلوا مِنَ الخَيرِ قبلَ الرِّدَّةِ.

أو يكونُ المرادُ بقوله: ﴿فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أظْهَر بُطلانَها؛ لأنَّها لم تَكُنْ لهم أعمالٌ تَقْتَضي الثَّوابَ حتَّى يُبْطِلَها الله[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ عِلْمُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بما في القلوبِ؛ لأنَّ الظَّاهرَ لنا أنَّهم مؤمنونَ، لكنَّ الواقعَ أنَّهم غيرُ مؤمنينَ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أنَّ الكُفرَ مُحبِطٌ للعَمَلِ سواءٌ كان ظاهِرًا أم باطِنًا، فالرَّكيزةُ الأصليَّةُ للأعمالِ هي الإيمانُ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٠).

قال الزمخشريُّ بعدَه: (وفيه بعثٌ على إتقانِ المكلَّفِ أساسَ أمرِه؛ وهو الإيمانُ الصحيحُ). قال الطِّيبي معلِّقًا عليه: (يريدُ أنّ إحباطَ العملِ إنما يُتصَوَّرُ إذا وُجِدَ هناك عَملٌ، والمنافِقُ لا عَمَلَ له حتَّى يُحْبَطَ، لكنَّ وُرودَ هذا الأسلوبِ على التَّعريضِ بمَنْ له عَملٌ، والحثِّ له على الاحتياطِ والإتقانِ فيه؛ لئلَّا يَؤُولَ إلى الإحباطِ). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١١) و (٥/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٣، ١٥٤).

[الأحزاب: ١٧]؛ لأنَّ ذلك يُثِيرُ سُؤالًا يَهجِسُ في نُفوسِهم أنَّهم يُخْفُون مَقاصدَهم عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلا يَشعُرُ بمُرادِهم مِن الاستئذانِ؛ فأُمِرَ أنْ يقولَ لهم: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾، وقد جُعِلَ هذا الاستِئنافُ تَخلُّصًا لذِكرِ فَريقٍ آخَرَ مِن المعوِّقينَ(١).

- قولُه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ (قدْ) مُفيدٌ للتَّحقيقِ؛ لأنَّهم لِنَفاقِهم ومرَضِ قُلوبِهم يَشُكُّون في لازمِ هذا الخبرِ، وهو إنباءُ اللهِ رسولَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بهم، أو لأنَّهم لِجَهلِهم النَّاشئِ عن الكُفرِ يَظُنُّون أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ خَفايَا القُلوبِ(٢). وقيل: لعلَّه عبَّر هنا بـ (قد) الَّتي رُبَّما أفْهَمَتْ في هذه العِبارةِ التَّقليلَ؛ إشارةً إلى أنَّه يَكفي مَن له أدْنى عقْلٍ -في الخَوفِ مِن سَطوةِ المُتهَدِّدِ- احتِمالُ عِلْمِه(٣).

- قَولُه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ تهديدٌ وتَحذيرٌ مِن التَّعويقِ عن القِتالِ؛ وجْهُه قَولُه تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ﴾، وهذا مِن أجْلِ تهديدِهم؛ حتَّى لا يَفعَلوا ذلك(٤).

- والتَّضعيفُ في ﴿ٱلْمُعَوِّقِينَ﴾؛ للشِّدَّةِ والتَّكثيرِ(٥).

٢- قوله تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٣). والقاعدةُ: أن (قد) إذا دخَلت على الفعلِ المضارعِ المسنَدِ إلى الله تعالى، فهي للتَّحقيقِ دائمًا. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٤).

- الخِطابُ في ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو يَقْتضي أنَّ هذا حِكايةُ حالةٍ وَقَعَتْ لا فرْضُ وُقوعِها؛ ولهذا أُتِيَ بفِعلِ ﴿رَأَيْتَهُمْ﴾، ولم يَقُلْ: فإذا جاء الخَوفُ يَنظُرون إليك[١].

- قولُه: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ جِيءَ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لِيَدُلَّ على تَكرُّرِ هذا النَّظرِ وتَجدُّدِه. وخُصَّ نَظَرُهم بأنَّه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولم يَقُلْ: (يَنظُرون إليكم)؛ لأنَّ نظَرَهم إليه نظَرُ المُتفرِّسِ في ماذا يَصنَعُ، ولِسانُ حالِهم يقولُ: ألَسْنا قد قُلْنا لكم: إنَّكم لا قِبَلَ لكمْ بقِتالِ الأحزابِ، فارْجِعوا، وهمْ يُرُونَه أنَّهم كانوا على حقٍّ حِينَ يُحذِّرونه قِتالَ الأحزابِ[٢].

- قولُه: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ جُملةُ ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ لِتَصويرِ هَيئةِ نَظرِهم نظَرَ الخائفِ المَذعورِ الَّذي يُحدِقُ بعَيْنَيهِ إلى جِهاتٍ يَحذَرُ أنْ تأْتِيَه المصائبُ مِن إحداها[٣]. وشَبَّه نظَرَهم بنَظرِ الَّذي يُغْشى عليه بسَببِ النَّزعِ عندَ المَوتِ؛ فإنَّ عَيْنَيه تَضْطَرِبانِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ المُبالَغةُ في وَصْفِ المنافقينَ بالخَوفِ والجُبنِ؛ حيثُ أخبَرَ عنهم أنَّهم تَدورُ أعينُهم حالةَ المُلاحظةِ كحالةِ مَن يُغْشى عليه مِن الموتِ، ولو اقتصَرَ على قولِه: ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ﴾ لَكان كافيًا بالمقصودِ، ولكنَّه زاد شيئًا بقولِه: ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾؛ إذ إنَّ حالةَ المَغْشيِّ عليه مِن الموتِ أشَدُّ وأنْكَى مِن حالةِ المَغْشيِّ عليه مِن غيرِ الموتِ، ولو جاء سُبحانه في مَوضعِ الموتِ بالخَوفِ، لَكان الكلامُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٦، ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٢٩٧).

بليغًا لا مَحالةَ، غيرَ أنَّ ما جاء في التَّنزيلِ أبلَغُ، وهو مع ذلك خارجٌ مَخرَجَ الحقِّ، مُتنزِّلٌ مَنزلةَ الصِّدقِ؛ فإنَّ مَن كان قويَّ النَّفْسِ شُجاعَ القلْبِ لا يَرْضى بالنِّفاقِ، بل يُظهِرُ ما يُبطِنُه الخائفُ؛ لأنَّه لا يُبالي بالموتِ[1].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ فَأَحۡبَطَ ٱللَّهُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لِقَصْدِ تَمييزِهم بتلك الصِّفاتِ الذَّميمةِ الَّتي أُجرِيَتْ عليهم مِن قبْلُ، وللتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بما سيَرِدُ مِن الحُكْم بعدَ اسمِ الإشارةِ، وقد أُجرِيَ عليهم حُكمُ انتفاءِ الإيمانِ عنهم بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يُؤۡمِنُواْ﴾؛ كشْفًا لِدَخائلِهم؛ لأنَّهم كانوا يُوهِمون المسلِمينَ أنَّهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾[2] [البقرة: ١٤].

- قولُه: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في لازمِه؛ وهو تَحقيرُهم، وأنَّ اللهَ لمَّا أخرَجَهم مِن حَظيرةِ الإسلامِ فأحبَطَ أعمالَهم، لم يَعبَأْ بهم، ولا عَدَّ ذلك ثُلْمةً في جَماعةِ المسلمينَ[3].

- و﴿يَسِيرٗا﴾ أي: هَيِّنًا، وتَخصيصُ يُسْرِه بالذِّكْرِ -مع أنَّ كلَّ شَيءٍ عليه تعالى يَسيرٌ-؛ لِبَيانِ أنَّ أعمالَهم حَقيقةٌ بالإحباطِ، تَدْعو إليه الدَّواعي، ولا يَصرِفُ عنه صارفٌ[4].

٣- قوله تعالى: ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْۖ وَإِن يَأۡتِ ٱلۡأَحۡزَابُ يَوَدُّواْ لَوۡ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلۡأَعۡرَابِ يَسۡـَٔلُونَ عَنۡ أَنۢبَآئِكُمۡۖ وَلَوۡ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٦).

- قولُه: ﴿ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ ... ﴾ الوُدُّ هنا مُستعمَلٌ كِنايةً عن السَّعيِ لحُصولِ الشَّيءِ المَودودِ؛ لأنَّ الشَّيءَ المحبوبَ لا يَمنَعُ مِن تَحصيلِه إلَّا مانعٌ قاهرٌ؛ فهو لازمٌ للوُدِّ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠١).

## الآيات (٢١-٢٤)

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿أُسْوَةٌ﴾: أي: ائتمامٌ، واتِّباعٌ، وقُدوةٌ، وأصلُ (أسو): يدُلُّ على المُداواةِ والإصلاحِ[1].

﴿قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾: أي: قُتِل في سبيلِ الله، وفَرَغ مِن العملِ الَّذي كان نَذَره لله، وأوْجَبه له على نفْسِه، فاسْتُشْهِد، والنَّحْبُ: النَّذْرُ المحكومُ بوُجوبِه، ويُعبَّرُ بذلك عمَّن مات، كقَولِهم: قضى أجَلَه، كأنَّه ألزَمَ نَفْسَه أن تموتَ فوفَى به، وأصلُ (نحب): يدُلُّ على نَذرٍ وما أشبَهَه[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُرشِدًا إلى التَّأسِّي بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: لقد كان لكم -أيُّها المؤمنونَ- قُدوةٌ حَسَنةٌ في رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم في جِهادِه وبَذْلِه نَفْسَه لله وصبرِه؛ لِمَن كان منكم يَرجو اللهَ ولِقاءَه، وذَكَر اللهَ ذِكرًا كثيرًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٤)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٨١٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٣).

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى صورةً مشرقةً مضيئةً للمؤمنينَ الصَّادقينَ، فيقولُ: ولَمَّا رأى المؤمِنونَ الأحزابَ قالوا: هذا ما وعَدَنا اللهُ ورَسولُه مِن الابتلاءِ وما يَعقُبُه مِن النَّصرِ والجزاءِ، وصَدَق اللهُ ورَسولُه. وما زادهم ما رأَوْا مِن اجتِماعِ الأحزابِ عليهم، وما أصابَهم مِنَ البلاءِ إلَّا إيمانًا وتَسليمًا لقضاءِ اللهِ تعالى.

مِنَ المؤمِنينَ رِجالٌ صَدَقوا في عَهدِهم مع اللهِ، فبَذَلوا نفوسَهم في مَرْضاتِه؛ فمِنهم مَن ثَبَت مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقاتَلَ حتَّى قُتِلَ، أو عاش على الاستِقامةِ والطَّاعةِ، ومنهم مَن يَنتظِرُ قَضاءَ عَهدِه وإتمامَه، وما بَدَّلوا عَهْدَهم.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سبحانَه الحكمةَ مِن هذا الابتلاءِ والاختبارِ، فيقولُ: إنَّ اللهَ يَبتلي عبادَه بالشَّدائِدِ؛ لِيَجزيَ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ بسَبَبِ صِدقِهم، ويُعَذِّبَ المنافِقينَ إن شاء، أو يُوَفِّقَهم للتَّوبةِ، إنَّ الله كان غَفورًا رحيمًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾.

أي: لقد كان لكم -أيُّها المؤمنونَ[1]- قُدوةٌ حَسَنةٌ في رَسولِ اللهِ وجِهادِه،

---

(١) قيل: هذا عِتابٌ. وقيل: أمرٌ بالائتساءِ. وقيل: مدْحٌ للمؤمنينَ. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩١٤). ممَّن اختار أنَّ هذا عِتابٌ مِن الله للمتخلِّفينَ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وعسكرِه بالمدينةِ، مِنَ المؤمنينَ به: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨١٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١١).
قال الشوكاني: (وهذه الآيةُ وإنْ كان سَبَبُها خاصًّا فهي عامَّةٌ في كلِّ شيءٍ، ومِثلُها: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وقَوْلُه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١١). =

وبَذْلِه نَفْسَه لنُصرةِ دينِ اللهِ، وصَبرِه ومُصابَرتِه ومُرابطتِه في غَزوةِ الخَندقِ؛ فتأَسَّوا به في ذلك وغيرِه[1].

---

= وممَّن اختار في الجملةِ أنَّه أمرٌ بالاقتِداءِ به صلَّى الله عليه وسلَّم في اليقينِ والصَّبرِ ونُصرةِ الدِّينِ وسائرِ الفضائلِ: السمعانيُّ، والبغوي، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٩).

وممَّن اختار أنَّه مدْحٌ للمؤمنينَ: ابنُ عاشور، فقال: (أقبَلَ الكلامُ على خِطابِ المؤمنينَ في عُمومِ جماعتِهم؛ ثَناءً على ثباتِهم وتأسِّيهم بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم على تفاوُتِ دَرَجاتِهم في ذلك الائْتِساءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٢).

وقال أبو حيان: (الظَّاهِرُ أنَّ الخِطابَ في قَولِه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ للمؤمنينَ؛ لِقَولِه قبْلُ: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم﴾، وقَولِه بعدُ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾، والمعنى: أنَّه -صلَّى الله عليه وسلَّم- لكم فيه الاقتِداءُ؛ فكما نصَرَكم ووازَرَكم حتَّى قاتَلَ بنَفْسِه عَدُوَّكم؛ فكُسِرَت رَباعِيَتُه الكريمةُ، وشُجَّ وَجْهُه الكريمُ، وقُتِلَ عَمُّه، وأُوذِيَ ضُروبًا مِن الإيذاءِ- يجبُ عليكم أن تَنصُروه وتوازِروه، ولا تَرغَبوا بأنفُسِكم عن نفْسِه، ولا عن مكانٍ هو فيه؛ وتَبْذُلوا أنفُسَكم دُونَه؛ فما حصل لكم مِن الهدايةِ للإسلام أعظَمُ مِن كلِّ ما تَفعَلونَه معه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن النُّصرةِ والجِهادِ في سَبيلِ الله. وَيبعُدُ قَولُ مَن قال: إنَّه خِطابٌ للمُنافِقينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

قال ابن عثيمين: (وقوله تعالى: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ فيها معنيان:

المعنى الأوَّلُ: أنَّ التَّأسِّيَ بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كلُّه حسَنٌ؛ لأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم معصومٌ مِن الخطأِ في التَّشريعِ، فكلُّ التَّأسِّي به فهو حسَنٌ، بخِلافِ التَّأسِّي بغيرِه؛ فقد يكونُ حسَنًا، وقد يكونُ غيرَ حسَنٍ.

المعنى الثَّاني: أسوةٌ حسَنةٌ باعتِبارِ تأسِّينَا به، لا باعتبارِ ما هو عليه، والأسوةُ الحسَنةُ باعتبارِ تأسِّينا به هو أن نَكونَ موافِقينَ له في القولِ والفعلِ والقَصدِ -الَّذي هو العقيدةُ-، فنوافِقه في هذه الأمورِ الثَّلاثةِ: في العقيدةِ والقولِ والفعلِ، هذه الأسوةُ الحسَنةُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٦٣).

كما قال تعالى: ﴿ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [التوبة: ٨٨].

﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾.

أي: إنَّ رَسولَ اللهِ قُدوةٌ حَسَنةٌ لِمَن كان يرجو اللهَ ولقاءَه، وثوابَه ورحمتَه، ويرجو يومَ القيامةِ والجَزاءَ فيه، وذَكَر اللهَ ذِكرًا كثيرًا[١].

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ المُنافِقينَ؛ ذكَرَ حالَ المؤمِنينَ[٢]، ولَمَّا ذُكِرَتْ أقوالُ المنافِقينَ والَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ، المُؤْذِنةُ بما يُداخِلُ قُلوبَهم مِنَ الخَوفِ، وقِلَّةِ الإيمانِ، والشَّكِّ فيما وعَدَ اللهُ به رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنينَ مِن النَّصرِ، ابتداءً مِن قَولِه: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [الأحزاب: ١٢]- قوبِلَت أقوالُ أولئك بأقوالِ المؤمِنينَ حينما نزَلَت بهم الأحزابُ، ورأَوا كَثرتَهم وعدَدَهم، وكانوا على بصيرةٍ مِن تفَوُّقِهم عليهم في القُوَّةِ والعَدَدِ أضعافًا، وعَلِموا أنَّهم قد ابتُلُوا وزُلزِلوا، كُلُّ ذلك لم يُخِرْ عزائِمَهم، ولا أدخَل عليهم شكًّا فيما وعَدَهم اللهُ مِن النَّصرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٤).

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾.

أي: ولَمَّا رأى المؤمِنونَ جُنودَ الكُفَّارِ الَّذين تحزَّبوا وتألَّبوا عليهم في غَزوةِ الخَندَقِ؛ قالوا: هذا ما وعَدَنا اللهُ ورَسولُه مِنَ الابتِلاءِ وما يَعقُبُه مِن النَّصرِ وحُسنِ الجَزاءِ، وصَدَق اللهُ ورَسولُه في وَعْدِنا بذلك[1].

كما قال سُبحانَه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾.

أي: ولم يَزِدِ الصَّحابةَ ما رأَوا مِن اجتِماعِ الكُفَّارِ عليهم وما أصابَهم مِنَ البلاءِ في غَزوةِ الخَندَقِ إلَّا إيمانًا باللهِ ورَسولِه، وتَصديقًا بوَعدِه بالنَّصرِ، وانقيادًا لقَضائِه، وطاعةً لأمرِه وأمرِ رَسولِه[2].

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩١، ٣٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٧٠، ١٧١).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَر الله تعالى أنَّ المنافِقينَ عاهَدوا الله لا يُوَلُّون الأدبارَ، ونقَضوا ذلك العهدَ؛ ذكَر وفاءَ المؤمنينَ به[١].

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (عَمِّي [أي: أنسُ بنُ النَّضرِ] الَّذي سُمِّيتُ به لم يَشهَدْ مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بَدرًا، فشَقَّ عليه، قال: أوَّلُ مَشهَدٍ شَهِدَه رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم غُيِّبتُ عنه! وإنْ أَراني اللهُ مَشهَدًا فيما بعْدُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لَيَراني اللهُ ما أصنَعُ! فهاب أن يقولَ غَيرَها، فشَهِدَ مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ أُحُدٍ، فاستقبَلَ سَعدَ بنَ مُعاذٍ، فقال له أنَسٌ: يا أبا عَمرٍو، أينَ؟ فقال: واهًا لريحِ الجنَّةِ أجِدُه دُونَ أُحُدٍ! فقاتَلَهم حتَّى قُتِلَ، فوُجِدَ في جَسَدِه بِضْعٌ وثمانون مِنْ بينِ ضَربةٍ وطَعنةٍ ورَميةٍ، فقالت أختُه عَمَّتي الرُّبَيِّعُ بنتُ النَّضرِ: فما عرَفْتُ أخي إلَّا ببَنانِه[٢]. ونزَلَت هذه الآيةُ: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾، فكانوا يُرَونَ أنَّها نزَلَت فيه وفي أصحابِه)[٣].

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

أي: مِنَ المُؤمِنينَ باللهِ ورَسولِه رِجالٌ صادِقونَ وَفَوْا بعَهدِهم مع اللهِ، فبَذَلوا نُفوسَهم في مَرْضاتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٢).

(٢) البَنانُ: الأصابِعُ، وقيل: أطرافُها، واحِدتُها: بَنانةٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٥٧).

(٣) رواه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٧). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾.

أي: فمِنَ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ مَن بَذَلَ جُهدَه حتَّى فرَغَ مِنَ العَمَلِ الَّذي عاهَدَ اللهَ عليه، فقاتَلَ حتَّى قُتِلَ، أو عاشَ على الاستِقامةِ والطَّاعةِ، والجِهادِ والثَّباتِ عندَ لقاءِ العَدُوِّ حتَّى مات(١).

---

= قيل: المرادُ بالعَهدِ هنا: الصَّبرُ والثَّباتُ عندَ القتالِ مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٥٨، ١٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٢، ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٧٩).

قال الزمخشري: (قَولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ يحتَمِلُ مَوتَه شَهيدًا، ويحتَمِلُ وفاءَه بنَذرِه مِنَ الثَّباتِ مع رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٢).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن جُزَي، والشوكاني، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٧٧).

وقال البقاعي: (﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ﴾ أي: أعطى ﴿نَحْبَهُۥ﴾ أي: نَذْرَه في مُعاهَدتِه أنَّه يَنصُرُ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ويموتُ دونَه، وفرَغَ مِن ذلك وخرَجَ مِن عُهدتِه بأن قُتِلَ شَهيدًا، فلم يَبقَ عليه نَذرٌ؛ كحَمزةَ بنِ عبدِ المطَّلِبِ، ومُصعَبِ بنِ عُمَير، وعبدِ اللهِ بنِ جَحش... وغيرِ هؤلاء ممَّن قُتِلَ قبْلَ هذا في غزوةِ أُحُدٍ وغيرِها. وسعدُ بنُ معاذٍ ممَّن جُرِح في هذه الغزوةِ، وحَكَم في بني قُرَيْظةَ بالقَتلِ والسَّبْيِ... وممَّن لم يُقتَلْ في عهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: طلحةُ بنُ عُبيد الله =

﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾.

أي: ومِنهم مَن ينتَظِرُ قَضاءَ عَهدِه وإتمامَه، كما وَفَى مَن مضَى منهم بعَهدِه لله[١].

﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾.

أي: ولم يُغيِّرِ المؤمِنونَ الصَّادِقونَ عَهْدَهم ونَذْرَهم كما فعَل المنافِقونَ، ولا استَبدَلوا به غيرَه، بل وفَوْا به وأتَمُّوه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ

---

= أحدُ العَشَرةِ، ثَبَت في أُحُدٍ، وفعَلَ ما لم يفعَلْه غيرُه؛ لزِمَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فلم يُفارِقْه، وذَبَّ عنه ووقاه بيدِه حتى شَلَّت إصبَعُه، فشَهِدَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه ممَّن قضى نَحْبَه؛ فالمرادُ بالنَّحبِ هنا: العهدُ الَّذي هو كالنَّذرِ المُفضِي إلى الموتِ، وأصلُ النَّحبِ: الاجتِهادُ في العَمَلِ، ومِن هنا استُعمِلَ في النَّذرِ؛ لأنَّه الحامِلُ على ذلك). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٢٧).

وقال ابن عطية: (أثنى اللهُ على رجالٍ مِن المؤمنينَ عاهَدوا اللهَ تعالى على الاستِقامةِ التَّامَّةِ، فوَفَوا وقَضَوا نَحْبَهم، أي: نَذْرَهم وعَهْدَهم... وقد يُسمَّى الموتُ نَحبًا، وبه فسَّر ابنُ عبَّاسٍ هذه الآيةَ. وقال الحَسَنُ: قَضى نَحْبَه: مات على عَهدِه. ويقالُ لِلَّذي جاهدَ في أمرٍ حتَّى مات: قضَى فيه نَحْبَه، ويُقالُ لِمَن مات: قضَى فُلانٌ نَحْبَه، وهذا تجوُّزٌ؛ كأنَّ الموتَ أمرٌ لا بُدَّ للإنسانِ أن يقَعَ به، فسُمِّيَ نَحبًا)، ثم ذكَرَ قَولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن طَلْحةَ: ((هذا ممَّن قضى نَحْبَه)) [الترمذي (٣٢٠٣) وحسن إسناده الألباني ((السلسلة الصحيحة)) (١/ ٢٤٧)] ثم قال ابنُ عطيةَ: (فهذا أدَلُّ دليلٍ على أنَّ النَّحبَ ليس مِن شُروطِه الموتُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٨).

وقال السعدي: (﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ أي: إرادتَه ومطلوبَه، وما عليه مِن الحقِّ، فقُتِل في سبيلِ الله، أو مات مؤدِّيًا لحقِّه، لم يَنقُصْه شيئًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).

مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ * فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ﴾ [التوبة: ٧٥ - ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الأحزاب: ١٥].

وعن أبي حازم، قال: سَمِعتُ سَهلَ بنَ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه يقولُ: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((أنا فرَطُكم[1] على الحَوضِ، فمَن ورَدَه شَرِبَ منه، ومَن شَرِبَ منه لم يَظمَأْ بعْدَه أبدًا، لَيَرِدُ عليَّ أقوامٌ أعرِفُهم ويَعرِفوني، ثمَّ يُحالُ بيْني وبيْنَهم. قال أبو حازم: فسَمِعَني النُّعمانُ بنُ أبي عيَّاشٍ وأنا أُحَدِّثُهم هذا، فقال: هكذا سَمِعْتَ سَهْلًا؟ فقُلتُ: نعمْ. قال: وأنا أشهَدُ على أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ لَسَمِعتُه يَزيدُ فيه قال: إنَّهم مِنِّي، فيُقالُ: إنَّك لا تَدري ما بدَّلوا بَعْدَك، فأقولُ: سُحْقًا سُحْقًا[2] لِمَن بدَّل بعدي!))[3].

﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٤ ﴾.

﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ ﴾.

أي: يَبتلي اللهُ عِبادَه بالخَوفِ والشَّدائِدِ، ويأمُرُ المؤمِنينَ بجِهادِ الكافِرينَ؛ لِيُثيبَ

---

(١) الفَرَطُ والفارِطُ هو الَّذي يَسبِقُ إلى الماءِ لِيُصلِحَ لهم الحِياضَ والدِّلاءَ ونحوَها حتَّى يَرِدُوا فيَشرَبوا. فمعنى: ((فرَطُكم علي الحَوضِ)): سابِقُكم إليه، كالمُهَيِّئِ له. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (٣/ ٢٢٧٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٥٣).

(٢) سُحْقًا سُحْقًا: أي: بُعدًا بُعدًا، والتَّأكيدُ لِلمُبالَغةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٣٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٨٥).

(٣) رواه البخاري (٧٠٥٠) واللفظ له، ومسلم (٢٢٩٠).

المؤمِنينَ الصَّادِقينَ؛ بسَبَبِ صِدقِهم فيما عاهَدوا اللهَ عليه، وقيامِهم بالوَفاءِ به[١].

كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ولِيُعَذِّبَ اللهُ المنافِقينَ الَّذين نَقَضوا عَهْدَهم ولم يَثْبُتوا على دينِهم إذا لم يَشَأْ هِدايتَهم في الدُّنيا؛ أو يُوَفِّقَهم للتَّوبةِ إن شاء فلا يُعَذِّبَهم[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو المتَّصِفُ أزَلًا وأبَدًا بالمَغفرةِ، فيَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، وهو المتَّصِفُ أزَلًا وأبَدًا بالرَّحمةِ، فيَرحَمُ عِبادَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦١).
قال ابنُ عاشور: (لامُ التَّعليلِ يَتنازَعُه مِن التَّعلُّقِ كُلٌّ مِن ﴿صَدَقُوا۟﴾ ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾، أي: صَدَق المؤمِنونَ عَهْدَهم وبَدَّلَه المنافِقونَ؛ لِيَجزيَ اللهُ الصَّادِقينَ، ويُعَذِّبَ المنافِقينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٢، ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٣).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- وُجوبُ التَّأَسِّي بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾؛ لأنَّ رجاءَ اللهِ تعالى واليومِ الآخِرِ واجبٌ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ فأخبَرَ سُبحانَه وتعالى أنَّ الذين يُبتلَونَ بالعَدُوِّ كما ابتُلِيَ رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فلهم فيه أُسوةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ أصابَهم مِثْلُ ما أصابَه؛ فلْيَتأسَّوا به في التَّوكُّلِ والصَّبرِ، ولا يَظُنُّوا أنَّ هذه نِقَمٌ لصاحِبِها، وإهانةٌ له؛ فإنَّه لو كان كذلك ما ابتُلِيَ بها رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم خيرُ الخلائِقِ، بل بها يَنالُ الدَّرَجاتِ العاليةَ، وبها يُكَفِّرُ اللهُ الخَطايا لِمَن كان يَرجو اللهَ واليومَ الآخِرَ، وذَكَرَ اللهَ كثيرًا؛ وإلَّا فقد يُبتلَى بذلك مَن ليس كذلك، فيَكونُ في حقِّه عَذابًا، كالكُفَّارِ والمنافِقينَ[٢].

٣- أنَّ الواجبَ علينا أنْ يكونَ تأسِّينا بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم تأسِّيًا حَسَنًا لا غُلُوَّ فيه ولا تفريطَ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿حَسَنَةٞ﴾؛ لأنَّ الغُلُوَّ زيادةٌ، والتَّفريطَ نُقصانٌ، ودينُ اللهِ عزَّ وجلَّ بيْنَ الغالي فيه، والمُفَرِّطِ فيه[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ فيه دَلالةٌ على فَضلِ الاقتِداءِ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّه الأُسوةُ الحَسَنةُ لا مَحالةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٣).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ قُرِنَ فيه الرَّجاءُ بذِكرِ اللهِ، والمُؤتَسي برَسولِ اللهِ هو الَّذي يكونُ راجِيًا ذاكِرًا[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ نبَّهَ على أنَّ الَّذي يَحمِلُ على التَّأسِّي به صلَّى الله عليه وسلَّم إنَّما هو الصِّدقُ في الإيمانِ، ولا سِيَّما الإيمانِ بالقيامةِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ بيانُ أنَّ المؤمِنَ كلَّمَا أصابَتْه النَّكَباتُ والمصائِبُ فإنَّه يَلجأُ إلى رَبِّه، ويَزدادُ إيمانًا به ومَعرِفةً[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ أنَّ المؤمِنَ يَزدادُ إيمانًا عندَ رؤيةِ الآياتِ الكَونيَّةِ أو الشَّرعيَّةِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ﴾ دَليلٌ على أنَّ الصِّدقَ أمْرُه عَظيمٌ، وأنَّه مَحَلٌّ للجَزاءِ مِنَ اللهِ سُبحانَه وتعالى، فعلى المسلم أنْ يَصْدُقَ؛ وأنْ يكونَ مِنَ الصَّادقينَ[٥] في العقيدةِ وفي القولِ وفي الفعلِ وفي العملِ؛ فالصَّادقُ أهلٌ للجزاءِ الحَسَنِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٢٩١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٤).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أنَّ الخِطابَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خِطابٌ له وللأُمَّةِ، إلَّا ما قام الدَّليلُ على اختصاصِه به؛ فإنَّه يُؤخَذُ بالدَّليلِ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ عبَّرَ عنه بوَصفِ الرِّسالةِ؛ لأنَّه حَظُّ الخَلقِ منه؛ لِيَقتَدوا بأفعالِه وأقوالِه، ويَتخَلَّقوا بأخلاقِه وأحوالِه(٢)، فهذا الوصفُ يُفيدُ العِلِّيَّةَ، أي أنَّ عِلَّةَ الأُسْوةِ كَوْنُه رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإلَّا ما كان علينا أنْ نتأسَّى به؛ لأنَّه رجُلٌ مِن النَّاسِ! لكنْ لأنَّه رسولُ اللهِ تعالى كان لنا فيه أسوةٌ حسَنةٌ(٣).

٣- قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ إذا آمَنَ الإنسانُ باليوم الآخِرِ أوجَبَ له ذلك أنْ يعمَلَ، ولهذا يقولُ عزَّ وجلَّ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٤).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ استدَلَّ الأصوليُّونَ بهذه الآيةِ على الاحتِجاجِ بأفعالِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّ الأصلَ أنَّه أُسوةٌ للأمَّةِ في الأحكامِ، إلَّا ما دلَّ الدَّليلُ الشَّرعيُّ على الاختِصاصِ به(٥).

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ فيه دليلٌ على صِحَّةِ مذهبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٠).

أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ الَّذين يقولون: «إنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقصُ»[١]، وهو حُجَّةٌ على المُرجِئةِ[٢].

٦- قولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ في وَصْفِهم بالانتظارِ المُنبِئِ عن الرَّغبةِ في المُنتظَرِ، شَهادةٌ حقَّةٌ بكَمالِ اشتياقِهم إلى الشَّهادةِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ لِقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾؛ فإنَّ الباءَ للسَّببيَّةِ، والمسَبَّبُ مَربوطٌ بالسَّبَبِ يَقوَى بقوَّتِه، ويَضعُفُ بضَعْفِه، ويَزدادُ بزيادتِه، ويَنقُصُ بنُقصانِه[٤].

٨- قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ في تَعليقِ التَّعذيبِ على المَشيئةِ تَنبيهٌ لهم بسَعةِ رَحمةِ اللهِ، وأنَّه لا يَقطَعُ رَجاءَهم في السَّعيِ إلى مَغفرةِ ما أتَوْهُ بأنْ يَتوبوا، فيَتوبَ اللهُ عليهم، فلمَّا قابَلَ تَعذيبَه إيَّاهم بتَوبتِه عليهم؛ تَعيَّنَ أنَّ التَّعذيبَ باقٍ عندَ عدَمِ تَوبتِهم؛ لقولِه في الآيةِ الأُخرى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[٥] [النساء: ٤٨]. ففي قَولِه: ﴿إِن شَآءَ﴾ أنَّ المنافِقَ له تَوبةٌ، فإنَّه يَشاءُ أنْ يُعَذِّبَهم إذا ماتُوا على النِّفاقِ، أمَّا إذا تابوا فقد شاءَ ألَّا يُعَذِّبَهم، ففيه ترغيبُ المنافقين في التَّوبةِ، وهذا دليلٌ على أنَّ رحمةَ اللهِ تعالى سَبَقَتْ غَضَبَه؛ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ في حقِّ أولئك الَّذين يُعَذِّبُون أولياءَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٧٢). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٩).

ويُحَرِّقُونهم بالنَّارِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ثمَّ قال بعدَ ذلك: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ﴾ [المائدة: ٧٤]، فعَرَض اللهُ تعالى عليهم التَّوبةَ! وفيه دليلٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُحِبُّ العفوَ أكثرَ مِن العِقابِ(١).

٩- قولُه تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيه ذَمُّ النِّفاقِ؛ وأنَّه سببٌ للعذابِ(٢).

١٠- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، ﴿كَانَ﴾ يُرادُ بها اتِّصافُ اسمِها بخبرِها بقَطْعِ النَّظَرِ عن الزَّمنِ -وهو ما يُعرفُ بـ «مسلوبةِ الزَّمنِ»-، يعني: لا يُرادُ بها الزَّمنُ إطلاقًا، بل يُرادُ بها تحقُّقُ هذا الوصفِ، فـ ﴿كَانَ﴾ يعني: ثَبَتَ، وقولُه سُبحانَه وتعالى: ﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ يعني: أنَّه عزَّ وجلَّ لم يَزَلْ ولا يَزالُ كذلك غفورًا رحيمًا(٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ الكلامُ خبرٌ، ولكنَّ اقترانَه بحَرْفَيِ التَّوكيدِ في (لقد) يُومِئُ إلى تَعريضٍ بالتَّوبيخِ للَّذين لم يَنتفِعوا بالأُسوةِ الحَسَنةِ مِن المنافقينَ والَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ؛ فلذلك أُتِيَ بالضَّميرِ مُجمَلًا ابتداءً مِن قولِه: ﴿لَكُمْ﴾، ثمَّ فُصِّلَ بالبدَلِ منه بقولِه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، أي: بخلافِ لِمَن لم يكُنْ كأولئك، فاللَّامُ في قولِه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ تَوكيدٌ لِلَّامِ الَّتي في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٥، ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٧).

المُبدَلِ منه[١].

- وحقُّ الأُسوةِ أنْ يكونَ المُؤتسَى به هو القُدوةَ؛ ولذلك فحَرْفُ (في) جاء على أُسلوبِ ما يُسمَّى بالتَّجريدِ المُفيدِ للمُبالَغةِ؛ إذ يُجرَّدُ مِن المَوصوفِ بصِفةٍ مَوصوفٌ مِثْلُه؛ لِيَكونَ كَذَاتَينِ، فالأصلُ: رسولُ اللهِ أسوةٌ، فقِيل: ﴿فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ﴾[٢].

- وجُعِلَ مُتعلَّقُ الائتِساءِ ذاتَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دونَ وَصْفٍ خاصٍّ؛ لِيَشمَلَ الائتساءَ به في أقوالِه بامتثالِ أوامرِه، واجتنابِ ما يَنْهَى عنه، والائتساءَ بأفعالِه مِن الصَّبرِ، والشَّجاعةِ، والثَّباتِ[٣].

- وفي إعادةِ اللَّام في قولِه: ﴿لِّمَن﴾ تَكثيرٌ للمعاني المذكورةِ بكَثرةِ الاحتمالاتِ، وكلٌّ يَأخُذُ حَظَّه منها[٤].

- وفي هذِه الآيةِ تَعريضٌ بفَريقٍ مِن الَّذين صَدُّوا المُؤتسينَ عن الائتساءِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ممَّن كانوا منافقينَ، أو في قُلوبِهم مرَضٌ مِن الشَّكِّ في الدِّينِ[٥].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمۡ إِلَّآ إِيمَٰنٗا وَتَسۡلِيمٗا﴾

- قولُه: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ﴾ بَيانٌ لِمَا صدَرَ عن خُلَّصِ المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٢، ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عندَ اشتباهِ الشُّؤونِ، واختلافِ الظُّنونِ، بعدَ حِكايةِ ما صدَرَ عن غَيرِهم[١].

- وفِعلُ (صَدَقَ) مُستعمَلٌ في الخبَرِ عن صِدقٍ مَضى، وعن صِدقٍ سيَقَعُ في المُستقبَلِ مُحقَّقٍ وُقوعُه، بحيث يُجعَلُ استقبالُه كالمُضِيِّ، مِثلُ ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]؛ فهو مُستعمَلٌ في مَعنى التَّحقُّقِ[٢].

- في قولِه: ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ تَكريرُ الظَّاهرِ؛ تَعظيمًا، ولو أنَّه أعادَهما مُضْمَرينِ لَجمَعَ بيْنَ اسمِ الله تعالى واسمِ رسولِه في لَفظةٍ واحدةٍ، فقال: وصَدَقَا[٣].

٣- قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا﴾ أعقَبَ الثَّناءَ على جَميعِ المؤمنينَ الخُلَّصِ على ثَباتِهم ويَقينِهم، واستِعدادِهم لِلِقاءِ العَدُوِّ الكثيرِ يومَئذٍ، وعَزْمِهم على بَذْلِ أنفُسِهم ولم يُقدَّرْ لهم لِقاؤه؛ بالثَّناءِ على فَريقٍ منهم كانوا وَفَّوا بما عاهَدوا اللهَ عليه وَفاءً بالعمَلِ والنِّيَّةِ؛ لِيَحصُلَ بالثَّناءِ عليهم بذلك ثَناءٌ على إخوانِهم الَّذين لَمْ يَتمكَّنوا مِن لِقاءِ العَدُوِّ يومَئذٍ؛ لِيُعلَمَ أنَّ صِدقَ أولئك يُؤذِنُ بصِدْقِ هؤلاء؛ لأنَّ المؤمنينَ يدٌ واحدةٌ[٤].

- قولُه: ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ﴾ الإخبارُ عنهم بـ (رِجال) زِيادةٌ في الثَّناءِ؛ لأنَّ الرَّجُلَ مُشتقٌّ مِن الرِّجْلِ، وهي قوَّةُ اعتِمادِ الإنسانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٠٧).

- قولُه: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ تفصيلٌ لحالِ الصَّادقينَ، وتَقسيمٌ لهم قِسْمَينِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ أي: تَبديلًا ما؛ لا أصْلًا ولا وصْفًا، بل ثَبتُوا عليه راغبينَ فيه، مُراعينَ لِحُقوقِه على أحسَنِ ما يكونُ، أمَّا الَّذينَ قَضَوا فظاهرٌ، وأمَّا الباقُون فَيَشهَدُ به انتظارُهم أصْدَقَ شَهادةٍ. وتَعميمُ عدَمِ التَّبديلِ للفريقِ الأوَّلِ مع ظُهورِ حالِهم؛ للإيذانِ بمُساواةِ الفريقِ الثَّاني لهم في الحُكْمِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿بَدَّلُوا۟﴾ للمُنتظِرينَ خاصَّةً، بِناءً على أنَّ المُحتاجَ إلى البَيانِ حالُهم[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ في معنى قولِه: ﴿صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، وإنَّما ذُكِرَ هنا؛ للتَّعريضِ بالمنافقينَ الَّذين عاهَدوا اللهَ لا يُوَلُّون الأدبارَ، ثمَّ ولَّوا يومَ الخَندقِ، فرَجَعوا إلى بُيوتِهم في المدينةِ[٣].

- وانتُصِبَ ﴿تَبْدِيلًا﴾ على أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ مُوكِّدٌ لـ ﴿بَدَّلُوا۟﴾ المَنفيِّ؛ ولعلَّ هذا التَّوكيدَ مَسوقٌ مَساقَ التَّعريضِ بالمُنافقينَ الَّذين بدَّلوا عهْدَ الإيمانِ، لَمَّا ظَنُّوا أنَّ الغَلَبَةَ تكونُ للمشركينَ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

- قولُه: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ...﴾ مُتعلِّقٌ بمُضمَرٍ مُستأنَفٍ مَسوقٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٢، ٥٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٨).

بطَريقِ الفَذْلَكةِ[١]؛ لِبَيانِ ما هُو داعٍ إلى وُقوعِ ما حُكِيَ مِن الأحوالِ والأقوالِ على التَّفصيلِ وغايةٌ له، كأنَّه قيل: وقَعَ جَميعُ ما وقَعَ؛ لِيَجزِيَ اللهُ الصَّادقينَ بما صدَرَ عنهُم مِنَ الصِّدقِ والوَفاءِ قَولًا وفِعلًا[٢].

- قولُه: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الجَلالةِ في مَقامِ الإضمارِ؛ للدَّلالةِ على عَظَمةِ الجزاءِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي: لِمَن تابَ، وهو اعتِراضٌ فيه بَعثٌ إلى التَّوبةِ[٤]. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ تَعليلٌ للجَزاءِ والتَّعذيبِ كِلَيهما على التَّوزيعِ[٥]، أي: غفورٌ للمُذْنِبِ إذا أناب إليه، رَحيمٌ بالمُحسِنِ أنْ يُجازِيَه على قَدْرِ نَصَبِه. وذِكْرُ فِعلِ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ المغفرةَ والرَّحمةَ وَصْفانِ ثابتانِ للهِ تعالى[٦].

---

(١) تقدم تعريفها (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٩).

(٥) التَّوزيعُ: هو تقسيمُ أجزاءِ المعاني المذكورةِ في الجملةِ على أفرادٍ مذكورينَ في الجُملةِ أو مفهومينَ منها، مثل جُملةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ أي: غفورٌ للمُذنِبِ إذا أناب إليه، رَحيمٌ بالمُحسِنِ أنْ يُجازِيَه على قَدْرِ نَصَبِه. يُنظر: ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمُناوي (ص: ١١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠٦)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم المدني (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٩).

## الآيات (٢٥-٢٧)

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴿٢٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظَٰهَرُوهُم﴾: أي: أعانوهم وساعَدوهم، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[1].

﴿صَيَاصِيهِمۡ﴾: أي: حُصونِهم الَّتي تحَصَّنوا بها، وكُلُّ ما يُتحَصَّنُ به يقالُ له: صِيصِيَةٌ[2].

﴿لَّمۡ تَطَـُٔوهَا﴾: أي: لم تَملِكوها، ولم تَدُوسوها بعْدُ بأقدامِكم، وأصلُ (وطأ): يدُلُّ على تمهيدِ شَيءٍ وتَسهيلِه[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبَيِّنًا خَيبةَ الكافرينَ، وما انتهَى إليه أمرُهم: وردَّ اللهُ الأحزابَ الكافرينَ إلى بلادِهم بغَيْظِهم خائبينَ؛ لم يَنالوا خيرًا، بل رَجَعوا خاسِرينَ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٠).

وكفى اللهُ المؤمِنينَ قِتالَ الكُفَّارِ، ودَفَعَهم عنهم، وكان اللهُ تعالى قويًّا عزيزًا.

ثمَّ يُبيِّنُ ما حلَّ ببني قُرَيْظَةَ، فيقولُ: وأنزَل اللهُ يهودَ بني قُرَيْظَةَ الَّذين ناصَروا الأحزابَ على حَربِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلِمينَ؛ أنزَلَهم مِن حُصونِهم، وألقَى في قُلوبِهم الخَوفَ الشَّديدَ مِن المُسلِمينَ؛ تَقتُلونَ -أيُّها المُسلِمونَ- جماعةً منهم، وتأسِرونَ جماعةً أُخرى، وملَّكَكم اللهُ -أيُّها المُسلِمونَ- أرضَهم ومساكِنَهم وأموالَهم، وأرضًا أُخرى لم تَملِكوها حتَّى الآنَ، وستَملِكونَها فيما بعدُ، وكان اللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ٢٥﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَّرَهم سُبحانَه نِعمَتَه بما أرسَلَ على أعدائِهم مِن جُنودِه، وبيَّن أحوالَ المنافِقينَ والصَّادِقينَ، وما له في ذلك مِنَ الأسرارِ، وختَمَ بهاتين الصِّفَتينِ ﴿غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾- ذكَّرَ بأثَرِهما فيما خَرَقه مِن العادةِ بصَرفِ الأعداءِ على كَثرتِهم وقُوَّتِهم، على حالةٍ لا يَرضاها لِنَفْسِه عاقِلٌ[1].

وقيل: إنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ [الأحزاب: ٩]، أي: أرسَلَ اللهُ عليهم ريحًا وردَّهم؛ أو حالٌ مِن ضميرِ ﴿يَحۡسَبُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ لَمۡ يَذۡهَبُواْ﴾ [الأحزاب: ٢٠]، أي: يَحسَبونَ الأحزابَ لم يَذهَبوا، وقد ردَّ اللهُ الأحزابَ، فذَهَبوا[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣٠٩).

﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾.

أي: وردَّ اللهُ جُنودَ الأحزابِ إلى بِلادِهم بغَيْظِهم خائِبينَ لم يَشْفِ صُدورَهم، مع تكَلُّفِهم الإعدادَ والإنفاقَ، والسَّفَرَ وطُولَ المُكثِ حَوْلَ المدينةِ، مع حُصولِ التَّعَبِ والعَناءِ بلا جَدوى[1]!

﴿لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗا﴾.

أي: لم يَنالوا أيَّ خيرٍ كان في حِسْبانِهم؛ كالنَّصرِ، أو أخْذِ أموالٍ، أو أسْرِ أحدٍ مِنَ المُسلِمينَ، بل رجَعوا خاسِرينَ[2]!

﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَ﴾.

أي: وأراح اللهُ المؤمِنينَ مِن قِتالِ الكُفَّارِ، وأغناهم عن مُحارَبتِهم ودَفْعِهم يَومَئذٍ[3].

عن عبدِ اللهِ بنِ أبي أَوفى رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((دعا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الأحزابِ على المُشرِكينَ، فقال: اللَّهُمَّ مُنزِلَ الكِتابِ، سَريعَ الحِسابِ، اللَّهُمَّ اهزِمِ الأحزابَ، اللَّهُمَّ اهزِمْهم وزَلْزِلْهم))[4].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٠).

(٤) رواه البخاري (٢٩٣٣) واللفظ له، ومسلم (١٧٤٢).

كان إذا قَفَل[١] مِن غَزوٍ أو حَجٍّ أو عُمرةٍ يُكَبِّرُ على كُلِّ شَرَفٍ[٢] مِنَ الأرضِ ثلاثَ تَكبيراتٍ، ثمَّ يَقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلكُ وله الحَمدُ وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، آيِبون تائِبونَ عابِدون، لِرَبِّنا حامِدونَ، صدَقَ اللهُ وَعْدَه، ونصَرَ عَبْدَه، وهزَمَ الأحزابَ وَحْدَه))[٣].

وفي حديثِ حجَّةِ الوداعِ قال جابرٌ رَضِيَ اللهُ عنه: ((... فلمَّا دنا مِن الصَّفا قرأ: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، أبدأُ بما بدَأ اللهُ به. فبدَأ بالصَّفا، فرَقِيَ عليه، حتَّى رأى البَيتَ فاستقبَل القِبْلةَ، فوحَّد اللهَ، وكبَّرَه، وقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه لا شريكَ له، له المُلكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شَيءٍ قديرٌ، لا إلهَ إلَّا اللهُ وحْدَه، أنجَز وعْدَه، ونصَر عبْدَه، وهزَم الأحزابَ وحْدَه. ثمَّ دعا بيْنَ ذلك، قال مِثلَ هذا ثلاثَ مرَّاتٍ...))[٤].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو المتَّصِفُ أزَلًا وأبدًا بالقُوَّةِ على فِعلِ ما يَشاءُ؛ فيَنصُرُ مَن يشاءُ مِن عبادِه، ويَخذُلُ مَن يَشاءُ منهم، وهو المتَّصِفُ بالعِزَّةِ؛ فقَدْرُه عَظيمٌ، يمتَنِعُ عليه سُبحانَه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، وهو يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، ويَنصُرُ أولياءَه، ويَقهَرُ أعداءَه، ولا يُعجِزُه شَيءٌ أرادَه[٥].

---

(١) قَفَل: أي: رجَعَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٢٧٧).

(٢) شَرَفٍ: أي: مكانٍ عالٍ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٢٧٧).

(٣) رواه البخاري (٦٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (١٣٤٤).

(٤) أخرجه مسلم (١٢١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١١)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٩٠، ١٩١).

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أتَمَّ أمرَ الأحزابِ؛ أتْبَعَه حالَ الَّذين ألَّبوهم، وكانوا سَبَبًا في إتيانِهم، والَّذين مالَؤُوهم على ذلك، ونَقَضوا ما كان لهم مِن عَهدٍ[1].

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ ﴾.

أي: وأنزل اللهُ يَهودَ بَني قُرَيظةَ الَّذين ناصَروا وأعانوا الأحزابَ على حَربِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلِمينَ معه؛ أنزَلَهم مِن حُصونِهم العاليةِ[2].

﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾.

أي: وألقَى اللهُ في قُلوبِهم الخَوفَ الشَّديدَ مِنَ المُسلِمينَ؛ فلم يَقْوَوْا على قِتالِهم، واستَسْلَموا لهم، ونَزَلوا على حُكمِهم[3].

﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٢، ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٢).

قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم ﴾ يريدُ بني قُرَيْظةَ بإجماعٍ مِنَ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٧٩).

وقال البقاعي: (هم بنو قُرَيظةَ ومَن دخَلَ معهم في حِصْنِهم مِن بني النَّضيرِ، كحُيَيٍّ، وكان ذلك بعدَ إخراجِ بني قَيْنُقاعٍ وبني النَّضيرِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٢).

أي: تَقتُلونَ -أيُّها المُسلِمونَ- جماعةً منهم، وهم الرِّجالُ البالِغونَ[١].

﴿وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾.

أي: وتأسِرونَ جَماعةً منهم، وهم النِّساءُ والذُّرِّيَّةُ[٢].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أُصيبَ سَعدٌ يومَ الخَندقِ؛ رماهُ رجُلٌ مِن قُرَيشٍ -يُقالُ لهُ: ابنُ العَرِقَةِ- رماهُ في الأَكْحَلِ[٣]، فضرَبَ عليه رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَيمةً في المسجِدِ؛ يَعودُه مِن قَريبٍ، فلمَّا رجَعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ الخَندَقِ وضَعَ السِّلاحَ، فاغتَسَلَ، فأتاهُ جِبريلُ وهو يَنفُضُ رأسَه مِنَ الغُبارِ، فقال: وضَعْتَ السِّلاحَ؟ واللهِ ما وضَعْناهُ! اخرُجْ إليهم. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فأينَ؟ فأشار إلى بَني قُرَيْظةَ. فقاتَلَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فنَزَلوا على حُكمِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فردَّ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الحُكمَ فيهم إلى سَعدٍ، قال: فإنِّي أحكُمُ فيهم أن تُقتَلَ المُقاتِلةُ، وأن تُسْبَى الذُّرِّيَّةُ والنِّساءُ، وتُقْسَمَ أموالُهم)).

وفي روايةٍ: ((لقد حَكَمْتَ فيهم بحُكمِ اللهِ عزَّ وجلَّ))[٤].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((نزَل أهلُ قُرَيْظةَ على حُكمِ سَعدِ بنِ مُعاذٍ، فأرسَل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى سَعدٍ، فأتاهُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٩٥، ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٢).

(٣) الأكحَل: عِرقٌ في اليدِ إذا قُطِعَ لم يَرَقأِ الدَّمُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٩٤).

(٤) أخرجه البخاري (٤١٢٢)، ومسلم (١٧٦٩) واللفظ له.

حِمارٍ، فلمَّا دنا قَريبًا مِن المسجِدِ، قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ للأنصارِ: قُوموا إلى سيِّدِكم، أو خَيرِكم، ثمَّ قال: إنَّ هؤلاءِ نزَلوا على حُكمِك. قال: تَقتُلُ مُقاتِلَتَهم، وتَسْبي ذُرِّيَّتَهم. قال: فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: قَضَيتَ بحُكمِ اللهِ، ورُبَّما قال: قَضَيتَ بحُكمِ المَلِكِ))[١].

وعن عَطيَّةَ القُرَظيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((عُرِضْتُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ قُرَيظةَ، فشَكُّوا فيَّ، فأمَرَ بيَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَنظُروا إلَيَّ: هل أنبَتُّ بَعْدُ؟ فنَظَروا فلم يَجِدوني أنبَتُّ، فخَلَّى عنِّي، وألحَقَني بالسَّبْيِ))[٢].

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾.

أي: وملَّككم اللهُ -أيُّها المُسلِمونَ- أرضَهم ومَساكِنَهم وجميعَ أموالِهم ممَّا غَنِمتُموه منهم[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨) واللفظ له.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٤٠٥)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٦٢٠)، وأحمد (١٩٤٢١) واللفظُ له، وابن حبان في صحيحه (٤٧٨٠).

صحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٤٠٥)، وقال ابنُ حجر في ((التلخيص الحبير)) (٣/ ١٠٠٨): هو على شرطِ الصَّحيحِ. وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (٤٧٨٠)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢).

قال الألوسي: (والمرادُ بـ﴿أَرْضَهُمْ﴾: مزارعُهم... ﴿وَدِيَٰرَهُمْ﴾ أي: حُصونَهم، ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾: نقودَهم ومواشيَهم وأثاثَهم الَّتي اشتَمَلتْ عليها أرضُهم وديارُهم). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٧٦).

﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾.

أي: وأورَثَكم اللهُ أرضًا أخرى غيرَ أرضِ بني قُرَيظةَ ما وَطِئتُموها حتَّى الآنَ، ولكِنَّكم ستَملِكونَها[1].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٩٩).

قيل: هي أرضُ خَيبرَ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بن سلام، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني، وجلال الدين المحلي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٨٥)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٥٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٦٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: يَزيدُ بنُ رُومانَ، وابنُ زَيدٍ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٥٩).

وقيل: هي خَيبرُ وغَيرُها مِن بلاد الكُفَّارِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٠١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣١٢٦).

قال البِقاعي: (هي أرضُ خَيبرَ أوَّلًا، ثمَّ أرضُ مكَّةَ ثانيًا، ثمَّ أرضُ فارسَ والرُّومِ وغَيرِهما ممَّا فتحه اللهُ بعدَ ذلك، وكان قد حكَمَ به في هذه الغزوةِ حينَ أبرقَ تلك البرقاتِ للنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حَفرِ الخَندقِ، فأراه في الأولى اليَمَنَ، وفي الأُخرَى فارسَ، وفي الأخرَى الرُّومَ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٣٥).

وقيل: المرادُ بها: أرضُ بني النَّضيرِ، وأنَّ معنى ﴿لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ لم تفتَحوها عَنْوةً. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٣).

وذهب ابنُ جرير إلى عدمِ التَّعيينِ، فقال: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك أن يقالَ: إنَّ اللهَ -تعالى ذِكْرُه- أخبَرَ أنَّه أورثَ المؤمنينَ مِن أصحابِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرضَ بَني قُرَيظةَ وديارَهم وأموالَهم، وأرضًا لم يَطؤوها يومَئذٍ، ولم تكُنْ مكَّةُ ولا خَيبرُ ولا أرضُ فارسَ =

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ متَّصِفٌ أزلًا وأبدًا بكَمالِ القُدرةِ؛ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، ومِن ذلك قُدرتُه على توريثِ المؤمِنينَ أرضَ الكافِرينَ، ونَصْرِهم عليهم(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا * وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ في بابِ الأعمالِ الَّتي يُضيفُها اللهُ عزَّ وجلَّ تارةً إلى نفْسِه، وتارةً إلى عبادِه، ولا يكونُ أحدُهما مؤثِّرًا في صاحبِه بزَعمِهم؛ ألَا تراه يقولُ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾، وقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم﴾، ثمَّ قال: ﴿فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾، وقد قال في (سورةِ الأنفالِ): ﴿فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]؛ ففيه أنَّ الفِعلَ وإنْ كان مُضافًا إلى فاعلِه مِن الخَلْقِ، فغَيرُ مانِعِه أنْ يكونَ عامِلَه بتيسيرِ خالِقِه له جَلَّ جَلالُه(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾ بيانُ قُدرةِ اللهِ سُبحانه وتعالى؛ حيث رَدَّ هذه الأحزابَ الكثيرةَ العَظيمةَ مع ما في قُلوبِهم مِن الغَيظِ الشَّديدِ على رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه؛ رَدَّهم اللهُ سُبحانَه وتعالى

---

= والرُّوم ولا اليَمَنِ: ممَّا كان وَطِئوه يومَئذٍ، ثمَّ وَطِئوه ذلك بعْدُ، وأورَثَهُمُوه اللهُ، وذلك كلُّه داخِلٌ في قَولِه ﴿وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَا﴾؛ لأنَّه -تعالى ذِكرُه- لم يَخْصُصْ مِن ذلك بعضًا دونَ بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٤٨).

بغَيظِهم ما اشتَفَوا، ولا نالوا مُرادَهم؛ ولهذا أثنى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على ربِّه بهزيمةِ الأحزابِ، فقال: ((لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه، أنجزَ وعْدَه، ونصَرَ عَبْدَه، وهزَمَ الأحزابَ وَحْدَه))(١).

٣- في قَولِه: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ إشارةٌ إلى وَضعِ الحَربِ بيْنَهم وبينَ قُرَيشٍ، وهكذا وقَعَ بَعْدَها؛ لم يَغزُهم المُشرِكونَ، بل غزاهم المُسلِمونَ في بلادِهم(٢). عن سُلَيمانَ بنِ صُرَدٍ رضي الله عنه، قال: سمِعتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ حينَ أَجْلى الأحزابَ عنه: ((الآنَ نَغْزُوهم ولا يَغْزُونَنا، نحنُ نَسِيرُ إليهم))(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُدافِعُ عن المؤمِنينَ؛ يُؤخَذُ مِن الآيةِ: أنَّه خَصَّه بالمؤمِنينَ، فدَلَّ هذا على أنَّه كفَاهم القِتالَ لإيمانِهم؛ فالمؤمِنونَ يَكفيهم اللهُ سُبحانَه وتعالى ما أهمَّهم، فيُدافعُ عنهم لإيمانِهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(٤) [الزمر: ٦١].

٥- قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ مِن تَعلُّقاتِ قوَّتِه وعزَّتِه سُبحانَه أنْ صرَفَ ذلك الجَيشَ العظيمَ خائبينَ مُفتضَحينَ، وألْقى بيْنَه وبيْنَ أحلافِه مِن قُرَيْظةَ الشَّكَّ، وأرسَل عليهم الرِّيحَ والقُرَّ، وهَدى نُعَيمَ بنَ مَسعودٍ الغَطَفانيَّ إلى الإسلامِ دُونَ أن يَشعُرَ قَومُه، فاستطاع النُّصحَ لِلمُسلمينَ بالكَيدِ للمشركين.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٩١).
والحديث تقدم تخريجه (ص: ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٤١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٩٢).

ذلك كلُّه معجزة للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ ﴾ فيه إشعارٌ أنَّه انتقَل إليهم ذلك بعدَ موتِ أولئك المقتولينَ، وأنَّ مِلكَهم إيَّاه مِلكٌ قويٌّ، ليس بعقدٍ يَقبَلُ الفسْخَ أو الإقالةَ[٢]، وأنَّ المؤمنينَ إذا فَتَحوا بلدًا مَلَكوا الأرضَ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ ﴾ حِلُّ أموالِ الكُفَّارِ للمُسلِمينَ؛ فإنَّ الغنائِمَ تَحِلُّ للمُسلِمينَ، وهي مِن خصائصِ هذه الأُمَّةِ؛ قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((وأُعطيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ مِن الأنبياءِ قَبْلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ، وجُعِلَت لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهورًا وأيُّما رجُلٍ مِن أُمَّتي أدرَكَتْه الصَّلاةُ فلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت لي الغنائِمُ ولم تَحِلَّ لأحدٍ قَبْلي، وكان النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ كافَّةً، وأُعطيتُ الشَّفاعةَ))[٤].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ بِشارةٌ ووعدٌ صادقٌ في فتْحِ البِلادِ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ هذا رُجوعٌ إلى حِكايةِ بقيَّةِ القِصَّةِ، وتَفصيلُ تَتمَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاري (٤٣٨) واللفظ له، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٣).

النِّعمةِ المُشارِ إليها إجمالًا بقولِه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾. وهو مَعطوفٌ إمَّا على المُضمَرِ المُقدَّرِ قبْلَ قولِه تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ﴾، كأنَّه قِيلَ: إثرَ حِكايةِ الأمورِ المَذكورةِ وقَعَ ما وقَعَ مِن الحوادثِ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ...﴾ إلخ، وإمَّا على (أَرْسَلْنَا)، وقد وُسِّطَ بيْنَهما بَيانُ كَونِ ما نَزَل بهم واقعةً طامَّةً تَحيَّرتْ بها العُقولُ والأفهامُ، ودَاهيةً تامَّةً تحاكَّتْ منها الرُّكَبُ، وزلَّتِ الأقدامُ. وتَفصيلُ ما صدَرَ عن فَريقَيْ أهلِ الإيمانِ وأهلِ الكُفرِ والنِّفاقِ مِن الأحوالِ والأقوالِ؛ لإظهارِ عِظَمِ النِّعمةِ، وإبانةِ خَطَرِها الجَليلِ، ببَيانِ وُصولِها إليهم عندَ غايةِ احتياجِهم إليها، أي: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾، ورَدَدْنا بذلك الَّذين كَفَروا[١].

- قولُه: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾ فيه التِفاتٌ إلى الاسمِ الجليلِ؛ لِتَربيةِ المَهابةِ، وإدخالِ الرَّوعةِ، وللتَّنبيهِ على عِظَمِ شأْنِ هذا الرَّدِّ العجيبِ[٢].

- وعبَّرَ عن الأحزابِ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ كُفْرَهم هو سَببُ خَيبتِهم العَجيبةِ الشَّأنِ[٣].

- وجُملةُ ﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لِبَيانِ مُوجِبِ غَيظِهم[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، أي: كُلفةَ القِتالِ، أو أرزاءَ القِتالِ. وإظهارُ اسمِ الجلالةِ؛ للتَّنبيهِ على عِظَمِ شأْنِ هذا الكفايةِ العجيبةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ﴾ إلى آخِرِها، وذِكرُ فِعلِ (كان)؛ للدَّلالةِ على أنَّ العِزَّةَ والقوَّةَ وَصْفانِ ثابتانِ للهِ تعالى(١).

- وفي قولِه: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ في المعاني؛ لأنَّ الكلامَ لو اقتُصِرَ فيه على دُونِ الفاصلةِ، لَأوهَمَ ذلك بعضَ الضُّعفاءِ أنَّ هذا الإخبارَ مُوافقٌ لاعتِقادِ الكفَّارِ في أنَّ الرِّيحَ الَّتي حدَثَتْ كانتْ سببًا في رُجوعِهم خائبينَ، وكَفَى المؤمنينَ قِتالَهم، والرِّيحُ إنَّما حدَثَت اتِّفاقًا كما تَحدُثُ في بَعضِ وَقائعِهم، وقِتالِ بَعضِهم لِبَعضٍ، وظنُّوا أنَّ ذلك لم يكُنْ مِن عندِ اللهِ؛ فوقَعَ الاحتراسُ بمَجيءِ الفاصلةِ الَّتي أخبَرَ فيها سُبحانه أنَّه قويٌّ عزيزٌ(٢)، قادرٌ بقُوَّتِه على كلِّ شَيءٍ، وأنَّ حِزبَه هو الغالبُ، وأنَّه لِقُدرتِه يَجعَلُ النَّصرَ للمؤمنينَ أفانينَ مُتنوِّعةً؛ لِيَزيدَهم إيمانًا وتَثبيتًا، فهو يَنصُرُهم مرَّةً بالقِتالِ؛ كيَومِ بَدْرٍ، وتارةً بالرِّيحِ؛ كيَومِ الأحزابِ، وطَورًا بالرُّعبِ؛ كبَنِي النَّضيرِ، وأحيانًا يَنصُرُ عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١١).

(٢) وهو ما يُعرفُ بـ «ائتلاف الفاصلة»، ويُسَمِّيه بعضُهم بالتَّمكينِ، وهو: أن يُمَهَّدَ قبْلَ الفاصلةِ تمهيدٌ تأتي به الفاصِلةُ مُمَكَّنةً في مكانِها، مُستقِرَّةً في قَرارِها، مُطمئنَّةً في مَوضِعها، غيرَ نافرةٍ ولا قَلِقةٍ، مُتعلِّقًا معناها بمعنى الكلامِ كلِّه تعلُّقًا تامًّا، بحيث لو طُرِحَتْ لاختلَّ المعنى، واضْطَرَبَ الفَهمُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾؛ فإنَّه لو انتهَتِ الآيةُ عندَ قولِه: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ لَرُبَّما ظُنَّ أنَّ الرِّيحَ الَّتي عصفَتْ بالكفَّارِ والأحزابِ في غزوةِ الأحزابِ أو الخَندقِ هي سببُ رُجوعِهم خائبينَ، وأنَّ ذلك أمرٌ قد حدَث مُصادَفةً، وأنَّه ليس مِن عندِ الله! بَيْدَ أنَّ فاصِلةَ الآيةِ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ قد أزالَتْ هذا التَّوهُّمَ المُفترَضَ، وأبرزَتْ للمؤمنينَ وغيرِهم أنَّ تلك الرِّيحَ إنَّما هبَّتْ بأمرِه سُبحانَه، وأنَّها كانت أداةً مِن أدواتِ نصْرِه الَّذي وعَدَ به المؤمنينَ، وجُندًا مِن جُنودِه سُبحانَه. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨، ١٩).

أوَّلًا، ويَجعَلُ العاقبةَ لهم أخيرًا؛ كيَومِ أُحدٍ، وحِينًا يُريهم أنَّ العِبرةَ في المعركةِ ليسَتْ بالكَثرةِ، وأنَّه كمْ مِن فِئةٍ قليلةٍ غلَبَت فئةً كثيرةً؛ لِيَتحقَّقوا بأنَّ النَّصرَ إنَّما هو مِن عندِ اللهِ؛ كيَومِ حُنينٍ، وهذا مِن أروَعِ ما يَتزيَّنُ به الكلامُ[١].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴾

- قولُه: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ ﴾ قذْفُ الرُّعبِ سببٌ لإنزالِهم، ولكنَّه قدَّمَ المُسبَّبَ، لَمَّا كان السُّرورُ بإنزالِهم أكثرَ، والإخبارُ به أهَمَّ[٢].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴾ إلى آخِرِه، للمُؤمنينَ؛ تَكمِلةً للنِّعمةِ الَّتي أنبَأَ عنها قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا ﴾ [الأحزاب: ٩] الآيةَ[٣].

- وتَقديمُ المفعولِ في ﴿فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ﴾؛ للاهتِمامِ بذِكْرِه؛ لأنَّ ذلك الفريقَ همْ رِجالُ القَبيلةِ الَّذين بقَتْلِهم يَتِمُّ الاستيلاءُ على الأرضِ والأموالِ والأسْرى؛ ولذلك لم يُقدِّمْ مَفعولَ (تَأْسِرُونَ)؛ إذ لا داعِيَ إلى تَقديمِه، فهو على أصْلِه[٤].

- أو لعلَّ تأخيرَ المفعولِ في الجُملةِ الثَّانيةِ ﴿وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴾ -مع أنَّ مَساقَ الكلامِ لِتَفصيلِه وتَقسيمِه-؛ لِمُراعاةِ الفواصلِ[٥]. وقيل: لعلَّه أُخِّرَ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٦٢٨، ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٠).

الفَريقُ هنا؛ لِيُفيدَ التَّخييرَ في أمْرِهم، وقُدِّمَ في الرِّجالِ؛ لِتَحتُّمِ القَتْلِ فيهم[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴾

- قَولُه: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ ﴾، قُدِّمتْ ﴿أَرْضَهُمْ﴾؛ لكَثرةِ المنفعةِ بها مِن النَّخلِ والزَّرعِ، ولأنَّهم باستيلائِهم عليها ملَكوها أوَّلًا، ﴿وَدِيَـٰرَهُمْ﴾ لضَرورةِ الحاجةِ إلى سُكْناها، ولأنَّها هي المستوْلَى عليها ثانيًا، ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ ليُستعانَ بها في قوَّةِ المسلمينَ للجهادِ، ولأنَّها كانت في بيوتِهم، فوقَع الاستيلاءُ عليها ثالثًا[٢].

- وفي التَّذييلِ بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ إيماءٌ إلى البِشارةِ بفَتْحٍ عظيمٍ يأْتي مِن بعْدِه[٣]. وختَم تعالى هذه الآيةَ بقُدرتِه على كلِّ شيءٍ؛ لأنَّه لَمَّا كان فتْحُ البُلدانِ وغلَبةُ المسلِمينَ عليها أمرًا باهرًا سهَّلَه بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾، أي: شامِلَ القُدرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٥).

## الآيات (٢٨-٣١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَزِينَتَهَا﴾: الزِّينةُ: اسمٌ لكلِّ ما يُتَزَيَّنُ به: مِن مَلْبوسٍ ومَركوبٍ وحِلْيَةٍ وفِراشٍ وسِلاحٍ، وأصلُ (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[1].

﴿أُمَتِّعۡكُنَّ﴾: أي: أُعطِكُنَّ حُقوقَكنَّ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفَعةٍ[2].

﴿وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾: أي: وأُطَلِّقْكُنَّ، والسَّراحُ الجَميلُ: هو أن يكونَ طَلاقًا للسُّنَّةِ مِن غَيرِ ضِرارٍ ولا مَنعِ واجبٍ لها، وأصلُ (سرح): يدُلُّ على إطلاقٍ[3].

﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾: الفاحِشةُ: الزِّنا، والمَعصِيةُ، والنُّشوزُ وسُوءُ الخُلُقِ، وتُطلَقُ الفاحِشةُ على كلِّ شَيءٍ مُستَقبَحٍ ومُستَشنَعٍ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وأصلُ (فحش):

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٨، ٣٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٣).

يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[١].

﴿يَقْنُتْ﴾: أي: يُطِعْ ويَستَجِبْ، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعةِ مع الخُضوعِ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دينٍ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يذكُرُ الله تعالى بعضَ التَّوجيهاتِ الحكيمةِ الَّتي وجَّهها إلى أزواجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لأزواجِكَ: إنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحياةَ الدُّنيا وزَخارِفَها، وتَطلُبْنَ نَفقةً لا أُطيقُها؛ فتعالَينَ أُعطِكُنَّ مالًا، وأطَلِّقْكُنَّ طَلاقًا جميلًا، وإنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ ورَسولَه والآخِرةَ، فإنَّ اللهَ أعدَّ للمُطيعاتِ مِنكُنَّ ثوابًا عظيمًا.

يا أزواجَ النَّبيِّ مَن يأْتِ مِنكنَّ بفاحشةٍ ظاهرةٍ يُضاعَفْ لها العَذابُ ضِعفَينِ، وكان ذلك هيِّنًا يسيرًا على اللهِ، ومَن تُداوِمْ منكُنَّ على طاعةِ اللهِ ورَسولِه، وتعمَلْ صالِحًا؛ نُؤتِها ثوابَها في الآخِرةِ مَرَّتينِ، وأعدَدْنا لها رِزقًا جَميلًا في الجنَّةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ مكارِمَ الأخلاقِ مُنحَصِرةٌ في شَيئَينِ: التَّعظيمِ لأمرِ اللهِ، والشَّفَقةِ على خَلقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨، ٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤).

اللهِ، ثمَّ إنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أرشَدَ نبيَّه إلى ما يتعلَّقُ بجانبِ التَّعظيمِ لله بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]؛ ذكَر ما يتعلَّقُ بجانبِ الشَّفَقةِ، وبدأ بالزَّوجاتِ؛ فإنَّهنَّ أَولى النَّاسِ بالشَّفَقةِ؛ ولهذا قدَّمهنَّ في النَّفَقةِ(١).

وأيضًا بعدَ أن نصرَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فردَّ عنه الأحزابَ، وفتَحَ عليه قُرَيظةَ والنَّضيرَ، ظَنَّ أزواجُه رَضِيَ اللهُ عنهنَّ أنَّه اختَصَّ بنفائِسِ اليهودِ وذخائِرِهم، فقعَدْنَ حَوْلَه وطلَبْنَ توسِعةَ الحالِ، ومُعامَلتَهنَّ مُعاملةَ نِساءِ الملوكِ وأبناءِ الدُّنيا؛ مِن التَّمَتُّعِ بزُخرُفِها مِن المأكَلِ والمشرَبِ ونحو ذلك؛ فأمره اللهُ تعالى أن يَتلوَ عليهنَّ ما نزَلَ في شأنِهنَّ(٢).

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((دخَلَ أبو بكرٍ يَستأذِنُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فوجَدَ النَّاسَ جُلوسًا ببابِه، لم يُؤذَنْ لأحدٍ منهم، قال: فأُذِنَ لأبي بكرٍ فدخَلَ، ثمَّ أقبلَ عُمَرُ فاستأذن فأُذِنَ له، فوجَد النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جالِسًا حَوْلَه نِساؤه، واجِمًا ساكِتًا، فقال: لأقولَنَّ شَيئًا أُضحِكُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رَسولَ اللهِ، لو رأيْتَ بنتَ خارِجةَ سألَتْني النَّفَقةَ، فقُمْتُ إليها فوجَأْتُ عُنُقَها(٣)! فضَحِكَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقال: هُنَّ حَوْلي كما ترى، يَسأَلْنَني النَّفَقةَ! فقام أبو بكرٍ إلى عائِشةَ يَجَأُ عُنُقَها، فقام عُمَرُ إلى حَفصةَ يجَأُ عُنُقَها، كِلاهما يقولُ: تَسأَلْنَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما ليس عندَه؟! فقُلْنَ: واللهِ لا نَسأَلُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شيئًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٥١).

(٣) فوجأتُ: أي: ضَرَبتُ عُنُقَها بكَفِّي، والوَجْأُ: الضَّربُ باليَدِ، وجاء الوَجْأُ بمعنى الدَّقِّ أيضًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٥/ ٢١٢٢).

أبدًا ليس عِندَه. ثمَّ اعتزَلهُنَّ شَهرًا أو تِسعًا وعِشرينَ، ثمَّ نزلَتْ عليه هذه الآيةُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، قال: فبدأ بعائشةَ، فقال: يا عائشةُ، إنِّي أُريدُ أن أَعرِضَ عليكِ أمرًا أُحِبُّ ألَّا تَعجَلي فيه حتَّى تَستشيري أبوَيْكِ، قالت: وما هو يا رَسولَ اللهِ؟ فتلا عليها الآيةَ، قالت: أفيكَ يا رَسولَ اللهِ أستشيرُ أبوَيَّ؟! بل أختارُ اللهَ ورَسولَه والدَّارَ الآخِرةَ، وأسألُك ألَّا تُخبِرَ امرأةً مِن نسائِك بالَّذي قُلتُ. قال: لا تَسألُني امرأةٌ مِنهُنَّ إلَّا أخبَرْتُها؛ إنَّ اللهَ لم يَبعَثْني مُعَنِّتًا ولا مُتَعَنِّتًا، ولكِنْ بعَثَني مُعَلِّمًا مُيَسِّرًا))[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لِزَوجاتِك: إنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ التَّنعُّمَ بالحياةِ الدُّنيا وزَخارِفِها، وتَطلُبْنَ نَفَقةً لا أستطيعُها[2].

﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ﴾.

أي: فأقبِلْنَ أُعْطِكُنَّ ما أوجَبَه اللهُ على الرِّجالِ إذا طَلَّقوا نِساءَهم[3].

---

(١) رواه مسلم (١٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٥).

قال الشوكاني: (ومعنَى ﴿ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا﴾: سَعَتُها ونَضارَتُها ورَفاهِيَتها والتَّنَعُّمُ فيها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٠).

قال ابنُ جُزَي: (أصلُ «تعالَ»: أن يقولَه مَن كان في موضعٍ مرتفعٍ لِمَن في موضعٍ منخفضٍ، ثم استُعمِلَتْ بمعنى: أقْبِلْ، في جميعِ الأمكنةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢٤١].

﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

أي: وأُطَلِّقْكنَّ طَلاقًا جَميلًا كما أذِنَ اللهُ وأَمَر، بلا غَضَبٍ ولا سَبٍّ وشَتمٍ، ولا منْعِ حَقٍّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟﴾ [البقرة: ٢٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ۞ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطلاق: ١، ٢].

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾.

---

= قال العُلَيمي: (﴿فَتَعَالَيْنَ﴾: أجِبْنَ إلى ما أعرِضُ عليكُنَّ، ولم يُرِدْ حقيقةَ الإقبالِ والمجيءِ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٥٨).

قال ابنُ عاشور: (التَّمتيعُ: أن يُعطيَ الزَّوجُ امرأتَه حينَ يُطَلِّقُها عَطيَّةً؛ جَبرًا لخاطِرِها؛ لِما يَعرِضُ لها مِنَ الانكِسارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٦).

﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾.

أي: وإنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ ورَسولَه ونَعيمَ الآخرةِ، بحيثُ تَطيبُ أنفُسُكنَّ بما يُعطيكنَّ الرَّسولُ مِن نَفَقةٍ، ولا تُطالِبْنَه بزيادةٍ(١).

﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ هيَّأ للمُحسِناتِ مِنكُنَّ ثَوابًا عَظيمًا، تُحتَقرُ له الدُّنيا وزِينتُها(٢).

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا اختَرْنَ اللهَ ورَسولَه والدَّارَ الآخِرةَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٦، ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

قال ابنُ العربي: (المعنى: أعطاهنَّ اللهُ بذلك ثوابًا مُتكاثِرَ الكيفيَّةِ والكَمِّيَّةِ في الدُّنيا والآخرةِ -وذلك بيِّنٌ في قَولِه تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١]- وزيادةَ رِزقٍ كَريمٍ مُعَدٍّ لهنَّ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٦٥). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠١).

وقال العليمي: (و«مِنْ» للتَّبيينِ؛ لأنهنَّ كلَّهنَّ كنَّ محسِناتٍ، فأخبَر بذلك عائشةَ رضي الله عنها، فاختارت رسولَ الله، ثمَّ اختارت الباقياتُ الصالحاتُ اختيارَها). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٥٩).

وقال السمعاني: (والمحسِناتُ هنَّ اللَّاتي اخترنَ الله ورسولَه والدَّارَ الآخرةَ، وجميعُ نساءِ النَّبيِّ قد اخترْنَ ذلك؛ فجميعُهنَّ محسناتٌ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧٧).

وقال ابن جرير: (﴿لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ﴾ وهنَّ العاملاتُ منهُنَّ بأمرِ الله، وأمرِ رسولِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨١).

ذكَرَ تعالى مُضاعَفةَ أجرِهنَّ، ومُضاعَفةَ وِزرِهنَّ وإثمِهنَّ، لو جرَى مِنهنَّ؛ ليزدادَ حَذَرُهنَّ وشُكرُهنَّ اللهَ تعالى(١).

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

في قَولِه تعالى: ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ قراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿مُبَيَّنَةٍ﴾ قيل: المعنى: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَها، فهي ظاهِرةٌ(٢).

٢- قِراءةُ ﴿مُّبَيِّنَةٖ﴾ قيل: المعنى: أنَّ الفاحِشةَ هي الفاعِلةُ والمُبَيِّنةُ على فاعِلِها والكاشِفةُ له. وقيل: المعنى: أنَّها ظاهِرةٌ في نَفْسِها وشَديدةُ الوُضوحِ على كَونِها فاحِشةً، فهي تُبَيِّنُ نَفْسَها(٣).

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾.

أي: يا أزواجَ النَّبيِّ مَن تأْتِ مِنكنَّ بفاحِشةٍ(٤) ظاهرةٍ، يُضاعَفْ لها العَذابُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٦).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وشعبةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨، ٣٤٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٢١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٩٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٩٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨، ٣٤٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٢١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٢٩٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٤) قال البغوي: (﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ بمعصيةٍ ظاهرةٍ، قيلَ: هي كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، لا أنَّ منهنَّ مَن أتتْ فاحشةً. وقال ابنُ عبَّاسٍ: المرادُ بالفاحشةِ: النُّشوزُ وسوءُ الخُلُقِ). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٣٥). =

مِثْلَيْ عَذابِ مَن وقَعَ في تلك الفاحِشةِ[١].

= قيل: هي الزِّنا. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وهو ظاهرُ اختيارِ الرازيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧١٥).

قال الرَّسْعَنيُّ بعدَ أن حكى قولَ السُّدِّيِّ: (أظُنُّ الحاملَ له على ذلك هذا القول؛ أنَّه رأى هذه اللَّفظةَ لهذا المعنى في مواضعَ مِن القرآنِ، ورسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم بل سائرُ رُسلِه معصومون مِن صُحبةِ زَوجةٍ تُزَنُّ بهذه الرِّيبةِ ... فلا وجْهَ لِنَهيهِنَّ عمَّا لا يجوزُ وُقوعُه مِنهُنَّ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٤٢).

وممَّن اختار أنَّ المُرادَ: معصيةٌ ظاهرةٌ؛ مِن نُشوزٍ، وسُوءِ خُلُقٍ: الرسعنيُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٦٠).

قال الرسعني: (﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ قال ابنُ عبَّاس: يريدُ: النُّشوزَ وسوءَ الخُلقِ. فإن قيل: الفاحشةُ السَّيِّئةُ البليغةُ في القُبحِ، والنُّشوزُ وسوءُ الخُلقِ لا يَترقَّى إلى ذلك، فكيف سمَّاه فاحشةً؟ قلتُ: تعاظَمَ ذلك وتفاحَشَ لأجْلِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وكَوْنه هو المُعامَلَ به). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٤٢).

وقال ابنُ عاشور: (الفاحِشةُ: المَعصِيةُ، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وكلَّما وردَتِ الفاحِشةُ في القرآنِ نَكِرةً فهي المعصيةُ، وإذا وردت مَعرِفةً فهي الزِّنا ونحوُه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٠).

وقيل: هي العصيانُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٨٧).

وقال ابنُ كثير: (هو شَرطٌ، والشَّرطُ لا يقتضي الوقوعَ، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]... فلمَّا كانت محلَّتُهنَّ رَفيعةً ناسَب أن يجعَلَ الذَّنْبَ -لو وقع منهنَّ- مُغلَّظًا؛ صيانةً لجَنابِهنَّ وحِجابِهنَّ الرَّفيعِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٢)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٩، ٣٢٠).

قال ابنُ عاشور: (المضاعَفةُ: تكريرُ شَيءٍ ذي مِقدارٍ بمِثلِ مِقدارِه... وهو ضِعفٌ في القُوَّةِ وفي المدَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٩).

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

أي: وإنَّ مُضاعَفةَ اللهِ لِعَذابِ مَن تَفعَلُ ذلك هَيِّنٌ عليه، فلا يتعاظمُه ولا يَصعُبُ عليه(١).

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه أعقَبَ الوَعيدَ بالوَعدِ؛ جريًا على سُنَّةِ القُرآنِ(٢)، فبَيَّن زيادةَ ثوابِ زَوجاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما بيَّن زيادةَ عِقابِهنَّ(٣).

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾.

أي: ومَن تُداوِمْ مِنكُنَّ على طاعةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه، وتَعمَلِ الأعمالَ الصَّالحةَ الَّتي شَرَعها اللهُ بإخلاصٍ له سُبحانَه- نُؤتِها ثَوابَها في الآخِرةِ مِثْلَيْ ما نُعطي غَيرَها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩١)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٢).

قال الرازي: (أي ليس كَونُكنَّ تحتَ النَّبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وكَونُكنَّ شَريفاتٍ جليلاتٍ: ممَّا يدفَعُ العذابَ عنكُنَّ، وليس أمرُ اللهِ كأمرِ الخَلقِ؛ حيث يَتعذَّرُ عليهم تعذيبُ الأعِزَّةِ؛ بسَبَبِ كثرةِ أوليائِهم وأعوانِهم، أو شُفَعائِهم وإخوانِهم). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٣، ٢١٤).

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾.

أي: وأعدَدْنا لها رِزقًا حَسَنًا جَميلًا، وعَيشًا في الجَنَّةِ هَنيئًا[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أنَّ النِّيَّةَ لها أثرٌ عظيمٌ في زيادةِ الثَّوابِ؛ لأنَّه رَتَّبَ هذا الثَّوابَ على هذه الإرادةِ، والنِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فيه إعلامٌ لهنَّ أنَّ في اختيارِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ اختيارَ اللهِ ورَسولِه والدَّارِ الآخِرةِ، وهذه الثَّلاثةُ هي الدِّينُ[٣].

٣- المرءُ كُلَّما كانت نِعمةُ اللهِ عليه أتَمَّ، كانت عُقوبتُه إذا ارتكَبَ الجرائمَ أتَمَّ؛ ولهذا قال تعالى في حَقِّ مَن أتَمَّ نِعمَتَه عليهِنَّ مِن النِّساءِ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٨).

وممَّن قال بأنَّ الرزقَ الكريمَ هنا: في الجنةِ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

قال النحاس: (أهلُ التَّفسيرِ على أنَّ الرِّزقَ الكريمَ هاهنا: الجنَّةُ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٢١٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٢).

قال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالرِّزقِ الكريم هنا: العَطاءُ الكَثيرُ الحَسَنُ الجَميلُ، وهذا إنَّما يكونُ في الجنَّةِ). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٥).

وقيل: هو في الدُّنيا والآخرةِ. وممَّن قال بذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٥).

يَسِيرًا ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴾، وهذا على وَفْقِ قضايا العقولِ ومُستَحسَناتِها؛ فإنَّ العبدَ كلَّما كمَلَتْ نِعمةُ اللهِ عليه ينبغي له أنْ تكونَ طاعتُه له أكمَلَ، وشُكرُه له أتَمَّ، ومَعصيتُه له أقبَحَ. وشِدَّةُ العُقوبةِ تابعةٌ لقُبحِ المعصيةِ؛ ولهذا كان أشَدُّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامة عالِمًا لم يَنفَعْه اللهُ بعِلمِه؛ فإنَّ نِعمةَ اللهِ عليه بالعِلمِ أعظَمُ مِن نِعمتِه على الجاهِلِ، وصُدورَ المعصيةِ منه أقبَحُ مِن صُدورِها مِن الجاهِلِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أنَّ صاحِبَ الشَّرَفِ يكونُ ذمُّه على تَخَلُّفِه عن الواجبِ أعظَمَ[٢]، وأنَّ الذَّنْبَ مِنَ المقَرَّبينَ أشَدُّ مِن الذَّنبِ مِن غيرِ المقَرَّبينَ[٣]؛ فالسَّيِّئاتُ تُضاعَفُ بشَرَفِ فاعِلِها، وقُوَّةِ مَعرفتِه بالله، وقُربِه منه؛ فإنَّ مَن عصى السُّلطانَ على بِساطِه أعظَمُ جُرمًا ممَّن عصاه على بُعدٍ؛ ولهذا توعَّد اللهُ خاصَّةَ عِبادِه على المعصيةِ بمُضاعَفةِ الجزاءِ، وإن كان قد عصَمَهم منها؛ ليُبَيِّنَ لهم فَضْلَه عليهم بعِصمتِهم مِن ذلك[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ اللهُ سُبحانَه وتعالى أكرَمَ نَبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُخاطَبتِه إيَّاه بما لم يُكرِمْ به أحدًا مِنَ الأنبياءِ؛ فلم يَدْعُه باسمِه في القُرآنِ قَطُّ، بل يَقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣١٨).

(٥) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٤٢٢). =

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴾ أنَّه لو تَضَجَّرَتِ المرأةُ مِن زوجِها لِقِلَّةِ ذاتِ اليدِ، كإنسانٍ فقيرٍ؛ وهي مثلًا مِن بيتٍ أغنياء؛ ورأى أنَّ المرأةَ مُتَضَجِّرَةٌ مِن فَقْرِه، فهنا نقول: يُستحَبُّ أنْ يُشاوِرَها مثل ما أمرَ اللهُ نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ فخيَّرهنَّ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك، فاختَرْنَ اللهَ ورَسولَه والدَّارَ الآخِرةَ، كُلُّهنَّ، ولم يتخَلَّفْ مِنهنَّ واحِدةٌ -رَضِيَ اللهُ عنهُنَّ- وفي هذا التَّخييرِ فوائِدُ عَديدةٌ:

منها: الاعتِناءُ برَسولِه وغَيرتُه عليه أن يكونَ بحالةٍ يَشُقُّ عليه كَثرةُ مَطالِبِ زَوجاتِه الدُّنيويَّةِ.

ومنها: سلامتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا التَّخييرِ مِن تَبعةِ حُقوقِ الزَّوجاتِ، وأنَّه يبقَى في حُرِّيةِ نَفْسِه؛ إنْ شاء أعطَى، وإنْ شاء منَع ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ومنها: تَنزيهُه عمَّا لو كان فيهنَّ مَن تُؤثِرُ الدُّنيا على اللهِ ورَسولِه والدَّارِ الآخرةِ، وعن مُقارَنتِها.

ومنها: سلامةُ زَوجاتِه رَضِيَ اللهُ عنهنَّ عن الإثمِ والتعَرُّضِ لسَخَطِ اللهِ ورَسولِه؛ فحَسَم اللهُ بهذا التَّخييرِ عنهُنَّ التسَخُّطَ على الرَّسولِ، الموجِبَ لِسَخَطِه، المُسخِطَ لرَبِّه، الموجِبَ لعِقابِه.

---

= ويُنظر ما تقدم (ص: ١٤-١٥).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ١١).

ومنها: إظهارُ رِفعتِهنَّ وعُلوِّ دَرَجتِهنَّ، وبيانُ عُلُوِّ هِمَمِهنَّ؛ أن كان اللهُ ورَسولُه والدَّارُ الآخِرةُ مُرادَهنَّ ومَقصودَهنَّ دونَ الدُّنيا وحُطامِها.

ومنها: استِعدادُهنَّ بهذا الاختيارِ للأمرِ الخِيارِ؛ للوُصولِ إلى خِيارِ درَجاتِ الجنَّةِ، وأن يَكُنَّ زَوجاتِه في الدُّنيا والآخرةِ.

ومنها: ظُهورُ المناسَبةِ بيْنَه وبيْنَهنَّ؛ فإنَّه أكمَلُ الخَلقِ، وأراد اللهُ أن تكونَ نِساؤُه كامِلاتٍ مُكَمَّلاتٍ، طَيِّباتٍ مُطَيَّباتٍ ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦].

ومنها: أنَّ هذا التَّخييرَ داعٍ ومُوجِبٌ للقناعةِ الَّتي يَطمَئِنُّ لها القَلبُ، ويَنشرِحُ لها الصَّدرُ، ويَزولُ عَنهُنَّ جَشَعُ الحِرصِ، وعَدَمُ الرِّضا الموجِبُ لقَلَقِ القَلبِ واضطِرابِه، وهَمِّه وغَمِّه.

ومنها: أن يكونَ اختيارُهنَّ هذا سَببًا لزيادةِ أجرِهنَّ ومُضاعفتِه، وأن يَكُنَّ بمرتبةٍ ليس فيها أحدٌ مِنَ النِّساءِ(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ فيه تخييرُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نساءَه بينَ الإقامةِ معه وفراقِه، وأنَّ التخييرَ ليس طلاقًا؛ لقولِه تعالى: ﴿فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾(٢).

٥- غايةُ أعمالِ الأبرارِ والمقرَّبينَ والمحِبِّينَ: إرادةُ وَجهِه، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾، فجعَلَ إرادتَه غيرَ إرادةِ الآخِرةِ، وهذه الإرادةُ لوَجهِه موجِبةٌ لِلَذَّةِ النَّظَرِ إليه في

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١١).

الآخِرةِ[١].

٦- كمالُ خُلُقِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث أمَرَه اللهُ تعالى أنْ يقولَ: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾، بيْنَما كان مقتضَى الحالِ أنْ يُوَبَّخْنَ على ذلك، ويُؤَنَّبْنَ عليه، لكنَّه قيل: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ﴾[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أنَّ مَن طلَّقَها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّها تُباحُ لِغَيرِه أنْ يَتزوَّجَها، ولولا هذا لم يحصُلْ لهنَّ بالتَّخييرِ فائدةٌ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أنَّ مُجَرَّدَ الزُّهدِ في الدُّنيا لا حَمدَ فيه، كما لا حَمدَ على الرَّغبةِ فيها، وإنَّما الحمدُ على إرادةِ اللهِ والدَّارِ الآخرةِ، والذَّمُّ على إرادةِ الدُّنيا، المانعةِ مِن إرادةِ ذلك[٤].

٩- أنَّ إرادةَ اللهِ تعالى ورَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم والدَّارِ الآخِرةِ: هو مِن الإحسانِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٥].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ خَصَّ اللهُ تعالى نِساءَ النَّبيِّ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية)) لابن كثير (٢/ ٦٥٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٠٩).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَضعيفِ العُقوبةِ على الذَّنبِ، والمَثوبةِ على الطَّاعةِ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: لأنَّهنَّ يُشاهِدْنَ مِنَ الزَّواجِرِ الرَّادِعةِ عن الذُّنوبِ ما لا يُشاهِدُه غَيرُهنَّ، ولأنَّ في مَعصيَتِهنَّ أذًى لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذَنْبُ مَن آذَى رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أعظَمُ مِن ذَنبِ غَيرِه.

**الوجهُ الثَّاني**: لأنَّهنَّ أشرَفُ مِن سائِرِ النِّساءِ؛ لِقُربِهنَّ مِن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فكانت الطَّاعةُ مِنهنَّ أشرَفَ، كما أنَّ المعصيةَ مِنهنَّ أقبَحُ[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ حمايةُ فراشِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم التَّامَّةُ؛ لِكَونِ المرأةِ إذا أَتَتْ بفاحشةٍ مُبَيِّنةٍ مِن زَوجاتِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُضاعِفُ لها العذابَ، كلُّ ذلك مِن أجْلِ حمايةِ فِراشِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وسواءٌ قُلْنا: إنَّ المرادَ بالفاحشةِ الزِّنا، أو المرادَ بها بذاءةُ اللِّسانِ[2].

١٢- إنَّ مُضاعَفةَ العَذابِ في قَولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ وَرَدَ تعظيمًا لحقِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ وُقوعَ ذلك مِن نِسائِه يقتَضي أمرًا زائدًا على الفاحِشةِ، وهو أذى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[3].

١٣- في قولِه: ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا﴾ إيذانٌ بأنَّ كَوْنَهنَّ نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس بمُغْنٍ عنْهُنَّ شيئًا، وكيف يُغْني عنهُنَّ وهو سَببُ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٥٩، ٤٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٢٩).

مُضاعَفةِ العذابِ؟! فكان داعيًا إلى تَشديدِ الأمْرِ عليهنَّ، غيرَ صارفٍ عنه[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ أنَّ فضلَ اللهِ تعالى واسعٌ؛ فقد يُصيبُ العاملُ أجرَه مرَّتَينِ لسببٍ مِن الأسبابِ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ كمالُ عَدْلِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فلمَّا ضَعَّفَ لها العذابَ ضَعَّفَ لها الثَّوابَ والأجرَ[٣].

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ وصَفَه الله تعالى بالكريمِ؛ لأنَّه أفضَلُ جنسِه[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ ...﴾ افتِتاحُ هذه الأحكامِ بنِداءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، تَنبيهٌ على أنَّ ما سيُذكَرُ بعدَ النِّداءِ له مَزيدُ اختصاصٍ به، وهو غرَضُ تَحديدِ سِيرةِ أزواجِه معه سِيرةً تُناسِبُ مَرتبةَ النُّبوَّةِ، وتَحديدِ تَزوُّجِه[٥].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا ...﴾ أي: إنْ كُنتنَّ تُؤثِرْنَ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣١٥).

في الحياةِ مِن التَّرفِ على الاشتغالِ بالطَّاعاتِ والزُّهدِ؛ فالكلامُ فيه على حَذفِ مُضافٍ يُقدَّرُ صالحًا للعُمومِ؛ إذ لا دليلَ على إرادةِ شأْنٍ خاصٍّ مِن شُؤونِ الدُّنيا. وهذه نُكتةُ تَعديةِ فِعلِ ﴿تُرِدْنَ﴾ إلى اسمِ ذاتِ الحَياةِ دونَ حالٍ مِن شُؤونِها. وعَطْفُ (زِينَتَهَا) عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ، وفي عَطْفِه زِيادةُ تَنبيهٍ على أنَّ المقصودَ المحذوفَ عامٌّ[١].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ تَجريدُ (إنْ) الشَّرطيَّةِ عن الوعيدِ؛ للمُبالَغةِ في تَحقيقِ معنى التَّخييرِ، والاحترازِ عن شائبةِ الإكراهِ، وهو السِّرُّ -فيما ذُكِرَ- مِن تَقديمِ التَّمتيعِ على التَّسريحِ، وفي وَصفِ السَّراحِ بالجَميلِ[٢].

- وتقديمُ اختيارِ الدُّنيا فيه إشارةٌ إلى أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غيرُ مُلتفِتٍ إلى جانبِهنَّ غايةَ الالتِفاتِ، وكيف وهو مشغولٌ بعبادةِ ربِّه[٣].

- قوله: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (تعالَيْنَ): استُعمِل هنا تَمثيلًا لحالِ تَهيُّؤِ الأزواجِ لأخْذِ التَّمتيعِ وسَماعِ التَّسريحِ بحالِ مَن يَحضُرُ إلى مكانِ المُتكلِّمِ[٤].

- وتَقديمُ التَّمتيعِ على التَّسريحِ المُسبَّبِ عنه، مِن بابِ الكرمِ وحُسنِ الخُلقِ، وفيه قَطعٌ لِمَعاذيرِهنَّ مِن أوَّلِ الأمْرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠١).

٢- قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ أي: تُؤثِرْنَ رِضا اللهِ لِمَا يُرِيدُه لرَسولِه؛ فالكلامُ على حَذفِ مُضافٍ يَقتضيهِ المقامُ[1].

- وإرادةُ الدَّارِ الآخِرةِ: إرادةُ فَوزِها؛ فالكَلامُ على حَذفِ مُضافٍ يَقْتضيهِ المقامُ، فأُسلوبُ الكلامِ جَرى على إناطةِ الحُكمِ بالأعيانِ، وهو أُسلوبٌ يَقْتضي تَقديرًا في الكلامِ مِن قَبيلِ دلالةِ الاقتضاءِ، وفي حَذفِ المضافاتِ، وتَعليقِ الإرادةِ بأسماءِ الأعيانِ الثَّلاثةِ؛ مَقصِدُ أنْ تكونَ الإرادةُ مُتعلِّقةً بشُؤونِ المضافِ إليه الَّتي تَتنزَّلُ مَنزلةَ ذاتِه، مع قَضاءِ حقِّ الإيجازِ بعدَ قَضاءِ حقِّ الإعجازِ[2].

- قولُه: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ أوقَعَ الاسمَ الظَّاهرَ ﴿ لِلْمُحْسِنَٰتِ ﴾ مَوقِعَ المُضمَرِ؛ تَنبيهًا على الوَصفِ الَّذي تَرتَّبَ لهنَّ به الأجرُ العظيمُ، وهو الإحسانُ؛ لِيَعلَمْنَ أنَّ هذا الأجْرَ حاصلٌ لهنَّ على قَدْرِ إحسانِهنَّ، وكأنَّه قال: أعَدَّ لَكُنَّ؛ لأنَّ مَن أراد اللهَ ورسولَه والدَّارَ الآخرةَ كان مُحسِنًا[3].

- وفي ذِكرِ الإعدادِ إفادةُ العِنايةِ بهذا الأجْرِ والتَّنويه به زِيادةً على وَصْفِه بالعظيمِ. وتَوكيدُ جُملةِ الجزاءِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ إظهارٌ للاهتِمامِ بهذا الأجرِ[4].

٣- قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٧، ٣١٨).

ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴾

- قولُه: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ تَلوينٌ للخِطابِ، وتَوجيهٌ له إليهنَّ؛ لإظهارِ الاعتِناءِ بنُصحِهنَّ، ونِداؤهنَّ هاهنا وفيما بعدَه بالإضافةِ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّها الَّتي يَدورُ عليها ما يَرِدُ عليهنَّ مِن الأحكامِ، ولِيَعلَمْنَ أنَّ ما سَيُلْقى إليهنَّ خبرٌ يُناسِبُ عُلوَّ أقْدارِهنَّ[1].

- وفي قَولِه: ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فعندَ إيتاءِ الأجرِ ذُكِرَ المُؤْتي، وهو اللهُ، فقال: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾، وعندَ العذابِ لم يُصرِّحْ بالمعَذِّبِ، فقال: ﴿يُضَٰعَفۡ﴾؛ إشارةً إلى كمالِ الرَّحمةِ والكَرَمِ، كما أنَّ الكريمَ الحَيَّ عندَ النَّفعِ يُظهِرُ نَفْسَه وفِعلَه، وعندَ الضُّرِّ لا يَذكُرُ نَفْسَه[2]. وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ البناءَ للمَفعولِ يدُلُّ على العنايةِ بالتَّهويلِ بالعَذابِ، بجَعلِه عُمدةَ الكلامِ[3].

٤- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا كَرِيمٗا﴾

- وفي قولِه: ﴿نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ﴾ أُسنِدَ فِعلُ إيتاءِ أجْرِهنَّ إلى ضَميرِ الجلالةِ بوَجهٍ صَريحٍ في قولِه: ﴿نُّؤۡتِهَآ﴾؛ تَشريفًا لإيتائِهنَّ الأجْرَ؛ لأنَّه المأمولُ بهنَّ، وكذلك فِعلُ ﴿وَأَعۡتَدۡنَا﴾[4].

- وضَميرُ ﴿أَجۡرَهَا﴾ عائدٌ إلى (مَن) باعتبارِ أنَّها صادقةٌ على واحدةٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥).

نِساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وفي إضافةِ الأجْرِ إلى ضَميرِها في قولِه: ﴿أَجْرَهَا﴾ إشارةٌ إلى تَعظيمِ ذلك الأجْرِ بأنَّه يُناسِبُ مَقامَها، وإلى تَشريفِها بأنَّها مُستحِقَّةٌ ذلك الأجْرَ[1].

- والعُدولُ عن المُضارعِ إلى فِعلِ الماضِي في قولِه: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾؛ لإفادةِ تَحقيقِ وُقوعِه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٦).

## الآيات (٣٢-٣٤)

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ ﴾: أي: لا تَلِنَّ بالقولِ، والخُضوعُ بالقَولِ: تَرقيقُ الكَلامِ إذا خاطَبْنَ الرِّجالَ، وأصلُ (خضع) هنا: تَطامُنٌ في الشَّيءِ[1].

﴿ وَقَرۡنَ ﴾: أي: اثبُتْنَ واسْكُنَّ، مِنَ القَرارِ في المكانِ: بمعنى الاستِقرارِ فيه، وأصلُ (قرر): يدُلُّ على التَّمَكُّنِ[2].

﴿ وَلَا تَبَرَّجۡنَ ﴾: أي: لا تُبْرِزنَ مَحاسِنَكنَّ وتُظهِرْنَها، وأصلُ (برج): يدُلُّ على بُروزٍ وظُهورٍ[3].

﴿ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ﴾: الجاهِلِيَّةُ: مَنسوبةٌ إلى الجَهلِ، وهي مُتضمِّنةٌ لعدَمِ العِلمِ، أو

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

لعَدَمِ العَمَلِ به، وأصلُ (جهل): يدُلُّ على خِلافِ العِلمِ[١].

﴿ٱلرِّجۡسَ﴾: أي: الإثمَ والقَذَرَ، والسُّوءَ والفَحشاءَ، وأصلُ (رجس): يدُلُّ على اختِلاطٍ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يا أزواجَ النَّبيِّ لَسْتُنَّ كأيِّ امرأةٍ مِن النِّساءِ في الفَضلِ والشَّرَفِ إنِ اتَّقَيْتُنَّ اللهَ تعالى؛ فلا تُلِنَّ كلامَكُنَّ للرِّجالِ على وجهٍ فيه خُضوعٌ، فيَطمَعَ مَن في قَلبِه مَرَضُ الشَّهوةِ، وإرادةُ الفُجورِ، وتكلَّمْنَ بكلامٍ مُباحٍ حَسَنٍ لا خُشونةَ فيه ولا بَذاءةَ، والْزَمْنَ بُيوتَكنَّ إلَّا لحاجةٍ، ولا تُظْهِرْنَ زينَتَكنَّ كعادةِ نِساءِ الجاهليَّةِ، وأقمِنْ الصَّلاةَ وآتِينَ الزَّكاةَ، وأطِعْنَ اللهَ ورَسولَه.

إنَّما يريدُ اللهُ أن يُذهِبَ عنكم مَساوِئَ الأخلاقِ والأعمالِ -يا أهلَ بَيتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٧، ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٤٠)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ولفظُ الجاهليَّةِ قد يكونُ اسمًا للحالِ، وهو الغالِبُ في الكتابِ والسُّنَّةِ، وقد يكونُ اسمًا لِذي الحالِ؛ فمِنَ الأوَّلِ قَولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي ذَرٍّ رَضِيَ الله عنه: «إنَّك امرُؤٌ فيك جاهليَّةٌ» [البخاري «٣٠»، ومسلم «١٦٦١»]... فإنَّ الجاهليَّةَ وإن كانت في الأصلِ صِفةً لكِنَّه غَلَب عليه الاستعمالُ حتَّى صار اسمًا، ومعناه قريبٌ مِن معنى المصدرِ. وأمَّا الثَّاني فتقولُ: طائفةٌ جاهليَّةٌ، وشاعرٌ جاهليٌّ؛ وذلك نسبةً إلى الجَهلِ الَّذي هو عدَمُ العِلمِ، أو عدَمُ اتِّباعِ العِلمِ؛ فإنَّ مَن لم يعلَمِ الحَقَّ فهو جاهِلٌ جهلًا بسيطًا، فإن اعتَقَد خلافَه فهو جاهِلٌ جَهلًا مُركَّبًا، فإن قال خلافَ الحَقِّ عالِمًا بالحَقِّ، أو غيرَ عالمٍ، فهو جاهِلٌ أيضًا). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٠).

محمَّدٍ- ويُطَهِّرَكم تَطهيرًا.

واذكُرْنَ -يا أزواجَ النَّبيِّ- ما يُتلَى في بُيوتِكنَّ مِن آياتِ القُرآنِ والسُّنةِ؛ إنَّ اللهَ كان لطيفًا خبيرًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢﴾.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾.

أي: يا أزواجَ النَّبيِّ لَستُنَّ مُساوياتٍ أو مُشابِهاتٍ لأيِّ امرأةٍ أخرى مِنَ النِّساءِ في الفَضلِ والشَّرفِ، إنِ اتَّقيتُنَّ اللهَ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه[1].

﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾.

أي: فلا تُلِنَّ كَلامَكنَّ للرِّجالِ على وَجهٍ فيه خُضوعٌ وانكِسارٌ لهم، فيَطمَعَ فِيكُنَّ مَن في قَلبِه مَرَضُ الشَّهوةِ المحَرَّمةِ، وإرادةُ الفُجورِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦، ٧)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (٢١٧، ٢١٨).

قال ابنُ جُزَي: (فضَّلهنَّ الله على النِّساءِ بشرطِ التقوَى، وقد حصَل لهنَّ التقوَى، فحصَل التفضيلُ على جميعِ النِّساءِ، إلَّا أنَّه يخرُجُ مِن هذا العُمومِ فاطِمةُ بنتُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومريمُ بنتُ عِمرانَ، وآسيةُ امرأةُ فرعونَ؛ لِشَهادةِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لكُلِّ واحدةٍ منهُنَّ بأنَّها سَيِّدةُ نِساءِ عالَمِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نهاهُنَّ عن الخُضوعِ في القَولِ، فرُبَّما تُوهِّمَ أنَّهنَّ مَأموراتٌ بإغلاظِ القَولِ، فدفَعَ هذا بقَولِه[1]:

﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾.

أي: وتَكلَّمْنَ بكَلامٍ مُباحٍ حَسَنٍ، بلا خُشونةٍ وغِلظةٍ، ولا بَذاءةٍ[2].

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تَقدَّمَ إليهِنَّ في القَولِ وقَدَّمَه لِعُمومِه؛ أتْبَعَه الفِعلَ، فقال[3]:

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

في قَولِه تعالى: ﴿وَقَرْنَ﴾ قِراءتانِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٢٤)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩).

قال الشوكاني: (﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ عندَ النَّاسِ، بعيدًا مِن الرِّيبةِ، على سَننِ الشَّرعِ، لا يُنكِرُ سامِعُه شيئًا، ولا يَطمعُ فيهنَّ أهلُ الفِسقِ والفُجورِ بسبَبِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٤).

١- قِراءةُ ﴿وَقَرْنَ﴾ بمعنى الاستِقرارِ، أي: واقْرَرْنَ في بُيوتِكنَّ[١].

٢- قِراءةُ ﴿وَقِرْنَ﴾ وفي معناها وجهان؛ الأوَّلُ: كُنَّ أهلَ وَقارٍ وسَكينةٍ، والثَّاني: القَرارُ في البُيوتِ، وعلى هذا الوجهِ تَكونُ القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ[٢].

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾.

أي: والْزَمْنَ -يا نِساءَ النَّبيِّ- بُيوتَكنَّ، فلا تَخرُجْنَ منها لِغَيرِ حاجةٍ[٣].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((خَرَجَت سَوْدةُ بعدَما ضُرِبَ الحِجابُ

---

(١) قرأ بها نافع، وعاصم، وأبو جعفر المدني. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٦)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٧٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٦)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٧٧، ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠).
قيل: يَدخُلُ في هذا الخِطابِ لِنساءِ النَّبيِّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- غيرُهنَّ مِن النِّساءِ. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٩).
وقيل: وُجوبُ هذا الأمرِ خاصٌّ بنساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عاشور، وقال: (هذا الحُكمُ وُجوبٌ على أمَّهاتِ المؤمِنينَ، وهو كمالٌ لسائرِ النِّساءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠).
قيل: إنَّ الإضافةَ في قولِه تعالى: ﴿بُيُوتِكُنَّ﴾ أفادت أنَّها مِلكٌ لهنَّ. وقيل: الإضافةُ للاختصاصِ، وليس للتَّمليكِ، وإنَّما أُضيفَت البيوتِ إليهنَّ؛ لأنَّهنَّ ساكناتٌ بها. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٦١٢، ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤٠).

لحاجتِها، وكانت امرأةً جَسيمةً[١] لا تخفَى على مَن يَعرِفُها، فرآها عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، فقال: يا سَوْدةُ، أمَا واللهِ ما تَخفَيْنَ علينا؛ فانظُري كيف تَخرُجينَ! قالت: فانكفَأَتْ[٢] راجِعةً، ورَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في بَيتي، وإنَّه لَيَتعشَّى وفي يَدِه عَرْقٌ[٣]، فدخَلَتْ فقالت: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي خَرَجتُ لِبَعضِ حاجَتي، فقال لي عُمَرُ كذا وكذا، قالت: فأوحى اللهُ إليه ثمَّ رُفِعَ عنه، وإنَّ العَرْقَ في يَدِه ما وضَعَه، فقال: إنَّه قد أُذِنَ لكُنَّ أن تَخرُجْنَ لحاجَتِكُنَّ))[٤].

﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

أي: ولا تُظْهِرْنَ زِينَتَكنَّ وتُبْرِزْنَ مَحاسِنَكُنَّ للرِّجالِ، كعادةِ النِّساءِ في الجاهليَّةِ قبْلَ الإسلامِ[٥].

---

(١) جَسيمةً: أي: عَظيمةَ الجِسْمِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٥٠).

(٢) فانكَفَأَتْ: أي: انقلَبَت وانصرَفَت. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٩/ ٣٧٨٣).

(٣) عَرقٌ: هو العَظمُ الَّذي عليه بقيَّةُ لحمٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٥١).

(٤) رواه البخاري (٤٧٩٥) واللفظ له، ومسلم (٢١٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢، ١٣).

قال ابن جرير: (قيل: إنَّ التَّبرُّجَ في هذا الموضعِ: التَّبختُرُ والتَّكسُّرُ... وقيل: إنَّ التَّبرُّجَ هو إظهارُ الزِّينةِ، وإبرازُ المرأةِ مَحاسِنَها للرِّجالِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٩٧).

وقيل: التَّبرُّجُ هو مشْيُ المرأةِ بينَ يدَيِ الرَّجُلِ. قاله مجاهدٌ. وقيل: هو أن تُلقيَ الخِمارَ على رأسِها ولا تَشُدَّه ليُواريَ قلائدَها وعنقَها وقُرْطَها، ويبدو ذلك كلُّه منها، قاله مقاتلُ بنُ حيانَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٣٩٩).

وجمَع القرطبيُّ بيْنَ هذه الأقوالِ، فقال: (... المقصود مِن الآيةِ مُخالَفةُ مَن قَبْلَهُنَّ مِن المِشْيةِ على تَغْنيجٍ وتَكسيرٍ وإظهارِ المحاسِنِ للرِّجالِ، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يجوزُ شرعًا. وذلك يَشملُ الأقوالَ كلَّها ويَعُمُّها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٠).

قال الرازي: (وقولُه تعالَى: ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ المرادَ مَن كان في زمنِ نوحٍ، والجاهِليَّةُ الأُخرى مَن كان بعْدَه. وثانيهما: أنَّ هذه ليستْ أُولَى تَقْتَضي أُخرى، بل =

﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَهنَّ بلُزومِ البُيوتِ للتَّخليةِ عن الشَّوائِبِ؛ أرشدَهنَّ إلى التَّحليةِ بالرَّغائبِ، فقال[1]:

﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وأدِّينَ الصَّلاةَ[2] للهِ على الوَجهِ المُستقيمِ، وآتِينَ الزَّكاةَ أهْلَها المُستحِقِّينَ لها، كما أمَر اللهُ تعالى[3].

﴿وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

---

= معناه: تبرُّجُ الجاهليَّةِ القديمةِ، كقولِ القائلِ: أينَ الأكاسِرةُ الجبابرةُ الأُولَى). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٧).

وقال ابن عاشور: (ووصْفُها بـ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ وَصْفٌ كاشِفٌ لأنَّها أُولَى قبْلَ الإسلامِ، وجاءَ الإسلامُ بعدَها، فهو كقولِه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [النَّجْم: ٥٠]، وكقولِهم: العِشاءُ الآخِرةُ، وليس ثَمَّةَ جاهلِيَّتانِ أُولَى وثانيةٌ. ومِن المُفَسِّرينَ مَنْ جَعَلوه وصْفًا مُقَيِّدًا، وجعلوا الجاهليَّةَ جاهليَّتَيْنِ، فمِنْهم مَن قالَ: الأولَى هي ما قبْلَ الإسلامِ، وستكونُ جاهليَّةٌ أُخرَى بعدَ الإسلامِ، يعني: حينَ تَرتَفِعُ أحكامُ الإسلامِ والعياذُ باللهِ. ومنهم مَن قال: الجاهليَّةُ الأُولَى هي القديمةُ مِن عهدِ ما قبْلَ إبراهيمَ، ولم يَكُنْ لِلنِّساءِ وازِعٌ ولا للرِّجالِ، ووضَعوا حكاياتٍ في ذلك مُختلِفةً أو مُبالَغًا فيها أو في عُمومِها، وكلُّ ذلك تَكَلُّفٌ دعاهم إليه حملُ الوصفِ على قصدِ التَّقييدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٠٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٥).

(٢) قيل: المرادُ: الصَّلواتُ المفروضةُ. وممَّن قال بذلك: يحيى بنُ سلام، وابن جرير. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٠، ١٠١).

وقيل: المرادُ: الفرائِضُ والنَّوافِلُ. وممَّن قال بذلك: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٣٠).

أي: وأطِعْنَ اللهَ ورَسولَه في أمْرِهما ونَهيِهما[١].

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾.

أي: إنَّما يُريدُ اللهُ[٢] أن يُذهِبَ عنكم مَساوِئَ الأخلاقِ والأعمالِ -يا أهلَ بَيتِ مُحمَّدٍ- بما يأمُرُكم ويَنهاكم، ويُحِبُّ أن يُطَهِّرَكم تَطهيرًا مِن دنَسِ السَّيِّئاتِ[٣].

عن أمِّ المؤمِنينَ عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((خرجَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غَداةً وعليه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ[٤] مِن شَعَرٍ أسْوَدَ، فجاء الحَسَنُ بنُ عَليٍّ فأدخَلَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤).

(٢) والمرادُ بالإرادةِ هنا: الإرادةُ الشَّرعيَّةُ، لا الكَونيَّةُ كما يزعُمُ الرَافضةُ، ويَدَّعون العِصمةَ لأئمَّتِهم بِناءً على ذلك! يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٧١، ٧٢)، ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) للألباني (٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٦، ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٣٤-٢٣٥، ٢٤٣).

قال ابنُ تيميَّة: (سياقُ الآيةِ يقتضي أنَّه يريدُ لِيُذهِبَ عنهم الرِّجسَ -الَّذي هو الخَبَثُ؛ كالفواحِشِ-، ويُطَهِّرَهم تطهيرًا مِن الفواحِشِ وغيرِها مِن الذُّنوبِ... والتَّطهيرُ عن الذَّنبِ: إمَّا بألَّا يَفعَلَه العَبدُ، وإمَّا بأن يتوبَ منه... وبالجُملةِ: لفظُ «الرِّجسِ» أصلُه القَذَرُ، ويرادُ به الشِّركُ... ويرادُ به الخبائِثُ المحَرَّمةُ؛ كالمطعوماتِ والمشروباتِ... ولفظُ «الرجس» عامٌّ يقتضي أنَّ اللهَ يريدُ أن يُذهِبَ جميعَ الرِّجسِ... وقد يكونُ مِن تمامِ تَطهيرِهم صيانتُهم عن الصَّدَقةِ الَّتي هي أوساخُ النَّاسِ... وبالجُملةِ فالتَّطهيرُ الَّذي أراده اللهُ، والَّذي دعا به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ليس هو العِصمةَ، بالاتِّفاقِ؛ فإنَّ أهلَ السُّنَّةِ عندَهم لا مَعصومَ إلَّا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. والشِّيعةُ يقولونَ: لا مَعصومَ غيرُ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، والإمامِ). ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٧٩-٨٣).

(٤) مِرْطٌ مُرَحَّلٌ: كِساءُ خَزٍّ أو صُوفٍ، منقوشٌ عليه صُوَرُ رِحالِ الإبلِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٩/ ٣٩٦٢).

ثمَّ جاء الحُسَينُ فدخَلَ معه، ثمَّ جاءت فاطِمةُ فأدخَلَها، ثمَّ جاء عليٌّ فأدخَلَه، ثمَّ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾))[١].

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ٣٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعَمَلِ الَّذي هو فِعلٌ وتَركٌ؛ أمَرَهنَّ بالعِلمِ، وبيَّنَ لهنَّ طَريقَه[٢].

وأيضًا لَمَّا ضَمِنَ اللهُ لِزَوجاتِ نَبيِّه العَظَمةَ، أمَرَهنَّ بالتَّحلِّي بأسبابِها، والتَّملِّي مِن آثارِها، والتَّزوُّدِ مِن عِلمِ الشَّريعةِ بدِراسةِ القرآنِ؛ لِيَجمَعَ ذلك اهتِداءَهنَّ في أنفُسِهنَّ ازديادًا في الكَمالِ والعِلمِ، وإرشادَهنَّ الأُمَّةَ إلى ما فيه صَلاحٌ لها مِن عِلمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣].

﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾.

أي: واذكُرْنَ[٤] -يا أزواجَ النَّبيِّ- ما يُتلَى في بُيوتِكنَّ مِن آياتِ القُرآنِ، والسُّنَّةِ[٥].

---

(١) رواه مسلم (٢٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨).

(٤) قال السعدي: (أمرُهنَّ بذِكرِه يَشمَلُ ذِكرَ لَفظِه بتِلاوتِه، وذِكرَ معناه بتَدَبُّرِه والتَفَكُّرِ فيه، واستخراجِ أحكامِه وحِكَمِه؛ وذِكرَ العَمَلِ به وتأويلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨).
والحِكمةُ: قيل: هي السُّنَّةُ. وممَّن قال بذلك: الشافعي، وابن جرير، وأبو عَمرٍو الداني، =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو المتَّصِفُ أزَلًا وأبدًا باللُّطفِ، المتضمِّنِ عِلمَه بالأشياءِ الدَّقيقةِ، وإيصالَه الرَّحمةَ بالطُّرقِ الخفيَّةِ، ومِن لُطفِه سَوقُ الخَيرِ والنَّفعِ إلى نِساءِ النَّبيِّ،

---

= والسمعاني، والقرطبي، وابن القيم، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٨)، ((المكتفى في الوقف والابتدا)) للداني (ص: ١٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٤)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٦٤).

قال النحاس: (أكثرُ أهلِ التَّفسيرِ على أنَّ الحكمةَ هاهنا السُّنَّةُ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٢١٦)

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: الحِكمةُ هي السُّنَّةُ؛ لأنَّ الَّذي كان يُتلى في بُيوتِ أزواجِه -رَضِيَ الله عنهن- سِوى القرآنِ: هو سُنَّتُه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ٣٦٦).

وقال ابن القيِّم: (والحِكمةُ هي السُّنَّةُ، كما قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ، وهو كما قالوا؛ فإنَّ الله تعالى قال: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾؛ فنَوَّعَ المتلُوَّ إلى نَوعَينِ: آياتٍ: وهي القُرآنُ. وحِكمةٍ: وهي السُّنَّةُ. والمرادُ بالسُّنَّةِ: ما أُخِذَ عن رَسولِ اللهِ -صلَّى الله عليه وسلَّم- سِوى القُرآنِ). ((مختصر الصواعق المرسلة)) (ص: ٥٣٥).

وقيل: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾: القرآنُ، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾: أمْرُه ونهيُه في القرآنِ. وممَّن اختاره مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦١).

وقيل: إنَّ القرآنَ جامعٌ بينَ كونِه بَيِّناتٍ دالَّةً على التَّوحيدِ وصدقِ النُّبُوَّةِ، وبينَ كونِه حكمةً مُشتمِلةً على فُنونٍ مِنَ العلومِ والشَّرائعِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٣).

قال ابنُ تيميَّةَ: (والحِكمةُ: قال غيرُ واحدٍ مِنَ السَّلَفِ: هي السُّنَّةُ. وقال أيضًا طائفةٌ كمالكٍ وغيرِه: هي معرفةُ الدِّينِ، والعَمَلُ به. وقيل غيرُ ذلك. وكُلُّ ذلك حقٌّ؛ فهي تتضمَّنُ التَّمييزَ بين المأمورِ والمحظورِ، والحَقِّ والباطِلِ؛ وتعليمَ الحَقِّ دون الباطِلِ، وهذه السُّنَّةُ الَّتي فُرِّق بها بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، وبيْن الأعمالِ الحَسَنةِ مِنَ القبيحةِ، والخيرِ مِنَ الشَّرِّ). ((مجموع الفتاوى)) (١٩/ ١٧٥).

وحِفظُهنَّ مِن الشُّرورِ، وإكرامُهنَّ وبُلوغُهنَّ مَنزِلةً عاليةً؛ وهو المتَّصِفُ أزَلًا وأبدًا بالخِبرةِ، فهو العالِمُ بالأسرارِ والخفايا، ومِن خِبرتِه عِلمُه بما يَنفَعُ نِساءَ النَّبيِّ، وعِلمُه بهِنَّ وبحالِهنَّ، فاختارَهنَّ أزواجًا لِرَسولِه[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ﴾ أنَّ الإنسانَ قد يَشرُفُ بشَرَفِ مَن اتَّصَلَ به؛ تُؤخَذُ مِن شَرَفِ أُمَّهاتِ المؤمنينَ باتِّصالهنَّ بالرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ ولهذا حَثَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على الجَليسِ الصَّالحِ، وقال: ((مَثَلُ جليسِ الصَّالحِ والسُّوءِ، كحامِلِ المِسْكِ ونافِخِ الكِيرِ[٢]؛ فحامِلُ المِسكِ إمَّا أنْ يُحْذِيَك[٣]، وإمَّا أن تَبْتاعَ[٤] منه، وإمَّا أن تجدَ منه ريحًا طيِّبةً))[٥]، وحَذَّرَ مِن جليسِ السُّوءِ؛ لأنَّ الإنسانَ بلا شَكٍّ يَشرُفُ بشَرَفِ مَن يَتَّصلُّ به، ويَنزِلُ بنُزولِ مَن يَتَّصلُ به[٦].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩).

قال السعدي: (مِن معاني ﴿ٱللَّطِيفُ﴾: الَّذي يَسوقُ عَبدَه إلى الخَيرِ، ويَعصِمُه مِنَ الشَّرِّ بطُرقٍ خَفيَّةٍ لا يَشعُرُ بها، ويَسوقُ إليه مِنَ الرِّزقِ ما لا يَدريه، ويُريه مِنَ الأسبابِ الَّتي تكرَهُها النُّفوسُ ما يكونُ ذلك طريقًا له إلى أعلى الدَّرَجاتِ، وأرفَعِ المنازِلِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤).

(٢) الكِير: هو شَيءٌ يَنفُخُ فيه الحدَّادُ؛ لِتَشتعِلَ النَّارُ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٥/ ٢٣١). ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٣٢٤).

(٣) يُحذِيَك: أي: يُعطِيَك ويُتحِفَك منه بشَيءٍ؛ هِبةً. يُنظر: ((شرح القَسْطَلَّاني)) (٨/ ٢٩٢).

(٤) تَبْتاعَ: أي: تَشتري. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٥/ ٢٣١).

(٥) أخرجه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٢١).

بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ دَلَّ قولُه تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ مع أمْرِه بحِفظِ الفَرْجِ، وثَنائِه على الحافِظينَ لِفُروجِهم والحافِظاتِ، ونَهْيِه عن قِربانِ الزِّنا: أنَّه ينبغي للعَبدِ إذا رأى مِن نَفْسِه هذه الحالةَ، وأنَّه يَهَشُّ لفِعلِ المحَرَّمِ عندَما يَرى أو يَسمَعُ كَلامَ مَن يهواه، ويجِدُ دَواعيَ طَمَعِه قد انصرَفَت إلى الحرامِ: فلْيَعرِفْ أنَّ ذلك مرَضٌ؛ فلْيَجتهِدْ في إضعافِ هذا المرَضِ، وحَسمِ الخواطِرِ الرَّدِيَّةِ، ومُجاهَدةِ نفْسِه على سَلامتِها مِن هذا المرضِ الخطيرِ، وسُؤالِ اللهِ العِصمةَ والتَّوفيقَ؛ وأنَّ ذلك مِن حِفظِ الفَرْجِ المأمورِ به[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ تحريمُ خُضوعِ المرأةِ في مُخاطَبةِ الرِّجالِ؛ فإذا كان هذا في النِّساءِ الطَّاهِراتِ المُبَرَّءاتِ، فغَيرُهنَّ مِن بابِ أَولى، وإذا كانتِ العِلَّةُ خَوفَ طَمَعِ مَن في قَلبِه مرضٌ، فهذه العلَّةُ لا تَختَصُّ بزَوجاتِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ أنَّ فِتنةَ النِّساءِ مرضٌ في القلبِ يَحتاجُ الإنسانُ فيه إلى مُعالجةٍ وإلى مداواةٍ، وهذا المرضُ مَرَضٌ فَتَّاكٌ -نسألُ اللهَ تعالى السَّلامةَ منه-، مرَضٌ في القلبِ كمَرَضِ السَّرطانِ في البدنِ، إذا لم يَتدارَكِ اللهُ العبدَ بعَفوِه وتَوفيقِه وتَسديدِه، فإنَّه يَهلِكُ؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما تَرَكْتُ بعدي فِتنةً أضَرَّ على الرِّجالِ مِنَ النِّساءِ))[٣]؛ فالواجِبُ الحذَرُ مِن هذا الأمرِ؛ وألَّا يُمليَ الإنسانُ لنفْسِه ويُمهِلَها في هذا البابِ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ﴾ دَليلٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٢١).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٩٦) واللفظ له، ومسلم (٢٧٤٠) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٢٣).

أنَّ على المرأةِ الاحترازَ مِن كلِّ ما دعا إلى شَهوتِها، والفتنةِ بها[١]، فإنَّ مَن في قَلبِه مَرَضُ الشَّهوةِ وإرادةُ الصُّورةِ متى خضَع المطلوبُ طَمِعَ المريضُ، والطَّمعُ هو الَّذي يقوِّي الإرادةَ والطَّلَبَ، ويقوِّي المرَضَ بذلك، بخِلافِ ما إذا كان آيسًا مِن المطلوبِ؛ فإنَّ اليأسَ يُزيلُ الطَّمَعَ، فتَضعُفُ الإرادةُ، فيَضعُفُ الحُبُّ، فإنَّ الإنسانَ لا يريدُ أن يَطلُبَ ما هو آيسٌ منه، فلا يكونُ مع الإرادةِ عَمَلٌ أصلًا، بل يكونُ حَديثُ نَفْسٍ، إلَّا أن يقتَرِنَ بذلك كلامٌ أو نظَرٌ ونحوُ ذلك، فيأثَمُ بذلك[٢].

٦- الإشارةُ إلى أنَّ إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزكاةِ مِن الموانعِ عن المُحَرَّماتِ؛ لأنَّه سُبحانَه وتعالى قال: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَأَقِمْنَ﴾؛ فدلَّ هذا على أنَّ مِن أسبابِ عدَمِ التَّبرُّجِ: إقامةَ الصَّلاةِ[٣].

٧- أنَّ مَن أعطاه اللهُ تعالى عِلمًا كان طلَبُ الاستقامةِ منه أوكَدَ وأوثقَ؛ فإذا آتَى اللهُ تعالى الإنسانَ عِلمًا فإنَّه يُطلَبُ منه مِن الاستقامةِ أكثَرَ ممَّا يُطلَبُ ممَّن لم يُؤتَ عِلْمًا؛ لأنَّه قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ﴾ فليس عليكُنَّ نَقصٌ في العِلمِ، بل إنَّ العِلمَ ﴿يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ دَليلٌ على أنَّ مَن عَظُمَت مَنزلتُه ودَرجتُه عندَ اللهِ، فإنَّ عمَلَه يُضاعَفُ له أجرُه[٥].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ ظاهِرُه تَفضيلٌ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٤٨).

لجُملتِهنَّ على نساءِ هذه الأمَّةِ[١]. وقيل: أفضلُ النِّساءِ مطلقًا. وقيل: ظاهرُ الآيةِ أيضًا تفضيلُهنَّ على بناتِه، إلَّا أن يُقالَ بدُخولِهنَّ في اللَّفظِ؛ لأنهنَّ مِن نساءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الوسائِلَ لها أحكامُ المقاصِدِ؛ فإنَّ الخُضوعَ بالقَولِ واللِّينَ فيه: في الأصلِ مُباحٌ، ولكنْ لَمَّا كان وسيلةً إلى المحرَّمِ مُنِعَ منه؛ ولهذا ينبغي للمرأةِ في مخاطبةِ الرِّجالِ ألَّا تُلينَ لهم القَولَ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أنَّ صَوتَ المرأةِ ليس بعَورةٍ، خِلافًا لِمَن قال: «إنه عورةٌ» مِن أهلِ العلمِ؛ ولهذا كان النِّساءُ يأتينَ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَسْأَلْنَه وحوْلَه أصحابُه، ولا يَنهاهُنَّ عن ذلك، ولو كان صوتُ المرأةِ عورةً لَنَهاهُنَّ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الكَلامِ مع حُضورِ الرِّجالِ[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الأحسَنَ بالمرأةِ ألَّا تَرفَعَ صَوتَها بحيثُ يَسمعُها الرِّجالُ[٥].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ ذُكِر بعْدَه: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾؛ إشارةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١١).

وتقدَّم استثناءُ بعضِ أهلِ العلمِ لفاطِمةَ بنتِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومريمَ بنتِ عِمرانَ، وآسيةَ امرأةِ فِرعونَ مِن العمومِ.

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٥/ ٢٢٩)، ((أحكام القرآن)) لِلكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٤٦).

إلى أنَّ ذلك ليس أمرًا بالإيذاءِ والمُنكَرِ، بل القَولُ المعروفُ وعندَ الحاجةِ: هو المأمورُ به لا غَيرُه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أنَّه إذا أفتى المُفتي للسَّائلِ بشَيءٍ، فينبغي له أنْ يُنبِّهَه على وَجهِ الاحترازِ ممَّا قد يَذهَبُ إليه الوَهمُ منه مِن خِلافِ الصَّوابِ؛ فنَهاهنَّ سُبحانَه عن الخُضوعِ بالقولِ، فرُبَّما ذَهَب الوَهمُ إلى الإذنِ في الإغلاظِ في القَولِ والتَّجاوُزِ، فرَفَعَ هذا التَّوهُّمَ بقَولِه: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ مَشروعيَّةُ قَرارِ المرأةِ في بيتِها[٣]، فمعنى هذه الآيةِ الأمرُ بلزومِ البيتِ، والخِطابُ وإن كان لنِساءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقد دخَل غيرُهنَّ فيه بالمعنى -على أحدِ القولينِ-، هذا لو لم يَرِدْ دليلٌ يخصُّ جميعَ النِّساءِ، كيف والشَّريعةُ طافحةٌ بلزومِ النساءِ بيوتَهنَّ، والانكفافِ عن الخروجِ منها إلا لحاجةٍ[٤].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ يقتضي وُجوبَ مُكثِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في بُيُوتِهنَّ، وألَّا يَخرُجْنَ إلَّا لضرورةٍ، وجاء في الحديثِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُذِنَ لكُنَّ أن تَخرُجْنَ لحَوائِجِكنَّ))[٥].

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أشْكَلَ على النَّاسِ خُروجُ أمِّ المؤمِنينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١).

والحديث أخرجه البخاري (٥٢٣٧)، ومسلم (٢١٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

عائِشةَ -رَضِيَ الله عنها- إلى البَصرةِ في الفِتنةِ الَّتي تُدْعى وَقعةَ الجَمَلِ، فلم يُغَيِّرْ عليها ذلك كثيرٌ مِن جِلَّةِ الصَّحابةِ؛ منهم طَلْحةُ والزُّبَيرُ، وأنكر ذلك عليها بعضُهم؛ مِثلُ: عمَّارِ بنِ ياسرٍ، وعليِّ بنِ أبي طالبٍ، ولكُلٍّ نظَرٌ في الاجتِهادِ، والَّذي عليه المحقِّقونَ أنَّ ذلك كان منها عن اجتهادٍ؛ فإنَّها رأت أنَّ في خروجِها إلى البَصرةِ مَصلحةً للمُسلِمينَ؛ لِتَسعَى بينَ فريقَيِ الفِتنةِ بالصُّلحِ؛ فإنَّ النَّاسَ تعَلَّقوا بها، وشَكَوا إليها ما صاروا إليه مِن عَظيمِ الفِتنةِ، ورَجَوا بَرَكَتَها أن تخرُجَ فتُصلِحَ بينَ الفَريقَينِ، وظنُّوا أنَّ النَّاسَ يَستَحيُونَ منها، فتأوَّلت لخُروجِها مَصلحةً تُفيدُ إطلاقَ القَرارِ المأمورِ به في قَولِه تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ يُكافئُ الخُروجَ للحَجِّ، وأخَذَت بقَولِه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩]، ورأت أنَّ الأمرَ بالإصلاحِ يَشملُها وأمثالَها ممَّن يَرجُونَ سَماعَ الكَلِمةِ، فكان ذلك منها عن اجتِهادٍ، وقد أشار عليها جمْعٌ مِن الصَّحابةِ بذلك، وخرَجوا معها؛ مِثلُ طَلْحةَ والزُّبيرِ، وناهيك بهما! وهذا مِن مواقِعِ اجتِهادِ الصَّحابةِ الَّتي يجبُ علينا حَملُها على أحسَنِ المَخارجِ، ونظُنُّ بها أحسَنَ المذاهِبِ، وكاد أن يَصلُحَ الأمرُ، ولكِنْ أفسَدَه دُعاةُ الفِتنةِ، ولم تَشعُرْ عائِشةُ إلَّا والمقاتَلةُ قد جرَتْ بيْنَ فريقَينِ مِن الصَّحابةِ يومَ الجَمَلِ، ولا ينبغي تقلُّدُ كلامِ المؤرِّخينَ على عِلَّاتِه؛ فإنَّ فيهم مِن أهلِ الأهواءِ ومَن تلقَّفوا الغَثَّ والسَّمينَ[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ ذَمُّ الجهلِ؛ فإنَّ نسبةَ هذا إلى الجهلِ لا شكَّ أنَّه يُرادُ به التَّنفيرُ، وفيه أيضًا مدْحُ ما كان مبنيًّا على العلمِ؛ لأنَّ ذَمَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١، ١٢).

وقال أيضًا: (وما يُذكَرُ عنها رَضِيَ اللهُ عنها: أنَّها كانت إذا قرأتْ هذه الآيةَ تبكي حتَّى يبتَلَّ خِمارُها: فلا ثِقةَ بصِحَّةِ سَنَدِه، ولو صَحَّ لَكان محمَلُه أنَّها أسِفَت لتلك الحوادِثِ الَّتي ألجأَتْها إلى الاجتِهادِ في تأويلِ الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢).

الضِّدِّ يدُلُّ على مدحِ ضدِّه، كما قيل: «وبضِدِّها تَتبيَّنُ الأشياءُ»[١].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيه بِشارةٌ بالفُتوحِ وتَوسيعِ الدُّنيا على زَوجاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ العَيشَ وقْتَ نُزولِ هذه الآيةِ كان ضَيِّقًا عن القُوتِ، فضلًا عن الزَّكاةِ[٢].

١٣- كثيرًا ما يَجمَعُ الله تعالى بينَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ في القرآنِ؛ وذلك لأنَّ الصَّلاةَ متضَمِّنةٌ للإخلاصِ للمعبودِ، والزَّكاةَ والنَّفقةَ متضمِّنةٌ للإحسانِ إلى عَبيدِه، فعنوانُ سعادةِ العبدِ إخلاصُه للمعبودِ، وسَعْيُه في نفْعِ الخَلْقِ، كما أنَّ عنوانَ شقاوةِ العبدِ عدمُ هذينِ الأمْرَينِ منه، فلا إخلاصَ ولا إحسانَ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ أنَّ الخُضوعَ بالقَولِ وتبرُّجَ الجاهليَّةِ: مِن الرِّجْسِ، وأنَّ القَرارَ في البُيوتِ، وإقامَ الصَّلاةِ، وإيتاءَ الزكاةِ، وطاعةَ اللهِ عزَّ وجلَّ ورَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: مِن أسبابِ زَوالِ الرِّجسِ؛ لأنَّ ما تقدَّمَ أوامِرُ ونَواهٍ، بَيَّن اللهُ تعالى أنَّه إنَّما أمَر بها ونهَى عنها؛ مِن أجْلِ أنْ يُذهِبَ عن هذا البَيتِ الرِّجْسَ[٤].

١٥- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾، فترَك خِطابَ المؤنَّثاتِ، وخاطَب بخِطابِ المذكَّرينَ؛ بقولِه: ﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾؛ لِيَدخُلَ فيه نساءُ أهلِ بيتِه ورجالُهم[٥]، وهو يَعُمُّ غيرَ أزواجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ كعَليٍّ، وفاطِمةَ، وحَسَنٍ، وحُسَينٍ -رَضِيَ اللهُ عنهم؛ وذلك لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٨).

ذَكَرَه سُبحانَه بصيغةِ التَّذكيرِ لَمَّا اجتمعَ المُذكَّرُ والمؤنَّثُ[١]، وقد أجمَع أهلُ اللِّسانِ العربيِّ على تغليبِ الذُّكورِ على الإناثِ في الجموعِ ونحوِها[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أراد أنْ يُذهِبَ الرِّجسَ وأثَرَ الرِّجسِ أيضًا، وهذا فوقَ ذَهابِ الرِّجْسِ؛ لأنَّنا لو ضرَبْنا هذا بمثالٍ حِسِّيٍّ وقُلنا: إنَّ هذا الثَّوبَ تَلَطَّخَ بنَجاسةٍ، فحكَكْنا هذه النَّجاسةَ حتَّى زالت عَيْنُها، فهذا يُسمَّى إذهابَ الرِّجسِ، فإذا صَبَبْنا الماءَ حتَّى نَظُفَ المكانُ تمامًا وزال الأثَرُ، صار ذلك تَطهيرًا[٣].

١٧- إنَّ الله تعالى أمَرَ بطَهارةِ القَلبِ، وأمَرَ بطَهارةِ البَدَنِ، وكِلْتا الطَّهارتَينِ مِن الدِّينِ الَّذي أمَر اللهُ به وأوجَبَه؛ قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ﴾ [المائدة: ٦]، وقال: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال: ﴿خُذْ مِنْ

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢٣).

وقال ابن عاشور: (وضميرَا الخِطابِ موَجَّهانِ إلى نساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على سَنَنِ الضَّمائرِ الَّتي تَقَدَّمَتْ. وإنَّما جيءَ بالضَّميرينِ بصيغةِ جمعِ المذكَّرِ على طريقةِ التَّغليبِ؛ لاعتبارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذا الخِطابِ؛ لأنَّه رَبُّ كلِّ بيتٍ مِن بُيوتِهنَّ، وهو حاضرٌ هذا الخِطابَ؛ إذ هو مُبلِّغُه. وفي هذا التَّغليبِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا التَّطهيرَ لهنَّ لأجْلِ مقَامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِتَكونَ قريناتُه مُشابهاتٍ له في الزَّكاة والكمالِ، كما قال الله تعالَى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النُّور: ٢٦] يعني: أزواجَ النَّبيِّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو نظيرُ قولِه في قصَّةِ إبراهيمَ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، والمخاطَبُ زوجُ إبراهيمَ وهو معها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤٣).

أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣]، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فنَجِدُ كثيرًا مِن المتفَقِّهةِ والمتعَبِّدةِ إنَّما همَّتُه طهارةُ البدَنِ فقط، ويَزيدُ فيها على المشروعِ اهتِمامًا وعمَلًا، ويترُكُ مِن طهارةِ القَلبِ ما أُمِرَ به إيجابًا أو استِحبابًا، ولا يفهَمُ مِن الطَّهارةِ إلَّا ذلك!

ونجدُ كثيرًا مِن المتصَوِّفةِ والمتفَقِّرةِ إنَّما همَّتُه طهارةُ القَلبِ فقط، حتَّى يَزيدَ فيها على المشروعِ اهتمامًا وعملًا، ويترُك مِن طهارةِ البدَنِ ما أُمِرَ به إيجابًا أو استِحبابًا[1]!

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ الطَّهارةُ لها معنيانِ؛ **أحدُهما**: الطَّهارةُ مِن الذُّنوبِ، كقَولِه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقَولِه: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٨٢]، وقَولِه: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة: ١٠٣].

**والمعنى الثاني**: الطَّهارةُ الحِسِّيَّةُ بالماءِ والتُّرابِ، وإنَّما أمَرَ بهذه؛ لتتحَقَّقَ تلك[2].

١٩- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، كقَولِه: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة: ٦]، وكقَولِه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وكقَولِه: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٣/ ٣٩).

ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٦، ٢٧]؛ فإنَّ إرادةَ اللهِ في هذه الآياتِ متضَمِّنةٌ لمحبَّةِ الله لذلك المرادِ ورِضاه به، وأنَّه شَرَعَه للمؤمِنينَ وأمَرَهم به، ليس في ذلك أنَّه خَلَق هذا المرادَ، ولا أنَّه قضاه وقَدَّره، ولا أنَّه يكونُ لا مَحالةَ، والدَّليلُ على ذلك أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ نُزولِ هذه الآيةِ قال: ((اللَّهُمَّ هؤلاء أهلُ بَيْتي، فأذهِبْ عنهم الرِّجْسَ، وطَهِّرْهم تطهيرًا))[1]. فطلَبَ مِن اللهِ لهم إذهابَ الرِّجسِ، والتَّطهيرَ؛ فلو كانت الآيةُ تتضَمَّنُ إخبارَ اللهِ بأنَّه قد أذهب عنهم الرِّجسَ وطَهَّرهم، لم يحتَجْ إلى الطَّلَبِ والدُّعاءِ.

والإرادةُ في كتابِ اللهِ نوعانِ: إرادةٌ شرعيَّةٌ دينيَّةٌ تتضَمَّنُ محبَّتَه ورِضاه، وإرادةٌ كَوْنيَّةٌ قَدَريَّةٌ تتضَمَّنُ خَلْقَه وتقديرَه؛ الأُولى مِثلُ هؤلاء الآياتِ، والثَّانيةُ مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥][2]، فإذا كانت الإرادةُ في آيةِ التَّطهيرِ إرادةً شَرعيَّةً فهي لا تَستلزِمُ وُقوعَ المرادِ من التَّطهيرِ، وإنَّما محبَّته تعالى لأهلِ البيتِ أن يَتطَهَّروا، بخِلافِ ما لو كانت إرادةً كونيَّةً؛ فمعنى ذلك أنَّ تطهيرَهم أمرٌ كائِنٌ لا بدَّ منه، وهو متمَسَّكُ الشِّيعةِ في قَولِهم بعِصمةِ أهلِ البَيتِ[3].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرًا * وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ فيه دَليلٌ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٠٥)، والطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٧٧١)، والطبراني (٩/ ١١) (٨٢٩٥) من حديثِ عُمَرَ بنِ أبي سلمة رَضِيَ الله عنه.

قال الترمذي: غريبٌ. وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٧١، ٧٢).

(٣) يُنظر: ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) للألباني (٦/ ٣٣).

بيِّنٌ على أنَّ نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ بَيتِه، فإنَّ السِّياقَ إنَّما هو في مُخاطَبتِهنَّ[١]، ولأنهنَّ سببُ نزولِ هذه الآيةِ، وسببُ النزولِ داخلٌ في النَّصِّ قولًا واحدًا[٢]، فتَخصيصُ الشِّيعةِ أهلَ البَيتِ بفاطِمةَ وعليٍّ وابنَيهما رَضِيَ اللهُ عنهم: ضَعيفٌ؛ لأنَّ التخَّصيصَ بهم لا يُناسِبُ ما قبْلَ الآيةِ وما بعدَها، والحديثُ يقتضي أنَّهم مِن أهلِ البَيتِ لا أنَّه ليس غيرُهم[٣]، وإذا كان أزواجُه مِن أهلِ بيتِه، فقَرابتُه أحَقُّ بهذه التَّسميةِ[٤].

٢١- قال تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ فوصَف السُّنَّةَ بالحِكمةِ دونَ القرآنِ؛ لأنَّ السُّنَّةُ مِن كلام الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وهو بشَرٌ، وكلامُ البشرِ قد يَرِدُ عليه احتمالُ ألَّا يكونَ مُشتمِلًا على الحكمةِ؛ فبَيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالى أنَّ السُّنَّةَ حِكمةٌ -وإنْ كانت مِن كلامِ الرَّسولِ عليه الصَّلاة والسَّلام أو مِن فِعْلِه- لأنها موافقةٌ للصَّوابِ، أمَّا كلامُ الله فاحتمالُ ألَّا يَتضمَّنَ الحكمةَ بعيدٌ جدًّا[٥].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢٣، ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٠).

قال الشنقيطي: (والتَّحقيقُ إن شاء اللهُ: أنَّهنَّ داخلاتٌ في الآيةِ، وإنْ كانت الآيةُ تتناوَلُ غيرَهنَّ مِن أهلِ البَيتِ.

أمَّا الدَّليلُ على دُخولِهنَّ في الآيةِ، فهو ... أنَّ سِياقَ الآيةِ صريحٌ في أنَّها نازِلةٌ فيهِنَّ. والتَّحقيقُ: أنَّ صورةَ سببِ النُّزولِ قطعيَّةُ الدُّخولِ؛ كما هو مُقَرَّرٌ في الأصولِ).

ثمَّ قال: (الصَّواب شمولُ الآيةِ الكريمةِ لأزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولعليٍّ وفاطمةَ والحسَنِ والحُسَينِ رَضِيَ اللهُ عنهم كُلِّهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٥، ٤١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٢).

وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ رَدٌّ على مُنكِري السُّنَّةِ؛ ورَدٌّ أيضًا على آخَرينَ يُقابِلونَهم يَعتَنونَ بالسُّنَّةِ اعتناءً عظيمًا دونَ أدنَى معرفةٍ بالقرآنِ، وهذا خطأٌ؛ لأنَّ أوَّلَ ما يجِبُ أنْ نتعلَّمَ القرآنُ، ثمَّ بعدَ ذلك السُّنَّةُ؛ لأنَّ القرآنَ هو الأصلُ[1].

٢٣- قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾، فأمَر أزواجَ رسولِه بأن يخبِرْنَ بما أنزَل الله مِن القرآنِ في بيوتِهنَّ، وما يَرَيْنَ مِن أفعالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأقوالِه فيهنَّ، حتَّى يبلغَ ذلك إلى النَّاسِ، فيعملوا بما فيه، ويَقْتدوا به، وهذا يدُلُّ على جوازِ قَبولِ خبرِ الواحدِ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ في الدِّينِ[2].

٢٤- قولُه تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾، في هذا مسألةٌ بديعةٌ؛ وهي أنَّ الله أمَر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بتبليغِ ما أُنزِلَ عليه مِن القرآنِ، وتعليمِ ما علِمه مِن الدِّينِ؛ فكان إذا قرَأه على واحدٍ، أو ما اتَّفَق، سقَط عنه الفرضُ، وعلى مَن سمِعه أن يُبلِّغَه إلى غيرِه، وليس يَلزَمُه أن يَذكُرَه لجميعِ الصَّحابةِ، ولا كان عليه إذا علِم ذلك أزواجُه أن يخرجَ إلى النَّاسِ فيقولَ لهم: نزَل كذا، وكان كذا[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

- قولُه: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ أُعيدَ خِطابُ نِساءِ النَّبيِّ صلَّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهُ عليه وسلَّمَ مِن جانِبِ ربِّهنَّ، وأُعِيدَ نِداؤهنَّ رضِيَ اللهُ عنهنَّ؛ للاهتِمامِ بهذا الخبَرِ اهتِمامًا يَخُصُّه. ونَفْيُ المُشابَهةِ هنا يُرادُ به نَفْيُ المُساواةِ، مُكنًّى به عن الأفضليَّةِ على غيرِهنَّ[١].

- قَولُه: ﴿كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ قال: ﴿كَأَحَدٍ﴾، ولم يقُلْ: (كواحِدةٍ)؛ لأنَّ (الأحدَ) عامٌّ يَصلُحُ للواحِدِ والاثنينِ والجَمعِ، والمذكَّرِ والمؤنَّثِ[٢].

- والتَّقييدُ بقولِه: ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ ليس لِقَصدِ الاحترازِ عن ضِدِّ ذلك، وإنَّما هو إلْهابٌ وتَحريضٌ على الازديادِ مِن التَّقْوى[٣]. وفعلُ الشَّرْطِ ﴿ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مستعملٌ في الدلالةِ على الدَّوامِ، أي: إنْ دُمْتُنَّ على التَّقوى؛ فإنَّ نساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتَّقِياتٌ مِن قَبْلُ[٤]. وقيل: الشرطُ لبيانِ أنَّ فضيلتَهنَّ إنَّما تكونُ بالتَّقوَى، لا باتِّصالِهنَّ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ كي لا يعتمِدْنَ على ذلك[٥].

- قولُه: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ فُرِّعَ على تَفضيلِهنَّ وتَرفيعِ قَدْرِهنَّ إرشادُهنَّ إلى دَقائقَ مِن الأخلاقِ قد تقَعُ الغَفلةُ عن مُراعاتِها؛ لِخَفاءِ الشُّعورِ بآثارِها، ولأنَّها ذرائعُ خَفيَّةٌ نادرةٌ تُفْضي إلى ما لا يَليقُ بحُرْمتِهنَّ في نُفوسِ بعضِ ممَّن اشتمَلَتْ عليه الأُمَّةُ، وفيها مُنافِقُوها. وابتُدِئَ مِن ذلك بالتَّحذيرِ مِن هَيئةِ الكلامِ؛ فإنَّ النَّاسَ مُتفاوتونَ في لِينِه، والنِّساءُ في كلامِهنَّ رِقَّةٌ طَبيعيَّةٌ، وقد يكونُ لِبَعضِهنَّ مِن اللَّطافةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦، ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٦٩).

ولِينِ النَّفْسِ ما إذا انضَمَّ إلى لِينِها الجِبلِّيِّ، قَرُبَت هَيئتُه مِن هيئةِ التَّدلُّلِ؛ لِقِلَّةِ اعتيادِ مِثلِه إلَّا في تلك الحالةِ، فإذا بَدا ذلك على بَعضِ النِّساءِ ظَنَّ بعضُ مَن يُشافِهُها مِن الرِّجالِ أنَّها تَتحبَّبُ إليه، فرُبَّما اجترَأَت نفْسُه على الطَّمعِ في المُغازَلةِ، فبدَرَتْ منه بادِرةٌ تكونُ مُنافيةً لحُرْمةِ المرأةِ، بلْهَ أزواجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اللَّاتي هنَّ أمَّهاتُ المؤمنينَ[1].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِٱلۡقَوۡلِ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ للتَّعديةِ بمَنزلةِ هَمزةِ التَّعديةِ، أي: لا تُخضِعْنَ القولَ، أي: تَجعَلْنَه خاضعًا ذليلًا، أي: رقيقًا مُتفكِّكًا. ومَوقعُ الباءِ هنا أحسَنُ مِن مَوقعِ هَمزةِ التَّعديةِ؛ لأنَّ باءَ التَّعديةِ جاءتْ مِن باءِ المُصاحَبةِ؛ فأصْلُ قولِك: ذهَبْتُ بزَيدٍ، أنَّك ذهبْتَ مُصاحبًا له، فأنتَ أذْهَبْتَه معك، ثمَّ تُنوسِيَ معنى المُصاحَبةِ في نَحوِ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٧]؛ فلمَّا كان التَّفكُّكُ والتَّزيينُ للقولِ يَتبَعُ تَفكُّكَ القائلِ، أُسنِدَ الخُضوعُ إليهنَّ في صُورةٍ، وأُفِيدَت التَّعديةُ بالباءِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الباءُ بمعنى (في)، أي: لا يكُنْ مِنكنَّ لِينٌ في القولِ[2].

- والنَّهيُ عن الخُضوعِ بالقولِ في قولِه: ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ إشارةٌ إلى التَّحذيرِ ممَّا هو زائدٌ على المُعتادِ في كَلامِ النِّساءِ مِن الرِّقَّةِ، وذلك تَرخيمُ الصَّوتِ، أي: لِيَكُنْ كلامُكنَّ جَزْلًا، وحُذِف مُتعلَّقُ ﴿فَيَطۡمَعَ﴾ -أي: فيكُنَّ-؛ تَنزُّهًا وتَعظيمًا لِشَأْنِ نِساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع قِيامِ القَرينةِ[3].

- وعَطْفُ ﴿وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾ على ﴿فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ بمَنزلةِ الاحتِراسِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٨، ٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٩).

لئلَّا يَحسَبْنَ أنَّ اللهَ كلَّفَهُنَّ بخَفْضِ أصواتِهنَّ كحَديثِ السِّرارِ(١).

- والمَعروفُ: هو الَّذي يَألَفُه النَّاسُ بحسَبِ العُرْفِ العامِّ، ويَشملُ القولُ المعروفُ هَيئةَ الكلامِ، وهي الَّتي سِيقِ لها المَقامُ، ويَشملُ مَدلولاتُه: ألَّا يَنْتَهِرْنَ مَن يُكلِّمُهنَّ، أو يُسْمِعْنَه قولًا بذيئًا، مِن بابِ: فلْيَقُلْ خيرًا أو لِيَصْمُتْ؛ وبذلك تكونُ هذه الجُملةُ بمَنزلةِ التَّذييلِ(٢).

٢- قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ إضافةُ البُيوتِ إلى نِساءِ النَّبيِّ؛ لأنَّهنَّ ساكناتٌ بها، أسكَنَهنَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فكانتْ بيوتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُميَّزُ بعضُها عن بعضٍ بالإضافةِ إلى ساكنةِ البيتِ(٣). وفيه إغراءٌ للنِّساءِ على لزومِ البيتِ؛ لأنَّه بيتُها وسِترُها، لذا قال: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾، وهي أبلغُ مِن: «وقَرْنَ في البيوتِ»، كأنَّه يقولُ: هذا البيتُ ما بُنِيَ إلَّا لكِ -سِتْرًا لك وصَوْنًا-؛ فالْزَمِي هذا البيتَ الَّذي مِن أجْلِكِ بُنِيَ(٤).

- قولُه: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ فيه تَعريضٌ بنَهْيِ غَيرِهنَّ مِن المُسلماتِ عن التَّبرُّجِ؛ فإنَّ المدينةَ أيَّامَئذٍ قد بقِيَ فيها نِساءُ المنافقينَ، ورُبَّما كُنَّ على بَقيَّةٍ مِن سِيرتِهنَّ في الجاهليَّةِ؛ فأُريدَ النِّداءُ على إبطالِ ذلك في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤٠).

سِيرةِ المُسلماتِ، فنُسِبَ إلى أهْلِ الجاهليَّةِ؛ إذ كان قد تَقرَّرَ بيْنَ المسلمينَ تَحقيرُ ما كان عليه أمْرُ الجاهليَّةِ إلَّا ما أقَرَّه الإسلامُ[١].

- والمقصودُ مِن النَّهيِ الدَّوامُ على الانكِفافِ عن التَّبرُّجِ، وأنَّهنَّ مَنهيَّاتٌ عنه[٢].

- وأُريدَ بهذه الأوامرِ الدَّوامُ عليها؛ لأنَّهنَّ مُتلبِّساتٌ بمَضمونِها مِن قبْلُ، ولِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّ المُقرَّبينَ والصَّالحينَ لا تَرتفعُ دَرجاتُهم عندَ اللهِ تعالى عن حَقِّ تَوجُّهِ التَّكليفِ عليهم[٣].

- قولُه: ﴿وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ خَصَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ بالأمْرِ، ثمَّ جاء الأمْرُ عامًّا بالطَّاعةِ؛ لإنافَتِهما -أي: لشَرفِهما وعُلوِّهما- على غيرِهما، ولأنَّ هاتَينِ الطَّاعتينِ البَدنيَّةَ والماليَّةَ هما أصْلُ سائرِ الطَّاعاتِ، فمَنِ اعْتَنى بهما حقَّ العِنايةِ جرَّتاهُ إلى ما وراءَهما[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ تَعليلٌ لِمَا تَضمَّنَتْه الآياتُ السَّابقةُ مِن أمْرٍ ونَهْيٍ على الاستِئنافِ؛ ولذلك عُمِّمَ الحُكمُ بتَعميمِ الخِطابِ لِغَيرِهنَّ، وصَرَّحَ بالمَقصودِ حيثُ قِيل بطَريقِ النِّداءِ أو المَدْحِ: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾، مُرادًا بهمْ مَن حَواهم بَيتُ النُّبوَّةِ[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ الرِّجسُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢، ١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤).

الأصْلِ: القذَرُ الَّذي يُلوِّثُ الأبدانَ، وعُبِّرَ به هنا عن الذُّنوبِ والنَّقائصِ الدِّينيَّةِ؛ لأنَّها تَجعَلُ عِرضَ الإنسانِ في الدُّنيا والآخرةِ مَرْذولًا مَكروهًا كالجِسمِ المُلوَّثِ بالقذَرِ، وعُبِّر بالتَّطهيرِ عن تَجنيبِ الذُّنوبِ والنَّقائصِ؛ لِمَزيدِ التَّنفيرِ عنها، وعُبِّر بالإذهابِ عن الإنجاءِ والإبعادِ[1].

- وفي التَّعبيرِ بالفِعلِ المُضارعِ ﴿يُرِيدُ﴾ دَلالةٌ على تَجدُّدِ الإرادةِ واستِمرارِها[2].

- والقَصرُ في قولِه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ قَصرُ قلْبٍ[3]، أي: ما يُريدُ اللهُ لَكُنَّ ممَّا أمَرَكنَّ ونَهاكُنَّ إلَّا عِصمتَكُنَّ مِن النَّقائصِ، وتَحليتَكُنَّ بالكَمالاتِ، ودوامَ ذلك، أي: لا يُريدُ مِن ذلك مَقْتًا لَكُنَّ ولا نِكايةً. وهذا وَجهُ مَجيءِ صِيغَةِ القَصرِ بـ (إنَّما)[4].

- قولُه: ﴿أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ «أل» للعهدِ الذِّهنيِّ، كأنَّ هذا البيتَ معهودٌ معلومٌ بأذهانِ الناسِ، لا يَغيبُ عنها؛ لِمَا لهذا البيتِ مِن المكانةِ الرفيعةِ، والخَصْلةِ الحميدةِ، ففيه تفخيمُ هذا البيتِ وتعظيمُه[5].

٣- قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ فِعلُ (اذْكُرْنَ) يَجوزُ أنْ يكونَ مِن الذُّكرِ -بضَمِّ الذَّالِ- وهو التَّذكُّرُ، وهذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٤٣).

كلِمةٌ جامعةٌ تَشملُ المعنى الصَّريحَ منه، وهو ألَّا يَنْسَيْنَ ما جاء في القُرآنِ، ولا يَغفُلْنَ عن العملِ به، ويَشملُ المَعنى الكِنائيَّ؛ وهو أنْ يُرادَ مُراعاةُ العَملِ بما يُتْلى في بُيوتِهنَّ ممَّا يَنزِلُ فيها، وما يَقرَؤُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيها، وما يُبيِّنُ فيها مِن الدِّينِ، ويَشملُ معنًى كِنائيًّا ثانيًا؛ وهو تَذكُّرُ تلك النِّعمةِ العظيمةِ أنْ كانتْ بُيوتُهنَّ مَوقعَ تِلاوةِ القرآنِ. ويجوزُ أنْ يَكونَ مِن الذِّكرِ -بكَسرِ الذَّالِ-، وهو إجراءُ الكلامِ على اللِّسانِ، أي: بلِّغْنَه للنَّاسِ؛ بأنْ يَقرَأْنَ القرآنَ، ويُبلِّغْنَ أقوالَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وسِيرتَه. وفيه كِنايةٌ عن العَملِ به. ومَوقعُ مادَّةِ الذكرِ هنا مَوقعٌ شَريفٌ؛ لِتَحمُّلِها هذه المحاملَ مما لا يَتحمَّلُه غيرُها إلَّا بإطنابٍ[١].

- والتَّعرُّضُ للتِّلاوةِ في البُيوتِ دونَ النُّزولِ فيها، مع أنَّه الأنسَبُ لِكَونِها مَهبطَ الوحْيِ؛ لِعُمومِها لِجَميعِ الآياتِ، ووُقوعِها في كلِّ البيوتِ، وتَكرُّرِها المُوجِبِ لِتَمكُّنِهنَّ مِن الذِّكرِ والتَّذكيرِ، بخِلافِ النُّزولِ. وعدَمُ تَعيينِ التَّالي؛ لِتَعُمَّ تِلاوةَ جِبريلَ، وتِلاوةَ النَّبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتِلاوتَهنَّ، وتِلاوةَ غيرِهنَّ؛ تَعليمًا وتَعلُّمًا[٢].

- وعَطْفُ ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ، وهو ما كان مِن القُرآنِ مَواعظَ وأحكامًا شرعيَّةً، على قولٍ في التَّفسيرِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ تَعليلٌ للأمْرِ، وتَذييلٌ للجُمَلِ السَّابقةِ؛ فمَعنى الجُملةِ: أنَّه تعالى مَوصوفٌ باللُّطفِ والعِلمِ، كما دلَّ عليه فِعلُ (كان)؛ فيَشملُ عُمومُ لُطفِه وعِلْمِه لُطفَه بهنَّ، وعِلْمَه بما فيه نفعُهنَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٩).

## الآيتان (٣٥-٣٦)

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾: أي: الخاضِعين، الـمُداوِمينَ على طاعةِ الله، والقُنوتُ: دوامُ الطَّاعة ولُزومُها مع الخُضوعِ؛ وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ، ثمَّ سُمِّيَ كلُّ استِقامةٍ في طريقِ الدِّينِ قُنوتًا[1].

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ﴾: الخاشعُ: هو المطيعُ المتواضِعُ الخائفُ، والخُشوعِ: التَّواضُعُ والتَّذلُّلُ والاستِكانةُ، وأصلُ الخشوعِ في اللُّغةِ: السُّكونُ[2].

﴿قَضَى﴾: أي: حكَم، والقضَاءُ: فصلُ الأمرِ قولًا كان ذلك أو فعلًا، وأصلُه: القَطْعُ والفَصْلُ، يُقالُ: قضَى يَقضي قَضاءً فهو قاضٍ: إذا حكَم وفَصَل، وأصلُ (قضي): يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لِجِهَتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢، ٤٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤، ٦٨٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥ وما بعدها)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٢٣) و (١٩/ ١١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٤٩)، =

﴿ٱلۡخِيَرَةُ﴾: أي: الاختيارُ، وهو ما يُختارُ ويُصْطفَى، وأصلُ (خير): يدُلُّ على العَطفِ والمَيلِ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا أُمَّاتِ الفضائلِ، وما أعَدَّه للمتَّصِفينَ بها: إنَّ المُسلِمينَ والمُسلِماتِ، والمؤمِنينَ والمؤمناتِ، والمطيعينَ والمُطيعاتِ، والصَّادِقينَ والصَّادقاتِ، والصَّابرينَ والصَّابراتِ، والخائِفينَ مِنَ اللهِ والخائفاتِ، والمتصَدِّقينَ والمتصَدِّقاتِ، والصَّائِمينَ والصَّائِماتِ، والحافِظينَ فُروجَهم والحافِظاتِ، والذَّاكِرينَ اللهَ كثيرًا والذَّاكراتِ: أعدَّ اللهُ لهم مَغفِرةً وأجرًا عَظيمًا.

ثمَّ يذكُرُ سُبحانَه ما يجبُ على المسلمِ نحوَ خالقِه عزَّ وجلَّ، ونحوَ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: وما ينبغي لمؤمِنٍ ولا مُؤمِنةٍ إذا حكَمَ اللهُ ورَسولُه حُكمًا أن يختاروا أمرًا مُخالفًا لذلك الحُكمِ، ومَن يَعصِ اللهَ ورَسولَه فقد ضَلَّ ضلالًا واضِحًا لا خفاءَ فيه.

## تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ٣٥﴾.

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٤)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الله تعالى ثوابَ زَوجاتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعِقابَهنَّ لو قُدِّرَ عدَمُ الامتِثالِ، وأنَّه ليس مِثلَهنَّ أحدٌ مِنَ النِّساءِ- ذكَرَ بقيَّةَ النِّساءِ غَيرَهنَّ[1].

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها أنَّها قالت: (يغزو الرِّجالُ ولا تغزو النِّساءُ! وإنَّما لنا نِصْفُ الميراثِ، فأنزَل اللهُ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢])، قال مجاهِدٌ: (وأنزل فيها: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، وكانت أمُّ سَلَمةَ أوَّلَ ظَعينةٍ[2] قَدِمَت المدينةَ مُهاجِرةً)[3].

وعن أُمِّ عُمارةَ الأنصاريَّةِ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّها أتَتِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالت: ما أرى كُلَّ شَيءٍ إلَّا للرِّجالِ، وما أرى النِّساءَ يُذكَرْنَ بشَيءٍ! فنَزَلت هذه الآيةُ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ الآيةَ))[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٤).

(٢) قِيل للمرأةِ: «ظعينَة»؛ لأنَّها تَظْعَنُ معَ الزَّوجِ حيثُ ما ظَعَن، أو تُحْمَلُ على الرَّاحلةِ إذا ظَعَنَتْ، وقِيل: هي المرأةُ في الهودجِ، ثُمَّ قِيل للمرأةِ وحدَها والهودَج وحدَه، مِن: ظَعَن إذا سارَ. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٨/ ٢٩٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٢٢) واللفظ له، وأحمد (٢٦٧٣٦).

حَسَّنه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ١٣٠)، وابن حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَرَ)) (٢/ ٢٣)، وصَحَّحه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٤٩٥)، وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٠٢٢).

(٤) أخرجه الترمذي (٣٢١١) واللفظ له، والطبراني (٢٥/ ٣١) (٥١)، وأبو نُعَيم في ((معرفة الصحابة)) (٧٩٩٣).

قال الترمذي: حسَنٌ غريب. وحَسَّنه ابن حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (٢/ ٢٤)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢١١).

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾.

أي: إنَّ الرِّجالَ والنِّساءَ المُستَسلِمينَ للهِ، المُنقادينَ له بطاعتِه[1].

وفي حديثِ جِبريلَ الطَّويلِ عن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ قال: يا مُحمَّدُ، أخبِرني عن الإسلامِ. فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: الإسلامُ أن تَشهَدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتُقيمَ الصَّلاةَ، وتُؤتيَ الزَّكاةَ، وتَصومَ رَمَضانَ، وتَحُجَّ البَيتَ إنِ استَطعْتَ إليه سبيلًا، قال: صَدَقْتَ))[2].

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾.

أي: والمؤمِنينَ والمؤمِناتِ باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، وبالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه[3].

كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وفي حديثِ جبريلَ الطَّويلِ عن عُمَرَ رَضِيَ الله عنه: ((أنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ قال: فأخبِرْني عن الإيمانِ، قال: أن تؤمِنَ باللهِ، وملائكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ خَيرِه وشَرِّه، قال: صَدَقْتَ))[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) رواه مسلم (٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١، ٢٣).

(٤) رواه مسلم (٨).

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾.

أي: والمُطيعينَ والمُطيعاتِ لله فيما يأمُرُهم ويَنْهاهم، المُداوِمينَ على طاعتِه بذُلٍّ وخُضوعٍ وسُكونٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾.

أي: والصَّادقين والصَّادقاتِ في عقائِدِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، فلا يُظهِرونَ غيرَ ما يُبطِنون، ولا يَكذِبون، ولا يُراؤون، ولا يُخلِفون الوَعدَ، ولا يَنقُضونَ العَهدَ مع اللهِ ومع عِبادِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١، ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٨-٢٦٠).

وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات: ١٥].

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ ﴾.

أي: والصَّابرينَ والصَّابراتِ على التَّمسُّكِ بالدِّينِ وفِعلِ الطَّاعاتِ، وتَركِ المعاصي والشَّهواتِ، وتحمُّلِ المصائِبِ والمشَقَّاتِ[١].

﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ ﴾.

أي: والخائِفينَ والخائِفاتِ مِن اللهِ، المتواضِعينَ الخاضِعينَ له في صَلاتِهم وفي جميعِ أحوالِهم[٢].

﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ ﴾.

أي: والمؤدِّينَ والمؤدِّياتِ الصَّدَقاتِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١ - ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٦٤، ٢٦٥).
قال ابن كثير: (الخُشوع: السُّكونُ والطُّمأنينةُ، والتُّؤَدةُ والوقارُ والتَّواضُعُ. والحامِلُ عليه: الخَوفُ مِن الله، ومُراقبتُه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٦٥، ٢٦٦). =

﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾.

أي: والمتعبِّدينَ والمتعبِّداتِ للهِ تعالى بالصِّيامِ[1].

﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الصَّومُ مِن أكبرِ العَونِ على كَسرِ الشَّهوةِ؛ ناسَبَ أن يَذكُرَ بعْدَه قولَه تعالى[2]:

﴿وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ﴾.

أي: والحافِظينَ فُروجَهم عمَّا لا يَحِلُّ مِن الزِّنا وغَيرِه إلَّا على أزواجِهم أو ما ملَكَت أيمانُهم مِن الإماءِ، والحافِظاتِ فُروجَهنَّ كذلك إلَّا على أزواجِهنَّ إنْ كُنَّ حرائِرَ، أو أسيادِهنَّ المالِكينَ لهنَّ إنْ كُنَّ إماءً[3].

---

= قال ابن عثيمين: (كلُّ شيءٍ مِن المالِ تَبذُلُه لله -سبحانه وتعالى- فهو مِن الصَّدَقةِ، وقد يُقالُ: إنَّ المتصَدِّقينَ أعَمُّ مِن الباذِلينَ لمالِهم فيما يُرضي اللهَ عزَّ وجَلَّ؛ فيَشمَلُ فِعلَ كُلِّ خيرٍ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: «كُلُّ تَسبيحةٍ صَدَقةٌ، وكُلُّ تهليلةٍ صَدَقةٌ، وأمْرٌ بالمعروفِ صَدَقةٌ، ونهْيٌ عن مُنكَرٍ صَدَقةٌ، وتُميطُ الأذى عن الطَّريقِ صَدَقةٌ، وتُعينُ الرَّجُلَ في دابَّتِه فتَحمِلُه عليها، أو تَضَعُ له عليها مَتاعَه: صَدَقةٌ، والكَلِمةُ الطَّيِّبةُ صَدَقةٌ، وبكُلِّ خُطوةٍ تَخطوها إلى الصَّلاةِ صَدَقةٌ، وفي بُضعِ أحَدِكم صَدَقةٌ» [يُنظر ما أخرجه البخاري «٢٨٩١» «٢٩٨٩»، ومسلم «١٠٠٦» «١٠٠٩»]). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢، ٢٣). =

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧].

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان حِفظُ الفروجِ وسائرُ الأعمالِ لا تَكادُ تُوجدُ إلَّا بالذِّكْرِ، وهو الَّذي فيه المُراقبةُ؛ قال[1]:

﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾.

أي: والذَّاكِرينَ والذَّاكراتِ اللهَ ذِكرًا كَثيرًا[2].

كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

---

= قال ابن عطيَّةَ: (حِفظُ الفَرْجِ هو: مِنَ الزِّنا وشبهِه، وتدخُلُ مع ذلك الصِّيانةُ مِن جميعِ ما يؤدِّي إلى الزِّنا أو هو في طريقِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٥).

وقال الشنقيطي: (ويدخُلُ في حِفظِ الفَرْجِ: حِفظُه مِن الزِّنا، واللِّواطِ، والمُساحَقةِ، وحِفظُه مِن الإبداءِ للنَّاسِ والانكشافِ لهم). ((أضواء البيان)) (٥/ ٥٠٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٢، ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٨٥، ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢ - ٢٤).

وذِكرُ اللهِ يَشملُ ذِكرَه اللِّسانيَّ، فيدخُلُ فيه قراءةُ القرآنِ، وطلَبُ العِلمِ ودراستُه، إلى غيرِ ذلك. ويَشملُ الذِّكرَ القلبيَّ، وهو ذِكرُ الله عندَ أمرِه ونَهيِه، فيَدخُلُ فيه التَّوبةُ، والارتداعُ عن المظالِمِ كُلِّها؛ مِن القتلِ، وأخذِ أموالِ النَّاسِ، والحِرابةِ، والإضرارِ بالنَّاسِ في المعاملاتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣، ٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٧١).

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسيرُ في طَريقِ مَكَّةَ، فمرَّ على جَبلٍ يُقال له: جُمْدانُ، فقال: سيروا، هذا جُمْدانُ، سَبَق المُفَرِّدونَ[1]، قالوا: وما المفَرِّدونَ يا رَسولَ الله؟ قال: الذَّاكِرونَ اللهَ كثيرًا والذَّاكِراتُ))[2].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾.

أي: أعدَّ اللهُ لأولئك الرِّجالِ والنِّساءِ المتَّصِفينَ بتلك الصِّفاتِ مَغفِرةً، فيَستُرُ ذُنوبَهم ولا يؤاخِذُهم بها، وأعدَّ لهم أجرًا عَظيمًا[3].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ۝٣٦﴾.

---

(١) المُفَرِّدونَ: أي: المميِّزونَ أنفُسَهم وأحوالَهم عن أقرانِهم؛ بنَيلِ الزُّلفى، والعُروجِ إلى الدَّرَجاتِ العلى؛ بأن جَعَلوا ربَّهم فَردًا بالذِّكرِ، وتركوا ذِكرَ ما سِواه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٤/ ١٥٤٠).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٠٩)، ((الهداية)) لمكِّي (٩/ ٥٨٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤).

قيل: إعدادُ الأجرِ يدُلُّ على أنَّ المرادَ بهذه الأوصافِ اجتِماعُها. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشري، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٣).

وقيل: عَطفُ الصِّفاتِ بالواوِ المفيدةِ مجرَّدَ التَّشريكِ في الحُكمِ شَأنُه أن يكونَ الحُكمُ المذكورُ معه ثابتًا لكُلِّ واحدٍ اتَّصف بوصفٍ مِن الأوصافِ دونَ اشتراطِ اجتماعِها. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ عاشور، وقال: (تُحمَلُ كُلُّ صفةٍ مِن هذه الصِّفاتِ على عدَمِ ما يُعارِضُها ممَّا يوجِبُ التَّبِعةَ، أي: سلامتُه مِن التلبُّسِ بالكبائرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤، ٢٥). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٢٧، ١٢٨).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أن أمَرَ اللهُ نبيَّه أن يخيِّرَ زَوجاتِه بيْنَ البَقاءِ معه، والتَّسريحِ سَراحًا جميلًا، وفُهِمَ مِن هذا أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُريدُ ضررًا لِغَيرِه، فمَن كان مَيْلُه إلى شَيءٍ مكَّنَه منه، وتَرَك حَظَّ نَفْسِه لحَظِّ غَيرِه- ذكَرَ هنا أنَّ زِمامَ الاختيارِ ليس بيَدِ الإنسانِ في كُلِّ شَيءٍ، كما أعطَى ذلك للزَّوجاتِ، بل هناك أمورٌ لا اختيارَ لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ فيها، وهي ما حَكَم اللهُ فيه[١].

وأيضًا لَمَّا أثنَى اللهُ تعالى على أهلِ خِصالٍ هي مِن طاعةِ اللهِ؛ أعقَبَه ببيانِ أنَّ طاعةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يأمُرُ به، ويعتزِمُ الأمرَ: هي طاعةٌ واجِبةٌ، وأنَّها مُلحَقةٌ بطاعةِ اللهِ، وأنَّ صِنفَيِ النَّاسِ الذُّكورَ والنِّساءَ في ذلك سواءٌ، كما كانا سواءً في الأحكامِ الماضيةِ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تلك الأوصافَ السَّابِقةَ مِن الإسلامِ فما بعْدَه؛ عقَّب ذلك بما صدَرَ مِن بعضِ المُسلِمينَ؛ إذ أشار الرَّسولُ بأمرٍ وقَعَ منهم الإباءُ له، فأنكَرَ عليهم؛ إذ طاعتُه -عليه الصَّلاة والسَّلامُ- مِن طاعةِ اللهِ، وأمْرُه مِن أمْرِه[٣].

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

أي: لا يَصِحُّ ولا ينبغي شرعًا لمؤمنٍ ولا مُؤمنةٍ إذا حكَمَ اللهُ ورَسولُه حُكمًا: أن يختاروا غيرَ ما اختاره اللهُ ورَسولُه، فيَعصوهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٩)، ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٥، ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧، ٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨٦).=

كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾.

أي: ومَن يَعصِ اللهَ ورَسولَه في أيِّ أمرٍ أو نَهيٍ، فقد ضَلَّ عن طريقِ الحَقِّ ضَلالًا واضِحًا لا خفاءَ فيه[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ

---

= قال ابن كثير: (هذه الآيةُ عامَّةٌ في جميعِ الأمورِ؛ وذلك أنَّه إذا حكَمَ اللهُ ورَسولُه بشَيءٍ فليس لأحدٍ مخالفتُه، ولا اختيارَ لأحدٍ هاهنا، ولا رأيَ ولا قولَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٣).

وقال ابن عطيَّةَ: (قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ﴾ لفظُه النَّفْيُ، ومعناه الحظرُ والمنعُ مِن فِعلِ هذا، وهذه العِبارةُ «ما كان» و «ما ينبغي» ونحوُها تجيءُ لِحَظرِ الشَّيءِ والحُكم بأنَّه لا يكونُ، ورُبَّما كان امتِناعُ ذلك الشَّيءِ عقلًا؛ كقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل: ٦٠]، ورُبَّما كان العِلمُ بامتِناعِه شرعًا؛ كقولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ ...﴾ [الشورى: ٥١]، ورُبَّما كان حَظْرُه بحُكم شرعيٍّ؛ كهذه الآيةِ، ورُبَّما كان في المَندوباتِ؛ كما تقولُ: ما كان لك يا فُلانُ أن تَترُكَ النَّوافِلَ، ونحو هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٥).

وقوله تعالى: ﴿أَمْرِهِمْ﴾ قيل بمعنى: شأنِهم. وممَّن قال بذلك: ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨٨).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ بمعنى: أمْرِ الله تعالى إيَّاهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨).

قال ابن عطيَّة: (هذا العِصيانُ يَعُمُّ الكُفرَ فما دونَه، وكُلُّ عاصٍ يأخُذُ مِن الضَّلالِ بقَدرِ مَعصيتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٦).

وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ اشتملَتْ هذه الخِصالُ العَشرُ على جوامعِ فُصولِ الشَّريعةِ كُلِّها:

فالإسلامُ: يجمَعُ قواعِدَ الدِّينِ الخَمسَ المفروضةَ الَّتي هي أعمالٌ.

والإيمانُ: يجمَعُ الاعتقاداتِ القَلبيَّةَ المفروضةَ، وهو شرطُ أعمالِ الإسلامِ كُلِّها.

والقُنوتُ: يجمَعُ الطَّاعاتِ كُلَّها؛ مَفروضَها ومَسنونَها، وتَرْكَ المَنهيَّاتِ، والإقلاعَ عنها ممَّن هو مرتَكِبُها، وهو معنى التَّوبةِ؛ فالقنوتُ هو تمامُ الطَّاعةِ، فهو مُساوٍ للتَّقوى، فهذه جوامعُ شرائِعِ المكَلَّفين في أنفُسِهم.

والصِّدقُ: يجمَعُ كُلَّ عَمَلٍ هو من مُوافَقةِ القَولِ والفِعلِ للواقِعِ؛ في القَضاءِ، والشَّهادةِ، والعُقودِ، والالتزاماتِ، وفي المعاملاتِ بالوَفاءِ بها، وتركِ الخيانةِ، ومُطابقةِ الظَّاهِرِ للباطِنِ في المراتِبِ كُلِّها، ومِن الصِّدقِ صِدقُ الأفعالِ.

والصَّبرُ: جامعٌ لِما يختَصُّ بتحمُّلِ المشاقِّ مِن الأعمالِ؛ كالجِهادِ، والحِسبةِ في الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، ومناصَحةِ المسلمينَ، وتحمُّلِ الأذى في الله، وهو خُلُقٌ عَظيمٌ هو مِفتاحُ أبوابِ محامِدِ الأخلاقِ والآدابِ، والإنصافِ مِن النَّفسِ.

والخُشوعُ: الإخلاصُ بالقَلبِ والظَّاهِرِ، وهو الانقيادُ، وتجنُّبُ المعاصي، ويدخُلُ فيه الإحسانُ وهو المفَسَّرُ في حديثِ جِبريلَ: ((أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنَّه يراك))[1]. ويدخُلُ تحت ذلك جميعُ القُرَبِ النَّوافِلِ؛ فإنَّها

(١) أخرجه البخاري (٥٠) واللفظ له، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مِن آثارِ الخُشوعِ، ويدخُلُ فيه التَّوبةُ مِمَّا اقترفه المرءُ مِن الكبائِرِ؛ إذ لا يتحقَّقُ الخشوعُ بدونِها.

والتَّصَدُّقُ: يحتوي جميعَ أنواعِ الصَّدَقاتِ والعَطيَّاتِ، وبَذْلَ المعروفِ والإرفاقِ.

والصَّومُ: عبادةٌ عَظيمةٌ؛ فلذلك خُصِّصَت بالذِّكرِ.

وحِفظُ الفُروجِ: أُريدَ به حِفظُها عمَّا ورد الشَّرعُ بحِفظِها عنه، وقد اندرَج في هذا جميعُ أحكامِ النِّكاحِ، وما يتفَرَّعُ عنها، وما هو وسيلةٌ لها.

وذِكرُ اللهِ له محملانِ؛ أحدُهما: ذِكرُه اللِّسانيُّ، فيَدخُلُ فيه قراءةُ القُرآنِ، وطَلَبُ العلمِ ودراستُه... وشَمِل ما يُذكَرُ عَقِبَ الصَّلواتِ، ونحو ذلك مِن الأذكارِ.

والمحمَلُ الثَّاني: الذِّكرُ القَلبيُّ، وهو ذِكرُ اللهِ عند أمرِه ونَهْيِه... ومِمَّا يوضِّحُ شُمولَه لهذه الشَّرائعِ كلِّها تقييدُه بـ﴿كَثِيرًا﴾؛ لأنَّ المرءَ إذا ذكَرَ اللهَ كثيرًا فقد استغرق ذِكرُه على المحمَلَينِ جميعَ ما يُذكَرُ اللهُ عنده.

ويُراعى في الاتِّصافِ بهذه الصِّفاتِ أن تكونَ جاريةً على ما حَدَّده الشَّرعُ في تفاصيلِها[1].

٢- قال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ في ذِكْرِ الكثرةِ دليلٌ على مشروعِيَّةِ الاستكثارِ مِن ذِكْرِ اللَّهِ سبحانَه بالقلبِ واللِّسانِ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ أنَّه ينبغي اتِّخاذُ الوسائلِ الَّتي ينبغي بها حِفظُ الفَرجِ؛ لأنَّ الثَّناءَ على شَيءٍ ثناءٌ عليه وعلى وسائِلِه؛ فكُلُّ ما يَحصُلُ به حِفظُ الفَرجِ فإنَّه مَطلوبٌ ومَشروعٌ؛ ولهذا حَرُمَ النَّظرُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢-٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٥).

الأجنبيَّةِ، وحَرُمَ التَّلذُّذُ بمُخاطبتِها والاستِماعِ إلى صَوتِها، وحَرُمَ أيضًا مُصافَحةُ المرأةِ الأجنبيَّةِ، وحَرُمَتِ الخَلوةُ بها، وحَرُمَ سَفَرُها بلا مَحرَمٍ، وما أشبَهَ ذلك ممَّا يكونُ سَببًا في حِفظِ الفُروجِ، فإذا كان اللهُ سُبحانَه وتعالى أثنَى على الحافِظينَ فُروجَهم فإنَّ الوسائلَ الَّتي تؤدِّي إلى حِفظِ الفَرجِ هي مِن الأمورِ المَطلوبةِ[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ فيه أنَّ الواجِبَ على كُلِّ أحَدٍ أن يكونَ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في كُلِّ ما يختارُه، وإن كان فيه أعظَمُ المشقَّاتِ عليه[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أنَّ مُقتضى الإيمانِ ألَّا يُخالِفَ المؤمِنُ أمرَ اللهِ تعالى ورَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم[3]، فلا ينبغي ولا يَليقُ ممَّن اتَّصَف بالإيمانِ إلَّا الإسراعُ في مَرضاةِ اللهِ ورَسولِه، والهرَبُ مِن سَخَطِ اللهِ ورَسولِه، وامتثالُ أمرِهما، واجتِنابُ نَهْيِهما[4].

٦- قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فقطَعَ سُبحانَه وتعالى التَّخييرَ بعدَ أمْرِه وأمرِ رَسولِه؛ فليس لمؤمِنٍ أن يختارَ شَيئًا بعدَ أمْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل إذا أمَرَ فأمْرُه حَتمٌ، وإنَّما الخِيَرةُ في قَولِ غَيرِه إذا خَفِيَ أمرُه، وكان ذلك الغيرُ مِن أهلِ العِلمِ به وبسُنَّتِه، فبهذه الشُّروطِ يكونُ قَولُ غَيرِه سائغَ الاتِّباعِ، لا واجِبَ الاتِّباعِ؛ فلا يجِبُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

أحدٍ اتِّباعُ قَولِ أحدٍ سِواه، بل غايتُه أنَّه يَسوغُ له اتِّباعُه، ولو ترَك الأخذَ بقَولِ غَيرِه لم يكُنْ عاصيًا لله ورَسولِه، فأين هذا ممَّن يجبُ على جميعِ المكَلَّفينَ اتِّباعُه، ويَحرُمُ عليهم مخالَفتُه، ويجِبُ عليهم تَركُ كُلِّ قَولٍ لِقَولِه؟!

فلا حُكمَ لأحدٍ معه، ولا قَولَ لأحدٍ معه، كما لا تشريعَ لأحدٍ معه، وكلُّ مَن سِواه فإنَّما يجِبُ اتِّباعُه على قَولِه إذا أمرَ بما أمَرَ به، ونهَى عمَّا نهَى عنه، فكان مُبَلِّغًا مَحضًا ومُخبِرًا، لا مُنشِئًا ومُؤَسِّسًا؛ فمَن أنشَأ أقوالًا وأسَّس قواعِدَ بحَسَبِ فَهمِه وتأويلِه لم يجِبْ على الأُمَّةِ اتِّباعُها، ولا التَّحاكُمُ إليها، حتَّى تُعرَضَ على ما جاء به الرَّسولُ؛ فإنْ طابقَتْه ووافقَتْه، وشُهِدَ لها بالصِّحَّةِ، قُبِلَت حينَئذٍ، وإن خالفَتْه وجَب رَدُّها واطِّراحُها، فإنْ لم يَتبيَّنْ فيها أحدُ الأمْرَينِ جُعِلَت موقوفةً، وكان أحسَنُ أحوالِها أن يجوزَ الحُكمُ والإفتاءُ بها وتَركُه، وأمَّا أنَّه يجِبُ ويتعيَّنُ، فكَلَّا ولَمَّا[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ أنَّه يَنْبغي عندَ ذِكْرِ الرِّجالِ والنِّساءِ أنْ يُقَدَّمَ الرِّجالُ، كما في هذه الآيةِ وغيرِها مِن الآيات[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أنَّ الإسلامَ غيرُ الإيمانِ؛ فالعَطفُ يقتَضي المغايَرةَ[3]، فالإيمانُ أخَصُّ مِن الإسلامِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وفي الصَّحيحَينِ: ((لا يَزني الزَّاني حينَ يَزني

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٧).

وهو مُؤمِنٌ))[١]، فيَسلُبُه الإيمانَ، ولا يلزَمُ مِن ذلك كُفرُه، بإجماعِ المُسلِمينَ، فدَلَّ على أنَّه أخَصُّ منه، فالإسلامُ بعدَه مرتبةٌ يَرْتقي إليها وهي الإيمانُ، ثم قال تعالى: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ لأنَّ القنوتَ ناشئٌ عنهما[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: فضيلةُ الإسلامِ والإيمانِ وكلِّ ما ذُكِرَ بعدَ ذلك، فإنْ قال قائل: إنَّ الفَضْلَ جاء لِمَنِ اتَّصَفوا بهذه الصفاتِ كلِّها؟

قلنا: لكنْ لَمَّا جاء هذا الفضلُ لها مجموعًا دلَّ على أنَّ كلَّ واحدٍ منها له فضلٌ؛ وإلَّا لَمَا كان لِذِكْرِها جميعًا فائدةٌ[٣]!

٤- الابتداءُ قد يكونَ كثيرًا بغيرِ الأفضَلِ، بل يُبتدَأُ بالشَّيءِ لأسبابٍ مُتعَدِّدةٍ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ فالآيةُ هنا لا تدُلُّ على أنَّ المسلِمَ أفضَلُ مِن المؤمِنِ[٤]!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لعلَّ بهذه الآيةِ وأمثالِها تقرَّرَ أصلُ التَّسويةِ -أي: في التَّكليفِ والجزاءِ- فأغنى عن التَّنبيهِ عليه في مُعظَمِ أقوالِ القُرآنِ والسُّنَّةِ، ولعَلَّ هذا هو وَجهُ تَعدادِ الصِّفاتِ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٦).

المذكورةِ في هذه الآيةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ التَّسويةُ في خُصوصِ صِفةٍ واحِدةٍ[١]، فالمقصودُ مِن أصحابِ هذه الأوصافِ المذكورةِ: النِّساءُ، وأمَّا ذِكرُ الرِّجالِ فللإشارةِ إلى أنَّ الصِّنفينِ في هذه الشَّرائعِ سواءٌ؛ لِيَعلموا أنَّ الشريعةَ لا تختصُّ بالرِّجالِ، فالأصلُ أن تعُمَّ الرِّجالَ والنِّساءَ إلَّا ما نُصَّ على تخصيصِه بأحدِ الصِّنفَينِ[٢].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ في أكثَرِ المواضِعِ حيثُ ذُكِرَ الذِّكْرُ قَرَنَه اللهُ تعالى بالكَثرةِ هاهنا وفي قَولِه بعدَ هذا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال مِن قبْلُ: ﴿لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ لأنَّ الإكثارَ مِن الأفعالِ البَدَنيَّةِ غَيرُ مُمكِنٍ أو عَسِرٌ؛ فإنَّ الإنسانَ أكْلُه وشُربُه وتحصيلُ مأكولِه ومَشروبِه: يمنَعُه مِن أن يشتَغِلَ دائِمًا بالصَّلاةِ، ولكِنْ لا مانعَ له مِن أن يذكُرَ اللهَ تعالى وهو آكِلٌ، ويَذكُرَه وهو شارِبٌ أو ماشٍ، أو بائعٌ أو شارٍ، وإلى هذا أشار بقَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ولأنَّ جميعَ الأعمالِ صِحَّتُها بذِكرِ اللهِ تعالى، وهي النِّيَّةُ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ أنَّ الجنَّةَ موجودةٌ الآنَ؛ لقولِه تعالى: ﴿أَعَدَّ﴾؛ لأنَّ الإعدادَ بمعنى التَّهيئةِ -و«أَعَدَّ»: فعلٌ ماضٍ-؛ فيكونُ لازمُ ذلك: أنْ تكونَ الجنَّةُ موجودةً، وهذا أمْرٌ معلومٌ عندَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، ومدعومٌ بنصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ: أنّ الجنَّةَ والنَّارَ موجودتانِ الآنَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٨٥).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ فذكَرَ أوَّلًا السَّبَبَ الموجِبَ لعدَمِ مُعارَضتِه أمْرَ اللهِ ورَسولِه، وهو الإيمانُ؛ ثمَّ ذكَرَ المانِعَ مِن ذلك، وهو التَّخويفُ بالضَّلالِ الدَّالِّ على العُقوبةِ والنَّكالِ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أنَّه كلَّما قَوِيَ الإيمانُ قَوِيتِ الموافَقةُ؛ وجْهُه: أنَّ الحُكمَ المُرَتَّبَ على وصْفٍ يقوَى بقُوَّتِه، ويَضعُفُ بضَعفِه، وعليه فإنَّه كلَّما نَقَصَ الإيمانُ وضَعُفَ، كَثُرَت المُخالَفةُ؛ ولهذا قال أهلُ العِلمِ رحمَهم الله: «إنَّ الإيمانَ يَزيدُ بالطَّاعةِ، ويَنقُصُ بالمعصيةِ»[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّه إذا ثَبَتَ للهِ ورسولِه في كلِّ مسألةٍ مِن المسائلِ حُكمٌ طَلَبيٌّ أو خَبَريٌّ؛ فإنَّه ليس لأحدٍ أن يَتخيَّرَ لنفْسِه غيرَ ذلك الحُكمِ فيَذهَبَ إليه، وأنَّ ذلك ليس لمؤمنٍ ولا مُؤمنةٍ أصلًا، فدلَّ على أنَّ ذلك مُنافٍ للإيمانِ[3]، وقد علَّق الأمرَ بالإيمانِ؛ إعلامًا بأنَّ مَن اعترضَ غيرُ مؤمنٍ، وإن أظهرَ الإيمانَ بلِسانِه[4].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، وقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وغيرِهما مِن الآياتِ: تحريمُ الإفتاءِ والحُكمِ في دينِ اللهِ بما يُخالِفُ النُّصوصَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((الرسالة التَّبوكية)) لابن القيم (ص: ٣٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٤).

وسقوطُ الاجتهادِ والتَّقليدِ عندَ ظُهورِ النَّصِّ[١].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ أمْرَ اللهِ، وأمْرَ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مانعٌ مِنَ الاختيارِ، مُوجِبٌ للامتثالِ، وذلك يدُلُّ على اقتضائِه الوُجوبَ، وقد نبَّه تعالى على أنَّ عدمَ الامتثالِ معصيةٌ في قولِه بعدَه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ مع قَولِه سُبحانَه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ جوازُ تشريكِ اللهِ تعالى ورسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالواوِ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، بخلافِ الأمورِ الكَونيَّةِ؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يُشرَكُ معَ اللهِ تعالى بالواوِ؛ ولهذا لَمَّا قال له الرَّجُلُ: ما شاء اللهُ وشِئتَ! قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أجعَلْتَني لله نِدًّا! بل ما شاءَ اللهُ وَحْدَه))[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أنَّ النَّهيَ للتَّحريمِ[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أنه كلَّما كانت المعصيةُ أكبَرَ أو أكثرَ، كان الضَّلالُ أَبْيَنَ وأوضَحَ؛ وجْهُه: أنَّ الحُكْمَ المُرَتَّبَ على وصْفٍ يَزيدُ بزيادته، ويَنقُصُ بنُقصانِه[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ أنَّ معصيةَ

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٤٢٧) و(٥/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٧/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٩٥).

الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كمعصيةِ اللهِ تعالى، فإذا أتانا آتٍ ونَهَيْناه عن أمْرٍ جاء به النَّهيُ في السُّنَّةِ؛ وقال: هذا ليس في القرآنِ! نقولُ: ما في السُّنَّةِ كما في القرآنِ[1].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١] وقولَه: ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]؛ يُثيرُ في نُفوسِ المُسلماتِ أنْ يَسألْنَ: أهنَّ مَأجوراتٌ على ما يَعمَلْنَ مِن الحَسناتِ، و: أهُنَّ مَأموراتٌ بمِثلِ ما أُمِرَتْ به أزواجُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أمْ تلك خَصائصُ لِنساءِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟ فكان في هذه الآيةِ ما هو جَوابٌ لهذا السُّؤالِ، على عادةِ القرآنِ فيما إذا ذَكَر مَأموراتٍ يُعقِبُها بالتَّذكيرِ بحالِ أمْثالِها، أو بحالِ أضْدادِها. ويجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا ورَدَ بمُناسَبةِ ما ذُكِرَ مِن فَضائلِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

- ووَجهُ تَأكيدِ هذا الخَبرِ بحَرْفِ (إنَّ): دَفْعُ شَكِّ مَن شكَّ في هذا الحُكمِ مِن النِّساءِ[3].

- وذكَرَ ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بعدَ ﴿ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾؛ للتَّنبيهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩، ٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢١).

على أنَّ الإيمانَ هو الأصلُ[١].

- قولُه: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصَّومُ: عِبادةٌ عَظيمةٌ؛ فلذلك خُصِّصَت بالذِّكرِ مع أنَّ الفرضَ منه مَشمولٌ للإسلامِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾، ويَفِي صَومَ النَّافلةِ؛ فالتَّصريحُ بذِكرِ الصَّومِ تَنويهٌ به[٢].

- ومَفعولُ ﴿وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبْلَه مِن قولِه: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾، وكذلك مَفعولُ ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ﴾[٣].

- ولم يَذكُرْ لهذه الأوصافِ مُتعلَّقًا إلَّا في قولِه: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾؛ فنَصَّ على مُتعلَّقِ الحِفظِ ﴿فُرُوجَهُمْ﴾؛ لِكَونِه مَزلَّةَ العُقلاءِ ومَركَبَ الشَّهوةِ الغالبةِ، وعلى مُتعلَّقِ الذِّكرِ بالاسمِ الأعظمِ، وهو لفظُ اللهِ -على أحدِ الأقوالِ-؛ إذ هو العَلَمُ المُحتوي على جَميعِ أوصافِه؛ لِيَتذكَّرَ المُسلِمُ مَن يَذكُرُه، وهو اللهُ تعالى[٤].

- وعَطْفُ الإناثِ على الذُّكورِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ...﴾؛ لاختِلافِ الجِنسَينِ، وهو ضَروريٌّ، وأمَّا عطْفُ الزَّوجينِ على الزَّوجينِ؛ فلِتغايُرِ الوَصفَينِ[٥]، فلا يكونُ ضَروريًّا؛ ولذلكَ تُرِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٠).

(٥) قال ابن عاشور: (وجعل [أي: الزَّمخشريُّ] العَطفَ على اعتبارِ المُغايرةِ بينَ المتعاطِفاتِ في الأوصافِ، لا المغايرةِ بالذَّواتِ، وهذا تكَلُّفٌ وصُنعٌ باليدِ، وتَبِعَه البيضاويُّ وكثيرٌ؛ ويعكِّرُ عليه أنَّ جمْعَ تلك الصِّفاتِ لا يوجِبُ المغفرةَ؛ لأنَّ الكبائرَ لا تُسقِطُها عن صاحِبِها إلَّا التَّوبةُ إلَّا أن يَضُمَّ إلى كلامِه ضَميمةً، وهي حملُ ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ على معنى =

في قولِه تعالى: ﴿مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾ [التحريم: ٥]، وفائدتُه: الدَّلالةُ على أنَّ مَدارَ إعدادِ ما أُعدَّ لهُم جمْعُهم بيْنَ هذه النُّعوتِ الجميلةِ(١).

- وقيل: المُرادُ بالعطْفِ التَّمكُّنُ والرُّسوخُ في كلِّ وَصْفٍ منها، زِيادةً على التَّمكُّنِ الَّذي أفادَهُ التَّعبيرُ بالوَصفِ دونَ الفِعلِ، وحينَئذٍ تُعدَمُ الكَبائرُ، فيَتأتَّى تكفيرُ الصَّغائرِ، فتَأتي المغفرةُ والأجْرُ، وأمَّا آيةُ (التَّحريمِ) فلم تُعطَفْ؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّهنَّ أنواعٌ، كلُّ نَوعٍ يَتفرَّدُ بوَصفٍ، وإفادةُ الرُّسوخِ هنا في الأوصافِ مِن سِياقِ الامتنانِ والمَدْحِ بكَونِهنَّ خيرًا(٢).

- وقيل: وَجْهُ تَعدادِ الصِّفاتِ المذكورةِ في هذه الآيةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ التَّسويةُ في خُصوصِ صِفةٍ واحدةٍ، وسُلِكَ مَسلكُ الإطنابِ في تَعدادِ الأوصافِ؛ لأنَّ المَقامَ لِزيادةِ البَيانِ؛ لاختلافِ أفهامِ النَّاسِ في ذلك، على أنَّ في هذا التَّعدادِ إيماءً إلى أُصولِ التَّشريعِ. وعَطْفُ هذه الصِّفاتِ بالواوِ دونَ حَرْفَيِ التَّرتيبِ: الفاءِ و(ثُمَّ)، يُفيدُ أنْ يكونَ الحُكمُ المذكورُ معه ثابتًا لكلِّ واحدٍ اتَّصَفَ بوَصفٍ مِن الأوصافِ المُشتقِّ منها مَوصوفُه(٣).

---

= المتَّصِفينَ بالذِّكرِ اللِّسانيِّ والقلبيِّ، فيكونُ الذِّكرُ القَلبيُّ شامِلًا للتَّوبةِ، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فيكونُ الَّذين جمَعوا هذه الخِصالَ العَشرَ قد حَصَلت لهم التَّوبةُ. غيرَ أنَّ هذا الاعتِذارَ عن الزمخشريِّ لا يَتجاوَزُ هذه الآيةَ؛ فإنَّ في القرآنِ آياتٍ كثيرةً مِثلَها يَضيقُ عنها نِطاقُ هذا الاعتذارُ؛ منها قَولُه تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا﴾ [الفرقان: ٦٣] إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥]. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٣، ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١- ٢٤).

- قَولُه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً﴾ نُكِّرَتْ «مَغْفِرَةً» للتعظيمِ، أي: مغفرةً عظيمةً؛ كما أنَّ لهم أجرًا عظيمًا(١).

٢- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ ...﴾ إدخالُ (كان) في النَّفيِ أقْوى دَلالةً على انتفاءِ الحُكمِ؛ لأنَّ فِعلَ (كان) لِدَلالتِه على الكونِ -أي: الوجودِ- يَقْتضي نَفْيُه انتِفاءَ الكَونِ الخاصِّ برُمَّتِه(٢).

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ ...﴾ لَمَّا وقَعَا (مُؤمن ومؤمِنة) في حَيِّزِ النَّفيِ، فإنَّهما يَعُمَّانِ جَميعَ المؤمنينَ والمؤمناتِ؛ فلذلك جاء ضَميرُهما ضَميرَ جمْعٍ في قولِه: ﴿لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ﴾؛ لأنَّ المعنى: ما كان لِجَمْعِهم ولا لكلِّ واحدٍ منهم الخِيَرةُ... وقيل: الضَّميرُ في ﴿أَمۡرِهِمۡ﴾ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والجمْعُ للتَّعظيمِ(٣).

- وذُكِرَ اسمُ الجلالةِ في قولِه: ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا﴾؛ لِتَعظيم أمْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وللإيماءِ إلى أنَّ طاعةَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ طاعةٌ للهِ، والإشعارِ بأنَّ قَضاءَه قَضاءُ اللهِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨).

- وقولُه: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ تَذييلُ تَعميمٍ؛ للتَّحذيرِ مِن مُخالَفةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ سواءٌ فيما هو فيه الخِيَرةُ، أمْ كان عن عمْدٍ لِلْهَوى في المُخالَفةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨).

## الآيات (٢٧-٤٠)

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَطَرًا ﴾: أي: حاجةً، وقَضاءُ الوَطَرِ: بُلوغُ مُنتهَى ما في النَّفْسِ مِن الشَّيءِ، يُقالُ: قضَى وطَرًا منها: إذا بلَغ ما أراد مِن حاجتِه فيها[١].

﴿أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾: أي: الَّذين تَبَنَّوهم، وأصلُ (دعو): يدُلُّ على إمالةِ شَيءٍ بصَوتٍ[٢].

﴿ حَرَجٍ ﴾: أي: إثمٍ وضِيقٍ، وأصلُ الحَرَجِ: الضِّيقُ، وأصْلُ (حرج): تجمُّعُ الشَّيءِ وضِيقُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٣٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦).

﴿فَرَضَ﴾: أي: أحَلَّ، والفَرْضُ: قطعُ الشَّيءِ الصُّلبِ، والتَّأثيرُ فيه، وأصلُ (فرض): يدُلُّ على تأثيرٍ في شَيءٍ[١].

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: السُّنَّةُ: الطَّريقةُ المُعتادةُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ، واطِّرادِه في سُهولةٍ[٢].

﴿خَلَوْاْ﴾: أي: مَضَوا وذَهَبوا، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ[٣].

﴿حَسِيبًا﴾: أي: رقيبًا، وكَافِيًا ومُقتدِرًا، وعالِمًا ومحاسِبًا، ومنه: أحْسَبَني هذا الشَّيءُ، أي: كفاني[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٠).

قال الكفوي: (كل مَوضِعٍ ورد في القُرآنِ «فرَضَ اللهُ عليه» ففي الإيجابِ، و «ما فرَضَ اللهُ له» واردٌ في مُباحٍ أدخَلَ الإنسانُ فيه نفْسَه). ((الكليات)) (ص: ٦٨٩). ويُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٨، ٤١٣).

مِن قَبْلُ﴾

قَولُه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: مَنصوبٌ على المصدَرِ مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ محذوفٍ، أي: سنَّ اللهُ تعالى ذلك سُنَّةً، والجُملةُ مؤكِّدةٌ لِما قبْلَها مِن نَفيِ الحَرَجِ. وقيل: مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بتقديرِ: (الزَمْ) ونحوِه[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبَيِّنًا قصَّةَ زواجِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن زينبَ بنتِ جحشٍ رضيَ الله عنها: واذكُرْ -يا محمَّدُ- إذ تقولُ لزَيدِ بنِ حارثةَ الَّذي أنعَمَ اللهُ عليه بأنْ هَداه للإسلامِ، وأنعمْتَ عليه -يا محمَّدُ- بالعِتقِ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ: لا تُطَلِّقِ امرأتَك واصبِرْ عليها، واتَّقِ اللهَ فيها، وتُخفي -يا محمَّدُ- في قَلبِك ما أطْلَعَك اللهُ عليه مِن أنَّ زينبَ ستَكونُ مِن أزواجِك بعدَ طلاقِ زَيدٍ لها، وتخشَى أن يقولَ النَّاسُ بأنَّك تزَوَّجْتَ امرأةَ زَيدٍ الَّذي تبنَّيتَه مِن قَبْلُ وقد نَهيتَ عن التَّزَوُّجِ بنِساءِ الأبناءِ، واللهُ أحَقُّ أن تخشاه!

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه الحِكمةَ مِن زواجِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم بزينبَ، فيقولُ: فلمَّا قضى زَيدٌ حاجَتَه مِن امرأتِه زينبَ وطلَّقَها، زوَّجْناك بها يا محمَّدُ؛ لِكَيْلا يكونَ على المؤمِنينَ ضِيقٌ ومَشقَّةٌ في تزوُّجِهم بمُطلَّقاتِ مَن تبَنَّوهم إذا قَضَوا منهنَّ حاجاتِهم وفارَقوهنَّ، وكان قضاءُ اللهُ كائنًا لا محالةَ.

ما كان على النَّبيِّ إثمٌ أو ضِيقٌ مِمَّا قَسَمَ اللهُ له مِنَ المباحاتِ؛ سنَّ اللهُ له ذلك سُنَّةَ الأنبياءِ الماضينَ مِن قَبلِه، وكان قَدَرُ اللهِ كائنًا لا مَحالةَ.

الَّذين يُبلِّغونَ رِسالاتِ اللهِ إلى أقوامِهم، ويَخشَونَ اللهَ ويخافونَ عِقابَه،

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ١٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٠٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٢/ ١٦٧).

ولا يَخشَونَ أحدًا إلَّا اللهَ وَحْدَه، وكفى باللهِ حافِظًا لأعمالِ خَلْقِه، ومُحاسِبًا لهم.

ثمَّ يُثني الله تعالى على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ فيقولُ: ليس محمَّدٌ أبا أحدٍ مِن رجالِكم، ولكِنَّه رَسولُ اللهِ وآخِرُ النَّبيِّينَ، فلا نبيَّ بعْدَه، وكان اللهُ عليمًا بكُلِّ شَيءٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا مَبدأُ المقصودِ مِن الانتِقالِ إلى حُكمِ إبطالِ التَّبنِّي، ودحْضِ ما بناه المنافِقونَ على أساسِه الباطِلِ، بِناءً على كُفرِ المُنافِقينَ الَّذين غَمَزوا مَغامِزَ في قضيَّةِ تزَوُّجِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زينبَ بنتَ جَحشٍ بعدَ أن طلَّقَها زيدُ بنُ حارِثةَ[1].

### سببُ النُّزولِ:

عن أنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: (أنَّ هذه الآيةَ: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلَتْ في شأنِ زَينبَ بِنتِ جَحشٍ وزَيدِ بنِ حارِثةَ)[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩).

(٢) رواه البخاري (٤٧٨٧).

قال ابنُ حجر: (لم تختلِفِ الرِّواياتُ أنَّها نزلت في قِصَّةِ زَيدِ بنِ حارِثةَ وزَينبَ بنتِ جَحشٍ). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٢٣).

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾.

أي: واذكُرْ[1] -يا محمَّدُ- حينَ تقولُ لِزَيدِ بنِ حارِثةَ الَّذي أنعَمَ اللهُ عليه بالهِدايةِ إلى الإسلامِ، وأنعَمْتَ عليه -يا محمَّدُ- بالعِتقِ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ[2].

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (لو كان محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كاتمًا شَيئًا ممَّا أُنزِل عليه، لَكتَمَ هذه الآيةَ: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾)[3].

﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾.

أي: لا تُطَلِّقِ امرأتَك، واصبِرْ على عِشْرتِها، واتَّقِ اللهَ فيها[4].

---

(١) قال ابنُ عاشور: (هو مِنَ الذُّكرِ -بضَمِّ الذالِ- الَّذي هو بمعنى التَّذكُّرِ، فلم يأمُرْه الله بأن يَذكُرَ ذلك للنَّاسِ؛ إذ لا جدوى في ذلك، ولكِنَّه ذكَّرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليرتِّبَ عليه قَولَه: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾، والمقصودُ بهذا الاعتبارُ بتقديرِ الله تعالى الأسبابَ لِمُسبَّباتِها؛ لتحقيقِ مرادِه سُبحانَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٩٨، ٢٩٩).

قال الواحدي: (﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ أي: بالهدايةِ للإسلامِ، ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بأن أعتَقْتَه مِنَ الرِّقِّ، قاله جميعُ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٢٥١).

(٣) رواه مسلم (١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢).

قال الرازي: (﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ قيل: في الطَّلاقِ، وقيل: في الشَّكوَى مِن زَيْنَبَ؛ فإنَّ زيدًا قال فيها: إنَّها تتكبَّرُ علَيَّ بسببِ النَّسَبِ، وعدَمِ الكفاءةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٦٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ أي: في أمْرِها فلا تُطلِّقْها: الواحديُّ، وابن =

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾.

أي: وتُخفي -يا محمَّدُ- في قَلبِك ما أطلَعَك اللهُ عليه مِن أنَّ زينبَ ستكونُ مِن أزواجِك بعدَ مُفارَقةِ زيدٍ لها[1]!

---

= الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٧).

وقال ابن جرير: (﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وخَفِ الله في الواجبِ له عليك في زوجتِك). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٥).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ أي: فيما يَتعلَّقُ بحقوقِها، ولا تَغبِنْها بقَولِك: إنَّها تترفَّعُ عليَّ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٥٧).

وقال ابن جُزَي: (﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يعني: فيما وصَفَها به مِن سُوءِ المعاشرةِ، واتَّقِ اللهَ ولا تُطَلِّقْها؛ فيكونُ نهيًا عن الطَّلاقِ على وَجهِ التَّنزيهِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٤٢، ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٠، ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٣٩ - ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠١).

قال الثعلبي: (قال عليُّ بنُ الحُسَين:... كان اللهُ عزَّ وجَلَّ قد أعلمَه أنَّها ستكونُ مِن أزواجه؛ فإنَّ زَيدًا سيُطلِّقُها، فلمَّا جاء زَيدٌ قال: إنِّي أُريدُ أن أطلِّقَ زينبَ، فقال: أمسِكْ عليك زوجَك واتَّقِ الله. يقولُ: فلِمَ قُلْتَ: أمسِكْ عليك زَوجك، وقد أعلَمْتُك أنَّها ستكونُ مِن أزواجِكَ؟!

وهذا التَّأويلُ مُطابِقٌ للتِّلاوةِ؛ وذلك أنَّ الله عزَّ وجَلَّ حكَمَ وأعلَمَ بإبداءِ ما أخفى، واللهُ لا يُخلِفُ الميعادَ، ثمَّ لم نجِدْه عَزَّ وجلَّ أظهر مِن شأنِه غيرَ التَّزويجِ بقَولِه: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، فلو كان أضمَرَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم محبَّتَها، أو أراد طلاقَها، لَكان لا يجوزُ على الله تعالى كِتمانُه مع وَعدِه أن يُظهِرَه؛ فدَلَّ ذلك على أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّما عوتِبَ على قَولِه: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ مع عِلمِه بأنَّها ستَكونُ زوجتَه، وكِتْمانِه ما أخبره اللهُ سبحانه به؛ حيث استحيا أن يقولَ لزَيدٍ: إنَّ الَّتي تحتَك ستكونُ امرأتي. والله أعلم. وهذا قَولٌ حَسَنٌ مَرْضيٌّ قَويٌّ). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٤٨). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٣٩-٢٤١).

قال القرطبيُّ بعدَ أن ذكَر نحوَ هذا القولِ: (قال علماؤُنا رحمةُ اللهِ عليهم: وهذا القولُ أحسَنُ ما قيلَ في تأويلِ هذه الآيةِ، وهو الَّذي عليه أهلُ التَّحقيقِ مِن المفَسِّرينَ والعُلَماءِ الرَّاسِخينَ؛ =

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

أي: وتَخشَى -يا محمَّدُ- أن يقولَ النَّاسُ[1]: إنَّك تَنهَى عن التَّزَوُّجِ بنِساءِ الأبناءِ، ثمَّ تتزوَّجُ امرأةَ زَيدٍ الَّذي تبنَّيْتَه مِن قَبْلُ. واللهُ أَولى بأن تخشاه! فلا تُبالِ بالنَّاسِ فيما أحَلَّ اللهُ لك[2].

---

= كالزُّهْريِّ، والقاضي بكرِ بنِ العلاءِ القُشَيْريِّ، والقاضي أبي بكرِ بنِ العَرَبيِّ، وغيرِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٠، ١٩١). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٧٦).

وقال ابنُ حجر: (الحاصِلُ أنَّ الَّذي كان يُخفيه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو إخبارُ اللهِ إيَّاه أنَّها ستَصيرُ زوجتَه، والَّذي كان يحمِلُه على إخفاءِ ذلك خَشيةُ قَولِ النَّاسِ: تزوَّج امرأةَ ابنِه! وأراد اللهُ إبطالَ ما كان أهلُ الجاهليَّةِ عليه مِن أحكامِ التَّبنِّي بأمرٍ لا أبلَغَ في الإبطالِ منه، وهو تزوُّجُ امرأةِ الَّذي يُدْعَى ابنًا، ووُقوعُ ذلك مِن إمامِ المُسلِمينَ؛ ليَكونَ أدعى لِقَبولِهم). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٢٤).

(١) قيل: هم المنافِقونَ. وممَّن قال بذلك: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣).

وقال البقاعي: (﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: مِن أن تُخبِرَ بما أخبَرَك اللهُ به، فيُصَوِّبوا إليك مُرجماتِ الظُّنونِ، لا سيَّما اليهودُ والمنافِقون). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩١)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠١).

قال ابنُ الجوزي: (ليس المرادُ أنَّه لم يخشَ اللهَ تعالى في هذه الحالِ، ولكِنْ لَمَّا كان لخشيتِه بالخَلقِ نَوعُ تعلُّقٍ قيل له: اللهُ أحَقُّ أن تخشى منهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٦٧).

وقال ابنُ عاشور: (أي: تُخفي ما سيُبديه اللهُ، وتخشى النَّاسَ مِن إبدائه. والخشيةُ هنا كراهيةُ ما يُرجِفُ به المنافِقون... فليست هي خشيةَ خَوفٍ؛ إذ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ يخافُ أحدًا مِن ظهورِ تزوُّجِه بزينبَ... ولكِنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَتوسَّمُ مِن خُبثِهم وسُوءِ طَويَّتِهم ما يَبعَثُهم على القالةِ في النَّاسِ لفِتنةِ الأمَّةِ، فكان يَعلمُ ما سيَقولونَه ويمتَعِضُ منه... ولم تكُنْ خَشيةً تَبلُغُ به مبلغَ صَرفِه عمَّا يَرغبُه؛ بدليلِ أنَّه لم يَتردَّدْ في تزوُّجِ زينبَ بعدَ طلاقِ زَيدٍ، ولكِنَّها استِشعارٌ في النَّفْسِ، وتقديرٌ لِما سيُرجِفُه المنافِقون. وليس في قَولِه: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ عِتابٌ ولا لَومٌ، ولكِنَّه تذكيرٌ بما حصَل له مِن تَوقِّيه قالَةَ المنافِقينَ. وحمَلَه كثيرٌ مِن المفسِّرينَ =

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾.

أي: فلمَّا أتمَّ زَيدُ بنُ حارِثةَ حاجَتَه مِن امرأتِه زَينبَ بنتِ جَحشٍ، وفرَغ منها وطَلَّقها؛ زَوَّجْناك بها -يا محمَّدُ[1].

﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗا﴾.

أي: زوَّجناك -يا محمَّدُ- بزَينبَ امرأةِ زَيدٍ؛ لِئَلَّا يبقَى ضِيقٌ ومَشقَّةٌ على المؤمِنينَ في تزَوُّجِهم بمُطلَّقاتِ مَن تَبنَّوهم إذا قَضَوا مِنهنَّ حاجاتِهم، فلم تبقَ لديهم رغبةٌ فيهنَّ وفارَقوهنَّ[2].

﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾.

أي: وكان ما قَضاه اللهُ كائِنًا لا محالةَ، ومِمَّا قضى اللهُ: أن يتزوَّجَ الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بزَينبَ رَضِيَ اللهُ عنها[3].

---

= على معنى العِتابِ، وليس مِن سياقِ الكلامِ ما يقتَضيه... وقد رُوِيَت في هذه القِصَّةِ أخبارٌ مخلوطةٌ، فإيَّاك أن تتسَرَّبَ إلى نَفْسِك منها أُغلوطةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣ - ٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥، ٦٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٨).

قال البقاعي: (﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ أي: حاجةً مِن زواجِها والدُّخولِ بها، وذلك بانقِضاءِ عِدَّتِها منه؛ لأنَّه به يُعرَفُ أنَّه لا حاجةَ له فيها، وأنَّه قد تقاصَرَت عنها همَّتُه، وطابَتْ عنها نفْسُه، وإلَّا لَراجَعَها). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٥٩، ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٨).

قال الواحدي: (أي: زوَّجناك زينبَ -وهي امرأةُ زيدٍ الَّذي تبنَّيْتَه- لكيلا يُظَنَّ أنَّه مَن تُبُنِّيَ لم تَحِلَّ امرأتُه للمُتَبنِّي. قاله الزجَّاجُ، وهو قَولُ جميعِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٢٥٧). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا نفى الحَرَجَ عن المؤمِنينَ فيما ذُكِر، واندرج الرَّسولُ فيهم؛ إذ هو سَيِّدُ المؤمِنينَ- نفى عنه الحَرَجَ بخصوصِه، وذلك على سَبيلِ التَّكريمِ والتَّشريفِ، ونفَى الحرجَ عنه مرَّتينِ؛ إحداهما بالاندراجِ في العُمومِ، والأُخرَى بالخُصوصِ[1].

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾.

أي: ما يَنبغي أن يكونَ على النَّبيِّ إثمٌ أو ضِيقٌ ممَّا قَسَم اللهُ له مِنَ المُباحاتِ[2].

---

= (٦/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠٣، ٣٠٤).

قال ابنُ عاشور: (أمْرُ اللهِ يجوزُ أن يُرادَ به ما أمَرَ به مِن إباحةِ تزوُّجِ مَن كُنَّ حلائِلَ الأدعياءِ، فهو بمعنى الأمرِ التَّشريعيِّ فيه... ويجوزُ أن يُرادَ الأمرُ التَّكوينيُّ، وهو ما عَلِمَ أنَّه يكونُ، وقَدَّر أسبابَ كَونِه... وتزَوُّجُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زينبَ مِن أمرِ اللهِ بالمعنَيَينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٩، ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٠).

قال الماوَرْدي: (قَولُه تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: فيما أحَلَّه الله له مِن تزويجِ زينبَ بنتِ جَحشٍ. قاله مُقاتِلٌ. الثَّاني: الَّتي وهَبَت نَفْسَها للنَّبيِّ؛ إذ زوَّجَها اللهُ إيَّاه بغيرِ صَداقٍ، ولكِنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد تطوَّع عليها وأعطاها الصَّداقَ. قاله الحسَنُ. الثَّالثُ: في أن يَنكِحَ مَن شاء مِن النِّساءِ وإنْ حَرُمَ على أُمَّتِه أكثَرُ مِن أربَعٍ؛ لأنَّ اليهودَ عابوه بذلك. قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٠٧).

ممَّن اختار نحوَ القولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. =

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾.

أي: سَنَّ الله تعالى لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم في التَّوسعةِ عليه في النِّكاحِ كسُنَّتِه في الأنبياءِ الماضينَ؛ فهذه عادةُ الله فيهم أن يَنالوا ما أَحَلَّ الله لهم[1].

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾.

أي: وكان ما قدَّره اللهُ وقَضاه كائِنًا لا محالةَ، ولا بُدَّ مِن وُقوعِه[2].

---

= يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: فيما أحلَّ الله له مِن النِّساءِ: الواحديُّ، والسمعاني، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤١).

قال الثعلبي: (قيل: الإشارةُ بالسُّنَّةِ إلى النِّكاحِ وأنَّه مِن سُنَّةِ الأنبياءِ. وقيل: إلى كثرةِ الأزواجِ). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٤٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٥).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهِدٌ وجمهورُ المفسِّرينَ في قولِه تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: أي: سَنَّ اللهُ تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم في التَّوسِعةِ عليه في بابِ النِّكاحِ كسُنَّتِه في الأنبياءِ الماضينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٦٦).

وقال السعدي: (هذا دَفْعٌ لِطَعنِ مَن طَعَن في الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في كثرةِ أزواجِه، وأنَّه طَعنٌ بما لا مَطعَنَ فيه، فقال: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: إثمٍ وذَنْبٍ. ﴿فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ أي: قَدَّر له مِنَ الزَّوجاتِ؛ فإنَّ هذا قد أباحه الله للأنبياءِ قَبْلَه؛ ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦).

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ٣٩﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ﴾.

أي: سُنَّةَ اللهِ في إباحةِ ما أباحه للَّذينَ مَضَوا مِنَ الرُّسَلِ الَّذين يُبَلِّغونَ رِسالاتِ اللهِ إلى أمَمِهم، ويؤَدُّونَها إليهم بأمانةٍ، فيُخبِرونَهم بكُلِّ ما أُمِروا به، ويَخشَونَ اللهَ، ويَخافونَ عِقابَه إن تَرَكوا تبليغَ الحَقِّ(١).

﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: ولا يَخشَونَ أحدًا إلَّا اللهَ وَحْدَه، فلا يَمنَعُهم أحَدٌ أو شَيءٌ عن تبليغِ الحَقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾.

أي: وكفى باللهِ حافِظًا لأعمالِ خَلْقِه ومحاسِبًا لهم، وكافِيًا لعبادِه، وناصِرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١٣).

ومُعينًا وحافِظًا[١].

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ ما في تَزَوُّجِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ بزينبَ مِن الفوائدِ؛ بَيَّنَ أنَّه كان خالِيًا مِن وُجوهِ المفاسِدِ؛ وذلك لأنَّ ما كان يُتوَهَّمُ مِن المفسَدةِ كان منحصِرًا في التَّزوُّجِ بزوجةِ الابنِ فإنَّه غيرُ جائزٍ، فقال اللهُ تعالَى: إنَّ زيدًا لم يَكُنِ ابنًا له، لا بلْ أحدُ الرِّجالِ لم يكُنِ ابنَ محمَّدٍ[٢].

وأيضًا لَمَّا أفاد ما فات كُلُّه أنَّ الدَّعِيَّ ليس ابنًا، وكانوا قد قالوا لَمَّا تزوَّج النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زينبَ: (تزوَّج حليلةَ ابنِه!)- أخبَرَ به سُبحانَه على وَجهٍ هو مِن أعلامِ النُّبوَّةِ، وأعظَمِ دلائِلِ الرِّسالةِ، فقال[٣]:

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾.

أي: ليس محمَّدٌ أبا أحَدٍ مِن رِجالِكم، لا زَيدِ بنِ حارِثةَ ولا غيرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١٦، ٣١٧).

قال القرطبي: (لم يُقصَدْ بهذه الآيةِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ له ولدٌ؛ فقد وُلِدَ له ذكورٌ: إبراهيمُ، والقاسِمُ، والطَّيِّبُ، والمطَهَّرُ، ولكِنْ لم يَعِشْ له ابنٌ حتَّى يَصيرَ رجُلًا، =

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿خَاتَمَ﴾ بفَتحِ التَّاءِ، بمعنى: أنَّه آخِرُ النَّبيِّينَ فلا نبيَّ بعْدَه. وقيل: بمعنى الطَّابَع. وقيل: مأخوذٌ مِن الخاتَمِ الملبوسِ؛ لأنَّ مُحمَّدًا كالخاتَمِ للأنبياءِ، يَتزيَّنونَ بكَونِه منهم[1].

٢- قِراءةُ ﴿خَاتِمَ﴾ بكَسرِ التَّاءِ، اسمُ فاعلٍ، بمعنى: أنَّ مُحمَّدًا خَتَم النَّبيِّينَ بنَفْسِه، فطُبعَ على النُّبُوَّةِ فلا تُفتَحُ لأحدٍ بعْدَه. وقيل: خَتَم النَّبيِّينَ بمعنى: جاء آخِرَهم. وقيل: كَسرُ التَّاءِ وفَتحُها لُغتانِ بمعنًى واحدٍ[2].

---

= وأمَّا الحَسَنُ والحُسَينُ فكانا طِفلَينِ، ولم يَكونا رجُلَين معاصِرَينِ له). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٦).

وقال البقاعي: (﴿مَّا كَانَ﴾ أي: بوجهٍ مِن الوُجوهِ مُطلَقُ كونٍ ﴿مُحَمَّدٌ﴾ أي: على كثرةِ نِسائِه وأولادِه ﴿أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ لا مجازًا بالتَّبنِّي، ولا حقيقةً بالولادةِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (المنفيُّ هو وَصفُ الأبوَّةِ المباشِرةِ؛ لأنَّها الغَرَضُ الَّذي سيق الكلامُ لأجْلِه، والَّذي وَهِمَ فيه مَن وَهِمَ؛ فلا الْتِفاتَ إلى كَونِه جَدًّا للحَسَنِ والحُسَين ومُحسِنٍ: أبناءِ ابنتِه فاطِمةَ رَضِيَ اللهُ عنها؛ إذ ليس ذلك بمقصودٍ، ولا يَخطُرُ ببالِ أحدٍ نفْيُ أبوَّتِه لهم بمعنى الأبوَّةِ العُليا. أو المرادُ أبوَّةُ الصُّلبِ، دونَ أبوَّةِ الرَّحِمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٤).

(١) قرأ بها عاصمٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

ويُنظرُ لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٢، ١٢٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢١، ١٢٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٢٩).

﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾.

أي: ولكِنَّ مُحمَّدًا هو رَسولُ اللهِ، وهو آخِرُ النَّبيِّينَ، فلا نَبيَّ بعْدَه[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ مَثَلي ومَثَلَ الأنبياءِ مِن قَبْلِي كمَثَلِ رَجُلٍ بَنى بَيْتًا، فأحسَنَه وأجمَلَه، إلَّا مَوضِعَ لَبِنةٍ مِن زاويةٍ، فجعَل النَّاسُ يَطوفونَ به، ويَعجَبونَ له، ويقولونُ: هلَّا وُضِعَت هذه اللَّبِنةُ! قال: فأنا اللَّبِنةُ، وأنا خاتَمُ النَّبيِّينَ))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كانت بنو إسرائيلَ تَسوسُهمُ الأنبياءُ، كلَّما هلَكَ نَبيٌّ خَلَفه نبيٌّ، وإنَّه لا نبيَّ بَعدي))[٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فُضِّلْتُ على الأنبياءِ بسِتٍّ: أُعطِيتُ جوامعَ الكَلِمِ، ونُصِرتُ بالرُّعبِ، وأُحِلَّت ليَ الغنائِمُ، وجُعِلَتْ ليَ الأرضُ طَهورًا ومَسجِدًا، وأُرسِلْتُ إلى الخَلقِ كافَّةً، وخُتِم بيَ النَّبيُّونَ))[٤].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلمِ بكُلِّ شَيءٍ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن خَلْقِه، ومِن ذلك عِلمُه بمَن يَصلُحُ منهم لرِسالتِه، وبما يَصلُحُ لهم مِنَ الأحكامِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٥).

(٢) رواه البخاري (٣٥٣٥) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٦).

(٣) رواه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).

(٤) رواه مسلم (٥٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢١)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٧، ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ ﴾ فيه استِشارةُ ذَوي الرَّأيِ؛ لأنَّ زيدًا رضي اللهُ عنه استشارَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم[١]، وأنَّ المُستشارَ مُؤتَمَنٌ يجِبُ عليه إذا استُشيرَ في أمرٍ مِن الأمورِ أن يُشيرَ بما يَعلَمُه أصلَحَ للمُستَشيرِ، ولو كان له حَظُّ نَفْسٍ، فيُقَدِّمُ مَصلحةَ المُستشيرِ على هَوى نَفْسِه وغَرَضِه[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ ﴾ فيه أنَّ التَّعليمَ الفِعليَّ أبلَغُ مِن القَوليِّ، خُصوصًا إذا اقتَرَن بالقَولِ؛ فإنَّ ذلك نورٌ على نورٍ[٣]، فاللهُ تعالى زَوَّجَ زينبَ بنتَ جحشٍ رَضِيَ اللهُ عنها رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ وهذا أبلَغُ في الطُّمأنينةِ، وثُبوتِ الحُكْمِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ وُجوبُ تقديمِ خشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ على خشيةِ كلِّ أحدٍ، فالواجبُ على المرءِ ألَّا يَخافَ في اللهِ تعالى لَومةَ لائمٍ؛ وأنْ يتَّقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ في بيانِ الحقِّ والعملِ به، وإنِ استَهْزَأ به النَّاسُ، وسَخِروا منه، فإنَّه لا يَزدادُ بهذه السُّخريةِ والاستِهزاءِ إلَّا رِفعةً عندَ اللهِ سبحانه وتعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الثَّناءُ على مَن بَلَّغَ شَيئًا مِن شَريعةِ اللهِ تعالى مِن غيرِ الرُّسُلِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّه إنَّما أثنى على الرُّسُلِ؛ لِكَونِهم بَلَّغوا الرِّسالةَ ولم يَخشَوا أحدًا؛ فمَن كان مِثلَهم في ذلك فهو مَحَلُّ الثَّناءِ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ وُجوبُ مراقبةِ العبدِ ربَّه، فالعبدُ إذا علِم أنَّ اللهَ عالِمٌ بكلِّ شَيءٍ: قولِه وفِعلِه وفِكرِه- أوجَبَ له ذلك مُراقبةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وألَّا يَفقِدَه حيث أمَرَه، ولا يَراه حيثُ نَهاه[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ فيه الثَّناءُ على زَيدِ بنِ حارِثةَ؛ وذلك مِن وَجهَينِ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ اللهَ سَمَّاه في القُرآنِ، ولم يُسَمِّ مِن الصَّحابةِ باسمِه غَيرَه.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ اللهَ أخبَرَ أنَّه أنعَمَ عليه، أي: بنِعمةِ الإسلامِ والإيمانِ، وهذه شَهادةٌ مِن اللهِ له أنَّه مُسلِمٌ مُؤمِنٌ ظاهِرًا وباطِنًا، وإلَّا فلا وَجهَ لتَخصيصِه بالنِّعمةِ لولا أنَّ المرادَ بها النِّعمةُ الخاصَّةُ[3].

٢- لا يُسَوَّى بيْنَ اللهِ تعالى وبيْن الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالواوِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

غيرِ الأمورِ الشرعيَّةِ؛ وهنا قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ فعَطَف نعمةَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على نعمةِ اللهِ تعالى بالواوِ مع أنَّها ليسَتْ مِن الأمورِ الشرعيَّةِ! والَّذي سَوَّغَ ذلك اختِلافُ النِّعمتَينِ؛ فالنِّعمةُ الأُولَى: الإسلامُ، والنِّعمةُ الثانيةُ: العِتْقُ، فإنَّه يجوزُ عَطْفُ الأمورِ غيرِ الشَّرعيَّةِ بالواوِ إذا اختلَفَ المعنَى[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ فيه أنَّ المُعتَقَ في نِعمةِ المُعتِقِ[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ فيه أنَّ مِنَ الرَّأيِ الحَسَنِ لِمَنِ استشار في فِراقِ زَوجتِه: أن يُؤمَرَ بإمساكِها مهما أمكَنَ صَلاحُ الحالِ؛ فهو أحسَنُ مِن الفُرْقةِ[3].

٥- قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ إشارةُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على زَيدٍ بإمساكِ زَوجِه -مع عِلمِه بأنَّها ستَصيرُ زَوجةً له- أداءٌ لواجِبِ أمانةِ الاستِنصاحِ والاستِشارةِ، وقد يُشيرُ المرءُ بالشَّيءِ يَعلَمُه مَصلحةً وهو يُوقِنُ أنَّ إشارتَه لا تُمتثَلُ، والتَّخليطُ بيْنَ الحالَينِ تَخليطٌ بيْن التَّصَرُّفِ المستَنِدِ لِما تقتَضيه ظواهِرُ الأحوالِ وبيْن ما في عِلمِ اللهِ في الباطِنِ، وأشْبَهُ مَقامٍ به مَقامُ موسى مع الخَضِرِ في القضايا الثَّلاثِ[4].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧).

﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ ثُبوتُ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّها رِسالةُ حقٍّ؛ فلو كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كاذِبًا -وحاشاه مِن ذلك- لَكان يَكتُمُ مِثلَ هذه الأشياءِ؛ لأنَّها صَعبةٌ في حَقِّه[1]؛ لأنَّه أخفى في نَفْسِه ما كان يخشى قالةَ النَّاسِ في ذلك، واستحيا منهم، وفي العُرفِ أنَّ مَن أخفى شيئًا يَستحْيي مِن النَّاسِ إن ظهَرَ عندَهم: أن يَكتُمَ ذلك مِنَ النَّاسِ ولا يُظهِرَه، فإذا كان رَسولُ الله أظهَرَ ما كان يَخشى قالةَ النَّاسِ فيه، ولم يَكتُمْه منهم؛ دَلَّ أنَّه رَسولٌ؛ إذ لو كان غيرَ رَسولٍ لَكتَمَه وأخفاه ولم يُظهِرْه؛ لِما ذكَرْنا مِن العُرفِ في النَّاسِ مِن كِتمانِ ما يَستحيُونَ منه إذا ظهَرَ[2]، فدلَّ على أنَّه رسولُ الله، وأنَّه لا يقولُ إلَّا ما أُوحِيَ إليه، ولا يريدُ تعظيمَ نفْسِه[3].

٧- كان يُقالُ لزَيدٍ رضيَ الله عنه: زَيدُ بنُ مُحمَّدٍ حتَّى أنزَل الله سبحانه ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٥]، فقال: أنا زيدُ بنُ حارِثةَ، وحَرُمَ عليه أن يقولَ: أنا زيدُ بنُ مُحمَّدٍ، فلمَّا نُزِع عنه هذا الشَّرفُ وهذا الفَخرُ، وعَلِمَ اللهُ وَحْشَتَه من ذلك؛ شَرَّفه بخَصِيصةٍ لم يَخُصَّ بها أحدًا مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي أنَّه سمَّاه باسمِه في القُرآنِ، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ يعني: مِن زَينبَ. ومَن ذَكَرَه اللهُ تعالى باسمِه في الذِّكرِ الحَكيمِ حتَّى صار اسمُه قُرآنًا يُتلى في المحاريبِ، نوَّهَ به غايةَ التَّنويهِ، فكان في هذا تأنيسٌ له، وعِوَضٌ مِن الفَخرِ بأُبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له، ألَا ترى إلى قَولِ أُبَيِّ بنِ كعبٍ حينَ قال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الله أمَرني أنْ أقرأَ عليكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

القُرآنَ. قال أُبَيٌّ: آللهُ سمَّاني لك؟ قال: اللهُ سمَّاك لي. فجعَل أُبَيٌّ يَبْكي))[١].
وكان بُكاؤُه مِن الفَرَحِ حينَ أُخبِرَ أنَّ الله تعالى ذكَرَه، فكيف بمَن صار اسمُه قُرآنًا يُتلَى مخلَّدًا لا يَبِيدُ، يَتْلوه أهلُ الدُّنيا إذا قَرؤوا القرآنَ، وأهلُ الجنَّةِ كذلك أبدًا، لا يَزالُ على ألْسِنةِ المؤمِنينَ، كما لم يَزَلْ مذكورًا على الخُصوصِ عندَ رَبِّ العالَمينَ[٢]؟!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا﴾ دَليلٌ على أنَّ زَيدًا رَضِيَ اللهُ عنه طلَّقَها عن رَغبةٍ، وأنَّها انقَضَتْ حاجتُه منها، ولم يُطَلِّقْها عن إكراهٍ[٣]!

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ فيه فَضيلةُ زَينبَ رَضِيَ اللهُ عنها أُمِّ المُؤمِنينَ؛ حيثُ تولَّى اللهُ تَزويجَها مِن رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن دونِ خِطبةٍ ولا شُهودٍ؛ ولهذا كانت تفتَخِرُ بذلك على أزواجِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتقولُ: (زوَّجَكُنَّ أهاليكُنَّ، وزوَّجَني اللهُ مِن فَوقِ سَبعِ سَمواتٍ)[٤].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ فيه أنَّ المرأةَ إذا كانت ذاتَ زَوجٍ، لا يجوزُ نِكاحُها ولا السَّعيُ فيه وفي أسبابِه، حتَّى يَقضِيَ زَوجُها وَطَرَه منها، ولا يَقضي وطَرَه حتَّى تنقَضيَ عِدَّتُها؛ لأنَّها قبْلَ انقِضاءِ عِدَّتِها هي في عِصمتِه، أو في حَقِّه الَّذي له وطَرٌ إليها، ولو مِن بَعضِ الوُجوهِ[٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٠) واللفظ له، ومسلم (٧٩٩) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) يُنظر: ((غوامض الأسماء المبهمة)) للسهيلي (ص: ١٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٠٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).
والحديث أخرجه البخاري (٧٤٢٠).
(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ استُدِلَّ به على أنَّ لفظَ التَّزويجِ مِن ألفاظِ عقدِ النِّكاحِ، وأنَّه يقالُ: (زوَّجه إيَّاها)، لا: (زوَّجها إيَّاه)[١].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗا﴾ فيه جوازُ تزوُّجِ زَوجةِ الدَّعِيِّ، كما صَرَّح به[٢].

١٣- في قَولِ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗا﴾ الإبانةُ عن عِلَّةِ الحُكمِ في إباحةِ ذلك للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ ذلك قد اقتضَى إباحتَه للمُؤمِنينَ؛ فدَلَّ ذلك على إثباتِ القياسِ في الأحكامِ، واعتِبارِ المعاني في إيجابِها[٣].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ التَّزويجَ مِن النَّبيِّ عليه السَّلامُ لم يكُنْ لقضاءِ شهوةِ النَّبيِّ عليه السلامُ، بل لبيانِ الشَّريعةِ بفِعلِه؛ فإنَّ الشَّرعَ يُستفادُ مِن فِعلِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤]، وبهذا يُعرَفُ بُطلانُ ما يُروى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أتى زيدًا ذاتَ يومٍ لحاجةٍ، فرأى زينبَ فوقَعَتْ في نفْسِه، وأعجَبَه حُسنُها، فقال: «سُبحانَ اللهِ مُقَلِّبِ القُلوبِ!»، فأخبرَتْ زَينبُ زَيدًا بذلك، فَفَطِنَ له، فكرِهَها وطَلَّقَها بعدَ مُراجعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقولِه: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾؛ فهذا الأثرُ باطلٌ مُناقِضٌ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٠).

لِمَا ذَكَرَ اللهُ تعالى مِن الحِكمةِ في تزويجِها إيَّاه[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗا﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الأُمَّةَ مُساويةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأحكامِ إلَّا ما قام دَليلٌ على تخصيصِه به؛ لأنَّه صرَّح بأنَّه فعَلَ ذلك لنَبيِّه؛ ليرتَفِعَ الحَرَجُ عن المؤمِنينَ في مِثلِه[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ﴾ أنَّه لا حرجَ على الإنسانِ -غيرِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم- فيما أحَلَّ اللهُ تعالى له؛ لأنَّ ما ثَبَت في حقِّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثَبَت في حقِّ أُمَّتِه إلَّا بدليلٍ، ولكنْ يجبُ على الإنسانِ أنْ يُراعِيَ أحوالَ الناسِ وما يُسْتَنْكَرُ عليه فيهم؛ حتَّى لا يُعَرِّضَ نفْسَه للذَّمِّ والقَدْحِ! فمُراعاةُ أحوالِ النَّاسِ أمْرٌ لا بُدَّ منه إلَّا في الأمورِ الشَّرعيَّةِ؛ فإنَّ الواجبَ على المرءِ إبانتُها وإظهارُها[٣].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ فيه أنَّ النِّكاحَ مِن سُنَنِ المُرسَلينَ[٤].

١٨- قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ في كَثرةِ نِساءِ الرُّسُلِ لهم آيةٌ عَظيمةٌ؛ لأنَّهم آثَروا الفَقرَ والضِّيقَ على السَّعةِ والغِنى، وكَفُّوا أنفُسَهم عن جميعِ لذَّاتِها، وحَمَلوا

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٣٢٥). ويُنظر الكلامُ عن الحديثِ المذكورِ في ((السلسلة الضعيفة)) للألباني (٦٨٤٨).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٤٧)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٦).

على أنفُسِهم الشَّدائِدَ في العباداتِ والأمورِ العِظامِ الثَّقيلةِ، وهذه الأشياءُ كُلُّها أسبابُ قَطعِ قَضاءِ الشَّهواتِ في النِّساءِ والحاجةِ فيهنَّ؛ فإذا لم تُقطَعْ تلك الأسبابُ عنهم؛ دلَّ أنَّهم باللهِ قَوُوا عليها[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ إذا جعَلْنا «الحسيبَ» بمعنى: «الحفيظِ الكافي» فيُؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ حِفظَ اللهِ سبحانَه وتعالى في غايةِ ما يكونُ مِن الحفظِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. أمَّا إذا جعَلْنا «الحسيبَ» بمعنى: «المُحَاسِبِ»؛ فإنَّه يُؤخَذُ منها فائدةٌ وهي: كمالُ محاسَبةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وأنَّه لا يَفوتُه شيءٌ، وعلى كِلا القَولينِ ففي الآيةِ إثباتُ عِلْمِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه لا مُحاسَبةَ إلَّا مِن علمٍ؛ ولا حِفظَ إلَّا بعلمٍ[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ إبطالُ بُنوَّةِ الأدعياءِ[٣].

٢١- يُجمَعُ بينَ قَولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ مع ما جاء عن بَعضِ السَّلَفِ أنَّه قَرَأ: «وهو أبٌ لهم» بأنْ يُقالَ هنا: ليس أبا أحدٍ مِن الرِّجالِ بالتَّبَنِّي، ولكِنَّه أبٌ للمُؤمِنينَ باعتبارِ التَّعليمِ والتَّوجيهِ والإرشادِ[٤]. وفي الحديثِ قال صلى الله عليه وسلم: ((إنَّما أنا لكم مثلُ الوالدِ أعلِّمُكم))[٥].

٢٢- قَولُه تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فيه أنَّه لا نبيَّ بعدَه، وأنَّ مَن ادَّعَى النُّبوَّةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٧).

(٥) أخرجه أبو داود (٨)، والنسائي (١/ ٣٨)، وابن ماجه (٣١٣)، وأحمد (٧٤٠٩).
صحَّحه البغوي في ((شرح السنة)) (١/ ٢٧٢)، والنَّووي في ((المجموع)) (٢/ ٩٥)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (١/ ٣٨)، وصحَّح إسناده ابن الملقن في ((البدر المنير)) (٢/ ٢٩٧) وقال: وأصله في مسلم.

بعدَه قُطِع بكذبِه[١]؛ وذلك لأنَّ النَّبيِّينَ عامٌّ، فخاتمُ النَّبيِّينَ هو خاتمُهم في صِفةِ النُّبوَّةِ[٢]، فقولُه تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ خبرٌ؛ وخبرُ اللهِ تعالى صِدْقٌ لا يُمكِنُ أنْ يَتطَرَّقَ إليه الكذبُ بوجهٍ مِن الوُجوهِ[٣].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ أنَّ مَن صَدَّقَ مُدَّعي النُّبوَّةِ بعدَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فهو كافِرٌ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ للقُرآنِ؛ ومُكَذِّبُ القُرآنِ كافِرٌ[٤].

٢٤- قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ولم يَقُلْ سبحانَه: «وخاتم المرسَلينَ» مع أنَّه قال: ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه قد يكونُ نَبيًّا ولا يكونُ رسولًا؛ ومحمَّدٌ رسولُ اللهِ صلوات اللهُ وسلامُه عليه خاتمُ الأنبياءِ[٥].

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، وعيسى عليه السَّلامُ يَنزِلُ بعدَه، وهو نبيٌّ؟

**الجوابُ**: معنى كَونِه خاتَمَ النَّبيِّينَ: أنَّه لا يَتنبَّأُ أحدٌ بعدَه، وعيسى نبيٌّ قَبْلَه، وحينَ يَنزِلُ يَنزِلُ عامِلًا بشَريعةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٦]، مصَلِّيًا إلى قِبلتِه، كأنَّه بعضُ أمَّتِه[٧].

٢٦- قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ اختِصاصُه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم بالأحمَديَّةِ والمُحمَّديَّةِ عَلَمًا وصِفةً:

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥١).

(٦) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦١، ٤٦٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٤).

بُرهانٌ جليٌّ على خَتمِه؛ إذ الحَمدُ مَقرونٌ بانقِضاءِ الأمورِ، مَشروعٌ عِندَه؛ قال تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [يونس: ١٠].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أنَّ إقرارَ اللهِ تعالى للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وتأييدَه له شاهدٌ لصِدْقِ رسالتِه؛ فلو عَلِم الله تعالى أنَّ محمَّدًا غيرُ رسولٍ لَكان كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦] -و«الوَتينُ»: عِرْقٌ في القلبِ لو قُطِعَ مات-، فكَوْنُ اللهِ تعالى يُؤيِّدُه ويَنصُرُه ويَفتَحُ على يديه وهو يقولُ: إنَّه رسولُ اللهِ تعالى، وإنَّه أذِنَ له باستِباحةِ أموالِكم، وأَخْذِ رِقابِكم إذا لم تَدخُلوا في الإسلامِ ولم تُؤَدُّوا الجِزْيَةَ؛ يَكونُ هذا آيةً مِن آياتِ اللهِ تعالى له؛ ولهذا خَتَمَ الآيةَ هذه الَّتي أثبتَتْ له الرِّسالةَ بقولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[2].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الرَّدُّ على غُلاةِ القَدَريَّةِ؛ فإنَّهم أنكروا عِلمَ اللهِ تعالى بما يَصنَعُه العِبادُ قبْلَ وُقوعِه منهم[3]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾

- قولُه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ فيه الإتيانُ بفِعلِ القولِ بصِيغةِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٨). ويُنظر أيضًا: ((غوامض الأسماء المبهمة)) للسهيلي (ص: ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٣).

المُضارعِ؛ لاستِحضارِ صُورةِ القولِ وتَكريرِه، وفي ذلك تَصويرٌ لِحَثِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ زَيدًا على إمساكِ زَوجِه وألَّا يُطلِّقَها، ومُعاودتِه عليه[١].

- والتَّعبيرُ عن زَيدِ بنِ حارثةَ رضِيَ اللهُ عنه هنا بالمَوصولِ ﴿لِلَّذِىٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ دونَ اسْمِه العلَمِ الَّذي يَأتي في قولِه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ﴾؛ لِمَا تُشعِرُ به الصِّلةُ المعطوفةُ -وهي ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾- مِن تَنزُّهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن استِعمالِ وَلائِه لِحَمْلِه على تَطليقِ زَوجِه؛ فالمَقصودُ هو الصِّلةُ الثَّانيةُ، وهي ﴿وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾؛ لأنَّ المقصودَ منها أنَّ زيدًا أخَصُّ النَّاسِ به، وأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أحرَصُ على صَلاحِه، وأنَّه أشارَ عليه بإمْساكِ زَوجِه لِصَلاحِها به، وأمَّا صِلةُ ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ فهي تَوطئةٌ للثَّانيةِ[٢].

- قولُه: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ الإمساكُ عُبِّر به هنا عن الصُّحبةِ؛ تَشبيهًا للصَّاحبِ بالشَّيءِ المُمسَكِ باليَدِ. وزِيادةُ ﴿عَلَيۡكَ﴾؛ لدَلالةِ كَلمةِ (على) على المُلازَمةِ والتَّمكُّنِ. أو لتَضْمينِ ﴿أَمۡسِكۡ﴾ معنى احبِسْ، أي: أبْقِ في بيتِك زوجَك[٣].

- والإتيانُ بالفِعلِ المُضارعِ في قولِه: ﴿وَتُخۡفِي﴾؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ إخفاءِ ذلك، وعدَمِ ذِكْرِه[٤].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُ﴾ مُعترِضةٌ؛ لِمُناسَبةِ جَرَيانِ ذِكرِ خَشيةِ النَّاسِ، وليس في قولِه: ﴿وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ عِتابٌ ولا لَومٌ، ولكنَّه تَذكيرٌ بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠، ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حصَلَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن تَوقِّيه قالةَ المنافقينَ، وتَشجيعٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَحقيرٌ لأعداءِ الدِّينِ، وتَعليمٌ له بأنْ يَمضِيَ في سَبيلِه، ويَتناوَلَ ما أباح اللهُ له ولرُسلِه؛ مِن تَناوُلِ ما هو مُباحٌ مِن مَرغوباتِهم ومحبوباتِهم إذا لم يَصُدَّهم شَيءٌ مِن ذلك عن طاعةِ ربِّهم(١).

- وقولُه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا ...﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ﴾ الآيةَ. وقد طُوِيَ كلامٌ يَدُلُّ عليه السِّياقُ، وتَقديرُه: فلمْ يَقبَلْ منك ما أشرْتَ عليه ولم يُمسِكْها(٢).

- وذِكرُ اسمِ زَيدٍ في قولِه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (فلمَّا قَضَى منْها وطَرًا)؛ فعُدِلَ عن مُقتضى الظَّاهرِ؛ للتَّنويهِ بشَأْنِ زَيدٍ(٣).

- والجمْعُ بيْن اللَّامِ و(كي) في قولِه: ﴿لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ ...﴾ تَوكيدٌ للتَّعليلِ، كأنَّه يقولُ: ليستِ العِلَّةُ غيرَ ذلك(٤).

- قولُه: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قبلَه في جُملةِ ﴿زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾، وهو مثَلٌ لِمَا أرادَ كونَه مِن تَزويجِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ زينبَ، ومِن نَفْيِ الحرَجِ عن المؤمنينَ(٥).

٢- قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣، ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٩).

خَلَوْاْ مِن قَبْلُۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾

- قولُه: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ استئنافٌ لِزيادةِ بَيانِ مُساواةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للأُمَّةِ في إباحةِ تَزوُّجِ مُطلَّقةِ دَعِيِّه، وبَيانِ أنَّ ذلك لا يُخِلُّ بصِفةِ النُّبوَّةِ؛ لأنَّ تَناوُلَ المُباحاتِ مِن سُنَّةِ الأنبياءِ، وفي هذا الاستِئنافِ ابتداءٌ لِنَقْضِ أقوالِ المنافقينَ: إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَزوَّجَ امْرأةَ ابْنِه[1].

- ونَفى اللهُ الحرَجَ عن نَبيِّه مَرَّتينِ؛ إحداهما لَمَّا نَفى الحرَجَ عن المُؤمنينَ في قولِه: ﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ ﴾، واندرَجَ الرَّسولُ فيهم؛ إذ هو سيِّدُ المُؤمنينَ، والأخرى بالخُصوصِ في قولِه هنا: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ ﴾، وذلك على سَبيلِ التَّكريمِ والتَّشريفِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ اعتِراضٌ تَذْييليٌّ وُسِّط بيْنَ المَوصولَينِ الجاريَينِ مَجرَى الواحدِ -﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ و﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾)-؛ للمُسارعةِ إلى تَقريرِ نَفْيِ الحَرجِ وتَحقيقِه[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ في مَوضعَينِ، وقال في سُورةِ (الفتْحِ): ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ ﴾ [الفتح: ٢٣]، والتَّقديرُ في الآياتِ: سُنَّةَ اللهِ الَّتي قد خلَتْ في الَّذين خَلَوا؛ فذكَرَ في كلِّ سُورةٍ الطَّرَفَ الَّذي هو أعمُّ، واكْتَفى به عن الطَّرَفِ الآخَرِ، والمُرادُ بما في أوَّلِ هذه السُّورةِ النِّكاحُ، والمُرادُ بما في آخِرِ هذه السُّورةِ القتْلُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٥).

وما في سُورةِ (الفتْحِ) يُرِيدُ به نُصرةَ اللهِ لأنبيائِه، والعُمومُ في النُّصرةِ أبلَغُ منه في النِّكاحِ والقتْلِ، ومِثلُه في (غافرٍ): ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ﴾ [غافر: ٨٥]؛ فإنَّ المُرادَ بها عدَمُ الانتفاعِ بالإيمانِ عندَ البأْسِ؛ فلهذا قال: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾(١).

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا أنَّه قال هنا: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]، وفي آخِرِ السُّورةِ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]؛ فاختَلَفا فيما أُعقِبَت به كلُّ آيةٍ منها؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ الأُولى مُعقَّبٌ بها قِصَّةُ زَينبَ أُمِّ المؤمنينَ وزيدِ بنِ حارثةَ رضِيَ اللهُ عنهما، وما جَرى في ذلك إلى أنْ تَزوَّجَها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهذه الآيةُ تأْنيسٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَسليةٌ له عن خَوضِ المنافقينَ، وتَنزيهٌ لِقَدْرِه العَلِيِّ، وتَبرئةٌ مِن كلِّ مُتوهِّمٍ فيه أدْنى نَقْصٍ، وإعلامٌ له أنَّ تلك سُنَّتُه سُبحانه في عبادِه الَّتي شاءَها وقدَّرَها، حُكْمًا ثابتًا فيمَن تَقدَّمَ مِن الرُّسلِ والأنبياءِ ومَن اهْتَدى بهَدْيِهم. وأمَّا الآيةُ الثَّانيةُ؛ فإنَّه سُبحانه لمَّا قال: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا * مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١]، أتبَعَ تعالى بالإخبارِ أنَّ تلك سُنَّتُه الجاريةُ في الَّذين خَلَوا مِن قبْلُ(٢).

- وأيضًا قال اللهُ تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٥-٤٠٧).

مَّقۡدُورًا ﴾، ولم يقُلْ: (ولن تَجدَ)، كما في قولِه: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢]؛ لأنَّ هذه سُنَّةٌ شَرعيَّةٌ لا تُرى بالمُشاهَدةِ، بل تُعلَمُ بالوَحيِ، بخِلافِ نَصرِه للمُؤمِنينَ، وعُقوبتِه للمُنذَرينَ؛ فإنَّه أمرٌ مُشاهَدٌ، فلن يُوجَدَ مُنتَقَضًا(١).

- قَولُه: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقۡدُورًا ﴾ عبَّرَ عن السُّنَّةِ بالأمرِ تأكيدًا؛ لأنَّه لا بُدَّ منه(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾

- قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ جِيءَ بالمَوصولِ دونَ اسمِ الإشارةِ أو الضَّميرِ؛ لِمَا في هذه الصِّلةِ مِن إيماءٍ إلى انتفاءِ الحرَجِ عن الأنبياءِ في تَناوُلِ المُباحِ؛ بأنَّ اللهَ أرادَ منهم تَبليغَ الرِّسالةِ، وخشيةَ اللهِ بتَجنُّبِ ما نَهى عنه، ولم يُكلِّفْهم إشقاقَ نُفوسِهم بتَرْكِ الطَّيِّباتِ الَّتي يُريدونها، ولا حجْبَ وِجْدانِهم عن إدراكِ الأشياءِ على ما هي عليه؛ مِن حُسْنِ الحَسَنِ وقُبْحِ القَبيحِ، ولا عن انصِرافِ الرَّغبةِ إلى تَناوُلِ ما حَسُنَ لَدَيهم إذا كان ذلك في حُدودِ الإباحةِ، ولا كلَّفَهم مُراعاةَ مُيولِ النَّاسِ ومُصطلحاتِهم، وعَوائدِهم الرَّاجعةِ إلى الحَيدةِ بالأُمورِ عن مناهجِها؛ فإنَّ في تَناوُلِهم رَغباتِهم المُباحةَ عَونًا لهم على النَّشاطِ في تَبليغِ رِسالاتِ اللهِ؛ ولذلك عقَّبَ بقولِه: ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾، أي: لا يَخْشَون أحدًا خشيةً تَقْتضي فِعلَ شَيءٍ أو تَرْكَه(٣).

---

(١) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٢).

- وإظهارُ اسمِ الجلالةِ في مَقامِ الإضمارِ في قولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ حيثُ تقدَّم ذِكْرُه؛ لِقَصْدِ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ جاريةً مَجرَى المثَلِ والحِكمةِ[1].

٤- قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾

- قولُه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ استِئنافٌ؛ للتَّصريحِ بإبطالِ أقوالِ المنافقينَ، والَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ، وما يُلْقِيه اليهودُ في نُفوسِ النَّاسِ مِن الشَّكِّ[2].

- في قولِه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ...﴾ فيه ما يُعرَفُ بالتَّلفيفِ[3]؛ فإنَّ قولَه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ...﴾ جَوابٌ عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ؛ وهو قولُ قائلٍ: أليس مُحمَّدٌ أبا زَيدِ بنِ حارثةَ؟ فأتَى الجوابُ يقولُ: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وكان مُقْتضَى الجوابِ أنْ يقولَ: ما كان محمَّدٌ أبا زَيدٍ، وكان يَكْفي أنْ يقولَ ذلك، ولكنَّه عُدِلَ عنه تَرشيحًا للإخبارِ بأنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاتمُ النَّبيِّينَ، ولا يَتِمُّ هذا التَّرشيحُ إلَّا بنَفْيِ أُبوَّتِه لأحدٍ مِن الرِّجالِ؛ فإنَّه لا يكونُ خاتمَ النَّبيِّينَ إلَّا بشَرْطِ ألَّا يكونَ له ولدٌ قد بلَغَ، فلا يَرِدُ أنَّ له الطَّاهرَ والطَّيِّبَ والقاسمَ؛ لأنَّهم لم يَبلُغوا مَبلَغَ الرِّجالِ، ثمَّ احتاطَ لذلك بقولِه: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، فأضافَ الرِّجالَ إليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السبق)).

(٣) التَّلفيفُ: هو إخراجُ الكلامِ مخرَجَ التَّعليمِ، وهو أن يقعَ السُّؤالُ عن نوعٍ مِن الأنواعِ مع كَونِ الحاجةِ داعيةً لبيانِ جَميعِها، فيُجابُ بجوابٍ عامٍّ عن المسؤولِ عنه، وعن غيرِه؛ لِيُبنى على عُمومِه ما بعدَه مِن الصِّفاتِ المقصودةِ. يُنظر: ((عروس الأفراح)) للسبكي (٢/ ٣١٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧).

لا إليه؛ فالْتَفَّ المعنى الخاصُّ في المَعنى العامِّ، وأفادَ نَفْيَ الأُبوَّةِ الكُلِّيَّةِ لأحدٍ مِن رِجالِهم، وانْطوَى في ذلك نَفْيُ الأُبوَّةِ لِزَيدٍ. ثمَّ إنَّ هناك تَلفيفًا آخَرَ؛ وهو قولُه: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾، حيثُ عُدِلَ عن لَفظِ (نَبيٍّ) إلى لَفظةِ (رَسولٍ)؛ لِزيادةِ المدْحِ؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ نَبيٌّ، ولا عَكْس على أحدِ القولَينِ، فهذا تَلفيفٌ بعْدَ تَلفيفٍ[1].

- وقولُه: ﴿مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ وَصْفٌ لـ﴿أَحَدٍ﴾، وهو احتراسٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أبو بَناتٍ، فلم يَعِشْ أحَدٌ مِن أولادِه الذُّكورِ[2].

- وإضافةُ (رجال) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ، والعُدولُ عن تَعريفِه باللَّام؛ لِقَصْدِ تَوجيهِ الخِطابِ إلى الخائضينَ في قَضيَّةِ تَزوُّجِ زَينبَ؛ إخراجًا للكلامِ في صِيغةِ التَّغليطِ، ولإخراجِ مَن كان مِن بَنِيه؛ لأنَّهم رِجالُه، لا رجالُ المُخاطَبينَ[3].

- واستِدراكُ قولِه: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ لِرَفْعِ ما قد يُتوهَّمُ مِن نَفْيِ أُبوَّتِه مِن انفصالِ صِلَةِ التَّراحُمِ والبِرِّ بيْنَه وبيْنَ الأُمَّةِ؛ فذُكِّروا بأنَّه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهو كالأبِ لِجَميعِ أُمَّتِه في شَفقَتِه ورَحمتِه بهم، وفي بِرِّهم وتَوقيرِهم إيَّاه، شأْنُ كلِّ نَبيٍّ مع أُمَّتِه[4].

- وعَطْفُ صِفةِ ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ على صِفَةِ ﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ تَكميلٌ وزِيادةٌ في التَّنويهِ بمَقامِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإيماءٌ إلى أنَّ في انتفاءِ أُبوَّتِه لأحدٍ مِن الرِّجالِ حِكمةً قدَّرَها اللهُ تعالى؛ وهي إرادةُ ألَّا يكونَ إلَّا مِثلَ الرُّسلِ، أو

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٤).

أفضَلَ في جَميعِ خَصائصِه[١].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ تَذْييلٌ حَسَنٌ؛ إذ أظهَرَ مُقْتضى حِكمتِه فيما قدَّرَه مِن الأقدارِ؛ فكَوْنُه خاتمَ النَّبيِّينَ اقْتَضى ألَّا يكونَ له أبناءٌ بعْدَ وَفاتِه؛ لأنَّهم لو كانوا أحياءً بعْدَ وَفاتِه ولم تُخلَعْ عليهم خِلْعةُ النُّبوَّةِ لأجْلِ خَتْمِ النُّبوَّةِ به، كان ذلك غضًّا فيه دونَ سائرِ الرُّسلِ، وذلك ما لا يُرِيدُه اللهُ به[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٤٤، ٤٥).

## الآيات (٤١-٤٤)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُكۡرَةٗ﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه[1].

﴿وَأَصِيلًا﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ، وأصلُ (أصل) هنا: يدُلُّ على ما كان مِنَ النَّهارِ بعدَ العَشِيِّ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا بالإكثارِ مِن ذِكرِه: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اذكُروا اللهَ ذِكرًا كثيرًا، ونَزِّهوه تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه؛ هو الَّذي يُثْني عليكم، ومَلائكتُه يَدْعُونَ ويَستَغفِرونَ لكم؛ لِيُخرِجَكم مِن ظُلُماتِ الضَّلالِ والكُفرِ إلى نورِ الطَّاعةِ والإيمانِ، وكان اللهُ بعبادِه المؤمِنينَ رَحيمًا. تحيَّةُ المؤمِنينَ يومَ يَلْقَونَ رَبَّهم: سلامٌ، وأعَدَّ اللهُ لهم أجرًا حَسَنًا.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن ذكَرَ ما يَنبغي أن يكونَ عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع رَبِّه؛ مِن تَقْواه وإخلاصِه له في السِّرِّ والعَلَنِ، وما ينبغي أن يكونَ عليه مع أهلِه وأقاربِه؛ مِن راحتِهم وإيثارِهم على نَفْسِه فيما يَطلُبونَ- أرشَدَ عِبادَه إلى تعظيمِه تعالى وإجلالِه بذِكرِه، والتَّسبيحِ له بُكرةً وأصيلًا[١].

وأيضًا فقد أمَر الله تعالى المؤمنينَ أنْ يُمسِكوا عن مُماراةِ المنافقينَ أو عن سَبِّهم فيما يُرْجِفون به في قَضيَّةِ تَزوُّجِ زَينبَ، بأنْ يَشغَلوا أَلْسِنتَهم بذِكرِ اللهِ وتَسبيحِه، ويتجنَّبوا ما عَسى أنْ يُوقِعَ في مَضرَّةٍ[٢].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بطاعةِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتقدَّمَ بالوَصيَّةِ التَّامَّةِ في تعظيمِه، إلى أن أنهى الأمرَ في إجلالِه، وكانت طاعةُ العبدِ لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن كُلِّ وجْهٍ حتَّى يكونَ مَسلوبَ الاختيارِ معه، فيَكونَ بذلك مُسلِمًا: لا يَحمِلُ عليها إلَّا طاعةُ اللهِ، وكانت طاعةُ اللهِ كذلك لا يَحمِلُ عليها إلَّا دوامُ ذِكرِه- قال بعدَ تأكيدِ زَواجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بزينبَ رَضِيَ اللهُ عنها، بأنَّه هو سُبحانَه زَوَّجَه إيَّاها[٣]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اذكُروا اللهَ ذِكرًا كَثيرًا في جميعِ أوقاتِكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣١).

كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ ﴾.

أي: ونَزِّهوا اللهَ عن النَّقائِصِ والعُيوبِ، بالتَّسبيحِ أوَّلَ النَّهارِ بينَ الصُّبحِ وطُلوعِ الشَّمسِ، وآخِرَ النَّهارِ بينَ العَصرِ وغُروبِ الشَّمسِ(١).

---

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ: التَّسبيحُ باللِّسانِ، والتَّنزيهُ لله: ابنُ جُزَي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيِّمِ، وابنِ رجبٍ، وابنِ كثيرٍ، واختاره الشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٤)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ: الصَّلاةُ: ابنُ جرير، والسمعاني، والرَّسْعَني، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٧١).

واختار ابنُ جريرٍ والعُلَيميُّ أنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ بُكرةً وأصيلًا: صلاةُ الفَجرِ، وصلاةُ العصرِ.

وقيل: ﴿بُكۡرَةٗ﴾: صلاة الفَجرِ، ﴿وَأَصِيلًا﴾: صلاة الظُّهرِ والعصرِ والمغربِ والعِشاءِ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٧١).

وقال ابنُ عاشور: (التَّسبيحُ: يجوزُ أن يُرادَ به الصَّلواتُ النَّوافِلُ؛ ... ويجوزُ أن يكونَ المأمورُ به مِنَ التَّسبيحِ قَولَ: سُبحانَ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٦٩). =

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن قال حينَ يُصبِحُ وحينَ يُمسي: سُبحانَ اللهِ وبِحَمدِه مئةَ مَرَّةٍ، لم يأتِ أحدٌ يومَ القيامةِ بأفضَلَ مِمَّا جاء به، إلَّا أحدٌ قال مِثلَ ما قال، أو زاد عليه))[1].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أمَرَهم اللهُ تعالى بالذِّكرِ والتَّسبيحِ؛ ذكَرَ إحسانَه تعالى بصَلاتِه عليهم هو وملائِكتِه[2].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

أي: هو الَّذي يُثني عليكم، ومَلائِكتُه يَدْعُونَ ويَستَغفِرونَ لكم؛ فيُخرِجُكم اللهُ -بسَبَبِ صَلاتِه وصلاةِ ملائكتِه- مِن ظُلُماتِ الجَهلِ والضَّلالِ والكُفرِ والعِصيانِ، إلى نورِ العِلمِ والطَّاعةِ والإيمانِ[3].

---

= وقيل: أراد بقولِه: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾: كلَّ الأوقاتِ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٨).

(١) رواه مسلم (٢٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨، ١٩٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٢٥)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢٧-٣٢٩).

وقال ابنُ عاشور: (اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ مُتعَلِّقةٌ بـ﴿يُصَلِّى﴾؛ فعُلِمَ أنَّ هذه الصَّلاةَ جزاءٌ عاجِلٌ حاصِلٌ وَقتَ ذِكرِهم وتَسبيحِهم. والمرادُ بـ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾: الضَّلالةُ، وبـ﴿ٱلنُّورِ﴾: الهُدى، وبإخراجِهم مِنَ الظُّلُماتِ: دوامُ ذلك، والاستزادةُ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٠).

كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ * وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧ - ٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الملائِكةُ يُصَلُّونَ على أحَدِكم ما دام في مَجلِسِه الَّذي صلَّى فيه؛ يقولونَ: اللَّهُمَّ ارحَمْه، اللَّهُمَّ اغفِرْ له، اللَّهُمَّ تُبْ عليه، ما لم يُؤذِ فيه، ما لم يُحدِثْ فيه[1]))[2].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا خرَجَتْ رُوحُ المؤمِنِ تلقَّاها ملَكانِ يُصعِدانِها، ويقولُ أهلُ السَّماءِ: رُوحٌ طَيِّبةٌ جاءت مِن قِبَلِ الأرضِ، صلَّى اللهُ عليكِ وعلى جَسَدٍ كُنتِ تَعمُرينَه))[3].

﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ بعِبادِه المُؤمِنينَ رَحيمٌ؛ يهديهم في الدُّنيا، ويَلطُفُ بهم، ولا يُعَذِّبُهم في الآخِرةِ، ويُثيبُهم[4].

---

(١) ما لم يُحْدِثْ فيه: أي: ما لم يأتِ بناقضٍ للوُضوءِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (١/ ٤٥٩).

(٢) رواه البخاري (٢١١٩)، ومسلم (٦٤٩) (١/ ٤٥٩) واللفظ له.

(٣) رواه مسلم (٢٨٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٠، ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢٩).

عن عُمَرَ بنِ الخطَّاب رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قَدِمَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَبْيٌ، فإذا امرأةٌ مِن السَّبي قد تحلَّبَ[١] ثَدْيُها تَسْقي، إذا وجَدَت صَبيًّا في السَّبي أخذَتْه فألصَقَتْه ببَطنِها وأرضعَتْه، فقال لنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أتُرَونَ[٢] هذه طارِحةً ولَدَها في النَّارِ؟! قُلنا: لا، وهي تقدِرُ على ألَّا تَطرَحَه، فقال: للهُ أرحَمُ بعِبادِه مِن هذه بوَلَدِها))[٣].

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّن الله عنايتَه في الأولَى؛ بيَّن عنايتَه في الآخرةِ[٤].

وأيضًا أعقَبَ الجَزاءَ العاجِلَ الَّذي أنبأَ عنه قَولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ بذِكرِ جَزاءٍ آجِلٍ، وهو ظُهورُ أثَرِ الأعمالِ الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وأثَرِ الجزاءِ الَّذي عُجِّل لهم عليها مِن اللهِ في كرامتِهم يومَ يَلقَونَ رَبَّهم[٥].

وأيضًا لَمَّا كان أظهَرُ الأوقاتِ في ثمرةِ هذا الوصفِ ما بعدَ الموتِ؛ قال تعالى مبيِّنًا لرحمتِهم[٦]:

﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾.

أي: تحيَّةُ المؤمِنينَ يومَ القيامةِ حينَ يَلقَونَ رَبَّهم: سلامٌ، فيُسلِّمُ اللهُ عليهم،

---

(١) تحلَّبَ: أي: تهيَّأَ لأن يحلبَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٣٠).

(٢) أتُرَونَ: أي: أتظنُّون. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٣١).

(٣) رواه البخاري (٥٩٩٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٠، ٥١).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧١).

ويُسلِّمُهم مِن الآفاتِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ [يس: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ ﴾ [يونس: ١٠].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴾.

أي: وأعدَّ اللهُ للمُؤمِنينَ أجرًا حَسَنًا نَفيسًا[٢].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٢، ٣٣٣).

قال أحمدُ بنُ يحيى الملَقَّبُ بثَعْلب في قَولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ﴾: (أجمَع أهلُ اللُّغةِ أنَّ اللِّقاءَ هاهنا لا يكونُ إلَّا مُعاينةً ونَظَرًا بالأبصارِ). يُنظر: ((الإبانة الكبرى)) لابن بطة (٧/ ٦٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقَولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ ...﴾ أي: تحيَّةُ اللهِ تعالى للمُؤمِنينَ بقَولِه لهم: سلامٌ: ابنُ القيم، واستظهره ابنُ كثير، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٢، ٣٣٣).

وقيل: المرادُ: تحيَّةُ بَعضِ المؤمنينَ لبعضٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٩).

واختار مقاتل أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿سَلَٰمٞ﴾ أي: تسليمُ الملائكةِ عليهم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٤، ٣٣٦).

وممَّن قال بأنَّ الأجرَ الكريمَ هنا هو الجنَّةُ: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، والبيضاوي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥١). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾، وقال: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال -في الحديثِ القُدسيِّ-: ((مَن ذَكَرَني في نَفْسِه ذكَرْتُه في نفْسي، ومَن ذكَرَني في مَلأٍ ذكَرْتُه في مَلأٍ خيرٍ منهم))[1].

وذِكرُ الله بأوصافِ الجَمالِ موجِبٌ للمحَبَّةِ، وبأوصافِ الكمالِ موجِبٌ للمَهابةِ، وبالتَّوَحُّدِ بالأفعالِ موجِبٌ لِلتَّوكُّلِ، وبسَعةِ الرَّحمةِ موجِبٌ للرَّجاءِ، وبشِدَّةِ النِّقمةِ موجِبٌ للخَوفِ، وبالتَّفرُّدِ بالإنعامِ موجِبٌ للشُّكرِ؛ ولذلك قال: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾.

فذِكرُ الله أصلُ العباداتِ، وأُسُّ المعاملاتِ؛ لأنَّ ذِكرَ هذه الأوصافِ موجِبٌ للأحوالِ السَّنيَّةِ، والأقوالِ والأعمالِ المَرْضيَّةِ، وذلك موجِبٌ للدَّرَجاتِ في جِوارِ خالقِ البَريَّةِ، في العيشةِ الهَنيَّةِ[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ يأمُرُ تعالى المؤمِنينَ بذِكرِه ذِكرًا كَثيرًا؛ مِن تهليلٍ وتحميدٍ، وتسبيحٍ وتكبيرٍ، وغَيرِ ذلك مِن كُلِّ قَولٍ فيه قُربةٌ إلى اللهِ؛ وأقَلُّ ذلك أن يلازِمَ الإنسانُ أورادَ الصَّباحِ والمساءِ وأدبارِ الصَّلواتِ الخَمسِ، وعندَ العوارِضِ والأسبابِ. ويَنبغي مداومةُ ذلك في جميعِ الأوقاتِ على جميعِ الأحوالِ؛ فإنَّ ذلك عبادةٌ يَسبِقُ بها العامِلُ وهو مُستريحٌ، وداعٍ إلى محبَّةِ اللهِ ومَعرفتِه، وعَونٌ على الخيرِ

---

= وممَّن قال بهذا القول مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٥).

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز ابن عبد السلام (ص: ٧٤).

وكفِّ اللِّسانِ عن الكلامِ القَبيحِ[١].

٣- إن قيل: إنَّ العَبدَ في بعضِ الأحيانِ قد لا يكونُ عِندَه محبَّةٌ تَبعَثُه على طلَبِ محبوبِه، فأيُّ شَيءٍ يُحَرِّكُ القُلوبَ؟

قُلْنا: يحَرِّكُها شيئانِ:

**أحدُهما**: كَثرةُ الذِّكرِ للمَحبوبِ؛ لأنَّ كَثرةَ ذِكرِه تُعَلِّقُ القلوبَ به؛ ولهذا أمَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بالذِّكرِ الكثيرِ، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾.

**والثَّاني**: مُطالعةُ آلائِه ونَعْمائِه؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٢] [الأعراف: ٦٩].

٤- قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ هذا تهييجٌ إلى الذِّكرِ، أي: إنَّه سُبحانَه يَذكُرُكم فاذكُروه أنتم[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ أنَّ الذِّكْرَ مِن الإيمانِ بالله تعالى ومِن مقتضياتِه؛ لأنَّ الله إذا خاطَب المؤمنينَ بوصفِ الإيمانِ كان ذلك دليلًا على أنَّ ما خُوطِبوا به مِن مقتضياتِ الإيمانِ، وأنَّ مخالفتَه نقصٌ في الإيمانِ[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ اشتَرَط اللهُ الكَثرةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢٤، ٣٢٥).

في الذِّكرِ حيثما أَمَر به، بخِلافِ سائرِ الأعمالِ. والذِّكرُ يكونُ بالقَلبِ وباللِّسانِ، وهو على أنواعٍ كَثيرةٍ؛ مِنَ التَّهليلِ والتَّسبيحِ، والحَمدِ والتَّكبيرِ، وذِكرِ أسماءِ اللهِ تعالى[١] إلى غيرِ ذلك.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾ أنَّ الإيمانَ يَزيدُ بالذِّكرِ؛ وجْهُه: أنَّ كلَّ ما كان مِن مُقتَضياتِ الشَّيءِ فإنَّه يَزدادُ به، كما أنَّ نَقصَ الذِّكرِ نَقصٌ في الإيمانِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا * هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ أنَّ ذِكرَه سُبحانَه سَبَبٌ لصَلاتِه على عَبدِه وذِكرِه له[٣] وصلاةِ ملائكتِه عليه، ومَن صلَّى اللهُ تعالى عليه وملائكتُه فقد أفلَح كلَّ الفلاحِ، وفاز كلَّ الفوزِ، وهذه الصَّلاةُ منه تبارَك وتعالى ومِن ملائكتِه إنَّما هي سببُ الإخراجِ لهم مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ[٤].

٥- أوَّلُ مَنازِلِ القَومِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾، وأوسَطُها: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾، وآخِرُها: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾ مَشروعيَّةُ التَّسبيحِ في الغُدُوِّ والآصالِ، ولا شَكَّ أنَّ التَّسبيحَ في كلِّ وقتٍ، لكنْ كثرةُ التَّسبيحِ في أوَّلِ اليَومِ وآخِرِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٨١).

(٤) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٧٢)

(٥) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٢٦).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أنَّ وقتَ الفجرِ ووقتَ العصرِ هما أفضلُ أوقاتِ النَّهارِ للذِّكْرِ؛ ولهذا أمَرَ اللهُ تعالى بذكرِه فيهما(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى ﴾ إثباتُ الكلامِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الصَّلاةَ منه تعالى هي: الثَّناءُ على العَبدِ في الملأِ الأعلى(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ لأفعالِ اللهِ تعالى(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ الرَّدُّ على الأشعريَّةِ ونَحوِهم ممَّن يُنكِرونَ وَصفَ اللهِ تعالى بالرَّحمةِ(٤).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ أنَّ الإيمانَ هو مِن أسبابِ رحمةِ اللهِ، وكلَّما كان الإيمانُ أقوَى؛ كانتِ الرَّحمةُ إلى صاحبِه أقرَبَ، بإذنِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٥).

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ﴿رَحِيمًا ﴾، وتقديمُ المعمولِ يدُلُّ على الحَصرِ؛ فيكونُ معنى الآيةِ: وكان بالمؤمِنينَ -لا غَيرِهم- رَحيمًا، ولكنْ كيف نَجمَعُ بيْنَ هذه الآيةِ وبينَ قَولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧]؟

**والجوابُ**: أنَّ الرَّحمةَ التي هنا غيرُ الرَّحمةِ الَّتي هناك؛ هذه رحمةٌ خاصَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢١٥).

متَّصلةٌ برَحمةِ الآخرةِ لا يَنالُها الكُفَّارُ، بخِلافِ الأُولى، هذا هو الجَمعُ بيْنَهما، وإلَّا فكلٌّ مَرحومٌ، لكنْ فَرقٌ بينَ الرَّحمةِ الخاصَّةِ والرَّحمةِ العامَّةِ(١).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾، ذكَرَ السَّلامَ؛ لأنَّه هو الدَّليلُ على الخَيراتِ؛ فإنَّ مَن لَقِيَ غيرَه، وسلَّم عليه، دلَّ على المُصافاةِ بيْنَهما، وإن لم يُسَلِّمْ دلَّ على المُنافاةِ(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ إثباتُ كلامِ اللهِ تعالى؛ وأنَّه يتكلَّمُ، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨]؛ لأنَّه يَتكلَّمُ به تعالى، ويقولُه قولًا(٣).

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ فيه سؤالٌ: لو قال قائلٌ: الإعدادُ إنَّما يكونُ ممَّن لا يَقدِرُ عندَ الحاجةِ إلى الشَّيءِ عليه، وأمَّا اللهُ تعالى فلا حاجةَ ولا عجزَ؛ فحيث يَلْقاه اللهُ يؤتيه ما يَرضى به وزيادةً، فما معنى الإعدادِ مِن قَبْلُ؟

**الجوابُ**: الإعدادُ للإكرامِ لا للحاجةِ، وهذا كما أنَّ المَلِكَ إذا قيل له: فلانٌ واصِلٌ، فإذا أراد إكرامَه يُهيِّئُ له بيتًا وأنواعًا مِن الإكرامِ، ولا يقولُ بأنَّه إذا وصَل نفتَحُ بابَ الخِزانةِ، ونؤتيه ما يُرضيه؛ فلِكَمالِ الإكرامِ أعدَّ اللهُ للذَّاكِرِ أجرًا كريمًا(٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ مُتَّصِلٌ بما قبْلَه؛ فالجُملةُ إقبالٌ على مُخاطَبةِ المؤمنينَ بأنْ يَشغَلوا ألْسِنتَهم بذِكرِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٢، ١٧٣).

اللهِ وتَسبيحِه، أي: أنْ يُمسِكوا عن مُماراةِ المنافقينَ أو عن سَبِّهم فيما يُرْجِفون به في قَضيَّةِ تَزوُّجِ زَينبَ، فأُمِروا بتَشغيلِ ألْسِنتِهم وأوقاتِهم بما يَعودُ بنَفْعِهم، وتَجنُّبِ ما عَسى أنْ يُوقِعَ في مَضرَّةٍ. وفيه تَسجيلٌ على المنافقينَ بأنَّ خَوضَهم في ذلك بعْدَ هذه الآيةِ علامةٌ على النِّفاقِ؛ لأنَّ المؤمنينَ لا يُخالِفون أمْرَ ربِّهم[1].

٢- قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ إذا كان المأمورُ به مِن التَّسبيحِ قولَ: (سُبحانَ اللهِ)؛ فيكونُ عطْفُ ﴿ وَسَبِّحُوهُ ﴾ على ﴿ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ﴾ مِن عَطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ اهتمامًا بالخاصِّ؛ لأنَّ معنى التَّسبيحِ التَّنزيهُ عمَّا لا يجوزُ على اللهِ مِن النَّقائصِ، فهو مِن أكمَلِ الذِّكرِ؛ لاشتِمالِه على جَوامعِ الثَّناءِ والتَّمجيدِ، ولأنَّ في التَّسبيحِ إيماءً إلى التَّبرُّؤِ ممَّا يقولُه المُنافقون في حقِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

- قولُه: ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ المَقصودُ مِن البُكرةِ والأصيلِ إعمارُ أجْزاءِ النَّهارِ بالذِّكرِ والتَّسبيحِ بقَدْرِ المُكنةِ؛ لأنَّ ذِكرَ طَرَفَي الشَّيءِ يكونُ كِنايةً عن استِيعابِه[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وقُدِّمَ البُكرةُ على الأصيلِ؛ لأنَّ البُكرةَ أسبَقُ مِن الأصيلِ لا مَحالةَ. وليس الأصيلُ جَديرًا بالتَّقديمِ في الذِّكرِ كما قُدِّمَ لَفظُ ﴿تُمْسُونَ ﴾ في قولِه في سُورةِ (الرُّوم): ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ [الروم: ١٧]؛ لأنَّ كلمةَ (المساءِ) تَشمَلُ أوَّلَ اللَّيلِ؛ فقُدِّمَ لفظُ ﴿تُمْسُونَ ﴾ هنالك رَعيًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٨).

لاعتبارِ أنَّ اللَّيلَ أسبَقُ في حِسابِ أيَّامِ الشَّهرِ عندَ العرَبِ وفي الإسلامِ، وليست كذلك كلمةُ (الأصيلِ)[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾

- قولُه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجرى التَّعليلِ لِمَا قبْلَه مِن الأمْرينِ بذِكرِ اللهِ وتَسبيحِه؛ بأنَّ ذلك مَجْلَبَةٌ لانتفاعِ المؤمنينَ بجَزاءِ اللهِ على ذلك بأفضَلَ منه مِن جِنسِه، وهو صَلاتُه وصَلاةُ ملائكتِه[٢].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿ هُوَ ٱلَّذِى ﴾ على الخبَرِ الفِعليِّ ﴿يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾؛ لإفادةِ التَّقَوِّي وتَحقيقِ الحُكمِ، والمقصودُ تَحقيقُ ما تَعلَّقَ بفِعلِ ﴿يُصَلِّى﴾ مِن قولِ: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٣].

- واجتِلابُ ﴿يُصَلِّى﴾ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لإفادةِ تَكرُّرِ الصَّلاةِ وتَجدُّدِها كلَّما تَجدَّدَ الذِّكرُ والتَّسبيحُ، أو إفادةِ تَجدُّدِها بحَسَبِ أسبابٍ أُخرى مِن أعمالِ المؤمنينَ، ومُلاحظةِ إيمانِهم[٤].

- وأيضًا في إيرادِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى مَعروفٌ عِندَهم بمَضمونِ الصِّلةِ: فإمَّا لأنَّ المسلمينَ يَعلَمون على وَجهِ الإجمالِ أنَّهم لا يَأْتيهم خيرٌ إلَّا مِن جانبِ اللهِ تعالى؛ فكلُّ تَفصيلٍ لذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإجمالِ دخَلَ في عِلمِهم، ومنه أنَّه يُصلِّي عليهم، ويَأمُرُ ملائكتَه بذلك، وإمَّا أنْ يكونَ قد سبَقَ لهم عِلمٌ بذلك تَفصيلًا مِن قبْلُ في بعضِ آياتِ القرآنِ، كقولِه تعالَى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1] [الشورى: ٥].

- والإضافةُ في قَولِه: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ للتَّشريفِ والتَّكريم[2].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه. ودلَّ الإخبارُ عن رَحمتِه بالمؤمنينَ بإقحامِ فِعلِ (كان) وخَبرِها؛ لِمَا تَقْتضيهِ (كان) مِن ثُبوتِ ذلك الخبَرِ له تعالى، وتَحقُّقِه، وأنَّه شأنٌ مِن شُؤونِه المعروفِ بها في آياتٍ كثيرةٍ[3].

- وقولُه: (الْمُؤْمِنِينَ) مُظهَرٌ وُضِعَ مَوضعَ المُضمَرِ؛ مَدْحًا لهم، وإشعارًا بعِلَّةِ الرَّحمةِ[4].

٤- قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾

- قولُه: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ بَيانٌ للأحكامِ الآجِلةِ لِرَحمةِ اللهِ تعالى بهم بعدَ بَيانِ آثارِها العاجلةِ الَّتي هي الاعتناءُ بأمْرِهم، وهِدايتُهم إلى الطَّاعةِ؛ فالجُملةُ تَكملةٌ للَّتي قبْلَها؛ لإفادةِ أنَّ صلاةَ اللهِ وملائكتِه واقعةٌ في الحياةِ الدُّنيا وفي الدَّارِ الآخرةِ[5].

- وقولُه: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ التَّهيئةُ واقِعةٌ قبْلَ دُخولِ الجنَّةِ، والتَّحيةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٤٩، ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٠، ٥١).

ولذا لم تخرُجِ الجُملةُ مَخرَجَ ما قَبْلَها، بأن يقالَ: وأجرُهم أجرٌ كريمٌ، أو: ولهم أجرٌ كريمٌ. وقيل: هي بعدَ الدُّخولِ والتَّحيَّةِ؛ فالكلامُ لِبَيانِ آثارِ رحمتِه تعالى الفائِضةِ عليهم بعدَ دُخولِ الجنَّةِ عَقيبَ بَيانِ آثارِ رحمتِه الواصِلةِ إليهم قبْلَ ذلك[1].

- ولعلَّ إيثارَ الجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ على الاسميَّةِ المُناسِبةِ لِمَا قبْلَها -بأنْ يُقالَ مثَلًا: (وأجْرُهم أجْرٌ كريمٌ)، أو (ولهمْ أجْرٌ كريمٌ)-؛ للمُبالَغةِ في التَّرغيبِ والتَّشويقِ إلى الموعُودِ ببَيانِ أنَّ الأجرَ -الَّذي هُو المقصدُ الأقصى مِن بَيْنِ سائرِ آثارِ الرَّحمةِ- مَوجودٌ بالفِعلِ، مُهيَّأٌ لهم، مع ما فيه مِن مُراعاةِ الفواصلِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٧).

## الآيات (٤٥-٤٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَنَذِيرًا﴾: أي: محذِّرًا ومخوِّفًا، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تَخويفٍ[١].

﴿وَسِرَاجًا﴾: أي: ضِياءً وهادِيًا، وأصلُ (سرج): يدُلُّ على الحُسنِ والزِّينةِ[٢].

﴿فَضْلًا﴾: أي: ثوابًا وأجرًا، أو: ما تفضَّل به عليهم زيادةً على الثَّوابِ، والفضلُ: العطاءُ الَّذي يَزيدُه المُعطي زيادةً على العَطيَّةِ، وكلُّ عَطيَّةٍ لا تَلزمُ مَن يُعطِي يُقال لها: فضْلٌ، والإفضالُ: الإحسانُ، وأصلُ (فضل): يدُلُّ على زيادةٍ في شَيءٍ[٣].

﴿وَكِيلًا﴾: أي: مانعًا وحافظًا وكفيلًا، ووكيلُ الرَّجُلِ في مالِه هو الَّذي كفَله له، وقام به، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِك[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موجِّهًا النِّداءَ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، مبيِّنًا وظيفتَه: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسَلْناك شاهِدًا ومُبَشِّرًا مَن آمَن بك وأطاعَك، ومُنذِرًا مَن خالَفك، وداعيًا إلى اللهِ وَحْدَه بأمرِه لك وتقديرِه وتيسيرِه، وسِراجًا مُنيرًا يُهتدى به. وبَشِّرِ المؤمِنينَ بأنَّ لهم مِنَ الله ثوابًا عظيمًا، ولا تُطِعِ الكافرينَ والمنافِقينَ، وأعرِضْ عن إيذائِهم لك، واعتَمِدْ على اللهِ في تدبيرِ أمورِك، وكفَى باللهِ حافِظًا لك.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ هذا النِّداءَ الثَّالثَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أبلَغَه بالنِّداءِ الأوَّلِ ما هو مُتعلِّقٌ بذاتِه، وبالنِّداءِ الثَّاني ما هو مُتعلِّقٌ بأزواجِه، وما تخلَّل ذلك مِنَ التَّكليفِ والتَّذكيرِ: ناداه بأوصافٍ أودَعَها سُبحانَه فيه؛ للتَّنويهِ بشَأنِه، وزيادةِ رِفعةِ مِقدارِه، وبيَّنَ له أركانَ رِسالتِه؛ فهذا الغَرَضُ هو وَصفُ تعَلُّقاتِ رِسالتِه بأحوالِ أمَّتِه، وأحوالِ الأُمَمِ السَّالِفةِ[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسَلْناك شاهِدًا[2] ومُبَشِّرًا بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ لِمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٢).

(٢) قال الماوَرْديُّ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الفتحِ الآية (٨): (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: شاهِدًا على أمَّتِك بالبلاغِ. قاله قَتادةُ. الثَّاني: شاهِدًا على أمَّتِك بأعمالِهم مِن طاعةٍ أو معصيةٍ. الثَّالثُ: مُبيِّنًا ما أرسَلْناك به إليهم). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٢). =

آمَن بك وأطاعَك، ومُنذِرًا بالعَذابِ في الدُّنيا والآخِرةِ لِمَن خالَفك وعصَى أمرَك[1].

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ، وأنَّ المرادَ: شاهِدٌ على أمَّتِك بإبلاغِ الرِّسالةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٩٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: شاهدٌ على أُمَّتِه الَّذين بُعِث إليهم، وعلى تكذيبِهم وتصديقِهم: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣١).

قال السعدي: (شاهدًا على أمَّتِه بما عمِلوه، مِن خَيرٍ وشرٍّ، كما قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]؛ فهو صلَّى الله عليه وسلَّمَ شاهدٌ عدلٌ مقبولٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧).

وقال أبو السعود: (﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على مَن بُعثتَ إليهم؛ تُراقبُ أحوالهم، وتُشاهِدُ أعمالَهم، وتتحمَّلُ منهم الشَّهادةَ بما صدرَ عنهم مِن التَّصديقِ والتَّكذيبِ وسائرِ ما هُم عليه مِن الهدى والضَّلالِ، وتُؤدِّيها يومَ القيامةِ أداءً مقبولًا). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٧).

وقيل: المرادُ: شاهِدٌ لله بالوحدانيَّةِ، وأنَّه لا إلهَ غَيرُه، وعلى النَّاسِ بأعمالِهم يومَ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩).

وقيل: المرادُ: شاهِدٌ على أمَّتِك بالتَّبليغِ إليهم، وعلى سائرِ الأمَمِ في تبليغِ أنبيائهم ونحو ذلك. وممَّن اختاره: ابنُ عطية، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٧٢).

وذهب ابنُ عثيمين إلى العموم، وأنَّ المرادَ أنَّه شاهدٌ بما أوحاه الله تعالى إليه، وحاكمٌ به، وشاهدٌ على مَن أُرسِل إليهم، وشاهدٌ على مَن سبَقه مِن الأُمَمِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٢ - ٥٤).

عن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، قال: لَقِيتُ عبدَ اللهِ بنَ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قُلتُ: أخبِرْني عن صِفةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التَّوراةِ. قال: (أجَلْ، واللهِ إنَّه لَمَوصوفٌ في التَّوراةِ ببَعضِ صِفتِه في القُرآنِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾، وحِرزًا للأُمِّيِّينَ[1]، أنت عَبدي ورَسولي، سَمَّيتُك المتوكِّلَ، ليس بفَظٍّ ولا غَليظٍ، ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ[2]، ولا يَدفَعُ بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكِنْ يعفو ويَغفِرُ، ولن يَقبِضَه اللهُ حتَّى يُقيمَ به المِلَّةَ العَوجاءَ، بأنْ يقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ويَفتَحَ بها أعيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقُلوبًا غُلْفًا)[3].

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ ﴾.

﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾.

أي: وأرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- داعيًا إلى اللهِ وَحْدَه بإذْنِ الله تعالى لك في الدَّعوةِ وأمرِه وإرادتِه وقَدَرِه وتيسيرِه[4].

---

(١) وحِرْزًا للأُمِّيِّينَ: أي: حِصنًا للعَرَبِ يتحَصَّنونَ به من غوائِلِ الشَّيطانِ، أو مِن سَطوةِ العَجَمِ وتغَلُّبِهم، وسُمُّوا أمِّيِّينَ؛ لأنَّ أغلَبَهم لا يَقرؤونَ ولا يكتُبونَ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٥١).

(٢) ولا سَخَّابٍ في الأسواقِ: أي: لا يَرفَعُ صَوتَه على النَّاسِ، ولا يُكثِرُ الصِّياحَ عليهم في الأسواقِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٤/ ٥٢).

(٣) رواه البخاري (٢١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٢، ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤١).

في قوله: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: بأمرِه. الثَّاني: بعِلْمِه. الثَّالثُ: بالقرآنِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤١١).

ممَّن اختار القولَ الأولَ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبغويُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩). =

﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾.

أي: وسِراجًا مُنيرًا يُستَضاءُ ويُهتدَى به[1].

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه أرسَلَ نَبيَّه شاهِدًا... إلى آخِرِه، تضَمَّن ذلك الأمرَ

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباس، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤١١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٢٥).

وقيل: المرادُ: بتيسيرِه وتسهيلِه. وممَّن اختاره: الرسعني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٤).

قال البِقاعي: (ولَمَّا كان ذلك في غايةِ الصُّعوبةِ، لا يقومُ به أحدٌ إلَّا بمَعونةٍ مِن الله عظيمةٍ؛ أشار إلى ذلك بقولِه: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتمكينِه لك مِن الدُّعاءِ بتيسيرِ أسبابِه، وتحمُّلِ أعبائِه، وللمَدْعُوِّ مِنَ الإقبالِ والاتِّباعِ إن أراد له الخيرَ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٧٣).

وقيل: المرادُ: بأمرِه وتقديرِه ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، والشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧).

وقال يحيى بن سلام: (﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بالقرآنِ، الوحيِ الَّذي جاء مِن عندِه). ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٩).

وقال ابنُ عثيمين: (وقَولُه تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾ الإذنُ هنا يَشملُ الإذْنَ الكَونيَّ والإذنَ الشَّرعيَّ؛ فإن كان المرادُ به ما يُدْعى به، فهو الشَّرعيُّ، يعني: إن كان المعنى: داعيًا إلى اللهِ تعالى بأمْرِه الَّذي أمَرَك بالدَّعوةِ إليه، فالمرادُ به الإذنُ الشَّرعيُّ، وإن كان المرادُ: داعيًا إلى الله تعالى بقَدَرِه -يعني: حيث قوَّاك على ذلك، وهيَّأ لك الأسبابَ- فهو إذْنٌ كونيٌّ، والآيةُ تَشملُ هذا وهذا؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما يدعو بقَضاءِ الله تعالى وقَدَرِه، ويدعو كذلك بدينِه وشَرعِه؛ فهو داعٍ بالأمْرَينِ جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤١، ٣٤٢).

بتلك الأحوالِ، فكأنَّه قال: فاشهَدْ، وبَشِّرْ، وأنذِرْ، وادْعُ، وانْهَ، ثمَّ قال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ فهذا متَّصِلٌ بما قَبْلَه مِن جِهةِ المعنى، وإن كان يَظهَرُ أنَّه مُنقَطِعٌ مِن الَّذي قبْلَه[1].

وأيضًا لَمَّا تقَدَّمتْ هذه الأوصافُ الحُسنى، وكان تطبيقُ ثَمَراتِها عليها في الذِّروةِ مِن العُلُوِّ، وكان الشَّاهِدُ هو البَيِّنَةَ؛ فكان كأنَّه قيل: فأقِمِ الأدِلَّةَ النَّيِّرةَ، وادْعُ وأنذِرْ كُلَّ مَن خالَف أمْرَك، وكان المقامُ لِخطابِ المُقبِلينَ- طوَى هذا المقَدَّرَ؛ لأنَّه للمُعرِضينَ، ودَلَّ عليه بقَولِه عاطِفًا عليه[2]:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: وبَشِّرِ المُؤمِنينَ بأنَّ لهم مِنَ الله ثوابًا عَظيمًا جَليلًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالفضلِ الكبيرِ: الجنَّةُ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ أبي زمنين، وجلال الدين المحلي، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٤٠٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٥٧)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٦).

قال الشنقيطي: (... قولُه: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾، وبيَّنَ المرادَ بالفضلِ الكبيرِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[الشورى: ٢٢]). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٩، ٣٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ -أنَّ المرادَ بالفضلِ الكبيرِ: الجنةُ-: السُّدِّيُّ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٢٦)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (٩/ ٣١٤٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ أي: أجرًا جزيلًا وثوابًا عظيمًا مُضاعَفًا أضعافًا =

كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۞ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الصف: ١٢، ١٣].

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ٤٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان ثَمَّ طائفةٌ مِنَ النَّاسِ مُستعدَّةٌ للقيام بصَدِّ الدَّاعينَ إلى الله مِنَ الرُّسلِ وأتْباعِهم، وهم المنافِقون، الَّذين أظهَروا المُوافَقةَ في الإيمانِ، وهم كَفَرةٌ فَجَرةٌ

---

= كثيرةً: ابنُ جرير، ومكِّي، والنسفي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٤٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٩١).

وقيل: الفضلُ ما يَتفضَّلُ به عليهم زيادةً على الثَّوابِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٣٠).

وقيل: الفَضلُ الكبيرُ كائنٌ في الدُّنيا والآخرةِ؛ فيَشملُ النَّصرَ، وهِدايةَ القُلوبِ، وغُفرانَ الذُّنوبِ، وكَشْفَ الكُروبِ، وكثرةَ الأرزاقِ الدَّارَّةِ، وحُصولَ النِّعَمِ السَّارَّةِ، والفوزَ برِضا الله وثَوابِه، والنَّجاةَ مِن سَخَطِه وعِقابِه. قاله: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

في الباطِنِ، والكفَّارُ ظاهرًا وباطنًا؛ نهى اللهُ رسولَه عن طاعتِهم، وحذَّره ذلك[١].

وأيضًا أنَّه لَمَّا أمرَه سُبحانَه بما يَسُرُّ؛ نهاه عما يَضُرُّ، فقال ذاكِرًا ثَمَرةَ النِّذارةِ[٢]:

﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾.

أي: ولا تُطِعِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ -يا مُحمَّدُ- فيما يَدْعونَك ويُشيرونَ عليك؛ مِنَ المُداهَنةِ في الدِّينِ، أو التَّقصيرِ في تَبليغِ رِسالةِ رَبِّ العالَمينَ[٣].

﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾.

أي: وأعرِضْ -يا مُحمَّدُ- عن إيذاءِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ لك، ولا تُبالِ بهم، واصبِرْ عليهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢٣، ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

قال ابنُ عثيمين: (وهذا الأمرُ إمَّا أن يكونَ للتَّهديدِ [أي: دعْ أذاهم إيَّاك فسوف يَنتقِمُ اللهُ منهم]، وإمَّا أن يكونَ للتَّأييدِ والتَّقويةِ [أي: اصبِرْ عليهم، ولا تُبالِ بهم؛ فإنَّ العاقِبةَ لك]، وإمَّا أن يكونَ لهما جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٠).

وقال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ يحتَمِلُ مَعنَيينِ؛ أحدُهما: أن يأمُرَه بتَرْكِ أن يؤذيَهم هو ويُعاقِبَهم، فكأنَّ المعنى: واصفَحْ عن زَلَلِهم ولا تُؤذِهم؛ فالمصدَرُ على هذا مُضافٌ إلى المفعولِ، ونُسِخَ مِن الآيةِ على هذا التَّأويلِ ما يخُصُّ الكافِرينَ، وناسِخُه آيةُ السَّيفِ. والمعنى الثَّاني: أن يكونَ قَولُه: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ ﴾ بمعنى: أعرِضْ عن أقوالِهم وما يؤذونَك به؛ فالمصدَرُ على هذا التَّأويلِ مُضافٌ إلى الفاعِلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٠). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٨). =

= وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّاني: ابنُ جرير، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٩، ٣٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٤٨).

وممَّن ذهب إلى حملِ الآيةِ على كِلا المعنَيينِ: ابنُ عاشور، فقال: (الوجهُ: الحمْلُ على كِلا المعنيَينِ، فيكونُ الأمرُ بتَركِ أذاهم صادقًا بالإعراضِ عمَّا يُؤذُونَ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أقوالِهم، وصادقًا بالكفِّ عن الإضرارِ بهم، أي: أنْ يَترفَّعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن مؤاخَذَتِهم على ما يَصدُرُ منهم في شأنِه، وهذا إعراضٌ عن أذًى خاصٍّ لا عُمومَ له، فهو بمَنزلةِ المُعَرَّفِ بلامِ العهدِ، فليست آياتُ القتالِ بناسِخةٍ له. وهذا يَقتَضي أنَّه يَترُكُ أذاهم، ويَكِلُهم إلى عِقابٍ آجِلٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَسمَعُ مِن الكُفَّارِ والمنافقينَ في أوَّلِ الإسلامِ أذًى كثيرًا، وكان يَصبِرُ عليه؛ امتِثالًا لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨]؛ لأنَّ إقامةَ الحدودِ عليهم كان يُفضي إلى فِتنةٍ عَظيمةٍ ومَفسَدةٍ أعظَمَ مِن مَفسدةِ الصَّبرِ على كلماتِهم؛ فلمَّا فتح الله مكَّةَ ودخَل النَّاسُ في دين الله أفواجًا، وأنزَل اللهُ (براءةٌ) قال فيها: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٦٠] إلى قَولِه: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦١]، فلمَّا رأى مَن بَقِيَ مِن المنافقين ما صار الأمرُ إليه مِن عزِّ الإسلامِ وقيامِ الرَّسولِ بجهادِ الكفَّارِ والمنافقين، أضمَروا النِّفاقَ؛ فلم يكُنْ يُسمَعُ مِن أحدٍ مِن المنافقين بعدَ غزوةِ تَبوكَ كَلِمةُ سُوءٍ، وماتوا بغَيْظِهم، حتَّى بَقِيَ منهم أناسٌ بعدَ موتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعرِفُهم صاحِبُ السِّرِّ حُذَيفةُ، فلم يكُنْ يُصَلِّي عليهم هو، ولا يُصَلِّي عليهم مَن عرَفَهم بسبَبٍ آخَرَ، مِثلُ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضيَ الله عنه؛ فهذا يفيدُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يحتَمِلُ مِن الكُفَّارِ والمنافقين قبلَ «براءةٌ» ما لم يكُنْ يحتَمِلُ منهم بعدَ ذلك، كما قد كان يحتَمِلُ مِن أذى الكُفَّارِ وهو بمكَّةَ ما لم يكُنْ يحتَمِلُ بدارِ الهِجرةِ والنُّصرةِ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٢٣).

وقال أيضًا: (فحيثُما كان للمُنافِقِ ظُهورٌ وتُخافُ مِن إقامةِ الحَدِّ عليه فتنةٌ أكبَرُ مِن بقائِه، عَمِلْنا بآيةِ: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾، كما أنَّه حيث عَجَزنا عن جهادِ الكُفَّارِ عَمِلْنا بآيةِ الكَفِّ عنهم والصَّفحِ، وحيثما =

كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: أي: واعتَمِدْ -يا مُحمَّدُ- على اللهِ وَحْدَه، في إتمامِ أمرِك، وخذلانِ عدوِّك، وتبليغِ الرِّسالةِ، وفوِّضْ إليه أمورَك كُلَّها فإنَّه يَكْفيكَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

أي: وحسْبُك اللهُ -يا مُحمَّدُ- قائِمًا بأمورِك، وحافِظًا لك(٢).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ إلى أنَّه يجبُ على الدَّاعيةِ أنْ تكونَ دعوتُه إلى اللهِ تعالى لا إلى حَظِّ نفْسِه! فإنَّ هذا وصْفُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ قال بعضُ العلماءِ: (هذه مِن أرجى آيةٍ عندي في كتابِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى أمَرَ نبيَّه أن يُبَشِّرَ

---

= حصَل القوَّةُ والعِزُّ خُوطِبنا بقولِه: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] و[التحريم: ٩]). ((الصارم المسلول)) (ص: ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٠، ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٣).

المؤمِنينَ بأنَّ لهم عندَه فضلًا كبيرًا، وقد بيَّن تعالى الفَضلَ الكبيرَ ما هو في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾[1] [الشورى: ٢٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وُجوبُ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى[2]، وهو اعتِمادُ القلبِ على الرَّبِّ فيما يُنيلُه مِن خَيرٍ، أو يُزيلُه مِن ضُرٍّ، وتَعاطي الأسبابِ -مع تحقيقِ ذلك- لا يَقدَحُ فيه[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ فضيلةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث جَمَعَ اللهُ تعالى له بينَ هذه الأوصافِ العظيمةِ: النُّبُوَّةِ، والرِّسالةِ، والشَّهادةِ، والبِشارَةِ، والإنذارِ، والدَّعوةِ إلى اللهِ تعالى بإذنِه؛ وأنَّه السِّراجُ المنيرُ[4].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ أرسَلَ اللهُ نبيَّه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم داعيًا إليه بإذنِه؛ فمَن دعا إلى غَيرِ اللهِ فقد أشرَكَ، ومَن دعا إليه بغَيرِ إذنِه فقد ابتدَعَ، والشِّركُ بِدعةٌ، والمبتَدِعُ يَؤُولُ إلى الشِّركِ، ولم يُوجَدْ مُبتَدِعٌ إلَّا وفيه نَوعٌ مِن الشِّركِ[5].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ﴾ في قَولِه: ﴿بِإِذۡنِهِۦ﴾ أنَّ دعوةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَبنيَّةٌ على شَرعِ اللهِ تعالى بكيفيَّتِها وفيما يدعو إليه؛ فهو داعٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٢).

(٥) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٧٥).

إلى اللهِ تعالى بإذْنِه، أي: على حَسَبِ أمْرِه، وبشَرعِه، فيدعو إلى سَبيلِ اللهِ تعالى بالحِكمةِ والموعِظةِ الحَسَنةِ، ويجادِلُ بالَّتي هي أحسَنُ، وكذلك يدعو إلى شَرعِ اللهِ تعالى لا يَتجاوزُه(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ سمَّى اللهُ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سِراجًا مُنيرًا، وسمَّى الشَّمسَ سِراجًا وَهَّاجًا في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [النبأ: ١٣]، والسِّراجُ المُنيرُ أكمَلُ مِن السِّراجِ الوهَّاجِ؛ فإنَّ الوهَّاجَ له حَرارةٌ تُؤذي، والمُنيرُ يُهتدَى بنُورِه مِن غيرِ أذًى بوَهَجِه(٢)، وذلك يَقتضي أنَّ الخَلقَ في ظُلمةٍ عَظيمةٍ لا نورَ يُهتدَى به في ظُلُماتِها، ولا علمَ يُستَدَلُّ به في جَهالاتِها، حتَّى جاء اللهُ بهذا النَّبيِّ الكريمِ، فأضاء اللهُ به تلك الظُّلُماتِ، وعَلَّم به مِنَ الجَهالاتِ، وهدى به ضُلَّالًا إلى الصِّراطِ المستقيمِ؛ فأصبح أهلُ الاستِقامةِ قد وَضَح لهم الطَّريقُ، فمَشَوا خَلفَ هذا الإمامِ، وعَرَفوا به الخَيرَ والشَّرَّ، وأهلَ السَّعادةِ مِن أهلِ الشَّقاوةِ، واستناروا به لِمعرفةِ مَعبودِهم، وعَرَفوه بأوصافِه الحميدةِ، وأفعالِه السَّديدةِ، وأحكامِه الرَّشيدةِ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «بَشِّرِ المُسلمينَ»؛ لأنَّ مِن المُسلِمينَ مَن يكونُ إسلامُهم ظاهِرًا، ويكونُ الإيمانُ في قُلوبِهم إمَّا مَفقودًا وإمَّا ضَعيفًا؛ فالَّذين لهم البِشارةُ المُطلَقةُ هم المؤمِنونَ الَّذين وَقَرَ الإيمانُ في قُلوبِهم، وصاروا يُنَفِّذُون مُقتضَى ذلك الإيمانِ؛ ولهذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤]، فالبِشارةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

المُطْلَقةُ لا تكونُ إلَّا للمُؤمِنينَ[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾، فيه أنَّ الجزاءَ على الإيمانِ أكثرُ مما عَمِله العبدُ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَضْلًا كَبِيرًا ﴾، وقولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ﴾؛ فيُؤخَذُ مِن الأمْرَينِ؛ أمَّا وجْهُ أخْذِه مِن الأوَّلِ فلِقَولِه تعالى: ﴿ كَبِيرًا ﴾، والكبيرُ إذا وَصَفَ الشَّيءَ بالكبيرِ فهو كبيرٌ جدًّا، وأمَّا الثَّاني فلأنَّه أضاف الفضلَ إلى اللهِ تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ﴾، وكما قال المَثَلُ: «العَطِيَّةُ على قَدْرِ مُعْطيها»، فإذا كان هذا الفضلُ مِن اللهِ تعالى؛ فإنه سيَكونُ فضلًا لا يَخْطُرُ على البالِ[٢].

٧- في قولِه تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ أنَّه قد يَتَوَجَّهُ النَّهيُ عمَّا لم يُفْعَلْ لئلَّا يُفْعَلَ؛ فإنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما كان يُطيعُهم، لكنَّه نُهِيَ أنْ يُطيعَهم لئلَّا يفعلَ في المُستقبَلِ[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾ يَتبيَّنُ إذا نظرْتَ في الأمورِ الَّتي لأجْلِها لا يكفي الوكيلُ الواحِدُ؛ منها: ألَّا يكونَ قَويًّا قادِرًا على العَمَلِ، كالمَلِكِ الكثيرِ الأشغالِ يَحتاجُ إلى وُكَلاءَ؛ لعَجزِ الواحدِ عن القيامِ بجَميعِ أشغالِه، ومنها: ألَّا يكونَ عالِمًا بما فيه التَّوكيلُ، ومنها: ألَّا يكونَ غنيًّا. واللهُ تعالى عالِمٌ قادِرٌ، وغيرُ مُحتاجٍ؛ فيكفي وكيلًا[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾

- في قولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾ ذكَرَ الله تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٤).

للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هنا خمْسةَ أوصافٍ؛ هي: شاهدٌ، ومُبشِّرٌ، ونَذيرٌ، وداعٍ إلى اللهِ، وسِراجٌ مُنيرٌ؛ فهذه الأوصافُ يَنْطوي إليها وتَنْطوي على مَجامعِ الرِّسالةِ المُحمَّديَّةِ؛ فلذلك اقتُصِرَ عليها مِن بيْنِ أوصافِه الكثيرةِ[١].

- وقُدِّمَت البشارةُ على النِّذارةِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غلَبَ عليه التَّبشيرُ؛ لأنَّه رَحمةٌ للعالَمينَ، ولِكَثرةِ عدَدِ المؤمنينَ في أُمَّتِه[٢].

- قولُه: ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ أشار إلى المبالَغةِ في البِشارةِ بالتَّضعيفِ؛ لِما لها مِن حُسنِ الأثَرِ في إقبالِ المَدْعُوِّ، وللتَّضعيفِ مِن الدَّلالةِ على كثرةِ الفِعلِ والمفعولِ؛ بِشارةً بكثرةِ التَّابعِ، وهو السَّبَبُ لمقصودِ السورةِ، وكانت المُبالَغةُ في النِّذارةِ أزيدَ؛ لأنَّها أبلَغُ في رَدِّ المخالِفِ، وهي المقصودُ بالذَّاتِ مِن الرِّسالةِ؛ لِصُعوبةِ الاجتراءِ عليها[٣].

- وجِيءَ في جانبِ النِّذارةِ بصِيغةِ فَعيلٍ ﴿وَنَذِيرًا﴾ دونَ اسمِ الفاعلِ؛ لإرادةِ الاسمِ؛ فإنَّ (النَّذيرَ) في كلامِهم اسمٌ للمُخبِرِ بحُلولِ العَدُوِّ بديارِ القومِ، فالوصفُ بـ (نَذيرٍ) تَمثيلٌ بحالِ نَذيرِ القومِ، كما قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]؛ للإيماءِ إلى تَحقيقِ ما أنْذَرَهم به حتَّى كأنَّه قد حلَّ بهم، وكأنَّ المُخبِرَ عنه مُخبِرٌ عن أمْرٍ قد وقَعَ، وهذا لا يُؤدِّيه إلَّا اسمُ (النَّذيرِ)؛ ولذلك كثُرَ في القرآنِ الوصفُ بـ (النَّذيرِ)، وقلَّ الوَصفُ بـ (مُنذرٍ)[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٣).

- زِيادةُ ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ في قولِه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ﴾؛ لِيُفيدَ أنَّ اللهَ أرسَلَه داعيًا إليه، ويسَّرَ له الدُّعاءَ إليه، مع ثِقَلِ أمْرِ هذا الدُّعاءِ، وعِظَمِ خَطَرِه، وهو ما كان استَشْعَرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مَبدأِ الوَحْيِ مِن الخشيةِ إلى أنْ أُنزِلَ عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ﴾[1] [المدثر: ١، ٢].

- وأعرَى الدُّعاءَ عن المبالَغةِ؛ لأنَّه شامِلٌ للبِشارةِ والنِّذارةِ، والإخبارِ بالقصَصِ والأمثالِ، ونَصبِ الأحكامِ والحُدودِ؛ والمأمورُ به في كُلِّ ذلك الإبلاغُ بقَدرِ الحاجةِ، بمُبالَغةٍ أو غيرِها[2].

- وقولُه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ بطَريقِ الحاليَّةِ، وهو طَريقٌ جميلٌ، أي: أرسَلْناكَ كالسِّراجِ المُنيرِ في الهِدايةِ الواضحةِ الَّتي لا لَبْسَ فيها، ولا تَترُكُ للباطلِ شُبهةً إلَّا فَضَحتْها، وأوقَفَتِ النَّاسَ على دَخائلِها، كما يُضِيءُ السِّراجُ الوقَّادُ ظُلمةَ المكانِ[3].

- وقيل: التَّشبيهُ الواقعُ في قولِه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ يَحتمِلُ وَجهَينِ؛ أحدُهما: أنْ يكونَ مِن التَّشبيهِ المُركَّبِ العَقليِّ؛ شَبَّهَه سُبحانه وتعالى بالسِّراجِ المُنيرِ في كَونِه جَلَّى به الظَّلْماءَ، وهَدى به الضَّالِّينَ. وثانيها: أنْ يكونَ مِن التَّمثيليِّ؛ وهو أنْ يكونَ الوَجهُ مُنتزَعًا مِن عِدَّةِ أُمورٍ مُتوهَّمةٍ؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ أمَدَّ بنُورِ نُبوَّتِه نورَ البصائرِ، ووَصَفَه بالإنارةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الثَّاني مُفرَّقًا؛ فالمُشبَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٤).

به يكونُ حِسِّيًّا، والمُشبَّهُ عقْليًّا[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ وَصفٌ شاملٌ لِجَميعِ الأوصافِ الَّتي وُصِفَ بها آنفًا؛ فهو كالفَذْلَكةِ[٢] وكالتَّذييلِ[٣]، ووَصْفُ السِّراجِ بـ ﴿مُّنِيرًا﴾، مع أنَّ الإنارةَ مِن لَوازمِ السِّراجِ؛ لأنَّ مِن السِّراجِ ما لا يُضِيءُ إذا قلَّ سَليطُه[٤] ودَقَّت فَتيلتُه، ولإفادةِ قُوَّةِ معنى الاسمِ في المَوصوفِ به الخاصِّ؛ فإنَّ هُدَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو أوضَحُ الهُدى، وإرشادَه أبلَغُ إرشادٍ[٥].

٣- قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾

- (الفضلُ) كنايةٌ عن العطايا الكبيرةِ الثَّوابِ، مِن قولِهم للعطايا: فضولٌ وفَواضلُ، أو المزيدِ على الثَّوابِ، وإذا ذَكَر المُتفضَّلُ به وكَبَّره، فما ظنُّكَ بالثوابِ؟! أو ما فُضِّلوا به على سائرِ الأُممِ، وذلك من جِهتِه تعالى، أو الجَنَّةِ وما أُوتوا فيها[٦].

- قولُه تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يعني: لا مِن غيرِه؛ ولهذا قَدَّمَ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٤٥).

(٢) تقدم تعريفها (ص: ٥١).

(٣) التَّذييلُ: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعدَ تمامِ معناه بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وتلك الزِّيادةُ على ضَربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويُحَقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرَجَ المَثَلِ السَّائرِ؛ لِيَشتهِرَ المعنى؛ لِكَثرةِ دَوَرانِه على الألْسِنةِ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٤) السَّليطُ: الزَّيْتُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٧).

مع أنَّه مُتَعَلِّقٌ بـ﴿فَضْلًا كَبِيرًا﴾[١].

٤- قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ تَهييجٌ له على ما هو عليه مِن مُخالَفتِهم. وقيل: نَهْيٌ عن مُداراتِهم في أمْرِ الدَّعوةِ، واستِعمالِ لِينِ الجانبِ في التَّبليغِ، والمُسامَحةِ في الإنذارِ، كُنِّيَ عن ذلك بالنَّهيِ عن طاعتِهم؛ مُبالَغةً في الزَّجْرِ والتَّنفيرِ عن المَنْهيِّ عنه بنَظْمِه في سِلْكِها، وتَصويرِه بصُورتِها، والنَّهيُ مُستعمَلٌ في مَعنى الدَّوامِ على الانتهاءِ[٢].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ مناسَبةٌ حسَنةٌ، فقد قدَّم الكافرينَ على المنافقينَ، بيْنَما في مواضعَ يُقَدِّمُ المنافقينَ على الكافرينَ؛ ففي مقامِ الجزاءِ يُقَدِّمُ المنافقينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأحزاب: ٧٣]؛ لأنَّ ذَنْبَ المنافِقِ أعظَمُ مِن ذَنْبِ الكافرِ الصَّريحِ، وأمَّا هنا فالَّذي يُعارِضُ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم صراحةً هو الكافرُ؛ ولهذا قَدَّمَهُ على المنافقِ؛ لأنَّ المنافقَ لا يَأْمُرُ بمخالفةِ الشَّرعِ كما يَأْمُرُ بها الكافرُ! إذْ إنه يَتَسَتَّرُ بنِفاقِه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فبدأ بهم؛ لأنَّ مُعارضَتَهم للشَّرعِ أبْيَنُ وأظهرُ مِن المنافقينَ[٣].

- وقولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٢).

فإنَّ اللهَ هو الوكيلُ الكافي في الوكالةِ، أي: المُجْزي مَن تَوكَّلَ عليه ما وَكَّلَه عليه؛ فالباءُ تأكيدٌ(١).

- وإظهارُ الاسمِ الجليلِ في مَوضعِ الإضمارِ؛ لِتَعليلِ الحُكمِ، وتأكيدِ استِقلالِ الاعتراضِ التَّذييليِّ(٢).

- ولَمَّا وصَفَ اللهُ نَبيَّه بخمْسِ صِفاتٍ، قابَلَ كُلًّا منها بخِطابٍ يُناسِبُه، وقد جاءت هذه الجُمَلُ الطَّلبيَّةُ مُقابِلةً وناظرةً للجُمَلِ الإخباريَّةِ مِن قولِه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا﴾ إلى ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]؛ فقولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٤٧] ناظرٌ إلى قولِه: ﴿وَمُبَشِّرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، وقولُه هنا: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ناظرٌ إلى قولِه: ﴿وَنَذِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥]؛ لأنَّه جاء في مُقابَلةِ بِشارةِ المؤمنينَ، وقولُه: ﴿وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ ناظرٌ إلى قولِه: ﴿شَٰهِدٗا﴾. وقيل: لم يُذكَرْ مُقابلُ الشَّاهدِ صَريحًا، وهو الأمرُ بالمُراقبةِ؛ ثِقةً بظُهورِ دَلالةِ مُقابلِ المُبشَّرِ عليهِ، وهو الأمرُ بالتَّبشيرِ. وقولُه: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ ناظرٌ إلى قولِه: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، وأمَّا قولُه: ﴿وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾؛ فلم يُذكَرْ له مُقابِلٌ في هذه المَطالبِ، إلَّا أنَّه لَمَّا كان كالتَّذييلِ للصِّفاتِ ناسَبَ أنْ يُقابِلَه ما هو تَذييلٌ للمَطالِبِ، وهو قولُه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا﴾. وقيل: قُوبِلَ السِّراجُ المُنيرُ بالاكتفاءِ به تعالى؛ فإنَّ مَن أيَّده اللهُ تعالىَ بالقُوَّةِ القُدسيَّةِ، ورشَّحه للنُّبوَّةِ، وجعَلَه بُرهانًا نَيِّرًا يَهدي الخَلْقَ مِن ظُلماتِ الغَيِّ إلى نُورِ الرَّشادِ؛ حَقيقٌ بأنْ يَكْتَفي به عن كلِّ ما سِواهُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٩).

## الآية (٤٩)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾: أي: تَقربوهنَّ وتُجامِعوهنَّ، وأصلُ المسِّ: جَسُّ الشَّيءِ باليدِ[١].

﴿تَعۡتَدُّونَهَا﴾: أي: تُحْصونَها بالأقراءِ والأشهرِ، وتَسْتَوْفونَ عَدَدَها، مِن: عَدَدْتُ الدَّراهِمَ فأنا أعتدُّها، وأصلُ (عدد) هنا: مِن العدِّ الَّذي هو الإحصاءُ[٢].

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾: أي: أعطوهنَّ ما يَستمتِعْنَ به، والمُتعةُ: ما تُعطَى المُطَلَّقةُ لِتَنتفعَ به، وأصلُ (متع): يدُلُّ على منفعةٍ وامتِدادِ مدَّةٍ في خَيرٍ[٣].

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾: أي: أخْلوا سَبيلَهنَّ تخليَةً بالمعروفِ مِن غيرِ ضرارٍ، والتَّسْريحُ: التَّطليقُ، والسَّراحِ هو الطَّلاقُ، والسَّرْحُ: شجرٌ له ثمرٌ، وسَرَّحْتُ الإبلَ، أصلُه: أن تُرْعيَه السَّرْحَ، ثمَّ جُعِل لكلِّ إرسالٍ في الرَّعيِ، وأصلُ (سرح): يدُلُّ على الانطلاقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٥٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٥٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم)) لابن أبي نصر (ص: ٤٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧، ٧٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٧)، ((الغريبين =

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن أحكامِ الزَّواجِ والطَّلاقِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا تزوَّجتُم المؤمِناتِ ثمَّ طلَّقتُموهنَّ مِن قَبلِ الدُّخولِ بهِنَّ؛ فما لكم -أيُّها المؤمِنونَ- عِدَّةٌ تُحصونَها عليهِنَّ؛ فأعطوهنَّ شَيئًا يكونُ مَتاعًا لهنَّ، وخَلُّوا سبيلَهنَّ تَخليةً حَسَنةً بالمعروفِ.

## تَفسيرُ الآيةِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٤٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى قِصَّةَ زَيدٍ وزَينبَ، وتَطليقَه إيَّاها، وكانت مدخولًا بها، واعتدَّت، وخطَبَها الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ انقِضاءِ عِدَّتِها؛ بيَّن حالَ مَن طُلِّقَت قبْلَ المَسيسِ، وأنَّها لا عِدَّةَ عليها[1]، فجاءت هذه الآيةُ تَشريعًا لحُكمِ المطلَّقاتِ قبلَ البناءِ بهنَّ، بمناسَبةِ حُدوثِ طلاقِ زَيدِ بنِ حارِثةَ زَوجَه زينبَ بنتَ جَحشٍ؛ لئلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أنَّ العِدَّةَ مِن آثارِ العَقدِ على المرأةِ، سواءٌ دخل بها الزَّوجُ أم لم يَدخُلْ[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا عقَدْتُم عَقدَ الزَّواجِ على المُؤمِناتِ، ثمَّ طَلَّقتُموهنَّ

---

= في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٨٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٥٩، ٦٠).

قبْلَ أن تُجامِعوهنَّ[١].

كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾[البقرة: ٢٣٦].

﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾.

أي: فما لكم -أيُّها المؤمِنونَ- عِدَّةٌ تُحصونَها عليهنَّ[٢].

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾.

أي: فأعطوهنَّ ما يَستَمتِعنَ به مِن مَتاعِ الدُّنيا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٢٥).

قال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خرجَ مخرجَ الغالبِ؛ إذ لا فَرقَ في الحُكمِ بيْنَ المُؤمِنةِ والكتابيَّةِ في ذلك بالاتِّفاقِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٠، ٦١).

قال ابنُ العربي: (هذه الآيةُ نَصٌّ في أنَّه لا عِدَّةَ على مُطَلَّقةٍ قبْلَ الدُّخولِ، وهو إجماعُ الأمَّةِ؛ لهذه الآيةِ، وإذا دخَل بها فعليها العِدَّةُ إجماعًا). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٨٧).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾: هذا أمرٌ مُجمَعٌ عليه بيْنَ العُلَماءِ: أنَّ المرأةَ إذا طُلِّقَت قبْلَ الدُّخولِ بها: لا عِدَّةَ عليها، فتذهَبُ فتتزوَّجُ في فَورِها مَن شاءت، ولا يُستثنى مِن هذا إلَّا المتوفَّى عنها زوجُها؛ فإنَّها تعتَدُّ منه أربعةَ أشهُرٍ وعَشرًا، وإنْ لم يكُنْ دخل بها، بالإجماعِ أيضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٩).

قال ابنُ عثيمين: (أعطوهنَّ ما يَستمتِعْنَ به مِن الدَّراهمِ، ومِن الثِّيابِ، ومِن المتاعِ، ومِن العَقارِ، ومن أيِّ شَيءٍ؛ فالله عزَّ وجلَّ أطلَقَها، ثمَّ إنها مُطلَقةٌ مِن جهةِ الكَمِّيَّةِ، كما أنَّها مُطلَقةٌ مِن جهةِ النَّوعيَّةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٩). =

كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ۞ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٦، ٢٣٧].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعديِّ وأبي أُسَيدٍ السَّاعديِّ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: ((تزوَّج النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُمَيمةَ بنتَ شَراحِيلَ، فلمَّا أُدخِلَت عليه بسَطَ يَدَه إليها، فكأنَّها كَرِهَت ذلك، فأمَرَ أبا أُسَيدٍ أن يُجَهِّزَها ويَكسوَها ثَوبَينِ رازِقِيَّينِ[(١)])))[(٢)].

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾.

أي: وأخلُوا سَبيلَهنَّ تَخليةً حَسَنةً[(٣)].

---

= ثمَّ قال: (ويُستثنى مِن ذلك مَن سُمِّي لها مَهرٌ؛ فإنَّ مَن سُمِّي لها مَهرٌ لا يجِبُ لها إلَّا نِصفُه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٠).

(١) الرَّازِقيَّة: ثيابٌ مِن كَتَّانٍ بِيضٌ طِوالٌ. وقيل: يكونُ في داخِلِ بَياضِها زُرْقةٌ، والرَّازِقيُّ: الصَّفيقُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٣٥٩).

(٢) رواه البخاري (٥٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٠، ٣٦١).

قيل: المرادُ بالسَّراحِ الجَميلِ هنا: أي بدُونِ أذًى ولا إضرارٍ ولا منْعِ حقٍّ. وممَّن اختاره في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي، والبيضاوي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٤)، =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ يدُلُّ على أنَّه ينبغي لِمن فارقَ زوجتَه قبلَ الدُّخولِ أو بعْدَه: أن يكونَ الفِراقُ جَميلًا، يَحمَدُ فيه كُلٌّ منهما الآخَرَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ التَّكنِيةُ عمَّا يُستَحْيا مِن ذِكرِه[٢]، فقولُه: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: تجامِعوهنَّ، أطلَق المَسَّ على الجِماعِ؛ لأنَّه طريقٌ له[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ ...﴾ أهمِّيَّةُ النِّكاحِ والطَّلاقِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَدَّرَه بالنِّداءِ الَّذي يُطْلَبُ به تَنَبُّه المنادَى لِمَا سيُلْقَى عليه، وتصديرُ الخِطابِ بمثلِ هذه النِّداءِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ يدُلُّ على أنَّ التِزامَ أحكامِ الشَّريعةِ في النِّكاحِ والطَّلاقِ هو مِن مقتضياتِ الإيمانِ[٤].

---

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٢).

وقال الرازي: (الجمالُ فِي التَّسريحِ ألَّا يُطالِبَها بما آتاها). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٥).

وقال البِقاعي: (﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ بالإحسانِ قولًا وفعلًا، مِن غيرِ ضِرارٍ بوجْهٍ أصلًا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٧٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٠، ٣٦١).

وفي معناه أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٤، ٢٠٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أَمَر بتَسريحِهنَّ بعدَ الطَّلاقِ قبْلَ الدُّخولِ، وهو طلاقٌ بائنٌ لا رَجعةَ فيه، وليس التَّسريحُ هنا تطليقًا باتِّفاقِ المُسلِمينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ٥٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ فيها أحكامٌ كَثيرةٌ؛ منها: إطلاقُ النِّكاحِ على العَقدِ وحْدَه، وليس في القُرآنِ آيةٌ أصرَحُ في ذلك منها، واستِعمالُ القُرآنِ إنَّما هو في العَقدِ والوَطءِ بعْدَه إلَّا في هذه الآيةِ؛ فإنَّه استُعمِلَ في العَقدِ وحْدَه؛ لِقَولِه: ﴿إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾، وفيها دَلالةٌ لإباحةِ طَلاقِ المرأةِ قبْلَ الدُّخولِ بها[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾، فيه سؤالٌ: لِمَ خَصَّ المُطَلَّقاتِ اللَّاتي طُلِّقنَ قبْلَ المَسيسِ بالذِّكرِ؟

**الجوابُ**: هذا إرشادٌ إلى أعلى دَرَجاتِ المَكرُماتِ؛ لِيُعلَمَ منها ما دُونَها، وبيانُه هو أنَّ المرأةَ إذا طُلِّقَت قبْلَ المَسيسِ لم يَحصُلْ بيْنَهما تأكُّدُ العَهدِ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى في حَقِّ الممسوسةِ: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [النساء: ٢١]، وإذا أمر اللهُ بالتَّمَتُّعِ والإحسانِ مع مَن لا مَوَدَّةَ بيْنَه وبيْنَها، فما ظَنُّك بمَن حصَلَت المودَّةُ بالنِّسبةِ إليها بالإفضاءِ، أو حصَل تأكُّدُها بحُصولِ الوَلَدِ بيْنَهما[2]؟!

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ يدُلُّ على جوازِ الطَّلاقِ؛ لأنَّ الله أخبَر به عن المؤمنينَ على وجهٍ لم يَلُمْهم عليه، ولم يؤنِّبْهم، مع تصديرِ الآيةِ بخِطابِ المؤمنينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ دَليلٌ على أنْ لا طلاقَ قبْلَ نِكاحٍ، وأنَّ مَن طَلَّقَ قبْلَ النِّكاحِ فليس بطَلاقٍ[1]، وأنَّ تعليقَ الطَّلاقِ بالنِّكاحِ لا يَصِحُّ؛ لأنَّ التَّطليقَ حينَئذٍ لا يكونُ إلَّا بعدَ النِّكاحِ، واللهُ تعالى ذكَرَه بكَلِمةِ (ثُمَّ)، وهي للتَّراخي[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أنَّه لا إيلاءَ ولا ظِهارَ ولا تحريمَ على امرأةٍ إلَّا بعدَ النِّكاحِ؛ لأنَّه إذا كان الطَّلاقُ -وهو أعظمُ فُرْقةً مِن الظِّهار والإيلاءِ وما أشبهَه- لا يكونُ إلَّا بعدَ النِّكاحِ؛ فكذلك ما دونه، إلَّا أنَّ التحريمَ إذا حَرَّمَ الرَّجُلُ امرأةً مُعَيَّنةً ثمَّ تزَوَّجها بعدَ ذلك؛ فإنَّ عليه كفَّارةَ يمينٍ، وكذلك الظِّهَارُ إذا قَصَدَ به التَّحريمَ وظاهَرَ مِن امرأةٍ قبْلَ أنْ يَتزوَّجَها؛ فإنَّ عليه كفَّارةَ يمينٍ، وليس عليه كفَّارةُ ظِهارٍ؛ لأنَّ الظِّهارَ لا يصِحُّ إلَّا مِن زوجةٍ[3].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾، في قَولِه: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أنَّ المُعتدَّةَ مِن وفاةٍ عليها العِدَّةُ مُطلقًا وإنْ لم يُدْخَلْ بها، فجَعَلَ اللهُ تعالى هذا الحُكمَ في الطَّلاقِ؛ فيبقى قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤] على إطلاقِه: أنَّ المتوفَّى عنها زَوْجُها تَجِبُ عليها العِدَّةُ، وإنْ لم يُدخَلْ بها[4].

٨- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ في قَولِه: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ أنَّ الطَّلاقَ بيدِ الزَّوجِ، فلا يَمْلِكُ الأبُ ولا الجَدُّ ولا

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦٤).

العَمُّ ولا الخالُ ولا غيرُهم أنْ يُطَلِّقُوا على الإنسانِ[١].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ يدُلُّ على جوازِ الطَّلاقِ قبْلَ المسيسِ، كما قال في الآيةِ الأُخرَى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ﴾[٢] [البقرة: ٢٣٦].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ﴾ بيَّن أنَّ العِدَّةَ حَقُّ الزَّوجِ فيها غالبٌ، وإن كان لا يَسقُطُ بإسقاطِه؛ لِما فيه مِن حَقِّ اللهِ تعالى[٣]؛ لأنَّ ما تتضَمَّنُه العِدَّةُ مِن حِفظِ النَّسَبِ مَقصدٌ مِن أصولِ مقاصدِ التَّشريعِ، فلا يسقطُ بالإسقاطِ، فالإسنادُ إلى الرِّجالِ في ﴿طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ و﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ العِدَّةَ حقُّ الأزواجِ، كما أشعَرَ به ﴿فَمَا لَكُمۡ﴾؛ لأنَّ المَقصدَ منها راجعٌ إلى نفْعِ الأزواجِ بحِفْظِ أنسابِهم، ولأنَّهم يَملِكُونَ مُراجعةَ الأزواجِ ما دُمْنَ في مُدَّةِ العِدَّةِ[٤].

١١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ في قَولِه: ﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ أنَّه لا عِدَّةَ لغيرِ المُطلَّقةِ؛ كالمَفسوخةِ بخُلعٍ أو غَيرِه[٥].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ يدُلُّ على أنَّ المطلَّقةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩١)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٥).

قبْلَ الدُّخولِ لا عِدَّةَ عليها، بل بمجرَّدِ طَلاقِها يجوزُ لها التَّزوُّجُ؛ حيث لا مانِعَ، وعلى أنَّ عليها العِدَّةَ إذا كان طلاقُها بعدَ الدُّخولِ(١).

١٣- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ قَولُه: ﴿تَعۡتَدُّونَهَا﴾ فيه دليلٌ على أنَّ مِن شأنِ الأزواجِ أنْ يَعْتَدُّوا عِدَّةَ أزواجِهنَّ؛ وأنْ يُحْصُوها ويُراقِبوها ويَعتنوا بها؛ لأنَّها فراشٌ له ما دامتْ في العِدَّةِ، إذا كانت رجعيَّةً(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ وُجوبُ المُتْعَةِ على مَن طَلَّق قبْلَ الدخولِ، وهذا مُقَيَّدٌ بالآيةِ الأخرى -وهي ما إذا فَرَضَ لها فريضةً-، فإنَّها إذا فَرَضَ لها مهرًا؛ فليس عليه إلَّا نصفُ المَهْرِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدۡ فَرَضۡتُمۡ لَهُنَّ فَرِيضَةٗ فَنِصۡفُ مَا فَرَضۡتُمۡ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾(٣) [البقرة: ٢٣٧].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ رَحمةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بعِبادِه وخَلقِه؛ حيث أوجَبَ المُتعةَ على مَن طُلِّقَت قبْلَ الدُّخولِ؛ وَجهُ ذلك: أنَّ فيه جَبرًا لخاطِرِها، وإزالةً لِلْهَمِّ والغَمِّ الَّذي اعتراها بعدَ الطَّلاقِ(٤).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ الجَمعُ بيْنَ الإحسانِ الماليِّ والفِعليِّ؛ فقَولُه تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ هذا الإحسانُ الماليُّ، وقولُه تعالى: ﴿سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ هذا الإحسانُ الفِعليُّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦٥).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ وُجوبُ التَّسريحِ الجَميلِ في المُفارقةِ[١].

## بلاغةُ الآيةِ:

- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا﴾ خصَّ المُؤمناتِ بالذِّكرِ -معَ أنَّ الحُكمَ الَّذي نطَقَتْ به الآيةُ تَسْتوي فيه المؤمناتُ والكتابيَّاتُ-؛ لأنَّ في اختِصاصِهنَّ تَنْبيهًا على أنَّ أصلَ أمْرِ المؤمنِ والأَولى به أنْ يَتخيَّرَ لنُطفتِه، وألَّا يَنكِحَ إلَّا مُؤمنةً عفيفةً، ويَتنزَّهَ عن مُزاوجَةِ الفواسقِ، فما بالُ الكوافرِ؟! ويَستنكِفَ أنْ يُدخِلَ تحتَ لِحافٍ واحدٍ عَدُوَّةَ اللهِ ووَلِيَّه[٢]. وقيل: تَعليقُ الحُكم في العِدَّةِ بالمؤمناتِ جَرَى على الغالِبِ؛ لأنَّ نِساءَ المؤمنينَ يَومَئذٍ لم يَكُنَّ إلَّا مُؤمناتٍ، وليس فيهنَّ كِتابيَّاتٌ[٣].

- وأفادَتْ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ﴾ نَفْيَ التَّوهُّمِ عمَّن عَسى أنْ يَتوهَّمَ تَفاوُتَ الحُكمِ بيْنَ أنْ يُطلِّقَها وهي قَريبةُ العهْدِ مِن النِّكاحِ، وبيْنَ أنْ يَبعُدَ عَهدُها بالنِّكاحِ، ويَتراخَى بها المُدَّةُ في حِبالةِ الزَّواجِ، ثمَّ يُطلِّقَها[٤]. لذا لم يَقُلْ سُبحانَه: «وطلَّقتُموهنَّ» أو «فطلَّقتُموهنَّ»؛ لِيتَبيَّنَ به أنَّه لو تأخَّرَ الطَّلاقُ عن العَقدِ مُدَّةً طويلةً فالحُكمُ لا يَتغيَّرُ، كما أنَّه لو طَلَّقَها مُباشَرةً فالحُكمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٩).

لا يَتغيَّرُ أيضًا[١].

- قولُه: ﴿مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ المَسُّ والمسيسُ كِنايةٌ عن الوَطْءِ، كما سُمِّيَ مُلامَسةً في قولِه: ﴿أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾[٢] [النساء: ٤٣].

- ولَمَّا كانت العِدَّةُ واجبةً، عبَّر بأداةِ الاستِعلاءِ، فقال: ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾[٣].

- وأفادَتْ (مِن) في قولِه: ﴿فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَا﴾ العُمومَ؛ لِدُخولِها على النَّكرةِ المَنفيَّةِ، أي: فما لكمْ عليهنَّ مِن جِنسِ العِدَّةِ[٤].

- قوله: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ قيل: لم يصرِّحْ بأنَّ ذلك لغيرِ مَن سمَّى لها؛ لِتَدخُلَ المسمَّى لها في الكلامِ على طريقِ النَّدبِ، معَ ما لها مِن نِصفِ المُسَمَّى، كما دخَلتِ الأُولَى وجوبًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٧).

## الآيات (٥٠-٥٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾ ۞ تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبۡتَغَيۡتَ مِمَّنۡ عَزَلۡتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكَۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا ﴿٥٢﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾: أي: رجَعَه ورَدَّه إليك مِن الكُفَّارِ بأن سَبَيْتَه ومَلَكْتَه، والفَيءُ هو: ما ناله المُسلِمونَ مِن العَدُوِّ بغيرِ قِتالٍ، وأصلُ (فيأ): يدُلُّ على الرُّجوعِ[1].

﴿تُرۡجِي﴾: أي: تُؤخِّرُ، وأصلُ (رجأ): يدُلُّ على التَّأخيرِ[2].

﴿وَتُـٔۡوِيٓ﴾: أي: تَضُمُّ، وأصلُ (أوي): يدُلُّ على تجَمُّعٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٣٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣).

﴿عَزَلْتَ﴾: أي: تَركْتَ وأخَّرْتَ، وأصلُ (عزل): يدُلُّ على تَنحيةٍ وإمالةٍ[١].

﴿أَدْنَىٰٓ﴾: أي: أقرَبُ، وأصلُ الدُّنوِّ: القُربُ[٢].

﴿تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾: أي: تَطِيبُ نَفْوسُهُنَّ، قيل: أصلُه مِن القُرِّ، أي: البَردِ، فَقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه: بردَتْ فصحَّتْ، وقيل: بل لأنَّ للسُّرورِ دمعةً باردةً قارَّةً، وقيل: هو مِن القرارِ[٣].

﴿رَّقِيبًا﴾: أي: حافظًا، عالِمًا، مُطَّلِعًا، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتِصابٍ لمُراعاةِ شَيءٍ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن مظاهرِ فضلِه على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ وتكريمِه له: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أحلَلْنا لك أزواجَك اللَّاتي آتيتَهنَّ مُهورَهنَّ، وما ملَكَت يمينُك مِمَّا نِلْتَه مِن الكُفَّارِ، وبناتِ عَمِّك وبناتِ عمَّاتِك، وبناتِ خالِك وبناتِ خالاتِك؛ اللَّاتي هاجَرْنَ معك مِن مكَّةَ إلى المدينةِ، وامرأةً مُؤمِنةً إنْ وهَبَت نفْسَها لك لِتتزَوَّجَها بغيرِ مَهرٍ، فقبِلْتَ الزَّواجَ بها، وذلك خاصٌّ بك، ولا يحِلُّ ذلك لأحدٍ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠، ٣٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٣، ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

مِن أُمَّتِك؛ فليس لغيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَستبيحَ وَطْءَ امرأةٍ بلَفظِ الهِبةِ مِن غَيرِ وَليٍّ ولا مَهرٍ.

قد عَلِمْنا ما أوجَبْنا على المؤمِنينَ في الزَّواجِ مِن الأحكامِ: ألَّا يتزوَّجوا أكثَرَ مِن أربَعٍ، ولا يتزوَّجوا إلَّا بوليٍّ وشُهودٍ ومَهرٍ، ولهم مِلكُ ما شاؤوا مِنَ الإماءِ.

وسَّعْنا عليك في أمرِ الزَّواجِ بالنِّساءِ -يا محمَّدُ- لكيلا يكونَ عليك إثمٌ وضِيقٌ في نِكاحِهنَّ، وكان اللهُ غَفورًا رحيمًا.

تُؤخِّرُ -يا محمَّدُ- مَن أُحِلَّ لك مِن النِّساءِ، وتَضُمُّ إليك مَن تشاءُ مِنهُنَّ، وإن أردْتَ أن تُؤويَ إليك امرأةً مِمَّن عزلْتَهنَّ وأخَّرْتَهنَّ مِن القِسمةِ، وتَضُمَّها إليك؛ فلا جُناحَ عليك؛ ذلك -يا محمَّدُ- أقرَبُ لِأن يَفرَحْنَ ولا يحزَنَّ، ويَرضَينَ بما أعطيتَهنَّ كُلُّهنَّ، واللهُ يعلَمُ ما في قُلوبِكم مِن أمرِ النِّساءِ والمَيلِ إلى بَعضِهنَّ، وكان اللهُ عليمًا بخَلقِه، حَليمًا فلا يُعاجِلُهم بالمؤاخَذةِ على ذنوبِهم.

لا يَحِلُّ لك -يا محمَّدُ- الزَّواجُ بالنِّساءِ مِن بَعْدُ، ولا أن تُطَلِّقَ واحِدةً مِن أزواجِك لِتتزوَّجَ بأُخرَى ولو أعجَبك جمالُها، إلَّا ما ملكَتْ يمينُك مِن الإماءِ؛ فإنَّهنَّ حَلالٌ لك، وكان اللهُ على كُلِّ شَيءٍ حافِظًا ومُراقِبًا.

## تفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان النَّبيُّ أَولى بالمؤمِنينَ مِن أنفُسِهم، وكان المرادُ الأعظَمُ في هذه الآياتِ بَيانَ ما شَرَّفه اللهُ به من ذلك؛ أَتْبَعَ ما بيَّن أنَّه لا عِدَّةَ فيه مِن نكاحِ المؤمِنينَ، وما حَرَّمه عليهم مِنَ التَّضييقِ على الزَّوجاتِ المطَلَّقاتِ- بعضَ ما شَرَّفه اللهُ تعالى به وخَصَّه مِن أمرِ التَّوسِعةِ في النِّكاحِ، وختَمَه بأنَّ أزواجَه لا تحِلُّ بعْدَه[1].

وأيضًا لَمَّا خاض المنافِقونَ في تزوُّجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ زينبَ بنتَ جَحشٍ، وقالوا: (تزوَّجَ مَن كانت حليلةَ مُتبَنَّاه)، أراد اللهُ أن يجمَعَ في هذه الآيةِ مَن يَحِلُّ للنَّبيِّ تزوُّجُهنَّ؛ حتَّى لا يقَعَ النَّاسُ في تردُّدٍ، ولا يفتِنَهم المُرجِفونَ[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أحلَلْنا لك أزواجَك اللَّاتي آتيتَهنَّ مُهورَهنَّ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩).

قال ابنُ جُزَي: (في معناها قولانِ؛ أحدُهما: أنَّ المرادَ أزواجُه اللَّاتي في عِصمتِه حينَئذٍ؛ كعائشةَ وغَيرِها، وكان قد أعطاهنَّ مُهورَهنَّ، والآخَرُ: أنَّ المرادَ جميعُ النِّساءِ، فأباح اللهُ له أن يتزوَّجَ كُلَّ امرأةٍ يُعطى مَهرُها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٤).

ونسَب القرطبيُّ القولَ الأوَّلَ للجمهورِ، وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٦)، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٦، ٣٦٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: القرطبيُّ، وعلى هذا القَولِ يكونُ هذا الإحلالُ ناسِخًا للتَّحريم في قَولِه تعالى: ﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ ﴾، وتكونُ هذه الآيةُ وإن كانت مُقَدَّمةً في التِّلاوةِ، متأخِّرةَ النُّزولِ عن الآيةِ المنسوخةِ بها، كآيَتَي الوفاةِ في سورةِ البقرةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٦). =

﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾.

أي: وأحلَلْنا لك النِّساءَ اللَّاتي مَلَكْتَهنَّ ممَّا نِلْتَه مِنَ الكُفَّارِ[1].

﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾.

أي: وأحلَلْنا لك بناتِ عَمِّك وبناتِ عمَّاتِك، وبناتِ خالِك وبناتِ خالاتِك؛ اللَّاتي هاجَرْنَ مِن مكَّةَ إلى المدينةِ كما فعَلْتَ[2].

---

= وممَّن قال بهذا القول مِن السَّلفِ: ابنُ زيد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٠).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّه بناءً على هذا القول: (يجبُ أن نؤوِّلَ الفِعلَ الماضيَ بالفعلِ المضارعِ؛ يعني: اللَّاتي تؤتي أجورَهنَّ. وهذا خِلافُ ظاهرِ الآيةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٤).

قيل: معنى ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾: ممَّا رَدَّه اللهُ عليك مِن الكُفَّارِ بالغنيمةِ لنِسائِهم المأخوذاتِ على وَجهِ القَهرِ والغَلَبةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٨، ٣٦٩).

قال الشوكاني: (وليس المرادُ بهذا القيدِ إخراجَ ما ملَكَه بغيرِ الغَنيمةِ؛ فإنَّها تحِلُّ له السُّرِّيَّةُ المشتراةُ والموهوبةُ ونحوُهما، ولكِنَّه إشارةٌ إلى ما هو أفضَلُ، كالقَيدِ الأوَّلِ المصَرِّحِ بإيتاءِ الأجورِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٥).

وقيل: الفَيءُ هو: ما ناله المسلِمونَ مِن العدُوِّ بغيرِ قتالٍ، ولكِنْ تركَه العدوُّ، أو ممَّا أُعطيَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِثلُ: ماريَّةَ القِبطيَّةِ أمِّ ابنِه إبراهيمَ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٤، ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩).

قال ابنُ عاشور: (بناتُ عَمِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هنَّ بناتُ إخوةِ أبيه، مِثلُ: بناتِ العبَّاسِ، وبناتِ أبي طالبٍ، وبناتِ أبي لهبٍ؛ وأمَّا بناتُ حمزةَ فإنَّهنَّ بناتُ أخٍ مِن الرَّضاعةِ لا يَحلِلْنَ له. وبناتُ عَمَّاتِه: هنَّ بناتُ [بنات] عبدِ المطَّلِب، مثلُ: زينبَ بنتِ جَحشٍ الَّتي هي بنتُ أُميمةَ =

﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن ما هو الأشرَفُ مِن النِّكاحِ؛ لِكَونِه الأصلَ، وأتبَعَه سُبحانَه ما خَصَّ به شَرْعَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ المَغنَمِ الَّذي تولَّى سُبحانَه إباحتَه؛ أتْبَعَه ما جاءت إباحتُه مِن جهةِ المُبيحِ؛ إعلامًا بأنَّه ليس مِن نَوعِ الصَّدَقةِ الَّتي نزَّهَ عنها قَدْرَه، فقال[1]:

---

= بنتِ عبدِ المطَّلِبِ، وبناتُ خالِه هنَّ بناتُ عبدِ مَنافِ بنِ زُهرةَ، ومِن أخوالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: عبدُ يَغوثَ بنُ وهبٍ أخو آمِنةَ، ولم يَذكُروا أنَّ له بناتٍ... وقد ذَكَر في «الإصابةِ» فُرَيعةَ بنتَ وَهبٍ، وذكروا هالةَ بنتَ وَهبٍ الزُّهْريةَ إلَّا أنَّها لِكَونِها زَوجةَ عبدِ المطَّلِبِ، وابنتُها صَفيَّةُ عَمَّةُ رَسولِ اللهِ: فقد دخَلَت مِن قبْلُ في بناتِ عَمِّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٦). ويُنظر: ((الإصابة في تمييز الصحابة)) لابن حجر (٨/ ٢١٣، ٢٨١).

وقال الماتُريدي: (لم يفهَمْ أحدٌ مِن قَولِه: ﴿هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ الهِجرةَ معه حتَّى لا يتقدَّمنَ ولا يتأخَّرْنَ، بل دخَل في قَولِه: ﴿مَعَكَ﴾ مَن هاجرَ منهنَّ مِن قَبلُ ومِن بَعدُ. والله أعلمُ). ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٠٢). وممَّن قال بهذا المعنى أيضًا: السمرقندي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧١).

قيل: قَيْدُ المُهاجَرةِ غَيرُ مَقصودٍ لِذَاتِه، وإنَّما المرادُ بيانُ شَرَفِهنَّ وشَرَفِ الهِجرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: البِقاعي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٥).

قال البِقاعي: (لم يُرِدْ بذلك التَّقييدَ، بل التَّنبيهَ على الشَّرَفِ، وإشارةً إلى أنَّه سَبَق في عِلمِه سُبحانَه أنَّه لا يَقَعُ له أن يتزوَّجَ مَن هي خارجةٌ عن هذه الأوصافِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٨١).

وقيل: قَيدُ الهِجرةِ مُعتَبَرٌ، فلا تحِلُّ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ امرأةٌ لم تهاجِرْ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨١).

﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾.

أي: وأحلَّ اللهُ لك -يا مُحمَّدُ- الزَّواجَ مِن أيِّ امرأةٍ مُؤمِنةٍ إذا وهَبَت نَفسَها لكَ لِتتزوَّجَها بغيرِ مَهرٍ، فقَبِلْتَ الزَّواجَ بها[1].

عن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاءت امرأةٌ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: يا رَسولَ اللهِ، إنِّي قد وهَبْتُ لك مِن نَفْسي. فقال رجُلٌ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٧ - ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧١، ٣٧٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أحلَّ سُبحانَه لِنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن النِّساءِ أجناسًا أربعةً، ولم يجعَلْ خالِصًا له مِن دونِ المؤمِنينَ إلَّا الموهوبةَ الَّتي تهَبُ نَفْسَها للنَّبيِّ، فجعَل هذه مِن خصائِصِه؛ له أن يتزوَّجَ الموهوبةَ بلا مَهرٍ، وليس هذا لغيرِه، باتِّفاقِ المسلِمينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٣٢/ ٦٢).

وقال ابنُ القيِّم: (قولُه تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ الهِبةُ شَرطًا، ويكونَ فِعلُ الإرادةِ جوابًا له، ويكونَ التَّقديرُ: إنْ وهَبَت نفْسَها للنَّبيِّ، فإن أراد النبيُّ أن يَستَنكِحَها فخالِصةٌ له، ويحتَمِلُ أن تكونَ الإرادةُ شَرطًا والهِبةُ جوابًا له، والتَّقديرُ: إن أراد النَّبيُّ أن يَستَنكِحَها فإن وهَبَت نفْسَها فهي خالِصةٌ له. يحتَمِلُ الأمْرَينِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٦٠).

وقال ابن عثيمين: (قال تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ وهذا الشَّرطُ داخِلٌ في الشَّرطِ الأوَّلِ، وقد عُلِمَ أنَّ الشَّرطَ الثَّانيَ قَيدٌ في الشَّرطِ الأوَّلِ؛ فهو متأخِّرٌ لفظًا متقدِّمٌ معنًى، وكلَّما تداخَلت الشُّروطُ فاجعَلِ الشَّرطَ الأخيرَ قَيدًا فيما قَبْلَه... وهنا قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ﴾ الإرادةُ تَسبِقُ الحِلَّ والقَبولَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧٢).

قيل: النِّسوةُ اللَّاتي وهَبْنَ أنفُسَهنَّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أربعٌ؛ هُنَّ: ميمونةُ بنتُ الحارثِ، وزينبُ بنتُ خُزيمةَ الأنصاريَّةُ الملقَّبةُ أمَّ المساكينِ، وأمُّ شَريكٍ بنتُ جابرٍ الأسَديَّةُ أو العامريَّةُ، وخَولةُ بنتُ حكيمٍ السُّلَميَّةُ؛ فأمَّا الأُولَيانِ فتزوَّجَهما النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهما مِن أمَّهاتِ المؤمنينَ، والأُخرَيان لم يَتزوَّجْهما، وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٨).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٣١٥).

زوِّجْنيها. قال: قد زوَّجْناكها بما معك مِن القُرآنِ))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (كنتُ أغارُ على اللَّاتي وهَبْنَ أنفُسَهنَّ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأقولُ: أتهَبُ المرأةُ نَفْسَها؟! فلمَّا أنزل اللهُ تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قلتُ: ما أرى رَبَّك إلَّا يُسارِعُ في هواك[٢]!)[٣].

وعن ثابتٍ البُنانيِّ، قال: (كنتُ عندَ أنسٍ وعِندَه ابنةٌ له. قال أنَسٌ: جاءت امرأةٌ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعرِضُ عليه نَفْسَها، قالت: يا رَسولَ اللهِ، ألكَ بي حاجةٌ؟ فقالت بنتُ أنسٍ: ما أقَلَّ حياءَها! واسَوْأَتاهْ واسَوأَتاهْ[٤]! قال: هي خيرٌ منك؛ رَغِبَتْ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعَرَضَت عليه نَفْسَها)[٥].

﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: أحلَّ اللهُ لك -يا محمَّدُ- خاصَّةً تزوُّجَ مَن وَهَبَت نفْسَها لك، بلا مَهرٍ ولا وَليٍّ، ولا يحِلُّ ذلك لأحَدٍ مِن أمَّتِك[٦].

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾.

أي: قد عَلِمْنا ما أوجَبْنا على المؤمِنينَ في الزَّواجِ، وعَلِمْنا أنَّ المصلحةَ تَقتَضي

---

(١) رواه البخاري (٢٣١٠) واللفظ له، ومسلم (١٤٢٥).

(٢) أي: يخفِّفُ عنك، ويوسِّعُ عليك في الأمورِ؛ ولهذا خيَّرَك. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٤٩).

(٣) رواه البخاري (٤٧٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٤).

(٤) السوءة: الفعلةُ القبيحةُ، والألِفُ للنُّدبةِ، والهاءُ للسَّكتِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ١٧٥).

(٥) رواه البخاري (٥١٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٢، ١٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٨، ٧٠).

ما شرَعْناه؛ فلا يكونُ إلَّا بمَهرٍ ووَليٍّ وشُهودٍ عُدولٍ، ولا يحِلُّ لهم أكثَرُ مِن أربَعِ زَوجاتٍ، ولهم مِلكُ ما شاؤوا مِنَ النِّساءِ بالسَّبْيِ، أو التَّسَرِّي، أو غيرِ ذلك مِن أسبابِ المِلْكِ[1].

﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾.

أي: وسَّعْنا عليك في أمرِ الزَّواجِ بالنِّساءِ -يا مُحمَّدُ-؛ لكيلا يكونَ عليك إثمٌ وضِيقٌ في نِكاحِهنَّ[2].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالمَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٨، ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧٥، ٣٧٦).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ المؤمنينَ مُستَمِرٌّ ما شُرِعَ لهم مِن قَبلُ في أحكامِ الأزواجِ وما ملَكَت أيمانُهم؛ فلا يَشمَلُهم ما عُيِّنَ لك مِن الأحكامِ الخاصَّةِ المَشروعةِ فيما تقَدَّمَ آنِفًا، أي: قد عَلِمْنا أنَّ ما فرَضْناه عليهم في ذلك هو اللَّائِقُ بحالِ عُمومِ الأمَّةِ دونَ ما فرَضْناه لك خاصَّةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨٤، ٣٨٥).

قيل: قَولُه تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ تعليلٌ لِقَولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ...﴾ الآيةَ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٤).

وقيل: هو تعليلٌ لِقَولِه تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وممَّن قال بهذا: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨٤).

ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، ومُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالرَّحمةِ بعبادِه، فيُحسِنُ إليهم ويُنعِمُ عليهم مِن فَضلِه[١].

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه أحَلَّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما ذُكِر مِنَ الأزواجِ؛ بيَّنَ أنَّه أحلَّ له وُجوهَ المُعاشَرةِ بهِنَّ كيفَ يَشاءُ، ولا يجِبُ عليه القَسْمُ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى هاتين الصِّفَتينِ ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾؛ أتْبَعَهما ما خفَّفَه عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أمرِهنَّ؛ إكرامًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّا كان مِن شأنِه أن يتحَمَّلَ فيه، ويتحَرَّجَ عن فِعلِه[٣]؛ فهو مِن توسِعةِ اللهِ على رَسولِه ورَحمتِه به؛ أنْ أباح له تَرْكَ القَسْمِ بينَ زوجاتِه على وَجهِ الوُجوبِ[٤].

﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾.

أي: تُؤخِّرُ -يا مُحمَّدُ- مَن أُحِلَّ لك مِنَ النِّساءِ، وتَضُمُّ إليك مَن تَشاءُ مِنهُنَّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٣، ٣٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٢ - ٧٤). =

= قيل: المعنى المرادُ: هو أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مُخيَّرًا في أزواجِه؛ إن شاء أن يَقسِمَ قَسَم، وإن شاء أن يترُكَ القَسْمَ تَرَك. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ العربي، والقرطبيُّ، والسعديُّ، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى أكثَرِ العلماءِ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) ((٣/ ٤٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، والحسَنُ، وقَتادةُ، وأبو رَزِينٍ، والضَّحَّاكُ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٦).

وقيل: المرادُ: تؤخِّرُ مَن تشاءُ مِن الواهباتِ أنفُسَهنَّ، ومَن شِئتَ قَبِلْتَها، ومَن شِئتَ رَدَدْتَها، ومَن ردَدْتَها فأنت فيها أيضًا بالخيارِ بعدَ ذلك، إنْ شِئتَ عُدْتَ إليها فآوَيْتَها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٥، ٤٤٦).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى العُمومِ في الواهباتِ وفي النِّساءِ اللَّاتي عندَه: أنَّه مُخَيَّرٌ فيهِنَّ؛ إن شاء قسَمَ، وإن شاء لم يَقسِمْ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٣).

واستحسَنَ ابنُ كثيرٍ اختيارَ ابنِ جريرٍ، فقال: (اختار ابنُ جريرٍ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في الواهباتِ وفي النِّساءِ اللَّاتي عندَه: أنَّه مُخَيَّرٌ فيهِنَّ؛ إن شاء قسَمَ، وإن شاء لم يَقسِمْ، وهذا الَّذي اختاره حَسَنٌ جَيِّدٌ قَوِيٌّ، وفيه جمعٌ بيْنَ الأحاديثِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٤، ٣٩٥).

وذهب ابنُ عاشور إلى أن ضمير ﴿مِنْهُنَّ﴾ عائدٌ إلى النِّساءِ المذكوراتِ: أمَّا مَن هنَّ في عصمتِه، فإرجاؤُهنَّ ينصرِفُ إلى القَسْمِ. وأمَّا مَلَكَتْ يمينُه فإرجاؤُهنَّ هو حكمٌ أصليٌّ إذ لا يجبُ للإماءِ عدلٌ في المعاشرةِ ولا في المبيتِ.

وأمَّا مَن أحلَّ الله له نكاحَهنَّ غيرَهنَّ مِن بناتِ عمِّه وعمَّاتِه وخالِه وخالاتِه، فإرجاؤُهنَّ تأخيرُ تزوُّجِ مَن يَحِلُّ منهنَّ، وإيواؤُهنَّ العقدُ على إحداهنَّ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يتزَوَّجْ واحدَةً بعدَ نزولِ هذه الآيةِ، وذلك إرجاءُ العملِ بالإذْنِ فيهنَّ إلى غيرِ أجلٍ مُعيَّنٍ. وأمَّا الواهباتُ أنفسَهنَّ، فإرجاؤُهنَّ عدمُ قبولِ نكاحِ الواهبةِ، وإيواؤُهنَّ قبولُ هِبَتِهنَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٢).

وقال ابنُ الجوزي: (في معنى الآيةِ أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: تُطَلِّقُ مَن تشاءُ مِن نسائِك، وتُمسِكُ مَن تشاءُ مِن نسائِك. قاله ابنُ عبَّاسٍ. والثَّاني: تتركُ نِكاحَ مَن تشاءُ، وتَنكِحُ مِن نساءِ أمَّتِك مَن =

عن مُعاذةَ العَدَويَّةِ، عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَستأذِنُ في يومِ المرأةِ مِنَّا بعدَ أن أُنزِلَت هذه الآيةُ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، فقلتُ لها: ما كُنتِ تَقولينَ؟ قالت: كُنتُ أقولُ له: إنْ كان ذاك إلَيَّ فإنِّي لا أُريدُ -يا رَسولَ اللهِ- أن أُوثِرَ عليك أحَدًا!))[1].

﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾.

أي: فإنْ عَزَلْتَ بالإرجاءِ إحداهنَّ -كما لو كان بطَلاقٍ أو رَدِّ هِبةٍ مَثلًا- ثمَّ رَغِبْتَ فيها؛ فلا بأسَ ولا إثمَ عليك في إيوائِها بعدَ ذلك، سواءٌ كان ذلك بقَبولِ هِبتِها نَفْسَها له، أو برَدِّها إلى ما كانت عليه مِنَ النِّكاحِ أو القَسْمِ إن كانت مِن زَوجاتِه؛ فاختيارُك السَّابِقُ غَيرُ مُلزِمٍ لك، بل الأمرُ راجِعٌ إلى اختيارِك ورَغبتِك في ذلك[2].

---

= تشاءُ. قاله الحسَنُ. والثَّالثُ: تَعزِلُ مَن شِئتَ مِن أزواجِك فلا تأتيها، بغيرِ طلاقٍ، وتأتي مَن تشاءُ فلا تَعزِلُها. قاله مجاهِدٌ. والرَّابعُ: تَقْبَلُ مَن تشاءُ مِن المؤمناتِ اللَّواتي يَهَبْنَ أنفُسَهنَّ، وتترُكُ مَن تشاءُ. قاله الشَّعْبيُّ، وعِكْرِمةُ. وأكثَرُ العُلماءِ على أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ مُبيحةً لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُصاحَبةَ نِسائِه كيف شاء، مِن غيرِ إيجابِ القِسمةِ عليه، والتَّسويةِ بيْنَهُنَّ، غيرَ أنَّه كان يُسَوِّي بينَهنَّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٧٦).

وقال ابنُ عاشور: (اتَّفق الرُّواةُ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَستعمِلْ مع أزواجِه ما أُبيحَ له؛ أخذًا منه بأفضَلِ الأخلاقِ، فكان يَعدِلُ في القَسْمِ بيْنَ نسائِه، إلَّا أنَّ سَوْدةَ وهَبَتْ يومَها لعائشةَ؛ طَلبًا لِمَسَرَّةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٤).

وقال ابنُ جُزي: (والضَّميرُ في قَولِه ﴿مِنْهُنَّ﴾: يعودُ على أزواجِه -صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّمَ- خاصَّةً، أو على كلِّ ما أَحَلَّ اللهُ له، على حَسَبِ الخلافِ المتقَدِّمِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٦).

(١) رواه البخاري (٤٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٥٣)، ((تفسير =

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (لَمَّا أنزَل الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ قُلتُ: ما أرى رَبَّك إلَّا يُسارِعُ في هواك!)[1].

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ﴾.

أي: ذلك[2] .....

---

= القرطبي)) (١٤/ ٢١٥، ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٤، ٣٩٥).

(١) رواه البخاري (٤٧٨٨) واللفظ له، ومسلم (١٤٦٤).

(٢) قال ابنُ عاشور: (الإشارةُ إلى شَيءٍ ممَّا تقَدَّم وهو أقربُه، فيجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى معنَى التَّفويضِ المستفادِ مِن قولِه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى الابتغاءِ المتضمِّنِ له فِعلُ ابتغَيْتَ، أي: فلا جناحَ عليك في ابتغائِهنَّ بعدَ عزلِهنَّ ذلك أدنَى لأنْ تَقَرَّ أعيُنُهنَّ... فعلى الأوَّلِ يكونُ المعنَى أنَّ في هذا التَّفويضِ جَعَل الحقَّ في اختيارِ أحدِ الأمْرينِ بيدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يُبْقِ حقًّا لهنَّ، فإذا عَيَّنَ لإحداهنَّ حالةً مِن الحالينِ رَضِيَتْه به... وعلى الوجهِ الثَّاني يكونُ المعنَى: ذلك الابتغاءُ بعدَ العزلِ أقربُ لأنْ تَقَرَّ أعينُ اللَّاتي كنتَ عزَلْتَهنَّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: ذلك التَّخييرُ الَّذي خيَّرْناك والتَّفويضُ إلى مشيئتِك: الواحديُّ، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، والشوكاني.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٨١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٧).

وقال ابن جرير: (هذا الَّذي جعلْتُ لك يا محمَّدُ مِن إذْني لك أن تُرجيَ مَن تشاءُ مِن النِّساءِ اللَّواتي جعلْتُ لك إرجاءَهن، وتُؤْوي مَن تشاءُ منهنَّ، ووضْعي عنك الحَرَجَ في ابتِغائِك إصابةَ مَنِ ابتغَيْتَ إصابتَه مِن نسائِك، وعزلِك عن ذلك مَن عزَلْتَ منهنَّ- أقرَبُ لِنسائِك أن تقَرَّ أعينُهنَّ به، ولا يحزَنَّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٥).

وقال الألوسي: (أي: تفويضُ الأمرِ إلى مشيئتِك أقرَبُ إلى قُرَّةِ عيونِهنَّ، وسرورِهنَّ، ورِضاهنَّ جميعًا؛ لأنَّه حُكمٌ كلُّهنَّ فيه سواءٌ، ثمَّ إنْ سوَّيْتَ بيْنَهنَّ وجَدْنَ ذلك تفضُّلًا منك، وإن رجَّحْتَ =

-يا مُحمَّدُ- هو أقرَبُ لِأنْ يَفرَحْنَ ولا يَحزَنَّ[١].

﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾.

أي: وأقرَبُ لِأنْ يَرضَينَ كُلُّهنَّ بما أعطَيتَهنَّ -يا مُحمَّدُ[٢].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ كلَّ ما تُضمِرونَه في قُلوبِكم، ومِن ذلك أمورُ النساءِ، والمَيلُ

---

= بعضَهنَّ عَلِمْنَ أنَّه بحُكم الله تعالى؛ فتطمئِنُّ به نفوسُهنَّ، وُرويَ هذا عن قَتادةَ، والمرادُ ﴿بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ عليه: ما صنَعْتَ معهنَّ، فيَتناولُ ترْكَ المُضاجَعةِ والقَسْم. وعن ابنِ عبَّاسٍ ومجاهدٍ أنَّ المعنى: أنهنَّ إذا عَلِمْنَ أنَّ لك ردَّهن إلى فِراشِك بعدَ ما اعتزلتَهُنَّ قرَّتْ أعينُهن، ولم يَحْزَنَّ، ويَرْضَيْنَ بما تفعلُه مِن التَّسويةِ والتَّفضيلِ؛ لأنهنَّ يَعلمْنَ أنَّك لم تُطلِّقْهنَّ، وظاهرُه جعْلُ المشارِ إليه العِلمُ بأنَّ له صلَّى الله عليه وسلَّم الإيواءَ، وأظهرُ منه ...: ذلك العِلمُ منهنَّ بأنَّك إذا عزَلْتَ واحدةً كان لك أن تُؤويَها بعدَ ذلك أدْنَى لسُرورهِنَّ وقُرَّةِ أعيُنِهنَّ.

وقال بعضُ الأجِلَّةِ: كَوْنُ الإشارةِ إلى التَّفويضِ أنسَبُ لفظًا؛ لأنَّ ذلك للبعيدِ، وكَوْنُها إلى الإيواءِ أنسَبُ معنًى؛ لأنَّ قُرَّةَ عيونِهنَّ بالذَّاتِ إنَّما هي بالإيواءِ). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٦، ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٦).

قيل: المعنى: يَرضَيْنَ بما آتيتَهنَّ كُلُّهنَّ مِن تفضيلِ مَن فضَّلْتَ مِن قَسْمٍ أو نَفَقةٍ، وإيثارِ مَن آثرْتَ منهنَّ بذلك على غَيرِها مِن نسائِك، إذا هنَّ عَلِمنَ أنَّه مِن رضايَ منك بذلك، وإذْني لك به، وإطلاقٍ منِّي لا مِن قِبَلِك. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٦). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (في قَولِه: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المرادَ الرِّضا الَّذي يَتساوَينَ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٦).

إلى بَعضِهنَّ دونَ بَعضٍ[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ واسِعُ العِلمِ بأعمالِ عِبادِه وضَمائِرِهم، وبما يَصلُحُ لهم مِنَ الشَّرائعِ والأحكامِ، وبغيرِ ذلك؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه، وهو كثيرُ الحِلمِ على عِبادِه؛ فلا يُعاجِلُهم بمُؤاخَذتِهم على ذُنوبِهم[٢].

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبًا ٥٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا لم يُوجِبِ اللهُ على نَبيِّه القَسْمَ، وأمَرَه بتَخييرِهنَّ، فاختَرْنَ اللهَ ورَسولَه؛ ذكَرَ لَهنَّ ما جازاهنَّ به مِن تحريمِ غَيرِهنَّ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومَنْعِه مِن طَلاقِهنَّ[٣].

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٧-٣٩٨).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: فلِذلك وَضَعَ عنك الحَرجَ -يا محمَّدُ- فيما وَضَعَ عنك من ابتغاءِ مَن ابتغيتَ مِنهنَّ ممَّن عزَلْتَ؛ تفضُّلًا منه عليك بذلك وتَكرمةً). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٦).

وقال السعدي: (﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ أي: ما يَعرِضُ لها عند أداءِ الحُقوقِ الواجبةِ والمُستحبَّة، وعند المزاحمةِ في الحُقوقِ؛ فلذلك شرع لك التَّوسِعةَ يا رَسولَ الله، لِتَطمئِنَّ قُلوبُ زَوجاتِك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٧).

## النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

قيل: إنَّ هذه الآيةَ مُحكَمةٌ ولا نَسْخَ فيها(١).

وقيل: إنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ، واختُلِف في النَّاسِخ؛ فقيل: مَنسوخةٌ بالآيةِ الَّتي قَبْلَها، وهي قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ...﴾ [الأحزاب: ٥٠]. وقيل: مَنسوخةٌ بقولِه سُبحانه: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١]. وقيل: مَنسوخةٌ بالسُّنَّةِ، وليس في القرآنِ ما يُوجِبُ نَسْخَها(٢).

---

(١) وهو قَولُ أُبَيِّ بنِ كَعبٍ، والحَسَنِ، وابنِ سيرينَ، واختاره ابنُ جريرٍ، واستظهره أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٦).

قال السخاوي: (وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ زعَم قومٌ أنَّه منسوخٌ، واختلَفوا في ناسِخه؛ فقال قومٌ: نُسِخَتْ بالسُّنَّةِ... وقيل: النَّاسخُ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، قالوا: هي مِن الأعاجيبِ؛ نَسْخُها بآيةٍ قبْلَها في النَّظم! وقيل: نُسِخَتْ بقولِه عزَّ وجلَّ قبْلَها: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾ [الأحزاب: ٥١]. وهذا القولُ إنَّما يقولُه مَن قاله ظنًّا، ألا تَرى اختِلافَ القَولَينِ في النَّاسِخ ما هو؟! وإنَّما حمَلَهم على ذلك ما ظنُّوه مِن التَّعارُض، ولا تَعارُضَ؛ لأنَّ قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ لا يُعارِضُ قولَه سُبحانَه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾، ولا قَولَه عزَّ وجلَّ: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ وَتُـٔۡوِيٓ إِلَيۡكَ مَن تَشَآءُ﴾؛ لأنَّ قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ وقولَه تعالى: ﴿تُرۡجِي مَن تَشَآءُ مِنۡهُنَّ﴾ في نِسائِه اللَّاتي كُنَّ في عِصمتِه، فكيف يكونُ ذلك ناسخًا لقولِه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾؟!). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (ص: ٤٤٨).

(٢) والقَولُ بنَسخِها مَرْويٌّ عن عائشةَ، وأمِّ سَلَمةَ، وعليِّ بنِ أبي طالبٍ، وعليِّ بنِ الحُسَينِ، واختاره الجَصَّاصُ، وابنُ حَزمٍ، واستظهره ابنُ جُزَي، ورجَّحه الشَّوكاني. يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٤٨٢)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٥١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٣٧، ٣٣٨). =

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ ﴾.

أي: لا يَحِلُّ لك الزَّواجُ بالنِّساءِ -يا مُحمَّدُ- مِن بَعدُ[1].

---

= قال ابنُ كثيرٍ: (ثمَّ إنَّه تعالى رفَع عنه الحَجْرَ في ذلك، ونسَخ حُكمَ هذه الآيةَ، وأباح له التَّزَوُّجَ، ولكنْ لم يقَعْ منه بعدَ ذلك تزَوُّجٌ؛ لِتكونَ المِنَّةُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ عليهِنَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٧).

وقال النَّحَّاسُ: (في هذه الآيةِ أقوالٌ: فمنها... عن عائشةَ قالت: «ما مات رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى أُحِلَّ له النِّساءُ». وقال الحسَنُ: «لَمَّا خَيَّرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أزواجَه فاختَرْنَه، شكر اللهُ جَلَّ وعَزَّ لهنَّ ذلك؛ فحَرَّم على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَتزوَّجَ غَيرَهنَّ، أي: فامتحَنَه بذلك كما امتحنَهنَّ». وقال عليُّ بنُ الحُسَينِ: «قد كان له أن يتزوَّجَ».

هذه الثَّلاثةُ الأقوالِ غيرُ متناقضةٍ؛ فقولُ عائشةُ: «ما مات رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى أُحِلَّ له النِّساءُ» إسنادُه جيِّدٌ، ويُتأوَّلُ على أنَّه ناسِخٌ للحظرِ،... وقولُ عليِّ بنِ الحُسَينِ عليه السَّلامُ يجوزُ أن يكونَ يرجِعُ إلى قولِ عائشةَ، وإن كان قد أنكر قولَ الحسَنِ؛ فإن الحسَنَ لم يذكُرْ أنَّ الآيةَ منسوخةٌ؛ فيجوزُ أن يكونَ أنكَرَه مِن هذه الجِهةِ، وتكونَ الآيةُ عندَه منسوخةً). ((معاني القرآن)) (٥/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٦٤، ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

قيل: المعنى: لا يحِلُّ لك النِّساءُ بعدَ اللَّواتي أحلَلْتُهنَّ لك مِن أزواجِك اللَّاتي آتَيْتَ أجورَهنَّ، وما ملكَتْ يمينُك، وبناتِ عمِّك وبناتِ عمَّاتِك، وبناتِ خالِك وبناتِ خالاتِك، ومَن تهَبُ نَفْسَها لك مِن المؤمناتِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبي، وابنُ تيميَّةَ، واستحسنه ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٦٤، ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أُبَيُّ بنُ كعبٍ، وأبو صالحٍ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه، وأبو رَزِينٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٧).

قال ابن كثير: (اختار ابنُ جريرٍ رحمه الله أنَّ الآيةَ عامَّةٌ فيمَن ذُكِرَ مِن أصناف النِّساءِ، وفي =

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾.

أي: ولا يحِلُّ لك أن تُطَلِّقَ واحِدةً مِن أزواجِك؛ لِتَتزوَّجَ بأُخرى، ولو أعجبَك جمالُها[1].

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾.

أي: لا يحِلُّ لك إلا نِكاحُ مَن شِئتَ مِن النِّساءِ اللَّاتي تَملِكُهنَّ[2].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾.

أي: وكان اللهُ على كُلِّ شَيءٍ حافِظًا ومُراقِبًا؛ لا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه، وقائِمًا بتَدبيرِ كُلِّ شَيءٍ على أكمَلِ نِظامٍ، وأحسَنِ إحكامٍ[3].

---

= النِّساءِ اللَّواتي في عِصمتِه، وكُنَّ تِسعًا. وهذا الذي قاله جيِّدٌ، ولعلَّه مُرادُ كثيرٍ ممَّن حكَيْنا عنه مِن السَّلفِ؛ فإنَّ كثيرًا منهم رُوِيَ عنه هذا وهذا، ولا منافاةَ. والله أعلمُ. ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٩).

وقيل: المعنى: لا يحلُّ لك النِّساءُ مِن بَعدِ أزواجِك التِّسعِ اللَّاتي عندَك، أي: لا يحلُّ لك أن تَزيدَ عليهنَّ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشري، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٢ - ١٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٩).

قال ابنُ عثيمين: (قولُه: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ يَشمَلُ الحُسنَ الظَّاهِرَ، والحُسنَ الباطِنَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٩)، ((تفسير =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ﴾، قولُه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ﴾ أي: مِن بعدِ النِّساءِ اللَّاتي نصُّ إحلالِهنَّ لك في الآيةِ قَبلُ -على أحدِ القَولَينِ في التَّفسيرِ-، وانظُرْ إلى تكريمِه تعالى لنبيِّه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ حيثُ لم يقُلْ له: (وحرَّم عليك ما وراءَ ذلك) كما خاطَبَ المؤمِنينَ بنَظيرِه؛ لِتَعلَمَ كيف يَتفاوَتُ النَّاسُ بالخِطابِ تفاوُتَهم في رفيعِ الدَّرَجاتِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ أنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ علينا فرائِضَ في أزواجِنا علينا مُراعاتُها، وكذلك نقولُ في مِلْكِ اليَمينِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَيٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَ﴾ أنَّه ينبغي مُراعاةُ المؤمنِ بإدخالِ السُّرورِ عليه، ونَفْيِ الحُزنِ عنه[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا﴾ فيَجِبُ أن يُتَّقى؛ لعِلمِه وحِلمِه؛ فعِلمُه مُوجِبٌ للخَوفِ منه، وحِلمُه مُقتَضٍ للاستحياءِ منه، وأخْذُ الحَليمِ شديدٌ؛ فينبغي لعبدِه المحِبِّ له أن يَحلُمَ عمَّن يَعلَمُ تَقصيرَه في حَقِّه؛ فإنَّه سُبحانَه يأجُرُه على ذلك بأن يَحلُمَ عنه فيما عَلِمَه منه، وأن يَرفَعَ قَدْرَه، ويُعليَ ذِكرَه[٤].

---

= الشوكاني)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٧).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ تحذيرٌ عن مُجاوَزةِ حُدودِه، وتخطِّي حَلالِه وحَرامِه[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّه لا بُدَّ في النِّكاحِ مِن المَهرِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ...﴾ ذُكِرَ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما هو الأَولى؛ فإنَّ الزَّوجةَ الَّتي أُوتِيَت مَهْرَها أطيَبُ قَلبًا مِن الَّتي لم تُؤتَ، والمملوكةَ الَّتي سباها الرَّجُلُ بنَفْسِه أطهَرُ مِن الَّتي اشتراها الرَّجُلُ؛ لأنَّها لا يُدرَى كيفَ حالُها، ومَن هاجَرتْ مِن أقاربِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ معه أشرَفُ ممَّن لم تُهاجِرْ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ عامٌّ يَشملُ ما مَلَكْتَه مِن الكِتابيَّاتِ، وما مَلَكْتَه مِن غيرِهنَّ، ولا دليلَ على التَّقييدِ بالكتابيَّةِ[٤].

٤- قَال تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ ﴿يَمِينُكَ﴾ ويداك وما أشبهَ ذلك يُعبَّرُ بها عن الذَّاتِ؛ لأنها غالبًا وسيلةُ الأخذِ والإعطاءِ، فقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ أي: مما مَلَكْتَ، ففيه صِحَّةُ إضافةِ الشَّيءِ إلى بعضِه، وهذا كثيرٌ في القرآنِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقولُه تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ [النساء: ٩٢]؛ فإنَّ الإنسانَ لا يُحرِّرُ الرَّقَبةَ وحْدَها، بل يُحرِّرُ كُلَّ العَبدِ[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ﴾ فيه إشارةٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦٨، ٣٨٨).

ما خَصَّ اللهُ تعالى به نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تحليلِ ما كان حَظَرَه على مَن كان قَبْلَه مِن الغَنائِم[١].

٦- المحرَّماتُ بالنَّسَبِ: الضَّابطُ فيه أنَّ جميعَ أقارِبِ الرَّجُلِ مِن النَّسَبِ حرامٌ عليه إلَّا بناتِ أعمامِه وأخوالِه، وعمَّاتِه وخالاتِه، وهذه الأصنافُ الأربعةُ هنَّ اللَّاتي أحلَّهنَّ اللهُ لِرَسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بقَولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأحزاب: ٥٠] الآيةَ؛ فأحَلَّ سُبحانَه لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ النِّساءِ أجناسًا أربعةً، ولم يجعَلْ خالِصًا له مِن دونِ المؤمِنينَ إلَّا المَوهوبةَ الَّتي تهَبُ نَفْسَها للنَّبيِّ[٢]، فالآيةُ فيها حَصرُ المحلَّلاتِ، يؤخَذُ مِن مَفهومِه: أنَّ ما عداهنَّ مِن الأقارِبِ غَيرُ مُحلَّلٍ، كما تقدَّمَ في سورةِ (النِّساءِ)؛ فإنَّه لا يُباحُ مِن الأقاربِ مِن النِّساءِ غَيرُ هؤلاءِ الأربَعِ. وما عداهُنَّ مِن الفُروعِ مُطلقًا، والأصولِ مُطلقًا، وفُروعِ الأبِ والأمِّ وإن نَزَلوا، وفُروعِ مَن فَوقَهم لصُلبِه: فإنَّه لا يُباحُ[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ دلَّ وَصفُ ﴿وَٱمۡرَأَةً﴾ بأنَّها مؤمنةٌ على أنَّ المرأةَ غيرَ المُؤمِنةِ لا تحِلُّ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بهِبةِ نَفْسِها[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٠).

خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دلَّ وَصفُ ﴿وَٱمْرَأَةً﴾ بأنَّها مُؤمِنةٌ -بدَلالةِ لحنِ الخِطابِ[1]- على أنَّه لا يحِلُّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تزوُّجُ الكتابيَّاتِ، بَلْهَ المُشرِكاتِ[2].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ذُكِرَ وَصفُ النُّبوَّةِ؛ لأنَّه مَدارُ الإكرامِ مِن الخالقِ، والمحبَّةِ مِن الخلائِقِ؛ تَشريفًا له به، وتعليقًا للحُكمِ بالوَصفِ؛ لأنَّه لو قال: (إن وهَبتْ نفسَها لك) كان رُبَّما وقَعَ في بعضِ الأوهامِ أنَّه غيرُ خاصٍّ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3]. فالآيةُ فيها أنَّ التَّخصيصَ بالحُكمِ لا بُدَّ أنْ يكونَ له عِلَّةٌ تقتضي تخصيصَ ذلك المحكومِ عليه أو له؛ فإنَّ العِلَّةَ في ذلك أنَّه نَبيٌّ، وهذه العِلَّةُ لا تكونُ للمُؤمِنينَ[4].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه مِن خَصائِصِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: النِّكاحُ بلَفظِ الهِبةِ، وبلا مَهرٍ ولا وَليٍّ. وليس ذلك لِغَيرِه[5].

---

(١) لحنُ الخِطابِ: هو إفهامُ الشَّيءِ مِن غيرِ تصريحٍ، وهذا معناه لُغةً، والمرادُ به هنا: مفهومُ المُخالَفةِ، وهو إثباتُ نقيضِ حُكمِ المَنطوقِ به للمَسكوتِ عنه، ويُطلَقُ لحنُ الخِطابِ أيضًا على دَلالةِ الاقتضاءِ، وعلى مفهومِ الموافَقةِ. يُنظر: ((الإشارة في معرفة الأصول والوجازة في معنى الدليل)) للباجي (ص: ٢٨٨)، ((نفائس الأصول في شرح المحصول)) للقَرافي (٢/ ٦٤١)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٣١).

واختلَفوا: هل للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ نِكاحُ الكتابيَّةِ أم لا؟ على قولَينِ. يُنظر: ((الحاوي الكبير)) للماوَرْدي (٩/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨١، ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٢). =

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ؛ حيث أثبتَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إرادةً، والجَبْريَّةُ لا يُثبِتونَ إرادةً للإنسانِ؛ يقولونَ: إنَّه مُجبَرٌ على عَمَلِه[١]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أنَّ ما ثَبَتَ في حقِّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن الأحكامِ ثَبَتَ في حَقِّ الأُمَّةِ إذا لم يُخَصَّصْ. هذا مذهَبُ السَّلَفِ والفُقَهاءِ[٢].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فائدتُه أنَّ الكُفَّارَ وإن كانوا مُخاطَبينَ بفُروعِ الشَّريعةِ على قولٍ، فليس لهم في ذلك دُخولٌ؛ لأنَّ تصريفَ الأحكامِ إنَّما يكونُ فيهم على تقديرِ الإسلامِ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٌ﴾ عنايةُ اللهِ تعالى برسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، ولُطْفُه به؛ حيث أحَلَّ له ما يَزولُ به عنه الحَرَجُ[٤].

---

= أما النِّكاحُ بلَفظِ الهِبةِ -معَ استيفاءِ شروطِه وأركانِه- فذهَب الشَّافعيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّه لا يَنعقِدُ، وذهب الحنفيَّةُ إلى أنَّه يَنعقِدُ، وكذلك المالكيَّةُ بشرطِ أن يُسَمِّيَ صَداقًا، وإلَّا فلا. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤١/ ٢٣٤).

وذهب ابنُ عثيمين إلى أنَّ النِّكاحَ بلَفظِ الهِبةِ يَصِحُّ، قال: (لأنَّ العِلَّةَ: ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ أنَّه يَتزوَّجُ بدونِ مَهْرٍ، وليس العِلَّةُ اللَّفظَ، بل العِلَّةُ أنْ يكونَ الزَّواجُ بدونِ مَهرٍ، فهذا هو الَّذي يكونُ خاصًّا بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أمَّا لَفظُ الهبةِ فإنَّه قد جاء في أحدِ ألفاظِ حديثِ سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه في الواهبةِ نفْسَها أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال للرَّجُلِ: «ملَّكْتُكَها بما معكَ مِن القرآنِ»، وهذا أحدُ ألفاظِ البُخاريِّ رحمه اللهُ، وهذا يدُلُّ على جوازِ عَقْدِ النِّكاحِ بمِثلِ هذا اللَّفظِ). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩١).

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ذُكِرَ هذا؛ لِئَلَّا يَحمِلَ واحِدٌ مِن المؤمنينَ نَفْسَه على ما كان للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ له في النِّكاحِ خصائِصَ ليست لغيرِه، وكذلك في السَّراريِّ[1].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ فيه مِن خَصائِصِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: عدَمُ وُجوبِ القَسْمِ عليه[2].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يَرْجِعَ في حقِّه بعدَ إسقاطِه -هذا إذا كان الحقُّ متجدِّدًا-، أمَّا إذا كان الحقُّ غيرَ متجدِّدٍ؛ فإنَّ الإنسانَ إذا أسْقَطَه لا يَمْلِكُ الرُّجوعَ فيه[3].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم داخِلٌ في التَّكليفِ؛ لأنَّ نَفْيَ الوَصفِ عن شَيءٍ ما يدُلُّ على إمكانِ اتِّصافِه به؛ إذْ لو كان مُنتَفيًا مِن الأصلِ ما احتِيجَ إلى نَفْيِه؛ فدلَّ هذا على أنَّه يُمكِنُ أنْ يكونَ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم جُناحٌ، وهذا دليلٌ على تَكليفِه بأحكامِ الرِّسالةِ[4].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ للأحكامِ؛ حيث إنَّ الأحكامَ مربوطةٌ بعِلَلِها وحِكَمِها. وإثباتُ الحِكَمِ في أحكامِ اللهِ سبحانه وتعالى الكونيَّةِ والقَدَريَّةِ: كثيرةٌ جدًّا، وكُلُّها تَرُدُّ أيضًا على الجَبْريَّةِ؛ لأنَّ الجَبْريَّةَ يَرون أنَّ أفعالَ اللهِ سُبحانَه وتعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٠).

وأحكامَه غيرُ مُعَلَّلةٍ، وأنَّه تعالى يَفعَلُ لا لِعِلَّةٍ وحِكمةٍ، بل لِمُجَرَّدِ المَشيئةِ[١]!

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ مُراعاةُ قلوبِ زوجاتِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإدخالُ السُّرورِ عليهنَّ؛ فإنَّ في هذا مراعاةً لقلوبِ هؤلاءِ النِّساءِ حتَّى تَقَرَّ أعينُهُنَّ[٢].

٢١- أنَّ ما في القلبِ ممَّا لا يَملِكُه الإنسانُ لا يُؤاخَذُ عليه؛ لأنَّه لَمَّا ذَكَر أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم مُخَيَّرٌ، قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ يعني: مِن الشَّيءِ الَّذي لا تَملِكونَه؛ ولهذا لا يَحرُمُ على الإنسانِ أنْ يُفَضِّلَ إحدَى نسائِه على الأُخرَى في المحبَّةِ؛ لأنَّ المحبَّةَ محلُّها القَلبُ، ولا يمكِنُ للإنسانِ أنْ يُسَلِّطَ قَلبَه ويُسَخِّرَه حتَّى يُحِبَّ ويَكرَهَ[٣]!

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾ أنَّ التَّكليفَ لا يمكِنُ أنْ يَسقُطَ عن أحدٍ مهما بَلَغَتْ مَنزلتُه في الدِّينِ؛ فيَكونُ في ذلك رَدٌّ على أولئك الَّذين يَزعُمونَ أنَّ الأولياءَ إذا بلَغوا مرتبةً مِن المراتبِ سَقَطَ عنهم التَّكليفُ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ أعلَى دَرَجاتِ الخَلْقِ عندَ الله تعالى هم الأنبياءُ والرُّسُلُ عليهم السَّلامُ، وأنَّ أعلاهم محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإذا كان هو مَحَلًّا للتَّكليفِ، فمَنْ دونَه مِن بابِ أَولى[٤].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ أنَّه لا يجوزُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُطَلِّقَ أحدًا مِن نسائِه ليتزَوَّجَ غيرَها[٥]، والحكمةُ أنهنَّ لَمَّا لم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٢).

يَختَرْنَ عليه غيرَه؛ أُمِر بمكافأتِهنَّ في التَّمسُّكِ بنكاحِهنَّ[١].

٢٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ فيه دليلٌ على جوازِ أن ينظُرَ الرَّجُلُ إلى مَن يريدُ زواجَها[٢]؛ لأنَّ النَّظرةَ الأولى لا تكادُ تُثبِتُ ما عليه المرئيُّ مِن حاقِّ الوَصفِ[٣].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كغيرِه مِن البشَرِ؛ يُعجِبُه حُسْنُ النِّساءِ الظَّاهرُ والباطِنُ[٤].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ جوازُ تَزَوُّجِ الرَّجُلِ المرأةَ لحُسْنِها، ويؤيِّدُ هذا قولُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((تُنْكَحُ المرأةُ لأربعٍ: لِمالِها، وحَسَبِها، وجمالِها، ودِينِها؛ فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ))[٥].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ أنَّ الوَطْءَ بمِلْكِ اليَمينِ أهوَنُ على المرأةِ مِن الوَطْءِ بالزَّواجِ؛ ولهذا أباح اللهُ سُبحانَه وتعالى للإنسانِ ألَّا يَعْدِلَ بيْنَ سَراريِّه؛ لأنَّ الغَيرةَ بيْنَهنَّ ليست كالغَيرةِ بينَ الزَّوجاتِ[٦].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ تفضيلُ اليمينِ على الشِّمالِ؛ حيثَ نَسَبَ الملكيَّةَ إليها دونَ الشِّمالِ! ولم يُعَبِّرْ باليدِ الشِّمالِ عن الذاتِ أبدًا؛ ولكنْ عَبَّرَ بالأيدي عمومًا وعَبَّرَ باليمينِ، وأمَّا التَّعبيرُ بالشِّمالِ فلمْ يَرِدْ[٧].

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث رواه البخاريُّ (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٢).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾

- قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لاختِصاصِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالأطيَبِ الأزْكَى بعْدَ أنْ خيَّرَ نِساءَه فاختَرْنَه، وهو خبرٌ مُرادٌ به التَّشريعُ. ودُخولُ حَرْفِ (إنَّ) عليه لا يُنافي إرادةَ التَّشريعِ؛ إذ مَوقعُ (إنَّ) هنا لِمُجرَّدِ الاهتِمامِ، والاهتمامُ يُناسِبُ كُلًّا مِن قَصدِ الإخبارِ وقَصْدِ الإنشاءِ؛ ولذلك عُطِفَت على مَفعولِ ﴿أَحۡلَلۡنَا﴾ مَعطوفاتٌ قُيِّدَت بأَوصافٍ لم يَكُنْ شَرْعُها مَعلومًا مِن قبْلُ؛ وذلك في قولِه: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ﴾ وما عُطِفَ عليه، باعتبارِ تَقييدِهنَّ بوَصفِ ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾، وفي قولِه: ﴿وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا﴾ باعتبارِ تَقييدِها بوَصفِ الإيمانِ، وتَقييدِها بـ ﴿إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ و﴿أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾[1].

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ﴾ إضافةُ (أزواج) إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تُفيدُ أنَّهنَّ الأزواجُ اللَّاتي في عِصمتِه؛ فيَكونُ الكلامُ إخبارًا لِتَقريرِ تَشريعٍ سابقٍ، ومَسوقًا مَساقَ الامتِنانِ، ثمَّ هو تَمهيدٌ لِمَا سَيَتْلوهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٤).

مِن التَّشريعِ الخاصِّ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قولِه: ﴿ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ إلى قولِه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعۡدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾[1] [الأحزاب: ٥٢].

- قولُه: ﴿مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ﴾ الوَصْفانِ ببَناتِ عمِّه وعمَّاتِه وبَناتِ خالِه وخالاتِه وبأنَّهنَّ هاجرْنَ معه؛ غيرُ مَقصودٍ بهما الاحترازُ عمَّن لَسْنَ كذلك، ولكنَّه وَصْفٌ كاشفٌ مَسوقٌ للتَّنويهِ بشَأنِهنَّ، على قَولٍ[2].

- وخَصَّ هؤلاء النِّسوةَ مِن عُمومِ المنعِ؛ تكريمًا لشأنِ القَرابةِ والهِجرةِ الَّتي هي بمنزلةِ القَرابةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾[3] [الأنفال: ٧٢].

- وأُفرِدَ لفظُ (عمٍّ) وجُمِعَ لَفظُ (عمَّاتٍ)؛ لأنَّ العمَّ في استِعمالِ كَلامِ العرَبِ يُطلَقُ على أخي الأبِ، ويُطلَقُ على أخي الجَدِّ، وأخي جَدِّ الأبِ... وهكذا؛ فهمْ يَقولون: هؤلاء بَنو عمٍّ أو بَناتُ عمٍّ، إذا كانوا لِعَمٍّ واحدٍ أو لِعِدَّةِ أعمامٍ، فأمَّا لَفظُ (العمَّةِ) فإنَّه لا يُرادُ به الجِنسُ في كَلامِهم، فإذا قالوا: هؤلاء بَنو عمَّةٍ، أرادوا أنَّهم بنو عَمَّةٍ مُعَيَّنةٍ؛ فَجِيءَ في الآيةِ ﴿عَمَّٰتِكَ﴾ جَمْعًا؛ لِئلَّا يُفهَمَ منه بَناتُ عمَّةٍ مُعيَّنةٍ. وكذلك القولُ في إفرادِ لَفظِ (الخال) مِن قولِه: (بَنَاتِ خَالِكَ)، وجَمْعِ الخالةِ في قولِه: ﴿وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ﴾[4].

وقيل: وحَّد لَفظَ الذَّكَرِ؛ لِشَرَفِه، وجمَعَ الإناثَ؛ لِنَقصِهنَّ، كقَولِه تعالى: ﴿عَنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٦).

ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل:٤٨]، ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وله نظائرُ كثيرةٌ(١).

وقيل: جُمِعَ لفظُ العَمِّ والخَالِ دونَ العَمَّاتِ والخالاتِ بسببِ أنَّ قوَّةَ صِلَةِ العَمِّ بالإنسانِ أقوى مِن قوَّةِ صِلَةِ العَمَّةِ؛ فلهذا جُمِعَ، وإلَّا فمِنَ المعلومِ أنَّ الإنسانَ له أعمامٌ وليس له عَمٌّ واحدٌ فقط، وبناتُ أعمامِه كُلُّهُنَّ حلالٌ(٢).

وقيل: لأنَّ العَمَّ والخالَ بوَزنِ مَصدَرينِ، وهما: (الضَّمُّ) و(المالُ)، والمصدَرُ يَستوي فيه المفرَدُ والجَمعُ، بخلافِ العَمَّةِ والخالةِ(٣).

وقيل: أفردَ العَمَّ؛ لأنَّ واحِدَ الذُّكورِ يُجمَعُ مِن غيرِه؛ لِشَرفِه وقوَّتِه، وكَونِه الأصلَ الَّذي تفرَّعَ منه هذا النَّوعُ، وجَمَع الإناثَ؛ لأنَّ المرادَ به الجِنسُ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المرادَ إباحةُ الأخواتِ مجتَمِعاتٍ(٤).

- قولُه: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ التَّنكيرُ في (امْرَأَةً) للنَّوعيَّةِ، والمعنى: ونُعلِمُك أنَّا أحلَلْنا لك امرأةً مُؤمِنةً بقَيدِ أنْ تهَبَ نفْسَها لك، وأنْ تُريدَ أنْ تَتزوَّجَها؛ فقولُه: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ و(النَّبيُّ) في المَوضعينِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ والمعنى: إنْ وهبَتْ نفْسَها لك وأردتَ أنْ تَنكِحَها، وهذا تَخصيصٌ مِن عُمومِ قولِه: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾، فإذا وهَبَتِ امرأةٌ نفْسَها للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأراد نِكاحَها؛ جازَ له ذلك بدونِ ذَينِك الشَّرطينِ، ولأجْلِ هذا وُصِفَت (امْرَأَةً)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٤٢)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧٠)، وقد ذكَر أنَّ هذا الوجهَ هو الأقربُ.

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٢، ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٨٠).

بـ﴿مُّؤْمِنَةً﴾؛ لِيُعلَمَ عدَمُ اشتراطِ ما عَدا الإيمانَ[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: إنْ وهَبَتْ نفْسَها لكَ، والغرَضُ مِن هذا الإظهارِ ما في لَفظِ (النَّبيِّ) مِن تَزكيةِ فِعلِ المرأةِ الَّتي تهَبُ نفْسَها؛ بأنَّها راغبةٌ لِكَرامةِ النُّبوَّةِ. والعُدولُ عن الإضمارِ في قولِه: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ﴾ بأنْ يُقالَ: إنْ أراد أنْ يَستنكِحَها؛ لِمَا في إظهارِ لَفظِ (النَّبيِّ) مِن التَّفخيمِ والتَّكريمِ، وبيانِ عُلُوِّ شأنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

- وقولُه: ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وبيْنَ ﴿خَالِصَةً لَّكَ﴾، وليس مَسوقًا للتَّقييدِ؛ إذ لا حاجةَ إلى ذِكرِ إرادتِه نِكاحَها؛ فإنَّ هذا مَعلومٌ مِن معنى الإباحةِ، وإنَّما جِيءَ بهذا الشَّرطِ لِدفْعِ تَوهُّمِ أنْ يكونَ قَبولُه هِبتَها نفْسَها له واجبًا عليه كما كان عُرفُ أهْلِ الجاهليَّةِ، ولِكَيْ لا يُلزِمَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم نفْسَه قَبولَ الهِبةِ لِمَا عُلِم مِن خُلُقِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لذا أثبَت الله عزَّ وجلَّ له الإرادةَ والتَّخييرَ في هذه الحالِ. وجَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: إنْ أراد أنْ يَستنكِحَها فهي حلالٌ له، فهذا شَرطٌ مُستقِلٌّ، وليس شَرطًا في الشَّرطِ الَّذي قبْلَه[٣].

- وفي قولِه: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٧٣).

الخِطابِ، والسِّرُّ في الالتفاتِ هنا أنَّه رُجوعٌ إلى أصْلِ الكلامِ؛ فقد صُدِّر الكلامُ بمُخاطَبةِ النَّبيِّ بقولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ ﴾ إلخ، ثمَّ عُدِلَ عن الخِطابِ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾؛ للإيذانِ بأنَّه ممَّا خُصَّ به وأُوثِرَ، وأنَّ هذا الاختصاصَ تكرِمةٌ له مِن أجْلِ النُّبوَّةِ[1].

- ولَمَّا كان التَّخصيصُ لا يَصِحُّ ولا يُتصَوَّرُ إلَّا مِن مُحيطِ العِلمِ بأنَّ هذا الأمرَ ما كان لغيرِ المخصوصِ تامِّ القُدرةِ لِيَمنَعَ غيرَه مِن ذلك؛ عَلَّلَه بقَولِه: ﴿قَدۡ﴾ أي: أخبَرْناك بأنَّ هذا أمرٌ يخُصُّك دونَهم؛ لأنَّا قد ﴿عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا﴾[2].

- قولُه: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ ...﴾ تَعديةُ فِعلِ ﴿فَرَضۡنَا﴾ بحَرْفِ (على) المُقتضي للتَّكليفِ والإيجابِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مِن شرائعِ أزواجِهم وما ملَكَت أَيْمانُهم ما يَوَدُّونَ أنْ يُخفَّفَ عنهم، مِثلُ عَددِ الزَّوجاتِ، وإيجابِ المُهورِ والنَّفقاتِ، فإذا سَمِعوا ما خُصَّ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن التَّوسِعةِ في تلك الأحكامِ، وَدُّوا أنْ يُلحَقوا به في ذلك؛ فسَجَّلَ اللهُ عليهم أنَّهم باقونَ على ما سبَقَ شَرْعُه لهم في ذلك. والإخبارُ بأنَّ اللهَ قد عَلِمَ ذلك كِنايةٌ عن بَقاءِ تلك الإحكامِ؛ لأنَّ معناهُ: أنَّا لم نَغفُلْ عن ذلك، أي: لمْ نُبطِلْه، بلْ عن عِلْمٍ خَصَّصْنا نَبيَّنا بما خَصَّصْناه به في ذلك الشَّأنِ، فلا يَشملُ ما أحلَلْناه له بقيَّةَ المؤمنينَ؛ فالجُملةُ اعتراضٌ بيْنَ قولِه: ﴿لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞ﴾ ومُتعلَّقِه -وهو ﴿خَالِصَةً﴾-؛ للدَّلالةِ على أنَّ الفرْقَ بيْنَه وبيْنَ المؤْمِنينَ في نحوِ ذلك لا لِمُجرَّدِ قَصْدِ التَّوسيعِ عليه، بلْ لِمَعانٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبِقاعي (١٥/ ٣٨٣).

تَقْتضي التَّوسيعَ عليه والتَّضييقَ عليهم تارةً، وبالعكسِ أُخْرى[١].

- قولُه: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ تَعليلٌ لِمَا شرَعه اللهُ تعالى في حَقِّ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الآياتِ السَّابقةِ مِن التَّوسِعةِ بالازديادِ مِن عَددِ الأزواجِ، وتَزوُّجِ الواهباتِ أنفُسَهنَّ دونَ مَهرٍ، وجَعْلِ قَبولِ هِبَتِها مَوكولًا لإرادتِه، وبما أبْقَى له مِن مُساواتِه أُمَّتَه فيما عدَا ذلك مِن الإباحةِ، فلم يُضيِّقْ عليه، وهذا تَعليمٌ وامتِنانٌ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ تَذييلٌ لِمَا شَرَعَه مِن الأحكامِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: إنَّ ما أردْناهُ مِن نَفْيِ الحرَجِ عنك هو مِن مُتعلَّقاتِ صِفَتيِ الغُفرانِ والرَّحمةِ، وجُعِلَ اتِّصافُ اللهِ بهما أمْرًا مُتمكِّنًا بما دلَّ عليه فِعلُ (كان) المُشيرُ إلى السَّابقيَّةِ والرُّسوخِ[٣].

٢- قوله تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾

- قولُه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ إلى قَولِه: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ [الأحزاب: ٥٠]؛ فإنَّه يُثيرُ في النَّفْسِ تَطلُّبًا لِبَيانِ مَدَى هذا التَّحليلِ. والجُملةُ خَبرٌ مُستعمَلٌ في إنشاءِ تَحليلِ الإرجاءِ والإيواءِ لِمَن يَشاءُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٧١، ٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٧٢).

- ومُقابَلةُ الإرجاءِ بالإيواءِ في قولِه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ تَقْتضي أنَّ الإرجاءَ مُرادٌ منه ضِدُّ الإيواءِ، أو أنَّ الإيواءَ ضِدُّ الإرجاءِ، وبذلك تَنشَأُ احتمالاتٌ في المُرادِ مِن الإرجاءِ والإيواءِ صَريحِهما وكِنايتِهما[١].

- قولُه: ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ لِبَيانِ أنَّ التَّخييرَ لا يُوجِبُ استِمرارَ ما أخَذَ به مِن الطَّرَفينِ المُخيَّرِ بيْنَهما، أي: لا يكونُ عمَلُه بالعزْلِ لازمًا للدَّوامِ بمَنزلةِ الظِّهارِ والإيلاءِ، بلْ أذِنَ اللهُ أنْ يَرجِعَ إلى مَن يَعزِلُها منْهنَّ؛ فصرَّحَ هنا بأنَّ الإرجاءَ شاملٌ للعزْلِ؛ ففي الكلامِ جُملةٌ مُقدَّرةٌ دلَّ عليها قولُه: ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾؛ إذ هو يَقْتضي أنَّه ابْتَغى إبطالَ عَزْلِها، فمَفعولُ ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾، كما هو مُقْتضى المُقابَلةِ بقولِه: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾؛ فإنَّ العزْلَ والإرجاءَ مُؤدَّاهما واحدٌ[٢].

- ومُتعلِّقُ الجُناحِ في قولِه: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿ٱبْتَغَيْتَ﴾، أي: ابتغَيْتَ إيواءَها فلا جُناحَ عليك مِن إيوائِها[٣].

- وفي قَولِه: ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ المُرادَ الرِّضا الَّذي يَتساوينَ فيه، وإلَّا لم يكُنْ للتَّأكيدِ بـ﴿كُلُّهُنَّ﴾ نُكتةٌ زائدةٌ؛ فالجمْعُ بيْن ضَميرِهنَّ في قولِه: ﴿كُلُّهُنَّ﴾ يُومِئُ إلى رِضًا مُتساوٍ بيْنَهنَّ[٤]، حتى لا يَتوَهَّمَ واهمٌ أنَّ رضا بعضِهنَّ وانتفاءَ الحُزْنِ عنهُنَّ كافٍ في ذلك! بل الرِّضا يكونُ للجميعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٢، ٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٠٣).

- وذِكْرُ ﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ بعدَ ذِكرِ ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ -مع ما في قُرَّةِ العَينِ مِن تَضمُّنِ مَعنى انتفاءِ الحُزْنِ-: إيماءٌ إلى تَرغيبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ابتغاءِ بَقاءِ جَميعِ نِسائِه في مُواصلَتِه؛ لأنَّ في عَزْلِ بَعضِهنَّ حُزْنًا للمَعزولاتِ، وهو بالمؤمنينَ رَؤوفٌ لا يُحِبُّ أنْ يُحزِنَ أحَدًا[1].

- والتَّذْييلُ بقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ كلامٌ جامعٌ لِمَعنى التَّرغيبِ والتَّحذيرِ؛ ففيه تَرغيبُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الإحسانِ بأزواجِه وإمائِه والمُتعرِّضاتِ للتَّزوُّجِ به، وتَحذيرٌ لهنَّ مِن إضمارِ عدَمِ الرِّضا بما يَلْقَينَه مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وفي إجراءِ صِفتيْ ﴿عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ على اسمِ الجلالةِ: إيماءٌ إلى ذلك؛ فمُناسَبةُ صِفةِ العِلمِ لقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ظاهرةٌ، ومُناسَبةُ صِفَةِ الحليمِ باعتبارِ أنَّ المقصودَ تَرغيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أَلْيَقِ الأحوالِ بصِفَةِ الحليمِ[2].

٣- قوله تعالى: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ مَوقعُ هذه الآيةِ في المُصحَفِ عقِبَ الَّتي قبْلَها يدُلُّ على أنَّها كذلك نزَلَتْ، وأنَّ الكلامَ مُتَّصِلٌ بعضُه ببعضٍ، ومُنتظِمٌ هذا النَّظْمَ البديعَ، على أنَّ حَذْفَ ما أُضِيفَت إليه ﴿بَعْدُ﴾ يدُلُّ على أنَّه حَذْفٌ مَعلومٌ دلَّ عليه الكلامُ السَّابقُ، وتَقديرُ المُضافِ إليه المحذوفِ: مِن بَعدِ الأصنافِ المذكورةِ بقولِه: ﴿إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ﴾ [الأحزاب: ٥٠] إلخ[3]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ مَزيدةٌ على المفعولِ الثَّاني لـ﴿تَبَدَّلَ﴾؛ لِقَصْدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٧٦، ٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٧٧).

إفادةِ العُموم، وتَأكيدِ النَّفي، وفائدتُه استِغراقُ جِنسِ الأزواجِ بالتَّحريمِ، والتَّقديرُ: ولا أنْ تَبدَّلَ بهنَّ أزواجًا أُخَرَ[١].

- قولُه: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجٖ﴾ أي: إنَّ مَن حصَلَتْ في عِصمتِك مِن الأصنافِ المذكورةِ لا يَحِلُّ لك أنْ تُطلِّقَها؛ فكُنِّيَ بالتَّبدُّلِ عن الطَّلاقِ لأنَّه لازِمُه في العُرْفِ الغالبِ؛ لأنَّ المَرْءَ لا يُطلِّقُ إلَّا وهو يَعتاضُ عن المُطلَّقةِ امرأةً أُخرى[٢].

- وفي جُملةِ ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ حُسۡنُهُنَّ﴾ إيذانٌ بأنَّ اللهَ لَمَّا أباحَ لِرَسولِه الأصنافَ الثَّلاثةَ، أرادَ اللُّطفَ له، وألَّا يُناكِدَ رَغبتَه إذا أعجَبَتْه امرأةٌ، لكنَّه حدَّدَ له أصنافًا مُعيَّنةً وفيهنَّ غَناءٌ، وأُكِّدَت هذه المُبالَغةُ بالتَّذييلِ مِن قولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾، أي: عالِمًا بِجَرْيِ كلِّ شَيءٍ على نَحوِ ما حدَّدهُ أو على خِلافِه، فهو يُجازي على حسَبِ ذلك. وهذا وَعدٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بثَوابٍ عظيمٍ على ما حدَّدَ له مِن هذا الحُكمِ، كما أنَّ فيه تَحذيرًا مِن مُجاوَزةِ حُدودِ اللهِ وتَخطِّي حَلالِه وحَرامِه[٣]، فلَمَّا كان المَقامُ مقامَ تحليلٍ وتحريمٍ خَتَمَ الله تعالى الآيةَ بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾، يعني: فهو يُراقِبُك لو خالفْتَ ما شَرَعَ لك، وهذا مِن بلاغةِ القرآنِ؛ حيث يَخْتِمُ الآياتِ بما يُناسِبُ الأحكامَ الموجودةَ فيها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٤).

- والاستِثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ﴾ مُنقطِعٌ، والمعنى: لكنْ ما ملَكَتْ يَمينُك حلالٌ في كلِّ حالٍ، والمَقصودُ مِن هذا الاستِدراكِ: دَفْعُ تَوهُّمِ أنْ يكونَ المُرادُ مِن لَفظِ النِّساءِ في قولِه: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ ما يُرادِفُ لَفظَ الإناثِ دونَ استعمالِه العُرفيِّ بمَعنى الأزواجِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٠).

## الآيات (٥٢-٥٥)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نَٰظِرِينَ﴾: أي: مُنتظِرينَ، يُقالُ: نظَرْتُه، أي: انتظَرْتُه، كأنَّه يَنْظُرُ إلى الوقتِ الَّذي يأتي فيه، وأصلُ (نظر): يدُلُّ على تأمُّلِ الشَّيءِ ومُعاينَتِه[1].

﴿إِنَىٰهُ﴾: أي: وَقتَ إدراكِه ونُضجِه وتهيئتِه، وأصلُ (أني): يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ[2].

﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾: أي: طالِبينَ الأُنسَ للحَديثِ، وأصلُ (أنس): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٤٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤١).

الظُّهورِ، وعدَمِ الاستيحاشِ[١].

﴿مَتَٰعًا﴾: أي: مَنفعةً وحاجةً، والمَتاعُ: كلُّ ما حَصَل التَّمتُّعُ والانتفاعُ به على وَجهٍ ما، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ[٢].

﴿حِجَابٍ﴾: أي: سترٍ، وكلُّ ما يَستُرُ المطلوبَ ويمنَعُ مِن الوصولِ إليه فهو حجابٌ، وأصلُ (حجب): المنعُ مِن الوصولِ[٣].

﴿لَّا جُنَاحَ﴾: أي: لا إثْمَ و لا حَرَجَ، وسُمِّيَ الإثمُ جُناحًا؛ لِمَيلِه عن طريقِ الحَقِّ، وأصلُ (جَنَح): يدُلُّ على الميلِ والعُدوانِ[٤].

﴿شَهِيدًا﴾: أي: شاهدًا على كلِّ شَيءٍ، لا تخفَى عليه خافيةٌ، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ[٥].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى بعضَ التَّشريعاتِ والآدابِ الَّتي تتعلَّقُ بدُخولِ بيوتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَدخُلوا بُيوتَ النَّبيِّ بغيرِ إذنٍ إلَّا أن تُدعَوا إلى طَعامٍ تأكُلونَه فيها غيرَ مُنتَظِرينَ نُضجَ الطَّعامِ، ولكِنْ إذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦).

دُعيتُم للدُّخولِ فادخُلوا، فإذا فَرَغتُم مِن الطَّعامِ فاخرُجوا مِن بَيتِ النَّبيِّ، ولا تَمكُثوا مُتحَدِّثينَ بعدَ فراغِكم مِنَ الطَّعامِ؛ إنَّ ذلكم كان يؤذي النَّبيَّ ويَشُقُّ عليه، فيَسْتَحْيي مِن إعلامِكم بذلك، ولكِنَّ اللهَ لا يَستَحْيي أن يُبيِّنَ لكم الحَقَّ.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه بعضَ الآدابِ الَّتي يجِبُ على المؤمنينَ أنْ يلتَزِموها مع نساءِ نبيِّهم صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: وإذا سألتُم أزواجَ النَّبيِّ حاجةً فاسألوهنَّ مِن وراءِ سِترٍ؛ ذلك أنقَى لقُلوبِكم وقُلوبِهنَّ، وما يَنبغي لكم -أيُّها المُسلِمونَ- أن تُؤذوا رسولَ الله، ولا أنْ تَنكِحوا أزواجَه مِن بَعدِه أبدًا؛ إنَّ ذلك ذَنْبٌ عَظيمٌ عندَ اللهِ تعالى!

ثمَّ يحذِّرُهم الله سبحانَه مِن مخالفةِ أمرِه، فيقولُ: إنْ تُظهِروا شيئًا أو تُخفوه في قُلوبِكم فإنَّ الله عليمٌ به وبِغَيرِه.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى بعضَ الأصنافِ الَّذين يجوزُ للمرأةِ أنْ تظهرَ أمامَهم بدونِ حجابٍ، فيقولُ: لا إثمَ على أزواجِ النَّبيِّ في تَركِ الاحتِجابِ مِن آبائِهنَّ، ولا أبنائِهنَّ، ولا إخوانِهنَّ، ولا أبناءِ إخوانِهنَّ، ولا أبناءِ أخواتِهنَّ، ولا نِسائِهنَّ، ولا مَماليكِهنَّ مِن الذُّكورِ والإناثِ. ثُمَّ أمَرَهُنَّ اللهُ باتِّقاءِ غضَبِه وعذابِه، وذلكَ بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهِيه؛ ويختمُ الآيةَ بقولِه: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ شهيدٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ

عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا خاطَب اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقال له: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدًا ... ﴾ [الأحزاب: ٤٥]؛ بيانًا لحالِه مع أمَّتِه العامَّةِ، قال للمُؤمِنينَ في هذا النِّداءِ: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ...﴾؛ إرشادًا لهم، وبيانًا لحالِهم مع النبيِّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- مِنَ الاحترامِ، وعدَمِ إزْعاجِه في حالِ الخَلوةِ[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ مِن حالِ النَّبيِّ أنَّه داعٍ إلى اللهِ، بقَولِه: ﴿ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب: ٤٦]، قال هاهنا: ﴿لَا تَدۡخُلُواْ﴾ إلَّا إذا دُعيتُم، يعني: كما أنَّكم ما دخَلْتُم الدِّينَ إلَّا بدُعائِه، فكذلك لا تدخُلوا عليه إلَّا بعدَ دُعائِه[2].

وأيضًا لَمَّا قصَر اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أزواجِه، وكان قد تقدَّم إليهنَّ بلُزومِ البُيوتِ، وترْكِ ما كانت عليه الجاهليَّةُ مِن التَّبرُّجِ- أرخَى عليهنَّ الحِجابَ في البُيوتِ، ومَنَعَ غَيرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّا كانت العرَبُ عليه مِن الدُّخولِ على النِّساءِ؛ لِما عندَهم مِن الأمانةِ في ذلك[3].

وأيضًا لَمَّا بيَّن الله في الآياتِ السَّابقةِ آدابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع أزواجِه؛ قفَّاه في هذه الآيةِ بآدابِ الأُمَّةِ معهنَّ[4].

**سَبَبُ النُّزولِ:**

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا تزوَّجَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨١).

وسلَّم زينبَ بنتَ جَحشٍ، دعا النَّاسَ، طَعِموا ثمَّ جَلسوا يَتحَدَّثونَ، فأخَذ كأنَّه يَتهيَّأُ للقيامِ فلم يَقوموا، فلمَّا رأى ذلك قام، فلمَّا قام قامَ مَن قام معه مِنَ النَّاسِ، وبَقِيَ ثلاثةٌ، وإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جاء لِيَدخُلَ فإذا القومُ جُلوسٌ، ثمَّ إنَّهم قاموا فانطلَقوا، فجِئتُ فأخبَرْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّهم قد انطلَقوا، فجاء حتَّى دخَل، فذهبتُ أدخُلُ فأرخَى الحِجابَ بيني وبيْنَه، وأنزَل اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾))[1].

وعن الجَعْدِ أبي عُثمانَ، عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((تزوَّجَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فدخَلَ بأهلِه، قال: فصَنَعَت أمِّي أمُّ سُلَيمٍ حَيْسًا[2]، فجعَلَتْه في تَورٍ[3]، فقالت: يا أنَسُ، اذهَبْ بهذا إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلْ: بعَثَتْ بهذا إليك أمِّي، وهي تُقرِئُك السَّلامَ وتقولُ: إنَّ هذا لك مِنَّا قَليلٌ يا رَسولَ اللهِ! قال: فذهبْتُ بها إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلتُ: إنَّ أمِّي تُقرِئُك السَّلامَ وتقولُ: إنَّ هذا لكَ مِنَّا قليلٌ يا رَسولَ الله. فقال: ضَعْهُ، ثمَّ قال: اذهَبْ، فادْعُ لي فُلانًا وفُلانًا وفُلانًا، ومَن لَقِيتَ -وسمَّى رجالًا- قال: فدعَوْتُ مَن سَمَّى ومَن لَقِيتُ. قال [الجعْدُ]: قلتُ لأنَسٍ: عددَ كم كانوا؟ قال: زُهاءَ ثلاثِ مِئةٍ!

---

(١) رواه البخاري (٦٢٧١) واللفظ له، ومسلم (١٤٢٨).

(٢) الحَيْسُ: هو التَّمرُ مع السَّمنِ والأَقِطِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٨/ ٣٤).

(٣) التَّورُ: إناءٌ يُشرَبُ فيه. يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن الملك (٦/ ٣٤٦).

وقال لي رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا أنسُ، هاتِ التَّورَ. قال: فدخَلوا حتَّى امتلأتِ الصُّفَّةُ[1] والحُجرةُ، فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لِيَتحلَّقْ عَشَرةٌ عَشَرةٌ، ولْيأكُلْ كُلُّ إنسانٍ ممَّا يليه. قال: فأكَلوا حتَّى شَبِعوا، قال: فخَرَجَت طائفةٌ ودخَلَت طائفةٌ حتَّى أكلوا كُلُّهم! فقال لي: يا أنَسُ، ارفَعْ. قال: فرفَعْتُ، فما أدري حينَ وَضَعْتُ كان أكثَرَ أم حينَ رَفَعْتُ!! قال: وجلس طوائِفُ منهم يَتحدَّثونَ في بيتِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جالِسٌ وزوجتُه مُوَلِّيةٌ وَجْهَها إلى الحائِطِ! فثَقُلُوا على رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فخرَج رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فسَلَّم على نسائِه ثمَّ رجع، فلمَّا رأوا رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد رجَع ظنُّوا أنَّهم قد ثَقُلُوا عليه، فابتَدَروا البابَ فخَرَجوا كُلُّهم، وجاء رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى أرخى السِّتْرَ ودخل، وأنا جالِسٌ في الحُجرةِ، فلم يلبَثْ إلَّا يسيرًا حتَّى خرَج علَيَّ، وأُنزِلَت هذه الآيةُ، فخرَج رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقرَأهُنَّ على النَّاسِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ إلى آخرِ الآيةِ. قال الجَعْدُ: قال أنسُ بنُ مالكٍ: أنا أَحْدَثُ النَّاسِ عَهدًا بهذه الآياتِ، وحُجِبْنَ نِساءُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[2].

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ الله عنه، قال: (وافقْتُ ربِّي في ثلاثٍ: في مَقامِ إبراهيمَ، وفي الحِجابِ، وفي أُسارى بدرٍ!)[3].

---

(١) الصُّفَّةُ: موضعٌ مُظَلَّلٌ في مسجدِ المدينةِ، وأهلُ الصُّفَّةِ فقراءُ المهاجرينَ ومَن لم يَكُنْ له منهم مَنْزِلٌ يَسْكُنُه، فكانوا يَأْوونَ إليه. يُنظر: ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٩/ ٥٩).

(٢) رواه مسلم (١٤٢٨). ورواه البخاري (٥١٦٣) معلقًا من حديث الجعد عن أنس بنحوه مختصرًا.

(٣) رواه مسلم (٢٣٩٩).

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال عُمَرُ رَضِيَ الله عنه: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، يَدخُلُ عليكَ البَرُّ والفاجِرُ، فلو أمَرْتَ أمَّهاتِ المؤمِنينَ بالحِجابِ! فأنزل اللهُ آيةَ الحِجابِ))[١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ ﴾

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، لا تَدخُلوا بُيوتَ النَّبيِّ بغيرِ إذنٍ إلَّا أن تُدعَوا إلى دُخولِها؛ لأجْلِ طَعامٍ تأكلونَه فيها، فيُؤذنَ لكم[٢].

﴿غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ ﴾

أي: والحالُ أنَّكم غيرُ مُنتَظِرينَ وَقتَ نُضجِ الطَّعامِ واستِوائِه[٣].

---

(١) رواه البخاري (٤٧٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

قيل: ﴿إِلَىٰ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿يُؤۡذَنَ﴾ بتضمينِ معنى الدعاءِ، فكأنَّه قيل: إلَّا أنْ تُدْعَوْا إلى طعامٍ فيُؤْذَنَ لكم. ينظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٢).

وقال ابنُ عاشور: (ليس ذِكرُ الدَّعوةِ إلى طعامٍ تَقييدًا لإباحةِ دُخولِ بُيوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لا يَدخُلُها إلَّا المدعوُّ إلى طعامٍ، ولكِنَّه مِثالٌ للدَّعوةِ وتخصيصٌ بالذِّكرِ، كما جرى في القضيَّةِ الَّتي هي سَبَبُ النُّزولِ، فيَلحَقُ به كُلُّ دعوةٍ تكونُ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكلُّ إذْنٍ منه بالدُّخولِ إلى بيتِه لغيرِ قَصدِ أن يَطعَمَ معه، كما كان يقعُ ذلك كثيرًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٧، ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٣، ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩١، ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٨).

قيل: المرادُ: لا تَرقُبوا الطَّعامَ حتَّى إذا قارب الاستواءَ تعرَّضتُم للدُّخولِ؛ فإنَّ هذا يَكرَهُه الله ويَذُمُّه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤١٨). =

﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾

أي: ولكِنْ إذا دُعيتُم للدُّخولِ إلى بَيتٍ مِن بُيوتِ النَّبيِّ، فادخُلوه[1].

﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ﴾

أي: فإذا فَرغتُم مِنَ الطَّعامِ فاخرُجوا مِن بَيتِ النَّبيِّ، وتفرَّقوا[2].

﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾

أي: ولا تَمكُثوا في بَيتِه بعدَ فَراغِكم مِنَ الطَّعامِ مُستأنِسينَ بالحَديثِ[3].

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡ﴾

---

= وقيل: المعنى: لا تَحضُروا البيوتَ للطَّعامِ قبْلَ تهيئةِ الطَّعامِ للتَّناوُلِ، فتَقعُدوا تنتَظِرونَ نُضجَه. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٣).

قال ابنُ عثيمين: (﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ أي ولا تدخلوا بغير دعوة، وهذا غيرُ قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾؛ لأنَّ ﴿يُؤۡذَنَ﴾ معناها: أنَّهم جاؤوا فاستأذنوا، وأمَّا الَّتي معنا؛ الجملةُ الثَّانيةُ ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ﴾: فهنا همُ الذين دُعُوا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٣).

قال البقاعي: (﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ﴾ أي: أكَلْتُم طعامًا، أو شَربتُم شَرابًا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٣).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ المعنى: ولا تَدخُلوا مستأنِسينَ، أي: طالِبي الأُنسِ لحديثٍ؛ وذلك أنَّهم كانوا يَجلِسون بعدَ الأكلِ فيَتحدَّثون طويلًا، وكان ذلك يؤذيه، ويَستَحْيي أن يقولَ لهم: قُوموا، فعلَّمَهم الله تعالى الأدبَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨٠).

أي: إنَّ ذَلِكم[١] كان يُؤذي النَّبيَّ ويَشُقُّ عليه، فيُصيبُه الحياءُ مِن إعلامِكم بذلك، فيَسكُتُ[٢]!

﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾

أي: وإنِ استَحْيا نَبيُّكم فلم يُبيِّنْ لكم كراهِيَةَ ذلك؛ حَياءً مِنكم: فإنَّ اللهَ لا يَستَحْيي أن يُبيِّنَ لكم الحَقَّ؛ ولهذا نهاكم عن إيذاءِ نَبيِّه[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤].

---

(١) قيل: المشارُ إليه هنا جميعُ ما تقدَّمَ، وهو دخولُ بُيوتِ النَّبيِّ مِن غيرِ إذْنٍ، والمجيءُ قبْلَ نُضجِ الطَّعامِ مُنتظرينَ نُضْجَه، والجلوسُ فيها مُستأنسينَ للحديثِ بعدَ الفراغِ مِن الطَّعام. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٦٣).

وقيل: المشارُ إليه إطالتُهم الجُلوسَ في المنزلِ، واستئناسُهم للحديثِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

قال ابنُ عاشور: (إنَّما كان ذلك مُؤذِيًا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ فيه ما يَحولُ بيْنَه وبيْنَ التَّفَرُّغِ لشؤونِ النُّبُوَّةِ؛ مِن تلقِّي الوَحيِ، أو العبادةِ، أو تدبيرِ أمرِ الأُمَّةِ، أو التَّأخُّرِ عن الجلوسِ في مجلِسِه لِنَفعِ المسلمينَ، ولشؤونِ ذاتِه وبيتِه وأهلِه... أي: يَستَحْيي مِن إعلامِكم بأنَّه يُؤذيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٨).

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا مَنَع اللهُ النَّاسَ مِن دُخولِ بُيوتِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكان في ذلك تعذُّرُ الوُصولِ إلى الماعونِ؛ بيَّن أنَّ ذلك غيرُ ممنوعٍ منه، فلْيُسألْ ولْيُطلَبْ مِن وراءِ حِجابٍ(١).

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾

أي: وإذا سألْتُم أزواجَ رَسولِ اللهِ حاجةً تُريدونَها مِنهنَّ(٢)، فكَلِّموهُنَّ مِن وراءِ سِترٍ بينَكم وبَينَهنَّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٠).

(٢) قال ابن عثيمين: (المرادُ بالمتاعِ: ما يُتمتَّعُ به مِن ملابسَ ومطاعمَ ومشاربَ وغيرِها، حتَّى الدَّراهمُ تُعتبرُ متاعًا، فكلُّ ما يُتمتعُ به فهو متاعٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٠).

وقال القرطبي: (اختُلِفَ في المتاعِ؛ فقيل: ما يُتمتَّعُ به مِن العَواريِّ. وقيل: فتوى. وقيل: صُحُفُ القرآنِ. والصَّوابُ أنَّه عامٌّ في جميع ما يمكِنُ أن يُطلَبَ مِن المواعينِ وسائرِ المرافِقِ للدِّينِ والدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٧).

وممَّن ذهب إلى هذا العمومِ في الجملةِ: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٠، ٩١).

قال ابنُ عاشور: (الحِجابُ: السِّترُ المُرخَى على بابِ البيتِ. وكانت السُّتورُ مُرخاةً على أبوابِ بُيوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الشَّارعةِ إلى المسجِدِ، وقد ورد ما يُبيِّنُ ذلك في حديثِ الوفاةِ حينَ خرَجَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على النَّاسِ وهم في الصَّلاةِ، فكشف السِّترَ ثمَّ أرخى السِّترَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩١). =

﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾

أي: ذلك الأمرُ بسُؤالِهنَّ مِن وَراءِ حِجابٍ: أنقَى لقُلوبِكم وقُلوبِهنَّ مِن عوارِضِ النَّظَرِ، أو الخواطِرِ الَّتي تَعرِضُ للرِّجالِ في أمرِ النِّساءِ، وللنِّساءِ في أمرِ الرِّجالِ؛ وأَحرَى في السَّلامةِ مِن الرِّيبةِ ووَساوِسِ الشَّيطانِ(١).

﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾

أي: وما ينبغي لكم -أيُّها المُسلِمونَ- أن تُؤذُوا رَسولَ اللهِ بأيِّ شَيءٍ مِن الأشياءِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾

أي: ولا يَنبغي ولا يَحِلُّ لكم -أيُّها المُسلِمونَ- أن تَنكِحوا أزواجَ رَسولِ اللهِ

---

= وقال ابن عثيمين: (حِجابٌ، بمعنى: سِتْر. وكلمةُ ﴿مِنَ﴾ تدُلُّ على أنَّ هذا السِّترَ لا بُدَّ أن ينفصِلَ، وأنَّه غيرُ سَتْرِ الوَجهِ أو البَدنِ بالثيابِ، بل هو سِترٌ آخَرُ: حِجابٌ. وحِجابُ أمَّهاتِ المؤمِنينَ غيرُ حِجابِ نِساءِ المؤمنينَ؛ لأنَّ حِجابَ نِساءِ المؤمنينَ يَصِحُّ أن يكون متَّصِلًا بالبدنِ، كالخِمارِ والمِلْحَفةِ وما أشبَهَهما، أمَّا حجابُ أمَّهاتِ المؤمنينَ فإنَّه حِجابٌ آخَرُ منفَصِلٌ يحولُ بيْنَ الرَّجُلِ وبيْنَ رؤيةِ أمَّهاتِ المؤمنينَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٥)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣).

قال الشوكاني: (ومِن جملة ذلك: دُخولُ بُيوتِه بغيرِ إذْنٍ منه، واللُّبثُ فيها على غيرِ الوَجهِ الَّذي يريدُه، وتكليمُ نِسائِه مِن دونِ حِجابٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣).

مِن بَعدِه أبدًا[١].

﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾

أي: إنَّ أذيَّةَ رَسولِ اللهِ ونِكاحَ أزواجِه مِن بَعدِه: ذَنْبٌ عَظيمٌ عندَ اللهِ تعالى[٢].

﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٥٤﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ قَولَه: ﴿إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ﴾ وَعيدٌ لِما تقدَّم التعَرُّضُ به في الآيةِ ممَّن أُشيرَ إليه بقَولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ﴾، ومَن أشيرَ إليه بقَولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٠٠).

قال ابنُ كثير: (أجمَع العُلَماءُ قاطِبةً على أنَّ مَن تُوُفِّيَ عنها رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أزواجِه: أنَّه يَحرُمُ على غيرِه تزويجُها مِن بَعدِه؛ لأنَّهنَّ أزواجُه في الدُّنيا والآخرةِ، وأمَّهاتُ المؤمِنينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٥).

وَقولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ قيل: معناه: مِن بعدِ وفاتِه. وممَّن قال بهذا المعنى: السمرقندي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٠٠).

وقيل: المرادُ: مِن بعدِ مُفارقتِه لِمَن دخَل بها؛ إمَّا في حياتِه بطلاقِها، وإمَّا مُفارقتُه لها بموتِه. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٤، ٤٣٥).

قال ابن كثير: (واختلَفوا فيمَن دخَل بها ثمَّ طلَّقها في حياتِه، هل يحِلُّ لغيرِه أن يَتزوَّجَها؟ على قولَين، مأخَذُهما: هل دخلتْ هذه في عموم قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾ أمْ لا؟ فأمَّا مَن تزَوَّجها ثمَّ طلَّقها قبْلَ أن يَدخُلَ بها، فما نَعلَمُ في حِلِّها لَغيرِه -والحالةُ هذه- نِزاعًا، والله أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٧١)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٦١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦).

تُؤْذُواْ ﴾، فقيل: إنْ تُبدوا شيئًا على ألسِنَتِكم أو تُخفُوه في صُدورِكم ممَّا يقَعُ عليه العِقابُ؛ فاللهُ يَعلَمُه، فيُجازي عليه[١].

وأيضًا فإنَّ هذا كلامٌ جامِعٌ تحريضًا وتحذيرًا، ومُنبِئٌ عن وَعدٍ ووَعيدٍ؛ فإنَّ ما قَبْلَه قد حوَى أمرًا ونهيًا، وإذ كان الامتِثالُ مُتفاوِتًا في الظَّاهِرِ والباطِنِ، وبخاصَّةٍ في النِّيَّاتِ والمُضمَراتِ؛ كان المقامُ مُناسِبًا لِتَنبيهِهم وتذكيرِهم بأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على كُلِّ حالٍ مِن أحوالِهم في ذلك، وعلى كلِّ شَيءٍ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان بعضُ الدَّالِّ على الكلامِ أصرَحَ مِن بَعضٍ، فكان الإنسانُ قد يُضمِرُ أن يفعَلَ ما يؤذي إذا تمكَّن، وقد يُؤذي بفِعلٍ يَفعَلُه ويَدَّعي أنَّه قصَدَ شَيئًا آخَرَ مِمَّا لا يُؤذي؛ قال تعالى -حامِلًا لهم على التَّفَطُّنِ والتَّنَبُّهِ في الأقوالِ وغَيرِها، والمقاصِدِ الحَسَنةِ ظاهِرًا وباطِنًا، على طريقِ الاستئنافِ في جوابِ مَن رُبَّما انتهَى بظاهِرِه، وهو عازِمٌ على أنْ يفعَلَ الأذَى عندَ التَّمَكُّنِ-[٣]:

﴿ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾

أي: إن تُظهِروا أيَّ شَيءٍ أو تُخفُوه في قُلوبِكم، فإنَّ اللهَ عَليمٌ بذلك وبغَيرِه، فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه، وسيُجازيكم على أعمالِكم الظَّاهِرةِ والخَفيَّةِ[٤].

كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٨).

وقال سُبحانَه: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ٥٥﴾

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ أزواجَ النَّبيِّ -رَضِيَ اللهُ عنهنَّ- لا يُسألْنَ مَتاعًا إلَّا مِن وراءِ حِجابٍ، وكان اللَّفظُ عامًّا لكُلِّ أحدٍ، احتِيجَ أن يُستَثنى منه هؤلاء المذكورونَ مِن المحارِمِ، وأنَّه لا جُناحَ عليهنَّ في عدَمِ الاحتِجابِ عنهم[١].

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾

أي: لا إثمَ على أزواجِ النَّبيِّ في تَركِ الاحتِجابِ مِن آبائِهنَّ[٢]، وأبنائِهنَّ[٣]، وإخوانِهنَّ[٤]، وأبناءِ إخوانِهنَّ، وأبناءِ أَخواتِهنَّ، ومِن نِسائِهنَّ[٥]، ومِن أرِقَّائِهنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٠).

(٢) قال ابن عثيمين: (يَشملُ الأجدادَ مِن جهةِ الأبِ، ومِن جهةِ الأمِّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤٩، ٤٥٠).

(٣) يعني أبناءَهنَّ مِن الصُّلبِ، وأبناءَهن مِن البطنِ، أي: أبناءَ الأبناءِ، وأبناءَ البناتِ، وإن نزلوا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب: ٤٥٠).

(٤) سواء كانوا أشقاءَ أم لأبٍ أم لأمٍّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥٠). وقال ابنُ عثيمين: (الأخُ مِن الرَّضاعِ، وابنُ الأخِ مِن الرَّضاعِ، وما أشبهَ ذلك ما ذُكِر في هذه الآيةِ ... لكنَّه ذُكِر في قولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «يحرمُ مِن الرضاعِ ما يحرمُ مِن النَّسبِ» [البخاري «٢٦٤٥» ومسلم «١٤٤٧»]). ((المصدر السابق)) (ص: ٤٥١).

(٥) قيل: المرادُ بهن: النِّساءُ المؤمِناتُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والرسعني، وابن كثير، والبقاعي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٣)، ((تفسير الرسعني)) =

الذُّكورِ والإناثِ المملوكينَ لهُنَّ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٣١].

﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾

أي: واتَّقِينَ -يا أزواجَ النَّبيِّ- سَخَطَ اللهِ وغَضَبَه وعَذابَه في جميعِ أحوالِكنَّ

---

= (٦/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٣).

وقيل: المرادُ: جميعُ النِّساءِ، سواءٌ كُنَّ مُؤمناتٍ أو كافراتٍ؛ فالمرأةُ لا تحتَجِبُ مِن المرأةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور، وذكره السعدي احتمالًا، ورجَّحه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥٤).

ويُنظر ما تقدم في تفسير سورة (النور) من ((التفسير المحرر)) (١٩/ ٢٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧١-١٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

قال الماوَرْديُّ: (﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فيه قولان؛ أحدُهما: الإماءُ دونَ العَبيدِ، قاله سعيدُ ابنُ المُسَيِّبِ. الثَّاني: أنَّه عامٌّ في الإماءِ والعَبيدِ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٢٠).

ممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جريرٍ، والبيضاويُّ، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٨٨).

وقال العُلَيمي: (﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ مِن الإماءِ، فلا يكونُ العبدُ مَحْرَمًا لِمَولاتِه). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٨٦).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة (النور) من ((التفسير المحرر)) (١٩/ ٢٠٩).

في الخَلوةِ والعَلانيةِ؛ وذلك بامتِثالِ ما أمَرَكنَّ اللهُ به مِن الحِجابِ وغَيرِه، والانتِهاءِ عمَّا نهاكُنَّ عنه[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾

أي: إنَّ اللهَ شاهِدٌ على كُلِّ شَيءٍ، لا تخفَى عليه خافيةٌ؛ فاتَّقِينَ اللهَ وراقِبْنَه[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ قال إسماعيلُ بنُ أبي حكيمٍ لما قُرِئتْ بينَ يَدَيْه هذه الآيةُ: (هذا أدَبٌ أدَّبَ اللهُ به الثُّقَلاءَ)[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ دَليلٌ على أنَّ التَّحَيُّنَ لطَعامِ مَن لم يَدْعُ إليه مَنهيٌّ عنه[٤] واستُدِلَّ به على تحريمِ التَّطَفُّلِ -وهذا على أحدِ الأقوالِ في تفسيرِ الآيةِ-؛ لأنَّ الطُّفَيليَّ عادتُه أنَّه يَنتَظِرُ متى يُقَدَّمُ الطَّعامُ، فإذا قُدِّمَ الطَّعامُ استأذنَ، أو هَجَمَ هجومًا بدونِ استئذانٍ؛ لأنَّه قبْلَ أن يَنضَجَ الطَّعامُ ويُقَدَّمَ يمكِنُ أن يَدخُلَ ثمَّ يُقالَ له: اخرُجْ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٧٧).

لكنْ بعدَ أنْ يُقَدَّمَ الطَّعامُ لا بُدَّ أنْ يأكُلَ[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا﴾ أنَّ الإنسانَ ينبغي له إذا قَضَى حاجتَه مِن الطَّعامِ أنْ يَنصَرِفَ، وهذا كما أنَّه في بُيوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فهو أيضًا في بُيوتِ غيرِه؛ فإنَّ الأفضلَ لِمَن دُعِيَ إلى طَعامٍ أنَّه إذا طَعِمَ أنْ يَنتَشِرَ؛ لأنَّ بقاءَه قد يَشُقُّ على صاحِبِ البيتِ، ولأنَّ الحاجةَ الَّتي جاء مِن أجْلِها قد انتَهَت -إلَّا إذا رغِب صاحبُ البَيتِ في جلوسِه-، وإذا تأمَّلْتَ الشَّريعةَ وجَدْتَ أنَّ الإنسانَ مِن حُسْنِ أدَبِه وسُلوكِه أنَّه إذا فَرَغَ مِن حاجةٍ أرادَها انصرَف إلى غيرِها؛ ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في المسافرِ: ((فإذا قضَى نَهْمَتَه[٢]؛ فلْيَعْجَلْ[٣] إلى أهلِه))[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ فيه أنَّه كُلَّما بَعُدَ الإنسانُ عن الأسبابِ الدَّاعيةِ إلى الشَّرِّ، فإنَّه أسلَمُ له وأطهَرُ لقَلبِه؛ فلهذا مِن الأمورِ الشَّرعيَّةِ الَّتي بيَّنَ اللهُ كثيرًا مِن تفاصيلِها: أنَّ جميعَ وسائِلِ الشَّرِّ وأسبابِه ومُقَدِّماتِه: ممنوعةٌ، وأنَّه مَشروعٌ البُعدُ عنها بكُلِّ طَريقٍ[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أنَّه يجبُ على المرءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٨). ويُنظر أيضا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٤).

(٢) نَهْمَتَه: أي: رَغبَتَه وشَهوتَه وحاجتَه. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٣/ ٢٨١).

(٣) فليعجَلْ: أي: فلْيُبادِرْ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٦/ ٢٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٨).

والحديث أخرجه البخاري (١٨٠٤) واللفظ له، ومسلم (١٩٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٠).

أنْ يَسعَى في كلِّ ما فيه تطهيرُ قلبِه، وأنْ يبتعدَ عن كلِّ ما فيه تدنيسُ قلبِه؛ لأنَّه عَلَّلَ الأمرَ بالحِجابِ لِكَونِه أطهرَ للقلوبِ، ولا فرقَ في ذلك بينَ طهارةِ القلبِ مِن الأخلاقِ الرَّذيلةِ كالزِّنا واللِّواطِ، أو طَهارتِه مِن الاعتقاداتِ الفاسدةِ أو الإراداتِ السَّيِّئةِ؛ فكلُّ هذا يجبُ على المرءِ أنْ يُطَهِّرَ قلبَه منه، وإذا أوجَبَ اللهُ تعالى في ذلك العَصْرِ ما يكونُ سببًا لكَمالِ طَهارةِ القلوبِ، ففي عَصرِنا مِن بابِ أَولى؛ فكلُّ ما يكونُ سببًا لطهارةِ القلوبِ وبُعْدِها عن دَناءةِ الأخلاقِ، فإنَّه يكونُ واجبًا[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا﴾ تحذيرُ المُكَلَّفِ مِن مُخالَفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بقَليلٍ أو كثيرٍ؛ لأنَّ الفائدةَ مِن ذِكرِ عِلْمِه التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ أي: لا يغيبُ عنه شَيءٌ وإنْ دقَّ، فهو مُطَّلِعٌ عليكُنَّ حالَ الخَلوةِ بمَنْ ذُكِر، كما هو مُطَّلِعٌ على غيرِ ذلك، فلْيَحْذَرْه كلُّ أحدٍ في حالِ الخَلْوةِ، كما يَحذَرُه في حالِ الجلوةِ[٣].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ أنَّ الإذنَ بالدُّخولِ مُعتبَرٌ سواءٌ كان مِن صاحبِ البيتِ أو ممَّن أنابَه، ولذلك لم يَقُلْ: «إلَّا أنْ يَأْذَنَ لكم» أي: النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤]. ولا يُشترَطُ في الإذنِ التَّصريحُ به، بلْ إذا حصَلَ العِلمُ بالرِّضا جازَ الدُّخولُ؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ﴾ من غيرِ بيانِ فاعِلٍ، وكذلك إذا احتاجَ إلى إطفاءِ حريقٍ فيها أو غيرِ ذلك، جازَ الدُّخولُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤٣، ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٩، ١٨٠).

٢- حالُ الأمَّةِ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على وَجهَينِ:

**أحدُهما:** في حالِ الخَلْوةِ، والواجِبُ هناك عدَمُ إزعاجِه، وبيَّن ذلك بقَولِه تعالى: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ ...﴾.

**وثانيهما:** في الملأِ، والواجِبُ هناك إظهارُ التَّعظيمِ، كما قال تعالى: ﴿وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[1] [الأحزاب: ٥٦].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ تخصيصُ الطَّعامِ بالذِّكرِ لا يدُلُّ على نَفيِ ما عداه، لاسيَّما إذا عُلِمَ أنَّ غَيرَه مِثلُه؛ فإنَّ مَن جاز دُخولُ بيتِه بإذْنِه إلى طعامِه، جاز دُخولُه إلى غيرِ طعامِه بإذْنِه؛ فإنَّ غيرَ الطَّعامِ مُمكِنٌ وُجودُه مع الطَّعامِ، فإنَّ مِن الجائزِ أن يتكلَّمَ معه وقتَ ما يدعوه إلى طَعامٍ، ويَستَقضيه في حوائِجه، ويُعلِّمُه مِمَّا عندَه مِن العُلومِ، مع زيادةِ الإطعامِ، فإذا رَضِيَ بالكُلِّ فرِضاه بالبَعضِ أقرَبُ إلى الفِعلِ، فيصيرُ مِن بابِ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[2] [الإسراء: ٢٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ طَعامَ الوَليمةِ وطَعامَ الضِّيافةِ مِلكٌ للمُتَضيِّفِ، وليس مِلكًا للمَدْعُوِّينَ ولا للأضيافِ؛ لأنَّهم إنَّما أُذِنَ لهم في الأكلِ منه خاصَّةً، ولم يَملِكوه؛ فلذلك لا يجوزُ لأحدٍ رَفعُ شَيءٍ مِن ذلك الطَّعامِ معه[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ مَشروعيَّةُ إجابةِ الدَّعوةِ، ويُستفادُ منه دُخولُ الإنسانِ المَدْعُوِّ وإنْ لم يُؤذَنْ له إذا وَجَدَ البابَ على هيئةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٥).

تدُلُّ على الإذنِ، فلم يَقُلْ: «إذا دُعيتُم فأجيبوا»، والدُّخولُ أخَصُّ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ سُكوتَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الفِعلِ الواقعِ بحَضرتِه إذا كان تعَدِّيًا على حَقٍّ لِذَاتِه: لا يدُلُّ سُكوتُه فيه على جَوازِ الفِعلِ؛ لأنَّ له أن يُسامِحَ في حَقِّه، ولكِنْ يُؤخَذُ الحَظْرُ أو الإباحةُ في مِثلِه مِن أدِلَّةٍ أخرى[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كغيرِه مِن البشَرِ يَتأذَّى كما يتأذَّى غيرُه، لكنَّه يَختلِفُ عن غيرِه في قوَّةِ صبرِه وتحمُّلِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولهذا كان الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم يتأذَّى مِن بقائِهم مُسْتأنِسينَ لحديثٍ، ولا يَنهاهم حتَّى نهاهم اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو أيضًا دليلٌ على كَرَمِه؛ لأنَّ الكريمَ يَستَحْيي أنْ يُخجِلَ أضيافَه بقوله: اخرُجوا! أو يُخجِلَهم بالتَّبَرُّمِ منهم، والتَّكَرُّهِ لتصَرُّفِهم[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ وصْفُ اللهِ تعالى بالحياءِ؛ وجْهُ الدَّلالةِ أنَّه لو كان اللهُ سُبحانَه وتعالى لا يُوْصَفُ بالحياءِ ما صَحَّ أنْ يُنفَى عنه الحَياءُ في حالٍ مِن الأحوالِ دونَ الحالِ الأخرى! وعلى هذا فتكونُ الآيةُ دليلًا على أنَّ اللهَ تعالى مَوصوفٌ بالحياءِ، ولكنَّ حياءَ اللهِ تعالى ليس كحياءِ الإنسانِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ في كتابِه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[٤] [الشورى: ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ فيه جوازُ سَماعِ كلامِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ومُخاطَبتِهنَّ[١]، ووجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى أباحَ سؤالَهنَّ، والسُّؤالُ هنا ليس فقط سؤالَ استِجداءٍ، ولكنْ سؤالُ العِلمِ مِن بابِ أَولى[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ جوازُ مُكالَمةِ النِّساءِ غيرِ زَوجاتِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّه إذا جاز في زَوجاتِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -مع ما لهُنَّ مِن الاحترامِ والتَّعظيمِ- ففي غيرِهنَّ مِن بابِ أَولى، ولكِنَّه يُشترَطُ في ذلك الأمنُ مِن الفِتنةِ، فإنْ خِيفَتِ الفِتنةُ مِن المُكَلِّم أو مِن المرأةِ كان ذلك حَرامًا، وكذلك يُشترَطُ ألَّا يتمتَّعَ الإنسانُ بمكالَمةِ المرأةِ، وإنْ لم يَكُنْ تَمتُّعَ شَهوةٍ، وذلك بأن يُحِبُّ أنْ يَستمِرَّ معها في الكَلامِ، فهذا أيضًا لا يجوزُ، اللَّهمَّ إلَّا إذا كانت مِن مَحارِمِه، وأرادَ أن يتحدَّثَ معها؛ ليُؤْنِسَها أو يَستأنِسَ بها؛ فهذا لا بأسَ به[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ ثُبوتُ تعليلِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، ومِن فوائدِ قَرْنِ الأحكامِ بحِكَمِها: طُمأنينةُ الإنسانِ للحُكمِ، وبيانُ سُمُوِّ الشَّريعةِ، وأنَّ أحكامَها ليست لهوًا ولا باطلًا، وإلحاقُ ما وافقَ الحُكمَ في عِلَّتِه بحُكْمِه؛ يعني: نُلحِقُ بهذا الحُكمِ ما وافقَه في تلك العِلَّةِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ تَشَوُّفُ الشَّرعِ إلى

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٣، ٤٤٧).

ما يكونُ سَببًا لطَهارةِ القُلوبِ[١].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ فيه تحريمُ أذاه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجميعِ وُجوهِ الأذَى[٢].

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ ذكَّرهم بالوَصفِ الَّذي هو سَببٌ لسعادتِهم، واستحقَّ به عليهم مِن الحَقِّ ما لا يَقدِرونَ على القيامِ بشُكرِه، فقال: ﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلَهُ إليكم مِن الإحسانِ ما يَستوجِبُ منكم به غايةَ الإكرامِ والإجلالِ، فضلًا عن الكَفِّ عن الأذى[٣]!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ تحريمُ نِكاحِ زَوجاتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَه، وأنَّ التَّحريمَ فيهنَّ مُؤَبَّدٌ، وعلى هذا فالمُحَرَّماتُ إلى الأبدِ: مُحَرَّماتٌ بالنَّسَبِ، وبالرَّضَاعِ، وبالصِّهْرِ، وبالمُلاعَنةِ، وبالاحترامِ. فهذه خمسةُ أنواعٍ[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أنَّ الذُّنوبَ تَتفاوَتُ في العِظَمِ[٥].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ الرَّدُّ على غُلاةِ القَدَرِيَّةِ المنكِرينَ لِعلمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بأفعالِ العبدِ؛ إذْ إنَّ قولَه: ﴿بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ يَشمَلُ ما سيَفعَلُه الإنسانُ وما قد فَعَلَه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٣٩٣، ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٤٨).

١٨- قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ هؤلاء المذكورونَ مُحَرَّمونَ في النِّكاحِ فهم مَحارِمُ، فالقاعِدةُ: «كُلُّ مَن يَحرُمُ في النِّكاحِ تحريمًا مؤبَّدًا فهو مَحرَمٌ»، وعلى هذا فقَولُه تعالَى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ ليسوا بمحارِمَ؛ لأنَّ التَّحريمَ إلى أمَدٍ[١].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ لم يَذكُرِ اللهُ مِن المحارِمِ الأعمامَ والأخوالَ، فلم يَقُلْ: (ولا أعمامِهنَّ ولا أخوالِهنَّ)؛ لوجوهٍ:

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّه لم يُذكَرْ هنا مِن أصنافِ الأقرباءِ الأعمامُ ولا الأخوالُ؛ لأنَّهم بمَنزلةِ الوالدَينِ[٢]، وقد يُسمَّى العَمُّ أبًا[٣].

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ ذلك عُلِمَ مِن بني الإخوةِ وبني الأخَواتِ؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ بني الأخِ للعَمَّاتِ محارِمُ، عَلِمَ أنَّ بناتِ الأخِ للأعمامِ محارِمُ، وكذلك الحالُ في أمرِ الخالِ[٤]، فإذا لم يحتجِبْنَ عمَّن هنَّ عماتُه ولا خالاتُه، مِن أبناءِ الإخوةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١).

وذكر الرازي أيضًا أنَّ الأعمامَ رُبَّما يَذكُرونَ بناتِ الأخِ عندَ أبنائِهم، وهم غيرُ محارِمَ، وكذلك الحالُ في الخالِ. قال ابن عثيمين بعد أن ذكَرَ هذا الوجهَ: (فلمَّا كان يُخشى أنَّ العَمَّ والخالَ يَصِفُ [أحَدُهما] المرأةَ لابنِه، لم يُذكَرا؛ للتَّحَرُّزِ لا لمخالفةِ الحُكمِ، وهذا التَّعليلُ له بعضُ الوجهِ، والله أعلمُ بما أراد... ولا شَكَّ أنَّ قوَّةَ المَحْرَمِيَّةِ في العَمِّ والخالِ أضعَفُ مِن قوَّتِها فيمَن عداهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥١). =

والأخواتِ، مع رفعتِهنَّ عليهم، فعدَمُ احتجابهنَّ عن أعمامِهنَّ وأخوالِهنَّ مِن بابِ أولَى[١].

**الوجه الثالث**: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى اقتَصَرَ هاهنا على بَعضِ ما ذكَرَه مِن المحارِمِ في سُورةِ «النورِ»؛ اكتِفاءً بما تقدَّم[٢].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لم يَذكُرْ قَرابةَ الرَّضاعةِ؛ لأنَّها مَعلومةٌ مِن السُّنَّةِ، فأُريدَ الاختِصارُ هنا[٣].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ فيه إباحةُ نظَرِ مَحارِمِهنَّ إليهنَّ[٤].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ أنَّه لا يجبُ على المرأةِ أنْ تَحتَجِبَ عن المرأةِ[٥]، وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ بـ﴿نِسَآئِهِنَّ﴾: جميعُ النِّساءِ. أمَّا إذا

---

= قال الشوكاني: (وقال الزَّجَّاجُ: العَمُّ والخالُ رُبَّما يَصِفانِ المرأةَ لولَدَيهما؛ فإنَّ المرأةَ تحِلُّ لابنِ العَمِّ وابنِ الخالِ، فكُرِه لهما الرُّؤيةُ، وهذا ضعيفٌ جدًّا؛ فإنَّ تجويزَ وَصفِ المرأةِ لِمَن تحِلُّ له ممكِنٌ مِن غيرِهما ممَّن يجوزُ له النَّظَرُ إليها، لا سيَّما أبناءُ الإخوةِ وأبناءُ الأخواتِ، واللَّازِمُ باطِلٌ فالملزومُ مِثلُه، وهكذا يستلزِمُ ألَّا يجوزَ للنِّساءِ الأجنبيَّاتِ أن ينظُرْنَ إليها؛ لأنَّهنَّ يَصِفْنها، واللَّازِمُ باطِلٌ فالملزومُ مِثلُه، وهكذا لا وَجْهَ لِما قاله الشَّعْبيُّ وعِكْرِمةُ مِن أنَّه للمرأةِ أن تضَعَ خِمارَها عند عَمِّها أو خالِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥٧).

كان المرادُ: المؤمِناتِ فقط؛ فلا يجوزُ لهنَّ التكشُّفُ للكافِراتِ[١].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ أنَّه لا يجبُ الاحتِجابُ عن مِلكِ اليمينِ، وهو ما مَلَكَتْه المرأةُ مِلْكًا تامًّا، لا مِلْكًا مُشتركًا، فلو كان عبدٌ بيْنَ امرأتَينِ؛ فإنَّهما يَحتجِبان منه؛ وذلك لأنَّه ليس مِلْكًا لإحداهما، بل مِلْكٌ لهما جميعًا[٢].

٢٤- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ إثباتُ اسمِ الشَّهيدِ للهِ تعالَى، ومعناه: الحاضِرُ الذي لا يَغيبُ؛ المُطَّلِعُ علَى جميعِ الأشياءِ يُشاهِدُها ويراها، المحيطُ عِلمُه بكُلِّ شيءٍ؛ فمعَ أنه في السَّماءِ على عرْشِه، فهو مُطَّلعٌ سُبحانَه على خلْقِه، لا يَخفَى عليه شَيءٌ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((جامع الأصول)) لابن الأثير (٤/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٥٧)، ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٢٣٣، ٢٣٤).

طَعَامٍ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في بَيانِ ما يجِبُ على النَّاسِ مِن رِعايةِ حُقوقِ نِساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بعدَ بَيانِ ما يجِبُ مُراعاتُه عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الحُقوقِ المُتعلِّقةِ بِهنَّ(١).

- قولُه: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ كُنِّيَ بالانتِظارِ عن مُبادرةِ الحُضورِ قبْلَ إبَّانِ (وقتِ) الأكْلِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ونُكتةُ هذه الكِنايةِ تَشويهُ السَّبقِ بالحُضورِ بجَعْلِه نَهَمًا وجَشَعًا وإنْ كانوا قد يَحضُرون لِغَيرِ ذلك، وبهذا تَعلَمُ أنْ ليس النَّهيُ مُتوجِّهًا إلى صَريحِ الانتظارِ(٢).

- وقولُه: ﴿وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟﴾ استِدراكٌ من النَّهيِ عن الدُّخولِ بغَيرِ إذنٍ، وفيه دَلالةٌ بيِّنةٌ على أنَّ المُرادَ بالإذنِ إلى الطَّعامِ هو الدَّعوةُ إليه، ومَوقعُ الاستِدراكِ لِرَفعِ تَوهُّمِ أنَّ التَّأخُّرَ عن إبَّانِ الطِّعامِ أفضَلُ؛ فأرشَدَ النَّاسَ إلى أنَّ تَأخُّرَ الحُضورِ عن إبَّانِ الطَّعامِ لا يَنْبغي، وكذلك البقاءُ بعدَ انقضاءِ الطَّعامِ؛ فإنَّه تَجاوُزٌ لِحَدِّ الدَّعوةِ(٣).

- قولُه: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ﴾ فيه زِيادةُ حَرْفِ النَّفيِ (لا) قبْلَ ﴿مُسْتَـْٔنِسِينَ﴾؛ لِتَأْكيدِ النَّفيِ(٤).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ؛ للتَّحذيرِ، ودَفْعِ الاغترارِ بسُكوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَحسَبوه رَضِيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٣).

بما فَعَلوا؛ فمَناطُ التَّحذيرِ قولُه: ﴿ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾؛ فإنَّ أذى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُقرَّرٌ في نُفوسِهم أنَّه عمَلٌ مَذمومٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أعَزُّ خَلْقٍ في نُفوسِ المؤمنينَ، وذلك يَقْتضي التَّحرُّزَ ممَّا يُؤذِيه أدْنى أذًى، ومَناطُ دَفْعِ الاغترارِ قولُه: ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡ﴾؛ فإنَّ السُّكوتَ قد يَظُنُّه النَّاسُ رِضًا وإذنًا، ورُبَّما تَطرَّقَ إلى أذهانِ بعضِهم أنَّ جُلوسَهم لو كان مَحظورًا لَمَا سكَتَ عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فأرْشَدَهم اللهُ إلى أنَّ السُّكوتَ النَّاشئَ عن سَببٍ هو سُكوتٌ لا دَلالةَ له على الرِّضا، وأنَّه إنَّما سكَتَ حياءً مِن مُباشَرتِهم بالإخراجِ؛ فهو استحياءٌ خاصٌّ مِن عمَلٍ خاصٍّ[1].

- واقترانُ الجملةِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به. أو هو مِن تَنزيلِ غيرِ المُتردِّدِ مَنزلةَ المُتردِّدِ؛ لأنَّ حالَ النَّفرِ الَّذين أطالُوا الجُلوسَ والحديثَ في بَيتِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وعَدَمَ شُعورِهم بكَراهيَّتِه ذلك منهم حِينَ دخَلَ البيتَ، فلمَّا وجَدَهم خرَجَ، فغَفَلوا عمَّا في خُروجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن البَيتِ مِن إشارةٍ إلى كَراهيَّتِه بَقاءَهم؛ تلك حالةُ مَن يَظُنُّ ذلك مَأْذونًا فيه؛ فخُوطِبوا بهذا الخِطابِ تَشديدًا في التَّحذيرِ، واستِفاقةً مِن التَّغريرِ. وإقحامُ فِعلِ ﴿كَانَ﴾ في قولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡ﴾؛ لإفادةِ تَحقيقِ الخبَرِ[2].

- وصِيغَ ﴿يُؤۡذِي﴾ بصِيغةِ المُضارعِ دونَ اسمِ الفاعلِ (مُؤذِيًا)؛ لِقَصْدِ إفادةِ أذًى مُتكرِّرٍ، والتَّكريرُ كِنايةٌ عن الشِّدَّةِ. وصِيغَ فِعلُ ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ﴾ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لأنَّه مُفرَّعٌ على ﴿يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾؛ لِيَدُلَّ على ما دلَّ عليه المُفرَّعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٥، ٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٨٦).

هو عليه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ أعاد الاسمَ الظَّاهرَ في موضعِ الضَّميرِ، وإلَّا فكان المتوقَّعُ أنْ يقولَ: «إنَّ ذلكم كان يُؤْذيه»! ولكنْ قال تعالى: ﴿يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾؛ إعلاءً لشأنِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ وإشارةً إلى أنَّه -لنُبُوَّتِه- يجبُ أنْ يَتحاشَى المرءُ أَذِيَّتَه؛ لِمَا له مِن الفضلِ[٢].

- وصِيغَتْ الجُملةُ المعطوفةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ على بناءِ الجُملةِ الاسميَّةِ مُخالِفةً للمَعطوفةِ هي عليها، فلم يَقُلْ: (ولا يَسْتحيي اللهُ مِن الحقِّ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا الوصْفَ ثابتٌ دائمٌ للهِ تعالى؛ لأنَّ الحقَّ مِن صِفاتِه. والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ تَعريفُ الجِنسِ المُرادِ منه الاستغراقُ، والمعنى: واللهُ لا يَستَحْيي مِن جَميعِ أفرادِ جِنسِ الحقِّ، وبهذا العُمومِ في ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ صارتِ الجُملةُ بمَنزلةِ التَّذييلِ[٣].

- وأيضًا في وَضْعِ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ مَقامَ الإخراجِ -حيثُ لم يقلْ: (واللهُ لا يَسْتَحيي مِن إخراجِكم)- إيذانٌ بتَعظيمِ جانبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

- وقولُه: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾؛ فهي زِيادةُ بَيانٍ للنَّهيِ عن دُخولِ البيوتِ النَّبويَّةِ، وتَحديدٌ لِمقدارِ الضَّرورةِ الَّتي تَدْعو إلى دُخولِها، أو الوقوفِ بأبوابِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٠).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ اسمُ التَّفضيلِ ﴿أَطۡهَرُ﴾ مُستعمَلٌ للزِّيادةِ دونَ التَّفضيلِ، وهي زِيادةُ تَقريرِ مَعنى أُمومتِهنَّ للمؤمنينَ في قُلوبِ المؤمنينَ الَّتي هي أُمومةٌ جَعليَّةٌ شَرعيَّةٌ[١].

- ودلَّ قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ على الحظْرِ المُؤكِّدِ لِعُمومِ أذيَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ جُملةَ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ﴾ نَفيٌ للاستِحقاقِ الَّذي دلَّتْ عليه اللَّامُ، وإقحامُ فِعلِ (كان)؛ لِتَأكيدِ انتفاءِ الإذْنِ، وهذه الصِّيغةُ مِن صِيَغِ شِدَّةِ التَّحريمِ[٢].

- والتَّعبيرُ عنه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بعُنوانِ الرِّسالةِ في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًا﴾؛ لِتَقبيحِ ذلك الفِعلِ، والإشارةِ إلى أنَّه بمراحِلَ عمَّا يقتضيه شأنُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ في الرِّسالةِ مِن نَفعِهم المُقتَضي للمُقابَلةِ بالمِثلِ دونَ الإيذاءِ: ما فيها[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ أُكِّدَ الظرْفُ (بعد) بإدخالِ (مِن) الزَّائدةِ عليه، ثمَّ أُكِّدَ عُمومُه بظَرْفِ ﴿أَبَدًا﴾؛ لِيُعلَمَ أنَّ ذلك لا يَتطرَّقُه النَّسخُ، ثمَّ زِيدَ ذلك تأْكيدًا وتَحذيرًا بقولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾؛ فهو استِئنافٌ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ إلى ما ذُكِرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٠ ٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٤).

مِن إيذائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ونِكاحِ أزواجِه مِن بَعدِه. وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِه في الشَّرِّ والفَسادِ. وتَقييدُ العظيمِ بكَونِه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّهويلِ والتَّخويفِ؛ لأنَّه عظيمٌ في الشَّناعةِ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

- هذه الجُملةُ ﴿إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ تَذييلٌ؛ لِمَا اشتمَلَتْ عليه مِن العُمومِ في قولِه: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾، والمُرادُ مِن كلِمةِ ﴿شَيْـًٔا﴾ الدَّلالةُ على العُمومِ لكلِّ ما يَبْدو وما يَخْفَى، وأنَّ اللهَ يَعلَمُه. وفي هذا التَّعميمِ مع البُرهانِ على المقصودِ مَزيدُ تَهويلٍ، وتَشديدٌ، ومُبالَغةٌ في الوعيدِ[2].

- وإظهارُ لَفظِ (شَيْءٍ) هنا دونَ إضْمارِه -حيثُ لم يقلْ: (إنْ تُبْدُوه)-؛ لأنَّ الإضمارَ لا يَستقيمُ؛ لأنَّ (الشَّيءَ) المذكورَ ثانيًا هو غيرُ المذكورِ أوَّلًا؛ إذ المرادُ بالثَّاني جميعُ الموجوداتِ، والمرادُ بالأوَّلِ خُصوصُ أحوالِ النَّاسِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، فاللهُ عليمٌ بكلِّ كائنٍ، ومِن جُملةِ ذلك: ما يُبْدونه ويُخْفونه مِن أحوالِهم[3].

٣- قوله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٥).

- قولُه: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ ...﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ مَن لا يَجِبُ الاحتِجابُ عنهم[١].

- والمَجرورُ ﴿فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ مُقدَّرٌ فيه مُضافٌ، تَقديرُه: لا جُناحَ عليهنَّ في رُؤيةِ آبائِهنَّ إيَّاهنَّ، وإنَّما رُجِّحَ جانبُهنَّ هنا؛ لأنَّه في معنى الإذنِ؛ لأنَّ الرِّجالَ مأْمورونَ بالاستئذانِ كما اقتَضَتْه آيةُ سُورةِ (النُّورِ): ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩]، والإذنُ يَصدُرُ منهنَّ؛ فلذلك رُجِّحَ هنا جانبُهنَّ، فأُضِيفَ الحُكمُ إليهنَّ[٢]؛ إذ لا يُتصَوَّرُ الدُّخولُ عليهن إلَّا بإذْنِهنَّ، فالحرَجُ فيه وعدمُه مَصروفٌ لهنَّ؛ فلذلك نفَى عنهُنَّ الجُناحَ فيه[٣].

- وقدَّم اللهُ تعالى الآباءَ؛ لأنَّ اطِّلاعَهم على بناتِهنَّ أكثرُ، ثمَّ الأبناءَ ثمَّ الإخوةَ، وذلك ظاهرٌ. وقدَّم بَني الإخوةِ على بني الأخَواتِ قيل: لأنَّ بني الأخَواتِ آباؤُهم ليسوا بمحارِمَ، إنَّما هم أزواجُ خالاتِ أبنائِهم، وبني الإخوةِ آباؤُهم محارِمُ أيضًا؛ ففي بني الأخَواتِ مَفسَدةٌ ما، وهي: أنَّ الابنَ رُبَّما يحكي خالتَه عندَ أبيه، وهو ليس بمَحْرمٍ، ولا كذلك بنو الإخوةِ[٤].

- والْتُفِتَ مِن الغَيبةِ إلى خِطابِهنَّ في قولِه: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾؛ لِتَشريفِ نِساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَوجيهِ الخِطابِ الإلهيِّ إليهنَّ. وفي الكلامِ حَذْفٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١).

والتقديرُ: واتَّقِينَ اللهَ فيما أُمِرْتُنَّ به مِن الاحتِجابِ والاستتارِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾ الشَّهيدُ: الشَّاهدُ؛ مُبالَغةً في الفِعلِ، وفيه وَعيدٌ مِن اللهِ لِمَن خالَفَ ما أُمِرَ به[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

## الآيات (٥٦-٥٨)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٥٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَعَنَهُمُ﴾: أي: طرَدهم وأبعَدهم وأخزاهم وأهلَكَهم وأقْصاهم، وأصلُ اللَّعْنِ: الطَّردُ والإبعادُ على سبيلِ السَّخطِ[1].

﴿بُهۡتَٰنٗا﴾: أي: زورًا، وكَذِبًا، والبُهتانُ هو الكذبُ الَّذي يُبهَتُ سامعُه، أي: يدهشُ ويتحيَّرُ لِفَظاعتِه، وهو أفحشُ الكذِبِ، والبَهْتُ: التحيُّر والدَّهَشُ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُثْنِيًا على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّ اللهَ تعالى يُثْني على نَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ في الملأِ الأعلى، ومَلائِكتَه يُثْنونَ عليه ويَدْعُونَ له، يا أيُّها الَّذين آمَنوا صَلُّوا على النَّبيِّ محمَّدٍ وسَلِّموا تسليمًا.

ثمَّ يقولُ تعالى متوَعِّدًا مَن آذَى اللهَ ورسولَه: إنَّ الَّذين يُؤْذونَ اللهَ بالكُفرِ أو وَصْفِه بما لا يَليقُ به تعالى، ويؤذونَ رَسولَه محمَّدًا بالقَولِ أو الفِعلِ: أبعَدَهم اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

مِن رَحمتِه في الدُّنيا والآخِرةِ، وأعَدَّ لهم عذابًا مُهينًا.

ثمَّ يَتوعَّدُ مَن يُؤذي المؤمنينَ والمؤمناتِ، فيقولُ: والَّذين يُؤذونَ المؤمِنينَ والمؤمِناتِ بغيرِ جِنايةٍ منهم، فقد تحمَّلوا كَذِبًا فاحِشًا، وإثمًا ظاهِرًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أُعقبَتْ أحكامُ مُعامَلةِ أزواجِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالثَّناءِ عليه وتَشريفِ مَقامِه؛ إيماءً إلى أنَّ تلك الأحكامَ جاريةٌ على مُناسَبةِ عَظَمةِ مَقامِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عندَ اللهِ تعالى، وإلى أنَّ لأزواجِه مِن ذلك التَّشريفِ حظًّا عظيمًا؛ ولذلك كانتْ صِيغةُ الصَّلاةِ عليه الَّتي علَّمَها للمُسلمينَ مُشتملةً على ذِكرِ أزواجِه، ولِيُجعَلَ ذلك تَمهيدًا لأمْرِ المؤمنينَ بتَكريرِ ذِكرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالثَّناءِ والدُّعاءِ والتَّعظيمِ[1].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾.

أي: إنَّ الله تعالى يُثني على نَبيِّه في الملأِ الأعلى، ومَلائِكتَه يُثنُونَ عليه ويَدْعُونَ له[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٦٠، ٤٦١).

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حذَّر اللهُ تعالى المؤمِنينَ مِن كُلِّ ما يُؤذي الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أعقَبَه بأنَّ ذلك ليس هو أقصى حَظِّهم مِن مُعاملةِ رَسولِهم؛ أن يَتركوا أذاه، بل حَظُّهم أكبَرُ مِن ذلك، وهو: أن يُصَلُّوا عليه ويُسَلِّموا، وذلك هو إكرامُهم الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما بيْنَهم وبيْنَ ربِّهم؛ فجُملةُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمنزلةِ النَّتيجةِ الواقِعةِ بعدَ التَّمهيدِ[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا ادْعُوا اللهَ بأن يُصَلِّيَ على نبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وحيُّوه تحيَّةَ الإسلامِ، فقولوا: السَّلامُ عليك أيُّها النَّبيُّ ورحمةُ الله وبركاتُه[2].

عن كَعبِ بنِ عُجْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألْنا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، كيف الصَّلاةُ عليكم أهلَ البَيتِ؛ فإنَّ اللهَ قد علَّمَنا كيف نُسَلِّمُ عليكم؟ قال: قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على مُحمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما صَلَّيتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مَجيدٌ، اللَّهمَّ بارِكْ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما بارَكْتَ على إبراهيمَ وعلى آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مجيدٌ))[3].

وعن أبي مَسعودٍ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتانا رَسولُ الله صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٦١-٤٦٦).

قال ابنُ عثيمين في بيانِ معنى قولِ: السَّلامُ عليكَ: (أنَّك تَسألُ الله سبحانه وتعالى أن يُسلِّمَه مِن الآفاتِ الحِسِّيَّةِ والمَعنويَّةِ؛ فالسَّلامةُ الحِسِّيَّةُ: سلامةُ البدنِ والعِرضِ والمالِ، والسَّلامةُ المعنويَّةُ: سلامةُ الدِّينِ مِن الآفاتِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٦٦).

(٣) رواه البخاري (٣٣٧٠) واللفظ له، ومسلم (٤٠٦).

عليه وسلَّم ونحن في مجلِسِ سَعدِ بنِ عُبادةَ، فقال له بَشيرُ بنُ سَعدٍ: أمَرَنا اللهُ تعالى أن نُصَلِّيَ عليك يا رَسولَ اللهِ، فكيف نُصَلِّي عليك؟ قال: فسكَتَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى تمنَّيْنا أنَّه لم يَسأَلْه، ثمَّ قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما صلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمَّدٍ وعلى آلِ محمَّدٍ، كما بارَكْتَ على آلِ إبراهيمَ، في العالَمينَ؛ إنَّك حميدٌ مَجيدٌ، والسَّلامُ كما قد عَلِمتُم[1]))[2].

وعن أبي حُمَيدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّهم قالوا: ((يا رَسولَ اللهِ، كيف نُصلِّي عليك؟ فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قولوا: اللَّهمَّ صَلِّ على محمَّدٍ وأزواجِه وذُرِّيَّتِه، كما صَلَّيتَ على آلِ إبراهيمَ، وبارِكْ على محمَّدٍ وأزواجِه وذُرِّيَّتِه، كما بارَكْتَ على آلِ إبراهيمَ؛ إنَّك حميدٌ مَجيدٌ))[3].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((علَّمَني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -وكَفِّي بينَ كَفَّيْه- التَّشَهُّدَ، كما يُعَلِّمُني السُّورةَ مِن القُرآنِ: التَّحيَّاتُ لله، والصَّلواتُ والطَّيِّباتُ، السَّلامُ عليك أيُّها النَّبيُّ ورَحمةُ اللهِ وبَركاتُه، السَّلامُ علينا وعلى عِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهدُ أنَّ مُحمَّدًا عَبدُه ورَسولُه. وهو بيْنَ ظَهْرانَيْنا، فلمَّا قُبِضَ قُلْنا: السَّلامُ -يعني- على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[4].

---

(١) قولُه: ((والسَّلامُ كما قَدْ عَلِمتُم)): أي أنَّ كيفيَّةَ السَّلامَ عليَّ هي كما عَلِمتُم في التَّشهُّدِ، وهو قولُهم: السَّلامُ عليك أيُّها النَّبيُّ ورحمةُ اللهِ وبركاتُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ١٢٥).

(٢) رواه مسلم (٤٠٥).

(٣) رواه البخاري (٣٣٦٩) واللفظ له، ومسلم (٤٠٧).

(٤) رواه البخاري (٦٢٦٥) واللفظ له، ومسلم (٤٠٢).

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه فصَّل الأشياءَ بتَبيينِ بعضِ أضْدادِها، فبيَّن حالَ مُؤْذي النَّبيِّ؛ ليُبيِّنَ فضيلةَ المسَلِّم عليه[1].

وأيضًا لَمَّا أرشَدَ اللهُ المؤمنينَ إلى تَناهي مَراتبِ حُرْمةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَكريمِه، وحذَّرَهم ممَّا قد يَخْفَى على بعضِهم مِن خَفيِّ الأذَى في جانبِه، بقولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وعلَّمَهم كيف يُعامِلونه مُعامَلةَ التَّوقيرِ والتَّكريم بقولِه: ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقولِه: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] الآيةَ، وعَلِمَ أنَّهم قد امتَثَلوا أو تَعلَّموا؛ أردَفَ ذلك بوَعيدِ قومٍ اتَّسَموا -في الظَّاهرِ- بسِماتِ المؤمنينَ، وكان مِن دأْبِهم السَّعيُ فيما يُؤذي الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فأعلَمَ اللهُ المؤمنينَ بأنَّ أولئك مَلعونون في الدُّنيا والآخرةِ؛ لِيَعلَمَ المؤمنونَ أنَّ أولئك لَيسوا مِن الإيمانِ في شَيءٍ، وأنَّهم مُنافقون؛ لأنَّ مِثلَ هذا الوَعيدِ لا يُعهَدُ إلَّا للكافرينَ[2].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾

أي: إنَّ الَّذين يُؤذُونَ اللهَ بالكُفرِ به، أو بنِسبةِ الصَّاحِبةِ والوَلَدِ والشَّريكِ إليه، أو وَصْفِه بما لا يَليقُ به، أو بالإصرارِ على مَعصيتِه أو بغيرِ ذلك؛ ويُؤْذونَ رَسولَه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٣، ١٠٤).

مُحمَّدًا بالقَولِ أو الفِعلِ، كضَربِه، أو شَتمِه، أو وَصفِه بما لا يليقُ به: أبعَدَهم اللهُ وطرَدَهم مِن رحمتِه في الدُّنيا وفي الآخِرةِ[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قال اللهُ تعالى: يُؤذيني ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ[٢]، بيَدِي الأمرُ، أقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ))[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((قال اللهُ: كذَّبَني ابنُ آدمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشَتَمني ولم يكُنْ له ذلك! فأمَّا تكذيبُه إيَّاي فزَعَم أنِّي لا أقدِرُ أن أُعيدَه كما كان! وأمَّا شَتْمُه إيَّاي فقَولُه: لي ولَدٌ؛ فسُبحاني أن أتَّخِذَ صاحِبةً أو ولَدًا))[٤].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾

أي: وأعدَّ اللهُ لهم في الآخِرةِ عَذابًا يُهينُهم؛ جزاءً لهم على إيذائِهم اللهَ ورَسولَه[٥].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٨، ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٣-٤٧٥).

(٢) أنا الدَّهرُ: أي: أنا صاحبُ الدَّهرِ، ومُدَبِّرُ الأمورِ الَّتي تَنسبونها إلى الدَّهرِ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطَّابي (٣/ ١٩٠٤).

(٣) رواه البخاري (٧٤٩١) واللفظ له، ومسلم (٢٢٤٦).

(٤) رواه البخاري (٤٤٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٤).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان اللهُ تعالى مُصَلِّيًا على نَبيِّه، لم يَنفَكَّ إيذاءُ اللهِ عن إيذائِه؛ فإنَّ مَن آذى اللهَ فقد آذى الرَّسولَ؛ فبيَّنَ اللهُ للمُؤمِنينَ أنَّكم إن أتيتُم بما أمَرْتُكم، وصلَّيتُم على النَّبيِّ كما صلَّيتُ عليه، لا ينفَكُّ إيذاؤُكم عن إيذاءِ الرَّسولِ، فيأثَمُ مَن يُؤذيكم؛ لِكَونِ إيذائِكم إيذاءً للرَّسولِ، كما أنَّ إيذائي إيذاؤُه[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

أي: والَّذين يُؤذونَ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ مِن غَيرِ جِنايةٍ منهم[2]: فقد تحمَّلوا كَذِبًا فاحِشًا؛ لافترائِهم عليهم بما هم منه بُرَآءُ، ويَتحَمَّلونَ إثمًا ظاهِرًا[3].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: ١١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٣).

(٢) قيل: المرادُ: أذيَّتُهم بالأفعالِ والأقوالِ. وممَّن قال بهذا: القرطبي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١١١).

وقيل: المرادُ بالأذَى: أذى القولِ؛ بقرينةِ قولِه تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا﴾؛ لأنَّ البهتانَ مِن أنواعِ الأقوالِ. وممَّن قال بهذا: الرازي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٥).

قال الشوكاني: (﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهِرًا واضِحًا لا شَكَّ في كَونِه مِن البُهتانِ والإثمِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٠).

وقال ابن عاشور: (والمرادُ بالمُبينِ: العظيمُ القويُّ، أي: جُرْمًا مِن أشدِّ الجُرْمِ، وهو وعيدٌ بالعِقابِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٥).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أنَّ الصَّلاةَ والسَّلامَ على النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن مُقتضياتِ الإيمانِ؛ فامتثالُ هذا الأمرِ زيادةٌ في الإيمانِ، ومعصيتُه نقصٌ في الإيمانِ؛ وذلك لأنَّ النِّداءَ كان بوصفِ الإيمانِ[1]. ومِن أهَمِّ مواطِنِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّتي يتأكَّدُ طَلَبُها إمَّا وُجوبًا وإمَّا استِحبابًا مُؤكَّدًا:

**أوَّلًا**: وهو أهمُّها وآكَدُها: في الصَّلاةِ في آخِرِ التَّشَهُّدِ، وقد أجمَع المُسلِمونَ على مَشروعيَّتِه.

**ثانيًا**: الصَّلاةُ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التَّشَهُّدِ الأوَّلِ.

**ثالثًا**: الصَّلاةُ عليه في صلاةِ الجنازةِ بعدَ التَّكبيرةِ الثَّانيةِ.

**رابعًا**: الصَّلاةُ عليه بعدَ إجابةِ المؤذِّنِ وعندَ الإقامةِ.

**خامِسًا**: عندَ دُخولِ المسجِدِ، وعندَ الخُروجِ منه.

**سادِسًا**: عندَ اجتِماعِ القَومِ وقبْلَ تفرُّقِهم.

**سابعًا**: عندَ ذِكْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... إلى غيرِ ذلك مِن مواطِنِ الصَّلاةِ عليه[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، فيه أنَّ أذيَّةَ الرَّسولِ ليست كأذيَّةِ غيرِه؛ لأنَّ العبدَ لا يُؤمنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص:٤٦٢، ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٢٧)، وقد ذكَر ابنُ القيمِ واحدًا وأربعين موطنًا مِن مَواطِنِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

بالله حتَّى يُؤمنَ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومِن لَوازمِ هذا الإيمانِ تعظيمُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك يقتضي ألَّا يكونَ مِثلَ غيرِه(١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ فيه أنَّ أذيَّةَ المُؤمنينَ عَظيمةٌ، وإثمَها عَظيمٌ؛ ولهذا كان سَبُّ آحادِ المؤمِنينَ مُوجِبًا للتَّعزيرِ بحَسَبِ حالتِه وعلُوِّ مَرتبتِه؛ فتعزيرُ مَن سَبَّ الصَّحابةَ أبلَغُ، وتعزيرُ مَن سَبَّ العُلَماءَ وأهلَ الدِّينِ: أعظَمُ مِن غَيرِهم(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا ﴾ ذَمُّ الكذبِ؛ ولا سيَّما إذا كان الكذبُ يؤدِّي إلى أذيَّةِ الغيرِ(٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ﴾ هذه صلاةٌ خاصَّةٌ هي أرفَعُ صلاةً مِمَّا شَمِلَه قَولُه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾؛ لأنَّ عَظَمةَ مَقامِ النَّبيِّ تقتضي عَظمةَ الصَّلاةِ عليه(٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ بيانُ عُلُوِّ شأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِكَونِ اللهِ تعالى وملائكتِه يُصَلُّون عليه، فهذا مِن عُلُوِّ شأنِه، ورِفْعةِ ذِكْرِه(٥)، ثمَّ أمَر تعالى أهلَ العالَمِ السُّفليِّ بالصلاةِ والتَّسليمِ عليه، ليجتمعَ الثناءُ عليه مِن أهلِ العالمينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٠).

العلويِّ والسفليِّ جميعًا[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ فيه سُؤالٌ: إذا صلَّى اللهُ وملائِكتُه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأيُّ حاجةٍ إلى صَلاتِنا؟

**والجوابُ**: أنَّ الصَّلاةَ عليه ليست لحاجتِه إليها، وإلَّا فلا حاجةَ إلى صلاةِ الملائِكةِ مع صَلاةِ اللهِ عليه، وإنَّما هو لإظهارِ تَعظيمِه، كما أنَّ اللهَ تعالى أوجَبَ علينا ذِكرَ نَفْسِه، ولا حاجةَ له سُبحانَه إليه، وإنَّما هو لإظهارِ تَعظيمِه منَّا؛ شَفقةً علينا، لِيُثيبَنا عليه؛ ولهذا قال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَن صلَّى علَيَّ مرَّةً، صلَّى اللهُ عليه عَشْرًا))[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ أنَّ المشروعَ أنْ يُصَلِّيَ الإنسانُ عليه باللَّفظِ؛ ولا يكفي السَّلامُ أو الصَّلاةُ بالقلبِ! وعلى هذا فينبغي عندَما نَكتُبُ الأحاديثَ أنْ نكتُبَ: (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)، وأمَّا ما يفعلُه بعضُ النَّاسِ مِن كتابةِ: (ص)! أو (صلعم)! فإنَّ أهلَ العِلمِ كرِهوا ذلك، وقالوا: إنَّ الأفضلَ أنْ نكتُبُ: (صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ الصَّلاةِ والتَّسليمِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التَّشَهُّدِ؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ سُبحانَه أمَرَ المؤمِنينَ بالصَّلاةِ والتَّسليمِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٢).

والحديث أخرجه مسلم (٤٠٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٠، ٤٧١).

عليه وسلَّم، وأمْرُه المُطلَقُ على الوُجوبِ ما لم يَقُمْ دَليلٌ على خِلافِه، وقد ثبت أنَّ أصحابَه رَضِيَ اللهُ عنهم سألوه عن كيفيَّةِ هذه الصَّلاةِ المأمورِ بها، فقال: ((قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ على محمَّدٍ...)) الحديثَ، وقد ثبت أنَّ السَّلامَ الَّذي عُلِّمُوه هو السَّلامُ عليه في الصَّلاةِ، وهو سلامُ التَّشَهُّدِ؛ فمَخرجُ الأمْرَينِ والتَّعليمَينِ والمحَلَّينِ واحِدٌ[١].

٦- الأوْلَى في الصلاةِ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم الجمعُ بينَ الصَّلاةِ والتَّسليم، فيُقالُ: صلَّى الله عليه وَسلَّم تسليمًا، ولا يُقتصَرْ على «صلَّى الله عليه» فقط، ولا «عليه السَّلامُ» فقط؛ لقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ قُرِنَ بينَ أذَى اللهِ ورَسولِه؛ للإشارةِ إلى أنَّ أذى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُغضِبُ اللهَ تعالى، فكأنَّه أذًى للهِ[٣]، فأذِيَّةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كأذِيَّةِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ جَمَع بيْنَهما بالواوِ[٤]، فكما أنَّ طاعةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كطاعةِ اللهِ تعالى، ومعصيةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كمعصيةِ اللهِ تعالى؛ فأذيَّةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كأذيَّةِ اللهِ تعالى، يعني: مِن حيثُ التَّحريمُ؛ وأنَّها مِن الكبائرِ، وإلَّا فإنَّ أذيَّةَ اللهِ تعالى أعظَمُ مِن حيثُ الجهةُ الَّتي نُسِبَ إليها الذَّمُّ والعيبُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((الأذكار)) للنووي (ص: ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٤).

(٤) لأنَّ (الواو) -وإنْ كانتْ لا تدلُّ على التَّرتيبِ- يُستفادُ منها الجمْعُ بيْنَ الشيئينِ أو الأشياءِ في المعنَى الذي سِيقتْ له. يُنظر: ((شرح المفصل)) لابن يعيش (٢/ ١٥١)، ((شرح ألفية ابن مالك للشاطبي)) (٥/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٧).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ فيه إشارةٌ إلى بُعدٍ لا رجاءَ للقُرْبِ معه؛ لأنَّ المُبعَدَ في الدُّنيا يرجو القُربةَ في الآخِرةِ، فإذا أُبعِدَ في الآخِرةِ فقد خاب وخَسِر؛ لأنَّ اللهَ إذا أبعَدَه وطَرَده، فمَنِ الَّذي يُقرِّبُه يومَ القيامةِ[1]؟!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ أنَّ أذيَّةَ اللهِ تعالى ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى تَوَعَّدَ عليها باللَّعنِ والعَذابِ، وكلُّ شيءٍ تَوَعَّدَ اللهُ تعالى عليه باللَّعنِ أو العذابِ فإنَّه مِن كبائرِ الذُّنوبِ[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنًا وَإِثۡمًا مُّبِينًا ﴾ أنَّ مَن آذى المؤمِنينَ بما اكتَسَبوا، فإنَّه ليس عليه شَيءٌ؛ مِثلُ: إقامةِ الحَدِّ على المُجرِمِ، وتَغريمِ الظَّالمِ، وما أشبَهَ ذلك؛ فهذا وإنْ كان فيه أذيَّةٌ لكنَّها بكَسْبِه؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾[3] [النور: ٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ ﴾ وَصْفُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بأنَّه يَتأذَّى[4]، وليس أذاه سبحانَه مِن جنسِ الأذَى الحاصلِ للمخلوقينَ، كما أنَّ سخطَه وغضَبَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٢٧٣).

قال الشوكاني: (فأمَّا الأذيَّةُ للمُؤمِنِ والمؤمِنةِ بما كسَبه، ممَّا يوجِبُ عليه حدًّا أو تعزيرًا أو نحوَهما: فذلك حقٌّ أثبَتَه الشَّرعُ، وأمرٌ أمَرَنا اللهُ به، ونَدَبَنا إليه، وهكذا إذا وقَع مِن المؤمِنينَ والمؤمِناتِ الابتداءُ بشَتمٍ لمؤمِنٍ أو مؤمنةٍ، أو ضَربٍ؛ فإنَّ القصاصَ مِن الفاعِلِ ليس مِن الأذيَّةِ المحَرَّمةِ على أيِّ وَجهٍ كان، ما لم يجاوِزْ ما شرَعَه اللهُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٦).

وكراهتَه ليست مِن جنسِ ما للمخلوقينَ[١]، فالله تعالى أثبَتَ أنَّهم يُؤذونَ اللهَ ورسولَه، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وفي الحديثِ القُدسيِّ: ((يا عبادي، إنَّكم لن تَبلُغوا ضَرِّي فتَضُرُّوني))[٢]، فالضَّررُ مُنتَفٍ عن اللهِ، والأذيَّةُ حاصِلةٌ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿يُؤْذُونَ اللَّهَ﴾ بيانُ كمالِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه إذا كان يَتأذَّى مِن الأشياءِ المُنْكَرةِ الَّتي لا تليقُ به؛ دلَّ ذلك على كمالِه؛ ولهذا عندَ النَّاسِ مِن العَيبِ أنَّ الإنسانَ لا يَتَأذَّى بما يُوصَفُ به مِن عيبٍ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما أنَّ هؤلاء تعالَوْا وتعاظَموا وأهانوا الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم بأذيَّتِه؛ عاقبَهم اللهُ تعالى بما يُهينُهم ويُذِلُّهم مِن العَذابِ[٥].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ فيه تحريمُ أذى المؤمِنِ إلَّا بوَجهٍ شَرعيٍّ؛ كالمُعاقَبةِ على ذَنْبٍ، ويَدخُلُ في هذه الآيةِ كُلُّ ما يُؤدِّي للإيذاءِ؛ كالبَيعِ على بَيعِ غَيرِه، والسَّومِ على سَومِه، والخِطبةِ على خِطبتِه، وقد نصَّ الشَّافعيُّ على تحريمِ أكلِ الإنسانِ ممَّا يلي غَيرَه إذا اشتملَ على إيذاءٍ[٦].

١٥- إنَّ سَبَّ أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم حَرامٌ؛ وذلك لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٥٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٧).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٣).

اللهَ سُبحانَه يقول: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]، وأدنَى أحوالِ السَّابِّ لهم أنْ يكونَ مُغتابًا، وقال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾، وهم صدورُ المؤمنينَ؛ فإنَّهم هم المواجَهُون بالخِطابِ في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ حيثُ ذُكِرَتْ، ولم يكتَسِبوا ما يُوجِبُ أذاهم؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه رَضِيَ عنهم رِضًا مُطلقًا بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فرضِيَ عن السَّابِقينَ مِن غيرِ اشتراطِ إحسانٍ، ولم يَرْضَ عن التَّابِعينَ إلَّا أنْ يَتَّبِعوهم بإحسانٍ(١).

١٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ مِن أكثَرِ مَن يَدخُلُ في هذا الوَعيدِ: الكَفَرةُ باللهِ ورَسولِه، ثمَّ الرَّافِضةُ الَّذين يتنقَّصونَ الصَّحابةَ ويَعيبونَهم بما قد برَّأهم اللهُ منه، ويَصِفونهم بنَقيضِ ما أخبَرَ اللهُ عنهم(٢).

١٧- قَولُه تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ لم يُذْكَرْ هذا في الآيةِ الأُولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ بسببِ أنَّه لا يمكنُ أنْ يكونَ مِن فِعْلِ اللهِ تعالى أو مِن فِعْلِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يَستحِقُّون به الأذيَّةَ! لكنَّ المؤمنينَ يمكنُ أنْ يَقَعَ منهم ما يَستحِقُّون به الأذيَّةَ؛ ولهذا قال تبارك وتعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾؛ لأنَّ المؤمنَ قد يَكتسبُ شيئًا يستحِقُّ الأذيَّةَ عليه، فأذيَّتُه حينَئذٍ ليس فيها وعيدٌ، وليست إثمًا ولا بهتانًا، لكن لا يجوزُ أنْ

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٠).

يُؤْذَى بأكثرَ ممَّا يَستحِقُّ! فلأنَّه سَبَّكَ فلا تَسُبَّه أكثرَ؛ لأنَّك إذا سَبَبْتَه بمِثْلِ ما سَبَّكَ فقد آذيْتَه بقَدْرِ ما اكتسَبَ، وقد قال تبارك وتعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾[1] [الشورى: ٤٠].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ﴾ الرَّدُّ على الجَبريَّةِ؛ حيثُ أضاف الفِعلَ إليهم. والجَبريَّةُ يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه، وأنَّه لا حَوْلَ له ولا قُوَّةَ، يَفعَلُ الشَّيءَ بغيرِ اختيارِه، ويَدَعُه بغَيرِ اختيارِه[2]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ؛ مَسوقٌ لِتَشريفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حيًّا وميِّتًا[3].

- وفي قولِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ ذُكِرَ صلاةُ الملائكةِ مع صَلاةِ اللهِ؛ لِيَكونَ مِثالًا مِن صلاةِ أشرَفِ المخلوقاتِ على الرَّسولِ؛ لِتَقريبِ دَرجةِ صَلاةِ المؤمنينَ الَّتي يُؤمَرونَ بها عَقِبَ ذلك[4].

- وتأْكيدُ الجُملةِ بـ(إنَّ)؛ للاهتِمامِ. ومَجيءُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ لِتَقويةِ الخبَرِ. وافتتاحُها باسمِ الجلالةِ؛ لإدخالِ المَهابةِ والتَّعظيمِ في هذا الحُكمِ[5].

- وجِيءَ في صَلاةِ اللهِ وملائكتِه بالمُضارعِ ﴿يُصَلُّونَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّجديدِ والتَّكريرِ؛ لِيَكونَ أمْرُ المؤمنينَ بالصَّلاةِ عليه والتَّسليمِ عَقِبَ ذلك مُشيرًا إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٧٨، ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَكريرِ ذلك منهم؛ أُسوةً بصَلاةِ اللهِ ومَلائكتِه[١].

- وقال هنا: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾، أمَّا في الآيةِ الَّتي سبَقَت فقال: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فجَعَل الصَّلاةَ لله، وعَطَف الملائِكةَ على اللهِ، وهاهنا جمَعَ نَفْسَه وملائِكَتَه، وأسنَدَ الصَّلاةَ إليهم، فقال: يُصَلُّونَ، وفيه تعظيمُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وهذا لأنَّ إفرادَ الواحِدِ بالذِّكرِ، وعَطْفَ الغَيرِ عليه: يوجِبُ تَفضيلًا للمَذكورِ على المعطوفِ، كما أنَّ المَلِكَ إذا قال: (يَدخُلُ فُلانٌ وفلانٌ أيضًا) يُفهَمُ منه تقديمٌ لا يُفهَم لو قال: (فلانٌ وفلانٌ يَدخُلان). إذا عُلِمَ هذا فقال في حَقِّ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: إنَّهم يُصَلُّون؛ إشارةً إلى أنَّه في الصَّلاةِ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كالأصلِ، وفي الصَّلاةِ على المؤمِنينَ: اللهُ يَرحَمُهم، ثمَّ إنَّ الملائكةَ يُوافِقونَه؛ فهم في الصَّلاةِ على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُصَلُّونَ بالإضافةِ كأنَّها واجبةٌ عليهم أو مندوبةٌ، سواءٌ صلَّى اللهُ عليه أو لم يُصَلِّ، وفي المؤمِنينَ ليس كذلك[٢]. وقيل: لَمَّا كان سُبحانَه قد قدَّم قَولَه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ فأفرد كُلًّا بخبرٍ، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أعلَى المخاطَبينَ حَظًّا؛ فإنَّه رأسُ المؤمِنينَ- أفرَدَه هنا بهذه الصَّلاةِ الَّتي جَمَع فيها الملائِكةَ الكِرامَ معه سُبحانَه، وجعَل الخبَرَ عنهم خبرًا واحِدًا؛ لِيَكونَ أتَمَّ؛ فإنَّ قَولَك: (فُلانٌ وفلانٌ يَنصُرانِ فُلانًا) أضخَمُ مِن قولِك: (فلانٌ يَنصُرُه وفلانٌ)[٣].

- قَولُه: ﴿ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾، ذكَر المصدرَ (تَسْلِيمًا) للتَّأكيدِ؛ لِيَكملَ السَّلامُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٩٧- ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨١، ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٠٦).

عليه، ولم يؤكِّدِ الصَّلاةَ بهذا التَّأكيدِ؛ لأنَّها كانت مؤكَّدةً بقولِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾[1]، فالحكمةُ في تأكيدِ الأمرِ بالسَّلامِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمصدرِ دونَ الصَّلاةِ عليه: أنَّ التَّأكيدَ واقعٌ على الصَّلاةِ والسَّلامِ -وإنِ اختلفَتْ جهةُ التَّأكيدِ-؛ فإنَّه سُبحانَه أخبَرَ في أوَّلِ الآيةِ بصَلاتِه عليه وصَلاةِ ملائكتِه عليه مُؤَكِّدًا لهذا الإخبارِ بحرفِ «إنَّ» مُخْبِرًا عن الملائكةِ بصيغةِ الجَمعِ المضافِ إليهِ -وهذا يُفِيْدُ العُمومَ والاستِغراقَ-؛ فإذا استَشْعَرَتِ النُّفوسُ أنَّ شأنَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ اللهِ وعندَ ملائكتِه هذا الشأنُ بادرَتْ إلى الصَّلاةِ عليه -وإنْ لم تُؤْمَرْ بها-؛ بل يكفي تنبيهُها والإشارةُ إليها بأدنى إشارةٍ، فإذا أُمِرَتْ بها لم تَحْتَجْ إلى تأكيدِ الأمرِ، بل إذا جاء مُطْلَقُ الأمرِ بادرَتْ وسارعتْ إلى مُوافَقةِ اللهِ وملائكتِه في الصَّلاةِ عليه -صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه-، فلَمْ يُحْتَجْ إلى تأكيدِ الفعلِ بالمصدرِ، ولَمَّا خَلا السَّلامُ عن هذا المعنى، وجاء في حَيِّزِ الأمرِ المُجَرَّدِ دونَ الخبرِ؛ حَسُنَ تأكيدُه بالمصدرِ لِيَدُلَّ على تحقيقِ المعنى وتَثبيتِه، ولِيَقومَ تأكيدُ الفعلِ مقامَ تكريرِه -كما حصلَ التَّكريرُ في الصَّلاةِ خَبرًا وطَلَبًا-، فكذلك حصلَ التَّكريرُ في السلامِ فعلًا ومصدرًا[2].

- وحُذِف متعلَّقُ السَّلامِ -حيثُ لم يقلْ: وسلِّموا عليه-؛ لدَلالةِ متعلَّقِ الصَّلاةِ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِيَصلُحَ أن يكونَ عليه، وأن يكونَ له، فيَصلُحَ أن يُجعلَ التَّسليمُ بمعنى الإذعانِ[3].

٢- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٠٩).

لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ الجملةُ مُستأنفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّه يَخطُرُ في نُفوسِ كثيرٍ ممَّن يَسمَعُ الآياتِ السَّابقةِ أنْ يَتساءلوا عن حالِ قَومٍ قد عُلِمَ منهم قِلَّةُ التَّحرُّزِ مِن أذَى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما لا يَليقُ بتَوقيرِه[1].

- وفي قولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ... ﴾ جِيءَ باسمِ الموصولِ (الَّذِينَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم عُرِفوا بأنَّ إيذاءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أحوالِهم المُختصَّةِ بهم، ولدَلالةِ الصِّلةِ ﴿يُؤْذُونَ﴾ على أنَّ أذَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو عِلَّةُ لَعْنِهم وعَذابِهم[2].

٣- قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أُلحِقَت حُرمةُ المؤمنينَ بحُرْمةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَنويهًا بشَأْنِهم، وذُكِروا على حِدَةٍ؛ للإشارةِ إلى نُزولِ رُتبتِهم عن رُتبةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهذا الاستِطرادُ مُعترِضٌ بيْنَ أحكامِ حُرمةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وآدابِ أزواجِه وبَناتِه والمؤمناتِ[3].

- وعطَفَ (المؤمناتِ) على (المؤمنينَ)؛ للتَّصريحِ بمُساواةِ الحُكْمِ، وإنْ كان ذلك مَعلومًا مِن الشَّريعةِ؛ لِوَزْعِ المُؤذِينَ عن أذَى المُؤمناتِ؛ لأنَّهنَّ جانبٌ ضعيفٌ، بخِلافِ الرِّجالِ؛ فقد يَزَعُهم عنهم اتِّقاءُ غَضبِهم، وثأْرِهم لأنفُسِهم[4].

- وتَقييدُ الأذَى هنا بقولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ بعدَ إطلاقِه فيما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قبْلَه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ أذَى اللهِ ورسولِه لا يكونُ إلَّا غيرَ حَقٍّ، وأمَّا أذَى هؤلاءِ فمِنه ومِنْه، ولزِيادةِ تَشنيعِ ذلك الأذَى بأنَّه ظُلمٌ وكذِبٌ[1].

- ومَعنى ﴿ٱحْتَمَلُواْ﴾ كلَّفوا أنفُسَهم حِمْلًا، وذلك تَمثيلٌ للبُهتانِ بحِمْلٍ ثَقيلٍ على صاحبِه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٦).

## الآيات (٥٩-٦٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُدۡنِينَ﴾: أي: يَلْبَسْنَ، ويُغطِّينَ، وإدناءُ الجِلبابِ: التَّقنُّعُ به وشَدُّه على الجَبينِ، والدُّنوُّ: القُربُ بالذَّاتِ، أو بالحُكمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلةِ، وأصلُ (دنو): المقارَبةُ[1].

﴿جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾: أي: مَلاحِفِهنَّ وأردِيَتِهنَّ، وأصلُ (جلب) هنا: يدُلُّ على شَيءٍ يُغطِّي شَيئًا[2].

﴿وَٱلۡمُرۡجِفُونَ﴾: أي: الَّذين يُخبِرونَ بالأراجيفِ، وهي: الأكاذيبُ الَّتي يكونُ معها اضْطِرابٌ في النَّاسِ، والإرجافُ: إشاعةُ الباطِلِ؛ للاغتِمامِ به، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على اضطِرابٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٣)، ((مقاييس اللغة)) =

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾: أي: لَنُسَلِّطَنَّك عليهم، وأصلُه مِن الغِراءِ: وهو ما يُلصَقُ به[١].

﴿ثُقِفُوٓاْ﴾: أي: أُدرِكوا ووُجِدوا وظُفِرَ بهم، وأصلُ (ثقف): يدُلُّ على الحِذْقِ في إدراكِ الشَّيءِ، ثمَّ يُتجَوَّزُ به فيُستعمَلُ في مجرَّدِ الإدراكِ[٢].

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾: السُّنَّةُ: هي الطَّريقةُ المَسلوكةُ والمِنهاجُ المتَّبَعُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ واطِّرادِه في سُهولةٍ[٣].

﴿خَلَوْاْ﴾: أي: مَضَوا وذَهَبوا، مِن: خلا الزَّمانُ: إذا مَضَى وذهَبَ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لأزواجِك وبناتِك وجميعِ نِساءِ المُؤمِنينَ يُرخينَ الجلابيبَ على أجسادِهنَّ إذا خرَجْنَ مِن بُيوتِهنَّ؛ ذلك الإدناءُ أقرَبُ إلى أن

---

= لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٩٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٦٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٢٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣١/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

يُعرَفْنَ أنَّهنَّ حرائرُ، وأنَّهنَّ عفيفاتٌ، فلا يَتعَرَّضَ الفُسَّاقُ لهنَّ بأذًى، وكان اللهُ غفورًا رحيمًا.

ثمَّ يقولُ الله تعالى متوعِّدًا أهلَ الشَّرِّ: لَئِنْ لم يَنْتَهِ المنافِقونَ، والَّذين في قُلوبهم مَرَضٌ، والَّذين يُشيعونَ الأخبارَ الكاذِبةَ في المدينةِ لِتَخويفِ المؤمِنينَ- لَنُسَلِّطَنَّك عليهم يا محمَّدُ، ثم لا يُجاوِرونَك في المدينةِ إلَّا زَمنًا قليلًا، مَطرودينَ مُبعَدينَ، أيْنَما وُجِدوا أُسِروا وقُتِلوا، سَنَّ اللهُ بهم سُنَّةَ مَن قَبْلَهم، ولن تجِدَ -يا محمَّدُ- لِسُنَّةِ الله تغييرًا.

## تفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكَرَ الله تعالى أنَّ مَن يُؤذي المؤمِنينَ يحتمِلُ بُهتانًا، وكان فيه مَنْعُ المكَلَّفِ عن إيذاءِ المؤمِنِ- أمَرَ المؤمِنَ باجتِنابِ المَواضِعِ الَّتي فيها التُّهَمُ الموجِبةُ للتَّأذِّي؛ لئلَّا يَحصُلَ الإيذاءُ الممنوعُ منه، ولَمَّا كان الإيذاءُ القَوليُّ مُختَصًّا بالذِّكْرِ اختَصَّ بالذِّكْرِ ما هو سَبَبُ الإيذاءِ القَوليِّ وهو النِّساءُ؛ فإنَّ ذِكْرَهنَّ بالسُّوءِ يُؤذي الرِّجالَ والنِّساءَ، بخِلافِ ذِكْرِ الرِّجالِ؛ فإنَّ مَن ذَكَر امرأةً بالسُّوءِ تأذَّت وتأذَّى أقارِبُها أكثَرَ مِن تأذِّيها، ومَن ذكَرَ رَجُلًا بالسُّوءِ تأذَّى ولا يتأذَّى نساؤُه، وكان في الجاهليَّةِ تَخرُجُ الحُرَّةُ والأَمَةُ مَكشوفاتٍ يَتبَعُهنَّ الزُّناةُ وتقَعُ التُّهَمُ؛ فأمَرَ اللهُ الحرائِرَ بالتَّجَلْبُبِ[1]؛ فاللهُ تعالى أتبَعَ النَّهيَ عن أذى المؤمِناتِ بأنْ أُمِرْن باتِّقاءِ أسبابِ الأذى؛ لأنَّ مِن شأنِ المَطالِبِ السَّعيُ في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٣).

تذليلِ وَسائِلِها[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾

أي: يا أيُّها النَّبيُّ قُلْ لِزَوجاتِك وبناتِك وجميعِ نساءِ المؤمِنينَ يُرخِينَ جَلابيبَهنَّ على أجسامِهنَّ[٢] إذا خرَجْنَ مِن بُيوتِهنَّ لحاجتِهنَّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٦).

(٢) قولُه: ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يشملُ زوجاتِ المؤمنينَ، ومَن للمؤمنينَ عليهنَّ ولايةٌ مِن البناتِ والأخواتِ والعمَّاتِ والخالاتِ والأمَّهاتِ وغيرِ ذلك، ويشملُ أيضًا الكتابيَّاتِ إذا تزوَّجْنَ مِن المُسلِمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٢).

قال القرطبيُّ: (قولُه تعالى: ﴿مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الجلابيبُ جمعُ جلبابٍ... والصَّحيحُ أنَّه الثَّوبُ الَّذي يَسْتُرُ جميعَ البدنِ... واختلَف النَّاسُ في صورة إرخائِه؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ وعَبِيدةُ السَّلْمانيُّ: ذلك أن تَلويَه المرأةُ حتَّى لا يَظهَرَ منها إلَّا عَينٌ واحدةٌ تُبصِرُ بها. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا وقَتادةُ: ذلك أن تَلويَه فوقَ الجَبينِ وتَشُدَّه، ثمَّ تَعطِفَه على الأنفِ، وإن ظهَرَت عيناها، لكنَّه يَستُرُ الصَّدرَ ومُعظَمَ الوَجهِ. وقال الحسَنُ: تُغطِّي نِصفَ وَجْهِها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨١، ١٨٢).

وقيل: المرادُ: تغطيةُ جميعِ الجسَدِ ويدخُلُ فيه الوَجهُ. وممَّن قال بذلك: ابن جرير، والزمخشري، والبيضاويُّ، وابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

قال الواحدي: (قال المفسرون في قوله: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ يغطينَ رءوسَهنَّ ووجوهَهنَّ إلَّا عينًا واحدةً). ((البسيط)) (١٨/ ٢٩٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ﴾ أي: على جميعِ البدَنِ، ولكنْ مِن المعروفِ أنَّ الجلبابَ ساترٌ لأكثَرِ البدَنِ، والعادةُ عندَهم أنَّ المرأةَ تَكشِفُ وَجْهَها وتَخرُجُ مكشوفةَ الوجهِ ومكشوفةَ النَّحرِ، فأمَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ أن يُدنِينَ عليهنَّ مِن جلابيبِهنَّ، أي: على هذا المكشوفِ الَّذي يُكشَفُ عادةً، وهو الوجهُ والنَّحرُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤١، ٢٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن =

عن أمِّ عَطيَّةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: ((أُمِرْنا أن نُخرِجَ الحُيَّضَ يومَ العِيدينِ، وذواتِ الخُدورِ[1]، فيَشْهَدْنَ جماعةَ المُسلِمينَ ودَعوتَهم، ويَعتَزِلُ الحُيَّضُ عن مُصَلَّاهنَّ. قالت امرأةٌ: يا رَسولَ اللهِ، إحدانا ليس لها جِلبابٌ؟ قال: لِتُلبِسْها صاحِبَتُها مِن جِلبابِها))[2].

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾

أي: إرخاءُ النِّساءِ مِن جَلابيبِهنَّ عليهنَّ عندَ خُروجِهنَّ مِن بُيوتِهنَّ: أقرَبُ لِئَلَّا يَتعَرَّضَ لهنَّ المنافِقونَ والفُسَّاقُ بأذًى؛ فحينَ يَرَونَهنَّ مُتَسَتِّراتٍ يَعرِفونَ أنَّهنَّ حرائرُ، وأنَّهنَّ عفيفاتٌ فلا يَطمَعونَ فيهنَّ[3].

---

= تيمية (١٥/ ٤٤٨) و(٢٢/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨١)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

قيل: الآيةُ في الحرائرِ دونَ الإماءِ. وإليه ذهب كثيرٌ مِن المفسِّرينَ، ومنهم: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ عطية، وحكاه ابنُ عبدِ البَرِّ إجماعًا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨١)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٩)، ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٨/ ٥٤٢).

قال ابنُ عبد البَرِّ: (العُلماءُ مُجمِعونَ على أنَّ الله عزَّ وجَلَّ لم يُرِدْ بما أمَرَ به النِّساءَ مِنَ الاحتجابِ وأن يُدنِينَ عليهنَّ مِن جلابيبِهنَّ: الإماءَ، وإنَّما أراد بذلك الحرائرَ). ((الاستذكار)) (٨/ ٥٤٢).

لكن قال أبو الحسَنِ ابنُ القَطَّانِ: (في هذا الإجماعِ الَّذي حكاه نظَرٌ). ((إحكام النظر)) (ص: ٢٢٥).

وقيل: الآيةُ عامَّةٌ في الحرائرِ والإماءِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ حزم، وأبو الحسن ابنُ القطان، وأبو حيَّان، والألبانيُّ. يُنظر: ((المحلى)) لابن حزم (٢/ ٢٤١، ٢٤٨)، ((إحكام النظر)) لابن القطان (ص: ٢٢٥ - ٢٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٤)، ((جلباب المرأة المسلمة)) للألباني (ص: ٩١، ٩٢).

(١) ذواتُ الخُدورِ: أي: اللَّاتي قَلَّ خُروجُهنَّ مِن بُيوتِهنَّ. والخُدورُ: السُّتورُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٣/ ١٠٦٣).

(٢) رواه البخاري (٣٥١) واللفظ له، ومسلم (٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨١، ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٤)، ((مجموع =

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ بالمَغفرةِ أزَلًا وأبدًا؛ فيَستُرُ ذُنوبَ عبادِه، ويَتجاوَزُ

---

= الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٤٦، ٣٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٧)، ((جلباب المرأة المسلمة)) للألباني (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٧).

قال الشنقيطي: (عامَّةَ المُفسِّرينَ مِن الصَّحابةِ فمَن بعدَهم فَسَّروا الآيةَ معَ بَيانِهم سببَ نُزولِها، بأنَّ نساءَ أهلِ المدينةِ كُنْ يَخْرُجْنَ باللَّيلِ لقضاءِ حاجَتِهنَّ خارجَ البيوتِ، وكان بالمدينةِ بعضُ الفُسَّاقِ يَتَعَرَّضونَ للإماءِ، ولا يَتَعَرَّضونَ للحرائِرِ، وكانَ بعضُ نساءِ المُؤْمنينَ يَخْرُجْنَ في زِيٍّ ليس مُتَمَيِّزًا عن زِيِّ الإماءِ، فيَتعَرَّضُ لهنَّ أولئك الفسَّاقُ بالأذَى؛ ظنًّا منهم أنَّهنَّ إماءٌ، فأمَر اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يأمُرَ أزواجَه وبَناتِه ونساءَ المؤمنينَ أن يَتمَيَّزْنَ في زِيِّهِنَّ عن زِيِّ الإماءِ، وذلك بأَنْ يُدْنِينَ عليهنَّ مِن جلابيبِهنَّ، فإذا فَعَلْنَ ذلك ورآهنَّ الفُسَّاقُ عَلِموا أنَّهنَّ حرائِرُ، ومعرِفَتُهم بأنَّهنَّ حرائِرُ لا إماءَ هو معنَى قولِه: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾، فهي معرِفةٌ بالصِّفةِ لا بالشَّخصِ. وهذا التَّفسيرُ مُنْسَجِمٌ مع ظاهِرِ القرآنِ كما تَرى. فقولُه: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾؛ لأنَّ إدناءَهُنَّ عليهنَّ مِن جلابيبِهنَّ يُشْعِرُ بأنَّهنَّ حرائِرُ، فهو أدنَى وأقْرَبُ لِأَنْ ﴿يُعْرَفْنَ﴾ أي: يُعْلَمَ أنَّهنَّ حرائِرُ، ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ مِن قِبَلِ الفسَّاقِ الَّذينَ يَتعرَّضُونَ للإماءِ. وهذا هو الَّذي فَسَّر به أهلُ العلمِ بالتَّفسيرِ هذه الآيةَ، وهو واضحٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٤٥).

وقال أبو حيَّان بعدَ أن قرَّر أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَشملُ الحرائرَ والإماءَ: (﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ لِتَستُّرِهِنَّ بالعِفَّةِ، فلا يُتعرَّضَ لهن، ولا يُلقَيْنَ بما يَكرَهْنَ؛ لأنَّ المرأةَ إذا كانت في غايةِ التَّستُّرِ والانضِمامِ لم يُقْدَمْ عليها، بخِلافِ المتبرِّجةِ؛ فإنَّها مطموعٌ فيها). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٤).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الآيةَ صالحةٌ للمعنيَينِ: الأوَّل: أي: يُعرَفْنَ بأنَّهنَّ عفيفاتٌ بعيداتٌ عن الرِّيَبِ، لا يُرِدْنَ السُّوءَ ولا الفاحشةَ. والثَّاني: أي: يُعرَفْنَ بأنَّهنَّ حرائرُ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٧).

وجمَع السعديُّ بيْن المعنيَينِ، فذكَر أنَّهنَّ إذا لم يَحتجِبْنَ، رُبَّما ظَنَّ مَن في قلبِه مرضٌ أنَّهنَّ غيرُ عفيفاتٍ، فيَتعرَّضُ لهنَّ، ويُؤْذيهنَّ، ورُبَّما يُظَنُّ أنَّهنَّ إماءٌ، فيَتهاوَنُ بهنَّ مَن يريدُ الشَّرَّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

عن مُؤاخَذتِهم بها؛ ومتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالرَّحمةِ؛ فهو رَحيمٌ بعبادِه، ومِن ذلك شَرعُه لهم مِنَ الأحكامِ ما فيه صَلاحُهم(١).

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المُشرِكِ الَّذي يُؤذي اللهَ ورَسولَه، والمجاهِرِ الَّذي يُؤذي المؤمِنينَ- ذكَرَ حالَ المُسِرِّ الَّذي يُؤذِي اللهَ ورَسولَه، ويُظهِرُ الحَقَّ ويُضمِرُ الباطِلَ، وهو المُنافِقُ(٢).

وقيل: إنَّه انتِقالٌ مِن زَجرِ قَومٍ عُرِفوا بأذَى الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- والمؤمِنينَ والمؤمِناتِ، ومِن توَعُّدِهم بغَضَبِ اللهِ عليهم في الدُّنيا والآخِرةِ؛ إلى تَهديدِهم بعِقابٍ في الدُّنيا يَشْرَعُه اللهُ لهم إنْ هم لم يُقلِعوا عن ذلك؛ للعِلمِ بأنَّه لا يَنفعُ في أولئك وعيدُ الآخرةِ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بالبَعثِ، وأولئك هم المنافِقونَ(٣).

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

قال ابنُ جرير: (﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لِمَا سَلَف مِنهنَّ مِن تركِهنَّ إدناءَهنَّ الجلابيبَ عليهنَّ ﴿رَّحِيمًا﴾ بهنَّ أن يُعاقِبَهنَّ بعدَ توبتِهنَّ بإدناءِ الجلابيبِ عليهنَّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٣).

وقيل: هو صَفْحٌ عمَّا سبَقَ مِن أذَى الحرائرِ قبْلَ تَنبيهِ النَّاسِ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٧).

أي: لَئِنْ لم يَنتَهِ الَّذين يُخْفُونَ الكُفرَ، ويُظهِرونَ الإيمانَ، والَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ[١]، والمُشيعُونَ في المدينةِ الأخبارَ الكاذِبةَ الباطِلةَ لتَخويفِ المُؤمِنينَ[٢]؛ لَنُسَلِّطَنَّك -يا رَسولَ اللهِ- عليهم، ولنحْمِلَنَّك على مُؤاخذتِهم إن استَمَرُّوا على ذلك[٣].

---

(١) قيل: هو مَرَضُ الشَّهوةِ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦١).

وممَّن ذهب إلى نحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عِكْرِمةُ، وقَتادةُ، وأبو صالحٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٤).

قال الواحدي: (﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ يعني: الفُجورَ، وهم الزُّناةُ، وهو قولُ جميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٢٩٤).

وقال ابنُ عثيمين: (ويحتمِلُ أن يكونَ المعنى أعمَّ... أي: في قلوبِهم مَرَضٌ مِن الشَّكِّ، أو سوءِ الخُلَقِ، وغيرِ ذلك، وهو أعمُّ وأحسَنُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٤). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

(٢) قيل: الأوصافُ الثَّلاثةُ تعودُ لصِنفٍ واحدٍ، وهم المنافقون. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، والرازي، والقرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٨).

وقيل: الأوصافُ الثلاثةُ ليست لموصوفٍ واحدٍ. وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ عطية، واختاره أبو حيَّان، والألوسيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٥)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٦، ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٣، ١٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٢، ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٨، ١٠٩).

قال السمرقندي: (يعني: إنْ لم ينتَهوا عن النِّفاقِ وعن الفجورِ وعن القولِ بالأراجيفِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٣).

وقال الشوكاني: (تَوَعَّد سبحانَه أهلَ النِّفاقِ والإرجافِ فقالَ: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عَمَّا هم عليه مِن النِّفاقِ ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ وريبةٌ عمَّا هم عليه مِن الاضطرابِ =

﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾

أي: ثمَّ لا يَسكُنونَ المدينةَ معك إلَّا مُدَّةً قَليلةً(١).

﴿مَّلْعُونِينَۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا ٦١﴾

﴿مَّلْعُونِينَ﴾

أي: مَطرودينَ مُبعَدينَ(٢).

---

= ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ﴾ عمَّا يَصْدُرُ منهم مِن الإرجافِ بذِكْرِ الأخبارِ الكاذبةِ المتضَمِّنةِ لتوهينِ جانبِ المسلمينَ، وظهورِ المشركينَ عَليهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٩).

قيل: المعنى: فلا يَبقَونَ في المدينةِ، ولا يُساكِنونك فيها إلَّا مُدَّةً قليلةً حتَّى يخرجوا منها. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والزمخشري، والنسفي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٦٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣).

وقيل: حتَّى هلاكِهم. وممَّن قال بهذا: السمرقنديُّ، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والرَّسْعَني، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفَرَّاء (٢/ ٣٥٠).

وقيل: المعنى: لا يُجاوِرونك في المدينةِ إلَّا قليلًا؛ لأنَّه يَنفيهم، أو يَقتُلُهم. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ في الجملةِ، أي: مَطرودون مُبعَدون: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٦٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٧٣)، ((تفسير =

﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾

أي: في أيِّ مكانٍ وُجِدوا، أُسِروا وقُتِلوا[1].

---

= البغوي)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

وقال جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ: (﴿مَّلْعُونِينَ﴾ مُبْعَدينَ عن الرَّحمةِ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٠).

قال الرَّسْعَنيُّ: (﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نُصِب على الذَّمِّ، أو على الحالِ، أي: لا يُجاوِرونك إلَّا مَلْعونين. وقيل: إنَّ ﴿قَلِيلًا﴾ نُصِب على الحالِ أيضًا، على معنى: لا يُجاوِرونك إلَّا أَقِلَّاءَ أذِلَّاءَ مَلْعونينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٥٩).

ممَّن اختار أنَّه منصوبٌ على الحالِ، وأنَّ المعنى: لا يُجاوِرونك إلَّا وهم مَلْعونون: الزَّجَّاجُ، وابنُ الجَوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٩١).

قال ابن عثيمين: (المعنى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ في حالِ كونِهم ملعونينَ حالَ المجاورةِ، يعني حتى في بقائِهم عندَك يكونونَ ملعونينَ مطرودينَ مبعدينَ، لا يألفُهم أحدٌ، ولا يَحْنو عليهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٥، ٤٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٦)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٠).

قيل: هذا حُكمُهم إذا كانوا مُقيمينَ على النِّفاقِ والإرجافِ. وقيل: إنَّ قوله: ﴿مَّلْعُونِينَ ...﴾ إلخ، إنَّما هو لمجرَّدِ الدُّعاءِ عليهم، لا أنَّه أمرٌ لرسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بقتالِهم، ولا تسليطٌ له عليهم. وقد قيل: إنَّهم انْتَهَوا بعدَ نزولِ هذه الآيةِ عن الإرجافِ، فلم يُغْرِه اللهُ بهم. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥١).

قال ابن تيميَّةَ: (الَّذين كانوا منافقينَ، منهم مَن تاب عن نِفاقِه، وانتهَى عنه الغالبُ؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾، فلمَّا لم يُغرِه الله بهم، ولم يُقتِّلْهم تقتيلًا، بل كانوا يجاورونَه بالمدينةِ؛ دلَّ ذلك على أنَّهم انْتَهَوا). ((منهاج السنة النبوية)) (٢/ ٤٣). =

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا سَنَّ اللهُ تعالى للمُنافِقينَ هذا العذابَ الهائِلَ في الدُّنيا؛ بيَّنَ أنَّ تلك عادتُه في أوليائِه وأعدائِه[1].

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ﴾

أي: سَنَّ اللهُ بهم سُنَّتَه المعلومةَ في الذين مَضَوْا مِن قبلُ[2]: أن يُعاقِبَهم بتَسليطِ

---

= وقال ابنُ عاشور: (بهذا الوعيدِ انكفَّ المنافقونَ عن أذاةِ المسلمينَ، وعن الإرجافِ، فلم يقَعِ التَّقتيلُ فيهم؛ إذ لم يُحفَظْ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قتَل منهم أحدًا، ولا أنَّهم خرَج منهم أحدٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٠، ١١١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤١٣).

(٢) قيل: المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾: مَن تقدَّمَ مِن الماضينَ في الأمَمِ السَّابقةِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥١).

وقيل: أي: مِن المُنافِقينَ الذين يُنافِقون الأنبياءَ إذا هم أظهروا نِفاقَهم، والَّذينَ فَعَلوا مِثْلَ ما فعَل هؤلاءِ، وممن اختار هذا المعنى في الجملة: ابن جرير، والبغوي، والرسعني، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ١٩٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٩١).

وقال القاسمي: (أي: في المفترينَ والمؤذينَ الذين مَضَوا، إذا تمرَّدوا على نفاقِهم وكفرِهم ولم يرجِعوا). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١١٤).

وقيل: المرادُ بهم: مَن سَبقوا مِن أعداءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، الَّذين أَذِنَ له اللهُ بقَتلِهم؛ مِثلُ الَّذين قُتِلوا مِن المشركينَ في بَدرٍ وغَيرِها، ومِثلُ الَّذين قُتِلوا مِن يهودِ قُرَيظةَ. وممَّن استظهَر ذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١١).

قال ابنُ عاشور: (هذا أظهَرُ؛ لأنَّ ما أصاب أولئك أوقَعُ في الموعظةِ؛ إذ كان هذان الفَريقانِ على ذُكْرٍ مِن المنافِقينَ، وقد شَهِدوا بَعضَهم، وبَلَغَهم خبَرُ بَعضٍ. ويحتملُ أيضًا أن يَشملَ ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ الأممَ السالفةَ الَّذين غَضِب الله عليهم لأذاهم رُسلَهم، فاستأصَلَهم الله تعالى؛ مِثلَ قَومِ فِرعونَ وأضرابِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١١). =

المؤمِنينَ عليهم، فيأخُذونَهم ويُقَتِّلونَهم تَقتيلًا[١].

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾

أي: ولن تَجِدَ -يا مُحمَّدُ- لعادةِ اللهِ الَّتي سَنَّها في خَلقِه تَغييرًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- يجبُ على الإنسانِ أنْ يَغارَ على زَوجتِه أكثرَ مِن غيرِها؛ لأنَّها فِراشُه، وفي فَسادِها فَسادٌ لفِراشِه، وتَشكيكٌ في نَسْلِه؛ وجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى بدَأ بالأزواجِ، فقال تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ﴾[٣].

---

= وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (هكذا كانت سُنَّةُ الله في أهلِ بدرٍ: القتلَ، وهكذا سُنَّةُ الله في هؤلاء الزُّناةِ وفي المُرجِفينَ القتلَ، إن لم يَنتهوا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١١).

قال الزجاج: (المعنى سَنَّ اللَّه في الذين ينافقونَ الأنبياءَ، ويُرجِفون بهم أنْ يُقتَّلوا حيثُما ثُقِفُوا). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٣٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٧).

قال الواحدي بعدَ أنْ ذكَر كلامَ الزجَّاجِ: (وهذا معنى قولِ المفسِّرينَ في هذه الآيةِ). ((البسيط)) (١٨/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٩).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أنَّ الإنسانَ مَسؤولٌ عمَّن تحتَ رعايتِه، سواءٌ كانت تلك المسؤوليةُ عامَّةً أم خاصَّةً، وفي هذه الآيةِ مَسؤوليَّتانِ على رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خاصَّةٌ وعامَّةٌ؛ فالخاصَّةُ قولُه تبارك وتعالى: ﴿لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾، والعامَّةُ قَولُه تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الرِّجالَ قَوَّامونَ على النِّساءِ، وأنَّ على المؤمِنينَ مَسؤوليةً في نسائِهم، وإلَّا لاكتفى بقَولِ: «والنِّساءِ المؤمناتِ»، فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّ المؤمِنَ يجبُ أنْ يكونَ مُلاحِظًا لنِسائِه[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ هذه الآيةُ تُرشِدُ إلى تقديمِ إصلاحِ الفاسِدِ مِن الأمَّةِ على قَطْعِه منها؛ لأنَّ إصلاحَ الفاسِدِ يَكسِبُ الأمَّةَ فَردًا صالِحًا، أو طائِفةً صالِحةً تنتَفِعُ الأمَّةُ منها، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بل أرجو أن يُخرِجَ الله مِن أصلابِهم مَن يعبدُ الله وَحْدَه لا يُشرِكُ به شيئًا))[3]؛ ولهذا شُرِعَت استِتابةُ المرتَدِّ قبْلَ قَتلِه تُعرَضُ عليه التَّوبةُ، وشُرِعَت دَعوةُ الكُفَّارِ الَّذين يَغزوهم المسلِمونَ إلى دينِ الإسلامِ قبْلَ الشُّروعِ في غزوِهم؛ فإن أسلَموا وإلَّا عُرِض عليهم الدُّخولُ في ذِمَّةِ المُسلِمينَ؛ لأنَّ في دُخولِهم في الذِّمَّةِ انتِفاعًا للمُسلِمينَ بجِزْيتِهم والاعتِضادِ بهم، وأمَّا قتْلُ القاتِلِ عَمدًا فشُرِعَ فيه؛ مجاراةً لقَطعِ الأحقادِ مِن قُلوبِ أولياءِ القَتيلِ؛ لئلَّا يَقتُلَ بَعضُ الأمَّةِ بَعضًا؛ إذ لا دواءَ لتلك العِلَّةِ إلَّا القِصاصُ؛ ولذلك رغَّبَ الشَّرعُ في العَفوِ وفي قَبولِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٢، ٤٨٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٠).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ التَّحذيرُ مِن النِّفاقِ ومَرَضِ القَلبِ والإرجافِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى تَوَعَّدَ هؤلاء إذا لم يَنتَهوا بأن يُسَلِّطَ رسولَه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عليهم، ويُغرِيَه بهم[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل﴾ أهمِّيَّةُ ما أمَر اللهُ تعالى به رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى أمَرَه أنْ يُبَلِّغَها أمرًا خاصًّا في قولِه تعالى: ﴿قُل﴾، وإلَّا فكلُّ القرآنِ مأمورٌ بتبليغِه بقَولِه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، لكنَّ بعضَ الأحكامِ يُصدِّرُها اللهُ عزَّ وجلَّ بلفظِ (قل)، فيكونُ كأنَّه أُرسِلَ بهذه الآيةِ إرسالًا خاصًّا، فيكونُ في ذلك دَليلٌ على أهمِّيَّةِ هذا الأمرِ الَّذي أمَرَ اللهُ تعالى به رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ هذه آيةُ الحِجابِ في حَقِّ سائِرِ النِّساءِ، ففيها وجوبُ سَترِ الرأسِ والوجهِ عليهنَّ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ دليلٌ على أنَّ الحِجابَ إنَّما أُمِرَ به الحرائرُ دونَ الإماءِ؛ لأنَّه خَصَّ أزواجَه وبناتِه، ولم يَقُلْ: «وما ملكَتْ يمينُك وإمائِك وإماءِ أزواجِك وبناتِك»، ثمَّ قال: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، والإماءُ لم يَدخُلْنَ في نساءِ المؤمنينَ، كما لم يدخُلْ في قَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٤).

﴿نِسَآئِهِنَّ﴾ «ما ملَكَتْ أيمانُهنَّ» حتَّى عطفَ عليه في آيتَي النُّورِ والأحزابِ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ في الآيةِ دَلالةُ رُخصةِ خُروجِ الحرائرِ للحوائجِ؛ لأنَّه لو لم يَجُزْ لهنَّ الخُروجُ لم يُؤمَرْنَ بإرخاءِ الجلبابِ على أنفُسِهنَّ، ولَنُهينَ عن الخُروجِ؛ فإذ لم يُمنَعْنَ دلَّ ذلك أنَّه يجوزُ لهنَّ الخروجُ للحاجةِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَ﴾ يدُلُّ على وُجودِ أذيَّةٍ إن لم يحتَجِبْنَ؛ وذلك لأنَّهنَّ إذا لم يَحتَجِبْنَ رُبَّما ظُنَّ أنهنَّ غيرُ عَفيفاتٍ، فيَتعرَّضُ لهنَّ مَن في قَلبِه مَرَضٌ فيُؤذيهنَّ، ورُبَّما استُهينَ بهنَّ، وظُنَّ أنهنَّ إماءٌ، فتَهاوَنَ بهنَّ مَن يُريدُ الشَّرَّ؛ فالاحتِجابُ حاسِمٌ لمطامعِ الطَّامعينَ فيهنَّ[٣]، فالحجابِ فيه كَفُّ الأذَى عن المرأةِ؛ فيكونُ في ذلك كرامةٌ لها، وإعزازٌ لها، ورِفعةٌ لها مِن أنْ تُؤذَى[٤].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عامٌّ في كلِّ امرأةٍ مِن المؤمِنينَ، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٤٨).

آيةُ سورةِ (النور) هي قولُه تعالى: ﴿وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ إلى قَولِه سُبحانه: ﴿أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

وآيةُ سورةِ (الأحزاب) هي قولُه تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٥].

وذكَر ابنُ تيميةَ أن الأَمةَ إذا كانت الشَّهوةُ والفتنةُ حاصلةً بتركِ احتجابِها فإنَّها تحتجبُ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٧٣)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩١).

قال تبارك وتعالى: ﴿وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ دونَ أن يقولَ: «والنِّساء»؛ لأجْلِ الإغراءِ والحَثِّ، كقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يَحِلُّ لامرأةٍ تُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ...))[١]، وإلَّا فإنَّ الكافِراتِ يجبُ عليهِنَّ مِن الحِجابِ ما يجِبُ على المؤمِناتِ؛ لئلَّا يَفتَتِنَ النَّاسُ بهنَّ[٢].

٧- أثبت اللهُ تعالى للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بناتٍ، بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾، ومِنَ الشِّيعةِ مَن خالف في ذلك؛ حيث قالوا: ليس للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن بناتٍ إلَّا فاطِمةَ رَضِيَ اللهُ عنها، وأمَّا زَينبُ ورُقَيَّةُ وأمُّ كُلثومٍ -رَضِيَ اللهُ تعالى عنهنَّ- فلَسْنَ بناتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَهم، بل بناتُ خديجةَ رَضِيَ الله عنها مِن زَوجِها الأوَّلِ! وذلك لأنَّ عُثمانَ رَضِيَ الله عنه لَمَّا تزوَّجَ بِنتَيِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حملَتْهم شِدَّةُ بُغضِ عُثمانَ رَضِيَ الله عنه على إنكارِ كَونِهنَّ بِنتَيِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنكارِ القُرآنِ؛ فوقَعَ الخِلافُ بيْنَهم وبيْنَ الله تعالى[٣]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ لم يَقُلْ: «على وُجوهِهنَّ»، ولا «على نُحورِهنَّ»، ولا «على صُدورِهنَّ»؛ فيكون شامِلًا لجميعِ البدنِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ أنَّ الشَّرعَ يَتشَوَّفُ إلى أنْ تكونَ المرأةُ بعيدةً عن إبرازِ مفاتِنِها؛ لأنَّ الجِلبابَ يكونُ دائمًا واسِعًا لا تَظهَرُ منه مفاتِنُ الجسمِ[٥].

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (١٠٨٨)، ومسلم (١٣٣٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الشنيعة في بيان الخلاف بين الله تعالى والشيعة)) لإبراهيم الحيدري البغدادي (ص: ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٩٠).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ رحمةُ اللهِ تعالى بعبادِه؛ حيثُ يُبيِّنُ لهم عِلَلَ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ؛ وجهُ ذلك: أنَّ ذِكرَ العِلَلِ يُفيدُ عِدَّةَ فوائِدَ، ومنها:

أ- طُمأنينةُ النَّفْسِ، واقتناعُها اقتناعًا أكثرَ بذلك الحُكمِ المُعَلَّلِ.

ب- سُمُوُّ الشَّريعةِ، وأنَّها لا تأمُرُ بشَيءٍ عبَثًا، بل لا بُدَّ لكلِّ شَيءٍ تأمرُ به مِن الحِكمةِ المناسِبةِ الَّتي يَنبني عليها الحُكمُ.

ج- أنَّ العِلَّةَ إذا كانت عامَّةً أمكَنَ أنْ نَقيسَ على المُعَلَّلِ ما وافقَه في تلك العِلَّةِ، فنُلحِقَه به في الحُكمِ[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ إثباتُ صِفَتَي المغفرةِ والرَّحمةِ لله عزَّ وجلَّ، وهذان الوصْفان دَلَّ عليهما الاسمانُ دَلالةَ مُطابَقةٍ، وهذان الاسمان يَدُلَّان على الكرمِ دَلالةَ التِزامٍ[2]؛ لأنّ الكريمَ هو الَّذي يَغْفِرُ، وهو الَّذي يَرْحَمُ[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ...﴾ شِدَّةُ عنايةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بنساءِ المؤمِنينَ؛ فإنَّ عَلاقةَ الآيةِ هذه بالَّتي قَبْلَها ظاهِرةٌ؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٠).

(٢) تنقسِمُ الدَّلالةُ اللَّفظيَّةُ الوضعيَّةُ ثلاثةَ أقسام: دلالة المطابَقة، ودلالة التَّضمُّن، ودلالة الالتِزام. فدَلالةُ المُطابَقةِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على تمامِ مُسَمَّاه؛ كدَلالةِ الإنسانِ والأسَدِ على حقيقتَيْهما. ودَلالةُ التَّضَمُّنِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على بعضِ مُسَمَّاه؛ كدَلالةِ البيتِ على السَّقفِ أو الحائطِ. ودَلالةُ الالتِزامِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على معنًى آخَرَ خارِجٍ عن معناه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٩، ٣٣٠)، ((علوم البلاغة البيان)) للمراغي (ص: ٢٠٩، ٢١٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٣٠، ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٢).

المنافِقينَ والَّذين في قُلوبِهم مرضٌ هم أكثرُ النَّاسِ تَعَرُّضًا لأذيَّةِ المؤمِناتِ؛ ولهذا أعقَبَ الآيةَ السَّابقةَ بهذه الآيةِ؛ ففيه كمالُ عنايةِ اللهِ تعالى بنِساءِ المؤمِنينَ[١].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ يَقتضي أنَّ مَن لم يَنتَهِ فإنَّه يُؤخَذُ ويُقتَلُ؛ فعُلِمَ أنَّ الانتِهاءَ العاصِمَ للدَّمِ ما كان قبْلَ الأخذِ[٢].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه تحريمُ الأذى بالإرجافِ[٣]، فقولُه: ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ فيه معنَى كَوْنِ الأخبارِ كاذبةً أو مُسيئةً لأصحابِها، يُعيدونها في المجالِسِ؛ لِيَطمئنَّ السَّامِعون لها -مرَّةً بعدَ مرَّةٍ- بأنَّها صادِقةٌ؛ لأنَّ الإشاعةَ إنَّما تُقصَدُ للتَّرويجِ بشَيءٍ غيرِ واقعٍ، أو ممَّا لا يُصَدَّقُ به؛ لاشتِقاقِ ذلك مِن الرَّجفِ والرَّجَفانِ، وهو الاضْطِرابُ والتَّزَلْزُلُ[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ وقَولِه سُبحانَه: ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أنَّه إذا ظَهَرَ نِفاقُ المنافِقِ، وتَبيَّنَ عداؤه؛ فإنَّه يجوزُ أن يُعامَلَ بما يَقتَضيه نفاقُه[٥].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الاستِثناءُ فيه لطيفةٌ، وهي: أنَّ اللهَ تعالى وعدَ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه يُخرِجُ أعداءَه مِن المدينةِ، ويَنفيهم على يَدِه؛ إظهارًا لشَوكتِه، ولو كان النَّفيُ بإرادةِ الله مِن غيرِ واسطةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأخلى المدينةَ عنهم في ألطَفِ آنٍ، بقَولِه: كُنْ فيَكونُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٩٨).

ولكنْ لَمَّا أراد اللهُ أن يكونَ على يدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لا يقَعُ ذلك إلَّا بزمانٍ وإن لَطُفَ، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وهو أن يَتهَيَّؤوا ويَتأهَّبوا للخُروجِ[1].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يُجاوِرونَك في المدينةِ إلَّا قليلًا بأن تَقتُلَهم أو تَنفِيَهم، وهذا فيه دَليلٌ لِنَفيِ أهلِ الشَّرِّ الَّذين يُتضَرَّرُ بإقامتِهم بينَ أظهُرِ المُسلِمينَ؛ فإنَّ ذلك أحسَمُ للشَّرِّ، وأبعَدُ منه[2].

١٨- قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، وليست هذه السُّنَّةُ مِثلَ الحُكمِ الَّذي يُبَدَّلُ ويُنسَخُ؛ فإنَّ النَّسخَ يكونُ في الأحكامِ، أمَّا الأفعالُ والأخبارُ فلا تُنسَخُ[3].

١٩- قال الله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ اللهُ أخبر أنَّ سُنَّتَه لن تُبَدَّلَ ولن تَتحَوَّلَ، وسُنَّتُه عادتُه الَّتي يُسوِّي فيها بيْنَ الشَّيءِ ونَظيرِه الماضي، وهذا يَقتَضي أنَّه سُبحانَه يَحكُمُ في الأمورِ المُتماثِلةِ بأحكامٍ مُتماثِلةٍ[4].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٣).

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ ابتُدِئَ بأزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبَناتِه؛ لأنَّهنَّ أكمَلُ النِّساءِ؛ فذِكْرُهنَّ مِن ذِكْرِ بعضِ أفرادِ العامِّ؛ للاهتِمامِ به[١]. وقيل: بدَأ بأزواجِه؛ لِما لهنَّ به مِن الوُصلةِ بالنِّكاحِ، وأخَّر بناتِه عن الأزواجِ؛ لأنَّ أزواجَهم يَكْفونَه أمرَهنَّ[٢].

- قولُه: ﴿يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ الإدناءُ: التَّقريبُ، وهو كِنايةٌ عن اللُّبسِ والوَضعِ، أي: يَضعْنَ عليهنَّ جَلابيبَهنَّ[٣].

- والتَّذييلُ بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ صَفْحٌ عمَّا سبَقَ مِن أذَى الحرائرِ قبْلَ تَنبيهِ النَّاسِ إلى هذا الأدَبِ الإسلاميِّ -على قولٍ-، والتَّذييلُ يَقْتضي انتهاءَ الغرَضِ[٤].

٢- قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا﴾

- قولُه: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، واللَّامُ في ﴿لَّئِن﴾ مُوَطِّئةٌ للقَسَمِ؛ فالكلامُ بعْدَها قسَمٌ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: واللهِ لئنْ لم يَنتَهِ... واللَّامُ في ﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ﴾ لامُ جوابِ القسَمِ، وجوابُ القسَمِ دليلٌ على جوابِ الشَّرطِ[٥].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَنتَهِ﴾؛ لِظُهورِه، أي: لم يَنتهُوا عن أذَى الرَّسولِ والمؤمنينَ[٦]. وقيل: لم يُذكَرِ المعمولُ الَّذي يَنتَهونَ عنه؛ لِيَعُمَّ ذلك كُلَّ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٨، ١٠٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

توحي به أنفُسُهم إليهم، وتُوَسْوِسُ به وتدعو إليه مِنَ الشَّرِّ؛ مِن التَّعريضِ بسَبِّ الإسلامِ وأهلِه، والإرجافِ بالمُسلِمينَ، وتَوهينِ قُواهم، والتَّعَرُّضِ للمُؤمِناتِ بالسُّوءِ والفاحِشةِ، وغيرِ ذلك مِن المعاصي الصَّادِرةِ مِن أمثالِ هؤلاء[1].

- قولُه: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ التَّغايُرُ في الوَصفِ للشَّخصِ الواحدِ، كأنَّه قال: كلُّ مَنِ اتَّصَفَ بهذه الصِّفاتِ الثَّلاثةِ فله الوعيدُ -وذلك على قولٍ-، ونَصَّ على وَصْفَيْ مرَضِ القلوبِ والإرجافِ مِن صِفاتِ المنافقينَ؛ لِشِدَّةِ ضَررِهما على المؤمنينَ[2].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ اختيرَ عطْفُ الجُملةِ بـ (ثُمَّ) دونَ الفاءِ؛ للدَّلالةِ على تَراخي انتفاءِ المُجاوَرةِ عن الإغراءِ بهم تَراخي رُتْبةٍ؛ لأنَّ الخُروجَ مِن الأوطانِ أشدُّ على النُّفوسِ ممَّا يَلحَقُها مِن ضُرٍّ في الأبدانِ، كما أنَّ الجلاءَ ومُفارَقةَ جِوارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أعظَمُ ما يُصِيبُهم. والاستِثناءُ بقولِه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ لِتَأكيدِ نَفْيِ المُجاورةِ، وأنَّه ليس جاريًا على طَريقةِ المُبالَغةِ، أي: لا يَبقَون معك في المدينةِ إلَّا مُدَّةً قليلةً[3].

٣- قوله تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ فيه إيجازٌ بَديعٌ؛ فاللَّعنُ هو الإبعادُ والطَّردُ، وهو مُستعمَلٌ هنا كِنايةً عن الإهانةِ والتَّجنُّبِ في المدينةِ، أي: يُعامِلُهم المسلمونَ بتَجنُّبِهم عن مُخالَطتِهم، ويَبتعِدون همْ مِن المؤمنينَ اتِّقاءً ووَجَلًا، فتَضمَّنَ أنْ يَكونوا مُتوارينَ مُختفِينَ؛ خَوفًا مِن بَطْشِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٨)، (تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٠٩).

المؤمنينَ بهم؛ حيث أغْراهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- وقولُه: ﴿تَقْتِيلًا﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لِعامِلِه، أي: قُتِّلوا قتْلًا شديدًا شاملًا؛ فالتَّأكيدُ هنا تأْكيدٌ لِتَسلُّطِ القتْلِ على جَميعِ الأفرادِ؛ لِرَفْعِ احتِمالِ المجازِ في عُمومِ القتلِ؛ فالمعنى: قُتِّلوا قتلًا شديدًا لا يُفلِتُ منه أحدٌ[٢].

٤- قوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

- في قولِه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ شُبِّهت السُّنةُ الَّتي عُومِلوا بها بشَيءٍ في وسَطِهم؛ كِنايةً عن تَغلغُلِه فيهم، وتَناوُلِه جميعَهم[٣].

- وذُيِّلَت هذه الآيةُ بجُملةِ ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾؛ لِزيادةِ تَحقيقِ أنَّ العذابَ حائقٌ بالمنافقينَ وأتْباعِهم إنْ لم يَنتهُوا عمَّا همْ فيه، وأنَّ اللهَ لا يُخالِفُ سُنَّتَه؛ لأنَّها مُقْتضى حِكمتِه وعِلمِه، فلا تَجري مُتعلَّقاتُها إلَّا على سَننٍ واحدٍ، وبهذا العُمومِ الَّذي أفادَه وُقوعُ النَّكِرةِ في سِياقِ النَّفيِ تأهَّلَتِ الجُملةُ لِأنْ تكونَ تَذييلًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١١٢).

## الآيات (٦٢-٦٨)

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَعِيرًا﴾: أي: نارًا تَتسعَّرُ، أي: تشتعِلُ وتتَّقِدُ وترتفِعُ، والسَّعيرُ اسمٌ مِن أسماءِ جهنَّمَ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أنَّ وقتَ قيامِ السَّاعةِ لا يَعلَمُه إلَّا هو: يَسألُك النَّاسُ -يا محمَّدُ- عن وُقوعِ القيامةِ، قُلْ: عِلمُ ذلك عندَ اللهِ. وما يُدريك -يا محمَّدُ- لعلَّ وَقتَ مَجيءِ القيامةِ قد دنا واقترَبَ.

ثمَّ يُبيِّنُ ما أعدَّه للكافرينَ مِن عِقابٍ، فيقولُ: إنَّ اللهَ طردَ الكافرينَ مِن رَحمتِه، وأعدَّ لهم نارًا مُتسَعِّرةً، ماكِثينَ فيها أبدًا، لا يجِدونَ وليًّا ولا نَصيرًا يومَ تُقلَّبُ وُجوهُهم في النَّارِ يقولونَ: يا لَيْتَنا أطَعْنا اللهَ وأطَعْنا رسولَه.

وقالوا: ربَّنا إنَّا أطَعْنا في الدُّنيا أئمَّتَنا وكُبراءَنا في الكُفرِ والعِصيانِ، فصَرَفونا عن طريقِ الحَقِّ، رَبَّنا ضاعِفْ عليهم العذابَ، وأبْعِدْهم مِن رحمتِك إبعادًا عظيمًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٥٢١).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ المنافِقينَ في الدُّنيا أنَّهم يُلعَنون ويُهانونَ ويُقتَلون؛ أراد أن يُبيِّنَ حالَهم في الآخرةِ، فذكَّرهم بالقيامةِ، وذكَر ما يكونُ لهم فيها[1].

وأيضًا لَمَّا كان تهديدُ المنافِقينَ بعذابِ الدُّنيا يُذَكِّرُ بالخَوضِ في عذابِ الآخرةِ: خوْضِ المُكَذِّبينَ السَّاخِرينَ، وخَوضِ المؤمِنينَ الخائِفينَ، وأهلِ الكتابِ؛ أتْبَعَ ذلك بهذا[2].

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾.

أي: يَسألُك النَّاسُ -يا مُحمَّدُ- عن يومِ القيامةِ متى يكونُ[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

قيل: المرادُ بالنَّاسِ هنا: المُشرِكون. ومِمَّن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤١٥).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ هؤلاء المُؤْذُون لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، لَمَّا تُوُعِّدوا بالعذابِ سألوا عن السَّاعةِ؛ استِبعادًا وتكذيبًا، موهِمينَ أنَّها لا تكونُ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٨).

وقيل: المرادُ: المُشرِكون واليهودُ؛ فكان المشركون يَسألون استعجالًا على سبيلِ الهُزْءِ، واليهودُ يَسألونه امتِحانًا. ومِمَّن اختاره: الزمخشري، والنسفي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٦).

وزاد الألوسي على المشركينَ واليهودِ: المنافقينَ، وأنَّهم كانوا يَسألون تعَنُّتًا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٦٧). =

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ لهم: لا يَعلَمُ متى تكونُ القيامةُ إلَّا اللهُ وَحْدَه[1].

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

أي: وما يُدريك[2] -يا مُحمَّدُ- لعلَّ وَقتَ مَجيءِ القيامةِ قد دنا واقتَرَب[3].

كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقال الله سُبحانَه: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

---

= وقيل: المرادُ: عمومُ النَّاسِ؛ فيدخُلُ في ذلك المؤمنونَ والكافِرون. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٧).

(٢) قال ابن عثيمين: (﴿مَا﴾ يَحتمِلُ أن تكونَ نافيةً، يعني: لا يُدريك عنها شَيءٌ، ويَحتمِلُ أن تكونَ استفهاميَّةً، يعني: أيَّ شَيءٍ يُعلِمُك بها حتَّى تسألَ عنها؟! وأيًّا كان فاللهُ تعالى يَنفي عِلمَ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلم بها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٥٨٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٨).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ٦٤ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المنافِقينَ في الدُّنيا أنَّهم مَلعونونَ مُهانونَ مَقتولونَ؛ بيَّنَ حالَهم في الآخِرةِ[1].

وأيضًا فهذا حظُّ الكافِرينَ مِن وعيدِ السَّاعةِ، وهذه لَعْنةُ الآخرةِ، قُفِّيَت بها لعنةُ الدُّنيا في قَولِه: ﴿ مَّلۡعُونِينَ ﴾ [الأحزاب: ٦١]؛ ولذلك عَطَف عليها ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴾، فكانت لعنةُ الدُّنيا مُقتَرِنةً بالأخذِ والتَّقتيلِ، ولعنةُ الآخرةِ مُقترنةً بالسَّعيرِ[2].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ طَرَد الكافِرينَ وأبعَدَهم عن رَحمتِه[3].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ سَعِيرًا ﴾.

أي: وأعدَّ لهم نارًا شَديدةَ الإيقادِ؛ لِتَعذيبِهم بها[4].

كما قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١١).

قال السعدي: (فأبعَدهم في الدُّنيا والآخرةِ مِن رحمتِه، وكفَى بذلك عقابًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٥).

مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ٦٥﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

أي: ماكِثينَ في النَّارِ إلى غيرِ نهايةٍ، فلا يَخرُجونَ منها(١).

﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾.

أي: لا يَجِدونَ وَليًّا يَتولَّاهم ويَنفَعُهم ويحفَظُهم، ولا نصيرًا يَنصُرُهم مِن عذابِ اللهِ(٢).

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦﴾.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾.

أي: يومَ(٣) .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٣، ٥١٤).

(٣) قيل: الظَّرفُ هنا مُتعَلِّقٌ بما سبق، فيكونُ المعنى: لا يجِدُ هؤلاء الكافرون وليًّا ولا نصيرًا في يومِ تُقلَّبُ وُجوهُهم في النَّارِ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٦٧).

وقيل: الظَّرفُ هنا مُنتَصِبٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ. وممَّن اختاره: القِنَّوْجي. يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (١١/ ١٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٦).

قال ابن عثيمين: (يحتملُ أنَّ العامِلَ قَولُه تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾، ويحتمِلُ أنَّها ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ويحتملُ أنَّها ﴿يَجِدُونَ﴾، فتكونُ تنازعت فيها العواملُ الثَّلاثةُ، ويحتمِلُ أنَّ العامِلَ محذوفٌ، أي: اذكُرْ يومَ تقلَّبُ وجوهُهم. وكُلُّ هذا مُحتملٌ، وكُلُّ هذا هو الواقعُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٥).

تُقلَّبُ وُجوهُ الكافِرينَ في النَّارِ مِن جِهةٍ إلى أُخرى[١].

﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾.

أي: يَقولُ الكافِرونَ وهم نادِمونَ: يا لَيْتَنا[٢] أطَعْنا اللهَ وأطَعْنا رَسولَه في الدُّنيا، فسَلِمْنا مِن عذابِ الآخرةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۞ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۞ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾.

أي: وقال الكافِرونَ: رَبَّنا إنَّا أطَعْنا في الدُّنيا أئِمَّتَنا في الضَّلالِ؛ مِن الكُفرِ بك، ومَعصيتِك، ومُخالَفةِ رَسولِك؛ فصَرَفونا عن طريقِ الحَقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٥).

(٢) (يَا) حرفُ تنبيهٍ، أو حرفُ نداءٍ، والمنادَى محذوفٌ يُناسِبُ المقامَ، تقديرُه: يا ربَّنا لَيْتَنا. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣).

قال ابن عثيمين: (قَولُه تعالى: ﴿ يَقُولُونَ ﴾ يحتملُ أنَّها حالٌ -وهو الأقرَبُ- مِنَ الهاءِ في ﴿وُجُوهُهُمۡ﴾ يعني: تُقلَّبُ وهم يتحَسَّرون هذا التحَسُّرَ ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ ﴾. ويحتملُ أن تكونَ استِئنافيَّةً، أي: حكايةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى عنهم ما يقولونَ ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٢). =

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا لم يُجْدِ تَمَنِّي الكافِرينَ الإيمانَ بطاعةِ الله ورَسولِه، ولا قام لهم عذرٌ في تَشَكِّيهم ممَّن أضلُّوهم: دَعَوا على ساداتِهم، فقالوا[1]:

﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾.

أي: رَبَّنا عذِّبْهم مِثْلَيْ عَذابِنا[2].

كما قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ [ص: ٦١].

﴿ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾.

---

= قال الماوَرْدي: (في «السَّادةِ» هنا ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنَّهم الرُّؤساءُ. الثَّاني: أنَّهم الأُمَراء، قاله أبو أسامةَ. الثَّالثُ: الأشرافُ، قاله طاووسٌ. وفي «الكُبَراءِ» هنا قولانِ؛ أحدُهما: أنَّهم العُلَماء، قاله طاوسٌ. الثَّاني: ذَوو الأسنانِ، وهو مأثورٌ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٢٥).

وقيل: السَّيِّدُ هو ذو الشَّرفِ والقَدْرِ في قومِه، والكُبَراءُ هم الَّذين فوقَ الأسيادِ؛ كالأمراءِ ونحوِهم. قاله ابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٩).

وقال القرطبي: (والسَّادةُ والكبراءُ بمعنًى). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٤٩).

وقال الشوكاني: (المرادُ بالسَّادةِ والكبراءِ: هم الرُّؤساءُ والقادَةُ الَّذينَ كانوا يَمْتَثِلونَ أمْرَهم في الدُّنيا، وَيَقْتَدونَ بهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٤).

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿كَبِيرًا﴾ قيل: المعنى: لَعْنًا عظيمًا شديدًا غَليظًا[١].

٢- قِراءةُ ﴿كَثِيرًا﴾ قيل: على معنى أنَّهم يُلعَنونَ مرَّةً بعدَ مَرَّةٍ. وقيل: المعنى: اطرُدْهم عن محالِّ الرَّحمةِ طَرْدا مُتناهِيًا في العدَدِ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ[٢].

﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾.

أي: واطرُدْهم وأبعِدْهم مِن رَحمتِك طَردًا وإبعادًا عَظيمًا[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ تحذيرُ مَن حَوْلَ وُلاةِ الأُمورِ والوُلاةِ -سواءٌ كانوا وزراءَ أو مُديرينَ أو أكبرَ مِن ذلك- أنْ يَتَّبِعَهم في مَعصيةِ اللهِ تعالى،

---

(١) قرأ بها عاصم. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢٠).

قال الأزهري: (معنى الكبيرِ والكثيرِ متقارِبٌ، والثَّاءُ أكثرُ. واللهُ أعلَمُ). ((معاني القراءات)) (٢/ ٢٨٦).

وقال القرطبي: (قراءةُ الباءِ ترجِعُ في المعنى إلى الثَّاءِ؛ لأنَّ ما كَبُرَ كان كثيرًا عظيمَ المِقْدارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٠).

وقال ابن عثيمين: (﴿وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ وهذا باعتبارِ الكَمِّيَّةِ، و﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾ باعتبارِ الكيفيَّةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٢٠، ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٢٠، ٥٢١).

وأنَّه سيأتي اليَومُ الَّذي يَندَمُ فيه ويَتبرَّأُ، ويدعو عليهم بمِثلِ هذا الدُّعاءِ[١].

٢- في قولِه تعالى عن الأتْباعِ: ﴿فَأَضَلُّونَا﴾ التَّحذيرُ مِن جُلساءِ السُّوءِ، فكلُّ إنسانٍ ترى أنَّه سيُضِلُّك عن سبيلِ اللهِ تعالى فالواجبُ عليك البُعدُ عنه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ السُّؤالُ عن السَّاعةِ يحتَمِلُ أن يكونَ الحامِلُ عليه التَّكذيبَ بها واستِبعادَها، وهذا يُورَدُ مِن الكُفَّارِ، وتارةً يُسأَلُ عنها سؤالَ استِفهامٍ: متى تكونُ؟ مع الإيقانِ بها، وهذا قد يَرِدُ مِن المؤمنينِ، وتارةً يُسأَلُ عنها؛ لِيُبَيَّنَ للنَّاسِ أنَّه لا يمكِنُ العِلمُ بها، كما سأل جِبريلُ عليه السَّلامُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن السَّاعةِ؛ قال: ((متى السَّاعةُ؟))[٣] وهو لم يَسألِ استِبعادًا وإنكارًا، ولا استِرشادًا: متى يكونُ وَقتُها؟ ولكِنْ إعلامًا بأنَّ وقتَها لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ دليلٌ واضحٌ على أنَّه لا أحدَ غيرُ اللهِ يَعْلَمُ متى تكونُ السَّاعةُ، فمَنِ ادَّعَى أنَّه يَعلَمُ السَّاعةَ متى تكونُ؛ فقد كَذَّبَ القرآنَ، وهو كافرٌ مرتدٌّ عن دينِ الإسلامِ[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾؛ فـ ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ وصفٌ عُلِّقَ به اللَّعنُ، فهو رَبطٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٠٦).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٣٦٥/ ٢).

لِلَّعنِ بالكُفرِ، فيكونُ في هذا إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ، وفيه رَدٌّ على الجَهميَّةِ الَّذين يقولونَ: «إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَفعَلُ الأشياءَ لا لحِكمةٍ، بل لمجرَّدِ المَشيئةِ»[١]!

٤- قولُه تعالى ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ فيه إثباتُ وجودِ النَّارِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ تأبيدُ خُلودِ الكافرينَ في النَّارِ، وفيه رَدٌّ على مَن قال بفَناءِ النَّارِ[٣].

٦- أنَّ السَّادةَ والكُبَراءَ المُضلِّينَ لا يَنفعونَ أتْباعَهم يومَ القيامةِ؛ ووجْهُه: قولُه تعالى: ﴿لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، ولأنَّهم دَعَوا على هؤلاء: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾، ولو كانوا ينفعونَهم ما دَعَوا عليهم[٤]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ أنَّ طاعةَ الله تعالى ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سببٌ للنَّجاةِ مِن النارِ؛ لأنهم لم يَتمَنَّوا شيئًا سِوى طاعةِ الله تعالى ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّتي يَنْجُونَ بها مِن هذا العذابِ[٥].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ هذا النَّصُّ وأمثالُه فيه نصيبٌ لكلِّ مَنِ اتَّبع أحدًا مِنَ الرُّؤوسِ فيما يُخالِفُ الكِتابَ والسُّنَّةَ؛ سواءٌ كانوا مِن رؤوسِ أهلِ النَّظَرِ والكَلامِ والمعقولِ والفَلسَفةِ، أو رُؤوسِ أهلِ الفِقهِ والكلامِ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ، أو مِن رُؤوسِ أهلِ العبادةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٢٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١٨).

والزَّهادةِ والتَّألُّهِ والتَّصوُّفِ، أو مِن رُؤوسِ أهلِ المُلكِ والإمارةِ والحُكمِ والوِلايةِ والقَضاءِ(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾ تحريمُ تقليدِ العالِمِ إذا تَبَيَّنَ النَّصُّ، وهذا يُؤخَذُ مِن أنَّ اللهَ تعالى عَذَّبَ هؤلاء على تقليدِ كُبَرائِهم وزُعمائِهم في مخالفةِ الحقِّ. فإذا تَبَيَّنَ لك الحقُّ فلا تَقُلْ: قال العالِمُ الفلانيُّ، وقال الإمامُ الفلانيُّ؛ فتكونَ مُشابهًا لأهلِ النَّارِ الَّذين قالوا: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾(٢).

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾ هذا نصٌّ في بُطلانِ التَّقليدِ، وقد احتجَّ العلماءُ بهذه الآيةِ وغيرِها مِن الآياتِ في إبطالِ التَّقليدِ، ولم يمنَعْهم كفرُ أولئك مِن الاحتجاجِ بها؛ لأنَّ التَّشبيهَ لم يَقَعْ مِن جهةِ كُفْرِ أحدِهما وإيمانِ الآخَرِ، وإنَّما وَقَعَ التَّشبيهُ بينَ المقلِّدينَ بغيرِ حُجَّةٍ للمقلَّدِ، كما لو قَلَّدَ رجُلًا فكَفَرَ، وقَلَّدَ آخَرَ فأذنبَ، وقَلَّدَ آخَرَ في مسألةٍ فأخطأَ وجْهَها؛ كان كلُّ واحدٍ مَلُومًا على التَّقليدِ بغيرِ حُجَّةٍ؛ لأنَّ كلَّ ذلك تقليدٌ يُشْبِهُ بعضُه بعضًا وإنِ اختلفَتِ الآثامُ فيه(٣).

١١- في قَولِه تعالى عن الأتْباعِ: ﴿فَأَضَلُّونَا﴾ جوازُ نِسبةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه، مع أنَّ الَّذي يُضِلُّ ويَهدي حقيقةً هو اللهُ سُبحانَه وتعالى، لكنَّ هؤلاء الكُبَراءَ صاروا سببًا للإضلالِ؛ فنُسِبَ الإضلالُ إليهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (٢/ ٩٧٨)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٣٠، ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٢٢).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ فيه معنًى لطيفٌ، وهو: أنَّ الدُّعاءَ لا يكونُ إلَّا عندَ عَدَمِ حُصولِ الأمرِ المدعوِّ به، والعذابُ كان حاصِلًا لهم، واللَّعنُ كذلك؛ فطَلَبوا ما ليس بحاصِلٍ، وهو زيادةُ العذابِ، بقَولِهم: ﴿ضِعْفَيْنِ﴾، وزيادةُ اللَّعنِ، بقَولِهم: ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾

- جُملةُ ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ...﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠]، وبيْن جُملةِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٤]؛ لِتَكونَ تَمهيدًا لِجُملةِ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ...﴾[2].

- وقولُه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ خِطابٌ مُستقِلٌّ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غيرُ داخلٍ تحتَ الأمرِ، مَسوقٌ لِبَيانِ أنَّها -مع كَونِها غيرَ مَعلومةٍ للخَلْقِ- مَرْجوَّةُ المَجيءِ عن قَريبٍ، أيْ: أيُّ شَيءٍ يُعلِمُك بوَقتِ قيامِها؟! أي: لا يُعلِمُك به شَيءٌ أصلًا[3].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ تَهديدٌ للمُستعجِلينَ، وإسكاتٌ للمُتعنِّتينَ، وتَسليةٌ للمُمتَحَنينَ، وبيانُ أنَّ السَّاعةَ قريبةُ الوُقوعِ. والإظهارُ في حيِّزِ الإضمارِ -حيثُ لم يقُلْ: (لعلَّها)-؛ للتَّهويلِ وزِيادةِ التَّقريرِ، وتأْكيدِ استِقلالِ الجُملةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي =

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾، وقال في سورةِ (الشورى): ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، فزِيدَ هنا معه ﴿تَكُونُ﴾؛ مُراعاةً للفواصلِ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ جُملةَ ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى قولِه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠- ٦٢]، تُثِيرُ في نُفوسِ السَّامعينَ التَّساؤُلَ عن الاقتصارِ على لَعنِهم وتَقتيلِهم في الدُّنيا، وهلْ ذلك مُنْتهى ما عُوقِبوا به أو لهمْ مِن وَرائِه عذابٌ؟ فكان قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ...﴾ إلخ جوابًا عن ذلك(٢).

- وحَرفُ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾ للاهتِمامِ بالخبَرِ، أو مَنظورٌ به إلى السَّامعينَ مِن الكافرينَ. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ للعهْدِ، أي: الكافرينَ الَّذين كانوا شاقُّوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وآذَوْه وأرْجَفوا في المدينةِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للاستِغراقِ، أي: كلِّ كافرٍ؛ وعلى الوَجهينِ فصِيغةُ الماضي في فِعلِ ﴿لَعَنَ﴾ مُستعمَلةٌ في تَحقيقِ الوُقوعِ، شُبِّهَ المُحَقَّقُ حُصولُه بالفِعلِ الَّذي حصَلَ(٣).

٣- قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ﴾ فيه تَخصيصُ الوُجوهِ بالذِّكرِ مِن بيْنِ سائرِ الأعضاءِ؛ لإنافةِ الوَجهِ -أي: لشَرفِه وعُلوِّه- على جَميعِ الأعضاءِ؛ فهو

---

= حيان)) (٨/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١١٤، ١١٥).

أكرَمُها؛ فإذا قُلِّبَ في النَّارِ كان تَقليبُ ما سِواه أَوْلى، وفيهِ مَزيدُ تَفظيعٍ للأمْرِ، وتَهويلٌ للخطْبِ. ولأنَّ حرَّ النَّارِ يُؤذِي الوُجوهَ أشَدَّ ممَّا يُؤذِي بقيَّةَ الجِلدِ؛ لأنَّ الوُجوهَ مَقَرُّ الحواسِّ الرَّقيقةِ[١].

- وقولُه: ﴿ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ استِئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ حالِهم الفَظيعةِ؛ كأنَّه قِيل: فماذا يَصنَعون عندَ ذلك؟ فقِيل: يَقولون مُتحسِّرينَ على ما فاتَهم...[٢].

- وحَرْفُ (يا) في قولِه: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ للتَّنبيهِ -على قولٍ-؛ لِقَصدِ إسماعِ مَن يَرْثِي لِحالِهم، والتَّمَنِّي هنا كِنايةٌ عن التَّندُّمِ على ما فاتَ[٣].

- والألِفُ في آخِرِ قولِه: ﴿ٱلرَّسُولَا۠ ﴾؛ لِرعايةِ الفواصلِ الَّتي بُنِيَت عليها السُّورةُ؛ فإنَّها بُنِيَت على فاصلةِ الألِفِ، وفائدةُ زِيادةِ الألِفِ الوقفُ، والدَّلالةُ على أنَّ الكلامَ قد انقطَعَ، وأنَّ ما بعْدَه مُستأنَفٌ[٤].

٤- قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾

- الابتِداءُ بالنِّداءِ ووَصْفِ الرُّبوبيَّةِ في قولِه: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ إظهارٌ للتَّضرُّعِ والابتِهالِ. وجِيءَ بالأفعالِ في صِيغةِ الماضي؛ لأنَّ هذا القولَ كان مُتقدِّمًا على قولِهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٦٦]؛

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٦).

فذلك التَّمَنِّي نشَأَ لهم وقتَ أنْ مَسَّهم العذابُ مع رُؤسائِهم، وهو خبَرٌ مُستعمَلٌ في الشِّكايةِ والتَّذَمُّرِ، وهو تَمهيدٌ لِطلَبِ الانتِصافِ مِن سادتِهم وكُبرائِهم، ومَقصودٌ مِن هذا الخبرِ أيضًا الاعتِذارُ والتَّنصُّلُ مِن تَبِعةِ ضَلالِهم بأنَّهم مَغرورونَ مَخدوعونَ[1].

- وحَرفُ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾؛ لِمُجرَّدِ الاهتِمامِ. وتَقديمُ قَولِهم: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ اهتمامٌ بما فيه مِن تَعليلٍ لِمَضمونِ قولِهم: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾؛ لأنَّ كُبَراءَهم ما تأتَّى لهم إضلالُهم إلَّا بتَسبُّبِ طاعتِهم العَمْياءِ إيَّاهم، واشتِغالِهم بِطاعتِهم عن النَّظرِ والاستِدلالِ فيما يَدْعونهم إليه مِن فَسادٍ ووَخامةِ مَغَبَّةٍ، وبتَسبُّبِ وَضْعِهم أقوالَ سادتِهم وكُبرائِهم مَوضعَ التَّرجيحِ على ما يَدْعوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

٥- قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ في إعادةِ النِّداءِ في قولِهم: ﴿رَبَّنَآ﴾: تأكيدٌ للضَّراعةِ والابتهالِ، وللمُبالَغةِ في الجُؤارِ، واستِدعاءِ الإجابةِ، وتَمهيدٌ لِقَبولِ سُؤلِهم، حتَّى إذا قُبِلَ سُؤلُهم طَمِعوا في التَّخلُّصِ مِن العذابِ الَّذي أَلْقَوه على كاهلِ كُبَرائِهم، بما في هذا النِّداءِ مِن تَعريضٍ بإلقاءِ تَبِعةِ الضَّلالِ على الَّذين أضَلُّوهم، وأنَّ العذابَ الَّذي أُعِدَّ لهم يُسلَّطُ عليهم. وتَثنيةُ ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ مُستعمَلةٌ في مُطلَقِ التَّكريرِ؛ كِنايةً عن شِدَّةِ العذابِ[3].

- وفي قولِه: ﴿وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَثِيرًا﴾ -على قِراءةِ ﴿كَثيرًا﴾- وُصِفَ اللَّعنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٨).

بالكَثرةِ كما وُصِفَ العذابُ بالضِّعفينِ؛ إشارةً إلى أنَّ الكُبَراءَ استَحقُّوا عَذابًا لِكُفرِهم، وعَذابًا لِتَسبُّبِهم في كُفرِ أتْباعِهم، فالمُرادُ بالكثيرِ: الشَّديدُ القوِيُّ -على قولٍ-؛ فعُبِّرَ عنه بالكثيرِ لِمُشاكَلةِ معنى التَّثنيةِ في قولِه: ﴿ضِعۡفَيۡنِ﴾ المُرادِ به الكثرةُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٩).

## الآيات (٦٩-٧١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَجِيهًا ﴾: أي: ذا مَنزلةٍ عاليةٍ عندَ الله، وشَرَفٍ وكرامةٍ؛ يقال: وَجُهَ الرَّجُلُ وَجاهةً، فهو وَجيهٌ، وهذا الفِعلُ مُشتَقٌّ مِن الوَجهِ الَّذي للإنسانِ(١).

﴿سَدِيدًا ﴾: أي: مستقيمًا، صَوابًا، حَقًّا غيرَ باطِلٍ، والسَّدادُ: القصدُ في القولِ، وأصلُ (سدد): يدُلُّ على رَدْمِ شَيءٍ ومُلاءَمَتِه، ومِن ذلك السَّديدُ: ذو السَّدادِ، أي: الاستقامةِ؛ كأنَّه لا ثُلْمَةَ فيه(٢).

### المعنى الإجماليُّ:

يَنهَى الله تعالى عن التَّشبُّهِ ببني إسرائيلَ في إيذائِهم لنبيِّهم موسَى عليه السَّلامُ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تكونوا كالَّذينَ رَمَوا موسى بالعَيبِ كَذِبًا وآذَوه، فبَرَّأه اللهُ تعالى ممَّا رماه به بنو إسرائيلَ كَذِبًا، وكان موسى عندَ الله ذا قدْرٍ وجاهٍ عالٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (١/ ١٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (١/ ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٥١٩).

ثمَّ يأمُرُ سبحانَه بتَقْواه والقولِ الموافقِ للصَّوابِ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقوا اللهَ، وقولوا قَولًا حَقًّا صوابًا مستقيمًا، يُصلِحْ لكم أعمالَكم ويَتقبَّلْها منكم، ويَغفِرْ لكم ذُنوبَكم، ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه فقد فاز فوزًا عَظيمًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تقضَّى وعيدُ الَّذين يُؤْذُون الرَّسولَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بالتَّكذيبِ، ونحوِه مِن الأذى المنبَعِثِ عن كُفرِهم؛ مِنَ المُشرِكينَ والمُنافِقينَ، مِن قَولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ [الأحزاب: ٥٧]- حذَّر المؤمِنينَ ممَّا يُؤذي الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بتنزيهِهم عن أن يكونوا مِثلَ قَومٍ نَسَبوا إلى رَسولِهم ما هو أذًى له، وهم لا يَعبَؤونَ بما في ذلك من إغضابِه الَّذي فيه غَضَبُ الله تعالى[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾.

أي: يا أيُّها الذين آمَنوا بالله ورَسولِه، لا تكونوا كالَّذين آذَوا موسى، فاتَّهَموه أو رَمَوه بالعَيبِ كَذِبًا، فتُؤذوا مَحمَّدًا صلى الله عليه وسلم بقَولٍ أو فِعلٍ يَكرَهُه[2].

عن عبدِ الله بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قَسَم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَسْمًا، فقال رجُلٌ: إنَّها لَقِسْمةٌ ما أُريدَ بها وَجْهُ الله! قال: فأتيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٠، ١٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣).

عليه وسلَّم فسارَرْتُه، فغَضِبَ مِن ذلك غَضَبًا شَديدًا، واحمَرَّ وَجهُه حتَّى تمنَّيتُ أنِّي لم أذكُرْه له! قال: ثمَّ قال: قد أُوذِيَ موسى بأكثَرَ مِن هذا فصبَرَ!!))[1].

﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾.

أي: فأظهَرَ اللهُ براءةَ موسى ممَّا اتَّهَمه ورماه به بنو إسرائيلَ كَذِبًا وباطِلًا[2].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ موسى كان رَجُلًا حَيِيًّا ستيرًا[3] لا يُرَى مِن جِلْدِه شَيءٌ؛ استِحياءً منه، فآذاه مَن آذاه مِن بني إسرائيلَ، فقالوا: ما يَستتِرُ هذا التَّستُّرَ إلَّا مِن عَيبٍ بجِلْدِه: إمَّا بَرَصٍ، وإمَّا أُدْرَةٍ[4]، وإمَّا آفةٍ! وإنَّ اللهَ أراد أن يُبَرِّئَه ممَّا قالوا لموسى، فخَلا يومًا وَحْدَه، فوضَعَ ثيابَه على الحَجَرِ ثمَّ اغتسَلَ، فلمَّا فَرَغ أقبَلَ إلى ثيابِه لِيَأخُذَها، وإنَّ الحَجَرَ عَدا بثَوبِه، فأخَذَ موسى عصاه وطلَبَ الحَجَرَ، فجعل يقولُ: ثَوبي حَجَرُ! ثوبي حَجَرُ! حتَّى انتهى إلى ملأٍ مِن بني إسرائيلَ، فرأوه عُريانًا أحسَنَ ما خَلَق اللهُ وأبرَأَه ممَّا يقولونَ، وقام الحَجَرُ، فأخَذَ ثَوبَه فلَبِسَه، وطَفِقَ بالحَجَرِ ضربًا بعَصاه! فوالله إنَّ بالحَجَرِ لَنَدَبًا[5] مِن أثَرِ ضَرْبِه: ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا! فذلك قَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ

---

(١) رواه البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢١).

(٣) «سَتِيرًا» -بالتخفيفِ- على وزنِ فَعيلٍ، بمعنى فاعلٍ، أي: مِن شأنِه وإرادتِه حُبُّ السترِ والصَّونِ، ويُقالُ: «سِتِّيرًا» -بالتَّشديدِ-، مبالغةُ ساترٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٣٦)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ٣٠١)، ((مرقاة المفاتيح)) لملا القاري (٩/ ٣٦٤٢).

(٤) الأُدْرَةُ: نَفخٌ في الخُصيَتينِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٣٨٥).

(٥) لَنَدَبًا: أي: أثرًا وعَلامةً باقيةً مِن أثَرِ ضربِه، وأصلُ النَّدَبِ: أثَرُ الجُرحِ إذا لم يرتفِعْ عن الجِلدِ، فشُبِّهَ به أثَرُ الضَّربِ بالحَجَرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٤٣).

عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾))[١].

﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾.

أي: وكان موسى عندَ الله عظيمًا ذا قَدْرٍ ومَنزلةٍ عاليةٍ وجاهٍ، وقَبولٍ واستِجابةٍ لِدُعائِه[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أنْ نهَى الله المُسلِمينَ عمَّا يُؤذي النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وربَأَ بهم عن أن يَكونوا مِثلَ الَّذين آذَوا رَسولَهم؛ وجَّه إليهم بعدَ ذلك نِداءً بأن يَتَّسِمُوا بالتَّقوى وسَدادِ القَولِ؛ لأنَّ فائدةَ النَّهيِ عن المَناكِرِ التَّلَبُّسُ بالمحامِدِ، والتَّقْوى جِماعُ الخَيرِ في العَمَلِ والقَولِ، والقَولُ السَّديدُ مبثُّ الفضائِلِ[٣].

وأيضًا فهذه الآيةُ مُقرِّرةٌ للَّتي قبْلَها مِن قولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠٤) واللفظ له، ومسلم (٣٣٩).

وما رواه أبو هُرَيرةَ رضيَ الله عنه هنا عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما أُوذيَ به موسَى عليه أكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ، كما ذكَر السَّمْعانيُّ في ((تفسيره)) (٤/ ٣٠٩).

وقال ابنُ جرير -بعدَما حكَى أقوالَ المفسِّرينَ في ذلك-: (أَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ بني إسرائيلَ آذَوْا نبيَّ اللهِ ببَعضِ ما كان يَكرَهُ أن يُؤذَى به، فبَرَّأه اللهُ ممَّا آذَوْه به، وجائزٌ أن يكونَ ذلك ما ذُكِر أنَّهم قالوا: إنَّه آدَرُ، وجائزٌ أن يكونَ قِيلَهم إنَّه أبرَصُ، وجائزٌ أن يكونَ ادِّعاءَهم عليه قَتْلَ أخيه هارونَ، وجائزٌ أن يكونَ كُلَّ ذلك؛ لأنَّه قد ذُكِر كُلُّ ذلك أنَّهم قد آذَوْه به، ولا قولَ في ذلك أَوْلى بالحَقِّ ممَّا قال اللهُ إنَّهم آذَوْا موسى، فبَرَّأه اللهُ ممَّا قالوا). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢١، ١٢٢).

كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ﴾ الَّتي بُنِيَتْ على النَّهيِ عمَّا يُؤذَى به رسولُ اللهِ، بيْنَما هذه الآيةُ بُنِيَتْ على الأمرِ باتِّقاءِ اللهِ في حِفظِ اللِّسانِ؛ لِيَترادَفَ عليهم النَّهيُ والأمرُ، مع إتْباعِ النَّهيِ ما يَتضمَّنُ الوعيدَ مِن قِصَّةِ موسى، وإتْباعِ الأمرِ الوعْدَ البليغَ، فيَقْوى الصَّارِفُ عن الأذى، والدَّاعي إلى تَركِه[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، اتَّقوا سَخَطَ اللهِ وغَضَبَه وعَذابَه؛ بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[2].

﴿وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾.

أي: وقولوا في الرَّسولِ والمؤمِنينَ وفي جميعِ كلامِكم قَولًا حقًّا صوابًا، مُستقيمًا لا انحِرافَ فيه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢٢).

قال ابن كثير: (قال عكرمةُ: القولُ السَّديدُ: لا إلهَ إلَّا اللَّهُ. وقال غيرُه: السَّديدُ: الصِّدْقُ. وقال مجاهدٌ: هو السَّدادُ. وقال غيرُه: هو الصَّوابُ. والكلُّ حقٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٨).

وقال السعدي عن القَولِ السَّديدِ: (وهو القَولُ الموافِقُ للصَّوابِ، أو المقارِبُ له عندَ تعَذُّرِ اليَقينِ؛ مِن قراءةٍ، وذِكرٍ، وأمرٍ بمعروفٍ، ونَهيٍ عن مُنكَرٍ، وتعلُّمِ عِلمٍ وتَعليمِه، والحِرصِ على إصابةِ الصَّوابِ في المسائلِ العِلميَّةِ، وسلوكِ كُلِّ طريقٍ يُوصِلُ لذلك، وكلِّ وَسيلةٍ تُعِينُ عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣).

وقال القرطبي: (ظاهِرُ الآيةِ يُعطي أنَّه إنَّما أشار إلى ما يكونُ خِلافًا للأذى الَّذي قيلَ في جِهةِ الرَّسولِ وجِهةِ المؤمِنينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٣).

﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾.

أي: يُوفِّقْكم اللهُ في أعمالِكم، فيَجعَلْها صالِحةً، ويَتقَبَّلْها منكم[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ ﴾.

أي: ويَغفِرِ اللهُ لكم ذُنوبَكم، فيَستُرْها عليكم، ويَتجاوَزْ عن مُؤاخَذتِكم بها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ [الطلاق: ٥].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾.

أي: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه فقد فاز فوزًا عَظيمًا؛ بالنَّجاةِ مِن النَّارِ، ودُخولِ الجنَّةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٣٢).

كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ يدُلُّ على وُجوبِ توقيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتجنُّبِ ما يُؤذيه، وتلك سُنَّةُ الصَّحابةِ والمُسلِمينَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أنَّ مَن لم يَتَّقِ اللهَ ويَقُلْ قولًا سديدًا فإنَّه حَرِيٌّ بألَّا يُصلِحَ اللهُ له أعمالَه، ولا يَغْفِرَ له ذَنْبَه؛ ففيه الحَثُّ على تَقْوى الله، وبيانُ فوائِدِها[٢].

٣- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ أرشَدَهم إلى ما ينبغي أن يَصدُرَ منهم مِن الأفعالِ والأقوالِ؛ أمَّا الأفعالُ فالخَيرُ، وأمَّا الأقوالُ فالحَقُّ؛ لأنَّ مَن أتَى بالخيرِ وتَرَك الشَّرَّ فقد اتَّقَى اللهَ، ومَن قال الصِّدقَ قال قَولًا سَديدًا[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ خيرَ الدُّنيا والآخرةِ جميعًا يُستَنزَلُ بالتَّقوى والصِّدقِ والطَّاعةِ لله جلَّ وتعالى، وهو نظيرُ قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقَولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٦).

وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[١] [الطلاق: ٢، ٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾ ناداهم بـ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾؛ لِما فيه مِن الإيماءِ إلى أنَّ الإيمانَ يَقتَضي ما سيُؤمَرونَ به[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾ تحريمُ أذِيَّةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والأصلُ في النَّهيِ التَّحريمُ[٣].

٣- لَمَّا كان قد خَصَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم في أوَّلِ السُّورةِ بالأمرِ بالتَّقْوى، عَمَّ في آخِرِها بالأمرِ بها، فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾

- قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ ﴾ تَنبيهٌ مِن الله للمُؤمِنينَ؛ كيْ لا يَقَعوا في مِثلِ تلك العُنْجهيَّةِ الَّتي وقَعَ فيها بنو إسرائيلَ، وآذَوْا موسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّ مَدارِكَ العُقلاءِ في التَّنبيهِ إلى مَعاني الأشياءِ ومُلازماتِها مُتفاوِتةُ المقاديرِ؛ فكانت حَرِيَّةً بالإيقاظِ والتَّحذيرِ. وفائدةُ التَّشبيهِ: تَشويهُ الحالةِ المُشَبَّهةِ؛ لأنَّ المُؤمِنينَ قد تَقرَّرَ في نُفوسِهم قُبْحُ ما أُوذيَ به مُوسى عليه السَّلامُ بما سبَقَ مِن القُرآنِ، كقولِه: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢١).

لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: ٥]، فكان تَوجيهُ الخِطابِ للمُؤمِنينَ مِن أُمَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُراعًى فيه المُشابَهةُ بيْنَ الحالينِ في حُصولِ الإذايةِ(١).

- ونِداؤهم بـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّ الَّذين يَصدُرُ منهم ما يُؤذي النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَصدًا: ليسوا مِنَ المؤمِنينَ في باطِنِ الأمرِ، ولكِنَّهم مُنافِقونَ(٢).

- وقولُه: ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ﴾ إدْماجٌ(٣)، وانتِهازٌ للمَقامِ بذِكْرِ بَراءةِ مُوسى ممَّا قالوا(٤).

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ مُعترِضةٌ في آخِرِ الكلامِ، وأفادتْ بَيانَ سَبَبِ عِنايةِ الله بتَبرئةِ مُوسى عليه السَّلامُ. وذِكرُ فِعلِ (كان) دالٌّ على تَمكُّنِ وَجاهتِه عندَ اللهِ تَعالى، وهذا تَسفيهٌ للَّذِينَ آذَوْه بأنَّهم آذَوْه بما هو مُبرَّأٌ منه، وتَنويهٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١١٩، ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٢٢).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٠).

وتَوجيهٌ لِتَنزيهِ الله إيَّاه بأنَّه مُستأهِلٌ لتلك التَّبرئةِ؛ لأنَّه وَجيهٌ عندَ الله، وليس بخاملٍ[١].

- وقَدَّمَ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على قَولِه تعالى: ﴿وَجِيهًا﴾؛ إشارةً أنَّ المُهِمَّ أنْ تكونَ وجيهًا عندَ الله تعالى[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلًا سَدِيدًا﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ابتِداءُ الكلامِ هنا بنِداءِ الَّذين آمَنوا؛ للاهتِمامِ به، واستِجلابِ الإصْغاءِ إليه. وتَقديمُ الأمرِ بالتَّقْوى مُشعِرٌ بأنَّ ما سيُؤمَرونَ به مِن سَديدِ القَولِ هو مِن شُعَبِ التَّقْوى، كما هو مِن شُعَبِ الإيمانِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾

- قولُه: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ قيل: فيه نَشْرٌ على عَكسِ اللَّفِّ[٤]؛ فإصلاحُ الأعمالِ جَزاءٌ على القَولِ السَّديدِ؛ لأنَّ أكثرَ ما يُفيدُه القولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٢).

(٤) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو أن يُذكَرَ شيئانِ أو أشياءُ؛ إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلٍّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يُذكرَ أشياءُ على عدَد ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِنَ المتقدِّم، ويُفوَّض إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به.
فاللَّفُّ يُشار به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.
واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ =

السَّديدُ إرشادُ النَّاسِ إلى الصَّلاحِ، أو اقتِداءُ النَّاسِ بصاحبِ القَولِ السَّديدِ، وغُفرانُ الذُّنوبِ جَزاءٌ على التَّقوى؛ لأنَّ عَمودَ التَّقوى اجتنابُ الكبائِرِ، وقد غفَرَ اللهُ للنَّاسِ الصَّغائرَ باجتنابِ الكبائِرِ، وغفَرَ لهم الكبائِرَ بالتَّوبةِ، والتَّحوُّلُ عن المعاصي بعدَ الهَمِّ بها ضَرْبٌ مِن مَغفرتِها(١).

- وذِكرُ ﴿لَكُمْ﴾ مع فِعْلَيْ ﴿يُصْلِحْ﴾، ﴿وَيَغْفِرْ﴾؛ للدَّلالةِ على العِنايةِ بالمُتَّقينَ أصحابِ القَولِ السَّديدِ(٢).

- وقولُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يُصْلِحْ

---

= ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كما في قولِه تعالى هنا: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وغيرُ المرتَّب -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس»-: هو أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعْدَها نَشْرٌ غَيرُ مُرَتَّب؛ فجُملةُ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى ومتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ ومتعلِّقةٌ بها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٣).

وقيل: وعَدَهم على التقوى بإصلاحِ الأعمالِ؛ فإنَّ بتَقْوى اللهِ يَصلُحُ العمَلُ، والعملُ الصَّالحُ يُرفَعُ ويَبقَى، فيَبقَى فاعِلُه خالِدًا في الجنَّةِ؛ ووعَدَهم على القَولِ السَّديدِ بمَغفرةِ الذُّنوبِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٦).

وقيل: يترتبُ على التقوَى، والقولِ السديدِ: إصلاحُ الأعمالِ والمغفرةُ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٣).

لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، وإنَّما صِيغَتِ الجُملةُ في صِيغةِ الشَّرطِ وجَوابِه؛ لإفادةِ العُمومِ في المُطيعينَ، وأنواعِ الطَّاعاتِ؛ فصارتِ الجُملةُ بهَذينِ العُمومَينِ في قُوَّةِ التَّذييلِ، وهذا نَسجٌ بَديعٌ مِن نَظْمِ الكلامِ؛ وهو إفادةُ غَرَضينِ بجُملةٍ واحدةٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٣، ١٢٤).

## الآيتان (٧٢-٧٣)

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَأَبَيْنَ﴾: أي: امتَنَعْنَ، والإباءُ: هو امتناعٌ باختيارٍ، وأبَى الشَّيءَ: لم يَرْضَه، وأبى عليه: امْتَنَع، وهو غيرُ الاستكبارِ، وكلُّ إباءٍ: امْتناعٌ بلا عكسٍ، فإنَّ الإباءَ شدَّةُ الامتناعِ، وأصلُ (أبي): يَدُلُّ على الِامْتِناعِ[1].

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾: أي: خِفْنَ مِن الأمانةِ أن لا يُوفِّيْنَها، فيَلحَقَهنَّ العقابُ، والإشفاقُ: عنايةٌ مختلطةٌ بخَوفٍ، وإذا عُدِّي بـ (مِن) فمعنَى الخوفِ فيه أظهرُ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رقَّةٍ في الشَّيءِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى معَظِّمًا شأنَ الأمانةِ، الَّتي ائتمَن عليها المكلَّفينَ: إنَّا عرَضْنا الأمانةَ -مِن أوامِرَ ونَواهٍ وطاعاتٍ- على السَّمواتِ والأرضِ والجِبالِ، فرفَضْنَ حَمْلَها؛ خَشيةً مِن عدَمِ القيامِ بذلك، وحَمَلها الإنسانُ؛ إنَّه ظَلومٌ في عدَمِ الوفاءِ بالأمانةِ، جَهولٌ برَبِّه وبعدَمِ تقديرِه قَدْرَ إضاعةِ الأمانةِ؛ لِيُعَذِّبَ اللهُ المنافِقينَ والمُنافقاتِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٦٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

-الَّذين يُظهِرونَ الإسلامَ، ويُبطِنونَ الكُفرَ- والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ بالله تعالى، ويَتوبَ اللهُ على المُؤمِنينَ والمؤمِناتِ، وكان الله غَفورًا رَحيمًا.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أرشَد المُؤمنينَ إلى ما أرشَد مِن تركِ الأذَى، واتِّقاءِ الله، وسَدادِ القَولِ، ورَتَّب على الطَّاعةِ ما رَتَّب؛ بَيَّن أنَّ ما كُلِّفَه الإنسانُ أمرٌ عظيمٌ، فقال[1]:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾.

أي: إنَّا عرَضْنا الأوامِرَ والنَّواهيَ والفرائِضَ والطَّاعاتِ على السَّمَواتِ والأرضِ والجِبالِ، فتُثابُ على حَملِها والقيامِ بها، وتُعاقَبُ على تَرْكِ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٨، ٤٨٩)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٩).

قال الواحدي: (الأمانةُ في هذه الآيةِ في قولِ جميعِهم: الطَّاعةُ والفرائِضُ الَّتي يتعلَّقُ بأدائِها الثَّوابُ، وبتضييعِها العِقابُ). ((البسيط)) (١٨/ ٣٠٢).

وقال أبو حيَّان: (والأمانةُ: الظَّاهرُ أنَّها كلُّ ما يُؤتَمنُ عليه مِن أمرٍ ونهْيٍ، وشأنِ دِينٍ ودُنيا، والشَّرعُ كلُّه أمانةٌ. وهذا قولُ الجمهورِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٩).

وقال السَّمعاني: (قَولُ أكثَرِ السَّلَفِ، وهو المحكيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ وجماعةِ التَّابعينَ: هو أنَّ الله تعالى عرَض أوامِرَه على السَّمواتِ والأرضِ والجبالِ عَرْضَ تخييرٍ لا عَرْضَ إلزامٍ، وقال لهنَّ: أتَحمِلْنَ هذه الأمانةَ بما فيها؟ قلْنَ: وما فيها؟ فقال: إنْ أحسَنْتُنَّ جُوزِيتُنَّ، وإن عَصَيتُنَّ =

عن حُذَيْفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((حدَّثَنا رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حَديثَينِ، رأيتُ أحَدَهما، وأنا أنتَظِرُ الآخَرَ: حدَّثَنا أنَّ الأَمانةَ نَزَلت في جَذْرِ[١] قُلوبِ الرِّجالِ، ثمَّ عَلِموا مِنَ القرآنِ، ثمَّ عَلِموا مِنَ السُّنَّةِ، وحدَّثَنا عن رَفْعِها، قال: يَنامُ الرَّجُلُ النَّومةَ فتُقبَضُ الأمانةُ مِن قَلْبِه، فيَظَلُّ أثَرُها مِثلَ أثَرِ الوَكْتِ[٢]، ثمَّ يَنامُ النَّومةَ فتُقبَضُ فيَبقى أثَرُها مِثْلَ المَجْلِ[٣]؛ كجَمرٍ دحْرَجْتَه على رِجْلِك فنَفِطَ[٤] فتَراه مُنتَبِرًا[٥] وليس فيه شَيءٌ! فيُصبِحُ النَّاسُ يَتبايَعونَ، فلا يَكادُ أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ! فيُقالُ: إنَّ في بني فُلانٍ رجُلًا أمينًا! ويقال للرَّجُلِ: ما أعْقَلَه! وما أظرَفَه! وما أجْلَدَه! وما في قَلْبِه مِثقالُ حَبَّةِ خَردلٍ مِن إيمانٍ! ولقد أتَى علَيَّ زمانٌ وما أبالي أيَّكم بايَعتُ؛ لَئِنْ كان مُسلِمًا رَدَّه علَيَّ الإسلامُ، وإنْ كان نصرانيًّا ردَّه علَيَّ ساعِيهِ، فأمَّا اليَومَ فما كنتُ أُبايعُ إلَّا فُلانًا وفُلانًا!!))[٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بيْنَما النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مجلِسٍ يُحَدِّثُ القَومَ، جاء أعرابيٌّ فقال: متى السَّاعةُ؟ فمضَى رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُحدِّثُ، فقال بَعضُ القَومِ: سَمِعَ ما قال فكَرِهَ ما قال، وقال بعضُهم: بل لم يَسمَعْ. حتَّى إذا قضَى حديثَه قال: أين السَّائِلُ عن السَّاعةِ؟ قال: ها أنا يا

---

= عُوقِبتُنَّ. فقُلْنَ: لا نتحَمَّلُ الأمانةَ ولا نُريدُ ثوابًا ولا عقابًا؛ وعَرَضَها على آدَمَ فتحَمَّلَها بما فيها!). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٢).

(١) الجَذرُ: الأصلُ مِن كلِّ شَيءٍ. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم)) للقاضي عياض (١/ ٤٤٨).

(٢) الوَكْتُ: الأثَرُ اليسيرُ، كالنُّقطةِ في الشَّيءِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٩).

(٣) المَجْلُ: أثَرُ العَمَلِ في اليَدِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٩)، ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٩).

(٤) نَفِطَ: أي: وَرِمَ وامتَلأ ماءً. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٩٧).

(٥) مُنتَبِرًا: أي: مُرتَفِعًا. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٩/ ٢٨٥).

(٦) رواه البخاري (٦٤٩٧) واللَّفظُ له، ومسلم (١٤٣).

رَسولَ الله. قال: فإذا ضُيِّعَت الأمانةُ، فانتَظِرِ السَّاعةَ. قال: كيف إضاعتُها؟ قال: إذا وُسِّدَ[١] الأمرُ إلى غيرِ أهلِه، فانتَظِرِ السَّاعةَ))[٢].

﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾.

أي: فلمْ تَقبَلِ السَّمَواتُ والأرضُ والجِبالُ أن تختارَ امتِثالَ الأوامِرِ واجتنابَ النَّواهي على الثَّوابِ والعِقابِ، وخِفْنَ مِن عذابِ اللهِ على عدَمِ القيامِ بذلك[٣].

﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾.

أي: وحمَلَ الإنسانُ[٤] .....

---

(١) وُسِّد: أي: أُسنِدَ وفُوِّضَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٤٢٩).

(٢) رواه البخاري (٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٩).

قال الواحدي: (معنى قَولِه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ أي: مَخافةً وخَشيةً، لا مَعصيةً ومخالَفةً، والعَرْضُ كان تخييرًا لا إلزامًا). ((البسيط)) (١٨/ ٣٠٤).

وقال الشنقيطي: (وهذا العَرضُ والإباءُ والإشفاقُ: كُلُّه حَقٌّ، وقد خلَقَ اللهُ للسَّمواتِ والأرضِ والجبالِ إدراكًا يَعلَمُه هو جلَّ وعلا، ونحن لا نعلَمُه، وبذلك الإدراكِ أدركَتْ عَرْضَ الأمانةِ عليها، وأبَتْ وأشفَقَتْ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٥٨).

(٤) قيل: المرادُ: نوعُ الإنسانِ، وليس فردًا بعَيْنِه. وممَّن قال بهذا: ابنُ القيِّم، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٥).

قال السمرقندي: (﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني: آدَمَ وذُرِّيَّتَه). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٦).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: آدمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والعُلَيمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ، وأبو العاليةِ، ومجاهِدٌ، وابنُ =

الأمانةَ[١]!

﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ واقِعٌ في ظُلمِ نَفْسِه، والجَهلِ برَبِّه وشَرْعِه وقَدْرِ الأمانةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾.

أي: لِيُعذِّبَ اللهُ الَّذين خانوا الأمانةَ مِن المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ؛ الَّذين يُظهِرونَ الإسلامَ، ويُبطِنونَ الكُفرَ، ويُعَذِّبَ المُشرِكينَ والمُشرِكاتِ باللهِ تعالى[٣].

---

= جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٩).
قال الشنقيطي: (الظَّاهرُ أنَّ المرادَ بالإنسانِ آدمُ عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ راجعٌ لِلَفْظِ: «الإنسان» مُجَرَّدًا عن إرادةِ المذكورِ منه، الَّذي هو آدَمُ. والمعنَى: أنَّه -أي: الإنسانَ- الَّذي لا يحفظُ الأمانةَ كان ظلومًا جهولًا، أي: كثيرَ الظُّلمِ والجهلِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٩٦)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٩، ١٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٩).

(٣) قال ابنُ القيِّم: (الخِطابُ للإنسانِ مِن حيثُ هو إنسانٌ على طريقةِ القُرآنِ في تناوُلِ الذَّمِّ له مِن حيثُ هو إنسانٌ؛ كقَولِه: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦]، ونظائِرُه كثيرةٌ؛ فالإنسانُ -مِن حيثُ هو- عارٍ عن كُلِّ خيرٍ مِن العِلمِ النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وإنَّما اللهُ سُبحانَه هو الَّذي يُكَمِّلُه بذلك ويُعطيه إيَّاه، =

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

أي: ولِيَتوبَ اللهُ على المؤمِنينَ والمؤمِناتِ؛ الَّذين قاموا بما أمَرَهم اللهُ، ولم يَخونوا الأمانةَ، فيَغفِرَ اللهُ لهم ذُنوبَهم، ويَرحَمَهم، ويُوفِّقَهم لطاعتِه[1].

---

= وليس له ذلك مِن نَفْسِه، بل ليس له مِن نفْسِه إلَّا الجَهلُ المُضادُّ للعِلمِ، والظُّلمُ المُضادُّ للعَدلِ، وكُلُّ عِلمٍ وعَدلٍ وخَيرٍ فيه: فمِنْ رَبِّه، لا مِن نفْسِه). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ١٩٢).

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٣).

اختُلِف في اللَّام: هل هي للعاقِبةِ، أو للتَّعليلِ؛ فقيل: هي لامُ التَّعليلِ. وممَّن قال بهذا: القرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٩).

وقيل: هي لامُ العاقِبةِ. وممَّن قال بهذا: القُشَيري، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣١).

واختُلِف في متعلَّقِ اللامِ؛ فقيل: اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾ متعلِّقةٌ بقَولِه سُبحانَه: ﴿عَرَضْنَا﴾. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٧).

قال مقاتلٌ: (عرَضْنا الأمانةَ على الإنسانِ؛ لِكَيْ يعَذِّبَ الله المنافِقينَ والمنافِقاتِ والمشركينَ والمشركاتِ بما خانوا الأمانةَ، وكذَّبوا الرُّسلَ...). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥١١).

وقيل: هي مُتعلِّقةٌ بقَولِه تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا﴾. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، وابن عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٥٩).

قال أبو السعود: (حملَها الإنسانُ لِيُعذِّبَ الله بعضَ أفرادِه الَّذينَ لم يُراعوها، ولم يقابلُوها بالطَّاعةِ، على أنَّ اللَّامَ للعاقِبةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٨).

وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: (أي: عرَضْنا ذلك عليه لِيَتقلَّدَه، فإذا تقلَّدَه ظَهَرَ نِفاقُ المنافِقِ، وشِركُ المُشرِكِ، فعذَّبَه اللهُ به، وظهَرَ إيمانُ المؤمِنِ، فتاب اللهُ عليه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣١). =

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالمَغفرةِ، فيَستُرُ ذُنوبَ عبادِه ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها؛ ومُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالرَّحمةِ[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ إلى قولِه سُبحانَه: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أنَّه ليس لأحدٍ أن يَظُنَّ استِغناءَه عن التَّوبةِ إلى الله، والاستِغفارِ مِن الذُّنوبِ، بل كلُّ أحدٍ مُحتاجٌ إلى ذلك دائمًا؛ فالإنسانُ ظالمٌ جاهِلٌ، وغايةُ المؤمِنينَ والمؤمِناتِ التَّوبةُ، وقد أخبرَ اللهُ تعالى في كتابِه بتوبةِ عبادِه الصَّالحينَ، ومَغفرتِه لهم[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ قولُه: ﴿فَأَبَيْنَ﴾ أتى بضميرِ هذه كضَميرِ الإناثِ؛ لأنَّ جمعَ التَّكسيرِ غيرَ العاقِلِ يجوزُ فيه ذلك وإن كان مُذكَّرًا[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ فكذلك الإنسانُ مِن شَأنِه

---

= قال السمعاني: (قوله: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: يهْدِيهم ويَرحمُهم إذا أدَّوُا الأمانةَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ١٤٥).

الظُّلْمُ والجَهلُ، فلمَّا أُودِعَ الأمانةَ بَقِيَ بَعضُهم على ما كان عليه، وبَعضُهم ترَكَ الظُّلْمَ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢]، وتَركَ الجَهلَ، كما قال تعالى في حقِّ آدمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وقال في حَقِّ المؤمِنينَ عامَّةً: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[1] [فاطر: ٢٨].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى في الإنسانِ وَصْفَينِ: الظَّلومَ والجَهولَ، وذكَرَ مِن أوصافِه تعالى وَصْفَينِ، فقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: كان غَفورًا للظَّلومِ، ورحيمًا على الجَهولِ؛ وذلك لأنَّ الله تعالى وعَد عبادَه بأنَّه يَغفِرُ الظُّلمَ جَميعًا إلَّا الظُّلمَ العَظيمَ الَّذي هو الشِّركُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وأمَّا الوَعدُ فقَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وأمَّا الرَّحمةُ على الجَهلِ فلأنَّ الجَهلَ محَلُّ الرَّحمةِ؛ ولذلك يَعتذِرُ المَسيءُ بقَولِه: ما عَلِمتُ[2].

٤- الأصلُ في بني آدمَ الظُّلمُ والجَهلُ، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، ومجرَّدُ التَّكلُّمِ بالشَّهادَتينِ لا يُوجِبُ انتِقالَ الإنسانِ عن الظُّلمِ والجَهلِ إلى العَدلِ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٥٧).

٥- اتِّباعُ الظَّنِّ جَهلٌ، واتِّباعُ هوى النَّفْسِ بغَيرِ هُدًى مِن الله: ظُلمٌ، وجِماعُ الشَّرِّ الجَهلُ والظُّلمُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا * لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أنَّ الذُّنوبَ واقعةٌ مِن بني آدَمَ لا مَحالةَ؛ فكلُّ بني آدمَ ظَلومٌ جهولٌ إلَّا مَن تاب اللهُ عليه[2].

٧- في قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ذَكَر التَّوبةَ؛ لعِلْمِه سُبحانَه وتعالى أنَّه لا بُدَّ لكُلِّ إنسانٍ مِن أن يكونَ فيه جَهلٌ وظُلمٌ، ثمَّ يتوبُ اللهُ على مَن يشاءُ، فلا يَزالُ العَبدُ المؤمِنُ دائِمًا يَتبيَّنُ له مِنَ الحَقِّ ما كان جاهِلًا به، ويرجِعُ عن عمَلٍ كان ظالِمًا فيه، وأدْناه ظُلْمُه لِنَفْسِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: ٩]، وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[3] [إبراهيم: ١].

٨- قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ بِشارةٌ للمُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ بأنَّ اللهَ عامَلَهم بالغُفرانِ والرَّحمةِ[4].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٢).

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّنويهِ بشأنِ الأمانةِ، وتَفخيمِ أمْرِها، وفيه تَقريرٌ للوَعدِ السَّابقِ بتَعظيمِ الطَّاعةِ، وبَيانِ عِظَمِ شأْنِ ما يُوجِبُها مِن التَّكاليفِ الشَّرعيَّةِ، وصُعوبةِ أمْرِها، وبَيَّن ذلك كُلَّه بطَريقِ التَّمثيلِ مع الإيذانِ بأنَّ ما صدَرَ عنهم مِن الطَّاعةِ وتَرْكِها، صدَرَ عنهم بعدَ القَبولِ والالتزامِ، وسمَّاها أمانةً مِن حيثُ إنَّها واجبةُ الأداءِ[١].

- قولُه: ﴿ عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾ فيه الافتِتاحُ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخَبَرِ، أو تَنزيلِه -لِغَرابةِ شأنِه- مَنزِلةَ ما قد يُنكِرُه السَّامعُ[٢].

- وتَخصيصُ السَّمَواتِ والأرضِ بالذِّكْرِ مِن بيْنِ المَوْجوداتِ؛ لأنَّهما أعظَمُ المعروفِ للنَّاسِ مِن الموجوداتِ[٣]، ولأنَّها أشَدُّ الأمورِ وأحمَلُها للأثقالِ[٤].

- وعطْفُ الجِبالِ على الأرضِ في قولِه: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ ﴾؛ لأنَّ الجبالَ أعظَمُ الأجزاءِ المَعْروفةِ مِن ظاهِرِ الأرضِ، وهي الَّتي تُشاهِدُ الأبصارُ عظَمَتَها[٥]، ولزيادةِ قوَّتِها وصلابتِها؛ تعظيمًا للأمرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٥٦، ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٥٧، ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٨، ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٠٩).

- قولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾، جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الذي يَسمَعُ خَبرَ أنَّ الإنسانَ تَحمَّلَ الأمانةَ، يَترقَّبُ مَعرفةَ ما كان مِن حُسنِ قيامِ الإنسانِ بما حَمَلَه وتَحمَّلَه، وليستِ الجُملةُ تَعليليَّةً؛ فكيف يُعلَّلُ بأنَّ حَمْلَه الأمانةَ مِن أجْلِ ظُلمِه وجَهلِه؟! فقولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ مُؤْذِنٌ بكلامٍ مَحذوفٍ يَدُلُّ هو عليه؛ إذِ التَّقديرُ: وحَمَلَها الإنسانُ فلَمْ يَفِ بها؛ إنَّه كان ظَلومًا جَهولًا، فكأنَّه قيلَ: فكان ظَلومًا جَهولًا، أي: ظَلومًا في عَدَمِ الوَفاءِ بالأمانةِ؛ لأنَّه إجحافٌ بصاحِبِ الحَقِّ في الأمانةِ أيًّا كان، وجَهولًا في عَدَمِ تَقديرِه قَدْرَ إضاعةِ الأمانةِ مِن المُؤاخَذةِ المُتفاوِتةِ المراتبِ في التَّبِعةِ بها[1].

٢- قوله تعالى: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

- قولُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فيه الالتِفاتُ إلى الاسمِ الجليلِ (الله) أوَّلًا؛ لتَهويلِ الخَطبِ، وتَربيةِ المهابةِ. والإظهارُ في مَوقعِ الإضمارِ ثانيًا ﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ لإبرازِ مَزيدِ الاعتناءِ بأمْرِ المُؤمِنينَ والتَّوبةِ عليهم؛ تَوفيةً لكُلٍّ مِن مَقامَيِ الوعيدِ والوَعدِ حقَّه[2].

- وقدَّم هنا التَّعذيبَ على التَّوبةِ؛ لأنَّه لَمَّا سمَّى التَّكليفَ أمانةً، والأمانةُ مِن حُكمِها اللَّازمِ أنَّ الخائِنَ يَضمَنُ، وليس مِن حُكمِها اللَّازمِ أنَّ الأمينَ الباذِلَ جُهدَه يَستفيدُ أُجرةً؛ فكان التَّعذيبُ على الخيانةِ كاللَّازمِ، والأجرُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٩- ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣١- ١٣٢).

الحِفظِ إحسانٌ، والعَدلُ قبْلَ الإحسانِ[١].

- وأيضًا قدَّم مِن الخَوَنةِ أجدَرَهم بذلك، فقال: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾، أي: الَّذين يُظهِرونَ بَذْلَ الأمانةِ كَذِبًا وزُورًا، وهم حامِلونَ لها عريقون في النِّفاقِ[٢].

- وعَطَفَ ﴿وَيَتُوبَ﴾ على ﴿لِّيُعَذِّبَ﴾؛ لِيَجمَعَ لهم بيْنَ العَذابينِ؛ لأنَّ في التَّوبةِ على المُؤمِنينَ إرغامًا للكُفَّارِ[٣].

- وقولُه: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ ...﴾ [الأحزاب: ٧٣] إلى نِهايةِ السُّورةِ، يَقتَضي أنَّ للأمانةِ المذكورةِ في الآيةِ السابقةِ: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ مَزيدَ اختصاصٍ بالعِبْرةِ في أحْوالِ المُنافِقينَ والمُشرِكينَ مِن بيْنِ نَوعِ الإنسانِ في رَعْيِ الأمانةِ وإضاعتِها[٤].

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الخامسُ والعشرونَ**

**ويليه المجلدُ السَّادسُ والعشرونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ سبأ**

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٢٤).

# الفهرس

# الفهرس


أسماءُ السُّورة ..... ١٣
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ..... ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٣
موضوعاتُ السُّورةِ..... ١٤
الآيات (١-٣) ..... ١٦
المَعنى الإجماليُّ..... ١٦
تَفسيرُ الآياتِ..... ١٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٢٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٢
الآيات (٤-٦) ..... ٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٨
المعنى الإجماليُّ..... ٢٩
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٠
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٤٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٤
الآيتان (٧-٨)..... ٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٥
المعنى الإجماليُّ..... ٦٥
تَفسيرُ الآيتَينِ..... ٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٧٠
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٧٠
الآيات (٩-١١)..... ٧٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٧٦
المعنى الإجماليُّ..... ٧٧
تَفسيرُ الآياتِ..... ٧٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٨٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٨٦
الآيات (١٢-١٧)..... ٩١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩١
المعنى الإجماليُّ..... ٩٣
تَفسيرُ الآياتِ..... ٩٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ١٠٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٠٥
الآيات (١٨-٢٠)..... ١١٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١١٢

المعنى الإجماليُّ ..... ١١٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٢٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٢٥
الآيات (٢١-٢٤) ..... ١٣٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٣٠
المعنى الإجماليُّ ..... ١٣٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٣١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٤٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٤٤
الآيات (٢٥-٢٧) ..... ١٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٤٩
المعنى الإجماليُّ ..... ١٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٥٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٥٩
الآيات (٢٨-٣١) ..... ١٦٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٦٤
المعنى الإجماليُّ ..... ١٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٧٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٧٩
الآيات (٣٢-٣٤) ..... ١٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٨٤
المعنى الإجماليُّ ..... ١٨٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٨٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٩٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٠٥
الآيتان (٣٥-٣٦) ..... ٢١٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢١٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٢١٣
تَفسيرُ الآيتينِ ..... ٢١٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢٢٦
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٢٣١
الآيات (٣٧-٤٠) ..... ٢٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٣٦
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٣٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٣٩

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٥١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٥٩
الآيات (٤١-٤٤) ..... ٢٦٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٦٨
المعنى الإجماليُّ..... ٢٦٨
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٦٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٧٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٧٩
الآيات (٤٥-٤٨) ..... ٢٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٨٤
المعنى الإجماليُّ..... ٢٨٥
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٨٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٩٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٩٦
الآية (٤٩)..... ٣٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٠٢
المعنى الإجماليُّ..... ٣٠٣
تَفسيرُ الآيةِ ..... ٣٠٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٠٦
بلاغةُ الآيةِ ..... ٣١١
الآيات (٥٠-٥٢) ..... ٣١٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣١٣
المعنى الإجماليُّ..... ٣١٤
تفسيرُ الآياتِ..... ٣١٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٣٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٣٩
الآيات (٥٣-٥٥) ..... ٣٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٤٩
المعنى الإجماليُّ..... ٣٥٠
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٥١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٦٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٧٣
الآيات (٥٦-٥٨) ..... ٣٨١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٨١
المعنى الإجماليُّ..... ٣٨١
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٨٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٨٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٨٩

بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٩٥
الآيات (٥٩-٦٢) ..... ٤٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٠٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٠١
تفسيرُ الآياتِ ..... ٤٠٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤١٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤١٨
الآيات (٦٣-٦٨) ..... ٤٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٢٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٣٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٣٣
الآيات (٦٩-٧١) ..... ٤٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٣٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٣٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٤٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤٥
الآيتان (٧٢-٧٣) ..... ٤٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٥٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٥٠
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٤٥١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٥٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٥٦
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٤٥٨
الفهرس ..... ٤٦٥

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة سبأ وسورة فاطر)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد السادس والعشرون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة سبأ وسورة فاطر)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد السادس والعشرون – سورة سبأ وسورة فاطر/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٥٤٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٢-٩٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة سبأ – تفسير ٢- القرآن – سورة فاطر – تفسير

أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٨٢١٥

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٨٢١٥

ردمك: ٢-٩٢-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ سَبَأٍ

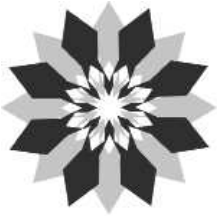

# سورةُ سَبَأٍ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (سَبَأٍ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ سَبَأٍ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ سَبَأٍ:**

١- إبطالُ قَواعدِ الشِّركِ، والرُّدُّ على شُبَهِ المشركينَ[٤].

٢- بيانُ الحُجَّةِ على التَّوحيدِ، وصِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٥].

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي تناولَتها سُورةُ سَبَأٍ:**

١- الاستِفتاحُ بالحَمدِ لله سُبحانَه المالِكِ لِما في السَّمَواتِ والأرضِ،

---

(١) سُمِّيَت سورةُ (سَبَأٍ) بهذا الاسمِ؛ لاشتمالِها على قِصَّةِ سَبأٍ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٣). وقد ورَدتْ بعضُ الآثارِ في تسميتِها بذلك؛ منها: ما أخرجه ابنُ الضُّرَيْسِ في ((فضائل القرآن)) (١٧)، عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما. ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٧٣).

(٢) وقيل: السورةُ مكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحدةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ...﴾ [سبأ: ٦]؛ فمدنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٣١).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٨٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٢).

المحمودِ في الآخِرةِ؛ وبيانُ سَعةِ عِلمِه.

٢- بيانُ تكذيبِ المُشرِكينَ بالقيامةِ والبَعثِ، وحكايةُ جانبٍ مِن أقوالِهم الباطِلةِ مع الرَّدِّ عليها.

٣- ذِكرُ طَرَفٍ مِن قِصَّةِ نبيِّ اللهِ داودَ عليه السَّلامُ، وابنِه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ.

٤- ذِكرُ قِصَّةِ قبيلةِ سَبَأٍ، وما آل إليه أمرُهم.

٥- إقامةُ الأدِلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، ووجوبِ إخلاصِ العبادةِ له.

٦- ذِكرُ بَعضِ مشاهِدِ يومِ القيامةِ، والحِوارِ الَّذي يَدورُ بيْنَ التَّابِعينَ والمتبوعينَ.

٧- الرَّدُّ على المُترَفينَ الَّذين زَعَموا أنَّ أموالَهم وأولادَهم ستنفَعُهم يومَ القيامةِ.

٨- دعوةُ الكافِرينَ إلى التَّفكيرِ والتَّدبُّرِ في شأنِ دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٩- تهديدُ الكافِرينَ بسُوءِ العاقبةِ إذا ما استمَرُّوا في كُفرِهم وعِنادِهم.

## الآيتان (١-٢)

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ٢﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَلِجُ﴾: أي: يَدخُلُ، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ[1].

﴿يَعۡرُجُ﴾: أي: يَصعَدُ ويَرقَى، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على ارتِقاءٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مخبرًا عن نفْسِه الكريمةِ: الحَمدُ لله الَّذي له ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، وله الحَمدُ في الآخِرةِ؛ فهو المحمودُ أبدًا، وهو الحَكيمُ الخبيرُ الَّذي لا تخفى عليه خافيةٌ، ومِن ذلك أنَّه يعلَمُ ما يدخُلُ في الأرضِ ويَغيبُ فيها، وما يَخرُجُ منها، وما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ وما يَصعَدُ فيها، وهو الرَّحيمُ بعبادِه، الغفورُ لذُنوبِهم.

### تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ١﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: الحمدُ[1] التَّامُّ كلُّه لله وَحْدَه، الَّذي يَملِكُ جَميعَ ما في السَّمواتِ وجميعَ ما في الأرضِ، وهو خالِقُهما ومُدَبِّرُهما والمتصَرِّفُ فيهما[2].

﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: ولله وَحْدَه الحَمدُ في الآخِرةِ، فهو المحمودُ أبدًا[3].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

وقال سُبحانَه عن أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

---

(١) الحمدُ هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ، واللهُ سبحانه وتعالى يُحمَدُ على ما له مِن الكمالِ الذَّاتيِّ؛ لِما له مِن صفاتِ الكمالِ؛ كالسَّمعِ والبصرِ والعِلمِ والقدرةِ والعَظَمةِ وما أشبَهَها، وهذا لا يكونُ إلَّا لله، ويُحمَدُ على الكمالِ المتعَدِّي للغيرِ بإحسانِه وإنعامِه. واللَّامُ هنا في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ للاستِحقاقِ -فلا أحدَ يَستحِقُّ أن يُحمَدَ لِذَاتِه إلَّا الله- والاختِصاصِ، فالحمدُ المستغرِقُ لكلِّ المحامِدِ لا يكونُ إلَّا لله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣، ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣، ١٤).

قال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ هذا كالتَّعليلِ للحَمدِ؛ لأنَّ هذا الوَصفَ يدُلُّ على العِلِّيَّةِ، أي: يَحمَدُ اللهُ تعالى نفْسَه؛ لأنَّه مالِكٌ لِما في السَّمواتِ وما في الأرضِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

قال ابنُ جزي: (الحمد في الآخرةِ يحتملُ أنْ يريدَ به الجنسَ، أو يريدَ به قولَه: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، أو ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦١).

وقال تبارك وتعالى عنهم أيضًا: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نِيطَ حَمدُه في الدُّنيا والآخرةِ بما اقتضَى مَرجِعَ التَّصَرُّفاتِ إليه في الدَّارَينِ؛ أعقَبَ ذلك بصِفَتَي الحكيم الخبيرِ؛ لأنَّ الَّذي أوجَدَ أحوالَ النَّشأتَينِ هو العَظيمُ الحِكمةِ، الخبيرُ بدقائِقِ الأشياءِ وأسرارِها؛ فالحِكمةُ: إتقانُ التَّصَرُّفِ بالإيجادِ وضِدِّه، والخِبرةُ تقتضي العِلمَ بأوائِلِ الأُمورِ وعواقِبِها[١].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

أي: وهو الحَكيمُ في أقوالِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، وفي مُلكِه وتدبيرِ خَلْقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به؛ وهو الخبيرُ الَّذي لا تخفَى عليه خافيةٌ، المطَّلعُ على سرائرِ الأمورِ وخفاياها[٢].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ الله سُبحانَه أتْبَعَ ما تقدَّمَ مِن حَمدِه على ما هو أهلُه، ببَسطِ شواهِدِ حِكمتِه وعِلمِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤١).

﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا ﴾.

أي: يَعلَمُ اللهُ كُلَّ ما يَدخُلُ في الأرضِ ويَغيبُ فيها؛ كالمطَرِ، والبُذورِ، والحيواناتِ، والأمواتِ، والكُنوزِ، وغيرِ ذلك؛ ويَعلَمُ كُلَّ ما يَخرُجُ مِن الأرضِ؛ كأنواعِ النَّباتاتِ، والمعادِنِ، والكنوزِ، وغيرِ ذلك، يَعلَمُ عَدَدَه وكيفيَّتَه وصِفاتِه[1].

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَا ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ كُلَّ ما يَنزِلُ مِن السَّماءِ؛ كالأمطارِ، والبرَدِ والثُّلوجِ، والصَّواعِقِ، والأرزاقِ، والملائِكةِ؛ ويَعلَمُ كُلَّ ما يَصعَدُ ويَدخُلُ في السَّماءِ؛ كالملائكةِ، والأرواحِ، وأعمالِ العِبادِ[2].

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مِن جُملةِ أحوالِ ما في الأرضِ أعمالُ النَّاسِ وأحوالُهم مِن عقائدَ وسِيَرٍ، وممَّا يَعرُجُ في السَّماءِ العملُ الصَّالحُ والكَلِمُ الطَّيِّبُ؛ أتْبَعَ ذلك بقولِه[3]:

﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴾.

أي: واللهُ هو الرَّحيمُ بعِبادِه، الغفورُ لذُنوبِهم؛ فيَستُرُها عليهم، ويتَجاوَزُ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١-٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٧، ١٣٨).

مُؤاخَذتِهم بها[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ﴾ إثباتُ حُكمِ اللهِ -سُبحانَه وتعالى- الكَوْنيِّ والشَّرعيِّ، وإثباتُ حِكمتِه المتعلِّقةِ بالكَونِ، والمتعَلِّقةِ بالشَّرعِ، ويَتفرَّعُ على هذه القاعدةِ وُجوبُ التَّسليمِ لِقَضائِه الكَوْنيِّ والشَّرعيِّ؛ بحيثُ لا نُورِدُ أيَّ اعتِراضٍ حتَّى وإن جاء على ما ظاهِرُه خِلافُ الحِكمةِ؛ فإنه يَجِبُ أن نتَّهِمَ عُقولَنا؛ لأنَّه إذا ثبتَ أنَّه عزَّ وجلَّ حَكيمٌ في الحُكمَينِ الكَوْنيِّ والشَّرعيِّ، لَزِمَ مِن ذلك التَّسليمُ للقَضاءِ الكَونيِّ والشَّرعيِّ؛ لأنَّه صادِرٌ عن حِكمةٍ، لكنَّ هذه الحِكمةَ قد تخفَى علينا[٢]، فينبغي للمؤمنِ أن يَعلَمَ أنَّ الله سبحانه مالكٌ حكيمٌ لا يعبَثُ، وهذا العِلمُ يوجِبُ نفْيَ الاعتِراضِ على القَدَرِ، والتَّسليمُ هو تكليفُ العقلِ لِيُذعِنَ، وهذا أصلٌ إذا فُهِم حصَل منه السَّلامةُ والتَّسليمُ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ﴾ هذا إجمالٌ قُصِدَ منه حثُّ النَّاسِ على طَلَبِ أسبابِ الرَّحمةِ والمَغفِرةِ المرغوبِ فيهما؛ فإنَّ مَن رَغِبَ في تحصيلِ شَيءٍ بحَثَ عن وسائِلِ تحصيلِه، وسعَى إليها[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- سورةُ (سبأٍ) إحدى سُوَرٍ خَمسٍ مُفتَتَحةٍ بـ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وهي كُلُّها مَكِّيَّةٌ، وقد وُضِعَت في ترتيبِ القُرآنِ: في أوَّلِه، ووَسَطِه، والرُّبُعِ الأخيرِ؛ فكانت أرباعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٣٣، ٥١، ٤٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٨).

القُرآنِ مُفتَتَحةً بالحَمدِ لله، كان ذلك بتَوفيقٍ مِن اللهِ، أو توقيفٍ(١).

٢- قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يُعَلِّمُنا عزَّ وجلَّ كيفَ نحمَدُه، وكيف نُثْني عليه؛ وهو أهلٌ لأنْ يَمدحَ نفْسَه عزَّ وجلَّ، ويُثْنيَ عليها، وهو في غِنًى عن كَونِه يُظْهِرُ لنا مِن صِفاتِ الكمال ما يُظهِرُ، ولكنْ هذا مِن أجْلِ مصلحتِنا(٢).

٣- قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فقَرَن بيْنَ المُلْكِ والحَمدِ على عاداتِه تعالى في كلامِه؛ فإنَّ اقترانَ أحَدِهما بالآخَرِ له كَمالٌ زائدٌ على الكَمالِ بكُلِّ واحدٍ منهما؛ فله كمالٌ مِن مُلكِه، وكمالٌ مِن حَمدِه، وكمالٌ مِن اقترانِ أحَدِهما بالآخَرِ؛ فإنَّ المُلْكَ بلا حمدٍ يَستلزِمُ نَقصًا، والحَمدَ بلا مُلكٍ يَستلزِمُ عَجزًا، والحمدَ مع المُلكِ غايةُ الكمالِ(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ قَصْرُ الحَمدِ على نَفْسِه تعالى في الآخرةِ أحَقُّ؛ لأنَّ التَّصَرُّفاتِ يومَئذٍ مَقصورةٌ عليه، لا يلتَبِسُ فيها تصَرُّفُ غيرِه بتصَرُّفِه(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ اقترنتِ الحكمةُ بالخبرةِ -والحكمةُ دائمًا يَقْرِنُها اللهُ عزَّ وجلَّ بالعِزَّةِ وبالعلمِ-؛ وهنا قُرِنَتْ بالعِلمِ الَّذي تتضَمَّنُه الخبرةُ، وإنَّما يَقْرِنُها اللهُ عزَّ وجلَّ بذلك؛ لِيَتبيَّنَ أنَّ حكمتَه سُبحانَه وتعالى مَبنيَّةٌ على عِلْمِه، وأنَّه إذا تراءَى لأحدٍ أنَّ هذا الشَّيءَ ليس بحكمةٍ؛ فذلك لِنُقصانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٦).

عِلْمِه، وإلَّا لو كان عندَه عِلمٌ وفَهمٌ لعرَف أنَّ الحكمةَ فيما شَرَعَه اللهُ عزَّ وجلَّ وفيما قَدَّرَه[١].

٦- قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾، فعَقَّب الحَمدَ والمُلكَ باسمِ الحكيمِ الخبيرِ الدَّالَّينِ على كَمالِ الإرادةِ، وأنَّها لا تتعلَّقُ بمُرادٍ إلَّا لحِكمةٍ بالغةٍ، وعلى كَمالِ العِلمِ، وأنَّه كما يتعلَّقُ بظواهِرِ المعلوماتِ، فهو متعلِّقٌ ببواطِنِها الَّتي لا تُدرَكُ إلَّا بخِبْرةٍ؛ فنِسبةُ الحِكمةِ إلى الإرادةِ كنِسبةِ الخِبرةِ إلى العِلمِ؛ فالمرادُ ظاهِرٌ والحِكمةُ باطِنةٌ، والعِلمُ ظاهِرٌ والخِبرةُ باطِنةٌ؛ فكمالُ الإرادةِ أن تكونَ واقِعةً على وَجهِ الحِكمةِ، وكَمالُ العِلمِ أن يكونَ كاشِفًا عن الخِبرةِ؛ فالخِبرةُ باطِنُ العِلمِ وكَمالُه، والحِكمةُ باطِنُ الإرادةِ وكمالُها[٢].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

- افتُتِحَتِ السُّورةُ بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وفي هذا التَّحميدِ بَراعةُ استِهلالٍ، وللتَّنبيهِ على أنَّ السُّورةَ تَتضمَّنُ مِن دَلائلِ تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ واتِّصافِه بصِفاتِ العَظَمةِ ما يَقْتضي إنشاءَ الحمْدِ له، والإخبارَ باختِصاصِه به؛ فجُملةُ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هنا يَجوزُ أنْ تكونَ إخبارًا بأنَّ جِنسَ الحمْدِ مُستحَقٌّ للهِ تعالى؛ فتكونَ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِلَّهِ﴾ لامَ المِلْكِ. ويجوزُ أنْ تكونَ إنشاءَ ثَناءٍ على اللهِ على وَجهِ تَعليمِ النَّاسِ أنْ يَخُصُّوه بالحمْدِ؛ فتَكونَ اللَّامُ للتَّبيينِ؛ لأنَّ معنى الكلامِ: أحمَدُ اللهَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥، ١٣٦).

- والتَّعبيرُ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يُفيدُ الاستمرارَ والثُّبوتَ[١].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ اقتضاءُ صِلةِ المَوصولِ أنَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ مِلكٌ للهِ تعالى يَجعَلُ هذه الصِّلةَ صالحةً لِتكونَ عِلَّةً لإنشاءِ الثَّناءِ عليه؛ لأنَّ مِلْكَه لِمَا في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِلكٌ حَقيقيٌّ؛ لأنَّ سَببَه إيجادُ تلك المَمْلوكاتِ، وذلك الإيجادُ عمَلٌ جَميلٌ يَستحِقُّ صاحبُه الحمْدَ، وأيضًا هو يَتضمَّنُ نِعَمًا جمَّةً، وهي أيضًا تَقْتضي حمْدَ المُنعِم. وفي هذه الصِّلةِ تَعريضٌ بكُفرانِ المشركينَ الَّذين حَمِدوا أشياءَ ليس لها في هذه العوالِمِ أدْنى تَأثيرٍ، ولا لها بما تَحْتوي عليه أدْنى شُعورٍ، ونَسُوا حمْدَ مالِكِها ومالكِ سائرِ ما في السَّمواتِ والأرضِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ لَمَّا كانتْ نِعمةُ الآخرةِ مُخبَرًا بها، غيرَ مَرئيَّةٍ لنا في الدُّنيا؛ ذَكَرها لِيُقاسَ نِعَمُها بنِعَمِ الدُّنيا قِياسَ الغائبِ على الشَّاهدِ، وإنِ اختَلَفا في الفَضيلةِ والدَّيمومةِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ عَطْفٌ على الصِّلةِ، أي: والَّذي له الحمْدُ في الآخِرةِ، وهذا إنباءٌ بأنَّه مالكُ الأمْرِ كلِّه في الآخِرةِ. وتَقديمُ المَجرورِ؛ لإفادةِ الحَصرِ والاختصاصِ، أي: لا حمْدَ في الآخِرةِ إلَّا له؛ فلا تَتوجَّهُ النُّفوسُ إلى حمْدِ غيرِه؛ لأنَّ النَّاسَ يومَئذٍ في عالَمِ الحقِّ، فلا تَلتبِسُ عليهم الصُّورُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥، ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٦).

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فيه إطلاقُ الحمْدِ عن ذِكرِ ما يُشعِرُ بالمَحمودِ عليه؛ لِيَعُمَّ النِّعَمَ الأُخرويَّةَ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الزمر: ٧٤]، وما يكونُ ذَريعةً إلى نَيلِها مِن النِّعمِ الدُّنيويَّةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾[1] [الأعراف: ٤٣].

- وخُصَّ الحمدُ في الآخرةِ -معَ أنَّه محمودٌ في الدُّنيا والآخرةِ؛ كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى في آيةٍ ثانيةٍ: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُ ٱلۡحُكۡمُ﴾ [القصص: ٧٠]- لأنَّ ظهورَ حمْدِه في الآخرةِ أبيَنُ وأوضَحُ؛ فإنَّ في الدُّنيا مَن يُنكِرُ حمْدَ اللهِ سُبحانَه وتعالى ويَكفُرُ به، لكنْ في الآخرةِ لا يمكنُ لأحدٍ إلَّا أنْ يحمَدَ اللهَ عزَّ وجلَّ[2].

- قولُه: ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ القرْنُ بيْنَ الصِّفتينِ هنا؛ لأنَّ كلَّ واحِدةٍ تَدُلُّ على معنًى أصليٍّ ومعنًى لُزوميٍّ، وهما مُختلفانِ؛ فالمعنى الأصليُّ للحَكيمِ: أنَّه مُتقِنُ التَّصرُّفِ والصُّنْعِ؛ لأنَّ الحكيمَ مُشتقٌّ مِن الإحكامِ، وهو الإتقانُ، وهو يَستلزِمُ العِلمَ بحَقائقِ الأشياءِ على ما هي عليه، والخبيرُ: هو العليمُ ببواطنِ الأشياءِ وظَواهرِها بالأَولى بحيث لا يَفوتُه شَيءٌ منها، وهو يَستلزِمُ التَّمكُّنَ مِن تَصريفِها؛ ففي التَّتميمِ[3] بهَذينِ الوَصفينِ إيماءٌ إلى أنَّ المقصودَ مِن الجُملةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٦).

قال ابن جُزَي: (﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ الحمدُ الأوَّلُ في الدُّنيا، والثَّاني في الآخرةِ، وعلى هذا حمَلَه الزَّمَخْشَريُّ، ويحتمِلُ عندي أن يكونَ الحمدُ الأوَّلُ للعمومِ والاستِغراقِ، فجُمِع الحمدُ في الدُّنيا والآخرةِ، ثمَّ جُرِّد منه الحمدُ في الآخرةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦١).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٦).

(٣) التَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ =

قبْلَه استِحماقُ الَّذين أقْبَلوا في شُؤونِهم على آلهةٍ باطلةٍ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴾

- قولُه: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ... ﴾ تَفصيلٌ لِبَعضِ ما يُحِيطُ به عِلْمُه تعالى مِن الأُمورِ الَّتي نِيطَتْ بها مَصالِحُهم الدُّنيويَّةُ والدِّينيَّةُ[٢]، ومِن الأساليبِ البلاغيَّةِ الإجمالُ ثمَّ التَّفصيلُ، وفائدةُ هذه الطَّريقةِ البلاغيَّةِ هي: أنَّ الشَّيءَ إذا جاء مُجْمَلًا تَشَوَّفَتِ النُّفوسُ إلى تفصيلِه؛ فجاء التَّفصيلُ واردًا على نفوسٍ تتطلَّعُ إليه، فإذا وردَ التَّفصيلُ إلى نفوسٍ تتطلَّعُ إليه كان أوقَعَ في النَّفْسِ، وأرسَخَ في القلبِ[٣].

- وخُصَّ بالذِّكرِ في مُتعلَّقِ العِلمِ ما يَلِجُ وما يَخرُجُ مِن الأرضِ دونَ ما يَدِبُّ على سَطْحِها، وما يَنزِلُ وما يَعرُجُ إلى السَّماءِ دونَ ما يَجُولُ في أرجائِها؛ لأنَّ ما ذُكِرَ لا يَخْلو عن أنْ يكونَ دابًّا وجائلًا فيهما، والَّذي يَعلَمُ

---

= حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلام بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهم، ومِن أمثلةِ التَّتميم قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلْإِثْمِ ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤).

ما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخرُجُ منها، يَعلَمُ ما يَدِبُّ عليها وما يَزحَفُ فوقَها، والَّذي يَعلَمُ ما يَنزِلُ مِن السَّماءِ وما يَعرُجُ، يَعلَمُ ما في الأجواءِ والفضاءِ مِن الكائناتِ المرئيَّةِ وغيرِها، ويَعلَمُ سَيْرَ الكواكبِ ونِظامَها. وكَلِمَتا (يَلِج) (ويَخرُجُ) أوضَحُ ما يُعبَّرُ به عن أحوالِ جَميعِ الموجوداتِ الأرضيَّةِ بالنِّسبةِ إلى اتِّصالِها بالأرضِ، وكَلِمَتا (يَنزِلُ) (ويَعرُج) أوضَحُ ما يُعبَّرُ به عن أحوالِ المَوجوداتِ السَّماويَّةِ بالنِّسبةِ إلى اتِّصالِها بالسَّماءِ، مِن كَلِماتِ اللُّغةِ الَّتي تَدُلُّ على المعاني المَوضوعةِ للدَّلالةِ عليها دَلالةً مُطابقيَّةً على الحقيقةِ دونَ الكِنايةِ؛ ولذلك لم يَعطِفِ السَّماءَ على الأرضِ في الآيةِ، فلمْ يَقُلْ: يَعلَمُ ما يَلِجُ في الأرضِ والسَّماءِ، وما يَخرُجُ منْهما، ولم يَكتَفِ بإحْدى الجُملتينِ عن الأُخرى[1].

- وقال: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، ولم يقُلْ: (يَعرُجُ إليها)؛ إشارةً إلى قَبولِ الأعمالِ الصَّالحةِ، ومَرتبةِ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ؛ وهذا لأنَّ كَلِمةَ (إلى) للغايةِ، فلو قال: (وما يَعرُجُ إليها)، لفُهِمَ الوقوفُ عندَ السَّمواتِ. فقال: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ لِيُفهَمَ نُفوذُها فيها، وصعودُها منها؛ ولهذا قال في الكَلِمِ الطَّيِّبِ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]؛ لأنَّ الله هو المنتهَى، ولا مرتبةَ فوقَ الوصولِ إليه، وأمَّا السَّماءُ فهي دنيا، وفوقَها المنتهَى[2]، فقال: (فيها)، ولم يقُلْ: (إليها)؛ لنستفيدَ فائدتينِ: الفائدةُ الأُولَى: العروجُ، أي: الصُّعودُ. الفائدةُ الثانيةُ: الدُّخولُ؛ لأنَّ (في) يُناسِبُها مِن الأفعالِ الدُّخولُ، أمَّا (عَرَج) و(يَعرُجُ) فالَّذي يُناسِبُها (إلى)، لكِنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ عدَلَ عن قَولِه: (يَعرُجُ إليها) إلى قَولِه: ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ ليُفيدَ الصُّعودَ والدُّخولَ، أي: الأشياءُ لا تَصِلُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩١).

السَّماءِ الدُّنيا وتَقِفُ، بل تَعرُجُ في السَّماءِ الدُّنيا حتَّى تَصِلَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فضُمِّنَ «يعرُجُ» معنى «يدخُلُ»(١).

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ فيه تَعريضٌ بالمشركينَ أنْ يَتوبوا عن الشِّركِ، فيُغفَر لهم ما قدَّموهُ(٢).

- وقَولُه: ﴿ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ فيه مناسَبةٌ حسَنةٌ، فالأكثرُ في القرآنِ تقديمُ اسمِه «الغفورِ» على اسمِه «الرَّحيم»، أمَّا هنا فقدَّم الرَّحيمَ على الغفورِ في هذا السِّياقِ؛ لِمَا يكونُ في السَّماءِ والأرضِ مِن المصالحِ والمنافعِ، والمصالحُ والمنافعُ مِن آثارِ الرَّحمةِ، ودفْعُ المصائبِ مِن آثارِ المغفرةِ؛ لأنَّ المغفرةَ: مَحْوُ الذَّنبِ الَّذي تَزولُ فيه المكروهاتُ، والرَّحمةُ: حصولُ الخَيرِ(٣).

وأيضًا فالرَّحمةُ هنا مُتقدِّمةٌ على المغفرةِ؛ إمَّا بالفَضلِ والكَمالِ، وإمَّا بالطَّبعِ؛ لأنَّها مُنتَظِمةٌ بذِكرِ أوصافِ الخَلقِ مِن المكَلَّفينَ وغَيرِهم مِن الحيوانِ، فالرَّحمةُ تَشمَلُهم، والمغفرةُ تخُصُّهم، والعمومُ بالطَّبعِ قبْلَ الخُصوصِ(٤).

وأيضًا قدَّم ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في هذا الموضِعِ؛ لتقَدُّمِ صِفةِ العِلمِ، فحَسُنَ ذِكرُ الرَّحيمِ بعدَه؛ لِيَقترِنَ به فيطابِقَ قَولَه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ثمَّ خَتَم الآيةَ بذِكرِ صِفةِ المغفرةِ؛ لتضَمُّنِها دَفْعَ الشَّرِّ، وتضَمُّنِ ما قبْلَها جَلْبَ الخَيرِ، ولَمَّا كان دفْعُ الشَّرِّ مُقدَّمًا على جَلبِ الخيرِ قُدِّم اسمُ الغَفورِ على الرَّحيمِ حيث وقَعَ، ولَمَّا كان في هذا الموضِعِ تعارُضٌ يقتضي تقديمَ اسمِه

---

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥).

(٤) يُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٢١٣).

الرَّحيم؛ لأجْلِ ما قبْلَه، قُدِّم على الغَفورِ[١].

وقيل: قدَّم صِفةَ الرَّحمةِ؛ ليُعلَمَ أنَّ رحمتَه سبَقَتْ غضَبَه، ولأنَّه في سياقِ الحَمدِ، فناسَبَ تقديمَ الوَصفِ النَّاظِرِ إلى التَّكميلِ على الوَصفِ النَّافي للنَّقصِ[٢].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٧٨).

## الآيات (٢-٦)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَعۡزُبُ﴾: أي: يَغيبُ، وأصلُ (عزب): يدُلُّ على تباعُدٍ وتَنَحٍّ[1].

﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾: أي: زِنةُ نملةٍ صغيرةٍ، يُقالُ: هذا على مِثقالِ هذا، أي: على وزنِ هذا، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخفَّةِ، والذَّرَّةُ هي أصغرُ النَّملِ، وقيل: هي ما يَرفَعُه الرِّيحُ مِن التُّرابِ وأجزاءِ الهواءِ في الكوَّةِ[2]، وأصلُ (ذَرر): يدُلُّ على لَطافةٍ وانتِشارٍ[3].

﴿سَعَوۡ﴾: السَّعيُ: المشْيُ الشَّديدُ، وهو دونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٢) الكوةُ- بفتحِ الكافِ وضمِّها- : الخَرْقُ في الحائطِ ونحوِه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٨/ ١٥٧).

الأمرِ، وشِدَّةِ الحرصِ في العملِ خيرًا كان أو شرًّا، يُقالُ: سعَى في الأمرِ: إذا جَدَّ فيه لقَصدِ إصلاحِه أو إفسادِه[١].

﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: أي: مُشاقِّينَ مُعانِدينَ مُغالِبينَ، والمُعاجَزةُ: مُحاوَلةُ عَجْزِ المغالَبِ؛ يُريدُ كلُّ واحدٍ أن يُظهِرَ عجزَ صاحبِه، وأصلُ (عجز): يدُلُّ على ضَعفٍ[٢].

﴿رِّجْزٍ﴾: الرِّجزُ: سوءُ العذابِ وأليمُه، وأصل (رجز): يدُلُّ على الاضطِرابِ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى ما قاله الكافرونَ في شأنِ القيامةِ، فيقولُ: وقال الكُفَّارُ مُنكِرينَ البَعثَ بعدَ الموتِ: لا تأتينا القيامةُ! ويأمُرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: بلى ورَبِّي عالمِ الغَيبِ لَتأتينَّكم القيامةُ، لا يَغيبُ عنه تعالى وَزنُ ذَرَّةٍ في السَّمَواتِ ولا في الأرضِ، ولا أصغَرُ مِن ذلك ولا أكبَرُ منه؛ فكلُّ شَيءٍ مَكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى حِكمتَه في البعثِ وقيامِ السَّاعةِ، فيقولُ: لِيَجزيَ اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ، أولئك لهم مَغفِرةٌ ورِزقٌ حَسَنٌ.

والَّذين سَعَوا في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى ظانِّينَ أنَّ الله تعالى لا يَقدِرُ على بَعثِهم ومُعاقَبتِهم: أولئك لهم عَذابٌ شديدٌ مُوجِعٌ.

---

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤١١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٦).

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه موقفَ أهلِ العلم النَّافع ممَّا جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: ويَرى الَّذين أُوتوا العِلمَ ما أنزَلَه اللهُ إليك -يا محمَّدُ- مِن القُرآنَ هو الحقَّ، وأنَّه يَهدي إلى طَريقِ الله القاهِرِ لكُلِّ شَيءٍ، الحامِدِ لعبادِه، والمحمودِ مِن خَلقِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٣ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عَظَمَتَه، بما وَصَف به نفْسَه، وكان هذا مُوجِبًا لتَعظيمِه وتقديسِه، والإيمانِ به؛ ذكَرَ أنَّ مِن أصنافِ النَّاسِ طائفةً لم تَقْدُرْ رَبَّها حَقَّ قَدْرِه، ولم تُعظِّمْه حَقَّ عظَمتِه، بل كفَروا به، وأنكَروا قُدرتَه على إعادةِ الأمواتِ، وقيامِ السَّاعةِ، وعارَضوا بذلك رُسُلَه[1].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ ﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ تَكذيبًا وإنكارًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: لا تأتينا القيامةُ أبدًا[2]!

﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: بلى ستأتيكم القيامةُ، وأُقسِمُ برَبِّي لَتأتينَّكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤). =

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ بضَمِّ الميمِ، على أنَّ ﴿عَالِمُ﴾ خبَرٌ لمبتدأٍ مَحذوفٍ، أو مبتدأٌ وخبَرُه ﴿لَا يَعْزُبُ﴾، والجملةُ إمَّا استِئنافيَّةٌ، وإمَّا حاليَّةٌ مِن (رَبِّي)[١].

٢- قِراءةُ ﴿علَّامِ الْغَيْبِ﴾ بتشديدِ اللَّامِ وكَسرِ الميمِ، صيغةُ مُبالَغةٍ مِن صِفةِ العِلمِ[٢].

٣- قِراءةُ ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ بكَسرِ الميمِ، على أنَّ ﴿عَٰلِمِ﴾ وصْفٌ لـ (رَبِّي)، أو بدَلٌ منه[٣].

---

= قال الشنقيطي: (لفظةُ: «بلى» لا تأتي في اللُّغةِ العربيَّةِ إلَّا لأحدِ معنيَينِ، لا ثالثَ لهما:
الأوَّلُ: أنْ تأتيَ لإبطالِ نَفْيٍ سابقٍ في الكلامِ، فهي نقيضةُ «لا»؛ لأنَّ «لا» لنفيِ الإثباتِ، و «بَلَى» لنَفْيِ النَّفْيِ... كقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾...
الثَّاني: أنْ تكونَ جوابًا لاستفهامٍ مُقترِنٍ بنفْيٍ خاصَّةً؛ كقولِه: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٦٨).

(١) قرأ بها نافع، وأبو جعفر، وابن عامر، ورُوَيس. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩١، ٢٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١).

(٢) قرأ بها حمزةُ والكِسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩١، ٢٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨١).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨١).
قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندَنا أنَّ كُلَّ هذه القراءاتِ الثَّلاثِ قِراءاتٌ مشهورةٌ في قَرَأَةِ الأمصارِ، مُتقارِباتُ المعاني). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٠).

﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: العالِم بكُلِّ ما يَغيبُ عن خَلْقِه، فلا يَعلَمُ وَقتَ مَجيءِ القيامةِ أحدٌ سِواه[١].

﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لا يَغيبُ عن اللهِ تعالى وَزنُ ذَرَّةٍ سواءٌ كانت في السَّمواتِ أو في الأرضِ؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن خَلقِه، وإن تفرَّقَت أجزاؤُهم وتمزَّقَت وتلاشَت بعدَ مَوتِهم[٢].

﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: ولا يَغيبُ عن الله تعالى أصغَرُ مِن ذلك ولا أكبَرُ منه؛ فكلٌّ مَكتوبٌ مُثبَتٌ في لَوحٍ مَحفوظٍ في غايةِ الإبانةِ والوُضوحِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٥).

والذرَّةُ: أصغرُ النَّملِ، وهو المعروفُ، ويُطلقُ على الهباءةِ التي تُرَى في ضوءِ الشَّمسِ كغُبارٍ دقيقٍ جدًّا، وقيل غير هذا، وهي في الجملةِ عبارةٌ عن أقلِّ الأشياءِ وأصغرِها. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٦).

ممَّن اختار أن ﴿مُّبِينٖ﴾ أي: بَيِّنٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٢).

قال ابنُ جرير في قولِه تعالى: ﴿مُّبِينٖ﴾: (أي: يَبينُ للنَّاظِرِ فيه أنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه قد أثبَتَه وأحصاه وعَلِمه، فلمْ يَعْزُبْ عنه عِلْمُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١١). =

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥].

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عِلمَه بالصَّغائِرِ والكبائِرِ؛ ذكَرَ أنَّ جَمْعَ ذلك وإثباتَه للجزاءِ، فقال[1]:

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: لِيُثيبَ[2] الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ

---

= وقال ابن عثيمين: (﴿مُّبِينٍ﴾ أي: مُفَصِّلٍ لكلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٢).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (واللاَّمُ مِن قولِه تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ﴾ يصِحُّ أن تكونَ متعلِّقةً بقولِه تعالى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ويصِحُّ أن تكونَ متعلِّقةً بقولِه: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾، ويصِحُّ أن تكونَ متعلِّقةً بما في قولِه: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ مِن معنى الفعلِ؛ لأنَّ المعنى: إلَّا أثْبَتُّه في كتابٍ مبينٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٥).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الزجَّاج، والزمخشري، والرسعني، والقرطبي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٨)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) =

الخالِصةَ للهِ تعالى، الموافِقةَ لِشَرعِه[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾.

أي: أولئك لهم مِنَ اللهِ مَغفِرةٌ لِذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، ولهم رِزقٌ حَسَنٌ في كَمِّيَّتِه وكيفيَّتِه[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ المؤمِنينَ يومَ القيامةِ؛ بيَّنَ حالَ الكافِرينَ[٣].

وأيضًا لَمَّا كانت أدِلَّةُ السَّاعةِ قد اتَّضَحت، حتَّى لم يَبْقَ مانعٌ مِن التَّصديقِ بها إلَّا العِنادُ، وكان السِّياقُ لتَهديدِ مَن جَحَدها؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٌ﴾[٤].

---

= (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: العُلَيميُّ، فقال: (اللَّامُ في ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾ متعلِّقةٌ بقولِه: ﴿لَا يَعۡزُبُ﴾، أي: لا يغيبُ عنه شَيءٌ؛ لِيَجزيَ المحسِنَ والمسِيءَ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٠١).

وممَّن اختار القولَ الثالثَ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٨٥).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٩-٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٤٢-٤٤، ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٨).

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

أ- في قَولِه تعالى: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ قيل: على معنى: مُثبِّطينَ ومُبَطِّئينَ[١].

٢- قِراءةُ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ قيل: على معنى: مُعانِدينَ. وقيل: على معنى: ظانِّينَ أنَّهم يُعجِزونَنا، أي: يَفوتونَنا؛ لأنَّهم ظَنُّوا أنَّهم لا يُبعَثونَ[٢].

ب- في قَولِه تعالى: ﴿أَلِيمٌ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالرَّفعِ وصْفًا للعذابِ، أي: عذابٌ أليمٌ مِن رِجزٍ[٣].

٢- قِراءةُ ﴿أَلِيمٍ﴾ بالجَرِّ وصْفًا للرِّجْزِ، أي: عذابٌ مِن رِجزٍ أليمٍ[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ٥﴾.

أي: والَّذين اجتَهَدوا في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى، وصَدِّ النَّاسِ عنها، وظَنُّوا أنَّهم

---

(١) قرأ بها ابنُ كثير، وأبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٣، ٥٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٨٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٣، ٥٤).

(٣) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، ويعقوبُ، وحفصٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٢)، (معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٨).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٢)، (معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٨).

يَفوتونَ اللهَ، فلا يَقدِرُ على بَعثِهم ومُعاقبتِهم: أولئك لهم عذابٌ شديدٌ مُوجِعٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾ [الجاثية: ١١].

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنكارَ مَن أنكَرَ البَعثَ، وأنَّهم يَرَونَ ما أنزَل على رَسولِه ليس بحَقٍّ؛ ذكَرَ حالةَ الموفَّقينَ مِن العبادِ -وهم أهلُ العِلمِ- وأنَّهم يَرَونَ ما أنزلَ اللهُ على رَسولِه مِن الكِتابِ، وما اشتَمَل عليه مِن الأخبارِ: هو الحَقَّ[٢]؛ فذكَرَ ذلك إعلامًا بأنَّ الَّذي أورَثَ الكَفَرةَ التَّكذيبَ: الجَهلُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٣، ١٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٣، ٥٤).

ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾: القرآنُ: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والنسفي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٣).

وممن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: أدلتُنا وحجَجُنا: ابنُ جريرٍ، ومكِّي، والبغوي، والخازن، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧١)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٠١).

قال ابنُ عثيمين: (والصوابُ: أنَّ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ هنا أعَمُّ من القرآنِ؛ لأنَّ الساعينَ في آياتِ الله تعالى ليسوا هم مِن هذه الأُمَّةِ فقَطْ، حتى في الأُمَمِ السابِقةِ فإنَّ فيهم مَن يَسعَى في آياتِ الله تعالى... في إبطالِها وصدِّ الناسِ عنها، وعلى هذا فنَقولُ: إنَّ المُرادَ بآياتِ الله تعالى هنا أعمُّ مِن القرآنِ، يَشمَلُ السَّعيَ في أيِّ آيةٍ مِن آياتِ الله تعالى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٨، ٤٤٩).

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ ﴾.

أي: ويرى أهلُ العِلمِ[1] أنَّ ما أنزَلَ اللهُ إليك -يا مُحمَّدُ- مِنَ القُرآنِ: هو الحَقُّ وحْدَه دونَ ما سِواه[2].

قال تعالى: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ * وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ ﴾ [الأنعام: ١١٤، ١١٥].

﴿ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾.

أي: ويَرَونَ أنَّ القُرآنَ يَهدي مَن اتَّبَعه إلى طريقِ اللهِ المَنيعِ الجَنابِ، المنتَقِمِ مِن أعدائِه، والقاهِرِ لكُلِّ شَيءٍ فلا يُغالَبُ؛ الحامِدِ لعبادِه، والمحمودِ مِن خَلقِه[3].

---

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾: مؤمنو أهلِ الكتابِ؛ كعبدِ الله بنِ سَلَام وأصحابِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جريرٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٧٤).

وممَّن اختار أنَّهم أصحابُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: الشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٦).

قال ابن عاشور: (والأظهَرُ أنَّ المرادَ مِن الَّذينَ أُوتوا العِلمَ: مَن آمَنوا بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ مَكَّةَ؛ لأنَّهم أُوتوا القرآنَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٦).

وقيل: المرادُ: جميعُ المسلِمينَ. وممَّن رجَّح ذلك: القرطبيُّ، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٧، ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٥، ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦١، ٦٢).

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى قولِه سُبحانَه في حقِّ الكفَّارِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أنَّه يَنبغي في الخِطابِ أنْ يكونَ جامعًا بيْنَ أسبابِ الخَوفِ وأسبابِ الرَّجاءِ؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ الخَوفُ فقط فقد يَستولي على القَلبِ القُنوطُ مِن رحمةِ اللهِ، وإذا ذُكِرَ الرَّجاءُ فقط فقد يَستولي عليه الأمنُ مِن مَكرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ التَّحذيرُ مِن سَعيِ الإنسانِ في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى، والقاعِدةُ في التَّفسيرِ: أنَّه إذا نُهِيَ عن شَيءٍ فهو أمرٌ بضِدِّه؛ فتَكونُ هذه الآيةُ مُتضَمِّنةً للحثِّ على السَّعيِ في آياتِ الله؛ لِتَقريرِها وتَثبيتِها؛ فإنَّنا مأمورونَ بأنْ نسعَى قَدْرَ استطاعتِنا في تثبيتِ آياتِ اللهِ، ونَشْرِها بينَ الأُمَّةِ؛ حتَّى تقومَ المِلَّةُ(٢).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ فيه مَنقَبةٌ لأهلِ العِلمِ، وفَضيلةٌ وعَلامةٌ لهم، وأنَّه كُلَّما كان العبدُ أعظَمَ عِلمًا وتَصديقًا بأخبارِ ما جاء به الرَّسولُ، وأعظَمَ مَعرِفةً بحُكمِ أوامِرِه ونواهيه؛ كان مِن أهلِ العِلمِ الَّذين جعَلَهم اللهُ حُجَّةً على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٦).

ما جاء به الرَّسولُ؛ احتَجَّ اللهُ بهم على المكَذِّبينَ المعانِدينَ كما في هذه الآيةِ وغَيرِها[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أنْ يُعجَبَ بعِلمِه؛ فبِناءُ الفِعلِ للمَفعولِ يُشيرُ إلى أنَّهم ما أدركوه بأنفُسِهم، ولكنَّ اللهَ تعالى مَنَّ عليهم به، فلا يَنبغي للإنسانِ أنْ يقولَ مُعجبًا بنفسِه: العِلمُ حصَّلْتُه أنا بفَهْمي وحِرْصي ومُثابرتي! وقد أخبَر الله تعالى بما صنَع بالَّذي قال عن مالِه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، وأنَّه خَسَف به الأرضَ. وإنَّما على الإنسانِ أنْ يَلجأَ إلى اللهِ تعالى في تحصيلِ العِلمِ، وأنْ يسألَه أنْ يُؤتيَه إيَّاه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ هذه إحدَى الآياتِ الثَّلاثِ الَّتي لا رابِعَ لهنَّ ممَّا أمر اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُقسِمَ بربِّه العظيمِ على وُقوعِ المَعادِ، لَمَّا أنكَرَه مَن أنكَرَه مِن أهلِ الكُفرِ والعِنادِ؛ فإحداهنَّ في سورةِ (يونس): ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]، والثَّانيةُ هذه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾، والثَّالثةُ في التَّغابُنِ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾[٣] [التغابن: ٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ إباحةُ القَسَمِ، وقد يجبُ إذا دَعَتِ الحاجةُ إليه؛ نأخُذُه مِن أمرِ اللهِ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُقْسِمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٥).

على قيامِ السَّاعةِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ كمالُ رحمةِ اللهِ بعبادِه؛ حيث أخبرَهم بالبَعثِ، وأكَّدَه بالمؤكِّداتِ اللَّفظيَّةِ والمعنَويَّةِ والحِسِّيَّةِ أيضًا؛ لأنَّ الإيمانَ بالبَعثِ هو الَّذي يَحمِلُ الإنسانَ على القيامِ بطاعةِ اللهِ؛ إذْ لو لم يكنْ هناك بَعثٌ ما عَمِلَ الإنسانُ للآخِرةِ أبدًا[٢]!

٤- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ لَقَّنَ اللهُ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الجوابَ عن قَولِ الكافرينَ بالإبطالِ المُؤكَّدِ، على عادةِ إرشادِ القُرآنِ في انتهازِ الفُرَصِ لِتَبليغِ العقائدِ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾ أنَّ أفعالَ اللهِ مُعَلَّلةٌ، بمعنى: أنَّ لها عِلَّةً؛ يُؤخَذُ مِن اللَّام في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ﴾؛ لأنَّ اللَّامَ للتَّعليلِ، وهذا يُؤَيِّدُ مَذهَبَ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ الَّذين يقولون: إنَّ أفعالَ اللهِ تعالى مقرونةٌ بالحِكمةِ، ومعلومٌ أنَّ الجَهميَّةَ وكذلك بعضُ الأشاعرةِ يُنكِرونَ أنْ تكونَ أفعالُ اللهِ تعالى لحِكمةٍ، ويقولون: إنَّ أفعالَه لمجرَّدِ المشيئةِ! ونقولُ لهم: إنَّ هذا مُصادَمةٌ للنُّصوصِ، ولو تأمَّلْنَا القرآنَ لوجَدْنا فيه آلافَ الآياتِ تدُلُّ على إثباتِ الحكمةِ للهِ تعالى[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الفَرقُ بيْنَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ عندَ الجَمعِ بيْنَهما؛ فإنَّه إذا جُمِعَ بيْنَهما صار الإيمانُ في القلبِ، والعملُ الصَّالحُ في الجوارحِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٦).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الإيمانَ الَّذي في القَلبِ فقط لا يكفي عن العَمَلِ الصَّالحِ؛ لأنَّه رَتَّبَ الجزاءَ على قيامِ الوَصفَينِ بالفاعِلِ، وهما الإيمانُ والعَمَلُ الصَّالحُ[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ فيه سؤالٌ: ميَّز الرِّزقَ بالوَصفِ بقَولِه: ﴿كَرِيمٞ ﴾، ولم يَصِفِ المَغفِرةَ؟

**الجوابُ**: المَغفِرةُ واحِدةٌ هي للمُؤمِنينَ، والرِّزقُ منه شَجَرةُ الزَّقُّومِ والحَميمُ، ومنه الفَواكِهُ والشَّرابُ الطَّهورُ، فميَّز الرِّزقَ؛ لحُصولِ الانقِسامِ فيه، ولم يميِّزِ المغفرةَ؛ لعدَمِ الانقِسامِ فيها[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ ﴾ دليلٌ ظاهرٌ أنَّ الَّذي نراه معارِضًا للنَّقلِ، ويُقَدِّمُ العقلَ عليه ليس مِن الَّذين أُوتوا العِلمَ في شَيءٍ، لا قليلٍ ولا كثيرٍ! وقد شهِد الله سبحانَه بالعِلمِ لمَن يرَى أنَّ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن عندِ اللهِ هو الحَقُّ لا آراءَ الرِّجالِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ ﴾ أنَّ العقلَ الصَّريحَ لا يُخالِفُ السَّمعَ الصَّحيحَ، بل يُصَدِّقُه ويُوافِقُه[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ ﴾ أنَّ أعلَمَ النَّاسِ مَن كان رأيُه واستِصلاحُه واستِحسانُه وقياسُه مُوافقًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٣)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٥٥) و (٣/ ٨٥١).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ١٠١).

للنُّصوصِ، كما قال مجاهِدٌ: (أفضلُ العبادةِ الرَّأيُ الحسَنُ، وهو اتِّباعُ السُّنَّةِ)[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ أنَّ مَن ابتغَى الهدَى مِن غيرِ القرآنِ ضَلَّ؛ لأنَّه إذا كان هو الَّذي يَهدي إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ؛ فإذا ابتغيتَ الهدى مِن غيرِه -المخالِفِ له- فإنَّك لا تُهدى إلى صراطِ العزيزِ الحميدِ! ولهذا لَمَّا طَلَب أهلُ البدعِ الوُصولَ إلى الخالقِ عن طريقِ غيرِ القرآنِ ضَلُّوا وتاهوا، وبقُوا مُتحيِّرينَ مُضطربينَ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ كان ذِكرُ ما يَلِجُ في الأرضِ وما يَخرُجُ منها مُشعِرًا بحالِ الموتَى عندَ وُلوجِهم القُبورَ، وعندَ بَعْثِهم منها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥- ٢٦]، وكان ذِكرُ ما يَنزِلُ مِن السَّماءِ وما يَعرُجُ فيها مُومِئًا إلى عُروجِ الأرواحِ عندَ مُفارَقةِ الأجسادِ، ونُزولِ الأرواحِ لِتُرَدَّ إلى الأجسادِ الَّتي تُعادُ يومَ القيامةِ؛ فكان ذلك مع ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأَخِرَةِ﴾ [سبأ: ١] مُناسبةً للتَّخلُّصِ إلى ذِكرِ إنكارِ المُشركينَ الحشْرَ؛ لأنَّ إبطالَ زَعْمِهم مِن أهمِّ مَقاصدِ هذه السُّورةِ؛ فكان التَّخلُّصُ بقولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٠٤). وأثرُ مجاهدٍ رواه الأصبهاني في ((حلية الأولياء)) (٣/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٥، ٦٦).

ٱلسَّاعَةُ﴾[١].

- وفي قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ تَعريفُ المُسنَدِ إليه بالمَوصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ هذا الموصولَ صار كالعَلَمِ بالغَلَبةِ على المُشركينَ في اصطِلاحِ القُرآنِ، وتَعارُفِ المسلمينَ، والسَّاعةُ: عَلَمٌ بالغَلَبةِ في القُرآنِ على يَومِ القِيامةِ وساعةِ الحشْرِ، وعُبِّرَ عن انتفاءِ وُقوعِها بانتفاءِ إتيانِها على طَريقِ الكِنايةِ؛ لأنَّها لو كانتْ واقعةً لَأتَتْ؛ لأنَّ وُقوعَها هو إتيانُها[٢]، وإنَّما عبَّروا عنه بذلك لأنَّهم كانوا يُوعَدون بإتيانِها، ولأنَّ وُجودَ الأُمورِ الزَّمانيَّةِ المُستقبَلةِ -لا سيَّما أجْزاءُ الزَّمانِ- لا يكونُ إلَّا بالإتيانِ والحُضورِ. وقيل: هو استبطاءٌ لإتيانِها الموعودِ بطَريقِ الهُزءِ والسُّخريةِ كقولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[٣] [الملك: ٢٥].

- قولُه: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ﴾ أكَّدَ ما اقتضاهُ (بلى) مِن إثباتِ إتيانِ السَّاعةِ بالقَسَمِ على ذلك؛ للدَّلالةِ على ثِقةِ المُتكلِّمِ بأنَّها آتيةٌ، وليس ذلك لإقناعِ المخاطَبينَ، وهو تأْكيدٌ يُروِّعُ السَّامعينَ المُكذِّبينَ. وعُدِّيَ إتيانُها إلى ضَميرِ المخاطبينَ مِن بيْنِ جَميعِ النَّاسِ دونَ: (لِتَأتِينَّا)، ودونَ أنْ يُجرَّدَ عن التَّعديةِ لِمَفعولٍ؛ لأنَّ المُرادَ إتيانُ السَّاعةِ الَّذي يكونُ عندَه عِقابُهم، كما يُقالُ: أتاكُمُ العَدُوُّ، وأتاكَ أتاكَ اللَّاحقونَ؛ فتَعلُّقُه بضَميرِ المُخاطَبينَ قَرينةٌ على أنَّه كِنايةٌ عن إتيانِ مَكروهٍ فيه عَذابٌ[٤].

- وقولُه: ﴿وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ تَأكيدٌ لِرَدِّ كَلامِهم على أتمِّ الوُجوهِ وأكمَلِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٩).

وقولُه: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ ...﴾ إلخ: إمدادٌ للتَّأكيدِ، وتَسديدٌ له إثرَ تَسديدٍ، وكَسرٌ لِسَورةِ نَكيرِهم واستبعادِهم؛ فإنَّ تَعقيبَ القسَمِ بجَلائلِ نُعوتِ المُقسَمِ بهِ على الإطلاقِ يُؤذِنُ بفَخامةِ شَأنِ المُقْسَمِ عليه، وقُوَّةِ ثَباتِه وصِحَّتِه؛ لِمَا أنَّ ذلك في حُكمِ الاستِشهادِ على الأمْرِ، ولا رَيبَ في أنَّ المُستشهَدَ به كلَّما كان أجَلَّ وأعْلَى، كانتِ الشَّهادةُ آكَدَ وأقْوى، والمُستشهَدُ عليه أحقَّ بالثُّبوتِ وأَولى، لا سيَّما إذا خُصَّ بالذِّكرِ مِن النُّعوتِ ما له تَعلُّقٌ خاصٌّ بالمُقسَمِ عليه كما نحنُ فيهِ؛ فإنَّ وَصْفَه بعِلمِ الغَيبِ الَّذي أشهَرُ أفرادِه وأدخَلُها في الخَفاءِ هو المُقسَمُ عليهِ -إتيانُ السَّاعةِ- تَنبيهٌ لهمْ على عِلَّةِ الحُكمِ وكَونِه ممَّا لا يَحومُ حوْلَه شائبةُ رَيبٍ ما. وفائدةُ الأمْرِ بهذه المَرتبةِ مِن اليمينِ ألَّا يَبقَى للمُعاندينَ عُذرٌ ما أصلًا؛ فإنَّهم كانوا يَعرِفون أمانتَه ونَزاهتَه عن وَصْمةِ الكذِبِ فضْلًا عن اليمينِ الفاجِرةِ، وإنَّما لم يُصَدِّقوه مُكابَرةً[1].

- وجاء القسَمُ بقولِه: ﴿وَرَبِّي﴾ مُضافًا إلى الرَّسولِ؛ لِيَدُلَّ على شِدَّةِ القَسَمِ؛ إذ لم يَأتِ به في الاسمِ المُشترَكِ بيْنَه وبيْنَ مَن أنكَرَ السَّاعةَ، وهو لَفظُ (اللهِ)[2].

- قولُه: ﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ أشارَ بقولِه: ﴿مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ﴾ إلى تَقريبِ إمكانِ الحشْرِ؛ لأنَّ الكافرينَ أحالوهُ بعِلَّةِ أنَّ الأجسادَ تَصيرُ رُفاتًا وتُرابًا، فلا تُمكِنُ إعادتُها؛ فنُبِّهوا إلى أنَّ عِلمَ اللهِ مُحيطٌ بأجزائِها[3].

- قولُه: ﴿وَلَآ أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ جُملةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤١).

مُؤكِّدةٌ لِنَفْيِ العُزوبِ[١].

- وقد تَكرَّرَ في القرآنِ إتْباعُ ذِكرِ السَّاعةِ بذِكرِ انفِرادِه تعالى بعِلْمِها؛ لأنَّ الكافرينَ بها جَعَلوا مِن عَدَمِ العِلمِ بها دَليلًا سُفسطائيًّا على أنَّها ليستْ بواقعةٍ؛ ولذلك سمَّاها القرآنُ الواقعةَ في قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[٢] [الواقعة: ١، ٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٣]، وقال بعْدَه في هذه السُّورةِ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢]، وقال في سُورةِ (يُونسَ): ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]؛ فقدَّمَ السَّمواتِ على الأرضِ في المَوضعينِ مِن سُورةِ (سَبأٍ)، وقدَّمَ الأرضَ على السَّماءِ في سُورةِ (يُونسَ)؛ وَوجْهُ ذلك: أنَّه قدَّمَ ذِكرَ السَّمواتِ على الأرضِ في سُورةِ (سَبأٍ)؛ لأنَّ هذه الآيةَ مَبنيَّةٌ على مُفتتَحِ السُّورةِ، وهو قولُه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ١]، فقدَّمَ ذِكرَ السَّمواتِ؛ لأنَّ مُلْكَها أعظَمُ شَأنًا وأكبَرُ سُلطانًا، وكذلك الآيةُ الَّتي بعْدَها مِن سُورتِها. وأمَّا الآيةُ الَّتي في سورةِ (يُونسَ) فإنَّها جاءتْ عَقيبَ قولِه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]؛ فكان القصْدُ إلى ذِكرِ عِلمِه بما يَتصرَّفُ فيه العِبادُ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وذلك في الأرضِ، فأتَمَّه بقولِه: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٠).

فِي ٱلْأَرْضِ﴾، فاستوعَبَ جميعَ ما في الأرضِ، ثمَّ أتْبَعَهُ بذِكرِ السَّماءِ؛ لأنَّ الابتداءَ وقَعَ بما يَتعلَّقُ بها، وما يَعمَلُ العِبادُ فيها؛ فلذلك قُدِّمَت الأرضُ عليها(١).

- وأيضًا فقد قَدَّمَ سُبحانَه ذِكْرَ السَّمَواتِ على الأرضِ لأنَّ الساعةَ إنَّما تأتي مِن قِبَلِها، وهي غَيْبٌ فيها، ومِن جهتِها تَبتدِئُ وتَنشأُ، ولهذا قَدَّمَ صَعْقَ أهلِ السمواتِ على أهلِ الأرضِ عندَها، فقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، وأمَّا تقديمُ الأرضِ على السماءِ في سورةِ (يونسَ): فإنَّه لَمَّا كان السِّياقُ سياقَ تحذيرٍ وتهديدٍ للبشرِ، وإعلامِهم أنه سُبحانَه عالِمٌ بأعمالِهم دقيقِها وجليلِها، وأنَّه لا يَغيبُ عنه منها شَيءٌ؛ اقتضَى ذلك ذكرَ مَحلِّهم -وهو الأرضُ- قبْلَ ذكرِ السَّماءِ(٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عِلَّةٌ لقولِه تعالى: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وبَيانٌ لِمَا يَقْتضي إتيانَها(٣). وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه جَديرٌ بما سَيَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحُكمِ؛ لأجْلِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ، وما فيهِ مِنْ معنَى

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٧٤-١٠٧٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٧، ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢١ - ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٢).

البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الفضْلِ والشَّرفِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴾

- قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ﴾ ﴿مُعَٰجِزِينَ ﴾ مُبالَغةٌ في مُعجزينَ، وهو تَمثيلٌ: شُبِّهت حالُهم في مَكرِهم بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحالِ مَن يَمْشي مَشيًا سَريعًا؛ لِيَسبِقَ غيرَه ويُعجِزَه[٢].

- وقُوبِلَ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ بـ (الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا)؛ لأنَّ السَّعيَ في آياتِ اللهِ يُساوي معنى: كَفَروا بها، وبذلك يَشملُ عمَلَ السَّيِّئاتِ، وهو سيِّئةٌ مِن السَّيِّئاتِ؛ فقد عبَّرَ عنهم بعْدَ ذلك بقولِه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ ... ﴾ [سبأ: ٧] إلخ[٣].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه جَديرٌ بما سَيَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحُكمِ؛ لأجْلِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ. وما فيهِ منْ معنَى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ دَرجتِهم في سُوءِ الحالِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ ﴾ كَلامٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٣، ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٢).

مُستأنَفٌ مَسوقٌ للاستِشهادِ بأُولي العِلمِ على الجَهَلةِ السَّاعينَ في الآياتِ[١].

وقيل: هو عطْفٌ على ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [سبأ: ٤]، وهو مُقابِلُ جَزاءِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فالمُرادُ بالَّذين سَعَوا في الآياتِ الَّذين كَفَروا، وعُدِلَ عن جَعلِ صِلَةِ اسمِ الموصولِ (كَفَرُوا)؛ لِتَصلُحَ الجُملةُ أنْ تكونَ تَمهيدًا لإبطالِ قَولِ المشركينَ في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ [سبأ: ٨]؛ لأنَّ قَولَهم ذلك كِنايةٌ عن بُطلانِ ما جاءهُم به مِن القرآنِ في زَعْمِهم؛ فكان جَديرًا بأنْ يُمهَّدَ لإبطالِه بشَهادةِ أهْلِ العِلمِ بأنَّ ما جاء به الرَّسولُ هو الحقُّ دونَ غيرِه مِن باطلِ أهْلِ الشِّركِ الجاهلينَ؛ فعَطْفُ هذه الجُملةِ مِن عطْفِ الأغراضِ. وهذه طَريقةٌ في إبطالِ شُبَهِ أهْلِ الضَّلالةِ والملاحدةِ؛ بأنْ يُقدَّمَ قبْلَ ذِكرِ الشُّبهةِ ما يُقابِلُها مِن إبطالِها. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ عَطفًا على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ [سبأ: ٥]؛ فبَعدَ أنْ أُورِدتْ جُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ﴾ لِمُقابَلةِ جُملةِ ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلخ [سبأ: ٤]، اعتُبِرتْ مَقصودًا مِن جِهَةٍ أُخرى، فكانت بحاجةٍ إلى رَدِّ مَضمونِها بجُملةِ ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الَّذين سَعَوا في الآياتِ أهْلُ جَهالةٍ، فيكونُ ذِكرُها بعْدَها تَعقيبًا للشُّبهةِ بما يُبطِلُها[٢].

والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ، واختيرَ فِعلُ الرُّؤيةِ هنا دونَ (ويَعلَم)؛ للتَّنبيهِ على أنَّه عِلمٌ يَقينيٌّ بمَنزلةِ العِلمِ بالمَرئيَّاتِ الَّتي عِلْمُها ضَروريٌّ[٣].

- قولُه: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ إضافةُ الرُّبوبيَّةِ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٤، ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٤٥).

الرُّبوبيَّةُ الخاصَّةُ، وفي ذلك فضيلةُ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

- وضَميرُ (هو) في قولِه: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ للفصْلِ، يُفِيدُ حَصْرَ الحقِّ في القُرآنِ حَصرًا إضافيًّا، أي: لا ما يَقولُه المشركونَ ممَّا يُعارِضون به القُرآنَ. ويَجوزُ أيضًا أنْ يُفِيدَ قَصْرًا حَقيقيًّا ادِّعائيًّا[٢]، أي: قَصْرَ الحقِّيَّةِ المَحضِ عليه؛ لأنَّ غيرَه مِن الكُتبِ خُلِطَ حقُّها بِباطلٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٥).

(٢) الحَصرُ أو القَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقع، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو الله وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٥).

- قولُه: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ مِن عَطْفِ الفِعْلِ على الاسمِ، والعُدولُ عن الوَصفِ (الهادي إلى صِراطِ العزيزِ) إلى صِيغَةِ المُضارِعِ ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ لإشعارِها بتَجدُّدِ الهِدايةِ وتَكرُّرِها[1].

- وإيثارُ وَصْفَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ دونَ بقيَّةِ الأسماءِ الحُسنى إيماءٌ إلى أنَّ المؤمنينَ حينَ يُؤمِنون بأنَّ القُرآنَ هو الحقُّ والهِدايةُ، يَستشعِرون مِن الإيمانِ أنَّه صِراطٌ يُبلَغُ به إلى العِزَّةِ؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ويُبلَغُ به إلى الحمْدِ، أي: الخِصالِ المُوجِبةِ للحمْدِ، وهي الكمالاتُ مِن الفضائلِ والفواضلِ[2]، ولذا أضافَ الصِّراطَ إلى هذا الاسمِ العظيمِ الدَّالِّ على العِزَّةِ؛ إشارةً إلى أنَّ مَن تَمَسَّك بهذا الصِّراطِ كانت له العِزَّةُ، وإلى اسمِه ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾ أيضًا إشارةً إلى أنَّ مَن لَزِمَ هذا الصِّراطَ كان في مقامِ محمودٍ، وأنَّ مَن تمسَّكَ بالقرآنِ فله العِزَّةُ، وله الحمدُ؛ يُحْمَدُ على فعلِه وقولِه وتركِه[3].

- وقدَّم ﴿ٱلۡعَزِيزِ﴾ على ﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾؛ لأنَّ كونَه عزيزًا تامَّ الهَيبةِ شَديدَ الانتِقامِ: يقوِّي جانِبَ الرَّغبةِ؛ لأنَّ رضا الجبَّارِ العزيزِ أعَزُّ وأكرَمُ مِن رضا مَن لا يكونُ كذلك، فالعِزَّةُ كما تخوِّفُ تُرجِّي أيضًا، وكما تُرغِّبُ عن التَّكذيبِ تُرغِّبُ في التَّصديقِ؛ ليَحصُلَ القُربُ مِن العزيزِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦١، ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٤).

## الآيات (٧-٩)

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُزِّقۡتُمۡ﴾: أي: بَلِيتُم، وتفرَّقت أجسادُكم، وأصلُ (مزق): يدُلُّ على تخَرُّقٍ في شَيءٍ[1].

﴿أَفۡتَرَىٰ﴾: الافتراءُ: الاختِلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِن الكَذِبِ، ومِنه قيل: افترَى فُلانٌ على فلانٍ، إذا قذَفَه بما ليسَ فيه، ويُستَعمَلُ في القُرآنِ في الكَذِبِ والشِّركِ والظُّلمِ، وأصلُ (فري): قَطْعُ الشَّيءِ، ومِن ذلك: فَرَيْتُ الشَّيءَ أفْريه فَرْيًا، وهو قطْعُه لإصلاحِه، وأفرَيْتُه: إذا أنت قطعتَه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[2].

﴿جِنَّةُۢ﴾: أي: جُنونٌ، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ، ومنه المجنونُ؛ لاستتارِ عقلِه، وتَواريه عنه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٢٨، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢، ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤، ٦٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٦، ٢١٣).

﴿نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي: نُغَيِّبْهم فيها، يُقالُ: خسَفَ اللهُ به الأرضَ، أي: غابَ به فيها، وأصلُ (خسف): يدُلُّ على ذَهابٍ وغُؤورٍ[1].

﴿كِسَفًا﴾: أي: قِطَعًا، وأصلُ (كسف): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[2].

﴿مُّنِيبٍ﴾: أي: رجَّاعٍ تائبٍ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على رُجوعِ الشَّيءِ مرَّةً بعدَ أخرى[3].

## المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى ما قاله الكفرةُ فيما بيْنَهم، على سبيلِ الاستهزاءِ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في إخبارِه بالبعثِ، واستِبعادَهم ذلك، فيقولُ: وقال الَّذين كَفَروا: هل ندُلُّكم على رجُلٍ يُنَبِّئُكم بأنَّكم إذا مِتُّم وبَلِيَت أجسادُكم أنَّكم بعدَ تلك الحالِ ستُبعَثونَ أحياءً؟! هل اختلَقَ محمَّدٌ ذلك وكَذَب على اللهِ أم به جُنونٌ؟!

ثمَّ يرُدُّ الله تعالى عليهم، فيقولُ: ليس الأمرُ كما زَعَموا، بل هؤلاء الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ في العَذابِ والذَّهابِ البعيدِ عن الحَقِّ.

ثمَّ يقولُ تعالى منبِّهًا لهم على قدرتِه، ومهدِّدًا لهم بسوءِ العاقبةِ إذا ما استمَرُّوا في ضلالِهم وجهالاتِهم: أفلَمْ يَرَ أولئك الكُفَّارُ إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهم مِنَ السَّماءِ والأرضِ؛ فإنْ نَشَأْ نُغَيِّبْهم في باطِنِ الأرضِ، أو نُسقِطْ عليهم قِطَعًا مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

السَّماءِ فنُهلِكْهم، إنَّ في ذلك لَدَلالةً لكُلِّ عبدٍ تائبٍ إلى اللهِ تعالى راجِعٍ إليه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا عَجَّب سُبحانَه مِنَ الَّذين كفروا في قَولِهم ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣]، المتضَمِّنِ لِتكذيبِهم، وختَمَ بتصديقِ الَّذين أُوتوا العِلمَ، مُشيرًا إلى أنَّ سببَ تكذيبِ الكفَرةِ الجهلُ، الَّذي سببُه الكِبْرُ؛ عجَّب منهم هنا تعجيبًا آخَرَ أشَدَّ مِن الأوَّلِ؛ لتصريحِهم بالتَّكذيبِ على وجهٍ عجيبٍ[1].

وأيضًا فإنَّ الله تعالى لَمَّا بيَّن أنَّ الكافرينَ أنكَروا السَّاعةَ، وردَّ عليهم بقولِه: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ: ٣]، وبيَّن ما يكونُ بعدَ إتيانِها مِن جزاءِ المؤمنِ على عمَلِه الصَّالحِ، وجزاءِ السَّاعي في تكذيبِ الآياتِ بالتَّعذيبِ على السَّيِّئاتِ؛ بيَّن حالَ المؤمنِ والكافرِ بعدَ قولِه: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾؛ فقال: المؤمنُ هو الَّذي يقولُ: الَّذي أُنزِل إليك الحقُّ وهو يَهدي. وقال: الكافرُ هو الَّذي يقولُ: هو باطلٌ! ومِن غايةِ اعتِقادِهم وعِنادِهم في إبطالِ ذلك، قالوا على سبيلِ التَّعجُّبِ[2] ما حكاه اللهُ تعالى عنهم:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٥١).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: هل نَدُلُّكم -أيُّها النَّاسُ[١]- على رجُلٍ[٢] يُنَبِّئُكم بأنَّكم إذا مِتُّمْ وتقَطَّعَت أجسادُكم وتفرَّقَت في قُبورِكم كُلَّ تقطيعٍ وتَفريقٍ: أنَّكم بعدَ تلك الحالِ ستُبعَثونَ أحياءً مِن جَديدٍ[٣]؟!

﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨﴾.

﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾.

أي: هل اختلَق محمَّدٌ ذلك الأمرَ فكَذَب على اللهِ في إخبارِه بأنَّه سيَبعثُنا بعدَ مَوتِنا، أم هو امرؤٌ مَجنونٌ يَهْذي بكَلامٍ لا معنى له[٤]؟!

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما زعَم أولئك المُشرِكونَ؛ فليس هو بمُفتَرٍ على اللهِ تعالى

---

(١) قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ قَولُهم هذا تقاوُلًا بيْنَهم، أو يقولُه بَعضُهم لبعضٍ، أو يقولُه كُبَراؤهم لعامَّتِهم ودَهْمائِهم؛ ويجوزُ أن يكونَ قَولَ كُفَّارِ مكَّةَ للواردينَ عليهم في الموسِمِ، وهذا الَّذي يُؤْذِنُ به فِعلُ ﴿نَدُلُّكُمۡ﴾ مِن أنَّه خِطابٌ لِمَن لم يَبلُغْهم قَولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٧).

(٢) قال البِقاعي: (ولَمَّا أخرَجوا الكلامَ مخرجَ الغرائِبِ المُضحِكةِ، لم يَذكُروا اسمَه مع أنَّه أشهرُ الأسماءِ، بل قالوا: ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ أي: ليس هو صبيًّا ولا امرأةً حتَّى تَعذِروه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٠، ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٢، ٧٣).

في ذلك، وليس بمَجنونٍ، ولكِنَّ هؤلاء الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ في العذابِ والذَّهابِ البَعيدِ عن الحَقِّ[١].

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الدَّليلَ بكَونِه عالمَ الغَيبِ، وكَونِه جازيًا على السَّيِّئاتِ والحَسَناتِ؛ ذكَرَ دليلًا آخَرَ، وذكَرَ فيه تهديدًا[٢].

وأيضًا لَمَّا كان المُشرِكونَ قد أنكَروا السَّاعةَ؛ لِقَطعِهم بأنَّ مَن مُزِّق كُلَّ مُمَزَّقٍ لا يمكِنُ إعادتُه، فقطعوا -جهلًا- بأنَّ الله تعالى لا يقولُ ذلك، فنَسَبوا الصَّادِقَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الإخبارِ بذلك إلى أحَدِ أمْرَينِ: تعمُّدِ الكَذِبِ، أو الجُنونِ- شَرَعَ اللهُ سُبحانَه يدُلُّ على صِدقِه في جميعِ ما أخبَرَ به، فبدأ بإثباتِ قُدرتِه على ذلك[٣].

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: أفلمْ يَرَ أولئك الكُفَّارُ إلى ما بينَ أيديهم وما خَلْفَهم[٤] مِنَ السَّماءِ والأرضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٣).

(٤) ممَّن اختار أنَّ المعنى: ألم يَنظُروا إلى السَّماءِ والأرضِ كيف أحاطتْ بهم؟ لأنَّك إن نظَرْتَ عن يمينِك أو شمالِك، أو بيْنَ يدَيك أو خَلْفَك رأيتَ السَّماءَ والأرضَ: ابنُ جرير، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦). =

المحيطتَينِ بهما، وأنَّهم حيثما توجَّهوا فلن يَخرُجوا مِن ملَكوتِ اللهِ، وأنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على تَعذيبِهم(١)؟!

﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾.

أي: إنْ نشَأْ نُغَيِّبْهم في باطِنِ الأرضِ، أو نُسقِطْ عليهم قِطَعًا مِن السَّماءِ فنُهلِكْهم بسَبَبِ ظُلمِهم؛ فلْيرتَدِعوا عن التَّكذيبِ بالبَعثِ، ولْيَعلَموا كمالَ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨).

وقال الرَّسْعَني: (قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ استِفهامٌ في معنى التَّقريرِ لهم بإحاطةِ السَّماءِ والأرضِ بهم حيث نظَروا وتوجَّهوا. ومقصودُ ذلك: [تذكيرُهم] بقُدرةِ الله تعالى عليهم، وتخويفُهم مِن سطوتِه وبطشتِه، ألَا تراه يقول: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾؟ وهذا المعنى قولُ قَتادةَ وجُمهورِ المفَسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢١٤).

وقال ابن عاشور: (والمرادُ بـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يَستقبِلُه كلُّ أحدٍ منهم مِن الكائناتِ السَّماويَّةِ والأرضيَّةِ، وبـ«مَا خَلْفَهم»: ما هو وراءَ كُلِّ أحدٍ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٣).

وقال ابن عثيمين: (يحتمِلُ أن يكون المرادُ فيها المكانَ، ويحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ الزَّمانَ... انظُرْ ما بيْنَ يديك في المكانِ، أو ما بين يديك في الزمانِ، وما خَلْفَك مِن المكانِ أو الزَّمانِ: هل نجا أحدٌ مِن عذاب الله؟). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٩).

وقيل: معنى ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ممَّن أهلكهم اللهُ تعالى مِن الأُمَمِ الماضية في أرضِه، ﴿وَمَا خَلْفَهُم﴾ مِن أمرِ الآخرةِ في سمائِه. قاله أبو صالح. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤).

قال ابن جُزَي: (والمعنى: ألم يَرَوْا إلى السَّماءِ والأرضِ فيَعلَموا أنَّ الَّذي خلَقَهما قادرٌ على بعثِ النَّاسِ بعدَ موتِهم؟ ويحتمِلُ أن يكونَ المعنى تهديدًا لهم، ثمَّ فَسَّره بقَولِه: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أي: أفلمْ يَرَوا إلى السَّماءِ والأرضِ أنَّهما مُحيطتان بهم، فيَعلَمونَ أنَّهم لا مَهرَبَ لهم مِن اللهِ؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٥، ٢٦٦).

كما قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.

أي: إنَّ في ذلك لَدَلالةً وعَلامةً ظاهِرةً[١] لكُلِّ عبدٍ تائبٍ إلى اللهِ سُبحانَه، راجعٍ إلى مَعرفتِه وتوحيدِه والإقبالِ على طاعتِه[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ أنَّ في السَّماءِ والأرضِ آياتٍ عظيمةً لِمَن نَظَر وتدبَّر، وهذا أثْبَتَه اللهُ تعالى في القرآنِ في مواضعَ كثيرةٍ، كما في قولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ [الذاريات: ٢٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ، فكلُّ مَن تدبَّرَ ما في السَّماءِ وما في الأرضِ وما بيْنَهما؛ تَبَيَّنَ له مِن آياتِ اللهِ ما يُقَوِّي

---

(١) قيل: المشارُ إليه إحاطةُ السَّماءِ والأرضِ بالعبادِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والرسعني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢١٦).

وقال ابنُ عاشور: (والمشارُ إليه هو ما بيْنَ أيديهم وما خَلْفَهم مِن السَّماءِ والأرضِ، أي: مِن الكائناتِ فيهما). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٤).

وقال السعدي: (﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وما فيهما مِن المخلوقاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨١، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٤).

إيمانَه، ويَزيدُه طمَعًا في فَضْلِ اللهِ تعالى، وخَوْفًا مِن عِقابِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ أنَّ اللهَ يَمُنُّ على العبدِ بظُهورِ الآياتِ له حتَّى يَتبيَّنَ له الحقُّ، وإذا مَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ على العبدِ بالنَّظَرِ في آياتِه والتدبُّرِ؛ ازدادَ بذلك إيمانًا باللهِ، وإيمانًا بما تقتَضيه هذه الآياتُ مِن صِفاتِه؛ فإنَّ كُلَّ آيةٍ تدُلُّ على صِفةٍ مُعَيَّنةٍ مِن صِفاتِ اللهِ تعالى[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ فيه حَثٌّ بليغٌ على التَّوبةِ والإنابةِ[٣]، وأنَّه كُلَّما كان العبدُ أعظَمَ إنابةً إلى اللهِ، كان انتِفاعُه بالآياتِ أعظَمَ؛ لأنَّ المُنيبَ مُقبِلٌ على رَبِّه، قد توجَّهَت إراداتُه وهِمَّتُه لرَبِّه، ورجَعَ إليه في كُلِّ أمرٍ مِن أمورِه، فصار قريبًا مِن رَبِّه، ليس له همٌّ إلَّا الاشتِغالُ بمَرضاتِه، فيكونُ نَظَرُه للمَخلوقاتِ نَظَرَ فِكرةٍ وعِبرةٍ، لا نظَرَ غَفلةٍ غيرِ نافِعةٍ[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ سُمِّيَ خَلقًا جديدًا؛ لأنَّ الإنسانَ إذا بُعِثَ فإنَّه لا يُبعَثُ كحالِه في الدُّنيا، بل يُبعَثُ في حالٍ أشَدَّ وأقوى؛ لأنَّه سيُبعَثُ على أنَّه مُؤبَّدٌ لا يموتُ، وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: في أوصافِه؛ لأنَّ الصَّحيحَ أنَّ الخَلْقَ هو إعادةُ ما مضَى[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بيانُ قُبحِ الافتراءِ على اللهِ تعالى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٠).

حتَّى إنَّ الكافِرينَ يَستَقبِحونَه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ وُجوبُ النَّظَرِ والاعتبارِ فيما حصَلَ مِن الآياتِ في السَّماءِ والأرضِ؛ لأنَّ هذا الاستِفهامَ للتَّوبيخِ، ولا يُوبَّخون إلَّا على تَركِ واجبٍ[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ فيه سؤالٌ: هلَّا ذَكَر الأيمانَ والشَّمائِلَ كما ذكرَها في قَولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ﴾ [الأعراف: ١٧]؟

**الجوابُ**: أنَّه وُجِدَ هنا ما يُغْني عن ذِكرِهما مِن لَفظِ العُمومِ والسَّماءِ والأرضِ، بخِلافِه ثَمَّ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ أنَّ ما يحصُلُ مِن الخَسْفِ والزَّلازِلِ والنَّوازِلِ فإنَّه بإذْنِ اللهِ؛ عقوبةً للعِبادِ واعتبارًا؛ خلافًا لِمَن قال: إنَّ هذه أمورٌ طبيعيَّةٌ لا تدُلُّ على غضبِ اللهِ ولا على إنذارِه -كما هو رأيُ مَن لا يؤمنُ باللهِ تعالى-! فالخَسْفُ في الأرضِ عقوبةٌ؛ وما يأتي مِن الصَّواعقِ والكوارثِ الأفقيَّةِ فهي أيضًا عقوبةٌ[٤].

٦- في قولِه: ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ ... ﴾ تَنبيهٌ على أنَّه لم يَبْقَ مِن أسبابِ وُقوعِ العذابِ إلَّا تَعلُّقُ مَشيئةِ اللهِ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ ...﴾ انتقالٌ إلى قَولةٍ أُخرى مِن شَناعةِ أهْلِ الشِّركِ مَعطوفةٍ على ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ [سبأ: ٣]. وهذا القولُ قائمٌ مَقامَ الاستدلالِ على قولِهم الأوَّلِ: ﴿لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ الَّذي هو بمنزلةِ دَعوى، وقولُهم: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ مُستنَدُ تلك الدَّعوى؛ ولذلك حُكِيَ بمِثلِ الأُسلوبِ الَّذي حُكِيت به الدَّعوى في المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه. وأدْمَجوا في الاستِدلالِ التَّعجُّبَ مِن الَّذي يأْتي بنَقيضِ دَليلِهم، ثمَّ إردافَ ذلك التَّعجُّبِ بالطَّعنِ في المُتعجَّبِ به[1].

- والمُخاطَبُ بقَولِهم: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ غيرُ مَذكورٍ؛ لأنَّ المقصودَ في الآيةِ الاعتبارُ بشَناعةِ القولِ، ولا غرَضَ يَتعلَّقُ بالمَقولِ لهم[2].

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في العرْضِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨]، وهو عَرْضٌ مُكنًّى به عن التَّعجُّبِ، أي: هلْ نَدُلُّكم على أُعجوبةٍ مِن رَجُلٍ يُنبِّئُكم بهذا النَّبأِ المُحالِ[3]؟!

- قولُه: ﴿هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ ...﴾ إنْ كان التَّقاوُلُ بيْنَ المشركينَ بعضِهم لِبَعضٍ؛ فالتَّعبيرُ عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بـ﴿رَجُلٖ﴾ مُنكَّرٍ، مع كَونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَعروفًا بيْنهم ومِن أهْلِ بَلدِهم؛ لأنَّهم قَصَدوا مِن تَنكيرِه أنَّه لا يُعرَفُ؛ تَجاهُلًا وسُخريةً منهم، فأخْرَجوهُ مُخرَجَ التَّحلِّي ببَعضِ الأحاجيِّ الَّتي يُتحاجَى بها للضَّحِكِ والتَّلهِّي، مُتجاهِلينَ به وبأمْرِه. وإنْ كان قولُ المشركينَ مُوجَّهًا إلى الواردينَ مكَّةَ في المَوسمِ؛ كان التَّعبيرُ بـ﴿رَجُلٍ﴾ جَرْيًا على مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ الواردينَ لا يَعرِفون النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولا دَعوتَه، فيكونُ كقولِ أبي ذَرٍّ قبْلَ إسلامِه لأخيهِ[1]: (اذهَبْ فاستعْلِمْ لنا خبَرَ هذا الرَّجُلِ الَّذي يَزعُمُ أنَّه نَبيٌّ)[2]. وقيل: نُكِّر للتَّحقيرِ[3].

- وشِبهُ الجُملةِ ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ليس ممَّا نَبَّأَ به الرَّجُلُ، وإنَّما هو اعتِراضٌ في كلامِ الحاكينَ؛ تَنبيهًا على استِحالةِ ما يَقولُه هذا الرَّجلُ على أنَّه لازمٌ لإثباتِ الخلْقِ الجديدِ لكلِّ الأمواتِ. وتَقديمُ هذا الاعتِراضِ؛ للاهتمامِ به؛ لِيَتقرَّرَ في أذهانِ السَّامعينَ؛ لأنَّه مَناطُ الإحالةِ في زَعْمِهم؛ فإنَّ إعادةَ الحياةِ للأمواتِ تكونُ بعْدَ انعدامِ أجزاءِ الأجسادِ، وتكونُ بعْدَ تَفرُّقِها تَفرُّقًا قَريبًا مِن العدَمِ، وتكونُ بعدَ تَفرُّقٍ ما، وتكونُ مع بَقاءِ الأجسادِ على حالِها بقاءً مُتفاوِتًا في الصَّلابةِ والرُّطوبةِ، وهم أنْكَروا إعادةَ الحياةِ في سائرِ الأحوالِ، ولكنَّهم خَصُّوا في كَلامِهم الإعادةَ بعدَ التَّمزُّقِ كلَّ مُمزَّقٍ -أي: بعدَ اضمحلالِ الأجسادِ أو تَفرُّقِها الشَّديدِ-؛ لِقُوَّةِ استِحالةِ إرجاعِ الحياةِ إليها بعدَئذٍ[4].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ عُدِلَ إليه عن الجُملةِ الفِعليَّةِ الدَّالَّةِ

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٥٢٢)، ومسلم (٢٤٧٤) من حديث ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٤٩).

على الحُدوثِ مِثلُ (تُبعثون)، أو (تُخلَقون خلْقًا جديدًا)؛ للإشباعِ في الاستِبعادِ والتَّعجُّبِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾

- جُملةُ ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ في مَوضعِ صِفةٍ ثانيةٍ لـ ﴿رَجُلٍ﴾، أتَوا بها استفهاميَّةً؛ لِتَشريكِ المخاطَبينَ معهم في تَرديدِ الرَّجُلِ بيْنَ هذينِ الحالَينِ: الكذِبِ، والجُنونِ[٢].

- ولَمَّا كان الكلامُ في البعثِ قال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ فرَتَّبَ العذابَ على إنكارِ البَعثِ[٣].

- قولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ ردٌّ مِن اللهِ تعالى على استِدلالِهم بما أشارَ إلى أنَّهم ضالُّون أو مُضِلُّون، وَواهِمون أو مُوهِمون؛ فأبطَلَ قَولَهم بحَذافِرِه بحَرْفِ الإضرابِ (بل)، ثمَّ بجُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾؛ فقابَلَ ما وَصَفوا به الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بوَصفَينِ: أنَّهم في العذابِ، وذلك مُقابِلُ قَولِهم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لأنَّ الَّذي يَكذِبُ على اللهِ يُسلِّطُ اللهُ عليه عَذابَه، وأنَّهم في الضَّلالِ البعيدِ، وذلك مُقابِلُ قَولِهم: ﴿بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾. وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: بلْ أنتمْ في العذابِ والضَّلالِ، إلى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾؛ إدماجًا[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٢).

(٤) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ =

لِتَهديدِهم، وتَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه[١].

- وأيضًا في قولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ وَضْعُ المَوصولِ مَوضعَ ضَميرِهم؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ على أنَّ عِلَّةَ ما ارْتَكَبوه واجْتَرؤوا عليه مِن الشَّناعةِ الفظيعةِ: كُفْرُهم بالآخِرةِ وما فيها مِن فُنونِ العِقابِ، ولولاه لَمَا فَعَلوا ذلك؛ خَوفًا مِن غائلتِه. ووَصْفُ الضَّلالِ بالبُعدِ؛ للمُبالَغةِ[٢].

- وتَقديمُ العذابِ على ما يُوجِبُه ويَستتبِعُه؛ للمُسارعةِ إلى بَيانِ ما يَسوؤُهم، ويَفُتُّ في أعضادِهم، والإشعارِ بغايةِ سُرعةِ تَرتُّبِه عليه، كأنَّه يُسابِقُه فيَسبِقُه، وللمُبالَغةِ في استحقاقِهم له[٣]، ولأنَّه لَمَّا كان هذا القَولُ مُسَبَّبًا عن ضَلالِ المُشرِكينَ، وكان ضَلالُهم سببًا لعذابِهم- قدَّم العذابَ؛ لأنَّه المحطُّ، ولِيَرتدعَ مَن أرادَ اللهُ إيمانَه[٤].

---

= إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٢).

- وقولُه: ﴿فِي ٱلۡعَذَابِ﴾ إدماجٌ، يَصِفُ به حالَهم في الآخِرةِ مع وَصْفِ حالِهم في الدُّنيا[١].

- قولُه: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ﴾ أي: الضَّلالِ الَّذي يَصعُبُ الرُّجوعُ منه إلى الهُدى؛ تشبيهًا بمن ضَلَّ عن مَحجَّةِ[٢] الطَّريقِ بُعدًا مُتناهيًا، فلا يَكادُ يُرجى له العَودُ إليها[٣].

٣- ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَهويلِ ما اجْتَرؤوا عليه وقالوه مِن تَكذيبِ آياتِ اللهِ تعالى، واستِعظامِ ما قالوا في حقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه مِن العظائمِ المُوجِبةِ لِنُزولِ أشدِّ العِقابِ، وحُلولِ أفظَعِ العذابِ مِن غَيرِ رَيْثٍ وتأخيرٍ[٤].

- والفاءُ في قولِه: ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ ...﴾ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقتضيهِ المَقامُ، ولِتَفريعِ ما بعْدَها على قولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ ...﴾ [سبأ: ٨] إلخ؛ لأنَّ رُؤيةَ مَخلوقاتِ اللهِ في السَّماءِ والأرضِ مِن شَأنِها أنْ تَهدِيَهم لو تَأمَّلوا حقَّ التَّأمُّلِ. والاستِفهامُ للتَّعجُّبِ الَّذي يُخالِطُه إنكارٌ على انتفاءِ تَأمُّلِهم فيما بيْنَ أيْدِيهم وما خلْفَهم مِن السَّماءِ والأرضِ. والرُّؤيةُ بَصريَّةٌ؛ بقَرينةِ تعدِيَتِها بحرفِ (إلى)؛ فمعنى الاستِفهامِ عن انتفائِها منهم: انتِفاءُ آثارِها مِن الاستِدلالِ بأحوالِ الكائناتِ السَّماويةِ والأرضيَّةِ على إمكانِ البَعثِ؛ فشَبَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٢).

(٢) المَحَجَّة: جادَّةُ الطَّريقِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣).

وُجودَ الرُّؤيةِ بعَدمِها، وعُبِّرَ عنه بحَرْفِ النَّفيِ، والمَقصودُ: حثُّهم على التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ؛ لِيَتداركوا عِلمَهم بما أهْمَلوه[1].

- وقيل: هو استِئنافٌ مَسوقٌ لتذكيرِهم بما يُعاينونَ ممَّا يدُلُّ على كمالِ قدرتِه عزَّ وجلَّ، وتنبيهِهم على ما يَحتمِلُ أنْ يقَعَ مِن الأمورِ الهائلةِ في ذلك؛ إزاحةً لاستِحالتِهم الإحياءَ حتَّى جَعَلوه افتراءً وهُزءًا، وتَهديدًا عليها، والمعنى: أَعَمُوا فلمْ يَنظُروا إلى ما أحاطَ بجوانبِهم مِن السَّماءِ والأرضِ، ولم يَتفكَّروا أهُمْ أشَدُّ خلقًا أمْ هي[2]؟!

- وفي قولِه: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْاْ ﴾ زِيدَ حَرْفُ الفاءِ؛ لأنَّ الاعتبارَ فيها بالمُشاهَدةِ، وخُصَّت بالفاءِ؛ لِشِدَّةِ اتِّصالِها بالأوَّلِ؛ لأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الَّذين قَسَموا الكلامَ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقالوا: محمَّدٌ إمَّا غافلٌ أو كاذبٌ، وإمَّا مَجنونٌ هاذٍ، وهو قولُهم: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ ﴾ [سبأ: ٨]، فقال اللهُ تعالى: بل تَركْتُم القِسمةَ الثَّالثةَ، وهي: وإمَّا صَحيحُ العقلِ صادقٌ[3].

- وجُملةُ ﴿إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ اعتِراضٌ بالتَّهديدِ؛ فمُناسَبةُ التَّعجُّبِ الإنكاريِّ بما يُذكِّرُهم بقُدْرةِ خالقِ تِلك المخلوقاتِ العظيمةِ على عِقابِ الَّذين أشْرَكوا معه غيرَه، والَّذين ضيَّقوا واسِعَ قُدْرتِه، وكذَّبوا رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما يَخطُرُ في عُقولِهم؛ ذِكرُ الأُمَمِ الَّتي أصابَها عِقابٌ بشَيءٍ مِن الكائناتِ الأرضيَّةِ كالخَسفِ، أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٣).

السَّماويَّةِ كإسقاطِ كِسَفٍ مِن الأجرامِ السَّماويَّةِ، مِثلُ ما أصاب قارونَ مِن الخسْفِ، وما أصاب أهْلَ الأَيْكةِ مِن سُقوطِ الكِسَفِ(١).

- وجُملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ تعليلٌ للتَّعجُّبِ الإنكاريِّ في قولِه: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ باعتبارِ ما يَتضمَّنُه مِن الحثِّ على التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ؛ فمَوقعُ حَرفِ التَّوكيدِ هنا لِمُجرَّدِ التَّعليلِ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ بالإفرادِ، وقال بعْدَه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩] بالجمْعِ؛ ووَجْهُه: أنَّ الإشارةَ هنا إلى قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [سبأ: ٩]، ولم يَتقدَّمْ ما حُرِّكوا إلى الاعتبارِ به غيرُ هذا، وقد انضَمَّ ذلك تحتَ (ما) الموصولةِ، ولَفظُها مُفرَدٌ؛ فرُوعِيَ مِن حيث اللَّفظُ، فقيلَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ بالإفرادِ. وأمَّا الثَّانيةُ فتَقدَّمَ قبْلَها قولُه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، ثمَّ قال: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [سبأ: ١٢]، إلى قولِه: ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]، ثمَّ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ [سبأ: ١٥]؛ فذَكَّرَ سُبحانَه بالاعتبارِ بما منَحَ داودَ عليه السَّلامُ مِن تَسبيحِ الجِبالِ والطَّيرِ معه، وإلانةِ الحديدِ، وبما سخَّرَ لِسُليمانَ عليه السَّلامُ مِن الرِّيحِ تَحمِلُه وجُنودَه حيث شاء في السُّرعةِ الَّتي أشارَتْ إليها الآيةُ، وإسالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٥٤).

عَينِ القِطرِ له، وعمَلِ الجِنِّ بيْن يَديْه، ثمَّ ذكَرَ ما كان لِسَبأٍ في مَساكنِهم مِن آيةِ الجنَّتينِ عن يَمينٍ وشِمالٍ، وأكْلِهم منها، وتَنعيمِهم إلى أنْ أعرَضوا، فأرسَلَ عليهم سَيْلَ العَرِمِ، إلى آخِرِ قِصَّتِهم؛ فهذه المُعتبراتُ لم تَدخُلْ تحتَ مَوصولٍ، ولا اسم مُفرَدٍ يَضُمُّ جَميعَها، بل ذُكِرَت مُفصَّلةً؛ فقِيل إشارةً إلى جِميعِها: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾[1]. وقيل غير ذلك[2].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٠٨، ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٥).

## الآيتان (١٠-١١)

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوِّبِى﴾: أي: رَجِّعي معه التَّسبيحَ، والتَّأويبُ: التَّسبيحُ والتَّرجيعُ[١].

﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾: أي: دُروعًا واسِعةً طويلةً، وأصلُ (سبغ): يدُلُّ على تمامِ الشَّيءِ وكمالِه[٢].

﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾: أي: في النَّسْجِ؛ فلا تَجعَلِ المساميرَ دِقاقًا فَتَقْلَقَ، ولا غِلاظًا فتُكَسِّرَ الحِلَقَ، واجعَلْه على القَصدِ وقَدْرِ الحاجةِ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ ونهايتِه، وأصلُ (سرد): يدُلُّ على التَّوالي والتَّتابُعِ[٣].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾

قَولُه: ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ في نصبِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه معطوفٌ على محلِّ (جبالُ)؛ لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٤٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٧) و(٥/ ٦٢)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٥).

منصوبٌ تقديرًا، كأنَّه قال: أنادي الجِبالَ والطَّيرَ. الثَّاني: أنَّه مفعولٌ معه. الثَّالِثُ: أنَّه معطوفٌ على ﴿فَضْلًا﴾ على نِيَّةِ حَذْفِ مُضافٍ، تقديرُه: آتَيْناه فضلًا وتسبيحَ الطَّيرِ. الرَّابعُ: أنَّه منصوبٌ بإضمارِ فِعلٍ، أي: وسَخَّرْنا له الطَّيرَ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مخبرًا عمَّا أنعَم به على عبدِه ورسولِه داودَ عليه السَّلامُ: ولقدْ آتَينا داودَ مِن عِندِنا فَضلًا، فقُلْنا: يا جِبالُ سَبِّحي معه والطَّيرَ، فكان يُسَبِّحُ والجِبالُ والطَّيرُ تُرَدِّدُ تَسبيحَه، وألَنَّا لداودَ الحديدَ، وقُلْنا له: اصنَعْ مِنَ الحديدِ دُروعًا تامَّةً طَويلةً وافيةً، واجعَلْ نسْجَ الدُّروعِ على نَسَقٍ مُتناسِبٍ مُحكَمٍ، واعمَلوا عملًا صالِحًا، إنِّي بَصيرٌ بما تَعملونَ.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

مُناسَبةُ قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ -عليهما السَّلامُ- لِما قَبْلَها، هي: أنَّ أولئك الكُفَّارَ أنكروا البَعثَ لاستِحالتِه عندَهم، فأُخبِروا بوقوعِ ما هو مُستحيلٌ في العادةِ ممَّا لا يُمكِنُهم إنكارُه؛ إذ طفَحَت ببعضِه أخبارُهم وشعراؤُهم؛ من تأويبِ الجِبالِ والطَّيرِ مع داودَ، وإلانةِ الحديدِ -وهو الجِرْمُ المُستعصي- وتسخيرِ الرِّيحِ لسُلَيمانَ، وإسالةِ النُّحاسِ له كما ألانَ الحديدَ لأبيه، وتسخيرِ الجِنِّ فيما شاء مِن الأعمالِ الشَّاقَّةِ[2].

---

(١) يُنظَر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٢٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٩)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٥٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٤).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى مَن يُنيبُ مِن عبادِه؛ ذكَرَ منهم مَن أناب وأصاب، ومِن جُملتِهم: داودُ، كما قال تعالى عنه: ﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، وبيَّن ما آتاه اللهُ على إنابتِه(١).

وأيضًا لَمَّا أشار اللهُ سُبحانَه في الآيةِ السَّابِقةِ -الَّتي دلَّت على نفوذِ الأمرِ- إلى أنَّه تارةً يَعدِلُ، وتارةً يَتفضَّلُ، وكان الفَضلُ أكثَرَ استِجلابًا لذَوي الهِمَمِ العَليَّةِ والأنفُسِ الأبِيَّةِ؛ بدأ به في عبدٍ مِن رُؤوسِ المُنيبينَ، على وَجهٍ دالٍّ على البَعثِ بكَمالِ التَّصَرُّفِ في الخافِقَينِ وما فيهما(٢).

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا﴾.

أي: ولقد آتَينا داودَ مِن عِندِنا ما فضَّلْناه به على غَيرِه، وخَصَصْناه به مِن بينِ النَّاسِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٥، ١٥٦).
قال ابنُ عاشور في بيانِ الفضلِ الَّذي آتاه اللهُ داودَ عليه السَّلامُ: (وهو فَضْلُ النُّبوةِ، وفضلُ المُلكِ، وفضلُ العنايةِ بإصلاحِ الأُمَّةِ، وفضلُ القَضاءِ بالعدلِ، وفضلُ الشَّجاعةِ في الحربِ، وفضلُ سَعةِ النِّعمةِ عليه، وفضلُ إغنائِه عن النَّاسِ بما ألهمَه مِن صُنعِ دُروعِ الحديدِ، وفضلُ إيتائِه الزَّبورَ، وإيتائِه حُسْنَ الصَّوتِ، وطولَ العُمُرِ في الصَّلاحِ، وغَيرُ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٥، ١٥٦).
وقال الشنقيطي: (قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا﴾ ذَكَر جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه آتى داودَ منه فضلًا تَفَضَّل به عليه، وبَيَّن هذا الفضلَ الَّذي تَفَضَّل به على داودَ في آياتٍ أُخَرَ؛ كقولِه تعالَى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقولِه تعالَى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]، وقولِه تعالَى: ﴿وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ٣٠]، وقولِه تعالَى: ﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ =

﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾.

أي: قُلْنا: يا جِبالُ سَبِّحي مع داودَ، والطَّيرَ أيضًا إذا سَبَّح داودُ رَبَّه؛ فكان يُسَبِّحُ والجبالُ والطَّيرُ تُردِّدُ تَسبيحَه[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

وقال سبُحانَه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ * وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧ - ١٩].

﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾.

أي: وألَنَّا لداودَ مَعدِنَ الحديدِ الصُّلْبِ، فهو يتصَرَّفُ فيه بسُهولةٍ[2].

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾.

---

= ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥]، وقوله تعالَى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، وقوله تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، وقوله تعالَى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ. ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٩، ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٧، ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٨، ٨٩).

قال ابنُ جرير: (ذُكِرَ أنَّ الحديدَ كان في يَدِه كالطِّينِ المبلولِ يُصَرِّفُه في يدِه كيف يَشاءُ، بغيرِ إدخالِ نارٍ، ولا ضَرْبٍ بحديدٍ!). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٢).

أي: وأمَرْنا داودَ فقُلْنا له: اصنَعْ مِن الحديدِ دُروعًا تامَّةً كاملةً، طويلةً وافيةً[١].

﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾.

أي: واجعَلْ نَسْجَ الدُّروعِ على مِقدارٍ مَحدودٍ، ونَسَقٍ مُتناسِبٍ مُحكَمٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٨٩، ٩٠).

قال ابنُ تيميَّة: (السَّابغاتُ: هي الدُّروعُ الكاملةُ الَّتي تكونُ لها أيدٍ وأفخاذٌ). ((قاعدة تتضمن ذكر ملابس النبي وسلاحه ودوابه)) (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٤١٠) و (١٦/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩١).

قال ابن عاشور: (والسَّردُ: صُنعُ دِرعِ الحديدِ، أي: تركيبُ حِلَقِها ومساميرِها الَّتي تَشُدُّ شُقَقَ الدِّرعِ بَعضَها ببعضٍ، فهي للحديدِ كالخياطةِ للثَّوبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧).

قيل: معنى الآيةِ: عدِّل المسمارَ في الحَلْقةِ، ولا تُصَغِّرْه فيَقلَقَ، ولا تُعَظِّمْه فتَنفصِمَ الحَلْقةُ، قاله مجاهدٌ.

وقيل: المعنى: لا تجعَلْ حِلَقَه واسعةً، فلا تَقي صاحبَها، قاله قتادةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩١).

قال الشنقيطي: (اجْعَلِ المساميرَ والحِلَقَ في نَسجِ الدُّروعِ بأقدارٍ مُتناسِبةٍ متلائمةٍ؛ لأنَّ المِسمارَ إن كان أكبرَ مِن الحلْقةِ جدًّا كَسَرَها، وإذا كان أصغرَ منها جدًّا لم يَشُدَّها كما ينبغي، فإذا كانت المساميرُ والحِلَقُ بأقدارٍ مُتناسِبةٍ كانت الدُّروعُ مَشدودةً كما ينبغي، ترُدُّ وقعَ السِّلاحِ مِن السُّيوفِ والسِّهامِ). ((العذب النمير)) (٣/ ٤٦٩).

وقال الرسعني: (والمعنى: اجعَلْه على القَصدِ وقَدْرِ الحاجةِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢١٨).

وقال البِقاعي: (والظَّاهرُ أنَّه لم يكُنْ في حِلَقِها مَساميرُ؛ لعدمِ الحاجةِ بإلانةِ الحديدِ إليها، وإلَّا لم يكُنْ بيْنَه وبينَ غيرِه فَرقٌ، ولا كان للإلانةِ فائدةٌ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٥٩).

وقيل: المعنى: لا تصرِفْ جميعَ أوقاتِك إليه، بل مِقدارَ ما يحصلُ به القوتُ، وأمَّا الباقي فاصرِفْه إلى العبادة. ذكر هذا المعنى: الرازيُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠].

﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا سخَّرَ اللهُ له ما استصْعَبَ على غيرِه؛ أتْبَعَه بأمْرِه بالشُّكرِ بأنْ يَعمَلَ صالحًا[1].

﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾.

أي: واعمَلوا عَمَلًا خالِصًا لله، مُوافِقًا لِشَرعِه[2].

---

= قال أبو السعود: (وهو الأنسَبُ بقولِه تعالى: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٥).

وقال الرازي: (وقوله: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ أي: الزَّردِ؛ إشارةً إلى أنَّه غيرُ مأمورٍ به أمرَ إيجابٍ، إنَّما هو اكتسابٌ، والكَسبُ يكونُ بقدر الحاجةِ، وباقي الأيامِ واللَّيالي للعبادةِ، فقَدِّرْ في ذلك العملِ، ولا تَشغَلْ جميعَ أوقاتِك بالكَسبِ، بل حصِّل به القوتَ فحَسْبُ، ويدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، أي: لستُم مخلوقينَ إلَّا للعملِ الصَّالحِ، فاعمَلوا ذلك وأكثِروا منه، والكَسبُ قَدِّروا فيه). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

ممَّن اختار أنَّ هذا خِطابٌ لداودَ وأهلِه: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والزمخشري، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٣٦).

وقيل: هو خِطابٌ لداودَ ولِمَن أطاعه. وممَّن قال به: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦١). =

﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنِّي بصيرٌ بما تَعمَلونَه مِن أعمالٍ، لا يخفَى علَيَّ شَيءٌ منها[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ...﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على تعلُّم أهلِ الفَضلِ الصَّنائِعَ، وأنَّ التَّحَرُّفَ بها لا يَنقُصُ مِن مناصِبِهم، بل ذلك زيادةٌ في فَضلِهم وفَضائِلِهم؛ إذ يَحصُلُ لهم التَّواضُعُ في أنفُسِهم، والاستِغناءُ عن غيرِهم، وكَسْبُ الحلالِ الخَليِّ عن الامتنان، وفي الصَّحيح[٢] عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما أكَل أحدٌ طعامًا قطُّ خيرًا مِن أن يأكُلَ مِن عمَلِ يدِه، وإنَّ نبيَّ الله داودَ كان يأكُلُ مِن عَمَلِ يَدِه))[٣]. فالآيةُ فيها دَليلٌ على الاكتِسابِ بعَمَلِ اليدِ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ دليلٌ على التَّثبُّتِ في العَمَلِ، وتقديرِه وإحكامِه[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ أنَّه يجِبُ على مَن أنعَمَ اللهُ تعالى عليه نِعمةً أن يَقومَ بشُكرِها بالعَمَلِ الصَّالحِ[٦].

---

= وقيل: خاطبه بلفظ الجماعةِ. وقيل: إنَّه أراد به داودَ وقومَه. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩٢).

(٢) أخرجه البُخاري (٢٠٧٢) من حديثِ المِقْدامِ بنِ مَعدِ يْكَرِبَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩٥).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ...﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى نِعمتَه على داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ؛ احتِجاجًا على ما مَنَح محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: لا تَستَبعِدوا هذا؛ فقد تفضَّلْنا على عَبيدِنا قديمًا بكذا وكذا[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ في قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ أنَّ الجمادَ يُدرِكُ خِطابَ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ ووجْهُ ذلك: لولا أنَّه يُدرِكُ لَكان توجيهُ الخطابِ إليه عَبَثًا، واللهُ سُبحانَه وتعالى مُنَزَّهٌ عن العَبَثِ في أقوالِه وأفعالِه، ويدُلُّ على أنَّه يُدرِكُ ذلك أنَّها أوَّبَتْ مع داودَ ورَجَّعَتْ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ جَعَل الجِبالَ بمنزلةِ العُقَلاءِ الَّذين إذا أمَرَهم أطاعوا وأذعَنوا، وإذا دعاهم سَمِعوا وأجابوا؛ إشعارًا بأنَّه ما مِن حيوانٍ وجمادٍ وناطقٍ وصامتٍ إلَّا وهو مُنقادٌ لِمَشيئتِه تعالى، غيرُ مُمتنعٍ على إرادتِه؛ ودَلالةً على عزَّةِ الرُّبوبيَّةِ، وكبرياءِ الأُلوهيَّةِ؛ حيثُ نادى الجِبالَ وأمَرَها[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾ دليلٌ على إباحةِ لُبْسِ الدُّرُوعِ، وأنَّها لا تكون مؤَثِّرَةً في التَّوكُّلِ، والفِرارِ مِن الأجَلِ! وتكونُ حِرزًا بينَ لابِسِها وبينَ ما يتَّقيه مِن الطَّعْنِ والجَرْحِ؛ وجُنَّةً مِن وصولِ المكارِهِ إلى المكانِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٤).

والتَّوكُّلُ قائمٌ على حالِه[١].

٥- لا بُدَّ في الخَلقِ والأمرِ مِن العَدلِ؛ فلا بُدَّ مِن التَّسويةِ بينَ المتماثِلَين، فإذا فُضِّل أحدُهما فسَدَ المصنوعُ، كما في مصنوعاتِ العبادِ؛ إذا بَنَوا بنيانًا فلا بدَّ مِن التَّسويةِ بينَ الحيطانِ؛ إذ لو رُفِعَ حائِطٌ على حائطٍ رَفعًا كثيرًا، فَسَد، وكذلك إذا صُنِعَت ملابِسُ للآدميِّينَ فلا بدَّ من أن تكونَ مُقدَّرةً على أبدانِهم لا تَزيدُ ولا تَنقُصُ، وكذلك ما يُصنَعُ مِن الطَّعامِ لا بُدَّ أن تكونَ أخلاطُه على وجهِ الاعتدالِ، والنَّارُ الَّتي تَطبُخُه كذلك، وكذلك السُّفُنُ المصنوعةُ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى لداود: ﴿وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾، أي: لا تُدِقَّ المِسمارَ فيَقلَقَ، ولا تُغلِظْه فيَفصِمَ، واجعَلْه بقَدَرٍ، فإذا كان هذا في مصنوعاتِ العبادِ وهي جزءٌ مِن مصنوعاتِ الرَّبِّ، فكيف بمخلوقاتِه العظيمةِ الَّتي لا صُنعَ فيها للعبادِ؛ كخَلقِ الإنسانِ وسائرِ البهائِمِ، وخَلقِ النَّباتِ، وخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ والملائكةِ؟! فالفَلَكُ الَّذي خَلَقه وجعَلَه مستديرًا ما له من فُروجٍ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣، ٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]؛ فهو سُبحانَه سَوَّاها كما سوَّى الشَّمسَ والقمَرَ وغيرَ ذلك مِن المخلوقاتِ، فعَدَل بيْنَ أجزائِها. فالعَدلُ والتَّسويةُ لازِمٌ لجَميعِ المخلوقاتِ والمصنوعاتِ، فمتى لم تُصنَعْ بالعَدلِ والتَّسويةِ بين المتماثِلَينِ، وقع فيها الفَسادُ[٢].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٨٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٣٣).

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ في ذِكرِ فَضلِه عِبرةٌ للنَّاسِ بحُسنِ عِنايةِ اللهِ بالمُنيبينَ؛ تَعريضًا بضِدِّ ذلك للَّذين لم يَعتبِروا بآياتِ اللهِ، وفي هذا إيماءٌ إلى بِشارةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه بعدَ تَكذيبِ قَومِه وضِيقِ حالِه منهم؛ سَيَؤولُ شَأنُه إلى عِزَّةٍ عَظيمةٍ، وتأسيسِ مُلكِ أُمَّةٍ عظيمةٍ، كما آلَتْ حالُ داودَ[١].

- وتَنكيرُ ﴿فَضْلًا﴾؛ للتَّفخيمِ، وقولُه: ﴿مِنَّا﴾؛ لِتَأكيدِ فَخامتِه الذَّاتيَّةِ بفَخامتِه الإضافيَّةِ. وتَقديمُه على المَفعولِ الصَّريحِ؛ للاهتِمامِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّر، تَبْقَى النَّفْسُ مُترقِّبةً له، فإذا ورَدَها يَتمكَّنُ عندَها فضْلَ تَمكُّنٍ[٢].

- وجُملةُ ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: وقُلْنا: يا جِبالُ. وفِعلُ القولِ المَحذوفِ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لِجُملةِ ﴿ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾، وفي هذا الأُسلوبِ الَّذي نُظِمَت عليه الآيةُ مِن الفَخامةِ وجَلالةِ الخالقِ، وعِظَمِ شأْنِ داودَ، مع وَفرةِ المعاني، وإيجازِ الألفاظِ، وإفادةِ معنَى المعيَّةِ بالواوِ دونَ ما لو كانتْ حَرْفَ عطْفٍ- ما لا يخفَى[٣].

- قيل: خصَّ الجبالَ والطَّيرَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ الصُّخورَ للجمودِ، والطَّيرَ للنُّفورِ، وكِلاهما تُستبعَدُ منها الموافقةُ، فإذا وافَقه هذه الأشياءُ، فغيرُها أَولى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٨٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾

- قولُه: ﴿سَٰبِغَٰتٖ﴾ صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ؛ لِظُهورِه مِن المَقامِ؛ إذ شاع وَصْفُ الدُّروعِ بالسَّابغاتِ والسَّوابغِ حتَّى استَغْنَوا عندَ ذِكرِ هذا الوَصفِ عن ذِكرِ المَوصوفِ[1]. وأيضًا مِن أجْلِ العنايةِ بفائدةِ هذه الدُّرُوعِ؛ وهي أنْ تكونَ سابغةً تامَّةً[2].

- وضَميرُ (اعْمَلُوا) لِداودَ وآلِه، أو له وحْدَه على وَجهِ التَّعظيمِ[3].

- وقولُه: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ، أو لِوُجوبِ الامتثالِ به[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧).

## الآيات (١٢-١٤)

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾: أي: تسيرُ بالغَداةِ مَسيرةَ شهرٍ، والغَداةُ: أوَّلُ النَّهارِ، ويُستعمَلُ الغُدُوُّ في المَسيرِ أيَّ وقتٍ كان مِن لَيلٍ أو نهارٍ، وأصلُ (غدو): يدُلُّ على زمانٍ[١].

﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾: أي: تسيرُ بالعَشِيِّ مَسيرةَ شهرٍ، والرَّواحُ: العَشِيُّ، وهو مِن الزَّوالِ إلى اللَّيلِ، ويُستعمَلُ الرَّواحُ في المسيرِ أيَّ وقتٍ كان مِن ليلٍ أو نهارٍ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسحةٍ واطِّرادٍ، وسُمِّي العَشيُّ بذلك لِرَوْحِ الرِّيحِ؛ فإنَّها في الأغلَبِ تَهُبُّ بعدَ الزَّوالِ[٢].

﴿ٱلْقِطْرِ﴾: أي: النُّحاسِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير االقرطبي)) (١٤/ ٢٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٨).

﴿يَزِغْ﴾: أي: يَعدِلْ ويَخرُجْ، وأصلُ (زيغ): يدُلُّ على مَيلِ الشَّيءِ[١].

﴿مَّحَٰرِيبَ﴾: جمعُ مِحرابٍ، والمحرابُ: الغرفةُ، و: المسجدُ، و: كُلُّ موضعٍ مُرتفعٍ، والمِحرابُ أيضًا: مُقَدَّمُ المجلِسِ وأشرفُه[٢].

﴿وَجِفَانٍ﴾: أي: قِصاعٍ كِبارٍ، وأصلُ (جفن): يدُلُّ على شَيءٍ يُطيفُ بشَيءٍ ويَحويه[٣].

﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: الجَوابي جمعُ جابيةٍ، والجابيةُ: الحَوضُ الضَّخمُ الَّذي يُجبَى فيه الماءُ، أي: يُجمَعُ، وأصلُ (جبي): يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ[٤].

﴿وَقُدُورٍ﴾: جمعُ قِدْرٍ: وهي اسمٌ لِما يُطبَخُ فيه اللَّحمُ[٥].

﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾: أي: ثَوَابِتَ في أماكنِها، تُترَكُ لعِظَمِها ولا تُنقَلُ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثباتٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٠٤، ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٤)، ((مقاييس =

﴿دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: الأَرَضةُ، وهي: سُوسٌ يَنخِرُ الخَشَبَ، وأصل (دبب): يدُلُّ على حَرَكةٍ[١].

﴿مِنسَأَتَهُۥ﴾: أي: عَصاه، وأصلُ (نسأ): يدُلُّ على تأخيرِ الشَّيءِ؛ لأنَّ العصا يُبعَدُ بها الشَّيءُ ويُدفَعُ[٢].

﴿خَرَّ﴾: أي: سَقَط على وَجهِه، وأصلُ (خر): يدُلُّ على اضطرابٍ وسُقوطٍ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى ما أنعَم به على سُلَيمانَ عليه السَّلامُ بعدَ أن ذكَر ما أنعَم به على أبيه، فيقولُ: وسَخَّرْنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ تَجري مِن أوَّلِ النَّهارِ إلى الزَّوالِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ، وتَجري مِنَ الزَّوالِ إلى اللَّيلِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ، وأجرَينا له عينَ النُّحاسِ، وسَخَّرْنا له مِنَ الجِنِّ مَن يَعمَلُ بينَ يَديه فيما يأمُرُه به، ومَن يَخرُجْ مِن الجِنِّ عن أمرِنا لهم بطاعةِ سُلَيمانَ نُذِقْه مِن عذابِ النَّارِ؛ يعمَلُ هؤلاء الجِنُّ لِسُلَيمانَ ما يشاءُ مِن محاريبَ، وتماثيلَ، وصِحافٍ عَظيمةٍ كالأحواضِ الكَبيرةِ التي يُجمَعُ فيها الماءُ، وقُدورٍ ثابتةٍ في مواضِعِها.

وقُلْنا لداودَ وأهلِه: اعمَلوا يا آلَ داودَ بطاعةِ اللهِ؛ شُكرًا له على نِعَمِه، وقليلٌ

---

= اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

مِن العِبادِ مَن يَشكُرُ اللهَ على نِعَمِه.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى كيفيَّةَ موتِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: فلمَّا جاء سُلَيمانَ الموتُ ما عرَفَ الجِنُّ مَوتَه إلَّا حينَ أكَلَتِ الأَرَضةُ عَصاه الَّتي كان مُتوكِّئًا عليها، فلمَّا سَقَط سُلَيمانُ على الأرضِ ظهَر أمرُ الجِنِّ وانكشَف للنَّاس أنَّهم لا يَعلَمونَ الغَيبَ؛ فلو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ لَعَلِموا موتَ سُلَيمانَ، ولم يَلبَثوا في عَمَلِهم الشَّاقِّ المُهِينِ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞۖ وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ١٢ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أتَمَّ اللهُ سُبحانَه ما أراد مِن آياتِ داودَ عليه السَّلامُ؛ أتْبَعَه ابنَه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ؛ لِمُشاركتِه له في الإنابةِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى فَضْلَه على داودَ عليه السَّلامُ؛ ذكَرَ فَضلَه على ابنِه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ(٢).

﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهۡرٞ وَرَوَاحُهَا شَهۡرٞ ﴾.

أي: وسَخَّرنا لسُلَيمانَ الرِّيحَ تجري مِن أوَّلِ النَّهارِ إلى الزَّوالِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ، وتجري مِنَ الزَّوالِ إلى اللَّيلِ مَسافةً تَعدِلُ مَسيرةَ شَهرٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾.

أي: وأجرَينا لسُلَيمانَ عَينَ النُّحاسِ[١].

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾.

أي: ومِن الجِنِّ مَن يَعمَلُ بيْنَ يَدَيْ سُلَيمانَ فيما يأمُرُه به، وذلك بأمرِ اللهِ وتَسخيرِهم له[٢].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ * وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٥ - ٣٨].

﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

---

= (٦/ ٤٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٩).

قال ابن عثيمين: (قولُه تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: يدَيْ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، يعني: أمامَه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٤).

وقال ابن عاشور: (ومعنَى ﴿يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: يخدُمُه ويُطيعُه. يُقالُ: أنا بينَ يديك، أي: مُطيعٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٩).

وقال ابن عثيمين: (﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾... والإذْنُ هنا كَونيٌّ، يعني: أنَّ الله تعالى سَخَّر الجِنَّ؛ ليَعمَلوا بين يدَيْ سُليمانَ عليه السَّلامُ بإذنِه: بأمْرِه الكَونيِّ، [و] قد يقالُ: إنَّه إذنٌ شَرعيٌّ؛ بدليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٤).

أي: ومَن يَخرُجْ مِن الجِنِّ عن أمْرِنا لهم بطاعةِ سُلَيمانَ، نُعَذِّبْه بالنَّارِ[١].

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبر اللهُ تعالى أنَّه سخَّر لسُلَيمانَ الجِنَّ؛ ذكَرَ حالَهم في أعمالِهم؛ دَلالةً على أنَّه سُبحانَه يتصرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ وما فيهما بما يشاءُ[٢].

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ ﴾.

أي: يَعمَلُ الجِنُّ لسُلَيمانَ ما يشاءُ أن يَعمَلوه له مِن محاريبَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٤).

قيل: المرادُ أنَّهم يُعَذَّبونَ في النَّارِ في الآخرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ ونَسَبه إلى أكثرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧١).

وقيل: المرادُ تعذيبُهم في الدُّنيا. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

قال ابن عطية: (المحاريبُ: الأبنيةُ العاليةُ الشَّريفةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٠٩).

وقال ابن الجوزي: (﴿مَّحَٰرِيبَ﴾ وفيها ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها المساجدُ، قاله مجاهِدٌ وابنُ قُتَيْبَةَ. والثَّاني: القصورُ، قاله عطيةُ. والثَّالثُ: المساجدُ والقصورُ، قاله قَتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٢) ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٣٧).

تنبيه: قال ابن عاشور: (أمَّا إطلاقُ المحرابِ على الموضِعِ مِن المسجِدِ الَّذي يقفُ فيه الإمامُ الَّذي يَؤُمُّ النَّاسَ، يُجعَلُ مِثلَ كوَّةٍ غيرِ نافذةٍ، واصلةٍ إلى أرض المسجِدِ في حائطِ القِبلةِ، =

﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾.

أي: ويَعمَلون له ما يشاءُ مِن تماثيلَ[١].

﴿وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ﴾.

أي: وصِحافٍ عَظيمةٍ كالأحواضِ الكبيرةِ والبِرَكِ الواسِعةِ الَّتي يُجمَعُ فيها الماءُ[٢].

﴿وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾.

أي: وقُدورٍ ثوابِتَ في مواضِعِها[٣].

---

= يَقِفُ الإمامُ تحتَه: فتَسميةُ ذلك محرابًا تَسميةٌ حديثةٌ، ولم أقِفْ على تعيينِ الزَّمَنِ الَّذي ابتُدِئَ فيه إطلاقُ اسم المحرابِ على هذا الموقِفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠). ويُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٢).
قال القرطبي في معنى التِّمثالِ أنَّه: (كلُّ ما صُوِّر على مِثلِ صورةٍ مِن حيوانٍ أو غيرِ حيوانٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).
قال ابن جُزَي: (﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ قيل: إنَّها كانت على غيرِ صُوَرِ الحَيوانِ. وقيل: على صورِ الحيوانِ، وكان ذلك جائزًا عندَهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٢).
وقال ابنُ عثيمين: (لا يَلزمُ أن يكونَ المرادُ بالتَّماثيلِ هي صُوَرَ الحيوانِ، فمِن الجائزِ أنْ ينحِتوا... له أشياءَ على صورِ شجرٍ، ويقال: إنَّ هذا تمثالٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣). =

﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾.

أي: وقُلْنا لداودَ ووَلَدِه وأهلِه: اعمَلوا -يا آلَ داودَ- بطاعةِ اللهِ؛ شُكرًا له على نِعَمِه عليكم(١).

كما حكَى الله تعالى قَولَ سُليمانَ: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَدۡخِلۡنِي بِرَحۡمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾.

أي: والمُكثِرونَ مِن شُكرِ الله على نِعَمِه قَليلٌ(٢).

---

= وفي علَّةِ ثبوتِها في مكانِها قولانِ؛ أحدُهما: أنَّ أثافيَّها [أي: الأحجارَ الَّتي تُوضعُ عليها القدورُ] منها، قاله ابنُ عباس. والثَّاني: أنها لا تُنزَلُ لِعظَمِها، قاله ابنُ قتيبة، وابنُ جرير، وابن الجوزي، والسعدي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦).

قال ابن عثيمين: (قال العلماءُ: الرَّاسي الثَّابتُ، وإنَّما كانت راسِيةً في الأرضِ لكِبَرِها، فهي لكِبَرِها لا يَستَطيعُ أحَدٌ أن يَتَناوَلَها ويَقلِبَها، والعادةُ أنَّ القُدورَ مَنقولةٌ مَقلَّبةٌ، لكنَّ هذه لكِبَرِها وسَعَتِها راسِيةٌ لا تَتَحرَّكُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٤).

وقال ابن عاشور: (الرَّاسياتُ: الثَّابتاتُ في الأرضِ التي لا تُنزَلُ مِن فوقِ أثافيِّها؛ لتداوُلِ الطَّبخِ فيها صباحَ مَساءَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

قال ابنُ عثيمينَ: (المرادُ بالعبوديَّةِ هنا: العامَّةُ الشَّاملةُ للكافرينَ والمؤمنينَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى عَظَمةَ سُلَيمانَ، وتَسخيرَ الرِّيحِ والجنِّ له؛ بيَّن أنَّه لم يَنْجُ مِن الموتِ، وأنَّه قضَى عليه الموتَ؛ تنبيهًا للخَلقِ على أنَّ الموتَ لا بُدَّ منه، ولو نجا منه أحدٌ لكان سُلَيمانُ أَولى بالنَّجاةِ منه[1].

﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ﴾.

أي: فلمَّا جاء سُلَيمانَ أجَلُه الَّذي قضاه اللهُ عليه، ما دَلَّ الجِنَّ على مَوتِه إلَّا الأَرَضةُ حينَ أكلتْ عَصاه الَّتي كان مُتوكِّئًا عليها وقْتَ مَوتِه[2].

﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ﴾.

أي: فلمَّا سَقَط سُلَيمانُ مَيِّتًا حينَ ضَعُفَت عصاه فسَقَطَت بفِعلِ الأَرَضةِ، ظهَر أمرُ الجِنِّ وانكشَف للنَّاسِ أنَّهم لا يَعلَمونَ الغَيبَ كما كانوا يَتوهَّمونَ أو يُوهِمونَ النَّاسَ بذلك؛ فلو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ لعَلِموا مَوتَ سُلَيمانَ، ولم يَلبَثوا في عَمَلِهم الشَّاقِّ المُؤلِمِ المُذِلِّ الَّذي كانوا مُسَخَّرينَ فيه لسُلَيمانَ وهم يَحسَبونَه حَيًّا[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٨، ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٣٩، ٢٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٩، ٤٩٠)، =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى -عَقِبَ ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾-: ﴿وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾، وقال -عقِبَ

---

= ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تَبَيَّنت الجنُّ للنَّاسِ وانكَشَف لهم أمرُهم وظهَرَ، وعلِموا أنَّهم لا يعلمونَ الغيبَ: يحيى بنُ سلام، والنَّحَّاسُ، والسمرقندي، والسمعاني، وابن الجوزي، والقرطبي، والرَّسْعَنيُّ -ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ-، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٥٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٤٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: علِمَتِ الجنُّ وأيقنَتْ، وتَبَيَّن لهم الأمرُ بأنَّهم لا يعلمونَ الغَيبَ: البَغَويُّ، والرازي، والنسفي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢١).

وقال ابن كثير: (تبيَّنَتِ الجِنُّ والإنسُ أيضًا أنَّ الجنَّ لا يَعلمون الغَيبَ، كما كانوا يَتوهَّمون ويُوهِمون النَّاسَ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠١).

وقال البِقاعي: (﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ أي: عَلِمَتْ عِلمًا بيِّنًا لا يَقدِرون معه على تدبيجٍ وتدليسٍ، وانفضح أمرُهم وظهَرَ ظُهورًا تامًّا). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٧١).

وقال ابن عطية: (﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ بإسنادِ الفعلِ إليها، أي: بانَ أمْرُها، كأنَّه قال: افتضحَتِ الجِنُّ، أي: للإنسِ. هذا تأويلٌ. ويحتملُ أن يكونَ قولُه: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ﴾ بمعنى: عَلِمَتِ الجنُّ وتحقَّقَتْ، ويريدُ بالجنِّ: جمهورَهم والفَعَلةَ منهم والخَدَمةَ، ويريدُ بالضَّميرِ في ﴿كَانُواْ﴾: رؤساءَهم وكِبارَهم؛ لأنَّهم هم الَّذين يَدَّعون عِلمَ الغَيبِ لأتْباعِهم مِن الجنِّ والإنسِ، ويُوهِمونهم ذلك، قاله قَتادةُ، فيَتيقَّنُ الأتْباعُ أنَّ الرُّؤساءَ لو كانوا عالِمينَ الغيبَ ما لَبِثوا. و﴿أَن﴾ على التَّأويلِ الأوَّلِ بدَلٌ مِن ﴿ٱلۡجِنُّ﴾، وعلى التَّأويلِ الثَّاني مفعولةٌ مَحْضةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٢).

ما يَعمَلُه الجنُّ-: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ إشارةً إلى أنَّ الإنسانَ لا يَستغرِقُ في الدُّنيا، ولا يَلتفِتُ إلى زَخارِفِها، وأنَّه يجِبُ أنْ يَعمَلَ صالحًا[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ فيه وُجوب الشُّكرِ[٢]، والأمرُ في الأصلِ للوجوبِ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الشُّكرَ يكونُ بالفعلِ، كما يكونُ بالقولِ وبالنِّيَّةِ، كما قيل:

أفادَتْكُمُ النَّعْماءُ مِنِّي ثلاثةً ... يدي، ولِساني، والضَّميرَ المُحَجَّبَا[٤]

ولا يختَصُّ الشُّكرُ باللِّسانِ[٥]، ولَمَّا قام النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم حتَّى تورَّمَتْ قَدَماه، قيل له: ((أَتَكَلَّفُ هذا، وقد غَفَر الله لك ما تقدَّم مِن ذَنْبِك وما تأخَّر؟ فقال: أفلا أكونُ عبدًا شَكورًا؟!))[٦]، فجعَلَ الاجتهادَ والنَّصَبَ في قيامِ اللَّيلِ مِن جُملةِ الشُّكرِ[٧].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ المرادُ بهذه الجملةِ الحثُّ على الشكرِ[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٥).

(٦) أخرجه البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩) واللفظ له، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٧) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٢٦٣).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٧).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ﴾ إثباتُ وُجودِ الجِنِّ، وهذا ثابتٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ المُسلِمين؛ ولهذا مَن أنكرَ وُجودَ الجنِّ فقد كَذَّبَ القُرآنَ، ويُحكَمُ بكُفرِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أنَّ الجِنَّ قد يُشاهَدونَ، فإنَّ الظَّاهرَ أنَّهم يُشاهَدونَ وهم يَعملونَ بينَ يدَيْ سُلَيمانَ عليه السلامُ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أنَّ الجِنَّ مُكَلَّفُونَ، بمعنى أنَّهم إذا خالَفوا عُذِّبُوا[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ﴾ فيه سؤالٌ: كيفَ استجازَ سُلَيمانُ عليه السَّلامُ عمَلَ التَّصاويرِ؟

**الجوابُ**: أنَّه يجوزُ أن تكونَ غيرَ صُوَرِ الحيوانِ، كصُوَرِ الأشجارِ ونَحوِها؛ لأنَّ التِّمثالَ: كُلُّ ما صُورتُه على مِثلِ صُورةِ غَيرِه، مِن حيوانٍ وغيرِ حَيوانٍ، أو بصُوَرٍ محذوفةِ الرُّؤوسِ[٤].

وعلى فرضِ كَوْنِ ذلك كان جائزًا في شريعتِهم فإنَّه نُسِخَ في شَرعِنا، فليس في الآيةِ حجَّةٌ في جوازِ التَّصويرِ[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ بيانُ كرمِ سُلَيمانَ؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٩). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٥).

الجِفَانَ -الَّتي يُوضَع فيها الطَّعامُ- كالجَوابي: كالأحواضِ الكبيرةِ، والقُدورَ الَّتي يُطبَخ فيه الطَّعامُ راسياتٌ لكِبَرِها[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ أنَّ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أبٌ لِفَخذٍ كاملٍ مِن بني إسرائيلَ، كما يُقال: بنو تميمٍ، بنو زُهرةَ، وما أشبَهَ ذلك[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ إنَّما قال تعالى: ﴿ٱلشَّكُورُ﴾ بصيغةِ المبالَغةِ (فَعُول)؛ دونَ «شاكرٍ»؛ لأنَّ الشَّاكِرينَ غيرُ قليلينَ، ففيها إشارةٌ إلى أنَّ مَن يقَعُ منه مُطلَقُ الشُّكرِ كَثيرٌ، وأقلُّ ذلك حالَ الاضطرارِ، وأمَّا المبالِغونَ في الشُّكرِ فقليلونَ[٣]. وقيل: الآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ خَفَّف الأمرَ على عبادِه؛ وذلك لأنَّه لَمَّا قال: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ فُهِمَ منه أنَّ الشُّكرَ واجِبٌ، لكِنْ شُكرُ نِعَمِه كما ينبغي لا يُمكِنُ؛ لأنَّ الشُّكرَ بالتَّوفيقِ، وهو نعمةٌ تحتاجُ إلى شُكرٍ آخَرَ، وهو بتوفيقٍ آخَرَ؛ فدائمًا تكونُ نِعمةُ اللهِ بعدَ الشُّكرِ خاليةً عن الشُّكرِ، فقال تعالى: إنْ كنتُم لا تَقدِرونَ على الشُّكرِ التَّامِّ فليس عليكم في ذلك حرَجٌ؛ فإنَّ عبادي قليلٌ منهم الشَّكورُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١١٤، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٩).

وقال أيضًا: (ويقوِّي قولَنا أنَّه تعالى أدخل الكُلَّ في قَولِه: ﴿عِبَادِيَ﴾ مع الإضافةِ إلى نفْسِه، و«عبادي» بلفظِ الإضافةِ إلى نفْسِ المتكَلِّمِ لم تَرِدْ في القرآنِ إلَّا في حَقِّ النَّاجينَ؛ كقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. فإنْ قيلَ: على ما ذكرتُم: شُكرُ اللهِ بتمامِه لا يُمكِنُ، وقَولُه: ﴿وَقَلِيلٞ﴾ يدُلُّ على أنَّ في عبادِه مَن هو شاكِرٌ لأنعُمِه! نقولُ: الشُّكرُ بقَدرِ الطَّاقةِ البشَريَّةِ هو الواقعُ وقليلٌ فاعِلُه، وأمَّا الشُّكرُ الَّذي يناسِبُ نِعَمَ الله فلا قُدرةَ عليه، ولا يُكَلِّفُ اللهُ =

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ أنَّ الشَّيءَ قد يكونُ حقيرًا لكنْ يترتَّبُ عليه أمرٌ عظيمٌ! فكيفيَّةُ دفنِ الموتَى ما عُرِفتْ إلَّا بدلالةِ الغُرابِ، وأيضًا المباني الهندسيَّةُ عُرِفَتْ مِن صنيعِ النَّحْلِ، وأيضًا ما أحَدَثَه النَّاسُ مِن الآلاتِ، كالطَّائراتِ وغيرها، فالأشياءُ الحقيرةُ قد تكونُ مفيدةً للإنسانِ فائدةً عظيمةً، ويترتَّبُ عليها أمورٌ خطيرةٌ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ إضافةَ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلومِ شَرعًا أو حِسًّا جائزةٌ؛ فاللهُ تعالى أضافَ الدَّلالةَ إلى دابَّةِ الأرضِ مع أنَّ الدَّابَّةَ ما أكلَتِ العصا لأجْلِ أنْ تدُلَّ الجنَّ على مَوتِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، لكِنَّها سَبَبٌ، أمَّا الممنوعُ فهو إضافةُ الشَّيءِ إلى سَبَبِه مع اللهِ تعالى مَقرونًا بالواوِ، أو إضافةُ الشَّيءِ إلى سببٍ غيرِ معلومٍ سَببيَّتُه لا مِن الشَّرعِ ولا مِن الحِسِّ؛ لأنَّ هذا يكونُ مِن بابِ الأوهامِ والتَّخيُّلاتِ[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ إضافةُ الشَّيءِ إلى مَن لم يَقُمْ به باختيارِه؛ فالخرورُ قد يُضافُ إلى الفاعلِ بالاختيارِ، وقد يُضافُ إلى الفاعلِ بغيرِ الاختيارِ؛ فتقول: «خَرَّ الماءُ»، وتقول: «خَرَّ ميتًا»، وقال اللهُ: ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ [مريم: ٥٨]؛ و﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ [الإسراء: ١٠٩] هذا بالاختيارِ[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أنَّ الجنَّ ذوو عقولٍ، فقد أعطاهم اللهُ

---

= نفْسًا إلَّا وُسْعَها، أو نقولُ: الشَّاكرُ التَّامُّ ليس إلَّا مَن رَضِيَ اللهُ عنه، وقال له: يا عبدي، ما أتيتَ به مِن الشُّكرِ القَليلِ قَبِلْتُه منك، وكتبتُ لك أنَّك شاكرٌ لأنعُمي بأسْرِها، وهذا القَبولُ نِعمةٌ عظيمةٌ لا أكلِّفُك شُكرَها). ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٤).

تعالى عقولًا يَهتدون بها إلى مصالحِ دينِهم ودنياهم[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٢- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ هذا إبطالٌ لاعتقادِ العامَّةِ يومَئذٍ وما يَعتَقِدُه المُشرِكونَ أنَّ الجِنَّ يَعلَمونَ الغَيبَ؛ فلذلك كان المُشرِكونَ يَستَعلِمونَ المُغَيَّباتِ مِن الكُهَّانِ، ويَزعُمونَ أنَّ لكُلِّ كاهنٍ جِنِّيًّا يأتيه بأخبارِ الغَيبِ، ويُسَمُّونَه رَئِيًّا؛ إذ لو كانوا يَعلَمونَ الغَيبَ لَكان أن يَعلَموا وفاةَ سُلَيمانَ أهْوَنَ عليهم[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أنَّ الأمورَ الحِسِّيَّةَ الواقِعةَ أدِلَّةٌ بُرهانيَّةٌ، وهذه الفائدةُ معناها الاستِدلالُ بالأمورِ الحِسِّيَّةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى استدَلَّ على كَونِهم لا يَعلَمونَ الغيبَ بأنَّهم بَقُوا مُعَذَّبينَ بما يَعمَلونَه مِن الأعمالِ الشَّاقَّةِ؛ فلك أن تستَدِلَّ على الأمورِ المعقولةِ بالأمورِ المحسوسةِ[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ أنَّ العذابَ قد يُطلَقُ على ما ليس بعُقوبةٍ؛ فإنَّ سُلَيمانَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يَجعَلْهم يَعمَلونَ له ما يَشاءُ عُقوبةً لهم، ولكِنَّه تكليفٌ، كما في قَولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ السَّفَرَ قِطعةٌ مِن العَذابِ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاري (١٨٠٤)، ومسلم (١٩٢٧) مطولًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ عَطْفُ فَضيلةِ سُليمانَ على فَضيلةِ داودَ؛ للاعتبارِ بما أُوتِيَهُ سُليمانُ مِن فَضلٍ كَرامةً لأبيهِ على إنابتِه، ولِسُلَيمانَ على نَشأتِه الصَّالحةِ عندَ أبيهِ؛ فالعَطفُ على ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠]، والمُناسَبةُ مِثلُ مُناسَبةِ ذِكرِ داودَ؛ فإنَّ سُليمانَ كان مَوصوفًا بالإنابةِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾[1] [ص: ٣٤].

- وأُطلِقَ الغُدُوُّ على الانصرافِ والانطلاقِ مِن المكانِ؛ تَشبيهًا بخُروجِ الماشيةِ للرَّعيِ في الصَّباحِ، وهو وَقتُ خُروجِها، أو تَشبيهًا بغُدُوِّ النَّاسِ في الصَّباحِ. وأُطلِقَ الرَّواحُ على الرُّجوعِ مِن النَّهْمةِ (الحاجةِ) الَّتي يخرجُ لها؛ لأنَّ عُرْفَهم أنَّ رَواحَ الماشيةِ يكونُ في المساءِ[2].

- قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ عَطفًا على جُملةِ ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾؛ فقولُه: ﴿مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مُبتدأٌ، وقولُه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ خَبرٌ، و(مِن) في قولِه: (مِنَ الْجِنِّ) بَيانٌ لإبهامِ (مَن)، قُدِّمَ على المُبيَّنِ؛ للاهتمامِ به؛ لِغَرابتِه[3].

- قولُه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بلفظِ الربِّ، وقال بعدَ ذلك: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٥٧، ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٥٩).

ولم يقُلْ: (عن أمرِ ربِّه)؛ لأنَّ (الرَّبَّ) لفظٌ ينبئُ عن الرَّحمةِ، فعندَما كانت الإشارةُ إلى حِفظِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، قال: ﴿رَبِّهِۦ﴾، وعندَما كانت الإشارةُ إلى تعذيبِهم قال: ﴿عَنۡ أَمۡرِنَا﴾، بلفظِ التَّعظيمِ الموجِبِ لزيادةِ الخَوفِ[1].

- قولُه: ﴿نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عذابُ السَّعيرِ: عذابُ النارِ، وهو تَشبيهٌ، أي: عذابًا كعَذابِ السَّعيرِ، أي: كعَذابِ جهنَّمَ، وأمَّا عذابُ جهنَّمَ فإنَّما يكونُ حقيقةً يومَ الحسابِ[2]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، وقال في (الأنبياءِ): ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال هناك وهاهنا في الرِّيحِ: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ [الأنبياء: ٨١] [سبأ: ١٢]؛ ووَجْهُه: أنَّ الجبالَ لَمَّا سبَّحَت، شَرُفَتْ بذِكرِ اللهِ؛ فلمْ يُضِفْها إلى داودَ بلامِ المِلكِ، بلْ جعَلَها معه كالمُصاحِبِ، والرِّيحُ لم يَذكُرْ فيها أنَّها سبَّحَت، فجعَلَها كالمَملوكةِ له. وفيه وَجْهٌ آخَرُ -على القولِ بأنَّ ﴿أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ معناه: سِيري-: أنَّ الجبَلَ في السَّيرِ ليس أصلًا، بلْ هو يَتحرَّكُ معه تَبَعًا، والرِّيحُ لا تَتحرَّكُ مع سُليمانَ، بلْ تُحرِّكُ سُليمانَ مع نفْسِها، فلمْ يَقُلْ: الرِّيحُ مع سُليمانَ، بلْ سُليمانُ كان مع الرِّيحِ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرًاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾

- قولُه: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ تَفصيلٌ لِمَا ذُكِرَ مِن عَمَلِهم، وقولُه: ﴿مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٧، ١٩٨).

مَّحَٰرِيبَ ...﴾ إلخ، بَيانٌ لـ ﴿مَا يَشَآءُ﴾[١].

- وقُدِّمَت المَحاريبُ على التَّماثيلِ؛ لأنَّ النُّقوشَ تكونُ في الأبنيةِ، وقُدِّمَت الجِفانُ على القُدورِ؛ لأنَّ القُدورَ آلةُ الطَّبخِ، والجِفانُ آلةُ الأكْلِ، والطَّبخُ قبْلَ الأكلِ. لمَّا بيَّنَ الأبنيةَ المَلَكيَّةَ، أراد بَيانَ عَظمةِ السِّماطِ الَّذي يُمَدُّ في تلك الدُّورِ، وأشار إلى الجِفانِ؛ لأنَّها تكونُ فيها، وأمَّا القُدورُ فلا تكونُ فيها، ولا تُحضَرُ هناك، ولهذا قال: ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾. ولمَّا بيَّن حالَ الجِفانِ، سَرى الذِّهنُ إلى عظَمةِ ما يُطبَخُ فيه؛ فذَكَرَ القُدورَ للمُناسَبةِ. وذكَرَ في حقِّ داودَ اشتغالَه بآلةِ الحرْبِ؛ لاحتياجِه إلى قِتالِ الأعداءِ، وفي حقِّ سُليمانَ المَحاريبَ والتَّماثيلَ؛ لأنَّه كان مَلِكًا ابنَ مِلكٍ، قد وطَّدَ له أبوهُ المُلكَ، فكانت حالُه حالةَ سِلمٍ؛ إذ لم يكُنْ أحدٌ يَقدِرُ على مُحارَبتِه[٢].

- وجُملةُ ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗا﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: قُلنا: اعْمَلوا يا آلَ داودَ. ومَفعولُ ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿شُكۡرٗا﴾، وتَقديرُه: اعْمَلوا صالحًا[٣].

- قولُه: ﴿ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ دلَّ على مَزيدِ قربِهم بحذفِ أداةِ النِّداءِ، وعلى شرَفِهم بالتَّعبيرِ بـ (الآلِ)[٤].

- قولُه: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ تَذييلٌ. وفيه حَثٌّ على الاهتمامِ بالعمَلِ الصَّالحِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ١٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٨، ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾

- قولُه: ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ... ﴾ تفريعٌ على قولِه: ﴿ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ إلى قولِه: ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ ﴾، أي: دام عمَلُهم له حتَّى مات، فلمَّا قَضَينا عليه الموتَ... إلى آخِرِه. ولا شكَّ أنَّ ذلك لم يَطُلْ وَقتُه؛ لأنَّ مِثلَه في عَظَمةِ مُلكِه لا بُدَّ أنْ يَفتقِدَه أتْباعُه؛ فجُملةُ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ ... ﴾ جَوابُ (لَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ)، وضَميرُ ﴿دَلَّهُمْ﴾ يَعودُ إلى مَعلومٍ مِن المَقامِ، أي: أهلَ بلاطِه. وجُملةُ ﴿فَلَمَّا خَرَّ ﴾ مُفرَّعةٌ على جُملةِ ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ ... ﴾[1].

- قولُه تعالى: ﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ ﴾ فخَّمَها بهذه الإضافةِ الَّتي من معناها أنَّه لا دابَّةَ للأرضِ غيرُها؛ لِما أفادَتْه مِن العِلمِ، ولأنَّها -لِكَونِها تأكُلُ مِن كُلِّ شَيءٍ مِن أجزاءِ الأرضِ؛ من الخَشَبِ، والحجَرِ، والتُّرابِ، والثِّيابِ، وغيرِ ذلك- أحقُّ الدَّوابِّ بهذا الاسمِ، ويَزيدُ ذلك حُسنًا أنَّ مَصدرَ فِعلِها (أَرْضٌ) بالفتحِ والإسكانِ، فيصيرُ مِن قبيلِ التَّوريةِ، ليَشتَدَّ التَّشَوُّفُ إلى تفسيرِها[2].

- قولُه: ﴿أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾ أي: عَلِمَ المُدَّعون عِلمَ الغيبِ منهم عَجْزَهم، وأنَّهم لا يَعلَمون الغيبَ وإنْ كانوا عالِمينَ قبْلَ ذلك بحالِهم، وإنَّما أُرِيدَ التَّهكُّمُ بهمْ كما تَتهكَّمُ بمُدَّعِي الباطلِ إذا بَطَلَت حُجَّتُه، وظهَرَ إبطالُه بقولِكَ: هلْ تَبيَّنْتَ أنَّك مُبطِلٌ[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٦٩، ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٢).

## الآيات (١٥-١٩)

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ءَايَةٌ﴾: أي: عَلامةٌ وحجَّةٌ ودلالةٌ، يُقالُ: آيةُ كذا؛ أي: علامَتُه، وتُطلَقُ أيضًا على العَجيبةِ(١).

﴿سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾: العَرِمُ: مِن العَرامةِ: وهي الشِّدَّةُ والكَثرةُ، يعني: السَّيلَ الغالِبَ الشَّديدَ؛ أو يكونُ العَرِمُ اسمًا للسَّيلِ الَّذي كان ينصَبُّ في السَّدِّ، وقيل: العَرِمُ: هو ما بُنِيَ ليُمسِكَ الماءَ(٢)، وأصلُ (عرم): يدُلُّ على شِدَّةٍ وحِدَّةٍ؛ لأنَّ الماءَ إذا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ١٠٤، ٥٩٢) و(١٩/ ٤٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧١).

قال الشنقيطيُّ: (والآيةُ في القرآنِ تُطلَق إطلاقَين: تُطلَقُ الآيةُ على الآيةِ الكَونيَّةِ القدَريَّةِ، وهي مِن الآيةِ بمعنى: العلامةِ، وهي ما نصَبه اللهُ جلَّ وعلا مِن آياتِه، جاعلًا لها علاماتٍ على كمالِ قُدرتِه، وأنَّه الرَّبُّ وحْدَه، المعبودُ وحْدَه،... الإطلاقُ الثَّاني: تُطلَق الآيةُ في القرآنِ على الآيةِ الشَّرعيَّةِ الدِّينيَّةِ؛ كآياتِ هذا القرآنِ العظيم). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٢).

(٢) والمعنى على ذلك: أرسَلْنا السَّيلَ الَّذي كان مخزونًا في السَّدِّ.

حُبِسَ كان له عُرامٌ مِن كَثرتِه[١].

﴿أُكُلٍ﴾: أي: ثَمَرٍ[٢].

﴿خَمْطٍ﴾: أي: شَجرِ الأراكِ، ويُطلَقُ الخَمطُ على الشَّيءِ المُرِّ[٣].

﴿وَأَثْلٍ﴾: الأثْلُ: شَجَرٌ عَظيمٌ يُشبِهُ الطَّرفاءَ، وأصلُ (أثل): يدُلُّ على أصلِ الشَّيءِ[٤].

﴿سِدْرٍ﴾: السِّدْرُ: شَجَرُ النَّبْقِ، وهو قليلُ الغَناءِ عندَ الأكلِ[٥].

﴿أَحَادِيثَ﴾: أي: أخبارًا وعِبَرًا يُتَمَثَّلُ بهم في الشَّرِّ، أو يُتحدَّثُ بهلاكِهم، ولا يُقالُ: جعلْتُه حديثًا في الخَيرِ. وأصلُ (حدث): كَوْنُ الشَّيءِ لم يَكُنْ، والحديثُ مِن هذا؛ لأنَّه كلامٌ يَحْدُثُ منه الشَّيءُ بعدَ الشَّيءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٠٥).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٢).

﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ﴾: أي: فرَّقْناهم في البلادِ كلَّ تفريقٍ، أي: غايةَ ما يكونُ مِن التَّفريقِ، وتبديدِ الشَّملِ، وقَطَّعْناهم في البلادِ كلَّ مُقَطَّعٍ، وأصلُ (مزق): يدُلُّ على تَخرُّقٍ في شَيءٍ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: لقد كان لأهلِ سَبَأٍ في مَسكَنِهم علامةٌ واضِحةٌ: بُستانانِ عَظيمانِ عن أيمانِهم وشَمائِلِهم، وقُلْنا لهم: كُلوا مِن رِزقِ رَبِّكم، واشكُروا له على نِعَمِه، هذه بلدةٌ طَيِّبةٌ، وربُّكم ربٌّ غَفورٌ، فأعرَضوا عن طاعةِ اللهِ وشُكرِه وتَوحيدِه، فأرسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ، فدمَّرَ بُستانَيْهم، وبَدَّلناهم بهما بُستانَينِ فيهما ثَمَرٌ خَمْطٌ، وأثْلٌ، وشَيءٌ قَليلٌ مِن السِّدرِ! ذلك الَّذي فعَلْناه بهم هو جزاءٌ لهم بسَبَبِ كُفرِهم، وما نُجازي جزاءَ العُقوبةِ إلَّا الكَفورَ.

وكنَّا قد أنعَمْنا أيضًا على أهلِ سَبَأٍ مِن قبْلُ بأنْ جعَلْنا بيْنَهم وبيْن قُرى الشَّامِ المُبارَكةِ قُرًى مُتَّصِلةً مُتقارِبةً ظاهِرةً لا تَخفى، وجعَلْنا السَّيرَ في تلك القُرى سَيرًا يَسيرًا مُقَدَّرًا، وقُلْنا لهم: سِيروا في هذه القُرى الَّتي بيْنَكم وبيْن الشَّامِ لَياليَ وأيامًا آمِنينَ، فقالوا: ربَّنا اجعَلْ أسفارَنا بَعيدةً، وظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم نِعَمَ رَبِّهم، فجعَلْناهم أحاديثَ يتحَدَّثُ النَّاسُ بأخبارِهم وما عاقَبْناهم به، ومَضرِبًا للمَثَلِ في التَّشَتُّتِ والتفرُّقِ، وتفرَّقوا في نواحي الأرضِ بعدَ جَدْبِ أرضِهم! إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ لكُلِّ صَبَّارٍ شَكورٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (ولذلك قالت العربُ للقَومِ إذا أخَذوا في وُجوهٍ مُختلِفةٍ: تفرَّقوا أيْدِيَ سَبَا، «وأيدي» بمعنى: مذاهِبَ وطُرقٍ). ((غريب القرآن)) (ص: ٣٥٦).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ الشَّاكِرينَ لِنعَمِه، بذكْرِ داودَ وسُلَيمانَ؛ بيَّنَ حالَ الكافِرينَ بأنعُمِه، بحكايةِ أهلِ سَبَأٍ[1].

وأيضًا جَرَّ خبَرُ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ إلى ذِكرِ سَبأٍ؛ لِمَا بيْنَ مُلكِ سُليمانَ وبيْن مَملكةِ سَبأٍ مِن الاتِّصالِ؛ بسَببِ قِصَّةِ «بِلْقيسَ»، ولأنَّ في حالِ أهلِ سَبأٍ مُضادَّةً لأحوالِ داودَ وسُليمانَ؛ إذ كان هذانِ مَثَلًا في إسباغِ النِّعمةِ على الشَّاكرينَ، وكان أولئك مَثَلًا لِسَلبِ النِّعمةِ عن الكافرينَ[2].

وأيضًا لَمَّا فَرَغ التَّمثيلُ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ رجَعَ التَّمثيلُ للمُشرِكينَ -أي: لحالِهم- بسبَأٍ، وما كان مِن هلاكِهم بالكُفرِ والعُتُوِّ[3].

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾.

أي: لقد كان لأهلِ سَبَأٍ في مَسكَنِهم علامةٌ بَيِّنةٌ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

وسبأٌ قبيلةٌ معروفةٌ في اليمَنِ، سمِّيت باسمِ جدٍّ لهم مِن العربِ، ومسكنُهم بلدةٌ يُقالُ لها: «مَأْرِبُ»، وكانت بِلْقيسُ منهم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) =

﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾.

أي: تلك الآيةُ هي جنَّتانِ عَظيمتانِ(١) عن أيمانِهم وشمائِلِهم(٢).

﴿كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥ﴾.

---

= (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٦).

وذكَر السَّمْعانيُّ أنَّ أكثرَ أهلِ التَّفسيرِ على أنَّ (سَبَأ) اسمُ رجُلٍ، ونُسِبت القبيلةُ إليه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٤).

قال الماوَرْدي: (وفي الآيةِ الَّتي لِسَبأٍ في مساكنِهم قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه لم يكُنْ في قريتِهم بَعوضةٌ قَطُّ، ولا ذُبابةٌ، ولا بُرْغُوثٌ، ولا حيَّةٌ، ولا عقربٌ، وإنَّ الرَّكْبَ لَيَأْتون في ثيابِهم القُمَّلُ والدَّوابُّ فتموتُ تلك الدَّوابُّ. قاله عبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدٍ.

الثَّاني: أنَّ الآيةَ هي الجنَّتانِ كانت المرأةُ تمشي فيهما وعلى رأسِها مِكتَلٌ فيَمتلِئُ، وما مسَّتْه بيَدِها. قاله قَتادةُ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٤٣).

وقيل: لم يجعَلِ اللهُ تعالى الجنَّتَينِ في أنفُسِهما آيةً، وإنَّما جَعَل قِصَّتَهما وتخريبَهما وإبدالَهم عنهما بخَمْطٍ وأثْلٍ؛ بسببِ إعراضِهم عن شكر اللهِ- آيةً وعِبرةً لهم؛ لِيَعتَبروا ويتَّعِظوا فلا يَعودوا إلى ما كانوا عليه مِن الكُفرِ وغَمْطِ النِّعَمِ. ويجوزُ أن تجعَلَهما آيةً، أي: علامةً دالَّةً على اللهِ، وعلى قُدرتِه، وإحسانِه ووُجوبِ شُكرِه. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٥).

(١) قيل: المرادُ أنَّهما بُستانانِ كانا بيْنَ جبلَينِ عن يمينِ مَن أتاهما وشِمالِه. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٧).

وقيل: لم يُرِدْ بُستانينِ اثنينِ فحَسْبُ، وإنَّما أراد جماعتينِ مِن البَساتينِ: جماعةً عن يمينِ بلدِهم، وأُخرَى عن شِمالِها، وكُلُّ واحدةٍ مِن الجماعتَينِ في تَقارُبِها وتَضامِّها كأنَّها جنَّةٌ واحدةٌ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البِقاعي، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٨).

وقال الرَّسْعَنيُّ عن هذا القولِ: (هو قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٢٨).

أي: وقُلْنا لهم[١]: كُلوا مِمَّا رزَقَكم ربُّكم، واعمَلوا لله تعالى وَحْدَه وأطيعوه؛ شُكرًا له على ما أنعَمَ به عليكم[٢].

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَر الله تعالى بشُكرِه؛ بيَّن ما يوجِبُ الشُّكرَ المأمورَ به[٣].

وأيضًا لَمَّا بيَّن حالَهم في مساكِنِهم وبساتينِهم وأكْلِهم؛ أتمَّ بيانَ النِّعمةِ[٤]، فقال:

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

أي: هذه بَلدةٌ طَيِّبةٌ[٥]، والمُنعِمُ بها رَبٌّ غَفورٌ يَستُرُ الذُّنوبَ، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها[٦].

﴿فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) قال القرطبي: (أي: قيلَ لهم: كُلوا، ولم يكُنْ ثَمَّ أمرٌ، ولكِنَّهم تمكَّنوا مِن تلك النِّعَم. وقيل: قالت الرُّسُلُ لهم: قد أباح اللهُ تعالى لكم ذلك، أي: أباح لكم هذه النِّعَمَ؛ فاشكروه بالطَّاعةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٠).

(٥) قال ابنُ عطية: (طَيِّبَةٌ: معناه: كريمةُ التُّربةِ، حَسَنةُ الهواءِ، رَغدةٌ مِن النِّعَمِ، سليمةٌ مِن الهَوامِّ والمضارِّ. هذه عباراتُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٣، ٤١٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما كان مِن جانِبِه تعالى مِن الإحسانِ إليهم؛ ذكَرَ ما كان مِن جانِبِهم في مُقابَلتِه[1].

﴿ فَأَعۡرَضُواْ ﴾.

أي: فأعرَضَ أهلُ سَبَأٍ عن توحيدِ اللهِ وطاعتِه وشُكرِه، فعَبَدوا غيرَه، وعَصَوا أمْرَه، وخالَفوا رسُلَه[2].

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ ﴾.

أي: فأرسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ[3]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

(٣) قال ابن عاشور: (و ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ وصفًا مِن العَرامةِ، وهي الشِّدَّةُ والكثرةُ، فتكون إضافةُ «السَّيلِ» إلى العَرِمِ مِن إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ. ويجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلۡعَرِمِ﴾ اسمًا للسَّيلِ الَّذي كان ينصَبُّ في السَّدِّ، فتكون الإضافةُ مِن إضافةِ المسمَّى إلى الاسمِ، أي: السَّيلُ العَرِمُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٩).

ممَّن ذهب في الجملةِ إلى القولِ الأوَّلِ، وأنَّه مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ، مِن العَرامةِ، وهي الشِّدَّةُ والقوَّةُ: البِقاعي، والألوسي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٠٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥١، ٢٥٢).

وقيل: العَرِم: اسمٌ للوادي. وممَّن اختار ذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعطاءٌ. يُنظر: =

فدمَّرَ جَنَّتَيهم[١].

﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

أي: وجعَلْنا لهم مكانَ الجنَّتينِ اللَّتينِ كانت فيهما الثِّمارُ النَّضيجةُ، والمناظِرُ الحَسَنةُ البَهيجةُ: جنَّتينِ فيهما ثَمَرٌ خَمْطٌ[٢] وأَثْلٌ، وشَيءٌ قَليلٌ مِن السِّدْرِ[٣].

---

= ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٩٠).

وقيل: هو المُسَنَّاةُ أو السِّكْرُ الذي يَحبِسُ ماءَ السَّدِّ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جريرٍ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عَمرُو بنُ شُرَحْبِيلَ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٩٠).

قال القرطبي: (المُسَنَّاةُ هي الَّتي يُسَمِّيها أهلُ مِصرَ الجِسرَ؛ فكانوا يفتَحونَها إذا شاؤوا، فإذا رُوِيَت جنَّتاهم سَدُّوها). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٦).

وقيل: العَرِمُ: ماءٌ أحمَرُ أرسَلَه اللهُ في السَّدِّ، فشَقَّه وهدَمَه، وحفَرَ الواديَ، فارتفعَتَا عن الجَنْبَينِ، وغاب عنهما الماءُ فيَبِسَتا، ولم يكُنِ الماءُ الأحمرُ مِن السَّدِّ، ولكِنْ كان عذابًا أرسله اللهُ عليهم مِن حيثُ شاء. وممَّن قال بهذا المعنى: مجاهِدٌ في روايةٍ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٧، ٥٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٣، ١٣٤).

(٢) قيل: المرادُ بالخَمطِ: الأراكُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ كثير، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعطاءٌ الخُراسانيُّ، وعِكْرِمةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٥، ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

قال الزمخشري: (والأَثْلُ والسِّدْرُ: معطوفانِ على ﴿أُكُلٍ﴾، لا على ﴿خَمْطٍ﴾؛ لأنَّ الأَثْلَ =

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ﴾.

أي: ذلك الَّذي فعَلْناه بأولئك القَومِ هو جزاءٌ مِنَّا لهم؛ بسَبَبِ كُفرِهم[1].

﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ﴾.

أي: وما نُجازي ذلك الجَزاءَ -جزاءَ العقوبةِ- إلَّا شَديدَ الكُفرِ لِنعَمِ اللهِ[2].

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

تَكمِلةُ القِصَّةِ بذِكرِ نِعمةٍ بعدَ نِعمةٍ؛ فإنَّ ما تقدَّمَ: لِنعمةِ الرَّخاءِ والبَهجةِ، وطِيبِ الإقامةِ، وما هنا: لِنعمةِ الأمنِ، وتيسيرِ الأسفارِ، وعُمرانِ بلادِهم[3].

﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً ﴾.

أي: وكُنَّا قد أنعَمْنا أيضًا على أهلِ سَبَأٍ مِن قَبْلُ بأنْ جعَلْنا بيْنَهم وبيْن قُرى الشَّامِ

---

= لا أُكُلَ له). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٦). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٥٨، ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣).

قال الرسعني: (والمعنى: وهل نُجازي مِثلَ هذا الجزاءِ [الفظيع]، أو: وهل يُجازى بكُلِّ عَمَلِه إلَّا الكفورُ؛ فإنَّ المؤمِنَ يكفَّرُ عنه ذنوبُه أو مُعظمُها بطاعتِه، والكافر يُجازى بجميعِ سيِّئاتِه). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٤).

المُبارَكةِ[١] قُرًى مُتَّصِلةً مُتقارِبةً، وهي بيِّنةٌ لا تخفَى؛ لِظُهورِها، فلا يحتاجونَ في طريقِهم لحَملِ زادٍ[٢].

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾.

أي: وجعَلْنا السَّيرَ في تلك القُرى سَيْرًا مُقَدَّرًا[٣].

---

(١) قال ابنُ عطيةَ: (القُرَى التي بُورِك فيها هي بلادُ الشَّامِ بإجماعٍ مِن المفسرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٥٩١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٨، ٥٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤١).

قال السمعاني: (ومعنى القُرى الظَّاهرةِ أي: المتَّصِلةِ، وقيل: ظاهِرة يعني: [للرَّائي]، على معنى أنَّهم كانوا إذا نزَلوا بقريةٍ رَأَوْا قريةً أُخرَى). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٢٨).

وقال ابنُ عاشور: (ووَصفُ ﴿ظَٰهِرَةً﴾ أنَّها مُتقارِبةٌ؛ بحيث يظهرُ بعضُها لبعضٍ ويَتراءى بعضُها مِن بعضٍ. وقيل: الظَّاهِرةُ: الَّتي تظهرُ للسَّائرِ مِن بُعدٍ، بأن كانت القُرى مَبنيَّةً على الآكامِ والظِّرابِ يُشاهِدُها المسافِرُ فلا يَضِلُّ طريقَها. وقال ابُن عطيَّةَ: «الَّذي يَظهرُ لي أنَّ معنى ﴿ظَٰهِرَةً﴾ أنَّها خارجةٌ عن المدُنِ، فهي في ظواهِرِ المدُنِ»، ومنه قولُهم: نزَلْنا بظاهِرِ المدينةِ الفُلانيَّةِ، أي: خارجًا عنها. فقولُه: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ كتَسميةِ النَّاسِ إيَّاها بالباديةِ وبالضَّاحيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

قيل: المرادُ: أنَّ أبعادَ تلك القُرى والمسافاتِ بيْنَها: على تقديرٍ وتعادُلٍ؛ بحيث يَقيلُ الغادي في قريةٍ، ويَبيتُ الرَّائحُ في قريةٍ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٦). =

﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾.

أي: وقُلْنا لأهلِ سَبَأٍ: سِيروا في هذه القُرى الظَّاهِرةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَ الشَّامِ لَياليَ وأيَّامًا آمِنينَ فيها مِن جَميعِ آفاتِ السَّفَرِ(١).

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ١٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا انقضى الخبَرُ عن الأوصافِ الَّتي تَستدعي غايةَ الشُّكرِ؛ لِما فيها مِن الألطافِ- دَلَّ على بَطَرِهم للنِّعمةِ بها، بأنَّهم جعَلوها سببًا للتَّضَجُّرِ والمَلالِ(٢).

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا﴾.

أي: فقالوا: يا رَبَّنا اجعَلْ أسفارَنا بَعيدةً، فيَكونَ بيْنَنا وبيْنَ الشَّامِ فَلَواتٌ(٣)!

---

= قال ابن عثيمين: (ولا شكَّ أنَّ تقديرَ السَّيرِ على هذا الوَجهِ أنَّه مِن نعمةِ الله على النَّاسِ؛ فإنَّ الخطوطَ الطَّويلةَ الَّتي ليست بها مُدُنٌ، تكونُ في الغالبِ طُرقًا مُهلِكةً مُخيفةً، لكِنْ إذا كانت متواصِلةً صارت أيسَرَ للسَّالكِ، وأشدَّ طُمأنينةً، بل وأقرَبَ للسَّيرِ؛ لأنَّك إذا مَشَيت مِن قريةٍ إلى أخرى تُحِسُّ أنَّك قطعْتَ مَرحلةً). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٧).

قال ابن عاشور: (المعنى: باعِدْ بينَ السَّفَرِ والسَّفَرِ مِن أسفارِنا، ومعنى ذلك: إبعادُ المراحلِ؛ لأنَّ كلَّ مرحلةٍ تُعتبَرُ سَفَرًا، أي: باعِدْ بينَ مراحِلِ أسفارِنا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٧).

وذكر الماوَرْديُّ في هذه الآيةِ ثلاثةَ تأويلاتٍ: (أحدُها: أنَّهم قالوا ذلك؛ لأنَّهم مَلُّوا النِّعَمَ كما =

﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

أي: وظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم باللهِ وبنِعمتِه[١].

﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾.

أي: فجعَلْناهم أحاديثَ يتحدَّثُ النَّاسُ بأخبارِهم وشأنِ ما جرى لهم مِنَ العُقوبةِ والهلاكِ، ويَضرِبونَ بهم المَثَلَ في التَّشَتُّتِ والتَّفرُّقِ[٢].

﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

أي: وقَطَّعْناهم في الأرضِ، فتفرَّقوا في نواحٍ كثيرةٍ[٣].

---

= ملَّ بنو اسرائيل المَنَّ والسَّلْوى. قاله الحسَنُ.

الثَّاني: أنَّهم قالوا: لو كانت ثمارُنا أبعَدَ مِمَّا هي كانت أشهى في النُّفوسِ وأحلى. قاله ابن عيسى. وهو قريبٌ مِن الأوَّلِ؛ لأنَّه بطَرٌ، فصار نوعًا مِن المَللِ.

الثَّالثُ: معناه: زِدْ في عمارتِنا حتَّى تبعُدَ فيه أسفارُنا. حكاه النَّقَّاشُ. وهذا القولُ منهم طلبًا للزِّيادةِ والكثرةِ. ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٤٥).

وممَّن قال بنحوِ القولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٢).

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ الأظهرَ أن يكونَ هذا القولُ قالوه جوابًا عن مَواعظِ أنبيائِهم والصَّالحينَ منهم حين يَنهَوْنَهم عن الشِّركِ، فهُم يَعِظونهم بأنَّ الله أنعَمَ عليهم بتلك الرَّفاهيةِ، وهم يُجيبونَ بهذا القَولِ؛ إفحامًا لدُعاةِ الخَيرِ منهم، على نحوِ قولِ كُفَّارِ قُريشٍ: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأنفال: ٣٢]! يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٧، ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن =

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾.

أي: إنَّ في ذلك[١] لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ بَيِّنةً لكُلِّ عَظيمِ الصَّبرِ، عَظيمِ الشُّكرِ لله تعالى[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ﴾ إلى آخِرِ الآياتِ: آيةٌ للمُعتبِرين مِن أهلِ المعاصي؛ فإنَّ فيها تحذيرًا لهم مِن أنْ تَزولَ نعمةُ اللهِ تعالى عليهم؛ بسَبَبِ معاصيهم، وآيةٌ للطائعينَ حيثُ يَعتبِرونَ بها بأنَّهم ما داموا على طاعةِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ نعمةَ اللهِ سُبحانَه وتعالى تُدَرُّ عليهم[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾ يدُلُّ على أنَّ الإجحافَ في إيفاءِ النِّعمةِ حَقَّها مِن الشُّكرِ: يُعَرِّضُ بها للزَّوالِ، وانقلابِ الأحوالِ[٤].

---

= كثير)) (٦/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٨، ١٧٩).

قال ابن عاشور: (وأشارَتِ الآيةُ إلى التَّفَرُّقِ الشَّهيرِ الَّذي أُصيبَتْ به قبيلةُ سَبَأٍ إذْ حَمَلهم خرابُ السَّدِّ وقُحولةُ الأرضِ إلى مُفارقةِ تلك الأوطانِ مُفارَقَةً وَتَفْريقًا ضَرَبتْ به العربُ المَثَلَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٨).

(١) قيل: اسمُ الإشارةِ يعودُ إلى تمزيقِهم كُلَّ مُمَزَّقٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

وقيل: المرادُ: قِصَّةُ سَبَأٍ على وجهِ العُمومِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٠، ١٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٠، ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨١).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ في انعكاسِ حالِهم مِنَ الرَّفاهةِ إلى الشَّظَفِ آيةٌ على تقلُّبِ الأحوالِ، وتغيُّرِ العالَمِ؛ وآيةٌ على صِفاتِ الأفعالِ لله تعالى؛ مِن خَلْقٍ ورَزْقٍ، وإحياءٍ وإماتةٍ، وفي ذلك آيةٌ مِن عدَمِ الاطمِئنانِ لدَوامِ حالٍ في الخَيرِ والشَّرِّ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ في الآيةِ دَلالةٌ واضِحةٌ على أنَّ تأمينَ الطَّريقِ، وتيسيرَ المواصَلاتِ، وتقريبَ البُلدانِ؛ لتيسيرِ تبادُلِ المنافِعِ، واجتلابِ الأرزاقِ مِن هنا ومن هناك: نِعمةٌ إلهيَّةٌ، ومَقصدٌ شَرعيٌّ يُحِبُّه اللهُ لِمَن يحِبُّ أن يَرحمَه مِن عبادِه؛ من أجْلِ ذلك كان حَقًّا على وُلاةِ أمورِ الأمَّةِ أن يَسعَوا جُهدَهم في تأمينِ البلادِ، وحِراسةِ السُّبُلِ، وتيسيرِ الأسفارِ، وتقريرِ الأمنِ في سائرِ نواحي البِلادِ؛ جليلِها وصغيرِها، بمُختَلَفِ الوسائِلِ، وكان ذلك مِن أهَمِّ ما تُنفَقُ فيه أموالُ المُسلِمينَ، وما يَبذُلُ فيه أهلُ الخَيرِ من المُوسِرينَ أموالَهم؛ عَونًا على ذلك[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ فيه أنَّ بَطَرَهم لتلك النِّعمةِ حتَّى ملُّوها ودَعَوا بإزالتِها -على أحدِ الأقوالِ-: دليلٌ على أنَّ الإنسانَ ما دام حيًّا فهو في نِعمةٍ يجِبُ عليه شُكرُها كائنةً ما كانت، وإن كان يراها بليَّةً؛ لأنَّه لِما طُبِعَ عليه مِن القَلَقِ كثيرًا ما يرى النِّعمَ نِقَمًا، واللَّذَّةَ ألَمًا[٣]!

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أشار بصيغةِ المُبالَغةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٨).

إلى أنَّ مَن ليس في طَبعِه الصَّبرُ، فاتَه الشُّكرُ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ جمعَ بيْنَ (صبَّارٍ) و(شكورٍ) في الوَصفِ؛ لإفادةِ أنَّ واجبَ المؤمنِ التَّخلُّقُ بالخُلُقَينِ، وهما: الصَّبرُ على المكارهِ، والشُّكرُ على النِّعَمِ؛ فالصَّبَّارُ يَعتبِرُ مِن تلك الأحوالِ، فيَعلَمُ أنَّ الصَّبرَ على المَكارهِ خيرٌ مِن الجَزعِ، ويَرتكِبُ أخَفَّ الضَّررَينِ، ولا يَستخِفُّه الجَزَعُ فيُلْقي بنَفْسِه إلى الأخطارِ، ولا يَنظُرُ في العواقبِ! والشَّكورُ يَعتبِرُ بما أُعطِيَ مِن النِّعمِ، فيَزدادُ شُكرًا للهِ تعالى، ولا يَبطَرُ النِّعمةَ ولا يَطْغى فيُعاقَبَ بسَلْبِها كما سُلِبَت عنهم، ومِن وراءِ ذلك أنْ يَحرِمَهم اللهُ التَّوفيقَ، وأنْ يَقذِفَ بهم الخِذْلانُ في بُنَيَّاتِ الطَّريقِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ مادَّةُ الشُّكرِ تتعدَّى إلى النِّعمةِ تارةً، وإلى المُنعِمِ أُخرى؛ فإن عُدِّيَت إلى النِّعمةِ تعَدَّت إليها بنَفْسِها دونَ حَرفِ الجَرِّ، كقَولِه تعالى: ﴿أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، وإنْ عُدِّيَت إلى المُنعِمِ تعَدَّت إليه بحَرفِ الجَرِّ الَّذي هو اللَّامُ، كقولك: نحمَدُ اللهَ ونَشكُرُ له، ولم تأتِ في القُرآنِ مُعدَّاةً إلَّا باللَّامِ، كما في الآيةِ هنا، وقَولِه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقَولِه: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، وقَولِه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وقَولِه: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧]... إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ، وهذه هي اللُّغةُ الفُصحى، وتعديتُها

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٠، ١٨١).

وبُنَيَّاتُ الطَّريقِ هي الطُّرُقُ الصِّغارُ تَتَشَعَّبُ مِن الجادَّةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٤٠).

للمَفعولِ بدونِ اللَّامِ لُغةٌ لا لَحنٌ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ عُقوبةُ المُعرِضينَ بما تَقْتضيه حكمةُ اللهِ سُبحانه وتعالى، وقد قال اللهُ سُبحانَه وتعالى في آيةٍ أُخرَى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، فالعُقوباتُ دائمًا تكونُ مِن جنسِ العمَلِ؛ فهؤلاء لَمَّا بَطِروا نعمةَ اللهِ تعالى وكفَروا به -بسبب هذه الجَنَّاتِ- أُبدِلوا بجنَّاتٍ سيِّئةٍ بالنِّسبةِ لِمَا نُعِّموا به مِن قَبلُ[٢].

٣- قال الله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ لا يُجازي أحدًا بعُقوبةٍ إلَّا بفِعلِه[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ يدُلُّ على خُصوصِ الجزاءِ بالمُبالِغينَ في الكُفرِ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على عُمومِ الجزاءِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [الزلزلة: ٧]؟

**الجوابُ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّ المعنى ما نُجازي هذا الجَزاءَ الشَّديدَ المُستأصِلَ إلَّا المبالغَ في الكُفرانِ.

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّ ما يُفعَلُ بغيرِ الكافِرِ مِن الجزاءِ ليس عِقابًا في الحقيقةِ؛ لأنَّه تطهيرٌ وتَمحيصٌ.

**الوَجهُ الثَّالِثُ:** أنَّه لا يُجازَى بجميعِ الأعمالِ مع المناقَشةِ التَّامَّةِ إلَّا الكافِرُ، ويدُلُّ لهذا قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن نُوقِشَ الحِسابَ فقد هَلَك))،

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: (المصدر السابق)) (ص: ١٣٩).

فلمَّا سألَتْه عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها عن قَولِه تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨]، قال لها: ((ذلكِ العَرضُ))(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا مِنَ النِّعَم، واللهُ تعالى قد شَرَع في بيانِ تبديلِ نِعَمِهم بقَولِه: ﴿وَبَدَّلْنَـٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾، فكيف عاد مرَّةً أُخرى إلى بيانِ النِّعمةِ بعدَ النِّقمةِ؟

**الجوابُ**: أنَّه ذكَرَ حالَ نَفْسِ بلَدِهم، وبيَّن تبديلَ ذلك بالخَمْطِ والأثْلِ، ثمَّ ذكَرَ حالَ خارجِ بلَدِهم، وذكَرَ عِمارتَها بكَثرةِ القُرى، ثمَّ ذكرَ تبديلَه ذلك بالمفاوِزِ والبَيادي والبَراري، بقَولِهم: ﴿رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، وقد فعَلَ ذلك(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أنَّ الطُّرُقَ إذا كانت بيْنَ قرًى متجاوِرةٍ فهي آمَنُ، وأقرَبُ إلى السَّلامةِ(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ أنَّ تقديرَ السَّيرِ أنشَطُ للمسافرِ وأسهلُ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٩٠). ويُنظر أيضًا: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٩٣).

والحديث أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦).

قال ابن عاشور: (والمعنى: ما يُجازى ذلك الجزاءَ إلَّا الكَفورُ؛ لأنَّ ذلك الجزاءَ عَظيمٌ في نوعِه... فلا يُتوهَّمُ أنَّ هذا يقتضي أنَّ غيرَ الكَفورِ لا يُجازى على فِعلِه، ولا أنَّ الثَّوابَ لا يُسمَّى جزاءً، ولا أنَّ العاصيَ المؤمِنَ لا يُجازى على معصيتِه؛ لأنَّ تلك التَّوهُّماتِ كُلَّها مُندَفِعةٌ بما في اسمِ الإشارةِ مِن بيانِ نوعِ الجزاءِ؛ فإنَّ الاستئصالَ ونحوَه لا يجري على المؤمنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٣).

له؛ لأنَّه إذا كان بيْنَ القرَى تبايُنٌ بعيدٌ تَعِبَ المسافرُ ومَلَّ، لكنْ إذا صار يَقطَعُها مرحلةً مرحلةً؛ صار ذلك أنشَطَ له وأهْوَنَ عليه، ومِن هذا تجزئةُ القرآنِ ومسائلِ العِلمِ والكتبِ المُصَنَّفةِ حتَّى يقطعَها الإنسانُ مرحلةً مرحلةً؛ فيكونَ ذلك أسهَلَ عليه، ورُبَّما نأخُذُ منه فائدةً لِمَن أراد حِفْظَ القرآنِ أنْ يَتَحَفَّظَه شيئًا فشيئًا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ أنَّ الأمنَ في الأوطانِ مِن أكبَرِ النِّعَمِ[٢].

٩- إنَّما غلَّبت العربُ الليالِيَ على الأيامِ في التاريخِ، فقيل: كتبت لخمسٍ بقينَ. وأنت في اليوم؛ لأنَّ ليلةَ الشَّهرِ سبَقت يومَه، ولم يلِدْها وولَدتْه، ولأنَّ الأهِلَّةَ للَّيالي دونَ الأيامِ، وفيها دخولُ الشَّهرِ؛ ولذلك ما ذكَرهما الله تعالى إلَّا وقدَّم الليالِيَ على الأيامِ؛ قال تعالى: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ [فاطر: ١٣]، والعربُ تستعمِلُ الليلَ في الأشياءِ التي يشارِكُها فيها النَّهارُ دونَ النَّهارِ، وإن كانت لا تتِمُّ إلَّا به؛ قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾[٣] [الأعراف: ١٤٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ ظُلمَ النَّفسِ يكونُ بالكُفرِ والشِّركِ[٤]؛ فقد قال الله تعالى قبْلَ ذلك: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ [سبأ: ١٧].

١١- الإيمانُ نِصفانِ: نِصفٌ صَبْرٌ، ونِصفٌ شُكرٌ؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الأزمنة والأمكنة)) للمرزوقي (ص: ٤٦٩)، وفيه وجهٌ آخرُ مذكورٌ (ص: ١١٤).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٧).

ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ﴾ بَيانٌ لأخبارِ بَعضِ الكافرينَ بنِعَمِ اللهِ تعالى إثْرَ بَيانِ أحوالِ الشَّاكرينَ لها[٢]. والتَّأكيدُ بلامِ القَسَمِ وحَرفِ التَّحقيقِ ﴿لَقَدْ ﴾؛ لِتَنزيلِ المُخاطَبينَ بالتَّعريضِ بهذه القِصَّةِ مَنزِلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك؛ لِعَدَمِ اتِّعاظِهم بحالِ قَومٍ مِن أهْلِ بِلادِهم[٣].

- وفي قولِه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ﴾ وَحَّدَ لَفظَ (الآيةِ) مع أنَّ الجَنَّتينِ آيتانِ؛ لِتَماثُلِهما في الدَّلالةِ، واتِّحادِ جِهَتِهما، كقولِه: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾[٤] [المؤمنون: ٥٠].

- وفي قولِه: ﴿جَنَّتَانِ ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: في مَساكنِهم شَبيهُ جنَّتينِ في أنَّه مُغترَسُ أشجارٍ ذاتِ ثَمرٍ مُتَّصِلٍ بَعضُها ببَعضٍ، مِثلُ ما يُعرَفُ مِن حالِ الجنَّاتِ. وتَثنيةُ جنَّتينِ باعتبارِ أنَّ ما على يَمينِ السَّائرِ كَجَنَّةٍ، وما على يَسارِه كجنَّةٍ. وقيل: كان لكلِّ رجُلٍ منهم في مَسكنِه -أي: دارِه- جنَّتانِ: جنَّةٌ عن يَمينِ المَسكنِ، وجنَّةٌ عن شِمالِه، فيَكونُ معنى التَّركيبِ على التَّوزيعِ، أي: لكلِّ مَسكنٍ جنَّتانِ، وهذا مُناسبٌ لقولِه: ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ ﴾ دونَ أنْ يقولَ: في بِلادِهم، أو دِيارِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ أنَّ مَدينتَهم -وهي مَأرِبُ- كانت

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٥، ٤٦٦).

مَحفوفةً على يَمينِها وشِمالِها بغابةٍ مِن الجنَّاتِ يَصطافُّون فيها ويَستثمِرونها، وهذا يُناسِبُ قولَه بعْدُ: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: ١٦]؛ لأنَّ ظاهرَه أنَّ المُبدَلَ به جنَّتانِ اثنتانِ، إلَّا أنْ تَجعَلَه على التَّوزيعِ مِن مُقابَلةِ المُتعدِّدِ بالمُتعدِّدِ. وفي جَعلِ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ في نَظمِ الكلامِ بَدلًا عن (آية) كِنايةٌ عن طِيبِ تُربةِ بِلادِهم[١].

- قولُه: ﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ؛ حِكايةً لِمَا قِيلَ لهم على لِسانِ نبيِّهم؛ تَكْميلًا للنِّعمةِ، وتَذكيرًا لِحُقوقِها. أو لِمَا نطَقَ به لِسانُ الحالِ. أو بَيانٌ لِكَونِهم أحِقَّاءَ بأنْ يُقالَ لهم ذلك[٢].

- جُملةُ ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ مُستأنَفةٌ للدَّلالةِ على مُوجِبِ الشُّكرِ[٣].

- وتَنكيرُ ﴿بَلْدَةٌ﴾ للتَّعظيمِ، وعُدِلَ عن إضافةِ (بَلْدة) إلى ضَميرِهم؛ لِتكونَ الجُملةُ خَفيفةً على اللِّسانِ، فتكونَ بمَنزلةِ المَثلِ. وتَنكيرُ (رَبٌّ) للتَّعظيمِ، والعُدولُ عن إضافةِ (ربّ) لِضَميرِ المُخاطَبينَ إلى تَنكيرِ (ربّ)، وتَقديرِ لامِ الاختِصاصِ؛ لِقَصدِ تَشريفِهم بهذا الاختصاصِ، ولِتكونَ الجُملةُ على وِزانِ الَّتي قبْلَها؛ طَلبًا للتَّخفيفِ، ولِتَحصُلَ المُزاوَجةُ بيْنَ الفِقْرتينِ، فتَسيرَا مَسيرَ المَثَلِ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٨).

- قولُه ﴿ فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ ... ﴾ تفريعٌ على قولِه: ﴿وَٱشْكُرُواْ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥]، وقَعَ اعتِراضًا بيْنَ أجزاءِ القِصَّةِ الَّتي بَقِيَّتُها قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ...﴾ [سبأ: ١٨] إلخ، وهو اعتِراضٌ بالفاءِ، والإعراضُ يَقْتضي سَبْقَ دَعوةِ رَسولٍ أو نَبيٍّ، والمعنى: أعْرَضوا عن الاستِجابةِ لدَعوةِ التَّوحيدِ بالعَودِ إلى عِبادةِ الشَّمْسِ بعْدَ أنْ أقْلَعُوا في زَمنِ سُليمانَ عليه السَّلامُ وبِلقيسَ[١].

- و(الإرسالُ) في قولِه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾: الإطلاقُ، وهو ضِدُّ الحبْسِ، وتَعديتُه بحَرْفِ (على) يُؤذِنُ بأنَّه إرسالُ نِقمةٍ؛ فإنَّ سَيلَ العَرِمِ كان مَحبوسًا بالسَّدِّ في مَأْرِبَ، فكانوا يُرسِلون منه بمِقدارِ ما يَسقُون جَنَّاتِهم. و(التَّبديلُ) في قولِه: ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ تَعويضُ شَيءٍ بآخَرَ؛ فالمعنى: أعطَيْناهم أشجارَ خَمْطٍ وأثْلٍ وسِدْرٍ عِوَضًا عن جنَّتَيهم، أي: صارتْ بِلادُهم قاحلةً ليس فيها إلَّا شَجرُ العِضاهِ[٢] والباديةِ، وفيما بيْنَ هذينِ الحالينِ أحوالٌ عظيمةٌ انتابَتْهم، فقاسَوُا العطَشَ وفِقْدانَ الثِّمارِ حتَّى اضْطُرُّوا إلى مُفارَقةِ تلك الدِّيارِ؛ فلمَّا كانتْ هذه النِّهايةُ دالَّةً على تلك الأحوالِ، طُوِيَ ذِكرُ ما قبْلَها، واقتُصِرَ على ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ ...﴾[٣].

- وإطلاقُ اسمِ ﴿جَنَّتَيْنِ﴾ على هذه المَنابتِ مُشاكَلةٌ للتَّهكُّمِ؛ لأنَّها صارتْ قاحلةً ليس فيها إلَّا شَجرُ العِضاهِ والباديةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٨).

(٢) العِضاهُ: كلُّ شجرٍ يَعْظُمُ وله شوكٌ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٦٩، ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧١، ١٧٢)، =

- قَولُه: ﴿وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ﴾ السِّدرُ: أكثَرُ الأشجارِ ظِلًّا وأنفَعُها؛ لأنَّه يُغسَلُ بوَرقِه مع الماءِ فيُنظِّفُ، وفيه رائحةٌ حَسنةٌ؛ ولذلك وُصِفَ هنا بالقليلِ؛ لإفادةِ أنَّ مُعظَمَ شَجرِهم لا فائدةَ منه، وزِيدَ تَقليلُه قِلَّةً بذِكرِ كَلمةِ (شَيءٍ) المُؤْذِنةِ في ذاتِها بالقِلَّةِ[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦]؛ فهو مِن تَمامِ الاعتراضِ، واسمُ الإشارةِ مِن البَيانِ بطَريقِ الإشارةِ، أي: جَزَيْناهم الجزاءَ المُشارَ إليه، وهو ما تَقدَّمَ مِن التَّبديلِ بجَنَّتَيهم جنَّتينِ أُخريَينِ. وتَقديمُه على عامِلِه؛ للاهتِمامِ بشِدَّةِ ذلك الجزاءِ وتَعظيمِه[2]، وأنَّه مما يُهتَمُّ غايةَ الاهتمامِ بتعرُّفِه[3].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ رُتبتِه في الفَظاعةِ[4].

- وأيضًا قولُه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْ ...﴾ تَذييلٌ، وهو قِسْمانِ؛ الأوَّلُ: ما جَرى مَجرى المَثلِ، والثَّاني: ما لم يَخرُجْ مَخرَجَ المَثلِ؛ وهو أنْ تكونَ الجُملةُ الثَّانيةُ مُتوقِّفةً على الأُولى في إفادةِ المُرادِ، أي: وهلْ يُجازى ذلك الجزاءَ المَخصوصَ؟! ومَضمونُ الجُملةِ الأُولى أنَّ آلَ سَبأٍ جَزاهم اللهُ تعالى بكُفرِهم، ومَضمونُ الثَّانيةِ أنَّ ذلك العِقابَ المخصوصَ لا يقَعُ إلَّا للكَفورِ،

---

= ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧١، ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٨).

وفَرْقٌ بيْنَ قولِنا: جَزيتُه بسَببِ كذا، وبيْنَ قَولِنا: ولا يُجزى ذلك الجزاءَ إلَّا مَن كان بذلك السَّببِ، ولِتَغايُرِهما يصِحُّ أنْ يُجعَلَ الثَّاني عِلَّةً للأوَّلِ، ولكنَّ اختلافَ مَفهومِهما لا يُنافي تأْكيدَ أحدِهما بالآخَرِ؛ لِلُزومِ معنًى[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ إنكاريٌّ في مَعنى النَّفيِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ حِكايةٌ لِمَا أُوتوا مِن النِّعَمِ الباديةِ في مَسايرِهم ومَتاجِرِهم، وما فَعَلوا بها مِن الكُفرانِ، وما حاقَ بهم بسَببِ ذلك؛ تَكملةً لِقِصَّةِ سَبأٍ بذِكرِ نِعمةٍ بعْدَ نِعمةٍ، وبَيانٌ لِعاقبتِهم، وإنَّما لم يُذكَرِ الكلُّ معًا؛ لِمَا في التَّثنيةِ والتَّكريرِ مِن زِيادةِ تَنبيهٍ وتَذكيرٍ[٣].

- ومعنى ﴿ظَٰهِرَةً﴾ أنَّها خارجةٌ عن المُدُنِ -على قولٍ-؛ فهي في ظَواهرِ المُدنِ، ومنه قولُهم: نَزَلْنا بظاهرِ المدينةِ الفُلانيَّةِ، أي: خارِجًا عنها؛ فقولُه: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ كتَسميةِ النَّاسِ إيَّاها بالباديةِ وبالضَّاحيةِ، فيكونُ في قولِه: ﴿ظَٰهِرَةً﴾ على ذلك كِنايةٌ عن وَفرةِ المُدنِ، حتَّى إنَّ القُرى كلَّها ظاهرةٌ منها[٤].

- قولُه: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ فيه تَقديمُ اللَّيالي على الأيَّامِ؛ للاهتمامِ بها في مَقامِ الامتِنانِ؛ لأنَّ المسافرينَ أحوَجُ إلى الأمْنِ في اللَّيلِ منْهم إليه في النَّهارِ؛ لأنَّ اللَّيلَ تَعترِضُهم فيه القُطَّاعُ والسِّباعُ[٥]؛ فقدَّمَ ما هو

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٨٤، ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٦).

أدلُّ على الأمْنِ وأعدَلُ للسَّيرِ في البلادِ الحارَّةِ بقولِه: ﴿لَيَالِيَ﴾، وأشارَ إلى كَثرةِ الظِّلالِ والرُّطوبةِ والاعتدالِ الَّذي يُمكِنُ معه السَّيرُ في جَميعِ النَّهارِ بقولِه: ﴿وَأَيَّامًا﴾، أي: في أيِّ وَقتٍ شِئتُم[١].

- وفي تَنكيرِ ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ إلْماعٌ إلى قِصَرِ أسفارِهم؛ فقد كانتْ قَصيرةً؛ لأنَّهم يَرتَعون في بُحْبُوحةٍ مِن العَيشِ، ورَغَدٍ منه، لا يَحتاجُون إلى مُواصَلةِ الكَدِّ، وتَجشُّمِ عَناءِ الأسفارِ للحُصولِ على ما يُرفِّهُ عَيْشَهم[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

- الفاءُ في: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا﴾ لِتَعقيبِ قَولِهم هذا إثْرَ إتمامِ النِّعمةِ عليهم باقترابِ المُدُنِ، وتَيسيرِ الأسفارِ، فلمَّا تمَّتِ النِّعمةُ بَطِروها، فحلَّتْ بهم أسبابُ سَلْبِها عنهم[٣].

- قولُه: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ التَّمزيقُ: تَقطيعُ الثَّوبِ قِطَعًا، وهو هنا تَشبيهٌ لِتَفريقِ جامعةِ القومِ شَذَرَ مَذَرَ بتَمزيقِ الثَّوبِ قِطَعًا[٤]. وفي عِبارةِ التَّمزيقِ الخاصِّ بتَفريقِ المُتَّصلِ وخَرْقِه، مِن تَهويلِ الأمْرِ والدَّلالةِ على شِدَّةِ التَّأثيرِ والإيلامِ؛ ما لا يَخْفى، أي: مَزَّقناهم تَمزيقًا لا غايةَ وراءَهُ بحيثُ يُضرَبُ به الأمثالُ في كلِّ فُرقةٍ ليس بعْدَها وِصالٌ[٥].

- وجاء نظْمُ الكلامِ في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٢٩).

لَآيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ[١]؛ فالمُسَبَّبُ على الكُفرِ هو استِئصالُهم، وهو مَدلولُ قولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ ﴾، والمُسبَّبُ على كُفرانِ نِعمةِ تَقارُبِ البلادِ هو تَمزيقُهم كلَّ مُمزَّقٍ، أي: تَفريقُهم[٢].

- وفِعلُ الجَعلِ يَقْتضي تَغييرًا، ولَمَّا عُلِّقَ بذَواتِهم انقَلَبَت مِن ذواتٍ مُشاهَدةٍ إلى كَونِها أخبارًا مَسموعةً، والمعنى: أنَّهم هَلَكوا وتَحدَّثَ النَّاسُ بهم. أو أُرِيدَ: فجعَلْناهم أحاديثَ اعتبارٍ ومَوعظةٍ، أي: فأصَبْناهم بأمْرٍ غَريبٍ مِن

---

(١) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو أن يُذكَرَ شيئانِ أو أشياءُ؛ إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يُذكرَ أشياءُ على عدَد ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِنَ المتقدِّم، ويُفوَّض إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به.

فاللَّفُ يُشار به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كما في قولِه تعالى هنا: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس»-: هو أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعْدَها نَشْرٌ غيرُ مُرتَّبٍ؛ فجُملةُ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى ومتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها، وجملةُ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣ - ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٧).

شأْنِه أنْ يَتحَدَّثَ به النَّاسُ؛ فيكونُ ﴿أَحَادِيثَ﴾ مَوصوفًا بصِفَةٍ مُقدَّرةٍ دلَّ عليها السِّياقُ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ تَذييلٌ، وافتتاحُها بأداةِ التَّوكيدِ؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ، ويَظهَرُ أنَّ هذا التَّذييلَ تَنْهيةٌ للقِصَّةِ، وأنَّ ما بعْدَ هذه الجُملةِ مُتعلِّقٌ بالغرَضِ الأوَّلِ المُتعلِّقِ بأقوالِ المشركينَ، والمُنتقَلِ منه إلى العِبرةِ بداودَ وسُليمانَ، والمُمثَّلِ لحالِ المُشركينَ فيه بحالِ أهْلِ سَبأٍ. وجمَعَ (الآياتِ)؛ لأنَّ في تلك القصَّةِ عِدَّةَ آياتٍ وعِبَرٍ[٢].

- وتَخصيصُ الصَّبَّارِ الشَّكورِ بذلك؛ لأنَّهم المُنتفِعون بها[٣]، فآياتُ الرَّبِّ إنَّما يَنتفِعُ بها أهلُ الصَّبرِ والشُّكرِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨٠، ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٥).

## الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظَهِيرٍ﴾: أي: مُعينٍ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[1].

﴿فُزِّعَ﴾: أي: أُزيلَ الفَزَعُ، وأصلُ (فزع): يدُلُّ على ذُعرٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولقد تحقَّقَ فيهم ظنُّ إبليسَ فاتَّبَعوه إلَّا فَريقًا مِنَ المؤمِنينَ، وما كان لإبليسَ عليهم قُدرةٌ وتسَلُّطٌ إلَّا لِنَعلَمَ مَن يُؤمِنُ بالآخرةِ ممَّن هو شاكٌّ فيها، عِلمًا يترتَّبُ عليه الجزاءُ، وربُّك -يا محمَّدُ- على كلِّ شَيءٍ حَفيظٌ.

قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: ادعُوا هؤلاء الَّذين تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لله؛ فإنَّهم لا يَملِكونَ وَزنَ ذَرَّةٍ في السَّمَواتِ ولا في الأرضِ، وليس لِمَعبوداتِكم شِركٌ مع اللهِ في السَّمَواتِ أو الأرضِ، وليس لله مِن هذه الآلهةِ المزعومةِ أيُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠١).

مُعاوِنٍ يَستَعينُ به سُبحانَه وتعالى، فكيف يَصِحُّ أن يكونوا آلِهةً؟!

ولا تَنفَعُ الشَّفاعةُ عندَه تعالى يومَ القيامةِ إلَّا لِمَن أذِنَ له اللهُ أن يَشفَعَ، حتَّى إذا أُزيلَ الفَزَعُ عن قُلوبِهم وذهَبَ منها، تساءَلوا عمَّا قاله الرَّبُّ سُبحانَه، قالت الملائِكةُ: قال اللهُ الحقَّ، وهو العَليُّ الكبيرُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أن ذكَرَ -جَلَّت قُدرتُه- قَصَصَ سَبَأٍ، وما كان مِن أمْرِهم في اتِّباعِ الهَوى والشَّيطانِ؛ أردَفَ ذلك الإخبارَ بأنَّهم صدَّقوا ظَنَّ إبليسَ فيهم وفي أمثالِهم ممَّن ركَنوا إلى الغَوايةِ والضَّلالِ؛ إذ تسَلَّط عليهم وانقادوا إلى وَسوستِه[1].

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾.

أي: ولقد تحقَّقَ عليهم[2] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٢).

(٢) قال الواحدي: (واختلَف المفسِّرون في هذه الآيةِ؛ فمَذهَبُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عطاءٍ: [أنَّ الكنايةَ] في قَولِه: ﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ عن أهلِ سبأٍ، وقال في قوله: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: يريدُ: قليلًا مِن الَّذين صَدَّقوا الأنبياءَ وآمَنوا بالله، وعلى هذا فالاستثناءُ مِن سبَأٍ، وهم مَنْ آمَنَ منهم. ومذهَبُ مُجاهِدٍ أنَّ الكنايةَ: عن النَّاسِ كُلِّهم؛ قال: صَدَّق ظَنَّه على النَّاسِ كُلِّهم إلَّا مَن أطاع اللهَ. وهو ظاهِرُ مذهَبِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٣٥٣).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ: أهلُ سَبَأٍ-: ابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي، والبغوي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٢٢/ ٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٠٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الرازيُّ، والنيسابوري، والسعدي، وهو ظاهرُ اختيارِ الشنقيطي. =

ما ظنَّه إبليسُ فيهم، باتِّباعِهم إيَّاه[١].

﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: إلَّا فريقًا مِن[٢] .....

---

= يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١١).

قال السعدي: (قال: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على جنسِ النَّاسِ، فتكونُ الآيةُ عامَّةً في كلِّ مَنِ اتَّبَعَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

وقال الإيجي: (كلامُ السَّلَفِ دالٌّ على أنَّ ضميرَ ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لبني آدَمَ، لا لأهلِ سَبَأٍ خاصَّةً). ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٣٨٢).

وقيل: المرادُ: الكُفَّارُ الَّذين قالوا: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]. فالضَّميرُ في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعودُ إلى الَّذينَ كفروا مِن قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ ...﴾. واستظهَر هذا القولَ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢، ١٨٣).

والمرادُ بظنِّ إبليسَ: هو ما حكاه اللهُ تعالى عنه في عدَّةِ مواضعَ؛ كقَولِه: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وقوله: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والبغوي، وابن عطية، والبِقاعي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٠).

قال ابنُ عطية: (ومعنى الآيةِ أنَّ ما قال إبليسُ مِن أنَّه سيَفتِنُ بني آدمَ ويُغويهم، وما قال مِن أنَّ الله لا يجِدُ أكثرَهم شاكرينَ، وغيرَ ذلك: كان ظنًّا منه، فصدَق فيهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧).

(٢) قيل: ﴿مِّنَ﴾ في قَولِه ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيانِ الجنسِ، لا للتَّبعيضِ، أي: فريقًا هم المؤمنون؛ لأنَّ التَّبعيضَ يقتضي أنَّ فريقًا مِن المؤمنينَ اتَّبَعوا إبليسَ. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: =

المُخلصينَ لله تعالى، الثَّابتينَ على توحيدِه وطاعتِه[١].

كما قال سُبحانَه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [الحجر: ٣٩، ٤٠].

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ رُبَّما أوهم أنَّ لإبليسَ

---

= ابنُ عطية، وابنُ عادل، والإيجي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥٢)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٣٨٢).

وقيل: هي للتَّبعيضِ، فيُرادُ به بعضُ المؤمنينَ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

قيل: وذلك لأنَّ كثيرًا مِن المؤمنينَ مَن يُذنِبُ ويَنقادُ لإبليسَ في بعضِ المعاصي، أي: ما سَلِم مِن المؤمنينَ أيضًا إلَّا فريقٌ، وهو المعنِيُّ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٠، ٤٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٣).

قال ابن عثيمين: (إذا جعَلْنا الضَّميرَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائدًا على الكُفَّار الَّذين اتَّبَعوا إبليسَ فإنَّ الاستِثناءَ هنا يجبُ أن يكونَ مُنقطِعًا، وإن جَعَلْناه عامًّا لبني آدَمَ أو جنسِ هذه القَبيلةِ «سَبَأٍ» صار الاستِثناءُ مُتَّصِلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٠، ١٥١).

وقال الشنقيطي: (عِبادُ الله المُخلَصونَ هم المُرادون بالاستِثناءِ في قَولِه في بني إسرائيلَ: ﴿لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقولِه في سبأٍ: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وهم الَّذين احترَز منهم بقَولِه: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٧٧).

أمرًا بنَفْسِه؛ فنفاه هنا، فقال[١]:

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ ﴾.

أي: وما كان لإبليسَ على أتْباعِه تسَلُّطٌ واستيلاءٌ إلَّا لِنَعلَمَ المؤمِنينَ بالآخرةِ مِنَ الشَّاكِّينَ فيها؛ عِلمًا وُجوديًّا ظاهريًّا يَترتَّبُ عليه الجزاءُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقال الله سُبحانَه: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٥٢)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٣-١٥٦).

قال الشوكاني: (والاستِثناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ ﴾ [سبأ: ٢١] منقَطِعٌ، والمعنى: لا سُلطانَ له عليهم، ولكِنِ ابتلَيْناهم بوَسوسَتِه؛ لِنَعلَمَ. وقيل: هو متَّصِلٌ مُفرَّغٌ مِن أعمِّ العامِّ، أي: ما كان له عليهم تسَلُّطٌ بحالٍ مِن الأحوالِ ولا لعلَّةٍ مِن العِلَلِ إلَّا ليَتميَّزَ مَن يؤمِنُ ومَن لا يؤمِنُ؛ لأنَّه سبحانه قد عَلِمَ ذلك عِلمًا أزَليًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧١).

وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: (عِلمُ الله تعالى نوعانِ؛ أحدُهما: عِلمُ ما يكونُ مِن إيمانِ المؤمنينَ، وكُفرِ الكافرينَ، وذُنوبِ العاصِين، وطاعاتِ المُطيعينَ؛ قبْلَ أن تكونَ، وهذا عِلمٌ لا تجِبُ به حُجَّةٌ، ولا تقَعُ عليه مَثوبةٌ ولا عقوبةٌ. والآخَرُ: عِلمُ هذه الأمورِ ظاهرةً موجودةً، فيَحِقُّ القولُ، ويقعُ بوقوعِها الجزاءُ، فأراد جلَّ وعزَّ: ما سلَّطْناه عليهم إلَّا لِنَعْلَمَ إيمانَ المؤمنينَ ظاهِرًا موجودًا، وكُفرَ الكافرين ظاهِرًا موجودًا). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٠، ١٩١).

ونقَل الواحديُّ كلامَ ابنِ قُتَيْبَةَ هذا، ثمَّ قال: (وهذا معنى قولِ ابنِ عبَّاسٍ، ومقاتلٍ، والكلبيِّ، وجميعِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٣٥٤، ٣٥٥).

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾.

أي: وربُّك -يا محمَّدُ- على كُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه رَقيبٌ ومُطَّلِعٌ؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أمورِهم وأعمالِهم وأحوالِهم، وسيُجازي عِبادَه بما عَمِلوه مِن خيرٍ وشَرٍّ[1].

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ الشَّاكِرينَ وحالَ الكافِرينَ، وذكَّرَهم بمَن مضَى؛ عاد إلى خِطابِهم[2].

وأيضًا كانت قِصَّةُ سَبأٍ قد ضُرِبت مَثلًا وعِبرةً للمُشرِكينَ مِن قُرَيشٍ، وكان في أحوالِهم مَثيلٌ لأحوالِ المُشرِكينَ في أمْنِ بلادِهم، وتيسيرِ أرزاقِهم، وتأمينِ سُبُلِهم في أسفارِهم، ثمَّ فيما قابَلوا به نِعمةَ اللهِ بالإشراكِ به، وكُفرانِ نِعمتِه، وإفحامِهم دُعاةَ الخَيرِ المُلهَمينَ مِن لَدُنْه إلى دَعوتِهم، فلمَّا تقضَّى خبَرُهم انتُقِل منه إلى تطبيقِ العِبرةِ على مَن قَصَد اعتبارَهم انتِقالًا مُناسبتُه بيِّنةٌ، وهو أيضًا عَودٌ إلى إبطالِ أقوالِ المُشرِكينَ، وسِيقَ لهم مِنَ الكَلامِ ما فيه توقيفٌ على أخطائِهم، وأيضًا فلمَّا جرى مِن استِهواءِ الشَّيطانِ أهلَ سَبَأٍ فاتَّبَعوه، وكان الشَّيطانُ مَصدَرَ الضَّلالِ وعُنصُرَ الإشراكِ- أعقَبَ ذِكرَه بذِكرِ فُروعِه وأوليائِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٥).

وأيضًا لَمَّا أثبَت سُبحانَه لنَفْسِه ولِذَاتِه الأقدَسِ مِن المُلْكِ في السَّمَواتِ والأرضِ وغَيرِهما ما مَرَّ ذِكرُه، واستدَلَّ عليه مِن الأدِلَّةِ الَّتي لا يُمكِنُ التَّصويبُ إليها بطَعنٍ، وكان المقصودُ الأعظَمُ التَّوحيدَ؛ فإنَّه أصلٌ يَنبني عليه كُلُّ خَيرٍ- قال[1]:

﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: ادعُوا مَعبودِيكم الَّذين تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لله؛ لِيَنفَعوكم أو يَضُرُّوكم بشَيءٍ؛ فإنَّهم لن يَقدِروا على ذلك، فهم لا يَملِكونَ وَزنَ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ، فكيف يَصِحُّ أن يكونوا آلِهةً[2]؟!

﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ ﴾.

أي: وليس لِمَعبوداتِكم أيُّ شراكةٍ مع اللهِ في أيِّ شَيءٍ مِنَ السَّمواتِ أو الأرضِ[3].

﴿وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴾.

أي: وليس لله مِن تلك الآلهةِ المَزعومةِ أيُّ مُعاوِنٍ يُساعِدُه على شَيءٍ ممَّا يُريدُه سُبحانَه[4].

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان قد بَقِيَ مِن أقسامِ النَّفعِ: الشَّفاعةُ، وكان المقصودُ منها أثَرَها لا عَيْنَها؛ نفاه بقَولِه[1]:

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

أي: ولا تَنفَعُ الشَّفاعةُ عِندَ الله يومَ القيامةِ إلَّا لِمَن أَذِنَ له أن يَشفَعَ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥ - ٨٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾.

أي: حتَّى إذا كُشِفَ الفزَعُ عن قُلوبِهم وذهَبَ عنها، تساءَلوا عمَّا قاله الرَّبُّ سُبحانَه، فقالوا: ماذا قال ربُّكم[3]؟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٤).

قال ابن تيميَّةَ: (قد يقالُ: التَّقديرُ: لا تَنفعُ الشَّفاعةُ عندَه إلَّا لِمَن أذِنَ له أن يُشفَعَ فيه، فيُؤذَنُ لغيرِه أن يَشفعَ فيه، فيكونُ الإذنُ للطَّائفتَينِ، والنَّفعُ للمَشفوعِ له، كأحدِ الوجهَينِ، أو: ولا تنفَعُ إلَّا لِمن أذِنَ له مَن هؤلاء وهؤلاء، فكما أنَّ الإذْنَ للطَّائِفتَينِ فالنَّفعُ أيضًا للطَّائفَتين؛ فالشَّافِعُ يَنتفِعُ بالشَّفاعةِ، وقد يكونُ انتِفاعُه بها أعظَمَ مِن انتفاعِ المشفوعِ له). ((الحسنة والسيئة)) (ص: ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، =

= ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٤، ٥١٥).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ يعودُ على الملائكةِ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والسمرقندي، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير، وابنُ حجر. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٣/ ٥٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٥)، ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ٢١٤) و(٢/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٥٦).

قال ابنُ جُزَي: (تظاهرت الأحاديثُ عن رسولِ اللهِ صلَّى الله تعالى عليه وآلِه وسلَّم أنَّ هذه الآيةَ في الملائكةِ عليهم السَّلامُ؛ فإنَّهم إذا سَمِعوا الوَحْيَ إلى جبريلَ يَفزَعونَ لذلك فزَعًا عظيمًا، فإذا زال الفزَعُ عن قلوبِهم قال بعضُهم لبعضٍ: ماذا قال ربُّكم؟ فيقولون: قال الحَقَّ. ومعنى ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ زال عنها الفَزَعُ، والضَّميرُ في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ وفي ﴿قَالُوا﴾ للملائكة. فإن قيل: كيف ذلك ولم يَتقدَّمْ لهم ذِكرٌ يعودُ الضَّميرُ عليه؟ فالجوابُ: أنَّه قد وقعت إليهم إشارةٌ بقَولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّ بعضَ العَرَبِ كانوا يَعبُدونَ الملائكةَ، ويقولون: هؤلاء شُفعاؤُنا عندَ الله، فذِكْرُ الشَّفاعةِ يقتضي ذِكرَ الشَّافِعينَ، فعاد الضَّميرُ على الشُّفَعاءِ الَّذين دَلَّ عليهم لفظُ الشَّفاعةِ. فإن قيل: بِمَ اتَّصَل قَولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، ولأيِّ شَيءٍ وقَعَت «حتَّى» غائيَّةً؟ فالجوابُ: أنَّه اتَّصَل بما فُهِمَ مِن الكلامِ مِن أنَّ ثَمَّ انتِظارًا للإذْنْ، وفَزَعًا وتوقُّفًا حتَّى يَزولَ الفَزَعُ بالإذنِ في الشَّفاعةِ، ويَقرُبُ هذا في المعنى مِن قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [النبأ: ٣٨]، ولم يَفهَمْ بَعضُ النَّاسِ اتِّصالَ هذه الآيةِ بما قَبْلَها، فاضطربوا فيها، حتَّى قال بعضُهم: هي في الكُفَّارِ بعدَ الموتِ، ومعنى ﴿فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: رأَوُا الحقيقةَ، فقيل لهم: ماذا قال ربُّكم؟ فيقولونَ: قال الحَقَّ، فيُقِرُّونَ حيثُ لا يَنفَعُهم الإقرارُ! والصَّحيحُ أنَّها في الملائكةِ؛ لوُرودِ ذلك في الحديثِ، ولأنَّ القَصدَ الرَّدُّ على الكُفَّارِ الَّذين عَبَدوا الملائِكةَ، فذَكَر شِدَّةَ خَوفِ الملائكةِ مِن اللهِ، وتعظيمِهم له). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (والضَّميرُ في قَولِه: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ﴾ يَعودُ إلى ما دَلَّ عليه «له» في ﴿مَنْ أَذِنَ لَهُ﴾؛ فإنَّ الملائكةَ يدخُلون في قَولِه: ﴿لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، ودَلَّ عليه قَولُه: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فإنَّ الملائكةَ تدخُلُ في ذلك؛ فسَلَبهم المُلْكَ والشِّركةَ والمعاونةَ والشَّفاعةَ إلَّا بإذنِه، ثمَّ بيَّن ذلك حتَّى إنَّه إذا تكَلَّم لا يَثبُتونَ لكَلامِه ولا يَستقِرُّونَ، بل يَفزَعونَ ولا يَفهَمونَ! ثمَّ إذا أُزيلَ عنهم الفَزَعُ يقولون: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ =

= ٱلْحَقَّ ﴾ [سبأ: ٢٣]، وذلك أنَّ ما بعدَ «حتَّى» هنا جملةٌ تامَّةٌ، وهو قَولُه: ﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ [سبأ: ٢٣]، والعامِلُ في «إذا» هو قَولُه ﴿قَالُواْ مَاذَا ﴾ و«إذا»: ظَرفٌ لِما يُستقبَلُ مِن الزَّمانِ، مُتضَمِّنٌ معنى الشَّرطِ، أي: لَمَّا زال الفزَعُ عن قلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟). ((الفتاوى الكبرى)) (٦/ ٤٦٠).

وقال ابنُ حجر: (وأظنُّ البخاريَّ أشار ... إلى ترجيحِ قَولِ مَن قال: إنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ للملائكةِ، وأنَّ فاعِلَ الشَّفاعةِ في قَولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ ﴾ [سبأ: ٢٣] هم الملائكةُ؛ بدليلِ قَولِه بعدَ وَصفِ الملائكةِ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٨]). ((فتح الباري)) (١٣/ ٤٥٥).

وقيل: المرادُ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿قُلُوبِهِمْ ﴾: الشَّافِعونَ، والمشفوعُ لهم. وممَّن قال بذلك: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنسفي، والبِقاعي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٤٤).

قال الزمخشري: (فإنْ قُلتَ: بِمَ اتَّصل قَولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾، ولأيِّ شَيءٍ وقَعَت ﴿حَتَّىٰٓ ﴾ غايةً؟ قلتُ: بما فُهِمَ مِن هذا الكلام، مِن أنَّ ثَمَّ انتظارًا للإذنِ وتوقُّعًا وتمهُّلًا وفزَعًا مِن الرَّاجينَ للشَّفاعةِ والشُّفَعاءِ: هل يُؤْذَنُ لهم أو لا يؤذَنُ؟ وأنَّه لا يُطلَقُ الإذْنُ إلَّا بعدَ مَلِيٍّ مِن الزَّمانِ، وطولٍ مِن التَّرَبُّصِ، ومِثلُ هذه الحالِ دلَّ عليها قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا * يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴾ [النبأ: ٣٧، ٣٨]، كأنَّه قيل: يَتربَّصون ويَتوقَّفون مَليًّا فَزِعينَ وَهِلينَ، حتَّى إذا فُزِّع عن قلوبِهم -أي: كُشِفَ الفَزَعُ عن قلوبِ الشَّافعينَ والمشفوعِ لهم بكلمةٍ يتكلَّمُ بها ربُّ العِزَّةِ في إطلاقِ الإذنِ- تباشَروا بذلك، وسأل بعضُهم بعضًا: ماذا قال رَبُّكُم؟ قالُوا: قال الحقَّ، أي: القولَ الحَقَّ، وهو الإذْنُ بالشَّفاعةِ لِمَنِ ارتضى). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠).

وقيل: المرادُ: المشفوعُ لهم. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩).

وقيل: إنَّ الضَّميرَ في ﴿قُلُوبِهِمْ ﴾ يعودُ على المشركينَ، وفي معنى الكلام على ذلك قولان:

أحدُهما: أنَّ المعنى: حتَّى إذا كُشف الفزَعُ عن قلوبِ المشركينَ عندَ الموتِ -إقامةً للحُجَّةِ =

كما قال سُبحانَه: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قضى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبَت الملائِكةُ بأجنِحَتِها خُضْعانًا لِقَولِه، كأنَّه سِلْسِلةٌ على صَفْوانٍ[1]، فإذا فُزِّعَ عن قلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا لِلَّذي قال: الحَقَّ، وهو العليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ؛ ومُستَرِقُ السَّمعِ هكذا بعضُه فوقَ

---

= عليهم- قالت لهم الملائكةُ: ماذا قال ربُّكم في الدُّنيا؟ قالوا: الحقَّ، فأقَرُّوا حينَ لم يَنفَعْهم الإقرارُ. قاله الحسَنُ، وابنُ زَيدٍ.

والثَّاني: حتَّى إذا كُشِفَ الغِطاءُ عن قُلوبِهم يومَ القيامةِ، قيل لهم: ماذا قال ربُّكم. قاله مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٧).

قال السعدي: (يحتمِلُ أنَّ الضَّميرَ في هذا الموضِعِ يعود إلى المشركين؛ لأنَّهم مذكورون في اللَّفظِ، والقاعدةُ في الضَّمائرِ: أن تَعودَ إلى أقرَبِ مذكورٍ، ويكونُ المعنى: إذا كان يومُ القيامةِ وفُزِّع عن قلوبِ المشركينَ -أي: زال الفزَعُ- وسُئلوا حينَ رجعَتْ إليهم عقولُهم عن حالِهم في الدُّنيا، وتكذيبِهم للحَقِّ الَّذي جاءت به الرُّسُلُ: أنَّهم يُقِرُّون أنَّ ما هم عليه مِن الكُفرِ والشِّركِ: باطلٌ، وأنَّ ما قال اللهُ وأخبرَتْ به عنه رُسُلُه: هو الحقُّ، فبدَا لهم ما كانوا يُخْفُونَ مِن قبْلُ، وعَلِموا أنَّ الحقَّ لله، واعترَفوا بذُنوبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٩).

وقال أبو حيَّان: (وأقرَبُها عندي أن يكونَ الضَّميرُ في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ عائدًا على مَن عاد عليه ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ [سبأ: ٢٠] و﴿عَلَيْهِمْ﴾ [سبأ: ٢٠] و﴿مِّنْهُم مِّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: ٢١]، وتكونَ الجملةُ بعدَ ذلك اعتراضًا، وقولُه: ﴿قَالُواْ﴾ أي: الملائكةُ، لأولئك المتَّبعينَ الشَّاكِّينَ يَسألونهم سؤالَ توبيخٍ: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ على لسانِ مَن بُعِث إليكم بعدَ أن كُشِف الغِطاءُ عن قلوبِهم، فيُقِرُّون إذْ ذاك أنَّ الَّذي قاله وجاءت به أنبياؤه: هو الحَقُّ لا الباطِلُ الَّذي كنَّا فيه مِن اتِّباعِ إبليسَ، وشَكِّنا في البعثِ). ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٦).

(١) الصَّفْوانُ: هو الحَجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

بَعضٍ -ووصَف سُفْيانُ بكَفِّه فحَرَّفَها، وبدَّدَ بيْنَ أصابِعِه- فيَسمَعُ الكَلِمةَ فيُلقيها إلى مَن تحتَه، ثمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَه، حتَّى يُلقيَها على لسانِ السَّاحِرِ أو الكاهِنِ، فرُبَّما أدرك الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقيَها، ورُبَّما ألقاها قبْلَ أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ معها مئةَ كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليس قد قال لنا يَومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيُصَدَّقُ بتلك الكَلِمةِ الَّتي سَمِعَ مِن السَّماءِ))[1].

﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

أي: قالت الملائِكةُ: قال اللهُ القولَ الحَقَّ[2]، وهو العَليُّ بذاتِه وصفاتِه، وقَهرِه لكُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه؛ فلا شَيءَ أعلَى منه، ومِن عُلُوِّه أنَّ حُكمَه يعلو وتُذعِنُ له جميعُ الخلائِقِ؛ مُؤمِنُهم وكافِرُهم، ومِن عُلُوِّه أنَّه لا يقولُ غيرَ الحَقِّ؛ وهو الكبيرُ الَّذي لا شَيءَ أكبَرُ منه، ولا يُعارِضُه أحدٌ في شَيءٍ مِن حُكمِه؛ فله أن يَحكُمَ في عبادِه بما يشاءُ، ويَفعَلُ ما يُريدُ[3].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٠٠).

(٢) قيل: المرادُ بالقَولِ الحَقِّ هنا هو: الإذنُ بالشَّفاعةِ. وممَّن نصَّ على هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٤٤).

وقيل: الظَّاهِرُ أنَّ كَلِمةَ ﴿ٱلۡحَقَّ﴾ وقعت حكايةً لِمَقولِ الله بوَصفٍ يجمعُ متنوِّعَ أقوالِ الله تعالى حينَئذٍ؛ مِن قَبولِ شفاعةٍ في بَعضِ المشفوعِ فيهم، ومِن حِرمانٍ لغَيرِهم؛ كما يقالُ: ماذا قال القاضي للخَصمِ؟ فيُقالُ: قال الفَصْلَ. وممَّن استظهَر هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٩، ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨).

قال ابن عثيمين: (الكبيرُ... معناه: ذو الكبرياءِ، ومعناه: أنَّ الله تعالى لا يُماثِلُه شَيءٌ في ذاتِه). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖ ﴾ فيه تَنبيهُ المؤمِنينَ إلى مَكايِدِ الشَّيطانِ وسُوءِ عاقبةِ أتْباعِه؛ لِيَحذَروه ويَستَيقِظوا لكَيدِه، فلا يَقَعوا في شَرَكِ وَسوَستِه[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾ أنَّ إبليسَ يُوصَفُ بالصِّدقِ، ويُوصَفُ بالكَذِبِ، وأمَّا الوَصفُ اللَّازمُ له فهو الكَذِبُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠]، ولكنْ قد يَصدُقُ كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((صَدَقَك وهو كَذوبٌ))[2].

٢- قال سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ أنَّ الشَّيطانَ إمامٌ لكلِّ ضالٍّ، فكلُّ الضَّالِّينَ إمامُهم الشَّيطانُ، وهم مُتَّبِعون له[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ أكثَرَ النَّاسِ هم أهلُ النَّارِ، وهم الَّذين اتَّبَعوا الشَّيطانَ[4].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ أنَّ الإيمانَ حاجزٌ عن

---

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥١).

والحديث أخرجه معلَّقًا البخاريُّ (٢٣١١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، مطولًا. ويُنظر: ((تغليق التعليق)) لابن حجر (٣/ ٢٩٥-٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٢٦٥).

اتِّباعِ الشَّيطانِ، ومُوجِبٌ لاتِّباعِ هَدْيِ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾، وقولُه تعالى حاكيًا عن الشَّيطانِ مُقَرِّرًا له: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] قد دلَّا على نَفيِ سُلطانِ الشَّيطانِ عليهم، فكيفَ أثبَت للشيطانِ على أوليائِه سلطانًا في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠] ففيه التَّصريحُ بأنَّ الشَّيطانَ له سُلطانٌ على أوليائِه، ونَظيرُه الاستثناءُ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]؟

**والجوابُ**: أنَّ السُّلطانَ الَّذي أثبَتَه له عليهم غيرُ السُّلطانِ الَّذي نفاه؛ وذلك مِن وجهَينِ:

**الأول**: أنَّ السُّلطانَ الثَّابتَ هو سُلطانُ التَّمكُّنِ منهم، وتلاعُبِه بهم، وسَوقِه إيَّاهم كيفَ أراد، بتمكينِهم إيَّاه مِن ذلك بطاعتِه ومُوالاتِه، والسُّلطانَ الَّذي نفاه سُلطانُ الحُجَّةِ، فلم يكُنْ لإبليسَ عليهم مِن حُجَّةٍ يَتسلَّطُ بها، غيرَ أنَّه دعاهم فأجابوه بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ، وإطلاقُ السُّلطانِ على البُرهانِ كثيرٌ في القُرآنِ.

**الثاني**: أنَّ الله لم يَجعلْ له عليهم سُلطانًا ابتِداءً الْبَتَّةَ، ولكِنْ هم سَلَّطوه على أنفُسِهم بطاعتِه ودُخولِهم في جُملةِ جُندِه وحِزبِه، فلمْ يَتسلَّطْ عليهم بقُوَّتِه؛ فإنَّ كَيْدَه ضَعيفٌ، وإنَّما تسَلَّطَ عليهم بإرادتِهم واختيارِهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٦)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ١٠٠)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣٤، ١٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٤٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ نفَى سُبحانَه عمَّا سِواه كلَّ ما يتعلَّقُ به المُشرِكونَ؛ فنفَى أن يكونَ لغيرِه مُلكٌ أو قِسْطٌ مِن المُلكِ، أو يكونَ عَونًا للهِ، ولم يَبْقَ إلَّا الشَّفاعةُ؛ فبَيَّنَ أنَّها لا تَنفَعُ إلَّا لِمَن أذِنَ له الرَّبُّ، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾[1] [البقرة: ٢٥٥].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ * وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ هذه أنواعُ التَّعلُّقاتِ الَّتي يتعلَّقُ بها المُشرِكونَ بأندادِهم وأوثانِهم مِنَ البَشَرِ والشَّجَرِ وغيرِهم؛ قَطَعها الله، وبيَّن بُطلانَها تبيينًا حاسمًا لموادِّ الشِّركِ، قاطِعًا لأُصولِه؛ لأنَّ المُشرِكَ إنَّما يدعو ويعبُدُ غيرَ اللهِ؛ لِما يرجو منه مِنَ النَّفعِ، فهذا الرَّجاءُ هو الذي أوجبَ له الشِّركَ، فإذا كان مَن يدعوه مِن دونِ اللهِ لا مالِكًا للنَّفعِ والضُّرِّ، ولا شريكًا للمالِكِ، ولا عَونًا وظهيرًا للمالِكِ، ولا يَقدِرُ أن يشفَعَ بدونِ إذْنِ المالكِ: كان هذا الدُّعاءُ وهذه العِبادةُ ضلالًا في العَقلِ، باطِلةً في الشَّرعِ، بل يَنعكِسُ على المُشرِكِ مَطلوبُه ومقصودُه؛ فإنَّه يُريدُ منها النَّفعَ؛ فبيَّن اللهُ بُطلانَه وعَدَمَه[2].

٨- قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ﴾، جمَعَت هذه الآيةُ نَفْيَ جَميعِ أصنافِ التَّصرُّفِ عن آلهةِ المُشرِكينَ، كما جمَعَت نَفْيَ أصنافِ الآلهةِ المَعبودةِ عندَ العرَبِ؛ لأنَّ مِن العرَبِ صابئةً يَعبُدون الكواكبَ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٨). ويُنظر أيضًا: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٦١).

وهي في زَعمِهم مُستقِرَّةٌ في السَّمواتِ تُدبِّرُ أُمورَ أهْلِ الأرضِ؛ فأبطَلَ هذا الزَّعمَ قولُه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ فأمَّا في السَّمواتِ فباعتِرافِهم أنَّ الكواكبَ لا تَتصرَّفُ في السَّمواتِ، وإنَّما تَصرُّفُها في الأرضِ، وأمَّا في الأرضِ فبقولِه: ﴿وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾. ومِن العرَبِ عَبَدةُ أصنامٍ يَزعُمون أنَّ الأصنامَ شُركاءُ للهِ في الإلهيَّةِ، فنَفى ذلك بقولِه: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، ومنهم مَن يَزعُمون أنَّ الأصنامَ جَعَلها اللهُ شُفعاءَ لأهلِ الأرضِ، فنَفى ذلك بقولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ الآيةَ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ إثباتُ الشَّفاعةِ بإذنِ اللهِ تعالى، ولو كانتِ الشَّفاعةُ لا تَنفَعُ مُطلَقًا ما صحَّ الاستِثناءُ، ولو كانت تَنفَعُ مُطلقًا ما صحَّ النَّفيُ؛ إذَنْ فهي تَنفَعُ بإذنِ اللهِ تعالى[2].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ نَفْيٌ لأن يكونَ شَفيعٌ عندَه -تعالى- يَضطرُّه إلى قَبولِ الشَّفاعةِ فيمَنْ يَشفَعُ له؛ لتعظيمٍ أو حياءٍ، وصرَّح بالمتعلَّقِ هنا؛ ردًّا على قَولِ المُشركينَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فنُفِيَت شفاعتُهم في عُمومِ نَفيِ كُلِّ شَفاعةٍ نافعةٍ عندَ اللهِ إلَّا شَفاعةَ مَن أذِنَ اللهُ أن يَشفَعَ، وفي هذا إبطالُ شفاعةِ أصنامِهم؛ لأنَّهم زَعَموا لهم شَفاعةً لازمةً مِن صِفاتِ آلهتِهم؛ لأنَّ أوصافَ الإلهِ يجبُ أن تكونَ ذاتيَّةً، فلمَّا نفى اللهُ كُلَّ شَفاعةٍ لم يَأذَنْ فيها للشَّافِعِ، انتفَتِ الشَّفاعةُ المزعومةُ لأصنامِهم، وبهذا يَندفعُ ما يُتوهَّمُ مِن أنَّ قَولَه: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ لا يُبطِلُ شَفاعةَ الأصنامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٧).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ يدُلُّ على العَظَمةِ، وهو أنَّه لا افتياتَ عليه تعالى بوجهٍ مِن أحدٍ ما، بل لا بُدَّ أن يَنُصَّ هو سبحانَه على الإذنِ، وإلَّا فلا استطاعةَ عليه أصلًا[١]؛ ففي الآيةِ عَظَمةُ اللهِ تعالى وقوَّةُ سلطانِه، ووجهُ ذلك: أنَّ الشَّفاعةَ لا تكونُ إلَّا بإذنِه، بخِلافِ المخلوقينَ؛ فمهما عَظُم مُلْكُهم فإنَّه يَدخُلُ الشَّافعُ على المَلِكِ والسلطانِ، ويَشْفَعُ بدونِ إذنِه[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أنَّ كلامَ اللهِ ليس ككَلامِ المخلوقينَ، بل هو أعظَمُ؛ لأنَّ السَّامِعَ له يُصعَقُ إلَّا أنْ يُثبِّتَه اللهُ تعالى[٣]، وذلك على تفسيرِ الآيةِ بأنَّ الملائكةَ إذا تكلَّم الله تعالى بالوَحْيِ صَعِقوا، فإذا صَعِقوا فُزِّع عن قلوبِهم.

١٣- قَولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ فيه حُجَّةٌ على إبطالِ الشِّركِ، خُصوصًا مَن تعلَّقَ على الصَّالحينَ، وبُرهانٌ عَظيمٌ على وُجوبِ التَّوحيدِ؛ فقد دَلَّ على كبرياءِ الرَّبِّ وعَظَمتِه الَّتي تتضاءلُ وتضمَحِلُّ عندَها عَظَمةُ المخلوقاتِ العظيمةِ، وتخضَعُ له الملائكةُ والعالَمُ العُلويُّ والسُّفليُّ، ولا تَثبُتُ أفئدتُهم عندَما يَسمَعونَ كَلامَه، أو تتبدَّى لهم بعضُ عَظَمتِه ومَجدِه؛ فالمخلوقاتُ بأَسْرِها خاضِعةٌ لجَلالِه، مُعترِفةٌ بعَظَمتِه ومَجدِه، خاضِعةٌ له، خائفةٌ منه؛ فمَن كان هذا شأنَه فهو الرَّبُّ الَّذي لا يَستَحِقُّ العبادةَ والحَمدَ والثَّناءَ والشُّكرَ والتَّعظيمَ والتَّألُّهَ إلَّا هو، ومَن سِواه ليس له مِن هذا الحَقِّ شَيءٌ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أنَّ للمَلائكةِ عُقولًا وفَهمًا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((القول السديد شرح كتاب التوحيد)) للسعدي (ص: ٦٨).

وإدراكًا وقُلوبًا، وأنَّهم يَتكلَّمون، وأنَّهم أجسامٌ، لا قُوًى مَعنويَّة كما قال الزَّائِغونَ[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والجَهميَّةِ فيما يَجحَدونَ مِن إثباتِ الكَلامِ للهِ، وما يُنكِرونَ مِن الصِّفاتِ[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، وقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] التَّصريحُ بالعُلُوِّ المُطْلَقِ الدَّالِّ على جميعِ مراتبِ العُلُوِّ -ذاتًا وقَدْرًا وشَرَفًا-[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ﴾ [سبأ: ٧] الآيةَ، وما بيْنَهما مِن الأخبارِ المَسوقةِ للاعتبارِ واقعٌ مَوقِعَ الاستِطرادِ والاعتِراضِ؛ فيكونُ ضَميرُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائدًا إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ﴾ إلخ، على قولٍ في التَّفسيرِ. وقيل: إنَّ ضَميرَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ عائدٌ إلى سَبأٍ المُتحدَّثِ عنهم. ولكنْ قولُه تعالى بعْدَ ذلك: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٢٢] الآياتِ، هو عَودٌ إلى مُحاجَّةِ المشركينَ المُنتقَلِ منها بذِكرِ قصَّةِ داودَ وسُليمانَ وأهلِ سَبأٍ. وصُلوحيَّةُ الآيةِ للمَحمَلَينِ ناشئةٌ مِن مَوقعِها، وهذا مِن بلاغةِ القُرآنِ المُستفادَةِ مِن تَرتيبِ مَواقعِ الآيةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧٣)، ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٦٨٩).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢).

- وفي قولِه: ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ إيجازُ حَذْفٍ؛ لأنَّ صِدقَ الظَّنِّ المُفرَّعَ عنه اتِّباعُهم يَقْتضي أنَّه دَعاهم إلى شَيءٍ ظانًّا استِجابةَ دَعوتِه إيَّاهم(١).

- والتعبيرُ بحَرْف الاستعلاءِ (على) في قولِه: ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ عمَلَ إبليسَ كان مِن جِنسِ التَّغلُّبِ والاستعلاءِ عليهم(٢).

- وقولُه: ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ تَفريعٌ وتَعقيبٌ على فِعلِ ﴿صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾، أي: تَحقَّقَ ظَنُّه حينَ انفَعَلوا لِفِعلِ وَسوستِه، فبادَروا إلى العملِ بما دَعاهم إليه مِن الإشراكِ والكُفرانِ(٣).

- وقلَّلَ المؤمنينَ بقولِه: ﴿إِلَّا فَرِيقٗا﴾؛ لأنَّهم قليلٌ بالإضافةِ إلى الكفَّارِ، والتَّعريفُ في المؤمنينَ للاستغراقِ. أو إلَّا فريقًا مِن فِرَقِ المؤمنينَ لم يتَّبِعوه، وهمُ المُخلَصون(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ ...﴾ فِعلُ ﴿كَانَ﴾ في النَّفيِ مع ﴿مِّن﴾ الَّتي تُفِيدُ الاستغراقَ في النَّفيِ؛ يُفِيدُ انتفاءَ السُّلطانِ، أي: الملكِ والتَّصريفِ للشَّيطانِ(٥).

- وفي قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ ...﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٣).

اقتُصِرَ مِن عِلَلِ تَمكينِ الشَّيطانِ على تَمييزِ مَن يُؤمِنُ بالآخِرةِ ومَن لا يُؤمِنُ بها؛ لِمُراعاةِ أحوالِ الَّذين سِيقَت إليهم الموعظةُ بأهلِ سَبأٍ، وهم كفَّارُ قُريشٍ؛ لأنَّ جُحودَهم الآخرةَ قَرينٌ للشِّركِ، ومُساوٍ له؛ فإنَّهم لو آمَنوا بالآخرةِ لآمَنوا بربِّها، وهو الرَّبُّ الواحدُ الَّذي لا شَريكَ له، وإلَّا فإنَّ عِلَلَ جَعلِ الشَّيطانِ للوَسوسةِ كَثيرةٌ مَرجِعُها إلى تَمييزِ الكُفَّارِ مِن المؤمنينَ، والمُتَّقينَ مِن المُعرضينَ. وكُنِّيَ بـ(نَعلَم) عن إظهارِ التَّمييزِ بيْنَ الحالَينِ؛ لأنَّ الظُّهورَ يُلازِمُ العِلمَ في العُرفِ[1]. وقيل: ضُمِّنَتْ (نَعْلَم) معنى (نُمَيِّز)؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِمَّنْ هُوَ﴾ يعني: إلَّا لِنُمَيِّزَ مَن يؤمنُ بالآخرةِ ممَّن هو منها في شكٍّ[2].

- وخُولِفَ في النَّظمِ بيْنَ الصِّلتينِ؛ فجاءتْ جُملةُ ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ فعليَّةً، وجاءتْ جُملةُ ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّ﴾ اسميَّةً؛ لأنَّ الإيمانَ بالآخِرةِ طارئٌ على كُفرِهم السَّابقِ، ومُتجدِّدٌ ومُتزايدٌ آنًا فآنًا؛ فكان مُقْتضى الحالِ إيرادَ الفِعلِ في صِلَةِ أصحابِه، وأمَّا شَكُّهم في الآخِرةِ فبِخلافِ ذلك؛ هو أمْرٌ مُتأصِّلٌ فيهم، فاجتُلِبَت لأصحابِه الجُملةُ الاسميَّةُ[3].

- وجِيءَ في جُملةِ ﴿مِمَّنْ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكٍّ﴾ بحَرفِ الظَّرفيَّةِ (في)؛ للدَّلالةِ على إحاطةِ الشَّكِّ بنُفوسِهم، ويَتعلَّق قولُه: ﴿مِنۡهَا﴾ بقولِه: ﴿شَكٍّ﴾[4].

- وجُملةُ ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٌ﴾ تَذييلٌ، وصِيغةُ (فَعيلٍ) تدُلُّ على قُوَّةِ الفِعلِ، وأفادَ عُمومُ ﴿كُلِّ شَيۡءٍ﴾ أنَّه لا يَخرُجُ عن عِلمِه شَيءٌ مِن الكائناتِ؛ فتَنزَّلَ هذا التَّذييلُ مَنزلةَ الاحتِراسِ عن غيرِ المعنى الكِنائيِّ مِن قولِه: ﴿لِنَعۡلَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨٥).

مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾، أي: لِيَظهَرَ ذلك لكلِّ أحدٍ، فتَقومَ الحُجَّةُ لهم وعليهم[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ افتُتِحَ الكلامُ بأمْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَ لهم ما هو مُتتابِعٌ في بَقيَّةِ هذه الآياتِ المُتتابِعةِ بكَلمةِ ﴿ قُلِ ﴾؛ فأُمِرَ بالقَولِ تَجديدًا لِمَعنى التَّبليغِ الَّذي هو مُهِمَّةُ كلِّ القُرآنِ[٢].

- والأمْرُ في قولِه: ﴿ٱدْعُواْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّخطئةِ والتَّوبيخِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: زَعَمْتُموهمْ أربابًا، فحُذِفَ مَفعولَا الزَّعمِ؛ أمَّا الأوَّلُ فحُذِفَ لأنَّه ضَميرٌ مُتَّصلٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ؛ قصْدًا لِتَخفيفِ الصِّلةِ بمُتعلِّقاتِها، وأمَّا الثَّاني فحَذْفُه لِدَلالةِ صِفَتِه عليه، وهي ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٤].

وقيل: حُذِف مَفْعولَا (زعم)؛ تنبيهًا على استهجانِ ذلك واستبشاعِه[٥].

- وجُملةُ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ حالِهم، وهي مُبَيِّنةٌ لِمَا في جُملةِ ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ مِن التَّخطئةِ[٦].

- قولُه: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٦).

مِن شِرْكٍ ﴾ إعادةُ حرفِ النَّفي: تَأكيدٌ له؛ للاهتمامِ به، وقد نُفِيَ أنْ يكونَ لآلهتِهم مُلكٌ مُستقِلٌّ، وأُتبِعَ بنَفْيِ أنْ يكونَ لهم شِركٌ في شَيءٍ مِن السَّماءِ والأرضِ، أي: شِركٌ مع اللهِ، فلمْ يُذكَرْ مُتعلَّقُ الشِّركِ إيجازًا؛ لأنَّه مَحلُّ الوِفاقِ، ثمَّ نُفِيَ أنْ يكونَ منهم ظَهيرٌ، أي: مُعينٌ للهِ تعالى، وهنا تَعيَّنَ التَّصريحُ بالمُتعلَّقِ؛ رَدًّا على المشركينَ؛ إذ زَعَموا أنَّ آلهتَهم تُقرِّبُ إليه وتُبعِدُ عنه، ثمَّ أُتبِعَ ذلك بنَفْيِ أنْ يكونَ شَفيعٌ عندَ اللهِ يَضطَرُّه إلى قَبولِ الشَّفاعةِ فيمَن يَشفَعُ له؛ لِتَعظيمٍ أو حَياءٍ[1].

- وذِكْرُ السَّمواتِ والأرضِ للتَّعميمِ عُرفًا، أو لأنَّ آلهتَهم بَعضُها سَماويَّةٌ كالملائكةِ والكواكبِ، وبَعضُها أرضيَّةٌ كالأصنامِ، أو لأنَّ الاسبابَ القريبةَ للخيرِ سَماويَّةٌ وأرضيَّةٌ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، وقال في سُورةِ (الإسراءِ): ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾[الإسراء: ٥٦]؛ فأظهَرَ اسمَ اللهِ تعالى هنا في قولِه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾، وأضْمَرَه في سُورةِ (الإسراءِ) في قولِه: ﴿ مِّن دُونِهِۦ ﴾؛ ووَجْهُه: أنَّه إنَّما اختيرَ الإضمارُ في سُورةِ (الإسراءِ)؛ لِقُوَّةِ الذِّكرِ قبْلُ؛ فقدْ تَكرَّرَ في عشَرةِ مَواضِعَ مُضمَرًا ومُظهَرًا؛ لقولِه: ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾؛ فـ﴿ رَّبُّكُمْ ﴾ واحدٌ، وفي ﴿أَعْلَمُ ﴾ ضَميرُه، و﴿إِن يَشَأْ ﴾ فِيه ضَميرُه، وفي قولِه: ﴿يَرْحَمْكُمْ ﴾ ضَميرُه، وقولُه: ﴿أَوْ إِن يَشَأْ ﴾ فيه ضَميرٌ فاعلٌ، وقولُه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ النُّونُ والألِفُ فيه ذِكرٌ له تعالى، و﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ ﴾ اسمانِ، ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٦، ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣١).

ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ قولُه: (نا) اسمُه، وكذلك ﴿وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾؛ فكان الإضمارُ تِلوَ الإضماراتِ أَولى بهذا المكانِ؛ فلذلك جاءَ ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾. وأمَّا في سُورةِ (سَبأٍ)؛ فإنَّ الَّذي تَقدَّمَه: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾، فالذِّكرُ تَقدَّمَ في ثلاثةِ مَواضعَ، وهناك في أكثَرِ مِن عَشَرةِ مَواضعَ، فحَسُنَ الإظهارُ هنا، وقَوِيَ الإضمارُ هناك؛ فلذلك اختَلَفا[1].

ووجهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا قرُبَ مرجِعُه هنا في سُورةِ (الإسراءِ)، وهو الرَّبُّ في قولِه المُتقدِّمِ ذِكْرُه في الآيةِ الأُولى: ﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ ﴾؛ عُبِّرَ عنه مُضمَرًا مُناسَبةً، ولم يكُنْ ليُناسِبَ الظَّاهِرُ هنا، ولَمَّا بَعُدَ مرجِعُ الضَّميرِ في سُورةِ (سبَأٍ) لو أُتِيَ به، أُتِيَ بالاسمِ الظَّاهرِ؛ فآيةُ (سبَأٍ) تقدَّمَ قبْلَها قولُه تَعالى مُخبِرًا عن الكافرينَ: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ ﴾ [سبأ: ٢٠]، ثمَّ قال بعدَ آيةٍ مِن تَمامِ الآيةِ الَّتي قبْلَها: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [سبأ: ٢٢]؛ فجِيءَ بالاسمِ الظَّاهِرِ؛ ليَكونَ أبعَدَ على إيهامِ عَودةِ الضَّميرِ ورُجوعِه إلى المُتَّبعِ لهم في الآيةِ المُتقدِّمةِ، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ﴾ جاء نَظْمُ هذه الآيةِ بَديعًا مِن وَفرةِ المعنى؛ فإنَّ النَّفعَ يَجيءُ بمعنى حُصولِ المَقصودِ مِن العمَلِ ونَجاحِه، ويَجيءُ بمعنى المُساعِدِ المُلائمِ؛ فالنَّفعُ بالمعنى الأوَّلِ في الآيةِ يُفيدُ القَبولَ مِن الشَّافعِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٧٧-١٠٧٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ١٦٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣١٢، ٣١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٢٨).

لِشَفاعتِه، وبالمعنى الثَّاني يُفِيدُ انتفاعَ المَشفوعِ له بالشَّفاعةِ، أي: حُصولَ النَّفعِ له بانقشاعِ ضُرِّ المُؤاخَذةِ بذَنْبٍ. فلمَّا عُبِّرَ في هذه الآيةِ بلَفظِ (الشَّفاعةِ) الصَّالحِ لِأنْ يُعتبَرَ مُضافًا إلى الفاعلِ أو إلى المفعولِ، احتمَلَ النَّفعُ أنْ يكونَ نفْعَ الفاعلِ، أي: قَبولَ شَفاعتِه، ونفْعَ المفعولِ، أي: قَبولَ شَفاعةِ مَن شفَعَ فيه، وتَعديةُ فِعلِ الشَّفاعةِ باللَّامِ دونَ (في)، ودونَ تَعديتِه بنفْسِه؛ زاد صُلوحيَّتَه للمَعْنيَينِ؛ لأنَّ الشَّفاعةَ تَقْتضي شافعًا ومَشفوعًا فيه، فكان بذلك أوفَرَ معنًى[1].

- وفي قولِه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ ...﴾ صُرِّحَ بالمُتعلَّقِ هنا أيضًا؛ ردًّا على قَولِ المشركينَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]؛ فنُفِيَت شَفاعتُهم في عُمومِ نَفْيِ كلِّ شَفاعةٍ نافعةٍ عندَ اللهِ إلَّا شفاعةَ مَن أذِنَ اللهُ أنْ يَشفَعَ. وفي هذا إبطالُ شَفاعةِ أصنامِهم؛ لأنَّهم زَعَموا لهمْ شفاعةً لازِمةً مِن صِفاتِ آلهتِهم، فلمَّا نَفى اللهُ كلَّ شَفاعةٍ لم يَأذَنْ فيها للشَّافعِ، انتَفَت الشَّفاعةُ المَزعومةُ لأصنامِهم[2]. وإنَّما عُلِّقَ النَّفيُ بنَفعِها لا بوُقوعِها؛ تَصريحًا بنَفْيِ ما هو غرَضُهم مِن وُقوعِها[3].

- قولُه: ﴿إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ احتمَلَتِ اللَّامُ أنْ تكونَ داخلةً على الشَّافعِ، وأنَّ (مَن) المَجرورةَ باللَّامِ صادقةٌ على الشَّافعِ، أي: لا تُقبَلُ شَفاعةٌ إلَّا شفاعةٌ كائنةٌ لِمَن أذِنَ اللهُ له، أي: أذِنَ له بأنْ يَشفَعَ؛ فاللَّامُ للمِلكِ، كقولِك: الكرَمُ لِزَيدٍ، أي: هو كريمٌ؛ فيكون في معنى قولِه: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٖ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]. وأنْ تكونَ اللَّامُ داخلةً على المَشفوعِ فيه، و(مَن) صادِقةً على مَشفوعٍ فيه، أي: إلَّا شَفاعةٌ لِمَشفوعٍ أذِنَ اللهُ الشَّافعينَ أنْ يَشفَعوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣١).

له، أي: لأجْلِه؛ فاللَّامُ للعِلَّةِ، كقولِك: قمْتُ لِزَيدٍ، فهو كقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]. وإنَّما جِيءَ بنَظْمِ هذه الآيةِ على غَيرِ ما نُظِمَت عليه غيرُها؛ لأنَّ المقصودَ هنا إبطالُ رَجائِهم أنْ تَشفَعَ لهم آلِهَتُهم عندَ اللهِ، فيَنتفِعوا بشَفاعتِها؛ لأنَّ أوَّلَ الآيةِ تَوبيخٌ وتَعجيزٌ لهم في دَعوتِهم الآلهةَ المَزعومةَ، فاقتضَتْ إبطالَ الدَّعوةِ والمَدْعُوِّ(١).

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ...﴾ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ غايةٌ لِمَا أفهَمَه قولُه: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ مِن أنَّ هنالك إذنًا يَصدُرُ لناسٍ مِن الأخيارِ بأنْ يَشفَعوا، كما جاء تَفصيلُ بعضِ هذه الشَّفاعةِ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ، وأنَّ الذين يَرجُون أنْ يُشفَّعَ فيهم يَنتظِرونَ ممَّن هو أهلٌ لِأنْ يَشفَعَ، وهمْ في فَزَعٍ مِن الإشفاقِ ألَّا يُؤذَنَ بالشَّفاعةِ فيهم، فإذا أذِنَ اللهُ لِمَن شاءَ أنْ يَشفَعَ، زال الفزَعُ عن قُلوبِهم واستَبْشَروا؛ إذ إنَّه فُزِّعَ عن قُلوبِ الَّذين قُبِلَت الشَّفاعةُ فيهم، أي: وأيِسَ المَحرُومون مِن قَبولِ الشَّفاعةِ فيهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-. وهذا مِن الحذْفِ المُسمَّى بالاكتِفاءِ؛ اكتفاءً بذِكرِ الشَّيءِ عن ذِكرِ نَظيرِه أو ضِدِّه، وحسَّنَه هنا: أنَّه اقتصارٌ على ما يَسُرُّ المؤمنينَ الَّذين لم يَتَّخِذوا مِن دونِ اللهِ أولياءَ(٢).

- وقد طُوِيَت جُمَلٌ مِن وَراءِ ﴿حَتَّىٰٓ﴾، والتَّقديرُ: إلَّا لِمَن أذِنَ له، ويومَئذٍ يَبْقَى النَّاسُ مُرتقبينَ الإذْنَ لِمَن يَشفَعُ، فَزِعينَ مِن ألَّا يُؤذَنَ لأحدٍ زمنًا يَنْتهي بوَقتِ زَوالِ الفزَعِ عن قُلوبِهم حينَ يُؤذَنُ للشَّافعينَ بأنْ يَشْفَعوا -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهو إيجازُ حَذْفٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي =

- وبُنِيَ ﴿فُزِّعَ﴾ للمَجهولِ؛ لِتَعظيمِ ذلك التَّفزيعِ بأنَّه صادرٌ مِن جانبٍ عظيمٍ؛ ففيه جانبُ الآذِنِ فيه، وجانبُ المبلِّغِ له، وهو الملَكُ[1].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ تَتِمَّةُ جَوابِ المُجيبينَ، عَطَفوا تَعظيمَ اللهِ بذِكرِ صِفتَينِ مِن صِفاتِ جَلالِه؛ وهما: صِفةُ العَلِيِّ، وصِفةُ الكبيرِ. وتَخصيصُ هاتَينِ الصِّفتَينِ؛ لِمُناسَبةِ مَقامِ الجوابِ، أي: قد قَضى بالحقِّ لكلِّ أحدٍ بما يَستحِقُّه؛ فإنَّه لا يَخْفى عليه حالُ أحدٍ، ولا يَعُوقُه عن إيصالِه إلى حَقِّه عائقٌ، ولا يَجوزُ دونَه حائلٌ[2].

- وفي قولِهم: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ اعترافٌ بغايةِ عَظَمةِ جَنابِ العِزَّةِ عزَّ وجلَّ، وقُصورِ شأْنِ كلِّ مَن سِواهُ، أي: هو المُنفرِدُ بالعُلوِّ والكِبرياءِ، ليس لأحدٍ مِن أشرافِ الخلائقِ أنْ يَتكلَّمَ إلَّا بإذْنِه[3].

---

= السعود)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٩٠، ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢).

## الآيات (٢٤-٣٠)

﴿ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أَجْرَمْنَا ﴾: أي: اكتَسَبْنا، والجُرْمُ: الذَّنبُ العظيمُ، وأصلُ (جرم): يدُلُّ على قَطعٍ؛ لأنَّ الذَّنْبَ كَسْبٌ، والكَسبَ اقتِطاعٌ[1].

﴿ يَفْتَحُ ﴾: أي: يَحكُمُ ويَقضي، ويُسمَّى الحاكِمُ فتَّاحًا، والفَتْحُ: إزالةُ الإغلاقِ والإشكالِ، وأصلُ (فتح): يدُلُّ على خِلافِ الإغلاقِ[2].

﴿ كَآفَّةً ﴾: أي: عامَّةً، وهو اسْمٌ للجملةِ، مِن الكَفِّ، كأنَّهم كفُّوا باجتماعِهم عن أن يخرُجَ مِنْهُم أحدٌ، ومعنى كافَّةً: الإحاطةُ، ويُقالُ للجماعةِ: الكافَّةُ، وقيل: أي: تَكُفُّهم وتَردَعُهم، وقيل: أي: كافًّا لهم عن المعاصي، والهاءُ فيه للمُبالَغةِ، وأصلُ الكَفِّ: المنعُ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٤٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج =

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن يَرزُقُكم مِنَ السَّمَواتِ والأرضِ؟ قُلِ: اللهُ وَحْدَه، فلِمَ تَعبُدونَ معه مَنْ لا يَرزُقُكم شَيئًا؟! وإنَّ أحَدَ الفَريقينِ مِنَّا مُهتَدٍ، والآخَرَ في ضلالٍ مُبينٍ.

قُلْ لهم -يا محمَّدُ: لا تُسأَلونَ عن ذُنوبِنا، ولا نُسأَلُ عن أعمالِكم. قُلْ: يَجمَعُ بيْنَنا ربُّنا ثمَّ يَقضي بيْنَنا وبيْنَكم بالعَدلِ، واللهُ هو الحاكِمُ بيْنَ عبادِه، العليمُ بأعمالِهم وأحوالِهم.

قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: أرُونيَ الَّذين صَيَّرتُموهم شُرَكاءَ لله، كلَّا! فليس الأمرُ كما زعَمتُم، بل هو اللهُ المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له، العزيزُ الغالِبُ القاهِرُ، الحكيمُ في شَرعِه وأفعالِه وأقوالِه.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى وظيفةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: ولقد أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ أجمعينَ مُبَشِّرًا مَن أطاعك، ومُنذِرًا مَن عصاك، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ.

ويَعرِضُ شُبهةً مِن شُبهاتِ المشركينَ، ويرُدُّ عليها، فيقولُ: ويقولُ المُشرِكونَ: متى يجيءُ هذا الوَعدُ إنْ كُنتُم صادِقينَ؟ قُلْ لهم -يا محمَّدُ: لكم ميعادُ يومٍ يَجيئُكم في وقتِه، فإذا جاء لا يُؤخَّرُ ساعةً ولا يُقدَّمُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ

---

= (١/ ٢٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٦٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٣)، ((تحفة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٥).

فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه انتِقالٌ مِن دَمْغِ المشركينَ بضَعفِ آلهتِهم، وانتفاءِ جَدواها عليهم في الدُّنيا والآخرةِ، إلى إلْزامِهم بُطلانَ عِبادتِها بأنَّها لا تَستحِقُّ العِبادةَ؛ لأنَّ مُستحِقَّ العِبادةِ هو الَّذي يَرزُقُ عِبادَه؛ فإنَّ العِبادةَ شُكرٌ، ولا يَستحِقُّ الشُّكرَ إلَّا المُنعِمُ[١].

وأيضًا لَمَّا سلَبَ الله تعالى عن شركائِهم أنْ يَملِكوا شيئًا مِن الأكوانِ، وأثبَت جميعَ الملكِ له وحْدَه؛ أمَره صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يُقرِّرَهم بما يَلزَمُ منه ذلك، فقال[٢]:

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن يَرزُقُكم مِنَ السَّمَواتِ بإنزالِه المطَرَ، وتسخيرِه الشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومَ وغيرَها؛ لِمَنافِعِكم، ويَرزُقُكم مِنَ الأرضِ بإخراجِه منها أنواعَ النَّباتِ والثِّمارِ، والمياهِ والمعادِنِ، وغَيرِها ممَّا فيه مَصالِحُكم[٣]؟

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾.

أي: قُلِ: اللهُ وحْدَه مَن يَرزُقُكم مِنَ السَّمواتِ والأرضِ، فهو إذَنْ مَن يجبُ أن يُعبَدَ وحْدَه؛ فلِمَ تَعبُدونَ معه مَن لا يَرزُقُكم شَيئًا[٤]؟!

﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٤٩٧، ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٨).

أي: ما نحن وأنتم على أمرٍ واحدٍ؛ فأحدُ الفريقَينِ مِنَّا مُهتَدٍ، والآخَرُ ضالٌّ ضلالًا مُبينًا[١].

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: لا تُسأَلونَ عن ذُنوبِنا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: ولا نُسأَلُ نحن عن أعمالِكم[٣].

ثمَّ حذَّرهم وأنذَرهم عاقبةَ أمرِهم؛ إذْ أمَر رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ لهم[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٣، ٢٨٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٨، ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٩).

قال الخازِنُ: (هذا ليس على طريقِ الشَّكِّ، بل على جهةِ الإلزامِ والإنصافِ في الحِجاجِ، كما يقولُ القائِلُ: أحَدُنا كاذِبٌ، وهو يعلَمُ أنَّه صادقٌ، وصاحِبَه كاذِبٌ؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَنِ اتَّبَعه: على الهُدى، ومَن خالفَه: في ضلالٍ، فكذَّبهم مِن غيرِ أن يُصَرِّحَ بالتَّكذيبِ). ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤٨).

وقال البِقاعي: (﴿مُّبِينٍ﴾ أي: واضح في نفْسِه، داعٍ لكلِّ أحدٍ إلى معرفةِ أنَّه ضلالٌ، إلَّا مَن كان مُنغمِسًا فيه، مظروفًا له؛ فإنَّه لا يُحِسُّ بنفْسِه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٨١).

﴿ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها أكَّدَتْ ما يُوجِبُ النَّظرَ والتَّفكُّرَ؛ فإنَّ مجرَّدَ الخطأِ والضَّلالِ واجبُ الاجتِنابِ، فكيف إذا كان يومَ عَرْضٍ وحسابٍ، وثوابٍ وعذابٍ[1]؟!

﴿ قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: يَجمَعُ بيْنَنا ربُّنا ثمَّ يَقضي بيْنَنا وبيْنَكم بالعَدلِ، فيَتبيَّنُ المُهتدي مِنَّا والضَّالُّ، ويُثيبُ اللهُ المُستَحِقَّ للثَّوابِ، ويُعاقِبُ المُستَحِقَّ للعِقابِ[2].

﴿ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾.

أي: واللهُ هو الحاكِمُ بيْنَ عبادِه بالعَدلِ والحَقِّ، العليمُ بأعمالِهم وأحوالِهم؛ فلا تخفَى عليه منهم خافيةٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٧٩).

قيل: يجمَعُ اللهُ ويفتحُ بيْنَهم يومَ القيامةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧).

وقال ابنُ عثيمين: (ويحتمِلُ أنَّ الجَمعَ أعمُّ مِن ذلك... فيُمكِنُ أن يُرادَ بقَولِه تعالى: ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا﴾ أي: في الدُّنيا في القتالِ، وفي الآخرةِ للفَصلِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٤).

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّاۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المُشرِكون قد أنكروا البَعثَ، ودَلَّ على قُدرتِه تعالى عليه بما نَصَب مِنَ الأدِلَّةِ الَّتي شاهَدوها مِن أفعالِه بالبَصَرِ أو البصيرةِ، إيجادًا وإعدامًا، وأقام الحُجَّةَ على صِحَّةِ الدَّعوةِ، وبُطلانِ ما هم عليه، ثمَّ تهدَّدَهم بالفَصلِ يومَ الجَمعِ، وختَمَ بصِفةِ العِلمِ المحيطِ المُستلزِمِ للقُدرةِ الشَّامِلةِ، وكانت القُدرةُ لا تكونُ شامِلةً إلَّا عندَ الوحدانيَّةِ- أمَرَه بما يوجِبُ لهم القطعَ بوحدانيَّتِه، وشُمولِ قُدرتِه[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه لا يُعبَدُ غَيرُه لِدَفعِ الضَّررِ؛ إذ لا دافعَ للضَّررِ غَيرُه، بقَولِه: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴾ [سبأ: ٢٢]، وبيَّن أنَّه لا يُعبَدُ غَيرُ الله لتوقُّعِ المنفعةِ، بقَولِه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٢٤]- بيَّن هاهنا أنَّه لا يُعبَدُ أحَدٌ لاستِحقاقِه العِبادةَ غيرُ اللهِ، فقال[2]:

﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: أرونيَ الَّذين صيَّرتُموهم لله شُرَكاءَ في العبادةِ بزَعمِكم[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

قال ابن جُزَي: (﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾... الرُّؤيةُ هنا رؤيةُ قَلبٍ، فشُركاء: مفعولٌ ثالثٌ، والمعنى: أروني بالدَّليلِ والحُجَّةِ مَن هم له شُركاءُ عندَكم، وكيف وَجْهُ الشَّرِكةِ؟ وقيل: هي رؤيةُ بصَرٍ، وشركاء: حالٌ مِن المفعولِ في ألحقتم، كأنَّه قال: أين الَّذين تعبدونَ مِن دونِه؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٦). =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

﴿كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: ارتَدِعوا وانزَجِروا؛ فليس الأمرُ كما زَعمتُم مِن أنَّ لله شُرَكاءَ، بل هو المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له، العزيزُ في انتِقامِه ممَّن أشرك به، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، الممتنعُ عليه كلُّ عيبٍ ونقصٍ، وهو الحَكيمُ في شَرعِه وأفعالِه وأقوالِه وتدبيرِ خَلقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، فكيف يكونُ له شريكٌ مَن هو متَّصِفٌ بهاتينِ الصِّفَتينِ المنافيَتَينِ لذلك[1]؟!

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

---

= وممَّن اختار أنَّ الرُّؤيةَ قلبيَّةٌ أيضًا: ابنُ عطية، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٤).

وممَّن اختار أنَّ الرُّؤيةَ بصريَّةٌ: الشنقيطيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٦).

قال الشنقيطي: (وقولُه: ﴿أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾؛ لِأنَّهم إنْ أرَوْه إيَّاها تَبيَّن برؤيتِها أنَّها جمادٌ لا يَنفعُ ولا يَضُرُّ، واتَّضَح بُعْدُها عن صِفاتِ الألوهيَّةِ، فظَهَر لكلِّ عاقلٍ برؤيتِها بطلانُ عبادةِ ما لا ينفعُ ولا يضُرُّ، فإحضارُها والكلامُ فيها وهي مشاهَدةٌ أبلَغُ مِن الكلامِ فيها غائبةً، معَ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم يَعرِفُها... والأظهرُ في قولِه: ﴿أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ﴾ في هذه الآيةِ: هو ما ذكَرْنا مِن أنَّ الرُّؤيةَ بصريَّةٌ؛ وعليه فقولُه: ﴿شُرَكَآءَ﴾ حالٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٧، ٥١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى مسألةَ التَّوحيدِ؛ شرَعَ في الرِّسالةِ، فقال[١]:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨ ﴾.

أي: أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- للنَّاسِ أجمَعينَ[٢] مِنَ العَرَبِ وغَيرِهم، مُبَشِّرًا مَن أطاعك، ومُنذِرًا مَن عصاك وخالَفَك، ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) ممَّن ذهب إلى أنَّ ﴿ كَآفَّةٗ ﴾ بمعنى: عامَّةً للنَّاسِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧٠٢).

وقيل: معنى ﴿ كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾: تَكُفُّهم عمَّا هم عليه مِن الكفرِ، والهاءُ فيه للمُبالَغةِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٩٩).

قال البِقاعي: (﴿إِلَّا كَآفَّةٗ ﴾ أي: إرسالًا عامًّا شامِلًا لكُلِّ ما شَمِله إيجادُنا، تَكُفُّهم عمَّا لعلَّهم أن ينتَشِروا إليه مِن متابعةِ [الأهواءِ]، وتمنَعُهم عن أن يخرُجَ عنها منهم أحدٌ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٠٤).

وقيل: معناه: أنَّك رسولُ الله إلى جميعِ النَّاسِ وتضمُّهم ، ومنه كَفُّ الثَّوبِ؛ لأنَّه ضمُّ طرَفيه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

قيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾: نفْيُ عِلمِهم بأنَّ محمَّدًا مرسَلٌ إلى جميعِ النَّاسِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٢٧).

وقيل: المرادُ: نفْيُ عِلمِهم بأنَّه نبيٌّ. وممَّن قال بهذا: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٣).

قال ابن عثيمين عن هذا القولِ: (... فيه نظَرٌ؛ لأنَّ الرِّسالةَ بلغَتْ أكثَرَ النَّاسِ، وستَبلُغُ النَّاسَ جميعًا حتَّى تقومَ عليهم الحُجَّةُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٤). =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۞ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۞ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [الكهف: ٢ - ٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِي اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُعطِيتُ خَمسًا لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قَبْلي: نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ[1]، وجُعِلَت لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهورًا، فأيُّما رجُلٍ مِن أمَّتي أدركَتْه الصَّلاةُ فلْيُصَلِّ، وأُحِلَّت ليَ المغانِمُ ولم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، وأُعطيتُ الشَّفاعةَ، وكان النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثتُ إلى النَّاسِ عامَّةً))[2].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مِن أعظَمِ ما أنكَرُوه ممَّا جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القِيامةُ

---

= وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ -الأول والثاني- : البِقاعي، فقال: (أي ليس لهم قابليَّةُ العِلمِ فيَعلموا أنَّك رسولُ الله، فضلًا عن أنَّ إرسالَك عامٌّ، بل هم كالأنعام). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٠٦).

وقيل: المرادُ: نفْيُ عِلمِهم بحكمةِ إرسالِ الرَّسولِ، الَّتي هي التَّبشيرُ والإنذارُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٤).

(١) نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ: أي: نصَرني ربِّي على أعدائي بخَوفِهم مِنِّي في قَدرِ مَسيرةِ شَهرٍ بيْني وبيْنَهم مِن قُدَّامٍ أو وراءٍ، فإذا كان بيْنَه وبيْنَهم مسيرةُ شَهرٍ هابوا وفَزِعوا منه صلَّى الله عليه وسلَّمَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٧٤).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥) واللفظ له، ومسلم (٥٢١).

والبعثُ؛ عَقَّبَ إبطالَ قَولِهم في إنكارِ الرِّسالةِ بإبطالِ قَولِهم في إنكارِ البعثِ[١].

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: ويَقولُ المُشرِكونَ مِن جَهلِهم: متى يجيءُ هذا الوَعدُ إنْ كنتم صادِقينَ في دَعواكم[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى: ١٨].

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ المُشرِكينَ لَمَّا طَلَبوا الاستِعجالَ، بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه لا استِعجالَ فيه كما لا إمهالَ، وهذا يُفيدُ عِظَمَ الأمرِ، وخَطَرَ الخَطْبِ؛ وذلك لأنَّ الأمرَ الحَقيرَ إذا طلبَه طالِبٌ مِن غَيرِه، لا يؤخِّرُه ولا يُوقِفُه على وَقتٍ، بخِلافِ الأمرِ الخَطيرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

قال الألوسي: (قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بطريقِ الاستِهزاءِ، يَعْنونَ المُبشَّرَ به، والمُنذَرَ عنه، أو المَوعودَ بقولِه تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣١٨).

وقيل: المرادُ بالوعدِ: العذابُ. وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٦).

وقال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ويقولُ هؤلاء المشركونَ باللهِ إذا سمِعوا وعيدَ الله الكفَّارَ، وما هو فاعلٌ بهم في مَعادِهم ممَّا أنزَل الله في كتابِه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ جائيًا، وفي أيِّ وقتٍ هو كائنٌ؟). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٧).

وأيضًا لَمَّا تبيَّنَ مِن سُؤالِ المُشرِكينَ ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أنَّه لم يكُنْ للاسترشادِ، وأنَّهم بالَغوا به في التَّكذيبِ والاستِهزاءِ بعدَ الإبلاغِ في إقامةِ الأدِلَّةِ- أمَرَه بأن يُجيبَهم بما يَصلُحُ للمُعانِدِ مِن صادعِ التَّهديدِ[1].

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: لكم ميعادُ يَومٍ[2] يَجيئُكم في وَقتِه المحدَّدِ بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ، فإذا جاء لا يُؤخَّرُ ساعةً ولا يُقدَّمُ[3].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ هذا إرشادٌ مِن الله لِرَسولِه إلى المناظَراتِ الجاريةِ في العُلومِ وغَيرِها؛ وذلك لأنَّ أحدَ المتناظِرَينِ إذا قال للآخَرِ: (هذا الَّذي تقولُه خطأٌ، وأنت فيه مخطئٌ) يُغضِبُه، وعندَ الغَضَبِ لا يبقَى سَدادُ الفِكرِ، وعندَ اختلالِه لا مَطمَعَ في الفَهمِ، فيَفوتُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٧).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المرادَ: يومُ القيامةِ والبعثُ: الواحديُّ، والبغوي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٦).

وقيل: وقتُ حضورِ الموتِ، أي: لكم قبْلَ يومِ القيامةِ وقتٌ مُعَيَّنٌ تَموتون فيه، فتَعلَمون حقيقةَ قَوْلي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠١).

قال السَّمْعانيُّ: (وقولُه: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ قد فُسِّر هذا بيومِ البَعثِ، وقد فُسِّر بيومِ المَوتِ، وكِلاهما صحيحٌ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٤).

وقال ابنُ عثيمين: (فيه احتِمالٌ آخَرُ: أنَّه يومُ القيامةِ، ويومُ مَوتِهم أيضًا؛ فإنَّ يومَ مَوتِهم يُشاهِدونَ العذابَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٠).

الغَرَضُ؛ وأمَّا إذا قال له: إنَّ أحَدَنا لا يُشَكُّ في أنَّه مخطئٌ، والتَّمادي في الباطلِ قَبيحٌ، والرُّجوعُ إلى الحَقِّ أحسَنُ الأخلاقِ، فنَجتهِدُ ونُبصِرُ أيُّنا على الخطأِ لِيَحترِزَ؛ فإنَّه يجتهِدُ ذلك الخَصمُ في النَّظرِ، ويَترُكُ التَّعصُّبَ، وذلك لا يوجِبُ نقصًا في المنزلةِ؛ لأنَّه أوهَمَ بأنَّه في قَولِه شاكٌّ، ويدُلُّ عليه قَولُ الله تعالى لِنَبيِّه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ﴾، مع أنَّه لا يَشُكُّ في أنَّه هو الهادي، وهو المُهتدي، وهم الضَّالُّونَ والمُضِلُّونَ[1]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذه الجملةُ تضمَّنَت الإنصافَ واللُّطفَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ[2]، والتَّلطُّفَ مع الخَصمِ، والتَّنزُّلَ معه؛ للوُصولِ إلى الإقرارِ بالحقِّ[3]؛ فأوَّلًا: وصَفْنا عمَلَنا بأنَّه إجرامٌ. وثانيًا: وصَفْناه بالفعلِ الماضي الدَّالِّ على الوُقوعِ: ﴿عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾. وفي الخَصمِ قُلْنا أوَّلًا: ﴿وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ وليس (عمَّا تُجرِمون)! وكلُّ هذا مِن بابِ التَّلطُّفِ، واللهُ يَعلَمُ مَنِ المجرمُ مِن غيرِه، لكنْ لأجْلِ أنْ نُقيمَ الحُجَّةَ على هؤلاء بأنَّنا عامَلْناهم بأكمَلِ العدلِ والإنصافِ، بل بما ظاهِرُه الغَضاضةُ علينا. وثانيًا: أنَّه قال تعالى: ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ ولم يَقُلْ: عمَّا عَمِلتُم، ومعلومٌ أنَّ الماضيَ مُحَقَّقُ الوُقوعِ، والمضارعَ قد يقعُ وقد لا يقعُ، فـ﴿عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ يعني: ما عَمِلْتم[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ﴾ إثباتُ السُّؤالِ عن العملِ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ﴾ أفاد أنَّ كلَّ إنسانٍ مَسؤولٌ عن عملِه، ولو كان السُّؤالُ منتفيًا مطلقًا ما صحَّ أنْ يُقالَ: ﴿لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا﴾! وقد قال اللهُ تبارك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٨).

وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص: ٦٥]، وقال: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأعراف: ٦]، وما دامَ الإنسانُ يُؤْمِنُ بذلك -بأنَّه سيُسألُ عن عملِه- فسوف يَحْرِصُ غايةَ الحرصِ على أنْ يكونَ عمَلُه موافقًا لشرعِ اللهِ تعالى(١).

٤- مِن آدابِ المناظَرةِ سلوكُ التَّحدِّي فيما يُعلَمُ امتناعُه مِن الخَصمِ؛ لأنَّك إذا تَحدَّيتَه في أمرٍ لا يمكنُه، وظهَرَ عجْزُه، تَبَيَّنَ بُطلانُ دَعْواه، بخِلافِ ما إذا تَحدَّيتَه بأمرٍ يمكِنُه أنْ يفعَلَه، يقولُ الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ يعني: أعْلِموني ماذا خَلَقوا؟ ماذا نَفَعوا؟ الجوابُ: لم يَخلقوا شيئًا، ولم ينفعوا شيئًا، ولم يَدفعوا ضررًا(٢).

٥- في قولِه: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ... ﴾ قاعدةٌ شَريفةٌ وأدَبٌ جَميلٌ في آدابِ المُجادَلةِ، وقَمْعِ شُبهةِ الخَصمِ الألَدِّ الأبيِّ؛ فإنَّه يَنْبغي أنْ يُرْخَى عِنانُ الكلامِ معه أوَّلًا، ويُجارَى معه على سَنَنٍ يَبعَثُه على التَّفكُّرِ والنَّظرِ في أحوالِ نفْسِه؛ لِيَعثُرَ حيثُ يُرادُ تَبكيتُه عندَ إيرادِ الحُجَّةِ البالغةِ(٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ أنَّه ينبغي أنْ يُستدَلَّ بالأوضحِ والأبْيَنِ في بابِ المناظرةِ؛ فإنَّ الرِّزقَ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ أمرٌ معلومٌ، لا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يقولَ عن نفْسِه: إنَّه يُنزِلُ المطرَ، أو إنَّه يُنبِتُ النَّباتَ! وهذه طريقةُ القرآنِ(٤).

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ هذا احتِجاجٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨١).

بالدَّليلِ النَّظَريِّ؛ لأنَّ الاعترافَ بأنَّ اللهَ هو الرَّزَّاقُ يَستلزِمُ انفرادَه بإلَهيَّتِه؛ إذ لا يَجوزُ أنْ يَنفردَ ببَعضِ صِفاتِ الإلهيَّةِ ويُشارَكَ في بَعضٍ آخَرَ؛ فإنَّ الإلهيَّةَ حَقيقةٌ لا تَقبَلُ التَّجزئةَ والتَّبعيضَ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ جوازُ مُحاجَّةِ الخَصمِ بما يُعرَفُ عندَ علماءِ المناظرةِ والجَدَلِ بالسَّبْرِ والتَّقسيم[٢]، فإذا تَتبَّعْنا الحالَ وجَدْنا أنَّ حالَ كلٍّ مِنَّا لا تخرُجُ عن حالَينِ: إمَّا هدًى؛ وإمَّا ضلالٌ، وهي إمَّا لنا؛ وإمَّا لكم، وليس هناك شَيءٌ ثالثٌ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّه لا يُوجَدُ مَنزِلةٌ بين مَنزِلتَينِ، كما تذهبُ إليه المُعتَزِلةُ في فاعلِ الكبيرةِ: أنَّه خَرَجَ مِن الإيمانِ، ولم يَدْخُلْ في الكُفرِ[٤]!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ وَصَفَ الضَّلالَ بالمُبينِ، ولم يَصِفِ الهُدى؛ لأنَّ الهدى هو الصِّراطُ المُستقيمُ المُوصِلُ إلى الحَقِّ، والضَّلالُ خِلافُه، لكِنَّ المستقيمَ واحِدٌ، وما هو غيرُه كُلُّه ضَلالٌ، وبَعضُه بيِّنٌ مِن بَعضٍ؛ فميَّزَ البَعضَ عن البَعضِ بالوَصفِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢).

(٢) السَّبْرُ والتَّقسيمُ: هو حصْرُ الأوصافِ في الأصلِ المَقيسِ عليه، وإبطالُ بعضِها ممَّا لا يَصلُحُ للتَّعليلِ، فيَتعيَّنُ الباقي للعِلِّيَّةِ. والتَّقسيمُ يكونُ قبْلَ السَّبرِ؛ لأنَّه تَعدادُ الأوصافِ الَّتي يُتَوهَّمُ صَلاحيتُها للتَّعليلِ ثمَّ يَسْبُرُها، أي: يَختبِرُها ليميزَ الصَّالحَ للتَّعليلِ مِن غيرِه. يُنظر: ((الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب)) للبابرتي (٢/ ٥٣٠)، ((التحبير شرح التحرير)) للمرداوي (٧/ ٣٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٥).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ هذا اللَّونُ من الكلامِ يُسمَّى الكلامَ المنصِفَ الَّذي كلُّ مَن سمِعَه مِن مُوالٍ أو مُنافٍ قال لِمَن خُوطِبَ به: قد أنصَفَك صاحِبُك! وهو: ألَّا يَترُكَ المجادِلُ لخَصمِه مُوجِبَ تغيُّظٍ واحتِدادٍ في الجِدالِ؛ لجَرَيانِه على سَنَنِ الإنصافِ المُسكِتِ للخَصمِ الألَدِّ، ويُسمَّى في علمِ المناظرَةِ: إرخاءَ العِنانِ للمُناظِرِ، ومع ذلك فقرينةُ إلزامِهم الحُجَّةَ قرينةٌ واضحةٌ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾ تهديدُ المُناظَرِ بالجزاءِ المجزومِ به؛ لأنَّ هذا يتضمَّنُ التَّهديدَ؛ لأنَّنا نعلمُ أنَّ اللهَ إذا فَتَحَ بيْنَهم فسيَكونُ الحقُّ مع المسلِمينَ، وبهذا عرَفْنا التَّرديدَ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّ الَّذين على الهُدى هم المُسلِمونَ، وأنَّ أولئك على الضَّلالِ؛ لأنَّه لو قال قائِلٌ: الآيةُ فيها ترديدٌ ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى﴾، وما عرَفْنا مَن الَّذي على الهدى! الجوابُ: هم الَّذين يَفتَحُ اللهُ تعالى عليهم، ويَنصُرُهم على أعدائِهم بالحَقِّ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾ إثباتُ ما قَرَّرَه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ مِن أنَّ اسمَ اللهِ تعالى إذا كان مُتعدِّيًا لم يَتِمَّ الإيمانُ به إلَّا بالإيمانِ بكَونِه اسمًا، وبما تضَمَّنَه مِن صفةٍ، وبما تضَمَّنه مِن أثَرٍ وحُكمٍ؛ لِقَولِه: ﴿يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا﴾، ثمَّ قال بعدَ ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ﴾؛ فدلَّ على أنَّ أسماءَ اللهِ عزَّ وجلَّ المُتعدِّيةَ تتضمَّنُ الأحكامَ والآثارَ المترتِّبةَ على ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) ٢٢/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ﴾ فيه سؤالٌ: ما معنى قَولِه: ﴿أَرُونِيَ﴾، وكان يَراهم ويَعرِفُهم؟

**الجوابُ**: أراد بذلك أن يُريَهم الخطَأَ العظيمَ في إلحاقِ الشُّرَكاءِ باللهِ، وأن يُقايِسَ على أعيُنِهم بيْنَه وبينَ أصنامِهم؛ ليُطلِعَهم على إحالةِ القياسِ إليه، والإشراكِ به[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ إثباتُ أفعالِ اللهِ تعالى الاختياريَّةِ؛ لأنَّ هذا فِعلٌ مِن الأفعالِ المتعلِّقةِ بمشيئتِه سُبحانه وتعالى[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ إقامةُ الحُجَّةِ على الخَلْقِ، فلم يَبْقَ لأحدٍ حُجَّةٌ على اللهِ بعدَ الرُّسُلِ، ويُؤخَذُ منها عُذرُ مَن لم تَبلُغْه الرِّسالةُ؛ لأنَّ مَن لم تَبلُغْه الرِّسالةُ لم تتحصَّلْ له بِشارةٌ ولا نِذارةٌ[٣].

١٢- قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ هذه الآيةُ دليلٌ على فضلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الأنبياءِ بعمومِ الرِّسالةِ للإنسِ والجنِّ[٤].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ في هذه الآيةِ إثباتُ رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مُنْكريها مِن العربِ، وإثباتُ عُمومِها على مُنْكريها مِن اليهودِ؛ فإنَّ ﴿ كَآفَّةً ﴾ مِن ألْفاظِ العُمومِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٨).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أنَّ الأكثريَّةَ لا يَلزَمُ أنْ يكونَ الصَّوابُ معها! لأنَّ أكثرَ الناسِ لا يَعْلَمونَ؛ فهُم في جهلٍ[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف انطبَقَ هذا جوابًا عن سؤالِهم: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؟

**الجوابُ**: أنَّهم ما سألوا عن ذلك وهم مُنكِرونَ له إلَّا تعنُّتًا لا استِرشادًا، فجاء الجوابُ على طريقِ التَّهديدِ مُطابقًا لمجيءِ السُّؤالِ على سبيلِ الإنكارِ والتَّعَنُّتِ، وأنَّهم مُرصَدونَ بيومٍ يفاجِئُهم، فلا يَستَطيعونَ تأخُّرًا عنه، ولا تقَدُّمًا عليه[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ أُعيدَ الأمْرُ بالقولِ ﴿قُلۡ﴾؛ لِزيادةِ الاهتِمامِ بالمَقولِ؛ فإنَّ أصلَ الأمْرِ بالقولِ في مَقامِ التَّصدِّي للتَّبليغِ دالٌّ على الاهتمامِ، وإعادةُ ذلك الأمْرِ زِيادةٌ في الاهتمامِ[٣].

- و﴿مَن﴾ استِفهامٌ؛ للتَّنبيهِ على الخطأِ؛ ولذلك أُعقِبَ بالجوابِ مِن طَرَفِ السَّائلِ بقولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾؛ لِتَحقُّقِ أنَّهم لا يُنكِرون ذلك الجوابَ، أو للإشعارِ بأنَّهم مُقِرُّون به بقُلوبِهم، إلَّا أنَّهم رُبَّما أبَوا أنْ يَتكلَّموا به؛ لأنَّ الَّذي تَمكَّنَ في صُدورِهم مِن العِنادِ وحُبِّ الشِّركِ قد أَلْجَم أفواهَهم عن النُّطقِ بالحقِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢).

مع عِلْمِهم بصِحَّتِه، ولأنَّهم إنْ تَفَوَّهوا بأنَّ اللهَ رازِقُهم لَزِمَهم أنْ يُقالَ لهم: فما لَكُمْ لا تَعبُدون مَن يَرزُقُكم، وتُؤْثِرون عليه مَن لا يَقدِرُ على الرِّزقِ[1]؟!

- وقولُه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عُطِفَ على الاستِفهامِ إبرازُ المَقصدِ بطَريقةٍ خَفيَّةٍ، تُوقِعُ الخَصمَ في شَرَكِ المَغْلوبيَّةِ؛ وذلك بتَرديدِ حالتَيِ الفَريقَينِ بيْنَ حالةِ هُدًى وحالةِ ضَلالٍ؛ لأنَّ حالةَ كلِّ فَريقٍ لَمَّا كانت على الضِّدِّ مِن حالِ الفَريقِ الآخَرِ بيْن مُوافقةِ الحقِّ وعَدمِها؛ تَعيَّنَ أنَّ أمْرَ الضَّلالِ والهُدى دائرٌ بيْن الحالتَينِ لا يَعدُوانِهما؛ ولذلك جِيءَ بحَرْفِ ﴿أَوۡ﴾ المُفيدِ للتَّرديدِ المُنتزَعِ مِن الشَّكِّ[2].

- ومِن اللَّطائفِ البلاغيَّةِ في قولِه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّه اشتمَلَ على إيماءٍ إلى تَرجيحِ أحدِ الجانبَينِ في أحَدِ الاحتمالَينِ بطَريقِ مُقابَلةِ الجانبَينِ في تَرتيبِ الحالتَينِ باللَّفِّ والنَّشْرِ المُرتَّبِ[3]، وهو أصْلُ اللَّفِّ؛ فإنَّه ذكَرَ ضَميرَ جانبِ المُتكلِّمِ وجَماعتِه وجانبِ المُخاطَبينَ، ثمَّ ذكَرَ حالَ الهُدى وحالَ الضَّلالِ على تَرتيبِ ذِكرِ الجانبينِ؛ فأشار إلى أنَّ الأوَّلينَ مُوجَّهون إلى الهُدى، والآخِرينَ مُوجَّهون إلى الضَّلالِ المُبينِ، لا سيَّما بعْدَ قَرينةِ الاستِفهامِ، وهذا أيضًا مِن التَّعريضِ، وهو أوقَعُ مِن التَّصريحِ، لا سيَّما في استنزالِ طائرِ الخَصمِ. وفيه أيضًا تَجاهُلُ العارفِ؛ فقد الْتأَمَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥٢، ٥٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٩٢).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١١٦).

هذه الجُملةِ ثلاثةُ مُحسِّناتٍ مِن البَديعِ، ونُكتةٌ مِن البَيانِ؛ فاشتملتْ على أربعِ خُصوصيَّاتٍ(١).

- وخُولِفَ بيْن حَرفَي الجرِّ الدَّاخلَينِ على الحقِّ والضَّلالِ ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ فجِيءَ في جانبِ الحقِّ بحرْف (علَى)؛ للإشعارِ بكَونِ السَّالكِ على هذا الصِّراطِ على هُدًى لِما فيه مِن استِعلائِه وعُلُوِّه بالحقِّ والهُدى، مع ثباتِه عليه، واستِقامتِه إليه، فكان في الإتيانِ بأداةِ (على) ما يدُلُّ على عُلوِّه وثُبوتِه واستِقامتِه، وهذا بخِلافِ الضَّلالِ؛ فإنَّه جيءَ فيه بأداةِ (في) الدَّالَّةِ على انغماسِ صاحِبِه، وانقِماعِه وتدسُّسِه فيه، فـ(في) للظَّرفيَّةِ، ومعلومٌ أنَّ الظَّرفَ محيطٌ بالمظروفِ؛ فالضَّلالُ محيطٌ به قد أعمى بصيرتَه، فطريقُ الحقِّ تأخُذُ عُلُوًّا صاعِدةً بصاحِبِها إلى العليِّ الكبيرِ، وطريقُ الضَّلالِ تأخُذُ سُفْلًا، هاويةً بسالِكِها في أسفَلِ سافِلينَ، فالَّذي على هُدًى هو على جادَّةٍ بيِّنةٍ، عُلْيَا واضِحةٍ، وصاحبُ الضَّلالِ مُنْغَمِسٌ في ضلالِه تائهٌ حائرٌ، ليس له حقٌّ مِن العلوِّ، بل هو مغمورٌ بالجهلِ بكلِّ جانبٍ(٢).

- وقدَّم الهدَى على الضَّلالِ؛ لأنَّه كان وصْفَ المؤمنينَ المذكورينَ بقولِه: (إنَّا)، وهو مقدَّمٌ في الذِّكرِ(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُل﴾ أُعِيدَ الأمْرُ بأنْ يقولَ لهم مَقالًا آخَرَ إعادةً؛ لِزيادةِ الاهتِمامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٥).

واستِدعاءً لأسماعِ المُخاطَبينَ بالإصغاءِ إليه، ولَمَّا كان هذا القولُ يَتضمَّنُ بَيانًا للقولِ الَّذي قَبْلَه، فُصِلَت جُملةُ الأمْرِ بالقولِ عن أُخْتِها؛ إذ لا يُعطَفُ البَيانُ على المُبيَّنِ بحَرْفِ النَّسقِ؛ فإنَّه لَمَّا ردَّدَ أمْرَ الفريقَينِ بيْن أنْ يكونَ أحدُهما على هُدًى والآخَرُ في ضَلالٍ، وكان الضَّلالُ يأتي بالإجرامِ؛ اتُّسِعَ في المُحاجَّةِ فقيل لهم: إذا نحنُ أجْرَمْنا فأنتم غيرُ مُؤاخَذينَ بجُرْمِنا، وإذا عَمِلْتُم عمَلًا فنحن غيرُ مُؤاخَذينَ به. وأيضًا فُصِلَت؛ لتكونَ هذه الجُملةُ مُستقِلَّةً بنَفْسِها؛ لِيَخُصَّها السَّامعُ بالتَّأمُّلِ في مَدلولِها، فيجوزُ أنْ تُعتبَرَ استئنافًا ابتدائيًّا، وهي مع ذلك اعتراضٌ بَيِّنٌ أثناءَ الاحتجاجِ[1].

- قولُه: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ إسنادُ الإجرامِ إلى جانبِ المُتكلِّمِ ومَن معه مَبْنيٌّ على زَعْمِ المُخاطَبينَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢]، كان المُشركون يُؤنِّبون المؤمنينَ بأنَّهم خاطِئون في تَجنُّبِ عِبادةِ أصنامِ قَومِهم. وهذه نُكتةُ صَوغِه في صِيغةِ الماضي؛ لأنَّه مُتحقِّقٌ على زَعمِ المُشركينَ. وصِيغَ ما يَعمَلُ المُشركونَ في صِيغةِ المُضارِعِ؛ لأنَّهم يَنتظِرون منهم عمَلًا؛ تَعريضًا بأنَّهم يَأتُون عمَلًا غيرَ ما عَمِلوه، أي: يُؤمِنون باللهِ بعدَ كُفرِهم. وهذا ضَرْبٌ مِن المُتارَكةِ والمُوادَعةِ؛ لِيَخْلُوا بأنفُسِهم فيَنظُروا في أمْرِهم، ولا يُلْهِيهم جِدالُ المؤمنينَ عن استِعراضِ أنفُسِهم ومُحاسَبتِها. وفيه زِيادةُ إنصافٍ؛ إذ فرَضَ المؤمِنونَ الإجرامَ في جانبِ أنفُسِهم، وأسنَدُوا العمَلَ على إطلاقِه في جانبِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّ النَّظَرَ والتَّدبُّرَ بعدَ ذلك يَكشِفُ عن كُنْهِ كِلَا العَمَلَينِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٣، ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَلَا تُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، فلمْ يَذكُرْ هنا (كُنتم) كما قالَه في غَيرِه؛ وذلك لأنَّ قولَه هنا: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ وقَعَ في مُقابَلةِ ﴿أَجْرَمْنَا﴾ في قولِه: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾، أي: أذنَبْنا، وضَميرُ ﴿أَجْرَمْنَا﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمُرادُ غيرُه، وغيرُه صَدَر منه ذنْبٌ؛ فعُبِّرَ عنه بالماضي. والمُخاطَبُ في ﴿تَعْمَلُونَ﴾ الكُفَّارُ، وكُفرُهم واقعٌ في الحالِ، وفي المُستقبَلِ ظاهرًا، فعُبِّرَ عنه بالمُضارِعِ، فلا يُناسِبُه (كُنتم)، مع أنَّ الخِطابَ في ذلك واقعٌ في الدُّنيا، والخِطابُ في غَيرِه -نحو: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٦٠]- واقعٌ في الآخرةِ؛ فناسَبه التَّعبيرُ بـ﴿كُنتُمْ﴾[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ فيه إعادةُ فِعلِ (قُل)؛ لزِيادةِ الاهتمامِ بهذه المُحاجَّاتِ؛ لِتكونَ كلُّ مُجادَلةٍ مُستقِلَّةً غيرَ مَعطوفةٍ؛ فتكون هذه الجُملةُ استئنافًا ابتِدائيًّا. وأيضًا فهذه الآيةُ بمَنزِلةِ البَيانِ للَّتي قبْلَها؛ لأنَّ نفْيَ سُؤالِ كلِّ فَريقٍ عن عمَلِ غيرِه يَقْتضي أنَّ هنالك سُؤالًا عن عمَلِ نفْسِه، فبَيَّنَ أنَّ الَّذي يَسأَلُ النَّاسَ عن أعمالِهم هو اللهُ تعالى يومَ القِيامةِ الَّذي همْ مُنكِروه؛ فما ظَنُّك بحالِهم يومَ تَحقُّقِ ما أنكَرُوه؟! وهنا تَدرَّجَ الجَدلُ مِن الإيماءِ إلى الإشارةِ القَريبةِ مِن التَّصريحِ؛ لِمَا في إثباتِ يومِ الحِسابِ والسُّؤالِ مِن المُصارَحةِ بأنَّهم الضَّالُّون. ويُسمَّى هذا التَّدرُّجُ عندَ أهلِ الجَدلِ بالتَّرقِّي[٢].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٩)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٥).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تَذييلٌ بوَصفِه تعالى بكَثرةِ الحُكْم وقُوَّتِه وإحاطةِ العِلمِ، وبذلك كان تَذييلًا لجُملةِ ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ المُتضَمِّنةِ حُكمًا جُزْئيًّا؛ فذُيِّلَ بوَصفٍ كُلِّيٍّ. وإنَّما أُتبِعَ الفتَّاحُ بـ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ حُكمَه عَدْلٌ مَحضٌ؛ لأنَّه عليمٌ لا تَحُفُّ بحُكمِه أسبابُ الخَطأِ والجَورِ النَّاشئةُ عن الجَهلِ والعَجزِ، واتِّباعُ الضَّعفِ النَّفسانيِّ النَّاشئُ عن الجَهلِ بالأحوالِ والعَواقبِ[1].

- قولُه: ﴿ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ صِيغَتَا مُبالَغةٍ، وهذا فيه تَهديدٌ وتَوبيخٌ[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أُعِيدَ الأمْرُ بالقَولِ لِمَزيدِ الاهتمامِ، وهو رُجوعٌ إلى طريقِ الاحتجاجِ على بُطلانِ الشِّركِ، فهو كالنَّتيجةِ لِجُملةِ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٤]. والأمرُ في قولِه: ﴿أَرُونِيَ﴾ مُستعمَلٌ في تَعجيزِ المُشركينَ عن إبْداءِ حُجَّةٍ لإشراكِهم، وهو انتقالٌ مِن الاحتجاجِ على بُطلانِ إلَهيَّةِ الأصنامِ بدَليلِ النَّظرِ في قولِه: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ إلى إبطالِ ذلك بدَليلِ البَداهةِ[3]. وقد سُلِكَ مِن طُرُقِ الجَدلِ طَريقُ الاستِفسارِ، والمُصطلَحُ عليه عندَ أهْلِ الجَدلِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٨).

(٣) البَداهة: هي المعرفةُ الحاصلةُ ابتداءً في النَّفْسِ، لا بسببِ الفِكرِ؛ كعِلمِك بأنَّ الواحدَ نصفُ الاثنَينِ. والبديهيُّ أخصُّ مِن الضَّروريِّ؛ لأنَّه ما لا يتوقَّفُ حصولُه على نظرٍ وكسبٍ. والمقصودُ هنا: أنَّ انتفاءَ الإلهيَّةِ عن الأصنامِ بديهيٌّ، ولا يحتاجُ إلى أكثَرَ مِن رؤيةِ حالِها؛ فإنَّ كلَّ مَن يشاهِدُها بادئَ مرَّةٍ يَتبيَّنُ له أنَّها خليَّةٌ عن صِفاتِ الإلهيَّةِ؛ إذ يرى حجارةً لا تَسمعُ ولا تُبصِرُ ولا تَفْقَهُ. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٣-٤٤، ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٨)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ١٩٣).

يكونَ الاستِفسارُ مُقدَّمًا على طَرائقِ المُناظَرةِ[١]، وإنَّما أُخِّرَ هنا؛ لأنَّه كان مُفْضيًا إلى إبطالِ دَعوَى الخَصمِ بحَذافيرِها، فأُريدَ تأْخيرُه؛ لئلَّا يَفُوتَ افتضاحُ الخَصمِ بالأدلَّةِ السَّابقةِ تَبْسيطًا لبِساطِ المُجادَلةِ؛ حتَّى يكونَ كلُّ دَليلٍ مُناديًا على غَلطِ الخُصومِ وباطلِهم. وافتِضاحُ الخَطأِ مِن مَقاصِدِ المُناظِرِ الَّذي قامَتْ حُجَّتُه[٢].

- والتَّعبيرُ عن المَرْئيِّ بطَريقِ المَوصوليةِ ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾؛ لِتَنبيهِ المُخاطَبينَ على خَطئِهم في جَعْلِهم إيَّاهم شُركاءَ للهِ تعالى في الرُّبوبيَّةِ. وفي جَعْلِ الصِّلةِ ﴿أَلْحَقْتُم﴾ إيماءٌ إلى أنَّ تلك الأصنامَ لم تكُنْ مَوصوفةً بالإلهيَّةِ وَصفًا ذاتيًّا حقًّا، ولكنَّ المشرِكينَ أَلْحَقوها باللهِ تعالى؛ فتلك خُلعةٌ خَلَعَها عليهم أصحابُ الأهواءِ، وتلك حالةٌ تُخالِفُ صِفةَ الإلهيَّةِ؛ لأنَّ الإلهيَّةَ صِفةٌ ذاتيَّةٌ قَديمةٌ[٣].

- قولُه: ﴿كَلَّاۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ لَمَّا أعرَضَ عن الخَوضِ في آثارِ الإراءةِ، عُلِمَ أنَّهم مُفتضَحون عندَ تلك الإراءةِ، فقُدِّرتْ حاصلةً، وأُعقِبَ طَلبُ تَحصيلِها بإثباتِ أثَرِها، وهو الرَّدعُ عن اعتقادِ إلهيَّتِها، وإبطالُها عنْهم بإثباتِها للهِ تعالى وَحْدَه؛ فلذلك جُمِعَ بيْنَ حَرفي الرَّدْعِ والإبطالِ، ثمَّ الانتقالِ إلى تَعيينِ الإلهِ الحقِّ. والجُملةُ بعْدَه تَفسيرٌ لِمَعنى الشَّأنِ، و﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ خَبرانِ، أي: بلِ الشَّأنُ المُهِمُّ اللهُ العزيزُ الحكيمُ لا آلهتُكم؛ ففي الجُملةِ قَصرُ العِزَّةِ

---

(١) يُنظر: ((شرح مختصر الروضة)) للصرصري (٣/ ٤٥٩)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٢٠٤)، ((الغيث الهامع شرح جمع الجوامع)) لأبي زرعة العراقي (ص: ٦٢٧)، ((التحبير شرح التحرير)) للمرداوي (٧/ ٣٥٤٦، ٣٦٨٤)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ١٥٨، ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١١٧)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحُكم على اللهِ تعالى؛ كِنايةً عن قَصْرِ الإلهيَّةِ عليه تعالى قَصْرَ إفرادٍ[١]، وهذا إثباتٌ لافتِقارِ أصنامِهم، وانتفاءِ العِلمِ عنها[٢].

- و﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لهم عن مَذهبِهم بعدَ ما كسَرَه بإبطالِ المُقايَسةِ، وقد نبَّه على تَفاحُشِ غَلَطِهم، وأن لم يَقدُروا اللهَ حقَّ قَدْرِه بقولِه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ كأنَّه قال: أيْن الَّذين أَلحَقْتُم به شُركاءَ مِن هذه الصِّفاتِ؟ و﴿هُوَ﴾ راجعٌ إلى اللهِ وَحْدَه، أو ضميرُ الشَّأنِ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ انتقالٌ مِن إبطالِ ضَلالِ المشرِكينَ في أمْرِ الرُّبوبيَّةِ إلى إبطالِ ضَلالِهم في شأْنِ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وغُيِّرَ أُسلوبُ الكلامِ مِن

---

(١) تقدم تعريف القصر وأقسامه (ص: ٤٣).

ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ أيضًا إلى ثلاثةِ أقسام: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّركةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتِراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحيِيُّ المميتُ دونَ اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْرانِ، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٢، ٥٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٩٣).

الأمْرِ بمُحاجَّةِ المشرِكينَ إلى الإخبارِ برِسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تَشريفًا له بتَوجيهِ هذا الإخبارِ بالنِّعمةِ العظيمةِ إليه، ويَحصُلُ إبطالُ مَزاعمِ المُشركينَ بطَريقِ التَّعريضِ(١).

- قولُه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ أي: وما أرسَلْناك للنَّاسِ إلَّا كافَّةً؛ فقُدِّمَ الحالُ ﴿ كَآفَّةٗ ﴾ على صاحِبِه ﴿لِّلنَّاسِ ﴾؛ للاهتمامِ بها؛ لأنَّها تَجمَعُ الَّذين كَفَروا برِسالَتِه كلَّهم(٢).

- وأفادَ تَركيبُ ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ قَصْرَ حالةِ عُمومِ الرِّسالةِ على كافِ الخِطابِ في قولِه: ﴿ أَرۡسَلۡنَٰكَ ﴾، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ(٣)، أي: دونَ تَخصيصِ إرسالِك بأهْلِ مكَّةِ، أو بالعرَبِ، أو بمَن يَجيئُك يَطلُبُ الإيمانَ والإرشادَ، فالرِّسالةُ عامَّةٌ للنَّاسِ، مُحيطةٌ بهم؛ لأنَّها إذا شَمِلَتهم فقد كَفَتْهم أنْ يَخرُجَ منها أحدٌ منهم، ويَقْتضي ذلك إثباتَ رِسالتِه بدَلالةِ الاقتضاءِ؛ إذ لا يَصدُقُ ذلك القَصرُ إلَّا إذا ثبَتَ أصْلُ رِسالتِه؛ فاقْتَضَى ذلك الرَّدَّ على المُنكِرين كلِّهم، سواءٌ مَن أنكَرَ رِسالتَه مِن أصْلِها، ومَن أنكَرَ عُمومَها، وزعَمَ تَخصيصَها(٤). وقيل: إنَّ حالَ الإرسالِ مَحْصورٌ في العُمومِ؛ للغرَضِ الَّذي ذُكِرَ مِن التَّدرُّعِ لِحَمْلِ المَشاقِّ، لا في النَّاسِ؛ فإنَّه لو أُريدَ ذلك لَقُدِّموا فقِيل: (إلَّا للنَّاسِ كافَّةً)(٥).

- ومَوقعُ الاستِدراكِ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ رفْعُ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٩٨).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٤).

يُتوهَّمُ مِنِ اغترارِ المُغترِّينَ بكَثرةِ عدَدِ المُنكرين رِسالةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ كَثرتَهم تَغُرُّ المُتأمِّلَ؛ لأنَّهم لا يَعلَمون[١].

- ومَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ؛ لِدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: لا يَعلَمون ما بَشَّرْت به المؤمِنينَ، وما أنْذَرْتَ به الكافرينَ، أي: يَحسَبون البِشارةَ والنِّذارةَ غيرَ صادقتَينِ، على قولٍ في التَّفسيرِ. ويجوزُ أنْ يكونَ فِعلُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مُنزَّلًا مَنزلةَ اللَّامِ، مَقصودًا منه نَفْيُ صِفةِ العِلمِ عنهم، أي: ولكنَّ أكثَرَ النَّاسِ جاهِلون قَدْرَ البِشارةِ والنِّذارةِ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

- صِيغةُ المُضارِعِ في (يَقُولُونَ) تُفِيدُ التَّعجُّبَ مِن مَقالتِهم، مع إفادتِها تَكرُّرَ ذلك القولِ منهم وتَجدُّدَه. واسمُ الإشارةِ في ﴿هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾؛ للاستِخفافِ والتَّحقيرِ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٍ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةً وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ جُملةٌ مَسوقةٌ مَساقَ الجوابِ عن مَقالتِهم؛ ولذلك فُصِلَتْ ولم تُعطَفْ على طَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ في القُرآنِ[٤]. وهذا الجَوابُ جَرَى على طَريقةِ الأُسلوبِ الحَكيمِ، أي: أنَّ الأهمَّ للعُقلاءِ أنْ تَتوجَّهَ هِمَمُهم إلى تَحقُّقِ وُقوعِ الوَعدِ في الوقتِ الَّذي عيَّنَه اللهُ له، وأنَّه لا يُؤخِّرُه شَيءٌ ولا يُقدِّمُه، وحسَّنَ هذا الأُسلوبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ سُؤالَهم إنَّما أرادوا به الكِنايةَ عن انتفاءِ وُقوعِه. وفي هذا الجَوابِ تَعريضٌ بالتَّهديدِ، فكان مُطابِقًا للمَقصودِ مِن الاستفهامِ، ولذلك زِيدَ في الجوابِ كَلمةُ ﴿لَكُمْ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ هذا المِيعادَ مُنصرِفٌ إليهم ابتداءً[١].

- وفي هذا الجوابِ مِن المُبالَغةِ في التَّهديدِ ما لا يَخْفى؛ حيثُ جُعِلَ الاستئخارُ في الاستحالةِ كالاستقدامِ المُمتنعِ عقْلًا. ويجوزُ أنْ يكونَ نفْيُ الاستئخارِ والاستقدامِ غيرَ مُقيَّدٍ بالمُفاجأةِ، فيكونَ وصْفُ المِيعادِ بذلك لِتَحقيقِه وتَقريرِه[٢].

- وخُولِفَ مُقْتضى الظَّاهرِ في الجوابِ مِن الإتيانِ بضَميرِ الوَعدِ الواقعِ في كَلامِهم إلى الإتيانِ باسمٍ ظاهرٍ، وهو ﴿مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾؛ لِمَا في هذا الاسمِ النَّكرةِ مِن الإبهامِ الَّذي يُوجِّهُ نُفوسَ السَّامعينَ إلى كلِّ وَجهٍ مُمكِنٍ في مَحمَلِ ذلك، وهو أنْ يكونَ يومَ البعثِ أو يومًا آخَرَ يَحِلُّ فيه عذابٌ على أئمَّةِ الكُفرِ وزُعماءِ المشرِكينَ، وهو يومُ بَدْرٍ، ولعلَّ الَّذين قُتِلوا يومَئذٍ همْ أصحابُ مَقالةِ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. وأفاد تَنكيرُ ﴿يَوْمٍ﴾ تَهويلًا وتَعظيمًا؛ بقَرينةِ المَقامِ[٣].

- والاستِئخارُ والاستقدامُ مُبالَغةٌ في التَّأخُّرِ والتَّقدُّمِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، وقُدِّمَ الاستئخارُ على الاستِقدامِ إيماءً إلى أنَّه مِيعادُ بأْسٍ وعَذابٍ عليهم مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٣ - ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٠).

شأْنِه أنْ يَتمنَّوا تأخُّرَه، ويكونُ ﴿وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ تَتميمًا[١]؛ لِتَحقُّقِه عندَ وَقتِه المُعيَّنِ في عِلمِ اللهِ[٢].

- والسَّاعةُ: حِصَّةٌ مِن الزَّمنِ، وتَنكيرُها للتَّقليلِ بمَعونةِ المَقامِ[٣].

(١) تقدم تعريفه (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢١-٢٢)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُمۖ بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَوۡقُوفُونَ﴾: أي: محبوسونَ للحسابِ يومَ القيامةِ، وأصل (وقف): يدُلُّ على تَمَكُّثٍ في شَيءٍ[١].

﴿يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ﴾: أي: يَتلاوَمون؛ يُحاوِرُ بعضُهم بعضًا، وأصلُ (رجع): يدُلُّ على ردٍّ وتَكرارٍ[٢].

﴿أَندَادًا﴾: أي: أمثالًا، ونُظَراءَ، وشُرَكاءَ، وأصلُ (ندد): يدُلُّ على شُرودٍ وفِراقٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٨).

﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: أي: مَكْرُكم في اللَّيلِ والنَّهارِ، والمكرُ: الاحتيالُ والخِداعُ، وصَرْفُ الغيرِ عمَّا يَقصِدُه بحيلةٍ(١).

﴿ٱلْأَغْلَٰلَ﴾: جمعُ غُلٍّ، والغُلُّ: مختصٌّ بما يُقيَّدُ به فيَجعلُ الأعضاءَ وسطَه، أو: هو طوقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنقِ، أو حَلْقةٌ مِن حديدٍ أو غيرِه تُحيطُ بالعُنقِ تُناطُ بها سِلسلةٌ مِن حديدٍ، وأصلُ (غلل): تدرُّعُ الشَّيءِ وتوسُّطُه(٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى حاكيًا بعضَ الأقوالِ الباطلةِ للمشركينَ: وقال الَّذين كَفَروا: لن نُؤمِنَ بهذا القُرآنِ الَّذي جاء به محمَّدٌ، ولا بالَّذي أُنزِلَ قبْلَه مِنَ التَّوراةِ والإنجيلِ.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى أحوالَهم السَّيِّئةَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: ولو تَرى إذ المُشرِكونَ يومَ القيامةِ مَحبوسونَ في مَوقِفِ الحِسابِ يُخاصِمُ بَعضُهم بعضًا؛ لَرأيتَ أمرًا عَظيمًا؛ يقولُ المُستَضعَفونَ مِنَ المُشرِكينَ لِرُؤسائِهم وكُبَرائِهم: لولا أنَّكم أضلَلْتُمونا في الدُّنيا لَكُنَّا مِنَ المؤمِنينَ. قال القادةُ المُشرِكونَ لأتْباعِهم: أنحن مَنَعْناكم عن قَبولِ الحَقِّ بعدَما جاءكم؟! بل كنتُم مُجرِمينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٩).

قال الفَرَّاءُ: (المكرُ ليس لِلَّيْلِ ولا للنَّهارِ، إنَّما المعنى: بل مكرُكم باللَّيلِ والنَّهارِ. وقد يجوزُ أن نُضيفَ الفعلَ إلى اللَّيلِ والنَّهارِ، ويَكونا كالفاعِلين؛ لأنَّ العرب تقولُ: نهارُك صائمٌ، ولَيْلُك نائمٌ، ثمَّ تُضيفُ الفِعلَ إلى اللَّيلِ والنَّهارِ، وهو في المعنى للآدميِّينَ، كما تقولُ: نامَ لَيْلُك، وعزَمَ الأمرُ، إنَّما عزَمه القومُ. فهذا مما يُعرَفُ معناه فتَتَّسِعُ به العربُ). ((معاني القرآن)) (٢/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

وقال المُستَضعَفونَ لرُؤسائِهم: ليس الأمرُ كما زَعمتُم، وإنَّما صَدَّنا خِداعُكم لنا بتَزيينِ الباطِلِ، وتَقبيحِ الحَقِّ لَيلًا ونهارًا؛ إذ تأمُرونَنا أن نَكفُرَ باللهِ، ونجعَلَ له نُظراءَ وشُرَكاءَ، وأسَرُّوا جميعًا النَّدَمَ والحَسرةَ حينَ رأَوُا العذابَ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه ما حلَّ بهم مِن عذابٍ، فيقولُ: وجعَلْنا القُيودَ في أعناقِ الكافِرينَ، لا يُجزَونَ إلَّا جزاءَ عمَلِهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوۡقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ يَرۡجِعُ بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ ٱلۡقَوۡلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لَوۡلَآ أَنتُمۡ لَكُنَّا مُؤۡمِنِينَ ٣١ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الأمورَ الثَّلاثةَ: مِن التَّوحيدِ، والرِّسالةِ، والحَشرِ؛ وكانوا بالكُلِّ كافِرينَ- بيَّنَ كُفرَهم العامَّ، بقَولِه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ ﴾؛ وذلك لأنَّ القُرآنَ مُشتَمِلٌ على الكُلِّ[1].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ سُبحانَه بملازمتِهم للاستِهزاءِ بهذا الإنذارِ على أنَّهم غَيرُ مُنفَكِّينَ عن مذاهبِ الكُفَّارِ- ذكَرَ تصريحَهم بذلك وحالَهم في بعضِ الأوقاتِ المُنطَبِقةِ عليها الآيةُ السَّالِفةُ في قَولِه[2]:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ ﴾.

أي: وقال الَّذين كَفَروا[3]: لن نُؤمِنَ بهذا القرآنِ الَّذي جاء به محمَّدٌ، ولا بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٧، ٥٠٨).

(٣) قيل: المرادُ بهم: مُشرِكو العرَبِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والماوَرْديُّ، والشوكاني، =

بينَ يدَيه[1].

= والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧٠٣).

وقيل: كُفَّارُ قُرَيشٍ. وممَّن قال به: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢).

قال ابنُ عثيمين: (لا ينبغي أن نخصِّصَ ما عمَّمه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فالصَّوابُ: وقال الَّذين كفَروا مِن أهلِ مكَّةَ وغَيرِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠١، ٢٠٢).

قال القرطبي: (قيل: إنَّ أهلَ الكتابِ قالوا للمُشرِكينَ: صِفةُ محمَّدٍ في كتابِنا فسَلُوه، فلمَّا سألوه فوافَقَ ما قال أهلُ الكتابِ، قال المُشرِكون: لن نؤمِنَ بهذا القرآنِ ولا بالَّذي أُنزِلَ قبْلَه مِن التَّوراةِ والإنجيلِ، بل نكفُرُ بالجميعِ، وكانوا قبْلَ ذلك يُراجِعونَ أهلَ الكتابِ، ويَحتجُّونَ بقَولِهم! فظهَر بهذا تناقُضُهم، وقِلَّةُ عِلْمِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢).

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠١، ٢٠٢).

واختلَف المفسِّرون في معنى ما بين يَدَي القرآن، فقيل: هو ما تقدَّمَه مِن الكُتبِ السَّابقةِ؛ كالتَّوراةِ والإنجيلِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن الجوزي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠١، ٢٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧٠٣).

وقيل: ما بيْنَ يَدَيه، أي: ما أخبَرَ به مِن أمورِ المَعادِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩).

وذهب ابنُ عثيمين إلى أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بِٱلَّذِى بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: الكُتبُ الَّتي سبَقَت القرآنَ كالتَّوراةِ والإنجيلِ، أو ما أخبَر به القرآنُ ممَّا يأتي بعدَه.

قال: (والمَعنَيانِ صَحيحانِ، وإذا كانت الآيةُ تَحتَمِلُ مَعنيَيْنِ صَحيحينِ لا يَتَنافَيانِ، وجَبَ حَمْلُها على الجميعِ؛ لأنَّ القُرآنَ شامِلٌ وواسِعٌ). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٢).

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ ميعادَ المُستعجِلينَ بالعذابِ لا بُدَّ مِن وُقوعِه عند حُلولِ أجَلِه؛ ذكَرَ هنا حالَهم في ذلك اليومِ[١].

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ ﴾.

أي: ولو ترى[٢] المُشرِكينَ يومَ القيامةِ وهم محبوسونَ في مَوقِفِ الحِسابِ، يحاوِرُ بَعضُهم بَعضًا باللَّومِ والخِصامِ والعِتابِ، بعدَ أن كانوا في الدُّنيا أخِلَّاءَ مُتحابِّينَ مُتناصِرينَ؛ لَرأيتَ أمرًا عَظيمًا، وشأنًا عجيبًا[٣]!

﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾.

أي: يَقولُ الأتْباعُ المُشرِكونَ -الَّذين كانوا في الدُّنيا مُستَضعَفينَ- لِرُؤسائِهم وكُبَرائِهم المتبوعينَ: لولا أنَّكم أضلَلْتُمونا في الدُّنيا لَكُنَّا مِنَ المؤمِنينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (١/ ٦٨٠).

(٢) قيل: الخطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢).
وقيل: الخِطابُ لكُلِّ مَن يَصلُحُ لتلَقِّي الخِطابِ ممَّن تَبلُغُه هذه الآيةُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٨، ٥٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦). =

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُوٓاْ أَنَحۡنُ صَدَدۡنَٰكُمۡ عَنِ ٱلۡهُدَىٰ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَكُم﴾.

أي: قال القادةُ المُشرِكونَ لأتْباعِهم المُستَضعَفينَ: أنحن مَنَعْناكم وصرَفْناكم عن قَبولِ الحَقِّ بعدَما جاءَكم مِن عندِ اللهِ[1]؟!

﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كذلك، فنحنُ لم نُكرِهْكم على الكُفرِ، وإنَّما كُنتُم في الدُّنيا عريقينَ في الإجرامِ، باختيارِكم الكُفرَ وإيثارِه على الإيمانِ[2].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لمَّا أنكَر رؤساؤُهم أنَّهم السببُ في كفرِهم، وأثبَتوا بقولِهم: ﴿بَلۡ كُنتُم مُّجۡرِمِينَ﴾ أنَّ كفرَهم هو مِن قِبَلِ أنفسِهم، قابَلوا إضرابًا بإضرابٍ[3].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

---

= قال ابن عاشور: (اعلَمْ أنَّ المرادَ بقولِهم: ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ بالمعنى اللَّقبيِّ الَّذي اشتهر به المسلِمون؛ فلذلك لا يُقدَّرُ لـ ﴿مُؤۡمِنِينَ﴾ متعلَّقٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٢).

أي: وقال الأتْباعُ المُستَضعَفونَ لِرُؤسائِهم: ليس الأمرُ كما ذكَرتُم، وإنَّما احتيالُكم وخِداعُكم لنا، ومُلازمتُكم تزيينَ الباطِلِ وتقبيحَ الحَقِّ ليلًا ونهارًا: هو ما صَدَّنا عن الهدى، ونفَّرَنا عن الحَقِّ(١).

﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾.

أي: حينَ تأمُرونَنا أن نَكفُرَ باللهِ، ونجعَلَ له أمثالًا وأشباهًا ونُظَراءَ وشُرَكاءَ(٢).

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾.

أي: وأسَرَّ جميعُ المُشرِكينَ -مِن الأتْباعِ المُستَضعَفينَ والمتبوعينَ المُستَكبِرينَ- في أنفُسِهم شِدَّةَ النَّدَمِ حينَ رأَوْا عذابَ النَّارِ، فزال عنهم ما احتَجَّ به بعضُهم على بعضٍ لِيَنجوَ مِن العذابِ، وعَلِموا أنَّهم مُستَحِقُّونَ له، وتمنَّوا أنْ لو كانوا على الحَقِّ، وأنَّهم ترَكوا الباطِلَ الَّذي أوصَلَهم إلى عذابِ اللهِ تعالى(٣)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١٤- ٢١٧).

ممن اختار أنَّ الضمير في قوله: ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ عامٌّ في جميعِ مَن تقدَّم ذكرُه مِن الفريقين: المستضعفين والمستكبرين: ابن عطية، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٩).

وقال الواحدي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ يونسَ (الآية ٥٤): (﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: أخفَى الرؤساءُ الندامةَ مِن السفلةِ الذين أضلُّوهم، أي: كتَموهم ذلك ولم يُطلِعوهم عليه، هذا قولُ عامةِ المفسرينَ، وأصحابِ المعاني). ((البسيط)) (١١/ ٢٢٤). =

﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: وجعَلْنا القُيودَ في أعناقِ الكافِرينَ جميعًا مِن الأتْباعِ والمتبوعينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الرعد: ٥].

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: لا يُجزَى الكافِرونَ إلَّا بحَسَبِ ما كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا مِن أعمالٍ خَبيثةٍ(٢).

---

= وقيل: أسرُّوا أي: أظْهروا، وأنَّه مِن الأضدادِ، يكونُ بمعنى الإخفاءِ والإبداءِ. وممن اختاره: ابنُ قتيبةَ، والثعلبي، ومكي، والبغوي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٩١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٢).

وقد ردَّه ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٢٠).

قيل: المرادُ بالغُلِّ: تقييدُ اليدين معًا وتعليقُهما في العُنُقِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١٧).

قال القاسمي عن الأغلالِ: (هي السَّلاسلُ الَّتي تجمَعُ أيديَهم مع أعناقِهم). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٠).

وذكر ابن عاشور أنَّ الغُلَّ دائرةٌ مِن حديدٍ أو جلدٍ على سَعَةِ الرَّقبةِ تُوضَعُ في رقبةِ المأسورِ ونحوِه ويُشَدُّ إليها بسِلْسِلةٍ أو سَيْرٍ مِن جلدٍ أو حبلٍ، وقال: (وجعلُ الأغلالِ في الأعناقِ شعارٌ على أنَّهم يُساقون إلى ما يحاوِلونَ الفِرارَ والانفِلاتَ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ ويُحيلُ بعضُهم على بعضٍ الجُرمَ، وهكذا أصحابُ الزلَّاتِ الأخِلَّاءُ في الفسادِ، قال تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وكذلك الجوارحُ والأعضاءُ غدًا يشهدُ بعضُها على بعضٍ، فمَن عَمِلَ بالمعاصي أخرَجَ اللهُ عليه كُلَّ مَن هو أطوَعُ له، ولكنَّهم لا يعلمونَ ذلك، ولو علِموا لاعتَبَروا، ولو اعتَبَروا لَتابوا ووُفِّقوا، ولكنْ ليَقْضيَ الله أمرًا كان مفعولًا[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ اقتصَرَ على حِكايةِ مَقالةِ الكافرينَ دونَ تَعقيبٍ بما يُبطِلُها؛ إيماءً إلى أنَّ بُطلانَها بادٍ لكُلِّ مَن يَسمَعُها؛ حيثُ جمَعَت التَّكذيبَ بجَميعِ الكُتُبِ والشَّرائِعِ، وهذا بهتانٌ واضِحٌ[2].

---

= (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

قال الشوكاني: (﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إلَّا جزاءَ ما كانوا يَعمَلونه مِن الشِّركِ باللهِ، أو إلَّا بما كانوا يَعملونَ على حذفِ الخافِضِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٨).

وقال ابن كثير: (﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: إنَّما نُجازيكم بأعمالِكم كلٌّ بحَسَبِه؛ للقادةِ عذابٌ بحسَبِهم، وللأتباعِ بحسَبِهم ﴿قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠).

وقال ابن عاشور: (اعلَمْ أنَّ كَوْنَه مُماثِلًا في المِقدارِ أمرٌ لا يعلَمُه إلَّا مُقَدِّرُ الحقائِقِ والنِّيَّاتِ، وأمَّا كونُه وِفاقًا في النَّوعِ فلأنَّ وَضْعَ الأغلالِ في الأعناقِ مَنعٌ مِن حرِّيَّةِ التَّصرُّفِ في أنفُسِهم؛ فناسَبَ نوعُه أن يكونَ جزاءً على ما عبَّدوا به أنفُسَهم لأصنامِهم... وما تقبَّلوه مِن استِعبادِ زُعَمائِهم وكُبَرائِهم إيَّاهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١١).

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بعدَ قولِه سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أنَّ الكفرَ ظُلْمٌ، ويُؤَيِّدُ ذلك قولُه تعالى في سورةِ البقرةِ: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1] [البقرة: ٢٥٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ بدأ الأتْباعُ بتوبيخِ مُضِلِّيهم؛ إذ زالت عنهم رئاسَتُهم، ولم يُمكِنْهم أن يُنكِروا أنَّهم ما جاءهم رَسولٌ، بل هم مُقِرُّونَ[2]، ولأنَّ المُضِلَّ أَولَى بالتَّوبيخِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: إخبارٌ مِن اللهِ وتحذيرٌ بأنَّ المَتبوعينَ والتَّابِعينَ اشترَكوا في العذابِ، ولم يُغْنِ عنهم تقليدُهم شَيئًا[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ دليلٌ على أنَّ الرؤساءَ مِن أهلِ الضَّلالِ يَدْعُون لَيلًا ونهارًا -لا يَسْأَمُونَ- لباطلِهم، وصَدِّ النَّاسِ عن دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وغالبُ دعاةِ الخَيرِ معَ الأسفِ ليس عندَهم اليقظةُ لِمَكْرِ هؤلاء الماكرينَ الخادعينَ، يأخُذونَ بالظَّاهرِ؛ ولا يَعلمونَ أنَّ هؤلاء الخبثاءَ شرٌّ مِن الَّذين يَتظاهَرونَ بالسوءِ، فينبغي الانتباهُ لدعوةِ أهلِ الباطلِ والشَّرِّ والفسادِ[5]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ أنَّ هؤلاءِ الرُّؤساءَ قد فرَضوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥١، ٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١٢، ٢١٣).

سيطرتَهم وسلطانَهم على هؤلاءِ الأتْباعِ فرضًا لا مَحيدَ لهم عنه، فهم عندَما يَدْعونهم لا يقولونَ مثلًا: إنَّ الكفرَ حسَنٌ؛ وإنَّ اتِّخاذَ الشُّرَكاءِ حسَنٌ! وما أشبَهَ ذلك، بل يقولون: اكْفُروا! فيَأْمُرونهم بذلك، والأمرُ هو طلبُ الفعلِ على وجهِ الاستعلاءِ(١).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ نَدِمَ كُلٌّ منهم غايةَ النَّدَمِ سِرًّا في أنفُسِهم؛ لخَوفِهم مِنَ الفَضيحةِ في إقرارِهم على أنفُسِهم، وفي بعضِ مواقِفِ القيامةِ وعندَ دُخولِهم النَّارَ يُظهِرونَ ذلك النَّدَمَ جَهرًا ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧، ٢٨]، ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١](٢)، والنَّدَمُ عندَ رؤيةِ العذابِ لا ينفعُ، فلم يَنتفِعوا بإظهارِ النَّدامةِ، ولا بإسرارِها في نفوسِهم أيضًا، أمَّا النَّدمُ قبْلَ رؤيةِ العذابِ فهو توبةٌ، إذا أصلَحَ العملَ تاب اللهُ عليه(٣).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أنّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَظلِمُ أحدًا(٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ هذا انتِقالٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٠).

ذِكرِ طَعنِ المُشركينَ في القُرآنِ، وهي مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ [سبأ: ٢٩]. وجِيءَ بحَرْفِ ﴿لَن ﴾؛ لِتَأكيدِ نَفْيِ إيمانِهم بالكُتبِ المُنزَّلةِ على التَّأبيدِ؛ تأْييسًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ مِن الطَّمعِ في إيمانِهم به[١].

- واسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ ﴾ مُشارٌ به إلى حاضرٍ في الأذهانِ؛ لأنَّ الخَوضَ في القُرآنِ شائعٌ بيْنَ الناسِ مِن مُؤيِّدٍ ومُنكِرٍ؛ فكأنَّه مُشاهَدٌ[٢]، وقيل: هذه الإشارةُ للقريبِ؛ تَحقيرًا له[٣].

- وأُردِفَت حِكاياتُ أقوالِهم وكُفرانِهم بعْدَ استيفاءِ أصنافِها بذِكرِ جَزائِهم، وتَصويرِ فَظاعَتِه، بما في قولِه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ... ﴾ مِن الإبهامِ المُفيدِ للتَّهويلِ، والمُناسَبةُ ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾ [سبأ: ٢٩]؛ فإنَّه بعدَ أنْ أَلْقَمَهم الحَجَرَ بقولِه: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ [سبأ: ٣٠] إلخ، أتْبَعَه بتَصويرِ حالِهم فيه، والخِطابُ في قولِه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾ لكلِّ مَن يَصلُحُ لِتلقِّي الخِطابِ ممَّن تَبلُغُه هذه الآيةُ -على أحدِ القولينِ-، أي: ولو يَرى الرَّائي هذا الوقتَ، وجوابُ (لو) مَحذوفٌ للتَّهويلِ، وهو حَذْفٌ شائعٌ، وتَقديرُه: لَرأيتَ أمْرًا عَجَبًا[٤].

- والإتيانُ بالجُملةِ الَّتي أُضيفَ إليها الظَّرفُ اسميَّةً ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ ﴾؛ لإفادةِ طُولِ وُقوفِهم بيْن يَدَيِ اللهِ طولًا يَستوجِبُ الضَّجَرَ، ويَملأُ القُلوبَ رُعبًا[٥].

- في قَولِه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ ﴾ حسُنَ الإظهارُ في موضعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٠٤).

الإضمارِ، فقد قال: ﴿إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ ولم يَقُلْ: (ولو ترَى إذْ هم مَوقوفونَ)؛ إرادةً للعمومِ، بحيث يَشملُ هؤلاء المذكورينَ وغيرَهم، وللتَّسجيلِ عليهم بما يقتضيه وصْفُ الظُّلْمِ، إذْ إنَّه لو قيل: «ولو ترَى إذْ هم مَوقوفونَ» ما استَفَدْنا أنَّ هؤلاءِ كانوا ظالِمينَ، فلمَّا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ سَجَّل عليهم أنَّه ظُلْمٌ(١).

- وجِيءَ بالمُضارِعِ ﴿يَرْجِعُ﴾؛ لاستِحضارِ حالةِ المُجرِمين، وأنَّهم مَوقوفون عندَ ربِّهم، راجِعون بعضُهم إلى بعضٍ(٢).

- قولُه: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ هذه الجُملةُ وما ذُكِرَ بعْدَها مِن الجُمَلِ المَحكيَّةِ بأفعالِ القولِ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾(٣). ومِن الفصاحةِ والبلاغةِ ذِكْرُ القولِ مجمَلًا ثم يُفَصَّلُ؛ فإنَّه إذا ذُكِر الأمرُ مجمَلًا تَشَوَّفَت النَّفْسُ إلى معناه والتَّفصيلِ فيه؛ حتَّى يَرِدَ إليها وهي مشتاقةٌ إليه(٤).

- وجِيءَ بالمُضارِعِ فيها لاستِحضارِ حالةِ القولِ؛ لأنَّها حالةٌ غريبةٌ؛ لِمَا فيها مِن جُرأةِ المُستضعَفينَ على المُستكبِرين، ومِن تَنبُّهِ هؤلاء مِن غَفلَتِهم عمَّا كان المُستكبِرون يُغْرُونهم به حتَّى أوقَعُوهم في هذا المأْزِقِ(٥).

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ للعَدِّ والحِسبانِ، أي: الَّذين يَعُدُّهم النَّاسُ ضُعفاءَ لا يُؤبَهُ بهم، وإنَّما يَعُدُّهم النَّاسُ كذلك؛ لأنَّهم كذلك، ويُعلَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٤، ٢٠٥).

أنَّهم يَستضعِفون أنفُسَهم بالأوْلَى؛ لأنَّهم أعلَمُ بما في أنفُسِهم. وقُوبِلَ الَّذين استُضْعِفوا بالَّذين استَكْبَروا، أي: عَدُّوا أنفُسَهم كُبراءَ، وهمْ ما عَدُّوا أنفُسَهم كُبراءَ إلَّا لِمَا يَقْتضي استِكبارَهم؛ لأنَّهم لو لم يَكونوا كذلك لَوُصِفوا بالغُرورِ والإعجابِ الكاذِبِ؛ ولهذا عُبِّرَ في جانبِ الَّذين استُضْعِفوا بالفِعلِ المَبنيِّ للمَجهولِ ﴿ٱسْتُضْعِفُواْ﴾، وفي جانبِ الَّذين استَكْبَروا بالفِعلِ المَبنيِّ للمعلومِ ﴿ٱسْتَكْبَرُواْ﴾[1].

- وحَرفُ (لولا) يُؤذِنُ بتَعليقِ حُصولِ جَوابِه على وُجودِ شرطِه، وقد جاء في هذه الآيةِ رَبْطُ التَّعليقِ بضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ﴾؛ فاقْتَضى أنَّ المُستضعَفينَ ادَّعَوْا أنَّ وُجودَ المستكبِرين مانعٌ لهم أنْ يَكونوا مُؤمِنينَ، فاقْتَضى أنَّ جميعَ أحوالِ المُستكبِرين كانت تُدَنْدِنُ حوْلَ مَنْعِهم مِن الإيمانِ، فكأنَّ وُجودَهم لا أثَرَ له إلَّا في ذلك مِن انقطاعِهم للسَّعيِ في ذلك المنْعِ، وهو ما دلَّ عليه قولُهم فيما بعْدُ: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٣٣]، مِن فَرْطِ إلْحاحِهم عليهم بذلك، وتَكريرِه في مُعظمِ الأوقاتِ، فكأنَّه استَغْرَقَ وُجودَهم؛ لأنَّ الوجودَ كَونٌ في أزْمنةٍ، فكان قولُهم هنا: ﴿لَوۡلَآ أَنتُمۡ﴾ مُبالَغةً في شِدَّةِ حِرصِهم على كُفرِهم. وهذا وَجهٌ وَجيهٌ في الاعتبارِ البلاغيِّ، فمُقْتضى الحالِ مِن هذه الآيةِ هو حَذْفُ المُشبَّهِ[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ ...﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٠٥، ٢٠٦).

استِئنافٌ مَبْنيٌّ على سُؤالٍ، كأنَّه قيلَ: فماذا قال الَّذين استَكبَروا في الجوابِ؟ فقيل: قالوا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾؛ فجاءت هَمزةُ الاستفهامِ للإنكارِ(١).

- وجُرِّدَ الفِعلُ ﴿قَالَ﴾ عن العاطفِ؛ لأنَّه جاء على طَريقةِ المُجاوَبةِ، والشَّأنُ فيه حِكايةُ القولِ بدُونِ عطْفٍ(٢).

- وأُتِيَ بالمُسنَدِ إليه ﴿أَنَحْنُ﴾ قبْلَ المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿صَدَدْنَٰكُمْ﴾ في سياقِ الاستفهامِ الإنكاريِّ الَّذي هو في قوَّةِ النَّفيِ؛ لِيُفِيدَ تَخصيصَ المُسنَدِ إليه بالخبَرِ الفِعليِّ على طَريقةِ: ما أنا قلْتُ هذا؛ لأنَّ الغرَضَ إنكارُ أنْ يَكونوا همُ الصَّادِّينَ لهم عن الإيمانِ، وإثباتُ أنَّهم همُ الَّذين صَدُّوا بأنفُسِهم عنه؛ حيثُ أعرَضوا عن الهُدى وآثَروا التَّقليدَ عليه، وأنَّهم أُتُوا مِن قِبَلِ اختيارِهم(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ...﴾ لم تَجْرِ حِكايةُ هذا القولِ على طَريقةِ حِكايةِ المُقاوَلاتِ الَّتي تُحْكى بدونِ عطْفٍ على حُسنِ الاستعمالِ في حِكايةِ المُقاوَلاتِ؛ فجِيءَ بحَرْفِ العطْفِ في حِكايةِ هذه المَقالةِ، مع أنَّ المُستضعَفينَ جاوَبوا بها قولَ الَّذين استَكْبَروا: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ [سبأ: ٣٢] الآيةَ؛ لِنُكتةٍ دَقيقةٍ، وهي التَّنبيهُ على أنَّ مَقالةَ المُستضعَفينَ هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٦).

هي في المَعنى تَكملةٌ لِمَقالَتِهم المَحكيَّةِ بقولِه: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١]؛ تنبيهًا على أنَّ مَقالتَهم تَلقَّفَها الَّذين استَكْبَروا، فابتَدَرُوها بالجوابِ بحيثُ لو انتَظَروا تَمامَ كَلامِهم وأبْلَغُوهم رِيقَهم، لَحصَلَ ما فيه إبطالُ كَلامِهم، ولكنَّهم قاطَعوا كَلامَهم مِن فَرْطِ الجَزَعِ أنْ يُؤاخَذوا بما يَقولُه المُستضعَفون، وحُكِيَ قولُهم هذا بفِعلِ الماضي ﴿وَقَالَ﴾؛ لِمُزاوَجةِ كَلامِ الَّذين استَكْبَروا؛ لأنَّ قولَ الَّذين استُضْعِفوا هذا بعدَ أنْ كان تَكملةً لِقَولِهم الَّذي قاطَعَه المُستكبِرون، انقلَبَ جَوابًا عن تَبرُّؤِ المُستكبِرينَ مِن أنْ يَكونوا صَدُّوا المُستضعَفينَ عن الهُدى؛ فصار لِقَولِ المُستضعَفينَ مَوقعانِ يَقْتضي أحدُ الموقعَينِ عطْفَه بالواوِ، ويَقتضي الموقعُ الآخَرُ قَرْنَه بحرْفِ ﴿بَلْ﴾، وبزيادةِ ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، وأصلُ الكلامِ: يقولُ الَّذين استُضْعِفوا للَّذين استَكْبروا: لولا أنتُم لَكنَّا مُؤمِنين؛ إذ تَأمُرونَنا باللَّيلِ والنَّهارِ أنْ نَكفُرَ باللهِ... إلخ، فلمَّا قاطَعَه المُستكبِرون بكَلامِهم أُقحِمَ في كَلامِ المُستضعَفين حَرفُ ﴿بَلْ﴾؛ إبطالًا لِقولِ المُستكبِرين: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢]، وبذلك أفاد تَكملةَ الكلامِ السَّابقِ، والجوابَ عن تَبرُّؤِ المُستكبِرينَ، ولو لم يُعطَفْ بالواوِ لَمَا أفاد إلَّا أنَّه جوابٌ عن كَلامِ المُستكبِرين فقطْ، وهذا مِن أبدَعِ الإيجازِ(١).

- و﴿بَلْ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ؛ إبطالًا لِمُقتضى القَصرِ في قَولِهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ [سبأ: ٣٢]؛ فإنَّه واقعٌ في حيِّزِ نَفْيٍ؛ لأنَّ الاستِفهامَ الإنكاريَّ له مَعنى النَّفيِ(٢).

- وارتفَعَ ﴿مَكْرُ﴾ على الابتداءِ، والخبَرُ مَحذوفٌ دلَّ عليه مُقابَلةُ هذا الكلامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٠٨).

بكلامِ المُستكبِرينَ؛ إذ هو جوابٌ عنه؛ فالتَّقديرُ: بلْ مَكرُكم صَدَّنا، فيُفِيدُ القَصْرَ، أي: ما صَدَّنا إلَّا مَكرُكم، وهو نَقضٌ تامٌّ لِقولِهم: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ [سبأ: ٣٢]، وقولِهم: ﴿بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ [سبأ: ٣٢]، والمرادُ: أنَّهم مُلازِمونَ للمَكرِ ليلًا ونهارًا، وهو كِنايةٌ عن دَوامِ الإلحاحِ عليهم في التَّمسُّكِ بالشِّركِ(١).

- قولُه: ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ همْ هؤلاء الَّذين جَرَتْ عليهم الضَّمائرُ المُتقدِّمةُ. والإتيانُ بالاسمِ الظَّاهرِ دونَ أن يقولَ: (في أعناقِهم)، وكونُه مَوصولًا؛ للتَّنويهِ بذَمِّهم، وللدَّلالةِ على ما استَحقُّوا به الأغلالَ، وللإيماءِ إلى أنَّ ذلك جَزاءُ الكُفرِ؛ ولذلك عُقِّبَ بجُملةِ ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢).

- قولُه: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا، كأنَّ سائلًا استعظَمَ هذا العذابَ، وهو تَعريضٌ بهم. والاستفهامُ بـ (هل) مُستعمَلٌ في الإنكارِ، باعتبارِ ما يَعقُبُه مِن الاستثناءِ(٣).

- وجُعِل جَزاءُ الكافرينَ هو ما كانوا يَعمَلونه على مَعنى التَّشبيهِ البليغِ، أي: مِثلُ ما كانوا يَعمَلون، وهذه المُماثَلةُ كِنايةٌ عن المُعادَلةِ فيما يُجازَوْنَه بمُساواةِ الجَزاءِ للأعمالِ الَّتي جُوزُوا عليها حتَّى كأنَّه نفْسُها، كقولِه تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾(٤) [النبأ: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٠، ٢١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢١١).

## الآيات (٣٤-٣٩)

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾: أي: المُنَعَّمونَ فيها، الَّذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، وأصلُ (ترف): يدُلُّ على التَّوسُّعِ في النِّعمةِ[1].

﴿يَبۡسُطُ﴾: أي: يُوَسِّعُ ويُكَثِّرُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ[2].

﴿وَيَقۡدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، ويُقَتِّرُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه، كأنَّما جُعِل رِزقُه بقَدْرٍ يَسيرٍ[3].

﴿زُلۡفَىٰٓ﴾: أي: قُرْبى ومَنزِلةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على اندفاعٍ وتقدُّمٍ في

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

قُرْبٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿ٱلضِّعۡفِ﴾: أي: التَّضعيفِ والزِّيادةِ، وأصلُ (ضعف): يدُلُّ على أن يُزادَ الشَّيءُ مِثلَه[٢].

﴿ٱلۡغُرُفَٰتِ﴾: أي: المنازلِ الرَّفيعةِ والعاليةِ في الجنَّةِ، والغَرْفُ: رفْعُ الشَّيءِ وتَناوُلُه[٣].

﴿يُخۡلِفُهُۥ﴾: أي: يُعطيكم خلَفَه وبدَلَه، وأصلُه: مجيءُ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى موقفَ المُترَفينَ مِن رُسلِ الله، وما كانوا يَتذَرَّعونَ به للبقاءِ على كفرِهم، فيقولُ: وما أرسَلْنا في قَريةٍ مِن رَسولٍ يُنذِرُ أهلَها عذابَ اللهِ إلَّا قال المُترَفونَ منهم: إنَّا كافِرونَ بما أرسَلَكم اللهُ به، وقالوا: نحن أكثَرُ منكم أموالًا وأولادًا، ولن يُعَذِّبَنا اللهُ!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الكافِرينَ: إنَّ رَبِّي يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم، ولكِنَّ أكثَرَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧).

النَّاسِ لا يَعلَمونَ، وما أموالُكم ولا أولادُكم هي الَّتي تُدنيكم مِنَّا قُربةً ومَنزِلةً إلَّا مَن آمَن وعَمِل صالِحًا، فيُضاعِفُ اللهُ لهم جَزاءَه، وهم مُقيمونَ في غُرُفاتِ الجنَّةِ آمِنونَ.

والَّذين يَجتَهِدونَ في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى وصَدِّ النَّاسِ عنها: أولئك مُحضَرونَ في العَذابِ.

قل -يا مُحمَّدُ-: إنَّ رَبِّي يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم، وما أنفَقْتُم مِن شَيءٍ فإنَّ اللهَ يُخلِفُ عليكم، واللهُ هو خَيرُ الرَّازِقينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أن ذكَرَ قَولَ المُشرِكينَ لِرَسولِه: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ بِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَلَا بِٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ [سبأ: ٣١] بعدَ أنْ طال به الأمَدُ في دعوتِهم حتَّى لَحِقَه مِن ذلك الغَمُّ الكثيرُ- سَلَّاه على ما ابتُلِيَ به مِن مُخالَفةِ مُترَفي قَومِه له، وعداوتِهم إيَّاه: بالتَّأسِّي بمَن قَبْلَه مِن الرُّسُلِ؛ فهو ليس بِدْعًا مِن بيْنِهم؛ فما مِن نبيٍّ بُعِث في قريةٍ إلَّا كذَّبَه مُترَفُوها، واتَّبَعه ضُعَفاؤُها[1].

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٤ ﴾.

أي: وما أرسَلْنا في قَريةٍ مِن رَسولٍ يُنذِرُ أهلَها عذابَ اللهِ إلَّا قال الأغنياءُ المترَفونَ منهم: إنَّا كافِرونَ بما أرسَلَكم اللهُ به[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: وقالوا أيضًا: نحن أكثَرُ منكم أموالًا وأولادًا، ولن يُعَذِّبَنا اللهُ؛ فلو لم يكُنْ راضيًا عنَّا وعن دينِنا وأعمالِنا، لَما أحسَنَ إلينا وبسَطَ لنا الرِّزقَ[1]!

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لأولئك الكافِرينَ: إنَّ رَبِّي يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم؛ فهو المتصَرِّفُ في تدبيرِ خَلقِه بحَسَبِ مَشيئتِه وحِكمتِه، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ[2].

ثمَّ صرَّح بإبطالِ ما قالوه، وأكْذَبهم فيه[3]، فقال:

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾.

أي: وليستْ أموالُكم ولا أولادُكم بالَّتي تُقرِّبُ إلى الله قُرْبَى، ولا تَزيدُكم عِندَنا رِفعةً ودَرَجةً؛ فليست بدَليلٍ على محبَّتِنا لكم، واعتِنائِنا بكم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٣، ٢١٤).

قيل: معنى قولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾: لا يَعلَمون بأنَّ اللهَ يوسِّعُ الرِّزقَ ويُضَيِّقُه بحسَبِ مشيئتِه وحِكمتِه؛ فبَسْطُه لا يدُلُّ على محبَّةِ الله لعبدِه، ولا تضييقُه دالٌّ على بُغضِه له. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والرَّازيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكم وأموالِكم، ولكِنْ يَنظُرُ إلى قُلوبِكم وأعمالِكم))[١].

﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾.

أي: لكنِ المؤمِنونَ الَّذين عَمِلوا الصَّالحاتِ يُقَرِّبُهم عِندَنا إيمانُهم وعمَلُهم الصَّالحُ؛ فيُضاعِفُ اللهُ لهم جزاءَهم[٢].

﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

أي: وهم مُقيمونَ في غُرُفاتِ الجنَّةِ، آمِنونَ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى[٣].

---

= القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).
قال القرطبي: (﴿زُلْفَىٰٓ﴾ قال مجاهدٌ: أي: قُربَى. والزُّلْفَةُ: القربةُ. وقال الأخفشُ: أي: إزلافًا، وهو اسمُ المصدرِ، فيكونُ موضعُ «قُرْبَى» نصبًا، كأنَّه قال: بالَّتي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا تقريبًا). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).
ممَّن قال بأنَّ الاستثناءَ هنا منقطِعٌ: القرطبيُّ، وابنُ القيِّم، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.
وممَّن اختار أنَّ الاستثناءَ هنا مُتَّصِلٌ: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٧).
قال السمعاني: (وقولُه: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فيه قولان:
أحدهما: أنَّ هذا استثناءٌ مُنقطِعٌ، ومعناه: لَكِن [مَن] آمَن وعمِل صالحًا.
والقولُ الثَّاني: أنَّ معنى الآيةِ ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فأولئك تُقَرِّبُهم أموالُهم وأولادُهم إلى طاعةِ الله. وهذا أظهرُ القولينِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).
قال ابن عثيمين: (مَن دخَل الجنَّةَ فهو آمِنٌ مِن كُلِّ مَخوفٍ: آمِنٌ مِن الموتِ، ومِن المرضِ، =

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [الزمر: ٢٠].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَونَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم كما تتراءَونَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ[1] مِن الأُفُقِ مِنَ المَشرِقِ أو المَغرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم، قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك منازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غَيرُهم؟! قال بلى والَّذي نفْسي بيَدِه، رِجالٌ آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ))[2].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ غُرفةً يُرى ظاهِرُها مِن باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها! فقال أبو موسى الأشعريُّ: لِمَن هي يا رَسولَ اللهِ؟ قال: لِمَن ألانَ الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وبات لله قائمًا والنَّاسُ نيامٌ))[3].

﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ٣٨﴾.

---

= ومِن انقِطاعِ النَّعيمِ، ومِن فسادِ الثِّمارِ، ومِن كُلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢٤).

(١) الكوكَبَ الدُّرِّيَّ الغابِرَ: أي: الكوكَبَ الشَّديدَ الإضاءةِ، الباقيَ في الأُفقِ بعدَ انتشارِ ضَوءِ الفَجرِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٢٨٥).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) واللَّفظُ له.

(٣) أخرجه أحمد (٦٦١٥) واللفظ له، والطبراني (١٤/ ٨٠) (١٤٦٨٧)، والحاكم (٢٧٠).
صحَّحه على شرط الشيخينِ الحاكِمُ، وحَسَّن إسنادَه المُنْذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٢٨٩)، والهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٥٧)، والبُوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٨/ ٢٣٢) وقال: (وله شاهِدٌ)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٦١٧): (حسَنٌ صحيحٌ).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى جَزاءَ مَن آمَن؛ ذكَرَ عِقابَ مَن كَفَر؛ لِيَظهَرَ تَبايُنُ الجَزاءَينِ[١].

﴿ وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي: والَّذين يَجتَهِدونَ في إبطالِ آياتِ اللهِ تعالى وصَدِّ النَّاسِ عنها يَحسَبونَ أنَّهم يَفوتونَنا بأنفُسِهم ويُعجِزونَنا[٢]: أولئك سيُحضَرونَ العذابَ في جهنَّمَ، ويُعذَّبونَ فيها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٥).

قال ابنُ عاشورٍ: (جرَى الكلامُ على عادةِ القرآنِ في تعقيبِ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ وعكسِه...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨).

(٢) قيل: معنى ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: أنَّهم يَحسَبونَ أنَّهم يَفوتونَنا بأنفُسِهم ويُعجِزونَنا فلا نَقدِرُ على مُعاقَبَتِهم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والخازنُ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٨٣).

قال ابن عاشور: (و﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مُغالِبينَ طَالِبينَ العَجْزَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨).

وقال البِقاعي: (﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ أي: طالبينَ تعجيزَها، أي: تعجيزَ الآتِينَ بها عن إنفاذِ مُراداتِهم بها، بما يُلقونَه مِن الشُّبَهِ، فيُضِلُّونَ غيرَهم بما أوسَعْنا عليهم وأعزَزْناهم به مِن الأموالِ والأولادِ). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٥-٢٣٨).

ممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بالعذابِ: عذابُ جهنَّمَ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٢).

وقال ابن عثيمين: (رُبَّما يقولُ قائلٌ: إنَّهم في العذابِ مُحضَرون حتَّى في الدُّنيا، ويكونُ المرادُ بالعذابِ هنا العذابَ القَلبيَّ؛ لأنَّ الكافِرَ مهما نُعِّم في الدُّنيا فإنَّه في ألمٍ وعذابٍ في قَلبِه؛ لأنَّ =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾ [القصص: ٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦].

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥۚ وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٣٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان افتِخارُ الكافِرينَ بكَثرةِ الأموالِ والأولادِ؛ أُخبِروا أنَّ ذلك جارٍ على ما شاء اللهُ، لا أنَّه على حَسَبِ الاستحقاقِ ولا التَّكرِمةِ ولا الهَوانِ[1].

﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: إنَّ رَبِّي يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه[2]، ويُضَيِّقُه

---

= الكافِرَ لا يَشبَعُ مِن الدُّنيا، فهو في حُزنٍ خَوفًا مِن ذَهابِ الموجودِ، وفي همٍّ طلبًا لوجودِ المفقودِ؛ لأنَّه يريدُ أن تنموَ له الدُّنيا وتَزدهِرَ، ويخشى أيضًا مِن أن تفوتَ، بخِلافِ المؤمنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٨).

وقال السمعاني: (﴿مُحۡضَرُونَ﴾ أي: مُدْخَلونَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٥).

(٢) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿عِبَادِهِۦ﴾ هنا: عمومُ النَّاسِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٩، ٢٤٠).

وذكر ابنُ عثيمين أنَّ العبوديَّةَ هنا هي العبوديَّةُ العامَّةُ؛ لأنَّه يُشاهَدُ أنَّ المؤمنينَ والكافرينَ على السَّواءِ في ذلك؛ فمِنهم مَن يَبسُطُ الله له الرِّزقَ، ومِنهم مَن يُضيِّقُه له. =

على مَن يشاءُ مِنهم؛ بحَسَبِ مَشيئتِه وحِكمتِه[١].

﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾.

أي: وما أنفَقْتُم مِن نَفَقةٍ في الخَيرِ والبِرِّ فإنَّ اللهَ يُخلِفُ عليكم ما أنفَقْتُم، فيُعَوِّضُكم بدَلَه[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ عزَّ وجلَّ: أنفِقْ أُنفِقْ عليك))[٣].

وعنه أيضًا رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما نقَصَتْ صَدَقةٌ مِن مالٍ))[٤].

وعنه أيضًا رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن يوم يُصبِحُ العِبادُ فيه إلَّا مَلَكانِ يَنزِلانِ، فيقولُ أحَدُهما: اللَّهمَّ أعطِ مُنفِقًا خَلَفًا،

---

= وقيل: المرادُ بهم: المؤمنون. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطيَّة، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٩، ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤١-٢٤٣).

قال ابنُ عاشور: (ظاهِرُ الآيةِ أنَّ إخلافَ الرِّزقِ يقعُ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٠). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٣).

قال ابن عثيمين: (اللهُ عزَّ وجَلَّ يُعطيك بدلًا عنه بالكَمِّيَّةِ؛ إذا أنفَقْتَ عَشَرةً أعطاك عشَرةً، أو بالكيفيَّةِ؛ بمعنى: أنَّ الباقيَ يُنزِلُ اللهُ سبحانه وتعالى به البَرَكةَ حتَّى يكونَ مقابِلًا لِما أنفَقْتَ مَضمومًا إليه. والظَّاهرُ أنَّه يَشملُ الأمْرَينِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٢).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨).

ويقولُ الآخَرُ: اللهُمَّ أعطِ مُمسِكًا تَلَفًا))[١].

﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي: واللهُ هو خيرُ مَن يَرزُقُ عبادَه، ويُعطيهم مِن خزائِنِه الَّتي لا تَفنى[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن التَّرَفِ؛ حيث كان التَّرَفُ سَبَبًا للشَّرِّ والبَلاءِ والكُفرِ، وقد كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَنهى عن كثرةِ الإرفاهِ[٣]، ويأمُرُ بالاحتِفاءِ أحيانًا[٤]؛ فهو لا يَنهى عن الرَّفاهيةِ مُطلقًا، ولكنْ عن كَثرتِها، ويأمُرُ بالاحتِفاءِ، أي: أنْ نَمشيَ حُفاةً أحيانًا[٥].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيه أنَّ الرِّزقَ في الدُّنيا لا تدُلُّ سَعَتُه وضِيقُه على حالِ المحِقِّ والمُبطِلِ؛ فكم مِن موسِرٍ شَقيٍّ، ومُعسِرٍ تَقيٍّ؛ فقِلَّةُ الرِّزقِ وضَنكُ العَيشِ، وكَثرةُ المالِ وخِصبُ العَيشِ: بالمشيئةِ مِن غيرِ اختِصاصٍ بالفاسِقِ والصَّالحِ[٦].

---

(١) رواه البخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨).

(٣) الإرفاهُ: الإفراطُ في التَّنَعُّمِ مِن التَّدهينِ والتَّرجيلِ، ومنه أُخِذَت الرَّفاهيةُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٨٢٧).

(٤) يُنظر ما أخرجه أبو داود (٤١٦٠)، وأحمد (٢٣٩٦٩) من حديثِ فَضالةَ بنِ عُبَيدٍ رضي الله عنه. ذكر ثبوتَه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (١/ ١٥)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤١٦٠)، وجوَّد إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٤/ ٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢٠٩).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ أنَّ الأرزاقَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويترتَّبُ على هذا فائدةٌ: وهي أنْ نَطْلُبَ الرِّزقَ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّه هو الَّذي يَبْسُطُ الرِّزقَ ويَقْدِرُ، ويَتَفَرَّعُ على ذلك: ألَّا نَطلُبَ رزقَ اللهِ سُبحانَه وتعالى بمعاصيه؛ لأنَّ طَلَبَ رزقِ اللهِ بمعاصيه مُنافٍ للأدبِ، كيف تَطلُبُ الرِّزقَ ممَّن بيدِه الرِّزقُ بمعصيتِه؟! ولهذا حَذَّرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن ذلك، فقال: ((أيُّها النَّاسُ، اتَّقوا الله، وأجْمِلُوا في الطَّلَبِ؛ فإنَّ نفْسًا لن تموتَ حتَّى تَستوفيَ رِزْقَها، وإنْ أبطَأ عنها، فاتَّقوا الله، وأجْمِلوا في الطَّلَبِ))[١]، يعني: اطلُبوا الرِّزقَ طلبًا جميلًا -وهو ما وافقَ الشَّرعَ-، وعلى هذا فطلَبُ الرِّزقِ بالغشِّ والكذِبِ والظُّلْمِ طلَبٌ غيرُ مشروعٍ؛ بل وينافي الأدبَ مع اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أنَّ كثرةَ الأموالِ والأولادِ لا تَستلزِمُ القُرْبَ إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ مِن النَّاسِ مَن يكونُ كثيرَ المالِ والولدِ وهو مِن أبْعَدِ النَّاسِ عن اللهِ سُبحانَه وتعالى! ومِن النَّاسِ مَن يكونُ قليلَ المالِ والولدِ وهو مِن أقربِ النَّاسِ إلى اللهِ تعالى[٣]! إنَّما الَّذي يُقرِّبُ مِن الله زُلْفى: الإيمانُ بما جاء به المرسَلونَ، والعملُ الصَّالحُ الَّذي هو مِن لَوازمِ الإيمان؛ لذا قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢١٤٤) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٣١٠٩)، والحاكم (٢١٣٥).

صحَّحه الحاكمُ على شرطِ مسلمٍ، وحسَّنه ابنُ عبد البرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٤٣٥)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٤٤). والحديثُ رُويَ مِن طرقٍ أخرى.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ﴾ الحَثُّ على الإنفاقِ، فمَن أنفَق في الخيرِ فالخَلَفُ مضمونٌ له[١].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ دلَّ بإفرادِ النِّذارةِ عن البِشارةِ أنَّ غالِبَ الأُمَمِ الماضيةِ مِن أهلِ النِّذارةِ؛ لِتَظهَرَ مزيَّةُ هذه الأمَّةِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَبۡسُطُ﴾ ﴿وَيَقۡدِرُ﴾ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ لله سُبحانَه[٣].

٣- قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ فأكثَرُ النَّاسِ تَلتبِسُ عليهم الأُمورُ فيَخلِطون بيْنَها، ولا يَضَعون في مَواضعِها زَيْنَها وشَيْنَها، وقد أفاد هذا أنَّ حالَهم غيرُ دالٍّ على رِضا اللهِ عنهم ولا على عَدَمِه، وهذا الإبطالُ هو ما يُسمَّى في عِلمِ المُناظَرةِ نقْضًا إجماليًّا[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ﴾ أنَّ الجزاءَ على الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ مُضاعَفٌ[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ فالباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا﴾ باءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٢، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٣، ٢١٤).

والنَّقضُ عندَ الجدَليِّينَ: هو تخلُّفُ الحُكمِ عن الدَّليلِ. ويَنقسِمُ إلى قِسْمَينِ: إجماليٍّ، وتفصيليٍّ؛ فالإجماليُّ: تخلُّفُه للقدحِ في بعضِ مقدِّماتِه لا على التَّعيينِ. والتَّفصيليُّ: للقدحِ في مقدِّمةٍ مُعَيَّنةٍ. يُنظر: ((الغيث الهامع شرح جمع الجوامع)) لأبي زرعة العراقي (ص: ٦٣١)، ((الفوائد السنية في شرح الألفية)) للبرماوي (٥/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٤).

السَّببيَّةِ، أي: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جعَل العمَلَ سببَ دُخولِ الجَنَّةِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أنَّ مَنازِلَ الجنَّةِ عاليةٌ، فالغُرْفةُ: المنزلُ العالي[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ تمامُ رُبوبيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وسُلطانِه؛ لكَونِه يَبسُطُ ويَقْدِرُ، ولا أحدَ يُمكِنُ أنْ يَعترِضَ عليه، وحتَّى لو اعتَرَضَ عليه فلا يَنفَعُ هذا الاعتِراضُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى مُدَبِّرٌ لِمَا يَشاءُ[٣].

٨- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ نَعيمَ الآخِرةِ لا يُنافي نِعمةَ الدُّنيا، فالصَّالِحونَ قد يحصُلُ لهم في الدُّنيا النِّعَمُ مع القطْعِ بحصولِ النَّعيمِ لهم في العُقْبَى بِناءً على الوعدِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾ رَدٌّ على الجَبْريَّةِ -وهم الجَهمِيَّةُ- حيث أضاف الفِعلَ إلى العَبدِ، والجَبريَّةُ يقولون: إنَّ الإنسانَ مَسلوبُ القُدرةِ والاختيارِ، وفِعلُه لا يُنسَبُ إليه إلَّا على سبيلِ المَجازِ، وإلَّا فإنَّه لا اختيارَ له في فِعلِه[٥]!

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أنَّ أفعالَ العبادِ مخلوقةٌ للهِ سُبحانَه وتعالى، وفيها رَدٌّ على القَدَريَّةِ؛ فالعبدُ يأتيه رزقُه كثيرًا مِن كَسْبِه: مِن تجارةٍ أو حَرْثٍ أو عمَلٍ وغيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٢، ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٥).

ذلك، ففيه دليلٌ على أنَّ فِعلَ العبدِ مخلوقٌ لله سُبحانَه وتعالى[١].

١١- قال تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ بصيغةِ التَّفضيلِ؛ نَظرًا إلى أنَّ بَعضَ المخلوقينَ يَرزُقُ بَعضَهم، قال تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النساء: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، ولا شَكَّ أنَّ فَضْلَ رَزقِ اللهِ خَلْقَه على رَزقِ بعضِ خَلقِه بعضَهم: كفَضلِ ذاتِه وسائرِ صفاتِه على ذواتِ خَلقِه وصِفاتِهم[٢]، وأيضًا فرِزقُ غيرِ اللهِ تعالى هو مِن رزقِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ الَّذي يُعطي إنَّما يُعطي مِن رزقِ اللهِ تعالى الَّذي أعطاه، وأيضًا فإنَّ رِزقَ غيرِ اللهِ سُبحانَه وتعالى رِزقٌ محدودٌ، ليس شاملًا لكلِّ أحَدٍ، وليس شامِلًا لكلِّ زمَنٍ، بخِلافِ رِزقِ اللهِ تعالى؛ فهو رِزقٌ شامِلٌ عامٌّ، كثيرٌ دائِمٌ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ اعتِراضٌ للانتِقالِ إلى تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّا ابتُلِيَ به مِن المُشرِكينَ مِن أهْلِ مكَّةَ، وبخاصَّةٍ ما قابَلَه به سادتُهم وكُبَراؤهم مِن التَّأليبِ عليه، بتَذكيرِه أنَّ تلك سُنَّةُ الرُّسلِ مِن قبْلِه؛ فليس في ذلك غَضاضةٌ عليه، والتَّعريضِ بقَومِه الَّذين عادَوه بتَذكيرِهم عاقبةَ أمثالِهم مِن أهْلِ القُرى الَّتي كذَّبَ أهْلُها برُسلِهم وأغْراهم بذلك زُعماؤُهم[٤].

- وتَخصيصُ المُتنعِّمينَ بالتَّكذيبِ في قولِه: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١١، ٢١٢).

بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾؛ لأنَّ الدَّاعيَ إليه التَّكبُّرُ والمُفاخَرةُ بزَخارفِ الدُّنيا، والانهماكُ في الشَّهواتِ، والاستهانةُ بمَن لم يَحْظَ منها؛ ولذلك ضَمُّوا التَّهكُّمَ والمُفاخَرةَ إلى التَّكذيبِ فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾[1].

- وفي بناءِ قولِه: ﴿مُتۡرَفُوهَآ ﴾ للمَفعولِ تَعريضٌ بالتَّذكيرِ بنِعمةِ اللهِ عليهم؛ لعلَّهم يَشكُرونَها، ويُقلِعون عن الإشراكِ به[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ تَقفيةٌ مِن الكافرينَ على صَريحِ كُفْرِهم بالقُرآنِ وغيرِه مِن الشَّرائعِ، بكلامٍ كَنَّوْا به عن إبطالِ حَقِّيَّةِ الإسلامِ بدَليلٍ سُفسطائيٍّ؛ فجَعَلوا كثرةَ أموالِهم وأولادِهم حُجَّةً على أنَّهم أهلُ حَظٍّ عندَ اللهِ تعالى! وهذا مِن تَمويهِ الحَقائقِ بما يَحُفُّ بها مِن العوارضِ، فجَعَلوا ما حَفَّ بحالِهم في كُفرِهم مِن وَفرةِ المالِ والولَدِ حُجَّةً على أنَّهم مَظِنَّةُ العِنايةِ عندَ اللهِ، وأنَّ ما هم عليه هو الحقُّ. وهذا تَعريضٌ منهم بعَكسِ حالِ المسلمينَ؛ بأنَّ حالَ ضَعفِ المُسلمين، وقِلَّةِ عَدَدِهم، وشَظَفِ عَيْشِهم؛ حُجةٌ على أنَّهم غيرُ مَحظوظينَ عندَ اللهِ[3]!

- ولَمَّا كانت الأموالُ في الأغلَبِ سَبَبًا لكَثرةِ الأولادِ بالاستِكثارِ مِن النِّساءِ الحرائِرِ والإماءِ؛ قدَّمَها، فقال: ﴿أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا ﴾[4].

- وقولُ الكافرينَ: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ كالنَّتيجةِ لِقَولِهم: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا ﴾، وإنَّما جِيءَ فيه بحَرْفِ العطْفِ؛ لِتَرجيحِ جانبِ الفائدةِ المُستقِلَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢١٢، ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٣).

على جانبِ الاستنتاجِ الَّذي يُومِئُ إليه ما تَقدَّمَه، وهو قولُهم: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾؛ فحصَلَ مِن هذا النَّظمِ استدلالٌ لِصِحَّةِ دِينِهم، ولإبطالِ ما جاء به الإسلامُ، ثمَّ الافتخارُ بذلك على المسلمينَ والضَّعةِ لجانبِ المسلمينَ، بإشارةٍ إلى قِياسٍ استثنائيٍّ بِناءً على مُلازمةٍ مَوهومةٍ، وكأنَّهم استَدَلُّوا بانتفاءِ التَّعذيبِ على أنَّهم مُقرَّبونَ عندَ اللهِ، بِناءً على قياسِ مُساواةٍ مَطْويٍّ، فكأنَّهم حَصَروا وسائلَ القُربِ عندَ اللهِ في وَفرةِ الأموالِ والأولادِ[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خَصَّ هذه السُّورةَ بذِكرِ الرَّبِّ في قولِه: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ وذلك لأنَّه تَكرَّرَ فيها مرَّاتٍ كثيرةً؛ منها: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ [سبأ: ٣]، و﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، و﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، و﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ [سبأ: ٢٦]، و﴿مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[2] [سبأ: ٣١].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا: أنَّه لم يَذكُرْ هنا ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وذكَرَه بعْدَه ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٣٩]؛ لأنَّ المُرادَ بهمْ هنا الكُفَّارُ. وذكَرَهُ مع الثَّاني؛ لأنَّهم المُؤمِنون[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٠٩)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾

- جُملةُ ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مِن جِهَتِه عزَّ وعَلا خُوطِبَ به النَّاسُ. ويجوزُ أن تكونَ عطْفًا على جُملةِ ﴿إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سبأ: ٣٦]؛ فيكون ممَّا أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَقولَه لهم ويُبلِّغَه عن اللهِ تعالى، ويكون في ضَميرِ ﴿عِندَنَا﴾ الْتفاتٌ؛ مُبالَغةً في تَحقيقِ الحقِّ وتَقريرِ ما سبَقَ، وتكون ضمائرُ الخِطابِ عائدةً إلى الَّذين قالوا: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٥]؛ وهو ارتقاءٌ مِن إبطالِ المُلازَمةِ إلى الاستِدلالِ على أنَّهم لَيسوا بمَحلِّ الرِّضا مِن اللهِ تعالى، على طَريقةِ النَّقضِ التَّفصيليِّ؛ فقد أبطَلَتِ الآيةُ أنْ تكونَ أموالُهم وأولادُهم مُقرِّبةً عندَ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يُقرِّبُ إلى اللهِ إلَّا الإيمانُ والعمَلُ الصَّالحُ(١).

- وفي قولِه: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا﴾ جيءَ بالجُملةِ المَنفيَّةِ في صِيغةِ حَصرٍ بتَعريفِ المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ؛ لأنَّ هذه الجُملةَ أُريدَ منها نَفْيُ قولِهم: ﴿نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾، أي: لا أنتُم؛ فكان كلامُهم في قُوَّةِ حَصْرِ التَّقريبِ إلى اللهِ في كَثرةِ الأموالِ والأولادِ، فنُفِيَ ذلك بأسْرِه. وتَكريرُ (لا) النَّافيةِ بعْدَ العاطفِ في ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم﴾؛ لِتَأكيدِ تَسلُّطِ النَّفيِ على كِلا المَذكورَينِ؛ لِيَكونَ كلُّ واحدٍ مَقصودًا بنَفْيِ كَونِه ممَّا يُقرِّبُ إلى اللهِ، ومُلتَفتًا إليه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٥).

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ في الإخبارِ عمَّن آمَنَ؛ للتَّنويهِ بشَأنِهم، وللإيذانِ بعُلُوِّ رُتبتِهم وبُعدِ مَنزلتِهم في الفضْلِ، والتَّنبيهِ على أنَّهم جَدِيرون بما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ. وكُنِّيَ عن التَّقريبِ بمُضاعَفةِ الجزاءِ؛ لأنَّ ذلك أمارةُ كَرامةِ المَجزيِّ عندَ اللهِ، أي: أولئك الَّذين يُقرَّبون زُلْفى، فيُجْزَون جَزاءَ الضِّعفِ على أعمالِهم لا على وَفرةِ أموالِهم وأولادِهم؛ فالاستدراكُ وَرَدَ على جَميعِ ما أفادَهُ كلامُ المشركينَ مِن الدَّعوى الباطلةِ والفَخرِ الكاذبِ؛ لِرَفْعِ تَوهُّمِ أنَّ الأموالَ والأولادَ لا تُقرِّبُ إلى اللهِ بحالٍ؛ فإنَّ مِن أموالِ المؤمنينَ صَدقاتٍ ونَفَقاتٍ، ومِن أولادِهم أعوانًا على البِرِّ، ومُجاهِدينَ، وداعِينَ لآبائِهم بالمَغفرةِ والرَّحمةِ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسۡعَوۡنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ ...﴾ تَعقيبٌ للتَّرغيبِ بالتَّرهيبِ؛ فكان بمَنزلةِ الاعتراضِ بيْنَ الثَّناءِ على المؤمنينَ الصَّالحينَ، وبيْنَ إرشادِهم إلى الانتفاعِ بأمْوالِهم للقُرْبِ عندَ اللهِ تعالى بجُملةِ ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ [سبأ: ٣٩] إلخ[2].

- واسمُ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم استَحقُّوا الجَحيمَ لِأجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ. و﴿مُحۡضَرُونَ﴾ هنا كِنايةٌ عن المُلازَمةِ؛ فهو ارتقاءٌ في المعنى الَّذي دلَّت عليه أداةُ الظَّرفيَّةِ مِن إحاطةِ العذابِ بهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- قَولُه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ هذه الآيةُ تقريرٌ لمعنى قوله: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ ﴾[1].

- وفي قوله: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ﴾ أَتْبَعَ إبطالَ أنْ تكونَ الأموالُ والأولادُ بذاتِهما وَسيلةَ قُرْبٍ لَدى اللهِ تعالى؛ ردًّا على مَزاعمِ المُشركين بما يُشبِهُ مَعنى الاستدراكِ على ذلك الإبطالِ؛ مِن إثباتِ انتفاعٍ بالمالِ للتَّقرُّبِ إلى رِضا اللهِ إنِ استُعْمِلَ في طَلبِ مَرضاةِ اللهِ؛ تَفصيلًا لِمَا أُشِيرَ إليه إجمالًا مِن أنَّ ذلك قد يكونُ فيه قُربةٌ إلى اللهِ بقولِه: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾[2] [سبأ: ٣٧].

- وفي قولِه: ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾ تَشريفٌ للمؤمنينَ بإضافتِهم إلى ضَميرِ الجلالةِ، وفي هذا امتنانٌ على الَّذين يُبسَطُ عليهم الرِّزقُ؛ بأنْ جمَعَ اللهُ لهم فضْلَ الإيمانِ وفضْلَ سَعةِ الرِّزقِ، وتَسليةٌ لِلَّذين قُدِرَ عليهم رِزْقُهم؛ بأنَّهم نالوا فضْلَ الإيمانِ وفضْلَ الصَّبرِ على ضِيقِ الحياةِ[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وأيضًا في تَعليقِ ﴿لَهُۥ ﴾ بـ(يَقْدِرُ) إيماءٌ إلى أنَّ ذلك القَدْرَ لا يَخْلو مِن فائدةٍ للمَقدورِ عليه رِزقُه، وهي فائدةُ الثَّوابِ على الرِّضا بما قُسِمَ له، والسَّلامةِ مِن الحِسابِ عليه يومَ القِيامةِ، وفي ذلك تَوطئةٌ لقولِه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾؛ حثًّا على الإنفاقِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ ترغيبٌ للأغنياءِ في الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ؛ ولذلك جُعِلَ الوَعدُ بإخلافِ ما يُنفِقُه المرْءُ كِنايةً عن التَّرغيبِ في الإنفاقِ؛ لأنَّ وَعْدَ اللهِ بإخلافِه مع تَأكيدِ الوَعدِ يَقْتضي أنَّه يُحِبُّ ذلك مِن المُنفِقينَ، وأكَّدَ ذلك الوعدَ بصِيغةِ الشَّرطِ، وبجَعْلِ جُملةِ الجوابِ اسميَّةً، وبتَقديمِ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ بقولِه: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾؛ ففي هذا الوَعدِ ثلاثةٌ مُؤكِّداتٍ دالَّةٌ على مَزيدِ العِنايةِ بتَحقيقِه؛ لِيَنتقِلَ مِن ذلك إلى الكِنايةِ عن كَونِه مَرْغوبَه تعالى[٢].

- والجارُّ والمَجرورُ ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ بَيانٌ لِمَا في (ما) مِن العُمومِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تَذييلٌ للتَّرغيبِ، والوعْدِ بزيادةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

## الآيات (٤٠-٤٢)

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ٤٢﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ أولئكَ المشركينَ يومَ القيامةِ: ويَومَ يَحشُرُ اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ جَميعًا، ثُمَّ يَقولُ للمَلائِكةِ: أهؤلاء المُشرِكونَ كانوا يَعبُدونَكم مِن دوني؟! قال الملائِكةُ: نُنَزِّهُك -يا رَبَّنا- نحنُ بُرآءُ مِن المُشرِكينَ؛ فأنت ولِيُّنا مِن دُونِهم، بل كانوا يَعبُدونَ الجِنَّ، أكثَرُهم بهم مُؤمِنون!

فيُقالُ لهم: فاليومَ لا يَملِكُ بَعضُكم لبعضٍ نَفعًا ولا ضَرًّا، ونقولُ للظَّالِمينَ: ذوقوا عذابَ النَّارِ الَّتي كُنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٤٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن أنَّ حالَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم كحالِ مَن تقدَّمَه مِن الأنبياءِ، وحالَ قَومِه كحالِ مَن تقدَّم مِن الكُفَّارِ، وبيَّنَ بُطلانَ استِدلالِهم بكثرةِ أموالِهم وأولادِهم- بيَّن ما يكونُ مِن عاقبةِ حالِهم[1].

وأيضًا لَمَّا أبطَلَ اللهُ تعالى شُبهةَ الكافِرينَ، فعُلِمَ بذلك أنَّ الأمرَ كُلَّه له، وأنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١١).

في محلِّ الخَطَرِ، وكان قد بَقِيَ مِن شُبَهِهم أنَّهم يقولونَ: نحن نعبُدُ الملائكةَ فهم يَشفَعونَ لنا، وكان الأنبياءُ عليهم السَّلامُ لا يُنكِرونَ أنَّ الملائِكةَ مُقرَّبون- أبطَلَ ما يَتعلَّقونَ به منهم، وبيَّنَ أنَّه لا أمرَ لهم، وأنَّهم بَريئون منهم[1].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: ويومَ[2] يَحشُرُ اللهُ المُشرِكينَ فيَجمَعُهم يومَ القيامةِ جميعًا[3]، ثمَّ يَقولُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥١٩).

(٢) قيل: الظَّرفُ هنا متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ. وممَّن قال بهذا القولِ: مكِّي، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ عثيمينَ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٨).

قال ابن عثيمين: (يحتملُ أنَّ المعنى: اذكُرْ في نفْسِك هذا اليومَ، أو اذكُرْ لغيرِك هذا اليومَ. وكِلاهما حقٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٨).

وقيل: هذا مُتَّصِلٌ بقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ﴾ [سبأ: ٣١]، أي: ولو تَراهم أيضًا يومَ يَحشُرُهم جميعًا. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢١).

(٣) قيل: المرادُ بقولِه: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾: هؤلاء الكفَّارُ بالله. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٩٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٠).

قال ابنُ عاشور: (وضميرُ الغَيبةِ مِن ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ عائدٌ إلى ما عاد عليه ضميرُ ﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ [سبأ: ٣٥] الَّذي هو عائدٌ إلى الَّذين كفروا مِن قولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [سبأ: ٣١]. والكلامُ كلُّه مُنتظمٌ في أحوالِ المشركينَ... ولفظُ ﴿جَمِيعًا﴾ يَعُمُّ أصنافَ المشركينَ على اختِلافِ نِحَلِهم واعتقادِهم في شِرْكِهم؛ فقد كان مُشرِكو العربِ نِحَلًا شَتَّى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢١).

وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بهم المشركون: ابنُ الجوزي، والرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٥٣).

وقيل: المرادُ: المكَذِّبون، مَن تقدَّمَ ومَن تأخَّرَ. وممَّن اختاره: الرَّازي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٦). =

للمَلائِكةِ: أهؤلاء المُشرِكونَ كانوا يَعبُدونَكم مِن دوني[١]؟

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١ ﴾.

﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ﴾.

أي: قال الملائِكةُ: نُنَزِّهُك -يا رَبَّنا- تنزيهًا عن أن يَستَحِقَّ العبادةَ أحَدٌ سِواك، ونحن بُرآءُ مِن المُشرِكينَ ومِن عبادتِهم، وأنت وليُّنا الَّذي نَتَولَّاه ونُطيعُه ونَعبُدُه وَحْدَه[٢]!

﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾.

أي: بل كان هؤلاء المُشرِكونَ يَعبُدونَ الجِنَّ، وأكثَرُهم مُؤمِنونَ بالجِنِّ؛

---

= وقيل: المرادُ: العابِدونَ والمعبودونَ مِن دونِ الله. وممَّن قال بهذا القولِ: القرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

ممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ: الملائكةُ ومَن عبَدَها: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٣).

وقال يحيى بن سلام: (﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ﴾ يعني: المشركين وما عبَدوا). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٦٧).

وقال البيضاوي: (﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ﴾ المُستكبِرينَ والمُستضعَفينَ). ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٩).

وقال البِقاعي: (وعمَّ التَّابعَ والمتبوعَ بقولِه: ﴿جَمِيعٗا ﴾). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥١، ٢٥٢).

فيُصَدِّقونَهم ويُطيعونَهم، ويُذْعِنونَ لهم، ويَنقادونَ إليهم[1].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

قال ابنُ عطية: (وعبادةُ البَشَرِ للجِنِّ هي فيما نعرِفُه نحن بطاعتِهم إيَّاهم، وسماعِهم مِن وَسوستِهم وإغوائِهم؛ فهذا نوعٌ من العبادةِ، وقد يجوزُ إن كان في الأُمَمِ الكافرةِ مَن عبَدَ الجِنَّ، وفي القرآنِ آياتٌ يَظهَرُ منها أنَّ الجِنَّ عُبِدَت؛ في سورة الأنعام وغيرِها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٤). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٠٧) و (٧/ ٤٣).

وقال ابنُ القيِّم: (ولَمَّا عبَدَ المشركون الملائكةَ بزعمِهم وقعَتْ عبادتُهم في نفْسِ الأمرِ للشَّياطين، وهم يَظُنُّون أنَّهم يَعبُدون الملائكةَ، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾.

فالشَّيطانُ يَدعو المُشرِكَ إلى عبادتِه، ويُوهِمُهم أنَّه مَلَكٌ، وكذلك عُبَّادُ الشَّمسِ والقمرِ والكواكبِ، وهي الَّتي تُخاطِبُهم، وتقضي لهم الحوائجَ؛ ولهذا إذا طلعَتِ الشَّمسُ قارنَها الشَّيطانُ، فيَسجُدُ لها الكفَّارُ، فيقَعُ سُجودُهم له، وكذلك عندَ غُروبِها. وكذلك مَن عبَدَ المسيحَ وأمَّه لم يَعبُدْهما، وإنَّما عبَدَ الشَّيطانَ؛ فإنَّه يَزعُمُ أنَّه يَعبُدُ مَن أمَرَه بعبادتِه وعبادةِ أمِّه، ورَضيَها لهم، وأمَرَهم بها، وهذا هو الشَّيطانُ الرَّجيمُ، لا عبدُ اللهِ ورسولُه، فنَزِّلْ هذا كلَّه على قولِه تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦٠، ٦١].

فما عبَدَ أحدٌ مِن بني آدَمَ غيرَ الله -كائنًا مَن كان- إلَّا وقعَتْ عِبادتُه للشَّيطانِ، فيَستمتِعُ العابدُ بالمعبودِ في حُصولِ غرَضِه، ويَستمتِعُ المعبودُ بالعابدِ في تعظيمِه له، وإشراكِه مع الله الَّذي هو غايةُ رِضا الشَّيطانِ). ((الجواب الكافي)) (ص: ١٤٣). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١٩٢).

كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بطَلَت تمسُّكاتُ الكافِرينَ، وتقطَّعَت تعلُّقاتُهم؛ تسَبَّب عن ذلك تقريعُهم النَّاشِئُ عنه تنديمُهم(١).

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾.

أي: فاليومَ لا يَقدِرُ بَعضُكم على نفعِ بَعضٍ أو ضرِّه(٢)؛ فالأمرُ كلُّه لله(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢١).

(٢) قيل: هو خِطابٌ مِن الله تعالى للملائِكةِ، والمعنى: فاليومَ لا يَملِكُ بعضُكم -أيُّها الملائكةُ- لِلَّذين كانوا في الدُّنيا يَعبُدونَكم، [ولا الَّذين كانوا يَعبُدونَكم لكم]: نفعًا يَنفَعونَكم به، ولا ضَرًّا يَنالونَكم به، أو تَنالونَهم به. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، وأبو السعودِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧).

وقيل: الأظهَرُ أنَّ هذا مِن خطابِ اللهِ تعالى المُشرِكينَ والجِنَّ. وممَّن ذكر ذلك: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ مِن خِطابِ الملائكةِ للفَريقينِ بعدَ أداءِ الشَّهادةِ عليهم. وممَّن جوَّز هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

قال ابن عطية: (قال تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ وفي الكلامِ حذْفٌ، تقديرُه: فيُقالُ لهم -أي: مَن عبَدَ ومَن عُبِد-: اليومَ لا ﴿يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٤).

وقال ابن عاشور: (والمِلْكُ هنا بمعنَى: القُدرةِ، أي: لا يَقْدِرُ بعضُكم على ضرٍّ أو نفعِ بعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

ممَّن فسَّر النَّفعَ بالشَّفاعةِ والنَّجاةِ، والضرَّ بالعذابِ والهلاكِ: القرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٠).

وممَّن فسَّر النَّفعَ بالشَّفاعةِ، والضرَّ بالتَّعذيبِ: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ، والعُلَيمي. =

﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

أي: ونَقولُ لِمَنْ وَضَعوا العبادةَ في غَيرِ مَوضِعِها، وجَعَلوها لغيرِ مَن تنبغي أن تكونَ له وَحْدَه: ذُوقوا عذابَ النَّارِ الَّتي كنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أنَّه ينبغي تذكيرُ النَّاسِ بيومِ المعادِ؛ ووجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ قولَه: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: «اذْكُرْ يومَ يحشرون» -على قولٍ في التَّفسيرِ-، أي: اذكُرْ لغيرِك أو اذكُرْ في نفْسِك، فيَشملُ أيضًا تذكيرَ النَّفْسِ، فإذا غَفَلَتْ نفْسُ الإنسانِ فيَنبغي أنْ يُذَكِّرَها الموتَ ويومَ الحشرِ؛ يُذَكِّرها مآلَه كلَّما رَكَنَتْ إلى الدُّنيا، وأرادتِ الانغماسَ فيها، فلْيُذَكِّرْها اليومَ المشهودَ الَّذي يُجْمَعُ له النَّاسُ[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ كذا كُلُّ مَن تقرَّبَ إلى شَخصٍ بمعصيةِ الله، يُقَسِّي اللهُ قَلْبَه عليه، ويُبَغِّضُه فيه؛ فيُجافيه ويُعاديه[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ جوازُ المسألةِ عمَّا السَّائِلُ أعلَمُ به مِن المَسؤولِ[4].

---

= يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٠، ٥٢١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٩١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ إثباتُ القولِ والكلامِ للهِ تعالى، وهو كلامٌ حقيقيٌّ بحروفٍ وأصواتٍ مسموعةٍ؛ وهو غيرُ مخلوقٍ، كما هو مذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ[١].

٣- في قَولِه تعالى حكايةً عن الملائكةِ: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ بيانُ ما عندَ الملائكةِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن تعظيمِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، حيثُ قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهًا عن أنْ يكونَ لك شريكٌ، لا مِنَّا ولا مِن غيْرِنا[٢].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: لو قال قائِلٌ: جَميعُهم كانوا تابعينَ للشَّياطينِ، فما وجْهُ قَولِه: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾؛ فإنَّه يُنبئُ أنَّ بَعضَهم لم يؤمِنْ بهم، ولم يُطِعْ لهم؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ الملائِكةَ احتَرَزوا عن دعوى الإحاطةِ بهم، فقالوا: ﴿أَكْثَرُهُم﴾؛ لأنَّ الَّذين رأَوْهم واطَّلَعوا على أحوالِهم كانوا يَعبُدونَ الجِنَّ ويُؤمِنونَ بهم، ولعلَّ في الوجودِ مَن لم يُطلِعِ اللهُ الملائِكةَ عليه مِنَ الكُفَّارِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: هو أنَّ العبادةَ عمَلٌ ظاهِرٌ، والإيمانَ عمَلٌ باطِنٌ، فقالوا: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾؛ لاطِّلاعِهم على أعمالِهم، وقالوا: ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ عندَ عمَلِ القَلبِ؛ لئلَّا يَكونوا مُدَّعينَ اطِّلاعَهم على ما في القُلوبِ؛ فإنَّ القَلبَ لا اطِّلاعَ عليه إلَّا لله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٣] [الأنفال: ٤٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [سبأ: ٣١]؛ استِكمالًا لتصويرِ فَظاعةِ حالِهم يومَ الوَعدِ الَّذي أنكَروه، تَبَعًا لِما وُصِفَ مِن حالِ مُراجعةِ المُستَكبرينَ منهم والمُستَضعَفينَ، فوصَفَ هنا افتِضاحَهم بتَبرُّؤِ الملائكةِ منهم، وشَهادتِهم عليهم بأنَّهم يَعبُدونَ الجِنَّ[1]. وذلك على قولٍ.

- وفيه الاقتصارُ على تَقريرِ الملائكةِ واستِشهادِهم على المُشرِكينَ؛ لأنَّهم أشرَفُ شُركائِهم، وهم الصَّالِحون للخِطابِ منهم، ولأنَّ عِبادتَهم مَبدَأُ الشِّركِ وأصلُه، ولأنَّ إبطالَ إلهيَّةِ الملائكةِ يُفيدُ إبطالَ إلهيَّةِ ما هو دُونَها ممَّن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ بدَلالةِ الفَحْوى، أي: بطَريقِ الأَوْلى؛ فإنَّ ذلك التَّقريرَ مِن أهَمِّ ما جُعِلَ الحشرُ لِأجْلِه. وتَوجيهُ الخِطابِ إلى الملائكةِ بهذا الاستفهامِ مُستعمَلٌ في تَقريعِ المُشركينَ والتَّعريضِ بهم، على طَريقةِ المَثَلِ: (إيَّاكِ أعْني واسْمَعي يا جارةْ)! والغرَضُ مِن ذلك أنْ يقولَ ويَقولوا، ويَسأَلَ ويُجيبوا؛ فيَكونَ تَقريعُهم أشَدَّ، وتَعييرُهم أبلَغَ، وخَجَلُهم أعظَمَ، وهو أنَّه ألْزَمُ، ويكونَ اقتصاصُ ذلك لُطْفًا لِمَن سَمِعَه، وزاجرًا لِمَن اقتُصَّ عليه[2].

- وتَقديمُ المَفعولِ ﴿إِيَّاكُمْ﴾ على ﴿يَعْبُدُونَ﴾؛ للاهتمامِ، ولِرعايةِ الفاصلةِ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٢).

أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا ... ﴾ حُكِيَ قولُ الملائكةِ دُونِ عاطفٍ؛ لِوُقوعِه في المُحاوَرةِ؛ ولذلك جِيءَ فيه بصِيغةِ الماضي ﴿ قَالُواْ ﴾؛ لأنَّ ذلك هو الغالبُ في الحِكايةِ، مع ما فيه مِن الدَّلالةِ على التَّحقُّقِ، أي: أنت الَّذي نُواليهِ مِن دُونِهم، لا مُوالاةَ بيْنَنا وبيْنَهم، وجوابُ الملائكةِ يَتضمَّنُ إقرارًا، مع التَّنزُّهِ عن لَفظِ كَونِهم مَعبودينَ كما يَتنزَّهُ مَن يَحكي كُفرَ أحدٍ، فيقولُ: قال: هو مُشرِكٌ باللهِ، وإنَّما القائلُ قال: أنا مُشرِكٌ باللهِ؛ فمَوردُ التَّنزيهِ في قولِ الملائكةِ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ﴾ هو أنْ يكونَ غيرُ اللهِ مُستحِقًّا أنْ يُعبَدَ، مع لازمِ الفائدةِ، وهو أنَّهم يَعلَمون ذلك، فلا يُضَرُّون بأنْ يَكونوا مُعبودينَ. وقولُ الملائكةِ: ﴿سُبۡحَٰنَكَ ﴾ تَبرُّؤٌ مِن الرِّضا بأنْ يَعبُدَهم المُشرِكون؛ لأنَّ الملائكةَ لَمَّا جَعَلوا أنفُسَهم مُوالِينَ للهِ فقدْ كذَّبوا المُشرِكين الَّذين زَعَموا لهم الإلهيَّةَ؛ لأنَّ العابدَ لا يكونُ مَعبودًا[1].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِن دُونِهِم ﴾ صِلةٌ للتَّوكيدِ؛ فـ ﴿مِن دُونِهِم ﴾ تأكيدٌ لِمَا أفادَتْه جُملةُ ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا ﴾ مِن الحَصرِ؛ لِتَعريفِ الجُزأينِ[2].

- قولُه: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ ﴾ (بل) للإضرابِ الانتقاليِّ، انتقالًا مِن التَّبرُّؤِ منهم إلى الشَّهادةِ عليهم، وعلى الَّذين سَوَّلوا لهم عِبادةَ غيرِ اللهِ تعالى، وليس إضرابَ إبطالٍ؛ لأنَّ المُشرِكين المُتحدَّثَ عنهم كانوا يَعبُدون الملائكةَ. وفيه إشعارٌ لهم بما عَبَدوه وإنْ لم يُصرَّحْ به، والمعنى: بلْ كان أكثَرُ هؤلاء يَعبُدون الجِنَّ، وكان الجِنُّ راضِينَ بعِبادتِهم إيَّاهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٧)، ((تفسير =

٣- قولُه تعالى: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا ﴾ تبكيتٌ للكُفَّارِ حينَ بيَّنَ لهم أنَّ مَن عَبَدوه لا يَنفَعُ ولا يَضُرُّ، وهو كَلامٌ مُوجَّهٌ مِن جانبِ اللهِ تعالى إلى الملائكةِ، والمَقصودُ به التَّعريضُ بضَلالِ الَّذين عَبَدوا الملائكةَ والجِنَّ؛ لأنَّ الملائكةَ يَعلَمون مَضمونَ هذا الخبَرِ، فلا تُقصَدُ إفادتُهم به، والمُرادُ إظهارُ عَجزِهم وقُصورِهم عندَ عَبَدتِهم، والتَّنصيصُ على ما يُوجِبُ خَيبةَ رَجائِهم بالكلِّيَّةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مِن خِطابِ الملائكةِ للفَريقينِ بعدَ أداءِ الشَّهادةِ عليهم؛ تَوبيخًا لهم، وإظهارًا للغَضَبِ عليهم؛ تَحقيقًا للتَّبرُّؤِ منهم[1].

- قولُه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا ﴾ فيه نِسبةُ عَدَمِ النَّفعِ والضَّرِّ إلى البَعضِ المُبهَمِ؛ للمُبالَغةِ فيما هو المَقصودُ الَّذي هو بَيانُ عدَمِ نَفْعِ الملائكةِ للعَبَدةِ، بنَظْمِه في سِلكِ عدَمِ نفْعِ العَبَدةِ لهم؛ كأنَّ نَفْعَ الملائكةِ لِعَبَدتِهم في الاستِحالةِ والانتِفاءِ كنَفْعِ العَبَدةِ لهم. وتَقييدُ هذا الحُكمِ بذلك اليومِ مع ثُبوتِه على الإطلاقِ؛ لانعِقادِ رَجائِهم على تَحقُّقِ النَّفعِ يومَئذٍ[2].

- وقُدِّمَ الظَّرفُ على عامِلِه في قولِه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ نَّفۡعٗا وَلَا ضَرّٗا ﴾؛ لأنَّ النَّفعَ والضَّرَّ يومَئذٍ قد اختَصَّ صَغيرُهما وكَبيرُهما باللهِ تعالى،

---

= أبي السعود)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧).

قال ابن عثيمين: (الحِكمةُ في أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يَمۡلِكُ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٖ ﴾ وجعَلَه مُبهَمًا؛ لِيَشملَ العابدَ والمعبودَ، والتَّابعَ والمتبوعَ؛ فكلُّ أحدٍ يومَ القيامةِ لا يَملِكُ لأحدٍ نَفعًا ولا ضَرًّا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥٥).

خِلافَ ما كان في الدُّنيا مِن نفْعِ الجِنِّ عُبَّادَهم ببَعضِ المنافعِ الدُّنيويَّةِ، ونَفْعِ المُشركينَ الجِنَّ بخِدمةِ وَساوِسِهم، وتَنفيذِ أغراضِهم مِن الفِتنةِ والإضلالِ، وكذلك الضُّرُّ في الدُّنيا أيضًا. وقُدِّمَ النَّفعُ في حيِّزِ النَّفيِ تأييسًا لهم؛ لأنَّهم كانوا يَرجُون أنْ يَشفَعوا لهم يَومَئذٍ(١).

- وعَطْفُ نَفْيِ الضَّرِّ على نَفْيِ النَّفعِ، مع أنَّه لا بَحْثَ عنه أصلًا؛ إمَّا لِتَعميمِ العَجزِ، والدَّلالةِ على سَلْبِ مَقدرتِهم على أيِّ شَيءٍ؛ فإنَّ بَعضَ الكائناتِ يَستطيعُ أنْ يَضُرَّ، ولا يَستطيعُ أنْ يَنفَعَ؛ كالعَقربِ(٢)، أو لِحَملِ عدَمِ النَّفعِ على تَقديرِ العِبادةِ، وعدَمِ الضَّرِّ على تقديرِ تَرْكِها، فالعبادةُ أيضًا تقعُ لدَفعِ ضرِّ المعبودِ، فبُيِّن أنَّهم ليس فيهم ذلك الوجهُ الَّذي يَحسُنُ لأجْلِه عبادتُهم(٣)؛ تحقيقًا لقطعِ جميعِ الأسبابِ الَّتي كانت في دارِ التَّكليفِ مِن دارِ الجزاءِ الَّتي المقصودُ فيها تمامُ إظهارِ العَظَمةِ لله وحْدَه على أتمِّ الوُجوهِ(٤)، أو لأنَّ المُرادَ دفْعُ الضَّرِّ، على حَذْفِ المُضافِ(٥).

- وأيضًا قولُه: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [سبأ: ٤٠]، وقد وقَعَ الإخبارُ عن هذا القَولِ بعدَ الإخبارِ عن الحِوارِ الَّذي يَجري بيْنَ الملائكةِ وبيْنَ المُشركين يَومَئذٍ؛ إظهارًا لاستِحقاقِهم هذا الحُكمَ الشَّديدَ، ولِكَونِه كالمَعلولِ لِقَولِه: ﴿لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

- قولُه: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ وَصْفُ النَّارِ بالَّتي كانوا يُكذِّبون بها؛ لِمَا في صِلةِ الموصولِ مِن إيذانٍ بغَلَطِهم وتَنْديمِهم(١).

- قولُه: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عُلِّقَ التَّكذيبُ هنا بنَفْسِ النَّارِ؛ فجِيءَ باسمِ الموصولِ المناسِبِ لها فقِيل: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، ولم يُعلَّقْ بالعذابِ كما في آيةِ سُورةِ (السَّجدةِ)، حيثُ قيل: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ القولَ المُخبَرَ عنه هنا هو قولُ اللهِ تعالى وحُكمُه، وقد أذِنَ بهم إلى جهنَّمَ وشاهَدُوها، كما قال تعالى آنفًا: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ [سبأ: ٣٣]؛ فإنَّ الَّذي يَرَى هو ما به العذابُ. وأمَّا القولُ المَحكِيُّ في سُورةِ (السَّجدةِ) فهو قولُ مَلائكةِ العذابِ؛ بدليلِ قولِه: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُه(٢).

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿بِهَا﴾؛ للاهتِمامِ، والرِّعايةِ على الفاصلةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٢٤، ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٢٥).

## الآيات (٤٢-٤٥)

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿يَصُدَّكُمْ﴾: أي: يَصرِفَكم ويَمنعَكم، والصَّدُّ والصُّدُودُ: الانصرافُ عن الشَّيءِ والامتناعُ، وأيضًا: الصَّرفُ والمنعُ، وأصلُ (صدد): يَؤولُ إلى إعراضٍ وعُدولٍ[1].

﴿إِفْكٌ﴾: أي: كَذِبٌ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ شَيءٍ، وصَرفِه عن جِهتِه[2].

﴿مُّفْتَرًى﴾: أي: مُختَلَقٌ، والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه مِن: (فَرْيِ الأديمِ)، وهو: قَطْعُه، فقيل للكَذِبِ: افتراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يقطَعُ به على التَّقديرِ، مِن غيرِ تحقيقٍ[3].

﴿يَدْرُسُونَهَا﴾: أي: يَقرؤُونَها، والدَّرْسُ: الطَّريقُ الخفيُّ، يقالُ: دَرَسْتُ القرآنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ٢٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤).

وغيرَه؛ وذلك أنَّ الدَّارسَ يَتَتَبَّعُ ما كان قَرَأ، كالسَّالِك للطَّريقِ يَتتبَّعُه، وأصلُ (درس): يدُلُّ على خَفاءٍ وخفضٍ وعَفاءٍ[١].

﴿مِعْشَارَ﴾: أي: عُشْرَ، وأصلُ (عشر) هنا: عددٌ معلومٌ، ثمَّ يُحمَلُ عليه غيرُه[٢].

﴿نَكِيرِ﴾: أي: إنكاري وتَغْييري وعُقوبَتي، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المعرفةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القلبُ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن أقوالِ المشركينَ في شأنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم والقرآنِ: وإذا تُتلى على مُشركي قُرَيشٍ آياتُ القُرآنِ الواضِحةُ الدَّلالةِ على أنَّها مِن عندِ اللهِ، قالوا عندَ سماعِهم لها: ما محمَّدٌ إلَّا رجلٌ يُريدُ أن يَصرِفَكم عن عِبادةِ الأصنامِ الَّتي كان يَعبُدُها آباؤكم! وقالوا: ما هذا الَّذي يَتلوه علينا إلَّا كَذِبٌ مُختَلَقٌ! وقالَ الكُفَّارُ في القُرآنِ لَمَّا جاءَهم: ما هذا إلَّا سِحرٌ ظاهِرٌ!

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه أنَّ أقوالَهم هذه لا تَستنِدُ إلى دليلٍ، فيقولُ: وما أنزَلْنا على كُفَّارِ قُرَيشٍ كُتُبًا قبْلَ القُرآنِ يَقرَؤونَها، وما أرسَلْنا إليهم قَبْلَك -يا محمَّدُ- مِن نذيرٍ يُنذِرُهم عذابَ اللهِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩٦/ ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٢).

ثمَّ يُبيِّنُ لهم الله تعالى هَوانَ أمرِهم بالنِّسبةِ لِمَن سبَقوهم، فيقولُ: وكذَّب الَّذين مِن قبْلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقةِ، وما بلغَ كفَّارُ قُرَيشٍ عُشْرَ ما آتَيْناه لأولئك المكَذِّبينَ مِن قَبْلِهم؛ مِنَ الأموالِ والأولادِ والقُوَّةِ، فلمَّا كذَّبوا أهلَكْناهم، فكيف كان إنكاري عليهم وعِقابي لهم؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٤٣ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذكَرَ أنَّ المُشرِكينَ هم أهلُ النَّارِ يومَ القيامةِ، وأنَّه يُقالُ لهم يَومَئذٍ: ذوقوا عذابَها الَّذي كُنتُم به تُكَذِّبونَ- أعقَبَ ذلك بذِكرِ ما لأجْلِه استَحَقُّوا هذا العذابَ[1].

﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ ﴾.

أي: وإذا تُتلى على مُشرِكي قُرَيشٍ آياتُ القُرآنِ، والحالُ أنَّها واضِحةُ الدَّلالةِ في ألفاظِها ومَعانيها، وأنَّها حَقٌّ مِن عندِ اللهِ؛ قالوا عندَ سَماعِهم لها: ما مُحمَّدٌ إلَّا رَجُلٌ يريدُ بدَعوتِكم أن يَصرِفَكم عن عبادةِ الأصنامِ والأوثانِ الَّتي كان يَعبُدُها آباؤُكم[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٥)، =

﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗى﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: ما هذا الَّذي يُتْلى علينا إلَّا كَذِبٌ مُختلَقٌ(١)!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ لَمَّا جاءَهم القُرآنُ: ما هذا إلَّا سِحرٌ واضِحٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ ۞ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٩، ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧].

﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ ٤٤﴾.

---

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٠-٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

ومعنى ﴿إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗى﴾: أي أنَّه كَذِبٌ في حَدِّ ذاتِه غيرُ مُطابِقٍ للواقِعِ، وهو مُختَلَقٌ على اللهِ مِن حيثُ نِسبتُه إليه؛ وعليه فـ ﴿مُّفۡتَرٗى﴾ تأسيسٌ لا تأكيدٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: العُلَيمي، والقِنَّوْجي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القنوجي)) (١١/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٣).

قال ابن عاشور: (والإفْكُ: الكَذِبُ، ووَصْفُه بالمُفترى: إمَّا أن يتوجَّهَ إلى نِسبتِه إلى اللهِ تعالى، أو أُريدَ أنَّه في ذاتِه إفكٌ، وزادوا فجعَلوه مُخترَعًا مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ليس مسبوقًا به؛ فكَوْنُه إفكًا يَرجِعُ إلى جميعِ ما في القُرآنِ، وكَوْنُه مُفترًى يُرجِعونَه إلى ما فيه مِن قَصَصِ الأوَّلينَ. وهذا القَولُ مِن بهتانِهم؛ لأنَّهم كثيرًا ما يقولونَ: أساطيرُ الأوَّلينَ؛ فليس ﴿مُّفۡتَرٗى﴾ تأكيدًا لـ ﴿إِفۡكٞ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى ما ردَّ الكافِرونَ به الحَقَّ، وأنَّها أقوالٌ دونَ مَرتبةِ الشُّبهةِ، فَضلًا أن تكونَ حُجَّةً؛ ذكَرَ أنَّهم وإن أراد أحَدٌ أن يحتَجَّ لهم، فإنَّهم لا مُستندَ لهم، ولا لهم شَيءٌ يعتَمِدونَ عليه أصلًا[1].

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أي: وما أنزَلْنا على كُفَّارِ قُرَيشٍ كُتُبًا قَبلَ القُرآنِ يَقرَؤونَها، وما أرسَلْنا إليهم قَبلَك -يا مُحمَّدُ- رَسولًا يُنذِرُهم عذابَ اللهِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٨).

قال ابنُ عطية: (المعنى: وما أرسَلْنا مِن نذيرٍ يُشافِهُهم بشَيءٍ، ولا يُباشِرُ أهلَ عَصرِهم ولا مَن قَرُب مِن آبائِهم، وإلَّا فقد كانت النِّذارةُ في العالَمِ وفي العَرَبِ مع شُعَيبٍ وصالحٍ وهودٍ، ودعوةُ الله وتوحيدُه قائمٌ، لم تَخْلُ الأرضُ مِن داعٍ إليه؛ فإنَّما معنى هذه الآيةِ: ﴿مِن نَّذِيرٍ﴾ يختَصُّ بهؤلاءِ الَّذين بعَثْناك إليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٤).

واختلَف المفَسِّرون في المرادِ بهذه الآيةِ، فقيل: المعنى: أنَّهم لم يَقرؤوا بُطلانَ ما جِئتَ به في كتابٍ أُوتوه، ولا سَمِعوه مِن رسولٍ بُعِث إليهم؛ فليس لتكذيبِهم وجْهٌ يَتشَبَّثونَ به، ولا مُستَنَدٌ يَعتَمِدونَ عليه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧٠٩).

وقيل: المعنى: أنَّهم قَومٌ أُمِّيُّونَ لا يَقرؤونَ ولم يُبعَثْ إليهم نبيٌّ؛ فكان الأليقُ بهم أن يَفرَحوا بالقُرآنِ وبإرسالِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأن يَقبَلوا ما جاء به؛ فهم في أشدِّ الحاجةِ لذلك؛ فكيف رفَضوا اتِّباعَ الرَّسولِ وتلقِّي القُرآنِ، وكان الأجدَرُ أن يَغتَبِطوا بذلك؟! وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٨). =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۞ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢١، ٢٢].

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أن بشَّر اللهُ تعالى وأنذَرَ، وأبان بالحُجَّةِ والبُرهانِ ما كان فيه المَقنَعُ لهم لو كانوا يَعقِلونَ؛ سَلَك بهم سَبيلَ التَّهديدِ والوعيدِ، وضَرَب لهم المَثَلَ بالأُمَمِ الَّتي كانت قَبْلَهم[1].

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾.

أي: وكذَّب الَّذين مِن قَبلِ كُفَّارِ قُريشٍ مِن الأُمَمِ السَّابِقةِ، كعادٍ وثمودَ، وما بلَغَ كُفَّارُ مَكَّةَ عُشْرَ الَّذي آتَيْناه لتلك الأُمَمِ الماضيةِ؛ مِن العَدَدِ، والأموالِ، والأولادِ، والقُوَّةِ، وغَيرِ ذلك مِنَ النِّعَمِ[2]!

---

= وممَّن حمَل الآيةَ على كِلا الوجهَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٠-٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٣).

قال السمعاني: (أكثرُ أهلِ التَّفسيرِ أنَّ المرادَ مِن الآيةِ هو أنَّ هؤلاء الكفَّارَ -وهم قُرَيشٌ- ما بلَغوا مِعشارَ ما آتَيْنا الَّذين مِن قَبْلِهم في القوَّةِ والمالِ والآلةِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٣٩).

كما قال تعالى: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا﴾ [التوبة: ٦٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ﴾ [الروم: ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

أي: فكذَّب كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلي فيما جاؤوهم به مِنَ الحَقِّ، فأهلَكْناهم، فكيف كان إنكاري عليهم وعِقابي لهم[1]؟

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ أنَّ آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ بيِّناتٌ ليس فيها خَفاءٌ، وعلى هذا فما يُشكِلُ على بعضِ أهلِ العلمِ مِن أحكامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، فليس مَصدرُه أنَّ الوَحيَ خَفِيٌّ، ولكِنَّ مَصدرَه قصورُ النَّاظرِ في الوَحيِ أو تقصيرُه: قصورُه بحيثُ لا يكونُ عنده عِلْمٌ، أو لا يكونُ عنده فَهمٌ؛ وتقصيرُه بحيثُ لا يَطلُبُ العِلمَ، ولا يَطلُبُ الفَهمَ؛ وإلَّا فإنَّ آياتِ اللهِ تعالى بيِّناتٌ، ولا يمكنُ أنْ تَحدُثَ حادِثةٌ إلى يومِ القيامةِ إلَّا في كتابِ اللهِ تعالى بيانُها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٤، ٢٧٥).

قال السعدي: (فاحذَروا -يا هؤلاءِ المكذِّبونَ- أن تَدوموا على التَّكذيبِ؛ فيَأخُذَكم كما أخَذَ مَن قَبْلَكم، ويُصيبَكم ما أصابهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

ولكنْ ليس كلُّ أحدٍ يستطيعُ أنْ يَتبيَّنَها مِن القرآنِ؛ فتجدُ الآيةَ الواحدةَ يتلوها جماعةٌ ويَتفكَّرونَ فيها، يَستنبِطُ أحدُهم منها مَسائِلَ عديدةً، والآخَرُ لا يَستنبِطُ منها إلَّا مسألةً أو مَسألتَينِ!

وبيانُ الآياتِ إمَّا أنْ تكونَ هي بذاتِها بَيِّنةً واضحةً، وإمَّا أنْ يكونَ عن طريقِ السُّنَّةِ: تُبَيِّنُ المُجمَلَ، وتُفَسِّرُ المُشْكِلَ، وتُقَيِّدُ المُطْلَقَ، وتُخَصِّصُ العامَّ[1].

٢- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾، فقالوا كما حكاه الله عنهم: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾، ولم يقولوا: «عَمَّا كنتم تعبُدونَ»؛ لإثارةِ الحَمِيَّةِ في نفوسِهم؛ لأنَّ الإنسانَ يَصعُبُ عليه أنْ يَدَعَ ما كان آباؤُه عليه، لا سيَّما مِثلُ هؤلاءِ الجَهَلةِ، ولو قالوا: «عمَّا كنتُم تَعبُدونَ» لَكان يمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّهم عبَدوا على غيرِ أساسٍ، لكنْ لَمَّا قالوا: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ كأنَّ هذه العبادةَ لهذه الأصنامِ أمرٌ مُستقِرٌّ كان عليه الآباءُ، ولا ينبغي لكم أنْ تَترُكوا مِلَّةَ آبائِكم؛ ولهذا يقولونَ كما حكى اللهُ عنهم في آياتٍ أخرى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢] أو ﴿مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] آيَتانِ[2]؛ لأنَّهم يَجعَلونَ آباءَهم أهلَ الرَّأيِ فيما ارتَأَوا، والتَّسديدِ فيما فَعَلوا؛ فلا يَرَونَ إلَّا حَقًّا، ولا يَفعَلونَ إلَّا صَوابًا وحِكمةً[3]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ بيانُ عُتُوِّ المكَذِّبينَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث كانوا -مع هذه الآياتِ البَيِّناتِ- يَدَّعُونَ هذه الدَّعوى الباطِلةَ، وهي أنَّ الرَّسولَ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٦).

الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يريدُ إلَّا أنْ يَصُدَّهم عمَّا كان يَعبُدُ آباؤُهم[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ أنَّ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الآياتِ هو مِن أفصَحِ الكلامِ وأبلَغِه وأبيَنِه؛ فهم لم يَصِفوه بالسِّحرِ إلَّا لأنَّه يأخُذُ بالقُلوبِ، ويَجُرُّ النَّاسَ إليه جَرًّا، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ مِن البيانِ لَسِحرًا))[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّه حينَ جاءَهم لم يُفَكِّروا فيه، بل بادَروه بالإنكارِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ أنَّ مَن نَسَبَ الكَذِبَ إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما أوحى اللهُ تعالى إليه، فهو كافِرٌ؛ لأنَّه وصَفَهم بالكُفرِ مُسنَدًا إلى هذا القَولِ؛ فيكونُ ذلك سببًا لِكُفرِهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّن كُتُبٖ يَدۡرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٖ﴾ بيانُ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى العُظمَى على العَرَبِ بما بعَثَ إليهم، وهو محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وجْهُ ذلك: أنَّهم كانوا أُمَّةً جاهِلةً ليس عندَهم كُتُبٌ تُدرَسُ، ولم يأتِهم نذيرٌ يُخبِرُهم ويُعَلِّمُهم؛ فهم أشدُّ النَّاسِ حاجةً إلى الرَّسولِ، وإذا اشتدَّتِ الحاجةُ ثمَّ جاء ما يُزيلُ تلك الحاجةَ، كان هذا أعظَمَ مِنَّةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٩).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٧٦٧) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضي الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٤، ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ قَبۡلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ أنَّه ليس في العَرَبِ رسولٌ -بعدَ إسماعيلَ عليه السَّلامُ- إلَّا محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهو كذلك، وما ذَكَرَ بعضُ المُؤَرِّخينَ مِن أنَّه وُجِدَ في الجاهليَّةِ رُسُلٌ -منهم خالدُ ابنُ سِنَان- فهذا لا أصلَ ولا صِحَّةَ له؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ عَلَىٰ فَتۡرَةٖ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [المائدة: ١٩]، وقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((ليسَ بيني وبينَ عيسَى نبيٌّ))[١].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ فيه سؤالٌ: ما معنى ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ وهو مُستغنًى عنه بقَولِه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؟

**الجوابُ**: لَمَّا كان معنى قَولِه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: وفَعَلَ الَّذين مِن قَبلِهم التَّكذيبَ، وأقدَموا عليه- جعَل تكذيبَ الرُّسُلِ مُسَبَّبًا عنه، ونظيرُه أن يقولَ القائِلُ: (أقدَمَ فُلانٌ على الكُفرِ، فكفَرَ بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم)، ويجوزُ أن يُعطَفَ على قَولِه: ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾، كقولِك: ما بلَغ زَيدٌ مِعشارَ فَضلِ عَمرٍو فيُفضَّلَ عليه[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ وقولِه سُبحانَه: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ وغَيرِها مِن الآياتِ الَّتي تُضيفُ الفِعلَ إلى الفاعِلِ: ردٌّ على الجَبريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ العبدَ مُجبَرٌ على فِعلِه، ليس له فيه اختيارٌ[٣]!

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾ أفرد الضَّميرَ كما هو حقُّه، ونصًّا على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٣). والحديث أخرجه مسلم (٢٣٦٥).
قال ابنُ كثير: (قال غيرُ واحدٍ مِن العلماءِ: إنَّ الله تعالى لم يبعَثْ بعدَ إسماعيلَ نبيًّا في العربِ إلَّا محمدًا صلَّى الله عليه وسلَّم خاتمَ الأنبياءِ). ((البداية والنهاية)) (٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٦).

أنَّ النُّونَ فيما مضى -في قولِه: ﴿أَرْسَلْنَآ﴾- للعَظَمةِ لا للجَمعِ؛ دفعًا لتعنُّتِ مُتعَنِّتٍ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أنَّ الإنكارَ يكونُ بالفعلِ كما يكونُ بالقولِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ إنكارَ اللهِ تعالى عليهم ليس بالقولِ فقط، بل بالفعلِ والعقوبةِ، فعقوبةُ المجرمينَ هي إنكارٌ بالفعلِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استِعمالُ قياسِ الأَولى؛ فإذا أخَذَ اللهُ تعالى هؤلاءِ الأقوياءَ الأشِدَّاءَ الأكثَرَ أموالًا وأولادًا بجُرْمِهم: فهؤلاء الَّذين دُونَهم مِن بابِ أَولى[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ بَيانٌ لِبَعضٍ آخَرَ مِن كُفرانِهم، وانتِقالٌ مِن حِكايةِ كُفرِهم وغُرورِهم، وازْدِهائِهم بأنفُسِهم، وتَكذيبِهم بأُصولِ الدِّيانةِ؛ إلى حِكايةِ تَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأتبَعَ ذلك بحِكايةِ تَكذيبِهم الكتابَ والدِّينَ الَّذي جاء به؛ فكان كالفَذْلَكةِ[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٦، ٢٧٧).

(٤) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أنْهاهُ وفرَغَ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد =

لِمَا تَقدَّمَ مِن كُفرِهم[١].

- قولُه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ ... ﴾ فيه إيرادُ حِكايةِ تَكذيبِ الكفَّارِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُقيَّدةً بالزَّمنِ الَّذي تُتْلى عليهم فيه آياتُ اللهِ البيِّناتُ؛ للتَّعجُّبِ مِن وَقاحتِهم؛ حيثُ كذَّبوه في أجدَرِ الأوقاتِ بأنْ يُصَدِّقوه عندَها؛ لأنَّه وَقتُ ظُهورِ حُجَّةِ صِدقِه لكلِّ عاقلٍ مُتبصِّرٍ. وللاهتِمامِ بهذا الظَّرفِ والتَّعجُّبِ مِن مُتعلَّقِه قُدِّمَ الظَّرفُ على عامِلِه، والتَّشوُّقِ إلى الخبَرِ الآتي بعْدَه، وأنَّه مِن قِبَلِ البُهتانِ والكُفرِ البَواحِ[٢].

- وحُذِفَ فاعلُ التِّلاوةِ؛ لِظُهورِ أنَّه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ هو تالي آياتِ اللهِ. والإشارةُ في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واستَحْضَروه بطَريقِ الإشارةِ دونَ الاسمِ؛ إفادةً لِحُضورِه مَجلسَ التِّلاوةِ، وذلك مِن تَمامِ وَقاحتِهم، وابتَدؤوا بالطَّعنِ في التالي؛ لأنَّه الغرَضُ الَّذي يَرْمُون إليه، وأثْبَتوا له إرادةَ صَدِّهم عن دِينِ آبائِهم قَصْدَ أنْ يُثيرَ بعضُهم حَميَّةَ بَعضٍ؛ لأنَّهم يَجعَلون آباءَهم أهلَ الرَّأيِ والتَّسديدِ، والصَّوابِ والحِكمةِ؛ فلا جَرَمَ أنَّ يكونَ مُريدُ الصَّدِّ عنها مُحاوِلًا الباطلَ، وكاذبًا في قولِه؛ لأنَّ الحقَّ مُطابِقُ الواقعِ، فإبطالُ ما هو حقٌّ في زَعمِهم قولٌ غيرُ مُطابقٍ للواقعِ؛ فهو الكذِبُ[٣]! وقيل: أَتَوا بصيغةِ الحاضرِ: ﴿مَا هَٰذَآ﴾ وإن كان غائبًا؛ للاحتقارِ، وقولُهم: ﴿إِلَّا

---

= سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٢٦).

رَجُلٌ ﴾ للإنكارِ؛ لأنَّهم أتَوْا به بصيغةِ النَّكرةِ، كأنَّهم لا يَعرِفونَه، كأنَّه رجُلٌ أجنبيٌّ منهم[١]!

- وفي التَّعبيرِ بالفِعلِ (كان) في قولِهم: ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾: إشارةٌ إلى أنَّهم عَنَوا أنَّ تلك عِبادةٌ قَديمةٌ ثابتةٌ، وفي ذلك إلْهابٌ لِقُلوبِ قَومِهم وإيغارٌ لِصُدورِهم؛ لِيَتألَّبوا على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويَزْدادوا تَمسُّكًا بدِينِهم. وفي قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ﴾ قد قَصَروا الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على صِفَةِ إرادةِ صَدِّهم قَصْرًا إضافيًّا[٢]، أي: إلَّا رجلٌ صادٌّ، فما هو برَسولٍ[٣].

- وفي قولِهم: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ إضافةُ الآباءِ إلى المخاطَبينَ لا إلى أنفُسِهم؛ لِتَحريكِ عِرْقِ العَصبيَّةِ منهم؛ مُبالَغةً في تَقريرِهم على الشِّركِ، وتَنفيرِهم عن التَّوحيدِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أتْبَعوا وَصْفَ التَّالي بوَصْفِ المَتلُوِّ بأنَّه كذِبٌ مُفترًى. وإعادةُ فِعلِ القولِ؛ للاهتِمامِ بحِكايةِ قَولِهم؛ لِفَظاعتِه، وكذلك إعادةُ فِعلِ القولِ إعادةً ثابتةً؛ للاهتِمامِ بكلِّ قَولٍ مِن القَولَينِ الغَريبَينِ؛ تَشنيعًا لهما في نفْسِ السَّامعينَ[٥].

- ثمَّ حَكَى تَكذيبَ الكافرينَ الَّذي يَعُمُّ جميعَ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن وَحيٍ يُتْلَى، أو دَعوةٍ إلى التَّوحيدِ وغيرِه، أو استِدلالٍ عليه، أو مُعجزةٍ؛ بقولِهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، فهذا المقالُ الثَّالثُ في الآيةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٢، ٢٦٨).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٦).

ويَشملُ ما تقدَّمَ وغيرَه؛ فحِكايةُ مَقالِهم هذا تَقومُ مَقامَ التَّذييلِ[١].

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ في تَكريرِ الفعلِ (قالَ)، والتَّصريحِ بذِكرِ الكفرةِ، وفي قولِه: ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾، وما في اللَّامينِ مِن الإشارةِ إلى القائلينَ والمَقولِ فيه، وفي ﴿لَمَّا﴾ مِن المُبادَهةِ بالكُفرِ؛ دليلٌ على صُدورِ الكلامِ عن إنكارٍ عظيمٍ، وغَضبٍ شديدٍ، وتَعجُّبٍ مِن أمْرِهم بليغٍ؛ كأنَّه قال: وقال أولئك الكَفَرةُ المُتمرِّدون بجَراءتِهم على اللهِ، ومُكابَرتِهم لِمثلِ ذلك الحقِّ النَّيِّرِ قبْلَ أنْ يَذوقُوه: إنْ هذا إلَّا سِحْرٌ مُبينٌ، فبَتُّوا القَضاءَ على أنَّه سِحرٌ، ثمَّ بَتُّوه على أنَّه بيِّنٌ ظاهرٌ، كلُّ عاقلٍ تأمَّلَه سمَّاهُ سِحرًا[٢]!

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ...﴾ فيه تَحميقٌ لجهالتِهم، وتَسفيهٌ لِرَأيِهم، وتَعجُّبٌ مِن حالِهم، ورَفْضِهم الحقَّ حينَ لا مانعَ يَصُدُّهم[٣].

- ولم يُقيَّدْ إيتاءُ الكُتبِ بقَيدٍ -كما قُيِّدَ الإرسالُ بقولِه: ﴿قَبْلَكَ﴾-؛ لأنَّ الإيتاءَ هو التَّمكينُ مِن الشَّيءِ، وهمْ لم يَتمكَّنوا مِن القُرآنِ، بخِلافِ إرسالِ النَّذيرِ؛ فهو حاصلٌ سواءٌ تَقبَّلوه أمْ أعْرَضوا عنه[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٨).

- قولُه: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ ... ﴾ تَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَهديدٌ لِلَّذين كذَّبوه، ومَوقعُ التَّسليةِ في قولِه: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾، ومَوقعُ التَّهديدِ بقيَّةُ الآيةِ؛ فالتَّسليةُ في أنَّ له أُسوةً بالرُّسلِ السَّابقينَ، والتَّهديدُ بتَذكيرِهم بالأُمَمِ السَّالفةِ الَّتي كذَّبَت رُسلَها، وكيف عاقَبَهم اللهُ على ذلك وكانوا أشَدَّ قوَّةً منهم[1].

- وجُملةُ ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعۡشَارَ مَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ؛ لأنَّ المُرادَ منهم المُشرِكون، فقُدِّمَ اهتمامًا، وإيذانًا بأنَّ إيرادَ هذا الكلامِ سَببُه هؤلاء المُكذِّبون؛ تَهديدًا ووَعيدًا. والفاءُ في قولِه: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي ﴾ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ باعتِبارِ أنَّ المُفرَّعَ عُطِفَ عليه قولُه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾، وبذلك كانت جُملةُ ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي ﴾ تأكيدًا لِجُملةِ ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾، ونَظيرُه قولُه تعالى في سورة (القمرِ): ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ [القمَرِ: ٩]، وتكونُ الفاءُ الثَّانيةُ في قولِه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ تأكيدًا لفظيًّا للفاءِ في قولِه: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي﴾. ويجوزُ ألَّا تكونَ مُعترِضةً، بلْ يكونُ قولُه: ﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ توطئةً وتَمهيدًا لقَولِه: ﴿وَمَا بَلَغُواْ ﴾، ويَنعطِفُ قولُه: ﴿فَكَذَّبُواْ﴾ على ﴿وَمَا بَلَغُواْ ﴾، أي: وما بلَغَ هؤلاءِ المُكذِّبون مِعشارَ ما آتَيْنا أولئك المُكذِّبين السَّابقينَ مِن طُولِ الأعمارِ، وقوَّةِ الأجرامِ، وكثرةِ الأموالِ؛ فكيف أقْدَموا على كُفرٍ أعظَمَ، وتَكذيبٍ أبلَغَ مِن أولئك، فكذَّبوا سيِّدَ الرُّسلِ لدَلالةِ جميعِ الرُّسلِ؟! كقوله تعالى: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ ﴾ [النحل: ١٢٠]. ويجوزُ أنْ يكونَ مِن قَبيلِ قولِه: ﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ ﴾ [الفرقان: ٣٧]، وإنَّما كذَّبوه وَحْدَه؛ لأنَّ الرِّسالةَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٩).

وصْفٌ جامعٌ، فيَلزَمُ مِن تكذيبِه تكذيبُهم[١].

- وقولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾. و(كيف) استِفهامٌ عن الحالةِ، وهو مُستعمَلٌ في التَّقريرِ والتَّفريعِ؛ فجُمْلَتا ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ في قوَّةِ جُملةٍ واحدةٍ مُفرَّعةٍ على جُملةِ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، والتَّقديرُ: وكذَّبَ الَّذين مِن قبْلِهم، فكيف كان نَكيري على تَكذيبِهم الرُّسلَ؟! ولكنْ لَمَّا كانت جُملةُ ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مَقصودًا منها تَسليةُ الرَّسولِ ابتداءً، جُعِلَت مَقصورةً على ذلك؛ اهتِمامًا بذلك الغرَضِ، وانتصارًا مِن اللهِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ خُصَّت عِبرةُ تَسبُّبِ التَّكذيبِ في العِقابِ بجُملةٍ تَخُصُّها؛ تَهويلًا للتَّكذيبِ، وهو مِن مَقاماتِ الإطنابِ، فصادَفَ أنْ كان مَضمونُ الجُملتينِ مُتَّحِدًا اتِّحادَ السَّببِ لِمُسبَّبينِ، أو العِلَّةِ لِمَعلولينِ، كعِلَّةِ السَّرقةِ للقطْعِ والغُرْمِ. وبُنِيَ النَّظمُ على هذا الأُسلوبِ الشَّيِّقِ؛ تَجنُّبًا لِثِقَلِ إعادةِ الجُملةِ إعادةً ساذَجةً؛ ففُرِّعَت الثَّانيةُ على الأُولى، وأُظهِرَ فيها مَفعولُ (كَذَّبَ)، وبُنِيَ عليه الاستِفهامُ التَّقريريُّ التَّفظيعيُّ، أو فُرِّعَ التَّكذيبُ الخاصُّ على التَّكذيبِ الَّذي هو سَجيَّتُهم العامَّةُ، على الوَجْهِ الثَّاني في مَعنى: ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٢].

- ولفظُ ﴿نَكِيرِ﴾ بكَسرِ الرَّاءِ، وهو مُضافٌ إلى ياءِ المُتكلِّمِ، وحُذِفَت الياءُ للتَّخفيفِ، مع التَّنبيهِ عليها ببَقاءِ الكَسرةِ على آخِرِ الكلمةِ، ولِيُناسِبَ الفاصِلةَ، وكُتِبَ في المُصحَفِ بدُونِ ياءٍ وبوَقفٍ عليه بالسُّكونِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧٦، ٥٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٤٦-٥٠)

﴿ ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ ﴿٤٦﴾ قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ﴿٤٧﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴿٥٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جِنَّةٍ﴾: أي: جُنونٍ، وأصلُ (جنن): السَّتْرُ والتَّسَتُّرُ؛ وسُمِّي الجُنونُ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ العقلَ ويُغطِّيه[1].

﴿يَقۡذِفُ﴾: أي: يُلْقي، وأصلُ (قذف): يدُلُّ على الرَّميِ والطَّرحِ[2].

﴿وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾: أي: زال الباطِلُ وهلَك؛ فلم تَبْقَ منه بقيَّةٌ يُقبِلُ بها أو يُدبِرُ، أو يُبدِئُ أو يُعيدُ؛ فالإبداءُ والإعادةُ مِن صفةِ الحيِّ، فعدمُهما عبارةٌ عن الهلاكِ، وأصلُ (بدأ): يدُلُّ على افتتاحِ الشَّيءِ، وأصلُ (عود): يدُلُّ على تثنيةٍ في الأمرِ؛ عَوْدًا بعدَ بَدْءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢) و(٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣)، ((شرح القسطلاني)) (٦/ ٣٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى ملقِّنًا نبيَّه الحُجَجَ القاطعةَ، والأقوالَ الحكيمةَ، الَّتي تهدي إلى الحقِّ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنَّما أنصَحُكم بخَصلةٍ واحِدةٍ: أن تقوموا مُخلِصينَ لله تعالى دونَ اتِّباعِ أهوائِكم، مُجتَمِعينَ اثنَينِ اثنَينِ، وواحِدًا واحِدًا، ثمَّ تَتفكَّروا في شأنِ مُحمَّدٍ، فتَعلَموا أنَّه ليس به مِن جُنونٍ! فما محمَّدٌ إلَّا نذيرٌ لكم يُنذِرُكم عذابًا شَديدًا.

قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إنْ سَألتُكم أجرًا فهو لكم؛ فما أجري على البلاغِ إلَّا على اللهِ وَحْدَه، واللهُ على كُلِّ شَيءٍ رَقيبٌ.

وقُلْ لهم: إنَّ رَبِّي يُلْقي الوَحيَ على رَسولِه، وهو سبُحانَه علَّامُ الغُيوبِ.

وقُلْ لهم: جاء القرآنُ المُشتَمِلُ على الحَقِّ، وذهَبَ الباطِلُ ذَهابًا كُلِّيًّا فلم يَبقَ له بقيَّةٌ.

وقُلْ لهم: إنْ ضلَلْتُ عن الهُدى فإنَّما إثْمُ ضَلالي على نَفْسي لا عليكم، وإنِ اهتدَيتُ فذلك بتوفيقِ رَبِّي لي باتِّباعِ ما أوحى إلَيَّ، إنَّ ربِّي سَميعٌ قَريبٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه ذكَرَ الأصولَ الثَّلاثةَ في هذه الآيةِ بعدَما سَبَق منه تقريرُها بالدَّلائلِ؛ فقَولُه: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ إشارةٌ إلى التَّوحيدِ، وقَولُه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ [سبأ: ٤٦] إشارةٌ إلى الرِّسالةِ، وقَولُه: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾

[سبأ: ٤٦] إشارةٌ إلى يَومِ الآخرةِ[١].

وأيضًا لَمَّا أبطل اللهُ تعالى شُبَهَ الكافِرينَ كُلَّها، وليَّن مِن عَريكتِهم بالتَّنبيهِ على التَّحذيرِ؛ فصاروا جديرينَ بقَبولِ الوَعظِ، وكان ممَّا رَمَوه به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -وحاشاه- الجنونُ وتعمُّدُ الكَذِبِ؛ فرَدَّ عليهم تعالى، فقال[٢]:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: إنَّما أُشيرُ عليكم وأنصَحُكم بالقيامِ بخَصلةٍ واحِدةٍ فحَسْبُ[٣].

﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.

أي: أن تَقوموا بهِمَّةٍ واجتِهادٍ على وَجهِ الإخلاصِ للهِ تعالى، واستِحضارِ عَظَمتِه، دونَ اتِّباعٍ لهوًى، أو تعصُّبٍ لِعَشيرةٍ، فتَقوموا مجتَمِعينَ اثنَينِ اثنَينِ، وفَرْدًا فَردًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٠)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٢).

ممَّن قال بأنَّ المرادَ بالواحدةِ: القيامُ للهِ مَثْنى وفُرادى؛ للتَّفَكُّرِ في أمرِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) =

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾.

أي: ثمَّ تَتفكَّروا مع غَيرِكم ومع أنفُسِكم في شأنِ محمَّدٍ، فتَعلَموا أنَّه ليس بصاحِبِكم الَّذي خالطْتُموه وعرَفْتُم أحوالَه ورَجاحةَ عَقلِه: مِن جُنونٍ[1]!

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

---

= (٢/ ١٦٩)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣).

وقيل: المرادُ بالواحدةِ: كَلِمةُ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٦٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٥٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٣).

قال القرطبي: (الوَقفُ عند أبي حاتم وابنِ الأنباريِّ على ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾. وقيل: ليس هو بوقفٍ؛ لأنَّ المعنى: ثمَّ تَتفكَّروا هل جرَّبتُم على صاحِبِكم كَذِبًا، أو رأيتُم فيه جِنَّةً، أو في أحوالِه مِن فسادٍ، أو اختلَف إلى أحدٍ ممَّن يَدَّعي العِلمَ بالسِّحرِ، أو تعلَّم الأقاصيصَ وقرأ الكتُبَ، أو عرَفتُموه بالطَّمَعِ في أموالِكم، أو تَقدِرونَ على مُعارَضتِه في سورةٍ واحدةٍ؟! فإذا عرَفتُم بهذا الفِكرِ صِدقَه، فما بالُ هذه المعانَدةِ؟!). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١١، ٣١٢).

وممَّن جعَل الوَقفَ على: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾، وتكونُ جملةُ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ استئنافًا مِن كلامِ اللهِ تعالى؛ تكذيبًا لهم: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٣٠).

وممَّن أثبَت محذوفًا تقديرُه: فتَعْلَموا، أو: فتتَبَيَّنوا... ونحو ذلك، على معنى: ثمَّ تَتفكَّروا فتَعْلَموا أنَّه ما بصاحِبِكم مِن جِنَّةٍ: ابنُ جُزَي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٣).

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾.

أي: ما مُحمَّدٌ إلَّا نَذيرٌ لكم يُنذِرُكم عذابًا شَديدًا وقَريبًا قبْلَ حُلولِه بكم؛ لِكُفرِكم(١).

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((صَعِدَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصَّفا ذاتَ يوم، فقال: يا صَبَاحاه(٢)! فاجتمَعَت إليه قُرَيشٌ، قالوا: ما لَك؟ قال: أرأيتُم لو أخبَرْتُكم أنَّ العَدُوَّ يُصَبِّحُكم أو يُمَسِّيكم، أمَا كنتُم تُصَدِّقُوني؟ قالوا: بلى، قال: فإنِّي نذيرٌ لكم بيْنَ يَدَيْ عذابٍ شديدٍ، فقال أبو لهبٍ: تبًّا لك، ألهذا جمعْتَنا؟! فأنزل الله: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]))(٣).

﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ ٤٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما به جِنَّةٌ؛ لِيَلزَمَ منه كَونُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨١).
قال ابن عثيمين: (يعني: ما محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا رجُلٌ مِن أعقَلِ النَّاسِ، ومِن أحَنِّ النَّاسِ على قَومِه... فالنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هذه حالُه، رجُلٌ عاقلٌ ناصحٌ لقومِه حانٍ عليهم؛ لأنَّ الَّذي يُنذِرُك مِن العذابِ يُعتبَرُ مُحسِنًا إليك). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨١).

(٢) هذه كلِمةٌ يقولُها المُستغيثُ، وأصْلُها إذا صاحوا للغارةِ؛ لأنَّهم أكثَرُ ما كانوا يُغِيرون عندَ الصَّباحِ، ويُسَمُّون يومَ الغارةِ يومَ الصَّباحِ، فكأنَّ القائلَ «يا صَباحاه» يقولُ: قد غَشِيَنا العدوُّ. وقيل: إنَّ المُتقاتِلينَ كانوا إذا جاء اللَّيلُ يَرجِعون عن القتالِ، فإذا عاد النَّهارُ عاوَدوه، فكأنَّه يريدُ بقولِه «يا صَباحاه»: قد جاء وقتُ الصَّباحِ، فتأهَّبوا للقتالِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٦، ٧).

(٣) رواه البخاري (٤٨٠١) واللفظ له، ومسلم (٢٠٨).

نَبيًّا- ذكَرَ وَجهًا آخَرَ يَلزَمُ منه أنَّه نبيٌّ، إذا لم يكُنْ مَجنونًا؛ لأنَّ مَن يَرتكِبُ العناءَ الشَّديدَ لا لغرَضٍ عاجلٍ إذا لم يكُنْ ذلك فيه ثوابٌ أُخرويٌّ يكونُ مجنونًا؛ فالنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بدَعواه النُّبُوَّةَ يَجعَلُ نفْسَه عُرضةً للهَلاكِ عاجِلًا؛ فإنَّ كُلَّ أحدٍ يَقصِدُه ويُعاديه، ولا يَطلُبُ أجرًا في الدُّنيا؛ فهو يَفعَلُه للآخرةِ، والكاذِبُ في الآخرةِ مُعَذَّبٌ لا مُثابٌ، فلو كان كاذِبًا لَكان مجنونًا، لكِنَّه ليس بمجنونٍ؛ فليس بكاذبٍ؛ فهو نبيٌّ صادِقٌ(١).

وأيضًا لَمَّا كان ثَمَّ مانعٌ للنُّفوس آخَرُ عن اتِّباعِ الدَّاعي إلى الحَقِّ، وهو أنَّه يأخُذُ أموالَ مَن يَستجيبُ له، ويأخُذُ أُجرةً على دَعوتِه؛ بيَّن الله تعالى نزاهةَ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن هذا الأمرِ(٢).

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنْ سألْتُكم أجرًا فهو لكم؛ فلا أُريدُ منكم أجرًا على تَبليغي رِسالةَ اللهِ إليكم، ولا تَظُنُّوا أنِّي أدعوكم إلى الإيمانِ باللهِ وطاعتِه وأُنذِرُكم عذابَه لآخُذَ شَيئًا مِن أموالِكم(٣).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٦، ٨٧].

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: ما أَجْري على تَبليغِكم رِسالةَ اللهِ إلَّا على اللهِ وَحْدَه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٦). =

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: واللهُ على كُلِّ شَيءٍ رَقيبٌ حاضِرٌ؛ فهو يَشهَدُ على حقيقةِ ما أقولُه لكم وأدعوكم إليه، ولو كُنتُ كاذِبًا لأخَذَني بعذابٍ، وشَهيدٌ على أنَّني بلَّغتُكم وأنذَرْتُكم، فكذَّبتُموني وخالَفْتُم، فأجري على اللهِ، وعُقوبتُكم عليه[1].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى رِسالةَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم بقَولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾، وأكَّده بقَولِه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، وكان مِن عادةِ المُشرِكينَ استِبعادُ تخصيصِ واحدٍ مِن بيْنِهم بإنزالِ الذِّكرِ عليه، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]- ذكَرَ ما يَصلُحُ جوابًا لهم، مع الإشارةِ إلى أنَّ الأمرَ بيَدِه، يَفعَلُ ما يُريدُ، ويُعطي ما يَشاءُ لِمَن يشاءُ[2].

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: إنَّ رَبِّي يُلقي الوَحيَ على رَسولِه[3].

---

= قال البِقَاعي: (فإذا ثبتَ أنَّ الدُّعاءَ [أي: الدَّعوةَ إلى الله] ليس لغَرَضٍ دُنيويٍّ، وأنَّ الدَّاعيَ أرجَحُ النَّاسِ عقلًا؛ ثبَتَ أنَّ الَّذي حمَلَه على تعريضِ نفْسِه لتلك الأخطارِ العَظيمةِ إنَّما هو أمرُ اللهِ الَّذي له الأمرُ كُلُّه). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٧، ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٢، ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩١، ٢٩٢).

قال الزمخشري: (معنى ﴿يَقْذِفُ بِالْحَقِّ﴾ يُلقيه ويُنزِلُه إلى أنبيائِه، أو يَرمي به الباطِلَ فيَدمَغُه ويُزهِقُه). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩١). =

﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾.

أي: العلَّامُ بكُلِّ ما يَغيبُ عن خَلقِه، لا يخفَى عليه شَيءٌ[1].

﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ٤٩﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه يَقذِفُ بالحَقِّ، وكان ذلك بصيغةِ الاستِقبالِ؛ ذكَرَ أنَّ

---

= وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ، وهو إلقاؤُه وإنزالُه على رُسُلِه: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٧١١).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني، وهو رمْيُ الباطِلِ وإبطالُه: البِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧).

وظاهِرُ عبارةِ الزَّجَّاجِ الجمعُ بيْنَهما؛ حيث قال: (ومعنى ﴿يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: يأتي بالحَقِّ ويَرمي بالحَقِّ، كما قال جلَّ وعزَّ: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٥٨).

وقال ابنُ عاشور: (والمعنى: أنَّ رَبِّي يَقذِفُكم بالحَقِّ، أو هو إشارةٌ إلى قَولِه: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ﴾ [الأنبياء: ١٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

قال السعدي: (فإنَّك كما ترى كيف اضمَحَلَّت أقوالُ المكَذِّبين، وتبيَّنَ كَذِبُهم وعِنادُهم، وظهَر الحقُّ وسَطَع، وبطَل الباطِلُ وانقَمَع؛ وذلك بسَبَب بيانِ ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ الَّذي يَعلَمُ ما تَنطوي عليه القُلوبُ مِن الوَساوِسِ والشُّبَهِ، ويَعلَمُ ما يُقابِلُ ذلك ويَدفَعُه مِنَ الحُجَجِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٢، ٥٣٣).

ذلك الحَقَّ قد جاء[١].

وأيضًا لَمَّا وَصَف اللهُ تعالى نفْسَه بنهايةِ العِلمِ؛ أتْبَعَه بعضَ آثارِه، فقال[٢]:

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: جاء الحقُّ الَّذي لا يَقدِرُ أحدٌ على إزالتِه وإبطالِه، بنُزولِ القُرآنِ المُشتَمِلِ على البَيِّناتِ والحُجَجِ، وبدِينِ الإسلامِ[٣].

﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾.

أي: واضمَحَلَّ الباطِلُ، وذهَبَ ذَهابًا لم يَبقَ معه إقبالٌ له ولا إدبارٌ؛ فلا أثَرَ له ولا وُجودَ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٩).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالحقِّ هنا القرآنُ والإسلامُ: الثعلبيُّ، والبغوي، والرسعني، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٩).
وممَّن اقتصَر في تفسيرِ الحقِّ على الإسلامِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٥).
وقال ابن جرير: (جاء القرآنُ ووَحْيُ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٧).
وقال الماوَرْدي: (﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ؛ أحَدُها: بَعثةُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم. قاله ابنُ زَيدٍ. الثَّاني: القرآنُ. قاله قَتادةُ. الثَّالثُ: الجهادُ بالسَّيفِ. قاله ابنُ مسعودٍ). ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((دخَل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مكَّةَ، وحَوْلَ البَيتِ سِتُّونَ وثلاثُ مئةِ نُصُبٍ، فجعَل يَطعُنُها بعُودٍ في يَدِه، ويقولُ: ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩]))[1].

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا جرَى ذِكرُ الحَقِّ والباطِلِ، وكانوا يَزعُمونَ مِن مَجموعِ أقوالِهم أنَّ النَّبيَّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- غيرُ صادِقٍ في دعوى الرِّسالةِ مِن اللهِ؛ كانت أقوالُهم تَقتَضي زَعْمَهم إيَّاه على ضلالٍ، وكان الرَّدُّ عليهم قاطِعًا بأنَّه على هُدًى، بِقَولِه: ﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ: ٤٩]، فانتقَل هنا إلى مُتارَكةِ جِدالِهم،

---

= الشوكاني)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩٤).

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بالباطِلِ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه الشَّيطانُ، لا يَخلُقُ أحدًا ولا يَبعَثُه. قاله قَتادةُ.

والثَّاني: أنَّه الأصنامُ، لا تُبدئُ خَلْقًا ولا تُحيي. قاله الضَّحَّاكُ. وقال أبو سُلَيْمانَ: لا يَبتدئُ الصَّنمُ مِن عندِه كلامًا فيُجابَ، ولا يَرُدُّ ما جاء مِن الحَقِّ بحُجَّةٍ.

والثَّالثُ: أنَّه الباطِلُ الَّذي يُضادُّ الحَقَّ، فالمعنى: ذهَب الباطلُ بمجيءِ الحقِّ، فلم تَبْقَ منه بقيَّةٌ يُقبِلُ بها أو يُدبِرُ، أو يُبدِئُ أو يعيدُ. ذكره جماعةٌ مِن المفسِّرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣).

(١) رواه البخاري (٤٧٢٠) واللفظ له، ومسلم (١٧٨١).

وتَرْكِهم وشأنَهم؛ لقِلَّةِ جَدوَى مُراجَعتِهم[١].

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إن ضلَلْتُ عن الهُدى، واتَّبَعْتُ غيرَ الحَقِّ؛ فإنَّما إثمُ ضلالي وضرَرُه على نَفْسي لا عليكم[٢]!

﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾.

أي: وإنِ اتَّبعْتُ الحَقَّ واستقَمْتُ عليه، فذلك بتوفيقِ رَبِّي لي إلى اتِّباعِ القُرآنِ الَّذي يُوحيه إلَيَّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾.

أي: إنَّ ربِّي سَميعٌ لجَميعِ الأصواتِ والأقوالِ، قَريبٌ مِن عبادِه سُبحانَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣).

قال ابن جرير: (يقولُ: إنَّ رَبِّي سميعٌ لِما أقولُ لكم، حافِظٌ له، وهو المُجازي لي على صِدْقي في ذلك، قريبٌ مِنِّي، غيرُ بعيدٍ فيَتعذَّرَ عليه سماعُ ما أقولُ لكم وما تقولونَ وما يقولُه غيرُنا، ولكِنَّه قريبٌ مِن كُلِّ متكلِّمٍ، يَسمَعُ كُلَّ ما يَنطِقُ به، وهو أقرَبُ إليه مِن حبلِ الوَريدِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

وعن أبي موسى الأَشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ، فجعَلَ النَّاسُ يَجهَرونَ بالتَّكبيرِ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا[1] على أنفُسِكم؛ إنَّكم ليس تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائبًا، إنَّكم تَدْعونَ سَميعًا قَريبًا، وهو معكم))[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُومُوا لِلَّهِ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن طلَبَ الحقَّ أنْ يكونَ مُخلِصًا للهِ تعالى، بعيدًا عن الهوى[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾ مَن وَثِقَ بنَفْسِه في رَصانةِ عَقلِه، وأصالةِ رأيِه، قام وحْدَه؛ لِيَكونَ

---

= وقال البِقاعي: (علَّلَ الضَّلالَ والهدى بقَولِه: ﴿إِنَّهُ﴾ أي: رَبِّي ﴿سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أي: لا يَغيبُ عنه شَيءٌ مِن حالِ مَن يَكذِبُ عليه؛ فهو جديرٌ بأنَّه يَفضَحُه كما فضَحَكم في جميعِ ما تَدَّعُونَه، ولا يَبعُدُ عليه شَيءٌ لِيَحتاجَ في إدراكِه إلى تأخيرٍ؛ لِقَطعِ مَسافةٍ أو نحوِها، بل هو مُدرِكٌ لكُلِّ ما أراد كُلَّما أراد). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٣٥).

وقال ابنُ عثيمين: (يجِبُ أن تَعلَمَ أنَّه مع قُربِه بذاتِه، فهو مُستَوٍ على عَرشِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٠).

(١) ارْبَعُوا: أي: ارفُقوا بأنفُسِكم، واخفِضوا أصواتَكم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٢٦).

(٢) رواه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٢).

أصفَى لسِرِّه، وأعْوَنَ على خُلوصِ فِكرِه، ومَن خاف عليها ضمَّ إليه آخَرَ؛ ليُذَكِّرَه إن نَسيَ، ويُقَوِّمَه إن زاغَ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ﴾ جوازُ التَّعاوُنِ في طلَبِ الوُصولِ إلى الحقِّ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ دَعوةُ الإنسانِ المُعانِدِ للتَّأمُّلِ في الأمرِ والنَّظَرِ فيه؛ حتَّى لا يَتعجَّلَ بالرَّدِّ[٣]، والفِكرةُ تَهدي غالبًا إلى الصَّوابِ إذا عَرِيَ صاحِبُها عمَّا يُشوِّشُ النَّظَرَ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أنَّنا إذا أرَدْنا استِكشافَ حالِ الشَّخصِ، فإنَّنا نسألُ مُصاحِبَه الَّذي يُصاحِبُه ويُلازِمُه؛ لأنَّه أعلَمُ النَّاسِ به[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾ استِعمالُ الأوصافِ الَّتي تَستلزِمُ الموافَقةَ والمُتابَعةَ، فعندَ مُخاطَبةِ آخَرَ يَنْبغي استِعمالُ الألفاظِ الَّتي تُدْنيه وتُقرِّبُه وتُؤلِّفُ قلْبَه، لا الألفاظِ الَّتي تُبعِدُه[٦].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّه لا ينبغي لِذي هِمَّةٍ أن يَبتغيَ شَيئًا إلَّا مِن عندِ اللهِ تعالى[٧].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٤).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٢).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَنسُبَ الخطأَ إلى نفْسِه، ويَنسُبَ الصَّوابَ إلى الله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه بنِعمتِه[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾ الاعترافُ لله عزَّ وجلَّ بالجَميلِ[٢].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾ في الآيةِ إرشادٌ مِن اللهِ تعالى إلى أنَّه وإن كان خَلَقَ للآدَميِّ عَقلًا، لكنَّه حَفَّه بقَواطِعَ مِنَ الشَّهَواتِ والحُظوظِ، والكَسَلِ والفُتورِ؛ فلا يَكادُ يَسْلَمُ منها إلَّا مَن عصَمَه اللهُ، فلمَّا كان كذلك أنزَل سبحانَه كُتُبًا، وأرسَل رُسُلًا جرَّدَهم مِن تلك القواطِعِ، فجعَل أخلاقَهم شرائِعَهم؛ فعلى كلِّ أحدٍ أن يَتَّبِعَ رُسُلَه المتخَلِّقينَ بكُتُبِه، مُتَّهِمًا عقْلَه، مُنابِذًا رأيَه، كما كان الصَّحابةُ رَضِيَ الله تعالى عنهم[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾ أنَّ النَّظَرَ في الوَحيِ -القُرآنِ والسُّنَّةِ- سَببٌ في الهدايةِ؛ لأنَّ الباءَ في قَولِه تعالى: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ ﴾ سَببيَّةٌ، وإذا كان ذلك سَببًا للهدايةِ، كان مِن العقلِ والبصيرةِ أنْ نَنظُرَ في وَحيِ اللهِ تعالى وشَرعِه، وألَّا نَطلُبَ الصَّوابَ مِن غَيرِهما[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في هذه الدَّعوةِ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ...﴾ تَقريبُ مَسالِكِ النَّظرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٥، ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٥).

إليهم باختِصارِه، حيثُ وصَفَ الوعظَ بأنَّه خَصلةٌ واحدةٌ؛ لئلَّا يَتجَهَّموا الإقبالَ على هذا النَّظرِ الَّذي عَقَدوا نِيَّاتِهم على رَفضِه، فأُعلِموا بأنَّ ذلك لا يُكلِّفُهم جهدًا، ولا يُضيِّعُ عليهم زمنًا؛ فلْيَتأمَّلوا فيه قليلًا، ثمَّ يَقْضوا قَضاءَهم[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أنَّ التَّفكيرَ كما يكونُ في الآياتِ الكَونيَّةِ يكونُ كذلك في الآياتِ الشَّرعيَّةِ؛ لأنَّه هنا طلَبَ منهم التَّفَكُّرَ فيما جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي الرَّسولِ نفْسِه أيضًا[٢].

٣- كلُّ مَن تحيَّرَ في أمرٍ قد اشتَبَهَ عليه واستَبهَم، أخرَجه مِنَ الحَيرةِ فيه أن يَسألَ ويُناظِرَ، ثمَّ يُفكِّرَ ويَعتبِرَ؛ قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ استِعمالُ الأُسلوبِ المناسِبِ للحالِ، وهذا معروفٌ في علمِ البلاغةِ: أنْ يَستعمِلَ الإنسانُ ما يُوافِقُ مُقتضى الحالِ؛ فهنا ذَكَرَ الإنذارَ دونَ البِشارةِ؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ تخويفٍ وإنذارٍ؛ لأنه يُخاطِبُ المُكذِّبينَ. لكنْ عندَ وصفِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الوَصفَ المُطلَقَ، يقولُ سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]؛ فبدأَ بالبِشارةِ قبْلَ الإنذارِ، وهذا مِن حيثُ حالُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم المُطْلَقةُ، أمَّا في المقاماتِ الَّتي تقتضي ذِكْرَ الإنذارِ، فيُستعمَلُ فيها الإنذارُ دونَ غَيرِه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ التَّنزُّلُ مع الخَصمِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٤).

على فَرضِ أنِّي سألتُ، فهو لكم[١]!

٦- قال الله تعالى لنبيِّه: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾، وقال أيضًا: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ [يس: ٢١]، فلا يجوزُ أخذُ الأجرةِ على تبليغِ الإسلامِ والقرآنِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ تهديدُ الخَصمِ بما تقتضيه أسماءُ اللهِ تعالى وصِفاتُه؛ فإنَّ في ذلك تهديدًا لهم، يعني: فسيَشهدُ على تكذيبِكم وعلى تبليغِه[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَمَا يُبۡدِئُ ٱلۡبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾، استُدِلَّ به على استحبابِ هذا القولِ عندَ إزالةِ المنكرِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ بيانُ أنَّ الإيمانَ والهدَى حَصَلَ بالوَحيِ النَّازلِ، لا بمُجرَّدِ العَقلِ الَّذي كان حاصِلًا قبْلَ الوَحيِ[٥].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ لَمَّا كانت النَّفْسُ مُنقادةً بل مُترامِيةً نحوَ الباطِلِ، عبَّرَ في الضَّلالِ بالمجَرَّدِ ﴿ضَلَلۡتُ﴾ ﴿أَضِلُّ﴾، وفي الهدَى بالافتِعالِ ﴿ٱهۡتَدَيۡتُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه لا بُدَّ فيه مِن هادٍ وعِلاجٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٥٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٤، ٥٣٥).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓۚ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وأنَّها مُؤَثِّرةٌ بإذنِ اللهِ تعالى؛ ففي ذلك رَدٌّ على الأشاعرةِ الَّذين يُنكِرونَ تأثيرَ الأسبابِ[١]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ استِئنافٌ للانتقالِ مِن حِكايةِ أحوالِ كُفرِ المُشرِكينَ، إلى دَعوتِهم للإنصافِ في النَّظرِ والتَّأمُّلِ في الحقائقِ؛ لِيَتَّضِحَ لهم خَطؤُهم، وأُرشِدوا إلى كيفيَّةِ النَّظرِ في شَأنِهم، والاختلاءِ بأنفُسِهم لِمُحاسَبتِها على سُلوكِها؛ استِقصاءً لهم في الحُجَّةِ، وإعذارًا لهم في المُجادَلةِ؛ ولذلك اجتُلِبَت صِيغةُ الحَصرِ بـ﴿إِنَّمَآ﴾، أي: ما أعِظُكم إلَّا بواحدةٍ؛ طَيًّا لِبِساطِ المُناظَرةِ، وإرساءً على الخُلاصةِ مِن المُجادَلاتِ الماضيةِ، وتقريبًا لِشُقَّةِ الخلافِ بيْنَنا وبيْنَكم[٢].

- وفي قولِه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ...﴾ افتتاحُ الأمرِ بالقولِ هنا وفي الآياتِ الأربعِ بعْدَه؛ للاهتِمامِ بما احتَوَت عليه[٣].

- في قولِه: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ طِباقٌ بَديعٌ[٤]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّديَّةُ في الصُّورةِ مُتوهَّمةً، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ =

أتَى به احترازًا مِن القِيامِ جماعةً؛ لأنَّ في الاجتِماعِ تَشويشًا للخواطرِ، وحُئولًا دونَ التَّأمُّلِ والاستغراقِ في التَّفكيرِ(١)، فلم يَذكُرْ غيرَهما مِنَ الأقسامِ إشارةً إلى أنَّهم إذا كانوا على هاتينِ الحالتَينِ، كان أجدَرَ لهم بأن يَعرِفوا الحَقَّ مِن غيرِ شائبةِ حَظٍّ؛ ممَّا يكونُ في الجَمعِ الكثيرِ مِن الجِدالِ واللَّفظِ المانعِ مِن تهذيبِ الرَّأيِ، وتَثقيفِ الفِكرِ، وتنقيةِ المعاني(٢).

- والتَّعبيرُ بالقيامِ؛ إشارةً إلى الاجتِهادِ(٣).

- وقُدِّمَ ﴿مَثْنَىٰ﴾ إيذانًا بأنَّه أوثَقُ وأقرَبُ إلى الاطمئنانِ؛ لأنَّ الاستعانةَ بشَخصٍ ثانٍ أعوَنُ على الفَهمِ؛ فيكونُ المرادُ دَفْعَ عوائقِ الوُصولِ إلى الحقِّ بالنَّظرِ الصَّحيحِ الَّذي لا يُغالِطُ فيه صاحبُ هَوًى ولا شُبهةٍ، ولا يَخشى فيه النَّاظرُ تَشنيعًا ولا سُمْعةً، وللسَّلامةِ مِن العوائقِ والتَّخلُّصِ مِن البوائقِ الصَّادَّةِ عن طَريقِ الحقِّ قِيل هنا: ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾؛ فإنَّ المرْءَ إذا خَلَا بنَفْسِه عندَ التَّأمُّلِ لم يَرضَ لها بغيرِ النُّصحِ، وإذا خَلا ثانيَ اثنينَ فهو إنَّما يَختارُ ثانيَه أعلَقَ أصحابِه به، وأقرَبَهم منه رأْيًا، فسَلِمَ كِلاهما مِن غِشِّ صاحبِه(٤). وقيل:

---

= تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخال النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري)) للآمدي (١/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٢٥ - ٢٣٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٣٧٧ - ٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩، ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٣).

قُدِّمَ ﴿مَثۡنَىٰ﴾؛ لأنَّ هذا القِسمَ أكثَرُ وُجودًا في النَّاسِ[١].

- وحَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي في الرُّتبةِ؛ لأنَّ التَّفكُّرَ في أحوالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أهَمُّ في إصلاحِ حالِ المُخاطَبينَ المُعرِضينَ عن دَعوتِه، بخِلافِ القيامِ للهِ؛ فإنَّهم لا يَأبَوْنَه[٢]. وقيل:

لَمَّا كان ما طُلِب منهم هذا لأجْلِه عظيمًا، جديرًا بأن يُهتَمَّ له هذا الاهتِمامَ؛ أشار إليه بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾، أي: تَجتَهِدوا بعد التَّأنِّي وطولِ التروِّي في الفِكرِ فيما وسَمتُم به صاحِبَكم مِن أمرِ الجُنونِ[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفي إطلاقِ ﴿تَتَفَكَّرُواْ﴾ مُبالَغةٌ ليسَتْ في تَقييدِه[٤].

- قولُه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ مِن جِهَتِه تعالَى -على قولٍ-؛ للتَّنبيهِ على طَريقةِ النَّظرِ والتَّأمُّلِ؛ بأنَّ مِثلَ هذا الأمرِ العظيمِ الَّذي تَحتَه مُلكُ الدُّنيا والآخرةِ، لا يَتصدَّى لادِّعائِه إلَّا مَجنونٌ لا يُبالي بافتِضاحِه عندَ مُطالَبتِه بالبُرهانِ، وظُهورِ عَجْزِه، أو مُؤيَّدٌ مِن عندِ اللهِ، مُرشَّحٌ للنُّبوَّةِ، واثقٌ بحُجَّتِه وبُرهانِه، وإذ قد عَلِمْتُم أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرجَحُ العالَمينَ عقْلًا، وأصدَقُهم قَولًا، وأجمَعُهم للكَمالاتِ البشريَّةِ؛ وجَبَ أنْ تُصدِّقُوه في دَعواهُ، فكيف وقد انضَمَّ إلى ذلك مُعجزاتٌ تَخِرُّ لها صُمُّ الجبالِ[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٩).

- والتَّعبيرُ ﴿بِصَاحِبِكُم﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (ما بي مِن جِنَّةٍ)؛ إذ الكلامُ جارٍ على لِسانِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفائدةُ ذلك: التَّنبيهُ على أنَّ حالَه مَعلومٌ لَدَيْهم، لا يَلتبِسُ عليهم؛ لِشِدَّةِ مُخالَطتِه بهم مُخالطةً لا تَذَرُ للجَهالةِ مَجالًا؛ فهُم عَرَفوه ونشَأَ بيْنَهم حتَّى جاءهم بالحقِّ[1]، وفي الإضافةِ ﴿بِصَاحِبِكُم﴾ زيادةُ التَّشنيعِ على هؤلاءِ الكُفَّارِ في أنَّهم يَصِفونَ صاحبَهم -الَّذي يَعرِفونَه- بهذا الوَصفِ، وأيضًا أنَّه كان أَولى بهم -وهو صاحِبُهم- أنْ يكونوا أوَّلَ النَّاسِ تصديقًا به، وأشدَّ النَّاسِ مَعونةً له[2].

- والاقتِصارُ في التَّفكُّرِ المَطلوبِ على انتفاءِ الجِنَّةِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قولِه: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ هو أنَّ أصْلَ الكفرِ هو الطَّعنُ في نُبوَّتِه، وهمْ لَمَّا طَعَنوا فيه قالوا: مَجنونٌ، وقالوا: ساحرٌ، وقالوا: كاذبٌ؛ فابتُدِئَ في إرجاعِهم إلى الحقِّ بنَفْيِ الجُنونِ عنه، حتى إذا أذْعَنوا إلى أنَّه مِن العُقلاءِ، انصَرَفَ النَّظرُ إلى أنَّ مِثلَ ما جاء به لا يَأتي به إلَّا عاقلٌ، فبَقِيَت دَعواهم أنَّه ساحِرٌ، وأنَّه كاهنٌ، وأنَّه شاعرٌ، وأنَّه كاذبٌ -حاشاهُ-؛ فأمَّا السِّحرُ والكِهانةُ فسَهلٌ نَفْيُهما بنَفْيِ خَصائصِهما، ومِن أجْلِ هذا التَّدرُّجِ الَّذي طُوِيَ تحتَ جُملةِ ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾، أُعقِبَ ذلك بحَصْرِ أمْرِه في النِّذارةِ بقُرْبِ عذابٍ واقعٍ، أي: في النِّذارةِ والرِّسالةِ الصَّادقةِ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٤، ٢٣٥).

- قولُه: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡ ...﴾ استِقصاءٌ لِبَقايا شُبَهِ التَّكذيبِ؛ لِدَحْضِها، سواءٌ منها ما تَعلَّقوا به مِن نَحوِ قولِهم: كاهنٌ، وشاعِرٌ، ومَجنونٌ، وما لم يَدَّعوه ولكنَّه قد يَخطُرُ ببالِ واحدٍ منهم؛ أنْ يَزعُموا أنَّه يُريدُ بهذه الدَّعوةِ نفْعًا لنَفْسِه يكونُ أجْرًا له على التَّعليمِ والإرشادِ، وهذه طَريقةٌ بَديعةٌ في الكِنايةِ التَّهكُّميَّةِ عن عدَمِ انتفاعِه بما يَدْعوهم إليه؛ بأنْ يُفرَضَ كالواقعِ، ثم يُرتَّبَ عليه الانكفافُ عنه، ورَدُّ ما فات منه؛ لِيُفضِيَ بذلك إلى البراءةِ منه ومِن التَّعرُّضِ له؛ فهي كِنايةٌ رَمزيَّةٌ، وأنَّهم يَعلَمون أنَّه لم يَسأَلْهم أجْرًا[1].

- في قولِه: ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ تصريحٌ بأنَّ النَّبيَّ لا يُريدُ أجرًا منهم، وجِيءَ بالشَّرطِ بصِيغةِ الماضي لِيَدُلَّ على انتفاءِ ذلك في الماضي، فيَكونَ انتِفاؤُه في المُستقبَلِ أجدَرَ، على أنَّ وُقوعَه في سِياقِ الشَّرطِ يَقْضي بانتفائِه في المُستقبَلِ أيضًا، وهذا جارٍ مَجْرى التَّحدِّي؛ لأنَّه لو كان لِجَماعتِهم أو آحادِهم عِلمٌ بأنَّه طلَبَ أجْرًا منهم، لَجأروا حينَ هذا التَّحدِّي بمُكافَحتِه، وطالَبوه برَدِّه عليهم[2].

- وجُملةُ ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا، جَوابًا لِسُؤالٍ مُقدَّرٍ أنْ يَسأَلَ السَّامعُ: كيف لا يكونُ له على ما قام به أجْرٌ؟ فأُجِيبَ بأنَّ أجْرَه مَضمونٌ وعَدَه اللهُ به؛ لأنَّه إنَّما يقومُ بعَملٍ لِمَرْضاتِه وامتثالِ أمْرِه؛ فعليه أجْرُه[3].

- قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ تَذييلٌ باستِشهادِ اللهِ تعالى على باطنِه ونِيَّتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٣٧).

الَّتي هي مِن جُملةِ الكائناتِ الَّتي اللهُ شَهيدٌ عليها، وعليمٌ بخَفاياها، وهو شاهدٌ على ذلك كلِّه[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ أُعِيدَ فِعلُ (قل)؛ للاهتِمامِ بالمَقولِ. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ لِتَحقيقِ هذا الخبَرِ[٢].

- والتَّعبيرُ عن اسمِ اللهِ سُبحانَه بلفظِ (الرَّبِّ)، وإضافتُه إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ في قوله: ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الحقَّ في جانبِه، وأنَّه مؤيَّدٌ مِن ربِّه؛ فإنَّ الرَّبَّ يَنصُرُ مَربوبَه ويُؤيِّدُه[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿رَبِّي﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ للدَّلالةِ على الاختِصاصِ دونَ التَّقَوِّي؛ لأنَّ تَقوِّي الجُملةِ حَصَلَ بحَرْفِ التَّأكيدِ، وهذا الاختِصاصُ باعتبارِ ما في ﴿يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ مِن معنى: النَّاصرُ لي دُونَكم؛ فماذا يَنفَعُكم اعتِزازُكم بأموالِكم وأولادِكم وقُوَّتِكم[٤]؟!

- وفي قولِه: ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾ تَعريضٌ بالتَّهديدِ والتَّخويفِ مِن نَصرِ اللهِ المؤمنينَ على المُشرِكينَ، ووَعدٌ بإظهارِ الإسلامِ وإعلاءِ كَلمةِ الحقِّ[٥].

- وتَخصيصُ وَصْفِ ﴿عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ مِن بيْنِ الأوصافِ الإلهيَّةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه عالِمٌ بالنِّيَّاتِ، وأنَّ القائلَ يَعلَمُ ذلك؛ فالَّذي يَعلَمُ هذا لا يَجترِئُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٣٧، ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

اللهِ بادِّعائه باطلًا أنَّه أرسَلَه إليكم، فالإعلامُ بهذه الصِّفةِ هنا يُشبِهُ استِعمالَ الخبَرِ في لازِمِ فائدتِه؛ وهو العِلمُ بالحُكمِ الخَبَريِّ، مع ما فيه مِن المُبالَغةِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أُعِيدَ فِعلُ (قل)؛ للاهتِمامِ بالمَقولِ، وجُملةُ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ تأكيدٌ لِجُملةِ ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ [سبأ: ٤٨]؛ فإنَّ الحقَّ قد جاء بنُزولِ القرآنِ ودَعوةِ الإسلامِ. ولَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّه ﴿يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ، أخبَرَ أنَّ الحقَّ قد جاء، وهو القرآنُ والوحيُ، وبطَلَ ما سِواهُ مِن الأديانِ؛ فلمْ يَبقَ لغيرِ الإسلامِ ثَباتٌ، لا في بَدْءٍ ولا في عاقبةٍ؛ فلا يُخافُ على الإسلامِ ما يُبطِلُه[٢].

- وعطَفَ ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ على ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾؛ لأنَّه إذا جاء الحقُّ انقشَعَ الباطِلُ مِن المَوضِعِ الذي حلَّ فيه الحقُّ، وفيه كِنايةٌ عن اضْمِحْلالِ الباطِلِ وزوالِه، وهو مَثَلٌ في الهَلاكِ بالمرَّةِ[٣].

- وأيضًا قَولُه: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ الآيةَ الثَّانيةَ مُقرِّرةٌ للأُولى، وعلى الأوَّلِ تَكميلٌ؛ لأنَّ الأُولى إثباتٌ للحَقِّ، والثَّانيةَ إزالةٌ للباطِلِ[٤].

٥- قَولُه تَعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٢، ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨١).

رَبِّيٓۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٞ قَرِيبٞ ﴾

- صِيغةُ القَصرِ في قَولِه: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِي﴾ لقَصرِ الضَّلالِ المَفْروضِ، أي: على نَفْسي لا عليكم؛ لأنَّهم كانوا يُحاوِلون أنْ يُقلعَ عمَّا دَعاهُم إليه، ولم يَقتَصِروا على صُدودِهم. أمَّا قَولُه: ﴿وَإِنِ ٱهۡتَدَيۡتُ فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ فهو كالاحتِراسِ مِن أنْ يكونَ حالُه مُقتَصِرًا على فَرضِ كَونِه مَظِنَّةَ الضَّلالِ، مع ما فيه مِن الاعتِرافِ للهِ بنِعمَتِه بأنَّ ما يَنالُه مِن خَيرٍ فهو بإرشادِ اللهِ، لا مِن نفْسِه[1].

- وبيْنَ قَولِه: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِي﴾ وقَولِه: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ تَقابُلٌ من جِهةِ المَعْنى؛ لأنَّ النَّفْسَ كُلُّ ما عليها فهو بها، أي: أنَّ كُلَّ ما هو وَبالٌ عليها وضارٌّ لها فهو بسببِها: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، وما لَها ممَّا يَنفَعُها فبِهدايةِ ربِّها وتَوفيقِه، وهذا حُكمٌ عامٌّ لكُلِّ مُكلَّفٍ، وإنَّما أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يُسنِدَه إلى نَفْسِه؛ لأنَّ الرَّسولَ إذا دخَلَ تحتَه مع جَلالةِ مَحَلِّه وسَدادِ طَريقتِه كان غيرُه أوْلى به[2].

- واختِيرَ في جانبِ الهُدى فِعلُ ﴿ٱهۡتَدَيۡتُ﴾ الَّذي هو مُطاوِعُ (هَدَى)؛ لِما فيه من الإيماءِ إلى أنَّ له هاديًا، وبيَّنَه بقَولِه: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾؛ لِيَحصُلَ شُكرُه للهِ إجمالًا ثمَّ تفصيلًا. وفي قَولِه: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه على هُدًى؛ لأنَّه أثبَتَ أنَّ وَحيًا من اللهِ واردٌ إليه، وقد استُفيدَ أنَّ الضَّلالَ المفروضَ إنْ حصَلَ فسببُه مِن قِبَلِ نَفْسِه، مِن إسنادِ فِعلِ ﴿أَضِلُّ﴾ إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ، ثمَّ ممَّا عَقِبَه مِن قَصْرِ الضَّلالِ على الحُصولِ مِن المُتكلِّمِ، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٤).

أعرَقُ في التَّعلُّقِ به. وفي هذا مُقابَلَةٌ يُعلَمُ منها أنَّ سببَ الضَّلالِ والاهتداءِ مُختلِفٌ مِن جِهةِ المعنى، ولا سيَّما حينَ رجَّحَ جانبَ اهتدائِه بقَولِه: ﴿فَبِمَا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ﴾، على أنَّ المُقابَلَةَ بيْنَ الشَّرطَينِ يَنقدِحُ بها في ذِهنِ السَّامعِ أنَّ الضَّلالَ مِن تَسْويلِ النَّفْسِ، ولو حصَلَ لَكان جِنايةً مِن النَّفْسِ عليه، وأنَّ الاهتِداءَ مِن اللهِ، وأنَّه نفْعٌ ساقَه إليه بوَحيِه[1].

- وجُملةُ: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ تَذييلٌ لِما أفادَتْه الجُمْلتانِ المَقولتانِ قبْلَه مِن التَّرديدِ في نِسبةِ الاهتِداءِ والضَّلالِ، أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ أنِّي على هُدًى أو ضِدِّه، ويَحصُلُ مِن ذلك عِلمُ مُقابِلِه مِن أحوالِ خُصومِه؛ لأنَّه سميعٌ لِما يقولُه الفَريقانِ، قَريبٌ ممَّا يُضمِرونَهُ فلا يَخْفَى عليه. وفيه تعريضٌ بالتَّهديدِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٤١).

## الآيات (٥١-٥٤)

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَلَا فَوْتَ ﴾: أي: فلا نجاةَ ولا هربَ، والفَوتُ: التَّفَلُّتُ والخلاصُ مِن العِقابِ، وأصلُه يدُلُّ على خِلافِ إدراكِ الشَّيءِ، والوُصولِ إليه[١].

﴿ٱلتَّنَاوُشُ ﴾: أي: التَّناوُلُ، وإدراكُ ما يُريدونَ، أو التَّناوُلُ السَّهلُ أو الخَفيفُ، وأكثرُ وُرودِه في شُرْبِ الإبلِ شُرْبًا خَفيفًا مِن الحوضِ ونحوِه، وأصلُ (نوش): يدُلُّ على تَناوُلِ الشَّيءِ[٢].

﴿ وَحِيلَ ﴾: أي: حُجِزَ ومُنِعَ، وأصلُ (حول): يدُلُّ على انفِصالِ الشَّيءِ عن غَيرِه[٣].

﴿بِأَشْيَاعِهِم ﴾: أي: بأشباهِهم مِن كَفَرةِ الأُمَمِ؛ جمعُ شِيَعٍ، وشِيعٌ: جَمعُ شِيعةٍ، وهم كُلُّ قَومٍ اجتَمَعوا على أمرٍ، وأصلُه مِنَ التَّشييعِ، وهو التَّتَبُّعُ والتَّقويةُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٩)، =

﴿مُّرِيبٍ﴾: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشَّكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمَأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يختمُ الله تعالى السُّورةَ بذِكْرِ حالِ الكافرينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: ولو تَرى -يا محمَّدُ- أولئك الكافِرينَ حينَ فَزِعوا عندَ رُؤيةِ عَذابِ اللهِ، فلا يَستَطيعونَ منه هَرَبًا، وأُخِذوا مِن مَكانٍ قَريبٍ، وقالوا: آمَنَّا بالحَقِّ! وكيف لهم تَناوُلُ الإيمانِ النَّافعِ في الآخرةِ، وقد ضيَّعوا وقتَ إمكانِه في دارِ الدُّنيا بكفرِهم فيها؟! وهم قد كَفَروا بالحَقِّ قبْلَ ذلك، ويَرمونَ بالغَيبِ مِن مَوضِعٍ بَعيدٍ!

ومُنِعوا عمَّا يَشتَهونَ كما فعَلَ اللهُ بنُظَرائِهم وأشباهِهم مِن الكُفَّارِ مِن قَبْلِهم؛ إنَّهم كانوا في شَكٍّ مُوقِعٍ لهم الرِّيبةَ والتُّهمةَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا جاءهم التَّعريضُ بالتَّهديدِ مِن لازمِ المُتارَكةِ المدلولِ عليها بقَولِه: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِىۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ [سبأ: ٥٠]؛ للعِلمِ بأنَّ الضَّالَّ يَستَحِقُّ العِقابَ؛ أتْبَعَ حالَهم حينَ يحُلُّ بهم الفَزَعُ مِن مُشاهَدةِ ما هُدِّدوا به[2].

---

= ((التفسير البسيط)) للواحدي (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤١).

وأيضًا لَمَّا أبطل اللهُ تعالى شُبَهَ الكافرينَ، وخَتَم مِن صِفاتِه بما يَقتضي البَطشَ بمَن خالَفَه؛ قال عاطِفًا على: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ ...﴾ [سبأ: ٣١][1]:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ولو تَرى الَّذين كَفَروا -يا محمَّدُ- حينَ فزَعِهم عندَ رُؤيتِهم عذابَ اللهِ[2]، فلا يَستطيعون منه بُعدًا، وأُخِذوا مِن موضِعٍ قَريبٍ، فلم يَتمَكَّنوا مِنَ الفِرارِ بَعيدًا[3].

﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٥/ ٥٣٦).

(٢) قال القرطبي: (المعنى: لو ترى إذا فَزِعوا في الدُّنيا عندَ نزولِ الموتِ أو غيرِه مِن بأسِ اللهِ تعالى بهم. رُوِي معناه عن ابنِ عبَّاسٍ. الحسَنُ: هو فزَعُهم في القُبورِ مِن الصَّيحةِ. وعنه: أنَّ ذلك الفزَعَ إنَّما هو إذا خرَجوا مِن قبورِهم. وقاله قَتادةُ. وقال ابنُ مَعْقِلٍ: إذا عايَنوا عِقابَ اللهِ يومَ القيامةِ. السُّدِّيُّ: هو فزَعُهم يومَ بدرٍ حينَ ضُرِبَت أعناقُهم بسيوفِ الملائكةِ، فلم يَستطيعوا فِرارًا ولا رجوعًا إلى التَّوبةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٤).

وقال ابنُ الجوزي: (قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: هو الجَيشُ الذي يُخسَفُ به بالبَيْداءِ، يَبقى منهم رجُلٌ فيُخبِرُ النَّاسَ بما لَقُوا، وهذا حديثٌ مشروحٌ في التَّفسيرِ، وأنَّ هذا الجَيشَ يَؤُمُّ البَيتَ الحرامَ لتخريبِه، فيُخسَفُ بهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٣).

وقال ابنُ عثيمين عندَ تفسيرِ قَولِ الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾: (هذا يؤيِّدُ ما ذكره بعضُ المفَسِّرين -رحِمَهم اللهُ- بأنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١] يعني: عندَ الموتِ؛ لأنَّه قال: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾، وهذا فِعلٌ ماضٍ يدُلُّ على أنَّ هذا أمرٌ قد مضَى على مَن سَبَق، ولو كان يومَ القيامةِ لم يكُنْ قد مضى مِن قبْلُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٠٨، ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤١، ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٩).

قال ابنُ جرير: (وأخَذَهم اللهُ بعذابِه مِن موضعٍ قَريبٍ؛ لأنَّهم حيث كانوا فهم مِن اللهِ قريبٌ، لا يَبعُدونَ عنه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٤).

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾.

أي: وقالوا: آمَنَّا بالحَقِّ[١].

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

أي: وكيف لهم تناوُلُ الإيمانِ النَّافعِ في الآخرةِ، وقد ضيَّعوا وقتَ إمكانِه في دارِ الدُّنيا بكفرِهم فيها، وبَعُدوا عن محلِّ قَبولِه منهم، وصاروا إلى الدَّارِ الآخرةِ، فحِيلَ بيْنَهم وبيْنَه[٢]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٢).

قال ابن الجوزي: (في هاءِ الكنايةِ أربعةُ أقوالٍ: أحدها: أنَّها تعودُ إلى الله عزَّ وجلَّ، قاله مجاهدٌ. والثاني: إلى البعثِ، قاله الحسنُ. والثالثُ: إلى الرَّسولِ، قاله قتادةُ. والرابعُ: إلى القرآنِ، قاله مقاتلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤).

قال ابنُ جريرٍ: (﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، يعني: آمنَّا باللهِ وبكتابِه ورسولِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٤)، ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨).

وقال ابن عاشور: (وضميرُ ﴿بِهِۦ﴾ للوعيدِ أو ليومِ البعثِ أو للنبيِّ صلى الله عليه وسلم أو القرآنِ، إذا كان الضميرُ محكيًّا مِن كلامِهم؛ لأنَّ جميعَ ما يصِحُّ معادًا للضميرِ مشاهدٌ لهم وللملائكةِ، فأجمَلوا فيما يُرادُ الإيمانُ به؛ لأنَّهم ضاق عليهم الوقتُ، فاستعجَلوه بما يحسبونَه منجيًا لهم مِن العذابِ، وإن كان الضميرُ مِن الحكايةِ فهو عائدٌ إلى الحقِّ مِن قولِه: ﴿ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ﴾ [سبأ: ٤٨]؛ لأنَّ الحقَّ يتضمَّنُ ذلك كلَّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١١-٣١٣).

قال الشنقيطي: (والمعنى: أنَّه يُستبعَدُ كلَّ الاستبعادِ، ويَبعُدُ كلَّ البُعدِ أن يَتناوَلَ الكفَّارُ الإيمانَ النَّافعَ في الآخرةِ بعدَما ضَيَّعوا ذلك وقتَ إمكانِه في دارِ الدُّنيا. وقيل: الاستبعادُ لِرَدِّهم إلى الدُّنيا مرَّةً أخرى ليؤمِنوا. والأوَّلُ أظهَرُ، ويدُلُّ عليه قولُه قبْلَه: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾، ومَن أراد تَناوُلَ شَيءٍ مِن مكانٍ بعيدٍ لا يُمكِنُه ذلك، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٧٥). =

﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾.

أي: وهم قد كفَروا بالحَقِّ قبْلَ ذلك[1].

﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

أي: ويَرمُونَ[2] بالغَيبِ مِن مَوضِعٍ بعيدٍ[3]!

---

= وقال ابن جرير: (وأنَّى لهم التَّوبةُ والرَّجْعةُ الَّتي قد بَعُدَتْ منهم، وصاروا منها بمَوضِعٍ بعيدٍ أن يَتناوَلوها؛ وإنَّما وصَفَ ذلك المَوضِعَ بالبُعدِ؛ لأنَّهم قالوا ذلك في القيامةِ، فقال الله: أنَّى لهم بالتَّوبةِ المقبولةِ؟! والتَّوبةُ المقبولةُ إنَّما كانت في الدُّنيا، وقد ذهبتْ الدُّنيا، فصارتْ بعيدًا مِن الآخرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٥).

(٢) قال ابنُ جرير: (يقول: وهم اليَومَ يَقذِفونَ بالغَيبِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (﴿وَيَقْذِفُونَ ﴾ عَطفٌ على ﴿كَفَرُواْ ﴾، فهي حالٌ ثانية، والتَّقديرُ: وكانوا يَقذِفونَ بالغَيبِ. واختيارُ صيغةِ المضارعِ؛ لحكايةِ الحالةِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ ﴾ [هود: ٣٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٤).

وقيل: المرادُ أنَّهم يَقذِفونَ بالغَيبِ في الآخرةِ. وممَّن رُوِيَ عنه هذا المعنى: ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٨، ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قال ابن الجوزي: (﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي: يَرمونَ بالظَّنِّ مِن مَكانٍ بَعيدٍ، وهو بُعدُهم عن العِلمِ بما يقولونَ. وفي المرادِ بمقالتِهم هذه ثلاثةُ أقوال؛ أحدُها: أنَّهم يَظُنُّون أنَّهم يُرَدُّون إلى الدُّنيا. قاله أبو صالح عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثَّاني: أنَّه قولُهم في الدُّنيا: لا بَعْثَ لنا ولا جنَّةَ ولا نارَ. قاله الحسَنُ وقَتادةُ.

والثَّالث: أنَّه قَولُهم عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: هو ساحِرٌ، هو كاهِنٌ، هو شاعِرٌ. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤).

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾.

أي: ومُنِعوا عمَّا يَشتَهونَ[1] كما فَعَل اللهُ بنُظَرائِهم وأشباهِهم مِن الكافِرينَ مِن قَبْلِهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

في معنى قوله: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ أقوالٌ؛ منها:

أنَّ المرادَ: ما يَشتَهونَ مِن الإيمانِ وقَبولِه ونَفْعِه حينَئذٍ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: يحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ ونحوِه مِن السَّلفِ: الحسَنُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((المعرفة والتاريخ)) ليعقوب بن سفيان (٢/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٩).

وقيل: المرادُ: الشَّهواتُ واللَّذَّاتُ؛ كالأولادِ، والأموالِ، والخَدَمِ، والجنودِ. وممَّن قال بهذا القولِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عمَر، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٩).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: ابنُ كثير، فقال: (والصَّحيحُ: أنَّه لا مُنافاةَ بينَ القولَينِ؛ فإنَّه قد حِيل بيْنَهم وبيْنَ شَهَواتِهم في الدُّنيا، وبينَ ما طلَبوه في الآخرةِ فمُنِعوا منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٩).

وقيل: المرادُ بـ﴿ مَا يَشْتَهُونَ ﴾: الرُّجوعُ إلى الدُّنيا. وممَّن اختاره: السمرقندي، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٩).

وقيل: المرادُ: التَّوبةُ والإيمانُ والرُّجوعُ إلى الدُّنيا. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٩٦)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢١، ٣٢٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٤٦٤)، ((تفسير =

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾.

أي: إنَّهم كانوا في شَكٍّ يُوجِبُ لهم الارتيابَ والتُّهمةَ والاضطِرابَ في شأنِ الحَقِّ(١).

---

= القرطبي)) (١٤/ ٣١٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٩، ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرونَ: والمعنى: كما فُعِل بنُظَرائهم مِن الكفارِ، مِنْ قَبْلِ هؤلاء، فإنَّهم حِيل بيْنَهم وبينَ ما يَشتَهونَ. وقال الضَّحَّاكُ: هم أصحابُ الفيلِ حينَ أرادوا خرابَ الكعبةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤).

وقال ابنُ جُزَي: (و ﴿مِّن قَبْلُ﴾ يحتمِلُ أن يتعلَّقَ بـ ﴿فُعِلَ﴾، أو ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾؛ على حسَبِ معنى ما قبْلَه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٧).

وقال الألوسي: (﴿مِّن قَبْلُ﴾ متعلِّقٌ ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾ على أنَّ المرادَ مَن اتَّصفَ بصفتِهم ﴿مِّن قَبْلُ﴾ أي: في الزَّمانِ الأوَّلِ، ويرجِّحُه أنَّ ما يُفعَلُ بجميعِهم في الآخرةِ إنَّما هو في وقتٍ واحدٍ. أو متعلِّقٌ بـ ﴿فُعِلَ﴾ إذا كانت الحيلولةُ في الدُّنيا). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٩، ٣٢١).

قال الشوكاني: (جملةُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ تعليلٌ لِما قَبْلَها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٩).

قيل: المرادُ بشَكِّهم المُريبِ: شَكُّهم في شأنِ العذابِ ونُزولِه بهم. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٤٦).

وقيل: المرادُ: شَكُّهم في البَعثِ ونزولِ العذابِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والبغويُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٤٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥١).

وقيل: المرادُ: في أمرِ الرُّسُلِ والبَعثِ، والجنَّةِ والنَّارِ. وممَّن قال بهذا: القرطبي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٤). =

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أنَّ الإيمانَ بعدَ مُعايَنةِ العذابِ لا يُفيدُ، وإنَّما كان غيرَ مفيدٍ؛ لأنَّ الإيمانَ بالمُشاهَدِ لا قيمةَ له؛ فالشَّيءُ المُشاهَدُ لا بُدَّ أنْ يُؤمِنَ به كلُّ إنسانٍ، لكنَّ المحنةَ والابتِلاءَ إنَّما تكونُ في الإيمانِ بالغَيبِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[1] [البقرة: ٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فيه سؤالٌ: إنْ قيلَ: إنَّ الآخرةَ قَريبٌ، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ [القمر: ١]، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، فكيف قال: ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾؟

**فالجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ الماضيَ كالأمسِ الدَّابرِ، وهو مِن أبعَدِ ما يكونُ؛ إذْ لا وُصولَ إليه، والمُستقبَلَ وإن كان بيْنَه وبيْنَ الحاضِرِ سِنونَ فإنَّه آتٍ؛ فيومُ القيامةِ الدُّنيا بعيدةٌ منه؛ لِمُضِيِّها، ويومُ القيامةِ في الدُّنيا قريبٌ؛ لإتيانِه[2].

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ ذلك قريبٌ عندَ مَنْ آمَنَ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، أمَّا مَن لم يؤمِنْ فلا يُمكِنُه التَّصديقُ به، فيكونُ بعيدًا عندَه.

**الوجهُ الثَّالِثُ**: أنَّ الحِكايةَ يومَ القيامةِ، فكأنَّه قال: كانوا يَقذِفونَ مِن مكانٍ

---

= وقال البِقاعي: (أي: في جميعِ ما يُخبِرُهم به رُسُلُنا عنَّا مِن الجزاءِ أو غيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٥/ ٥٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٥٨).

بعيدٍ، وهو الدُّنيا.

**الوجهُ الرَّابعُ**: أنَّهم في الآخرةِ يقولونَ: ﴿رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا﴾ [السجدة: ١٢]، وهو قَذْفٌ بالغَيبِ مِن مكانٍ بعيدٍ، وهو الدُّنيا(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقۡذِفُونَ بِٱلۡغَيۡبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ أنَّ هؤلاء لم يُحاوِلوا القُرْبَ والنَّظَرَ فيما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، بل كانوا كالَّذي يَرمي بالحِجارةِ مِن بُعدٍ، ولا يريدُ أنْ يَقتَرِبَ لِيَتبيَّنَ الأمرَ! وهذا سوءُ أدبٍ منهم؛ لأنَّ العَقلَ يَقتضي أنْ يَدنُوا مِن الشَّيءِ لِيَتعرَّفوا إليه؛ حتَّى لا يَقذِفوه مِن بعيدٍ، لكنْ هم كانوا يَقذِفونَ بالغَيبِ مِن مَكانٍ بعيدٍ، وهذا يُبعِدُ أنْ يكونَ الإيمانُ مَقبولًا منهم(٢).

٤- قال الله تعالى: ﴿وَقَدۡ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ ...﴾ ثمَّ قال في آخِرِ الآيةِ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ فِي شَكّٖ مُّرِيبٖ﴾ احتَجَّ بهذه الآيةِ بَعضُ المفَسِّرينَ أنَّ الشَّاكَّ كافِرٌ، ورَدَّ بها على مَن زعَمَ أنَّه ليس بكافرٍ، واللهُ لا يُعَذِّبُ على الشَّكِّ(٣)، فالشَّكُّ مُنافٍ للإيمانِ فيما يجِبُ الإيمانُ به؛ فلو أنَّ أحدًا شَكَّ في يومِ القيامةِ وفي البَعثِ؛ ما نفَى وجَزمَ بالنَّفيِ، ولا أقَرَّ وجَزَم بالإقرارِ: فهذا في حُكْمِ المُنكِرِ تمامًا؛ فهو كافِرٌ(٤).

٥- قال الله تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾ عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّه شَرِب ماءً باردًا فبكَى، فاشتدَّ بُكاؤُه، فقيل له: ما يُبكيكَ؟ فقال: ذكَرْتُ آيةً في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ﴾، فعرَفْتُ أنَّ أهلَ النَّارِ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٥/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٢١).

يَشتَهونَ إلَّا الماءَ البارِدَ، وقال اللهُ عزَّ وجلَّ عنهم: ﴿أَنْ أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [الأعراف: ٥٠])[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أنَّ مُفارَقةَ المُشتهَياتِ هو مِن أعظَمِ العُقوباتِ؛ فالفَرَحُ والسُّرورُ: بالظَّفَرِ بالمحبوبِ، والهَمُّ والغَمُّ والحزنُ والأسَفُ: بفَواتِ المحبوبِ، فأطيبُ العَيشِ عَيشُ المُحِبِّ الواصلِ إلى محبوبِه، وأمَرُّ العَيشِ عَيشُ مَن حِيلَ بيْنَه وبينَ محبوبِه[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ استِعمالُ القياسِ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ الإشارةُ إلى الاعتبارِ بمَن مضى وسَبَقَ، سواءٌ كانوا مِن أهلِ الخَيرِ أو مِن أهلِ الشَّرِّ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾

- الخِطابُ في قولِه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ ...﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تَسليةً له، أو لكلِّ مَن يَتأتَّى منه النَّظرُ؛ لِعِظَمِ الأمْرِ، وفَخامةِ الشَّأنِ. وحُذِفَ جَوابُ (لو)؛ للتَّهويلِ[٥]، والتَّقديرُ: لَرأيتَ أمْرًا فَظيعًا، وحالًا هائلةً[٦]، ففيه

---

(١) رواه عبد الله بن أحمدَ في زوائد ((الزهد)) (١٠٥٥)، ومن طريقه البيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٤٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) والقاعدةُ في هذا: أنَّ حذفَ جوابِ الشَّرطِ يدُلُّ على تعظيمِ الأمرِ وشِدَّتِه في مقاماتِ الوعيدِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٣٧٢، ٣٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤١).

إشارةٌ إلى عظيمِ ما سيَقَعُ بهؤلاء عندَ الموتِ أو يومَ القيامةِ؛ فحَذْفُ جوابِ الشَّرطِ أعظَمُ في التَّهويلِ والتَّفخيمِ، حتَّى يَذهَبَ الذِّهْنُ كلَّ مَذهَبٍ في تقديرِ ما يمكِنُ أنْ يكونَ جوابًا[1].

- والكلماتُ (لو، وإذ، فَزِعوا، وأُخِذوا، وحِيل)، كلُّها للمُضيِّ، والمُرادُ بها الاستِقبالُ؛ لأنَّ ما اللهُ فاعِلُه في المُستقبَلِ بمَنزلةِ ما كان ووُجِدَ؛ لِتَحقُّقِه[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ أي: بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على قولٍ-؛ لمُرورِ ذِكْرِه في قولِه: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾، وفي هذا إشارةٌ إلى بَيانِ النَّظمِ؛ وذلك أنَّ كُلًّا مِن الآياتِ المُصَدَّرةِ بـ﴿قُلْ ﴾ مِن قَولِه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم ﴾ ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ ﴾ فيه تَذكيرٌ بَليغٌ، ووَعظٌ شافٍ كافٍ. فلمَّا خُتِمتْ هذه الآياتُ بقولِه: ﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ﴾ -وفيه إيماءٌ إلى مَعنى المشارَكةِ، وأنَّ تلك النَّصيحةَ ما نَفَعَتْ فيهم- قيل له مُسلِّيًا والتفتَ إلى كُلِّ مَنْ يَتأتَّى منه النَّظَرُ مُخاطبًا بقولِه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ ﴾؛ لِعِظَمِ الأمرِ، وفَخامةِ الشأنِ، أي: ولو تَرى -أيُّها النَّاظرُ- وَقْتَ فَزَعِهم وأخْذِهم فلا فَوْتَ لهم، ووقْتَ قولِهم: آمَنَّا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلا يَنفعُهُم إيمانُهم حينَئذٍ؛ لَرأيْتَ خَطْبًا جليلًا، وأمرًا هائلًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٨٨).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ تمثيلٌ لطَلَبِهم ما لا يكونُ، وهو أنْ يَنفعَهم إيمانُهم في ذلك الوقتِ، كما يَنفَعُ المؤمنينَ إيمانُهم في الدُّنيا؛ مُثِّلتْ حالُهم بحالِ مَن يُريدُ أنْ يَتناوَلَ الشَّيءَ مِن غَلْوةٍ -أي: مِن نُقطةٍ بعيدةٍ- كما يَتناوَلُه الآخَرُ مِن قَيسِ ذِراعٍ -أي: مِن قريبٍ- تَناوُلًا سهلًا لا تَعَبَ فيه، وهو مُرَكَّبٌ تَمثيليٌّ يُفيدُ تَشبيهَ حالِهم -إذ فَرَّطوا في أسبابِ النَّجاةِ وقْتَ المُكْنةِ منها، حينَ كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدْعوهم ويُحرِّضُهم ويُحذِّرُهم، وقد عمَّرهم اللهُ ما يَتذكَّرُ فيه مَن تَذكَّرَ، ثمَّ جاؤوا يَطلُبون النَّجاةَ بعْدَ فواتِ وَقتِها- بحالِهم كحالِ مَن يُريدُ تَناوُشَها وتَناوُلَها وهو في مكانٍ بعيدٍ عن مُرادِه الَّذي يجِبُ تَناوُلُه، وهذا التَّمثيلُ قابلٌ لِتَفريقِ أجْزائِه؛ بأنْ يُشَبَّهَ السَّعيُ بما يَحصُلُ بسُرعةٍ بالتَّناوُشِ، ويُشَبَّهَ فواتُ المطلوبِ بالمكانِ البعيدِ كالحوضِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾

- يجوزُ جَعْلُ ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ تَمثيلًا لِحالِهم؛ شُبِّهوا بحالِ مَن يَقذِفُ شيئًا وهو غائبٌ عنه لا يَراهُ؛ فهو لا يُصيبُه ألْبتَّةَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٥٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٤).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾

- قَولُه: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ لم يَقُلْ: «وحَالَ اللهُ تعالى بيْنَهم»، ولا قال: «وحَالَ الكفرُ»! والنُّكتةُ في عدَمِ بيانِ الفاعلِ لأَجْلِ أنْ يكونَ الحائلُ صالحًا لأنْ تُقَدِّرَهُ بكلِّ ما يُناسِبُ الحالَ؛ إنْ شئتَ فقُلْ: حَالَ بيْنَهم وبيْنَ ما يَشتهون كُفْرُهم في الدُّنيا، وإنْ شئتَ فقُلْ: حَالَ بيْنَهم وبيْنَ ما يَشتهون تقديمُ شَهَواتِهم في الدُّنيا؛ فمَنَعَهم شهواتِهم في الآخرةِ[1].

- وفائدةُ التَّشبيهِ في قولِه: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ تَذكيرُ الأحياءِ منهم -وهم مُشرِكو أهلِ مكَّةَ- بما حلَّ بالأُمَمِ مِن قبْلِهم؛ لِيُوقِنوا أنَّ سُنَّةَ اللهِ واحدةٌ، وأنَّهم لا تَنفَعُهم أصنامُهم الَّتي زَعَموها شُفعاءَ عندَ اللهِ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مَسوقةٌ لِتَعليلِ الجُمَلِ الَّتي قبْلَها، وإنَّما جُعِلَت حالتُهم شكًّا؛ لأنَّهم كانوا في بعضِ الأُمورِ شاكِّينَ، وفي بعضِها مُوقِنينَ، كما حكى الله عنهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ مُستأْنَفةً استئنافًا بَيانيًّا، ناشئةً عن سُؤالٍ يُثيرُه قولُه: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾؛ كأنَّ سائلًا سألَ: هل كانوا طامِعينَ في حُصولِ ما تَمَنَّوه؟ فأُجِيبَ بأنَّهم كانوا يَتمَنَّون ذلك، ويَشُكُّون في استِجابتِه، فلمَّا حِيلَ بيْنَهم وبيْنَه غَشِيَهم اليأْسُ، واليأْسُ بعْدَ الشَّكِّ أوقَعُ في الحُزنِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٥).

اليأْسِ المُتأصِّلِ[١].

- والمُرِيبُ: المُوقِعُ في الرَّيبِ. والرَّيبُ: الشَّكُّ؛ فوَصْفُ الشَّكِّ به وَصْفٌ له بما هو مُشتَقٌّ مِن مادَّتِه أو معناهُ؛ لإفادةِ المُبالَغةِ، كقَولِهم: شِعرٌ شاعرٌ، ولَيْلٌ أَلْيَلُ، أو لَيْلٌ داجٍ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٤٦).

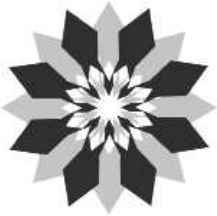

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ فاطرٍ

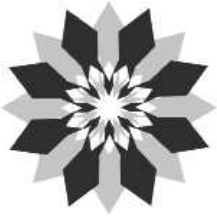

# سورةُ فاطرٍ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (فاطرٍ)[١]، وسُورةِ (الملائكةِ)[٢].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ فاطِرٍ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

١- إثباتُ وحدانيَّةِ اللهِ تعالى عن طريقِ التَّذكيرِ بنِعَمِه المبثوثةِ في الكَونِ[٤].

---

(١) سُمِّيت بسُورةِ (فاطرٍ)؛ لذِكرِ هذا الاسمِ الجليلِ والنَّعتِ الجميلِ: (فاطر) في طليعتِها. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٧).

وقد وردت تسميتُها بذلك عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٧٣).

(٢) سُمِّيت بسُورةِ الملائكةِ؛ لأنَّه ذُكِرَ في أوَّلِها صِفةُ الملائكةِ، ولم يقَعْ في سورةٍ أخرى. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٧).

قال ابن عاشور: (وسُمِّيَت في «صحيحِ البخاريِّ» وفي «سننِ الترمذيِّ» وفي كثيرٍ مِن المصاحِفِ والتَّفاسيرِ «سورةَ الملائكةِ» لا غيرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٧). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) عقب حديث (٤٨٠١)، ((سنن الترمذي)) (كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)، باب (٣٦) قبل حديث (٣٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ١٩٤).

وقد وردت تَسميتُها بسورةِ الملائكةِ عن قَتادةَ، وابنِ أبي مُلَيْكةَ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((الوسيط)) لطنطاوي (١١/ ٣١٧).

٢- إثباتُ قُدرةِ اللهِ الكاملةِ، ومنها قدرتُه على البَعثِ[١].

٣- إثباتُ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:**

١- افتتاحُ السُّورةِ بحَمدِ الله تعالى، وخَلقِه للسَّمواتِ والأرضِ، وجَعْلِه الملائِكةَ رُسُلًا أُولي أجنِحةٍ، وتقريرِ قُدرتِه على كُلِّ شَيءٍ.

٢- ذِكرُ بعضِ مظاهرِ قُدرةِ الله تعالى في الخَلقِ، ونِعَمِه على عبادِه.

٣- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتثبيتُه ببيانِ حالِ مَن سبَقَه مِن الأنبياءِ.

٤- التَّحذيرُ مِن الدُّنيا، ومِن الاغترارِ بوَساوِسِ الشَّيطانِ.

٥- بيانُ جزاءِ المؤمنينَ، وجزاءِ الكافِرينَ.

٦- امتِنانُ اللهِ بإرسالِ الرِّياحِ، وإنزالِ المطَرِ، وإحياءِ الأرضِ المَيْتةِ، وما في ذلك مِن دَلالةٍ على البَعثِ والنُّشورِ.

٧- بيانُ أطوارِ خَلقِ الإنسانِ ومراحِلِ نمُوِّه، وآياتِ اللهِ ونِعَمِه في البِحارِ والأنهارِ.

٨- ذِكرُ افتِقارِ الخَلقِ إلى الله سُبحانَه، وغِناه عنهم سُبحانَه.

٩- تقريرُ أنَّه لا يَحمِلُ أحدٌ وِزْرَ غَيرِه، وأنَّ الَّذين يَنتَفِعونَ بالنُّذُرِ هم مَن يَخشَونَ اللهَ تعالى ويُطيعونَه.

١٠- ضَرْبُ المثَلِ للكافِرِ والمؤمِنِ، وللجاهِلِ والعالِمِ.

---

(١) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٨).

١١- تقريرُ وظيفةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتسليتُه بما أصاب الرُّسُلَ قَبْلَه، ومصيرِ مَن كفَروا بهم.

١٢- الدَّعوةُ إلى النَّظَرِ في الكَونِ، وإنزالِ اللهِ المطَرَ مِن السَّماءِ، وإخراجِ الثِّمارِ المتنَوِّعةِ الألوانِ؛ والنَّظَرِ في الجِبالِ وتعَدُّدِ ألوانِها، والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ وألوانِها المتعَدِّدةِ الكثيرةِ؛ وتقريرُ أنَّ العُلماءَ هم الَّذين يَخشَونَ اللهَ.

١٣- بيانُ فَضلِ الَّذين يَتلُونَ القُرآنَ، ويُقيمونَ الصَّلاةَ، ويُنفِقونَ سِرًّا وعلانيةً.

١٤- تقريرُ أنَّ هذا الكتابَ المنَزَّلَ هو الحَقُّ يُصَدِّقُ ما بيْنَ يدَيْهِ مِن الكُتُبِ المنَزَّلةِ، وأنَّ اللهَ أوْرَثَه مَنِ اختارهم؛ وبيانُ دَرَجاتِ الوارِثينَ، وما ينتَظِرُهم مِن النَّعيمِ المُقيمِ، ثمَّ قابَلَهم بذِكرِ الكافِرين وجزائِهم.

١٥- الحديثُ عن جَهالاتِ المُشرِكينَ؛ حيثُ عَبَدوا مِن دونِ الله تعالى ما لا يملِكُ لهم ضَرًّا ولا نَفعًا، وعن مَكرِهم السَّيِّئِ الَّذي لا يَحيقُ إلَّا بأهلِه، ونَقْضِهم لعُهودِهم.

١٦- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ ببيانِ سَعةِ رَحمةِ الله تعالى بالنَّاسِ.

## الآيات (١-٤)

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَاطِرِ﴾: أي: خالِقِ ومُبتَدِئ، يُقالُ: فطَرَ اللهُ الخَلْقَ، أي: ابتدَأَهم، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[1].

﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: أي: اثنَينِ اثنَينِ، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا؛ لبعضِهم جَناحانِ، ولبعضِهم ثلاثةٌ، ولبعضِهم أربعةٌ[2].

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصرَفونَ عن الحَقِّ، والإفكُ: كلُّ مَصروفٍ عن وَجهِه الَّذي يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٣٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٥، ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٥، ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٢/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨).

## المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى: الحَمدُ لله وَحْدَه الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ، وجعَلَ الملائكةَ رُسُلًا، أصحابَ أجنِحةٍ مَثنى وثُلاثَ ورُباعَ، يَزيدُ سُبحانَه في الخَلقِ ما يَشاءُ؛ إنَّه سُبحانَه على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ يَذكُرُ تعالى أحدَ مَظاهرِ قُدرتِه، وانفرادِه تعالى بالتَّدبيرِ والعطاءِ والمنعِ، فيقولُ: ما يَفتَحِ اللهُ للنَّاسِ مِن رَحمةٍ فلا يَستطيعُ أحدٌ أن يَحبِسَها دونَه، وما يُغلِقِ اللهُ مِن رحمةٍ عن النَّاسِ فلا يستطيعُ أحدٌ أن يُرسِلَها لهم، واللهُ هو العزيزُ الغالِبُ القاهِرُ، الحكيمُ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى بذِكْرِه وشُكرِه، فيقولُ: يا أيُّها النَّاسُ اذكُروا نِعمةَ اللهِ عليكم، فانظُروا هل مِن خالقٍ غيرُ اللهِ يَرزُقُكم مِنَ السَّماءِ والأرضِ، لا إلهَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وَحْدَه، فكيف تُصرَفونَ عن عبادتِه؟!

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: وإنْ يُكَذِّبْك -يا محمَّدُ- كُفَّارُ قَومِك، فقد كُذِّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلِك؛ فلا تَحزَنْ لذلك، وإلى اللهِ وحْدَه تُرجَعُ الأمورُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: الحمدُ[1] الكاملُ ثابتٌ ومختَصٌّ باللهِ وَحْدَه الَّذي خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ،

(١) قال ابنُ عثيمين: (الحمدُ هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ معَ المحبةِ والتعظيمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١)

على غيرِ مِثالٍ سابقٍ[١].

﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾.

أي: جاعِلِ[٢] الملائكةِ رُسُلًا بيْنَه وبيْنَ مَن يَشاءُ مِن خَلقِه -لِتَبليغِ أوامِرِه الدِّينيَّةِ، وتدبيرِ أوامِرِه القَدَريَّةِ- أصحابَ أجنِحةٍ، فيَنزِلونَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، ويَصعَدونَ مِن الأرضِ إلى السَّماءِ؛ فمِنهم مَن له جَناحانِ، ومنهم مَن له ثلاثةُ أجنِحةٍ، ومنهم مَن له أربعةٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٦)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٥٩٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١).

(٢) قال ابنُ عاشور: (أمَّا ﴿جَاعِلِ﴾ فيُطلَقُ بمعنى مُكوِّن، وبمعنى مُصَيِّر، وعلى الاعتبارين يختلفُ موقعُ قَولِه: ﴿رُسُلًا﴾ بين أن يكونَ مفعولًا ثانيًا لـ ﴿جَاعِلِ﴾ أي: جعل اللهُ من الملائكة، أي: ليكونوا رسلًا منه تعالى لِما يريد أن يفعَلوه...، وبين أن يكونَ حالًا مِن ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أي: يجعَلُ من أحوالِهم أن يُرسَلوا، ولصلاحية المعنيَينِ أُوثِرَت مادةُ الجعلِ دون أن يُعطَفَ على مَعمولِ ﴿فَاطِرِ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهرُ أنَّ المَلَكَ الواحدَ مِن صِنفٍ له جَناحانِ، وآخَرُ ثلاثةٌ، وآخَرُ أربعةٌ، وآخَرُ أكثَرُ مِن ذلك؛ لِما رُوِيَ أنَّ لِجبريلَ ستَّ مئةِ جَناحٍ، منها اثنانِ يَبلُغُ بهما المَشرِقَ إلى المغربِ. قاله قَتادةُ... وقالت فِرقةٌ: المعنى: أنَّ في كلِّ جانبٍ مِنَ المَلَكِ جناحَينِ، ولبعضِهم ثلاثةٌ، ولبعضِهم أربعةٌ، وإلَّا فلو كانت ثلاثةً لواحدٍ لَمَا اعتدلَتْ في مُعتادِ ما رأيْنا نحن مِن الأجنحةِ. وقيل: بل هي ثلاثةٌ لواحدٍ، كما يوجَدُ لبعضِ الحيواناتِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٢٩).

وقيل: يجوزُ أنْ تكونَ أعدادُ الأجنحةِ مُتغَيِّرةً لكلِّ مَلَكٍ في أوقاتٍ مُتغيِّرةٍ على حَسَبِ المسافاتِ الَّتي يُؤْمَرونَ باختِراقِها مِن السَّمواتِ والأرَضينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٠).

وقال ابن عثيمين: (كيفيَّةُ هذه الأجنحةِ لا نَعلَمُها... والشَّيءُ لا يُعرَفُ إلَّا بمُشاهَدتِه، أو مُشاهَدةِ نَظيرِه، أو الخبرِ الصَّادقِ عنه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤).

﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: يَزيدُ في الخَلْقِ[١] ما يَشاءُ بحَسَبِ ما تقتَضيه حِكمتُه؛ فقد فضَّل بعضَ الملائِكةِ بزيادةِ الأجنِحةِ على أربعةٍ[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، لا يَستعصي عليه شَيءٌ؛ فلا تُعجِزُه زيادةُ ما يَشاءُ في الخَلْقِ كيف يَشاءُ[٣].

---

(١) قيل: قَولُه تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يعُمُّ الزِّيادةَ في خَلْقِ الملائكةِ وغيرِهم من المخلوقاتِ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥).

قال الرَّسْعَني: (والصَّحيحُ: أنَّ الآيةَ مُطْلَقةٌ تَشملُ كلَّ زيادةٍ في الخَلقِ: مِن صَباحةٍ في الوجهِ، ومَلاحةٍ في العَينِ، وفَصاحةٍ في اللِّسانِ، وسماحةٍ في النَّفْسِ، وحَصافةٍ في العقلِ، وجَزالةٍ في الرَّأيِ، وجَراءةٍ في القلبِ، إلى غيرِ ذلك مِن أنواعِ الزِّيادةِ ممَّا لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٦٩).

وقيل: المرادُ بذلك: الزِّيادةُ في خَلقِ الملائكةِ. ونَسَب القرطبيُّ هذا القولَ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ، وأنَّه يَزيدُ في أجنحتِها ما يَشاءُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٥).

قال ابنُ كثير: (منهم [أي: الملائكةِ] مَن له أكثَرُ مِن ذلك، كما جاء في الحديثِ: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى جبريلَ لَيلةَ الإسراءِ وله سِتُّ مئةِ جَناحٍ [البخاري: «٣٢٣٢» ومسلم «١٧٤»]...، ولهذا قال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٠)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير =

﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى كَمالَ القُدرةِ؛ ذكَرَ بَيانَ نُفوذِ المَشيئةِ، ونفاذِ الأمرِ[1].

﴿ مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَا ﴾.

أي: ما يَفتَحْه اللهُ للنَّاسِ مِن رَحمةٍ، سواءٌ مِن الأرزاقِ الحِسِّيَّةِ أو المعنويَّةِ، فلا يَستطيعُ أحدٌ كائنًا مَن كان أن يَحبِسَها ويُغلِقَ أبوابَها، فيَمنَعَ عَطاءَ اللهِ عن عبادِه[2].

﴿وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾

أي: وما يُغلِقِ اللهُ مِن رَحمةٍ[3] عن النَّاسِ ويَحبِسْها عندَه، فلا يَستطيعُ أحدٌ

---

= الشوكاني)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤، ٢٥).

(٣) ممَّن قال بأنَّ المحذوفَ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يُمۡسِكۡ﴾ هو الرَّحمةُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٧).

وقيل: حُذِفَ المتعلَّقُ هنا؛ لإفادةِ العمومِ في كلِّ ما يمسكُ؛ فما يُمسِكُه اللهُ يَشملُ الرَّحمةَ وغيرَها مِن الشَّرِّ والضُّرِّ. استظهره أبو حيَّان، واختاره الألوسي، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٥، ٢٦).

كائِنًا مَن كان أن يُطلِقَها لهم[١].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ القَدْرِ، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ وهو الحَكيمُ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في موضِعِه اللَّائِقِ به، فما يَفتَحُه للخَلقِ مِن رحمتِه أو يُمسِكُه عنهم هو وَفْقُ حِكمتِه سُبحانَه، ولا يَقدِرُ أحَدٌ على نَقْضِ أمْرِه المحكَمِ المتقَنِ[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّ الحَمدَ له، وبيَّنَ بَعضَ وُجوهِ النِّعمةِ الَّتي تَستوجِبُ الحَمدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٧، ٢٧٨).

والضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ قيل: عائِدٌ على اللهِ تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦، ٢٨).

وقيل: عائدٌ على الإمساكِ. وممَّن قال بهذا: الرَّسْعَنيُّ، والبيضاوي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والعُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧، ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧، ٢٨).

على سَبيلِ التَّفصيلِ؛ بيَّنَ نِعَمَه على سبيلِ الإجمالِ، فقال: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى -بما يُشاهِدُه كُلُّ أحدٍ في نفْسِه- أنَّه المُنعِمُ وحْدَه؛ أمَرَ بذِكرِ نِعمتِه بالاعترافِ أنَّها منه[2].

وأيضًا لَمَّا جرى ذِكرُ رحمةِ الله الَّتي تَعُمُّ النَّاسَ كُلَّهم؛ أقبَلَ على خِطابِهم بأن يَتذكَّروا نِعمةَ الله عليهم الخاصَّةَ، وهي النِّعمةُ الَّتي تَخُصُّ كُلَّ واحدٍ بخاصَّتِه، فيَأْتَلِفُ منها مجموعُ الرَّحمةِ العامَّةِ للنَّاسِ كُلِّهم، وما هي إلَّا بعضُ رحمةِ اللهِ بمَخلوقاتِه، والمقصودُ مِن تذَكُّرِ النِّعمةِ شُكْرُها، وقَدْرُها قَدْرَها[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ اذكُروا ما أنعَمَ اللهُ به عليكم، فانظُروا هل تَجِدونَ خالِقًا غيرَ اللهِ يَرزُقُكم مِنَ السَّماءِ ومِنَ الأرضِ -بالمطرِ والنَّباتِ وغيرِهما-؛ فيَستَحِقَّ العبادةَ[4]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ﴾ [الملك: ٢١].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ وحْدَه، فكيف تُصرَفونَ عن عبادةِ الخالِقِ الرَّازِقِ إلى عبادةِ مَن لا يَخلُقُ شَيئًا، ولا يَرزُقُكم شيئًا[5]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٩-٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الأصلَ الأوَّلَ: وهو التَّوحيدُ؛ ذكَرَ الأصلَ الثَّانيَ: وهو الرِّسالةُ[١].

وأيضًا فهي عَطفٌ على ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [فاطر: ٣]، أي: وإن استمَرُّوا على انصِرافِهم عن قَبولِ دَعوتِك، ولم يَشكُروا النِّعمةَ ببَعثِك- فلا عَجَبَ؛ فقد كذَّب أقوامٌ مِن قَبْلِهم رُسُلًا مِن قَبْلُ[٢].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾.

أي: وإن يُكَذِّبْك -يا محمَّدُ- كفَّارُ قَومِك، فتلك سُنَّةُ أمثالِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ الَّذين كَذَّبوا رُسُلَهم؛ فلا تَحزَنْ لذلك، ولك فيمَنْ سبَقَك مِنَ الرُّسُلِ أُسوةٌ[٣].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُ جَميعِ الأُمورِ[٤].

---

= (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).
قيل: المعنى: أنَّ أمورَ العبادِ تصيرُ إلى الله- جلَّ وعزَّ- في الآخرةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ انفِرادَه تعالى بالتَّدبيرِ والعَطاءِ والمَنعِ، فهذا يُوجِبُ التَّعَلُّقَ باللهِ تعالى، والافتِقارَ إليه مِن جميعِ الوُجوهِ، وألَّا يُدعَى إلَّا هو، ولا يُخافَ ولا يُرجَى إلَّا هو[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أمْرٌ بذِكرِ نِعمتِه، بالاعتِرافِ أنَّها منه؛ فإنَّ الذِّكرَ يَقودُ إلى الشُّكرِ، وهو قَيْدُ الموجودِ، وصَيْدُ المعدومِ المفقودِ[2].

---

= مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧١).

قال الواحدي: (﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يعني: في الجزاءِ، مِن الثَّوابِ والعقابِ). ((الوجيز)) (ص: ١٦٠). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٧٢).

وقال ابنُ جرير: (﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ يقولُ تعالى ذِكْرُه: وإلى الله مَرجِعُ أمْرِك وأمْرِهم، فيُحِلُّ بهم مِن العقوبةِ -إن هم لم يُنيبوا إلى طاعتِنا في اتِّباعِك، والإقرارِ بنُبوَّتِك، وقَبولِ ما دعَوْتَهم إليه مِن النَّصيحةِ- نظيرَ ما أحلَلْنا بنُظَرائِهم مِن الأمَمِ المكَذِّبةِ رُسُلَها قَبْلَك، ومُنَجِّيك وأتْباعَك مِن ذلك؛ سُنَّتَنا بمَن قَبْلَك في رُسُلِنا وأَوْليائِنا). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٠).

وقال ابن عثيمين: (قَولُه تعالى: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ هذا عامٌّ في أمورِ الدُّنيا والآخرةِ، وأمورِ الشَّرعِ، وأمورِ القَدَرِ؛ فكُلُّ الأمورِ تُرجَعُ إلى الله عزَّ وجلَّ... والأمورُ هنا جمْعُ أمرٍ، بمعنى الشَّأنِ، أي: شُؤونُ الدُّنيا والآخرةِ، والشُّؤونُ القَدَريَّةُ والشَّرعيةُ كُلُّها تُرجَعُ إلى الله سُبحانَه وتعالى... وإذا تُرجَعُ إلى الله وقد كُذِّبَت الرُّسُلُ، فمَصيرُ الرُّسُلِ النَّصرُ في الدُّنيا والآخرةِ، ومصيرُ المكَذِّبينَ الخِزيُ والعارُ في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤١) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ إذا أصابَتْه الضَّرَّاءُ أنْ يَرجِعَ إلى ربِّه، وأنْ يَتعلَّقَ به؛ فإذا كانتِ الأمورُ تُرجَعُ إلى اللهِ فلْيَكُنْ طلَبُ إزالةِ الضَّررِ مِن اللهِ[١]. على قولٍ في معنى الآيةِ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ أنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أنْ يُسنِدَ ما رزَقَه اللهُ مِن رِزْقٍ -سواءٌ كان عِلْمًا أم مالًا أم جاهًا أم ولدًا أم زَوجةً- إلى نفْسِه، فيَقولَ: إنَّما أُوتيتُه على عِلمٍ عندي[٢]! على قولٍ في معنى الآيةِ.

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يَمدَحُ اللهُ تعالى نَفْسَه الكريمةَ المقَدَّسةَ، على خَلقِه السَّمواتِ والأرضَ، وما اشتَمَلَتا عليه مِن المخلوقاتِ؛ لأنَّ ذلك دليلٌ على كمالِ قُدرتِه، وسَعةِ مُلكِه، وعُمومِ رَحمتِه، وبديعِ حِكمتِه، وإحاطةِ عِلمِه[٣]، حيثُ ابتدأَ خَلْقَ هذه السَّمَواتِ العظيمةِ وهذه الأرضِ على هذا النِّظامِ البَديعِ مِن غيرِ أنْ يَسبِقَ مِثالٌ يَحتذيه ويَقتدي به، ومَعلومٌ أنَّ مُبدِعَ الصَّنعةِ يُشهَدُ له بالخِبرةِ والقُدرةِ؛ لأنَّه أنشَأَ شيئًا جديدًا، وصارَ هذا الشَّيءُ الجديدُ مُنتَظِمًا على تمامِ الانتظامِ، وغايةِ الإحكامِ[٤].

٢- اسمُ الملائِكةِ والمَلَكِ يَتضَمَّنُ أنَّهم رُسُلُ اللهِ[٥]، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١).

(٥) إذ المَلَكُ مِن الأَلُوكةِ، وهي الرِّسالةُ، يقالُ: أَلِكْني إلى فُلانٍ، يُريدون به: كُنْ رسولي، وتحمَّلْ رِسالتي إليه. يُنظر: ((العين)) للخليل (٥/ ٤٠٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ٢٠٢)، ((الصحاح)) للجوهري (٤/ ١٦٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٤٨-٥٣).

ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا ﴾، وكما قال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، فالملائِكةُ رُسُلُ اللهِ في تنفيذِ أمرِه الكَونيِّ الَّذي يُدبِّرُ به السَّمَواتِ والأرضَ -كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١]، وكما قال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠]- وأمْرِه الدِّينيِّ الَّذي تَنزِلُ به الملائِكةُ؛ فإنَّه قال: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[1] [الحج: ٧٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ إثباتُ أنَّ الملائكةَ أجسامٌ، وليسوا أرواحًا مُجرَّدةً مِن الجِسميَّةِ[2].

٤- قال الله سبحانه تعالى: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ في ذِكرِه تعالى أنَّه جعَلَ الملائِكةَ رُسُلًا، ولم يَستثْنِ منهم أحدًا: دَليلٌ على كمالِ طاعتِهم لرَبِّهم، وانقيادِهم لأمرِه، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[3] [التحريم: ٦].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ إشارةٌ إلى سرعةِ تَنَقُّلِ الملائكةِ لقوَّةِ أجنحتِهم؛ يدُلُّ على ذلك أنَّه لولا أنَّ لهذه الأجنحةِ مَزيَّةً عظيمةً لَمَّا استحقَّتْ أنْ يُنَصَّ عليها، ولَذُكِر غيرُها كالرُّؤوسِ مثلًا! ولكنْ ذَكَر الأجنحةَ؛ لِمَا فيها مِن القوَّةِ لِحَمْلِها هؤلاءِ الملائكةِ، ولأنَّها تكونُ عندَ الإرسالِ أسرَعَ[4]. فلمَّا كانت

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١، ٢٢).

الملائكةُ مُدَبِّراتٍ -بإذنِ الله- ما جعَلهم الله موَكَّلينَ فيه؛ ذكَر قوَّتَهم على ذلك، وسرعةَ سَيْرِهم[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ أنَّ اللهَ تعالى فَضَّلَ المخلوقاتِ بعضَها على بعضٍ، والزِّيادةُ مُقابِلُها نقصٌ؛ فهذا يَزيدُه قوَّةً في الجسمِ، وهذا يَزيدُه قوَّةً في العقلِ، وهذا يَزيدُه قوَّةً في الطُّولِ، وهذا يَزيدُه قوَّةً في العِلمِ... إلى آخرِه[٢]، وهذا على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٧- الرَّدُّ على القَدَريَّةِ الَّذين يَزعُمونَ أنَّ أفعالَ العبدِ غيرُ مخلوقةٍ ولا مَقدورةٍ لله! لعُمومِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، وأفعالُ العبدِ مِن الأشياءِ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وُصِفَت النِّعمةُ بـ ﴿عَلَيْكُمْ﴾؛ لأنَّ المقصودَ مِن التَّذَكُّرِ: التَّذكُّرُ الَّذي يَترتَّبُ عليه الشُّكرُ، وليس المرادُ مُطلَقَ التَّذكُّرِ، بمعنى الاعتبارِ والنَّظَرِ في بديعِ فَضلِ اللهِ[٤].

٩- في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أهمِّيَّةُ ذِكْرِ النِّعمةِ؛ لأنَّها صُدِّرَتْ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ وهذا يدُلُّ على الأهمِّيَّةِ؛ لأنَّ ما صُدِّرَ بالنِّداءِ معناه تنبيهُ المخاطَبِ على الاستماعِ[٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أنَّ الكفَّارَ مُخاطَبونَ بالشَّرائعِ، فكما يجِبُ على المُسلمِ أنْ يَذكُرَ نِعمةَ اللهِ، يجبُ على الكافرِ أيضًا أنْ يَذكُرَ نِعمةَ اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٦).

وبناءً عليه فإنَّه يُعاقَبُ على عدَمِ ذِكْرِ النِّعمةِ في الآخرةِ، وقد يُعاقَبُ عليه أيضًا في الدُّنيا(١).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ فيه ردٌّ على أهلِ القَدَرِ الَّذين يَدَّعونَ أنَّهم يَخلُقونَ أفعالَهم(٢)!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أنَّ الإقرارَ بتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ يَستلزِمُ الإقرارَ بتوحيدِ الألوهيَّةِ، وهذا مأخوذٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾؛ فكما أنَّه هو الخالقُ وَحْدَه، فيجبُ أنْ يكونَ هو المعبودَ وحْدَه؛ ولهذا نقولُ: توحيدُ الألوهيَّةِ يَتضمَّنُ توحيدَ الرُّبوبيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ؛ لأنَّه لا يُعبَدُ إلَّا مَن عُلِمَ بأنَّه الرَّبُّ الخالقُ الكامِلُ في صِفاتِه، وتوحيدُ الرُّبوبيَّةِ يَستلزِمُ توحيدَ الألوهيَّةِ وتوحيدَ الأسماءِ والصِّفاتِ(٣).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي سورةِ (الذَّارياتِ): ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] بالحَصرِ؟

**والجوابُ**: أنَّ أصلَ الرِّزقِ مِن السَّماءِ، وتُشارِكُ فيه الأرضُ باعتبارِ النَّباتِ(٤).

١٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فيه بيانُ عنايةِ اللهِ عزَّ وجلَّ برَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، حيثُ سَلَّاه بذِكرِ مَن كُذِّبَ مِن قَبْلِه؛ فإنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنَّ غيرَه أُصيبَ بمِثلِ مُصيبتِه تَسلَّى بذلك(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٠، ٤٢).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ وُجوبُ تحكيم الكِتابِ والسُّنَّة، وأنَّه لا يجوزُ العُدولُ عمَّا دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ؛ لأنَّ الأمورَ والشُّؤونَ تُرجَعُ إلى اللهِ، ومنها الحُكمُ بينَ النَّاسِ؛ فيجبُ أنْ يكونَ مَرجِعُه إلى اللهِ تعالى[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

- قولُه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ...﴾ افتتاحُ السُّورةِ بالحمْدِ مُؤذِنٌ بأنَّ صِفاتٍ مِن عَظَمةِ اللهِ ستُذكَرُ فيها. وإجراءُ صِفاتِ الأفعالِ على اسمِ الجَلالةِ مِن خلْقِه السَّمواتِ والأرضَ، وأفضَلَ ما فيهما مِن الملائكةِ والمرسَلينَ؛ مُؤذِنٌ بأنَّ السُّورةَ جاءتْ لإثباتِ التَّوحيدِ وتَصديقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وإيذانُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ باستحقاقِ اللهِ إيَّاه دونَ غيرِه[٢].

- وتَخصيصُ ذِكرِ الملائكةِ مِن بيْنِ مَخلوقاتِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِشَرَفِهم بأنَّهم سُكَّانُ السَّمواتِ، وعظيمِ خَلْقِهم، وأجْرى عليهم صِفةَ أنَّهم رُسلٌ؛ لِمُناسَبةِ المَقصودِ مِن إثباتِ الرِّسالةِ، أي: جاعِلِهم رُسلًا منه إلى المُرسَلينَ مِن البشَرِ؛ للوحْيِ بما يُرادُ تَبليغُهم إيَّاهُ للنَّاسِ[٣].

- وجُملةُ ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ما ذُكِرَ مِن صِفاتِ الملائكةِ يُثيرُ تَعجُّبَ السَّامعِ أنْ يَتساءلَ عن هذه الصِّفةِ العَجيبةِ؛ فأُجِيبَ بهذا الاستئنافِ بأنَّ مَشيئةَ اللهِ تعالى لا تَنحصِرُ ولا تُوقَّتُ، ولكلِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٤٩).

جِنسٍ مِن أجناسِ المَخلوقاتِ مُقوِّماتُه وخَواصُّه[١]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تَعليلٌ بطَريقِ التَّحقيقِ للحُكمِ المذكورِ ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُ﴾؛ فإنَّ شُمولَ قُدرتِه تعالى لجَميعِ الأشياءِ ممَّا يُوجِبُ قُدرتَه تعالى على أنْ يَزيدَ كلَّ ما يَشاؤُه إيجابًا بيِّنًا[٢]. وفي هذا تَعريضٌ بتَسفيهِ عُقولِ الَّذين أنْكَروا الرِّسالةَ وقالوا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]؛ فأُجيبوا بقولِ الرُّسلِ: ﴿إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾[٣] [إبراهيم: ١١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ﴾ عبَّر عن إرسالِ هذه الرَّحمةِ بالفَتْحِ؛ إيذانًا بأنَّها أنفَسُ الخَزائنِ الَّتي يَتنافَسُ فيها المُتنافِسونَ، وأعَزُّها مَنالًا[٤].

- وتَنكيرُ الرَّحمةِ؛ للإشاعةِ والإبهامِ، أيْ: أيُّ شَيءٍ يَفتَحُ اللهُ مِن خَزائنِ رحمتِه أيَّةَ رَحمةٍ كانتْ؛ مِن نِعمةٍ وصِحَّةٍ وأمْنٍ، وعِلمٍ وحِكمةٍ، إلى غَيرِ ذلك ممَّا لا يُحاطُ به. وقيل: العمومُ مَفهومٌ مِن اسمِ الشَّرطِ، و﴿مِن رَّحۡمَةٖ﴾؛ لِبَيانِ ذلك العامِّ مِن أيِّ صِنفٍ هو[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ حُذِفَ مَفعولُه؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ عليه، والتَّقديرُ: وما يُمسِكْ مِن رَحمةٍ؛ ولم يُذكَرْ له بَيانٌ استِغناءً ببَيانِه مِن قبْلُ[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ولَمَّا كان حَبْسُ الرَّحمةِ مَكروهًا لم يُصرَّحْ به، وتُرِكَ الشَّرطُ على عُمومِه بعْدَ أنْ فُسِّرَ الشَّرطُ الأوَّلُ بالرَّحمةِ؛ دَلالةً على مَزيدِ الاعتناءِ بها؛ إيذانًا بأنَّ رَحمتَه سبَقَتْ غضَبَه، فقال: ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾[2].

- وضَميرُ ﴿لَهَا﴾ وضَميرُ ﴿لَهُۥ﴾ في قوله: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ عائدانِ إلى (ما) مِن قولِه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾؛ رُوعِيَ في تأْنيثِ أحَدِ الضَّميرينِ معنى (ما)؛ فإنَّه اسمٌ صادقٌ على (رَحمةٍ) وقد بُيِّنَ بها، ورُوعِيَ في تَذكيرِ الضَّميرِ الآخَرِ لَفظُ (ما)؛ لأنَّه لفظٌ لا علامةَ تأنيثٍ فيه، وهما اعتبارانِ كَثيرانِ في مِثلِه في فَصيحِ الكلامِ؛ فالمُتكلِّمُ بالخِيارِ بيْنَ أيِّ الاعتبارينِ شاء. والجمْعُ بيْنَهما في هذه الآيةِ تَفنُّنٌ، وأُوثِرَ بالتَّأنيثِ ضَميرُ (ما)؛ لأنَّها مُبيَّنةٌ بلَفظٍ مُؤنَّثٍ، وهو ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾[3]. وقيل: اختِلافُ الضَّميرَينِ في قولِه: ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ وقولِه: ﴿فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾؛ لأنَّ الموصولَ الأوَّلَ مُفسَّرٌ بالرَّحمةِ، والثَّاني مُطلَقٌ يَتناوَلُها والغضَبَ، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ رَحمَتَه سبَقَت غضَبَه[4].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تَذييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه؛ لِيَدُلَّ على شُمولِ المَعسورِ

---

= السعود)) (٧/ ١٤٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢).

والمَيْسورِ، ومُعرِبٌ عن كَونِ كلٍّ مِن الفَتحِ والإمساكِ بمُوجَبِ الحِكمةِ الَّتي عليها يَدورُ أمْرُ التَّكوينِ. ورُجِّحَ فيه جانبُ الإخبارِ فعُطِفَ -وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يكونَ مَفصولًا-؛ لإفادةِ أنَّه يَفتَحُ ويُمسِكُ لِحِكمةٍ يَعلَمُها، وأنَّه لا يَستطيعُ أحدٌ نقْضَ ما أبرَمَه في فتْحِ الرَّحمةِ وغيرِه مِن تَصرُّفاتِه؛ لأنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُمكِنُ لِغَيرِه أنْ يَغلِبَه؛ فإنَّ نَقْضَ ما أبرَمَ ضَربٌ مِن الهَوانِ والمَذلَّةِ[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إنكاريٌّ في معنى النَّفيِ، والمعنَى: لا خالقَ إلَّا اللهُ وحْدَه؛ ولذلك اقترَنَ ما بعْدَه بـ (مِن) الَّتي تُزادُ لِتَأكيدِ النَّفيِ[2]. وقيل: إنَّ هذا الاستِفهامَ على جِهةِ التَّقريرِ[3].

- وجُعِل النَّفْيُ في قولِه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾ مُتوجِّهًا إلى القَيدِ -وهو جُملةُ الصِّفةِ ﴿يَرۡزُقُكُم﴾- كما هي سُنَّتِه في الكلامِ المُقيَّدِ؛ لأنَّ المَقصودَ التَّذكيرُ بنِعَمِ اللهِ تعالى لِيَشْكروا، ويكونَ ذلك كِنايةً عن الاستِدلالِ على انتفاءِ وَصفِ الخالقيَّةِ عن غَيرِه تعالى؛ لأنَّه لو كان غيرُه خالقًا لَكان رازقًا؛ إذ الخَلْقُ بدُونِ رِزقٍ قُصورٌ في الخالقيَّةِ؛ لأنَّ المخلوقَ بدُونِ رِزقٍ لا يَلبَثُ أنْ يَصيرَ إلى الهلاكِ والعَدَمِ، فيَكونُ خَلْقُه عَبَثًا يُنزَّهُ عنه المَوصوفُ بالإلهيَّةِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٥٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٠٣، ٦٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣).

المُقتضيةِ للحِكمةِ؛ فكانت الآيةُ مُذكِّرةً بنِعمَتَي الإيجادِ والإمدادِ[١].

- وللاهتِمامِ بهذا الاستِثناءِ -﴿غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾- قُدِّمَ في الذِّكرِ قبْلَ ما هو في قوَّةِ المُسْتثنى منه. وجُعِلَ صِفةً لـ﴿خَٰلِقٍ﴾؛ لأنَّ (غير) صالحةٌ للاعتبارينِ[٢].

- وزِيادةُ ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تَذكيرٌ بتَعدُّدِ مَصادرِ الأرزاقِ؛ فإنَّ منها سَماويَّةً كالمطَرِ -الَّذي منه شَرابٌ، ومنه طَهورٌ، وسبَبُ نَباتِ أشجارٍ وكَلَأٍ- وكالضِّياءِ مِن الشَّمسِ، والاهتداءِ بالنُّجومِ في اللَّيلِ، وكذلك أنواعُ الطَّيرِ الَّذي يُصادُ، كلُّ ذلك مِن السَّماءِ. ومِن الأرضِ أرزاقٌ كثيرةٌ؛ مِن حُبوبٍ، وثِمارٍ، وزيوتٍ، وفَواكهَ، ومَعادنَ، وأسماكِ البحارِ والأنهارِ. وفي هذا القَيدِ فائدةٌ أخرى؛ وهي دَفْعُ تَوهُّمِ الغُفَّلِ أنَّ أرزاقًا تأْتيهم مِن غَيرِ اللهِ مِن أنواعِ العَطايا الَّتي يُعْطيها بعضُهم بعضًا، والمُعاوضاتِ الَّتي يُعاوِضُها بعضُهم مع بعضٍ؛ فإنَّها لِكَثرةِ تَداوُلِها بيْنَهم قد يُلْهِيهم الشُّغلُ بها عن التَّدبُّرِ في أُصولِ مَنابعِها؛ فإنَّ أُصولَ مَوادِّها مِن صُنعِ اللهِ تعالى، فآلَ ما يُعطاهُ النَّاسُ منها إلى أنَّه مِن اللهِ[٣].

- وجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نَتيجةٌ عَقِبَ ذِكرِ الدَّليلِ؛ إذ رَتَّبَ الحقُّ على انفرادِه بالخالقيَّةِ والرَّازقيَّةِ انفرادَه بالإلهيَّةِ؛ لأنَّ هذَينِ الوَصفينِ هما أظهَرُ دَلائلِ الإلهيَّةِ عندَ النَّاسِ؛ فجمُلةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مُستأنَفةٌ[٤]، سيقَتْ لِتَقريرِ النَّفيِ المُستفادِ مِن قولِه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم﴾ قَصدًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٤، ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٢١).

- قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ الفاءُ لِتَفريعِ التَّعجُّبِ مِن انصرافِهم عن النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ على انفرادِه بالخالقيَّةِ والرَّازقيَّةِ؛ فالاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن انصرافِهم عن الاعترافِ بالوَحدانيَّةِ تَبعًا لِمَن يَصرِفُهم، وهمْ أولياؤهم وكُبَراؤهم[1]. أو لِتَرتيبِ إنكارِ عُدولِهم عن التَّوحيدِ إلى الإشراكِ على ما قبْلَها[2].

- وحُذِفَ الفاعلُ في قولِه: ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾؛ لأنَّ آفكِيهم أصنافٌ كَثيرونَ[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ انتِقالٌ مِن خِطابِ النَّاسِ إلى خِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِمُناسَبةِ جَرَيانِ خِطابِ النَّاسِ على لِسانِه، فهو مُشاهِدٌ لخِطابِهم، فلا جَرَمَ أنْ يُوجَّهَ إليه الخِطابُ بعْدَ تَوجيهِه إليهم؛ إذ المَقامُ واحدٌ، وإذ قد أبانَ لهم الحُجَّةَ على انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ حينَ خاطَبَهم بذلك، نُقِلَ الإخبارُ عن صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما أنْكَروا قَبولَه منه؛ فإنَّه لَمَّا استبانَ صِدْقُه في ذلك بالحُجَّةِ، ناسَبَ أنْ يُعرَّضَ إلى الَّذين كذَّبوه بمِثلِ عاقِبةِ الَّذين كذَّبوا الرُّسلَ مِن قبْلِه. وقد أُدمِجَ في خِلالِ ذلك تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على تَكذيبِ قَومِه إيَّاه بأنَّه لم يكُنْ مَقامُه في ذلك دونَ مَقامِ الرُّسلِ السابقينَ[4].

- وجِيءَ في هذا الشَّرطِ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ بحَرفِ (إنْ) الَّذي أصْلُه أنْ يُعلَّقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٦).

به شَرطٌ غيرُ مَقطوعٍ بوُقوعِه؛ تَنزيلًا لهم -بعْدَما قُدِّمَت إليهم الحُجَّةُ على وَحدانيَّةِ اللهِ، المُصَدِّقةُ لِمَا جاءهم به الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فكذَّبوه فيه- مَنزلةَ مَن أيقَنَ بصِدقِ الرَّسولِ؛ فلا يكونُ فَرْضُ استِمرارِهم على تَكذيبِه إلَّا كما يُفرَضُ المُحالُ. وهذا وَجهُ إيثارِ الشَّرْطِ هنا بالفِعلِ المُضارِعِ الَّذي في حيِّزِ الشَّرْطِ يَتمخَّضُ للاستِقبالِ، أي: إنْ حدَثَ منهم تَكذيبٌ بعْدَ ما قَرَع أسماعَهم مِن البراهينِ الدَّامغةِ[١].

- وبُنِيَ الفِعلُ للمَجهولِ ﴿كُذِّبَتْ رُسُلٌ﴾؛ لأنَّ التَّسليةَ مَحطُّها وُقوعُ التَّكذيبِ، لا تَعيينُ المُكذِّبِ[٢].

- والمَذكورُ جَوابًا للشَّرطِ -﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾- إنَّما هو سَببٌ لِجَوابٍ مَحذوفٍ؛ إذ التَّقديرُ: وإنْ يُكذِّبوك فلا يَحزُنْك تَكذيبُهم، أو فتَأسَّ بتَكذيبِ الرُّسلِ مِن قبْلِك؛ إذ قد كُذِّبَت رُسلٌ مِن قبْلِك، فاستُغْنِيَ بالسَّببِ عن المُسبَّبِ؛ لدَلالتِه عليه[٣].

- ولم يُعرَّفْ لَفظُ (رُسُل)، وجِيءَ به مُنكَّرًا؛ لِمَا في التَّنكيرِ مِن الدَّلالةِ على تَعظيمِ أولئك الرُّسلِ؛ زِيادةً على جانبِ صِفةِ الرِّسالةِ مِن جانبِ كَثرتِهم، وتَنوُّعِ آياتِ صِدقِهم، ومع ذلك كذَّبَهم أقوامُهم[٤]!

- وأُفْرِد التَّكذيبُ بالذِّكرِ؛ اهتِمامًا بتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تنبيهًا على أنَّ الأكثَرَ يُكَذِّبُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصادر السابقة)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠).

- قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ عُطِفَ على التَّسليةِ والتَّعريضِ ما هو كالتَّأكيدِ لهما، والتَّذكيرِ بعاقبةِ مَضمونِها بأنَّ أمْرَ المُكذِّبينَ قد آلَ إلى لِقائِهم جَزاءَ تَكذيبِهم مِن لَدُنِ الَّذي تَرجِعُ إليه الأمورُ كلُّها، فكان أمْرُ أولئك المُكذِّبينَ وأمْرُ أولئك الرُّسلِ في جُملةِ عُمومِ الأُمورِ الَّتي أُرجِعَت إلى اللهِ تعالى؛ إذ لا تَخرُجُ أُمورُهم مِن نِطاقِ عُمومِ الأُمورِ. وقد اكتسَبَت هذه الجُملةُ معنى التَّذييلِ بما فيها مِن العُمومِ. و﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ جمْعُ أمْرٍ، وهو الشَّأنُ والحالُ، أي: إلى اللهِ تَرجِعُ الأحوالُ كلُّها يَتصرَّفُ فيها كيف يَشاءُ؛ فتكونُ الآيةُ تَهديدًا للمُكذِّبينَ وإنذارًا، ووَعدًا للمُكذَّبِ[1].

- قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ فيه تقديمُ المعمولِ؛ وتقديمُ المعمولِ يفيدُ الحصرَ، فالمعنى: إلى اللهِ لا إلى غيرِه تُرجعُ الأمورُ[2].

- وفي الاقتِصارِ على ذِكرِ اختِصاصِ المَرجِعِ باللهِ تعالى مع إبهامِ الجَزاءِ ثوابًا وعِقابًا: مِن المُبالَغةِ في الوَعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣).

## الآيات (٥-٨)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡغَرُورُ﴾: أي: الشَّديدُ التَّغريرِ والخِداعِ، والمرادُ به الشَّيطانُ، يقالُ: غَرَرتُ فُلانًا: إذا أصبْتَ غِرَّتَه ونِلتَ منه ما تُريدُه، مِنَ الغِرَّةِ: وهي الغَفلةُ[1].

﴿حَسَرَٰتٍ﴾: جمعُ حَسْرةٍ، والحَسْرةُ: شدَّةُ الحزنِ أو النَّدَمُ الشَّديدُ وهمُّ النَّفسِ على ما فاتَ مِن الأمرِ، وأصلُ (حسر): يدُلُّ على كشْفِ الشَّيءِ، فالحسرةُ انْكِشافٌ عن حالِ النَّدامَةِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يا أيُّها النَّاسُ إنَّ وعْدَ اللهِ حَقٌّ كائِنٌ لا مَحالةَ؛ فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدُّنيا، ولا يَغُرَّنَّكم الشَّيطانُ بوَساوِسِه ووُعودِه الكاذِبةِ.

ثُمَّ يُبَيِّنُ عداوةَ الشَّيطانِ لابنِ آدَمَ، فيقولُ: إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ فاتَّخِذوه عَدوًّا

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣، ٦٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير الثعلبي (٨/ ٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٨٢).

واحذَروا طاعتَه؛ إنَّما يدعو الشَّيطانُ أتْباعَه لِيُضِلَّهم فيَكونوا مِن أصحابِ النَّارِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أقسامَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: الَّذين كفَروا بالحَقِّ لهم عذابٌ شَديدٌ، والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ لهم مَغفِرةٌ وأجرٌ كبيرٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى: أفمَن زُيِّن له عمَلُه السَّيِّئُ فرآه حَسَنًا كمَنْ ليس كذلك؟! فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ إضلالَه، ويَهدي مَن يشاءُ هِدايتَه؛ فلا تُهلِكْ نَفْسَك -يا محمَّدُ- حَزَنًا على هؤلاء الكافِرينَ؛ بسَبَبِ ضَلالِهم عن الحَقِّ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بما يَصنَعونَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ إنَّ ما وعَدَكم اللهُ به صِدقٌ لا شكَّ فيه، كائنٌ لا مَحالةَ[1].

﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٤).

قيل: المرادُ بوَعدِ اللهِ تعالى هنا: البَعثُ والجزاءُ على الأعمالِ. وممَّن قال بهذا القولِ: القرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).

وقيل: المرادُ به: البَعثُ وغَيرُه. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٤).

قال ابنُ عثيمين: (فكُلُّ ما وعَدَ اللهُ به فإنَّه حَقٌّ؛ سواءٌ البَعثُ، أو العِقابُ أو الثَّوابُ، أو النَّصرُ أو الخِذلانُ، أو غيرُ ذلك ممَّا وعد اللهُ به؛ فإنَّه حَقٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٤).

أي: فلا تَخدَعَنَّكم حياتُكم الدُّنيا، والتَّمَتُّعُ بمَلَذَّاتِها، والانشِغالُ بها[١].

﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

أي: ولا يَخدَعَنَّكم الشَّيطانُ بوَساوِسِه، وأمانيِّه الباطِلةِ، ووُعودِه الكاذِبةِ[٢].

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قيل: المرادُ: لا تَغُرَّنَّكم الدُّنيا عن الآخرةِ، والتَّزوُّدِ لها بالعَمَلِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرسعني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤).

وقال ابن جرير: (﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ يقولُ: فلا يَغُرَّنَّكم ما أنتم فيه مِن العَيشِ في هذه الدُّنيا، ورياساتِكم الَّتي تَترأَّسون بها على ضُعفائِكم فيها: عن اتِّباعِ محمَّدٍ والإيمانِ به). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ١٢٧).

وممَّن جمَع بين المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ الجوزي، فقال: (﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتِها عن الإسلامِ، والتَّزوُّدِ للآخرةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤).

قيل: المعنى: لا يَغُرَّنَّكم بحِلمِ الله ومغفرتِه، فيُوَسْوِسَ لكم بأنِ اعمَلوا ما شِئتُم، وسيَتجاوَزُ الله عنكم، ويَغفِرُ لكم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزمخشري، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩).

وقال ابن جرير: (﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ يقولُ: ولا يَخدَعَنَّكم باللهِ الشَّيطانُ، فيُمَنِّيَكم الأمانيَّ، ويَعِدَكم مِن الله العِدَاتِ الكاذبةَ، ويَحمِلَكم على الإصرارِ على كُفرِكم بالله). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١).

وقال الشنقيطي: (وقَولُه تعالى في آيةِ «لقمانَ» وآيةِ «فاطرٍ» المذكورتَينِ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وترتيبُه على ذلك النَّهْيَ عن أن يَغُرَّهم باللهِ الغَرورُ: دليلٌ واضِحٌ على أنَّ ممَّا يَغُرُّهم به الشَّيطانُ أنَّ وَعْدَ اللهِ بالبَعثِ ليس بحقٍّ، وأنَّه غيرُ واقعٍ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٤٦).

فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١١٩، ١٢٠].

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا قال تعالى: ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾؛ ذكَرَ ما يَمنَعُ العاقِلَ مِن الاغترارِ، فقال[1]:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ حريصٌ على إضلالِكم؛ فعادُوه أشدَّ العَداوةِ، وخالِفوه فيما يأمُرُكم، واحذَروا طاعتَه، واستَفرِغوا وُسْعَكم في محاربتِه ومُجاهَدتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠].

﴿ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾.

أي: إنَّما يَدْعو الشَّيطانُ أشياعَه وأتْباعَه إلى طاعتِه والقَبولِ منه، والكفرِ بالله[3]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

(٣) قال ابن عثيمين: (حزبُ الشَّيطانِ؛ الحِزبُ المُطلَقُ: لا شَكَّ أنَّهم الكُفَّارُ، لكِنْ مَن عصى اللهَ عزَّ وجلَّ -ولو لم يكنْ كافِرًا- في معصيةٍ مِن المعاصي، فله مِن حزبيَّةِ الشَّيطانِ بقَدرِ ما عصى اللهَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: يَدْعوهم إلى الكفرِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، =

وغرَضُه أنْ يُضِلَّهم حتَّى يَكونوا مِن أهلِ النَّارِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أنهَى اللهُ تعالى البيانَ في غَرَضِ الشَّيطانِ إلى مُنتَهاه؛ نبَّه على ما حكَمَ به

---

= وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٦).

وقال الشوكاني: (إنَّما يَدْعو أشياعَه، وأتْباعَه، والمُطيعينَ له إلى معاصي اللهِ سبحانَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩).

وقال ابن جرير: (إنَّما يَدْعو حزبَه... إلى طاعتِه والقَبولِ منه، والكفرِ بالله). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٤).

قال ابن عاشور: (واللَّامُ في قَولِه: ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يجوزُ أن تكونَ لامَ العِلَّةِ؛ فإنَّ الشَّيطانَ قد يكونُ ساعيًا لغايةِ إيقاعِ الآدَميِّينَ في العذابِ؛ نِكايةً بهم، وهي عِلَّةٌ لِلدَّعوةِ مَخفيَّةٌ في خاطِرِه الشَّيطانيِّ وإن كان لا يجهَرُ بها؛ لأنَّ إخفاءَها مِن جملةِ كَيدِه وتزيينِه. ويجوزُ أن تكونَ اللَّامُ لامَ العاقبةِ والصَّيرورةِ، مِثلُ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]. قال ابنُ عطيَّةَ: لأنَّه لم يَدْعُهم إلى السَّعيرِ، إنَّما اتَّفق أنْ صار أمْرُهم عن دعائِه إلى ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٠).

هو سُبحانَه في أشياعِه، بقَولِه مُستأنِفًا[١]:

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾.

أي: الَّذين كَفَروا بالحَقِّ لهم عذابٌ شديدٌ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ جزاءَ حِزبِ الشَّيطانِ؛ أتْبَعَه حِزبَ اللهِ الَّذين عادَوا عَدُوَّهم، فقال[٣]:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا -تصديقًا لإيمانِهم- الأعمالَ الصَّالحةَ الخالِصةَ للهِ تعالى، والموافِقةَ لِشَرعِه: لهم مَغفِرةٌ مِن الله لذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها؛ ولهم أجرٌ كَبيرٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

قيل: المرادُ: لهم عذابُ النَّارِ في الآخرةِ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

وقيل: المرادُ: عذابُ الدُّنيا والآخرةِ؛ ففي الدُّنيا بفَواتِ غالبِ ما يُؤَمِّلونَ، مع تفرقةِ قُلوبِهم، وانسدادِ بصائرِهم، وسَفالةِ هِمَمِهم -حتَّى إنَّهم رَضُوا أن يكونَ إلهُهم حَجَرًا-، وانحجابِ المعارِفِ -الَّتي لا لَذاذةَ في الحقيقةِ غَيرُها- عنهم. وفي الآخِرةِ بالسَّعيرِ الَّتي دعاهم الشَّيطانُ إلى صُحبتِها. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٦، ٥٧).

=

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أبان ما سَبَق تَفاوُتَ الحِزبَينِ في المآلِ بالهلاكِ والفَوزِ، وكان لا يُقدِمُ على الهلاكِ أحدٌ فيه حِسٌّ، وكان الكُفَّارُ يَدَّعونَ أنَّهم الفائِزون قناعةً بالنَّظَرِ إلى ما هم فيه، ويَدَّعون أنَّهم أبصَرُ النَّاسِ، وأحسَنُهم أعمالًا، وكذا كلُّ عاصٍ ومُبتَدِعٍ؛ كان ذلك سببًا في إنكارِ تساويهما، فأنكرَه مُبَيِّنًا السَّبَبَ في ضلالِهم بما فيه تسليةٌ للمُحسِنينَ، ونَدْبٌ إلى الشُّكرِ، وحَثٌّ على مُلازَمةِ الافتقارِ والذُّلِّ، وسُؤالِ العافيةِ مِن الزَّلَل والزَّيغِ[1].

وأيضًا لَمَّا جَرَى تَحذيرُ النَّاسِ مُن غُرورِ الشَّيطانِ، وإيقاظُهم إلى عَداوتِه للنَّوعِ الإنسانيِّ، وتَقسيمُ النَّاسِ إلى فَريقَينِ: فَريقٌ انطَلَت عليه مَكايدُ الشَّيطانِ، واغتَرُّوا بغُرورِه، ولم يُناصِبوه العَداءَ، وفريقٌ أخَذوا حِذْرَهم منه، واحتَرَسوا مِن كَيدِه، وتَجنَّبوا السَّيرَ في مَسالِكِه، ثمَّ تَقسيمُهم إلى كافرٍ مُعذَّبٍ، ومُؤمِنٍ صالحٍ مُنْعَم عليه؛ أُعقِبَ ذلك بالإيماءِ إلى استِحقاقِ حِزبِ الشَّيطانِ عذابَ السَّعيرِ، وبتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَن لم يَخلُصوا مِن حَبائلِ الشَّيطانِ مِن

---

= قيل: المرادُ بالأجرِ الكبيرِ: الجنَّةُ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيْجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦).

وقيل: المرادُ: لهم أجرٌ كبيرٌ في الدُّنيا والآخرةِ؛ ففي الدُّنيا بسُهولةِ العبادةِ، ودوامِ المعرفةِ، ونحوِ ذلك؛ وفي الآخرةِ: في الجنَّةِ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤).

أُمَّةِ دَعوتِه بأُسلوبِ المُلاطَفةِ في التَّسليةِ؛ ففُرِّعَ على جَميعِ ما تَقدَّمَ قولُه[١]:

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾.

أي: أفمَنْ حُسِّنَ له عَمَلُه السَّيِّئُ، فرآه حسَنًا، كمَنْ ليس كذلك[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا * ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا * ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٨، ٦٨٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

اختُلِفَ في تقديرِ الخبرِ المحذوفِ؛ فقيل: التَّقديرُ: أفمَنْ زُيِّن له سوءُ عمَلِه فرآه حسَنًا، كمَن ليس كذلك، فلم يُزَيَّنْ له؟! وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ تيميَّةَ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٤).

قال السمين الحلبي: (وهو أحسَنُ لموافقتِه لفظًا ومعنًى). ((الدر المصون)) (٩/ ٢١٤).

وقيل: التَّقديرُ: أفمَن زُيِّن له سوءُ عمَلِه، كمَنْ هداه الله فرأى الحقَّ حقًّا، والباطِلَ باطلًا؟! وممَّن قال بهذا القولِ: الواحديُّ، والبغوي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

وقيل: التَّقديرُ: أفمَن زُيِّن له سوءُ عَمَلِه فرآه حسَنًا، ذهَبَت نفْسُك حَسَراتٍ عليهم؟ وممَّن قال بهذا القولِ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جرير، يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٧)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٥).

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: فإنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ إضلالَه، فيَصرِفُه عن الإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ؛ ويَهدي مَن يَشاءُ هدايتَه، فيَدُلُّه ويُوفِّقُه للإيمانِ واتِّباعِ الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [النحل: ٩٣].

﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾.

أي: فلا تُهلِكْ نَفْسَك -يا محمَّدُ- حَزَنًا على الكافِرينَ؛ بسَبَبِ ضَلالِهم عن الحَقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بما يَصنَعُه الكافِرونَ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وسيُجازيهم عليه(٣).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أنَّه يَجِبُ على الإنسانِ ألَّا يَرتبِطَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٧).

بالدُّنيا مهما حَصَلَ له مِن زَهرتِها ونَعيمِها[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا ﴾ لا يَليقُ بذي هِمَّةٍ عَليَّةٍ اتِّباعُ الدَّنيءِ، والرِّضا بالدُّونِ الزَّائِلِ عن العالي الدَّائِمِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ الإشارةُ إلى وُجوبِ العنايةِ بالآخرةِ؛ فإذا نُهينا عن الحياةِ الدُّنيا فمعناه أنَّنا نُلزَمُ بالعنايةِ بالآخرةِ؛ لأنَّها في الحقيقةِ هي المُنتَهَى، أمَّا هذه الدُّنيا فإنَّ الإنسانَ يَمُرُّ بها عابرًا فقط، حتَّى القبورُ الَّتي يَبقَى فيها الإنسانُ مِن السَّنواتِ ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ: هي مَحَلُّ عُبُورٍ[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ غايةٌ في التَّحذيرِ مِن الشَّيطانِ؛ فأخبَرَ تعالى بأنَّه عدُوٌّ، وخبَرُه حَقٌّ وصِدقٌ؛ فالواجِبُ على العاقِلِ أن يأخُذَ حِذْرَه مِن هذا العدُوِّ الَّذي قد أبان عداوتَه مِن زمنِ آدَمَ، وبَذَلَ نَفْسَه وعُمُرَه في إفسادِ أحوالِ بني آدمَ؛ قال جَلَّ مِن قائلٍ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقال: ﴿ إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٩]، وقال: ﴿ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وقال: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ٦٠]، وقال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]، ونحن على ذلك نتولَّاه ونُطيعُه فيما يُريدُ مِنَّا ممَّا فيه هلاكُنا! وكان الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ يقولُ: (يا كذَّابُ، يا مُفتَرٍ، اتَّقِ الله، ولا تَسُبَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٩).

الشَّيطانَ في العلانيةِ، وأنت صديقُه في السِّرِّ!)، وقال ابنُ السَّمَّاكِ: (يا عجبًا لِمَن عصَى المحسِنَ بعدَ مَعرفتِه بإحسانِه، وأطاع اللَّعينَ بعدَ معرفتِه بعداوتِه!)[١].

وعداوةُ الشَّيطانِ وسيلةٌ إلى معصيتِه في كلِّ ما يأمُرُ به؛ فإنَّه لا يأمُرُ بخَيرٍ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ فيه تنبيهٌ على وُجوبِ عداوةِ الدُّعاةِ في الضَّلالةِ، المُستَمِدِّينَ مِن الشَّيطانِ[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾ فيه وَعيدٌ لِمَن أجاب دُعاءَ الشَّيطانِ، ووَعدٌ لِمَن خالَفَه، وقَطْعٌ للأمانيِّ الفارغةِ، وبِناءٌ للأمْرِ كلِّه على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ التَّحذيرُ مِن سُلوكِ الإنسانِ سُبُلَ الهَلاكِ وهو لا يَشعُرُ[٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ تضَمَّنت الآيةُ غُرورَين: غُرورًا يغتَرُّه المرءُ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ويُزيِّنُ لِنَفْسِه مِن المظاهِرِ الفاتنةِ الَّتي تَلوحُ له في هذه الدُّنيا ما يَتوهَّمُه خَيرًا، ولا يَنظُرُ في عواقِبِه؛ بحيثُ تخفَى مَضارُّه في بادئِ الرَّأيِ، ولا يظُنُّ أنَّه مِن الشَّيطانِ. وغُرورًا يَتلَقَّاه ممَّن يَغُرُّه، وهو الشَّيطانُ. وكذلك الغُرورُ كُلُّه في هذا العالَمِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٠٩) و(١٤/ ٣٢٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز ابن عبد السلام (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٤٣).

بَعضُه يُمليه المرءُ على نَفْسِه، وبَعضُه يَتلَقَّاه مِن شياطينِ الإنسِ والجِنِّ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ جوازُ تَنَعُّمِ الإنسانِ بالدُّنيا على وَجهٍ لا تَغُرُّه؛ فلم يَقُلْ: «فلا تَتَنَعَّموا في الدُّنيا بشَيءٍ»، بل قال: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ دُنُوُّ الدُّنيا مرتبةً، ودناءَتُها؛ فهي وإنْ كانت حياةً لكِنَّها دُنيا، ويَستلزِمُ ذلك الثَّناءَ على الآخرةِ؛ لأنَّ وَصْفَ الضَّرَّةِ بالعَيبِ يدُلُّ على وَصفِ ضَرَّتِها بالكَمالِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[٣] [الأعلى: ١٦، ١٧].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ لَمَّا كانت عداوتُه تحتاجُ إلى مُجاهَدةٍ -لأنَّه يأتي الإنسانَ مِن قِبَلِ الشَّهَواتِ-؛ عبَّرَ بصيغةِ الافتِعالِ، فقال: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ﴾[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أمَرَ اللهُ هنا باتِّخاذِ العَدُوِّ عَدُوًّا، ولم يَندُبْ إلى العَفوِ عنه، والإغضاءِ عن عداوتِه، كما أمَرَ في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، ونحوِ ذلك ممَّا تكَرَّر في القُرآنِ وكلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فعداوةُ الشَّيطانِ لَمَّا كانت جِبِلِّيَّةً لا يُرجى زوالُها مع مَن يعفو عنه، لم يأمُرِ اللهُ إلَّا باتِّخاذِه عَدُوًّا؛ لأنَّه إذا لم يُتَّخَذْ عدُوًّا، لم يراقِبِ المُسلِمُ مَكايِدَه ومُخادَعتَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦١).

وقد قال اللهُ تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨]، وقال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٤ - ٣٦]. فهذه ثلاثُ آياتٍ ليس لهنَّ رابعةٌ في معناها، وهو أنَّ اللهَ تعالى يأمُرُ بمُصانَعةِ العدوِّ الإنسيِّ والإحسانِ إليه؛ لِيَرُدَّه عنه طبْعُه الطَّيِّبُ الأصلِ إلى المُوادَّةِ والمُصافاةِ، ويأمُرُ بالاستِعاذةِ به مِن العدوِّ الشَّيطانيِّ لا مَحالةَ؛ إذْ لا يَقْبَلُ مُصانَعةً ولا إحسانًا، ولا يَبتغي غيرَ هلاكِ ابنِ آدمَ(١).

٦- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ الأمرُ باتِّخاذِه عدوًّا تَنبيهٌ على استِفراغِ الوُسْعِ في مُحارَبتِه ومُجاهَدتِه، كأنَّه عَدُوٌّ لا يَفْتُرُ ولا يُقْصِرُ عن مُحارَبةِ العَبدِ على عَدَدِ الأنفاسِ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ بيانُ رحمةِ اللهِ تعالى بعبادِه؛ لأنَّ العِلْمَ بعَداوةِ الشَّيطانِ غيرُ مُدرَكٍ لنا، ولكِنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أخبَرَنا به، ثمَّ حَثَّنا، بل أمَرَنا بمُخالَفتِه(٣).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيه إشارةٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٥).

معنًى لطيفٍ، وهو أنَّ مَن يكونُ له عدُوٌّ، فله في أمْرِه طريقانِ:

**أحدُهما**: أن يُعاديَه مُجازاةً له على مُعاداتِه.

**والثَّاني**: أن يُذهِبَ عداوتَه بإرضائِه، فلمَّا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾، أمَرَهم بالعَداوةِ، وأشار إلى أنَّ الطَّريقَ ليس إلَّا هذا، وأمَّا الطَّريقُ الآخَرُ -وهو الإرضاءُ- فلا فائدةَ فيه؛ لأنَّكم إذا رأيتُموه واتَّبَعْتُموه، فهو لا يُؤدِّيكم إلَّا إلى السَّعيرِ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ بلاغةُ القرآنِ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ عَمَلًا واحِدًا في الكُفَّارِ ذكَرَ جزاءً واحِدًا، ولَمَّا ذكَرَ وصْفَينِ في المؤمِنينَ ذكَرَ وصفَينِ في ثَوابِهم[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ بلاغةُ القرآنِ؛ حيث يَجْمَعُ بينَ الشَّيءِ وضِدِّه، وهو مِصْداقُ قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، فقال: ﴿مَّثَانِيَ﴾ أي: تُثَنَّى فيه المعاني، وهنا لَمَّا ذكَرَ عذابَ الكافرين ذَكَرَ ثوابَ المؤمنينَ[3].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ﴾ أشارت الآيةُ إلى طرَفَينِ في الضَّلالِ والاهتداءِ، وطَوَتْ ما بيْنَ ذَينِك مِن المراتِبِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ ما بيْنَ ذلك ينالُهم نَصيبُهم مِن أشبَهِ أحوالِهم بأحوالِ أحدِ الفَريقَينِ، على عادةِ القُرآنِ في وَضعِ المُسلِمِ بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨).

والأمَلِ والرَّهبةِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ أنَّ الأجرَ لا يَثبُتُ إلَّا باتِّصافِ الفاعِلِ بوصفَينِ؛ أحدُهما: الإيمانُ، والثَّاني: العملُ الصَّالحُ[٢].

١٣- أنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ يَنالونَ أجرَهم مِن وَجهَينِ: مِن زوالِ المكروهِ الثَّابتِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾، وحُصولِ المطلوبِ الثَّابتِ، بقَولِه تعالى: ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَجۡرٞ﴾ سَمَّى اللهُ عزَّ وجلَّ الثَّوابَ أجرًا؛ لأنَّه لا بُدَّ أنْ يَنالَه العامِلُ، فهو كأُجرةِ الأجيرِ، فلا بُدَّ أنْ ينالَها العامِلُ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، فسَمَّى العَمَلَ للهِ قَرضًا؛ لأنَّ القَرضَ يجبُ إيفاؤُه، فمِثْلُ هذه الآياتِ تدُلُّ على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أوجَبَ على نفْسِه أنْ يُثيبَ العامِلَ[٤].

١٥- ليس كلُّ مَن كان قَصْدُه حَسَنًا يكونُ فِعلُه صَوابًا وحَسَنًا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾[٥]!

١٦- قال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗا﴾، وقال: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فأحيانًا يَحذِفُ فاعِلَ التَّزيينِ، وأحيانًا يَنسُبُه إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٧/ ٣٥٩).

سَبَبِه ومَن أجراه على يَدِه، وأحيانًا يُضيفُه اللهُ إليه، وهذا التَّزيينُ منه سُبحانَه خَلقًا ومشيئةً، وهو منه حَسَنٌ؛ إذ هو ابتلاءٌ واختبارٌ؛ لِيَتميَّزَ المطيعُ منهم مِن العاصي، والمؤمِنُ مِن الكافِرِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وهو مِن الشَّيطانِ قَبيحٌ، وأيضًا فتزيينُه سُبحانَه للعَبدِ عَمَلَه السَّيِّئَ: عُقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيدِه وعُبوديَّتِه، وإيثارِ سَيِّئِ العمَلِ على حَسَنِه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُعَرِّفَه سُبحانَه السَّيِّئَ مِن الحَسَنِ، فإذا آثرَ القبيحَ واختاره، وأحبَّه ورَضِيَه لنَفْسِه؛ زيَّنه سُبحانَه له، وأعماه عن رؤيةِ قُبحِه بعدَ أنْ رآه قبيحًا، وكُلُّ ظالمٍ وفاجرٍ وفاسِقٍ لا بدَّ أن يرُيهَ اللهُ تعالى ظُلْمَه وفُجورَه وفِسقَه قَبيحًا، فإذا تمادَى عليه ارتفَعَت رؤيةُ قُبحِه مِن قَلبِه، فرُبَّما رآه حسَنًا عُقوبةً له؛ فتزيينُ الرَّبِّ تعالى عَدلٌ، وعُقوبتُه حِكمةٌ، وتزيينُ الشَّيطانِ إغواءٌ وظُلمٌ، وهو السَّبَبُ الخارجُ عن العبدِ، والسَّبَبُ الداخِلُ فيه حُبُّه وبُغضُه وإعراضُه، والرَّبُّ سُبحانَه خالِقُ الجميعِ، والجميعُ واقِعٌ بمشيئتِه وقُدرتِه، ولو شاء لهدى خَلْقَه أجمعينَ، والمعصومُ مَن عَصمَه اللهُ، والمخذولُ مَن خذَلَه اللهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [الأعراف: ٥٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ الرَّدُّ على الجَبريَّةِ؛ حيث أضاف العمَلَ إليه، وهم يقولونَ: إنَّ الأعمالَ لا تُضافُ إلى الإنسانِ؛ لأنَّه مُجبَرٌ عليها[2]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ؛ فإنَّ القَدَريَّةَ يقولونَ: «إنَّ أفعالَ العَبدِ مِن ضَلالةٍ أو هِدايةٍ لا تَتعلَّقُ بها مَشيئةُ اللهِ»، ويَرَوْنَ أنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه، ليس للهِ تعالى فيه تَعلُّقٌ إطلاقًا[3]!

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٨).

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بَشَرٌ، يَتأثَّرُ بما يَتأثَّرُ به البشَرُ مِن أسبابِ الفرحِ وأسبابِ الحزنِ، وهذا أمرٌ واقعٌ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ رُجوعٌ إلى خِطابِ النَّاسِ. وتَكريرُ نِداءِ الناسِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾؛ لِتَأكيدِ العِظَةِ والتَّذكيرِ، وإعذارًا لهم وإنذارًا بتَحقيقِ أنَّ وعْدَ اللهِ الَّذي وَعَدَه مِن عِقابِه المُكذِّبينَ في يومِ البعثِ هو وعْدٌ واقعٌ لا يَتخلَّفُ، وذلك بعْدَ أنْ قدَّمَ لهم التَّذكيرَ بدَلائلِ الوَحدانيَّةِ المُشتمِلةِ عليها، مع الدَّلالةِ على نِعَمِ اللهِ عليهم؛ لِيَعلَموا أنَّه لا يَستحِقُّ العِبادةَ غيرُه، وأنَّه لا يَتَّصِفُ بالإلهيَّةِ الحقِّ غيرُه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فيه تأْكيدُ الخَبرِ بـ (إنَّ)؛ إمَّا لأنَّ الخِطابَ للمُنكِرينَ، وإمَّا لِتَغليبِ فَريقِ المُنكِرينَ على المؤمنينَ؛ لأنَّهم أحوَجُ إلى تَقويةِ المَوعظةِ[٣].

- وإضافةُ الوعدِ إلى الاسمِ الأعظَمِ تَوطئةٌ لِكَونِه حقًّا؛ لأنَّ اللهَ لا يَأتي منه الباطلُ[٤]. والحقُّ هنا مُقابِلُ الكذِبِ، والمعنى: أنَّ وعْدَ اللهِ صادِقٌ، ووَصْفُ الصِّدقِ بالمَصدرِ ﴿حَقٌّ﴾ مُبالَغةٌ في حَقيقتِه[٥].

- قولُه: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ فيه تَكريرُ فِعلِ النَّهيِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ و﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم﴾؛ للمُبالَغةِ فيه، ولاختِلافِ الغُرورينِ في الكيفيَّةِ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

- لَمَّا كان في قولِه: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥] إبهامٌ ما في المُرادِ بالغَرورِ، عُقِّبَ ذلك ببَيانِه بأنَّ الغَرورَ هو الشَّيطانُ؛ لِيَتقرَّرَ المُسنَدُ إليه بالبَيانِ بعْدَ الإبهامِ؛ فجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ﴾ تَتنزَّلُ مِن جُملةِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ مَنزلةَ البَيانِ مِن المُبيَّنِ؛ فلذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ، وهذا مِن دَلالةِ تَرتيبِ الكلامِ على إرادةِ المُتكلِّمِ؛ إذ يَعلَمُ السَّامعُ مِن وُقوعِ وَصْفِ الشَّيطانِ عَقِبَ وصْفِ الغَرورِ أنَّ الغَرورَ هو الشَّيطانُ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ فيه إظهارُ اسمِ الشَّيطانِ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإفصاحِ عن المُرادِ بالغَرورِ أنَّه الشَّيطانُ(٣).

- وتَأكيدُ الخبَرِ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لِقَصدِ تَحقيقِه؛ لأنَّ النَّاسَ بغَفْلتِهم عن عَداوةِ الشَّيطانِ كَحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ الشَّيطانَ عَدوٌّ(٤).

- وتَقديمُ شِبهِ الجُملةِ ﴿لَكُمۡ﴾ على مُتعلَّقِه ﴿عَدُوّٞ﴾؛ للاهتِمامِ بهذا المُتعلِّقِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٠).

- وفُرِّعَ عن الخَبرِ بأنَّ الشَّيطانَ عَدوٌّ للإنسانِ أنْ أُمِروا باتِّخاذِه عَدُوًّا بقولِه: ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾؛ لأنَّهم إذا عَلِموا أنَّه عَدُوٌّ لهم حَقَّ عليهم اتِّخاذُه عَدوًّا، وإلَّا لَكانوا في حَماقةٍ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تَقريرٌ لِعَداوةِ الشَّيطانِ، وتَحذيرٌ مِن طاعتِه؛ بالتَّنبيهِ على أنَّ غَرَضَه في دَعوةِ شِيعتِه إلى اتِّباعِ الهَوَى والرُّكونِ إلى مَلاذِّ الدُّنيا، ليس تَحصيلَ مَطالبِهم ومَنافِعِهم الدُّنيويَّةِ، كما هو مَقصدُ المُتحابِّينَ في الدُّنيا عندَ سَعيِ بعضِهم في حاجةِ بعضٍ، بلْ هو تَوريطُهم وإلقاؤُهم في العذابِ المُخلَّدِ مِن حيثُ لا يَحتسِبون، وهذا يُؤكِّدُ الأمْرَ باتِّخاذِه عَدوًّا؛ لأنَّ أشدَّ النَّاسِ تَضرُّرًا به همْ حِزبُه وأولياؤه[2]؛ فالجُملةُ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾. وجِيءَ بها في صِيغةِ حَصْرٍ؛ لانحصارِ دَعوتِه في الغايةِ المَذكورةِ عَقِبَها بلامِ العِلَّةِ؛ كَيْلا يُتوهَّمَ أنَّ دَعوتَه تَخْلو عن تلك الغايةِ ولو في وَقتٍ ما. وبهذا العُمومِ الَّذي يَقْتضيهِ الحَصرُ صارتِ الجُملةُ أيضًا في مَعنى التَّذييلِ لِمَا قبْلَها كلِّه[3].

- ومُقْتضى وُقوعِ فِعلِ ﴿يَدۡعُواْ﴾ في حيِّزِ القَصرِ أنَّ مَفعولَه -وهو قولُه: ﴿حِزۡبَهُۥ﴾- هو المَقصودُ مِن القَصرِ، أي: أنَّه يَدْعو حِزبَه، ولا يَدْعو غيرَ حِزبِه، والشَّيطانُ يَدْعو النَّاسَ كلَّهم، سواءٌ في ذلك حِزبُه ومَن لم يَركَنْ إلى دَعوتِه، إلَّا أنَّ أثَرَ دَعوتِه لا يَظهَرُ إلَّا في الَّذين يَركَنون له، فيَصيرون حِزبَه؛ قال تعالى له: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦١، ٢٦٢).

[الحجر: ٤٢]؛ فتَعيَّنَ أنَّ في الكلامِ إيجازَ حَذْفٍ(١)، والتَّقديرُ: إنَّما يَدْعو حِزبَه دَعوةً بالِغةً مَقْصدَه(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ يُفِيدُ مُفادَ الفَذْلَكةِ(٣)

---

(١) الإيجاز: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ، ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصود. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغة كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسْنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعانِ؛ الأولُ: إيجازُ القصرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ، كقولِه تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا عَلِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفع بالقتْلِ -الَّذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ النَّاسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم.
الثَّاني: إيجازُ الحَذْفِ: وهو حذْفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بِشرطِ وُجودِ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقد يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. والفرقُ بينَ الحذفِ والإيجازِ أن يكونَ في الحذفِ مُقَدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللَّفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجَمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٢).

(٣) الفَذْلَكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أنْهاهُ وفرَغَ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ(البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحساب، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة =

والاستِنتاجِ ممَّا تَقدَّمَ. وهذا الاستِئنافُ يُشيرُ إلى أنَّ الَّذين كَفَروا همْ حِزبُ الشَّيطانِ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ أنَّ حِزبَه مِن أصحابِ السَّعيرِ، وحكَم هنا بأنَّ الَّذين كَفَروا لهم عذابٌ شَديدٌ؛ عُلِمَ أنَّ الَّذين كَفَروا مِن أصحابِ السَّعيرِ؛ إذ هو العذابُ الشَّديدُ، فعُلِمَ أنَّهم حِزبُ الشَّيطانِ بطَريقةِ قِياسٍ مَطْويٍّ؛ فالَّذين كَفَروا همْ حِزبُ الشَّيطانِ؛ لِعُكوفِهم على مُتابَعتِه وإنْ لم يُعلِنوا ذلك؛ لاقتناعِه منهم بمُلازَمةِ ما يُمْليه عليهم[١].

- وبدَأَ بالكُفَّارِ في قولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ ﴾؛ لِمُجاوَرةِ قولِه: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ﴾، فأتْبَعَ خَبرَ الكافرِ بحالِه في الآخرةِ[٢]، فبَدَأَ بما فيه التَّحذيرُ قبْلَ ما فيه التَّبشيرُ؛ مِن أجْلِ المناسَبةِ[٣].

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ ذِكرُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ تَتميمٌ بأنَّ الَّذين لم يَكونوا مِن حِزبِ الشَّيطانِ قد فازوا بالخَيراتِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴾ ابتِداؤُه بفاءِ التَّفريعِ ربْطٌ له بما تَقدَّمَ؛ لِيَعودَ الذِّهنُ إلى ما حُكِيَ مِن أحوالِهم؛ فالتَّفريعُ على قولِه: ﴿إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦]، ثمَّ بإبرازِ الكلامِ

---

= النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٣).

المُفرَّعِ في صورةِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ، واجتِلابِ المَوصولِ الَّذي تُومِئُ صِلَتُه إلى عِلَّةِ الخبرِ المَقصودِ، فأُشِيرَ إلى أنَّ وُقوعَه في هذه الحالةِ ناشئٌ مِن تَزيينِ الشَّيطانِ له سُوءَ عمَلِه(١).

- وقولُه: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ إمَّا تَقريرٌ لِما سبَقَ مِن التَّبايُنِ البَيِّنِ بيْنَ عاقِبَتَي الفَريقَينِ، ببَيانِ تَبايُنِ حالَيْهما المُؤدِّيَينِ إلى تَينِك العاقبتَينِ، والفاءُ لإنكارِ تَرْتيبِ ما بعْدَها على ما قبْلَها، أي: أبَعْدَ كَونِ حالَيهما كما ذُكِرَ، يكونُ مَن زُيِّن له الكُفرُ مِن جِهةِ الشَّيطانِ فانهَمَك فيه، كمَنِ استقْبَحَه واجتنَبَه، واختارَ الإيمانَ والعملَ الصَّالحَ حتَّى لا تكونَ عاقِبَتاهما كما ذُكِرَ؟! فحُذِفَ ما حُذِفَ؛ لِدَلالةِ ما سبَقَ عليه. وإمَّا تَمهيدٌ لِمَا يَعقُبُه مِن نَهْيِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن التَّحسُّرِ والتَّحزُّنِ عليهم لِعَدمِ إسلامِهم، ببَيانِ أنَّهم لَيْسوا بأهلٍ لذلك، بلْ لأنْ يَضرِبَ عنهم صَفْحًا، ولا يُباليَ بهم قَطعًا، أي: أبَعْدَ كَونِ حالِهم كما ذُكِرَ تَتحسَّرُ عليهم؟! فحُذِفَ؛ لِمَا دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ دَلالةً بَيِّنةً. وكذلك قولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ ...﴾ إلخ، تَقريرٌ له، وتَحقيقٌ للحقِّ ببَيانِ أنَّ الكُلَّ بمَشيئتِه تعالى. وإمَّا تَمْهيدٌ لِصَرْفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا كان عليه مِن الحِرصِ الشَّديدِ على إسلامِهم، والمُبالَغةِ في دَعوتِهم إليه؛ ببَيانِ استحالةِ تَحوُّلِهم عن الكُفرِ؛ لِكَونِه في غايةِ الحُسنِ عندَهم، أي: أبَعْدَ ما ذُكِرَ مَن زُيِّن له الكُفرُ مِن قِبَلِ الشَّيطانِ، فرآهُ فانهَمَك فيه، يَقبَلُ الهِدايةَ حتَّى تَطمَعَ في إسلامِه وتُتعِبَ نفْسَك في دَعوتِه؟! فحُذِفَ ما حُذِفَ؛ لِدَلالةِ ما مَرَّ مِن قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إلخ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٤).

- وهذه الآياتُ مِن الجمْعِ والتَّقسيمِ والتَّفريقِ[١]؛ فقولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾ جمَعَ الفَريقينِ معًا في حُكمِ نِداءِ الناسِ، وجمَعَ ما لَهما مِن الثَّوابِ والعِقابِ في حُكمِ الوَعدِ، وحذَّرَهما معًا عن الغُرورِ بالدُّنيا والشَّيطانِ. وأمَّا التَّقسيمُ فهو قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴾؛ لأنَّه بيَّن فيه أحوالَ الفريقَينِ وما لَهما وعليهما مِن الثَّوابِ والعِقابِ. وأمَّا التَّفريقُ فقولُه: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾؛ لأنَّه فرَّقَ فيه، وبيَّن التَّفاوُتَ بيْنَ الفريقَينِ، فالفاءُ في قولِه: ﴿ أَفَمَن ﴾ للتَّعقيبِ، والهمْزةُ الدَّاخلةُ بيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لإنكارِ المُساواةِ، وتَقريرِ البَونِ العَظيمِ بيْنَ الفريقينِ[٢].

- والنَّهيُ مُوَجَّهٌ إلى نَفْسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ تَذهَبَ حَسَراتٍ على الضَّالِّينَ، ولم يُوجَّهْ إليه بأنْ يُقالَ: فلا تَذهَبْ عليهم حَسراتٍ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونفْسُه مُتَّحدانِ؛ فتَوجيهُ النَّهيِ إلى نفْسِه دونَ أنْ يُقالَ: فلا تَذهَبْ عليهم حَسراتٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الذَّهابَ مُعبَّرٌ به عنِ التَّلفِ والانعدامِ؛ لِتَحصُلَ فائدةُ تَوزيعِ النَّهيِ والخِطابِ على شَيئينِ في ظاهرِ الأمرِ؛ فهو تَكريرُ الخِطابِ والنَّهيِ لِكِلَيهما، وهي طَريقةُ التَّجريدِ[٣] المعدودِ

---

(١) الجمْعُ والتَّقسيمُ والتَّفريقُ: أنْ يُجمعَ بيْنَ مُتعدِّدٍ في حُكمٍ، ثم يُفرَّقَ -أي: يُوقعَ التَّبايُنُ بيْنها-، ثمَّ يُضافَ لكلِّ واحدٍ ما يُناسِبُه؛ كقولِه تعالى: ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ ﴾ الآياتِ؛ فالجمعُ في قولِه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ معنًى؛ إذِ النَّكرةُ في سياقِ النَّفْيِ تَعُمُّ. والتَّفريقُ في قولِه: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ ﴾. والتَّقسيمُ في قولِه: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ ﴾ ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ ﴾. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((حاشية الدسوقي على مختصر المعاني)) (٤/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٠٨).

(٣) التَّجريد: أن يُنتزَعَ مِن أمرٍ ذي صِفةٍ أمرٌ آخَرُ مِثلُه في تلك الصِّفةِ، حتَّى تَصيرَ الذاتُ الواحدةُ =

في المُحسِّناتِ، وفائدةُ التَّكريرِ المُوجبِ تقريرُ الجُملةِ في النَّفْسِ[١].

- وجُمِعَت الحَسَراتُ -مع أنَّ اسمَ الجِنسِ صالحٌ للدَّلالةِ على تَكرارِ الأفرادِ-؛ قَصدًا للتَّنبيهِ على إرادةِ أفرادٍ كثيرةٍ مِن جِنسِ الحَسْرةِ؛ لأنَّ تَلَفَ النَّفْسِ يكونُ عندَ تَعاقُبِ الحسَراتِ الواحدةِ تِلْوَ الأُخرى؛ لدَوامِ المُتحسَّرِ منه؛ فكلُّ تَحسُّرٍ يَترُكُ حَزازةً وكَمدًا في النَّفْسِ حتى يَبلُغَ إلى الحدِّ الَّذي لا تُطيقه النَّفْسُ، فيَنفطِرَ له القلْبُ. أو لِكَثرةِ قَبائحِ أعمالِهم المُوجِبةِ للتَّأسُّفِ والتَّحسُّرِ[٢].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ مُفرَّعةٌ على ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾، وجُملةُ ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾ مُفرَّعةٌ على المُفرَّعِ على جُملةِ ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ...﴾ إلخ؛ فتَؤُولُ إلى التَّفريعِ على الجُملتينِ، فيَؤُولُ إلى أنْ يكونَ النَّظمُ هكذا: أفتَتحسَّرُ على مَن زُيِّنَ لهم سُوءُ أعمالِهم فرَأَوها حَسناتٍ، واختاروا لأنفُسِهم طَريقَ الضَّلالِ؟! فلا تَذهَبْ نفْسُك عليهم حَسراتٍ، وإنَّما حَسْرَتُهم على أنفُسِهم؛ إذ رَضُوا لها باتِّباعِ الشَّيطانِ، ونَبَذوا اتِّباعَ إرشادِ اللهِ، كما دلَّ على ذلك قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾؛ تَسجيلًا عليهم أنَّهم ورَّطوا أنفُسَهم فيما أوقَعوها فيه بصُنْعِهم؛ فعُدِلَ عن النَّظمِ المألوفِ إلى هذا النَّظمِ العجيبِ، وصِيغَ

---

= ذاتَينِ؛ مُبالَغةً لكمالِ الوصفِ في تلكَ الذَّاتِ. كقَولِهم: لي مِنكَ صديقٌ حميمٌ، و: لَئِنْ سألْتَ فُلانًا، لَتَسْأَلَنَّ به بحرًا. يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٦).

بالاستِفهامِ الإنكاريِّ والنَّهيِ التَّثبيتيِّ. وقد اشتَمَلَتْ هذه الآيةُ على فاءاتٍ أربَعٍ كلُّها للسَّببيَّةِ والتَّفريعِ، وهي الَّتي بلَغَ بها نَظْمُ الآيةِ إلى هذا الإيجازِ البالغِ حَدَّ الإعجازِ، وفي اجتِماعِها ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بجَمْعِ النَّظائرِ[١].

- وأيضًا جُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ تَصلُحُ لإفادةِ التَّصبُّرِ والتَّحلُّمِ، أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بصُنْعِهم في المُخالَفةِ عن أمْرِه؛ فكما أنَّه لِحلمِه لم يُعجِّلْ بمُؤاخَذتِهم، فكُنْ أنت مُتَّصِفًا بذلك. وفي ضِمنِ هذا كِنايةٌ عن عدَمِ إفلاتِهم مِن العَذابِ على سُوءِ عَملِهم، وليس في هذه الجُملةِ مَعنى التَّعليلِ لِجُملةِ ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ﴾؛ لأنَّ كَمَدَ نفْسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ لأجْلِ تَأخيرِ عِقابِهم، ولكنْ لأجْلِ عدَمِ اهتدائِهم[٢]. وقيل: قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه، مع ما فيه مِن الوعيدِ[٣].

- وتَأكيدُ الخَبرِ بـ (إنَّ)؛ إمَّا تَمثيلٌ لحالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحالِ مَن أغفَلَه التَّحسُّرُ عليهم عن التَّأمُّلِ في إمهالِ اللهِ إيَّاهم؛ فأُكِّدَ له الخبَرُ بـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾، وإمَّا لِجَعْلِ التَّأكيدِ لِمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخَبرِ؛ لِتكونَ (إنَّ) مُغْنيةً غَناءَ فاءِ التَّفريعِ، فتَتمخَّضَ الجُملةُ لِتَقريرِ التَّسليةِ والتَّعريضِ بالجزاءِ عن ذلك[٤].

- وعُبِّرَ بـ ﴿يَصۡنَعُونَ﴾ دونَ (يعملون)؛ للإشارةِ إلى أنَّهم يُدَبِّرون مَكايدَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُسلمينَ؛ فيكونُ هذا الكلامُ إيذانًا بوُجودِ باعثٍ آخَرَ على النَّزعِ عن الحَسرةِ عليهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٤ - ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٩-١١)

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾: أي: تُحرِّكُه وتَنشُرُه وتَرفَعُه وتُهَيِّجُه، أو تُنشِئُه، يُقالُ: ثارَ الغُبارُ والسَّحابُ ونحوُهما: انتشَر ساطِعًا، وقد أثَرْتُه، وأصلُ (ثور) هنا: انْبِعاثُ الشَّيءِ[1].

﴿ٱلنُّشُورُ ﴾: أي: الحياةُ والمَرجِعُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[2].

﴿يَبُورُ ﴾: أي: يَبطُلُ ويَفسُدُ، والبَوارُ: فَرطُ الكَسادِ، وأصلُ (بور): يدُلُّ على هلاكِ الشَّيءِ[3].

﴿نُّطْفَةٍ ﴾: النُّطفةُ: هي المَنيُّ، وقيل: الماءُ الصَّافي[4]، وقيل: الماءُ القليلُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨).

(٤) وقال الشنقيطي: (النُّطْفةُ مختلِطةٌ مِنْ ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لِمَن زَعَم أنَّها مِن ماءِ الرَّجلِ وحْدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدَّليلَ على ذلك، فقال: (بدليلِ قولِه تعالى: =

وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ تعالى بعضَ مظاهرِ قدرتِه ورحمتِه، مُستدِلًّا على المَعادِ بإحيائِه الأرضَ بعدَ موتِها، فيقولُ: اللهُ الَّذي أرسَلَ الرِّياحَ بقُدرتِه فتُثيرُ سَحابًا فيَسوقُه اللهُ إلى بلدٍ لا نباتَ فيه، فيُحيي به الأرضَ المُجدِبةَ، ويُنبِتُ فيها الزَّرعَ، كذلك يُحيي اللهُ الأمواتَ، فيُخرِجُهم مِن قُبورِهم أحياءً.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ العزَّةَ الكاملةَ إنَّما هي له وحْدَه، فيقولُ: مَن كان يُريدُ العِزَّةَ فلْيَسأَلْها مِنَ اللهِ وَحْدَه؛ فإنَّ لله وحْدَه العِزَّةَ، وإلى اللهِ وحْدَه يَصعَدُ الكَلامُ الطَّيِّبُ، والعَمَلُ الصَّالحُ الَّذي يَعمَلُه العَبدُ يَرفَعُه.

ثمَّ يَذكُرُ سوءَ عاقبةِ الَّذين يَمكُرونَ السُّوءَ، فيقولُ: والَّذين يَعمَلونَ الأعمالَ السَّيِّئةَ لهم عذابٌ شَديدٌ، وعمَلُهم وخِداعُهم يَذهَبُ، ولا يَنفَعُهم بشَيءٍ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ.

ثمَّ يَذكُرُ تعالى ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، وسَعةِ عِلمِه، فيقولُ: واللهُ خلَقَ أباكم آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ خَلَقَكم مِن مَنيٍّ، ثمَّ جعَلَكم ذُكْرانًا وإناثًا، وما مِن أُنثى تَحمِلُ حَملًا أو تَضَعُه إلَّا بعِلمِ اللهِ سُبحانَه، وما يُزادُ في عُمُرِ إنسانٍ أو يُنقَصُ منه إلَّا وذلك مَكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، إنَّ ذلك يسيرٌ على اللهِ سُبحانَه.

---

= ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِن ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أشياءَ مِن الأمورِ السَّماويَّةِ، وإرسالِ الملائِكةِ؛ ذكَرَ أشياءَ مِن الأُمورِ الأرضيَّةِ: الرِّياحَ وإرسالَها، وفي هذا احتِجاجٌ على مُنكِري البَعثِ، دلَّهم على المثالِ الَّذي يُعاينونَه، وهو وإحياءُ الموتَى سِيَّانِ[1].

وأيضًا لَمَّا قدَّمَ في أوَّلِ السُّورةِ الاستِدلالَ بأنَّ اللهَ فطَرَ السَّمواتِ والأرضَ وما في السَّمواتِ مِن أهلِها، وذلك أعظَمُ دَليلٍ على تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ؛ ثنَّى هنا بالاستِدلالِ بتَصريفِ الأحوالِ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ، وذلك بإرسالِ الرِّياحِ وتكوينِ السَّحابِ وإنزالِ المطَرِ؛ فهذا عَطْفٌ على قولِه: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[2] [فاطر: ١].

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا ﴾.

أي: واللهُ الَّذي أرسَل الرِّياحَ بقُدرتِه، فتُثيرُ سَحابًا[3]، فسُقْناه إلى بلدٍ لا نباتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٧).

(٣) قيل: معنى ﴿فَتُثِيرُ سَحَابٗا﴾: تُزعِجُه مِن مكانِه. وممَّن اختاره: ابنُ الجوزي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٠).

قال الواحدي: (قوله: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا ﴾، قال الكلبيُّ: فتُنشئُ سَحابًا. والمعنى: فنُزعجُه مِن حيث هو). (( البسيط)) (١٨/ ٤٠٤).

وقال السمرقندي: (تَرفَعُه وتُهيِّجُه). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠١). =

فيه، فأخصَبْنا تلك الأرضَ المُجْدِبةَ، وأنبَتْنا فيها الزَّرعَ بعدَ يَبَسِها[١].

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ [الروم: ٤٨].

﴿ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾.

أي: كما أحيا اللهُ الأرضَ المَيْتةَ يُحيي الأمواتَ بعدَ فَنائِهم، فيُخرِجُهم مِن قُبورِهم أحياءً[٢].

---

= وقال أبو عبيدة: («تُثيرُ» أي: تجمَعُ وتَجيءُ به وتُخرِجُه). ((مجاز القرآن)) (٢/ ١٥٢).

وقال ابنُ عاشور: (الإثارةُ: تحريكُ القارِّ تحريكًا يَضطرِبُ به عن موضِعِه، وإثارةُ السَّحابِ إنشاؤُه بما تُحدِثُه الرِّياحُ في الأجواءِ مِن رطوبةٍ تحصُلُ مِن تفاعُلِ الحرارةِ والبرودةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

قال الشوكاني: (أي: أحيَيْنا بالمطرِ الأرضَ بإنباتِ ما يَنبُتُ فيها، وإنْ لم يَتقدَّمْ ذِكرُ المطَرِ فالسَّحابُ يدُلُّ عليه، أو أحيَينا بالسَّحابِ؛ لأنَّه سَبَبُ المطرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

قال ابنُ الجوزي: (في معنى الكلامِ قولان؛ أحدُهما: كما أحيا اللهُ الأرضَ بعدَ موتِها يُحيي الموتى يومَ البعثِ... والثَّاني: كما أحيا اللهُ الأرضَ المَيْتةَ بالماءِ، كذلك يحيي اللهُ الموتَى بالماءِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٦، ٥٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٧٦).

وممَّن ذهب إلى معنى أنَّ النُّشورَ المذكورَ هنا يكونُ بواسطةِ ماءٍ يُنزِلُه اللهُ عزَّ وجلَّ فيحيا به الموتى: ابنُ كثير، والسعدي، ورجَّحه ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٧٩).

والقَولُ بأنَّ المرادَ أنَّ إحياءَ الموتى كإحياءِ الأرضِ دونَ نظرٍ للسَّبَبِ: هو ظاهِرُ اختيارِ الزمخشريِّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الزخرف: ١١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما بيْنَ النَّفخَتينِ أربعون. قالوا: يا أبا هريرةَ، أربعون يَومًا؟ قال أبَيْتُ! قالوا: أربعونَ شَهرًا؟ قال: أبَيْتُ! قالوا: أربعون سَنةً؟ قال: أبَيتُ[1]! ثمَّ يُنزلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ. قال: وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبْلَى، إلَّا عَظْمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[2]، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القيامةِ))[3].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى بُرهانَ الإيمانِ؛ إشارةً إلى ما كان يَمنعُ الكُفَّارَ منه، وهو العِزَّةُ الظَّاهِرةُ الَّتي كانوا يَتوهَّمونَها مِن حيثُ إنَّهم ما كانوا في طاعةِ أحدٍ، ولم يكُنْ لهم مَن يأمُرُهم ويَنهاهم، فهم كانوا يَطلُبونَ العِزَّةَ، وهي عدَمُ التَّذَلُّلِ للرَّسولِ،

---

(١) معناه: أبَيْتُ أن أجزِمَ أنَّ المرادَ أربعون يومًا أو شهرًا أو سَنةً، بل الَّذي أجزِمُ به أنَّها أربعون مُجمَلةً؛ لأنَّه إنَّما سَمِعَ (أربعين) ولم يُعَيَّنْ له. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٤٥٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩١، ٩٢).

(٢) هو العَظْمُ اللطيفُ الَّذي في أسفلِ فقارِ الظَّهرِ، وأعلَى ما بينَ الأليتَينِ. يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (١/ ٢٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩٢)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٣٠٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) واللفظ له.

وتَرْكُ الاتِّباعِ له، فقال: إن كنتُم تَطلُبون بهذا الكُفرِ العِزَّةَ في الحقيقةِ، فهي كُلُّها لله، ومَن يَتذلَّلْ له فهو العزيزُ، ومَن يَتعزَّزْ عليه فهو الذَّليلُ[١].

وأيضًا لَمَّا مضَى ذِكرُ غُرورينِ إجمالًا في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، فأُخِذ في تفصيلِ الغُرورِ الثَّاني من قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ [فاطر: ٦] وما استَتْبَعه مِن التَّنبيهِ على كَيدِه، وانبعاثِ سُمومِ مَكرِه، والحَذرِ مِن مَصارعِ مُتابعتِه، وإبداءِ الفَرقِ بيْنَ الواقِعينَ في حبائِلِه والمُعافَيْنَ مِن أدوائِه، بِدارًا بتفصيلِ الأهَمِّ والأصلِ، وأُبقيَ تفصيلُ الغُرورِ الأوَّلِ إلى هنا، وإذ قد كان أعظَمُ غُرورِ المُشرِكين في شِركِهم ناشِئًا عن قَبولِ تعاليمِ كُبرائِهم وسادتِهم، وكان أعظَمُ دواعي القادةِ إلى تضليلِ دَهْمائِهم وصنائِعِهم هو ما يجِدونه مِن العِزَّةِ والافتتانِ بحُبِّ الرئاسةِ- لا جَرَمَ كانت إرادةُ العِزَّةِ مِلاكَ تكاتُفِ المُشرِكينَ بعضِهم مع بعضٍ، وتألُّبِهم على مُناوأةِ الإسلامِ؛ فلذلك نادَى عليهم القرآنُ بأنَّ مَن كان ذلك صارِفَه عن الدِّينِ الحَقِّ، فلْيَعلَمْ بأنَّ العِزَّةَ الحَقَّ في اتِّباعِ الإسلامِ، وأنَّ ما هم فيه مِنَ العِزَّةِ كالعَدَمِ[٢].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾.

أي: مَن كان يريدُ العِزَّةَ[٣] فلْيَطلُبْها مِن الله، ولْيَتسَبَّبْ لِنَيْلِها بطاعتِه؛ فإنَّ لله وَحْدَه جميعَ العِزَّةِ دونَ مَن سِواه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٩).

(٣) قال ابنُ عثيمين: (والعِزَّةُ: هي الغَلَبةُ، والمنَعَةُ، وقَهرُ الأعداءِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٨٠).

وقال ابن عاشور: (والعِزَّةُ: الشَّرَفُ والحصانةُ مِن أنْ يُنالَ بسوءٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ۝ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه يَصعَدُ الكَلامُ الطَّيِّبُ، والعمَلُ الصَّالحُ الَّذي يَعمَلُه العبدُ خالِصًا للهِ تعالى ومُوافِقًا لِشَرعِه يَرفَعُه[1].

---

= ابن كثير)) (٦/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٨٠).

قال ابن جُزَي: (﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ الآية تحتمِلُ ثلاثةَ معانٍ: أحدُها -وهو الأظهَرُ: مَن كان يريدُ نَيْلَ العِزَّةِ، فلْيَطلُبْها مِن عند اللهِ؛ فإنَّ العِزَّةَ كُلَّها لله. والثَّاني: مَن كان يريدُ العِزَّةَ بمُغالبةِ الإسلام، فلله العِزَّةُ جميعًا، فالمُغالِبُ له مغلوبٌ. والثَّالثُ: مَن كان يريدُ أن يعلَمَ لِمَنِ العِزَّةُ، فلْيَعلَمْ أنَّ العِزَّةَ لله جميعًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٢).

وقال ابن عثيمين: (قَولُه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ يرادُ به عمومُ الأنواعِ، وعُمومُ الأزمانِ، وعُمومُ الأمكنةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٣).

قال السمعاني: (وقولُه: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: ما رُوِيَ عن الحسَنِ وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ وعِكْرِمةَ والضَّحَّاكِ وغيرِهم أنَّهم قالوا: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: العمَلُ الصَّالحُ يَرفَعُ الكَلِمَ الطَّيِّبَ.

والقولُ الثَّاني: قَولُ قَتادةَ؛ قال: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ أي: يَرفَعُه الله.

والقولُ الثَّالثُ: والعمَلُ الصَّالحُ يَرفَعُه الكَلِمُ الطَّيِّبُ)). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٩). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٧، ٥٠٨). =

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن ما يُحصِّلُ العِزَّةَ مِن الحِكمةِ؛ بَيَّنَ ما يَكسِبُ الذِّلَّةَ، ويُوجِبُ النِّقمةَ مِن رَديءِ الهِمَّةِ، فقال[1]:

﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

أي: والَّذين يَعمَلونَ الأعمالَ السَّيِّئةَ[2] لهم عذابٌ شديدٌ يُهانونَ فيه غايةَ

---

= وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والنحاس، والسمعاني، وابن القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٣٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٤٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٣).

وهذا باعتبارِ أنَّه لا يَنفعُ قولٌ بلا عمَلٍ؛ إذ الإيمانُ قولٌ وعملٌ.

وممَّن قال بالقولِ الثَّاني: ابنُ عطية، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سرة فاطر)) (ص: ٨٧).

وهذا باعتبارِ أنَّ توحيدَ مرجعِ الضَّمائرِ أولى مِن تفريقِها، كما في ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٤١٤ وما بعدها).

والقولُ الثَّالثُ باعتبارِ أنَّ الضَّميرَ يرجِعُ إلى أقرَبِ مذكورٍ، ويكونُ ذلك باعتِبارِ أنَّه لا يَنفَعُ عمَلٌ إلَّا مع شهادةِ التَّوحيدِ.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩).

(٢) قال الواحدي: (﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي: والَّذين يقولون الشِّركَ. وهذا معنى قولِ ابنِ عبَّاسٍ: والَّذين يُشرِكون بالله لهم عذابٌ شديدٌ. وقال الكلبيُّ: يعني: يَعمَلون السَّيِّئاتِ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: والَّذين يَعمَلون بالرِّياءِ. وهو قولُ مُجاهِدٍ وشَهرِ بنِ حَوْشَبٍ. وقال أبو العاليةِ: يعني: الَّذين مكَروا برسولِ الله في دارِ النَّدوةِ. وهو اختيارُ أبي إسحاقَ). ((البسيط)) (١٨/ ٤٠٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٦٥).

قيل: المرادُ بهم المُشرِكونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢). =

الإهانةِ؛ جزاءَ مَكرِهم[١].

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تَوعَّدهم اللهُ بالعذابِ الشَّديدِ على مَكرِهم، أنبَأَهم أنَّ مَكرَهم لا يَرُوجُ، وأنَّ اللهَ سَيُبطِلُه، فلا يَنتفِعون منه في الدُّنيا، ويُضَرُّون بسَببِه في الآخرةِ، فقال[٢]:

﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾.

أي: وعمَلُ أولئكَ وخِداعُهم يَبْطُلُ ويَذهَبُ، فلا يَروجُ، ولا يَنفعُهم بشَيءٍ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ[٣].

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

---

= قال ابن كثير: (الصَّحيحُ أنَّها عامَّةٌ، والمشرِكونَ داخِلونَ فيها بطريقِ الأَولى). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٧، ٥٣٨).

قال الشنقيطي: (مِن مَكرِهم السَّيِّئاتِ كُفرُهم باللهِ، وأمْرُهم أتْباعَهم به). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨١).

وقال ابن عاشور: (المكرُ: تدبيرُ إلحاقِ الضُّرِّ بالغيرِ في خُفيةٍ؛ لئلَّا يأخُذَ حِذرَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٧، ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩١).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى دلائِلَ الآفاقِ مِن السَّمَواتِ -وما يُرسَلُ منها مِن الملائِكةِ-، والأرضِ وما يُرسَلُ فيها مِن الرِّياحِ- شَرَع في دلائِلِ الأنفُسِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه ما صيَّرَهم إليه مِن المُفاوَتةِ في الأخلاقِ؛ أتْبَعَه ما كانوا عليه مِن الوَحدةِ في جِنسِ الأصلِ، فقال[٢]:

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾.

أي: واللهُ خلَقَ أباكم آدَمَ مِن ترابٍ، ثمَّ خلَقَكم مِن مَنيٍّ، ثمَّ جعَلَكم ذُكرانًا وإناثًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ... ﴾ [الحج: ٥].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

بعْدَ الاستِدلالِ بما في بَدءِ التَّكوينِ الثَّاني مِن التَّلاقُحِ بيْنَ النُّطفتَينِ، استُدِلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٥).

قال الشوكاني: (﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ أي: زَوَّج بعضَكم ببعضٍ، فالذَّكَرُ زَوْجُ الأنثَى، أو جَعَلكم أصنافًا ذُكْرانًا وإناثًا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٢).

بما يَنشَأُ عن ذلك مِن الأطوارِ العارضةِ للنُّطفةِ في الرَّحمِ، وهو أطوارُ الحمْلِ مِن أوَّلِه إلى الوَضعِ[١].

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾.

أي: وما مِن أنثى تَحمِلُ حَمْلًا أو تضَعُه إلَّا واللهُ عالمٌ به، لا يخفَى عليه شَيءٌ منه، فيَعلَمُ وَقْتَ حَمْلِه ووَضْعِه، ونَوْعَه وشَكْلَه، وغيرَ ذلك مِن شُؤونِه[٢].

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾.

**مُناسَبتُها لما قَبْلَها:**

لا جَرَمَ أنَّ الحديثَ عن التَّكوينِ يَستتبعُ ذِكرَ الموتِ المكتوبِ على كُلِّ بَشَرٍ، فجاء بذِكرِ عِلمِه الآجالَ والأعمارَ؛ للتَّنبيهِ على سَعةِ العِلمِ الإلهيِّ[٣].

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾.

أي: وما مِن زيادةٍ في عُمُرِ إنسانٍ أو نُقصانٍ منه إلَّا وذلك مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٢)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٥٩٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٦، ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٢، ٣٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: لا يَطولُ عُمُرُ أحَدٍ ولا يُنْقَصُ مِن عُمُرِ آخَرَ غيرِه إلَّا في كتابٍ، فوُضِعَ ﴿مِن مُّعَمَّرٖ﴾ مَوضِعَ (مِن أحدٍ)، وليس المرادُ شخصًا واحدًا، وإنَّما ذلك كقولِك: لا يُعاقِبُ اللهُ عبدًا ولا يُثيبُه إلَّا بحقٍّ، وقولِك: لِفُلانٍ عندي دِرهَمٌ ونِصْفُه، أي: نِصْفُ دِرهَمٍ آخَرَ؛ =

= ممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، ومكِّي، والبغويُّ، وابنُ جُزَي، والخازن، وابن كثير، وأبو السعود، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٨- ١٠١).

وقيل: الضَّميرُ في قولِه: ﴿عُمُرِهِۦٓ﴾ عائدٌ على المُعَمَّرِ الأوَّلِ بعَيْنِه، واختُلِف في تأويلِه:

فقيل: معنى الآيةِ على ذلك: أنَّ اللهَ جلَّ وعزَّ قد كتَبَ عُمُرَ كُلِّ مُعَمَّرٍ، وكتَبَ: يُعَمَّرُ كذا وكذا سَنةً، وكذا وكذا شهرًا، وكذا وكذا يومًا، وكذا وكذا ساعةً، فكلُّ ما نَقَص مِن عُمُرِه مِن سَنةٍ أو شهرٍ أو يومٍ أو ساعةٍ كتب ذلك حتَّى يَبلُغَ أجَلَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ. ونسَبَه الواحديُّ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٠٩).

قال الواحدي: (فالمُعَمَّرُ على هذا الَّذي قُدِّر له شَيءٌ مِن العُمُرِ وإن قَلَّ، وليس المُعَمَّرُ بمعنَى الطَّويلِ العُمُرِ، وهو قولُ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٤٠٩).

وقال الشوكاني: (ظاهِرُ النَّظمِ القُرآنيِّ أنَّ تطويلَ العُمُرِ وتقصيرَه: هما بقضاءِ الله وقَدَرِه؛ لأسبابٍ تقتضي التَّطويلَ، وأسبابٍ تقتضي التَّقصيرَ؛ فمِن أسبابِ التَّطويلِ: ما وردَ في صِلةِ الرَّحم عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ونحو ذلك. ومِن أسبابِ التَّقصيرِ الاستِكثارُ مِن معاصي الله عزَّ وجَلَّ؛ فإذا كان العمُرُ المَضروبُ للرَّجُلِ مثلًا سبعين سنةً، فقد يَزيدُ الله له عليها إذا فعَل أسبابَ الزِّيادةِ، وقد يَنقُصُه منها إذا فعَل أسبابَ النُّقصانِ، والكُلُّ في كتابٍ مُبينٍ، فلا تَخالُفَ بيْنَ هذه الآيةِ وبيْن قَولِه سُبحانَه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، ويؤيِّدُ هذا قَولُه سُبحانَه: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٢، ٣٩٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٩٠- ٤٩٢)، ((إتحاف ذوي الألباب)) لمرعي (ص: ٩٥-٩٧)، ((تفسر ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٧-١٠٠).

وقال السعدي: (﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ أي: عُمُرِ الَّذي كان مُعَمَّرًا عُمُرًا طويلًا ﴿إِلَّا﴾ بعِلْمِه تعالى، أو ما يُنقَصُ مِن عُمُرِ الإنسانِ الَّذي هو بصَدَدِ أن يَصِلَ إليه، لولا ما =

كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن أحَبَّ أن يُبْسَطَ له في رِزقِه، ويُنْسَأَ له في أثَرِه؛ فلْيَصِلْ رَحِمَه))(١).

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لها: ((إنَّه مَن أُعطِيَ حَظَّه مِن الرِّفقِ فقد أُعطِيَ حَظَّه مِن خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ، وصِلةُ الرَّحِمِ وحُسْنُ الخُلُقِ وحُسْنُ الجِوارِ يَعمُرانِ الدِّيارَ، ويَزيدانِ في الأعمارِ))(٢).

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

أي: إنَّ ذلك الأمرَ العظيمَ مِن كتابةِ أعمارِ جميعِ الخَلقِ؛ ما زاد منها وما نَقَص، وتقديرِها، وإحصاءِ ساعاتِها ودقائِقِها، والإحاطةِ بها على وَجهِ التَّفصيلِ: أمرٌ يسيرٌ على اللهِ سُبحانَه، فلا يَعسُرُ عليه شَيءٌ مِن ذلك(٣).

---

= سلَكَه مِن أسبابِ قِصَرِ العُمُرِ؛ كالزِّنا، وعُقوقِ الوالدَينِ، وقطيعةِ الأرحامِ، ونحوِ ذلك ممَّا ذُكِر أنَّها مِن أسبابِ قِصَرِ العُمُرِ. والمعنى: أنَّ طولَ العُمُرِ وقِصَرَه، بسببٍ وبغيرِ سببٍ كلُّه بعِلمِه تعالى، وقد أثبَت ذلك ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ حوى ما يَجري على العبد في جميعِ أوقاتِه وأيَّامِ حياتِه)). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

(١) أخرجه البخاري (٥٩٨٦)، ومسلم (٢٥٥٧).

(٢) أخرجه أحمد (٢٥٢٥٩) واللفظ له، وأبو يعلى (٤٥٣٠)، وأبو نُعيم في ((حلية الأولياء)) (٩/ ١٥٩).

وثَّق رجالَ إسنادِه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١٠/ ٤٢٩)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥١٩)، وصحَّح الحديثَ الوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (١٦٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- المعصيةُ تُورِثُ الذُّلَّ ولا بُدَّ؛ فإنَّ العِزَّ كُلَّ العِزِّ في طاعةِ الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ أي: مَن كان يُريدُ العزَّةَ فلْيَطلُبْها بطاعةِ اللهِ وذِكْرِه مِن الكَلِمِ الطَّيِّبِ والعمَلِ الصَّالحِ؛ فإنَّه لا يَجِدُها إلَّا في طاعتِه[١]، فمَن أطاعَ اللهَ فقد والاه فيما أطاعه فيه، وله مِن العِزِّ بحَسَبِ طاعتِه، ومَن عصاه فقد عاداه فيما عَصاه فيه، وله مِن الذُّلِّ بحَسَبِ مَعصيتِه[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ المقصودُ منه أنَّ أعمالَ المؤمِنينَ هي الَّتي تَنفَعُ؛ لِيَعلمَ النَّاسُ أنَّ أعمالَ المُشرِكينَ سَعيٌ باطِلٌ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وأنَّ المُسبَّباتِ مَربوطةٌ بأسبابِها؛ فإنَّ الفاءَ هنا للسَّبَبيَّةِ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ الرَّدُّ على أهلِ الكلامِ الَّذين يقولونَ: إنَّه لا يُوصَفُ بالحياةِ والمَوتِ شَيءٌ مِن الجَماداتِ؛ لأنَّه هنا أثبَتَ الحياةَ والموتَ للأرضِ، وهي مِن الجماداتِ، وقال تعالى في الأصنامِ: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[٥] [النحل: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٥٩، ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ جوازُ إضافةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلوم، وإضافةُ الشَّيءِ إلى سَبَبِه المعلوم أمرٌ واقعٌ في القرآنِ وفي السُّنَّةِ، بمعنى: أنَّه لا يُشترَطُ أنْ تَقرِنَ معه اللهَ عزَّ وجلَّ، فإذا أضَفْتَ الشَّيءَ إلى سَببِه المعلومِ وإنْ لم تكُنْ تَقْرِنُ اللهَ به؛ فلا بأسَ، لكنَّ المُحَرَّمَ أنْ يُضافَ إلى سَبَبٍ غيرِ مَعلومٍ لا شَرعًا ولا حِسًّا، أو أنْ يُضافَ إلى سَبَبِه المعلومِ مَقرونًا مع اللهِ بحَرفٍ يقتضي التَّسويةَ[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ يدُلُّ على صِحَّةِ القياسِ[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ لا تَنافيَ بيْنَه -وإن كان الظَّاهِرُ أنَّها له لا لِغَيرِه- وبيْنَ قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وإن كان يقتضي الاشتراكَ؛ لأنَّ العِزَّةَ في الحقيقةِ لله بالذَّاتِ، وللرَّسولِ بواسِطةِ قُربِه مِن اللهِ، وللمُؤمِنينَ بواسِطةِ الرَّسولِ؛ فالمحكومُ عليه أوَّلًا غيرُ المحكومِ عليه ثانيًا[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ دَليلٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى على سائرِ مخلوقاتِه، وأنَّه كامِلُ الأسماءِ الحُسنى والصِّفاتِ العُلا[4]. وفيه حُجَّةٌ قاطِعةٌ لكلِّ لُبْسةٍ على مَن يَزعمُ أنَّ اللهَ بنَفْسِه في الأرضِ؛ فكيف يَصْعَدُ إليه -وَيْحَهم- العَمَلُ الصَّالحُ، وهو مع عامِلِه -بزعمِهم- في الأرضِ؟! بل هو في السَّماءِ على العَرشِ بلا مِريةٍ ولا شَكٍّ، وعِلمُه بكلِّ مكانٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٧٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٣٦).

لا يَخلو مِن عِلْمِه مَكانٌ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ حُجَّةٌ على المرجئةِ فيما يُعَرُّونَ الإيمانَ مِن العملِ الصَّالحِ! وهذا القولُ نفْسُه لا يَرفَعُه إلَّا العملُ الصَّالحُ -كما ترى، على قولٍ في التَّفسيرِ-، فكيف لا يكونُ مِن الإيمانِ؛ والقولُ -الَّذي هو عندَهم كمالُ الإيمانِ- لا يَرفعُه إلَّا العملُ[٢]؟!

٨- قد يُجعَلُ الكَلامُ قَسيمًا للعَمَلِ ليس قِسمًا منه في مِثلِ قَولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾، وقد يُجعَلُ قِسمًا منه كما في قَولِه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۞ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[٣] [الحجر: ٩٢، ٩٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَرفَعُ مِن الأعمالِ إلَّا ما كان صالِحًا -وهذا على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، والعَمَلُ الصَّالحُ ما اشتمَلَ على وصْفَينِ: الإخلاصِ للهِ، والمتابَعةِ لِشَرعِه؛ فإنْ فُقِدَ الإخلاصُ فليس بعَمَلٍ صالحٍ؛ لأنَّه شِركٌ، وإنْ فُقِدَت المتابَعةُ فليس بعَمَلٍ صالحٍ؛ لأنَّه بِدعةٌ[٤].

١٠- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فسَمَّى السَّيِّئاتِ مَكرًا؛ لأنَّ الإنسانَ في الواقعِ يَخدَعُ نَفْسَه بها، ويَخدَعُ غيرَه بها؛ فيُمَنِّي نَفْسَه التَّوبةَ، أو يُمنِّي نَفْسَه سَعةَ حِلمِ اللهِ ومَغفرتِه، فلن يُؤاخِذَه بهذه العُقوبةِ[٥]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٦٩٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٨).

تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ﴾ إثباتُ مراتبِ القَدَرِ الأربعةِ: العِلم، والكتابةِ، والخَلْقِ، والمشيئةِ، وهذه الأخيرةُ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾، وهذا لا يكونُ إلَّا بمشيئةِ اللهِ تعالى[1].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ ﴾ فيه سُؤالٌ: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿عُمُرِهِۦٓ ﴾ يَظهَرُ رُجوعُه إلى المُعمَّرِ، فيُشكِلُ معنى الآيةِ على هذا القول؛ لأنَّ المعَمَّرَ والمنقوصَ مِن عُمُرِه ضِدَّانِ، فيَظهَرُ تنافي الضَّميرِ ومُفَسِّرِه؟

**الجوابُ**: أنَّ المرادَ بالمعَمَّرِ هنا جِنسُ المُعمَّرِ الَّذي هو مُطلَقُ الشَّخصِ، فيَصدُقُ بالَّذي لم يُنقَصْ مِن عُمُرِه، وبالَّذي نقَصَ مِن عُمُرِه، فصار المعنى: لا يُزادُ في عُمُرِ شَخصٍ، ولا يُنقَصُ مِن عُمُرِ شَخصٍ إلَّا في كتابٍ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾

- في هذه الآيةِ اختيرَ مِن دَلائلِ الوحدانيَّةِ: دَلالةُ تَجمُّعِ أسبابِ المطَرِ؛ لِيُفْضِيَ مِن ذلك إلى تَنظيرِ إحياءِ الأمواتِ بعْدَ أحوالِ الفَناءِ بآثارِ ذلك الصُّنْعِ العجيبِ، وأنَّ الَّذي خلَقَ وسائلَ إحياءِ الأرضِ قادرٌ على خلْقِ وسائلِ إحياءِ الَّذين ضَمَّتْهم الأرضُ، على سَبيلِ الإدماجِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٧). =

- وفي قولِه: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ إظهارُ اسمِ الجَلالةِ في مَقامِ الإضمارِ، دونَ أنْ يقولَ: (وهو الَّذي أرسَلَ الرِّياحَ)، فيَعودَ الضَّميرُ إلى اسمِ اللهِ مِن قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨][1]، فأخبَرَ عن نفْسِه بأنَّه صاحِبُ هذا الاسمِ المختَصِّ به الَّذي لا يَجهَلونَه، ولأنَّه مع الصِّلةِ يُفيدُ الحَصرَ، أي: اللهُ المُرسِلُ، ومعناه أنَّه لا مُرسِلَ سِواه[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾، فلَمْ يُؤتَ بفِعلِ الإرسالِ في هذه الآيةِ بصِيغةِ المُضارِعِ، بخِلافِ قولِه: في سُورةِ (الرُّومِ): ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ ... ﴾ [الرُّوم: ٤٨] الآيةَ؛ وذلك لأنَّ القَصدَ هنا استِدلالٌ بما هو واقعٌ؛ إظهارًا لإمكانِ نَظيرِه، وأمَّا آيةُ سُورةِ (الرُّومِ) فالمَقصودُ منها الاستِدلالُ على تَجديدِ صُنْعِ اللهِ ونِعَمِه[3].

- وأيضًا قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ بلَفظِ الماضي، ثم قال: ﴿فَتُثِيرُ

---

= والإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ، فيُقرِنُ الغرضَ المسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((الطراز لأسرار البلاغة)) ليحيى بن حمزة المؤيد بالله (٣/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٨).

سَحَابًا ﴾ بصِيغةِ المُستقبَلِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا كان القَصدُ مِن الاستِدلالِ هو وُقوعَ الإحياءِ وتقرُّرَ وُقوعِه، جِيءَ بفِعلِ الماضي في قولِه: ﴿أَرْسَلَ﴾. وأمَّا تَغييرُه إلى المُضارعِ في قولِه: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾؛ فلِحكايةِ الحالِ العَجيبةِ الَّتي تقَعُ فيها إثارةُ الرِّياحِ السَّحابَ، وتُستحضَرَ تلك الصُّورُ البديعةُ الدَّالَّةُ على القُدرةِ الرَّبَّانيَّةِ، ولأنَّ المُرادَ بَيانُ إحداثِها بهذه الخاصِّيَّةِ؛ ولذلك أسنَدَهُ إليها، وهي طريقةٌ للبُلغاءِ في الفِعلِ الَّذي فيه خُصوصيَّةٌ بحالٍ تُستغرَبُ وتَهُمُّ السَّامعَ. ويجوزُ أنْ يكونَ اختلافُ الأفعالِ للدَّلالةِ على استِمرارِ الأمْرِ[1]. وقيل: إنَّما هذا مِن التَّفنُّنِ في الكلامِ، والتَّصرُّفِ في البَلاغةِ[2].

- ولَمَّا كان سَوقُ السَّحابِ إلى البلدِ الميِّتِ، وإحياءُ الأرضِ بالمَطرِ بعْدَ مَوتِها: مِن الدَّلائلِ على القُدرةِ الباهرةِ؛ قِيل: (فسُقْنا، وأحيَيْنا) مَعدولًا بهما عن لَفظِ الغَيبةِ إلى ما هو أدخَلُ في الاختصاصِ وأدلُّ عليه. وإيرادُ الفِعلينِ ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ ﴿فَأَحْيَيْنَا﴾ على صِيغةِ الماضِي؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[3]. وقيل: في الأوَّلِ عرَّف نفْسَه بفِعلٍ مِن الأفعالِ، وهو الإرسالُ، ثمَّ لَمَّا عُرِفَ قال: أنا الَّذي عرَفْتَني سُقْتُ السَّحابَ، وأحيَيْتُ الأرضَ؛ ففي الأوَّلِ كان تعريفًا بالفِعلِ العجيبِ، وفي الثَّاني كان تذكيرًا بالنِّعمةِ؛ فإنَّ كمالَ نِعمةِ الرِّياحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦، ١٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٦/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦، ١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣١).

والسُّحُبِ: بالسَّوقِ والإحياءِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾

- قولُه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ في إخراجِ هذا الكَلامِ مُخرجَ الشَّرطِ نَوعُ تَوبيخٍ، وتَنبيهٌ للمُخاطَبينَ على خَطأِ رأْيِهم، وفَسادِ طَريقتِهم، وتَضْليلِهم فيما همْ فيه مِن طَلبِ العزَّةِ مِن غَيرِ مَوضعِها ومَكانِها، كأنَّه قِيل: أيُّها الضَّالُّون، تَنبَّهوا على خَطئِكم، وتَيَقَّنوا أنْ ليسَ الوُصولُ إلى المطلوبِ ما أنتُم عليه مِن رَوْمِ العزَّةِ مِن عندِ غيرِ اللهِ؛ لأنَّ العِزَّةَ كلَّها مِلكُ اللهِ، ومُختصَّةٌ به وبأوليائِه، وطَريقُ الوُصولِ إليها الإيمانُ والعملُ الصالحُ، واعلَموا أنَّ مَنْ أعزَّهُ اللهُ فلا مُذِلَّ له، ومَنْ أذَلَّه لا مُعِزَّ له[٢].

- والجمْعُ بيْن (كانَ) و(يُريدُ) في قولِه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾؛ للدَّلالةِ على دَوامِ الإرادةِ واستِمرارِها[٣].

- قولُه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ (مَن) شَرطيَّةٌ، وجُعِل جَوابُها ﴿ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾، وليس ثُبوتُ العِزَّةِ للهِ بمُرتَّبٍ في الوُجودِ على حُصولِ هذا الشَّرطِ، فتَعيَّنَ أنَّ ما بعْدَ فاءِ الجزاءِ هو عِلَّةُ الجوابِ، أُقِيمَت مُقامَه، واستُغْنِيَ بها عن ذِكرِه؛ إيجازًا، ولِيَحصُلَ مِن استخراجِه مِن طَيَّاتِ الكلامِ تَقرُّرُه في ذِهنِ السَّامعِ، والتَّقديرُ: مَن كان يُريدُ العِزَّةَ فلْيَستجِبْ إلى دَعوةِ الإسلامِ؛ ففيها العِزَّةُ؛ لأنَّ العِزَّةَ كلَّها للهِ تعالى، أو فلْيَطْلُبْها عندَ اللهِ، فأمَّا العِزَّةُ الَّتي يَتشبَّثون بها

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥).

فهي كخَيطِ العَنكبوتِ؛ لأنَّها واهيةٌ باليةٌ، وهذا الأسلوبُ لِتَنبيهِ المخاطَبِ على خطَأِ زَعمِه. وقد يكونُ بالعكسِ، وهو تَثبيتُ المخاطَبِ على عِلمِه؛ فتَقديمُ المجرورِ ﴿فَلِلَّهِ﴾ يُفيدُ قصرًا، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ[1]؛ لِعَدمِ الاعتدادِ بما للمشركينَ مِن عِزَّةٍ ضَئيلةٍ، أي: فالعِزَّةُ للهِ لا لهم[2].

- ولفظةُ ﴿جَمِيعًا﴾ أفادتِ الإحاطةَ؛ فكانتْ بمَنزلةِ التَّأكيدِ للقصرِ الادِّعائيِّ، فحصَلَت ثلاثةُ مُؤكِّداتٍ؛ فالقصرُ بَمنزلةِ تأْكيدينِ -فالحصرُ والتَّخصيصُ

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاح البلاغيِّينَ هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبْتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصرِ قَلْبٍ؛ **فالحقيقيُّ** هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقع، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. **والإضافيُّ**: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثَرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. **والادِّعائيُّ**: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. **وقصْرُ القَلبِ**: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ مُعَيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زَيْدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرة؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧- ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٠، ٢٧١).

ليسَا إلَّا تأكيدًا على تأكيدٍ-، و﴿جَمِيعًا﴾ بمَنزلةِ تأكيدٍ ثالثٍ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ قَريبٌ مِن قولِه: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٣٩]؛ فإنَّ فيه تَأْكيدَينِ: تَأكيدًا بـ (إنَّ)، وتأكيدًا بـ ﴿جَمِيعًا﴾؛ لأنَّ تلك الآيةَ نَزَلت في وَقتِ قُوَّةِ الإسلامِ؛ فلم يُحتَجْ فيها إلى تَقويةِ التَّأكيدِ مِثْلَما في هذه الآيةِ الَّتي أُكِّدَتْ بثلاثةِ مؤكِّداتٍ[٢].

- قولُه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ كما أَتْبَعَ تَفصيلَ غُرورِ الشَّيطانِ بعَواقبِه في الآخرةِ بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦] الآيةَ، وبذِكرِ مُقابِلِ عَواقبِه مِن حالِ المؤمنينَ، كذلك أَتْبَعَ تَفصيلَ غُرورِ الأنفُسِ أهْلَها بعَواقبِه، وبذِكرِ مُقابِلِه أيضًا؛ لِيَلتقِيَ مآلُ الغُرورينِ ومُقابِلِهما في مُلتقًى واحدٍ، ولكنْ قُدِّم في الأوَّلَ عاقبةُ أهلِ الغُرورِ بالشَّيطانِ، ثمَّ ذُكِرَت عاقبةُ أضْدادِهم، وعُكِسَ في ما هنا؛ لِجَريانِ ذِكرِ عِزَّةِ الله؛ فقُدِّمَ ما هو المناسِبُ لآثارِ عِزَّةِ اللهِ في حِزْبِه وجُنْدِه، وجُملةُ ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ مُستأْنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا بمُناسَبةِ تَفصيلِ الغُرورِ الَّذي يُوقَعُ فيه[٣].

- وتقَديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿إِلَيْهِ﴾ في قولِه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ أفادَ أنَّ كلَّ ما يُقدَّمُ مِن الكَلِمِ الطَّيِّبِ إلى غيرِ اللهِ لا طائلَ تَحتَه[٤]. وقيل: تَقديمُ الجارِّ والمجرورِ عِبارةٌ عن كَمالِ الاعتدادِ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٥).

- وفي بِناءِ المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾ على المسنَدِ إليه (الْعَمَلُ الصَّالِحُ) ما يُفِيدُ تَخصيصَ المسنَدِ إليه بالمُسنَدِ؛ فإذا انضمَّ إليه سِياقُ جُملتِه عَقِبَ سِياقِ جُملةِ القصْرِ في قولِه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ المُشعِرِ بسَرَيانِ حُكمِ القصْرِ إليه بالقرينةِ لاتِّحادِ المَقامِ -إذ لا يُتوهَّمُ أنْ يُقصَرَ صُعودُ الكَلِمِ الطَّيِّبِ على الجانبِ الإلهيِّ، ثمَّ يُجعَلَ لِغَيرِه شَركةٌ معه في رَفعِ العملِ الصالحِ-؛ تَعيَّن معنى التَّخصيصِ، فصار المعنى: اللهُ الَّذي يَقبَلُ مِن المؤمنينَ أقوالَهم وأعمالَهم الصَّالحةَ[1].

- وجِيءَ في جانبِ العملِ الصَّالحِ بالإخبارِ عنه بجُملةِ ﴿يَرْفَعُهُۥ﴾، ولم يُعطَفْ على ﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ في حُكمِ الصُّعودِ إلى اللهِ مع تَساوي الخبرَينِ؛ لِفائدتينِ: **أُولاهما**: الإيماءُ إلى أنَّ نوعَ العملِ الصَّالحِ أهمُّ مِن نَوعِ الكلِمِ الطَّيِّبِ على الجُملةِ؛ لأنَّ مُعظمَ العملِ الصالحِ أوسَعُ نفْعًا مِن مُعظَمِ الكَلِمِ الطَّيِّبِ (عدا كلمةَ الشَّهادتينِ وما ورَدَ تَفضيلُه مِن الأقوالِ في السُّنةِ؛ مِثلُ دُعاءِ يَومِ عَرَفةَ)؛ فلذلك أُسنِدَ إلى اللهِ رَفْعُه بنَفْسِه، على قولٍ في التَّفسيرِ. **وثانيهما**: أنَّ الكلِمَ الطَّيِّبَ يَتكيَّفُ في الهواءِ؛ فإسنادُ الصُّعودِ إليه مُناسِبٌ لِماهيَّتِه، وأمَّا العملُ الصالحُ فهو كيفيَّاتٌ عارضةٌ لِذواتٍ فاعلةٍ ومَفعولةٍ، فلا يُناسِبُه إسنادُ الصُّعودِ إليه، وإنَّما يَحسُنُ أنْ يُجعَلَ مُتعلِّقًا لِرَفْعٍ يقَعُ عليه ويُسخِّرُه إلى الارتفاعِ[2]. وقيل: تَخصيصُ العمَلِ بهذا الشَّرفِ؛ لِمَا فيه مِن الكُلْفةِ[3].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ حالِ الكَلِمِ الخَبيثِ والعَملِ السَّيِّئِ وأهلِهما، بعدَ بَيانِ حالِ الكلِمِ الطَّيِّبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٥).

والعمَلِ الصالحِ[١]. أو هذا فَريقٌ مِن الَّذين يُريدون العِزَّةَ مِن المشركينَ، وهمُ الَّذين ذكَرَهم اللهُ تعالى في قولِه: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] الآيةَ؛ فعَطْفُهم على ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ ﴾ تَخصيصٌ لهم بالذِّكرِ؛ لِمَا اختَصُّوا به مِن تَدبيرِ المكْرِ، وهو مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتمامِ بذِكرِه[٢]. أو يكونُ استِطرادًا وتَقريرًا لِمَضمونِ قولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ على طَريقِ الاستِشهادِ والتَّمثيلِ[٣].

- و﴿ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ في قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ مَنصوبٌ هنا على أنَّه وَصْفٌ لِمَصدرِ المَكرِ، نائبًا مَنابَ المَفعولِ المُطلَقِ المُبيِّنِ لِنَوعِ الفِعلِ؛ فكأنَّه قِيل: والَّذين يَمكُرون المكرَ السَّيِّئَ. وكان حقُّ وَصْفِ المصدرِ أنْ يكونَ مُفرَدًا، كقولِه تعالى: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، لكنْ لَمَّا أُريدَ هنا التَّنبيهُ على أنَّ أولياءَ الشَّيطانِ لهم أنواعٌ مِن المَكرِ، عُدِلَ عن الإفرادِ إلى الجَمْعِ، وأُتِيَ به جمْعَ مُؤنَّثٍ؛ للدَّلالةِ على مَعنى الفَعَلاتِ مِن المَكرِ، فكلُّ واحدةٍ مِن مَكْرِهم هي سَيِّئةٌ[٤].

- وجِيءَ باسمِ الموصولِ في قولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ مَضمونَ الصِّلةِ عِلَّةٌ فيما يَرِدُ بعْدَها مِن الحُكمِ، أي لهم عذابٌ شديدٌ جَزاءَ مَكرِهم، وعُبِّرَ بالمُضارعِ ﴿ يَمْكُرُونَ ﴾ في الصِّلةِ؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ مَكرِهم واستِمرارِه، وأنَّه دأْبُهم وهِجِّيراهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وعبَّرَ عنهم باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ دونَ الضَّميرِ الَّذي هو مُقْتَضَى الظَّاهرِ؛ للإيذانِ بكَمالِ تَميُّزِهم بما هُم فيه مِن الشَّرِّ والفَسادِ عن سائرِ المُفسدينَ واشتهارِهم بذلك؛ فيُكنَّى بذلك عن تَمييزِ المَكرِ المُضافِ إليهم، ووُضوحِه في عِلمِ اللهِ وعِلمِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما أعلَمَهُ اللهُ به منه، فكأنَّما أُشيرَ إليهم وإلى مَكرِهم باسمِ إشارةٍ واحدٍ على سَبيلِ الإيجازِ. وما في اسمِ الإشارةِ مِن معنى البُعدِ؛ للتَّنبيهِ على تَرامي أمْرِهم في الطُّغيانِ، وبُعدِ مَنزلتِهم في العُدوانِ[1]. ولم يَقُلْ: (مَكرُ هؤلاء)؛ إمَّا استبعادًا لهم؛ لأنَّهم لَيسوا أهلًا لأنْ يُقرَّبوا، أو لأنَّهم جَعَلوا أنفُسَهم في مَحلِّ العالِينَ الَّذين يُشارُ إليهم مِن بُعدٍ؛ فبيَّنَ أنَّ هؤلاء الَّذين تَعالَوا بمَكرِهم، وإنْ كانوا في القِمَّةِ على حَسَبِ زَعْمِهم، فإنَّ هذا المكرَ يَبورُ[2].

- ووُقوعُ الفِعلِ المُضارعِ بعْدَ ضَميرِ الفَصلِ في جُملةِ ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ يَدُلُّ على التَّجدُّدِ في حُصولِ الفِعلِ، وأُتِيَ بضَميرِ الفصلِ هنا؛ لِيُفيدَ الثَّباتَ والتَّقويةَ؛ فالفصلُ هنا يُفيدُ القصْرَ، أي: مَكرُهم يَبورُ دونَ غَيرِه، ومَعلومٌ أنَّ غيرَه هنا تَعريضٌ بأنَّ اللهَ يَمكُرُ بهم مَكرًا يُصيبُ المَحزَّ منهم[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٥).

المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ: أي: القَطعِ. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ عَودٌ إلى سَوقِ دَلائلِ الوَحدانيَّةِ بدَلالةٍ عليها مِن أنفُسِ النَّاسِ، بعْدَ أنْ قدَّمَ لهمْ ما هو مِن دَلالةِ الآفاقِ بقولِه: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ [فاطر: ٩]، وابْتدَأَهم بتَذكيرِهم بأصلِ التَّكوينِ الأوَّلِ مِن تُرابٍ، وهو ما تَقرَّرَ عِلْمُه لَدى جَميعِ البَشرِ مِن أنَّ أصْلَهم -وهو البشرُ الأوَّلُ- خُلِقَ مِن طِينٍ؛ فصار ذلك حَقيقةً مُقرَّرةً في عِلمِ البشرِ. ثمَّ استَدْرَجَهم إلى التَّكوينِ الثَّاني بدَلالةِ خلْقِ النَّسلِ مِن نُطفةٍ، وذلك عِلمٌ مُستقِرٌّ في النُّفوسِ بمُشاهَدةِ الحاضرِ، وقياسِ الغائبِ على المُشاهَدِ، فكما يَجزِمُ المرْءُ بأنَّ نَسْلَه خُلِقَ مِن نُطفَتِه، يَجزِمُ بأنَّه خُلِقَ مِن نُطفةِ أبَوَيه، وهكذا يَصعَدُ إلى تَخلُّقِ أبناءِ آدَمَ وحوَّاءَ. وقولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ يُشِيرُ إلى حالةٍ في التَّكوينِ الثَّاني، وهو شَرْطُه مِن الازدواجِ؛ فـ (ثُمَّ) عاطفةٌ الجُملةَ، فهي دالَّةٌ على التَّرتيبِ الرُّتبيِّ الَّذي هو أهمُّ في الغَرَضِ، أعني دَلالةَ التَّكوينِ على بَديعِ صُنْعِ الخالقِ سُبحانَه؛ فذلك مُوزَّعٌ على مَضمونِ قولِه: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾، والمعنى: ثمَّ مِن نُطفةٍ، وقد جَعَلَكم أزواجًا لِتَركيبِ تلك النُّطفةِ؛ فالاستِدلالُ بدِقَّةِ صُنْعِ النَّوعِ الإنسانيِّ مِن أعظَمِ الدَّلائلِ على وَحدانيَّةِ الصَّانعِ، وفيها غُنْيةٌ عن النَّظرِ في تأمُّلِ صُنعِ بقيَّةِ الحيوانِ(١).

- قولُه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإيرادِ تَقريرٍ آخَرَ، أو دليلٍ آخَرَ على صِحَّةِ البَعثِ والنُّشورِ(٢).

- وقولُه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ﴾ أُدمِجَ في ذلك الاستِدلالِ دَليلُ التَّنبيهِ على إحاطةِ عِلمِ اللهِ بالكائناتِ الخفيَّةِ والظَّاهرةِ. ولِكَونِ العِلمِ بالخَفيَّاتِ أعلى قُدِّمَ ذِكرُ الحَملِ على ذِكرِ الوَضعِ، والمقصودُ مِن عَطفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٣٤).

الوَضعِ أنْ يُدفَعَ تَوهُّمُ وُقوفِ العِلمِ عندَ الخفيَّاتِ الَّتي هي مِن الغَيبِ دونَ الظَّواهرِ؛ بأنْ يَشتغِلَ عنها بتَدبيرِ خَفيَّاتِها، كما هو شأْنُ عُظماءِ العُلماءِ مِن الخلْقِ؛ لِظُهورِ استِحالةِ تَوجُّهِ إرادةِ الخلْقِ نحوَ مَجهولٍ عندَ مُريدِه(١).

- قولُه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ أي: وما يُعمَّرُ مِن أحدٍ، وإنَّما سمَّاهُ مُعمَّرًا بما هو صائرٌ إليه، وهذا مِن الكَلامِ المُتسامَحِ فيه؛ ثِقةً في تأْويلِه بأفهامِ السَّامعينَ، واتِّكالًا على تَسديدِهم مَعناهُ بعُقولِهم، وأنَّه لا يَلتبِسُ عليهم استِحالةُ الطُّولِ والقِصَرِ في عُمُرٍ واحدٍ(٢).

- وقد ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ في هذهِ الآيةِ الكريمةِ سائرَ أحوالِ الإنسانِ، وتَقلُّبَه في أطوارٍ مُختلِفةٍ ممَّا هو أُصولُها، ويُعرَفُ منه تَوابعُها ولَواحقُها على مَراتبَ ثلاثٍ كما هو عليه في الوُجودِ، وسُلِكَ فيه فنٌّ غريبٌ، وأُسلوبٌ عَجيبٌ؛ حيثُ أُخْرِجَ في جُمَلٍ ثلاثٍ على طَريقٍ يُنبِئُ عن صِفاتِ جَلالِه، وحُسنِ تَدْبيرِه مِنَ القُدرةِ الكاملةِ، والعِلمِ الشَّاملِ، وثُبوتِ القَضاءِ والقدَرِ بحَسَبِ تلك المراتبِ؛ فبَدأَ أوَّلًا بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا﴾؛ إظهارًا لِتَصَرُّفِهِ فيه في تلك الأطوارِ، وثَنَّى بقولِه: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾؛ بَيانًا لِلُطْفِ عِلْمِه ونُفوذِه فيما هو مِن أدَقِّ أحوالِ الإنسانِ مِن عُلْقةِ النُّطفةِ حينَ المُباشَرةِ، واستِقرارِها في مَكانةِ الرَّحِمِ، ثم ما تُكابِدُ الأُنثى مِن ثِقَلِ الحمْلِ ومُقاساةِ شِدَّتِه، وما يَجري عليها عندَ الوَضعِ مِن وجَعِ المَخاضِ، وما تَلَطَّفَ عليها مِن الخَلاصِ مِن تلك الوَرْطةِ المُهلِكةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٣، ٦٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٨).

وثَلَّث بقولِه: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ ...﴾ على إرادةِ: وما يُعَمَّرُ منكم أيُّها الناسُ مِن مُعَمَّرٍ ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾؛ إثباتًا لِقضائهِ وقَدَرِه، وأنَّ ما هو مِن خُوَيصَّةِ الإنسانِ الَّذي هو أعظمُ مَطالبِه ليس إليه، بل إلى اللهِ وإلى قَضائِه، وأنَّه مُثبَتٌ عندَه لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ عمَّا هو عليه؛ ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1] [الأعراف: ٣٤].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٢١، ٦٢٢).

## الآيات (١٢-١٤)

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُرَاتٌ﴾: أي: شَديدُ العُذوبةِ[١].

﴿سَآئِغٌ﴾: أي: سَهلٌ، وأصلُ (سوغ): يدُلُّ على سُهولةِ الشَّيءِ[٢].

﴿أُجَاجٌ﴾: أي: مُرٌّ، شَديدُ الملوحةِ، وأصلُ (أجج) هنا: يدُلُّ على شِدَّةِ المُلوحةِ[٣].

﴿حِلْيَةً﴾: أي: لُؤلؤًا ومَرجانًا، والحِلْيةُ: مَا يتحَلَّى به النَّاسُ، أيْ: يَتزيَّنونَ، وأصلُ (حلو) هنا: يدُلُّ على تَحسينِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٢٤٥)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٥)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٨٥)، =

﴿مَوَاخِرَ﴾: أي: جواريَ تَشُقُّ الماءَ وتَخرِقُه مع صَوتٍ، وأصلُ (مخر): يدُلُّ على شَقٍّ وفَتْحٍ[١].

﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدخِلُ، أو يأخُذُ منه فيَطولُ ذلك ويَقصُرُ هذا، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ شَيءٍ[٢].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّل، والتَّسْخيرُ: سِياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، وأصلُ (سخر): يدلُّ على استذلالٍ[٣].

﴿قِطْمِيرٍ﴾: القِطميرُ: القِشرةُ أو اللِّفافةُ الرَّقيقةُ البَيضاءُ التي تكونُ على نَواةِ التَّمرةِ[٤].

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ١١٩).

قيل: اللُّؤْلُؤُ: الدُّرُّ، والمَرجانُ: الخَرَزُ الأحمرُ. وقيل: المَرجانُ: صِغارُ الدُّرِّ، واللُّؤْلُؤُ: كِبارُه. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٦، ٣٤٧)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٣)، ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٩)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٦).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى مبيِّنًا مَظاهرَ قُدرتِه وبديعَ صُنعِه: وما يَستوي البَحرانِ؛ فماءُ أحَدِهما حُلوُ المذاقِ، بالغُ العُذوبةِ، يُستَساغُ شُربُه، وماءُ الآخَرِ شَديدُ الملوحةِ، ومِن كُلٍّ بَحرٍ منهما تأكُلونَ لَحمًا طَريًّا، وتَستَخرِجونَ زينةً تَلبَسونَها كاللُّؤلؤِ والمَرجانِ، وترَى السُّفُنَ تَسيرُ في البَحرِ وهي تَشَقُّ الماءَ وتَدفَعُه؛ لِتَطلُبوا برُكوبِكم السُّفُنَ في البِحارِ مَعايشَكم ورِزقَ اللهِ لكم، ولعلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على ذلك.

ويَذكرُ أنواعًا أُخرى مِن مَظاهرِ قُدرتِه، فيقولُ: يُدخِلُ اللهُ اللَّيلَ في النَّهارِ فيَكونُ الضِّياءُ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ فيَكونُ الظَّلامُ، وسخَّر اللهُ لكم الشَّمسَ والقَمَرَ، فيَجريانِ في فَلَكِهما لِمَصالِحِكم إلى وَقتٍ مُحدَّدٍ مَعلومٍ عندَ اللهِ تعالَى.

ذلِكُم اللهُ ربُّكم له المُلكُ وَحدَه لا شَريكَ له. والذين تَعبُدونَهم -أيُّها المُشرِكونَ- مِن دونِ اللهِ لا يَملِكونَ أيَّ شَيءٍ، حتى القِشرةَ البَيضاءَ الرَّقيقةَ التي تكونُ على نواةِ التَّمرةِ.

إنْ تدْعوا هذه الآلهةَ المزعومةَ لا يَسمَعوا دُعاءَكم، ولو سَمِعوا دُعاءَكم ما استَجابوا لكم، ويومَ القِيامةِ يَكفُرونَ بإشراكِكم إيَّاهم في العِبادةِ مع اللهِ تعالَى، ولا يُنبِّئُك -يا محمَّدُ- مِثلُ اللهِ الخَبيرِ سُبحانَه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّ المرادَ ذِكرُ دَليلٍ آخَرَ على قُدرةِ اللهِ، وذلك مِن حيثُ إنَّ البحرينِ يَستويانِ

في الصُّورةِ، ويَختَلِفانِ في الماءِ؛ فإنَّ أحَدَهما عذْبٌ فُراتٌ، والآخَرَ مِلحٌ أُجاجٌ، ثمَّ إنَّهما بعدَ اختِلافِهما يُوجَدُ منهما أمورٌ مُتشابِهةٌ؛ فإنَّ اللَّحمَ الطَّريَّ يوجَدُ فيهما، والحِليةَ تُؤخَذُ منهما، ومَن يُوجِدُ في المتشابِهَينِ اختِلافًا، ومِن المختَلِفَينِ اشتِباهًا، لا يكونُ إلَّا قادِرًا مُختارًا[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه أحَدَ أصلَيهم: التُّرابَ المختَلِفَ الأصنافِ، ذكَرَ الأصلَ الآخَرَ: الماءَ الذي هو أشَدُّ امتزاجًا مِن الترابِ، ذاكِرًا اختلافَ صِنفَيه اللَّذينِ يتفرَّعانِ إلى أصنافٍ كثيرةٍ، مُنَبِّهًا على فِعلِه بالاختيارِ، ومُنكِرًا على مَن سَوَّى بَينَه سُبحانَه وبَينَ شَيءٍ، حتى أشرَكَه به مع المباعَدةِ التي لا شَيءَ بَعدَها[٢].

وأيضًا فإنَّه انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ بالأحوالِ في الأجواءِ بينَ السَّماءِ والأرضِ على تفرُّدِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ، إلى الاستِدلالِ بما على الأرضِ مِن بِحارٍ وأنهارٍ، وما في صِفاتِها مِن دَلالةٍ زائدةٍ على دَلالةِ وُجودِ أعيانِها، على عَظيمِ مَخلوقاتِ الله تعالى[٣].

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾.

أي: وما يَتماثَلُ البَحرانِ اللَّذانِ خلَقَهما اللهُ مختَلِفَينِ بقُدرتِه وحِكمتِه؛ فماءُ أحَدِهما ذُو طَعمٍ طَيِّبٍ حُلوٍ، ومَذاقٍ لَذيذٍ بالغِ العُذوبةِ، يُستساغُ شُربُه، ويَسهُلُ ابتِلاعُه بلا صُعوبةٍ ولا كَراهةٍ، ومِياهُ الآخَرِ بخِلافِ ذلك؛ فهي شَديدةُ الملوحةِ والمرارةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣-٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٣٩، ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٠)، =

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

أي: ومِن كُلِّ بحرٍ منهما -عذْبًا كان أو مالِحًا- تأكُلونَ لَحمًا طَرِيًّا مِن أنواعِ السَّمَكِ وغَيرِه[1].

﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾.

أي: وتَستَخرِجونَ مِن البَحرِ -مالِحًا كان أم عذبًا- زينةً كاللُّؤلؤِ والمَرجانِ تتحلَّونَ بلُبسِها[2].

كما قال تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢].

﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾.

---

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٣).

قال البِقاعي: (المرادُ أنَّه مَيَّزهما سبحانَه بعد جمْعِهما في ظاهرِ الأرضِ وباطِنِها، ولم يَدَعْ أحدَهما يبغي على الآخَرِ، بل إذا حُفِرَ عل جانبِ البَحرِ الملحِ ظَهَر الماءُ عذبًا فُراتًا على مقدارِ صلاحِ الأرضِ وفَسادِها). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦٣)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٤-١٠٥).

قال ابن عثيمين: (أكثرُ المفسرينَ على أنَّه لا يخرجُ إلَّا مِن المالحِ، وحمَلوا قولَه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] على أنَّ المرادَ مِن مجموعِهما لا مِن جميعِهما... لكنِ الصحيحُ أنَّه يخرجُ مِن الجميعِ؛ لأنَّ هذا هو ظاهرُ القرآنِ، والله سبحانه وتعالى أعلمُ بما خلَق... وقد ثبت الآنَ أنَّ اللؤلؤَ والمرجانَ يخرجُ مِن هذا ومِن هذا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٤- ١٠٥). ويُنظر: أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٩٣).

أي: وترَى[١] السُّفُنَ تَجري في البَحرِ، وهي تَشُقُّ الماءَ وتَدفَعُه بصُدورِها دونَ أن تَغرَقَ فيه[٢].

﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: لِتَطلُبوا بُركوبِكم السُّفُنَ في البِحارِ مَعايشَكم، وتتنقَّلوا بها لِتجاراتِكم، إلى غيرِ ذلِك[٣].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: ولَعلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على تَسخيرِه لكم ذلك[٤].

---

(١) قال ابن عثيمين: (الخِطابُ لكلِّ مَن يتوجَّهُ إليه الخِطابُ، والرؤيةُ هنا بصريَّةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٥-١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

قال القرطبيُّ: (قال مجاهدٌ: التِّجارةُ في الفُلكِ إلى البُلدانِ البعيدةِ في مدةٍ قريبةٍ... وقيل: ما يُستخرَجُ مِن حِليتِه ويُصادُ مِن حِيتانِه). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠).

ذكر ابنُ جرير أنَّ المعنى: لتشكروا اللهَ على تَسخيرِه ذلك لكم، وما رزقَكم منه من طيِّبات الرِّزق، وفاخِر الحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧).

وقيل: المرادُ: شُكرُه على تَسخيرِ الفُلكِ في البَحرِ. وممَّن اختاره: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٠٦-١٠٧).

وقال ابن كثير: (﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي: تشكرون ربَّكم على تَسخيرِه لكم هذا الخَلْقَ العظيمَ، وهو البحر، تتصرَّفون فيه كيف شِئتم، وتذهبون أين أردتم، ولا يمتنع عليكم شيءٌ منه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠).

قيل: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على نِعمِه. وممَّن اختاره: الثعلبي، والبَغوي، والخازن، =

كما قال تعالَى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّه استِدلالٌ آخَرُ باختِلافِ الأزمِنةِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه اختِلافَ الذَّواتِ الدَّالَّ على بَديعِ صُنعِه تعالى؛ أتْبَعَه تَغييرَه المعانيَ؛ آيةً على بَليغِ قُدرتِه[2].

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾.

---

= والعليمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٩١)، (تفسير الخازن)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٤٥).

وقال الشوكاني: (﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللهَ على ما أنعمَ عليكم به مِن ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٣).

وقيل: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما آتاكم مِن فضْلِه، وممَّن اختارَه القرطبيُّ والنَّسفيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٧).

أي: يُدخِلُ اللهُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ[١].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ لكم الشَّمسَ والقَمَرَ، فيَجريانِ في فَلَكِهما لمصالحِكم إلى وَقتٍ محدَّدٍ مَضروبٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١٢-١١٣).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المعنى: يُدخِل اللَّيلَ في النهار، وذلك ما نقَص مِن اللَّيلِ أدْخَله في النَّهار فزادَه فيه، ويُولِج النَّهارَ في اللَّيلِ، وذلك ما نقَص من أجزاء النَّهارِ زادَ في أجزاء اللَّيل، فأدْخَله فيها: ابنُ جرير وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١٢-١١٣).

وقالَ البِقاعي: (﴿ يُولِجُ ﴾، أي: يُدخِل على سَبيلِ الجَولانِ ﴿ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فيَصير الظلامُ ضِياءً...﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ فيَصير ما كان ضِياءً ظلامًا، وتارةً يكون التوالجُ بِقصَرِ هذا وطُولِ هذا). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٧).

وقال السعديُّ: (يُدخِل هذا على هذا، وهذا على هذا، كلَّما أتَى أحدهما ذهَب الآخَرَ، ويَزيدُ أحدَهما ويَنقُص الآخَرَ، ويتساويانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

ممَّن اختارَ أنَّ المرادَ بالأجَلِ المُسمَّى هنا: يومُ القيامةِ: مقاتل بن سليمان، والسمرقندي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠).

قال السعديُّ: (فإذا جاء الأجَلُ، وقَرُب انقِضاءُ الدُّنيا، انقطع سيرُهما، وتعطَّل سُلطانُهما، وخسَفَ القَمَرُ، وكُوِّرَت الشَّمسُ، وانتَثَرت النُّجومُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

وقال أبو السعود: (قولُه تعالى ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾ بيانٌ لكيفيَّةِ تسخيرِهما، أي: كلٌّ منهما يجري لمُنتهى دَورتِه أو منقطِعِ حركتِه). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢).

وقيل: المرادُ: العُمومُ، فيَشمَلُ ذلك الأجَلَ اليوميَّ للمَغيبِ، فيَستمِرُّ ذلك كلَّ يومٍ حتى مجيءِ الأجَلِ الأعظَمِ، فيختَلُّ نظامُ الكونِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٨). =

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾.

أي: ذلِكم العَظيمُ، الذي خلَقَ تلك المذكوراتِ وقام بتَسخيرِها: اللهُ خالِقُكم ورازِقُكم، ومدبِّرُ أُمورِكم، المستَحِقُّ للعِبادةِ وَحدَه، له المُلكُ التَّامُّ كُلُّه وَحدَه لا شَريكَ له(١).

﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ﴾.

أي: وأمَّا الذين تَعبُدونَهم -أيُّها المُشرِكونَ- مِن دُونِ اللهِ؛ فإنَّهم لا يَملِكونَ حتى القِشرةَ البَيضاءَ الرَّقيقةَ التي تكونُ على نواةِ التَّمرةِ(٢).

---

= قال ابنُ عثيمين: (يمكِنُ أن نقولَ: يسيرانِ إلى أجَلٍ مُسمًّى حتى في الفَلَكِ، فمَثلًا الشَّمسُ تنزِلُ على مَدارِ الجَدْيِ في أيامِ الشِّتاءِ، ثمَّ تتنقِلُ شيئًا فشيئًا إلى أن تَصِلَ إلى مدارِ السَّرطان... فكلَّ يومٍ مُحدَّدٌ مكانُ الطُّلوعِ وزمانُ الطُّلوعِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٢٨).

وقال الواحديُّ في نظير هذه الآيةِ مِن سورة الرعد: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ [الرعد: ٢]، قال: (قولُه: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: إلى وقتٍ معلومٍ، وهو فَناءُ الدنيا، وهذا معنى قولِ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عطاءٍ، قال: يريدُ أنَّ هذا كائنٌ إلى يوم القيامةِ. ورُوي عنه أنَّه قال: أراد بالأجَلِ المُسمَّى: انتهاؤُهما في السَّيرِ إلى درجاتِهما ومنازِلِهما، وهو قولُ الكلبيِّ؛ قال: للشَّمسِ منازِلُ معلومةٌ، كُلَّ يومٍ لها منزلٌ تنزِلُه حتى تنتهيَ إلى آخِرِ مَنازِلِها، فإذا انتهتْ إليه لم تجاوِزْه، ثم ترجِعُ؛ فهذا الأجَلُ المسمَّى، وللقَمَرِ كذلك). ((البسيط)) (١٢/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٨٢، ٧٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٤٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦، ٦٨٧).

قال القُرطبيُّ: (القِطميرُ: القِشرةُ الرَّقيقةُ البيضاءُ التي بينَ التَّمرةِ والنَّواةِ، قاله أكثَرُ المفَسِّرين). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٣).

وقال أبو حيَّان بعدَ أنْ ذكَر الخِلافَ في معنى القِطميرِ: (وأيًّا ما كان، فهو تمثيلٌ للقليلِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢).

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه إذا انتفَى أنَّ الأصنامَ تَملِكُ شَيئًا، انتفَى عنها وَصْفُ الإلهيَّةِ بطَريقِ الأَولَى؛ فنَفَى ما كانوا يَزعُمونَه مِن أنَّها تَشفَعُ لهم[1].

﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾.

أي: إنْ تدْعوا هؤلاء الآلهةَ المزعومةَ التي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ؛ لا يَسمَعوا دُعاءَكم[2].

﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾.

أي: وحتَّى لو سَمِعوا دُعاءَكم، فإنَّهم لا يَستَجيبونَ لكم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

قال السعديُّ: (لا يَسمعوكم؛ لأنَّهم ما بينَ جمادٍ وأمواتٍ، وملائكةٍ مَشغولينَ بطاعةِ ربِّهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

ذكر ابنُ عثيمين أن قولَه تعالى: ﴿مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾ يَشمَلَ الاستجابةَ بالقَولِ بأنْ تقولَ هذه الأصنامُ: ماذا تريدونَ؟ والاستجابةَ بالفِعلِ، وهي إيصالُ المطلوبِ إلى هؤلاءِ الطَّالبين؛ فهي لا تستجيبُ لا لهذا ولا لهذا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٢٦)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩).

وقال القرطبيُّ: (وقيل: أيْ: لو جعَلْنا لهم عُقولًا وحياةً فسَمِعوا دُعاءَكم، لكانوا أطوعَ لله منكم، ولَما استجابوا لكم على الكُفرِ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦).

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

**مناسبتُها لِمَا قبلَها:**

لَمَّا كُشِفَ حالُ الأصْنام في الدُّنيا بما فيه تَأْييسٌ من انتِفاعِهم بها فيها؛ كُمِّلَ كَشْفُ أمْرِها في الآخِرةِ بأنَّ تلك الأصْنامَ يُنطِقُها اللهُ، فتَتبرَّأَ من شِركِهم[1].

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾.

أي: ويَومَ القِيامةِ يَكفُرونَ بما وَقعتُم فيه مِن اتِّخاذِهم شُرَكاءَ للهِ تدعونَهم مِن دُونِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾.

أي: ولا أحدَ يُنبِّئُك[3] -يا محمَّدُ- مِثلَ ما يُنبِّئُك اللهُ الذي يَعلَمُ بواطِنَ الأمورِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٣) قيل: المرادُ تحقيقُ ما أخبَر به مِن حالِ آلهتِهم، ونفيُ ما يدَّعُون لهم من الإلهيةِ. ممَّن ذكر هذا المعنى: الزمخشري، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسَفي، وابن جُزي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٦٣). =

وحقائِقَها، فلا يخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَفعلَ الأسبابَ

---

= قال ابنُ جَرير: (يقول تعالى ذِكرُه: ولا يُخبِرُك -يا محمدُ- عن آلهة هؤلاء المشركين وما يكونُ مِن أمْرِها وأمْرِ عَبَدتِها يومَ القيامةِ، مِن تَبرُّئِها منهم، وكُفرها بهم، مثل ذِي خِبرة بأمْرها وأمْرهم؛ وذلك الخبيرُ هو اللهُ الذي لا يخفَى عليه شيءٌ -كان أو يكون- سُبحانَه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥١).

وقال ابنُ كثير: (وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، أي: ولا يُخبِرُك بعواقبِ الأمورِ ومآلها وما تصيرُ إليه، مِثلُ خبيرٍ بها). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١).

وقال جلال الدِّين المَحليُّ: (﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ بأحوالِ الدَّارين ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٣).

وقال البِقاعيُّ: (﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾، أي: إنباءً بليغًا عظيمًا على هذا الوَجهِ بشيءٍ مِن الأشياءِ ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾، أي: بالِغِ الخبر، فلا يُمكن الطعنُ في شيءٍ ممَّا أخبر به، وأمَّا غيره فلا يُخبر خبرًا إلَّا يُوجَّه إليه نقْصٌ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

قال الكَرمانيُّ: (أجمَع المفسِّرون على أنَّ ﴿خَبِيرٍ﴾ في الآيةِ: هو اللهُ عزَّ وجلَّ). ((غرائب التفسير)) (٢/ ٩٤٨).

ممن اختار أنَّ الخِطابَ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والواحدي، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٩).

وقيل: الخِطابُ هنا لكُلِّ مَن يصِحُّ منه سَماعُ هذا الكلامِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الشربيني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

قال ابن عاشور: (لأنَّ هذه الجُملةَ أُرسِلَت مُرسَلَ الأمثالِ؛ فلا يَنبغي تَخصيصُ مَضمونِها بمخاطَبٍ مُعيَّنٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

التي يُتَوَصَّلُ بها إلى المقصودِ، لا أنْ يبقَى في بيتِه مُنتظرًا رِزقَه، ويقولَ: إنَّه مُتوكِّلٌ على اللهِ! ففَرْقٌ بيْنَ التواكُلِ والتوكُّلِ؛ فالنَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ كان يَفْعَلُ الأسبابَ الجالبةَ للخيرِ؛ الدافعةَ للشَّرِّ، وهو سَيِّدُ المتوكِّلينَ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وجوبُ شُكرِ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فإنَّ اللهَ جَعَل هذه النِّعَمَ وسَخَّرها تَسخيرًا لنا؛ لنقومَ بشُكرِه سُبحانَه وتعالى، والشُّكرُ موضعُه: اللسانُ، والقلبُ، والجوارحُ(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ هذا إخْبارٌ عن قُدرتِه وحِكمتِه ورَحمتِه: أنَّه جعَل البَحرينِ لمصالحِ العالَمِ الأرضيِّ كُلِّهم، وأنَّه لم يُسَوِّ بينَهما؛ لأنَّ المصلحةَ تَقتضي أنْ تكونَ الأنهارُ عَذبةً فُراتًا، سائِغًا شَرابُها؛ لِيَنتفعَ بها الشَّاربونَ والغارِسونَ والزَّارِعونَ، وأنْ يكونَ البَحرُ مِلحًا أُجاجًا؛ لِئلَّا يَفسُدَ الهواءُ المحيطُ بالأرضِ برَوائحِ ما يموتُ في البَحرِ مِن الحيواناتِ، ولأنَّه ساكِنٌ لا يَجري، فمُلوحتُه تمنَعُه مِن التغَيُّرِ، ولِتكونَ حيواناتُه أحسَنَ وألَذَّ(٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ تَسميةُ اللهِ تعالى الماءَ العَذْبَ بَحْرًا(٤).

٣- قال تعالَى: ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وصَفَه بالطراوةِ؛ للإشعارِ بلَطافتِه والتَّنبيهِ على المسارعةِ إلى أكْلِه؛ لئلَّا يَتسارَعَ إليه الفَسادُ كما يُنبئُ عنه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٦).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيِّم (ص: ٦٤).

جعْلُ كُلٍّ مِن البَحرينِ مَبدأَ أكْلِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ أنَّ الغوصَ في استخراجِ حِلْيَةِ البَحرِ مُباحٌ؛ ولا يكونُ تَعَرُّضًا للهَلَكةِ ومخاطرةً بالرُّوحِ! وذلك لِمَن يُحْسِنُ العَوْمَ والغَوْصَ[٢].

٥- في قولِه: ﴿لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ دَلالةُ إباحةِ التِّجارةِ، وطلَبِ الفَضلِ برُكوبِ الأخطارِ واحتمالِ الشَّدائدِ، حيثُ أخبر أنَّه سخَّرَ البحرَ؛ حتَّى أمكنَهم ركوبُه بالحِيَلِ والأسبابِ التي علَّمَها لهم؛ لأنَّ الغوَّاصَ يُخاطِرُ برُوحِه ونفْسِه، وكذلك راكبُ السَّفينةِ[٣].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ ظاهِرُ قَولِه: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ أنَّه يجوزُ للرِّجالِ أن يَلبَسوا اللُّؤلؤَ والمَرجانَ، أي: يَجعلونَه حِليةً لهم كما يجوزُ للنِّساءِ، ولا حاجةَ لِما تكلَّفه جماعةٌ مِن المفَسِّرينَ في تأويلِ قَولِه: ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ بقَولِه: تَلبَسُه نِساؤُهم؛ لأنَّهنَّ مِن جُملتِهم، أو لِكَونِهنَّ يَلبَسنَها لأجلِهم، وليس في الشَّريعةِ المطَهَّرةِ ما يَقتضي منْعَ الرِّجالِ مِن التحَلِّي باللُّؤلؤِ والمَرجانِ، ما لم يَستعمِلْه على صِفةٍ لا يَستَعمِلُه عليها إلَّا النِّساءُ خاصَّةً؛ فإنَّ ذلك ممنوعٌ مِن جِهةِ كَونِه تشَبُّهًا بهنَّ -وقد ورد الشَّرعُ بمَنعِه- لا مِن جهةِ كَونِه حِليةَ لؤلؤٍ أو مَرجانٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢٢/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٢/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٦/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ١٨٤).

وجوازُ التحلِّي بالجواهِرِ والأحجارِ الكريمةِ للرجالِ هو مذهبُ الجُمهورِ، مِن المالِكيَّة، والشَّافعيَّة -على الأظهَرِ عِندَهم-، والحَنابِلة، وبه قال ابنُ حَزم. يُنظر: ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (١/ ١٨٥)، ((الشرح الكبير)) للدردير (١/ ٦٤)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ١٠)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (١/ ٣٠)، ((الإقناع)) للحجاوي (١/ ٢٧٥)، ((مطالب =

٧- قولُه تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ هذا استِدْلالٌ سَنَدُه المُشاهَدةُ؛ فطالَما دَعَوُا الأصْنامَ، فلم يَسمَعوا منها جَوابًا، وطالَما دَعَوْها، فلم يَحصُلْ ما دَعَوْها لتَحْصيلِه، معَ أنَّها حاضِرةٌ بمَرأًى منهم غيرُ مَحْجوبةٍ، فعَدَمُ إجابَتِها دَليلٌ على أنَّها لا تَسمَعُ؛ لأنَّ شأنَ العَظيم أنْ يَستَجيبَ لأوْليائِه الذين يَسعَونَ في مَرْضاتِه، فقد لَزِمهم إمَّا عَجزُها، وإمَّا أنَّها لا تَفقَهُ، وهذا من أبْدعِ الاستِدْلالِ المُوطَّأِ بمُقدِّمةٍ مُتَّفَقٍ عليها[1].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أنَّ مَن تَعَلَّقَ بغيرِ اللهِ خابَ أمَلُه؛ لأنَّ هذه الأصنامَ لا تنفعُهم في الدُّنيا، ولا تَنفعُهم يومَ القِيامةِ، إذنْ خابَ أملُهم؛ هم يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، ولكنْ ما قرَّبوهم! بل هذه ما زادتْهم إلَّا بُعْدًا، فأَمَلُهم قد خابَ -والعياذُ باللهِ-، وخسِروا الدُّنيا والآخِرةَ[2].

٩- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ نوعُ هذا الكُفرِ هو التبَرُّؤُ؛ فيُستفادُ منه: أنَّ هذه الأصنامَ المعبودةَ تتبرَّأُ مِن عابِديها يومَ القِيامةِ، بل إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَجمَعُ الأصنامَ وعابِديها، ويُلقِيهم في جهنَّمَ ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ * لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٨، ٩٩]، ولكِنَّها ليستْ آلِهةً، فلا تَنفَعُ[3].

---

= أولي النهى)) للرحيباني (٢/ ٩٤)، ((المحلى)) لابن حزم (٩/ ٢٤٦).

وحُكي الاتفاق على أنَّ التخَتُّمَ للرِّجال بجَميعِ الأحجار مُباحٌ، من الياقوت وغيرِه. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ١٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٠- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ...﴾ تضمَّنت هذه الآياتُ الأدِلَّةَ والبراهينَ السَّاطِعةَ الدَّالَّةَ على أنَّه تعالى المألوهُ المعبودُ، الذي لا يَستَحِقُّ شَيئًا مِن العبادةِ سِواه، وأنَّ عبادةَ ما سِواه باطِلةٌ مُتعلِّقةٌ بباطلٍ، لا تفيدُ عابِدَه شَيئًا[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ صِيغَ هذا الاستِدلالُ على أُسلوبٍ بَديعٍ؛ إذ اقتُصِرَ فيه على التَّنبيهِ على الحِكمةِ الرَّبَّانيَّةِ في المَخلوقاتِ، وهي ناموسُ تَمايُزِها بخَصائصَ مُختلِفةٍ، واتِّحادِ أنواعِها في خَصائصَ مُتماثِلةٍ؛ استدلالًا على دَقيقِ صُنْعِ اللهِ تعالى، ويَتضمَّنُ ذلك الاستدلالَ بخَلْقِ البَحرينِ أنفُسِهما؛ لأنَّ ذِكرَ اختلافِ مَذاقِهما يَستلزِمُ تَذكُّرَ تَكوينِهما؛ فالتَّقديرُ: وخلَقَ البَحرينِ العذْبَ والأُجاجَ على صُورةٍ واحدةٍ، وخالَفَ بيْنَ أعراضِهما؛ ففي الكلامِ إيجازُ حَذْفٍ، وإنَّما قُدِّمَ مِن هذا الكلامِ تَفاوُتُ البَحرينِ في المذاقِ، واقتُصِرَ عليه؛ لأنَّه المقصودُ مِن الاستِدلالِ بأفانينِ الدَّلائلِ على دَقيقِ صُنْعِ الله تعالى[2].

- وقولُه: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ إمَّا استِطْرادٌ في صِفةِ البَحْرينِ،

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٧٩).

وما فيهما مِن النِّعمِ والمَنافِعِ. وإمَّا تَكمِلةٌ للتَّمْثيلِ، أي: كما أنَّهما -وإنِ اشتَرَكا في بَعضِ الفَوائِدِ- لا يَتَساوَيانِ من حيثُ إنَّهما مُتَفاوِتانِ فيما هو المَقْصودُ بالذَّاتِ مِنَ الماءِ لَمَّا خالَطَ أحَدَهما ما أفسَدَه وغيَّرَه عن كَمالِ فِطْرتِه؛ لا يُساوي الكافِرُ المُؤمِنَ، وإنْ شارَكَه في بَعضِ الصِّفاتِ كالشَّجاعةِ والسَّخاوةِ ونحوِهما؛ لِتبايُنِهما فيما هو الخاصيَّةُ العُظْمَى؛ لِبَقاءِ أحَدِهما على فِطْرتِه الأصليَّةِ، وحِيازتِه لكَمالِه اللَّائقِ دون الآخَرِ. أو تَفْضيلٌ للأُجاجِ على الكافِرِ من حيثُ إنَّه يُشارِكُ العَذْبَ في مَنافِعَ كثيرةٍ، والكافِرُ خِلْوٌ من المَنافِعِ بالكُلِّيةِ[1].

- وإفرادُ ضَميرِ الخِطابِ في قَولِه: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ مع جَمعِه فيما سَبَقَ وما لَحِقَ؛ لأنَّ الخِطابَ لكُلِّ أحَدٍ تَتأتَّى منه الرُّؤيةُ دونَ المُنتَفِعينَ بالبَحْرينِ فَقَطْ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ الظَّرْفُ هنا في قَولِه: ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ على عَكسِ آيةِ سورةِ (النَّحْلِ): ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤]؛ لأنَّ هذه الآيةَ مَسوقةٌ مَساقَ الاستِدْلالِ على دَقيقِ صُنعِ اللهِ تَعالَى في المَخْلوقاتِ، وأدمَجَ فيه الامتِنانَ بقَولِه: ﴿تَأْكُلُونَ﴾ ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً﴾ وقَولِه: ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾؛ فكان المَقصِدُ الأوَّلُ من سِياقِها الاستِدْلالَ على عَظيمِ الصُّنعِ؛ فهو الأهمُّ هنا. ولَمَّا كان طَفْوُ الفُلكِ على الماءِ -حتى لا يَغرَقَ فيه- أظهَرَ في الاستِدْلالِ على عَظيمِ الصُّنعِ مِنَ الذي ذُكِرَ من النِّعْمةِ والامتِنانِ؛ قُدِّم ما يدُلُّ عليه، وهو الظَّرفيَّةُ في البَحرِ. والمَخْرُ في البَحرِ آيةُ صُنعِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٤- ٦٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٧).

أيضًا بخَلقِ وَسائِلِ ذلك، والإلْهام له، إلَّا أنَّ خُطورَ السَّفَرِ من ذلك الوَصفِ أو ما يتبادَرُ إلى الفَهم؛ فأُخِّرَ هُنا لأنَّه من مُسْتتبَعاتِ الغَرَضِ لا من مَقصِدِه، فهو يَستتبِعُ نِعْمةَ تَيسيرِ الأسْفارِ لقَطعِ المَسافاتِ التي لو قُطِعتْ بسَيرِ القَوافِلِ؛ لطالتْ مُدَّةُ الأسْفارِ. وبهذا يتَّضحُ الفَرقُ بيْنَ هذه الآيةِ وآيةِ سُورةِ (النَّحْلِ) في كَونِ فِعلِ (لِتَبتَغُوا) غيرَ مَعطوفٍ بالواوِ هنا، ومَعطوفًا نظيرُه في آيةِ (النَّحْلِ)؛ لأنَّ الابتغاءَ عُلِّقَ هنا بـ ﴿مَوَاخِرَ﴾؛ إيقافًا على الغَرَضِ من تَقديمِ الظَّرْفِ، وفي آيةِ (النَّحْلِ) ذُكِرَ المَخْرُ في عِدادِ الامتِنانِ؛ لأنَّه به تَيسيرُ الأسْفارِ، ثم فُصِلَ بيْنَ مَوَاخِرَ وعِلَّتِه بظَرفِ (فيه)؛ فصارَ ما يُؤمِئُ إليه الظَّرْفُ فَصْلًا بغَرَضٍ أُدمِجَ إدْماجًا، وهو الاستِدْلالُ على عَظيمِ الصُّنعِ بطَفوِ الفُلكِ على الماءِ. فلمَّا أُريدَ الانتِقالُ منه إلى غَرَضٍ آخَرَ -وهو العَودُ إلى الامتِنانِ بالمَخْرِ لنِعْمةِ التِّجارةِ في البَحرِ- عُطِفَ المُغايِرُ في الغَرَضِ[1].

- قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فيه التعبيرُ بحَرْفِ التَّرجِّي (لعلَّ)؛ للإيذانِ بكَونِه مَرْضيًّا عندَ اللهِ تَعالَى[2].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ استِدْلالٌ بما في مَظاهِرِ السَّمَواتِ من الدَّلائِلِ على بَديعِ صُنعِ اللهِ في أعظَمِ المَخْلوقاتِ؛ لِيتذكَّرَ الكُفَّارُ والنَّاسُ بذلك أنَّه الإلهُ الواحِدُ، وفي الآيةِ إدْماجٌ[3] للتَّذكيرِ في خِلالِ الاستِدْلالِ؛ ففي هذه الآيةِ ذكَّرَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٠-٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٧).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٥).

بأنَّ لأعْمارِهم نِهايةً؛ تَذْكيرًا مُرادًا به الإنْذارُ والوَعيدُ، واقتِلاعُ الطُّغْيانِ والكِبْرياءِ من نُفوسِهم[1].

- قَولُه: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ ﴾ لَمَّا كان هذا الفِعلُ في غايةِ الإعجابِ، وكان لكَثرةِ تَكرارِه قد صار مألوفًا؛ فغُفِلَ عمَّا فيه مِن الدَّلالةِ على تَمامِ القُدرةِ- نبَّه عليه بإعادةِ الفِعلِ، فقال: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ ﴾[2].

- قولُهُ: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ عَطفٌ على ﴿ يُولِجُ ﴾، واختِلافُهما صِيغةً؛ لأنَّ إيلاجَ أحَدِ المَلَوينِ -اللَّيلِ والنَّهارِ- في الآخَرِ مُتجدِّدٌ حِينًا فحِينًا، وأمَّا تَسخيرُ النَّيِّرَينِ -الشَّمْسِ والقَمَرِ- فأمْرٌ لا تَعدُّدَ فيه، وإنَّما المُتعدِّدُ والمُتجدِّدُ آثارُه، وقد أُشيرَ إليهِ بقَولِه تَعالَى: ﴿كُلٌّ يَجۡرِي ...﴾[3].

- وفيه مُناسَبَةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ في سورةِ (لُقْمانَ) في قوله: ﴿ كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ [لقمان: ٢٩]، سِوى أنَّ هذه الآيةَ جاء فيها ﴿ كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ ﴾؛ فعُدِّيَ فِعلُ يَجْري باللَّام، وجِيءَ في آيةِ سورةِ (لُقْمانَ) تَعدِيةُ فِعلِ يَجْري بحَرفِ (إلى) وليسَ ذلك مِن تعاقُبِ الحَرفَينِ -أي: ليس كُلُّ واحِدٍ مِنهما مَكانَ صاحبِه مِنْ غيرِ تَفرقةٍ-؛ لأنَّ بيْنهما بَونًا بعيدًا مِن حيثُ الوضْعُ؛ لأنَّ أحدَهما (إلى) للانتِهاءِ، والآخَر (اللام) للاختِصاصِ، وكلُّ واحِدٍ منهما مُلائمٌ لصحَّة الغَرضِ في مَوضعِهِ الخاصِّ؛ فقَولُ: ﴿يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ ﴾ مَعْناه: يَبلُغُه، وقَولُ: ﴿يَجۡرِي لِأَجَلٖ ﴾ يُرادُ به لإدْراكِ أجَلٍ، أي: ويَجْري لأَجْلِ أَجَلٍ، أي: لِبُلوغِه واستيفائِه. ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّ الغرَضَ من المعنَيَينِ الغايةُ؛ فمآلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨١ - ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٧).

المَعْنَيينِ واحِدٌ، وإنْ كان طَريقُه مُختلِفًا. وقيلَ: اللَّامُ تكونُ بمَعْنى (إلى) في الدَّلالةِ على الانتِهاءِ؛ فالمُخالَفةُ بيْنَ الآيتَينِ تفنُّنٌ في النَّظمِ(١).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ استِئْنافٌ واقعٌ مَوقِعَ النَّتيجةِ من الأدِلَّةِ بعدَ تَفْصيلِها، واسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ مُوجَّهٌ إلى مَن جَرَتْ عليه الصِّفاتُ والأخْبارُ السَّابِقةُ من قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩] الآياتِ. وفيها إشْعارٌ بأنَّ فاعِليَّتَه لها مُوجِبةٌ لِثُبوتِ الأخْبارِ المُترادِفةِ؛ فكان اسْمُه حَريًّا بالإشارةِ إليه بعدَ إجْراءِ تلك الصِّفاتِ؛ إذ بذِكْرِها يَتميَّزُ عِندَ السَّامِعينَ أكْمَلَ تَمْييزٍ حتى كأنَّه مُشاهَدٌ لأبْصارِهِم، مع ما في اسْمِ الإشارةِ مِنَ البُعدِ المُستَعمَلِ كِنايةً عن تَعْظيمِ المُشارِ إليه. ومع ما يَقْتضيه إيرادُ اسمِ الإشارةِ عقِبَ أوْصافٍ كَثيرةٍ مِن التَّنبيهِ على أنَّه حَقيقٌ بما سيَرِدُ بعدَ الإشارةِ مِن أجْلِ تلك الصِّفاتِ، فأخبَرَ عنه بأنَّه صاحِبُ الاسمِ المُخْتصِّ به الذي لا يَجهَلونَه، وأخبَرَ عنه بأنَّه ربُّ الخَلائِقِ بعْدَ أنْ سُجِّلَ عليهم ما لا قِبَلَ لهم بإنْكارِه، مِن أنَّه الذي خلَقَهُم خَلْقًا مِن بعْدِ خَلقٍ، ممَّا يدُلُّ على أنَّه لا يُعجِزُه شَيءٌ؛ فهو الرَّبُّ دونَ غيرِه، وهو الذي المُلكُ والسُّلْطانُ له لا لِغَيرِه؛ أفادَ ذلك كُلَّه قولُه تَعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾؛ فانتهَضَ الدَّليلُ(٢).

- قولُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ تَصريحٌ بأنَّ الأصْنامَ لا يَملِكونَ من المُلكِ شيئًا، ولو حَقيرًا، وهو المُمثَّلُ بالقِطْميرِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٥٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٢).

فالمَعْنى: لا يَملِكونَ شَيئًا، ولو حَقيرًا؛ فكَونُهُم لا يَملِكونَ أعظَمَ من القِطْميرِ مَعْلومٌ بفَحْوى الخِطابِ[1]، فإذا انْتَفَى أنَّها تَملِكُ شَيئًا، انْتَفَى عنها وَصفُ الإلهيَّةِ بطَريقِ الأَوْلى؛ فنَفى ما كانوا يَزعُمونَه من أنَّها تَشفَعُ لهم، معَ ما في ذلك من الدَّلالةِ على تَفرُّدِ اللهِ سُبْحانَه بالأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ[2].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾

- قولُهُ: ﴿إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ﴾ استِئْنافٌ مُقرِّرٌ لمَضْمونِ ما قَبلَه، كاشِفٌ عن جَليَّةِ حالِ ما يَدْعونَه، أو خَبَرٌ ثانٍ عن (الَّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِه)، والمَقصِدُ منه تَنبيهُ المُشرِكينَ إلى عَجزِ أصْنامِهم؛ بأنَّها لا تَسمَعُ، وليس ذلك استِدْلالًا؛ فإنَّهم كانوا يَزعُمونَ أنَّ الأصْنامَ تَسمَعُ منهم؛ فلذَلِكَ كانوا يُكلِّمونَها، ويُوجِّهونَ إليها مَحامِدَهم ومَدائِحَهم، ولكنَّه تَمهيدٌ للجُمْلةِ المَعْطوفةِ على الخَبَرِ، وهي جُمْلةُ: ﴿وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡ﴾[3].

- وأُجرِيَ على الأصْنامِ مَوصولُ العاقِلِ، وضَمائرُ العُقَلاءِ في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ [فاطر: ١٣] إلى قَولِه: ﴿يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ على تَنْزيلِ الأصْنامِ

---

(١) فحْوى الخِطاب: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَوْلَى، وهو نوعان: تَنبيهٌ بالأقلِّ على الأكثرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نبَّه بالنهي عن قولِ أفٍّ على النهيِ عن الشَّتمِ والضربِ وغيرِ ذلك. وتنبيهٌ بالأكثرِ على الأقلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٣).

مَنزِلةَ العُقَلاءِ؛ مُجاراةً للمَرْدودِ عليهم على طَريقةِ التَّهكُّمِ[١].

- وقولُه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ تَذْييلٌ لِتَحقيقِ هذه الأخْبارِ بأنَّ المُخبِرَ بها هو الخَبيرُ بها وبغَيرِها، ولا يُخبِرُكَ أحَدٌ مِثلَ ما يُخبِرُكَ هو[٢].

- وعبَّرَ بفِعلِ الإنْباءِ؛ لأنَّ النَّبأَ هو الخَبَرُ عن حَدَثٍ خَطيرٍ مُهِمٍّ[٣].

- قَولُه: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ﴾ لَمَّا كان التَّقْديرُ: قدْ أنْبَأَكم بذلك الخَبيرُ، وكانوا لا يُقِرُّونَ بذلك، ولا يَفهَمونَه حَقَّ فَهمِه، ولا يَعمَلونَ به؛ صُرِفَ الخِطابُ عنهم إلى مَن له الفَهمُ التَّامُّ، والطاعةُ الكامِلةُ، فقال عاطِفًا على هذا الذي هَدَى إلى تَقْديرِه السِّياقُ: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ ...﴾[٤]، وهذا على القَولِ بأنَّ الخِطابَ فيه للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ.

وقيل: إنَّ الخِطابَ فيه لكُلِّ مَن يَصِحُّ منه سَماعُ هذا الكَلامِ؛ لأنَّ هذه الجُمْلةَ أُرسِلَت مُرسَلَ الأمْثالِ، فلمَّا أُرسِلَ هذا القَولُ مَثَلًا، وكان شَأنُ الأمْثالِ أنْ تكونَ مُوجَزةً صِيغَ على أُسلوبِ الإيجازِ؛ فحُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿يُنَبِّئُكَ﴾ ومُتعلَّقُ وَصْفِ ﴿خَبِيرٍ﴾، ولم يُذكَرْ وَجهُ المُماثَلةِ؛ لِعِلْمِه من المَقامِ[٥].

- وجُعِلَ ﴿خَبِيرٍ﴾ نَكِرةً مع أنَّ المُرادَ به خَبيرٌ مُعَيَّنٌ، وهو المُتكلِّمُ فكان حقُّهُ التَّعريفَ؛ فعُدِلَ إلى تَنْكيرِهِ لقَصدِ التَّعْميمِ في سِياقِ النَّفيِ؛ لأنَّ إضافةَ كَلِمةِ (مِثْلُ) إلى (خَبيرٌ) لا تُفيدُه تَعريفًا. وجُعِلَ نَفيُ فِعلِ الإنْباءِ كِنايةً عن نَفيِ المُنبِئِ. ولعلَّ التَّركيبَ: (ولا يُوجَدُ أحَدٌ يُنبِّئُكَ بهذا الخَبَرِ يُماثِلُ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

الخَبيرَ الذي أنْبَأَكَ به)، فإذا أردَفَ مُخبِرٌ خَبَرَه بهذا المَثَلِ كان ذلك كِنايةً عن كَونِ المُخْبِرِ بالخَبَرِ المَخْصوصِ يُريدُ بـ (خَبيرٌ) نفسَه للتَّلازُمِ بيْنَ مَعْنى هذا المَثَلِ وبيْنَ تَمثُّلِ المُتكلِّمِ منه؛ فالمَعْنى: ولا يُنبِّئُكَ بهذا الخَبَرِ مِثْلي؛ لأنِّي خَبَرتُه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٤).

## الآيات (١٥-١٨)

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾: أي: لا تحمِلُ آثِمةٌ إِثْمَ أُخرى غيرِها، والوِزْرُ هو الإثمُ والذَّنْبُ، والثِّقْلُ والحِمْلُ أيضًا. وقيل: الوِزْرُ: هو الحِمْلُ الثَّقيلُ مِن الإثمِ، وهو الإثمُ العَظيمُ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على مَا حمَلَه الإنسانُ، وعلى الثِّقلِ في الشَّيء؛ ومنه سُمِّي الإثمُ وزرًا؛ لأنَّه يُثقِلُ ظهرَ مَن يَحمِلُه[1].

﴿ مُثۡقَلَةٌ ﴾: أي: نفسٌ أثْقَلتْها الذُّنوبُ والأوزارُ، وأصلُ (ثقل): ضِدُّ الخِفَّةِ[2].

﴿ تُنذِرُ ﴾: أي: تُعلِمُ بما تُحذِّرُ منه، وأصلُ الإنْذارِ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، أو الإبْلاغُ[3].

﴿ يَخۡشَوۡنَ ﴾: أي: يَخافونَ، وأصلُ الخَشْيَةِ: خوفٌ يَشوبُه تعظيمٌ، وأكثرَ ما

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٧/ ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٨٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٨)، ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

يكونُ ذلِك عنْ عِلمٍ بما يُخشَى منه. وقيل: الخَشيةُ أَشدُّ مِن الخَوْفِ[١].

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تَطهَّرَ مِن الشِّركِ والفَواحِشِ، وأَصْلُ (زكي): يدُلُّ على نَماءٍ وزِيادةٍ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالَى عِبادَه مُنبِّهًا على فَقرِهم إليه، وغِناه عنهم، فيقولُ: يا أيُّها النَّاسُ أنتم الفُقَراءُ إلى اللهِ، واللهُ وَحْدَه هو الغَنيُّ المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، إنْ شاءَ اللهُ أهلَككم -أيُّها النَّاسُ- وأتَى بخَلقٍ غَيرِكم، وليس ذلك على اللهِ بمُمتَنِعٍ؛ لكَمالِ قُدرتِه تعالَى.

ثُمَّ يقولُ تعالَى: ولا تَحمِلُ نَفسٌ آثمةٌ إثْمَ نَفْسٍ أُخرى؛ فكلُّ إنسانٍ مُجازًى بعَمَلِه، وإنْ تَدْعُ يومَ القِيامةِ نَفسٌ مُثقَلةٌ بالذُّنوبِ مَن يَحمِلُ عنها ذُنوبَها، لا تُجَبْ، ولا يَحمِلْ أحدٌ عنها شَيئًا منه، ولو كان المَسؤولُ قَريبًا للسَّائِلِ!

ثُمَّ يقولُ تعالَى: إنَّما تُنذِرُ -يا مُحمَّدُ- الذين يَخشَونَ رَبَّهم بالغَيبِ، وأدَّوُا الصَّلواتِ تامَّةً كما أمَرَ اللهُ تعالى؛ فهؤلاء هم الذين يَنتَفِعونَ بالإنذارِ دُونَ غَيرِهم.

ثُمَّ يَحُضُّ سُبحانَه على تَزكيةِ النُّفوسِ وتَطهيرِها، فيقولُ: ومَن تزكَّى فإنَّما يَعودُ نَفْعُ ذلك عليه، وإلى اللهِ وَحْدَه المرجِعُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٢٠)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا أَشبَعَ المقامَ أدِلَّةً ومَواعِظَ وتذكيراتٍ ممَّا فيه مَقنَعٌ لِمن نَصَب نفْسَه مَنصِبَ الانتِفاعِ والاقتِناعِ، ولم يظهَرْ معَ ذلك كُلِّه مِن أحوالِ القَومِ ما يُتوسَّمُ منه نزعُهم عن ضلالِهم، وربَّما أحدَث ذلك في نُفوسِ أهْلِ العِزَّةِ منهم إعجابًا بأنفُسِهم، واغترارًا بأنَّهم مَرغوبٌ في انضمامِهم إلى جَماعةِ المُسلِمينَ؛ فيَزيدُهم ذلك الغُرورُ قَبولًا لتَسويلِ مكائدِ الشَّيطانِ لهم أنْ يَعتَصِموا بشِركِهم- ناسَب أن يُنبِّئَهم اللهُ بأنَّه غنيٌّ عنهم[١].

وأيضًا لَمَّا اختَصَّ الله سُبحانَه بالمُلكِ، ونفَى عن شُرَكائِهم النَّفعَ؛ أنتَجَ ذلك قَولَه[٢]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ[٣] أنتُم المحتاجُونَ إلى اللهِ في كُلِّ شَيءٍ، واللهُ وَحدَه هو الغَنيُّ غِنًى مُطلَقًا مِن جَميعِ الوُجوهِ عن جَميعِ خَلقِه، وعن عِبادتِهم؛ فلا يفتَقِرُ إلى شَيءٍ سُبحانَه، ومِن غناه أنَّه يُغني الخَلقَ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ وهو المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه، وصِفاتِه وأفعالِه، وأقوالِه وشَرعِه وقَدَرِه، المحمودُ على نِعَمِه، وإحسانِه بخَلقِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠).

(٣) قال السعديُّ: (يُخاطبُ تعالَى جميعَ الناسِ، ويُخبرُهم بحالِهم ووصفِهم، وأنَّهم فقراءُ إلى الله مِن جميعِ الوجوهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ هم المشركونَ كما هو غالبُ اصطلاحِ القرآنِ، وهم المخاطبونَ بقولِه آنِفًا: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [فاطر: ١٣] الآياتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه الغنيُّ على الإطلاقِ؛ ذكَرَ ما يدُلُّ على استِغنائِه عن

---

= كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣-١٣٤).

قال السعديُّ: (وهو الحَميدُ في غِناه، الغنيُّ في حَمْدِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

وقال ابنُ عثيمين: (فهو غنيٌّ يُحمَدُ على غِناه؛ لأنَّه يجودُ به على غيرِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

قال ابنُ القيِّم: (الحَميدُ فَعيلٌ مِن الحَمْدِ، وهو بمعنى مَحمودٍ، وأكثرُ ما يأتي فَعيلًا في أسمائِه تعالَى، بمعنى فاعِلٍ، كـ: سَميع وبَصير، وعَليم وقَدير، وعَليٍّ وحَكيم، وحَليم، وهو كثيرٌ... وأمَّا الحميدُ فلمْ يأتِ إلَّا بمعنى المحمودِ، وهو أبلغُ مِن المحمودِ؛ فإنَّ فعيلًا إذا عُدِلَ به عن مَفعولٍ، دلَّ على أنَّ تِلك الصِّفةَ قد صارتْ مِثلَ السَّجيَّةِ والغَريزةِ والخُلُقِ اللازمِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٣١٥).

لكنْ قال ابنُ عثيمين: (كَلِمةُ «حميد» يَصِحُّ أن تكونَ اسمَ فاعلٍ، ويصِحُّ أنْ تكونَ بمعنى اسم المفعول؛ اسمُ الفاعِلِ: لأنَّه سُبحانَه وتعالَى حامِدٌ يَحمَدُ كُلَّ مَن يستحِقُّ الحَمدَ منه؛ ولهذا يُثني على رسُلِه وأنبيائِه وعِبادِه الصَّالحين، والثناءُ عليهم هو الحَمدُ. وهو أيضًا المحمودُ على أمْرينِ: على ما له من كَمالِ الصِّفاتِ، وعلى ما له من كَمالِ الإنعامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

وقال ابنُ عاشور: (اسمُه الحَميدُ صالحٌ لمعنى المحمودِ، فيكونُ فعيلًا بمعنى مفعولٍ، وصالحٌ لمعنى كثيرِ الحَمدِ، فيكونُ مِن أمثلةِ المُبالَغةِ؛ لأنَّ اللهَ يُثيبُ على فِعلِ الخَيرِ ثوابًا جزيلًا، ويُثني على فاعِلِه ثناءً جميلًا؛ فكان بذلك كثيرَ الحَمدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٧).

العالَم، وأنَّه ليس بمُحتاجٍ إليهم، فقال[١]:

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾.

أي: لو شاءَ اللهُ لأفْنَاكم وأهْلَكَكُم -أيُّها النَّاسُ- إنْ عَصيْتُموه، وأتَى بخَلقٍ غَيرِكم يُطِيعونَه[٢].

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾.

أي: وليسَ ذلِك على اللهِ بمُتعَذِّرٍ ولا مُمتَنِعٍ؛ لكَمالِ قُدرتِه سُبحانَه[٣].

كما قال تعالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان ما قبْلَ هذه الآيةِ مَسوقًا في غَرَضِ التَّهْديدِ، وكان الخِطابُ للنَّاسِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٦).
قال السعدي: (يحتملُ أنَّ المرادَ: إن يشأْ يُذهبْكم أيُّها الناسُ ويأتِ بغيرِكم مِن الناسِ، أطوعَ للّه منكم، ويكونُ في هذا تهديدٌ لهم بالهلاكِ والإبادةِ، وأنَّ مشيئتَه غيرُ قاصرةٍ عن ذلك.
ويحتمِلُ أنَّ المرادَ بذلك إثباتُ البعثِ والنُّشورِ، وأنَّ مشيئةَ اللَّه تعالى نافذةٌ في كلِّ شيءٍ، وفي إعادتِكم بعدَ موتِكم خلقًا جديدًا، ولكن لذلك الوقتِ أجلٌ قدَّره اللَّه، لا يتقدَّمُ عنه ولا يتأخَّرُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٩-١٤٠).

أُريدَتْ طَمْأنةُ المُسلِمينَ من عَواقِبِ التَّهْديدِ؛ فعُقِّبَ بأنَّ مَن لم يَأتِ وِزْرًا لا يَنالُه جَزاءُ الوازِرِ في الآخِرةِ، فقال(١):

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

أي: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثمَ نَفْسٍ أُخرى؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعَمَلِه، ولا يَحمِلُ ذَنبَ غَيرِه(٢).

كما قال تعالَى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٥].

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

أي: وإنْ تَستَغِثْ يومَ القِيامةِ نَفْسٌ مُثقَلةٌ بالذُّنوبِ، وتَطلُبْ مَن يَحمِلُ عنها ذُنوبَها، أو يُساعِدُها في حَملِ بَعضِها: فلنْ يَحمِلَ أحَدٌ ذلك ولو شيئًا منه، ولو كان المَسؤولُ قريبًا للسَّائِلِ(٣).

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤٤-١٤٥).

أي: إنَّما تُنذِرُ -يا محمَّدُ- إنذارًا نافِعًا مُؤثِّرًا، الذين يَخافونَ رَبَّهم مع كَونِهم لا يَرَونَه في الدُّنيا، ويَخافونَه في خَلَواتِهم غيرَ مُرائينَ أحَدًا، وأدَّوُا الصَّلواتِ على وَجهٍ تامٍّ مُستقيمٍ، كما أمَرَ اللهُ تعالى؛ فهؤلاء هم الذين يَنتَفِعونَ بالإنذارِ دونَ غَيرِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١].

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ ﴾.

أي: ومَن تَطَهَّرَ مِن دَنسِ الكُفرِ والذُّنوبِ، بالإيمانِ باللهِ والتوبةِ إليه، واستَكثَرَ مِن العَملِ الصَّالحِ؛ فإنَّما يَعودُ نَفعُ ذلك وثمرتُه على نَفْسِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤٧-١٥٠).

قولُه: ﴿بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ حالٌ مِن المفعول به، أي: يخشون ربَّهم حالَ كونِه غائبًا عنهم لم يَرَوْه، أو يكون الجارُّ والمجرور حالًا من الفاعِل، أي: حال كونِهم غائبين عن الناس. وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الآية يُمكن حمْلُها على المعنيَينِ؛ لأنَّهما لا يَتنافيانِ، وهذا مِن بلاغة القرآن. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤٨).

قال الشوكانيُّ: (ومعنى ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ أنَّهم يَخشونَه حالَ كونِهم غائبين عن عذابِه، أو يخشَوْن عذابَه وهو غائبٌ عنهم، أو يَخشونَه في الخَلواتِ عن الناسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

وقيل: معنى التزكِّي هاهنا هو العَملُ الصَّالحُ. واختاره الثعلبيُّ، والسمعانيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢).

وقال السعديُّ: (﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ ﴾، أي: ومَن زكَّى نفْسَه بالتنقِّي من العُيوبِ =

كما قال تعالَى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى * ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ [الليل: ١٧، ١٨].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه المَرجِعُ والمآلُ والمُنقَلَبُ(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ قَرَّرَ اللهُ تعالَى هذه الحالَ الثَّابتةَ التي لا تَنفَكُّ عن الإنسانِ، وهي الفَقرُ إلى اللهِ؛ مِن أجْلِ أنْ يَعمَلَ بمُقتَضى هذه الحالِ، فيَلجَأَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يَسألَ إلَّا اللهَ(٢)؛ فالنَّاسُ فُقَراءُ إلى اللهِ مِن جميعِ الوُجوهِ:

فُقراءُ في إيجادِهم؛ فلولا إيجادُه إيَّاهم لم يُوجَدوا.

فُقَراءُ في إعدادِهم بالقُوَى والأعضاءِ والجَوارحِ التي لولا إعدادُه إيَّاهم [بها]

---

= -كالرِّياءِ والكِبرِ، والكَذِبِ والغِشِّ، والمكرِ والخِداعِ، والنِّفاقِ ونحو ذلك مِن الأخلاقِ الرَّذيلةِ- وتحلَّى بالأخلاقِ الجَميلةِ -مِن الصِّدقِ والإخلاصِ، والتواضُعِ ولِينِ الجانِبِ، والنُّصحِ للعِبادِ، وسلامةِ الصَّدرِ مِن الحِقدِ والحَسدِ وغيرِهما مِن مَساوئِ الأخلاقِ-: فإنَّ تزكيتَه يَعودُ نَفعُها إليه، ويَصِلُ مَقصودُها إليه، ليس يَضيعُ مِن عمَلِه شَيءٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

قال ابنُ جَرير: (قَولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]، يَقولُ: وإلى اللهِ مَصيرُ كُلِّ عامِلٍ مِنكم -أيُّها الناسُ-، مُؤمِنِكم وكافِرِكم، وبَرِّكم وفاجِرِكم، وهو مُجازٍ جَميعَكم بما قَدَّمَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ على ما أُهِلَّ مِنه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦).

وقال ابنُ عُثَيمين: (إلى اللهِ المَصيرُ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فمَرْجِعُ الأُمورِ كُلِّها إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ، سواءٌ كانتْ في الدُّنيا، أوِ الآخِرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٢).

لَمَا استعدُّوا لأيِّ عمَلٍ كان.

فُقَراءُ في إمْدادِهم بالأقواتِ والأرزاقِ والنِّعَم الظَّاهِرةِ والباطِنةِ؛ فلولا فَضلُه وإحسانُه وتيسيرُه الأمورَ، لَما حصَل [لهم] من الرِّزقِ والنِّعَمِ شَيءٌ.

فُقَراءُ في صَرفِ النِّقَم عنهم، ودَفْعِ المكارهِ، وإزالةِ الكُروبِ والشَّدائدِ؛ فلولا دفْعُه عنهم، وتفريجُه لكُرُباتِهم، وإزالتُه لِعُسرِهم؛ لاستمَرَّتْ عليهم المكارِهُ والشَّدائِدُ.

فُقَراءُ إليه في تَربيتِهم بأنواعِ التربيةِ، وأجناسِ التدبيرِ.

فُقَراءُ إليه في تألُّهِهم له، وحُبِّهم له، وتعبُّدِهم، وإخلاصِ العبادةِ له تعالى؛ فلو لم يوفِّقْهم لذلك لهلَكوا وفسَدَت أرواحُهم وقُلوبُهم وأحوالُهم.

فُقَراءُ إليه في تَعليمِهم ما لا يَعلمونَ، وعَمَلِهم بما يُصلِحُهم؛ فلولا تعليمُه لم يَتعلَّموا، ولولا توفيقُه لم يَصلُحوا.

فهُمْ فُقَراءُ بالذَّاتِ إليه بكُلِّ معنًى، وبكُلِّ اعتبارٍ؛ سواءٌ شَعَروا ببعضِ أنواعِ الفَقرِ أم لم يَشعُروا، ولكِنِ الموفَّقُ منهم الذي لا يَزالُ يُشاهِدُ فَقرَه في كُلِّ حالٍ مِن أمورِ دِينِه ودُنياه، ويَتضَرَّع له، ويسألُه ألَّا يَكِلَه إلى نفْسِه طَرفةَ عَينٍ، وأنْ يُعينَه على جَميعِ أمورِه، ويَستصحِبَ هذا المعنى في كُلِّ وقتٍ؛ فهذا أحرَى بالإعانةِ التامَّةِ مِن رَبِّه وإلهِه الذي هو أرحَمُ به مِن الوالدةِ بوَلَدِها[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه إعلامٌ بأنَّه لا افتِقارَ إلَّا إليه تعالَى، ولا اتِّكالَ إلَّا عليه، وهذا يُوجِبُ عِبادتَه؛ لِكَونِه مُفتَقَرًا إليه، وعدَمَ عِبادةِ غَيرِه؛ لعدَمِ الافتِقارِ إلى غَيرِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٠).

٣- قال تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الحَميدُ هو الَّذي له مِن الصِّفاتِ وأسبابِ الحَمدِ ما يَقتضي أنْ يكونَ مَحمودًا وإنْ لم يَحمَدْه غيرُه؛ فهو حَميدٌ في نفْسِه، والمحمودُ مَن تَعلَّقَ به حمْدُ الحامِدينَ، والحمْدُ يَستلزِمُ الثَّناءَ والمحبَّةَ للمحمودِ؛ فمَن أحبَبْتَه ولم تُثنِ عليه لم تكُنْ حامِدًا له حتَّى تكونَ مُثنِيًا عليه مُحِبًّا له، وهذا الثَّناءُ والحُبُّ تبَعٌ للأسبابِ المقتضيةِ له، وهو ما عليه المحمودُ مِن صِفاتِ الكَمالِ، ونُعوتِ الجَلالِ، والإحسانِ إلى الغَيرِ؛ فإنَّ هذه هي أسبابُ المحبَّةِ، وكلَّما كانتْ هذه الصِّفاتُ أجمَعَ وأكمَلَ، كان الحمْدُ والحُبُّ أتمَّ وأعظمَ. واللهُ سُبحانَه له الكمالُ المُطلَقُ الَّذي لا نقْصَ فيه بوجهٍ ما، والإحسانُ كلُّه له ومِنه؛ فهو أحَقُّ بكُلِّ حمْدٍ، وبكُلِّ حُبٍّ مِن كُلِّ جِهةٍ؛ فهو أهلٌ أنْ يُحَبَّ لذاتِه ولِصِفاتِه، ولأفْعالِه ولأسمائِه، ولإحسانِه، ولكُلِّ ما صدَرَ منه سُبحانَه وتعالَى[1].

٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فالذين يَقبَلونَ النِّذارةَ ويَنتَفِعونَ بها: أهلُ الخَشيةِ لله بالغَيبِ، الذين يخشَونَه في حالِ السِّرِّ والعلانيةِ، والمشهَدِ والمَغيبِ؛ وأهلُ إقامةِ الصَّلاةِ بحُدودِها وشُروطِها، وأركانِها وواجباتِها، وخُشوعِها؛ لأنَّ الخَشيةَ للهِ تَستدعي مِن العَبدِ العَمَلَ بما يَخشَى مِن تَضييعِه العِقابَ، والهرَبَ ممَّا يَخشَى مِن ارتكابِه العذابَ، والصَّلاةُ تدْعو إلى الخيرِ، وتنهَى عن الفَحشاءِ والمُنكَرِ[2].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا تَزَكَّى؛ فإنَّ نفْعَ تَزَكِّيه لنفْسِه، ولا يَنالُ اللهَ سُبحانَه وتعالَى مِن ذلك شيءٌ، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ: أنَّ أوامرَ اللهِ عزَّ وجلَّ ليستْ مِن أجْلِ مَصلحةٍ تنالُه بامتثالِنا! ولكنْ مِن

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيِّم (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٨٧).

أجْلِ رَحمتِنا ومَصلحتِنا نحنُ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] [الزمر: ٧].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ الحَثُّ على تزكيةِ النَّفسِ، وكلُّ إنسانٍ عاقلٍ إذا عَلِمَ أنَّ مَصلحةَ العَمَلِ تَعودُ إليه، فإنَّه سوف يَهتَمُّ به ويقومُ به، فإذا عَلِمتَ أنَّ تَزكِّيَك لنَفْسِكَ؛ حَرَصْتَ عليه غايةَ الحِرصِ، فتُزكِّي نفْسَك ظاهرًا وباطنًا؛ ظاهرًا بالأقوالِ والأفعالِ، وباطنًا بالقلوبِ[2].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عَلَّقَ سُبحانَه الفَقرَ إليه باسمِه (الله) دونَ اسمِ الرُّبوبيَّةِ؛ لِيُؤذِنَ بنَوعيِ الفَقرِ؛ فإنَّ الفَقرَ نوعانِ: فَقرٌ إلى رُبوبيَّتِه، وهو فَقرُ المخلوقاتِ بأسْرِها. وفَقرٌ إلى ألوهيَّتِه، وهو فَقرُ أنبيائِه ورُسُلِه وعِبادِه الصَّالحينَ، وهذا هو الفَقرُ النَّافِعُ[3].

٢- في قَولِ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أنَّ للهِ الغنَى المطلَقَ مِن جميعِ الوجوهِ، يُستفادُ هذا مِن قولِه تعالى: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ بـ «أل» الدالةِ على العُمومِ والاستيعابِ[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أنَّ غِنى اللهِ سُبحانَه وتعالى مَقرونٌ بالحَمدِ، بخِلافِ غِنَى البَشَرِ؛ فإنَّه قد لا يكونُ محمودًا؛ إمَّا بالبُخلِ، وإمَّا بكَونِه يأتي بدونِ استِحقاقٍ، كالسُّرَّاقِ واللُّصوصِ؛ فقد يكونون أغنياءَ لكنِ اكتَسَبوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٤).

على غيرِ الوَجهِ المباحِ، أمَّا غِنَى اللهِ فهو غِنًى كامِلٌ يُحمَدُ عليه. إذَن: يُحمَدُ مِن جِهةِ الغِنَى، ومِن جهةِ الكَرَمِ بما هو غَنِيٌّ به[١].

٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ لَمَّا كان الغَنيُّ مِن الخَلقِ لا يَسَعُ غِناه مَن يَقصِدُه، وإنْ وَسِعَهم لم يسَعْهم عَطاؤُه؛ لخَوفِ الفَقرِ، أو لغيرِ ذلك من العَوارِضِ، ولا يُمكِنُه عُمومُ النِّعمةِ في شَيءٍ من الأشياءِ، فلا يَنفَعُك، وكان سُبحانَه قد أفاض نِعَمَه على خَلقِه، وأسبَغَها ظاهِرةً وباطِنةً، وجعَلَ لهم قُدرةً على تناوُلِها، لا يَعوقُ عنه إلَّا قُدرتُه ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، وكان لا يَنقُصُ ما عندَه- كان إعطاؤُه حَمدًا، ومَنعُه حَمدًا؛ لأنَّه لا يكونُ مانعًا لغَرَضٍ، بل لِحكمةٍ تَدِقُّ عن الأفكارِ، فقال: ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾[٢].

٥- قال اللهُ سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ بيَّن سُبحانَه في هذه الآيةِ أنَّ فَقرَ العِبادِ إليه أمرٌ ذاتيٌّ لهم لا ينفَكُّ عنهم، كما أنَّ كَونَه غنيًّا حميدًا أمْرٌ ذاتيٌّ له؛ فغِناه وحَمدُه ثابتٌ له؛ لِذاتِه لا لأمرٍ أوجَبَه، وفَقرُ مَن سواه إليه ثابتٌ؛ لِذاتِه لا لأمرٍ أوجَبَه؛ فلا يُعلَّلُ هذا الفَقرُ بحُدوثٍ ولا إمكانٍ، بل هو ذاتيٌّ للفقيرِ؛ فحاجةُ العَبدِ إلى رَبِّه لِذاتِه لا لعِلَّةٍ أَوجبتْ تلك الحاجةَ، كما أنَّ غِنى الرَّبِّ سُبحانَه لذاتِه لا لأمرٍ أوجَبَ غِناه؛ فالخَلقُ فقيرٌ مُحتاجٌ إلى رَبِّه بالذَّاتِ لا بعِلَّةٍ، وكُلُّ ما يُذكَرُ ويُقرَّرُ مِن أسبابِ الفَقرِ والحاجةِ فهي أدِلَّةٌ على الفَقرِ والحاجةِ لا عِلَلٌ لذلك؛ إذ ما بالذَّاتِ لا يُعلَّلُ، فالفقيرُ بذاتِه محتاجٌ إلى الغَنيِّ بذاتِه، فما يُذكَرُ مِن إمكانٍ وحُدوثٍ واحتياجٍ فهي أدلَّةٌ على الفَقرِ لا أسبابٌ له[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١-٣٢).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ٨).

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَحْمِلُ آثامَ غيرِه، ويَنبني على هذه الفائدةِ: ثُبوتُ كمالِ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ لا يُحمِّلُ أحدًا وِزْرَ أحدٍ[1].

٧- قَولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾: يدُلُّ على أنَّه لا يَحمِلُ أحدٌ وِزرَ غَيرِه، وقد جاءتْ آيةٌ كريمةٌ أُخرَى تدُلُّ على أنَّ هؤلاء الضَّالِّينَ يَحمِلونَ أوزارَهم كامِلةً، ويَحمِلونَ أيضًا مِن أوزارِ الأتْباعِ الذين أضلُّوهم، وهي قولُه تعالَى: ﴿لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل: ٢٥]!

**والجوابُ**: أنَّ هؤلاء الضَّالِّينَ ما حَمَلوا إلَّا أوزارَ أنفُسِهم؛ لأنَّهم تحمَّلوا وِزرَ الضَّلالِ ووِزرَ الإضلالِ؛ فمَن سَنَّ سُنَّةً سَيِّئةً فعليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها، لا يَنقُصُ ذلك من أوزارِهم شيئًا؛ لأنَّ تشريعَه لها لغيرِه ذَنبٌ من ذُنوبِه، فأُخِذَ به[2].

فقولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ فيه نفْيُ أنْ يَحمِلَ أحَدٌ وِزرَ آخَرَ، لا مُشاركةَ له للحامِلِ على اقترافِ الوِزرِ، وأمَّا قولُه سُبحانَه: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]؛ فمَورِدُها في زُعَماءِ المُشرِكينَ الذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٣٢).
وقَولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ...﴾ أيضًا لا يُعارِضُ قولَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن سنَّ في الإسلامِ سنَّةً سيئةً فعليه وِزرُها ووِزرُ مَن عمِل بها بعدَه إلى يومِ القيامةِ)) [مسلم (١٠١٧)]؛ قال ابن عثيمين: (لأنَّ سنَّه إيَّاها يُعتبرُ وِزرًا؛ لأنَّه هو الذي شقَّ الطريقَ لها ومهَّد السبلَ، فلهذا كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عمِل بها إلى يومِ القيامةِ، فالآيةُ لا تُنافي الحديثَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٤٤).

موَّهوا الضَّلالةَ، وثَبَتوا عليها؛ فإنَّ أوَّلَ تلك الآيةِ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلۡنَحۡمِلۡ خَطَٰيَٰكُمۡ﴾ [العنكبوت: ١٢]، وكانوا يقولون ذلك لكُلِّ مَن يَستروِحونَ منه الإقبالَ على الإيمانِ بالأُخرى(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أنَّ الخَشيةَ التي هي مَحَلُّ الثَّناءِ هي ما كانتْ خَشيةً في الغَيبِ؛ لأنَّ الخَشيةَ في الظَّاهرِ قد يكونُ الحامِلُ عليها مُراعاةَ عِبادِ اللهِ، لكنْ إذا كانتْ بالغَيبِ فإنَّ هذا دليلٌ واضحٌ على أنَّ صاحِبَها مُخلِصٌ في خَشيتِه للهِ عزَّ وجلَّ(٢).

٩- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فَضيلةُ الصلاةِ؛ وأنَّها سببٌ للانتفاعِ بإنذارِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كالخَشيةِ(٣).

١٠- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ﴾ مُشيرًا بصيغةِ التفَعُّلِ إلى أنَّ النَّفسَ أَميلُ شَيءٍ إلى الدَّنَسِ، فلا تنقادُ إلى أحسَنِ تقويمٍ إلَّا باجتهادٍ عَظيمٍ(٤).

١١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أنَّ مَرجِعَ الخلائقِ إلى اللهِ في أحكامِهم الكونيَّةِ والشَّرعيَّةِ والجزائيَّةِ؛ أمَّا الأحكامُ الكونيَّةُ فظاهِرٌ أنَّ المَرجِعَ إلى اللهِ؛ لأنَّه لا أحَدَ يَستطيعُ أنْ يَرُدَّ قَضاءَ اللهِ الكَونيَّ، وأمَّا الشَّرعيَّةُ فكذلك؛ فإنَّ العِبادَ مَربوبونَ مُتَعبَّدونَ لله عزَّ وجلَّ، فكان مُقتضَى ذلك أنْ يَتمشَّوا على أحكامِه الشَّرعيَّةِ، وأمَّا الجزائيةُ فالأمرُ ظاهِرٌ؛ فإنَّه لا يُجازي العامِلينَ على عَمَلِهم إلَّا اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥).

سُبحانَه وتعالَى[١]. وذلك على قولٍ في معنى الآيةِ.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾

- قبْلَ أنْ يُوجَّهَ إليهم الإعْلامُ بأنَّ اللهَ غَنيٌّ عنهم وُجِّهَ إليهم إعْلامٌ بأنَّهم الفُقَراءُ إلى اللهِ؛ لأنَّ ذلك أدخَلُ للذِّلَّةِ على عَظَمَتِهم من الشُّعورِ بأنَّ اللهَ غَنيٌّ عنهم؛ فإنَّهم يُوقِنونَ بأنَّهم فُقَراءُ إلى اللهِ، ولكنَّهم لا يُوقِنونَ بالمَقصِدِ الذي يُفضي إليه عِلمُهم بذلك؛ فأُريدَ إبْلاغُ ذلك إليهم لا على وَجهِ الاستِدْلالِ، ولكِنْ على وَجهِ قَرْعِ أسْماعِهم بما لم تَكُنْ تُقرَعُ به من قبْلُ؛ عسَى أنْ يَسْتَفيقوا من غَفْلَتِهم، ويَتكَعْكَعوا [أي: يرْتَدِعوا] عن غُرورِ أنفُسِهم، على أنَّهم لا يَخْلو جَمعُهم من أصْحابِ عُقولٍ صالِحةٍ للوُصولِ إلى حَقائِقِ الحقِّ، فأولئك إذا قُرِعَتْ أسْماعُهم بما لم يَكونوا يَسْمَعونَه مِن قبْلُ، ازْدادوا يَقينًا بمُشاهَدةِ ما كان مَحْجوبًا عن بَصائِرِهم بأسْتارِ الاشتِغالِ بفِتْنةِ ضَلالِهم، عَسَى أنْ يُؤمِنَ مَن هيَّأهُ اللهُ بفِطْرتِه للإيمانِ، فمَن بَقِيَ على كُفرِه كان بَقاؤُه مَشوبًا بحَيرةٍ ومُرِّ طَعمِ الحياةِ عِندَه، فأين ما كانتْ تتلقَّاهُ مَسامِعُهم من قِبَلِ تَمْجيدِهم، وتَمْجيدِ آبائِهم، وتَمْجيدِ آلهتِهم، ألَا تَرى أنَّهم لَمَّا عاتَبوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في بعضِ مُراجَعَتِهم عَدُّوا عليه شَتْمَ آبائِهم؛ فحَصَلَ بهذه الآيةِ فائِدَتانِ[٢].

- وجُملةُ: ﴿أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ تُفيدُ القَصرَ لِتَعريفِ جُزْأَيْها، أي: قَصرَ صِفةِ الفَقرِ على النَّاسِ المُخاطَبينَ قَصْرًا إضافيًّا بالنِّسبةِ إلى اللهِ، أي: أنتُم المُفتَقِرونَ إليه، وليس هو بمُفتَقِرٍ إليكم، وهو قَصْرُ قَلْبٍ[٣]. وقيلَ: أوقَعَ ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ خَبَرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)). =

لـ﴿أَنتُمُ﴾، وهو مُحلًّى بلَامِ الجنسِ، وهو يُفيدُ الاختِصاصَ، وأنَّ غيرَهم من المَخْلوقاتِ ليس كذلك، وليسَ كذلك؛ لأنَّ الخَلائِقَ كلَّهم مُفتَقِرونَ إليه، لكنْ سُلِكَ فيه المُبالَغةُ، وأنَّ افتِقارَ غَيرِهم بالنِّسبةِ إلى افتِقارِهم كَلا افتِقارٍ[1].

- وفي قَولِ اللهِ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ عرَّف الفُقَراءَ؛ لِيُريَهم شديدَ افتقارِهم إليه؛ إذ هم جِنسُ الفُقَراءِ، وإن كان العالَمُ بأسرِه مُفتَقِرًا إليه؛ فلِضَعفِهم جُعِلوا كأنَّهم جميعُ هذا الجِنسِ[2]؛ فـ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ بالألفِ واللامِ معناها أنَّنا في جَميعِ أحوالِنا كلِّها مُفتَقِرونَ إلى ربِّنا سُبحانَه وتعالَى[3].

- وإتْباعُ صِفةِ ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ بـ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ تَكميلٌ؛ فهو احْتِراسٌ لِدَفْعِ تَوهُّمِهم أنَّه لَمَّا كان غَنيًّا عن استِجابَتِهم وعِبادَتِهم؛ فهُم مَعْذورونَ في ألَّا يَعبُدوهُ، فنُبِّهَ على أنَّه مَوْصوفٌ بالحَمدِ لِمَن عَبَدَه واستَجابَ لِدَعْوتِه، كما وَقَع ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ في مُقابَلةِ قَولِه: ﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾؛ لأنَّه لَمَّا قُيِّدَ فَقرُهم بالكَونِ إلى اللهِ، قُيِّدَ غِنى اللهِ تعالَى بوَصْفِ الحَميدِ؛ لإفادةِ أنَّ غِناهُ تعالَى مُقتَرِنٌ بجُودِه، فهو يَحمَدُ مَن يَتوجَّهُ إليه. وقيل: ذكَرَ (الحميد)؛ ليَدُلَّ به على أنَّه الغنيُّ النَّافعُ بغِناه خَلْقَه، الجَوَادُ المنعِمُ عليهم، المُستَحِقُّ بإنعامِه أنْ يَحمَدوه[4].

---

= وتقدم تعريف القصر بأنواعه (ص: ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٣٠- ٦٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٦).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ واقعٌ مَوقعَ البَيانِ لِمَا تَضمَّنَتْه جُمْلةُ: ﴿هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] من مَعْنى قِلَّةِ الاكتِراثِ بإعْراضِهم عنِ الإسْلامِ، ومِن مَعْنى رِضاهُ على مَن يَعبُدُه؛ فهو تعالَى -لغِناهُ عنهم وغَضَبِه عليهم- لو شاءَ لأبادَهم، وأتَى بخَلْقٍ آخَرينَ يَعبُدونَه، فخَلَصَ العالَمُ مِن عُصاةِ أمْرِ اللهِ، وذلك في قُدْرتِه، ولكنَّه أمْهَلهم إعْمالًا لصِفةِ الحِلْمِ[1]، وهذا على أنَّ الخِطابَ للمشركينَ.

- ومَفْعولُ فِعلِ المَشيئةِ في قولِه: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ مَحْذوفٌ؛ استِغناءً بما دلَّ عليه جَوابُ الشَّرطِ، وهو يُذْهِبْكُمْ، أي: إنْ يَشَأْ إذْهابَكم[2].

- قولُه: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾ زِيادةٌ في الإرْهابِ والتَّهديدِ؛ ليكونوا مُتوقِّعينَ حُلولَ التَّبديلِ بهم[3].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تَعقيبٌ لِمَا سبَق -حيثُ سِيقَ بغرَضِ التَّهديدِ- بطَمأنةِ المسلمينَ بأنَّ مَن لم يَأتِ وِزْرًا لا يَنالُه جَزاءُ الوازِرِ في الآخِرةِ، وقد يكونُ وَعدًا بالإنجاءِ مِن عَذابِ الدُّنيا إذا نَزَل بالمُهدَّدينَ الإذْهابُ والإهْلاكُ، مِثلَما أَهْلَكَ فَريقَ الكُفَّارِ يومَ بَدْرٍ، وأَنْجَى فَريقَ المُؤمِنينَ، فيكونُ هذا وَعدًا خاصًّا؛ فمَوقعُ قَولِه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ كمَوقعِ قَولِه تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]؛ ولهذا فإنَّه تَأمينٌ للمُسلِمينَ من الاستِئْصالِ كقَولِه تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣] بقَرينةِ قَولِه عَقِبَه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾، وهو تَأمينٌ من تَعْميمِ العِقابِ في الآخِرةِ بطَريقِ الأَوْلى. ويجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ: ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخرى يَومَ القِيامةِ، أي: إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ جميعًا، ولا يُعذِّبُ المُؤمِنينَ في الآخِرةِ[1].

- وفي قولِه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ جَرَى وَصْفُ الوازِرةِ على التَّأْنيثِ؛ لأنَّه أُريدَ به النَّفْسُ، ووَجهُ اخْتيارِ الإسْنادِ إلى المُؤنَّثِ بتَأْويلِ النَّفْسِ دون أنْ يَجريَ الإضْمارُ على التَّذْكيرِ بتَأْويلِ الشَّخْصِ؛ لأنَّ مَعْنى النَّفْسِ هو المُتبادَرُ للأذْهانِ عِندَ ذِكرِ الاكتِسابِ، كما في قَولِه تَعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ [الأنعام: ١٦٤]، وغيرِ ذلك مِن الآياتِ[2].

- وقال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ولم يَقُلْ: (ولا تزرُ نَفسٌ وِزرَ أُخرى)؛ لأنَّه لو قال (ولا تزرُ نفسٌ وِزرَ أُخرى) لَمَا عُلِمَ أنَّ كُلَّ نَفْسٍ وازِرةٌ مَهمومةٌ بهَمِّ وِزرِها، متحيِّرةٌ في أمرِها. ولم يجمَعْ بين الموصوفِ والصِّفةِ، فلم يَقُلْ: (ولا تَزِرُ نَفسٌ وازِرةٌ وِزرَ أُخرى)، فترَكَ ذِكرَ الموصوفِ؛ لِظُهورِ الصِّفةِ، ولُزومِها للمَوصوفِ[3].

- وفي قَولِه: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ حُذِف مَفْعولُ ﴿تَدْعُ﴾؛ لقَصدِ العُمومِ؛ ليَعُمَّ ويَشمَلَ كُلَّ مَدعوٍّ، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٧ - ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣١).

وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ أيَّ مَدْعُوٍّ. وجُعِل الدُّعاءُ إلى الحِمْلِ؛ لأنَّ الحِمْلَ سَبَبُ الدُّعاءِ وعِلَّتُه، فالتَّقْديرُ: وإنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ أحَدًا إليها لأجْلِ أنْ يَحمِلَ عنها حِمْلَها؛ فحُذِف أحَدُ مُتعلَّقَي الفِعْلِ المَجْرورِ باللَّامِ لِدَلالةِ الفِعلِ ومُتعلَّقِه المَذْكورِ على المَحْذوفِ. وهذا إشارةٌ إلى ما سيَكونُ في الآخِرةِ، أي: لو استَصْرخَتْ نَفْسٌ مَن يَحمِلُ عنها شَيئًا مِن أوْزارِها -كما كانوا يَزعُمونَ أنَّ أصْنامَهُم تَشفَعُ لهم أو لغَيرِهِم- لا تَجِدُ مَن يُجيبُها لذلك[1].

- وقَولُه: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ أفادَ العُمومَ والمُبالَغةَ، ووَجهُ المُبالَغةِ مِن (لو) الوَصليَّةِ: أنَّ ذا القُرْبى أرَقُّ وأشفَقُ على قَريبِه، فقد يُظَنُّ أنَّه يُغني عنه في الآخِرةِ بأنْ يُقاسِمَه الثِّقَلَ الذي يُؤدِّي به إلى العَذابِ؛ فيَخِفَّ عنه العَذابُ بالاقتِسامِ؛ فكان هذا إبْطالًا لاعتِقادِ الغَناءِ الذَّاتيِّ بالتَّضامُنِ والتَّحامُلِ، فقد كان المُشرِكونَ يَقيسونَ أُمورَ الآخِرةِ على أُمورِ الدُّنيا، فيُعلِّلونَ أنفُسَهم إذا هُدِّدوا بالبَعْثِ بأنَّه إنْ صحَّ، فإنَّ لهم يَومَئذٍ شُفَعاءَ وأنْصارًا[2].

- قولُهُ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ استِئْنافٌ بَيانيٌّ مَسوقٌ لِبَيانِ مَن يتَّعِظُ بما ذُكِر؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَخطُرُ في نَفسِه التَّعجُّبُ من عَدَمِ تَأثُّرِ أكثَرِ المُشرِكينَ بإنْذارِه؛ فأُجيبَ بأنَّ إنْذارَه يَنتفِعُ به المُؤمِنونَ ومَن تَهيَّؤوا للإيمانِ[3].

- وإيرادُ هذه الآيةِ عَقِبَ التي قَبلَها يُؤكِّدُ أنَّ المَقصِدَ الأوَّلَ مِن التي قبْلَها مَوعِظةُ المُشرِكينَ وتَخويفُهم، وإبلاغُ الحَقيقةِ إليهم؛ لاقتِلاعِ مَزاعِمِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٨٩ - ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٠).

وأوْهامِهم في أمْرِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ -على قولٍ في التفسيرِ-، فأقبَلَ اللهُ على رَسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالخِطابِ؛ لِيَشعُرَ بأنَّ تلك المَواعِظَ لم تُجْدِ فيهم، وأنَّها إنَّما يَنتفعُ بها المُسلِمونَ، وهو أيضًا يُؤكِّدُ ما في الآيةِ الأُولى مِن التَّعْريضِ بتَأْمينِ المُسلِمينَ بما اقْتَضاهُ عُمومُ الإنْذارِ والوَعيدِ[1].

- قولُهُ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ...﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ؛ فإنَّ تَعلُّقَ الفِعلِ المَقْصورِ عليه بـ ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ تَعلُّقٌ على مَعْنى حُصولِ أثَرِ الفِعلِ. وهو قَصرُ قَلْبٍ؛ لأنَّ المَقْصودَ التَّنبيهُ على ألَّا يظُنَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ انتِفاعَ الذين لا يُؤمِنونَ بنِذارتِه[2].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لَمَّا كانتْ هاتانِ الصِّفتانِ -خَشيةُ الربِّ بالغيبِ، وإقامةُ الصَّلاةِ- مِن خَصائِصِ المُسلِمينَ صارَ المَعْنى: إنَّما تُنذِرُ المُؤمِنينَ؛ فعَدَلَ عن استِحْضارِهِم بأشهَرِ ألْقابِهم معَ ما فيه مِن الإيجازِ إلى استِحْضارِهِم بصِلَتَينِ معَ ما فيهما مِن الإطْنابِ، تَذرُّعًا بذِكرِ هاتَينِ الصِّلَتينِ إلى الثَّناءِ عليهم بإخْلاصِ الإيمانِ في الاعتِقادِ والعَمَلِ[3].

- واختِلافُ الفِعْلينِ: ﴿يَخۡشَوۡنَ﴾ ﴿وَأَقَامُواْ﴾ -حيثُ جاء أحدُهما مُضارِعًا والآخَرُ ماضيًا-؛ للدَّلالةِ على استِمرارِهم على ذلك في جَميعِ الأَزمنةِ[4].

- وجُملةُ: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفۡسِهِۦ﴾ تَذْييلٌ جارٍ مَجْرى المَثَلِ، وذِكرُ التَّذْييلِ عَقِبَ المُذيَّلِ يُؤذِنُ بأنَّ ما تَضمَّنَه المُذيَّلُ داخِلٌ في التَّذْييلِ بادِئَ ذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٩٠ - ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((التفسير المظهري)) (٨/ ٥٢).

بَدءٍ، مِثْلُ دُخولِ سَببِ العامِّ في عُمومِهِ من أوَّلِ وَهْلةٍ دون أنْ يُخَصَّ العامُّ به، والمَعْنى: إنَّ الذين خَشَوْا ربَّهُم بالغَيبِ وأقاموا الصَّلاةَ هُمْ مِمَّن تَزَكَّى، فانْتَفَعوا بتَزْكِيَتِهم[١].

- والمَقْصودُ من القَصْرِ في قَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ أنَّ قَبولَهُم النِّذارةَ كان لِفائِدةِ أنفُسِهم؛ ففيه تَعريضٌ بأنَّ الذين لم يَعبَؤوا بنِذارتِهِ تَرَكوا تَزْكيةَ أنفُسِهم بها، فكان تَرْكُهم ضُرًّا على أنفُسِهم[٢].

- وجُملةُ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ تَكميلٌ للتَّذْييلِ، والتَّعْريفُ في المَصيرِ للجِنْسِ، أي: المصيرُ كُلُّه إلى اللهِ، سواءٌ فيه مَصيرُ المُتزَكِّي ومَصيرُ غَيرِ المُتزَكِّي، وكُلٌّ يُجازى بما يُناسِبُه[٣].

- وتَقديمُ المَجْرورِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾؛ للاهتِمامِ، وللتَّنبيهِ على أنَّه مَصيرٌ إلى مَن اقْتَضَى اسْمُه الجَليلُ الصِّفاتِ المُناسِبةَ؛ لإقامةِ العَدلِ، وإفاضةِ الفَضْلِ، مع رِعايةِ الفاصِلةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٩١ - ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٢٩٢).

## الآيات (١٩-٢٦)

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْحَرُورُ﴾: أي: الرِّيحُ الحارَّةُ، والنَّارُ، وأصلُه يدُلُّ على خِلافِ البَردِ والظِّلِّ[1].

﴿خَلَا﴾: أي: سلَفَ ومضَى، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تَعرِّي الشيءِ مِن الشيءِ[2].

﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾: أي: الكُتُبِ، جمْعُ زَبورٍ، وهو: كُلُّ كِتابٍ ذي حِكمةٍ، وأصلُه يدُلُّ على قِراءةٍ وكِتابةٍ[3].

﴿نَكِيرِ﴾: أي: إنكاري، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) (٢/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٥٨)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى الفَرْقَ الكَبيرَ بيْنَ المُؤمِنِ والكافِرِ، وبيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وبيْنَ العِلمِ والجَهلِ؛ فالأضدادُ لا تَتساوَى، فيقولُ: ولا يَستوي الأعمى والبَصيرُ في إدراكِ المُبصَراتِ، ولا تَستوي الظُّلُماتُ والنُّورُ، ولا يَستوي الظِّلُّ ولا حَرُّ الشَّمسِ، ولا يَستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ، إنَّ اللهَ يُسمِعُ مَن يَشاءُ إسماعَه، وما أنتَ -يا محمَّدُ- بمُسمِعٍ الأمواتَ في قُبورِهم؛ ما أنت إلَّا نذيرٌ.

ثم يقول تعالى: إنَّا أرسَلْناك -يا محمَّدُ- بالحَقِّ بَشيرًا لِمَن أطاعَك، ونذيرًا لِمَن عصاك، وما مِن أُمَّةٍ مِن الأُمَمِ الماضيةِ إلَّا بعَثْنا فيهم رَسولًا يُنذِرُهم عذابَ اللهِ.

ثُمَّ يقولُ تعالَى مُسلِّيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: وإنْ يُكَذِّبْك -يا محمَّدُ- كفَّارُ قَومِك، فقدْ كذَّبَ الذين مِن قَبلِهم رُسُلَهم، وقد جاؤُوهم بالأدِلَّةِ الظَّاهِرةِ وبالكُتُبِ الإلهيَّةِ وبالكِتابِ المنيرِ، ثمَّ أهلَكْتُ الذين كَفَروا، فكيف كان إنكاري وعِقابي؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالَى الهُدى والضَّلالةَ، ولم يَهتَدِ الكافِرُ، وهَدَى اللهُ المؤمِنَ؛ ضَرَب لهم مَثَلًا بالبَصيرِ والأعمَى؛ فالمؤمِنُ بصيرٌ حيثُ أبصَرَ الطَّريقَ الواضِحَ، والكافِرُ أعمَى[1].

وأيضًا بَعدَ أنْ بيَّنَ قِلَّةَ نَفعِ النِّذارةِ للكافِرينَ، وأنَّها لا يَنتفِعُ بها غَيرُ المُؤمِنينَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٢).

ضرَبَ للفَريقَينِ أمثالًا كاشِفةً عن اختِلافِ حالَيْهما، فقال[1]:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾﴾.

أي: ولا يَستوي الأعمَى والبصيرُ في إدراكِ المُبصَراتِ، وكذا لا يَستوي الكافِرُ والمؤمِنُ، والجاهلُ والعالمُ[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٦).

قيل: المرادُ: الكافر والمؤمن، وممن اختاره: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والواحدي، وابن الجوزي، والرازي، والرسعني، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٧).

وقيل: المرادُ بالأعمَى: الجاهِلُ، وبالبصيرِ: العالِمُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن القيِّم. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٩).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي: الكافرُ والمؤمنُ والجاهلُ والعالمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٣٩).

وقال ابنُ عثيمين: (هذا مَثَلٌ حِسِّيٌّ يجب أن نَنتقِلَ منه إلى المثَلِ المعنويِّ، وأمَّا قولُ المفَسِّر [أي جلال الدِّين المحلِّي] رحمه الله: «الكافِرُ والمؤمِنُ» ففيه نظر، يعني: كأنَّه يريدُ أن يقولَ: إنَّ الأعمَى هو الكافِرُ، والبصيرَ هو المؤمِنُ، ولكنَّنا نقولُ: لا. الآيةُ يُراد بها نفيُ المساواةِ في الأمورِ الحِسِّيَّةِ الظَّاهرةِ التي لا يُنكِرُها أحدٌ؛ إذ إنَّ الكافِرَ والزِّنديقَ، والمعانِدَ والمستكبِرَ لا يُمكنُ أنْ يَدَّعُوا تَساوي الأعمَى والبَصيرِ، لكن قدْ يدَّعُون تَساويَ المؤمِنِ والكافِرِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٦).

﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

أي: ولا تَستوي الظُّلُماتُ معَ النُّورِ، وكذا لا تَستوي ظُلماتُ الكُفرِ ونُورُ الإيمانِ[1].

﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: ولا يَستوي الظِّلُّ ولا شِدةُ الحَرِّ، وكذا لا تَستوي الجَنَّةُ والنارُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

وممَّن قال بأنَّ الظُّلُماتِ هنا هي الكُفرُ، والنُّورَ هو الإيمانُ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن جزي، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣١٧٩).

قال ابنُ عُثَيمين: (... الظَّاهِرُ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى أراد الظُّلماتِ الحِسِّيَّةَ، والنورَ الحِسِّيَّ؛ لأنَّ نفيَ الاستواءِ بيْن هذين أمرٌ لا يمكِنُ إنكارُه؛ لأنَّه مُدرَكٌ بالحِسِّ، ولكِنْ لا شكَّ أنَّ المرادَ بذلك ظُلماتُ الكُفرِ ونُورُ الإيمانِ، يعني: أنَّها إشارةٌ إلى ذلك؛ ولذلك جمَعَ الظُّلماتِ وأفرد النُّورَ؛ لأنَّ سُبُلَ الكفرِ كثيرةٌ، وأمَّا الإيمانُ فسبيلُه واحِدٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧-٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

قال ابنُ جُزي: (والحَرورُ في اللُّغةِ: شِدةُ الحرِّ بالنَّهارِ واللَّيلِ، والسَّمومُ بالنَّهارِ خاصَّةً). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٤).

وممَّن اختار أنَّ معنى الكلامِ: لا تَستوي الجنةُ والنارُ: الفرَّاءُ، والواحديُّ، والسَّمعاني، وابن القيِّم، والبِقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٦٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩)، ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣١٧٩).

وذهَب ابنُ عاشور إلى أنَّه شبَّه الكُفرَ بالحَرور، وشبَّه الإيمانَ بالظِّلِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

=

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّها مَثَلٌ آخَرُ في حَقِّ المؤمِنِ والكافِرِ، كأنَّه قال تعالى: حالُ المؤمِنِ والكافِرِ فوقَ حالِ الأعمَى والبَصيرِ؛ فإنَّ الأعمَى يُشارِكُ البَصيرَ في إدراكٍ ما، والكافِرَ غيرُ مُدرِكٍ إدراكًا نافِعًا، فهو كالمَيِّت؛ ولذلك أعاد الفِعلَ، فقال[1]:

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾.

أي: ولا يَستوي الأحياءُ مع الأمواتِ، وكذا لا يَستوي المؤمِنونَ مع الكُفَّارِ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُسمِعُ مَن يَشاءُ إسماعَه[3].

---

= وقال ابنُ عُثَيمين: (هذا مَثَلٌ لأمرٍ حسيٍّ لا يُمكنُ إنكارُه، لكن يُنتقَلُ منه إلى أمْرٍ مَعنويٍّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٤).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالأحياءِ: المؤمِنون، وبالأمواتِ: الكُفَّارُ: ابن جرير، والرسعني، وابن القيِّم، وابن كثير، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٨٤)، ((بدائع الفوائد)) (٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢-٢٩٤)، ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣١٧٩).

قال ابنُ عُثَيمين: (الأحياءُ والأمواتُ يُرادُ به الحياةُ الحسيةُ والموتُ الحسيُّ...، والذي يماثلُ هذه الأشياءَ الحسيةَ مِن الأمورِ المعقولةِ هو مَثَلُها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩)، ((تفسير =

﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾.

أي: وليس في مَقدورِك -يا محمَّدُ- أن تُسمِعَ الأمواتَ في قُبورِهم، وكذا ليس في مَقدورِك هِدايةُ مَن لم يَشأِ اللهُ هِدايتَه[1].

---

= ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يُسمِعُ آياتِ كتابِه سَماعَ فَهم وقَبولٍ مَن يشاءُ هدايتَه للإيمانِ: ابن جَرير، وابن كَثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

وقالَ البِقاعي: (﴿يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: فيَهديه ولو لم يكُنْ له قابليَّةٌ في العادةِ، كالجَماداتِ، ويُصِمُّ مَن يشاءُ فيُعميه ويَنكُسُه ويُرديه مِن أحياءِ القُلوبِ والأرواحِ، وأمواتِ المعاني والأشباحِ، والمعنى: أنَّ إسماعَهم لو كان مُستنِدًا إلى الطَّبائعِ لاستَوَوا؛ إمَّا بالإجابةِ، أو الإعراضِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٩-٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

قيل: المرادُ: لا تَستطيعُ -يا محمَّدُ- أن تُسمِعَ الكُفَّارَ الذين ماتتْ قلوبُهم سماعًا ينتَفِعونَ به. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جَرير، والقرطبي، وابن القيِّم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٥٩).

قال ابنُ القيِّم: (وأمَّا قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ فسياقُ الآيةِ يدُلُّ على أنَّ المرادَ منها: أنَّ الكافِرَ الميِّتَ القَلبِ لا تَقدِرُ على إسماعِه إسماعًا ينتفعُ به، كما أنَّ مَن في القبورِ لا تقدِرُ على إسماعِهم إسماعًا ينتفعونَ به، ولم يُرِدْ سُبحانه أنَّ أصحابَ القُبورِ لا يَسمَعونَ شَيئًا البتَّةَ، كيف وقد أخبر النبيُّ أنَّهم يَسمَعونَ خَفْقَ نِعالِ المشيِّعينَ [البخاري «١٣٧٠» ومسلم «٢٨٧٤»]، وأخبَرَ أنَّ قَتلى بَدرٍ سَمِعوا كلامَه وخِطابَه [البخاري «١٣٣٨»، ومسلم «٢٨٧٠»]، وشَرَعَ السَّلامَ عليهم بصيغةِ الخِطابِ للحاضرِ الذي يَسمَعُ [مسلم «٢٤٩»]،...). ((الروح)) (ص: ٤٥).

وقيل: الأظهرُ هنا أن يكونَ المرادُ بالموتَى: الذين ماتوا حقيقةً؛ فالرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يُسمِعُ الكُفَّارَ الذين فارقوا الدُّنيا وانتَقَلوا إلى القبورِ سَماعًا ينتفِعونَ به فيَهتَدونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٦٣-١٦٤). =

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ * وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨٠، ٨١].

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ما أنت -يا محمَّدُ- إلَّا نذيرٌ تُبلِّغُ رِسالةَ اللهِ سُبحانَه، سواءٌ أَستجابَ لك النَّاسُ أم لم يَستَجيبوا؛ فإنَّما جعَلَ اللهُ لك الاستِطاعةَ على الإنذارِ الذي كلَّفَك به، لا على إسماعِ مَن لم يَشَأِ اللهُ إسماعَه، أو على هِدايةِ مَن لم يَشأِ اللهُ هدايتَه[1].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّه لَمَّا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نبيَّ الرَّحمةِ، وكان الاقتِصارُ على وَصفِ النِّذارةِ رُبَّما أوهَمَ غيرَ ذلك؛ أتبَعَه قَولَه[2]:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

أي: إنَّا أرسَلْناك -يا محمَّدُ- بالحَقِّ[3] .....

---

= وقيل المعنى: وما أنت بمُسمعٍ مَن في القبورِ الحِسِّيةِ والمعنويَّةِ إسماعًا ينفَعُهم، بل اللهُ يُسمِعُهم إن شاء؛ فلا تَذهَبْ نفسُك عليهم حَسَراتٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((الروح)) لابن القيِّم (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٦٤-١٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧-٢١٨). =

بشيرًا لِمَن أطاعَك، ونَذيرًا لِمَن عَصاك[١].

﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾.

أي: وما مِن أُمَّةٍ من الأُمَمِ الماضيةِ إلَّا بعَثْنا فيهم رَسولًا يُنذِرُهم عذابَ اللهِ تعالَى[٢].

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّه أعْقَبَ الثَّناءَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَسليتِه على تَكذيبِ قَومِه،

---

= قال الشوكاني: (﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِن الفاعلِ، أي: مُحِقِّينَ، أو مِن المفعولِ، أي: محقًّا، أو: نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إرسالًا مُلتبِسًا بالحقِّ، أو هو متعلِّق بـ ﴿بَشِيرًا﴾، أي: بشيرًا بالوعدِ الحقِّ، ونذيرًا بالوعدِ الحقِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٧).

وقال ابنُ عُثيمين: (قولُه تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ يَحتَمِلُ أن تكونَ الباءُ للتعديةِ، أي: إنَّنا أعطيناك حقًّا وأرسلناك به، ويحتَمِلُ أن يكونَ وصفًا للرِّسالةِ، يعني: أرسلناك رسالةَ حَقٍّ ... فعلَى المعنى الثاني يكونُ معنى الآيةِ: أنَّ إرسالَ النبيِّ حقٌّ. وعلى المعنى الأوَّل يكونُ معناها: أنَّ الرَّسولَ جاء بالحقِّ، وإنْ كان المعنيانِ مُتلازِمَينِ، لكِنَّهما مختَلِفانِ مِن حيثُ المورِدُ؛ فعلى الأولِ يكونُ مَورِدُ الوَصفِ الرِّسالةَ نَفسَها، وعلى الثاني يكونُ مَورِدُ الوَصفِ المُرسَلَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٧١).

وقيل: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾، أي: بالقُرآنِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٧٠)

وقال ابن جرير: (﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وهو الإيمانُ بالله وشرائعِ الدِّينِ التي افترَضها على عِبادِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

وتأنيسِه بأنَّ تلك سُنَّةُ الرُّسُلِ معَ أُمَمِهم[١].

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

أي: وإنْ يُكَذِّبْك -يا مُحمَّدُ- كُفَّارُ قَومِك، فقد كَذَّب الذين مِن قَبلِهم مِنَ الأُمَمِ الماضِيةِ رُسُلَهم؛ فلسْتَ بأوَّلِ رَسولٍ كذَّبَه قَومُه؛ فلا تحزَنْ[٢]!

﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴾.

أي: جاءتْ تلك الأُمَمَ الماضيةَ رسُلُهم بالأدِلَّةِ الظَّاهِرةِ، وبالكُتُبِ الإلهيَّةِ، وبالكِتابِ المُنيرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

قال ابنُ عاشور: (والتقديرُ: إن يكَذِّبوك فلا تحزَنْ، ولا تحسَبْهم مُفلِتينَ من العِقابِ على ذلك؛ إذ قد كذَّب الأقوامُ الذين جاءتْهم رسلٌ مِن قَبلِ هؤلاء، وقدْ عاقبناهم على تَكذيبِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيِّم (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

قال الشَّوكاني: (قِيل: الكتابُ المنيرُ داخلٌ تحتَ الزُّبُرِ وتحتَ البيِّناتِ، والعطفُ؛ لتغايرِ المفهوماتِ، وإنْ كانت مُتَّحِدَةً فِي الصِّدْقِ. والأَولى تَخصيصُ البيِّناتِ بالمُعجزاتِ، والزُّبُرِ: بالكُتُبِ التي فيها مواعِظُ، والكتابِ: بما فيه شرائعُ وأحكامٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٧).

وقيل: الكِتابُ المنيرُ هو التَّوراةُ والإنجيلُ. وممَّن قال بهذا القول: ابنُ القيِّم، والعُلَيمي. يُنظر: ((طريق الهجرتين)) (ص: ١٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٥٠).

واختارَ ابنُ عُثَيمين أنَّه كُلُّ كِتابٍ بَعَثَ اللهُ به الرَّسولَ؛ لِيُنيرَ الطَّريقَ لأُمَّتِه؛ فيَشمَلُ التَّوراةَ والإنجيلَ وصُحُفَ إبراهيمَ، وغَيرَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٥).

قال السعديُّ: (﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أي: المُضيءِ في أخبارِه الصَّادِقةِ، وأحكامِه العادِلةِ؛ فلم يكُنْ تكذيبُهم إيَّاهم ناشِئًا عن اشتباهٍ أو قُصورٍ بما جاءتهم به الرُّسُلُ، بل بسبَبِ ظُلمِهم وعِنادِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالَى نبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ هدَّد مَن خالَفَه وعصاه، بما فعَلَ في تِلك الأمَمِ، فقالَ تعالَى[1]:

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: ثمَّ أهلَكْتُ أولئك الذين كَفَروا بي وبما جاءَتْهم به رسُلُهم[2].

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

أي: فكيفَ كان إنكاري على تِلك الأُمَمِ المكَذِّبةِ وعِقابي[3]؟

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فكما أنَّه مِن المتقرِّرِ الذي لا يقبَلُ الشَّكَّ أنَّ هذه المذكوراتِ لا تتساوَى، فكذلك عدَمُ تَساوي المتضادَّاتِ المعنويَّةِ أَوْلَى وأَوْلى؛ فلا يَستوي

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٨).

المؤمِنُ والكافِرُ، ولا المُهتدي والضَّالُّ، ولا العالِمُ والجاهِلُ، ولا أصحابُ الجنَّةِ وأصحابُ النَّارِ، ولا أحياءُ القُلوبِ وأمواتُها؛ فبَينَ هذه الأشياءِ مِن التفاوُتِ والفَرقِ ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالَى، فإذا عُلِمَت المراتِبُ، ومُيِّزَت الأشياءُ، وبان الذي يَنبغي أنْ يُتنافَسَ في تَحصيلِه مِن ضِدِّه؛ فلْيَختَرِ الحازِمُ لِنَفسِه ما هو أَوْلَى به وأحقُّه بالإيثارِ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- نَفيُ التَّساوي في كِتابِ اللهِ تعالَى قدْ يأتي بيْنَ الفِعلَينِ، كقَولِه تعالَى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١٩]، وقد يأتي بين الفاعِلَينِ، نحو: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥]، وقد يأتي بين الجَزاءَينِ، كقَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقد جمَع اللهُ بيْن الثَّلاثةِ في آيةٍ واحِدةٍ، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾؛ فالأعمى والبصيرُ: الجاهِلُ والعالِمُ، والظُّلُماتُ والنُّورُ: الكُفرُ والإيمانُ، والظِّلُّ والحَرورُ: الجنَّةُ والنَّارُ، والأحياءُ والأمواتُ: المؤمِنون والكُفَّارُ[2]، وذلك على قَوْلٍ في التفسيرِ فيها.

٢- قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ جِيءَ بلَفظِ ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ جَمْعًا مع إفْرادِ ﴿ٱلنُّورُ﴾؛ لتَعدُّدِ فُنونِ الباطِلِ، واتِّحادِ الحقِّ[3]. وقيلَ: جِيءَ في ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ بلَفظِ الجمْعِ؛ لأنَّه الأغلبُ في الاستِعْمالِ؛ فهُم

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٨٨).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (٤/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩).

لا يَذكُرونَ الظُّلْمةَ إلَّا بصِيغةِ الجَمعِ[١].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والجَهميَّةِ؛ لأنَّا لا نَشُكُّ أنَّ اللهَ جَلَّ وتعالَى ضَرَبَ هذه الأمثالَ للكافِرِ والمؤمِنِ، وأنَّ الحيَّ هو المؤمِنُ، والميِّتَ هو الكافِرُ؛ فإذا كان المُسمِعُ هو اللهُ جلَّ وعلا، ولا يَستطيعُ ذو سَمعٍ أنْ يَسمَعَ بسَمعِه حتى يُسمِعَه اللهُ، وكلاهما -مِن المؤمنِ والكافرِ- ذو سَمْعٍ: عَلِمْنا أنَّ المؤمِنَ سَمِع بتوفيقِ اللهِ الموعِظةَ، فوَعاها سَمعُه، وأوصلَها إلى قَلبِه بمَشيئتِه في نجاتِه، وأنَّ الكافِرَ صَمَّ عنها بخِذلانِ اللهِ، وزَوالِ توفيقِه عنه؛ فلم تَعِها أُذنُه، ولم يَقبَلْها قلبُه؛ لخُلُوِّه مِن مَشيئةِ اللهِ في المؤمِنِ، ودُخولِه في إضلالِه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾، وقولُه في الآيةِ الأخرى: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠] فيه الجَزْمُ بنفْيِ سَماعِ الأمواتِ، ويُجْعَلُ ما ثَبَتَ فيه الحديثُ مِن السَّمَاعِ[٣] مُخَصِّصًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣)

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٦٩٩).

(٣) يُنظر ما أخرجه البُخاريُّ (١٣٧٠) مِن حَديثِ ابنِ عُمَرَ رَضيَ اللهُ عنهما، قال: ((اطَّلَعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أهلِ القَليبِ، فقال: وَجَدتُم ما وَعَدَ رَبُّكم حَقًّا))؟ فقيل له: تَدْعو أمواتًا؟! فقال: ((ما أنتُم بأسمَعَ منهم، ولكِنْ لا يُجيبونَ)).

وفي رِوايةٍ ((والَّذي نَفْسي بيَدِه، ما أنتُم بأسمَعَ لِمَا أقولُ منهم، ولكِنَّهم لا يَقدِرونَ أنْ يُجيبوا)) أخرَجَه مُسلِمٌ (٢٨٧٤) مِن حَديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه.

وأخرج البخاريُّ (١٣٣٨)، ومُسلِمٌ (٢٨٧٠) مِن حَديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال نَبيُّ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ العَبدَ إذا وُضِعَ في قَبْرِه، وتَوَلَّى عنه أصحابُه، إنَّه لَيَسمَعُ قَرْعَ نِعالِهم...)) الحَديثَ.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٧٠).

٥- قالَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ الذين يُنكِرونَ أنْ تكونَ أفعالُ العِبادِ بمَشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ وَصْفُ الكافرِ بأنَّه مَيِّتٌ، وأنَّه بمنزلةِ أصحابِ القُبورِ؛ وذلك: أنَّ القَلبَ الحيَّ هو الذي يَعرِفُ الحقَّ ويَقبَلُه، ويُحِبُّه ويُؤثِرُه على غَيرِه، فإذا ماتَ القَلبُ لم يَبقَ فيه إحساسٌ ولا تمييزٌ بينَ الحقِّ والباطلِ، ولا إرادةٌ للحَقِّ وكراهةٌ للباطِلِ، بمنزلةِ الجَسَدِ الميِّتِ الذي لا يُحِسُّ بلذَّةِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وألَمِ فَقدِهما[٢].

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ بيانُ ما يَشتَمِلُ عليه دِينُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الحقِّ الذي ضِدُّه الباطِلُ، والباطِلُ إنْ كان في الأخبارِ فهو الكَذِبُ، وإنْ كان في الأحكامِ فهو الجَورُ والظُّلمُ؛ وعليه فرِسالةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُتضَمِّنةٌ للحَقِّ في الأخبارِ والأحكامِ؛ ففيه بيانُ فَضيلةِ هذه الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ التي جاء بها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ كلَّ ما كان حقًّا فإنَّ الشَّريعةَ جاءتْ به، سواءٌ نَصَّتْ عليه بمعناه الخاصِّ أو بالمعنى العامِّ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ بُطلانُ الاحتِجاجِ بالقَدَرِ على مَعصيةِ اللهِ، ولو كان الاحتِجاجُ بالقَدَرِ على المعاصي والمخالَفاتِ ثابتًا لم يَرتفِعْ بإرسالِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ القَدَرَ لا يَرتفعُ بإرسالِ الرُّسُلِ؛ فالرُّسُلُ أرسلَهم اللهُ سُبحانَه وتعالَى إقامةً للحُجَّةِ على الخَلْقِ، ورحمةً بهم أيضًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص:١٧٦، ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٠).

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ بيانُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس ببِدْعٍ مِن الرُّسُلِ حتى تُنكَرَ رِسالتُه ويُقالَ: كيف جاء هذا الرجُلُ برسالةٍ مِن عِندِ اللهِ؟! ويَشهَدُ لهذا قولُه تعالَى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[1] [الأحقاف: ٩].

١٠- بُطلانُ ما ذَهَبَ إليه المتكَلِّمون مِن أهلِ البِدَعِ، الذين بَنَوا عَقيدتَهم على ما يَقتضيه العَقلُ، وقالوا: ما اقتضَى العقلُ إثباتَه لله أثبتْناه، سواءٌ كان مذكورًا في الكِتاب والسُّنَّةِ أم لم يُذْكَرْ، وما نفاه العَقلُ وَجَبَ علينا نفيُه وإنْ ذُكِرَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ! وما لم يَدُلَّ العَقلُ على نفيِه وإثباتِه فإنَّنا نتوقَّفُ فيه، وأكثرُهم قالوا: نَنفيه! لأنَّه لا بُدَّ مِن دَلالةِ العَقلِ على إثباتِه، فإذا لم يَدُلَّ على إثباتِه وَجَبَ نفيُه؛ لعدم وُجودِ الدَّليل!! والرَّدُّ على ذلك يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، ووجهُ ذلك: أنَّه لو كانتِ العُقولُ هي المرجِعَ ما احتِيجَ إلى إرسالِ الرُّسُلِ[2]!

١١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَكذيبِ قَومِه، وتَأنيسُه بأنَّ تلك سُنَّةُ الرُّسُلِ معَ أُمَمِهِم[3]، وفيه عِنايةُ اللهِ تعالى بالرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، بذِكْرِ ما يُسَلِّيه ويُهَوِّنُ عليه الأمرَ؛ وذِكرُ المُصيبةِ المُماثِلةِ يَقتضي تَسليةَ الإنسانِ وتَهوينَ الأمْرِ عليه[4].

١٢- في قَولِه تعالَى: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يَترُكِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٦).

الرُّسُلَ هَمَلًا، بل آتاهم مِن البَيِّناتِ ما يُؤمِنُ على مِثلِه البَشَرُ[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أنَّ الكُتُبَ السَّماويَّةَ مُتضمِّنَةٌ للنُّورِ؛ وأنَّ كلَّ مَن أخَذ بها فقدْ أخَذَ بنورٍ يَمشي به في الظُّلماتِ[٢]، وذلك على قَولٍ في تَفسيرِ الآيةِ.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾

- في هذه الآياتِ أرْبعةُ أمْثالٍ للمُؤمِنينَ والكافِرينَ، وللإيمانِ والكُفْرِ؛ شبَّهَ الكافِرَ بالأعْمى، والكُفْرَ بالظُّلُماتِ والحَرورِ، والكافِرَ بالمَيِّتِ، وشبَّهَ المُؤمِنَ بالبَصيرِ، وشبَّهَ الإيمانَ بالنُّورِ والظِّلِّ، وشبَّهَ المُؤمِنَ بالحَيِّ -وذلك على قَولٍ في تفسيرِها- تَشبيهَ المَعْقولِ بالمَحْسوسِ، ورُوعيَ في هذه الأشْباهِ تَوزيعُها على صِفةِ الكافِرِ والمُؤمِنِ، وعلى حالةِ الكُفرِ والإيمانِ، وعلى أثَرِ الإيمانِ وأثَرِ الكُفرِ، وقُدِّمَ تَشبيهُ حالِ الكافِرِ وكُفرِه على تَشْبيهِ حالِ المُؤمِنِ وإيمانِه ابتِداءً؛ لأنَّ الغَرَضَ الأهمَّ مِن هذا التَّشبيهِ هو تَفْظيعُ حالِ الكافِرِ، ثمَّ الانتِقالُ إلى حُسنِ حالِ ضِدِّه؛ لأنَّ هذا التَّشبيهَ جاءَ لإيضاحِ ما أفادَه القَصْرُ في قَولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨] مِن أنَّه قَصْرٌ إضافيٌّ قَصرُ قَلْبٍ؛ فالكافِرُ شَبيهٌ بالأعْمى في اختِلاطِ أمْرِه بيْنَ عَقلٍ وجَهالةٍ كاختِلاطِ أمْرِ الأعْمى بيْنَ إدْراكٍ وعَدَمِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴾ شُبِّهَ الكُفرُ بالظُّلُماتِ في أنَّه يُجعَلُ الذي أحاطَ هو به غَيرَ مُتبيِّنٍ للأشْياءِ؛ فإنَّ من خَصائِصِ الظُّلْمةِ إخْفاءَ الأشْياءِ، والكافِرُ خَفِيَتْ عنه الحَقائِقُ الاعتِقاديَّةُ، وكُلَّما بيَّنَها له القُرآنُ لم يَنتقِلْ إلى أجْلَى، كما لو وَصَفتَ الطَّريقَ للسَّائِرِ في الظَّلامِ[1].

- قولُه: ﴿ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ * وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ فيه إدْخالُ (لا) على المُتَقابِلَينِ؛ لتَذْكيرِ نَفيِ الاستواءِ، وتَوسيطُها بيْنَهما للتَّأْكيدِ[2].

- قولُه: ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ ضُرِبَ الظِّلُّ مَثَلًا لأثَرِ الإيمانِ، وضِدُّه -وهو الحَرورُ- مَثَلًا لأثَرِ الكُفرِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فالظِّلُّ مَكانُ نَعيمٍ في عُرفِ السَّامِعينَ الأوَّلينَ، وهُمُ العَرَبُ أهْلُ البِلادِ الحارَّةِ التي تَتطلَّبُ الظِّلَّ للنَّعيمِ غالبًا إلَّا في بَعضِ فَصلِ الشِّتاءِ، وقُوبِلَ بالحَرورِ؛ لأنَّه مُؤلِمٌ ومُعذِّبٌ في عُرفِهم. وفي مُقابَلَتِه بالحَرورِ إيذانٌ بأنَّ المُرادَ تَشْبيهُهُ بالظِّلِّ في حالةِ استِطابَتِه؛ فحالُ المُؤمِنِ يُشبِهُ حالَ الظِّلِّ تَطمئِنُّ فيه المَشاعِرُ، وتَصدُرُ فيه الأعْمالُ عن تَبصُّرٍ وتَريُّثٍ وإتْقانٍ. وحالُ الكافِرِ يُشبِهُ الحَرورَ تَضطرِبُ فيه النُّفوسُ، ولا تتمكَّنُ معه العُقولُ من التَّأمُّلِ والتَّبصُّرِ، وتَصدُرُ فيها الآراءُ والمَساعي مُعجَّلةً مُتفكِّكةً[3].

- قولُه: ﴿ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴾ قُدِّم في هذه الفِقْرةِ ما هو مِن حالِ المُؤمِنينَ

---

= حيان)) (٩/ ٢٥- ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٣٨- ٦٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣).

على عَكسِ الفِقْراتِ الثَّلاثِ التي قَبلَها؛ لأجْلِ الرِّعايةِ على الفاصِلةِ بكَلِمةِ ﴿ٱلْحَرُورُ﴾، وفَواصِلُ القُرآنِ من مُتمِّماتِ فَصاحَتِه؛ فلها حظٌّ من الإعْجازِ[1].

وقيل: قُدِّم الأشرَفُ في مَثَلينِ -وهو الظِّلُّ والحَرورُ-، وأُخِّرَ في مَثَلينِ -وهما البَصيرُ والنُّورُ- وذلك لأنَّهم كانوا قبلَ المَبعَثِ في ضَلالةٍ؛ فكانوا كالعُمْيِ، وطَريقُهم الظُّلْمةُ، فلمَّا جاء الرَّسولُ، واهْتَدى به قَومٌ، صاروا بَصيرينَ، وطَريقُهم النُّور، وقُدِّم ما كان مُتقدِّمًا من المُتَّصِفِ بالكُفرِ وطَريقَتِه على ما كان مُتأخِّرًا من المُتَّصِفِ بالإيمانِ وطَريقتِه. ثم لَمَّا ذُكِرَ المآلُ والمَرجِعُ، قُدِّم ما يَتعلَّقُ بالرَّحْمةِ على ما يَتعلَّقُ بالغَضَبِ، كما جاءَ في الحديثِ القدسيِّ: ((سَبَقَتْ رَحْمتي غَضَبي))[2]؛ فقُدِّم الظِّلُّ على الحَرورِ. ثم إنَّ الكافِرَ المُصِرَّ بعدَ البَعْثةِ صارَ أضَلَّ مِن الأعْمَى، وشابَهَ الأمْواتَ في عَدَمِ إدْراكِ الحقِّ، فقال: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ﴾: الذين آمَنوا بما أنزَلَ اللهُ، ﴿وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾: الذين تُلِيَت عليهمُ الآياتُ البيِّناتُ، ولم يَنتَفِعوا بها. وهؤلاء كانوا بعدَ إيمانِ مَن آمَنَ، فأخَّرَهم لوُجودِ حَياةِ المُؤمِنينَ قَبلَ مَماتِ الكافِرِ[3].

وقيل: لَمَّا ضُرِبَ الأعمَى والبصيرُ مَثلَينِ للمُؤمِنِ والكافِرِ، عَقَّب بما كُلٌّ منهما فيه، والكافِرُ في ظُلمةٍ، والمؤمِنُ في نورٍ؛ لأنَّ البصيرَ وإن كان حديدَ البصَرِ لا بدَّ له من ضوءٍ يُبصِرُ فيه، وقَدَّم الأعمى؛ لأنَّ البصيرَ فاصِلةٌ، فحَسُنَ تأخيرُه، ولَمَّا تقدَّم الأعمى في الذِّكرِ ناسَبَ تقديمَ ما فيه؛ فلذلك قُدِّمَت الظُّلمةُ على النُّورِ، ولأنَّ النُّورَ فاصِلةٌ، ثمَّ ذكَرَ ما لكُلٍّ منهما؛ فللمُؤمِنِ الظِّلُّ، وللكافِرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣)

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٥٥٣)، ومسلِمٌ (٢٧٥١) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦- ٢٧).

الحَرورُ، وأخَّرَ الحَرورَ؛ لأجلِ الفاصِلةِ[١].

- وأفرَدَ الأعْمى والبَصيرَ؛ لأنَّه قابَلَ الجِنْسَ بالجِنْسِ؛ إذ قد يُوجَدُ في أفْرادِ العُمْيانِ ما يُساوي به بعضَ أفْرادِ البُصَراءِ، كأعْمى عِندَه مِن الذَّكاءِ ما يُساوي به البَصيرَ البَليدَ؛ فالتَّفاوُتُ بيْنَ الجِنْسَينِ مَقطوعٌ به، لا بيْنَ الأفْرادِ. وأمَّا الأحياءُ والأمْواتُ، فالتَّفاوُتُ بيْنَهما أكثَرُ؛ إذ ما مِن ميِّتٍ يُساوي في الإدْراكِ حيًّا، فذُكِر أنَّ الأحياءَ لا يُساوونَ الأمْواتَ، سواءً قابَلتَ الجِنْسَ بالجِنْسِ، أمْ قابَلتَ الفَرْدَ بالفَرْدِ[٢].

- وجُعِل كُلٌّ من التَّمْثيلَينِ تَمْهيدًا وتَوطِئةً لقَولِه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾؛ لأنَّ المُرادَ بالأحياءِ: المُؤمِنونَ الذي دَخَلوا في دارِ السَّلامِ، وانْتَفَعوا بدَعْوةِ نَبيِّ الرَّحْمةِ صَلَواتُ اللهِ عليه، وبالأمْواتِ: الذين بَقَوْا خارِجينَ عن دارِ أمانِ الدَّعْوةِ، ولم يَرفَعوا لها رأسًا، وأصَرُّوا واسْتَكْبَروا[٣].

- وتَركيبُ هذه الآياتِ عَجيبٌ؛ فقد احْتَوَتْ على واواتِ عَطفٍ، وأدواتِ نَفيٍ؛ فكُلٌّ مِنَ الوَاوَينِ اللَّذينِ في قَولِه: ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ ...﴾ إلخ، وقَولِه: ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ ...﴾ إلخ عاطِفُ جُمْلةٍ على جُمْلةٍ، وعاطِفُ تَشْبيهاتٍ ثَلاثةٍ، بل تَشْبيهٌ منها يَجمَعُ الفَريقَينِ، والتَّقْديرُ: ولا تَسْتوي الظُّلُماتُ والنُّورُ، ولا يَسْتوي الظِّلُّ والحَرورُ، وقد صُرِّح بالمُقدَّرِ أخيرًا في قَولِه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾، وأمَّا الواواتُ الثَّلاثةُ في قَولِه: ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾، ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾؛ فكُلُّ واوٍ عاطِفٌ مُفردًا على مُفرَدٍ؛ فهي سِتَّةُ تَشْبيهاتٍ مُوزَّعةٍ على كُلِّ

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦- ٢٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٣٧).

فَريقٍ فـ (الْبَصِيرُ) عَطفٌ على الأعْمى، و﴿ٱلنُّورُ﴾ عَطفٌ على الظُّلُماتِ، و﴿ٱلْحَرُورُ﴾ عَطفٌ على ﴿ٱلظِّلُّ﴾؛ ولذلك أُعيدَ حَرفُ النَّفيِ. وأمَّا أدواتُ النَّفيِ فاثْنانِ منها مُؤكِّدانِ للتَّغلُّبِ المُوجَّهِ إلى الجُمْلَتينِ المَعْطوفَتَينِ المَحذوفِ فِعْلاهما ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ﴾، واثْنانِ مُؤكِّدانِ لِتوجُّهِ النَّفيِ إلى المُفرَدَينِ المَعْطوفَينِ على مُفرَدَينِ في سياقِ نَفيِ التَّسْويةِ بيْنَهما وبيْنَ ما عُطِفا عليهما، وهُما واوُ ﴿وَلَا ٱلنُّورُ﴾، وواوُ ﴿وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾، والتَّوكيدُ بعضُه بالمِثلِ، وهو حَرفُ (لا) وبَعضُه بالمُرادِفِ، وهو حَرفُ (ما)، ولم يُؤتَ بأداةِ نَفيٍ في نَفيِ الاستِواءِ الأوَّلِ؛ لأنَّه الذي ابتُدِئَ به نَفيُ الاستِواءِ المُؤكَّدِ من بعدُ؛ فهو كُلُّه تَأْييسٌ. وهو استِعْمالٌ قُرآنيٌّ بَديعٌ في عَطفِ المَنْفيَّاتِ من المُفْرداتِ والجُمَلِ[1].

- وقولُه: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تَمثيلٌ آخَرُ للمُؤمِنينَ والكافِرينَ أبلَغُ مِن الأوَّلِ؛ ولذلك كُرِّر الفِعلُ ﴿يَسْتَوِى﴾، وأُوثرَ صِيغةُ الجَمعِ في الطَّرَفينِ؛ تَحْقيقًا للتَّبايُنِ بيْنَ أفْرادِ الفَريقَينِ. وقيلَ: هو تَمْثيلٌ للعُلَماءِ والجَهَلةِ[2].

- وفي هذه الجُمْلةِ ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ أُظهِرَ الفِعلُ الذي قُدِّر في الجُمْلتَينِ اللَّتينِ قَبلَها، وهو فِعلُ ﴿يَسْتَوِى﴾؛ لأنَّ التَّمثيلَ هنا عادَ إلى تَشْبيهِ حالِ المُسلِمينَ والكافِرينَ؛ إذ شُبِّهَ حالُ المُسلِمِ بحالِ الأحياءِ، وحالُ الكافِرينَ بحالِ الأمْواتِ، فهذا ارْتِقاءٌ في تَشْبيهِ الحالَينِ من تَشبيهِ المُؤمِنِ بالبَصيرِ، والكافِرِ بالأعْمى إلى تَشبيهِ المُؤمِنِ بالحيِّ، والكافِرِ بالميِّتِ، فلمَّا كانتِ الحياةُ هي مَبعَثَ المَدارِكِ والمَساعي كَلِّها، وكان المَوتُ قاطِعًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٣ - ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٤٩- ١٥٠).

للمَدارِكِ والمَساعي، شُبِّه الإيمانُ بالحَياةِ في انْبعاثِ خَيرِ الدُّنيا والآخِرةِ منه، وفي تلقِّي ذلك وفَهمِه، وشُبِّهَ الكُفرُ بالمَوتِ في الانْقِطاعِ عن الأعْمالِ والمُدرَكاتِ النَّافِعةِ كُلِّها، وفي عَدَمِ تلقِّي ما يُلْقى إلى صاحِبِهِ؛ فصار المُؤمِنُ شَبيهًا بالحيِّ مُشابَهةً كامِلةً لَمَّا خَرَجَ من الكُفرِ إلى الإيمانِ، فكأنَّه بالإيمانِ نُفِخَت فيه الحَياةُ بعدَ المَوتِ، كما أشارَ إليه قَولُه تعالَى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وكان الكافِرُ شَبيهًا بالميِّتِ ما دام على كُفرِهِ. واكتُفِيَ بتَشبيهِ الكافِرِ والمُؤمِنِ في مَوضِعَينِ عن تَشْبيهِ الكُفرِ والإيمانِ وبالعَكسِ لتَلازُمِهما، وأُوتيَ تَشبيهُ الكافِرِ والمُؤمِنِ في مَوضِعَينِ لكَونِ وَجهِ الشَّبَهِ في الكافِرِ والمُؤمِنِ أوضَحَ، وعُكِسَ ذلك في مَوضِعَينِ؛ لأنَّ وَجهَ الشَّبَهِ أوضَحُ في المَوضِعَينِ الآخَرَينِ(١).

وقيل: كُرِّر الفِعلُ ﴿يَسْتَوِى﴾ مبالغةً في المنافاةِ؛ لأنَّ المنافاةَ بينَ الحياةِ والموتِ أتمُّ مِن المنافاةِ المتقدِّمةِ(٢).

- وكرَّر كَلِمةَ النَّفيِ بين الظُّلماتِ والنُّورِ، والظِّلِّ والحَرورِ، والأحياءِ والأمواتِ، ولم يكرِّرْ بين الأعمى والبصيرِ؛ وذلك لأنَّ التكريرَ للتأكيدِ، والمنافاةُ بين الظُّلمةِ والنُّورِ، والظِّلِّ والحَرورِ مُضادَّةٌ؛ فالظُّلمةُ تُنافي النُّورَ وتُضادُّه، والعمَى والبصَرُ كذلك، أمَّا الأعمى والبصيرُ فليسَا كذلك، بل الشَّخصُ الواحِدُ قد يكونُ بصيرًا، وهو بعينِه يَصيرُ أعمَى؛ فالأعمَى والبصيرُ لا مُنافاةَ بيْنَهما إلَّا مِن حيثُ الوَصفُ، والظِّلُّ والحَرورُ المنافاةُ بيْنهما ذاتيَّةٌ؛ لأنَّ المرادَ مِن الظِّلِّ عدمُ الحَرِّ والبردِ، فلمَّا كانت المنافاةُ هناك أتمَّ، أكَّدَ بالتَّكرارِ، وأمَّا الأحياءُ والأمواتُ وإنْ كانوا كالأعمَى والبَصيرِ مِن حيثُ إنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ١٢٤).

الجِسمَ الواحِدَ يكونُ حَيًّا محلًّا للحياةِ، فيَصيرُ مَيْتًا محلًّا للموتِ، ولكِنَّ المنافاةَ بين الحيِّ والميِّتِ أتمُّ مِن المنافاةِ بين الأعمَى والبصيرِ؛ فالأعمَى والبصيرُ يَشتركانِ في إدراكِ أشياءَ، ولا كذلك الحيُّ والميِّتُ، كيف والميِّتُ يُخالِفُ الحيَّ في الحَقيقةِ لا في الوَصفِ[1]؟!

- قَولُه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾؛ قُدِّم الأحياءُ؛ لشرفِ الحياةِ[2].

- وأيضًا جِيءَ بصِيغةِ الجَمعِ في (الْأحياءُ والأمْواتُ) تفنُّنًا في الكَلامِ بعدَ أنْ أورَدَ (الأعْمى والبَصيرُ) بالإفْرادِ؛ لأنَّ المُفرَدَ والجَمعَ في المُعرَّفِ بلامِ الجِنْسِ سَواءٌ إذا كان اسْمًا له أفْرادٌ، بخِلافِ النُّورِ والظِّلِّ والحَرورِ[3].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ تَعليلٌ؛ تَسليةً لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإقْناطًا له من إيمانِ المُصرِّينَ، وإيذانًا بأنَّ الهاديَ والمُضِلَّ هو اللهُ سُبْحانَهُ[4].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي ٱلْقُبُورِ﴾ أُعقِبَ تَمثيلُ حالِ المُؤمِنينَ والكافِرينَ بحالِ الأحياءِ والأمْواتِ بتَوجيهِ الخِطابِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَعذِرةً له في التَّبليغِ للفَريقَينِ، وفي عَدَمِ قَبولِ تَبْليغِه لدى أحَدِ الفَريقَينِ، وتَسلِيةً له عن ضَياعِ وابِلِ نُصحِه في سِباخِ قُلوبِ الكافِرينَ، فقيلَ له: إنَّ قَبولَ الذين قَبِلوا الهُدَى واسْتَمَعوا إليه كان بتَهيئةِ اللهِ تَعالى نُفوسَهم لقَبولِ الذِّكْرِ والعِلمِ، وإنَّ عَدَمَ انْتِفاعِ المُعرِضينَ بذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧).

هو بسَبَبِ مَوتِ قُلوبِهم، فكأنَّهم الأمواتُ في القُبورِ، وأنتَ لا تَستطيعُ أنْ تُسمِعَ الأمْواتَ، فجاءَ قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ على مُقابَلةِ قَولِه: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَحۡيَآءُ وَلَا ٱلۡأَمۡوَٰتُ﴾ مُقابَلةَ اللَّفِّ بالنَّشْرِ المُرتَّبِ[1]؛ فجُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ تَعليلٌ لجُمْلةِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [فاطر: ١٨]؛ لأنَّ مَعْنى القَصرِ يَنحَلُّ إلى إثْباتٍ ونَفيٍ؛ فكان مُفيدًا فَريقَينِ: فَريقًا انْتَفَعَ بالإنْذارِ، وفَريقًا لم يَنتفِعْ؛ فعُلِّلَ ذلك بـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾[2].

- وقَولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ إشارةٌ إلى الذين لم يَشَأِ اللهُ أنْ يُسمِعَهم إنْذارَك. وعُبِّرَ بـ﴿مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ عن الذين لم تَنفَعْ فيهم النُّذُرُ، وعُبِّرَ عن الأمْواتِ بـ﴿مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾؛ لأنَّ مَن في القُبورِ أعرَقُ في الابتِعادِ عن بُلوغِ الأصْواتِ؛ لأنَّ بيْنَهم وبيْنَ المُنادي حاجِزَ الأرْضِ؛ فهذا إطْنابٌ أفاد مَعنًى لا يُفيدُه الإيجازُ، بأنْ يُقالَ: وما أنتَ بمُسْمِعِ الموتَى[3].

- وأيضًا في قوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ شبَّه سُبحانَه مَن لا يَستجيبُ لِرَسولِه بأصحابِ القُبورِ، وهذا مِن أحسَنِ التشبيهِ؛ فإنَّ أبدانَهم قُبورٌ لقُلوبِهم؛ فقدْ ماتتْ قلوبُهم وقُبِرت في أبدانِهم[4].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿إِنۡ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أفادَ قَصْرًا إضافيًّا بالنِّسْبةِ إلى مُعالَجةِ تَسْميعِهم الحقَّ، أي: أنتَ نَذيرٌ للمُشابِهينَ مَن في القُبورِ، ولستَ بمُدخِلٍ

---

(١) سبَق تعريفُ اللَّفِّ والنَّشْرِ المرتَّب (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٥ - ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٥ - ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيِّم (١/ ٢٢).

الإيمانَ في قُلوبِهم، وهذا مَسوقٌ مَساقَ المَعذِرةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَسليتِه؛ إذ كان مُهتَمًّا من عَدَمِ إيمانِهم. واقتُصِرَ على وَصفِه بالنَّذيرِ؛ لأنَّ مَساقَ الكَلامِ على المُصمِّمينَ على الكُفرِ(١).

٣- قَولُه تعالَى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾

- قولُهُ: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ استِئْنافُ ثَناءٍ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَنويهٌ به وبالإسْلامِ، وهو تَوطِئةٌ لقَولِه: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾، وفيه دَفعُ تَوهُّمِ أنْ يكونَ قَصرُه على النِّذارةِ قَصْرًا حقيقيًّا؛ لِتَبيُّنِ أنَّ قَصرَه على النِّذارةِ بالنِّسْبةِ للمُشرِكينَ الذين شابَهَ حالُهم حالَ أصْحابِ القُبورِ، أي: إنَّ رِسالَتَك تَجمَعُ بِشارةً ونِذارةً؛ فالبِشارةُ لِمَن قَبِلَ الهُدى، والنَّذارةُ لِمَن أعرَضَ عنه، وكُلُّ ذلك حَقٌّ؛ لأنَّ الجَزاءَ على حَسَبِ القَبولِ؛ فهي رِسالةٌ مُلابِسةٌ للحَقِّ، ووَضْعِ الأشياءِ مَواضِعَها(٢).

- قولُهُ: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾ إبطالٌ لاستِبْعادِ المُشرِكينَ أنْ يُرسِلَ اللهُ إلى النَّاسِ بَشَرًا منهم؛ فإنَّ تلك الشُّبْهةَ كانتْ من أعظَمِ ما صدَّهُم عن التَّصْديقِ به؛ فلذلك أُتبِعَتْ دَلائلُ الرِّسالةِ بإبْطالِ الشُّبْهةِ الحاجِبةِ. وأيضًا في ذلك تَسْفيهٌ لأحْلامِهِم؛ إذ رَضُوا أنْ يكونوا دون غَيرِهم مِن الأُمَمِ التي شَرُفَتْ بالرِّسالةِ(٣).

- ووَجهُ الاقتِصارِ على وَصْفِ النَّذيرِ هنا في قولِه: ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴾، حيثُ اكتفَى بذِكرِ النَّذيرِ عنِ البَشيرِ في آخِرِ الآيةِ بَعدَ ذِكرِهما،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٦ - ٢٩٧).

دُونَ الجَمعِ بيْنَه وبيْنَ وَصفِ البَشيرِ: أنَّه لَمَّا كانتِ النِّذارةُ مَشفوعةً بالبِشارةِ لا مَحالةَ، وعُلِمَ أنَّ النِّذارةَ قَرينةُ البِشارةِ، دلَّ ذِكرُها على ذِكرِها، لا سيَّما وقدِ اشتملتِ الآيةُ على ذِكرِهما واقترنَا مِن قَبْلُ. أو لأنَّ الإنذارَ هو الأهمُّ المَقْصودُ مِن البَعْثةِ؛ فعَدَمُ ذِكرِ وَصفِ البِشارةِ؛ للاكتِفاءِ بذِكْرِ القَرينةِ اكتِفاءً بدَلالةِ ما قَبلَه عليه، وأُوثِرَ وَصفُ النَّذيرِ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أشدُّ مُناسَبةً لمَقامِ خِطابِ المُكذِّبينَ. وقيل: وجْهُ الاقتصارِ على وَصْفِ النَّذيرِ هنا هو مُراعاةُ العُمومِ الذي في قَولِه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾؛ فإنَّ من الأُمَمِ مَن لم تَحصُلْ لها بِشارةٌ؛ لأنَّها لم يُؤمِنْ منها أحَدٌ [١].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾

- جوابُ ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ مَحذوفٌ دلَّتْ عليه عِلَّتُه، وهي قَولُه: ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [فاطر: ٤]، والتَّقديرُ: إنْ يُكذِّبوكَ فلا تَحْزَنْ، ولا تَحسَبْهم مُفلَتينَ من العِقابِ على ذلك؛ إذ قدْ كذَّبَ الأقْوامُ الذين جاءَتْهم رُسُلٌ من قَبلِ هؤلاء، وقدْ عاقَبْناهم على تَكْذيبِهم؛ فالفاءُ في قَولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فاءٌ فَصيحةٌ، أو تَفريعٌ على المَحْذوفِ [٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ...﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ إذ قدْ كان سِياقُ الحَديثِ في شَأنِ الأُمَمِ؛ فجُعِلَتِ التَّسْليةُ في هذه الآيةِ بحالِ الأُمَمِ مع رُسُلِهم عَكسَ ما في آيةِ (آلِ عمرانَ)، حيثُ قال: ﴿فَإِن

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

﴿كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آلِ عمرانَ: ١٨٤]؛ لأنَّ سِياقَ آيةِ (آلِ عِمْرانَ) كان في ردِّ مُحاوَلةِ أهْلِ الكِتابِ إفحامَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ قَبلَها: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣]. وقد خُولِفَ أيضًا في هذه الآيةِ: ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ أُسلوبُ آيةِ (آلِ عِمْرانَ): ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤]؛ إذ قُرِن كُلٌّ من (الزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) هنا بالباءِ، وجُرِّدا منها في آيةِ (آلِ عِمْرانَ)؛ وذلك لأنَّ آيةَ (آلِ عِمْرانَ) جَرَتْ في سِياقِ زَعمِ اليَهودِ ألَّا تُقبَلَ مُعجزةُ رَسولٍ إلَّا مُعجزةَ قُربانٍ تَأكُلُه النَّارُ، فقيلَ في التَّفرُّدِ ببُهتانِهم: قد كُذِّبت الرُّسُلُ الذين جاء الواحِدُ منهم بأصْنافِ المُعجزاتِ، مِثلُ عيسى عليه السَّلامُ، ومِن مُعجزاتِهم: قَرابينُ تَأكُلُها النَّارُ فكَذَّبتُموهُم، فتَرْكُ إعادةِ الباءِ هُنالك إشارةٌ إلى أنَّ الرُّسُلَ جاؤوا بالأنْواعِ الثَّلاثةِ. ولَمَّا كان المَقامُ هنا لِتَسْليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ناسَبَ أنْ يُذكَرَ ابتِلاءُ الرُّسُلِ بتَكذيبِ أُمَمِهم على اختِلافِ أحْوالِ الرُّسُلِ، فمنهم الذين أتَوْا بآياتٍ، أي: خَوارِقِ عاداتٍ فقط، مِثلُ صالِحٍ وهُودٍ ولُوطٍ، ومنهم مَن أتَوْا بالزُّبُرِ وهي المَواعِظُ التي يُؤمَرُ بكِتابَتِها وزَبْرِها، أي: تَخْطيطِها؛ لِتكونَ مَحفوظةً، وتُردَّدَ على الألسُنِ، كزَبورِ داودَ وكُتُبِ أصْحابِ الكُتُبِ من أنْبياءِ بَني إسرائيلَ، ومنهم مَن جاؤوا بالكِتابِ المُنيرِ -يَعْني كِتابَ الشَّرائعِ، وذلك على قولٍ في تَفسيرِها- مِثلُ إبراهيمَ وموسى وعيسى؛ فذِكرُ الباءِ مُشيرٌ إلى تَوزيعِ أصْنافِ المُعجزاتِ على أصْنافِ الرُّسُلِ، فزَبورُ إبراهيمَ صُحُفُه المَذكورةُ في قَولِه تَعالى: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٩]، وزَبورُ موسى كَلامُه

في المَواعِظِ الذي ليس فيه تَبليغٌ عن اللهِ، وزَبورُ عيسى أقوالُهُ المَأْثورةُ في الأناجيلِ ممَّا لم يكُنْ مَنسوبًا إلى الوَحيِ؛ فالضَّميرُ في ﴿جَآءُو﴾ للرُّسُلِ، وهو على التَّوزيعِ، أي: جاء مَجْموعُهم بهذه الأصْنافِ من الآياتِ، ولا يَلزَمُ أنْ يجيءَ كُلُّ فَردٍ منهم بجميعِها كما يُقالُ: بَنو فُلانٍ قَتَلوا فُلانًا[١].

- قَولُه: ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ (الكتاب) مُفردٌ أُريدَ به الجنسُ، فصار عامًّا؛ فالكتُبُ التي جاؤُوا بها كُتُبٌ كثيرةٌ بحسَبِ الرُّسُلِ[٢].

٥- قَولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ عاطِفةُ جُمْلةٍ: ﴿أَخَذْتُ﴾ على جُمْلةِ: ﴿جَآءَتْهُمْ﴾، أي: ثُمَّ أخَذتُهم، وأظْهَر ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في مَوضِعِ ضَميرِ الغَيْبةِ؛ لذَمِّهم بما في حَيِّزِ الصِّلةِ، والإشعارِ والإيماءِ إلى أنَّ أخْذَهم لأجْلِ ما تَضمَّنَتْه صِلةُ المَوْصولِ من أنَّهم كَفَروا[٣].

- والأخْذُ مُعبِّرٌ به هنا عنِ الاستِئْصالِ والإفْناءِ؛ فشبَّهَ إهْلاكَهُم جَزاءً على تَكذيبِهم بإتْلافِ المُغيرينَ على عَدُوِّهم، يَقتُلونَهم ويَغنَمون أمْوالَهم، فتَبْقَى دِيارُهُم بَلْقَعًا، كأنَّهم أُخِذوا منها[٤].

- قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استِفْهامٌ مُستَعمَلٌ في التَّعجُّبِ من حالِهم، وهو مُفرَّعٌ بالفاءِ على ﴿أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، والمَعْنى: أخَذتُهُم أخْذًا عَجيبًا؛ كيف تَرَونَ أُعْجوبَتَه[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٨ - ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٩).

- وأيضًا قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فيه مَزيدُ تَشْديدٍ وتَهْويلٍ[١]. والنَّكيرُ: اسمٌ لشِدَّةِ الإنْكارِ، وهو هنا كِنايةٌ عن شِدَّةِ العِقابِ؛ لأنَّ الإنكارَ يَستلزِمُ الجَزاءَ على الفِعلِ المُنكَرِ بالعِقابِ، وحُذِفتْ ياءُ المُتكلِّمِ -فأصله: (نَكيري)- تَخْفيفًا؛ ولرِعايةِ الفَواصِلِ في الوَقفِ؛ لأنَّ الفَواصِلَ يُعتبَرُ فيها الوَقْفُ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٠).

## الآيتان (٢٧-٢٨)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جُدَدٌۢ﴾: أي: خُطوطٌ وطَرائِقُ تكونُ في الجِبالِ، واحِدُها: جُدَّةٌ، وهي: الطريقةُ الظَّاهِرةُ، وأصلُ (جدد) هنا: يدُلُّ على القَطعِ[1].

﴿وَغَرَابِيبُ﴾: جمْعُ غِربيبٍ، وهو: الشَّديدُ السَّوادِ، والعَرَبُ تقولُ للشَّديدِ السَّوادِ الذي لونُه كلَونِ الغُرابِ: أسوَدُ غِربيبٌ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالَى أدلَّةً أُخرى على عَظيمِ قُدرتِه، فيقولُ: ألم ترَ -يا مُحمَّدُ- أنَّ اللهَ أنزلَ مِنَ السَّماءِ ماءً، فأخرَجْنا به ثَمراتٍ مُختلِفةَ الألوانِ مع أنَّها جميعًا تُسقَى بماءٍ واحدٍ، وجعَلْنا بقُدرتِنا مِنَ الجِبالِ خُطوطًا وقِطَعًا ذاتَ ألوانٍ مُختَلِفةٍ؛ فمنها الأبيضُ، ومنها الأحمرُ، ومنها ما هو شَديدُ السَّوادِ؛ ومِنَ النَّاسِ والدوابِّ والأنعامِ أصنافٌ وأنواعٌ مختَلِفٌ ألوانُها اختِلافًا كذلك الاختِلافِ الكائِنِ في الجِبالِ وفي أنواعِ الثِّمارِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٣)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ١٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قُتَيبة (ص: ٣٦١)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

ثُمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه مَن هُمْ أَوْلَى النَّاسِ بخَشيتِه، فيقولُ: إنَّما يَخشَى اللهَ تعالَى العُلَماءُ العالِمونَ باللهِ تعالَى وصِفاتِه وشَرائعِه، إنَّ اللهَ قاهِرٌ غالِبٌ، مُمتنِعٌ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقْصٍ، غَفورٌ لِذُنوبِ عِبادِه.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا قرَّر اللهُ تعالَى وَحدانيَّتَه بأدِلَّةٍ قرَّبَها، وأمْثالٍ ضَرَبها؛ أتْبَعَها بأدلَّةٍ سماويَّةٍ وأرضيَّةٍ، فقال[1]:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾.

أي: ألمْ تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ أنزلَ مِن السَّماءِ ماءً، فأخرَجْنا بهذا الماءِ الواحدِ ثَمراتٍ مُختَلِفةَ الألوانِ[2]؟!

كما قال تعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۞ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٣، ٤].

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٢-٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٣-٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

أي: وجَعَل سُبحانَه مِن[١] الجِبالِ خُطوطًا وطَرائِقَ بيضاءَ وحَمراءَ، مُختَلِفةَ الألوانِ، وخُطوطًا وطَرائِقَ شَديدةَ السَّوادِ[٢].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّها استِدلالٌ آخَرُ على قُدرةِ اللهِ تعالَى وإرادتِه[٣].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ﴾.

أي: وكما جعَلَ اللهُ ألوانَ الثَّمَراتِ والجِبالِ مُختَلِفةً، كذلك جعَلَ النَّاسَ والدَّوابَّ[٤] والأنعامَ من الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ مُختَلِفةَ الألوانِ، كالحُمرةِ، والبَياضِ، والسَّوادِ، والصُّفرةِ، وغيرِها مِن الألوانِ[٥].

---

(١) قال ابن عاشور: (﴿مِنْ﴾ تبعيضيةٌ على معنَى: وبعضُ تُرابِ الجبالِ جُدَدٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٢، ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥-٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٩٢-١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٦).

(٤) قال ابنُ كَثير: (وهو: كُلُّ ما دبَّ على قوائِمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤).

وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ بها ما عدا النَّاسَ والأنعامَ، فتَشمَلُ كُلَّ ما دَبَّ على الأرضِ إلَّا النَّاسَ والأنعامَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٨).

قال ابنُ عطيَّة: (قَولُه: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن الكلامِ الأوَّلِ، فيجيء الوَقفُ عليه حسَنًا، وإلى هذا ذهب كثيرٌ من المفسِّرين. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ من الكلامِ الثَّاني يخرُجُ مَخرجَ =

كما قال تعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾.

**مُناسَبتُها لِمَا قبْلَها:**

لَمَّا قال تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ وعَدَّدَ آياتِه وأعلامَ قُدرَتِه، وآثارَ صَنعَتِه، وما خَلَقَ مِنَ الفِطَرِ المُختَلِفةِ الأجناسِ، وما يُستَدَلُّ به عليه وعلى صِفاتِه؛ أتْبَعَ ذلك قَولَه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾، كأنَّه قال: إنَّما يَخشاهُ مِثلُكَ ومَن على صِفَتِكَ ممَّن عَرَفَه حَقَّ مَعرِفَتِه[1].

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾.

أي: إنَّما يَخافُ اللهَ تعالَى ويُعظِّمُه، فيتَّقي عِقابَه بطاعتِه وتَرْكِ مَعصيتِه مِن خِلقِه: العُلَماءُ العالِمونَ باللهِ تعالَى وصِفاتِه وقُدْرتِه على كُلِّ شيءٍ، والعالِمونَ بشَرائعِه[2].

كما قال تعالَى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((واللهِ

---

= السَّبَبِ، كأنَّه قال: كما جاءت القُدرةُ في هذا كُلِّه إنَّما يَخشَى اللهَ من عِبادِه العُلماءُ)). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن جُزي)) (٢/ ١٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢١، ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

إنِّي لأَرْجو أنْ أكونَ أخشاكم لِلهِ، وأعْلَمَكم بما أتَّقي))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يا أمَّةَ مُحمَّدٍ، واللهِ لو تَعلَمونَ ما أعلَمُ، لضَحِكتُم قليلًا ولبَكَيتُم كثيرًا))[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قاهِرٌ غالِبٌ مُنتقِمٌ ممَّن كفَرَ به وعصاه، مُمتنِعٌ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...﴾ التَّنبيهُ على أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَتفكَّرَ في خَلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ هذا تقريرٌ، والتَّقريرُ لا يكونُ إلَّا بعدَ أنْ يَنظُرَ المُقرَّرُ فيما قُرِّرَ به؛ حتى يُقِرَّ به ويَعترِفَ[٤].

٧- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ الخَشيةُ بقَدْرِ مَعرفةِ المَخشيِّ؛ والعالِمُ يَعرِفُ اللهَ فيَخافُه ويَرجوه، وهذا دَليلٌ على أنَّ العالِمَ أعْلَى دَرجةً مِن العابِدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فبَيَّن أنَّ الكرامةَ بقَدرِ التَّقوى. والتَّقوى بقَدرِ العِلمِ؛ فالكرامةُ بقَدرِ العِلمِ لا بقَدرِ العَمَلِ، نَعَم، العالِمُ إذا ترَكَ العَمَلَ قَدَح ذلك في عِلمِه[٥].

---

(١) أخرجه مسلم (١١١٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٠٤٤) واللفظ له، ومُسلِمٌ (٩٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧-٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٠-٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٦).

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فَضيلةُ خشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ لا يَتَّصِفُ بها إلَّا العُلَماءُ[1].

٩- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ المرادُ بالعُلَماءِ هم الذين عَلِموه بصِفاتِه وتَوحيدِه، وما يجوزُ عليه وما يجِبُ له، وما يَستحيلُ عليه؛ فعَظَّموه وقدَّروه حَقَّ قَدرِه، وخَشُوه حَقَّ خَشيتِه، ومَن ازدادَ به عِلمًا ازدادَ منه خوفًا، ومَن كان عِلمُه به أقَلَّ كان آمَنَ[2].

١٠- مَن عرَفَ اللهَ لم يكُنْ شَيءٌ أحَبَّ إليه منه، ولم تَبقَ له رغبةٌ فيما سِواه إلَّا فيما يقرِّبُه إليه، ويُعينُه على سَفَرِه إليه، ومن عَلاماتِ المعرفةِ الهَيبةُ؛ فكلَّما ازدادتْ معرِفةُ العبدِ برَبِّه ازدادتْ هيبتُه له وخَشيتُه إيَّاه، كما قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، أي: العُلَماءُ به، ومَن عرَفَ اللهَ صفَا له العَيشُ، وطابَتْ له الحياةُ، وهابه كُلُّ شَيءٍ، وذهَب عنه خوفُ المخلوقينَ، وأنِسَ باللهِ، واستوحشَ مِن النَّاسِ، وأورثَتْه المعرفةُ الحياءَ مِن اللهِ، والتعظيمَ له والإجلالَ، والمراقبةَ والمحبَّةَ، والتوكُّلَ عليه، والإنابةَ إليه، والرِّضا به، والتَّسليمَ لأمرِه[3].

١١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فيه أنَّ العِلمَ التامَّ يَستلزِمُ الخَشيةَ؛ فمَن كان باللهِ وبأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه وأحكامِه أعلمَ، كان له أخشَى وأتْقَى[4]، والعلماءُ باللهِ العارِفونَ به هُمُ الذين يَخْشَونه حَقَّ خَشيتِه؛ لأنَّه كلَّما كانتِ المعرفةُ للعظيمِ القَديرِ العليمِ الموصوفِ بصِفاتِ الكمالِ، المنعوتِ بالأسماءِ الحُسنَى -كلَّما كانتِ المعرفةُ به أتمَّ، والعلمُ به أكملَ، كانتِ الخشيةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيِّم (ص: ٤٠٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٨١).

له أعظمَ وأكثرَ[١]، وهذه الخَشيةُ توجِبُ له الانكِفافَ عن المعاصي، والاستِعدادَ للِقاءِ مَن يخشاه، وهذا دَليلٌ على فَضيلةِ العِلم؛ فإنَّه داعٍ إلى خَشيةِ اللهِ، وأهلُ خَشيتِه هم أهلُ كرامتِه، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨][٢]؛ فخَوفُ العَبدِ مِن اللهِ لا يحصُلُ إلَّا إذا عَلِمَ كَونَه تعالى عالِمًا بجَميعِ المعلوماتِ، قادِرًا على كُلِّ المقدوراتِ، غيرَ راضٍ بالمُنكَراتِ والمحَرَّماتِ؛ فإذَن الخَوفُ مِن لوازمِ العِلمِ باللهِ، وبهذا يُعرَفُ نباهةُ قَدرِ العِلمِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الخَشيةَ لا تَثبُتُ لأهلِها إلَّا بالعِلمِ، وأنَّ العِلمَ لا يَتكامَلُ لأهله إلَّا بالفِكرِ في خَلقِ اللهِ، والإيمانِ بجميلِ صُنعِه وقُدرتِه المحيطةِ بخَلقِه؛ لأنَّه جلَّ وعلا ابتدأَ الآيةَ، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾، وذَكرَ الجِبالَ والنَّاسَ والأنعامَ واختِلافَ ألوانِها، ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾؛ فدلَّ على أنَّ العُلَماءَ لهم فيما ذَكرَه مُعتبَرٌ وفِكرٌ، وتَولُّدُ خَشيةٍ مِن قادرٍ هذا فِعلُه وصُنعُه[٤].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾ ذَكَرَ هذا الدَّليلَ على طريقةِ الاستِخبارِ، وقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾، وذكَرَ الدَّليلَ المتقَدِّمَ على طريقةِ الإخبارِ، وقال: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩]، وفي ذلك وجهانِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٦٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (١/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٧٠٠).

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ إنزالَ الماءِ أقرَبُ إلى النَّفعِ، والمنفعةُ فيه أظهَرُ؛ فإنَّه لا يَخفَى على أحدٍ في الرُّؤيةِ أنَّ الماءَ منه حياةُ الأرضِ؛ فعظَّم دَلالتَه بالاستِفهامِ؛ لأنَّ الاستفهامَ الذي للتَّقريرِ لا يُقالُ إلَّا في الشَّيءِ الظَّاهِرِ جِدًّا، كما أنَّ مَن أبصَرَ الهِلالَ وهو خفيٌّ جدًّا، فقال له غيرُه: أين هو؟ فإنَّه يقولُ له: في الموضِعِ الفُلانيِّ، فإذا لم يَرَه يقولُ له: الحَقُّ معك؛ إنَّه خَفيٌّ وأنت معذورٌ، وإذا كان بارزًا يقولُ له: أمَا تراه؟ هذا هو ظاهِرٌ!

**الوجهُ الثَّاني**: وهو أنَّه ذكَرَه بعدَما قرَّر المسألةَ بدَليلٍ آخَرَ، وظهَرَ بما تقدَّم للمَدعوِّ بَصارةٌ بوجوهِ الدَّلالاتِ، فقال له: أنت صِرتَ بصيرًا بما ذكَرْناه، ولم يبقَ لك عذرٌ، ألا ترَى هذه الآيةَ[1]؟!

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ فإنَّ الباءَ هنا للسَّبَبِيَّةِ، ففي الآيةِ إثباتُ الأسبابِ، وأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قدْ قَرَنَ الأشياءَ بأسبابِها، وهذا مِن تمامِ حكمتِه؛ أنْ تكونَ الأسبابُ والمُسَبَّبَاتُ مُتلازِماتٍ؛ فمِنَ المعلومِ أنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُخْرِجَ هذه الثمراتِ بدون ماءٍ! ولكنْ قد جَعَل لكلِّ شيءٍ سببًا[2].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ بيانُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بإخراجِ هذه الثَّمَراتِ المختَلِفةِ الألوانِ مع أنَّها في أرضٍ واحدةٍ، وتُسقَى بماءٍ واحدٍ، ويَظهَرُ ذلك لك جَلِيًّا إذا نظرتَ إلى الزهورِ كيف تَجِدُ هذا الاختلافَ العجيبَ بينها مع أنَّها تُسقَى بماءٍ واحدٍ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٦).

١٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ذكَرَ (الجبالَ) ولم يذكُرِ (الأرضَ)، كما قال في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤]، مع أنَّ هذا الدَّليلَ مِثلُ ذلك؛ وذلك لأنَّ الله تعالى لَمَّا ذكرَ في الأوَّلِ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ [فاطر: ٢٧]، كان نفْسُ إخراجِ الثِّمارِ دَليلًا على القُدرةِ، ثمَّ زاد عليه بيانًا، وقال: ﴿مُّخْتَلِفًا﴾، كذلك في الجِبالِ في نَفسِها دَليلٌ للقُدرةِ والإرادةِ؛ لأنَّ كونَ الجِبالِ في بَعضِ نواحي الأرضِ دونَ بَعضِها، والاختِلافَ الذي في هيئة الجبلِ -فإنَّ بَعضَها يكونُ أخفَضَ، وبَعضُها أرفَعَ-: دليلُ القُدرةِ والاختيارِ، ثمَّ زاده بيانًا وقال: ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ﴾، أي: مع دَلالتِها بنَفسِها هي دالَّةٌ باختلافِ ألوانِها، كما أنَّ إخراجَ الثَّمَراتِ في نَفسِها دلائِلُ، واختلافَ ألوانِها دليلٌ[1].

١٧- قال تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ لَمَّا ذَكَر الغَرابيبَ -وهو الشَّديدُ السَّوادِ- لم يَذكُرْ فيه ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾؛ لأنَّه مِن حيثُ جَعَلَه شَديدَ السَّوادِ -وهو المُبالِغُ في غايةِ السَّوادِ- لم يَكُنْ له ألوانٌ، بل هذا لَونٌ واحِدٌ، بخِلافِ البيضِ والحُمْرِ؛ فإنَّها مُختَلفةٌ[2].

١٨- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ اختِلافُ الألوانِ المذكورةِ: مِن غرائِبِ صُنعِه تعالَى وعَجائبِه، ومِن البراهينِ القاطِعةِ على أنَّه هو المؤثِّرُ جَلَّ وعلا، وأنَّ إسنادَ التأثيرِ للطَّبيعةِ مِن أعظَمِ الكُفرِ والضَّلالِ[3].

١٩- قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٥-٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٣).

[البينة: ٧] إلى قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]، فأخبَرَ أنَّ خَيرَ البريَّةِ مَن خَشِيَ رَبَّه، وأخبَرَ في الآيةِ هنا أنَّ العُلَماءَ باللهِ هم الذين يَخشَونَه، فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾؛ فحَصَل بمجموعِ الآيتَينِ أنَّ أهلَ العِلمِ باللهِ هم خيرُ البَريَّةِ وإنْ كانوا على طَبَقاتٍ في ذلك(١).

٢٠- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يَقتضي الحَصرَ مِن الطَّرفينِ: ألَّا يخشاه إلَّا العُلماءُ، ولا يكونَ عالِمًا إلَّا مَن يخشاه؛ فلا يخشاه إلَّا عالِمٌ، وما مِن عالِمٍ إلَّا وهو يخشاه، فإذا انتفَى العِلمُ انتفتِ الخشيةُ، وإذا انتفتِ الخشيةُ دلَّت على انتِفاءِ العِلمِ(٢).

٢١- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ الخشيةَ هي: الخوفُ الناتجُ عن عِلْمٍ(٣).

٢٢- الخَشيةُ أخَصُّ مِن الخَوفِ؛ فإنَّ الخَشيةَ للعُلَماءِ باللهِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، فهي خَوفٌ مَقرونٌ بمَعرفةٍ؛ فالخَوفُ حَركةٌ، والخَشيةُ انجِماعٌ وانقِباضٌ وسكونٌ؛ فإنَّ الذي يرَى العدوَّ والسَّيلَ ونحوَ ذلك، له حالتانِ:

**إحداهما**: حركةٌ للهَرَبِ منه، وهي حالةُ الخَوفِ.

**والثانيةُ**: سُكونُه وقرارُه في مكانٍ لا يَصِلُ إليه فيه، وهي الخَشيةُ؛ فالخوفُ لعامَّةِ المؤمِنينَ، والخشيةُ للعُلَماءِ العارفينَ، وعلى قَدرِ العِلمِ والمعرفةِ يكونُ الخَوفُ والخشيةُ، فصاحِبُ الخوفِ يلَتَجئُ إلى الهرَبِ والإمساكِ، وصاحِبُ

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٣).

الخَشيةِ يلتجئُ إلى الاعتِصامِ بالعِلم، ومَثَلُهما مَثَلُ مَن لا عِلمَ له بالطِّبِّ، ومَثَلُ الطَّبيبِ الحاذِقِ؛ فالأوَّلُ يَلتجئُ إلى الحِمْيةِ والهرَبِ، والطَّبيبُ يَلتجئُ إلى مَعرفتِه بالأدويةِ والأدواءِ[١].

٢٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ يدُلُّ بالالْتزامِ على أنَّ غيرَ العُلَماءِ لا تَتأتَّى منهم خَشيةُ اللهِ؛ فدلَّ على أنَّ البَشَرَ في أحوالِ قُلوبِهم ومَداركِهم مختَلِفونَ، وهذا مِثلُ قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[٢] [فاطر: ١٨].

٢٤- العُلَماءُ في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ هم العُلَماءُ باللهِ؛ العُلَماءُ بأسمائِه وصِفاتِه وآياتِه، وليس المرادُ بهم عُلَماءَ الصِّناعةِ والتكنولوجيا وما أشبهَ ذلك؛ فإنَّ هؤلاء عُلَماءُ في الدُّنيا، يَعلمونَ ظاهرًا مِن الحياةِ الدُّنيا؛ وذلك أنَّ الخَشيةَ لا تكونُ إلَّا عن عِلمٍ بحالِ المَخْشِيِّ، ومَعلومٌ أنَّ العِلمَ بهذه الصَّنائعِ لا تَعَلُّقَ له بعَظمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فهو مادِّيٌّ مَحضٌ، بخِلافِ المعرفةِ باللهِ وعظَمتِه؛ فأهلُ المعرفةِ به هم أهلُ خَشيتِه[٣].

٢٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على أنَّ مَن خَشِيَ اللهَ وأطاعه، وامتثَلَ أوامِرَه واجتنَبَ نواهيَه: فهو عالِمٌ؛ لأنَّه لا يَخشاه إلَّا عالِمٌ، وعلى نفْيِ الخَشيةِ عن غيرِ العُلَماءِ، ونَفيِ العِلمِ عن غيرِ أُولي الخشيةِ أيضًا، وأنَّ مَن لم يخشَ اللهَ فليس بعالِمٍ، وبذلك فسَّرها السَّلَفُ.

وممَّا يُبيِّنُ أنَّ العِلمَ يُوجِبُ الخَشيةَ، وأنَّ فَقدَه يَستلزِمُ فَقْدَ الخَشيةِ؛ وُجوهٌ:

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيِّم (١/ ٥٠٨،٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٦/ ٢٦).

**أحدُها**: أنَّ العِلمَ باللهِ تعالَى وما له مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالكِبرياءِ والعَظَمةِ، والجَبَروتِ والعِزَّةِ.. وغيرِ ذلك: يُوجِبُ خَشيتَه؛ وعدمَ ذلك يستلزِمُ فَقْدَ هذه الخَشيةِ.

**الوجهُ الثاني**: أنَّ العِلمَ بتفاصيلِ أمرِ اللهِ ونَهيِه، والتَّصديقَ الجازِمَ بذلك وبما يترتَّبُ عليه مِن الوَعدِ والوَعيدِ، والثَّوابِ والعِقابِ، مع تيقُّنِ مُراقبةِ اللهِ واطِّلاعِه ومُشاهدتِه، ومَقتِه لعاصيه، وحُضورِ الكِرامِ الكاتِبينَ: كُلُّ هذا يُوجِبُ الخَشيةَ، وفِعلَ المأمورِ، وتَرْكَ المحظورِ، وإنَّما يَمنَعُ الخَشيةَ ويُوجِبُ الوقوعَ في المحظوراتِ: الغَفلةُ عن استِحضارِ هذه الأمورِ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ تصوُّرَ حَقيقةِ المَخُوفِ يُوجِبُ الهربَ منه، وتصوُّرَ حقيقةِ المحبوبِ يُوجِبُ طَلَبه، فإذا لم يَهرُبْ مِن هذا، ولم يَطلُبْ هذا؛ دلَّ على أنَّ تصوُّرَه لذلك ليس تامًّا، وإنْ كان قد تصوَّرَ الخبَرَ عنه. وتصوُّرُ الخبرِ وتصديقُه وحِفظُ حُروفِه: غيرُ تصوُّرِ المخبرِ به؛ فإذا أُخبِرَ بما هو محبوبٌ أو مكروهٌ له، ولم يُكذِّبِ الخبَرَ، بل عرَفَ صِدقَه، لكِنْ قَلبُه مَشغولٌ بأمورٍ أُخرى عن تصوُّرِ ما أُخبِرَ به: فهذا لا يَتحرَّكُ للهَرَبِ ولا للطَّلبِ.

**الوجهُ الرَّابعُ**: أنَّ كثيرًا من الذُّنوبِ قد يكونُ سَببُ وُقوعِه جَهْلَ فاعِلِه بحَقيقةِ قُبحِه وبُغضِ اللهِ له، وتفاصيلِ الوَعيدِ عليه، وإن كان عالِمًا بأصلِ تحريمِه وقُبحِه، لكِنَّه يكونُ جاهلًا بما وردَ فيه من التَّغليظِ والتَّشديدِ ونهايةِ القُبحِ؛ فجَهلُه بذلك هو الذي جرَّأه عليه وأوقعَه فيه، ولو كان عالِمًا بحَقيقةِ قُبحِه لأوجبَ ذلك العِلمُ تَرْكَه؛ خَشيةً من عقابِه.

**الوجهُ الخامِسُ**: أنَّ كُلَّ مَن عَلِمَ عِلمًا تامًّا جازِمًا بأنَّ فِعلَ شَيءٍ يَضُرُّه ضَررًا راجِحًا، ولم يفعَلْه؛ فإنَّ هذا خاصَّةُ العاقِلِ، فإنَّ نفسَه تنصَرِفُ عمَّا يُعلَمُ رُجحانُ

ضَرَرِه بالطَّبعِ؛ فإنَّ اللهَ جعَل في النَّفْسِ حُبًّا لِمَا ينفَعُها، وبُغضًا لِما يضُرُّها، فلا يفعَلُ ما يَجزِمُ بأنَّه يَضُرُّها ضررًا راجِحًا، ولا يقعُ ذلك إلَّا مع ضَعيفِ العَقلِ.

**الوجهُ السَّادسُ**: أنَّ لذَّاتِ الذُّنوبِ لا نِسبةَ لها إلى ما فيها مِن الآلامِ والمفاسِدِ البتَّةَ؛ فإنَّ لذَّاتِها سَريعةُ الانقضاءِ، وعُقوباتِها وآلامَها أضعافُ ذلك، ومِن هاهنا يُعلَمُ أنَّه لا يُؤثِرُ لذَّاتِ الذُّنوبِ إلَّا من هو جاهِلٌ بحَقيقةِ عواقِبِها.

**الوجهُ السَّابعُ**: أنَّ المُقدِمَ على مُوافَقةِ المحظورِ إنَّما أوْجبَ إقدامَه عليه ما فيه مِن اللَّذَّةِ الحاصِلةِ له به، فظَنَّ أنَّه تحصُلُ له لذَّتُه العاجِلةُ، ورجَا أنْ يَتخَلَّصَ مِن تَبعتِه بسَبَبٍ مِن الأسبابِ، ولو بالعَفوِ المجرَّدِ، فيَنالَ به لذَّةً، ولا يَلحَقَه به مَضرَّةٌ! وهذا من أعظَمِ الجَهلِ، والأمرُ بعَكسِ باطنِه؛ فإنَّ الذُّنوبَ يَتبَعُها -ولا بُدَّ- مِن الهُمومِ والآلامِ، وضِيقِ الصَّدرِ، والنَّكدِ، وظُلمةِ القَلبِ وقَسوتِه: أضعافُ أضعافِ ما فيها مِن اللَّذَّةِ، ويفوتُ بها مِن حلاوةِ الطَّاعاتِ، وأنوارِ الإيمانِ، وسُرورِ القَلبِ ببَهجةِ الحَقائِقِ والمعارِفِ: ما لا يُوازي الذَّرَّةَ منه جميعُ لذَّاتِ الدُّنيا! فيَحصُلُ لصاحِبِ المعصيةِ العِيشةُ الضَّنكُ، وتفوتُه الحياةُ الطيِّبةُ؛ فينعكِسُ قَصدُه بارتكابِ المعصيةِ[1].

## بلاغةُ الآيتينِ:

١- قَولُه تَعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾

- قَولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استِئنافٌ في إيضاحُ ما سبَقَه مِن اختِلافِ أحوالِ الناسِ في قَبولِ الهُدى ورَفضِه؛ بسَبَبِ ما تهَيَّأتْ خِلْقةُ النُّفوسِ إليه؛ لِيَظهَرَ به أنَّ الاختِلافَ بيْنَ أفرادِ الأصْنافِ والأنواعِ ناموسٌ جِبلِّيٌّ فَطَرَ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٧٨٦- ٨٠٧).

اللهُ عليه مَخلوقاتِ هذا العالَمِ الأرضيِّ. والخِطابُ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِيَدفَعَ عنه اغتِمامَه مِن مُشاهَدةِ عَدَمِ انتِفاعِ المُشرِكينَ بالقُرآنِ(١).

- وضُرِبَ اختِلافُ الظَّواهرِ في أفرادِ الصِّنفِ الواحِدِ مَثَلًا لاختلافِ البواطنِ؛ تَقريبًا للأفهامِ، فكان هذا الاستِئنافُ مِن الاستئنافِ البَيانيِّ؛ لأنَّ مِثلَ هذا التَّقريبِ ممَّا تَشرئِبُّ إليه الأفهامُ عندَ سَماعِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسۡمِعُ مَن يَشَآءُ﴾(٢) [فاطر: ٢٢].

- وهذا الاستِفهامُ ﴿أَلَمۡ تَرَ ...﴾ تَقريريٌّ، وجاء التَّقريرُ على نَفْيِ الرُّؤيةِ؛ لأنَّ نفْيَ الرُّؤيةِ هو غيرُ الواقعِ مِن حالِهم في نفْسِ الأمرِ، ولكنَّ حالَهم يُشبِهُ حالَ مَن لا يَرَون هذا، فوقَعَ الاستِفهامُ عنه لعلَّهم لم يَرَوا ذلك؛ مُبالَغةً(٣).

- قولُه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَا﴾ ذِكرُ إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ إدْماجٌ(٤) في الغَرَضِ؛ لِلاعتِبارِ بقُدرةِ اللهِ مع ما فيه مِنَ اتِّحادِ أصْلِ نَشْأةِ الأصنافِ والأنواعِ، كَقَولِه تَعالَى: ﴿يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤]، وذلك أرْعَى لِلاعتِبارِ. وجيءَ بالجُملتَيْنِ الفِعليَّتَيْنِ في ﴿أَنزَلَ﴾ و﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾؛ لِأنَّ إنزالَ الماءِ وإخراجَ الثَّمَراتِ مُتجَدِّدٌ آنًا فآنًا(٥).

- والالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ ﴿أَنزَلَ﴾ إلى التَّكَلُّمِ في ﴿فَأَخۡرَجۡنَا﴾؛ لإظْهارِ كَمالِ الاعتِناءِ بالفِعلِ؛ لِمَا فيه مِنَ الصُّنعِ البَديعِ المُنْبِئِ عن كَمالِ القُدرةِ والحِكمةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١١٠)، (٢٢/ ٣٠٠).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠١).

ولأنَّ الاسمَ الظاهِرَ ﴿ٱللَّهَ﴾ أنسَبُ بمَقامِ الاستِدلالِ على ذلك؛ لأنَّه الاسمُ الجامِعُ لِمَعاني الصِّفاتِ. وضَميرُ التَّكلُّمِ في ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ أنسَبُ بما فيه مِنَ امتِنانٍ؛ لِمَا في ذلك مِنَ الفَخامةِ؛ إذْ هو مُسنَدٌ لِلمُعظِّمِ نَفسَه المُتَكلِّم، ولأنَّ نِعمةَ الإخراجِ أتَمُّ مِن نِعمةِ الإنزالِ؛ لِفائدةِ الإخراجِ، فأسنَدَ الأتَمَّ إلى ذاتِه بضَميرِ المُتَكلِّمِ، وما دُونَه بضَميرِ الغائِبِ[1].

وقيل: لأنَّه إنْ كان جاهِلًا يَقولُ: نُزولُ الماءِ بالطَّبعِ؛ لِثقلِه! فيُقالُ له: فالإخراجُ لا يُمكِنُك أنْ تقولَ فيه: إنَّه بالطَّبعِ؛ فهو بإرادةِ اللهِ، فلمَّا كان ذلك أظهَرَ، أسنَدَه إلى المتكلِّم. وقيل: لأنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ عُلِمَ اللهُ بدليلٍ، وقَرُب المتفكِّرُ فيه إلى اللهِ تعالى؛ فصار من الحاضِرينَ، فقال له: (أَخْرَجْنَا)؛ لِقُربِه[2].

- وقَدَّمَ الاعتِبارَ باختِلافِ أحوالِ الثَّمَراتِ في قَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾؛ لِأنَّ في اختِلافِها سَعةً تُشبِهُ سَعةَ اختِلافِ الناسِ في المَنافِعِ والمَدارِكِ والعَقائِدِ[3].

- وفي قَولِه: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ قاله بتأنيثِ الضَّميرِ في ﴿أَلْوَٰنُهَا﴾؛ لِعَودِه إلى الثَّمَراتِ، وقال ثانيًا: ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ بتَأنيثِه أيضًا؛ لِعَودِه إلى الجِبالِ، وقال ثالثًا: ﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ بتَذكيرِه؛ لِعَودِه إلى بَعضِ المَفهومِ مِن لَفظِ ﴿مِنْ﴾ في قَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾[4]. وأيضًا جُرِّدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨- ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٠)، ((بصائر ذوي التمييز في =

قولُه: ﴿مُّخْتَلِفًا﴾ مِن عَلامةِ التَّأنيثِ، معَ أنَّ فاعلَه جمْعٌ -وشَأنُ النَّعتِ السَّببيِّ أنْ يُوافِقَ مَرفوعَه في التَّذكيرِ وضِدِّه، والإفرادِ وضِدِّه، ولا يُوافِقُ في ذلك مَنعوتَه-؛ لأنَّه لَمَّا كان الفاعِلُ جمْعًا لِمَا لا يَعقِلُ -وهو الألوانُ- كان حَذفُ التَّاءِ في مِثلِه جائزًا في الاستِعمالِ، وآثَرَه القرآنُ إيثارًا للإيجازِ[1].

- قولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ فيه تَقديمُ الخَبَرِ ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾؛ لِلاهتِمامِ، ولِلتَّشويقِ لِذِكرِ المُبتَدأِ؛ حَثًّا على التأمُّلِ والنَّظَرِ[2].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّدبيجِ -وهو أنْ يَذكُرَ المُتكَلِّمُ ألوانًا يَقصِدُ الكِنايةَ بها والتَّوريةَ بذِكرِها عن أشياءَ؛ مِن وَصْفٍ أو مَدْحٍ، أو هِجاءٍ أو نَسيبٍ، أو غَيرِ ذلك مِنَ الفُنونِ- وقد أرادَ اللهُ تَعالَى بذلك الكِنايةَ عنِ المُشتَبِهِ مِنَ الطُّرُقِ؛ لِأنَّ الجادَّةَ البَيضاءَ هي أوضَحُ الطُّرُقِ وأبيَنُها، ودُونَها الحَمراءُ، ودُونَ الحَمراءِ السَّوداءُ، كأنَّها في خَفائِها والْتِباسِ مَعالِمِها ضِدُّ البَيضاءِ في الظُّهورِ والوُضوحِ، ولَمَّا كانتْ هذه الألوانُ الثلاثةُ في الظُّهورِ لِلعَينِ طَرَفيْنِ وواسطةً بيْنَهما؛ فالطَّرَفُ الأعْلَى في الظُّهورِ البَياضُ، والطَّرَفُ الأدْنَى في الخَفاءِ السَّوادُ، والأحمَرُ بيْنَهما على وَضَحِ الألوانِ والتَّراكيبِ، وكانتْ ألوانُ الجِبالِ لا تَخرُجُ -في الأغلَبِ- عن هذه الألوانِ الثَّلاثةِ، والهِدايةُ بكُلِّ عَلَمٍ نُصِبَ لِلهدايةِ مُنقَسِمةٌ هذه القِسمةَ؛ أتَتِ الآيةُ الكَريمةُ على هذا

---

= لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٧-٣٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٨-٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠١ - ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٢).

التَّقسيم، فحَصَلَ فيها التَّدبيجُ مع صِحَّةِ التَّقسيم، وهي مَسرودةٌ على نَمَطٍ مُتَعارَفٍ، مَسوقةٌ لِلاعتِدادِ بالنِّعَم على ما هَدَتْ إليه مِنَ السَّعيِ في طَلَبِ المَصالِحِ والمَنافعِ، وتجَنُّبِ المَعاطِبِ والمَهالِكِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ[1].

- قَولُه: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ (غَرابيبُ) جمْع غِربيبٍ، والغِربيبُ: اسمٌ للشَّيءِ الأسودِ الحالِكِ سوادُه، ولعلَّه مأخوذٌ مِن الغُرابِ لشُهرةِ الغُرابِ بالسَّوادِ. و﴿سُودٌ﴾ جمْع أَسودَ، فالغِربيبُ يَدُلُّ على أشَدَّ مِن مَعنى أسوَدَ؛ فكانَ مُقتَضى الظاهِرِ أنْ يَكونَ (غَرَابيبُ) مُتَأخِّرًا عن ﴿سُودٌ﴾؛ لِأنَّ الغِربيبَ تأكيدٌ للأسودِ، ولأنَّ الأغلَبَ أنَّهم يَقولونَ: أسوَدُ غِربيبٌ، كما يَقولونَ: أبيَضُ يَقَقٌ، وأصفَرُ فاقِعٌ، وأحمَرُ قانٍ، ولا يَقولونَ: غِربيبٌ أسوَدُ، وإنَّما خُولِفَ ذلك؛ لِلرِّعايةِ على الفَواصِلِ المَبنيَّةِ على الواوِ والياءِ السَّاكنتينِ ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، ولِزيادةِ التَّوكيدِ؛ حيثُ يَدُلُّ على المَعنى الواحِدِ مِن طَريقَيِ الإظهارِ والإضمارِ جَميعًا[2].

٢- قَولُه تَعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾

- إيرادُ الجُملتَيْنِ ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ [فاطر: ٢٧] و﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾ اسميَّتَيْنِ مع مُشارَكتِهما لِمَا قَبلَهُما مِنَ الجُملَةِ الفِعليَّةِ في الاستِشهادِ بمَضمونِهما على تَبايُنِ النَّاسِ في الأحوالِ الباطِنةِ؛ لِمَا أنَّ اختِلافَ الجِبالِ والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ فيما ذُكِرَ مِنَ الألوانِ أمْرٌ مُستَمِرٌّ،

---

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦٠٩- ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٣).

فعَبَّرَ عنه بما يَدُلُّ على الاستِمرارِ، وأمَّا إخراجُ الثَّمَراتِ المُختَلِفةِ فحيثُ كان أمرًا حادِثًا عبَّرَ عنه بما يَدُلُّ على الحُدوثِ(١).

- ولَمَّا كان إخراجُ الثَّمَراتِ المُختَلِفةِ فيه نوعُ خَفاءٍ علَّقَ به الرُّؤيةَ بطَريقِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ المُنبِئِ عنِ الحَملِ عليها، والتَّرغيبِ فيها، بخِلافِ أحوالِ الجِبالِ والنَّاسِ وغيرِهما؛ فإنَّها مُشاهدَةٌ غَنيَّةٌ عنِ التأمُّلِ؛ فلذلك جُرِّدتْ عنِ التَّعليقِ بالرُّؤيةِ(٢).

- وَ(مِنْ) في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ تَبعيضيَّةٌ، والمَعنى: أنَّ المُختَلِفَ ألوانُه بَعضٌ مِنَ الناسِ، ومَجموعُ المُختَلِفاتِ كُلُّه هو الناسُ كُلُّهم، وكذلك الدَّوابُّ والأنعامُ، وهو نَظمٌ دَقيقٌ دَعا إليه الإيجازُ(٣).

- ولَمَّا كانتِ الدابَّةُ في الأصلِ اسمًا لِما دَبَّ على الأرضِ، ثمَّ غَلَبَ إطلاقُه على ما يُركَبُ، قال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾؛ لِيَعمَّ الكُلَّ صريحًا(٤).

- قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ ابتِداءُ كَلامٍ يتنَزَّلُ مَنزِلةَ الإخبارِ بالنَّتيجةِ عَقِبَ ذِكرِ الدَّليلِ، والمَعنى -على قَولٍ-: كذلك أمْرُ الاختِلافِ في ظَواهِرِ الأشياءِ، المُشاهَدِ في اختِلافِ ألوانِها، وهو تَوطِئةٌ لِمَا يَرِدُ بَعدَه مِن تَفصيلِ الاستِنتاجِ بقَولِه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، أي: إنَّما يَخشَى اللهَ مِنَ البَشَرِ المُختَلِفةِ ألوانُهمُ العُلماءُ منهم؛ فجُملةُ ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ مُستأنَفةٌ عن جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٢٥).

وإذا عُلِمَ ذلك دلَّ بالالتزامِ على أنَّ غيرَ العلماءِ لا تَتأتَّى منهم خَشيةُ اللهِ؛ فدلَّ على أنَّ البشرَ في أحوالِ قُلوبِهم ومَداركِهم مُختلِفونَ. وأُوثِرَ هذا الأُسلوبُ في الدَّلالةِ؛ تخَلُّصًا لِلتَّنويهِ بأهلِ العِلمِ والإيمانِ؛ ليَنتَقِلَ إلى تَفصيلِ ذلك بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾[1] [فاطر: ٢٩].

- وأيضًا قَولُه: ﴿كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ تكمِلةٌ لِقَولِه تَعالَى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [فاطر: ١٨]، بتَعيينِ مَن يَخشاهُ عزَّ وجلَّ مِنَ النَّاسِ بعْدَ بَيانِ اختِلافِ طَبَقاتِهم، وتَبايُنِ مَراتِبِهم، أمَّا في الأوصافِ المَعنويَّةِ فبِطَريقِ التَّمثيلِ، وأمَّا في الأوصافِ الصُّوريةِ فبِطَريقِ التَّصريحِ؛ تَوفِيةً لكُلِّ واحِدةٍ منهما حَقَّها اللَّائِقَ بها مِنَ البَيانِ، أيْ: إنَّما يَخشاهُ تَعالى بالغَيبِ العالِمونَ به عزَّ وجلَّ وبما يَليقُ به مِن صِفاتِهِ الجَليلةِ، وأفعالِه الجَميلةِ[2].

- والقَصْرُ المُستَفادُ مِن ﴿إِنَّمَا﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ[3]، أي: إنَّما يَخشاهُ تَعالى بالغَيبِ العالِمونَ به عزَّ وجلَّ وبما يَليقُ به مِن صِفاتِهِ الجَليلةِ، ولا يَخشاهُ الجُهَّالُ، وهم أهلُ الشِّركِ؛ فإنَّ مِن أخَصِّ أوصافِهِم أنَّهم أهلُ الجاهليةِ وعَدَمِ العِلْمِ. وتَقديمُ مَفعولِ ﴿يَخۡشَى﴾ على فاعِلِه -أي: تَقديمُ اسمِ اللهِ تعالَى، وتأخيرُ العُلماءِ-؛ لِأنَّ المَحصورَ فيهم خَشيةُ اللهِ هم العُلَماءُ، ومعناه: أنَّ الذين يَخْشَونَ اللهَ مِن عِبادِه العُلماءُ دُونَ غيرِهم؛ فوَجَبَ تأخيرُه على سُنَّةِ تأخيرِ المَحصورِ فيه، ولو أُخِّرَ، انعَكَس الأمْرُ؛ فكان المعنَى: أنَّهم لا يَخْشَونَ إلَّا اللهِ، كقولِه: ﴿وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وبَيْنهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١).

(٣) سبَق تعريفُه (ص: ٣٤٨).

تغايُرٌ؛ ففي الأوَّلِ بيانُ أنَّ الخاشِينَ هم العُلماءُ، وفي الثاني بيانُ أنَّ المَخشيَّ منه هو اللهُ تعالَى[١].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تَعليلٌ لِوجوبِ الخَشيةِ؛ لدَلالَتِه على أنَّه مُعاقِبٌ لِلمُصِرِّ على طُغيانِه، غَفورٌ لِلتَّائِبِ عن عِصيانِه[٢]. وهو أيضًا تَكميلٌ؛ للدَّلالةِ على استِغناءِ اللهِ تَعالى عنْ إيمانِ المُشرِكينَ، ولكنَّه يُريدُ لهم الخَيرَ، ولَمَّا كان في هذا الوَصفِ ضَرْبٌ مِنَ الإعراضِ عنهم ممَّا قد يُحدِثُ يأسًا في نُفوسِ المُقارِبينَ منهم، أُلِّفَتْ قُلوبُهم بإتْباعِ وَصفِ ﴿عَزِيزٌ﴾ بوَصفِ ﴿غَفُورٌ﴾، أي: فهو يَقبَلُ التوبةَ منهم إنْ تابوا إلى ما دَعاهم اللهُ إليه، على أنَّ في صِفةِ ﴿غَفُورٌ﴾ حَظًّا عَظيمًا لِأحَدِ طَرَفَيِ القَصْرِ، وهم العُلماءُ، أي: غَفورٌ لهم[٣].

وقيل: مُناسَبةُ ذِكرِ العِزَّةِ والمغفرةِ هنا في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ بعدَ ذِكرِ الخَشيةِ: الإشارةُ إلى أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ أهلٌ لأنْ يُخشَى؛ لأنَّه عزيزٌ، وأنَّه إذا نقَصَ شَيءٌ مِن الخَشيةِ فإنَّه يُقابِلُ بالمغفرةِ، فهو عزيزٌ؛ فلذلك كان أهلًا للخَشيةِ؛ وهو غفورٌ إذا نقَصَ شَيءٌ مما يجِبُ له من خَشيتِه عزَّ وجَلَّ[٤]، ولأنَّ العِزَّةَ دالَّةٌ على كَمالِ القُدرةِ على الانتقامِ، ولا يُوصَفُ بالمَغْفرةِ والرَّحمةِ إلَّا القادِرُ على العُقوبةِ[٥]، كما حكَى تعالَى عن عِيسَى عليه السَّلامُ قولَه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٦٤).

وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨].

- وفي قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى في موضِعٍ آخَرَ: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٤] فخُولِفَ بيْنَ المَقطعَيْنِ؛ وذلك لأنَّ ما نحن فيه في سُورةِ (فاطِر) أبسَطُ وأجمَعُ مِن تلك الآيةِ التي في سُورةِ (الرَّعدِ)؛ لأنَّ فيها ذِكرَ الثِّمارِ والجِبالِ والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ واختِلافِها، وهي مُختَصَّةٌ بالثَّمَراتِ[1].

- وصُدِّرتْ هذه الآيةُ بهَمزةِ الاستِفهامِ، وحَرفِ النَّفْيِ (لَمْ)؛ لإفادةِ مَزيدِ التَّقريرِ، وبالخِطابِ العامِّ؛ لِئلَّا تُختَصَّ الرُّؤيةُ براءٍ دُونَ راءٍ؛ لفَخامةِ الأمْرِ، ثم قَرَّرَ هذا المَعنى في أثنائِهما بقَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾، أي: الأمْرُ كما ذَكَرتُ، كأنَّه تَعالى يَقولُ: هذه الأشياءُ كُلُّها مُتساويةٌ في الجِسميَّةِ، واختِلافِ أنواعِها، ثم اختِلافِ كُلٍّ منها بما خُصَّ به مِنَ الأصنافِ، لا بُدَّ له مِن قادرٍ مُختارٍ قاهرٍ يتصَرَّفُ في مُلكِه كيف يَشاءُ، وهذا ظاهِرٌ جَلِيٌّ عنْدَ كُلِّ ذي عقْلٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٩-٣٥)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٞ شَكُورٞ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبُورَ﴾: أي: تَبطُلَ وتَخسَرَ، والبَوارُ: فَرطُ الكَسادِ، وأصلُ (بور): يدُلُّ على هلاكِ الشَّيءِ[1].

﴿مُّقۡتَصِدٞ﴾: أي: غيرُ المُبالِغِ في طاعةِ ربِّه، بل يكونُ عمَلُه قَصْدًا، وهو المستوي الحالِ بيْنَ الحالَينِ؛ فهو فوقَ الظَّالِمِ لنفْسِه، ودونَ السَّابقِ بالخَيراتِ، وأصلُ (القصد): استِقامةُ الطَّريقِ[2].

﴿عَدۡنٖ﴾: أي: إِقامَةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثباتٍ، يُقال: عَدَن بالمكانِ، يَعْدِنُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٢)، ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ١٠٠)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٣١٠).

عَدْنًا، إذا لَزِمه، ولم يَبْرَحْ منه، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[١].

﴿يُحَلَّوْنَ﴾: أي: يُلْبَسون ويُزَيَّنون بالحُلِيِّ[٢].

﴿أَسَاوِرَ﴾: جمعُ أَسْوِرةٍ، وأسْوِرةٌ جَمعُ سِوارٍ، والسِّوارُ: هو الَّذي يُلبَسُ في المِعصَمِ مِن ذَهَبٍ، وهو اسمٌ مُعَرَّبٌ عن الفارسيَّةِ[٣].

﴿أَحَلَّنَا﴾: أي: أنزَلَنا وأدخَلَنا، وحَلَلْتُ: نزلْتُ، أصلُه مِن حَلِّ الأحمالِ عندَ النُّزولِ، ثمَّ جُرِّد استِعمالُه للنُّزولِ، فقيل: حَلَّ حُلُولًا، وأحَلَّه غيرُه[٤].

﴿ٱلْمُقَامَةِ﴾: أي: الإقامةِ والخُلودِ، وأصلُ (قوم) هنا: يدُلُّ على انتِصابٍ أو عَزمٍ[٥].

﴿نَصَبٌ﴾: أي: تعَبٌ وعَناءٌ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ[٦].

﴿لُغُوبٌ﴾: أي: ضَعفٌ وإعياءٌ، وأصلُ (لغب): يدُلُّ على ضَعفٍ[٧].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٥/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٢). =

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾

قَولُه: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنَّصبِ، وفيه أوجُهٌ؛ أوَّلُها: أنَّه مَعطوفٌ على مَوضِعِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾؛ لأنَّ مَوضِعَهما نصبٌ. والثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه الأوَّلُ، أي: ويُحَلَّونَ لُؤلؤًا. الثَّالثُ: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿أَسَاوِرَ﴾ و(مِنْ) زائِدةٌ فيه عندَ الأخفَشِ، ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١].

وقُرِئَ ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ بالجَرِّ[1] عَطفًا على ﴿ذَهَبٍ﴾. وقيل: مَجرورٌ عَطفًا على لَفظِ ﴿أَسَاوِرَ﴾[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ الَّذين يَتلُونَ القُرآنَ، وأقاموا الصَّلواتِ، وأنفَقوا ممَّا رزَقْناهم في السِّرِّ والعَلَنِ: يَرجُونَ تجارةً رابحةً لن تَخسَرَ؛ لِيُوَفِّيَهم اللهُ أجورَ أعمالِهم تامَّةً غيرَ مَنقوصةٍ، ويزَيدَهم مِن فَضلِه، إنَّ اللهَ غَفورٌ شَكورٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مثبِّتًا قلْبَ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم ومُسَلِّيًا له عمَّا أصابه:

---

= قال الزمخشري: (فإن قلتَ: ما الفرقُ بيْنَ النَّصَبِ واللُّغوبِ؟ قلتُ: النَّصَبُ: التَّعبُ والمَشَقَّةُ الَّتي تُصيبُ المنتصِبَ للأمرِ المزاوِلَ له. وأمَّا اللُّغوبُ فما يَلحَقُه مِن الفُتورِ بسببِ النَّصَبِ؛ فالنَّصَبُ: نفْسُ المشَقَّةِ والكُلْفةِ، واللُّغوبُ: نتيجتُه وما يَحدُثُ منه مِن الكَلالِ والفَترةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٤).

(١) سيأتي بيانُ هذه القراءةِ ومَن قرَأ بها في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التَّفسيرِ.

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ٤١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١١٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٢٥٣).

والَّذي أوحَينا إليك -يا محمَّدُ- مِن كِتابِ اللهِ تعالى هو الحَقُّ مُصَدِّقًا لِما بيْن يَدَيه مِن كُتُبِ الرُّسُلِ المتقَدِّمةِ؛ إنَّ اللهَ بعبادِه خَبيرٌ بَصيرٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى أقسامَ هذه الأمَّةِ، فيقولُ: ثمَّ أورَثْنا القُرآنَ أمَّةَ مُحمَّدٍ الَّتي اختَرْناها؛ فمنهم ظالمٌ لنَفْسِه يُقَصِّرُ في أداءِ بعضِ الواجباتِ، ويقعُ في بعضِ المحرَّماتِ، ومنهم المتوسِّطُ الَّذي يؤدِّي الواجباتِ ويَترُكُ المحرَّماتِ، ومنهم مُسارِعٌ في الخَيراتِ بإذنِ اللهِ تعالى؛ يَفعلُ الواجباتِ والمُستحَبَّاتِ ويَترُكُ المُحرَّماتِ والمَكروهاتِ، ذلك العَطاءُ الَّذي فَضَّلهم اللهُ به هو الفَضلُ الكبيرُ.

ثمَّ يَذكُرُ جزاءَ الَّذين أورَثهم كتابَه، فيقولُ: جنَّاتُ عَدْنٍ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، يُلبَسونَ فيها أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلؤًا، ولِباسُهم فيها ثيابٌ مِن حريرٍ.

ثمَّ يحكي الله تعالى ما يَقولونَه بعدَ الفوزِ بالجنَّةِ: وقالوا: الحَمدُ لله الَّذي أذهَبَ عنَّا أحزانَنا، إنَّ ربَّنا لَغَفورٌ شَكورٌ؛ الَّذي أنزَلَنا الجنَّةَ لا يُصيبُنا فيها تَعَبٌ ولا ضَعفٌ أو فُتورٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ٢٩ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى وَصْفَهم بالخَشيةِ: وهي عمَلُ القَلبِ؛ ذكَرَ أنَّهم يَتلُون كِتابَ اللهِ: وهو عمَلُ اللِّسانِ، وأقاموا الصَّلاةَ: وهو عَمَلُ الجوارحِ، ويُنفِقونَ: وهو العَمَلُ الماليُّ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١).

وأيضًا لَمَّا تقرَّر هذا تشَوَّفَ السَّامعُ إلى مَعرفةِ العُلماءِ، فكان كأنَّه قيل: هم الَّذين يُحافِظونَ على كتابِ اللهِ عِلمًا وعَمَلًا[١].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: إنَّ المؤمِنينَ الَّذين يُداوِمونَ على تِلاوةِ القُرآنِ، فيَتتبَّعونَ ألفاظَه بدراستِها، ومعانيَه باستخراجِها، ويتَّبِعونَه بالعَمَلِ بأحكامِه، والتَّصديقِ بأخبارِه[٢].

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

أي: وداوَموا على أداءِ الصَّلواتِ على وَجهٍ تامٍّ مُستقيمٍ كما أمَرَ اللهُ تعالى[٣].

﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ ﴾.

أي: وأنفَقوا ممَّا رزَقْناهم مِن الأموالِ -طَلبًا لِمَرضاةِ الله تعالى- في الخَفاءِ حيثُ لا يَراهم أحدٌ، وفي العَلَنِ بمَرْأًى مِنَ النَّاسِ[٤].

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا حسَدَ إلَّا في اثنتَينِ: رجُلٌ آتاه اللهُ القُرآنَ، فهو يقومُ به آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ، ورجُلٌ آتاه اللهُ مالًا، فهو يُنفِقُه آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٤، ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٤، ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٦).

(٥) أخرجه البخاري (٥٠٢٥)، ومسلم (٨١٥) واللفظ له.

﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾.

أي: يَرجُونَ بتِلاوتِهم كتابَ اللهِ، وإقامتِهم الصَّلاةَ، وإنفاقِهم في السِّرِّ والعَلانيةِ: تجارةً رائجةً رابحةً باقيةً، لن تَخسَرَ، ولن تَكسُدَ وتَهلِكَ[1].

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المرادُ بعدَمِ هلاكِ هذه التِّجارةِ حِفْظَها وبقاءَها إلى يومِ لقائِه؛ علَّلَه بقَولِه[2]:

﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾.

أي: لِيُؤتيَهم اللهُ أجورَ أعمالِهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا؛ مِن تلاوةِ القُرآنِ، والصَّلاةِ، والنَّفَقةِ: على وجْهٍ تامٍّ لا نَقْصَ فيه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٧).

قال السمعاني: (والمرادُ مِن التِّجارةِ ما وعَدَه الله مِن الثَّوابِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٦، ٢٠٧).

قال البِقاعي: (في الدُّنيا إن أراد، أو في الآخِرةِ، أو فيهما). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥١).

وقال ابنُ عثيمين: (قَولُه تعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ هذه اللَّامُ للعاقبةِ، وقيل: للتَّعليلِ؛ فعلى القَولِ بأنَّها للعاقبةِ تكونُ مُتعَلِّقةً بـ ﴿يَرْجُونَ﴾؛ فـ ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ عاقِبتُهم أن يوفِّيَهم اللهُ أجورَهم. وعلى أنَّها للتَّعليلِ مُتعَلِّقةٌ بـ ﴿يَتْلُونَ﴾ ﴿وَأَقَامُوا۟﴾ ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾ يعني: يَتلونَها لِيُوفِّيَهم أجورَهم، وأقاموا الصَّلاةَ لِيُوفِّيَهم أجورَهم، وأنفَقوا ممَّا رزَقْناهم لِيوفِّيَهم أجورَهم؛ يعني: قصَدوا ما رتَّب اللهُ على هذه الأعمالِ مِن الأجورِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٢).

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: ويَزيدَهم اللهُ مِن كَرمِه فوقَ ما يَستحِقُّونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٧، ٣٨].

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت أعمالُهم لا تَنفَكُّ عن شائبةٍ ما وإن خلَصَت؛ فلم يكُنْ ثوابُها -لأنَّها مِنْ مَنِّه سُبحانَه- مُستَحَقًّا؛ علَّل توفيتَهم لها بقَولِه مؤكِّدًا؛ إعلامًا بأنَّه لا يَسَعُ النَّاسَ إلَّا عَفوُه؛ لأنَّه لن يَقدُرَ اللهَ أحَدٌ حَقَّ قَدْرِه وإن اجتهَدَ، ولو آخَذ أعْبَدَ العُبَّادِ بما يقَعُ مِن تقصيرِه أهلَكَه(٢).

﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غَفورٌ لِذُنوبِهم فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مؤاخَذتِهم بها، وهو شَكورٌ فيَتقبَّلُ منهم أعمالَهم وإن قَلَّت، ويُثيبُهم عليها الثَّوابَ الكثيرَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ ٣١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن الأصلَ الأوَّلَ، وهو وُجودُ اللهِ الواحدِ، بأنواعِ الدَّلائلِ؛ مِن قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [فاطر: ٩]، وقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم﴾ [فاطر: ١١]، وقَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾ [فاطر: ٢٧]؛ ذكَرَ الأصلَ الثَّانيَ، وهو الرِّسالةُ، فقال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾.

وأيضًا كأنَّه قد ذَكَر أنَّ الَّذين يَتلُون كِتابَ اللهِ يُوفِّيهم اللهُ، فقال: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ تقريرًا لِما بيَّن مِن الأجرِ والثَّوابِ في تلاوةِ كِتابِ اللهِ؛ فإنَّه حَقٌّ وصِدقٌ فتالِيه مُحِقٌّ ومُحَقِّقٌ(١).

﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾.

أي: والَّذي أوحَيْناه إليك -يا محمَّدُ- مِن كتابِ اللهِ تعالى هو الحَقُّ الكامِلُ، التَّامُّ الثَّابتُ الَّذي يجِبُ اتِّباعُه؛ مُصَدِّقًا لِما بيْنَ يديه مِن كُتُبِ الرُّسُلِ المتقَدِّمةِ(٢).

---

= (١٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٧-٢٢٠).

قال السعدي: (﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ مِن الكُتبِ والرُّسلِ؛ لأنَّها أخبرَتْ به، فلمَّا وُجِد وظهَرَ، ظهَر به صِدقُها، فهي بَشَّرَتْ به وأخبَرَتْ، وهو صَدَّقَها؛ ولهذا لا يُمكِنُ أحدٌ أن يؤمنَ بالكُتبِ السَّابقةِ وهو كافرٌ بالقرآنِ أبدًا؛ لأنَّ كُفْرَه به يَنقُضُ إيمانَه بها؛ لأنَّ مِن جملةِ أخبارِها الخبرَ عن القرآنِ، ولأنَّ أخبارَها مُطابِقةٌ لأخبارِ القرآنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ خَبيرٌ بعبادِه؛ فهو عالمٌ بدقائقِ أُمورِهم وأحوالِهم وخفاياها، بصيرٌ بهم وبأعمالِهم(١).

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٣٢﴾.

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾.

أي: ثمَّ أورَثْنا القُرآنَ أُمَّةَ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم الَّتي اختَرْناها مِنْ عِبادِنا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤، ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١١).

قال الرسعني: (اختلف العُلَماءُ في المرادِ بالكتابِ؛ على قَولَين:

**أحدُهما**: أنَّه اسمُ جنسٍ، فعلى هذا فالمرادُ بالمُصطَفَينَ قولان؛ أحدُهما: أنَّهم الأنبياءُ وأتْباعُهم، قاله الحسَنُ. فيكونُ التَّقديرُ: والَّذي أوحَيْنا إليك مِن الكتابِ هو الحقُّ، ثمَّ كُنَّا أورَثْنا الكتابَ الأنبياءَ قَبْلَك... فعلى هذا يكونُ المعنى: فمِن أُمَمِهم ظالمٌ لنَفْسه... الآيةَ. الثَّاني: أنَّهم أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، على معنى: أورَثْناهم الإيمانَ بالكُتُبِ كُلِّها، قال ابنُ عبَّاسٍ: «أورَثَ اللهُ تعالى أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم كُلَّ كتابٍ أنزله الله تعالى». فعلى هذا تقديرُ الآيةِ: أنزَلْنا الكُتُبَ المتقدِّمةَ، ثمَّ أورَثْنا أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم الإيمانَ بها. ويؤيِّدُ هذا القولَ: أنَّ حقيقةَ الإرثِ: [انتِقالُ الشَّيءِ] مِن قَومٍ إلى قومٍ.

**القولُ الثَّاني**: أنَّ المرادَ بالكتاب: القرآنُ. والمعنى: ثمَّ نقَلْنا العِلمَ والحُكمَ إلى الَّذين اصطَفينا مِن عبادِنا، وهم أمَّةُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم. وهو قَولُ جمهورِ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٩١).

وقال ابنُ جُزَي: (قال عُمَرُ وابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ وكعبٌ وعائشةُ وأكثرُ المفسِّرينَ: هذه الأصنافُ الثَّلاثةُ في أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٥).

﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾.

أي: فمِنهم مَن هو ظالمٌ لنَفْسِه بالتَّقصيرِ والتَّفريطِ؛ يُفرِّطُ في بعضِ الواجباتِ، ويَفعلُ بعضَ المحرَّماتِ، ويُصِرُّ عليها[1].

﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾.

أي: ومنهم مَن عمَلُه قَصْدٌ؛ يُؤدِّي الواجباتِ، ويَترُكُ المحرَّماتِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٣، ٣٧٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦١) و(١١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦، ٥٤٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٢).

قال السعدي: (فكُلُّهم اصطفاه اللهُ تعالى لوِراثةِ هذا الكتابِ وإن تفاوتَت مراتبُهم، وتميَّزَت أحوالُهم؛ فلكُلٍّ منهم قِسطٌ مِن وِراثتِه، حتَّى الظَّالمُ لنَفْسِه؛ فإنَّ ما معه مِن أصلِ الإيمانِ، وعلومِ الإيمانِ، وأعمالِ الإيمانِ: مِن وِراثةِ الكتابِ؛ لأنَّ المرادَ بوِراثةِ الكتابِ وِراثةُ عِلمِه وعَمَلِه، ودراسةُ ألفاظِه، واستخراجُ معانيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

وفي المرادِ بالظَّالمِ لنفْسِه هاهنا أقوالٌ؛ منها: أنَّهم أهلُ الصَّغائرِ مِن هذه الأمَّةِ. ومنها: أنَّهم أهلُ الكبائرِ وأصحابُ المَشْأمةِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٧٣).

قال الشنقيطي: (الظَّالمُ لنفْسِه وهو الَّذي يُطيعُ اللهَ، ولكنَّه يَعصيه أيضًا، فهو الَّذي قال الله فيه: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]... وهذا على أصحِّ الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦١) و(١١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

واختُلِف في المرادِ بالمقتصِدِ؛ فقيل: هم أصحابُ المَيْمَنةِ. وقيل: المقتصِدَ هو الَّذي يُعطي الدُّنيا حَقَّها، والآخِرةَ حَقَّها. وقيل: هو الَّذي استَوَتْ حَسَناتُه وسَيِّئاتُه. وقيل: الَّذي لم يُصِبْ كبيرةً. وقيل: هو المؤمنُ العاصي. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠١). =

﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ومِنهم المؤدِّي للفرائضِ والنَّوافلِ، التَّارِكُ للمُحرَّماتِ والمكروهاتِ، فسَبَق غَيْرَه بإذنِ اللهِ تعالى[1].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

أي: ذلك[2] العَطاءُ الَّذي فضَّلَهم اللهُ به على غَيرِهم: هو الفَضلُ الكَبيرُ[3].

---

= قال الشنقيطي: (المقتصِدُ وهو الَّذي يُطيعُ اللهَ ولا يَعصيه، ولكنَّه لا يَتقرَّبُ بالنَّوافلِ مِن الطَّاعاتِ... وهذا على أصحِّ الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦١) و(١١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

واختُلِف في السَّابقِ؛ فقيل: السَّابقُ: التَّقيُّ على الإطلاقِ. وقيل: مَن رَجَحَتْ حَسَناتُه على سَيِّئاتِه. وقيل: الَّذي سبَقَ إلى الأعمالِ الصَّالحةِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠١).

وقال الشنقيطي: (السَّابقُ بالخَيراتِ: هو الَّذي يأتي بالواجباتِ، ويَجتنِبُ المُحرَّماتِ، ويَتقرَّبُ إلى الله بالطَّاعاتِ والقُرُباتِ الَّتي هي غيرُ واجبةٍ. وهذا على أصحِّ الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٥/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾: سَبْقُ السَّابقينَ بالخَيراتِ؛ فهو الفَضلُ الكبيرُ الَّذي فضَّلهم به على مَن دُونَهم مِن المقتَصِدينَ والظَّالِمينَ لأنفُسِهم: ابنُ جرير، والزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: إيراثُهم الكتابَ: الواحديُّ، والبغوي، والرسعني، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٣/ ٦٩٦)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن =

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكر اللهُ تعالى أحوالَهم؛ بيَّن جزاءَهم ومآلَهم[١].

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

في قَولِه تعالى: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ قراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿يُدْخَلُونَهَا﴾ على معنى أنَّ غَيرَهم يُدخِلُهم[٢].

٢- قِراءةُ ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ على معنى أنَّ الدُّخولَ مِن فِعلِهم[٣].

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا ﴾.

أي: جناتُ إقامةٍ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، فلا يَخرُجونَ منها أبدًا[٤].

---

= عطية)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٨).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٢٩٦).

قال ابنُ عثيمين: (هم إذا أُدخِلوا فقد دخَلوا، فكأنَّ القراءتينِ واحِدٌ، ولكِنْ يُستفادُ منها مِن كلمةِ ﴿يُدْخَلُونَهَا﴾ بيانُ أنَّهم يُعطَونَها كرامةً). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

ممَّن اختار أنَّ هذا بيانٌ لثَوابِ الَّذين أورَثَهم الكتابَ، وهم الأصنافُ الثَّلاثةُ: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

في قَولِه تعالى: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ بالنَّصبِ على معنى: ويُحَلَّونَ لُولُؤًا[١].

٢- قِراءةُ ﴿وَلُؤْلُؤٍ﴾ بالجَرِّ، قيل على معنى: يُحَلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ وأساوِرَ مِن لُؤلُؤٍ، أو على معنى: يُحَلَّونَ أساوِرَ مِن ذَهَبٍ ولُؤلؤٍ، أي: يكونُ السِّوارُ الواحِدُ مُكَوَّنًا مِنَ الذَّهَبِ واللُّؤلؤِ معًا[٢].

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾.

أي: يُلبَسونَ فيها -رِجالًا ونِساءً- أساوِرَ مِن ذَهَبٍ، ويُحَلَّونَ فيها لؤلؤًا؛ زينةً لهم[٣].

---

= (٦/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤١٧) (٥/ ٤٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٦- ٥٧، ٨٤-٨٥) و (٢/ ٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو قِلابةَ الجَرْميُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٧٨٩).

وقيل: هذا بيانٌ لثوابِ السَّابِقينَ بالخيراتِ بإذنِ الله. وممَّن قال بهذا القول: الزمخشري، ورجَّحه الرازي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٠).

(١) قرأ بها نافعٌ وعاصمٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤١٩، ٤٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٦)، ((الكشف)) لمكي (٢/ ١١٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٢٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٧٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

أي: ولِباسُهم فيها ثيابٌ مِن حريرٍ[١].

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾.

أي: وقالوا: الحَمدُ لله[٢] الَّذي أذهَبَ عنَّا أحزانَنا، فلا يكونُ لنا حَزَنٌ أبدًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ * قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ * إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٨].

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

أي: إنَّ ربَّنا لَغَفورٌ للذُّنوبِ، فيَستُرُها ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها؛ شَكورٌ يُثيبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

وقال ابن عطية: (خصَّص المفَسِّرون في هذا الموضِعِ؛ فقال أبو الدَّرْداءِ: حَزَنُ أهوالِ القيامةِ وما يُصيبُ هناك مَن ظَلَم نفْسَه مِن الغَمِّ والحَزَنِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: حَزَنُ جهنَّمَ. وقال عطيَّةُ: حَزَنُ الموتِ. وقال شِمْرٌ: حَزَنُ معيشةِ الدُّنيا: الخُبزِ ونحوِه. وقال قَتادةُ: حَزَنُ الدُّنيا في الخَوفِ ألَّا تُتقَبَّلَ أعمالُهم. وقيل غيرُ هذا ممَّا هو جزءٌ مِن الحَزَنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ في معنى الحَزَنِ دونَ تخصيصٍ: ابنُ جرير، وابنُ عطية، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

على الأعمالِ الصَّالحةِ -وإن قَلَّتْ- بالكثيرِ مِن الثَّوابِ مِن فَضلِه[١].

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى سُرورَهم وكرامتَهم بتَحليتِهم وإدخالِهم الجنَّاتِ؛ بيَّن سُرورَهم ببقائِهم فيها، وأعلَمَهم بدوامِها[٢].

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ ﴾.

أي: الَّذي أنزَلَنا الجنَّةَ وأسكَنَنا فيها، فلا نَنتَقِلُ منها أبدًا، وذلك مِن فَضلِه علينا، لا بأعمالِنا[٣].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لن يُدخِلَ أحدًا منكم عَمَلُه الجنَّةَ. قالوا: ولا أنتَ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا إلَّا أن يَتغَمَّدَني اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ))[٤].

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾.

أي: لا يُصيبُنا في الجنَّةِ أيُّ تَعَبٍ أو مَشَقَّةٍ، ولا يُصيبُنا فيها أيُّ ضَعفٍ أو فُتورٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤٦، ٢٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧).

قال ابنُ عاشور: (المسُّ: الإصابةُ في ابتِداءِ أمرِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ ﴾ في الآيةِ ما يَشملُ ثوابَ قرَّاءِ القُرآنِ؛ فإنَّهم يَصدُقُ عليهم أنَّهم مِن الَّذين يَتلونَ كِتابَ اللهِ ويُقيمونَ الصَّلاةَ، ولو لم يُصاحِبْهم التَّدَبُّرُ في القُرآنِ؛ فإنَّ للتِّلاوةِ حَظَّها مِن الثَّوابِ والتَّنَوُّرِ بأنوارِ كلامِ اللهِ[١]، وكان مُطَرِّفٌ يقولُ في هذه الآيةِ: (هذه آيةُ القُرَّاءِ)[٢]. يُشيرُ بذلك إلى دَلالتِها على فَضلِهم، وتنويهِها بذِكرِهم[٣]، وتِلاوةُ القرآنِ تَتناوَلُ تِلاوةَ لَفْظِه ومعناه، وتِلاوةُ لفظِه وسيلةٌ وطريقٌ، والمقصودُ التِّلاوةُ الحقيقيَّةُ، وهي تلاوةُ المعنى واتِّباعُه؛ تصديقًا بخبرِه، وائْتِمارًا بأمرِه، وانتِهاءً عن نَهْيِه، وائْتِمامًا به، حيثُ ما قادَكَ انقدْتَ معه، فتلاوةُ المعنَى أشرفُ مِن مجرَّدِ تلاوةِ اللَّفظِ، وأهلُها هم أهلُ القرآنِ الَّذين لهم الثَّناءُ في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإنَّهم أهلُ مُتابَعةٍ وتلاوةٍ حقًّا[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ أنَّ المُنفِقَ ليس مانًّا على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه إنَّما يُنْفِقُ ممَّا رَزَقه اللهُ، فمهما بَلَغَتْ بك نفْسُك مِن الإعجابِ والكبرياءِ على إنفاقِكَ فاذْكُرْ قولَه تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾، كلُّ

---

= قال ابن كثير: (كأنَّ المرادَ بنفْيِ هذا وهذا عنهم [أي: النَّصَبِ واللُّغوبِ] أنَّهم لا تعَبَ على أبدانِهم ولا أرواحِهم، والله أعلَمُ. فمِن ذلك أنَّهم كانوا يُدْئِبون أنفُسَهم في العبادةِ في الدُّنيا، فسقَطَ عنهم التَّكليفُ بدُخولِها [أي: الجنَّةِ]، وصاروا في راحةٍ دائمةٍ مُستمِرَّةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٨).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٣٥١١٩)، وابن جرير في ((تفسيره)) (١٩/ ٣٦٦)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٢٠٣)، ويُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٢).

شيءٍ تُنْفِقُه فليس لك فيه مِنَّةٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ، بل للهِ المِنَّةُ عليك به في إيجادِه؛ لأنَّه لولا أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ رَزَقكَ ما حصَلَ لك، وله المِنَّةُ عليك في إنفاقِه؛ لأنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ يَبخَلون بما آتاهم اللهُ مِن فضْلِه، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، فمِن نعمةِ اللهِ عليك أنْ يَمُنَّ عليك بالإنفاقِ بعدَ أنْ مَنَّ عليك بالرزقِ والعطاءِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ حَثٌّ على الإنفاقِ كيفما يتهيَّأُ؛ فإنْ تهيَّأ سرًّا فذاك ونِعْمَ، وإلَّا فعلانيةً، ولا يَمنَعْه ظَنُّه أن يكونَ رياءً[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ أنَّ الرَّجاءَ ينبغي أن يكونَ في مَحَلِّه؛ بحيث يكونُ الإنسانُ قد عَمِلَ عَملًا يَرجو الثَّوابَ عليه، أمَّا الرَّجاءُ بدونِ عَمَلٍ فهو مِن التَّمَنِّي الَّذي لا يَنفَعُ العبدَ؛ فلا رجاءَ إلَّا بعَمَلٍ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ فيه إشارةٌ إلى الإخلاصِ، أي: يُنفِقون لا ليُقالَ: إنَّه كَريمٌ، ولا لشَيءٍ مِن الأشياءِ غيرِ وجهِ الله؛ فإنَّ غيرَ اللهِ بائرٌ، والتَّاجِرَ فيه تجارتُه بائِرةٌ[٤]، أمَّا الَّذي يَرجو ثوابَ اللهِ ويُحْسِنُ النِّيَّةَ والقَصْدَ فهذا تجارتُه لن تَبُورَ؛ ففيه: التَّنبيهُ على الإخلاصِ، وأنَّه ينبغي على الإنسانِ أنْ يكونَ مُخْلِصًا للهِ تعالى في عَمَلِه القاصِرِ والمتعدِّي؛ فالقاصرُ كالصَّلاةِ، والمتعدِّي كالصَّدقةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٠).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. قولُه: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ راجِعٌ إلى السَّابقِ إلى الخَيراتِ؛ لِئَلَّا يَغترَّ بعَمَلِه، بل ما سبَقَ إلى الخَيراتِ إلَّا بتوفيقِ اللهِ تعالى ومَعونتِه؛ فيَنبغي له أن يَشتَغِلَ بشُكرِ اللهِ تعالى على ما أنعَمَ به عليه[١]، ويَكْبَحَ نفْسَه عن الاستعلاءِ والفَخْرِ بالطَّاعةِ[٢].

٧- قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ قولُه تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ فيه أنَّ أجَلَّ النِّعَمِ على الإطلاقِ، وأكبَرَ الفَضلِ: وِراثةُ هذا الكِتابِ[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٨- كان الحَسَنُ يقولُ: (إنَّ المؤمِنينَ قَومٌ ذلَّت -واللهِ- منهم الأسماعُ والأبصارُ والأبدانُ، حتَّى حَسِبَهم الجاهِلُ مرضَى، وهم -واللهِ- أصِحَّاءُ القُلوبِ؛ ألَا تراه يقولُ: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾، واللهِ لقد كابَدوا في الدُّنيا حَزَنًا شَديدًا، وجرَى عليهم ما جرَى على مَن كان قَبْلَهم، واللهِ ما أحزَنَهم ما أحزَنَ النَّاسَ، ولكِنْ أبكاهم وأحزَنَهم الخَوفُ مِن النَّارِ)[٤]!

٩- عن إبراهيمَ التَّيميِّ، قال: (ينبغي لِمَن لم يَحزَنْ أن يخافَ أن يكونَ مِن أهلِ النَّارِ؛ لأنَّ أهلَ الجنَّةِ قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٤) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٣١).

والأثر أخرجه ابن المبارك في ((الزهد)) (٣٩٧) -ومن طريقه ابن جرير في ((التفسير)) (١٧/ ٤٩٣) و(١٩/ ٣٧٨)- بنحوه.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الهم والحزن)) (٢٤)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٤/ ٢١٥) واللفظ له، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٨٧٣).

١٠- في قَولِ الله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الدُّنيا منزلةٌ يَنزلُها المكلَّفُ، ويَرتحِلُ عنها(١).

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾ في هذه الآيةِ والآيةِ السَّابقةِ لها ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] حِكمةٌ بالِغةٌ؛ فقَولُه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ إشارةٌ إلى عَمَلِ القَلبِ، وقَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ﴾ إشارةٌ إلى عَمَلِ اللِّسانِ، وقَولُه: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى عَمَلِ الجوارحِ، ثمَّ إنَّ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ مُتعَلِّقةٌ بجانبِ تعظيمِ اللهِ والشَّفَقةِ على خَلقِه(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ تضَمَّن هذا أنَّهم يَكتَسِبونَ مِن العِلمِ الشَّرعيِّ مِن العقائدِ والأخلاقِ والتَّكاليفِ؛ فقد أشعَرَ الفِعلُ المضارِعُ بتجَدُّدِ تِلاوتِهم؛ فإنَّ نزولَ القُرآنِ مُتجَدِّدٌ، فكُلَّما نزَل منه مِقدارٌ، تلَقَّوه وتدارَسوه(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ أنَّ الثَّوابَ في الآخرةِ لا يَنقطِعُ، بل رُبَّما نقولُ: إنَّ هذا أعَمُّ؛ بحيث يُثابُ الإنسانُ في الدُّنيا ثوابًا مُستمِرًّا إلى الآخِرةِ؛ لأنَّ الحَسَناتِ قد يرى الإنسانُ ثوابَها في الدُّنيا، ويَستمِرُّ إلى الثَّوابِ في الآخرةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٨).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أنَّ طَلَبَ الإنسانِ للثَّوابِ غايةٌ عظيمةٌ -بِناءً على أنَّ اللَّامَ هنا للتَّعليلِ- فعَمَلُ الإنسانِ مِن أجْلِ الأجرِ لا يُعَدُّ نقصًا، خِلافًا للصُّوفيَّةِ الَّذين يقولونَ: (لا تَعبُدِ اللهَ لثَوابِ اللهِ، ولكنِ اعبُدِ اللهَ للهِ)! فنَقولُ لهم: هذا خطأٌ؛ فاللهُ تعالى وَصَفَ أشرَفَ هذه الأُمَّةِ وخيْرَ هذه الأمَّةِ بأنَّهم يُريدونَ فَضلًا مِن اللهِ ورِضوانًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، ومع ذلك لا نقولُ: «لا تَعْبُد اللهَ للهِ»، بل اعْبُدِ اللهَ للهِ ولثَوابِ اللهِ؛ فإنَّك لن تَصِلَ إلى اللهِ إلَّا بعدَ وُصولِك إلى ثوابِ اللهِ؛ فإنَّ لِقاءَ اللهِ اللِّقاءَ الَّذي هو الرِّضا التامُّ: إنَّما يَحصُلُ في الجنةِ[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ ﴾ ضمانُ الثوابِ، فالثَّوابُ مَضمونٌ للعاملِ الَّذي يَتعاملُ مع اللهِ عزَّ وجلَّ -بِناءً على أنَّ اللَّامَ هنا للعاقِبةِ-، أي: أنَّ هذا العمَلَ سوف يُوَفَّى، وفيه أيضًا وجهٌ آخَرُ لِضَمانِ الثَّوابِ: أنَّ اللهَ سَمَّاه أجرًا، والأجرُ لا بُدَّ أنْ يُدفَعَ لِمَن قام بالعَمَلِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه يَزيدُ كلَّ عاملٍ على أجرِه؛ لأنَّه ذو فَضلٍ، فالعاملُ فائزٌ بفَضلَينِ؛ **أحدُهما**: الفَضلُ الأولُ، وهو جَعْلُ الحَسَنةِ عَشَرةً، و**الفَضلُ الثَّاني**: ما يَزيدُ على العَشَرةِ، ولا يجوزُ أنْ تكونَ الزِّيادةُ مَصروفةً إلى التِّسعةِ؛ لأنَّ ذلك إنجازُ وَعدٍ في قَولِه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فعَشْرُ أمثالِ العَمَلِ أجرُه، والزِّيادةُ تكونُ بعدَ الأجرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٧٠٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ ﴾ وقَولِه سُبحانَه: ﴿وَيَزِيدَهُم ﴾ دَليلٌ على ثُبوتِ الأفعالِ الاختياريَّةِ لله عزَّ وجلَّ، وهذا مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ: أنَّهم يُثبِتونَ للهِ تعالى الأفعالَ الاختياريَّةَ -أي: الَّتي تقَعُ بمشيئتِه-؛ فإنَّه تعالى فَعَّالٌ لِمَا يريدُ(١).

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ فهو سُبحانَه يَغفِرُ الكثيرَ مِن الزَّلَلِ، ويَشكُرُ القليلَ مِن العَمَلِ؛ فجَمَع لهم سُبحانَه بيْنَ الأمْرَينِ: أنْ شكَرَ سَعْيَهم، وأثابَهم عليه، واللهُ تعالى يَشكُرُ عبْدَه إذا أحسَنَ طاعتَه، ويَغفِرُ له إذا تاب إليه، فيَجمَعُ للعبدِ بيْن شُكرِه لإحسانِه، ومَغفرتِه لإساءتِه ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحَقَّ لزِمَ أنَّ كلَّ ما دلَّ عليه من المسائِلِ الإلهيَّةِ والغَيبيَّةِ وغَيرِها مطابِقٌ لِما في الواقعِ، فلا يجوزُ أن يُرادَ به ما يخالِفُ ظاهِرَه وما دَلَّ عليه(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ اشتِمالُ القرآنِ الكريمِ على الحقِّ في أخبارِه وفي أحكامِه؛ فأخبارُه كلُّها صِدقٌ، وأحكامُه كلُّها عَدلٌ، وما خالفَ القرآنَ فهو باطلٌ؛ فقد حَصَر الحقَّ فيه(٤).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ في قَولِه: ﴿مُصَدِّقًا﴾ تقريرٌ لِكَونِه وَحيًا؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم لَمَّا لم يكُنْ قارِئًا كاتِبًا، وأتَى ببيانِ ما في كتُبِ اللهِ؛ لا يكونُ ذلك إلَّا مِن اللهِ عالى(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٢٨٠، ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٨).

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ فيه لطيفةٌ، وهي أنَّه تعالَى جعَل القرآنَ مُصدِّقًا لِمَا مضَى -مع أنَّ ما مضَى أيضًا مصَدِّقٌ له؛ لأنَّ الوحيَ إذا نَزَل على واحدٍ جازَ أنْ يَنزِلَ على غيرِه، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم-، ولم يَجعَلْ ما تَقَدَّم مصَدِّقًا للقرآنِ؛ لأنَّ القرآنَ كونُه معجزةً يَكفي في تصديقِه بأنَّه وحيٌ، وأمَّا ما تَقَدَّم فلا بُدَّ معه مِن معجزةٍ تُصَدِّقُه[1].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ رَحمةُ اللهِ تعالى بعبادِه؛ حيثُ لم يَدَعْهم هَمَلًا، بل أنزلَ إليهم الكُتُبَ الَّتي يَستنيرونَ بها في سَيرِهم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ فيه فَضْلُ اللهِ عزَّ وجلَّ على هذه الأُمَّةِ؛ حيث أوْرَثَها هذا الكتابَ العظيمَ، وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ أنَّ هذه الأُمَّةَ أفضَلُ الأُمم، ودلَّ لذلك أيضًا قولُه: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[3] [آل عمران: ١١٠].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ * جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ بِشارةٌ كبيرةٌ لهذه الأُمَّةِ؛ إذ قد وُعِدوا على اختلافِ أحوالِهم، مِن الظُّلمِ والقَصْدِ والمُسابقةِ معًا: بالجنَّةِ، وفيه حُجَّةٌ على المعتزلةِ في بابِ الوعيدِ؛ لإدخالِ الظَّالمِ نفْسَه الجنَّةَ مع المقتَصِدِ والسَّابقِ بالخَيراتِ بإذنِ اللهِ. وأيضًا فيه حُجَّةٌ على الشُّراةِ -الخوارجِ-؛ فإنَّهم يَعُدُّونَ صغيرَ الذَّنْبِ وكبيرَه كُفرًا، فلو كان المصطفى لَمَّا ظَلَمَ نفْسَه كَفَرَ، لَمَا دخَل الجنَّةَ أبدًا -تابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣١).

أو لم يَتُبْ-؛ لأنَّهم لا يَرونَ التَّوبةَ ولا يقولونَ بها[١]!! وقد يقولُ قائلٌ: يمكِنُ أنْ يُعَارِضَ الخوارجُ والمعتزلةُ هذا الاستِدلالَ بأنْ يقولوا بأنَّ المرادَ بالإثمِ هنا ما دونَ الكبائرِ. فيقالُ: إنَّ ما دونَ الكبائرِ يَقَعُ مَغفورًا بفعلِ الطَّاعاتِ؛ كالصَّلواتِ الخَمْسِ، والجُمُعةِ إلى الجُمُعةِ، ورمضانَ إلى رمضانَ، وحينَئذٍ يَنتفي الظُّلْمُ بمُجرَّدِ فِعلِ هذه الطَّاعاتِ[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أنَّه قد يُرادُ بالظُّلمِ ما لا يَنقُلُ عنِ المِلَّةِ[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ تفاضُلُ النَّاسِ في العَمَلِ، ويَتفرَّعُ عليه: تفاضُلُهم في الإيمانِ، والدَّليلُ على تفاضُلِهم في العمَلِ تَقسيمُهم إلى ثلاثةِ أقسامٍ، ويَلزَمُ مِن تفاضُلِهم في العَمَلِ أنْ يتفاضَلوا في الإيمانِ، فيكونُ في ذلك دليلٌ لِمَذهبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ القائِلينَ بزيادةِ الإيمانِ ونَقصِ الإيمانِ[٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه؛ يقولُ ويَفعلُ ويَترُكُ بغيرِ إذنِ اللهِ[٥]!

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ أنَّ أكبرَ فَضْلٍ يَتفضَّلُ اللهُ به على عبْدِه أنْ يُوَفِّقَه للقيامِ بطاعتِه، فمَن ورِثَ هذا الكتابَ عِلْمًا وعمَلًا

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٧٠٥، ٧٠٧، ٧٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).

ودعوةً، فهو الَّذي حاز الفضلَ الكبيرَ، وفي قولِه تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] إشارةٌ إلى هذا المعنى(١).

٢٠- قولُه تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ هذا التَّقسيمُ لأُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والظَّالِمُ لنفْسِه المرادُ به: أصحابُ الذُّنوبِ المُصرُّونَ عليها، وقولُه بعدَ ذلك: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ فيه دَلالةٌ لأهلِ السُّنَّةِ على أنَّه لا يُخلَّدُ في النَّارِ أحدٌ مِن أهلِ التَّوحيدِ(٢).

٢١- قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾، وجنَّاتُ عَدْنٍ هي وَصفٌ لجملةِ الجِنانِ -وكلُّها جنَّاتُ عَدْنٍ-، فليست اسمَ جَنَّةٍ مِن جملةِ الجنَّاتِ، والاشتِقاقُ يدُلُّ على أنَّ جميعَها جنَّاتُ عَدْنٍ؛ فإنَّه مِن الإقامةِ والدَّوامِ(٣).

٢٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا ﴾ الواوُ في ﴿يَدْخُلُونَهَا ﴾ شامِلةٌ للظَّالمِ والمُقتصِدِ والسَّابقِ على التَّحقيقِ؛ ولذا قال بعضُ أهلِ العِلمِ: (حُقَّ لهذه الواوِ أن تُكتَبَ بماءِ العينَينِ)، فوعْدُه الصَّادقُ بجنَّاتِ عَدْنٍ لجميعِ أقسامِ هذه الأمَّةِ -وأوَّلُهم الظَّالمُ لنفْسِه- يدُلُّ على أنَّ هذه الآيةَ مِن أرجى آياتِ القرآنِ، ولم يَبْقَ مِن المُسلمينَ أحدٌ خارجٌ عن الأقسامِ الثَّلاثةِ، فالوعدُ الصَّادقُ بالجنَّةِ في الآيةِ شاملٌ لجميعِ المُسلمينَ؛ ولذا قال بعدَها مُتَّصلًا بها: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٨).

نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾[1] [فاطر: ٣٦، ٣٧].

٢٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ ﴾ فيه إشارةٌ إلى سُرعةِ الدُّخولِ؛ فإنَّ التَّحليةَ لو وقعَتْ خارِجًا لَكان فيه تأخيرُ الدُّخولِ؛ فقال: يَدخُلونَها وفيها تقَعُ تَحليتُهم[2].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ أنَّ الجنَّةَ ليست دارَ تكليفٍ؛ يُمنَعُ منها العبدُ ممَّا يَتنعَّمُ به، بل يَتنعَّمُ بكلِّ ما شاء؛ لأنَّنا نَعلمُ جميعًا أنَّ تَحلِّيَ الرِّجالِ في الدُّنيا بالذَّهَبِ مَمنوعٌ وحرامٌ، لكنَّه في الجنَّةِ مُباحٌ وممنوحٌ، وليس بمَمنوعٍ؛ لأنَّ الجنَّةَ لهم فيها ما يَشاؤونَ، بل أكثرُ ممَّا يَشاؤونَ ويُريدونَ[3].

٢٥- قال الله تعالى: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ ذِكرُ الأساورِ مِن بينِ سائرِ الحُليِّ في مواضِعَ كثيرةٍ -كقَولِه تعالى: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان: ٢١]- يدُلُّ على كَونِ المتحَلِّي غيرَ مُبتَذَلٍ في الأشغالِ؛ لأنَّ كَثرةَ الأعمالِ باليدِ، فإذا حُلِّيَت بالأساورِ دَلَّ ذلك على الفراغِ مِن الأعمالِ[4].

٢٦- قال اللهُ تعالى حِكايةً عن أهلِ الجنَّةِ قَولَهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٣٤]، فلمَّا صاروا إلى كرامتِه بمَغفرتِه ذُنوبَهم، وشُكرِه إحسانَهم؛ قالوا ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾، وفي هذا معنى

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٦) و(٢/ ٧٢) و(٤/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٢٧٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤١).

التَّعليلِ، أي: بمَغفرتِه وشُكرِه وصَلْنا إلى دارِ كرامتِه؛ فإنَّه غَفَر لنا السَّيِّئاتِ، وشكَرَ لنا الحَسَناتِ(١).

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ كمالُ الفرحِ والسُّرورِ لأهلِ الجنَّةِ؛ فإنَّ هذه الصِّفةَ السَّلبيَّةَ تدُلُّ على كمالِ ضِدِّها، فإذا كان الحَزَنُ مَنفيًّا عنهم؛ كان ذلك دليلًا على كمالِ سرورِهم، وأنَّه سرورٌ لا يُشابُ بحَزَنٍ أبدًا، بخِلافِ سرورِ الدُّنيا؛ فإنَّ سرورَ الدُّنيا مهما عَظُمَ مَشوبٌ بالكَدَرِ(٢).

٢٨- مِن أسماءِ الجنَّةِ: دارُ المُقامةِ؛ قال تعالى حكايةً عن أهلِها: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۞ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾(٣).

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ تأبيدُ الجنَّةِ؛ لإطلاقِ قولِه تعالى: ﴿ٱلْمُقَامَةِ﴾، ولم تُقيَّدْ بزمنٍ(٤).

٣٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ الله تعالى يجعَلُ أبدانَهم في نشأةٍ كاملةٍ، ويُهيِّئُ لهم مِن أسبابِ الرَّاحةِ على الدَّوامِ ما يَكونون بهذه الصِّفةِ؛ بحيث لا يَمَسُّهم نَصَبٌ ولا لُغوبٌ، ولا هَمٌّ ولا حَزَنٌ. ويدُلُّ على أنَّهم لا يَنامونَ في الجنَّةِ؛ لأنَّ النَّومَ فائدتُه زَوالُ التَّعَبِ، وحُصولُ الرَّاحةِ به، وأهلُ الجنَّةِ بخِلافِ ذلك، ولأنَّه مَوتٌ أصغَرُ، وأهلُ الجنَّةِ لا يموتونَ(٥).

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٨٩).

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَدْخُلُ الجنةَ بعَمَلِه[١].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ كمالُ الرَّاحةِ في الجنَّةِ، وكمالُ القُوَّةِ والنَّشاطِ؛ لأنَّ التَّعَبَ إنمَّا يَلحَقُ البدنَ الضَّعيفَ، فإذا قال قائلٌ: مِن أين عرَفْنا الكمالَ؟ فالجوابُ: مِن النَّفْيِ؛ لأنَّ نَفْيَ النَّقصِ إثباتٌ لكمالِ ضِدِّه[٢].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ أنَّ أهلَ الجنَّةِ لا يَتعَبونَ في مُزاوَلةِ الأعمالِ، ولا يَلحَقُهم إعياءٌ بعدَ ذلك، فلا يَتعَبون قَطعًا كما في الآيةِ، لكِنَّهم يَعمَلون كما في قَولِه تعالى: ﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ [الإنسان: ٦]، يَعمَلونَ في نعيمهم؛ يُفَجِّرونَ الأنهارَ، ويَجنونَ الثِّمارَ؛ إلَّا أنَّه بدونِ كُلْفةٍ أو مَشقَّةٍ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ﴾[٣] [الحاقة: ٢٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ يَرۡجُونَ تِجَٰرَةٗ لَّن تَبُورَ﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ استِئنافٌ لبيانِ جُملَةِ ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ فالَّذين يَتْلونَ كِتابَ اللهِ همُ المُرادُ بالعُلماءِ، وقد تخَلَّصَ إلى بَيانِ فَوزِ المُؤمِنينَ الَّذين اتَّبَعوا الذِّكرَ، وخَشُوا الرَّحمنَ بالغَيبِ؛ فإنَّ حالَهم مُضادٌّ لِحالِ الَّذين لم يَسمَعوا القُرآنَ، وكانوا عنْدَ تَذكيرِهم به كحالِ أهلِ القُبورِ لا يَسمَعونَ شَيئًا؛ فبَعْدَ أنْ أثْنى عليهم ثَناءً إجماليًّا بقَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥١).

﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، وأجمَلَ حُسْنَ جَزائِهم بذِكرِ صِفةِ ﴿غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] -ولذلك خُتِمَتْ هذه الآيةُ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾- فُصِّلَ ذلك الثَّناءُ، وذُكِرَتْ آثارُه ومَنافِعُه[١].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ فيه ثَناءٌ مِنَ اللهِ على التَّالينَ لِكتابِه العامِلينَ بشَرائِعِه مِن بيْنِ المُكَذِّبينَ بها مِن سائِرِ الأُمَمِ، وفيه كِنايةٌ عن إيمانِ التَّالينَ له؛ لِأنَّه لا يَتلو الكِتابَ إلَّا مَن صَدَّقَ به، وتَلَقَّاه باعتِناءٍ. و﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ هو القُرآنُ، وعَدَلَ عنِ اسمِه العَلَمِ إلى اسمِ الجِنسِ المُضافِ لاسمِ الجَلالةِ؛ لِما في إضافَتِه إليه مِن تَعظيمِ شَأنِه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أشعَرَ الفِعلُ المُضارِعُ ﴿يَتْلُونَ﴾ بتَجَدُّدِ تِلاوَتِهم؛ فإنَّ نُزولَ القُرآنِ مُتجَدِّدٌ، فكُلَّما نَزَلَ منه مِقدارٌ تَلَقَّوْه وتَدارَسوه. وجِيءَ في جانِبِ إقامةِ الصَّلاةِ والإنفاقِ بِفِعلِ المُضِيِّ؛ لأنَّ فَرْضَ الصَّلاةِ والصَّدَقةِ قد تقرَّرَ وعَمِلوا به، فلا تَجَدُّدَ فيه، وامتِثالُ الَّذي كُلِّفوا به يَقتَضي أنَّهم مُداوِمونَ عليه[٣]؛ فعَبَّرَ في الأوَّلِ بالمُضارِعِ؛ لِأنَّ إنزالَها كان قبْلَ التَّمامِ، وتَصريحًا بتَكرارِ التِّلاوةِ تَعبُّدًا ودِراسةً؛ لِأنَّ القُرآنَ كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإبِلِ في عُقُلِها[٤]))[٥]، وفي الثَّاني والثَّالثِ بالماضي؛ حَثًّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦).

(٤) العُقُلُ جمْعُ عِقالٍ، وهو الحَبلُ الَّذي يُشَدُّ به ذِراعُ البعيرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٤٩٥).

(٥) أخرجه البخاري (٥٠٣٣)، ومسلم (٧٩١) مطولًا، واللفظ له، مِن حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

على المُبادَرةِ إلى الفِعلِ، وقد تحَصَّلَ مِن هذا أنَّه جَعَل لِفِعلِ القَلبِ -الَّذي هو الخَشيةُ- دليلًا باللِّسانِ، وآخَرَ بالأركانِ، وثالِثًا بالأموالِ[١]. وقيل: عَبَّرَ في الأوَّلِ بالمُضارِعِ؛ إشارةً إلى سُهولةِ مَصدَرِه، وفي الثَّاني بالماضي؛ إشارةً إلى أنَّه مُحَقَّقٌ وُقوعُه، مع عَدَمِ سُهولَتِه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إدماجٌ[٣] للامتِنانِ، وإيماءٌ إلى أنَّه إنفاقُ شُكرٍ على نِعمةِ اللهِ عليهم بالرِّزقِ؛ فهم يُعطُونَ منه أهلَ الحاجةِ، ووَقَع الالتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ مِن قَولِه: ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ إلى التَّكلُّمِ في قَولِه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾؛ لأنَّه المُناسِبُ لِلامتِنانِ[٤].

- وفي تقديمِ السِّرِّ على العَلانيةِ في قَولِه: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ إشارةٌ إلى أنَّه أفضَلُ؛ لِانقِطاعِ شائِبةِ الرِّياءِ منه، وذَكَر العَلانيةَ؛ لِلإشارةِ إلى أنَّهم لا يَصُدُّهم مَرأى المُشرِكينَ عنِ الإنفاقِ؛ فهم قد أعلَنوا بالإيمانِ وشرائِعِه حبَّ مَن حبَّ، أو كَرِهَ مَن كَرِهَ[٥].

- قَولُه: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾ قيل: خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في إنشاءِ التَّبشيرِ، كأنَّه قيلَ: لِيَرجوا تِجارةً، وزادَه التَّعليلُ بقَولِه: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ قَرينةً على إرادةِ التَّبشيرِ، والمعنى: لِيَرجوا أن تكونَ أعمالُهم -مِن تلاوةٍ وصلاةٍ وإنفاقٍ- كتجارةٍ رابحةٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٣٤).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٠٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧).

- قَولُه: ﴿لَّن تَبُورَ﴾ صِفةٌ لـ ﴿تِجَٰرَةً﴾، وجيءَ بهذه الجُملةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّها ليستْ كسائرِ التِّجاراتِ الدَّائرةِ بيْنَ الرِّبحِ والخُسرانِ؛ لأنَّه اشتراءُ باقٍ بفانٍ، والإخبارُ برَجائِهم مِن أكرَمِ الأكرَمينَ عِدَةٌ قَطعيَّةٌ بحُصولِ مَرجُوِّه[1].

٢- قَولُه تَعالى: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

- قولُه: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ عِلَّةٌ لِمَدلولِه، أي: يَنتَفي عنها الكَسادُ، وتَنفُقُ عنْدَ اللهِ؛ لِيُوفِّيَهم بنَفاقِها أُجورَ أعمالِهم، أو لِمَدلولِ ما عُدَّ مِن امتِثالِهم، نَحوَ: فَعَلوا ذلك لِيُوفِّيَهم، أو عاقِبةً لـ ﴿يَرْجُونَ﴾[2].

- ووَقَعَ التِفاتٌ مِنَ التَّكلُّم في قَولِه: ﴿مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إلى الغَيبةِ ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ ﴿وَيَزِيدَهُم﴾؛ رُجوعًا إلى سِياقِ الغَيبةِ مِن قَولِه: ﴿يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾، أي: لِيُوفِّيَ اللهُ الَّذين يَتلونَ كِتابَه[3].

- قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ تَذييلٌ وعِلَّةٌ لِقَولِه: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾؛ وذلك أنَّ الغُفرانَ والشُّكرانَ مِن شأنِ اللهِ سُبحانَه، فإنَّ مِن صِفاتِه الغَفورَ الشَّكورَ، أي: الكَثيرَ المَغفِرةِ، والشَّديدَ الشُّكرِ؛ فالغَفورُ والشَّكورُ مِن أبنِيةِ المُبالَغةِ[4].

- وأكَّدَ هذا الخَبَرَ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ زيادةً في تَحقيقِه، ولِما في التَّأكيدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧).

مِنَ الإيذانِ بكَونِ ذلك عِلَّةً لِتَوفيةِ الأُجورِ، والزِّيادةِ فيها[١].

٣- قَولُه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ ...﴾ لَمَّا كان المُبدَأُ به مِن أسبابِ ثَوابِ المؤمنينَ هو تِلاوتَهم كِتابَ اللهِ، أُعقِبَ التَّنويهُ بهم بالتَّنويهِ بالقُرآنِ، ولِأنَّ في التَّذكيرِ بجَلالِ القُرآنِ وشَرَفِه إيماءً إلى عِلَّةِ استِحقاقِ الَّذين يَتلونَه ما استَحَقُّوا. وابتُدِئَ التَّنويهُ به بأنَّه وَحيٌ مِنَ اللهِ إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وناهيك بهذه الصِّلةِ تَنويهًا بالكِتابِ، وهو يَتضَمَّنُ تَنويهًا بشَأنِ الَّذي أُنزِلَ عليه مِن قَولِه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾؛ ففي هذا مَسَرَّةٌ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبِشارةٌ له بأنَّه أفضَلُ الرُّسُلِ، وأنَّ كِتابَه أفضَلُ الكُتُبِ، وهذه نُكتةُ تَعريفِ المُسنَدِ إليه باسمِ المَوصولِ (الَّذي) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإشارةِ إلى وَجْهِ كَونِه الحَقَّ الكامِلَ، دُونَ الإضمارِ الَّذي هو مُقتَضى الظَّاهِرِ بأنْ يُقالَ: (وهو الكِتابُ الحَقُّ)؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَعريفُ العَهدِ، و﴿مِنَ﴾ بَيانيَّةٌ لِمَا في المَوصولِ مِنَ الإبهامِ، والتَّقديرُ: والكِتابُ الَّذي أوحَيْنا إليك هو الحَقُّ. فقُدِّمَ المَوصولُ الَّذي حَقُّه أنْ يَقَعَ صِفةً لِلكِتابِ تَقديمًا؛ لِلتَّشويقِ بالإبهامِ؛ لِيَقَعَ بعْدَه التَّفصيلُ، فيَتمَكَّنَ مِنَ الذِّهنِ فَضْلَ تَمَكُّنٍ؛ فجُملةُ ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩]، فهي مِثلُها في حُكمِ الاستِئنافِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٠٨، ٣٠٩).

- وضَميرُ (هو) في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ ضَميرُ فَصلٍ، وهو تأكيدٌ لِما أفادَه تعريفُ المُسنَدِ مِنَ القَصرِ، والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وأفادَ تَعريفُ الجُزأيْنِ قَصْرَ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه، أي: قَصْرَ جِنسِ الحَقِّ على (الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ)، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ[1] لِلمُبالَغةِ؛ لِعَدَمِ الاعتِدادِ بحَقِّيَّةِ ما عَداهُ مِنَ الكُتُبِ[2].

- وانتَصَبَ قَولُه: ﴿مُصَدِّقٗا﴾ على الحالِ مِن ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والعاملُ في الحالِ فِعلُ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾؛ لِيُفيدَ أنَّه مع كَونِه حَقًّا بالغًا في الحَقِّيَّةِ فهو مُصَدِّقٌ لِلكُتُبِ الحَقَّةِ، ومُقرِّرٌ لِمَا اشتَمَلَتْ عليه مِنَ الحَقِّ[3].

- وقَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ تَذييلٌ جامِعٌ لِمَا تَضمَّنَتْه الآياتُ قبْلَه مِن تَفضيلِ بَعضِ عِبادِ اللهِ على بعضٍ، ومِن انطواءِ ضَمائِرِهم على الخَشيةِ وعَدَمِها، وإقبالِ بَعضِهم على الطَّاعاتِ وإعراضِ بعضٍ، ومِن تَفضيلِ بعضِ كُتُبِ اللهِ على بعضٍ، المُقتَضي أيضًا تَفضيلَ بعضِ المُرسَلينَ بها على بعضٍ، كما أنَّ مَوقِعَ قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ مَوقِعُ إقناعِ السَّامِعينَ بأنَّ اللهَ عَليمٌ بعِبادِه، وهو يُعامِلُهم بحَسَبِ ما يَعلَمُ منهم، ويَصطَفي منهم مَن عَلِمَ أنَّه خَلَقَه كُفْئًا لِاصطِفائِه، فألْقَمَ بهذا الَّذين قالوا: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [ص: ٨] حَجَرًا، وكأولئك أيضًا الَّذين يُنكِرونَ القُرآنَ مِن أهلِ الكِتابِ بعِلَّةِ أنَّه جاءَ مُبطِلًا لِكِتابِهم[4].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ تَقديمُ (الخَبيرِ) على (البَصيرِ)؛

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

لِأنَّه أشمَلُ، وذَكَر (البَصيرَ) عَقِبَه؛ لِلعِنايةِ بالأعمالِ الَّتي هي مِنَ المُبصَراتِ، وهي غالبُ شَرائعِ الإسلامِ. وقيل: تقديمُ (الخبيرِ)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ العُمدةَ هي الأمورُ الرُّوحانيَّةُ(١).

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) و(اللَّامِ)؛ لِلاهتِمامِ بالمَقصودِ مِن هذا الخَبَرِ(٢).

- وأيضًا في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قاله هنا بلَفظِ الجَلالةِ الصَّريحِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وبزِيادةِ اللَّامِ في ﴿لَخَبِيرٌۢ﴾؛ لِعَدَمِ تَقَدُّمِ ذِكرِ لَفظِ الجلالةِ؛ لِأنَّ الآيةَ المُتقدِّمةَ في هذه السُّورةِ لم يَكُنْ فيها ذِكرُ اللهِ، فصَرَّحَ باسمِه سُبحانَه. وبزِيادةِ اللَّامِ؛ مُوافَقةً لِقولِه بعْدُ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]. وقالَه في (الشُّورى): ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧] بالضَّميرِ؛ لِتقَدُّمِ لَفظِ (الله)، وبحَذفِ اللَّامِ؛ لِعَدَمِ ما يَقتَضي ذِكرَها؛ فهو مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ﴾ [الشورى: ٢٧]، فخُصَّ بالكِنايةِ(٣).

٤- قَولُه تَعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (ثمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ كما هو شأْنُها في عَطْفِها الجُمَلَ، فهي هنا لِعَطفِ الجُمَلِ عَطفًا ذِكريًّا، فالمُتعاطفاتُ بها بمَنزلةِ المُستأْنَفاتِ؛ فهذه الجُملةُ كالمستأْنَفةِ، و(ثُمَّ) لِلتَّرَقِّي في الاستِئنافِ، وهذا ارتِقاءٌ في التَّنويهِ بالقُرآنِ المُتضَمِّنِ التَّنويهَ بالرَّسولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٠)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٩).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعُروجٌ في مَسَرَّتِه وتَبشيرِه؛ فبَعْدَ أنْ ذُكِّر بفَضيلةِ كِتابِه -وهو أمْرٌ قد تقرَّرَ لَدَيْه- زِيدَ تَبشيرًا بدَوامِ كِتابِه، وإيتائِه أُمَّةً هم المُصطَفَوْنَ مِن عِبادِ اللهِ تعالى، وتبشيره بأنَّهم يَعمَلونَ به، ولا يَترُكونَه كما تَرَكَ أُمَمُ مَنْ قَبْلَه كُتُبَهم ورُسُلَهم؛ لِقَولِه: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ الآيةَ، فهذه البشارةُ أهَمُّ عنْدَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الإخبارِ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ مُصَدِّقٌ لِمَا بيْنَ يَدَيْه؛ لِأنَّ هذه البِشارةَ لم تَكُنْ مَعلومةً عِندَه، فوَقْعُها أهَمُّ[1].

وقيل: في «ثُمَّ» -الدَّالَّةِ على التَّراخي- إشارةٌ إلى الفَترةِ بيْنَ عيسى ومحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

- قَولُه: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ على القولِ بأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ هنا تقتضي التَّرخيَ في الزَّمانِ، وأنْ يُقالَ: ثمَّ نورثُه بعدَك المُصْطَفيْن، فمجيءُ ﴿أَوْرَثْنَا﴾ ماضيًا: معناه: حَكَمْنا بتَوريثِه مِنك، أو نُورِثُه، فعَبَّرَ عنه بالماضي؛ لِتحَقُّقِه وتَقَرُّرِه، أو: أوْرَثْناه مِنَ الأُمَمِ السَّالِفةِ، أو وَضَع الماضيَ مَوضِعَ المُستَقبَلِ؛ تَنزيلًا لِمَا هو الكائِنُ بمَنزِلةِ الكائِنِ، أو لِأنَّ هذه الآيةَ مُتَّصِلةٌ بما سبقَ مِن قَولِه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، أي: قَدَّم اللهُ على إرسالِه -صَلَواتُ اللهِ عليه- إرسالَ الرُّسُلِ في كُلِّ أُمَّةٍ، وعَقَّبَه بما يُنبِئُ أنَّ تلك الأُمَمَ تفرَّقَتْ حِزبَيْنِ: حِزْبًا كَذَّبوا الرُّسُلَ وما أُنْزِلَ معهم، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [فاطر: ٢٥]، وحِزْبًا صَدَّقوهم وآمَنوا وتَلَوْا كِتابَ اللهِ وعَمِلوا بمُقتضاه، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟﴾ [فاطر: ٢٩]، وعلى

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٠، ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٣١).

هذا الوَجْهِ يَكونُ ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ ماضيًا يَجْري على ظاهِرِه، والعَطفُ على ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ اعتِراضٌ؛ لِبَيانِ كَيفيَّةِ التَّوريثِ(١).

- قَولُه: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ في الإيراثِ مَعنى الإعطاءِ؛ فيَكونُ فِعلُ ﴿أَوۡرَثۡنَا﴾ حَقيقًا بأنْ يَنصِبَ مَفعولَيْنِ، وكان مُقتَضى الظاهِرِ أنْ يَكونَ أحَدُ المَفعولَيْنِ -الَّذي هو الآخِذُ في المَعنى- هو المَفعولَ الأوَّلَ، والآخَرُ ثانيًا، وإنَّما خُولِفَ هنا فقُدِّمَ المفعولُ الثَّاني؛ لِأمْنِ اللَّبسِ؛ قَصدًا لِلاهتِمامِ بالكِتابِ المُعطَى، وأمَّا التَّنويهُ بآخِذي الكِتابِ فقدْ حَصَل مِنَ الصِّلةِ(٢).

- ولَمَّا أُرِيدَ تَعميمُ البِشارةِ مع بَيانِ أنَّهم مَراتبُ فيما بُشِّروا به، جِيءَ بالتَّفريعِ في قَولِه: ﴿فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾؛ فهو تَفصيلٌ لمَراتِبِ المُصطفَينَ؛ لِتَشملَ البِشارةُ جميعَ أصنافِهم، ولا يُظَنَّ أنَّ الظَّالِمَ لنَفْسِه مَحرومٌ منها؛ فمَناطُ الاصْطِفاءِ هو الإيمانُ والإسلامُ(٣).

- وقُدِّمَ في التَّفْصيلِ ذِكرُ الظَّالِمِ لِنَفْسِه؛ لِدَفعِ تَوهُّمِ حِرْمانِه مِن الجَنَّةِ، وتَعْجيلًا لِمَسَرَّتِه(٤)؛ فهذا المقامُ أظهرَ اللهُ فيه كرَمَه وشِدَّةَ رحمتِه ولُطفِه بعبادِه، وتعظيمَ هذا القرآنِ العظيمِ، وقوَّةَ آثارِه على مَن أوْرَثهم إيَّاه بدخولِ الجنَّةِ؛ فلذا قدَّم الظَّالمَ لئلَّا ييئسَ مِن رحمةِ الله، وأُخِّر السَّابقُ لئلَّا يُعجَبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٢، ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١١، ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١٢).

بعمله فيَحبَطَ[١]. وقال بعضُ العلماءِ: أكثرُ أهلِ الجنَّةِ الظَّالِمونَ لأنفُسِهم؛ لأنَّ الَّذين لم تقَعْ منهم معصيةٌ أقَلُّ مِن غيرِهم؛ لأنَّ اللهَ يقولُ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، ولَمَّا كان أكثرُ أهلِ الجنَّةِ الظَّالِمينَ لأنفُسِهم بدَأ بهم؛ لأكثريَّتِهم[٢].

- وأيضًا قُدِّمَ الظَّالِمُ، ثمَّ المُقتَصِدُ، ثمَّ السَّابِقُ؛ للإيذانِ بكَثرةِ الفاسِقينَ وغَلَبَتِهم، وأنَّ المُقتَصِدينَ قَليلٌ بالإضافةِ إليهم، والسَّابِقونَ أقَلُّ مِن القَليلِ، ولأنَّ الظُّلمَ بمَعنى الجَهلِ والرُّكونِ إلى الهَوى مُقتَضى الجِبلَّةِ، والاقتِصادُ والسَّبْقُ عارِضانِ[٣]. وقيل: خَتَم بالسَّابقينَ؛ لأنَّهم الخُلاصةُ، ولِيَكونوا أقرَبَ إلى الجنَّاتِ، فهو سُبحانَه تارةً يبدأُ بالأدنى، وتارةً بالأعلى؛ بحسَبِ ما يقتَضيه الحالُ[٤].

- وفي ذِكرِ الخَيْراتِ في قولِه: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّها مُرادةٌ في القِسْمَينِ الأوَّلَينِ، فيَؤولُ إلى مَعْنى ظالِمٍ لنَفْسِه في الخَيراتِ، ومُقتَصِدٍ في الخَيراتِ أيضًا، ولك أنْ تَجعَلَ مَعْنى ﴿ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أنَّه ناقِصُها مِن الخَيراتِ، وفي اختِصاصِ السَّابِقينَ بعدَ التَّقْسيمِ بذِكرِ ثَوابِهم -وذلك على قولٍ في التفسيرِ- والسُّكوتِ عن الآخَرينَ ما فيه مِن وُجوبِ الحَذَرِ. وفي قَولِه: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تَنويهٌ بالسَّابِقينَ بأنَّ سَبْقَهم

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٧) و(٢/ ٧٣) و(٤/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٩٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٧) و(٢/ ٧٣) و(٤/ ٢٤٦، ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦).

كان بعَونٍ مِن اللهِ وتَيْسيرٍ منه، وتَنْبيهٌ على عِزَّةِ مَنالِ هذه الرُّتْبةِ، وصُعوبةِ مَأْخَذِها[1].

- وفي هذه الآيةِ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ ما يُعرَفُ بالجَمْعِ مع التَّقْسيمِ؛ وهو أنْ يَجمَعَ المُتكلِّمُ بيْنَ شَيْئَينِ أو أكثَرَ في حُكمٍ ثمَّ يَقسِمَ ما جَمَعَه، أو يَقسِمَ أوَّلًا ثمَّ يَجمَعَ[2].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ ﴿ذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى السَّبْقِ بالخَيْراتِ، وما فيه مِن مَعْنى البُعْدِ مع قُربِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشْعارِ بعُلُوِّ رُتْبتِه، وبُعدِ مَنزِلَتِه في الشَّرَفِ[3].

- وضَميرُ الفَصْلِ ﴿هُوَ﴾؛ لتَأكيدِ القَصْرِ الحاصِلِ مِن تَعْريفِ الجُزأَينِ، وهو حَقيقيٌّ؛ لأنَّ الفَضْلَ الكَبيرَ مُنحَصِرٌ في المُشارِ إليه بذلك؛ لأنَّ كُلَّ فَضلٍ هو غَيرُ كَبيرٍ إلَّا ذلك الفَضْلَ[4].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾

- قولُه: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ بَدَلُ اشتمالٍ مِن قولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [فاطر: ٣٢]؛ فإنَّ ممَّا يَشتمِلُ عليه الفضْلُ دُخولَهم الجنَّةَ، وتَخصيصُ هذا الفضلِ مِن بيْنِ أصنافِه؛ لأنَّه أعظَمُ الفَضلِ؛ لأنَّه أمارةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٤).

على رِضْوانِ اللهِ عنهم حينَ إدْخالِهِمُ الجَنَّةَ، ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ استئنافًا بَيانيًّا؛ لِبَيانِ الفضْلِ الكبيرِ، وقد بُيِّن بأعظَمِ أصنافِه. والمعنى واحدٌ. وضميرُ الجماعةِ في ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ راجعٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ [فاطر: ٣٢] المقسَّمِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: ظالمٍ، ومُقتَصِدٍ، وسابقٍ[١].

- وفي الإخبارِ بالمُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ عن المُسنَدِ إليه ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ إفادةُ تَقَوِّي الحُكم. وصَوغُ الفِعلِ (يَدخُل) بصيغةِ المُضارِعِ؛ لأنَّه مُستَقبَلٌ، وكذلك صَوغُ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾[٢].

وقدَّمَ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ على الفِعلِ؛ حتَّى لا يَبقَى مُتعَلِّقَ القَلبِ بأنَّه في أيِّ المداخِلِ يكونُ، فإذا قيل له: دارُ زَيدٍ تَدخُلُها، فبِذِكْرِ الدَّارِ يَعلَمُ مَدخَلَه، وبما عندَه مِن العِلمِ السَّابقِ بأنَّ له دُخولًا يَعلَمُ الدُّخولَ؛ فلا يَبقى له توقُّفٌ، ولا سيَّما الجنَّةِ والنَّارِ؛ فإنَّ بيْنَ الـمَدخَلَينِ بَوْنًا بعيدًا[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾

- لَفظُ ﴿وَقَالُواْ﴾ أي: يَقولونَ، ولكنْ عُبِّرَ بصِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[٤].

- وقيل: جُملةُ ﴿وَقَالُواْ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ [فاطر:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٥٦).

٣٣]؛ لئلَّا يَلزَمَ تَأويلُ الماضي بتَحقيقِ الوُقوعِ، مع أنَّه لم يُقصَدْ في قولِه: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٣]. وتلك المَقالةُ مُقارِنةٌ للتَّحْليةِ واللِّباسِ، وهو كَلامٌ يَجْري بيْنَهم ساعَتَئذٍ؛ لإنْشاءِ الثَّناءِ على اللهِ على ما خوَّلَهم مِن دُخولِ الجَنَّةِ، ولِمَا فيه مِن الكَرامةِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ﴾ استِئْنافُ ثَناءٍ على اللهِ؛ شَكَروا به نِعْمةَ السَّلامةِ، وأثْنَوْا عليه بالمَغْفِرةِ؛ لِمَا تَجاوَزَ عمَّا اقترَفوهُ بالنِّسْبةِ للمُقتَصِدينَ والسَّابِقينَ، ولِمَا تَجاوَزَ عنه مِن تَطْويلِ العَذابِ، وقَبولِ الشَّفاعةِ بالنِّسْبةِ لمُختَلِفِ أحْوالِ الظَّالِمينَ أنفُسَهم. وأثْنَوْا على اللهِ بأنَّه شَكورٌ؛ لِمَا رَأَوْا مِن إفاضَتِه الخَيْراتِ عليهم، ومُضاعَفةِ الحَسَناتِ ممَّا هو أكثَرُ مِن صالِحاتِ أعْمالِهم(٢).

- وقيلَ: (غَفُورٌ) فيه إشارةٌ إلى دُخولِ الظَّالِمِ لِنَفْسِه الجَنَّةَ، و(شَكورٌ) فيه إشارةٌ إلى السَّابِقِ، وأنَّه كَثيرُ الحَسَناتِ(٣).

٧- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾

- التَّصريحُ بنَفيِ الثَّاني ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾، مع استِلْزامِ نَفْيِ الأوَّلِ له ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ﴾، وتَكْريرُ الفِعلِ المَنْفيِّ؛ للمُبالَغةِ في بَيانِ انتِفاءِ كُلٍّ منهما(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٥، ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧).

## الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾

قَولُه: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ في (ما) هنا وجهانِ؛ **أحدُهما**: أنَّها نَكِرةٌ مَوصوفةٌ في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ مُطلَقٌ، أي: أوَلم نُعَمِّرْكم تَعميرًا يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ؟ أو في محلِّ نصبٍ على الظَّرفيَّةِ، أي: أوَلم نُعمِّرْكم زَمانًا يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ؟ و**الثَّاني**: أن تكونَ (ما) موصولةً في محلِّ نَصبٍ نائبًا عن المصدرِ صِفةً لِمفعولٍ مُطلقٍ مَحذوفٍ، أي: أوَلم نُعمِّرْكم التَّعميرَ الَّذي يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ؟ ولا يجوزُ في (ما) أن تكونَ مَصدريَّةً ظرفيَّةً؛ لأنَّ الضَّميرَ في (فيه) يمنَعُ مِن ذلك؛ لِعَودِه على (ما)، و (ما) المصدريَّةُ حَرفٌ لا يعودُ عليها ضميرٌ، وكذلك لا يَصِحُّ جَعْلُ (ما) نافيةً لا لفظًا ولا مَعنًى[1].

### المعنى الإجماليُّ:

بعدَ أنْ ذكَر اللهُ تعالى حالَ أهلِ الجنَّةِ ونعيمَهم، يَذكُرُ حالَ الكافرينَ وما هم

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٧٦)، ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ٢٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٧٣).

فيه مِن عذابٍ، فيقولُ: والَّذين كفروا لهم نارُ جَهنَّمَ، لا يُقضَى عليهم فيَموتُوا، ولا يُخَفَّفُ عنهم مِن عذابِ جَهنَّمَ فيَستَريحوا، مِثلَ هذا الجَزاءِ العَظيمِ يُجازي اللهُ كلَّ كَفورٍ، وأولئك الكُفَّارُ يَصرُخونَ في نارِ جهنَّمَ مُستَغيثينَ مِن شِدَّةِ العذابِ قائِلينَ: رَبَّنا أخرِجْنا مِن نارِ جَهنَّمَ نَعمَلْ عَمَلًا صالِحًا غيرَ الَّذي كُنَّا نَعمَلُه في الدُّنيا مِنَ الشِّركِ والمعاصي!

ثمَّ يأتيهم مِن الله الرَّدُّ الَّذي يُخزيهم، فيقولُ سبحانه لهم: أوَلَم نُطِلْ أعمارَكم في الدُّنيا إلى زَمَنٍ يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ، وجاءكم رَسولٌ يُنذِرُكم عذابَ اللهِ؟! فذوقوا عذابَ جَهنَّمَ؛ فما للكافِرينَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم مِن نَصيرٍ يَنصُرُهم مِن عذابِ اللهِ.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ٣٦ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن حالَ المؤمِنينَ ومَقَرَّهم وما هم فيه مِنَ النِّعمةِ؛ بيَّنَ حالَ أعدائِهم مِن الكافِرينَ وما لهم مِن النِّقمةِ؛ زيادةً في سُرورِ المُؤمِنينَ بما قاسَوْه في الدُّنيا مِن تكَبُّرِهم عليهم وفُجورِهم[1].

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا لهم نارُ جَهنَّمَ، لا يُقضَى عليهم[2] فيَموتوا ويَستريحوا مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦١).

(٢) قال الواحدي: (أي: لا يُهلَكُون فيَستريحوا ممَّا هم فيه مِن العذابِ، وهو كقولِه: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِ﴾ [القصص: ١٥]). ((الوسيط)) (٣/ ٥٠٦).

عذابِها[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وعن أبي سعيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أمَّا أهْلُ النَّارِ الَّذين هم أهْلُها فإنَّهم لا يَموتونَ فيها ولا يَحيَونَ))[٢].

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾.

أي: ولا يُخفِّفُ اللهُ عنهم مِن عَذابِ جَهنَّمَ شَيئًا؛ فهو دائِمٌ ومُستمِرٌّ عليهم في جميعِ الأوقاتِ واللَّحَظاتِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤، ٧٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابٗا﴾ [النبأ: ٣٠].

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ العَظيمِ يُجازي اللهُ كُلَّ مُتَّصِفٍ بالكُفرِ، فلهم في الآخِرةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

نارُ جهنَّمَ؛ جَزاءً على كُفرِهم[١].

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ﴾.

أي: والَّذين كفَروا يَصرُخونَ بشِدَّةٍ وهم في نارِ جَهنَّمَ، ويَصيحونَ مُستَغيثينَ مِن شِدَّةِ العذابِ: ربَّنا أخرِجْنا مِن نارِ جَهنَّمَ؛ فنَعمَلَ بطاعتِك غيرَ الَّذي كنَّا نَعمَلُه في الدُّنيا مِن الشِّركِ والكُفرِ والمعاصي[٢].

﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾.

أي: فيقولُ الله لهم: أوَلم نُطِلْ أعمارَكم في الدُّنيا إلى زَمَنٍ يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ مِن ذوي الألبابِ؟ فلو كُنتُم ممَّن يَنتفعُ بالحَقِّ لانتفعتُم به في مُدَّةِ عُمُرِكم الَّذي اتَّسَع للتَّذكُّرِ[٣]!

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أَعْذَرَ[٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩).

(٤) أعذَرَ: الهمزةُ للإزالةِ والسَّلبِ، يعني: أزال اللهُ عُذرَ مَن بلغ في العُمُرِ إلى ستِّينَ سنةً. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٥/ ٣٠١).

اللهُ إلى امرئٍ أخَّر أجَلَه حتَّى بلَّغَه سِتِّينَ سَنَةً))[١].

﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾.

أي: ويُقالُ لهم: وجاءَكم رَسولٌ مِنَ اللهِ يُنذِرُكم عذابَه[٢]، وقامَتْ عليكم الحُجَّةُ؛ فلا عُذرَ لكم[٣]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ [فاطر: ٤٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٨، ٩].

﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

أي: فذوقوا عذابَ جَهنَّمَ، فما للكافرينَ -الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم في الدُّنيا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٩).

قال القرطبي: (المعنى: أنَّ مَن عَمَّره اللهُ ستِّينَ سنةً لم يَبْقَ له عذرٌ؛ لأنَّ السِّتِّينَ قريبٌ مِن مُعترَكِ المَنايا، وهو سِنُّ الإنابةِ والخُشوعِ، وترقُّبِ المَنيَّةِ ولقاءِ اللهِ تعالى؛ ففيه إعذارٌ بعدَ إعذارٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٣).

(٢) قال ابن عطيَّة: (النَّذيرُ -في قول الجُمهورِ- الأنبياءُ، وكُلُّ نبيٍّ نذيرُ أمَّتِه ومُعاصِرِه، ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نذيرُ العالَمِ في غابِرِ الزَّمانِ. وقال الطَّبَريُّ: وقيل: النَّذيرُ: الشَّيبُ. وهذا قَولٌ حَسَنٌ، إلَّا أنَّ الحُجَّةَ إنَّما تقومُ بالنِّذارةِ الشَّرعيَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩، ٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٤).

بالكُفرِ باللهِ، ومَعصيتِه- مِن نصيرٍ يَنصُرُهم فيُنقِذُهم ممَّا هم فيه مِنَ العذابِ[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

إنَّما حَسُن طولُ العُمُرِ ونَفَع؛ لِيَحصُلَ التَّذكُّرُ والاستِدراكُ، واغتِنامُ الفُرَصِ، والتَّوبةُ النَّصوحُ، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾؛ فمَن لم يُورِثْه التَّعميرُ وطولُ البقاءِ إصلاحَ مَعايبِه، وتَدارُكَ فارِطِه[٢]، واغتنامَ بقيَّةِ أنفاسِه، فيَعمَلُ على حياةِ قَلبِه، وحصولِ النَّعيمِ المُقيمِ، وإلَّا فلا خيرَ له في حياتِه؛ فإنَّ العبدَ على جَناحِ سَفَرٍ؛ إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ، فإذا طال عُمُرُه وحَسُن عَمَلُه كان طولُ سَفَرِه زيادةً له في حُصولِ النَّعيمِ واللَّذَّةِ، فإنَّه كُلَّما طال السَّفرُ إليها كانت الصَّبابةُ أجَلَّ وأفضَلَ، وإذا طال عُمُرُه وساء عمَلُه كان طولُ سفَرِه زيادةً في ألَمِه وعذابِه، ونزولًا له إلى أسفَلَ؛ فالمسافرُ إمَّا صاعِدٌ وإمَّا نازِلٌ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ أنَّ النَّارَ أبَديَّةٌ لا تفنَى[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ مُقابَلةُ الأقسامِ الثَّلاثةِ للَّذين أُورِثوا الكِتابَ بذِكرِ الكافِرينَ: يدُلُّ على أنَّ تلك الأقسامَ أقسامُ المؤمِنينَ، ومُقابَلةُ جزاءِ الكافِرينَ بنارِ جهنَّمَ يُوضِّحُ أنَّ الجنَّةَ دارٌ للأقسامِ الثَّلاثةِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

(٢) فارِطِه: أي: ما سَبَق وتقَدَّم منه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٦٩).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٧٦).

تفاوُتٍ في الزَّمانِ والمكانِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ حُسْنُ بلاغةِ القرآنِ؛ فإذا ذَكَر شيئًا ذَكَر ما يُقابِلُه حتَّى تكونَ النَّفْسُ بيْنَ هذا وهذا؛ فإذا ذَكَر ثناءً على أهلِ الخَيرِ ذَكَر ذمًّا لأهلِ الشَّرِّ، وإذا ذَكَر جزاءَ أهلِ الخَيرِ ذَكَر جزاءَ أهلِ الشَّرِّ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾: أنَّ أهلَ النَّارِ تَتفاوَتُ منازلُهم وعذابُهم؛ ووَجْهُه: أنَّ كلَّ مُعَلَّقٍ على وَصفٍ فإنَّه يَزدادُ بزيادةِ ذلك الوصفِ، ويَنقُصُ بنُقصانِه[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا ﴾ أنَّ أهلَ النَّارِ يَتألَّمون منها ومِن عذابِها وعِقابِها؛ لأنَّهم لو ماتوا لاستراحوا، فيكونُ في هذا رَدٌّ على قَولِ مَن يقولُ مِن المعتزِلةِ وغيرِهم: إنَّ أهلَ النَّارِ تكونُ النَّارُ فيهم طبيعةً، فلا يَحترِقون فيها ولا يَتألَّمون منها! وهذا خِلافُ ما دلَّ عليه القُرآنُ، وخلافُ ما دلَّ عليه العَقلُ؛ أمَّا القرآنُ فاللهُ تعالى يقولُ: ﴿ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [آل عمران: ١٨١]، أي: ذوقوا العذابَ الَّذي يُحرِقُكم، ويقولُ عزَّ وجلَّ: ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ ﴾ [النساء: ٥٦]، وهذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ الجلودَ تحترِقُ، ولكنْ تُبَدَّلُ لأجْلِ أنْ يَذوقوا العذابَ؛ ففيها دليلٌ على أنَّها لو احترَقَت وبَقِيتْ مُحترِقةً، فإنَّها لا تُحِسُّ بالعذابِ، فيُفَرَّقُ بيْنَها وبينَ ما إذا بُدِّلَتْ، فالصَّوابُ -بلا شَكٍّ- أنَّ أهلَ النَّارِ يَتألَّمون مِن عذابِها، وأنَّه لا تكونُ النَّارُ طبيعةً لهم[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٨، ٢٥٩).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ نارَ عِقابِ المؤمِنينَ خفيفةٌ عن نارِ المُشرِكينَ(١).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ ضَميرُ ﴿عَذَابِهَا﴾ عائدٌ إلى جهنَّمَ؛ لِيَشملَ ما وردَ مِن أنَّ المعذَّبينَ يُعذَّبونَ بالنَّارِ، ويُعَذَّبونَ بالزَّمهريرِ، وهو شِدَّةُ البَردِ، وكُلُّ ذلك مِن عذابِ جَهنَّمَ(٢).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ تركوا الترقُّقَ والعَمَلَ على حسَبِه في وَقتِ نَفعِه، واستَعمَلوه عندَ فواتِه، فلم يَنفَعْهم(٣)!

٩- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾، فيه الرَّدُّ على الجَبريَّةِ الَّذين يَحتجُّونَ بالقَدَرِ على المعاصي، ويقولونَ: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ وجهُ الرَّدِّ مِن الآيةِ: أنَّه لو كان القَدَرُ حُجَّةً لم يَكْفِ ما ذُكِر في الاحتِجاجِ عليهم(٤).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ لَمَّا كان التَّفَكُّرُ بعدَ البَعثِ غيرَ نافعٍ؛ لأنَّه بعدَ كَشفِ الغِطاءِ، عبَّرَ بالماضي فقال: ﴿مَن تَذَكَّرَ﴾؛ إعلامًا بأنَّه قد خُتِمَ على ديوانِ المتذكِّرينَ، فلا يُزادُ فيهم أحدٌ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ إثباتُ رَحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإعذارِه لخَلقِه؛ حيث أرسَلَ إليهم الرُّسُلَ، فإنَّ إرسالَ الرُّسُلِ فيه رَحمةٌ، وفيه أيضًا إعذارٌ وإقامةُ حُجَّةٍ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ بيانُ أنَّ الكفرَ ظُلْمٌ(٢).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ تعميمُ (الظَّالِمين) وتعميمُ (النَّصير) يقتضي أنَّ نَصرَ الظَّالِم تَجاوُزٌ للحَقِّ؛ لأنَّ الحَقَّ ألَّا يكونَ للظَّالِم نَصيرٌ؛ إذ واجِبُ الحِكمةِ والحَقِّ أن يأخُذَ المقتدِرُ على يدِ كُلِّ ظالِمٍ؛ لأنَّ الأُمَّةَ مُكلَّفةٌ بدفعِ الفَسادِ عن جماعتِها، وفي هذا إبطالٌ لخُلُقِ أهلِ الجاهليَّةِ القائلينَ في أمثالِهم: (انصُرْ أخاكَ ظالِمًا أو مظلومًا)، وقد ألقى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أصحابِه إبطالَ ذلك، فساقَ لهم هذا المثَلَ حتَّى سألوا عنه، ثمَّ أصلَحَ معناه مع بقاءِ لَفظِه، حينَما سأله رجُلٌ فقال: ((يا رسولَ الله، أنصُرُه إذا كان مظلومًا، أفرأيتَ إذا كان ظالمًا كيفَ أنصرُه؟! قال: تَحجُزُه، أو تَمنَعُه مِن الظُّلم، فإنَّ ذلك نصْرُه))(٣).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ دَليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ لا تَنفَعُ فيهم الشَّفاعةُ -وهذا عامٌّ-؛ فلا أحدَ يُدافِعُ عنهم، ولا يَشفَعُ لهم(٤).

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

والحديث أخرجه البخاري (٦٩٥٢) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٨).

- قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ وَقَع فيه الإخبارُ عن نارِ جَهنَّمَ بأنَّها لهم بلَامِ الاستِحْقاقِ؛ للدَّلالةِ على أنَّها أُعِدَّتْ لِجَزاءِ أعْمالِهِم. وقُدِّم المَجْرورُ ﴿لَهُمۡ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿نَارُ جَهَنَّمَ﴾؛ للتَّشْويقِ إلى ذِكرِ المُسنَدِ إليه، حتَّى إذا سَمِعَه السَّامِعونَ تمكَّنَ مِن نُفوسِهِم تَمامَ التَّمكُّنِ(١).

- وجُمْلةُ ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ﴾ تَذْييلٌ، والكَفورُ المُبالِغُ في الكُفرِ أو الكُفْرانِ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا ﴾ ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾ مُبالَغةٌ في (يَصْرُخونَ)؛ لأنَّه افتِعالٌ مِن الصُّراخِ، وهو الصِّياحُ بشِدَّةٍ وجُهدٍ؛ فالاصْطِراخُ مُبالَغةٌ فيه، أي: يَصيحونَ من شِدَّةِ ما نابَهم. وجُمْلةُ ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا﴾ بَيانٌ لجُمْلةِ ﴿يَصۡطَرِخُونَ﴾، يَحسَبونَ أنَّ رَفْعَ الأصْواتِ أقرَبُ إلى عِلمِ اللهِ بِندائِهِم، ولإظْهارِ عَدَمِ إطاقةِ ما هُمْ فيه(٣).

- وتَقْييدُ العَمَلِ الصَّالحِ بقَولِهِم: ﴿غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُ﴾ يُؤذِنُ أنَّهم كانوا يَعمَلون صالِحًا آخَرَ غَيرَ الصَّالِحِ المَطْلوبِ عندَ اللهِ، وفائِدةُ هذا القَولِ زِيادةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٨).

التَّحسُّرِ والنَّدَمِ على ما عَمِلوهُ مِن غَيرِ الصَّالِحِ مع الاعترافِ به، وزوالُ وَهْمِهم؛ لظُهورِ حالِهم في الكُفرِ، ورُكوبِ المَعاصي، ولأنَّهم كانوا يَحسَبونَ أنَّهم على سِيرةٍ صالِحةٍ، وفي هذا القَولِ وَعدٌ منهم وهُم في النَّارِ بتَدارُكِ ما فاتَهم مِن الأعْمالِ الصَّالِحةِ، ولكنَّها إنابةٌ بعدَ وَقتِها[١].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ الواوُ عاطفةٌ فِعلَ قولٍ مَحذوفًا؛ لِعلمِه مِن السِّياقِ بحَسَبِ الضَّميرِ في ﴿نُعَمِّرْكُم﴾، مَعطوفًا على جُملةِ ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾؛ فإنَّ صُراخَهم كَلامٌ منهم، والتَّقديرُ: يَقولون: ربَّنا أخرِجْنا، ونقولُ: ألَمْ نُعمِّرْكم...[٢].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ استِفْهامُ تَقْريعٍ وتَوْبيخٍ وإنْكارٍ، وعَطفُ ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ على مَعْنى ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ للتَّقْريرِ[٣]. وجُعِلَ التَّقريرُ على النَّفيِ تَوطئةً لِيُنكِرَه المقرَّرُ، حتَّى إذا قال: بلى، علِمَ أنَّه لم يَسَعْه الإنكارُ حتَّى مع تَمهيدِ وِطاءِ الإنكارِ إليه[٤].

- والاقتِصارُ على ذِكرِ النَّذيرِ؛ لأنَّ الأهمَّ مِن شأْنِه بالنِّسبةِ إليهم هو النِّذارةُ[٥].

- والفاءُ في ﴿فَذُوقُواْ﴾ هي الفَصيحةُ؛ لِتَرتيبِ الأمْرِ بالذَّوقِ على ما قَبْلَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٦٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

مِن التَّعْميرِ، ومَجيءِ النَّذيرِ[١].

- وحُذِفَ مَفعولُ (ذُوقوا)؛ لِدَلالةِ المقامِ عليه، أي: ذُوقوا العذابَ. وهذا الأمْرُ ﴿فَذُوقُواْ﴾ مُستَعمَلٌ في مَعْنى الدَّوامِ، وهو كِنايةٌ عن عَدَمِ الخَلاصِ مِن العَذابِ[٢]. وقيل: الأمرُ هنا للإهانةِ؛ فيُهانون -والعياذُ باللهِ- بالعذابِ والتَّوبيخِ وغيرِها مِن أنواعِ الإهاناتِ[٣].

- وقَولُه: ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ تَفريعٌ على ما سَبَقَ مِن الحِكايةِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ مِن جُمْلةِ الكَلامِ الَّذي وبَّخَهم اللهُ به؛ فهو تَذْييلٌ له، وتَفْريعٌ عليه؛ لتَأْييسِهم مِن الخَلاصِ، يعني: فأينَ الَّذين زَعَمتُم أنَّهم أوْلياؤُكم ونُصَراؤُكم؟! فما لَكمْ مِن نَصيرٍ، وعُدِلَ عن ضَميرِ الخِطابِ أنْ يُقالَ: فما لَكم مِن نَصيرٍ، إلى الاسْمِ الظَّاهِرِ بوَصْفِ (الظَّالِمينَ)؛ لإفادةِ سَببِ انتِفاءِ النَّصيرِ عنهم؛ ففي الكَلامِ إيجازٌ، أي: لأنَّكم ظالِمونَ، وما للظَّالِمينَ مِن نَصيرٍ؛ فالمَقْصودُ ابتِداءُ نَفيِ النَّصيرِ عنهم، ويَتبَعُه التَّعْميمُ بنَفيِ النَّصيرِ عن كُلِّ مَن كان مِثلَهُم مِن المُشرِكينَ. ويجوزُ أنْ يكونَ كلامًا مُستقِلًّا مُفرَّعًا على القصَّةِ، ذُيِّلَت به للسَّامِعينَ مِن قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ [فاطر: ٣٦]، فليس فيه عُدولٌ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ لأنَّ المقصودَ إفادةُ شُمولِ هذا الحُكمِ لكلِّ ظالِمٍ، فيَدخُلُ الَّذين كَفَروا المُتحدَّثُ عنهم في العُمومِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٠).

## الآيات (٣٨-٤١)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتٗاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارٗا ٣٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُۚ بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا ٤٠ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بالضَّمائرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها؛ لأنَّها في الصُّدورِ، تَحُلُّها وتصاحِبُها، وذاتُ: صاحبةُ، مؤنَّثُ (ذو) بمعنى صاحبٍ[1].

﴿خَلَٰٓئِفَ﴾: أي: خُلَفاءَ، والخَلَفُ هو التَّالي للمُتقَدِّمِ، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٦/ ١٠٠)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٣، ١٣٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥) و (٢٣/ ٣٤٢).

قال ابنُ القَيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليس المرادُ به عليمًا بمُجَرَّدِ الصُّدورِ؛ فإنَّ هذا ليس فيه كَبيرُ أمرٍ، وهو بمنزلةِ أن يُقالَ: عَليمٌ بالرُّؤوسِ والظُّهورِ والأيدي والأرجُلِ، وإنَّما المرادُ به: عليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، أي: بالأسرارِ الَّتي في الصُّدورِ، وصاحِبةِ الصُّدورِ؛ فأضافها إليها بلَفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصُّدورِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥).

﴿مَقْتًا﴾: أي: بُغضًا وغَضَبًا، وأصلُ (مقت): يدُلُّ على شَناءةٍ وقُبحٍ[١].

﴿شِرْكٌ﴾: أي: نَصيبٌ وشَرِكةٌ، وأصلُ (شرك): يدُلُّ على مُقارنةٍ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مخبرًا عن سَعةِ عِلمِه: إنَّ اللهَ تعالى عالمٌ بغَيبِ السَّمَواتِ والأرضِ، إنَّه سُبحانَه عَليمٌ بالنِّيَّاتِ وبما أسَرَّتْه الضَّمائرُ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه كمالَ حكمتِه ورحمتِه بعبادِه، فيقولُ: هو الَّذي جعَلَكم -أيُّها النَّاسُ- خُلَفاءَ في الأرضِ لِمَن قَبْلَكم، فمَن كفَرَ فضرَرُ كُفرِه على نَفْسِه، ولا يَزيدُ الكافِرينَ كُفرُهم إلَّا بُغضًا مِنَ اللهِ، ولا يَزيدُ الكافِرينَ كُفرُهم إلَّا خَسارةً في الدُّنيا والآخِرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانه عجْزَ آلهةِ المشركين، ونقْصَها، وبُطْلانَ الشِّركِ مِن جميعِ الوُجوهِ، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: أرَأَيْتُم مَنْ تُشرِكونَهم مع اللهِ تعالى أَرُوني ماذا خَلَقوا مِن الأرضِ حتَّى تَعبُدوهم؟! أمْ لهم شِركٌ مع اللهِ في مُلكِ السَّمَواتِ وخَلقِها؟! أمْ آتَيْناهم كِتابًا فيه مِصْداقُ هذه الشَّرِكةِ مع الله، فهم على بُرهانٍ مِن صِحَّتِها؟!

ثمَّ يُبيِّنُ الأسبابَ الَّتي حمَلَتْهم على الشِّركِ، فيقولُ: بل الحَقُّ أنَّ الظَّالِمينَ يَخدَعُ بعضُهم بعضًا، ويَعِدُ بعضُهم بعضًا بالوُعودِ الباطِلةِ!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩).

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى جانبًا مِن عظيمِ قدرتِه، وتمامِ رحمتِه، وسَعةِ حِلمِه ومغفرتِه، فيقولُ: إنَّ اللهَ تعالى يُمسِكُ السَّمَواتِ والأرضَ؛ لِئلَّا تَزولا، ولَئِنْ زالت السَّمَواتُ والأرضُ ما أمسَكَهما أحدٌ مِن الخَلقِ، إنَّ اللهَ كان حليمًا لا يُعاجِلُكم بالعُقوبةِ، غَفورًا يَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِكم بالذُّنوبِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٣٨ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

مُناسَبةُ مَجيءِ قَولِه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ عَقِيبَ ما قبْلَه مِن قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ هو أنَّه تعالى ذَكَرَ أنَّ الكافِرينَ يُعذَّبونَ دائمًا، ومُدَّةُ كُفرِهم كانتْ مُدَّةً يَسيرةً مُنقَطِعةً؛ فأخبَرَ أنَّه تَعالى عالِمُ غَيبِ السَّمَواتِ والأرْضِ، فلا يَخْفَى عليه ما تَنْطوي عليه الصُّدورُ مِن المُضمَراتِ، وكان يَعلَمُ مِن الكافِرِ أنَّه تَمكَّنَ الكُفرُ في قَلبِه، بحيث لو دامَ إلى الأبَدِ ما آمَنَ باللهِ ولا عَبَدَه[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى جزاءَ أهلِ الدَّارَينِ، وذكَرَ أعمالَ الفَريقَينِ؛ أخبَرَ تعالى عن سَعةِ عِلمِه تعالى، واطِّلاعِه على غَيبِ السَّمَواتِ والأرضِ الَّتي غابت عن أبصارِ الخَلقِ وعن عِلمِهم، وأنَّه عالِمٌ بالسَّرائِرِ، وما تَنطوي عليه الصُّدورُ مِن الخيرِ والشَّرِّ، والزَّكاءِ وغَيرِه، فيُعطي كلًّا ما يَستحِقُّه، ويُنزِلُ كُلَّ أحدٍ مَنزِلتَه[2].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

أي: إنَّ اللهَ عالمٌ بما غاب في السَّمَواتِ والأرضِ عن الخَلقِ[١].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عليمٌ بالضَّمائرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها[٢].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها تقريرٌ لقَطعِ حُجَّةِ الكافِرينَ؛ فإنَّهم لَمَّا قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ﴾ [فاطر: ٣٧]؛ إشارةً إلى أنَّ التَّمكينَ والإمهالَ مُدَّةً يمكِنُ فيها المعرفةُ: قد حصَلَ وما آمنتُم، وزاد عليه بقَولِه: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧]؛ زاد على ذلك بقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٩]، أي: نبَّهكم بمَن مضَى وحالِ مَن انقضَى؛ فإنَّكم لو لم يحصُلْ لكم عِلمٌ بأنَّ مَن كذَّب الرُّسُلَ أُهلِك، لَكان عنادُكم أخفَى، وفسادُكم أخَفَّ، لكِنْ أُمهِلتُم وعُمِّرتُم، وأُمِرتُم على لسانِ الرُّسُلِ بما أُمِرتُم، وجُعِلتُم خلائِفَ في الأرضِ؛ فمَن كفَرَ بعدَ هذا كُلِّه، فعليه كُفرُه[٣].

وأيضًا فهذا بيانٌ لِقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٤).

أي: هو الَّذي أوجَدَكم في الأرضِ، فكيف لا يَعلَمُ ما غاب في قُلوبِكم[١]؟!

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: اللهُ الَّذي جعَلَكم -أيُّها النَّاسُ- خَلَفًا للأُمَمِ مِن قَبلِكم[٢].

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤].

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ثَبَت أنَّ ذلك نِعمةٌ منه؛ عَمَرَهم فيه مُدَّةً يَتذكَّرُ فيه مَن تذكَّرَ؛ تسَبَّب عنه قَولُه[٣]:

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾.

أي: فمَن كفَرَ فعلى نَفْسِه ضَرَرُ كُفرِه، وهو المعاقَبُ عليه دونَ غَيرِه[٤].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

قال ابنُ عاشور: (الخلائِفُ: جمعُ خَليفةٍ، وهو الَّذي يَخلُفُ غَيرَه في أمرٍ كان لذلك الغيرِ... ويجوزُ أن يكونَ المعنى: هو الَّذي جعَلَكم مُتصَرِّفينَ في الأرضِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، فيكونَ الكلامُ بِشارةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الله قدَّر أن يكونَ المُسلِمونَ أهلَ سُلطانٍ في الأرضِ بعدَ أُمَمٍ تداولَتْ سيادةَ العالَمِ، ويَظهَرُ بذلك دينُ الإسلامِ على الدِّينِ كُلِّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠).

أي: ولا يَزيدُ الكافِرينَ استِمرارُهم على كُفرِهم إلَّا بُغضًا شديدًا لهم مِن رَبِّهم[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠].

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أي: ولا يَزيدُ الكافِرينَ استِمرارُهم على كُفرِهم إلَّا خَسارةً وهَلاكًا في الدُّنيا والآخِرةِ[٢].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا جرى ذِكرُ المُشرِكينَ وتَعنُّتِهم وحِسبانِ أنَّهم مَقَتوا المُسلِمينَ، عاد إلى الاحتِجاجِ عليهم في بُطلانِ إلهيَّةِ آلهتِهم، بحُجَّةِ أنَّه لا يُوجَدُ في الأرضِ شَيءٌ يُدَّعَى أنَّها خَلَقَتْه، ولا في السَّمَواتِ شَيءٌ لها فيه شِركٌ مع اللهِ؛ فأمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُحاجَّهم، ويُوجِّهَ الخِطابَ إليهم بانتِفاءِ صِفةِ الإلهيَّةِ عن أصنامِهم، وذلك بعدَ أنْ نفَى استِحقاقَها لعبادتِهم بأنَّها لا تَرزُقُهم -كما في أوَّلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧٣).

السُّورةِ-، وبعدَ أنْ أثبَت اللهُ التصَرُّفَ في مظاهِرِ الأحداثِ الجوِّيَّةِ والأرضيَّةِ واختلافِ أحوالِها، مِن قَولِه: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ ﴾ [فاطر: ٩]، وذكَّرَهم بَخلقِهم وخَلقِ أصلِهم، وقال عَقِبَ ذلك: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ ﴾ الآيةَ [فاطر: ١٣] - عاد إلى بُطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ[١].

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: أرأيتُم مَنْ تُشرِكونَهم مع اللهِ تعالى فتَدْعونَهم مِن دونِه، أَرُوني ما الَّذي خلَقُوه مِن الأرضِ حتَّى استحَقُّوا عبادتَكم لهم[٢]؟!

﴿أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾.

أي: أم لِشُركائِكم شِركٌ مع اللهِ في السَّمَواتِ؛ في خَلقِها، أو مُلكِها، أو تَدبيرِها[٣]؟!

﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قضَى حَقَّ البُرهانِ العَقليِّ على انتِفاءِ إلهيَّةِ الَّذين يَدْعُونَ مِن دونِ اللهِ؛ انتقَلَ هنا إلى انتِفاءِ الحُجَّةِ السَّمعيَّةِ مِن اللهِ تعالى، المُثبِتةِ آلهةً دُونَه؛ لأنَّ اللهَ أعلَمُ بشُركائِه وأندادِه لو كانوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٣، ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦).

﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا فَهُمۡ عَلَىٰ بَيِّنَتٖ مِّنۡهُ﴾.

أي: أم آتَيْناهم[1] كتابًا فيه ثُبوتُ الشَّرِكةِ مع اللهِ؛ فالمُشرِكونَ على بُرهانٍ وحُجَّةٍ مِن صِحَّةِ ذلك[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤].

﴿بَلۡ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾.

أي: كُلُّ ذلك مُنتَفٍ؛ فلا باعِثَ لهم على مَزاعِمِهم الباطِلةِ إلَّا خِداعُ بَعضِهم بعضًا بالأمانيِّ الكاذِبةِ والآراءِ الباطِلةِ، فاتَّبَعوا أهواءَهم بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ[3].

---

(١) قال البقاعي: (﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: الشُّركاءَ أو المُشرِكينَ بهم). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٦٩).
وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ على المُشرِكينَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٤).
قال الرسعني: (وجمهورُ المفسِّرينَ على أنَّ الضميرَ في ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ للمشركينَ؛ كقولِه تعالى: ﴿أَمۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الروم: ٣٥]). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٠٤).
وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في ﴿ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ عائدٌ على الشُّركاءِ: البيضاويُّ، والنسفيُّ، وأبو حيَّان، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١). =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن أنَّ آلِهتَهم لا تقدِرُ على خَلقِ شَيءٍ مِن السَّمواتِ والأرضِ؛ بَيَّن أنَّ خالِقَهما وممسِكَهما هو اللهُ، فلا يُوجَدُ حادِثٌ إلَّا بإيجادِه، ولا يبقَى إلَّا ببَقائِه[1].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ تَعالى فَسادَ أمْرِ الأصْنام، ووَقَف على الحُجَّةِ على بُطلانِها؛ عقَّبَه بذِكرِ عَظَمَتِه وقُدرَتِه؛ لِيتبيَّنَ الشَّيءُ بضِدِّه، وتَتأكَّدَ حَقارةُ الأصْنامِ بذِكرِ عَظَمةِ اللهِ[2].

وأيضًا لَمَّا بيَّن شِركَهم قال: مُقتضى شِركِهم زوالُ السَّمَواتِ والأرضِ، كما قال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ٩٠ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا﴾ [مريم: ٩٠، ٩١]، ويدُلُّ على هذا قَولُه تعالى في آخِرِ الآيةِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ [فاطر: ٤١]؛ كان حليمًا ما ترَكَ تَعذيبَهم إلَّا حِلمًا منه، وإلَّا كانوا يَستحِقُّونَ إسقاطَ السَّماءِ، وانطِباقَ الأرضِ عليهم، وإنَّما أخَّرَ إزالةَ السَّمَواتِ إلى قيامِ السَّاعةِ حِلمًا[3].

---

= قال القرطبي: (وهو قَولُ السَّادةِ للسَّفلةِ: إنَّ هذه الآلهةَ تَنفعُكم وتُقرِّبُكم. وقيل: إنَّ الشَّيطانَ يَعِدُ المشركينَ ذلك. وقيل: وعدهم بأنَّهم يُنصَرونَ عليهم). ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٦).

وقال ابن عاشور: (والمرادُ بالَّذين يَعِدونَهم: رؤساءُ المشركين وقادتُهم، وبالموعودينَ: عامَّتُهم ودَهماؤُهم. أو أُريدَ أنَّ كِلا الفريقين واعدٌ وموعودٌ؛ فالرُّؤساءُ وأئمَّةُ الكُفرِ يَعِدونَ العامَّةَ نَفْعَ الأصنام وشفاعتَها، وتقريبَها إلى اللهِ ونَصْرَها؛ غرورًا بالعامَّةِ. والعامَّةُ تَعِدُ رُؤساءَها التَّصميمَ على الشِّركِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٥).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُمسِكُ السَّمَواتِ والأرضَ بقُدرتِه إمساكًا مانِعًا مِن زوالِهما[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥].

﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾.

أي: ولو زالَت السَّمَواتُ والأرضُ ما أمسَكَهما أحدٌ مِن الخَلقِ كائنًا مَن كان؛ فلا يَقدِرُ على إبقائِهما إلَّا اللهُ وَحْدَه[2].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾.

أي: إنَّ اللهَ كان حَليمًا لا يُعاجِلُ عِبادَه بالعُقوبةِ والعذابِ مع قُدرتِه التَّامَّةِ عليهم، بل يُؤخِّرُهم ويُمهِلُهم؛ غفورًا ساتِرًا لذُنوبِ عبادِه، مُتجاوِزًا عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).
قال أبو السعود: (أي: يُمسِكُهما كراهةَ زوالِهما، أو يَمنَعُهما أنْ تَزولَا؛ لأنَّ الإمساكَ مَنْعٌ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٦).
وذكر ابنُ عاشور أنَّ المرادَ بالزَّوالِ العَدَمُ، وأيضًا التَّحَوُّلُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، فالمعنى على ذلك أنَّ اللهَ يُمسِكُ السَّمواتِ والأرضَ من أن يُعْدَما، ويُمسِكُهما مِن أن يتحوَّلَ نِظامُ حَركتِهما. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٨٨).
قال ابن الجوزي: (﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ تحتَمِلُ وَجهَينِ؛ أحدُهما: زوالُهما يومَ القيامةِ. والثَّاني: أن يقالَ تقديرًا وإن لم تَزولا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٤، ٥١٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٧٣، ٢٧٤).

مُؤاخَذتِهم بها[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ التَّحذيرُ مِن أن يُضمِرَ الإنسانُ في قَلبِه ما لا يَرضاه اللهُ، ثمَّ تُحدِّثُه نَفْسُه بأنَّ هذا لا يَطَّلِعُ عليه إلَّا اللهُ، فيَغتَرُّ بإمهالِ اللهِ له[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بِشارةٌ للمؤمنينَ، وإنذارٌ للكافرين؛ لأنَّ مِن جملةِ الخلافةِ أنْ يَخْلُفَ المؤمنونَ الكافرينَ في أرضِهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا * وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٦، ٢٧]، وكذا قولُه تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال لهم: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ففي هذا بِشارةٌ للمؤمنِ فلا يَيْأَسْ مِن أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَجعلُ له الخلافةَ في الأرضِ؛ وإنذارٌ للكافرِ بأنْ تُجتاحَ أرضُه على أيدي المؤمنينَ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ فاللهُ مُريدٌ استِمرارَ انتِظامِ حَرَكةِ الكواكِبِ والأرضِ على هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٧)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٣).

النِّظامِ المُشاهَدِ المُسمَّى بالنِّظامِ الشَّمسيِّ، وكذلك نظامُ الكواكِبِ الأُخرى الخارجةِ عنه إلى فَلَكِ الثَّوابتِ، أي: إذا أراد اللهُ انقراضَ تلك العوالِمِ أو بَعضِها قَيَّض فيها طوارئَ الخلَلِ والفَسادِ، والخَرْقِ بعدَ الالتِئامِ؛ فتفكَّكَت وانتَشَرت إلى ما لا يَعلَمُ مَصيرَه إلَّا اللهُ تعالى، وحينَئذٍ لا يَستطيعُ غَيرُه مُدافعةَ ذلك ولا إرجاعَها إلى نظامِها السَّابقِ؛ فرُبَّما اضمحَلَّت أو اضمَحَلَّ بَعضُها، ورُبَّما أخَذتْ مَسالِكَ جديدةً مِن البقاءِ، وفي هذا إيقاظٌ للبَصائرِ؛ لِتَعلَمَ ذلك عِلمًا إجماليًّا، وتتدبَّرَ في انتِساقِ هذا النِّظامِ البَديعِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ الحَذَرُ مِن أن يَتمنَّى الإنسانُ على اللهِ الأمانيَّ، بل يجِبُ أنْ يكونَ الإنسانُ فَطِنًا كَيِّسًا حازِمًا؛ فالوُعودُ الَّتي يُوعَدُ بها الإنسانُ مِن قِبَلِ الظَّالِمينَ أو مِن قِبَلِ نفْسِه إذا كانت مخالِفةً للشَّرعِ، فما هي إلَّا غُرورٌ وباطِلٌ؛ فلْيَحذَرِ الإنسانُ منها[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ المَدارَ على ما في القَلبِ، وذاتُ الصُّدورِ هي القُلوبُ؛ لأنَّها السَّاكِنةُ فيها، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾[3] [الحج: ٤٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في تَوارُثِ الأُممِ بعضِها بعضًا، فإنَّه لولا ذلك لَضاقتِ الأرضُ بأهلِها، وشقَّ عليهم تحصيلُ الأرزاقِ -وإنْ كان اللهُ عزَّ وجلَّ قد يَجعلُ لهم مِن الرِّزقِ ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٠).

لا يَخطُرُ بالبالِ-؛ لكنْ لا شكَّ مِن أنَّ جَعْلَ النَّاسِ يَخْلُفُ بعضُهم بعضًا -هذا يموتُ وهذا يحيا- هو الحكمةُ والرَّحمةُ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أنَّه كُلَّما ازداد الإنسانُ كُفرًا ازداد عندَ اللهِ مَقْتًا؛ وجهُ ذلك: القاعدةُ: «أنَّ الحُكمَ المُعَلَّقَ على وَصفٍ، يَزدادُ بزيادتِه، ويَنقُصُ بنُقصانِه»، وهنا الحُكْمُ مُعَلَّقٌ على الكُفرِ؛ فإذَنْ يَزدادُ مَقْتُ اللهِ عزَّ وجلَّ على الكافرِ بزيادةِ كُفرِه، ويَنقُصُ بنُقصانِ كُفرِه[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَقْتًا﴾ إثباتُ صفةٍ مِن صِفاتِ الله، وهي المَقْتُ الَّذي هو أشَدُّ البُغضِ[٣]، وهي صِفةٌ فِعليَّةٌ خبريَّةٌ ثابتةٌ لله عزَّ وجلَّ بالكتابِ والسُّنَّةِ، وهي عندَ أهلِ الحقِّ كسائرِ صِفاتِ الأفعالِ: صِفةٌ حقيقيَّةٌ لله عزَّ وجلَّ، على ما يَليقُ به، ولا تُشبِهُ ما يَتَّصِفُ به المخلوقُ مِن ذلك، ولا يَلزَمُ منها ما يَلزَمُ في المخلوقِ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ قوَّةُ القُرآنِ في أسلوبِ المُناظَرةِ، وذلك بالسَّبرِ والتَّقسيمِ[٥]؛ وَجْهُه: أنَّ اللهَ تَحدَّاهم بثلاثةِ أمورٍ: هل خَلَقوا شيئًا مِن الأرضِ؟ هل شارَكوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٣٢١، ٣٢٢).

(٥) السَّبْرُ والتَّقسيمُ: هو حصْرُ الأوصافِ في الأصلِ المَقيسِ عليه وإبطالُ بعضِها ممَّا لا يَصلُحُ للتَّعليلِ، فيَتعيَّنُ الباقي للعِلِّيَّةِ. والتَّقسيمُ يكونُ قبْلَ السَّبرِ؛ لأنَّه تَعدادُ الأوصافِ الَّتي يُتَوهَّمُ صَلاحيتُها للتَّعليلِ ثمَّ يَسْبُرُها، أي: يَختبِرُها ليميزَ الصَّالحَ للتَّعليلِ مِن غيرِه. يُنظر: ((الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب)) للبابرتي (٢/ ٥٣٠)، ((التحبير شرح التحرير)) للمرداوي (٧/ ٣٣٥٢).

اللهَ في السَّماءِ؟ هل عندَهم كتابٌ مِن اللهِ أنَّ هذه الأصنامَ تَنفَعُهم، وإنْ لم تَكُنْ شَريكةً للهِ في السَّمَواتِ، ولم تَخْلُقْ شَيئًا مِن الأرضِ؟ والجوابُ: لا، ولو خَلَقَتْ شيئًا مِن الأرضِ لَكان لها الحَقُّ؛ لأنَّها تَخْلُقُ، ولو شاركتِ اللهَ في مُلْكِه في السَّماءِ لَكان لها الحقُّ؛ لأنَّها شريكةٌ للهِ عزَّ وجلَّ في مُلْكِه، ولو كان اللهُ أنزَلَ كتابًا يقولُ بأنَّ هذه الأصنامَ لها الحقُّ أنْ تُعبَدَ وتُدْعَى مِن دونِ اللهِ لَكان لهم شُبهةٌ أو حُجَّةٌ، فلمَّا انتفتِ الأمورُ الثلاثةُ تَبَيَّنَ أنَّه لا حُجَّةَ لهم، فينبغي في المناظَرةِ أنْ تُذْكَرَ جميعُ الأقسامِ الَّتي يمكنُ أنْ تَرِدَ في الذِّهنِ ثمَّ تُبْطَلَ؛ احترازًا ممَّا لو ذُكِر شَيءٌ واحدٌ ثمَّ بُيِّنَ بُطلانُه، فقد يُوْرَدُ عليه شَيءٌ آخَرُ[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لعلَّ استِفهامَهم عن رؤيةِ شُرَكائِهم تنبيهٌ على أنَّهم مِن الامتِهانِ والحَقارةِ بحيثُ يَراهم كُلُّ مَن يَقصِدُ رُؤيتَهم، ويَعلَمُ أنَّه لا خَلْقَ لهم، واللهُ تعالى بخِلافِ ذلك في كُلٍّ مِن الأمْرينِ، مُتَرَدٍّ برِداءِ الكِبْرِ، مُحتَجِبٌ بحِجابِ الجَلالِ والعِزِّ، وكُلُّ أحدٍ يَعلَمُ أنَّه خالِقٌ لكُلِّ مَخلوقٍ، فكيف يكونُ مَن لا يَخلُقُ كمَن يَخلُقُ[2]؟!

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ اتِّصافُه بالحِلمِ والغُفرانِ في هذه الآيةِ إنَّما هو إشارةٌ إلى أنَّ السَّماءَ كادت تَزولُ، والأرضُ كذلك؛ لإشراكِ الكَفَرةِ، فيُمسِكُها حِلمًا منه عن المُشرِكينَ، وتَرَبُّصًا لِيَغفِرَ لِمَنْ آمَنَ منهم[3]، فلولا حِلمُه ومَغفرتُه لَزُلْزِلَتِ السَّمَواتُ والأرضُ مِن معاصي العِبادِ، وتأمَّلْ خَتْمَ هذه الآيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠).

باسْمَينِ مِن أسمائِه، وهما: «الحليمُ» و«الغفورُ» كيف تَجِدُ تحتَ ذلك أنَّه لولا حِلمُه عن الجُناةِ ومَغفرتُه للعُصاةِ لَمَا استقرَّت السَّمَواتُ والأرضُ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ إثباتُ الحِكمةِ؛ لأنَّه عَلَّلَ إمساكَ السَّمَواتِ والأرضِ بكَونِ ذلك مُقتضَى حِلْمِه ومَغفرتِه[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ استِئْنافٌ واصِلٌ بيْنَ جُمْلةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١] وجُملةِ ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيةَ [فاطر: ٤٠]؛ فتَسَلْسَلتْ مَعانيه فعادَ إلى فَذْلَكةِ[٣] الغَرضِ السَّالِفِ المُنتقَلِ عنه مِن قولِه: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٥ - ٣١]؛ فكانتْ جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ كالتَّذييلِ لجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾. وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ يُجازي كُلَّ ذي نِيَّةٍ على حَسَبِ ما أضْمَره؛ لِيَزدادَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقينًا بأنَّ اللهَ عالِمٌ بما يُكِنُّه المُشرِكونَ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ مُسْتأنَفةٌ، وهي كالنَّتيجةِ لجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ ما في الصُّدورِ مِن الأُمورِ المُغيَّبةِ، فيَلزَمُ

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٩٢).

(٣) تقدم تعريفها (ص: ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢١).

مِن عِلمِ اللهِ بغَيبِ السَّمَواتِ والأرْضِ عِلمُهُ بما في صُدورِ النَّاسِ. أو هي تَعْليلٌ لِمَا قَبْلَها؛ لأنَّه إذا عَلِمَ ما في الصُّدورِ -وهو أخْفَى ما يَكونُ- فقد عَلِمَ كُلَّ غَيبٍ في العالَمِ(١).

- وجِيءَ في الإخْبارِ بعِلمِ اللهِ بالغَيبِ بصِيغةِ اسْمِ الفاعِلِ ﴿عَـٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي الإخْبارِ بعِلمِه بذاتِ الصُّدورِ بصِيغةِ المُبالَغةِ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ لأنَّ المَقْصودَ مِن إخْبارِ المُخاطَبينَ تَنْبيهُهم على أنَّه كِنايةٌ عن انتِفاءِ أنْ يَفوتَ عِلمَه تعالى شَيءٌ، وذلك كِنايةٌ عن الجَزاءِ عليه؛ فهي كِنايةٌ رَمْزيَّةٌ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلۡأَرۡضِۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ إِلَّا مَقۡتًاۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ كُفۡرُهُمۡ إِلَّا خَسَارًا﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُعترضٌ بيْنَ جُمْلةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيةَ، وجُملةِ ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ كَلامًا مُسْتأنَفًا مَسوقًا لِبَيانِ أحْوالِ الكافِرينَ الَّذين غَمِطوا نِعْمةَ اللهِ عليهم بعدَ أنْ استَخْلَفَهم في الأرضِ(٣).

- والخلائفُ: جمْعُ خليفةٍ، وهو الَّذي يَخلُفُ غيرَه في أمْرٍ كان لذلك الغيرِ؛ فيجوزُ أنْ يكونَ بعْدَ أُمَمٍ مَضَت، فيكونَ هذا بَيانًا لقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيۡبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: هو الَّذي أوجَدَكم في الأرضِ، فكيف لا يَعلَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢١، ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٤).

ما غاب في قُلوبِكم؟! ويَكونَ ما صَدَق[١] ضميرِ جماعةِ المخاطَبينَ شاملًا للمؤمنينَ وغيرِهم مِن النَّاسِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: هو الَّذي جعَلَكم مُتصرِّفينَ في الأرضِ، فيَكونَ الكلامُ بِشارةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ قدَّرَ أنْ يكونَ المُسلِمونَ أهْلَ سُلْطانٍ في الأرْضِ بعدَ أُمَمٍ تَداوَلَتْ سِيادةَ العالَمِ، ويَظهَرُ بذلك دِينُ الإسْلامِ على الدِّينِ كُلِّه، والجُمْلةُ الاسميَّةُ تُفيدُ تَقَوِّيَ الحُكمِ الَّذي هو جَعْلُ اللهِ المُخاطَبينَ خَلائِفَ في الأرضِ[٢].

- وقولُه: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ شَرْطٌ مُسْتَعمَلٌ للدَّلالةِ على عَدَمِ الاهتِمامِ بأمْرِ دوامِهِم على الكُفرِ[٣].

- وجُمْلةُ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ بَيانٌ لِجُمْلةِ ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾، وكان مُقتَضى ظاهِرِ هذا المَعْنى ألَّا تُعطَفَ عليها؛ لأنَّ البَيانَ لا يُعطَفُ على المُبيَّنِ، وإنَّما خُولِفَ ذلك؛ للدَّلالةِ على الاهتِمامِ بهذا البَيانِ، فجُعِلَ مُستقِلًّا بالقَصدِ إلى الإخْبارِ به، فعُطِفَتْ على الجُمْلةِ المُبيَّنةِ بمَضْمونِها تَنْبيهًا على ذلك الاستِقْلالِ، وهذا مَقصدٌ يَفوتُ لو تُرِكَ العَطفُ، أمَّا ما تُفيدُه مِن البَيانِ فهو أمْرٌ لا يَفوتُ؛ لأنَّه تَقتضيهِ نِسْبةُ مَعْنى الجُمْلةِ الثَّانيةِ مِن مَعْنى الجُمْلةِ الأُولى[٤].

---

(١) الماصَدَق -عندَ المَناطِقةِ-: الأفرادُ الَّتي يَتحقَّقُ فيها معنى الكلِّيِّ، ويُقابِلُه: (المفهوم)، وهو مجموعُ الصِّفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كلِّيٍّ. وهو اسمٌ مركَّبٌ تركيبًا مَزجيًّا مِن (ما) و(صَدَقَ) الفعلِ الماضي، جُعِلَ اسمًا لأفرادِ الكُلِّيِّ، فـ (ماصَدَق الإنسانِ): أفرادُه، مِن زَيدٍ وعَمرٍو وغيرِهما؛ فهو اسمٌ معربٌ. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٥٦)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و (٢/ ٧٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وتَركيبُ جُمْلةِ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ تَركيبٌ عَجيبٌ؛ لأنَّ ظاهِرَه يَقتَضي أنَّ الكافِرينَ كانوا قبْلَ الكُفرِ مَمْقوتينَ عندَ اللهِ لكُفْرِهم، فلمَّا كَفَروا بعدَ ظُهورِ الحَقِّ زادَهُم كُفرُهم مَقتًا عِندَه، وقد كان المُشرِكونَ يَتكبَّرونَ على المُسلِمينَ ويُشاقُّونَهم، ويُؤيِّسونَهم مِن الطَّماعيةِ في أنْ يَقبَلوا الإسلامَ بأنَّهم أعظَمُ مِن أنْ يَتَّبِعوهم، وأنَّهم لا يُفارِقون دِينَ آبائِهم، ويَحسَبونَ ذلك مَقتًا منهم للمُسلِمينَ، فجازاهُمُ اللهُ بزِيادةِ المَقْتِ على استِمرارِ الكُفرِ. وكذلك القولُ في معنى قولِه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾[1].

- وقولُه: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ تَكْريرُ جُمْلةِ ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾؛ لزِيادةِ التَّقريرِ والتَّنبيهِ على أنَّ اقتِضاءَ الكُفرِ لكُلٍّ واحِدٍ مِن الأمْرَينِ مُستقِلٌّ باقتِضاءِ قُبحِه، ووُجوبِ التَّجنُّبِ عنه[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال في آخِرِ سُورةِ (الأنعام): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥]؛ لأنَّ في سورةِ (الأنعام) تكرَّر ذِكرُ المخاطَبينَ مرَّاتٍ، فعرَّفهم بالإضافةِ؛ وقد جاءَ هنا على الأصلِ[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٢٠٠، ٣٨٨).

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ...﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ، وهو تَمهيدٌ لأنْ يُطلَبَ منهم الإخْبارُ عن شَيءٍ خَلَقَه شُرَكاؤُهم، فصار المرادُ مِن ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾: انْظُروا ما تُخْبِرونَني به مِن أحوالِ خَلْقِهم شيئًا مِن الأرضِ؛ فحصَلَ في قولِه: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ إجمالٌ فصَّلَه قولُه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ فتكونُ جُملةُ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ﴾ بدَلًا مِن جُملةِ ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ بدَلَ اشتمالٍ، أو بدَلَ مُفصَّلٍ مِن مُجمَلٍ[1].

- قولُه: ﴿شُرَكَآءَكُمُ﴾ أُضِيفَ الشُّركاءُ إلى ضَميرِ المخاطَبينَ؛ لأنَّ المرادَ بالشُّركاءِ مَن زَعَموهم شُركاءَ اللهِ في الإلهيَّةِ، أي: الشُّركاءُ عِندَكم؛ لِظُهورِ أنْ ليس المرادُ أنَّ الأصنامَ شُركاءُ مع المخاطَبينَ بشَيءٍ، فتَمحَّضَت الإضافةُ لمعنى: مُدَّعَيْكُم شُركاءَ للهِ[2]. وقيل: أضافهم إليهم؛ لأنَّهم -وإن كانوا جعلوهم شُرَكاءَه- لم يَنالوا شيئًا مِن شَرِكتِه؛ لأنَّهم ما نَقَصوه شيئًا مِن مُلكِه، وإنَّما شارَكوا العابِدينَ في أموالِهم بالسَّوائبِ وغَيرِها، وفي أعمالِهم؛ فهم شركاؤُهم بالحقيقةِ لا شُرَكاؤه[3].

- والموصولُ والصِّلةُ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ للتَّنْبيهِ على الخَطَأِ في تلك الدَّعْوةِ، وقَرينةُ التَّخْطِئةِ تَعقيبُه بقولِه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ فإنَّه أمْرٌ للتَّعْجيزِ؛ إذ لا يَستَطيعونَ أنْ يُرُوهُ شيئًا خَلَقَتْه الأصْنامُ؛ فيكونُ الأمْرُ التَّعْجيزيُّ في قُوَّةِ نَفيِ أنْ خَلَقوا شيئًا ما[4].

- قولُه: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ لَمَّا كان مَقَرُّ الأصنامِ في الأرضِ كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٤، ٣٢٥).

مِن الرَّاجِحِ أنْ تتخيَّلَ لهم الأوْهامُ تَصرُّفًا كامِلًا في الأرضِ، فكأنَّهم آلِهةٌ أرضيَّةٌ؛ فلذلك قِيل لهم: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾، أي: فكان تَصرُّفُهم في ذلك تَصرُّفَ الخالقيَّةِ[1].

- قولُه: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ (أم) مُنقطِعةٌ للإضرابِ الانتقاليِّ، وهي تُؤذِنُ باستِفهامٍ بعْدَها، والمعنى: بلْ ألهمْ شِركٌ في السَّمواتِ؟ والسَّمواتُ قَلَّما يَخطُرُ ببالِ المشركينَ أنَّ للأصنامِ تَصرُّفًا في شُؤونِها، ولعلَّهم لم يَدَّعوا ذلك، ولكنْ جاء قولُه: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ مَجِيءَ تَكْمِلةِ دَليلِ نَفيِ أُلُوهيَّةِ أصنامِ الكُفَّارِ، وذلك على سَبيلِ الفَرْضِ والاحتِمالِ، وقد كانوا يَنسُبونَ للأصنامِ بُنوَّةً للهِ تعالى؛ فمِن أجْلِ ذلك جِيءَ في جانبِ الاستدلالِ على انتفاءِ تأْثيرِ الأصنامِ في العوالِمِ السَّماويَّةِ بإبطالِ أنْ يكونَ لها شِركٌ في السَّمواتِ؛ لأنَّهم لا يَدَّعون لها في مَزاعِمِهم أكثَرَ مِن ذلك[2].

- قولُه: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ فيه انتِفاءُ الحُجَّةِ السَّمعيَّةِ مِن اللهِ تعالى المُثبتةِ آلهةً دونَه، بعدَ إقامةِ البُرهانِ العقليِّ على انتفاءِ إلهيَّةِ الَّذين يَدْعون مِن دونِ اللهِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ الشِّركَ خَطيرٌ لا بُدَّ في إثباتِه مِن تَعاضُدِ الدَّلائِلِ[3].

- والضَّميرُ في ﴿آتَيْنَاهُمْ﴾ قيل: إنَّه عائِدٌ على الشُّرَكاءِ؛ لِتَناسُبِ الضَّمائِرِ، أي: هلْ مع ما جُعِلَ شُرَكاءَ للهِ كِتابٌ مِن اللهِ فيه أنَّ لهم شَفاعةً عندَه؟ فإنَّه لا يُشفَعُ عندَه إلَّا بإذْنِه. وقيلَ: عائِدٌ على المُشرِكينَ، ويكونُ الْتِفاتًا خَرَجَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦).

ضَميرِ الخِطابِ إلى ضَميرِ الغَيْبةِ؛ إعْراضًا عنهم، وتَنزيلًا لهم مَنزِلةَ الغائِبِ الَّذي لا يَصلُحُ للخِطابِ، ومَعْناه: أنَّ عِبادةَ هؤلاء إمَّا بالعَقلِ، ولا عَقْلَ لمَن يَعبُدُ ما لا يَخلُقُ مِن الأرْضِ جُزْءًا مِن الأجْزاءِ، ولا له شِركٌ في السَّماءِ، وإمَّا بالنَّقلِ، ولم نُؤتِ المُشرِكينَ كِتابًا فيه أمْرٌ بعِبادةِ هؤلاء؛ فهذه عِبادةٌ لا عَقليَّةٌ ولا نَقليَّةٌ[1].

- ووَصَفَ (البيِّنة) بـ﴿مِّنْهُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المرادَ كَونُ الكِتابِ المَفْروضِ إيتاؤُه إيَّاهم مُشتَمِلًا على حُجَّةٍ لهم تُثبِتُ إلهيَّةَ الأصْنامِ، وليس مُطلَقَ كِتابٍ يُؤْتَوْنَه أمارةً مِن اللهِ على أنَّه راضٍ منهم بما همْ عليه كدَلالةِ المعجزاتِ على صِدقِ الرَّسولِ، وليست الخوارقُ ناطقةً بأنَّه صادقٌ، فأُريدَ: أآتيناهمْ كِتابًا ناطقًا مِثلَ ما آتَيْنا المسلمينَ القرآنَ[2]؟

- قولُه: ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ (بل) للإضرابِ الإبطاليِّ؛ كرَّ على ما سبَقَ الإبطالَ بواسطةِ (بل)، بأنَّ ذلك كلَّه مُنتَفٍ، وأنَّهم لا باعثَ لهم على مَزاعِمِهم الباطلةِ إلَّا وَعدُ بعضِهم بعضًا مواعيدَ كاذبةً يَغُرُّ بعضُهم بها بعضًا[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ استِئْنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ غايةِ قُبحِ الشِّركِ، وهو انتِقالٌ مِن نَفيِ أنْ يكونَ لشُرَكائِهم خَلْقٌ أو شِرْكةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨، ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٢٦، ٣٢٧).

تَصرُّفٍ في الكائِناتِ الَّتي في السَّماءِ والأرضِ، إلى إثْباتِ أنَّه تعالى هو القَيُّومُ على السَّمَواتِ والأرْضِ؛ لِتَبْقَيَا مَوْجودَتَينِ؛ فهو الحافِظُ بقُدرَتِه نِظامَ بَقائِهما. وأكَّدَ هذا الخَبَرَ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لِتَحْقيقِ مَعْناه، وأنَّه لا تَسامُحَ فيه، ولا مُبالَغةَ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾ الزَّوالُ يُطلَقُ على العَدَمِ، ويُطلَقُ على التَّحوُّلِ مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ، ومنه زَوالُ الشَّمسِ عن كَبِدِ السَّماءِ، وقد اختِيرَ هذا الفِعلُ (تزول) هنا دُونَ غَيرِه؛ لأنَّ المَقْصودَ مَعْناهُ المُشتَرَكُ؛ فإنَّ اللهَ يُمسِكُهُما مِن أنْ يُعْدَما، ويُمسِكُهُما مِن أنْ يَتَحوَّلَ نِظامُ حَرَكَتِهِما؛ فاللهُ مُريدٌ استِمْرارَ انتِظامِ حَرَكةِ الكَواكِبِ والأرْضِ على هذا النِّظامِ المُشاهَدِ، وفي هذا إيقاظٌ للبَصائِرِ؛ لِتَعلَمَ ذلك عِلمًا إجْماليًّا، وتَتَدبَّرَ في انتِساقِ هذا النِّظامِ البَديعِ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا﴾ أُسنِدَ فِعلُ ﴿زَالَتَآ﴾ إلى السَّمَواتِ والأرْضِ، على تَأْويلِ السَّمَواتِ بسَماءٍ واحِدةٍ. وأُسنِدَ الزَّوالُ إليهما؛ للعِلْمِ بأنَّ اللهَ هو الذي يُزيلُهُما؛ لقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَا﴾. وجِيءَ في نَفيِ إمْساكِ أحَدٍ بحَرفِ (مِن) المُؤكِّدةِ للنَّفيِ؛ تَنْصيصًا على عُمومِ النَّكِرةِ في سِياقِ النَّفيِ، أي: لا يَستطيعُ أحَدٌ كائِنًا مَن كان إمْساكَهما وإرْجاعَهما[3].

- وفي ذِكرِ إمْساكِ السَّمَواتِ عن الزَّوالِ بعدَ الإطْنابِ في مُحاجَّةِ المُشرِكينَ وتَفظيعِ غُرورِهِم: تَعْريضٌ بأنَّ ما يَدْعُونَ إليه مِن الفَظاعةِ مِن شَأنِه أنْ يُزَلزِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٨، ٣٢٩).

الأرَضينَ، ويُسقِطَ السَّماءَ كِسَفًا؛ لولا أنَّ اللهَ أرادَ بَقاءَهما لِحِكْمةٍ، وهذه دَلالةٌ مِن مُستَتبَعاتِ التَّراكيبِ باعتِبارِ مَثارِ مَقاماتِ التَّكلُّمِ بها. وهو أيضًا تَعريضٌ بالتَّهديدِ؛ ولذلك أُتبِعَ بالتَّذييلِ بوَصْفِ اللهِ تعالى بالحِلمِ والمَغفِرةِ؛ لِمَا يَشملُه صِفةُ الحَليمِ مِن حِلمِه على المُؤمِنينَ ألَّا يُزعِجَهم بفَجائعَ عَظيمةٍ، وعلى المُشرِكينَ بتَأْخيرِ مُؤاخَذَتِهم؛ فإنَّ التَّأْخيرَ مِن أثَرِ الحِلمِ، وما تَقْتضيهِ صِفةُ الغَفورِ مِن أنَّ في الإمهالِ إعْذارًا للظَّالِمينَ لعلَّهم يَرجِعون[1].

- وفِعلُ (كان) المُخبَرُ به عن ضَميرِ الجلالةِ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ مُفيدٌ لِتقرُّرِ الاتِّصافِ بالصِّفَتَينِ الحُسْنَيينِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٤٢-٤٥)

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾.

### غريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي: أقوى الأيمانِ وأغلَظَها مُجتَهِدينَ في تَوكيدِها. وحقيقةُ الجَهدِ: التَّعَبُ والمشَقَّةُ ومُنتهَى الطَّاقةِ، ثمَّ أُطلِقَ على أشَدِّ الفِعلِ ونِهايةِ قُوَّتِه؛ لِما بيْنَ الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ مِن المُلازَمةِ. والأيْمانُ: جمْعُ يَمينٍ، واليمينُ: الحَلِفُ والقَسَم، قيل: أصلُه مِن اليُمْن، أي: البَركة؛ سُمِّيت بذلك لأنَّها تَحفَظُ الحقوقَ، وقيل: سُمِّي الحَلِفُ يمينًا؛ لأنَّه يكونُ بأَخْذِ اليَمينِ، أو لأنَّهم كانوا اذا تحالفوا أو توافقوا ضرَب كلُّ امْرِئٍ مِنْهم يَمينَه على يَمين صاحِبِه[1].

﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾: أي: المكرَ السَّيِّئَ، وهو مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ، وأصلُ (مكر): الاحتيالُ والخِداعُ، وأصلُ (سوء): يدُلُّ على قُبْحٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٦) و(٥/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٨، ٨٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٦٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٤٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٦/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣) و(٥/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٤).

﴿يَحِيقُ﴾: أي: يُحيطُ ويَنزِلُ، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولُ الشَّيءِ بالشَّيءِ[١].

﴿سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أي: العَذابَ الَّذي نزَلَ بالكُفَّارِ، والسُّنَّةُ: الطَّريقةُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانٍ شَيءٍ واطِّرادِه[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وأقسَمَ مُشرِكو العَرَبِ باللهِ مُجتَهِدينَ في أيْمانِهم أنَّه لو جاءهم رسولٌ مِن عندِ اللهِ لَيَكونُنَّ أعظَمَ هُدًى مِن إحدى الأُمَمِ السَّابِقةِ، فلمَّا جاءهم مُحمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ نَذيرًا ما زادَهم مجيئُه إلَّا نُفورًا مِنَ الحَقِّ، وضَلالًا إلى ضَلالِهم، تكبُّرًا وعُتوًّا في الأرضِ، ومكرًا سيِّئًا بالنَّاسِ، فزَيَّنوا لهم الباطِلَ، وصَدُّوهم عن الحَقِّ، ولا يَنزِلُ المَكرُ السَّيِّئُ إلَّا بأهلِه. فهل يَنتَظِرونَ إلَّا عادةَ اللهِ الجاريةَ في إهلاكِ مَن قَبْلَهم مِن المكَذِّبينَ؟! فلن تجِدَ -يا مُحمَّدُ- لسُنَّةِ اللهِ تَبديلًا.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى ما يؤكِّدُ عدَمَ تغييرِ سُنَّتِه في خَلْقِه، ويَحُضُّ على السَّيرِ في الأرضِ، والاعتبارِ بأحوالِ المُهلَكينَ السَّابِقينَ، فيقولُ: أوَلم يَسِرْ هؤلاء المُشركونَ في الأرضِ فيَنظُروا كيف كان عاقِبةُ مَن قَبْلَهم مِن الكُفَّارِ، فيَتَّعِظوا بما حَلَّ بهم مِنَ العَذابِ، وكان هؤلاء الكُفَّارُ أشَدَّ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ قُوَّةً؟!

وما كان مِن شأنِ الله تعالى أن يُعجِزَه شَيءٌ مِن الأشياءِ، سواءٌ أكانَ في السَّمواتِ أم في الأرضِ؛ لِكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه سُبحانَه.

ثمَّ يختِمُ سبحانَه السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ جانبٍ مِن رحمتِه، وكمالِ حِلمِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٠).

فيقولُ: ولو يُعاقِبُ اللهُ النَّاسَ بما عَمِلوه مِن الذُّنوبِ لَأهلَكَ جميعَ ما على ظَهرِ الأرضِ، ولكِنْ يُمهِلُهم سُبحانَه إلى وَقتٍ مَعلومٍ عِندَه، فإذا جاء هذا الوَقتُ فلا يَخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن أحوالِهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى إنكارَ المُشرِكينَ للتَّوحيدِ؛ ذكَرَ تَكذيبَهم للرَّسولِ ومُبالَغتَهم فيه(١).

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ﴾.

أي: وأقسَم مُشرِكو العَرَبِ باللهِ بأبلَغِ الأيْمانَ وأغلَظِها -مِن قَبْلِ بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أنَّه لو جاءهم رسولٌ مِن عندِ اللهِ يُنذِرُهم عذابَ اللهِ، لَيَكونُنَّ أعظَمَ هدًى مِن إحدى الأُمَمِ السَّابِقةِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

قال ابن عثيمين: (إمَّا أن نَلتزِمَ بالعُمومِ ونقولَ: إنَّهم يقولون: أهدى مِن إحدى الأمَمِ مِن أيِّ أمَّةٍ كانت... فكأنَّهم يقولون: أهدى مِن كلِّ الأمَمِ، لكِنْ لم يُعَيِّنوا؛ لأنَّهم لم يَدرُوا مَن هو الَّذي على حَقٍّ. وإمَّا أن يُقالَ: خُصَّ هذا الجانِبُ بأُمَّتينِ فقط؛ لأنَّ المعروفَ أنَّهم على دينٍ هم اليهودُ والنَّصارى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٩٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: أهدَى مِن جميعِ الأُمَمِ الَّذين أُرسِلَ إليهم الرُّسُلُ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩). =

كما قال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ * أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ * لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ * فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٦٧ - ١٧٠].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾.

أي: فلمَّا جاءهم محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ على شِركِهم وكُفرِهم، ما زادهم مجيئُه إلَّا نُفورًا مِن الحَقِّ، وضَلالًا إلى ضلالِهم، ولم يَصيروا أهدى مِن إحدى الأُمَمِ كما أقسَموا مِن قَبْلُ[1]!

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ

---

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ بهم: اليهودُ والنَّصارى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بهم أهلُ الكتابِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٦).

وقال البِقاعي: (﴿مِنۡ إِحۡدَى﴾ أي: واحدةٍ مِن ﴿ٱلۡأُمَمِ﴾ أي: السَّالفةِ، أو مِن الأمَّةِ الَّتي لم يكُنْ في الأُمَمِ الَّتي جاءتها النُّذُرُ أهدى منها). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٩٨، ٢٩٩).

قال السعدي: (ليس إقسامُهم المذكورُ لِقَصدٍ حَسَنٍ، وطلَبٍ للحَقِّ، وإلَّا لَوُفِّقُوا له، ولكنَّه صادِرٌ عن استِكبارٍ في الأرضِ على الخَلقِ، وعلى الحَقِّ، وبَهرجةٍ في كلامِهم هذا، يُريدونَ به المكرَ والخِداعَ، وأنَّهم أهلُ الحَقِّ، الحَريصونَ على طلَبِه، فيَغتَرُّ به المغترُّون، ويمشي خَلْفَهم المُقتَدون). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾.

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ﴾.

أي: عُتوًّا على الله، وتَكبُّرًا في الأرض عن الإيمانِ به، ومَكرًا سَيِّئًا بالنَّاسِ، فقد خَدعوهم، وزيَّنوا لهم الباطِلَ؛ لِيَصُدُّوهم عن الحَقِّ(١).

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩).

قال الرازي: (﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ونصْبُه يحتمِلُ ثلاثةَ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنْ يكونَ حالًا، أي: مستكبرينَ في الأرضِ. وثانيها: أنْ يكونَ مفعولًا له، أي: للاستكبارِ. وثالثُها: أنْ يكونَ بدَلًا عن النُّفورِ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٦).

ممَّن اختار الوجهَ الثَّانيَ: ابنُ جرير، وأبو حيَّان، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٠٨).

قال ابن عاشور: (لِأنَّ النُّفورَ في معنَى الفعلِ، فصَحَّ إعمالُه في المفعولِ له. والتَّقديرُ: نَفَروا لأجْلِ الاستِكبارِ في الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٤).

وممَّن اختار الوجهَ الثَّالثَ -أنَّها بدَلٌ مِن كَلمةِ ﴿نُفُورٗا﴾: الأخفَشُ -كما في ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١)-، والعُلَيميُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦١)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٧٧).

قال البِقاعي: (﴿وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ﴾ أي: ولأجلِ مكرِهم المكرَ الَّذي مِن شأنِه أن يَسوءَ صاحِبَه وغَيرَه، وهو إرادتُهم لإيهانِ أمرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وإطفاءِ نورِ الله. وقراءةُ عبدِ اللهِ «ومكرًا سيئًا» يدُلُّ على أنَّه مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى صفتِه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٧٥).

وقال السمعاني: (فِي المكرِ السَّيِّئِ قولانِ؛ أحدُهما: أنَّه الشِّركُ، والآخرُ: أنَّه المكرُ برسولِ الله). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦٤).

وقال الواحدي: (والمفسِّرونَ فسَّروا المكرَ السَّيِّئَ هاهنا بالشِّركِ. والتَّقديرُ: ومكروا مكرًا سَيِّئًا، والمكرُ السَّيِّئُ: هو عمَلُهم القبيحُ مِن الشِّركِ، والمكرُ هو العملُ القبيحِ). ((البسيط)) (١٨/ ٤٤٣).

أي: ولا يَنزِلُ سُوءُ المَكرِ السَّيِّئِ إلَّا بأهلِه الَّذين يَمكُرونَه، فيَحُلُّ عليهم، ويُحيطُ بهم[١].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: فهل يَنتَظِرُ هؤلاء المُشرِكونَ إلَّا عادةَ اللهِ الجاريةَ في الأُمَمِ السَّابِقةِ في إهلاكِهم في الدُّنيا على كُفرِهم بالحَقِّ[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢].

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾.

أي: فلن تَجِدَ -يا محمَّدُ- لطريقةِ اللهِ الَّتي قضاها وحَكَم بها تبديلًا لها، بل هي سُنَّةٌ ماضيةٌ، وعادةٌ جاريةٌ، فلا بُدَّ أن يُعذَّبَ هؤلاء المُشرِكونَ إن استمَرُّوا على باطِلِهم؛ ولن تجِدَ لهذه العادةِ تحويلًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٥، ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٩، ٥٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٦).

قيل: معنى ﴿تَحْوِيلًا﴾: أي: تحويلَ العذابِ عنهم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٤، ٣٠٥).

وقيل: المعنى: تحويلُه مِن حالةٍ إلى حالةٍ أخفَى منها. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٧٦).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۞ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ للأوَّلينَ سُنَّةً، وهي: الإهلاكُ؛ نبَّهَهم بتذكيرِ حالِ الأوَّلينَ؛ فإنَّهم كانوا مارِّينَ على ديارِهم، رائينَ لآثارِهم[1].

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: أوَلَمْ يَسِرْ هؤلاء المُشرِكونَ في الأرضِ، فيَنظُروا كيف كان عاقِبةُ كُفَّارِ الأُمَمِ الَّذين مِن قَبْلِهم، فيَتَّعِظوا بما حَلَّ بهم مِن العذابِ؛ بسَبَبِ ذُنوبِهم، فيَخافوا ويَحذَروا أن يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم[2]؟

﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾.

أي: وكان كُفَّارُ الأُمَمِ السَّابِقةِ أشَدَّ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ قُوَّةً، فعذَّبَهم اللهُ بسَبَبِ ذُنوبِهم؛ فلن يَتعذَّرَ على اللهِ إهلاكُ كُفَّارِ قُرَيشٍ كما عذَّب أولئك[3].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٨).

ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [غافر: ٢١، ٢٢].

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾.

أي: وإذا أراد اللهُ إهلاكَ المُشرِكينَ أو فِعلَ أيِّ شَيءٍ في السَّمَواتِ أو في الأرضِ، فلن يُعجِزَه ذلك؛ لكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه سُبحانَه؛ فلا يخفَى عليه شَيءٌ، ولا يَتعذَّرُ عليه أمرٌ[١].

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المُشرِكونَ يَستَعجِلونَ بالوَعيدِ استِهزاءً؛ بيَّنَ أنَّه لا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ على ما كَسَبوا؛ لعلَّهم يُنيبون أو يُنيبُ بَعضُهم إلى رَبِّه، ويَثوبُ إلى رُشدِه، فقال[٢]:

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾.

أي: ولو يُعاقِبُ اللهُ النَّاسَ على جَميعِ ما عَمِلوه مِن الذُّنوبِ ولم يُمهِلْهم، لأهلَكَ جميعَ النَّاسِ والدَّوابِّ على ظَهرِ الأرضِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة فاطر)) (ص: ٣١٦، ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٢/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ يُمهِلُ الكافِرينَ والعُصاةَ إلى وَقتٍ مَعلومٍ عِندَه، ثمَّ يُحِلُّ بهم عِقابَه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [النحل: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

وعن أبي موسى رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي(٢) للظَّالم حتَّى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))(٣).

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾.

أي: فإذا جاء وَقتُ أخْذِهم فإنَّ اللهَ بعِبادِه(٤) .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) لَيُمْلي: أي: يُمهِلُ. يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (١٧/ ١٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٦٨٦) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٤) قيل: المرادُ بعِبادِه: المؤمِنون، فهو تسليةٌ لهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرازيُّ، وقال: (فإذا جاء الهلاكُ فالله بالعبادِ بصيرٌ؛ إمَّا أن يُنجيَهم، أو يكونَ تَوَفِّيهم تقريبًا مِن الله لا تعذيبًا). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٩).

وقيل: هذا توعُّدٌ للمُكَذِّبينَ ولِمَن يَستحِقُّ العِقابَ، أي: فيُجازيهم بأعمالِهم. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣). =

بَصيرٌ، لا يَخفَونَ عليه سُبحانَه[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ ﴾ يَحُضُّ على السَّيرِ في الأرضِ بالقُلوبِ والأبدانِ؛ للاعتبارِ لا لمجَرَّدِ النَّظَرِ والغَفلَةِ، وأن يَنظُروا إلى عاقبةِ الَّذين مِن قَبْلِهم ممَّن كَذَّبوا الرُّسُلَ، وكانوا أكثَرَ منهم أموالًا وأولادًا، وأشَدَّ قُوَّةً، وعَمَروا الأرضَ أكثَرَ مِمَّا عَمَرَها هؤلاء، فلمَّا جاءهم العذابُ لم تَنفَعْهم قُوَّتُهم، ولم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم مِن اللهِ شَيئًا، ونَفَذَت فيهم قُدرةُ اللهِ ومَشيئتُه[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ ﴾ أي: فيَتسَبَّبَ لهم عن ذلك السَّيرِ أنَّه يَتجَدَّدُ لهم نظَرٌ واعتِبارٌ يومًا مِن الأيَّام؛ فإنَّ العاقِلَ مَن إذا رأى شيئًا تفكَّرَ فيه؛ حتَّى يعرِفَ ما يَنطِقُ به لِسانُ حالِه إنْ خفِيَ عنه ما جرَى مِن مقالِه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أنَّنا ينبغي أنْ نَنظُرَ إلى عاقبةِ السَّابقِينَ نَظَرَ اعتِبارٍ بمآلِهم حينَ كَذَّبوا رُسُلَهم، وليس اعتبارًا بقوَّتِهم وصِناعتِهم وطِرازِهم، وما أشْبَهَ ذلك[٤]!

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا

---

= وقيل: المرادُ بهم جميعُ العبادِ؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم؛ فيُجازيهم بحسَبِ أعمالِهم؛ خَيرِها وشَرِّها. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٩٩٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣١٧).

مِن دَآبَّةٍ ﴾ فيه تذكيرٌ لهم عن أن يَغُرَّهم تأخيرُ المؤاخَذةِ، فيَحسَبوه عَجزًا أو رِضًا مِن اللهِ بما هم فيه! فعَلَّمَهم أنَّ لعِذابِ اللهِ آجالًا اقتضَتْها حِكمتُه، فيها رَعْيُ مصالحِ أُمَمٍ آخَرينَ، أو استِبقاءُ أجيالٍ آتِينَ(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ هذه الآيةُ وغَيرُها وما يُؤْثَرُ مِن تنَصُّرِ بعضِ العَرَبِ، ومِن اتِّساعِ بَعضِهم في التَّحَنُّفِ: يدُلُّ على أنَّ العرَبَ كانوا يَعلَمونَ رِسالةَ الرُّسُلِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ الإشارةُ إلى أنَّه لا ينبغي للإنسانِ النَّذرُ -أي: أن يَنذِرَ الطَّاعةَ؛ لأنَّه قد لا يُوَفَّقُ في القيامِ بها؛ فهؤلاء أقسَموا، ولَمَّا وُجِدَ مُوجبُ الطَّاعةِ لم يقوموا بالطَّاعةِ(٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ جوابُ (لَمَّا): ﴿مَّا زَادَهُمْ ﴾، وفيه دليلٌ واضِحٌ على حرفيَّةِ (لَمَّا)، لا ظَرفيَّتِها؛ إذ لو كانت ظَرفًا لم يَجُزْ أن يتقدَّمَ على عامِلِها المنفيِّ بـ (ما)(٤).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ يُنبئُ عن الإحاطةِ الَّتي هي فَوقَ اللُّحوقِ، وفيه مِنَ التَّحذيرِ ما ليس في قَولِه: (ولا يَلحَقُ) أو (ولا يَصِلُ)(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٣٢، ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٦، ٢٤٧).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ المَكْرَ يكونُ سَيِّئًا ويكونُ حَسنًا، وهو كذلك؛ فإنَّ مَكْرَ اللهِ تعالى بأعدائِه الَّذين يَمكُرونَ به: مَكرٌ حَسَنٌ يُثنى عليه به، ومَكْرُ أولئك سَيِّئٌ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ أنَّ مَن أرادَ السُّوءَ حاقَ به السُّوءُ، وفي المثلِ المشهورِ[٢]: «مَن حَفَرَ لأخيه حفرةً وَقَعَ فيها»؛ فالإنسانُ إذا أرادَ المَكْرَ -والعياذُ باللهِ- فإنَّ مَكرَه يَحيقُ به[٣]. عن محمَّدِ بنِ كعبٍ قال: (ثلاثٌ مَن فعَلَهُنَّ لم يَنْجُ حتَّى يُنزَلَ به: مَن مَكَر، أو بغَى، أو نَكَث)، ثمَّ قرأ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[٤] [الفتح: ١٠].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ فيه سُؤالٌ: كثيرًا ما نرى أنَّ الماكِرَ يَمكُرُ، ويُفيدُه المَكرُ، ويَغلِبُ الخَصمَ بالمَكرِ، والآيةُ تدُلُّ على عدَمِ ذلك؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ؛ منها:**

**الوجهُ الأوَّلُ:** أنَّ المكرَ المذكورَ في الآيةِ: هو المكرُ الَّذي مَكَروه مع النَّبيِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٧).
قال ابن القيِّم: (المكرُ: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغيرِ بطريقٍ خفيٍّ، وكذلك الكَيدُ والمُخادَعةُ، ولكنَّه نَوعانِ: قبيحٌ، وهو إيصالُ ذلك لِمَن لا يَستحِقُّه. وحَسَنٌ، وهو إيصالُه إلى مُستحِقِّه عُقوبةً له؛ فالأوَّلُ مذمومٌ، والثَّاني ممدوحٌ، والرَّبُّ تعالى إنَّما يَفعلُ مِن ذلك ما يُحمَدُ عليه عدلًا منه وحِكمةً). ((إعلام الموقعين)) (٣/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((الأمثال)) لابن سلَّام (ص: ٢٧٠)، ((جمهرة الأمثال)) لأبي هلال العسكري (٢/ ٢٨٩)، ((مجمع الأمثال)) للميداني (٢/ ٢٩٧)، ((المستقصى في أمثال العرب)) للزمخشري (٢/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٧).

(٤) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٦).

صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم مِن العزمِ على القَتلِ والإخراجِ، ولم يَحِقْ إلَّا بهم؛ حيثُ قُتِلوا يومَ بَدرٍ وغَيرِه، وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ.

**الوجهُ الثاني**: أنَّ الأمورَ بعواقِبِها، ومَن مَكَر به غَيرُه، ونَفَذَ فيه المكرُ عاجِلًا في الظَّاهِرِ؛ ففي الحقيقةِ هو الفائِزُ، والماكِرُ هو الهالِكُ، وذلك مِثلُ راحةِ الكافِرِ ومَشقَّةِ المسلمِ في الدُّنيا، ويُبيِّنُ هذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، يعني: إذا كان لمَكرِهم في الحالِ رَواجٌ، فالعاقِبةُ للتَّقْوى، والأمورُ بخواتيمِها، فيَهلِكونَ كما هلَكَ الأوَّلونَ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ دَليلٌ على أنَّ هذا مِن مُقتضَى حِكمتِه سُبحانَه، وأنَّه يَقضي في الأمورِ المُتماثِلةِ بقَضاءٍ مُتماثِلٍ لا بقَضاءٍ مُخالِفٍ؛ فإذا كان قد نَصَرَ المؤمِنينَ لأنَّهم مُؤمِنون، كان هذا مُوجِبًا لنَصرِهم حيث وُجِدَ هذا الوصفُ، بخِلافِ ما إذا عَصَوا ونَقَضُوا إيمانَهم، ولهذا قال: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، فعَمَّ كلَّ سُنَّةٍ له، وهو يَعُمُّ سُنَّتَه في خَلْقِه وأمْرِه في الطبيعيَّاتِ والدِّينيَّاتِ[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ رَدٌّ على مَن يَجعَلُ اللهَ يَفعَلُ بمجرَّدِ إرادةٍ تُرَجِّحُ أحدَ المتماثلَينِ بلا مُرَجِّحٍ! فإنَّ هؤلاء ليس عندَهم له سُنَّةٌ لا تَتَبَدَّلُ، ولا حِكمةٌ تُقصَدُ! وهذا خلافُ النُّصوصِ والعُقولِ؛ فإنَّ السُّنَّةَ تقتضي تماثُلَ الآحادِ، وأنَّ حُكمَ الشَّيءِ حُكمُ نَظيرِه؛ فيقتضي التَّسويةَ بينَ المُتماثِلاتِ، وهذا خِلافُ قَولِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((الرَّد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٩١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ كمالُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وحِكمتِه؛ حيثُ إنَّ سُنَّتَه لا تُبَدَّلُ ولا تُغَيَّرُ؛ وجْهُ كونِها مِن كَمالِ القُدرةِ: أنَّ العاجزَ لا يَستطيعُ أنْ يَجعَلَ أفعالَه على وتيرةٍ واحدةٍ، بل قد تَتخلَّفُ وتَتغيَّرُ؛ لعَجْزِه عن الاطِّرادِ، وأمَّا كَونُه مِن تمامِ الحِكمةِ فلأنَّ مُعاقَبةَ السَّابِقينَ كانت لسبَبٍ، وهذا السَّبَبُ إذا وُجِدَ في الآخِرينَ فإنَّه يَعمَلُ عمَلَه؛ لأنَّ مُقتضَى الحِكمةِ أنَّ الأسبابَ لا تَتخلَّفُ عنها مُسبَّباتُها[١].

١١- قال تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾، وسُنَّةُ اللهِ في الأوَّلينَ، الَّتي لا تُبدَّلُ ولا تُغَيَّرُ: أنَّ كُلَّ مَن سار في الظُّلمِ والعِنادِ، والاستِكبارِ على العِبادِ: أنْ يُحِلَّ به نِقمَتَه، وتُسلَبَ عنه نِعمتُه؛ فلْيَترقَّبْ هؤلاء ما فُعِلَ بأولئك[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ﴾ استِعمالُ القياسِ؛ فيَقيسُ حالَ هؤلاءِ بحالِ الأوَّلينَ الَّذين كذَّبوا فعُوقِبوا[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أنَّ في التاريخِ عِبَرًا يَعتَبِرُ بها العاقلُ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ استِعمالُ قياسِ الأَولى؛ فإذا كان اللهُ تعالى أهلَكَهم مع كَونِهم أشدَّ منهم قُوَّةً، فإنَّ إهلاكَ هؤلاءِ مِن بابِ أَولى[٥].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ مِن صفاتِ اللهِ تعالى ما يكونُ سلبيًّا -أي: منفيًّا عن اللهِ-، والقاعدةُ العامَّةُ: «أنَّ كلَّ صفةِ نقصٍ؛ فهي منفيَّةٌ عن اللهِ عزَّ وجلَّ، كما أنَّ كلَّ صفةِ كمالٍ فهي ثابتةٌ له»(١).

١٦- أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَنفي شيئًا عن نَفْسِه إلَّا لثُبوتِ كَمالِ ضِدِّه؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ﴾ قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾، فيُستفادُ مِن ذلك: أنَّ كُلَّ صفةٍ مَنفيَّةٍ عن اللهِ لا يُرادُ منها مجرَّدُ النَّفْيِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ النَّفيِ المَحْضِ ليس فيه فائدةٌ؛ إذ إنَّ النَّفيَ المَحْضَ عدَمٌ مَحْضٌ، والعَدَمُ ليس بشَيءٍ، فضلًا عن أنْ يكونَ كَمالًا، ولأنَّ النَّفيَ قد يكونُ سَبَبُه العجزَ، كما قال الشَّاعرُ(٢):

قُبَيِّلةٌ لا يَغدِرونَ بذِمَّةٍ ... ولا يَظلِمونَ النَّاسَ حبَّةَ خَرْدَلِ

فهذا ذَمٌّ؛ لأنَّهم -لِعَجزِهم- لا يَستطيعونَ، فلا يَظلِمونَ النَّاسَ، ولا يَغدِرون بالذِّمَمِ، وقد يكونُ سببُه عدَمَ القابليَّةِ، لا للكَمالِ، ولكنْ لأنَّه غيرُ قابلٍ لهذه الصِّفةِ، كما لو قُلتَ: «إنَّ جدارَ بيتِنا لا يَظلِمُ»، فهو صَحيحٌ أنَّه لا يَظلِمُ أحدًا، لكنْ لا لأنَّه كامِلُ العَدْلِ، ولكِنْ لأنَّه لا يَقبَلُ صِفةَ الظُّلْمِ، فنَفْيُها عنه كثُبوتِها له، حتَّى لو قلتَ: «جدارُنا يَظلِمُ» فلا أحدَ يُصَدِّقُك؛ إذَنْ: فصِفاتُ اللهِ المَنفيَّةُ الَّتي يُسمِّيها العُلَماءُ -رَحِمَهم اللهُ- السَّلبيَّةَ: تَتضَمَّنُ كمالَ الضِّدِّ، يعني: لِكَمالِ عِلمِه وقُدرَتِه فلا يُعجِزُه شَيءٌ في السَّمَواتِ ولا في الأرضِ(٣).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ الرَّدُّ على الجَبريَّةِ؛ فأثبتَ سُبحانَه للعبدِ كَسْبًا، والجَبريَّةُ يقولون: «إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على العَمَلِ لا يستطيعُ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣١٩).

(٢) هو النجاشي، واسمُه: قيسُ بنُ عَمرِو بنِ مالكٍ، مِن بني الحارثِ بنِ كعبٍ. يُنظر: ((الشعر والشعراء)) لابن قتيبة (١/ ٣١٧، ٣١٩)، ((خزانة الأدب)) للبغدادي (١/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣١٩).

يَكتسِبَ، بل يُجبَرُ على أنْ يَعمَلَ خَيرًا أو شَرًّا»[١]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ تمامُ قدرةِ اللهِ تعالى؛ حيث يَقْدِرُ على إهلاكِ العالَمِ بلحظةٍ[٢]!

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يُشيرُ إلى كَمالِ حِلمِه تعالى، وشِدَّةِ إمهالِه وإنظارِه أربابَ الجرائمِ والذُّنوبِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾ جَهْدُ الأيْمانِ هنا كِنايةٌ عن تَأْكيدِها[٤].

- وفي قَولِه: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ عبَّرَ عن الرَّسولِ بالنَّذيرِ؛ لأنَّ مُجادَلَةَ أهْلِ الكِتابِ للمُشرِكينَ كانتْ مُشتَمِلةً على تَخويفٍ وإنْذارٍ؛ ولذلك لم يَقتصِرْ على وَصْفِ النَّذيرِ في قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾[٥] [المائدة: ١٩].

- قولُه: ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ إحْدَى الأُممِ هي أُمَّةٌ غيرُ مُعيَّنةٍ مِن الأُممِ ذاتِ الدِّينِ: إمَّا الأُمَّةُ النَّصرانيَّةُ، وإمَّا الأُمَّةُ اليَهوديَّةُ، أو الصَّابئةُ، وكان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٣٢).

التَّعبيرُ عنها بـ ﴿إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾ إبهامًا لها يَحتمِلُ أنْ يكونَ إبهامًا مِن كلامِ المُقْسِمينَ؛ تَجنُّبًا لمُجابَهةِ تلك الأُمَّةِ بصَريحِ التَّفضيلِ عليها. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ إبهامًا مِن كلامِ القُرآنِ على عادةِ القُرآنِ في التَّرفُّعِ عمَّا لا فائدةَ في تَعْيينِه؛ إذ المَقصودُ أنَّهم أشهَدوا اللهَ على أنَّهم إنْ جاءَهم رسولٌ يَكونوا أسبَقَ مِن غَيرِهم اهتِداءً، فإذا هُم لم يَشَمُّوا رائحةَ الاهتداءِ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ فريقٌ مِن المُشرِكينَ نَظَروا في قَسَمِهم بهَدْيِ اليهودِ، وفريقٌ نَظَروا بهَدْيِ النَّصارَى، وفريقٌ بهَدْيِ الصَّابئةِ؛ فجمَعَتْ عِبارةُ القُرآنِ ذلك بقَولِه: ﴿مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِ﴾؛ لِيَأتيَ على مَقالةِ كُلِّ فريقٍ مع الإيجازِ[1].

- في قولِه: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بائتِلافِ اللَّفظِ مع المَعْنى، أي: أنْ تكونَ أَلْفاظُ المَعْنى المرادِ يُلائِمُ بعضُها بعضًا، ليس فيها لَفظةٌ نافِرةٌ عن إخْوانِها، غَيرُ لائِقةٍ بمَكانِها، أو مَوْصوفةٌ بحُسنِ الجِوارِ بحيثُ إذا كان المَعْنى غَريبًا قُحًّا، كانتْ أَلْفاظُهُ غَريبةً مَحْضةً، وبالعَكسِ، ولَمَّا كانت جَميعُ الأَلْفاظِ المُجاوِرةِ للقَسَمِ في هذه الآيةِ كُلِّها مِن المُسْتَعمَلِ المُتداوَلِ، لم تَأْتِ فيها لَفْظةٌ غَريبةٌ تَفتَقِرُ إلى مُجاوَرةِ ما يُشاكِلُها في الغَرابةِ[2].

- والاستِثْناءُ في قولِه: ﴿مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا﴾ مُفرَّغٌ مِن مَفعولِ ﴿زَادَهُمۡ﴾ المحذوفِ، أي: ما أفادَهم صلاحًا وحالًا أو نَحوَ ذلك إلَّا نُفورًا؛ فيكونُ الاستثناءُ مِن تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ لأنَّهم لم يَكونوا نافِرينَ مِن قبْلُ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱسۡتِكۡبَارًا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٣).

فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

- قولُه: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الاستِكبارُ: شِدَّةُ التَّكبُّرِ؛ فالسِّينُ والتاءُ فيه للمُبالَغةِ، مِثلُ استَجابَ[١].

- وجُملةُ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ تَذييلٌ أو مَوعِظةٌ، وفيه حَذفُ مُضافٍ تَقديرُه: ضُرُّ المكرِ السَّيِّئِ، أو سُوءُ المكْرِ السَّيِّئِ، كما دلَّ عليه فِعلُ ﴿يَحِيقُ﴾، فإنْ كان التَّعريفُ في المَكْرِ للجِنْسِ كان المرادُ بـ (أهْلِهِ) كُلَّ ماكِرٍ، وهذا هو الأنسَبُ بمَوقِعِ الجُمْلةِ ومَحملِها على التَّذييلِ؛ لِيَعُمَّ كُلَّ مَكرٍ وكلَّ ماكرٍ، فيَدخُلُ فيه الماكِرون بالمُسلِمينَ مِن المُشرِكينَ؛ فيَكونُ القَصرُ الَّذي في الجُمْلةِ قَصرًا ادِّعائيًّا[٢] مَبنيًّا على عَدَمِ الاعتِدادِ بالضُّرِّ القليلِ الَّذي يَحيقُ بالمَمْكورِ به بالنِّسبةِ لِمَا أعدَّه اللهُ للماكِرِ في قَدَرِه مِن مُلاقاةِ جَزائِه على مَكْرِه[٣].

- وإذا كان تَعريفُ المَكْرِ تَعريفَ العَهدِ، كان المَعْنى: ولا يَحيقُ هذا المَكرُ إلَّا بأهْلِه، أي: الَّذين جاءَهم النَّذيرُ فازْدادوا نُفورًا؛ فيَكونُ مَوقِعُ قَولِه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ مَوقعَ الوعيدِ بأنَّ اللهَ يَدفَعُ عن رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَكْرَهم، ويَحيقُ ضُرُّ مَكْرِهم بهم بأنْ يُسلِّطَ عليهم رَسولَه على غَفلةٍ منهم، فالقَصرُ حَقيقيٌّ؛ ففي الجُمْلةِ إيجازٌ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بإرْسالِ المَثَلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٤).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٨). =

- قولُه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ تفريعٌ على جُمْلةِ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ الآيةَ. ويجوزُ أنْ يكونَ تفريعًا على جُمْلةِ ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، على أنَّ تَعريفَ المكرِ للعهدِ، والخِطابُ في ﴿تَجِدَ﴾ لغَيرِ مُعيَّنٍ، فيَعُمُّ كُلَّ مُخاطَبٍ، وبذلك يَتسنَّى أنْ يَسيرَ هذا الخَبَرُ مَسيرَ الأمثالِ، وفي هذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتهديدٌ للمُشرِكينَ[1].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ فاءٌ فَصيحةٌ؛ لأنَّ ما قبْلَها لَمَّا ذكَّرَ النَّاسَ بسُنَّةِ اللهِ في المكذِّبينَ، أفصَحَ عن اطِّرادِ سُنَنِ اللهِ تعالى في خلْقِه، والتَّقديرُ: إذا عَلِموا ذلك فلنْ تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبديلًا. و(لن) لتأكيدِ النَّفيِ[2].

- قَولُه: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ التَّبديلُ: تَغييرُ الشَّيءِ عمَّا كان عليه مع بَقاءِ مادَّتِه، والتَّحويلُ: نقْلُه مِن مكانٍ إلى آخَرَ، وقال ذلك مع أنَّ سُنَّةَ اللهِ لا تُبدَّلُ ولا تُحوَّلُ؛ لأنَّه أرادَ بالأوَّلِ أنَّ العذابَ لا يُبدَّلُ بغَيرِه، وبالثَّاني أنَّه لا يُحوَّلُ عن مُستحِقِّه إلى غيرِه، وجُمِعَ بيْنَهما هنا تَتميمًا لتهديدِ المُسيءِ لقُبحِ مَكْرِه في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[3].

- و(سُنَّةُ الأوَّلينَ) أُضيفتْ أوَّلًا إليهم؛ لأنَّها سُنَّتْ بهم، ثم أُضيفتْ (السُّنَّةُ) ثانيًا إلى اللهِ؛ لأنَّه هو الَّذي سنَّها، وبيَّنَ تَعالى أنَّ الانتِقامَ مِن مُكَذِّبي الرُّسُلِ

---

= وإرسالُ المثَلِ: عِبارةٌ عن أن يأتيَ المُتكلِّمُ في بعضِ كلامِه بما يَجري مجرى المَثَلِ السَّائرِ؛ مِن حِكمةٍ، أو نَعتٍ، أو غيرِ ذلك. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٣/ ٢٧) و (٤/ ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٠).

عادةٌ لا يُبدِّلُها بغَيرِها، ولا يُحوِّلُها إلى غيرِ أهْلِها، وأنَّ ذلك كائن لا مَحالةَ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ هذا استِشهادٌ على ما قبْلَه مِن جَرَيانِ سُنَّتِه تعالى على تَعذيبِ المُكذِّبينَ بما يُشاهِدونَه، واستِدلالٌ على أنَّ مُساواتَهم للأوَّلينَ تُنذِرُ بأنْ سيَحُلَّ بهم ما حلَّ بأولئك مِن نَوعِ ما يُشاهِدونَه مِن آثارِ استِئْصالِهم في دِيارِهم[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ للإنكارِ والنَّفيِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في (الرُّوم): ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ﴾ [الروم: ٩] مِن غَيرِ واوٍ، وهنا بزيادةِ الواوِ؛ قيل: وجْهُ ذلِك أنَّ الجُملةَ في سُورةِ (الرُّوم) استِئنافُ إخبارٍ عمَّا كانوا عليه، وهنا: ﴿وَكَانُوٓا۟﴾ أي: وقد كانوا؛ فالجُملةُ حالٌ، فهُما مَقصدانِ[٤].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لَمَّا عَرَض وصْفَ الأُمَمِ السَّابقةِ بأنَّهم أشدُّ قُوَّةً مِن قُريشٍ في مَعرضِ التَّمثيلِ بالأوَّلينَ تَهديدًا واستِعدادًا لِتَلقِّي مِثلِ عذابِهم؛ أتْبَعَ ذلك باحتِراسٍ عن الطَّماعيةِ في النَّجاةِ مِن مِثلِ عَذابِهم بعِلَّةِ أنَّ لهم مِن المنجِّياتِ ما لم يكُنْ للأُمَمِ الخاليةِ، كزَعْمِهم: أنَّ لهم آلهةً تَمنَعُهم مِن عَذابِ اللهِ بشَفاعتِها أو دِفاعِها؛ فقيل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾. وجِيءَ بلامِ الجُحودِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٦، ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٦، ١٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣).

قَولِه: ﴿لِيُعۡجِزَهُۥ﴾ مع (كان) المَنفيَّةِ؛ لإفادةِ تأْكيدِ نَفْيِ كُلِّ شَيءٍ يَحولُ دونَ قُدرةِ اللهِ وإرادتِه، فهذه الجُملةُ كالاحتِراسِ(١).

- وقولُه: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا يُفهَمُ مِّما قبْلَه مِن استِئصالِ الأممِ السَّالفةِ(٢).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا﴾ تَعليلٌ لانتفاءِ شَيءٍ يُغالِبُ مُرادَ اللهِ بأنَّ اللهَ شديدُ العِلمِ واسِعُه، لا يَخفَى عليه شَيءٌ، وبأنَّه شديدُ القُدرةِ. وقد حصَرَ هذانِ الوَصفانِ انتفاءَ أنْ يكونَ شَيءٌ يُعجِزُ اللهَ؛ لأنَّ عَجْزَ المُريدِ عن تَحقيقِ إرادتِه: إمَّا أنْ يكونَ سببُه خَفاءَ مَوضِعِ تَحقُّقِ الإرادةِ، وهذا يُنافي إحاطةَ العِلمِ، أو عدَمَ استِطاعةِ التَّمكُّنِ منه، وهذا يُنافي عُمومَ القُدْرةِ(٣).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا﴾

- قولُه: ﴿عَلَىٰ ظَهۡرِهَا﴾ كنايةٌ عن الأرضِ، وعُلِمَ ذلك ممَّا تقدَّمَ وممَّا تأخَّرَ؛ فقد تقدَّمَ قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٤٤]؛ فهو أقرَبُ المذكوراتِ الصَّالحةِ لِعَودِ الهاءِ إليها، وأمَّا ما تأخَّرَ فقَولُه: ﴿مِن دَآبَّةٖ﴾؛ لأنَّ الدَّوابَّ على ظهرِ الأرضِ(٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ: قال هنا ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٨، ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٤٩).

وفي سُورةِ (النَّحلِ) قال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١]؛ فقال في هذه الآيةِ: ﴿بِمَا كَسَبُواْ ﴾، وقال في سُورةِ (النَّحلِ): ﴿بِظُلْمِهِم ﴾؛ ووجهُ ذلك: أنَّ (مَا كَسَبُوا) يَعُمُّ الظُّلمَ وغيرَه. وأُوثِرَ في سُورةِ (النَّحلِ) ﴿بِظُلْمِهِم ﴾؛ لأنَّها جاءت عَقِبَ تَشنيعِ ظُلمٍ عَظيمٍ مِن ظُلْمِهم، وهو: ظُلْمُ بَناتِهم المَوْءوداتِ، وهنالك قال: ﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا ﴾ [النحل:٦١]، وهنا ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا ﴾، وهو تَفنُّنٌ[1].

- وفيه أيضًا مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾، وقال هنالك في سُورةِ (النَّحلِ): ﴿لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١]؛ فما هنا إيماءٌ إلى الحِكمةِ في تأخيرِهم إلى أجَلٍ مُسمًّى، والتَّقديرُ: فإذا جاء أجَلُهم أخَذَهم بما كَسَبوا، ولهذا فقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ دليلُ جَوابِ (إذا) وليس هو جوابَها، ولذلك كان حَقيقًا بقَرْنِه بفَاءِ التَّسبُّبِ. وأمَّا ما في سُورةِ (النَّحلِ) فهو الجَوابُ، وهو تَهديدٌ بأنَّهم إذا جاء أجَلُهم وقَعَ بهم العذابُ دون إمهالٍ[2].

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴾ هو أيضًا جوابٌ عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ أنْ يُقالَ: ماذا جَنَتِ الدَّوابُّ حتَّى يَستأصِلَها اللهُ بسببِ ما كَسَبَ النَّاسُ، وكيف يُهلَكُ كُلُّ مَن على الأرضِ، وفيهم المُؤمِنونَ والصَّالِحونَ؟ فأُفيدَ أنَّ اللهَ أعلَمُ بعَدلِه؛ فأمَّا الدَّوابُّ فإنَّها مَخلوقةٌ لأجْلِ الإنسانِ، كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩]؛ فإهلاكُها قد يكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٤٠).

إنذارًا للنَّاسِ لعلَّهم يُقلِعون عن إجْرامِهم، وأمَّا حالُ المُؤمِنينَ في حينِ إهلاكِ الكُفَّارِ، فاللهُ أعلَمُ بهم، فلعلَّ اللهَ أنْ يَجعَلَ لهم طريقًا إلى النَّجاةِ كما نجَّى هودًا ومَن معه، ولعلَّه إنْ أهلَكَهم أنْ يُعوِّضَ لهم حُسنَ الدَّارِ[1].

- وقولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ تَوعُّدٌ للمُكذِّبينَ، أي: فيُجازيهم بأعْمالِهِم[2].

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السَّادسُ والعشرونَ**

**ويليه المجلدُ السَّابعُ والعشرونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ يس**

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣).

# الفهرس

# الفهرس

سورةُ سَبَأٍ..... ٧
أسماءُ السُّورةِ..... ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ..... ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ..... ٧
موضوعاتُ السُّورةِ..... ٧
الآيتان (١-٢)..... ٩
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٩
المعنى الإجماليُّ..... ٩
تَفسيرُ الآيتَينِ..... ٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ١٣
بلاغةُ الآيتَينِ..... ١٥
الآيات (٣-٦)..... ٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٢٢
المعنى الإجماليُّ..... ٢٣
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٣٣
بلاغةُ الآياتِ..... ٣٦
الآيات (٧-٩)..... ٤٥

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٤
الآيتان (١٠-١١) ..... ٦٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٢
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٦٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٦٣
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٦٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٩
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٧١
الآيات (١٢-١٤) ..... ٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٧٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٧٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٧٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٨٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٨٨
الآيات (١٥-١٩) ..... ٩٢

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٠٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١١٠
الآيات (٢٠-٢٣) ..... ١١٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١١٨
المعنى الإجماليُّ ..... ١١٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٣٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٣٥
الآيات (٢٤-٣٠) ..... ١٤٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٤٤
المعنى الإجماليُّ ..... ١٤٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٤٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٥٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٦٠
الآيات (٣١-٣٣) ..... ١٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٧٢

المعنى الإجماليُّ ..... ١٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٨٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٨٢
الآيات (٣٤-٣٩) ..... ١٨٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٨٩
المعنى الإجماليُّ ..... ١٩٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٩١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٩٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٠٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٠٢
الآيات (٤٠-٤٢) ..... ٢٠٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٠٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٠٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢١٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢١٦
الآيات (٤٣-٤٥) ..... ٢٢١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٢١
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٢٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٢٣

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٢٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٣١
الآيات (٤٦-٥٠) ..... ٢٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٣٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٣٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٥٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٥٣
الآيات (٥١-٥٤) ..... ٢٦٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٦٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٦٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٦٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٧١
سورةُ فاطرٍ ..... ٢٧٩
أسماءُ السُّورةِ ..... ٢٧٩
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٢٧٩
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٢٧٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٢٨٠
الآيات (١-٤) ..... ٢٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٨٢

المعنى الإجماليُّ ..... ٢٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٨٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٩١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٩٥
الآيات (٥-٨) ..... ٣٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٠٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٠٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٠٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣١٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣١٩
الآيات (٩-١١) ..... ٣٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٢٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٣٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٤١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٤٤
الآيات (١٢-١٤) ..... ٣٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٥٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٥٨

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٥٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٦٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٧١
الآيات (١٥-١٨) ..... ٣٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٧٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٨٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٨٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٨٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٩٣
الآيات (١٩-٢٦) ..... ٤٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٠٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٠١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٠١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤١٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤١٤
الآيتان (٢٧-٢٨) ..... ٤٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٢٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢٧
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٤٢٨

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٣٣
بلاغةُ الآيتينِ ..... ٤٣٩
الآيات (٢٩-٣٥) ..... ٤٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٤٨
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٥٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٥٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٥١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٦٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٧٤
الآيتان (٣٦-٣٧) ..... ٤٨٧
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٨٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٨٧
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٤٨٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٩٢
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٤٩٥
الآيات (٣٨-٤١) ..... ٤٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٩٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٠٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٠١

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥١٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥١٣
الآيات (٤٢-٤٥) ..... ٥٢٢
غريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٢٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٢٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٢٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٣٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٣٧
الفهرس ..... ٥٤٧

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة يس وسورة الصافات)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد السابع والعشرون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة يس وسورة الصافات)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد السابع والعشرون – سورة يس وسورة الصافات/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٧٠٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩-٩٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة يس – تفسير ٢- القرآن – سورة الصافات – تفسير

أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٨٣٧٤

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٨٣٧٤

ردمك: ٩-٩٣-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٢ هـ - ٢٠٢١ م**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ يس

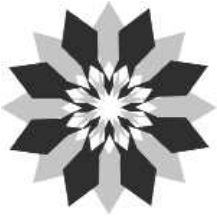

# سورةُ يس

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (يس)[١].

## بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ (يس) مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

تقريرُ أمَّهاتِ أُصولِ الدِّينِ: وَحدانيَّةِ اللهِ ربِّ العالَمينَ، والبَعثِ والجَزاءِ، والوَحيِ والرِّسالةِ[٤].

---

(١) سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بـ (يس)؛ لأنَّ اللهَ تعالى افتَتحها بها، وقد انفرَدت هذه السُّورةُ بافتتاحِها بهذَينِ الحرفَينِ، فمُيِّزَت بهما عن بقيَّةِ السُّوَرِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤١).

ويُنظر ما رُويَ في تسميتِها بهذا الاسم في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٧).

(٢) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا آيةً منها، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ ...﴾ [يس: ٤٧]؛ فمَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥).

وقيل: آيةُ ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ [يس: ١٢] مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٠٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٦٣).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، والقُرطبيُّ، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٩).

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:**

١- التَّأكيدُ على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإثباتُ رِسالتِه.

٢- ذِكرُ قِصَّةِ أصحابِ القريةِ، وما جرَى بيْنَهم وبينَ الرُّسُلِ الَّذين أرسَلَهم اللهُ إليهم.

٣- بيانُ بعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، ونِعَمِه على عِبادِه.

٤- الإخبارُ ببَعضِ دَعاوى المُشرِكينَ الباطِلةِ، مع الرَّدِّ عليهم، وبَيانُ مَشهَدِ خُروجِهم مِن قُبورِهم يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ.

٥- بيانُ ما أعدَّه اللهُ تعالى للمُؤمِنينَ في الجنَّةِ، وما أعدَّه للكافِرينَ، وشَهادةِ جَوارِحِهم عليهم.

٦- تنزيهُ القرآنِ عن أن يكونَ مُفتَرًى، وتَبرِئةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّا اتُّهِمَ به مِن نَظمِ الشِّعرِ، وتَسليتُه عمَّا أصابَه، مع بيانِ وظيفتِه، وهي البَلاغُ والإنذارُ.

٧- خُتِمَت السُّورةُ بتقريرِ البَعثِ، والرَّدِّ على أحدِ مُنكِريه.

## الآيات (١-١٢)

﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ۝١١ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ۝١٢﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صِرَٰطٖ﴾: أي: طريقٍ واضحٍ واسعٍ سهلٍ، قيل: أصلُ الصَّادِ فيه سينٌ؛ مِن قولِهم: سرطْتُ الطَّعامَ؛ إذا أسرعتَ بلعَه[1].

﴿حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ﴾: أي: وجَب العذابُ، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ، وصِحَّتِه[2].

﴿أَغۡلَٰلٗا﴾: أي: سَلاسِلَ، جَمْعُ غُلٍّ، وهو طَوقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنُقِ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٩)، ((الوجوه والنظائر)) لأبي هلال العسكري (ص: ٢٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص:٤٠٧، ٤٨٣)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧).

(غلل): يدُلُّ على إحاطةٍ وثَباتٍ[١].

﴿مُّقْمَحُونَ﴾: أي: مَرفوعو الرُّؤوسِ[٢] مع غضِّ الأبصارِ، مِن قَولِهم: بعيرٌ قامِحٌ: وهو الرَّافعُ رأسَه مِن الإبِلِ عندَ الشُّربِ؛ امتِناعًا منه، والإقْماحُ: رفْعُ الرَّأْسِ وغَضُّ البصَرِ[٣].

﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾: أي: أعمَيْناهم، وغَطَّيْنا أبصارَهم، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[٤].

﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾: أي: خُطاهم، وما استُنَّ به بَعْدَهم مِن سُنَنِهم، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[٥].

﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾: أي: أثْبَتْناه وكَتَبْناه، والإحصاءُ: التَّحصيلُ بالعددِ، مِن لفظِ الحصى، واستِعمالُ ذلك فيه مِن حيثُ إنَّهم كانوا يَعتمِدونَه بالعدِّ، وأصلُه هنا:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠).

(٢) قال العُلَيمي: (لأنَّ مَن غُلَّت يدُه إلى ذَقَنِه، ارتفَع رأسُه). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٩).
وقال ابن جُزَي: (والمعنى: أنَّهم لَمَّا اشتدَّتِ الأغلالُ حتَّى وصلتْ إلى أذقانِهم، اضطُرَّتْ رؤوسُهم إلى الارتفاعِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٣)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٦).

العَدُّ والإطاقةُ[١].

﴿إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: أي: اللَّوحِ المحفوظِ، والإمامُ: الكِتابُ، وأصلُ (أمم): يدُلُّ على الأصلِ والمرجِعِ، وسُمِّي اللَّوحُ المحفوظُ بذلك لِكَونِه أصلَ كلِّ ما كُتِب مِن كُتُبٍ وصُحُفٍ، وأصلُ (بين): انكِشافُ الشَّيءِ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ، إذا اتَّضَح وانكشَف[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾

﴿تَنزِيلَ﴾: بالنَّصبِ على المصدَرِ، مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ محذوفٍ، على معنى: نزَّل اللهُ ذلك تنزيلًا مِن العزيزِ الرَّحيم، ثمَّ أُضيفَ المصدَرُ إلى فاعِلِه فصار معرفةً، كما قال تعالى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، أو هو منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: أعني، أو أمدَحُ. وقُرِئَ بالرَّفعِ[٣] على أنَّه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: هو تنزيلُ[٤].

قَولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١، ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٦).

(٣) قرأ ابنُ عامرٍ وحفصٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ بنصبِ اللَّام. وقرأ الباقون بالرَّفعِ. يُنظر: ((السبعة في القراءات)) لابن مجاهد (ص: ٥٣٩)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٣)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٧٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٤٦).

﴿وَكُلَّ﴾: مفعولٌ به لِفعلٍ محذوفٍ يُفسِّرُه ما بعدَه، أي: وأحْصَيْنا كلَّ شيءٍ أحْصَيناه(١).

## المعنى الإجماليُّ:

ابتدأ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿يسٓ﴾، وهو من الحُروفِ المُقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَت بها بعضُ السُّوَرِ القُرآنيَّةِ؛ للإشارةِ إلى إعجازِ القُرآنِ الكريمِ، ثمَّ أقسَمَ تعالى بالقُرآنِ الحَكيمِ أنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن رُسُلِ اللهِ، وأنَّه على طريقٍ مُستقيمٍ يُوصِلُ إلى اللهِ تعالى، وأنَّ هذا القُرآنَ تَنزيلٌ مِن اللهِ العزيزِ الرَّحيمِ؛ لِيُنذِرَ به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قومًا لم يُنذَرْ آباؤُهم مِن قَبْلِه؛ فهم غافِلونَ عن الحَقِّ.

لكنْ مِن هؤلاء الَّذين بُعِث فيهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لإنذارِهم مَن ردَّ دعوتَه، ولم يَقبَلْ النِّذارةَ، وهم الَّذين يقولُ الله فيهم: لقد وجَبَ عذابُ اللهِ على أكثَرِ مُشرِكي العَرَبِ، فهم لا يُؤمِنونَ حتَّى يأتيَهم الموتُ، فإنَّا جعَلْنا في أعناقِهم قُيودًا فهي واصِلةٌ إلى أذقانِهم، فهم مرفوعةٌ رُؤوسُهم لا يستطيعونَ خَفْضَها، وجعَلْنا مِن بيْنِ أيديهم حاجِزًا ومِن خَلفِهم حاجِزًا، فجعَلْنا على أبصارِهم غِشاوةً وأغطيةً، فلا يَرونَ شَيئًا، وإنذارُك وعدَمُه عندَهم سواءٌ، فهم لا يُؤمِنونَ بالحَقِّ الَّذي جِئتَهم به -يا محمَّدُ-!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى مَن هم أهلٌ للتَّذكيرِ، فيقولُ: إنَّما تُنذِرُ إنذارًا نافِعًا مَنِ اتَّبَع القُرآنَ، وخاف اللهَ بالغَيبِ؛ فبَشِّرْ هذا الصِّنفَ مِن النَّاسِ بمَغفرةٍ عَظيمةٍ وثَوابٍ حَسَنٍ.

ثمَّ يؤكِّدُ الله سبحانَه أنَّ البعثَ حقٌّ، وأنَّ الجزاءَ حقٌّ، فيقولُ: إنَّا نحن نَبعَثُ

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٧٩٦)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (٣/ ٨٩).

الموتَى يومَ القيامةِ؛ لكي نُحاسِبَهم على أعمالِهم، ونكتُبُ أعمالَهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وآثارَهم الَّتي تَرَكوها بعدَ مَوتِهم، سواءٌ أكانت صالِحةً أمْ غيرَ صالحةٍ، وكُلَّ شَيءٍ أثبَتْناه في كتابٍ موضِّحٍ لكلِّ شيءٍ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يسٓ ١﴾.

هذه الحروفُ المقطَّعةُ التي افتُتِحَتْ بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

قال الشوكاني: (واختُلِف في معنى هذه اللَّفظةِ؛ فقيل: معناها: يا رجُلُ، أو يا إنسانُ... وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ وغَيرُه: هو اسمٌ مِن أسماء محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ دليلُه: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ... قال الواحديُّ: قال ابنُ عبَّاسٍ والمفَسِّرون: يريدُ: يا إنسانُ -يعني: محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم. وقال أبو بكرٍ الوَرَّاقُ: معناه: يا سيِّدَ البَشَرِ. وقال مالكٌ: هو اسمٌ مِن أسماءِ الله تعالى، رَوى ذلك عنه أشهَبُ. وحكى أبو عبدِ الرَّحمنِ السُّلَميُّ عن جعفرٍ الصَّادِقِ أنَّ معناه: يا سَيِّدُ. وقال كعبٌ: هو قَسَمٌ أقسَمَ اللهُ به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٢). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٩).

وقال ابنُ القيِّم: (الصَّحيحُ أنَّ ﴿يسٓ﴾ بمنزلةِ ﴿حمٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾، ليست اسمًا مِن أسماءِ النَّبيِّ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٤٢٦).

وقال أيضًا: (أمَّا ما يَذكُرُه العوامُّ أنَّ ﴿يسٓ﴾ و﴿طه﴾ مِن أسماءِ النَّبيِّ، فغيرُ صَحيحٍ؛ ليس ذلك في حديثٍ صَحيحٍ ولا حَسَنٍ ولا مُرسَلٍ، ولا أثَرٍ عن صاحِبٍ، وإنَّما هذه الحروفُ مِثلُ: ﴿الٓمٓ﴾ و﴿حمٓ﴾ و﴿الٓر﴾ ونحوِها). ((تحفة المودود)) (ص: ١٢٧). ونسَبَه الزَّجَّاجُ إلى أهلِ العربيَّةِ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٧٧).

وقال الشنقيطي: (قولُه تعالَى: ﴿يسٓ﴾ التَّحقيقُ أنَّه مِن جملةِ الحروفِ المُقَطَّعةِ في أوائلِ السُّورِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٦).

﴿ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ ﴾.

أي: أُقسِمُ بالقُرآنِ ذي الحكمةِ، المحكَمِ المتقَنِ، فلا اختِلافَ فيه ولا خَللَ، ولا يَأتيه الباطلُ مِن بينِ يَدَيْه ولا مِن خَلفِه، الحاكمِ الَّذي يجبُ الرُّجوعُ إليه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠-١٢).

قال أبو حيان: (الحكيم: إمَّا فعيلٌ بمعنى مُفعَلٍ...، وإمَّا للمُبالَغةِ مِن حاكمٍ، وإمَّا على معنَى السَّببِ، أي: ذي حكمةٍ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨).

ممَّن اختار أنَّ الحكيمَ بمعنى المُحكَمِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، ومكِّي، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٦).

وممَّن اختار أنَّ معنى الحكيمِ: ذو الحكمةِ: الخازنُ، والإيجي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

قال السعدي: (الحكيمُ الَّذي وَصْفُه الحِكمةُ، وهي وَضْعُ كلِّ شَيءٍ مَوضِعَه؛ وضْعُ الأمرِ والنَّهيِ في الموضِعِ اللَّائقِ بهما، ووضْعُ الجزاءِ بالخَيرِ والشَّرِّ في مَحلِّهما اللَّائقِ بهما؛ فأحكامُه الشَّرعيَّةُ والجزائيَّةُ كُلُّها مُشتَمِلةٌ على غايةِ الحِكمةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

وقال الزمخشري: (﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: ذي الحِكمةِ، أو: لأنَّه دليلٌ ناطِقٌ بالحِكمةِ، كالحَيِّ، أو لأنَّه كلامُ حَكيمٍ، فوُصِفَ بصِفةِ المتكلِّم به). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣).

وعلى القَولِ بأنَّه بمعنى حاكم، فالمرادُ أنَّ القرآنَ حاكِمٌ على جميعِ الكُتُبِ الَّتي أنزلها اللهُ تعالى مِن قَبْلُ، يُميِّزُ صحيحَها مِن مُحَرَّفِها، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٨٢).

وقال ابنُ عُثيمين: (فالقُرآنُ حَكيمٌ بكُلِّ مَعنى الحِكمةِ، وبكُلِّ معنى الإحكامِ، وبكُلِّ معنى الحُكمِ... ذو حِكمةٍ، ومُحكِمٌ، ومُحكَمٌ، وحاكِمٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١، ١٢).

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ ﴾.

أي: إنَّك -يا محمَّدُ- لَمِن جُملةِ المُرسلينَ إلى عبادِ اللهِ بوَحْيِه[1].

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: على طَريقِ الهُدى المُستقيمِ الَّذي لا اعوِجاجَ فيه، الموصِلِ إلى اللهِ وإلى جنَّتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعْدَ أنِ اسْتَوفَى القَسَمُ جَوابَه؛ رجَعَ الكلامُ إلى بعضِ المقصودِ مِن القسَمِ، وهو تَشريفُ المُقسَمِ به، فوُسِمَ بأنَّه[3]:

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ ﴾.

أي: نَزَّل اللهُ تعالى هذا القُرآنَ تَنزيلًا مِن ذي القَدْرِ العظيمِ، الغالبِ الَّذي لا يُغلَبُ، المُمتنِعِ مِن أنْ يَنالَه سوءٌ، ومِن عِزَّتِه الانتِقامُ ممَّن كَفَر بالحَقِّ، الرَّحيمِ بمَنْ آمَنَ به واتَّبَعه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠١)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ٦ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقسَمَ تعالى على رسالةِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وأقام الأدِلَّةَ عليها؛ ذكَرَ شِدَّةَ الحاجةِ إليها، واقتِضاءَ الضَّرورةِ لها[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ المُرسَلَ والمُرسَلَ به والمُرسِلَ؛ ذكَرَ المُرسَلَ له، فقال[2]:

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ٦ ﴾.

أي: أُنزِلَ القُرآنُ لِتُنذِرَ -يا محمَّدُ- القومَ[3] الَّذينَ لم يُنذَرْ آباؤُهم برَسولٍ مِن

---

= (٢٢/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩٤).

(٣) قال ابنُ عاشور: (القومُ المَوصوفون بأنَّهم لم تُنذَرْ آباؤُهم: إمَّا العَرَبُ العَدْنانيُّون؛ فإنَّهم مَضَت قرونٌ لم يأتِهم فيها نذيرٌ، ومضَى آباؤُهم لم يَسمَعوا نذيرًا، وإنَّما يُبتدأُ عَدُّ آبائِهم مِن جَدِّهم الأعلى في عمودِ نَسَبِهم الَّذي تميَّزوا به جِذْمًا وهو عَدْنانُ، لأنَّه جِذْمُ -أي: أصلُ- العرَبِ المُستَعرِبةِ، أو أُريدَ أهلُ مكَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٨).

وقال إسماعيل حقي: (المعنى: لِتُنذِرَ قَومًا لم يُنذَرْ آباؤهم الأقرَبون؛ لِتَطاوُلِ مُدَّةِ الفَترةِ، ولم يَكونوا مِن أهلِ الكتابِ... فآباؤهم الأقدَمون أتاهم النَّذيرُ لا مَحالةَ، بخِلافِ آبائِهم الأدنَينَ، وهم قُريشٌ، فيَكونُ ذلك بمعنى قَولِه: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٦٨]). ((روح البيان)) (٧/ ٣٦٨).

وقال الرازي: (معنى قَولِه تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ أي: ما أُنذِروا بعدَما ضَلُّوا عن طريقِ الرَّسولِ المتقَدِّم، واليهودُ والنَّصارى دخَلوا فيه؛ لأنَّهم لم تُنذَرْ آباؤهم الأدنَونَ بعدما ضَلُّوا، فهذا دليلٌ على كَونِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم مَبعوثًا بالحَقِّ إلى الخَلقِ كافَّةً). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٣).

وقال السمعاني: (قَولُه تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ ﴾ فيه قولانِ؛ أحدُهما: أنَّ «ما» للنَّفيِ، والمعنى: لم يُنذَرْ آباؤهم أصلًا؛ فإنَّ الله تعالى ما بَعَث إلى قُرَيشٍ سِوى النَّبيِّ. =

قَبْلِك؛ فهم لذلك غافِلونَ عن الحَقِّ[١].

= والقَولُ الثَّاني: أنَّ «ما» هاهنا بمعنى الَّذي، فمعنى الآيةِ على هذا: لِتُنذِرَ قَومًا بالَّذي أُنذِرَ آباؤُهم). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦٧).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ (ما) نافيةٌ-: الأخفشُ، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، وابن جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي، وذكَر الواحديُّ أنَّه قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٨٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: السمرقنديُّ، ونسَبَه الواحديُّ لِمُقاتلٍ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥٢).

قال ابنُ عطيَّة: (اختلَف المفسِّرون في قولِه: ﴿مَآ أُنذِرَ﴾؛ فقال عِكْرِمةُ: «ما» بمعنى: الَّذي، والتَّقديرُ: الشَّيءُ الَّذي أُنذِرَه الآباءُ مِن النَّارِ والعذابِ. ويَحتملُ أن تكونَ «ما» مصدريَّةً على هذا القولِ مِن أنَّ الآباءَ أُنذِروا. فالآباءُ على هذا كلِّه هم الأقْدَمون على مَرِّ الدُّهورِ، وقولُه تعالى: ﴿فَهُمْ﴾ مع هذا التَّأويلِ بمعنى: فإنَّهم، دخلَتِ الفاءُ لقطعِ الجُملةِ مِن الجملةِ. وقال قَتادةُ: «ما» نافيةٌ، أي: أنَّ آباءَهم لم يُنذَروا، فالآباءُ على هذا هم القريبون منهم، وهذه الآيةُ كقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٤٤]، وهذه النِّذارةُ المنفيَّةُ هي نِذارةُ المباشَرةِ والأمرِ والنَّهيِ، وإلَّا فدَعوةُ الله تعالى مِن الأرضِ لم تَنقَطِعْ قَطُّ. وقولُه ﴿فَهُمْ﴾ على هذا: الفاءُ منه واصلةٌ بيْنَ الجُملتَينِ، ورابطةٌ للثَّانيةِ بالأُولى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١).

جملةُ: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ على القول بأنَّ (ما) نافيةٌ فالجملةُ متعلِّقةٌ بالنَّفيِ، أي: لم يُنذَروا فهم غافِلون، على أنَّ عدَمَ إنذارِهم هو سببُ غفلتِهم. وعلى القولِ الثَّاني في (ما) فالجملةُ متعلِّقةٌ بقوله: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿لِتُنذِرَ﴾، كما تقولُ: أرسَلْتُك إلى فُلانٍ لِتُنذِرَه؛ فإنَّه غافل، أو فهو غافلٌ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤).

كما قال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾.

أي: لقد وَجَب عذابُ اللهِ على أكثَرِ مُشرِكي العَرَبِ الَّذين سبَقَ في عِلمِ اللهِ أنَّهم لا يَهتَدونَ، فأكثَرُهم مُستَمِرُّونَ على الإصرارِ على كُفرِهم حتَّى يأتيَهم الموتُ وهم على ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾.

أي: إنَّا جعَلْنا في أعناقِهم قُيودًا تَبلُغُ أذقانَهم[2]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٣، ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٤، ٢٥).
قال السعدي: (إنَّما حَقَّ عليهم القَولُ بعدَ أن عَرَض عليهم الحقَّ فرفَضوه؛ فحينَئذٍ عُوقِبوا بالطَّبعِ على قُلوبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) قال الماوَرْديُّ: (وفي قَولِه: ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ قَولانِ؛ أحدُهما: في أيديهم؛ فكنَّى بالأعناقِ عن الأيدي؛ لأنَّ الغُلَّ يكونُ في الأيدي. قاله الكلبيُّ، ... الثَّاني: أنَّها في الأعناقِ حَقيقةً؛ لأنَّ الأيديَ تُجمَعُ في الغُلِّ إلى الأعناقِ. قاله ابنُ عبَّاس). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٧).
ممَّن اختار الثانيَ، وهو أنَّ المرادَ: أنَّ الأيديَ مجموعةٌ بالقَيدِ مع الأعناقِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والسمعاني، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣)، ((الوجيز)) =

فهم رافعو رُؤوسِهم[١] .....

= للواحدي (ص: ٨٩٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣، ٥٦٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٤).

قال ابن كثير: (لَمَّا كان الغُلُّ إنَّما يُعْرَفُ فيما جَمَع اليدَيْنِ مع العُنُقِ، اكتَفى بذِكْرِ العُنُقِ عن اليَدَيْنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣).

وقال ابنُ عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿فَهِيَ﴾ يحتملُ أن يعودَ على الأغلالِ، أي: هي عريضةٌ تَبلُغُ بحَرفِها الأذْقانَ، والذَّقَنُ مجتمعُ اللَّحْيَيْنِ، فيُضْطَرُّ المغلولُ إلى رفعِ وجْهِه نحوَ السَّماءِ، وذلك هو الإقماحُ...، ويحتملُ -وهو قولُ الطَّبَريِّ- أن تعودَ «هي» على الأيدي وإن لم يَتقدَّمْ لها ذِكرٌ؛ لِوُضوحِ مكانِها مِن المعنى؛ وذلك أنَّ الغُلَّ إنَّما يكونُ في العُنُقِ مع اليدَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٧).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ على الأغلالِ: الزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وابنُ القيم. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥))، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥).

قال أبو حيَّان: (والظَّاهرُ عَوْدُ الضَّميرِ في ﴿فَهِيَ﴾ إلى الأغلالِ؛ لأنَّها هي المذكورةُ والمُحَدَّثُ عنها). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ على الأيدي: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، ومكِّي، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٠٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٧٩).

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقوله: ﴿مُّقْمَحُونَ﴾ أي: رافِعو رؤوسهم: القرطبيُّ، والنسفي، وابن جُزَي، والسمين الحلبي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

وممَّن اختار أنَّ معنى المُقْمَحِ: الرَّافعُ رأسَه الغاضُّ بَصَرَه: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والبغوي، والزمخشري، والخازن، والبِقاعي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن =

لا يَقْدِرونَ أنْ يُطَأْطِئُوها[١].

= قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١١٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٧٤).

قال ابنُ جرير: (والمُقْمَحُ: هو المُقْنِعُ، وهو أنْ يَحْدُرَ الذَّقَنَ حتَّى يَصيرَ في الصَّدرِ، ثُمَّ يَرْفَعَ رأسَه، في قولِ بعضِ أهلِ العلمِ بكلامِ العربِ مِن أهلِ البصرةِ. وفي قولِ بعضِ الكوفيِّينَ: هو الغاضُّ بصَرَه، بعدَ رَفْعِ رأسِه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٥٧).

قال السمين الحلبي: (قوله: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ هذه الفاءُ لأحسَنِ ترتيبٍ؛ لأنَّه لَمَّا وصلَتِ الأغلالُ إلى الأذقانِ لعرضِها، لَزِمَ عن ذلك ارتفاعُ روؤسِهم إلى فوق، أو لَمَّا جُمِعَتِ الأيدي إلى الأذقانِ وصارت تحتَها، لَزِمَ مِن ذلك رفْعُها إلى فوق، فتَرتفعُ رؤوسُهم). ((الدر المصون)) (٩/ ٢٤٨).

ممَّن اختار معنى القولِ الأوَّلِ: النَّسَفيُّ، وابنُ جُزَي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

قال النسفي: (لأنَّ طَوْقَ الغُلِّ الَّذي في عُنُقِ المَغلولِ يكونُ في مُلتقى طَرَفَيْهِ تحتَ الذَّقَنِ حَلْقةٌ فيها رأسُ العمودِ خارجًا مِن الحَلْقةِ إلى الذَّقَنِ، فلا يُخْليه يُطأطِئُ رأسَه؛ فلا يَزالُ مُقْمَحًا). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٩٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥).

وممَّن اختار معنى القولِ الثَّاني: الأزهريُّ، والقرطبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧، ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣، ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨ - ٢٩٠).

اختلف المفَسِّرون في المراد بالآيةِ؛ على قولَين: (أحدُهما: جَعْلُ الأغلالِ حَقيقةً. والثَّاني: أنَّه استعارةٌ. وعلى كُلٍّ مِن القولَينِ جماعةٌ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ). ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٧). =

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ ذلك سيَحدُثُ حقيقةً يومَ القيامة، فلمَّا أخبَرَ تعالى أنَّهم لا يؤمِنونَ، أخبَرَ عن شَيءٍ مِن أحوالِهم في الآخرةِ-: أبو حيَّان، وجوَّزه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩).

قال ابنُ عاشور: (فيكونُ فِعلُ ﴿جَعَلْنَا﴾ مُستَقبَلًا، وعبَّر عنه بصيغةِ الماضي؛ لتَحقيقِ وُقوعِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٠).

والقولُ الثَّاني أنَّ ذلك مَثَلٌ، وأنَّه ليس هناك غُلٌّ على الحقيقةِ، نسَبَه ابنُ الجوزي إلى أكثَرِ المحقِّقينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٧).

واختلف القائلون بهذا القولِ في الآيةِ على ثلاثةِ أقوالٍ: (أحدُها: أنَّها مَثَلٌ لِمَنعِهم عن كلِّ خَيرٍ، قاله قَتادةُ. والثَّاني: لحَبسِهم عن الإنفاقِ في سبيلِ الله بموانعَ كالأغْلالِ، قاله الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ. والثَّالثُ: لِمَنعِهم مِن الإيمانِ بالله، قاله أبو سُلَيْمانَ الدِّمَشْقيُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥١٧). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣).

ممَّن اختار أنَّه تمثيلٌ لِتَصميمِهم على الكُفرِ، وامتِناعِهم عن الهدى: يحيى بنُ سلام، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩٧).

قال الشنقيطي: (والمُرادُ بالآيةِ الكريمةِ: أنَّ هؤلاء الأشْقياءَ الَّذينَ سَبَقَتْ لهم الشَّقاوةُ في عِلْمِ اللهِ، المذْكورينَ في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، صَرَفَهم اللهُ عن الإيمانِ صَرْفًا عظيمًا مانِعًا مِن وُصولِه إليهم؛ لأنَّ مَنْ جُعِلَ في عُنُقِه غُلٌّ، وصار الغُلُّ إلى ذَقَنِه، حتَّى صار رأسُه مرفُوعًا لا يَقدِرُ أنْ يُطَأْطِئَه، وجَعَلَ أمامَه سَدًّا، وخَلْفَه سَدًّا، وجعَلَ على بَصَرِه الغِشاوةَ: لا حِيلةَ له في التَّصَرُّفِ، ولا في جَلْبِ نَفْعٍ لِنَفْسِه، ولا في دَفْعِ ضُرٍّ عنها، فالَّذين أشْقاهم اللهُ بهذه المثابةِ، لا يَصِلُ إليهم خَيْرٌ. وهذا المعنَى الَّذي دَلَّتْ عليه هذه الآيةُ الكريمةُ -مِن كَونِه جَلَّ وعلا يَصرِفُ الأشْقياءَ الَّذين سَبَقَتْ لهم الشَّقاوةُ في عِلْمِه عن الحقِّ، ويَحُولُ بيْنَهم وبيْنَه- جاء موضَّحًا في آياتٍ كثيرةٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ =

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: وجعَلْنا مِن بيْنِ أيديهم حاجِزًا، ومِن خَلفِهم حاجِزًا، فغَطَّينا أبصارَهم فلا يَرَوْنَ شَيئًا(١).

---

=ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف: ٥٧]، وقوله تعالى: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [البقرة: ٧]، وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾ [الجاثية: ٢٣]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٨).

وقال ابن عاشور: (... فيَجوزُ أن يكونَ تمثيلًا بأن شُبِّهَت حالةُ إعراضِهم عن التَّدبُّرِ في القرآنِ ودَعوةِ الإسلامِ والتَّأمُّلِ في حُجَجِه الواضِحةِ بحالِ قَومٍ جُعِلَت في أعناقِهم أغلالٌ غليظةٌ تَرتفعُ إلى أذقانِهم، فيَكونون كالمُقمَحينَ، أي: الرَّافِعينَ رُؤوسَهم، الغاضِّينَ أبصارَهم، لا يَلتَفِتونَ يمينًا ولا شِمالًا، فلا يَنظُرونَ إلى شَيءٍ ممَّا حَوْلَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٩).

وممَّن اختار أنَّه تمثيلٌ لحبسِهم عن الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ بموانعَ كالأغلالِ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٧).

قال الواحديُّ: (كقولِه: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ ﴾ [الإسراء: ٢٩] معناه: لا تُمْسِكْها عن النَّفَقةِ). ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٠).

وقال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: إنَّا جَعَلْنا أيْمانَ هؤلاءِ الكفَّارِ مَغلولةً إلى أعناقِهم بالأغلالِ، فلا تَنبسِطُ بشَيءٍ مِن الخَيراتِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٥، ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

قال السمين الحلبي: (قولُه تعالى هذا يحتَمِلُ الحقيقةَ والاستعارةَ). ((الدر المصون في علوم الكتاب المكنون)) (٩/ ٢٤٩).

فالقولُ الأولُ: أنَّ ذلك سيَحدُثُ حقيقةً يومَ القيامة. وممَّن استظهر هذا المعنى: أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩).

والقولُ الثاني: أنَّ هذا تمثيلٌ، والمرادُ أنَّ اللهَ تعالى جعَل لهم حاجِزًا يَحجُزُهم عن الإيمانِ، ولا يُخرِجُهم مِن الضَّلالةِ، فلا يُبصِرون الهدى والحَقَّ؛ فهم بمنزلةِ مَن سُدَّ طريقُه فلا يستطيعُ الخروجَ ممَّا هو فيه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ القيِّم، والسعدي، =

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠ ﴾.

أي: مُستوٍ في حَقِّ هؤلاء الكافِرينَ الَّذين حَقَّ عليهم القَولُ: الإنذارُ وعَدَمُه؛ فسواءٌ أنذَرْتَهم العذابَ -يا محمَّدُ- أو تركْتَ إنذارَهم، فإنَّهم في كِلا الحالَينِ لا يُؤمِنونَ بك وبما جِئتَهم مِن الحَقِّ[1]!

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ١١ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالى المأيوسَ مِن انتفاعِهم بإنذارِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم؛ ذكَرَ الَّذين يَنتَفِعونَ به؛ تأنيسًا له بهم، وتقويةً له بظُهورِ ثَمرةِ إنذارِه فيهم[2].

وأيضًا لَمَّا تضمَّنَ قولُه: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يس: ١٠] أنَّ الإنذارَ في جانبِ الَّذين حقَّ عليهم القولُ أنَّهم لا يُؤمِنون هو وعَدَمُه سواءٌ، وكان ذلك قد يُوهِمُ انتفاءَ الجَدْوى مِن الغيرِ وبعضٍ مِن فَضلِ أهلِ الإيمانِ؛ أُعقِبَ بِبَيانِ جَدْوى الإنذارِ بالنِّسبةِ لِمَنِ اتَّبَع الذِّكرَ وخشِيَ الرَّحمنَ بالغيبِ[3].

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ ﴾.

---

= والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٩، ١٨٠).

أي: إنَّما تُنذِرُ -يا محمَّدُ- إنذارًا نافِعًا مَنِ اتَّبَع القُرآنَ، فآمَنَ بأخبارِه، وعَمِل بأحكامِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: وتُنذِرُ إنذارًا نافِعًا مَن خَشِيَ اللهَ الرَّحمنَ بالغَيبِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٢، ٣٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

قيل: معنى ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: خَشِيَ اللهَ تعالى حالَ الغَيبةِ عن النَّاسِ في الخَلَواتِ. وممن قال بهذا المعنى: ابن جرير، والزجاج، ومكي، وابن عطية، وابن كثير، والعليمي، ورجَّحه ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة يس)) (ص: ٣٦-٣٧).

وقيل: المرادُ: وخَشِيَ الرَّحمنَ والحالُ أنَّه لم يَرَ اللهَ. وممن قال بهذا المعنى: مقاتل بن سليمان، والواحدي، وجلال الدين المحلي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٧٦).

قال القرطبي: (﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: ما غاب مِن عذابِه ونارِه. قاله قَتادةُ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١)، ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٨).

قال الألوسي: (أي: خشِي عقابَ الرحمنِ حالَ كونِ العقابِ ملتبسًا بالغيبِ، أي: غائبًا عنه، وحاصلُه خشِي العقابَ قبلَ حلولِه، ومعاينةِ أهوالِه). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٩٠). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾.

أي: فبَشِّرْ -يا محمَّدُ- مَن اتَّبَع القُرآنَ وخَشِيَ الرَّحمنَ بالغَيبِ: بمَغفرةٍ لِذُنوبِه، وثوابٍ حَسَنٍ جَميلٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۞ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۞ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

في مُناسَبةِ هذه الآيةِ لِما قَبْلَها وُجوهٌ؛ منها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن الرِّسالةَ -وهي أصلٌ مِن الأُصولِ الثَّلاثةِ: (التَّوحيدِ- الرِّسالةِ- الحَشرِ) الَّتي يصيرُ بها المكَلَّفُ مُؤمِنًا مُسلِمًا- ذكَرَ أصلًا آخَرَ، وهو الحَشرُ.

وأيضًا: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ الإنذارَ والبِشارةَ بقَولِه: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ﴾، ولم يَظهَرْ ذلك بكَمالِه في الدُّنيا، فقال: إنْ لم يُرَ في الدُّنيا فاللهُ يُحيي الموتى،

---

= وقال البقاعي: (﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: بسببِ ما يخبرُ به مِن مقدوراتِه الغائبةِ لا سيَّما البعثِ ...، ويخشاه أيضًا خشيةً خالصةً في حالِ غيبتِه عمَّن يُرائيه مِن الناسِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

ويَجزي المُنذَرينَ، ويَجزي المُبَشَّرينَ[١].

﴿ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾.

أي: إنَّا نحن نَبعَثُ الموتى يومَ القيامةِ؛ لِنُجازيَهم على أعمالِهم[٢].

﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾.

أي: ونحن نَكتُبُ[٣] ما قدَّموه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، ونكتُبُ ما تولَّدَ عن ذلك مِن آثارٍ، وما تسبَّبوا في إيجادِه مِن ذلك في حالِ حياتِهم وبعدَ وفاتِهم، ونكتُبُ آثارَ خُطاهم إلى الطَّاعةِ أو المعصيةِ، فنَجْزيهم على ذلك؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنَّ شَرًّا فشَرٌّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

(٣) قال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا الكتابةُ فرُسُلُه يَكتُبونَ، كما قال: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾، فأخبَرَ بالكتابةِ بقَولِه: ﴿نَحۡنُ﴾؛ لأنَّ جُندَه يَكتُبونَ بأمْرِه). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ٥١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤٥، ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥١٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٦).

قال الشنقيطي: (قوله: ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾، فيه وجهانِ مِن التَّفسيرِ معروفانِ عندَ العلماءِ:

الأوَّلُ منهما: أنَّ معنَى ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾: ما باشَروا فِعلَه في حياتِهم، وأنَّ معنَى آثارَهم: هو ما سَنُّوه في الإسلامِ مِن سُنَّةٍ حسنةٍ أو سَيِّئةٍ، فهو مِن آثارِهم الَّتي يُعمَلُ بها بعدَهم.

الثَّاني: أنَّ معنَى آثارَهم: خُطاهم إلى المساجدِ ونحوُها مِن فِعلِ الخَيرِ، وكذلك خُطاهم إلى الشَّرِّ، كما ثبَت عنه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «يا بني سَلِمةَ، دِيارَكم تُكْتَبْ آثارُكم»، يعني: خُطاكُم مِن بُيوتِكم إلى مَسجدِه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٩١). =

كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

وقال جلَّ وعلا: ﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣].

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً حَسَنةً، فعُمِلَ بها بَعْدَه؛ كُتِب له مِثلُ أجرِ مَن عَمِل بها، ولا يَنقُصُ مِن أُجورِهم شَيءٌ. ومَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئةً، فعُمِلَ بها بَعْدَه؛ كُتِب عليه مِثلُ وِزرِ مَن عَمِل بها، ولا يَنقُصُ مِن أوزارِهم شَيءٌ))(١).

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خَلَتِ البِقاعُ حَوْلَ المَسجِدِ، فأراد بنو سَلِمةَ أن يَنتَقِلوا إلى قُرْبِ المَسجِدِ، فبلَغَ ذلك رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال لهم: إنَّه بلَغَني أنَّكم تُريدون أن تَنتَقِلوا قُربَ المَسجِدِ. قالوا: نعَمْ يا

---

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ، وأنَّ المرادَ بآثارِهم: ما سَنُّوه مِن سُنَّةٍ حسنةٍ أو سَيِّئةٍ، واستنَّ به مَن بَعْدَهم: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، ونسَبَه الماتُريديُّ إلى عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨١)، ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٠٧، ٥٠٨).

وقال ابن كثير: (وفي قولِه: ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ قولانِ؛ أحدُهما: نَكْتُبُ أعمالَهم الَّتي باشَروها بأنفسِهم، وآثارَهم الَّتي أثَروها مِن بعدِهم... والقولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بذلك آثارُ خُطاهم إلى الطَّاعةِ أو المعصيةِ... وهذا القولُ لا تنافيَ بيْنَه وبيْنَ الأوَّلِ، بل في هذا تنبيهٌ ودَلالةٌ على ذلك بطريقِ الأَولى والأحْرَى؛ فإنَّه إذا كانت هذه الآثارُ تُكتَبُ، فلَأَنْ تُكْتَبَ تلك الَّتي فيها قُدوةٌ بهم مِن خَيرٍ أو شَرٍّ بطريقِ الأَوْلى، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٥).

(١) رواه مسلم (١٠١٧).

رَسولَ اللهِ، قد أرَدْنا ذلك، فقال: يا بَني سَلِمةَ، دِيارَكم تُكتَبْ آثارُكم[١]، ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم))[٢].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان قَولُه تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ رُبَّما أوهَمَ الاقتِصارَ على كتابةِ ما ذُكِرَ مِن أحوالِ الآدَميِّينَ، أو الحاجةَ إلى الكِتابةِ؛ دَلَّ على قُدرتِه على ما لا تُمكِنُ القُدرةُ عليه لأحدٍ غيرِه في أقَلِّ قَليلٍ ممَّا ذُكِرَ، فكيف بما فَوْقَه؟ فقال[٣]:

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: وكُلُّ شَيءٍ ممَّا كان أو سيَكونُ -ومِن ذلك أعمالُ العبادِ؛ خَيرِها وشَرِّها- مَحفوظٌ ومُثبَتٌ في كِتابٍ موضِّحٍ لكلِّ شَيءٍ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ[٤].

---

(١) دِيارَكم تُكتَبْ آثارُكم: أي: الزَموا ديارَكم يُكتَبْ أجرُ خُطاكم، وثَوابُ أقدامِكم؛ لكُلِّ خُطوةٍ دَرَجةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٥٩٣).

(٢) رواه مسلم (٦٦٥).

وفي رواية الترمذي (٣٢٢٦) وابن ماجه (٧٨٥) أنَّ بني سَلِمةَ لما أرادوا الانتقالَ إلى قُربِ المسجدِ نَزَلتْ هذه الآيَةُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ﴾. لكنَّ سورةَ (يس) مكيةٌ، وقصةَ بني سلِمةَ كانت بالمدينةِ، فقيل: السورةُ مكيةٌ، وهذه الآيةُ وحدَها مدنيةٌ، قال ابن القيم: (وأحسنُ مِن هذا أن تكونَ [أي: الآيةُ] ذُكِرتْ عندَ هذه القصةِ، ودلَّت عليها، وذُكِّروا بها عندَها إمَّا مِن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وإمَّا مِن جبريلَ، فأُطلِق على ذلك النزولُ). ((شفاء العليل)) (ص: ٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٧). =

كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

---

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإمامِ المُبينِ: اللَّوحُ المحفوظُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ القيِّم، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨).

وقيل: المرادُ: صحائِفُ الأعمالِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤٦، ٤٧).

قال ابنُ القيم: (والإحصاءُ في الكتابِ يَتضَمَّنُ عِلْمَه بها «أي: أعمالِ العِبادِ»، وحِفْظَه لها، والإحاطةَ بعدَدِها، وإثباتَها فيه). ((شفاء العليل)) (ص: ٤٠).

وممَّن اختار أنَّ ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بَيِّنٍ واضحٍ: ابنُ أبي زمنين، وجلال الدين المحلي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معناه: مُظهِرٌ لجميعِ الأشياءِ ممَّا كان وما سيَكونُ، مُوضِحٌ لكلِّ شَيءٍ: أبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤٩، ٥٠).

وذكر ابن عثيمين أن ﴿مُّبِينٍ﴾ هنا بمعنى مُظهِرٍ وموضحٍ؛ لأنَّ المُظهِرَ جامعٌ بيْنَ الظُّهورِ بنفْسِه والإظهارِ لغيرِه، وإذا كان مُوضحًا فهو واضحٌ؛ فالمعنى أشمَلُ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤٩، ٥٠).

وقال ابن جرير: (وقيل: ﴿مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّه يُبينُ عن حقيقةِ جميعِ ما أُثبِتَ فيه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٢).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أضاف تنزيلَ القُرآنِ إلى هذين الاسمَين: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ إشارةً إلى وُجوبِ العَمَلِ بما جاء في القُرآنِ، وأنَّ مَن لم يَعمَلْ به فإنَّ أمامَه العزيزَ الَّذي يأخُذُ أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ. و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا القرآنَ إنزالُه مِن مُقتضى رحمتِه سُبحانَه وتعالى بخَلقِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى ما رَحِمَ خَلْقَه رحمةً أعظَمَ مِن إنزالِ القُرآنِ الكريمِ؛ لأنَّ به الحياةَ القَلبيَّةَ والبَدَنيَّةَ، والفَرديَّةَ والاجتماعيَّةَ؛ ففي الآيةِ تهديدٌ لِلَّذين يُخالِفونَ هذا القُرآنَ بأنَّه نَزَل مِن عندِ عزيزٍ يَنتَقِمُ ممَّن خالَفه، وإشارةٌ إلى أنَّ هذا القُرآنَ مِن مُقتضَى رحمتِه سُبحانَه وتعالى(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ تقومُ حُجَّةُ اللهِ على العَبدِ أوَّلًا، ويَعمَلُ هو -كاسِبًا ومُكتَسِبًا- باختيارِه ثانيًا، ويَظهَرُ لنا ما سَبَق مِن عِلمِ اللهِ فيه بعدَ أنِ اختار ما اختار ثالثًا؛ ولهذا قُدِّمَت النِّذارةُ وما يَرتَبِطُ بها على هذه الآيةِ: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ الَّتي فيها بيانُ ما سبَقَ مِن عِلمِ اللهِ فيهم؛ فاللهُ سُبحانَه لم يُجازِ الخَلْقَ على مُقتضى عِلمِه فيهم -وهو العِلمُ الَّذي لا يتخلَّفُ- وإنَّما جعَلَ جزاءَهم على أعمالِهم؛ فهذا تعليمٌ لنا كيف تكونُ مُعامَلتُنا بعضِنا لبعضٍ، فلا نُجازي على مُجرَّدِ الظَّنِّ، بل ولا على مُجرَّدِ اليَقينِ، وإنَّما تكونُ المُجازاةُ بعدَ صُدورِ الأعمالِ؛ فرُبَّ شَخصٍ قَدَّرْتَ فيه الخيرَ أو الشَّرَّ، ففعَلَ ضِدَّ ما قدَّرْتَ! فلو جازَيْتَه قبْلَ الفِعلِ لَما طابقَ جزاؤُك مَوضِعَه، ولَنالَ كُلٌّ ما لا يَستحِقُّه؛ فالحِكمةُ والعَدلُ والمصلحةُ في رَبطِ المُجازاةِ بالأعمالِ، وهذا ما كان مِنَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨).

في مُجازاةِ خَلقِه، وهذا ما يَنبغي أن نَربطَ به المُجازاةَ بيْنَنا[١].

٣- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ وقولِه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا﴾ ترهيبٌ؛ فإنَّ كُلَّ ما دعا إليه الإسلامُ مِن عقائدَ وأخلاقٍ وأعمالٍ: فهو ممَّا تَقْبَلُه الفِطَرُ السَّليمةُ، وتُدرِكُه العقولُ بالنَّظَرِ الصَّحيحِ، فمَن قابَلَ دعوةَ الإسلامِ بالإعراضِ والعِنادِ، وخالَفَ فِطرتَه، وعاكَسَ عقْلَه؛ كان حقيقًا بهذا العِقابِ الشَّديدِ مِن طَمسِ البصيرةِ، والطَّبعِ على القَلبِ؛ فذَكَر اللهُ لنا هذه العُقوبةَ بهذا التَّمثيلِ البَليغِ الَّذي صَوَّرَها في أبشَعِ صُورةٍ وأفْظَعِها -على قولٍ-؛ لِيُحَذِّرَنا مِن الإعراضِ عن الحَقِّ والعِنادِ له، ويُخَوِّفَنا بعاقبةِ ذلك على أهلِه[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تحذيرُ الإنسانِ إذا لم يَنفتِحْ له بابُ الهدَى أن يكونَ مِن جِنْسِ أولئك، فإذا رأى الإنسانُ مِن نفْسِه أنَّه قد حِيلَ بيْنَه وبيْنَ الهدى، وصار لا يُبصِرُ الحقَّ؛ فلْيَعْلَمْ أنَّه على خطَرٍ، ولْيَتدارَكِ الأمرَ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يَذكُرُ سُبحانَه وتعالى حالةَ هؤلاء الَّذين استوَى عندَهم الشَّيءُ وضِدُّه؛ يُحَذِّرُنا منها، وممَّا يؤدِّي إليها مِن إهمالِ الفِطرةِ، وتَركِ النَّظَرِ؛ فإنَّ الإنسانَ إنَّما يَمتازُ على بقيَّةِ الحيوانِ بتَمييزِه بينَ الحقائقِ بالفِطرةِ والفِكرةِ، وإدراكِه الفوارِقَ ما بيْنَها؛ فإذا سُلِبَ هذه المَزيَّةَ الْتَحَقَ بالعَجْماواتِ، بل كانت العَجْماواتُ خيرًا منه؛ لِبَقاءِ فِطرتِها سليمةً لإدراكِ ما فيها استِعدادٌ لإدراكِه[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٠، ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ بيانُ عُلُوِّ مَرتبةِ الدَّعوةِ إلى اللهِ، والهدايةِ إلى سَبيلِه بكُلِّ وَسيلةٍ وطريقٍ مُوصِلٍ إلى ذلك؛ ونزولِ دَرجةِ الدَّاعي إلى الشَّرِّ؛ الإمامِ فيه، وأنَّه أسفَلُ الخليقةِ، وأشَدُّهم جُرمًا، وأعظَمُهم إثمًا[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ الحَثُّ على المَشيِ للمساجدِ، وأنَّ الأبعَدَ فالأبعَدَ مِن المسجدِ أكثرُ أجرًا -كما في حديثِ قِصَّةِ بني سَلِمةَ حينَ أرادوا النُّقلةَ إلى قُربِ المسجدِ[٢]- وأنَّ الأجرَ على قَدرِ المشَقَّةِ[٣].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡ﴾ على العاقِلِ -وقد عَلِمَ أنَّه محاسَبٌ على أفعالِه وعلى آثارِ أقوالِه- ألَّا يَفعَلَ فِعلًا ولا يقولَ قَولًا حتَّى يَنظُرَ في عواقِبِه؛ فقد تكونُ تلك العواقِبُ أضَرَّ عليه مِن أصلِ القَولِ وأصلِ الفِعلِ؛ فقد يقولُ القَولَ مَرَّةً، ويَفعلُ الفِعلَ مَرَّةً، ثمَّ يَقتدي به فيه آلافٌ عديدةٌ في أزمنةٍ مُتطاوِلةٍ[٤]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّه سُبحانَه قد أحاط بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا، فهو غنيٌّ بعِلمِه عن هذه الكتابةِ، ولكِنَّه جَعَل هذا الكِتابَ إظهارًا لِعَظَمةِ مُلكِه، ولِيَعلمَ عبادُه الضَّبطَ والإحصاءَ في جميعِ أمورِهم، ولِيُبالِغوا في مُحاسَبةِ أنفُسِهم، ولِيَعلَموا أنَّ ما أصابَهم لم يَكُنْ لِيُخطِئَهم، وما أخطأَهم لم يكُنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

(٢) تقدَّم تخريجُه قريبًا.

وعن أبي موسى رضي الله عنه، قال: قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أعظمُ النَّاسِ أجرًا في الصلاةِ أبعدُهم فأبعدُهم ممشًى ...)). أخرجه البخاري (٦٥١)، ومسلم (٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢١٧). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٢٠-٦٢٢) و (٢٥/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٨).

لِيُصيبَهم؛ فيَزولَ مِن قُلوبِهم الخَوفُ مِن الحوادِثِ والمخلوقاتِ، وتَعظُمَ ثِقتُهم باللهِ، وفي ذلك أعظَمُ قُوَّةٍ في هذه الحياةِ، وأكبَرُ راحةٍ للقَلبِ مِن صُروفِها[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- هذا القُرآنُ الَّذي أعجَزَ البشَرَ لم يكُنْ بِدْعًا مِن لِسانِهم، وإنَّما مِن الحُروفِ الَّتي يُرَكِّبونَ منها كَلامَهم؛ يُشيرُ إلى هذا قولُه تعالى: ﴿يسٓ﴾؛ ولهذا لا تأتي هذه الحُروفُ الهِجائيَّةُ في أوَّلِ السُّورةِ إلَّا وَجَدْتَ بعدَها ذِكرَ القُرآنِ في الغالِبِ[٢]؛ فهذه حروفُ تَعجيزٍ وإفحامٍ وتَقريعٍ؛ لأنَّ القُرآنَ الَّذي عَجَزوا عن مُعارَضتِه مِن هذه الحُروفِ وأخَواتِها؛ فمنه تركَّبَت كَلِماتُه، فكأنَّما يُقالُ لهم: «ما هذا الَّذي عجَزتُم عنه إلَّا كلامٌ مِن جِنسِ كلامِكم، وما رُكِّبَت كَلِماتُه إلَّا مِمَّا رُكِّبَت منه كَلِماتُكم»، وهذا لِعَجزِهم أفضَحُ، ولِتَقريعِهم أوجَعُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ عَظَمةُ القرآنِ العظيمِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أقسَمَ به، ولا يُقسِمُ إلَّا بشيءٍ مُعَظَّمٍ، والقرآنُ الكريمُ عَظيمٌ في نفسِه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ تأكيدُ الخبرِ الهامِّ -وإنْ لم يَكُنِ المخاطَبُ مُنْكِرًا-؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه هنا يُخْبِرُ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والمؤمنينَ، وهم لا يُنْكِرونَ ذلك؛ لكِنْ لأهمِّيَّتِه أكَّد[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ اتِّصالٌ لا يخفَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦).
والقاعدةُ أنَّ القَسَمَ لا يكونُ إلَّا باسمٍ مُعَظَّمٍ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٤٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٥).

بيْنَ المقسَم به -وهو القُرآنُ الحكيمُ-، وبيْن المُقسَم عليه -وهو رِسالةُ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، وأنَّه لو لم يكُنْ لرِسالتِه دَليلٌ ولا شاهِدٌ إلَّا هذا القرآنُ الحَكيمُ، لَكفَى به دَليلًا وشاهِدًا على رسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل القُرآنُ العظيمُ أقوى الأدِلَّةِ المتَّصِلةِ المُستَمِرَّةِ على رِسالةِ الرَّسولِ؛ فأدِلَّةُ القُرآنِ كُلُّها أدلَّةٌ لرِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ العنايةُ بإثباتِ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ تعالى أقسَمَ عليها، وأكَّدها زيادةً على القَسَمِ بـإنَّ واللَّامِ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ معنًى لطيفٌ يُعلَمُ منه فَسادُ قَولِ المُباحيَّةِ(٣) الَّذين يقولون: المكَلَّفُ يصيرُ واصِلًا إلى الحَقِّ، فلا يَبقَى عليه تكليفٌ! وذلك مِن حيثُ إنَّ اللهَ بيَّن أنَّ المُرسَلينَ ما داموا في الدُّنيا فهم سالِكونَ سائِحونَ مُهتَدون مُنتَهِجون إلى السَّبيلِ المُستَقيمِ؛ فكيف ذلك الجاهِلُ العاجِزُ(٤)؟!

٧- قال عز وجل: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلَ﴾ أنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ -يعني يَنْزِلُ شيئًا فشيئًا-، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦] فإنه يَنْزِلُ شيئًا فشيئًا، ويُعَبَّرُ أحيانًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦).

(٣) المباحيَّةُ أو أهلُ الإباحةِ: هم الَّذين يُسقِطون الأمرَ والنَّهيَ والتَّكاليفَ مطلقًا، ومنهم الباطنيَّةُ، وطائفةٌ مِن الصُّوفيَّةِ. يُنظر: ((تلبيس إبليس)) لابن الجوزي (ص: ٩٢)، ((اعتقادات فرق المسلمين والمشركين)) للرازي (ص: ٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٤٥، ٤٥٧)، ((الاعتصام)) للشاطبي (١/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٢).

عن القرآنِ بأنه أُنْزِلَ باعتبارِ نهايتِه، فإنَّه باعتبارِ النِّهايةِ يكونُ نَزَل كلُّه؛ وباعتبارِ التَّدريجِ في تنزيلِه يكونُ مُنَزَّلًا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ؛ فالنُّزولُ لا يكونُ إلَّا مِن أعلَى[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ تنبيهٌ على أنَّ هذا الدِّينَ الَّذي نزَّله الرَّبُّ الموصوفُ بالعِزَّةِ والرَّحمةِ: هو دينُ عِزَّةٍ ورحمةٍ، ومِن مُقتضى العِزَّةِ: القُوَّةُ والمَنَعةُ والرِّفعةُ، ومِن مُقتضى الرَّحمةِ: الفَضلُ والخيرُ والمصلحةُ، وهذه كُلُّها مُتجلِّيةٌ في أحكامِ الإسلامِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ أنَّ القُرآنَ، بل الشَّرعَ كلَّه: مِن آثارِ رحمةِ اللهِ[٤].

١١- قد دلَّ استِقراءُ القرآنِ العظيمِ على أنَّ اللهَ جلَّ وعلا إذا ذكَرَ تنزيلَه لكِتابِه، أتْبَعَ ذلك ببعضِ أسمائِه الحسنى، المُتَضَمِّنةِ صِفاتِه العُلْيا؛ ففي أوَّلِ سورةِ (الزُّمَرِ) و(الجاثيةِ) و(الأحقافِ) قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [الزمر: ١] [الجاثية: ٢] [الأحقاف: ٢]، فلمَّا ذكَرَ تنزيلَه كتابَه، بيَّن أنَّ مَبدأَ تنزيلِه كائنٌ منه جلَّ وعلا، وذكَرَ اسمَه اللهَ، واسمَه العزيزَ، والحكيمَ، وقد تكرَّر كثيرًا في القرآنِ ذِكْرُه بعضَ أسمائِه وصِفاتِه بعدَ ذِكرِ تنزيلِ القرآنِ العظيمِ؛ كقولِه في أوَّلِ سورةِ (غافرٍ): ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٩).

﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [غافر: ١ - ٣]، وقولِه تعالى في أوَّلِ (فُصِّلَتْ): ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [فصلت: ١، ٢]، وقولِه تعالى في أوَّلِ (هُودٍ): ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]، وقولِه في (فُصِّلَتْ): ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]، وقولِه تعالى في صدرِ (يس): ﴿ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾، وقولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴾ الآيةَ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، وقولِه تعالى: ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴾ الآيةَ [الحاقة: ٤٣، ٤٤]. ولا يَخفى أنَّ ذِكْرَه جلَّ وعلا هذه الأسماءَ الحُسْنى العظيمةَ، بعدَ ذِكرِه تنزيلَ هذا القرآنِ العظيمِ، يدُلُّ بإيضاحٍ على عَظَمةِ القرآنِ العظيمِ، وجلالةِ شأنِه، وأهمِّيَّةِ نُزولِه(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ أنَّ الأمَّةَ الَّتي بُعِثَ فيها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم تكُنْ عندَها نِذارةٌ الْبَتَّةَ مِن أحدٍ(٢)، ولا يُعارِضُ هذا بعْثَ الأنبياءِ المتقدِّمينَ؛ فإنَّ هؤلاءِ القومَ لم يُدرِكوهم ولا آباؤُهم الأقرَبونَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥١، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٧٩).

قال ابنُ كثير: (قال غيرُ واحدٍ مِن العلماءِ: إنَّ الله تعالى لم يَبعَثْ بعدَ إسماعيلَ نبيًّا في العربِ إلَّا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم خاتمَ الأنبياءِ). ((البداية والنهاية)) (٣/ ٢٥١).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (ومَن لم تَقُمْ عليه الحُجَّةُ في الدُّنيا بالرِّسالةِ، كالأطفالِ والمجانينِ وأهلِ الفتراتِ، فهؤلاء فيهم أقوالٌ أظهَرُها ما جاءت به الآثارُ: أنَّهم يُمتحَنون يومَ القيامةِ، فيُبعَثُ إليهم مَن يأمُرُهم بطاعتِه؛ فإنْ أطاعوه استحَقُّوا الثَّوابَ، وإن عصَوْه استحَقُّوا العذابَ). ((الجواب =

١٣- قولُه تعالَى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ يَعني بهم العربَ، وذِكرُهم وَحْدَهم لا يَنفي إرسالَه إلى مَن عَداهم كما زعَمَه بَعضُ النَّصارى، كما أنَّ ذِكرَ بَعضِ الأفرادِ لا ينفي العُمومَ؛ فقد دلَّتِ الآياتُ والأحاديثُ المتواتِرةُ على عُمومِ بَعثتِه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ، والمرادُ بـ﴿ٱلْقَوْلُ﴾: القولُ الَّذي قال -واللهُ أعلَمُ-: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقال على إثْرِه ما أزال به كُلَّ رَيبٍ، وكشَفَ كلَّ لُبسةٍ، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، أفليس قد أخبَرَ نصًّا أنَّه حالَ بيْنَهم وبيْنَ الإيمانِ والجَنَّةِ بهذه الموانعِ الَّتي ذَكَرها؟! وهل ترَكَ مُتعَلَّقًا للقوم بعدَ هذا، لولا جَهْلُهم ومُكابَرتُهم! ثمَّ أكَّدَها بتأكيدٍ ثانٍ، فقال: ﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2]!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أنَّ أكثَرَ النَّاسِ هم مِن أهلِ جَهنَّمَ[3].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ سؤالٌ: هل لِمَن مات على كُفرِه حُجَّةٌ بما سبَقَ مِن عِلمِ الله فيه؟

---

= الصحيح)) (١/ ٣١٢). ويُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٣/ ٧١٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٧).

**الجوابُ**: أنَّ حُجَّةَ الله قامَت على خَلقِه بما ركَّب فيهم مِن عَقلٍ، وما مكَّنَهم مِن اختيارٍ، وما نصَبَ لهم مِن آياتٍ مُشاهَداتٍ، وما أرسَل إليهم مِن رُسُلٍ بآياتٍ بَيِّناتٍ، وهذه كُلُّها أمورٌ معلومةٌ لديهم، ضروريَّةٌ عندَهم، لا يَستطيعون أن يُنكِروا شيئًا منها؛ فلا يُمكِنُهم أن يَجحَدوا ما عندَهم مِن عقلٍ ومِن اختيارٍ، ولا أن يَنفُوا ما يُشاهِدونَه مِن الآياتِ في المخلوقاتِ، ولا أن يُنكِروا مجيءَ الرُّسُلِ إليهم وما تَلَوْا عليهم مِن آياتٍ، وبهذه الأشياءِ قامت حُجَّةُ الله عليهم، وكان جزاؤُهم على ما اختاروه بَعْدَها لأنفُسِهم؛ فأمَّا ما سبَق مِن عِلمِ اللهِ فهو أمرٌ مُغَيَّبٌ عنهم، غيرُ مؤثِّرٍ فيهم؛ لأنَّ العِلمَ ليس مِن صفاتِ التَّأثيرِ، ولا دافعَ لهم؛ فليس لهم أن يَحتجُّوا به لأنفُسِهم؛ لأنَّهم لم يَعمَلوا لأجْلِه، كيف وهو مُغَيَّبٌ منهم؟! وإنَّما عَمِلوا باختيارِهم الَّذي يَجِدونه بالضَّرورةِ مِن أنفُسِهم(١).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ أنَّ مِن بلاغةِ القرآنِ الكريمِ تمثيلَ المعقولِ بالمحسوسِ(٢)، على أحدِ القولينِ في التَّفسيرِ.

١٨- قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، إنَّ مانعَ الإيمانِ: إمَّا أنْ يكونَ في النَّفْسِ، وإمَّا أنْ يكونَ خارجًا عنها، ولهمُ المانعانِ جميعًا: أمَّا في النَّفْسِ فالغُلُّ، وأمَّا مِن الخارجِ فالسَّدُّ، فلا يَقَعُ نظَرُهم على أنفُسِهم فيَرَوُا الآياتِ الَّتي في أنفُسِهم -لأنَّ المُقمَحَ لا يَرى نفْسَه-، ولا يقَعُ نظَرُهم على الآفاقِ؛ لأنَّ مَن بيْنَ السَّدَّينِ لا يُبصِرون الآفاقَ، فلا تَتبيَّنُ لهم الآياتُ(٣)، على قولٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥١).

١٩- قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِيَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨] هذا الطَّبعُ والخَتمُ على القُلوبِ، وكذلك الأغلالُ في الأعناقِ، والسَّدُّ مِن بيْنِ أيديهم ومِن خَلفِهم، وجميعُ تلك الموانعِ المانعةِ مِن الإيمانِ ووُصولِ الخَيرِ إلى القُلوبِ: إنَّما جعَلَها اللهُ عليهم بسَبَبِ مُسارَعتِهم لتكذيبِ الرُّسُلِ، والتَّمادي على الكُفرِ؛ فعاقَبَهم اللهُ على ذلك بطَمسِ البصائرِ، والخَتمِ على القُلوبِ، والطَّبعِ عليها، والغِشاوةِ على الأبصارِ؛ لأنَّ مِن شُؤمِ السَّيِّئاتِ أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يُعاقِبُ صاحِبَها عليها: بتماديه على الشَّرِّ، والحَيلولةِ بيْنَه وبيْنَ الخَيرِ؛ جزاه اللهُ بذلك على كُفرِه جَزاءً وِفاقًا[1]، على قولٍ.

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّه إذا كان الإنذارُ وعَدَمُه سواءً؛ فلماذا الإنذارُ؟

**الجوابُ مِن جِهتين:**

**الأُولى**: أنَّه تعالى قال: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ وما قال: «سواءٌ عليك»؛ فالإنذارُ بالنِّسبةِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم ليس كعَدَمِ الإنذارِ؛ لأنَّ أحَدَهما مُخرِجٌ له عن العُهدةِ، وسَبَبٌ في زيادةِ سيادتِه عاجِلًا، وسعادتِه آجِلًا، وأمَّا بالنِّسبةِ إليهم فعلى السَّواءِ[2].

**الثَّانية**: أنَّ فائدةَ الإنذارِ إقامةُ الحُجَّةِ عليهم حتَّى يُعذَّبوا بذنوبِهم، لا بمُجرَّدِ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٦).

عِلمِ الله فيهم[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ ﴾ صِحَّةُ نَفيِ الشَّيءِ إذا كان لا يُنتفَعُ به، وإن كان موجودًا؛ فإنَّ إنذارَه لغيرِهم حاصِلٌ، لكِنْ لَمَّا لم يَنتَفِعوا به صار وُجودُه كالعَدَمِ بالنِّسبةِ لهم، أمَّا المُنذِرُ فقد قام بما يجِبُ عليه[٢].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ سؤالٌ: أنَّ الآيةَ ظاهِرُها خُصوصُ الإنذارِ بالمُنتفِعينَ به، ونظيرُها قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥]، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على عمومِ الإنذارِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾ [مريم: ٩٧]، وقَولِه: ﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]، وقَولِه: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ﴾ [الليل: ١٤]، فكيف الجَمْعُ؟

**الجوابُ**: أنَّ الإنذارَ في الحقيقةِ عامٌّ، وإنَّما خُصَّ في بعضِ الآياتِ بالمؤمِنينَ؛ لبيانِ أنَّهم هم المنتَفِعونَ به دونَ غَيرِهم، كما قال تعالى: ﴿ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥]، وبيَّن أنَّ الإنذارَ وعَدَمَه سواءٌ بالنِّسبةِ إلى إيمانِ الأشقياءِ، بقَولِه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[٣] [البقرة: ٦].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ ﴾ أنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أتْبَعَ للقُرآنِ كان أشَدَّ تأثُّرًا به، وبهذا نَعرِفُ القاعِدةَ الَّتي ذَكَرها بعضُ العُلماءِ: «الطَّاعةُ تَجلِبُ الطَّاعةَ، والمعصيةُ تَجلِبُ المعصيةَ»[٤].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٨).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٩).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ ذُكِرَت الخَشيةُ بعدَ الاتِّباعِ؛ لأنَّها لا تَحصُلُ إلَّا به[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ ﴾ أنَّه لا يَنتَفِعُ مِن إنذارِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا مَنِ اتَّصَفَ بهذَينِ الوصفَينِ[٢].

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾ فيه لطيفةٌ: وهي أنَّ الرَّحمةَ تُورِثُ الاتِّكالَ والرَّجاءَ، فقال: مع أنَّه رحمنٌ ورحيمٌ فالعاقِلُ لا ينبغي أن يَترُكَ الخَشيةَ؛ فإنَّ كُلَّ مَن كانت نِعمتُه بسببِ رحمتِه أكثَرَ، فالخَوفُ منه أتَمُّ؛ مَخافةَ أن يَقطَعَ عنه النِّعَمَ المتواتِرةَ. وتَكملةُ اللَّطيفةِ: هي أنَّ مِن أسماءِ الله اسمَينِ يَختصَّانِ به؛ هما اللهُ والرَّحمنُ، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾ [الإسراء: ١١٠]، حتى قال بعضُ الأئِمَّةِ: هما عَلَمانِ. إذا عرَفْتَ هذا فاللهُ اسمٌ يُنبئُ عن الهَيبةِ، والرَّحمنُ يُنبئُ عن الرَّحمةِ، فقال في موضِعٍ: ﴿يَرۡجُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الأحزاب: ٢١] [الممتحنة: ٦]، وقال هاهنا: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾؛ يعني: مع كَونِه ذا هَيبةٍ لا تَقطَعوا عنه رجاءَكم، ومع كَونِه ذا رحمةٍ لا تأمَنوه[٣].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ ﴾ التَّعبيرُ بوَصفِ «الرحمن» دونَ اسمِ الجَلالةِ؛ لِوَجهينِ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ المُشرِكينَ كانوا يُنكِرونَ اسمَ «الرحمن» كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠].

**الوَجهُ الثَّاني**: الإشارةُ إلى أنَّ رَحمتَه لا تَقْتَضي عدَمَ خَشيتِه؛ فالمؤمِنُ يخشَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٧).

اللهَ مع عِلمِه برَحمتِه؛ فهو يرجو الرَّحمةَ[١]، وكلَّما عَظُمَتْ خشيتُك للهِ عَظُمَت رحمةُ اللهِ بك؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ إذا خافه الإنسانُ وخشِيَه فإنَّه يَرحمُه؛ لأنَّه ما مِن إنسانٍ يخشَى اللهَ حقيقةً إلَّا سيَقومُ بأوامِرِه، ويَجتَنِبُ نواهيَه، وحينَئذٍ يكونُ مُتَعَرِّضًا للرَّحمةِ[٢].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أنَّ الخشيةَ إنَّما تكونُ خشيةً حقيقيَّةً إذا كانت بالغَيبِ، أمَّا مَن خَشِيَ اللهَ تعالى بالعلانيةِ فقد تكونُ خشيتُه مَدخولةً؛ قد يَكونُ خَشِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ مِن أجْلِ أنَّ الناسَ يَرَوْنَه! لكنْ إذا كان بالغَيبِ كان أَدَلَّ على الإخلاصِ[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ هل تَنطَبِقُ هذه البِشارةُ على كلِّ واحدٍ بعَينِه ممَّنِ اتَّصَفَ بهذَينِ الوصفَينِ: اتِّباعِ الذِّكْرِ، وخشيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالغَيبِ؟

**الجوابُ**: لا، بل هي على سَبيلِ العمومِ، وكلُّ شَخصٍ اتَّصَفَ بما تَثبُتُ به الجنَّةُ على سبيلِ العُمومِ فإنَّنا لا نَشهَدُ له بعَينِه، ولكن يُرجَى له ذلك؛ لأنَّه في الظَّاهرِ قد انطبَقَ عليه سبَبُ الاستِحقاقِ، لكِنِ الباطِنُ لا نَعلَمُه[٤]، ولا نَدري ما يُختَمُ له به.

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ أنَّ البِشارةَ تكونُ بانتِفاءِ ما يُكْرَهُ، وبحُصولِ ما يُحَبُّ، سواءٌ حَصَل الأمْران معًا، أو حَصَل أحدُهما؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فقولُه: ﴿بِمَغْفِرَةٍ﴾ فيه انتفاءُ ما يُكْرَهُ، وقولُه: ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ فيه حُصولُ محبوبٍ(١).

٣١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى يُحيي قَلْبَ مَن يَشاءُ مِنَ الكُفَّارِ الَّذين قد ماتت قُلوبُهم بالضَّلالةِ، فيَهديهم بعدَ ذلك إلى الحَقِّ، كما قال تعالى بعدَ ذِكرِ قَسوةِ القُلوبِ: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٧]، ووَجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر هذا بعدَ أنْ ذَكَر انقِسامَ النَّاسِ إلى: مَن يَخشَى اللهَ بالغَيبِ ويَتَّبِعُ الذِّكْرَ، ومَن لم يَكُنْ كذلكَ؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يَرُدَّ هؤلاء إلى الحَقِّ(٢).

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يَذكُرُ نفْسَه أحيانًا بصيغةِ العَظَمةِ، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وأحيانًا يَذكُرُ نَفْسَه بصيغةِ الواحدِ، مِثلُ: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾، ووَجهُ ذلك: أنَّه واحدٌ عظيمٌ؛ فباعتبارِ الصِّفةِ يأتي ضميرُ العَظَمةِ، وباعتبارِ الوَحدانيَّةِ يأتي ضميرُ الواحِدِ(٣).

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يَكتُبُ كلَّ شيءٍ -القليلَ والكثيرَ-؛ فإنَّ «ما» اسمٌ موصولٌ، والاسمُ الموصولُ يَشْملُ الصَّغيرَ والكبيرَ، ويدُلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٨).

أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، ويدُلُّ عليه أيضًا في آخرِ الآيةِ: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾(١).

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ؛ إذِ الإيمانُ والكفرُ والخَيرُ والشَّرُّ شَيءٌ كلُّه، فإذا كان مُحصًى في كتابِه قبْلَ الفِعلِ، فهل يَجري الفِعلُ إلَّا عليه(٢)؟! وذلك على القولِ بأنَّ الإمامَ هو اللَّوحُ المحفوظُ.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ﴾ القَسَمُ بالقُرآنِ كِنايةٌ عن شَرَفِ قَدْرِه وتَعظيمِه عندَ اللهِ تعالى، وذلك هو المقصودُ مِن الآياتِ الأُوَلِ مِن هذه السُّورةِ، والمقصودُ مِن هذا القسَمِ تأْكيدُ الخبَرِ مع ذلك التَّنويهِ(٣).

- وفي تَخصيصِ القُرآنِ بالإقسامِ به أوَّلًا، وبوَصفِه بـ﴿الْحَكِيمِ﴾ ثانيًا: تَنويهٌ بشَأْنِه، وتَنبيهٌ على أنَّه كما يَشهَدُ برِسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن حيثُ نَظْمُه المعجِزُ المُنطوي على بَدائعِ الحِكَمِ، يَشهَدُ بها مِن هذه الحيثيَّةِ أيضًا؛ لِمَا أنَّ الإقسامَ بالشَّيءِ استِشهادٌ به على تَحقُّقِ مَضمونِ الجُملةِ القَسَميَّةِ، وتَقويةٌ لِثُبوتِه؛ فيَكونُ شاهدًا به، ودَليلًا عليه قَطْعًا(٤).

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ تَأْكيدُ هذا الخبَرِ بالقسَمِ وحَرْفِ التَّأكيدِ، ولامِ الابتِداءِ: باعتبارِ كَونِه مُرادًا به التَّعريضُ بالمشركينَ الَّذين كذَّبوا بالرِّسالةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٨، ١٥٩).

فهو تأْنيسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَعريضٌ بالمشركينَ؛ فالتَّأكيدُ بالنِّسبةِ إليه زِيادةُ تَقريرٍ، وبالنِّسبةِ للمعنى الكِنائيِّ لِرَدِّ إنكارِهم[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ المقصودُ منه الإيقاظُ إلى عَظَمةِ الشَّريعةِ، وبَيانُ أنَّها أقوَمُ الشَّرائعِ وأعدَلُها، كما يُعرِبُ عنه التَّنكيرُ التَّفخيميُّ، والوَصفُ بعدَ إثباتِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُرسَلٌ كغَيرِه مِن الرُّسلِ. و﴿عَلَىٰ﴾ للاستِعلاءِ الَّذي هو بمَعنى التَّمكُّنِ، وليس الغرَضُ مِن الإخبارِ به عن المخاطَبِ إفادةَ كَونِه على صِراطٍ مُستقيمٍ؛ لأنَّ ذلك مَعلومٌ حُصولُه مِن الأخبارِ مِن كَونِه أحَدَ المرسَلينَ، ولكنَّ الغرَضَ الجمْعُ بيْنَ حالِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وبيْنَ حالِ دِينِه؛ لِيَكونَ العِلمُ بأنَّ دِينَه صِراطٌ مُستقيمٌ عِلمًا مُستقلًّا لا ضِمْنيًّا[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿تَنزِيلَ﴾ مَصدرٌ بمَعنى المفعولِ؛ وعُبِّر بالتَّنزيلِ عن القُرآنِ بَيانًا لِكَمالِ عَراقتِه في كَونِه مُنزَّلًا مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ كأنَّه نفْسُ التَّنزيلِ، وإظهارًا لِفَخامتِه الإضافيَّةِ بعدَ بَيانِ فَخامتِه الذَّاتيَّةِ بوَصفِه بالحِكمةِ. وقيل: مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لِفِعلِه المُضمَرِ، أي: نُزِّلَ تَنزيلَ العزيزِ الرَّحيمِ، على أنَّه استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ ما ذُكِرَ مِن فَخامةِ شأْنِ القُرآنِ، وعلى كلِّ تَقديرٍ ففيهِ فَضْلُ تأْكيدٍ لِمَضمونِ الجُملةِ القَسَميَّةِ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿تَنزِيلَ﴾ قُرِئَ بالرَّفعِ ﴿تَنْزِيلُ﴾[٤] على أنَّه خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٤) تقدَّمت الإشارةُ إلى هذه القراءةِ (ص: ١١).

للعِلم به، وهذا مِن مَواقع حَذْفِ المُسنَدِ إليه المُسمَّى الحذْفَ الجاريَ على مُتابَعةِ الاستِعمالِ في أمثالِه؛ وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذْفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. وعلى قِراءةِ ﴿ تَنزِيلَ ﴾ بالنَّصبِ على تَقديرِ: أعني -على وجهٍ-؛ فيَكونُ المعنى: أعني مِن قَسَمي قُرآنًا نَزَّلتُه، وتلك العِنايةُ زِيادةٌ في التَّنويهِ بشَأْنِه، وهي تُعادِلُ حَذْفَ المُسنَدِ إليه الَّذي في قِراءةِ الرَّفعِ[1].

- وأُضِيفَ التَّنزيلُ إلى اللهِ بعُنوانِ صِفَتَيِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾؛ لأنَّ ما اشتمَلَ عليه القرآنُ لا يَعْدو أنْ يكونَ مِن آثارِ عِزَّةِ اللهِ تعالى؛ وهو ما فيه مِن حمْلِ النَّاسِ على الحقِّ، وسُلوكِ طَريقِ الهُدى دونَ مُصانَعةٍ ولا ضَعْفٍ، مع ما فيه مِن الإنذارِ والوعيدِ على العِصيانِ والكُفرانِ، أو أنْ يكونَ مِن آثارِ رَحمتِه؛ وهو ما في القُرآنِ مِن نَصْبِ الأدلَّةِ، وتَقريبِ البعيدِ، وكَشفِ الحقائقِ للنَّاظرينَ، مع ما فيه مِن البِشارةِ للَّذين يَكونونَ عندَ مَرْضاةِ اللهِ تعالى، وذلك هو ما ورَدَ بَيانُه بعدُ إجمالًا مِن قولِه: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس: ٦]، ثمَّ تَفصيلًا بقولِه: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾ [يس: ٧]، وبقولِه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾[2] [يس: ١١].

- وأيضًا في تَخصيصِ الاسمَينِ الكَريمَينِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ المُعرِبَينِ عن الغَلَبةِ التَّامَّةِ، والرَّأفةِ العامَّةِ: حَثٌّ على الإيمانِ تَرْهيبًا وتَرْغيبًا، وإشعارٌ بأنَّ تَنزيلَه ناشئٌ عن غايةِ الرَّحمةِ، حسبَما نطَقَ به قولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٤٧).

إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[١] [الأنبياء: ١٠٧].

٥- قولُه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ اقتُصِرَ على الإنذارِ؛ لأنَّ أوَّلَ ما ابتُدِئَ به القومُ مِن التَّبليغِ إنذارُهم جَميعًا بما تَضمَّنَته أوَّلُ سُورةٍ نَزَلَت مِن قولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] الآيةَ، وما تَضمَّنَته سُورةُ (المُدثِّرِ)؛ لأنَّ القومَ جميعًا كانوا على حالةٍ لا تُرضِي اللهَ تعالى؛ فكان حالُهم يَقْتضي الإنذارَ؛ لِيُسْرِعوا إلى الإقلاعِ عن ذلك[٢].

- وفُرِّعَ على قولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ قولُه: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾، أي: فتَسبَّبَ على عَدَمِ إنذارِ آبائِهم أنَّهم مُتَّصِفون بالغَفلةِ وَصْفًا ثابتًا، والغفلةُ هنا كِنايةٌ عن الإهمالِ والإعراضِ عمَّا يَحِقُّ التَّنبُّهُ إليه. وقيل: مُتعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿لِتُنذِرَ﴾، أو بما يُفيدُه ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٣]، واردٌ لِتَعليلِ إنذارِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو إرسالِه بغَفْلَتِهم المُحْوِجةِ إليهما، على أنَّ الضَّميرَ للقومِ خاصَّةً، فالمعنى: فهُمْ غافلُون عنه، أي: عمَّا أُنذِرَ آباؤهم الأقدَمونَ؛ لامتِدادِ المُدَّةِ[٣].

٦- قولُه تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا تَفصيلٌ لحالِ القومِ الَّذين أُرسِلَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِيُنذِرَهم، فهُمْ قِسْمانِ: قِسْمٌ لم تَنفَعْ فيهم النِّذارةُ، وقِسْمٌ اتَّبَعوا الذِّكْرَ، وخافُوا اللهَ، فانْتَفَعوا بالنِّذارةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧، ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٨).

- وقولُه: ﴿ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ ﴾ جَوابُ القَسَمِ المحذوفِ، أيْ: واللهِ لقدْ ثبَتَ وتَحقَّقَ عليهم القولُ الْبَتَّةَ بسَببِ إصرارِهم على الكُفرِ والإنكارِ[1].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ لِتَفريعِ انتفاءِ إيمانِ أكثَرِهم على القولِ الَّذي حقَّ على أكثَرِهم، والمَقولُ مَحذوفٌ؛ لِدَلالةِ تَفريعِه عليه، والتَّقديرُ: لقدْ حقَّ القولُ أنَّهم لا يُؤمِنون فهمْ لا يُؤمِنون[2].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ تَمثيلًا؛ بأنْ شُبِّهَت حالةُ إعراضِهم عن التَّدبُّرِ في القُرآنِ ودَعوةِ الإسلامِ، والتَّأمُّلِ في حُجَجِه الواضحةِ: بحالِ قَومٍ جُعِلَت في أعناقِهم أغلالٌ غَليظةٌ تَرتفِعُ إلى أذقانِهم، فيَكونونَ كالمُقْمَحينَ، أي: الرَّافِعينَ رُؤوسَهم، الغاضِّينَ أبصارَهم، لا يَلتفِتون يَمينًا ولا شِمالًا، فلا يَنظُرون إلى شَيءٍ ممَّا حَوْلَهم؛ فتَكونَ تمثيليَّةً، وذِكرُ ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ ﴾؛ لِتَحقيقِ كَونِ الأغلالِ مَلْزوزةً -أي: واصلةً- إلى عِظامِ الأذقانِ، بحيثُ إذا أراد المغلولُ منهم الالتِفاتَ أو أنْ يُطأطِئَ رأْسَه، وجَعَه ذَقَنُه، فلازَمَ السُّكونَ، وهذه حالةُ تَخييلِ هذه الأغلالِ، وليس كلُّ الأغلالِ مِثلَ هذه الحالةِ. وهذا التَّمثيلُ قابلٌ لِتَوزيعِ أجزاءِ المُركَّبِ التَّمثيليِّ إلى تَشبيهِ كلِّ جُزءٍ مِن الحالَينِ بجُزءٍ مِن الحالةِ الأُخرى؛ بأنْ يُشبَّهَ ما في نُفوسِهم مِن النُّفورِ عن الخَيرِ بالأغلالِ، ويُشَبَّهَ إعراضُهم عن التَّأمُّلِ والإنصافِ بالإقماحِ. ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَـٰقِهِمْ أَغْلَـٰلًا ... ﴾ إلخ وَعيدًا بما سيَحُلُّ بهم يومَ القِيامةِ حينَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٩).

يُساقُون إلى جَهنَّمَ في الأغلالِ، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ في سُورةِ (غافرٍ) [٧١، ٧٢]؛ فيَكونَ فِعلُ ﴿جَعَلْنَا﴾ مُستقبَلًا، وعُبِّرَ عنه بصِيغةِ الماضي لِتَحقيقِ وُقوعِه، كقولِه تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، أي: سنَجْعَلُ في أعناقِهم أغلالًا[١].

- قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ في تَنكيرِ ﴿أَغْلَٰلًا﴾ مُبالَغةٌ في تَعظيمِها، وتَهويلِ أمْرِها[٢].

٨- قولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ هذا إمَّا تَتِمَّةٌ للتَّمثيلِ وتَكميلٌ له أيَّ تكميلٍ، أي: وجَعَلْنا مع ما ذُكِرَ مِن أمامِهم سَدًّا عظيمًا، ومِن ورائِهم سَدًّا كذلك، فغطَّيْنا بها أبصارَهم؛ فهمْ بسَببِ ذلك لا يَقدِرونَ على إبصارِ شَيءٍ ما أصلًا. وإمَّا تَمثيلٌ مُستقِلٌّ؛ فإنَّ ما ذُكِرَ مِن جَعلِهم مَحصورينَ بيْنَ سَدَّينِ هائلَينِ قد غطَّيَا أبصارَهم بحيث لا يُبصِرون شيئًا قطعًا؛ كافٍ في الكَشفِ عن كَمالِ فَظاعةِ حالِهم، وكونِهم مَحبوسينَ في ظُلُماتِ الغَيِّ والجَهالاتِ، مَحرومينَ عن النَّظرِ في الأدلَّةِ والآياتِ[٣].

- وإعادةُ فِعلِ ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ -إذا كان معنى قولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ [يس: ٨]، أي: جَعَلنا حالَهم كحالِ مَن في أعناقِهم أغلالٌ، فهي إلى الأذقانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٨).

فهمْ مُقْمَحون- تأْكيدٌ لهذا الجَعْلِ. وأمَّا إذا كانت وَعيدًا بما سيَحُلُّ بهم يومَ القِيامةِ حينَ يُساقونَ إلى جهنَّمَ في الأغلالِ: فإعادةُ فِعلِ ﴿ وَجَعَلْنَا ﴾ لأنَّه جَعْلٌ حاصلٌ في الدُّنيا، فهو مُغايِرٌ للجَعلِ الحاصلِ يومَ القيامةِ؛ فيكونُ فِعلُ (جَعَلْنا) مُستقبَلًا، وعُبِّرَ عنه بصِيغةِ الماضي لِتَحقيقِ وُقوعِه[1].

- قولُه: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ تَفريعٌ على كِلا الفِعلَينِ: ﴿جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ [يس: ٨] ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾؛ لأنَّ في كِلا الفِعلَينِ مانعًا مِن أحوالِ النَّظرِ، وفي الكلامِ اكتِفاءٌ عن ذِكرِ ما يَتفرَّعُ ثانيًا على تَمثيلِهم بمَن جُعِلوا بيْنَ سَدَّينِ مِن عَدَمِ استطاعةِ التَّحوُّلِ عمَّا همْ عليه[2].

- قولُه: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ الإغشاءُ: وَضْعُ الغِشاءِ، وهو ما يُغطِّي الشَّيءَ، والمرادُ: أغشَيْنا أبصارَهم؛ ففي الكلامِ حَذْفُ مُضافٍ دلَّ عليه السِّياقُ، وأكَّدَه التَّفريعُ بقولِه: ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾، وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ؛ لإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، أي: تَحقيقِ عدَمِ إبصارِهم[3].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيانٌ لِشَأنِهم بطَريقِ التَّصريحِ والتَّوبيخِ، إثْرَ بَيانِه بطَريقِ التَّمثيلِ، أي: مُستَوٍ عندَهم إنذارُك إيَّاهم وعدَمُه[4].

- وقولُه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استِئنافٌ مُؤكِّدٌ لِمَا قبْلَه، مُبيِّنٌ لِمَا فيه مِن إجمالِ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٩).

فيه الاستِواءُ، أو حالٌ مُؤكِّدةٌ له[١].

١٠- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴾

- لَمَّا كان الإقبالُ على سَماعِ القُرآنِ مُفْضيًا إلى الإيمانِ بما فيه؛ لأنَّه يُداخِلُ القلْبَ؛ أُتبِعَت صِلةُ ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ بجُملةِ ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾؛ فكان المرادُ مِن اتِّباعِ الذِّكرِ أكمَلَ أنواعِه الَّذي لا يَعقُبُه إعراضٌ، فهو مُؤَدٍّ إلى امتثالِ المتَّبعينَ ما يَدْعوهم إليه، وهؤلاء همُ المؤمنونَ؛ تَنويهًا بشَأْنِهم وبشأنِ الإنذارِ، فهذا قَسيمُ قولِه: ﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ﴾ [يس: ٧]، وهو بَقيَّةُ تَفصيلِ قولِه: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا﴾ [يس: ٦]، والغرَضُ تَقويةُ داعيةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الإنذارِ، والثَّناءُ على الَّذين قَبِلوا نِذارتَه فآمَنوا[٢].

- والتَّعبيرُ بفِعلِ المُضِي (اتَّبَعَ - وَخَشِيَ)؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ الاتِّباعِ والخَشيةِ، والمرادُ: ابتِداءُ الاتِّباعِ[٣].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ دَلَّ لَفْتُ الكلامِ عن مَظهَرِ العَظَمةِ إلى الوَصفِ بالرَّحمانيَّةِ على أنَّ أهلَ الخَشيةِ يَكفيهم في الاتِّعاظِ التَّذكيرُ بالإحسانِ[٤].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن قولِه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ -وهو قَصرُ الإنذارِ على التَّعلُّقِ بمَن اتَّبَع الذِّكرَ وخشِيَ اللهَ- هو بالتَّأويلِ الَّذي تُؤُوِّلَ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٩٩).

معنى فِعلِ ﴿نُنذِرُ﴾ -أي: حُصولُ فائدةِ الإنذارِ- يكونُ قَصرًا حقيقيًّا، وإنْ كان فِعلُ ﴿نُنذِرُ﴾ على ظاهرِ استِعمالِ الأفعالِ -وهو الدَّلالةُ على وُقوعِ مَصادرِها- فالقَصرُ ادِّعائيٌّ[1]، بتَنزيلِ إنذارِ الَّذين لم يَتَّبعوا الذِّكرَ ولم يَخْشَوا مَنزِلةَ عدَمِ الإنذارِ في انتفاءِ فائدتِه، وفي ذلك كِنايةٌ تَعريضيَّةٌ بأنَّ الَّذينَ لم يَنتَفِعوا بالإنذارِ بمَنزلةِ الأمواتِ؛ لِعَدَمِ انتفاعِهم بما يَنفَعُ كلَّ عاقلٍ[2].

- قولُه: ﴿نُنذِرُ﴾ بصيغةِ المضارعِ أفاد تجديدَ الإنذارِ للمتَّبِعينَ[3].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبْتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصرِ قَلْبٍ؛ **فالحقيقيُّ** هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. **والإضافيُّ**: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثَرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. **والادِّعائيُّ**: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ، بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. **وقصْرُ القَلبِ**: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ مُعَيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زَيْدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرة؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٤).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾؛ لِتَرتيبِ البِشارةِ أو الأمْرِ بها على ما قبْلَها مِن اتِّباعِ الذِّكرِ والخَشيةِ[١].

- والجمْعُ بيْن ﴿تُنذِرُ﴾ و﴿فَبَشِّرْهُ﴾ فيه طِباقٌ[٢]، مع بَيانِ أنَّ أوَّلَ أمْرِهم الإنذارُ، وعاقبتَهُ التَّبشيرُ[٣].

- قَولُه: ﴿وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ الأجْرُ: هو الثَّوابُ على الإيمانِ والطَّاعاتِ، ووَصْفُه بالكريمِ؛ لأنَّه الأفضلُ في نَوعِه[٤].

- وذَكَر الأجرَ بعدَ المغفرةِ؛ لأنَّ التَّحليةَ بعدَ التَّخليةِ، والتَّزيُّنَ بعدَ إزالةِ الأدْرانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٣).

(٢) الطِّباق: هو الجمْعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مُراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ. وهو قِسْمانِ: لَفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحكِ والبُكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّديَّةُ في الصُّورةِ مُتوهَّمةً، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخال النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري)) للآمدي (١/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٢٥ - ٢٣٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧ - ٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٠٤).

١١- قولُه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾

- لَمَّا اقْتَضى القصرُ في قولِه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [يس: ١١] نفْيَ أنْ يَتعلَّقَ الإنذارُ بالَّذين لم يَتَّبِعوا الذِّكرَ ولم يَخْشَوُا الرَّحمنَ، وكان في ذلك كِنايةٌ تَعريضيَّةٌ بأنَّ الَّذين لم يَنتفِعوا بالإنذارِ بمَنزِلةِ الأمواتِ؛ لِعَدمِ انتفاعِهم بما يَنفَعُ كلَّ عاقلٍ- استُطْرِدَ عقِبَ ذلك بالتَّخلُّصِ إلى إثباتِ البعثِ؛ فإنَّ التَّوفيقَ الَّذي حُفَّ بمَن اتَّبَعَ الذِّكرَ وخشِيَ الرَّحمنَ هو كإحياءِ الميِّتِ؛ لأنَّ حالةَ الشِّركِ حالةُ ضَلالٍ يُشبِهُ الموتَ، والإخراجَ منه كإحياءِ الميِّتِ[1]. وقولُه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ على ذلك استِئنافٌ ابتدائيٌّ لِقَصدِ إنذارِ الَّذين لم يَتَّبِعوا الذِّكرَ، ولم يَخْشَوُا الرَّحمنَ، وهمُ الَّذين اقْتَضاهم جانبُ النَّفيِ في صِيغةِ القصْرِ في قولِه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ إحياءُ الموتَى تَوفيقَ مَن آمَنَ مِن الناسِ إلى الإيمانِ، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] الآيةَ؛ فتكونَ الجُملةُ امتِنانًا على المؤمنينَ بتَيسيرِ الإيمانِ لهم، ومَوقعُ الجُملةِ مَوقعُ التَّعليلِ لِقَولِه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾[2] [يس: ١١].

- وفي قولِه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ﴾ التَّأكيدُ بحَرفِ (إنَّ)، وضَميرُ الفصلِ (نحن) للتَّقويةِ، وهو زِيادةُ تأْكيدٍ، والمعنى: نُحْييهم للجزاءِ؛ فلذلك عُطِفَ ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾، أي: نُحْصي لهم أعمالَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٥٤).

مِن خَيرٍ وشرٍّ قدَّموها في الدُّنيا لِنُجازِيَهم، وعَطْفُ ذلك إدماجٌ[١] للإنذارِ والتَّهديدِ بأنَّهم مُحاسَبون على أعمالِهم، ومُجازَون عليها[٢].

- والمُرادُ بكِتابةِ ما قدَّموا في قولِه: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَـٰرَهُمْ﴾ الكِنايةُ عن الوعدِ بالثَّوابِ على أعمالِهم الصَّالحةِ، والثَّوابِ على آثارِهم، وكِنايةٌ عن الإحصاءِ، وعدَمِ إفلاتِ شَيءٍ مِن أعمالِهم أو إغفالِه، وهذا الاعتبارُ يُناسِبُه الاستِئنافُ الابتِدائيُّ؛ لِيَكونَ الانتقالُ بابتداءِ كلامٍ مُنبِّهًا السَّامعَ إلى ما اعتبَرَه المُتكلِّمُ في مَطاوي كَلامِه[٣].

- وأخَّرَ الكِتابةَ في الذِّكرِ مع أنَّ الكِتابةَ قبْلَ الإحياءِ، فلم يَقُلْ: «نكتُبُ ما قَدَّموا ونُحييهم»؛ وذلك لأنَّ الكتابةَ مُعظِّمةٌ لأمرِ الإحياءِ؛ لأنَّ الإحياءَ إن لم يكُنْ للحِسابِ لا يُعَظَّمُ، والكِتابةُ في نَفْسِها إنْ لم تكُنْ إحياءً وإعادةً لا يبقَى لها أثَرٌ أصلًا؛ فالإحياءُ هو المُعتبَرُ، والكِتابةُ مُؤكِّدةٌ مُعظِّمةٌ لأمرِه؛ فلهذا قدَّم الإحياءَ، ولأنَّه لَمَّا قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ وذلك يفيدُ العَظَمةَ والجَبَروتَ،

---

(١) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلاَّ أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٥٥).

والإحياءُ عَظيمٌ يختَصُّ باللهِ، والكتابةُ دُونَه؛ فقَرَن بالتَّعريفِ الأمرَ العَظيمَ، وذكَرَ ما يُعظِّمُ ذلك العظيمَ[1].

- والإحصاءُ: حَقيقتُه العدُّ والحسابُ، وهو هنا كِنايةٌ عن الإحاطةِ والضَّبطِ، وعدَمِ تَخلُّفِ شَيءٍ عن الذِّكرِ والتَّعيينِ؛ لأنَّ الإحصاءَ والحسابَ يَستلزِمُ ألَّا يَفوتَ واحدٌ مِن المحسوباتِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٦).

## الآيات (١٢-١٩)

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤ قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥ قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَعَزَّزۡنَا﴾: أي: قَوَّيْنا، وشَدَدْنا، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[١].

﴿تَطَيَّرۡنَا﴾: أي: تشاءَمْنا، وأصلُه: التَّفاؤُلُ بالطَّيرِ (جمعُ طائرٍ)، ثمَّ يُستعمَلُ في كلِّ ما يُتفاءَلُ به ويُتشاءَمُ، وأصلُ (طير): يدُلُّ على خِفَّةِ الشَّيءِ في الهواءِ[٢].

﴿مُّسۡرِفُونَ﴾: أي: مُفْرِطونَ ومُتجاوِزونَ الحَدَّ، والسَّرَفُ: تجاوُزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعَلُه الإنسانُ، وأصلُه يدُلُّ على تَعدِّي الحدِّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨، ٥٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

## المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يَقرأَ على النَّاسِ قصَّةَ أصحابِ القريةِ؛ لِيَعتَبِروا ويتَّعِظوا، فيقولُ: واذكُرْ لِقَومِك -يا محمَّدُ- خبَرَ أصحابِ القَريةِ إذ جاءَها رُسُلٌ مِن اللهِ لِدَعوةِ أهلِها؛ إذ أرسَلْنا إليهم رَسولَينِ فكَذَّبوهما، فقَوَّيْناهما برَسولٍ ثالثٍ، فقال الرُّسُلُ الثَّلاثةُ لهم: إنَّا رُسُلُ اللهِ إليكم. فردَّ عليهم أهلُ القريةِ: ما أنتم إلَّا بَشَرٌ مِثلُنا، وما أنزَلَ الرَّحمنُ إليكم مِن شَيءٍ مِمَّا تَدْعونَنا إليه، ما أنتم إلَّا كاذِبونَ!

فقال لهم رُسُلُهم: ربُّنا يَعلَمُ أنَّا مُرسَلونَ إليكم، وما علينا إلَّا أن نُبَلِّغَكم ما أرسَلَنا اللهُ به إليكم. قال أهلُ القريةِ لرُسُلِهم: إنَّا تشاءَمْنا بكم، لئِنْ لم تَكُفُّوا عن دعوتِكم لَنَرجُمَنَّكم بالحِجارةِ، ولَيُصيبَنَّكم مِنَّا عذابٌ أليمٌ! قالت لهم رُسُلُهم: شُؤمُكم الَّذي جَلَب لكم البلاءَ معكم؛ بسَبَبِ ضَلالِكم، أئِنْ دَعَوْناكم للحَقِّ قُلْتُم هذا؟ بل أنتم قومٌ مُجاوِزون للحَدِّ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

**في مُناسَبةِ هذه الآيةِ لِما قَبْلَها أوجُهٌ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** لَمَّا قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [يس: ٣]، وقال: ﴿لِتُنذِرَ﴾ [يس: ٦]؛ قال: قُلْ لهم: ﴿مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]! بل قَبْلي جاء أصحابَ القَريةِ مُرسَلونَ، وأنذَروهم بما أنذَرْتُكم، وذكَروا التَّوحيدَ، وخَوَّفوا بالقيامةِ، وبَشَّروا بنَعيمِ دارِ الإقامةِ، وذلك على أنَّ المعنى:

واضرِبْ لأجْلِهم مَثَلًا.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّه لَمَّا قال الله تعالى: إنَّ الإنذارَ لا يَنفَعُ مَن أضَلَّه اللهُ وكَتَب عليه أنَّه لا يُؤمِنُ؛ قال للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: فلا تَأْسَ، واضرِبْ لِنَفْسِك ولِقَومِك مَثَلًا، أي: مَثِّلْ لهم عندَ نَفْسِك مَثَلًا؛ حيث جاءهم ثلاثةُ رُسُلٍ ولم يُؤمِنوا، وصبَرَ الرُّسُلُ على القَتلِ والإيذاءِ، وأنت جِئتَهم واحِدًا، وقَومُك أكثَرُ مِن قَومِ الثَّلاثةِ؛ فإنَّهم جاؤوا قريةً وأنت بُعِثْتَ إلى العالَمِ، وذلك على أنَّ المعنى: واضرِبْ لأجْلِ نَفْسِك أصحابَ القَريةِ لهم مَثَلًا، أي: مَثِّلْهم عند نَفْسِك بأصحابِ القَريةِ[1].

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّه أعقَبَ وَصْفَ إعراضِهم وغَفْلَتِهم عن الانتِفاعِ بهَدْيِ القُرآنِ، بتَهديدِهم بعَذابِ الدُّنيا؛ إذ قد جاء في آخِرِ هذه القصَّةِ قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾[2] [يس: ٢٩].

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: واذكُرْ لِقَومِك -يا محمَّدُ- خبَرَ أصحابِ القَريةِ الَّتي جاءها رُسُلٌ مِن اللهِ لِدَعوةِ أهلِها إلى الحَقِّ؛ فلْيَعتبِروا ويَتَّعِظوا بقِصَّتِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٧، ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٣)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٥/ ٤٨٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٢٤٥ - ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٨).

وقد نقل الماوَرْديُّ إجماعَ المفَسِّرينَ على أنَّ هذه القَريةَ هي أنْطاكِيَةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠).

قال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَرَ عن كثيرٍ مِن السَّلَفِ أنَّ هذه القريةَ هي أنطاكيةُ، وأنَّ هذا القولَ لم =

﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: حينَ أرسَلْنا إلى أصحابِ القَريةِ رَسولَينِ فكَذَّبوهما، فقوَّيْناهما برَسولٍ ثالثٍ، فقال ثلاثتُهم: إنَّا رُسُلُ اللهِ إليكم[1].

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾.

---

= يُذكَرْ عن واحدٍ مِن مُتأخِّري المفَسِّرين غَيرُه، قال: (وفي ذلك نظرٌ مِن وُجوهٍ). وذكَرَ ثلاثةَ وُجوهٍ، ثمَّ قال: (فعلى هذا يَتعَيَّنُ أنَّ هذه القريةَ المذكورةَ في القُرآنِ العَظيم قَريةٌ أُخرى غيرُ أنطاكيَةَ، كما أطلَقَ ذلك غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ أيضًا، أو تكونُ أنطاكيَّةُ إن كانَ لَفْظُها مَحفوظًا في هذه القِصَّةِ مَدينةً أخرى غيرَ هذه المشهورةِ المعروفةِ؛ فإنَّ هذه لم يُعرَفْ أنَّها أُهلِكَت؛ لا في المِلَّةِ النَّصرانيَّةِ، ولا قبْلَ ذلك، واللهُ سُبحانه وتعالى أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الأمرُ المنقولُ عندَ النَّصارى أنَّ هؤلاء المذكورينَ في القُرآنِ لَيسوا مِن الحواريِّينَ، وهذا أصَحُّ القولَينِ عندَ عُلَماءِ المُسلِمينَ وأئمَّةِ المفَسِّرينَ، وذكَروا أنَّ المذكورينَ في القُرآنِ في سورةِ يس ليسوا مِن الحواريِّينَ، بل كانوا قبْلَ المَسيحِ، وسَمَّوْهم بأسماءِ غيرِ الحواريِّينَ... وهذا القَولُ هو الصَّوابُ، وأنَّ هؤلاء المُرسَلينَ كانوا رُسُلًا لله قبْلَ المسيحِ، وأنَّهم كانوا قد أُرسِلوا إلى أنطاكيةَ... ولم يؤمِنْ أهلُ المدينةِ بالرُّسُلِ، بل أهلَكَهم اللهُ تعالى كما أخبَرَ في القرآنِ، ثمَّ بعدَ هذا عَمَرت أنطاكيةُ وكان أهلُها مُشرِكينَ حتَّى جاءهم مَن جاءَهم مِن الحواريِّينَ، فآمَنوا بالمسيحِ على أيديهم ودخَلوا دينَ المسيحِ. ويُقالُ: إنَّ أنطاكيةَ أوَّلُ المدائنِ الكبارِ الَّذين آمَنوا بالمسيحِ عليه السَّلامُ، وذلك بعدَ رَفْعِه إلى السَّماءِ، ولكِنْ ظَنَّ مَن ظَنَّ مِن المفَسِّرينَ أنَّ المذكورينَ في القُرآنِ هم رُسُلُ المسيحِ وهم مِن الحواريِّينَ، وهذا غلَطٌ). ((الجواب الصحيح)) (٢/ ٢٤٥-٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٤، ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤).

قال الواحدي: (قال أبو إسحاقَ [الزَّجَّاج]: «فقَوَّيْنا وشَدَدْنا الرِّسالةَ برَسولٍ ثالثٍ». وهو قَولُ جميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٤٦٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٨٢).

أي: قال أصحابُ القَريةِ لهم: ما أنتم إلَّا أُناسٌ مِثلُنا، فكيف أُوحِيَ إليكم[١]؟!

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾.

أي: وما أنزَل الرَّحمنُ إليكم أيَّ شَيءٍ مِمَّا تَدَّعونَ[٢]!

﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾.

أي: ما أنتم إلَّا تكذِبونَ في دَعْواكم أنَّكم رُسُلٌ مِنَ اللهِ إلينا[٣].

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾.

أي: قالت رُسُلُهم لهم: اللهُ ربُّنا يَعلَمُ أنَّا رُسُلُه إليكم، وأنَّنا صادِقونَ[٤].

﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾.

أي: وما يجِبُ علينا إلَّا أن نُبَلِّغَكم ما أرسَلَنا اللهُ به إليكم بلاغًا مُبينًا للحَقِّ، فإنْ لم تَقْبَلوا دَعوتَنا فقد أدَّيْنا ما علينا، وليس لنا مِن الأمرِ شَيءٌ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤).

قال الزمخشري: (قولُه: ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ﴾ جارٍ مَجرى القَسَم في التوكيدِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٠).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾.

أي: قال أصحابُ القَريةِ لِرُسُلِهم: إنَّا تشاءَمْنا بكم[1]!

﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: لئِنْ لم تَترُكوا دَعْواكم لَنَرْجُمَنَّكم[2]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٢، ٣٦٣).

اختُلِفَ في سَبَبِ تطيُّرِهم؛ فقيل: تطيَّروا بهم بسببِ عُقوباتٍ حَلَّت بهم، أو بلاءٍ نزَل بهم؛ فقيل: احتَبَس المطَرُ عنهم. وقيل: لأنَّهم جاؤوهم بدِينٍ غيرِ دينِهم. وقيل: قد يكونُ تَطيُّرُهم مُجرَّدَ دعوى لا أصلَ لها. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٤، ٦٥).

قال ابنُ عطيَّة: (والأظهَرُ: أنَّ تَطَيُّرَ هؤلاء إنَّما كان بسبَبِ ما دخَلَ قَريتَهم مِن اختلافِ الكَلِمةِ، وافتِتانِ النَّاسِ، وهذا على نحوِ تطيُّرِ قُرَيشٍ بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلى نحوِ ما خُوطِبَ به موسى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٤٩).

(٢) قال الماوَرْديُّ: (﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: لَنَرجُمنَّكم بالحِجارةِ. قاله قَتادةُ. الثَّاني: لَنقتُلَنَّكم. قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: لَنَشتُمَنَّكم ونُؤذيكم. قاله النَّقَّاشُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢).

وقال الألوسي: (﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بالحِجارةِ، قاله قَتادةُ، وذُكِرَ فيه احتِمالان: احتِمالُ أن يكونَ الرَّجمُ للقَتلِ، أي: لَنَقْتُلَنَّكم بالرَّجمِ بالحِجارةِ، واحتِمالُ أن يكونَ للأذى، أي: لَنُؤذِيَنَّكم بذلك). ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٣٩٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: القتلُ رجمًا بالحجارةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والعُلَيمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٥). =

ولَيُصيبَنَّكم مِنَّا عذابٌ مُوجِعٌ[١].

﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾.

أي: قالت رُسُلُهم لهم: شُؤمُكم الَّذي جَلَب لكم البلاءَ إنَّما هو معكم؛ بسبَبِ ضَلالِكم، وليس بسَبَبِنا كما زعمتُم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ

---

= وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي: لَنَقْتُلَنَّكم. وممَّن اختار هذا القولَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبةَ، والسمرقنديُّ، والبغوي، وابنُ الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٦)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦).

بل ذهَب الفرَّاءُ إلى أنَّ عامَّةَ ما في القرآنِ مِن الرَّجمِ المرادُ به: القتلُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٧٤).

قال ابنُ قُتَيْبةَ: (الرَّجمُ: أصلُه الرَّميُ، ... ثمَّ يُستعارُ فيُوضَعُ مَوضِعَ القَتلِ؛ لأنَّهم كانوا يَقتُلونَ بالرَّجمِ. ورُوِيَ أنَّ ابنَ آدَمَ قَتَل أخاه رجمًا بالحجارةِ، وقُتِلَ رَجمًا بالحجارةِ، فلمَّا كان أوَّلُ القتلِ كذلك سُمِّيَ رَجْمًا وإن لم يكُنْ بالحِجارةِ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ أي: لَنَقْتُلَنَّكم). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٩، ٥٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤).

قال ابنُ عثيمين: (قَولُه: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم﴾ هل هذا على سَبيلِ التَّنويعِ أو على سَبيلِ الجَمعِ؟ يعني: أنَّهم يَرجُمونَهم ويُعَذِّبونَهم قبْلَ الرَّجمِ، أو أنَّه على سبيلِ التَّنويعِ وأنَّ «الواوَ» بمعنى «أو»، أي: نَرجُمَنَّكم حتَّى تموتوا أو لَيَمَسَّنَّكم مِنَّا عذابٌ أليمٌ دون الرَّجمِ؟ الآيةُ تَحتَمِلُ المعنيَينِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٤).

يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا ۞ مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٨، ٧٩].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

﴿أَئِن ذُكِّرۡتُم﴾.

أي: أئِنْ وعَظْناكم وأمَرْناكم باتِّباعِ الحَقِّ تُقابِلونَنا بهذا الرَّدِّ[١]؟!

﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما تقولون، بل أنتم قومٌ عادتُكم مُجاوَزةُ الحُدودِ، والطُّغيانُ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ العِبرةَ تكونُ بما في القِصَّةِ مِن ضَربِ الأمثالِ؛ فليس مِن الضَّروريِّ أنْ يُعَيَّنَ المَثَلُ المضروبُ؛ فهنا قال: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾ ولم يُعَيِّنِ القَريةَ، ولم يُعَيِّنْ أولئك الأصحابَ بأعيانِهم؛ لأنَّه ليس هذا محَلَّ عِبرةٍ،

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٤).

قال الألوسي: (وهو إضرابٌ انتِقاليٌّ عن الإنكارِ المذكورِ إلى الإخبارِ بما أدَّى إلى ذلك، وهو اعتيادُ الإسرافِ في كُلِّ شَيءٍ، أو إلى بيانِ استِجماعِهم للعُيوبِ كُلِّها، ويَحتمِلُ أن يكونَ إضرابًا عن غيرِ مَذكورٍ، وهو ما تَوهَّموه مِنَ العُذرِ في ذلك، أي: لا عُذرَ لكم فيه، بل أنتم قومٌ عادتُكم الإسرافُ والخروجُ عن الحُدودِ). ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٤٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٨).

بلِ العِبرةُ في القِصَّةِ كلِّها[١]؛ فتَعيينُ تلك القريةِ لو كان فيه فائدةٌ لَعَيَّنَها اللهُ تعالى؛ فالتَّعرُّضُ لذلك -وما أشْبَهَه- مِن بابِ التَّكَلُّفِ والتَّكَلُّمِ بلا عِلمٍ؛ ولهذا إذا تكَلَّمَ أحدٌ في مِثلِ هذا تجِدُ عِندَه مِن الخَبطِ والخَلطِ والاختِلافِ الَّذي لا يَستقِرُّ له قرارٌ: ما تَعرِفُ به أنَّ طَريقَ العِلمِ الصَّحيحِ الوقوفُ مع الحقائِقِ، وتَرْكُ التَّعَرُّضِ لِما لا فائِدةَ فيه، وبذلك تَزْكو النَّفسُ، ويَزيدُ العِلمُ، مِن حيثُ يَظُنُّ الجاهِلُ أنَّ زيادةَ العِلمِ هي بذِكرِ الأقوالِ الَّتي لا دَليلَ عليها، ولا حُجَّةَ عليها، ولا يَحصُلُ منها مِنَ الفائدةِ إلَّا تشويشُ الذِّهنِ، واعتيادُ الأُمورِ المشكوكِ فيها[٢]!

٢- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡ﴾ فيه أنَّ التَّطيُّرَ كان مِن شأنِ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ[٣]، فالتَّطيُّرُ والتَّشاؤُمُ مِن صِفاتِ الكُفَّارِ، وعلى المُسلِمينَ اجتِنابُه، وأن يَتوكَّلوا على اللهِ، وأن يَعلَموا أنَّ الأمورَ بيَدِ اللهِ، وأنَّ الشُّؤمَ الحقيقيَّ الَّذي يَستجلِبُ كُلَّ الضَّرَرِ هو مُخالَفةُ رَبِّ العالَمينَ جلَّ وعلا، أمَّا كُلُّ فِعلٍ لم يُخالَفْ به اللهُ فهذا لا ضرَرَ فيه ولا طِيَرةَ؛ لأنَّ الله ما أباحه إلَّا لأنَّه لا ضَرَر فيه. وعلى المُسلِمِ أن يَتحَرَّزَ مِن هذا كُلِّه، ولا يَتشاءَمَ بشَيءٍ، وأن يَبنيَ الأمورَ على التَّوكُّلِ على اللهِ، ومُراعاةِ أوامِرِه ونواهيه[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ﴾ جوازُ تَعَدُّدِ الرُّسُلِ مع اتِّحادِ المُرْسَلِ إليه؛ لأنَّ اللهَ أرسَلَ لهذه القريةِ اثنَينِ ثمَّ عزَّزَهما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٠٨).

بثالثٍ[١].

٢- إنَّ الَّذين يُكَذِّبون الرُّسلَ ليس عندَهم إلَّا المكابرةُ، وليس عندَهم حُجَّةٌ عقليَّةٌ أو نقليَّةٌ؛ لقولِهم: ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾، فهذه الجُمَلُ الثَّلاثُ ليس فيها أيُّ حُجَّةٍ تُسَوِّغُ تكذيبَ هؤلاء الرُّسُلِ؛ فالأُولى: أنَّهم رَدُّوهم لأنَّهم بشَرٌ مثلُهم! والرَّدُّ عليها: أنَّه لا يمكِنُ أنْ يُرْسَلَ للبشَرِ إلَّا بشَرٌ مِثلُهم، حتَّى لو أُنزِلَ إليهم ملائكةٌ؛ فإنَّ الملائكةَ لا بُدَّ أنْ يَكونوا على صورةِ البشَرِ، وحينَئذٍ تعودُ الشُّبهةُ. الثَّانيةُ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ ﴾، فهذا نفيٌ مُجَرَّدٌ بدون ذِكرِ حُجَّةٍ! وليس هذا بدليلٍ للخصمِ إطلاقًا؛ لأنَّ نفْيَ قولِ الخصمِ بدونِ حُجَّةٍ ما هو إلَّا مكابرةٌ. والثَّالثةُ كذلك في قولِهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴾[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ وَعْظٌ مِن المرسَلينَ وَعَظوا به القومَ؛ لِيَعْلَموا أنَّهم لا مَنفعةَ تَنجَرُّ لهم مِن إيمانِ القومِ، وإعلانٌ لهم بالتَّبرُّؤِ مِن عُهدةِ بَقاءِ القومِ على الشِّركِ؛ وذلك مِن شأْنِه أنْ يُثيرَ النَّظرَ الفِكريَّ في نُفوسِ القومِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴾ أنَّه يَلزَمُ الرُّسُلَ أن يكونَ بلاغُهم مُبينًا مُظهِرًا للأمرِ على حقيقتِه، ويَتفرَّعُ على ذلك أنَّه لا إبهامَ في الشَّرائعِ، وأنَّ الشَّرائعَ كلَّها واضِحةٌ؛ فإنْ جاء إبهامٌ في نَصٍّ فهو مُبَيَّنٌ مُوضَّحٌ في نَصٍّ آخَرَ، وإن بَقِيَ الإبهامُ قائمًا فالعِلَّةُ في فَهمِ المُخاطَبِ؛ إمَّا لقُصورِه، أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٢).

لتَقصيرِه، أمَّا ما جاءتْ به الرُّسلُ فإنَّه يحصُلُ به البلاغُ المُبينُ المُظهِرُ لكُلِّ ما تحتاجُ إليه الرِّسالةُ؛ لِقَولِه: ﴿ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ أنَّ الذُّنوبَ والتَّكذيبَ للرُّسُلِ يكونُ سَببًا للمَحْقِ والبَلاءِ، وهذه هي سُنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في جميعِ المكذِّبينَ للرُّسُلِ: أنَّ اللهَ يَبتليهم بالعُقوباتِ؛ لعلَّهم يَرجِعونَ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُم﴾ جوازُ حَذْفِ ما عُلِمَ بالسِّياقِ؛ ولا يُعَدُّ هذا نقصًا في الكلامِ وبلاغتِه! فهنا جوابُ الشَّرطِ محذوفٌ لدَلالتِه عليه، ورُبَّما يكونُ الحذفُ أبلَغَ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لأمْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَضرِبَ لِقَومِه مَثلًا بأصحابِ القَريةِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ ﴾ نُسِبَ الإرسالُ إليه تعالى بِناءً على أنَّه كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٢).

بأمْرِه تعالى؛ لِتكميلِ التَّمثيلِ، وتَتميمِ التَّسليةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ إيجازٌ بالحَذفِ؛ فقد حُذِفَ مَفعولُ (عَزَّزْنَا)، والتَّقديرُ: فعَزَّزْناهما بثالثٍ، وإنَّما جُنِحَ إلى هذا الحذْفِ؛ لانصِبابِ الغرَضِ على المُعزَّزِ به الثَّالثِ، وإذا كان الغرَضُ هو المرادَ، وكان الكلامُ مُنصَبًّا عليه؛ كان ما سِواه مَطروحًا[٢]. وقيل: حُذِف المفعولُ -حيث لم يَقُلْ: «فعزَّزْناهما»-؛ لمعنًى لطيفٍ، وهو أنَّ المقصودَ مِن بَعثِهما نُصرةُ الحَقِّ لا نُصرتُهما، والكُلُّ مُقَوُّونَ للدِّينِ المتينِ بالبُرهانِ المُبينِ[٣].

- وأكَّدوا قولَهم: ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾؛ لأجْلِ تَكذيبِهم إيَّاهم، فأكَّدوا الخبَرَ تأْكيدًا وَسَطًا، ويُسمَّى هذا ضَرْبًا طَلبيًّا[٤]. وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَيۡكُم﴾؛ للاهتمامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٠).

(٤) تختلِفُ صوَرُ الخبرِ في أساليبِ اللُّغةِ باختلافِ أحوالِ المُخاطَبِ، ولا يخلو المخاطَبُ مِن أن يكونَ واحدًا مِن ثلاثةٍ:

١- خالي الذِّهنِ مِن الحُكمِ، ومِن التَّرَدُّدِ فيه؛ فهذا يُلْقى إليه الكلامُ ساذَجًا غُفلًا مِن أدواتِ التَّوكيدِ. ويُسمَّى هذا الضَّربُ: (ابتدائيًّا)؛ نحو: محمَّدٌ سافرَ.

٢- المُتَرَدِّدُ في ثبوتِ الحكمِ وعدَمِه، بألَّا يَترجَّحَ عندَه هذا على ذلك، وحينَئذٍ يَحسُنُ تقويةُ الحُكمِ بمؤكِّدٍ؛ لِيُزيلَ ذلك التَّرَدُّدَ. ويُسمَّى هذا الضَّربُ: (طلبيًّا).

٣- المُنكِرُ للحُكمِ، وهذا يجبُ أن يؤكَّدَ له الكلامُ بقدرِ إنكارِه قوَّةً وضَعفًا؛ ذاك أنَّ المتكلِّمَ أحْوَجُ ما يكونُ إلى الزِّيادةِ في تثبيتِ خبرِه إذا كان هناك مَن يُنكِرُه ويَدفَعُ صِحَّتَه، فهو حينَئذٍ يُبالغُ في تأكيدِه حتَّى يزيلَ إنكارَه. ويُسمَّى هذا الضَّربُ: (إنكاريًّا). يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٥٧، ٥٨)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٤٩، ٥٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة الميداني (١/ ١٧٨- ١٨٢).

بأمْرِ المُرسَلِ إليهم[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالى لمُوسى عليه السَّلامُ في سُورةِ (القصصِ): ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ﴾ [القصص: ٣٥]، فذكَرَ المفعولَ، ولم يَذكُرْه هاهنا في قولِه: ﴿فَعَزَّزْنَا﴾، مع أنَّ المقصودَ هناك أيضًا نُصرةُ الحقِّ؛ ووَجْهُه: أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ كان أفضَلَ مِن هارونَ، وهارونُ بُعِثَ معه بطَلَبِه حيثُ قال: ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ﴾ [القصص: ٣٤]؛ فكان هارونُ مَبعوثًا لِيُصَدِّقَ مُوسى فيما يقولُ، ويَقومَ بما يأمُرُه، وأمَّا هما فكُلُّ واحدٍ مُستقِلٌّ ناطقٌ بالحقِّ، فكان المقصودُ في سُورةِ (القصصِ) تَقويةَ مُوسى وإرسالَ مَن يُؤنَسُ معه -وهو هارونُ-، وأمَّا هاهنا فالمقصودُ تَقويةُ الحقِّ؛ فظهَرَ الفرْقُ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾

- اختيارُ وصْفِ الرَّحمنِ في حِكايةِ قَولِ الكفَرةِ: ﴿وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ قيل: فيه إشارةٌ إلى الرَّدِّ عليهم؛ لأنَّ اللهَ لَمَّا كان رَحمنَ الدُّنيا، والإرسالُ رَحمةٌ؛ فكيف لا يُنزِلُ رَحمتَه وهو رَحمنٌ[٣]؟!

٤- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ قَسَمٌ؛ لأنَّه استِشهادٌ باللهِ على صِدقِ مَقالتِهم، واضطَرَّهم إلى شِدَّةِ التَّوكيدِ بالقَسَمِ ما رأَوا مِن تَصميمِ كَثيرٍ مِن أهلِ القريةِ على تَكذيبِهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٦١).

ويُسمَّى هذا المقدارُ مِن التَّأكيدِ ضَرْبًا إنكاريًّا[١].

- وفي هذه الآياتِ يَبْدو التَّأكيدُ بأروَعِ صُوَرِه للخبَرِ؛ فقد قال أوَّلًا: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا﴾ فأورَدَ الكلامَ ابتدائيَّ الخبَرِ، ثمَّ قال: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ فأكَّده بمُؤكِّدين، وهو (إنَّ) واسميَّةُ الجُملةِ، فأورَدَ الكلامَ طَلبيًّا، ثمَّ قال: ﴿إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، فترقَّى في التَّأكيدِ بثَلاثةٍ، وهي (إنَّ)، واللَّامُ، واسميَّةُ الجُملةِ، فأورَدَ الكلامَ إنكاريَّ الخبَرِ جوابًا عن إنكارِهم. وقيل: إنَّ في قولِه: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ﴾ تأْكيدًا رابعًا، وهو إجراءُ الكلامِ مُجرى القسَمِ في التَّأكيدِ به، وفي أنَّه يُجابُ بما يُجابُ به القسَمُ. وفي هذه الآيةِ ائتلافُ الفاصِلةِ مع ما يدُلُّ عليه سائرُ الكلامِ؛ فإنَّ ذِكرَ الرِّسالةِ مَهَّدَ لِذِكْرِ البلاغِ والبَيانِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- لَمَّا كانوا -لِمَا يَرَون على الرُّسلِ مِن الآياتِ وظاهرِ الكراماتِ ممَّا يَشهَدُ ببَركتِهم، ويُمْنِ نُفوسهم وأفعالِهم- إذا ذَمُّوهم تَوقَّعوا تَكذيبَ النَّاسِ لهم؛ أكَّدوا قولَهم: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[٣].

- وقولُهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ ...﴾ استأنفوه استِئنافَ النَّتائجِ على سَبيلِ التَّأكيدِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦١، ٣٦٢). وسبق تعريفُ الإخبارِ الإنكاريِّ قبْلُ.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٧).

إعلامًا بأنَّ ما أخبَروا به لا فَتْرةَ لهم عنه[١].

- ولَمَّا كان الإنسانُ قد يَفعَلُ ما لا يُوجدُ أثرُه، فقالوا مُعبِّرينَ بالمَسِّ دونَ الإمساسِ: ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا﴾، أي: عاجلًا، لا مِن غيرِنا، كما تقولونَ أنتم في تَهديدِكم إيَّانا بما يَحُلُّ بنا ممَّن أرسَلَكم عذابٌ أليمٌ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ حُكِيَ قَولُ الرُّسلِ بما يُرادِفُه ويُؤدِّي معناهُ بأُسلوبٍ عَرَبيٍّ؛ تَعريضًا بأهْلِ الشِّركِ مِن قُرَيشٍ الَّذين ضُرِبَت القَريةُ مَثَلًا لهم؛ فالرُّسلُ لم يَذْكُروا مادَّةَ الطِّيَرةِ والطَّيرِ، وإنَّما أَتَوا بما يدُلُّ على أنَّ شُؤمَ القومِ مُتَّصلٌ بذَواتِهم، لا جاء مِن المرسَلينَ إليهم؛ فحُكِيَ بما يُوافِقُه في كَلامِ العربِ؛ تَعريضًا بمُشْركي مكَّةَ، وهذا بمَنزلةِ التَّجريدِ[٣] لِضَرْبِ المثَلِ لهم؛ بأنْ لُوحِظَ في حِكايةِ القصَّةِ ما هو مِن شُؤونِ المُشبَّهينَ بأصحابِ القصَّةِ[٤].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ داخلٌ على (إنِ) الشَّرطيَّةِ؛ فهو استِفهامٌ على مَحذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ السَّابقُ، وقُيِّدَ ذلك المحذوفُ بالشَّرطِ الَّذي حُذِفَ جوابُه أيضًا؛ استِغناءً عنه بالاستفهامِ عنه،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) التَّجريد: أن يُنتزَعَ مِن أمرٍ ذي صِفةٍ أمرٌ آخَرُ مِثلُه في تلك الصِّفةِ، حتَّى تَصيرَ الذاتُ الواحدةُ ذاتَينِ؛ مُبالَغةً لكمالِ الوصفِ في تلكَ الذَّاتِ. كقَولِهم: لي مِنكَ صديقٌ حميمٌ، و: لَئِنْ سألْتَ فُلانًا، لَتَسْأَلَنَّ به بحرًا. يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٣، ٣٦٤).

والتَّقديرُ: أتتَشاءمُون بالتَّذكيرِ إنْ ذُكِّرْتُم[١]؟!

- قولُه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قيل: هو إضرابٌ عمَّا تَقْتضيه الشَّرطيَّةُ -﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾- مِن كَونِ التَّذكيرِ سَببًا للشُّؤمِ، أو مُصحِّحًا للتَّوعُّدِ، أي: ليس الأمرُ كذلك، بل أنتُم قَومٌ عادتُكم الإسرافُ في العِصيانِ؛ فلذلك أتاكُم الشُّؤمُ، أو في الظُّلْمِ والعُدوانِ؛ ولذلك تَوعَّدتُم وتَشاءَمْتُم بمَن يجِبُ إكرامُه والتَّبركُ به[٢].

- وفي ذِكرِ كَلمةِ ﴿قَوْمٌ﴾ إيذانٌ بأنَّ الإسرافَ مُتمكِّنٌ منهم، وبه قِوامُ قَوميَّتِهم[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٤، ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٥).

## الآيات (٢٠-٢٧)

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَقۡصَا﴾: أي: آخِرِ، وأصلُ (قصي): يدُلُّ على البُعدِ[1].

﴿فَطَرَنِي﴾: أي: خَلَقَني، وأصلُ الفَطرِ: الشَّقُّ، فكُلُّ مَن أظهَرَ أمرًا اختَرَعه على غيرِ مِثالٍ يُقالُ: قد فطَرَه، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتْحِ شَيءٍ وإبرازِه[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وجاء رجُلٌ مُؤمِنٌ مِن أبعَدِ مَوضِعٍ في المدينةِ مُسرِعًا إلى القَومِ الَّذين كذَّبوا الرُّسُلَ الثَّلاثةَ، قال: يا قَومِ اتَّبِعوا هؤلاء الرُّسُلَ؛ اتَّبِعوا مَن لا يَسألُكم أجرًا على البلاغِ، وهم على الحَقِّ مُهتَدونَ.

ثمَّ بيَّن الأسبابَ الَّتي حمَلَتْه على الإيمانِ، فقال: وما لي ألَّا أعبُدَ اللهَ الَّذي خلَقَني مِن العدَمِ، والَّذي إليه وَحْدَه تُرجَعونَ؟! أأتَّخِذُ مِن دونِ اللهِ آلِهةً لا تَدفَعُ عنِّي ضُرًّا إن أراده بي الرَّحمنُ، ولا يُخلِّصونَني مِن هذا الضُّرِّ؟! إنِّي إن فعَلْتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٢).

ذلك لَفي ضلالٍ مُبينٍ.

ثمَّ أعلَن إيمانَه بكلِّ صراحةٍ وقوَّةٍ، فقال: إنِّي آمَنتُ برَبِّكم فاسمَعوا قَولي.

قيل لهذا الرَّجُلِ المؤمِنِ حينَ قتَلَه قومُه: ادخُلِ الجنَّةَ. قال: يا لَيْتَ قَومي يَعلَمونَ بمَغفِرةِ رَبِّي لي، وجَعْلِه لي مِن المُكرَمينَ بدُخولِ جنَّتِه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠ ﴾.

﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾.

أي: وجاء رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن طَرَفِ المدينةِ؛ مِن أبعَدِ مَوضِعٍ فيها، مُسرِعًا إلى القَومِ الَّذين كَذَّبوا الرُّسُلَ الثَّلاثةَ[1].

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾.

أي: قال: يا قَومِ اتَّبِعوا هؤلاءِ الرُّسُلَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ إليكم[2].

﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١ ﴾.

أي: اتَّبِعوا مَن لا يَسألُكم على تبليغِ رِسالةِ اللهِ أيَّ أجرٍ دُنيويٍّ، وهم مُتَّصِفونَ بأنَّهم ثابِتونَ ومُستَقيمونَ على الحَقِّ الَّذي يَدْعونَكم إليه؛ فاتَّبِعوهم تهتَدوا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧١، ٧٢).

قال ابن جرير: (ذلك أنَّ أهلَ مَدينتِه هذه عزَموا واجتمَعَت آراؤُهم على قَتلِ هؤلاء الرُّسُلِ الثَّلاثةِ، فيما ذُكِرَ، فبلَغ ذلك هذا الرَّجُلَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠)، ((نظم =

﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٢﴾.

أي: وما الَّذي يَمنَعُني مِن عبادةِ اللهِ الَّذي خلَقَني مِن العَدَمِ، والَّذي إليه وَحْدَه تُرجَعونَ، فيُجازيكم على أعمالِكم[1]؟!

كما قال تعالى حكايةً عن قَولِ هودٍ عليه السَّلامُ لِقَومِه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [هود: ٥١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧].

وقال تعالى حِكايةً عن قَولِ سَحَرةِ فِرعَونَ: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾ [طه: ٧٢].

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ٢٣﴾.

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: أأتَّخِذُ مِن دونِ اللهِ مَعبودًا سِواه؟! كلَّا؛ فإنَّ الرَّحمنَ إنْ أراد إصابَتي بضُرٍّ، فلا تمنَعُ هذه الآلِهةُ عنِّي أيَّ ضَرَرٍ[2].

---

= الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٧).

قال ابن عثيمين: (قَولُه: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ يحتمِلُ أن تكونَ الواوُ للاستئنافِ، وهو الأقرَبُ؛ لبيانِ حالِ هؤلاء الدُّعاةِ أنَّهم على هدًى، ويحتمِلُ أن تكونَ للحالِ، أي: لا يَسألونَكم أجرًا مع كَونِهم مُهتدينَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٠)، ((أضواء البيان)) =

﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾.

أي: ولا تَقدِرُ أن تخلِّصَني مِن الضَّرَرِ إن وقَعَ عليَّ[١].

﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٤﴾.

أي: إنِّي إنِ اتَّخذتُ آلهةً هذه صِفتُها فإنِّي إذَنْ لَفي ضلالٍ مُبينٍ[٢].

﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ٢٥﴾.

أي: إنِّي آمَنتُ بربِّكم فاسمَعوا قَولي[٣].

---

= للشنقيطي (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٨٠، ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧١).

قيل: ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: ظاهرٍ بيِّنٍ واضحٍ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٣).

وقيل: ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعنى: واضِحٍ في نَفْسِه لمن لم يكُنْ مظروفًا له، ومُوضِّحٍ لكُلِّ ناظرٍ ما هو فيه مِن الظَّلامِ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٠).

قال الرازي: (في المخاطَبِ بقولِه: ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ وُجوهٌ؛ أحَدُها: هُم المرسلُونَ، قال المفَسِّرونَ: أقْبَل القومُ عليه يُريدونَ قَتْلَه، فأَقْبَل هو على المرسَلينَ، وقال: إنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكم فاسْمَعوا قولي، واشْهَدوا لي. وثانيها: هم الكفَّارُ، كأنَّه لَمَّا نَصَحَهم وما نَفَعَهم، قال: فأنا آمَنْتُ فاسمَعونِ. =

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾.

أي: قيل لهذا الرَّجُلِ المؤمِنِ حينَ قتَلَه قَومُه: ادخُلِ الجنَّةَ[1].

﴿بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الطَّبعُ البَشَريُّ داعيًا إلى محبَّةِ الانتقامِ ممَّن وقَعَ منه الأذَى؛ بيَّن سُبحانَه أنَّ الأصفياءَ على غيرِ ذلك الحالِ، فقال مُستأنِفًا[2]:

﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٧﴾.

أي: قال: يا لَيْتَ قَومي يَعلَمونَ بمَغفِرةِ رَبِّي لِذُنوبي، وجَعْلِه لي مِنَ الَّذين

---

= وثالثُها: بِرَبِّكم أيُّها السَّامِعونَ فاسْمَعونِ. على العُمومِ، كما قُلْنا في قولِ الواعظِ حيثُ يقولُ: يا مسكينُ، ما أكثَرَ أمَلَك! وما أنزَلَ عَمَلَك! يُريدُ به كُلَّ سامِعٍ يَسْمَعُه). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٣، ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٠).

قال ابنُ جُزي: (واختُلِفَ: هل دخَلَها حينَ مَوتِه كالشُّهداءِ؟ أو هل ذلك بمعنى البِشارةِ بالجنَّةِ ورُؤيتِه لِمَقعدِه منها؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨١).

وممَّن اختار الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠).

قال الشوكاني: (قيلَ له ذلك؛ تكريمًا له بدُخولِها بعدَ قَتلِه، كما هي سُنَّةُ اللهِ في شُهَداءِ عبادِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٤).

أكرَمَهم بدُخولِ جنَّتِه؛ وذلك بسَبَبِ إيماني باللهِ ورُسُلِه[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَسۡعَىٰ﴾ تَبصِرةٌ للمُؤمِنينَ وهدايةٌ لهم؛ ليَكونوا في النُّصحِ باذِلينَ جُهدَهم[٢]، فوَصْفُ الرَّجُلِ بالسَّعيِ يُفيدُ أنَّه جاء مُسرِعًا، وأنَّه بلَغَه هَمُّ أهلِ المدينةِ برَجمِ الرُّسُلِ أو تعذيبِهم، فأراد أن يَنصَحَهم؛ خشيةً عليهم وعلى الرُّسُلِ. وهذا ثَناءٌ على هذا الرَّجُلِ يُفيدُ أنَّه ممَّن يُقتدَى به في الإسراعِ إلى تغييرِ المُنكَرِ[٣]، فيَنْبغي للإنسانِ أن يَنتهِزَ الفُرَصَ في إنذارِ قومِه ومُناصَحتِهم، وألَّا يَتَوانَى، بل يُبادِرُ بالنَّصيحةِ والموعظةِ[٤].

٢- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ﴾ معنًى لطيفٌ؛ فإنَّه يُنبئُ عن إشفاقٍ عليهم وشَفَقةٍ؛ فإنَّ إضافتَهم إلى نفْسِه بقَولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ يُفيدُ أنَّه لا يريدُ بهم إلَّا خيرًا[٥]، فيَنبغي التَّلطُّفُ بالقَولِ في دعوةِ الغَيرِ؛ فإنَّ هذا يَستوجِبُ

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩١-٩٣).

قال ابنُ كثير: (مَقصودُه أنَّهم لو اطَّلعوا على ما حَصَل مِن هذا الثَّوابِ والجزاءِ والنَّعيمِ المقيمِ، لَقادهم ذلك إلى اتِّباعِ الرُّسُلِ، فرحِمَه اللهُ ورَضِيَ عنه؛ فلقد كان حريصًا على هدايةِ قَومِه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٣).

اتِّباعَه، وقَبولَ نُصْحِه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا ﴾ دَليلٌ على نَقصِ مَن يأخُذُ أجرًا على شَيءٍ مِن أفعالِ الشَّرعِ الَّتي هي لازِمةٌ له؛ كالصَّلاةِ[٢].

٤- قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا ﴾ فيَنبغي للدَّاعيةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يَترفَّعَ عن أخْذِ ما في أيدي النَّاسِ مِن الأموالِ -حتَّى وإنْ أَعْطَوه-؛ لأنَّه رُبَّما تَنْقُصُ مَنزِلتُه إذا قَبِلَ ما يُعْطَى مِن أجْلِ دعوتِه وموعظتِه[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ أنَّه يجِبُ على مَن دعا إلى اللهِ أن يكونَ على بَصيرةٍ وعلى عِلمٍ؛ لأنَّ هذا هو وَصْفُ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فهم يَدْعونَ إلى اللهِ على هُدًى منه، وأمَّا مَن يدعو على غيرِ هدًى فإنَّه قد يُفسِدُ أكثرَ ممَّا يُصلِحُ؛ لأنَّ الَّذي يدعو على غيرِ عِلمٍ رُبَّما يَجعَلُ الشَّيءَ الحرامَ حلالًا والحلالَ حرامًا وهو لا يدري، فيَحصُلُ بذلك فَسادٌ في الدِّينِ والعَقيدةِ[٤]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿ إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ أنَّه يَنبغي للدَّاعيةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ إذا دعا إلى الحقِّ أن يَذكُرَ ما في لُزومِه مِن الفَضائلِ، وأنْ يَذكُرَ ما في مُخالَفتِه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٧).

ولا يُستفادُ مِن الآيةِ عدَمُ جوازِ أخْذِ رزقٍ مِن بيتِ المالِ للدَّعوةِ والإرشادِ، وإن كان التَّنزُّهُ عن ذلك أَوْلى. يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٩).

الضَّلالِ والسُّوءِ؛ حتى يَجمَعَ بيْنَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا ﴾ أنَّ عابدي الأصنامِ يُمَوِّهُونَ على النَّاسِ بعبادتِهم؛ فيَدَّعُون أنَّهم يَعبُدونَها لِتَكونَ شفيعًا لهم عندَ اللهِ! وهذا عندَما يَسْمَعُه السَّامعُ يَظُنُّ أنَّهم يَجعلون الآلهةَ في مَرتبةٍ دونَ اللهِ -لأنَّ مرتبةَ الشَّافعِ دونَ مرتبةِ المَشفوعِ إليه-؛ فيَقولون: «إنَّهم شُفعاءُ لنا إلى اللهِ»، والحقيقةُ أنَّهم لم يَجعلوهم شُفعاءَ، بل جعَلوهم شُركاءَ للهِ؛ لأنَّهم يَعبُدونَهم كما يَعبُدونَ اللهَ. فيُستفادُ منه الحذَرُ مِن التَّلبيسِ في الأسماءِ أو بالتَّسميةِ، وأنَّ صاحبَ الباطلِ قد يُسمِّي نفْسَه بما يقتضي أنْ يكونَ على حقٍّ، وليس كذلك(٢)!

٨- قال تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ في هذه الآياتِ تَنبيهٌ عَظيمٌ، ودَلالةٌ على وُجوبِ كَظمِ الغَيظِ، والحِلمِ عن أهلِ الجَهلِ، والتَّرَؤُّفِ على مَن أدخَلَ نفْسَه في غِمارِ الأشرارِ وأهلِ البَغيِ، والتَّشَمُّرِ في تخليصِه، والتَّلَطُّفِ في افتِدائِه، والاشتِغالِ بذلك عن الشَّماتةِ به والدُّعاءِ عليه. ألَا ترى كيف تمنَّى الخيرَ لقَتَلتِه، والباغينَ له الغوائِلَ، وهم كفَرةٌ عبَدةُ أصنامٍ(٣)؟!

٩- قال قَتادةُ: (لا تَلْقَى المؤمِنَ إلَّا ناصِحًا، لا تَلْقاه غاشًّا؛ لَمَّا عايَنَ ما عايَنَ مِن كرامةِ الله: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾، تمنَّى على اللهِ أن يَعلَمَ قَومُه ما عايَنَ مِن كرامةِ اللهِ له، وما هجَمَ عليه!)(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠).

(٤) أخرجه ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (١٩/ ٤٢٥). =

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أنَّ إكرامَ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يَختَصُّ بهذا الرَّجُلِ، بل هناك عالَمٌ يُكرِمُهم اللهُ تعالى؛ ففيه حَثٌّ على أنْ يَفعَلَ الإنسانُ كفِعلِه؛ لِيَنالَ ما ناله؛ فالإكرامُ مَوجودٌ لكُلِّ مَن قام بعَمَلٍ كعَمَلِه[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ مع قَولِه سُبحانَه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣]: دَلالةٌ على أنَّ القَريةَ تُسمَّى مدينةً، والمدينةَ أيضًا تُسمَّى قريةً؛ فمكَّةُ سمَّاها اللهُ تعالى قريةً، وهي أمُّ القُرَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [محمد: ١٣]، فالقريةُ ليست هي البلدَ الصَّغيرَ -كما يَظُنُّ كثيرٌ مِن النَّاسِ- بلِ القريةُ تكونُ مدينةً؛ وذلك لأنَّ أصلَ القريةِ معناه مأخوذٌ مِن القَرْيِ، وهو التَّجمُّعُ؛ فإنَّ النَّاسَ يَجتمِعونَ فيها، فإنْ كانت بلدةً كبيرةً سُمِّيت في عُرفِ النَّاسِ مدينةً، وإنْ كانت دونَ ذلك سُمِّيتْ في عُرفِ النَّاسِ قَريةً؛ فالتَّفريقُ بيْنَ القريةِ والمدينةِ ما هو إلَّا اصطلاحٌ عُرفيٌّ فقط[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ بَلاغةٌ باهِرةٌ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا جاء مِن أقصَى المدينةِ رجُلٌ -وهو قد آمَنَ- دَلَّ على أنَّ إنذارَهم وإبلاغَهم بلَغَ إلى أقصى المدينةِ[٣].

---

= قال ابنُ عثيمين: (هذا الرَّجُلُ ناصِحٌ في حياتِه وبعدَ مماتِه؛ في حياتِه دعا قَومَه إلى توحيدِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأن يُؤمِنوا ويَتَّبِعوا الرُّسُلَ، وبعدَ مماتِه تمنَّى أنَّ قَومَه يَعلَمونَ بغُفرانِ اللهِ له؛ مِن أجْلِ أن يُؤمِنوا ويَتَّبِعوا الرُّسُلَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٢).

٣- في قَولِه تعالى -عن صاحبِ ياسينَ على سبيلِ الرِّضا بهذه المقالةِ، والثَّناءِ على قائلِها، والإقرارِ له عليها-: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ اتِّباعِ الصَّحابةِ رَضِي اللهُ عنهم؛ ووجْهُه: أنَّ كلَّ واحدٍ مِن الصَّحابةِ لم يَسألْنا أجرًا، وهم مُهتَدونَ؛ بدليلِ قَولِه تعالى -خِطابًا لهم-: ﴿وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، و«لَعَلَّ» مِن اللهِ واجِبةٌ[١].

٤- إنَّ اللهَ سُبحانَه يَحتَجُّ على فَسادِ مَذهَبِ مَن عَبَد غيرَه بالأدلَّةِ العَقليَّةِ الَّتي تَقْبَلُها الفِطَرُ والعُقولُ، ويَجعلُ ما رَكَّبه في العُقولِ مِن حُسنِ عبادةِ الخالقِ وَحْدَه، وقُبحِ عبادةِ غيرِه؛ مِن أعظَمِ الأدلَّةِ على ذلك؛ فتأمَّلْ هذا الخطابَ: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ كيف تَجدُ تحتَه أشرَفَ مَعنًى وأجَلَّه، وهو أنَّ كَوْنَه سُبحانَه فاطِرًا لعِبادِه يقتَضي عبادتَهم له، وأنَّ مَن كان مَفطورًا مخلوقًا فحَقيقٌ به أنْ يَعبُدَ فاطِرَه وخالِقَه، ولا سيَّما إذا كان مَرَدُّه إليه؛ فمَبدَؤُه منه ومَصيرُه إليه، وهذا يُوجِبُ عليه التَّفرُّغَ لعبادتِه، ثمَّ احتَجَّ عليهم بما تُقِرُّ به عقولُهم وفِطَرُهم مِن قُبحِ عبادةِ غيرِه، وأنَّها أقبَحُ شَيءٍ في العَقلِ وأنكَرُه، فقال: ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ * إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾، أفلا تَراه كيف لم يَحتَجَّ عليهم بمُجرَّدِ الأمرِ، بل احتَجَّ عليهم بالعَقلِ الصَّحيحِ، ومُقتضَى الفِطرةِ[٢]؟!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ الإرشادُ إلى وُجوبِ الإخلاصِ في العبادةِ؛ لقولِه: ﴿ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾؛ فإنَّ اللهَ تعالى مُنْفَرِدٌ

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٨).

بفَطْرِ الخَلْقِ؛ فيَجبُ أنْ يُفْرَدَ بالعبادةِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أنَّ مِن كَمالِ الدَّعوةِ والتَّعليمِ قَرْنَ الحُكْمِ بدَليلِه أو عِلَّتِه؛ فإنَّ هذا كالتَّعليلِ لِقَولِه: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ﴾؛ ولهذا عَدَلَ عن قَولِه: «ما ليَ لا أعبُدُ اللهَ» إلى قَولِه: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ لِيَكونَ هذا كالدَّليلِ والتَّعليلِ لوُجوبِ إفرادِه سُبحانَه بالعبادةِ، وهذا في القُرآنِ الكريمِ والسُّنَّةِ كثيرٌ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تنبيهٌ لهم على مُوجِبِ الشُّكرِ، وتهديدٌ على ارتِكابِ الكُفرِ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارةٌ إلى الخَوفِ والرَّجاءِ، كما قال: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦]؛ وذلك لأنَّ مَن يكونُ إليه المرجعُ يُخافُ منه، ويُرجَى[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ فضيلةُ هذا الرَّجُلِ بإعلانِه الإيمانَ باللهِ عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]؛ فقد أعْلَن أنَّه مِن المسلمِينَ، ولم يَخَفْ أحدًا سوَى اللهِ تعالى[٥].

١٠- الرُّبوبيَّةُ نَوعانِ: ربوبيَّةٌ عامَّةٌ، وربوبيَّةٌ خاصَّةٌ؛ ففي قولِه: ﴿بِرَبِّكُمْ﴾ -مع كَونِهم مشركينَ كفَّارًا- بيانُ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى العامَّةِ، وفي قَولِه: ﴿بِمَا غَفَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٤).

لِي رَبِّي ﴾ إثباتُ الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الجنَّةَ مخلوقةٌ الآنَ[٢]، وقد دلَّ على ذلك آياتٌ وأحاديثُ كثيرةٌ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، والإعدادُ بمعنى التَّهيئةِ[٣].

١٢- إثباتُ نعيمِ القبرِ؛ لقوله: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، مع أنَّ السَّاعةَ لم تَقُمْ بَعْدُ، ولم يَدْخُلِ النَّاسُ الجنَّةَ[٤].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ أرواحَ المؤمِنينَ تَدخُلُ الجنَّةَ مِن حينِ المَوتِ، وإنَّما قال هذا بعدَما قتَلوه، ورأَى ما أعدَّ الله له[٥].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ فيه أنَّه لا يَدخُلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا برَحمةِ اللهِ، وإن كان مُحسِنًا[٦].

١٥- أنَّ التَّخليةَ قبْلَ التَّحليةِ؛ لِقَولِه: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ وهذا تخليةٌ وإزالةٌ، ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴾ هذا تحليةٌ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٢، ٩٥، ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (١١/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٥).

(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧٠٩)، ((أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور)) لابن رجب (ص: ١١٢).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٨).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ هذا عَطْفٌ على قِصَّةِ التَّحاوُرِ الجاري بيْنَ أصحابِ القريةِ والرُّسلِ الثَّلاثةِ؛ لِبَيانِ البَونِ بيْنَ حالِ المعانِدينَ مِن أهلِ القريةِ وحالِ الرَّجُلِ المؤمنِ منهم الَّذي وَعَظَهم بمَوعظةٍ بالغةٍ، وهو مِن نفَرٍ قليلٍ مِن أهْلِ القريةِ[١].

- قولُه: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾ المرادُ بالمدينةِ هنا نفْسُ القريةِ المذكورةِ في قولِه: ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ ﴾[يس: ١٣]، وعُبِّرَ عنها هنا بـ (المدينةِ) تَفَنُّنًا[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ ﴾، وقال في سُورةِ (القَصصِ) في قِصَّةٍ أُخرى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٞ مِّنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡعَىٰ ﴾[القصص: ٢٠]؛ فقدَّمَ قولَه: ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ ﴾ على ﴿رَجُلٞ﴾ -الَّذي هو الفاعلُ- في سُورةِ (يس)، وأخَّرَه في سُورةِ (القَصَصِ)؛ ووَجْهُه: أنَّ ذِكْرَ الأوصافِ قبْلَ ذِكْرِ الموصوفِ أبلَغُ في المدحِ مِن تقديمِ ذِكْرِه على وصْفِه، فإنَّ النَّاسَ يقولون: «الرئيسُ الأجَلُّ فُلانٌ»، فالَّذي زِيدَ في مَدْحِه -وهو صاحبُ يس- أمَرَ بالمعروفِ، وأعانَ الرُّسلَ، وصبرَ على القتلِ؛ والآخَرُ إنَّما حَذَّرَ موسى مِن القتلِ، فسَلِمَ موسى بقَبُوله مَشورتَه؛ فالأوَّلُ هو الآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المنكَرِ، والثَّاني هو ناصحُ الآمرِ بالمعروفِ؛ فاستحقَّ الأوَّلُ الزيادةَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) والمناسبةُ المذكورةُ لابنِ هبيرةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٩).

وجْهٌ آخَرُ: أنْ يُقالَ: إنَّ الفاعلَ في المَوضعَينِ لَمَّا كان نَكِرةً فالمعنى: جاءَ جاءٍ، وقد دلَّ الفِعلُ على (جاءٍ)، ولا يكونُ الجائي مِن أقصى المدينةِ في الأعمِّ الأغلبِ إلَّا رجُلًا، وكان الَّذي يُفادُ المخاطَبُ أنْ يَعلَمَ أنَّه جاء مِن مَكانٍ بَعيدٍ إلى مُجتمعِ النَّاسِ في القريةِ، وحيث لا يَقرُبُ مِن مَجاري القصَّةِ، ولا يَحضُرُ مَوضعَ الدَّعوةِ ومَشهدَ المعجزةِ؛ فقُدِّمَ ما تَبْكيتُ القومِ به أعظَمُ، والتَّعجُّبُ منه أكثَرُ، فقال: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ﴾ يَنصَحُ لهم ما لا يَنصَحون مِثلَه لأنفُسِهم، ولا يَنصَحُ لهم أقْربوهم، مع أنَّه لم يَحضُرْ جميعَ ما يَحضُرونه، ولم يُشاهِدْ مِن كلامِ الأنبياءِ ما يُشاهِدونَه! فحَثَّهم على اتِّباعِ الرُّسلِ المبعوثينَ إليهم، وقَبولِ ما يأْتون به مِن عندِ مُرسِلِهم. وأمَّا الآيةُ في سُورةِ (القصصِ) فإنَّ المرادَ: جاء مَن لا يَعرِفُه مُوسى مِن مكانٍ لم يكُنْ مُجاورًا لمكانِه، فأعلَمَه ما فيه الكفَّارُ مِن ائتِمارِهم به، فاستوى حُكمُ الفاعلِ والمكانِ الَّذي جاء منه؛ فقُدِّمَ ما أصْلُه التَّقديمُ -وهو الفاعلُ-؛ إذ لم يكُنْ هنا تَبكيتٌ للقومِ بكَونِه مِن أقصى المدينةِ كما كان ذلك في آيةِ سُورةِ (يس)[1].

وجْهٌ آخَرُ: أنَّ تقديمَ المجرورِ ﴿مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ﴾ مُشيرٌ إلى إحرازِ معنًى جليلٍ مُطلعٍ على حُكمِ السَّوابقِ مِن إيمانِ مَن بَعُدَ مَسافةً عن داعيةٍ إلى الهدايةِ، فلمْ يَضُرَّه بُعْدُ الدَّارِ، وكُفرِ مَن باشَرَ الرُّسلَ وشافَهَهم، فلمْ يَنتفِعْ بقُرْبِ الدَّارِ، وحاصلُ الإخبارِ مِن هذه الآياتِ مِثالٌ لحالِ كُفَّارِ قُريشٍ مِن أهلِ مكَّةَ، وحالِ الأنصارِ مِن أهلِ المدينةِ، حينَ جاء هؤلاء وآمَنوا به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع بُعدِ دارِهم، وعانَدَ عُتاةُ قُريشٍ فكَفَروا مع الالتحامِ في النَّسبِ واتِّحادِ الدَّارِ، ويُوضِّحُ هذا أنَّ السُّورةَ مكِّيَّةٌ، وإنَّما افتُتِحَت بذِكرِ قُريشٍ، وهم المَعْنِيُّون بقولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ١٠٨٣).

فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [يس: ٦] إلى ما بَعْدُ مِن الآياتِ، فمَجيءُ الرَّجُلِ مِن أقْصَى المدينةِ مِثالٌ لِمَن بَعُدَ فلمْ يَضُرَّه بُعْدُه، وذِكرُه المُراجِعينَ للرُّسلِ مِن أصحابِ القَريةِ مِثالٌ لِمَن قَرُبَ، وطالَت مُباشَرتُه، وشاهَدَ الآياتِ، فلمْ يَنفَعْه قُرْبُه[١].

- وجْهٌ آخَرُ: أنَّ وَجْهَ تَقديمِ ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ على ﴿رَجُلٌ ﴾؛ للاهتمامِ بالثَّناءِ على أهْلِ أقْصى المدينةِ، وأنَّه قد يُوجَدُ الخَيرُ في الأطرافِ ما لا يُوجَدُ في الوسَطِ، وأنَّ الإيمانَ يَسبِقُ إليه الضُّعفاءُ؛ لأنَّهم لا يَصُدُّهم عن الحقِّ ما فيه أهلُ السِّيادةِ مِن تَرَفٍ وعَظَمةٍ؛ إذ المُعتادُ أنَّهم يَسكُنون وسَطَ المدينةِ، وأمَّا قولُه تعالى في سُورةِ (القَصَصِ) [٢٠]: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ ﴾ فجاء النَّظمُ على التَّرتيبِ الأصليِّ؛ إذ لا داعيَ إلى التَّقديمِ؛ إذ كان ذلك الرَّجُلُ ناصحًا، ولم يكُنْ داعيًا للإيمانِ[٢]. وقيل: تَقدَّمَ قولُه: ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ ﴾ وتأخَّرَ في (القَصَصِ)؛ تَفنُّنًا في البلاغةِ[٣].

- قولُه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ افتتاحُ خِطابِ الرَّجلِ إيَّاهم بنِدائِهم بوَصفِ القَوميَّةِ له، قَصَدَ منه أنَّ في كلامِه الإيماءَ إلى أنَّ ما سيُخاطِبُهم به هو مَحْضُ نَصيحةٍ؛ لأنَّه يُحِبُّ لِقَومِه ما يُحِبُّ لِنَفْسِه؛ ففيه تأْليفٌ لِقُلوبِهم واستِمالتُها[٤].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ رِسالةِ المرسَلينَ حَثٌّ لهمْ على اتِّباعِهم[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال الرَّجُلُ هنا: ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾،

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٣٨٣، ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((التحرير والتنوير)) (٢٢/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٣).

وقال مُؤمِنُ آلِ فِرعونَ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨]؛ والفرْقُ بيْنَهما: أنَّ هذا الرَّجُلَ جاءَهم، وفي أوَّلِ مَجيئِه نَصَحَهم، وما رأَوا سِيرتَه، فقال: اتَّبِعوا هؤلاء الَّذين أظْهَروا لكم الدَّليلَ، وأوضَحُوا لكمُ السَّبيلَ، وأمَّا مُؤمِنُ آلِ فِرعونَ فكان فيهم، واتَّبَعَ مُوسى، ونصَحَهم مِرارًا، فقال: اتَّبِعوني في الإيمانِ بمُوسى وهارونَ عليهما السَّلامُ، واعْلَموا أنَّه لو لم يكُنْ خيرًا لَمَا اختَرْتُه لِنَفْسي -وأنتم تَعلَمون أنِّي اختَرْتُه-، ولم يكُنْ للرَّجُلِ الَّذي جاء مِن أقْصى المدينةِ أنْ يقولَ: أنتُم تَعلَمون اتِّباعي لهم[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾

- جُملةُ ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ مُؤكِّدةٌ لِجُملةِ ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وتَتميمٌ لها، مع زِيادةِ الإيماءِ إلى عِلَّةِ اتِّباعِهم بلَوائحِ عَلاماتِ الصِّدقِ والنُّصحِ على رِسالتِهم؛ إذ همْ يَدْعون إلى هُدًى، ولا نفْعَ يَنجَرُّ لهم مِن ذلك، فتَمحَّضَتْ دَعوتُهم لِقَصدِ هِدايةِ المرسَلِ إليهم. أي: اتَّبِعوا مَن لا تَخسَرون معهم شيئًا مِن دُنياكم، وتَربَحون صِحَّةَ دِينِكم[2].

- وقدَّم بقولِه: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّ الرِّسالةَ وَصْفٌ يَقتضي وُجوبَ قَبولِ المُرسَلِ؛ ثمَّ قال: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ فهذا مِن بابِ الكمالِ، وينبغي أنْ يُقَدَّمَ الوَصْفُ الموجِبُ للقَبولِ قبْلَ الوصفِ المُفَضِّلِ للقَبولِ[3].

- قولُه: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ قُدِّمَ في الصِّلةِ عدَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٧٧).

سؤالِ الأجرِ على الاهتِداءِ؛ لأنَّ القَومَ كانوا في شَكٍّ مِن صِدقِ المرسَلينَ، وكان مِن دَواعي تَكذيبِهم اتِّهامُهم بأنَّهم يَجُرُّون لأنفُسِهم نفْعًا مِن ذلك؛ لأنَّ القومَ لَمَّا غلَبَ عليهم التَّعلُّقُ بحُبِّ المالِ، وصاروا بُعَداءَ عن إدراكِ المقاصِدِ السَّاميةِ؛ كانوا يَعُدُّون كلَّ سَعيٍ يَلُوحُ على امْرِئٍ إنَّما يَسْعى به إلى نَفْعِه؛ فقُدِّمَ ما يُزيلُ عنهم هذه الاستِرابَةَ، ولِيَتهَيَّؤوا إلى التَّأمُّلِ فيما يَدْعُونهم إليه، ولأنَّ هذا مِن قَبيلِ التَّخليةِ بالنِّسبةِ للمُرسَلينَ والمرسَلِ إليهم، والتَّخليةُ تُقدَّمُ على التَّحليةِ؛ فكانتْ جُملةُ ﴿لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ أهَمَّ في صِلةِ الموصولِ[1].

- والأجْرُ يَصدُقُ بكلِّ نفْعٍ دُنيويٍّ يَحصُلُ لأحدٍ مِن عمَلِه؛ فيَشملُ المالَ والجاهَ والرِّئاسةَ، فلمَّا نُفِيَ عنهم أنْ يَسألوا أجْرًا فقدْ نُفِيَ عنهم أنْ يَكونوا يَرْمون مِن دَعوتِهم إلى نفْعٍ دُنيويٍّ يَحصُلُ لهم. وبعدَ ذلك تَهيَّأَ الموقعُ لِجُملةِ ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، أي: وهمْ مُتَّصِفون بالاهتداءِ إلى ما يأْتي بالسَّعادةِ الأبَديَّةِ، وهمْ إنَّما يَدْعُونكم إلى أنْ تَسِيروا سِيرتَهم، فإذا كانوا همْ مُهتدينَ، فإنَّ ما يَدْعونكم إليه مِن الاقتِداءِ بهم دَعوةٌ إلى الهُدى؛ فتَضمَّنَت هذه الجُملةُ بمَوقعِها بعْدَ الَّتي قبْلَها ثَناءً على المرسَلينَ وعلى ما يَدْعون إليه، وتَرغيبًا في مُتابَعتِهم[2].

- وجاءتِ الجُملةُ الأُولى مِن الصِّلةِ فِعليَّةً مَنْفيَّةً ﴿لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾؛ لأنَّ المقصودَ نَفْيُ أنْ يَحدُثَ منهم سؤالُ أجرٍ فضْلًا عن دَوامِه وثَباتِه، وجاءتِ الجُملةُ الثَّانيةُ ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ اسميَّةً؛ لإفادةِ إثباتِ اهتدائِهم ودَوامِه، بحيث لا يَخْشَى مَن يتَّبِعُهم أنْ يكونَ في وَقتٍ مِن الأوقاتِ غيرَ مُهتَدٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٦٨).

- وخِتامُ هذه الآيةِ بقولِه: ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ لم يكُنْ مُجرَّدَ زِيادةٍ، بل كان لتَوقُّفِ المَوعظةِ عليها، وكان قولُه: ﴿مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا﴾ كالتَّوطئةِ له[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لِقَصْدِ إشعارِهم بأنَّه اتَّبَعَ المرسَلينَ، وخلَعَ عِبادةَ الأوثانِ. وأبرَزَ الكلامَ في صُورةِ استِفهامٍ إنكاريٍّ، وبصِيغةِ: (ما ليَ لا أفعَلُ)، الَّتي شأْنُها أنْ يُورِدَها المتكلِّمُ في رَدٍّ على مَن أنكَرَ عليه فِعلًا، أو ملَكَه العجَبُ مِن فِعلِه، أو يُورِدَها مَن يُقدِّرُ ذلك في قلْبِه؛ ففيه إشعارٌ بأنَّهم كانوا مُنكِرينَ عليه الدَّعوةَ إلى تَصديقِ الرُّسلِ الَّذين جاؤوا بتَوحيدِ اللهِ؛ فإنَّ ذلك يَقْتضِي أنَّه سبَقَهم بما أمَرَهم به[2].

- وهذا الخبَرُ أيضًا ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بهم، كأنَّه يقولُ: وما ليَ لا أعبُدُ، وما لَكمْ لا تَعبُدون الَّذي فطَرَكم؟! بقَرينةِ قولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ إذ جعَلَ الإسنادَ إلى ضَميرِهم تَقويةً لمعنى التَّعريضِ[3].

- وإنَّما ابتدَأَ في قولِه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ بإسنادِ الخبَرِ إلى نفْسِه؛ لإبرازِه في مَعرِضِ المُناصَحةِ لِنفْسِه، وهو مُريدٌ مُناصَحتَهم؛ لِيَتلطَّفَ بهم، ويُدارِئَهم فيُسمِعَهم الحقَّ على وَجهٍ لا يُثيرُ غضَبَهم، ويكونَ أعْوَنَ على قَبولِهم إيَّاه حينَ يَرَون أنَّه لا يُريدُ لهم إلَّا ما يُريدُ لِنَفْسِه، والمرادُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تقريعُهم على تَرْكِهم عِبادةَ خالقِهم إلى عِبادةِ غَيرِه؛ ولذلك قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مُبالَغةً في التَّهديدِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قالَهُ الجائي مِن المدينةِ، وأضافَ الفِطرةَ إلى نفْسِه، والرُّجوعَ -الَّذي هو البعثُ- إليهم، مع عِلمِه بأنَّ اللهَ فَطَرَهم وإيَّاه، وإليه يَرجِعُ هو وهمْ، فلَمْ يَقُلْ: (الَّذي فطَرَنا وإليه نَرجِعُ)، أو (فطَرَكم وإليه تُرجَعون)؛ لأنَّ الخَلْقَ والإيجادَ نِعمةٌ مِن اللهِ تعالى تُوجِبُ الشُّكرَ، والبعثَ بعدَ الموتِ للجزاءِ وَعيدٌ مِن اللهِ يُوجِبُ الزَّجرَ، فأضاف ما يَقْتضي الشُّكرَ لِنفْسِه؛ لأنَّه أَلْيَقُ بإيمانِه، وما يَقْتَضي الزَّجرَ إليهم؛ لأنَّه أَلْيَقُ بكُفْرِهم[٢].

وقيل: في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ احتِباكٌ[٣]، حَذَف «وإليه أَرجِعُ» أوَّلًا لَمَّا دَلَّ عليه ثانيًا، وإنكارَه عليهم ثانيًا بما دَلَّ عليه أوَّلًا مِن إنكارِه على نَفْسِه؛ استِجلابًا لهم بإظهارِ الإنصافِ، والبُعدِ عن التَّصريحِ بالخِلافِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧١، ٤٧٢).

(٣) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١١).

شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴾

- جُملةُ ﴿ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ﴾ رُجوعٌ إلى طَريقةِ التَّعريضِ، وهي استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لاستِشعارِ سُؤالٍ عن وُقوعِ الانتفاعِ بشَفاعةِ تلك الآلهةِ عندَ الَّذي فطَرَه. والاستِفهامُ إنكاريٌّ، أي: أُنكِرُ على نَفْسي أنْ أتَّخِذَ مِن دُونِه آلهةً، أي: لا أتَّخِذُ آلهةً، والاتِّخاذُ: افتِعالٌ مِن الأخْذِ، وهو التَّناوُلُ، والتَّناوُلُ يُشعِرُ بتَحصيلِ ما لم يكُنْ قبْلُ، فالاتِّخاذُ مُشعِرٌ بأنَّه صُنِع، وذلك مِن تَمامِ التَّعريضِ بالمخاطَبينَ؛ أنَّهم جَعَلوا الأوثانَ آلهةً وليست بآلهةٍ؛ لأنَّ الإلهَ الحقَّ لا يُجعَلُ جَعْلًا، ولكنَّه مُستحِقٌّ الإلهيَّةَ بالذَّاتِ[1].

- قولُه: ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ ﴾ أي: يُرِدْنِ اللهُ عزَّ وجلَّ، والتَّعبيرُ بوَصْفِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ دونَ اسمِ الجلالةِ؛ لأنَّ المشركينَ كانوا يُنكِرون اسمَ الرَّحمنِ، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]. وللإشارةِ كذلك إلى أنَّ رَحمتَه لا تَقْتضي عدَمَ خَشيتِه؛ فالمؤمنُ يَخْشى اللهَ مع عِلمِه برَحمتِه، فهو يَرْجو الرَّحمةَ. وأيضًا ذكَرَ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾؛ لأنَّه اسمٌ يدُلُّ على الرَّحمةِ، ولَمَّا كان الضُّرُّ قد يَفهَمُ منه مَن يَفهَمُ مِن النَّاسِ انتفاءَ الرَّحمةِ عن المُريدِ؛ ذكَرَ ذلك باسمِ (الرَّحمن) لئلَّا يَظُنَّ ظانٌّ أو يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ هذا الوهمَ: أنَّ إرادةَ اللهِ الضُّرَّ للإنسانِ تُنافي الرَّحمةَ؛ لأنَّ إرادةَ الضُّرِّ بالإنسانِ قد يكونُ مِن رَحمةِ اللهِ بالإنسانِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]، فما يُصيبُ الإنسانَ مِن الضُّرِّ له نتائجُ حَميدةٌ، وهي الرُّجوعُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والاعتبارُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٥٤، ٣٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٨١).

- وجاءَ وصْفُ الآلهةِ المزعومةِ المفروضةِ الاتِّخاذِ بجُملةِ الشَّرطِ ﴿إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ﴾، والمقصودُ به التَّعريضُ بالمخاطَبينَ في اتِّخاذِهم تلك الآلهةَ بعِلَّةِ أنَّها تَشفَعُ لهم عندَ اللهِ، وتُقرِّبُهم إليه زُلْفى[1].

- وقد عُلِمَ مِن انتفاءِ دَفْعِهم الضُّرَّ أنَّهم عاجزونَ عن جَلْبِ نَفْعٍ؛ لأنَّ دَواعيَ دَفعِ الضُّرِّ عن المولى أقْوَى وأهَمُّ، ولِحاقَ العارِ بالوليِّ في عَجْزِه عنه أشَدُّ، وإذ قد نُفِيَ عن شَفاعتِهم النَّفْعُ للمَشفوعِ فيه، فقد نُفِيَ عنهم أنْ يَشفَعوا بطَريقِ الالتِزامِ؛ لأنَّ مَن يَعلَمُ أنَّه لا يُشَفَّعُ لا يَشفَعُ، فكأنَّه قال: أأتَّخِذُ مِن دُونِه آلهةً لا شَفاعةَ لهم عندَ اللهِ؟! لإبطالِ اعتِقادِهم أنَّهم شُفعاءُ مَقبولو الشَّفاعةِ. وإذ كانت شَفاعتُهم لا تَنفَعُ -لِعَجزِهم، وعدَمِ مُساواتِهم للهِ الَّذي يَضُرُّ ويَنفَعُ في صِفاتِ الإلهيَّةِ-؛ كان انتفاءُ أنْ يُنقِذوا أَولَى. وإنَّما ذُكِرَ العُدولُ عن دَلالةِ الفَحوى[2] إلى دَلالةِ المنطوقِ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تَصريحٍ؛ لِتَعلُّقِه بالإيمانِ، وهو أساسُ الصَّلاحِ[3].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ جوابٌ للاستِفهامِ الإنكاريِّ ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾؛ فحرْفُ (إذًا) جزاءٌ للمَنفيِّ لا للنَّفْيِ، أي: إنِ اتَّخَذْتُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٩).

(٢) دَلالة الفَحوى أو فحوى الخطابِ: هو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، وهو نوعانِ: تنبيهٌ بالأقلِّ على الأكثرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نبَّه بالنهيِ عن قولِ (أفٍّ) على النهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك. وتنبيهٌ بالأكثرِ على الأقلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٩).

دونِ اللهِ آلهةً أكُنْ في ضلالٍ مُبينٍ[١].

- وأُكِّدَت الجملةُ بمؤكِّدَينِ: «إنَّ» و«اللامِ»؛ لأنَّ المُخاطَبَ منكِرٌ، فهو يُخاطِبُ قومَه الَّذين اتَّخَذوا مع اللهِ آلهةً[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾

- قولُه: ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ ﴾ خِطابٌ مِن الرَّجُلِ المؤمنِ للرُّسلِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- بطَريقِ التَّلوينِ، وإنَّما أكَّدَه بـ (إنَّ)؛ لإظهارِ صُدورِه عنه بكَمالِ الرَّغبةِ والنَّشاطِ، وأضافَ الرَّبَّ إلى ضَميرِهم؛ رَوْمًا لِزيادةِ التَّقريرِ، وإظهارًا للاختِصاصِ والاقتداءِ بهم، كأنَّه قال: بربِّكم الَّذي أرْسَلَكم، أو الَّذي تَدْعُونَنا إلى الإيمانِ به. وقِيل: الخِطابُ للكَفَرةِ؛ شافَهَهَم بذلك إظهارًا للتَّصَلُّبِ في الدِّينِ، وعدَمِ المُبالاةِ بالقتلِ، وإضافةُ الرَّبِّ إلى ضَميرِهم؛ لِتَحقيقِ الحقِّ، والتَّنبيهِ على بُطلانِ ما همْ عليه مِن اتِّخاذِ الأصنامِ أربابًا[٣].

- وأيضًا هذه الجُملةُ ﴿ إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ ﴾ واقعةٌ مَوقعَ الغايةِ مِن الخِطابِ، والنَّتيجةِ مِن الدَّليلِ. وهذا إعلانٌ لإيمانِه، وتَسجيلٌ عليهم بأنَّ اللهَ هو ربُّهم، لا تلك الأصنامُ. وأكَّدَ الإعلانَ بتَفريعِ ﴿فَٱسۡمَعُونِ ﴾؛ استِدعاءً لِتَحقيقِ أسماعِهم إنْ كانوا في غَفلةٍ؛ فالأمْرُ على جِهةِ المبالَغةِ والتَّنبيهِ[٤].

٧- قَولُه تعالى: ﴿ قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٦٩).

- قولُه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لِمَا يَنتظِرُه سامعُ القِصَّةِ مِن مَعرفةِ ما لَقِيَه مِن قَومِه بعْدَ أنْ واجَهَهم بذلك الخِطاب الجَزلِ، وهلْ اهتَدَوا بهَدْيِه، أو أعْرَضُوا عنه وتَرَكوه، أو آذَوْه كما يُؤذَى أمثالُه مِن الدَّاعينَ إلى الحقِّ، المُخالِفينَ هَوى الدَّهْماءِ؛ فيُجابُ بما دَلَّ عليه قولُه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾، وهو الأهمُّ عندَ المسلمينَ، وهمْ مِن المقصودينَ بمَعرفةِ مِثلِ هذا؛ لِيَزْدادوا يَقينًا وثَباتًا في إيمانِهم، وأمَّا المشرِكون فحَظُّهم مِن المثَلِ ما تَقدَّمَ وما يأْتي مِن قولِه: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾[1] [يس: ٢٩].

- وفي قولِه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ كِنايةٌ عن قتْلِه شَهيدًا في إعلاءِ كَلمةِ اللهِ؛ لأنَّ تَعقيبَ مَوعظتِه بأمْرِه بدُخولِ الجنَّةِ دَفْعةً بلا انتِقالٍ يُفيدُ بدَلالةِ الاقتضاءِ أنَّه مات، وأنَّهم قَتَلوه لِمُخالَفتِه دِينَهم، وأنَّ هذا الرَّجُلَ المؤمنَ قد أُدخِلَ الجنَّةَ عقِبَ مَوتِه؛ لأنَّه كان مِن الشُّهداءِ[2].

- والقائِلُ: ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ هو اللهُ تعالى -على قَولٍ-، والمَقولُ له هو الرَّجُلُ الَّذي جاء مِن أقْصَى المدينةِ، قيل: وإنَّما لم يُذكَرْ ضَميرُ المَقولِ له مَجرورًا باللَّامِ؛ لأنَّ القولَ المذكورَ هنا قولٌ تَكوينيٌّ لا يُقصَدُ منه المُخاطَبُ به، بل يُقصَدُ حِكايةُ حُصولِه؛ لأنَّه إذا حصَلَ حصَلَ أثَرُه، كقولِه تعالى: ﴿أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠][3]. أو لم يأْتِ التَّركيبِ: (قِيلَ له)؛ لانصبابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠).

الغرَضِ إلى المَقولِ وعِظَمِه، لا إلى المَقولِ له، مع كَونِه معلومًا[١].

- وإذ لمْ يُقَصَّ في المثَلِ أنَّه غادَرَ مَقامَه الَّذي قام فيه بالموعظةِ، كان ذلك إشارةً إلى أنَّه مات في مَقامِه ذلك، ويُفهَمُ منه أنَّه مات قتيلًا في ذلك الوقتِ أو بإثْرِه. وإنَّما سُلِكَ في هذا المعنى طَريقُ الكِنايةِ، ولم يُصرَّحْ بأنَّهم قَتَلوه؛ إغماضًا لهذا المعنى عن المشركينَ؛ كَيْلا يَسُرَّهم أنَّ قَومَه قَتَلوه، فيَجْعَلوه مِن جُملةِ ما ضُرِبَ به المثَلُ لهم وللرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَطْمَعوا فيه أنَّهم يَقتُلون الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فهذه الكِنايةُ لا يَفهَمُها إلَّا أهلُ الإسلامِ الَّذين تَقرَّرَ عندَهم التَّلازُمُ بيْنَ الشَّهادةِ في سَبيلِ اللهِ ودُخولِ الجنَّةِ، أمَّا المشرِكون فيَحسَبون أنَّ ذلك في الآخرةِ. وقد تكونُ في الكلامِ البليغِ خَصائصُ يَختَصُّ بنَفْعِها بعضُ السَّامِعينَ[٢].

- وفي قولِه: ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بائتلافِ الفاصلةِ[٣] مع ما يدُلُّ عليه سائرُ الكلامِ؛ فإنَّ ذِكرَ الجنَّةِ مهَّدَ لِفاصِلَتِها، وهو جُملةٌ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ السَّامعَ يَترقَّبُ ماذا قال حينَ غَمَره الفرَحُ بدُخولِ الجنَّةِ، والمعنى: أنَّه لم يُلْهِه دُخولُه الجنَّةَ عن حالِ قَومِه؛ فتَمنَّى أنْ يَعلَموا ماذا لَقِيَ مِن ربِّه؛ لِيَعلَموا فَضيلةَ الإيمانِ فيُؤمِنوا، وما تَمنَّى هَلاكَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٣) ائتلافُ الفاصلةِ أو التمكينُ: هو أن يُمَهَّدَ قبلَ الفاصلةِ تمهيدٌ تأتي به الفاصلةُ مُمَكَّنةً في مكانها، مُستقرَّةً في قرارِها، مُطمئِنَّةً في موضعها، غيرَ نافرةٍ ولا قَلِقةٍ، مُتعلِّقًا معناها بمعنى الكلامِ كلِّه تَعلُّقًا تامًّا، بحيثُ لو طُرِحتْ لاختلَّ المعنى، واضطرَب الفَهمُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٧٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٨).

ولا الشَّماتةَ بهم؛ فكان مُتَّسِمًا بكَظمِ الغَيظِ، وبالحِلمِ على أهْلِ الجهلِ[١].

٨- قَولُه تعالى: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ أي: بأيِّ شَيءٍ غَفَرَ لي ربِّي، يُرِيدُ به تَفخيمَ شأنِ المُهاجَرةِ عن دِينِهم، والمُصابَرةِ على أذيَّتِهم[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي ﴾ أُدخِلَت الباءُ على مَفعولِ ﴿يَعْلَمُونَ ﴾ السَّابقِ؛ لِتَضمينِه معنى: (يُخبَرون)؛ لأنَّه لا مَطمَعَ في أنْ يَحصُلَ لهم عِلمُ ذلك بالنَّظرِ والاستِدلالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٧١).

## الآيات (٢٨-٣٢)

﴿ ۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ خَٰمِدُونَ ﴾: أي: مَيِّتونَ هالِكونَ، وأصلُ (خمد): يدُلُّ على سُكونِ الحَركةِ، والسُّقوطِ[1].

﴿ يَٰحَسۡرَةً ﴾: الحسرةُ: التَّلَهُّفُ والاغتِمامُ على ما فاتَ ولا يمكِنُ ارتجاعُه، وهي أشدُّ النَّدامةِ، وأصلُ (حسر): كشْفُ الشَّيءِ، فالحسرةُ انكشافٌ عن حالِ النَّدامةِ[2].

﴿ ٱلۡقُرُونِ ﴾: جمعُ قَرْنٍ، والقَرنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المَقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غير مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتماعُ شَيئَينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨١) و(١٨/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٦، ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، =

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ * وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

(كم) هنا خَبَريَّةٌ في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، والتَّقديرُ: كثيرًا مِن القرونِ أهلَكْنا. وهي مُعَلِّقَةٌ لـ﴿يَرَوْا﴾ عن العمَلِ ذَهابًا بالخَبريَّةِ مذهَبَ الاستِفهاميَّةِ. وقيل: (كم) استفهاميَّةٌ، وعلى كُلٍّ فالجُملةُ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ سَدَّت مَسَدَّ مَفعولَي ﴿يَرَوْا﴾؛ لأنَّ الرُّؤيةَ عِلميَّةٌ، و﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ مَصدَرٌ مُؤوَّلٌ في موضعِ نَصبٍ، بَدَلٌ مِن محلِّ ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ على تقديرِ: ألم يَروا أنَّ القُرونَ الَّذين أهلَكْناهم أنَّهم إليهم لا يَرجِعونَ. وقيل: المصدرُ المؤوَّلُ في محلِّ نَصبٍ على نزعِ الخافِضِ متعلق بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: بأنَّهم، وكأنَّه قيل: أهلَكْناهم بأنَّهم لا يَرجِعونَ، أي: بهذا الضَّربِ مِن الهلاكِ. وقيل: المصدَرُ المؤوَّلُ مَعمولٌ لفِعلٍ محذوفٍ دَلَّ عليه السِّياقُ، والمعنى: قَضَيْنا وحَكَمْنا أنَّهم لا يَرجِعونَ[1].

قَولُه تعالى: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾

(إنْ) نافيةٌ، و﴿كُلٌّ﴾ مُبتدأٌ وتنوينُه عِوَضٌ عن المضافِ إليه، و﴿لَمَّا﴾ بمعنى (إلَّا) الاستِثنائيَّةِ، و﴿جَمِيعٌ﴾ خبَرُ المبتدأِ ﴿كُلٌّ﴾، و﴿لَّدَيْنَا﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(١) يُنظر: ((الكتاب لسيبويه)) (٣/ ١٣٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨٥)، ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (٣/ ٣٥٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٦٠)، ((مغني اللبيب- مع حاشية الأمير)) (١/ ١٥٧، ١٥٨)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٥).

بـ﴿جَمِيعٌ﴾؛ لأنَّه بمعنى مَفعول، أي: مجموعونَ، أو مُتعَلِّقٌ بـ (مُحضَرون)، و (مُحْضَرُونَ) خبَرٌ ثانٍ لـ (كُلٌّ)، أو نعتٌ لـ ﴿جَمِيعٌ﴾ وجُمِعَ على المعنى، والمعنى: ما كُلُّهم إلَّا مجموعونَ لدينا، مُحضَرون للحِسابِ والجزاءِ. وقُرِئَ ﴿لَمَا﴾ بالتَّخفيفِ[1]؛ وعليه فـ (إنْ) مُخفَّفةٌ مِن الثَّقيلةِ، واللَّامُ في ﴿لَمَا﴾ فارقةٌ، و(ما) مَزيدةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: وإنَّ الشَّأنَ كُلٌّ لَجميعٌ لدينا مُحضَرونَ، وهذا مَذهَبُ البصريِّينَ، وذهب الكوفيُّونَ إلى أنَّ (إنْ) نافيةٌ، واللَّامُ في ﴿لَمَا﴾ بمَعنى (إلَّا)، و (ما) مزيدةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى كما في قِراءةِ التَّشديدِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما نزَل بأصحابِ القريةِ مِن عذابٍ أهلَكهم: وما أنزَلْنا على قَومِ ذلك الرَّجُلِ المؤمِنِ -بعدَ أن قتَلوه- ملائِكةً مِن السَّماءِ لإهلاكِهم، وما كُنَّا مُنزِلينَ؛ فما كانت عُقوبتُهم إلَّا صَيحةً واحِدةً، فإذا هم ميِّتون هامِدونَ! يا حَسرةً على العِبادِ؛ فما يأتيهم في الدُّنيا مِن رَسولٍ إلَّا استَهزؤوا به!

ألم يَرَوْا أنَّنا أهلَكْنا كثيرًا مِن الأُمَمِ السَّابقةِ عليهم؛ بسَبَبِ إصرارِهم على كُفرِهم، واستِهزائِهم برُسُلِهم، وأنَّ هؤلاء المُهلَكينَ لا يَرجِعون إليهم؟! وما مِن أمَّةٍ مِن الأُمَمِ إلَّا وستُحضَرُ إلينا يومَ القيامةِ؛ لِنُحاسِبَها على أعمالِها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾.

---

(١) قرأها بالتَّشديدِ: ابنُ عامرٍ وعاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ، والباقون بتخفيفِها. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٩٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٧٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن بيَّن تعالى حالَ النَّاصحِ الشَّهيدِ، ودُخولَه الجنَّةَ- أردَف ذلك ذِكرَ حالِ المتخَلِّفينَ المُخالِفينَ له[١].

وأيضًا فهو رُجوعٌ إلى قِصَّةِ أصحابِ القريةِ بعدَ أن انقَطَعَ الحديثُ عنهم بذِكْرِ الرَّجُلِ المؤمنِ الَّذي جاءَ مِن أقصَى المدينةِ ناصحًا لهم، وكان هذا الرُّجوعُ بمُناسَبةِ أنَّ القومَ قومُ ذلك الرَّجُلِ[٢].

﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨﴾.

أي: وما أنزَلْنا على قَومِ الرَّجُلِ المؤمِنِ -مِن بَعدِ قَتلِهم له- مَلائِكةً مِنَ السَّماءِ لإهلاكِهم، وما كُنَّا مُنزِلينَ لهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٨)، ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٦ - ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٢، ٥٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٨، ٩٩).

قيل: ما أنزَل الله جُندًا مِن السَّماءِ لإهلاكِهم؛ لأنَّهم أهْوَنُ مِن ذلك وأحقرُ، والأمرُ كان أيسَرَ مِن ذلك. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٩٩).

وقال الشوكاني: (﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾... لِسَبْقِ قَضائِنا وقَدَرِنا بأنَّ إهلاكَهم بالصَّيحةِ لا بإنْزالِ الجُنْدِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢١).

وقيل: معنى الآيةِ: ما أنزَلْنا عليهم مِن رسالةٍ مِن السَّماءِ ولا نَبيٍّ بعدَ قَتلِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢١).

قال ابنُ جُزَي: (ولَفظُ الجُندِ أَلْيَقُ بالمعنى الأوَّلِ [أي: إنزالِ ملائكةٍ لإهلاكِهم]، وكذلك ذِكرُ الصَّيحةِ بعدَ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨١). =

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: ما كانت عُقوبةُ أصحابِ القَريةِ إلَّا صَيحةً واحِدةً بلا تَكرارٍ؛ فإذا هم مَيِّتونَ هامِدونَ(١).

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: يا حَسرةً على العِبادِ(٢)؛ فإنَّهم لا يأتيهم في الدُّنيا رَسولٌ مِن رُسُلِ اللهِ إلَّا

---

= وقال ابن جرير: (وذلك أنَّ الرِّسالةَ لا يُقالُ لها جُنْدٌ... وأنَّ الرُّسُلَ مِن بني آدمَ لا يُنْزَلونَ مِن السَّماءِ، والخبرُ في ظاهرِ هذه الآيةِ عن أنَّه لم يُنْزِلْ مِن السَّماءِ بعدَ مَهْلِكِ هذا المؤمنِ على قومِه جُندًا، وذلك بالملائكةِ أَشْبَهُ منه ببَني آدَمَ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٨) بتصرف يسير.

وقال أبو حيَّان: (وأخبَرَ تعالى أنَّه لم يُنْزِلْ عليهم لإهلاكِهم جُندًا مِنَ السَّماءِ، كالحجارةِ والرِّيحِ وغيرِ ذلك). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٩).

وقال أبو السعود: (﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وما صحَّ في حِكمتِنا أنْ نُنزِلَ لإهلاكِ قَومِه جُندًا مِن السَّماءِ؛ لِما أنَّا قَدَّرْنا لكلِّ شيءٍ سَبَبًا؛ حيثُ أهلَكْنا بعضَ مَن أهلَكْنا مِن الأُمَمِ بالحاصبِ، وبعضَهم بالصَّيحةِ، وبعضَهم بالخَسفِ، وبعضَهم بالإغراقِ، وجعَلْنا إنزالَ الجُندِ مِن خصائصِكَ في الانتِصارِ مِن قَومِك. وقيل: (ما) موصولةٌ مَعطوفةٌ على ﴿جُندٍ﴾، أي: وما كنَّا مُنزِلينَ على مَن قَبْلَهم مِن حِجارةٍ وريحٍ وأمطارٍ شديدةٍ وغيرِها). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٦ - ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١، ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦).

(٢) قال الشوكاني: (قال ابنُ جرير: المعنى: يا حسرةً مِن العبادِ على أنفُسِهم، وتَنَدُّمًا وتَلَهُّفًا في استهزائِهم برُسُلِ اللهِ، ... وقال الضَّحَّاكُ: إنَّها حَسرةُ الملائكةِ على الكُفَّارِ حينَ كذَّبوا الرُّسُلَ. وقيل: هي مِن قَولِ الرَّجُلِ الَّذي جاء مِن أقصى المدينةِ. وقيل: إنَّ القائلَ: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ هم الكُفَّارُ المكَذِّبونَ، والعِبادُ: الرُّسُلُ؛ وذلك أنَّهم لَمَّا رأَوُا العذابَ تحسَّروا على قَتلِهم، وتَمَنَّوُا الإيمانَ. قاله أبو العاليةِ، ومجاهِدٌ. وقيل: إنَّ التَّحسُّرَ عليهم هو مِن الله عزَّ وجلَّ بطريقِ الاستِعارةِ؛ لتعظيمِ ما جَنَوْهُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٨).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: يا ندامةً للعبادِ في الآخرةِ على أنفُسِها في استهزائِهم برُسُلِ اللهِ في الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابن جرير، والسمرقندي، والواحدي، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير =

وَقَعوا في الاستِهزاءِ به[١]!

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن الله سبحانَه حالَ الأوَّلينَ؛ نبَّه الحاضِرينَ[٢]، فقال تعالى:

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

---

= مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٧٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢٧).

وقيل: المرادُ: أنَّ التحَسُّرَ واقعٌ عليهم مِن غيرِهم؛ فطِباعُ كُلِّ بشَرٍ توجِبُ عندَ سماعِه حالَهم وعذابَهم على الكُفرِ وتضييعِهم أمرَ اللهِ تعالى: أن يُشفِقَ ويَتحَسَّرَ على العبادِ؛ فهم أحِقَّاءُ بأن يَتحسَّرَ عليهم المتحَسِّرون، ويَتلهَّفَ على حالِهم المتلَهِّفون. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٢).

وقيل: هو مِن كلامِ اللهِ تعالى، واقعٌ موقعَ الرِّثاءِ للأُمَمِ المكَذِّبةِ لرُسُلِها. وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧).

قال ابن عثيمين: (وقيل: إنَّ التَّحَسُّرَ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ، لكِنْ ليس معناه أنَّه يتَّصِفُ به، بل المعنى أنَّه يُبيِّنُ حَسرةَ العبادِ على أنفُسِهم، يقولُ: يا حَسرةً واقِعةً على العِبادِ؛ فتكونُ «على» قريبةً مِن معنى «مِن»، يعني: أنَّ الله تعالى يُبيِّنُ أنَّ هؤلاء العبادَ المكَذِّبينَ سوف يَتحَسَّرون على تكذيبِهم، وهذا أقرَبُ إلى السِّياقِ؛ لِقَولِه: ﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ * يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ فالكلامُ كلامُ اللهِ، لكِنْ لَمَّا كان التَّحَسُّرُ نَدَمًا وألَمًا صار اللهُ تعالى مُنَزَّهًا عنه؛ فوجَبَ أن يكونَ المرادُ: يا حسرةً واقِعةً عليهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠٦).

وقيل: لا مُتَحَسِّرَ أصلًا في الحقيقةِ؛ إذِ المقصودُ بيانُ أنَّ ذلك وقْتُ طلَبِ الحسرةِ حيثُ تَحَقَّقَتِ النَّدامةُ عندَ تَحقُّقِ العذابِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ٥).

أي: ألم يَرَوُا[١] الأُمَمَ الماضيةَ الكثيرةَ الَّتي أهلَكْناها؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم، أو استِهزائِهم برُسُلِ اللهِ: كيف لم تكُنْ لهم رَجعةٌ إليهم[٢]؟

---

(١) ممَّن اختار أنَّهم كفَّارُ مكَّةَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤١٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٠).

وقيل: المرادُ: أهلُ مكَّةَ وغيرُهم مِن مُشرِكي العربِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: يحيى ابنُ سلام، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٢).

واختار ابنُ عاشور أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى العِبادِ كما يقتضيه تَناسُقُ الضَّمائرِ، ويَتعيَّنُ أن تُخَصَّ منه أوَّلُ أُمَّةٍ كذَّبَتْ رَسولَها، وهم قومُ نوحٍ؛ فإنَّهم لم يَسبِقْ قَبْلَهم هلاكُ أُمَّةٍ كذَّبَتْ رسولَها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٣).

قيل: معنى ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾: أنَّ المُهلَكينَ لا يَرجِعونَ إلى الدُّنيا. وممَّن قال بهذا المعنى: يحيى بنُ سلام، وابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٣).

قال الرازي: (قَولُه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: أُهلِكوا إهلاكًا لا رُجوعَ لهم إلى مَن في الدُّنيا.

وثانيهما: هو أنَّهم لا يَرجِعونَ إليهم، أي: الباقونَ لا يَرجِعونَ إلى المُهلَكينَ بنَسَبٍ ولا ولادةٍ، يعني: أهْلَكْناهم وقَطَعْنا نَسْلَهم، ولا شكَّ في أنَّ الإهلاكَ الَّذي يَكونُ مع قطعِ النَّسلِ أتَمُّ وأعَمُّ. والوجهُ الأوَّلُ أشهرُ نَقْلًا، والثَّاني أظهرُ عقلًا). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧١).

وقيل: المعنى: أنَّهم إلى رُسُلِ اللهِ -الَّذين استَهزؤوا بهم- لا يَرجِعونَ عن مذاهِبِهم الخبيثةِ، ولا يَخصُّونهم بالاتِّباع، فالمعنى: ألم يَرَ المكذِّبون المستهزِئون بالرُّسُلِ أنَّ القرونَ الكثيرةَ الَّتي أهلكها اللهُ بسبب ذلك: لا يَرجِعون إلى رُسُلِهم فيتَّبِعونهم، ويَترُكون تكذيبَهم والاستهزاءَ =

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان كثيرٌ مِن أهلِ الجَهلِ وذَوي الحَمِيَّةِ والأَنَفةِ لا يُبالون بالهَلاكِ في مُتابعةِ الهوى؛ اعتمادًا على أنَّ مَوتةً واحِدةً في لحظةٍ يَسيرةٍ أهْوَنُ مِن حَملِ النَّفْسِ على ما لا تُريدُ، فيكونُ لهم في كُلِّ حينٍ مَوتاتٌ- أخبَرَ تعالى أنَّ الأمرَ غيرُ مُنقَضٍ بالهلاكِ الدُّنيويِّ، بل هناك مِن الخِزيِ والذُّلِّ والهَوانِ والعُقوبةِ والإيلامِ ما لا يَنقضي أبدًا، فقال[1]:

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

أي: إنَّ كُلَّ الأممِ ستُحضَرُ يومَ القيامةِ عندَ اللهِ مُجتَمِعينَ للحِسابِ والجَزاءِ[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَنظُرَ ويَعتبِرَ؛ بحيثُ إذا نَظَرَ في عواقبِ النَّاسِ اتَّخَذَ مِن ذلك عِبرةً؛ لأنَّ الاستِفهامَ هنا -مع كَونِه للتَّقريرِ- مُفيدٌ للتَّوبيخِ؛

---

= بهم، أفلا يَخْشَوْنَ أن يَقَعَ بهم مِن الهلاكِ مِثلُ ما وقع للسَّابقينَ؛ لِمُخالفتِهم لِرُسُلِهم؟ قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١١٨-١٢٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤، ٥٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢١، ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٦).

قيل: كَلِمةُ ﴿ كُلٌّ ﴾ تُفيدُ أنَّ الإحضارَ مُحيطٌ بهم بحيث لا يَنفلِتُ فريقٌ منهم، وكلمةُ ﴿ جَمِيعٌ ﴾ تُفيدُ أنَّهم مُحضَرونَ مُجتَمِعينَ؛ فليست إحدى الكَلِمَتينِ بمُغْنِيةٍ عن ذِكرِ الأُخرى. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٦).

لأنَّ الواجِبَ على مَن نَظَر في عاقبةِ المكذِّبينَ أن يَرتدِعَ عن الكَذِبِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ وُجوبُ الاستِعدادِ لهذا اليوم؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يُخبِرْنا به لمجرَّدِ الاطِّلاعِ، ولكِنَّه أخبَرَنا به مِن أجْلِ أن نستعِدَّ له حتَّى نكونَ على أُهْبةٍ لِمَا سنُحاسَبُ عليه(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أنَّ الملائكةَ مَحَلُّهُم السَّمَواتُ -وهذا هو الأصلُ-، لكنَّهم قد يَنْزِلُون إلى الأرضِ، كما في قولِه تعالى في لَيلةِ القَدْرِ: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤]، وكالملائكةِ الَّذين يَحفظون بني آدمَ، والَّذين يَكتُبون أعمالَهم، والَّذين يَكتُبون المُتَقَدِّمينَ إلى الجُمُعةِ -على أبوابِ المساجِدِ-، وما أشْبَهَ ذلك(٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا﴾، وقولُه: ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ إنزالَ الجُنودِ مِن عَظائمِ الأمورِ الَّتي لا يُؤهَّلُ لها إلَّا مِثلُ النَّبيِّ محمَّدٍ الَّذي أُنزِلَت له الملائكةُ يومَ بَدْرٍ والأحزابِ، وهذا إشارةٌ إلى تَفضيلِ اللهِ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم بكلِّ شَيءٍ على كِبارِ الأنبياءِ وأُولي العَزْمِ مِن الرُّسلِ، فَضلًا عن غَيرِهم(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ بيانُ ذُلِّ كُلِّ شيءٍ لِعَظَمتِه سُبحانَه؛ بحيثُ لا يُكرِّرُ ولا يُعيدُ ما أرادَه؛ لهذا أكَّدَها بـ﴿وَٰحِدَةً﴾؛ لبيانِ أنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥).

لم يَحتاجوا إلى إعادةِ الصَّيحةِ مرَّةً ثانيةً، وهكذا جميعُ ما أَمَرَ اللهُ تعالى به كَوْنًا؛ فإنَّه لا يَحتاجُ إلى إعادةٍ؛ لِقَولِه تعالى في سورةِ (القمرِ): ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾[1] [القمر: ٥٠].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ نَصٌّ صريحٌ في تكذيبِ الأُمَمِ لجَميعِ الرُّسُلِ؛ لِما تقرَّر في الأصولِ مِن أنَّ النَّكِرةَ في سياقِ النَّفيِ إذا زِيدَتْ قبْلَها «مِن» فهي نَصٌّ صريحٌ في عُمومِ النَّفيِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ ردٌّ على القائلينَ بالرَّجْعةِ[3]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ السَّامعَ يَتشوَّفُ إلى مَعرفةِ ما كان مِن هذا الرَّجُلِ المؤمنِ الَّذي جاء مِن أقْصى المدينةِ ناصحًا لِأهْلِها، ومِن أمْرِ قَومِه الَّذين نَصَحهم فلمْ يَنتصِحوا؛ فلمَّا بُيِّن للسَّامعِ ما كان مِن أمْرِه، عُطِفَ عليه بَيانُ ما كان مِن أمْرِ القومِ بعْدَه، وافتتاحُ قِصَّةِ عِقابِهم في الدُّنيا بنَفْيِ صُورةٍ مِن صُوَرِ الانتقامِ، تَمهيدٌ للمَقصودِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٣٠).

والرَّجعةُ: مذهبٌ يؤمِنُ بالرُّجوعِ إلى الدُّنيا بعدَ الموتِ، أو برُجوعِ الإمامِ بعدَ مَوتِه أو غَيبتِه، أوَّلُ مَن قال به عبدُ اللهِ بنُ سَبَأٍ. يُنظر: ((مقالات الإسلاميين)) للأشعري (١/ ٣٢، ٥٤)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٢/ ٨٦٢).

وقد اعترَض البِقاعي على الاستِدلالِ بالآيةِ على ذلك. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٩).

مِن أنَّهم ما حلَّ بهم إلَّا مِثلُ ما حلَّ بأمثالِهم مِن عَذابِ الاستئصالِ[١]. أو كلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لاحتقارِ أمْرِهم، أي: لا حاجةَ إلى إرسالِ جُنودٍ لهم؛ فأقَلُّ شَيءٍ كافٍ لإبادتِهم، واستِئصالِ شأْفَتِهم[٢].

- وأسنَد الفعلَ ﴿أَنزَلْنَا﴾ إلى نفْسِه بلفظِ التَّعظيمِ؛ لأنَّ العذابَ هو مِن بابِ الهَيبةِ[٣].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ صِلةٌ في الظَّرفِ؛ لِتَأكيدِ اتِّصالِ المظروفِ بالظَّرفِ، و(مِن) في قولِه: ﴿مِن جُندٍ﴾ مُؤكِّدةٌ لِعُمومِ ﴿جُندٍ﴾ في سِياقِ النَّفيِ، و(مِن) في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ ابتدائيَّةٌ، وفي الإتيانِ بحَرْفِ (مِن) ثلاثَ مرَّاتٍ مع اختلافِ المعنى مُحسِّنُ الجِناسِ[٤].

- وفي هذا تَعريضٌ بالمشركينَ مِن أهلِ مكَّةَ؛ إذ قالوا للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٩٢]، أي: تأْتيَ باللهِ الَّذي تَدَّعِي أنَّه أرسَلَك ومعه جُندُه مِن الملائكةِ؛ لِيَثأرَ لك، فجُملةُ ﴿وَمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥، ٦).

والجِناسُ: هو تشابُهُ لَفظَينِ في النُّطقِ، واختلافُهما في المعنى، وهو مِن المحاسنِ اللَّفظيَّةِ، وفنٌّ بديعٌ في اختيارِ الألفاظِ الَّتي تُوهِمُ في البَدْءِ التَّكريرَ، لكنَّها تُفاجِئُ بالتَّأسيسِ واختِلافِ المعنى. ويَنقسِمُ الجِناسُ إلى نَوعَينِ: لَفظيٍّ، ومعنويٍّ، وكلٌّ منهما يَندرِجُ تحتَه أنواعٌ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٠ - ٤٥٢)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣١٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٨٥، ٤٩٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٢٥ وما بعدها).

كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ نَوعَي العِقابِ المنفيِّ والمُثبَتِ؛ لِقَصدِ الرَّدِّ على المشركينَ بأنَّ سُنَّةَ اللهِ تعالى لم تَجْرِ بإنزالِ الجُنودِ على المكذِّبينَ، وشأْنُ العاصينَ أدْوَنُ مِن هذا الاهتِمامِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ الصَّيحةُ: المرَّةُ مِن الصِّياحِ، بوَزنِ فَعلةٍ؛ فوَصْفُها بـ﴿وَاحِدَةً﴾ تأْكيدٌ لِمَعنى الوَحدةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المُرادَ الجِنسُ المفرَدُ مِن بيْنِ الأجناسِ[٢].

- وأكَّدَ أمْرَ الصَّيحةِ، وحقَّقَ وَحْدتَها بقولِه: ﴿وَاحِدَةً﴾، أي: لِحَقارةِ أمْرِهم عِندَنا، ثمَّ زادَ في تَحقيرِهم ببَيانِ الإسراعِ في الإهلاكِ بقولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾، أي: ثابتٌ لهم الخُمودُ، كأنَّهم ما كانتْ لهم حَركةٌ يومًا مِن الدَّهرِ[٣].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ مَجيءُ (إذا) الفُجائيَّةِ في الجُمْلةِ المُفرَّعةِ على ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾؛ لإفادةِ سُرعةِ الخُمودِ إليهم بتلك الصَّيحةِ، وفيه إيجازٌ بَديعٌ يُشيرُ إلى حَدَثٍ عظيمٍ حدَثَ بأهْلِ تلك القريةِ عَقِبَ دَعوةِ المرسَلينَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ؛ شبَّهَهم بالنَّارِ الخامدةِ الَّتي صارتْ رَمادًا؛ رَمْزًا إلى أنَّ الحيَّ كالنَّارِ السَّاطعةِ في الحَرَكةِ والالتهابِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١١٦ - ١١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧).

والمَيتَ كالرَّمادِ[١]. وفي ذلك تَوعُّدٌ لِقُريشٍ أنْ يُصِيبَهم ما أصابَهم؛ إذ همُ المَضروبُ لهم المثَلُ[٢].

- وذُكِرَت الصَّيحةُ مرَّتينِ؛ في قولِه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾، وقولِه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وليس بتكرارٍ؛ لأنَّ الأُولى هي عقوبةُ أهلِ القريةِ، والثَّانيةَ هي النَّفخةُ الَّتي يَحْيا بها الخلْقُ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ تَذْييلٌ، وهو مِن كَلامِ اللهِ تَعالى -على أحدِ الأقوالِ في التَّفسيرِ- واقعٌ مَوقعَ الرِّثاءِ للأُمَمِ المُكذِّبةِ الرُّسُلَ، شاملٌ للأُمَّةِ المقصودةِ بِسَوْقِ الأمثالِ السَّابقةِ مِن قَولِه: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣]، واطِّرادِ هذا السَّنَنِ القَبيحِ فيهم؛ فالتَّعريفُ في العِبادِ تَعريفُ الجِنسِ المُستعمَلِ في الاستِغراقِ، وهو استِغراقٌ ادِّعائيٌّ رُوعِيَ فيه حالُ الأغلَبِ على الأُمَمِ الَّتي يَأتيها رسولٌ؛ لعَدَمِ الاعتدادِ في هذا المَقامِ بِقِلَّةِ الَّذين صدَّقوا الرُّسُلَ ونَصَروهم، فكأنَّهم كُلَّهم قد كذَّبوا[٤].

- قَولُه: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ...﴾ حرْفُ النِّداءِ للتَّنبيهِ على خَطَرِ ما بعْدَه؛ لِيُصْغيَ إليه السَّامِعُ، وهو أَوْكَدُ وأبلَغُ لِتَنبيهِ المُخاطَبِ بالنِّداءِ على المَطْلوبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٧)، ((حاشية الطيبي =

- والتَّنكيرُ في قَولِه: ﴿يَٰحَسۡرَةً﴾ دلَّ على شِدَّةِ تَحَسُّرِ العِبادِ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ -وذلك على قولٍ-؛ وأنَّها حَسرةٌ عَظيمةٌ؛ لأنَّ التَّنكيرَ يُفيدُ أحيانًا التَّعظيمَ والشِّدَّةَ(١).

- وجُملةُ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ ...﴾ كَلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لِتَعليلِ التَّحسُّرِ عليهم؛ لأنَّ قَولَه: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾ وإنْ كان قد وَقَعَ بعدَ ذِكْرِ أهْلِ القَريةِ؛ فإنَّه لَمَّا عُمِّمَ على جَميعِ العِبادِ حدَثَ إيهامٌ في وَجهِ العُموم، فوَقَعَ بيانُه بأنَّ جميعَ العِبادِ -على أحد الأقوالِ- مُساوونَ لِمَن ضُرِبَ بهم المَثَلُ ومَن ضُرِبَ لهم في تلك الحالةِ المُمثَّلِ بها، ولم تَنفَعْهم المَواعظُ والنُّذُرُ البالِغةُ إليهم مِن الرَّسولِ المُرسَلِ إلى كُلِّ أُمَّةٍ منهم، فهَلَكوا؛ فعُلِمَ وَجْهُ الحَسْرةِ عليهم إجْمالًا مِن هذه الآيةِ، ثمَّ تَفصيلًا مِن قَولِه بعدُ: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ

---

= على الكشاف)) (١٣/ ٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨).

قال الزَّجَّاجُ: (إذا قال القائلُ: ما الفائدةُ في مُناداةِ الحسرةِ، والحسرةُ ممَّا لا يُجيبُ؟

فالفائدةُ في مُناداتِها كالفائدةِ في مُناداةِ ما لا يعقلُ؛ لأنَّ النِّداءَ بابُ تنبيهٍ. إذا قلتَ: يا زَيْدُ، فإن لم تكُنْ دَعَوْتَه لِتُخاطِبَه لِغيرِ النِّداءِ فلا معنى للكلامِ، إنَّما تقولُ: يا زَيدُ، فتُنَبِّهُه بالنِّداءِ، ثمَّ تقولُ له: فعَلْتَ كذا وافعَلْ كذا، وما أحبَبْتَ ممَّا له فيه فائدةٌ، ألَا ترى أنَّك تقولُ لِمَن هو مُقْبِلٌ عليك: «يا زَيدُ، ما أحْسَنَ ما صنَعْتَ!»، ولو قلتَ له: «ما أحْسَنَ ما صنَعْتَ!» كنتَ قد بلَغْتَ في الفائدةِ ما أفهَمْتَ به، غيرَ أنَّ قولَك: «يا زَيدُ» أوْكَدُ في الكلامِ، وأبلَغُ في الإفهامِ. وكذا إذا قلتَ للمُخاطَبِ: «أنا أعجَبُ ممَّا فَعَلْتَ» فقد أفَدْتَه أنَّك مُتعجِّبٌ، ولو قلتَ: «واعَجَباه ممَّا فعلْتَ، ويا عَجَباه أتَفْعَلُ كذا وكذا!» كان دعاؤُك العجَبَ أبلَغَ في الفائدة، والمعنى: يا عَجَبُ أقْبِلْ؛ فإنَّه مِن أوقاتِك، وإنَّما نِداءُ العَجَبِ تنبيهٌ لِتمكِّنِ عِلمِ المُخاطَبِ بالتَّعجُّبِ مِن فِعلِه. وكذلك إذا قلتَ: «وَيْلٌ لِزَيدٍ، أو: وَيْلَ زَيدٍ لِمَ فعَلَ كذا وكذا؟!» كان أبلَغَ. وكذلك في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ﴾ [هود: ٧٢]، وكذلك: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، وكذلك: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٠٨).

أَهۡلَكۡنَا﴾ [يس:٣١] إلخ[١].

- وقيلَ: قَولُه: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ تَمثيلٌ لِقُريشٍ، وهُم الَّذين عاد عليهم الضَّميرُ في قَولِه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾[٢].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ على ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالرَّسولِ المُشعِرِ باستِفظاعِ الاستِهزاءِ به مع تأتِّي الفاصلةِ بهذا التَّقديمِ، فحَصَلَ منه غَرَضانِ: مِن علمِ المعاني، ومِن علمِ البَديعِ[٣]؛ فالتَّقديمُ والتَّأخيرُ مِن المعاني، والرِّعايةُ على الفاصلةِ مِن البديعِ.

٤- قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾

- قَولُه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠]؛ لِما فيها مِن تَفْصيلِ الإجمالِ المُسْتفادِ منه؛ فإنَّ عاقِبةَ ذلك الاستِهزاءِ بالرَّسولِ كانت هَلاكَ المُستَهزِئينَ، فعَدَمُ اعتبارِ كُلِّ أُمَّةٍ كذَّبتْ رسولَها بعاقِبةِ المُكذِّبينَ قَبْلَها يُثيرُ الحَسْرةَ عليها وعلى نُظَرائِها كما أثارَها استِهزاؤُهم بالرَّسولِ، وقِلَّةُ التَّبصُّرِ في دَعْوتِه ونِذارتِه ودَلائِلِ صِدقِه[٤].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ إنكاريًّا، ونُزِّلتْ غَفلَتُهم عن إهْلاكِ القُرونِ مَنزلةَ عَدَمِ العِلمِ، فأُنكِرَ عليهم عَدَمُ العِلمِ بذلك، وهو أمْرٌ مَعلومٌ مَشهورٌ. ويجوزُ كَونُ الاستِفهامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨، ٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَقريريًّا، بُنِيَ التَّقريرُ على نَفيِ العِلمِ بإهلاكِ القرونِ؛ استِقصاءً لِمَعذِرَتِهم حتَّى لا يَسَعَهم إلَّا الإقرارُ بأنَّهم عالِمونَ، فيَكونَ إقرارُهم أشَدَّ لُزومًا لهم؛ لأنَّهم استُفْهِموا على النَّفيِ، فكان يَسَعُهم أنْ يَنفُوا ذلك[١].

- قَولُه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ (كَمْ) مُفادُها كَثرةٌ مُبهَمةٌ فُسِّرتْ بقَولِه: ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾، وقَولُه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قيل: بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُمْلةِ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، وفائِدةُ هذا البَدَلِ تَقريرُ تَصْويرِ الإهْلاكِ؛ لزِيادةِ التَّخويفِ، ولاستِحضارِ تلك الصُّورةِ في الإهْلاكِ، أي: إهْلاكًا لا طماعيةَ معه لِرُجوعٍ إلى الدُّنيا؛ فإنَّ ما يَشتمِلُ عليه الإهلاكُ مِن عَدَمِ الرُّجوعِ إلى الأهْلِ والأحبابِ ممَّا يَزيدُ الحَسْرةَ اتِّضاحًا[٢].

- قولُه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿إِلَيْهِمْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يَرْجِعُونَ﴾، وقُدِّم على مُتعلَّقِه؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بَيانٌ لرُجوعِ الكُلِّ إلى المَحْشرِ، بعدَ بَيانِ عَدَمِ الرُّجوعِ إلى الدُّنيا[٤].

- وهو مَعطوفٌ على جُمْلةِ ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٣١]، واقعٌ مَوقعَ الاحتِراسِ مِن توهُّمِ المُخاطَبينَ بالقُرآنِ أنَّ قَولَه: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ مُؤيِّدٌ اعتِقادَهم انتِفاءَ البَعْثِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١).

- وجاءتْ هذه الجُملةُ بعدَ ذِكرِ الإهْلاكِ تَبْيينًا أنَّه تَعالى ليس مَن أهْلَكَه يُتْرَكُ، بل بعدَ إهْلاكِهم جَمْعٌ وحِسابٌ، وثَوابٌ وعِقابٌ؛ ولذلك أُعقِبَ هذا بما يدُلُّ على الحَشرِ مِن قَولِه: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ وما بعدَه مِن الآياتِ[1].

- قَولُه: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ أي: كُلُّ القُرونِ مُحضَرونَ لدينا مُجتَمِعينَ، أي: ليس إحضارُهم في أوْقاتٍ مُختلِفةٍ، ولا في أمْكنةٍ مُتعدِّدةٍ؛ فكلمةُ (كُلٌّ) أفادتْ أنَّ الإحضارَ مُحيطٌ بهم بحيث لا يَنفلِتُ فريقٌ منهم، وكلمةُ ﴿جَمِيعٌ﴾ أفادتْ أنَّهم مُحضَرونَ مُجتمِعينَ، فليست إحدى الكلمتَينِ بمُغْنيةٍ عن ذِكرِ الأُخرَى، ألَا ترى أنَّه لو قيلَ: وإنَّ أكثَرَهم لَمَّا جَميعٌ لَدَيْنا مُحْضَرونَ، لَمَا كان تَنافٍ بيْنَ أكثَرِهم وبيْنَ (جَميعِهم)، أي: أكثَرُهم يَحضُرُ مُجتمِعينَ، فارتَفَعَ ﴿جَمِيعٌ﴾ على الخَبَريَّةِ[2].

- وتَقديمُ الظَّرفِ ﴿لَّدَيْنَا﴾ على ﴿مُحْضَرُونَ﴾؛ لمُراعاةِ الفَواصِلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١ - ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

## الآيات (٣٣-٣٦)

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ وَءَايَةٌ ﴾: أي: عَلامَةٌ، ودليلٌ، وحُجَّةٌ على وحدانيَّةِ الله، وكمالِ قدرتِه، وتُطلَقُ الآيةُ أيضًا على العَجيبةِ، وأصلُ (أيي): النَّظرُ[1].

﴿وَفَجَّرْنَا ﴾: أي: أنْبَعْنا، والفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسعًا، يُقالُ: فَجَرْتُه فانْفَجَر، وفَجَّرْتُه فتَفَجَّرَ، وأصلُ (فجر): يدُلُّ على تفتُّحٍ في الشَّيءِ[2].

﴿ٱلْأَزْوَٰجَ ﴾: أي: الأجناسَ والأصنافَ، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٢٥) و(١٩/ ٤٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٧)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٦١). قال الشنقيطيُّ: (والآيةُ في القرآنِ تُطلَقُ إطلاقَينِ: تُطلَقُ الآيةُ على الآيةِ الكَونيَّةِ القَدَريَّةِ، وهي مِن الآيةِ بمعنى: العلامةِ، وهي ما نصَبه اللهُ جلَّ وعلا مِن آياتِه، جاعلًا لها علاماتٍ على كمالِ قُدرتِه، وأنَّه الرَّبُّ وحْدَه، المعبودُ وحْدَه، كقولِه: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ ﴾ [آل عمران: ١٩٠] أي: لَعلاماتٍ ودَلالاتٍ واضحاتٍ على أنَّه الرَّبُّ المستحِقُّ أنْ يُعبَدَ وحْدَه. الإطلاقُ الثَّاني: تُطلَقُ الآيةُ في القرآنِ على الآيةِ الشَّرعيَّةِ الدِّينيَّةِ، كآياتِ هذا القرآنِ العظيمِ). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، =

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى الأدلَّةَ الدَّالَّةَ على وحدانيَّتِه وقدرتِه، فيقولُ: ومِن العَلاماتِ الواضِحةِ لهؤلاء المُشرِكينَ على قُدرتِنا على إحياءِ الموتى: أنَّنا نُنزِّلُ الماءَ على الأرضِ الجَدباءِ، فتَحيا وتُخرِجُ ألوانًا وأصنافًا مِن الحُبوبِ الَّتي يأكُلونَها، وأنَّنا جعَلْنا فيها بَساتينَ مِن النَّخيلِ والأعنابِ، وفجَّرْنا فيها مِن عُيونِ الماءِ؛ لِيأكُلوا مِن الثِّمارِ الَّتي جعَلْناها لهم، ولم تَصنَعْها أيديهم؛ أفلا يَشكُرُ النَّاسُ رَبَّهم الَّذي أوجَدَ لهم تلك النِّعَمَ.

تَنَزَّهَ اللهُ -تعالى- عمَّا لا يَليقُ به؛ الَّذي خلَقَ الأنواعَ والأصنافَ كُلَّها، مِن النَّباتاتِ، ومِن النَّاسِ، وممَّا لا يَعلَمونَه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قال: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ ﴾ [يس: ٣٢] كان ذلك إشارةً إلى الحَشرِ، فذكَرَ ما يدُلُّ على إمكانِه؛ قَطعًا لإنكارِهم واستِبعادِهم، وإصرارِهم وعِنادِهم، فقال: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ كذلك نُحيي الموتى[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ حالَ المُرسَلينَ وإهلاكَ المكَذِّبينَ، وكان شُغلُهم التَّوحيدَ؛ ذكَرَ ما يدُلُّ عليه، وبدأ بالأرضِ؛ لِكَونِها مكانَهم، لا مُفارقةَ لهم منها عندَ الحَركةِ والسُّكونِ[2].

---

= ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٧٢).

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أي: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لكفَّارِ قريشٍ[1] دالَّةٌ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه على بَعثِ الموتَى، وعلى غيرِ ذلك، وهي إحياءُ اللهِ الأرضَ المُجدِبةَ، وإخراجُه منها أنواعًا مِن الحُبوبِ الَّتي يتغذَّى النَّاسُ عليها[2].

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ ﴾.

أي: وجعَلْنا في الأرضِ -الَّتي كانت مَيْتةً فأحْيَيْناها- بَساتينَ مِن أشجارِ النَّخيلِ والأعنابِ[3].

كما قال تعالى: ﴿ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٩].

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت الجنَّاتُ لا تَصلُحُ إلَّا بالماءِ، وكان مِن طَبعِ الماءِ الغَورُ في التُّرابِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٨٣).

قال أبو حيَّان: (والضَّميرُ في ﴿لَّهُمُ﴾ عائدٌ على كُفَّارِ قُريشٍ ومَن يجري مَجراهُم في إنكارِ الحشرِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

والرُّسوبُ بشِدَّةِ السَّرَيانِ إلى أسفَلَ؛ فكان فَوَرانُه إلى جِهةِ العُلُوِّ أمرًا باهِرًا للعَقلِ، لا يكونُ إلَّا بقَسرِ قاسرٍ حكيمٍ- قال[1]:

﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾.

أي: وفجَّرْنا في الأرضِ مِن عُيونِ الماءِ[2].

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي: لِيَأكُلَ النَّاسُ مِن ثَمَرِه[3]، .....

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

(٣) قيل: الضمَّيرُ في ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ يعودُ إلى الله تعالى، فهو مِن فِعْلِه وخَلْقِه. وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّمخشريُّ، والنَّسفيُّ، وذكر الرَّازيُّ أنَّه القولُ المشهورُ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٤).

وقيل: يعودُ إلى الماءِ الَّذي فجَّره اللهُ تعالى مِن الأرضِ، أي: ليأكُلوا مِن الثَّمَرِ الحاصِلِ بالماءِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مكِّي، والسمعانيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وأبو حيان. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

وقيل: المعنى: مِن ثَمَرِ ما تقدَّمَ ذِكرُه مِن الجنَّاتِ والنَّخيلِ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: ابنُ جرير، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٠).

وما[1] .....

(١) قيل: (مَا) هنا اسمٌ موصولٌ بمعنى الَّذي، أي: لِيَأْكُلوا أيضًا ممَّا صنَعَتْه أيديهم، بالغَرسِ والحَفرِ والزِّراعةِ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، وابن جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٨٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٢).

وقيل: المرادُ بما عَمِلَتْه أيديهم: ما يُتَّخَذُ مِن الثَّمَرِ؛ كالعصيرِ والدِّبْسِ وغيرِهما. وممَّن اختاره: البيضاوي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩).

وجمَعَ الشَّوكانيُّ بين المعنيَينِ السابقين؛ فقال: (أي: لِيَأْكُلوا مِن ثَمَرِه، ويأْكُلوا مِمَّا عَمِلَتْه أيْديهم كالعصيرِ والدِّبْسِ ونحوِهما، وكذلك ما غَرَسوه وحَفَروه، على أنَّ «ما» موصولةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٣).

وقيل (مَا) نافيةٌ، والمعنى: ليست تلك الثِّمارُ مِن صُنعِ أيديهم، وليست بحَولِهم وقوَّتِهم، ولكِنْ هي مِن فِعلِ اللهِ رحمةً بهم. وممَّن قال بهذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٥).

وقيل: الآيةُ صالحةٌ للمَعنيَينِ: أن تكونَ (ما) بمعنى (الَّذي)، وأن تكونَ نافيةً، ولا مانعَ مِن حَملِها عليهما؛ فيَشمل قولُه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ما يَصْنَعُه النَّاسُ بأيديهم؛ كالعصيرِ والخبزِ وغيرِ ذلك، والمعنى الثَّاني: أنَّ أيدِيَنا لم تعملْ هذه الثَّمَراتِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢١).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن تكونَ «مَا» في قَولِه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ مَوصولةً مَعطوفةً على ﴿ثَمَرِهِۦ﴾، أي: ليأكُلوا مِن ثمَرِ ما أخرَجْناه، ومِن ثمَرِ ما عمِلَتْه أيديهم... وضميرُ ﴿عَمِلَتْهُ﴾ على هذا عائدٌ إلى اسم الموصولِ. ويجوزُ أن يكونَ «مَا» نافيةً، والضَّميرُ عائدٌ إلى ما ذُكِرَ مِن الحَبِّ والنَّخيلِ والأعنابِ، والمعنى: أنَّ ذلك لم يَخلُقوه... ويجوزُ أن يكونَ مِن حَذفِ المفعولِ؛ =

عَمِلَتْه أيديهم[١].

﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾.

أي: أفلا يَشكُرُ النَّاسُ رَبَّهم الَّذي أوجَدَ لهم تلك النِّعَمَ[٢]؟

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرهم الله تعالى بالشُّكرِ، وشُكْرُ الله تعالى بالعبادةِ، وهم ترَكوها وعبَدوا غيرَه وأشرَكوا؛ قال تعالى[٣]:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾.

أي: تَنَزَّهَ اللهُ عمَّا لا يَليقُ به مِن الشِّركِ وجَميعِ النَّقائِصِ؛ الَّذي خلَقَ الأصنافَ كلَّها ممَّا تُنبِتُه الأرضُ مِن النَّباتاتِ والزُّروعِ والثِّمارِ والحبوبِ[٤].

---

= لإرادةِ العُموم، والتَّقديرُ: وما عَمِلَت أيديهم شيئًا مِن ذلك. وكِلا الحذفَينِ شائِعٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤، ١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

قال ابن عثيمين: (الشُّكرُ هو: القيامُ بطاعةِ المُنعِم، وصَرْفُ نِعَمِه فيما جعَلَها اللهُ له... والشُّكرُ مُتعَلَّقُه ثلاثةُ أشياءَ: القَلبُ، واللِّسانُ، والجوارحُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

أي: ومِن النَّاسِ أنفُسِهم، فخَلَق منهم ذُكورًا وإناثًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: وممَّا لا يَعلَمُه النَّاسُ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ وُجوبُ شُكرِ نِعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ وَبَّخَ مَن لا يَشكُرُ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- كلُّ شَيءٍ يَنمو ويَتزايدُ تُسمِّيه العَرَبُ حَيًّا؛ ولذا يُسَمُّونَ النَّباتَ حَيًّا؛ لأنَّه

---

= قال القرطبي: (نزَّه نَفْسَه سُبحانَه عن قَولِ الكُفَّارِ؛ إذ عَبَدوا غيرَه مع ما رأَوْه مِن نِعَمِه وآثارِ قُدرتِه، وفيه تقديرُ الأمرِ، أي: سَبِّحوه ونَزِّهوه عمَّا لا يَليقُ به. وقيل: فيه معنى التَّعجُّبِ، أي: عَجبًا لهؤلاء في كُفرِهم مع ما يُشاهِدونَه مِن هذه الآياتِ! ومَن تعجَّبَ مِن شَيءٍ قال: سُبحانَ اللهِ!). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٧).

يَنمو، ويُسَمُّونَ اليابِسَ منه -الَّذي لا يَنمو- مَيْتًا، ومِن هنا كانوا يقولون للأرضِ الجَدْبةِ القاحِلةِ: مَيْتةً؛ لأنَّ نباتَها يابِسٌ لا ينمو، فإذا نبَتَ فيها النَّباتُ الأخضَرُ النَّامي سَمَّوها: حيَّةً، كما قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ أنَّه إنْ قُلْنا: إنَّ الآيةَ مَذكورةٌ للاستِدلالِ على جوازِ إحياءِ الموتى، فكان يَكفي قَولُه: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا ﴾؛ فما الفائِدةُ من قَولِه تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا ﴾؟

**الجوابُ**: له فائِدةٌ بالنِّسبةِ إلى بيانِ إحياءِ الموتى؛ وذلك لأنَّه لَمَّا أحيا الأرضَ، وأخرَجَ منها حبًّا، كان ذلك إحياءً تامًّا؛ لأنَّ الأرضَ المُخضَرَّةَ الَّتي لا تُنبِتُ الزَّرعَ ولا تُخرِجُ الحَبَّ دونَ ما تُنبِتُه في الحياةِ؛ فكأنَّه قال تعالى: الَّذي أحيا الأرضَ إحياءً كامِلًا مُنْبِتًا للزَّرعِ: يُحيي الموتى إحياءً كامِلًا[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ الاستِدلالُ بالشَّاهِدِ على الغائِبِ؛ فإنَّ إحياءَ الأرضِ بعدَ الموتِ مُشاهَدٌ، ويُستَدَلُّ بها على إحياءِ اللهِ الموتى عندَ بَعثِهم يومَ القيامةِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾ قال عندَ ذِكرِ الحَبِّ: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾، وفي الأشجارِ والثِّمارِ قال: ﴿ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٤).

وذلك لأنَّ الحَبَّ قُوتٌ لا بدَّ منه؛ فقال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: هم آكِلوه، وأمَّا الثِّمارُ فليست كذلك، فكأنَّه تعالى قال: إنْ كُنَّا ما أخرَجْناها كانوا يَبقَون من غيرِ أكلٍ، فأخرَجْناها لِيأكُلوها[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ بيانُ حاجةِ العبدِ لربِّه، وكأنَّ هذا الحصرَ فيه إشارةٌ إلى تحدِّي الإنسانِ أنَّه لا يمكنُ أنْ يأكُلَ إلَّا مِن هذا الَّذي أخرجَه اللهُ له -وهذا مِن فوائدِ الحصرِ-، كأنَّه يقولُ: إنْ كنتَ قادرًا فأخرِجْ لِنَفْسِك ما تأكُلُه؛ إنَّك لنْ تأكُلَ إلَّا ممَّا أخرَجْناه لك[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مِّن نَّخِيلٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه نَفْعٌ كُلُّه؛ خَشَبُه، ولِيفُه، وشُعَبُه، وخُوصُه، وعراجينُه، وثمَرُه؛ طَلْعًا، وجُمَّارًا[٣]، وبُسْرًا، ورُطَبًا، وتَمْرًا؛ ولذلك -واللهُ أعلَمُ- أتَى فيه بصيغةِ جمعِ الكَثرةِ، كـ﴿ٱلْعُيُونِ﴾[٤].

٧- قَولُه تعالى: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خَصَّص النَّخيلَ والأعنابَ بالذِّكرِ مِن سائرِ الفواكِهِ؛ لأنَّ ألَذَّ المطعومِ الحَلاوةُ، وهي فيها أتَمُّ، ولأنَّ التَّمرَ والعِنَبَ قُوتٌ وفاكِهةٌ، ولا كذلك غيرُهما، ولأنَّهما أعَمُّ نَفعًا؛ فإنَّها تُحمَلُ مِن البلادِ إلى الأماكِنِ البعيدةِ. فإنْ قيل: فقد ذكَرَ اللهُ الرُّمَّانَ والزَّيتونَ في (الأنعامِ)، والقَضْبَ والزَّيتونَ والتِّينَ في مواضِعَ؟

نقول: في (الأنعام) وغيرِها المقصودُ ذِكرُ الفواكهِ والثِّمارِ؛ ألا ترَى إلى قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ...﴾ [الأنعام: ٩٩]، وإلى قَوله: ﴿فَلْيَنظُرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٢٤).

(٣) الجُمَّارُ: قلْبُ النَّخلِ، واحدتُه جُمَّارةٌ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٩٤)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٥).

ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾ [عبس: ٢٤]؟ فاستوفى الأنواعَ بالذِّكرِ، وهاهنا المقصودُ ذِكرُ صِفاتِ الأرضِ؛ فاختار منها الألَذَّ الأنفَعَ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ أنَّ بني آدمَ على أصنافٍ متنوِّعةٍ، كما كان ذلك أيضًا فيما تُنبِتُه الأرضُ، بل وفي الأرضِ نفْسِها؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ ﴾ [الرعد: ٤]، فإثباتُ التَّجاوُرِ لها يقتضي أنَّ كلَّ واحدٍ منها يُخالِفُ الآخَرَ؛ لأنَّ الجارَ غيرُ جارِه، وكذلك هنا ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ يدُلُّ على أنَّ في الأرضِ أصنافًا مُنوَّعةً مِن النَّباتاتِ، كذلك ﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ فيما خَلَقَ اللهُ عزَّ وجلَّ مِن بني آدمَ أصنافًا: ذكرًا وأنثى، أسْوَدَ وأبيضَ، طويلًا وقصيرًا، شقيًّا وسعيدًا، ذكيًّا وبَليدًا، عاقِلًا وسَفيهًا... وهكذا؛ لِيَعتبِرَ الإنسانُ قدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ على خَلقِ هذه الأشياءِ المُتضادَّةِ(٢).

٩- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ في قَولِه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ إشارةٌ إلى أسرارٍ مُودَعةٍ في خَلقِ أنْواعِ الحَيَوانِ وأصْنافِه هي الَّتي ميَّزَتْ أنْواعَه عن بَعضٍ، وميَّزَتْ أصْنافَه وذُكورَه عن إناثِه، وأُودِعَتْ فيه الرُّوحُ الَّذي امتازَ به عن النَّباتِ بتَدبيرِ شُؤونِه على حَسَبِ استِعدادِ كُلِّ نَوعٍ وكُلِّ صِنفٍ، وأشرَفُ أنواعِه هو نَوعُ الإنسانِ، فمَعنى و(مِمَّا لَا يَعْلَمُونَ): مِمَّا لا يَعلَمونَه تَفصيلًا، وإن كانوا قد يَشعُرونَ به إجمالًا، فإنَّ المتأمِّلَ يَعلَمُ أنَّ في المخلوقاتِ أسرارًا خَفيَّةً لم تصِلْ أفهامُهم إلى إدراكِ كُنْهِها، ومِن ذلك الرُّوحُ؛ فقد قال تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٣٣).

مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وقد يَتفاضَلُ النَّاسُ في إدراكِ بَعضِ تلك الخصائِصِ إجمالًا وتفصيلًا، ثمَّ يَستوُونَ في عدَمِ العِلمِ ببَعضِها، وقد يمتازُ بعضُ الطوائِفِ أو الأجيالِ بمعرفةِ شَيءٍ مِن دقائقِ الخَلقِ بسَبَبِ اكتِشافٍ أو تجرِبةٍ أو تَقَصِّي آثارٍ لم يكُنْ يَعرِفُها غيرُ أولئك، ثمَّ يَستوون فيما بَقِيَ تحتَ طَيِّ الخَفاءِ مِن دقائِقِ التَّكوينِ؛ فبهذا الشُّعورِ الإجماليِّ بها وقع عَدُّها في ضِمنِ الاعتِبارِ بآيةِ خَلقِ الأزواجِ مِن جميعِ النَّواحي[١].

١٠- قال الله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ ﴾، ولم يَقُلْ: (الحمدُ لله الَّذي خلق الأزواجَ)، بل قال: ﴿ سُبْحَٰنَ ﴾؛ لأنَّ كَونَ كُلِّ شَيءٍ يحتاجُ إلى ازدواجيَّةٍ: يدُلُّ على كَمالِ الواحِدِ المتفَرِّدِ الَّذي لا يماثِلُه شَيءٌ مِن مخلوقاتِه؛ فبنو آدَمَ لا بدَّ مِن ازدواجيَّةِ ذكرٍ وأُنثَى[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ إعلامُه بكثرةِ مخلوقاتِه: يدُلُّ على اتِّساعِ مُلكِه، وعِظَمِ قُدرتِه[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ كلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لإيرادِ آيةٍ على البَعثِ والتَّوحيدِ[٤]. وقيل: عَطفٌ على قِصَّةِ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ ﴾ [يس: ١٣]؛ فإنَّه ضرَبَ لهم مَثَلًا لحالِ إعراضِهم، وتَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما تَشتمِلُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٦).

تلك الحالُ مِن إشراكٍ، وإنْكارٍ للبَعثِ، وأذًى للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعاقِبةِ ذلك كُلِّه، ثم أُعقِبَ ذلك بالتَّفْصيلِ؛ لإبطالِ ما اشتَمَلَتْ عليه تلك الاعتقاداتُ مِن إنْكارِ البَعثِ، ومِن الإشراكِ باللهِ، وابتُدِئَ بدَلالةِ تَقريبِ البَعثِ؛ لمُناسَبةِ الانتِقالِ مِن قَولِه: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٣٢]، على أنَّ هذه لا تَخلو مِن دَلالتِها على الانفِرادِ بالتَّصرُّفِ، وفي ذلك إثباتُ الوَحْدانيَّةِ(١).

- وقيلَ: إنَّ قولَه: ﴿ وَءَايَةٌ ﴾ خَبَرٌ مُقدَّمٌ؛ للاهتِمامِ به، وتَنكيرُها للتَّفخيمِ(٢).

- وفي قَولِه: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ... ﴾ بَدَأَ بالأرضِ؛ لأنَّها مُستَقَرُّهم، حَرَكةً وسُكونًا، حَياةً ومَوتًا(٣).

- وجُملةُ ﴿أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن ﴿ٱلْأَرْضُ ﴾، وهي حالٌ مُقيِّدةٌ؛ لأنَّ إحْياءَ الأرضِ هو مَناطُ الدَّلالةِ على إمْكانِ البَعثِ بعدَ المَوتِ، أو يَكونُ جُملةُ ﴿أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ بيانًا لِجُملةِ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ﴾؛ لبَيانِ مَوقعِ الآيةِ فيها، أو بَدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ﴾، أو استِئْنافًا بَيانيًّا؛ كأنَّ سائِلًا سَألَ: كيف كانتِ الأرضُ المَيْتةُ(٤)؟

- قَولُه: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ إخراجُ الحَبِّ مِن الأرضِ: هو إخْراجُه مِن نَباتِها، فهو جاءَ منها بواسِطةٍ، وهذا إدْماجٌ(٥) للامتِنانِ في ضِمنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢).

(٥) سبق تعريفه (ص: ٥٥).

الاستِدلالِ؛ ولذلك فُرِّعَ عليه ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[١].

- وتَقديمُ الظَّرفِ ﴿فَمِنْهُ﴾ على ﴿يَأْكُلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الحَبَّ هو الشَّيءُ الَّذي يَتعلَّقُ به مُعظَمُ العَيشِ؛ فتَقديمُ صِفةِ الأكْلِ تُفيدُ الاختِصاصَ، وقد عُلِم أنَّ المَأْكولَ غيرُ مُختَصٍّ به، لكنْ قُدِّمَ الحَبُّ لِيَدُلَّ على أنَّه الأصْلُ في الارتِزاقِ، والمَأْكولاتُ تابِعةٌ له، فإنَّه إذا قَلَّ نزَلَ القَحطُ، وإذا حُصِر جاء الهلاكُ؛ فالدَّوَرانُ معه؛ فإرادةُ التَّخْصيصِ على المُبالَغةِ والادِّعاءِ، نحوُ إطلاقِ اسْمِ الجِنسِ على فَردٍ مِن أفرادِه، كحاتِمٍ الجَوادِ. ويجوزُ أنْ يُقدَّمَ رِعايةً للفَواصِلِ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ - قَولُه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ أي: مِن أنْواعِ النَّخلِ والعِنبِ؛ ولذلك جُمِعَا دُونَ الحبِّ في قولِه: ﴿حَبًّا﴾؛ فإنَّ الدَّالَّ على الجِنسِ مُشعِرٌ بالاختِلافِ، ولا كذلك الدَّالُّ على الأنواعِ[٣]. فالجمعُ في النَّخيلِ والأعنابِ دونَ الحَبِّ فيه دَلالةٌ على كثرةِ اختِلافِ الأصنافِ في النَّوعِ الواحِدِ؛ الموجِبِ للتَّفاوُتِ الظَّاهِرِ في القَدرِ والطَّعمِ وغَيرِ ذلك[٤].

- قَولُه: ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ في المواضِعِ التي ذَكَر الله فيها الفواكِهَ لم يَذكُرِ التَّمْرَ إلَّا بلَفظِ شَجَرتِه -وهي النَّخلةُ-، ولم يَذكُرِ العِنبَ بلَفظِ شَجَرتِه، بل ذكَرَه بلَفظِ العِنَبِ والأعنابِ، ولم يَذكُرِ الكَرْمَ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ العِنَبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣، ١٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٥).

شَجَرتُه بالنِّسبةِ إلى ثَمَرتِه حقيرةٌ قليلةُ الفائدةِ، والنَّخلَ بالنِّسبةِ إلى ثمَرتِه عظيمةٌ جَليلةُ القَدرِ، كثيرةُ الجَدوى[١]، فهو يختصُّ بمَزيدِ النَّفعِ، وآثارِ الصُّنعِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ مُتعلِّقٌ بـ (جَعَلْنَا)، وتَأخيرُه عن تَفْجيرِ العُيونِ؛ لأنَّه مِن مَبادِئِ الإثْمارِ، أي: وجَعَلْنا فيها جنَّاتٍ مِن نَخيلٍ، ورَتَّبْنا مَبادِئَ إثمارِها؛ لِيأكُلوا مِن ثَمَرِ ما ذُكِرَ مِن الجنَّاتِ والنَّخيلِ -على قَولٍ في التَّفسيرِ-؛ بإجراءِ الضَّميرِ مُجرَى اسمِ الإشارةِ[٣]؛ فالثِّمارُ لا تَتِمُّ إلَّا بالأنهارِ، ولا تصيرُ الأشجارُ حامِلةً للثِّمارِ إلَّا بعدَ وُجودِ الأنهارِ؛ فلهذا أُخِّرَ، بيْنَما قال: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾، فقال عَقِيبَ ذِكرِ الحَبِّ: (فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ)؛ وذلك لأنَّ الحَبَّ قُوتٌ، وهو يَتِمُّ وُجودُه بمياه الأمطارِ؛ ولهذا يُرى أكثَرُ البلادِ لا يكونُ بها شَيءٌ مِن الأشجارِ، والزَّرعُ والحِراثةُ لا تَبطُلُ هناك؛ اعتِمادًا على ماءِ السَّماءِ، وهذا لُطفٌ مِن الله؛ حيثُ جَعَل ما يحتاجُ إليه الإنسانُ أعَمَّ وُجودًا[٤].

- قَولُه: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ قيلَ: الضَّميرُ في قولِه: ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ للهِ تَعالى بطريقِ الالتِفاتِ، وأصْلُه: (مِنْ ثَمَرِنَا)، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ ﴿وَفَجَّرْنَا﴾؛ فنُقِلَ الكَلامُ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيْبةِ على طَريقةِ الالتِفاتِ، والإضافةُ إليه؛ لأنَّ الثَّمَرَ بخَلْقِه، والمَعْنى على ذلك: لِيَأكُلوا ممَّا خلَقَه اللهُ مِن الثَّمَرِ، وممَّا عَمِلَتْه أيْديهم مِن الغَرْسِ والسَّقيِ والتلقيحِ وغَيرِ ذلك مِن الأعمالِ إلى أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٧٣).

بلَغَ الثَّمَرُ مُنتهاهُ، يعني: أنَّ الثَّمَرَ في نفْسِه فِعلُ اللهِ وخَلْقُه، وفيه آثارٌ مِن كَدِّ بَني آدَمَ[١].

- وقيل: إنَّ الضَّميرَ في ﴿ثَمَرِهِۦ﴾ عائِدٌ على الماءِ؛ لدَلالةِ العُيونِ عليه، ولكَونِه على حَذْفِ مُضافٍ، أي: مِن ماءِ العُيونِ، وقيلَ: على النَّخيلِ، واكْتُفِيَ به للعِلمِ في اشتِراكِ الأعيانِ فيما عُلِّقَ به النَّخيلُ مِن أكْلِ ثَمَرِه. أو يُرادُ: من ثَمَرِ المَذْكورِ، وهو الجنَّاتُ[٢].

- قَولُه: ﴿لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ (ما) نافيةً، على أنَّ الثَّمَرَ خَلْقُ اللهِ، ولم تَعمَلْه أيْدي النَّاسِ، ولا يَقدِرونَ على خَلْقِه، وهذا أوفَرُ في الامتِنانِ، وأنسَبُ بسياقِ الآيةِ مَساقَ الاستِدلالِ. ويجوزُ أنْ تكونَ (ما) في قَولِه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ مَوصولةً مَعْطوفةً على ﴿ثَمَرِهِۦ﴾، أي: لِيَأكُلوا مِن ثَمَرِ ما أخْرَجْناهُ، ومِن ثَمَرِ ما عَمِلَتْه أيْديهم؛ فيَكونَ إدْماجًا للإرشادِ إلى إقامةِ الجنَّاتِ بالخِدْمةِ، والسَّقيِ، والتَّعهُّدِ؛ لِيَكونَ ذلك أوفَرَ لأغْلالِها، وضَميرُ ﴿عَمِلَتْهُ﴾ على هذا عائِدٌ إلى اسْمِ المَوْصولِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾ قِراءةُ الجمهورِ بإثْباتِ هاءِ الضَّميرِ عائِدًا إلى المَذْكورِ مِن الحَبِّ، والنَّخيلِ، والأعْنابِ، وقَرَأَ حَمزةُ والكِسائيُّ وأبو بَكرٍ عن عاصِمٍ وخَلَفٌ: ﴿وَمَا عَمِلَتْ﴾ بدُونِ هاءٍ[٤]، وكذلك هو مَرْسومٌ في المُصحَفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٠٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٥٩٨)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٣).

الكُوفيِّ، وهو جارٍ على حَذفِ المَفْعولِ إنْ كان مَعْلومًا، ويجوزُ أنْ يكونَ مِن حَذفِ المَفْعولِ لإرادةِ العُمومِ، والتَّقديرُ: وما عَمِلَتْ أيْديهم شيئًا مِن ذلك[١].

- والاستِفْهامُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ تَقْريعٌ وتَوبيخٌ وإنكارٌ واستقباحٌ لعَدَمِ شُكرِهم للنِّعَمِ المَعْدودةِ، والفاءُ للعَطفِ على مُقدَّرٍ يَقتضيهِ المَقامُ، أي: أَيَرَونَ هذه النِّعَمَ أو أَيَتَنعَّمونَ بها، فلا يَشْكُرونَها[٢]؟!

- وفُرِّعَ هذا الاستِفهامُ الإنكاريُّ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ على قَولِه: ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لِبَيانِ عَدَمِ شُكرِهم بأنِ اتَّخذوا للَّذي أوجَدَ هذا الصُّنعَ العَجيبَ أندادًا[٣]!

- وجِيءَ بالمُضارعِ ﴿يَشْكُرُونَ﴾؛ مُبالَغةً في إنْكارِ كُفرِهم بأنَّ اللهَ حَقيقٌ بأنْ يُكرِّروا شُكرَه، فكيف يَستمِرُّونَ على الإشراكِ به[٤]؟!

٤- قولُه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قَولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ...﴾ الجُملةُ مُستأْنَفةٌ مَسوقةٌ لِتَنزيهِه تَعالى عمَّا لا يَليقُ به، وعمَّا فَعلوهُ مِن تَركِ شُكرِه على آلائِه المَذْكورةِ، واستِعظامِ ما ذُكِر في حَيِّزِ صِلةٍ مِن بَدائعِ آثارِ قُدرتِه، وأسرارِ حكمتِه، ورَوائعِ نَعْمائِه الموجبةِ للشُّكرِ، وتَخصيصِ العبادةِ به، والتَّعجُّبِ مِن إخلالِهم بذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤، ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحالةُ هذه[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُمْلةِ ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [يس: ٣٣] وجُمْلةِ ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ ﴾ [يس: ٣٧]؛ أثارَه ذِكرُ إحياءِ الأرضِ، وإخراجِ الحَبِّ والشَّجَرِ منها؛ فإنَّ لذلكَ أحْوالًا وإبْداعًا عَجيبًا، يُذَكِّرُ بتَعظيمِ مُودِعِ تلك الصَّنائعِ بحِكمتِه؛ وذلك تَضمَّنَ الاستِدلالَ بخَلقِ الأزواجِ على طَريقةِ الإدْماجِ[٢].

- و﴿ سُبۡحَٰنَ ﴾ عَلَمٌ للتَّسبيحِ الَّذي هو التَّبعيدُ عن السُّوءِ اعتقادًا وقَولًا، أي: اعتقادَ البُعدِ عنه والحُكمَ به، مِنْ سبَحَ في الأرضِ والماءِ؛ إذا أبعَدَ فيهما وأمْعَنَ، ومنه فَرَسٌ سَبُوحٌ، أي: واسِعُ الجرْيِ، و﴿ سُبۡحَٰنَ ﴾ هنا لإنشاءِ تَنزيهِ اللهِ تعالى عن أحوالِ المُشرِكينَ تنزيهًا عن كلِّ ما لا يليقُ بإلهيَّتِه، وأعْظَمُه الإشراكُ به. وانتِصابُه على المصدريَّةِ، ولا يَكادُ يُذكَرُ ناصِبُه، أي: أُسبِّحُ سُبْحانَه، أي: أُنزِّهُه عمَّا لا يَليقُ به عَقْدًا وعَمَلًا، تَنزيهًا خاصًّا به حقيقًا بشَأنِه، وفيه مُبالَغةٌ مِن جِهةِ الاشتِقاقِ مِن السَّبْحِ، ومِن جِهةِ النَّقلِ إلى التَّفعيلِ، ومِن جِهةِ العُدولِ عن المَصدَرِ الدَّالِّ على الجِنسِ إلى الاسمِ الموضوعِ له خاصَّةً، لا سيَّما العَلَمُ المشيرُ إلى الحَقيقةِ الحاضرةِ في الذِّهنِ، ومِن جِهةِ إقامتِه مُقامَ المَصدَرِ مع الفِعلِ. وقيلَ: هو مَصدرٌ كغُفرانٍ، أُريدَ به التَّنزُّهُ التَّامُّ، والتَّباعُدُ الكُلِّيُّ عن السُّوءِ؛ ففيه مُبالَغةٌ مِن جِهةِ إسنادِ التَّنزُّهِ إلى الذَّاتِ المُقدَّسةِ، فالمَعْنى: تَنزَّهَ بذاتِه عن كُلِّ ما لا يَليقُ به تنزُّهًا خاصًّا به؛ فالجُملةُ على هذا إخبارٌ مِن اللهِ تَعالى بتَنزُّهِه وبَراءتِه عن كُلِّ ما لا يَليقُ به مَّما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥).

وتقدم تعريف الإدماج (ص: ٥٥).

فَعَلوه وما تَرَكوه، وعلى الأوَّلِ حُكمٌ منه عزَّ وجلَّ بذلك، وتَلقينٌ للمُؤمِنينَ أنْ يَقولوهُ ويَعتقِدوا مَضمونَه، ولا يُخِلُّوا به، ولا يَغفُلوا عنه(١).

- وإجراءُ المَوْصولِ على الذَّاتِ العَلِيَّةِ في قَولِه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾؛ للإيماءِ إلى وجْهِ إنشاءِ التَّنزيهِ والتَّعظيمِ(٢).

- وجِيءَ بضَميرِ جَماعةِ العُقلاءِ في قَولِه: ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾؛ تَغليبًا لنَوعِ الإنسانِ؛ نَظَرًا لكَونِه المَقْصودَ بالعِبْرةِ بهذه الآيةِ، وللتَّخلُّصِ إلى تَخْصيصِه بالعِبْرةِ في قَولِه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٣).

- وفي هذه الآياتِ خَصَّ الحقُّ سُبْحانه بالذِّكرِ أصْنافَ النَّباتِ؛ لأنَّ بها قِوامَ مَعاشِ النَّاسِ ومَعاشِ أنعامِهم ودَوابِّهم، وأصنافَ أنفُسِ النَّاسِ؛ لأنَّ العِبْرةَ بها أقْوى، ثمَّ ذُكِر ما يَعُمُّ المَخْلوقاتِ ممَّا يَعلَمُه النَّاسُ وما لا يَعلَمونه في مُختلِفِ الأقطارِ والأجيالِ والعُصورِ، وقُدِّمَ ذِكرُ النَّباتِ إيثارًا له بالأهمِّيَّةِ في هذا المقامِ؛ لأنَّه أشْبَهُ بالبَعثِ الَّذي أَوْمأَ إليه قَولُه: ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ [يس: ٣٢]. وتَكريرُ حَرفِ (مِن) بعدَ واوِ العَطفِ للتَّوكيدِ(٤).

- وفي قَولِه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالتَّناسُبِ بيْنَ المعاني أو صِحَّةِ التَّفسيرِ(٥)، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٧).

(٥) هو أنْ يأتِيَ المُتكلِّمُ في أوَّلِ كلامِه بمعنًى لا يَستقِلُّ الفَهمُ بمَعرفةِ فَحواهُ؛ إمَّا أنْ يكونَ مُجْمَلًا يحتاجُ إلى تَفصيلٍ، أو مُوجَّهًا يَفتقِرُ إلى تَوجيهٍ، أو مُحتمِلًا يحتاجُ المُرادُ منه إلى تَرجيحٍ =

وقد أتَتْ صِحَّةُ التَّفسيرِ في هذه الآيةِ مُقترِنةً بصِحَّةِ التَّقسيمِ[١]، واندَمَجَ فيهما التَّرتيبُ[٢] والتَّهْذيبُ[٣]؛ فكان فيها أربَعةُ فُنونٍ؛ فقد قدَّمَ سُبحانه النَّباتَ، وانتَقَلَ على طَريقِ البَلاغةِ إلى الأعْلى، فثَنَّى بأشرَفِ الحَيَوانِ، وهو الإنسانُ؛ لِيَستلزِمَ ذِكرُه بقيَّةَ الحَيَوانِ، ثم ثلَّثَ بقَولِه: ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾، فانتَقَلَ من الخُصوصِ إلى العُمومِ؛ لِيَندرِجَ تحتَ العُمومِ[٤].

---

= لا يَحصُلُ إلَّا بتَفسيرِه وتَبْيينِه، ويقعُ التَّفسيرُ بعدَ الشَّرطِ أو بعدَ ما فيه معنَى الشَّرطِ، أو بعدَ الجارِّ والمجرورِ، أو بعدَ المُبتدأِ الَّذي التَّفسيرُ خبَرُه. يُنظر: ((تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٨٥)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣١).

(١) التَّقسيمُ الصَّحيحُ أو صحَّةُ الأقسامِ: هو استيفاءُ المُتكلِّمِ أقسامَ المعنى الَّذي هو آخِذٌ فيه، بحيث لا يُغادِرُ منه شيئًا، أو: أن يُقسِّمَ الكلامَ قِسمةً مستويةً تحتوي على جميعِ أنواعِه، ولا يَخرُجُ منها جِنسٌ مِن أجناسِه. يُنظر: ((الصناعتين: الكتابة والشعر)) للعسكري (ص: ٣٤١)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الأصبع (ص: ١٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٣٥٥، ٤٥٧).

(٢) التَّرتيبُ الَّذي تستدعيه البلاغةُ هو الانتقالُ في نَظْمِ الكلامِ ورَصْفِه مِن الأدنى إلى الأعلى. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩/ ٥٤).

(٣) لأنَّ مُفرداتِ ألفاظِها مَوصوفةٌ بصِفاتِ الحُسنِ، وكلَّ لَفظةٍ سهلةُ مخارجِ الحروفِ، سَلِمَتْ مِن المحذورِ الَّذي يَقتضي تهذيبَها؛ كالتَّنافُرِ والغرابةِ ومُخالَفةِ القياسِ، بل وُضِعَتْ على أصحِّ ترتيبٍ، وأسهلِ تهذيبٍ، وحصَلَ التَّهذيبُ في نَظْمِها بحُصولِ حُسنِ التَّرتيبِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٠١)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣١٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٣٦٨) و(٦/ ٣٧٨) و(٩/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ١٩٧، ١٩٨).

## الآيات (٢٧-٤٠)

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَسۡلَخُ﴾: أي: نُخرِجُ ونَنزِعُ، وأصلُ (سلخ): يدُلُّ على إخراجِ شَيءٍ عن جِلدِه[١].

﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾: أي: جعَلْنا سَيْرَه بقَدَرٍ، والتَّقديرُ: يُطلَقُ على جَعلِ الأشياءِ بقَدَرٍ ونِظامٍ مُحكَمٍ، وعلى تحديدِ المقدارِ، مِثلُ تقديرِ الأوقاتِ، والكَمِّياتِ مِن الموزوناتِ والمعدوداتِ، وأصْلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونهايتِه[٢].

﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾: العُرجُونُ: عُودُ العِذْقِ مِن النَّخلةِ، فإذا قَدُم وعَتُق، يَبِسَ وتقوَّس واصفرَّ، وأصلُ العُرجونِ: مِنَ الانعراجِ، وهو الانعِطافُ[٣].

﴿فَلَكٖ﴾: الفَلَكُ: القُطبُ الذي تَدورُ به النُّجومُ، ومجرَى الكواكِبِ، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استِدارةٍ في شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٤)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ ﴾

قَولُه تعالَى: ﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ ﴾ القَمَرَ: مَنصوبٌ على الاشتِغالِ[1] بفِعلٍ مَحذوفٍ يُفسِّرُه المذكورُ، والتَّقديرُ: وقَدَّرْنا القَمَر قَدَّرْناه. وقُرِئَ: ﴿وَالقَمَرُ﴾ بالرَّفعِ[2]: مُبتدأٌ لخبرٍ محذوفٍ مُقَدَّمٍ، والتَّقديرُ: وآيةٌ لهم القَمَرُ، ويَجوزُ أنْ يكونَ مُبتدأً خَبَرُه ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾.

قَولُه: ﴿مَنَازِلَ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه ظَرفٌ، أي: قَدَّرْنا مَسيرَه في مَنازِلَ. الثَّاني: أنَّه حالٌ على نِيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، تقديرُه: ذا مَنازِلَ. الثالثُ: أنَّه مَفعولٌ ثانٍ بتَضمينِ ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ معنى: صَيَّرْنا. الرَّابعُ: أنَّه مَفعولٌ به لـ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾، والأصلُ: (قَدَّرْنا له منازِلَ)، فحُذِفَ الجارُّ، وأُوصِل الفِعلُ إلى الضَّميرِ فانتَصَبَ[3].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا بعضَ دَلائلِ وَحدانيتِه، وعَظيمِ قُدرتِه: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لهم أيضًا دالَّةٌ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه على إحياءِ الموتَى: اللَّيلُ؛ حيثُ ينزِعُ اللهُ عنه النَّهارَ؛ فيصيرُ النَّاسُ في لَيلٍ مُظلِمٍ، والشَّمسُ تَجري بقُدرةِ اللهِ تعالَى إلى مَكانِ قَرارِها الَّذي قدَّرَه اللهُ لها، ذلك تَقديرُ اللهِ العزيزِ الذي لا يَغلِبُه

---

(١) الاشتغال في مصطلَح النحاة معناه: إذا تَقدَّم اسمٌ على فِعلٍ صالحٍ لأنْ يَنصِبَه لفظًا أو محلًّا، وشُغِلَ الفِعلُ عن عمِله فيه بعمَله في ضميرِه، صحَّ في الاسمِ أنْ يُنصَب بفِعلٍ لا يَظهَرُ، مماثلٍ للظاهِرِ أو مُقارِبِه. وله أحوالٌ في إعرابِه. يُنظر: ((شرح ألفية ابن مالك)) لابن الناظم (ص: ١٧٢)، ((شرح التصريح على التوضيح)) لخالد الأزهري (١/ ٤٤١).

(٢) قرأه بالرفعِ: ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو وروحٌ، وقرأه الباقونَ بالنَّصبِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٨٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٦/ ١٥٣) (٩/ ٢٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٦).

غالِبٌ، العَليم بكُلِّ شَيءٍ.

ثمَّ يَذكرُ اللهُ تعالَى آيةً أُخرَى، فيَقولُ: وقدَّرْنا سَيْرَ القمَرِ في منازِلَ؛ بأنْ يَنزِلَ في كُلِّ ليلةٍ في مَنزِلٍ، فإذا صارَ في آخِرِ منازِلِه أصبحَ في دِقَّتِه وتَقوُّسِه كعُرجونِ النَّخلةِ اليابِسِ المتقَوِّسِ.

ولا يَصِحُّ ولا يَتأتَّى للشَّمسِ أنْ تُدرِكَ القَمَر في مَسيرِه، فتجتَمِعَ معه باللَّيلِ، وكذلك لا يَصِحُّ ولا يَتأتَّى للَّيلِ أنْ يَسبقَ النَّهارَ، فيُزاحِمَه في مَحلِّه أو وَقتِه، وإنَّما كُلُّ واحدٍ مِن الشَّمسِ والقَمَرِ، واللَّيلِ والنَّهارِ: يَدورُ في فَلَكِ السَّماءِ فيَسيرُ في هذا الكَونِ بنِظامٍ بَديعٍ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:**

بعْدَ أنْ بيَّنَ سُبحانَه مَظاهِرَ قُدْرتِه عن طَريقِ التَّأمُّلِ في الأرضِ الَّتي نَعيشُ عليها، عقَّبَ ذلك ببَيانِ مَظاهِرِ قُدْرتِه عن طَريقِ التَّأمُّلِ في تَقلُّبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وتَعاقُبِ الشَّمسِ والقَمرِ، فقال[1]:

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

أي: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لهم دالَّةٌ على تَوحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه على إحياءِ الموتَى، وعلى غيرِ ذلك: اللَّيلُ؛ حيثُ نَنزِعُ عنه النَّهارَ، فإذا النَّاسُ قدْ صاروا في ظُلمةٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٣١)، ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٥، ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥).

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ذكَرَ الوَقتينِ؛ ذكَرَ آيتَيهما، فقال:

﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا ﴾.

أي: والشَّمسُ[1] -التي سُلِخَ النَّهارُ مِن اللَّيلِ بغَيبوبتِها- تَجري بقُدرةِ اللهِ تعالَى إلى مَوضِعِ قَرارِها الَّذي قدَّرَه اللهُ لها[2].

---

(١) قيل: يحتَمِلُ أنْ تكونَ الواوُ للعَطفِ على اللَّيلِ، والتقديرُ: وآيةٌ لهم الشَّمسُ. ويجوزُ أن تكونَ الواوُ ابتدائيةً، والشَّمسُ: مبتدأ، وما بعدَها الخبَر، ويكونُ الكلامُ مُستأنَفًا مُشتَمِلًا على ذِكرِ آيةٍ مُستقلَّةٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٣٥-١٣٧).

قولُه: ﴿ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا ﴾ فيه أقْوالٌ؛ منها: إلى مَوضِعِ قَرارِها. ومنها: أنَّ مُستَقَرَّها مَغرِبُها، لا تُجاوِزُه، ولا تُقصِّرُ عنه؛ قاله مُجاهدٌ. ومنها: لوَقتٍ واحِدٍ لا تَعْدوه؛ قاله قَتادةُ. ومنها: لوَقتٍ لها إلى يومِ القِيامةِ؛ قاله مُقاتلٌ. ومنها: تَسيرُ في مَنازِلِها حتَّى تَنتَهيَ إلى مُستَقَرِّها الَّذي لا تُجاوِزُه، ثمَّ تَرجِعُ إلى أوَّلِ مَنازِلِها؛ قاله ابنُ السَّائبِ. ومنها: إلى مُستَقرٍّ لها، ومُستَقَرُّها: أقْصَى مَنازِلِها في الغُروبِ؛ وذلك لأنَّها لا تَزالُ تَتقدَّمُ إلى أقْصى مَغارِبِها، ثمَّ تَرجِعُ؛ قاله ابنُ قُتَيْبَةَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٣، ٥٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٩)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٣، ٥٢٤).

قال ابنُ كَثيرٍ: (في مَعنى قولِه: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾ قَوْلانِ:

أحَدُهما: أنَّ المُرادَ: مُستَقَرُّها المَكانيُّ، وهو تحتَ العَرشِ... كما جاءَت بذلك الأحاديثُ... والقولُ الثَّاني: أنَّ المُرادَ بمُستَقَرِّها هو: مُنْتَهى سَيْرِها، وهو يومُ القِيامةِ، يَبطُلُ سَيْرُها، وتَسكُنُ حَرَكتُها وتُكَوَّرُ، ويَنْتَهي هذا العالَمُ إلى غايَتِه، وهذا هو مُستَقَرُّها الزَّمانيُّ. قال قَتادةُ: ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾، أي: لوَقْتِها، ولأجَلٍ لا تَعْدُوه). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٦). =

عن أبي ذرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأبي ذَرٍّ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمسُ: أَتدري أينَ تَذهَبُ؟ قُلتُ: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: فإنَّها تَذهَبُ حتَّى تَسجُدَ تحتَ العَرشِ فتَستأذِنَ، فيُؤذَنُ لها، ويُوشِكُ أنْ تَسجُدَ فلا يُقبَلَ منها، وتَستأذِنَ فلا يُؤذَنَ لها؛ يقالُ لها: ارجِعي مِن حَيثُ جِئتِ، فتَطلُعُ مِن مَغرِبِها، فذلك قَولُه تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾))[1].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن قَولِ الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَا﴾؟ قال: مُستقَرُّها تحتَ العَرشِ))[2].

﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾.

أي: ذلك[3] تَقديرُ العَزيزِ الذي بعِزَّتِه قَهَرَ المخلوقاتِ العَظيمةَ كالشَّمسِ؛

---

= وقال ابنُ جُزَيٍّ: (وفي الحَديثِ: «مُستَقَرُّها تحتَ العَرشِ تَسجُدُ فيه كلَّ لَيلةٍ بعدَ غُروبِها»، وهذا أصَحُّ الأقْوالِ؛ لوُرودِه عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الحَديثِ المَرْويِّ في البُخاريِّ عن أبي ذَرٍّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٢)، ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٤).

(١) رواه البخاريُّ (٣١٩٩) واللفظ له، ومسلِمٌ (١٥٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٨٠٣)، ومسلمٌ (١٥٩).

(٣) قيلَ: الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى جَرْيِ الشَّمسِ؛ أي: ذلك الجَرْيُ على ذلك التَّقْديرِ. وممَّن قال بهذا المَعنى في الجُملةِ: ابنُ جَرير، والزَّمخْشريُّ، والبَيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، والرَّسْعَنيُّ، وأبو السُّعود، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٨٤).

وقيل: الإشارةُ إلى ما ذُكِرَ مِن أمْرِ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ. وممَّن قال بهذا: القُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١).

فهو القاهِرُ الغالِبُ سُبحانَه، وهو العَليمُ المحيطُ عِلمًا بكُلِّ شَيءٍ، الَّذي يُدبِّرُ الأمْرَ، فيطَّرِدُ على نِظامٍ عَجيبٍ، ونَهجٍ بديعٍ، لا يَعتريه وَهَنٌ، ولا يَلحَقُه خَلَلٌ[1].

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذكَرَ آيةَ النَّهارِ -وهي الشَّمسُ-؛ أتْبَعَها آيةَ اللَّيلِ -وهي القَمرُ-[2]، فقال:

﴿ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

أي: وقدَّرْنا القَمَرَ مَنازِلَ يَسيرُ فيها، ويَنزِلُ كُلَّ ليلةٍ في واحِدٍ منها، حتى يَكتَمِلَ ضَوْءُه ويَصيرَ بَدرًا، ثمَّ يَتناقَصُ شَيئًا فشَيئًا حتَّى يَعودَ هِلالًا، كعُودِ عِذْقِ النَّخلةِ اليابِسِ الأصفَرِ النَّحيلِ المتقَوِّسِ لِقِدَمِه[3].

كما قالَ تعالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [يونس: ٥].

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذَكَر الشَّمسَ والقَمَرَ، وكانتِ الشَّمسُ مُقارِنةً لِلنَّهارِ في مُخيِّلاتِ البَشَرِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٧، ٥٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣١-١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢، ٢٣).

وكان القَمَرُ مُقارِنًا لِلَّيلِ، وكان في نِظامِ اللَّيلِ والنَّهارِ مَنافعُ لِلنَّاسِ؛ اعتَرَض بذِكرِ نِظامِ الشَّمسِ والقَمَرِ في أثْناءِ الاعتِبارِ بنِظامِ اللَّيلِ والنَّهارِ(١).

وأيضًا لَمَّا تقرَّر أنَّ لكُلٍّ مِن الشَّمسِ والقَمرِ مَنازِلَ لا يَعْدوها؛ فلا يَغلِبُ ما هو آيتُه ما هو آيةُ الآخَرِ، بل إذا جاء سُلطانُ هذا ذهَب ذاك، وإذا جاء ذاك ذهَب هذا، فإذا اجتمَعَا قامتِ السَّاعةُ- تَحرَّر أنَّ نتيجةَ هذه القَضايا(٢):

﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾.

أي: لا يُمكِنُ للشَّمسِ أن تَلحَقَ القَمَرَ؛ فهذا أمرٌ مُحالٌ ومُمتَنِعٌ(٣).

﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾.

أي: ولا يَسبِقُ اللَّيلُ النَّهارَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٨، ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٤٥).

قيل: المرادُ: أنَّه لا يمكِنُ أن يجتَمِعَا، فتكونَ الأوقاتُ كُلُّها نهارًا لا لَيلَ فيها، بل لكلٍّ منهما مجرًى قدَّره اللهُ، ولكلٍّ منهما سُلطانٌ له وَقتُه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملة: ابنُ جَرير، وابنُ تَيميَّة، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القولِ: أبو صالح، والضَّحَّاك، وقَتادة، وعِكرمة، والحسن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

وقيل: المرادُ: نَفيُ أنْ تصطدِمَ الشَّمسُ بالقَمرِ، خلافًا لِما يبدو مِن قُربِ منازِلِهما؛ فإنَّ ذلك من المُسامتةِ لا مِن الاقترابِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

أي: وكلٌّ يَدورُ في فَلَكِ السَّماءِ[1].

---

= (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤، ٢٥).

اختَلَفَت ألْفاظُ المُفسِّرينَ في تَفْسيرِ هذه الآيةِ وإنْ كانتْ مَعانيها مُتَقارِبةً:

فمِمَّن قال: إنَّ المَعنى: ولا يُدرِكُ سَوادُ اللَّيلِ ضوءَ النَّهارِ فيَغلِبَه على ضَوئِه: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤).

وممَّن قال: إنَّ المَعنى: ولا يَدخُلُ اللَّيلُ على النَّهارِ قَبلَ انْقِضائِه: الواحديُّ، والبَغَويُّ، وجلالُ الدِّينِ المَحلِّيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥) تفسير الجلالين (ص: ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦).

وممَّن قال: إنَّ المَعنى: لا يتَّصِلُ لَيلٌ بلَيلٍ، لا يَكونُ بينَهما نَهارٌ فاصِلٌ: السَّمْعانيُّ، وابنُ جُزَيٍّ، وابنُ كَثيرٍ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

وممَّن قال: إنَّ المَعنى: لا يَسبِقُه فيَفوتَه، ولكنْ يُعاقِبُه: البَيضاويُّ، وأبو السُّعود، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٥).

قال ابن قتيبة: (﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ يقولُ: هما يَتعاقبانِ، ولا يَسبِقُ أحدُهما الآخَرَ: فيفوته ويَذهَب قبْلَ مجيءِ صاحبِه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٣).

وقال ابنُ تيمية: (﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ لا يفوتُه ويَتقدَّمُ أمامَه حتى يكونَ بينهما برزخٌ؛ بل هو هو متَّصِلٌ به، لا هذا يَنفصِلُ عن هذا، ولا هذا يَنفصِلُ عن هذا). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٥٩٩). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٨٥).

وقيل: معنى قوله: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾، أي: آيةُ الليلِ آيةَ النهارِ، وممَّن اختاره: النَّسَفيُّ، وابنُ عَجيبة. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٤/ ٥٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥، ٢٦).

قيل المراد: بـ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾: اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقمَرُ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٤٧). =

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ * وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ * وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ كُلُّ هذا دَليلٌ ظاهِرٌ، وبُرهانٌ باهِرٌ على عَظَمةِ الخالِقِ، وعَظَمةِ أوصافِه، خُصوصًا وَصْفَ القُدرةِ والحِكمةِ والعِلمِ في هذا الموضِعِ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ فيه دلالةٌ بيِّنةٌ على ما تذهبُ إليه العربُ مِن أنَّ اللَّيلَ قبلَ النَّهارِ؛ لأنَّ السَّلخَ والكشفَ بمعنًى واحدٍ، وإذا كان ذلك، وكان الله تعالى قال: ﴿ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾، والمسلوخُ منه يكونُ قبلَ المسلوخِ، فيجبُ أن يكونَ اللَّيلُ قبلَ النَّهارِ، كما أنَّ المغطَّى قبلَ الغِطاءِ[2].

---

= لكن ذكر ابنُ جُزَيٍّ أنَّه لا يُوصَفُ اللَّيلُ والنَّهارُ بالسَّبحِ في الفلَكِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١).

وقيل: المرادُ: الشَّمسُ والقمَرُ والنُّجومُ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، والرَّسْعني، وجلال الدِّين المحلِّي، والعُليمي، والسعدي. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٤٨٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٣٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦).

وقيل: المرادُ: الشمسُ والقمرُ. وممَّن اختاره: مقاتِلُ بنُ سُليمان، وابنُ أبي زَمنين، والزَّمخشريُّ، وابنُ جُزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١).

قال ابنُ جُزَيٍّ: (أتى بلفظِ «كُلٌّ»، و﴿يَسۡبَحُونَ﴾ وهو جَمعٌ، مع أنَّ الشَّمسَ والقَمرَ اثْنانِ؛ لأنَّه أرادَ جِنسَ مَطالِعِها كلَّ يومٍ ولَيلةٍ، وهي كَثيرةٌ. قالَه الزَّمَخْشَريُّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٥)

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦).

(٢) يُنظر: ((الأزمنة والأمكنة)) للمرزوقي (ص:٢١).

فالأصلُ هو الظَّلامُ، والنَّهارُ طارِئٌ عليه؛ ولهذا يُسلَخُ منه، وهو كذلك؛ فإنَّ أصلَ الضَّوءِ مِن الشَّمسِ، والشَّمسُ حادِثةٌ ووارِدةٌ على اللَّيلِ، فيكونُ الأصلُ الظَّلامَ، ويأتي النُّورُ بَعدَه(١).

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ تذكيرُ الخَلْقِ بهذه النِّعمةِ؛ وأنَّه لولا نِعمةُ اللهِ علينا بهذا النَّهارِ الذي يُسْلَخُ مِن اللَّيلِ لكُنَّا دائمًا في ظُلمةٍ، وهذا بلا شَكٍّ متعِبٌ للناسِ، وضارٌّ بهم، قال تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾(٢) [القصص: ٧١].

٤- أنَّ هذه الشَّمسَ مُقَدَّرةٌ تَقديرًا بالِغًا مُنَظَّمًا؛ لِقَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، ويَشهَدُ لهذا الواقعُ؛ فإنَّ هذه الشَّمسَ مُنذُ خَلَقَها اللهُ إلى أنْ تَزولَ وهي في فَلَكِها لا تَتقدَّمُ ولا تَتأخَّرُ عن السُّنَّةِ التي أمَرَها عزَّ وجلَّ أنْ تكونَ عليها، ولا ترتفعُ ولا تنخفِضُ، حتى قيلَ: إنَّها لو تنخَفِضُ مِقدارَ درجةٍ لأَحْرقتِ الأرضَ، ولو ارتفعَتْ مِقدارَ درجةٍ لجَمَّدتِ الأرضَ، ولكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ جَعَلَها على هذا التَّقديرِ البَديعِ المُحْكَمِ الذي لا يَتغيَّرُ ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾(٣).

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ أنَّ هذا القَمرَ آيةٌ مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، حيثُ هو مَوضوعٌ في فَلَكِه، ومع ذلك له مَنازِلُ يَنزِلُها كُلَّ ليلةٍ، فليس مُطلَقًا، ولكِنَّه مُقَدَّرٌ بمنازِلَ يَنزِلُها كُلَّ ليلةٍ، والحِكمةُ مِن هذه المنازِلِ هي أنْ يَعرِفَ النَّاسُ عددَ السِّنينَ والحِسابَ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، حتى إنَّ العالِمينَ بمنازِلِ القمرِ يَعرفونَ اللَّيلةَ مِن الشَّهرِ -وإنْ كانوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٠).

لم يَحسِبوا مِن أوَّلِ الأمرِ- بِناءً على مَعرفةِ المنازِلِ؛ لأنَّ هذه المنازلَ لا تَتغيَّرُ، وحلولَ القمَرِ فيها أيضًا لا يَتغيَّرُ، فهي مُنَظَّمةٌ مِن عِندِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ إطلاقُ القَديمِ على غيرِ اللهِ، خِلافًا للمُتفَلسِفةِ، أو الفلاسِفةِ الذين يقولون: إنَّ أخَصَّ وَصْفِ اللهِ هو القِدَمُ، وهذا خطأٌ؛ فلو كان هذا أخَصَّ وصْفِ اللهِ لم يُوصَفْ به سِوى اللهِ! والقِدَمُ لا يدلُّ على الأزليَّةِ؛ فهذا العُرجونُ وصَفه اللهُ بأنَّه قَديمٌ، ومع ذلك فإنَّه ليس أزليًّا؛ إذْ إنَّه حادِثٌ بعد أنْ لم يكُنْ، وبه يَتبيَّنُ بُطلانُ قولِ هؤلاء الذين يقولون: إنَّ أخَصَّ وصْفِ اللهِ عزَّ وجلَّ هو القِدَمُ، ولو قالوا: أخَصُّ وَصْفٍ هو الأوَّليَّةُ لكُنَّا نُوافِقُهم على ما قالوا؛ لأنَّ اللهَ هو الأوَّلُ الذي ليس قَبلَه شيءٌ، أمَّا أنْ نقولَ: إنَّ القِدَمَ أخَصُّ وَصفِ الله، مع أنَّه يُوصَفُ به الحادِثُ؛ فهذا لا يكونُ ولا يَصِحُّ(٢).

٧- قولُه تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ لَمَّا جَرَى ذِكرُ الشَّمسِ والقَمَرِ في مَعرِضِ الآياتِ الدَّالةِ على انفِرادِه تَعالَى بالخَلقِ والتَّدبيرِ، وعلى صِفاتِ أُلوهِيَّتِه التي مِن مُتَعلِّقاتِها تَعلُّقُ صِفةِ القُدرةِ بآيةِ الشَّمسِ وسَيرِها، والقَمَرِ وسَيرِه، وكان الناسُ يَعرِفونَ تَقارُبَ الشَّمسِ والقَمَرِ فيما يَراه الرَّاؤونَ، وكانوا يُقَدِّرونَ سَيرَهما بأسْماتٍ مُعلَّمةٍ بعَلاماتٍ نُجوميَّةٍ تُسمَّى بُروجًا بالنِّسبةِ لِسَيرِ الشَّمسِ، وتُسمَّى مَنازِلَ بالنِّسبةِ لِسَيرِ القَمَرِ، وكانوا يَعلَمونَ شِدَّةَ قُربِ المَنازِلِ القَمَريَّةِ مِنَ البُروجِ الشَّمسيَّةِ؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٤).

والقَديمُ ليس من أسْماءِ اللهِ ولا صِفاتِه، ولم يَرِدْ وَصفُ اللهِ به في شَيءٍ منَ القُرآنِ والآثارِ الصَّحيحةِ، وإنْ كان يصِحُّ أنْ يُخبَرَ به عنه. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٦١)، ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: ٢٧٦).

كُلَّ بُرجٍ تُسامِتُه مَنزِلَتانِ، أو ثَلاثُ مَنازِلَ، وبَعضُ نُجومِ المَنازِلِ هي أجزاءٌ مِن نُجومِ البُروجِ؛ زادَهم اللهُ عِبرةً وتَعليمًا بأنَّ لِلشَّمسِ سَيرًا لا يُلاقي سَيرَ القَمَرِ، ولِلقَمَرِ سَيرًا لا يُلاقي سَيرَ الشَّمسِ، ولا يَمُرُّ أحَدُهما بطَرائِقِ مَسيرِ الآخَرِ، وأنَّ ما يتَراءَى لِلنَّاسِ مِن مُشاهَدةِ الشَّمسِ والقَمَرِ في جَوٍّ واحِدٍ، وفي حَجمَيْنِ مُتَقارِبَيْنِ، وما يَتَراءَى لهم مِن تَقارُبِ نُجومِ بُروجِ الشَّمسِ ونُجومِ مَنازِلِ القَمَرِ؛ إنْ هو إلَّا مِن تَخَيُّلاتِ الأبصارِ، وتَفاوُتِ المَقاديرِ بَيْنَ الأجرامِ والأبعادِ[1].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ سؤالٌ: كيف نفَى تعالى الإدراكَ عن الشَّمسِ للقَمَرِ دونَ عَكسِه؟

**والجوابُ**: لأنَّ سَيرَ القمَرِ أسرعُ؛ لأنَّه يقطَعُ فَلَكَه في شهرٍ، والشَّمسُ لا تقطَعُ فلَكَها إلَّا في سَنةٍ؛ فكانتْ جَديرةً بأنْ تُوصَفَ بنفْيِ الإدراكِ؛ لبُطءِ سَيرِها، وكان القَمَرُ خَليقًا بأنْ يُوصَفَ بالسَّبقِ؛ لِسُرعةِ سَيرِه[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾ جِيءَ بضميرِ ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ ضَميرَ جمعٍ؛ معَ أنَّ المتقدِّمَ ذِكرُه شيئانِ هما: الشَّمسُ والقمرُ؛ لأنَّ المرادَ إفادةُ تَعميمِ هذا الحُكمِ للشَّمسِ والقمَرِ وجَميعِ الكواكبِ -على أحدِ الأقوالِ-، وهي حَقيقةٌ عِلميَّةٌ سبَق بها القُرآنُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٢).

وقال ابنُ عاشور: (وفي الكَلامِ اكتِفاءٌ، أي: لِأنَّ التَّقديرَ: ولا القَمَرُ يُدرِكُ الشَّمسَ، ولا النَّهارُ سابِقُ اللَّيلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥).

وذكَرَ البِقاعيُّ أنَّ هذه الآيةَ من الاحْتِباكِ: نَفَى أوَّلًا إدْراكَ الشَّمسِ لقُوَّتِها دَليلًا على ما حُذِفَ منَ الثَّانيةِ من نَفيِ إدْراكِ القَمرِ للشَّمسِ، وذكَرَ ثانيًا سَبقَ اللَّيلِ النَّهارَ؛ لِما له منَ القوَّةِ بما يَعرِضُ منَ النَّهارِ، فيُغَشِّيه دَليلًا على حَذفِ سَبقِ النَّهارِ اللَّيلَ أوَّلًا. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ انتقالٌ إلى دَلالةِ مَظاهِرِ العَوالِمِ العُلويَّةِ على دَقيقِ نِظامِ الخالِقِ فيها، مِمَّا تُؤذِنُ به المُشاهَدةُ مع التَّبَصُّرِ، وابتُدِئَ منها بنِظامِ اللَّيلِ والنَّهارِ؛ لِتكَرُّرِ وُقوعِه أمامَ المُشاهَدةِ لِكُلِّ راءٍ[1].

- وجُملةُ ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ مُبيِّنةٌ لِكيفيَّةِ كَونِه آيةً[2].

- وفي قَولِه: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ ﴾ شَبَّهَ النَّهارَ بجِلْدِ الشَّاةِ ونَحوِها، يُغَطِّي ما تَحتَه منها، كما يُغَطِّي النَّهارُ ظُلْمةَ اللَّيلِ في الصَّباحِ، وشَبَّهَ كَشْفَ النَّهارِ وإزالَتَه بسَلْخِ الجِلدِ عن نَحوِ الشَّاةِ؛ فصارَ اللَّيلُ بمَنزِلةِ جِسمِ الحَيوانِ المَسلوخِ منه جِلدُه، وليس اللَّيلُ بمَقصودٍ بالتَّشبيهِ، وإنَّما المَقصودُ تَشبيهُ زَوالِ النَّهارِ عنه؛ فاستَتبَعَ ذلك أنَّ اللَّيلَ يَبقَى شِبْهَ الجِسمِ المَسلوخِ عنه جِلدُه، ووَجْهُ ذلك: أنَّ الظُّلمةَ هي الحالةُ السابقةُ لِلعَوالِمِ قَبْلَ خَلقِ النُّورِ في الأجسامِ النَّيِّرةِ؛ لِأنَّ الظُّلمةَ عَدَمٌ، والنُّورَ وُجودٌ، وكانتِ المَوجوداتُ في ظُلمةٍ قَبلَ أنْ يَخلُقَ اللهُ الكَواكِبَ النَّيِّرةَ ويُوصِّلَ نورَها إلى الأجسامِ التي تَستَقبِلُها، كالأرضِ والقَمَرِ[3].

- وفي قَولِه: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾ ما يُعرَفُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠١).

في البَلاغةِ بالتَّوشيحِ[١]؛ فإنَّ مَن كانَ حافِظًا لِلسُّورةِ مُتفَطِّنًا إلى أنَّ مَقاطِعَ آيِها النُّونُ المُردِفةُ، وسَمِعَ في صَدرِ الآيةِ انسِلاخَ النَّهارِ مِنَ اللَّيلِ، عَلِمَ أنَّ الفاصِلةَ تَكونُ ﴿مُّظۡلِمُونَ﴾؛ لِأنَّ مَنِ انسَلَخَ النَّهارُ عن لَيلِه أظلَمَ، أي: دَخَل في الظُّلُماتِ ما دامَت تلك الحالُ[٢].

- قَولُه: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾، أي: داخِلونَ في الظَّلامِ مُفاجأةً، وفيه رَمزٌ إلى أنَّ الأصْلَ هو الظَّلامُ، والنُّورَ عارِضٌ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾

- قَولُه: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ﴾ تَفصيلٌ لإجْمالِ جُملةِ ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، كما دَلَّ عليه قَولُه الآتي: ﴿وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ مِن كَونِه تَفصيلًا ألَّا يَعطِفَ، فيُقالَ: (الشَّمسُ تَجري لِمُستَقَرٍّ لها)؛ فخُولِفَ مُقتَضَى الظَّاهِرِ؛ لِأنَّ في هذا التَّفصيلِ آيةً خاصَّةً، وهي آيةُ سَيرِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وآيةُ الشَّمسِ المَذكورةُ هنا مُرادٌ بها دَليلٌ آخَرُ على عَظيمِ صُنعِ اللهِ تَعالَى، وهو نِظامُ الفُصولِ الأربَعةِ، وهذا استِدلالٌ بآثارِ ذلك السَّيرِ المَعروفةِ لِلناسِ مَعرِفةً إجماليَّةً بما يَحسِبونَ مِنَ الوَقتِ، وامتِدادِ اللَّيلِ والنَّهارِ[٤].

---

(١) التَّوْشيحُ -ويُسمَّى أيضًا التَّشْريعُ-: أنْ يكونَ نفْسُ الكَلامِ يدُلُّ على آخِرِه، نزَلَ المَعنى مَنزلةَ الوِشاحِ، ونزَلَ أوَّلُ الكَلامِ وآخِرُه مَنزِلةَ العاتِقِ والكَشْحِ اللَّذَينِ يَجولُ عليهما الوِشاحُ؛ ولهذا قيلَ فيه: إنَّ الفاصِلةَ تُعلَمُ قبلَ ذِكْرِها. وتَشتَمِلُ الزِّيادةُ على إضافةِ مَعنًى. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (١/ ٩٥)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩).

- وقَولُه: ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ إدماجٌ لِلتَّعليمِ في التَّذكيرِ، وليس مِن آيةِ الشَّمسِ لِلنَّاسِ؛ لِأنَّ النَّاسَ لا يَشعُرونَ به(١).

- واللَّامُ في قَولِه: ﴿لَّهَا﴾ لامُ الاختِصاصِ، وهو صِفةٌ لـ (مُسْتَقَرٍّ)، وعَدَل عن إضافةِ (مُستَقَرٍّ) لِضَميرِ الشَّمسِ المُغنيةِ عن إظهارِ اللَّام، إلى الإتيانِ باللَّامِ؛ لِيَتأتَّى تَنكيرُ (مُستَقَرٍّ) تَنكيرًا مُشعِرًا بتَعظيمِ ذلك المُستقَرِّ(٢).

- وذَكَر صِفتَيِ العَزيزِ العَليمِ في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾؛ لِمُناسبةِ مَعناهما لِلتَّعلُّقِ بنِظامِ سَيرِ الكَواكِبِ؛ فالعِزَّةُ تُناسِبُ تَسخيرَ هذا الكَوكَبِ العَظيمِ، والعِلْمُ يُناسِبُ النِّظامَ البَديعَ الدَّقيقَ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾

- عُدِّيَ فِعلُ ﴿قَدَّرْنَٰهُ﴾ إلى ضَميرِ القَمَرِ الذي هو عِبارةٌ عن ذاتِه، وإنَّما التَّقديرُ: لِسَيرِه، ولكِنْ عُدِّيَ التَّقديرُ إلى اسمِ ذاتِه دونَ ذِكرِ المُضافِ؛ مُبالَغةً في لُزومِ السَّيرِ له مِن وَقتِ خَلقِه، حتى كأنَّ تَقديرَ سَيرِه تَقديرٌ لِذاتِه(٤).

- وخُصَّ القَمَرُ بذِكرِ تَقديرِ المنازِلِ دونَ الشَّمسِ وإنْ كانتْ مُقدَّرةَ المنازِلِ؛ لظهورِ ذلك للحِسِّ في القَمَرِ، وظُهورِ تفاوُتِ نُورِه بالزِّيادةِ والنُّقصانِ في كُلِّ مَنزِلٍ؛ ولذلك كان الحِسابُ القَمَريُّ أشهَرَ وأعرَفَ عِندَ الأمَمِ، وأبعدَ مِن الغَلَطِ، وأصَحَّ للضَّبطِ مِن الحِسابِ الشَّمسيِّ، ويَشترِكُ فيه النَّاسُ دونَ الحِسابِ الشَّمسيِّ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٦).

- و(حتَّى) في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ ابتِدائيَّةٌ، ومعنى الغايةِ لا يُفارِقُ (حتَّى)، فآذَنَ ما فيها مِن مَعنى الغايةِ بمُغَيًّا مَحذوفٍ؛ فالغايةُ تَستَلزِمُ ابتداءَ شَيءٍ، والتَّقديرُ: فابتَدَأَ ضَوْءُه، وأخَذَ في الازديادِ لَيلةً قَليلةً، ثم أخَذَ في التَّناقُصِ حتَّى عادَ، أي: صارَ كالعُرجُونِ القَديمِ، أي: شَبيهًا به[1].

- قَولُه: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ العُرجونُ هو العُودُ الذي تُخرِجُه النَّخلةُ؛ فيَكونُ الثَّمَرُ في مُنتَهاهُ، وعَبَّرَ عنِ القَمرِ بهذا التَّشبيهِ؛ إذْ ليس لِضَوءِ القَمَرِ في أواخِرِ لَياليه اسمٌ يُعرَفُ به بخِلافِ أوَّلِ أجزاءِ ضَوئِه المُسمَّى هِلالًا، ولِأنَّ هذا التَّشبيهَ يُماثِلُ حالةَ استِهلالِه كما يُماثِلُ حالةَ انتِهائِه، والقَديمُ: هو البالي؛ لِأنَّه إذا انقَطَعَ الثَّمَرُ، تَقوَّسَ واصفَرَّ وتضاءَلَ، فأشبَهَ صُورةَ ما يُواجِهُ الأرضَ مِن ضَوءِ القَمَرِ في آخِرِ ليالي الشَّهرِ، وفي أوَّلِ لَيلةٍ منه. وتَركيبُ ﴿عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ﴾ صالِحٌ لِصُورةِ القَمَرِ في اللَّيلةِ الأخيرةِ، وهي التي يَعقُبُها المُحاقُ، ولِصورَتِه في اللَّيلةِ الأُولى مِنَ الشَّهرِ هو الهِلالُ، وقد بُسِطَ لهم بَيانُ سَيرِ القَمَرِ ومَنازِلِه؛ لِأنَّهم كانوا يُتقِنونَ عِلْمَه، بخِلافِ سَيرِ الشَّمسِ[2]، ولأنَّه الأصلُ في الحسابِ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ﴾

- قَولُه: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ فيه افتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ النَّفيِ قَبلَ ذِكرِ الفِعلِ المَنفيِّ؛ لِلدَّلالةِ على أنَّها مُسَخَّرةٌ لا يَتيَسَّرُ لها إلَّا ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٢).

أُريدَ بها، وليكونَ النَّفيُ مُتقرِّرًا في ذِهنِ السامعِ أقوى ممَّا لو قيلَ: الشَّمسُ لا يَنبَغي لها أنْ تُدرِكَ القَمَرَ؛ فكان في قَولِه: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ خُصوصِيَّتانِ(١).

- ومعنَى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ﴾ نَفيُ انبِغاءِ ذلك، أيْ: نَفيُ تأتِّيه؛ لِأنَّ الفِعلَ (انبَغى) مُطاوِعُ (بَغى) الذي هو بمَعنى طَلَب، فـ (انبَغى) يُفيدُ أنَّ الشَّيءَ طُلِبَ، فحَصَلَ لِلذي طَلَبه، يُقال: بَغاه فانبَغى له؛ فإثباتُ الانبِغاء يُفيدُ التَّمكُّنَ مِنَ الشَّيءِ، فلا يَقتَضي وُجوبًا، ونَفيُ الانبِغاءِ يُفيدُ نَفيَ إمكانِه؛ ولذلك يُكنَّى به عنِ الشَّيءِ المَحظورِ، يُقالُ: لا يَنبَغي لك كذا؛ ففَرْقٌ ما بَينَ قَولِكَ: يَنبَغي ألَّا تَفعَلَ كذا؛ وبَينَ قَولِكَ: لا يَنبَغي لك أنْ تَفعَلَ كذا. والإدراكُ: اللَّحاقُ والوصولُ إلى البُغيةِ؛ فقَولُه: ﴿أَن تُدۡرِكَ﴾ فاعِلُ ﴿يَنۢبَغِي﴾؛ فأفادَ الكَلامُ نَفيَ انبِغاءِ إدراكِ الشَّمسِ القَمَرَ(٢).

- وجاء بصِيغةِ الإخبارِ عن المُسنَدِ إليه ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾ بالمُسنَدِ الفِعلِيِّ ﴿يَنۢبَغِي﴾؛ لإفادةِ تَقَوِّي حُكمِ النَّفيِ؛ فذلك أبلَغُ في الانتِفاءِ ممَّا لو قيلَ: لا يَنبَغي لِلشَّمسِ أنْ تُدرِكَ القَمَرَ(٣).

- وعُدِلَ عنِ الظَّاهِرِ، وأنْ يُقالَ: (ولا القَمَرُ سابِقُ الشَّمسِ، ولا يَسبِقُ اللَّيلُ النَّهارَ)، أي: آيةُ اللَّيلِ آيةَ النَّهارِ؛ لِيُؤذِنَ بالتَّعاقُبِ بَينَ اللَّيلِ والنَّهارِ، ومَنصوصيَّةِ التَّدبيرِ على المُعاقَبةِ؛ فإنَّه مُستفادٌ مِنَ الحَرَكةِ اليَوميَّةِ التي مَدارُ تَصرُّفِ كُلِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٢)؛ ففيه تفصيلٌ لوجه هذه الدَّلالة.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واحِدٍ منهما عليها[١].

- قَولُه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾، والواوُ عاطِفةٌ؛ تَرجيحًا لجانِبِ الإخبارِ بهذه الحَقيقةِ على جانِبِ التَّذييلِ، وإلَّا فحَقُّ التَّذييلِ الفَصلُ -أي: عدَمُ العَطفِ-. وزيدَتْ قَرينةُ السِّياقِ تأكيدًا بضَميرِ الجَمعِ في قَولِه: ﴿يَسْبَحُونَ﴾، مع أنَّ المَذكورَ مِن قَبلُ شَيئانِ، لا أشياءُ، وبهذا التَّعميمِ صارَتِ الجُملةُ في مَعنَى التَّذييلِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ تَنوينُ (كُلٌّ) تَنوينُ عِوَضٍ عنِ المُضافِ إليه المَحذوفِ، فالتَّقديرُ: وكُلُّ الكَواكِبِ والشُّموسِ والأقْمارِ؛ فإنَّ اختِلافَ الأحوالِ يُوجِبُ تَعَدُّدًا ما في الذَّاتِ[٣]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- وجُملةُ (كُلٌّ فِي فَلَكٍ) فيها مُحَسِّنُ الطَّردِ والعَكسِ؛ فإنَّها تُقرَأُ مِن آخِرِها كما تُقرَأُ مِن أوَّلِها[٤].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ غَلَّبَ ضَميرَ العُقَلاءِ -وهو الواوُ والنُّونُ في ﴿يَسْبَحُونَ﴾-؛ لِأنَّه نَزَّلَ الشَّمسَ والقَمَرَ والنُّجومَ والكَواكِبَ مَنزِلةَ العُقَلاءِ؛ لِأنَّه لَمَّا وَصَفَهم بفِعْلِهم وهو السِّباحةُ -وهي مِن أوصافِ العُقَلاءِ- ساغَ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٢- ٢٠٣).

## الآيات (٤١-٤٤)

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: الذُرِّيَّةُ: الأولادُ، وأولادُ الأولادِ، مِن (ذَرَأَ)، أي: خَلَق؛ لأنَّ الذُّريَّةَ خَلْقُ اللهِ، أو لأنَّ الولدَ ذُرِئ مِن الأبِ، وقيلَ غيرُ ذلك. والذُّرِّيَّةُ أيضًا: الآباءُ؛ لأنَّ الذَّرَّ وقَع منهم، فهو مِن الأضْدادِ[1].

﴿ٱلْفُلْكِ﴾: أي: السَّفينةِ، وواحِدُه وجمعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على الاستِدارةِ، ولعلَّ السفينةَ تُسَمَّى فُلْكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[2].

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: أي: المملوءِ، وأصلُ (شحن): يدُلُّ على المَلْءِ[3].

﴿صَرِيخَ﴾: أي: مُغيثَ ومُجيرَ، ويُطلَقُ أيضًا على المستغيثِ المستنجِدِ، وهو مِن الأضدادِ، والاستِصراخُ: الإغاثةُ والاستِغاثةُ؛ وذلك أنَّ المُنْجِدَ إذا صَرَخ به المستنجِدُ صَرَخ هو مُجيبًا بما يطمئِنُّ له، وأصلُ (صرخ): يدُلُّ على صَوتٍ رَفيعٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٢٩٣)، (١٨/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٥)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي =

﴿وَمَتَٰعًا﴾: أي: انتِفاعًا، والمتاعُ والمتعةُ ما يُنتفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، وأصلُ (متَع): يدُلُّ على المنفَعةِ، وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ[1].

## المعنى الإجمالي:

يقولُ تعالَى: وعلامةٌ عَظيمةٌ لهم أيضًا دالَّةٌ على وَحدانيَّةِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه على إحياءِ الموتَى: أنَّا حَمَلْنا آباءَهم الأقدَمينَ -الذين آمَنوا بنوحٍ عليه السَّلامُ- في السَّفينةِ التي أمَرْناه بصُنعِها، والتي كانتْ مَملوءةً، وخلَقْنا للعِبادِ سُفُنًا أمثالَ سَفينةِ نوحٍ يَركَبونَها، وإنْ نشَأْ نُغرِقْ مَن يركَبونَ هذه السُّفُنَ في البَحرِ دونَ أن يجِدوا مَنْ يُغيثُهم أو مَن يُنقِذُهم مِن الغَرَقِ سِوى رَحمتِنا بهم وفَضلِنا عليهم، وتمتيعِنا إيَّاهم بالحياةِ إلى وَقتٍ مُعَيَّنٍ تنقَضي عنده آجالُهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّها انتِقالٌ مِن عَدِّ آياتٍ في الأرضِ وفي السَّماءِ إلى عَدِّ آيةٍ في البَحرِ تَجمَعُ بينَ العِبرةِ والمِنَّةِ، وهي آيةُ تَسخيرِ الفُلكِ: أنْ تسيرَ على الماءِ، وتسخيرُ الماءِ لِتَطفوَ عليه دونَ أنْ يُغرِقَها[2].

وأيضًا لَمَّا مَنَّ تعالَى بإحياءِ الأرضِ -وهي مكانُ الحيواناتِ-، بيَّنَ أنَّه لم

---

= (٤/ ١٠٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٥٧) و(١٥/ ٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦).

يقتَصِرْ عليه، بلْ بيَّن للإنسانِ طَريقًا يتَّخِذُ مِن البَحرِ، ويَسيرُ فيها كما يَسيرُ في البَرِّ، فقال[١]:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾.

أي: وعَلامةٌ عَظيمةٌ لهم[٢] دالَّةٌ على تَوحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه على فِعلِ ما يَشاءُ، وعلى غيرِ ذلك: أنَّا حمَلْنا آباءَهم[٣] في السَّفينةِ المملوءةِ مِن الأَمتعةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٢٢٤).

(٢) قيل: المرادُ بهم: كفَّارُ مكةَ. وممَّن قال بهذا: مقاتِل بن سُليمان، والسَّمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤).

وقيل: المرادُ بهم: جميعُ النَّاسِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٠).

قال الشوكانيُّ: (ثُمَّ قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ فكأنَّه قال: وآيةٌ للعِبادِ أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّاتِ العِبادِ، ولا يلزَمُ أنْ يكونَ المرادُ بأحدِ الضَّميرَيْنِ البعضَ منهم، وبالضَّميرِ الآخَرِ البعضَ الآخَرَ، وهذا قولٌ حَسَنٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٧). يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣).

وقال الماورديُّ: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ: أحدُها: عبرةٌ لهم؛ لأنَّ في الآياتِ اعتِبارًا. الثاني: نِعمةٌ عليهم؛ لأنَّ في الآياتِ إنعامًا. الثالث: إنذارٌ لهم؛ لأنَّ في الآياتِ إنذارًا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٩).

(٣) ممَّن اختار المعنى المذكورَ في الجُملةِ، وأنَّ المرادَ بالذُّرِّيَّةِ هنا: الآباءُ الأقدمون الذين ركِبوا السَّفينةَ معَ نوحٍ عليه السَّلامُ: ثَعلب، وابنُ جَرير، والسَّمرقندي، والواحدي، والبَغوي، وابنُ كثير، وجلال الدِّين المحلي، والعُليمي. يُنظر: ((مجالس ثعلب)) (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٥).

قال الواحديُّ: (لأنَّ مَن حُمِلَ مع نوحٍ كان هؤلاء مِن نَسْلِهم، والذُّرِّيَّةُ تَقعُ على الآباءِ كما تَقعُ على الأولادِ). يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٤).

والسَّفينةُ على هذا القَولِ: هي سَفينةُ نوحٍ عليه السَّلامُ، ونَسَب الرَّسْعنيُّ القَولَ بذلك إلى أكثَرِ المفَسِّرين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٤٠). =

= قال ابنُ الجوزي: (قال المفسِّرون: أراد: في سَفينةِ نوحٍ، فنَسَب الذُّرِّيَّةَ إلى المُخاطَبين؛ لأنَّهم مِن جِنسِهم، كأنَّه قال: ذُرِّيَّةَ النَّاسِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٥).

وقال ابنُ جُزي: (وإنْ أراد بالفُلكِ سَفينةَ نوحٍ فيَعني بالذُّرِّيَّةِ مَن كان في السَّفينةِ، وسمَّاهم ذُرِّيَّةً؛ لأنَّهم ذُرِّيَّةُ آدمَ ونُوحٍ، فالضَّميرُ في ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على هذا النَّوعِ لبني آدمَ، كأنَّه يقولُ: الذُّرِّيَّةُ منهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣).

وقال ابنُ عُثَيمين: (والصَّوابُ أن نقولَ: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾، يعني: الذُّرِّيَّةَ التي كانوا منها؛ فالإضافةُ -كما يقولُ النَّحويونَ- لأدْنى مُلابَسةٍ، فآباؤُهم بالنِّسبةِ لِنُوحٍ ذُرِّيَّةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠٩).

وقال الزمخشريُّ: (قيل: الفلكُ المشحونُ: سَفينةُ نوحٍ، ومعنى حَملِ اللهِ ذُرِّياتِهم فيها: أنَّه حمَل فيها آباءَهم الأقدمين، وفي أصلابِهم هم وذُرِّيَّاتُهم، وإنَّما ذكَرَ ذرِّيَّاتِهم دونَهم؛ لأنَّه أبلغُ في الامتنانِ عليهم، وأدخَلُ في التعجيبِ مِن قُدرتِه في حمْلِ أعقابِهم إلى يومِ القِيامةِ في سَفينةِ نوحٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨).

وقال الرازيُّ: (إنْ كانَ المرادُ سفينةَ نُوحٍ عليه السَّلامُ ففيه وجوهٌ:

الأَوَّلُ: أنَّ المرادَ أنَّا حَمَلْنا أولادَكم إلى يومِ القِيامةِ في ذلك الفُلكِ، ولولا ذلك لَمَا بَقِي للآدميِّ نَسْلٌ ولا عَقِبٌ وعلى هذا فقولُه: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بدلُ قولِه: «حَمَلْنَاهم» إشارَةٌ إلى كمالِ النِّعمةِ، أي: لم تَكُنِ النِّعمةُ مُقْتَصِرَةً عليكم، بلْ متعدِّيَةً إلى أعقابِكم إلى يومِ القِيامةِ، هذا ما قاله الزَّمخشريُّ. ويَحتمِلُ عِندي أنَّ يُقالَ على هذا: إنَّه تعالَى إنَّما خصَّ الذُّرِّيَّةَ بالذِّكْرِ؛ لأنَّ الموجودينَ كانوا كُفَّارًا لا فائدةَ في وُجودِهم فقال: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، أي: لم يَكُنِ الحملُ حَمْلًا لهم، وإنَّما كان حَمْلًا لِمَا في أصلابِهم مِن المؤمنينَ...

الثَّاني: هو أنَّ المرادَ بالذُّرِّيَّةِ الجنسُ، معناه: حَمَلْنا أجناسَهم؛ وذلك لأنَّ وَلَدَ الحيوانِ مِن جِنسِه ونوعِه، والذُّرِّيَّةُ تُطْلَقُ على الجنسِ... فقولُه: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، أي: أمثالَهم، وآباؤُهم حينئذٍ تَدْخُلُ فيهم.

الثَّالثُ: هو أنَّ الضَّميرَ فِي قولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾ عَائِدٌ إلى العِبادِ حيثُ قال: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ﴾ [يس: ٣٠]، وقال بعدَ ذلك: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٣]، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ﴾ [يس: ٣٧]، وقالَ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ إذا عُلِم هذا فكأنَّه تعالَى قال: وآيةٌ للعبادِ أنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّاتِ العبادِ، ولا يلزمُ أنْ يكونَ المرادُ بالضَّميرِ في الموضعَينِ أشخاصًا معيَّنينَ... قولُه تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ﴾، أي: آيةٌ لكلِّ بَعضٍ منهم أنَّا حمَلْنا ذُريةَ كلِّ بعضٍ منهم، أو ذُرِّيَّةَ بعضٍ منهم). =

والحَيواناتِ: سَفينةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ[١].

﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

---

= ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: أولادُهم. وممَّن اختار هذا القولَ: الزمخشري، والخازن، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٨٦).

قال الألوسيُّ: (واستظهَرَ حَمْلَه على الأولادِ مُطلقًا أبو حيَّان، وجوَّز غيرُ واحدٍ أن يُحمَلَ على الكِبارِ؛ لأنَّهم المبعوثونَ للتِّجارةِ، أي: حمَلْناهم حينَ يَبعثونَهم للتِّجارةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٦٩).

وقال السَّمينُ الحلَبي: (وقيل: الأبناءُ، وذلك إذا أُريدَ بالفُلكِ جِنسُ السُّفُنِ لا سَفينةُ نُوحٍ). ((عمدة الحفاظ)) (٢/ ٤٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: جِنسُ السُّفُنِ: الرازي، وابن جُزي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦، ٢٧).

وقال الألوسيُّ: (وإرادةُ الجِنسِ مَرويَّةٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهدٍ، والسُّدِّي). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦).

وقال الرازيُّ: (هو أظهرُ؛ لأنَّ سَفينةَ نوحٍ لم تكُنْ بحضرَتِهم ولم يَعْلموا مَن حُمِل فيها، فأمَّا جِنسُ الفلكِ فإنَّه ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ، وقولُه تعالَى في سفينةِ نوحٍ: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، أي: بوجودِ جِنسِها ومِثلِها، ويؤيِّدُه قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١]). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣).

وقال ابنُ جُزي: (والأظهرُ أنَّه أراد بالفلكِ جنسُ السُّفنِ، فيعني جِنسَ بني آدمَ، وإنَّما خَصَّ ذُريتَهم بالذِّكرِ؛ لأنَّه أبلغُ في الامتِنانِ عليهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣).

وظاهرُ كلامِ ابنِ كثيرٍ الجمْعُ بينَ القَولينِ في المرادِ بالفُلكِ، حيثُ قال: (ودَلالَةٌ لهم أيضًا على قُدرَتِه تعالَى: تسخيرُه البحرَ ليحمِلَ السُّفنَ، فمِن ذلك -بل أوَّلُه- سَفينةُ نُوحٍ، عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٤، ١٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

أي: وخلَقْنا للعِبادِ مِن مِثلِ سَفينةِ نوحٍ ما يَركَبونَه مِن السُّفُنِ التي علَّمْناهم صَنعتَها[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٣، ٤٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩، ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٤-١٥٥).

والقولُ بأنَّ المرادَ أنَّ الله تعالى خلَقَ لهم سُفُنًا مِن جِنسِ سَفينةِ نوحٍ نسَبه الرازي إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٥).

وقال الزَّجَّاج: (الأكثرُ في التفسيرِ أنَّ ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ مِن مِثلِ سَفينةِ نوحٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٨٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القَولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ في رِوايةٍ عنه، وأبو مالكٍ، والحَسَنُ في روايةٍ عنه، وأبو صالحٍ، والضحَّاكُ، وقَتادةُ في رِوايةٍ عنه، وابنُ زيدٍ، والسُّدِّيُّ في رِوايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠).

قال ابنُ القيِّم: (والأصَحُّ أنَّ المِثْلَ المخلوقَ هنا هو السُّفُنُ، وقد أخبَرَ أنَّها مَخلوقةٌ، وهي إنَّما صارتْ سُفُنًا بأعمالِ العِبادِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٥٢).

وقيل: المرادُ بقوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾: الإبلُ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والنَّسَفي، والسَّمين الحلبي، والعُليمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٠٥)، ((عمدة الحُفَّاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨).

قال السَّمين الحلبي: (وذلك أنَّها في حمْلِها الأشياءَ الثقيلةَ وصبرِها على عدمِ الماءِ والعلفِ كالسُّفنِ؛ ولذلك تُسمِّيها العربُ «سفنَ البرِّ»). ((عمدة الحفاظ)) (٤/ ٧٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ في رِوايةٍ عنه، وعِكرمةُ، وعبد الله بنُ شدَّاد، ومجاهدٌ، والحسنُ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٩).

وممَّن جمَع بينَ القولين: البقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٣٤).

ولكنْ قال ابنُ القيِّم: (أبعَدَ مَن قال: إنَّ المِثْلَ هاهنا هو سُفُنُ البَرِّ، وهي الإبلُ؛ لوجهَين: **أحدُهما**: أنَّها لا تُسمَّى مِثْلًا للسُّفُنِ لا لُغةً ولا حَقيقةً؛ فإنَّ المِثْلَينِ ما سَدَّ أحدُهما مَسَدَّ الآخَرِ، وحقيقةُ =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ [الزخرف: ١٢].

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: وإنْ نشأْ نُغرِقْ مَن يَركَبونَ السُّفُنَ، في البَحرِ[١]؛ فلا مُغيثَ لهم يَطلُبونَ منه النَّجدةَ، فيَمنَعُ عنهم حُدوثَ الغَرَقِ، ولا أحَدَ يُنقِذُهم فيَنتشِلُهم مِن الماءِ بعدَ غرَقِهم فيه[٢].

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: إلَّا أن نُنجِّيَهم نحن مِنَ الغَرَقِ؛ رَحمةً مِنَّا بهم، ولِنُمتِّعَهم إلى مُنتهَى آجالِهم المعلومةِ عندَ اللهِ تعالَى[٣].

---

= المماثَلةِ أنْ يكونَ بينَ فُلْكٍ وفُلْكٍ، لا بينَ جَملٍ وفُلْكٍ. **الثَّاني**: أنَّ قَولَه: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ عَقِبَ ذلك: دَليلٌ على أنَّ المرادَ الفُلْكُ التي إذا رَكِبوها قَدَرْنا على إغراقِهم، فذَكَّرَهم بنِعَمِه عليهم مِن وَجهَينِ: أحدُهما: ركوبُهم إيَّاها. والثَّاني: أنْ يُسَلِّمَهم عندَ رُكوبِها مِنَ الغَرَقِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٥٢).

وقال أبو حيَّان: (قولُه: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾: يعني الإبلَ والخيلَ والبغالَ والحميرَ، والمماثَلَةُ في أنَّه مركوبٌ مُبَلِّغٌ للأوطانِ فقطْ، هذا إذا كانَ الفُلكُ جنسًا. وأمَّا إنْ أُريدَ به سفينَةُ نوحٍ، فالمماثَلَةُ تكونُ في كونِها سُفُنًا مِثْلَها، وهي الموجودةُ في بني آدَمَ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٠).

(١) قيل: المرادُ بهم هنا: المشركون. وممَّن قال بهذا: ابنُ جَرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٧).

وقيل: مَن يَركبون السُّفُنَ عمومًا. وهذا اختيارُ ابنِ عطيَّة، وظاهرُ اختيار ابنِ كَثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠).

قال الشوكانيُّ: (والضَّميرُ يَرْجِعُ إمَّا إلى أَصْحَابِ الذُّرِّيَّةِ، أوْ إلى الذُّرِّيَّةِ، أَوْ إلى الجميعِ عَلَى اختلافِ الأقوالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٥)، ((تفسير الرازي)) =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قولِه تعالَى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ أنَّ في حالِ النِّعمةِ يَنبغي ألَّا يُؤمَنَ عَذابُ اللهِ تعالَى[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ أنَّه يجِبُ على الإنسانِ أنْ يَنْظُرَ إلى نِعَمِ اللهِ تعالَى -بالإنقاذِ مِن الشَّدائدِ، أو بحُصولِ المحبوبِ- على أنَّها فَضْلٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وليستْ بكَسْبِه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ بيانُ نِعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بما أنْعَم على هؤلاءِ بتعليمِ السُّفُنِ التي يركبونَها في البحرِ، لولا هذه السفنُ ما استطاعَ أحدٌ أنْ يَعْبُرَ مِن يابسةٍ إلى أُخرَى بينَهما ماءٌ! ولكنَّ اللهَ تعالَى أعْلَمهم بصِناعةِ هذه حتَّى وصَلوا إلى ما وصَلوا إليه[٣].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: ذُريَّاتِ العِبادِ -على قولٍ في التفسيرِ-، ولم يقُلْ: «حملناهم»! لأنَّ سَكَنَ الأرضِ عامٌّ لكلِّ أحدٍ يَسكنُها؛ فقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ﴾ إلى أنْ قال: ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٣٣]؛ لأنَّ الأكْلَ عامٌّ، وأمَّا الحمْلُ في السَّفينةِ فمِن الناسِ مَن لا يركبُها في عُمرِه ولا يُحمَلُ فيها؛ ولكنَّ ذُريَّةَ العبادِ لا بدَّ لهم مِن ذلك؛ فإنَّ فيهم مَن يحتاجُ إليها،

---

= (٢٦/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٦)، (تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٤).

فيُحمَلُ فيها[١].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ سُؤالٌ: أنَّه قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٣]، وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ﴾ [يس: ٣٧]، ولم يقُلْ: (وآيةٌ لهم الفُلكُ جعَلْناها بحيثُ تحمِلُهم)، وإنَّما قال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا﴾؛ وذلك لأنَّ حَمْلَهم في الفُلكِ هو العجَبُ، أمَّا نَفسُ الفُلكِ فليس بعجَبٍ؛ لأنَّه كبَيتٍ مبنيٍّ مِن خشَبٍ، وأمَّا نَفسُ الأرضِ فعَجَبٌ، ونَفْسُ اللَّيلِ عَجَبٌ؛ لا قُدرةَ عليهما لأحدٍ إلَّا اللهِ سُبحانَه[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿أَنَّا حَمَلْنَا﴾ يُؤخذُ منه جوازُ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ حمَل فلانًا، ومِثلُه في الحديثِ[٣]: ((ما أنا حَمَلْتُكم، ولكنَّ اللهَ حمَلَكم))[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ أنَّ اللهَ خالِقٌ لأعمالِ العِبادِ، ووَجهُه: أنَّ السُّفُنَ إنَّما يَنجُرُ خَشَبَها ويَركبُها بنو آدمَ؛ فالفُلكُ مَعمولةٌ لهم، فإذا كان اللهُ قد أخبَرَ أنَّه خَلَقَ الفُلكَ المشحونَ، وجَعَلَ ذلك مِن آياتِه وممَّا أنعَمَ اللهُ به على عبادِه؛ عُلِمَ أنَّه خالِقُ أفعالِهم[٥].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أنَّ المُماثَلةَ قدْ لا تقتَضي المساواةَ مِن كلِّ وَجهٍ؛ فليستِ السُّفُنُ الموجودةُ -التي كانتْ في عَهدِ نُزولِ القرآنِ- ليستْ كمِثلِ سَفينةِ نوحٍ مِن كلِّ وَجهٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٣١٣٣)، ومسلِمٌ (١٦٤٩) واللفظ له، من حديثِ أبي مُوسى الأشعريِّ رَضيَ اللهُ عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٢٦١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٥).

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى قد يُنْقِذُ الإنسانَ مِن الهلاكِ إلى أنْ يأتيَ أجلُه؛ فالخلودَ في هذه الدنيا مُتَعَذِّرٌ ومستحيلٌ، وما كان له غايةٌ فلا بُدَّ أنْ يَنقضيَ[١].

ولقد أحسَن مَن قال[٢]:

وإنْ أسْـــلَمْ فمَـــا أبقَـــى ولكِـــنْ سَـلِمْتُ مِن الحِمامِ[٣] إلى الحِمامِ[٤]

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ هذا انتقالٌ مِن عَدِّ آياتٍ في الأرضِ وفي السَّماءِ، إلى عَدِّ آيةٍ في البَحرِ تَجمَعُ بَينَ العِبرةِ والمِنَّةِ، وهي آيةُ تَسخيرِ الفُلكِ أنْ تَسيرَ على الماءِ، وتَسخيرِ الماءِ لِتَطفُوَ عليه دونَ أنْ يُغرِقَها، وقد ذَكَّرَ اللهُ الناسَ بآيةٍ عَظيمةٍ اشتُهِرتْ حتَّى كانتْ كالمُشاهَدةِ عِندَهم، وهي آيةُ إلهامِ نُوحٍ عليه السَّلامُ صُنعَ السَّفينةِ؛ لِيَحمِلَ الناسَ الذين آمَنوا، ويَحمِلَ مِن كُلِّ أنواعِ الحَيوانِ زَوجَيْنِ؛ لِيُنجيَ الأنواعَ مِنَ الهَلاكِ والاضمِحلالِ بالغَرَقِ في حادِثِ الطُّوفانِ. ولَمَّا كانتْ هذه الآيةُ حاصلةً لِفائدةِ حَملِ أزواجٍ مِن أنواعِ الحَيوانِ، جَعَلتِ الآيةُ نفْسَ الحَمْلِ إدماجًا لِلمِنَّةِ في ضِمنِ العِبرةِ، فكأنَّه قيل: وآيةٌ لهم صُنعُ الفُلكِ؛ لِنَحمِلَ ذُرِّيَّاتِهم فيه، فحَمَلناهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٨).

(٢) البيت للمتنبي، يُنظر: ((ديوانه)) (ص: ٤٨٥).

(٣) الحِمامُ: الموتُ: والمعنى: وإنْ أسْلَمَ مِن مَرضِي لم أَبْقَ خالدًا، ولكنْ سَلِمتُ مِن الموتِ بهذا المَرضِ إلى الموتِ بمَرضٍ وسَببٍ آخَرَ! يُنظر: ((الوساطه بين المتنبي وخصومه)) للجُرجاني (ص: ١٢١)، ((شرح ديوان المتنبي)) للواحدي (٤/ ١٨٢٠)، ((شرح ديوان المتنبي)) للبرقوقي (٤/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦ - ٢٧).

- وذَكَر الذُّرِّيَّاتِ في قَولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ لِأنَّ ذلك أبلَغُ في الامتِنانِ عليهم، وأدخَلُ في التَّعجيبِ مِن قُدرَتِه، في حَمْلِ أعقابِهم إلى يَومِ القِيامةِ في سَفينةِ نُوحٍ، ولأنَّه يَقتَضي أنَّ أُصولَ الناسِ والبَشَرِ مَحمولونَ بطَريقِ الكِنايةِ إيجازًا في الكَلامِ، وأنَّ أنفُسَهم مَحمولون كذلك، كأنَّه قيل: إنَّا حَمَلْنا أُصولَهم وحَمَلْناهم وحَمَلْنا ذُرِّيَّاتِهم؛ إذْ لولا نَجاةُ الأصولِ، ما جاءَتِ الذُّرِّيَّات، وكانتِ الحِكمةُ في حَملِ الأُصولِ بَقاءَ الذُّرِّيَّات؛ فكانتِ النِّعمةُ شامِلةً لِلكُلِّ. وقيل: الذُّرِّيَّةُ مِن أسماءِ الأضدادِ عِندَ كَثيرٍ، تُطلَقُ على الآباءِ والأولادِ، والمُرادُ هنا: الفريقانِ. وقيل: وتَخصيصُ الذُّرِّيَّةِ بالذِّكرِ؛ لِأنَّ استِقرارَهم في السُّفُنِ أشَقُّ، وتَماسُكَهم فيها أعجَبُ[1].

- وفُهِم مِن دَلالةِ قَولِه: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ -صَريحًا وكِنايةً- أنَّ هذه الآيةَ مُستَمرَّةٌ لِكُلِّ ناظِرٍ؛ إذْ يَشهَدونَ أسفارَهم وأسفارَ أمثالِهم في البَحرِ، وخاصَّةً سُكَّانَ الشُّطوطِ والسَّواحِلِ، فيُفهَم منه: أنَّا حَمَلْنا ونَحمِلُ وسنَحمِلُ أسلافَهم وأنفُسَهم وذُرِّيَّاتِهم[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هاهنا: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ فمَنَّ عليهم بحَملِ ذُرِّيَّتِهم، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ فمَنَّ هناك عليهم بحَمْلِ أنفُسِهم؛ ووَجهُه: أنَّ مَن يَنفَعُ المُتعَلِّقَ بالغَيرِ يَكونُ قد نَفَعَ ذلك الغَيرَ، ومَن يَدفَعُ الضَّرَرَ عنِ المُتعَلِّقِ بالغَيرِ لا يَكونُ قد دَفَعَ الضَّرَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٨- ١٦٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨).

عن ذلك الغَيرِ، بل يَكونُ قد نَفَعَه. مثالُه: مَن أحسَنَ إلى وَلَدِ إنسانٍ وفَرَّحَه؛ فَرِح بفَرَحِه أبوه، وإذا دَفَع واحِدٌ الألَمَ عن وَلَدِ إنسانٍ يَكونُ قد فَرَّحَ أباه؛ ولا يَكونُ في الحَقيقةِ قد أزالَ الألَمَ عن أبيه، فعِندَ طُغيانِ الماءِ كان الضَّرَرُ يَلحَقُهم؛ فقال: دَفَعتُ عنكمُ الضَّرَرَ؛ ولو قال: دَفَعتُ عن أولادِكمُ الضَّرَرَ، لَمَا حَصَلَ بَيانُ دَفعِ الضَّرَرِ عنهم، وهاهنا أرادَ بيانَ المَنافعِ، فقال: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾؛ لِأنَّ النَّفعَ حاصِلٌ بنَفعِ الذُّرِّيَّةِ، ويَدُلُّ على هذا أنَّه هاهنا قال: ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ فإنَّ امتِلاءَ الفُلكِ مِنَ الأموالِ يَحصُلُ بذِكرِه بَيانُ المَنفَعةِ، وأمَّا دَفعُ المَضرَّةِ فلا؛ لِأنَّ الفُلكَ كُلَّما كان أثقَلَ، كان الخَلاصُ به أبطَأَ، وهُنالِكَ السَّلامةُ، فاختارَ هُنالِكَ ما يَدُلُّ على الخَلاصِ مِنَ الضَّرَرِ، وهو الجَريُ، وهاهنا ما يَدُلُّ على كَمالِ المَنفَعةِ، وهو الشَّحنُ[1]، وهذا على قَولٍ في تَفسيرِ الآيَتَينِ.

٢- قولُه تعالى: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ جُملةٌ مُعتَرِضةٌ في خِلالِ آيةِ البَحرِ، اقتَضَتْها مُراعاةُ النَّظيرِ؛ تَذكيرًا بنِعمةِ خَلْقِ الإبلِ صالِحةً لِلأسفارِ -على قولٍ في التفسيرِ-، فحُكِيَتْ آيةُ الإلهامِ بصُنعِ الفُلكِ مِن حيثُ الحِكمةُ العَظيمةُ في الإلهامِ، وتَسخيرِ البَحرِ لها، وإيجادِها في وَقتِ الحاجةِ؛ لِحفظِ النَّوعِ؛ فلذلك لم يُؤتَ في جانِبِها بفِعلِ الخَلْقِ المُختَصِّ بالإيجادِ دونَ صُنعِ الناسِ، وحُكِيَتْ آيةُ اتِّخاذِ الرَّواحِلِ بفِعلِ (خَلْقِنا)؛ فما يَركَبونَ هنا يصدُقُ على الرَّواحِلِ خاصَّةً؛ لِأنَّها التي تُشبِهُ الفُلكَ في جَعْلِها قادِرةً على قَطْعِ الرِّمالِ، كما جَعَلَ الفُلكَ صالِحًا لِمَخرِ البِحارِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨).

- قَولُه: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ على أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَخَلَقْنَا﴾ الإنشاءُ والاختِراعُ؛ فالمُرادُ الإبِلُ وما يُركَبُ، وتَكونُ (مِنْ) لِلبيانِ، وإنْ كانَ ما يَصنَعُه الإنسانُ قد يُنسَبُ إلى اللهِ خَلْقًا، وإذا أُريدَ به السُّفُنُ، تَكونُ (مِنْ) لِلتَّبعيضِ[1]؛ فـ (مِنْ) التي في قَولِه: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ -على أنَّ المرادَ: الإبلُ- بَيانيَّةٌ، بتَقديمِ البَيانِ على المُبَيَّنِ، أو مُؤكِّدةٌ، ومَجرورُها أصلُه حالٌ مِن (ما) المَوصولةِ في قَولِه: ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾، والمُرادُ المُماثَلةُ في العَظمةِ، وقُوَّةِ الحَملِ، ومُداوَمةِ السَّيرِ، وفي الشَّكلِ[2]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ أي: ممَّا يُماثلُ ذلك الفُلكَ من السُّفنِ فجَعَلها مَخلوقةً للهِ تَعالى، معَ كَونِها مِن مَصنوعاتِ العِبادِ؛ ليس لِمُجرَّدِ كَونِ صُنعِهم بأقدارِ اللهِ تَعالى وإلهامِه، بل لِمَزيدِ اختِصاصِ أصلِها بقُدرَتِه تَعالى، وحِكمَتِه، حَسبَما يُعرِبُ عنه قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[3] [هود: ٣٧].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عبَّرَ عن مُلابَستِهم بهذه السُّفُنِ بالرُّكوبِ في قولِه: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾؛ لِأنَّها باختِيارِهم، وعبَّرَ عن مُلابَسةِ ذُرِّيَّتِهم بفُلكِ نوحٍ عليه السَّلامُ بالحَملِ في قولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾؛ لِكَونِها بغَيرِ شُعورٍ منهم واختِيارٍ[4].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾

- جملةُ ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [يس: ٤١]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

باعتِبارِ دَلالَتِها الكِنائيَّةِ على استِمرارِ هذه الآيةِ. وهذه المِنَّةُ تَذكيرٌ بأنَّ اللهَ تَعالى الذي امتَنَّ عليهم إذا شاءَ جَعَل فيما هو نِعمةٌ على الناسِ نِقمةً لهم؛ لِحِكمةٍ يَعلَمُها، وهذا جَريٌ على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ التَّرغيبِ بالتَّرهيبِ، وعَكسِه؛ لِئلَّا يَبطَرَ الناسُ بالنِّعمةِ، ولا يَيْئَسُوا مِنَ الرَّحمةِ، وقَرينةُ ذلك أنَّه جيءَ في هذه الجُملةِ بالمُضارِعِ المُتَمحِّضِ في سِياقِ الشَّرطِ؛ لِكَونِه مُستَقبَلًا[1].

- وهم مُعتَرِفونَ بمَضمونِ قَولِه: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ ...﴾، كما يَنطِقُ به قَولُه تَعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان: ٣٢]، وفي تَعليقِ الإغراقِ بمَحضِ المَشيئةِ: إشعارٌ بأنَّه قد تَكامَلَ ما يُوجِبُ إهلاكَهم مِن مَعاصيهم، ولم يَبقَ إلَّا تَعلُّقُ مَشيئَتِه تَعالى به، أي: إنْ نَشَأْ نُغرِقْهم في اليَمِّ مع ما حَمَلْناهم فيه مِنَ الفُلكِ؛ فحَديثُ خَلْقِ الإبلِ حِينَئذٍ كَلامٌ جيءَ به في خِلالِ الآيةِ بطَريقِ الاستِطرادِ؛ لِكَمالِ التَّماثُلِ بَينَ الإبلِ والفُلكِ -على قولٍ في التفسيرِ-، فكَأنَّها نَوعٌ منه، أو مع ما يَركَبونَ مِنَ السُّفُنِ والزَّوارِقِ[2].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿هُمْ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يُنقَذُونَ﴾ في قَولِه: ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾؛ لِإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، وهو نَفيُ إنقاذِ أحَدٍ إيَّاهم[3].

٤- قولُه تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾

- قَولُه: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ قيل: فيه تَقسيمٌ، أي: إلَّا رَحمةً لِمَن عَلِمَ أنَّه يُؤمِنُ فيُنقِذُه اللهُ رَحمةً، ومَن عَلِمَ أنَّه لا يُؤمِنُ يَمنَعُه زَمانًا، ويَزدادُ إثْمًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧١).

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بسَلامةِ الاختِراعِ، وهو الإتيانُ بمَعنًى لم يُسبَقْ إليه؛ فإنَّ نَجاتَهم مِنَ الغَرَقِ برَحمةٍ منه تعالَى هي في حَدِّ ذاتِها مَتاعٌ يَستَمتِعونَ به، ولكِنَّه على كُلِّ حالٍ إلى أجَلٍ مُقدَّرٍ يَموتونَ فيه، لا مَندوحةَ لهم عنه؛ فهُمْ إنْ نَجَوْا مِنَ الغَرَقِ فلنْ يَنجوا ممَّا يُشبِهُه أو يُدانيه، والمَوتُ لا تَفاوتَ فيه[1].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٦- ٢٠٧).

## الآيات (٤٥-٤٧)

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٧﴾ ﴾.

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن جَهالاتِ المشركينَ، وتمادِيهم في غَيِّهم وضلالِهم: وإذا قيل لأولئك المُشرِكين: احْذَروا ما تقدَّم قبْلَكم مِن نِقمِ اللهِ في الأُمم الماضيةِ بكُفرِهم أنْ يحُلَّ مثلُه بكم، واحْذَروا ما أنتُم لاقُوه مِن عذابِ اللهِ تعالَى إنْ هلكْتُم على كُفرِكم وتكذيبِكم، لعلَّكم تُرحمونَ، أعرَضوا وصَمُّوا آذانَهم.

وما تأتيهم آيةٌ مِن الآياتِ التي تدُلُّ على وَحدانيَّةِ الله تعالَى وقُدرتِه، وعلى أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم صادِقٌ في دَعوتِه؛ إلَّا أعرَضوا عنها وصَمُّوا آذانَهم.

وإذا قِيل لأولئك الكافِرينَ: أنفِقوا ممَّا رزقَكم اللهُ على المحتاجينَ، قالوا على سَبيلِ الاستِهزاءِ والسُّخريةِ: أنُطعِمُهم نحنُ ولو شاء اللهُ لأطعَمَهم هو مِن رِزقِه؟! ما أنتُم في أمْرِكم لنا بالإنفاقِ عليهم إلَّا في ضلالٍ واضحٍ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا عدَّد تعالَى الآياتِ بقَولِه: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ﴾ [يس: ٣٣]، ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ ﴾ [يس: ٣٧]، ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ ﴾ [يس: ٤١]، وكانت الآياتُ

تُفيدُ اليَقينَ، وتُوجِبُ القَطعَ بما قال تعالَى، ولم تُفِدْهم اليَقينَ -قال: فلا أقَلَّ مِن أن يَحتَرِزوا عن العذابِ؛ فإنَّ مَن أُخبِرَ بوقوعِ عذابٍ: يتَّقيه -وإنْ لم يَقطَعْ بصِدقِ قَولِ المُخبِرِ- احتياطًا[١].

وأيضًا تَخَلَّصَ الكَلامُ مِن عَدَمِ انتِفاعِهم بالآياتِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالَى، إلى عَدَمِ انتِفاعِهم بالأقوالِ المُبَلَّغةِ إليهم في القُرآنِ مِنَ المَوعِظةِ، والتَّذكيرِ بما حَلَّ بالأُمَمِ المُكذِّبةِ أنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم، وبعَدَمِ انتِفاعِهم بتَذكيرِ القُرآنِ إيَّاهم بالأدلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ سُبحانَه، وعلى البَعثِ[٢].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

أي: وإذا قيلَ للمُشركينَ[٣]: احْذَروا ما تَقدَّم قبْلَكم مِن نِقمِ الله في الأُمَمِ الماضيةِ بكُفرِهم أن يحُلَّ مِثلُه بكم، واحْذَروا ما أنتُم لاقُوه مِن عَذابِ اللهِ تعالَى إنْ هلكتُم على كُفرِكم وتكذيبِكم؛ لعلَّكم تنالونَ بذلك رحمةَ رَبِّكم- إذا قيل للمُشركينَ ذلك أعرَضوا[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٥٩-١٦٠).
وممَّن ذهَب إلى أنَّ معنى: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ﴾ ما أصابَ مَن قَبلَكم من العُقوباتِ، ومعنى: ﴿وَمَا خَلۡفَكُمۡ﴾: عذابُ الآخِرةِ: مقاتِلُ بنُ سليمان، وابنُ جَرير، ومكيٌّ، وابنُ عطية، وجلال الدِّين المحلِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير الجلالين)) للمحلي (ص: ٥٨٣). =

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: وما تأتي هؤلاءِ المُشركينَ علامةٌ دالَّةٌ على تَوحيدِ اللهِ تعالَى وصِدقِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا كانوا مُعرِضينَ عنها، فلا يَكتَرِثون بها، ولا يَتفَكَّرونَ فيها[1]!

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٨).

وقيل: المعنى: اتَّقوا ما بيْن أيديكم مِن أمْرِ الآخِرةِ؛ فاعمَلوا لها، وما خلْفَكم مِن أمْرِ الدُّنيا؛ فلا تغترُّوا بها، واحْذَروا أنْ يُعاقِبَكم اللهُ فيها. وممَّن قال بهذا المعنى: السَّمرقندي، والواحدي، والعُليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباسٍ، والكَلبي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨١١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢٩).

وقيل: المرادُ بما بيْن أيديهم وما خَلْفَهم: ذُنوبُهم المتقدِّمة، وذُنوبُهم المتأخِّرة التي تَصدُرُ منهم في المستقبَلِ. وممَّن قال بهذا القول: الزَّجَّاج، وابن جُزي، وابن كثير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨١١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٢٩).

قال الألوسيُّ بعدَ أنْ ذكَر الخِلافَ: (وحاصلُ الأمْرِ على ما قيل: اتَّقوا العذابَ، أو اتَّقوا ما يَترتَّبُ العذابُ عليه). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨).

وقال ابنُ عُثَيمين بعدَ أنْ ذكَرَ الخِلافَ في الآيةِ: (الآيةُ إذا كانتْ تَحتمِلُ المعانيَ المقولةَ فيها بدونِ تعارُضٍ؛ فإنَّها تُحمَلُ على الجَميعِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦٠).

وقال الواحدي: (وجوابُ «إذا» محذوفٌ على تقديرِ: وإذا قيل لهم هذا أعرَضوا، يدلُّ على المحذوفِ قولُه: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ [يس: ٤٦] أي: عبرةٌ ودلالةٌ تدلُّ على صدقِ محمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾). ((الوسيط)) (٣/ ٥١٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ * وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ١، ٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

بعدَ أنْ ذكَرَ إعراضَهم عن الخالِقِ؛ بيَّن قسوتَهم على المخلوقينَ[١]؛ فالمكلَّفُ عليه التَّعظيمُ لجانبِ اللهِ، والشَّفقةُ على خَلقِ اللهِ، وهم تَرَكوا التَّعظيمَ حيثُ قيلَ لهم: ﴿ٱتَّقُوا۟﴾ فلم يَتَّقوا، وتَرَكوا الشَّفقةَ على خَلْقِ اللهِ حيثُ قِيل لهم: ﴿أَنفِقُوا۟﴾ فلم يُنْفِقوا[٢].

وأيضًا لَمَّا كانت الرحمةُ بالرِّزقِ والنصرِ إنَّما تُنالُ بالرحمةِ للضُّعفاءِ، وكان الإنفاقُ خُلُقَ المؤمنينَ؛ قال مبيِّنًا أنَّهم انسلَخوا عن الإنسانيةِ جُملةً[٣]:

---

= كثير)) (٦/ ٥٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٧، ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١).

قال ابنُ الجوزي: (وفي «الآية» قولان: أحدُهما: أنَّها الآيةُ مِن القُرآنِ. والثاني: المعجزةُ، مثلُ انشقاقِ القمرِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٩).

وقال الواحديُّ: (المرادُ بالآياتِ: الدَّلالاتُ التي يجبُ أن يَستَدِلُّوا بها على تَوحيدِ اللهِ وصِدقِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بينَهما، مع المُعجِزاتِ التي أتَى بها محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((البسيط)) (٨/ ١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٦).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾.

أي: وإذا قِيلَ للمُشركينَ: أنفِقوا ممَّا رزَقَكم اللهُ على غَيرِكم مِنَ المحتاجينَ، قال أولئك المشركونَ للمُؤمِنينَ: كيف نُطعِمُ -نحْنُ- هؤلاء الذين تأمُرونَنا بالإنفاقِ عليهم ولو شاء اللهُ لأطعَمَهم هو مِن رِزقِه[1]؟!

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي: وقال المشركون أيضًا للمؤمنينَ: ما أنتُم بأمْرِكم لنا بالإنفاقِ ممَّا رزَقَنا اللهُ على المحتاجِينَ إلَّا في ضَلالٍ واضحٍ في غايةِ الظُّهورِ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٤٩، ٤٥٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٧-١٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٧).

قيل: لَمَّا أسْلَم المُستضعَفونَ مِن أقرباءِ الكُفَّارِ ومَوالِيهم، قطَع الكُفَّارُ عنهم ما كانوا يُواسونَهم به، وكان ذلك بمكَّةَ أوَّلًا قبلَ نزولِ آياتِ القِتالِ، فنَدَبَهم المؤمِنونَ إلى صِلَةِ قرابَاتِهم فقالوا: أنُطْعِمُ مَن لو يَشاءُ اللَّهُ أطْعَمه. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٢).

وقولُهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ ﴾ قيل: يحتَمِلُ أنْ يكونَ استهزاءً. وقيل: يحتَمِلُ أن يكونَ مِن بابِ الاحتجاجِ بالقَدَرِ؛ إمَّا عنادًا ومُعارَضةً للحَقِّ، أو فِرارًا من العِتابِ واللَّومِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦٧-١٦٨).

وقيل: قَصَدوا بقولِهم الإنكارَ لقدرةِ اللَّهِ، أو إنكارَ جوازِ الأمرِ بالإنفاقِ معَ قُدرةِ اللَّهِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

قال الرَّسْعني: (قَولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ يحتَمِلُ وُجوهًا:

أحدُها: أنَّه مِن تمامِ كلامِهم للمُؤمِنين. قاله قتادةُ.

والثَّاني: أنَّه إخبارٌ مِن الله تعالى وحُكمٌ عليهم بالضَّلالِ؛ حيث ردُّوا على المؤمِنينَ هذا الجَوابَ.

الثَّالِثُ: أنَّه حكايةُ قَولِ المؤمِنينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٤٤).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال سُبحانَه وتعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أنَّ الإقبالَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، واجتنابَ مَعصيتِه: سَبَبٌ للرَّحمةِ[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾ أنَّ بني آدمَ قد يَستكبِرونَ، فيُعرِضُون عنِ الآياتِ بدونِ نَظرٍ، والواجبُ على الإنسانِ أنْ يَنظُرَ أوَّلًا، ثمَّ يَحكُمَ ثانيًا؛ ولهذا يقالُ: «الحُكمُ على الشَّيءِ فَرعٌ عن تَصوُّرِه»[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إشارةٌ إلى أمْرينِ: أحدُهما: أنَّ البُخلَ به في غايةِ القُبحِ؛ فإنَّ أبخلَ البُخَلاءِ مَن يَبخَلُ بمالِ الغيرِ. وثانيهما: أنَّه لا يَنبغي أنْ يمنَعَكم مِن ذلك مَخافةُ الفَقرِ؛ فإنَّ اللهَ رزَقَكم، فإذا أنفَقتُم فهو يُخلِفُه لكم ثانيًا، كما رزَقَكم أوَّلًا[٣].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ أنَّ البُخلَ هو مِن صِفاتِ الكافِرينَ، وإذا كان مِن صِفاتِ الكافِرينَ فإنَّه لا يَنبغي للمُؤمنِ أنْ يَتَّصِفَ به؛ فكلُّ ما كان مِن صِفاتِ الكافِرينَ -مِن اليَهودِ والنَّصارى وغيرِهم- فإنَّ اللَّائقَ بالمسلِمِ ألَّا يَفعَلَه؛ لأنَّه إذا فَعَله صارَ مُتَشَبِّهًا بالكافِرينَ في هذه الخَصلةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أعرَضَ عن دِينِ اللهِ واستكبرَ كان عُرضَةً للعذابِ؛ إمَّا في الدُّنيا، أو في الآخِرةِ، أو في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

٢- قال سُبحانَه وتعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ﴾ إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ؛ فإنَّ «لعلَّ» هذه للتَّعليلِ، ولا أحدَ يُنكِرُ أنَّ للأسبابِ تأثيرًا إلَّا مَن صُرِفَ عن مُقتضى الفِطرةِ[٢]!

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُبيِّنُ لعِبادِه مِن الآياتِ ما يُؤمِنُ على مِثلِه البَشَرُ، ووجهُ ذلك: أنَّه لولا هذا لم يكُنْ في الآياتِ فائِدةٌ[٣]!

٤- إضافةُ الآياتِ إلى ربِّهم في قَولِه تعالَى: ﴿مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه دَليلٌ على كمالِها ووُضوحِها، وأنَّ مِن جُملةِ تربيةِ الله لعِبادِه: أنْ أوصَل إليهم الآياتِ التي يَستدلُّونَ بها على ما يَنفعُهم في دِينِهم ودُنياهم[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أنفَقَ بأمرِ اللهِ تعالَى؛ فلا مِنَّةَ له على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الذي أعطاه[٥].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧٠).

أَطْعَمَهُۥٓ﴾ ذَمُّ مَن يَترُكُ المأمورَ به؛ اكتِفاءً بما يَجري به القَدَرُ[١]!

٧- في قَولِهم: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أنَّ الإنسانَ قدْ يقولُ كَلِمةَ الحَقِّ يريدُ بها الباطِلَ؛ فنحن نُؤمِنُ بأنَّه لو شاءَ اللهُ لأطعمَ هؤلاء، لكِنَّ حِكمتَه عزَّ وجلَّ اقتضتْ أنْ يَجعَلَ هؤلاء فُقَراءَ، وهؤلاءِ أغنياءَ[٢]. فما ذكروه حُجَّةٌ باطِلةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى منَعَ الدُّنيا من الفُقَراءِ لا بُخلًا ولكِنْ ابتِلاءً، وأمَرَ الأغنياءَ بالإنفاقِ لا بحُكمِ الحاجةِ إلى أموالِهم، لكِنِ لابتلاءِ شُكرِهم[٣]، فهذا الاحتِجاجُ باطلٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى إذا ملَّك عَبدًا مالًا، ثمَّ أوجَبَ عليه فيه حَقًّا، فكأنَّه انتَزَع ذلك القَدْرَ منه؛ فلا معنى للاعتراضِ، وقد صَدَقوا في قَولِهم: لو شاءَ اللهُ أطعَمَهم، ولكِنْ كَذَبوا في الاحتِجاجِ[٤].

٨- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ احتِجاجُهم بالمشيئةِ ممَّا يدُلُّ على جَهلِهم العَظيمِ، أو تجاهُلِهم الوَخيمِ؛ فإنَّ المشيئةَ ليستْ حُجَّةً لعاصٍ أبدًا؛ فإنَّه وإنْ كان ما شاءَ اللهُ كان، وما لم يشَأْ لم يكُنْ: فإنَّه تعالَى مكَّن العِبادَ، وأعطاهم مِن القُوَّةِ ما يَقدِرونَ على فِعلِ الأمْرِ، واجتنابِ النَّهيِ، فإذا ترَكوا ما أُمِروا به كان ذلك اختيارًا منهم، لا جبرًا لهم ولا قَهرًا[٥].

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ أنَّ المشركين يُقِرُّونَ بمشيئةِ اللهِ؛ وأنَّها نافذةٌ في كلِّ شيءٍ، والمشركون أو الكافِرون لا يُنْكِرونَ رُبوبيَّةَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

عزَّ وجلَّ؛ بل يُقِرُّونَ بها، حتى الذين تظاهَروا بإنكارِها إنَّما يُنكرونها بألْسنتِهم؛ لقولِه تعالَى عن آلِ فرعونَ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، ولقولِ موسى عليه الصلاةُ والسلامُ لفرعونَ: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، لكنْ يُنكرون الرُّبوبيَّةَ استكبارًا ومُكابَرةً؛ وإلَّا فإنَّ قَرارةَ نُفوسِهم تَشْهَدُ بها[١].

١٠- للمُشركِينَ أساليبُ ادِّعائيَّةٌ يَستعملُونها مِن قَديم الزَّمانِ؛ حيثُ قالوا لهؤلاء القائلينَ: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وهذا الوَصفُ المَشينُ للمُؤمِنينَ مِن الكافرين لم يَزَلْ ولا يَزالُ موجودًا إلى يَومِنا هذا؛ فهم يَصِفونَ أهلَ الخيرِ بالأوصافِ الكَثيرةِ المُنَفِّرةِ منهم، أو التي يَقصِدون بها استِعداءَ الحُكَّام على هؤلاء المؤمنين؛ يقولون: هؤلاء رَجعِيُّون، وهؤلاء مُتَخَلِّفون، هؤلاء مُتَشدِّدون، هؤلاء مُتَزمِّتون! وما أشبهَ ذلك مِن الكلِماتِ التي يَصفونَ بها أولياءَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ إعراضِهم عنِ الآياتِ التَّنزيليَّةِ بَعدَ بَيانِ إعراضِهم عنِ الآياتِ الآفاقيَّةِ التي كانُوا يُشاهِدونَها، وعَدَمِ تَأمُّلِهم فيها[٣].

- وبِناءُ فِعلِ ﴿قِيلَ﴾ لِمَا لم يُسمَّ فاعلُه؛ لِظُهورِ أنَّ القائِلَ هو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في تَبليغِه عنِ اللهِ تعالَى، أي: قيلَ لهم في القُرآنِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٦٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠).

- وقولُه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ ﴾ كقولِه: ﴿ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم ﴾ [سبأ: ٩]؛ وجهُ المشابَهةِ: إحاطةُ العَذابِ بهم مِن كُلِّ حَدَبٍ، وأنَّهم أينَما ساروا فإنَّه أمامَهم وخَلفَهم مُحيطٌ بهم، لا يَقدِرونَ على الخُروجِ ممَّا همْ فيه، يَدُلُّ عليه قَولُه: ﴿فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ * إِلَّا رَحۡمَةً مِّنَّا﴾ [يس: ٤٣، ٤٤]؛ ولذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[١].

- وقَولُه أيضًا: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ ﴾ ما بيْن الأيدي: يُرادُ منه المُستَقبَلُ، وما هو خَلفٌ: يُرادُ منه الماضي، وأصْلُ هذَينِ التَّركيبينِ تَمثيلانِ، فتارةً يَنظُرونَ إلى تمثيلِ المضافِ إليه بسائرٍ إلى مكانٍ؛ فالذي بيْن يَديهِ: هو ما سَيرِدُ هو عليه، والذي مِن ورائِه هو ما خَلَّفَه خَلْفَه في سَيرِه. وتارةً يَنظُرونَ إلى تَمثيلِ المضافِ بسائرٍ؛ فهو إذا كان بين يَدي المضافِ إليه فقدْ سبقَه في السَّيرِ، فهو سابِقٌ له، وإذا كان خَلْفَ المضافِ إليه فقد تأخَّرَ عنه، فهو وارِدٌ بَعدَه، وقد فُسِّرَت هذه الآيةُ بالوَجهَينِ؛ فقيل: ما بيْن أيديكم مِن أمْرِ الآخِرةِ، وما خَلْفَكم مِن أحوالِ الأُمَمِ في الدُّنيا. وقيل: ما بيْن أيديكم: أحوالُ الأُمَمِ في الدُّنيا، وما خَلْفَكم: مِن أحوالِ الآخِرةِ[٢].

- وجَوابُ (إذا) في قولِه: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيكُمۡ وَمَا خَلۡفَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ مَحذوفٌ، مَدلولٌ عليه بقَولِه بَعدَه: ﴿وَمَا تَأۡتِيهِم مِّنۡ ءَايَةٖ مِّنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِمۡ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾؛ فكأنَّه قال: وإذا قيل لهمُ: اتَّقوا، أعرَضوا؛ لِأنَّهمُ اعتَادُوه وتمَرَّنوا عليه، ثُمَّ قال: ودَأْبُهمُ الإعراضُ عِندَ كُلِّ آيةٍ ومَوعِظةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠، ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٠).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ واقِعٌ مَوقِعَ التَّذييلِ لِمَا قَبلَه؛ ففيه تَعميمُ أحوالِهم وأحوالِ ما يُبَلَّغونَه مِنَ القُرآنِ، فكأنَّه قِيل: وإذا قِيل لهمُ: اتَّقوا، أعرَضوا، والإعراضُ دَأْبُهم في كُلِّ ما يُقالُ لهم. وهذا التذييلُ أيضًا يُؤكِّدُ ما سبَقَ مِن حديثِ الإعراضِ[١].

- وصِيغةُ المُضارِعِ ﴿تَأْتِيهِم﴾؛ لِلدَّلالةِ على الاستِمرارِ التَّجدُّدِيِّ، و(مِنْ) الأُولى صِلةٌ لِتأكيدِ العُمومِ[٢].

- وإضافةُ الآياتِ إلى اسمِ الرَّبِّ المُضافِ إلى ضَميرِهم ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ لِتَفخيمِ شَأنِها المُستَتْبِعِ لِتَهويلِ ما اجترَؤوا عليه في حَقِّها، والمُرادُ بها إمَّا الآياتُ التَّنزيليَّةُ؛ فإتيانُها نُزولُها، وإمَّا ما يَعُمُّها وغَيرَها مِنَ الآياتِ التَّكوينيَّةِ الشَّامِلةِ لِلمُعجزاتِ وغَيرِها مِن تَعاجيبِ المَصنوعاتِ التي مِنْ جُملَتِها الآياتُ الثَّلاثُ المَعدودةُ آنِفًا؛ فالمُرادُ بإتيانِها ما يَعُمُّ نُزولَ الوَحيِ، وظُهورَ تلك الأُمورِ لهم[٣].

- وكَلمةُ ﴿عَنْهَا﴾ مُتَعلِّقةٌ بـ ﴿مُعْرِضِينَ﴾، قُدِّمتْ عليه مُراعاةً لِلفَواصِلِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قَولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: ممَّا أعطاكُم بطَريقِ التَّفضُّلِ والإنعامِ مِن أنواعِ الأموالِ؛ عبَّرَ عنها بذلكَ تَحقيقًا لِلحَقِّ، وتَرغيبًا في

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإنفاقِ، وتَنبيهًا على عِظَمِ جِنايَتِهم في تَركِ الامتِثالِ بالأمْرِ. وكذلك (مِنْ) التَّبعيضيَّةِ، أي: إذا قِيل لهم بطَريقِ النَّصيحةِ: أنفِقُوا بَعضَ ما أعطاكُمُ اللهُ تعالَى مِن فَضلِه على المُحتاجينَ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يَرُدُّ البَلاءَ ويَدفَعُ المَكارِهَ[١].

- وفي قولِه: ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أظهَرَ اسمَ الجَلالةِ ولم يُضمِرْ؛ إشارةً إلى جَلالةِ الرِّزقِ بجَلالةِ مُعطِيه[٢].

- وأيضًا إظهارُ المَوصولِ مِن قَولِه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في مَقامِ الإضمارِ، مع أنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (قالوا أنُطعِمُ...) إلخ-؛ لِنُكتةِ الإشارةِ إلى أنَّ صُدورَ هذا القَولِ منهم إنَّما هو لِأجلِ كُفرِهم، ولِأجلِ إيمانِ الذين سُئِلَ الإنفاقُ عليهم[٣]؛ ففيه تصريحٌ بكُفرِ هؤلاء، وأنَّهم قالوه بسَببِ الكُفرِ؛ لا بسَببِ البخلِ! وأيضًا لإفادةِ أنَّ مِثْلَ هذه المقالةِ لا تَصْدُرُ إلَّا مِن كافرٍ؛ فيكونُ الكُفرُ عامًّا لكلِّ مَن قال هذه المقالةَ[٤].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ إنكاريٌّ، وهذا الجَوابُ خَرجَ مَخرَجَ الاستِهزاءِ والتَّهكُّمِ بالمُؤمِنينَ، وبما كانوا يَقولونَه مِن تَعليقِ الأُمورِ بمَشيئةِ اللهِ، أي: لا نُطعِمُ مَن لو شاءَ اللهُ لَأطعَمَهم، بحَسبِ اعتِقادِكم أنَّ اللهَ هو المُطعِمُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٠٩).

- وأيضًا التَّعبيرُ في جَوابِهم بالإطعامِ في قَولِه: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ مع أنَّ المَطلوبَ هو الإنفاقُ: إمَّا لِمُجرَّدِ التَّفنُّنِ؛ تَجنُّبًا لإعادةِ اللَّفظِ؛ فإنَّ الإنفاقَ يُرادُ منه الإطعامُ، وإمَّا لِأنَّهم سُئِلوا الإنفاقَ، وهو أعَمُّ مِنَ الإطعامِ؛ لِأنَّه يَشمَلُ الإكساءَ والإسكانَ، فأجابوا بإمساكِ الطَّعامِ، وهو أيسَرُ أنواعِ الإنفاقِ، ولأنَّهم كانوا يُعيِّرونَ مَن يَشِحُّ بإطعامِ الطَّعامِ، وإذا مَنعوا المُؤمِنينَ الطَّعامَ كان مَنعُهم ما هو فَوقَه أَحْرى[1]؛ ففيه بيانُ غايةِ مُخالفتِهم؛ وذلك لأنَّهم إذا أُمِروا بالإنفاقِ -والإنفاقُ يَدخُلُ فيه الإطعامُ وغَيرُه- فلم يأتوا بالإنفاقِ ولا بأقَلَّ منه -وهو الإطعامُ-، وقالوا: لا نُطعِمُ، وهذا كما يقولُ القائِلُ لِغَيرِه: أعطِ زَيدًا دِينارًا؛ يقولُ: لا أعطيه دِرهمًا، مع أنَّ المطابِقَ هو أنْ يقولَ: لا أُعطيه دِينارًا، ولكِنَّ المبالغةَ في هذا الوَجهِ أتمُّ؛ فكذلك هاهنا[2].

- وجُملةُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مِن قَولِ المُشرِكينَ، يُخاطِبونَ المُؤمِنينَ، أي: ما أنتُم في قَولِكم: أنفِقوا ممَّا رَزَقَكمُ اللهُ إلَّا مُتمَكِّنٌ منكم الضَّلالُ الواضِحُ، وجَعَلوه ضَلالًا؛ لِجَهلِهم بصِفاتِ اللهِ تعالَى، وجَعلوه مُبينًا؛ لِأنَّهم يُحَكِّمونَ الظَّواهِرَ مِن أسبابِ اكتِسابِ المالِ وعَدَمِه، وهذه الجُملةُ تَعليلٌ لِلإنكارِ المُستَفادِ مِنَ الاستِفهامِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ جَوابًا مِنَ اللهِ لهم، أو حِكايةً لِجوابِ المُؤمِنينَ لهم، أو هو مِن جُملةِ جَوابِهم لِلمُؤمِنينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٦٩- ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

## الآيات (٤٨-٥٤)

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخِصِّمُونَ﴾: أي: يَختَصِمونَ ويَتشاجَرونَ على عادتِهم، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على مُنازَعةٍ[1].

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرنِ يَنفُخُ فيه إسرافيلُ، وقيل: الصُّورُ جمْعُ صُورَةٍ يَنْفُخُ فيها رُوحَها فتَحْيَا[2].

﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: القُبورِ، واحِدُها: الجَدَثُ[3].

﴿يَنسِلُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ، مِن النَّسَلانِ: وهو مُقارَبةُ الخَطْوِ مع الإسراعِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

وأصلُ (نسل): يَدُلُّ على انسِلالِ شَيءٍ بسُرعةٍ[١].

﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾: ويل: كلمةُ دُعاءٍ بالهَلاكِ والعذابِ، وتُطلَقُ كذلِك على حُلولِ الشرِّ، وتُستعمَلُ في التَّحسُّرِ[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

قَولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: في ﴿هَٰذَا﴾ وجهانِ؛ أظهرُهما: أنَّه مُبتدأٌ خبرُه ﴿مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ويكونُ الوقفُ تامًّا على قَولِه: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَا﴾، ثمَّ يَبتدئُ فيَقولُ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وهذه الجملةُ لا مَحلَّ لها مُستَأنَفةٌ: مِن قَولِ الملائكةِ أو المُؤمِنينَ. ويَحتَمِلُ أن تكونَ مِن كلامِ الكُفَّارِ؛ فتكونَ في مَحلِّ نصبٍ بالقَولِ. والثاني: أنْ يكونَ ﴿هَٰذَا﴾ صِفةً لـ ﴿مَّرۡقَدِنَا﴾ في مَحلِّ جرٍّ، و﴿مَا وَعَدَ﴾ مُنقَطِعٌ عَمَّا قَبلَه. و﴿مَا﴾ مَوصولٌ اسميٌّ في محلِّ رفْعٍ مبتدأٌ، والخبَرُ مَحذوفٌ، أي: الذي وَعَدَه الرَّحمنُ حَقٌّ، أو خبَرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، والتقديرُ: هذا الذي وعَدَه الرَّحمنُ. ويَصِحُّ في ﴿مَا﴾ أنْ تكونَ مَوصولًا حرفيًّا مؤولةً مع ما بعدَها بمَصدرٍ، أي: (وَعْدُ الرَّحمنِ)، وله إعرابُ ما قبْلَه نفْسُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٠٨)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٥).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٠١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٧٥).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مُبيِّنًا إنكارَ المشركينَ للبعثِ واستِبعادَهم له: ويقولُ أولئك المُشرِكون تَكذيبًا واستِهزاءً: متى يَجيءُ يومُ القِيامةِ إنْ كنتُم صادِقينَ في أنَّنا مَبعوثون فمُحاسَبون؟!

ثمَّ يردُّ اللهُ تعالَى عليهم ببيانِ بعضِ مَشاهِدِ يومِ القِيامةِ، فيقولُ: ما ينتَظِرونَ إلَّا صَيحةَ النَّفخِ في الصُّورِ عِندَ قِيامِ السَّاعةِ، فتأخُذُهم وهم يَختَصِمونَ في شُؤونِ الدُّنيا، غافِلينَ عن السَّاعةِ، فلا يَستطيعون حِينَها أنْ يُوصُوا أحدًا بشَيءٍ، ولا يَستطيعونَ الرُّجوعَ إلى أهليهم!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى حالَهم عِندَ نفخةِ البعثِ، فيقولُ: ونُفِخَ في الصُّورِ نَفخةُ البَعثِ فإذا أولئك المُشرِكونَ يَخرُجونَ مِن القُبورِ مُسرِعينَ إلى رَبِّهم، ويقولونَ: يا وَيلَنا مَن أحْيانَا مِن قُبورِنا؟! قال المؤمنون: هذا هو البَعثُ الذي وعَدَنا الرحمنُ إيَّاهُ، وقد صدَقَ رسُلُ اللهِ فيما أخبَرونا به.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه سُرعةَ حُضورِهم للحِسابِ، فيقولُ: ما كانت النفخةُ المذكورةُ إلَّا نَفخةً واحدةً فإذا هم قد أُحضِروا أجمعينَ؛ فيومَ القِيامةِ لا يَظلِمُ اللهُ أيَّ نَفسٍ شَيئًا ممَّا تَستَحِقُّه، ولا تُجزَونَ إلَّا جزاءَ أعْمالِكم التي عَمِلتُموها في الدُّنيا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّه ذُكِرَ عَقِبَ استِهزائِهم بالمُؤمِنينَ -لَمَّا مَنَعوهمُ الإنفاقَ بعِلَّةِ أنَّ اللهَ لو شاءَ لَأطعَمَهم- استِهزاءٌ آخَرُ بالمُؤمِنينَ في تَهديدِهمُ المُشرِكينَ بعَذابٍ يَحُلُّ بهم،

فكانوا يَسألونَهم هذا الوَعدَ؛ استِهزاءً بهم، بقَرينةِ قَولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ قِلَّةَ خَيرِهم المُستَنِدةَ إلى تهكُّمِهم باليومِ الذي ذُكِّروا به، بالأمرِ بالاتِّقاءِ والتَّعليلِ بترَجِّي الرحمةِ؛ أتْبَعَه حِكايةَ استِهزاءٍ آخَرَ منهم، دالٍّ على عَظيمِ جَهلِهم، بتكذيبِهم بما يُوعَدونَ على وَجهِ التَّصريحِ بذلك اليومِ، والتَّصويرِ له بما لا يَسَعُ مَن له أدْنَى عقْلٍ غيرَ الانقيادِ له؛ فقال[٢]:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: ويَقولُ المُشرِكونَ تَكذيبًا أو استهزاءً: متى يكونُ البَعثُ يومَ القِيامةِ إنْ كنتُم صادِقينَ في دعواكم أنَّنا نُبعَثُ بعدَ مَوتِنا أحياءً[٣]؟

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان استِهزاءُ الكافرينَ هذا يَسوءُ المُسلِمينَ؛ أعلَمَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمِنينَ بأنَّ الوَعدَ واقِعٌ لا مَحالةَ، وأنَّهم ما يَنتَظِرونَ إلَّا صَيحةً تَأخُذُهم، فلا يُفلِتونَ مِن أخذَتِها[٤].

وأيضًا لَمَّا كان الحازِمُ مَن لا يَتهكَّمُ بشَيءٍ إلَّا إذا استعدَّ له بما هو مُحقِّقُ الدَّفعِ؛ بيَّن سفَهَهم بإتيانِها بَغتةً، وبأنَّه لا بُدَّ مِن وُقوعِها بقَولِه[٥]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٣٩).

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا صَيحةً واحِدةً حينَ يُنفَخُ في الصُّورِ عِندَ قيامِ السَّاعةِ، فتُصيبُهم وهم يختَصِمونَ في شُؤونِ دُنياهم؛ فهم في غَفلتِهم لاهونَ عنها، لم تَخطُرْ على قُلوبِهم[1]!

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((لَتقومَنَّ السَّاعةُ وقدْ نشَرَ الرَّجُلانِ ثَوبَهما بيْنَهما فلا يَتبايعانِه ولا يَطويانِه! ولَتقومَنَّ السَّاعةُ وقدِ انصرَفَ الرَّجُلُ بلَبنِ لِقحَتِه[2] فلا يَطعَمُه! ولَتقومَنَّ السَّاعةُ وهو يَليطُ حَوضَه[3]، فلا يَسْقي فيه! ولَتقومَنَّ السَّاعةُ وقدْ رفَعَ أحَدُكم أُكْلتَه إلى فيه فلا يَطعَمُها!))[4].

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾.

أي: فلا يَستطيعونَ حِينَها أنْ يُوصُوا أحدًا بأيِّ شَيءٍ ممَّا يُريدونَ الوَصيَّةَ به، كالأموالِ وغَيرِها[5]!

﴿وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٠، ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

(٢) اللِّقْحةُ: النَّاقةُ التي لها لَبَنٌ يُحلَبُ. يُنظر: ((شرح صحيح البخارى)) لابن بطال (٧/ ١٥١).

(٣) يَليطُ حوْضَه: أي: يُصْلِحُه ويَبنِيه، ويُلْصِقُ به الطِّينَ لإصلاحِه؛ ولئلَّا يَنشَفَ ماؤُه. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) للقاضي عِياض (٨/ ٥٠٩)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٠٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٦٥٠٦) واللفظ له، ومسلِمٌ (٢٩٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

أي: ولا يَستطيعونَ حِينَها الرُّجوعَ إلى أهليهم[١]!

ثم بيَّن أنَّهم بَعدَ أنْ يَموتوا يُنفَخُ في الصُّورِ النَّفخةُ الثانيةُ[٢]؛ نَفخةُ البعثِ مِن القُبورِ، فقال[٣]:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ونُفِخَ في الصُّورِ نَفخةٌ ثانيةٌ للبَعثِ يومَ القِيامةِ، فإذا هم يَخرُجونَ مِن القُبورِ مُسرِعينَ إلى رَبِّهم[٤].

كما قال تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٩).

(٢) اختَلَفَ العُلَماءُ في عدَدِ النَّفَخاتِ في الصُّورِ على أقْوالٍ؛ فقيلَ: هُما نَفْخَتانِ: نَفْخةُ الفزَعِ والصَّعقِ، ونَفْخةُ البَعثِ. ممَّن ذهَبَ إلى هذا القَولِ: ابنُ جَرير، والقُرطبيُّ، والسعديُّ، وابنُ باز، وابنُ عُثَيْمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٤٩٠، ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٤/ ٣٢٨)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٧).
وقيل: هِي ثَلاثُ نَفَخاتٍ، وهي نفْخَة الفزعِ، ونفخَة الصَّعقِ، ونفخَة البعثِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ تَيميَّة، وابنُ كَثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).
وقيل: هي أربعُ نَفَخاتٍ، وممَّن ذهَب إلى هذا: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٥٢-٥٥٣، ٥٥٨، ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤١-١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٦).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرنٌ يُنفَخُ فيه))(١).

﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا تشوَّفَت النَّفسُ إلى سَماعِ ما يقولونَ إذا عايَنوا ما كانوا يُنكِرونَ؛ استأنَفَ قَولَه(٢):

﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا ﴾.

أي: قال الكافِرونَ: يا وَيلَنا(٣) مَن أحيانَا فأيقَظَنا وأقامَنا مِن مَرقَدِنا(٤)؟!

---

(١) أخرجَه أبو داود (٤٧٤٢)، وأحمد (٦٥٠٧) باختلاف يسير، والترمذي (٢٤٣٠)، والنسائي (١١٤٥٦) واللفظ لهما.

حسَّنه التِّرمذيُّ، وذكَر ثُبوتَه ابنُ كَثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٢).

(٣) قيل: هي كلِمةٌ يقولُها الواقعُ في مُصيبةٍ، أو المتحَسِّرُ، أو النادِمُ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملة: السعديُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٥، ١٨٩).

قال البِقاعي: (أي: ليس بحَضرتِنا اليومَ شَيءٌ يُنادِمُنا إلَّا الويلُ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٤٢-١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٦).

قيل: معنى ﴿مَّرۡقَدِنَا﴾: رَقدتُنا ومَنامُنا. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جَرير، والسَّمرقندي، والثعلبي، والعُليمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٦-٤٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧). =

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما بيْنَ النَّفخَتينِ أربَعون -قالوا: يا أبا هُرَيرةَ، أربعون يومًا؟ قال: أبَيتُ! قالوا: أربعون شَهرًا؟ قال: أبَيتُ! قالوا: أربعون سَنةً؟ قال: أبَيتُ[1]!- ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِن السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقلُ. قال: وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلَى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[2]، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يَومَ القِيامةِ))[3].

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾.

أي: قال المؤمِنون: هذا هو البَعثُ الذي وعَدَ به الرَّحمنُ، وقد صَدَقَ رُسُلُه فيما أخبَرونا به[4].

---

= وقيل: موضِعُ رُقادِنا، وهو القُبورُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كَثير، وابن عاشور، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٥).

(١) معناه: أبَيْتُ أن أجزِمَ أنَّ المرادَ أربعون يومًا أو شهرًا أو سَنةً، بل الَّذي أجزِمُ به أنَّها أربعون مُجمَلةً؛ لأنَّه إنَّما سَمِعَ (أربعين) ولم يُعَيَّنْ له. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٤٥٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩١، ٩٢).

(٢) عَجْبُ الذَّنَبِ: هو العَظْمُ اللطيفُ الَّذي في أسفلِ فقارِ الظَّهرِ، وأعلَى ما بينَ الأليتَينِ، وهو رأسُ العُصعُصِ. يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (١/ ٢٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩٢)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٣٠٧).

(٣) رواه البخاري (٤٩٣٥) ومسلم (٢٩٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١، ٥٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٦).

ممَّن اختار أنَّ هذا مِن كلامِ المؤمِنينَ: ابنُ جَرير، وابنُ كَثير، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أُبيُّ بنُ كعب، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، وعبدُ الرحمن بنُ أبي ليلى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٠١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٣).

قال الشنقيطيُّ: (الكافِرُ يدعو بالوَيلِ، والمؤمِنُ يَطمَئِنُّ للوَعدِ، ومِمَّا يدُلُّ على أنَّ الجوابَ =

كما قال تعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [الصافات: ٢٠، ٢١].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان الإخبارُ بالنَّفخِ لا يَنفي التعَدُّدَ، قال مُهوِّنًا مِن أمْرِ البَعثِ بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه، مُظهِرًا للعِنايةِ بتأكيدِ كَونِها واحدةً[1].

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

---

= مِن المؤمِنينَ لا مِنَ الملائكةِ، كما يقولُ بَعضُ النَّاسِ: ما جاء في آخِرِ السِّياقِ؛ قَولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ﴾ أي: كِلا الفريقينِ ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾. ((أضواء البيان)) (٩/ ٥٧).

وقيل: هذا مِن كلامِ الملائكةِ. وممَّن قال بهذا القول: مُقاتِلُ بن سُليمان، والفرَّاء، وابن قُتَيبة. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٠)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عباس، وزيدُ بنُ أسلمَ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٠١).

قال ابنُ كثير: (يقولونَ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمِنونَ -قالُه غيرُ واحدٍ من السَّلَفِ- ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وقال الحَسن: إنَّما يُجيبُهم بذلك الملائكةُ. ولا مُنافاةَ؛ إذ الجَمعُ ممكِنٌ، والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨١-٥٨٢).

وقيل: هو مِن كلامِ الكافِرينَ، وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّجَّاج، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٤).

أي: ما كانتْ تلك النَّفخةُ المذكورةُ إلَّا نَفخةً واحِدةً، فإذا هم قدْ أُحضِروا مُجتَمِعينَ لَدَيْنا دونَ أن يتخَلَّفَ منهم أحدٌ(١).

كما قال تعالَى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [النحل: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۞ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ۞ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَرۡدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٥٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا كان هذا الإحضارُ بسبَبِ العَدلِ، وإظهارِ جَميعِ صِفاتِ الكَمالِ؛ قال(٢):

﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: ففي هذا اليومِ -يومِ القِيامةِ- لا يَظلِمُ اللهُ أيَّ نَفسٍ مِن النُّفوسِ أيَّ شَيءٍ مِمَّا تَستَحقُّه(٣).

﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ولا تُجزَونَ يومَ القِيامةِ إلَّا بحَسَبِ أعمالِكم التي كنتُم تَعمَلونَها في الدُّنيا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٥٩)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٢٩)، ((تفسير السعدي)) =

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ تمامُ قدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ حيثُ كان مُجرَّدُ النفخِ يُوجِبُ أنْ يخرُجَ الناسُ جميعًا مِن قُبورِهم مُسرعينَ، ثمَّ قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ كلُّهم يُحضرونَ عِندَ اللهِ عزَّ وجلَّ بصيحةٍ واحدةٍ؛ إنَّ العقلَ ليحارُ حَيرةً عظيمةً في كَمالِ قُدرةِ الله عزَّ وجلَّ، فلا تستبعِدْ شيئًا على قُدرةِ اللهِ، فإذا نزَلتْ بك حاجةٌ، أو أصابَك فقرٌ، أو ألَمَّتْ بك ضائقةٌ فادْعُ اللهَ؛ فإنَّه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ[١].

٢- ميزانُ العدلِ يومَ القيامةِ مستقيمُ اللِّسانِ، تبينُ فيه الذَّرَّةُ، فيُجزَى العبدُ على الكلمةِ قالها في الخيرِ، والنظرةِ نظَرها في الشرِّ، فيا مَن زادُه مِن الخيرِ طفيفٌ، احذرْ ميزانَ عدلٍ لا يَحيفُ، قال الله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾[٢].

٣- قال ابنُ الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أُتراكَ بأيِّ عملٍ تُجزَى، أُتراك تُهنَّى أو تُعزَّى، قلبُك عندَ الصَّلاةِ في غَيبةٍ، ولِسانُك في الصومِ في غِيبةٍ، وما صَفَتْ لك في العُمرِ رَكعةٌ، وقد مرَّ أكثرُ الأجَلِ بسُرعةٍ، فانتَبِهْ قَبْلَ أنْ يَفوتَ التدارُكُ، وفرِّغْ قلبَك قبْلَ أنْ تَفرُغَ دارُك!)[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، أي: لا يَنتظِرونَ إلَّا الصَّيحةَ

---

= (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٣)، ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٦/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((التبصرة)) لابن الجوزي (٢/ ١٩٨).

(٣) ((التبصرة)) لابن الجوزي (٢/ ١٩٩).

المعلومةَ، ولَمَّا كانتْ هذه الصَّيحةُ لا بُدَّ مِن وُقوعِها، جُعِلوا كأنَّهم مُنتَظِروها. فإن قِيل: هم ما كانوا ينتظِرونَ، بل كانوا يَجزمون بعَدمِها؟ فالجوابُ: أنَّ الانتظارَ فِعليٌّ؛ لأنَّهم كانوا يَفعلونَ ما يستحقُّ به فاعلُه البوارَ، وتَعجيلَ العذابِ، وتَقريبَ الساعةِ، لولا حكمُ اللهِ وقُدرتُه وعلمُه[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿تَأۡخُذُهُمۡ وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ بيانُ حالِ هؤلاء الذين تقومُ عليهم القِيامةُ، وتأخُذُهم الصَّيحةُ، وهي: الخُصومةُ والتَّنازُعُ؛ ممَّا يدُلُّ على سُوءِ أحوالِهم، وسُوءِ أخلاقِهم، وأنَّه لا هَمَّ لهم إلَّا هذه المخاصَمةُ والمنازَعةُ؛ شُحًّا وطَمعًا في الدُّنيا، وغَفلةً عن الآخرةِ؛ ولهذا جاء في الحَديثِ الصَّحيحِ: أنَّ الساعةَ لا تقومُ إلَّا على شِرارِ الخَلقِ[٢]، وهؤلاء مِن المعلومِ أنَّهم يأكُلونَ ويَشربونَ، لكنْ لم يَذكُرِ اللهُ إلَّا هذا التخاصُمَ؛ لبيانِ سُوءِ حالِهم في ذلك الزَّمَنِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ يَخِصِّمُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الساعةَ تأتيهم وهُم في غفلةٍ، وعدمِ شعورٍ بإتيانِها[٤].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ إثباتُ النَّفخِ في الصُّورِ، وهو مِن الأمورِ الغَيبيَّةِ التي يَجبُ الإيمانُ بها دونَ التَّعَرُّضِ لكَيفيَّتِها[٥].

٥- النفخُ في الصُّوْرِ إذا وَقَعَ لم يَسْتَطِعْ أحدٌ أنْ يَتكلَّمَ، ولا يَتَزَحْزَحَ مِن مكانِه، يُؤخذُ ذلك مِن قولِه تعالَى: ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةً﴾ هذا الكلامُ؛ ﴿وَلَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر ما أخرجه مسلم (١٩٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٣).

إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ لا يَتَزَحْزَحُون مِن مَكانِهم[١].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴾ قُدرةُ اللهِ الشَّامِلةُ، والِحكمةُ الكامِلةُ؛ حيثُ كان صوتٌ واحِدٌ يُحيي تارةً، ويُميتُ أخرى، كأنَّه رُكِّبَ فيه مِن الأسرارِ أنَّه يَكسِبُ الشَّيءَ ضِدَّ ما هو عليه مِن حَياةٍ أو موتٍ، أو غَشْيٍ أو إفاقةٍ[٢].

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ ﴾ أنَّ جسمَ الميِّتِ يَبقَى في الأرضِ في المكانِ الذي دُفِنَ فيه إلى يومِ القِيامةِ[٣]. هذا مِن حيثُ الأصلُ وإلَّا فقَدْ يزولُ مِن مَوضِعِه بفِعلٍ مِن النَّاسِ، أو نبْشِ السِّباعِ أو السُّيولِ إلى غيرِ ذلك.

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿يَنسِلُونَ ﴾ إثباتُ البعثِ؛ وأنَّه حَياةٌ حقيقيَّةٌ؛ لأنَّ الإسراعَ لا يكونُ إلَّا بحياةٍ حقيقيَّةٍ[٤].

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ دَلالةٌ على أنَّهم يَنامون نومةً قبْلَ البَعثِ، وهي نومةُ موتٍ[٥]، وذلك على أحدِ القولَينِ في تفسيرِ ﴿مَّرۡقَدِنَا﴾.

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ سُؤالٌ: أنَّ قَولَهم ذلك سؤالٌ عن الباعِثِ؛ فكيف طابَقَه الجوابُ بقَولِه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢٤٠/ ١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٧٦).

ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾؟

**الجوابُ**: معناه: بعَثَكم الرَّحمنُ الذي وعَدَكم بالبَعثِ، وأخبَرَكم به الرَّسولُ، وإنَّما جِيء به على هذه الطريقةِ؛ تَبكيتًا لهم وتوبيخًا[١].

١١- قَولُه تعالى: ﴿مَّرْقَدِنَا﴾ وحَّدوه؛ إشارةً إلى أنَّهم على تَكاثُرِهم وتباعُدِهم كانوا في القِيامِ كنَفسٍ واحدةٍ[٢].

١٢- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾، قَولُه تعالَى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في هذا الموضِعِ ليس لمجرَّدِ الخَبرِ عن وعْدِه، وإنَّما ذلك للإخبارِ بأنَّه في ذلك اليومِ العظيمِ سيرونَ مِن رحمتِه ما لا يخطُرُ على الظُّنونِ، ولا حَسِبَ به الحاسِبون، كقَولِه تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]، ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨] ونحوِ ذلك ممَّا يُذكَرُ فيه اسمُ الرَّحمنِ[٣]؛ فرحمةُ اللهِ يومَ القِيامةِ تتجلَّى تجلِّيًا أكثرَ منها في الدُّنيا، فإنَّ للهِ تعالَى مِئةَ رَحمةٍ جَعَل منها رحمةً في الأرضِ؛ فإذا كان يومُ القِيامةِ صارَ له مِئةُ رحمةٍ -التِّسعةُ والتِّسعون الباقيةُ؛ والرحمةُ الأُولى[٤]-، وهذا يدلُّ على تَجَلِّي رحمةِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧).

(٤) عن سَلْمانَ الفارسيِّ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ لله مئةَ رَحمةٍ، فمِنها رحمةٌ بها يَتراحَمُ الخلقُ بينَهم، وتِسعةٌ وتِسعونَ ليومِ القِيامةِ)). أخرجه مسلِمٌ (٢٧٥٣).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضي اللهُ عنه، أنَّه قالَ: سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ: ((جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمةَ مِئةَ جُزءٍ، فأمْسَكَ عِندَه تِسْعةً وتِسْعينَ جُزءًا، وأنْزلَ في الأرضِ جُزْءًا واحدًا؛ فمِن ذلِك الجُزءِ يَتَراحَمُ الخَلقُ، حتَّى تَرفَعَ الفَرَسُ حافِرَها عن ولَدِها؛ خَشْيةَ أنْ تُصيبَه)). أخرَجه البخاريُّ (٦٠٠٠) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٧٥٢).

اللهِ تعالى في ذلك اليومِ؛ ولهذا قال هنا: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[١].

١٣- الإشارةُ إلى أنَّ اللهَ تعالى يَنزِلُ للقَضاءِ بيْن عِبادِه؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ أي: عندَنا، والعِندُ يدُلُّ على القُرْبِ، وقد ثَبَتَ بالنُّصوصِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَنزِلُ للقَضاءِ بين عِبادِه، فيَقضي بيْنَهم[٢].

١٤- في قَولِه تعالَى: ﴿مُحۡضَرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كَونَهم ﴿يَنسِلُونَ﴾ إجباريٌّ لا اختياريٌّ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ، ويُستفادُ منه: كمالُ عَدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ لِبيانِ ضَرْبٍ آخَرَ مِن تَعسُّفِهم ورُكوبِهم مَتنَ الضَّلالةِ[٥].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ مُستَعمَلٌ كِنايةً عنِ التَّهكُّمِ والتَّكذيبِ. وأُطلِقَ الوَعدُ على الإنذارِ والتَّهديدِ بالشَّرِّ؛ لأنَّ الوَعدَ أعَمُّ، ويَتعَيَّنُ لِلخَيرِ والشَّرِّ بالقَرينةِ. واسمُ الإشارةِ لِلوَعدِ ﴿هَٰذَا﴾ مُستَعمَلٌ في الاستِخفافِ بوَعدِ العَذابِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾

- قَولُه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾، أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا صَعقةً أو نَفخةً عَظيمةً، والمُرادُ النَّفخةُ الأُولى التي يَنقَضي بها نِظامُ الحياةِ في هذا العالَمِ، والأُخرى التي وُعِدوا بها تَنشَأُ عنها النَّشأةُ الثانيةُ، وهي الحياةُ الأبديَّةُ -على القولِ بأنَّهما نفختانِ-؛ فيَكونُ أُسلوبُ الكَلامِ خارِجًا على الأُسلوبِ الحَكيمِ إعراضًا عن جَوابِهم؛ لِأنَّهم لم يَقصِدوا حَقيقةَ الاستِفهامِ، فأُجيبوا بأنَّ ما أُعِدَّ لهم مِنَ العَذابِ هو الأجدَرُ بأنْ يَنتَظِروه[1].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾؛ لِإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، وهو أنَّ الصَّيحةَ تَأخُذُهم[2].

- وأيضًا في قولِه: ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أمورٌ في الصَّيحةِ تدلُّ على هولِها وعِظَمِها؛ أحدُها: التَّنكيرُ؛ يُقالُ: لفُلانٍ مالٌ، أي: كثيرٌ، وله قلْبٌ، أي: جَريءٌ. وثانيها: ﴿وَٰحِدَةً﴾، أي: لا يُحتاجُ معها إلى ثانيةٍ. وثالثُها: ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾، أي: تعمُّهم بالأخْذِ، وتَصِلُ إلى مَن في مَشارِقِ الأرضِ ومَغاربِها، ولا شكَّ أنَّ مِثلَها لا يكونُ إلَّا عظيمًا[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾

- قَولُه: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً﴾ كِنايةٌ عن شِدَّةِ السُّرعةِ بَينَ الصَّيحةِ وهَلاكِهم؛ إذْ لا يَكونُ المُرادُ مَدلولَه الصَّريحَ؛ لِأنَّهم لا يَترُكونَ غَيرَهم بَعدَهم؛ إذِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٨٩).

الهَلاكُ يأتي على جَميعِ الناسِ[١].

- وتَنكيرُ ﴿تَوْصِيَةً﴾ لِلتَّقليلِ، أي: لا يَستَطيعونَ تَوصيةً مَا[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لِتَقريرِ البَعثِ يَومَ القِيامةِ[٣].

- قَولُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ...﴾ يَجوزُ أنْ تَكونَ الواوُ اعتِراضيَّةً، وهذا الاعتِراضُ واقعٌ بَينَ جُملةِ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ...﴾ [يس: ٤٩]، وجُملةِ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا ...﴾ [يس: ٦٦]، والمَقصودُ منه: وَعظُهم بالبَعثِ الذي أنكَروه، وبما وَراءَه[٤].

- وصِيغةُ الماضي في (نُفِخَ) مُستَعمَلةٌ في تَحقُّقِ الوقوعِ، والمَعنى: ويُنفَخُ في الصُّورِ، أي: ويَنفُخُ نافِخٌ في الصُّورِ، وهو المَلَكُ المُوكَّلُ به[٥].

- قَولُه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (إذا) لِلمُفاجَأةِ، وهي حُصولُ مَضمونِ الجُملةِ التي بَعدَها سَريعًا وبدونِ تَهيُّؤٍ[٦].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هاهُنا: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾، وقال تَعالى في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، والقِيامُ غَيرُ النَّسَلانِ، وقَولُه في المَوضِعَيْنِ: ﴿فَإِذَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦).

هُمْ﴾ يَقتَضي أنْ يَكونَا مَعًا؛ **والجَوابُ** عن هذا مِن وَجهَيْنِ؛ **أحَدُهما**: أنَّ القِيامَ لا يُنافي المَشيَ السَّريعَ؛ لِأنَّ الماشيَ قائِمٌ، ولا يُنافي النَّظَرَ. **وثانيهما**: أنَّ السُّرعةَ مَجيءُ الأُمورِ كأنَّ الكُلَّ في زَمانٍ واحِدٍ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾

- قَولُه: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ وَصْفَ هذه الحالِ بَعدَ حِكايةِ إنكارِهم البَعثَ، وإحالَتِهم إيَّاهُ، يُثيرُ سُؤالَ مَن يَسألُ عن مَقالِهم حينَما يَرَوْنَ حَقيقةَ البَعثِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ حُكيَ قَولُهم بصِيغةِ الماضي -مع كونِه لم يقَعْ بعْدُ-؛ إتْباعًا لِحكايةِ ما قَبلَه بصِيغةِ المُضيِّ؛ لِتَحقيقِ الوُقوعِ[٣].

- قَولُه: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ كَلِمةٌ يَقولُها الواقِعُ في مُصيبةٍ، أوِ المُتَحسِّرُ، وإنَّما قالوا ذلك؛ لِأنَّهم رَأَوْا ما أُعِدَّ لهم مِنَ العَذابِ عِندَما بُعِثوا، وحَرْفُ النِّداءِ الدَّاخِلُ على (وَيْلَنا)؛ لِلتَّنبيهِ، وتَنزيلِ الوَيْلِ مَنزِلةَ مَن يَسمَعُ فيُنادَى لِيَحضُرَ[٤].

- قَولُه: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ (مَنْ) استِفهامٌ عن فاعِلِ البَعثِ، مُستَعمَلٌ في التَّعجُّبِ والتَّحسُّرِ مِن حُصولِ البَعثِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قَولُه: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ لَمَّا كان البَعثُ عِندَهم مُحالًا، كَنَّوْا عنِ التَّعجُّبِ مِن حُصولِه بالتَّعجُّبِ مِن فاعِلِه؛ لأنَّ الأفعالَ الغَريبةَ تَتوَجَّهُ العُقولُ إلى مَعرِفةِ فاعِلِها؛ لِأنَّهم لَمَّا بُعِثوا وأُزْجيَ بهم إلى العَذابِ، عَلِموا أنَّه بَعثٌ فَعَلَه مَن أرادَ تَعذيبَهم[١].

- قَولُه: ﴿مِن مَّرۡقَدِنَا﴾ المَرقَدُ: مَكانُ الرُّقادِ، وحَقيقةُ الرُّقادِ: النَّومُ، وأطلَقوا الرُّقادَ على المَوتِ والاضطِجاعِ في القُبورِ -على قولٍ في التفسيرِ- تَشبيهًا بحالةِ الرَّاقِدِ؛ لِأنَّ عَذابَ القَبرِ كان كالرُّقادِ في جَنبِ ما صاروا إليه مِن عَذابِ جَهنَّمَ. وقيل: الجامعُ بَينَهما عَدَمُ ظُهورِ الفِعلِ؛ لِأنَّ كُلًّا مِنَ النَّائِمِ والمَيِّتِ لا يَظهَرُ فيه فِعلٌ، والمُرادُ الفِعلُ الاختِياريُّ المُعتَدُّ به. وقيل: فيه تَرشيحٌ[٢]، ورَمزٌ[٣]، وإشعارٌ بأنَّهم لاختِلاطِ عُقولِهم يَظنُّونَ أنَّهم كانوا نِيامًا[٤].

- قَولُه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ ابتِداءُ كَلامٍ؛ فقيلَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧).

(٢) التَّرشيح: هو أنْ يُذكَرَ شَيءٌ يلائمُ المشبَّهَ به إنْ كان في الكلام تَشبيهٌ، كما في قوله عليه الصَّلاة والسَّلام: ((أسْرَعُكنَّ لُحوقًا بي أطْوَلُكنَّ يدًا)) [البخاري (١٤٢٠) ومسلم (٢٤٥٢)]؛ فإنَّ ((أطولكنَّ)) تَرْشيحٌ لليدِ، وهو تَعبيرٌ عن النِّعمة. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٧٢).

(٣) الرَّمْزُ: هو إشارةٌ إلى المقصودِ مِن قَريبٍ مع نَوعِ خَفاءٍ، وهو كِنايةٌ قلَّت وَسائطُها مع خَفاءِ اللُّزوم، نحو: هو غَليظُ الكَبِد، كِنايةً عن القَسْوة؛ إذ ذلك تَتوقَّف على مَعرِفةِ ما كان يَعتقِدُه العربُ مِن أنَّ الكَبِدَ مَوضعُ الإحساسِ والتأثُّرِ، فيَلزَمُ مِن رِقَّتِه اللِّينُ، ومن غِلَظِه القسْوة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٩)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٢/ ١٧٧)، ((معجم مقاليد العلوم)) للسيوطي (ص: ٩٨)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧).

هو مِنَ اللهِ تعالَى، على سَبيلِ التَّوبيخِ والتَّوقيفِ على إنكارِهم. ويَجوزُ أن يَكونَ مِن كَلامِ المَلائكةِ، أوِ المُؤمِنينَ، يُجيبونَ به قَولَ الكُفَّارِ: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾؛ فهذا جَوابٌ يَتضَمَّنُ بَيانَ مَن بَعَثَهم، مع تَنديمِهم على تَكذيبِهم به في الحَياةِ الدُّنيا حينَ أبلَغَهمُ الرُّسُلُ ذلك عنِ اللهِ تَعالَى، واسمُ الرَّحمنِ حِينَئذٍ مِن كَلامِ المَلائِكةِ؛ لِزيادةِ تَوبيخِ الكُفَّارِ على تَجاهُلِهم به في الدُّنيا[1].

وقيل: هو مِن كلامِ الكَفَرةِ المكذِّبينَ بالبعثِ، وهذا الكَلامُ خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في لازِمِ الفائِدةِ؛ وهو أنَّهم عَلِموا سَبَبَ ما تَعجَّبوا منه، فبَطَلَ العَجَبُ؛ فيَجوزُ أنْ يَكونوا يَقولونَ ذلك كما يَتكَلَّمُ المُتحَسِّرُ بَينَه وبَينَ نَفْسِه، وأنْ يَقولَه بَعضُهم لِبَعضٍ كُلٌّ يَظُنُّ أنَّ صاحِبَه لم يَتفَطَّنْ لِلسَّبَبِ؛ فيُريدُ أنْ يُعْلِمَه به[2].

- وأيضًا قَولُه: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ جَوابٌ لِسُؤالِهم: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَا﴾، جِيءَ به على هذه الطريقةِ تَبكيتًا لهم وتَوبيخًا، وعلى طَريقةٍ سِيئَتْ بها قُلوبُهم، ونُعِيَتْ إليهم أحوالُهم، وذُكِّروا كُفرَهم وتَكذيبَهم، وأُخبِروا بوُقوعِ ما أُنذِروا به، وكأنَّه قيل لهم: ليس بالبَعثِ الذي عَرَفتُموه -وهو بَعثُ النَّائِمِ مِن مَرقَدِه- حتى يُهِمَّكمُ السُّؤالُ عنِ الباعِثِ، إنَّ هذا هو البَعثُ الأكبَرُ ذو الأهوالِ والأفزاعِ، وهو الذي وَعَدَه اللهُ في كُتُبِه المُنزَّلةِ على أَلْسِنةِ رُسُلِه الصَّادِقينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧- ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٣- ٤٧٤)، ((تفسير أبي =

- وفي قولِهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أتَوْا في التَّعبيرِ عنِ اسمِ الجَلالةِ بصِفةِ الرَّحمنِ؛ إكمالًا لِلتَّحسُّرِ على تَكذيبِهم بالبَعثِ، بذِكرِ ما كانَ مُقارِنًا لِلبَعثِ في تَكذيبِهم، وهو إنكارُ هذا الاسمِ[1]، وهذا على أنَّه مِن قولِ الكفرةِ.

- وجُملةُ ﴿وَصَدَقَ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وهو مُستَعمَلٌ في التَّحسُّرِ على أنْ كَذَّبوا الرُّسُلَ، وجَمعُ المُرسَلينَ مع أنَّ المَحكيَّ كَلامُ المُشرِكينَ الذين يَقولونَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ﴾ [يس: ٤٨]؛ إمَّا لِأنَّهم استَحضَروا أنَّ تَكذيبَهم مُحمدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان باعِثُه إحالَتَهم أنْ يَكونَ اللهُ يُرسِلُ بَشَرًا رَسولًا؛ فكان ذلك لِأنَّهم لا يُصدِّقونَ أحَدًا يَأتي برِسالةٍ مِنَ اللهِ، فلَمَّا تَحسَّروا على خَطَئِهم ذَكَروه بما يَشمَلُه ويَشمَلُ سَبَبَه، وإمَّا لِأنَّ ذلك القَولَ صَدَرَ عن جَميعِ الكُفَّارِ المَبعوثينَ مِن جَميعِ الأُمَمِ؛ فعَلِمتْ كُلُّ أُمَّةٍ خَطَأَها في تَكذيبِ رَسولِها، وخَطَأَ غَيرِها في تَكذيبِ رُسُلِهم؛ فنَطَقوا جَميعًا بما يُفصِحُ عنِ الخَطَأَيْنِ[2]، وذلك أيضًا على أنَّه مِن قولِ الكَفَرةِ.

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمۡ جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ فَذلَكةٌ[3] لِجُملةِ ﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٤٩]، إلى قَولِه: ﴿وَصَدَقَ

---

= السعود)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الفَذْلكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ كَلِمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة) مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُراد بالفذلكة النتيجةُ لِمَا سبَق من الكلام، والتفريعُ عليه، ومنها فذلكةُ الحساب، أي: مُجمَل تفاصيله، وإنهاؤه، والفراغ منه، كقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ بعد قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة =

ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾[١] [يس: ٥٢].

- ووَصَفَ الصَّيحةَ بـ(وَاحِدَةً)؛ لِأنَّ ذلك الوَصفَ هو المَقصودُ مِنَ الاستِثناءِ المُفرَّغِ[٢]، أي: ما كان ذلك النَّفخُ إلَّا صَيحةً واحِدةً لا يُكرَّرُ استِدعاؤُهم لِلحُضورِ، بلِ النَّفخُ الواحِدُ يُخرِجُهم مِنَ القُبورِ، ويَسيرُ بهم ويُحضِرُهم لِلحِسابِ[٣].

- ولَمَّا كان قَولُه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ في قُوَّةِ التَّكريرِ والتَّوكيدِ لِقَولِه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ [يس: ٥١]، كان ما تَفرَّعَ عليه مِن قَولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ بمَنزِلةِ العَطفِ على قَولِه: ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، فكأنَّه مِثلُ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، و﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، وإعادةُ حَرفِ المُفاجأةِ (إذا) إيماءٌ إلى حُصولِ مَضمونِ الجُملتَيْنِ المُقترِنتَيْنِ بحَرفِ المُفاجَأةِ في مِثلِ لَمْحِ البَصَرِ، حتى كأنَّ كِليهما مُفاجَأٌ في وَقتٍ واحِدٍ[٤].

---

= النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩).

(٢) الاستثناء المُفرَّغ -ويُعْرَف أيضًا بالاستثناءِ الناقصِ-: هو الاستثناءُ الذي حُذِف المستثْنى منه مِن أركانِه، مثل: ما جاء إلَّا طالبٌ؛ فالمسْتَثنى: طالب، والأداة: إلَّا، والمستثْنى منه مَحْذوف. وقد سُمِّي مُفرَّغًا؛ لأنَّ بهذا الأسلوبِ يَتفرَّغُ ما قبْل «إلَّا» للعَملِ فيما بعْدها ولا يَشغَلُه عنه شيءٌ، وعليه تَخرُج «إلَّا» عن الاستثناءِ، ولا يُعَدُّ هذا النَّوعُ استثناءً، بل هو أُسلوبٌ للتَّوكيد فقطْ. يُنظر: ((شرح التسهيل)) لابن مالك (٢/ ٢٦٤)، ((شرح شذور الذهب)) للجوجري (٢/ ٤٨١)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾، أي: مِن غَيرِ لَبْثٍ ما طَرْفةَ عَينٍ، وفيه مِن تَهوينِ أمْرِ البَعثِ والحَشرِ، والإيذانِ باستِغنائِهما عنِ الأسبابِ التي يَنوطانِ بها فيما يُشاهِدونَه؛ ما لا يَخفَى(١).

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قَولُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ حِكايةٌ لِمَا يُقالُ لهم حِينَئذٍ؛ تَصويرًا لِلمَوعودِ، وتَمكينًا له في النُّفوسِ، وتَقريعًا لهم(٢).

- قَولُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ (اليَوْم) ظَرفٌ، وتَعريفُه لِلعَهدِ، وهو عَهدُ حُضورٍ، يَعني يَومَ الجَزاءِ، وفائِدةُ ذِكرِه: التَّنويهُ بذلك اليَومِ بأنَّه يَومُ العَدْلِ(٣).

- وجاءَتْ كَلِمَتا (نَفْسٌ) و(شَيْئًا) نَكِرتَيْنِ في سِياقِ النَّفيِ؛ لِيَعُمَّ انتِفاءُ كُلِّ ذلك عن كُلِّ نَفْسٍ، وانتِفاءُ كُلِّ شَيءٍ مِن حَقيقةِ الظُّلمِ، وذلك يَعُمُّ جَميعَ الأنْفُسِ، ولكنَّ المَقصودَ أنْفُسُ المُعاقَبينَ، أيْ: إنَّ جَزاءَهم على حَسَبِ سَيِّئاتِهم جَزاءٌ عادِلٌ، وإذْ قد كان تَقديرُه مِنَ اللهِ تَعالى -وهو العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ- كانتْ حَقيقةُ العَدلِ مُحقَّقةً في مِقدارِ جَزائِهم(٤).

- وأشعَرَ قَولُه: ﴿لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ بالتَّعريضِ بأنَّهم سيَلقَوْنَ جَزاءً قاسِيًا، لكنَّه عادِلٌ، لا ظُلْمَ فيه؛ لِأنَّ نَفيَ الظُّلمِ يُشعِرُ بأنَّ الجَزاءَ ممَّا يُخالُ أنَّه مُتَجاوِزٌ مُعادَلةَ الجَريمةِ، وهو مَعنى ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أيْ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٠- ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلَّا على وِفاقِ ما كُنتُم تَعمَلونَ، وعلى مِقدارِه[١].

- قولُه: ﴿وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، أي: إلَّا جَزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا على الاستِمرارِ مِنَ الكُفرِ والمَعاصي، على حَذفِ المُضافِ، وإقامةِ المُضافِ إليه مُقامَه؛ لِلتَّنبيهِ على قُوَّةِ التَّلازُمِ والارتِباطِ بيْنَهما كأنَّهما شَيءٌ واحِدٌ، أو إلَّا بما كُنتُم تَعمَلونَه، أي: بمُقابَلَتِه أو بسَبَبِه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢)

## الآيات (٥٥-٥٨)

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَٰكِهُونَ﴾: أي: ناعِمونَ فَرِحونَ مَسرورونَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ(٣).

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: أي: السُّرُرِ الَّتي عليها الحِجَالُ(٤)، واحِدُها: أريكةٌ، وأصلُ (أرك) هنا: يدُلُّ على إقامةٍ(٥).

﴿يَدَّعُونَ﴾: أي: يَتَمَنَّوْنَ، والعربُ تقولُ: ادَّعِ علَيَّ ما شِئتَ، أي: تَمَنَّ علَيَّ ما شِئتَ(٦).

---

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٤).

(٤) الحِجَالُ جمعُ حَجَلَةٍ: وهي كالقُبَّةِ، وموضعٌ يُزَيَّنُ بالثِّيابِ والسُّتورِ للعَروسِ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٨٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٦).

قال ابنُ عاشور: (وزنُ ﴿يَدَّعُونَ﴾ «يَفْتَعِلونَ»، أصلُه «يَدْتَعْيُونَ» نُقِلَتْ حركةُ الياءِ إلى العينِ طَلَبًا للتَّخفيفِ... وهذا الافتعالُ لك أنْ تجعلَه مِنْ «دَعَا»، والافْتِعالُ هنا يجعلُ فعلَ «دَعَا» قاصِرًا فينبَغي تعليقُ مجرورٍ به. والتَّقديرُ: ما يَدْعونَ لأنفسِهم... وإنْ جَعلْتَه مِن «الادِّعاءِ» فمعناه: أنَّهم يَدَّعونَ ذلك حقًّا لهم، أي: تتحدَّثُ أنفسُهم بذلك فيَؤُولُ إلى معنَى: ويتمَنَّوْنَ في أنفسِهم دونَ احتياجٍ إلى أنْ يَسْأَلوا بالقولِ فلذلك قيلَ: معنَى ﴿يَدَّعُونَ﴾: يَتمنَّوْنَ). ((تفسير ابن عاشور)) =

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾

قَولُه تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ ﴾: مُبتدأٌ خبَرُه الفِعلُ النَّاصِبُ لـ﴿قَوۡلٗا ﴾ أي: سلامٌ يُقالُ لهم قَولًا. أو التَّقديرُ: سلامٌ عليكم. أو هو مُبتدَأٌ وخبَرُه ﴿مِّن رَّبّٖ ﴾، و﴿قَوۡلٗا ﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ، وهو مع عامِلِه مُعتَرِضٌ بينَ المبتدأِ والخبَرِ. أو هو خبَرُ مُبتدَأٍ محذوفٍ، والجملةُ بعدَه صِفتُه، أي: هو سلامٌ يُقالُ قولًا مِن رَبٍّ رحيمٍ. وقيل غيرُ ذلك. ﴿قَوۡلٗا ﴾ إمَّا: مَفعولٌ مُطلَقٌ لفِعلٍ محذوفٍ كما مضَى، وإمَّا منصوبٌ على الاختِصاصِ، والجملةُ كُلُّها استِئنافٌ بيانيٌّ لا محلَّ لها[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعدَّه بفضلِه وكرمِه للمؤمنينَ: إنَّ أهلَ الجنَّةِ اليَومَ مُشتَغِلونَ بالنَّعيمِ المُقيمِ في الجنَّاتِ، فَرِحون مَسرورون هم وأزواجُهم في ظِلالِ الجنَّةِ على سُرُرٍ مُتَّكِئون، لهم في الجنَّةِ فواكِهُ كَثيرةٌ، ولهم فيها ما يَطلُبونَ ويَشتَهونَ، ولهم سَلامٌ مِن ربٍّ رَحيمٍ بهم، يقولُه قولًا؛ مُبالَغةً في تكريمِهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ سبحانَه حالَ الكافرينَ؛ أتْبَعه بحكايةِ حالِ عِبادِه الصَّالِحينَ[2].

---

= (٢٣/ ٤٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٧٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تَعالى أهوالَ يَومِ القِيامةِ؛ أعقَبَ ذلك بحالِ السُّعداءِ والأشقياءِ[١].

وأيضًا لَمَّا قَرَّر أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ شَرعَ في تفصيلِه، وبدأ بأشرَفِ الحِزبَينِ في جوابِ مَن سألَ عن هذا الجزاءِ[٢].

﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ٥٥﴾.

أي: إنَّ أهلَ الجنَّةِ في هذا اليَومِ مُشتَغِلونَ بما هم مُنغَمِسونَ فيه مِنَ اللَّذائِذِ والنِّعَمِ، بلا هَمٍّ يُصيبُهم، ولا تعَبٍ يَلحَقُهم، وإنَّما هم مُتلَذِّذونَ فَرِحونَ مَسرورونَ[٣].

﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ٥٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦١ - ٤٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٨، ٤٥٩)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٥، ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٩٨، ١٩٩).

قال الرسعني: (والمرادُ بالشُّغُلِ: افتِضاضُ الأبكارِ؛ في قولِ ابنِ مسعودٍ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ، والحَسَنِ، وقَتادةَ، وعامَّةِ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٤٨).

وقال ابنُ جرير بعدَ أن ذكَرَ الأقوالَ في الآيةِ: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ: أن يُقالَ كما قال اللهُ جَلَّ ثناؤه: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ وهم أهلُها ﴿فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ بنِعَمٍ- بأنَّهم في شُغُلٍ، وذلك الشُّغُلُ الَّذي هم فيه: نِعمةٌ، وافتِضاضُ أبكارٍ، ولَهْوٌ، ولَذَّةٌ، وشُغُلٌ عمَّا يَلْقَى أهلُ النَّارِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦١، ٤٦٢).

وقال ابنُ عطيَّة: (واختَلَف النَّاسُ في تعيينِ هذا الشُّغُلِ؛ فقال ابنُ مَسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ وابنُ المسَيِّبِ: في افتِضاضِ الأبكارِ. وحكى النَّقَّاشُ عن ابنِ عبَّاسٍ: سماعُ الأوتارِ. وقال مجاهِدٌ: معناه نعيمٌ قد شَغَلَهم. وهذا هو القَولُ الصَّحيحُ، وتعيينُ شَيءٍ دونَ شَيءٍ لا قياسَ له). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٨).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت النَّفْسُ لا يَتِمُّ سُرورُها إلَّا بالقرينِ الملائِمِ؛ قال[١]:

﴿ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: هم مع أزواجِهم[٢] يَتمتَّعونَ في ظِلالِ الجنَّةِ على السُّرُرِ الَّتي أُرخِيَ عليها ما يَستُرُها ويُزَيِّنُها، وهم مُتَّكِئونَ عليها في راحةٍ وطُمأنينةٍ ولَذَّةٍ[٣].

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ ﴾.

أي: لأهلِ الجنَّةِ فيها فواكِهُ كَثيرةٌ مِن جميعِ أنواعِها، يأكُلونَ منها تَلَذُّذًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۞ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [المرسلات: ٤١ - ٤٣].

﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾.

أي: ولهم فيها ما يَطلُبونَ ويَشتَهونَ ويَتمَنَّونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٤٦).

(٢) قال ابنُ عاشور: (المرادُ بأزواجِهم: الأزواجُ اللَّاتي أُعِدَّت لهم في الجنَّةِ، ومنهنَّ مَن كُنَّ أزواجًا لهم في الدُّنيا إن كنَّ غيرَ ممنوعاتٍ مِن الجنَّةِ؛ قال تعالى: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ [الرعد: ٢٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ [فصلت: ٣١].

﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: ولهم نَعيمٌ آخَرُ بالسَّلامِ عليهم مِن رَبٍّ رَحيمٍ بهم، يقولُه قولًا[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ كمالُ نَعيمِ أهلِ الجنَّةِ؛ لأنَّه كلَّما كَمَل النَّعيمُ كَمَل التَّفكُّهُ بهذه النِّعمةِ الَّتي يَتنعَّمُ بها الإنسانُ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ﴾ إشارةٌ إلى عدَمِ الوَحشةِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِى ظِلَٰلٍ﴾ سؤالٌ: كيف قال سُبحانَه في صِفةِ أهلِ الجنَّةِ ذلك، والظِّلُّ إنَّما يكونُ لِما يقَعُ عليه الشَّمسُ، ولا شَمسَ في الجنَّةِ؛ لِقَولِه

---

= (٦/ ٥٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٣).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ مَّا يَدَّعُونَ﴾ قال ابنُ قُتَيْبَةَ: ما يَتَمَنَّوْنَ، ومنه يقولُ النَّاسُ: هو في خَيرِ ما ادَّعى، أي: ما تَمَنَّى، والعربُ تقولُ: ادَّعِ ما شِئتَ، أي: تَمَنَّ ما شِئتَ. وقال الزَّجَّاجُ: وهو مأخوذٌ مِن الدُّعاءِ، والمعنى: كلُّ ما يدعو به أهل الجنة يأتيهم). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

قال الماوَرْديُّ: (قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه سلامُ الله تعالى عليهم؛ إكرامًا لهم. قاله محمَّدُ بنُ كعبٍ. الثَّاني: أنَّه تبشيرُ الله تعالى لهم بسَلامتِهم). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٥٧).

تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣]؟!

**الجوابُ عن ذلك مِن أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ الظِّلالَ في الجنَّةِ عبارةٌ عن تكاثُفِ الأشجارِ وجَودةِ المباني، وإلَّا فلا شَمسَ تُؤذي هنالك حتَّى يكونَ ظِلٌّ يُجيرُ مِن حَرِّها[١].

**الثَّاني**: أنَّ الظِّلَّ هو ما يَدفَعُ أذَى الحَرِّ عَن الإنسانِ، وهواءُ الجنَّةِ يُنافِي كُلَّ أذًى، فهو ظِلٌّ على هذا المعنى، وإن لم يكُنْ هناك شَمسٌ[٢].

**الثَّالِثُ**: أنَّ المرادَ بالظِّلالِ نَعيمُها وراحتُها، ومنه قَولُهم: عَيشٌ ظَليلٌ[٣].

**الرَّابِعُ**: أنَّ المرادَ به الوِقايةُ عن مَكانِ الألمِ؛ فإنَّ الجالِسَ تحت كِنٍّ لا يَخشى المطرَ ولا حَرَّ الشَّمسِ؛ فيَكونُ به مُستَعِدًّا لِدَفعِ الألمِ[٤].

**الخامِسُ**: أنَّه قيل: إنَّ ظِلَّ أشجارِ الجنَّةِ مِن نُورِ قناديلِ العَرشِ -أو مِن نُورِ العَرشِ-؛ لِئلَّا تَبهَرَ أبصارَهم؛ فإنَّه أعظَمُ مِن نورِ الشَّمسِ[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ كمالُ راحةِ أهلِ الجنَّةِ؛ فإنَّ المُتَّكِئَ عادةً يكونُ مُستريحًا مُطمئِنًّا، وكلَّما اطمأنَّ الإنسانُ ازدادتْ راحتُه، والاتِّكاءُ على الأرائكِ لا شكَّ أنَّه دليلٌ على راحةِ البالِ وعدمِ الانشغالِ[٦].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ إشارةٌ إلى أنْ لا جوعَ هناك؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٢).

التَّفَكُّهَ لا يكونُ لدفعِ الجوعِ[١]، وإنَّما يكونُ للتَّلَذُّذِ!

٦- قال الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ دَليلٌ على ما يَتمتَّعُ به أهلُ الجنَّةِ مِن السَّلامةِ مِن كلِّ الآفاتِ، ومِن الأمراضِ، ومِن الموتِ، ومِن غيرِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ لهم: ﴿ سَلَٰمٞ ﴾، وهذا اللَّفظُ الصَّادرُ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ ليس دُعاءً، ولكِنَّه خَبَرٌ مِن اللهِ، وإنَّما يكونُ مِثلُ هذا دُعاءً إذا وقَعَ مِن المخلوقِ، أمَّا إذا كان مِن الخالقِ فهو خَبَرٌ، أي: أنَّ اللهَ تعالى يُخبِرُهم بأنَّه سيُسَلِّمُهم مِن كلِّ آفةٍ[٢].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ فيه مُبالَغةٌ في تعظيمِهم؛ لأنَّ السَّلامَ وقَعَ منه تعالى بغيرِ واسِطةٍ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا ﴾ إثباتُ أنَّ اللهَ تعالى يقولُ ويَتكلَّمُ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم إنَّما وصَلوا إلى هذه المنزِلةِ برَحمةِ اللهِ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، مَسوقٌ لِتَقريرِ أحوالِ أهلِ الجَنَّةِ؛ إغاظةً لِلكُفَّارِ، وتَقريعًا لهم، وهذا ممَّا يُقالُ لِمَن حَقَّ عليهم العَذابُ؛ إعلامًا لهم بنُزولِ مَرتَبَتِهم عن مَراتِبِ أهلِ الجَنَّةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٠).

إعلانًا بالحَقائِقِ؛ لِأنَّ ذلك عالَمُ الحَقائقِ، وإدخالًا لِلنَّدامةِ والحَسرةِ عليهم على ما فَرَّطوا فيه مِن طَلَبِ الفَوزِ في الآخِرةِ؛ فإنَّ الإخبارَ بحُسنِ حالِ أعدائِهم إثرَ بَيانِ سُوءِ حالِهم ممَّا يَزيدُهم مَساءةً على مَساءةٍ، وهذا يُؤْذِنُ بأنَّ أهلَ الجَنَّةِ عُجِّلَ بهم إلى النَّعيمِ قبْلَ أنْ يُبعَثَ إلى النَّارِ أهلُها، وأنَّ أهلَ الجَنَّةِ غَيرُ حاضِرينَ ذلك المَحضَرَ، وفي مِثلِ هذه الحِكايةِ زِيادةُ تَصويرٍ لِلمَوعودِ، وتَمكينٌ له في النُّفوسِ، وتَرغيبٌ في الحِرصِ عليه وعلى ما يُثمِرُه[1].

- والتَّعبيرُ عن حالِ أهلِ الجنَّةِ هذه بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ قبْلَ تَحقُّقِها بتَنزيلِ المُتَرقَّبِ المُتَوقَّعِ مَنزِلةَ الواقِعِ؛ لِلإيذانِ بغايةِ سُرعةِ تَحقُّقِها ووُقوعِها، ولِزيادةِ مَساءةِ المُخاطَبينَ[2].

- وفائِدةُ ذِكرِ الظَّرفِ -وهو ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾- التَّنويهُ بذلك اليَومِ بأنَّه يَومُ الفَصلِ على المُؤمِنينَ المُتَّقينَ[3].

- والظَّرفيَّةُ في قَولِه: ﴿فِي شُغُلٖ﴾ جَعَلَتْ تَلَبُّسَهم بالشُّغُلِ كأنَّهم مَظروفونَ فيه، أيْ: أحاطَ بهم شُغُلٌ عن مُشاهَدةِ مَوقِفِ أهلِ العَذابِ، صَرَفهمُ اللهُ عن مَنظَرِ المُزعِجاتِ؛ لِأنَّ مُشاهَدَتَها لا تَخلو مِن انقِباضِ النُّفوسِ، ولكَونِ هذا هو المَقصودَ عُدِلَ عن ذِكرِ ما يَشغَلُهم؛ إذْ لا غَرَضَ في ذِكرِه[4].

- قَولُه: ﴿فِي شُغُلٖ﴾ التَّنكيرُ لِلتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، أي: في أيِّ شُغُلٍ، وفي شُغُلٍ لا يُوصَفُ، أي: أنَّهم مُستَقِرُّونَ في شُغُلٍ، وأيِّ شُغُلٍ، في شُغُلٍ عَظيمِ الشَّأنِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُتَنعِّمونَ بنَعيمٍ مُقيمٍ، فائِزونَ بمُلكٍ كبيرٍ، وما ظَنُّكَ بشُغُلِ مَن سُعِدَ بدُخولِ الجَنَّةِ الَّتي هي دارُ المُتَّقينَ، ووَصَل إلى نَيلِ تلك الغِبطةِ، وذلك المُلكِ الكَبيرِ، والنَّعيمِ المُقيمِ، ووَقَعَ في تلك المَلاذِّ الَّتي أعَدَّها اللهُ لِلمُرتَضَيْنَ مِن عِبادِه؛ ثَوابًا لهم على أعمالِهم، مع كَرامةٍ وتَعظيمٍ، وذلك بعْدَ الوَلَهِ والصَّبابةِ، والتَّفَصِّي مِن مَشاقِّ التَّكليفِ، ومَضايِقِ التَّقْوى والخَشيةِ، وتَخطِّي الأهوالِ، وتَجاوُزِ الأخطارِ، وجَوازِ الصِّراطِ، ومُعايَنةِ ما لَقِيَ العُصاةُ مِنَ العَذابِ[1]؟!

- وأيضًا في تَنوينِ ﴿شُغُلٍ﴾ تَنويهٌ بأنَّ ما هُمْ فيه مِن شُغُلٍ أعلَى مِن أنْ تَرْقَى إليه رُتبةُ البَيانِ، أو يَستَطيعَ وَصْفَه اللِّسانُ، كما أنَّ في إبهامِه تَعظيمًا لِمَا هُمْ فيه مِنَ البَهجةِ والتَّلذُّذِ، وإيجازًا انطَوى تَحتَه ما لا يُعدُّ ولا يُحْصى مِن ضُروبِ المَلاذِّ الَّتي يَستَمتِعونَ بها في الجِنانِ، وأنَّ ما عَداها يُعَدُّ كَلَا شَيءٍ، كما أنَّ فيه تَصويرًا لِمَا أعَدَّه اللهُ لِعِبادِه المُتَّقينَ مِن ضُروبِ المُتعةِ وأفانينِ اللَّذَّةِ مِن افتِضاضِ أبكارٍ، وسَماعِ أوتارٍ، وتَزاوُرٍ في العَشايا والأسحارِ، وقد أكَّدَه بأنَّهم فاكِهونَ ناعِمونَ، لا يَشغَلُ بالَهم ما يَشغَلُ بالَ أهلِ الدُّنيا مِن تَصاريفِ الحياةِ، ومَشاغِلِ السِّنينِ، ولا يُنغِّصُ صَفوَهم هَمٌّ طارئٌ، أو غَمٌّ نازِلٌ، وأنَّ كُلَّ ما تَمتَدُّ إليه الأعيُنُ، وتُسافِرُ نَحوَه الظُّنونُ مِن صُنوفِ المَلاذِّ حاضِرٌ لَدَيهم، يَنالونَه وهمْ مُتَّكِئونَ على الأرائكِ، مُتَمدِّدونَ تَحتَ الظِّلالِ ممَّا وَرَدَ وَصْفُه مُجسَّدًا، وذلك كُلُّه على طَريقِ الكِنايةِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ جُملةٌ واقِعةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع الحاشية)) (٤/ ٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٨، ٢١٩).

مَوقِعَ البَيانِ لِجُملةِ ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ...﴾؛ لِبَيانِ كَيفيَّةِ شُغُلِهم وتَفكُّهِهم، وتَكميلِهما بما يَزيدُهُم بَهجةً وسُرورًا مِن شَركةِ أزواجِهم لهمْ فيما هُمْ فيهِ مِنَ الشُّغُلِ والفَكاهَةِ[١].

- والضميرُ (هُمْ) في قَولِه: ﴿هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ﴾ يَحتمِلُ أنْ يَكونَ مُبتَدَأً، وأنْ يَكونَ تأكيدًا لِلضَّميرِ في ﴿فِي شُغُلٍ﴾ وفي ﴿فَٰكِهُونَ﴾، على أنَّ أزواجَهم يُشارِكْنَهم في ذلك الشُّغُلِ والتَّفكُّهِ والاتِّكاءِ على الأرائكِ تَحتَ الظِّلالِ[٢].

- والجارَّانِ ﴿فِي ظِلَٰلٍ﴾ ﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ صِلَتانِ للخَبرِ ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾، قُدِّمَتا عليهِ؛ لِمُراعاةِ الفَواصِلِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ بَيانٌ لِمَا يَتمَتَّعونَ به في الجَنَّةِ مِنَ المَآكِلِ والمَشارِبِ، ويَتلَذَّذونَ به مِنَ المَلاذِّ الجُسمانيَّةِ والرُّوحانيَّةِ بعْدَ بَيانِ ما لَهُم فيها مِن مَجالِسِ الأُنْسِ، ومَحافِلِ القُدسِ؛ تَكميلًا لِبَيانِ كَيفيَّةِ ما هُم فيه مِنَ الشُّغُلِ والبَهجةِ[٤].

- والفاكِهةُ: ما يُؤكَلُ لِلتَّلذُّذِ، لا لِلشِّبَعِ، كالثِّمارِ والبُقولِ، وإنَّما خُصَّتْ بالذِّكرِ لِأنَّها عَزيزةُ النَّوالِ لِلنَّاسِ في الدُّنيا، ولِأنَّها استَجلَبَها ذِكرُ الاتِّكاءِ؛ لِأنَّ شَأْنَ المُتَّكِئينَ أنْ يَشتَغِلوا بتَناوُلِ الفَواكِهِ[٥].

- ثمَّ عَمَّمَ ما أعَدَّ لهم بقَولِه: ﴿وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾، و﴿يَدَّعُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٣).

مُتَصرِّفًا مِنَ الدُّعاءِ، أو مِنَ الادِّعاءِ، أي: ما يَدْعون إليه، أو ما يَدَّعونَ في أنْفُسِهم أنَّه لهم بإلهامٍ إلهيٍّ، وصِيغَ له وَزنُ الافتِعالِ؛ لِلمُبالَغةِ[1].

- وكَلِمةُ (ما) في قَولِه: ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ مَوصولةٌ، أو مَوصوفةٌ، عبَّرَ بها عن مَدعُوٍّ عَظيمِ الشَّأْنِ، مُعَيَّنٍ أو مُبهَمٍ؛ إيذانًا بأنَّه الحَقيقُ بالدُّعاءِ دونَ ما عَداهُ، ثم صرَّحَ به رَوْمًا لِزيادةِ التَّقريرِ بالتَّحقيقِ بعْدَ التَّشويقِ، أو هي باقيةٌ على عُمومِها، قَصَد بها التَّعميمَ بعْدَ تَخصيصِ بَعضِ المَوادِّ المُعتادةِ بالذِّكرِ، وفي ذلك دَلالةٌ على أنَّهم في أقصى غايةِ البَهجةِ والغِبطةِ. وقولُه: ﴿مَا﴾ مُبتدأٌ، و(لَهُمْ) خبَرُه، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُملةِ السَّابقةِ، وعدَمُ الاكتفاءِ بعطفِ ﴿مَا يَدَّعُونَ﴾ على ﴿فَٰكِهَةٌ﴾؛ لِئلَّا يُتوهَّمَ كَونُ (ما) عبارةً عن تَوابعِ الفاكهةِ وتَتِمَّاتِها[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ استِئنافٌ قُطِعَ عن أنْ يُعطَفَ على ما قَبْلَه؛ لِلاهتِمامِ بمَضمونِه، وهو الدَّلالةُ على الكَرامةِ والعِنايةِ بأهلِ الجَنَّةِ مِن جانِبِ القُدُسِ، فبَعْدَ أنْ أخبَرَ بما حَباهم به مِنَ النَّعيمِ، مُشيرًا إلى أُصولِ أصنافِه؛ أخبَرَ بأنَّ لهم ما هو أسْمَى وأعْلَى، وهو التَّكريمُ بالتَّسليمِ عليهم[3].

- وتَنكيرُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ لِلتَّعظيمِ، ورَفْعُه لِلدَّلالةِ على الدَّوامِ والتَّحقُّقِ؛ لِأنَّ هذا القَولَ صادِرٌ عن رَبٍّ رَحيمٍ في مَقامِ التَّعظيمِ، وكان جَديرًا بأنْ يُفخَّمَ أمْرُه ويُعظَّمَ قَدْرُه، ويَكونَ جُملةً مُستَقِلَّةً مَفصولةً عمَّا سَبَقَ، وتَنوينُ ﴿قَوْلًا﴾ دالٌّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٣، ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٤).

على التَّعظيمِ، وتَنوينُ ﴿رَبِّ﴾ لِلتَّعظيمِ أيضًا، ولِأجْلِ ذلك عُدِلَ عن إضافةِ (رَبٍّ) إلى ضَميرِهم، واختِيرَ في التَّعبيرِ عنِ الذَّاتِ العَلِيَّةِ بوَصفِ الرَّبِّ؛ لِشِدَّةِ مُناسَبتِه لِلإكرامِ والرِّضا عنهم بذِكرِ أنَّهم عَبَدوه في الدُّنيا، فاعتَرَفوا برُبوبيَّتِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٤).

## الآيات (٥٩-٦٧)

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩ ۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٦٣ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥ وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦ وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱمۡتَٰزُواْ﴾: أي: انفَصِلوا وانفَرِدوا، وأصلُ (ميز): يدُلُّ على انفِصالِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[1].

﴿جِبِلّٗا﴾: أي: خَلْقًا، وجماعةً، وأصلُ (جبل): يدُلُّ على تجمُّعِ الشَّيءِ في ارتفاعٍ[2].

﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾: أي: ادخُلوها، وذُوقوا حَرَّها، وأصلُ الصَّلي: الإيقادُ بالنَّارِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

وقال ابنُ عاشورٍ: (هو مشتَقٌّ مِن الجَبْلِ -بسكونِ الباءِ- بمعنى الخَلْقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

﴿نَخْتِمُ﴾: أي: نَطبَعُ، ونمنَعُهم مِن الكلامِ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على بُلوغِ آخِرِ الشَّيءِ[١].

﴿لَطَمَسْنَا﴾: أي: مَحَوْنا وأعمَيْنا، والطَّمسُ: إزالةُ الأثَرِ بالمحْوِ، وأصلُ (طمس): يدُلُّ على مَحوِ الشَّيءِ ومَسحِه[٢].

﴿لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾: أي: جعَلْناهم قِرَدةً وخَنازيرَ أو حِجارةً، والمَسخُ: تشويهُ الخَلقِ، وتحويلُه مِن صُورةٍ إلى صورةٍ[٣].

﴿مَكَانَتِهِمْ﴾: أي: مَكانِهم، وأصلُ (مكن): يدُلُّ على الموضِعِ الحاوي للشَّيءِ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جزاءَ المجرمينَ وما يُقالُ لهم، فيقولُ: ويُقالُ يومَ القيامةِ للكافِرينَ: انفَرِدوا اليومَ -أيُّها المجرِمونَ- عن المؤمِنينَ، واخرُجوا مِن بَيْنِهم، لقد عَهِدْتُ إليكم -يا بني آدَمَ- عَهدًا مُؤكَّدًا على ألسِنةِ رُسُلي: ألَّا تَعبُدوا الشَّيطانَ؛ لأنَّه لكم عَدوٌّ ظاهِرُ العداوةِ، وأنِ اعبُدوني وحْدي، هذا الَّذي أمَرْتُكم به مِن إخلاصِ العبادةِ، والطَّاعةِ لي: هو الطَّريقُ الواضِحُ المُستَقيمُ. ولقد أضَلَّ الشَّيطانُ منكم خَلقًا كَثيرًا، أفلم تَعقِلوا عداوتَه فتَترُكوا طاعتَه؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٧، ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢، ٧٧٣).

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالى أنَّه يُقالُ لهم: هذه جهنَّمُ ماثِلةً أمامَ أعيُنِكم، ادخُلوها وذوقُوا حَرَّها اليومَ؛ بسَبَبِ كُفرِكم في الدُّنيا.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن أحوالِ الكافرينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: اليومَ نَطْبَعُ على أفواهِ هؤلاء الكافِرينَ فنَجعَلُها لا تَنطِقُ، وتُكَلِّمُنا أيديهم، وتَشهَدُ عليهم أرجُلُهم بما كانوا يَكسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ والآثامِ!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه قدرتَه على هؤلاءِ الكافرينَ، وأنَّهم تحتَ تصرُّفِه، فيقولُ: ولو نشاءُ مَحْوَ أبصارِهم لَمَحَوْناها، فلو أرادوا في تلك الحالةِ المبادَرةَ إلى الطَّريقِ لِيَسيروا فيه لَما استَطاعوا ذلك، والحالةُ هذه! ولو نَشاءُ لَمَسَخْنا هؤلاء الكُفَّارَ وغيَّرْنا صُوَرَهم، وأبْطَلْنا قوَّتَهم، وهم في مكانِهم الَّذي يُقيمونَ فيه؛ فلا يَقدِرونَ أن يَمضُوا إلى الأمامِ، أو أن يَعودوا إلى الخَلفِ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالى جزاءَ المتَّقينَ؛ ذكَرَ جزاءَ المُجرِمين[1]، فقال:

﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩ ﴾.

أي: يُقالُ[2] يومَ القيامةِ: وتميَّزوا اليومَ -أيُّها الكافِرونَ- عن المؤمِنينَ، واخرُجوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٢).

قال ابن عطية: (﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ ... ﴾ فيه حَذفٌ تقديرُه: ونَقولُ للكَفَرةِ. وهذه مُعادِلةٌ لِقَولِه لأصحابِ الجنَّةِ: ﴿ سَلَٰمٞ ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٥٩).

مِن جُملتِهم مُنفَرِدينَ عنهم في موقِفِ الحَشرِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ [الروم: ١٤].

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المؤمِنينَ والمُجرِمين، كان لقائلٍ أن يَقولَ: «إنَّ الإنسانَ كان ظَلومًا جَهولًا»، والجَهلُ مِن الأعذارَ؛ فبَيَّن سُبحانَه أنَّه قد سَبَق إيضاحُ السُّبُلِ بإيضاحِ الرُّسُلِ، وقال: قد عَهِدْنا إليكم وتَلَوْنا عليكم ما ينبغي أن تَفعَلوه وما لا يَنبغي[٢].

وأيضًا لَمَّا امْتَثَلوا ما أُمِروا به مِن الامتيازِ؛ قال لهم على جهةِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ[٣]:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾.

أي: يقولُ اللهُ تعالى[٤]: ألم أُوصِكم -يا بني آدَمَ- على ألسِنةِ رُسُلي ألَّا تَعبُدوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٠-٢١٢).
قال الواحدي: (وقال السُّدِّيُّ: كونُوا على حِدَةٍ. وهذا قَولُ أكثَرِ المفَسِّرينَ، واختيارُ أبي إسحاقَ؛ قال: معناه: انفَرِدوا عن المؤمِنينَ). ((البسيط)) (١٨/ ٥٠٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) لأبي إسحاقَ الزَّجَّاجِ (٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٧).

(٤) قال ابنُ عاشور: (إقبالٌ على جميعِ البشَرِ الَّذين جمَعَهم المحشَرُ، غيرَ أهلِ الجنَّةِ الَّذين عُجِّلوا =

الشَّيطانَ فتُطيعوه فيما أمَرَكم به؛ مِن الكُفرِ والشِّركِ بي، ومَعصيتي[١]؟

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نهَى عِبادَه عن عبادةِ الشَّيطانِ؛ ذكَرَ ما يَحمِلُهم على قَبولِ ما أُمِروا به، والانتِهاءِ عمَّا نُهُوا عنه[٢].

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لكم عدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ [الكهف: ٥٠].

---

= إلى الجنَّةِ، فيَشملُ هذا جميعَ أهلِ الضَّلالةِ مِن مُشرِكينَ وغَيرِهم، ولعلَّه شامِلٌ لأهلِ الأعرافِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٤، ٢١٥).

﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا مَنَع عبادةَ الشَّيطانِ؛ حَمَل على عبادةِ الرَّحمنِ[1].

وأيضًا لَمَّا بكَّتَهم بالتَّذكيرِ بما ارتكَبوا -مع النَّهيِ عن عبادةِ العَدُوِّ- تقديمًا لدَرءِ المفاسِدِ؛ وبَّخَهم بالتَّذكيرِ بما ضَيَّعوا مع أخذِ العُهودِ مِن واجِبِ الأمرِ بعبادةِ الوَليِّ[2].

﴿ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ ﴾.

أي: ألم أعهَدْ إليكم -يا بني آدَمَ- بعِبادتي وَحْدي وطاعتي، بامتِثالِ ما أُمِرتُم به، واجتِنابِ ما نُهِيتُم عنه؛ فإنَّ توحيدي وطاعتي ومَعصيةَ الشَّيطانِ: طَريقٌ مُستقيمٌ، وهو دينُ الإسلامِ القَويمُ[3]؟!

﴿ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ ٦٢ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًا ﴾.

أي: ولقد أضَلَّ الشَّيطانُ منكم خَلْقًا كثيرًا عن الصِّراطِ المُستَقيمِ، فصَدَّهم عن توحيدي وطاعتي[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٥، ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٢٠، ٢٢١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفلم تَعقِلوا عداوةَ الشَّيطانِ لكم، وإضلالَه مَن أطاعَه مِن الأُمَم السَّابقةِ، وما حلَّ بهم -بسَبَبِ ذلك- مِن العذابِ والهلاكِ، فتُطيعوني، وتَترُكوا طاعةَ الشَّيطانِ[1]؟!

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أنكَرَ عليهم أن يَفعَلوا فِعلَ مَن لا عَقلَ له؛ قال مُتمِّمًا للخِزيِ[2]:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: يُقالُ لهم[3]: .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٣).

قيل: قائلُ ذلك هم خَزَنةُ النَّارِ. وممَّن ذهَب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٢٩)، ((تفسير =

هذه جَهنَّمُ الَّتي كنتُم تُوعَدونَ بها في الدُّنيا[١].

﴿ ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٦٤ ﴾.

أي: ادخُلوها اليومَ وباشِروا نارَها، وقاسُوا حَرَّها؛ بسَبَبِ كُفرِكم في الدُّنيا[٢].

كما قال تعالى: ﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ * ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [الطور: ١٣- ١٦].

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان كأنَّه قيل: هل يَحكُمُ فيهم بعِلمِه، أو يَجري الأمرُ على قاعدةِ الدُّنيا في العملِ بالبَيِّنةِ؟ بيَّن أنَّه على أظهرَ مِن قواعدِ الدُّنيا[٣].

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ ﴾.

أي: اليومَ نَطبَعُ على أفواهِهم، ونمنَعُهم مِنَ الكَلامِ[٤]!

---

= القرطبي)) (١٥/ ٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

قال السَّمعاني: (قال أهلُ التَّفسيرِ: هذا حينَ يُنكِرُ الكُفَّارُ كُفرَهم وتَكذيبَهم رُسُلَ اللهِ، فيَختِمُ اللهُ على أفواهِهم). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٥).

كما قال تعالى: ﴿وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كنَّا عندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فضَحِكَ، فقال: هل تَدرُونَ مِمَّ أضحَكُ؟ قُلْنا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. قال: مِن مُخاطَبةِ العَبدِ رَبَّه؛ يقولُ: يا رَبِّ، ألم تُجِرْني مِن الظُّلم؟ قال: يقولُ: بلى. قال: فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نفْسي إلَّا شاهِدًا مني. قال: فيقولُ: كفَى بنَفْسِك اليومَ عليك شهيدًا، وبالكرامِ الكاتِبينَ شُهودًا! قال: فيُختَمُ على فيه، فيُقالُ لأركانِه[1]: انطِقي! قال: فتَنطِقُ بأعمالِه! قال: ثمَّ يُخلَّى بيْنَه وبيْن الكَلامِ، فيقولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا! فعنكُنَّ كنتُ أناضِلُ!))[2].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه في الحديثِ المرفوعِ الطَّويلِ، وفيه: أنَّه يُقالُ للمنافقِ يومَ القيامةِ: ((الآنَ نَبعَثُ شاهِدَنا عليك، ويَتفكَّرُ في نَفْسِه: مَن ذا الَّذي يَشهَدُ علَيَّ؟! فيُختَمُ على فيه، ويُقالُ لفَخِذِه ولَحمِه وعِظامِه: انطِقي، فتَنطِقُ فَخِذُه ولَحمُه وعِظامُه بعَمَلِه! وذلك لِيُعذِرَ[3] مِن نَفْسِه، وذلك المنافِقُ، وذلك الَّذي يَسخَطُ اللهُ عليه))[4].

﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي: وتُكَلِّمُنا أيديهم بما عَمِلَته[5].

---

(١) المرادُ بالأركانِ هنا: الجوارحُ. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم)) للقاضي عياض (٨/ ٥٢٢).

(٢) رواه مسلم (٢٩٦٩).

(٣) ليُعذِرَ: أي: لِيُزيلَ اللهُ عُذْرَ هذا المنافِقِ مِن قِبَلِ نَفْسِه، بكَثرةِ ذُنوبِه، وشَهادةِ أعضائِه عليه؛ بحيث لم يَبْقَ له عُذرٌ يَتمَسَّكُ به. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٢٩).

(٤) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

أي: وتَنطِقُ أرجُلُهم، فتَشهَدُ عليهم بما كانوا يَكسِبونَه في الدُّنيا مِن الذُّنوبِ والآثامِ[1].

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠ - ٢٢].

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ إلجاءَهم إلى الاعترافِ بالشِّركِ بعدَ إنكارِه يومَ القيامةِ، كان ذلك مُثيرًا لأن يَهجِسَ في نُفوسِ المؤمِنينَ أن يَتمَنَّوا لو سَلَك اللهُ بهم في الدُّنيا مِثلَ هذا الإلجاءِ؛ فألجأَهم إلى الإقرارِ بوحدانيَّتِه، وإلى تصديقِ رَسولِه واتِّباعِ دينِه؛ فأفاد اللهُ أنَّه لو شاء ذلك في الدُّنيا لَفَعل[2]. وهذا بِناءً على قولٍ في التَّفسيرِ

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: ولو نَشاءُ لأذهَبْنا أعيُنَ الكُفَّارِ، فلا يكونُ لها وجودٌ ولا أثَرٌ، فإذا ابتَدَروا

---

= (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥١).

مُسرِعينَ لسُلوكِ الطَّريقِ، فلن يُبصِروه والحالةُ هذه؛ فهم لا مَحالةَ هالِكونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠].

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرْجِعُونَ ٦٧﴾.

أي: ولو نَشاءُ لَمَسَخْنا الكُفَّارَ في أماكِنِهم الَّتي هم فيها؛ فبدَّلْنا خِلقَتَهم، وحوَّلْنا صورَتَهم، وأبطَلْنا قوَّتَهم؛ فلا يَستَطيعونَ الذَّهابَ أمامَهم، ولا الرُّجوعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٥، ٤٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥١، ٥٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّه يقالُ ذلك تهديدًا لهم في الدُّنيا إن لم يَرجِعوا عن كُفرِهم، فيُفعل بهم ذلك عقوبةً لهم: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٩).

قال البِقاعي: (﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: الطَّريقَ الواضِحَ الَّذي ألِفُوه واعتادوه، ولهم به غايةُ المعرفةِ، ولَمَّا كان الأعمى لا يمكِنُه في مِثلِ هذه الحالةِ المَشيُ بلا قائدٍ فضلًا عن المُسابَقةِ؛ سَبَّب عن ذلك قَولَه مُنكِرًا: ﴿فَأَنَّىٰ﴾ أي: كيف ومِن أين ﴿يُبْصِرُونَ﴾ أي: فلم يَهتَدوا للصِّراطِ؛ لعدَمِ إبصارِهم، بل تَصادَموا فتَساقَطوا في المهالِكِ، وتهافَتوا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٥٩).

وقال السعدي: (﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ بأن نُذْهِبَ أبصارَهم، كما طمَسْنا على نطقِهم. ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ أي: فبادَروا إليه؛ لأنَّه الطَّريقُ إلى الوصولِ إلى الجنَّةِ، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ وقد طُمِسَتْ أبصارُهم؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

وقيل: المرادُ مِن ذلك: الطَّمسُ المعنويُّ، أي: أن يُذهِبَ اللهُ بصائرَهم، فلا يُبصِرونَ طريقَ الهدى.

وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عبَّاس رَضِيَ الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٤).

وقال مقاتلٌ: (﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ نزلَت في كفَّارِ مكَّةَ، يقولُ: لو نشاءُ لَحَوَّلْنا أبصارَهم مِن الضَّلالةِ إلى الهدَى ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ ولو طمستُ الكفرَ لاستبقوا الصِّراطَ، يقولُ: لأبصَروا طريقَ الهدَى، ثمَّ قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾؛ فمِن أين يُبصِرونَ الهدَى إن لم أُعمِّ عليهم طريقَ الضَّلالةِ؟!). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٤).

خَلْفَهم[١]!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ التَّحذيرُ مِن الشَّيطانِ وإغوائِه؛ فهو يَسعى لإضلالِ بني آدمَ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ فائِدةُ نُطقِ الأعضاءِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ ما كان عَونًا على المعاصي صار شاهِدًا؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن يَصحَبَ أحدًا إلَّا لله تعالى؛ لئلَّا يَفتَضِحَ ثَمَّ بسبَبِ صُحبتِه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- هذا القرآنُ الكريمُ مَثانٍ؛ تُثَنَّى فيه المعاني، فيُذكَرُ الشَّيءُ ويُذكَرُ ضِدُّه؛ لأنَّه لو ذُكِرَ ما يكونُ به الرَّجاءُ دونَ ما يكونُ فيه الخَوفُ لغَلَبَ جانبُ الرَّجاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢، ٥٣).

قال الشوكاني: (كرَّر التَّهديدَ لهم، فقال: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ المَسخُ: تبديلُ الخِلقةِ إلى حَجَرٍ، أو غيرِه مِن الجَمادِ، أو بهيمةٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٤).

وقال ابنُ عاشور: (أي: لو نَشاءُ لَمَسَخْنا الكافرين في الدُّنيا في مكانِهم الَّذي أظهَروا فيه التَّكذيبَ بالرُّسُلِ، فما استطاعوا انصرافًا إلى ما خرَجوا إليه، ولا رُجوعًا إلى ما أتَوا منه، بل لَزِموا مكانَهم؛ لِزَوالِ العَقلِ الإنسانيِّ منهم؛ بسبب المسخِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢).

وقال السعدي: (﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ أي: لأذْهَبْنا حركتَهم ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا ﴾ إلى الأمامِ ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ ﴾ إلى ورائِهم؛ ليبعدوا عن النارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٢٤). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٥/ ٤٩٤).

على جانبِ الخَوفِ، ووقَعَ الإنسانُ في الأمنِ مِن مَكرِ اللهِ، ولو ذُكِرَ فيه جانبُ الخوفِ دونَ جانبِ الرَّجاءِ لَوَقَعَ الإنسانُ في القُنوطِ مِن رحمةِ اللهِ؛ فكان اللهُ عزَّ وجلَّ إذا ذكَرَ النَّعيمَ ذكَرَ ضِدَّه، وإذا ذكَرَ أصحابَ الجنةِ ذكَرَ أصحابَ النَّارِ، وهكذا، كما قال تعالى هنا: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ...﴾، ثمَّ قال: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ...﴾. وهذا أحَدُ معاني قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، يعني: أنَّه تُثَنَّى فيه المعاني؛ حتَّى يَكمُلَ السَّيرُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى على الوجهِ المطلوبِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن قام بعملٍ أنْ يَذْكُرَ الوصفَ المناسِبَ لهذا العملِ، فهنا لَمَّا أُمِروا بالانصرافِ وطُرِدُوا نَاسَبَ أنْ يَذْكُرَ سَبَبَ ذلك، فكأنَّه قال: «امتازوا لإجرامِكم»، ولا شكَّ أنَّ ذِكْرَ سببِ الحُكْمِ يُزيلُ الشُّبهةَ واللَّبْسَ والاعتِراضَ، ويَنبني على هذه الفائدةِ: أنَّ تعليقَ الحُكْمِ بوصفٍ يدُلُّ على أنَّ هذا الوصفَ هو عِلَّةُ ذلك الحُكْمِ، فإذا قلتَ مثلًا: أكْرِمِ المجتهِدَ مِن الطَّلبةِ؛ فهنا عَلَّقَ الإكرامَ بالاجتهادِ، وهذا يُفيدُ أنَّ علَّةَ الإكرامِ هو الاجتهادُ، فهذه القاعدةُ مفيدةٌ لطالبِ العلمِ، وهي: «أنَّ تعليقَ الحُكْمِ بوصفٍ يدُلُّ على عِلِّيَّتِه»، أي: أنَّه عِلَّةُ ذلك الحُكْمِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ إثباتُ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالخَلقِ؛ حيثُ لم يَجعَلْ إخلاصَهم له موكولًا إلى عُقولِهم، بل عَهِدَ بذلك إليهم على ألسِنةِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، لأنَّ اللهَ لو جَعَلَ الإخلاصَ موكولًا إلى العقولِ لاختلفَتِ العقولُ في ذلك اختلافًا كثيرًا؛ لأنَّ الأهواءَ لا تَنضَبِطُ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١١).

فجَعلَ اللهُ عزَّ وجلَّ ذلك ممَّا تكفَّلَ به هو نَفْسُه لعِبادِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أنَّ الذُّنوبَ كلَّها جزءٌ مِن الشِّركِ، وهي مِن فروعِه؛ فإنَّها جميعَها طاعةٌ للشَّيطانِ واتِّباعٌ لخُطواتِه، وقال الشَّيطانُ: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾[٢] [إبراهيم: ٢٢].

٥- كَتَب عبدُ الملِكِ بنُ مَرْوانَ إلى سعيدِ بنِ جُبيرٍ يَسألُه عن مسائلَ... فأجابَه عنها، وفيها: (تسألُ عن العبادةِ، والعبادَةُ هي الطَّاعةُ؛ ذلك أنَّه مَن أطاعَ اللهَ فيما أمرَه به وفيما نهاهُ عنه فقد آثَرَ عبادةَ اللهِ، ومَن أطاعَ الشَّيطانَ في دينِه وعمَلِه فقد عَبَد الشَّيطانَ، ألَا تَرَى أنَّ اللهَ قال للَّذين فرَّطوا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾؟ وإنَّما كانت عِبادَتُهم الشَّيطانَ أنَّهم أطاعوه في دينِهم)[٣]، فمعنى ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: لا تُطيعوه؛ بدَليلِ أنَّ المَنهيَّ عنه ليس هو السُّجودَ له فحَسْبُ، بل الانقيادُ لأمرِه، والطَّاعةُ له؛ فالطَّاعةُ عِبادةٌ، لا يُقالُ: فنكونُ نحن مأمورينَ بعبادةِ الأُمراءِ؛ حيثُ أُمِرْنا بطاعتِهم في قَولِه تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]؛ لأنَّا نَقولُ: طاعتُهم إذا كانت بأمرِ اللهِ لا تكونُ إلَّا عبادةً للهِ وطاعةً له، وإنَّما عبادةُ الأمراءِ: طاعتُهم فيما لم يَأذَنِ اللهُ فيه[٤]. فمعنَى عبادتِهم للشَّيطانِ ليست أنَّهم سَجَدُوا للشَّيطانِ، ولا ركَعوا للشَّيطانِ، ولا صَامُوا للشَّيطانِ، ولا حَجُّوا للشَّيطانِ، وإنَّما عبادتُهم للشَّيطانِ: هي اتِّباعُهم ما شَرَعه مِن النُّظُمِ على ألْسِنةِ أوليائِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٢٩٨).

كما في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فصَرَّحَ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّ مَنِ اتَّبَعَ تشريعَ إبليسَ وقال: بأنَّ المَيتةَ حلالٌ: أنَّه مشركٌ باللهِ، فالمرادُ بعبادتِه طاعتُه فيما شَرَع، واتِّباعُه في نُظُمِه وقوانينِه(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ أنَّ العبادةَ لا تَختَصُّ بالرُّكوعِ والسُّجودِ، والذَّبحِ والنَّذْرِ، وما أشْبَهَ ذلك، بل هي عامَّةٌ شامِلةٌ لكُلِّ طاعةٍ يكونُ فيها كَمالُ التَّذلُّلِ(٢).

٧- قال تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۞ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۞ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١]. فكلُّ مَن عَبَد غيرَ اللهِ فإنَّما يعبُدُ الشَّيطانَ، وإن كان يَظُنُّ أنَّه يعبُدُ الملائكةَ والأنبياءَ؛ ولهذا تتمَثَّلُ الشَّياطينُ لمَن يعبُدُ الملائكةَ والأنبياءَ والصَّالحينَ ويُخاطِبونَهم، فيَظُنُّونَ أنَّ الَّذي خاطَبَهم مَلَكٌ أو نَبيٌّ أو وليٌّ، وإنَّما هو شيطانٌ، فكلُّ مَن لم يَعبُدِ اللهَ مُخْلِصًا له الدِّينَ فلا بُدَّ أنْ يكونَ مشرِكًا عابِدًا لغيرِ اللهِ، وهو في الحقيقةِ عابِدٌ للشَّيطانِ. فكلُّ واحدٍ مِن بني آدمَ إمَّا عابِدٌ للرَّحمنِ، وإمَّا عابِدٌ لِلشَّيطانِ(٣).

٨- أنَّه ينبغي التَّخليةُ قبْلَ التَّحليةِ؛ لأنَّه قال: ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ هذا تخليةٌ، ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾ تحليةٌ، أي: نفْيٌ وإثباتٌ، وهذا هو التَّوحيدُ؛ فالتَّوحيدُ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢٨٣).

مبنيٌّ على نفيٍ وإثباتٍ؛ لأنَّ النَّفيَ المُجرَّدَ تَعطيلٌ مَحضٌ وعَدَمٌ، والإثباتَ المُجَرَّدَ لا يَمنَعُ المشارَكةَ، فلا يَتِمُّ التَّوحيدُ إلَّا بنفيٍ وإثباتٍ، ويُبْدَأُ أوَّلًا بالنَّفيِ؛ لِيَرِدَ الإثباتُ على مكانٍ خالٍ مِن الشَّوائبِ خالصٍ صالحٍ لاستقرارِ الإثباتِ فيه، وهذا في القرآنِ كثيرٌ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، فتَبَرَّأَ أولًا مِن كلِّ معبودٍ، ثمَّ أثبتَ العبادةَ للهِ وحْدَه الَّذي فَطَرَه[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ مُجتازٌ؛ لأنَّه لو كان في دارِ إقامةٍ، فقَولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يكونُ له معنًى؛ لأنَّ المقيمَ يقولُ: وماذا أفعَلُ بالطَّريقِ وأنا من المُقيمينَ[٢]؟!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ مَن ساء تَصرُّفُه صَحَّ أنْ يُنفَى عنه العَقلُ وإنْ كان عاقِلًا عَقلًا ظاهِرًا، والعَقلُ عَقلان: عقلٌ هو مَناطُ التَّكليفِ، وهو عَقلُ الإدراكِ. وعَقلٌ هو مَناطُ المَدحِ والذَّمِّ، وهو عَقلُ التَّصَرُّفِ الَّذي يكونُ به الرُّشدُ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿جَهَنَّمُ﴾ بيانُ صفةِ النارِ، وأنَّها -والعياذُ باللهِ- كلُّها ظُلْمةٌ، وكلُّها سَوادٌ؛ لأنَّها مِن الجُهمةِ، أي: الظُّلمةِ والسَّوادِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ السِّرَّ في الخَتمِ على فيه: مَنعُه من أن يَلغَطَ حالَ شهادتِها عليه، كما هو دأْبُ أهلِ العنادِ عندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٦).

الخِصامِ[١].

١٣- قد يُخيَّلُ تَعارُضٌ بيْنَ هذه الآيةِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم ...﴾ وبيْن قولِه: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، ولا تَعارُضَ؛ لأنَّ آيةَ (يس) في أحوالِ المشركينَ، وآيةَ سُورةِ (النُّورِ) في أحوالِ المنافقينَ[٢].

١٤- سُئل ابنُ عبَّاسٍ: ﴿لَا يَنطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٥]، ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ﴾؟ فقال: (إنَّه ذو ألوانٍ؛ مَرَّةً يَنْطِقونَ، ومَرَّةً يُخْتَمُ عليهم)[٣]. فيوم القيامةِ يومٌ طويلٌ ذو مواطِنَ مُختلِفةٍ، فيَنطِقون في وقتٍ ومكانٍ، ولا يَنطِقون في آخَرَ[٤].

١٥- قولُه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ لا يَتنافَى مع قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢]؛ لأنَّ عدَمَ الكتْمِ المذكورَ هناك إنَّما هو باعتبارِ إخبارِ أيدِيهم وأرجُلِهم بكلِّ ما عَمِلوا عندَ الختْمِ على أفواهِهم إذا أنْكَروا شِركَهم ومَعاصِيَهم[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ أنَّ اللهَ تعالى أسنَدَ فِعلَ الخَتمِ إلى نَفْسِه وقال: ﴿نَخۡتِمُ﴾، وأسنَدَ الكلامَ والشَّهادةَ إلى الأيدي والأرجُلِ؛ لأنَّه لو قال تعالى: «نختِمُ على أفواهِهم، ونُنطِقُ أيديَهم» يكونُ فيه احتِمالُ أنَّ ذلك منهم كان جَبرًا وقهرًا، والإقرارُ بالإجبارِ غيرُ مَقبولٍ؛

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠).

(٣) ذكره البخاري معلقًا في ((صحيحه)) قبل حديث (٤٩٣٠).

(٤) يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٩/ ٢٧٢).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤١).

فقال تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ أي: باختيارِها بعدَما يُقدِرُها اللهُ تعالى على الكلامِ؛ لِيَكونَ أدَلَّ على صُدورِ الذَّنبِ منهم[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ الخَتمُ لازِمُ الكُفَّارِ: في الدُّنيا على قُلوبِهم، وفي الآخرةِ على أفواهِهم؛ ففي الوقتِ الَّذي كان الخَتمُ على قُلوبِهم كان قَولُهم بأفواهِهم، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [التوبة: ٣٠]، فلمَّا خَتَم على أفواهِهم أيضًا لزِمَ أن يكونَ قَولُهم بأعضائِهم؛ لأنَّ الإنسانَ لا يملِكُ غيرَ القَلبِ واللِّسانِ والأعضاءِ؛ فإذا لم يَبْقَ القَلبُ والفَمُ تعيَّنَ الجوارِحُ والأركانُ[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ بيانُ قدرةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ فإنَّه خلافُ العادةِ أنْ تَتكَلَّمَ الأيدي والأرجُلُ، ولكنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ؛ ولهذا لَمَّا ذَكَر اللهُ عنهم أنَّهم ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾[٣] [فصلت: ٢١].

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أنكر بَعضُهم كلامَ الجوارحِ، وقال: معنى الكلامِ وُجودُ دَلالةٍ تدُلُّ على أنَّها قد عَلِمَت ما عَمِلَت! والصَّحيحُ أنَّها تتكلَّمُ حقيقةً، وغيرُ مُستبعَدٍ كَلامُ الجوارِحِ في قُدرةِ اللهِ تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٦).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ أنَّ الإنسانَ يمكنُ أنْ يَشْهَدَ بعضُه على بعضٍ؛ لأنَّ هذا الرَّجُلَ الواحدَ تَشْهَدُ عليه أعضاؤُه بما عَمِل، ويَتَفَرَّعُ على هذا: أنَّ الإنسانَ -في الدُّنيا- يمكِنُ أنْ يَشْهَدَ على نفْسِه، وشهادتُه على نفْسِه هو إقرارُه على نفْسِه(١).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ أنَّ العِبرةَ في العَمَلِ بما كان فيه مِن كَسبٍ، لا بمُجَرَّدِ العَمَلِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ العَمَلِ قد لا يكونُ كَسبًا، كما لو صدَرَ مِن جاهلٍ، أو صدَرَ مِن ساهٍ أو نائمٍ، أو ما أشْبَهَ ذلك(٢).

٢٢- قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ﴾ مِن فوائدِ الآيةِ الكريمةِ ضَرْبُ المَثَلِ عن الأشياءِ المعقولةِ بالأشياءِ المحسوسةِ؛ فإنَّ هؤلاء لو طُمِسَتْ أعينُهم ما استطاعوا أنْ يَهتَدوا إلى السَّبيلِ، فكذلك إذا طَمَسَ اللهُ بصيرةَ القَلبِ -والعياذُ بالله- لم يَستَطِعِ الوُصولَ إلى الحقِّ، ولم يَعرِفِ الحَقَّ(٣)، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ عَطفٌ إمَّا على الجُملةِ السَّابقةِ المَسوقةِ لِبَيانِ أحوالِ أهلِ الجنَّةِ؛ عطَفَ قِصَّةَ سُوءِ حالِ هؤلاءِ وكَيفيَّةِ عِقابِهم على قِصَّةِ حُسنِ حالِ أولئك ووَصْفِ ثَوابِهم، وكأنَّ تَغييرَ السَّبكِ لِتَخييلِ كَمالِ التَّبايُنِ بيْنَ الفريقينِ وحالَيْهما، وإمَّا على مُضمَرٍ يَنساقُ إليه حِكايةُ حالِ أهلِ الجنَّةِ، كأنَّه قِيلَ إثرَ بَيانِ كَونِهم في شُغُلٍ عَظيمِ الشَّأنِ وفَوزِهم بنَعيمٍ مُقيمٍ يَقصُرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

عنه البيانُ: فلْيَقَرُّوا بذلك عَينًا، وامتازُوا عنهم أَيُّهَا المُجرِمون إلى مَصيرِكم[١].

- قولُه: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ فِعلُ (امتاز) مُطاوِعُ مازَهُ؛ إذا أفرَدَه عمَّا كان مُختلِطًا معه، وُجِّهَ الأمْرُ إليهم بأنْ يَمْتازوا مُبالَغةً في الإسراعِ بحُصول المَيزِ؛ لأنَّ هذا الأمْرَ أمْرُ تَكوينٍ، والمرادُ: امتيازُهم بالابتعادِ عن الجنَّةِ، وذلك بأنَّ يَصِيروا إلى النَّارِ، فيَؤُولُ إلى معنَى: ادْخُلوا النَّارَ[٢].

- ونِداؤُهم بعُنوانِ ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ مَيزِهم عن أهْلِ الجنَّةِ بأنَّهم مُجرِمون، فاللَّامُ في ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ مَوصولةٌ، أي: أيُّها الَّذين أجْرَموا[٣].

- وحُذِفَت أداةُ النِّداءِ؛ لا لِقُربِ الكرامةِ، بل للدَّلالةِ على أنَّهم في القَبضةِ، لا مانعَ مِن غايةِ التَّصَرُّفِ فيهم لكُلِّ ما يُرادُ؛ لأنَّه لا حائِلَ دُونَهم[٤].

- وتَكريرُ كَلمةِ (اليومَ) ثلاثَ مرَّاتٍ في الحِكايةِ؛ للتَّعريضِ بالمُخاطَبين فيه -وهم الكفَّارُ الَّذين كانوا يَجحَدون وُقوعَ ذلك اليومِ- مع تأْكيدِ ذِكرِه على أسماعِهم بقولِه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ ﴾ [يس: ٥٤]، وقولِه: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ﴾ [يس: ٥٥]، وقولِه: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ هو إشهادٌ على المشركينَ، وتَوبيخٌ وتَقْريعٌ لهم، وإلزامٌ للحُجَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ الاستفهامُ تقريريٌّ، والجملةُ جاريةٌ مجرَى التَّقريعِ والتَّوبيخِ والتَّبكيتِ والإلزامِ. وخُوطِبوا بعُنوانِ ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾؛ لأنَّ مَقامَ التَّوبيخِ على عِبادتِهم الشَّيطانَ يَقْتضي تَذكيرَهم بأنَّهم أبناءُ الَّذي جعَلَه الشَّيطانُ عَدُوًّا له[1].

- والعهدُ: الوِصايةُ، وَوِصايةُ اللهِ بني آدَمَ بألَّا يَعبُدوا الشَّيطانَ هي ما تَقرَّرَ واشتُهِرَ في الأُمَمِ بما جاء به الرُّسلُ في العصورِ الماضيةِ، فلا يَسَعُ إنكارُه، وبهذا الاعتبارِ صحَّ الإنكارُ عليهم في حالِهم الشَّبيهةِ بحالِ مَن يَجحَدُ هذا العهدَ[2].

- وفي قولِه تعالى: ﴿أَعْهَدْ﴾ تَوالي العينِ والهاءِ، وهما حَرفانِ مُتقارِبَا المَخرجِ مِن حُروفِ الحلْقِ، إلَّا أنَّ تَواليَهما لم يُحدِثْ ثِقلًا في النُّطقِ بالكلمةِ يُنافي الفصاحةَ بمُوجبِ تَنافُرِ الحروفِ؛ لأنَّ انتقالَ النُّطقِ في مَخرجِ العينِ مِن وسَطِ الحلْقِ إلى مَخرجِ الهاءِ مِن أقْصى الحلْقِ، خفَّفَ النُّطقَ بهما، وكذلك الانتقالُ مِن سُكونٍ إلى حَركةٍ زاد ذلك خِفَّةً[3].

- قولُه: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ جعَلَ عِبادةَ غيرِ الله عِبادةَ الشَّيطانِ؛ لأنَّه الآمِرُ بها، والمزيِّنُ لها[4]. وعِبادةُ الشَّيطانِ: طاعتُه فيما يُوسوِسُ به إليهم ويُزيِّنه لهم، وعُبِّرَ عنها بالعِبادةِ؛ لِزيادةِ التَّحذيرِ والتَّنفيرِ عنها في مُقابَلةِ

---

= السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١).

عِبادتِه عزَّ وجلَّ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ﴾ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾، وقد أغنَتْ (إنَّ) عن فاءِ السَّببيَّةِ[٢].

- ووَصْفُ العدُوِّ بأنَّه ﴿مُّبِينٌ﴾؛ للمُبالَغةِ، أي: عَداوتُه واضحةٌ، ووَجْهُ وُضوحِها: أنَّ المرْءَ إذا راقَبَ عواقبَ الأعمالِ الَّتي تُوسوِسُها له نفْسُه، واتَّهمَها، وعرَضَها على وَصايا الأنبياءِ والحكماءِ؛ وَجَدَها عواقبَ نَحسةً، فوضَحَ له أنَّها مِن الشَّيطانِ بالوسوسةِ، وأنَّ الَّذي وَسوَسَ بها عدُوٌّ له؛ لأنَّه لو كان وَدودًا لَمَا أوقَعَه في الكوارثِ، ولا يُظَنُّ به الإيقاعُ في ذلك عن غيرِ بَصيرةٍ؛ لأنَّ تَكرُّرَ أمثالِ تلك الوساوسِ للمرْءِ ولأمثالِه ممَّن يَبوحُ له بأحوالِه يدُلُّ ذلك التَّكرُّرُ على أنَّها وَساوسُ مَقصودةٌ للإيقاعِ في المهالِكِ؛ فعُلِمَ أنَّ المشيرَ بها عَدُوٌّ ألَدُّ، ولعلَّ هذا المعنى هو المشارُ إليه بقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾[٣] [يس: ٦٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ عطْفٌ على ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَ﴾ بإعادةِ (أن) التَّفسيريَّةِ، فهما جُملتانِ مُفسِّرتانِ لِعَهدينِ، وعُدِلَ عن الإتيانِ بصِيغةِ قَصْرٍ؛ لأنَّ في الإتيانِ بهاتَينِ الجُملتينِ زِيادةَ فائدةٍ؛ لأنَّ مِن أهلِ الضَّلالةِ الدَّهريِّينَ والمعطِّلينَ، فهمْ وإنْ لم يَعبُدوا الشَّيطانَ ولكنَّهم لم يَعبُدوا اللهَ، فكانوا خائِسينَ بالعهدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٧، ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٤٨).

- قولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ في قولِه: ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِي﴾[1].

- و﴿صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾ أي: صِراطٌ بَليغٌ في بابِه، بليغٌ في استِقامتِه، جامعٌ لكلِّ شَرطٍ يجِبُ أنْ يكونَ عليه، وفي هذا تَوبيخٌ للكافرينَ مِن بني آدَمَ على العُدولِ عن الصِّراطِ المستقيمِ، والتَّفادي عن سُلوكِه، كما يَتفادَى النَّاسُ عن الطَّريقِ المُعْوَجِّ الَّذي يُؤدِّي إلى الضَّلالةِ والتَّهْلُكةِ، كأنَّه قِيل: أقَلُّ أحوالِ الطَّريقِ الَّذي هو أقْوَمُ الطُّرقِ: أنْ يُعتقَدَ فيه كما يُعتقَدُ في الطَّريقِ الَّذي لا يُضِلُّ السَّالكَ، كما يقولُ الرَّجلُ لِولَدِه وقد نصَحَه النُّصحَ البالغَ الَّذي ليس بعْدَه: هذا فيما أظَنُّ قولٌ نافعٌ غيرُ ضارٍّ؛ تَوبيخًا له على الإعراضِ عن نَصائحِه[2].

- وأيضًا تَنوينُ ﴿صِرَٰطٌ﴾ وتَنكيرُه؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ والمبالَغةِ، أو للتَّبعيضِ؛ فإنَّ التَّوحيدَ سُلوكُ بعضِ الطَّريقِ المستقيمِ، وفيه إيجازٌ يُشِيرُ إلى ما عُهِدَ إليهم مِن مَعصيةِ الشَّيطانِ وطاعةِ الرَّحمنِ؛ إذ لا صِراطَ أقْوَمُ منه[3].

- وتَقديمُ النَّهيِ على الأمْرِ في قولِه: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ * وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾؛ لأنَّ حقَّ التَّخليةِ التَّقديمُ على التَّحليةِ كما هو مُقرَّرٌ، ولِيَتَّصِلَ به قولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسۡتَقِيمٌ﴾؛ فإنَّه إشارةٌ إلى عِبادتِه تعالى الَّتي هي عبارةٌ عن التَّوحيدِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣، ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢١٩).

والإسلامِ، وهو المشارُ إليه بقولِه تعالى: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾[١] [الحجر: ٤١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًا﴾ رُجوعٌ إلى بَيانِ مُعاداةِ الشَّيطانِ، مع ظُهورِ عَداوتِه، ووُضوحِ إضلالِه لِمَن له أدْنَى عقْلٍ ورأْيٍ[٢].

- وهو جَوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَشديدِ التَّوبيخِ، وتأْكيدِ التَّقريعِ؛ ببَيانِ أنَّ جِناياتِهم ليستْ بنَقْضِ العهْدِ فقطْ، بلْ به وبعَدَمِ الاتِّعاظِ بما شاهَدوا مِن العُقوباتِ النَّازلةِ على الأُمَمِ الخاليةِ بسَببِ طاعتِهم للشَّيطانِ؛ فالخِطابُ لِمُتأخِّريهم الَّذين مِن جُملتِهم كُفَّارُ مكَّةَ، خُصُّوا بزِيادةِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ لِتَضاعُفِ جِناياتِهم[٣]. أو عطْفٌ على ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾؛ فعَداوتُه واضحةٌ بدَليلِ التَّجرِبةِ، فكانت عِلَّةً للنَّهيِ عن عِبادةِ ما يأْمُرُهم بعِبادتِهم[٤].

- والفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ للعطفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أكنتُم تُشاهِدونَ آثارَ عُقوباتِهم، فلمْ تَكونوا تَعقِلون أنَّها لِضَلالِهم؟ أو فلَمْ تَكونُوا تَعقِلون شيئًا أصلًا حتَّى تَرْتدِعُوا عمَّا كانُوا عليه؛ كَيْلَا يَحيقَ بكمُ العِقابُ[٥]؟

- وأيضًا قولُه: ﴿أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ تَوبيخٌ للكافرينَ والمنكِرينَ، والاستفهامُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦).

إنكاريٌّ عن عَدمِ كَونِهم يَعقِلون، أي: يُدرِكونَ؛ إذ لو كانوا يَعقِلون لَتَفَطَّنوا إلى إيقاعِ الشَّيطانِ بهم في مَهاوي الهلاكِ، وزِيادةُ فِعلِ الكونِ ﴿تَكُونُواْ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ العقْلَ لم يَتكوَّنْ فيهم، ولا همْ كائنونَ به(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِمُجابَهتِهم بالمصيرِ الهائلِ الَّذي يَصِيرون اليه، بعْدَ أنْ بلَغَ الغايةَ في تَوبيخِهم وتَقريعِهم، وإلْزامِهم وتَبكيتِهم(٢).

٦- قولُه تعالى: ﴿ٱصۡلَوۡهَا ٱلۡيَوۡمَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾

- الأمْرُ بقولِه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ مُستعمَلٌ في الإهانةِ والتَّنكيلِ، وإطلاقُ الصَّلْيِ على الإحراقِ: تَهكُّمٌ(٣).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ تَعريفُ العهْدِ، أي: هذا اليومَ الحاضرَ، وأُريدَ به جوابُ ما كانوا يَقولون في الحياةِ الدُّنيا مِن استبطاءِ الوعدِ والتَّكذيبِ؛ إذ يَقولونَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، والباءُ في ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ﴾ سَببيَّةٌ، أي: بسَببِ كُفرِكم في الدُّنيا(٤).

٧- قولُه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ هذه الآيةُ خاتمةٌ لِبَيانِ أحوالِ المَعادِ، وهي كالتَّخلُّصِ إلى ذِكرِ أحوالِ المكذِّبينَ مِن قَومِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَقريعِهم وتَوبيخِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

وهو قولُه: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾[١].

- وفي ذِكرِ لفظِ ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ تَنويهٌ بذِكْرِه بحُصولِ هذا الحالِ العجيبِ فيه، وهو انتقالُ النُّطقِ مِن مَوضعِه المعتادِ إلى الأيدي والأرجُلِ[٢].

- وضَمائرُ الغَيبةِ في (أفواهِهم- أيديهمْ- أرجُلُهم- يَكسِبون) عائدةٌ على الَّذين خُوطِبوا بقولِه: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [يس: ٦٣] على طَريقةِ الالتِفاتِ؛ للإيذانِ بأنَّ ذِكرَ أحوالِهم القَبيحةِ استَدْعَى أنْ يُعرِضَ عنهم، ويَحكيَ أحوالَهم الفظيعةَ لِغَيرِهم، مع ما فيه مِن الإيماءِ إلى أنَّ ذلك مِن مُقتضياتِ الختْمِ؛ لأنَّ الخِطابَ لِتَلقِّي الجوابِ، وقد انقطَعَ بالكُلِّيَّةِ. ومواجهتُهم بهذا الإعلامِ تأْييسٌ لهم بأنَّهم لا يَنفَعُهم إنكارُ ما اطَّلَعوا عليه مِن صَحائفِ أعمالِهم[٣].

- قولُه: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم ... ﴾ سمَّى نُطقَ اليدِ كلامًا، ونُطقَ الرِّجْلِ شَهادةً؛ لأنَّ الغالبَ في اليدِ كَونُها فاعلةً، وفي الرِّجْلِ كَونُها حاضرةً، وقولُ الفاعلِ على نفْسِه إقرارٌ لا شَهادةٌ، وقولُ الحاضرِ على غيرِه شَهادةٌ[٤]. فاليدُ تُخبرُ عمَّا فَعَلَتْ، والرِّجْلُ تُخبرُ عمَّا فَعَلَ غيرُها؛ لأنَّ الأصلَ في المباشَرةِ اليدُ؛ ولهذا دائمًا يُعلَّقُ الكَسبُ باليَدِ، فيُقالُ: ﴿ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ [الشورى: ٣٠]، أو ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ ﴾ [الروم: ٤١]؛ فلهذا كانت الأيدي مُباشِرةً، والأرجُلُ شاهِدةً؛ لأنَّ الشَّاهِدَ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٨٤، ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٤).

هو الَّذي يُخبِرُ عمَّا فَعَلَ غيرُه، والفاعِلَ هو الَّذي يُخبِرُ عمَّا فَعَلَه هو بنَفْسِه[١].

وقيل: في قَولِه تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم﴾ احتِباكٌ[٢]؛ أثبَتَ الكلامَ للأيدي أوَّلًا؛ لأنَّها كانت مُباشِرةً؛ دليلًا على حَذفِه مِن حَيِّزِ الأرجُلِ ثانيًا، وأثبَتَ الشَّهادةَ للأرجُلِ ثانيًا؛ لأنَّها كانت حاضِرةً؛ دليلًا على حَذفِها مِن حَيِّزِ الأيدي أوَّلًا، وبقرينةِ أنَّ قَولَ المباشِرِ إقرارٌ، وقَولَ الحاضِرِ شَهادةٌ[٣].

- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ لَفتُ القَولِ إلى الغَيبةِ؛ إيذانًا بالإعراضِ لِتناهي الغَضَبِ[٤].

- وطُوِيَ في قولِه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم ...﴾ ما ورَدَ تفَصيلُه في آيٍ أُخَرَ؛ فقدْ قال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ نَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَيۡنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ * ثُمَّ لَمۡ تَكُن فِتۡنَتُهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٢، ٢٣]، وقال: ﴿وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمۡ إِيَّانَا تَعۡبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ [يونس: ٢٨، ٢٩]؛ وإنَّما طُوِيَ ذِكرُ الدَّاعي إلى خِطابِهم بهذا الكلامِ؛ لأنَّه لم يَتعلَّقْ به غرَضٌ هنا، فاقتُصِرَ على المقصودِ[٥].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ * وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٢) سبق تعريفه (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ١٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٠).

- قولُه: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ... ﴾ ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ... ﴾ ليس مَساقُ الشَّرطيَّتينِ لِمُجرَّدِ بَيانِ قُدرتِه تعالى على ما ذُكِرَ مِن عُقوبةِ الطَّمسِ والمسخِ، بلْ لِبَيانِ أنَّهم بما همْ عليه مِن الكُفرِ، ونقْضِ العهدِ، وعَدَمِ الاتِّعاظِ بما شاهَدوا مِن آثارِ دَمارِ أمثالِهم؛ أحِقَّاءُ بأنْ يُفعَلَ بهم في الدُّنيا تلكَ العُقوبةُ كما فُعِلَ بهم في الآخرةِ عُقوبةُ الختْمِ، وأنَّ المانعَ مِن ذلك ليس إلَّا عدَمُ تَعلُّقِ المشيئةِ الإلهيَّةِ به، كأنَّه قِيل: لو نَشاءُ عُقوبتَهم بما ذُكِرَ مِن الطَّمْسِ والمسخِ جَرْيًا على مُوجَبِ جِناياتِهم المستدعيةِ لها، لَفعَلْناها، ولكنَّا لم نَشأْها؛ جَرْيًا على سَنَنِ الرَّحمةِ والحكمةِ الدَّاعيتَينِ إلى إمهالِهم[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ إيثارُ صِيغةِ الاستِقبالِ، وإنْ كان المعنى على المُضِيِّ؛ لإفادةِ أنَّ عَدَمَ الطَّمسِ على أعيُنِهم لاستِمرارِ عَدَمِ المشيئةِ[2]، وليُتوقَّعَ في كلِّ حينٍ؛ فيَكونَ أبلَغَ في التَّهديدِ[3].

- وجِيءَ بحَرْفِ الاستعلاءِ (على)؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ الطَّمْسِ، وإلَّا فإنْ (طمَسَ) يَتعدَّى بنَفْسِه[4].

- قولُه: ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ الاستِباقُ: افتِعالٌ مِن السَّبقِ، والافتعالُ دالٌّ على التَّكلُّفِ والاجتهادِ في الفِعلِ، أي: فبادَرُوا[5].

- وكذلك قولُه: ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ ﴾ لا يَخلو مِن أنْ يكونَ على حذْفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٥٢).

الجارِّ وإيصالِ الفِعلِ، والأصلُ: (فاستَبقوا إلى الصِّراطِ)، أو يُضمَّنَ معنى (ابتَدَروا)، أي: ابتَدَروا الصِّراطَ مُتسابقينَ، أي: مُسرعينَ لِمَا دَهَمَهم؛ رَجاءَ أنْ يَصِلوا إلى بُيوتِهم قبْلَ أنْ يَهلِكوا فلم يُبصِروا الطَّريقَ(١).

- قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ (أنَّى) استِفهامٌ بمعنى (كيف)، وهو مُستعمَلٌ في الإنكارِ، أي: لا يُبصِرون وقد طُمِسَت أعيُنُهم، أي: لو شِئنا لَعجَّلْنا لهمْ عُقوبةً في الدُّنيا يَرتدِعون بها، فيُقْلِعوا عن إشراكِهم(٢).

- وقَدَّم الطَّمسَ والإعماءَ على المَسخِ والإعجازِ؛ لِيَكونَ الكلامُ مُدرَجًا، كأنَّه قال: إنْ أعماهم لم يَرَوا الطَّريقَ الَّذي هم عليه، وحينَئذٍ لا يَهتَدونَ إليه، ثمَّ ارتقى وقال: فلو مسَخَهم وسَلَب قُوَّتَهم بالكُلِّيَّةِ؛ لا يَهتَدونَ إلى الصِّراطِ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ لأنَّه قد يُقالُ: إنَّ الأعمَى قد يَهتدي إلى الطَّريقِ بأماراتٍ عَقليَّةٍ أو حِسِّيَّةٍ غيرِ حِسِّ البَصَرِ؛ كالأصواتِ، والمشيِ بحِسِّ اللَّمسِ(٣).

- قولُه: ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: مَكانِهم، إلَّا أنَّ المكانةَ أخَصُّ، فالمقصودُ مَكانُهم ومَنزِلُهم الَّذي همْ فيه قُعودٌ(٤).

- قولُه: ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ كان مُقْتضى المقابَلةِ أنْ يُقالَ: ولا رُجوعًا، ولكنْ عُدِلَ إلى ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾؛ لِرعايةِ الفاصلةِ؛ فجُعِل قولُه: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ معطوفًا على جُملة ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ وليس عطفًا على ﴿مُضِيًّا﴾؛ لأنَّ فِعلَ (استطاع) لا يَنصِبُ الجُمَلَ، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٧)، ((تفسير روح البيان)) (٧/ ٣٣٤).

فما مَضَوْا ولا رَجَعُوا، فجَعَلْنا لهم العذابَ في الدُّنيا قبْلَ عذابِ الآخِرَةِ، وأَرَحْنا منهم المؤمنينَ، وتَركْناهم عِبرةً ومَوعِظةً لِمَن بعدَهم. وقيل: عُطِفَ قولُه: ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ على جُملة الشَّرطِ ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ...﴾، أي: لا يَتجدَّدُ لهم بوجهٍ مِن الوجوهِ رُجوعٌ إلى حالتِهم الَّتي كانتْ قبْلَ المَسخِ؛ دَلالةً على أنَّ هذه الأمورَ حَقٌّ، لا كما يقولونَ مِن أنَّها خيالٌ وسِحرٌ، بل ثباتُها لا يُمكِنُ أحدًا مِن الخَلْقِ رفْعُه، ولا تغييرُه بنوعِ تغييرٍ، ولو قيل: (ولا رُجوعًا) لم يُفِدْ هذا المعنى النَّفيسَ[1].

- وقدَّم سُبحانَه المُضيَّ على الرُّجوعِ؛ لأنَّ الرُّجوعَ أهوَنُ مِن المُضيِّ؛ لأنَّ المُضيَّ لا يُنبِئُ عن سُلوكِ الطَّريقِ مِن قَبْلُ، وأمَّا الرُّجوعُ فيُنبِئُ عنه، ولا شَكَّ أنَّ سُلوكَ طَريقٍ قد رُئِيَ مرَّةً أهونُ مِن سلوكِ طريقٍ لم يُرَ؛ فقال: «لا يَستطيعونَ مُضيًّا ولا أقَلَّ مِن ذلك»، وهو الرُّجوعُ الَّذي هو أهونُ مِن المُضيِّ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢، ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٤).

## الآيات (٦٨-٧٠)

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُّعَمِّرْهُ﴾: أي: نَمُدَّ له في عُمُرِه، وأصلُ (عمر): يدُلُّ على بقاءٍ وامتدادِ زَمانٍ[1].

﴿نُنَكِّسْهُ﴾: أي: نَرُدَّه إلى مِثلِ حالِه في الصِّغَرِ، وأصلُ (نكس): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ[2].

﴿وَيَحِقَّ﴾: أي: ويَجِبَ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ الإنسانِ عندَما يتقدَّمُ به العُمُر: ومَن نُطِلْ في عُمُرِه نَرُدَّه إلى مِثلِ حالِه في صِغَرِه، فنَجعَلْه ضَعيفًا بعدَ أنْ كان قَويًّا؛ أفلا يَعقِلونَ أنَّ مَن قَدَر على ذلك قادِرٌ أيضًا على بَعثِه بعدَ مَوتِه؟!

ثمَّ يَرُدُّ سبحانَه على الكافرينَ الَّذين وصَفوا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه شاعِرٌ، فيقولُ: وما عَلَّمْنا محمَّدًا الشِّعرَ، وما يَنبغي له أن يكونَ شاعِرًا؛ فما القُرآنُ إلَّا ذِكرٌ وقرآنٌ واضِحٌ للنَّاسِ؛ لِيُنذِرَ الرَّسولُ بالقُرآنِ مَن كان حيَّ القَلبِ، ولِيَحِقَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٦٧).

العذابُ على الكافِرينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالى الطَّمْسَ والمسْخَ على تَقديرِ المُشَبَّهِ؛ ذكَرَ تعالى دليلًا على باهِرِ قُدرتهِ في تَنكيسِ المُعَمَّرِ، وأنَّ ذلك لا يَفعَلُه إلَّا هو تعالى[1].

وأيضًا لَمَّا قَرَّر قَطْعَ الأعذارِ بسَبقِ الإنذارِ وأتَمَّه؛ شَرَع في قَطعِ عُذرٍ آخَرَ، وهو أنَّ الكافِرَ يقولُ: لم يكُنْ لُبثُنا في الدُّنيا إلَّا يَسيرًا، ولو عمَّرْتَنا لَمَا وجَدْتَ مِنَّا تقصيرًا؛ فقال اللهُ تعالى: أفلا تَعقِلونَ أنَّكم كلَّما دخَلْتُم في السِّنِّ ضَعُفتُم، وقد عَمَّرْناكم مِقدارَ ما تتمَكَّنونَ مِن البَحثِ والإدراكِ؟! كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، ثمَّ إنَّكم عَلِمتُم أنَّ الزَّمانَ كُلَّما يَعبُرُ عليكم يَزدادُ ضَعفُكم؛ فضَيَّعتُم زمانَ الإمكانِ، فلو عَمَّرْناكم أكثَرَ مِن ذلك لَكان بعدَه زمانُ الإزمانِ، ومَن لم يأتِ بالواجِبِ زَمانَ الإمكانِ، ما كان يأتي به زمانَ الإزمانِ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٤).

قال ابنُ عاشورٍ بعدَ أن استبعَد ما ذكَره المفسِّرون في وجهِ اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قبْلَها، قال: (والوجهُ عندي أنَّ لِكَونِ جملةِ ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ عَطفًا على جُملةِ: ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ ﴾ [يس: ٦٧]، فهي جملةٌ شَرطيَّةٌ عُطِفَت على جملةٍ شَرطيَّةٍ؛ فالمعطوفُ عليها جملةُ شَرطٍ امتناعيٍّ، والمعطوفةُ جملةُ شَرطٍ تعليقيٍّ، والجملةُ الأولى أفادت إمهالَهم والإملاءَ لهم، والجملةُ المعطوفةُ أفادت إنذارَهم بعاقبةٍ غيرِ محمودةٍ، ووعيدَهم بحُلولِها بهم، أي: إنْ كنَّا لم نمسَخْهم ولم نَطمِسْ على عُيونِهم، فقد أبقَيْناهم لِيَكونوا مَغلوبينَ أذِلَّةً؛ فمعنى: ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ ﴾ مَن نُعَمِّرْه منهم. فالتَّعميرُ بمعنى الإبقاءِ، أي: مَن نُبقيه منهم ولا نَستأصِلُه منهم، =

﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ﴾.

أي: ومَن نَمُدَّ له في عُمُرِه نَرُدَّه إلى مِثلِ حالِه في صِغَرِه؛ ضَعيفًا في جَسَدِه وعَقلِه(١).

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾.

أي: أفلا يَعقِلونَ قُدرةَ اللهِ في تَصريفِ خَلقِه كما يَشاءُ، ومِن ذلك قُدرتُه على بَعثِهم(٢)؟!

---

= أي: مِنَ المُشركينَ، فجعَلَه بينَ الأُمَمِ ذليلًا، فالتَّعميرُ المرادُ هنا كالتَّعميرِ الَّذي في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]، بأنَّ معناها: ألم نُبقِكم مُدَّةً مِن الحياةِ تكفي المتأمِّلَ؟ وهو المقَدَّرُ بقَولِه: ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾، وليس المرادُ مِن التَّعميرِ فيها طُولَ الحياةِ وإدراكَ الهَرَمِ، كالَّذي في قَولِهم: فلانٌ مِن المعَمَّرينَ؛ فإنَّ ذلك لم يقَعْ بجميعِ أهلِ النَّارِ الَّذين خُوطِبوا بقَولِه: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾، وقد طُوِيَت في الكلامِ جملةٌ تقديرُها: ولو نَشاءُ لأَهلَكْناهم، يدُلُّ عليها قَولُه: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾، أي: نُبْقِه حيًّا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٩).

قال ابن كثير: (المرادُ مِن هذا -واللهُ أعلَمُ- الإخبارُ عن هذه الدَّارِ بأنَّها دارُ زَوالٍ وانتقالٍ، لا دارُ دَوامٍ واستقرارٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٨).

(٢) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير =

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَرَ الله تعالى الوحدانيَّةَ في قولِه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ [يس: ٦٠]، وفي قولِه: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس: ٦١]، وذكر الحشرَ في قولِه تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ﴾ [يس: ٦٤]، وفي قولِه: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] إلى غيرِ ذلك، فلَمَّا ذكر هذينِ الأصْلَينِ وبَيَّنَهما؛ ذكر الأصلَ الثَّالثَ، وهو الرِّسالةُ، فقال[1]:

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾.

أي: وما عَلَّمْنا محمَّدًا -صلَّى الله عليه وسلَّم- الشِّعرَ، وما يَنبغي له أن يكونَ شاعِرًا؛ فنَظْمُ الشِّعرِ مُمتنِعٌ عليه[2].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾.

---

= القرطبي)) (١٥/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٨٨، ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٧، ٥٨).

قال ابنُ عطية: (الضَّميرُ في ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾ عائدٌ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، قولًا واحِدًا). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٢).

وقال أيضًا: (والضميرُ في ﴿لَهُۥٓ﴾ يحتملُ أن يعودَ على محمَّدٍ، ويحتملُ أن يعودَ على القرآنِ، وإن كان لم يُذكرْ لدَلالةِ المجاوَرةِ عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٢).

وعلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿لَهُۥٓ﴾ عائدٌ إلى القرآنِ، فالمعنى: وما يَنبغي للقرآنِ أنْ يكونَ شِعْرًا. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٦).

أي: ما القُرآنُ[١] إلَّا ذِكرٌ للنَّاسِ[٢]، وقرآنٌ واضِحٌ مُظهِرٌ للحَقِّ، مُوضِّحٌ للنَّاسِ كُلَّ ما يَحتاجون إلى بيانِه[٣].

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧].

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه ﴿هُوَ﴾ المرادُ به القرآنُ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، ومكِّي، وابنُ الجوزي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٩٣).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على المعلَّم، أي: ما هذا الَّذي عَلَّمْناه، ﴿إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾. وممَّن اختاره: ابنُ كثير، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١١١).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٠).

(٢) قيل: معنى ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: تَذكِرةٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والسمعاني، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨).

وقيل: المعنى: شَرَفٌ ومَوعِظةٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٦٣).

وقيل: الذِّكرُ الَّذي وُصِفَ به القرآنُ يَتضمَّنُ عِدَّةَ مَعانٍ؛ هي: العِظةُ والتَّذكُّرُ، وأنَّه ذِكرٌ يُذكَرُ به اللهُ تعالى، وأنَّه رفعةٌ وشرَفٌ لِمَن يقومُ ويَعملُ به. قاله ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٤٧-٢٥٣).

﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾.

أي: لِيُنذِرَ الرَّسولُ بالقُرآنِ مَن كان حيَّ القَلبِ، يَفهَمُ ويَعقِلُ آياتِ اللهِ، ويَنتفِعُ بها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: ولِيَحِقَّ العَذابُ على الكافِرينَ باللهِ، المُعرِضينَ عن القُرآنِ بعدَ أن قامت به حُجَّةُ اللهِ عليهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٨، ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

قال السعدي: (﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: حَيَّ القلبِ واعيَه، فهو الَّذي يَزْكو على هذا القُرآنِ، وهو الَّذي يَزدادُ مِن العِلمِ منه والعَمَلِ، ويكونُ القرآنُ لقَلبِه بمنزلةِ المطرِ للأرضِ الطَّيِّبةِ الزَّاكيةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

قال الشنقيطي: (المرادُ بالقولِ... هو قولُه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، كما دَلَّتْ على ذلك آياتٌ مِنْ كتابِ اللَّهِ تعالَى؛ كقولِه تعالَى في آخرِ سورةِ «هُودٍ»: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩]، وقولِه تعالَى في «السَّجدةِ»: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]. وقولِه تعالَى في أُخرياتِ «ص»: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٧).

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يَغتنِمَ فُرَصَ العُمُرِ، وقُوَّتَه وشبابَه قبْلَ أنْ يُنَكَّسَ في الخَلقِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ الحَثُّ على التَّعقُّلِ والتَّفكُّرِ وحُسنِ التصَرُّفِ؛ حتَّى يكونَ الإنسانُ مِن العُقَلاءِ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه سُبحانَه خَصَّ الشِّعرَ بنَفيِ التَّعليمِ مع أنَّ الكُفَّارَ كانوا يَنسُبونَ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم أشياءَ مِن جُملتِها السِّحرُ، ولم يَقُلْ: «وما عَلَّمْناه السِّحرَ»، وكذلك كانوا يَنسُبونَه إلى الكِهانةِ، ولم يَقُلْ: «وما علَّمْناه الكِهانةَ»؟

**الجواب**: أمَّا الكِهانةُ فكانوا يَنسُبونَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم إليها عندَما كان يُخبِرُ عن الغُيوبِ، ويكونُ كما يقولُ. وأمَّا السِّحرُ فكانوا يَنسُبونَه إليه عندَما كان يَفعَلُ ما لا يَقدِرُ عليه الغَيرُ؛ كشَقِّ القَمَرِ، وتكَلُّمِ الحَصى، وحنينِ الجِذْعِ وغيرِ ذلك. وأمَّا الشِّعرُ فكانوا يَنسُبونَه إليه عندَما كان يَتلو القُرآنَ عليهم، لكِنَّه صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم ما كان يَتحدَّى إلَّا بالقُرآنِ، كما قال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] إلى غيرِ ذلك، ولم يَقُلْ: «إنْ كُنتُم في شَكٍّ مِن رِسالتي، فأنطِقوا الجُذوعَ، أو أشبِعوا الخَلْقَ العَظيمَ، أو أخبِروا بالغُيوبِ»، فلمَّا كان تحدِّيه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بالكَلامِ، وكانوا يَنسُبونَه إلى الشِّعرِ عندَ الكلامِ؛ خَصَّ الشِّعرَ بنَفيِ التَّعليمِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ سُؤالٌ عمَّا ورد عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الرَّجَزِ، نحوُ قَولِه:

((أنا النَّبيُّ لا كَذِبْ أنا ابنُ عبدِ المُطَّلِبْ))[٢]

وقولِه:

((هل أنتِ إلَّا إِصْبَعٌ دَمِيتِ وفي سَبيلِ اللهِ ما لَقِيتِ))[٣]

**الجوابُ**: أنَّ هذا ليس بشِعرٍ عندَ الخليلِ، أو أنَّ الموزونَ بوزنِ الشِّعرِ وإن لم يكُنْ رَجَزًا: ليس بشِعرٍ عند أحدٍ؛ إذ الشِّعرُ قَولٌ مَوزونٌ مُقفًّى مقصودٌ به الشِّعرُ، والقَصدُ مُنتَفٍ فيما رُوِيَ مِن ذلك[٤]، فذلك ليس بشِعرٍ؛ لعدَمِ قَصدِه إلى الوزنِ والقافيةِ، وعلى هذا لو صدرَ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم كلامٌ كثيرٌ موزونٌ مُقفًّى، لا يكونُ شِعرًا؛ لعدَمِ قَصدِه اللَّفظَ قَصدًا أوَّليًّا، ويؤيِّدُ ما ذكَرْنا أنَّك إذا تتبَّعتَ كلامَ النَّاسِ في الأسواقِ تجدُ فيه ما يكونُ موزونًا واقِعًا في بحرٍ مِن بحورِ الشِّعرِ، ولا يُسمَّى المتكَلِّمُ به شاعِرًا، ولا الكلامُ شِعرًا؛ لِفَقدِ القَصدِ إلى اللَّفظِ أوَّلًا. ثمَّ قَولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ يحقِّقُ ذلك المعنى، أي: هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديثِ البَراءِ بنِ عازِبٍ رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٠٢)، ومسلم (١٧٩٦) من حديثِ جُندَبِ بنِ عبدِ الله بنِ سُفْيانَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٥).

ذِكرٌ ومَوعِظةٌ؛ للقَصدِ إلى المعنى، والشِّعرُ لَفظٌ مُزَخرَفٌ بالقافيةِ والوزنِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ أنَّه كُلَّما تَمَسَّكَ المسلمون بهذا الكتابِ العزيزِ فإنَّهم يَزدادون عِزَّةً وشَرَفًا؛ لأنَّ المُعَلَّقَ على وصْفٍ يَقْوَى بقوةِ ذلك الوصفِ، ويَضْعُفُ بضَعْفِ ذلك الوصفِ[٢]، وذلك على قولٍ في معنى الذِّكرِ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ إثباتُ العِلَّةِ والحِكمةِ؛ تُؤخَذُ مِن لامِ التَّعليلِ[٣].

٥- إنَّ النَّاسَ انقَسَموا في هذه الدَّعوةِ إلى قِسمَينِ: قِسمٌ قَبِلَها واطمأَنَّ إليها؛ فهو حَيٌّ؛ وقسمٌ على العكسِ مِن ذلك، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لِيَتبيَّنَ أنَّ المرادَ بالحياةِ هنا حياةُ القَلبِ، وحياةُ الإيمانِ، لا الحياةُ الجَسَديَّةُ؛ لأنَّ مُقابَلةَ الشَّيءِ بالشَّيءِ تُفيدُ مَعناه. ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ ليس حياةَ جِسمٍ، لو كانت حياةَ جِسمٍ لَقال: ويَحِقَّ القَولُ على الموتى، ولكِنْ قال: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ وبهذا عرَفْنا أنَّ كُلَّ حياةٍ في مِثلِ هذا السِّياقِ فالمرادُ بها حياةُ القَلبِ، لا حياةُ الجِسمِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ الكريمَ حُجَّةٌ على الكافِرينَ؛ لأنَّه لن يَحِقَّ عليهم القَولُ إلَّا بعدَ أنْ تَقومَ عليهم الحُجَّةُ، ويكونَ كُفرُهم عن عِنادٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٥). ويُنظر أيضًا: ((البيان والتبين)) للجاحظ (١/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٤٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٥٦).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لاستِعراضِ حالِ الإنسانِ؛ كيف يَستحيلُ إلى ضَعفٍ بعدَ قُوَّةٍ، وإلى نَقصٍ بعدَ تَمامٍ[١]!

- وفُرِّعَ على الجُمَلِ الشَّرطيَّةِ الثَّلاثِ -﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ و﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ و﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾- وما تَفرَّعَ عليها: قولُه: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾، استِئنافًا إنكاريًّا لِعَدمِ تأمُّلِهم في عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى الدَّالَّةِ على أنَّه لو شاء لَطَمَسَ على أعيُنِهم، ولو شاء لَمَسَخَهم على مَكانتِهم، وأنَّه إنْ لم يَفعَلْ ذلك فإنَّهم لا يَسْلَمون مِن نَصْرِه المُسلمينَ عليهم؛ لأنَّهم لو قاسوا مَقدوراتِ اللهِ تعالى المُشاهَدةَ لهم، لَعَلِموا أنَّ قُدرتَه على مَسْخِهم فما دونَه مِن إنزالِ مَكروهٍ بهم أيسَرُ مِن قُدْرتِه على إيجادِ المخلوقاتِ العَظيمةِ المُتْقَنةِ، وأنَّه لا حائلَ بيْن تَعلُّقِ قُدرتِه بمَسخِهم إلَّا عدَمُ إرادتِه ذلك لِحكمةٍ عَلِمَها؛ فإنَّ القُدرةَ إنَّما تَتعلَّقُ بالمقدوراتِ على وَفْقِ الإرادةِ[٢].

- قولُه: ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ تَنبيهٌ على التَّفكيرِ، وتَوبيخٌ لِمَا لو عَسى أنْ يُنكِرَ مُنكِرٌ أنَّه تعالى كيف يَختِمُ على الأفواهِ يومَ القيامةِ لِتَتكلَّمَ الأيدي، وتَشهَدَ الأرجُلُ[٣].

- وقرَأَ نافعٌ، وابنُ ذَكْوانَ عن ابنِ عامرٍ، وأبو جعفرٍ: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ بتاءِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٨٢).

الخِطابِ، وهو خِطابٌ للَّذين وُجِّهَ إليهم قولُه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [يس: ٦٦] الآيةَ، وقرَأَ الباقونَ بِياءِ الغَيبةِ[١]؛ لأنَّ تلك الجُمَلَ الشَّرطيَّةَ لا تَخْلو مِن مُواجَهةٍ بالتَّعريضِ للمُتحدَّثِ عنهم، فكانوا أحرياءَ أنْ يَعقِلوا مَغْزاها، ويَتفهَّموا مَعناها[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾

- هذه الآيةُ تَرجِعُ إلى ما تَضمَّنَه قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [يس: ٤٦]؛ فالمرادُ بالآياتِ آياتُ القرآنِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، فإعراضُهم عن القُرآنِ له أحوالٌ شَتَّى: بعضُها بعَدمِ الامتثالِ لِمَا يأْمُرُهم به مِن الخَيرِ مع الاستهزاءِ بالمسلمينَ، وبعضُها بالتَّكذيبِ لِمَا يُنذِرُهم به مِن الجزاءِ، ومِن إعراضِهم عنه: طَعْنُهم في آياتِ القرآنِ بأقوالٍ شتَّى؛ منها قولُهم: (هو قولُ شاعرٍ)، فلمَّا تَصدَّى القرآنُ لإبطالِ تَكذيبِهم بوَعيدٍ بالجزاءِ يومَ الحشرِ بما تَعاقَبَ مِن الكلامِ على ذلك، عاد هنا إلى طَعنِهم في أَلْفاظِ القرآنِ مِن قَولِهم: ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]؛ فقَولُهم: ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ يَقْتضي لا مَحالةَ أنَّهم يقولونَ: القرآنُ شِعرٌ. فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]، عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، والغرَضِ على الغرَضِ. ويجوزُ أنْ تكونَ مُستأْنَفةً استِئنافًا ابتدائيًّا، ويكونَ الواوُ للاستئنافِ؛ ولذلك اقتُصِرَ على تَنزيهِ القرآنِ عن أنْ يَكونَ شِعرًا، والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن أنْ يكونَ شاعرًا دونَ التَّعرُّضِ لِتَنزيهِه عن أنْ يكونَ ساحرًا، أو أنْ يكونَ مَجنونًا؛ لأنَّ الغرَضَ

(١) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٥).

الرَّدُّ على إعراضِهم عن القُرآنِ؛ فإنَّه لَمَّا قصَدَ إبطالَ مَقالاتٍ لهم في القرآنِ قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[1] [الحاقة: ٤١، ٤٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ...﴾ بُنِيَ الرَّدُّ عليهم على طَريقةِ الكِنايةِ بنَفْيِ تَعليمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الشِّعرَ؛ لِمَا في ذلك مِن إفادةِ أنَّ القرآنَ مُعلَّمٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قِبَلِ اللهِ تعالى، وأنَّه ليس بشِعرٍ، وأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس بشاعرٍ، وانتصَبَ الشِّعرُ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لفِعلِ ﴿عَلَّمْنَاهُ﴾؛ فتَقديرُ المعنى: نحن علَّمْناهُ القرآنَ وما علَّمناهُ الشِّعرَ؛ فالقرآنُ مُوحًى إليه بتَعليمٍ مِن اللهِ، والَّذي أَوحَى به إليه ليس بشِعرٍ، وإذَنْ فالمعنى: أنَّ القرآنَ ليس مِن الشِّعرِ في شَيءٍ؛ فكانتْ هاتِه الجُملةُ ردًّا على قولِهم: هو شاعرٌ، على طَريقةِ الكِنايةِ؛ لأنَّها انتِقالٌ مِن اللَّازمِ إلى الملزومِ، ودلَّ على أنَّ هذا هو المقصودُ مِن قولِه: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ قولُه عَقِبَه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾، أي: ليس الَّذي علَّمناهُ إيَّاه إلَّا ذِكرًا وقُرآنًا، وما هو بشِعرٍ[2].

- وجُملةُ ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتَينِ المتعاطفتَينِ، قُصِدَ منها إتْباعُ نفْيِ أنْ يكونَ القرآنُ المُوحَى به للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شِعرًا بنَفْيِ أنْ يكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شاعرًا فيما يَقولُه مِن غيرِ ما أُوحِيَ به إليه[3].

- وجُملةُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ نَفْيَ الشِّعرِ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٥، ٥٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٦، ٥٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٢).

القُرآنِ يُثيرُ سُؤالَ مُتطلِّبٍ يقولُ: فما هو هذا الَّذي أُوحِيَ به إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ فكان قولُه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ جوابًا لِطِلْبَتِه[١].

- وجِيءَ بصِيغةِ القَصرِ (إنْ ... إلَّا) المُفيدةِ قصْرَ الوحيِ على الاتِّصافِ بالكَونِ ذِكرًا وقُرآنًا قَصْرَ قلْبٍ[٢]، أي: ليس شِعرًا كما زعَمْتُم؛ فحصَلَ بذلك استِقصاءُ الرَّدِّ عليهم، وتَأكيدُ قولِه: ﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾[٣].

- والذِّكرُ: مَصدرٌ وُصِفَ به الكتابُ المنزَّلُ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَصفًا للمُبالَغةِ، أي: إنْ هو إلَّا مُذكِّرٌ للنَّاسِ بما نَسُوه أو جَهِلوه[٤]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾ حُذِفَ المعمولُ؛ لِيَدُلَّ على أنَّه مُبينٌ لجَميعِ الحَقِّ بأدِلَّتِه التَّفصيليَّةِ والإجماليَّةِ، والباطِلِ وأدِلَّةِ بُطلانِه؛ أنزله اللهُ كذلك على رَسولِه[٥].

٣- قولُه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّٗا وَيَحِقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿لِّيُنذِرَ﴾ يَتعلَّقُ بقولِه: ﴿عَلَّمۡنَٰهُ﴾ باعتبارِ ما اتَّصَلَ به مِن نَفْيِ كَونِه شِعرًا، ثمَّ إثباتِ كَونِه ذِكرًا وقُرآنًا، أي: لأنَّ جُملةَ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ بَيانٌ لِمَا قبْلَها في قُوَّةِ أنْ لو قِيلَ: (وما علَّمناهُ إلَّا ذِكرًا وقُرآنًا مُبينًا؛ لِيُنذِرَ ...)[٦].

- وعلى قراءةِ نافعٍ، وابنِ عامرٍ، وأبي جعفرٍ، ويَعقوبَ: ﴿لِتُنْذِرَ﴾ بتاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٥).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٦).

الخِطابِ[١]؛ فيَكونُ فيه التِفاتٌ مِن ضَميرِ الغَيبةِ في قولِه: ﴿عَلَّمْنَٰهُ﴾ إلى ضَميرِ الخِطابِ[٢].

- قولُه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ هذا تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: مَن كان مِثلَ الحيِّ في الفَهمِ، والمقصودُ منه التَّعريضُ بالمعرِضينَ عن دَلائلِ القرآنِ بأنَّهم كالأمواتِ لا انتفاعَ لهم بعُقولِهم[٣]؛ فقولُه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: عاقِلًا مُتأمِّلًا؛ فإنَّ الغافلَ بمَنزلةِ المَيتِ، أو مُؤمنًا في عِلمِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ الحياةَ الأبديَّةَ بالإيمانِ. وتَخصيصُ الإنذارِ به؛ لأنَّه المنتفِعُ به[٤].

- وفي قَولِه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ احتِباكٌ؛ حيثُ حُذِفَ الإيمانُ أوَّلًا؛ لِمَا دَلَّ عليه مِن ضِدِّه ثانيًا، وحُذِفَ الموتُ ثانيًا؛ لِما دَلَّ عليه مِن ضِدِّه أوَّلًا[٥].

- وفي ذِكْرِ الإنذارِ عَودٌ إلى ما ابتُدِئَتْ به السُّورةُ مِن قولِه: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [يس: ٦] -فهو كرَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ، وبذلك تمَّ مَجالُ الاستِدلالِ عليهم وإبطالِ شُبَهِهم- وتخلُّصٌ إلى الامتنانِ الآتي في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس: ٧١] إلى قولِه: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[٦] [يس: ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧).

- قَولُه: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أفردَ الضَّميرَ هنا على اللَّفظِ؛ إشارةً إلى قِلَّةِ السُّعَداءِ، وجَمَع في الثَّاني ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ على المعنى؛ إعلامًا بكَثرةِ الأشقياءِ[1].

- وقولُه: ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: المُصِرِّينَ على الكُفرِ، وجعَلَ الكافرينَ في مُقابَلةِ مَن كان حيًّا؛ إشعارًا بأنَّهم لِكُفْرِهم وسُقوطِ حُجَّتِهم وعَدمِ تأمُّلِهم أمواتٌ في الحقيقةِ؛ لأنَّ الغافلَ كالمَيتِ[2].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨).

## الآيات (٧١-٧٦)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَنْعَـٰمًا﴾: أي: بَهائِمَ مِن إبلٍ وبقَرٍ وغَنَمٍ، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على ترفُّهٍ، وطِيبِ عَيشٍ؛ لِما فيه مِن الخَيرِ والنِّعمةِ[1].

﴿وَذَلَّلْنَـٰهَا﴾: أي: سَخَّرْناها، وأصلُ (ذلل): يدُلُّ على خُضوعٍ[2].

﴿رَكُوبُهُمْ﴾: أي: ما يَرْكَبون، والرُّكوبُ -بالضمِّ-: هو الفِعلُ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا المشركينَ ببعضِ النِّعمِ الَّتي أسبَغها عليهم: أوَلم يَرَ أولئك المُشرِكونَ أنَّا خلَقْنا لهم أنعامًا كثيرةً مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، فهم يَتصَرَّفون فيها تصَرُّفَ المالِكِ في مِلكِه؟ وسَخَّرْناها لهم فلا تَمتنِعُ منهم في رُكوبِها ولا ذَبحِها

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٦٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤).

للأكلِ، ولهم فيها مَنافِعُ أُخرى ومَشارِبُ، فيَشرَبون مِن ألبانِها؛ أفلا يَشكُرونَ اللهَ على تلك النِّعَمِ؟! فلم يُقابِلوا نِعَمَنا عليهم بالشُّكرِ، وإنَّما قابَلوها بالجُحودِ والبَطَرِ؛ فقد ترَكوا عبادتَنا، واتَّخَذوا مِن دونِنا آلهةً؛ رَجاءَ نُصرتِها لهم!

لا تستطيعُ آلهتُهم هذه نَصْرَهم والحالُ أنَّ هؤلاء المشركين جندٌ مُحضَرونَ لهذه الآلهةِ، فكيف تَنصُرُهم وهي لا تَنصُرُ نَفْسَها؟!

ثمَّ يُسلِّي الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: فلا يَحزُنْك قَولُهم وخَوْضُهم في شأنِك -يا محمَّدُ- وكُفرُهم باللهِ وتكذيبُهم؛ إنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَه وما يُعلِنونَه، وسنُجازيهم عليه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أنِ انْقَضَى إبطالُ مَعاقِدِ شِركِ المشركينَ؛ أخَذَ الكلامُ يَتطرَّقُ غرَضَ تَذكيرِهم بنِعَمِ اللهِ تعالى عليهم، وكيف قابَلوها بكُفرانِ النِّعمةِ، وأعْرَضوا عن شُكرِ المنعِمِ وعِبادتِه[1].

وأيضًا فهي عَطفٌ على قَولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١]، فذاك استِعطافٌ إلى توحيدِه بالتَّحذيرِ مِن النِّقَمِ، وهذا بالتَّذكيرِ بالنِّعَمِ[2].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾.

أي: أوَلم يَرَ المُشرِكونَ أنَّا خلَقْنا لهم أنعامًا مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، فهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٢).

يتصَرَّفونَ فيها كيف شاؤوا[١]؟!

﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المِلْكُ لا يَستلزِمُ الطَّواعيَةَ؛ قال تعالى[٢]:

﴿ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

أي: وسَخَّرْنا هذه الأنعامَ مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، وجعَلْناها مَقهورةً مُنقادةً لهم، فلا تمتَنِعُ منهم؛ فمنها ما يركَبونَ -كالإبِلِ، يُسافِرونَ عليها-، ويأكُلونَ مِن لحومِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠].

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ﴾.

أي: ولهم في الأنعامِ مَنافِعُ كَثيرةٌ؛ فيَتَّخِذونَ منها لِباسًا وأثاثًا مِن أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها، ويَنتَفِعونَ بنَسْلِها ورُكوبِها، والحَملِ عليها والحِراثةِ بها، والتَّغذِّي منها والتَّزيُّنِ بها، وبَيْعِها... وغيرِ ذلك مِن المنافِعِ، ولهم فيها أيضًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧١).

مَشارِبُ، فيَشرَبونَ مِن أنواعِ ألبانِها[١].

﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت هذه الأشياءُ مِن العَظَمةِ بمكانٍ -لو فقَدَها الإنسانُ لتكدَّرَت مَعيشتُه- سَبَّب عن ذلك استِئنافَ الإنكارِ عليهم في تخَلُّفِهم عن طاعتِه، بقَولِه[٢]:

﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾.

أي: أفلا يَشكُرونَ اللهَ على تلك النِّعَمِ العَظيمةِ، فيَعبُدوه وحْدَه ويُطيعوه[٣]؟

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَّرَهم نِعَمَه، وحذَّرَهم نِقَمَه؛ عجَّب منهم في سُفولِ نَظَرِهم، وقُبحِ أثَرِهم، فقال مُوَبِّخًا ومُقَرِّعًا، ومُبَكِّتًا ومُعَجِّبًا مِن زيادةِ ضَلالِهم[٤]:

﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةٗ لَّعَلَّهُمۡ يُنصَرُونَ ٧٤﴾.

أي: مع كُلِّ هذه الآياتِ والنِّعَمِ الإلهيَّةِ اتَّخذَ المُشرِكونَ مِن دونِ اللهِ مَعبوداتٍ؛ رَجاءَ نُصرتِها لهم[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير =

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

أي: لا تَستطيعُ آلهةُ المُشرِكينَ نَصْرَ عابِديها، والحالُ أنَّ هؤلاء المشركينَ جُندٌ مُحضَرونَ لهذه الآلهةِ[1]؛ .....

---

= (٦/ ٥٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٠، ٧١).

(١) ممَّن اختار المعنى المذكورَ، وهو أنَّ المُشركين في الدُّنيا جُندٌ مُحضَرون لآلهتِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وابنُ القيم، والبِقاعي، والشوكاني، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٨٣، ٢٨٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٧٣).

قال القرطبي: (قال الحسَنُ: يَمْنعونَ منهم، ويَدْفَعونَ عنهم. وقال قَتادةُ: أي: يَغضبونَ لهم في الدُّنيا. وقيل: المعنَى أنَّهم يَعبُدونَ الآلهةَ ويَقومونَ بها، فهم لها بمنزلةِ الجُندِ، وهي لا تستطيعُ أنْ تَنصُرَهم. وهذه الأقوالُ الثَّلاثةُ مُتقاربةُ المعنَى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٧).

وقيل: الضَّميرُ الأوَّلُ (هم) للأصنامِ، والثاني ﴿لَهُمْ﴾ للكُفَّارِ، أي: يُحضَرونَ لهم في الآخرةِ عندَ الحسابِ، على جِهةِ التَّوبيخِ والنِّقمةِ. وممَّن اختاره: أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٤).

قال ابنُ عاشور: (ضَميرُ ﴿وَهُمْ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى ﴿ءَالِهَةً﴾ تبعًا لضميرِ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾. وضَميرُ ﴿لَهُمْ﴾ للمُشرِكين، أي: والأصنامُ للمُشرِكين جندٌ مُحضَرون، والجندُ: العدَدُ الكثيرُ. والمُحضَرُ: الَّذي جيءَ به لِيَحضُرَ مَشهدًا. والمعنى: أنَّهم لا يَستطيعون النَّصرَ مع حضورِهم في موقِفِ المُشركينَ لمُشاهَدةِ تعذيبِهم، ومع كَونِهم عددًا كثيرًا، ولا يَقدِرونَ على نصرِ المتمسِّكينَ بهم، أي: هم عاجِزون عن ذلك، وهذا تأييسٌ للمُشركين مِن نفْعِ أصنامِهم. ويجوزُ العكسُ، أي: والمُشركون جُندٌ لأصنامِهم، مُحضَرون لخِدمتِها. ويجوزُ أن يكونَ هذا إخبارًا عن حالِهم =

فكيف تَنصُرُهم وهي لا تَنصُرُ نَفْسَها[١]؟!

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَما رَدَّ على الكافرينَ قولَهم بأنَّ النَّبيَّ شاعرٌ؛ أتَى بقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ تَسليةً للنَّبيِّ صَلواتُ اللهِ عليه، يعني: لك التَّأسِّي بربِّك؛ فإنَّه تعالى أراهم تلك الآياتِ الباهرةَ، وأَولاهم تلك النِّعَمَ المُتظاهِرةَ، وعَلِموا أنَّه المتفرِّدُ بها، ومع ذلك كابَروا وعانَدوا واتَّخذوا مِن دُونِه آلهةً أشْرَكوها به في العبادةِ؛ فإذا كان كذلك ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾؛ لأنَّا مُجازوهم على تَكذيبِهم إيَّاك، وإشراكِهم بي[٢].

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾.

أي: فلا يَحزُنْك -يا محمَّدُ- قولُ هؤلاءِ المُشرِكينَ لك: إنَّك شاعِرٌ، ومجنونٌ، وكاهِنٌ -إلى غيرِ ذلك ممَّا يَقْدَحون به في نُبوَّتِك-، ولا كُفْرُهم باللهِ وباليَومِ الآخِرِ، وتكذيبُهم بآياتِ اللهِ[٣]!

---

= مع أصنامِهم في الدُّنيا وفي الآخرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧١). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٨٣، ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان عِلمُ القادِرِ بما يَعمَلُ عَدُوُّه سببًا لأخْذِه؛ علَّل ذلك بقَولِه، مُهَدِّدًا بمَظهرِ العَظَمةِ[1]:

﴿إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ﴾.

أي: إنَّا نَعلَمُ جميعَ ما يُسِرُّه المُشرِكونَ، ونَعلَمُ جميعَ ما يُعلِنونَه، وسنُجازيهم على جميعِ ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَشۡكُرُونَ﴾ وُجوبُ شُكْرِ اللهِ تعالى على هذه النِّعَمِ؛ ووجْهُه: أنَّه وَبَّخَ مَن لم يَشكُرْ، ولا توبيخَ إلَّا على فِعلِ مُحَرَّمٍ أو تَركِ واجبٍ، وشُكرُ المُنعِمِ كما دَلَّ عليه الشَّرعُ فقد دَلَّ عليه العَقلُ؛ فإنَّ كُلَّ إنسانٍ مَدينٌ لِمَن أنعَمَ عليه أنْ يَشكُرَه بحَسَبِ ما تقتَضيه الحالُ؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصَّحيحِ[3]: ((مَن صَنَعَ إليكم معروفًا فكافِئوه، فإنْ لم تجِدوا ما تُكافِئونَه فادعُوا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٢) واللفظ له، والنسائي (٢٥٦٧)، وأحمد (٥٣٦٥) من حديث عبدالله ابن عمر رضي الله عنهما.

صحَّحه النووي في ((المجموع)) (٦/ ٢٤٥)، وابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٢٥٠)-، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٧٢)، وصحح إسناده =

له حتَّى تَرَوا أنَّكم كافأتُموه))[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقْنَا لَهُم﴾ أنَّ هذه الأنعامَ مِلكٌ لنا نَنتَفِعُ بها بجَميعِ وُجوهِ الانتفاعاتِ؛ لأنَّها ما دامتْ لنا فنحن فيها أحرارٌ، إلَّا ما قام الدَّليلُ على مَنْعِه، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه يجوزُ أنْ نركَبَ ما لم تَجْرِ العادةُ برُكوبِه، مثلُ: أنْ نركَبَ البقرَ؛ ومِن الفُقَهاءِ مَن قال: يجوزُ الانتِفاعُ بهذه الحيواناتِ في غيرِ ما خُلِقَت له[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ صِحَّةُ نِسبةِ العمَلِ إلى اللهِ، لكنْ لا يُسمَّى اللهُ بالعامِلِ، كما لا يُسمَّى بالصَّانعِ أخذًا مِن قَولِه: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ

---

= العراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٣٠٠)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٧/ ١٩٥)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٥٣٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٢).

أمَّا الحديثُ الَّذي أخرجه البخاري (٣٤٧١) مِن حديث أبي هُريرةَ رضيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((بَيْنا رجُلٌ يَسوقُ بقرةً إذ رَكِبَها فضَرَبَها، فقالت: إنَّا لم نُخْلَقْ لهذا، إنَّما خُلِقْنا للحَرْثِ)) فقد استُدِلَّ به على أنَّ الدَّوابَّ لا تُستعمَلُ إلَّا فيما جرَتِ العادةُ باستِعمالِها فيه. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ١٢٠)، ((المُفْهِم لِما أَشْكَلَ من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٦/ ٢٤٥).

لكن قال ابنُ حجر: (ويحتملُ أن يكونَ قولُها: «إنَّما خُلِقْنا للحَرْثِ» للإشارةِ إلى مُعْظَم ما خُلِقَتْ له، ولم تُرِدِ الحصرَ في ذلك؛ لأنَّه غيرُ مُرادٍ اتفاقًا؛ لأنَّ مِن أجَلِّ ما خُلِقَتْ له أنَّها تُذبَحُ وتُؤكَلُ بالاتِّفاقِ). ((فتح الباري)) (٦/ ٥١٨).

وقال المَرْداوي: (يجوزُ الانتفاعُ بالبهائم في غيرِ ما خُلِقَتْ له؛ كالبقرِ للحملِ أو الرُّكوبِ، والإبلِ والحميرِ للحَرْثِ...؛ لأنَّ مُقتضى المِلْكِ جوازُ الانتفاعِ به فيما يُمْكِنُ، وهذا مُمْكِنٌ كالَّذي خُلِق له وجرَتْ به عادةُ بعضِ النَّاسِ). ((الإنصاف)) (٩/ ٣٠٦).

شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]؛ وذلك لأنَّ بابَ الخَبرِ أوسعُ مِن بابِ الإنشاءِ والتَّسميةِ؛ فيجوزُ أنْ نَشتَقَّ مِن كلِّ اسمٍ صِفةً، ولا يجوزُ أنْ نَشتقَّ مِن كلِّ صفةٍ اسمًا؛ ولهذا نقول: «الصِّفاتُ أوسَعُ مِن الأسماءِ»، أي: بابُ صفاتِ اللهِ أوسَعُ مِن بابِ الأسماءِ؛ لأنَّ كلَّ اسمٍ مُتضَمِّنٌ لصِفةٍ، وليس كلُّ صفةٍ تَتضَمَّنُ اسمًا(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾ إثباتُ اليدِ للهِ عزَّ وجلَّ، وهذه اليدُ الَّتي أضافها تعالى إلى نَفْسِه يدٌ حقيقيَّةٌ ثابتةٌ، ولكنْ بدونِ أنْ تكونَ مُماثِلةً لأيدي المخلوقينَ(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابن عثيمين: (إنَّ المرادَ باليدِ هنا نفْسُ الذَّاتِ الَّتي لها يدٌ، وقد قال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، أي: بما كسَبوا، سواءٌ كان مِن كسبِ اليدِ أو الرِّجْلِ أو اللِّسانِ أو غيرِها مِن أجزاءِ البدَنِ، لكنْ يُعَبَّرُ بمِثلِ هذا التَّعبيرِ عن الفاعلِ نفْسِه. ولهذا نقولُ: إنَّ الأنعامَ لم يَخلُقْها اللهُ تعالى بيَدِه، وفَرْقٌ بيْنَ قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، وبيْن قولِه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ فـ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ كأنَّه قال: ممَّا عَمِلْنا؛ لأنَّ المرادَ باليدِ ذاتُ الله الَّتي لها يدٌ، والمرادُ بـ﴿بِيَدَىَّ﴾: اليَدانِ دونَ الذَّاتِ). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣٠٢).

ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٧). ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٧١).

وقال ابنُ القيِّم أيضًا: (لفظُ اليَدِ جاء في القرآنِ على ثلاثةِ أنواعٍ: مُفردًا، ومُثنًّى، ومجموعًا؛ فالمفردُ كقَولِه: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، والمُثنَّى كقَولِه: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، والمجموعُ كقَولِه: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؛ فحيث ذَكَر اليَدَ مُثنَّاةً أضاف الفِعلَ إلى نفْسِه بضميرِ الإفرادِ، وعَدَّى الفِعلَ بالباءِ إليهما، فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، وحيث ذكَرَها مجموعةً أضاف العمَلَ إليها ولم يُعَدِّ الفِعلَ بالباءِ؛ فهذه ثلاثةُ فُروقٍ، فلا يحتمِلُ ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] مِن المجازِ ما يحتَمِلُه ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؛ فإنَّ كُلَّ أحدٍ يَفهَمُ مِن قَولِه: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ ما يَفهَمُه مِن قَولِه: عَمِلْنا وخلَقْنا، كما يُفهَمُ ذلك مِن قَولِه: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]. وأمَّا قولُه: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥] فلو كان المرادُ منه مجرَّدَ الفِعلِ لم يكُنْ لذِكرِ اليدِ بعدَ نِسبةِ الفعلِ إلى الفاعلِ معنًى، فكيفَ وقد دخَلتْ عليها الباءُ، فكيفَ إذا ثُنِّيتْ؟! =

٤- إذا قيل: إنَّ لله أكثرَ مِن يَدَينِ؛ لقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا﴾، فـ﴿أَيْدِينَآ﴾ هنا جَمْعٌ، فلْنَأخُذْ بهذا الجَمْعِ، لأنَّنا إذا أخَذْنا بالجَمعِ أخَذْنا بالمُثَنَّى وزيادة، فما الجوابُ؟

**الجواب**: أنَّ الله ليس له إلَّا يَدانِ اثنَتانِ، كما ثبتَ ذلك بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ.

ففي الكتابِ: قال تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٥٧]، وقال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤].

وأمَّا السُّنَّةُ: فإنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: ((يَأخُذُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ سَمواتِه وأرَضِيه بِيَدَيْه))[1]، وقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((كِلْتَا يَدَيْهِ يمينٌ))[2].

وأجمَعَ السَّلفُ على أنَّ لله يدَينِ اثنتَينِ فقط بدونِ زيادةٍ. فيكف نجمعُ بيْن هذا وبيْن قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾؟!

**فنقولُ: الجَمْعُ على أحدِ الوجهَينِ:**

فإمَّا أن نقولَ بما ذهب إليه بعضُ العلماءِ مِن أنَّ أقَلَّ الجَمعِ اثنانِ؛ وعليه فـ﴿أَيْدِينَآ﴾ لا تدُلُّ على أكثَرَ مِنِ اثنتَينِ، يعني: لا يَلزَمُ أن تدُلَّ على أكثَرَ مِن اثنَينِ، وحينَئذٍ تُطابِقُ التَّثنيةَ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ولا إشكالَ فيه.

وإمَّا أن نقولَ: إنَّ المرادَ بهذا الجَمعِ التَّعظيمُ، تعظيمُ هذه اليدِ، وليس المرادُ

---

= وسرُّ الفرقِ أنَّ الفعلَ قد يُضافُ إلى يدِ ذي اليدِ، والمرادُ الإضافةُ إليه، كقولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]. وأمَّا إذا أُضِيف إليه الفعلُ ثمَّ عُدِّيَ بالباءِ إلى يدِه مُفرَدةً أو مُثَنَّاةً فهو ما باشَرتْه يدُه). ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) (١/ ٢٦٨). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٤٥).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧).

أنَّ لله تعالى أكثَرَ مِن اثنتَين[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ إشارةٌ إلى إتمامِ الإنعامِ في خَلقِ الأنعامِ؛ فإنَّه تعالى لو خلَقَها ولم يُملِّكْها الإنسانَ ما كان ينتفعُ بها[٢]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ بيانُ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى علينا بتذليلِ هذه الأنعامِ، ولو استعصَتْ علينا ما تَمكَّنَّا مِن الانتِفاعِ بها[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ بيانُ أنَّ أفعالَ المخلوقاتِ مخلوقةٌ للهِ، لكِنَّها مَفعولةٌ للفاعِلِ مُباشَرةً؛ فهي تُنسَبُ لله عزَّ وجلَّ تقديرًا وخَلْقًا، وتُنسَبُ إلى الفاعلِ كَسبًا وعَمَلًا؛ فهذه الإبلُ المُذَلَّلةُ: الَّذي ذَلَّلَها هو اللهُ، إذَنْ أفعالُها صادرةٌ بخَلقِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهذا هو المذهَبُ الصَّحيحُ في هذه المسألةِ؛ مَسألةِ أفعالِ العبادِ: هل هي مخلوقةٌ للهِ، أو هي للعِبادِ استِقلالًا[٤]؟

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أنَّه يجوزُ تعذيبُ الحيوانِ إذا لم تَتِمَّ المصلحةُ إلَّا به؛ لأنَّ الأكلَ مصلحةٌ؛ ولكنْ لا أكلَ إلَّا بعدَ الذبحِ، والذَّبحُ مِن أعظَمِ ما يكونُ مِن الإيذاءِ، ولأنَّ الشَّرعَ جاء بإباحةِ وَسْمِ البهائمِ بالنَّارِ[٥] مِن أجْلِ حِفْظِ ماليَّتِها، ولأنَّ الشَّرعَ جاء بمشروعيَّةِ إشعارِ الإبلِ والبقرِ في الهَدْيِ لِيُعْلَمَ أنَّها هَدْيٌ، وإشعارُها هو شَقُّ صفحةِ سَنامِها حتَّى يَسيلَ منها الدَّمُ، وعلى

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) لكنَّ ذلك في غيرِ الوجهِ، قال النَّوويُّ: (وأمَّا الوَسْمُ في الوَجهِ فمَنهيٌّ عنه بالإجماعِ؛ للحديثِ ...). ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٩٧).
ويُنظر ما أخرجه مسلم (٢١١٦)، (٢١١٨).

هذا إذا احْتَجْنا إلى تعذيبِ الحيوانِ مِن أجْلِ حِفظِ ماليَّتِه أو غيرِ ذلك، فإنَّه لا بأسَ به، كنَتْفِ مُقَدَّمِ أجنحةِ الحمامِ لئلَّا يطيرَ؛ حتَّى يأْلَفَ المكانَ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَشَارِبُ﴾ حِلُّ ألبانِ هذه البهائم[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ قد يُقالُ: إنَّ الفائدةَ مِن التَّعبيرِ بقَولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مع أنَّهم يَألَهونَ اللهَ تعالى ويَألَهونَ الأصنامَ: هي أنَّ الإنسانَ إذا اتَّخَذَ شَريكًا مع اللهِ فإنَّ اللهَ تعالى يَترُكُه وشِرْكَه، وكأنَّه لم يَألَهِ اللهَ تعالى، كما جاء في الحديثِ القُدسيِّ الصَّحيحِ[٣]: أنَّ اللهَ تعالى قال: ((أنا أغْنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ؛ مَن عَمِلَ عَمَلًا أشركَ فيه معي غيري ترَكْتُه وشِرْكَه))[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ صِحَّةُ إطلاقِ الإلهِ على غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولكنْ هل هذه الآلهةُ حقٌّ؟ الجوابُ: لا، هي آلهةٌ باطِلةٌ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، فهي وإنْ سَمَّوها آلهةً، وعَبَدوها كما يَعبُدونَ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ، فإنَّها لن تكونَ آلهةً ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[٥] [النجم: ٢٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ المُبطِلَ لا بُدَّ أنْ يَتعلَّقَ بشَيءٍ يُبرِّرُ به باطِلَه، وهو هنا رَجاءُ النَّصرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ تَذكيرٌ لهم بنِعَمِ اللهِ تعالى عليهم، وكيف قابَلوها بالكُفرانِ، وأعْرَضوا عن شُكرِ المنعِمِ وعِبادتِه، واتَّخذوا لِعِبادتِهم آلهةً؛ زَعمًا بأنَّها تَنفَعُهم وتَدفَعُ عنهم، وأُدمِجَ في ذلك التَّذكيرُ بأنَّ الأنعامَ مَخلوقةٌ بقُدْرةِ اللهِ؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على ما قبْلَها مِن إبطالِ مَعاقِدِ شِركِ المشركينَ عطْفَ الغرَضِ على الغرَضِ[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ استِفهامُ إنكارٍ وتَعجُّبٍ مِن عدَمِ رُؤيةِ الكفَّارِ شواهدَ النِّعمةِ، فإنْ كانتِ الرُّؤيةُ قَلْبيَّةً، كان الإنكارُ جاريًا على مُقْتضَى الظَّاهرِ، وإنْ كانتِ الرُّؤيةُ بَصريَّةً، فالإنكارُ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ بتَنزيلِ مُشاهَدتِهم تلك المذكوراتِ مَنزلةَ عَدمِ الرُّؤيةِ؛ لِعَدمِ جَرْيِهم على مُقْتضى العِلمِ بتلك المشاهَداتِ الَّذي يَنشَأُ عن رُؤيتِها ورُؤيةِ أحوالِها[٢].

- وفيه تَنبيهٌ بالاستِفهامِ لِقُريشٍ؛ لإعراضِها عن عِبادةِ اللهِ، وعُكوفِها على عِبادةِ الأصنامِ[٣].

- قولُه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ أي: ممَّا تَولَّيْنا عمَلَه، ولا يُمكِنُ لِغيرِنا أنْ يَعمَلَه، وآثَرَ صِيغةَ التَّعظيمِ والأيدي مَجموعةً؛ لِيَدُلَّ على إبداعِ خلْقٍ عجيبٍ، وإبداعِ صُنعٍ غريبٍ فيه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٩٠).

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ خصَّ في ذلك الأنعامَ بالذِّكرِ؛ لأنَّها كانتْ جُلَّ أموالِهم، ونبَّه على ما يُجعَلُ لهم مِن مِنافعِها[١].

- قولُه: ﴿أَنْعَامًا﴾ مَفعولُ ﴿خَلَقْنَا﴾، وتأْخيرُه عن الجارَّينِ المتعلِّقَينِ به -﴿لَهُم﴾ ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ﴾- مع أنَّ حقَّه التَّقدُّمُ عليهما؛ للاعتِناءِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّرَ تَبْقَى النَّفْسُ مُترقِّبةً له، فيَتمكَّنُ عندَ وُرودِه عليها فضْلَ تَمكُّنٍ، لا سيَّما عندَ كَونِ المقدَّم مُنبئًا عن كَونِ المؤخَّرِ أمْرًا نافعًا خطيرًا، كما في النَّظمِ الكريمِ؛ فإنَّ الجارَّ الأوَّلَ المُعرِبَ عن كَونِ المؤخَّرِ مِن مَنافعِهم، والثَّانيَ المُفصِحَ عن كَونِه مِن الأُمورِ الخطيرةِ؛ يَزيدانِ النَّفْسَ شَوقًا إليه ورَغبةً فيه، ولأنَّ في تأْخيرِه جمْعًا بيْنَه وبيْنَ أحكامِه المُتفرِّعةِ عليه بقولِه تعالى: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ الآياتِ الثَّلاثَ، أي: فمَلَّكْناها إيَّاهم[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ فُرِّعَ على خلْقِها للناسِ أنَّهم لها مالِكون قادرونَ على استعمالِها فيما يَشاؤون. وهذا إدماجٌ للامتنانِ في أثناءِ التَّذكيرِ[٣].

- وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (فهمْ مالِكوها) إلى قولِه: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾؛ لِيَتأتَّى التَّنكيرُ، فيُفِيدَ بتَعظيمِ المالِكينَ للأنعامِ الكِنايةَ عن تَعظيمِ المِلكِ، أي: بكَثرةِ الانتفاعِ، وهو ما أشارَ إليه تَفصيلًا وإجمالًا مِن قولِه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾، إلى قولِه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٦٩).

- وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾؛ لإفادةِ ثَباتِ هذا المِلكِ ودَوامِه[١].

- واللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿مَٰلِكُونَ﴾ مُقوِّيةٌ لِعَمَلِه، أي: فهُم مالِكون لها بتَمليكِنا إيَّاها لهمْ، مُتصَرِّفون فيها بالاستِقلالِ، مُختصُّون بالانتفاعِ بها، لا يُزاحِمُهم في ذلك غيرُهم[٢].

- وأيضًا تَقديمُ ﴿لَهَا﴾ على ﴿مَٰلِكُونَ﴾ الَّذي هو مُتعلَّقُه؛ لِزيادةِ استِحضارِ الأنعامِ عندَ السَّامِعينَ قبْلَ سَماعِ مُتعلَّقِه؛ لِيَقَعَ كِلاهما أمْكَنَ وَقْعٍ بالتَّقديمِ وبالتَّشويقِ، وقَضى بذلك أيضًا رِعايةُ الفاصلةِ[٣].

- وفي خلالِ هذا الامتنانِ إدماجُ شَيءٍ مِن دَلائلِ الانفرادِ بالتَّصرُّفِ في الخلْقِ المبطِلةِ لإشراكِهم إيَّاه غيرَه في العِبادةِ؛ وذلك في قولِه: ﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾، وقولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾، وقولِه: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾، وقولِه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ﴾؛ لأنَّ معناهُ: أودَعْنا لهمْ في أضْراعِها ألبانًا يَشرَبونها، وفي أبدانِها أوبارًا وأشْعارًا يَنتفِعون بها[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾

- وقولُه: ﴿لَهُمْ﴾ هو مَحلُّ الامتِنانِ، أي: لِأجْلِهم؛ فإنَّ جميعَ المنافعِ الَّتي على الأرضِ خَلَقها اللهُ لِأجْلِ انتفاعِ الإنسانِ بها؛ تَكرِمةً له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٨، ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٧، ٦٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ الفاءُ فيه لِتَفريعِ أحكامِ التَّذليلِ على التَّذليلِ وتَفصيلِها، أي: فبَعضٌ منها رَكوبُهم، أي: مَركوبُهم، أي: مُعظَمُ مَنافِعِها الرُّكوبُ، وعدَمُ التَّعرُّضِ للحمْلِ؛ لِكَونِه مِن تَتِمَّاتِ الرُّكوبِ[١].

- وتَقديمُ المَجرورَينِ بـ (مِن) ﴿فَمِنْهَا﴾ ﴿وَمِنْهَا﴾ على ما حَقُّهما أنْ يَتأخَّرَا عنهما؛ لِزيادةِ استِحضارِ الأنعامِ عندَ السَّامعينَ قبْلَ سَماعِ مُتعلَّقِه؛ لِيَقَعَ كلاهما أمكَنَ وَقْعٍ بالتَّقديمِ وبالتَّشويقِ، وقَضى بذلك أيضًا رِعايةُ الفاصلةِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ بعْدَ أنْ ذَكَّرَهم بنِعَمِ اللهِ، فرَّعَ على هذا التَّذكيرِ والامتِنانِ قولَه: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ استِفهامًا تَعجُّبيًّا؛ لِتَرْكِهم تَكريرَ الشُّكرِ على هذه النِّعَمِ العِدَّةِ؛ فلذلك جِيءَ بالمُضارِعِ ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ المفيدِ للتَّجديدِ والاستِمرارِ؛ لأنَّ تلك النِّعمَ مُتتاليةٌ مُتعاقبةٌ في كلِّ حينٍ، وإذ قد عُجِبَ مِن عَدَمِ تَكريرِهم الشُّكرَ، كانت إفادةُ التَّعجيبِ مِن عدَمِ الشُّكرِ مِن أصْلِه بالفَحوى[٣]؛ ولذلك أعْقَبَه بقولِه: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً﴾[٤] [يس: ٧٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ المقصودُ مِن الإخبارِ باتِّخاذِهم آلهةً مِن دُونِ اللهِ: التَّعجُّبُ مِن جَرَيانِهم على خِلافِ حقِّ النِّعمةِ، ثمَّ مُخالَفةِ مُقْتضَى دَليلِ الوَحدانيَّةِ المُدمَجِ في ذِكرِ النِّعَمِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أُظهِرَ اسمُ الجلالةِ هنا ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٩).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٦٩، ٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٧٠).

ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾، وأُظهِرَ كذلك في سُورةِ (مَريمَ): ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾ [مريم: ٨١]، بَيْنَما أُضمِرَ في سُورةِ (الفرقانِ): ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان: ٣]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الإتيانَ باسمِ الجلالةِ العَلَمِ دونَ ضَميرٍ في قولِه: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِمَا يُشعِرُ به اسمُه العَلَمُ مِن عَظَمةِ الإلهيَّةِ؛ إيماءً إلى أنَّ اتِّخاذَهم آلهةً مِن دُونِه جَراءةٌ عظيمةٌ؛ لِيَكونَ ذلك تَوطئةً لقولِه بعْدَه: ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ﴾ [يس: ٧٦]، أي: فإنَّهم قالوا ما هو أشدُّ نُكْرًا، وأمَّا الإضمارُ في قولِه في سُورةِ (الفُرقانِ): ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾؛ فلأنَّه تَقدَّمَ ذِكرُ انفرادِه بالإلهيَّةِ صَريحًا مِن قولِه: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[1] [الفرقان: ٢].

- قولُه: ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ وقَعَتْ (لعلَّ) فيه مَوقعًا غيرَ مأْلوفٍ؛ لأنَّ شأْنَ (لعلَّ) أنْ تُفيدَ إنشاءَ رَجاءِ المتكلِّم بها، وذلك غيرُ مُستقيمٍ هنا، فيَتعيَّنُ: إمَّا أنْ يكونَ شُبِّهَ شأْنُ اللهِ فيما أخبَرَ عنهم بحالِ مَن يَرْجو مِن المخبَرِ عنْهم أنْ يَحصُلَ لهم خبَرُ (لعلَّ)، وذِكرُ حَرْفِ (لعلَّ) رَمزٌ لِرَديفِ المشبَّهِ به؛ فتَكون جُملةُ ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴾ مُعترِضةً بيْن ﴿ءَالِهَةً ﴾ وبيْن صِفَتِه، وهي جُملةُ ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ ﴾، وإمَّا أنْ يكونَ الكلامُ جَرَى على معنى الاستِفهامِ، وهو استفهامٌ إنكاريٌّ أو تَهكُّميٌّ، والجُملةُ مُعترِضةٌ أيضًا. وإمَّا أنْ يُجعَلَ الرَّجاءُ مُنصرِفًا إلى رَجاءِ المخبَرِ عنهم، أي: راجينَ أنْ تَنصُرَهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٠). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ١٠٨٦).

تلك الآلهةُ، وعلى تَقديرِ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: قائلينَ: لعلَّنا نُنصَرُ، وحُكِيَ ﴿يُنصَرُونَ﴾ بالمعنى على أحَدِ وَجهينِ في حِكايةِ الأقوالِ، تقولُ: قال: أفعَلُ كذا، وقال: يَفعَلُ كذا، وتكون جُملةُ ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ استئنافًا للرَّدِّ عليهم. وإمَّا أنْ تَجعلَ (لعلَّ) للتَّعليلِ؛ فتكونَ جُملةُ ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ استئنافًا، والمقصودُ الإشارةُ إلى أنَّ الكُفَّارَ يَزعُمون أنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لهم عندَ اللهِ في أُمورِ الدُّنيا، وهمْ سالِكون في هذا الزَّعمِ مَسلَكَ ما يأْلَفونَه مِن الاعتزازِ بالمُوالاةِ والحِلْفِ بيْنَ القبائلِ والانتماءِ إلى قادتِهم، فبِمقدارِ كَثرةِ المَوالي تكونُ عِزَّةُ القبيلةِ، فقاسوا شُؤونَهم مع ربِّهم على شُؤونِهم الجاريةِ بيْنَهم، وقِياسُ أُمورِ الإلهيَّةِ على أحوالِ البَشرِ مِن أعمَقِ مَهاوي الضَّلالةِ[1]!

٥- قولُه تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ استِئنافٌ سِيقَ لِبَيانِ بُطلانِ رأْيِهم، وخَيبةِ رَجائِهم، وانعكاسِ تَدبيرِهم[2].

- وأُجْرِيَ على الأصنامِ ضَميرُ جمْعِ العُقلاءِ في قولِه: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ...﴾؛ لأنَّهم سَمَّوْهم بأسماءِ العُقلاءِ، وزَعَموا لهم إدراكًا[3].

- قوله: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: والمشركون جُندٌ لأصنامِهم مُحْضَرون لخِدْمتِها. وقيل: ضَميرُ ﴿لَهُمْ﴾ للمُشركينَ، أي: والأصنامُ للمُشرِكين جُندٌ مُحضَرونَ، وهذا تأْييسٌ للمشركينَ مِن نفْعِ أصنامِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا إخبارًا عن حالِهم مع أصنامِهم في الدُّنيا وفي الآخرةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ على القولِ بأنَّ الآلهةَ للكُفَّارِ جُندٌ فقد سمَّاهم جُندًا؛ إذ همْ مُعَدَّون للنِّقمةِ مِن عابِديهم وللتَّوبيخِ[١].

- وفيه وَعيدٌ بعذابٍ لا يَجِدون منه مَلْجأً[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ لِتَرتيبِ النَّهيِ على ما قبْلَه، وهو عِبارةٌ عن خُسرانِهم، وحِرمانِهم عمَّا عَلَّقوا به أطماعَهم الفارغةَ، وانعكاسِ الأمْرِ عليهم بتَرتيبِ الشَّرِّ على ما رتَّبوه لِرجاءِ الخَيرِ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يُهوِّنُ الخَطْبَ، ويُورِثُ السَّلوةَ[٣].

- والنَّهيُ عن الحُزنِ في قولِه: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ نَهْيٌ عن سَببِه؛ وهو اشتِغالُ بالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإعراضِهم عن قَبولِ الدِّينِ الحقِّ، وهو يَستلزِمُ الأمْرَ بالأسبابِ الصَّارفةِ للحُزنِ عن نفْسِه؛ مِن التَّسلِّي بعِنايةِ اللهِ تعالى، وعِقابِه مَن ناوَؤُه وعادَوه، واستِحضارِ صُورةِ حالِه وحالِهم في الآخِرةِ؛ حتَّى يَنقشِعَ عنه الهمُّ، ولا يُرهِقُه الحزنُ، وفي هذا تأْنيسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والنَّهيُ وإنْ كان بحسَبِ الظَّاهرِ مُتوجِّهًا إلى قولِهم، لكنَّه في الحَقيقةِ مُتوجِّهٌ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَهيٌ له عليه السَّلامُ عن التَّأثُّرِ منه بطَريقِ الكِنايةِ على أبلَغِ وَجهٍ وآكَدِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإضافةُ في قولِه: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ مِن إضافةِ اسمِ الجِنسِ؛ فيَعُمُّ، أي: فلا تَحْزُنْك أقوالُهم في الإشراكِ، وإنكارِ البَعثِ، والتَّكذيبِ، والأذَى للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمنينَ؛ ولذلك حُذِفَ المَقولُ، أي: لا يَحْزُنْك قولُهم الَّذي مِن شأْنِه أنْ يَحْزُنَك[١].

- قولُه: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن الحُزنِ لِقَولِهم[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ تَعميمٌ؛ لِجَعْلِ التَّعليلِ تَذييلًا أيضًا[٣].

- وكذلك في قولِه: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كِنايةٌ عن مُؤاخَذتِهم بما يَقولون، أي: إنَّا مُحْصُون عليهم أقوالَهم، وما تُسِرُّه أنفُسُهم ممَّا لا يَجْهَرون به، فنُؤاخِذُهم بذلك كلِّه بما يُكافِئُه مِن عِقابِهم ونَصْرِك عليهم، ونحوِ ذلك[٤]، وفيه مِن التَّهديدِ ما هو ظاهِرٌ؛ فاللهُ تعالى يَعلَمُ ما يُسِرُّونَه وما يُعلِنونَه، وسوف يُجازيهم على ذلك يومَ القيامةِ[٥].

- وتَقديمُ السِّرِّ على العَلَنِ في قولِه: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾؛ إمَّا للمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلْمِه تعالى لِجَميعِ المعلوماتِ، وفي هذا المعنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٨٨).

لا يَختلِفُ الحالُ بيْن الأشياءِ البارزةِ والكامنةِ. وإمَّا لأنَّ مَرتبةَ السِّرِّ مُتقدِّمةٌ على مَرتبةِ العلَنِ؛ إذ ما مِن شَيءٍ يُعلَنُ إلَّا وهُو أو مَباديهِ مُضمَرٌ في القلْبِ قبْلَ ذلك؛ فتَعلُّقُ عِلْمِه تعالى بحالتِه الأُولى مُتقدِّمٌ على تَعلُّقِه بِحالتهِ الثَّانيةِ حَقيقةً، أو قدَّمَ السِّرَّ للاهتمامِ به[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٣).

## الآيات (٧٧-٨٢)

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نُّطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي قَلَّ أو كَثُر، وقيل: الماءُ القليلُ، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[1].

﴿خَصِيمٌ﴾: أي: مُخاصِمٌ جَدِلٌ بالباطِلِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على المُنازَعةِ[2].

﴿رَمِيمٌ﴾: أي: باليةٌ، وأصلُ (رمم): يدُلُّ على بلاءِ الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٦).

قال الشنقيطي: (النُّطْفة مختلِطةٌ مِن ماءِ الرَّجلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لِمَنْ زَعَم أنَّها مِن ماءِ الرَّجُلِ وحْدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدَّليلَ على ذلك في موضعٍ آخَرَ، فقال: (بدليلِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِن ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤١)، =

﴿مَلَكُوتُ﴾: أي: ملْكُ، أو هو أعظَمُ الملكِ، وهو مختصٌّ بملكِ الله تعالى، والمَلَكوتُ مَصدرٌ مِن المُلْكِ، كالرَّغَبوتِ مِنَ الرَّغبةِ، والرَّهَبوتِ مِن الرَّهبةِ؛ زِيدَتْ فيه الواوُ والتاءُ، وبُنِيَ على (فَعَلُوت)، وهو بِناءُ مُبالَغةٍ؛ وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ، وصحَّةٍ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يَختِمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ بإقامةِ الأدلَّةِ على كمالِ قدرتِه، وعلى أنَّ البعثَ حقٌّ، فيقولُ: أوَلم يَرَ الإنسانُ المكذِّبُ بالبَعثِ أنَّا خلَقْناه مِن مَنيٍّ، فإذا هو بالغُ الخُصومةِ، والجَدلِ بالباطِلِ، مُبينٌ عما يريدُه؟! ولم يَكتَفِ بذلك، بل ضرَبَ لنا مَثَلًا، فأنكَر قُدرتَنا على إحياءِ الموتَى، وعلى بَعثِهم يومَ القيامةِ، فقال -دونَ أن يَفطُنَ إلى أصلِ خِلقتِه-: مَن يُحيي العِظامَ وهي باليةٌ؟!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالرَّدِّ عليه، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهذا المُنكِرِ للبَعثِ: يُحييها اللهُ تعالى الَّذي أوجَدَها مِن العدَمِ أوَّلَ مَرَّةٍ، وهو عليمٌ بخَلقِه، وهو الَّذي جعَلَ لكم مِن الشَّجَرِ الرَّطْبِ الأخضَرِ نارًا مُحرِقةً، فإذا أنتم مِن هذا الشَّجرِ تُوقِدونَ النَّارَ!

أوَلَيس اللهُ الَّذي خلق السَّمَواتِ والأرضَ بقادِرٍ على أن يُعيدَ خَلْقَ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم؟! بلى قادِرٌ سُبحانَه على أن يَبعَثَهم، وهو الكثيرُ الخَلقِ لِما يَشاءُ خَلْقَه،

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

الواسِعُ العِلمِ، فلا يخفى عليه شَيءٌ سُبحانَه. إنَّما أمرُه تعالى إذا أراد إيجادَ شَيءٍ أن يقولَ له: كُنْ، فإذا هو كائِنٌ في الحالِ.

ثمَّ يختِمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ بتنزيهِه عن كلِّ نقصٍ، فيقولُ: فتَنَزَّهَ اللهُ الَّذي بيَدِه مُلكُ كُلِّ شَيءٍ، وإليه وَحْدَه تُرجَعونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم على أعمالِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالى دليلًا على عِظَمِ قُدرتِه، ووُجوبِ عِبادتِه، بقَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: ٧١]؛ ذكَرَ دليلًا مِن الأنفُسِ أبْيَنَ مِن الأوَّلِ[١].

وأيضًا لَمَّا أُبطِلَت شُبَهُ المشرِكينَ في إشراكِهم بعِبادةِ اللهِ، وإحالتِهم قُدرتَه على البَعثِ، وتَكذيبِهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في إنبائِه بذلك إبطالًا كُلِّيًّا؛ عُطِفَ الكلامُ إلى جانبِ تَسفيهِ أقوالٍ جُزْئيَّةٍ لِزُعماءِ المكذِّبين بالبَعثِ؛ تَوبيخًا لهم على وَقاحَتِهم، وكُفْرِهم بنِعمةِ ربِّهم[٢].

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

أي: أوَلم يَرَ الإنسانُ المكذِّبُ بالبَعثِ أنَّا خلَقْناه مِن مَنِيٍّ، ثمَّ تنقَّل في الأطوارِ شيئًا فشيئًا، حتَّى كَبِرَ، وتمَّ عقلُه، فإذا هو بالِغُ الخُصومةِ، وفي غايةِ البيانِ عَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٣).

يُريدُه، حتَّى إنَّه لَيُجادِلُ مَن أعطاه العَقلَ والقُدرةَ، مُنكِرًا قُدرتَه على إحيائِه ثانيةً[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا * أَوَلَا يَذْكُرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٨٩).

وقد ذهب جمهورُ المفَسِّرينَ -كما قال ابنُ الجوزيِّ- إلى أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا، وفي الآيةِ الَّتي بعدَها: أُبَيُّ بنُ خَلَفٍ، وصحَّحه ابنُ عطيَّةَ، وذهَبَ سعيدُ بنُ جُبَيرٍ إلى أنَّه العاصِ بنُ وائلٍ. والأوَّلُ أشهَرُ كما قال السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((سيرة ابن هشام)) (١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٣).

وقال ابن كثير: (وعلى كُلِّ تقديرٍ -سواءٌ كانت هذه الآياتُ قد نزلت في أُبيِّ بنِ خلفٍ، أو في العاصِ بنِ وائلٍ، أو فيهما- فهي عامَّةٌ في كُلِّ مَن أنكر البَعثَ، والألِفُ واللَّامُ في قَولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ للجِنسِ؛ يعُمُّ كُلَّ مُنكِرٍ للبَعثِ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٤).

وقال الشوكاني: (والإنسانُ المذكورُ في الآيةِ المرادُ به جنسُ الإنسانِ، كما في قولِه: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾، ولا وجْهَ لتخصيصِه بإنسانٍ مُعَيَّنٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٣٩).

وقال الشنقيطي: (قولُه: ﴿مُّبِينٌ﴾ على أنَّه اسمُ فاعلِ «أَبَانَ» المُتعدِّيةِ، والمفعولُ محذوفٌ للتَّعميم، أي: مُبينٌ كُلَّ ما يُريدُ بيانَه وإظهارَه بلسانِه مِمَّا في ضميرِه؛ وذلك لأنَّ رَبَّه عَلَّمَه البيانَ، وعلى أنَّه صفةٌ مُشَبَّهةٌ مِن «أَبَانَ» اللَّازمةِ، وأنَّ المعنَى ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بيِّنُ الخصومةِ ظاهِرُها؛ فكذلك أيضًا؛ لأنَّه ما كان بَيِّنَ الخُصومةِ إلَّا لأنَّ اللهَ عَلَّمه البيانَ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٩٠).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: ظاهرُ الخصومةِ: السمعاني، وابنُ الجوزي، والعُليمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٩)، ((نفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٠٠).

وقال البِقاعي: (بَيِّنُ القدرةِ على الخِصامِ، وموضحٌ لِما يُريدُه غايةَ الإيضاحِ). ((نظم الدرر)) (١١/ ١٠٧).

ٱلۡإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ يَكُ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٦٦، ٦٧].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾.

أي: ومثَّلَ الكافِرُ بشَيءٍ يُريدُ به إنكارَ البَعثِ، ونَسِيَ[1] ابتِداءَ خَلقِ اللهِ له مِن نُطفةٍ -فمَن قَدَر على ذلك فهو قادِرٌ على بَعثِه-؛ فقال مُستبعِدًا ذلك: مَن الَّذي يَقدِرُ على إحياءِ عِظامِ الموتى بعدَما بَلِيَت، وصارت ترابًا تَذْرُوه الرِّياحُ، فيَتلاشَى[2]؟!

﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾.

﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهذا المُنكِرِ للبَعثِ: الَّذي يُحيي العِظامَ هو الَّذي خلَقَها أوَّلَ مَرَّةٍ، ولم تكُنْ شَيئًا؛ فالَّذي قدَرَ على ابتِداءِ خَلقِها لن يَعجِزَ عن إعادتِها مرَّةً أُخرى[3]!

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عَليمٌ بجَميعِ خَلقِه[4]، فيَعلَمُ كيف يُحييهم، وكيف يُميتُهم، ويَعلَمُ

---

(١) قال البِقاعي: (النِّسيانُ هنا يحتمِلُ أن يكونَ بمعنى الذُّهولِ، وأن يكونَ بمعنى التَّركِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٨)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٧٨، ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٢، ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٤، ٢٩٥).

(٤) قال ابن عثيمين: (هل الخَلقُ هنا بمعنى المخلوقِ أو بمعنى الفِعلِ؟... يحتمِلُ الأمْرَينِ، =

أين تفرَّقَت عِظامُهم، وتفتَّت أجسادُهم، لا يخفى عليه شَيءٌ مِن خَلقِه كائنًا ما كان[١].

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا ﴾.

أي: الَّذي يُحيي العِظامَ وهي رَميمٌ هو الَّذي خلَقَ بقُدرتِه مِن الشَّجَرِ الرَّطْبِ النَّدِيِّ البارِدِ نارًا يابِسةً مُحرِقةً[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٣].

---

= لكِنِ احتِمالُ الفِعلِ أكثَرُ، يعني: كلُّ خَلقٍ فاللهُ عليمٌ به، ومِن المعلومِ أنَّ العالِمَ بالخَلقِ عالمٌ بالمخلوقِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٩).

قيل: المرادُ أنَّ الَّذي قدَرَ على إخراجِ النَّارِ اليابسةِ مِن الشَّجَرِ الأخضَرِ الَّذي هو في غايةِ الرُّطوبةِ، مع تَضادِّهما وشِدَّةِ تخالُفِهما: فهو قادِرٌ على إخراجِ الموتى مِن قبورِهم، وإحيائِهم بعدَ موتِهم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٥٩)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١٣٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٩، ٣٠٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٩).

وقيل: المرادُ أنَّ الذي بدأ خَلْقَ هذا الشَّجرِ مِن ماءٍ حتَّى صار خَضِرًا نَضرًا ذا ثَمرٍ ويَنْعٍ، ثمَّ أعاده إلى أن صار حَطبًا يابِسًا تُوقَدُ به النَّارُ: كذلك هو فَعَّالٌ لِما يَشاءُ، قادِرٌ على ما يُريدُ، لا يَمْنَعُه شيءٌ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ١٩٦).

﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾.

أي: فإذا أنتم مِن هذا الشَّجَرِ تُوقِدونَ النَّارَ[١].

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تبيَّن الاستِدلالُ بخَلقِ أشياءَ على إمكانِ خَلقِ أمثالِها؛ ارتقَى في هذه الآيةِ إلى الاستِدلالِ بخَلقِ مَخلوقاتٍ عَظيمةٍ على إمكانِ خَلقِ ما دُونَها[٢].

وأيضًا بعْدَ أنْ ذكَرَ بَديعَ جَعْلِه مِن الشَّجرِ الأخضَرِ نارًا؛ ذكَرَ ما هو أبدَعُ وأغرَبُ مِن خلْقِ الإنسانِ مِن نُطْفةٍ، ومِن إعادةِ المَوتَى، وهو إنشاءُ هذه المخلوقاتِ العظيمةِ الغريبةِ مِن صِرْفِ العدَمِ إلى الوُجودِ، فقال[٣]:

﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾.

أي: أوَليس الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ السَّبْعَ والأرضَ بقادرٍ على أن يُعيدَ خَلْقَ النَّاسِ يَومَ القيامةِ؟ فاللهُ الَّذي لم يَعجِزْ عن خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ -وهي أعظَمُ مِن خَلقِ النَّاسِ- لن يَعجِزَ عن إحياءِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٠)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٥).

قال الزركشي: (قولُه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يظُنُّ بعضُهم أنَّ معناه: مِثل السَّمواتِ والأرضِ، وهو فاسدٌ؛ لوجهينِ: =

كما قال تعالى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾.

أي: بلى، اللهُ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ قادِرٌ على أن يَبعَثَهم يومَ القيامةِ أحياءً، وهو الكثيرُ الخَلقِ لِما يَشاءُ خَلْقَه، الواسِعُ العِلمِ؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه(١).

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾.

أي: إنَّما أمْرُ اللهِ إذا أراد إيجادَ أيِّ شَيءٍ أن يقولَ له مرَّةً واحِدةً بلا تَكرارٍ: كُنْ، فهو يكونُ في الحالِ كما أراد اللهُ، بلا تأخيرٍ؛ فإعادةُ إحياءِ الموتى أمرٌ هيِّنٌ ويَسيرٌ على اللهِ تعالى(٢).

---

= أحدُهما: أنَّهم ما أنكروا إعادةَ السَّمواتِ والأرضِ حتَّى يَدُلَّ على إنكارِهم إعادَتَهما بابتدائِهما، وإنَّما أنكروا إعادةَ أنفُسِهم، فكان الضَّميرُ راجعًا إليهم؛ لِيَتحَقَّقَ حصولُ الجوابِ لهم، والرَّدُّ عليهم. الثَّاني: لتَبَيُّنِ المرادِ في قولِه: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. فإنْ قِيل: إنَّما أثْبَت قُدرتَه على إعادةِ مِثْلِهم لا على إعادَتِهم أنفُسِهم؛ فلا دَلالةَ فيه عليهم. قُلْنا: المرادُ بمِثْلِهم: هُمْ، كما في قولِه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقولِهم: مِثلي لا يَفعلُ كذا، أي: أنا). ((البرهان في علوم القرآن)) (٤/ ٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٨/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٠٢، ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٠)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾.

أي: فتَنَزَّهَ اللهُ الَّذي بيَدِه مُلكُ كُلِّ شَيءٍ وخَزائِنُه: عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، وعَجزٍ وجَهلٍ؛ فهو يَتصرَّفُ في كلِّ شَيءٍ كما يَشاءُ[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨، ٨٩].

وقال سُبحانَه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١].

وعن عَوفِ بنِ مالِكٍ الأشْجَعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُمْتُ مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليلةً، فقام فقرأَ سورةَ البَقَرةِ، لا يَمُرُّ بآيةِ رَحمةٍ إلَّا وقَفَ فسَألَ، ولا يمُرُّ بآيةِ عذابٍ إلَّا وقَفَ فتعَوَّذَ. قال: ثمَّ ركَعَ بقَدْرِ قيامِه، يقولُ في رُكوعِه: سُبحانَ ذي الجَبَروتِ والمَلَكوتِ، والكِبرياءِ والعَظَمةِ. ثمَّ سجَدَ بقَدرِ قيامِه، ثمَّ قال في سُجودِه مِثلَ ذلك))[2].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٧٣)، والنسائي (١١٣٢)، وأحمد (٢٣٩٨٠).

صححه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٦٧)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٨٧٣)، وحسنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٧٤).

أي: وإلى اللهِ تُرَدُّونَ وتَصيرونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم بأعمالِكم[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ الخُصومةَ بالباطِلِ مَذمومةٌ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ سِيقَتْ مَساقَ الذَّمِّ لا مَساقَ المَدحِ، أمَّا الخُصومةُ لإثباتِ الحَقِّ وإبطالِ الباطِلِ فإنَّها ممدوحةٌ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[٢] [النحل: ١٢٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أنَّه ينبغي للمُستدِلِّ المُناظِرِ أنْ يأتيَ بالشَّيءِ الَّذي يُقِرُّ به خَصْمُه؛ مِن أجْلِ أنْ تَقومَ عليه الحُجَّةُ، والخَصمُ هنا لا يُنكِرُ أنَّ اللهَ تعالى أنشَأَها أوَّلَ مَرَّةٍ، وهذا أدبٌ مِن أدَبِ المناظرةِ؛ لأنَّه أقرَبُ إلى الإقناعِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ النِّداءُ على الإنسانِ بالظُّلمِ؛ وجْهُ ذلك: كيف يكونُ هذا الَّذي خُلِقَ مِن هذه النُّطفةِ يَبلُغُ به الحَدُّ إلى أن يكونَ خَصيمًا للهِ عزَّ وجلَّ بَيِّنَ الخُصومةِ؟! إنَّ الإنسانَ يجبُ عليه إذا نَظَرَ إلى أصلِه أنْ يَعرِفَ قَدْرَ نَفْسِه، لا أنْ يكونَ مُخاصِمًا لرَبِّه عزَّ وجلَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٠).

٢- إنَّ كُلَّ مَن عارَضَ الوَحيَ بالرَّأيِ والعَقلِ فهو مِن خُصَماءِ اللهِ تعالى؛ لأنَّه قد خاصَمَ اللهَ في الوَحيِ الَّذي أنزَلَه على رَسولِه، واحتَجَّ على بُطلانِه، ويكفي العبدَ خِذلانًا وجَهلًا وعَمًى أن يكونَ خَصْمَ ربِّه تبارك وتعالى؛ ولهذا أخبَرَ تعالى عن هؤلاء المعارِضينَ للكتابِ بعُقولِهم بذلك؛ قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ لطيفةٌ غَريبةٌ، وهي أنَّه تعالى قال: اختِلافُ صُوَرِ أعضائِه مع تَشابُهِ أجزاءِ ما خُلِقَ منه: آيةٌ ظاهِرةٌ، ومع هذا فهنالك ما هو أظهَرُ، وهو نُطقُه وفَهْمُه؛ وذلك لأنَّ النُّطفةَ جِسمٌ، فهَبْ أنَّ جاهِلًا يقولُ: إنَّه استَحالَ وتكَّونَ جِسمًا آخَرَ، لكِنَّ القُوَّةَ النَّاطِقةَ والقُوَّةَ الفاهِمةَ مِن أين تقتَضيهما النُّطفةُ؟! فإبداعُ النُّطقِ والفَهمِ أعجَبُ وأغرَبُ مِن إبداعِ الخَلقِ والجِسمِ، وهو إلى إدراكِ القُدرةِ والاختيارِ منه أقرَبُ؛ فقَولُه: ﴿خَصِيمٌ﴾ أي: ناطِقٌ، وإنَّما ذُكِرَ «الخصيمُ» مكانَ «النَّاطِق»؛ لأنَّه أعلى أحوالِ النَّاطِقِ؛ فإنَّ النَّاطِقَ مع نَفْسِه لا يُبِينُ كَلامَه مِثلَ ما يُبِينُه وهو يتكَلَّمُ مع غيرِه، والمتكَلِّمُ مع غيرِه إذا لم يكُنْ خَصمًا لا يُبِينُ ولا يَجتَهِدُ مِثلَ ما يَجتَهِدُ إذا كان كلامُه مع خَصْمِه، وقَولُه: ﴿مُّبِينٌ﴾ إشارةٌ إلى قُوَّةِ عَقلِه، واختار الإبانةَ؛ لأنَّ العاقِلَ عندَ الإفهامِ أعلى درجةً منه عندَ عَدَمِه؛ لأنَّ المُبينَ بانَ عندَه الشَّيءُ ثمَّ أبانَه؛ فقَولُه تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ إشارةٌ إلى أدنى ما كان عليه، وقَولُه: ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ إشارةٌ إلى أعلى ما حَصَل عليه[2].

٤- في هذه الآيةِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٨).

قبَّح اللهُ عزَّ وجَلَّ إنكارَهم البعْثَ تَقبيحًا لا تَرى أعجَبَ منه وأبلَغَ، وأدلَّ على تَمادي كُفْرِ الإنسانِ وإفراطِه في جُحودِ النِّعَمِ وعُقوقِ الأيادي، حيثُ قرَّرَه بأنَّ عُنْصُرَه الَّذي خلَقَه منه هو أخسُّ شَيءٍ وأمْهَنُه، وهو النُّطفةُ المَذِرَةُ الخارجةُ مِن الإحليلِ الَّذي هو قَناةُ النَّجاسةِ، ثمَّ عجَّبَ مِن حالِه بأنْ يَتصدَّى مِثلُه -على مَهانةِ أصْلِه، ودَناءةِ أوَّلِه- لِمُخاصَمةِ الجبَّارِ، ويُبْرِزَ صَفْحتَه لِمُجادَلتِه، ويَرْكَبَ مَتْنَ الباطلِ ويَلَجَّ، ويقولَ: مَن يَقدِرُ على إحياءِ الميِّتِ بعدَ ما رمت عِظامُه، ثمَّ يكونُ خِصامُه في ألْزَمِ وَصفٍ له وألْصَقِه به، وهو كَوْنُه مُنشَأً مِن مَواتٍ، وهو يُنكِرُ إنشاءَه مِن مَواتٍ، وهي المكابَرةُ الَّتي لا مَطمَحَ وَراءَها[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ...﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: دَليلٌ على استِعمالِ القياسِ والاعتِبارِ، والتَّعَلُّقِ بطَريقِ الأَولى؛ فإنَّ الابتداءَ أصعَبُ مِن الإعادةِ، والإعادةَ أيسَرُ مِن الابتداءِ، والقادِرُ على الأعظَمِ قادِرٌ على الأهوَنِ الأدوَنِ لا مَحالةَ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ أنَّ هذا الجاحِدَ لو ذَكَرَ خَلْقَه لَمَا ضرَبَ المَثَلَ، بل لَمَّا نَسِيَ خَلْقَه ضرَبَ المَثَلَ؛ فتَحْتَ قولِه: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ ألطَفُ جوابٍ، وأبيَنُ دَليلٍ، وهذا كما تقولُ لِمَن جَحَدَك أنْ تكونَ قد أعطَيْتَه شيئًا: فُلانٌ جَحَدَني الإحسانَ إليه، ونَسِيَ الثِّيابَ الَّتي عليهِ، والمالَ الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٥٥)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢١٧).

معه، والدَّارَ الَّتي هو فيها؛ حيث لا يُمكِنُه جَحْدُ أنْ يكونَ ذلك منك[١]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾، وقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٥] ما يدُلُّ على إنكارِهم لأصلِ يومِ القيامةِ. وفي سورةِ (يونُسَ) قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وهذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّهم يَرجُونَ شَفاعةَ أصنامِهم يومَ القيامةِ؟

**الجوابُ**: أنَّهم يَرجُونَ شَفاعتَها في الدُّنيا لإصلاحِ معاشِهم، وفي الآخِرةِ -على تقديرِ وُجودِها-؛ لأنَّهم شاكُّونَ فيها، ويدُلُّ له قَولُه تعالى عن الكافِرِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وقَولُه: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦]؛ لأنَّ «إن» الشَّرطيَّةَ تدُلُّ على الشَّكِّ في حُصولِ الشَّرطِ، ويدُلُّ له قَولُه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ في الآيتَينِ المذكورتينِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بيانُ قوَّةِ الإقناعِ في إقامةِ الحُجَّةِ مِن كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فأقوى ما يَسوقُ الحُجَجَ ويُبيِّنُها هو كلامُ اللهِ؛ لأنَّ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ أبلَغُ الكلامِ وأحسَنُه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]؛ فحديثُ اللهِ عزَّ وجلَّ لا شكَّ أنَّه أصدَقُ الحديثِ وأتَمُّه، وأحسَنُه في الإقناعِ، وإقامةِ الحُجَّةِ[٣].

٩- تعليقُ الإحياءِ بالعظامِ في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٩٦).

فيه دَلالةٌ على أنَّ عِظامَ الحيِّ تحلُّها الحياةُ -كلَحْمِه ودَمِه-، وليست بمنزلةِ القصبِ والخشبِ؛ ولذلك تَنجسُ عِظامُ الحيوانِ الَّذي مات دونَ ذكاةٍ[١].

١٠- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ فيه بيانُ نعمةِ اللهِ علينا بجَعْلِه مِن الشَّجرِ الأخضرِ نارًا؛ ووجْهُ الدَّلالةِ أنَّه قال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾، وقد قَرَّرَ اللهُ هذه النِّعمةَ بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢]، ولا أحدَ يُنْكِرُ ما في الطَّاقةِ الحراريَّةِ مِن المنافعِ العظيمةِ للخَلْقِ، فأنواعُها -بل أجناسُها- لا تُحصَى، فضلًا عن أفرادِها[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ دَليلٌ على تمامِ قُدرتِه، وإخراجِ الأمواتِ مِن قُبورِهم، كما أخرَجَ النَّارَ مِن الشَّجَرةِ الخَضراءِ، وفي ذلك جوابٌ عن شُبهةِ مَن قال مِن مُنكِري المعادِ: «الموتُ باردٌ يابسٌ، والحياةُ طَبعُها الرُّطوبةُ والحَرارةُ؛ فإذا حَلَّ الموتُ بالجِسمِ لم يمكنْ أنْ تَحُلَّ فيه الحياةُ بعدَ ذلك؛ لِتَضادِّ ما بيْنَهما»! وهذه شبهةٌ تَليقُ بعقولِ المُكَذِّبينَ الَّذين لا سَمْعَ لهم ولا عقْلَ؛ فإنَّ الحياةَ لا تُجامِعُ الموتَ في المَحَلِّ الواحدِ لِيَلزَمَ ما قالوا، بل إذا أوجَدَ اللهُ فيه الحياةَ وطَبْعَها ارتفعَ الموتُ وطَبعُه[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ الاستِدلالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٦). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٨). والقولُ بنجاسةِ عِظامِ المَيْتةِ هو مذهبُ الجمهورِ: المالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (١/ ٨٩)، ((المجموع)) للنووي (١/ ٢٣٦)، ((الإنصاف)) للمرداوي (١/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٠).

بالأشَدِّ على الأخَفِّ؛ لأنَّ التَّنافُرَ بيْنَ الرَّطْبِ واليابسِ والحارِّ والباردِ: أعظَمُ مِن أنْ يُعادَ الخَلْقُ، أو تُعادَ العِظامُ بعدَ رَميمِها؛ فالقادِرُ على هذا الشَّيءِ قادِرٌ على إحياءِ الموتى(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ تقريرُ الشَّيءِ بالواقعِ، فبدَلًا مِن أنْ نُلْقِيَه تَصَوُّرًا في الذِّهنِ؛ نَذْكُرُ واقعَه بالفعلِ، فهو سُبحانَه وتعالى بَيَّنَ أنَّه جَعَلَ لنا مِن الشَّجرِ الأخضرِ نارًا، ثمَّ حَقَّقَ ذلك بذِكْرِ الأمرِ الواقعِ ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي: تُحِسُّونه بواقعِكم، وتَلْمُسُونه بأيديكم(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ جوازُ إجابةِ السَّائلِ نَفْسَه في الأمرِ المُحَقَّقِ المُتقرِّرِ(٣).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كثيرًا ما يَقرِنُ تعالى بيْن خَلقِه وعِلمِه؛ لأنَّ خَلْقَ المخلوقاتِ مِن أقوى الأدِلَّةِ العَقليَّةِ على عِلمِ خالِقِها وحِكمتِه(٤).

١٦- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه في القُدرةِ كامِلٌ، وفي قَولِه تعالى: ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ عِلمَه شامِلٌ(٥).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أنَّ القرآنَ غيرُ مخلوقٍ؛ فلو كان «كُنْ» مخلوقةً لَزِمَ ألَّا يُوجَدَ شَيءٌ مِن المخلوقاتِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٠٩).

لأنَّ «كُنْ» تكونُ مخلوقةً بـ «كُنْ» أُخرى، وهَلُمَّ جرًّا، فلا يُوجَدُ شَيءٌ[١]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ إثباتُ القَولِ والكلامِ للهِ، وأنَّه يكونُ بحَرفٍ؛ لِقَولِه: ﴿كُن﴾؛ فإنَّ «كُنْ» كَلِمةٌ مُكَوَّنةٌ مِن حَرفينِ، وفيه أيضًا إثباتُ أنَّه بصوتٍ؛ لِقَولِه: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، فهذا الخِطابُ مُوَجَّهٌ لِمَا أرادَه اللهُ، وهو يقتضي أنْ يكونَ هذا المرادُ سامِعًا لهذا القَولِ، ولا سماعَ إلَّا بصَوتٍ، فيكونُ في الآيةِ رَدٌّ على قولِ الأشاعرةِ في كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيث يقولون: إنَّ كلامَ اللهِ هو المعنى القائِمُ بنَفْسِه، وأنَّ ما يُسمَعُ مِن الأصواتِ والحروفِ هو عبارةٌ عن كلامِ الله! ويَرَونَ أنَّ هذا المسموعَ مَخلوقٌ[٢]!

١٩- أنَّ الصِّفةَ قد تكونُ ذاتيَّةً فِعليَّةً باعتبارين، كالكلامِ؛ فإنَّ الكلامَ باعتبارِ أصْلِه صِفةٌ ذاتيَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ ولا يَزالُ مُتكَلِّمًا، وباعتبارِ آحادِ الكلامِ صِفةٌ فِعليَّةٌ؛ لأنَّ الكلامَ يَتعلَّقُ بمشيئتِه سُبحانَه؛ يَتكلَّمُ متى شاء بما شاء، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ كلامٌ مُستأْنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ بُطلانِ إنكارِهم البعْثَ بعْدَ ما شاهَدوا في أنفُسِهم أوضَحَ دَلائلِه وأعدَلَ شَواهِدِه، والهمزةُ للإنكارِ والتَّعجُّبِ، والواوُ للعَطفِ عَلى جُملةٍ مُقدَّرةٍ

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٨٧).

هي مُسْتتبِعةٌ للمَعطوفِ، أي: ألمْ يَتفكَّرِ الإنسانُ ولم يَعلَمْ عِلمًا يَقينيًّا ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ ...﴾ إلخ، أو هي عَيْنُ الجُملةِ السَّابقةِ؛ أُعيدتْ تأْكيدًا للنَّكيرِ السَّابقِ، وتَمْهيدًا لإنكارِ ما هو أحقُّ منه بالإنكارِ والتَّعجُّبِ؛ لِمَا أنَّ المنكَرَ هناك عدَمُ عِلْمِهم بما يَتعلَّقُ بخَلْقِ أسبابِ مَعايِشِهم، وهاهنا عدَمُ عِلْمِهم بما يَتعلَّقُ بخَلْقِ أنفُسِهم، ولا رَيْبَ في أنَّ عِلْمَ الإنسانِ بأحوالِ نفْسِه أهَمُّ، وإحاطتَه بها أسهَلُ وأكمَلُ؛ فالإنكارُ والتَّعجُّبُ مِن الإخلالِ بذلك أدخَلُ، كأنَّه قِيل: ألمْ يَعلَمُوا خَلْقَه تعالى لأسبابِ مَعايِشِهم، ولم يَعلَمُوا خَلْقَه تعالى لأنفُسِهم أيضًا، مع كَونِ العِلمِ بذلك في غايةِ الظُّهورِ ونهايةِ الأهمِّيَّةِ؟! على معنَى أنَّ المنكَرَ الأوَّلَ بَعيدٌ قَبيحٌ، والثَّانيَ أبعَدُ وأقبحُ. ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ لِعَطْفِ الجُملةِ الإنكاريَّةِ الثَّانيةِ على الأُولى، على أنَّها مُتقدِّمةٌ في الاعتِبارِ، وأنَّ تَقدُّمَ الهمزةِ عليها لاقتِضائِها الصَّدارةَ في الكلامِ[1].

- وإيرادُ الإنسانِ في ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ مَوردَ الضَّميرِ؛ لأنَّ مَدارَ الإنكارِ مُتعلِّقٌ بأحوالِه مِن حيثُ هو إنسانٌ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[2] [مريم: ٦٧].

- وذِكْرُ النُّطفةِ في قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ تَمهيدٌ للمُفاجأةِ بكَونِه خَصيمًا مُبينًا عقِبَ خلْقِه، أي: ذلك الهيِّنُ المَنشأِ قد أصبَحَ خَصيمًا عَنيدًا، ولِيُبْنَى عليه قولُه بعْدُ: ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾، أي: نسِيَ خلْقَه الضَّعيفَ فتَطاوَلَ وجاوَزَ، ولأنَّ خلْقَه مِن النُّطفةِ أعجَبُ مِن إحيائِه وهو عَظْمٌ؛ مُجاراةً لِزَعْمِه في مِقدارِ الإمكانِ، وإنْ كان اللهُ يُحْيي ما هو أضعَفُ مِن العِظامِ، فيُحْيِي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٠).

الإنسانَ مِن رَمادِه، ومِن تُرابِه، ومِن عَجْبِ ذَنَبِه[١]، ومِن لا شَيءَ باقيًا منه[٢].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ عطْفٌ على الجُملةِ المنفيَّةِ، داخِلٌ في حيِّزِ الإنكارِ والتَّعجُّبِ، كأنَّه قِيل: أولمْ يرَ أنَّا خلَقْناهُ مِن أخَسِّ الأشياءِ وأمْهَنِها، ففاجَأَ خُصومَتَنا في أمْرٍ يَشهَدُ بصِحَّتِه وتَحقُّقِه مَبدأُ فِطرتِه شَهادةً بيِّنةً. وإيرادُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على استِقرارِه في الخُصومةِ، واستمرارِه عليها. وقِيل: معنى قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾: فإذا هو بعْدَما كان ماءً مَهينًا رجُلٌ مُميِّزٌ مِنْطِيقٌ قادرٌ على الخِصامِ مُبينٌ، مُعرِبٌ عمَّا في نفْسِه فصيحٌ؛ فهو حينَئذٍ مَعطوفٌ على ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾، غيرُ داخلٍ تحتَ الإنكارِ والتَّعجُّبِ، بلْ هو مِن مُتمِّماتِ شَواهدِ صِحَّةِ البعثِ[٣].

- و(إذا) في قولِه: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ للمُفاجأةِ، ووَجْهُ المُفاجأةِ: أنَّ ذلك الإنسانَ خُلِقَ لِيَعبُدَ اللهَ، ويَعلَمَ ما يَلِيقُ به، فإذا لمْ يَجْرِ على ذلك فكأنَّه فاجَأَ بما لمْ يكُنْ مُترَقَّبًا منه، مع إفادةِ أنَّ الخُصومةَ في شُؤونِ الإلهيَّةِ كانتْ بما بادَرَ به حين عَقَلَ[٤].

- والخَصيمُ فَعِيلٌ؛ مُبالَغةٌ في معنى مُفاعِلٍ، أي: مُخاصِمٌ شَديدُ الخِصامِ، والمرادُ بـ﴿خَصِيمٌ﴾ في تلك الآيةِ: أنَّه شَديدُ الشَّكيمةِ بعْدَ أنْ كان أصْلُه نُطْفةً[٥].

---

(١) عَجْبُ الذَّنَبِ: العَظمُ بيْنَ الألْيَتَينِ الَّذي في أسفَلِ الصُّلْبِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ... ﴾ مَعطوفٌ على الجُملةِ المنفيَّةِ، داخلٌ في حيِّزِ الإنكارِ والتَّقبيحِ، أو عطْفٌ على الجُملةِ الفُجائيَّةِ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾، والمعنى: ففاجأَ خُصومتَنا ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ﴾، أي: أوْرَدَ في شأْنِنا قصَّةً عَجيبةً في نفْسِ الأمْرِ، هي في الغرابةِ والبُعدِ عن العُقولِ كالمَثَلِ، وهي إنكارُ إحيائِنا العِظامَ، أو قِصَّةً عَجيبةً في زَعْمِه، واستَبْعدَها وعَدَّها مِن قَبيلِ المَثَلِ، وأنْكَرَها أشدَّ الإنكارِ، وهي إحياؤُنا إيَّاها؛ فالمَثَلُ على الأوَّلِ هو إنكارُ إحيائِه تعالى للعِظامِ؛ فإنَّه أمْرٌ عَجيبٌ في نفْسِ الأمْرِ، حَقيقٌ لِغَرابتِه وبُعْدِه مِن العقولِ بأنْ يُعَدَّ مثَلًا ضَرورةَ جَزْمِ العقولِ ببُطلانِ الإنكارِ ووُقوعِ المنكَرِ؛ لكَونِه كالإنشاءِ، بلْ أهْوَنُ منه في قياسِ العقلِ، وعلى الثَّاني هو إحياؤُه تعالى لها؛ فإنَّه أمرٌ عَجيبٌ في زَعْمِه قد استَبْعدَهُ وعَدَّه مِن قَبيلِ المثَلِ، وأنْكَرَه أشدَّ الإنكارِ، مع أنَّه في نفْسِ الأمْرِ أقرَبُ شَيءٍ مِن الوُقوعِ؛ لِكَونِه مِثلَ الإنشاءِ أو أهْوَنَ منه، وأمَّا على الثَّالثِ فلا فرْقَ بيْن أنْ يكون المَثَلُ هو الإنكارَ أو المنكَرَ[1].

وقيل: المَثَلُ: تمثيلُ الحالةِ، فالمعنَى: وأظهَر للنَّاسِ وأتَى لهم بتشبيهِ حالِ قُدرتِنا بحالِ عَجْزِ النَّاسِ؛ إذ أحال إحياءَنا العِظامَ بعدَ أن أرَمَّتْ، فهو كقولِه تعالى: ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [النحل: ٧٤]، أي: لا تُشَبِّهوه بخَلْقِه فتَجعَلوا له شركاءَ؛ لوُقوعِه بعدَ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[2][النحل: ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٤، ٧٥).

- وقولُه: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ ضَرْبِهِ المثَلَ، كأنَّه قِيل: أيَّ مَثَلٍ ضرَبَ؟ أو ماذا قال؟ فقِيل: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾[1].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، مُؤكَّدٌ بقولِه: ﴿وَهِيَ رَمِيمٞ﴾، و﴿مَن﴾ عامَّةٌ في كلِّ مَن يُسنَدُ إليه الخبَرُ؛ فالمعنى: لا أحَدَ يُحْيي العِظامَ وهي رَميمٌ، تَعْجيزًا للهِ تعالى، وتَشبيهًا له بخلْقِه في أنَّهم غيرُ مَوصوفينَ بالقُدرةِ عليه؛ فشَمِلَ عُمومُه إنكارَهم أنْ يكونَ اللهُ تعالى مُحْيِيًا للعِظامِ وهي رَميمٌ، أي: في حالِ كَونِها رَميمًا، وهو بَيانٌ لِجُملةِ ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا﴾[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجَوابٍ على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ بحمْلِ استِفهامِ القائلِ على خِلافِ مُرادِه؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ لم يكُنْ قاصِدًا تَطلُّبَ تَعيينِ المُحْيي، وإنَّما أراد الاستِحالةَ، فأُجيبَ جَوابَ مَن هو مُتطلِّبٌ عِلْمًا، فقِيل له: ﴿يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾؛ فلذلك بُنِيَ الجوابُ على فِعلِ الإحياءِ مُسنَدًا للمُحْيي، على أنَّ الجوابَ صالحٌ لأنْ يكونَ إبطالًا للنَّفيِ المرادِ مِن الاستفهامِ الإنكاريِّ، كأنَّه قِيل: بلْ يُحْييها الَّذي أنْشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ، ولم يُبْنَ الجوابُ على بَيانِ إمكانِ الإحياءِ، وإنَّما جُعِل بَيانُ الإمكانِ في جَعلِ المُسنَدِ إليه مَوصولًا؛ لِتَدُلَّ الصِّلةُ على الإمكانِ، فيَحصُلَ الغرَضانِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٥).

فالموصولُ هنا إيماءٌ إلى وَجهِ بِناءِ الخبَرِ، وهو ﴿يُحْيِيهَا﴾، أي: يُحْيِيها لأنَّه أَنْشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ، فهو قادرٌ على إنشائِها ثانيَ مرَّةٍ كما أَنْشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ(١).

- وقَولُه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فيه احتِباكٌ؛ فذِكرُ الإحياءِ أوَّلًا دالٌّ على مِثلِه ثانيًا، والإنشاءِ ثانيًا دالٌّ على مِثلِه أوَّلًا، و ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ في الثَّاني دالٌّ على «ثاني مَرَّةٍ» في الأوَّلِ(٢).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ إمَّا اعتِراضٌ تَذْييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَضمونِ الجوابِ للاستِدلالِ، أو مَعطوفةٌ على الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. والعُدولُ إلى الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عِلْمَه تعالى بما ذُكِرَ أمرٌ مُستمِرٌّ، ليس كإنشائِه للمُنشَآتِ(٣).

٤- قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ بدَلٌ مِن ﴿ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ﴾ [يس: ٧٩] بدَلًا مُطابِقًا، وإنَّما لم تُعطَفِ الصِّلةُ على الصِّلةِ -فيُكْتفَى بالعطْفِ عن إعادةِ اسمِ الموصولِ-؛ لأنَّ في إعادةِ الموصولِ بَيانًا لِتَفاوُتِهما في كَيفيَّةِ الدَّلالةِ، وتأْكيدًا للأوَّلِ واهتِمامًا بالثَّاني؛ حتَّى تَستشرِفَ نفْسُ السَّامعِ لِتَلقِّي ما يَرِدُ بعْدَه، فيَفطَنَ بما في هذا الخَلْقِ مِن الغَرابةِ؛ إذ هو إيجادُ الضِّدِّ -وهو نِهايةُ الحرارةِ- مِن ضِدِّه، وهو الرُّطوبةُ، وهذا هو وَجْهُ وَصفِ الشَّجرِ بالأخضَرِ؛ إذ ليس المرادُ مِن الأخضَرِ اللَّونَ، وإنَّما المرادُ لازِمُه، وهو الرُّطوبةُ؛ لأنَّ الشَّجرَ أخضَرُ اللَّونِ ما دام حيًّا، فإذا جفَّ وزالَتْ منه الحياةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٥، ٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٦).

استحالَ لَونُه إلى الغُبْرةِ؛ فصارتِ الخُضرةُ كِنايةً عن رُطوبةِ النَّبْتِ وحياتِه[١].

- والجارَّانِ ﴿لَكُم﴾ ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ مُتعلِّقانِ بـ ﴿جَعَلَ﴾، قُدِّمَا على مَفعولِه الصَّريحِ ﴿نَارًا﴾، مع تأْخيرِهما عنه رُتْبةً؛ للاعتناءِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[٢].

- والمُفاجأةُ المُستفادةُ مِن ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ دالَّةٌ على عَجيبِ إلهامِ اللهِ البشَرَ لاستعمالِ الاقتِداحِ بالشَّجَرِ الأخضَرِ، واهتِدائِهم إلى خاصِّيَّتِه[٣].

- وجِيءَ بالمُسنَدِ فِعلًا مُضارِعًا ﴿تُوقِدُونَ﴾؛ لإفادةِ تكرُّرِ ذلك واستِمرارِه[٤].

٥- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ استِئنافٌ تَقريريٌّ؛ لِتَحقيقِ مَضمونِ الجوابِ الَّذي أُمِرَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُخاطِبَهم به، ويُلزِمَهم الحُجَّةَ. والهَمزةُ في ﴿أَوَلَيْسَ﴾ للإنكارِ، والواوُ للعطفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أليسَ الَّذي أنْشَأَها أوَّلَ مرَّةٍ، وليس الَّذي جعَلَ لهم مِنَ الشَّجرِ الأخضَرِ نارًا، وليس الَّذى خَلَقَ السَّمواتِ والأرضَ مع كِبَرِ جِرْمِهما وعِظَمِ شأْنِهما بقادرٍ...[٥].

- وجِيءَ في هذا الدَّليلِ بطَريقةِ التَّقريرِ الَّذي دَلَّ عليه الاستِفهامُ التَّقريريُّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٦، ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٣٥).

لأنَّ هذا الدَّليلَ -لِوُضوحِه- لا يَسَعُ المُقِرَّ إلَّا الإقرارُ به؛ فإنَّ البَديهةَ قاضيةٌ بأنَّ مَن خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ هو على خلْقِ ناسٍ بعْدَ الموتِ أقدَرُ، وإنَّما وُجِّهَ التَّقريرُ إلى نَفْيِ المُقرَّرِ بثُبوتِه تَوسعةً على المُقرَّرِ إنْ أراد إنكارًا، مع تَحقُّقِ أنَّه لا يَسَعُه الإنكارُ؛ فيَكونُ إقرارُه بعْدَ تَوجيهِ التَّقريرِ إليه على نَفْيِ المقصودِ شاهدًا على أنَّه لا يَستطيعُ إلَّا أنْ يُقِرَّ[1].

- واسمُ الفاعِلِ (قادِر) في قولِه: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾ مجرورٌ بالباءِ المَزيدةِ في النَّفيِ؛ لِتأْكيدِه[2].

- والالتِفاتُ مِن الخِطابِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾ إلى الغَيبةِ في قولِه: ﴿مِّثْلَهُم﴾؛ لِمَزيدِ الاحتقارِ والازدراءِ، أي: مِثلَ أولئك البُعداءِ[3]. وقيل: إيذانًا بأنَّهم صاروا بهذا الجدَلِ أهلًا لغايةِ الغضبِ[4].

- وعُقِّبَ التَّقريرُ بجَوابٍ عن المُقرَّرِ بكَلمةِ ﴿بَلَىٰ﴾ الَّتي هي لِنَقْضِ النَّفيِ، أي: بلى هو قادرٌ على أنْ يَخلُقَ مِثلَهم، وهو جَوابٌ مِن جِهَتِه تعالى، وتَصريحٌ بما أفادَه الاستِفهامُ الإنكاريُّ مِن تَقريرِ ما بعْدَ النَّفيِ، وإيذانٌ بتَعيُّنِ الجوابِ، نَطَقُوا به أو تَلَعْثَموا فيه مَخافةَ الإلزامِ[5].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: هو يَخلُقُ خلائقَ كثيرةً، وواسعُ العِلمِ بأحوالِهم ودَقائقِ تَرْتيبِها؛ فالخلَّاقُ مُبالَغةٌ لِكَثرةِ مَخلوقاتِه، فهو سُبحانه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٠١، ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٨).

المبالِغُ في الخلْقِ والعلْمِ كَيْفًا وكمًّا[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ هذه فَذْلَكةُ[٢] الاستِدلالِ، وفَصْلُ المقالِ؛ فلذلك فُصِلَت عمَّا قبْلَها كما تُفصَلُ جُملةُ النَّتيجةِ عن جُملتَيِ القِياسِ؛ فقد نتَجَ ممَّا تَقدَّمَ أنَّه تعالى إذا أراد شيئًا فإنَّه يقولُ له: (كُنْ)، وهو أخصَرُ كَلِمةٍ تُعبِّرُ عن الأمْرِ بالكونِ، أي: الاتِّصافِ بالوُجودِ[٣].

- وقولُه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فيه قصرٌ إضافيٌّ[٤]؛ لِقَلْبِ اعتِقادِهم أنَّه يَحتاجُ إلى جمْعِ مادَّةٍ وتَكييفِها، ومُضِيِّ مُدَّةٍ لإتمامِها، وفي ذلك قَطْعٌ لِمادَّةِ الشُّبهةِ، وهو قِياسُ قُدرةِ اللهِ تعالى على قُدْرةِ الخلْقِ[٥]!

٧- قولُه تعالى: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ هذا تَنزيهٌ للهِ ممَّا وصَفَه به المُشرِكون، وتَعجُّبٌ مِن أنْ يَقولوا فيه ما قالوا، وتأْكيدٌ وتَقريرٌ لِمَا سبَقَه[٦].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ فَصيحةٌ تدُلُّ على كلامٍ مُقدَّرٍ، أي: إذا ظهَرَ كلُّ ما سَمِعْتُم مِن الدَّلائلِ على عَظيمِ قُدْرةِ اللهِ، وتَفرُّدِه بالإلهيَّةِ، وأنَّه يُعيدُكم بعدَ الموتِ؛ فيَنشَأُ تَنْزيهُه عن أقوالِهم في شأْنِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٩).

(٢) سبق تعريفها (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٩).

(٤) سبق تعريفه (ص: ٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢).

المُفْضيةِ إلى نَقْصِ عَظَمتِه؛ لأنَّ بيَدِه المُلْكَ الأتَمَّ لكلِّ مَوجودٍ[١]. وهذه الفاءُ أيضًا للإشارةِ إلى أنَّ ما فُصِّلَ مِن شُؤونِه تعالى مُوجِبةٌ لِتَنزُّهِه وتَنْزيهِه أكمَلَ إيجابٍ، كما أنَّ وَصْفَه تعالى بالمالكيَّةِ الكُلِّيَّةِ المُطلَقةِ للإشعارِ بأنَّها مُقْتضيةٌ لذلك أتمَّ اقتضاءٍ[٢].

- قولُه: ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الملَكُوتُ: مُبالَغةٌ في المُلكِ، كالرَّحَموتِ والرَّهَبوتِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ التَّسبيحِ عَطْفَ الخبَرِ على الإنشاءِ؛ فهو ممَّا شَمِلَته الفاءُ الفصيحةُ، والمعنى: قدِ اتَّضَحَ أنَّكم صائرون إليه، غيرُ خارجينَ مِن قبْضةِ مُلْكِه، وذلك بإعادةِ خلْقِكم بعدَ الموتِ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ لا إلى غَيرِه، وفيهِ مِن الوَعدِ والوعيدِ ما لا يَخْفى؛ فالخطاب عامٌّ للمؤمنينَ والمشركينَ، وقيل: هو وعيدٌ فقط على أنَّ الخطابَ للمشركينَ لا غير توبيخًا لهم[٥].

- وتَقديمُ (إلَيْه) على ﴿تُرْجَعُونَ﴾؛ للاهتِمامِ ورِعايةِ الفاصلةِ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يَزعُمون أنَّ ثمَّةَ رَجعةً إلى غيرِه، ولكنَّهم يُنكِرون المعادَ مِن أصْلِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٠).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الصَّافَّاتِ

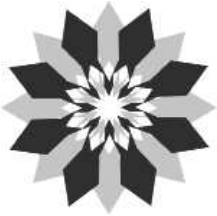

# سورةُ الصَّافَّاتِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الصَّافَّات)[١].

فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُ بالتَّخفيفِ، ويَؤُمُّنا بالصَّافَّاتِ))[٢].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ الصَّافَّاتِ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِن المفَسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى أنَّ البَعثَ حَقٌّ[٤].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بالصَّافَّاتِ؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ بالصَّافَّاتِ، وهم الملائِكةُ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨١).

قال ابنُ عاشور: (اسمُها المشهورُ المتَّفَقُ عليه «الصَّافَّات»، وبذلك سُمِّيَتْ في كُتُبِ التَّفسيرِ، وكُتبِ السُّنَّةِ، وفي المصاحفِ كلِّها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨١).

(٢) أخرجه النسائي (٨٢٦) واللفظ له، وأحمد (٤٧٩٦).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٨٢٦)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٩/ ١٨٢)، ، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٧٩٦).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨١)، ((الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٦٤).

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

١- القَسَمُ بتلك الطَّوائِفِ مِن الملائِكةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى.

٢- ذِكرُ عَدَدٍ مِن الدَّلائِلِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى.

٣- ذِكرُ استِراقِ الشَّياطينِ السَّمْعَ، ورَجمِهم بالشُّهُبِ.

٤- حِكايةُ بَعضِ شُبُهاتِ المُشرِكينَ المُنكِرينَ للبَعثِ، مع الرَّدِّ عليها.

٥- ذِكرُ بَعضِ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، ووَصْفُ حالِ المُشرِكينَ يومَ الجَزاءِ، وما أُعِدَّ لهم، وما يَجري بيْنَهم مِن تَخاصُمٍ، ووَصْفُ حُسنِ أحوالِ المُؤمِنينَ، ونَعيمِهم، والمحاوُراتِ الَّتي تَدورُ بيْنَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ.

٦- ذِكرُ جوانِبَ مِن قَصَصِ الأنبياءِ: قِصَّةِ نُوحٍ، وإبراهيمَ مع قَومِه ومع ابنِه إسماعيلَ، وقِصَّةِ موسى وهارونَ، وإلياسَ، ولُوطٍ، ويُونُسَ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٧- بيانُ فَسادِ عَقيدةِ المُشرِكينَ وقَولِهم: الملائِكةُ بناتُ اللهِ! وجَعلِهم بيْنَه وبيْن الجِنَّةِ نَسَبًا.

٨- بيانُ دَرَجاتِ الملائِكةِ في مَقامِ العِبادةِ، ووَعْدُ اللهِ رَسولَه بالنَّصرِ والتَّأييدِ.

٩- خَتْمُ السُّورةِ بتَنزيهِ اللهِ سُبحانَه وحَمْدِه، والتَّسليمِ على رُسُلِه.

## الآيات (١-١٠)

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ٨ دُحُورٗا وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ١٠﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾: أي: الملائِكةِ المُصطفِّينَ لرَبِّهم في السَّماءِ، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استِواءٍ وتَساوٍ[1].

﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا﴾: أي: الملائكةِ تَسوقُ السَّحابَ، أو تَزجُرُ وتَنهَى عن معصيةِ الله، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على طَردٍ بصَوتٍ[2].

﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ﴾: أي: الملائكةِ تَتْلو كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتَقرؤُه، وأصلُ (تلو): يدُلُّ على اتِّباعٍ[3].

﴿مَّارِدٖ﴾: أي: عاتٍ خارجٍ عن الطَّاعةِ، مُتعَرٍّ عن الخَيرِ، وأصلُ (مرد): يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

على تجريدِ الشَّيءِ مِن قِشرِه، أو ما يَعلوه مِن شَعَرِه، ومنه الماردُ والمريدُ، كأنَّه تَجَرَّد مِن الخيرِ[١].

﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: أي: مَلائكةِ اللهِ، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على المُساواةِ والكمالِ، وأصلُ (علو): يَدُلُّ على السُّمُوِّ والارتِفاعِ[٢].

﴿دُحُورًا﴾: أي: إبعادًا وطَردًا، وأصلُ (دحر): يدُلُّ على طَردٍ[٣].

﴿وَاصِبٌ﴾: أي: دائِمٌ مُستمِرٌّ، وأصلُ (وصب): يدُلُّ على دَوامِ الشَّيءِ[٤].

﴿خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾: أي: اختلَسَ واستَرَقَ كلامَ الملائكةِ مُسارَقةً بسُرعةٍ وخِفَّةٍ، وأصلُ (خطف): يدُلُّ على أخْذِ الشَّيءِ بسُرعةٍ واستِلابٍ[٥].

﴿شِهَابٌ﴾: أي: كَوكَبٌ أو شُعلةٌ من النَّارِ، وأصلُ (شهب): يدُلُّ على بياضٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢) (٥/ ٣٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥١).

في شَيءٍ مِن سوادٍ[١].

﴿ثَاقِبٌ﴾: أي: خارِقٌ مُضيءٌ شديدُ الإضاءةِ، يَثقُبُ بنُورِه وإضاءتِه ما يَقَعُ عليه، وأصلُ (ثقب): يدُلُّ على نَفاذِ الشَّيءِ[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾

قولُه تعالى: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ الكواكبُ بَدَلٌ مِن (زِينَةٍ) أو عطْفُ بيانٍ، بمعنى: إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بزينةٍ هي الكواكبُ، كأنَّه قال: زَيَّنَّاها بالكواكبِ. وفي قراءةٍ بالإضافةِ: ﴿بِزِينَةِ الكَوَاكِبِ﴾، على أنَّها بَيانيَّةٌ؛ لِمَا أنَّ الزِّينةَ مُبهَمةٌ، فتَقَعُ الكَواكِبُ بَيانًا لها، والمعنى: بأنَّ زينتَها الكواكبُ. وفي قراءة: ﴿بِزِينَةٍ الكَوَاكِبَ﴾ بنصبِ الكواكبِ[٣]؛ فيحتملُ أن تكونَ الزِّينةُ مصدرًا، والكواكبُ مفعولٌ به، كقوله تعالى: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ * يَتِيمٗا﴾ [البلد: ١٤، ١٥]، والفاعلُ محذوفٌ، أي: بأنْ زيَّن الله الكواكبَ في كَونِها مُضيئةً حسَنةً في أنفُسِها، أو أنَّ الزِّينةَ اسمٌ لِما يُزانُ به، فالكواكبُ حينَئذٍ بدَلٌ منها على المحل، أو نصب بـ (أعني)، أو بدَلٌ مِن السَّماءِ الدُّنيا بدَلَ اشتِمالٍ، أي: كواكبَ السَّماءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣، ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨).

(٣) قرأ عاصمٌ وحمزةُ ﴿بِزِينَةٍ﴾ بالتَّنوينِ وجرِّ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾، وقرأ شعبةُ عن عاصمٍ بتنوينِ ﴿بِزِينَةٍ﴾ ونصبِ ﴿الكَوَاكِبَ﴾، وقرأ الباقون ﴿بِزِينَةِ﴾ بغيرِ تنوينٍ وبجرِّ ﴿ٱلۡكَوَاكِبِ﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٦)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٩٨)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٧٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦١٠)، ((التبيان في =

## المعنى الإجماليُّ:

أقسَمَ اللهُ تعالى بالملائِكةِ الَّتي تَصُفُّ في السَّماءِ صفًّا؛ امتِثالًا لأمرِ رَبِّها، والَّتي تَزجُرُ ما يأمُرُها اللهُ تعالى بزَجرِه، والَّتي تَتْلو ذِكرَ اللهِ تعالى، أقسَمَ الله بذلك على أنَّه سبحانَه واحِدٌ لا شَريكَ له، وأنَّه ربُّ السَّمَواتِ والأرضِ وما بينَهما، وربُّ المشارِقِ.

ثمَّ بيَّن سُبحانَه بعدَ ذلك بعضَ مَظاهِرِ قُدرتِه في خَلقِه لهذه السَّمَواتِ، فقال: إنَّا زيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا الَّتي تَرَونَها بأعيُنِكم -أيُّها النَّاسُ- بالكواكِبِ، وحَفِظْناها مِن كُلِّ شَيطانٍ مُتمَرِّدٍ خارجٍ عن طاعتِنا يُريدُ استِراقَ السَّمْعِ.

لا يَستَطيعُ أولئك الشَّياطينُ سَماعَ الملائِكةِ في السَّماءِ إذا تكَلَّموا بما يأمُرُ اللهُ به، فإذا حاوَلوا قذَفْناهم ورَجَمْناهم بالشُّهُبِ والنِّيرانِ مِن كُلِّ جانبٍ مِن جوانبِ السَّماءِ؛ طردًا وإبعادًا لهم عن استِراقِ السَّمْعِ، ولهم عذابٌ دائِمٌ مُستَمِرٌّ، فلا يَستطيعُ أحَدٌ منهم سَماعَ الملائِكةِ في السَّماءِ إلَّا الشَّيطانُ الَّذي خَطِفَ الخَطفةَ مِن كلامِ الملائكةِ بسُرعةٍ وخِفَّةٍ، فيَتبَعُه شِهابٌ مُتوقِّدٌ نافِذٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالملائِكةِ الَّتي تَصُفُّ في السَّماءِ لِرَبِّها صَفًّا[1].

---

= إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٤٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤). =

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ * وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٦٤، ١٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢].

وعن جابرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خرَجَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ألَا تَصُفُّونَ كما تَصُفُّ الملائِكةُ عندَ رَبِّها؟ فقُلْنا: يا رسولَ اللهِ، وكيف تَصُفُّ الملائِكةُ عندَ ربِّها؟ قال: يُتِمُّونَ الصُّفوفَ الأُوَلَ، ويَتراصُّونَ

---

= قال الشنقيطي: (أكثَرُ أهلِ العِلمِ على أنَّ المرادَ بـ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ هنا، و«الزَّاجِرَاتِ»، و«التَّالِيَاتِ»: جماعاتُ الملائِكةِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٣).

وحكى ابنُ جريرٍ الإجماعَ على ذلك، فقال: (... الله تعالى ذِكرُه ابتدَأ القَسَمَ بنوعٍ مِن الملائكةِ، وهم الصَّافُّونَ، بإجماعٍ مِن أهلِ التَّأويلِ، فلأن يكونَ الَّذي بَعْدَه قَسَمًا بسائِرِ أصنافِهم أشْبَهُ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٧).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المقصودَ بالصَّافَّاتِ الملائكةُ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، ومَسروقٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥).

قال الشنقيطي: (ومعنى كونِهم صافِّينَ: أن يَكونوا صُفوفًا مُتراصِّينَ بَعضُهم جَنبَ بَعضٍ في طاعةِ الله تعالى؛ مِن صلاةٍ وغيرِها. وقيل: لأنَّهم يَصُفُّونَ أجنِحَتَهم في السَّماءِ، ينتَظِرونَ أمرَ اللهِ. ويُؤيِّدُ القَولَ الأوَّلَ حديثُ حذيفةَ... في صَحيحِ مُسلِمٍ، وهو قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «فُضِّلْنا على النَّاسِ بثلاثٍ: جُعِلَت صُفوفُنا كصُفوفِ الملائكةِ...»). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠١).

وممَّن جمَعَ بيْن المعنيَينِ السَّابِقَينِ: ابنُ القيِّم، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢).

قال ابن جُزَي: (﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ تقديرُه: والجَماعاتِ الصَّافَّاتِ، ثمَّ اختُلِفَ فيها؛ فقيل: هي الملائِكةُ الَّتي تَصُفُّ في السَّماءِ صُفوفًا لعبادةِ اللهِ. وقيل: هو مَن يَصُفُّ مِن بني آدَمَ في الصَّلَواتِ والجِهادِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٨).

وقال البِقاعي: (قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ﴾ أي: الجَماعاتِ مِن الملائكةِ، والمصَلِّينَ والمجاهِدينَ المُكَمِّلينَ أنفُسَهم بالاصطِفافِ في الطَّاعةِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٨٧).

في الصَّفِّ))[١].

وعن حُذَيْفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فُضِّلْنا على النَّاسِ بثلاثٍ: جُعِلَت صُفوفُنا كصُفوفِ الملائِكةِ، وجُعِلَت لنا الأرضُ كُلُّها مَسجِدًا، وجُعِلت تُرْبَتُها لنا طَهورًا إذا لم نَجِدِ الماءَ))[٢].

﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ٢ ﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تَزجُرُ ما يأمُرُها اللهُ تعالى بزَجرِه[٣].

﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ٣ ﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تَتْلو ذِكْرَ اللهِ تعالى[٤].

---

(١) رواه مسلم (٤٣٠).

(٢) رواه مسلم (٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤).

قال السمعاني: (ذهب أكثَرُ المفَسِّرين أنَّ المرادَ بهم الملائِكةُ تَزجُرُ السَّحابَ؛ لِتَسوقَه إلى الموضِعِ الَّذي يُريدُه الله تعالى). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩١).

وممَّن اختار ما هو أعَمُّ مِن زَجرِ السَّحابِ، وأنَّها تَزجُرُ السَّحابَ وغَيْرَه بأمرِ اللهِ تعالى: ابنُ جُزَي، وابن القيِّم، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢).

قال ابن عاشور: (والمرادُ به: تسخيرُ الملائكةِ المخلوقاتِ الَّتي أمَرَهم اللهُ بتسخيرِها خَلْقًا أو فِعلًا؛ كتكوينِ العناصرِ، وتصريفِ الرِّياحِ، وإزجاءِ السَّحابِ إلى الآفاقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤).

وقيل: تَزجُرُ عن المعاصي بالمواعِظِ والنَّصائِحِ، أو بالذِّكرِ الَّذي تَتْلوه، أو تُلقيه إلى الأنبياءِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، =

﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ٤﴾.

أي: إنَّ مَعبودَكم المُستَحِقَّ للعبادةِ واحِدٌ لا ثانيَ له، ولا شَريكَ له؛ فأخلِصوا

---

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤، ٨٥).

قيل: المرادُ: الملائكةُ تَقرأُ كُتبَ الله تعالى وتَتْلو كلامَه. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرسعني، والنسفي، وابن القيم، والسعدي، ونسَبَه ابنُ الجوزي للجمهور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١١٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٥).

وقيل: الملائِكةُ الَّتي تَقرأُ القرآنَ. وممَّن اختاره: القرطبيُّ، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٣، ١٥).

وقيل: المرادُ بالملائكةِ هنا: جبريلُ وحْدَه عليه السَّلامُ، فيُلقي الذِّكْرَ على الأنبياءِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٥).

قال الواحديُّ: (وعلى هذا: المرادُ جِبريلُ، وذُكِرَ بلَفظِ الجَمعِ؛ إشارةً إلى أنَّه كبيرُ الملائكةِ، فهو لا يخلو مِن أعوانٍ وجنودٍ له من الملائكةِ يَعرُجونَ بعُروجِه، ويَنزِلونَ بنُزولِه). ((البسيط)) (١٩/ ٩).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ [المرسلات: ٥] كقَولِه تعالى هنا: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾؛ لأنَّ الذِّكرَ الَّذي تَتْلوه تُلقِيه إلى الأنبياءِ، كما كان جِبريلُ يَنزِلُ بالوَحيِ على نَبيِّنا وغيرِه مِن الأنبياءِ صَلَواتُ اللهِ وسلامُه على الجميع). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠١).

وقال ابنُ عاشور: (﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ المُرَدِّدون لكلامِ الله تعالى الَّذي يَتلقَّونَه مِن جانبِ القُدُسِ؛ لتبليغِ بَعضِهم بعضًا، أو لِتَبليغِه إلى الرُّسُلِ، كما أشارَ إليه قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]... والمرادُ بـ «التَّالِيَاتِ»: ما يَتْلونَه مِن تسبيحٍ وتقديسٍ للهِ تعالى؛ لأنَّ ذلك التَّسبيحَ لَمَّا كان مُلَقَّنًا مِن لَدُنِ اللهِ تعالى كان كلامُهم بها تِلاوةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤، ٨٥).

له العِبادةَ وَحْدَه، ولا تُشرِكوا به شَيئًا[١].

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ٥ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ﴾؛ أقام الدَّليلَ على ذلك بقولِه[٢]:

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾.

أي: هو خالِقُ ومالِكُ السَّمَواتِ السَّبْعِ، والأرضِ، وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ، وهو الرَّازِقُ والمُدَبِّرُ لذلك كُلِّه[٣].

﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾.

أي: وهو خالِقُ ومالِكُ ومُدَبِّرُ المشارقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٣، ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦).

قيل: المرادُ بالمشارقِ هنا: مشارِقُ الشَّمسِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والكرماني، وابن عطية، والقرطبي، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٦)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٨).

قال الماوَرْديُّ: (فيه [أي: المشارقِ] وجْهانِ؛ الأوَّلُ: قال قَتادةُ: ثلاثُمئةٍ وسِتُّونَ مَشرِقًا، والمغاربُ مِثلُ ذلك، تَطلُعُ الشَّمسُ كلَّ يومٍ مِن مشرقٍ، وتغرُبُ في مغربٍ. قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: أنَّها مئةٌ وثمانون مَشرقًا، تَطلُعُ كُلَّ يومٍ في مطلعٍ حتَّى تنتهيَ إلى آخِرِها، ثمَّ تعودُ في تلك المطالعِ حتَّى تَعودَ إلى أوَّلِها. حكاه يحيى بنُ سلَّام). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧). ويُنظر: =

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الأُولى القريبةَ مِن النَّاسِ بالكواكِبِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥].

﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ ﴾.

أي: وحَفِظْناها بالكواكِبِ مِن كُلِّ شَيطانٍ مُتمَرِّدٍ، عاتٍ في الشَّرِّ، يريدُ استِراقَ السَّمْعِ[2].

---

= ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٢٣)، ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٨٨).

وقال الألوسي: (إنِ اعتُبر ما كانت عليه وما عادت إليه واحِدًا، كانت مئةً وثمانين، وإن نُظِر إلى تغايُرِهما كانت ثلاثَمئةٍ وستِّين، وفي هذا إسقاطُ الكَسرِ؛ فإنَّ السَّنةَ الشَّمسيَّةَ تَزيدُ على ذلك العدَدِ بنحوِ ستَّةِ أيَّام). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٦٦). ويُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٤٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٦٨).

قال ابنُ جرير: (قولُه: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ يقولُ: ومدبِّرُ مَشارِقِ الشَّمسِ في الشِّتاءِ والصَّيفِ، ومَغارِبِها، والقَيِّمُ على ذلك ومُصلِحُه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٦).

وقيل: كُلُّ مَوضِعٍ أشرَقَت عليه الشَّمسُ فهو مَشرِقٌ، وكُلُّ مَوضِعٍ غَرَبَت عليه فهو مَغرِبٌ، كأنَّه أراد جميعَ ما أشرَقَت عليه الشَّمسُ. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٧٠).

قال الرازي: (ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ مشارِقَ الكواكبِ؛ لأنَّ لكلِّ كوكبٍ مشرِقًا ومغربًا). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦).

واختار ابنُ عثيمينَ أنَّ المشارقَ عامَّةٌ؛ تَشملُ مَشارقَ الشَّمسِ، ومشارقَ القمرِ، ومشارقَ النُّجومِ، ومشارقَ كلِّ ما يشرقُ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٩، ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٨).

ويُطلَقُ كلٌّ مِن الكوكبِ والنَّجمِ على الآخرِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

قال الرسعني: (﴿وَحِفْظًا﴾ مَحمولٌ على المعنى، تقديرُه: إنَّا خلَقْنا الكواكِبَ زِينةً للسَّماءِ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [الحجر: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قِيل: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصَّافَّات: ٧]، أي: حَفِظْناها حِفظًا، فقِيل: فما يَكونُ إذَنْ[1]؟ فلَمَّا تشوَّفَ السَّامِعُ إلى مَعرفةِ هذا الحِفظِ وثَمَرتِه وبيانِ كيفيَّتِه؛ استأنَف قولَه[2]:

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

أي: حَفِظْنا السَّماءَ الدُّنيا مِن الشَّياطينِ، فلا يُصغُونَ إلى الملائِكةِ إذا تكَلَّموا بما يأمُرُ اللهُ به مِن شَرعٍ أو قَدَرٍ[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢].

---

= ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ﴾. وقيل: المعنى: وحَفِظْناها حِفظًا). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٢٤).
وقال ابنُ عاشور: (معنى كونِ الكواكبِ حِفظًا مِن الشَّياطينِ: أنَّ مِن جملةِ الكواكِبِ الشُّهُبَ الَّتي تُرجَمُ بها الشَّياطينُ عندَ مُحاوَلتِها استِراقَ السَّمعِ. والمارِدُ: الخارجُ عن الطَّاعةِ، الَّذي لا يُلابِسُ الطَّاعةَ ساعةً؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ [التوبة: ١٠١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٠، ٩١).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٩٨، ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٢٦-٢٩).

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الملائِكةَ تَنزِلُ في العَنانِ -وهو السَّحابُ- فتَذكُرُ الأمرَ قُضِيَ في السَّماءِ، فتَسترِقُ الشَّياطينُ السَّمعَ فتَسمَعُه، فتُوحيه إلى الكُهَّانِ، فيَكذِبونَ معها مِئةَ كَذْبةٍ مِن عندِ أنفُسِهم))[1].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: أخبَرني رجُلٌ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الأنصارِ: ((أنَّهم بَيْنَما هم جلوسٌ ليلةً مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رُمِيَ بنَجمٍ فاستنارَ، فقال لهم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ماذا كنتُم تقولونَ في الجاهليَّةِ إذا رُمِيَ بمِثلِ هذا؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، كنَّا نقولُ: وُلِدَ اللَّيلةَ رجُلٌ عظيمٌ، ومات رجُلٌ عَظيمٌ! فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فإنَّها لا يُرمَى بها لِمَوتِ أحدٍ ولا لحياتِه، ولكِنْ رَبُّنا تباركَ وتعالى اسمُه إذا قضى أمرًا سبَّحَ حَمَلةُ العَرشِ، ثمَّ سَبَّح أهلُ السَّماءِ الَّذين يَلُونَهم، حتَّى يَبلُغَ التَّسبيحُ أهلَ هذه السَّماءِ الدُّنيا، ثمَّ قال الَّذين يَلُونَ حَمَلةَ العَرشِ لحَمَلةِ العَرشِ: ماذا قال ربُّكم؟ فيُخبِرونَهم ماذا قال، فيَستخبِرُ بَعضُ أهلِ السَّمَواتِ بَعضًا، حتَّى يَبلُغَ الخبَرُ هذه السَّماءَ الدُّنيا، فتَخطَفُ الجِنُّ السَّمْعَ فيَقذِفونَ إلى أوليائِهم، ويُرمَونَ به، فما جاؤوا به على وَجهِه فهو حَقٌّ، ولكِنَّهم يَقرِفونَ[2] فيه ويَزيدونَ))[3].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان الجِنُّ يَسمَعونَ الوَحيَ فيَستَمِعونَ الكَلِمةَ فيَزيدون فيها عَشْرًا، فيكونُ ما سَمِعوا حَقًّا، وما زادوه باطِلًا، وكانت النُّجومُ لا يُرمَى بها قبْلَ ذلك، فلمَّا بُعِث النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان أحدُهم

---

(١) رواه البخاري (٣٢١٠).

(٢) أي: يَخلِطونَ فيه الكَذِبَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ٢٢٧).

(٣) رواه مسلم (٢٢٢٩).

لا يأتي مَقعَدَه إلَّا رُمِيَ بشِهابٍ يُحرِقُ ما أصاب، فشَكَوا ذلك إلى إبليسَ، فقال: ما هذا إلَّا مِن أمرٍ قد حدَث! فبَثَّ جُنودَه، فإذا هُم بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصلِّي بيْنَ جَبَلَيْ نَخلةَ، فأتَوه فأخبَروه، فقال: هذا الحَدَثُ الَّذي حَدَث في الأرضِ))[1].

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾.

أي: وهم يُرمَونَ رَميًا شديدًا بالشُّهُبِ مِن كُلِّ جِهةٍ مِنَ السَّماءِ[2].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ الجِنِّ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٢٤)، وأحمد (٢٤٨٢) واللَّفظُ له.

قال الترمذيُّ: حسَنٌ صحيحٌ. وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٢٤)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣).

واخْتُلِف هل كان هذا القذفُ قبْلَ المبعثِ، أو بعدَه لأجْلِ المبعثِ؛ على قولينِ، والجَمْعُ بيْن هذَينِ القولَينِ: أنَّ الرَّمْيَ بالنُّجومِ كان موجودًا قبْلَ مبعثِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلمَّا بُعِث شُدِّد ذلك، وزِيدَ في حفظِ السَّماءِ وحراستِها؛ صَونًا لأخبارِ الغيوبِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الزهريُّ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسهيليُّ، والرازي، والقرطبيُّ ونسَبَه للأكثرينَ. واستحسَنه ابنُ حَجرٍ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((الروض الأُنُف)) للسهيلي (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٦) و(١٩/ ١٣)، ((فتح الباري)) (٨/ ٦٧٢).

قال السهيلي: (وإنْ وُجِدَ اليَومَ كاهِنٌ فلا يُدفَعُ ذلك بما أخبَرَ اللهُ به مِن طَردِ الشَّياطينِ عن استِراقِ السَّمعِ؛ فإنَّ ذلك التَّغليظَ والتَّشديدَ كان زمَنَ النُّبُوَّةِ، ثمَّ بَقِيَت منه -أعني: مِن استراقِ السَّمعِ- بقايا يسيرةٌ، بدَليلِ وُجودِهم على النُّدورِ في بعضِ الأزمِنةِ، وفي بَعضِ البِلادِ). ((الروض الأُنُف)) (٢/ ٣٠٢).

شَدِيدًا وَشُهُبًا * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨، ٩].

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾.

﴿دُحُورًا﴾.

أي: يُقذَفونَ بالشُّهُبِ؛ طَردًا وإبعادًا لهم عن الوُصولِ إلى السَّماءِ لاستِراقِ السَّمْعِ(١).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾.

أي: وللشَّياطينِ عَذابٌ دائِمٌ مُستمِرٌّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٦، ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣).

قيل: هذا العذابُ في الآخرةِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ كثير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠).

وقال الواحدي: (قال مقاتلٌ: يعني دائمًا إلى النَّفخةِ الأولى، فهي تَجرحُ ولا تَقتُلُ. فقد بيَّنَ مقاتلٌ أنَّ المرادَ بهذا العذابِ عذابُ الدُّنيا). ((البسيط)) (١٩/ ٢٠). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٢) وليس فيه ذِكرٌ للنَّفخةِ الأولى.

وقيل: في الدُّنيا والآخِرةِ. وممَّن قال بذلك: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠).

قال ابن عثيمين: (يُعَذَّبون في هذه الدُّنيا بهذه الشُّهُبِ، ويُعَذَّبون في الآخرةِ بالعذابِ الدَّائمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠).

وقال البِقاعي: (﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي: في الدُّنيا بهذا وبغيرِه، وفي الآخرةِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٩٨).

قال ابنُ الجوزي: (وفي «الواصِبِ» قولانِ: =

كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا * ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا * ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٦٨ - ٧٠].

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾.

أي: لا يَسَّمَّعُ الشَّياطينُ شَيئًا مِن الملأِ الأعلى إلَّا مَن تَلَقَّف واختلَس منهم كَلِمةً واحِدةً بسُرعةٍ وخُفيةٍ[1]، .....

---

= أحدُهما: أنَّه الدَّائمُ. قاله: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، والفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ.

والثَّاني: أنَّه المُوجِعُ. قاله أبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٦). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩).

وعزا الشوكانيُّ القولَ الأوَّلَ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٥).

قال الواحدي: (قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ قالوا كلُّهم: دائِمٌ... ومَن فَسَّر الواصِبَ بالشَّديدِ و[الموجِع]، فهو معنًى وليس بتفسيرٍ). ((البسيط)) (١٩/ ٢٠).

وجمَعَ البِقاعي بيْن المعنيَينِ السَّابِقَينِ، فقال: (﴿وَاصِبٌ﴾ أي: دائِمٌ مُمرِضٌ مُوجِعٌ كثيرُ الإيجاعِ، مُواظِبٌ على ذلك ثابِتٌ عليه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ١٩٨).

(١) قال الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ مِن سورةِ الحِجْرِ [١٧، ١٨]: (قال بعضُ العُلَماءِ: هو استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، وجزَم به الفخرُ الرَّازيُّ، أي: لكِنْ مَن استرقَ السَّمْعَ -أي: الخَطفةَ اليَسيرةَ- فإنَّه يَتبَعُه شِهابٌ فيُحرِقُه، كقولِه تعالَى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

وقيل: الاستِثناءُ مُتَّصِلٌ، أي: حَفِظْنا السَّماءَ مِن الشَّياطينِ أن تَسمَعَ شيئًا مِن الوحيِ وغَيرِه، ﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ فإنَّا لم نحفَظْها مِن أن تَسمَعَ لخبرٍ مِن أخبارِ السَّماءِ سِوى الوَحيِ، فأمَّا الوَحيُ فلا تَسمَعُ منه شَيئًا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٢]. قالَه القُرطبيُّ، ونَظيرُه ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ الآيةَ؛ فإنَّه استثناءٌ مِن الواوِ في قولِه تعالَى: ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ﴾ الآيةَ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٥٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٩/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠).

وقال السمعاني: (قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ قال أهلُ التَّفسيرِ: هذا استثناءٌ منقطِعٌ، =

فيَتبَعُه شِهابٌ مُتوقِّدٌ نافِذٌ[١].

= ومعناه: لكنْ مَن خطِف الخَطفةَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٣). ويُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧١).

وقيل: الاستثناءَ مُتَّصِلٌ، وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والبِقاعي، والألوسي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠).

قال ابن عثيمين: (استثنى مِن نفي سماعِهم إلى السَّماءِ الَّذي يَخطَفُ الخَطفةَ فهو يَسمَعُ، فيَتبَعُه شِهابٌ نافذٌ يَنفُذُ فيه فيَخرِقُه أو يحرِقُه أو يَخبِلُه، ورُبَّما يَنجو مِن هذا الشِّهاب إذا أراد الله عزَّ وجلَّ ويَصِلُ إلى الكاهنِ ويُوحي إليه بما سمِع، ثمَّ الكاهنُ يَكذِبُ مع ما سمِع كَذَباتٍ كثيرةً؛ مئةَ كَذْبةٍ أو أكثَرَ أو أقَلَّ... فصار الشَّياطينُ ثلاثةَ أقسام: قِسْمٌ لا يُمكِنُه السَّماعُ إطلاقًا، وقِسمٌ يُمكِنُ أن يَسمَعَ على سبيلِ الخَطفِ ويحرقُه الشِّهابُ، والقِسمُ الثَّالثُ يَسمَعُ على سبيلِ الخَطفِ ويَنجو، وكلُّ هذا بإذنِ الله عزَّ وجلَّ وإرادتِه تبعًا لحكمتِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠، ٣١) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣).

قال القرطبي: (يَسترِقُ الواحِدُ منهم شيئًا مِمَّا يتفاوَضُ فيه الملائِكةُ ممَّا سيَكونُ في العالَم قبْلَ أن يَعلَمَه أهلُ الأرضِ؛ وهذا لخفَّةِ أجسامِ الشَّياطينِ، فيُرجَمون بالشُّهُبِ حينَئذٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٧).

وقال ابنُ كثير: (هي الكَلِمةُ يَسمَعُها مِن السَّماءِ، فيُلقيها إلى الَّذي تحتَه، ويُلقِيها الآخَرُ إلى الَّذي تحتَه، فرُبَّما أدركَه الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقيَها، ورُبَّما ألقاها بقَدَرِ اللهِ قبْلَ أن يأتيَه الشِّهابُ فيُحرِقَه، فيَذهَبُ بها الآخَرُ إلى الكاهِنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦، ٧).

وقال ابنُ عاشور: (الثَّاقِبُ: الخارِقُ، أي: الَّذي يَترُكُ ثَقْبًا في الجِسمِ الَّذي يُصيبُه، أي: ثاقِبٌ له. وعن ابنِ عبَّاسٍ: الشِّهابُ لا يَقتُلُ الشَّيطانَ الَّذي يُصيبُه، ولكِنَّه يَحترِقُ ويَخبِلُ، أي: يَفسُدُ قِوامُه فتَزولُ خصائِصُه، فإن لم يَضمَحِلَّ فإنَّه يُصبِحُ غيرَ قادرٍ على مُحاوَلةِ استِراقِ السَّمعِ مرَّةً أخرى، أي: إلَّا مَن تمكَّن مِن الدُّنُوِّ إلى محلٍّ يَسمَعُ فيه كلماتٍ مِن كلماتِ المَلأِ الأعلى، فيُردَفُ بشِهابٍ يَثقُبُه فلا يَرجِعُ إلى حيثُ صدَرَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠، ٣١).

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ [الحجر: ١٨].

وقال سُبحانه: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: ٨، ٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: إنَّ نبيَّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبت الملائكةُ بأجنِحَتِها؛ خُضْعانًا لِقَولِه، كأنَّه سِلسلةٌ على صَفوانٍ[٢]، فإذا فُزِّعَ[٣] عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهو العَليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ، ومُستَرِقُ السَّمعِ هكذا: بعضُه فوقَ بَعضٍ -ووصَفَ سُفيانُ بكَفِّه فحَرَفَها، وبدَّد بيْنَ أصابِعِه- فيَسمَعُ الكَلِمةَ فيُلقيها إلى مَن تحتَه، ثمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَه، حتَّى يُلقِيَها على لسانِ السَّاحِرِ أو الكاهِنِ، فرُبَّما أدرَكَ الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقِيَها، وربَّما ألقاها قبْلَ أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ معها مِئةَ كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا، فيُصَدَّقُ بتلك الكَلِمةِ الَّتي سَمِعَ مِن السَّماءِ))[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ قَسَمُ اللهِ بمَخلوقاتِه يُومِئُ إلى التَّنويهِ بشَأنِ المُقْسَمِ به، مِن حيثُ هو دالٌّ على عَظيمِ قُدرةِ الخالِقِ، أو كَونِه مُشرَّفًا عِندَ اللهِ تَعالى[٥]، فاللهُ تعالى لا يَحلِفُ بشَيءٍ مِن خَلقِه إلَّا كان هذا الشَّيءُ مِن أعظَمِ آياتِه، فيَكونُ الحَلِفُ بهذا المخلوقِ مُتضَمِّنًا للحَلِفِ بآياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ الَّتي هي

(٢) الصَّفوانُ: الحَجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤١).

(٣) فُزِّعَ: أي: أُزيلَ الخَوفُ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٧/ ١٩٢).

(٤) رواه البخاري (٤٨٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤).

فِعلُه؛ لأنَّ عِظَمَ المخلوقِ يدُلُّ على عِظَمِ الخالقِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ حَلِفُه سُبحانَه بما شاء مِن خلْقِه؛ لأنَّه المالكُ، كما أنَّه سُبحانَه وتعالى يأمُرُ بما شاء؛ أرَأَيْتَ أمْرَ اللهِ تعالى الملائكةَ أنْ تَسجُدَ لآدَمَ، والسُّجودُ لغيرِ اللهِ شركٌ؟! لكنَّ اللهَ يأمُرُ بما شاء. أرأيْتَ أمْرَه إبراهيمَ الخَليلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يَذبَحَ ابنَه، وذَبحُ ابنِه مِن أعظمِ الكبائرِ؟! وصار بأمرِ اللهِ طاعةً لله عزَّ وجلَّ؛ كذلك الحَلِفُ بغيرِ اللهِ شِركٌ؛ ولكنْ مع هذا فلِلَّه أنْ يَحلِفَ بما شاء مِن خَلقِه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ المرادُ به الملائِكةُ، وأُنِّثتْ باعتِبارِها جماعاتٍ، وجماعاتٌ: مُؤنَّثٌ، فالملائكةُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ جماعاتٌ مُختَلِفةٌ، كلُّ جماعةٍ لها وظيفةٌ مُعيَّنةٌ، وقد أخَذَ الزَّائِغونَ بهذا الاشتِباهِ -أي: تأنيثِ الملائكةِ- وقالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ؛ ولهذا تُذكَرُ بصيغةِ التَّأنيثِ! ولكنْ لا شكَّ أنَّ هذا مِن بابِ التَّلبيسِ والتَّشبيهِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ الملائِكةَ بصيغةِ المُذَكَّرِ ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الشورى: ٥] ولم يَقُلْ: «يُسَبِّحْنَ بحمدِ ربِّهِنَّ»[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ أنَّ الملائكةَ تتلو الذِّكْرَ -أي: تتلو القرآنَ، على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهذا يدُلُّ: على قيامِ الملائكةِ بعبادةِ اللهِ، وعلى فضيلةِ القرآنِ حيثُ تَتْلوه الملائكةُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٤).

والقاعدةُ أنَّه لا يكونُ القَسَمُ إلَّا باسم معظَّم. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٌ﴾ أهمِّيَّةُ التوحيدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أَقسَمَ بالملائكةِ على ثبوتِ هذا التَّوحيدِ، ولأنَّ اللهَ تعالى أكَّدَه بثلاثةِ مُؤكِّداتٍ: «القَسَمِ»، «إنَّ»، «اللَّامِ»[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ احتُجَّ به على كَونِه تعالى خالِقًا لأعمالِ العِبادِ؛ لأنَّ أعمالَ العبادِ مَوجودةٌ فيما بيْنَ السَّمَواتِ والأرضِ، وهذه الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ كُلَّ ما حَصَل بيْنَ السَّمَواتِ والأرضِ فاللهُ رَبُّه ومالِكُه؛ فهذا يدُلُّ على أنَّ فِعلَ العَبدِ حصَل بخَلقِ اللهِ[2].

٧- التَّلازُمُ بيْنَ توحيدِ الألوهيَّةِ وتوحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ فإنَّ قَولَه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ بعدَ قولِه: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٌ﴾ كالدَّليلِ على تَوَحُّدِه بالألوهيَّةِ؛ وذلك أنَّه إذا كان مُتَوَحِّدًا بالرُّبوبيَّةِ لَزِمَ أن يكونَ مُتَوَحِّدًا في الألوهيَّةِ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]، فكيف تَعبُدونَ غَيْرَه ممَّن لم يَخلُقْكم ولا خَلَقَ أحدًا[3]؟!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ الإشارةُ إلى عِظَمِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما؛ لأنَّ اللهَ أضاف الرُّبوبيَّةَ إليها في مَقامِ إقامةِ الحُجَّةِ، وهذا يدُلُّ على عِظَمِها، وأنَّها لِعظَمِها صارتْ كالدَّليلِ المُلزِمِ لتوحيدِ الألوهيَّةِ[4].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ عنايةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بخَلْقِه؛ حيث زَيَّنَ لهم السَّقفَ الَّذي فوقَ رُؤوسِهم؛ لأنَّه لو كان مُظلِمًا حالِكًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣، ٢٤).

لا يَرونَ فيه شَيئًا مُنيرًا لَكان في ذلك شَيءٌ مِن الإيحاشِ، ولكِنَّ اللهَ تعالى اعتنَى بهذا، فزَيَّنَه لهم[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ جَعَل سُبحانَه المصابيحَ زينةً لظاهِرِها ولباطِنِها بالحراسةِ مِن الشَّياطينِ؛ فهي زينةُ الظَّاهرِ والباطنِ[٢].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ فيه سؤالٌ: الشَّيطانُ مَخلوقٌ مِن النَّارِ؛ قال تعالى حِكايةً عن إبليسَ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾ [الأعراف:١٢]، وقال: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]، وأخبَرَ أنَّ الشُّهُبَ تَضُرُّهم وتُحرِقُهم، فكيف تُحرِقُ النَّارُ النَّارَ؟!

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّه أضاف الشَّياطينَ والجانَّ إلى النَّارِ حَسَبَ ما أضاف الإنسانَ إلى التُّرابِ والطِّينِ والفَخَّارِ، والمرادُ به في حَقِّ الإنسانِ أنَّ أصْلَه الطِّينُ، وليس الآدَميُّ طينًا حقيقةً، لكِنَّه كان طِينًا، كذلك الجانُّ كان نارًا في الأصلِ[٣]؛ فحقيقةُ النَّارِ لم تَبقَ فيهم على ما هي عليه قبْلَ خَلْقِهم منها، كما أنَّ حَقيقةَ الطِّينِ لم تَبقَ في الإنسِ على ما هي عليه قبْلَ خَلْقِهم منها، والإنسُ خُلِقوا مِنَ الطِّينَ ويَتضَرَّرونَ به كذلك فخَلقُ الشَّياطينِ مِن نارٍ لا يأبَى تضَرُّرَهم بها[٤].

**الوَجهُ الثَّاني**: يحتملُ أنَّ الشَّياطينَ وإن كانوا مِنَ النِّيرانِ إلَّا أنَّها نيرانٌ ضَعيفةٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٢).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((لقط المرجان في أحكام الجان)) للسيوطي (ص: ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٥/ ١١١).

فإذا وصَلَت نيرانُ الشُّهُبِ إليهم، وتلك النِّيرانُ أقوى حالًا منهم؛ لا جَرَمَ صار الأقوى مُبطِلًا للأضعَفِ، فالسِّراجُ الضَّعيفُ إذا رجَعَ في النَّارِ القَويَّةِ فإنَّه يَنطَفِئُ، فكذلك هاهنا(١).

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّه وإن كان الجِنِّيُّ مِن نارٍ فإنَّه ليس نارًا خالِصةً(٢).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴾ في وَصْفِه بالمارِدِ إشارةٌ إلى أنَّ ما يُصيبُ إخوانَه مِن الضُّرِّ بالشُّهُبِ: لا يَعِظُه عن تجديدِ مُحاولةِ الاستِراقِ؛ لِما جُبِلَ عليه طَبعُه الشَّيطانيُّ مِن المداوَمةِ على تلك السَّجايا الخَبيثةِ، كما لا يَنزجِرُ الفَراشُ عن التَّهافُتِ حولَ المِصباحِ بما يُصيبُ أطرافَ أجنِحتِه مِن مَسِّ النَّارِ(٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ * دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد يُعطي هذه الأجسامَ اللَّطيفةَ قدرةً يَصِلُونَ بها إلى السَّماءِ، ولا شكَّ أنَّهم قد يَصِلُونَ إلى السَّماءِ؛ وأنَّ لديهم مِن القوَّةِ ما هو أشدُّ مِن قوَّةِ البشرِ ذوي الأجسامِ الكثيفةِ(٤).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ فَضيلةُ الملائكةِ؛ حيث وُصِفوا بأنَّهم الملأُ الأعلى؛ لعُلُوِّ مَكانِهم ومَكانتِهم؛ ففيهم العُلُوُّ الحِسِّيُّ والعُلُوُّ المَعنويُّ(٥).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ * دُحُورٗا﴾ أنَّ الشَّياطينَ ليست أهلًا لِأنْ تَحُلَّ السَّماءَ، أو تَقعُدَ فيها؛ ولهذا يُقذَفونَ لإبعادِهم دُحُورًا(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٦- قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي: دائمٌ، وفيه أنَّ الشَّياطينَ مُكلَّفونَ[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أنَّ هؤلاء الشَّياطينَ لا يَسَّمَّعون إلى الملأِ الأعلى السَّماعَ الكامِلَ بحيث يَنالونَ مُرادَهم؛ بسَبَبِ هذه الشُّهُبِ الَّتي تُحرِقُهم، فلا يستطيعُ الواحدُ منهم أنْ يَسمعَ سماعًا كامِلًا يُصغِي إلى الملأِ الأعلَى كما يُصغي الإنسانُ إلى شيخِه وإلى مُحَدِّثِه، بل تَجِدُهم يأتونَ إلى السَّماءِ خَطْفًا، فيَخْطَفون ما يَسمَعونَ دونَ أنْ يكونَ هناك مُهلَةٌ وتَأنٍّ؛ لأنَّها تخشَى مِنَ الشُّهُبِ[٢].

١٨- أنَّ الشَّياطينَ قد تأتي بخَبرِ السَّماءِ؛ لِقَولِه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾، ولكِنْ قد يقولُ قائلٌ: إنَّ اللهَ قال: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، وحينَئذٍ لا يَصِلُ إلى مُرادِه؟

**فالجوابُ**: أنَّه قد دَلَّتِ النُّصوصُ الأُخرى على أنَّه قد يَصِلُ إلى مُرادِه، فيَصِلُ إلى الكاهنِ قبْلَ أنْ يُدْرِكَه الشِّهابُ[٣].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ أنَّ الشَّياطينَ أجسامٌ؛ لأنَّه لا يُخرَقُ ولا يُحرَقُ إلَّا ما كان جِسمًا، وهو كذلك؛ فإنَّ الشَّياطينَ أجسامٌ، لكِنَّهم أجسامٌ لَطيفةٌ تَختَرِقُ الأجسامَ الكثيفةَ؛ أجسامَ البشرِ؛ ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ الشَّيطانَ يجري مِن ابنِ آدمَ مَجْرَى الدَّمِ))[٤]، كما أنَّ الرُّوحَ تجري مِن الجَسَدِ مجرى الدَّمِ، والرُّوحُ جِسمٌ لطيفٌ، فكذلك الشَّياطينُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٠، ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤).

(٤) أخرجه البخاري (٢٠٣٩) واللفظ له، ومسلم (٢١٧٥) من حديث صَفيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ رضي الله عنها.

أجسامٌ لَطيفةٌ تخترِقُ الأجسامَ الكَثيفةَ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا * فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا * فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾

- فاتِحةٌ مُناسِبةٌ لِأغراضِ السُّورةِ؛ وذلك بأنَّ القَسَمَ بالمَلائكةِ مُناسِبٌ لإثباتِ الوَحدانيَّةِ؛ لِأنَّ الأصنامَ لم يَدَّعوا لها مَلائكةً، والَّذي تأتمِرُ المَلائكةُ بأمرِه هو الإلهُ الحَقُّ، ولِأنَّ المَلائِكةَ مِن جُملةِ المَخلوقاتِ الدَّالِّ خَلْقُها على عِظَمِ الخالِقِ، ويُؤْذِنُ القَسَمُ بأنَّها أشرَفُ المَخلوقاتِ العُلويَّةِ، ثمَّ إنَّ الصِّفاتِ الَّتي لُوحِظَتْ في القَسَمِ بها مُناسِبةٌ لِلأغراضِ المَذكورةِ بَعْدَها؛ فالصَّافَّاتُ يُناسِبُ عَظَمةَ رَبِّها، والزَّاجِراتُ يُناسِبُ قَذْفَ الشَّياطينِ عنِ السَّمَواتِ، ويُناسِبُ تَسييرَ الكَواكِبِ وحِفظَها مِنْ أنْ يُدرِكَ بَعضُها بَعضًا، ويُناسِبُ زَجْرَها النَّاسَ في المَحشَرِ، والتَّالياتُ ذِكرًا يُناسِبُ أحوالَ الرَّسولِ والرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما أُرسِلوا به إلى أقوامِهم. وفي الافتِتاحِ بالقَسَمِ تَشويقٌ إلى مَعرِفةِ المُقسَمِ عليه؛ لِيُقبِلَ عليه السَّامعُ بشَراشِرِه -أي: بنَفْسِه- حِرصًا ومحبَّةً؛ فقدِ استَكمَلَتْ فاتِحةُ السُّورةِ أحسَنَ وُجوهِ البَيانِ وأكمَلَها[٢].

- والقَسَمُ لِتأكيدِ الخَبَرِ مَزيدَ تَأكيدٍ؛ لِأنَّه مُقتَضى إنكارِهمُ الوَحدانيَّةَ، وهو قَسَمٌ واحِدٌ، والمُقسَمُ به نَوعٌ واحِدٌ مُختَلِفُ الأصنافِ، وهو طوائِفُ مِنَ المَلائِكةِ، وعَطفُ هذه الصِّفاتِ بالفاءِ يَقتَضي أنَّ تلك الصِّفاتِ ثابِتةٌ لِمَوصوفٍ واحِدٍ باعتِبارِ جِهةٍ تَرجِعُ إليها وَحْدَتُه، وهذا المَوصوفُ هو هذه الطَّوائِفُ مِنَ المَلائِكةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٢، ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٨٣).

- قَولُه: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ وَصْفُ المَلائِكةِ بهذا الوَصفِ يَجوزُ أنْ يَكونَ على حَقيقَتِه، فتَكونَ المَلائِكةُ في العالَمِ العُلويِّ مُصطَفَّةً صُفوفًا، وهي صُفوفٌ مُتقَدِّمٌ بَعضُها على بَعضٍ، باعتِبارِ مَراتِبِ المَلائِكةِ في الفَضلِ والقُربِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ كِنايةً عن الاستِعدادِ لامتِثالِ ما يُلْقى إليهم مِن أمْرِ اللهِ تَعالى؛ قال تَعالى حِكايةً عنهم في هذه السُّورةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾[1] [الصَّافَّات: ١٦٥، ١٦٦].

- قَولُه: ﴿صَفّٗا﴾ وَ﴿زَجۡرٗا﴾ مَصْدَرانِ مُؤكِّدانِ لِمَا قَبْلَهما، أيْ: صَفًّا بَديعًا، وزَجْرًا بَليغًا. و﴿ذِكۡرًا﴾ في قَولِه: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ مَفعولُ (التَّالياتِ)، وهو أيضًا مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لِمَا قَبْلَه؛ فإنَّ التِّلاوةَ مِن بابِ الذِّكرِ[2].

- وما تُفيدُه الفاءُ في هذه الآياتِ مِن تَرتيبِ مَعطوفِها يَجوزُ أنْ يَكونَ تَرتيبًا في الفَضلِ؛ بأنْ يُرادَ أنَّ الزَّجرَ وتِلاوةَ الذِّكرِ أفضَلُ مِنَ الصَّفِّ؛ لأنَّ الاصطِفافَ مُقدِّمةٌ لها، ووسيلةٌ، والوَسيلةُ دونَ المُتوَسَّلِ إليه، وأنَّ تِلاوةَ الذِّكرِ أفضَلُ مِنَ الزَّجرِ، باعتِبارِ ما فيها مِن إصلاحِ المَخلوقاتِ المَزجورةِ بتَبليغِ الشَّرائِعِ إنْ كانتِ التِّلاوةُ تِلاوةَ الوَحيِ المُوحَى به لِلرُّسُلِ، أو بما تَشتَمِلُ عليه التِّلاوةُ مِن تَمجيدِ اللهِ تَعالى؛ فإنَّ الأعمالَ تَتفاضَلُ تارةً بتَفاضُلِ مُتَعلَّقاتِها، فيَكونَ مِن بابِ التَّرقِّي مِنَ الأدْنَى إلى الأعلى، وإمَّا على العَكسِ، أي: يُمكِنُ أنْ يكونَ الأوَّلُ هو الأفضَلَ، فيَكونَ مِن بابِ التَّقديمِ والتَّأخيرِ؛ لِلاعتِناءِ بالأهَمِّ، وما هو أوْلَى بالعِنايةِ وأجدَرُ بأنْ يَقرَعَ السَّمعَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٥)، =

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ * رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جَوابُ القَسَمِ، وفائِدتُه تَعظيمُ المُقسَمِ به، وتَأكيدُ المُقسَمِ عليه، والجُملةُ تَحقيقٌ لِلحَقِّ الَّذي هو التَّوحيدُ، بما هو المَألوفُ في كَلامِهم مِنَ التَّأكيدِ القَسَميِّ، وتَمهيدٌ لِمَا يَعقُبُه مِنَ البُرهانِ في قَولِه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾؛ فإنَّ وُجودَها وانتِظامَها على هذا النَّمَطِ البَديعِ مِن أوضَحِ دَلائلِ وُجودِ الصَّانعِ وعِلْمِه وقُدرَتِه، وأعدَلِ شَواهِدِ وَحْدَتِه، ومَناطُ التَّأكيدِ صِفةُ (وَاحِدٌ)؛ لِأنَّ المُخاطَبينَ كانوا قد عَلِموا أنَّ لهم إلهًا، ولكنَّهم جَعَلوه عِدَّةَ آلهةٍ، فأبطَلَ اعتِقادَهم بإثباتِ أنَّه واحِدٌ غَيرُ مُتعَدِّدٍ، وهذا إنَّما يَقتَضي نَفْيَ الإلهيَّةِ عنِ المُتعَدِّدينَ، وأمَّا اقتِضاؤُه تَعيينَ الإلهيَّةِ للهِ تعالى فذلك حاصِلٌ بأنَّهم لا يُنكِرونَ أنَّ اللهَ تَعالى هو الرَّبُّ العَظيمُ، ولكنَّهم جَعَلوا له شُرَكاءَ، فحَصَلَ التَّعدُّدُ في مَفهومِ الإلهِ؛ فإذا بَطَلَ التَّعدُّدُ تَعيَّنَ انحِصارُ الإلهيَّةِ في رَبٍّ واحِدٍ هو اللهُ تعالى[1].

- قَولُه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ أتْبَعَ تأْكيدَ الإخبارِ عن وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى بالاستِدلالِ على تَحقيقِ ذلك الإخبارِ؛ لِأنَّ القَسَمَ لِتَأكيدِه لا يُقنِعُ المُخاطَبينَ؛ لِأنَّهم مُكذِّبونَ مَن بَلَّغَ إليهم القَسَمَ؛ فالجُملةُ

---

= ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٤٥).

قال الشنقيطي: (والأظهَرُ الَّذي لا يَلزَمُه إشكالٌ: أنَّ التَّرتيبَ بالفاءِ لِمُجَرَّدِ التَّرتيبِ الذِّكريِّ. والإتيانُ بأداةِ التَّرتيبِ لمجَرَّدِ التَّرتيبِ الذِّكريِّ فقط دونَ إرادةِ ترتيبِ الصِّفاتِ أو المَوصوفاتِ: أسلوبٌ عَربيٌّ مَعروفٌ جاء في القُرآنِ في مواضِعَ، وهو كثيرٌ في كلامِ العرَبِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٥، ٨٦).

استِئنافٌ بَيانيٌّ لِبَيانِ الإلهِ الواحِدِ، مع إدماجِ الاستِدلالِ على تَعيينِه بذِكرِ ما هو مِن خَصائِصِه المُقتَضي تَفرُّدَه بالإلهيةِ، فقَولُه: ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ خَبَرٌ لِمُبتَدأٍ مَحذوفٍ -على قولٍ- جَرَى حَذْفُه على طَريقةِ الاستِعمالِ في حَذفِ المُسنَدِ إليه مِنَ الكَلامِ الوارِدِ بعدَ تَقدُّمِ حديثٍ عنه؛ فإنَّ المُشرِكينَ مع غُلُوِّهم في الشِّركِ لم يَتجَرَّؤوا على ادِّعاءِ الخالِقيَّةِ لِأصنامِهم، ولا التَّصرُّفِ في العوالِمِ العُلويَّةِ، وكيف يَبلُغونَ إليها وهمْ لَقًى -أي: مُلْقَون؛ لِهَوانِهم- على وَجهِ الأرضِ، فكان تَفَرُّدُ اللهِ بالخالِقيَّةِ أفْحَمَ حُجَّةٍ عليهم في بُطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ، وشَمِلَ قولُه: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ جَميعَ العوالِمِ المَشهودةِ لِلنَّاسِ بأجْرامِها وسُكَّانِها والمَوجوداتِ فيها[1].

- وإعادةُ ﴿ رَّبُّ ﴾ في قَولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾؛ لِغايةِ ظُهورِ آثارِ الرُّبوبيَّةِ فيها، وتَجدُّدِها كُلَّ يَومٍ مع كُلِّ شُروقٍ[2].

- وتَخصيصُ المَشارِقِ بالذِّكرِ؛ لِأنَّها أحوالٌ مَشهودةٌ كُلَّ يَومٍ، ولِأنَّها مَطالِعُ الأنوارِ، والإبصارُ بها أكلَفُ، وذِكرُها يُغْني عن ذِكرِ المَغارِبِ؛ إذْ ذاك مَفهومٌ مِنَ المَشارِقِ[3]، أو أنَّه خصَّها توطئةً لِمَا ذَكَر بعدَها مِن تزيينِ السَّماءِ بزينةِ الكواكِبِ، وجَعْلِها حِفظًا مِن كلِّ شيطانٍ، فذِكْرُ المشارِقِ أنسَبُ بهذا المعنى وأَلْيَقُ[4]، أو لأنَّ الشُّروقَ أقوى حالًا مِن الغُروبِ، وأكثَرُ نفعًا مِن الغُروبِ؛ فذُكِرَ المشرِقُ تنبيهًا على كثرةِ إحسانِ اللهِ تعالى على عبادِه؛ ولهذه الدَّقيقةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٠).

استدَلَّ إبراهيمُ عليه السَّلامُ بالمَشرِقِ، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ﴾[1] [البقرة: ٢٥٨].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث جَمَعَ المَشارِقَ هنا في قَولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾، وحَذَفَ مُقابِلَه، وثَنَّاه في سُورةِ (الرَّحمنِ)، وجَمَعَه في (المَعارِجِ)، وأفرَدَه في (المُزَّمِّلِ)، مع ذِكرِ مُقابِلِه في الثَّلاثةِ؛ قيل: لِأنَّ القُرآنَ نَزَلَ على المَعهودِ مِن أساليبِ كَلامِ العَرَبِ وفُنونِه، ومنها الإجمالُ والتَّفصيلُ، والذِّكرُ والحَذفُ، والجَمعُ والتَّثنيةُ والإفرادُ، باعتِباراتٍ مُختلِفةٍ، فأفرَدَ وأجمَلَ في (المُزَّمِّلِ) بقَولِه: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [المزمل: ٩]، أرادَ مَشرِقَ الصَّيفِ والشِّتاءِ ومَغرِبَهما، وجَمَعَ وفَصَّلَ في (المَعارِجِ) بقَولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، أرادَ جَميعَ مَشارِقِ السَّنةِ ومَغارِبَها، وهي تَزيدُ على سَبعِ مِئةٍ، وثَنَّى وفَصَّلَ في (الرَّحمنِ) بقَولِه: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمن: ١٧]، أرادَ مَشرِقَي الصَّيفِ والشِّتاءِ ومَغرِبَيْهما، وجَمَعَ وحَذَفَ هنا بقَولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ﴾، أرادَ جَميعَ مَشارِقِ السَّنةِ، واقتَصَرَ عليه؛ لِدَلالَتِه على المَحذوفِ، وخَصَّ ما هنا بالجَمعِ مُوافَقةً لِلجُموعِ أوَّلَ السُّورةِ، وبالحَذفِ مُناسَبةً لِلزِّينةِ في قَولِه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ [الصَّافَّات: ٦]؛ إذِ الزِّينةُ إنَّما تَكونُ في الأغلَبِ بالضِّياءِ والنُّورِ، وهما يَنْشآنِ مِنَ المَشرِقِ، لا مِنَ المَغرِبِ، وما في (الرَّحمنِ) بالتَّثنيةِ، مُوافَقةً لِلتَّثنيةِ في ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، وفي ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٦]، وبذِكرِ المُتقابِلَينِ مُوافَقةً لِبَسطِ صِفاتِه تَعالى وإنْعاماتِه ثَمَّ، وما في (المَعارِجِ) بالجَمعِ؛ مُوافَقةً لِلجَمعِ قَبْلَه وبَعْدَه، وبذِكرِ المتقابلَينِ موافقةً لِكثرةِ التَّأكيدِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٦، ٣١٧).

في القَسَمِ وجَوابِه، وما في (المُزَّمِّلِ) بالإفرادِ مُوافَقةً لِمَا قَبْلَه مِن إفرادِ ذِكرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما بعْدَه مِن إفرادِ ذِكرِ اللهِ تَعالى، وبذِكرِ المُتقابِلَينِ مُوافَقةً لِلحَصرِ في قَولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [المزمل: ٩]، ولِبَسطِ أوامِرِ اللهِ تَعالى لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ، مَسوقٌ لِتَقريرِ لَطائِفِ صُنْعِه، وبَديعِ خَلقِه(٢).

- جُملةُ ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ تَنزِلُ مِن جُملةِ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصَّافَّات: ٥] مَنزِلةَ الدَّليلِ على أنَّه رَبُّ السَّمَواتِ، واقتَصَرَ على رُبوبيَّةِ السَّمَواتِ؛ لِأنَّ ثُبوتَها يَقتَضي رُبوبيَّةَ الأرضِ بطَريقِ الأَوْلى، وأدمَجَ فيها مِنَّةً على النَّاسِ -بأنْ جَعَل لهم في السَّماءِ زِينةً؛ الكَواكِبَ، تَروقُ أنظارَهم؛ فإنَّ مَحاسِنَ المَناظِرِ لَذَّةٌ لِلنَّاظِرينَ-، ومِنَّةً على المُسلِمينَ بأنْ جَعَل في تلك الكَواكِبِ حِفظًا مِن تَلقِّي الشَّياطينِ لِلسَّمعِ؛ لِقَطعِ سَبيلِ اطِّلاعِ الكُهَّانِ على بَعضِ ما سيَحدُثُ في الأرضِ؛ فلا يَفتِنوا النَّاسَ في الإسلامِ، كما فَتَنوهم في الجاهليَّةِ، ولِيَكونَ ذلك تَشريفًا لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنْ قُطِعتِ الكِهانةُ عِندَ إرسالِه(٣)، ولِلإشارةِ إلى أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٠، ٩١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٦-٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٦، ٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٤٣).

(٣) وذلك على القولِ بأنَّه زال استِراقُهم للسَّمعِ؛ ولذلك زالت الكِهانةُ. يُنظر: ((أعلام النبوة)) للماوَرْدي (ص: ١٦٧).

ويُنظَرُ ما تقدَّمَ مِن الخلافِ في قَذفِ الشَّياطينِ: هل كان موجودًا قبلَ مَبعَثِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو كان لأجْلِ مَبعَثِه؟ (ص: ٣٢٢).

فيها مَنفعةً عَظيمةً دينيَّةً، وهي قَطعُ دابرِ الشَّكِّ في الوَحْيِ، كما أنَّ فيها مَنفَعةً دُنيويَّةً، وهي الزِّينةُ، والاهتِداءُ بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ[١].

- قَولُه: ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بالجَرِّ، بَدَلٌ مِن (زِينَةٍ)، على أنَّ المُرادَ بها الاسمُ، أيْ: ما يُزيَّنُ به، لا المَصدرُ؛ فإنَّ الكَواكبَ بأنْفُسِها وأوضاعِ بَعضِها مِن بَعضٍ زِينةٌ، وأيُّ زِينةٍ. وقُرِئَ بالإضافةِ[٢]؛ على أنَّها بَيانيَّةٌ؛ لِمَا أنَّ الزِّينةَ مُبهَمةٌ صادِقةٌ على كُلِّ ما يُزانُ به، فتَقَعُ الكَواكِبُ بَيانًا لها. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بزينةِ الكَواكِبِ ما زُيِّنتْ هي به، وهو ضَوؤُها[٣].

- قَولُه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ إقْحامُ لَفظِ (زِينَةٍ) تَأكيدٌ، والباءُ لِلسَّببيَّةِ، أيْ: زَيَّنَّا السَّماءَ بسَبَبِ زينةٍ؛ الكَواكِبِ، فكَأنَّه قيل: إنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنيا بالكَواكِبِ تَزيينًا، فكان ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ في قُوَّةِ: بالكَواكِبِ تَزيينًا، فقَولُه: ﴿بِزِينَةٍ﴾ مَصدَرٌ مُؤكِّدٌ لِفعلِ ﴿زَيَّنَّا﴾ في المَعنى، ولكنْ حُوِّلَ التَّعليقُ، فجُعِلَ (زِينَةٍ) هو المُتعَلِّقَ بـ ﴿زَيَّنَّا﴾؛ لِيُفيدَ مَعنى التَّعليلِ ومعنى الإضافةِ في تركيبٍ واحِدٍ على طَريقةِ الإيجازِ؛ لِأنَّه قد عُلِمَ أنَّ الكَواكِبَ زينةٌ مِن تَعليقِه بفِعلِ ﴿زَيَّنَّا﴾ مِن غَيرِ حاجةٍ إلى إعادةِ (زِينَةٍ) لولا ما قُصِدَ مِن مَعنى التَّعليلِ والتَّوكيدِ[٤].

- وخَصَّ سَماءَ الدُّنيا بالذِّكرِ وبزينةِ الكَواكِبِ، مع أنَّ بَقيَّةَ السَّمَواتِ مُزيَّنةٌ بذلك؛ لِأنَّها الَّتي تُشاهَدُ بالأبصارِ، والحِفظُ مِنَ الشَّياطينِ إنَّما هو فيها وَحْدَها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٧).

(٢) يُنظر ما تقدم (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٥).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَحِفْظًا ﴾ إمَّا أنْ يَكونَ مَعطوفًا على ﴿بِزِينَةٍ﴾ مِن حيثُ المَعنى؛ لِأنَّه في الحَقيقةِ مَفعولٌ له لِقَولِه: ﴿زَيَّنَّا﴾، والتَّقديرُ: خَلَقْنا الكَواكِبَ زِينةً وحِفظًا، وإمَّا أنْ يُقَدَّرَ النَّاصِبُ ويُؤخَّرَ، وهو (زَيَّنَّاها)؛ لِيُفيدَ الاهتِمامَ، أو يُقدَّمَ، بأنْ يُقالَ: وحَفِظْناها حِفظًا؛ لِيُفيدَ التَّوكيدَ. وفيه تَوكيدٌ آخَرُ، ودَلالةٌ على أنَّ الحِفظَ أهَمُّ مِنَ التَّزيينِ وأعْنَى؛ ولذلك أتْبَعَه اللهُ عزَّ وجلَّ قَولَه: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾[1] [الصَّافَّات: ٨].

- وقال في سورة (النساء) ﴿شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء: ١١٧]، وجاءَتْ لَفظةُ ﴿مَّارِدٍ﴾ هنا؛ مُراعاةً لِلفَواصِلِ[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾

- قَولُه: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ كلامٌ مُنقَطِعٌ، مُبتَدأٌ، مُستَطرَدٌ لِمَا عليه حالُ المُسترِقةِ لِلسَّمعِ، بعدَ بَيانِ حِفظِ السَّماءِ عنهم، مع التَّنبيهِ على كَيفيَّةِ الحِفظِ، وما يَعتَريهم في أثناءِ ذلك مِنَ العَذابِ، وأنَّهم لا يَقدِرونَ أنْ يَستَمِعوا إلى كَلامِ المَلائكةِ، أو يَتسَمَّعوا، وهمْ مَقذوفونَ بالشُّهُبِ، مَدْحُورونَ عن ذلك، إلَّا مَن أُمهِلَ حتَّى خَطِفَ خَطفةً، واستَرَقَ استِراقةً؛ فعِندَها تُعاجِلُه الهَلَكةُ بإتْباعِ الشِّهابِ الثَّاقِبِ[3].

- مِن قَولِه: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ إلى قَولِه تَعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥، ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩١، ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٥).

ثَاقِبٌ ﴾[الصَّافَّات: ١٠] اعتِراضٌ بينَ جُملةِ ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾[الصَّافَّات: ٦]، وجُملةِ ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾[الصَّافَّات: ١١]، قُصِدَ منه وَصْفُ قِصَّةِ طَردِ الشَّياطينِ. وعلى تَقديرِ قَولِه: ﴿ وَحِفْظًا ﴾[الصَّافَّات: ٧] مَصدَرًا نائبًا مَنابَ فِعلِه، يَجوزُ جَعلُ جُملةِ ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ ﴾ بَيانًا لِكَيفيَّةِ الحِفظِ، فتَكونُ الجُملةُ في مَوقِعِ عَطفِ البَيانِ مِن جُملةِ ﴿ وَحِفْظًا ﴾، أي: انتَفَى بذلك الحِفظِ سَمعُ الشَّياطينِ لِلمَلأِ الأعلى(١).

- قَولُه: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ لَفظُ (يَسَّمَّعُ) المُعَدَّى بنَفْسِه يُفيدُ الإدراكَ، والمُعَدَّى بـ (إلى) يُفيدُ الإصغاءَ مع الإدراكِ، مُبالَغةً وتَهويلًا لِمَا يَمنَعُهم عنه(٢). وقيل: حرفُ (إلى) يُشيرُ إلى تضمينِ فِعلِ ﴿يَسَّمَّعُونَ ﴾ معنى (ينتَهونَ)(٣).

- قَولُه: ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ وَصْفُ المَلأِ بالأعلى؛ لِتَشريفِ المَوصوفِ(٤).

- قَولُه: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾ إسنادُ فِعلِ (يُقْذَفُونَ) لِلمَجهولِ؛ لِأنَّ القاذِفَ مَعلومٌ، وهمُ المَلائِكةُ المُوكَّلونَ بالحِفظِ المُشارِ إليه في قَولِه تَعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾[الجن: ٨](٥). وقيل: لأنَّ النَّافعَ قَذفُهم، لا تعيينُ قاذِفِهم، مع أنَّه أدَلُّ على القُدرةِ الإلهيَّةِ عَزَّت وجَلَّت(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٩٢، ٩٣).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ١٩٧).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾

- قَولُه: ﴿ دُحُورًا ﴾ عِلَّةٌ لِلقَذفِ، أي: لِلدُّحورِ، أو حالٌ بمَعنى مَدحورينَ، أو مَصدَرٌ مُؤكِّدٌ لِلقَذفِ؛ لِأنَّهما مِن وادٍ واحِدٍ[1].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾

- الخَطفُ: ابتِدارُ تَناوُلِ شَيءٍ بسُرعةٍ، والخَطفةُ: المَرَّةُ منه، فهو مَفعولٌ مُطلَقٌ لِـ (خَطِفَ)؛ لِبيانِ عَدَدِ مَرَّاتِ المَصدَرِ، أيْ: خَطفةً واحِدةً، وأُريدَ به هنا الإسراعُ بسَمعِ ما يَستَطيعونَ سَمْعَه مِن كَلامٍ غَيرِ تامٍّ[2]، والمُرادُ: اختِلاسُ كَلامِ المَلائِكةِ مُسارَقةً، كما يُعرِبُ عنه تَعريفُ ﴿ٱلْخَطْفَةَ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٥).

## الآيات (١١-٢١)

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾: أي: سَلْهم، واستَخبِرْهم، وأصلُ (فتي): يدُلُّ على تبيينِ حُكمٍ[1].

﴿لَّازِبٍ ﴾: أي: مُلتَصِقٍ ثابتٍ، وأصلُ (لزب): يدُلُّ على ثُبوتِ شَيءٍ، ولُزومِه[2].

﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴾: أي: يُبالِغونَ في السُّخْرِيةِ، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على احتِقارٍ واستِذلالٍ[3].

﴿دَٰخِرُونَ ﴾: أي: صاغِرونَ أذِلَّاءُ، وأصلُ (دخر): يدُلُّ على الذُّلِّ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٨)، =

﴿زَجۡرَةٞ﴾: أي: نَفخةٌ، والزَّجرةُ: الصَّيحةُ بشِدَّةٍ وانتهارٍ، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على طَردٍ بصَوتٍ[١].

﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾: الوَيْلُ: كَلِمةٌ تُقالُ عند الهَلَكةِ، وهي دعاءٌ بالهلاكِ والعذابِ[٢].

﴿ٱلدِّينِ﴾: أي: الجزاءِ والمحاسبةِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازيتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانقيادِ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بتوبيخِ هؤلاء المشركينَ: فاسأَلْ -يا مُحمَّدُ- أولئك المُشرِكينَ المُنكِرينَ للبَعثِ: أهُم أعظَمُ خَلْقًا أمْ مَن خلَقْنا، كالسَّمواتِ والأرضِ وغَيرِهما؟! إنَّا خلَقْناهم مِن طينٍ مُلتَصِقٍ بَعضُه ببَعضٍ!

بل عَجِبْتَ -يا محمَّدُ- مِن تَكذيبِهم بالبَعثِ، والحالُ أنَّهم يَسخَرونَ مِن تعَجُّبِك ومِن إنكارِك عليهم ذلك، وإذا ذُكِّروا بالقُرآنِ فإنَّهم لا يَنتَفِعونَ بالتَّذكيرِ، وإذا رأوا مُعجِزةً تدُلُّ على صِدقِك يُبالِغونَ في السُّخريةِ وفي الاستِهزاءِ. وقالوا: ما هذا الَّذي جِئْتَنا به إلَّا سِحرٌ واضِحٌ، أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمبعوثونَ بعدَ ذلك، وآباؤُنا الَّذين ماتوا قَبْلَنا كذلك يُبعَثون؟!

قُلْ لهم -يا محمَّدُ: نَعَم، سيَبعثُكم اللهُ أحياءً، وأنتم أذِلَّاءُ صاغِرونَ! فإنَّما هي

---

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٢٣).

صَيحةٌ واحِدةٌ، فإذا هم قِيامٌ مِن قُبورِهم يَنظُرونَ، يَقولونَ نادِمينَ على تَكذيبِهم بالبَعثِ: يا وَيْلَنا، هذا يَومُ الحِسابِ والجَزاءِ، فيُقالُ لهم: هذا يومُ الفَصلِ والقَضاءِ الَّذي كُنتُم تُكَذِّبونَ به في الدُّنيا!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

افتتح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ بإثباتِ ما يَدُلُّ على وحدانيَّتِه، وهو: خَلقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما، وخَلْقُ المشارِقِ والمغارِبِ، فلمَّا أحكَمَ الكلامَ في هذا البابِ؛ فرَّع عليها إثباتَ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ والقيامةِ[1].

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ ﴾.

أي: فاسأَلِ المُشرِكينَ المُنكِرينَ للبَعثِ -يا محمَّدُ-: أهُم أقوَى وأعظَمُ خَلقًا أم مَن خَلَقْنا سِواهم؛ كالسَّمَواتِ والأرضِ والكواكِبِ، والملائِكةِ والشَّياطينِ[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٤، ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٦).

قال الألوسي: (﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾ أي: أقوى خِلقةً وأمْتَنُ بِنْيَةً، أو أصعَبُ خَلقًا وأشَقُّ إيجادًا). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآ﴾ أي: مَن عَدَدْنا خَلْقَه ممَّن تقدَّم ذِكرُه مِن الملائكةِ والشَّياطِينِ والسَّمواتِ والأرضِ إلى غيرِ ذلك مِن المخلوقاتِ العظيمةِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والزمخشري، والرازي، والرسعني، والبيضاوي، وابن جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٨٦)، ((تفسير الزمخشري)) =

= (٤/ ٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧)، ((فتح القدير)) للشوكاني (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧٣).

قال ابنُ جُزَي: (ومَقصَدُ الآيةِ: إقامةُ الحُجَّةِ عليهم في إنكارِهم البَعثَ في الآخرةِ، كأنَّه يقولُ: هذه المخلوقاتُ أشَدُّ خَلقًا مِنكم، فكما قَدَرْنا على خَلْقِهم كذلك نَقدِرُ على إعادتِكم بعدَ فَنائِكم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٠٩).

وقال الرازي: (التَّقديرُ كأنَّه تعالى يقولُ: استَفْتِ يا محمَّدُ هؤلاء المُنكرين أهُمْ أشَدُّ خَلقًا مِن خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، وخَلقِ المَشارِقِ والمَغارِبِ، وخَلقِ الشَّياطينِ الَّذين يَصعَدون الفلَكَ؟! ولا شكَّ أنَّهم يَعترِفون بأنَّ خَلقَ هذا القِسْمِ أشَقُّ وأشَدُّ في العُرفِ مِن خَلقِ القِسمِ الأوَّلِ، فلمَّا ثبَت بالدَّلائلِ المذكورةِ في إثباتِ التَّوحيدِ كَوْنُه تعالى قادرًا على هذا القِسمِ الَّذي هو أشَدُّ وأصعبُ، فبأنْ يَكونَ قادرًا على إعادةِ الحياةِ في هذه الأجسادِ كان أَوْلى، ونظيرُ هذه الدَّلالةِ قولُه تعالى في آخرِ يس: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٢).

وقيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي: إيجادُهم بعدَ موتِهم أشَدُّ خَلقًا وأشَقُّ ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مِن هذه المخلوقاتِ؟ فلا بدَّ أن يُقِرُّوا أنَّ خَلقَ السَّمَواتِ والأرضِ أكبَرُ مِن خلقِ النَّاسِ؛ فيَلزَمُهم إذَن الإقرارُ بالبَعثِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٤).

وقيل: المعنى: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ أي: مِن الأممِ الخاليةِ. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٠).

والمعنى على ذلك: أهُمْ أشَدُّ خَلقًا أمْ مَن خلَقْنا مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ قَبْلَهم، وقد أهلَكْنا أولئك حينَ كذَّبوا وكَفَروا وكانوا أشَدَّ منهم قُوَّةً وأعظَمَ بَطشًا، فما ظَنُّ هؤلاء؟! يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٧٤).

قال الزمخشري: (وليس هذا القولُ بملائم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧)

قال الطِّيبي: (لأنَّ ﴿مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مُطْلَقٌ يُحمَلُ على المُقيَّدِ، ولم يَسبِقْ للأُمَمِ الماضيةِ ذِكرٌ، وقد سبق ذِكرُ الملائكةِ والسَّمواتِ وغيرِهما؛ فوجَبَ تقييدُه بها... وأيضًا الفاءُ في قوله: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ يقتضي ترتُّبَ الثَّاني على الأوَّلِ). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢٧). =

كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧].

ثُمَّ بَيَّن الله تعالى أنَّهم خُلِقوا مِن شَيءٍ ضعيفٍ، فقال[١]:

﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾.

أي: إنَّا ابتَدَأْنا خَلْقَ النَّاسِ مِن طِينٍ لاصقٍ[٢].

﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ١٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قرَّر الدَّليلَ القاطِعَ في إثباتِ إمكانِ البَعثِ والقيامةِ؛ حكى عن المُنكِرينَ أشياءَ، أوَّلُها: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتعجَّبُ مِن إصرارِهم على الإنكارِ، وهم يَسخَرونَ منه في إصرارِه على الإثباتِ[٣]!

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ ﴿عَجِبْتُ﴾ بضَمِّ التَّاءِ، على معنى: إخبارِ اللهِ تعالى عن نَفْسِه بالعَجَبِ؛ إمَّا مِن إنكارِهم البَعثَ، أو سُخرِيتِهم مِنَ الرَّسولِ والقُرآنِ، وتَكذيبِهم به، أو مِن اتِّخاذِهم شَريكًا مع اللهِ تعالى، وعلى هذه القِراءةِ فالآيةُ مِن آياتِ الصِّفاتِ، والعَجَبُ صِفةٌ لله يجِبُ الإيمانُ بها على الوَجهِ الَّذي يَليقُ باللهِ سُبحانَه وتعالى[٤].

---

= ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧، ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٤).

(٤) قرأ بها حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٦). =

٢- قِراءةُ ﴿عَجِبْتَ﴾ بفَتحِ التَّاءِ، خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: بل عَجِبْتَ -يا مُحمَّدُ- مِن تَكذيبِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ، وهم بخِلافِ ذلك يَسخَرونَ ممَّا تَقولُ في شأنِ البَعثِ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

---

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٣)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠١، ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٦ - ٦٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٨).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠١، ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٦، ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٣، ٥١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

قال ابن عطيَّة: (أي: عَجِبتَ يا محمَّدُ مِن إعراضِهم عن الحقِّ، وعَماهُم عن الهُدى، وأن يَكونوا كافرين مع ما جِئتَهم به مِن عندِ الله). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٧).

وقيل: المرادُ: عَجَبُه ممَّا نَزَل عليه مِن القُرآنِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والسمعاني، والقرطبي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٦٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٤).

قال القُرطبي: (﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ قيل: الواوُ واوُ الحالِ، أي: عَجِبتَ منهم في حالِ سُخريتِهم. وقيل: تمَّ الكلامُ عندَ قَولِه: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ ﴾، ثمَّ استأنفَ فقال: ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ أي: مِمَّا جِئتَ به إذا تَلَوْتَه عليهم. وقيل: يَسخَرونَ منك إذا دعَوْتَهم). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١).

﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ١٣ ﴾.

أي: وإذا ذُكِّرَ المُشرِكونَ بالقُرآنِ فإنَّهم لا يَنتَفِعونَ بالتَّذكيرِ[1]!

﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إعراضَهم عن المسموعِ؛ أتْبَعَه إعراضَهم عن المرئيِّ[2].

﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤ ﴾.

أي: وإذا رأَوا مُعجِزةً ظاهِرةً تَدُلُّ على صِدقِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسخَرونَ منها[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٣، ٥١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

قال ابن عاشور: (والتَّذكيرُ بأنْ يَذْكُروا ما يَغْفُلونَ عنه مِن قُدْرةِ اللهِ تعالى عليهم، ومِن تنظيرِ حالِهم بحالِ الأُمَمِ الَّتي استأْصَلَها اللهُ تعالى، فلا يَتَّعِظوا بذلك عنادًا، فأَطْلَقَ ﴿لَا يَذۡكُرُونَ﴾ على أثَرِ الفعلِ، أي لا يَحصُلُ فيهم أثَرُ تَذَكُّرِ ما يُذَكَّرونَ به وإنْ كانوا قد ذَكَروا ذلك. ويجوزُ أنْ يُرادَ: لا يَذْكُرونَ ما ذُكِّروا به، أي: لِشِدَّةِ إعراضِهم عن التَّأمُّلِ فيما ذُكِّروا به لاستِقرارِ ما ذُكِّروا به في عقولِهم، فلا يَذْكُرونَ ما هم غافِلونَ عنه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٧).

وقيل: ذُكِّروا ما يَعرِفونَه في فِطَرِهم وعُقولِهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٧).

قيل: معنى: ﴿يَسۡتَسۡخِرُونَ﴾: يَسْخَرونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: أبو عُبَيدةَ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٦٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١). =

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥ ﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ: ما هذا الَّذي جاءَنا به محمَّدٌ إلَّا سِحرٌ في غايةِ الوُضوحِ[1].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ مِنۡ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَئِن قُلۡتَ إِنَّكُم مَّبۡعُوثُونَ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡمَوۡتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾ [هود: ٧].

﴿ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ١٦ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى يُبيِّنُ السَّبَبَ الَّذي يَحمِلُ الكافِرينَ على الاستِهزاءِ بالقَولِ بالبَعثِ، وعلى عَدَمِ الالتِفاتِ إلى الدَّلائِلِ الدَّالَّةِ على صِحَّةِ القَولِ، وعلى

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٥).

وقيل: المرادُ: أنَّهم يَطلُبونَ السُّخريةَ بها، بأن يَدْعُوَ بَعضُهم بعضًا لذلك؛ مِن شِدَّةِ استِهزائِهم. وممَّن قال بذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٠٣).

وقيل: المعنى: يُبالِغون في السُّخْريةِ، فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الشوكاني، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٦).

قيل: المرادُ أنَّ المُعجِزةَ الَّتي جاءَتهم سِحرٌ. وممَّن قال بذلك: الرازيُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧١).

وقيل: المرادُ أنَّ دعوى إعادةِ الحياةِ بعدَ البِلى كلامُ سِحرٍ مُبينٌ، أي: كلامٌ لا يُفهَمُ، قُصِدَ به سِحرُ السَّامِعِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٤).

الاستِهزاءِ بجَميعِ المُعجِزاتِ، وهو قَولُهم[١]:

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ استِبعادًا وإنكارًا لوُقوعِ البَعثِ: أئِذا مِتْنا وصِرْنا في قُبورِنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمبعوثونَ أحياءً مِن بعدِ ذلك[٢]؟!

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: أَوَيُبعَثُ أيضًا آباؤُنا الَّذين ماتوا قَبْلَنا، وطال مُكثُهم تحتَ الأرضِ، وتلاشَت أجزاؤُهم، فلم يَبقَ لها أثَرٌ[٣]؟!

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى إمكانَ البَعثِ؛ بيَّنَ وُقوعَه[٤]، فقال:

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: نَعَم، سيَبعثُكم اللهُ أحياءً بعدَ أن تَصيروا تُرابًا وعِظامًا، ويَبعَثُ آباءَكم الأوَّلينَ، وأنتم أذِلَّاءُ صاغِرونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٧٦، ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٦، ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩). =

كما قال تعالى ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧].

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ١٩﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ في الآيةِ المتقَدِّمةِ ما يدُلُّ على إمكانِ البَعثِ والقيامةِ، ثمَّ أردَفَه بما يدُلُّ على وُقوعِ القيامةِ؛ ذكَرَ في هذه الآياتِ بعضَ تفاصيلِ أحوالِ القيامةِ[1]:

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ١٩﴾.

أي: فإنَّما هي[2] صَيحةٌ واحِدةٌ بلا تَكرارٍ، فيَخرُجونَ مِن الأرضِ أحياءً يَنظُرونَ[3].

---

= وممَّن قال بالمعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادِرُ السَّابقةُ.

قال القرطبي: (﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ أي: صاغِرونَ أذِلَّاءُ؛ لأنَّهم إذا رأَوا وُقوعَ ما أنكَروه فلا محالةَ يَذِلُّونَ. وقيل: أي: ستَقومُ القيامةُ وإن كرِهتُم، فهذا أمرٌ واقِعٌ على رَغمِكم، وإن أنكَرْتُموه اليومَ بزَعمِكم). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ المذكورينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (الضَّميرُ مَرجِعُه مُستفادٌ مِن الخبرِ، أي: فإنَّما الزَّجرةُ لِبَعثِهم زَجرةٌ واحِدةٌ... وقال بَعضُهم ﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: البَعثةُ الَّتي يُبعَثونَها، أي: ما بَعْثَتُهم إلَّا زَجرةٌ واحِدةٌ، أي: بزَجرةٍ واحِدةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥١).

وقال ابنُ عاشور: (وضميرُ ﴿هِيَ﴾ ضميرُ القصَّةِ، وهو ضميرُ الشَّأْنِ. واختِيرَ الضَّميرُ المؤَنَّثُ؛ لِيَحْسُنَ عَوْدُه إلى ﴿زَجْرَةٌ﴾، وهذا مِن أحسَنِ استِعمالاتِ ضميرِ الشَّأْنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧، ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩، ١٠٠). =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... يُصعَقُ النَّاسُ، ثمَّ يُرسِلُ اللهُ -أو قال: يُنزِلُ اللهُ- مَطَرًا كأنَّه الطَّلُّ أو الظِّلُّ، فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى، فإذا هم قيامٌ يَنظُرونَ، ثمَّ يُقالُ: يا أيُّها النَّاسُ، هَلُمَّ إلى رَبِّكم ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾))[1].

﴿وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝٢٠﴾.

أي: ويَقولُ المُشرِكونَ إذا بعَثَهم اللهُ يومَ القيامةِ نادِمينَ ومُتحَسِّرينَ على تَكذيبِهم بالبَعثِ:

يا وَيْلَنا، هذا يومُ الحِسابِ والجَزاءِ[2].

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢١﴾.

أي: فيُقالُ لهم يومَ القيامةِ: هذا يومُ حُكمِ اللهِ وقَضائِه بيْنَ عبادِه، الَّذي كنتُم

---

= قال ابن جُزَي: (﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مِن النَّظَرِ بالأبصارِ، أو مِنَ الانتِظارِ، أي: يَنتَظِرونَ ما يُفعَلُ بهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٨).

وممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٧).

واختلَف أصحابُ هذا القَولِ في هذا النَّظَرِ: إلى أيِّ شَيءٍ يكونُ؟ فقيل: يَنظُرونَ إلى ما كانوا يُوعَدونَه مِن قيامِ السَّاعةِ وأهوالِها، ويُعاينونَه. وقيل: يُبصِرونَ ما يَفعَلُ اللهُ بهم مِن العَذابِ. وقيل: يَنظُرُ بَعضُهم إلى بعضٍ. تُنظر: المصادرُ السَّابقةُ.

وممَّن اختار أنَّ ﴿يَنظُرُونَ﴾ بمعنى: يَنتَظِرونَ: السَّمعانيُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥١٠).

(١) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

في الدُّنيا تُكذِّبونَ به[١].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٨، ٣٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ﴾ المخلوقُ مِن الماءِ والطِّينِ بَشَرٌ ضَعيفٌ، لا يَملِكُ لِنَفْسِه ولا لِمَن تعلَّقَ به: جَلْبَ مَنفعةٍ، ولا دَفْعَ مَضَّرةٍ؛ فإنَّ الماءَ والطِّينَ مُنفَعِلٌ لا فاعِلٌ، وعاجِزٌ مَهينٌ لا قَويٌّ مَتينٌ، فحقيقٌ بابنِ الماءِ والطِّينِ أن يَشْخَصَ عنه القلبُ لا إليه، وأنْ يُعَوِّلَ على خالقِه وحْدَه لا عليه، وأن يَجعلَ رغبتَه كلَّها فيه وفيما لَدَيْه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ﴾ أنَّه يَجبُ على الدُّعاةِ إلى الحَقِّ أن يَصبِروا على ما يَنالُهم مِن النَّاسِ مِن السُّخْريةِ، ولْيَعلَموا أنَّ العاقبةَ للمُتَّقينَ، وإذا كان الرُّسُلُ قد سَخِرَ النَّاسُ منهم؛ فكيفَ بمَن دونَهم[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠١).

قال ابنُ عطيَّة: (أجمَعوا أنَّ قَولَه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ: ليس مِن قَولِ الكَفَرةِ، وإنَّما المعنى: يُقالُ لهم...). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٨).

وذكر الزمخشريُّ احتمالًا أن يكونَ مِن كلامِ الكَفَرةِ بعضِهم مع بعضٍ، وجَوَّزَه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠١).

واستظهره أبو حيَّانَ، قال: (والظَّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿يَٰوَيۡلَنَا﴾ مِن كلامِ بعضِ الكفَّارِ لبعضٍ، إلى آخِرِ الجُملتَينِ، أقَرُّوا بأنَّه يومُ الجزاءِ، وأنَّه يومُ الفصلِ، وخاطَبَ بعضُهم بعضًا). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤٣).

٣- قال تعالى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾، وقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ [الرعد: ٥] والتعجُّبُ مِن الباطلِ إنكارًا له، والتعجُّبُ مِن الباطل مبالغةً في إنكارِه واستقباحِه لا يصدرُ إلَّا مِن قلبٍ مملوءٍ بالإيمانِ، منوَّرٍ بالعرفانِ، وهو وسيلةٌ إلى تركِ ما أنكَره[1].

٤- أنَّه يجبُ الرَّدُّ على شُبُهاتِ أهلِ الباطِلِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَقُلْ: اترُكْهم، بل قال: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾[2].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ﴾ أنَّه ينبغي في المُجادَلةِ أنْ يُؤتَى بما يُقِرُّ به الخَصمُ؛ لِيَكونَ حُجَّةً عليهم؛ لأنَّهم سَيُقِرُّون بأنَّ مَن خَلَقَه اللهُ أشَدُّ خَلقًا منهم؛ فإذا أقَرُّوا بذلك قامَت عليهم الحُجَّةُ[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۞ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ۞ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ۞ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ۞ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۞ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ مَن تأمَّلَ في هذه الآياتِ عَلِمَ أنَّها ورَدَت على أحسَنِ وُجوهِ التَّرتيبِ؛

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٥٦)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥٠).

قال ابنُ تيميَّةَ: (يجبُ أن يُعلَمَ أنَّ الأمورَ المعلومةَ مِن دينِ المسلمينَ لا بُدَّ أن يكونَ الجوابُ عمَّا يُعارِضُها جوابًا قاطعًا لا شُبْهةَ فيه، بخِلافِ ما يَسلُكُه مَن يَسلُكُه مِن أهلِ الكلامِ الَّذين يَزعُمون أنَّهم يُبيِّنون العِلمَ واليقينَ بالأدِلَّةِ والبراهين، وإنَّما يستفيدُ النَّاظرُ في كلامِهم كثرةَ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ... فكلُّ مَن لم يُناظِرْ أهلَ الإلحادِ والبِدَعِ مُناظَرةً تَقطَعُ دابِرَهم؛ لم يكُنْ أعطى الإسلامَ حقَّه، ولا وفَى بموجَبِ العِلمِ والإيمانِ، ولا حصَل بكلامِه شِفاءُ الصُّدورِ، وطُمأنينةُ النُّفوسِ، ولا أفاد كلامُه العِلمَ واليقينَ). ((درء تعارض العقل والنقل)) (١/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٣٩).

وذلك لأنَّه بيَّن الإمكانَ بالدَّليلِ العَقليِّ، وبيَّن وُقوعَ ذلك المُمكِنِ بالدَّليلِ السَّمعيِ، ومِنَ المعلومِ أنَّ الزِّيادةَ على هذا البَيانِ كالأمرِ المُمتَنِعِ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ ﴾ تَفاوُتُ الخَلقِ في العِظَمِ، فتَكونُ المخلوقاتُ مُتفاوِتةً في عِظَمِها ودَلالتِها على قُدرةِ اللهِ؛ لأنَّ ما كان أعظَمَ كان أدَلَّ على القُدرةِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴾ الإشارةُ إلى إمكانِ البَعثِ، وأنَّ اللهَ قادِرٌ عليه؛ وَجْهُه: أنَّ القادِرَ على هذه المخلوقاتِ الَّتي هي أشَدُّ خَلْقًا مِنهم، وعلى خَلقِهم مِن الطِّينِ- قادِرٌ على إعادتِهم(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴾ بَيانُ قُدرةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ حيثُ خَلَقَ هذا الإنسانَ الخَصيمَ المُبينَ مِن هذا الطِّينِ(٤)!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلۡ عَجِبۡتَ ﴾ عُلُوُّ منزلةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث اعتبرَ اللهُ عزَّ وجلَّ تَعَجُّبَه تعجُّبًا يُنَوَّهُ عنه، ومعلومٌ أنَّ الَّذي يُنَوَّهُ عن أحوالِه عظيمٌ عندَ مَن نَوَّهَ عنه، بخِلاف مَن لا يُؤْبَهُ له، ولا يُهْتَمُّ به(٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتُ﴾ -على قراءةِ ضمِّ التَّاءِ(٦)-: دَليلٌ على إثباتِ صِفةِ العَجَبِ للهِ تعالى(٧). وأنواعُ العَجَبِ ثلاثةُ أقسامٍ: عجَبُ استِحسانٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٣).

(٦) تقدمَ الكلامُ على هذه القراءةِ (ص:٣٤٦).

(٧) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٨).

وعجَبُ إنكارٍ، وعَجَبُ استِفهامٍ، والعَجَبُ الَّذي بمعنى الاستِفهامِ لا يكونُ في حَقِّ اللهِ تعالى؛ لأنَّه يكونُ لخَفاءِ الأسبابِ على هذا المُستَغرِبِ للشَّيءِ المتعَجَّبِ منه، بحيثُ يأتيه بَغْتةً بدُونِ تَوقُّعٍ، وهذا مُستحيلٌ على اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ. مِثالٌ للعَجَبِ الَّذي يَحمِلُ عليه الاستِحسانُ: قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قد عَجِب اللهُ مِن صَنيعِكما بضَيْفِكما اللَّيلةَ))[1]، ومِثالُ عجَبِ الإنكارِ مِن اللهِ تعالى قَولُه: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾، فهذا عَجَبُ إنكارٍ[2].

٨- أنَّ الجَدَّ يُسمَّى أبًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾، وآباؤُهم الأوَّلُون أجدادٌ سابِقونَ، فالجَدُّ يُسمَّى أبًا، ويَتفرَّعُ على ذلك مسألةٌ فَرَضِيَّةٌ، وهي: أنَّ الجَدَّ يُسْقِطُ الإخوةَ، أشقاءَ كانوا أمْ لأبٍ أمْ لأمٍ[3]. كما يسقطون بالأبِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أنَّ المكذِّبين بالبعثِ يُحشَرون يومَ القيامةِ صاغِرينَ، وكما في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ﴾[4] [الشورى: ٤٥].

- في قَولِه تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ بَيانُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ تَخرُجُ الخلائِقُ كُلُّها بزَجرةٍ واحدةٍ، وتَخرُجُ الخلائِقُ كُلُّها فَورًا بدونِ تأخيرٍ؛ ففيه دَليلٌ على القُدرةِ مِن وَجهَينِ؛ الوَجهُ الأوَّلُ: عدمُ تَكرارِ الأمرِ. والوَجهُ الثَّاني:

---

(١) جزءٌ من حديثٍ أخرجه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧).

وهذا المذكورُ -أي: حَجْبُ الجدِّ للإخوةِ- هو قولُ أبي حنيفةَ، وهو خلافُ قولِ مالكٍ، والشَّافعيِّ، وأحمدَ. يُنظر: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هبيرة (٢/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥٠).

سُرعةُ الائتِمارِ والامتِثالِ لأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّهم بمُجرَّدِ ما يَخرُجونَ يكونونَ أحياءً يَعقِلون ويُدرِكون، وليس كالطِّفلِ الَّذي يَخرُجُ مِن بطنِ أُمِّه لا يَعلمُ شَيئًا[٢]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾

- قَولُه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ الفاءُ تَفريعٌ على قَولِه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ [الصَّافَّات: ٦] باعتِبارِ ما يَقتَضيه مِن عَظيمِ القُدرةِ على الإنشاءِ، أيْ: فسَلْهُم عن إنكارِهمُ البَعثَ، وإحالَتِهم إعادةَ خَلقِهم بعدَ أنْ يَصيروا عِظامًا ورُفاتًا، أخَلْقُهم حينَئذٍ أشَدُّ علينا، أمْ خَلْقُ تلك المَخلوقاتِ العَظيمةِ؟! وضَميرُ الخِطابِ مُوَجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أيْ: فسَلْهم، وهو سُؤالُ مُحاجَّةٍ وتَغليطٍ[٣].

- وضَميرُ الغَيبةِ في قَولِه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ عائِدٌ إلى غَيرِ مَذكورٍ؛ لِلعِلْمِ به مِن دَلالةِ المَقامِ، وهم الَّذين أحالوا إعادةَ الخَلقِ بَعدَ المَماتِ[٤].

- وهَمزةُ ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ لِلاستِفهامِ المُستَعمَلِ لِلتَّقريرِ بضَعفِ خَلقِ البَشَرِ بالنِّسبةِ لِلمَخلوقاتِ السَّماويَّةِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ يَؤولُ إلى الإقرارِ؛ حيث إنَّه يُلجِئُ المُستَفهَمَ إلى الإقرارِ بالمَقصودِ مِن طَرَفَيِ الاستِفهامِ، فالاستِفتاءُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَعنى الاستِفهام، فهو يُستعمَلُ في كُلِّ ما يُستعمَلُ فيه الاستِفهامُ، والهمزةُ أُجرِيتْ على الاستفهامِ ظاهرًا؛ لِيُجعَلَ المُقَرَّرُ غيرَ مقرَّرٍ، فيَصِحَّ دخولُ «استَفْتِهم» عليها، والفائِدةُ: الإنكارُ والتَّوبيخُ، كأنَّه لم يَعلَمْ ذلك فاستَفْهَمَ، مع أنَّ هذا الأمرَ المسؤولَ مُقرَّرٌ مُعَيَّنٌ، والأسلوبُ مِن بابِ سَوقِ المَعلومِ مَساقَ غَيرِه[1].

- وقَولُه: ﴿أَشَدُّ خَلْقًا﴾ يَحتمِلُ: أقوى خَلقًا، مِن قَولِهم: شَديدُ الخَلقِ، وفي خَلقِه شِدَّةٌ، على سَبيلِ الإنكارِ، وأصعَبُ خَلقًا وأشَقُّه، على مَعنى الرَّدِّ لِإنكارِهمُ البَعثَ والنَّشأةَ الأُخرى، وأنَّ مَن هانَ عليه خَلقُ هذه الخَلائِقِ العَظيمةِ، ولم يَصعُبْ عليه اختِراعُها؛ كان خَلقُ البَشَرِ عليه أهْوَنَ[2].

- وجاء قَولُه: ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مُطلَقًا مِن غَيرِ تَقييدٍ بالبَيانِ؛ اكتِفاءً ببَيانِ ما تَقدَّمَه، كأنَّه قال: خَلَقْنا كذا وكذا مِن عَجائِبِ الخَلقِ وبَدائِعِه، فاستَفْتِهم: أهُم أشَدُّ خَلْقًا أمِ الَّذي خَلَقْناه مِن ذلك[3]؟!

- وجيءَ باسمِ العاقِلِ -وهو (مَنْ) المَوصولةُ-؛ تَغليبًا لِلعاقِلينَ مِنَ المَخلوقاتِ[4].

- قَولُه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ قَولٌ في مَوضِعِ العِلَّةِ؛ لِمَا يَتوَلَّدُ مِن مَعنى الاستِفهامِ في قَولِه: ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ مِنَ الإقرارِ بأنَّهم أضعَفُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦، ٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦، ٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦، ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥).

خَلقًا مِن خَلقِ السَّمَواتِ وعَوالِمِها؛ احتِجاجًا عليهم بأنَّ تَأتِّيَ خَلقِهم بعدَ الفَناءِ أهْوَنُ مِن تَأتِّي المَخلوقاتِ العَظيمةِ المَذكورةِ آنِفًا ولم تَكُنْ مَخلوقةً قَبْلُ؛ فإنَّهم خُلِقوا مِن طينٍ أصلُه تُرابٌ؛ لِأنَّ أصْلَهم -وهو آدَمُ- خُلِقَ مِن طينٍ، كما هو مُقرَّرٌ لَدى جَميعِ البَشَرِ، فكيف يُحيلونَ البَعثَ بمَقالاتِهم الَّتي منها قَولُهم: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾[1] [الصَّافَّات: ١٦]؟!

- قَولُه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ أضافَ الخَلقَ مِنَ الطِّينِ إليهم، والمَخلوقُ منه هو أبوهم آدَمُ؛ إذْ كانوا نَسْلَه[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾

- ﴿ بَلْ ﴾ لِلإضرابِ الانتِقاليِّ مِنَ التَّقريرِ التَّوبيخيِّ إلى أنَّ حالَهم عَجَبٌ، وفِعلُ المُضِيِّ مُستَعمَلٌ في مَعنى الأمْرِ، وهو مِن استِعمالِ الخَبَرِ في مَعنى الطَّلَبِ؛ لِلمُبالَغةِ، والمَعنى: اعْجَبْ لهم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ العَجَبُ قد حصَلَ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا رأى إعراضَهم، وقِلَّةَ إنصافِهم، فيَكونَ الخَبَرُ مُستَعمَلًا في حَقيقَتِه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الكَلامُ على تَقديرِ هَمزةِ الاستِفهامِ، أيْ: بَلْ أعَجِبتَ؟ والمَعنى على الجَميعِ أنَّ حالَهم حَرِيَّةٌ بالتَّعجُّبِ[3].

- وجيءَ بالمُضارِعِ في ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾؛ لِإفادةِ تَجدُّدِ السُّخريةِ، وأنَّهم لا يَرعَوونَ عنها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٩٧).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ مُبالَغةٌ في السُّخريةِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾

- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ خَصُّوا البَعثَ بالإنكارِ؛ إعلامًا بأنَّه أعظَمُ مَقصودٍ بالنِّسبةِ إلى السِّحرِ[٢].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿ أَءِذَا مِتْنَا ﴾ إنكاريٌّ، وأصلُه: أنُبعَثُ إذا مِتْنا؟! فبَدَّلوا الفِعليَّةَ بالاسميَّةِ، وقَدَّموا الظَّرفَ، وكَرَّروا الهَمزةَ؛ مُبالَغةً في الإنكارِ، وإشعارًا بأنَّ البَعثَ مُستَنكَرٌ في نَفْسِه، وفي هذه الحالِ أشَدُّ استِنكارًا، وكذا تَحليةُ جُملةِ ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ بـ (إنَّ) واللَّامِ، لِتأكيدِ الإنكارِ[٣].

- قَولُه: ﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ أيْ: كان بَعضُ أجزائِنا تُرابًا، وبَعضُها عِظامًا. وتَقديمُ التُّرابِ؛ لِأنَّه مُنقَلِبٌ مِنَ الأجزاءِ الباديةِ[٤]، ولأنَّه أدَلُّ على مُرادِهم؛ لأنَّه أبْعَدُ عن الحياةِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾، وقال بَعْدُ في هذه السُّورةِ: ﴿ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ * يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٤).

[الصَّافَّات: ٥١-٥٣]، فقال هنا: ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، وفيما بَعْدَه: ﴿لَمَدِينُونَ﴾، فاختَلَفا في المَكانَين، وإنْ كانا فيما يُرادُ مِن تَحقيقِ الإحياءِ بعدَ المَوتِ سواءً؛ وذلك لِمُناسَبةٍ حَسَنةٍ: أنَّ ما هنا حِكايةُ ما قاله الكُفَّارُ مِن إنكارِ البَعثِ، والمَبعوثُ هو الَّذي يُبعَثُ مِن قَبرِه، ويَحيا بعدَ مَوتِه، والمَدينُ هو المُجازَى بما كان مِن كَسبِه، والبَعثُ قَبْلَ الجَزاءِ، وهو يُفعَلُ مِن أجْلِه. وحِكايةُ الآخَرِ الَّذي قال: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٥٣] إنَّما هي عِندَ حُصولِه في النَّارِ، وهو الجَزاءُ الَّذي أنكَرَه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ * فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصَّافَّات: ٥٤، ٥٥]، فهذا المُؤمِنُ الَّذي حَكى اللهُ تعالى عنه قَولَه، وأنَّه أخبَرَ عن قَرينِه في الدُّنيا بأنَّه كان يُنكِرُ أنْ يُحيَا ويُدانَ بما صَنَعَ هو الَّذي إذا رآهُ في سَواءِ الجَحيمِ: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ * وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصَّافَّات: ٥٦، ٥٧]، فالتَّفريعُ على ما أنكَرَ إنَّما يَقَعُ إذا تَحقَّقَ وحَصَلَ فيه مِن كُفرِه، نَعوذُ باللهِ مِن عِقابِه[١]. وقِيل غيرُ ذلك[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ تَضمَّنَ إنكارًا واستِبعادًا لِلبَعثِ، يَعنونَ أنَّ آباءَهم أقدَمُ؛ فبَعثُهم أبعَدُ وأبطَلُ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٨٩-١٠٩١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٨، ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩).

- قَولُه: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ﴾ -بفَتحِ الواوِ- والواوُ واوُ العَطفِ، والهَمزةُ هَمزةُ استِفهامٍ، فهُما حَرْفانِ، وقُدِّمتْ هَمزةُ الاستِفهامِ على حَرفِ العَطفِ حسَبَ الاستِعمالِ الكَثيرِ، والتَّقديرُ: وآباؤُنا الأوَّلونَ مِثلُنا، وفي قِراءةٍ (أَوْ آباؤُنَا) -بسُكونِ واوِ (أَوْ)[1]- على أنَّ الهَمزةَ مع الواوِ حَرفٌ واحِدٌ هو (أَوْ) العاطِفةُ المُفيدةُ للتَّقسيمِ هنا، ووَجهُ العَطفِ بـ (أَوْ) هو جَعلُهمُ الآباءَ الأوَّلينَ قِسْمًا آخَرَ؛ فكان عَطفُه ارتِقاءً في إظهارِ استِحالةِ إعادةِ هذا القِسمِ؛ لِأنَّ آباءَهم طالَتْ عُصورُ فَنائِهم، فكانتْ إعادةُ حَياتِهم أوْغَلَ في الاستِحالةِ[2].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾

---

(١) وهي قراءةُ نافعٍ، وابنِ عامرٍ. وقرأ الباقون ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ﴾ بفتحِ الواوِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٨)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٨، ٩٩).

قال الشنقيطي: (همزة الاستفهام إذا جاءت بعدَها أداةُ عطفٍ كالواوِ والفاءِ وثمَّ، نحو: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ﴾ ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ [الأعراف: ٩٧]، ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ﴾ [يونس: ٥١]- ففي ذلك وجهانِ لعلماءِ العربيَّةِ والمفسِّرينَ؛ الأوَّلُ منهما: أنَّ أداةَ العطفِ عاطفةٌ للجملةِ المُصَدَّرةِ بالاستِفهامِ على ما قبْلَها، وهمزةُ الاستِفهامِ متأخِّرةٌ رُتبةً عن حرفِ العطفِ، ولكنَّها قُدِّمَتْ عليه لفظًا لا معنًى؛ لأنَّ الأصلَ في الاستفهامِ التَّصديرُ به كما هو معلومٌ في محلِّه. والمعنى على هذا واضحٌ، وهو أنَّهم أنكَروا بَعْثَهم أنفُسَهم بأداةِ الإنكارِ الَّتي هي الهمزةُ، وعطَفوا على ذلك بالواوِ إنكارَهم بَعْثَ آبائِهم الأوَّلينَ بأداةِ الإنكارِ الَّتي هي الهمزةُ المُقَدَّمةُ عن محلِّها لفظًا لا رُتْبةً. وهذا القولُ هو قولُ الأقدمينَ مِن علماءِ العربيَّةِ، واختاره أبو حيَّانَ في «البحر المحيط»، وابنُ هشام في «مُغْني اللَّبيب»، وهو الَّذي صِرْنا نميلُ إليه أخيرًا بعدَ أن كنَّا نميلُ إلى غيرِه. الوجهُ الثَّاني: هو أنَّ همزةَ الاستفهامِ في محلِّها الأصليِّ، وأنَّها مُتعلِّقةٌ بجملةٍ محذوفةٍ، والجملةَ المُصَدَّرةَ بالاستفهامِ معطوفةٌ على المحذوفةِ بحرفِ العطفِ الَّذي بعدَ الهمزةِ، وهذا الوجهُ يميلُ إليه الزمخشريُّ في أكثرِ المواضعِ مِن كشَّافِه، ورُبَّما مالَ إلى غيرِه. وعلى هذا القولِ فالتَّقديرُ: أَمَبْعوثون نحنُ وآباؤُنا الأوَّلونَ؟). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٢٢) بتصرفٍ يسيرٍ. ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٥/ ١٢٠)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٢٢-٢٤).

- جَوابٌ على سُؤالِ ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ على طَريقةِ الأُسلوبِ الحَكيمِ[١] بصَرفِ قَصدِهم مِنَ الاستِفهامِ إلى ظاهِرِ الاستِفهامِ، فجُعِلوا كالسَّائلينَ: أيُبعَثونَ؟ فقيل لهم: نَعَمْ؛ تَقريرًا لِلبَعثِ المُستَفهَم عنه، أيْ: نَعَمْ تُبعَثونَ. وجيءَ بلَفظِ ﴿قُلْ﴾ غَيرَ مَعطوفٍ؛ لِأنَّه جارٍ على طَريقةِ الاستِعمالِ في حِكايةِ المُحاوَراتِ[٢].

- والخِطابُ في قَولِه تَعالى: ﴿وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ﴾ لهم ولِآبائِهم بطَريقِ التَّغليبِ[٣].

- وقَولُه: ﴿دَٰخِرُونَ﴾ أيْ: صاغِرونَ، وإنَّما اكتَفَى به في الجَوابِ؛ لِسَبقِ ما يدُلُّ على جَوازِه، وقيامِ المُعجِزِ على صِدقِ المُخبَرِ عن وُقوعِه[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾

- فُرِّعَ على إثباتِ البَعثِ الحاصِلِ بقَولِه: ﴿نَعَمْ﴾ أنَّ بَعْثَهم وَشيكُ الحُصولِ، لا يَقتَضي مُعالَجةً ولا زَمَنًا، إنْ هي إلَّا إعادةٌ تَنتَظِرُ زَجْرةً واحدةً[٥].

- والجُملةُ جَوابُ شَرطٍ مُضمَرٍ، أو تَعليلٌ لِنَهيٍ مُقدَّرٍ، أيْ: إذا كانَ كذلك ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، أو لا تَستَصعِبُوه[٦].

---

(١) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولَى بحالِه وبالسؤالِ عنه، وهو مِن خلافُ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧).

-ووَصْفُ الزَّجرةِ بـ﴿ وَٰحِدَةٌ ﴾ تَأكيدٌ لِمَا تُفيدُه صِيغةُ الفَعْلةِ مِن مَعنى المَرَّةِ؛ لِدَفعِ توَهُّمِ أنْ يَكونَ المُرادُ مِنَ الصَّيحةِ الجِنسَ دونَ الوُجودِ؛ لِأنَّ وَزنَ الفَعْلةِ يَجيءُ لِمَعنى المَصدَرِ دونَ المَرَّةِ. وفُرِّعَ عليه ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾، ودَلَّتْ فاءُ التَّفريعِ على تَعقيبِ المُفاجأةِ، ودَلَّ حَرفُ المُفاجَأةِ على سُرعةِ حُصولِ ذلك[١].

- وكُنيَ عن الحياةِ الكامِلةِ الَّتي لا دَهشَ يُخالِطُها بالنَّظَرِ، في قَولِه: ﴿يَنظُرُونَ ﴾؛ لِأنَّ النَّظَرَ لا يَكونُ إلَّا مع تَمامِ الحياةِ، وأُوثِرَ النَّظَرُ مِن بَينِ بَقيَّةِ الحَواسِّ؛ لِمَزيدِ اختِصاصِه بالمَقامِ، وهو التَّعريضُ بما اعتَراهم مِنَ البَهتِ لِمُشاهَدةِ الحَشرِ[٢].

٨- قولُه تعالَى: ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾

- يجوزُ أنْ تكونَ الواوُ للحالِ، أي: قائِلينَ: يا ويْلَنا، أي: يقولُ جميعُهم: يا ويلَنا، يقولُه كلُّ أحدٍ عنه وعن أصحابِه. ويجوزُ أن يكونَ عطفًا على جملةِ: ﴿يَنظُرُونَ ﴾ [الصافات: ١٩]. والمعنى: ونظَروا وقالوا[٣].

- قَولُه: ﴿ وَقَالُواْ ﴾ صِيغةُ الماضي لِلدَّلالةِ على التَّحقُّقِ والتَّقرُّرِ[٤].

- قَولُه: ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا ﴾ حَرفُ النِّداءِ لِلاهتِمامِ[٥].

- قَولُهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴾ تَعليلٌ لِدُعائِهم الوَيلَ بطَريقِ الاستِئنافِ، أيْ: اليَومُ الَّذي نُجازَى فيه بأعمالِنا، وإنَّما عَلِموا ذلك؛ لِأنَّهم كانوا يَسمَعونَ في الدُّنيا أنَّهم يُبعَثونَ ويُحاسَبونَ ويُجزَوْنَ بأعمالِهم، فلَمَّا شاهَدوا البَعثَ أيْقَنُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

بما بَعْدَه أيضًا[١].

٩- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾

- يَجوزُ أنْ يَكونَ هذا كَلامًا مُوجَّهًا إليهم مِن جانِبِ اللهِ تَعالى جَوابًا عن قَولِهم: ﴿يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الصَّافَّات: ٢٠]، والخَبَرُ مُستَعمَلٌ في التَّعريضِ بالوَعيدِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ مِن كَلامِ المَلائِكةِ، وفيه تَوبيخٌ لهم وتَقريعٌ. وقيل: يَجوزُ أنْ يَكونَ مِن تَمامِ قَولِهم، أيْ: يَقولُ بَعضُهم لِبَعضٍ: هذا يَومُ الفَصلِ[٢].

- وقدَّموا الجارَّ ﴿بِهِۦ﴾؛ إشارةً إلى عَظيمِ تَكذيبِهم به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٧).

## الآيات (٢٢-٢٤)

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ٢٤ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ٢٥ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ٢٦ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٧ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ٢٨ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٢٩ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنِۭۖ بَلۡ كُنتُمۡ قَوۡمٗا طَٰغِينَ ٣٠ فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ٣١ فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ٣٢ فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٣ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٤﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾: أي: أشباهَهم وأمثالَهم ونُظَراءَهم، أو أقرانَهم المقتدينَ بهم في أفعالِهم، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لشَيءٍ[1].

﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: أي: النَّارِ، والجُحْمَةُ: شدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، ومنه: الجحيمُ، وأصْلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[2].

﴿وَقِفُوهُمۡ﴾: أي: احبِسُوهم، وأصلُ (وقف): يدُلُّ على تمكُّثٍ في شَيءٍ[3].

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾: أي: مِن قِبَلِ الدِّينِ والحَقِّ. وقيل: مِن ناحيةِ المواثيقِ والأيْمانِ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦٠٩٠)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ٣٢، ٣٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٣٣).

واليَمينُ في كلامِ العَرَبِ تُطلَقُ على البَرَكةِ والقُوَّةِ والقُدرةِ، وأصلُها: يمينُ اليَدِ[١].

﴿سُلۡطَٰنِۭ﴾: أي: حُجَّةٍ، وأصلُ السُّلطانِ: القُوَّةُ والقَهرُ، مِن التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[٢].

﴿طَٰغِينَ﴾: أي: ضالِّينَ مُتجاوِزينَ الحَقَّ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[٣].

﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ﴾: أي: زَيَّنَّا لكم، وأضلَلْناكم، والغَيُّ: الجَهلُ، والانهِماكُ في الباطِلِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى لملائكتِه يومَ القيامةِ: اجمَعوا الظَّالِمين ونُظراءَهم، وما كانوا يَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ تعالى، فدُلُّوهم إلى طريقِ جهنَّمَ وسُوقوهم إليها، وقِفوهم جميعًا ليُسأَلوا. فيُقالُ لهم: ما لَكم لا يَنصُرُ بَعضُكم بعضًا كما كنتُم تَتناصَرونَ في الدُّنيا على الباطِلِ؟! بل هم يومَ القيامةِ مُستسلِمونَ مُنقادون لأمرِ اللهِ.

ثمَّ يحكي الله تعالى ما يدورُ بيْنَهم مِن تَلاوُم يومَ القيامةِ، فيقولُ: وأقْبَلَ هؤلاء الظَّالِمونَ بعضُهم على بعضٍ يَتلاوَمونَ، قال الأتْباعُ منهم للرُّؤساءِ: إنَّكم كنتُم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠، ٧٢٤، ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

في الدُّنيا تأتونَنا عن اليمينِ فتُضِلُّونَنا. قال المَتْبوعونَ لأتْباعِهم: ليس الأمرُ كما تقولون؛ فإنَّكم ما كنتُم مؤمنينَ فردَدْناكم عن الإيمانِ، إنَّما الكُفرُ مِن قِبَلِكم، وما كان لنا عليكم مِن سلطانٍ، بل كنتُم قومًا ضالِّينَ مُتجاوِزينَ الحَدَّ! فوجَبَ علينا جميعًا وَعْدُ رَبِّنا بعَذابِ النَّارِ، فنحنُ جميعًا ذائِقوه، فدَعَوْناكم إلى ما كنَّا عليه، وأضْلَلْناكم عن الهدَى؛ إنَّا كنَّا ضالِّينَ.

ثمَّ يبيِّنُ الله سبحانه حُكمَه العادلَ في الجميعِ؛ في الأتْباع والمَتْبوعينَ، فيَقولُ: فإنَّهم هم والَّذين أطاعوهم في الضَّلالةِ شُركاءُ في النَّارِ، إنَّا كذلك نُجازي المجرِمينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾.

أي: يُقالُ للمَلائِكةِ يومَ القيامةِ: اجمَعوا الظَّالِمينَ وأشباهَهم الَّذين عَمِلوا بمِثلِ عَمَلِهم، واجمَعوا معهم مَعبوداتِهم الَّتي كانوا يُواظِبونَ على عبادتِها في الدُّنيا مِن دونِ اللهِ تعالى(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨، ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ(أَزْوَاجَهُمْ): أشباهُهم ونُظراؤُهم: ابنُ جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّاب، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وسعيدُ ابنُ جُبَيرٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ، وأبو صالحٍ، وأبو العاليةِ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ * إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ * لَوۡ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةٗ مَّا وَرَدُوهَاۖ وَكُلّٞ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٧ - ٩٩].

﴿... فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾.

أي: دُلُّوا الظَّالِمينَ وأشباهَهم وآلهتَهم إلى طريقِ جَهنَّمَ، وسُوقوهم إليها[1].

---

= قال الشنقيطي: (جمهورُ أهلِ العِلم -منهم: عُمَرُ، وابنُ عبَّاسٍ- على أنَّ المرادَ به: أشباهُهم ونُظراؤُهم؛ فعابِدُ الوَثَنِ مع عابدِ الوَثَنِ، والسَّارِقُ مع السَّارِقُ، والزَّاني مع الزَّاني، واليهوديُّ مع اليهوديِّ، والنَّصرانيُّ مع النَّصرانيِّ... وهكذا. وإطلاقُ الأزواجِ على الأصنافِ مَشهورٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العرَبِ...). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٠٩).

وقال الواحدي: (وقال جماعةُ المفسِّرينَ: أشباهَهم وأمثالَهم، وأتْباعَهم ونُظراءَهم وضُرَباءَهم. وعلى هذا القولِ يُحمَلُ الَّذين ظلَموا على القادةِ والرُّؤساءِ، وأزواجُهم أتْباعُهم). ((الوسيط)) (٣/ ٥٢٣).

وقيل: المرادُ بهم الزَّوجاتُ الموافِقاتُ لأزواجِهنَّ في الإشراكِ باللهِ تعالى. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه -واستغربها ابنُ كثيرٍ-، ورُويَ عن عُمرَ بنِ الخطَّابِ، وقاله الحسَنُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ليس المرادُ أنَّه يُحشَرُ معهم زَوجاتُهم مُطلَقًا؛ فإنَّ المرأةَ الصَّالحةَ قد يكون زَوجُها فاجِرًا بل كافِرًا، كامرأةِ فِرعَونَ، وكذلك الرَّجُلُ الصَّالحُ قد تكونُ امرأتُه فاجِرةً بل كافِرةً، كامرأةِ نُوحٍ ولُوطٍ، لكِنْ إذا كانت المرأةُ على دينِ زَوجِها دخَلَت في عُمومِ الأزواجِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٠). =

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: يُقالُ للمَلائِكةِ: قِفُوهم[1] مع نُظَرائِهم وآلهتِهم حتَّى يُسأَلوا[2].

---

= قيل: المرادُ بقوله: ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾: فقُودوهم وسُوقوهم. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٨٤).

وقيل: المراد: فأَرشِدوهم ودُلُّوهم. وممَّن قال بهذا المعنى: السمعانيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٨٤).

وقال الشوكاني: (﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: عَرِّفوا هؤلاءِ المحشورينَ طريقَ النَّارِ، وسُوقُوهم إليها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٨).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: دُلُّوهم، وهذه هدايةُ الدَّلالةِ، وهذا لا يُنافي قولَه تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا * وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]؛ فإنَّ الَّذي يُساقُ يُهدَى أيضًا، أرَأَيْتَ الرَّجُلَ يَسوقُ بعيرَه ويَهديها؟ هؤلاء يُساقون وفي نفْسِ الوقتِ يُقالُ: اذهَبوا مِن هنا، اذهبوا مِن هنا، حتَّى يَصِلوا إلى النَّارِ). ((تفسير ابن عثيمين- الصافات)) (ص: ٥٨).

(١) قيل: هذا يكونُ قبْلَ سَوقِهم إلى الجَحيم، أي: قِفوهم للحِسابِ ثمَّ سُوقوهم إلى النَّارِ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١، ٧٠٢).

وقيل: هو أمرٌ بوَقفِهم في ابتداءِ السَّيرِ بهم، أي: احبِسوهم عن السَّيرِ قليلًا؛ ليُسأَلوا سُؤالَ تأييسٍ وتحقيرٍ وتغليظٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢).

قال البغوي: (قال المفسِّرون: لَمَّا سِيقوا إلى النَّارِ حُبِسوا عندَ الصِّراطِ؛ لأنَّ السُّؤالَ عندَ الصِّراطِ، فقيل: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٢، ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٣، ٧٤)، =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... يُصعَقُ النَّاسُ، ثم يُرسِلُ اللهُ -أو قال: يُنزِلُ اللهُ- مَطَرًا كأنَّه الطَّلُّ أو الظِّلُّ، فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى، فإذا هم قِيامٌ يَنظُرونَ، ثمَّ يُقالُ: يا أيُّها النَّاسُ، هَلُمَّ إلى رَبِّكم، ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾))[1].

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فيُقالُ لهم: ما لَكم لا يَنصُرُ بَعضُكم بَعضًا، فيَمنَعَه مِن عذابِ اللهِ، ويَدفَعَ عنه الشَّقاءَ الَّذي هو فيه[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

---

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦٢).

وقد نقل ابنُ عَطيَّةَ عن جُمهورِ المفَسِّرينَ أنَّ المرادَ: أنَّهم يُسأَلونَ عن أعمالِهم، ويُوقَفونَ على قُبحِها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٩).

وقيل: هذا السُّؤالُ هو ما ذُكِر بعدُ، وهو قَولُه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٢٥]. وممَّن اختاره: ابنُ عاشور، وذكره ابنُ عطيَّةَ احتمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٩).

وذكر مُقاتِلٌ أنَّ خَزَنَةَ جَهنَّمَ تَسأَلُهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الزمر: ٧١]. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٦٠٥).

(١) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢، ١٠٣).

قال الزمخشريُّ: (هذا تهكُّمٌ بهم، وتوبيخٌ لهم بالعَجزِ عن التَّناصُرِ بعدَما كانوا على خِلافِ ذلك في الدُّنيا مُتعاضِدينَ مُتناصِرينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩).

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: بل هم يومَ القيامةِ مُستَسلِمونَ لأمرِ اللهِ، مُنقادونَ إليه، قد أيْقَنوا بعَذابِه؛ فهم ذَليلونَ لا يَنطِقونَ(١).

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وأقْبَلَ الَّذين ظَلَموا بعضُهم على بعضٍ يَتخاصَمونَ ويَتلاوَمونَ(٢).

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن المُشرِكينَ أنَّه: (أقْبَلَ بعضُهم على بعضٍ يتساءَلونَ)؛ شرَحَ كيفيَّةَ ذلك التَّساؤُلِ، فقال(٣):

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: قال الأتْباعُ منهم للَّذين أضَلُّوهم: إنَّكم كُنتُم في الدُّنيا تَأتونَنا عن اليَمينِ(٤)، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٠).

(٤) قال ابنُ جُزَي: (واليَمينُ هنا تَحتمِلُ ثلاثةَ معانٍ:
الأوَّلُ: أن يُرادَ بها طَريقُ الخَيرِ والصَّوابِ، وجاءت العبارةُ عن ذلك بلَفظِ اليَمينِ، كما أنَّ العبارةَ عن الشَّرِّ بالشِّمالِ، والمعنى: أنَّهم قالوا لهم: إنَّكم كنتُم تأتونَنا عن طريقِ الخَيرِ فتَصُدُّونَنا عنه.
والثَّاني: أن يُرادَ به القُوَّةُ، والمعنى على هذا: أنَّكم كنتُم تأتونَنا بقُوَّتِكم وسُلطانِكم فتَأمُرونَنا =

فتُضِلُّونَنا[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ * رَبَّنَآ

---

= بالكُفرِ، وتَمنَعونَنا مِنَ الإيمانِ.

والثَّالِثُ: أن يُرادَ بها اليَمينُ الَّتي يُحلَفُ بها، أي: كُنتُم تأتونَنا بأن تَحلِفوا لنا أنَّكم على الحَقِّ، فنُصَدِّقَكم في ذلك ونتَّبِعَكم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٠).

ممَّن اختار نحوَ القَولِ الأوَّلِ، أي أنَّ المرادَ: تأتونَنا مِن قِبَلِ الدِّينِ والحَقِّ، فتَخدعُونَنا بأقوى الوُجوهِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزجَّاجُ، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٣٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ، أي أنَ المرادَ باليمينِ: القُوَّةُ والغَلَبةُ والقَهرُ: البِقاعي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠).

وممَّن اختار نحوَ القَولِ الثَّالثِ، فقال: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: عن الجِهةِ الَّتي كنَّا نأمَنُكم منها؛ لحَلِفِكم إنَّكم على الحَقِّ، فصَدَّقْناكم، فأنتم أضلَلْتُمونا: جلالُ الدِّينِ المحلِّي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥١٣).

وقال القرطبي بعدَ أنْ ذكَرَ هذه المعانيَ وغيرَها: (وكُلُّه مُتقارِبُ المعنَى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥).

وجمَع ابنُ عثيمينَ بيْنَ هذه المعاني الثَّلاثةِ، فقال: (والحقيقةُ أنَّ كُلَّ هذه الوجوهِ واقِعةٌ مِن المتبوعينَ... فالآيةُ شامِلةٌ لهذه الوجوهِ الثَّلاثةِ؛ يَقولُ الأتْباعُ للمَتْبوعينَ: إنَّكم كنتُم تأتونَنا عن هذه الجِهةِ: الحَلِفِ، أو القُوَّةِ، أو الخَيرِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (٦٥، ٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٤).

ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ﴾ [سبأ: ٣٣].

﴿قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: قال المَتْبوعونَ لأتْباعِهم: ليس الأمرُ كما تَقولونَ مِن أنَّنا أضلَلْناكم عن الحَقِّ، ولكِنْ أنتم أضلَلْتُم أنفُسَكم بالكفرِ، فلمْ تكونوا مُؤمِنينَ باللهِ مِن قَبْلُ، ولم تَقْبَلوا الإيمانَ؛ فالكُفرُ مُتأصِّلٌ في طَبعِكم؛ فلذا تابَعتُمونا فيما أمَرْناكم به، فلا تَلومونا ولُوموا أنفُسَكم[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ: ٣٢].

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦٦).

أي: وما كان لنا أيُّ سُلطانٍ[١] على ما نَدْعوكم إليه مِن الضَّلالِ؛ لِنَصُدَّكم به عن اتِّباعِ الحَقِّ[٢].

﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾.

أي: وإنَّما كان الطُّغيانُ في طَبعِكم أنتم، فكُنتُم قَومًا مُتجاوِزينَ الحَدَّ، مُتكبِّرينَ عن قَبولِ الحَقِّ، غالِينَ في الكُفرِ، مُسرِفينَ في المعاصي؛ فاستَجبتُم لنا وتَرَكْتُم الحَقَّ الَّذي جاءَتْكم به الأنبياءُ[٣].

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: فوَجَب وثَبَت علينا جميعًا ما وعَدَنا به ربُّنا مِن عذابِ النَّارِ؛ فإنَّا وإيَّاكم لَذائِقوه[٤].

---

(١) قيل: السُّلطانُ هنا بمعنى الحُجَّةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦).
وقيل: هو بمعنى القَهرِ والغَلَبةِ. وممَّن قال بذلك: السعدي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦٩).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف: ١٨].

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: فأضْلَلْناكم عن الهدَى، ودَعَوْناكم إلى ما كنَّا عليه، إنَّا كنَّا ضالِّينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص: ٦٣].

﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: فإنَّ جميعَ الأتْباعِ والمَتْبوعينَ الضَّالِّينَ مِن الإنسِ والجِنِّ مُشتَرِكونَ في أصلِ العذابِ يومَ القيامةِ، كما اشتَرَكوا في الدُّنيا في سَبَبِه، وإن تَفاوَتَ مِقدارُ عذابِ كُلٍّ منهم، كما تَفاوَتوا في مِقدارِ كُفرِهم وعِصيانِهم لرَبِّهم(٢).

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: إنَّا نُجازي بمِثلِ هذا الجَزاءِ كُلَّ مُتَّصِفٍ بالإجرامِ، يَكتَسِبُ الذُّنوبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥١٤).

قال البِقاعي: (﴿كُنَّا غَٰوِينَ﴾ أي: في طَبعِنا الغَوايةُ، وهي العُدولُ عن الطَّريقِ المُثلى إلى المهالِكِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٢٢).

وقال الشوكاني: (معنى الآيةِ: أقدَمْنا على إغوائِكم؛ لأنَّا كُنَّا مَوصوفين في أنفُسِنا بالغَوايةِ؛ فأقَرُّوا هاهنا بأنَّهم تسَبَّبوا لإغوائِهم، لكِنْ لا بطريقِ القَهرِ والغَلَبةِ، ونَفَوا عن أنفُسِهم فيما سَبَق أنَّهم قَهَروهم وغَلَبوهم، فقالوا: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٤٩).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١١).

والآثامَ، ويَختارُ الكُفرَ على الإيمانِ[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- النَّهيُ عن مُقارَنةِ الفُجَّارِ ومُزاوجتِهم، كما دلَّ على هذا قولُه تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ أي: وأشباهَهم ونُظراءَهم[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَغۡوَيۡنَٰكُمۡ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن مُصاحَبةِ أهلِ الغَوايةِ، وقد حَذَّرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن مُصاحبةِ الصَّاحِبِ السُّوءِ، فقال: ((إنَّما مَثَلُ الجليسِ الصَّالحِ والجليسِ السُّوءِ، كحامِلِ المِسكِ ونافخِ الكِيرِ؛ فحاملُ المسكِ إمَّا أنْ يُحْذِيَك[٣]، وإمَّا أنْ تَبتاعَ[٤] منه، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه ريحًا طيِّبةً، ونَافخُ الكِيرِ إمَّا أنْ يُحرِقَ ثِيابَك، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه ريحًا خَبيثةً))[٥].

٣- أنَّ مَن لم يَكُنْ إيمانُه راسِخًا فإنَّ الدِّعايةَ الباطِلةَ تُؤَثِّرُ عليه؛ لأنَّ المؤمِنَ إيمانًا راسِخًا لا تُضَلِّلُه الدِّعايةُ، ولا يُمكِنُ أنْ يَتحَوَّلَ عن إيمانِه الَّذي كان عليه؛ لِقَولِه: ﴿بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾، ولو كنتُم مُؤمِنينَ حَقًّا إيمانًا ثابتًا ما أَثَّرَ عليكم إضلالُنا[٦]، فدَلَّ هذا على أنَّ مَن يَنقادُ لهم هو فاسدٌ أصلًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٢٦).

(٣) يُحذِيَك: أي: يُعطيَك مجَّانًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٣٦).

(٤) تبتاعَ منه، أي: تَشتريَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٧٣)،
والحديث أخرجه البخاريُّ (٢١٠١)، ومسلمٌ (٢٦٢٨) واللَّفظُ له، من حديث أبي موسى الأَشْعَريِّ رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦٨).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ ذكَرَ مِن صِفاتِ الَّذين ظَلَموا كَوْنَهم عابِدِينَ لِغَيرِ اللهِ تعالى، وهذا يدُلُّ على أنَّ الظَّالِمَ المُطْلَقَ هو الكافِرُ، وذلك يدُلُّ على أنَّ كُلَّ وَعيدٍ وَرَد في حَقِّ الظَّالم فهو مَصروفٌ إلى الكُفَّارِ، وممَّا يُؤكِّدُ هذا قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1] [البقرة: ٢٥٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ إهانةُ هؤلاء المُشرِكينَ بحَشرِ أصنامِهم إلى النَّارِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ إهانةَ المعبودِ إهانةٌ للعابدِ[2].

٣- بالعَدلِ والميزانِ قام الخَلقُ والشَّرعُ، وهو التَّسويةُ بيْنَ المُتماثِلَينِ، والتَّفريقُ بيْن المُختَلِفَينِ. وهذا كما أنَّه ثابتٌ في الدُّنيا، فهو كذلك يومَ القيامةِ؛ قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾، فأخبَرَ أنَّ سُنَّتَه لن تُبَدَّلَ ولن تتحَوَّلَ، وسُنَّتُه عادتُه الَّتي يُسَوِّي فيها بيْنَ الشَّيءِ وبيْنَ نَظيرِه الماضي، وهذا يقتَضي أنَّه سُبحانَه يَحكُمُ في الأمورِ المُتماثِلةِ بأحكامٍ مُتماثِلةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٢٨).

لكن قال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا لفظُ «الظُّلم المُطلَق» فيَدخُلُ فيه الكفرُ وسائرُ الذُّنوبِ؛ قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٦٢).

وقال أيضًا: (الظُّلْمُ المُطْلَقُ يَتناوَلُ الكفرَ، ولا يختصُّ بالكفرِ؛ بل يتناوَلُ ما دونَه أيضًا). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٦١).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ هذه الآيةُ عامَّةٌ، وفي النَّاسِ مَن يَعبُدُ الملائكةَ والصَّالِحينَ، فهل يُحشَرُ هؤلاء المعبودونَ مع هؤلاءِ العابِدينَ؟

**فالجوابُ**: لا؛ لأنَّ هذا العُمومَ مُخَصَّصٌ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وفي ذلك جوازُ ذِكرِ العُمومِ -وإنْ دَخَلَ فيه مَن ليس فيه- إذا بُيِّنَ في موضعٍ آخَرَ، ويَتفرَّعُ على هذا أنَّه لا يُشتَرَطُ في البَيانِ مُقارَنتُه للمُبَيَّنِ؛ لأنَّ الَّذي يَمتَنِعُ في البيانِ هو تأخيرُه عن وَقتِ الحاجةِ، فإذا بُيِّنَ في وقتِ الحاجةِ زال هذا المحظورُ، وهذا قد بُيِّنَ في آياتٍ كثيرةٍ في القُرآنِ بأنَّ المؤمِنينَ المُتَّقينَ لا يدخلونَ النَّارَ، وكلُّ الآياتِ الَّتي في وَعْدِ المؤمِنينَ والمتَّقينَ تَمنَعُ مِن دُخولِ هؤلاء في النَّارِ، وإنْ كانوا يُعبَدونَ مِن دونِ اللهِ[1]. وقيل: المَوصولُ عبارةٌ عن المشْرِكينَ خاصَّةً؛ جِيءَ به لِتَعليلِ الحُكمِ بما في حَيِّزِ صِلَتِه، فلا عمومَ ولا تخصيصَ[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ يدُلُّ على أنَّ الهدَى يُستعمَلُ في الإرشادِ والدَّلالةِ على الشَّرِّ، ونظيرُ ذلك في القُرآنِ قَولُه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤][3]، وذلك على أحدِ الأقوالِ في تفسيرِ الهدَى في الآيةِ الكريمةِ.

٦- مراتِبُ الهُدى أربعةٌ:

**إحداها**: الهُدى العامُّ، وهو هدايةُ كُلِّ نَفْسٍ إلى مَصالِحِ مَعاشِها وما يُقيمُها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٥٧، ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٠).

وهذا أعَمُّ مَراتبِه، قال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٣]، وقال تعالى حكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠].

**المَرتبةُ الثَّانيةُ**: الهُدى بمعنى البَيانِ والدَّلالةِ والتَّعليم، والدَّعوةِ إلى مصالحِ العَبدِ في مَعادِه، وهذا خاصٌّ بالمُكَلَّفينَ؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، وقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فهَداهم هُدى البَيانِ والدَّلالةِ فلم يَهتَدوا، فأضَلَّهم عُقوبةً لهم على تَركِ الاهتِداءِ أوَّلًا بعدَ أن عرَفوا الهُدى فأعرَضوا عنه، فأعماهم عنه بعدَ أنْ أراهُموه.

**المرتبةُ الثَّالثةُ**: الهدايةُ المُستَلزِمةُ للاهتداءِ، وهي هدايةُ التَّوفيقِ، ومَشيئةُ اللهِ لِعَبدِه الهدايةَ، وخَلْقُه دَواعيَ الهُدى وإرادتَه والقُدرةَ عليه للعَبدِ، وهذه الهدايةُ الَّتي لا يَقدِرُ عليها إلَّا اللهُ عَزَّ وجَلَّ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧].

**المَرتبةُ الرَّابعةُ**: الهدايةُ يومَ المَعادِ إلى طَريقِ الجَنَّةِ والنَّارِ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾، وقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((والَّذي نفْسُ مُحمَّدٍ بيدِه، لَأَحَدُهم أهْدَى بمَنزِلِه في الجنَّةِ منه بمَنزِلِه كان في الدُّنيا))(١).

٧- قولُه تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾، وقولُه: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥- ٨٤).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٥٣٥) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه.

[يونس: ٤٥] لا يُناقِضُ قولَه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، وقولَه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]؛ وذلك مِن وُجوهٍ:

**الوجه الأوَّل**: أنَّ يومَ القيامةِ مِقدارُهُ خَمسونَ ألْفَ سَنةٍ؛ ففيه أزْمِنةٌ وأحوالٌ مُختلِفةٌ، فيَتعارَفونَ ويَتَساءلون في بعضِها، ويَتحيَّرونَ في بعضِها؛ لشِدَّةِ الفزَعِ، فقيل: نَفْيُ السُّؤالِ عندَ اشْتِغالِهم بالصَّعقِ والمُحاسَبةِ والجَوازِ على الصِّراطِ، وإثباتُه فيما عَدا ذلك.

**الوجه الثَّاني**: أنَّه إذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفخةٌ واحدةٌ، شُغِلوا بأنفُسِهم عن التَّساؤُلِ، فإذا نُفِخَ فيه أُخرى، أقْبَلَ بعضُهم على بَعضٍ وقالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَاۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢]؛ فنَفْيُ السُّؤالِ بعدَ النَّفخةِ الأُولَى وقبْلَ الثَّانيةِ، وإثباتُه بعدَهما معًا.

**الوجه الثَّالث**: المُرادُ: لا يَتساءَلونَ بحُقوقِ النَّسبِ.

**الوجه الرَّابع**: أنَّ قولَه: ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ صِفَةٌ للكُفَّارِ؛ وذلك لشِدَّةِ خَوفِهم، أمَّا قولُه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ فهو صِفةُ أهْلِ الجنَّةِ إذا دَخَلوها[1].

**الوجه الخامس**: أنَّ قولَه ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي: في التَّناصُرِ، فلا يُناقِضُ نَفْيُ التَّساؤُلِ هنا إثباتَه في غَيرِه؛ لأنَّه في غَيرِ تناصُرٍ، بلْ في التَّلاوُمِ والتَّعاتُبِ والتَّخاصُمِ[2].

**الوجه السَّادس**: أنَّ السُّؤالَ المَنْفيَّ سُؤالٌ خاصٌّ، وهو سُؤالُ بَعضِهم العفْوَ مِن بَعضٍ فيما بيْنَهم مِنَ الحُقوقِ؛ لقُنوطِهم مِنَ الإعطاءِ، ولو كان المَسؤولُ أبًا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٣/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٢٦).

أو ابنًا، أو أمًّا أو زوجةً[١].

٨- إطلاقُ الشَّيءِ على مُسَبِّبِه؛ لِقَولِهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾؛ لأنَّهم لَيسوا هم الَّذين أغْوَوْهم، وإنَّما هم سَبَبُ إغوائِهم؛ فإنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، لكِنَّ هؤلاء كانوا سببًا في غَوايةِ هؤلاء؛ فأضافوا الفِعلَ إليهم في قَولِهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ﴾ إثباتُ الفِعلِ لله عزَّ وجلَّ، واللهُ سُبحانَه وتعالى فَعَّالٌ لِما يُريدُ، والفِعلُ يقتَضي التَّجَدُّدَ بحَسَبِ المفعولِ؛ فخَلقُ اللهِ للسَّمَواتِ والأرضِ لم يَكُنْ أزَلِيًّا، وإنَّما كان حينَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؛ وخَلْقُ اللهِ للجَنينِ في بطنِ أمِّه لم يكُنْ أزلِيًّا، بل هو حادِثٌ حينَ حُدوثِ هذا الجَنينِ، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائِدةِ إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ، خِلافًا لِمَن أنكَرَ ذلك، وقال: إنَّ اللهَ لا يَقومُ به فِعلٌ اختياريٌّ[٣]!

١٠- إذلالُ هؤلاء المَتْبوعينَ الَّذين كانوا في الدُّنيا يَعتَلُونَ على الخَلْقِ؛ لأنَّه جَمَعَ بيْنَهم وبيْنَ مَن يَستَعبِدونَهم في الدُّنيا ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾؛ لأنَّ الآخرةَ دارُ عَدلٍ[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ النَّاسَ عندَ اللهِ سَواءٌ؛ فكُلُّ مَنِ استَحَقَّ عِقابًا أو ثَوابًا فهو له، يعني: لم نَفعَلْ بهؤلاء وَحْدَهم، بل حُكْمُنا

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٦٤، ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذا شامِلٌ لكُلِّ مُجرِمٍ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ تَخلُّصٌ مِن الإنذارِ بحُصولِ البعثِ إلى الإخبارِ عمَّا يَحُلُّ بهم عقِبَه إذا ثَبَتوا على شِرْكِهم وإنكارِهم البعثَ والجزاءَ[٢].

- وذِكرُ الأزواجِ إبلاغٌ في الوعيدِ والإنذارِ؛ لئلَّا يَحسَبوا أنَّ النِّساءَ المشركاتِ لا تَبِعةَ عليهنَّ[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ عُطِفَ بفاءِ التَّعقيبِ؛ إشارةً إلى سُرعةِ الأمْرِ بهم إلى النَّارِ عقِبَ ذلك الحشْرِ[٤].

- والهِدايةُ والهَدْيُ: إرشادٌ إلى مَرْغوبٍ، وقد غلَبَت في ذلك؛ لأنَّ كونَ المَهدِيِّ راغبًا في مَعرفةِ الطَّريقِ مِن لَوازمِ فِعلِ الهدايةِ؛ ولذلك تُقابَلُ بالضَّلالةِ، وهي الحَيرةُ في الطَّريقِ؛ فذِكْرُ ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ هنا تَهكُّمٌ بالمشركينَ[٥]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الهدَى في الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٢).

والقاعدة: «إذا كان سياقُ الآياتِ في أمورٍ خاصَّةٍ، وأراد الله أن يَحكُمَ عليها، وذلك الحُكمُ لا يختصُّ بها، بل يَشملُها وغيرَها؛ جاء الله بالحُكمِ العامِّ». يُنظر: ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٢٢)، ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ أمْرٌ بإيقافِهم في ابتداءِ السَّيرِ بهم؛ لِمَا أفادَهُ الأمْرُ مِن الفَورِ بقَرينةِ فاءِ التَّعقيبِ الَّتي عطَفَتْه ﴿فَٱهْدُوهُمْ﴾؛ كأنَّ الملائكةَ سارَعوا إلى ما أُمِروا به مِن حَشْرِهم إلى الجحيم -وذلك على قولٍ-، أي: احبِسوهم عن السَّيرِ قليلًا؛ لِيُسْألوا سُؤالَ تأْييسٍ وتَحقيرٍ وتَغليظٍ[1].

- وعُلِّل تَوقيفُهم بقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾؛ إيذانًا مِن أوَّلِ الأمْرِ بأنْ ذلك ليس للعفْوِ عنهم، ولا لِيَسْتريحُوا بتأْخيرِ العذابِ في الجُملةِ، بلْ لِيُسْألوا[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ مُبيِّنٌ لإبهامِ ﴿مَّسْئُولُونَ﴾[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والتَّهكُّمِ والتَّعجيزِ، أي: ما لَكم لا يَنصُرُ بعضُكم بعضًا؛ فيَدفَعَ عنه الشَّقاءَ الَّذي هو فيه؟ وأين تَناصُرُكم الَّذي كُنتم تَتناصَرون في الدُّنيا وتَتألَّبون على الرَّسولِ وعلى المؤمنينَ[4]؟!

- وتأخيرُ هذا السُّؤالِ إلى ذلك الوقتِ؛ لأنَّه وَقتُ تَنجُّزِ العذابِ، وشِدَّةِ الحاجةِ إلى النُّصرةِ، وحالةِ انقطاعِ الرَّجاءِ عنها بالكُلِّيَّةِ؛ فالتَّوبيخُ والتَّقريعُ حينَئذٍ أشَدُّ وَقعًا وتأْثيرًا[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢، ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨).

٥- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾

- الإضرابُ المُستفادُ مِن ﴿بَلْ﴾ إضرابٌ لإبطالِ إمكانِ التَّناصُرِ بيْنَهم، وليس ذلك ممَّا يَتوهَّمُه السَّمْعُ؛ فلذلك كان الإضرابُ تأْكيدًا لِمَا دلَّ عليه الاستفهامُ مِن التَّعجيزِ. والاستِسلامُ: الإسلامُ القويُّ، أي: إسلامُ النَّفْسِ وتَرْكُ المُدافَعةِ؛ فهو مُبالَغةٌ في (أسلَمَ)[1].

- وذِكرُ اليومِ لإظهارِ النِّكايةِ بهم، أي: زال عنهمْ ما كان لهم مِن تَناصُرٍ وتَطاوُلٍ على المسلمينَ قبْلَ اليومِ، أي: في الدُّنيا؛ إذ كانوا يَقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، أي: نحنُ جماعةٌ لا تُغلَبُ، فكان لِذِكْرِ اليومِ وَقْعٌ بَديعٌ في هذا المقامِ[2].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾

- عُبِّرَ عن إقبالِهم بصِيغةِ الماضي -وهو ممَّا سيَقَعُ يومَ القيامةِ- تَنْبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه؛ لأنَّ لذلك مَزيدَ تَأْثيرٍ في تَحذيرِ زُعمائِهم مِن التَّغريرِ بهم، وتَحذيرِ دَهْمائِهم مِن الاغترارِ بتَغريرِهم، مع أنَّ قَرينةَ الاستقبالِ ظاهرةٌ مِن السِّياقِ مِن قولِه: ﴿فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ الآيةَ[3] [الصَّافَّات: ١٩].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ بالواوِ، وقال بعْدَه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٥٠] بالفاءِ، وكذلك في سُورةِ (ن): ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم: ٣٠]؛ ووَجْهُه: أنَّ الأوَّلَ لِعَطْفِ جُملةٍ على جُملةٍ فحَسْبُ، والثَّانيَ لِعَطْفِ جُملةٍ على جُملةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٠٤).

بيْنَهما مُناسَبةٌ والْتِئامٌ؛ لأنَّه حكَى أحوالَ أهْلِ الجنَّةِ ومُذاكَرتَهم فيها ما كان يَجْري في الدُّنيا بيْنَهم وبيْنَ أصْدقائِهم، وهو قولُه: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ * فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٤٨ - ٥٠]، أي: يَتذاكَرون. وكذلك في ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ هو مِن كَلامِ أصحابِ الجنَّةِ لَمَّا رَأَوْها كالصَّريمِ، ونَدِموا على ما كان منهم، وجَعَلوا يَقولون: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [القلم: ٢٩]، بعْدَ أنْ ذَكَّرَهم التَّسبيحَ أوْسَطُهم، ثمَّ قال: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ [القلم:٣٠]، أي: على تَرْكِهم الاستِثناءَ، وتَخافُتِهم ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾[1] [القلم: ٢٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ تَساؤُلِهم؛ كأنَّه قِيل: كيف تَساءَلوا؟ فقِيلَ: قالوا...[2].

٨- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾

- جوابُ الزُّعماءِ بقَولِهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ إضرابُ إبطالٍ لِزَعمِ الأتْباعِ أنَّهم الَّذين صَدُّوهم عن طَريقِ الخَيرِ، أي: بلْ هم لم يَكونوا ممَّن يَقبَلُ الإيمانَ؛ لأنَّ تَسليطَ النَّفيِ على فِعلِ الكَونِ دونَ أنْ يُقالَ: بلْ لم تُؤمِنوا، مُشعِرٌ بأنَّ الإيمانَ لم يكُنْ مِن شأْنِهم، أي: بلْ كُنتُم أنتم الآبِينَ قَبولَ الإيمانِ[3].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي: وما كان

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٢، ٢١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٤، ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

لنا عليكم مِن قَهرٍ وغَلَبةٍ -وذلك على قولٍ- حتَّى نُكرِهَكم على رَفضِ الإيمانِ؛ ولذلك أكَّدوا هذا المعنى بقَولِهم: ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾، أي: كان الطُّغيانُ -وهو التَّكبُّرُ عن قَبولِ دَعوةِ رجُلٍ منكم- شأْنَكم وسَجيَّتَكم؛ فلذلك أقْحَموا لَفظَ ﴿قَوْمًا﴾ بيْن (كان) وخَبرِها؛ لأنَّ استِحضارَهم بعُنوانِ القَوميَّةِ في الطُّغيانِ يُؤْذِنُ بأنَّ الطُّغيانَ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[1].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾

- فرَّعوا على كَلامِهم اعترافَهم بأنَّهم جميعًا استَحقُّوا العذابَ؛ فقولُهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ تَفريعُ الاعتراضِ، أي: كان أمْرُ ربِّنا بإذاقتِنا عذابَ جهنَّمَ حقًّا[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ بَيانٌ لـ﴿قَوْلُ رَبِّنَآ﴾. وحُكِيَ القولُ بالمعنى على طَريقةِ الالتفاتِ، ولولا الالتفاتُ لَقال: إنَّكم لَذائقونَ، أو إنَّهم لَذائقونَ. ونُكتةُ الالتفاتِ زِيادةُ التَّنصيصِ على المَعْنيِّ بذَوقِ العذابِ؛ لأنَّهم مُتَكَلِّمون بذلك عن أنفُسِهم[3].

- وحُذِفَ مَفعولُ (ذائقون)؛ لدَلالةِ المقامِ عليه، وهو الأمْرُ بقولِه تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾[4] [الصَّافَّات: ٢٣].

١١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾

- فرَّعوا على مَضمونِ رَدِّهم عليهم مِن قولِهم: ﴿بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٥).

﴿قَوْمًا طَٰغِينَ﴾؛ قولَهم: ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾، أي: ما أكْرَهْناكم على الشِّركِ، ولكنَّا وَجَدْناكم مُتمسِّكينَ به، وراغِبينَ فيه، فأغْوَيْناكم، أي: فأيَّدْناكم في غَوايتِكم؛ لأنَّا كنَّا غاوِينَ، فسَوَّلْنا لكم ما اختَرْناهُ لأنفُسِنا؛ فمَوقعُ جُملةِ ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ مَوقعُ العِلَّةِ، و(إنَّ) مُغْنيةٌ غَناءَ لامِ التَّعليلِ وفاءِ التَّفريعِ[1].

- وزِيادةُ ﴿كُنَّا﴾؛ للدَّلالةِ على تَمكينِ الغَوايةِ مِن نُفوسِهم، وقد استبانَ لهم أنَّ ما كانوا عليه غَوايةٌ فأقَرُّوا بها[2].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ هذا الكلامُ مِن اللهِ تعالى مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ، ويُشبِهُ أنْ يكونَ اعتراضًا بيْن حِكايةِ حِوارِ اللهِ أهلَ الشِّركِ في القيامةِ وبيْنَ تَوبيخِ اللهِ إيَّاهم بقولِه: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ [الصَّافَّات: ٣٨]، والفاءُ هي الفصيحةُ؛ لأنَّها ورَدَتْ بعْدَ تَقريرِ أحوالٍ، وكان ما بعدَ الفاءِ نَتيجةً لتلك الأحوالِ، فكانت الفاءُ مُفصِحةً عن شَرْطٍ مُقدَّرٍ، أي: إذا كان حالُهم كما سمِعْتُم فإنَّهم يومَ القيامةِ في العذابِ مُشترِكون؛ لاشتراكِهم في الشِّركِ وتَمالُئِهم، أي: لا عُذْرَ للكلامِ للفريقَينِ؛ لا للزُّعماءِ بتَسويلِهم، ولا للدَّهْماءِ بنَصْرِهم، والمقصودُ هنا بَيانُ عَدَمِ إجداءِ مَعذرةِ كِلا الفريقَينِ وتَنَصُّلِه، وهذه الجُملةُ مُعترِضةٌ بيْن جُمَلِ حِكايةِ مَوقفِهم في الحِسابِ[3].

١٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تَعليلٌ لِمَا اقْتَضَتْه جُملةُ ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، أي: فإنَّ جزاءَ المجرمينَ يكونُ مِثلَ ذلك الجزاءِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُؤاخَذةِ التَّابعِ والمتْبوعِ[١].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وفي (المُرْسَلاتِ): ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٨]؛ ووَجْهُه: أنَّ في هذه السُّورةِ حِيلَ بيْنَ الضَّميرِ وبيْن ﴿كَذَٰلِكَ﴾ بقولِه: ﴿فَإِنَّهُمۡ يَوۡمَئِذٖ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ [الصَّافَّات:٣٣] فأعاد، وفي (المرسَلاتِ) مُتَّصِلٌ بالأوَّلِ وهو قولُه: ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المرسلات:١٧، ١٨]؛ فلم يُحتَجْ إلى إعادةِ الضَّميرِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٦، ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٥).

## الآيات (٣٥-٤٩)

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونِۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّعِينٍ﴾: أي: ماءٍ ظاهِرٍ جارٍ، وأصلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ أو غيرِ ذلك(١).

﴿غَوْلٌ﴾: الغولُ: اسمٌ عامٌّ في الأذَى والضَّيرِ، فمنه صُداعُ الرَّأسِ، ومنه وجعُ البطنِ إلى غيرِ ذلك، والغَولُ: فَسادٌ يَلحَقُ في خَفاءٍ، وأصلُه: يدُلُّ على أخذٍ مِن حيثُ لا يُدرَى(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٧٧).

واختلفوا في ﴿مَّعِينٍ﴾ هل على وزنِ فَعيلٍ، والميمُ فيها أصليَّةٌ مِن المَعْنِ، أو على وزنِ مفعولٍ مِن العَينِ والميمُ فيها زائدةٌ، نحو مَبيعٍ ومَكيلٍ؛ فقيل: سُمِّيَت بمَعينٍ: إمَّا مِن ظُهورِها للعَينِ، يُقالُ: عانَ الماءُ: إذا ظَهَر جاريًا، أو لشِدَّةِ جَريِها؛ مِن الإمعانِ في السَّيرِ، أو لكَثرتِها؛ مِنَ المَعْنِ: وهو الكثيرُ، وسُمِّيَ الماعونُ؛ لكثرةِ الانتفاعِ به، ويُقالُ: مَشرَبٌ مَمعونٌ: لا يكادُ يَنقَطِعُ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٢)، =

﴿يُنزَفُونَ﴾: أي: لا يَسكَرونَ، ولا تَذْهَبُ عُقولُهم، والنَّزيفُ: السَّكرانُ، وأصلُ (نزف): يدُلُّ على نَفادِ شَيءٍ وانقِطاعٍ[١].

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾: أي: حابِساتُ الأبصارِ على أزواجِهنَّ، وأصلُ (قصر): يدُلُّ على الحَبسِ[٢].

﴿عِينٌ﴾: أي: واسِعاتُ العُيونِ، الواحِدةُ عَيناءُ، وأصلُ (عين): يدُلُّ على حاسَّةِ البَصَرِ[٣].

﴿بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ﴾: أي: بَيضٌ مَصونٌ، شُبِّهْنَ ببَيضِ النَّعامِ، تَكُنُّه النَّعامةُ بالرِّيشِ مِن الرِّيحِ والغُبارِ، والعَرَبُ تُشَبِّهُ المرأةَ النَّاعِمةَ في ضِيائِها وحُسنِها وصَفوةِ النِّعمةِ عليها بالبَيضةِ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[٤].

---

= ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى الأسبابَ الَّتي أدَّت بالمشركينَ إلى هذا المصيرِ، فيقولُ: إنَّ أولئك المُشركين كانوا إذا قيلَ لهم في الدُّنيا: قُولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، يَتكبَّرونَ عن قَولِها، ويقولونَ: أنَقولُ ذلك ونَترُكُ عبادةَ آلهتِنا؛ اتِّباعًا لقولِ شاعرٍ مَجنونٍ؟!

ويَرُدُّ الله تعالى عليهم، فيقولُ: ليس الأمرُ كما زعموا، بل جاءهم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقُرآنِ مِن عندِ اللهِ، وصدَّق مَن كان قَبْلَه مِن المُرسَلينَ، فكانت بَعثتُه تصديقًا لهم.

ويُقرِّرُ الله تعالى جزاءَهم على قبيحِ أعمالِهم، فيقولُ: إنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- لَذائِقو العذابِ المُوجِعِ، وما تُجزَونَ إلَّا جزاءَ عَمَلِكم.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حُسنَ عاقبةِ المؤمنينِ، فيقولُ: لكنْ عبادُ اللهِ الَّذين اصطفاهم اللهُ تعالى، وأخلَصَهم لطاعتِه؛ فأولئك لهم عَطاءٌ معلومٌ: فَواكِهُ، وهم مع ذلك مُكرَمونَ في جنَّاتِ النَّعيمِ مُتقابِلينَ على السُّرُرِ، فوُجوهُهم مُتقابِلةٌ لا مُتدابِرةٌ. يُطافُ عليهم بخَمرٍ تجرى في أنهارِ الجنَّةِ، بيضاءِ اللَّونِ، لذيذةِ الطَّعمِ والرَّائحةِ عندَ الشَّاربينَ، ليس فيها أذًى أو فسادٌ يُصيبُ شارِبيها، ولا هُمْ بسَبَبِ شُربِها تَذهَبُ عُقولُهم، كما هو الحالُ في خَمرِ الدُّنيا.

وعندَهم نِساءٌ قَصَرْنَ أبصارَهنَّ على أزواجِهنَّ لا يَمُدُّونَها إلى غيرِهم؛ لشِدَّةِ مَحبَّتِهنَّ لهم، ومِن صفاتِهنَّ أنَّهن واسِعاتُ العُيونِ، كأنَّهنَّ بَيضُ النَّعامِ المَصونِ؛ في صفاءِ البَشَرةِ، ونقاءِ الجَسَدِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى يُبَيِّنُ أنَّ المُشركينَ إنَّما وقَعوا في ذلك العَذابِ؛ لأنَّهم كانوا مُكَذِّبينَ بالتَّوحيدِ وبالنُّبُوَّةِ[١]، فعَلَّل تَعذيبَه لهم بقَولِه[٢]:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

أي: إنَّ المُشركينَ كانوا دائِمًا إذا قِيلَ لهم في الدُّنيا: قُولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ، يَتكبَّرونَ عن قَولِ ذلك، ولا يَستَجيبونَ لِمَن دعاهم إليه[٣].

كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ ﴾ [غافر: ١٢].

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أخبَرَ أنَّ المُشركينَ استكبَروا على توحيدِ الإلهِ؛ أتْبَعَه الإخبارَ بأنَّهم تكَلَّموا في رَسولِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بما لا يَرضاه[٤].

﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي: ويَقولونَ: أنقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، ونَترُكُ عِبادةَ آلهتِنا؛ اتِّباعًا لِقَولِ شاعرٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٧٨، ٧٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٦).

مَجنونٍ[١]؟!

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمونَ مِن أنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم شاعِرٌ مَجنونٌ، وإنَّما هو نَبيٌّ جاء بالقُرآنِ مِن عندِ اللهِ، وفيه الأمرُ بتوحيدِ اللهِ؛ وأنَّه صَدَّقَ المُرسَلينَ الَّذين كانوا قَبْلَه، وأخبَروا بمَجيئِه، فكانت بَعثتُه تَصديقًا لهم، وشَهِدَ هو بنُبوَّتِهم، وأخبَرَ بمِثلِ ما أَخبَروا به مِنَ التَّوحيدِ وغَيرِه مِن الحَقِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [آل عمران: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا وَصَل المُشرِكونَ إلى هذا الحَدِّ مِن الطُّغيانِ، والزُّورِ الظَّاهِرِ والبُهتانِ؛ تشَوَّف السَّامِعُ إلى جَزائِهم، فاستأنَفَ الإخبارَ بذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٠، ٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٧).

وأيضًا لَمَّا كان قَولُ المُشرِكينَ السَّابِقُ: ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ [الصافات: ٣١] قولًا صادِرًا منهم، يحتمِلُ أن يكونَ صِدقًا أو غَيرَه؛ أخبَرَ تعالى بالقَولِ الفَصلِ الَّذي لا يحتَمِلُ غيرَ الصِّدقِ واليَقينِ، وهو الخبَرُ الصَّادِرُ منه تعالى، فقال[١]:

﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: إنَّكم لَذائِقو العذابِ المُؤلِمِ المُوجِعِ؛ بسَبَبِ شِركِكم وتكذيبِكم[٢].

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَصَفَ اللهُ تعالى عذابَ المُشرِكينَ بأنَّه أليمٌ؛ عَطَفَ عليه إخبارَهم بأنَّ ذلك المِقدارَ لا حَيفَ عليهم فيه؛ لأنَّه على وِفاقِ أعمالِهم الَّتي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا مِن آثارِ الشِّركِ[٣].

﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وما تُجزَونَ إلَّا الَّذي كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا، فلا يَظلِمُكم اللهُ بتَعذيبِكم على ما لم تَعمَلوا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

وقال سُبحانَه: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يس: ٥٤].

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَف اللهُ تعالى أحوالَ المتكَبِّرينَ عن قَبولِ التَّوحيدِ، المُصِرِّينَ على إنكارِ النُّبُوَّةِ؛ أردَفَه بذِكرِ حالِ المُخلَصينَ في كيفيَّةِ الثَّوابِ[١].

وأيضًا لَمَّا كان الخِطابُ في الآيةِ السَّابقةِ لَفظُه عامًّا، والمرادُ به المُشرِكونَ؛ استثنَى تعالى المؤمِنينَ، فقال[٢]:

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠ ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ، اسمُ مَفعولٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالى أخلَصَهم، فصاروا مُخلَصينَ[٣].

٢- قِراءةُ ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكَسرِ اللَّامِ، اسمُ فاعلٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا لله دِينَهم وأعمالَهم مِنَ الشِّركِ والرِّياءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

(٣) قرأ بها نافِعٌ، وعاصِمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥). =

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: لكنْ[١] عبادُ اللهِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ لطاعتِه، واختارَهم لخاصَّةِ رَحمتِه؛ فإنَّهم لا يَذوقونَ العَذابَ، ويَتجاوَزُ اللهُ تعالى عن سيِّئاتِهم إن كان لهم سيِّئاتٌ، ويُثيبُهم اللهُ تعالى بأعمالِهم الصَّالحةِ أضعافًا مُضاعَفةً[٢].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾.

أي: أولئك المخلَصونَ مِن عبادِ اللهِ: لهم عَطاءٌ غيرُ مَجهولٍ[٣].

---

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٩)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه الجنَّةُ. قاله قَتادةُ. والثَّاني: أنَّه الرِّزقُ في الجنَّةِ. قاله السُّدِّيُّ، فعلى هذا في معنى ﴿مَّعْلُومٌ﴾ قولانِ؛ أحدُهما: أنَّه بمِقدارِ الغَداةِ والعَشيِّ. قاله ابنُ السَّائبِ. والثَّاني: أنَّهم حينَ يَشتَهونهُ يُؤْتَونَ به. قاله مُقاتلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٠).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: أنَّ المرادَ الرِّزقُ في الجنَّةِ، أي: أنَّه معلومُ الوقتِ، أي: بمِقدارِ الغَداةِ والعَشيِّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]: السمعانيُّ، والبغوي، والثعلبي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٣).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مَّعْلُومٌ﴾ أي: حينَ يَشتَهونهُ يُؤتَونَ به، فلا يتخلَّفُ عن ميعادِه، ولا يَنتظِرُه أهلُه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١). =

كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾ [البقرة: ٢٥].

﴿فَٰكِهِينَۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ٤٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ للمُؤمِنينَ رِزقًا؛ بيَّن ذلك الرِّزقَ ما هو، فقال[1]:

﴿فَٰكِهِينَۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ ٤٢﴾.

أي: لهم فَواكِهُ مُتنوِّعةٌ يَتنعَّمونَ بها ويَتلذَّذونَ، وهم مع ما أعطاهم اللهُ مِنَ الرِّزقِ يُكرَمونَ دائِمًا بأنواعِ الكَراماتِ، فيُعَظَّمونَ ولا يُحتقَرونَ ولا يُهانُونَ[2].

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣﴾.

---

= وذهب البِقاعي وابنُ عثيمينَ إلى العُموم؛ فهو مَعلومٌ وَقتُه، ومَعلومٌ نَوعُه، وغيرُ ذلك ممَّا يتعلَّقُ به. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩٤، ٩٥).

قال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿مَّعۡلُومٞ﴾ معناه: عندَهم، فقد قَرَّتْ عيونُهم بعِلمِ ما يَستَدِرُّ عليهم مِنَ الرِّزقِ، وبأنَّ شهواتِهم تأتيهم لحينِها، وإلَّا فلو كان ذلك معلومًا عندَ الله تعالى فقط لَما تخصَّص أهلُ الجنَّةِ بشَيءٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩٦).

قال المظهري: (فواكِهُ: جمعُ فاكِهةٍ، بَدَلٌ أو بيانٌ للرِّزقِ، وهي ما يُقصَدُ به التَّلَذُّذُ دونَ التَّغَذِّي، والقُوتُ ما يُقصَدُ به التَّغذِّي دونَ التَّلذُّذِ، والرِّزقُ يَعُمُّهما). ((التفسير المظهري)) (٨/ ١١٥).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩٥).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى مأكولَهم، وَصَف تعالى مَساكِنَهم[١].

وأيضا لَمَّا كان الإكرامُ لا يَتِمُّ إلَّا مع طِيبِ المُقامِ، قال[٢]:

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣﴾.

أي: يُنعَّمُ عِبادُ اللهِ ويُكرَمونَ في جَنَّاتٍ ليس فيها إلَّا النَّعيمُ الحِسِّيُّ والمَعنويُّ؛ فلا بُؤسَ فيها ولا شَقاءَ[٣].

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان التَّلَذُّذُ لا يَكمُلُ إلَّا مع الأحبابِ، وكانت عادةُ الملوكِ الاختِصاصَ بالمحَلِّ الأعلى؛ بيَّنَ أنَّهم كُلَّهم مُلوكٌ، فقال[٤]:

﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٤﴾.

أي: يُقابِلُ أصحابُ الجنَّةِ بَعضُهم بَعضًا وهم على السُّرُرِ في غايةِ الرَّاحةِ والطُّمأنينةِ وصَفاءِ القُلوبِ، يَتحابُّونَ فيما بيْنَهم، ويَأنَسونَ باجتِماعِهم، ويُنَعَّمونَ بنَظَرِ بَعضِهم إلى بَعضٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۞ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۞ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣].

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا شَرَح اللهُ تعالى صِفةَ المأكَلِ والمَسكَنِ؛ ذكَرَ بَعدَه صِفةَ الشَّرابِ[1]، فقال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: تُدارُ عليهم في مجالِسِهم خمرٌ مِن أنهارِ الخَمرِ الجاريةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۞ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: بَيضاءِ اللَّونِ[3]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٢).

ويقالُ للزُّجاجةِ فيها الخَمْرُ: كأسٌ، وتُسمَّى الخمرُ نفْسُها كأسًا. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٨٤).

(٣) قيل: المرادُ: لَونُ الخَمرِ نَفْسِها. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٠)، ((تفسير =

طَعمُها طَيِّبٌ يَتلذَّذُ بها شارِبوها[١].

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان قد أثبَت لخَمرِ الجنَّةِ الكَمالَ؛ نفَى عنها النَّقصَ، فقال[٢]:

﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾.

أي: ليس في خَمرِ الجنَّةِ أيُّ أذًى أو فَسادٌ يُصيبُ شارِبيها؛ مِن وَجعِ بَطنٍ، وصُداعِ رأسٍ، أو غيرِ ذلك مِن الأمراضِ والآلامِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ [الواقعة: ١٩].

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ ﴿يُنْزِفُونَ﴾ بكَسرِ الزَّايِ، قيل: بمعنى: لا يَنفَدُ شَرابُهم. وقيل:

---

= السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١).

وقيل: المرادُ: كأسُ الخَمرِ، أي: كأسٌ بَيضاءُ اللَّونِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣١، ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٢، ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٩).

قال ابن جرير: (لا أذًى فيها، ولا مَكْروهٌ على شارِبيها؛ في جِسْمٍ، ولا عقلٍ، ولا غيرِ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٥).

لا يَسكَرونَ[١].

٢- قِراءةُ ﴿يُنزَفُونَ﴾ بفَتحِ الزَّايِ، أي: لا تَزولُ عُقولُهم إذا شَربوها[٢].

﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾.

أي: ولا تَزولُ عُقولُ أهلِ الجنَّةِ؛ بسَبَبِ شُربِهم الخَمرَ، فهم لا يَسكَرونَ بشُربِها[٣].

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى صِفةَ مَشروبِ أهلِ الجنَّةِ؛ ذكَرَ عَقيبَه صِفةَ مَنكوحِهم[٤]، فقال:

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وعندَ عِبادِ اللهِ المُخلَصينَ في الجنَّةِ نِساءٌ قد قصَرْنَ أطرافَهنَّ على أزواجِهنَّ؛ فلا يَنظُرْنَ إلى غَيرِهم مِنَ الرِّجالِ، ولا يُرِدْنَ غيرَ أزواجِهنَّ، ومِن

---

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣١٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣١٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٩).
قال النَّحَّاسُ: (أصلُ نَزَفَ: نَقَص، والمعنى: لا يَلحَقُهم نُقصانٌ بسُكْرٍ ولا غَيرِه؛ فنفَى اللهُ جلَّ وعَزَّ عنهم السُّكْرَ؛ لِما فيه مِن الباطلِ والسَّفَهِ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٣).

صِفاتِهنَّ أنَّ عُيونَهنَّ حِسانٌ واسِعاتٌ[١].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٥٦].

﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٞ مَّكۡنُونٞ ٤٩﴾.

أي: كأنَّ نِساءَ أهلِ الجنَّةِ كالبَيضِ المَصونِ المَحفوظِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٧، ٥٣٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣، ١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٩).

قال ابنُ عاشور: (قاصِراتُ الطَّرْفِ، أي: حابِساتٌ أنظارَهنَّ؛ حياءً وغُنْجًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤).

وقال السَّعدي: (قاصِراتُ الطَّرْفِ: إمَّا أنَّها قَصَرت طَرْفَها على زَوجِها؛ لعِفَّتِها وعدَمِ مُجاوزتِه لغَيرِه، ولجمالِ زَوجِها وكمالِه؛ بحيث لا تَطلُبُ في الجنَّةِ سِواه، ولا تَرغَبُ إلَّا به؛ وإمَّا لأنَّها قَصَرت طَرْفَ زَوجِها عليها، وذلك يدُلُّ على كمالِها وجمالِها الفائِقِ الَّذي أوجَبَ لزَوجِها أن يَقصُرَ طَرْفَه عليها، وقَصْرُ الطَّرْفِ أيضًا يدُلُّ على قَصرِ النَّفْسِ والمحبَّةِ عليها، وكِلا المعنيَينِ مُحتملٌ، وكِلاهما صحيحٌ، وكُلُّ هذا يدُلُّ على جمالِ الرِّجالِ والنِّساءِ في الجنَّةِ، ومحبَّةِ بَعضِهم بَعضًا محبَّةً لا يَطمَحُ إلى غيرِه، وشِدَّةِ عِفَّتِهم كُلِّهم، وأنَّه لا حَسَدَ فيها ولا تَباغُضَ ولا تَشاحُنَ؛ وذلك لانتفاءِ أسبابِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤١).

وقال ابنُ عثيمين: (وكِلا المعنيينِ صَحيحٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٠).

وممَّن جمَعَ بيْن كِلا القولَينِ: البِقاعي، فقال: (أي: لا تَطرِفُ واحِدةٌ مِنهنَّ إلى غيرِ زَوجِها، ولا يَدَعُه تناهي حُسنِها وفَرطُ جمالِها يَطرِفُ إلى غَيرِها). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٣٢).

وقال ابنُ القيِّم: (وقيل: قصَرْنَ طَرْفَ أزواجِهنَّ، فلا يَدَعُهم حُسنُهنَّ وجمالُهنَّ أن يَنظُروا إلى غَيرِهنَّ. وهذا صحيحٌ مِن جهةِ المعنى، وأمَّا مِن جهةِ اللَّفظِ فقاصِراتٌ: صِفةٌ مُضافةٌ إلى الفاعلِ لِحسانِ الوُجوهِ، وأصلُه قاصِرٌ طَرْفُهنَّ، أي: ليس بطامِحٍ مُتَعدٍّ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٩، ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وُجوبُ الخُضوعِ لِمَا تَقتَضيه هذه الكَلِمةُ؛ لأنَّ اللهَ ساقَها في القَومِ المُستَكبِرينَ عنها مَساقَ الذَّمِّ، وعلى هذا فمَن قَبِلَها وخَضَع لها فقد نَفَى عن نفْسِه الذَّمَّ، وقام بما

---

= اختلف المفَسِّرون في المرادِ بالبَيضِ المكنونِ؛ فقيل بأنَّه: بَيضُ النَّعامِ الَّذي تَكُنُّه بالرِّيشِ مِن الرِّيحِ والغُبارِ ونحوِ ذلك، وأنَّ لونَها أبيضُ في صُفرةٍ، وأنَّه أحسَنُ ألوانِ النِّساءِ، وأنَّ العَرَبَ تُشَبِّهُ المرأةَ النَّاعِمةَ في بياضِها وحُسنِ لَونِها ببَيضةِ النَّعامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والبيضاوي، والبِقاعي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: زَيدُ بنُ أسلَمَ، وابنُ زَيدٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٨٩).

قال ابنُ عاشور: (البَيضُ المكنونُ: هو بَيضُ النَّعامِ، والنَّعامُ يُكِنُّ بَيضَه في حُفَرٍ في الرَّملِ، ويَفرُشُ لها مِن دَقيقِ رِيشِه... فيكونُ البَيضُ شَديدَ لَمعانِ اللَّونِ، وهو أبيضُ مَشوبٌ بياضُه بصُفرةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤).

وقيل: هو بَياضُ البَيضِ الَّذي في داخِلِ القِشرِ قبل أن تَمَسَّه يَدٌ أو غيرُها، وليس المرادُ بها القِشرةَ العُليا؛ فإنَّ الطَّائِرَ يمَسُّها، والأيديَ تُباشِرُها، والعُشَّ يَلْقاها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّيُّ، وقَتادةُ، وعطاءٌ الخُراسانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٨٩).

قال ابنُ عثيمين: (لِرِقَّتِهنَّ وبَياضِهنَّ ونُعومةِ المَلمَسِ كأنَّها البَيضُ، أي: البياضُ الَّذي في البَيضِ، وهو مكنونٌ بِقِشرِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١١).

وقيل: المرادُ أنَّهنَّ كاللُّؤلؤِ المكنونِ، كما قال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣]. وممَّن رُوِيَ عنه ذلك: ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤١).

يَجِبُ عليه[١]. فتَحَقُّقُ التَّوحيدِ لا يكونُ إلَّا بالانقيادِ؛ فإذا عَلِمْتَ واعتقَدْتَ ولم تَنقَدْ، لم تُحَقِّقِ التَّوحيدَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ كمالُ أدَبِ أهلِ الجنَّةِ؛ حيث كانوا يَتقابَلونَ بحيثُ لا يَقْفُو أحدُهم الآخَرَ، بل كلُّهم يَكونونَ مُستقبلًا بَعضُهم بَعضًا، وهذا لا شَكَّ أنَّه مِن كمالِ الأدبِ، والأدبُ كما أنَّه حَسَنٌ في أهلِ الجنَّةِ فهو حَسَنٌ في أهلِ الدُّنيا أيضًا؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، ولا شَكَّ أنَّ الإنسانَ إذا كان مُؤَدَّبًا كان محبوبًا عندَ النَّاسِ؛ فالجفاءُ وعَدَمُ المبالاةِ بالنَّاسِ خُلُقٌ ذَميمٌ[٣].

٣- مِن صفاتِ المرأةِ الجَميلةِ كَونُها قاصِرةَ الطَّرفِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾[٤]، فامتَدحَ نِساءَ الجنَّةِ بكَونِهنَّ قاصِراتِ الطَّرفِ على أزواجِهنَّ، لا يَنظُرْنَ إلى غَيرِ أزواجِهنَّ، فنَظرُ المرأةِ إلى غيرِ زوجِها فِتنةٌ، ويَتفَرَّعُ على ذلك أنَّ على الإنسانِ أنْ يُراعِيَ زوجتَه في هذا البابِ، بحيثُ يَمنَعُها مِن التَّطَلُّعِ إلى غيرِه، سواءٌ كان هذا التَّطَلُّعُ إلى الرَّجُلِ مُباشَرةً، أو بواسطةِ الوَسائلِ الإعلاميَّةِ، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ أيضًا: أنْ يَمنَعَها مِن الخُروجِ إلى الأسواقِ إلَّا لحاجةٍ؛ لأنَّ المرأةَ إذا خرَجَتْ إلى الأسواقِ ورَأَتِ النَّاسَ فرُبَّما تُعجَبُ بأحَدِهم، ويَتَعلَّقُ قلبُها به فتَعزِفُ عن زَوجِها، ويَضعُفُ حبُّها له، ورُبَّما تُبغِضُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٤).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ الضَّميرُ في قَولِه: ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائِدٌ إلى المذكورِ السَّابِقِ، وهو قَولُه: ﴿بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، في قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ لَفظَ (المُجرِم) المُطلَقَ: مختَصٌّ في القرآنِ بالكافِرِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أنَّه لا يَجوزُ صَرفُ شَيءٍ مِن أنواعِ العبادةِ لغَيرِ اللهِ؛ لا صلاةً ولا نَذرًا، ولا سُجودًا ولا ركوعًا، ولا حَجًّا، كلُّه يجبُ أنْ يُصرَفَ لله عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه هو المعبودُ حقًّا[2].

٣- أنَّ هؤلاء المُستكبِرين لم يَكْفِهم الاستِكبارُ عن الحقِّ حتَّى قَدَحوا فيمَن جاء بالحَقِّ؛ يُؤخَذُ مِن قَولِهم: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾، فلم يَكْفِهم أنْ تَركوا الحَقَّ حتَّى هاجَموا وقَدَحوا فيمَن جاء به، وقد وُرِثَتْ هذه الطَّريقةُ -أي: القَدحُ بمَن جاء بالحَقِّ-؛ فأهلُ البِدَعِ يُسَمُّونَ أهلَ السُّنَّةِ بكُلِّ عَيبٍ ووَصفٍ قَبيحٍ؛ سَمَّوهم المُشبِّهةَ، والمُجَسِّمةَ، والحَشويَّةَ، والغُثاءَ، والنَّوابتَ، والعامَّةَ... وما أشْبَهَ ذلك مِن الكَلِماتِ الَّتي تُفيدُ القَدْحَ، ولكِنْ جَعَلَ اللهُ سُبحانَه وتعالى لكلِّ نبيٍّ عَدُوًّا مِن المجرِمينَ، ولِكُلِّ مُتَّبِعِ نَبيٍّ عَدُوًّا مِن المجرِمينَ؛ فوَرِثَ هؤلاء الأصفياءُ صَفوةَ الخَلْقِ، وهم الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، ووَرِثَ هؤلاء الأشقياءُ أشقَى الخَلْقِ الَّذين يَقدَحُون في الرُّسُلِ[3].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ يعني: صَدَّقَهم في مَجيئِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥، ٨٦).

بالتَّوحيدِ، ونَفيِ الشَّريكِ، وهذا تَنبيهٌ على أنَّ القَولَ بالتَّوحيدِ دِينٌ لكُلِّ الأنبياءِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ الرُّسُلَ السَّابِقين أخبَروا بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمجيئُه صلَّى الله عليه وسلَّم تصديقٌ لِما أخْبَروا به مِن أنَّه سيُبعَثُ، وآخِرُهم عيسى عليه السَّلامُ، قال لقومِه: ﴿إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[٢] [الصف: ٦].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لو لم يَظْهَرْ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لَبَطَلَتْ نُبُوَّةُ سائرِ الأنبياءِ، فظُهورُ نُبوَّتِه تصديقٌ لشَهادتِهم، وشَهادةٌ لهم بالصِّدقِ، فإرسالُه مِن آياتِ الأنبياءِ قبْلَه؛ فإنَّ المُرسَلينَ بَشَّروا به، وأخبَروا بمجيئِه، فمجيئُه هو نفْسُ صِدْقِ خَبَرِه، فكأنَّ مجيئَه تصديقٌ لهم؛ إذْ هو تأويلُ ما أخبَروا به، ولا تنافيَ بيْنَ هذا وبينَ القولِ الآخَرِ: «أنَّ تصديقَه المُرسَلينَ بشَهادتِه بصِدقِهم، وإيمانِه بهم»، فإنَّه صَدَّقَهم بقولِه وبمجيئِه؛ فشَهِدَ بصِدْقِهم بنفْسِ مجيئِه؛ وشَهِدَ بصِدْقِهم بقولِه، فعادةُ اللهِ في رُسُلِه أنَّ السَّابقَ يُبَشِّرُ باللَّاحقِ؛ واللَّاحقَ يُصَدِّقُ السَّابقَ، فلو لم يَظْهَرْ محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولو لم يُبْعَثْ؛ لَبَطَلَتْ نُبُوَّةُ الأنبياءِ قبْلَه[٣]!

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: أنَّ ما دعاكم إليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن التَّوحيدِ: قد دَعَت إليه الرُّسُلُ مِن قَبْلِه، وهذا احتِجاجٌ بالنَّقلِ عَقِبَ الاحتِجاجِ بأدِلَّةِ النَّظَرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨١، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٨).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أنَّه يَجِبُ علينا أنْ نُصَدِّقَ مَن سَبَقَ مِن الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ نبيَّنا صلَّى الله عليه وسلَّم صَدَّقَ المُرسَلينَ، فيَجِبُ علينا نحن أنْ نُصَدِّقَ؛ لأنَّه يَجِبُ على المأمومِ مُتابَعةُ الإمامِ، فإمامُنا مُحمَّدٌ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه، فيجبُ علينا أنْ نَتَّبِعَه[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ * وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ مُجازَونَ على أعمالِهم السَّيِّئةِ مِن الأقوالِ والأعمالِ؛ كتَمجيدِ آلهتِهم، والدُّعاءِ لها، وتكذيبِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأذاه وأذى المؤمِنينَ، وقَولِهم في أصنامِهم أنَّهم شُفَعاءُ عندَ اللهِ، وفي الملائكةِ أنَّهم بَناتُ اللهِ، ومِن قَتلِ الأنفُسِ، والغارةِ على الأموالِ، ووَأْدِ البناتِ، والزِّنا؛ فإنَّ ذلك كُلَّه ممَّا يَزيدُهم عذابًا، وهو يؤيِّدُ قَولَ الَّذين ذَهَبوا إلى أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّريعةِ، وأنَّ ذلك واقِعٌ[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عُبِّرَ عن الجَزاءِ بالعَمَلِ، والفائِدةُ في ذلك أمْرانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: أنْ يُعلَمَ بأنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما تَدينُ تُدانُ، فإذا عُبِّرَ عن الجزاءِ بالعَمَلِ فإنَّ هذا معناه أو مُقتَضاه أنَّ هذا الجزاءَ بقَدرِ العَمَلِ.

الأمرُ الثَّاني: قُوَّةُ التَّوبيخِ لهؤلاء؛ لأنَّ الجزاءَ إذا كان مِن فِعلِ غَيرِهم فإذا عُبِّرَ عنه بالجزاءِ فإنَّه يكونُ أهْوَنَ بَعضَ الشَّيءِ، لكِنْ إذا عُبِّرَ بالعَمَلِ عن الجزاءِ صار أشَدَّ في التَّوبيخِ، كأنَّه يُقالُ لهم: هذا فِعلُكم أنتم بأنفُسِكم؛ ولهذا عُبِّرَ عن الجَزاءِ بالعَمَلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٩١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ أنَّ عِبادَ اللهِ عزَّ وجلَّ يَنقَسِمونَ إلى قِسمَينِ: عِبادٍ مُخلَصينَ، وعِبادٍ غَيرِ مخلَصينَ؛ فالعِبادُ بمعنى: عُبوديَّةِ القَدَرِ، هؤلاءِ غيرُ مُخلَصِينَ، بل هم كالأنعامِ -بل هم أضَلُّ-، وأمَّا العِبادُ للهِ تَعَبُّدَ شَرْعٍ فإنَّ هؤلاء هم المُخلَصونَ[١].

١٢- أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَمُنُّ على مَن يَشاءُ فيُخلِصُهم لِنَفْسِه حتَّى لا يَكونوا عَبيدًا لِغَيرِه؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وهذا أبلَغُ مِن «المُخلِصينَ»، وإنْ كان لكلٍّ مِنهما مَزِيَّةٌ، ولكنَّ المُخْلَصَ الَّذي أخلَصَه اللهُ عزَّ وجلَّ لِنَفْسِه، فلم يكُنْ له إرادةٌ سِوى ربِّه، هذا أبلَغُ[٢].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ بناه للمَفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ وُجودَ إكرامِهم مِن كُلِّ شَيءٍ: أمرٌ حَتمٌ لا يكونُ غَيرُه أصلًا[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أنَّ الجنَّةَ أصنافٌ وأنواعٌ، ولكِنَّها تَشترِكُ كُلُّها في أنَّها جنَّاتُ نَعيمٍ[٤].

١٥- قال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، فإنَّ مُقابَلَةَ وُجوهِهم تَدُلُّ على تقابُلِ قُلوبِهم، وتأدُّبِ بَعضِهم مع بَعضٍ؛ فلم يَستدبِرْه أو يَجعَلْه إلى جانِبِه، بل مِن كَمالِ السُّرورِ والأدَبِ ما دَلَّ عليه ذلك التَّقابُلُ[٥]. وأيضًا هذا أتَمُّ للأنسِ؛ لأنَّ فيه أُنسَ الاجتِماعِ، وأُنسَ نَظَرِ بَعضِهم إلى بَعضٍ؛ فإنَّ رُؤيةَ الحَبيبِ والصَّديقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

تُؤنِسُ النَّفْسَ[١].

١٦- قال الله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ السُّرُرُ: جَمعُ سَريرٍ، وهو ككُرسيٍّ واسِعٍ يُمكِنُ الاضطِجاعُ عليه، وكان الجُلوسُ على السَّريرِ مِن شِعارِ الملوكِ وأضرابِهم، وذلك جلوسُ أهلِ النَّعيمِ؛ لأنَّ الجالِسَ على السَّريرِ لا يجِدُ مَلَلًا؛ لأنَّه يُغَيِّرُ جِلسَتَه كيف تتيسَّرُ له[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ سَعَةُ مَحَلَّاتِ أهلِ الجنَّةِ؛ لِكَونِهم مُتقابِلينَ على السُّرُرِ؛ لأنَّ التَّقابُلَ يؤدِّي إلى سَعةِ المكانِ، لا سيَّما مع كَثرتِهم[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ راحةُ أهلِ الجنَّةِ؛ حيث كانوا مُتَفرِّغينَ على السُّرُرِ، يَتحدَّثُ بعضُهم إلى بَعضٍ، ويَأنَسُ بعضُهم إلى بَعضٍ على وَجهِ التَّقابُلِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾

- استئنافٌ بَيانيٌّ أفاد تَعليلَ جَزائِهم، وبَيانَ إجرامِهم بذِكرِ ما كانوا عليه مِن التَّكبُّرِ عن الاعترافِ بالوَحدانيَّةِ للهِ، ومِن وَصفِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما هو مُنزَّهٌ عنه وَصْفًا يَرْمُون به إلى تَكذيبِه فيما جاء به، فحَرْفُ (إنَّ) هنا ليس للتَّأكيدِ؛ لأنَّ كَونَهم كذلك ممَّا لا مُنازِعَ فيه، وإنَّما هو للاهتمامِ بالخبَرِ؛ فلذلك تُفيدُ التَّعليلَ والرَّبطَ، وتُغْني غَناءَ فاءِ التَّفريعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦١).

- وذُكِرَ فِعلُ الكونِ ﴿كَانُوٓاْ﴾؛ لِيَدُلَّ على أنَّ ما تَضمَّنَه الخبَرُ وَصفٌ مُتمكِّنٌ منهم، فهو غيرُ مُنقطِعٍ، ولا همْ حائِدونَ عنه[١].

- وفاعلُ القولِ المَبْنيِّ فِعلُه للنَّائبِ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فحُذِفَ للعِلمِ به[٢].

- الاستكبارُ: شِدَّةُ الكِبْرِ، فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، أي: يَتعاظَمون عن أنْ يَقبَلوا ذلك مِن رجُلٍ مِثلِهم، ولك أنْ تَجعَلَ السِّينَ والتَّاءَ للطَّلبِ، أي: إظهارِ التَّكبُّرِ، أي: يَبْدو عليهم التَّكبُّرُ والاشمئزازُ مِن هذا القولِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونِۭ﴾

- أتَوا بالنَّفيِ على وَجهِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ؛ إظهارًا لِكَونِ ما يَدْعوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمْرٌ مُنكَرٌ لا يُطمَعُ في قَبولِهم إيَّاهُ؛ تَحذيرًا لِمَن يَسمَعُ مَقالتَهم مِن أنْ يَجولَ في خاطِرِه تَأمُّلٌ في قَولِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وقَوَّوا هذا التَّحذيرَ بجَعْلِ حَرْفِ الإنكارِ مُسلَّطًا على الجُملةِ المُؤكَّدةِ بحَرْفِ التَّوكيدِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم إذا أتَوا ما أنْكَروه كانوا قد تَحقَّقَ تَرْكُهم آلهتَهم، تَنزيلًا لِبَعضِ المخاطَبينَ مَنزلةَ مَن يَشُكُّ في أنَّ الإيمانَ بتَوحيدِ الإلهِ يُفْضي إلى تَرْكِ آلهتِهم؛ لِيَسُدُّوا على المخاطَبينَ مَنافذَ التَّردُّدِ أنْ يَتطرَّقَ منها إلى خَواطِرِهم[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ اعتِراضٌ في آخِرِ الاعتراضِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٠٧، ١٠٨).

قُصِدَت منه المُبادرةُ بتَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا قالوه، و﴿بَلۡ﴾ إضرابُ إبطالٍ لِقَولِهم: ﴿لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونٍ﴾ [الصَّافَّات: ٣٦]، وبإثباتِ صِفَتِه الحقِّ لِبَيانِ حقيقةِ ما جاء به. وفي وَصفِ ما جاء به أنَّه الحقُّ ما يَكْفي لِنَفيِ أنْ يكونَ شاعرًا ومَجنونًا؛ فإنَّ المشركينَ ما أرادوا بوَصفِه بشاعرٍ أو مَجنونٍ إلَّا التَّنفيرَ مِن اتِّباعِه، فمَثَّلوه بالشَّاعرِ مِن قَبيلةٍ يَهْجو أعداءَ قَبيلتِه، أو بالمجنونِ يقولُ ما لا يَقولُه عُقلاءُ قَومِه؛ فكان قولُه تعالى: ﴿بَلۡ جَآءَ بِٱلۡحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ مُثبِتًا لكونِ الرَّسولِ على غيرِ ما وَصَفوه إثباتًا بالبَيِّنةِ، وأُتبِعَ ذلك بتَذكيرِهم بأنَّه ما جاء إلَّا بمِثلِ ما جاءت به الرُّسلُ مِن قَبْلِه، فكان الإنصافُ أنْ يُلحِقوه بالفريقِ الَّذي شابَهَهم، دونَ فَريقِ الشُّعراءِ أو المجانينِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ۝ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- مِن كلامِ اللهِ يومَ القيامةِ الموجَّهِ إلى المشركينَ عقِبَ تَساؤُلِهم وتَحاوُرِهم، فيَكونُ ما بيْن هذا وبيْن مُحاوَرتِهم المُنْتهيةِ بقولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ [الصَّافَّات: ٣٢] اعتراضًا، أي: فلمَّا انتهَوا مِن تَحاوُرِهم خُوطِبوا بما يَقطَعُ طَمَعَهم في قَبولِ تَنصُّلِ كِلا الفريقينِ مِن تَبِعاتِ الفريقِ الآخَرِ؛ لِيَزْدادوا تَحقُّقًا مِن العذابِ الَّذي عَلِموه مِن قَولِهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡنَا قَوۡلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٣١]، وهذا ما تَقْتَضيهِ دَلالةُ اسمِ الفاعلِ في قولِه: ﴿لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ حقيقةٌ في الحالِ، أي: حالِ التَّلبُّسِ؛ فإنَّه لَمَّا قِيل لهم هذا كانوا مُشرِفينَ على الوُقوعِ في العذابِ، وذلك زمَنُ حالٍ في العُرْفِ العربيِّ(٢).

- في قولِه: ﴿إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٠٩).

لِمُجابَهتِهم بإظهارِ كَمالِ الغضَبِ، وأنَّه بلَغَ أقْصى آمادِه وحُدودِه[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استِثناءٌ مُنقطِعٌ مِن ضَميرِ (ذَائِقُو)، وما بيْنَهما اعتراضٌ، جِيءَ به؛ مُسارعةً إلى تَحقيقِ الحقِّ ببَيانِ أنَّ ذَوقَهم العذابَ ليس إلَّا مِن جِهَتِهم، لا مِن جِهَةِ غيرِهم أصْلًا[٢].

- وهذا الاستثناءُ المُنقطِعُ في مَعنى الاستدراكِ، وهذا الاستدراكُ تَعقيبٌ على قَولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٣٣]؛ فإنَّ حالَ عِبادِ اللهِ المخلَصينَ تامُّ الضِّدِّيَّةِ لحالِ الَّذين ظَلَموا، وليس يَلزَمُ في الاستدراكِ أنْ يكونَ رَفْعَ تَوهُّمٍ، وإنَّما ذلك غالِبٌ[٣].

- وذِكرُ المؤمنينَ بوَصفِ العُبوديَّةِ المضافةِ للهِ تعالى ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾، تَنويهٌ بهم وتَقريبٌ[٤]؛ ففيه شَرَفُ القائمِينَ بأمرِ اللهِ تعالى، ولا شَكَّ أنَّه فَخرٌ للإنسانِ أن يُنسَبَ إلى عبادةِ اللهِ[٥].

- والمُخلَصينَ: صِفةُ مَدْحٍ؛ لأنَّ كَونَهم عِبادَ اللهِ يَلزَمُ منه أنْ يَكونوا مُخلَصينَ[٦].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ استئنافٌ مُبيِّنٌ لِمَا أفادهُ الاستِثناءُ إجمالًا بَيانًا تَفْصيليًّا[٧].

- والإشارةُ إلى عِبادِ اللهِ بـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ قُصِدَ منها التَّنبيهُ على أنَّهم استَحقُّوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

ما بعدَ اسم الإشارةِ لِأجْلِ ما أُثبِتَ لهم مِن صِفَةِ الإخلاصِ، وذلك مِن مُقتضياتِ تَعريفِ المسنَدِ إليه بالإشارةِ، وما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ مع قُرْبِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإشعارِ بعُلوِّ طَبقتِهم، وبُعدِ مَنْزلَتِهم في الفضلِ[1].

- وقولُه: ﴿مَّعْلُومٌ﴾ فيه إيجازٌ؛ فقد نابَتْ هذه الكلمةُ عن الأوقاتِ والمُدَدِ، واندرَجَت فيها العَشايا والأصائلُ والبُكَرُ، كما نابَتْ عن الطُّعومِ المُتفاوِتةِ والرَّوائحِ المُتباينةِ الَّتي تَختلِفُ في المَظهرِ، وتَتَّفِقُ في طِيبِها[2].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَوَٰكِهُ﴾ فُسِّرَ الرِّزقُ المعلومُ بالفواكهِ، وهي كلُّ ما يُتلذَّذُ به ولا يُتقوَّتُ لحِفْظِ الصِّحَّةِ، وتَخصيصُها بالذِّكرِ؛ لأنَّهم مُسْتغنُون عن حِفظِ الصِّحَّةِ بالأقواتِ، بأنَّهم أجسامٌ مُحكمةٌ مَخلوقةٌ للأبَدِ، فكلُّ ما يَأكُلُونه يَأكُلونه على سَبيلِ التَّلذُّذِ. وقيل: المقصودُ مِن ذِكرِ الفاكهةِ التَّنبيهُ بالأدْنى على الأعلَى، يعني: لَمَّا كانت الفاكهةُ حاضرةً أبدًا، كان الإدامُ أَولى بالحضورِ[3].

- قولُه: ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عطْفٌ على ﴿لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾، أي: يُعامَلون بالحَفاوةِ والبهجةِ؛ فإنَّه وسَّطَ في أثناءِ وَصفِ ما أُعِدَّ لهم مِن النَّعيمِ الجُسمانيِّ أنَّ لهم نَعيمَ الكرامةِ، وهو أهمُّ؛ لأنَّ به انتعاشَ النَّفْسِ، مع ما في ذلك مِن خُلوصِ النِّعمةِ ممَّن يُكَدِّرُها؛ وذلك لأنَّ الإحسانَ قد يكونُ غيرَ مُقترنٍ بمدْحٍ وتَعظيمٍ ولا بأذًى، وهو الغالبُ، وقد يكونُ مُقترنًا بأذًى، وذلك يُكدِّرُ مِن صَفْوِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فإذا كان الإحسانُ مع عِباراتِ الكرامةِ وحُسنِ التَّلقِّي فذلك الثَّوابُ. وهو كالتَّكميلِ للكلامِ السَّابقِ، أو أنَّه كالتَّذييلِ[١]. فلَمَّا ذكَرَ الأكلَ؛ بيَّنَ أنَّ ذلك الأكلَ حاصِلٌ مع الإكرامِ والتَّعظيمِ؛ لأنَّ الأكلَ الخاليَ عن التَّعظيمِ يَليقُ بالبَهائِمِ[٢]. فقَولُه تعالى: ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ تَتميمٌ بَليغٌ للنَّعيمِ؛ لأنَّه رُبَّ مَرزوقٍ غَيرُ مُكرَمٍ، وذلك أعظَمُ التَّنكيدِ[٣].

٨- قولُه تعالَى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: في جنَّاتٍ ليس فيها إلَّا النَّعيمُ، وهو ظرْفٌ أو حالٌ مِن المُسْتكنِّ في ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾، أو خبَرٌ ثانٍ لـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[٤].

٩- قولُه تعالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ * بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ إمَّا استئنافٌ لبيانِ ما يكونُ لهم في مجالسِ أنسِهم، أو حالٌ مِن الضميرِ في ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أو في أحدِ الجارَّينِ، وجُوِّز كونُه صفةُ لـ ﴿مُّكۡرَمُونَ﴾[٥].

- ووُصِفَ الخمرُ بأنَّه ﴿مِّن مَّعِينِۭ﴾؛ لأنَّه يَجْري في الجنَّةِ في أنهارٍ كما يَجْري الماءُ في الدُّنيا، أو للإشعارِ بأنَّ ما يكونُ لهمْ بمَنزلةِ الشَّرابِ جامعٌ لِمَا يُطلَبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٤).

مِن أنواعِ الأشربةِ؛ لِكَمالِ اللَّذَّةِ[١].

- والمَعينُ بوَزنِ فَعيلٍ، مِثالُ مُبالَغةٍ مِن المَعْنِ، وهو الإبعادُ في الفِعلِ؛ شُبِّهَ جَرْيُه بالإبعادِ في المشْيِ[٢]. وذلك على قولٍ.

- ووُصِفتْ الكأسُ بالمصدرِ في قولِه: ﴿لَذَّةٍ﴾؛ للمُبالَغةِ، بجَعلِها نفْسَ اللَّذَّةِ، فالوصفُ بالمصدرِ أبلغُ مِن الوصفِ بالمشتقِّ مِن المصدرِ، كاسمِ الفاعلِ واسمِ المفعولِ، فـقولُك: (فلانٌ عدلٌ) أبلغُ مِن: (فلانٌ عادلٌ). وجُوِّز أن تكونَ ﴿لَذَّةٍ﴾ تأنيثَ (لذٍّ) بمعنى لذيذٍ، أو على حذفٍ، أي: ذاتِ لَذَّةٍ[٣].

- وفي قولِه تعالى: ﴿لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ دونَ (لهم): إشارةٌ إلى أنَّها يَلتَذُّ بها الشَّاربُ كائنًا مَن كان[٤]، فهو مِن بابِ التَّوكيدِ، يعني أنَّهم في حالِ شُربِهم إيَّاها يَتلذَّذون بها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١).

وقال ابن عاشور: (يقالُ: لَذَّه ولَذَّ به، والمصدرُ: اللَّذَّةُ واللَّذاذةُ... ويُقالُ: شَيءٌ لَذٌّ، أي: لذيذٌ، فهو وصفٌ بالمصدرِ، فإذا جاء بهاءِ التَّأنيثِ كما في هذه الآيةِ فهو الاسمُ لا مَحالةَ؛ لأنَّ المصدرَ الوصفَ لا يُؤَنَّثُ بتأنيثِ مَوصوفِه، يقالُ: امرأةٌ عَدْلٌ، ولا يُقالُ: امرأةٌ عَدْلةٌ. ووصْفُ الكأسِ بها كالوصفِ بالمصدرِ يُفيدُ المُبالَغةَ في تمكُّنِ الوصفِ، فقولُه تعالى: ﴿لَذَّةٍ﴾ هو أقصَى ما يؤدِّي شِدَّةَ الالتِذاذِ بكلمةٍ واحدةٍ؛ لأنَّه عُدِل به عن الوصفِ الأصليِّ لقصدِ المُبالَغةِ، وعُدِل عن المصدرِ إلى الاسمِ لِمَا في المصدرِ مِن معنَى الاشتقاقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٠٨).

١٠- قولُه تعالَى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ تَقديمُ الظَّرفِ المسنَدِ ﴿فِيهَا﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿غَوْلٌ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: هو مُنتَفٍ عن خمْرِ الجنَّةِ فقطْ دونَ ما يُعرَفُ مِن خمْرِ الدُّنيا، فهو قَصرُ قلْبٍ[١]. ووُقوعُ ﴿غَوْلٌ﴾ -وهو نَكِرةٌ- بعْدَ (لا) النَّافيةِ، أفاد انتفاءَ هذا الجنْسِ مِن أصْلِه[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿هُمْ﴾ على المُسنَدِ ﴿يُنزَفُونَ﴾، والمسنَدُ فِعلٌ؛ لِيُفِيدَ التَّقديمُ تَخصيصَ المُسنَدِ إليه بالخبَرِ الفِعليِّ، أي: بخِلافِ شارِبي الخمْرِ مِن أهلِ الدُّنيا[٣].

- وفي الآيةِ إيجازٌ بليغٌ؛ فقدْ جَمَعَت هاتانِ الكلمتانِ ﴿غَوْلٌ﴾ و﴿يُنزَفُونَ﴾ جميعَ عُيوبِ خمْرِ أهلِ النَّاسِ الَّتي حُرِّمَت بسَببِها، والمعنى: لا فيها فَسادٌ قَطُّ مِن أنواعِ الفسادِ الَّتي تكونُ في شُرْبِ الخمْرِ؛ مِن مَغْصٍ، أو صُداعٍ، أو خُمارٍ[٤]، أو عَرْبدةٍ، أو لَغوٍ، أو تأْثيمٍ، أو غيرِ ذلك، ولا همْ يَسْكَرون، وهو أعظَمُ مَفاسدِها؛ فأفْرَزَه وأفرَدَه بالذِّكرِ[٥].

١١- قولُه تعالَى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾

- ذِكرُ (عِندَ) لإفادةِ أنَّهنَّ مُلابِساتٌ لهم في مَجالسِهم الَّتي تُدارُ عليهم فيها

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣، ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١١٤).

(٤) الخُمارُ: بَقيَّةُ السُّكْرِ، أو: ما أصابك مِن ألمِها وصُداعِها وأذاها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٧)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦٨).

كأْسُ الجنَّةِ، وكان حُضورُ الجواري مَجالِسَ الشَّرابِ مِن مُكمِّلاتِ الأُنسِ والطَّرَبِ عندَ سادةِ العرَبِ(١).

- وفي الآيةِ تَشبيهٌ مُرسَلٌ؛ فالمرادُ بالبَيضِ هنا بَيضُ النَّعامِ، والمَكنونُ مِن كَنَنْتُه، أي: جعَلْتُه في كِنٍّ، والنِّساءُ يُشَبَّهْنَ بالبَيضِ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ؛ أحدُها: بالصِّحَّةِ والسَّلامةِ عن الطَّمثِ. والثَّاني: في الصِّيانةِ والسَّترِ؛ لأنَّ الطَّائرَ يَصُونُ بَيضَه ويُحصِّنُه. والثَّالثُ: في صَفاءِ اللَّونِ ونَقائِه؛ لأنَّ البيضَ يكونُ صافيَ اللَّونِ نَقِيَّه إذا كان تحتَ الطَّائرِ. وقيل: هو تَشبيهٌ عامٌّ؛ شبَّهَ جُملةَ المرأةِ بجُملةِ البَيضةِ، أراد بذلك تَناسُبَ أجزاءِ المرأةِ، وأنَّ كلَّ جُزءٍ منها نِسبتُه في الجودةِ إلى نَوعِه نِسبةُ الآخَرِ مِن أجْزائِها إلى نَوعِه؛ فنِسبةُ شَعرِها إلى عَينِها مُستويةٌ؛ إذ هما غايةٌ في نَوعِها، والبَيضةُ أشدُّ الأشياءِ تَناسُبَ أجزاءٍ؛ لأنَّها مِن حيث حُسْنُها في النَّظرِ واحدٌ(٢).

- وفي الآياتِ السَّابقةِ ترتيبٌ حسَنٌ؛ فقدْ ذكَرَ أوَّلًا: الرِّزقَ ﴿رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ﴾، وهو ما يَتلذَّذُ به الأجسامُ. وثانيًا: الإكرامَ ﴿وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾، وهو ما يَتلذَّذُ به النُّفوسُ -ورزقٌ بإهانةٍ تَنكيدٌ-. ثمَّ ذكَرَ المحلَّ الَّذي هُمْ فيه ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾. ثمَّ أشْرَفَ المحلِّ ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، وبه لَذَّةُ التَّآنُسِ بأنَّ بعضَهم يُقابِلَ بعضًا، وهو أتَمُّ السُّرورِ وآنَسُه. ثمَّ المشروبَ ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ﴾، وأنَّهم لا يَتناوَلونَ ذلك بأنفُسِهم، بلْ يُطافُ عليهم بالكؤوسِ. ثمَّ وصَفَ ما يُطافُ عليهم به مِن الطِّيبِ، وانتفاءِ المفاسدِ. ثمَّ ذَكَرَ تَمامَ اللَّذَّةِ الجُسمانيَّةِ، وختَمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٦٩).

بها كما بَدأَ باللَّذَّةِ الجُسمانيَّةِ مِن الرِّزقِ -وهي أبلَغُ الملاذِّ- وهي التَّآنُسُ بالنِّساءِ ﴿ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ عِينٌ ﴾، وأُرِيدَ تَتميمُ معنى تلك النِّعمةِ؛ فألْقَى في خَلَدِهم تَذَكُّرَ ما كانوا عليه في الدُّنيا مع القَرينِ السُّوءِ الَّذي كاد أنْ يُفوِّتَ عليهمْ هذا النَّعيمَ المُقِيمَ؛ لِيَزيدَ غِبْطَتَهم وتَبجُّحَهم، وإليه الإشارةُ بقولِه: ﴿ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾[1] [الصَّافَّات: ٥٧].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٠).

## الآيات (٥٠-٦١)

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَرِينٌ﴾: أي: صاحِبٌ وصَديقٌ مُلازِمٌ، والاقتِرانُ: الازدِواجُ واجتِماعُ شَيئينِ أو أشياءَ في معنًى مِنَ المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿لَمَدِينُونَ﴾: أي: لَمَجزيُّونَ، ومُحاسَبونَ، وأصلُ (دين): يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الانقيادِ[2].

﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: وَسَطِ النَّارِ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بيْنَ شيئينِ، وأصلُ (جحم): يدُلُّ على عِظَمِ الحَرارةِ وشِدَّتِها[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩) و(٣/ ١١٢).

﴿لَتُرْدِينِ﴾: أي: لَتُهلِكُني، والرَّدَى: الهلاكُ، والتَّرَدِّي: التَّعَرُّضُ للهَلاكِ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَميٍ أو تَرامٍ وما أشْبَهَ ذلك[1].

﴿ٱلْمُحْضَرِينَ﴾: أي: المُعَذَّبينَ في النَّارِ، وأصلُ (حضر): يدُلُّ على وُرودٍ ومُشاهَدةٍ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّه يُقبِلُ بَعضُ أهلِ الجنَّةِ على بَعضٍ يَتساءَلون، فيقولُ قائِلٌ منهم لأصحابِه: إنِّي كان لي قَرينٌ في الدُّنيا يقولُ لي: أَئِنَّك لَتُصَدِّقُ بوُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ بعدَ المَوتِ؟! أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمُحاسَبونَ على أعمالِنا؟!

فيقولُ هذا المؤمِنُ لأصحابِه في الجنَّةِ: هل أنتم مُطَّلِعونَ؛ لِنَنظُرَ حالَ هذا القَرينِ الَّذي كان يُكَذِّبُ بالبَعثِ؟! فاطَّلَعَ المؤمِنُ فرأى قَرينَه الكافِرَ في وَسَطِ الجَحيمِ. فقال المؤمِنُ له: تاللهِ لقد كِدْتَ أن تُهلِكَني بمُحاوَلةِ إغوائِك، ولولا هِدايةُ رَبِّي لي إلى الحَقِّ لَكُنتُ مِنَ المُحضَرينَ معك في النَّارِ.

ثمَّ أقبَلَ المؤمِنُ على أصحابِه مِن أهلِ الجنَّةِ مَسرورًا فقال: أئِنَّا لَمُخَلَّدونَ في هذا النَّعيمِ، ولن نموتَ مَوتةً أُخرى غيرَ مَوتَتِنا الأُولى الَّتي كانت في الدُّنيا، ولن نُعذَّبَ في النَّارِ؟! إنَّ هذا لَهُوَ الفوزُ العظيمُ. لِمِثْلِ هذا النَّعيمِ المُقيمِ فلْيَعمَلِ العامِلونَ في الدُّنيا مِنَ الصَّالحاتِ!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى نَعيمَ أهلِ الجنَّةِ، وتمامَ سُرورِهم بالمآكِلِ والمَشارِبِ، والأزواجِ الحِسانِ، والمجالِسِ الحَسَنةِ؛ ذكَرَ تَذاكُرَهم فيما بيْنَهم، ومُطارَحتَهم للأحاديثِ عن الأمورِ الماضيةِ، وأنَّهم ما زالوا في المحادَثةِ والتَّساؤُلِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان ذلك الاجتِماعُ إنَّما هو للسُّرورِ، وكان السُّرورُ لا يَتِمُّ إلَّا بالمُنادَمةِ، وكان أحلى المُنادَمةِ ما يُذَكِّرُ بحُلولِ نِعمةٍ أو انحِلالِ نِقمةٍ؛ تسَبَّبَ عن ذلك -ولا بُدَّ- قولُه تعالى[2]:

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠﴾.

أي: فأقبَلَ بَعضُ أهلِ الجنَّةِ على بَعضٍ يَتساءَلونَ فيما بيْنَهم[3].

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

قال ابنُ كثير: (ذلك مِن حديثِهم على شَرابِهم، واجتِماعِهم في تَنادُمِهم، وعِشرتِهم في مَجالِسِهم، وهم جلوسٌ على السُّرُرِ، والخَدَمُ بيْن أيديهم يَسعَونَ ويَجيئونَ بكُلِّ خَيرٍ عَظيمٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥).

وقال الألوسي: (وتساؤلُهم عن المعارفِ والفضائلِ، وما جرَى لهم وعليهم في الدُّنيا، وما أحلَى تذكُّرَ ما فاتَ عندَ رفاهيةِ الحالِ، وفراغِ البالِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوى)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٢).

أي: قال قائِلٌ مِن أهلِ الجنَّةِ لجُلَسائِه: إنِّي كان لي قَرينٌ[١] في الدُّنيا[٢].

﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

أي: كان القَرينُ يَقولُ لي: أئِنَّك لَمِنَ المُصَدِّقينَ بوُقوعِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ بعدَ الموتِ[٣]؟!

---

(١) قيل: المرادُ به: شَيطانٌ مِن الجِنِّ. وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٣).

وقيل: المرادُ به: صَديقٌ مُلازِمٌ مِن الإنسِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٣).

وممَّن ذهب إلى إمكانِ حَملِ الآيةِ على كِلا القولينِ: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٥).

قال ابنُ كثير: (﴿كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ قال مجاهِدٌ: يعني شيطانًا. وقال العَوْفيُّ، عن ابنِ عبَّاسٍ: هو الرَّجُلُ المشركُ يكونُ له صاحِبٌ مِن أهلِ الإيمانِ في الدُّنيا. ولا تَنافيَ بيْن كلامِ مُجاهدٍ وابنِ عبَّاسٍ؛ فإنَّ الشَّيطانَ يكونُ مِن الجِنِّ، فيُوسوِسُ في النَّفْسِ، ويكونُ مِن الإنسِ فيَقولُ كلامًا تَسمَعُه الأُذُنانِ، وكِلاهما مُتعاوِنانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥).

وقيل: المرادُ به صاحِبُ الجنَّتينِ الَّذي قصَّ اللهُ خبَرَه في سورةِ الكَهفِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٢، ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

قيل: يقولُ له ذلك على وَجهِ التَّوبيخِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: البيضاوي، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٨). =

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي: أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا وعِظامًا أئِنَّا لَمُحاسَبونَ ومَجزيُّونَ على أعمالِنا[1]؟!

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾.

أي: قال الرَّجُلُ المؤمِنُ لأصحابِه في الجنَّةِ: هل أنتم مُطَّلِعونَ على النَّارِ وأهلِها، فنَنظُرَ حالَ هذا القَرينِ المكَذِّبِ بالبَعثِ[2]؟

﴿ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ ﴾.

أي: فاطَّلعَ المؤمِنُ في النَّارِ فرأى قَرينَه الكافِرَ يُعذَّبُ في وَسَطِ الجَحيمِ[3].

﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: قال المؤمِنُ لَمَّا رأى قَرينَه الكافِرَ في النَّارِ: تاللهِ لقد أوشَكْتَ أن تُهلِكَني

---

= قال البِقاعي: (يُوبِّخُني بذلك، ويَستقصِرُ باعي في النَّظَرِ؛ استِثارةً لِهِمَّتي، وإلهابًا لِنَخوتي وحَمِيَّتي). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٣٤).

وقيل: يقولُ ذلك على وَجهِ التَّعَجُّبِ والتَّكذيبِ والاستِبعادِ، والكُفرِ والعِنادِ. ومِمَّن قال بهذا في الجملةِ: ابنُ كثير، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢١٠).

قال ابنُ عثيمين: (الآيةُ تحتمِلُ هذا وهذا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٧).

قال ابنُ الجوزي: (فأحَبَّ المؤمِنُ أن يَرى قرينَه الكافِرَ، فقال لأهلِ الجنَّةِ: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي: هل تُحِبُّونَ الاطِّلاعَ إلى النَّارِ؛ لِتَعلَموا أين مَنزِلَتُكم مِن مَنزِلَةِ أهلِها؟). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

بمُحاوَلةِ صَرفِك لي عن الإيمانِ بالبَعثِ والجَزاءِ[١].

﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

أي: ولولا أنَّ رَبِّي أنعَمَ عليَّ بالهدايةِ إلى الحَقِّ والثَّباتِ عليه، لَكُنتُ مِنَ المُحضَرينَ معك في النَّارِ[٢]!

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لـمَّا تَمَّم كَلامَه مع الرَّجُلِ الَّذي كان قَرينًا له في الدُّنيا، وهو الآنَ مِن أهلِ النَّارِ؛ عاد إلى مُخاطَبةِ جُلَسائِه مِن أهلِ الجنَّةِ؛ قائلًا[٣]:

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

أي: قال المُؤمِنُ لأهلِ الجنَّةِ مُغتَبِطًا مَسرورًا بنِعمةِ اللهِ عليهم بالخُلودِ فيها أبدًا: أَلَنْ نَموتَ مَوتةً أُخرى غيرَ مَوتَتِنا الأُولى الَّتي كانت في الدُّنيا، ولن نكونَ مِن المُعَذَّبينَ في النَّارِ[٤]؟!

كما قال تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧، ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢٩، ١٣٠).

ٱلْجَحِيمِ * فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الدخان: ٥٦، ٥٧].

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى نعيمَ الجنَّةِ ووصَفَه بهذه الأوصافِ الجَميلةِ؛ مَدَحَه وشَوَّق العامِلينَ، وحَثَّهم على العَمَلِ، فقال[1]:

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: إنَّ الخُلودَ في الجنَّةِ والنَّجاةَ مِنَ النَّارِ لَهُوَ الفَوزُ العَظيمُ[2].

كما قال تعالى: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦).

قال ابنُ عطيَّة: (يحتمِلُ أن يكونَ مِن خِطابِ المؤمِنِ لِقَرينِه... ويحتمِلُ أن يكونَ مِن خِطابِ الله تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وأمَّتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٥).

وممَّن ذهب إلى أنَّه مِن كلامِ المؤمِنِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشري، والقرطبي، وابن كثير، والبِقاعي، والشوكاني، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٩٥).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ مِن قولِ المؤمنِ وأصحابِه جميعًا. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٥٣).

وظاهِرُ كلامِ السَّمرقنديِّ والسَّعديِّ أنَّه مِن كلامِ اللهِ تعالى، وهو اختيارُ ابنِ جُزَي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٤٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: فلْيَعمَلِ العامِلونَ في الدُّنيا مِنَ الصَّالحاتِ؛ لِيَنالوا مِثلَ هذا النَّعيمِ، والفَوزِ العَظيمِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ كمالُ أدبِ أهلِ الجنةِ في أنَّهم عندَ المُحادَثةِ يُقبِلُ بَعضُهم على بَعضٍ، وهذا مِن كَمالِ الأدبِ: أنْ تُقبِلَ إلى مُحَدِّثِك[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠).

قال القرطبي: (يحتمِلُ أن يكونَ مِن كلامِ المؤمِنِ... ويحتمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكةِ. وقيل: هو مِن قَولِ الله عزَّ وجلَّ لأهلِ الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٤). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩١).

ومِمَّن قال بأنَّه مِن كلامِ الله تعالى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٨، ٦٠٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠).

ومِمَّن قال بأنَّه مِن كلامِ المؤمِنِ: الزمخشريُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢٢).

فيه عِبرةٌ مِن الحَذَرِ مِن قُرَناءِ السُّوءِ، ووُجوبِ الاحتراسِ مِمَّا يَدْعُونَ إليه، ويُزَيِّنونَه مِن المهالِكِ[١]، فصُحبةُ الأشرارِ فيها ضَرَرٌ عَظيمٌ، كما بيَّنَه اللهُ عزَّ وجَلَّ في هذه الآيةِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أنَّه يُندَبُ للإنسانِ أنْ يَنظُرَ في ضَلالِ مَن ضَلَّ؛ لِيَتبَيَّنَ في ذلك قَدْرَ نعمةِ اللهِ عليه في الهدايةِ؛ فإنَّ الأشياءَ إنَّما تَتبيَّنُ بضِدِّها[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ أنَّ التَّحَدُّثَ بنِعمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ مَشروعٌ ومأمورٌ به؛ بشَرطِ أنْ يكونَ المقصودُ به الثَّناءَ على اللهِ تعالى، لا الافتخارَ على عبادِ اللهِ[٤]!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ فهو أحَقُّ ما أُنفِقَت فيه نفائِسُ الأنفاسِ، وأَولى ما شَمَّر إليه العارِفونَ الأكياسُ، والحَسرةُ كُلُّ الحَسرةِ أن يَمضِيَ على الحازِمِ وَقتٌ مِن أوقاتِه وهو غيرُ مُشتَغِلٍ بالعَمَلِ الَّذي يُقرِّبُ لهذه الدَّارِ، فكيف إذا كان يَسيرُ بخطاياه إلى دارِ البَوارِ[٥]؟! فينبغي للعاقِلِ أنْ يُذهِبَ أنفاسَه ونَفيسَه ونَفسَه في العَمَلِ لهذه الغايةِ الحَميدةِ: الوُصولِ إلى الجنَّةِ[٦].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ كمالُ سُرورِ أهلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٤١).

الجنَّةِ، وأنَّهم يَتحادَثونَ ويَتساءَلونَ عمَّا جرَى في الدُّنيا، والتَّحَدُّثُ عمَّا جرَى على الإنسانِ فيما سَبَقَ فيه لَذَّةٌ وراحةٌ للنَّفْسِ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ النَّاسَ في الآخرةِ تَعودُ إليهم تَذَكُّراتُهم الَّتي كانت لهم في الدُّنيا، مُصَفَّاةً مِن الخواطِرِ السَّيِّئةِ، والأكدارِ النَّفْسانيَّةِ، مُدرِكةً الحقائِقَ على ما هي عليه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ أنَّه قد يكونُ أعدَى عَدُوٍّ للإنسانِ مَن كان مُقارِنًا له[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أنَّ أحوالَ يومِ القيامةِ لا تُقاسُ بأحوالِ الدُّنيا؛ فإنَّ هذا يَنظُرُ مِن أعلى عِلِّيِّينَ إلى أسفَلِ السَّافِلينَ، فيَرى صاحبَه في سَواءِ الجَحيمِ، فيَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّ كُلَّ ما ورَد مِن أحوالِ يومِ القيامةِ -مِمَّا تَستَبعِدُه النُّفوسُ؛ لِعَدمِ مُشاهَدةِ نَظيرِه في الدُّنيا- لا ينبغي أنْ يكونَ مَحَلَّ استِبعادٍ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ جوازُ إضافةِ الشَّيءِ إلى سَبَبِه؛ فلم يَقُلْ: ولولا ربِّي[٥]!

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ احتُجَّ به على أنَّ الهُدى والضَّلالَ مِنَ اللهِ تعالى[٦]. وفيه حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ، ألَا ترَى إلى مُخاطَبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٥).

هذا لِقَرينِه الَّذي كان حَريصًا على إغوائِه في الدُّنيا بما يَقولُ له: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، فأعلَمَه أنَّه لم يَنْجُ ممَّا كان يَدْعوه إليه قَرينُه ويُزَيِّنُه له إلَّا بنِعمةِ ربِّه، لا بِطاقتِه واستِطاعةِ نَفْسِه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ أنَّ نجاةَ الإنسانِ مِن عذابِ اللهِ مِن أكبرِ النِّعَمِ، ويدُلُّ لذلك أيضًا قولُه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣]؛ حيث جَعَلَ إكمالَ الدِّينِ مِن إتمامِ النِّعمةِ، وبالدِّينِ تكونُ النَّجاةُ مِن النَّارِ، والفَوزُ بدارِ القَرارِ، فمِن أكبَرِ النِّعَمِ بلا شَكٍّ -بل هي أكبَرُ النِّعَمِ- أن يَمُنَّ اللهُ على الإنسانِ بالنَّجاةِ مِن النَّارِ ودُخولِ الجنَّةِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أنَّ الفوزَ حقيقةً هو الوُصولُ إلى دارِ كرامةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فيَترتَّبُ على هذه الفائدةِ: أنَّ الإنسانَ مهما فاز في الدُّنيا، فإنَّ فَوزَه ليس بشَيءٍ بالنِّسبةِ إلى فَوزِ الآخِرةِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ رَدٌّ على الجَبريَّةِ؛ حيثُ وُجِّهَ الأمرُ إليهم، ونُسِبَ العَمَلُ إليهم؛ لأنَّ الأمرَ بالشَّيءِ لِمَن لا يَستطيعُه: لا شكَّ أنَّه ظُلمٌ وتَكليفٌ بما لا يُطاقُ، وإثباتَ العَمَلِ أيضًا لِمَن لا إرادةَ له يُعَدُّ مَدحًا لغوًا؛ لأنَّ هؤلاء إذا كانوا مُجبَرينَ فلا يَنبغي أنْ يُمدَحوا على مَحبوبٍ، ولا أنْ يُذَمُّوا على مَكروهٍ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾

- الفاءُ في ﴿فَأَقْبَلَ﴾ للتَّفْريعِ؛ لأنَّ شأنَ المُتَجالِسينَ في مَسَرَّةٍ أنْ يَشرَعوا في الحديثِ؛ فإنَّ في الحَديثِ مع الأصحابِ والمُنتَدِمينَ لَذَّةً، فإذا استَشْعروا أنَّ ما صاروا إليه مِن النَّعيمِ كان جزاءً على ما سبَقَ مِن إيمانِهم وإخلاصِهم، تذكَّرَ بعضُهم مَن كان يُجادِلُه في ثُبوتِ البَعْثِ والجَزاءِ، فحَمِدَ اللهَ على أنْ هَداهُ لعَدَمِ الإصغاءِ إلى ذلك الصَّادِّ؛ فلذلك حُكِيَ إقْبالُ بعضِهم على بعضٍ بالمُساءلةِ بفاءِ التَّعْقيبِ[١]. وقيل: قَولُه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ معطوفٌ على قَولِه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾، والمعنى: يَشرَبونَ ويَتحادَثونَ على الشَّرابِ، فيُقبِلُ بَعضُهم على بَعضٍ يَتساءَلونَ عَمَّا جرَى لهم وعليهم في الدُّنيا[٢].

- وجِيءَ في حِكايةِ هذه الحالةِ بصِيَغِ الفِعلِ الماضي ﴿فَأَقْبَلَ﴾ مع أنَّها مُستقبَلةٌ؛ لإفادةِ تَحقيقِ وُقوعِ ذلك وتَأْكيدِه حتَّى كأنَّه قد وقَعَ، والقَرينةُ هي التَّفريعُ على الأخبارِ المُتعلِّقةِ بأحوالِ الآخِرةِ[٣].

- وقيل: سَمَّاه سُؤالًا؛ لأنَّه مع كَونِه أهلًا لِأن يُسألَ عنه، لا يخلو عن سُؤالٍ أدناه سُؤالُ المحادَثِ أن يُصغِيَ إلى الحَديثِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٣).

- وحُذِفَ المُتَساءَلُ عنه؛ لدَلالةِ ما بعدَه عليه[١]. وقيل: حُذِفَ المعمولُ والمقامُ مقامُ لذَّةٍ وسرورٍ؛ فدلَّ ذلك على أنَّهم يَتساءَلون بكلِّ ما يَلتذُّونَ بالتَّحدُّثِ به[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ * أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾

- الاستِفْهامُ في ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، أي: ما كان يحِقُّ لك أنْ تُصدِّقَ بهذا. وسُلِّطَ الاستِفهامُ على حَرفِ التَّوكيدِ؛ لإفادةِ أنَّه بَلَغَه تأكُّدُ إسلامِ قَرينِه، فجاء يُنكِرُ عليه ما تحقَّقَ عندَه، أي: أنَّ إنكارَه إسلامَه بعدَ تحقُّقِ خَبَرِه، ولولا أنَّه تحقَّقَه لَمَا ظَنَّ به ذلك[٣].

- جُملةُ ﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ بيَّنَتِ الإنكارَ المُجمَلَ بإنكارٍ مُفصَّلٍ، وهو إنكارُ أنْ يُبعَثَ النَّاسُ بعدَ تفرُّقِ أجْزائِهم، وتَحوُّلِها تُرابًا بعدَ المَوتِ، ثمَّ يُجازَوْا[٤].

- وجُملةُ ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ جَوابُ (إذا)، وقُرِنَت بحَرفِ التَّوكيدِ؛ لإفادةِ أنَّه بَلَغَه أنَّ صاحِبَه يُؤمِنُ بالبَعْثِ؛ فجاءَ يُنكِرُ عليه ما تحقَّقَ عِندَه[٥].

- وقيلَ هُنا: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾، وفي أوَّلِ السُّورةِ ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصَّافَّات: ١٦]؛ لاختِلافِ القائِلينَ[٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- الاستِفْهامُ مُستعمَلٌ في العَرْضِ، عَرَضَ على رُفقائِه أنْ يَتطلَّعوا إلى رُؤيةِ قَرينِه وما صارَ إليه؛ وذلك: إمَّا لأنَّه عَلِمَ أنَّ قَرينَه ماتَ على الكُفرِ بأنْ يكونَ قد سَبَقَه بالمَوتِ، وإمَّا لأنَّه أُلقِيَ في رُوعِه أنَّ قَرينَه صارَ إلى النَّارِ، وهو مُوقِنٌ بأنَّ خازِنَ النَّارِ يُطلِعُهم على هذا القَرينِ؛ لعِلمِهم بأنَّ لأهْلِ الجَنَّةِ ما يَتَساءَلونَ. وقيلَ: القائِلُ هو اللهُ، أو بعضُ الملائكةِ، يقولُ لهم: هل تُحِبُّونَ أنْ تَطَّلِعوا على أهْلِ النَّارِ؛ لِأُرِيَكم ذلك القَرينَ، فتَعلَموا أينَ مَنزِلَتُكم مِن مَنزِلَتِهم[1]؟

- وقيل: الاستِفهامُ هو بمعنَى الأمرِ، أي: اطَّلِعوا[2].

- وحُذِفَ متعلَّقُ ﴿مُّطَّلِعُونَ﴾؛ لِدَلالةِ آخِرِ الكَلامِ عليه بقَولِه: ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾، فالتَّقْديرُ: هل أنتُمْ مُطَّلِعونَ على أهْلِ النَّارِ؛ لِنَنظُرَه فيهم[3]؟

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾

- في قَولِه: ﴿فَٱطَّلَعَ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بـ(الاكتِفاءِ)، أي: فاطَّلَعَ واطَّلَعوا فرآهُ ورَأَوه في سَواءِ الجَحيمِ؛ إذ هو إنَّما عرَضَ عليهم الاطِّلاعَ؛ لِيَعلَموا تَحقيقَ ما حَدَّثَهم عن قَرينِه، واقتُصِرَ على ذِكْرِ اطِّلاعِه هو دُونَ ذِكرِ اطِّلاعِ رُفَقائِه؛ لأنَّه ابتَدَأَ بالاطِّلاعِ؛ لِيُميِّزَ قَرينَه؛ فَيُرِيَه لِرُفَقائِه[4]. وقيل: لأنَّ النَّافِعَ لنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠، ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال السعدي: (الظَّاهِرُ مِن حالِ أهلِ الجنَّةِ، وسُرورِ بَعضِهم ببَعضٍ، وموافَقةِ بَعضِهم بَعضًا: أنَّهم أجابوه لِمَا قال، وذَهَبوا تبَعًا له؛ للاطِّلاعِ على قَرينِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٣).

وقيل: عرَض عليهم الاطِّلاعَ فاعتَرَضوه، فاطَّلع هو بعدَ ذلك. ويحتمِلُ أنَّهم قاموا معه =

إنَّما هو قَولُه فقط في توبيخِ عَدُوِّه، وتَغبيطِ نَفْسِه ووَلِيِّه؛ فلم يُجمَعِ الضَّميرُ لِئَلَّا يلبِسَ فيُوهِمَ أنَّه للجَميعِ، وأعاده عليه وَحْدَه لِنَعتبِرَ بمَقالِه، ونتَّعِظَ بما قَصَّ علينا مِن حالِه[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ * وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ﴾

- جُملةُ ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ وَصْفَ هذه الحالةِ يُثيرُ في نَفْسِ السَّامِعِ أنْ يَسأَلَ: فماذا حَصَل حينَ اطَّلَعَ؟ فيُجابُ بأنَّه حينَ رأى قَرينَه أخَذَ يُوبِّخُه على ما كان يُحاوِلُه منه حتَّى كاد أنْ يُلقِيَه في النَّارِ مِثلَه، وهذا التَّوبيخُ يَتضمَّنُ تَنديمَه على مُحاولةِ إرْجاعِه عن الإسلامِ[2].

- وقَولُهُ: ﴿تَٱللَّهِ﴾ قَسَمٌ فيه التَّعجُّبُ مِن سَلامَتِه منه، إذ كان قَرينُه قارَبَ أنْ يُردِيَه؛ فالقَسَمُ بالتَّاءِ مِن شَأنِه أنْ يَقَعَ فيما جوابُ قَسَمِه غَريبٌ، ومَحَلُّ الغَرابةِ هو خَلاصُه مِن شَبَكةِ قَرينِه، واختِلافُ حالِ عاقِبَتَيْهما مع ما كانا عليه مِن شِدَّةِ المُلازَمةِ والصُّحبةِ، وما حفَّه مِن نِعْمةِ الهِدايةِ، وما تورَّطَ قَرينُه فيه مِن أوْحالِ الغَوايةِ[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ﴾ رُجوعٌ إلى مُحاوَرةِ جُلَسائِه بعدَ إتمامِ الكَلامِ مع

---

= ولم يَطَّلِعوا. ويحتمِلُ أنَّهم سكَتوا وعرَف أنَّهم لا يُريدون ذلك، ثمَّ تقَدَّمَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ١١٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٧، ١١٨).

قَرينِه؛ تبجُّحًا وابتِهاجًا بما أتاحَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم من الفَضلِ العَظيمِ، والنَّعيمِ المُقيمِ[١].

- قَولُهُ: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ عَطَفَتِ الفاءُ الاستِفْهامَ على جُملةِ ﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصَّافَّات: ٥٤]، فالاستِفْهامُ مُوجَّهٌ مِن هذا القائِلِ إلى بَعضِ المُتَسائِلينَ، وهو مُستعمَلٌ في التَّقْريرِ المرادِ به التَّذكيرُ بنِعْمةِ الخُلودِ، فإنَّه بعدَ أنْ أطلَعَهم على مَصيرِ قَرينِه السُّوءِ أقبَلَ على رِفاقِه بإكمالِ حَديثِه تَحدُّثًا بالنِّعْمةِ، واغتِباطًا وابتِهاجًا بها، وذِكرًا لها؛ فإنَّ لذِكرِ الأشياءِ المَحْبوبةِ لَذَّةً، فما ظَنُّكَ بذِكْرِ نِعْمةٍ قد انغَمَسوا فيها، وأيْقَنوا بخُلودِها؟! ولعلَّ نَظمَ هذا التَّذكُّرِ في أُسلوبِ الاستِفْهامِ التَّقْريريِّ؛ لِقَصدِ أنْ يُسمَعَ تَكرُّرُ ذِكرِ ذلك حينَ يُجيبُه الرِّفاقُ بأنْ يقولوا: نَعَمْ، ما نحن بِمَيِّتِينَ[٢].

- الهَمْزةُ للتَّقريرِ، وفيها مَعْنى التَّعجُّبِ، والفاءُ للعَطفِ على مُقدَّرٍ يَقتَضيهِ نَظْمُ الكلامِ، أي: أنحنُ مُخَلَّدونَ، مُنعَّمونَ، فما نحنُ بميِّتينَ، أي: بمَن شَأنُه المَوتُ[٣]؟

- الظَّاهِرُ أنَّه مِن كَلامِ القائِلِ: يُسمِعُ قَرينَه على جِهةِ التَّوبيخِ له، أي: لَسْنا أهْلَ الجَنَّةِ بمَيِّتينَ، لكِنَّ المَوْتةَ الأُولى كانت لنا في الدُّنيا، بخِلافِ أهْلِ النَّارِ، ويكونُ في خِطابِه ذلك مُنكِّلًا له، مُقرِّعًا مُحزِنًا له بما أنعَمَ اللهُ به عليه مِن دُخولِ الجَنَّةِ، مُعلِمًا له بتَبايُنِ حالِه في الآخِرةِ بحالِه كما كانَتا تَتبايَنانِ في الدُّنيا مِن أنَّه ليس بعدَ المَوتِ جَزاءٌ ظَهَرَ له خِلافُه يُعذَّبُ بكُفرِه باللهِ، وإنكارِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٣).

البَعثِ. ويجوزُ أنْ يكونَ خِطابًا مِن القائِلِ لرُفَقائِه، لَمَّا رَأى ما نزَلَ بقَرينِه، وَقَفَهم على نِعَمِه تَعالى في دَيْمومةِ خُلودِهم في الجَنَّةِ، ونَعيمِهم فيها[١].

- والاستِثْناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ مُنقطِعٌ؛ لأنَّ المَوتَ المَنفيَّ هو المَوتُ في الحالِ، أو الاستِقْبالِ كما هو شَأنُ اسْمِ الفاعِلِ، فتعيَّنَ أنَّ المُسْتثنى غيرُ داخِلٍ في المَنفيِّ، فهو مُنقطِعٌ، أي: لكِنَّ المَوتةَ الأُولى، وذلك الاستِدْراكُ تَأكيدٌ للنَّفيِ[٢].

- وعُطِفَ قَولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾؛ لِيَتمحَّضَ الاستِفْهامُ للتَّحدُّثِ بالنِّعْمةِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ أيضًا ما هُم بمَيِّتينَ، ولكِنَّهم مُعذَّبونَ، فحالُهم شَرٌّ من المَوتِ[٣].

- قَولُهُ: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ ذلك تمامُ كلامِه لِقَرينِه؛ تَقْريعًا له، أو مُعاوَدةٌ إلى مُكالَمةِ جُلَسائِه؛ تحدُّثًا بنِعْمةِ اللهِ، أو تَبجُّحًا بها، وتَعجُّبًا منها، وتَعْريضًا للقَرينِ بالتَّوبيخِ[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- على القولِ بأنَّه حِكايةٌ لِبقيَّةِ كَلامِ القائِلِ لرِفاقِه فهو بمَنزِلةِ التَّذْييلِ والفَذْلَكةِ[٥] لِحالَتِهمُ المُشاهَدِ بعضُها والمُتحَدَّثِ عن بعضِها بقَولِه: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾[٦]. فهذا القولُ يقولُه المُؤمِنُ تَحدُّثًا بنِعْمةِ اللهِ، واغتِباطًا بحالِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١).

(٥) تقدم تعريفها (ص: ٢٠٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٩).

وبمَسمَعٍ مِن قَرينِه الَّذي كان مُكذِّبًا بالبَعثِ؛ لِيَكونَ تَوبيخًا له يَزيدُ به تَعذُّبًا، ولِيَحكِيَهُ اللهُ فيَكونَ لنا لُطفًا وزاجِرًا. وعلى القولِ بأنَّه مِن قَولِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيَكونُ تقريرًا لِقَولِهم، وتَصْديقًا له، والإشارةُ إلى ما هم عليه مِن النِّعْمةِ والخُلودِ والأمْنِ مِنَ العَذابِ[1].

- وقد أُبدِعَ في تَصويرِ حُسنِ حالِهم بحَصرِ الفَوزِ فيه، حتَّى كأنَّ كلَّ فَوزٍ بالنِّسْبةِ إليه ليس بفَوزٍ، فالحَصرُ للمُبالَغةِ؛ لعَدَمِ الاعتِدادِ بغَيرِه، ثمَّ أَلْحقوا ذلك الحَصرَ بوَصفِه بـ ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾[2].

٨- قولُه تعالَى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾

- تَذْييلٌ لِحكايةِ حالِ عِبادِ اللهِ المُخلَصينَ، فهو كَلامٌ مِن جانِبِ اللهِ تَعالى -على قولٍ-؛ للتَّنويهِ بما فيه عِبادُ اللهِ المُخلَصونَ، وللتَّحْريضِ على العَمَلِ بمِثلِ ما عَمِلوه ممَّا أوجَبَ لهم إخلاصَ اللهِ إيَّاهم، فالإشارةُ في قَولِه: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا﴾ إلى ما تَضمَّنَه قَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصَّافَّات: ٤١] الآياتِ، أي: لِمِثلِ نَعيمِهم، وأُنسِهم، ومَسَرَّتِهم، ولَذَّاتِهم، وبَهجَتِهم، وخُلودِ ذلك كُلِّه[3].

- واللَّامُ في ﴿لِمِثْلِ﴾ لامُ التَّعْليلِ، وتَقديمُ المَجرورِ على عامِلِه؛ لإفادةِ القَصرِ، أي: لا لعمَلٍ غَيرِه، وهو قَصْرُ قَلْبٍ[4]؛ للرَّدِّ على المُشرِكينَ الَّذين يَحسَبونَ أنَّهم يَعمَلونَ أعْمالًا صالِحةً يَتَفاخَرونَ بها مِن مثلِ المَيسِرِ، والمَعْنى: لِنَوالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٣).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٥٢).

مِثلِ هذا، فحُذِفَ المُضافُ؛ لِدَلالةِ اللَّامِ على مَعْناهُ[١].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ﴾ للتَّفْريعِ على مَضْمونِ القِصَّةِ المَذْكورةِ قَبْلَها مِن قَولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الصَّافَّات: ٤٠] الآياتِ. والأمْرُ في ﴿فَلْيَعْمَلِ﴾ للإرْشادِ الصَّادِقِ بالواجِباتِ والمَنْدوباتِ[٢].

- والمُرادُ بالعامِلينَ: الَّذينَ يَعمَلونَ الخَيرَ، ويَسيرونَ على ما خَطَّتْ لهم شَريعةُ الإسلامِ؛ فحُذِفَ مَفعولُ (يَعْمَل) اختِصارًا؛ لِظُهورِه مِنَ المَقامِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٦٢-٧٤)

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نُّزُلًا﴾: النُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازِلِ مِن ضَيفٍ وغيرِه، ومعناه في الأصلِ: الطَّعامُ الَّذي يَصلُحُ أن يَنزِلوا معه ويُقيموا فيه، والنُّزُلُ: الرِّزقُ الَّذي له سَعةٌ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[1].

﴿شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾: الزَّقُّومُ: قيل: هو ثَمَرُ شَجَرةٍ مُرَّةِ الطَّعمِ جِدًّا، يُكرَهُ أهلُ النَّارِ على تَناوُلِه، مِن قَولِهم: تَزقَّمَ هذا الطَّعامَ: إذا تَناوَلَه على تَكَرُّهٍ ومَشَقَّةٍ شَديدةٍ، وقيل: زَقُّومٌ: فَعُّولٌ مِنَ الزَّقْمِ، أي: اللَّقْمِ الشَّديدِ، والشُّربِ المُفْرِطِ، وأصلُ (زقم): يدُلُّ على جِنسٍ مِن الأكلِ[2].

﴿فِتْنَةً﴾: الفِتنةُ تُطلَقُ على العذابِ، وعلى الاختبارِ والامتحانِ، وتُطلَقُ أيضًا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٩/ ٦١١١، ٦١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

على الضَّلالِ والشِّرْكِ والكُفرِ، وأصْلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه[١].

﴿أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾: أي: قَعْرِ النَّارِ، وأصلُ (أصل): يدُلُّ على أساسِ الشَّيءِ[٢].

﴿طَلۡعُهَا﴾: أي: ما يَطلُعُ منها، وهو الثَّمَرُ، وسُمِّي طَلْعُ النَّخلةِ طَلْعًا؛ لطُلوعِه كُلَّ سَنةٍ، وأصلُ (طلع): يدُلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ[٣].

﴿لَشَوۡبًا﴾: أي: لخَلْطًا ومِزاجًا، والشَّوبُ: الخَلطُ العامُّ في كُلِّ شَيءٍ، وكُلُّ شَيءٍ خلَطْتَه بشَيءٍ فقد شِبتَه به، وأصلُ (شوب): يدُلُّ على خَلطٍ[٤].

﴿حَمِيمٍ﴾: الحَميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على حَرارةٍ[٥].

﴿أَلۡفَوۡاْ﴾: أي: وَجَدوا، وأصل (لفا): يَدُلُّ على انكشافِ شَيءٍ وكَشْفِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠)، ((تفسير الرسعني)) (٥/ ١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٧/ ١٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٧)، ((غريب =

﴿ءَاثَٰرِهِمۡ﴾: أي: سُنَّتِهم وطَريقتِهم، وأثَرُ الشَّيءِ: حُصولُ ما يدُلُّ على وُجودِه، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[1].

﴿يُهۡرَعُونَ﴾: أي: يُسرِعونَ، وأصلُ (هرع): يدُلُّ على حَرَكةٍ واضطِرابٍ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى ما يدُلُّ على شدَّةِ التَّبايُنِ بيْنَ هذا النَّعيمِ الَّذي أعدَّه لعبادِه المُخلَصينَ، وبيْنَ الشَّقاءِ الدَّائمِ الَّذي أُعِدَّ للكافِرين، فيقولُ: أذَلِك النَّعيمُ في الجنَّةِ خَيرٌ ضيافةً أم شَجَرةُ الزَّقُّومِ الَّتي أُعِدَّت لأهلِ النَّارِ؟! إنَّا جعَلْنا تلك الشَّجَرةَ عذابًا للظَّالِمينَ في الآخرةِ، وابتِلاءً لهم في الدُّنيا، إنَّها شَجَرةٌ تَنشَأُ

---

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٦) و(٢٠/ ٥٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧).

قال ابن قتيبة: (يقال: أُهْرِعَ الرَّجُلُ: إذا أسرَعَ، على لفظِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، كما يُقالُ: أُرعِدَ). ((غريب القرآن)) (ص: ٢٠٦).

قال ابنُ الهائم: (فأوقعَ الفِعلَ بهم، وهو لهم في المعنى، كما قيل: أُولِعَ فُلانٌ بكذا، وزُهِيَ زَيدٌ، وأُرعِدَ عَمرٌو، فجُعِلوا مَفعولِينَ وهم فاعِلونَ؛ وذلك أنَّ المعنى أولَعَه طَبعُه وجِبلَّتُه، وزهاه مالُه أو جَهلُه، وأرعَدَه غَضَبُه أو وجَعُه، وأَهرَعَه خَوفُه ورُعبُه؛ فلهذه العلَّةِ خَرَج هؤلاء الأسماءُ مخرَجَ المفعولِ بهم. ويُقالُ: لا يكونُ الإهراعُ إلَّا إسراعَ المذعورِ. وقال الكِسائيُّ والفَرَّاءُ: لا يكونُ الإهراعُ إلَّا إسراعًا مع رِعدةٍ). ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) (ص: ١٩١). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٧).

وقال ابن عاشور: (ويُهرَعون: بفَتحِ الرَّاءِ مَبنيًّا للمَجهولِ، مُضارِعُ: أهرَعَه، إذا جعَلَه هارِعًا، أي: حمَلَه على الهَرَعِ، وهو الإسراعُ المُفرِطُ في السَّيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٧).

في قَعرِ النَّارِ، ثَمَرُها يُشبِهُ في قُبحِه رُؤوسَ الشَّياطينِ، وإنَّ هؤلاء المُشرِكينَ لَآكِلونَ مِن تلك الشَّجَرةِ فيَملَؤونَ منها بُطونَهم، ثمَّ إنَّ لهم إضافةً على أكْلِهم منها لَخَليطًا مِن شَرابٍ في غايةِ الحَرارةِ، ثمَّ إنَّ مَرجِعَهم -بعدَ الأكلِ مِن الزَّقُّومِ وشُربِ الحَميمِ- إلى الجَحيمِ؛ إنَّهم وجَدوا آباءَهم ضالِّينَ، فهم مُسرِعونَ في الاقتِداءِ بهم، واتِّباعِ ضَلالِهم!

ولقد ضَلَّ عن الحَقِّ قَبْلَ مشركي قُرَيشٍ أكثَرُ الأُمَمِ الماضيةِ، ولقد أرسَلْنا في تلك الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا يُنذِرونَهم عذابَ اللهِ؛ فانظُرْ كيف كان عاقِبةُ أولئك المُنذَرينَ، إلَّا عبادَ اللهِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ تعالى له؛ فإنَّهم نَجَوْا مِن العذابِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال بعدَ ذِكرِ أهلِ الجنَّةِ ووَصْفِها: ﴿لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١]، أتْبَعَه بقَولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾، فأمَرَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُورِدَ ذلك على كُفَّارِ قَومِه؛ لِيَصيرَ ذلك زاجِرًا لهم عن الكُفرِ، وكما وَصَف مِن قَبْلُ مآكِلَ أهلِ الجنَّةِ ومَشارِبَهم، وصَفَ أيضًا في هذه الآيةِ مآكِلَ أهلِ النَّارِ ومَشارِبَهم[1].

وأيضًا لَمَّا انقَضَت قِصَّةُ المؤمِنِ وقَرينِه، وكان ذلك على سَبيلِ الاستِطرادِ مِن شَيءٍ إلى شَيءٍ؛ عاد إلى ذِكرِ الجنَّةِ والرِّزقِ الَّذي أعَدَّه اللهُ فيها لأهلِها، وعادَلَ بيْنَ ذلك الرِّزقِ وبيْن شَجَرةِ الزَّقُّومِ، فقال تعالى[2]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٦).

﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ٦٢﴾.

أي: أذَلِك النَّعيمُ الَّذي أُعِدَّ للمُؤمِنينَ في الجنَّةِ مِن المآكِلِ والمشارِبِ والمَلاذِّ: خَيرٌ ضِيافةً وفَضلًا أم ما أُعِدَّ لأهلِ النَّارِ مِن شَجَرةِ الزَّقُّومِ(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ * كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ * كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ * فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦].

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهَا فِتۡنَةٗ لِّلظَّٰلِمِينَ ٦٣﴾.

أي: إنَّا جعَلْنا تلك الشَّجَرةَ عذابًا في الآخرةِ للظَّالِمينَ أنفُسَهم بالشِّركِ والتَّكذيبِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢١).

قال السمعاني: (اختلَفوا في هذه الشَّجَرةِ؛ فالأكثَرونَ أنَّها شَجَرةٌ لا يُعرَفُ لها مِثلٌ في الدُّنيا. وقال قُطْرُبٌ: هي شَجَرةٌ مُرَّةٌ خبيثةٌ تكونُ بتِهامةَ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠١).

وقال ابنُ عطيَّة: (في بَعضِ البلادِ الجَدْبةِ المجاورةِ للصَّحارى شَجَرةٌ مُرَّةٌ مَسمومةٌ لها لَبَنٌ إنْ مَسَّ جِسمَ أحدٍ تورَّم، ومات منه في أغلَبِ الأمرِ؛ تُسمَّى شَجَرةَ الزَّقُّوم؛ والتَّزَقُّمُ في كلامِ العَرَبِ: البَلعُ على شِدَّةٍ وجَهدٍ... اختَلَف النَّاسُ في معناه؛ فقالت فِرقةٌ: شُبِّه بثَمَرِ شَجرةٍ مَعروفةٍ يُقالُ لها: رؤوسُ الشَّياطينِ، وهي بناحيةِ اليَمَنِ يقالُ لها: الأَسْتَن). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٥).

وقال ابنُ كثير: (يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بذلك شَجَرةً واحدةً مُعَيَّنةً، كما قال بَعضُهم مِن أنَّها شَجَرةٌ تمتَدُّ فُروعُها إلى جميعِ محالِّ جَهنَّمَ... وقد يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بذلك جِنسَ شَجَرٍ يُقالُ له: الزَّقُّومُ، كقَولِه تعالى: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، يعني: الزَّيتونةَ، ويُؤيِّدُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ﴾ [الواقعة: ٥١، ٥٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨).

وابتلاءً لهم في الدنيا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: إنَّ شَجَرةَ الزَّقُّومِ شَجَرةٌ تَنشَأُ وتُوجَدُ في قَعرِ النَّارِ[٢].

﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

قال ابنُ كثير: (معنى الآيةِ: إنَّما أخبَرْناك -يا مُحمَّدُ- بشَجَرةِ الزَّقُّوم؛ اختِبارًا تَختبِرُ به النَّاسَ؛ مَن يُصَدِّقُ منهم ممَّن يُكَذِّبُ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠).

فقيل: المرادُ بفِتنتِهم بها أنَّهم قالوا: كيف تكونُ في النَّارِ شَجَرةٌ، والنَّارُ تُحرِقُ الشَّجَرَ؟ وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٤٤، ١٤٥).

وقيل: المرادُ بالفتنةِ هنا: العذابُ، أي: تكونُ شَجَرةُ الزَّقُّومِ عذابًا ومِحنةً ونَكالًا لهم. ومِمَّن قال بذلك في الجملةِ: القاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١).

وممَّن جمَع بيْن القولَينِ، فقال: المعنى: مِحنةً وعذابًا لهم في الآخرةِ، وابتِلاءً لهم في الدُّنيا: الرسعنيُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٢).

قال ابنُ القيِّم: (هذه الشَّجرةُ فِتنةٌ لهم فى الدُّنيا بتكذيبِهم بها، وفِتنةٌ لهم فى الآخرةِ بأكْلِهم منها). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥١)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٦٦)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

أي: ثَمَرُ هذه الشَّجَرةِ يُشبِهُ في القُبحِ والبَشاعةِ رُؤوسَ الشَّياطينِ[١].

عن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها في حديثِ سِحرِ لَبيدِ بنِ الأعصَمِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُشْطٍ ومُشاقَةٍ[٢]، وجُفِّ طَلْعَةِ ذَكَرٍ[٣]، في بِئرِ ذَرْوانَ، فخرَج إليها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ رَجَع، فقالَ لعائشةَ حينَ رجَع: ((نَخْلُها كأنَّه رُؤوسُ الشَّياطينِ))، ثمَّ دُفِنَت البِئرُ[٤].

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: سيَأكُلُ المُشرِكونَ مُضْطَرِّينَ مُكرَهينَ مِن تلك الشَّجَرةِ رغْمَ خُبثِها وقُبحِها، فيَملؤونَ منها بُطونَهم[٥].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٤٩).
قال ابنُ كثير: (إنَّما شَبَّهها برُؤوسِ الشَّياطينِ وإن لم تكُنْ مَعروفةً عندَ المُخاطَبينَ؛ لأنَّه قد استقَرَّ في النُّفوسِ أنَّ الشَّياطينَ قَبيحةُ المَنظَرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠).

(٢) المُشطُ: واحِدُ الأمشاطِ؛ وهو الآلةُ الَّتي يُمشَطُ بها الشَّعرُ. والمُشاقَةُ: ما يُستخرَجُ مِن الكَتَّانِ عندَ تسريحِه. وفي روايةٍ: «ومُشاطَةٍ»، وهي ما يُمشطُ مِن الشَّعرِ ويخرجُ في المُشطِ منه. وقيل: المُشاقةُ بمعنى المُشاطة. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٨٨)، ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٢٩١).

(٣) هو: وِعاءُ طَلعِ النَّخلِ وغِشاؤُه إذا جَفَّ. وأراد بالذَّكَرِ فَحْلَ النَّخلِ. يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (٥/ ٢٩١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٩٥).

(٤) رواه البخاري (٣٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٥٠، ١٥١).

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ أنَّهم يَملَؤونَ بُطونَهم مِن شَجَرةِ الزَّقُّوم؛ ذكَرَ ما يُسقَونَ لِغَلَبةِ العَطَشِ[1]، فالكُفَّارُ إذا شَبِعوا، فحِينَئذٍ يَشتَدُّ عَطَشُهم، ويحتاجُونَ إلى الشَّرابِ؛ فعِندَ هذا وَصَفَ اللهُ شَرابَهم[2].

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّ لهم على ما يَأكُلونَ مِن شَجَرةِ الزَّقُّومِ لَخَلْطًا مِن شَرابٍ في غايةِ الحَرارةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠، ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥، ١٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٥).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أنَّ طَعامَهم مِنَ الزَّقُّومِ يُخلَطُ بالحَميمِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ رجب، والشنقيطي. يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٥).

وقيل: المرادُ به الماءُ المُجَمَّعُ مِن عُصاراتٍ شَتَّى؛ مِن قَيحٍ وصَديدٍ ونَحوِهما. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤١).

وقال ابنُ عاشور: (قَولُه: ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: بَعْدَها، أي: بعدَ أكْلِهم منها. والشَّوبُ: أصلُه مَصدرُ شابَ الشَّيءَ بالشَّيءِ: إذا خلَطَه به، ويُطلَقُ على الشَّيءِ المَشوبِ به؛ إطلاقًا للمَصدَرِ على المفعولِ، كالخَلقِ على المخلوقِ. وكِلا المعنيينِ محتملٌ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥).

والحميمُ: قيل: هو الماءُ الشَّديدُ الحرارةِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤). =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٤، ٥٥].

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّ مَرجِعَ المُشرِكينَ بعدَ الأكلِ مِن الزَّقُّومِ وشُربِ الحَميمِ لَإِلَى الجَحيمِ[1].

---

= وقيل: الحميمُ: هو القَيحُ السَّائِلُ مِن الدُّمَّلِ. ومِمَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: بعدَ أكلِ الزَّقُّومِ، وشُربِ الحميمِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي، وابن رجب، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٣)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٧).

قيل: يَنتقِلون وَقْتَ الأكلِ وَالشُّرْبِ إلى مكانٍ غيرِ مكانِهم، فيُذهبُ بهم عن دَرَكاتِهم في النَّارِ إلى شجرةِ الزَّقُّومِ والماءِ الحميمِ فيتضَلَّعون منهما، ثمَّ يرجعونَ إلى دَرَكاتِهم في الجحيمِ. وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشريُّ، والرسعني، وأبو حيَّان، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٢٦).

وقيل: بل يُورَدونَ الحَميمَ لِشُربِه، فهو خارِجُ الجَحيمِ، كما تُورَدُ الإبلُ إلى الماءِ، ثمَّ يُرَدُّونَ إلى الجَحيمِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، وابن رجب، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٤)، ((التخويف من النار)) لابن رجب =

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ عن عذابِهم هذا، وكان سَبَبُه الجُمودَ مع العادةِ الجاريةِ على غيرِ الحَقِّ، والتَّقَيُّدَ بما أَلِفَتْه النَّفْسُ، ومالتْ إليه الطِّباعُ ممَّا أَصَّلَه مَن يَعتَقِدونَ أنَّهم أكبَرُ منهم، وأتَمُّ عَقلًا؛ عَلَّل ذلك تحذيرًا مِن مِثلِه؛ لأنَّه كان سَبَبَ هلاكِ أكثَرِ الخَلقِ(١).

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾.

---

= (ص: ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٧).

قال البقاعي: (قَولُه تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤] يدُلُّ على أنَّ ذلك خارِجَها أو خارِجَ غَمرتِها، كما تكونُ الأحواضُ في الحيشانِ خارِجَ الأماكِنِ المُعَدَّةِ للإبِلِ... ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ أي: بعدَ خُروجِهم مِن دارِ ضيافتِهم الزَّقُّوميَّةِ ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٤١).

وذكر ابنُ عاشورٍ أنَّه ينبغي أن يُفسَّرَ المرجِعُ في الآيةِ بالانتِقالِ مِن حالةٍ طارئةٍ إلى حالةٍ أصليَّةٍ، لا أنَّهم يُغادِرونَ الجحيمَ ثمَّ يرجِعون إليه، وأنَّ المرادَ التَّنبيهُ على أنَّ عذابَ الأكلِ مِن الزَّقُّومِ والشَّرابِ مِن الحَميمِ: هو عذابٌ إضافيٌّ زيادةً على عذابِ الجَحيمِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥، ١٢٦).

وردَّ ابنُ عثيمين أيضًا القَولَ بأنَّهم يَخرُجونَ مِن الجَحيمِ؛ لأنَّ الله تعالى ذكَرَ أنَّ أهلَ النَّارِ لا يَخرُجونَ منها. وذهب إلى أنَّه يحتملُ أن يكونَ المرادُ التَّرتيبَ الذِّكريَّ، أي: أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ أنواعًا مِن العُقوباتِ، ثمَّ بيَّن أنَّ مآلَهم إلى الجَحيمِ الَّذي فيه العُقوباتُ؛ وأنَّه يحتملُ أن يكونَ المعنى كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]، فهم يُقرَّبونَ مِن أبوابِها ويُسقَونَ الحَميمَ، فيُقرَّبونَ لِتَتطَلَّعَ نُفوسُهم للخُروجِ، فإذا أمَّلوا ذلك رُدُّوا إلى أصلِ الجَحيمِ؛ فصار ذلك أشَدَّ لعَذابِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٥٦).

وقيل: الزَّقُّومُ والحميمُ نُزُلٌ يُقَدَّمُ إليهم قبْلَ دخولِهم. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٢).

أي: إنَّهم وَجَدوا آباءَهم ضالِّينَ عن الحَقِّ[١].

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ٧٠﴾.

أي: فهم مَدفوعونَ للإسراعِ والمُبادَرةِ بقُوَّةٍ في الاقتِداءِ بهم، واتِّباعِ ضَلالِهم بغيرِ دَليلٍ ولا بُرهانٍ؛ فلذا استَحَقُّوا ذلك العَذابَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ * قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ [الزخرف: ٢٣، ٢٤].

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٧١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أن ذكَرَ سبحانه أنَّ المشركين يُهرَعون على آثارِ آبائِهم الأوَّلِينَ دونَ نظَرٍ ولا تَدَبُّرٍ؛ أرْدَفَه ما يوجِبُ التَّسليةِ لرَسولِه على كفرِهم وتكذيبِهم[٣].

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٧١﴾.

أي: ولقد ضَلَّ عن الحَقِّ قبْلَ مُشْرِكي قُرَيشٍ أكثَرُ الأُمَمِ الماضيةِ[٤]، فعَبَدوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ٦٥).

(٤) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ يعودُ إلى كُفَّارِ قُرَيشٍ: ابنُ جرير، ومكِّي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦١١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير =

غيرَ اللهِ[١].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا في الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا يُنذِرونَهم عذابَ اللهِ على كُفرِهم[٢].

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: فانظُرْ[٣] كيف كان آخِرُ أمرِ مُشرِكي الأُمَمِ الماضيةِ الَّذين كَفَروا وكَذَّبوا برُسُلِهم، ولم ينتَفِعوا بإنذارِهم[٤]؟

---

= البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

(٣) قال ابنُ عادل: (هذا الخِطابُ وإن كان ظاهِرُه مع الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلَّا أنَّ المقصودَ منه خِطابُ الكُفَّارِ؛ لأنَّهم سَمِعوا بالأخبارِ ما جَرى على قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثمودَ وغَيرِهم مِن أنواعِ العَذابِ؛ فإنْ لم يَعلَموا ذلك فلا أقَلَّ مِن ظنٍّ وخَوفٍ يحتمِلُ أنْ يكونَ زاجِرًا لهم عن كُفرِهم). ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٣١٧). وأصله عند ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨، ١٢٩).

قال ابنُ عاشور: (فالمعنى: فانظُرْ كيف كان عاقِبةُ الضَّالِّينَ الَّذين أنذَرْناهم فلم يَنتَذِروا، كما =

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الزخرف: ٢٥].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٧٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَّما كان المُنذَرونَ لَيسُوا كُلُّهم ضالِّينَ، بل مِنهم مَنْ آمَنَ وأخلَصَ الدِّينَ لله؛ استثناه اللهُ مِن الهلاكِ[1].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٧٤﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكَسرِ اللَّام: اسمُ فاعِلٍ مِن (أخلَصَ)، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا لله دينَهم وأعمالَهم مِنَ الشِّركِ والرِّياءِ؛ فصارت لله تعالى وَحْدَه دونَ ما سِواه[2].

---

= فَعَل هؤلاء الَّذين أَلْفَوْا آباءَهم ضالِّينَ فاتَّبَعوهم؛ فقد تحقَّق اشتِراكُ هؤلاء وأولئك في الضَّلالِ؛ فلا جَرَمَ أن تكونَ عاقِبةُ هؤلاء كعاقبةِ أولئك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

وقال ابن عثيمين: (قال: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾، ولم يقل: «ماذا كان»، أي: انظُرْ إلى الكيفيَّةِ وإلى الغاية... لِتَستفيدَ بهذا النَّظَرِ شِدَّةَ العقوبةِ ومُلاءمتَها للذَّنبِ؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ...﴾ [العنكبوت: ٤٠]، أي: إنَّ عُقوبتَه مُلائِمةٌ لذَنْبِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عَمرٍو، وابنُ عامرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

٢- قراءةُ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ: اسمُ مَفعولٍ مِن (أخلَصَ)، بمعنى: أنَّ الله أخلَصَهم؛ فصاروا مُخلَصينَ[١].

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ٧٤﴾.

أي: إلَّا[٢] عبادَ اللهِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ تعالى له، واستَخلَصَهم مِنَ الكُفرِ، واختارَهم لرَحمتِه، فآمَنوا باللهِ ورُسُلِه، وأخلَصوا له أعمالَهم؛ فإنَّهم نَجَوا مِنَ الهلاكِ والعذابِ الَّذي حلَّ بقَومِهم المُنذَرينَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ [هود: ٦٦].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).

وقد ذكَر ابنُ عثيمينَ أنَّ إخلاصَهم هم، وإخلاصَ الله لهم متلازمانِ. ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٩).

(٢) قال ابن عاشور: (واستُثْنِيَ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ مِن ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استِثناءً مُتَّصِلًا؛ فإنَّ عبادَ اللهِ المُخلَصينَ كانوا مِن جملةِ المُنذَرينَ، فصَدَّقُوا المُنذِرينَ، ولم يُشارِكوا المُنذَرينَ في عاقِبَتِهم المنظورِ فيها، وهي عاقِبةُ السُّوءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٩٤].

وقال جلَّ جَلالُه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ * إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ الإشارةُ إلى ذَمِّ التَّقليدِ المخالِفِ للحَقِّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ هذا؛ تنديدًا بهم، وتَوبيخًا لهم أنْ يَجِدوا آباءَهم ضالِّينَ ثمَّ يَتَّبِعوهم، ويَدَعوا طريقَ الحَقِّ[1]! وليس المرادُ: أنَّ تَقليدَ العُلَماءِ في العِلمِ كتَقليدِ هؤلاء آباءَهم مِن جميعِ جِهاتِه، ولكِنَّا نُنَبِّهُ للمُقَلِّدِينَ أنَّ مَن لَهَا عن طَلَبِ الحُجَّةِ، والفَحصِ عن الأشياءِ، وبَذْلِ الجُهْدِ في الاستِقصاءِ في أمرِ الدِّينِ، وعَوَّلَ على التَّقليدِ؛ أدَّاه إلى ما لا تُحمَدُ عاقِبتُه، ولا يُرتَضى طريقُه، كما أدَّى هؤلاء حينَ لَهَوا عن آياتِ الرُّسُلِ، وما أَتَوهم به مِن الحقِّ عن رَبِّهم؛ فظَنُّوا أنَّ آباءَهم أصْدَقُ مِن رُسُلِهم، وأعرَفُ بمواضعِ الحُجَّةِ مِن أنفُسِهم[2]! ولو لم يُوجَدْ في القُرآنِ آيةٌ غيرُ هذه الآيةِ في ذَمِّ التَّقليدِ لَكفَى[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وَصَف الَّذين ضَلُّوا قَبْلَهم بأنَّهم أكثَرُ الأوَّلِينَ؛ لِئَلَّا يَغتَرَّ ضُعَفاءُ العُقولِ بكَثرةِ المُشرِكينَ، ولا يَعتَزُّوا بها؛ لِيَعلَموا أنَّ كَثرةَ العَدَدِ لا تُبَرِّرُ ضَلالَ الضَّالِّينَ، ولا خطَأَ المُخطِئينَ، وأنَّ الهدى والضَّلالَ لَيْسَا مِن آثارِ العَدَدِ كَثرةً وقِلَّةً، ولكِنَّهما حقيقتانِ ثابِتتانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٨).

مُستقِلَّتانِ، فإذا عَرَضت لإحداهما كَثرةٌ أو قِلَّةٌ، فلا تكونانِ فِتنةً لِقِصارِ الأنظارِ، وضُعَفاءِ التَّفكيرِ؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾[1] [المائدة: ١٠٠].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ فَضيلةُ الإخلاصِ[2]، وحَثُّ الإنسانِ على أنْ يكونَ مِن هؤلاء العِبادِ لِيَنجوَ[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ * أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٠-٦٢] إلى قَولِه: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٧٠]، وقال أيضًا: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الفرقان: ١٥]، وقال: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

في هذه الآياتِ وأمثالِها في القُرآنِ إشكالٌ مَعروفٌ، وهو أن يُقالَ: لَفظةُ (خير) في الآياتِ المذكورةِ صيغةُ تَفضيلٍ، والمعروفُ في عِلمِ العَربيَّةِ أنَّ صِيغةَ التَّفضيلِ تَقتَضي المُشارَكةَ بيْنَ المَفضَّلِ والمُفضَّلِ عليه فيما فيه التَّفضيلُ، إلَّا أنَّ المفضَّلَ أكثَرُ فيه وأفضَلُ مِن المفضَّلِ عليه، ومعلومٌ أنَّ المُفضَّلَ عليه في الآياتِ المذكورةِ الَّذي هو عذابُ النَّارِ لا خيرَ فيه البتَّةَ، وإذَنْ فصيغةُ التَّفضيلِ فيها إشكالٌ.

**والجوابُ عن هذا الإشكالِ مِن وَجهَينِ:**

**الأوَّلُ:** أنَّ صِيغةَ التَّفضيلِ قد تُطلَقُ في القُرآنِ وفي اللُّغةِ مُرادًا بها مُطلَقُ الاتِّصافِ، لا تَفضيلُ شَيءٍ على شَيءٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

(٢) فإخلاصُهم هم وإخلاصُ الله لهم مُتلازمانِ، كما ذكَر ابنُ عثيمينَ في المصدرِ الآتي.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٩).

**الثَّاني**: أنَّ مِن أساليبِ اللُّغةِ العَربيَّةِ أنَّهم إذا أرادوا تَخصيصَ شَيءٍ بالفَضيلةِ دونَ غَيرِه جاؤوا بصيغةِ التَّفضيلِ، يُريدونَ بها خُصوصَ ذلك الشَّيءِ بالفَضلِ.

وعلى كُلِّ حالٍ فعذابُ النَّارِ شَرٌّ مَحضٌ، لا يُخالِطُه خَيرٌ البتَّةَ كما لا يَخفى، والوَجهانِ المذكورانِ في الجوابِ مُتقاربانِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ إطلاقُ الظُّلْمِ على الكُفرِ، مع أنَّ الظُّلْمَ أعَمُّ مِن الكُفرِ، ولكِنَّ المرادَ به هنا الظُّلْمُ المُطلَقُ الَّذي أشار اللهُ إليه في قَولِه: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]؛ فالظُّلمُ المُطلَقُ هو ظُلمُ الكافرِ، والظُّلمُ المُقَيَّدُ هو ظُلمُ الفاسِقِ، فالمعاصي ظُلْمٌ لكِنَّها ظُلْمٌ مُقَيَّدٌ؛ فمَثلًا يُقالُ: هذا ظالِمٌ نَفْسَه بأكلِ الرِّبا، هذا ظالِمٌ نفْسَه بفِعلِ الزِّنا، هذا ظالِمٌ نَفْسَه بالاعتِداءِ على الخَلْقِ... وهكذا، أمَّا الظُّلمُ المُطلَقُ فهو ظُلمُ الكافرِ؛ لأنَّ الكافِرَ -والعياذُ باللهِ- لم يأتِ بعَدْلٍ إطلاقًا حتَّى يُقالَ: إنَّ ظُلمَه ظُلمٌ مُقَيَّدٌ[2]!

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يُعقَلُ أن تَنبُتَ الشَّجَرةُ في جَهنَّمَ، مع أنَّ النَّارَ تُحرِقُ الشَّجرةَ؟

**الجوابُ**: أنَّ خالِقَ النَّارِ قادِرٌ على أن يمنَعَ النَّارَ مِن إحراقِ الشَّجَرِ، ولأنَّه إذا جاز أن يكونَ في النَّارِ زبانيَةٌ، واللهُ تعالى يمنَعُ النَّارَ عن إحراقِهم، فلِمَ لا يجوزُ مِثلُه في هذه الشَّجَرةِ[3]؟

**ووجهٌ آخَرُ**: أنَّ الله تعالى أخبَرَ أنَّ تلك الشَّجَرةَ خَرَجت مِن أصلِ الجَحيمِ وأُنشِئَت منها، والشَّجَرةُ الَّتي أُنشِئَت من النَّارِ لا تأكُلُها النَّارُ ولا تُحرِقُها، وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠). ويُنظر أيضًا: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٦، ٣٣٧).

تأكُلُ غَيرَها مِنَ الأشجارِ الَّتي لم تَنشَأْ منها، ومِثلُ هذا جائِزٌ: أن يكونَ الشَّيءُ الَّذي يكونُ نُشوؤُه وبَدْؤُه مِن كُلِّ شَيءٍ ألَّا يُهلِكَه كَونُه في ذلك؛ كالسَّمَكِ الَّذي يكونُ أصلُ نُشوئِه في الماءِ لا يُهلِكُه الماءُ، وكذلك جميعُ دوابِّ البَحرِ، وإن كان غيرُها مِنَ الدَّوابِّ في البَرِّيَّةِ يَهلِكُ فيه ويَتلَفُ؛ فعلى ذلك الشَّجَرةُ المُنشأَةُ منها لا تُهلِكُها النَّارُ ولا تُحرِقُها، وإن كان غيرُها مِنَ الأشجارِ تأكُلُها وتُحرِقُها. واللهُ أعلَمُ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ الرَّدُّ على مَن يقولُ: «إنَّ الشَّياطينَ والجِنَّ هي قُوَى الشَّرِّ، والملائِكةَ قُوَى الخيرِ، وليس هناك أجسامٌ تُحَسُّ»! ووجهُ الدَّلالةِ أنَّه أثبتَ للشَّياطينِ رُؤوسًا، ولا يُمكِنُ أن يكونَ في الأمورِ المعنويَّةِ الَّتي هي القُوى[2]!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ فيه سُؤالٌ: إنَّا ما رأَيْنا رُؤوسَ الشَّياطينِ، فكيف يُمكِنُ تَشبيهُ شَيءٍ بها؟

**أجابوا عنه مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ النَّاسَ لَمَّا اعتَقَدوا في الملائِكةِ كَمالَ الفَضلِ في الصُّورةِ والسِّيرةِ، واعتَقَدوا في الشَّياطينِ نهايةَ القُبحِ والتَّشويهِ في الصُّورةِ والسِّيرةِ؛ فكما حَسُنَ التَّشبيهُ بالمَلَكِ عندَ إرادةِ تقريرِ الكَمالِ والفَضيلةِ في قَولِه: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٞ كَرِيمٞ﴾ [يوسف: ٣١]، فكذلك وجَبَ أن يَحسُنَ التَّشبيهُ برُؤوسِ الشَّياطينِ في القُبحِ وتَشويهِ الخِلقةِ؛ فهذا مِن بابِ التَّشبيهِ لا بالمحسوسِ، بل بالمتَخَيَّلِ، كأنَّه قيل: إنَّ أقبَحَ الأشياءِ في الوَهمِ والخيالِ هو رُؤوسُ الشَّياطينِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٥٠).

فهذه الشَّجَرةُ تُشبِهُها في قُبحِ النَّظَرِ وتَشويهِ الصُّورةِ، والَّذي يؤكِّدُ هذا أنَّ العُقَلاءَ إذا رأوا شَيئًا شديدَ الاضطرابِ، مُنكَرَ الصُّورةِ، قَبيحَ الخِلقةِ؛ قالوا: إنَّه شَيطانٌ، وإذا رأوا شَيئًا حَسَنَ الصُّورةِ والسِّيرةِ، قالوا: إنَّه مَلَكٌ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ المقصودَ بالشَّياطينِ: حيَّاتٌ لها رُؤوسٌ وأعرافٌ، وهي مِن أقبَحِ الحيَّاتِ، وبها يُضرَبُ المثَلُ في القُبحِ، والعرَبُ إذا رأت مَنظَرًا قَبيحًا قالت: (كأنَّه شَيطانُ الحَماطةِ)، والحَماطةُ: شجَرةٌ مُعَيَّنةٌ.

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّ رُؤوسَ الشَّياطينِ نَبتٌ مَعروفٌ قَبيحُ الرأسِ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ إطلاقُ الآباءِ على الأجدادِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ أنَّ قَولَه: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ يَشملُ الأبَ الأدنَى والأبَ الأعلَى، وإطلاقُ الأبِ على الجَدِّ -ولو كان بعيدًا- مَعروفٌ في الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]؛ فسَمَّى اللهُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أبًا مع أنَّه جَدٌّ بَعيدٌ، ويَتفرَّعُ على هذه القاعدةِ: ترجيحُ القَولِ بأنَّ الجَدَّ مِن قِبَلِ الأبِ يُسقِطُ الإخوةَ مُطلَقًا -أي: سواءٌ كانوا أشقَّاءَ، أو لأبٍ، أو لأمٍّ- في بابِ الميراثِ، وهو القَولُ الرَّاجِحُ؛ لأنَّه أبٌ، وهذا القَولُ هو قولُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي اللهُ عنه، ورُوِيَ عن ثلاثةَ عَشَرَ صَحابيًّا، وهو مَذهَبُ أبي حنيفةَ رحمه اللهُ، واختيارُ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميَّةَ رحمه اللهُ[2].

٧- في قَولِه: ﴿أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ضَلالَهم لا يخفَى على النَّاظِرِ فيه لو تُرِكوا على الفِطرةِ العَقليَّةِ، ولم يُغَشُّوها بغِشاوةِ العِنادِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٠). ويُنظر أيضًا: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هبيرة (٢/ ٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٣١/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٧).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ عنايةُ اللهِ عزَّ وجلَّ برَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث كان يَضرِبُ له مِن الأمثلةِ ما يُسَلِّيه بها؛ لأنَّ سُلُوَّ الإنسانِ بغَيرِه يُهَوِّنُ عليه الأمرَ، ويَزيدُه قُوَّةً واندِفاعًا فيما يَدعو إليه[1].

٩- أنَّ اللهَ تعالى أقامَ الحُجَّةَ على كلِّ أُمَّةٍ؛ لِقَولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم﴾ أي: في الأوَّلينَ ﴿مُّنذِرِينَ﴾، ويؤيِّدُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]؛ فكلُّ الأُمَمِ قامتْ عليهم الحُجَّةُ[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أنَّ مَن لم تَبلُغْه الرِّسالةُ فلا حُجَّةَ عليه؛ لأنَّه لم يَبلُغْه الإنذارُ، وهو كذلك[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ أنَّ اللهَ لا يُعاقِبُ على الذَّنبِ إلَّا بعدَ قيامِ الحُجَّةِ؛ فهم أُنذِروا فكانتِ العاقِبةُ[4].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾

- استِئْنافٌ بعدَ تَمامِ قِصَّةِ المُؤمِنِ ورِفاقِه، قُصِدَ منه التَّنْبيهُ إلى البَونِ بيْنَ حالِ المُؤمِنِ والكافِرِ، جرَى على عادةِ القُرآنِ في تَعْقيبِ القَصَصِ والأمْثالِ بالتَّنْبيهِ إلى مَغازيها ومَواعِظِها، فالمقصودُ بالخَبَرِ هو قولُه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا﴾ أي: شَجَرةَ الزَّقُّومِ ﴿فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ إلى آخِرِها. وإنَّما صِيغَ الكلامُ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٧).

هذا الأُسلوبِ؛ للتَّشويقِ إلى ما يَرِدُ فيه[١].

- في قَولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ لَمَّا اختارَ المُؤمِنونَ ما أدَّى إلى الرِّزْقِ المَعْلومِ في الجَنَّةِ، واختارَ الكافِرونَ ما أدَّى إلى شَجَرةِ الزَّقُّومِ؛ قيلَ لهم ذلك تَوبيخًا على سُوءِ اختيارِهِم[٢]. والهَمْزةُ للاستِفْهامِ الإنْكاريِ التَّوْبيخيِّ[٣]. وقيل: للتَّقريرِ، والمرادُ تقريرُ قريشٍ والكفَّارِ[٤].

- الاستِفْهامُ في قَولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيۡرٞ نُّزُلًا أَمۡ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ مُكنًّى به عن التَّنْبيهِ على فَضلِ حالِ المُؤمِنِ وفَوزِه، وخَسارِ الكافِرِ، وهو خِطابٌ لكُلِّ سامِعٍ[٥].

- والإشارةُ بـ﴿أَذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّمَ مِن حالِ المُؤمِنينَ في النَّعيمِ والخُلودِ. وجِيءَ باسمِ الإشارةِ مُفرَدًا بتَأْويلِ المَذْكورِ، بعلامةِ بُعدِ المُشارِ إليه؛ لِتَعْظيمِه بالبُعْدِ، أي: بُعْدِ المَرتَبةِ وسُمُوِّها؛ لأنَّ الشَّيءَ النَّفيسَ الشَّريفَ يُتخيَّلُ عاليًا، والعالي يُلازِمُه البُعدُ عن المكانِ المُعتادِ، وهو السُّفلُ، وأين الثُّرَيَّا من الثَّرَى[٦]؟!

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٞ تَخۡرُجُ فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ استِئْنافٌ لِوَصفِ شَجَرةِ الزَّقُّومِ استِئْنافًا ثانيًا مُكرَّرًا فيه كَلِمةُ ﴿إِنَّهَا﴾؛ للتَّهْويلِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٢٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾

- في قوله: ﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ تَشْبيهٌ، ورُؤوسُ هذه الشَّياطينِ غَيرُ مَعْروفةٍ لهم، فالتَّشْبيهُ بها حَوالةٌ على ما تُصَوِّرُ لهم المُخيِّلةُ، وطَلْعُ شَجَرةِ الزَّقُّومِ غَيرُ مَعْروفٍ، فوُصِفَ للنَّاسِ فظيعًا بَشِعًا، وشُبِّهَتْ بَشاعَتُه ببَشاعةِ رُؤوسِ الشَّياطينِ؛ لأنَّ الشَّيْطانَ مَكروهٌ مُستقبَحٌ في طِباعِ النَّاسِ؛ لاعتِقادِهم أنَّه شَرٌّ مَحضٌ لا يَخلِطُهُ خَيرٌ، وهذا التَّشْبيهُ مِن تَشْبيهِ المَعْقولِ بالمَعْقولِ، كتَشْبيهِ الإيمانِ بالحَياةِ في قَولِه تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]. والمَقْصودُ منه هُنا: تَقْريبُ حالِ المُشبَّهِ، فلا يَمتنِعُ كَونُ المُشبَّهِ به غَيرَ مَعْروفٍ، ولا كونُ المُشبَّهِ كذلك، وهذه الصِّفاتُ الَّتي وُصِفَتْ بها شَجَرةُ الزَّقُّومِ بالِغةٌ حدًّا عَظيمًا مِنَ الذَّمِّ، وهذا تَشْبيهٌ تَخْييليٌّ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ۞ ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ﴾

- قَولُه: ﴿فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ إنْذارٌ بأنَّهم آكِلونَ مِن شَجَرةِ الزَّقُّومِ إنْذارًا مُؤكَّدًا، والمعنى: أنَّهم آكِلونَ منها كَرهًا؛ وذلك من العَذابِ، وإذا كان المَأْكولُ كَريهًا يَزيدُه كَراهةً سُوءُ مَنظَرِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٧٧، ٢٧٨).

والمرادُ بالتَّخييلِ: أنَّه لا يمكِنُ وُجودُه في المشَبَّهِ به إلَّا على سبيلِ التَّخييلِ والتَّأويلِ، وقد يكونُ صعبَ الوُجودِ في الواقعِ أو متعَذِّرًا. يُنظر: ((أسرار البلاغة)) للجُرْجاني (ص: ٢٦٧)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَمَالِئُونَ﴾ فاءُ التَّفْريعِ، وفيها مَعْنى التَّعْقيبِ، أي: لا يَلبَثون أنْ تَمتلِئَ بُطونُهم مِن سُرعةِ الالْتِقامِ، وذلك تَصويرٌ لِكَراهَتِها؛ فإنَّ الطَّعامَ الكَريهَ كالدَّواءِ إذا تَناوَلَه آكِلُه أسرَعَ ببَلْعِه، وأعظَمَ لُقَمَه؛ لِئَلَّا يَستقِرَّ طَعمُه على آلةِ الذَّوقِ[١].

وقيل: لَمَّا كان الأكْلُ يَعتَقِبُه مَلْءُ البَطنِ، كان العَطفُ بالفاءِ في قَولِه: ﴿فَمَالِئُونَ﴾[٢].

- ومَلْءُ البُطونِ كِنايةٌ عن كَثْرةِ ما يَأْكلونَ منها على كَراهَتِها. وإسنادُ الأكْلِ ومَلْءِ البُطونِ إليهم إسنادٌ حَقيقيٌّ، وإنْ كانوا مُكرَهينَ على ذلك الأكْلِ والمَلْءِ[٣].

- وحَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ لأنَّها عَطَفَتْ جُملةً، وليس للتَّراخي في الإخبارِ مَعنًى إلَّا إفادةُ أنَّ ما بعدَ حَرفِ التَّراخي أهَمُّ أو أعجَبُ ممَّا قَبْلَه، بحيث لم يكُنِ السَّامعُ يَرقُبُه، فهو أعْلى رُتْبةً باعتبارِ أنَّه زيادةٌ في العَذابِ على الَّذي سَبَقَه، فوَقْعُه أشدُّ منه، وقد أشعَرَ بذلك قَولُه: ﴿عَلَيْهَا﴾، أي: بَعْدَها، أي: بعدَ أكْلِهم منها[٤].

وقيل: لَمَّا كان الشُّربُ يَكثُرُ تَراخيهِ عن الأكْلِ، أُتِيَ بلَفظِ ﴿ثُمَّ﴾ المُقتَضيةِ المُهْلةَ[٥]. ففي العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ سِرٌّ لَطيفُ المَأخَذِ، دَقيقُ المَسلَكِ، قَلَّ مَن يَتَفطَّنُ إليه؛ فإنَّ في مَعنى التَّراخي وَجهَينِ؛ أحَدُهما: أنَّهم يَملَؤون البُطونَ مِن شَجَرِ الزَّقُّومِ، وهو حارٌّ يُحرِقُ بُطونَهم، ويَزيدُ في عَطَشِهم وغُلَّتِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧).

فلا يُسقَونَ إلَّا بعدَ مَلِيٍّ[١]؛ تَعْذيبًا بذلك العَطَشِ، ثمَّ يُسقَونَ ما هو أحَرُّ مِن العَطَشِ، وهو الشَّرابُ المَشوبُ بالحَميمِ. ووَجهٌ آخَرُ في مَعْنى التَّراخي: أنَّه ذُكِرَ الطَّعامُ بتلك الكَراهةِ والبَشاعةِ، ثمَّ ذُكِرَ الشَّرابُ بما هو أوغَلُ في الكَراهةِ وأبعَدُ في البَشاعةِ، فجاء بـ (ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على تَراخي حالِ الشَّرابِ عن حالِ الطَّعامِ، ومُبايَنةِ صِفَتِه لِصِفَتِه في الزِّيادةِ عليه[٢].

- في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ (على) بمَعْنى (مع)، ويَصِحُّ أنْ تكونَ للاستِعْلاءِ؛ لأنَّ الحَميمَ يَشرَبونَه بعدَ الأكْلِ، فيَنزِلُ عليه في الأمْعاءِ[٣].

٥ - قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾

- مَعنى حَرفِ التَّراخي (ثُمَّ) في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ أنَّهم يُذهَبُ بهم عن مَقارِّهم ومَنازِلِهم في الجَحيمِ، وهي الدَّرَكاتُ الَّتي أُسْكِنوها إلى شَجَرةِ الزَّقُّومِ، فيَأكُلونَ إلى أنْ يَتَملَّؤُوا، ويُسقَونَ بعدَ ذلك، ثمَّ يَرجِعونَ إلى دَرَكاتِهم -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فدَخَلَتْ (ثُمَّ) للدَّلالةِ على ذلك، والرُّجوعُ دَليلٌ على الانتِقالِ في وَقتِ الأكْلِ والشُّربِ إلى مَكانٍ غَيرِ مَكانِهما[٤].

- في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ المَرجِعُ: مَكانُ الرُّجوعِ، أي: المَكانُ الَّذي يعودُ إليه الخارِجُ منه بعدَ أنْ يُفارِقَه، وقد يُستعارُ للانتِقالِ من حالةٍ طارئةٍ

---

(١) المَلِيُّ: الحينُ الطَّويلُ مِن الزَّمانِ. يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٣).

إلى حالةٍ أصليَّةٍ؛ تَشبيهًا بمُغادَرةِ المكانِ ثمَّ العَودِ إليه؛ والمُشركونَ حينَ يَطعَمون مِن شَجَرةِ الزَّقُّوم، ويَشرَبونَ الحَميمَ، لم يُفارِقوا الجَحيمَ، فأُريدَ التَّنبيهُ على أنَّ عَذابَ الأكْلِ مِن الزَّقُّوم، والشَّرابِ مِن الحَميم زيادةٌ على عَذابِ الجَحيمِ، ألَا تَرى إلى قَولِه: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾، فليس ثَمَّةَ مُغادَرةٌ للجَحيمِ حتَّى يكونَ الرُّجوعُ حقيقةً[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ * فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾

- تَعْليلٌ لِمَا جازاهمُ اللهُ به مِن العَذابِ، وإبْداءٌ للمُناسَبةِ بيْنَه وبيْنَ جُرمِهم، فعلَّلَ استِحْقاقَهُم للوُقوعِ في تلك الشَّدائدِ كُلِّها بتَقْليدِ الآباءِ في الدِّينِ، واتِّباعِهم إيَّاهُم على الضَّلالِ، وتَركِ اتِّباعِ الدَّليلِ، وإنَّ جُرمَهم كان تَلَقِّيًا لِمَا وَجَدوا عليه آباءَهُم مِن الشِّركِ وشُعَبِه بدُونِ نَظَرٍ ولا اختيارٍ لِما يختارُه العاقِلُ، فكان مِن جَزائِهم على ذلك أنَّهم يُطعَمونَ طَعامًا مُؤلِمًا، ويُسقَونَ شَرابًا قَذِرًا بدُونِ اختيارٍ كما تَلَقَّوْا دِينَ آبائِهم تَقْليدًا واعْتِباطًا؛ فمَوقِعُ (إنَّ) مَوقعُ فاءِ السَّبَبيَّةِ، ومَعناها مَعنى لامِ التَّعْليلِ، وهي لذلك مُفيدةٌ رَبْطَ الجُملةِ بالَّتي قَبْلَها، كما تَربِطُها الفاءُ ولامُ التَّعْليلِ[2].

- قولُه: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ فيه إشْعارٌ بأنَّهم بادَروا إلى الضَّلالِ والكُفرِ من غَيرِ تَوقُّفٍ على نَظَرٍ وبَحثٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٦، ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٤).

- في قَولِه: ﴿ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴾ الفاءُ فاءُ العَطفِ للتَّفْريعِ والتَّسَبُّبِ، أي: مُتفرِّعٌ على إلفائِهِم آباءَهم ضالِّينَ، أنِ اقْتَفَوْا آثارَهم تَقْليدًا بلا تأمُّلٍ، وهذا ذمٌّ لهم(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ * فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾

- عُقِّبَ وَصْفُ حالِ المُشرِكينَ في الآخِرةِ، وما عُلِّلَ به مِن أنَّهم أَلْفَوْا آباءَهم ضالِّينَ فاتَّبَعوا آباءَهم بتَنْظيرِهم بمَن سَلَفوا مِن الضَّالِّينَ، وتَذْكيرًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك تَسْليةً له على ما يُلاقيهِ مِن تَكْذيبِهم، واستِقْصاءً لهم في العِبْرةِ والمَوعِظةِ بما حلَّ بالأُمَمِ قَبْلَهم، فهذه الجُملةُ مَعْطوفةٌ على مَضْمونِ الجُملةِ الَّتي قَبْلَها؛ إكمالًا للتَّعْليلِ، أي: اتَّبَعوا آثارَ آبائِهِم، واقْتَدَوا بالأُمَمِ أشْياعِهم(٢).

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ إكمالٌ للعِلَّةِ والتَّسليةِ والعِبْرةِ، والمعنى: ﴿أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي: رُسُلًا يُنذِرونَهم، أي: يُحَذِّرونَهم ما سيَحُلُّ بهم مِثلَ ما أرْسَلْناك إلى هؤلاءِ(٣).

- قَولُه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ تَكريرُ القَسَمِ؛ لإبرازِ كمالِ الاعتناءِ بتحقيقِ مَضمونِ كُلٍّ مِن الجُملتَينِ(٤).

- وأيضًا في قَولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ خصَّ المُرسَلينَ بوَصفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

المُنذِرينَ؛ لِمُناسَبةِ حالِ المُتحدَّثِ عنهم وأمثالِهم[١].

- وفُرِّعَ على قولِه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ قولُه: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾، وهو خِطابٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَرْشيحًا لِمَا في الكَلامِ السَّابِقِ مِن جانِبِ التَّسْليةِ والتَّثْبيتِ، مع التَّعْريضِ بالكَلامِ لِتَهديدِ المُشركينَ بذلك. ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ لكُلِّ مَن يَسمَعُ القُرآنَ؛ فشَمِلَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- والأمْرُ بالنَّظَرِ مُستعمَلٌ في التَّعْجيبِ والتَّهْويلِ، فإنْ أُريدَ بالعاقِبةِ عاقِبَتُهم في الدُّنيا؛ فالنَّظَرُ بَصَريٌّ، وإنْ أُريدَ عاقِبَتُهم في الآخِرةِ كما يَقتَضيهِ السِّياقُ؛ فالنَّظَرُ قَلْبيٌّ، ولا مانعَ مِن إرادةِ الأمْرَينِ، واستِعْمالِ المُشتَرَكِ في المَعْنَيَينِ[٣].

- وفي قَولِهِ: ﴿ فَٱنظُرْ ﴾ ما يَقتَضي إهْلاكَهم، وسُوءَ عاقِبَتِهم[٤].

- قَولُه: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ تَعْريفُ ﴿ٱلْمُنذَرِينَ﴾ تَعْريفُ العَهدِ، وهُمُ المُنذَرونَ الَّذين أُرسِلَ إليهم المُنذِرونَ، أي: فهُمُ الضَّالُّون المُعبَّرُ عنهم بأنَّهم أكثَرُ الأوَّلينَ[٥].

- والاستِفْهامُ في قَولِه: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ تَعْجيبيٌّ؛ للتَّفْظيعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٧، ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٧٥-٨٢)

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى قصصَ بعضِ الأنبياءِ السَّابقينَ مع أقوامِهم، مبتدئًا بنُوحٍ عليه السَّلامُ، فيقولُ: ولقد نادانا نُوحٌ داعِيًا بهَلاكِ قَومِه، فأجَبْناه؛ فنِعْمَ المُجيبونَ نحنُ، ونَجَّيْنا نوحًا وأهلَه المؤمِنينَ مِنَ الغَمِّ الشَّديدِ، وجعَلْنا ذُرِّيَّةَ نوحٍ بعدَ إغراقِ قَومِه هم الباقينَ في الأرضِ، وأنعَمْنا على نوحٍ بالثَّناءِ الباقي فيمَن بعدَه، سَلامٌ عليه في العالَمينَ، مِثلَ هذا الجزاءِ نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا.

إنَّ نوحًا مِن عبادِنا المُؤمِنينَ، ثمَّ أغرَقْنا قَومَ نُوحٍ الكافِرينَ.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال مِن قَبْلُ: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الصافات: ٧١]، وقال: ﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ [الصافات: ٧٣]؛ أتْبَعَه بشَرحِ وقائعِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ[1]. فأُتبِعَ التَّذكيرُ والتَّسليةُ مِن جانبِ النَّظرِ في آثارِ ما حَلَّ بالأُمَمِ المرسَلِ إليهم، وما أُخبِرَ عنه مِن عاقِبَتِهم في الآخِرةِ، بتَذكيرٍ وتَسليةٍ مِن جانبِ الإخبارِ عن الرُّسلِ الَّذين كذَّبهم قَومُهم وآذَوْهم، وكيف انتصَرَ اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩).

لهم؛ لِيَزيدَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَثبيتًا، ويُلقِمَ المشركينَ تَبكيتًا[١].

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

أي: ولقد دعانا نوحٌ أن نُهلِكَ قَومَه المُشرِكينَ، فأجَبْنا دُعاءَه فأهلَكْناهم؛ فلَنِعْمَ المجيبونَ نحنُ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ ... ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ [المؤمنون: ٢٦].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر: ١٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴾ [نوح: ٢٦ - ٢٨].

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّه نِعمَ المُجيبُ على سَبيلِ الإجمالِ؛ بيَّنَ أنَّ الإنعامَ حَصَل في تلك الإجابةِ مِن وُجوهٍ[٣]، فقال:

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾.

أي: ونجَّيْنا نوحًا وأهلَه المُؤمِنينَ مِن الغَمِّ الشَّديدِ العَظيمِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٩)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٦، ٧٧].

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: وجعَلْنا ذُرِّيَّةَ نُوحٍ بعدَ إغراقِ قَومِه هم الباقِينَ في الأرضِ؛ فجَميعُ الأُمَمِ مِن نَسْلِه(١).

---

= الماوردي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

قيل: المرادُ بالكَربِ العَظيمِ: الغَرَقُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والبغوي، والقرطبي، ونسَبَه الرازي إلى أكثرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٠).

قال ابن عاشور: (المعنيُّ به الطُّوفانُ، وهو كربٌ عظيمٌ على الَّذين وقَعوا فيه، فإنجاءُ نوحٍ منه هو سلامتُه مِن الوقوعِ فيه كما عَلِمتَ؛ لأنَّه هَولٌ في المنظرِ، وخَوفٌ في العاقبةِ، والواقعُ فيه موقِنٌ بالهلاكِ. ولا يَزالُ الخوفُ يَزدادُ به حتَّى يَغمُرَه الماءُ، ثمَّ لا يَزالُ في آلامٍ مِن ضيقِ النَّفَسِ ورِعْدةِ القرِّ والخَوفِ وتحقُّقِ الهلاكِ حتَّى يَغرَقَ في الماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١).

وقيل: المرادُ بالكَربِ العَظيمِ: تكذيبُ قَومِ نُوحٍ الكافِرينَ وأذاهم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ كثير، والإيجي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٤٨).

وقيل: المرادُ: مَجموعُ الأمْرَينِ: الغَرَقُ، وأذى الكافِرينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، وابن عطيَّة، والرازي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ١٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٠)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١). =

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

أي: وأثنَيْنا على نُوحٍ، وأنعَمْنا عليه بالذِّكرِ الجَميلِ، والثَّناءِ الباقي في الَّذين يأتُونَ مِن بَعدِه[1].

---

= قال ابنُ القيم: (اتَّفَق العُلَماءُ أنَّ نُوحًا لَمَّا نَزَل مِنَ السَّفينةِ مات مَن كان معه، ثمَّ مات نَسْلُهم، ولم يبقَ غَيرُ نَسلِ نوحٍ، والدَّليلُ على هذا قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾). ((المنار المُنِيف)) (ص: ٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧ - ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٢، ١٣٣).

ممَّن قال إنَّ المعنى: أنَّ الله أبقى له الثَّناءَ الحسَنَ، والذِّكرَ الجميلَ في الآخِرينَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٠)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧).

قال البِقاعي: (﴿فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: كُلُّ مَن تأخَّرَ عن زمانِه إلى يومِ الدِّينِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٩).

وقال ابنُ عاشور: (وظاهِرُ ﴿ٱلْآخِرِينَ﴾ أنَّها باقيةٌ في جميعِ الأُمَمِ إلى انقِضاءِ العالَمِ... فكان نوحٌ مذكورًا بمحامِدِ الخِصالِ، حتَّى قيل: لا تجهَلُ أمَّةٌ مِن أُمَمِ الأرضِ نُوحًا وفَضْلَه وتمجيدَه، وإن اختَلَفت الأسماءُ الَّتي يُسَمُّونَه بها باختلافِ لُغاتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٢).

وقال ابنُ عثيمين: (الظَّاهِرُ مِن الآياتِ الكريمةِ أنَّ جميعَ الأنبياءِ الَّذين جاؤوا مِن بعدِ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يُذكَرُ فيهم نوحٌ بالثَّناءِ الحَسَنِ، فتكونُ الأنبياءُ كُلُّهم والأُمَمُ يُطْرُونَ نُوحًا -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بما أثنى اللهُ به عليه؛ لأنَّه مذكورٌ في كلِّ الكُتُبِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨١).

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٩﴾.

أي: سلامٌ على نوحٍ وثناءٌ حسَنٌ ثابتٌ في العالَمينَ، فلا يُذكَرُ بسُوءٍ، بل يُثْنونَ عليه ثناءً حسَنًا، ويُسلِّمون عليه، ويَدْعون له(١).

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣، ١٣٤).

قيل: المرادُ بالعالَمينَ: كُلُّ حَيٍّ مِن الثَّقَلَينِ (الجِنِّ والإنسِ) والملائكةِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، والرازي، والرسعني، والنسفي، وابن القيم، والبِقاعي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٢٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦).

وقيل: المرادُ بالعالَمينَ: الأُمَمُ والقُرونُ وجميعُ الطَّوائفِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣).

وقال ابن عثيمين: (المراد بـ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هنا مَن بَعْدَ نوحٍ لا مَن قَبْلَه فيما يَظهَرُ، وعلى هذا فيكونُ عامًّا يُرادُ به الخاصُّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨١).

واختلف المفَسِّرونَ في قَولِه تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هل هو مُفَسِّرٌ للآيةِ السَّابِقةِ: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، أو هو جملةٌ استِئنافيَّةٌ مُستقِلَّةٌ عمَّا قَبْلَها؟

فمِمَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشريُّ، وابنُ القيم، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٩).

قال الشوكاني: (المتروكُ هذا هو قَولُه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾، أي: ترَكْنا هذا الكلامَ بعَيْنِه، وارتفاعُه على الحكايةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٥٩).

قال الزمخشري: (فإن قلتَ: فما معنى قَولِه ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؟ [أي: بناءً على هذا القولِ] قلتُ: معناه الدُّعاءُ بثُبوتِ هذه التَّحيَّةِ فيهم جميعًا، وألَّا يخلوَ أحدٌ منهم منها، كأنَّه قيل: ثبَّت اللهُ التَّسليمَ على نوحٍ وأدامَه في الملائكةِ والثَّقَلينِ يُسَلِّمونَ عليه عن آخِرِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الثاني: ابنُ جرير، وابن جُزَي، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير =

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح اللهُ تعالى تفاصيلَ إنعامِه على نُوح؛ أخبَرَ أنَّه إنَّما خَصَّص نوحًا عليه السَّلامُ بتلك التَّشريفاتِ الرَّفيعةِ، مِن جَعلِ الدُّنيا مملوءةً مِن ذُرِّيَّتِه، ومِن تَبقيةِ ذِكرِه الحَسَنِ في ألسِنةِ جَميعِ العالَمينَ؛ لأجْلِ أنَّه كان مُحسِنًا[1].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جازَيْنا به نُوحًا[2] .....

---

= ابن جرير)) (١٩/ ٥٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٠، ١٨١).

قال ابن القيِّم: (مَن قال بأنَّ المتروكَ هو السَّلامُ عليهم في الآخرينَ نَفْسُه فلا ريبَ أنَّ قولَه ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ ﴾ جملةٌ في موضعِ نَصبٍ بـ «تَرَكْنَا»، والمعنى: أنَّ العالَمينَ يُسلِّمونَ على نوحٍ ومَن بَعْدَه مِن الأنبياءِ. ومَن فَسَّره [أي: قولَه: ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾] بلِسانِ الصِّدقِ والثَّناءِ الحَسَنِ نَظَر إلى لازمِ السَّلامِ ومُوجَبِه، وهو الثَّناءُ عليهم وما جُعِلَ لهم [أي: للأنبياءِ] مِن لسانِ الصِّدقِ الَّذي لأجْلِه إذا ذُكِروا سُلِّم عليهم)، وذكر أنَّهما قولٌ واحدٌ، ولا ينبغي حكايتُهما على أنَّهما قولانِ. يُنظر: ((جلاء الأفهام)) (ص: ٤٥٧، ٤٥٨).

وذكر ابنُ جُزَي أنَّ معنى ﴿ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ -على القولِ بأنَّ جملةَ ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ استئنافيَّةٌ-: تخصيصُه بالسَّلامِ عليه بيْن العالَمينَ، كما تقولُ: أُحِبُّ فُلانًا في النَّاسِ، أي: أُحِبُّه خصوصًا مِن بيْنِ النَّاسِ. قال: (وهذا الخلافُ يجري حيث ما ذُكِر ذلك في هذه السُّورةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٠).

(٢) قيل: المرادُ بجزاءِ الله تعالى له: هو إنجاؤُه مِن الكَربِ العظيمِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧).

وقيل: المرادُ بالجزاءِ: هو إبقاءُ الثَّناءِ الحَسَنِ عليه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥). =

-لأنَّه كان مِنَ المُحسِنينَ-[١] نَجزي كلَّ مَن كان مُحسِنًا[٢].

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨١﴾.

أي: إنَّ نُوحًا مِن عِبادِنا المؤمِنينَ باللهِ، فوحِّدُوا اللهَ تعالى، وأخلِصوا في

---

= وقيل: جزى الله نوحًا بأمْرَينِ: بما تَرَك عليه في الآخِرينَ، وبما سَلَّمه في العالَمينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٨).

وممَّن ذهب إلى جميعِ تلك المعاني: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٨).

(١) قال ابن جرير: (كذلك نَجزي الَّذين يُحسِنونَ فيُطيعونَنا، ويَنتَهونَ إلى أمرِنا، ويَصبِرون على الأذى فينا). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٣).

وقال ابنُ عطيَّة: (أثنى تعالى على نُوحٍ بالإحسانِ؛ لِصَبرِه على أذى قَومِه، ومُطاوَلَتِه لهم، وغيرِ ذلك مِن عبادتِه وأفعالِه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧).

ويَشملُ الإحسانُ: الإحسانَ في عبادةِ الخالقِ، والإحسانَ إلى المخلوقِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٢، ١٨٣).

وذكر ابنُ عاشور أنَّ الإحسانَ هو الإيمانُ الخالِصُ المفسَّرُ في قَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الإحسانُ أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تراه، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنَّه يَراك)) [البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هُرَيرةَ. ومسلم (٨) من حديث عُمَرَ]. ثمَّ قال: (وأيُّ دليلٍ على إحسانِه أجلَى مِن مُصابرتِه في الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ والتَّقْوى، وما ناله مِن الأذى مِن قَومِه طُولَ مُدَّةِ دَعوتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٨).

وقيل: قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ هو بيانٌ لإحسانِ نوحٍ عليه السَّلامُ. ومِمَّن قال بذلك: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٢-١٨٤).

عبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له[١].

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٨٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى نجاةَ نُوحٍ ونجاةَ أهلِه؛ إذ كانوا مُؤمِنينَ- ذكَرَ هلاكَ غَيرِهم بالغَرَقِ[٢].

﴿ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ٨٢﴾.

أي: ثمَّ أغرَقْنا قومَ نُوحٍ الكافِرينَ[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ المقصودُ منه بيانُ أنَّ أعظَمَ الدَّرَجاتِ وأشرَفَ المقاماتِ: الإيمانُ باللهِ، والانقيادُ لطاعتِه[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٨٠ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ عَلَّل التَّحيَّةَ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ بأنَّه كان مُحسِنًا، ثمَّ عَلَّل إحسانَه بكَونِه مُؤمِنًا؛ فدَلَّ على جلالةِ الإيمانِ ومحَلِّه عندَ اللهِ[٥]، وأنَّه أرفَعُ مَنازِلِ العبادِ، وأنَّه مُشتمِلٌ على جميعِ شَرائِعِ الدِّينِ وأصولِه وفُروعِه؛ لأنَّ اللهَ مَدَح به خواصَّ خَلقِه[٦]، وعُلِمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

منه أنَّ الإيمانَ هو المرادُ الأقصى مِن الإنسانِ؛ لأنَّه عَلَّل الإنجاءَ بالإحسانِ، والإحسانَ بالإيمانِ[1]. وهذا على القولِ بتفسيرِ الإحسانِ بما بعدَه وهو الإيمانُ.

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْأَخَرِينَ ﴾ في هذه القِصَّةِ عِبرةٌ للمُشرِكينَ بما حَلَّ بقَومِ نُوحٍ، وتسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجَعْلُ نوحٍ قُدوةً له، وإيماءٌ إلى أنَّ اللهَ يَنصُرُه كما نصَرَ نُوحًا على قَومِه، ويُنَجِّيه مِن أذاهم، وتنويهٌ بشأنِ المؤمِنينَ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ إثباتُ سَمْعِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه لا إجابةَ إلَّا بعدَ السَّمعِ[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ تلك الإجابةَ كانت مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ، وبَيانُه مِن وُجوهٍ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّه تعالى عبَّرَ عن ذاتِه بصيغةِ الجَمعِ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾، والقادِرُ العَظيمُ لا يليقُ به إلَّا الإحسانُ العَظيمُ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّه أعاد صيغةَ الجَمعِ في قَولِه: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾، وذلك أيضًا يدُلُّ على تَعظيمِ تلك النِّعمةِ، لا سيَّما وقد وَصَف تلك الإجابةَ بأنَّها نِعْمَتِ الإجابةُ.

**الوَجهُ الثَّالثُ**: أنَّ الفاءَ في قَولِه: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ تدُلُّ على أنَّ حُصولَ هذه الإجابةِ مُرتَّبٌ على ذلك النِّداءِ، والحُكمُ المرَتَّبُ على الوَصفِ المُناسِبِ:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٥).

يَقتضي كَوْنَه مُعلَّلًا به، وهذا يدُلُّ على أنَّ النِّداءَ بالإخلاصِ سَبَبٌ لحُصولِ الإجابةِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ جوازُ إطلاقِ العامِّ وإنْ كان مخصوصًا؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَأَهْلَهُۥ﴾ يَشملُ المؤمِنَ والكافِرَ منهم، وقد دلَّت آيةٌ أخرى على أنَّ مِن أهلِه مَن لم يَنْجُ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ هو الَّذي بَقِيَ نَسْلُه مِن بني آدَمَ، فكُلُّ مَن بَقِيَ مِن بعدِ نُوحٍ فهو مِن نَسلِه؛ ولهذا يُسمَّى الأبَ الثَّانيَ للبَشريَّةِ(٣)؛ فالآيةُ تُفيدُ الحَصرَ، وذلك يدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن سِواه وسِوى ذُرِّيَّتِه قد فَنُوا(٤)، وهذا جارٍ على أنَّ الطُّوفانَ قد عَمَّ الأرضَ كُلَّها، واستأصَلَ جميعَ البَشَرِ إلَّا مَن حمَلَهم نوحٌ في السَّفينةِ. وعُمومُ الطُّوفانِ هو مُقتضى ظواهِرِ الكِتابِ والسُّنَّةِ(٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لَمَّا نَزَلَ مِن السَّفينةِ مات مَن كان معه، ثمَّ مات نَسْلُهم، ولم يَبقَ غيرُ نَسْلِ نُوحٍ، وهذا يُبطِلُ قَولَ مَن قال: «إنَّ الخَضِرَ كان قَبْلَ نوحٍ»(٦)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٧).

والآية هي قولُه تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١، ١٣٢).

(٦) يُنظر: ((المنار المُنِيف)) لابن القيم (ص: ٧٤).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فيه تَنويهٌ بنُوحٍ عليه السَّلامُ بأنَّ جَزاءَه كان هو المثالَ والإمامَ لِجزاءِ المحسنينَ على مَراتبِ إحسانِهم، وتَفاوُتِ تَقارُبِها مِن إحسانِ نُوحٍ عليه السَّلامُ، وقُوَّتِه في تَبليغِ الدَّعوةِ؛ فهو أوَّلُ مَن أُوذِيَ في اللهِ، فسَنَّ الجزاءَ لِمَن أُوذِيَ في اللهِ، وكان على قالَبِ جَزائِه، فلعلَّه أنْ يكونَ له كِفْلٌ مِن كلِّ جَزاءٍ يُجْزاهُ أحدٌ على صَبْرِه إذا أُوذِيَ في اللهِ، فثبَتَ لِنُوحٍ بهذا وَصْفُ الإحسانِ، وثبَتَ له أنَّه مَثَلٌ للمُحسنينَ في جَزائِهم على إحسانِهم(١).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جَعَل لنُوحٍ عليه السَّلامُ ثَناءً حَسَنًا مُستَمِرًّا إلى وقتِ الآخِرينَ؛ وذلك لأنَّه مُحسِنٌ في عبادةِ الخالِقِ، مُحسِنٌ إلى الخَلقِ، وهذه سُنَّتُه تعالى في المحسِنينَ: أن يَنشُرَ لهم مِنَ الثَّناءِ على حَسَبِ إحسانِهم(٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ سلَّم اللهُ عليه؛ لِيَقتديَ بذلك البَشَرُ، فلا يَذكُرَه أحَدٌ مِن العالَمينَ بسُوءٍ(٣). وذلك على القولِ بأنَّ الجملةَ استئنافيَّةٌ.

١٠- يُجزئُ السَّلامُ بقَولِ: «سَلامٌ عليكم» بحذفِ اللَّامِ؛ قال الله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ * سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الأنعام: ٥٤]، لكِنْ باللَّامِ أَولى -أي: السَّلامُ عليكم-؛ لأنَّها للتَّفخيمِ والتَّكثيرِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٤).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أنَّ المُحسِنَ يُجازى بمِثلِ ما جُوزيَ به نوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وذلك بإنجائِه مِن الهَلاكِ، وسَلامةِ عِرضِه مِن الذِّكرِ السَّيِّئِ، وكُلَّما كان الإنسانُ أكثرَ إحسانًا كان أكثَرَ ثوابًا وأسلَمَ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُرَتِّبُ الجزاءَ والعقوبةَ، والثَّناءَ والقَدْحَ: على الأوصافِ لا على الأشخاصِ؛ لأنَّه هنا عَلَّقَ الجزاءَ على الإحسانِ؛ ولهذا لم يأتِ شَيءٌ مِن أحكامِ اللهِ سُبحانه وتعالى مُقَيَّدًا بشَخصٍ لِشَخصِه أبدًا، حتَّى خصائِصُ الرُّسُلِ ليست مِن بابِ خَصائصِ الأشخاصِ، لكِنْ مِن بابِ خصائِصِ الأوصافِ؛ لأنَّ فيهم وَصفًا زائدًا على غَيرِهم، وهو وَصفُ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ؛ فخُصُّوا ببعضِ الأحكامِ المناسِبَةِ لِمقامِهم، أمَّا أنْ يُخَصَّ شَخصٌ بعَيْنِه لأنَّه فُلانُ بنُ فُلانٍ مثلًا، فهذا لا يُوجَدُ في الشَّريعةِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُرَتِّبُ الأحكامَ ويُعَلِّقُها على الأوصافِ لا على الأشخاصِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ الإشارةُ إلى كَمالِ هذَينِ الوَصفَينِ -وهما العُبوديَّةُ والإيمانُ-، وأنَّهما أشرَفُ وَصفٍ يَتَّصِفُ به الإنسانُ: أنْ يكونَ عبدًا للهِ، مؤمنًا به؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ يعني: نُوحًا، ونوحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن أُولي العَزمِ مِن الرُّسُلِ، فإذا كان مِن مَناقِبِه وفَضائلِه أنْ يكونَ مِن عبادِ اللهِ المؤمِنينَ؛ دَلَّ ذلك على فَضيلةِ العُبوديَّةِ والإيمانِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ابتُدِئَ بقِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ مع قَومِه؛ فإنَّه أوَّلُ رَسولٍ بعَثَه اللهُ إلى النَّاسِ، وهو الأُسوةُ الأُولى، والقُدْوةُ المُثْلى. وابتداءُ الإخبارِ بذِكرِ نِداءِ نُوحٍ ربَّه مَوعظةٌ للمشرِكينَ؛ لِيَحْذَروا دُعاءَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ربَّه تعالى بالنَّصرِ عليهم كما دعا نُوحٌ على قَومِه[١].

- وتأْكيدُ الخبَرِ وتأْكيدُ ما فُرِّعَ عليه بلامِ القَسَمِ ﴿ وَلَقَدْ ﴾؛ لِتَحقيقِ الأمْرَينِ؛ تَحذيرًا للمشرِكينَ بعْدَ تَنزيلِهم مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ نوحًا دعا فاستُجيبَ له[٢].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ تَفريعٌ على ﴿نَادَىٰنَا ﴾، أي: نادانا فأجَبْناهُ، فحُذِفَ المُفرَّعُ؛ لدَلالةِ ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ عليه؛ لِتَضمُّنِه معنى فأجَبْناهُ جوابَ مَن يُقالُ فيه: نِعمَ المُجيبُ[٣].

- وضَميرُ المُتكلِّمِ المشارَكِ في قولِه: ﴿نَادَىٰنَا ﴾ ﴿ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعظيمِ[٤].

- وفيه إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: وباللهِ لقدْ دعانا نوحٌ حينَ يَئِسَ مِن إيمانِ قَومِه بعْدَما دَعاهُم إليه أحقابًا ودُهُورًا، فلَمْ يَزِدْهم دُعاؤُه إلَّا فِرارًا ونُفورًا، فأجَبْناهُ أحسَنَ الإجابةِ، فواللهِ لَنِعْمَ المُجيبونَ نحنُ. فحُذِفَ ما حُذِفَ مِن المخصوصِ بالمدْحِ؛ ثِقةً بدَلالةِ ما ذُكِرَ عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

- وذُكِرَ في هذه السُّورةِ ستُّ قِصَصٍ مِن قِصَصِ الرُّسلِ مع أقوامِهم؛ لأنَّ في كلِّ قِصَّةٍ منها خاصِّيَّةً لها شَبَهٌ بحالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع قَومِه، وبحالِه الأكمَلِ في دَعوتِه؛ ففي القِصصِ كلِّها عِبرةٌ وأُسوةٌ وتَحذيرٌ، ويَجمَعُها كلَّها مُقاوَمةُ الشِّركِ ومُقاوَمةُ أهْلِه[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ التَّنجيةُ: الإنجاءُ -وهو جَعلُ الغيرِ ناجيًا-، والنَّجاةُ: الخلاصُ مِن ضُرٍّ واقعٍ، وأُطلِقَت هنا على السَّلامةِ مِن ذلك قبْلَ الوُقوعِ فيه؛ لأنَّه لمَّا حصَلَت سَلامَتُه في حينِ إحاطةِ الضُّرِّ بقَومِه، نُزِّلَت سَلامَتُه منه مع قُرْبِه منه بمَنزلةِ الخَلاصِ منه بعْدَ الوُقوعِ فيه؛ تَنزيلًا لِمُقارَبةِ وُقوعِ الفِعلِ مَنزلةَ وُقوعِه[2].

- والمرادُ بأهْلِه: عائلتُه إلَّا مَن حَقَّ عليه القولُ منهم، وكذلك المؤمنون مِن قَومِه؛ قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]؛ فالاقتِصارُ على أهْلِه هنا؛ لِقِلَّةِ مَن آمَنَ به مِن غَيرِهم. أو أُرِيدَ بالأهْلِ أهْلُ دِينِه، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: ٦٨]. وأشعَرَ قولُه: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ أنَّ استجابةَ دُعاءِ نُوحٍ كانتْ بأنْ أُهلِكَ قَومُه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٣٠).

قال ابن تيميَّةَ: (النَّجاةُ مِنَ الشَّرِّ لا تَستلزِمُ حُصولَه، بل تَستلزِمُ انعِقادَ سَبَبِه؛ فمَن طلَبَه أعداؤه لِيُهلِكوه ولم يَتمَكَّنوا منه، يقال: نجَّاه اللهُ منهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، ومعلومٌ أنَّ نوحًا لم يَغرَقْ ثمَّ خَلَص، بل نُجِّيَ مِن الغَرَقِ الَّذي أهلَكَ اللهُ به غيرَه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٧/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١).

- ووُصِفَ الكَرْبُ بالعظيم؛ لإفادةِ أنَّه عظيمٌ في نَوعِه، فهو غَمٌّ على غَمٍّ، والمعنيُّ به الطُّوفانُ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾

- ضَميرُ الفَصلِ في قولِه: ﴿هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ للحصْرِ، أي: لمْ يَبْقَ أحدٌ مِن النَّاسِ إلَّا مَن نجَّاهُ اللهُ مع نُوحٍ في السَّفينةِ مِن ذُرِّيَّتِه، ثمَّ مَن تَناسَلَ منهم، فلمْ يَبْقَ مِن أبناءِ آدَمَ غيرُ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، فجميعُ الأُمَمِ مِن ذُرِّيَّةِ أولادِ نُوحٍ الثَّلاثةِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿عَلَيْهِ﴾ مُتعلِّقٌ بفِعلِ ﴿وَتَرَكْنَا﴾ بتَضمينِ هذا الفِعلِ معنى (أنْعَمْنا)، فأفادَ بمادَّتِه معنى الإبقاءِ له، فكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُعدَّى هذا الفِعلُ باللَّامِ، فلمَّا ضُمِّنَ معنى (أنْعَمْنا) أفاد بمادَّتِه معنى الإبقاءِ له، أي: إعطاءَ شَيءٍ مِن الفضائلِ المدَّخرةِ الَّتي يُشْبِهُ إعطاؤُها تَرْكَ أحدٍ مَتاعًا نَفيسًا لِمَن يُخلِّيه هو له ويَخلُفُه فيه. وأفاد بتَعليقِ حَرْفِ (على) به أنَّ هذا التَّركَ مِن قَبيلِ الإنعامِ والتَّفضيلِ، وكذلك شأْنُ التَّضمينِ أنْ يُفيدَ المُضمَّنُ مُفادَ كَلمتينِ، فهو مِن أَلْطَفِ الإيجازِ. ثمَّ إنَّ مَفعولَ (تَرَكْنَا) لَمَّا كان مَحذوفًا، وكان فِعلُ (أنْعَمْنا) الَّذي ضُمِّنَه فِعلُ (تَرَكْنَا) ممَّا يَحتاجُ إلى مُتعلَّقِ معنى المفعولِ؛ كان مَحذوفًا أيضًا مع عامِلِه، فكان التَّقديرُ: وتَرَكْنا له ثَناءً وأنْعَمْنا عليه؛ فحصَلَ في قولِه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ حَذْفُ خَمْسِ كَلماتٍ، وهو إيجازٌ بَديعٌ[٣]. وذلك على قول في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٣٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- إذا كان معنى ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾: تَرَكْنا في الآخرينَ مِن الأُمَمِ أنْ يُسلِّموا عليه تَسليمًا ويَدْعوا له -على أحدِ القولينِ في التَّفسيرِ-، فما معنى ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾؛ فإنَّه كالتَّكرارِ؟

**والجوابُ**: أنَّ في إعادةِ ذِكرِ العالَمينَ الشُّمولَ والاستغراقَ؛ لئلَّا يَخرُجَ أحدٌ ممَّن يَدخُلُ في العالَمينَ مِن الملائكةِ والثَّقلينِ منه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والحاصلُ أنَّ ﴿فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ كالتَّتميمِ للمعنى السَّابقِ والمبالَغةِ فيه، ولو اكْتَفى بقولِه: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ لَقَصَّرَ عن هذا المعنى، فكان معنى: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: ثبَّتَ اللهُ التَّسليمَ على نُوحٍ وأدامَه في الملائكةِ والثَّقَلينِ يُسلِّمون عليه عن آخِرِهم[1].

- وتَنوينُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ للتَّعظيمِ[2].

- والمرادُ بالعالَمينَ: الأُمَمُ والقُرونُ، وهو كِنايةٌ عن دَوامِ السَّلامِ عليه[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ۞ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وبعْدَه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، ثم ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾، وكذلك ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾، ولم يَقُلْ في قِصَّةِ لُوطٍ ولا يُونُسَ ولا إلياسَ: ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَإِنَّ لُوطٗا لَّمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، وكذلك ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، فقد قال: سلامٌ على كلِّ واحدٍ منهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لِقَولِه في آخِرِ السُّورةِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[١].

- وزِيدَ في سَلامِ نُوحٍ وَصْفُه بأنَّه ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دونَ السَّلامِ على غَيرِه، في قِصَّةِ إبراهيمَ، ومُوسى، وهارونَ، وإلياسَ؛ للإشارةِ إلى أنَّ التَّنويهَ بنُوحٍ كان سائرًا في جَميعِ الأُمَمِ؛ لأنَّهم كلَّهم يَنتمُون إليه، ويَذكُرونه ذِكرَ صِدقٍ[٢]. وقيل: لَمَّا كان لِسانُ جَميعِ أهلِ الأرضِ في زَمانِه عليه السَّلامُ واحِدًا، فكانوا كُلُّهم قَومَه، ولم يكُنْ في زمانِه نَبيٌّ، فكانت نُبُوَّتُه قُطبَ دائرةِ ذلك الوَقتِ، فكانت رِسالتُه عامَّةً لأهلِه، وكان غيرُ النَّاسِ مِن الخَلقِ لهم تَبَعًا: خَصَّه في السَّلامِ بأن قال: ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا: قولُه تعالى في خِتامِ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ٨٠]، ثمَّ أعقَبَ قِصَّةَ إبراهيمَ وقِصَّةَ مُوسى وهارونَ وقِصَّةَ إلياسَ بمِثلِ هذا، إلَّا أنَّه ورَدَ في قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٩ - ١١٠]، فسَقَطَ منه لَفظُ (إنَّا)، وثبَتَ في القِصَصِ الأُخَرِ؛ ووَجْهُه: أنَّه تَقدَّمَ في قِصَّةِ إبراهيمَ بعَينِها قولُه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٤ - ١٠٥]، ثمَّ لَمَّا كرَّرَ لِيَنْبَنيَ عليه قولُه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١١١] كما في نَظائرِه مِن خِتامِ القصصِ الأُخَرِ، كرَّرَ هنا الجُملةَ بأسْرِها، وهي قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ لِيَنْبَنيَ عليها ما ورَدَ عِلَّةً مُوجِبةً لِجَزائهم؛ لِتَجْريَ هذه القصَّةُ مَجْرى نَظائرِها، ولم

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٤٧).

يُكرَّرْ حَرْفُ التَّأكيدِ والضَّميرُ المنصوبُ به إيجازًا واختصارًا؛ لذِكْرِه فيما تَقدَّمَ في القصَّةِ نفْسِها[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تَذْييلٌ لِمَا سبَقَ مِن كَرامةِ اللهِ نُوحًا. و(إنَّ) تُفِيدُ تَعليلًا لِمُجازاةِ اللهِ نُوحًا بما عدَّه مِن النِّعَمِ بأنَّ ذلك لأنَّه كان مُحسِنًا، أي: متُخلِّقًا بالإحسانِ[٢].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن الكَراماتِ السَّنيَّةِ الَّتي وَقَعَتْ جَزاءً له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ مع قُرْبِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتْبتِه، وبُعدِ مَنزلتِه في الفضْلِ والشَّرفِ[٣].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَعليلٌ لاستحقاقِ نُوحٍ عليه السَّلامُ المُجازاةَ الموصوفةَ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فاختلَفَ مَعلولُ هذه العِلَّةِ، ومَعلولُ العِلَّةِ الَّتي قبْلَها[٤].

- وأفادَ وَصْفُه بـ ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أنَّه ممَّن استحقَّ هذا الوصفَ، وإضافةُ وصف (عبد) إلى ضَميرِ الجلالةِ مُشعِرٌ بالتَّقريبِ، ورَفْعِ الدَّرجةِ والتَّشريفِ[٥].

- واقتُصِرَ على وَصفِ العِبادِ بالمؤمنينَ؛ تَنويهًا بشَأْنِ الإيمانِ؛ لِيَزدادَ الَّذين

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٩٢-١٠٩٥)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٤)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤١٠، ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤، ١٣٥).

آمَنوا إيمانًا، ويُقلِعَ المشرِكونَ عن الشِّركِ. وأُقحِمَ معها ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ لِتَشريفِه بتلك الإضافةِ. وفي ذلك تَنبيهٌ على عَظيمِ قَدْرِ الإيمانِ[١].

- وتَكرَّرَ وَصْفُ الرُّسلِ ومَدْحُهم بأنَّهم مِن المؤمنينَ، فمدَحَ تعالى نُوحًا وغيرَه -كإبراهيم، ومُوسى، وعِيسى عليهم السَّلامُ- بذلك، مع أنَّ مَرتبةَ الرُّسلِ فوقَ مَرتبةِ المؤمنينَ؛ تَنبيهًا لنا على جَلالةِ مَحلِّ الإيمانِ وشَرَفِه، وتَرْغيبًا في تَحصيلِه، والثَّباتِ عليه، والازديادِ منه، كما قال تعالى في مَدْحِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[٢] [البقرة: ١٣٠].

٨- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾

- حَرفُ (ثُمَّ) للتَّرتيبِ والتَّراخي الرُّتبيَّينِ[٣]؛ لأنَّ بعضَ ما ذُكِرَ قبْلَها في الكلامِ هو ممَّا حصَلَ بعْدَ مَضمونِ جُملتِها في نفْسِ الأمْرِ كما هو بيِّنٌ، ومعنى التَّراخي الرُّتبيِّ هنا أنَّ إغراقَ الَّذين كذَّبوه مع نَجاتِه ونَجاةِ أهْلِه، أعظَمُ رُتبةً في الانتصارِ له والدَّلالةِ على وَجاهتِه عندَ اللهِ تعالى، وعلى عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى ولُطْفِه. ومعنى ﴿ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾: مَن عداهُ وعَدا أهْلَه، أي: بقيَّةُ قَومِه، وفي التَّعبيرِ عنهم بالآخَرينَ ضَرْبٌ مِن الاحتقارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤، ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٥).

(٣) وقال القرطبي: («ثمَّ» ليس للتَّراخي هاهنا، بل هو لتعديدِ النِّعَم، كقَولِه: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٦، ١٧]، أي: ثمَّ أُخبِرُكم أنِّي قد أغرَقْتُ الآخَرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٨٥).

## الآيات (٨٢-٩٨)

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ
نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا
تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ
أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ
﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِيعَتِهِۦ﴾: أي: أتْباعِه وأهلِ مِلَّتِه ودِينِه ومِنهاجِه، مأخوذٌ مِن الشَّياعِ: وهو الانتِشارُ والتَّقْويةُ، وأصلُ (شيع): يَدُلُّ على مُعاضَدةٍ[1].

﴿أَئِفْكًا﴾: أي: كَذِبًا، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهتِه[2].

﴿سَقِيمٌ﴾: أي: وَجِعٌ مَريضٌ، وأصلُ (سقم): يدُلُّ على مَرَضٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٧).
وقيل: مأخوذٌ مِن الشِّياعِ، وهو الحطبُ الصِّغارُ الَّذي تُشعَلُ به النَّارُ، ويُعينُ الحطبَ الكبارَ على اتِّقادِ النَّارِ. يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠).

﴿ فَرَاغَ ﴾: أي: مال في خُفيةٍ، وأصلُ (روغ): يدُلُّ على مَيلٍ[١].

﴿يَزِفُّونَ ﴾: أي: يُسرِعونَ، وأصلُ (زفف): يدُلُّ على خِفَّةٍ في كُلِّ شَيءٍ[٢].

﴿نَنْحِتُونَ ﴾: أي: تَصنَعونَ، والنَّحتُ: النَّجْرُ والبَرْيُ، وأصل (نحت): يدُلُّ على نَجرِ شَيءٍ وتَسويتِه[٣].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾

قوله: ﴿أَئِفْكًا ﴾: في نصْبِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنه مفعولٌ مِن أجْلِه، قُدِّمَ على المفعولِ به ﴿ءَالِهَةً ﴾؛ اهتمامًا، أي: أتُريدون آلهةً دونَ اللَّهِ إفكًا؟! الثَّاني: أن يكونَ مفعولًا به بـ ﴿تُرِيدُونَ ﴾، ويكونَ ﴿ءَالِهَةً ﴾ بدَلًا منه؛ جعَلَ الآلهةَ نفْسَ الإفكِ مُبالَغةً، فأبدلَها منه. الثَّالثُ: أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿تُرِيدُونَ ﴾، أي: أتُريدونَ آلهةً آفِكينَ[٤]؟!

## المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ نبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: وإنَّ مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١١٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٩١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣١٩).

أتْباعِ نُوحٍ وعلى طريقتِه ومِنهاجِه لَإبراهيمَ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ- إذ جاء إبراهيمُ ربَّه بقَلبٍ مُخلِصٍ، سَليمٍ مِنَ الشِّركِ؛ إذ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه: ما هذا الَّذي تَعبُدونَه مِن دونِ اللهِ، أتُريدونَ صَرْفَ الحَقِّ عن وَجهِه الصَّحيحِ باتِّخاذِكم مَعبودًا مِن دونِ اللهِ؟! فما ظنُّكم برَبِّكم رَبِّ العالَمينَ؟!

فنَظَر إبراهيمُ نَظرةً في النُّجومِ إيهامًا لهم أنَّه يَجري على عادتِهم بالنَّظَرِ في النُّجومِ، واعتقادِ تأثيرِها، ثمَّ قال لِقَومِه بعدَ أن نظَرَ في النُّجومِ: إنِّي مريضٌ! فانصرَفَ قَومُه عنه وتَرَكوه، فتوجَّهَ إلى أصنامِهم في سُرعةٍ وخُفيةٍ، فقال لها مُخاطِبًا: ألَا تأكُلونَ هذا الطَّعامَ الموضوعَ لكم، ما لَكم لا تَنطِقونَ؟!

فأقْبَلَ على الأصنامِ بسُرعةٍ يَضرِبُها بقُوَّةٍ بيدِه اليمنَى، فأقبَلَ قومُ إبراهيمَ إليه مُسرِعينَ، فقال لهم إبراهيمُ: أتَعْبُدونَ أشياءَ تَنحِتونَها بأيديكم، واللهُ خلَقَكم وخلَقَ الَّذي تَعمَلونَه مِن أصنامِكم، فكيف تَعبُدونَها وهي مخلوقةٌ؟! فقال قَومُ إبراهيمَ: ابنُوا له بُنيانًا عاليًا، وأوقِدوا نارًا شَديدةً، فارمُوه فيها؛ جزاءً على ما فَعَل بآلهتِكم. فأرادوا أن يَمكُروا به ويُحرِقوه بالنَّارِ، فأنقَذَه اللهُ تعالى منها، وجعَلَهم الأذَلِّينَ المغلوبينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ٨٣﴾.

أي: وإنَّ مِن أتْباعِ نُوحٍ وأهلِ دينِه، وعلى طريقتِه ومِنهاجِه: إبراهيمَ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٦).

قال الرسعني: (عامَّةُ المفسِّرينَ ذهَبوا إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿شِيعَتِهِۦ﴾ يرجِعُ إلى نوحٍ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٩٧).

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: حينَ جاء إبراهيمُ ربَّه -الَّذي أحسَنَ تَربيتَه-[1] بقَلبٍ مُخلِصٍ لله، سَليمٍ مِنَ الشِّركِ والشَّكِّ، والشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ، ومَساوي الأخلاقِ؛ كالغِلِّ، والحِقدِ، والحَسَدِ[2].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ أنَّ إبراهيمَ جاء رَبَّه بقَلبٍ سَليمٍ؛ ذكَرَ أنَّ مِن جُملةِ آثارِ

---

(١) قيل: يحتمِلُ مجيئُه إلى رَبِّه وجهَينِ؛ أحدُهما: عندَ دعائِه إلى توحيدِه وطاعتِه. الثَّاني: عندَ إلقائِه في النَّارِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٩٢).

قال ابن جزي: (﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ عبارةٌ عن إخلاصِه وإقبالِه بكلِّيتِه على الله تعالى، وليس المرادُ المجيءُ بالجسدِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٧).

قال الزَّمخشري: (فإنْ قُلتَ: بمَ تعلَّق الظَّرفُ؟ قُلتُ: بما في الشِّيعةِ مِن معنى المُشايَعةِ، يعني: وإنَّ مِمَّن شايَعَه على دينِه وتَقْواه حينَ جاء رَبَّه بقَلبٍ سليمٍ: لَإبراهيمَ. أو بمحذوفٍ، وهو: اذكُرْ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨).

وممَّن اختار نحوَ القولِ الأوَّلِ: الرَّازي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٢).

وممَّن رجَّح القولَ الثَّانيَ -وهو أنَّ ﴿إِذْ﴾ مُتعلِّقةٌ بفِعلٍ محذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ-: الشوكانيُّ، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

تلك السَّلامةِ: أنْ دعا أباه وقَومَه إلى التَّوحيدِ[١]، فقال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: حينَ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه الَّذين يَعبُدونَ الأصنامَ: ما هذا الَّذي أنتم تُواظِبونَ على عبادتِه[٢]؟!

كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ * قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٢ - ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٠ - ٧٧].

﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: أتُريدونَ صَرْفَ الحَقِّ عن وَجهِه الصَّحيحِ، باتِّخاذِكم مَعبودًا مِن دونِ اللهِ، الَّذي لا يَستَحِقُّ العبادةَ أحَدٌ سِواه[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٠).
قال الشَّوكاني: (قَولُه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدَلٌ مِن الجُملةِ الأُولى، أو ظرفٌ لـ ﴿سَلِيمٍ﴾، أو ظرفٌ لـ ﴿جَآءَ﴾، والمعنى: وقْتَ قال لأبيه آزَرَ وقَومِه مِن الكُفَّارِ: أيَّ شَيءٍ تَعبُدونَ؟). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٩٤، ١٩٥).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: قال إبراهيمُ لِقَومِه: فما الَّذي تَظُنُّونَ أنَّ اللهَ فاعِلٌ بكم إذا لَقِيتُموه وقد عَبدتُم غَيرَه؟! وما الَّذي ظَننتُم به مِنَ السُّوءِ والنَّقصِ حتَّى أحوَجَكم ذلك إلى أنْ تجعَلوا له شُرَكاءَ مِن خَلْقِه[1]؟!

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا وَبَّخ قَومَه على عبادةِ غيرِ اللهِ، أراد أن يُرِيَهم أنَّ أصنامَهم لا تَنفَعُ ولا تَضُرُّ؛ فعَهِدَ إلى ما يَجعَلُه مُنفَرِدًا بها حتَّى يَكسِرَها، ويُبيِّنَ لهم حالَها وعَجْزَها[2].

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: فنَظَر إبراهيمُ عليه السَّلامُ نَظرةً في النُّجومِ؛ موهِمًا لقومِه -وكانوا أهلَ تَنجيمٍ- أنَّه يَعتمِدُ عليها، ومُظهِرًا لهم أنَّه يَستدِلُّ بها على شَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٢٥)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٩٥، ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٨)، =

﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾﴾.

أي: فقال إبراهيمُ لِقَومِه بعدَ أنْ نَظَر نَظرةً في النُّجومِ: إنِّي مريضٌ؛ لِيَترُكوه وَحْدَه، فيَتِمَّ له تنفيذُ ما أراد مِن الكَيدِ لأصنامِهم[1].

---

= ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢١٥).

قال ابن الجوزي: (﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ فيه قولانِ؛ أحدُهما: أنَّه نظَرَ في عِلمِ النُّجومِ... والثَّاني: أنَّه نظَرَ إلى النُّجوم، لا في عِلْمِها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ قُتَيْبَة، وقال: (قولُه: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ ولم يَقُلْ: إلى النُّجومِ. وهذا كما يقالُ: فُلانٌ يَنظُرُ في النُّجوم، إذا كان يَعرِفُ حسابَها، وفُلانٌ يَنظُرُ في الفقهِ والحسابِ والنَّحوِ. وإنَّما أراد بالنَّظرِ فيها: أن يُوهِمَهم أنَّه يَعلَمُ منها ما يَعلَمون، ويَتعرَّفُ في الأمورِ مِن حيث يَتعرَّفون، وذلك أبلَغُ في المِحالِ، وألْطَفُ في المَكِيدةِ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٠١، ٢٠٢).

وقال الزمخشري: (﴿فِي ٱلنُّجُومِ﴾: في علمِ النُّجومِ، أو في كتابِها، أو في أحكامِها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ أي: أنَّه نظَر إلى النجوم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، وابن الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٢٧).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢، ١٤٣).

اختُلِف في قولِه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾؛ فقيل: أي: سأسْقَمُ. وممَّن اختاره: ابنُ قُتَيبَةَ، والسمرقندي، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٣).

قال القرطبي: (فالمعنى: إنِّي سَقيمٌ فيما أستقبِلُ، فتَوَهَّموا هم أنَّه سقيمٌ السَّاعةَ، وهذا مِن مَعاريضِ الكلامِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٣). =

= واسمُ الفاعلِ يُستعمَلُ بمعنَى المُستقبَلِ كثيرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ [الزمر: ٣٠] أي: ستَمُوتُ، ولقد صَدَق عليه السَّلامُ؛ فإنَّ كُلَّ إنسانٍ لا بُدَّ أن يَسقَمَ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٧٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٩١).

وقيل: أراد أنَّه سَقيمُ القَلبِ لِكُفرِهم، فظهَرَ لهم مِن كلامِه أنَّه أراد سقمًا بالجسدِ حاضرًا، فهذا مِن المَعاريضِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٨).

قال البِقاعي: (أوْهَمَ أنَّ مُرادَه أنَّه مريضُ الجسَدِ، وأراد أنَّه مريضُ القلبِ بسببِ آلهتِهم، مُقسَّمُ الفِكرِ في أمْرِهم؛ لأنَّه يريدُ أمرًا عظيمًا، وهو كَسْرُها). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٥٤).

قال ابنُ جُزَي بعدَ ذِكرِ هذَينِ القولَينِ -أي: أنَّه سقيمٌ فيما يُستقبَلُ، أو أنَّه سقيمُ النَّفْسِ-: (وهذان التَّأويلانِ أَوْلى؛ لأنَّ نَفْيَ الكذِبِ بالجملةِ مُعارِضٌ للحديثِ، والكذبَ الصُّراحَ لا يجوزُ على الأنبياءِ عندَ أهلِ التَّحقيقِ، أمَّا المَعاريضُ فهي جائزةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٤).

وقيل: أوهَمَهم أنَّه مطعونٌ، أي: به مرضُ الطَّاعونِ، فخافوا منه، وتَباعَدوا عنه. وممَّن اختار هذا القولَ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ونسَبَه الواحديُّ لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٧١). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٧٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٨).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: كانوا يَتعاطَون عِلمَ النُّجوم، فعامَلَهم مِن حيث كانوا؛ لئلَّا يُنكِروا عليه؛ وذلك أنَّه أراد أن يُكايدَهم في أصنامِهم ليُلزِمَهم الحُجَّةَ في أنَّها غيرُ معبودةٍ، وكان لهم مِن الغَدِ يومٌ يَخرُجون إليه، فأراد أن يَتخلَّفَ عنهم، فاعتلَّ بالسَّقَمِ). ((الوسيط)) (٣/ ٥٢٨).

قال الألوسي: (﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾ ... أوهَمَهم أنَّه تفَكَّر في أحوالِها مِن الاتِّصالِ والتَّقابُلِ ونَحوِهما مِن الأوضاعِ الَّتي تدُلُّ بزَعمِهم على الحوادِثِ؛ لِيُرتِّبَ عليه ما يَتوصَّلُ به إلى غرَضِه الَّذي يكونُ وَسيلةً الى إنقاذِهم مِمَّا هم فيه، والظَّاهِرُ بعدَ اعتبارِ الإيهامِ أنَّه إيهامُ التَّفَكُّرِ في إحكامِ طالعِ ولادتِه عليه السَّلامُ، وما يدُلُّ عليه بزَعمِهم ما تجدَّد له مِن الأوضاعِ في ذلك الوَقتِ، وهذا مِن معاريضِ الأفعالِ نَظيرُ ما وقَعَ في قصَّةِ يوسُفَ عليه السَّلامُ مِن تفتيشِ أوعيةِ إخوتِه بني عَلَّاتِه قبْلَ وِعاءِ شَقيقِه؛ فإنَّ المُفتِّشَ بدأ بأوعيتِهم مع عِلمِه أنَّ الصَّاعَ ليس فيها، وأخَّرَ تفتيشَ وِعاءِ أخيه مع عِلمِه بأنَّه فيها؛ تعريضًا بأنَّه لا يَعرِفُ في أيِّ وِعاءٍ هو، ونَفْيًا للتُّهمةِ عنه لو =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لم يَكذِبْ إبراهيمُ النَّبيُّ عليه السَّلامُ قَطُّ إلَّا ثلاثَ كَذَباتٍ[١]: ثِنتينَ في ذاتِ اللهِ؛ قَولُه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، وقَولُه: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، وواحِدةً في شأنِ سارةَ))[٢].

﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ۝٩٠﴾.

أي: فانصَرَف قَومُ إبراهيمَ عنه وخَلَّفوه وراءَ ظُهورِهم، بحيثُ لا يَرَونَه[٣].

---

= بدأ بوعاءِ الأخِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٩٨).

وقال ابنُ عاشور: (لم يكُنْ في لُغةِ قَومِ إبراهيمَ التَّشبيهُ البليغُ، ولا المَجازُ، ولا التَّهَكُّمُ؛ فكان ذلك عندَ قَومِه كَذِبًا، وأنَّ اللهَ أذِنَ له فِعْلَ ذلك، وأعلَمَه بتأويلِه، كما أذِنَ لأيُّوبَ أن يأخُذَ ضِغثًا مِن عِصِيٍّ، فيَضرِبَ به ضَربةً واحِدةً لِيُبِرَّ قَسَمَه؛ إذ لم تكُن الكَفَّارةُ مَشروعةً في دينِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣).

(١) قال ابنُ كثير: (ليس هذا مِن بابِ الكَذِبِ الحقيقيِّ الَّذي يُذَمُّ فاعِلُه، حاشا وكَلَّا، وإنَّما أُطلِقَ الكَذِبُ على هذا تَجَوُّزًا، وإنَّما هو مِن المَعاريضِ في الكَلامِ؛ لِمَقصَدٍ شَرعيٍّ دينيٍّ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤، ٢٥).

وقال ابن تيميَّةَ: (الكَذِبُ على الشَّخصِ حرامٌ كُلُّه، سواءٌ كان الرَّجُلُ مُسلِمًا أو كافرًا، بَرًّا أو فاجرًا .. ولكنْ تُباحُ عندَ الحاجةِ الشَّرعيَّةِ المَعاريضُ، وقد تُسمَّى كَذِبًا؛ لأنَّ الكلامَ يَعني به المتكَلِّمُ مَعنًى، وذلك المعنى يريدُ أن يَفهمَه المُخاطَبُ، فإذا لم يَكُنْ على ما يَعنيه فهو الكَذِبُ المحضُ، وإن كان على ما يَعنيه ولكِنْ ليس على ما يَفهَمُه المُخاطَبُ فهذه المعاريضُ، وهي كَذِبٌ باعتبارِ الإفهامِ، وإن لم تكنْ كَذِبًا باعتبارِ الغايةِ السَّائغةِ، ومنه قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لم يَكذِبْ إبراهيمُ إلَّا ثلاثَ كَذَباتٍ...))، وهذه الثَّلاثةُ مَعاريضُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٢٢٣).

(٢) رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّهم تَوَلَّوا عن إبراهيمَ مُدبِرين عنه؛ خَوفًا مِن أن يُعدِيَهم السَّقَمُ الَّذي ذَكَرَ أنَّه به. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٦٩). =

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٩١ ﴾.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ ﴾.

أي: فحاد إبراهيمُ عن الخُروجِ مع قَومِه مُتوجِّهًا إلى أصنامِهم في سُرعةٍ وخُفيةٍ، بنَشاطٍ وهِمَّةٍ وخِفَّةٍ(١).

كما قال اللهُ تعالى حاكيًا قَولَ إبراهيمَ: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴾.

أي: فقال مُخاطِبًا الأصنامَ(٢): ألَا تأكُلونَ هذا الطَّعامَ الموضوعَ بينَ أيديكم(٣)؟!

﴿ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ٩٢ ﴾.

---

= وقيل: صِيغةُ التَّفَعُّلِ في قَولِه تعالى: ﴿ فَتَوَلَّوۡاْ ﴾ تدُلُّ على استِبعادِهم مَرَضَه، إلَّا أنَّهم ترَكوه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣).

(٢) قال الكِرماني: (الجمهورُ على أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قال هذا استِهزاءً بالأصنامِ). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ٩٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣، ١٤٤).

قال القرطبي: (قيل: كان بيْنَ يَدَيِ الأصنامِ طَعامٌ تَرَكوه؛ لِيَأكُلوه إذا رَجَعوا مِنَ العيدِ، وإنَّما تَرَكوه لِتُصيبَه بَرَكةُ أصنامِهم، بزَعمِهم. وقيلَ: تَرَكوه للسَّدَنةِ. وقيل: قَرَّب هو إليها طعامًا؛ على جهةِ الاستِهزاءِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٤).

وقيل: كانت السَّدَنةُ تَزعُمُ أنَّ الأصنامَ تأكُلُ الطَّعامَ الَّذي يَضَعونَه بيْنَ يَدَيْها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

أي: ما الَّذي يَمنَعُكم مِن أن تَنطِقوا[١]؟!

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾.

أي: فأقْبَلَ إبراهيمُ على الأصنامِ بسُرعةٍ ونَشاطٍ وهِمَّةٍ، يَضرِبُها بيَدِه اليُمنى بقُوَّةٍ وشِدَّةٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

أي: فأقْبَلَ قَومُ إبراهيمَ إليه وهم يُسرِعونَ في رَكضِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ [الأنبياء: ٥٩ - ٦٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

قال السمعاني: (قولُه: ﴿بِالْيَمِينِ﴾ فيه أقوالٌ؛ أحَدُها أنَّ معناه: يَضْرِبُهم بيمينِه، ومعنى يَضْرِبُهم أي: يَكسرُهم. ويقالُ: باليمينِ أي: بالقوَّةِ. والقولُ الثَّالثُ: باليمينِ أي: باليمينِ الَّتي سبَقَتْ منه، وهو قولُه تعالَى: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لهم: أتَعبُدونَ أشياءَ أنتم تَنحِتونَها بأيديكم[1]؟!

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

أي: والحالُ أنَّ اللهَ خلَقَكم وخَلَق الَّذي تَعمَلونَه مِن أصنامِكم، فكيف تَعبُدونَها وهي مخلوقةٌ لا خالِقةٌ[2]؟!

عن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٢)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٦، ٨٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١، ٥٢)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٢١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥).

ذهب كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ إلى أنَّ «ما» في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ مَوصولةٌ؛ بمعنى الَّذي. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام، والواحديُّ، والزمخشري، وابنُ تيميَّة، وابنُ القيِّم، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٧٧).

قال ابنُ جُزَي: (وهذا أَلْيَقُ بسياقِ الكلامِ، وأقوَى في قصدِ الاحتجاجِ على الَّذين عبَدوا الأصنامَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٥).

ورجَّح القرطبي أن تكونَ (مَا) مَصدريَّةً، أي: واللهُ خلَقَكم وعمَلَكم، واستظهَرَه ابنُ كثير، وردَّه الزمخشريُّ، وضَعَّفه ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٤٦- ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٢).

قال ابنُ كثير: (وكِلا القولَينِ مُتلازِمٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦).

خلَقَ كُلَّ صانِعٍ وصَنْعتَه))[١].

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا أورَدَ على قَومِه الحُجَّةَ القَويَّةَ، ولم يَقدِروا على الجَوابِ؛ عَدَلوا إلى طريقِ الإيذاءِ[٢].

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾.

أي: قال قَومُ إبراهيمَ: ابنُوا له بُنيانًا[٣] وأوقِدوا نارًا حتَّى تَشتَدَّ، فارمُوا إبراهيمَ فيها؛ جزاءً له على ما فَعَل بآلهتِهم[٤].

كما قال اللهُ تعالى: ﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

---

(١) أخرجه البزَّار (٢٨٣٧)، والحاكم (٨٦)، والبيهقي في ((شُعَب الإيمان)) (١٨٧) واللَّفظُ له. صحَّحه الحاكِمُ على شَرطِ مُسلم، وصحَّحه أيضًا ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (١/ ١١٤)، وابنُ حجرٍ في ((فتح الباري)) (١٣/ ٤٩٨)، والألبانيُّ في تخريج كتاب ((السنة)) (٣٥٧)، ويُنظر: ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٦٣٧). وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٢٠٠): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٤).

(٣) قيل: ﴿بُنْيَٰنًا﴾ عاليًا مُرتَفِعًا، وأوْقَدوا فيه النارَ، والمفسِّرونَ يَذْكرونَ مِن شدَّتِها وارتفاعِ لهبِها، وكثرةِ حطبِها شيئًا هائلًا. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٦٣).
وقيل: بنَوا له بُنيانًا يُشبِهُ التَّنُّورَ، ثمَّ نقلوا إليه الحطبَ، وأوْقَدوا عليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥).
وقيل: بل كان البُنيانُ للمَنْجَنِيقِ، الَّذي رُمِيَ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥).

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: ((«حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» قالها إبراهيمُ عليه السَّلامُ حينَ أُلقِيَ في النَّارِ، وقالها مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]))[١].

﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾.

أي: فأراد قَومُ إبراهيمَ أن يَمكُروا به، بتدبيرِ ما فيه هلاكُه، وبُطلانُ أمْرِه، وعلُوُّ أمْرِهم، وذلك بإحراقِه بالنَّارِ؛ فأنقذَه اللهُ تعالى منها، وأبطَلَ كَيْدَ قَومِه، وجعَلَهم هم الأذَلِّينَ المغلوبينَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٩، ٧٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

٩- عِمادُ مِلَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ هو المتفرِّعُ عن قَولِ الله تعالى: ﴿جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، وذلك جِماعُ مَكارمِ الأخلاقِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ أنَّ قُربَ النَّسَبِ مِن أهلِ الخيرِ لا يُفيدُ الإنسانَ شيئًا؛ فإبراهيمُ بالنِّسبةِ لأبيه أقرَبُ

---

(١) رواه البخاري (٤٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٨، ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٧).

شَيءٍ؛ لأنَّه بَضْعةٌ منه، ومع ذلك لم يَنتفعْ به أبوه، بل كان مُشرِكًا يُحَاجُّ ولدَه على ذلك[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أنَّ مَن يَتعالى على الحقِّ فإنَّ اللهَ تعالى يُجازيه بنَقيضِ قَصدِه؛ لأنَّ هؤلاء أرادوا العُلُوَّ والفَسادَ في الأرضِ، فعامَلَهم اللهُ تعالى بنَقيضِ قَصدِهم؛ فجعَلَهم الأسفَلينَ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أنَّ أصلَ دِينِ الأنبياءِ واحِدٌ؛ فكلُّهم شِيعةٌ للآخَرِ، مُقَوٍّ لِدَعوتِه[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ جُعِل إبراهيمُ مِن شيعةِ نُوحٍ؛ لأنَّ نُوحًا قد جاءت رُسُلٌ على دينِه قبْلَ إبراهيمَ؛ منهم: هودٌ وصالحٌ؛ فقد كانا قبْلَ إبراهيمَ؛ لأنَّ القُرآنَ ذكَرَهما غيرَ مَرَّةٍ عَقِبَ ذِكرِ نُوحٍ، وقَبْلَ ذِكرِ لُوطٍ مُعاصِرِ إبراهيمَ؛ ولِقَولِ هودٍ لِقَومِه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ولِقَولِ صالحٍ لِقَومِه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقَولِ شُعَيبٍ لِقَومِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]؛ فجعَلَ قَومَ لوطٍ أقرَبَ زَمنًا لِقَومِه دونَ قَومِ هُودٍ وقَومِ صالحٍ، وكان لوطٌ مُعاصِرَ إبراهيمَ؛ فهؤلاء كُلُّهم شيعةٌ لِنُوحٍ، وإبراهيمُ مِن تلك الشِّيعةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ١٣٥).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ فيه عنايةُ اللهِ سبُحانه وتعالى بإبراهيمَ عليه السَّلامُ، وذلك بإضافةِ الرُّبوبيَّةِ إليه، وهذه رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ، والرُّبوبيَّةُ الخاصَّةُ تقتضي عنايةً أكثرَ مِن الرُّبوبيَّةِ العامَّةِ؛ لأنَّ المَربوبينَ بالرُّبوبيَّةِ العامَّةِ شَمِلَتْهم الرَّحمةُ العامَّةُ، لكنْ في الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ يكونُ لهم الرَّحمةُ الخاصَّةُ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ صِحَّةُ نسبةِ القَومِ إلى الرَّسولِ وإنْ كَذَّبوه، والانتسابُ بالنَّسَبِ لا يعني التَّبرُّؤَ مِن الدِّينِ، فيَصِحُّ أنْ يَنتَسِبَ الإنسانُ إلى أبيه الكافِرِ، ولا يقالُ: إنَّ هذا مِن بابِ المُوالاةِ، بل هذا مِن بابِ الحقيقةِ، والنَّسَبُ لا يَزولُ باختِلافِ الدِّينِ أبدًا، وانظُرْ إلى قَولِه تعالى للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، فأضافَهم إليه مع نِسبةِ تَكذيبِه إليهم، وهذا يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ قد يكونُ مِن قومٍ كافرينَ ويُنسَبُ إليهم، وأنَّ ذلك لا يَخدِشُ في دِينِه[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ بيانُ قُبحِ ما كان عليه المُشرِكون قبْلَ النَّهيِ، وقبْلَ إنكارِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عليهم؛ ولهذا استَفهمَ استِفهامَ مُنكِرٍ، فقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: وخَلَقَ ما تَنحِتونَ، فكيف يجوزُ أنْ تَعبُدوا ما تَصنَعونَه بأيديكم، وتَدَعونَ ربَّ العالَمينَ؟! فلولا أنَّ حُسنَ التَّوحيدِ وعبادةِ اللهِ تعالى وَحْدَه لا شريكَ له، وقُبْحَ الشِّركِ: ثابتٌ في نَفْسِ الأمرِ، مَعلومٌ بالعَقلِ؛ لم يُخاطِبْهم بهذا؛ إذْ كانوا لم يَفعَلوا شيئًا يُذَمُّونَ عليه، بل كان فِعْلُهم كأكْلِهم وشُرْبِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٨١، ٦٨٢). =

٦- أنَّ الشِّركَ والتَّعطيلَ مَبنيَّانِ على سُوءِ الظنِّ باللهِ تعالى؛ ولهذا قال إبراهيمُ -إمامُ الحُنَفاءِ- لخُصَمائِه مِن المُشرِكين: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وإنْ كان المعنى: ما ظنُّكم به أنْ يُعامِلَكم ويُجازيَكم به، وقد عبَدْتُم معه غيرَه، وجعلتُم له نِدًّا؟! فأنت تَجِدُ تحتَ هذا التَّهديدِ: ما ظننتُم برَبِّكم مِن السُّوءِ حتَّى عبدْتُم معه غيْرَه[1]؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أنَّ الكَذِبَ مَقرونٌ بالشِّركِ[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إقامةُ الحُجَّةِ على الخَصمِ بما لا يُنكِرُه؛ لأنَّ العالَمَ يَشملُ حتَّى آلهتَهم الَّتي يَعبُدونَها، فإذا كانت آلهتُهم مَربوبةً فكيف يُمكِنُ أنْ تكونَ مَعبودةً؟! هذا تَناقُضٌ؛ فإنَّ مَن أقَرَّ بانفرادِ اللهِ بالرُّبوبيَّةِ لَزِمَه أن يُقِرَّ بانفرادِه بالألوهيَّةِ وإلَّا صار مُتناقِضًا؛ إذْ لا يَستَحِقُّ العبادةَ إلَّا الرَّبُّ الخالِقُ المالِكُ المُدَبِّرُ، ومَن لم يكُنْ كذلك فإنَّه لا يَستَحِقُّ أنْ يُعبَدَ[3].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ جوازُ التَّوريةِ، وهي: أنْ يُظْهِرَ للمُخاطَبِ ما لا يُريدُه، ويَفهَمَ منه المُخاطَبُ معنًى غيرَ المرادِ[4].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾، لم يَقُلْ: (إلى النُّجومِ)، مع

---

= فالشِّركُ والظلمُ والكذبُ والفواحشُ ونحوُ ذلك قبحُها معلومٌ قبلَ مجيءِ الرَّسولِ، لكنَّ العقوبةَ إنَّما تُستحَقُّ بمجيءِ الرَّسولِ، وعلى هذا عامةُ السَّلفِ وأكثرُ المسلمينَ، وعليه يدلُّ الكتابُ والسُّنةُ؛ فإنَّ فيهما بيانَ أنَّ ما عليه الكفارُ هو شرٌّ وقبيحٌ وسيئٌ قبلَ الرُّسلِ، وإن كانوا لا يستحقُّون العقوبةَ إلَّا بعدَ مجيءِ الرَّسولِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٧).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٠).

أنَّ النَّظَرَ إنَّما يتعدَّى بـ (إلى)، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؛ وفي ذلك وَجهانِ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: لأنَّ (في) بمعنى (إلى)، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فِيٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٩].

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ النَّظَرَ هنا بمعنى الفِكرِ، وهو يَتعدَّى بـ (في) كما في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]؛ فصار المعنى: ففكَّرَ في عِلمِ النُّجومِ[١].

١١- ليس في قولِه تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ﴾ ما يدُلُّ على أنَّ للنجومِ دَلالةً على حدوثِ شَيءٍ مِن حوادثِ الأُمَمِ ولا الأشخاصِ، ومَن يَزعُمْ ذلك فقد ضلَّ[٢]؛ لأنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إنَّما قال هذا لِيَدفَعَ به قَومَه عن نفْسِه، ألَا ترى أنَّه عزَّ وجَلَّ قال بعدُ: ﴿فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾؛ فبَيَّنَ تبارك وتعالى أنَّه إنَّما قال ذلك ليَدْفَعَهم به لِمَا كان عَزَمَ عليه مِن أمْرِ الأصنامِ، وليس يَحتاجُ أحَدٌ إلى مَعرفةِ: أَصحيحٌ هو أمْ سقيمٌ مِن النُّجومِ؛ لأنَّ ذلك يُوجَدُ حِسًّا، ويُعلَمُ ضَرورةً، ولا يُحتاجُ فيه إلى استِدلالٍ وبَحثٍ[٣]!

١٢- قَولُه تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾ فيه جوازُ إسنادِ الوَصفِ إلى الإنسانِ باعتبارِ المستقبَلِ؛ فإنَّه الآنَ ليس بسقيمٍ، لكنْ كلُّ إنسانٍ عُرضةٌ لِأنْ يَسقَمَ[٤]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٨٥، ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١١).

١٣- قوله تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فيه استِعمالُ المعاريضِ؛ للمَصلَحةِ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ أنَّ الكلامَ صِفةُ كَمالٍ، كما أنَّ العِلمَ والقُدرةَ والسَّمعَ والبَصَرَ صِفةُ كَمالٍ، وأنَّ المتَكَلِّمَ أكمَلُ ممَّن لا يتكَلَّمُ، كما أنَّ الحيَّ أكمَلُ مِن الجَمادِ؛ ولهذا عاب اللهُ الجَماداتِ المعبودةَ بأنَّها لا تَتكلَّمُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [طه: ٨٩]، وكذلك قَولُ الخَليلِ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾، سواءٌ كان المرادُ بيانَ أنَّ العابدَ أكمَلُ مِن مَعبودِه، وهذا مُمتَنِعٌ، أو بيانَ أنَّ المعبودَ يجِبُ أنْ يكونَ مُتَّصِفًا بصِفاتِ الكَمالِ[٢].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ يُنبِئُ عن رِباطةِ جَأْشِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ إذ لم يَتلَقَّ القَومَ بالاعتِذارِ ولا بالاختِفاءِ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ الإنكارُ على أهلِ الباطلِ بباطِلِهم عن طريقِ العَقلِ، والاحتِجاجُ على أهلِ الباطلِ بباطِلِهم عن طريقِ العَقلِ، أي: كيف تَنحِتونَه أنتم وتَصنَعونَه أنتم، ثمَّ بعدَ ذلك تَعبُدونَه؟! أليس الأَولى مِن النَّاحيةِ العَقليَّةِ أنْ يكونَ هذا المنحوتُ هو الَّذي يَعبُدُكم؟ لأنَّكم أنتم الَّذين نَحَتُّموه وأوجَدْتُموه، ولكِنَّ عُقولَهم مُنتَكِسةٌ، فصار الأمرُ بالعَكسِ؛ يَعبُدونَ ما يَنحِتونَ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨).

قال النووي: (قال العلماءُ: فإنْ دعَتْ إلى ذلك مصلحةٌ شرعيةٌ راجحةٌ على خداعِ المخاطَبِ أو حاجةٌ لا مندوحةَ عنها إلَّا بالكذبِ، فلا بأسَ بالتَّعريضِ، وإن لم يكنْ شيءٌ مِن ذلك فهو مكروهٌ وليس بحرام، إلَّا أنْ يُتوصَّلَ به إلى أخذِ باطلٍ أو دفعِ حقٍّ، فيصيرَ حينئذٍ حرامًا، هذا ضابطُ البابِ). ((الأذكار)) (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١٥).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أنَّ قومَ إبراهيمَ كانوا مُقِرِّينَ بالصَّانِعِ(١).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إقامةُ الدَّليلِ على أنَّ اللهَ وَحْدَه هو الَّذي يَستَحِقُّ أنْ يُعبَدَ؛ لِقَولِه: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، فالخالقُ هو الَّذي يجِبُ أنْ يُعبَدَ(٢). فهو استدلالٌ بتوحيدِ الربوبيةِ على توحيدِ الإلهيةِ، وهذه طريقةُ القرآنِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أنَّ أعمالَ العِبادِ مخلوقةٌ لله، سواءٌ جَعَلْنا «ما» مَصدريَّةً أمْ مَوصولةً؛ إنْ جعَلْناها مَصدريَّةً فالأمرُ واضِحٌ: «خَلَقَكم وخَلَقَ عَمَلَكم»، وإن جعَلْناها موصولةً؛ فلأنَّه إذا كان خالِقًا لِما يَعمَلونَه مِن المنحوتاتِ لَزِمَ أن يكونَ هو الخالِقَ للتَّأليفِ الَّذي أحدَثوه فيها؛ فإنَّها إنَّما صارت أوثانًا بذلك التَّأليفِ، وإلَّا فهي بدونِ ذلك ليست مَعمولةً لهم، وإذا كان خالِقًا للتَّأليفِ كان خالِقًا لأفعالِهم؛ فخَلْقُ المعمولِ فَرعٌ عن خَلقِ العَمَلِ.

وأيضًا فنَفْسُ حَرَكاتِهم تدخُلُ في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾؛ فإنَّ أعراضَهم داخِلةٌ في مُسمَّى أسمائِهم؛ فالله تعالى خلَقَ الإنسانَ بجَميعِ أعراضِه، وحرَكاتُه مِن أعراضِه، فقد تبيَّنَ أنَّه خَلَق أعمالَهم بقَولِه: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ﴾، وما تولَّدَ عنها مِن النَّحتِ والتَّصويرِ بقَولِه: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾؛ فثَبَت أنَّها دالَّةٌ على أنَّه خالِقُ هذا وهذا، وهو المطلوبُ؛ فهذه الآيةُ فيها رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين أنكَروا أنْ يكونَ لله سُبحانَه وتعالى شأنٌ في أعمالِ بني آدَمَ، وقالوا: إنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١٥).

وليس لله فيه إرادةٌ ولا خَلْقٌ[١]!

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ رَدٌّ على الجَبريَّةِ الَّذين يَقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه! وجْهُ الرَّدِّ: أنَّه أضاف العَمَلَ إليهم، فقال: ﴿تَعْمَلُونَ﴾، وإضافةُ العَمَلِ إلى الإنسانِ تقتضي أنَّه هو العامِلُ، وهو الفاعِلُ حقيقةً، وهو كذلك[٢].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أرادوا بإبراهيمَ عليه السَّلامُ كيدًا، فأبطَلَ اللهُ مَكْرَهم، وجعَلَهم الأخسَرينَ الأسفَلينَ، وكذا عادةُ مَن غُلِبَ بالحُجَّةِ، رجَعَ إلى الكَيدِ[٣]!

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ بيانُ ما يُكِنُّه أعداءُ الإسلامِ للمُسلِمينَ وللإسلامِ مِن إرادةِ الكَيدِ بالإسلامِ وأهلِه، وهذا كما أنَّه في الأُمَمِ السَّابقةِ فيكونُ في الأُمَمِ اللَّاحِقةِ؛ لِقَولِ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[٤] [الفرقان: ٣١].

٢٣- قَولُه تعالى: ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا﴾ فيه الرَّدُّ على الجَبريَّةِ؛ فهم يَنفُونَ أنْ يكونَ للإنسانِ إرادةٌ في فِعلِه؛ لأنَّهم يَرَونَ أنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على الفِعلِ، وأنَّ فِعلَه الواقِعَ بإرادتِه كفِعلِه الواقِعِ بغيرِ إرادتِه، والكلُّ عندَهم سَواءٌ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٢١)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١٦). ويُنظر أيضًا: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ أنَّ الحُكمَ للهِ عزَّ وجَلَّ، وأنَّ بني آدمَ مهما بَلَغوا مِن الطُّغيانِ فإنَّهم تحتَ حُكمِ اللهِ تعالى وسُلْطانِه[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾

- تَخلُّصٌ إلى حِكايةِ مَوقِفِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مِن قَومِه في دَعْوتِهم إلى التَّوحيدِ، وما لاقاهُ منهم، وكيف أيَّدَه اللهُ ونجَّاهُ منهم، وَقَعَ هذا التَّخلُّصُ إليه بوَصفِه مِن شيعةِ نُوحٍ؛ لِيُفيدَ بهذا الأُسلوبِ الواحِدِ تَأكيدَ الثَّناءِ على نُوحٍ، وابتِداءَ الثَّناءِ على إبراهيمَ، وتَخْليدَ مَنقَبةٍ لِنُوحٍ أنْ كان إبراهيمُ الرَّسولُ العَظيمُ مِن شيعَتِه، وناهيكَ به! وكذلك جمَعَ مَحامِدَ لإبراهيمَ في كَلِمةِ كَونِه مِن شِيعةِ نُوحٍ المُقتضي مُشارَكتَه له في صِفاتِه[٢].

- والواوُ في قوله: ﴿وَإِنَّ﴾ عاطِفةٌ؛ عَطَفَتِ القِصَّةَ الثَّانيةَ على القِصَّةِ الأُولى. ولك أنْ تَجعَلَها استِئْنافيَّةً؛ فتكونَ الجُملةُ مُستَأنَفةً مَسوقةً للشُّروعِ في قِصَّةِ إبراهيمَ بعدَ قِصَّةِ نُوحٍ[٣].

- وفيه تَوكيدُ الخَبَرِ بـ(إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ للرَّدِّ على المُشرِكينَ؛ لأنَّهم يَزعُمونَ أنَّهم على مِلَّةِ إبراهيمَ[٤].

- ويَحصُلُ مِن قَولِه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ إثْباتُ مِثلِ صِفاتِ نُوحٍ لإبراهيمَ على طَريقِ الكِنايةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٥، ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٣٨).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

- (إذ) ظرْفٌ للماضي، وهو مُتعلِّقٌ بالكَونِ المُقَدَّرِ للجارِّ والمجرورِ الواقعَينِ خبرًا عن (إنَّ) في قولِه: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾، أو مُتعلِّقٌ بلَفظِ (شِيعة)؛ لِمَا فيه مِن مَعنى المُشايَعةِ والمُتابَعةِ، أي: كان مِن شِيعَتِه حينَ جاء ربَّه بقلْبٍ سَليمٍ كما جاء نُوحٌ، فذلك وَقتُ كَونِه مِن شِيعَتِه، أي: لأنَّ نُوحًا جاء ربَّه بقَلْبٍ سَليمٍ. وفي ﴿إِذْ﴾ مَعْنى التَّعْليلِ لِكَونِه مِن شِيعَتِه؛ فإنَّ مَعنى التَّعليلِ كثيرُ العُروضِ لـ (إذ)[1].

- والباءُ في ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ للمُصاحَبةِ، أي: جاء معه قلْبٌ صِفَتُه السَّلامةُ، فيَؤُولُ إلى مَعنى: إذ جاء ربَّه بسَلامةِ قلْبٍ. وإنَّما ذُكِرَ القَلبُ ابتِداءً، ثُمَّ وُصِفَ بـ (سَليم)؛ لِمَا في ذِكرِ القَلبِ مِن إحْضارِ حقيقةِ ذلك القَلبِ النَّزيهِ؛ ولذلك أُوثِرَ تَنكيرُ (قَلْبٍ) دُونَ تَعْريفٍ[2].

- وأُطلِقَ المجيءُ على مُعامَلتِه به في نفْسِه بما يُرْضي ربَّه على وَجهِ التَّمثيلِ بحالِ مَن يَجيءُ أحدًا مُلْقيًا إليه ما طلَبَه؛ فإنَّ اللهَ أمَرَه بتَزكيةِ نفْسِه فامتثَلَ؛ فأشْبَهَ حالَ مَن دَعاه فجاءَه[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾

- الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ استِفْهامٌ إنْكاريٌّ على أنْ يَعبُدوا ما يَعبُدونَه؛ ولذلك أتْبَعَه باستِفْهامٍ آخَرَ إنْكاريٍّ، وهو ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨، ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٧).

تُرِيدُونَ﴾؟! وهذا الَّذي اقْتَضى الإتيانَ باسْمِ الإشارةِ بعدَ (ما) الاستِفْهاميَّةِ الَّذي هو مُشرَبٌ مَعْنى المَوْصولِ المُشارِ إليه، فاقْتَضى أنَّ ما يَعبُدونَه مُشاهَدٌ لإبراهيمَ، فانْصَرَفَ الاستِفْهامُ بذلك إلى مَعْنى الإنْكارِ، بخِلافِ قولِه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ﴾ في سُورةِ (الشُّعراءِ) [الآية: ٧٠]؛ فإنَّه استِفهامٌ على مَعبوداتِهم؛ ولذلك أجابوا عنه: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ﴾، وإنَّما أرادَ بالاستِفْهامِ هُنالك التَّمْهيدَ إلى المُحاجَّةِ، فصَوَّرَه في صُورةِ الاستِفْهامِ؛ لِسَماعِ جَوابِهم، فيَنتقِلُ إلى إبْطالِه، كما هو ظاهرٌ مِن تَرتيبِ حِجاجِه هنالك؛ فذلك حِكايةٌ لِقَولِ إبراهيمَ في ابتِداءِ دَعوتِه قَومَه، وأمَّا ما هنا فحِكايةٌ لِبَعضِ أقوالِه في إعادةِ الدَّعوةِ وتأْكيدِها[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾، بيَّنَ به مَصَبَّ الإنْكارِ في قَولِه: ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ وإيضاحَه، أي: كيف تُريدونَ آلِهةً إفْكًا[2]؟!

- والهَمْزةُ في قَولِه: ﴿أَئِفْكًا﴾ للاستِفْهامِ الإنْكاريِّ التَّوْبيخيِّ[3].

- وقُدِّمَ المَفْعولُ ﴿ءَالِهَةً﴾ على الفِعلِ ﴿تُرِيدُونَ﴾؛ للاهتِمامِ والعِنايةِ به[4].

- وانتَصَبَ (إفْكًا) على الحالِ مِن ضَميرِ ﴿تُرِيدُونَ﴾ -على قولٍ-، أي: آفِكينَ، والإفْكُ: الكَذِبُ. ويجوزُ أنْ يكونَ حالًا مِن ﴿ءَالِهَةً﴾، أي: آلِهةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩١).

مَكْذوبةً، أي: مَكذوبٌ تَأْليهُها، بمَعْنى: أتُريدونَ آلِهةً مِن دُونِ اللهِ آفِكينَ؟! وقُدِّمَتِ الحالُ (إفْكًا) على صاحِبِها؛ للاهتِمامِ بالتَّعْجيلِ بالتَّعْبيرِ عن كَذِبِهم وضَلالِهِم، ولأنَّه كان الأهَمَّ عِندَه أنْ يُكافِحَهم بأنَّهم على إفْكٍ وباطِلٍ في شِركِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ (إفْكًا) مَفْعولًا، يَعْني: أتُريدونَ به إفْكًا؟! ثم فُسِّرَ الإفْكُ بقَولِه: ﴿ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ﴾، على أنَّها إفْكٌ في أنفُسِها؛ للمُبالَغةِ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: فما ظَنُّكُم بمَن هو الحَقيقُ بالعِبادةِ؛ لأنَّ مَن كان ربًّا للعالَمينَ استَحَقَّ عليهم أنْ يَعبُدوه، وهو استِفْهامٌ أُريدَ به الإنْكارُ، والتَّوْبيخُ، والتَّحْذيرُ، والتَّوعُّدُ، والتَّوْقيفُ على الخَطَأِ[2].

- ولَمَّا كان الظَّنُّ مِن أفْعالِ القَلبِ، فتَعْدِيتُه إلى اسْمِ الذَّاتِ دُونَ إتْباعِ الاسْمِ بوَصفٍ مُتعيِّنةٌ لِتَقْديرِ وَصفٍ مُناسِبٍ، وقد حُذِفَ المُتعلِّقُ هُنا؛ لِقَصدِ التَّوسُّعِ في تَقْديرِ المَحْذوفِ بكُلِّ احتِمالٍ مُناسِبٍ تَكثيرًا للمَعاني؛ فيَجوزُ أنْ تُعتبَرَ مِن ذاتِ ربِّ العالَمينَ أوْصافُه، ويجوزُ أنْ يُعتَبَرَ منها الكُنْهُ والحَقيقةُ، فاعتِبارُ الوَصفِ على وَجهَينِ؛ أحَدُهما: المَعْنى المُشْتقُّ منه الرَّبُّ، وهو الرُّبوبيَّةُ، وهي تَبْليغُ الشَّيءِ إلى كَمالِه تَدْريجًا ورِفْقًا؛ فإنَّ المَخْلوقَ مُحتاجٌ إلى البَقاءِ والإمْدادِ، وذلك يُوجِبُ أنْ يَشكُرَ المُمَدَّ فلا يَصُدَّ عن عِبادةِ ربِّه، فيكونُ التَّقْديرُ: فما ظَنُّكم أنَّ له شُرَكاءَ، وهو المُنفرِدُ باستِحْقاقِ الشُّكرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٩، ١٤٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩١).

المُتمَثِّلِ في العِبادةِ؛ لأنَّه الَّذي أمَدَّكم بإنْعامِه؟! وثانيهما: أنْ يُعتبَرَ فيه مَعْنى المالِكيَّةِ، وهي أحَدُ مَعنَيَي الرَّبِّ، وهو مُستلزِمٌ لِمَعنى القَهرِ والقُدْرةِ على المَمْلوكِ، فيكونَ التَّقْديرُ: فما ظنُّكم ماذا يَفعَلُ بكُم مِن عِقابٍ على كُفْرانِه، وهو مالِكُكم ومالِكُ العالَمينَ؟! وأمَّا جَوازُ اعتِبارِ حَقيقةِ ربِّ العالَمينَ وكُنْهِهِ، فالتَّقْديرُ فيه: فما ظنُّكم بكُنْهِ الرُّبوبيَّةِ؛ فإنَّكم جاهِلونَ الصِّفاتِ الَّتي تَقتَضيها، وفي مُقدِّمَتِها الوَحْدانيَّةُ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ﴾

- التَّعقيبُ الَّذي أفادَتْه الفاءُ مِن قولِه: ﴿فَنَظَرَ﴾ تَعقيبٌ عُرْفيٌّ، أي: لكلِّ شَيءٍ بحَسَبِه، فيُفيدُ كلامًا مَطْويًّا يُشيرُ إلى قِصَّةِ إبراهيمَ الَّتي قال فيها: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، والَّتي تَفرَّعَ عليها قولُه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ ...﴾ إلخ[2].

- وتَقْييدُ النَّظْرةِ بصِيغةِ المرَّةِ في قَولِه: ﴿نَظْرَةً﴾ إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ ألْهَمه المَكيدةَ، وأرْشَده إلى الحُجَّةِ، وكان قَصْدُه إيهامَهم حين سَأَلوه أنْ يَعبُدَ معهم[3].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ فيه ما يُعرَفَ في البَلاغةِ بالرَّمْزِ والإيماءِ[4]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٠، ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢).

(٤) فنُّ الرمزِ والإيماءِ: هو أن يُريدَ المتكلِّمُ إخفاءَ أمرٍ ما في كلامِه، فيَرمُزَ في ضِمنِه رمزًا؛ إمَّا تعميةً للمُخاطَبِ، وتَبرئةً لنفْسِه، وتَنَصُّلًا مِن التَّبِعةِ، وإمَّا لِيَهتديَ بواسِطَتِه الى طريقِ استِخراجِ ما أخْفاهُ في كلامِه. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٧).

وقد كان قَومُ إبراهيمَ نجَّامينَ، فأوْهَمَهم أنَّه استَدَلَّ بأمارةٍ في عِلمِ التَّنْجيمِ على أنَّه يَسقَمُ، فقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، أي: مُشارِفٌ للسَّقَمِ -على قولٍ-، وكانوا يَخافونَ العَدْوى، فقال ذلك لِيُوجَسوا خَوفًا، ويَتَفرَّقوا عنه، فهَرَبوا منه إلى عِيدِهم، وتَرَكوهُ في بَيتِ الأصْنامِ ليس معه أحَدٌ، ففَعَلَ بالأصنامِ ما فَعَلَ. وقد يُوهِمُ ظاهِرُ الكَلامِ أنَّه ارتَكَبَ بذلك جَريرةَ الكَذِبِ، والأنبياءُ مَعْصومونَ عنه، والصَّحيحُ أنَّ الكَذِبَ حَرامٌ إلَّا إذا عرَّضَ عنه ووَرَّى، ولقد نوى إبراهيمُ أنَّ مَن في عُنُقِه المَوتُ سَقيمٌ، ومنه المَثَلُ: (كَفى بالسَّلامةِ داءً)، أو سَقيمُ القَلبِ عليكم؛ لِعِبادَتِكم للأصنامِ، وهي لا تضُرُّ ولا تَنفَعُ[1]. وقيل غيرُ ذلك.

٨- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾

- قَولُهُ: ﴿مُدْبِرِينَ﴾ حالٌ مُؤكِّدةٌ؛ لِدَفعِ تَوهُّمِ أنَّه تَوَلِّي مُخالَفةٍ وكَراهةٍ دُونَ انتِقالٍ[2].

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾

- في قَولِهِ: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ تَفريعُ قِصَصٍ بعَطفِ بَعضِها على بَعضٍ، والمَقْصودُ مِن هذه الجُمَلِ المُتعاطِفةِ بالفاءاتِ هو الإفْضاءُ إلى قَولِهِ: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾، وأمَّا ما قَبْلَها فتَمْهيدٌ لها، وبَيانُ كيفيَّةِ تَمكُّنِه مِن أصْنامِهم وكَسْرِها؛ لِيُظهِرَ لِعَبَدتِها عَجْزَها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٠، ٤٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٤١).

- وفِعلُ (راغَ) معناه: حادَ عن الشَّيءِ، وقد أُطلِقَ هنا على الذَّهابِ إلى أصنامِهم مُخاتَلةً لهم، ولأجْلِ الإشارةِ إلى تَضمينِه معنى الذَّهابِ عُدِّيَ بـ (إلى)[1].

- وإطلاقُ الآلهةِ على الأصْنامِ في قولِه: ﴿ءَالِهَتِهِمْ﴾ مُراعًى فيه اعتِقادُ عَبَدتِها؛ بقَرينةِ إضافَتِها إلى ضَميرِهم، أي: إلى الآلهةِ المَزْعومةِ لهم. ومُخاطَبةُ إبراهيمَ تلك الأصْنامَ بقَولِه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ وهو في حالِ خَلْوةٍ بها، وعلى غَيرِ مَسمَعٍ مِن عَبَدتِها، قَصَد به استهزاءً بهم، وبانحطاطِها عن حالِ عَبَدتِها، ولكي يُثيرَ في نَفْسِه غَضَبًا عليها إذْ زَعَموا لها الإلهيَّةَ؛ لِيَزْدادَ قُوَّةَ عَزمٍ على كَسرِها، فليس خِطابُ إبراهيمَ للأصنامِ مُستعمَلًا في حَقيقَتِه، ولكنَّه مُستعمَلٌ في لازِمِه، وهو تَذَكُّرُ كَذِبِ الَّذينَ أَلَّهُوها، والَّذينَ سَدَنوا لها، وزَعَموا أنَّها تَأكُلُ الطَّعامَ الَّذي يَضَعونَه بيْنَ يَدَيْها، ويَزعُمونَ أنَّها تُكلِّمُهم وتُخبِرُهم[2]!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ بالفاءِ، وفي (الذَّارياتِ): ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧] بغَيرِ فاءٍ؛ ووَجْهُه: أنَّ ما في هذه السُّورةِ اتَّصَلَتْ جُملةٌ بخَمْسِ جُمَلٍ مَبْدوءةٍ بالفاءِ على التَّوالي، وهي: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الصافات: ٨٧-٩١]، والخِطابُ للأوْثانِ؛ تَقْريعًا لِمَن زَعَمَ أنَّها تَأكُلُ وتَشرَبُ. وفي (الذَّارياتِ) مُتَّصِلٌ بمُضمَرٍ تَقْديرُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٣، ١٤٤).

فقرَّبَه إليهم فلم يَأكُلوا، فلمَّا رَآهُمْ لا يَأكُلون ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، والخِطابُ للمَلائكةِ؛ فجاءَ في كُلِّ مَوضِعٍ بما يُلائِمُه[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾

- التَّعْديةُ بـ (عَلَى) للاستِعْلاءِ، وأنَّ المَيلَ لِمَكْروهٍ[٢].

- قوله: ﴿ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ تقييدُه باليمينِ؛ للدَّلالةِ على قوَّتِه؛ فإنَّ قوَّةَ الآلةِ تَستدعي قوَّةَ الفِعلِ[٣]. وجعلَ السِّياقَ للمَصدَرِ؛ إشارةً إلى قُوَّةِ الهِمَّةِ، بحيث صار كُلُّه ضَربًا[٤].

١١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾

- لَمَّا عَلِموا بما فعَلَ إبراهيمُ بأصْنامِهم، أرْسَلوا إليه مَن يُحضِرُه في مَلَئِهم حوْلَ أصنامِهم، كما هو مُفصَّلٌ في سُورةِ (الأنبياءِ) -﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٩ - ٦١]-، وأُجْمِلَ هنا؛ فالتَّعقيبُ في قولِه: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ﴾ تَعقيبٌ نِسبيٌّ[٥].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ استِئْنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ إقْبالَ القَومِ إلى إبراهيمَ بحالةٍ تُنذِرُ بحَنَقِهم وإرادةِ البَطْشِ به، يُثيرُ في نَفْسِ السَّامعِ تَساؤُلًا

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٧، ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

عن حالِ إبراهيمَ في تَلقِّيهِ بأُولئكَ، وهو فاقِدٌ للنَّصيرِ، مُعرَّضٌ للنَّكالِ، فيَكونُ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ جوابًا وبَيانًا لِمَا يَسأَلُ عنه. ولم يَتَلقَّ إبراهيمُ عليه السَّلامُ القَومَ بالاعتِذارِ، ولا بالاختِفاءِ، ولكنَّه لَقِيَهم بالتَّهكُّمِ بهم، إذْ قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ كما في سُورةِ (الأنبياءِ) [٦٣]، ثُمَّ أنْحى عليهم باللَّائِمةِ، والتَّوْبيخِ، وتَسفيهِ أحلامِهم؛ إذْ بَلَغوا مِن السَّخافةِ أنْ يَعبُدوا صُوَرًا نَحَتوها بأيْديهم أو نَحَتَها أسْلافُهم؛ فإسْنادُ النَّحْتِ إلى المُخاطَبينَ مِن قَبيلِ إسنادِ الفِعلِ إلى القَبيلةِ إذا فَعَله بعضُها[1].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ تَوْبيخٌ وإنكارٌ، والإتيانُ بالمَوْصولِ والصِّلةِ؛ لِمَا تَشتمِلُ عليه الصِّلةُ مِن تَسلُّطِ فِعلِهم على مَعْبوداتِهم، أي: أنَّ شَأنَ المَعْبودِ أنْ يكونَ فاعِلًا لا مُنفَعِلًا، فمِنَ المُنكَرِ أنْ تَعبُدوا أصنامًا أنتُم نَحَتُّموها، وكان الشَّأنُ أنْ تكونَ أقَلَّ منكم[2]!

١٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾

- الواوُ في قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ واوُ الحالِ، والحالُ مُستعمَلةٌ في التَّعْجيبِ، ومُؤكِّدةٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ لأنَّ في الكَلامِ حَذفًا بعدَ واوِ الحالِ، إذِ التَّقْديرُ: ولا تَعْبُدون اللهَ وهو خَلَقَكُم وخَلَقَ ما نَحتُّموهُ[3].

- ومَعنى ﴿تَعْمَلُونَ﴾ تَنحِتونَ، وعُدِلَ عن إعادةِ فِعلِ ﴿تَنْحِتُونَ﴾؛ لأنَّ مَعْنى ﴿تَعْمَلُونَ﴾ مُفسَّرٌ بأنَّه تَنحِتونَ، فلم يُعِدْه لكَراهيةِ تَكريرِ الكَلِمةِ، فلمَّا تقدَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥).

لَفظُ ﴿نَنْحِتُونَ﴾ عُلِمَ أنَّ المُرادَ بـ (مَا تَعْمَلُونَ) ذلك المَعْمولُ الخاصُّ، وهو المَعْمولُ للنَّحْتِ؛ لأنَّ العَمَلَ أعَمُّ، يُقالُ: عَمِلتُ قَميصًا، وعَمِلتُ خاتَمًا[1].

- قَولُه: ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ إمَّا عِبارةٌ عن الأصنام، فوَضَعه مَوضِعَ ضَميرِ ﴿مَا نَنْحِتُونَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ مَخْلوقيَّتَها للهِ عزَّ وجلَّ ليس مِن حيثُ نَحتُهم لها فقط، بلْ مِن حَيثُ سائِرُ أعْمالِهم أيضًا؛ مِن التَّصويرِ، والتَّحليةِ، والتَّزيينِ، ونحوِها، وإمَّا على عُمومِه، فيَنتظِمُ الأصْنامَ انتِظامًا أوَّلِيًّا، معَ ما فيه مِن تَحْقيقِ الحقِّ؛ ببَيانِ أنَّ جَميعَ ما يَعمَلونَه -كائِنًا ما كانَ- مَخْلوقٌ له سُبْحانَه[2].

١٤- قول الله تعالى: ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾

- تقدَّمَتْ هذه القِصَّةُ ونَظيرُ هذه الآيةِ في سُورةِ (الأنبياءِ)، ولكِن عُبِّرَ هنا بـ ﴿ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ وهُنالك بـ ﴿ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٧٠]، والأسفَلُ هو المَغْلوبُ؛ لأنَّ الغالِبَ يُتخيَّلُ مُعتَلِيًا على المَغْلوبِ، فهو مُعبَّرٌ به عنِ المَغْلوبِ، والأخسَرُ هُنالك مُعبَّرٌ به عمَّن لا يَحصُلُ مِن سَعْيِه على بُغيَتِه[3]، فأخبَرَ اللهُ تعالى في سورةِ الأنبياءِ عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، ثمَّ أخبَرَ عن الكفارِ لَمَّا ألقَوْهُ في النَّارِ وأرادوا به كيدًا: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء:٧٠]، والكيدُ: سعيٌ في مَضَرَّةٍ لِتُورَدَ على غفلةٍ، فذكَر مُكايَدةً بيْنَهم وبيْنَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فكادَهم ولم يَكيدوه، فخَسِرَتْ تجارتُهم، وعادت عليهم مُكايَدتُهم؛ لأنَّه كسَّر أصنامَهم، ولم يَبلُغوا مِن إحراقِه مُرادَهم، فذكَر الأخسرينَ؛ لأنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٨، ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٦).

خَسِروا فيما عامَلَهم به وعامَلوه مِن المُكايدةِ الَّتي أُضيفَتْ إليهما.

وأمَّا الآيةُ الَّتي في سورةِ (الصَّافَّاتِ) فإنَّ اللهَ تعالى أخبَر عن الكفَّارِ فيها بما اقتضى مِن الأسفلينَ، وهو أنَّه قال: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ﴾، فبَنَوْا له بِناءً عاليًا، ورفَعوه فوْقَه لِيَرموا به مِن هناك إلى النَّارِ الَّتي أَجَّجُوها، فلمَّا عَلَوْا ذلك البناءَ وحَطُّوه منه إلى أسفَلَ، عادُوا هم الأسفلينَ؛ لأنَّهم أُهلِكُوا في الدُّنيا، وسَفُل أمرُهم في الأُخْرى، واللهُ تعالى نجَّى نبيَّه عليه السَّلامُ وأعلاهُ عليهم، فانقلب عالي أمْرِهم في صُعودِ البِناءِ وسافِلِ أمرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فلمَّا حُطَّ إلى النَّارِ صار ذلك سافِلًا، وأمْرُ النَّبيِّ عليه السَّلامُ عاليًا؛ فلذلك اختُصَّتْ هذه الآيةُ بقولِه: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾[1].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (١/ ٩٠٥، ٩٠٦)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٥٠)، ((كشف المعاني)) لابن جَمَاعة (ص: ٢٥٦)، ((القواعد والأصول وتطبيقات التدبر)) للسبت (ص: ١٠٤، ١٥٣-١٥٤).

## الآيات (٩٩-١١٢)

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿السَّعْيَ﴾: أي: العَمَلَ والتَّصَرُّفَ وعَوْنَ أبيه، وأصلُ (سعي): يدُلُّ على المَشيِ السَّريعِ[1].

﴿أَسْلَمَا﴾: أي: استَسْلَما وفَوَّضا الأمرَ للهِ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على انقيادٍ[2].

﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾: أي: أضجَعَه على جَنْبِه على الأرضِ، والجَبينُ: جانِبُ الجَبهةِ، وللوَجهِ جَبينانِ، والجَبهةُ بيْنَهما، فالجَبينُ غيرُ الجَبهةِ، والتَّلُّ هنا: الدَّفعُ والصَّرْعُ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢)

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨١، ٥٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٣٩)، ((الغريبين)) للهروي (١/ ٢٥٩)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

﴿ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾: أي: الاختبارُ الظاهِرُ، وأصلُ البلاءِ: الاختبارُ والامتحانُ، وأصلُ (بين): انكِشافُ الشيءِ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ، إذا اتَّضَح وانكشَف[1].

﴿بِذِبۡحٍ﴾: أي: بكَبشٍ، والذِّبْحُ: اسمُ ما ذُبِحَ، فِعلٌ بمعنى مَفعولٍ، وأصلُ (ذبح): يدُلُّ على شَقِّ حَلقِ الحَيَواناتِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: وقال إبراهيمُ لَمَّا نجَّاه اللهُ تعالى مِن كَيدِ قَومِه: إنِّي مُهاجِرٌ إلى رَبِّي، وهو سيَهديني إلى طَريقِ الحَقِّ والصَّلاحِ، وقال إبراهيمُ: ربِّ ارزُقْني صالِحينَ مِن لَدُنْك، فبَشَّرْناه بأنَّه سيُولَدُ له غُلامٌ حَليمٌ وهو إسماعيلُ عليه السَّلامُ، فلمَّا بَلَغ ابنُه إسماعيلُ معه السَّعيَ، قال إبراهيمُ له: يا بُنَيَّ إنِّي أرى في المَنامِ أنَّني أذبَحُك، فماذا ترَى؟

قال له ابنُه إسماعيلُ: يا أبتِ افعَلْ ما أمَرَك اللهُ به، ستَجِدُني إن شاء اللهُ صابِرًا؛ وأسْلَمَ إبراهيمُ وابنُه أمْرَهما لله، وأضجَعَ إبراهيمُ ابنَه على جانبِ جبهتِه لِيَذبَحَه، ونادَيْناه فقُلْنا له: يا إبراهيمُ قد حقَّقتَ الرُّؤيا وعَمِلْتَ بها، إنَّا كذلك نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا، فنُنَجِّيه مِنَ الكُرَبِ والشَّدائدِ.

إنَّ هذا الَّذي أمَرْنا به إبراهيمَ لَهُوَ الاختِبارُ الشَّديدُ، وفَدَيْنا ابنَه بكَبشٍ عَظيمٍ، وأنعَمْنا على إبراهيمَ بالثَّناءِ الباقي فيمَنْ بَعْدَه، سَلامٌ على إبراهيمَ. مِثلَ هذا الجزاءِ نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا. إنَّ إبراهيمَ مِن عبادِنا المؤمِنينَ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢، ٣٢٧-٣٢٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (٩/ ٦١٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٤).

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى مظهرًا آخَرَ مِن مَظاهِرِ فضْلِه على نبيِّه إبراهيمَ، فيقولُ: وبشَّرْناه بولادةِ ابنِه إسحاقَ، وأنَّه يكونُ نبيًّا مِنَ الصَّالِحينَ، وبارَكَ اللهُ على إبراهيمَ وعلى إسحاقَ، ومِن ذُرِّيَّتِهما مُحسِنٌ بطاعةِ اللهِ، ومِنهم ظالمٌ لِنَفْسِه ظُلمًا بيِّنًا بالكُفرِ والعِصيانِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا سَلَّم اللهُ إبراهيمَ مِن قَومِه ومِن النَّارِ الَّتي ألقَوه فيها؛ عَزَم على مُفارَقتِهم؛ لِيَتمكَّنَ مِن عبادةِ رَبِّه، ويَتضَرَّعَ له مِن غَيرِ أن يَلقَى مَن يُشَوِّشُ عليه[1].

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾.

أي: وقال إبراهيمُ لَمَّا نجَّاه اللهُ تعالى مِن كَيدِ قَومِه: إنِّي مُفارِقٌ قَومي وما هم عليه مِنَ الشِّركِ، إلى رَبِّي الَّذي خلَقَني، وهو المحسِنُ إلَيَّ، ومُدبِّرُ أمري[2]، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٥).

(٢) على أنَّ المرادَ أنَّه ذاهبٌ حقيقةً، فقد قيل: المعنى: إنِّي ذاهبٌ إلى حيثُ أتمَكَّنُ مِن عبادةِ الله تعالى. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٧).

وقيل: المعنى: ذاهبٌ إلى المكانِ الَّذي أمَرني ربِّي بالهجرةِ إليه. وممَّن اختاره: الواحديُّ، وابنُ عادل، والشوكانيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٣٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٢).

وقد هاجَر إبراهيمُ عليه السَّلامُ إلى الأرضِ المُقَدَّسةِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦١٣١).

ونسَب ابنُ الجوزي إلى الأكثَرينَ أنَّه قال ذلك حينَ أراد هِجرةَ قومِه. يُنظر: ((تفسير ابن =

سيَهديني إلى طَريقِ الصَّوابِ والخَيرِ والصَّلاحِ[1].

كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا * فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا * وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٨ - ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿... وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ

---

= الجوزي)) (٣/ ٥٤٦). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٥).

وممَّن قال مِن السَّلفِ بنحوِ هذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٠٢).

وقيل: المرادُ أنَّه ذاهبٌ إلى الله بقلبِه وعمَلِه ونيَّتِه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢١، ٢٢٢).

وممَّن اختار نحوَ المعنى المذكورِ في قولِه: ﴿سَيَهْدِينِ﴾: الرسعنيُّ، والقرطبي، والعُليمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٢).

وقال ابنُ جريرٍ: (قولُه: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ يقولُ: سيُثَبِّتُني على الهدَى الَّذي أبصَرْتُه، ويُعينُني عليه). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٧).

وقيل: المعنى: سيُرشدُني إلى طريقِ الهجرةِ. ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٠٣).

قال ابنُ عاشور: (الظَّاهِرُ: أنَّ هذا القَولَ قاله علنًا في قَومِه؛ لِيَكُفُّوا عن أذاه... ويحتمِلُ أن يكونَ قال ذلك في أهلِه الَّذين يُريدُ أن يَخرُجَ بهم معه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٦).

وقال البِقاعي: («قَالَ» أي: إبراهيمُ عليه السَّلامُ لِمَن يَتوسَّمُ فيه أنَّ كَلامَه يُحْييه مِن مَوتِ الجَهلِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٥٩).

إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٦، ٢٧].

﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ هذه الجُملةَ بقيَّةُ قَولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه بعدَ أنْ أخبَرَ أنَّه مُهاجِرٌ، استَشْعَرَ قِلَّةَ أهْلِه، وعُقمَ امرأتِه، وثارَ ذلك الخاطِرُ في نَفْسِه عندَ إزْماعِ الرَّحيلِ؛ لأنَّ الشُّعورَ بقِلَّةِ الأهْلِ عِندَ مُفارَقةِ الأوْطانِ يكونُ أقوى؛ لأنَّ المَرءَ إذا كان بيْنَ قَومِه كان له بعضُ السُّلُوِّ بوُجودِ قَرابَتِه وأصدِقائِه(١).

﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾.

أي: وقال إبراهيمُ: رَبِّ ارزُقْني صالِحينَ مِن جملةِ الَّذين يُصلِحونَ في الأرضِ بطاعَتِك ولا يَعصُونَك؛ عِوَضًا عن قَومي الكافِرينَ الَّذين فارَقْتُهم(٢).

﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾.

أي: فبَشَّرْنا إبراهيمَ بأنَّه سيُولَدُ له ولَدٌ ذَكَرٌ، لا يَعْجَلُ بالعقوبةِ مع القدرةِ، فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

قيل: المرادُ بقَولِ إبراهيمَ: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: طَلَبُ الولَدِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٧).

وقيل: طَلَب إبراهيمُ عليه السَّلامُ بدُعائِه ما هو أعَمُّ مِن الولَدِ، أي: هَبْ لي مِن الصَّالحينَ مَن يكونُ عَونًا لي مِن الأولادِ وغَيرِهم. ذكر هذا الوجهَ ابنُ عثيمين احتِمالًا، ومالَ إليه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٣).

في غايةِ الرَّزانةِ والثَّباتِ[١].

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لَمَّا قال: ﴿ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴾ [الصافات: ١٠١]؛ أتْبَعَه بما يَدُلُّ على حُصولِ ما بُشِّرَ به وبُلوغِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وعَدَه في الآيةِ الأُولى بكَونِ ذلك الغُلامِ حَليمًا؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ ما يدُلُّ على كَمالِ حِلمِه؛ وذلك لأنَّه كان به مِن كَمالِ الحِلمِ وفُسحةِ الصَّدرِ ما قوَّاه على احتِمالِ تلك البَليَّةِ العَظيمةِ، والإتيانِ بذلك الجَوابِ الحَسَنِ[٢].

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ ﴾.

أي: فوُهِبَ له الغُلامُ المُبشَّرُ به -وهو إسماعيلُ عليه السَّلامُ-، فكَبِرَ وتَرَعْرَعَ حتَّى بلَغَ مع والِدِه السَّعيَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩).

قال ابن عاشور: (والحليمُ: الموصوفُ بالحِلْمِ، وهو اسمٌ يَجمَعُ أصالةَ الرَّأْيِ، ومَكارِمَ الأخلاقِ، والرَّحمةَ بالمخلوقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٥).

قيل: المرادُ ببُلوغِ السَّعيِ هنا: أنَّه صار مُطيقًا للعَمَلِ، فيُعينُ والِدَه على أعمالِه. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٩). =

﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لابنِه إسماعيلَ: يا بُنيَّ، إنِّي أرَى في النَّومِ أنَّني أذبَحُك؛ أمْرًا مِنَ اللهِ تعالى[1]!

---

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٠٣).

وقيل: المرادُ بالسَّعيِ هنا: المَشيُ، أي: فصار يَمشي مع أبيه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٠).

قال السعدي: (﴿فَلَمَّا بَلَغَ﴾ الغلامُ ﴿مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي: أدرَك أن يَسعى معه، وبلغَ سِنًّا يكونُ في الغالبِ أحَبَّ ما يكونُ لوالِدَيه، قد ذهَبَت مَشَقَّتُه، وأقبَلَتْ مَنفعتُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

وقيل: المرادُ ببُلوغِ السَّعيِ: بُلوغُ السِّنِّ الَّتي يُكَلَّفُ فيها بأداءِ العباداتِ الَّتي فُرِضَت عليه. وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٨١، ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٦٥)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٣ - ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٧).

قال ابن جُزَي: (يحتملُ أن يكونَ رأَى في المنامِ الذَّبحَ وهو الفعلُ، أو أُمِر في المنامِ أنْ يَذبَحَه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٥).

ممَّن اختار القَولَ بأنَّ الذَّبيحَ هو إسماعيلُ: أبو حاتمٍ الرَّازيُّ، وابن عطية -ونسَبَه للجمهورِ-، وابنُ تيميَّةَ -ونسَبَه لأكثَرِ العُلَماءِ-، وابنُ القَيِّم، وابنُ كثير، والعليمي، والسعدي، وابنُ عاشور، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٣٢ - ٣٣٥)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥١٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٧١ - ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦ - ١٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٣- ٢٤٥). =

﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾.

= وممَّن قال مِن السَّلفِ بهذا القولِ: ابنُ عُمَرَ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعبدُ الله بنُ سَلَام، وأبو الطُّفَيْلِ عامرُ بنُ واثِلةَ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، والزُّهْريُّ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ في روايةٍ عنه، والحسَنُ البَصريُّ، وسعيدُ بنُ المُسَيِّبِ، والشَّعبيُّ، ومجاهدٌ، ويوسفُ بنُ مِهْرانَ، وأبو صالحٍ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ سابطٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٧).

وقيل: الذَّبيحُ هو إسحاقُ عليه السَّلامُ. وممَّن رجَّح ذلك: ابنُ جرير، والنحاسُ ونسَبَه لأكثرِ العلماءِ، ونسَبَه الواحديُّ إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٠، ٥٩٨)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، والعبَّاسُ بنُ عبدِ المُطَّلِبِ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ مسعودٍ، وأبو موسى الأشعريُّ، وأبو هُرَيرةَ، وأنسٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، والزُّهْريُّ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ في روايةٍ عنه، وكعبُ الأحبارِ، ووهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، ومَسروقٌ، وعُبَيدُ بنُ عُمَيرٍ، والقاسمُ بنُ أبي بَزَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٧٨) (١٩/ ٥٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٧).

قال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَر أسماءَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ الذين يُروَى عنهم القولُ بأنَّ الذَّبيحَ هو إسحاقُ عليه السَّلامُ: (وهو اختيارُ ابنِ جَريرٍ، وهذا عجَبٌ منه، وهو إحدى الرِّوايتَينِ عن ابنِ عبَّاسٍ، ولكنَّ الصَّحيحَ عنه وعن أكثرِ هؤلاءِ أنَّه إسماعيلُ عليه السَّلامُ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٦٨).

وقال أيضًا: (وقد قال بأنَّه إسحاقُ طائفةٌ كثيرةٌ مِن السَّلفِ وغيرِهم، وإنَّما أخَذوه -واللهُ أعلَمُ- مِن كعبِ الأحبارِ، أو صُحُفِ أهلِ الكتابِ، وليس في ذلك حديثٌ صحيحٌ عن المعصومِ حتَّى نَترُكَ لأجْلِه ظاهرَ الكتابِ العزيزِ، ولا يُفهَمُ هذا مِن القرآنِ، بل المفهومُ بل المَنطوقُ بل النَّصُّ عندَ التَّأمُّلِ على أنَّه إسماعيلُ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧).

وممَّن توقَّف فلم يُرَجِّحْ أحدَ القولَينِ: الزَّجَّاجُ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٨).

أي: فما الَّذي تَراه في شأنِ هذه الرُّؤيا الَّتي أخبَرْتُك بها[١]؟

﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾.

أي: قال إسماعيلُ لأبيه إبراهيمَ: امتَثِلْ يا أبَتِ ما أمَرَك اللهُ به؛ طاعةً له، وانقيادًا إليه[٢].

﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي: ستَجِدُني -إن شاء اللهُ- صابرًا مِن جُملةِ الصَّابِرينَ على حُكمِ اللهِ وبَلائِه، فأحتَسِبُ أجْري عندَ الله، ولا أجزَعُ مِن الذَّبحِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ﴾ [مريم: ٥٤].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾.

أي: فلَمَّا أسلَمَ إبراهيمُ وابنُه أمْرَهما إلى اللهِ تعالى، وانْقادَا لحُكمِه، ورَضِيَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٢٤).

بقَضائِه، واستعَدَّا لِتَنفيذِه[١].

﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾.

أي: ووضَعَ إبراهيمُ ابنَه إسماعيلَ بقوَّةٍ على الأرضِ على جانبِ جَبْهتِه -على هيئةِ ما يُرادُ ذبحُه-؛ لِيَذبَحَه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٢، ١٥٣).

وممَّن ذهب في الجُملةِ إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، وابنُ القيِّم، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ المذكورِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ومُجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٠٤).

وقيل: المرادُ: فلمَّا تَشَهَّدا وذكَرَا اللهَ تعالى: إبراهيمُ على الذَّبحِ، والولَدُ على شَهادةِ الموتِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨).

قال ابن عطيَّة: (واختلف النُّحاةُ في جوابِ «لَمَّا»؛ فقال الكوفيُّونَ: الجوابُ «نادَيْناهُ»، والواوُ زائدةٌ. وقالت فِرقةٌ: الجوابُ: «تَلَّهُ»، والواو زائدةٌ، كزيادتِها في قَولِه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النبأ: ١٩]. وقال البَصريُّونَ: الجوابُ مَحذوفٌ، تقديرُه: فلمَّا أسْلَمَا أسْلَمَ وتَلَّه... وقال بعضُ البَصريِّينَ: الجوابُ محذوفٌ، وتقديرُه: فلمَّا أسْلَمَا وتَلَّه للجَبينِ أجزَلَ أجرَهما، أو نحوُ هذا ممَّا يقتضيه المعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨١).

وقال ابنُ جرير: (قَولُه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ جوابُ قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾، ومعنى الكَلام: فلمَّا أسلَمَا وتَلَّه للجَبينِ، نادَيْناه أنْ يا إبراهيمُ، وأُدخِلَت الواوُ في ذلك كما أُدخِلَت في قَولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٦).

وقيل: الجوابُ محذوفٌ، تقديرُه: فلمَّا أسلَمَا وتَلَّه للجَبينِ وناديناه أنْ يا إبراهيمُ قد صدَّقْتَ الرُّؤيا، كان ما كان ممَّا تَنطِقُ به الحالُ، ولا يُحيطُ به الوَصفُ؛ مِن استِبشارِهما واغتِباطِهما، وحَمدِهما لله وشُكرِهما على ما أنعَمَ به عليهما؛ مِن دَفعِ البَلاءِ العظيمِ بعدَ حُلولِه، وما اكتَسَبا في تضاعيفِه بتَوطينِ الأنفُسِ عليه مِنَ الثَّوابِ والأعواضِ، ورِضوانِ اللهِ الَّذي ليس وراءَه مَطلوبٌ. قاله الزمخشري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨١، ٤٨٢)، ((مدارج =

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥ ﴾.

﴿ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ ... ﴾.

أي: ونادَيناه فقُلْنا له: يا إبراهيمُ، قد حقَّقتَ الرُّؤيا، فصدَّقتَ الأمرَ فيها، وعَمِلْتَ به حينَ أضجَعْتَ ابنَك لِذَبحِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم: ٣٧].

﴿ ... إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾.

أي: إنَّا كما جَزَينا إبراهيمَ ففرَّجْنا عنه كَرْبَه، كذلك نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا، فنُنَجِّيه ممَّا هو فيه مِنَ الكُرَبِ والشَّدائِدِ[2].

---

= السالكين)) لابن القيم (٣/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٣).

قال ابنُ كثير: (﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي: على الجَبينِ، وله نظائِرُ في اللُّغةِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٨٣).

وقال أيضًا: (معنى ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي: ألْقاه على وجْهِه؛ قيل: أراد أن يَذبَحَه مِن قفاهُ لئلَّا يُشاهِدَه في حالِ ذبحِه. قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. وقيل: بل أضْجَعه كما تُضْجَعُ الذَّبائحُ، وبَقِيَ طرَفُ جبينِه لاصقًا بالأرضِ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٦٤). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨).

وقال الواحدي: (والصَّحيحُ أنَّه أضْجَعه على أحدِ شِقَّيْه؛ لأنَّ الجبينَ غيرُ الجبهةِ). ((التفسير البسيط)) (١٩/ ٩٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٣، ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤١).

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ ﴾.

أي: إنَّ أمْرَنا إبراهيمَ بذَبحِ ابنِه لَهُوَ الاختِبارُ الشَّديدُ والمِحنةُ العَظيمةُ الَّتي تَبيَّنَ بها استِسلامُه لأمرِ اللهِ تعالى[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا قَدَّم ما هو الأهَمُّ مِن نَهيِ إبراهيمَ عن الذَّبحِ، ومِن البِشارةِ بالجَزاءِ؛ ذكَرَ فِداءَه بما جعَلَه سُنَّةً باقيةً، يُذكَرُ بها الذِّكرَ الجَميلَ على مَرِّ الأيَّامِ وتَعاقُبِ السِّنينَ[2].

﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾.

أي: وفَدَيْنا إسماعيلَ بكَبشٍ[3] عَظيمٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٧).

(٣) قال ابنُ كثير: (الصَّحيحُ الذي عليه الأكثَرونَ أنَّه فُدِيَ بكَبشٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٧، ٦٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦).

قيل: معنى ﴿عَظِيمٍ﴾: عَظيمُ الحَجمِ، ضَخمُ الجُثَّةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، والنسفي، والنيسابوري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٣٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٧٣).

وقيل: المعنى: أنَّه عَظيمُ القَدْرِ، شَريفٌ جليلٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. =

عن صَفيَّةَ بنتِ شَيْبةَ، قالت: أخبَرَتْني امرأةٌ مِن بني سُلَيم وَلَّدت عامَّةَ أهلِ دارِنا، أنَّها سألت عُثمانَ بنَ طَلْحةَ: لِمَ دعاك النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قال: ((إنِّي كُنتُ رأيْتُ قَرْنَيِ الكَبشِ حينَ دَخلْتُ البَيتَ، فنَسِيتُ أن آمُرَكَ أن تُخَمِّرَهما[1]، فخَمِّرْهما؛ فإنَّه لا يَنبغي أن يكونَ في البَيتِ شَيءٌ يَشغَلُ المُصَلِّي)). قال سُفْيانُ -هو ابنُ عُيينةَ، أحدُ رواةِ الحديثِ-: لم تَزَلْ قَرْنَا الكَبشِ في البَيتِ حتَّى احترَقَ البَيْتُ، فاحترَقَا[2].

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

أي: وأثنَيْنا على إبراهيمَ، وأنعَمْنا عليه بالذِّكرِ الجَميلِ، والثَّناءِ الباقي في الَّذين

---

= يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَين: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٦٨).

وقال السعدي: (كان عظيمًا مِن جهةِ أنَّه كان فِداءً لإسماعيلَ، ومِن جهةِ أنَّه مِن جُملةِ العباداتِ الجَليلةِ، ومِن جهةِ أنَّه كان قُربانًا وسُنَّةً إلى يَومِ القيامةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

قال ابنُ جرير: (لا قَولَ في ذلك أصَحُّ مِمَّا قال اللهُ جَلَّ ثناؤُه، وهو أن يُقالَ: فَداه اللهُ بذِبحٍ عَظيمٍ؛ وذلك أنَّ اللهَ عَمَّ وَصْفَه إيَّاه بالعِظَمِ دونَ تَخصيصِه؛ فهو كما عَمَّه به). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٥).

(١) أي: تغطيهما. والتَّخميرُ: التَّغطيةُ، يُقالُ: خَمِّرْ إناءَك. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٣٠) مختصرًا، وأحمد (١٦٦٣٧) واللَّفظُ له.

حسَّن إسنادَه الذَّهبيُّ في ((المهذب)) (٢/ ٨٦٦)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٣٠).

قال ابنُ كثير: (هذا دليلٌ مُستقِلٌّ على أنَّه [يعني: الذَّبيحَ] إسماعيلُ عليه السَّلامُ؛ فإنَّ قُريشًا تَوارَثوا قَرْنَيِ الكَبشِ الَّذي فَدى به إبراهيمُ خَلَفًا عن سَلَفٍ، وجيلًا بعدَ جيلٍ، إلى أنْ بَعَث اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢).

وقال أيضًا: (وهذا وحدَه دليلٌ على أنَّ الذَّبيحَ إسماعيلُ؛ لأنَّه كان هو المقيمَ بمكَّةَ، وإسحاقُ لا نعلمُ أنَّه قدِمها في حالِ صغرِه، والله أعلمُ). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٦٦).

يأتونَ مِن بَعدِه[١].

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ ﴾.

أي: سلامٌ على إبْراهيمَ وثَناءٌ حسنٌ، فلا يُذْكَرُ بسوءٍ[٢].

﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١١٠ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذين جزَيْنا به إبراهيمَ لأنَّه كان مِن المُحسنينَ، نَجْزي به أيضًا كلَّ مَن كان محسنًا[٣].

﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١١ ﴾.

أي: إنَّ إبراهيمَ مِن عبادِنا المُؤمِنينَ باللهِ؛ فوَحِّدوا اللهَ وأخلِصوا في عبادتِه له وَحْدَه لا شريكَ له[٤].

﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٢ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧ - ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣، ١٣٤).

وقال ابن جرير: (وقولُه: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ يقولُ تعالَى ذِكْرُه: أَمَنَةٌ مِن اللهِ في الأرضِ لإبراهيمَ أنْ يُذْكَرَ مِن بَعدِه إلَّا بالجميلِ مِن الذِّكْرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

أي: وبَشَّرْنا إبراهيمَ بولادةِ ابنِه إسحاقَ، وأنَّه يكونُ نَبيًّا مِن جُملةِ الصَّالِحينَ[١].

كما قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤٩].

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أثنى اللهُ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلامُ بما عالَجَ مِمَّا لم يَحصُلْ لِغَيرِه مِثلُه، وكان مِن أعظَمِ جزاءِ الإنسانِ البَرَكةُ في ذُرِّيَّتِه؛ قال[٢]:

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾.

أي: وأحَلَّ اللهُ بَرَكَتَه على إبراهيمَ[٣] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٩).

(٣) ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى إبراهيمَ عليه السَّلامُ -أي: بارَكَ اللهُ عليه وعلى ابنِه إسحاقَ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والقرطبي، والبيضاوي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢، ١١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٨). =

وعلى إسحاقَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾.

---

= وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى إسماعيلَ عليه السَّلامُ، أي: بارَكَ اللهُ على إسماعيلَ وأخيه إسحاقَ. وممَّن رجَّح ذلك: البِقاعي، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

قال البِقاعي مؤيِّدًا هذا الرَّأيَ: (﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: على الغلامِ الحليم، وهو الذَّبيحُ المُحَدَّثُ عنه الَّذي جرَّ هذا الكلامَ كلَّه الحديثُ عنه، وكان آخِرُ ضميرٍ مُحَقَّقٍ عاد عليه الهاءَ في ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾، ثمَّ في ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾. وهذا عندي أَوْلى مِن إعادةِ الضَّميرِ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه استوفَى مدحَه. ثمَّ رأيتُ حمزةَ الكرمانيَّ صنَع هكذا... ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا﴾ أي: الأخَوَينِ، ولا شكَّ أنَّ هذا أقرَبُ وأقعَدُ مِن أن يكونَ الضَّميرُ للأبِ والابنِ؛ لأنَّ قِرانَ الأخَوينِ في الإخبارِ عن ذُرِّيَّتِهما أَولَى مِن قرانِ الابنِ مع أبيه في ذلك، فيَكونُ الابنُ حينَئذٍ مِن جملةِ المُخبَرِ عنه بذُرِّيَّةِ الأبِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٦٩، ٢٧٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٨).

قال القرطبي: (﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ أيْ: [ثَبَّتْنا] عليهما النِّعمةَ. وقيلَ: كَثَّرْنا وَلَدَهما، أي: بارَكْنا على إبراهيمَ وعلى أولادِه، وعلى إسحاقَ حينَ أَخْرَج أنبياءَ بني إسرائيلَ مِن صُلْبِه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢).

وقيل: المرادُ: أفَضْنا عليهما بَرَكاتِ الدِّينِ والدُّنيا. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤١٤).

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر الله تعالى ما أعْطَى إبراهيمَ وإسحاقَ عليهما السَّلامُ؛ نَقَل الكلامَ إلى ذُرِّيَّتِهما[١]، فقال:

﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾.

أي: ومِن ذُرِّيَّتِهما مُحسِنٌ في طاعةِ الرَّحمنِ، ومنهم ظالِمٌ لِنَفْسِه ظُلمًا بَيِّنًا بالكُفرانِ والعِصيانِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أنَّه ينبغي -بل يجِبُ- على الإنسانِ ألَّا يَعتمِدَ على نَفْسِه، بل يَعتمِدُ على ربِّه عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه هنا: ﴿سَيَهْدِينِ﴾[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ تَحَنُّنُ الإنسانِ إلى ربِّه بالدُّعاءِ بأنْ يأتيَ بالعباراتِ الدَّالَّةِ على التَّحَنُّنِ والتَّعَطُّفِ والافتِقارِ إلى الرَّبِّ؛ لِقَولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّي﴾، فأضافَ الرُّبوبيَّةَ إلى نفْسِه مِن بابِ التَّلَطُّفِ والتَّحَنُّنِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ دَلَّت هذه الآيةُ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المَوضِعَ الَّذي تَكثُرُ فيه الأعداءُ تَجِبُ مُهاجَرتُه؛ وذلك لأنَّ إبراهيمَ صَلواتُ اللهِ عليه وسَلامُه -مع أنَّ اللهَ سُبحانَه خَصَّه بأعظَمِ أنواعِ النُّصرةِ- لَمَّا أحَسَّ منهم بالعَداوةِ الشَّديدةِ هاجَرَ مِن تلك الدِّيارِ؛ فلأَنْ يَجِبَ ذلك على الغَيرِ كان أَولى[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ استِحبابُ بشارةِ مَن وُلِد له ولدٌ، وتهنِئتِه، فلمَّا كانت البشارةُ تَسُرُّ العبدَ وتُفرحُه استُحِبَّ للمسلمِ أن يُبادِرَ إلى مسرَّةِ أخيه، وإعلامِه بما يُفرِحُه[2].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ﴾ أنَّه ينبغي لِمَن أراد أنْ يُنَفِّذَ شَيئًا مَكروهًا لِشَخصٍ: أنْ يأتيَ بأُسلوبٍ يدُلُّ على أنَّه لا يُريدُ الإضرارَ به، وإنَّما هو أمرٌ لا بُدَّ منه؛ فإنَّ إتيانَه على صيغةِ التَّلَطُّفِ هو مِن أجْلِ أنْ يُبعِدَ عنه تُهمةَ أنَّه لا يُحِبُّه[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ جوازُ حَثِّ المفضولِ للفاضلِ على فِعلِ الأوامِرِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أنْ يَحقِرَ نَفْسَه في الأمرِ بالخَيرِ، فيَقولَ: هذا أَجَلُّ مِنِّي، هذا أعلَمُ منِّي، هذا أكبَرُ منِّي؛ فلن آمُرَه بشَيءٍ! بل نقولُ: مُرْ بالخَيرِ سواءٌ كنتَ أصغَرَ سِنًّا أو شَأْنًا مِن المأمورِ، أو مِثْلَه، أو أكبَرَ منه[4].

٧- أنَّ الصَّبرَ يكونُ على امتِثالِ الأوامِرِ، وعلى المصائبِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي: الصَّابِرينَ على تَنفيذِ هذا الأمرِ، وعلى ما يَقتَضيه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٧، ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

الآلامِ؛ لأنَّه ذَبحٌ[١].

٨- أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يُعَلِّقَ كلَّ أمرٍ مُستقبَلٍ على مَشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ فإنَّ هذا أمرٌ مُستقبَلٌ، واللهُ سُبحانَه وتعالى قَصَّه علينا لِنَعتبِرَ به، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [يوسف: ١١١]، ويُؤيِّدُ هذا أيضًا شَرعُنا؛ فإنَّ اللهَ قال لِنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢] [الكهف: ٢٣، ٢٤]. فلَمَّا كان مِن أخلاقِ الكُمَّلِ عَدَمُ القَطعِ في المُستقبَلاتِ؛ لِما يَعلَمونَ مِن قُدرةِ الله تعالى على نَقضِ العزائِمِ بالحَيلولةِ بيْنَ المَرءِ وقَلبِه؛ قال: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٣].

٩- أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَحولَ بينَ نَفْسِه وبَينَ كُلِّ شَيءٍ قد يَعوقُه عن تَنفيذِ أمرِ اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾، حتَّى لا يرَى وجْهَه حينَ يَذْبَحُه؛ فإنَّ هذا يُهَوِّنُ عليهما الأمرَ، فيَهُونُ عليهما التَّنفيذُ، ورُبَّما يَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ العَمَلُ بسَدِّ الذَّرائعِ ومَنْعِها، أي: الذَّرائعِ الَّتي تَحُولُ بيْنَ المَرءِ وبيْن تَنفيذِ أمرِ اللهِ، أو تُوجِبُ أن يَقَعَ فيما نهَى اللهُ عنه[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ بيانُ حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فيما يُقَدِّرُه على عبدِه المؤمنِ مِن مكروهٍ؛ فلا يَقُلِ الإنسانُ: لماذا ابتلاني اللهُ تعالى بهذا دونَ غيري؟! بل يقولُ: للهِ في ذلك حِكَمٌ عظيمةٌ، واللهُ عزَّ وجلَّ يَبتلي المؤمنَ بالمصائبِ؛ فإذا صَبَر نال بذلك درجةَ الصَّابرينَ، وإذا احتَسَب الأجرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٠، ٢٣٨).

بهذا الصَّبرِ نال بذلك ثوابَ الصَّابرينَ، والصَّبرُ مرتبةٌ عاليةٌ يُوَفَّى فيها العاملُ أجْرَه بلا حسابٍ، ولا يُمكِنُ صَبْرٌ بلا مَصبورٍ عليه! بل لا بُدَّ مِن ابتلاءٍ وامتحانٍ يُعْلَمُ به قَدْرُ صَبْرِ الإنسانِ حتَّى يُثابَ على قَدْرِ ما حَصَل منه مِن الصَّبرِ(١).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّه لا يَلزَمُ مِن كَثرةِ فَضائِلِ الأبِ فَضيلةُ الابنِ(٢).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ البَرَّ قد يَلِدُ الفاجِرَ، ولا يَلحَقُه مِن ذلك عَيبٌ ولا مَنقَصةٌ(٣)، وفيه تَنبيهٌ على أنَّ فَسادَ الأعقابِ لا يُعَدُّ غَضاضةً على الآباءِ(٤).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ النَّسَبَ لا أثَرَ له في الهُدى والضَّلالِ(٥)، وأنَّ الخَبيثَ والطَّيِّبَ لا يَجري أمْرُهما على العِرقِ والعُنصُرِ؛ فقد يَلِدُ البَرُّ الفاجِرَ، والفاجِرُ البَرَّ، وهذا ممَّا يَهدِمُ أمرَ الطَّبائعِ والعناصِرِ(٦).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ المرءَ إنَّما يُعابُ بسُوءِ فِعلِه، ويُعاتَبُ على ما اجترَحت يداه، لا على ما وُجِدَ مِن أصلِه أو فَرعِه(٧)، وأنَّ مَناطَ الفَضلِ في الإنسانِ هو خِصالُ الذَّاتِ، وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٨٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اكتسَبَ المَرءُ مِن الصَّالحاتِ، وأمَّا كرامةُ الآباءِ فتَكمِلةٌ للكَمالِ، وباعِثٌ على الاتِّسامِ بفَضائِلِ الخِلالِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لم يَقُلْ: «إلى اللهِ»؛ لأنَّ المقامَ يَختَصُّ بالرُّبوبيَّةِ أكثَرَ؛ إذْ إنَّ الرُّبوبيَّةَ مُقتضاها التَّدبيرُ، وهو الآنَ يَحتاجُ إلى مُدَبِّرٍ يُدَبِّرُه إلى ما فيه مَصلحتُه، فقال: ﴿ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾، وهي مِن الرُّبوبيَّةِ الخاصَّةِ[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في الهِجرةِ والعُزلةِ، وأوَّلُ مَن فَعَل ذلك إبراهيمُ عليه السَّلامُ[٣].

٣- الصَّلاحُ أفضَلُ الصِّفاتِ؛ بدليلِ أنَّ الخَليلَ عليه السَّلامُ طَلَب الصَّلاحَ لِنَفْسِه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، وطَلَبه للوَلَدِ، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، وطلَبَه سُلَيمانُ عليه السَّلامُ بعدَ كَمالِ دَرَجتِه في الدِّينِ والدُّنيا، فقال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩]، وذلك يدُلُّ على أنَّ الصَّلاحَ أشرَفُ مَقاماتِ العبادِ[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وَصَفه بأنَّه مِن الصَّالِحينَ؛ لأنَّ نِعمةَ الوَلَدِ تكونُ أكمَلَ إذا كان صالِحًا؛ فإنَّ صَلاحَ الأبناءِ قُرَّةُ عَينٍ للآباءِ، ومِن صلاحِهم بِرُّهم بوالِدِيهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٨).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ ﴾ لَمَّا كان هذا الوَصفُ رُبَّما أفهَمَ الطَّيشَ، وصَفَه بما أبقَى صَفاءَه ونفَى كَدَرَه، فقال: ﴿حَلِيمٍ ﴾[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ دليلٌ أنَّ إسماعيلَ هو الذَّبيحُ؛ من وجهينِ:

**الأوَّل**: أنَّه بَشَّرَه بالذَّبيحِ، وذَكَرَ قِصَّتَه أوَّلًا؛ فلمَّا استوفى ذلك قال: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾؛ فبَيَّنَ أنَّهما بِشارتانِ: بِشارةٌ بالذَّبيحِ، وبِشارةٌ ثانيةٌ بإسحاقَ. وهذا بَيِّنٌ[2].

**والثاني**: أنَّه ذَكَرَ في الذَّبيحِ أنَّه غُلامٌ حَليمٌ، ولَمَّا ذَكَرَ البِشارةَ بإسحاقَ ذَكَرَ البِشارةَ بغُلامٍ عَليمٍ، في غيرِ هذا الموضِعِ. والتَّخصيصُ لا بُدَّ له مِن حِكمةٍ، وهذا ممَّا يُقوِّي اقترانَ الوَصفَينِ، والحِلْمُ مُناسِبٌ للصَّبرِ الَّذي هو خُلُقُ الذَّبيحِ، وإسماعيلُ وُصِفَ بالصَّبرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥]، وأيضًا فإنَّه قال في الذَّبيحِ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، وقد وَصَفَ اللهُ إسماعيلَ أنَّه مِن الصَّابرينَ، ووَصَفَ اللهُ تعالى إسماعيلَ أيضًا بصِدْقِ الوَعدِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]؛ لأنَّه وَعَدَ أباه مِن نَفْسِه الصَّبرَ على الذَّبحِ، فَوَفَّى به[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾ إلى قَولِه: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ أنَّ العِبادةَ هي ما أمَرَ اللهُ به، وإنْ كانت في غيرِ هذا الموضِعِ مَعصِيةً؛ فإنَّ قَتْلَ الابنِ مِن أكبرِ الكبائرِ، فإذا أمَرَ اللهُ به صار طاعةً، ومِن أفضَلِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٣٣).

الطَّاعاتِ؛ لأنَّ تَنفيذَه مِن أشَقِّ ما يكونُ على النَّفْسِ، فإذا نَفَّذَه الإنسانُ -مع قوةِ الدَّاعي لِمَنعِه- كان ذلك أكمَلَ وأفضَلَ. ولهذا نَظيرٌ؛ فالسُّجودُ لغيرِ اللهِ شِركٌ، ولَمَّا أمَرَ اللهُ الملائِكةَ أنْ يَسجُدوا لآدمَ صار السُّجودُ لآدمَ طاعةً. فالحاصِلُ أنَّ العِبادةَ ما أمَرَ اللهُ به، وإنْ كان جِنسُها قد يكونُ مَعصيةً في مَوضِعٍ آخَرَ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد يَبتلي عبدَه المؤمنَ ببَلوى عَظيمةٍ شَديدةٍ على النُّفوسِ، وذلك بما أَرَى اللهُ نبيَّه إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن ذَبحِ وَلَدِه، ونحن نعلمُ أنَّ اللهَ لو قَدَّرَ على ولَدِك أنْ يموتَ لَكانت هذه مُصيبةً عظيمةً، لكنْ إذا أمَرَك اللهُ سُبحانَه وتعالى أنْ تَذبَحَه أنت بنَفْسِك صار هذا أعظَمَ وأشَدَّ، وصار الصَّبرُ على هذا الأمرِ أشدَّ وأفضَلَ مِن الصَّبرِ على مَوتِه بقَدَرٍ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ(٢).

٩- قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ والمقصودُ مِن هذا الابتِلاءِ إظهارُ عَزمِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وإثباتُ عُلُوِّ مَرتبتِه في طاعةِ رَبِّه؛ فإنَّ الولَدَ عَزيزٌ على نَفْسِ الوالِدِ، والوَلَدُ الوَحيدُ الَّذي هو أمَلُ الوالِدِ في مُستقبَلِه: أشَدُّ عِزَّةً على نَفْسِه لا مَحالةَ، وقد عَلِمْتَ أنَّه سأل ولَدًا؛ لِيَرِثَه نَسْلُه ولا يَرِثَه مَواليه؛ فبَعْدَ أنْ أقَرَّ اللهُ عَيْنَه بإجابةِ سُؤلِه وتَرعْرُعِ ولَدِه؛ أمَرَه بأن يَذبَحَه فيَنعَدِمَ نَسْلُه، ويَخيبَ أمَلُه، ويَزولَ أُنسُه، ويَتولَّى بيَدِه إعدامَ أحَبِّ النُّفوسِ إليه، وذلك أعظَمُ الابتِلاءِ! فقابَلَ أمْرَ رَبِّه عزَّ وجلَّ بالامتِثالِ، وحصَلَت حِكمةُ اللهِ مِن ابتِلائِه، وهذا معنى قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾(٣) [الصافات: ١٠٦]، فلم يكُنِ الذَّبحُ مَصلَحةً، ولا كان هو مَطلوبَ الرَّبِّ في نَفْسِ الأمرِ، بل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٠).

كان مُرادُ الرَّبِّ سبحانه ابتِلاءَ إبراهيمَ؛ لِيُقَدِّمَ طاعةَ رَبِّه ومَحبَّتَه على محبَّةِ الولَدِ، ولا يَبقَى في قَلبِه التِفاتٌ إلى غيرِ اللهِ؛ فإنَّه كان يُحِبُّ الولَدَ محبَّةً شَديدةً، وكان قد سأل اللهَ أن يَهَبَه إيَّاه، وهو خَليلُ اللهِ؛ فأراد تعالى تَكميلَ خُلَّتِه لله بألَّا يَبقى في قَلبِه ما يُزاحِمُ به مَحبَّةَ رَبِّه(١).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ أُورِدَ هذا التَّكليفُ في النَّومِ لا في اليَقَظةِ، وبيانُ الحِكمةِ في ذلك مِن وُجوهٍ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ هذا التَّكليفَ كان في نهايةِ المَشقَّةِ على الذَّابحِ والمذبوحِ؛ فورَدَ أوَّلًا في النَّومِ حتَّى يصيرَ ذلك كالمُنبِّهِ لوُرودِ هذا التَّكليفِ الشَّاقِّ، ثمَّ يتأكَّدَ حالَ النَّومِ بأحوالِ اليَقَظةِ؛ فحينَئذٍ لا يَهجُمُ هذا التَّكليفُ دَفعةً واحِدةً، بل شَيئًا فشَيئًا.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ اللهَ تعالى جعَلَ رُؤيا الأنبياءِ عليهم السَّلامُ حَقًّا؛ قال اللهُ تعالى في حَقِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال عن يوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، وقال في حَقِّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، والمقصودُ مِن ذلك تَقويةُ الدَّلالةِ على كَونِهم صادِقينَ؛ لأنَّ الحالَ إمَّا حالُ يَقَظةٍ وإمَّا حالُ مَنامٍ، فإذا تظاهَرَت الحالتانِ على الصِّدقِ كان ذلك هو النِّهايةَ في بَيانِ كَونِهم مُحقِّينَ صادِقينَ في كُلِّ الأحوالِ(٢).

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: إنَّما كان في المنامِ في هذا الأمرِ الخَطِرِ جِدًّا؛ لِيُعلَمَ وُثوقُ الأنبياءِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٩).

عليهم السَّلامُ بما يأتيهم عن اللهِ في كُلِّ حالٍ[١].

١١- في قَولِ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ استَدَلَّ بهذه الآيةِ والقِصَّةِ جماعةٌ مِن عُلَماءِ الأُصولِ على صِحَّةِ النَّسخِ قبْلَ التَّمَكُّنِ مِن الفِعلِ، خِلافًا لطائفةٍ مِن المُعتزِلةِ، والدَّلالةُ مِن هذه ظاهِرةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى شَرَعَ لإبراهيمَ ذَبْحَ ولَدِه، ثمَّ نسَخَه عنه وصَرَفه إلى الفِداءِ، وإنَّما كان المقصودُ مِن شَرْعِه أوَّلًا إثابةَ الخليلِ على الصَّبرِ على ذَبحِ ولَدِه، وعَزمِه على ذلك[٢].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ الحِكمةُ في مُشاوَرةِ الابنِ في هذا البابِ مِن وُجوهٍ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أن يُطلِعَ ابنَه على هذه الواقِعةِ؛ لِيَظهَرَ له صَبرُه في طاعةِ الله، فتَكونَ فيه قُرَّةُ عينٍ لإبراهيمَ؛ حيثُ يراه قد بلَغَ في الحِلمِ إلى هذا الحَدِّ العَظيمِ، وفي الصَّبرِ على أشَدِّ المكارِهِ إلى هذه الدَّرَجةِ العالِيةِ، ويَحصُلَ للابنِ الثَّوابُ العَظيمُ في الآخِرةِ، والثَّناءُ الحَسَنُ في الدُّنيا[٣].

**الوَجهُ الثَّاني**: أن يُصَبِّرَه إن جَزِعَ، ويُوطِّنَ نَفْسَه على مُلاقاةِ هذا البَلاءِ، وتَسكُنَ نَفْسُه لِما لا بُدَّ منه؛ إذ مُفاجَأةُ البلاءِ قبْلَ الشُّعورِ به أصعَبُ على النَّفْسِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠).

ويُنظر أيضًا: ((أصول السَّرَخْسي)) (٢/ ٦٣- ٦٥)، ((كشف الأسرار)) لعلاء الدين البخاري (٣/ ١٦٩- ١٧٤)، ((البحر المحيط)) للزركشي (٥/ ٢٢٦ - ٢٢٨).

ويُنظر في الاعتراضِ على هذه الفائدةِ: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٦).

**الوجه الثَّالث**: لِيَكتسِبَ المَثوبةَ بالانقيادِ لأمرِ الله قبْلَ نزولِه[١].

**الوَجهُ الرابع**: لِتَكونَ سُنَّةً في المُشاوَرةِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ أنَّه يجوزُ امتِحانُ الشَّخصِ بما لا يُؤخَذُ رأيُه فيه، ولكِنْ للاستِعلامِ؛ فإنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يُريدُ أنْ يَنظُرَ إلى ابنِه؛ إنْ قال: لا تذبَحْني، تَرَكَ الذَّبْحَ! بل يريدُ أنْ يَعرِفَ مدى قَبولِه واستِعدادِه؛ فيَكونَ في هذا تَوريةٌ، والتَّوريةُ لا شَكَّ أنَّها جائِزةٌ للاستِعلامِ والاستِخبارِ[٣].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ فيه أنَّ رُؤْيا الأنبياءِ وَحيٌ[٤]؛ فإنَّها معصومةٌ مِن الشَّيطانِ، وهذا باتِّفاقِ الأمَّةِ، ولهذا أقدَمَ الخليلُ على ذبْحِ ابنِه إسماعيلَ عليهما السَّلامُ بالرُّؤيا، وأمَّا رُؤيا غيرِهم فتُعرَضُ على الوحيِ الصَّريحِ، فإنْ وافَقَتْه وإلَّا لم يُعمَلْ بها[٥].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ أنَّ الخَبرَ قد يكونُ بمعنى الأمرِ؛ لأنَّ هذه الرُّؤيا بمَنزلةِ الخَبَرِ؛ حيثُ لم يُقَلْ له في الرُّؤيا: اذبَحْ ولدَك، بل رأى نَفْسَه يَذبَحُ الولَدَ -على أحدِ المعنيَينِ في تأويلِ الآيةِ-، ولكِنَّ الخبَرَ قد يكونُ بمعنى الأمرِ، وهل يَحتاجُ إلى قرينةٍ في هذا أمْ لا؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٢).

قال ابن جرير: (لم يكُنْ ذلك منه مُشاورةً لابنِه في طاعةِ اللهِ، ولكِنَّه كان منه لِيَعلَمَ ما عندَ ابنِه مِن العَزمِ: هل هو مِن الصَّبرِ على أمرِ اللهِ على مِثلِ الَّذي هو عليه فيُسَرَّ بذلك، أمْ لا؟ وهو في الأحوالِ كُلِّها ماضٍ لأمرِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٨٢، ٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((صحيح البخاري)) عقب حديث (١٣٨)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٧٥).

الجوابُ: نعم، يَحتاجُ إلى قَرينةٍ؛ لأنَّ الأصلَ في الخبَرِ أنَّه لا يدُلُّ على الطَّلَبِ، ولكِنْ إذا وُجِدَتْ قرينةٌ تقتضي ذلك كان أمرًا[١].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ﴾ لَمَّا كان خِطابُ الأبِ ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ على سَبيلِ التَّرَحُّمِ، قال هو: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ على سَبيلِ التَّعظيمِ والتَّوقيرِ[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ فَضيلةُ إبراهيمَ وإسماعيلَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيثُ استَسْلَما لأمرِ اللهِ في هذا الأمرِ العَظيمِ الَّذي لا يُقدِمُ عليه إلَّا أمثالُهما، ولا شَكَّ أنَّ هذا مِن مَناقِبِهما[٣].

١٨- أنَّ الشَّارعَ قد يَأمُرُ بشَيءٍ لِيَمتَحِنَ العبدَ هل يُطيعُه أم يَعصيه، ولا يكونُ المرادُ فِعلَ المأمورِ به، كما أُمِر إبراهيمُ بذَبحِ ابنِه، ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ حَصَلَ المَقصودُ ففَداه بالذِّبْحِ، وكذلك حديثُ: الأبرصِ والأقرعِ والأعمى؛ لَمَّا بَعَثَ اللهُ إليهم مَن سألَهم الصَّدَقةَ، فلمَّا أجابَ الأعمى قال المَلَكُ: ((أمسِكْ مالَك؛ فإنَّما ابتُليتُم، فقد رَضيَ اللهُ عنك، وسَخِطَ على صاحِبَيْك))[٤]؛ فالحِكمةُ مَنشَؤُها مِن نَفْسِ الأمرِ، لا مِن نَفْسِ المأمورِ به[٥].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ إثباتُ الكلامِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾ أي: يا إبراهيمُ، قد صَدَّقْتَ الرُّؤيا؛ وأنَّه بصَوتٍ؛ لِقَولِه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾، وبحرفٍ؛ لِقَولِه: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٣٨).

(٤) أخرجه البخاري (٣٤٦٤) واللفظ له، ومسلم (٢٩٦٤) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٣٦).

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إلى آخِرِه[١].

٢٠- الإنسانُ إذا قَصَدَ العَمَلَ وسَعى إليه كُتِبَ له أجْرُه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾، مع أنَّه لم يَذْبَحْ، لكِنَّه فَعَل ما أُمِرَ به، ولم يَبْقَ إلَّا أنْ يُنَفِّذَه[٢].

٢١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ مع أنَّ تَصديقَها إنما يكونُ بالذَّبحِ، ولم يُوجَدْ؟

**الجوابُ عن ذلك مِن أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ معناه: قد فَعلْتَ ما في غايةِ وُسْعِك ممَّا يَفعَلُه الذَّابحُ؛ مِن إلقاءِ وَلَدِك، وإمرارِ المُدْيةِ على حَلْقِه، ولكنَّ اللهَ منَعَها أنْ تَقطَعَ.

**الثاني**: أنَّ الَّذي رآه في النَّومِ مُعالَجةُ الذَّبحِ فقط، لا إراقةُ الدَّمِ، وقد فعَلَ ذلك في اليَقَظةِ؛ فكان مُصدِّقًا للرُّؤيا[٣].

**الثَّالث**: أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ صدَّقَ الرُّؤيا إلى أنْ نَهاهُ اللهُ عن إكمالِ مِثالِها؛ فأُطلِقَ على تَصديقِه أكثَرَها أنَّه صدَّقَها[٤].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ﴾ أنَّ التَّصديقَ إنَّما يَتِمُّ بأمْرَينِ؛ أحدُهما: اعتِقادُ الصِّدْقِ، والثَّاني: محَبَّةُ القَلبِ وانقيادُه؛ فإبراهيمُ كان مُعتَقِدًا لِصِدقِ رُؤياه مِن حينِ رآها؛ فإنَّ رُؤيا الأنبياءِ وَحْيٌ، وإنَّما جَعَلَه مُصَدِّقًا لها بعدَ أنْ فَعَلَ ما أُمِرَ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٢، ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٤).

(٥) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٥٠).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ كُلَّ مُحسِنٍ فإنَّ اللهَ تعالى يَجعَلُ له مِن كُلِّ همٍّ فَرَجًا، ويَكتُبُ له أجرَ العبادةِ وإنْ لم يَفعَلْها، إذا سَعَى في أسبابِها[1].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ؛ فكما أحسَنَ في عبادةِ اللهِ أحسَنَ اللهُ إليه، وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ في سورةِ (الرَّحمنِ): ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، يعني: ما جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسانُ، وبهذا يَتبيَّنُ لك كَمالُ فَضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الَّذي أحسَنَ إليك أوَّلًا بتوفيقِك للطَّاعاتِ والإحسانِ، ثُمَّ أحسَنَ إليك ثانيًا بالجَزاءِ عليه[2].

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ﴾ قِصَّةُ الذَّبيحِ هذه تُؤيِّدُ أحَدَ القَولَينِ المَشهورَينِ عندَ أهلِ الأُصولِ في حِكمةِ التَّكليفِ: هل هي للامتِثالِ فقط، أو هي مُتردِّدةٌ بيْنَ الامتِثالِ والابتِلاءِ؟ لأنَّه بيَّنَ في هذه الآيةِ الكَريمةِ أنَّ حِكمةَ تَكليفِه لإبراهيمَ بذَبحِه ولَدَه ليست هي امتِثالَه ذلك بالفِعلِ؛ لأنَّه لم يُرِدْ ذَبْحَه كَونًا وقَدَرًا، وإنَّما حِكمةُ تَكليفِه بذلك مُجَرَّدُ الابتِلاءِ والاختِبارِ: هل يُصَمِّمُ على امتِثالِ ذلك أو لا؟ كما صَرَّح بذلك في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ * وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾؛ فتَبيَّنَ بهذا أنَّ التَّحقيقَ أنَّ حِكمةَ التَّكليفِ مُتَرَدِّدةٌ بيْنَ الامتِثالِ والابتِلاءِ[3].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٍ﴾ بيانُ أنَّ رَفْعَ الذَّبحِ عن الابنِ جُعِلَ له مُقابِلٌ لِتَكميلِ التَّنفيذِ والامتِثالِ؛ وذلك بأنْ أُمِرَ إبراهيمُ عليه الصَّلاةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٨).

والسَّلامُ بأنْ يَذْبَحَ فِداءً عن ابنِه، ويكونَ هذا الذِّبْحُ -أي: المذبوحُ- عَظيمًا؛ فلهذا قال: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾، يعني: أمَرْناه أنْ يَذبَحَ ذِبْحًا عَظيمًا؛ فِداءً له[١].

٢٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ احتَجَّ قَومٌ مِن العُلَماءِ بهذه الآيةِ على أنَّ مَن نذَرَ ذَبْحَ ولَدِه لَزِمَه ذَبْحُ شاةٍ، وأنكَرَ غَيرُهم هذا الاستِدلالَ، ورَأَوْا أنَّ نَذْرَ ذَبحِ الوَلَدِ مَعصيةٌ؛ فلا يكونُ فيه فِداءٌ، بخِلافِ ذَبحِ إبراهيمَ لِوَلدِه؛ فإنَّه كان مُمتَثِلًا لأمرِ اللهِ تعالى فيه، ثمَّ فداه اللهُ تعالى بالذِّبحِ تفَضُّلًا منه، والفَرْقُ بَيِّنٌ[٢].

٢٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ فُسِّرَ الذِّبحُ في الأحاديثِ والآثارِ بكَبشٍ؛ فاستدَلَّ به المالكيَّةُ على أنَّ الغَنَمَ في الضَحيَّةِ أفضَلُ مِن الإبِلِ[٣]. وفي الحديثِ عن أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه، قال: ((ضحَّى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بكَبْشَينِ أمْلَحَينِ[٤] أقْرَنَينِ[٥]، ذبَحَهما بيَدِه، وسَمَّى وكَبَّرَ، ووضَع رِجْلَه على صِفاحِهما[٦]))[٧].

٢٩- لَطيفةٌ: مَنْصِبُ الخُلَّةِ مَنصِبٌ لا يَقْبَلُ المزاحَمةَ بغيرِ المحبوبِ، ولمَّا أَخَذ الولَدُ شُعبَةً مِن شِعَابِ القَلبِ؛ أمَرَ الله تعالى إبراهيمَ عليه السَّلامُ بذَبحِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفَرَس (٣/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٨). ويُنظر أيضًا: ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (٣/ ٣٨).

(٤) الأمْلَح: هو الَّذي فيه بَياضٌ وسَوادٌ، والبياضُ أكثَرُ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١١/ ١٧٠) و (١٣/ ١٢٠).

(٥) أقرنَين: أي: لكلٍّ واحدٍ منهما قَرْنانِ حسَنانِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ١٢٠).

(٦) صِفاحِهما: أي: صفحةِ العُنُقِ، وهي جانِبُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ١٢١).

(٧) رواه البخاري (٥٥٦٥)، ومسلم (١٩٦٦).

فلمَّا أَسلَمَ للامتِثالِ خرَجَتْ تلك المُزاحَمةُ، وخَلَصَتِ المحبَّةُ لأهلِها، فجاءَتْه البُشرى ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾، ليس المرادُ أنْ يُعَذَّبَ، ولكِنْ يُبْتَلى لِيُهَذَّبَ. ليس العَجَبُ مِن أمرِ الخَليلِ بذَبحِ الولَدِ، إنَّما العَجَبُ مِن مُباشرةِ الذَّبحِ بيَدِه، ولولا الاستِغراقُ في حُبِّ الآمِرِ لَمَا هانَ مِثلُ هذا المأمورِ؛ فلذلك جُعِلَتْ آثارُها مَثَابةً للقلوبِ تَحِنُّ إليها أعظَمَ مِن حنينِ الطُّيورِ إلى أوكارِها[١].

٣٠- قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فُهِمَ مِن ذِكرِ المُحسِنينَ أنَّ الجزاءَ إحسانٌ بمِثلِ الإحسانِ، فصار المعنى: إنَّا كذلك الإحسانِ العظيمِ الَّذي أحسَنْتَه نَجْزي المحسِنينَ، فهذا وَعدٌ بمَراتبَ عَظيمةٍ مِن الفضْلِ الرَّبَّانيِّ، وتضمَّن وَعْدَ ابنِه بإحسانٍ مِثلِه مِن جِهَةِ نَوطِ الجَزاءِ بالإحسانِ، وقد كان إحسانُ الابنِ عَظيمًا ببَذْلِ نَفْسِه[٢].

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ الثَّناءُ على إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بهذينِ الوَصفَينِ، وهما: العُبوديَّةُ والإيمانُ، ويَتفرَّعُ على ذلك: أنَّ مَنِ اتَّصَفَ بالعُبوديَّةِ والإيمانِ نالَه مِن الثَّناءِ بقَدْرِ ما اتَّصَفَ به منهما؛ فكُلَّما كان الإنسانُ للهِ أعبَدَ، وبه آمَنَ؛ كان الثَّناءُ عليه أكثَرَ وأعظَمَ، ولا تَغتَرَّ بما تُلاقيه في الدُّنيا مِن مُجابَهاتٍ؛ فإنَّ هذا قد يَرِدُ، ولكِنْ يكونُ امتِحانًا وابتلاءً واختِبارًا، ويكونُ الثَّناءُ ولو بعدَ مَوتِ الإنسانِ؛ فكم مِن أئمَّةٍ مِن هذه الأُمَّةِ أُوذوا في حياتِهم؟! ولكِنْ بعدَ مماتِهم صار جزاءُ هذه الأذيَّةِ أنَّ اللهَ تعالى رَفَع لهم الذِّكرَ، وصارتِ العاقِبةُ لهم والثَّناءُ الحَسَنُ بعدَ مَماتِهم، والشَّواهِدُ على ذلك كَثيرةٌ[٣].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فَضيلةُ العُبوديَّةِ للهِ عزَّ وجلَّ

---

(١) يُنظر: ((المدهش)) لابن الجوزي (ص: ٨٦، ٨٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٨).

والإيمانِ به؛ لأنَّه لا شَكَّ أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ الثَّناءُ عليه(١).

٣٣- قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ البِشارةُ ورَدَت مَرَّتينِ: مرَّةً في قَولِه: ﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ فهذه الآيةُ قاطِعةٌ في أنَّ المُبَشَّرَ به هو الذَّبيحُ؛ ومرَّةً في قَولِه: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١] الآيةَ. قد صَرَّح فيها أنَّ المبشَّرَ به إسحاقُ، ولم يكُنْ مِن سُؤالِ إبراهيمَ، بل قالت امرأتُه إنَّها عَجوزٌ، وإنَّه شَيخٌ، وكان ذلك في الشَّام، لَمَّا جاءت الملائِكةُ إليه؛ بسَبَبِ قَومِ لُوطٍ، وهو في أواخِرِ أمْرِه، وأمَّا البِشارةُ الأُولى لَمَّا انتَقَل مِن العِراقِ إلى الشَّام حينَ كان سِنُّه لا يُسْتغرَبُ فيه الوَلَدُ؛ ولذلك سألَه، فعَلِمْنا بذلك أنَّهما بِشارتانِ في وَقتَينِ بغُلامينِ: أحَدُهما بغيرِ سُؤالٍ، وهو إسحاقُ، صَريحًا. والثَّانيةُ: قبْلَ ذلك بسُؤالٍ، وهو غيْرُه، فقَطَعْنا بأنَّه إسماعيلُ، وهو الذَّبيحُ(٢).

٣٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في ذِكرِ الصَّلاحِ بعدَ النُّبُوَّةِ تعظيمٌ لِشأنِه، وإيماءٌ بأنَّه الغايةُ لها؛ لتَضمُّنِها معنَى الكَمالِ والتَّكميلِ(٣).

٣٥- ذَكَر اللهُ تعالى لنا في القُرآنِ بَرَكَتَه على إسحاقَ، في مِثلِ قَولِه تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾، مُنَبِّهًا لنا على ما حصَلَ في أولادِه مِن نُبُوَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ وغَيرِه، وما أُوتُوه مِنَ الكِتابِ والعِلمِ، مُستَدعيًا مِن عبادِه الإيمانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٨٨).

بذلك والتَّصديقَ به، وألَّا يُهمِلوا مَعرِفةَ حُقوقِ هذا البَيتِ المبارَكِ، وأهلِ النُّبوَّةِ منهم، ولا يَقولَ القائِلُ: هؤلاء أنبياءُ بني إسرائيلَ لا تَعلُّقَ لنا بهم! بل يجِبُ علينا احترامُهم وتوقيرُهم والإيمانُ بهم، ومَحبَّتُهم ومُوالاتهُم والثَّناءُ عليهم -صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم أجمَعينَ[١].

٣٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ فيه وَعيدٌ لليَهودِ ومَن كان مِن ذُرِّيَّتِهما لم يُؤمِنْ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

٣٧- قال الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ في هذه التَّكمِلةِ إبطالُ غُرورِ المُشرِكينَ بأنَّهم مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٣].

٣٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ لعَلَّ هذا مِن بابِ دَفعِ الإيهامِ؛ فإنَّه لَمَّا قال تعالى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ اقتضى ذلك البَرَكةَ في ذُرِّيَّتِهما، وأنَّ مِن تمامِ البَرَكةِ: أن تَكونَ الذُّرِّيَّةُ كُلُّهم مُحسِنينَ، فأخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ مِنهم مُحسِنًا وظالِمًا[٤].

٣٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ دخَلَ تحتَ قَولِه: ﴿مُحْسِنٌ﴾ الأنبياءُ والمؤمِنونَ، وتحت قَولِه: (ظَالِمٌ) الكافِرُ والفاسِقُ. واللهُ أعلَمُ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥١).

- أجْرى إبراهيمُ عليه السَّلامُ كَلامَه، وبتَّ القَولَ بأنَّ ربَّهُ سيَهْديهِ؛ جَريًا على سَنَنِ مَوعِدِ ربِّهِ، أو بِناءً على عادةِ اللهِ تَعالى معه في هِدايَتِه وإرْشادِه، أو أظهَرَ بذلك تَوكُّلَه وتَفْويضَه أمْرَه إلى اللهِ؛ لأنَّه أرادَ إعلامَ قَومِهِ بأنَّه واثِقٌ برَبِّهِ، وأنَّه لا تردُّدَ له في مُفارَقَتِهم. ورُبَّما كان مَعْناهُ: إنِّي ذَاهِبٌ إلى حيثُ أمَرَني ربِّي، وهي المُهاجَرةُ للشَّامِ، أو إلى طاعةِ ربِّي ورِضاهُ. وقَولُه: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيُثَبِّتُني على هُداي، ويَزيدُني هُدًى، ولم يَكُنْ كذلك حالُ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حيث قصَدَ الرَّجاءَ والطَّمَعَ، فقال حينَ قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]؛ فلذلك ذُكِرَ بصِيغةِ التَّوقُّعِ(١).

وقيل: إنَّ العَبدَ إذا تجلَّى له مَقاماتُ رَحمةِ الله، فقد يَجزِمُ بحُصولِ المقصودِ، وإذا تجلَّى له مَقاماتُ كَونِه غَنيًّا عن العالَمينَ، فحينَئذٍ يَستَحقِرُ نَفْسَه، فلا يجزِمُ، بل لا يُظهِرُ إلَّا الرَّجاءَ والطَّمعَ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾

- الفاءُ في ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ﴾ للتَّعقيبِ، فإنْ كان اللهُ بشَّرَ إبراهيمَ بأنَّه يُولَدُ له ولَدٌ، أو يُوجَدُ له نَسْلٌ عقِبَ دُعائِه -كما هو الظَّاهرُ-؛ فالتَّعقيبُ على ظاهِرِه، وإنْ كان اللهُ بشَّرَه بغُلامٍ بعْدَ ذلك حِينَ حمَلَتْ منه هاجرُ جاريتُه بعْدَ خُروجِه بمُدَّةٍ طويلةٍ؛ فالتَّعقيبُ نِسبيٌّ، أي: بشَّرْناه حينَ قدَّرْنا ذلك أوَّلَ بِشارةٍ بغُلامٍ، فصار التَّعقيبُ آيِلًا -أي: عائِدًا وراجِعًا- إلى المُبادَرةِ، كما يُقالُ: تَزوَّجَ فوُلِدَ له(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩). =

- في قَولِهِ: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴾ إيجازُ قِصَرٍ[١]؛ فقد انطَوَتْ هذه البِشارةُ المُوجَزةُ على ثَلاثٍ: أنَّ الوَلَدَ ذَكَرٌ، وأنَّه يَبلُغُ أوانَ الحُلْمِ (أي: البلوغ)، وأنَّه يكونُ حليمًا، وأيُّ حِلمٍ أدَلُّ على ذلك مِن حِلمِه حينَ عَرَض عليه أبوهُ الذَّبحَ فلم يَضطَرِبْ، ولم يَتخاذَلْ، ولم يَعتَرِضْ على مَشيئةِ أبيهِ، بل قال: ﴿ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾، ثمَّ استَسْلَم لذلك، ولم يكُنْ لِيَدورَ له في خَلَدِه أنَّ اللهَ سيَفْديهِ، وسيُهيِّئُ له كَبْشَ الفِداءِ[٢]!

- وهذا الغُلامُ الَّذي بُشِّرَ به إبراهيمُ هنا هو إسماعيلُ ابنُه البِكْرُ، وهذا غيرُ الغلام الَّذي بشَّرَه به الملائكةُ الَّذين أُرْسِلوا إلى قَومِ لُوطٍ في قولِه تعالى: ﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر: ٥٣]، وقولِه: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ

---

= والقاعدة: أنَّ الفاءَ للتَّعقيبِ، وتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحَسَبِه. يُنظر: ((شرح قطر الندى وبل الصدى)) لابن هشام (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٢٢، ٤٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٢٢٤).

(١) الإيجازُ: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغةِ كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعان؛ الأوَّلُ: إيجازُ القِصَرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه، مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفع بالقتْلِ -الَّذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ النَّاسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم. الثَّاني: إيجازُ الحَذْفِ: وهو حذفُ ما يُعلمُ ويُفهمُ مِن سِياقِ الكلامِ بشرطِ وُجودِ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقد يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٨).

وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، وهو إسحاقُ عليه السلامُ، فذلك وُصِفَ بأنَّه عليمٌ، نَظَرًا لِشَرَفِ العِلمِ، وهذا وُصِفَ بـ ﴿حَلِيمٍ﴾ لِمُناسبَتِه حِلمَ إسماعيلَ عليه السلامُ؛ لِوَعدِه بالصَّبرِ في جَوابِه لسُؤالِ أبيهِ له في ذَبحِه بقَولِه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وأيضًا ذلكَ كانتِ البِشارةُ به بمَحضرِ سارةَ أُمِّه، وقد جُعِلَت هي المُبشَّرةَ في قولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ * قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ [هود: ٧٢]، فتلك بِشارةُ كَرامةٍ، والأُولى بِشارةُ استجابةِ دُعائِه، فلمَّا وُلِدَ له إسماعيلُ تحقَّقَ أمَلُ إبراهيمَ أنْ يكونَ له وارِثٌ مِن صُلبِه، فالبِشارةُ بإسماعيلَ لمَّا كانت عَقِبَ دُعاءِ إبراهيمَ أنْ يَهَبَ اللهُ له مِن الصَّالِحينَ، عُطِفت هنا بفاءِ التَّعْقيبِ، وبِشارَتُه بإسْحاقَ ذُكِرَت في هذه السُّورةِ مَعْطوفةً بالواوِ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾

- الفاءُ في ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ فَصيحةٌ؛ لأنَّها مُفْصِحةٌ عن مُقدَّرٍ، تَقديرُه: فوُلِدَ له ويَفَعَ وبلَغَ السَّعيَ، فلمَّا بلَغَ السَّعيَ، قال: يا بُنَيَّ... إلخ[2] وحُذِف هذا المقدَّرُ؛ تعويلًا على شَهادةِ الحالِ، وإيذانًا بعَدَمِ الحاجةِ إلى التَّصريحِ به؛ لاستحالةِ التَّخلُّفِ والتَّأخُّرِ بعْدَ البِشارةِ[3].

- قَولُه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ﴾ أي: بلَغَ إسماعيلُ سِنَّ السَّعيِ مع أبيه

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨١، ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٩، ٢٠٠).

إبراهيمَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وقيل: لما قال: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ ﴾ أي: القدرةَ على أنْ يسعَى. فقِيل: معَ مَن يَسعَى؟ فقِيل: معَ أبيه. والفائِدةُ في التَّكريرِ: التَّأكيدُ، والمُبالَغةُ في استِصْحابِه إيَّاه كأنَّه بلَغَ معه، واستَكْمَلَ في أخْلاقِه مِن بَدءِ حالِه، واختِصاصُ الأبِ بالمَعيَّةِ؛ لأنَّه أرفَقُ النَّاسِ بابْنِه، وأعطَفُهم عليه في الاستِصْلاحِ، وغَيْرُه رُبَّما عَنَّفَ به في الاستِسْعاءِ فلا يَحتمِلُه؛ لأنَّه لم تَستحكِمْ قُوَّتُه، ولم يَصلُبْ عُودُه، والمُرادُ: أنَّه على غَضاضةِ سِنِّه، وتَقلُّبِه في حدِّ الطُّفولةِ، كان فيه مِن رَصانةِ الحِلمِ، وفُسحةِ الصَّدرِ ما جسَّرَه على احتِمالِ تلك البَليَّةِ العَظيمةِ، والإجابةِ بذلك الجَوابِ الحَكيمِ: أُتِيَ في المَنامِ فقيلَ له: اذْبَحِ ابْنَكَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ورُؤْيا الأنبياءِ وَحيٌ كالوَحيِ في اليَقَظةِ؛ فلهذا قال لابْنِه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ على سبيلِ التَّرحُّمِ، ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ﴾ فذَكَرَ تَأْويلَ الرُّؤْيا، كما يقولُ المُمتَحَنُ -وقد رَأى أنَّه راكِبٌ في سَفينةٍ-: رأيتُ في المَنامِ أنِّي ناجٍ مِن هذه المِحْنةِ[1].

- والنِّداءُ في قَولِه: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ نِداءُ شَفَقةٍ وتَرحُّمٍ[2].

- قيل: إنَّما ذُكِرَ بلَفظِ المضارِعِ ﴿أَرَىٰ﴾؛ لِتكرُّرِ الرُّؤيا، وقيل: لاستحضارِ الصورةِ الماضيةِ لنوعِ غرابةٍ[3].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فاءُ تَفريعٍ، أو فصيحةٌ مُعرِبةٌ عن مُقدَّرٍ قد حُذِفَ؛ أي: إذا عَلِمْتَ هذا فانظُرْ ماذا ترى[4]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤)، ((فتح الرحمن))

- قولُه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ فيه ابتداءُ الجوابِ بالنِّداءِ، واستِحضارُ المُنادى بوَصْفِ الأُبُوَّةِ، وإضافةُ الأبِ إلى ياءِ المتكلِّمِ المُعوَّضِ عنها التَّاءُ، المُشعِرُ تَعويضُها بصِيغةِ تَرقيقٍ وتَحَنُّنٍ، وفي قولِه: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ تَعظيمٌ وتَوقيرٌ لأبيهِ[1].

- والتَّعبيرُ عن الذَّبحِ بالموصولِ -وهو ﴿مَا تُؤۡمَرُ﴾- دونَ أنْ يقولَ: اذْبَحْني، يُفيدُ وَحْدَه إيماءً إلى السَّببِ الَّذي جعَلَ جوابَه امْتثالًا لِذَبْحِه. وصِيغةُ الأمْرِ في قَولِه: ﴿ٱفۡعَلۡ﴾ مُستعمَلةٌ في الإذْنِ، وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: اذْبَحْني، إلى ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾؛ للجمْعِ بيْن الإذنِ وتَعليلِه، أي: أذِنْتُ لك أنْ تَذْبَحني؛ لأنَّ اللهَ أمَرَك بذلك؛ ففيه تَصديقُ أبيهِ، وامتثالُ أمْرِ اللهِ فيه[2].

- وحُذِفَ المُتعلَّقُ بفِعلِ ﴿تُؤۡمَرُ﴾؛ لِظُهورِ تَقديرِه، أي: ما تُؤمَرُ به. وبقِيَ الفِعلُ كأنَّه مِن الأفعالِ المُتعدِّيةِ، وهذا الحذْفُ يُسمَّى بالحذفِ والإيصالِ[3].

- وصِيغةُ المُضارِعِ ﴿تُؤۡمَرُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأمْرَ مُتعلِّقٌ به، مُتوجِّهٌ إليه، مُستمِرٌّ إلى حِينِ الامتثالِ به[4]، وقيل: للإيذانِ بغرابةِ ذلك، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ ما قاله لم يكُنْ إلَّا عن حلمٍ غيرِ مشوبٍ بجهلٍ بحالِ المأمورِ به، وقيل: لتكرُّرِ الرُّؤْيا، وقيل غيرُ ذلك[5].

- قولُه: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ﴾ لم يَقُلْ: يا أبتِ لا مانعَ عِندي، بل قال: ﴿ٱفۡعَلۡ﴾؛ فحَثَّه

---

للأنصاري (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥١، ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٢٤).

على أنْ يَفعَلَ. ولم يقُلْ: افعَلْ ما رأيْتَ، بل قال: ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾؛ حثًّا لإبراهيمَ على أنْ يَفعَلَ؛ لأنَّه إذا ذكَّرَه أنَّ هذا أمْرُ اللهِ، فإنَّه يَزيدُه قُوَّةً في تَنفيذِ هذا الأمْرِ؛ لأنَّ إسماعيلَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- خاف أنْ تُدرِكَ إبراهيمَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- رَحمةُ الولَدِ، فيُراجِعَ اللهَ عزَّ وجلَّ في ذلك، فأشار عليه أنْ يُبادِرَ بفِعلِ ما أُمِرَ به (افْعَلْ)، ولم يقُلْ: ما رأيتَ؛ لِيَكونَ هذا أشدَّ حثًّا لإبراهيمَ على الإقدامِ[1].

- وجُملةُ ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ جوابٌ، والجُمَلُ الَّتي قبْلَها تَمهيدٌ لهذا الجوابِ؛ فإنَّ إسماعيلَ عليه السَّلامُ بعْدَ أنْ حثَّ أباهُ على فِعلِ ما أُمِرَ به، وَعَدَه بالامتثالِ له، وبأنَّه لا يَجزَعُ ولا يَهلَعُ، بل يكونُ صابرًا، وفي ذلك تَخفيفٌ مِن عِبْءِ ما عسَى أنْ يَعرِضَ لأبيهِ مِن الحُزْنِ؛ لِكَونِه يُعامِلُ ولَدَه بما يَكرَهُ، وقد قرَنَ وَعْدَه بقولِه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ استِعانةً على تَحقيقِه. وفي قَولِه: ﴿مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ مِن المُبالَغةِ في اتِّصافِه بالصَّبرِ ما ليس في الوصفِ بـ(صابرٍ)؛ لأنَّه يُفيدُ أنَّه سيَجِدُه في عِدادِ الَّذين اشتُهِروا بالصَّبرِ وعُرِفوا به[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾

- جوابُ (لَمَّا) مَحذوفٌ -على قولٍ-؛ إيذانًا بعَدَمِ وَفاءِ التَّعبيرِ بتَفاصيلِه؛ كأنَّه قِيل: كانَ ما كانَ ممَّا لا يُحيطُ به نِطاقُ البَيانِ مِن استِبْشارِهما، وشُكْرِهما للهِ تعالَى على ما أنْعَمَ به عليهما مِن دَفْعِ البلاءِ بعْدَ حُلولِه، والتَّوفيقِ لِمَا لم يُوفَّقْ أحدٌ لِمِثلِه، وإظهارِ فَضْلِهما بذلك على العالَمينَ، مع إحرازِ الثَّوابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٢).

العظيمِ... إلى غيرِ ذلك[١]. وقيل: جوابُ ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾، وإنَّما جِيءَ به في صُورةِ العطْفِ؛ إيثارًا لِمَا في ذلك مِن مَعنى القصَّةِ على أنْ يكونَ جوابًا؛ لأنَّ الدَّلالةَ على الجوابِ تَحصُلُ بعَطْفِ بعضِ القصَّةِ دونَ العكْسِ، وحَذْفُ الجوابِ في مِثلِ هذا كثيرٌ في القُرآنِ، وهو مِن أساليبِه[٢].

- قولُه: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي: انْقادَا وخضَعَا، وحُذِفَ المُتعلَّقُ؛ لِظُهورِه مِن السِّياقِ، أي: أسْلَمَا لِأمْرِ اللهِ[٣].

- وقيل: دلَّ على السُّرعةِ باللَّامِ الواقعةِ مَوقعَ (على) في قولِه: ﴿لِلۡجَبِينِ﴾[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ثَناءٌ مِن اللهِ تعالى على إبراهيمَ عليه السَّلامُ بمُبادَرتِه لامتثالِ الأمْرِ، ولم يَتأخَّرْ، ولا سأَلَ مِنَ اللهِ نسْخَ ذلك[٥].

- قولُه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ﴾؛ لأنَّ نِداءَ اللهِ إيَّاهُ تَرْفيعٌ لِشَأْنِه، فكان ذلك النِّداءُ جَزاءً على إحسانِه، أي: مِثلَ عَظَمةِ ذلك التَّصديقِ نَجْزي جَزاءً عظيمًا للمُحسِنينَ، أي: الكامِلينَ في الإحسانِ، أي: وأنتَ منْهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٢٩٦).

- ولِمَا يَتضمَّنُه لَفظُ الجَزاءِ مِن مَعنى المُكافأةِ ومُماثَلةِ المَجْزِيِّ عليه، عَظَّمَ شأْنَ الجزاءِ بتَشبيهِه بمُشبَّهٍ مُشارٍ إليه بإشارةِ البعيدِ، المُفيدِ بُعدًا اعتباريًّا، وهو الرِّفعةُ وعِظَمُ القَدْرِ في الشَّرفِ، فالتَّقديرُ: إنَّا نَجْزي المُحسِنينَ جَزاءً كذلك الإحسانِ الَّذي أحسَنْتَ به بتَصديقِك الرُّؤيا، مُكافأةً على مِقدارِ الإحسانِ؛ فإنَّه بَذَلَ أعزَّ الأشياءِ عليه في طاعةِ ربِّه، فبَذَلَ اللهُ إليه مِن أحسَنِ الخَيراتِ الَّتي بيَدِه تعالى، فالمُشبَّهُ والمُشبَّهُ به مَعقولانِ؛ إذ ليس واحدٌ منهما بمُشاهَدٍ، ولكنَّهما مُتخيَّلانِ بما يتَّسِعُ له التَّخيُّلُ المعهودُ عندَ المُحسِنينَ ممَّا يَقْتضيهِ اعتقادُهم في وَعْدِ الصَّادقِ مِن جزاءِ القادرِ العظيمِ. ولِمَا أفاد اسمُ الإشارةِ مِن عَظَمةِ الجزاءِ، أُكِّدَ الخبَرُ بـ (إنَّ)؛ لِدَفْعِ تَوهُّمِ المُبالَغةِ، أي: هو فوقَ ما تَعْهَدُه في العَظَمةِ، وما تُقدِّرُه العُقولُ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾

- جُملةُ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ تأْكيدٌ لِمَا قبْلَها، أي: هذا التَّكليفُ الَّذي كلَّفْناك هو الاختبارُ البيِّنُ، أي: الظَّاهرُ دَلالةً على مَرتبةٍ عظيمةٍ مِن امتثالِ أمْرِ اللهِ. وجُملةُ ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾ في مَحلِّ العِلَّةِ لِجُملةِ ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴾ فيه وصْفُ الذِّبحِ بأنَّه عظيمٌ، أي: شرُفَ قَدْرُ هذا الذِّبحِ؛ وهو أنَّ اللهَ فَدَى به ابنَ رسولٍ، وأبْقى به مَن سيَكونُ رَسولًا، فعِظَمُه بعِظَمِ أثَرِه، ولأنَّه سخَّرَه اللهُ لإبراهيمَ في ذلك الوقتِ وذلك المكانِ. أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٤، ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٥٥).

وُصِفَ الذِّبحُ بأنَّه عظيمٌ؛ لأنَّه مُتقبَّلٌ يَقينًا[١]. وقيل غيرُ ذلك.

- وقد أشارتْ هذه الآياتُ إلى قِصَّةِ الذِّبيحِ، ولم يُسَمِّه القُرآنُ، لعلَّه لئلَّا يُثِيرَ خِلافًا بيْن المسلِمينَ وأهلِ الكتابِ في تَعيينِ الذَّبيحِ مِن وَلَدَيْ إبراهيمَ، وكان المَقصدُ تألُّفَ أهلِ الكتابِ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم في الاعترافِ برسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَصديقِ القرآنِ، ولم يكُنْ ثَمَّةَ مَقصدٌ مُهِمٌّ يَتعلَّقُ بتَعيينِ الذَّبيحِ، ولا في تَخطئةِ أهلِ الكتابِ في تَعيينِه، وأمارةُ ذلك: أنَّ القُرآنَ سمَّى إسماعيلَ عليه السَّلامُ في مَواضعَ غيرِ قِصَّةِ الذَّبحِ، وسمَّى إسحاقَ عليه السَّلامُ في مَواضعَ، ومنها بِشارةُ أُمِّه على لِسانِ الملائكةِ الَّذين أُرسِلوا إلى قَومِ لُوطٍ عليه السَّلامُ، وذكَرَ اسْمَيْ إسماعيلَ وإسحاقَ عليهما السَّلامُ أنَّهما وُهِبَا لإبراهيمَ عليه السَّلامُ على الكِبَرِ، ولم يُسَمِّ أحدًا في قِصَّةِ الذَّبحِ؛ قَصْدًا للإبهامِ مع عَدَمِ فَواتِ المقصودِ مِن الفضْلِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن القصَّةِ التَّنويهُ بشأْنِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فأيُّ ولَدَيْه كان الذَّبيحَ كان في ابتلائِه بذَبْحِه وعَزْمِه عليه، وما ظهَرَ في ذلك مِن المعجزةِ؛ تَنويهٌ عَظيمٌ بشَأْنِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[٢] [العنكبوت: ٤٦].

٨- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾

- لم تُؤكَّدْ جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ بـ (إنَّ) هنا، وأُكِّدَت مع ذِكرِ نُوحٍ وفيما تقدَّمَ مِن ذِكرِ إبراهيمَ؛ لأنَّه لَمَّا تَقدَّمَ في هذه القصَّةِ قولُه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠٥]، وكان إبراهيمُ هو المَجْزيَّ؛ اكْتُفِيَ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٥٦).

بتَأْكيدِ نَظيرِه عن تأْكيدِه، أي: لأنَّه بالتَّأكيدِ الأوَّلِ حصَلَ الاهتِمامُ، فلمْ يَبْقَ داعٍ لإعادتِه، واقتُصِرَ على تأْكيدِ معنى الجُملةِ تأْكيدًا لَفظيًّا؛ لأنَّه تَقريرٌ للعِنايةِ بجَزائِه على إحسانِه[١].

- وفي قَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى إبقاءِ ذِكرِه الجميلِ فيما بيْن الأُمَمِ، لا إلى ما أُشِيرَ إليه فيما سبَقَ؛ فلا تَكرارَ[٢].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

- هذه بِشارةٌ أُخرى لإبراهيمَ عليه السَّلامُ ومَكرُمةٌ له، وهي غيرُ البِشارةِ بالغلامِ الحليمِ؛ فإسحاقُ غيرُ الغُلامِ الحليمِ، ومعنى البِشارةِ به البِشارةُ بوِلادتِه له؛ لأنَّ البِشارةَ لا تَتعلَّقُ بالذَّواتِ، بل تَتعلَّقُ بالمعاني[٣].

- وانتصَبَ ﴿نَبِيّٗا﴾ على الحالِ مِن (إسحاقَ)؛ فيجوزُ أنْ يكونَ حِكايةً للبِشارةِ، فيكون الحالُ حالًا مُقدَّرًا؛ لأنَّ اتِّصافَ إسحاقَ بالنُّبوَّةِ بعْدَ زَمنِ البِشارةِ بمُدَّةٍ طويلةٍ، بلْ هو لم يكُنْ مَوجودًا؛ فالمعنى: وبَشَّرْناهُ بوِلادةِ وَلدٍ اسمُه إسحاقُ مُقَدَّرًا حالُه أنَّه نبيٌّ. وإنْ كان وَضْعًا مُعْتَرِضًا في أثناءِ القصَّةِ، كان تَنويهًا بإسحاقَ، وكان حالًا حاصلةً[٤].

- وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ حالٌ ثانيةٌ، وذكَرَها للتَّنويهِ بِشَأْنِ الصَّلاحِ؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٩١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦١، ١٦٢).

الأنبياءَ مَعْدودون في زُمْرةِ أهْلِه، وإلَّا فإنَّ كلَّ نَبيٍّ لا بُدَّ أنْ يكونَ صالحًا، والنُّبوَّةُ أعظَمُ أحوالِ الصَّلاحِ؛ لِمَا معها مِن العَظَمةِ[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾

- ضرَبَ اللهُ قِصَّةَ إبراهيمَ وبَنِيه مَثلًا لحالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ثَباتِه على إبطالِ الشِّركِ، وفيما لَقِيَ مِنَ المشْرِكينَ، وإيماءً إلى أنَّه يُهاجِرُ مِن أرْضِ الشِّركِ، وأنَّ اللهَ يَهْديهِ في هِجرتِه، ويَهَبُ له أُمَّةً عظيمةً كما وهَبَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أتْباعًا[٢].

- وفي قَولِه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ مَثَلٌ لحالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ معه مِن أهْلِ مكَّةَ، ولحالِ المشركينَ مِن أهْلِ مكَّةَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١١٤-١٢٢)

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَنَنَّا ﴾: أي: تَفضَّلْنا وأنعَمْنا، وأصلُ (منن): يَدُلُّ على النِّعمةِ[1].

﴿ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾: أي: البَيِّنَ الواضِحَ، وأصلُ (بين): يدُلُّ على الانكِشافِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولقد مَنَنَّا على موسى وهارونَ، ونجَّيْناهما وقَومَهما مِنَ الغَمِّ الشَّديدِ الَّذي أصابَهم بسَبَبِ الخَوفِ مِن الغَرَقِ، ومِن فِرعَونَ وقَومِه؛ ونصَرْناهم على فِرعَونَ وقَومِه، فكانوا هم الغالِبينَ، وآتَيْنا موسى وهارونَ الكِتابَ الواضِحَ، وهو التَّوراةُ، وهدَيْناهما الطَّريقَ المُستَقيمَ الَّذي لا اعوِجاجَ فيه، وأثنَيْنا على موسى وهارونَ بالذِّكرِ الجَميلِ الباقي فيمَن بَعْدَهما، سَلامٌ على موسى وهارونَ. مِثلَ هذا الجَزاءِ نَجزي كُلَّ مَن كان مُحسِنًا، إنَّهما مِن عِبادِنا المؤمِنينَ.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَر اللهُ تعالى نوحًا وهو القُدوةُ الأولَى، وإبراهيمَ وهو رسولُ المِلَّةِ الحَنيفيَّةِ الَّتي هي نواةُ الشَّجرةِ الطَّيِّبةِ شجرةِ الإسلامِ؛ ذكَر موسَى لِشِبْهِ شريعتِه بالشَّريعةِ الإسلاميَّةِ في التَّفصيلِ والجمعِ بيْنَ الدِّينِ والسُّلطانِ، فهؤلاءِ الرُّسلُ الثَّلاثةُ أُصولٌ(١).

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.

أي: ولقد مَنَنَّا بنِعمَتِنا على موسى وهارونَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ * وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴾(٣)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

قيل: المرادُ: نِعمةُ النُّبُوَّةِ. وممَّن قال بهذا: يحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٤٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

وقيل: المرادُ: أنْعَمْنا عليهما بالنُّبوَّةِ وهلاكِ عدوِّهما. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٦).

وقيل: المرادُ: أنْعَمْنا عليهما بالنُّبوَّةِ وغيرِها مِن المنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ. وممَّن اختاره: البيضاوي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، (تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٣٢).

قال ابنُ عطيَّة: (المِنَّةُ على موسى وهارونَ هي في النُّبُوَّةِ، وسائرِ ما جرى معها، مِن مكانتِهما عندَ الله تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٣).

(٣) قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴾ ذكَرَ جلَّ وعلا مِنَّته عليهما في =

[طه: ٣٦، ٣٧].

﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ١١٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه مَنَّ على موسى وهارونَ؛ فصَّلَ أقسامَ تلك المِنَّةِ(١).

﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ١١٥﴾.

أي: ونَجَّيْنا موسَى وهارونَ وقَومَهما بني إسرائيلَ مِن الغَمِّ الشَّديدِ العَظيمِ الَّذي أصابَهم؛ بسبَبِ الخَوفِ مِن الغَرَقِ، ومِن فِرعَونَ وقَومِه(٢).

---

= غيرِ هذا الموضِعِ؛ كقَولِه في «طه»: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۞ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ [طه: ٣٦، ٣٧]؛ لأنَّ مِن سُؤلِه الَّذي أُوتيَه إجابةَ دَعوتِه في رسالةِ أخيه هارونَ معه، ومعلومٌ أنَّ الرِّسالةَ مِن أعظَمِ المِنَنِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٩).

قال القرطبي: (قَولُه: ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ قيل: مِنَ الرِّقِّ الَّذي لَحِقَ بني إسرائيلَ. وقيل: مِنَ الغَرَقِ الَّذي لحِقَ فِرعَونَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: البغويُّ، وابنُ عطيَّة، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٦). =

﴿ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن نِعمةَ النَّجاةِ مِن الأسْرِ؛ أتْبَعَها نِعمةَ الالتِذاذِ بالنَّصرِ[1].

﴿ وَنَصَرۡنَٰهُمۡ فَكَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ١١٦ ﴾.

أي: ونصَرْناهم على فِرعَونَ وقَومِه حينَ أغرَقَهم اللهُ، فكانوا هم الغالِبينَ لهم[2].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيۡكُمَاۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ * وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت فائدةُ النُّصرةِ التَّمَكُّنَ مِن إقامةِ الدِّينِ؛ قال[3]:

﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧ ﴾

أي: وآتَيْنا موسى وهارونَ الكِتابَ الواضِحَ الجَليَّ، وهو التَّوراةُ الَّتي جَعَل

---

= وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٠٩، ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨١).

اللهُ فيها المواعِظَ والأحكامَ، وفصَّل فيها كُلَّ شَيءٍ يحتاجُ إليه بنو إسرائيلَ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾.

أي: وهدَيْنا موسى وهارونَ الطَّريقَ المُستَقيمَ الَّذي لا اعوِجاجَ فيه، الموصِلَ إلى اللهِ تعالى، وهو دينُ الإسلامِ الحَقُّ الَّذي بَعَث اللهُ به أنبياءَه، وشرَعَه لعِبادِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

أي: وأثنَيْنا على موسى وهارونَ، وأنعَمْنا عليهما بالذِّكرِ الجَميلِ، والثَّناءِ الباقي في الَّذين يأتُونَ مِن بَعدِهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤، ١٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير =

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾.

أي: سلامٌ على موسَى وهارُونَ وثَناءٌ حسَنٌ، فلا يُذْكَرانِ بسُوءٍ[١].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جزَيْنا به موسى وهارونَ -لأنَّهما كانا مِنَ المُحسِنينَ- نَجْزي أيضًا كلَّ مَن كان مُحسِنًا[٢].

﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾.

أي: إنَّ موسى وهارونَ مِن عِبادِنا المُؤمِنينَ بالله؛ فوَحِّدوا اللهَ، وأخلِصوا العبادةَ له وَحْدَه لا شَريكَ له[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ أنَّ الغَلَبَةَ صارَت في النِّهايةِ لِموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وقَومِه، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أخْذُ العِبرةِ مِن ذلك بأنَّ النَّصرَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قد يَنصُرُ مَن هو ضَعيفٌ، وقد يُذِلُّ مَن هو قَويٌّ،

---

= الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٤)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧ - ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ٢٥٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣، ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦).

كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1] [آل عمران: ٢٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أنَّ كُلَّ إنسانٍ مُفتقِرٌ إلى اللهِ تعالى في الهدايةِ مهما بلَغَتْ مَرتبتُه؛ فهذا موسى وهارونُ مَنَّ اللهُ عليهما بهدايتِهما الصِّراطَ المُستقيمَ، فيجِبُ على العبدِ أنْ يَرى قَدْرَ نِعمةِ اللهِ عليه بالهِدايةِ، وألَّا يُعجبَ بعِلمِه أو عمَلِه أو عبادتِه، فكم مِن أُناسٍ أضَلَّهم اللهُ وهم أقوى منه ذَكاءً[2]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يَجزي العامِلَ لِشَخصِه، وإنَّما يَجزيه لِعَمَلِه؛ ولهذا بَيَّنَ أنَّ هذا الجَزاءَ لا يَختَصُّ بموسى وهارونَ، بل هو لكُلِّ إنسانٍ مُحسِنٌ[3].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المقصودُ التَّنبيهُ على أنَّ الفَضيلةَ الحاصِلةَ بسَبَبِ الإيمانِ: أشرَفُ وأعلى وأكمَلُ مِن كُلِّ الفَضائِلِ، ولولا ذلك لَما حَسُنَ خَتمُ فضائِلِ موسى وهارونَ بكَونِهما مِنَ المؤمِنينَ[4].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في بدايةِ قِصَّةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴾ [الصافات: ٧٥]، وفي بدايةِ قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، وقال هنا عزَّ وجَلَّ في بدايةِ قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾؛ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٢).

اختِلافِ مَبادِئِ القِصَصِ الثَّلاثِ إشارةٌ إلى أنَّ الله يَغضَبُ لأوليائِه: إمَّا باستِجابةِ دَعوةٍ، وإمَّا لجزاءٍ على سَلامةِ طَوِيَّةٍ وقَلبٍ سَليمٍ، وإمَّا لِرَحمةٍ منه ومِنَّةٍ على عبادِه المُستَضعَفينَ(١).

٢- وُجوهُ الإنعامِ وإن كانت كثيرةً فإنَّها مَحصورةٌ في نوعَينِ: إيصالُ المنافِعِ للمُنعَمِ عليه، ودَفعُ المَضارِّ عنه، واللهُ تعالى ذكَرَ القِسمَينِ في حَقِّ موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ؛ فقَولُه: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ إشارةٌ إلى إيصالِ المنافِعِ إليهما، وقَولُه: ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ إشارةٌ إلى دَفعِ المَضارِّ عنهما(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ أنَّ هلاكَ عدوِّك يُعتبَرُ غَلَبةً لك -سواءٌ كان هلاكُه على يَدِك أو بعذابٍ مِن عندِ اللهِ-، فإنَّه بلا شكٍّ لم يكنْ هلاكُ فِرعَونَ وقومِه على يدِ موسى وقَومِه، بل كان بفِعلِ اللهِ؛ ومع ذلك جَعَل اللهُ سُبحانَه وتعالى إنجاءَ موسى وقومِه مِن فِرعونَ غَلَبةً، والتَّخلُّصُ مِن العدوِّ يُسمَّى نصرًا وفتحًا وغَلَبَةً، كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في غزوةِ مُؤْتةَ: ((أخَذَ الرَّايةَ زَيْدٌ فأُصِيبَ، ثمَّ أخَذَها جَعفرٌ فأُصيبَ، ثمَّ أخَذَها عبدُ اللهِ بنُ رَواحةَ فأُصيبَ، ثمَّ أخَذَها خالدُ بنُ الوليدِ مِن غَيْرِ إمْرةٍ ففُتِحَ له))(٣)، مع أنَّه لم يَنتصِرْ على الرُّوم ولم يَغلِبْهم! ولكنْ نجا منهم، فسمَّى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم هذه النَّجاةَ فَتْحًا، كما سَمَّى اللهُ تعالى هنا نجاةَ موسى وهارونَ وقَومِه مِن فِرعونَ نصرًا وغَلَبةً(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (١٢٤٦) من حديث أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٧).

٤- مادَّةُ «نَصَرَ» تتعدَّى أحيانًا بـ «مِن»، وأحيانًا تتعدَّى بـ «على»؛ فإنْ تَعَدَّتْ بـ «مِن» فمعناها المنعُ والإنجاءُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ﴾ [الأنبياء: ٧٧]، نصَرْناه منهم، أي: مَنَعْناه منهم؛ وإنْ تَعَدَّتْ بـ «على» صار معناها الظُّهورَ والغَلَبَةَ، كما قال الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٤]، وأحيانًا لا تَتعدَّى بـ «مِن» ولا بـ «على»، فتَشملُ المعنيَين، كما في قَولِه تعالى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[1] [غافر: ٥١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ بيانُ عَظيمِ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى بإيتاءِ الكتابِ لموسى وهارونَ، وهو مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، في قَولِه: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾؛ لأنَّ إيتاءَ الكِتابِ أعظَمُ منه. ويَتفرَّعُ على هذا: أنَّ مَن آتاه اللهُ عِلْمَ كتابِه وسُنَّةِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فله نَصيبٌ مِن هذه المِنَّةِ[2].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ -أي: البالغَ البَيانِ- فيه الثَّناءُ على التَّوراةِ، ولا شَكَّ أنَّ التَّوراةَ هي أعظمُ كِتابٍ أنزَلَه اللهُ تعالى على بني إسرائيلَ[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُنزِلُ الكِتابَ تِبيانًا للنَّاسِ، فيُؤخَذُ مِن ذلك أنَّ العُقولَ لا تَستَقِلُّ بمَعرفةِ ما يَجِبُ لله مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الحُقوقِ، ولا بمَعرفةِ ما يجِبُ له مِن الصِّفاتِ، ولا بمَعرفةِ ما يجوزُ عليه ولا ما يمتَنِعُ، فيَكونُ في ذلك رَدٌّ على مَن حَكَّموا العُقولَ في بابِ أسماءِ اللهِ وصِفاتِه(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «إلى الصِّراطِ»؛ لأنَّ المرادَ بذلك هِدايةُ التَّوفيقِ، وهدايةُ الدَّلالةِ، وانظُرْ إلى قَولِه تعالى في سُورةِ (الفاتِحةِ): ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقال في حقِّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فإذا كانتِ الهِدايةُ بمعنى الدَّلالةِ تَعَدَّتْ بـ «إلى»، وإذا كانت بمعنى الدَّلالةِ والتَّوفيقِ تَعَدَّتْ بنَفْسِها(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ جوازُ تَعَدُّدِ الرُّسُلِ في آنٍ واحدٍ، وهذا قَبْلَ بَعثةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أمَّا بعدَ بَعثتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ فهو خاتَمُ النَّبيِّينَ، ولا نَبيَّ بَعْدَه(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنَّ البَشَرَ مهما عَلَتْ مَنزِلتُهم ومَرتبتُهم فَهم داخِلونَ ضِمنَ العُبوديَّةِ؛ لأنَّ موسى وهارونَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن أكابرِ الأنبياءِ، ومع ذلك فإنَّ اللهَ تعالى وَصَفَهما بالعُبوديَّةِ له سُبحانَه وتعالى(٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٠).

للشُّروعِ في القصَّةِ الثَّالثةِ[١]. أو عطْفٌ على قولِه: ﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ ﴾ [الصافات: ٧٥]، وذُكِرَ هنا ما كان مِنَّةً على مُوسى وهارونَ، وهو النُّبوَّةُ؛ فإنَّها أعظَمُ دَرجةً يُرفَعُ إليها الإنسانُ، ولذلك اكْتُفِيَ عن تَعيينِ الممْنونِ به؛ لِحَمْلِ الفِعلِ على أكْمَلِ مَعناهُ، وجُعِلَت مِنَّةً مِنَ اللهِ عليهما؛ لأنَّ مُوسى لم يَسأَلِ النُّبوَّةَ؛ إذ ليستِ النُّبوَّةُ بمُكتسَبةٍ، وكانت مِنَّةً على هارونَ أيضًا؛ لأنَّه إنَّما سأَلَ له مُوسَى ذلك، ولم يَسأَلْه هارونُ؛ فهي مِنَّةٌ عليه، وإرضاءٌ لِمُوسى[٢].

- قوله: ﴿ وَلَقَدْ ﴾ اللامُ جوابٌ للقسمِ المحذوفِ، و(قد) حرفُ تحقيقٍ[٣]، وهو مِن حروفِ توكيدِ الخبرِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ أي: بعدَ أنْ كان قَومُهما في أسْرِ فِرعونَ وقَومِه وقَسْرِهم، مَقْهورينَ تحتَ أيْديهم العاديةِ، يَسُومُونهم سُوءَ العذابِ، وهذه التَّنجيةُ وإنْ كانتْ بحسَبِ الوُجودِ مُقارِنةً لِمَا ذُكِرَ مِن النَّصرِ والغَلَبةِ، لكنَّها لَمَّا كانتْ بحسَبِ المفهومِ عِبارةً عن التَّخليصِ مِن المكْروهِ، بُدِئَ بها، ثمَّ بالنَّصرِ الَّذي يَتحقَّقُ مَدلُولُه بمَحْضِ تَنْجيةِ المنصورِ مِن عَدُوِّه مِن غيرِ تَغليبِه عليه، ثمَّ بالغَلَبةِ؛ لِتَوفيةِ مَقامِ الامتِنانِ حَقَّه، بإظهارِ أنَّ كلَّ مَرْتبةٍ مِن هذه المراتبِ الثَّلاثِ نِعمةٌ جَليلةٌ على حِيالِها[٥].

- و(هم) مِن قولِه: ﴿ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ ضَميرُ فَصْلٍ، وهو يُفِيدُ قصْرًا، أي: همُ الغالِبينَ لِغَيرِهم، وغيرُهم لم يَغْلِبوهم، أي: لم يُغلَبوا ولو مرَّةً واحدةً؛

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٢، ٢٠٣).

فإنَّ المُنتصِرَ قد يَنتصِرُ بعْدَ أنْ يُغلَبَ في مَواقعَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴾

- الكِتابُ المُستبينُ: هو التَّوراةُ، والمُسْتبينُ: القويُّ الوُضوحِ، البليغُ في البَيانِ والتَّفصيلِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، يُقالُ: استبانَ الشَّيءُ؛ إذا ظهَرَ ظُهورًا شَديدًا[٢].

- وتَعديةُ فِعلِ الإيتاءِ إلى ضَميرِ مُوسى وهارونَ عليهما السَّلامُ، مع أنَّ الَّذي أُوتِيَ التَّوراةَ هو موسى؛ مِن حيث إنَّ هارونَ كان مُعاضِدًا لِمُوسى في رِسالتِه، فكان له حظٌّ مِن إيتاءِ التَّوراةِ، كما قال اللهُ في الآيةِ الأُخرى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً ﴾ [الأنبياء: ٤٨][٣]. ولأنَّه مِثلُه في تَقبُّلِ الكتابِ، والعمَلِ بجَميعِ ما فيه، والثَّباتِ على ما يَدْعو إليه، وإنْ كان نُزولُه خاصًّا بمُوسى عليه السَّلامُ[٤].

- وفي ذِكرِ قِصَّةِ موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ عِبرةُ مَثَلٍ كاملٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ في رِسالتِه، وإنزالِ القُرآنِ عليه، وهِدايتِه، وانتِشارِ دِينِه وسُلطانِه بعْدَ خُروجِه مِن دِيارِ المشْرِكينَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٥).

## الآيات (١٢٢-١٣٢)

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَعْلًا﴾: أي: رَبًّا، أو: هو اسمُ صنمٍ، والبَعْلُ: المالِكُ والسَّيِّدُ والرَّبُّ، ومنه سُمِّيَ الزَّوجُ بَعلًا، وأصلُ (بعل) هنا: يدُلُّ على الصَّاحِبِ[1].

﴿وَتَذَرُونَ﴾: أي: تَترُكونَ، وتَدَعُونَ، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه؛ لِقِلَّةِ اعتِدادِه به[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وإنَّ إلياسَ لَمِن جُملةِ المُرسَلينَ، إذ قال لِقَومِه: ألا تتَّقونَ اللهَ تعالى؟! أتَعْبُدونَ صنمًا، وتَجعلونه ربًّا، وتَترُكونَ عِبادةَ اللهِ أحسَنِ الخالِقينَ؛ رَبِّكم ورَبِّ آبائِكم الأوَّلينَ؟! فكذَّبَه قَومُه فإنَّهم لَمُحضَرونَ العذابَ، إلَّا عِبادَ اللهِ الَّذين أخلَصَهم اللهُ تعالى له؛ فإنَّهم ناجونَ مِن العَذابِ. وأثنَيْنا على إلياسَ بالذِّكرِ الجَميلِ الباقي فيمَن يأتي مِن بَعدِه؛ سَلامٌ على «إل ياسين»، مِثلَ ذلك

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

الجزاءِ الَّذي جزَينا به «إل ياسينَ» نَجزي كلَّ مَن كان مُحسِنًا. إنَّ إلياسَ مِن عِبادِنا المؤمِنينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أُتْبِعَ الكلامُ على رُسلٍ ثلاثةٍ أصحابِ الشَّرائعِ: نوحٍ، وإبراهيمَ، ومُوسى؛ بالخبَرِ عن ثلاثةِ أنبياءَ: إلياسَ، ولُوطٍ، ويُونسَ، وما لَقُوه مِن قَومِهم؛ وذلك كلُّه شَواهدُ لِتَسليةِ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقَوارعُ مِن الموعظةِ لِكُفَّارِ قُريشٍ[1].

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾.

أي: وإنَّ إلياسَ لَرَسولٌ مِن جُملةِ رُسُلِ الله تعالى[2].

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٥، ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

قال الرسعني: (قال عامةُ المفسرينَ وأهلِ العلمِ بالتاريخِ: هو نبيٌّ مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤١٦).

وقال البِقاعي: (كان أحدَ بني إسرائيلَ عندَ جميعِ المفَسِّرينَ إلَّا ابنَ مَسعودٍ وعِكْرِمةَ، وهو مِن سِبْطِ لاوِي، ومِن أولادِ هارونَ عليه السَّلامُ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٨٣).

وقال ابنُ عاشور: (إلياسُ هو إيلياءُ، مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ التَّابِعينَ لِشَريعةِ التَّوراةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

ورُوِيَ عن ابنِ مَسعودٍ أنَّ إلياسَ هو إدريسُ، وقاله عِكرَمةُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٥).

أي: حينَ قال لِقَومِه: ألا تَجعَلونَ بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه حاجِزًا، بعبادتِه وَحْدَه لا شريكَ له[1]؟!

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٧٣).

قيل: ﴿إِذْ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: حِينَ قالَ لقومِه... وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

قال ابن عاشور: (أي: إنَّه مِن حينِ ذلك القَولِ كان مُبَلِّغًا رِسالةَ اللهِ تعالى إلى قَومِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

وقيل: ﴿إِذْ﴾ ظَرفٌ لِفعلٍ محذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ. أي: اذكُرْ يا محمَّدُ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، والرازي، والنيسابوري. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٣)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٧٤).

ممن اختار أنَّ المعنى: ألا تَتَّقون الله: ابنُ جرير، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥).

وقال السمرقندي: (اللفظُ لفظُ الاستفهامِ، والمرادُ به الأمرُ. يعني: اتَّقوا الله تعالى). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١).

وممن اختار أنَّ المعنى: ألا تَتَّقون عذابَ الله: البيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٢٥).

وممن اختار أنَّ المعنى ألا تخافونَ الله: الواحدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والرازي، والنسفي، وابن كثير، والشربيني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٢).

واختار ابنُ عثيمينَ أنَّه حُذِف مفعولُ ﴿تَتَّقُونَ﴾ ليعمَّ، فيشملَ المعنى: ألا تَتَّقونَ الله، ألا تَتَّقونَ النار، ألا تَتَّقونَ يومَ الحسابِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الصافات)) (ص:٢٧٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا خَوَّفَهم أوَّلًا على سَبيلِ الإجمالِ؛ ذكَرَ ما هو السَّبَبُ لذلك الخَوفِ، فقال[1]: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾.

أي: أتَعْبُدون صنمًا مِن دونِ الله، وتَجعلونه رَبًّا[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

قيل: ﴿بَعْلًا﴾ أي: ربًّا. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، وابن عادل، ونسَبَه الواحديُّ للأكثَرينَ مِن المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٣٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٨).

وممَّن قال مِن السَّلفِ بهذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١١٩).

قال البِقاعي: (﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أي: إلهًا وربًّا، وهو صنمٌ كان لهم في مدينةِ بَعْلَبَكَّ... ويحتملُ أن يكونَ علَمًا على الصَّنم المذكورِ، فيكونَ المفعولَ الثَّانيَ مَنْويًّا، وحُذِف لِيُفهِمَ الدُّعاءَ الَّذي لا دُعاءَ يُشبِهُه، وهو الدُّعاءُ بالإلهيَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٨٤).

وقيل: هو اسمُ صَنَمٍ لهم كانوا يَعبُدونَه. وممَّن قال بهذا القَولِ: القرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، والضَّحَّاكُ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١١٩).

قال القرطبي: (وبذلك سُمِّيَت مَدينتُهم: بَعلَبَكَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٦).

وقال مقاتل: (﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أتَعْبُدون ربًّا، بلُغةِ اليمَنِ الإلهُ يُسمَّى بعلًا، وكان صنَمًا مِن ذهبٍ ببَعْلَبَكَّ بأرضِ الشَّامِ، فكسَرَه إلياسُ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٧). =

﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾.

أي: وتَترُكونَ عِبادةَ اللهِ أحسَنِ الخالِقينَ، المُستَحِقِّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له[1]؟!

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا عابَهم على عبادةِ غيرِ اللهِ؛ صرَّحَ بالتَّوحيدِ، ونَفيِ الشُّرَكاءِ[2].

﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

أي: أتَترُكونَ عِبادةَ رَبِّكم المحسِنِ إليكم، ورَبِّ آبائِكم الَّذين مِن قَبلِكم[3]؟!

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾.

أي: فكذَّب قَومُ إلياسَ رَسولَهم، فهم مُحضَرونَ في العَذابِ قَهرًا وكَرهًا[4].

---

= وقال النَّحَّاسُ: (عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال: صنَمًا. وروَى عطاءُ بنُ السَّائبِ عن عِكْرِمةَ عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ قال: ربًّا. قال أبو جعفرٍ: [أي: النَّحَّاسُ]: القولانِ صَحيحانِ، أي: تَدْعون صنَمًا عَمِلْتُموه ربًّا). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

قال الماوَرْدي: (فيه وَجْهانِ؛ أحدُهما: مَن قيلَ له: خالِقٌ. الثَّاني: أحسَنُ الصَّانِعينَ؛ لأنَّ النَّاسَ يَصنَعونَ ولا يَخلُقونَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٦٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٢)، ((الهداية)) لمكِّي (٩/ ٦١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥١)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) =

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

أي: إلَّا عِبادَ اللهِ مِن قَومِ إلياسَ ممَّن أخلَصَهم اللهُ له، واستخلَصَهم مِنَ الكُفرِ، واختارَهم لخاصَّةِ رَحمتِه، فآمَنوا باللهِ ورَسولِه، وأخلَصوا له أعمالَهم؛ فإنَّهم مُنجَّونَ مِن العَذابِ[1].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا جاهَدَ في اللهِ تعالى، وقام بما يجِبُ عليه مِن حُسنِ الثَّناءِ؛ جازاه سُبحانَه[2].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾﴾.

أي: وأثنَيْنا على إلياسَ وأنعَمْنا عليه بالذِّكرِ الجَميلِ والثَّناءِ الباقي في الَّذين يَأتُونَ مِن بَعدِه[3].

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ ﴿آلِ يَاسِينَ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ ومَدِّها، وبَعْدَها لامٌ مَكسورةٌ، فتكونُ

---

= للبقاعي (١٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٨)، ((الهداية)) لمكِّي (٩/ ٦١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١١٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٣٨٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٧ - ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(آل) كَلِمةً مضافةً إلى (ياسين)، والمرادُ آلُ إلياسَ: وهم أتْباعُه. وقيل: أهلُه[١]. وهو داخلٌ فيهم[٢].

٢- قِراءةُ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ بكَسرِ الهَمزةِ، وبعدَها لامٌ ساكِنةٌ. قيل: هو اسمُ إلياسَ، كان يُسمَّى باسمَينِ: إلياسَ، وإلياسينَ، مِثلُ: إبراهيمَ، وإبراهامَ، وميكالَ وميكائيلَ. وقيل: هو جمْعُ إلياسَ، والمرادُ: إلياسُ وأمَّتُه المؤمِنونَ[٣].

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، ويَعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٠)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٠).

وقيل: المرادُ بآلِ ياسينَ: آلُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم. وقد ردَّ هذا القولَ وضَعَّفه: ابنُ جرير، والسُّهَيليُّ، وابنُ القيِّم، والفيروزابادي، وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢١)، ((غوامض الأسماء المبهمة)) للسهيلي (ص: ١٥٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٦/ ٧٨).

(٢) فالرَّجُلُ حيثُ أُضيفَ إلى آلِه دخَل فيه هو، كقولِه تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمرَان: ٣٣]، وقولِه تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤]، وقولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((اللَّهُمَّ صَلِّ على آلِ أبي أَوْفَى)). وهذا إذا لم يُذكَرْ معه مَن أُضيفَ إليه الآلُ. يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٤).

قال ابنُ عاشور: (والأظهرُ أنَّ المرادَ بـ ﴿إِلْ يَاسِينَ﴾ أنصارُه الذين اتَّبعوه وأعانوه... فيكون المعنى: سلامٌ على ياسينَ وآلِه؛ لأنَّه إذا حصَلت لهم الكرامةُ؛ لأنَّهم آلُه فهو بالكرامةِ أولَى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦١٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١١)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٠).

قال ابن القيِّم: (والصَّوابُ -واللهُ أعلَمُ- في ذلك: أنَّ أصلَ الكَلِمةِ (آل ياسين) كآلِ إبراهيمَ، =

﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠ ﴾.

أي: سلامٌ على إلْ ياسينَ وثَناءٌ حسنٌ، فلا يُذكَرُ بسُوءٍ[1].

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أظهَرَ اللهُ سُبحانَه شَرَفَ إلياسَ عليه السَّلامُ، أو الأنبياءِ الَّذين هو أحَدُهم؛ عَلَّله مُؤَكِّدًا له، تَنبيهًا على أنَّه لا بُدَّ مِن إعلاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتْباعِه على كُلِّ مَن يُناوِئُهم وإن كَذَّبَت بذلك قُرَيشٌ، فقال[2]:

﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣١ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جزَيْنا به إلْ ياسينَ نَجزي أيضًا كُلَّ مَن كان مُحسِنًا[3].

---

= فحُذِفَت الألفُ واللَّامُ مِن أوَّلِه؛ لاجتماعِ الأمثالِ، ودَلالةِ الاسمِ على موضِعِ المحذوفِ، وهذا كثيرٌ في كلامِهم: إذا اجتمَعَت الأمثالُ كَرِهوا النُّطقَ بها كُلِّها، فحذَفوا منها ما لا إلباسَ في حَذفِه، وإن كانوا لا يَحذِفونَه في موضِعٍ لا تجتمِعُ فيه الأمثالُ... ولا سيَّما عادةُ العربِ في استِعمالِها للاسمِ الأعجميِّ، وتغييرُها له؛ فيقولون مرَّةً: إلياسينَ، ومرةً إلياسَ، ومرَّةً ياسين، ورُبَّما قالوا: ياسَ، ويكونُ على إحدى القراءتَينِ قد وقَع على المُسَلَّمِ عليه، وعلى القراءةِ الأُخرى على آلِه). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٠٨).

وقال ابن كثير: (﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾ أي: سلامٌ على إلياسَ، والعربُ تُلحِقُ النُّونَ في أسماءٍ كثيرةٍ، وتُبدِلُها مِن غيرِها، كما قالوا: إسماعيلُ وإسماعينُ، وإسرائيلُ وإسرائينُ، وإلياسُ وإلياسينُ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٢٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٧، ٢٠٨، ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣، ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣، ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه تعالى علَّلَ الحُكمَ بإحسانِه، مُؤكِّدًا لِما مضى في مِثلِه، بقَولِه[1]:

﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٣٢﴾.

أي: إنَّ إلياسَ مِن عِبادِنا المُؤمِنينَ باللهِ؛ الموحِّدينَ الَّذين أخْلَصوا العِبادةَ لله وَحْدَه لا شَريكَ له[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ﴾. في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ مهما بَلَغ في عَرْضِ الدَّعوةِ إلى اللهِ وبَيانِها والبَلاغةِ في العِظةِ؛ فإنَّه لا يَستَلزِمُ أنْ يُؤَثِّرَ فيمَن وَجَّهَ الخِطابَ إليه؛ لأنَّ إلياسَ عليه السَّلامُ عَرَض الدَّعوةَ عليهم عَرضًا رَقيقًا، وبَيَّنَ لهم الأدِلَّةَ على أنَّ اللهَ وَحْدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ، ومع ذلك كَذَّبوه! ويَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّه ينبغي للدَّاعيةِ إذا رُدَّ قولُه ألَّا يَعتبِرَ نَفْسَه مُقَصِّرًا أو فاشِلًا؛ لأنَّه أدَّى ما عليه، وهو البَلاغُ، والهدايةُ على اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، فلو أراد اللهُ بهؤلاء خَيرًا لَانقادوا للهُدى، أمَّا أنت فقد أرادَ اللهُ بك خيرًا؛ لأنَّك بَلَّغتَ ما عليك[3].

---

= (١٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٦، ٧٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أنَّه ينبغي للدَّاعيةِ أنْ يُذَكِّرَ النَّاسَ بما يكونُ سَببًا لاتِّعاظِهم، فيُذَكِّرهم بأنَّ آباءَهم قد فَنُوا وذَهَبوا، وأنَّكم أنتم سوف تَذهَبونَ كما ذَهَبَ الآباءُ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُثْني على عِبادِه بما يَستَحِقُّونَ مِن الأوصافِ في الآخِرينَ؛ لِيبقَى ذِكرُهم مُخَلَّدًا؛ فإنَّه لولا أنَّ اللهَ ذَكَر هؤلاء الأنبياءَ لَطُوِيَت صَحائِفُهم، وما عُلِمَ عنهم شَيءٌ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ بيانُ تَلَطُّفِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ في دَعوةِ قَومِهم؛ لأنَّه قال: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾، وهذا للعَرضِ والحَثِّ -على قولٍ-، ولم يَقُلْ لهم: اتَّقوا اللهَ، مع أنَّ الرُّسُلَ قد يَقولون: اتَّقوا اللهَ، لكِنْ يُنَزِّلُ كلُّ مُخاطَبٍ مَنزِلتَه بما يَليقُ به[٣].

٣- إنْ قيلَ: كيف الجَمعُ بيْنَ قَولِه: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾، وقَولِه: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾؟ **فالجوابُ**: أنَّ الخَلقَ يكونُ بمعنى الإيجادِ -ولا مُوجِدَ سِوى اللهِ-، ويكونُ بمعنى التَّقديرِ، كقَولِ زُهَيرٍ[٤]:

ولَأنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ وبعـ ـضُ القَومِ يَخلُقُ ثمَّ لا يَفْري[٥]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((ديوان زهير بن أبي سُلْمى)) (ص: ٥٦).

(٥) يَخلُقُ: أي: يُقَدِّرُ الأديمَ ويُهَيِّئُه للقَطعِ. ويَفْري: أي: يَشُقُّه كما قَدَّر. ومعنى البيتِ: أنت إذا قدَّرْتَ أمرًا وتهَيَّأْتَ له أمضَيْتَه وأنفَذْتَه بعَزمِك وقدرتِك ولم تَعجزْ عنه، بخِلافِ غيرِك؛ فإنَّ بعضَ القومِ يُقَدِّرُ ثمَّ لا قوَّةَ له ولا عزيمةَ على إنفاذِ ما قدَّره وإمضائِه، فالخَلْقُ: التَّقديرُ، والفَرْيُ: التَّنفيذُ. =

فهذا المرادُ هاهنا: أنَّ بني آدَمَ قد يُصَوِّرونَ ويُقَدِّرونَ ويَصنَعونَ الشَّيءَ؛ فاللهُ خَيرُ المصَوِّرينَ والمقَدِّرينَ. وقال الأخفَشُ: (الخالِقونَ هاهنا هم الصَّانِعونَ، فاللهُ خيرُ الخالِقينَ)[١]، فخَلْقُ الخالقِ إيجادٌ مِن عدَمٍ على ما يُريد اللهُ عزَّ وجلَّ؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٦]، أمَّا خَلْقُ المخلوقِ: فهو تحويلُ مخلوقِ الله إلى صِفةٍ أخرى[٢].

٤- تَرَتُّبُ الجَزاءِ على العَمَلِ، وتُؤخَذُ مِن الفاءِ الدَّالَّةِ على السَّبَبيَّةِ: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾؛ فالجَزاءُ مُترتِّبٌ على العَمَلِ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ زيادةٌ مِنَ اللهِ في عِدادِ كَرامةِ نبيِّه عليه السَّلامُ؛ فتلك نِعمةٌ وشرَفٌ مِنَ اللهِ؛ بأنْ أَبْقَى نِعَمَه عليه في أُمَمٍ بعْدَه[٤]. وفيه بيانُ أنَّ اللهَ تعالى يُجازِي المُحسِنَ بالإحسانِ حتَّى بعدَ مَوتِه؛ لِقَولِه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴾، والواقِعُ شاهِدٌ بذلك؛ فإنَّ أئمَّةَ الإسلامِ أبقَى اللهُ عليهم ثَناءً حَسَنًا في الآخِرينَ، وصَدَّ كلَّ لسانٍ يَقدَحُ فيهم؛ فجَعَلَ فيهم الثَّناءَ، وسَلَّمَهم مِن القَدْحِ[٥].

٦- لَفظُ «آلِ فُلانٍ» إذا أُطلِقَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ، دَخَلَ فيه فُلانٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ آلِ يَاسِينَ ﴾[٦] على إحدي القراءتينِ.

---

= يُنظر: ((شرح ديوان زهير)) لثعلب (ص: ٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٧/ ٣٨١)، ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ٥٣)، ((معارج القبول)) لحافظ حكمي (١/ ١٣٢).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٤).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٢)، ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٥٧٨).

٧- في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ مدَحَ اللهُ تعالى نَبيَّه بالإيمانِ، مع أنَّ مَرتبةَ الرُّسلِ فَوقَ مَرتبةِ المؤمِنينَ؛ تنبيهًا لنا على جَلالةِ محلِّ الإيمانِ وشَرَفِه، وترغيبًا في تحصيلِه، والثَّباتِ عليه، والازديادِ منه(١).

٨- في قِصَّةِ إلياسَ عليه السَّلامُ إنباءٌ بأنَّ الرَّسولَ عليه أداءُ الرِّسالةِ، ولا يَلزَمُ مِن ذلك أنْ يُشاهِدَ عِقابَ المكذِّبينَ ولا هَلاكَهم؛ للرَّدِّ على المشْركينَ الَّذين قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، قال تعالى: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ * رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٣- ٩٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿وَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾(٢) [مريم: ٤٠].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾

- ابتُدِئَ ذِكرُ هؤلاء الثَّلاثةِ (إلياسَ، ولُوطٍ، ويُونسَ) بجُملةِ ﴿وَإِنَّ إِلۡيَاسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾؛ لأنَّهم سَواءٌ في مَرْتبةِ الدَّعوةِ إلى دِينِ اللهِ، وفي أنَّهم لا شَرائعَ لهم. وتأْكيدُ إرسالِهم بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بالخبَرِ؛ لأنَّه قد يُغفَلُ عنه؛ إذ لمْ تكُنْ لهؤلاء الثَّلاثةِ شَريعةٌ خاصَّةٌ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

- قَولُه: ﴿أَلَا﴾ كَلمتانِ: همْزةُ الاستِفهامِ للإنكارِ، و(لا) النَّافيةُ -على

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٦٥، ١٦٦).

قولٍ-، إنكارٌ لِعَدَمِ تَقْواهم[١].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَتَّقُونَ﴾؛ لِدَلالةِ ما بعْدَه عليه[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾

- الهمْزةُ في قَولِه: ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا ...﴾ للاستفهامِ الإنكاريِّ[٣].

- وجِيءَ في قَولِهِ: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ بذِكرِ صِفَةِ اللهِ دونَ اسْمِه العَلَم؛ تَعريضًا بتَسفيهِ عُقولِ الَّذين عَبَدوا بَعْلًا؛ بأنَّهم تَرَكوا عِبادةَ الرَّبِّ المتَّصِفِ بأحسَنِ الصِّفاتِ وأكمَلِها، وعَبَدوا صَنَمًا ذاتُه وَخْشٌ -وهو الرَّديءُ من كُلِّ شيءٍ- فكأنَّه قال: أتَدْعُون صَنَمًا بَشِعًا جمَعَ عُنْصرَيِ الضَّعفِ -وهُما: المَخْلوقيَّةُ، وقُبْحُ الصُّورةِ- وتَتْرُكون مَن له صِفةُ الخالقيَّةِ والصِّفاتُ الحُسْنى[٤]؟! فالنُّكتةُ في العُدولِ عن اسمِ اللهِ الَّذي يَختَصُّ به، وهو «الله»: هي إقامةُ الحُجَّةِ عليهم بعدَمِ صَلاحيةِ مَعبودِهم للعبادةِ؛ لأنَّه لا يَستطيعُ الخَلْقَ، واللهُ وَحْدَه هو الَّذي يَقدِرُ على الخَلْقِ، وعلى أحسَنِ الخَلْقِ[٥].

- ولم يقُلْ: (وتَدَعون أحسَنَ الخالقينَ)؛ لأنَّ فِعلَ (يَدَعُ) قَليلُ الاستِعمالِ في كَلامِ العرَبِ؛ ولذلك لم يقَعْ في القرآنِ إلَّا في قِراءةٍ شاذَّةٍ لا سنَدَ لها، خِلافًا لِفِعلِ (يَذَرُ)، وسبَبُ ذلك: أنَّ فِعلَ (يَذَرُ) يَدلُّ على تَرْكٍ مع إعراضٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٧٤).

عن المتْروكِ، بخِلافِ (يَدَعُ)؛ فإنَّه يَقْتضي تَرْكًا مُؤقَّتًا[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- قُرِئَ برَفْعِ اسمِ الجَلالةِ وما عُطِفَ عليه[٢]، فهو مُبتدَأٌ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ على الخطَأِ بأنْ عَبَدوا بَعْلًا. وقُرِئَ بنَصْبِ اسمِ الجلالةِ على عَطْفِ البَيانِ لـ ﴿أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، والمقصودُ مِن البَيانِ زِيادةُ التَّصريحِ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ إيضاحٍ لأصْلِ الدِّيانةِ. وعلى كِلْتا القِراءتينِ فالكلامُ مَسوقٌ لِتَذْكيرِهم بأنَّ مِن أُصولِ دِينِهم أنَّه لا ربَّ لهم إلَّا اللهُ، وهذا أوَّلُ أُصولِ الدِّينِ؛ فإنَّه ربُّ آبائِهم؛ فإنَّ آباءَهم لمْ يَعبُدوا غيرَ اللهِ مِن عهْدِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وهو الأبُ الأوَّلُ مِن حيثُ تَميَّزَتْ أُمَّتُهم عن غَيرِهم، أو هو يَعقوبُ عليه السَّلامُ. وجمَعَ هذا الخبَرُ تَحريضًا على إبطالِ عِبادةِ الصَّنمِ (بَعْل) -على قولٍ-؛ لأنَّ في الطَّبْعِ مَحبَّةَ الاقتداءِ بالسَّلفِ في الخيْرِ[٣].

- والتَّعرُّضُ لِذِكْرِ رُبوبيَّتِه تعالى لِآبائهم في قَولِه: ﴿وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ﴾؛ لِتَأْكيدِ إنكارِ تَرْكِهم عِبادتَه تعالى، والإشعارِ ببُطلانِ آراءِ آبائِهم أيضًا[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ أي: مُحْضَرون في العذابِ، وإنَّما أطْلَقَه؛ اكتِفاءً منه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٩).

(٢) قرأ يعقوبُ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ وحفصٌ بالنَّصبِ في الأسماء الثَّلاثةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ ﴿رَبَّكُمْ﴾ ﴿وَرَبَّ﴾، وقرأ الباقون برفعِها. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٠)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٦٧، ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤).

بالقَرينةِ، أو لأنَّ الإحضارَ المُطلَقَ مَخصوصٌ بالشَّرِّ عُرْفًا[١]. وقد كثُرَ إطلاقُ المُحضَرِ ونَحوِه على الَّذي يُحضَرُ لأجْلِ العِقابِ، وإحضارِ السُّوءِ؛ ولذلك حذَفَ مُتعلَّقُ (مُحْضَرُونَ)[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾

- قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استِثناءٌ يدُلُّ على أنَّ مِن قَومِه مُخلَصينَ لم يُكَذِّبوه، فهو استِثناءٌ مُتَّصِلٌ مِن ضميرِ ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾. ولا يَجوزُ أنْ يَكونَ استِثناءً مِن ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ لأنَّه يَلْزَمُ أنْ يكونوا مُندرِجينَ فيمَن كذَّبَ، لكنَّهم لم يُحْضَروا لكونِهم عبادَ اللَّهِ المُخْلِصين! وهو بَيِّنُ الفسادِ. ولا يُناسِبُ أنْ يَكونَ استِثناءً مُنقطِعًا؛ إذْ يصيرُ المعنى: لكنَّ عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ مِن غيرِ قَومِه لا يُحضَرونَ للعَذابِ! ولا حاجةَ إلى هذا بوجهٍ، إذ به يَفْسُدُ نَظْمُ الكلامِ[٣].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾

- قَولُه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ﴾ يَتعلَّقُ لفظُ ﴿عَلَيْهِ﴾ بفِعلِ ﴿وَتَرَكْنَا﴾، بتَضمينِ هذا الفِعلِ معنَى (أَنعَمْنا)، فأَفادَ بمادَّتِه معنَى الإبقاءِ له، أي: إعطاءِ شَيءٍ مِنَ الفضائلِ المُدَّخَرةِ الَّتي يُشبِهُ إعطاؤُها تَرْكَ أحَدٍ مَتاعًا نفيسًا لِمَن يُخَلِّيه هو له ويَخلُفُه فيه، وشأنُ التَّضمينِ أنْ يُفيدَ المُضَمَّنُ مُفادَ كَلِمتَينِ، فهو مِن أَلْطَفِ الإيجازِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١١٨، ١٦٩، ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣).

- في قَولِه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ لَمَّا كان مفعولُ (تَرَكْنَا) مَحذوفًا، وكان فِعلُ (أنعَمْنا) الَّذي ضُمِّنَه فِعلُ (تَرَكْنَا) ممَّا يَحتاجُ إلى مُتعلِّقِ معنَى المفعولِ، كان محذوفًا أيضًا مع عامِلِه؛ فكان التَّقديرُ: (وتَرَكْنا له ثَناءً وأنعَمْنا عليه)؛ فحصَلَ في قَولِه: (تَرَكْنَا عَلَيْهِ) حذْفُ خَمسِ كَلِماتٍ، وهو إيجازٌ بديعٌ[1].

- قَولُه: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال عَقِبَه ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٩]، وبعدَه ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ثمَّ ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠]، وكذلك ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠] فيمَن جعَله لغةً في إلياسَ، ولم يقُلْ في قصَّةِ لوطٍ ولا يونسَ: ﴿سَلَٰمٌ﴾؛ لأنَّه لما قالَ: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فقد قال: سَلامٌ على كلِّ واحِدٍ مِنْهم؛ لقولِه في آخرِ السُّورةِ: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾[2].

٨- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- في قَولِه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تَعليلٌ لمُجازاةِ إلياسَ عليه السَّلامُ بتلك التَّكْرِمةِ السَّنيَّةِ مِن تَبقيةِ ذِكرِه، وتَسليمِ العالَمينَ عليه إلى آخِرِ الدَّهرِ بأنَّه كان مُحسِنًا، ثمَّ علَّلَ كَونَه مُحسِنًا بأنَّه كان عبدًا مؤمنًا؛ ليُريَك جَلالةَ محلِّ الإيمانِ، وأنَّه القُصارَى مِن صِفاتِ المدحِ والتَّعظيمِ، ويُرَغِّبَك في تَحصيلِه والازديادِ منه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٦). ويُنظر أيضًا: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨).

## الآيات (١٢٢-١٢٨)

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: الباقِينَ في العَذابِ، وقيل: الماضينَ الَّذين قد هلَكوا، والغابرُ مِن الأضْدادِ؛ يكونُ بمعنَى الماضي، وبمعنَى الباقي، وأصلُ (غبر): يدُلُّ على البَقاءِ[1].

﴿مُّصْبِحِينَ﴾: أي: داخِلينَ في وَقتِ الصَّباحِ، وأصلُ (صبح): لونٌ مِن الألوانِ، وهو الحُمرةُ، وسُمِّيَ الصُّبحُ صُبحًا لِحُمرتِه[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وإنَّ لُوطًا لَمِنْ جُملةِ المُرسَلينَ إذ نجَّيْناه وأهلَه المُؤمِنينَ مِن العذابِ إلَّا زَوجتَه العَجوزَ؛ كانت مع قَومِها الباقينَ في العذابِ، ثمَّ أهلَكْنا قومَ لُوطٍ جَميعًا.

وإنَّكم لَتَمُرُّونَ عليهم أثناءَ سَفَرِكم وأنتم داخِلونَ في وقتِ الصَّباحِ، وباللَّيلِ، أفلا تَعقِلونَ فتَتَّعِظوا وتخافوا أنْ يُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٤٥).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أتَمَّ اللهُ سُبحانَه ما أراد مِن أُمورِ المُحسِنينَ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ المُرسَلينَ إلى ذُرِّيَّتِه في التَّسليةِ والتَّرجيةِ، وقدَّمَهم لأنَّ المِنَّةَ عليهم مِنَّةٌ عليه، والإنسانُ بابنِه أسَرُّ منه بقَريبِه، وهم الَّذين أظهَرَ اللهُ بهم ما تَرَك عليه مِن لِسانِ الصِّدقِ في الآخِرينَ- أتْبَعَهم قِصَّةَ ابنِ أخيه، فقال[1]:

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾.

أي: وإنَّ لُوطًا لَرَسولٌ مِن جُملةِ رُسُلِ اللهِ تعالى[2].

﴿ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾.

أي: اذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ نجَّيْناه وأهلَه المُؤمِنينَ مِن العذابِ الَّذي أصاب قَومَه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

قيل: ﴿ إِذْ ﴾ ظَرفٌ لِفعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: اذكُرْ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، وابن الجوزي، والرسعني، وجلال الدين المحلي، والشوكانيُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٧، ٢٨٨). =

كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ * نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤، ٣٥].

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الكُفرُ قاطِعًا للسَّبَبِ القَريبِ، كما أنَّ الإيمانَ واصلٌ للسَّبَبِ البَعيدِ؛ قال[1]:

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

أي: إلَّا زَوجتَه العَجوزَ لم نُنَجِّها؛ فكانت مع القَومِ الباقينَ في العَذابِ[2].

---

= قال الشوكاني: (الظَّرفُ مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ هو اذكُرْ، ولا يصِحُّ تعلُّقُه بالمرسَلينَ؛ لأنَّه لم يُرسَلْ وقتَ تَنجيتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٢).

وقيل: ﴿إِذْ﴾ ظَرفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، أي: إنَّه في حينِ إنجاءِ اللهِ إيَّاه، وإهلاكِ اللهِ قَومَه: كان قائمًا بالرِّسالةِ عن اللهِ تعالى، ناطِقًا بما أمَرَه الله. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٨).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ لـ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

قال الشوكاني: (الغابرُ يكونُ بمعنى الماضي، ويكونُ بمعنى الباقي، فالمعنى: إلَّا عجوزًا في =

كما قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[الأعراف: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾[الحجر: ٥٩، ٦٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[التحريم: ١٠].

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

أي: ثمَّ أهلَكْنا قومَ لُوطٍ جميعًا، فلم يَبقَ منهم أحَدٌ[١].

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

أي: وإنَّكم[٢] لَتَمُرُّونَ أثناءَ سَفَرِكم على الموضِعِ الَّذي كان فيه قَومُ لُوطٍ، وأنتم داخِلونَ في وَقتِ الصَّباحِ في أوَّلِ النَّهارِ[٣].

---

= الباقينَ في العذابِ، أو الماضينَ الَّذين قد هلَكوا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٨).

(٢) قيل: الخِطابُ لكُفَّارِ قُرَيشٍ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

وقيل: يُمكِنُ أن يكونَ الخِطابُ عامًّا لكُلِّ مَن يَمُرُّ بِقُراهم إلى يومِ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦].

﴿وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾.

﴿وَبِٱلَّيۡلِ﴾.

أي: وتَمُرُّونَ عليهم باللَّيلِ أيضًا[١].

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾.

أي: أفلَيسَتْ لديكم عُقولٌ تَتفَكَّرونَ بها، فتَعتَبِروا وتتَّعِظوا، وتَخافوا أن يُصيبَكم اللهُ بعَذابِه كما أصابَ قَومَ لوطٍ الَّذين كذَّبوا رَسولَه وخالَفوه[٢]؟!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أنَّه قد تكونُ المرأةُ الكافِرةُ تحتَ الرَّجُلِ المؤمِنِ مِن غيرِ أنْ يَعلَمَ بها، وقد بَيَّنَ اللهُ سببَ ذلك -أي: سبَبَ وقوعِ العَذابِ عليها- بأنَّها كانت قد خانتْ زَوجَها بالكُفرِ مِن غيرِ أنْ يَعلَمَ؛ كما في قَولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا

---

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٨٩، ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١، ١٧٢).

قال ابنُ عاشور: (وكان أهلُ مكَّةَ إذا سافَروا في تجارتِهم إلى الشَّامِ يمُرُّونَ ببلادِ فِلسطين، فيَمُرُّونَ بأرضِ لوطٍ على شاطِئِ البَحرِ الميِّتِ المسمَّى بُحيرةَ لُوطٍ...، وكانوا يمُرُّونَ بديارِ لُوطٍ بجانبِها؛ لأنَّ قُراهم غمَرَها البَحرُ الميِّتُ، وآثارُها باقيةٌ تحت الماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَتفقَّدَ أهْلَه، وأنْ يَتحرَّى، وأنْ يَسبُرَ أمورَهم(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذكَرَ هذه القِصَّةَ؛ لِيَعتبِرَ بها مُشرِكو العَرَبِ؛ فإنَّ الَّذين كفَروا مِن قَومِه هلَكوا، والَّذين آمَنوا نَجَوْا(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أنَّ القُربَ مِن الأنبياءِ والأولياءِ لا يُغْني عن الإنسانِ شيئًا؛ لأنَّ هذه زَوجةُ نَبيٍّ، ومع ذلك هَلَكَت مع مَن هَلَكَ، فكَوْنُ الإنسانِ قريبًا مِن إنسانٍ وَلِيٍّ للهِ: لا يُفيدُه شيئًا؛ فأبو لهبٍ عَمُّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ومع ذلك ما نزَلَ القُرآنُ في أحدٍ مُعَيَّنٍ مِن الكُفَّارِ سِوى أبي لهبٍ عَمِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! وما نزَلَ القُرآنُ في تَسميةِ شَخصٍ بعَينِه مِن المُسلِمينَ إلَّا في زيدِ بنِ حارثةَ - مَولًى مِن الموالي- مِن أبعَدِ ما يكونُ عن الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ! وبهذا يَتبيَّنُ أنَّ قُربَ النَّسَبِ وقُربَ المصاهرةِ لا يُغْني عن الإنسانِ شيئًا(٣)!

٢- الإشارةُ إلى أنَّ الإنسانَ إذا رأى الشَّيءَ بعَينِه كان ذلك أقوى يَقينًا ممَّا إذا أُخبِرَ به؛ لِقَولِه: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾ وتُشاهِدونَ آثارَهم، وهذا يُسمَّى عَيْنَ اليَقينِ، والخُبْرُ به يُسمَّى عِلْمَ اليَقينِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٣).

٣- أنَّ العَقلَ حقيقةً هو ما أرشَدَ صاحبَه إلى فِعْلِ الخيرِ وتَرْكِ الشَّرِّ، وليس العَقلُ هو الذَّكاءَ؛ فالعَقلُ شَيءٌ، والذَّكاءُ شيءٌ آخَرُ، وكلُّ مَن كان مُكَذِّبًا للرُّسُلِ، مُستكبِرًا عمَّا جاؤوا به؛ فإنَّه ليس بعاقِلٍ حتَّى وإنْ كان مِن أدهَى النَّاسِ، أو كان ذا شَرَفٍ وجاهٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وقد قال اللهُ مِثلَ هذا في بَني إسرائيلَ الَّذين يأمُرونَ النَّاسَ بالبِرِّ ويَنسَونَ أنفُسَهم وهم يَتْلونَ الكِتابَ، فقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾

- قَولُه: ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾ (إذ) ظَرْفٌ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: واذكُرْ، أي: اذكُرْ وَقتَ تَنْجيتِنا إيَّاهُ. وعلى القولِ بأنَّ (إذ) ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ فالمعنى: أنَّه في حِينِ إنجاءِ اللهِ إيَّاهُ وإهلاكِ اللهِ قَومَه، كان قائمًا بالرِّسالةِ عنِ اللهِ تعالى، ناطقًا بما أمَرَه اللهُ، وإنَّما خُصَّ حِينُ إنجائِه بجَعْلِه ظَرْفًا للكَونِ مِن المرسَلينَ؛ لأنَّ ذلك الوقتَ ظَرْفٌ للأحوالِ الدَّالَّةِ على رِسالتِه؛ إذ هي مُماثِلةٌ لأحوالِ الرُّسلِ مِن قبْلُ ومِن بعْدُ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ﴾

- الخِطابُ لِقُريشٍ الَّذينَ سِيقَتْ هذه القصصُ لِعِظَتِهم، وتَعديةُ المرورِ بحرْفِ (على) يُعيِّنُ أنَّ الضَّميرَ المجرورَ بتَقديرِ مُضافٍ، أي: على أرْضِهم، يُقالُ: مَرَّ عليه، ومرَّ بِه، وتَعديتُه بحرْفِ (على) تُفيدُ تَمكُّنَ المرورِ أشَدَّ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

تَعْديتِه بالباءِ[١].

- والخبَرُ الَّذي في قَولِه: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ﴾ مُستعمَلٌ في الإيقاظِ والاعتبارِ، لا في حَقيقةِ الإخبارِ، وتأْكيدُه بحرْفِ التَّوكيدِ وباللَّامِ تأْكيدٌ للمَعْنى الَّذي استُعْمِلَ فيه[٢].

- قَولُه تعالى: ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ أي: داخِلينَ في الصَّباحِ؛ الوَقتِ الَّذي قَلَبْنا مَدائِنَهم عليهم فيه، ونَصَّ عليه؛ للتَّذكيرِ بحالِهم فيه[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾

- نَبَّههم بقَولِه: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ * وَبِٱلَّيۡلِ﴾ لِيَعتَبِروا؛ لأنَّ القَومَ كانوا يُسافِرونَ إلى الشَّامِ، والمسافِرُ في أكثَرِ الأمرِ إنَّما يَمشي في اللَّيلِ وفي أوَّلِ النَّهارِ؛ فلهذا السَّبَبِ عيَّن تعالى هذَينِ الوَقتَينِ[٤].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ مِن عَدَمِ فِطنةِ قُريشٍ لِدَلالةِ تلك الآثارِ على ما حلَّ بقَومِ لُوطٍ مِن سَخَطِ اللهِ، وعلى سبَبِ ذلك؛ وهو تَكذيبُ رسولِ اللهِ لُوطٍ عليه السَّلامُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٢).

## الآيات (١٣٩-١٤٨)

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَبَقَ﴾: أي: هَرَب وفَرَّ، وأصلُ (أبق): يدُلُّ على التَّباعُدِ[١].

﴿ٱلْفُلْكِ﴾: أي: السُّفنِ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلكِ: الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيتْ فُلْكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[٢].

﴿ٱلْمَشْحُونِ﴾: أي: المملوءِ، وأصلُ (شحن): يدُلُّ على الملءِ[٣].

﴿فَسَاهَمَ﴾: أي: قارَعَ، والسَّهمُ: ما يُرمَى به وما يُضرَبُ به مِن القِداحِ، وأصلُه: يدُلُّ على الحَظِّ والنَّصيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥).

﴿ٱلْمُدْحَضِينَ﴾: أي: المَغلُوبينَ في القُرعةِ، وأصلُ (دحض): يدُلُّ على زَوالٍ وزَلَقٍ(١).

﴿فَٱلْتَقَمَهُ﴾: أي: فابتَلَعَه، وهو افتِعالٌ مِن اللَّقْمِ، وأصلُ (لقم): يدُلُّ على تَناوُلٍ(٢).

﴿ٱلْحُوتُ﴾: الحوتُ: العظيمُ مِن السَّمكِ، أو: السَّمكُ كلُّه، وأصلُ (حوت): مِن الاضْطِرابِ والرَّوَغانِ، والحوتُ مُضطرِبٌ أبدًا غيرُ مستقرٍّ(٣).

﴿مُلِيمٌ﴾: أي: مُسيءٌ مُذنِبٌ آتٍ بما يُلامُ عليه، وأصلُ (لوم): يدُلُّ على عَتْبٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٤)، ((المخصص)) لابن سيده (٣/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١).

قال الزَّيْنُ الرَّازيُّ: (الْحُوتُ: السَّمَكةُ... ويُؤَيِّدُ كَوْنَه مُطْلَقَ السَّمكةِ قولُه تعالَى: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١] والمنقولُ في الحديثِ الصَّحيحِ أنَّها كانَتْ سمكةً في مِكْتَلٍ. وما ظَنُّكَ بزَوَّادَةِ اثنينِ خُصوصًا موسَى وصاحِبَه؟! وأدَلُّ مِنْ هذا قولُه تعالَى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. وأمَّا قولُه تعالَى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ فإنَّه يدُلُّ على صِحَّةِ إطلاقِ الحوتِ على السَّمكةِ الكبيرةِ، لا على حَصْرِ مُسَمَّى الحوتِ فيها كما يَظُنُّه العامَّةُ. وقال ابنُ فارِسٍ: الحوتُ: العَظيمُ مِنَ السَّمكِ). ((مختار الصحاح)) (ص: ٨٣). ويُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾: أي: فألقَيْناه وقذَفْناه بمَكانٍ خالٍ لا يَتوارى فيه بشَجَرٍ ولا غَيرِه، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على الطَّرحِ والإلقاءِ، وأصلُ (عري) هنا: يدُلُّ على خُلُوٍّ ومُفارَقةٍ[1].

﴿يَقۡطِينٖ﴾: اليَقطينُ: الدُّبَّاءُ (القرعُ). وقيل: هو كُلُّ شَجَرٍ لا يَقومُ على ساقٍ؛ مِثلُ: القَرعِ، والبِطِّيخِ، ونَحوِهما[2].

﴿حِينٖ﴾: أي: مُنتهى آجالِهم، وأصلُ (حين): يدُلُّ على زَمانٍ[3].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وإنَّ يُونُسَ لَمِن جُملةِ المُرسَلينَ إذ هَرَب إلى السَّفينةِ المملوءةِ بالرُّكَّابِ والأمتِعةِ، فقارَعَ يُونُسُ مع رُكَّابِ السَّفينةِ؛ لِيَختاروا مَن يُلقُونَه في البَحرِ؛ لِيَخِفَّ حِملُ السَّفينةِ حينَ خافوا الغَرَقَ، فكان يونُسُ مِن جُملةِ المغلوبينَ الَّذين أُلقُوا في البَحرِ، فابتَلَعه الحوتُ والحالُ أنَّه قد فَعَل ما يُلامُ عليه!

فلولا أنَّه كان مِن المُسَبِّحينَ اللهَ تعالى لَبَقِيَ في بَطنِ الحُوتِ إلى يَومِ البَعثِ، فألقَيْنا يونُسَ في مَكانٍ مُقفِرٍ خالٍ مِن كُلِّ شَيءٍ، وهو مَريضٌ، وأنبَتْنا عليه شَجَرةً مِن يَقطينٍ؛ لِيَأكُلَ منها، وأرسَلْناه إلى مِئةِ ألْفِ إنسانٍ أو يَزيدونَ على ذلك، فآمَنوا بما جاءَهم به يُونُسَ، فمَتَّعَهم اللهُ في الدُّنيا إلى حينِ بُلوغِ آجالِهم.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ١١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أكمَلَ اللهُ سُبحانَه ما أرادَ مِن أُمورِ مَن كان على أيديهم هَلاكٌ في الدُّنيا أو في الآخِرةِ، خَتَم بمَن آلَ أمرُ قَومِه إلى سَلامةٍ وإيمانٍ، ونِعمةٍ وإحسانٍ؛ تغليبًا للتَّرجِيةِ على التَّأسيةِ والتَّعْزيةِ[1].

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾.

أي: وإنَّ يُونُسَ لَرَسولٌ مِن جُملةِ رُسُلِ اللهِ تعالى[2].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: يعني: اللهَ تبارك وتعالى: ((لا ينبغي لعبدٍ لي أن يَقولَ: أنا خَيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى عليه السَّلامُ))[3].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما يَنبغي لأحَدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى[4]))[5].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبِقاعي (١٦/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(٣) رواه البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦) واللَّفظُ له.

(٤) يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ أنَّ العبدَ القائلَ هو الَّذي لا يَنبغي له أن يقولَ ذلك، أي: ليس لأحدٍ أن يُفضِّلَ نفسَه على يونسَ عليه السلامُ. ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بقولِه: ((أنا)) رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وقاله تواضعًا، أي: ليس لأحدٍ أنْ يُفضِّلَني عليه، ودلَّ حديثُ أبي هريرة السابقُ على أنَّ الاحتمالَ الأوَّلَ أوْلَى. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٦٧)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ٢٩٣).

(٥) رواه البخاري (٤٦٠٣).

﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

أي: حينَ هَرَب إلى السَّفينةِ المَملوءةِ(١).

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٦، ٢٩٧).

قيل: ﴿ إِذْ ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ عاشور، وذكره ابنُ عثيمينَ احتِمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٦).

وذهب ابنُ عثيمين إلى أنَّ المعنى على القَولِ بأنَّ ﴿ إِذْ ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بالمُرسَلينَ: هو أنَّ إباقَه لم يَسلُبْه الرِّسالةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٦).

وقيل: ﴿ إِذْ ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ. واستحسَنه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٦).

قال البغوي: (واختلَفوا في أنَّ رِسالةَ يونُسَ بنِ متَّى: متى كانت؟ فروى سعيدُ بنُ جُبَيرٍ عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّها كانت بعدَ أن أخرَجَه اللهُ مِن بطنِ الحوتِ؛ بدليلِ أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ ذكَرَ في سورةِ الصَّافَّات ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ﴾، ثمَّ ذكَر بَعْدَه: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٧]. وقال الآخَرون: إنَّها كانت مِن قَبْلُ؛ بدليلِ قَولِه تعالى: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ [الصافات: ١٣٩، ١٤٠]). ((تفسير البغوي)) (٣/ ٣١٥).

قال ابنُ جُزَي: (وسببُ هروبِه غضَبُه على قَومِه حينَ لم يؤمِنوا. وقيل: إنَّه أخبَرَهم أنَّ العذابَ يأتيهم في يومٍ مُعَيَّنٍ حسبَما أعلمه اللهُ، فلمَّا رأى قَومُه مَخايلَ العذابِ آمَنوا، فرفَع الله عنهم العذابَ، فخافَ أن يَنسبوه إلى الكذبِ فهرَب). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٧).

وقال السعدي: (ولم يَذكُرِ اللهُ ما غاضَبَ عليه، ولا ذَنْبَه الَّذي ارتكَبَه؛ لعَدمِ فائدتِنا بذِكرِه، وإنَّما فائدتُنا بما ذُكِّرْنا عنه أنَّه أذنَبَ، وعاقَبَه اللهُ مع كَونِه مِن الرُّسُلِ الكرامِ، وأنَّه نجَّاه بعدَ ذلك، وأزال عنه المَلامَ، وقيَّض له ما هو سَبَبُ صلاحِه. فلمَّا أَبَقَ لجأَ إلى الفُلْكِ المشحونِ بالرُّكَّابِ والأمتِعةِ، فلَمَّا رَكِبَ مع غيرِه، والفُلْكُ شاحِنٌ، ثَقُلَتِ السَّفينةُ، فاحتاجوا إلى إلقاءِ بَعضِ الرُّكْبانِ، وكأنَّهم لم يَجِدوا لأحَدٍ مَزِيَّةً في ذلك، فاقتَرَعوا على أنَّ مَن قُرِعَ وغُلِبَ أُلقِيَ في البَحرِ؛ عَدلًا مِن أهلِ السَّفينةِ، وإذا أراد اللهُ أمرًا هيَّأ أسبابَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

أي: فقارَعَ يُونُسُ مع ركَّابِ السَّفينةِ؛ لِيَختاروا مَن يُلقونَه في البَحرِ؛ لِتَخِفَّ بهم السَّفينةُ حينَ خافوا الغَرَقَ، فكان يُونُسُ مِن جُملةِ المغلوبينَ الَّذين أُلقُوا في البَحرِ[1].

﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

أي: فابتَلَعَه الحوتُ، والحالُ أنَّه قد فعَلَ ما يُلامُ عليه[2].

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

أي: فلولا أنَّ يُونُسَ كان مِنَ المُسَبِّحينَ اللهَ تعالى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٥)، ((الطرق الحكمية)) لابن القيم (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٣، ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٩٧، ٢٩٨).

قال ابنُ عاشور: (كان غرَقُه في البَحرِ المسَمَّى بحرَ الرُّومِ، وهو الَّذي نُسَمِّيه البحرَ الأبيضَ المتوسِّطَ، ولم يكُنْ بنَهرِ دِجلةَ كما غَلِطَ فيه بعضُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧).

قال ابن الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: مِنَ المُصَلِّينَ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. والثَّاني: مِنَ العابِدينَ. قاله مجاهِدٌ، ووَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ. والثَّالثُ: قولُ «لا إلهَ إلَّا أنت سُبحانَك إنِّي كنتُ مِن الظَّالِمين». قاله الحَسَنُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٢).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ونَسَبه إلى قَولِ كثيرٍ مِن المفسِّرينَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤١١) و (١٩/ ٦٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٤).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ ﴾ يعني: يونُسَ ﴿ كَانَ مِنَ ﴾ المُصَلِّينَ لله قبْلَ البَلاءِ الَّذي ابتُلِيَ به مِن العُقوبةِ بالحَبسِ في بطنِ الحُوتِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٧). =

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

﴿ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ﴾.

أي: لَبقِيَ في بَطنِ الحُوتِ إلى اليَومِ الَّذي يُبعَثُ فيه العِبادُ[1].

﴿ فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ ١٤٥ ﴾.

---

= وممَّن اختار القَولَ الثَّالثَ: ابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٥).

قال ابن الجوزي: (فعلى هذا القَولِ يكونُ تسبيحُه في بطنِ الحوتِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٢).

وقيل: مِن الذَّاكِرينَ اللهَ كثيرًا بالتَّسبيحِ والتَّقديسِ. وممَّن اختاره: الزمخشري، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٥).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴾ أي: مِنَ المُصَلِّينَ لله تعالى والذَّاكرينَ إيَّاه: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٥).

قال ابنُ الجوزي: (وجمهورُ العُلَماءِ على أنَّه أراد: لولا ما تقدَّم له قبْلَ الْتِقامِ الحَوتِ إيَّاه؛ مِن التَّسبيحِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٣).

وممَّن جمَع بيْن المعاني السَّابقةِ: السعديُّ، فقال: (﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ﴾ أي: في وقتِه السَّابقِ، بكَثرةِ عبادتِه لرَبِّه، وتسبيحِه، وتحميدِه، وفي بَطنِ الحوتِ؛ حيث قال: ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٣٨).

قال الشوكاني: (﴿ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ أي: لَصار بطنُ الحوتِ له قبرًا إلى يومِ البعثِ. وقيلَ: لَلَبِثَ في بَطْنِه حَيًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧١).

وقال الرازي: (واختَلَفوا في أنَّه كم لَبِثَ في بطنِ الحوتِ، ولفظُ القرآنِ لا يدُلُّ عليه). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٧).

أي: فألقَيْنا يُونُسَ في مَكانٍ مُقفِرٍ خالٍ مِنَ الشَّجَرِ والبناءِ، وهو مَريضٌ[١].

﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ١٤٦ ﴾.

أي: وأنبَتْنا عليه شَجَرةَ يَقطينٍ[٢]؛ .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣١، ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧).

(٢) قيل: المرادُ باليَقطينِ: كُلُّ شَجَرةٍ لا تقومُ على ساقٍ؛ كالدُّبَّاءِ -أي: القَرعِ-، والبِطِّيخِ، والحَنظلِ، وغيرِ ذلك. وممَّن قال بهذا القول: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣١٤).

وممَّن قال مِن السَّلفِ بنحوِ هذا القولِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٣).

وممَّن اختار أنَّها الدُّبَّاءُ (القرع): ابنُ القيِّم، والبِقاعي، وابنُ عاشور، وذكر ابنُ عطيَّةَ أنَّ القَولَ بأنَّ اليقطينَ هو القَرعُ هو المشهورُ في اللُّغةِ، ونسَبَه الواحديُّ والسَّمعانيُّ إلى جميعِ المفَسِّرينَ، ونسَبَه أبو السُّعودِ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦).

وممَّن قال مِن السَّلفِ بهذا القولِ: عبدُ الله بنُ مسعود، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو هُرَيرةَ، وعَمرُو بنُ مَيمونٍ الأَوْديُّ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ومُغيرةُ، والضَّحَّاكُ، ووَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، وهلالُ بنُ يَسافٍ، وعبدُ الله بنُ طاوسٍ، وعَطاءٌ الخُراسانيُّ، والسُّدِّيُّ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، ومُجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠).

قال ابنُ جُزَي: (﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾ أي: أنبَتْناها فوقَه؛ لِتُظِلَّه وتَقيَه حَرَّ الشَّمسِ، واليَقطينُ: القَرعُ، وإنَّما خَصَّه اللهُ به؛ لأنَّه يجمَعُ بَردَ الظِّلِّ، ولِينَ اللَّمسِ، وكِبَرَ الوَرقِ، وأنَّ الذُّبابَ لا يَقرَبُه؛ فإنَّ لحمَ يُونُسَ لَمَّا خرَج مِن البَحرِ كان لا يحتَمِلُ الذُّبابَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٤).

قال ابنُ عاشور: (وهي كثيرةُ الوَرَقِ، تتسَلَّقُ أغصانُها في الشَّيءِ المُرتَفعِ، فالظَّاهِرُ أنَّ أغصانَ اليَقطينةِ تسَلَّقَتْ على جسَدِ يُونُسَ فكسَتْه وأظلَّتْه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧). =

لِيَقتاتَ منها، ويَنتفِعَ بها[١].

﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ ﴾.

أي: وأرسَلْنا يُونُسَ إلى مِئةِ ألْفِ شَخصٍ أو[٢] .....

---

= وقال القرطبي: (قولُه :﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾ يعني ﴿عَلَيۡهِ ﴾ أي: عندَه، كقولِه تعالى: ﴿ وَلَهُمۡ عَلَيَّ ذَنۢبٞ ﴾ [الشعراء: ١٤] أي: عندي. وقيل: ﴿عَلَيۡهِ ﴾ بمعنى: له). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧).

(٢) قيل: ﴿أَوۡ﴾ هنا بمعنى: بَلْ؛ فهي تُثبِتُ وُجودَ زيادةٍ في العدَدِ على مئةِ ألْفٍ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وأبو عُبَيْدةَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٣)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٣).

وقيل: هي بمعنى الواوِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ قُتَيْبةَ، والخازنُ، ونسَبَه البَغَويُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٠، ٢٩١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٤٨).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المعنى أنَّهم يَزيدون على مِئةِ ألْفٍ -وإنِ اختَلفوا في مِقدارِ الزِّيادةِ-: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحسَنُ، والربيعُ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ، ومكحولٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١).

وقيل: هي على أصلِها، والمعنى: أو يَزيدونَ في تَقديرِكم إذا رآهم الرَّائي منكم. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: الأخفَشُ، والزمخشريُّ، والنَّسَفي، وأبو السعود. يُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٤٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٣١٤).

ومِن قواعدِ التَّفسيرِ: أنَّه قد يَرِدُ الخِطابُ بالشَّيءِ في القرآنِ على اعتقادِ المُخاطَبِ دُونَ ما في نفْسِ الأمرِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (١/ ٢٨٤، ٢٨٥).

وقيل: المرادُ بها التَّحقيقُ والتَّأكيدُ، أي: إنَّ عدَدَهم مِئةُ ألْفٍ لا يَنقُصونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ القيِّم. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٥٠)، ((مدارج السالكين)) =

يَزيدونَ عليهم[١].

﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨﴾.

أي: فآمَنوا كُلُّهم بما جاءَهم به يُونُسُ، ووحَّدوا اللهَ، فلم يُعَذِّبْهم، ومتَّعَهم في الدُّنيا إلى حينِ بُلوغِ آجالِهم[٢].

---

= لابن القيم (١/ ٣٢٦) و (٣/ ٣٠٢).

قال البِقاعي: (لَمَّا كان العددُ الكثيرُ لا يُمكِنُ ناظِرَه الوُقوعُ فيه على حقيقةِ عدَدِه، بل يَصيرُ -وإن كان أثبَتَ النَّاسِ نظرًا- يقولُ: هم كذا، يَزيدونَ قليلًا أو يَنقُصونَه، وتارةً يَجزِمُ بأنَّهم لا يَنقُصونَ عن كذا وأمَّا الزِّيادةُ فمُمكِنةٌ، وتارةً يَغلِبُ على ظنِّه الزِّيادةُ، وهو المرادُ هنا؛ قال: ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾؛ لأنَّ التَّرجيةَ في كثرةِ الأتْباعِ أقَرُّ لِلْعَينِ، وأسَرُّ للقَلبِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٩٦).

ومِن معاني (أو): الشَّكُّ بالنسبةِ إلى المخاطبين، أي: إن الرائي يَشُكُّ عندَ رؤيتِهم.

ومِن معانيها: الإبهامُ بالنسبةِ إلى أنَّ الله تعالى أبْهَم أمْرَهم.

ومِن معانيها: الإباحةُ أي: أنَّ الناظرَ إليهم يُباحُ له أن يَحْزِرَهم بهذا القَدْرِ، أو بهذا القَدْرِ.

ومن معانيها: التخييرُ أي: هو مُخَيَّرٌ بين أَنْ يَحْزِرَهم كذا أو كذا. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١/ ١٦٧) و (٩/ ٣٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢٦) و(٣/ ٣٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

قال الزمخشري: (﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾ المرادُ به ما سَبَق مِن إرسالِه إلى قَومِه، وهم أهلُ نِينَوَى. وقيل: هو إرسالٌ ثانٍ بعدَ ما جرى عليه إلى الأوَّلِينَ، أو إلى غيرِهم. وقيل: أسلَموا فسألوه أن يَرجِعَ إليهم فأبى؛ لأنَّ النَّبيَّ إذا هاجَرَ عن قَومِه لم يرجِعْ إليهم مُقيمًا فيهم، وقال لهم: إنَّ اللهَ باعِثٌ إليكم نَبيًّا). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢).

وقال البِقاعي: (لَمَّا لم يَتعلَّقِ الغَرَضُ بتَعيينِ المُرسَلِ إليهم، وهل هم الَّذين أبْقَى عنهم أوْ لا؟ قال: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾، والجُمهورُ على أنَّهم الَّذين أُرسِلَ إليهم أوَّلًا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٢٩٥، ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٣)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ فيه بَيانُ فَضلِ التَّسبيحِ، والعَمَلِ في الرَّخاءِ[1]. وفيه إشارةٌ إلى حديثِ: ((تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ، يَعرِفْك في الشِّدَّةِ))[2]. قال الضَّحَّاكُ: (اذكُروا اللهَ في الرَّخاءِ، يَذكُرْكم في الشِّدَّةِ؛ إنَّ يُونُسَ عليه السَّلامُ كان عَبدًا صالِحًا، وكان يَذكُرُ اللهَ، فلمَّا وَقَع في بَطنِ الحُوتِ سأل اللهَ، فقال اللهُ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، وإنَّ فِرعَونَ كان عَبدًا طاغيًا ناسيًا لذِكرِ اللهِ تعالى، فلمَّا أدركَه الغَرَقُ قال: آمَنْتُ، فقال الله: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١]؟!)[3]، ففيه تَرغيبٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ في إكثارِ المؤمِنِ مِن ذِكرِه بما هو أهْلُه،

---

= كثير)) (٧/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٧).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٣، ٢٩٤).

والحديث أخرجه مِن طُرُقٍ: أحمدُ (٢٨٠٣)، والطَّبَرانيُّ (١١/ ١٢٣) (١١٢٤٣)، والحاكمُ (٦٣٠٣) -واللفظُ له- مطوَّلًا مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

صحَّح الحديثَ عبدُ الحقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، والقرطبيُّ في ((التفسير)) (٨/ ٣٣٥)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢٩٦١)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨٠٣).

وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حَجَرٍ في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَرِ)) (١/ ٣٢٧)، والسَّخاويُّ في ((المقاصد الحسنة)) (١٨٨)، وحسَّنَ إسنادَه الصَّنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٤/ ٢٦٧)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((زاد المسير)) لابن الجوزي (٢/ ٣٤٨).

وإقبالِه على عِبادتِه، وجمْعِ هَمِّه لِتَقْييدِ نِعمتِه بالشُّكرِ في وَقتِ المُهلةِ والفُسحةِ؛ لِيَنْفَعَه ذلك عِنده تعالى في المَضايقِ والشَّدائدِ[1]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ...﴾ الغَرَضُ مِن ذِكرِ يُونُسَ عليه السَّلامُ هنا تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يَلْقاه مِن ثِقلِ الرِّسالةِ، بأنَّ ذلك قد أثقَلَ الرُّسُلَ مِن قَبْلِه، فظَهَرت مَرتبةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في صَبرِه على ذلك، وعَدَمِ تذَمُّرِه، ولإعلامِ جميعِ النَّاسِ بأنَّه مأمورٌ مِن اللهِ تعالى بمُداوَمةِ الدَّعوةِ للدِّينِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ كانوا يَلومونَه على إلحاحِه عليهم، ودَعوتِه إيَّاهم في مُختلِفِ الأزمانِ والأحوالِ، ويَقولونَ: (لا تَغْشَنا في مجالِسِنا، فمَن جاءك مِنَّا فأسمِعْه)، كما قال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ[2]. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]؛ فلِذِكرِ قِصَّةِ يُونُسَ أثَرٌ مِن مَوعِظةِ التَّحذيرِ مِن الوُقوعِ فيما وقَعَ فيه يُونُسُ مِن غَضَبِ رَبِّه؛ ألَا ترى إلى قَولِه تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ۞ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٨، ٤٩]، ولِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّ اللهَ إذا اصطفى أحدًا للرِّسالةِ لا يُرَخِّصُ له في الفُتورِ عنها، ولا يَنسَخُ أمْرَه بذلك؛ لأنَّ اللهَ أعلَمُ حيثُ يجعَلُ رِسالاتِه[3].

٢- أنَّ مَقامَ النُّبُوَّةِ لا يَمنَعُ مِن فِعْلِ بَعضِ ما لا يكونُ مَحبوبًا إلى اللهِ، أي: أنَّ الرَّسولَ قد يقومُ بشَيءٍ لم يُؤمَرْ به. دَليلُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٥٦٦)، ومسلم (١٧٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٨).

ٱلْمَشْحُونِ﴾، فعَبَّرَ عن خُروجِه بالإباقِ؛ لأنَّه خُروجٌ لم يُؤمَرْ به[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَسَاهَمَ﴾ استُدِلَّ به على جوازِ المُساهَمةِ -يعني: القُرْعةَ-، وذلك على أنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شرعٌ لنا ما لم يَرِدْ شرعُنا بخلافِه؛ وقد وَرَدَ شرعُنا بوفاقِه؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أراد سفرًا أَقْرَعَ بيْنَ نسائِه؛ فأيَّتُهنَّ خَرَج سَهْمُها خَرَج بها[٢].

٤- حُبُّ الإعذارِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه يُحِبُّ الإعذارَ مِن خَلقِه -أي: إقامةَ العُذرِ لِمَا فَعَلَه عزَّ وجلَّ- حتَّى لا يُنسَبَ فِعلُه للظُّلمِ وللسَّفَهِ، وتُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾، يعني: ليس في حالٍ لا يُلامُ عليها حتَّى يُقالَ: إنَّ في هذا ظُلمًا له أو سفهًا في حقِّه! بلِ التَقَمَه الحوتُ في حالٍ هو مُستَحِقٌّ فيها لذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ المرءَ يُحفَظُ بصالحِ عَمَلِه، ويَنجُو به مِن المُهلِكاتِ[٤]، فالطَّاعاتُ السَّابقةُ تكونُ سَبَبًا للنَّجاةِ مِن المُهْلِكاتِ اللَّاحقةِ، فيكونُ في هذا شاهِدٌ لِقَولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٠٩).

والحديث رواه البخاري (٢٦٨٨)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديثِ عائشةَ رضيَ الله عنها.

لكن قال ابنُ عاشور: (ليس في الآيةِ دَليلٌ على مشروعيَّةِ القُرعةِ في الفَصلِ بيْن المُتساوِيَين؛ لأنَّها لم تَحْكِ شَرعًا صحيحًا كان قبْلَ الإسلامِ؛ إذْ لا يُعرَفُ دينُ أهلِ السَّفينةِ الَّذين أجرَوُا الاستِهامَ على يُونُسَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٤).

وقال أيضًا: (ما أُجرِيَ الاستِهامُ عليه قد أجمَع المُسلِمونَ على أنَّه لا يَجري في مِثْلِه استِهامٌ). ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٣٩).

النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ، يَعرِفْكَ في الشِّدَّةِ))(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أنَّه لو بَقِيَ في بَطنِ الحوتِ لَكان فيه آيةٌ مِن آياتِ اللهِ؛ أنْ يَبقَى هذا الحوتُ مِن ذلك الوَقتِ إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّ هذا ظاهِرُ اللَّفظِ؛ أنَّه يَبقَى في بَطنِه إلى البَعثِ(٢).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ فيه سؤالٌ: في هذه الآيةِ التَّصريحُ بنَبذِ يُونُسَ بالعَراءِ -عليه وعلى نَبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ- وقد جاءتْ آيةٌ أُخرَى يُتوَهَّمُ منها خِلافُ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩]؟

**الجوابُ**: أنَّ الامتِناعَ المدلولَ عليه بحَرفِ الامتِناعِ الَّذي هو: (لولا) مُنصَبٌّ على الجُملةِ الحاليَّةِ، لا على جوابِ (لولا). وتقريرُ المعنى: لولا أنْ تداركَه نِعمةٌ مِن رَبِّه لَنُبِذَ بالعَراءِ في حالِ كونِه مَذمومًا، لكِنَّه تداركَتْه نِعمةُ رَبِّه، فنُبِذَ بالعراءِ غيرَ مذمومٍ؛ فهذه الحالُ عُمدةٌ لا فَضلةٌ، لأنَّ المرادَ بالفَضلةِ ما ليس رُكنًا في الإسنادِ وإن توقَّفَت صِحَّةُ المعنى عليه. ونظيرُها قَولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]، وقَولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]؛ لأنَّ النَّفيَ فيهما مُنصَبٌّ على الحالِ لا على ما قَبْلَهما(٣).

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ فيه إثباتُ تأثيرِ الأسبابِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٢).
والحديثُ تقدَّم تخريجُه.

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٩٨).

لأنَّ هذه الشَّجَرةَ تُظِلُّه -على قولٍ- وتُبَرِّدُ عليه، وهي لَيِّنةُ المَلمَسِ، ويُقالُ: إنَّ الذُّبابَ لا يَقَعُ عليها، واللهُ قادرٌ على أنْ يُظِلَّه بغَمامةٍ، وقادِرٌ على أنْ يُبقيَه في الشَّمسِ في العراءِ ولا يَتأثَّرُ، لكِنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُبَيِّنُ لعِبادِه أنَّ الأشياءَ تكونُ بأسبابِها، فالأسبابُ مُؤَثِّرةٌ، لكِنْ لا بنَفْسِها، ولكِنْ بما أودَعَه اللهُ بها مِن أسبابِ التَّأثيرِ[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ فيه سؤالٌ: وهو: أنَّ الشَّجَرةَ في كلامِ العَرَبِ إنَّما تُقالُ لِما كان على ساقٍ مِن عُودٍ، واليقطينُ لا ساقَ له؟

**والجوابُ مِن أوجُهٍ:**

منها: أنَّ قولَه تعالى: ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ جاء تجوُّزًا.

ومنها: أنَّ الله أنبَتَها عليه ذاتَ ساقٍ؛ خَرقًا للعادةِ ليُونُس عليه السَّلامُ، فأخرجها عن عادةِ أمثالِها حتَّى تصيرَ عليه كالعريشِ؛ لِيَحصُلَ له ظِلٌّ؛ لأنَّه لو كان مُنبَسِطًا على الأرضِ لم يُمكِنْ أن يَستَظِلَّ به[2].

ومنها: أنَّ الشَّجَرَ إذا أُطلِق كان ما له ساقٌ يقومُ عليه، لكنْ إذا قُيِّد بشَيءٍ تقيَّدَ به؛ فمُسَمَّى الشَّجَرةِ على إطلاقِه هو: ما له ساقٌ يقومُ عليه، ولكِنْ لَمَّا تقَيَّدَت هنا باليَقطينِ، فتكونُ بلا ساقٍ[3].

١٠- في قَوْلِه: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ إنْ قُلْتَ: ﴿يَزِيدُونَ﴾ فِعْلٌ ولا يَصِحُّ عطفُه على المجرورِ بـ﴿إِلَىٰ﴾؛ فإنَّ حرفَ الجرِّ لا يَصِحُّ تقديرُه على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٧٠، ٣٧١).

الفعلِ، ولذلكَ لا يجوزُ: مَرَرْتُ بقائِمٍ ويَقْعُدُ، على تأويلِ: قائِمٍ وقاعِدٍ.

**فالجوابُ**: أنَّ ﴿يَزِيدُونَ﴾ خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ في محلِّ رفعٍ والتقديرُ: أو هم يَزيدونَ، وجازَ عطفُ الاسميَّةِ على الفعليَّةِ بـ﴿أَوْ﴾ لاشتراكِهما في مُطْلَقِ الجملةِ[1].

١١- استدلَّ بعضُ المتأخِّرينَ بقَولِه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ على إثباتِ الإحصاءِ السُّكَّانيِّ؛ لأنَّه قال: ﴿إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، فأحصاهم عَدَدًا، مع أنَّه لو قال: «فأرسَلْناه إلى قومِه» كفَى، لكنْ عَدَّهم عَدًّا، ولا نَعلَمُ لهذا فائِدةً إلَّا الإحصاءَ، ولا شكَّ أنَّ الإحصاءَ إذا كان فيه فائِدةٌ فإنَّه يكونُ مَطلوبًا[2].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ظاهِرُ تَرتيبِ ذِكرِ الإرسالِ بعدَ الإنجاءِ مِن الحُوتِ: أنَّه إعادةٌ لإرسالِه[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾

- قَولُه: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ أي: هرَبَ إليه، وأصْلُه الهرَبُ مِن السَّيِّدِ، ويُونسُ هو عبْدٌ للهِ، وخرَجَ فارًّا مِن غَيرِ إذْنٍ مِن اللهِ؛ فحسُنَ إطلاقُ وَصفِ الإباقِ عليه[4].

---

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي(٤/ ٢٠٩). ويُنظر أيضًا: ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٣).

- وفي قِصَّةَ يُونسَ عليه السَّلامُ جُمَلٌ مَحذوفةٌ مُقدَّرةٌ قبْلَ ذِكرِ فِراره إلى الفُلْكِ، كما في قِصَّتِه في سُورةِ (الأنبياءِ) في قَولِه: ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وقولِه: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ جُمَلٌ مَحذوفةٌ أيضًا، وبمَجموعِ القَصصِ يَتبيَّنُ ما حُذِفَ في كلِّ قِصَّةٍ منها[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ * فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

- تَفريعُ ﴿فَسَاهَمَ﴾ يُؤْذِنُ بجُمَلٍ مَحذوفةٍ، تَقْديرُها: فهاجَ البَحرُ، وخاف الرَّاكبونَ الغرَقَ؛ فساهَمَ[٢].

- قَولُه: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ لَمَّا آلَ وُقوعُ القُرعةِ عليه إلى رَمْيِه مِن السَّفينةِ مِن محلِّ علوٍ إلى أسفَلَ، عبَّر عن ذلك بما يدُلُّ على الزَّلقِ الَّذي يكونُ مِن علوٍ إلى سفلٍ، فقال: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ عبَّرَ بالجَمعِ؛ لإفادةِ عُمومِ البَعثِ. ولو أفرَدَ لم يُفِدْ بَعثَ الحيواناتِ العُجْمِ، ولو ثَنَّى لَظُنَّ أنَّ ذلك له وللحُوتِ خاصَّةً لِمعنًى يَخُصُّها، فلا يفيدُ بَعثَ غَيرِهما[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ فَصيحةٌ؛ لأنَّها تُفصِحُ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، فالتَّقديرُ: يُسبِّحُ ربَّه في بطْنِ الحوتِ: أنْ لا إلهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٩٣).

إلَّا أنتَ سُبحانَكَ، إنِّي كنتُ مِن الظَّالِمينَ، فاستجابَ اللهُ له ونجَّاهُ، كما في سُورةِ (الأنبياءِ)، والمعنى: فلَفَظَه الحوتُ وقَاءَه، وحمَلَه المَوجُ إلى الشَّاطئِ[١].

- والنَّبذُ: الإلْقاءُ، وأُسنِدَ نَبْذُه إلى اللهِ؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي سخَّرَ الحوتَ لِقَذْفِه مِن بَطنِه إلى شاطئٍ لا شجَرَ فيه[٢].

- وتَعديةُ فِعلِ (أَنْبَتْنَا) بحَرْفِ (على)، أفاد أنَّها مُسْتعليةٌ عليه فوقَه مُظِلَّةٌ له، كما يُطَنَّبُ البيتُ على الإنسانِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾

- قيل: رِسالتُه هذه هي الأُولى الَّتي أبَقَ بعْدَها، ذكَرَها آخِرَ القَصصِ؛ تَنبيهًا على رِسالتِه، ويَدُلُّ عليه قولُه: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ﴾، وتَمتيعُ تلك الأُمَّةِ هو الَّذي أغضَبَ يُونسَ عليه السَّلامُ حتَّى أبَقَ. وقيل: المرادُ إرسالُه السَّابقُ؛ أخبَر أوَّلًا بأنَّه مِن المرسَلينَ على الإطلاقِ، ثمَّ أخبَرَ بأنَّه قدْ أُرسِلَ إلى أُمَّةٍ جَمَّةٍ، وكأنَّ تَوسيطَ تَذكيرِ وَقْتِ هَرَبِه إلى الفُلكِ وما بعْدَه بيْنَهما؛ لِتَذكيرِ سَببِه، وهو ما جَرَى بيْنَه -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- وبيْن قَومِه؛ مِن إنذارِه إيَّاهم عَذابَ اللهِ تعالى، وتَعيينِه لِوَقْتِ حُلولِه، وتَعلُّلِهم وتَعليقِهم لِإيمانِهم بِظُهورِ أماراتِه؛ لِيُعلَمَ أنَّ إيمانَهم الَّذي سيُحْكى بعْدُ لم يكُنْ عَقِيبَ الإرسالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦).

-كما هو المُتبادَرُ مِن تَرتيبِ الإيمانِ عليه بالفاءِ-، بلْ بعْدَ اللَّتَيَّا والَّتِي[١].

- وإذا كان المرادُ بإرسالِه أنَّه على رِسالتِه الأُولى، فيكونُ قولُه: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ ﴾ عَطْفًا على قولِه: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ على سَبيلِ البَيانِ؛ لأنَّه دلَّ على ابتداءِ الحالِ وعلى انْتِهائِها، وعلى ما هو المقصودُ بالإرسالِ مِن الإيمانِ، واعتَرَض ما بيْنَهما قِصَّةٌ مِن قَصَصِه اعتِناءً بشَأْنِها؛ لِاحتِوائِها على أمْرٍ عَجيبٍ[٢].

- قولُه: ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ حَرْفُ (أو) ليس للشَّكِّ؛ فهو على اللهِ مُحالٌ، وهي بمعنى (بلْ)، أو بمعنى الواوِ، أو المعنى: أوْ يَزيدون في نَظَرِهم؛ فالشَّكُّ إنَّما دخَلَ في قَولِ المخلوقينَ. وقيل: هي للإبهامِ على المخاطَبِ. وقيل: هي إضرابٌ لِمَا في الواقعِ ونفْسِ الأمْرِ، فالمعنى: أرسَلْناهُ إلى جَماعةٍ يَحزُرُهم النَّاسُ مِئةَ ألْفٍ، وهمْ أزيَدُ مِن ذلك، وفيه نُكتةٌ جَليلةٌ، وهي الانتقالُ مِن الأدْنى إلى الأعْلى؛ لِمَا له مِنَ الوقْعِ في النَّفْسِ، ولَفْتِ النَّظرِ إليه، بخِلافِ ما إذا أخبَرَ بالأعْلى مِن أوَّلِ الأمْرِ[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَـَٔامَنُواْ ﴾ للتَّعقيبِ العُرْفيِّ؛ لأنَّ يُونسَ عليه السَّلامُ لَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٧٩).
وبعْدَ اللَّتَيَّا والَّتي: أي: بعدَ جَهدٍ وشِدَّةٍ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٤، ٣١٥).

أُرسِلَ إليهم ودَعاهم، امتَنَعوا في أوَّلِ الأمْرِ، فأخْبَرَهم بوَعيدٍ بهَلاكِهم، ثمَّ خافوا فآمَنوا[1].

- ولعلَّه إنَّما لم يَختِمْ قِصَّةَ يُونسَ وقِصَّةَ لُوطٍ بما ختَمَ به سائرَ القِصصِ بالسَّلامِ عليهم؛ أو اكتِفاءً بالتَّسليمِ الشَّاملِ لكلِّ الرُّسلِ المذكورينَ في آخِرِ السُّورةِ، وقيل غيرُ ذلك[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦).

## الآيات (١٤٩-١٦٢)

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾: أي: سَلْهُم واستَخبِرْهم، وأصلُ (فتي) هنا: يدُلُّ على تَبيينِ حُكمٍ[1].

﴿إِفْكِهِمْ ﴾: أي: كَذِبهم، والإفكُ: أَسوأُ الكَذِبِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[2].

﴿سُلْطَٰنٌ ﴾: أي: حُجَّة ظاهِرةٌ، وسُمِّيت الحُجَّةُ سُلطانًا؛ لِمَا يَلحَقُ مِن الهُجومِ على القُلوبِ، وأصلُ (سلط): يدلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٣٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٠٣).

﴿ٱلْجِنَّةِ﴾: أي: الجِنِّ أو الملائِكةِ، قيلَ لهم: جِنَّةٌ؛ لأنَّهم لا يُرَونَ، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ[١].

﴿نَسَبًا﴾: النَّسَبُ والنِّسْبَةُ: اشتراكٌ مِن جِهةِ أحَدِ الأبوينِ، كالاشتِراكِ مِن الآباءِ والأبناءِ، والنِّسْبة بيْن بَني الإخْوةِ وبَني الأَعْمامِ، وأصلُ (نسب): يدُلُّ على اتِّصالِ شيءٍ بشَيءٍ، وسُمِّي النَّسَبُ بذلك لاتِّصالِه وللاتِّصالِ به[٢].

﴿بِفَٰتِنِينَ﴾: أي: بمُضِلِّينَ، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتِلاءٍ واختِبارٍ، ثمَّ استُعْمِل فيما أخرَجه الاختبارُ إلى المكروهِ، ثمَّ أُطلِق على كُلِّ مَكروهٍ أو آيلٍ إليه، كالكُفرِ والإثمِ والتَّحريقِ، وغيرِ ذلك[٣].

﴿صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: مُقاسٍ حَرَّ النَّارِ، وأصلُ الصلي: الإيقادُ بالنَّارِ[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾

(ما) في قولِه: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ اسمٌ مَوصولٌ مَعطوفٌ على اسمِ (إنَّ)، وهو الكافُ في ﴿فَإِنَّكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

و(ما) في قولِه: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ حِجازيَّةٌ نافيةٌ، و﴿أَنتُمۡ﴾ اسمُ (ما) مَرفوعٌ، و﴿عَلَيۡهِ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ (فاتِنينَ).

و﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ (فَاتِنِينَ) خبَرُ (ما) العامِلةِ عَمَلَ (ليس)، مجرورٌ لَفظًا، مَنصوبٌ محلًّا، والباءُ زائدةٌ فيه.

وجُملةُ: ﴿مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ في محلِّ رَفعٍ خبَرُ (إنَّ).

﴿إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ﴿إِلَّا﴾ للحَصرِ. ﴿مَنۡ﴾ مَوصولةٌ أو مَوصوفةٌ، مَبْنيَّةٌ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولُ (فاتِنين)، والاستِثناءُ مُفَرَّغٌ، والتقديرُ: فإنَّكم وآلهتَكم ما أنتُم وهم فاتِنينَ ومُفسِدينَ على اللهِ إلَّا الذين سَبَقَ في عِلْمه تعالَى أنَّهم مِن أهلِ الجَحيمِ. ويجوزُ أن تُقَدِّرَ مَفعولًا لـ (فاتنين)، أي: أحدًا، فتَكونَ ﴿إِلَّا﴾ أداةَ استِثناءٍ، و﴿مَنۡ﴾ مُستثنًى مِنَ المفعولِ المحذوفِ. ﴿صَالِ﴾ خبرُ ﴿هُوَ﴾ مَرفوعٌ، وعلامةُ رَفعِه الضَّمَّةُ المقَدَّرةُ على الياءِ المحذوفةِ لالتِقاءِ السَّاكِنينَ؛ حمْلًا للخَطِّ على اللَّفظِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يأمُر اللهُ تعالَى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتوبيخِ المشركين والردِّ على جَهالاتِهم، فيقولُ: فاسأَلْ -يا مُحمَّدُ- مُشرِكي قَومِك الذين يَزعُمونَ أنَّ الملائِكةَ بناتُ اللهِ تعالَى: أَلِرَبِّك البناتُ التي يَكرَهونَها، ولهم البَنونَ؟! أم خلَقْنا الملائِكةَ إناثًا وهؤلاء المُشرِكون شاهِدونَ خَلْقَهم؟!

ثمَّ يخبرُ اللهُ تعالَى عن كَذِبهم، ويردُّ عليهم، فيقولُ: ألَا إنَّهم لَيَقولونَ -مِن كَذِبهم وقَلْبِهم للحَقائِقِ-: ولَدَ اللهُ! وإنَّهم لكاذِبونَ فيما زَعَموا.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٨/ ٣١٨).

أختارَ اللهُ تعالَى لِنَفسِه البَناتِ دونَ البَنينَ؟! ما لكم كيف تَحكُمونَ هذا الحُكمَ الجائِرَ؛ أفلا تَتذكَّرونَ؟! أمْ لكُم حُجَّةٌ ظاهِرةٌ تُبَيِّنُ صِحَّةَ دَعواكم؛ فأْتُوا بكِتابٍ فيه بيانُ حُجَّتِكم إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعواكم.

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالَى مبيِّنًا أحدَ أكاذيبِهم: وجعَلَ أولئك المُشرِكونَ بيْنَ اللهِ تعالى وبيْنَ الجِنِّ نَسَبًا، ولقدْ عَلِمَ الجِنُّ أنَّهم مُحضَرونَ يومَ القِيامةِ.

ثمَّ يُنزِّهُ اللهُ تعالَى نفْسَه عن هذه الافتراءاتِ، فيقولُ: تنزَّه اللهُ عمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ، إلَّا عِبادَ اللهِ الذين أخلَصَهم لطاعتِه؛ فإنَّهم لا يَصِفونَ اللهَ تعالى بالنَّقائِصِ.

ثمَّ يقولُ تعالَى مخاطبًا المشركينَ: فإنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- وما تَعبُدونَه مِن الآلهةِ المَزعومةِ لَستُم بمُضِلِّينَ أحدًا إلَّا مَن سَبَق في عِلمِ اللهِ تعالَى أنَّه مِن أهلِ النَّارِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ أقاصيصَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، عاد إلى شَرحِ مَذاهِبِ المُشرِكينَ، وبيانِ قُبحِها وسَخافتِها؛ ومِن جُملةِ أقوالِهم الباطِلةِ أنَّهم أثبَتوا الأولادَ للهِ سُبحانَه وتعالَى، ثمَّ زَعَموا أنَّها مِن جِنسِ الإناثِ، لا مِن جِنسِ الذُّكورِ[1].

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾.

أي: فاسأَلْ -يا محمَّدُ- مُشرِكي قَومِك الذين يَزعُمونَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾.

أي: اسألْهم أيَجعَلونَ لِرَبِّك ما يَكرَهونَ مِنَ البَناتِ، ويَجعَلونَ لأنفُسِهم ما يَرغَبونَ مِن البَنين[1]؟!

كما قال الله تعالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ...﴾ إلى قولِه تعالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٥٧ - ٦٢].

وقال تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

أي: أمْ خلَقَ اللهُ الملائِكةَ إناثًا وقدْ حضَر المُشرِكونَ خَلْقَه لهم، فأخبَروا أنَّهم بَناتُ اللهِ عن عِلمٍ ومُشاهَدةٍ[2]؟!

كما قال تعالَى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ ...﴾.

أي: ألَا إنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ لَيَقولونَ -مِن قَلْبِهم للحَقائِقِ، وصَرْفِها عن وَجهِها الصَّحيحِ-: ولدَ اللهُ، حِينَ زعَموا أنَّ الملائكةَ بَناتُه[3]!

---

= (٧/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤١)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ١١٩)، ((تفسير ابن =

﴿... وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

أي: وإنَّهم في قَولِهم هذا لَمُخبِرونَ بخِلافِ الحَقِّ والصِّدقِ المُطابِقِ للواقِعِ(١).

كما قال تعالَى: ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠، ٩١].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢].

﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسير:**

في قولِه تعالَى: ﴿أَصْطَفَى﴾ قِراءتان:

١- قراءة ﴿اصْطَفَى﴾ بوصْلِ الهَمزةِ على لفْظِ الخَبرِ، وفيه وجهانِ:

أحدُهما: أنَّه على نِيَّةِ الاستفهامِ، وإنَّما حُذِفَ للعِلمِ به. والثاني: أنَّ هذه الجُملةَ بدَلٌ مِن الجُملةِ المحكيَّةِ بالقولِ، وهي ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾، أي: يقولون كذا،

---

= كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

و﴿مِّنْ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾ قيل: هي للتَّبعيضِ، أي: هذا الإفكُ المذكورُ هو مِن جُملةِ إفكِهم الكثيرِ.

وقيل: هي للسَّبَبيَّةِ، أي: قالوا ذلك بسَبَبِ أنَّ صَرْفَ الأمورِ عن وَجهِها الصَّحيحِ هو دَيدنُهم وعادتُهم. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

ويقولون: اصْطَفى هذا الجِنسَ على هذا الجِنسِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: وإنَّهم لكاذبون؛ قالوا: اصطفَى البناتِ، فحذف (قالوا)[١].

٢- قِراءة ﴿أَصۡطَفَى﴾ بقَطْعِ الألفِ على الاستفهامِ، على طريقةِ الإنكارِ والاستبعادِ[٢].

﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ١٥٣﴾.

أي: أَخْتارَ اللهُ تعالى لِنَفسِه البناتِ اللَّاتي يَستَنكِفُ المُشرِكونَ مِن إلحاقِهنَّ بهم، دونَ البنينَ[٣]؟!

كما قال تعالَى: ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠].

﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ١٥٤﴾.

أي: ما لكُم، كيف تَحكُمونَ هذا الحُكمَ الجائِرَ؛ إذ جعَلْتُم لِرَبِّكم ما لا تَرضَونَه لأنفُسِكم، واستَأثَرتُم دونَه بما تُحِبُّونَ[٤]؟!

---

(١) قرأ بها أبو جَعفر. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠). ويُنظر لمعنى القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٣٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٠). ويُنظر لمعنى القراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٥-٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٥٥﴾.

أي: أفلا تتذَكَّرونَ، فتُدرِكونَ بُطلانَ قَولِكم[١]؟

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ١٥٦﴾.

أي: أمْ لكُم حُجَّةٌ واضِحةٌ تُبَيِّنُ صِحَّةَ دَعواكم[٢]؟!

﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٥٧﴾.

أي: فأْتُوا بكِتابٍ مِن عِندِ اللهِ فيه بيانُ حُجَّتِكم على ما تَقولونَ، إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعواكم[٣].

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ١٥٨﴾.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾.

أي: وجعَلَ المُشرِكونَ بيْنَ اللهِ تعالى وبيْنَ الجِنِّ نَسَبًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

قال البقاعي: (فإنَّ الأمرَ في غايةِ الظُّهورِ؛ لِما في عُقولِكم وطِباعِكم مِن أنَّكم لا تَرضَونَ لأنفُسِكم أخَسَّ المنازِلِ، فكيف يختارُه لِنَفسِه رَبُّكم الذي بيَدِه كُلُّ شَيءٍ؟! وإنَّه لا يكونُ الولَدُ مُطلَقًا إلَّا ممَّن له جِنسٌ، فيكونُ مُحتاجًا إلى جِنسِه، والمحتاجُ لا يكونُ إلهًا بوَجهٍ!). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٠٦-٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٢٥-٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٣، ٦٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٤، ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٥، ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٢٩). =

= قيل: المرادُ بالجِنَّةِ: الجِنُّ. وفي هذا التَّفسيرِ وَجهانِ:

الأوَّلُ: هو أنَّ المُشركينَ جَعَلوا بيْن اللهِ تعالى وبيْنَ الجِنِّ نَسَبًا حينَ قالوا: إنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ، وأمَّهاتِهنَّ مِن الجِنِّ. ومَّمن ذهَب إلى هذا المعنى: ابن القيِّم، وابن كثير، والبقاعي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عُثَيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

عن مُجاهدٍ قال: (قال كُفَّارُ قُرَيشٍ: الملائِكةُ بناتُ اللهِ، فسألَ أبو بكرٍ: مَن أمَّهاتُهنَّ؟! فقالوا: بناتُ سَرَواتٍ -أي: ساداتٍ وخَواصٍّ- الجِنِّ). أخرجه البُخاريُّ مُعَلَّقًا في صحيحِه (كتاب بدء الخلق) (بابُ ذكرِ الجِنِّ وثوابِهم وعقابِهم) قبل حديث (٣٢٩٦).

واستبْعَده الرازيُّ بناءً على أنَّ القَولَ بأنَّ أمَّهاتِ الملائكةِ مِن الجِنِّ يُسمَّى مُصاهرةً لا نَسَبًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٠).

الثاني: هو أنَّ قومًا مِن الزَّنادقةِ يَقولون: اللهُ وإبليسُ أخوانِ؛ فالله الخيِّرُ الكريمُ، وإبليسُ هو الأخُ الشِّرِّيرُ الخَسيسُ!! فقَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ المرادُ منه هذا المذهَبُ، وهو مذهَبُ المجوسِ القائلينَ بيَزدان وإهرمن. وهذا القَولُ هو أقربُ الأقوالِ عند الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاس، وقَتادةُ في رواية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٣١)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٣١).

وقيل: المرادُ بالجِنَّةِ هنا الملائِكةُ. وممَّن قال بهذا المعنى: الفرَّاء، والزَّجَّاج، والواحدي، والزمخشري، ونَسَب السمعانيُّ والقرطبيُّ هذا القَولَ إلى أكثَرِ المفَسِّرين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٥)، ((الوجيز)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤).

وممَّن قال مِن السلفِ بهذا القولِ: مجاهدٌ، وقَتادة في رِوايةٍ، والسُّدِّي، وعِكرمة، وأبو صالح، وابن زيد، وأبو مالك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٣١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٣٣).

قال القرطبيُّ: (قال أهلُ الاشتِقاقِ: قيل لهم «جِنَّةٌ»؛ لأنَّهم لا يُرَونَ. وقال مجاهِدٌ: إنَّهم بَطنٌ مِن بُطونِ الملائكةِ يُقالُ لهم الجِنَّةُ. ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وروى إسرائيلُ عن السُّدِّي عن أبي مالكٍ قال: إنَّما قيل لهم جِنَّةٌ؛ لأنَّهم خُزَّانٌ على الجِنانِ، والملائكةُ كُلُّهم جِنَّةٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٤). =

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

أي: ولقد عَلِمَ الجِنُّ أنَّهم مُحضَرونَ يومَ القِيامةِ(١).

---

= وقيل: إنَّ النَّسَبَ الذي جَعَلوه هو أنَّهم أشركوا الشَّيطانَ في عِبادةِ اللهِ. وذهب القرطبيُّ إلى أنَّ هذا القَولَ هو أحسَنُ الأقوالِ، واستدَلَّ له بقَولِه تعالى: ﴿إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٨]، أي: في العِبادةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥).

وممَّن رُوِيَ عنه ذلك مِن السَّلَف: الحسن البصري. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٢/ ١٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

ذكَر ابنُ الجوزي أنَّه على القولِ بأنَّ المرادَ بـ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾: الجِنُّ: فيكون المرادُ: ولقَدْ عَلِمَت الجنُّ ﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: إنَّ الجِنَّ أنفُسَها ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ الحِسابَ. وأنَّه على القولِ بأنَّ المرادَ بـ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾: الملائِكةُ، يكونُ المعنى: ولقَدْ عَلِمَت الملائِكةُ ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ النَّارَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالجِنَّةِ: الجِنُّ، وأنَّ معنى مُحضَرون: أنَّهم مُحضَرونَ للحِسابِ يومَ القِيامةِ: ابنُ القيِّم، والبقاعي، والسعدي؛ قال ابنُ القيِّم: (أي: قد عَلِمَت الجنَّةُ إنَّهم لَمُحضَرونَ الحِسابَ. قاله مجاهِدٌ، أي: لو كان بيْنه وبيْنَهم نَسَبٌ لم يَحضُروا للحِسابِ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: ١٨]، فجعَلَ سُبحانَه عُقوبتَهم بذُنوبِهم وإحضارَهم للعَذابِ مُبطِلًا لِدَعواهم الكاذِبةِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

وقال يحيى بن سلَّام: (قال الله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾: الجِنُّ ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾: مُدخَلونَ في النَّارِ). ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٦).

وقيل: المعنى: ولقد عَلِمَت الجِنُّ أنَّ المُشرِكينَ مُحضَرونَ للعذابِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالجِنَّةِ: الملائكةُ -وأن المعنى: ولقد علِمت الملائكةُ أنَّ المشركينَ الذين قالوا هذا القولَ لمحضرونَ في النَّارِ-: مقاتل بن سليمان، والزَّجَّاج، والواحدي، والنَّسَفي، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج =

﴿ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ ﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ عمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ مِن أنَّ لهُ تعالَى وَلَدًا، ومِن أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ؛ فتعالَى اللهُ وتبرَّأَ مِن كُلِّ نَقصٍ يَنسُبونَه إليه[1].

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذَكَرَ ما وصفَه به هؤلاءِ الظَّالِمونَ المُتَعَدُّونَ، بَيَّنَ أنَّ هناك أُناسًا لَيسُوا على هذه الحالِ، وهُم عِبادُ اللهِ الذين أخلَصَهم اللهُ تعالَى لِنَفسِه، وأخْلَصوا له ما يَجِبُ له؛ فهذا القُرآنُ الكريمُ مَثانٍ تُثَنَّى فيه الأشياءُ؛ فإذا ذُكِرَ فيه صِفةُ قَومٍ مَذمومةٌ، ذُكِرَ بَعدَها صِفةُ الأقوامِ المحمودةُ[2].

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠ ﴾.

أي: لكنْ عِبادُ اللهِ الذين أخلَصَهم لطاعتِه، واختارَهم لِرَحمتِه؛ فإنَّهم لا يَصِفونَ اللهَ تعالَى بالنَّقائصِ، بل يَنسُبونَ إليه ما يَليقُ به تعالَى مِن صِفاتِ الكَمالِ[3].

---

= (٤/ ٣١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨).

وذهَب ابنُ عاشور إلى أنَّ ضميرَ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ عائدٌ إلى المشركين، أو إلى الجِنَّة، وأنَّ الوجهينِ مرادانِ؛ فإنَّ الفريقينِ مُعاقَبانِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير يحيى بن سلام)) (٢/ ٨٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٨، ٤٨٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن =

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا ذكَرَ الدَّلائِلَ على فَسادِ مَذهَبِ الكُفَّارِ، أتْبَعَه بما نبَّهَ به على أنَّ هؤلاءِ الكُفَّارَ لا يَقدِرونَ على حَملِ أحَدٍ على الضَّلالِ، إلَّا إذا كان قد سَبَق حُكمُ اللهِ في حَقِّه بالعَذابِ والوُقوعِ في النَّارِ(١).

وأيضًا لَمَّا نَزَّه اللهُ نَفسَه المُقدَّسةَ سُبحانَه عن كُلِّ نَقصٍ، دَلَّ على ذلك بأنَّهم

---

= كثير)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

قيل: الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ نَشأَ عن قولِهم: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ أي: ولقد عَلِمَتِ الجِنَّةُ أنَّ الَّذينَ قالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ لَمُحضَرونَ للعَذابِ، إلَّا عِبادَ اللهِ الَّذينَ أخلَصَهم لرحمَتِه، وخلَقَهم لجَنَّتِه. وممَّن ذهَب إلى ذلك: مُقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جَرير، والواحديُّ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥).

وقيل: الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ نَشأَ عن قوله: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: لكنَّ عبادَ اللهِ المُخلَصينَ لا يَصِفونَه بما يَصِفُه المُشرِكونَ. وممَّن قال بهذا المعنى: الخَطيبُ الشِّربينيُّ، والشَّوْكانيُّ، وابنُ عاشور، إلَّا أنَّ ابن عاشور جعَل عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ همُ الملائكةَ. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٨).

وقيل: الاستِثناءُ متَّصِلٌ على اعتبارِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عائدٌ إلى جميعِ النَّاسِ، ثمَّ استَثْنى منهمُ المُخلَصينَ. وممَّن ذكَرَ هذا القولَ احتمالًا: ابنُ كَثير، والبقاعيُّ، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٣).

أو يكونُ متَّصِلًا من وجهٍ آخَرَ لقولِه تعالَى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ أي: مَن أخلَص منهم، وآمَنَ؛ فإنَّه بَريءٌ ممَّا يَصِفُه؛ لأنَّه قد يُسلِمُ منهم نفَرٌ فيَصِفونَه بما يَليقُ به؛ لأنَّ المؤمِنَ والمُخلِصَ لا يصِفُ ربَّه إلَّا بما يَليقُ به. ذكَرَ هذا الوجهَ: الماوَرْديُّ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٥٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦١).

وجَميعَ ما يَعبُدونَه مِن دُونِه: لا يَقدِرونَ على شَيءٍ لم يُقَدِّرْه[١].

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾﴾.

أي: فإنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- والذين تَعبُدونَهم مِن الآلِهةِ المَزعومةِ[٢].

﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾.

أي: لَستُم بمُضِلِّينَ أحَدًا، بحَمْلِه على عِبادةِ ما تَعبُدونَ مِن دُونِ اللهِ[٣].

﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾﴾.

أي: إلَّا مَن سَبَق في عِلمِ اللهِ أنَّه سيَدخُلُ الجَحيمَ ويُعذَّبُ فيها في الآخِرةِ؛ فهو الذي يُفتَنُ ويَضِلُّ بإضلالِكم له[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٩-٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٣)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٠-٣٤١).

قال ابنُ عاشور: (ضميرُ ﴿عَلَيْهِ﴾ يجوزُ أن يكونَ عائدًا إلى اسمِ الجلالةِ في قَولِه تعالى: ﴿لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، أو في قَولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ١٦٠]، ويجوزُ أن يعودَ إلى «مَا تَعْبُدُونَ» بمراعاةِ إفرادِ اسمِ الموصولِ، وهو: «ما»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٠-٣٤١).

قال النحَّاسُ: (أهلُ التَّفسيرِ مُجمِعونَ -فيما عَلِمتُه- على أنَّ المعنى: ما أنتم بمُضِلِّينَ أحدًا إلَّا مَن قدَّرَ اللهُ -جلَّ وعَزَّ- عليه أن يَضِلَّ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٢٩٩). =

كما قال تعالَى عن إبليسَ: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قولِه تعالَى: ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أنَّ على العاقِلِ تَصحيحَ العمَلِ بالإخلاصِ[١].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإنَّ مَن يَقولُ قَولًا لا يُقيمُ عليه حُجَّةً شَرعيَّةً؛ فإنَّه كاذِبٌ مُتَعَمِّدٌ، أو قائِلٌ على اللهِ بلا عِلمٍ[٢].

٣- الإشارةُ إلى أنَّ مَن تابعَ أهلَ السُّوءِ في سُوئِهم؛ فإنَّه يُخشَى أنْ يكونَ ممَّن كُتِبَ عليه أنَّه مِن أصحابِ الجَحيمِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ بيانُ أنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ قَسَموا قِسْمةً ضِيزَى؛ حيثُ جَعَلوا للهِ البناتِ وهُم يَرغَبونَ في الأبناءِ الذُّكورِ، ويَكرَهونَ الإناثَ، فجَعَلوا للهِ ما يَكرَهونَ، وقدْ

---

= وقال السعدي: (المقصودُ مِن هذا بيانُ عَجزِهم وعَجزِ آلهتِهم عن إضلالِ أحدٍ، وبيانُ كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، أي: فلا تَطمَعوا بإضلالِ عبادِ اللهِ المُخلَصينَ وحِزبِه المُفلِحينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٣).

جاؤُوا في مَقالِهم هذا بأنواعٍ مِن الكُفرِ؛ منها: إيثارُ أنفُسِهم بالأفضَلِ، وجَعْلُهم لله الأقَلَّ؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ [الزخرف: ١٧].

ومنها: أنَّهم جَعَلوا للمَلائِكةِ المُقَرَّبينَ وَصْفَ الأُنوثةِ، وهم يَتعيَّرونَ بـ (أبي الإناثِ)؛ ولذلك كرَّر اللهُ تعالى هذه الأنواعَ مِن كُفرِهم في كِتابِه غيرَ مَرَّةٍ[١]؛ فهؤلاءِ زادُوا على الشِّركِ ضَلالاتٍ أُخَرَ، كتَفضيلِ أنفُسِهم عليه، واستِهانَتِهم بالملائكةِ؛ حيثُ أَنَّثُوهم[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ذكَرَ اللهُ عنهم في الملائِكةِ ثلاثةَ أقوالٍ في غايةِ الكُفرِ والكَذِبِ؛ فأوَّلًا: جَعَلوهم بَناتِ اللهِ، فجَعَلوا لله ولَدًا. وجَعَلوا ذلك الوَلَدَ أُنثى، ثمَّ عَبَدوهم مِن دُونِ اللهِ. وكُلٌّ منها كافٍ في التَّخليدِ في نارِ جَهَنَّمَ[٣].

٣- أنَّ كلَّ مَن ادَّعى دَعوى فإنَّه يُطالَبُ بالبَيِّنةِ عليها؛ لِقَولِه تعالَى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾؛ فهل هم شاهِدونَ حتى يَدَّعُوا ذلك[٤]؟!

٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ ﴾ فعَدَلَ عن مَظهَرِ العَظَمةِ إلى اسمِ الجَلالةِ العَلَمِ على الذَّاتِ الجامِعةِ لجَميعِ الصِّفاتِ؛ إشارةً إلى أنَّ كُلَّ صِفةٍ مِن صِفاتِه، ونَعتٍ مِن نُعوتِه: يأبَى الوَلَديَّةَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٥).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴾ الاستِدلالُ على هؤلاءِ بدَلالةِ العَقلِ، وهو أنْ يُقالَ: كيف يَصْطفي اللهُ البَناتِ على البَنينَ؟! هذا ليس بعَقلٍ وليس بمَعقولٍ، ولكنْ هم يَجعَلونَ هذا الشَّيءَ أمرًا مَعقولًا وواجبًا أيضًا: أنْ يكونَ للهِ البناتُ ولهم البَنونَ[1]!

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴾ أنَّ الحُجَّةَ سُلطانٌ لِصاحِبِها؛ لأنَّه يَكونُ بها السُّلطةُ على خَصْمِه الذي يُحاجُّه[2].

٧- قَولُه تعالَى: ﴿ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴾ فيه إظهارُ عَدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ في مُجادلةِ العَدُوِّ والخَصمِ؛ فلمْ يَقْتَصِرِ اللهُ عزَّ وجَلَّ على أنْ كَذَّبَهم، بل طَلَبَ منهم الحُجَّةَ إنْ كانوا صادِقينَ في دَعواهم، ومِن المعلومِ أنَّهم لن يُقِيموا الحُجَّةَ؛ ولهذا قال: ﴿ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ ﴾ أنَّ مَن تَحدَّى غَيرَه فله طَلَبُ البَيِّنةِ على ما قال ذلك الغَيرُ[4].

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ جوازُ تَحَدِّي الخَصمِ بما يَعْجِزُ عنه، وأنَّ ذلك طريقٌ مِن طُرُقِ إفحامِه؛ وذلك أنَّ الخَصمَ عِندَ المناظرةِ يمكنُ إبطالُ حُجَّتِه بعدةِ أساليبَ؛ منها: التحدِّي، ولكنْ يجبُ أنْ يكونَ التحدِّي بما لا يُمكنُ أنْ يُقِيْمَ عليه البُرهانَ والدليلَ[5].

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ أنَّ حُجَّةَ القُرآنِ حُجَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٥).

دامِغةٌ مُلزِمةٌ لا يُمكِنُ التخَلُّصُ منها؛ ولهذا تأتي دائِمًا بصُورةِ التَّحَدِّي؛ إظهارًا لِعَجزِ المُعَارِضِ وعَدَمِ قُدرتِه على المُعارضةِ[١].

١١- أنَّ صِفاتِ اللهِ تعالَى تكونُ سَلبيَّةً -أي: دالَّةً على النَّفيِ-، وتكونُ ثُبوتيَّةً -أي: دالَّةً على الإيجابِ-؛ فقَولُه تعالَى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ هذا مِن صِفاتِ النَّفيِ؛ لأنَّه تَنزيهٌ، وصِفاتُ النَّفيِ التي وَصَفَ اللهُ بها نَفسَه لا تَدُلُّ على النَّفيِ المُجَرَّدِ؛ لأنَّ النَّفيَ المُجَرَّدَ ليس بشَيءٍ فَضلًا عن أنْ يكونَ مَدحًا، وإنَّما تَدُلُّ على ثُبوتِ كَمالِه المُنَزَّهِ عن هذا العَيبِ، فتَنزيهُ اللهِ عمَّا لا يَليقُ به يَتضَمَّنُ كَمالَه فيما يَختَصُّ به سُبحانَه وتعالى، وهذه قاعِدةٌ في جَميعِ الصِّفاتِ المَنفيَّةِ[٢].

١٢- في قولِه تعالَى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بيانُ أنَّ عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ هم الَّذين يَنجُونَ مِن السَّيِّئاتِ التي زَيَّنها الشَّيطانُ[٣].

١٣- قالَ اللهُ تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ لأجْلِ أنَّ هذه السُّورةَ سُورةُ المتجَرِّدينَ عن علائِقِ العوائِقِ عن السَّيرِ إلى اللهِ تعالَى، كرَّر وَصفَ الإخلاصِ فيها كثيرًا[٤].

١٤- أنَّ التَّوحيدَ الحَقَّ هو ما نَعَتَ اللهُ به نَفسَه على أَلْسِنةِ رُسُلِه؛ فهُمْ لم يَنعَتوه مِن تِلقاءِ أنفُسِهم، وإنَّما نَعَتوه بما أَذِنَ لهم في نَعتِه به، وقد صَرَّحَ سُبحانَه بهذا المعنَى في قَولِه تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، فَنَزَّه نفْسَه عمَّا يَصِفُه به العِبادُ إلَّا المُرسَلينَ؛ فإنَّهم لم يَصِفوه مِن عندِ أنفُسِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٩).

وكذلك قَولُه تعالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

١٥- لا يَسلَمُ على مَحكِّ العقْلِ الصَّحيحِ الَّذي لا يَكذِبُ، إلَّا ما جاءَتْ به الرُّسُلُ صَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم، كما قالَ تَعالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾، فنَزَّه سُبْحانَه وتعالَى نفْسَه عَمَّا يَصِفُه به كلُّ أَحدٍ إلَّا المُخلَصينَ مِن عِبادِه، وهُم الرُّسُلُ ومَن تَبِعَهُم، كَمَا قالَ في الآيةِ الأُخْرَى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2] [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ تَفريعٌ وعطْفٌ على ما تَقدَّمَ مِنَ الإنكارِ على المُشركينَ، وإبطالِ دَعاويهم، وضَربِ الأمثالِ لهم بنُظَرائِهم مِنَ الأُمَمِ؛ ففَرَّعَ عليه أمْرَ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإبْطالِ ما نَسَبَه المُشركونَ إلى اللهِ مِنَ الولدِ، وأمْرَه باستِفتاءِ قُرَيشٍ عن وجْهِ إنكارِ البَعثِ أوَّلًا، ثمَّ ساق الكلامَ موصولًا بعضَه ببعضٍ، ثمَّ أمَرَه باستِفتائِهم عن وجهِ القِسمةِ الضِّيزَى الَّتي قَسَموها، والاستِفتاءُ هنا سُؤالٌ على جِهةِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ على قَولِهمُ البُهتانَ على اللهِ؛ حيثُ جَعَلوا للهِ الإناثَ ولأنفُسِهمُ الذُّكورَ في قولِهم: الملائكةُ بناتُ اللهِ! مع كراهَتِهمُ الشَّديدةِ لهُنَّ، ووَأْدِهم إيَّاهُنَّ، واستِنكافِهم مِن ذِكْرِهِنَّ. والمرادُ التَّهَكُّمُ عليهم بصُورةِ الاستِفتاءِ؛ إذْ يَقولونَ: ولَدَ اللهُ[3]!

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) =

- وفي قولِه: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ... ﴾ أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هاهنا بتَبكيتِهم بطريقِ الاستِفتاءِ عن وجهِ أمرٍ مُنكَرٍ خارجٍ عن العقولِ بالكلِّيَّةِ، وهي القِسمةُ الباطلةُ اللَّازمةُ لِما كانوا عليه مِنَ الاعتِقادِ الزَّائغِ؛ حيثُ كانوا يَقولونَ كبعضِ أجناسِ العربِ؛ جُهَيْنةَ وبَني سَلِمةَ وخُزاعةَ وبَني مُلَيح: الملائكةُ بناتُ اللهِ! والفاءُ لترتيبِ الأمْرِ على ما سبَقَ مِن كَونِ أولئك الرُّسلِ الَّذينَ هُم أعلامُ الخَلقِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ عِبادَه تعالَى؛ فإنَّ ذلك ممَّا يؤكِّدُ التَّبكيتَ، ويُظهِرُ بُطْلانَ مَذهَبِهمُ الفاسِدِ، ثمَّ أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَبكيتِهم بما يَتضمَّنُه كُفْرُهمُ المذكورُ مِنَ الاستِهانةِ بالملائكةِ بجَعْلِهم إناثًا، ثمَّ أبْطَلَ أصْلَ كُفرِهمُ المُنطويَ على هذَينِ الكُفرَينِ، وهو نِسبةُ الولدِ إليه سبحانَه وتعالَى عن ذلكَ عُلوًّا كبيرًا، ولم يَنظِمْهُ في سلكِ التَّبكيتِ؛ لمُشاركتِهمُ النَّصارَى في ذلك[1].

- ووجْهُ اتِّصالِ هذا الاستِفتاءِ بفاتحةِ السُّورةِ مِن وَجْهِ كَونِه تعالَى رَبَّ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنهما، وأنَّه منافٍ للمُجانَسةِ، كما تَقرَّرَ في قَولِه تعالَى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞ ﴾[2] [الأنعام: ١٠١].

- وضَميرُ الغَيبةِ مِن قولِه: ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾ عائدٌ على غَيرِ مَذكورٍ يُعلَمُ مِنَ المَقامِ[3].

- وجُملةُ ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ ﴾. وبدَأ أوَّلًا بتَوبيخِهم

---

= (٩/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٠).

على تَفضيلِ أنفُسِهم بقَولِه: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾، وعدَلَ عن قَولِه: (أَلِرَبِّكم)؛ لِما في تَركِ الإضافةِ إليهم مِن تخسيسِهم، وشَرفِ نَبيِّه بالإضافةِ إليه، وثَنَّى بأنَّ نِسبةَ الأُنوثةِ إلى الملائكةِ يَقتضي المُشاهَدةَ، فأَنكَرَ علَيهم بقولِه: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾، أي: خَلَقْناهم وهُم لا يَشهَدونَ شَيئًا مِن حالِهم، ثمَّ أخبَرَ عنهم ثالثًا بأَعظَمِ الكُفرِ، وهو ادِّعاؤُهم أنَّه تعالى قد ولَدَ، فبلَغَ إفْكُهم إلى نِسبةِ الولدِ! ولَمَّا كان هذا فاحشًا قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾. واحتمَلَ أنْ تُخَصَّ هذه الجُملةُ بقَولِهم: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾، ويَكونَ تأكيدًا لقولِه: ﴿مِّنْ إِفْكِهِمْ﴾، واحتمَلَ أنْ يَعُمَّ هذا القول[1].

وقيل: ضميرُ (لِرَبِّكَ) مُخاطَبٌ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو حِكايةٌ للاستِفتاءِ بالمعنى؛ لأنَّه إذا استَفتاهُم يقولُ: أَلِرَبِّكُمُ البَناتُ؟! وكذلك ضميرُ ﴿وَلَهُمُ﴾ مَحْكيٌّ بالمعنى؛ لأنَّه إنَّما يقولُ لهم: ولكمُ البَنونَ؟! وهذا التَّصرُّفُ يقَعُ في حِكايةِ القَولِ ونَحوِه ممَّا فيه مَعنَى القَولِ، مِثلُ الاستِفتاءِ[2].

- ومُجادَلتُهم بهذِه الجُمَلِ المُتَفَنِّنةِ رُتِّبَتْ على قانونِ المُناظَرةِ؛ فابتَدأَهم بما يُشبِهُ الاستِفسارَ عن دَعْوَيَينِ: دَعْوى أنَّ المَلائكةَ بناتُ اللهِ، ودَعْوى أنَّ الملائكةَ إناثٌ؛ بقولِه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩، ١٥٠]، ثمَّ لَمَّا كان تفسيرُهم لذلك معلومًا مِن مُتكرِّرِ أقوالِهم نُزِّلوا مَنزلةَ المُجيبِ بأنَّ المَلائكةَ بناتُ اللهِ، وأنَّ المَلائكةَ إناثٌ، وإنَّما أُريدَ مِنَ استِفسارِهم صورةُ الاستِفسارِ؛ مُضايقةً لهم، ولِيُنتَقَلَ مِن مَقامِ الاستِفسارِ إلى مَقامِ المُطالَبةِ بالدَّليلِ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

دَعْواهم، فذلك الانتِقالُ ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠] وهو اسمُ فاعِلٍ مِن: (شَهِدَ)، إذا حضَرَ ورأى، ثمَّ قَولِه: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فرَدَّدَهُم بيْنَ أنْ يَكونوا قدِ استَنَدوا إلى دليلِ المُشاهَدةِ أو إلى دليلٍ غَيرِه، وهو هنا مُتعَيِّنٌ لأنْ يَكونَ خبرًا مقطوعًا بصِدقِه، ولا سبيلَ إلى ذلك إلَّا مِن عِندِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ مِثلَ هذه الدَّعْوى لا سبيلَ إلى إثباتِها غيرُ ذلك؛ فدليلُ المُشاهَدةِ مُنتَفٍ بالضَّرورةِ، ودليلُ العقلِ والنَّظرِ مُنتَفٍ أيضًا؛ إذْ لا دليلَ مِنَ العقلِ يدُلُّ على أنَّ المَلائكةَ إناثٌ ولا على أنَّهم ذُكورٌ؛ فلمَّا عُلِم أنَّ دليلَ العقلِ غَيرُ مَفروضٍ هنا، انحصَرَ الكلامُ معهم في دليلِ السَّمعِ، وهو الخبرُ الصادِقُ؛ لأنَّ أسبابَ العِلمِ للخَلقِ مُنحصِرةٌ في هذه الأدلَّةِ الثَّلاثةِ: أُشيرَ إلى دَليلِ الحِسِّ بقَولِه: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾، وإلى دَليلَيِ العقلِ والسَّمعِ بقَولِه: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾، ثمَّ فرَّعَ عليه قَولَه: ﴿فَأْتُواْ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وهو دليلُ السَّمعِ، فأسقَط بهذا التَّفريعِ احتِمالَ دَليلِ العقلِ؛ لأنَّ انتِفاءَه مَقطوعٌ؛ إذْ لا طريقَ إليه، وانحصَرَ دَليلُ السَّمعِ في أنَّه مِن عِندِ اللهِ؛ إذْ لا يَعلَمُ ما في غَيبِ اللهِ غَيْرُه. ثمَّ خُوطِبوا بأمرِ التَّعجيزِ بأنْ يأْتوا بكِتابٍ، أيْ: بكِتابٍ جاءَهم مِن عِندِ اللهِ، وإنَّما عَيَّنَ لهم ذلك؛ لأنَّهم يَعتَقِدونَ استِحالةَ مَجيءِ رسولٍ مِن عِندِ اللهِ، واستِحالةَ أنْ يُكَلِّمَ اللهُ أحَدًا مِن خَلقِه؛ فانحصَرَ الدَّليلُ المفروضُ مِن جانبِ السَّمعِ أنْ يَكونَ إخبارًا مِنَ اللهِ في أنْ يُنَزِّلَ عليهم كِتابٌ مِنَ السَّماءِ؛ لأنَّهم كانوا يُجَوِّزونَ ذلك؛ لقَولِهم: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ولن يَستَطيعوا أنْ يأْتوا بكِتابٍ فلا جَرَمَ قد اتَّضَحَ إفحامُهم بهذه المُجادَلةِ الجاريةِ على القَوانينِ العَقليَّةِ؛ ولذلك صارُوا كالمُعترِفينَ بأنْ لا دَليلَ لهم على ما زَعَموه، فانتقَلَ السَّائلُ المُستَفتِي مِن مَقامِ الاعتِراضِ في المُناظَرةِ

إلى انقِلابِه؛ مُستدِلًّا باستِنتاجٍ مِن إفحامِهم، وذلك هو قولُه: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، الواقع مُعترِضًا بيْن التَّرديدِ في الدَّليلِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ إضرابٌ وانتِقالٌ مِنَ التَّبكيتِ بالاستِفتاءِ السَّابقِ إلى التَّبكيتِ بهذا(٢).

- و﴿ أَمْ ﴾ مُنقطِعةٌ، بمعنَى (بلْ)، وهي لا يُفارِقُها معنَى الاستِفهامِ؛ فالكلامُ بعْدَها مُقَدَّرٌ بهَمزةِ الاستِفهامِ، أي: بلْ أخَلَقْنا الملائكةَ إناثًا؟! والاستِفهامُ إنكاريٌّ وتعجُّبيٌّ مِن جُرأتِهم وقَولِهم بلا عِلمٍ(٣).

- وضميرُ ﴿خَلَقْنَا ﴾ الْتِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ، وهو إذا استَفتاهُم يقولُ لهم: أمْ خَلَق الملائكةَ...؟!(٤).

- قَولُه: ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ استِهزاءٌ بالمُشركينَ، وتَجهيلٌ لهم، والإشعارُ بأنَّهم لفَرْطِ جَهلِهم يَبُتُّونَ به كأنَّهم قدْ شاهَدوا خَلْقَهم! وهو في مَوضِعِ الحالِ، وقَيْدٌ للإنكارِ، أيْ: كانوا حاضِرينَ حِينَ خَلَقْنا الملائكةَ فشَهِدوا أُنوثةَ الملائكةَ؛ لأنَّ هذا لا يَثبُتُ لأمثالِهم إلَّا بالمُشاهَدةِ؛ إذْ لا قِبَلَ لهم بعِلمِ ذلك إلَّا المُشاهَدةُ؟! وبَقيَ أنْ يَكونَ ذلك بالخَبرِ القاطِعِ، فذلك ما سيَنفِيه بقَولِه: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصافات: ١٥٦]؛ وذلك لأنَّ أُنوثةَ المَلائكةِ ليستْ مِنَ المُستحيلِ، ولكنَّه قَولٌ بلا دَليلٍ. وضميرُ ﴿وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣- ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَحكيٌّ بالمَعنى في الاستِفتاءِ، والأصلُ: وأنتُم شاهِدونَ؟ ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعنى: أنَّهم يَقولونَ ذلك، كالقائلِ قَولًا عن ثَلَجِ صَدرٍ وطُمأنينةِ نفْسٍ؛ لإفراطِ جَهلِهم، كأنَّهم قد شاهَدوا خَلْقَهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ استِئنافٌ مِن جِهتِه تعالَى غيرُ داخلٍ تحتَ الأمْرِ بالاستِفتاءِ، مَسوقٌ لإبطالِ أصْلِ مَذهَبِهمُ الفاسدِ؛ ببَيانِ أنَّ مَبْناهُ ليس إلَّا الإفكَ الصَّريحَ، والافتِراءَ القَبيحَ، مِن غيرِ أنْ يَكونَ لهم دليلٌ أو شُبهةٌ قَطعًا[٢].

- وهو ارتِقاءٌ في تَجهيلِهم بأنَّهم يَقولونَ المُستحيلَ، فضْلًا على القولِ بلا دَليلٍ؛ فلذلك سَمَّاهُ إفْكًا[٣].

- وحرفُ (أَلَا) تَنبيهٌ؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ[٤].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ جُملةُ اعتِراضٍ بيْن مَقالَتَي الكُفرِ مِن جُمَلِ الاستِفتاءِ؛ جاءتْ للتَّشديدِ والتَّأكيدِ في كَونِ مَقالَتِهم تلك هي مِن إفْكِهم[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ عَوْدٌ إلى الاستِفتاءِ؛ ولذلك لم تُعطَفْ لأنَّ بيْنَها وبيْنَ ما قَبْلَها كَمالَ الاتِّصالِ؛ فالمعنى: وقُلْ لهم: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ﴾؟ والكلامُ ارتِقاءٌ في التَّجهيلِ، أيْ: لو سَلَّمْنا أنَّ اللهَ اتَّخَذَ ولَدًا، فلماذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٢).

اصْطَفى البَناتِ دُونَ الذُّكورِ، أي: اختارَ لِذَاتِه البَناتِ دُونَ البَنينَ، والبَنونَ أفضَلُ عِندَكم[١]؟!

- وأيضًا قولُه: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾ هو بمَنزلةِ التَّسليمِ في أثناءِ المُناظَرةِ، وهذا يُسمَّى المُعارَضةَ، وإنَّما أُقحِمَ في أثناءِ الاستِدلالِ عليهم ولم يُجعَلْ مع حِكايةِ دَعْواهُم؛ ليَكونَ آخِرُ الجَدَلِ معهم هو الدَّليلَ الَّذي يَجرُفُ جميعَ ما بَنَوْهُ، وهو قولُه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ۞ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾. فهذا مِن بديعِ النَّسيجِ الجامِعِ بيْن أُسلوبِ المُناظَرةِ، وأُسلوبِ المَوعِظةِ، وأُسلوبِ التَّعليمِ[٢]. - قولُه: ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ: استِفهامٌ على طَريقِ الإنكارِ والاستِبعادِ. وفيه إثباتٌ لإفْكِهم، وتقريرٌ لكَذِبِهم فيما قالوا، ببيانِ استِلزامِه لأمْرٍ بَيِّنٍ الاستِحالةِ، هو اصْطِفاؤُه تعالى البناتِ على البَنينَ. وقُرِئ ﴿اصْطَفَى﴾ بهمزةِ وَصْلٍ[٣]، على الإثباتِ بإضمارِ القَولِ، أيْ: لَكاذِبونَ في قَولِهم: (اصْطَفى)، أو جعَلَه مِن كلامِ الكَفَرةِ بدلًا عن قَولِهم: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾. وقيل: إنَّ قِراءةَ ﴿اصْطَفَى﴾ إخبارٌ بأنَّه سُبحانَه اصْطَفى البناتِ، وجَعْلُ النَّظمِ إخباريًّا لا يَمنَعُ مِن أنْ يَكونَ مِن كلامِ اللهِ على سَبيلِ الإنكارِ أيضًا[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ تقريعٌ وتوبيخٌ، واستِفهامٌ عن البُرهانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٨٥).

(٣) يُنظر ما تقدم (ص: ٦٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٣).

والحُجَّةِ[١].

- وهو بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ﴾؛ فإنَّ إنكارَ اصْطِفاءِ البناتِ يَقتَضي عدَمَ الدَّليلِ في حُكمِهم ذلك، فأُبدِلَ ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾ مِن إنكارِ ادِّعائِهِمُ اصْطِفاءَ اللهِ البناتِ لنفْسِه. وقولُه: ﴿مَا لَكُمۡ﴾ (مَا) استِفهامٌ عن ذاتٍ، وهي مُبتدَأٌ و﴿لَكُمۡ﴾ خبرٌ، والمعنى: أيُّ شَيءٍ حصَلَ لكم؟ وهذا إبهامٌ، وفي الآيةِ استِفهامانِ: أحَدُهما: عنِ الشَّيءِ الَّذي حصَلَ لهم فحَكَموا هذا الحُكمَ، وثانيهما: عنِ الحالةِ الَّتي اتَّصَفوا بها لَمَّا حُكيَ هذا الحُكمُ الباطلُ. وهذا إيجازُ حَذفٍ؛ إذِ التَّقديرُ: ما لكم تَحكُمونَ هذا الحُكمَ، كيف تَحكُمونَه؟! وحُذِف مُتعلَّقُ ﴿تَحۡكُمُونَ﴾؛ لِما دَلَّ عليه الاستِفهامانِ مِن كَونِ ما حَكَموا به مُنكَرًا يَحِقُّ العَجَبُ منه، فكِلا الاستِفهامَينِ إنكارٌ وتعجُّبٌ[٢].

- وعبَّرَ بالحُكمِ؛ لاشتِهارِه فيما يُبَتُّ، فيأبَى النَّقضَ؛ فكان التعبيرُ به أعظَمَ في تقريعِهم، حيثُ أطلَقوه على ما لا أوهَى منه[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، وهو إنكارٌ عن عدَمِ تذَكُّرِهم، أي: استِعمالِ ذُكْرِهم -بضمِّ الذَّالِ، وهو العقلُ- أي: فمُنكَرٌ عدَمُ تفَهُّمِكم فيما يَصدُرُ مِن حُكمِكم[٤].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ للعَطفِ على مُقَدَّرٍ، أي: ألَا تُلاحِظونَ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٢، ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٤).

فلا تَتَذَكَّرونَ بُطلانَه؛ فإنَّه مَركوزٌ في عقلِ كلِّ ذكيٍّ وغبيٍّ[١]؟!

٧- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ إضرابٌ وانتِقالٌ مِن تَوبيخِهم وتَبكيتِهم بما ذُكِر إلى تَبكيتِهم بتَكليفِهم ما لا يَدخُلُ تحتَ الوُجودِ أصلًا، والاستِفهامُ الَّذي تَقتَضِيه ﴿أَمْ﴾ بعْدَها إنكاريٌّ، والمَعنى: بلْ ألَكُم حُجَّةٌ واضِحةٌ نزلَتْ عليكم مِنَ السَّماءِ بأنَّ المَلائكةَ بناتُه تعالَى؛ ضَرورةَ أنَّ الحُكمَ بذلك لا بُدَّ له مِن سنَدٍ حِسِّيٍّ أو عقليٍّ؟! وحيثُ انتَفى كِلاهُما فلا بُدَّ مِن سنَدٍ نقليٍّ[٢].

٨- قولُه تعالَى: ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ تفرَّعَ على إنكارِ أنْ تَكونَ لهم حُجَّةٌ بما قالوا أنْ خُوطِبوا بالإتيانِ بكِتابٍ مِن عِندِ اللهِ على ذلك إنْ كانوا صادِقينَ فيما زَعَموا، أيْ: فإنْ لم تأْتوا بكِتابٍ على ذلك فأنتم غَيرُ صادِقينَ. والأمرُ في قَولِه: ﴿فَأْتُوا۟﴾ أمْرُ تَعجيزٍ[٣].

- وذِكرُ لفظِ (كِتَابِكُمْ) إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقتضَى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: فأْتُوا به، أيْ: السُّلطانِ المُبينِ؛ فإنَّه لا يَحتمِلُ إلَّا أنْ يَكونَ كِتابًا مِن عِندِ اللهِ. وإضافةُ (كِتابٍ) إلى ضَميرِهم مِن إضافةِ ما فيه مَعنَى المَصدرِ إلى مَعنَى المفعولِ، على طريقةِ الحذفِ والإيصالِ، والتَّقديرُ: (بكِتابٍ إليكم)؛ لأنَّ ما فيه مادَّةُ الكِتابةِ لا يَتعدَّى إلى المكتوبِ إليه بنفْسِه، بلْ بواسطةِ حرفِ الجَرِّ، وهو (إلى)[٤].

- وفي هذه الآياتِ مِنَ الإنباءِ عنِ السُّخطِ العظيمِ، والإنكارِ الفظيعِ لأقاويلِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٨٤، ١٨٥).

والاستِبعادِ الشَّديدِ لأباطيلِهم، وتَسفيهِ أحلامِهم، وتَركيكِ عقولِهم وأفهامِهم، مع استِهزاءٍ بهم وتَعجُّبٍ مِن جَهلِهم ما لا يَخفَى على مَن تأمَّلَ فيها[١].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ الواو استِئنافيَّةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإنحاءِ علَيهِم باللَّائمةِ واستِرْكاكِ عُقولِهم؛ بأنَّ مَن نَسَبوهم إلى اللهِ تعالَى يَعلَمونَ مَصائرَهمُ المُحْزِنةَ[٢].

- وأيضًا قَولُه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿لَيَقُولُونَ﴾ [الصافات: ١٥١]، أي: شَفَّعوا قَولَهم: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥٢]، فجَعَلوا بيْن اللهِ وبيْن الجِنِّ نَسَبًا بتلك الوِلادةِ، أي: بيَّنوا كيف حصَلَتْ تلك الوِلادةُ بأنْ جَعَلوها بيْن اللهِ تعالى وبيْن الجِنَّةِ نَسَبًا، والجِنَّةُ: الجَماعةُ مِنَ الجِنِّ؛ فتأنيثُ اللَّفظِ بتأويلِ الجَماعةِ مِثلَ تأنيثِ رَجْلَةٍ؛ الطَّائفةِ مِنَ الرِّجالِ؛ ذلك لأنَّ المُشركينَ زَعَموا أنَّ المَلائكةَ بناتُ اللهِ مِن سَرَواتِ الجِنِّ، أي: مِن فَريقِ نِساءٍ مِنَ الجِنِّ مِن أشرافِ الجِنِّ[٣]. وذلك على قَولٍ في تَفسيرِ الآيةِ.

- وفي قَولِه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ الْتِفاتٌ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ بانقِطاعِهم عن الجوابِ، وسُقوطِهم عن دَرجةِ الخِطابِ، واقتِضاءِ حالِهم أنْ يُعرَضَ عنهم، وتُحكَى جِناياتُهم لآخَرينَ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ تَسميةُ الملائكةِ (جِنَّةً) -على قولٍ-؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٥، ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

لأنَّ الجِنسَ واحِدٌ، فذكَرَهم في هذا الموضعِ باسمِ جِنسِهم، وإنَّما ذكَرَهم بهذا الاسمِ؛ وَضْعًا منهم وتقصيرًا بهم، وإنْ كانوا مُعَظَّمينَ في أنفُسِهم أنْ يَبلُغوا مَنزِلةَ المُناسَبةِ الَّتي أضافوها إليهم. وإنَّما أُعيدَ ذِكرُ هذا الادِّعاءِ؛ تَمهيدًا لِما يَعقُبه مِن قَولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾[1].

- والنَّسَبُ: القَرابةُ العَموديَّةُ أو الأُفُقيَّةُ -أي: مِنَ الأطرافِ- والكلامُ في قَولِه: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ على حذْفِ مُضافٍ، أي: ذَوي نَسَبٍ للهِ تعالَى، وهو نَسَبُ البُنوَّةِ؛ لزَعمِهم أنَّ المَلائكةَ بَناتُ اللهِ تعالَى، أي: جَعَلوا للهِ تعالَى نَسَبًا للجِنَّةِ، ولِلْجِنَّةِ نَسَبًا للهِ[2].

- والمرادُ بقَولِه: ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ المُبالَغةُ في التَّكذيبِ؛ ببيانِ أنَّ الَّذينَ يَدَّعِي هؤلاء لهم تلك النِّسبةَ، ويَعلَمونَ أنَّهم أَعْلَمُ منهم بحَقيقةِ الحالِ، يُكَذِّبونَهم في ذلك، ويَحْكُمونَ بأنَّهم مُعَذَّبونَ لأجْلِه حُكْمًا مؤكَّدًا[3].

- وقَولُه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ مُعترَضٌ بيْن جُملةِ ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾، وبيْن جُملةِ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]. والمُحضَرونُ: المَجلُوبونَ للحُضورِ، والمرادُ: مُحضَرونُ للعِقابِ؛ بقرينةِ مَقامِ التَّوبيخِ؛ فإنَّ التَّوبيخَ يَتْبَعُه التَّهديدُ، والغالبُ في فِعلِ الإحضارِ أنْ يُرادَ به إحضارُ سُوءٍ، كما في قولِه: ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ [الصافات: ٥٧]؛ ولذلك حذَفَ مُتعلَّقُ (مُحْضَرُونَ)، فأمَّا الإتيانُ بأحدٍ لإكرامِه فيُطْلَقُ عليه المَجيءُ. والمعنَى -على قولٍ-: أنَّ الجِنَّ تَعلَمُ كَذِبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٨).

المُشركينَ في ذلك كَذِبًا فاحِشًا يُجازَوْنَ عليه بالإحضارِ للعَذابِ، فجعَلَ (مُحْضَرُونَ) كِنايةً عن كَذِبِهم؛ لأنَّهم لو كانوا صادِقينَ ما عُذِّبوا على قَولِهم ذلك، وظاهِرُه أنَّ هذا العِلمَ حاصِلٌ للجِنِّ فيما مضَى، ولعلَّ ذلك حصَلَ لهم مِن زمانِ تَمَكُّنِهم مِنَ استِراقِ السَّمعِ[1].

- قَولُه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ مِنَ استِعمالِ الماضي في مَوضِعِ المُستقبَلِ؛ لتحقُّقِ وُقوعِه، أي: ستَعلَمُ الجِنَّةُ ذلك يَومَ القِيامةِ، والمقصودُ: أنَّهم يَتحقَّقونَ ذلك، ولا يَستَطيعونَ دَفْعَ العَذابِ عنهم؛ فقد كانوا يَعبُدونَ الجِنَّ لاعتِقادِ وَجاهَتِهم عِندَ اللهِ بالصِّهرِ الَّذي لهم[2]!

وقيل: الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ للكَفَرةِ، والمعنَى: أنَّهم يَقولونَ ما يَقولونَ في المَلائكةِ، وقدْ عَلِم المَلائكةُ أنَّهم في ذلك كاذِبونَ مُفْتَرونَ، وأنَّهم مُحضَرونَ النَّارَ مُعَذَّبونَ بما يَقولونَ، والمرادُ: المُبالَغةُ في التَّكذيبِ؛ حيثُ أُضيفَ إلى عِلمِ الَّذينَ ادَّعَوْا لهم تلك النِّسبةَ، يعني: كَذَّبَهمُ اللهُ بقَولِه: ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾؛ حيثُ سَمَّاهم بالجِنَّةِ، ولَمَّا أُريدَ التَّتميمُ ومَزيدُ المُبالَغةِ قيل: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾؛ حيث أَوقَعَ الجُملةَ القَسَميَّةَ حالًا وأُعيدَ لفظُ ﴿ٱلْجِنَّةُ﴾؛ للتَّوضيعِ والتَّكذيبِ، وجَعلِهم عالِمينَ بأنَّ مُعْظَمَهم مُعَذَّبونَ بتلك المَقالةِ. ويَجوزُ إذا فُسِّر الجِنَّةُ بالشَّياطينِ: أنْ يَكونَ الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ لهم، والمعنَى: أنَّ الشَّياطينَ عالِمونَ بأنَّ اللهَ يُحضِرُهمُ النَّارَ ويُعَذِّبُهم، ولو كانوا مُناسِبينَ له أو شُركاءَ في وُجوبِ الطَّاعةِ لَمَا عَذَّبَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨).

١٠- قولُه تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾

- أُتبِعَتْ حِكايةُ قَولِهِمُ الباطِلِ والوَعيدِ عليه باعتِراضٍ بيْن المُستَثْنى منه والمُستَثْنى، يَتضمَّنُ إنشاءَ تَنزيهِ اللهِ تعالى عمَّا نَسَبوهُ إليه؛ فهو إنشاءٌ مِن جانبِ اللهِ تعالى؛ لتَنزيهِه، وتَلقينٌ للمؤمِنينَ بأنْ يَقتَدوا باللهِ في ذلك التَّنزيهِ، وتعجُّبٌ مِن فَظيعِ ما نَسَبوه إليه. وقيل: هو حِكايةٌ لتَنزيهِ المَلائكةِ إيَّاهُ تعالَى عمَّا وصَفَه المُشركونَ به بعْدَ تَكذيبِهم لهم في ذلكَ بتقديرِ قَولٍ معطوفٍ ﴿عَلِمَتِ﴾[1].

١١- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استِثناءٌ مُنقطِعٌ مِنَ (المُحضَرينَ)، مَعناهُ: ولكنَّ المُخلَصينَ ناجُونَ[2].

- وأيضًا جُملةُ ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ١٥٩] وجُملةِ ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ١٦١] الآيةَ، والاستِثناءُ مُنقطِعٌ، والوجهُ: أنْ يَكونَ استِثناءً مُنقطِعًا نَشأَ عن قَولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٩]، فهو مُرتبِطٌ به؛ لأنَّ (مَا يَصِفُونَ) أفادَ أنَّهم يَصِفونَ اللهَ بأنَّ الملائكةَ بناتُه، كما دَلَّ عليه قَولُه: ﴿أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ﴾[3] [الصافات: ١٤٩].

- وهذه الجُملةُ شَهادةٌ ببَراءةِ المُخلَصينَ مِن أنْ يَصِفُوه تعالى بذلك، مُتَضمِّنةٌ لتَبَرُّئِهم منه بحُكمِ اندِراجِهم في زُمرةِ المُخلَصينَ على أبْلَغِ وجهٍ وآكَدِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان) (٩/ ١٢٨))، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٧، ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٨).

على أنَّه استِثناءٌ مُنقطِعٌ مِن واوِ ﴿يَصِفُونَ﴾، كأنَّه قيل: ولقد عَلِمَتِ المَلائكةُ أنَّ المُشركينَ لَمُعَذَّبونَ؛ لقَولِهم ذلك، وقالوا: سُبحانَ اللهِ عمَّا يَصِفُونَه به، لكنْ عِبادُ اللهِ -الَّذينَ نحنُ مِن جُملتِهم- بُرآءُ مِن ذلك الوَصفِ[1].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ عُقِّبَ قَولُهم في الملائكةِ والجِنِّ بهذا؛ لأنَّ قَولَهم ذلك دَعاهُم إلى عِبادةِ الجِنِّ وعِبادةِ الأصنامِ الَّتي سَوَّلَها لهم الشَّيطانُ، وحَرَّضَهم عليها الكُهَّانُ خَدَمةُ الجِنِّ؛ فعُقِّبَ ذلك بتأييسِ المُشرِكينَ مِن إدْخالِ الفِتنةِ على المؤمِنينَ في إيمانِهم بما يُحاوِلونَ منهم مِنَ الرُّجوعِ إلى الشِّركِ. أو هي فاءٌ فَصيحةٌ، والتَّقديرُ: إذا عَلِمْتُم أنَّ عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ مُنَزَّهونَ عن مِثلِ قَولِكم، فإنَّكم لا تَفتِنونَ إلَّا مَن هو صالِي الجَحيمِ[2].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ للكافِرينَ، وفيه الْتِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى الحُضورِ؛ لأنَّ الكافَ للمُخاطَبِ، والمُخاطَبُ حاضِرٌ، وما سبَقَ الضَّميرُ فيه عائدٌ إلى غائبٍ ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨، ١٥٩]، فكلُّها بضَميرِ الغَيبةِ. والالْتِفاتُ مِنَ الغَيبةِ أو العَكس له فائدةٌ، وهي تَنبيهُ المُخاطَبِ، وإظهارُ كَمالِ الاعتِناءِ بتَحقيقِ مَضمونِ الكلامِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الخِطابَ إذا كان على وَتيرةٍ واحدةٍ لم يكُنْ فيه ما يَدْعو إلى الانتِباهِ، فإذا تغَيَّرَ الأُسلوبُ انتَبَهَ الإنسانُ، وهذه الفائدةُ مُطَّرِدةٌ في كلِّ مَوضِعٍ فيه الْتِفاتٌ. وهناك فائدةٌ أُخرى تَكونُ بحسَبِ السِّياقِ وليستْ مُطَّرِدةً في كلِّ مَوضِعٍ، والفائدةُ هنا ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ هي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٨٨، ١٨٩).

أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى لَمَّا تَحدَّثَ عنهم بصيغةِ الغَيبةِ وكان الَّذي بعْدَ ضَمائرِ الغَيبةِ أمْرًا يَظُنُّ صاحِبُه أنَّه قادرٌ عليه، خاطَبَه مُخاطَبةَ الحاضِرِ؛ إفادةً إلى ذُلِّه وعدَمِ قُدرتِه على ما يَقصِدُ؛ فالكُفَّارُ يُحاوِلونَ فَتْنَ النَّاسِ عن دِينِهم بكُلِّ وسيلةٍ؛ تارةً بالدَّعايةِ لمَعبوداتِهم، وتارةً بالقَدْحِ في عِبادةِ اللهِ، وتارةً بالقَدْحِ في المُسلمينَ، وغيْرِ ذلك، فيَظُنُّونَ أنَّهم على شَيءٍ، فخاطَبَهمُ اللهُ تعالى بخِطابٍ صريحٍ؛ إذلالًا لهم، فقال ﴿فَإِنَّكُمْ﴾ -أيُّها المُشرِكونَ- ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ مِنَ الأصنامِ، وعَبَّرَ بـ (ما) الَّتي تُستعمَلُ غالبًا في غيرِ العاقِلِ؛ لأنَّ أكثَرَ مَعبودِ المُشركينَ مِن غيرِ العاقِلِ. ويَحتمِلُ أنْ تَكونَ (ما) مَصدريَّةً، أيْ: فإنَّكم وعِبادتَكم ما أنتُم فاتِنينَ عليه أحدًا[1].

- قَولُه: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ تعليلٌ وتحقيقٌ لبراءةِ المُخلَصينَ ممَّا ذُكِر؛ ببيانِ عَجْزِهم عن إغوائِهم وإضلالِهم[2].

- قَولُه: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عِبارةٌ عن الشَّياطينِ الَّذين أَغْوَوْهُم، وفيه إيذانٌ بتَبرئتِهم عنهم وعن عِبادتِهم، كقَولِهم: ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾[3] [سبأ: ٤١].

- و﴿أَنتُمْ﴾ ضَميرٌ لهم ولآلهتِهم، غُلِّب فيه المُخاطَبُ على الغائبِ، (وعلى) مُتعلِّقةٌ ﴿بِفَاتِنِينَ﴾، يُقالُ: فَتَنَ فُلانٌ على فُلانٍ امرأتَه، أي: أفسَدَها عليه، والمعنى: ما أنتُم على ما تَعبدونَه ﴿بِفَاتِنِينَ﴾ بباعِثينَ على طَريقِ الفِتنةِ إلَّا ضالًّا مُستَوجِبًا للنَّارِ مِثلَكم، ولَسْتُم بفاتِنينَ عليه تعالى بإفسادِ عِبادِه وإضلالِهم. وقيل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٣٩،٣٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حرفُ (على) يَتعلَّقُ بـ «فاتِنينَ»؛ إمَّا لتَضمينِ (فاتِنينَ) معنَى مُفسِدينَ إنْ كان الضَّميرُ المجرورُ بها عائدًا إلى اسمِ الجَلالةِ، وإمَّا لتَضمينِه معنَى حامِلينَ ومَسْؤولينَ، ويَكونُ (على) بمعنَى لامِ التَّعليلِ، كقَولِه: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ويَكونُ تقدير مُضافٍ بيْن (على) ومَجرورِها، تَقديرُه: على عِبادةِ ما تَعبدونَ، والمعنَى: أنَّكم والشَّياطينَ لا يَتبَعُكم أحدٌ في دِينِكم إلَّا مَن عَرَّضَ نفْسَه ليَكونَ صالي الجَحيم، وهذا في معنَى قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ * وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] [الحجر: ٤٢، ٤٣].

- وحُذِف مَفعولُ ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾؛ لقَصدِ العُمومِ، والتَّقديرُ: بفاتِنينَ أحَدًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٠).

## الآيات (١٦٤-١٧٠)

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ ١٦٤ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ١٦٦ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ١٦٧ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦٨ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٩ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ١٧٠﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصَّآفُّونَ﴾: أي: الملائِكةُ صَفُّوا أقدامَهم، ووقَفوا صُفوفًا في السَّماءِ للعِبادةِ، كصُفوفِ النَّاسِ في الأرضِ، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استواءٍ وتَساوٍ بينَ شَيئَينِ[1].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ﴾

﴿مِنَّآ﴾ شِبهُ جُملةٍ جارٌّ ومجرورٌ (مِن - نَا) مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ هو مُبتدأٌ، والخبَرُ الجُملةُ مِنْ قولِه: ﴿إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ﴾ تَقديرُه: ما مِنَّا إلَّا له مَقامٌ؛ فحُذِفَ الموصوفُ وأُقيمَت صِفتُه مَقامَه. وحَذْفُ المبتدأِ مع (مِنْ) جيِّدٌ فَصيحٌ. وقيل في إعرابِه غيرُ ذلك[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى طاعةَ الملائكةِ له ومُداومتَهم على عِبادتِه وتسبيحِه، فيُخبرُ عنهم أنَّهم يقولونَ: وما مِنَّا إلَّا وله مَقامٌ مَعلومٌ لا يَتجاوَزُه، وإنَّا لنحنُ الذين نَقِفُ في السَّماءِ صُفوفًا عندَ اللهِ تعالَى، وإنَّا لنحنُ المُسَبِّحونَ اللهَ، والمُنَزِّهونَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٣٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣١٩).

عن النَّقائِصِ. والحالُ أنَّ أولئك المُشرِكينَ الضَّالِّينَ كانوا يَقولونَ قَبلَ بَعثةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو أنَّ عِندَنا كِتابًا مِن السَّابِقينَ، لكُنَّا عِبادَ اللهِ الذين أخلَصَهم اللهُ لِعبادتِه. فلمَّا أتاهم ما تمَنَّوه مِن الكِتابِ كَفَروا به، فسوفَ يَعلَمُ هؤلاء الكُفَّارُ عاقِبةَ فِعلِهم!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّ الملائِكةَ وَصَفوا أنفُسَهم بالمُبالَغةِ في العُبوديَّةِ؛ فإنَّهم يَصطَفُّونَ للصَّلاةِ والتَّسبيحِ، والغَرَضُ منه التَّنبيهُ على فَسادِ قَولِ مَن يَقولُ: إنَّهم أولادُ اللهِ؛ وذلك لأنَّ مُبالغتَهم في العُبوديَّةِ تَدُلُّ على اعترافِهم بالعُبوديَّةِ لِلهِ تعالَى رَبِّهم وإلهِهم[1].

﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ ١٦٤﴾.

أي: يَقولُ الملائِكةُ عليهم السَّلامُ: وما مِنَّا إلَّا وله مَقامٌ مُحَدَّدٌ مَعلومٌ لا يَتجاوَزُه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٧٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩١).

قال الرازيُّ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ﴾: (الجُمهورُ على أنَّهم الملائِكةُ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٢).

وقيل: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٞ﴾ مِن قول الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ للمُشرِكينَ، أي: لكلِّ واحدٍ مِنَّا ومِنكم في الآخِرةِ مقامٌ معلومٌ، وهو مقامُ الحِسابِ. وقيل: أي مِنَّا مَن له مقامُ الخوفِ، ومِنَّا مَن له مقامُ الرَّجاءِ، ومِنَّا مَن له مَقامُ الإخلاصِ، ومِنَّا مَن له مَقامُ الشُّكرِ. إلى غيرِها مِن المقاماتِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٨).

قال ابنُ جُزي: (والمقامُ المَعلومُ: يحتَمِلُ أن يرادَ به المكانُ الذي يقومونَ فيه؛ لأنَّ منهم مَن هو في السَّماءِ الدُّنيا، وفي الثَّانيةِ، وفي السَّمواتِ، وحيثُ شاء اللهُ، ويحتَمِلُ أنْ يُرادَ به المنزلةُ مِن =

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾.

أي: وإنَّا لَنحنُ الذين نَقِفُ في السَّماءِ صُفوفًا متراصِّينَ في طاعةِ الله[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا﴾ [الصافات: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢].

وعن جابرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خرَجَ علينا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ

---

= العِبادةِ والتَّقريبِ والتَّشريفِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٩).

ممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ: ابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والخازنُ، وابنُ كَثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٣).

وقيل: المرادُ أنَّ للملائكةِ مَقامًا مَكانيًّا ومَقامًا زمانيًّا، أي: لهم مَوضِعٌ ووَقتٌ يقومون فيه للهِ تعالى؛ فعِبادتُهم مُؤقَّتةٌ بزمنٍ، ومُقيَّدةٌ بمكانٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٤).

وقيل: المرادُ أنَّه ما مِنهم مِن أحدٍ إلَّا له مَقامٌ وتدبيرٌ قدْ أمَرَه اللهُ به، لا يَتعدَّاه ولا يَتجاوزُه، وليس لهم مِن الأمْرِ شَيءٌ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٤-٣٤٥).

قيل: يَصُفُّونَ لعِبادةِ اللهِ تعالَى. وممَّن قال بذلك: ابنُ جَرير، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطاب، وعبدُ الله بنُ مَسعودٍ، وابن عبَّاس، وقَتادة، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٣٢).

وقيل: يَصُفُّونَ في الصَّلاةِ والجِهادِ، ويَصُفُّونَ أجنِحَتَهم في الهواءِ، وغيرِ ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٢).

عليه وسلَّم فقال: أَلَا تَصُفُّونَ كما تَصُفُّ الملائِكةُ عندَ رَبِّها؟ فقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، وكيف تَصُفُّ الملائِكةُ عِندَ رَبِّها؟ قال: يُتِمُّونَ الصُّفوفَ الأُوَلَ، ويَتراصُّونَ في الصَّفِّ))[1].

وعن حُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((فُضِّلْنا على النَّاسِ بثَلاثٍ: جُعِلَت صُفوفُنا كصُفوفِ الملائِكةِ، وجُعِلَتْ لنا الأرضُ كُلُّها مَسجِدًا، وجُعِلَت تُربتُها لنا طَهُورًا إذا لم نَجِدِ الماءَ))[2].

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

أي: وإنَّا لَنحنُ الذين نُسَبِّحُ اللهَ ونُنزِّهُه عن كُلِّ ما لا يَليقُ به مِن عُيوبٍ ونقائِصَ[3].

---

(١) رواه مُسلِم (٤٣٠).

(٢) رواه مُسلِم (٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٥-٣٤٦).

قال الشوكاني: (﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ أي: المُنزِّهُونَ لِلَّهِ المُقَدِّسونَ له عَمَّا أضافَه إليه المشركونَ، وقيل: المصلُّونَ، وقيلَ: المرادُ بقولِهم: ﴿ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ مجموعُ التَّسبيحِ باللِّسانِ وبالصَّلاةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٦).

ممن اختار أنَّ المرادَ بـ ﴿ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾: المُنزِّهونَ لِلَّهِ عن النقائصِ وعمَّا لَا يَليقُ به: الواحدي، والبغوي، والسمعاني، والبيضاوي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨).

وممن اختار أن المراد المصلون؛ لأنَّ الصلاةَ يقالُ لها تسبيحٌ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٥).

وممن جمع فقال: المرادُ: المصلونَ المنزهونَ الله عن السوءِ: الواحدي، والبغوي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨].

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآياتِ لِمَا قبلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِن ذِكرِ كُفرِ المُشركينَ؛ بتَعدُّدِ الإلهِ، وبإنكارِ البَعثِ، وما وصَفوا به الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ السِّحرِ والجُنونِ، ثمَّ بما نَسَبوا للهِ ممَّا لا يَليقُ بإلهيَّتِه، وما تَخلَّلَ ذلك مِنَ المَواعِظِ والوَعيدِ لهم، والوَعدِ للمُؤمِنينَ، والعِبرةِ بمَصارِعِ المُكذِّبينَ السَّابِقينَ، وما لَقِيَه رُسلُ اللهِ مِن أقوامِهم؛ فانتقَلَ الكلامُ إلى ذِكرِ ما كفَرَ به المُشرِكونَ مِن تَكذيبِ القُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ هُدًى لهم[1]، وإلى ذِكرِ إخلافِهم للوَعدِ، والنقضِ لِمَا أكَّدوه مِن العَهدِ[2].

﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾﴾.

أي: ضلَّ مُشرِكو قُرَيشٍ عن الحَقِّ، ولم يُنزِّهوا اللهَ تعالى كما يَنبغي له سُبحانَه، والحالُ أنَّهم كانوا يَقولونَ قَبلَ بَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو أنَّ عِندَنا

---

= قال القُرطبيُّ: (المرادُ أنَّهم يُخبِرونَ أنَّهم يَعبُدونَ اللهَ بالتَّسبيحِ والصَّلاةِ، وليسوا مَعبودينَ ولا بَناتِ اللهِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٢-٣١٣).

كِتابًا مِن السَّابِقينَ(١).

كما قال تعالَى: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾ [فاطر: ٤٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٢-٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

ممَّن اختارَ أنَّ معنَى ﴿ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: كِتابًا مِن كُتُبِ الأوَّلين: الواحدي، والزمخشري، والرازي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٣٣).

وقيل: المعنى: كتابًا مثلَ كتبِ الأوَّلين، وممَّن اختارَه: الثَّعلبي، والسَّمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٣٩).

قال ابنُ عاشور: (الذِّكْرُ: الكتابُ المقروءُ، سُمِّي ذِكْرًا لأنَّه يُذَكِّرُ النَّاسَ بما يَجِبُ عَليهم، مُسَمًّى بالمصدَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

وقيل: المرادُ بقَولِهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: خبَرُ الأُمَمِ الخاليةِ: كيف أُهلِكوا، وما كان مِن أمْرِهم. وممَّن قال بهذا المعنى: مُقاتِل بن سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣).

وقيل: المعنى: لو بُعِث إلينا نبيٌّ ببَيانِ الشَّرائعِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٨).

وقيل: المراد: لو أنَّ عِندَنا كِتابًا أُنزِلَ مِن السَّماءِ، كالتَّوراةِ والإنجيلِ، أو نبيًّا أتانا مِثلَ الذي أتَى اليهودَ والنَّصارى. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٥).

وقيل: المعنى: لو كان عِندَهم مَن يُذَكِّرُهم بأمْرِ اللهِ، وما كان مِن أمْرِ القُرونِ الأُولى، ويأتيهم بكتابِ اللهِ. وممَّن ذهب إليه: ابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩٩).

وقيل: المرادُ: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا﴾ أي: على أيِّ حالٍ كان مِن أحوالِه مِن كِتابٍ أو غيرِه ﴿مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مِن الرُّسُلِ الماضين. وممَّن قال بذلك: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣١٣).

﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾﴾.

أي: لَكُنَّا عِبادَ اللهِ الذين أخلَصوا للهِ تعالَى، وأخلَصَهم لعِبادتِه وطاعتِه، واختارَهم لجَنَّتِه[1].

كما قال تعالَى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ * أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧].

﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾.

أي: فلمَّا أتاهم ما تمَنَّوه كفَروا بالقُرآنِ الذي جاءَهم به مُحمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسَوفَ يَعلَمُ هؤلاءِ الكُفَّارُ ما يأتيهم مِنَ الخِزْيِ والعَذابِ؛ بسَبَبِ كُفرِهم برَبِّهم، وإعراضِهم عن كِتابِه، وتَكذيبِهم رَسولَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥١-٣٥٢).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

أنَّه يَنبغي تأكيدُ الخِطابِ إذا كان المُخاطَبُ مُنكِرًا، أو مُتَرَدِّدًا، أو كان المعنى ذا أهميَّةٍ يَحتاجُ إلى التَّوكيدِ؛ لِقَولِه تعالَى مُخبِرًا عن الملائكةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾؛ وذلك مِن أجْلِ تَقريرِ هؤلاء المُنكِرينَ الذين يَدَّعونَ أنَّ الملائِكةَ بناتُ اللهِ؛ فيَقولونَ: نحن نَصُفُّ للهِ تَعبُّدًا له وتَعظيمًا[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ بيانُ أنَّ الملائِكةَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مُنَزَّهُون عمَّا يَدَّعِيه هؤلاء مِن كونِهم بَناتِ اللهِ، ووجهُ ذلك: أنَّهم مُكَلَّفونَ بالعِبادةِ على حَدٍّ مَعلومٍ -على قولٍ في التفسيرِ-، ومَن كان مُكَلَّفًا بالعِبادةِ لا يُمكِنُ أنْ يكونَ ابنًا أو ولَدًا للمَعبودِ[٢]!

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ يدُلُّ على أنَّ مِن صِفاتِ الملائِكةِ أنَّ لكُلِّ واحدٍ منهم مَرتبةً لا يَتجاوَزُها، ودرجةً لا يتعدَّاها[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ فيه بيانُ بَراءةِ الملائِكةِ عليهم السَّلامُ ممَّا قالَه فيهم المُشرِكونَ، وأنَّهم عِبادُ اللهِ لا يَعصُونَه طَرفةَ عَينٍ؛ فما منهم مِن أحدٍ إلَّا له مَقامٌ وتَدبيرٌ قدْ أمَرَه اللهُ به لا يَتعدَّاه ولا يَتجاوزُه -وذلك على قَولٍ في التفسيرِ-، وليس لهم مِنَ الأمرِ شَيءٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٠٨).

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ * فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك أفظَعُ الكُفرِ؛ لأنَّه كُفرٌ بما كانوا على بَصيرةٍ مِن أمْرِه، إذ كانوا يتَمنَّونَه لأنفُسِهم، ويَغبِطونَ الأُمَمَ التي أُنزِلَ عليهم مِثلُه، فلم يكُنْ كُفرُهم عن مُباغَتةٍ، ولا عن قِلَّةِ تمكُّنٍ مِن النَّظَرِ[1].

٥- أنَّ النَّاسَ لا يُمكِنُ أنْ يكونَ لهم استِقامةٌ إلَّا بكُتُبٍ نازلةٍ مِن السَّماءِ، حتى المُشرِكونَ الكُفَّارُ يُقِرُّونَ بهذا؛ لقَولِه تعالَى: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وهذه الفائِدةُ يَشهَدُ لها الواقِعُ؛ فإنَّ الأُمَمَ الذين لم تَنزِلْ عليهمُ الكتُبُ تَجِدُهم في فَوضَى مُطَّرِدةٍ، لا يَستقيمُ لهم حالٌ، ولا يَمشونَ على خَطٍّ مُستقيمٍ، بخِلافِ الأُمَمِ التي تَنزِلُ عليها الكُتُبُ؛ فإنَّها تكونُ مُستقيمةً بقَدرِ تَمَسُّكِها بهذه الكُتُبِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ حِكايةُ اعترافِ الملائكةِ بالعُبوديَّةِ للرَّدِّ على عَبَدتِهم. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ هذا وما قبْلَه مِن قَولِه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ١٥٩] مِن كَلامِهم؛ لِيَتَّصِلَ بقَولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ﴾ [الصافات: ١٥٨]، كأنَّه قال: ولقدْ عَلِمَتِ المَلائكةُ أنَّ المُشركينَ مُعَذَّبونَ بذلك، وقالوا: سُبحانَ اللهِ؛ تَنزيهًا له عنه، ثمَّ استَثْنَوُا المُخلَصينَ؛ تَبرئةً لهم منه، ثمَّ خاطَبوا المُشركينَ بأنَّ الافتِتانَ بذلك للشَّقاوةِ المُقَدَّرةِ، ثمَّ اعترَفوا بالعُبوديَّةِ، وتَفاوُتِ مَراتِبِهم فيها لا يَتجاوَزُونَها؛ فحُذِفَ المَوصوفُ وأُقيمَتِ الصِّفةُ مُقامَه[3]، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠).

على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ مِن قَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعلى هذا يَكونُ قَولُه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ اعتراضًا، وكلامُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ استِطرادًا؛ لأنَّه تعالى لَمَّا أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالاستِفتاءِ عن وجهِ تلك القِسمةِ الضِّيزَى الَّتي قَسَموها بقَولِه: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩]، وبالإنكارِ البَليغِ واستِجهالِ النُّفوسِ واستِركاكِ العُقولِ سُخطًا عليهم وغضَبًا على تلك المقالةِ الشَّنيعةِ؛ أتَى بما دَلَّ على ضِدِّ ذلك مِن مَعنى الرِّضا عن المؤمِنينَ لأجْلِ أعْمالِهمُ الصَّالحةِ؛ مِنَ الصَّلاةِ في الجَماعاتِ، وتَسبيحِ اللهِ وتَنزيهِه عمَّا أضافَ إليه الكَفَرةُ[1].

- قولُه: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ (المَقامُ): أصْلُه مكانَ القِيامِ، ولَمَّا كان القِيامُ يَكونُ في الغالِبِ لأجْلِ العَملِ؛ كثُرَ إطلاقُ المَقامِ على العَملِ الَّذي يَقومُ به المرءُ. و(المعلومُ): المُعَيَّنُ المَضبوطُ، وأُطلِقَ عليه وصْفُ مَعلومٍ؛ لأنَّ الشَّيءَ المُعَيَّنَ المَضبوطَ لا يَشتبِهُ على المُتبَصِّرِ فيه، فمَن تأمَّلَه عَلِمَه. والمعنى -على قولٍ في التَّفسيرِ-: ما مِن أحدٍ مِنَّا -مَعشَرَ المؤمِنينَ- إلَّا له صِفةٌ وعمَلٌ نحوَ خالِقِه لا يَستزِلُّه عنه شَيءٌ، ولا تَرُوجُ عليه فيه الوَساوِسُ؛ فلا تَطْمَعوا أنْ تُزِلُّونا عن عِبادةِ ربِّنا، فالمَقامُ هو صِفةُ العُبوديَّةِ للهِ؛ بقرينةِ وُقوعِ هذه الجُملةِ عَقِبَ قَولِه: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ * مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ﴾ [الصافات: ١٦١، ١٦٢]، أي: ما أنتم بفاتِنينَ لنا، فلا يَلتبِسُ علينا فضْلُ الملائكةِ فنَرفَعَه إلى مَقامِ البُنوَّةِ للهِ تعالَى، ولا نُشَبِّهُ اعتِقادَكم في تَصرُّفِ الجِنِّ أنْ تَبلُغوا بهم

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢١٩).

مَقامَ المُصاهَرةِ للهِ تعالَى والمُداناةِ لجَلالِه، كقَولِه: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ﴾[1] [الأنعام: ١٠٠].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ فيه تَحليةُ كلامِهم بفُنونِ التَّأكيدِ -بـ (إنَّ) واللَّامِ، وتَوسيطِ الفَصلِ (نحن)- مِنَ التأكيدِ والاختِصاصِ؛ لأنَّهم المُواظِبونَ على ذلك دائمًا مِن غيرِ فَترةٍ دُونَ غَيرِهم، ولإبرازِ أنَّ صُدورَه عنهم بكَمالِ الرَّغبةِ والنَّشاطِ[2].

- وحُذِف مُتعلَّقُ «الصَّافُّونَ المُسَبِّحونَ»؛ لدَلالةِ قَولِه ﴿ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٦٢] عليه، أي: الصَّافُّونَ لعِبادتِه، المُسَبِّحونَ له؛ فإنَّ الكلامَ في هذه الآياتِ كلِّها مُتعلِّقٌ بشُؤونِ اللهِ تعالَى[3].

- قَولُه: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ تعريفُ جُزْأيِ الجُملةِ، وضميرُ الفَصلِ مِن قَولِه: ﴿ لَنَحْنُ ﴾ يُفيدانَ قَصْرًا مؤكَّدًا؛ فهو قَصرُ قَلبٍ، أي: دُونَ ما وصَفْتُموهُ به مِنَ البُنوَّةِ للهِ[4].

- وعبَّرَ في قَولِه: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ بالجُملةِ الاسميةِ، وهي تفيدُ الثُّبوتَ والاستمرارَ؛ فدَلَّ على أنَّ دَأْبَ الملائكةِ التسبيحُ[5].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ * لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٤٨).

ٱلْمُخْلَصِينَ ۞ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

- انتقَلَ الكلامُ إلى ذِكرِ ما كفَرَ به المُشرِكونَ مِن تكذيبِ القُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ هُدًى لهم؛ فالمقصودُ مِن هذا هو قَولُه: ﴿ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾، أي: الذِّكرِ، وإنَّما قُدِّم له في نَظْمِ الكلامِ ما فيه تَسجيلٌ على الكافِرينَ بتَهافُتِهم في القَولِ؛ إذْ كانوا قبْلَ أنْ يأتيَهم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالكِتابِ المُبينِ يَوَدُّونَ أنْ يُشَرِّفَهمُ اللهُ بكِتابٍ لهم كما شرَّفَ الأوَّلينَ، ويَرْجونَ لو كان ذلك أنْ يَكونوا عِبادًا للهِ مُخلِصينَ له، فلمَّا جاءَهم ما رَغِبوا فيه كَفَروا به[1].

- قَولُه: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴾ تأكيدُ الخَبرِ بـ (إنْ) المُخفَّفةِ مِنَ الثَّقيلةِ، وبلامِ الابتِداءِ الفارِقةِ بيْن المُخفَّفةِ والنَّافيةِ؛ للتَّسجيلِ عليهم بتَحقيقِ وُقوعِ ذلك منهم؛ لِيُسَدَّ عليهم بابُ الإنكارِ[2]؛ فقد كانوا جادِّينَ في ذلك، ثمَّ ظهَرَ منهمُ التَّكذيبُ والنُّفورُ البَليغُ، فكَمْ بيْن أوَّلِ أمْرِهم وآخِرِه[3]!

- وإقحامُ فِعلِ ﴿ كَانُوا۟ ﴾ في قَولِه: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ خبْرَ (كان) ثابتٌ لهم في الماضي[4].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ في (يَقولونَ)؛ لإفادةِ أنَّ ذلك تَكرَّرَ منهم[5].

- قولُه: ﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ۞ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ... ﴾ ﴿ مِّنَ ﴾ ابتدائيَّة، أي: ذِكرًا جائيًا مِن الرُّسُلِ الأوَّلينَ، أي: مِثل موسى وعيسى، ومُرادُهم بهذا أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٠، ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الرُّسلَ الأوَّلينَ لم يَكونوا مُرسَلينَ إليهم، ولا بَلَّغوا إليهم كِتابَهم، ولو كانوا مُرسَلينَ إليهم لآمَنوا بهم، فكانوا عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ، فذُكِرَ في جَوابِ (لو) ما هو أخَصُّ مِنَ الإيمانِ؛ ليُفيدَ معنَى الإيمانِ بدَلالةِ الفَحْوى[1].

- وفي جُملةِ ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ صِيغةُ قَصرٍ؛ مِن أجْلِ كَونِ المُسنَدِ إليه مَعرفةً بالإضمارِ، والمُسنَدِ مَعرفةً بالإضافةِ، أي: لَكُنَّا عِبادَ اللهِ دُونَ غَيرِنا، ولَمَّا وُصِفَ المُسنَدُ بـ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ وهو مُعرَّفٌ بِلامِ الجِنسِ، حصَلَ قَصرُ عِبادِ اللهِ الَّذينَ لهم صِفةُ الإخلاصِ في المُسنَدِ إليه، وهذا قَصرٌ ادِّعائيٌّ[2]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٣، ١٩٤).

وفحْوَى الخطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كانَ دونَ القنطارِ؛ ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصْرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيره أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو الله وحْدَه، وهذا مِن قصْرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

لِلمُبالَغةِ في ثُبوتِ صِفةِ الإخلاصِ لهم حتَّى كانوا شَبيهينَ بالمُنفرِدينَ بالإخلاصِ؛ لعدَمِ الاعتِدادِ بإخلاصِ غَيرِهم في جانبِ إخلاصِهم، وهو يَؤولُ إلى معنَى تَفضيلِ أنفُسِهم في الإخلاصِ للهِ حينَئذٍ[1].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ للتَّعقيبِ على فِعلِ ﴿لَيَقُولُونَ﴾، أي: استَمَرَّ قَولُهم حتَّى كان آخِرُه أنْ جاءَهمُ الكِتابُ فكَفَروا به. أو للفَصيحةِ، والتَّقديرُ: فكان عِندَهم ذِكرٌ فكَفَروا به، فالضَّميرُ عائدٌ إلى الذِّكرِ، وهو القُرآنُ، وبهذا كان للوَعيدِ بقَولِه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ مَوقِعُه المُصادِفُ المَحَزَّ مِنَ الكَلامِ، وهَولُه بما ضُمِّنَه مِنَ الإبهامِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٧١-١٨٢)

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾: أي: فأعْرِضْ عنهم، والفِعلُ (تولَّى) يتعدَّي بحُروفِ الجرِّ، فإذا عُدِّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتضَى معنى الوِلايةِ والقُربِ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُرْب، يُقالُ: تباعَدَ بعْدَ ولْيٍ، أي: قُربٍ[1].

﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾: أي: بفِنائِهم، والسَّاحَةُ: المكانُ الواسِعُ، ومنه: سَاحَةُ الدَّارِ[2].

﴿فَسَآءَ﴾: أي: فقَبُحَ، والسُّوءُ: اسمٌ جامِعٌ للآفاتِ، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ ما يُستقبَحُ، وهو أيضًا كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبشِّرًا المؤمنِينَ بنَصرِه، ومُسلِّيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا أصابَه مِن أعدائِه: ولقدْ سَبَق قَضاؤُنا لِرُسُلِنا بأنَّهم هم المنصورونَ، وأنَّ العاقِبةَ لهم، وأنَّ حِزبَنا هم الغالِبونَ؛ فأعرِضْ عن أولئك الكافِرينَ -يا مُحمَّدُ- إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه، وأبصِرْهم -يا مُحمَّدُ- فسوف يُبصِرونَ ما يَحُلُّ بهم، أفيَستَعجِلُ أولئك المجرِمونَ بعَذابِنا؟!

فإذا نزَلَ العَذابُ بفِنائِهم، فساءَ صَباحُ أولئك الذين أنذَرَهم رُسُلُنا فأعرَضوا عنه، ودَعْهم -يا محمَّدُ- إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه، وأبصِرْ -يا مُحمَّدُ- فسوف يَرَونَ ما يَحُلُّ بهم جزاءَ كُفرِهم، تنزَّهَ ربُّك رَبُّ العِزَّةِ عمَّا يَصِفُه به أولئك الكُفَّارُ، وسَلامٌ مِنَ اللهِ على المُرسَلينَ، والحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا هدَّدَ الكُفَّارَ بقَولِه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ -أي: عاقِبةَ كُفرِهم-؛ أردَفَه بما يُقوِّي قَلبَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

وأيضًا فهو تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما تضَمَّنَه قَولُه: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [الصافات:١٧٠]، وبيانٌ لِبَعضِ الوَعيدِ الذي في قَولِه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات:١٧٠]، بمنزلةِ بدَلِ البَعضِ مِن الكُلِّ، ولكِنَّه غُلِّبَ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤).

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾.

أي: ولقدْ تَقدَّمَ منَّا القَولُ والقَضاءُ والوَعْدُ لِرُسُلِنا(١).

﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾﴾.

أي: بأنَّهم هُم الَّذينَ يَنصرُهم اللهُ في الدُّنيا والآخِرةِ، وأنَّ العاقِبةَ تَكونُ لهم(٢).

كما قال تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥).

قيل: المرادُ بالكَلِمةِ: قَولُه تعالَى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١]. وممَّن ذهَب إلى هذا القَولِ: مقاتل بن سليمان، والثعلبيُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٠).

وقيل: المرادُ بها ما ورَد في الآيتَينِ بَعدَها: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢، ١٧٣]. وممَّن قال بهذا القول: البقاعيُّ، والشوكانيُّ، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥).

وقيل: المعنى: مضَى القَضاءُ والحُكمُ في أمِّ الكِتابِ، بأنَّ لهم النُّصرةَ والغَلَبةَ والعاقِبةَ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابن جَرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٤-٣٥٥).

قال ابن عثيمين: (المرادُ بالعبادِ هنا العبوديةُ الخاصةُ، بل أخصُّ الخاصةِ، وهي عبوديةُ الرسالةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢١).

قال الزَّمخشريُّ: (المرادُ: المَوعِدُ بعُلُوِّهم على عَدُوِّهم في مَقاوِمِ الحِجاجِ وملاحِمِ القِتالِ في الدُّنيا، وعلوِّهم عليهم في الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧).

ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيۡنَا نَصۡرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾.

أي: وإنَّ حِزبَنا المُؤمِنينَ المُدافِعينَ عن دِينِ رَبِّ العالَمينَ، هُمْ أصحابُ الغَلبةِ والظَّفَرِ على الكافِرينَ(١).

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ [المجادلة: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗا﴾ [النور: ٥٥].

وقال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧].

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ حِينٖ ١٧٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٦-٣٥٧).

قيل: المرادُ بالجُندِ: المُرسَلونَ وأتْباعُهم. وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: البقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٤٨).

وقيل: يَعْني حِزْبنا المؤمنين وأهلَ ولايتِنا، وممَّن قال بذلك في الجُملة: مقاتل بن سليمان، وابنُ جَرير، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٥).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لَمَّا ثَبَت لا محالةَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو المنصورُ؛ لأنَّه مِن المُرسَلينَ ومِن جُندِ اللهِ، بل هو أعلاهم؛ سَبَّبَ عن ذلك قَولَه[1]:

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

أي: فأعرِضْ -يا مُحمَّدُ- عن الذين كَفَروا إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨، ٦٥٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير الإيجي)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩).

قال الشوكانيُّ: (﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي: أعرِضْ عنهم إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه، وهي مُدَّةُ الكفِّ عن القِتالِ. قالَ السُّدِّيُّ ومجاهِدٌ: حتَّى نأمُرَكَ بالقِتالِ. وقالَ قتادَةُ: إلى الموتِ. وقيلَ: إلى يومِ بَدرٍ، وقيلَ: إلى يومِ فتحِ مَكَّةَ. وقيلَ: هذه الآيةُ منسوخَةٌ بآيةِ السَّيفِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧).

وممن اختار أنَّ المرادَ: إلى يومِ بدرٍ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، والبيضاوي، وابن جزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٨، ٦٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٠).

وقال السعديُّ: (أمَرَ رَسولَه بالإعراضِ عمَّن عانَدوا، ولم يَقبَلوا الحَقَّ، وأنَّه ما بَقِيَ إلَّا انتِظارُ ما يَحُلُّ بهم مِنَ العَذابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٥).

وممن اختار أنَّ المرادَ: مدةُ الكفِّ عن القتالِ: الزمخشري، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧).

وقال العليمي: (﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي: حين نأمرُكَ بقتالِهم، فالآيةُ محكمةٌ). ((تفسير العليمي)) (٥/ ٥٥٦).

وقال السمعاني: (﴿ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي: حينِ الموتِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢١).

كما قال تعالَى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَأَنظِرْ إِنَّهُمْ مُّنتَظِرُونَ ﴾ [السجدة: ٣٠].

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

أي: وأبصِرْهم -يا مُحمَّدُ- فسوف يُبصِرونَ ما يَحُلُّ بهم؛ جزاءَ كُفرِهم[1].

﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ ﴾.

أي: أفيَطلُبُ المُشرِكونَ أن يُعَجَّلَ لهم عَذابُ اللهِ، فيَأتيَهم قبْلَ أوانِه الذي ضُرِبَ لهم[2]؟!

كما قال تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [النمل: ٧١، ٧٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٣)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٦١٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

قيل: المرادُ بـ﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ انظُرْ إليهم إذا عُذِّبوا. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦١).

قال مقاتل: (﴿ وَأَبْصِرْهُمْ ﴾ إذا نزَل بهم العذابُ ببدرٍ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٢٣).

وقال ابنُ عاشور: (وليسَ المرادُ النَّظَرَ إلى ذواتِهم لكِنْ إلى أحوالِهم، أي: تأمَّلْ أحوالَهم تَرَ كيفَ ننصرُك عليهم، وهذا وَعيدٌ بما حَلَّ بهم يومَ بدْرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

وقيل: المرادُ: أنظِرْهم، وارتَقِبْ ماذا يحُلُّ بهم مِنَ العذابِ والنَّكالِ على مُخالفَتِك وتَكذيبِك. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملة: مكي، وابن كثير. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٦١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥).

وقيل: المعنى: وأبصِرْهم ببَصَرِك وبَصيرتِك عِندَ الحِينِ الذي ضرَبْناه لك وقَبلَه، كيف تُؤدِّيهم أحوالُهم وتقَلُّباتُهم كُلَّما تقَلَّبوا إلى سُفولٍ. قاله البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٦).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾[١] [ص: ١٦].

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.

أي: فإذا نزَلَ العَذابُ بفِناءِ أولئك المُستَعجِلينَ به، فما أسوَأَه مِن صَباحِ هذا الذي يَحُلُّ فيه العَذابُ على مَن أنذَرَهم رَسولُهم، فأعرَضوا عنه ولم يلتَفِتوا إلى إنذارِه[٢]!

عن أَنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أتَى خيبَرَ ليلًا، وكان إذا أتَى قَومًا بلَيلٍ لم يُغِرْ[٣] بهم حتى يُصبِحَ، فلمَّا أصبَحَ خَرَجت اليَهودُ بمَسَاحِيهم[٤] ومَكاتِلِهم[٥]، فلمَّا رأَوْه قالوا: محمَّدٌ واللهِ، محمَّدٌ والخَميسُ[٦]!

---

(١) معنَى ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾: أي: نصيبَنا المقدَّرَ لنا مِن العذابِ الَّذي تزعُمُ وُقوعَه بنا إنْ لم نُصَدِّقْكَ ونُؤْمِنْ بك. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦٣-٣٦٤).

(٣) مِن الإغارةِ، وهي الهُجومُ على العَدوِّ على وجْهِ الغَفلةِ، أو: تبييتُ العَدوِّ ليلًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ٢٣١)، ((عمدة القاري)) للعيني (٦/ ٢٦٥).

(٤) المَسَاحي: جمْع مِسْحاة، وهي المِجرَفةُ مِن الحَديدِ، وهي مِن آلاتِ الحرْثِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٤٩). ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٦٨).

(٥) المَكاتِل: جمْع مِكْتَل، وهو الزِّنْبيلُ -وهو ما يُعمَلُ مِن الْخُوصِ- والقُفَّةُ الكَبيرةُ التي يُحْمَلُ فيها التَّمْرُ وغَيْرُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ٢٢٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٥٢٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٤٦٨).

(٦) الخميس: الجيشُ؛ قيل: سُمِّيَ خميسًا لأنَّه خمسةُ أقسامٍ: مُقدِّمة، وساقة، ومَيْمنة، ومَيْسرة، وقلْب. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٩/ ٢١٩).

فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خَرِبَت خَيبرُ، إنَّا إذا نزَلْنا بساحةِ قَومٍ فساءَ صَباحُ المُنذَرينَ))[١].

﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ ﴾.

أي: وأعرضْ -يا مُحمَّدُ- عنهم إلى مُدَّةٍ معلومةٍ عندَ اللَّهِ سبحانَه[٢].

﴿ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾.

أي: وأبصِرْ -يا مُحمَّدُ- فسوفَ يَرَونَ ما يَحُلُّ بهم؛ جَزاءَ كُفرِهم[٣].

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالَى في هذه السُّورةِ كَثيرًا مِن أقوالِ المُشرِكينَ الشَّنيعةِ التي

---

(١) رواه البخاري (٤١٩٧) واللَّفظُ له، ومُسلِمٌ (١٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٧٣)، ((الهداية)) لمكي (٩/ ٦١٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥، ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

قال الشوكاني: (حَذْفُ مفعولِ «أَبْصِرْ» هاهنا وذِكرُه أوَّلًا؛ إمَّا لدَلالةِ الأوَّلِ عليه، فتَرَكَه هنا اختِصارًا، أو قَصدًا إلى التَّعميمِ؛ للإيذانِ بأنَّ ما يُبصِرُه من أنواعِ عذابِهم لا يُحيطُ به الوَصفُ. وقيل: هذه الجُملةُ المرادُ بها أحوالُ القِيامةِ، والجُملةُ الأُولى المرادُ بها عذابُهم في الدُّنيا، وعلى هذا فلا يكونُ مِن بابِ التَّأكيدِ، بل مِن بابِ التَّأسيسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٧٧). ويُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٨).

وقيل: المرادُ: أَبصِرْ ما تُريدُ مِن شُؤونِك التي يُهِمُّك النَّظَرُ فيها، وأمَّا هُم فصاروا بحيثُ لا يُبالَى بهم، ولا يُفكَّرُ في أمرِهم، ولا يُلتَفتُ إليهم. وممَّن قال بهذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٨).

وَصَفوه بها؛ نزَّه نَفسَه عنها، فقال تعالى[١]:

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

أي: تنزَّهَ ربُّك -يا مُحمَّدُ- المُختَصُّ بالعِزَّةِ، ذو القُوَّةِ والمَنَعةِ، والغَلَبةِ والقَهرِ، وعَظَمةِ القَدْرِ: عمَّا يَصِفُه به الكُفَّارُ مِن الشَّريكِ والوَلَدِ والصَّاحِبةِ، وغَيرِ ذلك ممَّا يَفتَرونَ مِن أوصافٍ لا تَليقُ باللهِ تعالَى[٢].

كما قال تعالَى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ * عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾.

أي: وسَلامُ اللهِ في الدُّنيا والآخِرةِ علَى رُسُلِه؛ لسَلامةِ ما قالوه عنِ اللهِ تعالَى مِن كُلِّ نقْصٍ وعَيبٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦٦-٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٠٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩). =

كما قال تعالَى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾.

أي: وجَميعُ أنواعِ المحامِدِ ثابتةٌ، ومُختصَّةٌ بالمُدَبِّرِ المالِكِ الخالِقِ لجَميعِ أصنافِ الخلائِقِ[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ فيه بِشارةٌ عَظيمةٌ لِمَن اتَّصَف بأنَّه مِن جُندِ اللهِ بأنْ كانتْ أحوالُه مُستقيمةً، وقاتَلَ مَن أُمِرَ بقِتالِهم: أنَّه غالِبٌ مَنصورٌ[٢].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أنَّهم لو آمَنوا في هذا الوَقتِ فلنْ يَنفَعَهم؛ لأنَّه لو نَفَعهم الإيمانُ لم تَصدُقْ عليهم هذه الجُملةُ صِدْقًا كامِلًا؛ لأنَّه لو نَفَعَهم الإيمانُ لزال عنهم هذا السُّوءُ، ولكِنَّ الإيمانَ لنْ يَنفَعَهم، وهذه سُنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في عِبادِه: إذا نَزَلَ بهمُ العَذابُ فآمَنوا: ألَّا يَنفَعَهم إيمانُهم؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ

---

= والمرسَلونَ هنا: قيلَ: هم المُرسَلونَ مِن البَشَرِ إلى أُمَمِهم. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جَرير، والسمعاني، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦١)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٠).

وقيل: وَصفُ المُرسَلينَ يَشمَلُ الأنبياءَ والملائِكةَ. وممَّن قال بهذا: البقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦٩-٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٠٨).

ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥]، وكلُّ هذا يُوجِبُ للإنسانِ العاقلِ أنْ يُبادِرَ بالتَّوبةِ، وألَّا يتأخَّرَ وألَّا يُهمِلَ؛ لأنَّه لا يَدري متى يُفاجِئُه الموتُ، وإذا نَزَلَ به الموتُ فإنَّه لنْ تَنفَعَه التَّوبةُ، فلا بُدَّ أنْ تكونَ التَّوبةُ في وَقتٍ تُقبَلُ فيه(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ هذه الآياتُ الكَريماتُ تَدُلُّ على أنَّ الرُّسُلَ -صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم- وأتْباعَهم: مَنصورونَ دائِمًا على الأعداءِ بالحُجَّةِ والبَيانِ، ومَن أُمِرَ منهم بالجِهادِ مَنصورٌ أيضًا بالسَّيفِ والسِّنانِ، والآياتُ الدَّالَّةُ على هذا كَثيرةٌ(٢)، وفيها تَثبيتُ مَن دعا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن أتْباعِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّ لهم الغَلَبَةَ، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(٣) [المنافقون: ٨].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ﴾ تَهديدُ أعداءِ الرُّسُلِ، وأنَّهم مَخذولون؛ لأنَّه إذا كَتَبَ النَّصرَ للرَّسولِ فسيكونُ الخِذلانُ لأعدائِهم(٤).

٣- قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ إنْ قيل: هذه الآيةُ تتعلَّقُ بغلبةِ الرُّسلِ ونصرِهم على مَن ناوَأهم، وقد رأيْنا الحربَ بينَهم وبينَ أعدائِهم سجالًا، وفي أُحُدٍ كانت الغلبةُ للمشركينَ، وفي الأنبياءِ مَن قُتِل؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

**فالجوابُ من أوجهٍ:**

منها: أنَّ الغلبةَ للرُّسلِ ولمن تبعهم في العاقبةِ، وإن وقَع في غضونِ الأمرِ خلافُ ذلك ابتلاءً وامتحانًا، فمعنى ﴿ٱلْمَنصُورُونَ﴾ و(غَالِبُونَ): أي في أكثَرِ الأحوالِ، وباعتبارِ العاقبةِ؛ فلا يُنافي أنَّهم يُغلَبونَ نادرًا، ثم تكونُ لهم العاقِبةُ، وكفَى بمَشاهِدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ مَثَلًا يُحتذَى عليها، وعِبَرًا يُعتبَرُ بها

ومنها: أن يقالَ: إنَّ النصرَ المطلقَ هو نصرُ الآخرةِ، أمَّا نصرُ الدنيا فليس بمضمونٍ.

ومنها: أنَّ المرادَ بالنصرِ انتصارُهم بالحجةِ، وظهورُ ما جاؤوا به، لا الغلبةُ الحسيةُ، وقيل غير ذلك(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يُعَذَّبَ أحَدٌ إلَّا بعدَ إبلاغِه، وهل يَكفي بُلوغُ الحُجَّةِ أو لا بُدَّ مِن فَهْمِ الحُجَّةِ؟ لا بُدَّ مِن فَهمِ الحُجَّةِ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨، ١٩٩]؛ لأنَّهم لا يَفهَمونَه، وإذا لم يُؤمِنوا به لعَدَمِ فَهمِهم فهُم مَعذورونَ، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، أي: بِلُغَتِهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾؛ فلا بُدَّ مِن بَيانِ الحُجَّةِ(٢).

٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٧٨).

ذَكَر تَنزيهَه لِنَفسِه عمَّا لا يَليقُ بجَلالِه، ثمَّ سَلامَه على رُسُلِه، وفي اقْترانِ السَّلامِ عليهم بتَسبيحِه لنَفْسِه سِرٌّ عظيمٌ مِن أسرارِ القُرآنِ، يَتضَمَّنُ الرَّدَّ على كُلِّ مُبطِلٍ ومُبتَدِعٍ؛ فإنَّه نَزَّهَ نَفسَه تَنزيهًا مُطلَقًا، كما نَزَّهَ نَفسَه عمَّا يَقولُ خَلقُه فيه، ثم سَلَّمَ على المُرسَلينَ، وهذا يَقتَضي سَلامتَهم مِن كلِّ ما يَقولُ المُكَذِّبونَ لهم المُخالِفونَ لهم، وإذا سَلِمُوا مِن كلِّ ما رماهم به أعداؤُهم لَزِمَ سَلامةُ كلِّ ما جاؤُوا به مِن الكَذِبِ والفَسادِ، وأعظَمُ ما جاؤوا به التَّوحيدُ ومَعرِفةُ اللهِ تعالَى، ووَصفُه بما يَليقُ بجلالِه ممَّا وَصَفَ به نَفسَه على ألسِنتِهم، وإذا سَلِمَ ذلك مِن الكَذِبِ والمُحالِ والفَسادِ فهو الحقُّ المَحضُ، وما خالَفَه هو الباطِلُ والكَذِبُ والمُحالُ[1].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ سبَّح نَفسَه عمَّا يَصِفُه المُفتَرونَ المُشرِكونَ، وسَلَّم على المُرسَلينَ؛ لِسَلامةِ ما قالوه مِن الإفكِ والشِّركِ، وحَمِدَ نفسَه؛ إذْ هو سُبحانَه المُستَحِقُّ للحَمدِ بما له مِن الأسماءِ والصِّفاتِ وبَديعِ المَخلوقاتِ[2].

٧- يُستَحَبُّ للدَّاعي أنْ يَقولَ في آخِرِ دُعائِه كما قال أهلُ الجَنَّةِ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وحسُنَ أن يقرأَ آخِرَ الصَّافَّاتِ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]؛ فإنَّها جمَعَت تنزيهَ البارئِ تعالى عمَّا نُسِبَ إليه، والتَّسليمَ على المُرسَلينَ، والخَتمَ بالحَمدِ للَّهِ ربِّ العالَمينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((التدمرية)) لابن تيمية (ص: ٩-١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ للوَعيدِ، وتَصديرُه بالقَسَمِ؛ لغايةِ الاعتِناءِ بتحقيقِ مَضمونِه، أي: وباللهِ لقدْ سبَقَ وَعْدُنا لهم بالنُّصرةِ والغَلَبةِ[١].

- وهي أيضًا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما تَضمَّنَه قَولُه: ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [الصافات: ١٧٠]، وبيانٌ لبعضِ الوعيدِ الَّذي في قَولِه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الصافات: ١٧٠]، بمنزلةِ بَدَلِ البعضِ مِنَ الكُلِّ، ولكنَّه غلَبَ عليه جانبُ التَّسليةِ؛ فعُطِفَ بالواوِ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ[٢].

- و(الكَلِمةُ) في قوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ مُرادٌ بها الكَلامُ، عُبِّرَ عنِ الكَلامِ بكَلِمةٍ؛ إشارةً إلى أنَّه مُنتظَمٌ في معنًى واحِدٍ دالٍّ على المقصودِ دَلالةً سريعةً، فشُبِّهَ بالكَلِمةِ الواحِدةِ في سُرعةِ الدَّلالةِ، وإيجازِ اللَّفظِ، وبُيِّنَتِ الكَلِمةُ -على قولٍ في التَّفسيرِ- بجُملةِ ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾، أي: الكَلامِ المُتضمِّنِ وَعْدَهم بأنْ يَنصُرَهمُ اللهُ على الَّذينَ كَذَّبوهم وعادَوْهم، وهذه بِشارةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَقِبَ تَسليتِه؛ لأنَّه داخِلٌ في عُمومِ المُرسَلينَ[٣].

- ووَصَفَهم اللهُ بالعُبوديَّةِ قَبْلَ الرِّسالةِ في قولِه: ﴿لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، مع أنَّ الرِّسالةَ شَرَفٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ كَونَهم عِبادًا للهِ عزَّ وجلَّ أشرَفُ وأعظَمُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٤، ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٣٦٤).

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ لم يُبَيِّنْ مَنِ النَّاصِرُ؛ لِيكونَ هذا أشمَلَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] [الأنفال: ٦٢].

- قَولُه: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ عطْفٌ على ما قَبْلَه، وفيه بِشارةٌ للمُؤمِنينَ؛ فإنَّ المؤمِنينَ جُندُ اللهِ، أي: أنصارُه؛ لأنَّهم نَصَروا دِينَه، وتَلَقَّوْا كَلامَه[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَنفيسٌ عنه[3].

- وقولُه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ مُفرَّعٌ على التَّسليةِ الَّتي تَضمَّنَها قَولُه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا﴾ [الصافات: ١٧١]. والتَّولِّي حقيقتُه: المُفارَقةُ، واستُعمِلَ هنا للدَّلالةِ على عدَمِ الاهتِمامِ بما يَقولونَه، وتَرْكِ النَّكدِ مِن إعراضِهم[4].

- والحِينُ: الوقتُ، وأُجمِلَ هنا إيماءً إلى تَقليلِه، أي: تَقريبِه؛ فالتَّنكيرُ للتَّحقيرِ المَعنويِّ، وهو التَّقليلُ[5].

- وقَولُه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تهديدٌ ووَعيدٌ للمُشرِكينَ، كأنَّه قال: أَبصِرْهم على أسوأِ حالٍ، وأفظَعِ نَكالٍ حَلَّ بهم مِنَ القتلِ والأَسْرِ[6]. وذلك على قولٍ.

- وصِيغةُ الأمرِ في ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ مُستعمَلةٌ في الإرشادِ[7].

- وأيضًا قَولُه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ عُبِّر عن ترتُّبِ نُزولِ الوعيدِ بهم بفِعلِ الإبصارِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٥، ١٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

(٦) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

للدَّلالةِ على أنَّ ما تُوُعِّدوا به واقِعٌ لا مَحالةَ، وأنَّه قريبٌ حتَّى إنَّ المَوعودَ بالنَّصرِ يَتشَوَّفُ إلى حُلولِه، فكان ذلك كِنايةً عن تَحقُّقِه وقُربِه؛ لأنَّ تَحديقَ البَصرِ لا يَكونُ إلَّا إلى شَيءٍ أَشرَفَ على الحُلولِ، أو كأنَّها قُدَّامَ ناظِرَيهِ، والمعنَى: إنَّما أمَرَ اللهُ نبيَّه -صلواتُ اللهُ وسلامُه عليه- بقَولِه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾، والمُبصَرُ مُنتظَرٌ بعدُ؛ للدَّلالةِ على أنَّ وعْدَ اللهِ الآتيَ بمَنزلةِ الكائنِ؛ استِحضارًا لتلك الحالةِ الآتيةِ[1]. وقيل: معناه: انظُرْ إليهم، أي: مِنَ الآنَ، وعُدِّيَ (أَبصِرْ) إلى ضَميرِهمُ الدَّالِّ على ذَواتِهم، وليس المُرادُ النَّظرَ إلى ذَواتِهم، لكنْ إلى أحوالِهم، أي: تأمَّلْ أحوالَهم تَرَ كيف نَنصُرُك عليهم. وحُذِفَ ما يَتعلَّقُ به الإبصارُ مِن حالٍ أو مفعولٍ معه، بتقديرِ: وأَبصِرْهم مأْسُورينَ مَقتولينَ، أو: وأَبصِرْهم وما يُقضَى به عليهم مِن أَسْرٍ وقَتلٍ؛ لدَّلالةِ ما تقدَّمَ مِن قَولِه: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢، ١٧٣] عليه؛ إذ ليس المأمورُ به ذَواتَهم، وهذا مِن دَلالةِ الاقتِضاءِ[2].

- وتفريعُ ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ على ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ تَفريعٌ لإنذارِهم بوَعيدٍ قَريبٍ على بِشارةِ النَّبيِّ بقُربِه؛ فإنَّ ذلك المُبصَرَ يَسُرُّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُحزِنُ أعداءَه، ففي الكلامِ اكتِفاءٌ، كأنَّه قيل: أَبصِرْهم وما يَنزِلُ بهم، فسوف تُبصِرُ ما وَعَدْناكَ، ولْيُبْصِروا ما يَنزِلُ بهم فسوف يُبصِرُونَه. وحُذِف مَفعولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

ودَلالةُ الاقتضاءِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على مَقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تَقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

﴿يُبْصِرُونَ﴾؛ لدَلالةِ ما دلَّتْ عليه دَلالةُ الاقتِضاءِ(١).

- قَولُه: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ أعادَه في قَولِه: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٩]؛ تأكيدًا، أو لأنَّ الأوَّلَ في الدُّنيا، والثانيَ في الآخِرةِ(٢).

- وأيضًا قال تعالَى: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾، وقال بعْدَه: ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٩]، فعَدَّى هذا الفِعلَ الأوَّلَ وهو: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾، وحذَفَ ما تعَدَّى إليه (أَبْصِرْ) في الثَّانيةِ، وكرَّرَ ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ هذا بعْدَما بَشَّرَ اللهُ تعالى به عِبادَه، حيثُ قال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]، ومعناهُ: إنَّ المُرسَلينَ ومَن تَبِعَهم مِنَ المؤمِنينَ إذا حارَبوا أعداءَ اللهِ بأمرِ اللهِ، فإنَّ اللهَ قدْ حكَمَ لهم بالظَّفَرِ والنَّصْرِ في عاقِبةِ أُمورِهم، وإنْ كان بعْدَ مُدَّةٍ. فقَولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٧٤]، أيْ: أَعرِضْ عن مُحارَبتِهم إلى الحِينِ الَّذي يَعلَمُ اللهُ أنَّه يُظفِرُك بهم، ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ في الوقتِ الَّذي تُنصَرُ فيه عليهم، ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ قَهْرَكم لهم وذُلَّهم.

فأمَّا حَذْفُ (هُمْ) في (أَبْصِرْ) الثَّانيةِ؛ فلِذِكْرِها في الأُولى، ولأنَّ هناك معانيَ أُخرى تَنضَمُّ إلى ذِكرِهم، فيُترَكُ ذِكرُ المفعولِ ليَشرعَ الفِعلُ إلى تلك المعاني كلِّها، ويَبينُ ذلك في الجوابِ عن فائدةِ تَكرارِ العامِلِ، وهي أنَّ قَولَه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٧٤] إنَّما يُرادُ به الحِينُ في الدُّنيا، وهو الوقتُ الَّذي يُنصَرُ فيه المُسلِمونَ عليهم ويُقهَرونَ بأيدِيهم.

وقولُه ثانيًا: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ [الصافات: ١٧٨،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٤).

١٧٩]، أي: بعْدَ أنْ تُنصَرَ عليهم، فيَهلِكوا في الدُّنيا، تَوقَّعْ ما يَحُلُّ بهم في الأُخرى، ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ هناك وأنواعَ العَذابِ الَّتي تُصَبُّ عليهم، وعمَلَ النَّارِ فيهم، ثمَّ ما لهم فيها مِنَ البقاءِ والخُلودِ، ومع تَبديلِ الجُلودِ وسائرِ ما أعَدَّ اللهُ تعالى للكفَّارِ في عذابِ النَّارِ، فقَولُه: ﴿وَأَبْصِرْ﴾ مُودَعٌ فيه كلُّ ذلك: ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تهديدٌ لهم، أي: سوف يَلْقَوْنَ ما أَوعَدَ اللهُ به أهلَ معصيتِه مِن أليمِ عُقوبتِه[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾

- تَفريعٌ على التَّأجيلِ المذكورِ في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٧٤]؛ فإنَّ ذلك لَمَّا أنذَرَهم بعَذابٍ يَحُلُّ بهم تُوُقِّعَ أنَّهم سيَقولونَ على سَبيلِ الاستِهزاءِ: أَرِنا العَذابَ الَّذي تُخَوِّفُنا به، وعَجِّلْهُ لنا. أو أنَّهم قالُوه، فلُوحِظَ ذلك، وفُرِّع عليه استِفهامٌ تعجُّبيٌّ مِنَ استِعجالِهم ما في تأخيرِه والنَّظرةِ به؛ رأفةً بهم، واستِبقاءً لهم حينًا[2].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ استِفهامُ تَوبيخٍ[3]، أو للتَّهديدِ والوعيدِ[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾

- الفاء في قَولِه: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ...﴾ فاءُ الفَصيحةِ، أي: إنْ كانوا يَستعجِلونَ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٠٩٦-١٠٩٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٥)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤١٢، ٤١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٢٣).

بالعَذابِ، فإذا نزَلَ بهم فبئسَ وقتُ نُزولِه[١].

- وفي قَولِه: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ مُثِّلَ العَذابُ النَّازِلُ بهم بعْدَ ما أُنذِرُوه فأَنكَرُوه، بجَيشٍ أَنذَرَ بهُجومِه قَومَه بعضُ نُصَّاحِهم، فلمْ يَلتَفِتوا إلى إنذارِه، ولا أَخَذوا أُهْبَتَهم، ولا دَبَّروا أمْرَهم تدبيرًا يُنجِيهم، حتَّى أناخَ بفِنائِهم بَغْتةً، فشَنَّ علَيهمُ الغارةَ وقطَعَ دابِرَهم. وما فَصُحَتْ هذه الآيةُ، ولا كانتْ لها الرَّوعةُ الَّتي تُحِسُّ بها، ويَروقُك مَورِدُها على نفْسِك وطبعِكَ إلَّا لمَجيئِها على طريقةِ التَّمثيلِ[٢].

- قَولُه: ﴿نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ أي: غلَبَ عليها؛ لأنَّ ذلك شأنُ النَّازِلِ بالشَّيءِ مِن غيرِ إذنِ صاحِبِه، ولا يَغلِبُ عليها إلَّا وقد غلَبَ على أهلِها فبرَكَ عليهم بُروكًا لا يَقدِرونَ معه على البُروزِ إلى تلك السَّاحةِ، وهي الفِناءُ الخالي عن الأبنيةِ كأنَّه مُتحدَّثُ القَومِ، ومَوضِعُ راحتِهم، في أيِّ وقتٍ كان بُروكُه مِن لَيلٍ أو نَهارٍ[٣].

- وخَصَّص الصَّباحَ بالذِّكرِ؛ لأنَّه كان مِن عادةِ العَربِ الإغارةُ في الصَّباحِ؛ فسُمِّيَتِ الغارةُ صباحًا؛ لأنَّها تقَعُ فيه عادةً، ولأنَّه مِن عَلائقِ الهَيئةِ المُشَبَّهِ بها؛ فإنَّ شأنَ الغارةِ أنْ تَكونَ في الصَّباحِ؛ ولذلك كان نذيرُ المَجيءِ بغارةِ عَدُوٍّ يُنادي: يا صَباحاهْ! نِداءَ نُدبةٍ وتَفجُّعٍ؛ ولذلك جعَلَ جوابَ (إذا) قَولَه: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾، أي: بِئسَ الصَّباحُ صَباحُهم؛ ولهذا استَفصَحَ العربُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٦).

هذه الآيةَ[١].

- وفي وَصْفِهم بالمُنذَرينَ تَرشيحٌ للتَّمثيلِ[٢]، وتَوريةٌ في اللَّفظِ؛ لأنَّ المُشبَّهينَ مُنذَرونَ مِنَ اللهِ بالعَذابِ، والَّذينَ يَسوءُ صَباحُهم عِندَ الغارةِ هُمُ المَهزومونَ، فكأنَّه قيل: فإذا نُزِلَ بساحَتِهم كانوا مَغلوبينَ. وهذا التَّمثيلُ قابِلٌ لتَفريقِ أجزائِه في التَّشبيهِ؛ بأنْ يُشَبَّهَ العَذابُ بالجَيشِ، وحُلولُه بهم بنُزولِ الجَيشِ بساحةِ قَومٍ، وما يَلحَقُهم مِن ضُرِّ العَذابِ بضُرِّ الهزيمةِ، ووقتُ نُزولِ العَذابِ بهم بتَصبيحِ العَدُوِّ مَحلَّةَ قَومٍ[٣].

- وأيضًا في اختيارِ هذا التَّمثيلِ البَديعِ معنًى بديعٌ؛ مِن إيماءٍ إلى أنَّ العَذابَ الَّذي وُعِدوه هو -على قولٍ- ما أصابَهم يَومَ بَدرٍ مِن قتلٍ وأَسْرٍ على طريقةِ التَّوريةِ[٤].

- وقَولُه: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أقام فيه الظاهرَ مقامَ المُضْمَرِ، ومُقتضَى السِّياقِ أنْ يَقولَ: «فإذا نَزَلَ بساحتِهم فساءَ صباحُهم»! لكنَّه قال: ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فأقام الظاهرَ مقامَ المُضْمَرِ، وهنا إقامةُ الظاهرِ مقامَ المُضْمَرِ له فائدةٌ لفظيةٌ ومعنويةٌ، فاللفظيةُ هي: مراعاةُ فواصِلِ الآياتِ، أمَّا المعنويةُ فهي التَّعميمُ، وانطباقُ الوَصفِ عليهم، وإقامةُ الحُجَّةِ على هؤلاء الذين نَزَل العذابُ بساحتِهم؛ وهي أنَّهم قد أُنْذِروا ولم يكُن لهم عُذْرٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٣٢٥).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ١٩٨).

واستحقُّوا العَذابَ بعَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ الآيةَ [الصافات: ١٧٧]؛ لأنَّ معنَى المَعطوفِ عليها: الوعدُ بأنَّ اللهَ سيَنتقِمُ منهم، فعطَفَ عليه أمْرَه رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بألَّا يَهتَمَّ بعِنادِهم، وهذه نَظيرُ الَّتي سبَقَتْها المُفرَّعةِ بالفاءِ؛ فلذلك يَحصُلُ منها تأكيدُ نَظيرتِها، على أنَّه قد يَكونُ هذا التَّولِّي غيْرَ الأوَّلِ، وإلى حِينٍ آخَرَ وإبصارٍ آخَرَ، فالظَّاهِرُ أنَّه تَولٍّ عمَّن يَبقَى مِنَ المُشركينَ بعْدَ حُلولِ العَذابِ الَّذي استُعجِلوهُ، فيَحتمِلُ أنْ يَكونَ حينًا مِن أوقاتِ الدُّنيا، فهو إنذارٌ بفتحِ مكَّةَ، ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ إلى حِينٍ مِن أحيانِ الآخِرةِ، وإنَّما جُعِل ذلك غايةً لتَولِّي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنهم؛ لأنَّ تَوليةَ العَذابِ عنهم غايةٌ لتَولِّي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنهم؛ لأنَّ تَولِّيَه عنهم مُستمِرٌّ إلى يَومِ القِيامةِ؛ فإنَّ مُدَّةَ لَحاقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالرَّفيقِ الأعْلى لَمَّا كانتْ مُتَّصِلةً بتَولِّيهِ عنهم جُعِلَتْ تلك المُدَّةُ كأنَّها ظَرفٌ للتَّولِّي يَنتهي بحِينِ إحضارِهم للعِقابِ، فيَكونُ قَولُه: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ مُرادًا به الأبدُ[٢].

- وكَرَّر الأمرُ بالتَّولِّي؛ تأنيسًا له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولِيَكونَ ذلك تَسليةً على تَسليةٍ، وتأكيدًا لوُقوعِ الميعادِ إلى تأكيدٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، تَذييلًا لخِطابِه المُبتدَأِ بقَولِه: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ ﴾ الآيةَ [الصافات: ١٤٩]؛ فإنَّه خُلاصةٌ جامِعةٌ لِما حَوَتْه مِن تَنزيهِ اللهِ، وتأييدِه رُسُلَه. وهذه الآيةُ فَذْلَكةٌ[١] لِما احتَوَتْ عليه السُّورةُ مِنَ الأغراضِ؛ جمَعَتْ تَنزيهَ اللهِ، والثَّناءَ على الرُّسلِ والملائكةِ، وحَمْدَ اللهِ على ما سبَقَ ذِكرُه مِن نِعَمِه على المُسلِمينَ؛ مِن هُدًى، ونَصرٍ، وفَوزٍ بالنَّعيمِ المُقيمِ[٢].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُعْرِبةِ عن التَّربيةِ والتَّكميلِ والمالِكيَّةِ الكُلِّيةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تشريفًا له بإضافتِه وخِطابِه أوَّلًا، وإلى العِزَّةِ ثانيًا، كأنَّه قيلَ: سُبحانَ مَن هو مُرَبِّيكَ ومُكَمِّلُكَ ومالِكُ العِزَّةِ والغَلَبةِ على الإطلاقِ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ به مِنَ الأشياءِ الَّتي منها تَرْكُ نُصرتِكَ عليهم، كما يدُلُّ عليه استِعجالُهم بالعَذابِ[٣]، وأيضًا في إضافةِ الرَّبِّ إليه وإلى العِزَّةِ إشارةٌ إلى اختِصاصِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وكُلِّ مَن وافَقَه في أمْرِه عن جميعِ الخَلقِ بالعِزَّةِ، وإنْ رُئِيَ في ظاهِرِ الأمرِ غيرُ ذلك[٤].

- وأُضيفَ الرَّبُّ إلى العِزَّةِ؛ لاختِصاصِه بها، مع التَّوصيفِ بصِفاتِ الكَمالِ. ويَجوزُ أنْ يُرادَ: أنَّه ما مِن عزَّةٍ لأحدٍ مِنَ الملوكِ وغَيرِهم إلَّا وهو ربُّها

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٨، ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣١٩).

ومالِكُها؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦][١].

- و(رَبُّ) هنا بمعنَى: مالِكٍ، ومعنَى كَونِه تعالى مالِكَ العِزَّةِ: أنَّه مُنفرِدٌ بالعِزَّةِ الحقيقيَّةِ، وهي العِزَّةُ الَّتي لا يَشوبُها افتِقارٌ؛ فإضافةُ ﴿رَبِّ﴾ إلى ﴿ٱلْعِزَّةِ﴾ على معنَى لامِ الاختِصاصِ، كما يُقالُ: صاحِبُ صِدقٍ، لِمَن اختُصَّ بالصِّدقِ وكان عريقًا فيه. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْعِزَّةِ﴾ هو تعريفُ الجِنسِ؛ فيَقتضِي انفِرادَه تعالى به؛ لأنَّ ما يَثبُتُ لغَيرِه مِن ذلك الجِنسِ كالعدَمِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تعميمٌ للرُّسلِ بالتَّسليمِ، بعْدَ تَخصيصِ بعضِهم[٣]، وفيه تَشريفٌ لهم عليهم السَّلامُ، وتَنويهٌ بشأنِهم، وإيذانٌ بأنَّهم سالِمونَ عن كلِّ المَكارِهِ، فائِزونَ بجَميعِ المآرِبِ[٤].

- وتَنكيرُ (سَلام) للتَّعظيمِ. ووصفُ المُرسَلينَ يَشملُ الأنبياءَ والمَلائكةَ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فإنَّ المَلائكةَ مُرسَلونَ فيما يَقومونَ به مِن تَنفيذِ أمْرِ اللهِ[٥].

- قَولُه: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: والحَمدُ للهِ علَى ما أفاضَ عليهم وعلى مَنِ اتَّبَعَهم مِنَ النِّعَمِ وحُسنِ العاقبةِ؛ ولذلك أخَّرَه عن التَّسليمِ. ولعلَّ تَوسيطَ التَّسليمِ على المُرسَلينَ بيْن تَسبيحِه تعالَى وتَحميدِه؛ لختْمِ السُّورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩، ٢٠٠).

الكريمةِ بحَمدِه تعالَى، مع ما فيه مِنَ الإشعارِ بأنَّ توفيقَه تعالى للتَّسليمِ عليهم مِن جُملةِ النِّعَمِ المُوجِبةِ للحمدِ؛ وذلك أنَّه لَمَّا كانتْ النُّفوسُ وإنْ تفاوتَتْ في مراتِبِ الكَمالِ لا تَسلَمُ مِن نقْصٍ أو حَيرةٍ، كانتْ في حاجةٍ إلى مُرشِدينَ يُبَلِّغونَها مَراتِبَ الكمالِ بإرشادِ اللهِ تعالَى، وذلك بواسِطةِ الرُّسلِ إلى النَّاسِ، وبواسِطةِ المُبَلِّغينَ مِنَ المَلائكةِ إلى الرُّسلِ، وكانتْ غايةُ ذلك هي بُلوغَ الكمالِ في الدُّنيا، والفوزَ بالنَّعيمِ الدَّائمِ في الآخِرةِ، وتلك نِعمةٌ تَستَوجِبُ على النَّاسِ حَمْدَ اللهِ تعالى على ذلكَ؛ لأنَّ الحمْدَ يَقتَضي اتِّصافَ المحمودِ بالفضائلِ، وإنعامَه بالفَواضِلِ، وأَعْظَمُها نِعمةُ الهِدايةِ بواسِطةِ الرُّسلِ؛ فهُمُ المُبلِّغونَ إرشادَ اللهِ إلى الخَلقِ[1].

- وفي قَولِه: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ * وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ إشارةٌ إلى وَصْفِه عزَّ وجلَّ بصِفاتِه الكَريمةِ الثُّبوتيَّةِ بعْدَ التَّنبيهِ على اتِّصافِه تعالى بجَميعِ صِفاته السَّلبيةِ، وإيذانٌ باستِتباعِها للأفعالِ الجَميلةِ الَّتي مِن جُملتِها إفاضتُه عليهم مِن فُنُونِ الكراماتِ السَّنيَّةِ، والكمالاتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، وإسباغُه عليهم وعلى مَن تَبِعَهم صُنوفَ النَّعماءِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، المُوجِبةِ لحَمدِه تعالَى، وإشعارٌ بأنَّ ما وُعِدَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ النُّصرةِ والغَلَبةِ قد تحقَّقتْ، والمرادُ: تَنبيهُ المؤمِنينَ على كَيفيَّةِ تَسبيحِه تعالَى وتَحميدِه، والتَّسليمِ على رُسلِه الَّذين هُم وسائطُ بيْنهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١، ٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

وبيْنه -عزَّ وعَلا- في فَيَضانِ الكَمالاتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ عليهم[١].

- وأيضًا في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ حَمِدَ اللهُ نَفسَه بَعدَ أنْ نَزَّهَها في قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾؛ لأنَّ في الحَمدِ كمالَ الصِّفاتِ، وفي التَّسبيحِ تَنزيهًا عنِ العُيوبِ؛ فجَمَعَ في الآيةِ بينَ التَّنزيهِ عن العُيوبِ بالتَّسبيحِ، وبينَ إثباتِ الكَمالِ بالحَمدِ[٢]؛ فالتَّسبيحُ لَمَّا كان يَتضمَّنُ التَّنزيهَ والتَّبرئةَ مِنَ النَّقصِ بدَلالةِ المُطابَقةِ، ويَستلزِمُ إثباتَ الكمالِ، كما أنَّ الحمدَ يدُلُّ على إثْباتِ صِفاتِ الكَمالِ مُطابَقةً، ويَستلزِمُ التَّنزيهَ مِنَ النَّقصِ؛ قرَنَ بيْنهما في هذا الموضِعِ، وفي مواضِعَ كَثيرةٍ مِنَ القُرآنِ[٣].

- وفي الانتِقالِ مِنَ الآياتِ السَّابِقةِ إلى التَّسبيحِ والتَّسليمِ في قولِه: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ * وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إيذانٌ بانتِهاءِ السُّورةِ، على طَريقةِ بَراعةِ الخَتمِ، مع كَونِها مِن جَوامعِ الكَلِمِ[٤].

- وقد اشتمَلَتِ هذه السُّورةُ العظيمةُ على ذِكرِ ما قاله المُشرِكونَ في اللهِ ونَسَبوا إليه ممَّا هو مُنَزَّهٌ عنه، وما عاناهُ المُرسَلونَ مِن جِهَتِهم، وما خُوِّلوه في العاقبةِ مِنَ النُّصرةِ عليهم، فختَمَها بجَوامعِ ذلك؛ مِن تَنزيهِ ذاتِه عمَّا وصَفَه به المُشرِكونَ، والتَّسليمِ على المُرسَلينَ، ﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

على ما قَيَّضَ لهم مِن حُسنِ العَواقِبِ. والغرضُ: تعليمُ المؤمِنينَ أنْ يَقولوا ذلك، ولا يُخِلُّوا به، ولا يَغفُلوا عن مُضَمَّناتِ كِتابِه الكريمِ، ومُودَعاتِ قُرآنِه المَجيدِ[1].

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ السَّابعُ والعشرونَ**

**ويليه المجلدُ الثَّامنُ والعشرونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ ص**

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ١٩٩).

# الفهرس

# الفهرس

سورةُ يس ..... ٧
أسماءُ السُّورةِ ..... ٧
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٨
الآيات (١-١٢) ..... ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١١
المعنى الإجماليُّ ..... ١٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤
الآيات (١٣-١٩) ..... ٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٧

الآيات (٢٠-٢٧) ..... ٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٧٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٨١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٨٥
الآيات (٢٨-٣٢) ..... ٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩٨
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٩٩
المعنى الإجماليُّ ..... ١٠٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٠٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٠٧
الآيات (٣٣-٣٦) ..... ١١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١١٥
المعنى الإجماليُّ ..... ١١٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٢١
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٢٥

الآيات (٣٧-٤٠) ..... ١٣٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٣٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٣٥
المعنى الإجماليُّ ..... ١٣٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٤٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٤٦
الآيات (٤١-٤٤) ..... ١٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٥٢
المعنى الإجمالي ..... ١٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٥٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٦١
الآيات (٤٥-٤٧) ..... ١٦٧
المعنى الإجماليُّ ..... ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٧٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٧٥
الآيات (٤٨-٥٤) ..... ١٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٨٠

مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٨١
المعنى الإجماليُّ ..... ١٨٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٨٢
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٩٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٩٤
الآيات (٥٥-٥٨) ..... ٢٠٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٠٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٠٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٠٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٠٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٠٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢١٠
الآيات (٥٩-٦٧) ..... ٢١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢١٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٢١٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢١٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٢٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٢٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٣٤
الآيات (٦٨-٧٠) ..... ٢٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٤٦

المعنى الإجماليُّ ..... ٢٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٥٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٥٥
الآيات (٧١-٧٦) ..... ٢٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٦١
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٦١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٦٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٦٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٧٣
الآيات (٧٧-٨٣) ..... ٢٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٨٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٨٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٩١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٩٧
سورةُ الصَّافَّاتِ ..... ٣٠٩
أسماءُ السُّورةِ ..... ٣٠٩
بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ ..... ٣٠٩

مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣٠٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ..... ٣١٠
الآيات (١-١٠)..... ٣١١
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٣١١
مُشكِلُ الإعرابِ..... ٣١٣
المعنى الإجماليُّ..... ٣١٤
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٣٢٦
بلاغةُ الآياتِ..... ٣٣٢
الآيات (١١-٢١)..... ٣٤٢
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٣٤٢
المعنى الإجماليُّ..... ٣٤٣
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٤٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٣٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٣٥٤
بلاغةُ الآياتِ..... ٣٥٧
الآيات (٢٢-٣٤)..... ٣٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٣٦٦
المعنى الإجماليُّ..... ٣٦٧
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٦٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٣٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٣٧٨

بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٨٣
الآيات (٣٥-٤٩) ..... ٣٩٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٩٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٩٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٩٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٠٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤١٠
الآيات (٥٠-٦١) ..... ٤٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٢٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٢٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٢٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٢٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٣١
الآيات (٦٢-٧٤) ..... ٤٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٣٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٤١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٤٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٥٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٥٨

الآيات (٧٥-٨٢) ..... ٤٦٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٦٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٦٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٧٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٧٧
الآيات (٨٣-٩٨) ..... ٤٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٨٥
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٨٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٨٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٨٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٩٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٩٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٠٦
الآيات (٩٩-١١٣) ..... ٥١٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥١٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٥١٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥١٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٣٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٣٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٤٩
الآيات (١١٤-١٢٢) ..... ٥٦١

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٦١
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٦١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٦١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٦٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٧٠
الآيات (١٢٣-١٣٢) ..... ٥٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٧٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٨١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٨٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٨٤
الآيات (١٣٣-١٣٨) ..... ٥٨٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٨٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٨٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٩٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٩٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٩٥
الآيات (١٣٩-١٤٨) ..... ٥٩٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٩٧

المعنى الإجماليُّ ..... ٥٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٠٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٠٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦١٢
الآيات (١٤٩-١٦٣) ..... ٦١٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦١٧
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٦١٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٦١٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦٢٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٣٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٣٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٣٤
الآيات (١٦٤-١٧٠) ..... ٦٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٥٠
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٦٥٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٦٥٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦٥١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٥٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٥٨
الآيات (١٧١-١٨٢) ..... ٦٦٤

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٦٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٦٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٧٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٧٧
الفهرس ..... ٦٩٣

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر للقرآن الكريم

(سورة ص)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف


**المجلد الثامن والعشرون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة ص)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد الثامن والعشرون – سورة ص/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٣٥٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٦-٩٤-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٢ ١٤٤٢/٩١٥٠

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٩١٥٠

ردمك: ٦-٩٤-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م**

**(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ ص

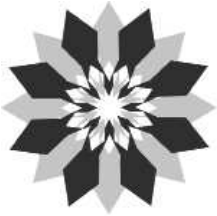

# سورةُ ص

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (ص)[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ (ص) مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وعلى صِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ البَعثَ حَقٌّ، مع الرَّدِّ على شُبُهاتِ المُشرِكينَ[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:**

١- بيانُ مَوقِفِ المُشرِكينَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنكارِهم لنُبُوَّتِه وما جاء به مِن التَّوحيدِ.

٢- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن قَومِه، بذِكرِ عَدَدٍ مِن

---

(١) سُمِّيَت سورةَ (ص)؛ لافتِتاحِها بها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٩).
قال ابنُ عاشور: (سُمِّيتْ في المصاحفِ وكُتُبِ التَّفسيرِ وكُتُبِ السُّنَّةِ والآثارِ عن السَّلَفِ سورةَ «صاد»، كما يُنطَقُ باسمِ حرفِ الصَّادِ؛ تَسميةً لها بأوَّلِ كَلِمةٍ منها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠١).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ١٢٧).

الأُمَمِ الَّتي كَذَّبَت رُسُلَها، مع أمْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصَّبرِ.

٣- حِكايةُ قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ.

٤- ذِكرُ قِصَّةِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ، وابتِلاءِ اللهِ له، وصَبرِه على ذلك.

٥- ثناءُ اللهِ على أنبيائِه: إبراهيمَ، وإسحاقَ، ويَعقوبَ، وإسماعيلَ، والْيَسَعَ، وذي الكِفْلِ.

٦- ذِكرُ بَعضِ ما أعَدَّه اللهُ تعالى للمُتَّقينَ مِن نَعيمٍ، وما أعَدَّه للطَّاغينَ مِن عَذابٍ ونَكالٍ.

٧- ذِكرُ جانِبٍ مِن قِصَّةِ آدَمَ وإبليسَ.

## الآيات (١-٢)

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ٣﴾.

## غَريبُ الكَلماتِ:

﴿عِزَّةٖ﴾: العِزَّةُ: المُغالَبَةُ والمُمانَعةُ، مِن قَولِهم: أرضٌ عَزازٌ، أي: صُلْبةٌ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[1].

﴿وَشِقَاقٖ﴾: أي: عَداوةٍ ومُبايَنةٍ ومُخالَفةٍ، وأصلُ الشِّقاقِ: الانصِداعُ، ومنه الشِّقاقُ؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى انصِداعِ الجماعَةِ وتفَرُّقِها، وقيل: الشِّقاقُ: المخالفةُ، وكونُك في شِقٍّ غيرِ شِقِّ صاحبِك، أو مِن: شَقِّ العصا بينَك وبينَه[2].

﴿قَرۡنٖ﴾: القرنُ: القَومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المُقترنونَ في زمنٍ واحدٍ، غير مُقَدَّرٍ بمُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مُدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثَمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقترانِ، وهو اجتِماعُ شَيئَينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جمْعِ شيءٍ إلى شيءٍ[3].

﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾: أي: ليس الحِينُ حينَ فِرارٍ ولا مَهرَبٍ، وأصلُ (نوص):

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤، ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٣٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

يدُلُّ على ترَدُّدٍ ومَجيءٍ وذَهابٍ[١].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۞ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۞ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ﴾

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ﴾ (الواو) واوُ القَسَمِ حَرفُ جَرٍّ. (القُرآنِ) مجرورٌ بـ(الواو)، والجارُّ والمجرورُ مُتعلِّقانِ بفعلٍ مَحذوفٍ تقديرُه: أُقسِمُ. (ذي) نعتٌ للقُرآنِ مجرورٌ. ﴿ٱلذِّكۡرِ﴾ مضافٌ إليه مجرورٌ.

وجوابُ القَسَمِ فيه أقوالٌ كثيرةٌ؛ أحدُها: أنَّه قَولُه: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾، والأصلُ: لَكَمْ أهلَكْنا، فحَذَفَ اللَّامَ. الثَّاني: أنَّه قولُه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ [ص: ١٤]. الثَّالِثُ: أنَّه مَحذوفٌ، واختَلَفوا في تقديرِه[٢].

قَولُه: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ﴾ الواوُ: واوُ الحالِ. (لاتَ) حرفُ نفيٍ يَعمَلُ عمَلَ (ليس)، واسمُه محذوفٌ تقديرُه: الحِينُ. ﴿حِينَ﴾ خبَرُ (لاتَ) مَنصوبٌ، والجُملةُ حاليَّةٌ مِن فاعِلِ (نادَوْا) في مَحلِّ نَصبٍ، أي: استغاثوا والحالُ أنَّه لا مَهرَبَ ولا مَنجَى[٣].

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ١٦٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٧).

و(لات) حرفُ نفيٍ، أصلُه (لا)، وزِيدتْ عليها التاءُ، كما زِيدت في (ثُمَّتَ). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٣٣٤)، ((التذييل والتكميل)) لأبي حيان (٤/ ٢٨٧).

(٢) ويُنظر ما سيأتي (ص: ١٢).

وقد استبعَد ابنُ القيِّم القولَ الأوَّلَ والثانيَ في جوابِ القسمِ. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١١).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٣٤٤-٣٤٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٠١).

## المعنى الإجماليُّ:

افتُتِحَت هذه السُّورةُ الكَريمةُ بحرفِ (ص)، وهو مِن الحُروفِ المُقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القُرآنِ؛ للإشارةِ إلى إعجازِه، ثمَّ أقسَمَ اللهُ تعالى بالقُرآنِ ذي الشَّرَفِ والتَّذكيرِ على أنَّه ما كان الأمرُ كما يَقولُ هؤلاءِ الكُفَّارُ، وأنَّهم إنَّما لم يَنتَفِعوا بالقُرآنِ؛ لأنَّهم في استِكبارٍ عنه، وأنَفةٍ مِن قَبولِه والإيمانِ به.

ثمَّ يُحذِّرُهم الله تعالى مِن أنْ يُصيبَهم ما أصاب الأُمَمَ مِن قَبْلِهم بسببِ مُخالَفَتِهم للرُّسلِ وتكذيبِهم الكتبَ المُنزلةَ، فيقولُ: وما أكثَرَ ما أهلَكَ اللهُ قَبْلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ مِن الأُمَمِ المُكَذِّبةِ بسَبَبِ كُفرِهم وتَكذيبِهم! فنادَى أولئك الكُفَّارُ مُستَغيثينَ بربِّهم حينَ نَزَل بهم العَذابُ، وليس ذلك الوَقتُ وَقتَ خَلاصٍ وفِرارٍ مِن الهلاكِ بالتَّوبةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾.

﴿صٓ﴾.

هذا الحرفُ مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، يأتي لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾.

أي: أُقسِمُ بالقُرآنِ ذي الشَّرَفِ، العَظيمِ القَدْرِ، المُذَكِّرِ للعبادِ بما هم عنه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

غافِلونَ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٢/ ٩٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠، ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

قيل: المرادُ بالذِّكرِ: الشَّرفُ. وممَّن اختاره: السمرقندي، والواحدي، والسمعاني، والنسفي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٤٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو حَصينٍ، وأبو صالحٍ، وإسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ، والسُّدِّيُّ، وابنُ عُيَيْنَةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١).

وقيل: ﴿ذِى ٱلذِّكۡرِ﴾ أي: ذي التَّذكيرِ لكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والشربيني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١).

قال ابنُ كثيرٍ: (ولا مُنافاةَ بيْنَ القَولَينِ؛ فإنَّه كتابٌ شريفٌ مُشتَمِلٌ على التَّذكيرِ والإعذارِ والإنذارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١).

وممَّن جمَع بينَ المعنيينِ السابقينِ: أي أنَّ الذكرَ معناه الشَّرَفُ والتَّذكيرُ: ابنُ القيِّم، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠، ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤).

وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ بالذِّكرِ ذِكرُ اللِّسانِ، وهو على معنى: الَّذي يُذكَرُ، بالبناءِ للنَّائبِ، أي: والقُرآنِ المذكورِ، أي: المَمدوحِ المُستَحِقِّ الثَّناءَ، على أحدِ التَّفسيرَينِ في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ﴾ [الأنبياء: ١٠]، أي: شَرَفُكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

واختلف المُفسِّرونَ في جوابِ هذا القَسَمِ على عِدَّةِ أقوالٍ؛ منها: أنَّه مَحذوفٌ دَلَّ عليه قَولُه =

كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا ﴾ [طه: ١١٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩].

﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ٢ ﴾.

أي: إنَّما لم يَنتَفِعِ الكافِرونَ بالقُرآنِ؛ لأنَّهم في استِكبارٍ عنه، وأَنَفةٍ وامتِناعٍ مِن

---

= تعالى بعدَها: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾ [ص: ٢]، وتقديرُه: «ما الأمرُ كما يقولُ هؤلاء الكافِرونَ، بل هم في عِزَّةٍ وشِقاقٍ». وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن عطية، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٧).

وذكر الشِّنقيطيُّ أنَّ المُقْسَمَ على نَفْيِه يَشملُ ثلاثةَ أشياءَ مُتلازمةٍ:

الأوَّلُ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُرسَلٌ مِن الله حَقًّا، وأنَّ الأمرَ ليس كما يقولُ الكُفَّارُ.

والثَّاني: أنَّ الإلهَ المعبودَ جَلَّ وعلا واحِدٌ، لا كما يَقولُه الكُفَّارُ.

والثَّالثُ: أنَّ اللهَ جلَّ وعلا يَبعَثُ مَن يموتُ، وأنَّ الأمرَ ليس كما يقولُه الكُفَّارُ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٧).

وقيل: لم يُذكَرْ جوابُ القَسَمِ؛ لأنَّ في المُقسَمِ به ما يدُلُّ عليه؛ فما في المُقسَمِ به مِن تعظيمِ القُرآنِ ووَصفِه بأنَّه ذو الذِّكرِ، المُتضَمِّن لتذكيرِ العبادِ ما يحتاجونَ إليه؛ وللشَّرَفِ والقَدْرِ، وكَونِه حَقًّا مِن عندِ اللهِ غيرَ مُفترًى كما يقولُه الكافِرونَ: ما يدُلُّ على جوابِ القَسَمِ المحذوفِ، فيكونُ تقديرُه: إنَّ القُرآنَ لَحَقٌّ. وممَّن ذهب إلى هذا التَّقديرِ: ابنُ القيِّم. وذكر أنَّه معنَى قَولِ كثيرٍ مِن المفَسِّرينَ. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠، ١١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩).

قَبولِه والإيمانِ به، ومُشاقَّةٍ ومُعانَدةٍ وخِلافٍ ومُخاصَمةٍ في رَدِّه وإبطالِه، أو في القَدحِ بمَنْ جاء به[١].

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف المُشرِكينَ بالعِزَّةِ والشِّقاقِ؛ خَوَّفَهم، فقال[٢]:

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾.

أي: ما أكثَرَ ما أهلَكْنا مِنَ الأُمَمِ المُكَذِّبةِ قَبْلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ بسَبَبِ كُفرِهم وتَكذيبِهم برَسولِهم، ومُخالَفتِهم كِتابَ رَبِّهم[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤، ٥].

﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

أي: فنادَى كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رَبَّهم، واستغاثوا بالتَّوبةِ إليه حينَ نَزَل بهم العَذابُ، وليس ذلك الوَقتُ وَقتَ خلاصٍ وفِرارٍ مِن الهلاكِ بالتَّوبةِ، والتَّضَرُّعِ إلى اللهِ تعالى وَحْدَه، والإنابةِ إليه؛ فلا يَنفَعُهم ذلك حينَئذٍ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١، ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢، ٥٣)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٤، ٨٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ فيه أنَّ التَّوبةَ لا تَنفَعُ إلَّا عندَ التَّمَكُّنِ والاختيارِ، لا عندَ الغَلَبةِ والاضْطِرارِ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تأمَّلِ السُّورَ الَّتي اشتَمَلتْ على الحروفِ المُفرَدةِ، كيف تَجِدُ السُّورةَ مَبنيَّةً على كَلِمةِ ذلك الحرفِ؛ فتأمَّلْ ما اشتمَلَتْ عليه سُورةُ «ص» مِن الخُصوماتِ المُتعدِّدةِ؛ فأوَّلُها خُصومةُ الكُفَّارِ مع النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] إلى آخِرِ كلامِهم، ثمَّ اختِصامُ الخَصْمَينِ عندَ داودَ عليه السَّلامُ، ثمَّ تَخاصُمُ أهلِ النَّارِ، ثمَّ اختِصامُ المَلأِ الأعلى في العِلْمِ -وهو الدَّرَجاتُ والكَفَّاراتُ-، ثمَّ مُخاصَمةُ إبليسَ واعتِراضُه على ربِّه في أمرِه بالسُّجودِ لآدمَ، ثمَّ خِصامُه ثانيًا في شأنِ بَنيه، وحَلِفُه لَيُغْوِيَنَّهم أجمعينَ إلَّا أهلَ الإخلاصِ منهم؛ فلْيتأمَّلِ اللَّبيبُ الفَطِنُ: هل يَليقُ بهذه السُّورةِ غيرُ «ص»[2]؟!

---

= (ص: ٧٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣١، ٣٣٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٧٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بحَرفٍ، تكلَّمَ به بالحُروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتكلَّمُ النَّاسُ بها ويَتركَّبُ منها كَلامُهم(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ أنَّ الكُفَّارَ لا يَسكُتونَ على كُفرِهم، ويَستَمِرُّونَ في طُغيانِهم وأنَفَتِهم، بل يُحاوِلونَ أنْ يَصُدُّوا عِبادَ اللهِ عن دينِ الله؛ لأنَّهم في شِقاقٍ دائمٍ؛ يُشَاقُّون اللهَ ورَسولَه(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ أنَّ الكُفَّارَ في عِزَّةٍ وشِقاقٍ مع الحَقِّ دائمًا؛ سواءٌ مع الله، أو مع الرَّسولِ، أو مع وَرَثةِ الرَّسولِ -وهم العُلَماءُ-، أو مع أتْباعِ الرَّسولِ عُمومًا -وهم المؤمِنونَ-؛ فهم في شِقاقٍ دائمٍ مع الحَقِّ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ الزَّجرُ عن الأَنَفةِ مِن اتِّباعِ الحقِّ، وبيانُ أنَّ ذلك مِن خِصالِ الَّذين كفروا، والأَنَفةُ مِن مُتابَعةِ الحقِّ وسيلةٌ إلى تركِه، والأَنَفةُ مِن الحقِّ قبيحةٌ، كما أنَّ الأَنَفةَ مِنَ الباطلِ حسَنةٌ(٤).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ تحذيرُ هؤلاء المُكذِّبين، وأنَّهم لن يُعجِزوا اللهَ في شَيءٍ كما لم يُعجِزْه مَن سَبَقَهم ممَّن كان قَبْلَهم مِن الأُمَمِ الَّتي أُهلِكَت(٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ﴾ أنَّ التَّكذيبَ للرُّسُلِ كان كثيرًا؛ لأنَّ إهلاكَ القرونِ إنَّما كان بسببِ تكذيبِهم؛ فإذا كَثُرَت القُرونُ المُهْلَكةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢).

فلازِمُ ذلك أنْ يَكْثُرَ التَّكذيبُ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أنَّ الأُممَ المُهْلَكةَ إذا نَزَل بهمُ العذابُ فليس هناك فِرارٌ مِن هذا العَذابِ الَّذي نَزَل بهم، ولا تَنفَعُهم استِغاثةٌ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ جاءتْ فاتحةُ السُّورةِ مُناسِبةً لجَميعِ أغراضِها؛ إذِ ابتُدِئتْ بالقَسَمِ بالقُرآنِ الَّذي كذَّبَ به المُشرِكونَ، وجاء المُقسَمُ عليه أنَّ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وكلُّ ما ذُكِر فيها مِن أحوالِ المُكذِّبينَ سبَبُه اعتِزازُهم وشِقاقُهم، ومِن أحوالِ المؤمِنينَ سبَبُه ضِدُّ ذلك، مع ما في الافتِتاحِ بالقَسَمِ مِنَ التَّشويقِ إلى ما بعْدَه؛ فكانتْ فاتِحتُها مُستكمِلةً خصائصَ حُسنِ الابتِداءِ[٣].

- والواوُ في قَولِه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ للقَسَمِ، وأقسَمَ اللهُ سُبحانَه بالقُرآنِ قَسَمَ تَنويهٍ به. ووصَفَ القُرآنَ بـ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾؛ لأنَّ (ذي) تُضافُ إلى الأشياءِ الرَّفيعةِ، فتَجري على مُتَّصِفٍ مَقصودٍ التَّنويهُ به[٤].

- وجوابُ القسَمِ في قَولِه: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إمَّا مَحذوفٌ، وهو ما يُنْبِئُ عنه التَّحدِّي والأمرُ والإقسامُ به؛ مِن كَونِ المُتحدَّى به مُعجِزًا، وكَونِ المأمورِ به واجبًا، وكَونِ المُقسَمِ به حقيقًا بالإعظامِ، أي: أُقسِمُ بالقرآنِ إنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣).

لَمُعجِزٌ، أو لَواجِبٌ العمَلُ به، أو لَحقيقٌ بالإعظام. والغرَضُ مِن حذفِ جوابِ القسَمِ هنا، قيل: هو الإعراضُ عنه إلى ما هو أَجْدَرُ بالذِّكرِ، وهو صِفةُ الَّذينَ كفَروا وكذَّبوا القُرآنَ؛ عِنادًا أو شِقاقًا منهم، ومعنَى ذلك أنَّ الكَلامَ أخَذَ في الثَّناءِ على القرآنِ ثمَّ انقطَعَ عن ذلك إلى ما هو أهَمُّ، وهو بيانُ سببِ إعراضِ المُعرِضينَ عنه؛ لاعتِزازِهم بأنفُسِهم وشِقاقِهم؛ فوقَعَ العُدولُ عن جوابِ القسَمِ استِغناءً بما يُفيدُ مُفادَ ذلك الجوابِ. وإمَّا هو الكلامُ المَرموزُ إليه ونفْسُ الجُملةِ المذكورةِ قبْلَ القَسَمِ؛ فإنَّ التَّسميةَ تَنويهٌ بشأنِ المُسمَّى، وتَنبيهٌ على عِظَمِ خَطَرِه، أي: إنَّه لَصادقٌ. وقيل: الجوابُ ما دَلَّ عليه الجُملةُ الإضرابيَّةُ، أي: ما كفَرَ به مَن كفَرَ لِخلَلٍ وجَدَه فيه، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ...﴾ إلخ[1].

- قَولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ حرفُ (بَلْ) للإضرابِ الإبطاليِّ؛ لإبطالِ تَوهُّمٍ يَنشأُ عن الكَلامِ الَّذي قبْلَه؛ إذْ دَلَّ وصْفُ القرآنِ بـ ﴿ذِي ٱلذِّكْرِ﴾ أنَّ القرآنَ مُذَكِّرٌ سامعيهِ تذكيرًا ناجِعًا، فعقَّبَ بإزالةِ تَوهُّمِ مَن يَتَوهَّمُ أنَّ عدَمِ تذَكُّرِ الكفَّارِ ليس لِضَعفٍ في تَذكيرِ القرآنِ، ولكنْ لأنَّهم مُتعَزِّزونَ مُشاقُّونَ؛ فحرفُ (بَلْ) في مِثلِ هذا بمَنزلةِ حرفِ الاستِدراكِ، والمقصودُ منه تحقيقُ أنَّه ذو ذِكرٍ، وإزالةُ الشُّبهةِ الَّتي قد تَعرِضُ في ذلك؛ فليس امتِناعُهم مِنَ الإيمانِ بالقرآنِ لنَقصٍ في عُلُوِّه ومَجدِه، ولكنْ لأنَّهم عَجِبوا أنْ جاءَهم به رجُلٌ منهم.

ويُمكِنُ أنْ نَجعَلَ (بَلْ) إضرابَ انتِقالٍ مِنَ الشُّروعِ في التَّنويهِ بالقرآنِ إلى بيانِ سببِ إعراضِ المُعرِضينَ عنه؛ لأنَّ في بيانِ ذلك السببِ تحقيقًا للتَّنويهِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٣، ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٣- ٣٠٥).

بالقرآنِ[١]. أو للانتِقالِ مِن هذا القَسَمِ والمُقسَمِ عليه إلى حالةِ تَعزُّزِ الكفَّارِ ومُشاقَّتِهم في قَبولِ رسالتِكَ وامتِثالِ ما جِئتَ به والاعترافِ بالحقِّ[٢].

- وقيل: إنَّ فائدةَ ﴿بَلِ﴾ هاهنا في قَولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ تصحيحُ ما قبْلَه، وإبطالُ ما بعْدَه؛ فإنَّه دَلَّ بقَولِه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أنَّ القرآنَ مَقَرٌّ للتَّذكيرِ، وأنَّ امتِناعَ الكفَّارِ مِنَ الإصغاءِ إليه أنْ ليس مَوضعًا للذِّكرِ، بلْ لتَعزُّزِهم ومُشاقَّتِهم[٣].

- وأيضًا لَمَّا كانت الأجوبةُ مُنبئةً عن انتِفاءِ الرَّيبِ عن مَضمونِ القرآنِ بالكُلِّيَّةِ إنباءً بَيِّنًا؛ كان قولُه تعالَى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إضرابًا عن ذلك، كأنَّه قيل: لا رَيْبَ فيه قَطعًا، وليس عدَمُ إذعانِ الكَفَرةِ له لشائبةِ رَيبٍ ما فيه، بلْ هُم في استِكبارٍ وحَمِيَّةٍ شديدةٍ، وشِقاقٍ بعيدٍ للهِ تعالى ولرسولِه؛ ولذلك لا يُذْعِنونَ له[٤].

- قَولُه: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ انتِظامُه وبلاغتُه تَظهَرُ مِن وجهَينِ:

**أحدُهما**: أنْ يَكونَ قد ذكَرَ اسمَ هذا الحَرْفِ مِن حروفِ المُعجَمِ على سبيلِ التَّحدِّي والتَّنبيهِ على الإعجازِ، ثمَّ أتْبَعَه القَسَمَ مَحذوفَ الجَوابِ؛ لدَلالةِ التَّحدِّي عليه، كأنَّه قال: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إنَّه لَكلامٌ مُعجِزٌ.

**والثَّاني**: أنْ يَكونَ ﴿صٓ﴾ خبرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ على أنَّها اسمٌ للسُّورةِ، كأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٤١، ١٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٣، ٢١٤).

قال: هذه (ص)، يعنى: هذه السُّورةُ الَّتي أعجزَتِ العرَبَ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، كما تقولُ: هذا حاتمٌ واللهِ، تُريدُ: هذا هو المشهورُ بالسَّخاءِ واللهِ، وكذلك إذا أقسَمَ بها، كأنَّه قال: أقسَمْتُ بـ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إنَّه لَمُعجِزٌ، ثمَّ قال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ﴾ واستِكبارٍ عن الإذعانِ لذلك والاعترافِ بالحقِّ ﴿وَشِقَاقٍ﴾ للهِ ورسولِه. وإذا جعَلْتَها مُقْسَمًا بها وعطَفْتَ عليها ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ جاز لك أنْ تُريدَ بالقُرآنِ التَّنزيلَ كلَّه، وأنْ تُريدَ السُّورةَ بعَيْنِها، ومعناهُ: أُقسِمُ بالسُّورةِ الشَّريفةِ ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾، كما تقولُ: مرَرْتُ بالرَّجُلِ الكريمِ وبالنَّسَمةِ المُبارَكةِ، ولا تُريدُ بالنَّسَمةِ غيْرَ الرَّجُلِ. والذِّكرُ: الشَّرفُ والشُّهرةُ، مِن قَولِكَ: فُلانٌ مَذكورٌ، ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]. أو: الذِّكرى والمَوعظةُ. أو: ذِكرُ ما يُحتاجُ إليه في الدِّينِ مِنَ الشَّرائعِ وغَيرِها؛ كأَقاصيصِ الأنبياءِ، والوعدِ والوعيدِ[١].

- قَولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ قيل: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ دُونَ (الكافِرونَ)؛ لِما في صِلَةِ المَوصولِ مِنَ الإيماءِ إلى الإخبارِ عنهم بأنَّهم في عِزَّةٍ وشِقاقٍ، والعِزَّةُ تَحومُ إطلاقاتُها في الكَلامِ حَوْلَ معاني المَنَعةِ والغَلَبةِ والتَّكبُّرِ، فإنْ كان ذلك جاريًا على أسبابٍ واقعةٍ فهي العِزَّةُ الحقيقيَّةُ، وإنْ كان عن غُرورٍ وإعجابٍ بالنَّفْسِ فهي عِزَّةٌ مُزَوَّرةٌ، وهي هنا عِزَّةٌ باطلةٌ أيضًا؛ لأنَّها إباءٌ مِنَ الحقِّ، وإعجابٌ بالنَّفْسِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ جاء التَّعبيرُ بـ (في) المُعبِّرةِ عن معنَى الظَّرفيَّةِ المُعبِّرةِ عن قُوَّةِ التَّلبُّسِ بالعِزَّةِ، واستِغراقِهم فيها، والمعنَى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٨))، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٥).

مُتلبِّسونَ بعِزَّةٍ على الحقِّ[١].

- والتَّنكيرُ في ﴿عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾؛ للدَّلالةِ على شِدَّتِهما وتَفاقُمِهما[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ العِزَّةَ عنِ الحقِّ والشِّقاقَ للهِ ولرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّا يُثيرُ في خاطرِ السَّامعِ أنْ يَسألَ عن جزاءِ ذلك؛ فوقَعَ هذا بيانًا له، وكان هذا البيانُ إخبارًا مُرفَقًا بحُجَّةٍ -مِن قَبيلِ قِياسِ التَّمثيلِ[٣]؛ لأنَّ قولَه: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ يُؤْذِنُ بأنَّهم مِثلُهم في العِزَّةِ والشِّقاقِ-، ومُتضَمِّنًا تحذيرًا مِنَ التَّريُّثِ عن إجابةِ دَعوةِ الحقِّ، أي: يَنزِلُ بهمُ العَذابُ فلا يَنفَعُهم ندَمٌ ولا مَتابٌ، كما لم يَنفَعِ القُرونَ مِن قَبْلِهم[٤].

- قَولُه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ اسمٌ دالٌّ على عَددٍ كثيرٍ، و﴿قَرْنٍ﴾ تَمييزٌ لإبهامِ العَددِ، أي: عددًا كثيرًا مِنَ القرونِ[٥].

- وقَولُه: ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ ظَرفًا مُستقَرًّا[٦]، جُعِل صِفةً لـ﴿قَرْنٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣).

(٣) قياس التَّمثيلِ: هو: حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتراكِهما في عِلَّة الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المشتركَ الكُلِّيَّ، أو: إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما، مِثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ هو القياسُ الأصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) الظَّرْف المُستقَرُّ -بفتح القاف-: سُمِّي بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذين الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ =

مُقدَّمةً عليه؛ فوقعَتْ حالًا، وإنَّما قُدِّمَ للاهتِمام بمَضمونِه؛ ليُفيدَ الاهتمامُ إيماءً إلى أنَّهم أُسْوةٌ لهم في العِزَّةِ والشِّقاقِ، وأنَّ ذلك سببُ إهلاكِهم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ مُتعلِّقًا بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾ على أنَّه ظَرفٌ لَغْوٌ، وقُدِّم على مَفعولِ فِعلِه مع أنَّ المَفعولَ أَوْلى بالسَّبقِ مِن بَقيَّةِ مَعمولاتِ الفِعلِ؛ لِيَكونَ تَقديمُه اهتِمامًا به إيماءً إلى الإهلاكِ كما في الوَجهِ الأوَّلِ[1].

- وفي قَولِه: ﴿فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ فَرَّع على الإهلاكِ أنَّهم نادَوْا فلمْ يَنفَعْهم نِداؤُهم؛ تحذيرًا مِن أنْ يقَعَ هؤلاء في مِثلِ ما وقعَتْ فيه القُرونُ مِن قَبْلِهم؛ إذْ أضاعوا الفُرصةَ فنادَوْا بعْدَ فَواتِها، فلمْ يُفِدْهم نِداؤُهم ولا دُعاؤُهم. والمرادُ بالنِّداءِ في ﴿فَنَادَوا۟﴾: نِداؤهمُ اللهَ تعالى تَضَرُّعًا[2].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ وعيدٌ لِذَوي العِزَّةِ والشِّقاقِ، على كُفرِهم واستِكبارِهم، ببَيانِ ما أصاب مَن قَبْلَهم مِنَ المُستكبِرينَ[3].

---

= لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٤).

## الآيات (٤-١١)

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عُجَابٌ﴾: أي: عجيبٌ، أو بليغٌ في العجبِ، يُقالُ: هذا أمرٌ عَجيبٌ، وذلك إذا اسْتُكْبِر واستُعْظِم، وقيل: العُجابُ: هو الَّذي جاوَز حدَّ العَجَبِ، وأصلُ (عجب) هنا: يدلُّ على كِبْرٍ واسْتِكبارٍ للشَّيءِ[1].

﴿ٱلۡمَلَأُ﴾: أي: أشرافُ النَّاسِ ووُجوهُهم ورُؤَساؤُهم، أو: الجماعةُ يجتمعونَ على رأيٍ، فيَملؤونَ القلوبَ هَيْبةً، والعيونَ جلالةً، ويُقالُ: فلانٌ مِلءُ العيونِ، أي: مُعَظَّمٌ عندَ مَن رآه، وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يَتمالَؤون، أي: يَتظاهَرونَ ويَتساندونَ، أو: مِن قولِهم: فلانٌ مليءٌ بكذا، إذا كان مطيقًا له؛ لأنَّهم مُلِئوا بترتيبِ المُهِمَّاتِ، وأحْسَنوا في تَدبيرِها، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكَمالِ[2].

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (١/ ٢٣٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٨٨)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ١٠٦).

﴿ٱلْمِلَّةِ﴾: أي: الدِّينِ والطَّريقةِ، ثمَّ نُقِلَت إلى أصولِ الشَّرائعِ، وهي هنا النَّصرانيَّةُ، والمِلَّةُ مُشتَقَّةٌ مِن أملَلْتُ (أي: أملَيْتُ)؛ لأنَّها تُبنَى على مَسموعٍ ومَتلُوٍّ، فإذا أُريدَ الدِّينُ باعتِبارِ الدُّعاءِ إليه قيل: مِلَّةٌ، وإذا أُريدَ باعتبارِ الطَّاعةِ والانقيادِ له قيل: دينٌ[1].

﴿ٱخْتِلَٰفٌ﴾: أي: كَذِبٌ وتخَرُّصٌ، وأصلُ (خلق): يدُلُّ على تَقديرِ الشَّيءِ[2].

﴿فَلْيَرْتَقُوا۟﴾: أي: فلْيَصعَدوا، وأصلُ (رقي): يدُلُّ على صُعودٍ وارتِقاءٍ[3].

﴿ٱلْأَسْبَٰبِ﴾: أي: طُرُقِ السَّماءِ وأبوابِها، وكلُّ ما يُتوصَّلُ به إلى شَيءٍ يُسمَّى سَبَبًا، وأصلُه: الحَبلُ[4].

﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾: أي: الفِرَقِ والجَماعاتِ المُجتَمِعةِ، مِن قَولِهم: تحزَّبَ القَومُ: إذا اجتَمَعوا، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجمُّعِ الشَّيءِ[5].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٣، ٧٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢)، ((غريب =

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِّنَ ٱلأَحزَابِ﴾

﴿جُندٌ﴾ مُبتدَأٌ مَرفوعٌ، أو خبَرٌ لمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: هم جُندٌ. ﴿مَّا﴾ زائدةٌ، أو نعتُ ﴿جُندٌ﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾: نَعتٌ لـ ﴿جُندٌ﴾ أو نَعتٌ ثانٍ؛ حَسَبَ إعرابِ (ما)، أو خبَرُ ﴿جُندٌ﴾، أو ظَرفٌ لِـ ﴿مَهزُومٌ﴾.

و﴿مَهزُومٌ﴾: خبَرُ المُبتدَأِ، أو خبَرٌ ثانٍ، أو نعتُ ﴿جُندٌ﴾.

﴿مِّنَ ٱلأَحزَابِ﴾ نعتٌ لـ ﴿جُندٌ﴾، أو مُتعَلِّقٌ بـ ﴿مَهزُومٌ﴾، أو نعتٌ لـ ﴿مَهزُومٌ﴾[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى جانبًا ممَّا كان عليه المشركونَ مِن عِنادٍ وتكذيبٍ، فيقولُ: وعَجِبَ كُفَّارُ قُرَيشٍ أنْ جاءَهم مُنذِرٌ منهم؛ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ، وقالوا: هذا ساحِرٌ كذَّابٌ! أيَأْمُرُنا أن نَعبُدَ إلهًا واحِدًا، ونَترُكَ عبادةَ آلهتِنا؟! إنَّ هذا لَشَيءٌ شَديدُ العَجَبِ!

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه حِرصَهم على صرْفِ النَّاسِ عن دعوةِ الحقِّ، فيقولُ: وانطلَقَ الأشرافُ من كفَّارِ قريشٍ قائِلينَ: امضُوا على دينِكم، واصبِروا على عبادةِ آلهتِكم، إنَّ هذا الَّذي يَدعوكم إليه محمَّدٌ لَشَيءٌ يُريدُ به الرِّئاسةَ والاستِعلاءَ

---

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٠٩٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٦٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٠٧).

علينا، ما سَمِعْنا بهذا في مِلَّةِ النَّصرانيَّةِ، ما هذا الَّذي يقولُه محمَّدٌ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه مِن عندِ نَفْسِه!

ثمَّ يُصَرِّحون بالسَّببِ الَّذي حال بيْنَهم وبيْنَ الإيمانِ وهو الحسدُ، فيقولون: أأَنزَلَ اللهُ عليه القُرآنَ مِن دُونِنا؟!

ويردُّ الله عليهم، فيقولُ: بل هؤلاء المُشرِكونَ في شَكٍّ مِن كَونِ هذا القُرآنِ حَقًّا مِن عندِ اللهِ، بل لَمَّا يَذوقوا عذابي بَعْدُ!

ثمَّ يُنكِرُ الله سبحانَه عليهم اعتراضَهم على اختيارِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم للرِّسالةِ، ويُبيِّنُ أنَّه المُتصرِّفُ في مُلْكِه الفعَّالُ لِمَا يَشاءُ، فيقولُ: أمْ عِندَهم مَفاتيحُ رَحمةِ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- العزيزِ الوهَّابِ؟ أمْ لهم مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما؟ فإنْ كان لهم ذلك فلْيَصعَدوا في الطُّرُقِ الَّتي تُوصِلُهم إلى ما نَملِكُه حتَّى يَستولوا عليه، ويُدَبِّروا أمْرَه، بحيثُ يَكونونَ قادِرينَ على القيامِ بما يُريدونَه!

ثمَّ يُبشِّرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالنَّصرِ عليهم، فيقولُ: فلا تُبالِ بما يَقولونَ -يا مُحمَّدُ-؛ فهم جُندٌ مَهزومونَ ومَغلوبونَ عمَّا قَريبٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن الكُفَّارِ أنَّهم في عِزَّةٍ وشِقاقٍ؛ أردَفَ بما صدَرَ عنهم مِن كَلِماتِهم الفاسِدةِ، مِن نِسبتِهم السِّحرَ والكَذِبَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٨).

أي: وعَجِبَ كُفَّارُ قُرَيشٍ أنْ جاءَهم رسولٌ منهم[١] -وهو مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم-؛ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ على كُفرِهم وشِرْكِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق: ١، ٢].

﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾.

---

(١) قيل: المرادُ بـ﴿مِّنْهُمْ ﴾: مِن جِنسِهم البَشَريِّ، فلم يُرسَلْ إليهم مَلَكٌ مِن الملائكةِ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣).

وقيل: المرادُ: مِن قَومِهم وأقاربِهم، فهم يَعرِفونَه حَقَّ المعرفةِ، ويَعلَمونَ صِدقَه وأمانتَه ورجاحةَ عَقلِه. ذكَرَ هذا الوجهَ: الرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٧).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السّابقَينِ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣، ٢٤).

وقال السمرقندي: (﴿مِّنْهُمْ ﴾ يعني: مِن العرَبِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٨).

وقال البِقاعي: (﴿مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ أي: مِن البشَرِ، ثمَّ مِن العرَبِ، ثمَّ مِن قُرَيشٍ، ولم يكُنْ مِن الملائكةِ مثلًا، وكان يَنبغي لهم ألَّا يَعجَبوا مِن ذلك؛ فإنَّ كَوْنَ النَّذيرِ بما يَحُلُّ مِن المصائبِ مِن القومِ المُنذَرينَ -مع كَونِه أشرَفَ لهم- أقعَدُ في النِّذارةِ؛ لأنَّهم أعرَفُ به وبما هو مُنطَوٍ عليه؛ مِن صِدقٍ وشفَقةٍ وغيرِ ذلك، وهو الَّذي جرَتْ به العَوائدُ في القديمِ والحديثِ؛ لِكَونِهم إليه أمْيَلَ، فهم لِكلامِه أقْبَلُ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّه استقَرَّ في نُفوسِهم استِحالةُ بَعثةِ رَسولٍ منهم، فذلك سبَبٌ آخَرُ لانصِرافِهم عن التَّذَكُّرِ بالقُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٨).

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ عن مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا ساحِرٌ، وليس بنَبيٍّ كما يَزعُمُ[1]!

﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ۝٥ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ قَولَهم النَّاشِئَ عن عَجَبِهم؛ ذكَرَ سَبَبَه؛ لِيُعلَمَ أنَّ حالَهم هو الَّذي يُعجَبُ منه، لا حالَ مَن أنذَرَهم[2].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى حكَى جميعَ ما عَوَّلوا عليه في إثباتِ كَونِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كاذِبًا، وهي ثلاثةُ أشياءَ؛ أحَدُها: ما يَتعَلَّقُ بالإلهيَّاتِ. وثانيها: ما يَتعَلَّقُ بالنُّبُوَّاتِ. وثالِثُها: ما يَتعَلَّقُ بالمَعادِ؛ أمَّا الشُّبهةُ المُتعَلِّقةُ بالإلهيَّاتِ فهي قَولُهم هنا[3]:

﴿ أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٣).

قيل: مرادُهم بقَولِهم: ﴿سَٰحِرٌ﴾: أنَّه يجيءُ بالكَلامِ المُمَوَّهِ الَّذي يَخدَعُ به النَّاسَ. وقيل: المرادُ: يُفَرِّقُ بسِحرِه بيْن الوالِدِ وولَدِه، والرَّجُلِ وزَوجتِه. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٩).

وقيل: أرادوا هو ساحِرٌ بما يُظهِرُه مِن مُعجِزاتٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: البيضاوي، وابن عجيبة، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٣).

وممَّن قال: إنَّ مرادَهم بقولِهم: ساحرٌ: أنَّه يُفرِّقُ بيْنَ الاثنَينِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٥).

وممَّن جمَع بيْن هذه المعاني: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٧).

أي: أيَأمُرُنا بتَركِ عِبادةِ آلهتِنا كُلِّها، والاقتِصارِ على عبادةِ اللهِ وَحْدَه[١]؟!

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾.

أي: إنَّ هذا الأمرَ لَشَيءٌ في غايةِ العَجَبِ[٢]!

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ٦﴾.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾.

أي: وانطلَقَ الأشرافُ والكُبَراءُ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ قائِلينَ[٣]: امضُوا فاستَمِرُّوا على دينِكم، واصبِروا على عبادةِ آلهتِكم، ولا تَستَجيبوا لِما يَدْعوكم إليه محمَّدٌ مِن توحيدِ اللهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٩).

(٣) قيل: يقولُ ذلك بعضُهم لبعضٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٣). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٠).

وقيل: يقولونَ ذلك لأتْباعِهم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال ابنُ عثيمين: (هل المرادُ هنا المشيُ بالقَدَم؟ أو المرادُ المَشيُ على الطَّريقةِ، بمعنى: سِيروا على طريقتِكم، واصبِروا على آلهتِكم؟ مَن نظَرَ إلى الانطلاقِ ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ قال: إنَّ المرادَ بذلك المَشْيُ بالقَدَمِ، بمعنى أنَّهم إذا انطلقوا حثَّ بعضُهم بعضًا على المشيِ والسَّيرِ؛ لئلَّا يَعودوا فيُعَرِّجوا على ما انطلقوا منه، كأنَّهم إنَّما يَنطَلِقونَ فِرارًا... وإذا نظَرْنا إلى المعنى أو إلى عُمومِ أحوالهم قُلْنا: إنَّ المرادَ بذلك المشيُ على الطَّريقةِ، يعني: سِيروا على طريقتِكم =

كما قال اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾.

أي: إنَّ ما يَدْعونا إليه محمَّدٌ مِن إفرادِ العبادةِ للهِ، وتَركِ عبادةِ آلهتِنا: لَشَيءٌ يُريدُ به الرِّئاسةَ والاستِعلاءَ علينا، فنكونُ له أتْباعًا يَحكُمُ فينا بما يَشاءُ[1].

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾.

أي: ما سَمِعْنا بهذا الَّذي يَدْعونا إليه مُحمَّدٌ مِن توحيدِ اللهِ في مِلَّةِ النَّصرانيَّةِ[2].

---

= ولايُهِمَّنَّكم أحَدٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣٠، ٣١). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥١).

وقال البِقاعي: (﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ أي: قائلًا كلٌّ منهم لذلك، آمِرًا لِنَفْسِه ولصاحِبِه بالجِدِّ في المُفارَقةِ حالًا ومقالًا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالأمرِ بالمشيِ: الاستِمرارُ على الدِّينِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكور: ابنُ جرير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: إنَّ هذا التَّوحيدَ الَّذي جاء به محمَّدٌ أمرٌ يُريدُه بشِدَّةٍ، أي: هو ساعٍ بجِدٍّ وعَزمٍ لِتَحقيقِه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣١).

وقيل: المرادُ: إنَّ الصبرَ لشيءٌ مطلوبٌ؛ لأنَّه محمودُ العاقبةِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١، ٢٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير =

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٞ﴾.

أي: ما هذا الَّذي يَقولُه مُحمَّدٌ إلَّا كَذِبٌ اختلَقَه مِن قِبَلِ نَفْسِه[1].

---

= القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمِلَّةِ الآخِرةِ: النَّصرانيَّةُ -فهي آخِرُ ديانةٍ قَبْلَهم، والنَّصارى يقولونَ: إنَّ الله ثالثُ ثلاثةٍ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والرسعني، وجلال الدين المحلي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٥٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣٥، ٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، والسُّدِّيُّ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٤٦).

وقيل: المرادُ: اليهوديَّةُ والنَّصرانيَّةُ. وممَّن قال بهذا القولِ: السمرقنديُّ، ونسَبَه الماتُريديُّ إلى عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٠٧).

وقيل: المرادُ: دينُ قُرَيشٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥).

قال السعدي: (﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: في الوقتِ الأخيرِ، فلا أدرَكْنا عليه آباءَنا، ولا آباؤُنا أدركوا آباءَهم عليه، فامْضوا على الَّذي مضَى عليه آباؤُكم؛ فإنَّه الحقُّ، وما هذا الَّذي دعا إليه محمَّدٌ إلا اختلاقٌ اختلَقه، وكذِبٌ افتراه! وهذه أيضًا شُبهةٌ مِن جنسِ شبهتِهم الأُولَى، حيثُ ردُّوا الحقَّ بما ليس بحُجَّةٍ لِرَدِّ أدنَى قولٍ، وهو أنَّه قولٌ مخالفٌ لِما عليه آباؤُهم الضَّالُّونَ، فأينَ في هذا ما يدُلُّ على بطلانِه؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

وقيل: المرادُ: اليهوديَّةُ والنَّصرانيَّةُ ودينُ آبائِهم. وممَّن قال بهذا القولِ: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن =

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ هذا هو الأصلُ الثَّاني مِن أُصولِ كُفرِ المُشرِكينَ، وهو أصلُ إنكارِ بَعثةِ رَسولٍ منهم[1]، وهذه هي الشُّبهةُ الثَّانيةُ لأولئك الكُفَّارِ، وهي الشُّبهةُ المُتعَلِّقةُ بالنُّبُوَّاتِ، وهي قَولُهم: إنَّ محمَّدًا لَمَّا كان مُساوِيًا لِغَيرِه في الذَّاتِ، والصِّفاتِ، والخِلقةِ الظَّاهِرةِ، والأخلاقِ الباطِنةِ؛ فكيف يُعقَلُ أن يختَصَّ هو بهذه الدَّرَجةِ العاليةِ، والمَنزِلةِ الشَّريفةِ[2]؟!

﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا ﴾.

أي: قالوا استِبعادًا واستِنكارًا: أأَنزَل اللهُ القُرآنَ على مُحمَّدٍ، فخُصَّ بالوَحيِ مِن دُونِنا[3]؟!

كما قال اللهُ تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١].

﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي ﴾.

---

= عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣٧).

قال الزمخشري: (قَولُهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٞ ﴾ كلامٌ مُخالِفٌ لاعتِقادِهم فيه، يقولونَه على سَبيلِ الحسَدِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣٧).

أي: بل[١] المُشرِكونَ في شَكٍّ مِن كَونِ القُرآنِ حَقًّا أُوحيَ إلى محمَّدٍ مِن عندِ اللهِ[٢].

﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾.

أي: بلْ لم يَنزِلْ بَعْدُ بالمُشرِكينَ عَذابي؛ لِتَكذيبِهم رَسولي، وشَكِّهم في كتابي الَّذي أنزَلْتُه عليه، فلو أصابَهم العَذابُ لَأيْقَنوا بصِدقِ ما كانوا يَشُكُّونَ فيه، ويُكَذِّبونَ به[٣].

---

(١) قيل: المرادُ: إبطالُ ونَفيُ ألَّا يكونوا عالِمينَ بأنَّ مُحمَّدًا لم يَزَلْ صَدوقًا فيما بيْنَهم. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢).

وقيل: المعنى: ليس تخصيصُ اللهِ وإنعامُه جاريًا على شهواتِهم. وممَّن قال بهذا: ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٤).

وقيل: المعنى: أنَّهم ليست لهم حُجَّةٌ ولا بُرهانٌ، ولا عندَهم عِلمٌ ولا بَيِّنةٌ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جُزَي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

وقيل: المعنى: إنَّهم ليسوا جازِمينَ بما قالوا، وإن أكَّدوه غايةَ التَّأكيدِ. وممَّن قال به: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٦).

وقيل: المرادُ: إبطالُ ما ادَّعَوه مِن إرادتِهم نُزولَ القُرآنِ على غيرِ مُحمَّدٍ، أي: هم في شَكٍّ مِن ذِكري، فكيف يَقولونَ: لو نُزِّل على غيرِ محمَّدٍ، والشَّاكُّ في الأصلِ لا يَطلُبُ الفَرعَ أصلًا؟! وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال القرطبي: (إنَّما اغتَرُّوا بطُولِ الإمهالِ، ولو ذاقوا عذابي على الشِّركِ لَزال عنهم الشَّكُّ، ولَما قالوا ذلك، ولكِنْ لا يَنفَعُ الإيمانُ حينَئذٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢).

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ۝٩﴾.

أي: أمْ عِندَ المُشرِكينَ مَفاتيحُ رَحمةِ رَبِّك -يا محمَّدُ- العزيزِ الغالِبِ على أمْرِه، الوهَّابِ ما يَشاءُ لِمَن يَشاءُ مِن عبادِه؛ مِن نُبُوَّةٍ، ومُلْكٍ، ونِعمةٍ، فيَهَبوها لِمَن شاؤُوا[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ۝ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٣، ٥٤].

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا استَفهَمَ استِفهامَ إنكارٍ في قَولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾، وكان ذلك دليلًا على انتِفاءِ تَصرُّفِهم في خزائِنِ رَحمةِ رَبِّك؛ أتَى بالإنكارِ والتَّوبيخِ بانتِفاءِ ما هو أعَمُّ[2].

وأيضًا لَمَّا سَلَب عنهم التَّصَرُّفَ في الخزائِنِ؛ أتْبَعَه نَفْيَ المُلْكِ عمَّا شاهَدوا منها، وهو جزءٌ يَسيرٌ جِدًّا[3].

﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ۝١٠﴾.

أي: أمْ للمُشرِكينَ مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما؟ فإنْ كان لهم ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٨).

فلْيَصعَدوا إذَنْ في الطُّرُقِ المُوصِلةِ لهم إلى السَّماءِ إن استَطاعوا، بحيثُ يَكونونَ قادِرينَ على القيامِ بما يُريدونَه[١]!

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا قال الله تعالى: إنْ كانوا يَملِكون السَّمَواتِ والأرضَ فلْيَرتَقوا في الأسبابِ؛ ذكَرَ عَقِيبَه أنَّهم جُندٌ مِن الأحزابِ مُنهَزِمونَ ضَعيفونَ، فكيف يَكونونَ مالِكي السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما[٢]؟!

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

قيل: المرادُ: فلْيَصعَدوا إلى السَّمَواتِ، ولْيَمنَعوا الملائِكةَ مِن إنزالِ الوَحيِ على محمَّدٍ، ولْيَخُصُّوا مَن شاؤُوا بالرِّسالةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥١).

قال البقاعي: (لِيَستوُوا على العَرشِ الَّذي هو أمارةُ المُلكِ، فيُدَبِّروا العالَمَ، فيَخُصُّوا مَن شاؤُوا بالرِّسالةِ؛ لِيُعلمَ أنَّ لهم ذلك، وأنَّه لا يَسوغُ لأحدٍ أن يختَصَّ دُونَهم بشَيءٍ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٣٨).

وقيل: المعنى: إنْ كان لهم مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما فكان لهم شَيءٌ مِن ذلك، فلْيَصعَدوا إن استطاعوا في أسبابِ السَّمواتِ؛ لِيَخبُروا حقائِقَ الأشياءِ، فيَتكَلَّموا عن عِلمٍ في كُنهِ الإلهِ وصِفاتِه، وفي إمكانِ البَعثِ وعَدَمِه، وفي صِدقِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم أو ضِدِّه، ولْيَفتَحوا خزائِنَ الرَّحمةِ فيُفيضوا منها على مَن يُعجِبُهم، ويَحرِموا مَن لا يَرمُقونَه بعينِ استِحسانٍ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٠).

أي: كُفَّارُ قُرَيشٍ جُندٌ مَهزومٌ ذَليلٌ مِنَ المُتحَزِّبينَ على إبطالِ الحَقِّ(١).

---

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨، ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦).

قال القرطبي: (الكلامُ مرتبطٌ بما قبلُ، أَيْ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ وهم جندٌ مِن الأحزابِ مَهْزومونَ، فلا تَغُمَّكَ عِزَّتُهم وشقاقُهم، فإنِّي أهزمُ جَمْعَهم، وأسْلُبُ عِزَّهم. وهذا تأنيسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم، وقد فَعَل بهم هذا في يومِ بدرٍ. قالَ قتادَةُ: وَعَد اللَّهُ أنَّه سيهزمُهم وهم بمكَّةَ فجاءَ تأويلُها يومَ بدرٍ. وَ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارَةٌ لبدرٍ وهو موضعُ تحزُّبِهم لقتالِ محمَّدٍ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم. وقيلَ: المرادُ بالأحزابِ الَّذينَ أتوا المدينةَ وتحزَّبوا على النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ... وقيلَ: أرادَ بالأحزابِ القرونَ الماضيةَ مِن الكفَّارِ. أي: هؤلاءِ جُنْدٌ على طريقةِ أولئك). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٣).

وممن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ﴾ أي: قريشٌ الذين هُزِموا وقُتلوا يوم بدر: ابن جرير، وابن أبي زمنين، ومكي، والبغوي، والخازن. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨، ٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٨٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢)، وينظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦).

وقيل: المرادُ: أنَّهم جندٌ مغلوبٌ، أي: ممنوعٌ عن أنْ يصعَدَ إلى السَّماءِ، وممن اختاره: الفرَّاء، والثعلبي، وقواه ابن عطية. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٩٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٥).

قال الشنقيطي بعد أن ذكر أنَّ صيغةَ الأمرِ في قولِه: ﴿فَلْيَرْتَقُواْ﴾ للتعجيز: (قولُه -جلَّ وعلا- بعدَ ذلك التعجيزِ: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يُفهَمُ منه أنَّه لو تنطَّع جندٌ مِن الأحزابِ للارتقاءِ في أسبابِ السَّماءِ، أنَّه يرجِعُ مهزومًا صاغِرًا داخِرًا ذليلًا). ((أضواء البيان)) (٢/ ٢٥٨).

وممن اختار أن المراد: أنَّهم حتى إن استطاعوا الوصولَ إلى السَّماءِ فإنَّهم مهزومون هنالكَ: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٥٨-٥٩).

وقال ابن قتيبة: (و﴿جُندٌ﴾ بمعنى: حزب لهذه الآلهةِ، يقولُ: هم حزبٌ عندَ ذلك مقموعٌ ذليلٌ مِن الأحزابِ، أي: عندَ هذه المحنِ، وعندَ هذا القولِ، لأنَّهم لا يقدِرونَ أن يدَّعوا لآلهتِهم شيئًا مِن هذا، ولا لأنفسِهم). ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩) بتصرف.

كما قال الله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ * سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر: ٤٤، ٤٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ وُجوبُ تقديمِ الأهَمِّ في الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم أَوَّلَ ما دعا هؤلاءِ إلى التَّوحيدِ لم يَقُلْ: صَلُّوا ولا زَكُّوا ولا صُوموا ولا حُجُّوا، بل دعاهم إلى التَّوحيدِ، وهذا هو شأنُ القُرآنِ، وهذا هو شأنُ سُنَّةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ العَمليَّةِ؛ فإنَّه لَمَّا بَعَث مُعاذًا إلى اليَمَنِ أمَرَه أنْ يَدْعوَهم أوَّلَ ما يَدْعوهم إليه: إلى شَهادةِ «أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ»[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ﴾ إذا تواصى الكُفَّارُ فيما بيْنَهم بالصَّبرِ على آلهتِهم، فالمؤمنونَ أَولَى بالصَّبرِ على عبادةِ مَعبودِهم، والاستِقامةِ في دينِهم[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾ أنَّ الخَلْقَ لا يَملِكونَ خزائنَ رحمةِ اللهِ، ولا يَملِكونَ السمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما؛ ولهذا كان الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يقولُ: ((اللَّهُمَّ لا مانعَ لِمَا أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ))[٣]، وفي حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: ((واعلَمْ أنَّ الأُمَّةَ لو اجتمَعوا على أنْ يَنفعوك بشَيءٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣٢).

والحديث أخرجه البخاري (١٣٩٥) واللفظ له، ومسلم (١٩) من حديث عبدالله بن عبَّاس رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٠).

(٣) أخرجه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) مطولًا من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

لم يَنفعوك إلَّا بشَيءٍ قد كَتَبه اللهُ لك، وإنِ اجتمعوا على أنْ يَضُرُّوك بشَيءٍ؛ لم يَضُرُّوك إلَّا بشَيءٍ قد كَتَبَه اللهُ عليك))[١].

ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّه لا ينبغي للإنسانِ أنْ يُعَلِّقَ رجاءَه إلَّا باللهِ عزَّ وجلَّ، فإنْ فعَل ذلك سَخَّرَ اللهُ له المخلوقاتِ، حتَّى البَشَرُ يُسَخِّرُهم له، لكنْ إذا تَعَلَّقَ بغيرِ اللهِ وُكِلَ إلى مَن تَعَلَّقَ به[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ أنَّه لا ينبغي التَّحَدِّي إلَّا بما لا يَستطيعُه المُتَحَدَّى، وهذا يُفيدُ في بابِ المُناظرةِ، وفي بابِ النَّظَرِ؛ لأنَّ النَّاسَ ناظِرٌ ومُناظِرٌ؛ فالنَّاظِرُ هو الَّذي يَتأمَّلُ الأدِلَّةَ مِن ذاتِ نَفْسِه ويَحكُمُ عليها، والمُناظِرُ هو الَّذي يُناقِشُها مع غَيرِه، فمِن فوائِدِ النَّظَرِ والمُناظَرةِ أنَّ الإنسانَ لا يَفرِضُ شَيئًا على وَجهِ التَّحَدِّي إلَّا إذا عَلِم أنَّه غيرُ مُمكِنٍ للمُتَحَدَّى؛ لأنَّه لو فَرَضَ شَيئًا يَتَحَدَّى به، ثمَّ أتَى به المُتَحَدَّى؛ بَطَلَتْ حُجَّتُه وانهارتْ، وانهارتْ قُوَّةُ المدافَعةِ والمهاجَمةِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ في هذه الآيةِ والَّتي بعدَها دَلالةٌ على إفراطِ القومِ في الجَهالةِ، وتَوَغُّلِهم في الضَّلالةِ؛ حيث نسَبوا السِّحرَ

---

(١) أخرجه مطولًا الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩) واللفظ له

صحَّحه الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥١٦)، وابنُ عثيمين في ((تفسير الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٤٣)، وحسَّنَ ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (١/ ٤٥٩) روايةَ الترمذيِّ، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣)، وقال شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٦٦٩): (إسنادُه قويٌّ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٥، ٥٦).

والكذِبَ إلى مَن ظهَرَتْ آياتُ رسالتِه، ومُعجزاتُ نُبُوَّتِه، وتَعجَّبوا مِن إثباتِ الوحدانيَّةِ لله تعالى الَّذي خلَقَ ورزَقَ مع إنارةِ براهينِها، ولم يَتعجَّبوا مِن الشِّركِ وعبادةِ الأحجارِ مع وُضوحِ بُطلانِه[١]! وأيضًا لأنَّه لم يأتِهم أحدٌ غَريبٌ عليهم؛ لا في جِنسِه ولا في نَسَبِه؛ فالَّذي جاءهم جِنْسُه بَشَرٌ مِثلُهم، ونَسَبُه منهم؛ مِن قُرَيشٍ، ومع ذلك يَعجَبونَ استِنكارًا ممَّا جاءَهم[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ أنَّ التَّعجُّبَ مِن الحقِّ إنكارًا له مِن خِصالِ الَّذين كفروا، وقال تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۞ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ١، ٢]. ولا تعجُّبَ إلَّا مِن مُستغرَبٍ، فالوَيْلُ كلُّ الوَيلِ لِمَن كان الحقُّ عندَه غريبًا، وطُوبى لِمَن تعجَّبَ مِن الباطلِ لِغَرابَتِه عندَه[٣]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: ٤، ٥] أنَّ أعداءَ الرُّسُلِ لا يُعادونهم عداءً شخصيًّا؛ ولكنَّهم يُعادونهم عداءً معنويًّا لِمَا جاؤوا به مِن الرسالةِ، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ أنَّ كلَّ مَنِ اتَّبَعَ الرَّسولَ سَيَجِدُ له أعداءً مِن الكافرينَ والمنافقينَ، ويَتَفَرَّعُ على ذلك تسليةُ مَن وَجَد عداءً مِن أعداءِ اللهِ لِتَمَسُّكِه بكتابِ اللهِ وسُنَّةِ رسولِه، فإنَّه يُقالُ: هذا العِداءُ الَّذي حَصَل لك قد حَصَل لِمَن هو خيرٌ منك؛ فلا تَعْجَبْ[٤]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ أنَّ أعداءَ الرُّسُلِ -بل

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥).

(٣) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٦).

أعداءَ الرِّسالةِ- يُطْلِقُون ألقابَ السُّوءِ على مَن تَمَسَّكَ بالشَّرعِ، وقد حَصَل هذا[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أنَّ هؤلاء المُكَذِّبين للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُقيموا عليه حُجَّةً، وليس عندَهم إلَّا السَّبُّ والعَيبُ! وكذا شأنُ كلِّ ضعيفِ الحُجَّةِ: أن يَسُبَّ ويَشتُمَ، ويَتَّخِذَ مِن هذا السِّلاحِ مَهْرَبًا ممَّا هو فيه مِن عجزٍ عن مُقارَعةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ، بخِلافِ المُحِقِّ؛ فإنَّه يُدْلِي بحُجَّتِه بهدوءٍ، دونَ سبٍّ أو قذفٍ[٢].

٦- بيانُ قُوَّةِ تأثيرِ كلامِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم في نُفوسِ القَومِ؛ لِقَولِهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾، والسَّاحِرُ يُؤَثِّرُ في المَسحورِ[٣].

٧- أنَّ أهلَ الباطلِ يَحْنُون على باطلِهم، ويُحافِظونَ عليه، ويَخافونَ مِن تَزَعْزُعِه؛ لِقَولِه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾، وهكذا أهلُ الباطلِ تَجِدُهم دائمًا يَحوطُون باطِلَهم بالسِّياجِ الَّذي يَمنَعُ مِن الوُصولِ إليه على وَجهٍ يُمَزِّقُ هذا الباطِلَ[٤].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يُقصَدُ، أي: له قَصدٌ ونيَّةٌ غيرُ صالحةٍ في ذلك، وهذه شُبهةٌ لا تَرُوجُ إلَّا على السُّفَهاءِ؛ فإنَّ مَن دعا إلى قَولٍ حَقٍّ أو غيرِ حَقٍّ: لا يُرَدُّ قَولُه بالقَدحِ في نيَّتِه؛ فنِيَّتُه وعَمَلُه له، وإنَّما يُرَدُّ بمُقابَلتِه بما يُبطِلُه ويُفسِدُه مِن الحُجَجِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣).

والبَراهينِ[١]!

٩- قَولُه تعالى: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا ﴾ فيه الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ اللهَ سُبحانَه بنَفْسِه في الأرضِ[٢]! وإثباتُ العُلوِّ لله سُبحانه؛ فالنُّزولُ لا يكونُ إلَّا مِن عُلْوٍ، والقرآنُ كلامُ اللهِ، فإذا كان القرآنُ منزلٌ لَزِم أن يكونَ المُتكلِّمُ به عاليًا[٣].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ مَبدأَ تكذيبِهم لم يكُنْ إلَّا الحَسَدَ، وقُصورَ النَّظَرِ على الحُطامِ الدُّنيويِّ[٤].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي ﴾ عدَلَ عن مَظهَرِ العَظَمةِ إلى الإفرادِ؛ لأنَّ هذا السِّياقَ للتَّوحيدِ؛ فالإفرادُ أَولى به، ولِيَكونَ نَصًّا على المرادِ بعدَ ذِكرِ آلهتِهم؛ قَطعًا لِشُبَهِ مُتعنِّتيهم[٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴾ أنَّ الكلماتِ تُفَسَّرُ بحسَبِ السِّياقِ، فالذَّوقُ في الأصلِ إنَّما هو للطَّعامِ والشَّرابِ؛ ولكنْ قد يُرادُ به ما أصابَ الإنسانَ إصابةً مباشرةً؛ فإنه يُسمَّى مَذُوقًا[٦].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ﴾ المرادُ مِن هذا الكَلامِ مُغايرٌ للمُرادِ مِن قَولِه: ﴿ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ﴾، والفَرقُ أنَّ خزائِنَ اللهِ تعالى غيرُ مُتناهِيةٍ، كما قال: ﴿ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر: ٢١]، ومِن جُملةِ تلك الخزائِنِ: هذه السَّمَواتُ والأرضُ، فلمَّا ذكَرَ الخزائِنَ أوَّلًا على

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٤٦).

عُمومِها أردَفَها بذِكرِ مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، يعني: أنَّ هذه الأشياءَ أحدُ أنواعِ خزائِنِ اللهِ؛ فإذا كنتُم عاجِزينَ عن هذا القِسمِ، فبأنْ تكونوا عاجِزينَ عن كُلِّ خزائِنِ اللهِ كان أَوْلى[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عِظَمُ ما بيْنَ السَّماءِ والأرضِ؛ ووجهُه: أنَّ اللهَ تعالى جَعَل ما بيْنَهما قَسيمًا لهما، والقَسيمُ لا بُدَّ أنْ يكونَ مُعادِلًا أو مُقارِبًا لقَسيمِه، لا يُمكِنُ أنْ تأتيَ بشَيءٍ عظيمٍ تُقارِنُ بيْنَه وبيْنَ شَيءٍ بعيدٍ منه في العِظَمِ[2]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ بعْدَ أنْ كُشِف ما انطَوَتْ عليه نُفوسُهم مِنَ العِزَّةِ والشِّقاقِ، وإحالةِ بَعثةِ رسولٍ للبشَرِ مِن جِنسِهم، حُوسِبوا بما صَرَّحوا به مِنَ القَولِ؛ إشارةً بهذا التَّرتيبِ إلى أنَّ مَقالتَهم هذه نتيجةٌ لعقيدتِهم تلك[3].

- وأيضًا قَولُه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ حِكايةٌ لأباطيلِهمُ المُتفرِّعةِ على ما حُكيَ مِن استِكبارِهم وشِقاقِهم، أي: عَجِبُوا مِن أنْ جاءَهم رسولٌ مِن جِنسِهم، بلْ أَدْوَنُ مِنهم في الرِّياسةِ الدُّنيويَّةِ والمالِ، على معنَى أنَّهم عَدُّوا ذلك أمرًا عجيبًا خارِجًا عنِ احتِمالِ الوُقوعِ، وأَنكَرُوه أشَدَّ الإنكار، لا أنَّهمُ اعتَقَدُوا وُقوعَه وتَعَجَّبوا منه[4].

- وفي قَولِه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ عَبَّر عنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٤).

وسلَّمَ بوَصفِ المُنذِرِ، ووُصِفَ بأنَّه منهم؛ للإشارةِ إلى سُوءِ نظَرِهم مِن عَجَبِهم؛ لأنَّ شأنَ النَّذيرِ أنْ يَكونَ مِنَ القَومِ ممَّن يَنصَحُ لهم، فكَوْنُه منهم أَوْلى مِن أنْ يَكونَ مِن غَيرِهم، ثمَّ إنْ كان التَّبعيضُ المُستفادُ مِن حرفِ (مِن) مُرادًا به أنَّه بعضُ العربِ أو بعضُ قُرَيشٍ؛ فأَمْرُ تَجهيلِهم في عَجَبِهم مِن هذا النَّذيرِ بَيِّنٌ، وإنْ كان مُرادًا به أنَّه بعضُ البشَرِ، فتَجهيلُهم لِأنَّ مَن كان مِن جِنسِهم أَجدَرُ بأنْ يَنصَحَ لهم مِن رسولٍ مِن جِنسٍ آخَرَ كالمَلائكةِ، وهذه جَدارةٌ عُرْفيَّةٌ[1].

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ لَمَّا كان تَعجُّبُهم مِن مُطلَقِ نِذارتِه لا مُبالَغتِه فيها، أتَى باسمِ الفاعِلِ دونَ فَعيلٍ، فقال: ﴿مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾[2].

- وعُبِّرَ بجُملةِ ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، ولم يُقَلْ: (وقالوا)؛ فوُضِعَ فيه الظَّاهرُ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ إظهارًا للغضبِ عليهم، وتَنبيهًا على الصِّفةِ الَّتي أوجبَتْ لهمُ العجَبَ، حتَّى نَسَبوا مَن جاء بالهُدى والتَّوحيدِ إلى السِّحرِ والكَذِبِ، ودَلالةً على أنَّ هذا القَولَ لا يَجسُرُ عليه إلَّا الكافِرونَ المُتَوَغِّلونَ في الكفرِ، المُنهمِكونَ في الغَيِّ، ولقَصدِ وَصْفِهم بأنَّهم كافِرونَ برَبِّهم مُقابَلةً لِمَا وَصَموا به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فوُصِفوا بما هو شَتمٌ لهم يَجمَعُ ضُروبًا مِنَ الشَّتمِ تأصيلًا وتفريعًا، وهو الكفرُ الَّذي هو جِماعُ فَسادِ التَّفكيرِ، وفاسِدِ الأعمالِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٢٧).

- وفي قَولِه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قاله هنا بالواوِ، وقال في سورةِ (ق): ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾ [ق: ٢]؛ فقاله بالفاءِ. ووجْهُ ذلك: أنَّ ما في سُورةِ (ق) أشَدُّ اتِّصالًا منه في سورة (ص)؛ لأنَّ ما في (ص) مُتَّصِلٌ بما قبْلَه اتِّصالًا مَعنويًّا فقطْ، وهو أنَّهم عَجِبوا مِن مَجيءِ المُنذِرِ، وقالوا: هذا ساحرٌ كذَّابٌ! وما في سورةِ (ق) مُتَّصِلٌ بما قبْلَه اتِّصالًا لَفظيًّا ومَعنويًّا، وهو أنَّهم عَجِبوا عَقِبَ الإخبارِ عنهم بأنَّهم عَجِبوا، فقالوا: هذا شَيءٌ عجيبٌ؛ فناسَبَ فيه ذِكرُ الفاءِ دُونَ ما هنا[1].

- وأشارُوا بلفظِ ﴿هَٰذَا﴾ في قَولِه: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ استَعمَلوا اسمَ الإشارةِ لتَحقيرِ مِثلِه في قَولِهم: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ﴾[2] [الأنبياء: ٣٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾

- قَولُه: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾ الهمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّعجُّبيِّ؛ ولذلك أتْبَعوهُ بما هو كالعِلَّةِ لقَولِهم: ﴿سَٰحِرٞ﴾، وهو: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾ أي: يُتعجَّبُ منه، كما يُتعجَّبُ مِن شَعوذةِ السَّاحرِ، أو تعَجَّبوا مِن هذا الحَصرِ؛ لأنَّهم قاسُوا الغائبَ على الشَّاهِدِ؛ جَهلًا منهم، وارتِطامًا بسُوءِ الغَفلةِ[3].

- وأيضًا قَولُه: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٌ﴾ مِثلُ قَولِه: ﴿وَجَعَلُواْ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٢٧).

ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]؛ في أنَّ معنَى الجَعلِ التَّصييرُ في القَولِ على سبيلِ الدَّعْوَى والزَّعمِ، كأنَّه قال: أجَعَلَ الجَماعةَ واحِدًا في قَولِه؟! لأنَّ ذلك في الفِعلِ مُحالٌ، فلا يَقدِرُ أحَدٌ أنْ يَجعَلَ الجَماعةَ إنسانًا واحدًا(١).

- و ﴿عُجَابٌ﴾: أي: بَليغٌ في العجَبِ، وهو وصْفٌ للشَّيءِ الَّذي يُتعجَّبُ منه كثيرًا؛ لأنَّ وزنَ (فُعالٍ) يدُلُّ على تَمكُّنِ الوَصفِ، مِثلَ: (طُوالٍ) بمعنَى المُفرِطِ في الطُّولِ، و(كُرامٍ) بمعنَى الكثيرِ الكَرَمِ، فهو أبْلَغُ مِن كريمٍ. وقد ابتَدَؤوا الإنكارَ بأوَّلِ أصلٍ مِن أُصولِ كُفرِهم؛ فإنَّ أُصولَ كُفرِهم ثلاثةٌ: الإشراكُ، وتَكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنكارُ البَعثِ والجَزاءِ في الآخِرةِ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾

- (أنْ) في قَولِه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ تفسيريَّةٌ؛ ولَمَّا أُسنِدَ الانطِلاقُ إلى المَلأِ منهم على أنَّهم ما كانوا لِيَنطَلِقوا إلَّا لتَدبيرٍ في ماذا يَصنَعونَ، فكان ذلك مُقتَضيًا تَحاوُرًا وتَقاوُلًا احتِيجَ إلى تَفسيرِه بجُملةِ ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ...﴾ إلخ(٣)، وكان انطِلاقُهم مُضَمَّنًا معنَى القَولِ(٤).

- والتَّعبيرُ بحَرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قَولِه: ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣).

على تَضمينِ (اصْبِرُوا) معنَى: اعكُفوا واثبُتوا[١].

- وجملةُ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ يُرَادُ﴾ تعليلٌ للأمرِ بالصَّبرِ على آلهتِهم؛ لقَصدِ تَقويةِ شَكِّهم في صحَّةِ دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّها شَيءٌ أرادَه لغرَضٍ، أي: ليس صادِقًا، ولكنَّه مَصنوعٌ مُرادٌ منه مَقصَدٌ، كما يُقالُ: هذا أمْرٌ دُبِّرَ بلَيلٍ؛ فالإشارةُ بـ ﴿هَٰذَا﴾ إلى ما كانوا يَسمَعونَه مِن دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيَّاهم أنْ يَقولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ[٢].

- وقيل: إنَّ جملةَ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ يُرَادُ﴾ كَلِمةٌ تُذكَرُ للتَّهديدِ والتَّخويفِ، والمعنى -على قولٍ-: إنَّه ليس غَرَضُه مِن هذا القَولِ تَقريرًا للدِّينِ، وإنَّما غَرَضُه أنْ يَستَوليَ علينا، فيَحكُمَ في أموالِنا وأولادِنا بما يُريدُ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ، أو مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ يُرَادُ﴾؛ لأنَّ عدَمَ سَماعِ مِثلِه يُبيِّنُ أنَّه شَيءٌ مُصطَنَعٌ مُبتَدَعٌ. وإعادةُ اسمِ الإشارةِ مِن وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ لقَصدِ زيادةِ تَمييزِه. ونَفيُ السَّماعِ هنا خبَرٌ مُستعمَلٌ كِنايةً عن الاستِبعادِ، والاتِّهامِ بالكَذِبِ[٤].

- والمَجرورُ ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ ظَرفًا مُستقَرًّا[٥] في مَوضِعِ الحالِ مِنِ اسمِ الإشارةِ؛ بيانًا للمَقصودِ مِنَ الإشارةِ، مُتعلِّقًا بفِعلِ ﴿سَمِعۡنَا﴾، والمعنَى: ما سَمِعْنا بهذا قبْلَ اليَومِ؛ فلا نَعتَدُّ به. ويَجوزُ على هذا التَّقديرِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٢).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٢١).

يَكونَ المُرادُ بـ﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ دِينَ النَّصارى، وعليه فالمُشرِكونَ استَشهَدوا على بُطلانِ تَوحيدِ الإلهِ بأنَّ دِينَ النَّصارى الَّذي ظهَرَ قبْلَ الإسلامِ أثبَتَ تَعدُّدَ الآلهةِ، ويَكونَ نَفْيُ السَّماعِ كِنايةً عن سَماعِ ضِدِّه، وهو تَعدُّدُ الآلهةِ. ويَجوزُ أنْ يُريدوا بـ﴿ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ الَّتي هُم عليها؛ فقولُهم: ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ كِنايةٌ عن استِمرارِ انتِفاءِ هذا إلى الزَّمنِ الأخيرِ، فيُعلَمُ أنَّ انتِفاءَه في مِلَّتِهمُ الأُولى بالأحْرَى[1].

- وجملةُ ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٞ﴾ مُبَيِّنةٌ لجُملةِ ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾، وهذا هو المُتحصِّلُ مِن كَلامِهمُ المَبدوءِ بـ﴿ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡ﴾؛ فهذه الجُملةُ كالفَذْلَكةِ[2] لكَلامِهم[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾

- قَولُه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، ومَناطُ الإنكارِ هو الظَّرفُ: ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا﴾، وهو في مَوضِعِ حالٍ مِن ضَميرِ ﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أنكَروا أنْ يُختَصَّ بالشَّرفِ مِن بيْنِ أشرافِهم ورُؤسائِهم، ويُنزَلَ عليه الكِتابُ مِن بيْنِهم، كما قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٣).

٣١]، فهُم قالوا ذلك قديمًا ورَدَّدُوه مِرارًا؛ تَنفيسًا عن الغَيظِ الَّذي تَجيشُ به نُفوسُهم، والمَوْجِدةِ الَّتي تَعتلِجُ في ضَمائرِهم، فهذا الإنكارُ ترجمةٌ عمَّا كانت تَغْلي به صُدورُهم مِنَ الحسَدِ على ما أُوتيَ مِن شرَفِ النُّبوَّةِ مِن بيْنِهم، ولم يُريدوا بهذا الإنكارِ تَجويزَ أصلِ الرِّسالةِ عنِ اللهِ، وإنَّما مُرادُهمُ استِقصاءُ الاستِبعادِ؛ فإنَّهم أَنكَروا أصْلَ الرِّسالةِ كما اقتَضاهُ قَولُه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [ص: ٤] وغَيرُه مِنَ الآياتِ[1].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ مِن كلامِ عُمومِ الكافِرينَ المَحْكيِّ بقَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]؛ فيَكونَ مُتَّصِلًا بقَولِه: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، ويَكونَ قَولُه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ بيانًا لجُملةِ ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]؛ لأنَّ تَقديرَه: هذا كذَّابٌ؛ إذْ هو خبَرٌ ثانٍ لـ (كان)، ولِكَونِه بيانًا لِلَّذي قبْلَه لم يُعطَفْ عليه، ويَكونَ ما بيْنَهما مِن قَولِه: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ [ص: ٦] إلى قَولِه: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٞ﴾ [ص: ٧] اعتِراضًا بيْن جُملتَيِ البَيانِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ مِن تمامِ كَلامِ المَلأِ، واستُغنيَ به عن بَيانِ جُملةِ ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]؛ لأنَّ نُطقَ المَلأِ به كافٍ في قَولِ الآخَرينَ بمُوجَبِه؛ فاستَغنَوا عن بَيانِ جُملةِ ﴿كَذَّابٌ﴾[2] [ص: ٤].

- قَولُه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا...﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قاله هنا بلفظِ: ﴿أَءُنزِلَ﴾، وفي سُورةِ (القمر) قالَه بلفظِ: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [القمر: ٢٥]؛ ومُناسَبةُ ذلك -فيما قيل-: أنَّ ما هنا حِكايةٌ عن كفَّارِ قُرَيشٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٣).

فناسَبَ التَّعبيرُ به لِوُقوعِه إنكارًا لِما قَرأهُ عليهمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قَولِه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وما في سُورةِ (القَمر) حِكايةٌ عن قَومِ صالحٍ، وكانت الأنبياءُ تُلْقَى إليهم صُحُفٌ مَكتوبةٌ؛ فناسَبَ التَّعبيرُ بـ (أُلْقِيَ).

وقُدِّم الجارُّ والمَجرورُ على الذِّكرِ هنا؛ مُوافَقةً لِما قَرأهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على المُنكِرينَ، وعكَسَ في (القَمرِ)؛ جَريًا على الأصلِ مِن تَقديمِ المَفعولِ بلا واسِطةٍ على المَفعولِ بواسِطةٍ[1]، واللهُ أعلَمُ.

- قَولُه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ جوابًا عن قَولِهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾، أي: ليس قَصدُهمُ الطَّعنَ في اختِصاصِكَ بالرِّسالةِ، ولكنَّهم شاكُّونَ في أصلِ إنزالِه، فتكون ﴿بَل﴾ إضرابًا إبطاليًّا؛ تكذيبًا لِما يَظهَرُ مِن إنكارِهم إنزالَ الذِّكرِ عليه مِن بيْنِهم على ما تَقدَّمَ، أي: إنَّما قَصدُهمُ الشَّكُّ في أنَّ اللهَ يُوحي إلى أحَدٍ بالرِّسالةِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ انتِقالًا مِن خبرٍ عنهم إلى خبرٍ آخَرَ، فيَكونَ استِئنافًا، وتَكونَ ﴿بَل﴾ للإضرابِ الانتِقاليِّ، والمعنَى: وهُم في شَكٍّ مِن ذِكري، أي: في شَكٍّ مِن كُنْهِ القرآنِ؛ فمرَّةً يَقولونَ: افتَراهُ، ومرَّةً يَقولونَ: شِعرٌ، ومرَّةً: سِحرٌ، ومرَّةً: أساطيرُ الأوَّلينَ، ومرَّةً: قَولُ كاهِنٍ! فالمُرادُ بالشَّكِّ حقيقتُه، أي: التَّردُّدُ في العِلمِ[2].

- وقَولُه تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ قيل: الظَّاهرُ أنَّه مُتَّصِلٌ بفاتحةِ السُّورةِ، أي: بـ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]؛ لأنَّهما حَديثانِ في الذِّكرِ، ومِن قَولِه: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ﴾ [ص: ٤] إلى هاهنا حديثٌ في النُّبوَّةِ؛

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٤).

فيَكونُ ﴿بَلۡ﴾ إضرابًا عمَّا أُثبِتَ في الإضرابِ السَّابِقِ، كأنَّه لَمَّا قيل: أقسَمْتُ بـ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١] أنَّ صِدقَه ظاهِرٌ، ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ﴾ [ص: ٢]: في عِنادٍ واستِكبارٍ عنِ الإذعانِ لذلك، وفي (شِقَاقٍ) [ص: ٢] للهِ ولرَسولِه، ثمَّ عقَّبَ بقَولِه: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ [ص: ٤] مُستطردًا، وبيَّن تَعجُّبَهم بقَولِه: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥] بِناءً على التَّقليدِ، ثمَّ بقَولِه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ بِناءً على الحسدِ- فُهِمَ مِن ذلك أنَّهم مُتَرَدِّدونَ في أنفُسِهم في أنَّ القرآنَ إمَّا حقٌّ وإمَّا باطلٌ، يَقولونَ في أنفُسِهم: إمَّا وإمَّا؛ فحينَ نَظَروا إلى نَظمِه وإعجازِه قالوا: حقٌّ، وحينَ نَظَروا إلى التَّقليدِ إلى أنَّهم أحَقُّ به منه قالوا: هو باطلٌ، فأضرَبَ اللهُ تعالى عن إثباتِ العِزَّةِ والشِّقاقِ بقَولِه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾، وحينَ كان بِناءُ الشَّكِّ على شُبهةٍ رَكيكةٍ ومُقدِّمةٍ واهيةٍ لا تُقاوِمُ ذلك اليقينَ، أضرَبَ عنه بقَولِه: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾، ثمَّ جيءَ بإضرابٍ آخَرَ على أسلوبٍ غيْرِ الأوَّلِ، وهو قَولُه: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾[1] [ص: ٩].

- قَولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾ الإخبارُ بأنَّهم في شَكٍّ يَقتَضي كَذِبَهم في قَولِهم: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾[2].

- إضافةُ الذِّكرِ إلى ضَميرِ المُتكلِّم -وهو اللهُ تعالى- في قَولِه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ إضافةُ تَشريفٍ، ولتَحقيقِ كَونِه مِن عِندِ اللهِ. والذِّكرُ على هذا الوجهِ هو عَيْنُ المُرادِ مِن قَولِه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، وإنَّما وقَعَ التَّعبيرُ عنه بالظَّاهِرِ دُونَ الضَّميرِ؛ تَوصُّلًا إلى التَّنويهِ به بأنَّه مِن عِندِ اللهِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩).

تعالى[١].

- في قَولِه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِي﴾ جُعِلَتْ مُلابَسةُ الشَّكِّ إيَّاهم بمنزلةِ الظَّرفِ المُحيطِ بالمظروفِ في أنَّه لا يَخْلو منه جانبٌ مِن جَوانِبِه[٢].

- و﴿مِّن﴾ في قَولِه: ﴿مِّن ذِكۡرِي﴾ ابتِدائيَّةٌ؛ لكَونِ الشَّكِّ صِفةً لهم، أي: نَشأَ لهمُ الشَّكُّ مِن شأنِ ذِكري، أي: مِن جانِبِ نَفْيِ وُقوعِه، أو في جانبِ ما يَصِفونَه به[٣].

- قولُه: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ ﴿بَل﴾ للإضرابِ، أي: إنَّهم لم يَذُوقوا عَذابي بعْدُ، فإذا ذاقُوه زالَ عنهم ما بهم مِنَ الشَّكِّ والحسَدِ حينَئذٍ، يعني: أنَّهم لا يُصَدِّقونَ به إلَّا أنْ يَمَسَّهُمُ العَذابُ مُضْطَرِّينَ إلى تَصديقِه. وفي ﴿لَّمَّا﴾ دَلالةٌ على أنَّ ذَوْقَهمُ العَذابَ على شرَفِ الوُقوعِ، والمعنَى: أنَّهم لا يُصَدِّقونَ به حتَّى يَمَسَّهمُ العَذابُ. وقيل: لم يَذُوقوا عذابي الموعودَ في القرآنِ؛ ولذلك شَكُّوا فيه، وهذا يُبَيِّنُ أنَّ الَّذي جَرَّأهم على هذا الشِّقاقِ أنَّهم لَمَّا تأخَّرَ حُلولُ العَذابِ بهم ظَنُّوا وَعيدَه كاذِبًا، فأخَذوا في البَذاءةِ والاستِهزاءِ، ولو ذاقوا العَذابَ لأُلقِمَتْ أفواهُهمُ الحَجَرَ.

والإضرابُ هنا مُتعلِّقٌ بالكَلامَينِ السَّابِقَينِ، بمعنَى: أنَّه لَمَّا وَبَّخَهم أوَّلًا على ما بهم مِنَ الحسَدِ وما تَغْلي به صُدورُهم على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما اختُصَّ بشرَفِ النُّبوَّةِ مِن بيْنِهم، ثمَّ على الشَّكِّ فيما لا شَكَّ فيه، ولا يَحومُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢١٤، ٢١٥).

حَوْلَه؛ جاءَ بتَوبيخٍ أغلَظَ مِنهما[١].

- وأيضًا قَولُه: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ أي: (عذابي)، وإضافةُ ﴿عَذَابِ﴾ إلى ياءِ المُتكلِّم؛ لاختِصاصِه باللهِ؛ لأنَّه مُقَدِّرُه، وقاضٍ به عليهم، ولِوُقوعِه على حالةٍ غَيرِ جاريةٍ على المعتادِ؛ إذِ الشَّأنُ أنْ يَستأصِلَ الجَيشُ القَويُّ الجَيشَ القليلَ. وحُذِفَتْ ياءُ المُتكلِّم؛ تَخفيفًا للفاصِلةِ، وأُبقيَتِ الكَسرةُ دليلًا عليها[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾

- قَولُه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ ﴿أَمْ﴾ مُنقطِعةٌ، وهي للإضرابِ الانتِقاليِّ، وهي مُشعِرةٌ باستِفهامٍ بعْدَها هو للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ إنكارًا لقَولِهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، أي: ليست خَزائنُ فَضلِ اللهِ تعالى عِندَهم فيَتصَدَّوا لحِرمانِ مَن يَشاؤُونَ حِرمانَه مِن مَواهِبِ الخَيرِ؛ فإنَّ المَواهِبَ مِنَ اللهِ يُصيبُ بها مَن يَشاءُ، فهو يَختارُ للنُّبوَّةِ مَن يَصطَفيهِ، وليس الاختِيارُ لهم فيَجعَلوا مَن لم يُقَدِّموهُ عليهم في دِينِهم غيْرَ أهلٍ لِأنْ يَختارَهُ اللهُ[٣].

- وتقديمُ الظَّرفِ ﴿عِندَهُمْ﴾؛ للاهتِمامِ؛ لأنَّه مَناطُ الإنكارِ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[٤] [الزخرف: ٣٢].

- والخَزائنُ: جمْعُ خِزانةٍ -بكسرِ الخاءِ- وهي البَيتُ الَّذي يُخزنُ فيه المالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٥، ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٦).

أو الطَّعامُ، والخَزْنُ: الحِفظُ والحِرْزُ. والرَّحمةُ: ما به رِفْقٌ بالغَيرِ وإحسانٌ إليه، وفي قولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ شُبِّهَتْ رحمةُ اللهِ بالشَّيءِ النَّفيسِ المَخزونِ الَّذي تَطمَحُ إليه النُّفوسِ في أنَّه لا يُعطَى إلَّا بمَشيئةِ خازِنِه[١].

- الإضافةُ في ﴿خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ على معنَى لامِ الاختِصاصِ. والعُدولُ عنِ اسمِ الجَلالةِ (الله) إلى وصْفِ (الرَّبِّ)؛ لأنَّ له مَزيدَ مُناسَبةٍ للغرَضِ الَّذي الكَلامُ فيه؛ إيماءً إلى أنَّ تَشريفَه إيَّاهُ بالنُّبوَّةِ، واللُّطفَ به مِن آثارِ صِفةِ رُبوبيَّتِه له؛ لأنَّ وَصْفَ الرَّبِّ مُؤْذِنٌ بالعِنايةِ والتَّربيةِ، والإبلاغِ إلى الكَمالِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ أُجريَ على الرَّبِّ صِفةُ (العَزيز)؛ لإبطالِ تَدخُّلِهم في تَصرُّفاتِه، وصِفةُ (الوَهَّاب)؛ لإبطالِ جَعلِهمُ الحِرمانَ مِنَ الخَيرِ تابِعًا لرَغَباتِهم دُونَ موادَّةِ اللهِ تعالى[٣].

وأيضًا فالعزيزُ: لمُقابَلةِ هؤلاء الَّذين كانوا في عِزَّةٍ وشِقَاقٍ؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ عِزَّةَ اللهِ فوقَ عِزَّتِهم وأَنَفَتِهم وحَمِيَّتِهم؛ وأنَّه غالبٌ لهم وقاهرٌ لهم، والوَهَّابُ بالنِّسبةِ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم يعني أنَّه وَهَبَه النُّبُوَّةَ[٤].

- ومعنَى المُبالَغةِ في ﴿ٱلْوَهَّابِ﴾ راجِعٌ إلى خطَرِ المَوهِبةِ وعِظَمِها، وهي: النُّبوَّةُ[٥].

٧- قَولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾

- قَولُه: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ إلى رَدٍّ يأتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٤٧).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٣٩).

على جميعِ مَزاعِمِهم، ويَشملُ بإجمالِه جميعَ النُّقوضِ التَّفصيليَّةِ لمَزاعِمِهم بكَلِمةٍ جامِعةٍ كالحَوصَلةِ؛ فيُشْبِهُ التَّذييلَ لِما يَتضمَّنُه مِن عُمومِ المُلكِ، وعُمومِ الأماكِنِ المُقتَضي عُمومَ العِلمِ، وعُمومَ التَّصرُّفِ، يَنعَى عليهم قَولَهم في المُغَيَّباتِ بلا عِلمٍ، وتَحكُّمَهم في مَراتبِ المَوجوداتِ بدُونِ قُدرةٍ ولا غِنًى[1].

- وفي قَولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كأنَّه لَمَّا أنكَر عليهمُ التَّصرُّفَ في نُبوَّتِه بأنْ ليس عِندَهم خَزائنُ رحمتِه الَّتي لا نِهايةَ لها؛ أردَفَ ذلك بأنَّه ليس لهم مَدخَلٌ في أمرِ هذا العالَمِ الجُسمانيِّ الَّذي هو جُزءٌ يَسيرٌ مِن خَزائنِه، فمِن أين لهم أنْ يَتصرَّفوا فيه، وحتَّى يَتكلَّموا في الأمورِ الرَّبانيَّةِ، ويَتحكَّموا في التَّدابيرِ الإلهيَّةِ الَّتي يَستأثِرُ بها ربُّ العِزَّةِ والكِبرياءِ؟! والخُلاصةُ: أنَّه تَرقَّى مِنَ الإضرابِ الأوَّلِ، وتَمَّم ما أفادَه مِنَ المُبالَغةِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ أفادَ تَقريرًا بأنَّ اللهَ العزيزَ الوهَّابَ وضَعَ عِندَهم خَزائنَه وأمَرَهم أنْ يَقسِموها على مَن أرادوا؛ فإنَّ قَولَه: ﴿أَمْ لَهُمْ مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ دَلَّ على اتِّصافِهم بصِفةِ الرُّبوبيَّةِ واستِقلالِهم بالمالِكيَّةِ تَهكُّمًا، انظُرْ إلى هذا التَّغليظِ في شأنِ الحاسِدِ وحسَدِه[2]؟!

- والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ ﴿أَمْ﴾ المُنقطِعةِ في قَولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تَهكُّميٌّ تَوبيخيٌّ، وليس إنكاريًّا؛ لأنَّ تَفريعَ أمْرِ التَّعجيزِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣١).

عليه يُعَيِّنُ أنَّه تَهكُّميٌّ[١]!

- قَولُه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ الفاءُ هنا هي الفَصيحةُ، أي: هي جَوابُ شَرطٍ مُقَدَّرٍ، تَقديرُه: إنْ زعَموا ذلك، فلْيَصْعَدوا في المَعارِجِ الموصِّلةِ إلى العَرشِ حتَّى يَستَووا عليه[٢]!

- وأيضًا قَولُه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ تَهكُّمٌ مِنَ اللهِ بهم غايةَ التَّهكُّم، كأنَّه قيل: وإنْ كانوا يَصلُحونَ لتَدبيرِ الخَلائقِ والتَّصرُّفِ في قِسمةِ الرَّحمةِ، وكانتْ عِندَهمُ الحِكمةُ الَّتي يُمَيِّزونَ بها بيْن مَن هو حَقيقٌ بإيتاءِ النُّبوَّةِ دُونَ مَن لا تَحِقُّ له؛ ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾: فلْيَصعَدوا في المَعارِجِ والطُّرقِ الَّتي يُتَوصَّلُ بها إلى العَرشِ، حتَّى يَستَووا عليه ويُدَبِّروا أمْرَ العالَمِ ومَلكوتَ اللهِ، ويُنزِلوا الوَحيَ إلى مَن يَختارُونَ ويَستَصوبونَ، ثمَّ خَسَأهُم خَسْأةً عن ذلك بقَولِه: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾، يُريدُ: ما هُم إلَّا جَيشٌ مِنَ الكفَّارِ المُتحزِّبينَ على رُسلِ اللهِ، مَهزومٌ مَكسورٌ عمَّا قريبٍ، فلا تُبالِ بما يَقولونَ، ولا تَكتَرِثْ لِما به يَهْذُونَ[٣].

- قَولُه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ الأمرُ في ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ﴾ للتَّعجيزِ، والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ لعَهدِ الجِنسِ؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ لكلِّ مَحلٍّ مُرتفِعٍ أسبابًا يُصعَدُ بها إليه[٤].

- وحرفُ الظَّرفيَّةِ (في) في قَولِه: ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ يدُلُّ على التَّمكُّنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

مِنَ الأسبابِ حتَّى كأنَّها ظُروفٌ مُحيطةٌ بالمُرتَقِينَ[١].

٨- قولُه تعالَى: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾

- قَولُه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا يَتَّصِلُ بقَولِه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ...﴾ [ص: ٣] الآيةَ، أُريدَ به وصْلُ الكَلامِ السَّابِقِ؛ ليُفضيَ به إلى قَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [ص: ١٢] إلى قَولِه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٤].

ويَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا ابتِدائيًّا مُستقِلًّا خارِجًا مَخرجَ البِشارةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ هؤلاء جُندٌ مِنَ الأحزابِ مَهزومٌ، أي: مُقَدَّرٌ انهِزامُه في القَريبِ، وهذه البِشارةُ مُعجِزةٌ مِنَ الإخبارِ بالغَيبِ خُتِم بها وَصْفُ أحوالِهم، وعادةُ الأخبارِ الجاريةِ مَجرى البِشارةِ أو النِّذارةِ بأمرٍ مُغَيَّبٍ أنْ تَكونَ مَرموزةً، والرَّمزُ في هذه البِشارةِ هو اسمُ الإشارةِ مِن قَولِه: ﴿هُنَالِكَ﴾؛ فإنَّه ليس في الكلامِ ما يَصلُحُ لأنْ يُشارَ إليه بدُونِ تأوُّلٍ، فلْنَجْعَلْه إشارةً إلى مكانٍ أَطْلَعَ اللهُ عليه نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو مَكانُ بَدرٍ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ لَفظُ (الأحزابِ) في هذه الآيةِ إشارةً خَفيَّةً إلى انهِزامِ الأحزابِ أيَّامَ الخَندَقِ؛ فإنَّها عُرِفَتْ بغَزوةِ الأحزابِ، وسَمَّاهمُ اللهُ الأحزابَ في السُّورةِ الَّتي نزَلَتْ فيهم، فتَكونَ تلك التَّسميةُ إلهامًا، وهذا في عِدادِ المُعجِزاتِ الخَفيَّةِ.

وعلى كلِّ الأوجُهِ فالآيةُ تَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَثبيتٌ له، وبِشارةٌ بأنَّ دِينَه سيَظهَرُ على الكفَّارِ[٢].

وقيل: الظَّاهِرُ أنَّ قَولَه: ﴿هُنَالِكَ﴾ يُشارُ به للمَكانِ الَّذي تَفاوَضوا فيه مع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٧، ٢١٨).

رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتلكَ الكَلِماتِ السَّابِقةِ، وهو مكَّةُ؛ فيَكونُ ذلك إخبارًا بالغَيبِ عن هزيمتِهم بمكَّةَ يَومَ الفَتحِ؛ فالمعنَى أنَّهم يَصيرونَ مَهزومينَ بمكَّةَ يَومَ الفَتحِ.

وقيل: لعلَّ اختيارَ اسمِ الإشارةِ البعيدِ (هنالك) رمزٌ إلى أنَّ هذا الانهِزامَ سيَكونُ في مكانٍ بَعيدٍ غَيرِ مكَّةَ، فلا تَكونُ الآيةُ مُشيرةً إلى فَتحِ مكَّةَ؛ لأنَّ ذلك الفَتحَ لم يَقَعْ فيه عَذابٌ للمُكَذِّبينَ، بلْ عَفا اللهُ عنهم وكانوا الطُّلَقاءَ[1].

وقيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارةٌ إلى الارتِقاءِ في الأسبابِ، أي: هؤلاءِ القَومُ إنْ رامُوا ذلك جُندٌ مَهزومٌ. وقيل: أُشيرَ بـ ﴿هُنَالِكَ﴾ إلى جُملةِ الأصنامِ وعَضُدِها، أي: هُم جُندٌ مَهزومٌ في هذه السَّبيلِ[2].

- و قيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارةٌ إلى حيثُ وَضَعوا فيه أنفُسَهم مِنَ الانتِدابِ لمِثلِ ذلك القَولِ العَظيمِ -يعني: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] - مِن قَولِهم لِمَن يُنتَدَبُ لأمرٍ ليس مِن أهْلِه: (لَسْتَ هُنالِكَ) -أي: ليس هذا ممَّا يَليقُ بأمثالِك؛ لأنَّك أحَطُّ مَنزلةً من أنْ تُباشِرَه؛ فظهَرَ أنَّ ﴿هُنَالِكَ﴾ هنا كنايةٌ عن تَحقيرِ شأنِهم- فسوف تَراهم مَهزومينَ مَكسورينَ عن قَريبٍ، فمِن أينَ لهمُ التَّدابيرُ الإلهيَّةُ، والتَّصرُّفُ في الأمورِ الربَّانيَّةِ؟! ولا تَكتَرِثْ بقَولِهم، ولا تُبالِ بهم[3].

- و(ما) في قَولِه: ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ حرفٌ زائدٌ يؤكِّدُ معنَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٩).

ما قَبْلَه؛ فهي تَوكيدٌ لِما دَلَّ عليه ﴿جُندٌ﴾ بمَعناهُ، وفيها معنَى الاستِعظامِ، إلَّا أنَّه على سبيلِ الهُزْءِ؛ فإنَّ حاصِلَ الكَلامِ ودَلالةَ المَقامِ مُؤْذِنانِ بالتَّحقيرِ والتَّقليلِ؛ فإنَّ (ما) إذا كانت صِفةً تُستعمَلُ للتَّعظيمِ أو التَّحقيرِ، فالثَّاني هو المُرادُ هنا؛ فتحصَّلَ أنَّ تَنكيرَ ﴿جُندٌ﴾ للتَّعظيمِ، أي: جُندٌ عظيمٌ؛ لأنَّ التَّنوينَ وإنْ دَلَّ على التَّعظيمِ فليس نَصًّا، فصار بالتَّوكيدِ نَصًّا. فإنْ كانت الآيةُ مُشيرةً إلى يَومِ بَدْرٍ فتَعظيمُ جُندٍ؛ لأنَّ رِجالَه عُظماءُ قُرَيشٍ، مِثلُ أبي جَهلٍ وأُمَيَّةَ بنِ خلَفٍ، وإنْ كانت مُشيرةً إلى يَومِ الأحزابِ فتَعظيمُ جُندٍ؛ لكَثرةِ رِجالِه مِن قَبائلِ العرَبِ.

وقيل: إنَّ التَّنوينَ في ﴿جُندٌ﴾ للنَّوعيةِ، أي: ما هُم إلَّا جُندٌ مِنَ الجُنودِ الَّذين كَذَّبوا فأُهلِكوا[1].

- ووَصْفُ ﴿جُندٌ﴾ بأنَّه ﴿مَهْزُومٌ﴾ على معنَى الاستِقبالِ، أي: سيُهزَمُ؛ تنبيهًا على تحقيقِ وُقوعِه، فكأنَّه مِنَ القُربِ بحيثُ هو كالواقِعِ في الحالِ[2].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ للتَّبعيضِ، أي: إنَّ هؤلاء الجُندَ مِن جُملةِ الأُمَمِ والأحزابِ الَّذينَ تَعصَّبوا في الباطِلِ، وكَذَّبوا الرُّسلَ، وهو تَعريضٌ لهم بالوعيدِ بأنْ يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢١٩).

## الآيات (١٢-١٦)

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾: أي: صاحِبُ البِناءِ المُحكَمِ والمُلكِ الثَّابِتِ، والعَرَبُ تَقولُ: هم في عزٍّ ثابِتِ الأوتادِ، ومُلكٍ ثابتِ الأوتادِ، يُريدونَ أنَّه دائِمٌ شَديدٌ. وقيلَ: صاحِبُ القُوَّةِ والبَطشِ والجُنودِ والجُموعِ الكثيرةِ الَّذين يُقَوُّونَ أمْرَه، ويَشُدُّونَ مُلكَه، كما يقوِّي الوَتِدُ[1] الشَّيءَ، فأصلُ هذا أنَّ بيوتَ العربِ كانت تُثبَّتُ بالأوتادِ، وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾: هم قَومُ شُعَيبٍ، والأيْكةُ: الشَّجَرُ المُلتَفُّ المُجتمِعُ، وأصلُ (أيك): يدُلُّ على اجتِماعِ شَجَرٍ[3].

﴿فَوَاقٍ﴾: أي: رُجوعٍ وارتدادٍ، وقيل: راحةٍ لا يُفيقونَ فيها، كما يُفيقُ المريضُ والمَغْشيُّ عليه. وفُواق -بضمِّ الفاءِ- أي: انتِظار. وقيل: الفواقُ بضمِّ الفاءِ وفتحِها

---

(١) الوَتِدُ: ما ثُبِّتَ في الأرضِ أو الحائِطِ من خَشَبٍ ونَحوِه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦٤٦)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٣٢٤)، ((المعجم الوسيط)) (٢/ ١٠٠٩)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٣/ ٢٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٥)، ((الكليات)) لأبي البقاء الكفوي (ص: ٢٢٥).

بمعنًى واحدٍ، وهو ما بيْنَ الحَلْبتَينِ، وأصلُ (فوق) هنا: يدُلُّ على أَوْبةٍ ورُجوعٍ[١].

﴿قِطَّنَا﴾: أي: عذابَنا ونَصيبَنا وحِسابَنا، ويُقالُ لكِتابِ الحِسابِ: قِطٌّ، واشتِقاقُه مِن القَطِّ: وهو القَطعُ، وكذلك النَّصيبُ هو القِطعةُ مِن الشَّيءِ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا ممَّا أصاب الأُممَ السَّابقةَ مِن العذابِ والنَّكالِ حينَ كذَّبتْ رُسلَها؛ حتَّى يَعتبرَ المشركونَ، فيقولُ: كذَّبتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ قَومُ نُوحٍ، وعادٌ قَومُ هُودٍ، وفِرعَونُ صاحِبُ الأوتادِ، وثمودُ قَومُ صالحٍ، وقَومُ لوطٍ، وأصحابُ الأشجارِ المُلتَفَّةِ الَّذين أُرسِلَ إليهم شُعَيبٌ؛ أولئك الأحزابُ الَّذين تَحزَّبوا على الكُفرِ والتَّكذيبِ، كُلُّ هؤلاء الأحزابِ كَذَّب رُسُلَ اللهِ؛ فوجَبَ عليهم عِقابُ اللهِ.

وما يَنتَظِرُ مُشرِكو قُرَيشٍ إلَّا نَفخةً واحدةً يَنفُخُها إسرافيلُ في الصُّورِ ليس لها مِن رجوعٍ ولا إمهالٍ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى ما كان عليه هؤلاء المشركونَ مِن جهالةٍ وسَفَهٍ، حيثُ تعجَّلوا العِقابَ قبْلَ وُقوعِه بهم، فيقولُ: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ تكذيبًا واستِهزاءً: يا رَبَّنا عَجِّلْ لنا نَصيبَنا مِنَ العَذابِ قبْلَ يومِ القيامةِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢)، ((الغريبين)) للهروي (٥/ ١٥٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٦).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر في الجوابِ عن شُبهةِ القَوم أنَّهم إنَّما تَوانَوا وتكاسَلوا في النَّظَرِ والاستِدلالِ لأجْلِ أنَّهم لم يَنزِلْ بهم العَذابُ؛ بيَّنَ تعالى في هذه الآيةِ أنَّ أقوامَ سائِرِ الأنبياءِ هكذا كانوا، ثمَّ بالآخرةِ نَزَل ذلك العِقابُ، والمقصودُ منه تخويفُ أولئك الكُفَّارِ الَّذين كانوا يُكَذِّبونَ الرَّسولَ في إخبارِه عن نُزولِ العِقابِ عليهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه أهلَكَ قبْلَ قُرَيشٍ قُرونًا كثيرةً لَمَّا كَذَّبوا رُسُلَهم؛ سَرَد منهم هنا مَن لهم تعلُّقٌ بعِرفانِه[2].

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢﴾.

أي: كذَّبَتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ قَومُ نُوحٍ، وعادٌ قَومُ هُودٍ، وفِرعَونُ صاحِبُ الأوتادِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

واختلَف المفسِّرون في معنى الأوتادِ على أقوالٍ؛ منها:

أنَّها الأوتادُ المعروفةُ؛ فكان فِرعَونُ يَتَّخِذُها إمَّا لتعذيبِ النَّاسِ، وإمَّا لأنَّه كان يُلعَبُ له بها. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ جرير. ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١).

وممَّن قال مِن المفسِّرينَ: إنَّها كانت تُستخدَمُ للتَّعذيبِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وجلال الدين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٩)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٠٢). =

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ١٠].

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وكذَّبتْ قبْلَ مُشركي قُرَيشٍ ثَمودُ قَومُ صالحٍ، وقَومُ لوطٍ، وأصحابُ الأشجارِ المُلتَفَّةِ[1] الَّذين أُرسِلَ إليهم شُعَيبٌ، أولئك الأحزابُ الَّذين تَحزَّبوا

---

= قال الواحدي: (قال المُفسِّرونَ: كانت له أوتادٌ يُعَذِّبُ النَّاسَ عليها). ((الوسيط)) (٣/ ٥٤١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨١).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّها ملاعبُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨١).

وقيل: الأوتادُ: هي البناياتُ العظيمةُ العاليةُ. وممَّن اختار هذا القولَ في الجملةِ: ابنُ عطية، والغزنوي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٥)، ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢١).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ البُنيانُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨٠).

وقيل: ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾: أي: ذو الملكِ الثَّابتِ الشَّديدِ. وممَّن اختار هذا القولَ: السمرقنديُّ، والواحدي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧).

وقيل: المرادُ بالأوتادِ: ما لديه مِن الأسبابِ الموجِبةِ لِثَباتِ المُلكِ وتَقويتِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال الشنقيطي: (العلماءُ مختلِفونَ: هل أصحابُ الأيْكةِ هم مَدْيَنُ أنفُسُهم، فيكون شُعيبٌ =

على الكُفرِ باللهِ، وتكذيبِ رُسُلِه، ورَدِّ الحَقِّ[١].

= أُرسِلَ إلى أُمَّةٍ واحدةٍ، أو مَدْيَنُ أُمَّةٌ وأصحابُ الأيْكةِ أمَّةٌ أخرى، فيكون شعيبٌ قد أُرسِلَ إلى أُمَّتَيْنِ؟ هذا خلافٌ معروفٌ بَيْنَ العلماءِ، وأكثرُ أهلِ العلمِ على أنَّهم أمَّةٌ واحدةٌ، كانوا يعبدونَ أيْكةً، أي: شجرًا مُلْتَفًّا، وأنَّ اللهَ سمَّاهم مرَّةً بنسَبِهم «مدين»، ومرَّةً أضافهم إلى الأيْكةِ الَّتي يَعبُدونَها. وجزَمَ بصحَّةِ هذا ابنُ كثيرٍ في تاريخِه وتفسيرِه، ومِمَّن اشتهر عنه أنَّهم أُمَّتَانِ: قَتادةُ وجماعةٌ، وهو خلافٌ معروفٌ. والَّذين قالوا: إنَّهما أُمَّتانِ قالوا: في «مدين» قال: إنَّه أخوهم، حيث قال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف: ٨٥]، أمَّا أصحابُ الأيْكةِ فلم يَقُلْ: إنَّه أخوهم، بل قال: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]، ولم يقلْ: أخوهم شعيبٌ. وأُجيبَ عن هذا بأنَّه لَمَّا ذَكَر مَدْيَنَ ذَكَر الجَدَّ الَّذي يَشملُ القبيلةَ ومِنْ جُملتِها شعيبٌ، ذكَر أنَّه أخوهم مِن النَّسَبِ. أمَّا قولُه: ﴿أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾ فمعناه: أنَّهم يَعبُدونها، ولَمَّا ذَكَرهم في مقامِ الشِّركِ وعبادةِ غيرِ اللهِ لم يُدْخِلْ معهم شُعَيبًا في ذلك وهم أُمَّةٌ واحدةٌ. هكذا قاله بعضُهم، واللهُ أعلَمُ). ((العذب النمير)) (٣/ ٥٧٢).

والقولُ بأنَّ أصحابَ الأيْكةِ هم أهلُ مَدْيَنَ هو قولُ أكثرِ أهلِ العلمِ، واختاره ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، وممَّن ذهب إليه مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٥٨)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٤٣٨).

وذهب قَتادةُ -كما في ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٣٧)- ومقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشورٍ إلى أنَّ مَدْيَنَ غيرُ أصحابِ الأيْكةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير سورة ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٦٧، ٦٨).

قال السمرقندي: (سُمُّوا أحزابًا؛ لأنَّهم تحزَّبوا على أنبيائِهم، أي: تجمَّعوا). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٠).

وقال الشربيني: (وقيل: المعنى: ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ مُبالَغةً في وَصفِهم بالقُوَّةِ، كما يُقالُ: فُلانٌ هو الرَّجُلُ، أي: أولئك الأحزابُ مع كمالِ قُوَّتِهم لَمَّا كان عاقِبَتُهم هي الهلاكَ والبَوارَ، فكيف حالُ هؤلاء الضُّعَفاءِ المَساكينِ إذا نزَل عليهم العذابُ، وفي الآيةِ زَجرٌ وتَخويفٌ للسَّامِعينَ). ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٠٢).

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧].

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: كُلُّ تلك الأحزابِ قد وقَعَت في تَكذيبِ رُسُلِ اللهِ؛ فوجَبَ عليهم عِقابُ اللهِ؛ فلْيَحذَرِ المكَذِّبونَ بمُحمَّدٍ أن يُعاقَبوا كما عُوقِبَ مَن قَبْلَهم[1].

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِن بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥].

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾.

**القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:**

في قولِه: ﴿فَوَاقٍ﴾ قراءاتانِ:

١- قراءةُ ﴿فُوَاقٍ﴾ بضمِّ الفاءِ، أي: تأخيرٍ، وتوقُّفٍ مِقدارَ فُواقِ ناقةٍ، وهي ما بيْنَ حَلْبَتي اللَّبنِ، وقيل: رجوعٍ، وقيل: تَردادٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٦٨-٧٠).

(٢) قرأ بها حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١). =

٢- قراءةُ ﴿فَوَاقٍ﴾ بفتحِ الفاءِ، أي: راحةٍ، وقيل: رجوعٍ، وقيل: تَردادٍ، وقيل: القراءتانِ بمعنًى واحدٍ، فالفتحُ والضمُّ لُغتانِ[١].

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بيَّن عِقابَ كفَّارِ قريشٍ إثرَ بيانِ عِقابِ أضرابِهم، فقال[٢]:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾.

أي: وما يَنتَظِرُ المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ إلَّا سَماعَ النَّفخةِ الأُولى في الصُّورِ، وهي نَفخةٌ ما لها مِن رجوعٍ ولا إمهالٍ[٣].

---

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٦٣).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٦٣).

قال ابنُ عاشور: (جمهورُ أهلِ اللُّغةِ على أنَّ الفَتحَ والضَّمَّ فيه سواءٌ، وذهب أبو عُبَيدةَ والفَرَّاءُ إلى أنَّ بيْنَ المفتوحِ والمضمومِ فَرقًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).

قال ابنُ جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك أنَّهما لُغتانِ؛ وذلك أنَّا لم نَجِدْ أحدًا مِن المُتقَدِّمينَ على اختلافِهم في قراءتِه يُفَرِّقون بيْن معنى الضَّمِّ فيه والفتحِ، ولو كان مُختَلِفَ المعنى باختِلافِ الفَتحِ فيه والضَّمِّ لقد كانوا فرَّقوا بيْن ذلك في المعنى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٥- ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٣-٧٥).

قال ابنُ عاشور: (تَتَبَّعتُ اصطِلاحَ القُرآنِ فوَجَدْتُه إذا استعمل «هَؤُلَاءِ» ولم يكُنْ معه مُشارٌ =

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

= إليه مذكورٌ: أنَّه يريدُ به المُشرِكينَ مِن أهلِ مَكَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالصَّيحةِ: النَّفخةُ الأُولى في الصُّورِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والرسعني، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٠)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٢٦١٠)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٦).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).

قال الشوكاني: (﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا صَيحةً، وهي النَّفخةُ الكائِنةُ عندَ قيامِ السَّاعةِ. وقيل: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ. وعلى الأوَّلِ: المرادُ مَن عاصَرَ نبيَّنا صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الكُفَّارِ، وعلى الثَّاني: المرادُ كُفَّارُ الأُمَمِ المذكورةِ، أي: ليس بيْنَهم وبيْن حُلولِ ما أعَدَّ الله لهم مِن عذابٍ إلَّا أن يُنفَخَ في الصُّورِ النَّفخةُ الثَّانيةُ. وقيل: المرادُ بالصَّيحةِ: عذابٌ يَفجَؤُهم في الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٦).

واختُلِف في معنى قولِه: ﴿مِن فَوَاقٍ﴾؛ فقيل: المعنى: ما لتلك الصَّيحةِ مِن فُتورٍ ولا انقِطاعٍ ولا تَردادٍ، فهي مُمتدَّةٌ لا تقطيعَ فيها. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٦، ١٥٧).

وقيل: المعنى: ما لَها مِن توقُّفٍ مِقدارَ فَواقٍ، فإذا جاء وقتُها لم يُمهلْ هذا القَدر. وممَّن اختار هذا المعنى: النيسابوري، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).

وقيل: المعنى: ليس بعدَها رجوعٌ إلى الدُّنيا ولا مَرَدٌّ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٠).

قال الشوكاني: (ومعنى الآيةِ: أنَّ تلك الصَّيحةَ هي ميعادُ عَذابِهم، فإذا جاءت لم تَرجِعْ، ولا تُرَدُّ عنهم، ولا تُصرَفُ منهم، ولا تتوقَّفُ مِقدارَ فَواقِ ناقةٍ، وهي ما بيْنَ حَلْبَتَيِ الحالِبِ لها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٦). =

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذا الأصلُ الثَّالِثُ مِن أُصولِ كُفرِ المُشرِكينَ، وهو إنكارُ البَعثِ والجَزاءِ؛ فهو عَطفٌ على ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، فذكَرَ قَولَهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْأَلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، ثمَّ ذكَرَ قَولَهم: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨] وما عَقَبَه من عواقِبِ مِثلِ ذلك القَولِ؛ فأفضَى القَولُ إلى أصلِهم الثَّالِثِ[١].

وأيضًا لَمَّا عَجَّب منهم بما مضَى، وأبطَلَ شُبَهَهم، وعَرَّفهم أنَّهم قد عَرَّضوا أنفُسَهم للهلاكِ تَعريضًا قَريبًا؛ أتْبَع ذلك تَعجيبًا أشَدَّ مِن الأوَّلِ، فقال[٢]:

﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ استِهزاءً وتَكذيبًا: يا رَبَّنا عجِّلْ لنا نَصيبَنا الَّذي تُوعِّدْنا به مِن العذابِ قبْلَ يومِ القيامةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ فيه الاعتبارُ بالأغلَبِ، وأنَّ

---

= وقال ابنُ عثيمين: (ويمكِنُ أن نقولَ: إنَّ القِراءتَينِ تَجمَعانِ المَعنيَينِ؛ فيَكونُ معنى ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ أي: ما لها مِن رُجوعٍ ولا إمهالٍ). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٥).
وذكَرَ البِقاعي احتِمالاتٍ أخرى في معنى الآيةِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٧، ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٦، ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٤، ٧٥).

الكُلَّ قد يُطلَقُ على الأغلَبِ؛ لأنَّ قَومَ نوحٍ عليه السَّلامُ لم يُكَذِّبوا كلُّهم؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وكذلك عادٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٥٨]، وكذلك لُوطٌ عليه السَّلامُ؛ آمَنَ معه مَن آمَنَ مِن أهلِه، كما قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥]، كذلك فِرعَونُ لم يُؤْمِنْ إلَّا حينَما أدرَكَه الغَرَقُ إيمانًا لا يَنفَعُه، وكذلك صالحٌ عليه السَّلامُ آمَنَ معه مَن آمَنَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أنَّ تكذيبَ الرُّسُلِ سَبَبٌ للعُقوبةِ، و(الفاءُ) هنا سَبَبيَّةٌ، وهي عاطِفةٌ تدُلُّ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ، ففيها سَبَبيَّةٌ وتَعقيبٌ، وأنَّ العِقابَ حلَّ بهم وهم ما زالوا على تكذيبِهم[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ يُؤخَذُ منه فائِدةٌ، وهي شِدَّةُ هذه العُقوبةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أضافَها إلى نَفْسِه، وقد قال سُبحانَه وتعالى عن نَفْسِه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] [المائدة: ٩٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا﴾ اعترافُ المُشرِكينَ بالرُّبوبيَّةِ، فهم مُقِرُّون بالرُّبوبيَّةِ، ومُقِرُّونَ بانفِرادِ اللهِ تعالى بها؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[٤] [لقمان: ٢٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَا﴾ أنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ لا يُخرِجُ الإنسانَ مِن الكُفرِ إذا كان لم يُقِرَّ بتَوحيدِ الألوهيَّةِ؛ لأنَّ هؤلاء مُقِرُّون بالرُّبوبيَّةِ، وأنَّ اللهَ هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٨).

الخالقُ الرَّازقُ، والمُنفَرِدُ بالخَلقِ والرزقِ، لكِنَّهم يُشرِكونَ به في العِبادةِ؛ يَعبُدونَ معه غيرَه، فلم يُدْخِلْهم ذلك في الإسلامِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا﴾ بُطلانُ ما ذَهَبَ إليه كثيرٌ مِن المتكلِّمين في تفسيرِ التَّوحيدِ؛ حيث قالوا في تفسيرِ التَّوحيدِ: «أنْ تؤمِنَ بأنَّ اللهَ واحدٌ في ذاتِه لا قَسيمَ له، واحِدٌ في أفعالِه لا شَريكَ له، واحِدٌ في صفاتِه لا شَبيهَ له»؛ هذا هو التَّوحيدُ عندَ عامَّةِ المُتكَلِّمينَ، ولم يَتعَرَّضوا فيه لِذِكرِ الألوهيَّةِ إطلاقًا! فما ذكروه لم يَدخُلْ فيه توحيدُ الألوهيَّةِ الَّذي جاءتِ الرُّسُلِ بتَحقيقِه وإثباتِه والقِتالِ عليه، لم يَقولوا: واحِدٌ في ألوهيَّتِه لا يُعبَدُ غيرُه[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه ببيانِ أحوالِ العُتاةِ الطُّغاةِ الَّذينَ هؤلاءِ جُندٌ ما مِن جُنودِهم، ممَّا فَعَلوا مِنَ التَّكذيبِ، وفُعِل بهم مِنَ العِقابِ[٣].

- ولَمَّا كان قَولُه: ﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ [ص: ١١] تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووعْدًا له بالنَّصرِ، وتَعريضًا بوَعيدِ مُكذِّبيهِ؛ جيءَ بما هو كالبَيانِ لهذا التَّعريضِ، والدَّليلِ على المَصيرِ المَقصودِ على طريقةِ قياسِ المُساواةِ[٤]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٧).

(٤) القياسُ: تقدَّمَ تعريفُه عندَ الأصوليِّينَ (ص: ٢١)، وهو عندَ أهلِ المنطقِ: قولٌ مؤلَّفٌ مِن قضايا إذا سَلِمَتْ لزِم عنها لِذَاتِها قولٌ آخَرُ؛ كقولِنا: «العالَمُ متغيِّرٌ، وكلُّ متغيِّرٍ حادثٌ»؛ فإنَّه قولٌ مرَكَّبٌ مِن قضيَّتَينِ، إذا سَلِمتَا لَزِم عنهما لِذاتِهما: العالَمُ حادِثٌ. =

وهو قولُه هنا: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾[1].

- قَولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ حُذِف مَفعولُ ﴿كَذَّبَتْ﴾؛ لأنَّه سيَرِدُ ما يُبَيِّنُه في قَولِه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾[2].

- قَولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ خُصَّ فِرعونُ بإسنادِ التَّكذيبِ إليه دُونَ قَومِه؛ لأنَّ اللهَ أرسَلَ موسى عليه السَّلامُ إلى فِرعونَ لِيُطْلِقَ بَني إسرائيلَ، فكَذَّبَ موسى، فأمَرَ اللهُ موسى بمُجادَلةِ فِرعونَ لإبطالِ كُفرِه، فتَسَلْسَلَ الجِدالُ في العقيدةِ، ووجَبَ إشهارُ أنَّ فِرعونَ وقَومَه في ضَلالٍ؛ لِئلَّا يَغتَرَّ بَنو إسرائيلَ بشُبُهاتِ فِرعونَ، ثمَّ كان فِرعونُ عَقِب ذلك مُضمِرًا أذَى موسى عليه السَّلامُ ومُعلِنًا بتَكذيبِه[3].

- ووُصِف فِرعونُ بأنَّه ﴿ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾؛ لعَظَمةِ مُلكِه وقوَّتِه، فلمْ يكُنْ ذلك لِيَحولَ بيْنَه وبيْن عَذابِ اللهِ. وعُبِّر بالأوتادِ هنا عن ثَباتِ المُلكِ والعِزِّ، ورُسوخِ السَّلطنةِ واستِقامةِ الأمْرِ، مِن ثَباتِ البَيتِ المُطنَّبِ بأوتادٍ، أو

---

= وقياسُ المُساواةِ: هو كلُّ قياسٍ مرَكَّبٍ مِن قضيتَينِ يكونُ مُتعلقُ محمولِ الصُّغرى موضوعًا في الكبرى؛ فإنَّ استِلزامَه لا بالذَّاتِ، بل بواسطةِ مقدمةٍ أجنبيَّةٍ، حيثُ تَصدُقُ يَتحقَّقُ الاستِلزامُ؛ كقولِنا: (أ) مساوٍ لـ (ب)، و (ب) مساوٍ لـ (ج)؛ فإنَّه يلزمه (أ) مساوٍ لـ (ج)، ولكن لا لنفْسِه، بل بواسطةِ مقدمةٍ أجنبيَّةٍ، أي: مقدمةٍ غيرِ لازمةٍ لإحدى مقدمتَي القياسِ. وحيث لا تصدُقُ لا يَتحقَّقُ، كقولِنا: (أ) نصفٌ لـ (ب)، و (ب) نصفٌ لـ (ج)؛ فلا يصدقُ (أ) نصفٌ لـ (ج)؛ إذ نصْفُ النِّصفِ ليس بنصفٍ، بل هو ربعٌ.

يُنظر: ((بيان المختصر)) للأصفهاني (١/ ٣٦)، ((أصول الفقه)) لابن مفلح (١/ ٢١)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٨١، ١٨٢)، ((كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم)) للتهانوي (٢/ ١٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المعنى: ذُو الجُموعِ الكثيرةِ؛ سُمُّوا بذلك لأنَّ بعضَهم يَشُدُّ بعضًا، كالوتِدِ يَشُدُّ البِناءَ[١]. وقيل غيرُ ذلك.

- وفي قَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ مُناسَبَةٌ حسَنةٌ، حيثُ ختَمَ أواخِرَ آياتِه هنا بما قبْلَ آخِرِه ألْفٌ، وختَمَ آياتِ قَولِه في سورةِ (ق): ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ بما قبْلَ آخِرِه ياءٌ أو واوٌ؛ موافَقةً لبَقيَّةِ فَواصِلِ السُّورتَينِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾

- جُملةُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ وجُملةِ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾، واسمُ الإشارةِ مُستعمَلٌ في التَّعظيمِ، أي: تَعظيمِ القوَّةِ[٣].

- وقُصِد بهذه الإشارةِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الإعلامُ والتَّأكيدُ، والتَّنبيهُ بأنَّ الأحزابَ الَّذينَ جُعِل الجُندُ المَهزومُ منهم هُمْ هُمْ، وأنَّهم هُمُ الَّذينَ وُجِد مِنهمُ التَّكذيبُ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ إشارةً إلى جميعِ الأحزابِ؛ لاستِحضارِهم بالذِّكرِ، أو لأنَّهم كالحُضورِ عِندَ اللهِ[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾ استِغراقٌ ادِّعائيٌّ، وهو المُسمَّى بالدَّلالةِ على معنَى الكَمالِ، مِثلُ: هُمُ القَومُ، وأنت الرَّجُلُ. والحَصرُ المُستفادُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٨-٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧).

تعريفِ المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه حَصْرٌ ادِّعائيٌّ[١]، قُصِرَتْ صِفةُ الأحزابِ على المُشارِ إليهم بـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بادِّعاءِ الأُمَمِ، وأنَّ غَيْرَهم لَمَّا يَبلُغوا مَبلَغَ أنْ يُعَدُّوا مِنَ الأحزابِ؛ فظاهِرُ القَصرِ ولامُ الكَمالِ لتأكيدِ معنَى الكَمالِ، والمعنَى: أولئك المَذْكورونَ هُمُ الأُمَمُ، لا تُضاهِيهم أُمَمٌ في القُوَّةِ والشِّدَّةِ، وهذا تعريضٌ بتَخويفِ مُشرِكي العرَبِ مِن أنْ يَنزِلَ بهم ما نزَلَ بأولئكَ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾

- قَولُه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ استِئنافٌ جيءَ به تَقريرًا لتَكذيبِهم، وبيانًا لكَيْفيَّتِه، وتَمهيدًا لِما يَعقُبُه[٣].

- وجُملةُ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ مؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ إلى قَولِه ﴿وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ﴾؛ أخبَرَ أوَّلًا عنهم بأنَّهم كَذَّبوا، وأكَّدَ ذلك بالإخبارِ عنهم بأنَّهم ليسوا إلَّا مُكذِّبينَ على

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكور منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و (٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢١، ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧).

وَجهِ الحَصرِ، كأنَّهم لا صِفةَ لهم إلَّا تَكذيبُ الرُّسلِ؛ لِتَوَغُّلِهم فيها، وكَونِها هِجِّيراهُم[١].

- وفي قَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ ذكَرَ تكذيبَ الأحزابِ أوَّلًا في الجُملةِ الخَبريَّةِ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ على وَجهِ الإبهامِ، ثمَّ جاء بالجُملةِ الاستِثنائيَّةِ ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ فأوْضَحه فيها بأنَّ كلَّ واحِدٍ مِنَ الأحزابِ كَذَّبَ جميعَ الرُّسلِ؛ لأنَّهم إذا كَذَّبوا واحدًا منهم فقد كَذَّبوهم جميعًا.

وقيل: ما كلُّ حِزبٍ إلَّا كَذَّب رسولَه على نَهجِ مُقابَلةِ الجَمعِ بالجَمعِ. وفي تَكريرِ التَّكذيبِ، وإيضاحِه بعْدَ إبهامِه، والتَّنويعِ في تَكريرِه بالجُملةِ الخَبريَّةِ أوَّلًا وبالاستِثنائيَّةِ ثانيًا، وما في الاستِثنائيَّةِ مِنَ الوَضعِ على وَجهِ التَّوكيدِ والتَّخصيصِ: أنواعٌ مِنَ المُبالَغةِ المُسَجِّلةِ عليهم باستِحقاقِ أشَدِّ العِقابِ وأبْلَغِه، ثمَّ قال: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: فوجَبَ لذلك أنْ أُعاقِبَهم حَقَّ عِقابِهم[٢].

وجيءَ بالمُسنَدِ فِعلًا في قَولِه: ﴿كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾؛ ليُفيدَ تَقديمُ المُسنَدِ إليه عليه تَخصيصَ المُسنَدِ إليه بالمُسنَدِ الفِعليِّ، فحصَلَ بهذا النَّظمِ تأكيدُ الحَصرِ[٣].

- وقد حصَلَ تَسجيلُ التَّكذيبِ عليهم بفُنونٍ مِن تَقويةِ ذلك التَّسجيلِ؛ وهي إبهامُ مَفعولِ ﴿كَذَّبَتْ﴾ في قَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾، ثم تَفصيلُه بقَولِه: ﴿إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦، ٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٢).

كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ وما في قَولِه: ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ مِنَ الحَصرِ، وما في تأكيدِه بالمُسنَدِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿إِلَّا كَذَّبَ﴾، وما في جَعلِ المُكَذَّبِ به جميعَ الرُّسلِ، فأنتَجَ ذلك التَّسجيلُ استِحقاقَهم عَذابَ اللهِ في قَولِه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: عِقابي، فحُذِفتْ ياءُ المُتكلِّمِ؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، وأُبقيَتِ الكَسرةُ في حالةِ الوَصلِ[1].

- وتَعديةُ ﴿كَذَّبَ﴾ إلى ﴿ٱلرُّسُلَ﴾ بصِيغةِ الجَمعِ -مع أنَّ كلَّ أُمَّةٍ إنَّما كذَّبَتْ رَسولَها- مَقصودٌ منه تَفظيعُ التَّكذيبِ؛ لأنَّ الأُمَّةَ إنَّما كذَّبَتْ رَسولَها مُستَنِدةً لحُجَّةٍ سُفسْطائيَّةٍ[2] هي استِحالةُ أنْ يَكونَ واحدٌ مِنَ البشَرِ رَسولًا مِنَ اللهِ، فهذه السَّفْسَطةُ تَقتَضي أنَّهم يُكَذِّبونَ جميعَ الرُّسلِ[3].

- وقَولُه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي: تَحقَّقَ وكان حَقًّا؛ لأنَّه اقتَضاهُ عظيمُ جُرمِهم. والعِقابُ: هو ما حَلَّ بكلِّ أُمَّةٍ منهم مِنَ العَذابِ، وهو الغرَقُ والتَّمزيقُ بالرِّيحِ، والغرَقُ أيضًا، والصَّيحةُ، والخَسفُ، وعَذابُ يَومِ الظُّلَّةِ. وفي هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٨).

(٢) السُفِسْطائيَّةُ: فرقةٌ يونانيَّةٌ قديمةٌ، وهم أصنافٌ ثلاثةٌ: فمِنهم الَّذين ينفون حقائقَ الاشياءِ كلَّها، ومنهم الَّذين شكُّوا فى وجودِ الحقائقِ، ومنهم مَن ذهَب إلى أنَّ حقائقَ الاشياءِ تابِعَةٌ للاعتقادِ، وصحَّحوا جميعَ الاعتقاداتِ معَ تضادِّها وتنافيها. يُنظر: ((الفرق بين الفرق)) للبغدادي (ص: ٣١١)، ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ١٤)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٢/ ١٠٧٣).

والسَّفْسَطَةُ: هي قياسٌ مركَّبٌ مِن الوهميَّاتِ، والغرضُ منه تغليطُ الخصمِ وإسكاتُه. وهي كلمةٌ يونانيَّةٌ معناها: الغلطُ، والحِكمةُ المُموَّهَةُ. والغلطُ يقعُ بوجوهٍ كثيرةٍ: مِن جهةِ اللفظِ، أو مِن جهةِ المعنَى، أو مِن طريقِ الحذفِ والإضمارِ، أو في تركيبِ المقدِّماتِ الوهميَّةِ مكانَ القطعيَّةِ إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((تقريب الوصول)) لابن جزي (ص: ١٤٩)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١١٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٢).

تَعريضٌ بالتَّهديدِ لِمُشركي قُرَيشٍ بعَذابٍ مِثلِ عَذابِ أولئك؛ لاتِّحادِهم في مُوجِبِه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾

- قَولُه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ أيضًا مَسوقٌ لتَقريرِ عِقابِ كُفَّارِ مَكَّةَ بعْدَ بَيانِ عِقابِ مَن سَبَقوهم في الغَوايةِ، وأَضرابِهم مِنَ الأحزابِ الَّذينَ أُخبِرَ فيما سبَقَ بأنَّهم جُندٌ حَقيرٌ مِنهم مَهزومٌ عن قَريبٍ؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يُوجِبُ انتِظارَ السَّامعِ وتَرَقُّبَه إلى بَيانِه قَطْعًا. وفي الإشارةِ إليهم بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ تَحقيرٌ لشأنِهم، وتَهوينٌ لأمرِهم[٢].

- قَولُه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ﴾ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إشارةٌ إلى كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ لِأنَّ تَجدُّدَ دَعوَتِهم ووَعيدَهم وتَكذيبَهم يَومًا فيَومًا جَعَلَهم كالحاضِرينَ؛ فكانتِ الإشارةُ مَفهومًا منها أنَّها إليهم، ولِمَا أنَّ أسماءَ الإشارةِ تَقتَضي أنْ يَكونَ المُشارُ إليه مَحسوسًا، أو في حُكمِ المَحسوسِ، أشارَ إليهم باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ لاستِحضارِهم بالذِّكرِ، أو لِأنَّهم كالحُضورِ عِندَ اللهِ، مع ما في اسمِ الإشارةِ مِن تَحقيرٍ لهم، فـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مُشارٌ به إلى الَّذين أدبَروا عنكَ ﴿فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ص: ٢]، وغايةُ جهدِهم أنْ يَكونوا مِنَ الأحزابِ الَّذين تَحزَّبوا على جُندِنا، فأخَذْناهم بما هو مَشهورٌ مِن وَقائِعِنا ومَعروفٌ مِن أيَّامِنا بأصنافِ العَذابِ، ولم تُغنِ عنهم كَثرَتُهم ولا قُوَّتُهم شَيئًا، ولم يَضُرَّ جُندَنا ضَعفُهم ولا قِلَّتُهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦، ٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٤)، =

- قَولُه: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾ فيه وَصْفُ الصَّيحةِ بواحِدةٍ؛ إشارةً إلى أنَّ الصَّاعِقةَ عظيمةٌ مُهلِكةٌ، أو أنَّ النَّفخةَ واحِدةٌ، وهي نَفخةُ الصَّعقِ(١).

- وأُسنِدَ الانتِظارُ إليهم بقولِه: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ في حِينِ أنَّهم غافِلونَ عن ذلك ومُكَذِّبونَ بظاهِرِه؛ فإنَّهم يَنتظِرُ بهم ذلك المُسلِمونَ المَوعودونَ بالنَّصرِ، أو يَنتظِرُ بهمُ المَلائكةُ المُوَكَّلونَ بحَشرِهم عِندَ النَّفخةِ، فلمَّا كانوا مُتعلَّقَ الانتِظارِ أُسنِدَ فِعلُ ﴿يَنظُرُ﴾ إليهم؛ لِمُلابَسةِ المَفعوليَّةِ، على نَحوِ: ﴿فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ﴾ [الحاقة: ٢١](٢) [القارعة: ٧].

- ولَمَّا أَشعَرَ قَولُه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص: ١٤] بتَهديدِ مُشرِكي قُرَيشٍ بعَذابٍ يَنتظِرُهم جَزْيًا على سُنَّةِ اللهِ في جزاءِ المُكذِّبينَ رُسُلَه؛ عُطِف على جُملةِ الإخبارِ عن حُلولِ العَذابِ بالأحزابِ السَّابِقينَ جُملةُ تَوَعُّدٍ بعذابِ الَّذينَ ماثَلوهم في التَّكذيبِ، وهي قَولُه: ﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾(٣).

- قَولُه: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾ الفَواقُ هي المُدَّةُ الَّتي بيْنَ الحَلْبتَينِ، وهي ساعةٌ قَليلةٌ، والمُرادُ بقَولِه: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ﴾ أنَّه ليس بعدَها إمهالٌ بقَدرِ الفَواقِ، وعَبَّرَ بذلك عن سُرعةِ الأخْذِ وعَدَمِ الإمهالِ، ولو لِمُدَّةٍ يَسيرةٍ، فإذا جاءَ وَقتُها لم تَستَأخِرْ هذا القَدْرَ مِنَ الزَّمانِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ

---

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٢٣).

سَاعَةً﴾ [الأعراف: ٣٤]. وقيل غيرُ ذلك[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ كلامٌ مستأنَفٌ مَسوقٌ لسَردِ أَنماطٍ مِن تَمَحُّلِهم واستِهزائِهم بعْدَ أنْ نزَلَ قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾، وحكايةٌ لحالةِ استِخفافِ الكافِرينَ بالبَعثِ والجَزاءِ وتَكذيبِهم ذلك، وتَكذيبِهم بوَعيدِ القُرآنِ إيَّاهُم، فلمَّا هَدَّدَهمُ القُرآنُ بعَذابِ اللهِ قالوا: ربَّنا عَجِّلْ لنا نَصيبَنا مِنَ العَذابِ في الدُّنيا قبْلَ يَومِ الحِسابِ؛ إظهارًا لعدَمِ اكتِراثِهم بالوَعيدِ وتَكذيبِه؛ لِئلَّا يَظُنَّ المُسلِمونَ أنَّ استِخفافَهم بالوَعيدِ لأنَّهم لا يؤْمِنونَ بالبَعثِ، فأبانُوا لهم أنَّهم لا يُصَدِّقونَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في كلِّ وعيدٍ حتَّى الوَعيدِ بعَذابِ الدُّنيا الَّذي يَعتَقِدونَ أنَّه في تَصرُّفِ اللهِ. فالقَولُ هذا قالُوه على وَجهِ الاستِهزاءِ، وحُكيَ عنهم هنا؛ إظهارًا لرَقاعَتِهم وتَصلُّبِهم في الكُفرِ. وتَسميتُهم يَومَ الحِسابِ أيضًا مِنَ التَّهكُّمِ؛ لأنَّهم لا يؤْمِنونَ بالحِسابِ[٢].

- وتصديرُ دُعائِهم بالنِّداءِ المذكورِ في قَولِه: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾؛ للإمعانِ في الاستِهزاءِ، كأنَّهم يَدْعُون ذلك بكَمالِ الرَّغبةِ والابتِهالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٤- ٢٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٨).

## الآيات (١٧-٢٠)

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٩ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَيۡدِ﴾: أي: القُوَّةِ الشَّديدةِ، وأصلُ (أيد): يدُلُّ على القُوَّةِ والحِفظِ[١].

﴿أَوَّابٞ﴾: أي: رَجَّاعٌ توَّابٌ، مِن قَولِهم: آبَ الرَّجُلُ إلى أهلِه: إذا رجَعَ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[٢].

﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾: أي: آخِرِ النَّهارِ مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو مِن الظُّهرِ إلى نِصفِ اللَّيلِ، أو صَلاةِ العَصرِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ وقِلَّةِ وُضوحٍ[٣].

﴿وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾: أي: وَقتِ إشراقِ الشَّمسِ، أي: سُطوعِها وصَفاءِ ضَوئِها، وهو وَقتُ صَلاةِ الضُّحى، وهو غيرُ الشُّروقِ؛ لأنَّ الشُّروقَ هو وَقتُ طُلوعِ الشَّمسِ. يُقالُ: شَرَقَت الشَّمسُ: إذا طَلَعَت، وأشرَقَت: إذا أضاءَت. وأصلُ (شرق): يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

على إضاءةٍ وفَتحٍ[١].

﴿مَحۡشُورَةٞ﴾: أي: مَجموعةً، وأصلُ الحَشرِ: يدُلُّ على السَّوقِ والبَعثِ[٢].

﴿وَشَدَدۡنَا﴾: أي: قَوَّيْنا، والشَّدُّ: العَقدُ القَويُّ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ[٣].

﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾: أي: النُّبُوَّةَ، وإصابةَ الصَّوابِ في القولِ والفعلِ، وأصلُ (حكم): يدُلُّ على المَنعِ، والحِكمةُ هذا قياسُها؛ لأنَّها تَمنَعُ من الجَهلِ[٤].

﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾: أي: بَيانَ الكَلامِ وبلاغَتَه، وجَمْعَه للمَعنى المقصودِ الفاصِلِ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ وإبانتِه[٥].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، آمِرًا له بالصَّبرِ: اصبِرْ -يا مُحمَّدُ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦، ٣٢٦، ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨) و(٤/ ٥٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

على ما يَقولُه أولئك المُشرِكونَ، واذكُرْ عَبدَنا داودَ ذا القُوَّةِ؛ إنَّه كثيرُ التَّوبةِ والرُّجوعِ إلى رَبِّه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى بعضَ مظاهرِ فضلِه على عبدِه داودَ عيه السَّلامُ، فيقولُ: إنَّا سَخَّرْنا الجِبالَ معه يُسَبِّحْنَ اللهَ آخِرَ النَّهارِ وأوَّلَه، وسَخَّرْنا الطَّيرَ مَجموعةً له، كلٌّ له رَجَّاعٌ، يُسبِّحُ بتَسبيحِه، وقَوَّيْنا مُلْكَ داودَ وثبَّتْناه، وآتَيْناه الحِكمةَ، والفَصْلَ في الكلامِ وفي الحُكمِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ١٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ الكُفَّارَ لَمَّا بالَغوا في السَّفاهةِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيثُ قالوا: إنَّه ساحِرٌ كذَّابٌ، وقالوا له على سَبيلِ الاستِهزاءِ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾؛ أمَرَه اللهُ تعالى بالصَّبرِ على سَفاهتِهم[1].

﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أي: اصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُه مُشرِكو قَومِك مِن كُلِّ ما يَسوؤُك مِن أقوالِهم[2].

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه بالصَّبرِ على قَومِه، أمَرَه أن يَستعينَ على الصَّبرِ بالعبادةِ لله

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

وَحْدَه، ويَتذكَّرَ حالَ العابِدينَ[١].

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- عَبْدَنا داودَ ذا القُوَّةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٧).

قال الشوكاني: (ومعنى ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ﴾: اذكُرْ قِصَّتَه؛ فإنَّك تجدُ فيها ما تتسلَّى به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٧).

والمرادُ بالقُوَّةِ: قيل: هي القُوَّةُ على العبادةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، والواحدي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي، ونسَبَه الماتُريديُّ إلى عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٥٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٦).

وقيل: المرادُ: القُوَّةُ في العِلمِ والعَمَلِ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٧).

وقال ابن عطيَّة: (الأَيْدِ: القوَّةِ، وهي في داودَ مُتضمنةٌ قوَّةَ البدَنِ، وقوَّتَه على الطَّاعةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٥).

وقال ابن جُزَي: (وكان داودُ جمَعَ قوَّةَ البدنِ، والقوَّةَ في الدِّينِ، والمُلكِ، والجنودِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٣).

وقيل: المرادُ: مُطلَقُ القُوَّةِ، سواءٌ في العبادةِ، أو في المُلكِ، أو فيما سِوى ذلك؛ فهو ذو أَيْدٍ في كُلِّ ما تكونُ القُوَّةُ فيه صِفةَ مَدحٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٨٤).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال له: ((أَحَبُّ الصَّلاةِ إلى اللهِ صَلاةُ داودَ عليه السَّلامُ، وأَحَبُّ الصِّيامِ إلى اللهِ صِيامُ داودَ، وكان يَنامُ نِصفَ اللَّيلِ، ويَقومُ ثُلُثَه، وينامُ سُدُسَه، ويَصومُ يَومًا، ويُفطِرُ يَومًا))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال عن النَّبيِّ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((كان أَعْبَدَ النَّاسِ))(٢).

وعن عبدِ اللَّه بنِ عَمرٍو رَضِي اللَّه عنهما: قال: ((بَلَغ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنِّي أَسْرُدُ الصَّومَ، ...)) الحديث. وفيه: قالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((فصُمْ صيامَ داودَ عليه السَّلامُ. قالَ: وكيفَ؟ قال: كانَ يصومُ يومًا ويُفْطِرُ يومًا، ولا يَفِرُّ إذا لاقَى))(٣).

﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾.

أي: إنَّه كَثيرُ التَّوبةِ والتَّضَرُّعِ والوُقوفِ عندَ حُدودِ اللهِ، رجَّاعٌ عمَّا يَكرَهُه اللهُ إلى ما يُحِبُّه ويَرضاه(٤).

﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ١٨﴾.

أي: إنَّا ذلَّلْنا الجِبالَ يُسَبِّحْنَ اللهَ مع داودَ في آخِرِ النَّهارِ، ويُسَبِّحْنَ معه في وَقتِ ارتفاعِ الشَّمسِ حينَ تُضيءُ ويَصفو شُعاعُها، وهو وَقتُ الضُّحى(٥).

---

(١) رواه البخاري (١١٣١) واللفظ له، ومسلم (١١٥٩).

(٢) رواه مسلم (١١٥٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٩٧٧)، ومسلم (١١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٠-٣٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) =

كما قال اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾.

أي: وسَخَّرْنا الطَّيرَ مَجموعةً لداودَ[1].

﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

أي: كلٌّ رجَّاعٌ له، يُسَبِّحُ بتَسبيحِه[2].

---

= (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٨٨، ٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

ممَّن اختار أنَّ الضميرَ في ﴿لَّهُۥٓ﴾ يعودُ إلى داودَ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، والبيضاوي، وابنُ كثير، والبِقاعي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٠-٩٢).

قال الرسعني: (﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أي: كلُّ واحدٍ مِن الجبالِ والطَّيرِ رجَّاعٌ إلى طاعةِ داودَ وأمرِه، =

كما قال اللهُ تباركَ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾.

أي: وقَوَّيْنا مُلْكَ داودَ وثبَّتْناه[1].

---

= أو كلٌّ لأجْلِ داودَ، أي: لأجْلِ تسبيحِه مُسَبِّحٌ؛ لأنَّها كانت تُسبِّحُ بتسبيحِه). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٦١).

ممَّن اختار المعنى الأوَّلَ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢١٥).

وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ: ابنُ جُزَي، والنيسابوري، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩).

وقيل: ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: مطيعٌ لداودَ، يسَبِّحُ بتسبيحِه. وممَّن اختار هذا المعنى: القرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣).

وقال ابنُ عثيمين: (أي: كُلٌّ لداودَ رجَّاعٌ، أي: مُرجِّعٌ معه؛ إذا سَبَّح سَبَّحت الجبالُ، وإذا سَبَّح سبَّحت الطُّيورُ المجموعةُ إليه. وقيل: إنَّ الأوَّابَ: الرَّجَّاعُ... والمعنيان مُتلازِمانِ؛ لأنَّه إذا كان رجَّاعًا يَرجِعُ إلى داودَ لِيُسَبِّحَ معه فهو مُرجِّعٌ معه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩١).

وقيل: إنَّ الضميرَ في ﴿لَهُۥٓ﴾ يرجعُ إلى الله. وممَّن اختاره: الشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

قال الشوكاني: (كلُّ واحدٍ مِن داودَ والجبالِ والطَّيرِ رَجَّاعٌ إلى طاعةِ اللهِ وأمْرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨).

وقال البيضاوي: (﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ كُلُّ واحدٍ مِن الجِبالِ والطَّيرِ؛ لأجْلِ تَسبيحِه: رَجَّاعٌ إلى التَّسبيحِ، والفَرقُ بيْنَه وبيْن ما قَبْلَه أنَّه يدُلُّ على الموافقةِ في التَّسبيحِ، وهذا على المداومةِ عليها، أو كُلٌّ منهما ومِن داودَ عليه السَّلامُ مُرجِّعٌ لله التَّسبيحَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾.

أي: وآتَيْناه القُدرةَ على وَضعِ الأشياءِ في مَواضِعِها الصَّحيحةِ اللَّائقةِ بها وَفْقَ ما أُوتِيَه مِن النُّبوَّةِ والعِلمِ بحَقائِقِ الأشياءِ وفَهمِها ومَعرفةِ الصَّوابِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾.

أي: وآتَيْنا داودَ الفَصْلَ في الكلامِ -فكان ذا بيانٍ وفَصاحةٍ- وفي الحُكمِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

قال البِقاعي: (﴿ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ أي: النُّبُوَّةَ الَّتي يَنشَأُ عنها العِلمُ بالأشياءِ على ما هي عليه، ووضْعُ الأشياءِ في أحكَمِ مَواضِعِها، فالحِكمةُ: العَمَلُ بالعِلمِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٥٥).

وممَّن قال بأنَّ الحِكمةَ هي النُّبُوَّةُ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨).

وممَّن اختار أنَّ الحكمةَ هي النُّبوَّةُ والإصابةُ في الأمورِ: البغويُّ، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٠).

وممَّن اختار أنَّ الحكمةَ هي الفَهمُ والعِلمُ: مقاتلُ بنُ سُلَيْمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٢/ ٦٠٥).

قال ابنُ جرير: (الحِكمةُ مأخوذةٌ مِن الحُكمِ وفَصلِ القَضاءِ، وهي الإصابةُ، والإصابةُ في الأمورِ إنَّما تكونُ عن فَهمٍ بها وعِلمٍ ومَعرفةٍ، والنُّبُوَّةُ مِن أقسامِه؛ لأنَّ الأنبياءَ مُسَدَّدونَ مُفَهَّمونَ، ومُوَفَّقونَ لإصابةِ الصَّوابِ في الأمورِ، فالنُّبُوَّةُ بَعضُ معاني الحِكمةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ١٢) بتصرف.

فكان يَفصِلُ بيْنَ الخُصومِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٥).

قيل: المرادُ: بلاغةُ الكلامِ وجَمْعُه للمعنى المقصودِ، بحيث لا يحتاجُ سامعُه إلى زيادةِ تِبيانٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

وقيل: المرادُ: الفصلُ في القضاءِ والخصوماتِ بيْن النَّاسِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: الشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابِقَينِ، واختار العمومَ في المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: ﴿وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ﴾ قال شُرَيحٌ القاضي والشَّعبيُّ: فَصْلُ الخِطابِ: الشُّهودُ والأَيْمانُ. وقال قَتادةُ: شاهِدانِ على المُدَّعِي، أو يمينُ المُدَّعَى عليه، هو فَصْلُ الخِطابِ الَّذي فَصَل به الأنبياءُ والرُّسُلُ -أو قال: المؤمِنونَ والصَّالحونَ- وهو قضاءُ هذه الأمَّةِ إلى يومِ القيامةِ. وكذا قال أبو عبدِ الرَّحمنِ السُّلَميُّ. وقال مجاهِدٌ والسُّدِّيُّ: هو إصابةُ القَضاءِ وفَهْمُه. وقال مجاهِدٌ أيضًا: هو الفَصلُ في الكلامِ وفي الحُكمِ. وهذا يَشملُ هذا كُلَّه، وهو المرادُ، واختاره ابنُ جريرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٩).

وقال ابنُ جرير: (الصَّوابُ أن يُعَمَّ الخبَرُ كما عَمَّه اللهُ، فيُقالَ: أُوتيَ داودُ فَصْلَ الخِطابِ في القَضاءِ والمحاورةِ والخُطَبِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢).

وقال ابن كثير: (وهذا لا ينافي ما رُويَ عن أبي موسى، أنَّه قولُ: أمَّا بَعْدُ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩، ٢٣٠).

وقال ابنُ عثيمين: (هل المعنى أنَّه يَفصِلُ الخِطابَ الصَّادِرَ مِن غَيرِه، بمعنى: أنَّه يَفصِلُ بيْنَ الخُصومِ ما تخاطَبوا فيه... أو فَصْلُ الخِطابِ يعني خِطابَه هو... كان فَصلًا، أي: ذا بيانٍ وفَصاحةٍ؟ نقولُ: المَعْنَيانِ مُحتمَلانِ؛ فالآيةُ تحتمِلُ هذا وتحتمِلُ هذا، وهما لا يَتنافَيانِ؛ فيَجِبُ أن تكونَ الآيةُ محمولةً عليهما). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٥).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى يَمدَحُ ويُحِبُّ القُوَّةَ في طاعتِه؛ قُوَّةَ القَلبِ والبَدَنِ؛ فإنَّه يَحصُلُ منها مِن آثارِ الطَّاعةِ وحُسنِها وكَثرتِها ما لا يَحصُلُ مع الوَهَنِ وعَدَمِ القُوَّةِ، وأنَّ العبدَ يَنبغي له تعاطي أسبابِها، وعدَمُ الرُّكونِ إلى الكَسَلِ والبَطالةِ المُخِلَّةِ بالقُوَى، المُضعِفةِ للنَّفْسِ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ فيه أنَّ الرُّجوعَ إلى اللهِ تعالى في جميعِ الأُمورِ: مِن أوصافِ أنبياءِ اللهِ وخواصِّ خَلْقِه، كما أثنى اللهُ على داودَ وسُلَيمانَ بذلك؛ فلْيَقتَدِ بهما المُقتَدونَ، ولْيَهتَدِ بهُداهم السَّالِكونَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾[٢] [الأنعام: ٩٠].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتأثَّرُ بتكذيبِهم؛ ولهذا أمَرَه اللهُ بالصَّبرِ، وهذا أمرٌ لا شَكَّ فيه[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أمَرَ تعالى محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -على جَلالةِ قَدْرِه- بأن يَقتديَ في الصَّبرِ على طاعةِ اللهِ بداودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك تَشريفٌ عَظيمٌ، وإكرامٌ لِداودَ عليه السَّلامُ؛ حيث أمَرَ اللهُ أفضَلَ الخَلقِ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَقتديَ به في مَكارِمِ الأخلاقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٤).

٣- إنْ قيل: ما المناسبةُ بينَ أمرِ الله لنبيِّنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصبرِ على أقوالِ الكفَّارِ وبينَ أمرِه له بذكرِ داودَ؟

**فالجوابُ**: أنَّ ذِكرَ داودَ ومَن بعدَه مِن الأنبياءِ في هذه السورةِ فيه تسليةٌ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ووعدٌ له بالنَّصرِ وتفريجِ الكربِ، وإعانةٌ له على ما أُمِر به مِن الصبرِ، وذلك أنَّ الله ذكَر ما أنعَم به على داودَ مِن تسخيرِ الطيرِ والجبالِ، وشدةِ مُلكِه، وإعطائِه الحكمةَ وفصلَ الخطابِ، ثمَّ الخاتمةَ له في الآخرةِ بالزلفَى وحسنِ المآبِ، فكأنَّه يقولُ: يا محمدُ كما أنعَمْنا على داودَ بهذه النِّعمِ كذلك نُنعِمُ عليك، فاصبِرْ ولا تحزَنْ على ما يقولونَ، ثمَّ ذكَر ما أعطَى سليمانَ مِن الملكِ العظيمِ، وتسخيرِ الريحِ والجنِّ والخاتمةِ بالزلفَى وحُسنِ المآبِ، ثمَّ ذكَر مَن ذكَر بعدَ ذلك مِن الأنبياءِ.

والمقصدُ: ذِكرُ الإنعامِ عليهم لتقويةِ قلبِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأيضًا فإنَّ داودَ وسليمانَ وأيوبَ أصابتهم شدائدُ ثمَّ فرَّجها الله عنهم، وأعقَبها بالخيرِ العظيمِ، فأمَر نبيَّنا محمدا صلَّى الله عليه وسلَّم بذكرِهم، ليُعلِمَه أنَّه يُفرِّجُ عنه ما يلقَى من إذايةِ قومِه، ويعقبُها بالنصرِ والظهورِ عليهم، فالمناسبةُ في ذلك ظاهرةٌ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ؛ لأنَّ الجُملةَ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ تَعليليَّةٌ، فداودُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَوصوفٌ بالقُوَّةِ والعُبوديَّةِ؛ وذلك لأنَّه رَجَّاعٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وكلُّ مَن كان رَجَّاعًا إلى اللهِ فسوف يكونُ قويًّا في عُبوديَّتِه[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾ استُدِلَّ به

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٣، ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٨٧).

على مَشروعيَّةِ صَلاةِ الضُّحى[١]، مع الأحاديثِ المشهورةِ الثَّابتةِ في ذلك.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ أنَّ للجَمادِ إرادةً؛ لأنَّ التَّسبيحَ لا بُدَّ أنْ يكونَ بإرادةٍ، ويدُلُّ على ذلك أيضًا قولُه تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٢] [الإسراء: ٤٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُنطِقُ الجَمادَ بأصواتٍ يَفهَمُها مَن يَفهَمُها مِن الآدَمِيِّينَ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ فيه أنَّ مِن أكبَرِ نِعَمِ اللهِ على عَبدِه: أن يَرزُقَه العِلمَ النَّافِعَ، ويَعرِفَ الحُكمَ والفَصلَ بيْن النَّاسِ -على قولٍ في التَّفسيرِ في معنى الآيةِ-، كما امتَنَّ اللهُ به على عَبدِه داودَ عليه السَّلامُ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أُعقِبتْ حِكايةُ أقوالِ مُشْرِكي قُرَيشٍ مِنَ التَّكذيبِ ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] إلى هنا، بأمْرِ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ على أقوالِهم؛ إذْ كان جميعُها أذًى: إمَّا صريحًا، كما قالوا: ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، وإمَّا ضِمنًا، وذلك ما في سائرِ أقوالِهم مِن إنكارِ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٥)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

عليه وسلَّمَ، والاستِهزاءِ بقَولِهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦] مِن إثباتِ أنَّ الإلهَ واحِدٌ، ويَشملُ ما يَقولونَه ممَّا لم يُحْكَ في أوَّلِ هذه السُّورةِ[١].

- قَولُه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ عَطفًا على قَولِه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ بأنْ أُتْبِعَ أمْرُه بالصَّبرِ بالأمرِ بالائتساءِ ببعضِ الأنبياءِ السَّابِقينَ فيما لَقُوهُ مِنَ النَّاسِ، ثمَّ كانتْ لهم عاقِبةُ النَّصرِ، وكَشفِ الكُرَبِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ عطفًا على مَجموعِ ما تَقدَّمَ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، والغرَضُ هوَ هو[٢].

- وابتُدِئَ بذِكرِ داودَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ اللهَ أَعطاهُ مُلْكًا وسُلطانًا لم يكُنْ لآبائِه؛ ففي ذِكرِه إيماءٌ إلى أنَّ شأنَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سيَصيرُ إلى العِزَّةِ والسُّلطانِ، ولم يكُنْ له سلَفٌ ولا جُندٌ؛ فقد كان حالُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أَشْبَهَ بحالِ داودَ عليه السَّلامُ[٣].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ أُدمِجَ في خِلالِ قصَّةِ داودَ عليه السَّلامُ الإيماءُ إلى التَّحذيرِ مِنَ الضَّجَرِ في ذاتِ اللهِ تعالى، واتِّقاءِ مُراعاةِ حُظوظِ النَّفْسِ في سِياسةِ الأُمَّةِ؛ إبعادًا لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مَهاوي الخطأِ والزَّلَلِ، وتأديبًا له في أوَّلِ أمْرِه وآخِرِه[٤].

- ووصْفُ داودَ عليه السَّلامُ بقَولِه: ﴿عَبْدَنَا﴾ وَصْفُ تَشريفٍ بالإضافةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٦).

(٢) يُنظَر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٢٦، ٢٢٧).

بقَرينةِ المَقامِ[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أي: رَجَّاعٌ إلى مَرضاةِ اللهِ تعالى، وهو تَعليلٌ لكَونِه ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾، ودليلٌ على أنَّ المُرادَ به القوَّةُ في الدِّينِ؛ فإنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان يَصومُ يومًا ويُفطِرُ يومًا، ويَقومُ نِصفَ اللَّيلِ، وكَونُه تعليلًا لهذا المعنى لأنَّ ﴿ذَا ٱلۡأَيۡدِ﴾ يَحتمِلُ أنْ يَكونَ في الجِسمِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، وأنْ يَكونَ في الدِّينِ، فلمَّا جيءَ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ أعلَمَ أنَّ المُرادَ القوَّةُ في الدِّينِ[٢]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

وقيل: إنَّ جملةَ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ تعليلٌ للأمرِ بذِكرِه؛ إيماءً إلى أنَّ الأمرَ لقَصدِ الاقتِداءِ به، كما قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]؛ فالجُملةُ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَٱذۡكُرۡ﴾ وجُملةِ بيانِها، وهي: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتعليلِ قوَّتِه في الدِّينِ وأوَّابيَّتِه إلى مَرضاتِه تعالى. و(مع) مُتعلِّقةٌ بالتَّسخيرِ، وإيثارُها هنا على اللَّامِ؛ لِما أُشيرَ إليه في سُورةِ (الأنبياءِ) مِن أنَّ تسخيرَ الجِبالِ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يكُنْ بطريقِ تَفويضِ التَّصرُّفِ الكُلِّيِّ فيها إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كتَسخيرِ الرِّيحِ وغَيرِها لسُلَيمانَ عليه السَّلامُ، بل بطريقِ التَّبَعيَّةِ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ والاقتِداءِ به في عِبادةِ اللهِ تعالى؛ قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَخَّرۡنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٧).

مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال سبحانه: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨١].

وقيل: إنَّ (مع) مُتعلِّقةٌ بما بعْدَها، وهو أقرَبُ بالنِّسبةِ إلى ما في سورةِ (الأنبياءِ)[١]، فهي ظَرفٌ لـ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾، وقُدِّم على مُتعَلَّقِه؛ للاهتِمامِ بمَعِيَّتِه المَذكورةِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا﴾، أي: اذكُرْ فَضائلَه وما أَنعَمْنا عليه مِن تَسخيرِ الجِبالِ وكَيْتَ وكَيْتَ[٣].

- وجُملةُ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ حالٌ، واختِيرَ الفِعلُ المُضارِعُ ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ دُونَ الوَصفِ (مُسَبِّحاتٍ) الَّذي هو الشَّأنُ في الحالِ؛ لأنَّه أُريدَ الدَّلالةُ على تَجدُّدِ تَسبيحِ الجِبالِ معه كلَّما حضَرَ فيها، ولِما في المُضارِعِ مِن استِحضارِ تلك الحالةِ الخارقةِ للعادةِ مِن حُدوثِ التَّسبيحِ مِنَ الجِبالِ شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، وحالًا بعْدَ حالٍ، وكأنَّ السَّامِعَ حاضِرٌ تلك الجبالَ يَسمَعُها تُسَبِّحُ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ المَحشورةُ: المُجتمِعةُ حَوْلَه عِندَ قِراءتِه الزَّبورَ، ولم يُؤْتَ في صِفةِ الطَّيرِ بالحَشرِ بالمُضارِعِ كما جيءَ به في ﴿يُسَبِّحْنَ﴾؛ إذِ الحَشرُ يَكونَ دَفْعةً، فلا يَقتَضي المَقامُ دَلالةً على تَجدُّدٍ ولا على استِحضارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٢).

الصُّورةِ؛ فجيءَ به اسمًا لا فِعلًا، وذلك أبلَغُ مِن أن يُقالَ: وسَخَّرْنا الطَّيرَ يُحشَرْنَ- على أنَّ الحَشرَ يوجَدُ مِن حاشِرِها شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، والحاشِرُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ حَشْرَها جُملةً واحدةً أدَلُّ على القُدرةِ منه مُدرجًا[١].

- قَولُه: ﴿كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ استِئنافٌ مُقَرِّرٌ لِمَضمونِ ما قبْلَه، مُصرِّحٌ بما فُهِم منه إجمالًا مِن تَسبيحِ الطَّيرِ، أي: كُلُّ واحدٍ مِنَ الجبالِ والطَّيرِ لأجْلِ تَسبيحِه رَجَّاعٌ إلى التَّسبيحِ، وذلك على قولٍ[٢]، وتَنوينُ ﴿كُلٌّ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه[٣].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ لامُ التَّقويةِ. وتَقديمُ المَجرورِ على مُتعلَّقِه؛ للاهتِمامِ بالضَّميرِ المجرورِ[٤].

- وجَعَل الخَبَرَ ﴿أَوَّابٞ﴾ مُفرَدًا؛ قيل: إشارةً إلى شِدَّةِ زَجَلِها بالتَّأويبِ وعَظَمَتِه، والإفرادُ أيضًا يُفيدُ الحُكمَ على كُلِّ فَردٍ، ولو جَمَع لَطَرَقه احتِمالُ أنَّ الحُكمَ على المَجموعِ يُقَيِّدُ الجَمْعَ. و ﴿أَوَّابٞ﴾ هذا غَيرُ ﴿أَوَّابٞ﴾ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ [ص: ١٧]؛ فلمْ تَتكرَّرِ الفاصِلةُ، والفَرقُ بَيْنَه وبيْنَ ما قَبْلَه أنَّه يدُلُّ على المُوافَقةِ في التَّسبيحِ، وهذا على المُداوَمةِ عليها، أو: كُلٌّ منهما ومِن داودَ عليه السَّلامُ مُرَجِّعٌ للهِ التَّسبيحَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

- وفي قَولِه: ﴿ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾ وُضِعَ الأوَّابُ مَوضِعَ المُسَبِّحِ: إمَّا لأنَّها كانت تُرجِّعُ التَّسبيحَ، والمُرجِّعُ رجَّاعٌ؛ لأنَّه يَرجِعُ إلى فِعلِه رُجوعًا بعْدَ رُجوعٍ، وإمَّا لأنَّ الأوَّابَ -وهو التَّوَّابُ الكثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ وطلَبِ مَرْضاتِه- مِن عادتِه أنْ يُكثِرَ ذِكرَ اللهِ، ويُديمَ تَسبيحَه وتَقديسَه، فأصلُ الكَلامِ: كلٌّ مِنَ الجِبالِ والطَّيرِ لأجْلِ تَسبيحِ داودَ مُسَبِّحٌ، فقيل: ﴿أَوَّابٞ﴾؛ لأنَّ كلَّ مُرَجِّعٍ للتَّسبيحِ راجِعٌ إليه، كما أنَّ كلَّ مُكذِّبٍ للحقِّ كاذِبٌ، وإنَّما عدَلَ منه إلى الأوَّابِ لنُكتةٍ؛ وهي: إمَّا أنْ يَكونَ كِنايةً عن التَّرجيعِ في التَّسبيحِ مِنَ (الأَوْبِ): الرُّجوعِ، أو عن كَثرةِ التَّسبيحِ؛ لأنَّ الأوَّابَ -أي: التَّوَّابَ- مِن عادتِه أنْ يُكثِرَ التَّسبيحَ، ولو تُرِكَ على ظاهِرِه لم يُعلَمْ ذلك، ولو قيل: كلٌّ له كالأوَّابِ -أي: التَّوَّابِ، على التَّشبيهِ- لم يُفهَمْ منه المَقصودُ صريحًا[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ ﴾ أي: قَوَّيْناهُ بالهَيبةِ والنُّصرةِ وكَثرةِ الجُنودِ، وهي عِبارةٌ شامِلةٌ لِما وهَبَه اللهُ تعالى مِن قوَّةٍ وجُندٍ ونِعمةٍ. والشَّدُّ: الإمساكُ وتَمكُّنُ اليَدِ ممَّا تُمسِكُه؛ فيَكونُ لقَصدِ النَّفعِ كما هنا، ويَكونُ لقَصدِ الضُّرِّ كقَولِه: ﴿وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ ﴾ [يونس: ٨٨]، فشَدُّ المُلكِ هو تَقويةُ مُلكِه، وسَلامتُه مِن أضرارِ ثَورةٍ لَديهِ، ومِن غَلَبةِ أعدائِه عليه في حُروبِه[2].

- ووصْفُ القَولِ بـ (الفَصلِ) وَصْفٌ بالمَصدرِ، أي: فاصِلٌ، والفاصِلُ: الفارِقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٩).

بيْن شَيئَينِ، وهو ضِدُّ الواصلِ، والمعنَى: أنَّ داودَ عليه السَّلامُ أُوتيَ مِن أَصالةِ الرَّأيِ وفَصاحةِ القَولِ ما إذا تَكلَّمَ جاء بكَلامٍ فاصِلٍ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، شأنُ كَلامِ الأنبياءِ والحُكَماءِ[1]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٢٨).

## الآيات (٢١-٢٦)

﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نَبَؤُا۟﴾: النَّبأُ: خَبَرٌ عَظيمٌ يَحصُلُ به عِلمٌ، وأصلُ (نبأ): يدُلُّ على الإتيانِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والخَبَرُ يأتي مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ(١).

﴿ٱلْخَصْمِ﴾: أي: المُتخاصِمَينِ والمُتنازِعَينِ، ويَقَعُ على الواحِدِ والاثنَينِ والجَماعةِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على مُنازَعةٍ(٢).

﴿تَسَوَّرُوا۟﴾: أي: صَعِدوا وتَسَلَّقوا، يُقالُ: تَسَوَّرتُ الحائِطَ والسُّورَ: إذا عَلَوْتَه، وأصلُ (سور): يدُلُّ على عُلُوٍّ وارتِفاعٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩)، ((الكليات)) =

﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: المِحرابُ: مُقَدَّمُ كُلِّ مَجلِسٍ ومُصَلًّى وأشرَفُه، ويُطلقُ على المَسجدِ، وموضعِ العبادةِ، والغُرفةِ، والموضعِ العالي الشَّريفِ[١].

﴿بَغَىٰ﴾: أي: طغَى، وتعدَّى، والبَغْيُ: الظُّلْمُ، وأيضًا قَصْدُ الفسادِ، وأصلُ البغيِ: تَجاوُزُ الحدِّ، يقال: بَغَى الجرحُ، أي: تَجاوَزَ الحدَّ في فسادِه[٢].

﴿تُشْطِطْ﴾: أي: تَجُرْ وتُسرِفْ وتَتجاوَزْ، وأصلُ (شطط): يدُلُّ على المَيلِ[٣].

﴿سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾: أي: قَصْدَ الطَّريقِ المُستقيمِ ووسَطَه، والصِّراطُ: الطَّريقُ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ واعتدالٍ بيْنَ شيئَينِ[٤].

﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾: أي: انزِلْ عنها لي، واجعَلْني كافِلَها، وأصلُ (كفل): يدُلُّ على

---

= للكفوي (ص: ٣٢١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٨) و(١٤/ ٣٣٦) و(٢٠/ ٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٢٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٥٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل (٦/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

وقال ابن جني: (﴿وَلَا تُشْطِطْ﴾، أي: ولا تُبعِدْ، وهو مِن الشَّطِّ، وهو الجانبُ، فمعناه أخذُ جانبِ الشيءِ، وتركُ وسطِه وأقربِه). ((المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها)) (٢/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

تَضمُّنِ الشَّيءِ للشَّيءِ[١].

﴿وَعَزَّنِي﴾: أي: غلَبَني وقهَرَني، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ[٢].

﴿ٱلْخُلَطَآءِ﴾: أي: الشُّرَكاءِ، وأصلُ (خلط): يدُلُّ على الجَمعِ[٣].

﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾: أي: ألقَى بنفْسِه إلى الأرضِ ساجدًا، والخُرورُ والخَرُّ: السُّقوطُ مِنْ عُلُوٍّ إلى الأرضِ، وخرَّ: سقَط على وَجهِه، وأصلُ (خرر): هو اضْطِرابٌ، وسُقوطٌ مع صوتٍ، و﴿رَاكِعًا﴾: أي: ساجدًا، عبَّر بالرُّكوعِ عنه؛ لأنَّ كلَّ واحِدٍ منهما نوعٌ مِنَ الانحناءِ، وأصلُ (ركع): يدُلُّ على انحناءٍ في الإنسانِ وغيرِه[٤].

﴿وَأَنَابَ﴾: أي: رجَعَ وتابَ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (١/ ١٢٣) و(٣/ ٥٤) و(٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩، ٤٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

﴿لَزُلْفَىٰ﴾: أي: قُرْبةً ودَرَجةً ومَنزِلةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿مَـَٔابٍ﴾: أي: مَرجِعٍ ومُنقَلَبٍ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وهل أتاك -يا مُحمَّدُ- نَبَأُ المُتخاصِمَينِ حينَ تسَلَّقا على داودَ مِحْرابَه، حينَ دخَلوا عليه فجأةً ففَزِعَ منهم! قالوا له: لا تخَفْ، نحن خَصْمانِ بَغى بَعضُنا على بَعضٍ؛ فاحكُمْ بَيْنَنا بالحُكمِ الحَقِّ، ولا تَتجاوَزْه إلى غَيرِه، وأرشِدْنا بحُكمِك العادِلِ إلى طَريقِ الحَقِّ الواضِحِ.

قال أحَدُ الخَصْمَينِ لِداودَ: إنَّ هذا أخي له تِسعٌ وتِسعونَ نَعجةً، وليَ نَعجةٌ واحِدةٌ لا أملِكُ غَيْرَها، فقال لي أخي: مَلِّكْني إيَّاها بحيثُ تكونُ تحتَ كَفالَتي، وغَلَبَني في المُحاجَّةِ والمُخاطَبةِ! قال داودُ لِلمُتظَلِّمِ منهما: لقد ظلَمَك أخوك بسُؤالِه ضَمَّ نَعجتِك إلى نعاجِه الكثيرةِ، وإنَّ كثيرًا مِن الشُّرَكاءِ لَيَعتدي بعضُهم على بَعضٍ، ويَطمَعُ بَعضُهم في مالِ الآخَرِ، إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ؛ فإنَّهم لا يَقعونَ في ذلك، وقليلٌ أولئك.

وغَلَب على ظَنِّ داودَ بعدَ قَضائِه بيْنَ الخَصمَينِ أنَّما اختبَرْناه، فطَلَب مِن رَبِّه مَغفِرةَ ذَنْبِه، وألقَى بنفْسِه إلى الأرضِ ساجدًا، ورجَعَ إلى رَبِّه، فغفَرْنا لداودَ ذلك الذَّنْبَ، وإنَّ له عِندَنا مَنزِلةً عاليةً وحُسنَ مُنقَلَبٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨).

ثمَّ يقولُ تعالى موجِّهًا نبيَّه داودَ عليه السَّلامُ ووُلاةَ الأمورِ: يا داودُ إنَّا جعَلْناك خَليفةً في الأرضِ؛ فاحكُمْ بيْنَ النَّاسِ بالعَدلِ، ولا تتَّبِعْ هوى نَفْسِك فيُضِلَّك عن طريقِ الحَقِّ، إنَّ الَّذين يَميلونَ عن طَريقِ اللهِ لهم عذابٌ شَديدٌ؛ بسَبَبِ نِسيانِهم يومَ القيامةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ ٢١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أثنى اللهُ تعالى على داودَ عليه السَّلامُ بما أثنَى؛ ذكَرَ قِصَّتَه هذه؛ لِيُعلَمَ أنَّ مِثلَ قِصَّتِه لا يَقدَحُ في الثَّناءِ عليه، والتَّعظيمِ لِقَدْرِه، وإن تضَمَّنَت استِغفارَه رَبَّه[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه آتَى نَبيَّه داودَ الفَصلَ في الخِطابِ بيْنَ النَّاسِ -على قَولٍ في التَّفسيرِ-، وكان مَعروفًا بذلك مَقصودًا؛ ذكَرَ تعالى نبَأَ خَصمَينِ اختَصَما عِندَه في قَضيَّةٍ، جعَلَهما اللهُ فِتنةً لداودَ عليه السَّلامُ، ومَوعِظةً لخَلَلٍ ارتكَبَه، فتاب اللهُ عليه، وغَفَر له[2].

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾.

أي: وهل أتاك -يا مُحمَّدُ- نبأُ المتخاصِمَينِ في قَضيَّةٍ، وخبَرُهما العَجيبُ مع داودَ[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٧-٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٧، ٩٨).

﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾.

أي: حينَ تَسَلَّقَ(١) المُتخاصِمانَ المِحْرابَ(٢).

﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾.

---

(١) قال القرطبي: (ومعنَى: ﴿تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ أتَوْه مِن أعلى سُورِه. يُقالُ: تَسَوَّرَ الحائطَ: تَسَلَّقَه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٥). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧١).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ يقولُ: دخَلوا عليه مِن غيرِ بابِ المحرابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

والمِحرابُ: قيل: هو مُقَدَّمُ كُلِّ مَجلِسٍ وبيتٍ وأشرَفُه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٢١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٤٦).

وقيل: المحرابُ هنا: الغُرفةُ. وممَّن اختاره: يحيى بنُ سلَّام -نسَبَه إليه الماوَرْديُّ-، وقال الواحديُّ: (المِحرابُ كالغُرفةِ). يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٦).

قال ابن عطيَّة: (المحراب: الموضعُ الأرْفَعُ مِن القَصرِ أو المسجدِ، وهو مَوضِعُ التَّعبُّدِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨).

وممَّن اختار أنَّ المحرابَ محلُّ العبادةِ: السعدي، ونصَّ ابنُ أبي زَمَنِين على أنَّه المسجدُ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٨٥).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّه المسجدُ: مُجاهِدٌ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٦١).

قال الرَّازي: (وأمَّا المحرابُ فالمرادُ منه البيتُ الَّذي كان داودُ يَدخُلُ فيه ويَشتَغِلُ بطاعةِ رَبِّه، وسُمِّيَ ذلك البَيتُ بالمحرابِ؛ لاشتِمالِه على المحرابِ، كما يُسمَّى الشَّيءُ بأشرَفِ أجزائِه). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠).

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾.

أي: حينَ دَخَلوا على داودَ بَغتةً فذُعِرَ وخافَ منهم(١).

﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾.

أي: قالوا لِداودَ لَمَّا رأَوْا فَزَعَه مِن دُخولِهم عليه: لا تخَفْ؛ نحن خَصْمانِ(٢)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣، ٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

قال الرازي: (قال تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ والسَّببُ أنَّ داودَ عليه السَّلامُ لَمَّا رآهما قد دَخَلوا عليه لا مِن الطَّريقِ المعتادِ، عَلِم أنَّهم إنَّما دَخَلوا عليه للشَّرِّ، فلا جَرَمَ فزِع منهم). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٢).

وقال البِقاعي: (كان على وَجهٍ يَهُولُ أمرُه؛ إمَّا لِكَونِه في موضِعٍ لا يَقدِرُ عليه أحدٌ، أو غيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٥٧).

(٢) ذكَر الله تعالى هنا أنَّهما خَصْمانِ، وقال في أوَّلِ القصةِ: ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ وهو اسمٌ يَصلُحُ للواحِدِ والاثنينِ والجَمعِ، والمذكَّرِ والمؤنَّثِ، أمَّا قوله: ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ و﴿دَخَلُواْ﴾ بالجَمْعِ؛ فلأنَّ الجمْعَ يَتناوَلُ الاثنينِ فصاعِدًا، فمعنى الجَمعِ في الاثنينِ مَوجودٌ؛ لأنَّ معنى الجَمعِ ضَمُّ شَيءٍ إلى شَيءٍ، أو: جمَع؛ لأنَّه جاء مع كلٍّ مِنهما فِرقةٌ، كالعاضِدةِ والمُؤنِسةِ، أو يكون معنَى خَصْمانِ: فريقانِ، فيكونُ ﴿تَسَوَّرُواْ﴾ و﴿دَخَلُواْ﴾ عائِدًا على الخَصمِ الَّذي هو جمعُ الفريقَينِ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٩٩، ١٠٠).

وقد اختُلِف: هلِ الخَصْمانِ كانا مِن الملائكةِ أم مِن بني آدَمَ؟

ممَّن اختار أنَّهما كانا مِن الملائكةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، والواحدي، والعُلَيمي، وممَّن نقَل اتِّفاقَ المفسِّرينَ وعدَمَ اختلافِهم في ذلك: النَّحَّاسُ، وابنُ عطية، وابن جُزَي، والثعالبي، ونسَب القرطبيُّ هذا القولَ لأكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٤)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣١). =

تَعدَّى أحَدُنا على صاحبِه، وتجاوَزَ حُدودَه بغَيرِ حَقٍّ[١].

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾.

أي: فاقْضِ بيْنَنا بالعَدلِ، ولا تَجُرْ في القَضاءِ فتَتجاوَزَ الحَدَّ[٢].

﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾.

أي: ودُلَّنا وأرشِدْنا بحُكمِك العادِلِ بيْنَنا إلى طَريقِ الحَقِّ الواضِحِ الَّذي لا الْتِباسَ فيه ولا إفراطَ ولا تَفريطَ[٣].

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ ٢٣﴾.

---

= قال القرطبي: (وعَيَّنهما جماعةٌ فقالوا: إنَّهما جبريلُ وميكائيلُ. وقيل: مَلَكينِ في صورةِ إنسِيَّيْنِ بَعَثَهما اللهُ إليه في يومِ عِبادتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٦).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الخَصمينِ كانا مِن بني آدمَ، وأنَّ اختِصامَهم كان على الحقيقةِ لا التَّمثيلِ، وأنَّ الآيةَ على ظاهرِها: النَّقَّاشُ -كما في ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٦٦)- وابنُ حزمٍ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرَّازي، واختاره السُّبْكيُّ، وأبو حيَّانَ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الفِصَل)) لابن حزم (٤/ ١٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨١)، ((القول المحمود)) للسبكي (ص: ١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠١).

قال ابن حزم: (وإنَّما كان ذلك الخَصمُ قومًا مِن بني آدمَ بلا شكٍّ مُختصِمينَ فِي نِعاجٍ مِن الغَنَمِ على الحقيقةِ بيْنَهم، بغَى أحَدُهما على الآخَرِ على نصِّ الآيةِ). ((الفصل في المِلَلِ والأهواء والنِّحَل)) (٤/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤، ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٣).

قال البقاعي: (﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا﴾: أي: طلَب طلبةَ علوٍ واستطالةٍ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠٢، ١٠٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّهم لَمَّا أخبَروا عن وُقوعِ الخُصومةِ على سَبيلِ الإجمالِ؛ أردَفوه ببَيانِ سَبَبِ تلك الخُصومةِ على سَبيلِ التَّفصيلِ، فقال[1]:

﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾.

أي: قال أحَدُ الخَصمَينِ لِداودَ: إنَّ هذا أخي له تِسعٌ وتِسعونَ نَعجةً[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((الفصل)) لابن حزم (٤/ ١٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠٣، ١٠٤).

قيل: المرادُ بقوله: ﴿أَخِي﴾ أُخوَّةُ الدِّينِ، أو أُخوَّةُ النَّسَبِ، أو أخوَّةُ الصَّداقةِ والأُلْفةِ، أو أخوَّةُ الشركةِ والخُلطةِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

واختُلِف في المرادِ بالنَّعجةِ على قولَينِ؛ فقيل: المرادُ: أُنثَى الضَّأنِ. وقيل: المرادُ بها الكنايةُ عن المرأةِ.

ممَّن ذهب إلى إبقاءِ لَفظِ النَّعجةِ على حقيقتِها مِن كَونِها أنثى الضَّأنِ، وأنها ليست كنايةً عن المرأةِ: ابنُ حزم، وأبو حيَّان، والنيسابوري، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) لابن حزم (٤/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠٤).

وقد ذهب كثيرٌ مِن المفسِّرينَ، ومنهم ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والزمخشري، والسعدي: إلى أنَّ المرادَ بالنَّعجةِ: المرأةُ، وأنَّ ذِكرَ النَّعجةِ مَثَلٌ ضَرَبه الخَصمُ لداودَ عليه السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

قال الأزهري: (والعربُ تَكْني بالنَّعجةِ والشَّاةِ عن المرأةِ). ((تهذيب اللغة)) (١/ ٢٤٥). ويُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٥)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (١/ ٢٢٥) و(٢/ ١٧٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٩٧).

وقال القرطبي: (العربُ تَكْني عن المرأةِ بالنَّعجةِ والشَّاةِ؛ لِما هي عليه مِن السُّكونِ والمَعْجَزةِ =

﴿وَلِيَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾.

أي: وليَ نَعجةٌ واحِدةٌ لا أملِكُ غَيْرَها، فقال لي أخي: أعطِنيها وضُمَّها إلَيَّ؛ فتكونَ تحتَ يدي[1].

---

= وضَعفِ الجانبِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٢).

وأيضًا لِما بيْنَهما مِن الملائمةِ في الرَّحمةِ وكثرةِ التَّآلُفِ. يُنظر: ((الطراز لأسرار البلاغة)) ليحيى بن حمزة (١/ ٢١٥).

قال البغوي: (قال الحُسَينُ بنُ الفضلِ: هذا تَعريضٌ للتَّنبيهِ والتَّفهيمِ؛ لأنَّه لم يكُنْ هناك نِعاجٌ ولا بَغْيٌ، فهو كقولِهم: ضرَب زَيدٌ عَمرًا، أو اشترى بَكْرٌ دارًا، ولا ضربٌ هنالك ولا شِراءٌ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٠).

وقال ابنُ القيِّم: (تخريجُ هذا الكلامِ على المعاريضِ لا يَكادُ يَتأتَّى، وإنَّما وَجْهُه أنَّه كلامٌ خرَج على ضربِ المثالِ: أي: إذا كان كذلك فكيف الحُكمُ بيْنَنا؟ ونظيرُ هذا قَولُ المَلَكِ للثَّلاثةِ الَّذين أراد اللهُ أن يَبتليَهم: «مسكينٌ وغريبٌ وعابرُ سبيلٍ، وقد تقَطَّعَت بيَ الحِبالُ، ولا بلاغَ لي اليومَ إلَّا باللهِ ثمَّ بك، فأسألُك بالَّذي أعطاك هذا المالَ بعيرًا أتَبَلَّغُ به في سفري هذا» [البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤)]، وهذا ليس بتعريضٍ، وإنَّما هو تصريحٌ على وَجهِ ضَربِ المثالِ، وإيهامِ أنِّي أنا صاحِبُ هذه القضيَّةِ، كما أَوْهَمَ المَلَكانِ داودَ أنَّهما صاحِبا القِصَّةِ؛ لِيَتِمَّ الامتحانُ). ((إعلام الموقعين)) (٣/ ١٦٩).

وقال ابنُ عاشور: (ليس في قَولِ الخَصمَينِ: ﴿هَٰذَآ أَخِي﴾ ولا في فَرضِهما الخُصومةَ الَّتي هي غيرُ واقِعةٍ: ارتكابُ الكَذِبِ؛ لأنَّ هذا مِن الأخبارِ المخالِفةِ للواقعِ الَّتي لا يُريدُ المُخبِرُ بها أن يَظُنَّ المُخبَرُ -بالفتحِ- وُقوعَها إلَّا رَيْثَما يَحصُلُ الغَرَضُ مِن العِبرةِ بها، ثمَّ يَنكَشِفُ له باطِنُها فيَعلَمُ أنَّها لم تَقَعْ، وما يجري في خِلالِها مِن الأوصافِ والنِّسَبِ غيرِ الواقِعةِ فإنَّما هو على سبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ، وعلى نيَّةِ المُشابَهةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((التفسير المنير)) للزحيلي (٢٣/ ١٨٦).

ذهب كثيرٌ مِن المفسِّرينَ -ومنهم ابنُ جرير، والقرطبي، والشوكاني- إلى أنَّ المرادَ: ولِيَ امرأةٌ واحِدةٌ، فقال لي أخي: انزِلْ لي عنها وضُمَّها إلَيَّ حتَّى أكفُلَها وأصيرَ زَوجًا لها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٩).

﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾.

أي: غلَبَني وقَهَرني في خِطابِه معي؛ لِيَأخُذَ مِنِّي نعجتي الوحيدةَ[1]!

﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ﴾.

أي: قال داودُ للخَصمِ المتظَلِّم مِن صاحِبِه: لقد ظلَمَك أخوك بسُؤالِه أخْذَ نَعجتِك الوحيدةِ؛ لِيَضُمَّها إلى نِعاجِه الكثيرةِ[2].

﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).
قال النيسابوري: (ليس السُّؤالُ هاهنا سؤالَ خُضوعٍ وتفَضُّلٍ، وإنَّما هو سؤالُ مُطالَبةٍ ومُعازَّةٍ). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٩).
وقال ابن عاشور: (﴿وَعَزَّنِي﴾ غَلَبني في مُخاطَبتِه، أي: أظهَر في الكلامِ عِزَّةً عليَّ وتطاوُلًا... والمعنى: أنَّه سأله أن يعطيَه نعجتَه، ولَمَّا رأى منه تمنُّعًا اشتدَّ عليه بالكلامِ وهَدَّده). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١، ٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٤٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٥٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥، ٢٣٦).
وقد ذهب ابنُ جرير وغيرُه -كما تقدَّم- إلى أنَّ المرادَ بالنَّعجةِ في هذه القِصَّةِ المرأةُ، أي: لقد ظلمَك أخوك بسؤالِه امرأتَك الواحِدةَ إلى التِّسعِ والتِّسعينَ مِن نسائِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١، ٦٢).
قال الواحدي: (أي: إن كان الأمرُ على ما تقولُ فقد ظلمَك أخوك بما كلَّفَك مِن تَحَوُّلِك عن امرأتِك؛ لِيَتزَوَّجَها هو). ((الوسيط)) (٣/ ٥٤٧).

أي: وإنَّ عادةَ كثيرٍ مِن الشُّرَكاءِ أن يَتعدَّى بعضُهم على بعضٍ، ويَظلِمَ بعضُهم بعضًا[١].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡ﴾.

أي: إلَّا الَّذين آمَنوا منهم بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحاتِ؛ فإنَّه لا يقَعُ منهم بَغْيٌ على شُرَكائِهم، وقَليلٌ هم أولئك[٢].

﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧)، ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالخُلَطاءِ الشُّرَكاءُ: ابنُ جرير، والنحاس، والسمعاني، والبغوي، والرسعني، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ١٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٤٧٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٨٩).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ يعني: الشُّرَكاءَ، واحدُهم: خليطٌ، وهو المُخالِطُ في المالِ، وإنَّما قال هذا؛ لأنَّه ظنَّهما شريكَينِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦٨).

وقال ابن جُزَي: (الخلطاءُ هم الشُّرَكاءُ في الأموالِ، ولكنِ الخُلْطةُ أعَمُّ مِن الشَّركةِ، ألَا ترى أنَّ الخُلطةَ في المواشي ليست بشركةٍ في رقابِها؟ وقصَد داودُ بهذا الكلامِ الوعظَ للخَصمِ الَّذي بغَى، والتَّسليةَ بالتَّأسِّي للخَصمِ الَّذي بُغِيَ عليه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٩).

وقيل: ﴿ٱلۡخُلَطَآءِ﴾: أي: الأصحابِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٠٨، ١٠٩).

أي: وغَلَب على ظَنِّ داودَ بعدَ قَضائِه بيْن الخَصمَينِ أنَّما ابتَلَيْناه[١].

﴿فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ﴾.

أي: فطلَبَ مِن رَبِّه أن يَغفِرَ له ذَنْبَه؛ سَترًا له، وتَجاوُزًا عن مؤاخَذتِه به[٢]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣، ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

قال البيضاوي: (﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾: ابتَلَيْناه بالذَّنْبِ، أو امتَحَنَّاه بتلك الحُكومةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧).

(٢) قال ابن عطيَّة: (لا خِلافَ بيْنَ أهلِ التَّأويلِ أنَّهم إنَّما كانوا ملائِكةً بَعَثَهم اللهُ ضَرْبَ مَثَلٍ لداودَ عليه السَّلامُ، فاختَصَموا إليه في نازلةٍ قد وقع هو في نحوِها، فأفتى بفُتيا هي واقِعةٌ عليه في نازلتِه، ولَمَّا شَعَر وفَهِم المرادَ، خَرَّ وأناب واستغفَرَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٤٩٨).

قال الثعالبي: (وأمَّا نازِلتُه الَّتي وَقَع فيها، ففيها للقُصَّاصِ تطويلٌ، فلم نَرَ سوقَ جميعِ ذلك؛ لعدَمِ صِحَّتِه). ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٦٢).

وقال ابنُ كثير: (وقد ذكَر كثيرٌ مِن المفسِّرينَ مِن السَّلفِ والخلَفِ هاهنا قصصًا وأخبارًا أكثرُها إسرائيليَّاتٌ، ومنها ما هو مكذوبٌ لا محالةَ). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٣٠٩). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠).

وقال القاضي عياضٌ: (وأمَّا قصَّةُ داودَ عليه السَّلامُ فلا يجبُ أن يُلتفَتَ إلى ما سطره فيه الأَخْباريُّون عن أهلِ الكتابِ الَّذين بدَّلوا وغيَّروا ونقَلَه بعضُ المفسِّرينَ، ولم يَنُصَّ اللهُ على شَيءٍ مِن ذلك، ولا ورد في حديثٍ صحيحٍ). ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) (٢/ ١٦٣).

ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٥٢- ٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٦٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٧٧).

وذكر السبكي أنَّ المغفورَ في الآيةِ أحدُ ثلاثةِ أمورٍ: (إمَّا ظَنُّه، وإمَّا اشتغالُه بالحُكم عن العبادةِ، وإمَّا اشتغالُه بالعبادةِ عن الحكمِ، كما أشعَر به قولُه: ﴿ٱلۡمِحۡرَابَ﴾). ((القول المحمود)) (ص: ١٧).

وقيل: ظنَّ دَاوُد عليه السَّلام أن يكونَ ما آتاهُ الله عزَّ وجل مِن سَعَةِ المُلكِ العظيمِ فِتْنةً، فاستغفَر اللهَ تعالى مِن هذا الظَّنِّ، فغفَر له؛ إذْ لم يكُنْ ما آتاه الله تعالى مِن ذلك فتنةً. واختاره ابنُ حزم. يُنظر: ((الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) (٤/ ١٥). =

وألقَى بنَفْسِه إلى الأرضِ ساجدًا[١]، ورجَعَ إلى ربِّه وإلى رِضوانِه مِن خَطيئتِه

= وقيل: إنَّه فَزِع منهم ظانًّا أنَّهم يَغتالونَه، فلمَّا اتَّضَح له أنَّهم جاؤُوا في حُكومةٍ، ولم يقَعْ ما كان ظنَّه؛ استغفَر اللهَ مِن هذا الظَّنِّ، فغفَر له. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥١).

وقيل: إنَّ تلك الزَّلَّةَ إنَّما حَصَلت لأنَّه قضَى لأحدِ الخَصمَينِ قبْلَ أنْ يَسمَعَ كلامَ الخصمِ الثَّانِي. واختاره الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨١). وردَّه ابنُ العربي والسعديُّ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤٧).

قال النحاس: (﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فيقالُ: إنَّ هذه خطيَّةُ داودَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾، مِن غيرِ تثبيتِ بَيِّنةٍ، ولا إقرارٍ مِن الخَصمِ، ولا سؤالٍ لِخَصْمِه هل كان هذا كذا أمْ لم يَكُنْ؟ هذا قولٌ). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٣٠٩).

وقال القرطبيُّ بعدَ ذِكرِ كلامِ النَّحَّاسِ: (وهو حسَنٌ إن شاء الله تعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٥).

واختار ابنُ عثيمينَ أنَّ اللهَ اختَبره بهذه الخصومةِ؛ وذلك لدخولِه المِحرابَ وإغلاقِه البابَ عليه، مُخالِفًا مقتضَى وظيفتِه، وما أُمِر به مِن الحُكمِ بيْنَ النَّاسِ، وأيضًا لحُكمِه بعدَ سماعِه مِن أحدِ الخَصمينِ دونَ الثَّاني، وليس في القرآنِ أنَّه سمِع جوابَ الثَّاني. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١١، ١١٢).

قال السعدي: (وهذا الذَّنْبُ الَّذي صَدَرَ مِن داودَ عليه السَّلامُ لم يَذكُرْه اللهُ؛ لعَدَمِ الحاجةِ إلى ذِكْرِه، فالتَّعَرُّضُ له مِن بابِ التَّكَلُّفِ، وإنَّما الفائدةُ ما قَصَّه اللهُ علينا مِن لُطفِه به وتَوبتِه وإنابتِه، وأنَّه ارتفَعَ مَحَلُّه؛ فكان بعدَ التَّوبةِ أحسَنَ منه قَبْلَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(١) نفى ابنُ العربيِّ وجودَ خِلافٍ بيْن العُلماءِ في أنَّ المرادَ بالرُّكوعِ هنا: السُّجودُ. وذكَرَ ابنُ تيميَّةَ اتِّفاقَ العُلَماءِ عليه. واعترض ابنُ عاشورٍ بأنَّ الخلافَ موجودٌ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٥٧)، ((جامع الرسائل)) لابن تيميَّةَ (١/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٠).

وقيل: ذُكِر الرُّكوعُ مع أنَّ المرادَ به السُّجودُ؛ لأنَّه سجَد بعدَ أن كان راكعًا، أي: فخُرورُه كان مِن رُكوعٍ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠).

قال ابن تيميَّةَ: (وقد ثبَتَ بالنَّصِّ الصَّحيحِ واتِّفاقِ النَّاسِ أنَّ داودَ سجَد... والآثارُ عن السَّلفِ متواترةٌ بأنَّ داودَ سجَد، فكُلُّ ساجدٍ راكِعٌ، وليس كلُّ راكِعٍ ساجدًا؛ فإنَّه إذا سجَد مِن قيامٍ انحنى انحناءَ الرَّاكِعِ وزاد فإنَّه يَصيرُ ساجدًا، ولو صلَّى قاعدًا أيضًا انحنَى انحناءَ الرُّكوعِ وزاد فإنَّه =

تائِبًا[١].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قرأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو على المِنبَرِ ﴿صٓ﴾، فلمَّا بلَغَ السَّجدةَ نَزَل فسَجَد، وسَجَد النَّاسُ معه، فلمَّا كان يومٌ آخَرُ قَرَأها، فلمَّا بلَغَ السَّجدةَ تَشَزَّنَ[٢] النَّاسُ للسُّجودِ، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّما هي تَوبةُ نَبيٍّ، ولَكِنِّي رأيْتُكم تَشَزَّنْتُم للسُّجودِ، فنَزَل فسَجَد وسَجَدوا))[٣].

---

= يصيرُ ساجِدًا؛ فالسَّاجدُ راكِعٌ وزيادةٌ؛ فلهذا جازَ أن يُسمَّى راكِعًا... ومِن النَّاسِ مَن قالَ في قصَّةِ داودَ: إنَّه خَرَّ ساجِدًا بعدَ ما كان راكِعًا... وهذا قولٌ ضعيفٌ، والقرآنُ إنَّما فيه: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، لم يقُلْ: خرَّ بعدَ ما كان راكِعًا... ولعلَّ داودَ سجَد مِن قيامٍ، وقيل: خرَّ راكعًا؛ ليبينَ أنَّ سُجودَه كان مِن قيامٍ، وهو أكمَلُ، ولَفْظُ خَرَّ يدُلُّ على أنَّه وصَل إلى الأرضِ، فجمع له معنى السُّجودِ والرُّكوعِ. ((جامع الرسائل)) (١/ ٣٣-٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٢، ١١٣).

وقد اختلفَ العلماءُ في هذا الموضعِ: هل هو مِن مواضعِ السُّجودِ أو لا؟ فمذهَبُ الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ وبعضِ الشَّافعيَّةِ وروايةٌ عن أحمدَ أنَّه مِن مواضعِ سجودِ التِّلاوةِ. وممَّن اختاره: ابنُ المُنذِرِ، وابنُ حزمٍ، وابنُ بازٍ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٢/ ١٠٣)، ((شرح مختصر خليل)) للخرشي (١/ ٣٥٠)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٦١)، ((المغني)) لابن قدامة (١/ ٤٤١)، ((الأوسط)) لابن المنذر (٥/ ٢٦١)، ((المحلى)) لابن حزم (٣/ ٣٢٢)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٢٤/ ٤٠٦)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٤/ ٩٨).

(٢) التَّشَزُّنُ: التَّأهُّبُ والتَّهيُّؤُ للشَّيءِ، والاستِعدادُ له. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤٧١).

(٣) أخرجه أبو داودَ (١٤١٠) واللَّفظُ له، والدارِميُّ (١٤٦٦)، وابنُ خُزَيْمةَ (١٤٥٥).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٧٦٥)، وصحَّح إسنادَه البَيْهَقيُّ في ((السنن الكبرى)) (٢/ ٣١٨)، والنوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ٦٠)، وابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٧/ ٥٣)، والشوكاني في ((نيل الأوطار)) (٣/ ١٢٠)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٧٦٥). وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٤١٠).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَجَد في ﴿صٓ﴾، وقال: سَجَدَها داودُ تَوبةً، ونَسجُدُها شُكرًا))[١].

وعنه أيضًا قال: ((﴿صٓ﴾ ليس مِن عزائِمِ السُّجودِ، وقد رأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسجُدُ فيها))[٢].

وعن العَوَّامِ، قال: ((سألْتُ مُجاهِدًا عن سَجدةِ ﴿صٓ﴾، فقال: سألْتُ ابنَ عَبَّاسٍ: مِن أين سَجَدْتَ؟ فقال: أوَما تَقرأُ ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ﴾ [الأنعام: ٩٠]؟ فكان داودُ ممَّن أُمِرَ نَبيُّكم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَقتَديَ به، فسجَدَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[٣].

﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥﴾.

﴿فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾.

أي: فسَتَرْنا لداودَ ذلك الذَّنْبَ، وتَجاوَزْنا عن مُؤاخَذتِه به[٤].

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي (٩٥٧) واللفظ له، والطبراني (١٢/ ٣٤) (١٢٣٨٦)، والدارقطني (١/ ٤٠٧). قال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (١/ ١٥١): (رجالُه على شرط البخاري). ووثَّق رواتَه ابنُ حجر في ((الدراية)) (١/ ٢١١)، وقال في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (١/ ٤٥٩): (أصلُه في البخاريِّ). وجَوَّد إسنادَه الشوكانيُّ في ((تفسيره)) (٤/ ٦٠٢)، وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٩٥٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٠).

أي: وإنَّ لِداودَ عِندَنا لَقُربةً مِنَّا ومَنزِلةً رَفيعةً، وحُسْنَ مَرجِعٍ ومُنقَلَبٍ[١].

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾.

﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: يا داودُ إنَّا استَخلَفْناك في الأرضِ[٢] بعدَ مَن كان قَبْلَك؛ لِتأمُرَ بالمعروفِ، وتَنهَى عن المُنكَرِ، وتُدَبِّرَ أمورَ أهلِها الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ بأمْرِنا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

قيل: المرادُ بـ ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾: حُسنُ مَرجِعٍ في الآخرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٢).

وقيل: المرادُ: حُسنُ مَرجِعٍ في كُلِّ ما يُؤمِّلُ مِن الخَيرِ، وفَوقَ ذلك. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٣).

(٢) قيل: الأرضُ هي أرضُ مملكتِه المعهودة، أي: جعَلْناك خليفةً في أرضِ إسرائيلَ. وممَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢).

وقيل: المرادُ: الأرضُ كُلُّها؛ إشارةً إلى إطلاقِ أمْرِه في جميعِها، فلا جُناحَ عليه فيما فعَلَ في أيِّ بلدٍ أرادَها؛ فهو كان خليفةً في بيتِ المقدِسِ بالفِعلِ، وهو خليفةٌ في جميعِ الأرضِ بالقُوَّةِ، بمعنى: أنَّه مهما حكَمَ فيها صَحَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٦٦).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يُجعَلَ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ مرادًا به جميعُ الأرضِ؛ فإنَّ داودَ كان في زمَنِه أعظَمَ مُلوكِ الأرضِ؛ فهو مُتصَرِّفٌ في مملكتِه، ويَخافُ بأسَه ملوكُ الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢).

﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: فاحكُمْ بيْن النَّاسِ بالعَدلِ والإنصافِ، وذلك بالحَقِّ المُنَزَّلِ مِن عندِ اللهِ تعالى[١].

﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا تَتَّبِعْ هوَى نَفْسِك المُخالِفَ لأمرِ اللهِ؛ فيُضِلَّك الهوَى عن اتِّباعِ الحَقِّ المُوصِلِ لِرِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه، ويُوقِعَك في الجَورِ والظُّلمِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا لَّيُضِلُّونَ بِأَهۡوَآئِهِم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ [الأنعام: ١١٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَرَ ما تَرتَّبَ على اتِّباعِ الهَوى، وهو الإضْلالُ عن سَبيلِ اللهِ؛ ذَكَر عِقابَ الضَّالِّ[٣]، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَحيدونَ عن طَريقِ اللهِ لهم عذابٌ شَديدٌ؛ بسَبَبِ نِسيانِهم يومَ القيامةِ، وتَرْكِهم الإيمانَ به، والاستِعدادَ له بالأعمالِ الصَّالحةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٥)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٢، ٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٦). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ فيه أنَّ داودَ عليه السَّلامُ كان في أغلَبِ أحوالِه مُلازِمًا مِحرابَه لعبادةِ رَبِّه؛ ولهذا تسَوَّر الخَصمانِ عليه المحرابَ؛ لأنَّه كان إذا خلا في مِحرابِه لا يأتيه أحدٌ، فلم يجعَلْ كُلَّ وَقتِه للنَّاسِ، مع كثرةِ ما يَرِدُ عليه مِنَ الأحكامِ، بل جعَلَ له وَقتًا يخلو فيه برَبِّه، وتَقَرُّ عَينُه بعبادتِه، وتُعينُه على الإخلاصِ في جميعِ أمورِه[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ فيه أنَّه ينبغي استِعمالُ الأدَبِ في الدُّخولِ على الحُكَّامِ وغَيرِهم؛ فإنَّ الخَصمَينِ لَمَّا دخَلَا على داودَ عليه السَّلامُ في حالةٍ غيرِ مُعتادةٍ، ومِن غيرِ البابِ المعهودِ؛ فَزِعَ منهم، واشتَدَّ عليه ذلك، ورآه غيرَ لائقٍ بالحالِ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ ...﴾ الآياتِ، في هذه القِصَّةِ دَليلٌ على التَّلَطُّفِ في رَدِّ الإنسانِ عن مَكروهٍ صَنَعه، وألَّا يُؤخَذَ بالعُنفِ ما أمكَنَ[3].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ

---

= قال مكِّي: (قال عِكْرِمةُ: هذا مِن التَّقديمِ والتَّأخيرِ. والتَّقديرُ عندَه: لهم يومَ الحسابِ عذابٌ شديدٌ ﴿بِمَا نَسُواْ﴾ أي: بما ترَكوا أمرَ الله والقضاءَ بالعدلِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٢٣٨). واختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٧).

وقال ابن كثير: (قال السُّدِّيُّ: «لهم عذابٌ شديدٌ بما تَرَكوا أنْ يعمَلوا ليومِ الحسابِ». وهذا القولُ أمشَى على ظاهِرِ الآيةِ. فاللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢١).

فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ فيه أنَّه لا يَمنَعُ الحاكِمَ مِن الحُكمِ بالحَقِّ سُوءُ أدَبِ الخَصمِ، وفِعلُه ما لا يَنبَغي[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ فيه أنَّ المَوعوظَ والمَنصوحَ ولو كان كبيرَ القَدْرِ، جَليلَ العِلم، إذا نصَحه أحَدٌ أو وعَظَه: لا يَغضَبُ ولا يَشمَئِزُّ، بل يُبادِرُه بالقَبولِ والشُّكرِ؛ فإنَّ الخَصمَينِ نصَحَا داودَ عليه السَّلامُ، فلم يَشمَئِزَّ ولم يَغضَبْ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ دَليلٌ على أنَّ الخُصومَ إذا خاطَبوا الحاكِمَ بمِثلِه، وقالوا: «اعْدِلْ في حُكمِك، ولا تَجُرْ علينا»! لم يكُنْ ذلك منهما سُوءَ أدَبٍ، ولا يُجوزُ للحاكِمِ أنْ يَجِدَ عليهما، ولا يُعاقِبَهما[٣]، فمُخاطَبةُ الخَصمِ لِداودَ بهذا خارِجةٌ مَخرجَ الحِرصِ على إظهارِ الحَقِّ، وهو في مَعنى الذِّكرَى بالواجِبِ؛ فلذلك لا يُعَدُّ مِثلُها جَفاءً لِلحاكِمِ والقاضي، وهو مِن قَبيلِ: اتَّقِ اللهَ في أمْري. وصُدورُه قَبْلَ الحُكمِ أقرَبُ إلى مَعنى التَّذكيرِ، وأبعَدُ عن الجَفاءِ، فإنْ وَقَع بعدَ الحُكمِ كان أقرَبَ إلى الجَفاءِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه أنَّ ما معهم مِن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ يَمنَعُهم مِنَ الظُّلمِ[٥]. وكُلَّما كان الإنسانُ أقوى إيمانًا وأكثرَ عَمَلًا مِن الصَّالحاتِ، كان أبْعَدَ عن الظُّلمِ والبَغيِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٧).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنَّ العَمَلَ لا يَنفَعُ إلَّا إذا بُنِيَ على الإيمانِ وكان صالِحًا، فعَمَلٌ بلا إيمانٍ لا يُقبَلُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤]، وكذلك لو كان هناك إيمانٌ لكِنْ لم يكنِ العَمَلُ صالِحًا؛ لِفَقْدِ الإخلاصِ أو الاتِّباعِ فيه، فإنَّه لا يَنفعُ(١).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يُفيدُ أنَّ بَغْيَ أحَدِ المُتعاشِرَينِ على عَشيرِه: مُتَفَشٍّ بيْن النَّاسِ غيرِ الصَّالحينَ مِن المؤمِنينَ(٢).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فيه أنَّ المخالطةَ بيْن الأقارِبِ والأصحابِ، وكثرةَ التَّعَلُّقاتِ الدُّنيويَّةِ الماليَّةِ: مُوجِبةٌ للتَّعادي بيْنَهم، وبَغْيِ بعضِهم على بعضٍ، وأنَّه لا يَرُدُّ عن ذلك إلَّا استِعمالُ تقوى اللهِ، والصَّبرُ على الأُمورِ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وأنَّ هذا مِن أقَلِّ شَيءٍ في النَّاسِ(٣).

١١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ذِكرُ غالِبِ أحوالِ الخُلَطاءِ أراد به الموعِظةَ لهما بعدَ القَضاءِ بَيْنَهما، على عادةِ أهلِ الخَيرِ مِن انتِهازِ فُرَصِ الهدايةِ؛ فأراد داودُ عليه السَّلامُ أن يُرَغِّبَهما في إيثارِ عادةِ الخُلَطاءِ الصَّالِحينَ، وأن يُكَرِّهَ إليهما الظُّلْمَ والاعتِداءَ. ويُستفادُ مِن المَقامِ أنَّه يأسَفُ لحالِهما، وأنَّه أراد تَسليةَ المظلومِ عَمَّا جرَى عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

مِن خَليطِه، وأنَّ له أُسوةً في أكثَرِ الخُلَطاءِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أنَّ الحاكمَ لا يَحكُمُ حتَّى يَستوعِبَ حُجَجَ الخَصمَينِ[٢]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أنَّ الحاكمَ الذي نَصَب نفْسَه لِيَكونَ حَكَمًا بيْنَ العِبادِ لا يَحِلُّ له أنْ يَختفِيَ عنهم في الوقتِ الَّذي يكونُ وقتًا للتَّحاكم، وفيه أنَّ الاشتِغالَ بما فيه مصلحةٌ عامَّةٌ أفضلُ مِن الاشتغالِ بما فيه مصلحةٌ خاصَّةٌ[٣]. وهذا على القولِ بأنَّ داودَ عليه السَّلامُ كان قد أغلَق بابَه، أو جعَل عليه حاجبًا يمنعُ النَّاسَ مِن الدُّخولِ عليه.

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ الظنُّ بمعنى العِلم -واللهُ أعلمُ- أي: عَلِمَ داودُ، والدَّليلُ عليه استِغفارُه وتوبتُه؛ لأنَّ بالشَّكِّ لا يَتحقَّقُ الذَّنْبُ؛ فلِلتَّائِبينَ بعدَه أنْ يَقتَدوا به -صلَّى الله عليه وسلَّم- في التَّوبةِ، فيَستَغفِروا خارِّينَ بيْنَ يَدَيْ ربِّهم في السُّجودِ؛ لأنَّه أجْدَرُ بالغُفرانِ لصاحبِه إذا تذَلَّلَ بالسُّجودِ لخالِقِه[٤].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعٗا وَأَنَابَ ۩ ۞ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ فيه أنَّ الاستغفارَ والعِبادةَ -خُصوصًا الصَّلاةَ- مِن مُكَفِّراتِ الذُّنوبِ؛ فإنَّ اللهَ رَتَّب مَغفِرةَ ذَنْبِ داودَ على استِغفارِه وسُجودِه[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ أنَّه لا ينبغي للشَّخصِ إذا وُكِل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

إليه تَوَلِّي القضاءِ أنْ يَفِرَّ منه ما دام يَعرِفُ مِن نفْسِه الكفاءةَ؛ حتَّى لا يتَعطَّلَ هذا المَنصِبُ العظيمُ الَّذي هو مَنصِبُ الرُّسلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فإذا أتاه دونَ سؤالٍ فلْيَستَعِنْ بالله، واللهُ يُعينُه عليه[١]، فمَنصِبُ القَضاءِ فَرْضُ كفايةٍ -كما قال ذلك أهلُ العِلمِ- وإذا لم يُوجَدْ إلَّا الشَّخصُ المُعَيَّنُ المُؤَهَّلُ، فإنَّه يَكونُ في حقِّه فرضَ عَينٍ[٢].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ فيه أنَّه ينبغي للحاكِمِ أن يَحذَرَ الهَوى، ويَجعَلَه منه على بالٍ؛ فإنَّ النُّفوسَ لا تخلو منه، بل يُجاهِدُ نَفْسَه بأن يكونَ الحَقُّ مَقصودَه، وأن يُلقِيَ عنه وقتَ الحُكمِ كُلَّ مَحبَّةٍ أو بُغضٍ لأحَدِ الخَصمَينِ[٣].

١٨- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ فيه أنَّ السَّبَبَ الأوَّلَ لحُصولِ الضَّلالِ هو نِسيانُ يَومِ الحِسابِ؛ لأنَّه لو كان مُتذكِّرًا ليَومِ الحِسابِ لَمَا أعرَضَ عن إعدادِ الزَّادِ لِيَومِ المعادِ، ولَمَا صارَ مُستَغرِقًا في هذه اللَّذَّاتِ الفاسِدةِ[٤].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ الحَذَرُ مِن الانغِماسِ في الدُّنيا؛ الَّذي يُوجِبُ نِسيانَ يومِ الحسابِ، وكلُّ لَهْوٍ يَصُدُّ عن سبيلِ اللهِ يُنسِي يومَ الحسابِ[٥].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ فيه التَّرهيبُ مِن نسيانِ القيامةِ، قال

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٩).

تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا﴾[١] [الأعراف: ٥١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ﴾ إلى آخرِ القِصَّةِ: أنَّ الحُكْمَ بينَ النَّاسِ أفضَلُ مِن العباداتِ الخاصَّةِ؛ لأنَّ نَفعَه مُتَعَدٍّ، والعباداتِ الخاصَّةَ نَفعُها قاصِرٌ[٢]. وذلك على القولِ بأنَّ داودَ عليه السَّلامُ كان قد أغلَق بابَه، أو جعَل عليه حاجبًا يمنعُ النَّاسَ مِن الدُّخولِ عليه.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَفَزِعَ مِنۡهُمۡ﴾ أنَّ الأنبياءَ يَلحَقُهم مِن الطَّبائعِ البَشَريَّةِ ما يَلحَقُ غَيْرَهم؛ حيث لَحِقَه الفَزَعُ كما يَلحَقُ سائِرَ النَّاسِ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ في هذه القِصَّةِ دليلٌ على جوازِ القَضاءِ في المَسجِدِ[٤]، وذلك على قولٍ في معنى المحرابِ.

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ﴾ نَصَّ على الأُخُوَّةِ؛ لاقتِضائِها عَدَمَ البَغيِ، وأنَّ بَغْيَه الصَّادِرَ منه أعظَمُ مِن غَيرِه، سواءٌ كانت أُخوَّةً في الدِّينِ أو النَّسَبِ أو الصَّداقةِ[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ فيه جَوازُ

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٥٦)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

المعاريضِ مِن القَولِ[١] -وذلك على قولٍ في معنى الآيةِ-؛ والمعاريضُ غيرُ مَعدودةٍ في عِدادِ الكَذِبِ[٢].

٦- لَباقةُ هَذينِ الخَصمَينِ؛ حيثُ لم تُثِرِ الخُصومةُ ضَغينتَهما؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، مع أنَّه قال في الأوَّلِ: ﴿بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ لكِنْ هذا البَغيُ لم تُفقَدْ به الأُخُوَّةُ؛ لِقَولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي﴾[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي فِي ٱلۡخِطَابِ﴾ فيه دَليلٌ شَرعيٌّ على جَوازِ وَضعِ القِصَصِ التَّمثيليَّةِ الَّتي يُقصَدُ منها التَّربيةُ والمَوعِظةُ، ولا يَتحَمَّلُ واضِعُها جُرحةَ الكَذِبِ[٤]، وذلك على أحَدِ القَولَينِ في معنى الآيةِ.

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فيه سؤالٌ: كيف جاز لداودَ عليه السَّلامُ أن يَحكُمَ على أحَدِ الخَصمَينِ بمُجَرَّدِ قَولِ خَصمِه؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ هذا الكلامَ ليس ابتداءً مِن داودَ عليه السَّلامُ إثرَ فَراغِ لَفظِ المُدَّعِي، ولا فُتيا بظاهِرِ كَلامِه قَبْلَ ظُهورِ ما يَجِبُ، فذلك على تقديرِ: لَئِنْ كان ما تقولُ، لَقد ظَلَمَك. أي: أنَّ هذا الحكمَ كان مشروطًا بشرطِ كونِه صادقًا في دعواه.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّه ثَمَّ مَحذوفٌ، أي: فأقَرَّ المُدَّعَى عليه، فقال: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ﴾، ولكِنَّه لم يُحْكَ في القُرآنِ اعترافُ المُدَّعَى عليه؛ لأنَّه معلومٌ مِن الشَّرائعِ كُلِّها؛

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٨).

إذ لا يَحكُمُ الحاكِمُ إلَّا بعدَ إجابةِ المُدَّعَى عليه[١].

**الوجهُ الثَّالِثُ**: أن يكونَ التَّقديرُ أنَّ الخَصمَ الَّذي هذا شأنُه يكونُ قد ظَلَمك[٢].

**الوجهُ الرَّابعُ**: أنَّه مِن المعلومِ مِن السِّياقِ السَّابِقِ مِن كَلامِهما: أنَّ هذا هو الواقِعُ؛ فلهذا لم يحتَجْ أن يَتكلَّمَ الآخَرُ؛ فلا وَجْهَ للاعتِراضِ[٣].

**الوجهُ الخامِسُ**: أنَّه قد عَلِمَ داودُ عليه السَّلامُ مِن تَساوُقِهما للخُصومةِ ومِن سُكوتِ أحَدِ الخَصمَينِ أنَّهما مُتقارِبانِ على ما وَصَفه الحاكي منهما[٤].

**الوجهُ السَّادسُ**: أنَّ هذه كانت خطيئةَ داودَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ مِن غيرِ تثبُّتٍ ببيِّنةٍ، ولا إقرارٍ مِن الخَصمِ هل كان هذا كذا أو لم يكُنْ[٥].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ استُدِلَّ به على جوازِ الشَّرِكةِ[٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ دَليلٌ على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٤).
وقال الثعلبي: (حُذِف الاعترافُ؛ لأنَّ ظاهرَ الآيةِ دالٌّ عليه، كقولِ العرَبِ: أمَرْتُك بالتِّجارةِ فكسَبْتَ الأموالَ [أي: فاتَّجرتَ فاكتسبتَ الأموالَ]). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٧٥).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢١).
قال ابنُ قُدامةَ: (الشركةُ: هي الاجتماعُ في استحقاقٍ أو تصَرُّفٍ، وهي ثابتةٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ والإجماعِ؛ أمَّا الكتابُ فقولُ الله تعالى: ﴿فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ﴾ [النساء: ١٢]، وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾. والخُلَطاءُ هم الشُّرَكاءُ ...). ((المغني)) (٥/ ٣).

العَرَبَ -وإنْ سَمَّتِ النِّساءَ بالنِّعاجِ- فهي في هذا الموضِعِ نِعاجُ الغَنَمِ -على أحدِ القولَينِ-؛ لأنَّ الخُلَطاءَ لا يكونونَ في النِّساءِ، إنَّما يَكونونَ في الغَنَمِ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أنَّ أكثَرَ الشُّرَكاءِ يَحصُلُ مِن أحدِهم بَغْيٌ على الآخَرِ، وهذا مِن الغَريبِ أن يَكونَ الإنسانُ كُلَّما قَرُبَ إلى الشَّخصِ تُوُقِّعَ منه البَغيُ أكثرَ ممَّا لو كان بعيدًا؛ لأنَّ البعيدَ ليس بيْنَه وبيْنَه صِلةٌ، لكنَّ الَّذي بيْنَه وبيْنَه صِلةٌ وهو الشَّريكُ: هو الَّذي رُبَّما يَجحَدُه أو يُنكِرُه، أو يَفعَلُ شيئًا لم يَأذَنْ به أو ما شابَهَ ذلك[٢].

١٢- قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أنَّ الجَمعَ بيْن هذَينِ الوَصفَينِ؛ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ: قَليلٌ[٣].

١٣- قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ في قَولِ الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ حَثٌّ للخَصْمَينِ أن يَكونا مِنَ الصَّالِحينَ؛ لِما هو مُتقَرِّرٌ في النُّفوسِ مِن نَفاسةِ كُلِّ شَيءٍ قَليلٍ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم السَّلامُ قد يُفتَنونَ ويُختَبَرونَ، ولكِنَّ الفِتنةَ الَّتي يُفتَنُ بها الأنبياءُ لا يُمكِنُ أنْ تَعودَ إلى إبطالِ مُقَوِّماتِ الرِّسالةِ والنُّبوَّةِ؛ كالفِتنةِ التي تَعودُ إلى الكَذِبِ، أو الشِّركِ، أو الأخلاقِ الرَّديئةِ، وما أشبَهَها، هذا لا يُمكِنُ أنْ يَقَعَ مِن الأنبياءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٢). وتقدَّم ذِكرُ الخلافِ في ذلك (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١١٨).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ أنَّ العبدَ بعدَ التَّوبةِ يعودُ خيرًا ممَّا كان[1].

١٦- قَولُ الله تعالى في حقِّ داودَ عليه السَّلامُ: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾، وقولُه عن سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي ...﴾ إلى أن قال عنه: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ يُبَيِّنُ إكرامَ اللهِ لِعَبدِه داودَ وسُلَيمانَ؛ بالقُربِ منه، وحُسنِ الثَّوابِ، وألَّا يُظَنَّ أنَّ ما جرَى لهما مُنقِصٌ لدَرَجتِهما عندَ الله تعالى، وهذا مِن تمامِ لُطفِه سبحانه بعبادِه المُخلَصينَ: أنَّه إذا غَفَر لهم، وأزال أثَرَ ذُنوبِهم، أزال الآثارَ المترتِّبةَ عليه كلَّها، حتَّى ما يقَعُ في قُلوبِ الخَلقِ؛ فإنَّهم إذا عَلِموا ببَعضِ ذُنوبِهم وقَعَ في قُلوبِهم نُزولُهم عن دَرَجتِهم الأُولى، فأزال اللهُ تعالى هذه الآثارَ، وما ذاك بعزيزٍ على الكريمِ الغَفَّارِ[2].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ۞ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ يُبَيِّنُ اعتِناءَ اللهِ تعالى بأنبيائِه وأصفيائِه عندَما يقَعُ منهم بَعضُ الخَلَلِ، بفِتنتِه إيَّاهم، وابتلائِهم بما به يَزولُ عنهم المحذورُ، ويَعودون إلى أكمَلَ مِن حالتِهم الأُولى، كما جرَى لداودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ[3].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ أنَّه يجِبُ الحُكمُ بيْنَ النَّاسِ بالحقِّ؛ سواءٌ كان ذلك في طريقِ الحُكمِ أو في نفْسِ الحُكمِ، أمَّا طريقُ الحكمِ؛ فهو معاملةُ الخَصمينِ بحيثُ تكونُ المعامَلةُ بيْنَهما على وجهِ العدلِ، وألَّا يميلَ إلى أحَدِ الخَصمَينِ أو يحابيه؛ لِقَرابةٍ، أو لجاهِه، أو سبَبٍ يقتَضي المَيلَ، ويُؤيِّدُ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذا قَولُه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾، وأمَّا في الحكمِ؛ فأنْ يَحكُمَ بما تقتضيه الشَّريعةُ[١].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ فيه أنَّ الحُكمَ بيْنَ النَّاسِ مَرتبةٌ دينيَّةٌ تولَّاها رُسُلُ اللهِ وخواصُّ خَلقِه، وأنَّ وَظيفةَ القائِمِ بها: الحُكمُ بالحَقِّ، ومُجانبةُ الهوى؛ فالحُكمُ بالحَقِّ يَقتَضي العِلمَ بالأُمورِ الشَّرعيَّةِ، والعِلمَ بصُورةِ القَضيَّةِ المحكومِ فيها، وكيفيَّةَ إدخالِها في الحُكمِ الشَّرعيِّ؛ فالجاهِلُ بأحَدِ الأمْرَينِ لا يَصلُحُ للحُكمِ، ولا يَحِلُّ له الإقدامُ عليه[٢].

٢٠- المعروفُ في استعمالِ الهوَى عندَ الإطلاقِ: أنَّه المَيلُ إلى خلافِ الحقِّ، كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[٣].

٢١- قال الله تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾، ولذلك اشترَط العُلَماءُ في الخَليفةِ شُروطًا كُلُّها تَحومُ حوْلَ الحَيلولةِ بيْنَه وبيْنَ اتِّباعِ الهوَى، وما يُوازيه مِنَ الوُقوعِ في الباطِلِ، وهي: التَّكليفُ، والحُرِّيَّةُ، والعَدالةُ، والذُّكورةُ[٤].

٢٢- مُجَرَّدُ الحبِّ والبغضِ هو هوًى، لكنَّ المُحَرَّمَ منه هو اتِّباعُ حُبِّه وبُغْضِه بغيرِ هُدًى مِن اللهِ؛ ولهذا قال اللهُ سبحانه لنَبيِّه داودَ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ﴾، فأخبَرَ أنَّ مَنِ

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٦٠-٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٦). ويُنظر أيضًا: ((الأم)) للشافعي (٧/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٥، ٢٤٦).

اتَّبَعَ هواه أضَلَّه ذلك عن سَبيلِ اللهِ، وهو هُداهُ الَّذي بَعَثَ به رَسولَه، وهو السَّبيلُ إليه[١].

٢٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لم يَنْهَه عن هوى النَّفْسِ، ولكِنْ نهاه عن اتِّباعِ هواها؛ لأنَّ النَّفْسَ قد تَهوى في الحُكمِ بغيرِ حَقٍّ؛ حيث قال: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ لأنَّ النَّفْسَ أُنشِئَت على الهوى والمَيلِ إلى اللَّذَّاتِ والشَّهواتِ، وعلى ذلك طُبِعَت وبُنِيَت؛ فيكونُ في هواها إلى ما تَهوى مدفوعًا غيرَ مالِكٍ ولا قادِرٍ على دَفْعِه؛ لذلك لم يَنْهَه عن هواها، ولكِنْ نهاه عن اتِّباعِ هواها، ويَقدِرُ على مَنْعِها بالعَقلِ، ورَدِّها إلى اتِّباعِ الحَقِّ؛ لذلك كان ما ذَكَر. واللهُ أعلَمُ[٢].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ اتِّباعَ الهوَى يَجلِبُ للإنسانِ الضَّلالَ، كما أنَّه هو نَفْسُه ضَلالٌ، فإذا اتَّبَعتَ الهوى في قَضيَّةٍ ما فانتَظِرِ اتِّباعَ الهوى في القَضيَّةِ الَّتي تليها؛ لأنَّ المَعصيةَ قَبْلَ أنْ يَقَعَ فيها الإنسانُ يَجِدُ نَفْسَه تَستوحِشُ منها وتَنفِرُ، فإذا فَعَلَها مَرَّةً هانتْ عليه، وانكسرَ الحِجابُ، فإذا هانتْ عليه أوَّلَ مَرَّةٍ هانتْ عليه الثَّانيةُ ثمَّ الثَّالثةُ، حتَّى تُصبِحَ وكأنَّها لا شَيءَ؛ ولهذا يَضرِبُ العامَّةُ مَثَلًا له فائِدةٌ، يقولونَ: «بكثرةِ الإمسَاسِ يَقِلُّ الإحساسُ»، يعني: إذا أكثَرَ الإنسانُ مُماسَّةَ الشَّيءِ قَلَّ إحساسُه به[٣].

٢٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في جَعلِ الضَّلالِ عن سَبيلِ اللهِ، ونِسيانِ يومِ الحِسابِ سَبَبينِ لاستِحقاقِ العَذابِ الشَّديدِ: تَنبيهٌ على

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٧).

تلازُمِهما؛ فإنَّ الضَّلالَ عن سَبيلِ اللهِ يُفضي إلى الإعراضِ عن مُراقَبةِ الجَزاءِ(١).

٢٦- أنَّ دينَ اللهِ تعالى واحِدٌ لا يَتشعَّبُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فأفرَدَها، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]؛ فسَبيلُ اللهِ واحِدةٌ، وما خالَفَها فهو المُتَشَتِّتُ؛ فهذا سَبَبُه الهوى، وهذا سَبَبُه خَشيةُ الناسِ، وهذا سَبَبُه كذا، وهذا سَبَبُه كذا؛ فتتفَرَّقُ السُّبُلُ(٢).

٢٧- أنَّ مِن أسبابِ الضَّلالِ عن سَبيلِ اللهِ نِسيانَ يومِ الحِسابِ، والغفلةَ عنه، والانغماسَ في الدُّنيا حتَّى تُنسِيَ الإنسانَ ما خُلِقَ له، وما هو مُقبِلٌ عليه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: غَفَلوا عنه، وليس المرادُ بالنِّسيانِ الذُّهولَ الَّذي يُعفَى عنه، بلِ المرادُ بالنِّسيانِ التَّركُ الَّذي هو الغَفلةُ، وعَدَمُ المُبالاةِ به(٣).

٢٨- إثباتُ الأسبابِ؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾؛ لأنَّ الباءَ هذه للسَّبَبيَّةِ(٤).

٢٩- مُناسَبةُ ذِكرِ الله تعالى قصَّةَ داودَ عليه السَّلامُ في سورةِ (ص): أنَّهم لَمَّا قالوا ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ [ص: ٨] كان في ذلك الكلامِ إشعارٌ بهَضمِ جانبِه، فغار الله لذلك، وبيَّن أنَّهم ليس عندَهم خزائنُ رحمتِه، ولا لهم مُلكٌ، وأنَّهم جندٌ مهزومون. وكأنَّه يقولُ: وما قدرُ هؤلاء؟ ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [ص: ١٧] واذكُرْ مَن آتَيْناه المُلكَ العظيمَ في الدُّنيا، مع ما لَه في الآخرةِ، وهو أخوك،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٩).

وأنت عندَنا أرفَعُ رتبةً منه. وفي ذلك تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم مِن وجهينِ:

**أحدهما**: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا شكَّ أنَّه يَفرَحُ لإخوتِه الأنبياءِ بما يَحصُلُ لهم مِن الخَيرِ، كما لو حصَل لِنَفْسِه، سواء بسواء، وأكثر.

**والثَّاني**: أنَّه يعلمُ أنَّ رتبتَه عندَ الله أكمَلُ. وإذا ذكَر هذَينِ الأمْرَينِ، احتقَر قُرَيشًا فيه، وعلِم أنَّ الَّذي أُوتوه وافتَخَروا به لا شيءَ. فهذا وجهُ المناسبةِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإيرادِ قِصَّةِ داودَ عليه السَّلامُ[٢]. أو مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ﴾ [ص: ١٨]، والإنشاءُ هنا في معنَى الخَبَرِ؛ فإنَّ هذه الجُملةَ قصَّتْ شأنًا مِن شأنِ داودَ مع ربِّه تعالى، فهي نَظيرُ ما قَبْلَها[٣].

- وأيضًا قَولُه: ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلۡخَصۡمِ إِذۡ تَسَوَّرُواْ ٱلۡمِحۡرَابَ﴾ ظاهِرُه الاستِفهامُ، ومَعناهُ: الدَّلالةُ على أنَّه مِنَ الأنباءِ العَجيبةِ الَّتي حَقُّها أنْ تَشيعَ ولا تَخفَى على أحَدٍ، وفي الاستِفهامِ معنَى التَّشويقِ إلى استِماعِه؛ وذلك أنَّ هذه القِصَّةَ إنْ كانتْ مَعلومةً للسَّامِعِ فيَكونُ في الاستِفهامِ بَعثٌ له، وتَحريضٌ على إشاعَتِها، وإعلامِ النَّاسِ بها، أي: كأنَّك ما عَلِمْتَها حيثُ تُخْفيها، ولا تؤدِّي حقَّها مِن الإذاعةِ، وإنْ لم تكُنْ معلومةً كان تأنيبًا على التَّقاعُدِ عن استِعلامِها، وتَشويقًا إلى استِماعِها. والخِطابُ يَجوزُ أنْ يَكونَ لكلِّ سامِعٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((القول المحمود)) للسبكي (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((حاشية الطيبي =

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْخَصْمِ﴾ للعَهدِ الذِّهنيِّ، أي: عهدِ فَردٍ غَيْرِ مُعَيَّنٍ مِن جنسِه، أي: نَبأُ خَصمٍ مُعَيَّنٍ هذا خَبَرُه. والخَصمُ: اسمٌ يُطلَقُ على الواحِدِ وأكثَرَ[١]، وأُريدَ به هنا خَصْمانِ؛ لقَولِه بعْدَه: ﴿خَصْمَانِ﴾ [ص: ٢٢]، أو نحنُ فَوجانِ مُتَخاصِمانِ، على تَسميةِ مُصاحِبِ الخَصمِ خَصمًا[٢]، وقيل غيرُ ذلك[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْۖ قَالُواْ لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾

- قَولُه: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ﴾ استِئنافٌ وَقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نَشَأَ مِن حِكايةِ فَزَعِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ كأنَّه قيلَ: فماذا قالوا عِندَ مُشاهَدَتِهم لِفَزَعِه؟ فقيل: قالوا -إزالةً لِفَزَعِه-: ﴿لَا تَخَفْۖ خَصْمَانِ ...﴾[٤].

- وجاءَ ضَميرُ المُتَكَلِّمِ ومعه غَيرُه في قولِه: ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا﴾؛ رَعْيًا لِمَعنى ﴿خَصْمَانِ﴾، ولم يُبَيِّنا الباغيَ منهما؛ لأنَّ مَقامَ تَسكينِ رَوْعِ دَاودَ يَقتَضي الإيجازَ بالإجمالِ، ثم يَعقُبُه التَّفصيلُ، ولِإظهارِ الأدَبِ مع الحاكِمِ؛ فلا يَتَولَّيانِ تَعيينَ الباغي منهما، بل يَترُكانِه لِلحاكِمِ يُعيِّنُ الباغيَ منهما في حُكمِه حينَ قال لِأحَدِهما: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾[٥] [ص: ٢٤].

---

= على الكشاف)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٦).

(١) و(الخَصْمُ) في الأصلِ مَصدَرُ (خَصَمَه)، والعَرَبُ إذا نعتَت بالمَصدَرِ أفردَتْه وذكَّرَتْه، وعليه فالخَصمُ يُرادُ به الجَماعةُ والواحِدُ والاثنانِ، ويجوزُ جَمْعُه وتثنيتُه؛ لِتَناسي أصلِه الَّذي هو المصدَرُ، وتنزيلِه مَنزِلةَ الوصفِ. يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٣).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ﴾ تفريعٌ على قَولِه: ﴿خَصۡمَانِ﴾؛ لِأنَّ داودَ عليه السَّلامُ لَمَّا كان مَلِكًا، وكان اللَّذانِ حَضَرَا عِندَه خَصمَيْنِ؛ كان طَلَبُ الحُكمِ بَيْنَهما مُفَرَّعًا على ذلك. والباءُ في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ لِلمُلابَسةِ، وهي مُتعَلِّقةٌ بقَولِه: ﴿فَٱحۡكُم﴾، وهذا مُجرَّدُ طَلَبٍ منهما لِلحَقِّ[١].

- والنَّهيُ في قَولِه: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّذكيرِ والإرشادِ[٢].

- وقَولُهما: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ يَصرِفُ عن إرادةِ الجَفاءِ مِن قَولِهما: ﴿وَلَا تُشۡطِطۡ﴾؛ لأنَّهما عَرَفا أنَّه لا يَقولُ إلَّا حَقًّا، وأنَّهما تَطَلَّبَا منه الهُدَى، وعُبِّر بالهُدَى هنا عن البَيانِ، وإيضاحِ الصَّوابِ[٣].

- قولُه: ﴿سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ ضُرِب مثلًا لِعَيْنِ الحقِّ ومحضِه الَّذي لا يَشوبُه باطِلٌ، وعُبِّر به عنه؛ لِأنَّ الصِّراطَ الطَّريقُ الواسِعُ، والسَّواءُ منه هو الَّذي لا الْتِواءَ فيه، ولا شُعَبَ تَتشَعَّبُ منه، فهو أسرَعُ إيصالًا إلى المَقصودِ باستِوائِه، وأبعَدُ عن الالتِباسِ بسَلامَتِه مِنَ التَّشَعُّبِ[٤].

- ومَجموعُ قَولِه: ﴿وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ تَمثيلٌ لِحالِ الحاكِمِ بالعَدلِ بحالِ المُرشِدِ الدَّالِّ على الطَّريقِ المُوصلةِ؛ فهو مِنَ التَّمثيلِ القابِلِ تَجزِئةَ التَّشبيهِ في أجزائِه[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ فَقَالَ أَكۡفِلۡنِيهَا وَعَزَّنِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

فِي ٱلۡخِطَابِ ﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِي لَهُۥ تِسۡعٞ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةٗ وَلِيَ نَعۡجَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ ما فيه الخُصومةُ، أيْ: أخي في الدِّينِ، أو في الصُّحبةِ، والتَّعرُّضُ لذلك تَمهيدٌ لِبَيانِ كَمالِ قُبحِ ما فَعَل به صاحِبُه[1].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿أَخِي﴾ بَدَلًا مِن اسمِ الإشارةِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ خَبَرَ ﴿إِنَّ﴾، وهو أوْلَى؛ لِأنَّ فيه زيادةَ استِفظاعِ اعتِدائِه عليه[2].

- قيل: الظَّاهِرُ إبقاءُ لَفظِ النَّعجةِ على حَقيقَتِه مِن كَونِها أُنثى الضَّأْنِ؛ لِأنَّ ذلك الإخبارَ كان صادِرًا مِنَ المَلائِكةِ -على قولٍ-، على سَبيلِ التَّصويرِ لِلمَسألةِ، والفَرضِ لها مِن غَيرِ تَلَبُّسٍ بشَيءٍ منها، فمَثَّلوا بقِصَّةِ رَجُلٍ له نَعجةٌ، ولِخَليطِه تِسعٌ وتِسعونَ، فأرادَ صاحِبُه تَتِمَّةَ المِئةِ، فطَمِعَ في نَعجةِ خَليطِه، وأرادَ انتِزاعَها منه، وحاجَّهُ في ذلك مُحاجَّةَ حَريصٍ على بُلوغِ مُرادِه، ويدُلُّ على ذلك قَولُه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ﴾ [ص: ٢٤]، وهذا التَّصويرُ والتَّمثيلُ أبلَغُ في المَقصودِ، وأدَلُّ على المُرادِ[3].

- وقيل: إنَّ لَفظَ النَّعجةِ كِنايةٌ عنِ المَرأةِ؛ فقد كانوا يَكْنون عنِ المرأةِ بالنَّعجةِ والشَّاةِ، والكِنايةُ والتَّمثيلُ فيما يُساقُ لِلتَّعريضِ أبلَغُ في المَقصودِ، وفي مَعنى ذِكرِ النِّعاجِ نُكتةٌ بَليغةٌ؛ لِأنَّ تَحاكُمَهم في نَفْسِه كان تَمثيلًا، أيْ: تَعريضًا وتَوريةً، وكان كَلامُهم تَمثيلًا، أيْ: تَعريضًا وتَوريةً؛ لِأنَّ التَّمثيلَ أبلَغُ في التَّوبيخِ؛ ولِلتَّنبيهِ على أنَّه أمرٌ يُستَحْيا مِن كَشفِه، فيُكَنَّى عنه، كما يُكَنَّى عمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٠، ٣٥١).

يُستَسمَجُ الإفصاحُ به[١].

- وقولُه: ﴿أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: اجْعَلْها في كَفالَتي، أي: حِفْظي، وهو كِنايةٌ عن الإعطاءِ والهِبةِ، أيْ: هَبْها لي[٢].

- قَولُه: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ أي: غَلَبَني في مُخاطَبَتِه، أيْ: أظهَرَ في الكَلامِ عِزَّةً عليَّ وتَطاوُلًا؛ فجَعَلَ الخِطابَ ظَرفًا لِلعِزَّةِ؛ لِأنَّ الخِطابَ دَلَّ على العِزَّةِ والغَلَبةِ؛ فوَقَعَ تَنزيلُ المَدلولِ مَنزِلةَ المَظروفِ، وهو كَثيرٌ في الاستِعمالِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾

- قَولُه: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ جَوابُ قَسَمٍ مَحذوفٍ؛ قَصَد به المُبالَغةَ في إنكارِ فِعلِ خَليطِه، وتَهجينِ طَمَعِه[٤].

- وفي قَولِه: ﴿بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ﴾ أضافَ المَصدَرَ إلى المَفعولِ، وضَمَّنَ السُّؤالَ مَعنى الإضافةِ والضَّمِّ، أيْ: بإضافةِ نَعجَتِكَ على سَبيلِ السُّؤالِ والطَّلَبِ؛ ولذلك عَدَّاهُ بـ (إلى)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٨- ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

=

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ كِنايةٌ عن أمْرِهما بأنْ يَكونَا مِنَ المُؤمِنينَ الصَّالِحينَ، وأنَّ ما فَعَلَه أحَدُهما ليس مِن شَأنِ الصَّالِحينَ[1].

- وزِيادةُ (ما) بَعدَ (قَلِيلٌ) في قَولِه: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾؛ لِقَصدِ الإبهامِ، وفي هذا الإبهامِ إيذانٌ بالتَّعَجُّبِ مِن قِلَّتِهم بمَعونةِ السِّياقِ والمَقامِ. وقيل: (ما) صِلةٌ، تُفيدُ معنى التَّعظيمِ والتَّعَجُّبِ[2].

- وسَوقُ نَبَأِ الخَصمَيْنِ عَقِبَ التَّنويهِ بداودَ عليه السَّلامُ ليس إلَّا تَتميمًا لِلتَّنويهِ به؛ لِدَفعِ ما قد يُتَوهَّمُ أنَّه يَنقُصُ ما ذُكِرَ مِن فَضائِلِه ممَّا جاءَ في كِتابِ اليَهودِ في ذِكرِ هذه القِصَّةِ مِن أغلاطٍ باطِلةٍ تُنافي مَقامَ النُّبوَّةِ؛ فأُريدَ بَيانُ المِقدارِ الصَّادِقِ منها، وتَذييلُه بأنَّ ما صَدَرَ عن داودَ عليه السَّلامُ يَستَوجِبُ العِتابَ، ولا يَقتَضي العِقابَ؛ ولذلك خُتِمتْ بقَولِه: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾[3] [ص: ٢٥].

- وأيضًا جاءتْ قِصَّةُ داودَ عليه السَّلامُ على طَريقةِ التَّمثيلِ والتَّعريضِ دونَ التَّصريحِ؛ لِكَونِها أبلَغَ في التَّوبيخِ، مِن قِبَلِ أنَّ التَّأمُّلَ إذا أدَّاهُ إلى الشُّعورِ بالمُعَرَّضِ به، كان أوْقَعَ في نَفْسِه، وأشَدَّ تَمكُّنًا مِن قَلبِه، وأعظَمَ أثَرًا فيه،

---

= وقال ابنُ جريرٍ: (قال داودُ للخَصمِ المُتظلِّمِ مِن صاحِبِه: لقد ظلَمك صاحبُك بسؤالِه نعجتَك إلى نعاجِه، وهذا مما حُذِفتْ منه الهاءُ، فأُضيف بسقوطِ الهاءِ منه إلى المفعولِ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٣٧).

وأجلَبَ لاحتِشامِه وحَيائِه، وأدْعى إلى التَّنَبُّهِ على الخَطَأِ فيه مِن أنْ يُبادِرَه به صَريحًا، مع مُراعاةِ حُسنِ الأدَبِ بتَركِ المُجاهَرةِ[١]. وذلك بِناءً على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وجاء الفَصلُ في القِصَّةِ على وَجهِ التَّحاكُم إلى داودَ عليه السَّلامُ لِيَحكُمَ بما حَكَم به مِن قَولِه: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾؛ حتى يَكونَ مَحجوجًا بحُكمِه، ومُعتَرِفًا على نَفْسِه بظُلْمِه[٢]. وذلك بِناءً على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وعَبَّرَ بالرَّاكِعِ عنِ السَّاجِدِ في قَولِه: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾؛ لِأنَّه يَنحَني ويَخضَعُ كالسَّاجِدِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ قدِ استَغفَرَ اللهَ لِذَنْبِه، وأحرَمَ برَكعَتَي الاستِغفارِ والإنابةِ؛ فيَكونَ المَعنى: وخرَّ لِلسُّجودِ راكِعًا، أيْ: مُصَلِّيًا؛ لِأنَّ الرُّكوعَ يُجعَلُ عِبارةً عنِ الصَّلاةِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾

- قولُه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ للإشارةِ إلى ما دَلَّتْ عليه خُصومةُ الخَصْمَينِ مِن تَمثيلِ ما فَعَله داودُ عليه السَّلامُ بصُورةِ قَضيةِ الخَصمَينِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهذا مِن لَطائِفِ القُرآنِ؛ إذْ طَوى القِصَّةَ الَّتي تَمثَّلَ له فيها الخَصمانِ، ثمَّ أشارَ إلى المَطويِّ باسمِ الإشارةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٤١).

- وأتْبَعَ اللهُ سُبحانَه الخَبَرَ عنِ الغُفرانِ له بما هو أرفَعُ دَرَجةً؛ وهو أنَّه مِنَ المُقرَّبينَ عِندَ اللهِ، المَرْضيِّ عنهم، وأنَّه لم يُوقَفْ به عِندَ حَدِّ الغُفرانِ لا غَيرُ، فقالَ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾. وتَأكيدُ الخَبَرِ -بـ (إنَّ) واللَّام-؛ لِإزالةِ تَوهُّمِ أنَّ اللهَ غَضِبَ عليه إذْ فَتَنَه؛ تَنزيلًا لِمَقامِ الاستِغرابِ مَنزِلةَ مَقامِ الإنكارِ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾

- قَولُه: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لِحِكايةِ ما خُوطِبَ به داودُ عليه السَّلامُ بعدَ ما تَقدَّمَ، وهو مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ مَعطوفٍ على قَولِه: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٥]، أيْ: صَفَحْنا عنه، وذَكَّرْناه بنِعمةِ المُلْكِ، ووَعَظْناه؛ فجَمَعَ له بهذا تَنويهًا بشَأنِه، وإرشادًا لِلواجِبِ[2].

- وافتِتاحُ الخِطابِ بالنِّداءِ في قَولِه: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ﴾؛ لاستِرعاءِ وَعيِه، واهتِمامِه بما سَيُقالُ له[3].

- وقَولُه: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مُفرَّعٌ على جَعْلِه خَليفةً؛ فأمَرَه بأنْ يَحكُمَ بيْنَ النَّاسِ بالحَقِّ؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ ذلك واجِبُه، وأنَّه أحَقُّ النَّاسِ بالحُكمِ بالعَدلِ؛ ذلك لِأنَّه هو المَرجِعُ لِلمَظلومينَ، والَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٢).

تُرفَعُ إليه مَظالِمُ الظَّلَمةِ مِنَ الوُلاةِ، فإذا كان عادِلًا خَشِيَه الوُلاةُ والأُمراءُ؛ لِأنَّه ألِفَ العَدلَ، وكَرِهَ الظُّلْمَ فلا يُقِرُّ ما يَجري منه في رَعيَّتِه كُلَّما بَلَغَه، فيَكونَ الناسُ في حَذَرٍ مِن أنْ يَصدُرَ عنهم ما عَسى أنْ يُرفَعَ إلى الخَليفةِ فيَقتَصَّ مِنَ الظَّالِمِ، وأمَّا إنْ كانَ الخَليفةُ يَظلِمُ في حُكمِه، فإنَّه يَألَفُ الظُّلْمَ، فلا يُغضِبُه إذا رُفِعتْ إليه مَظلِمةُ شَخصٍ، ولا يَحرِصُ على إنصافِ المَظلومِ، والمُرادُ بالنَّاسِ ناسُ مَملَكَتِه؛ فالتَّعريفُ لِلعَهدِ، أو هو لِلاستِغراقِ العُرفيِّ[١].

- وأيضًا قَولُه: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أمْرٌ بالدَّيمومةِ، وتَنبيهٌ لِغَيرِه ممَّن وَلِيَ أُمورَ النَّاسِ؛ فمِن حيثُ هو مَعصومٌ لا يَحكُمُ إلَّا بالحَقِّ أُمِرَ أوَّلًا بالحُكمِ، ولَمَّا كان الهَوى قد يَعرِضُ لِغَيرِ المَعصومِ أُمِرَ باجتِنابِه، وذَكَر نَتيجةَ اتِّباعِه؛ وهي إضلالُه عن سَبيلِ اللهِ[٢].

- وتَقدَّمَ الأمْرُ بالحُكمِ بالحَقِّ على قَولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ﴾؛ لِيَكونَ تَوطِئةً لِلنَّهيِ عن اتِّباعِ الهَوى؛ سَدًّا لِذَريعةِ الوُقوعِ في خَطَأِ الحَقِّ؛ فإنَّ داودَ عليه السَّلامُ ممَّن حَكَمَ بالحَقِّ، فأمْرُه به باعتِبارِ المُستَقبَلِ[٣].

- والهَوى: كِنايةٌ عن الباطِلِ والجَورِ والظُّلمِ[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡهَوَىٰ﴾ تَعريفُ الجِنسِ المُفيدُ لِلاستِغراقِ؛ فالنَّهيُ يَعُمُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٣).

وقال الشنقيطي: (مَعلومٌ أنَّ نَبيَّ اللهِ داودَ لا يَحكُمُ بغيرِ الحَقِّ، ولا يَتَّبِعُ الهوى فيُضِلُّه عن سَبيلِ اللهِ، ولكِنَّ اللهَ تعالى يأمُرُ أنبياءَه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ وينهاهم؛ لِيُشرِّعَ لأُمَمِهم). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٤٤).

كُلَّ ما هو هَوًى؛ سواءٌ كان هَوى المُخاطَبِ، أو هَوى غَيرِه، مِثلَ هَوى زَوجِه ووَلَدِه، وسَيِّدِه وصَديقِه[١].

- وأيضًا النَّهيُ عن اتِّباعِ الهَوى تَحذيرٌ له، وإيقاظٌ؛ لِيَحذَرَ مِن جَرَّاءِ الهَوى، ويَتَّهِمَ هَوى نَفْسِه، ويَتعَقَّبَه، فلا يَنقادَ إليه فيما يَدعوه إليه إلَّا بعدَ التَّأمُّلِ والتَّثبُّتِ، والاسترسالُ في اتِّباعِ الشَّهَواتِ وُقوعٌ في الرَّذائِلِ في الأغلَبِ؛ ولهذا جَعَلَ هنا الضَّلالَ عن سَبيلِ اللهِ مُسبَّبًا عنِ اتِّباعِ الهَوى، وهو تَسبُّبٌ أغلَبيٌّ عُرفيٌّ؛ فشَبَّهَ الهَوى بسائِرٍ في طَريقٍ مهلكةٍ، وعَبَّرَ عن ذلك بالإضْلالِ عن طَريقِ الرَّشادِ، المُعبَّرِ عنه بسَبيلِ اللهِ؛ فإنَّ الَّذي يَتَّبِعُ سائِرًا غَيرَ عارِفٍ بطَريقِ المَنازِلِ النَّافِعةِ، لا يَلبَثُ أنْ يَجِدَ نَفْسَه وإيَّاه في مهلكةٍ أو مَقطَعةِ طَريقٍ[٢].

- وقَولُه: ﴿فَيُضِلَّكَ﴾ جَوابٌ لِلنَّهيِ في قولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾[٣].

- وقَولُه: ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه الثَّناءُ العظيمُ على شَريعةِ اللهِ؛ وذلك بإضافتِها إلى اللهِ؛ لأنَّ كلَّ ما أُضيفَ إلى اللهِ -إذا كانتِ الإضافةُ خاصَّةً- فإنَّ الإضافةَ تدُلُّ على شَرَفِه[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ ...﴾ يَظهَرُ أنَّها ممَّا خاطَبَ اللهُ به داودَ عليه السَّلامُ؛ فهي في مَوقِعِ العِلَّةِ لِلنَّهيِ؛ فكانت (إنَّ) مُغْنيةً عن فاءِ التَّسبُّبِ والتَّرتُّبِ، فالشَّيءُ الَّذي يُفضي إلى العَذابِ الشَّديدِ خَليقٌ بأنْ يُنهَى عنه. وإنْ كانتِ الجُملةُ كلامًا مُنفَصِلًا عن خِطابِ داودَ عليه السَّلامُ كانت مُعتَرِضةً ومُستَأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِبَيانِ خَطَرِ الضَّلالِ عن سَبيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٨).

اللهِ[١]. وأتَى بهذه الجملةِ الاستئنافيَّةِ الاستقلاليَّةِ؛ أوَّلًا: تفاديًا لمُخاطَبةِ داودَ عليه السَّلامُ بذلك، وثانيًا: لِيَكونَ أَعَمَّ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ﴾ إظهارُ ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في مَوقِعِ الإضمارِ -حيثُ لم يقُلْ: (سَبيلِه)-؛ لِزيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بكَمالِ شَناعةِ الضَّلالِ عنه[٣].

- وجِيءَ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ الصِّلةَ عِلَّةٌ لاستِحقاقِ العَذابِ[٤].

- والعُمومُ الَّذي في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُكسِبُ الجُملةَ وصْفَ التَّذييلِ[٥].

- واللَّامُ في ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ لِلاختِصاصِ[٦].

- والباءُ في ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ سَبَبيَّةٌ، و(ما) مَصدَريَّةٌ، أيْ: بسَبَبِ نِسيانِهم يَومَ الحِسابِ[٧].

- والنِّسيانُ في قَولِه: ﴿بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾: مُعبَّرٌ به عن الإعراضِ الشَّديدِ؛ لأنَّه يُشبِهُ نِسيانَ المُعرَضِ عنه[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٧-٢٩)

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿فَوَيْلٌ﴾: وَيلٌ: كَلِمةٌ تُقالُ عندَ الهَلَكةِ، والويلُ: الحزنُ والهلاكُ والمشَقَّةُ مِن العذابِ، وقيل: الوَيلُ: وادٍ في جَهنَّمَ[١].

﴿مُبَٰرَكٌ﴾: البَرَكَةُ: مِن الزِّيادةِ والنَّماءِ، وهي ثُبوتُ الخَيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، والمُبارَكُ ما فيه ذلِك الخَيرُ، وأصل (برك): يدُلُّ على ثباتِ الشَّيءِ[٢].

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟﴾: أي: لِيَتأمَّلوا في معانيه، ويَتبصَّروا ما فيه؛ يُقال: تدبَّرتُ الأمرَ، أي: نظرتُ في عاقبتِه، والتَّدبيرُ: قَيْسُ دُبُرِ الكلام بقُبُلِه، ثمَّ جُعِل كلُّ تمييزٍ تدبيرًا، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه، خِلافُ قُبُلِه[٣].

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: العقولِ الزَّكيَّةِ، مُفردُها لُبٌّ، وأصْلُ اللُّبِّ: الخُلُوصُ والجَودةُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٣٦).
قال الراغب: (ومَن قال: «ويلٌ»: وادٍ في جهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ «ويلًا» في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد مَن قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحقَّ مقرًّا مِن النَّارِ، وثبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧، ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨٧).

والشَّيءُ المُنتقَى[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُنزِّهًا نفْسَه عن العبثِ ومتوعِّدًا الكفَّارَ الَّذين يَظنُّونَ ذلك: وما خلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما خَلْقًا باطِلًا لا حِكمةَ فيه، ذلك ظَنُّ الَّذين كَفَروا، فوَيلٌ للَّذين كَفَروا مِن عذابِ النَّارِ في الآخِرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ حِكمتَه اقتضَتْ عدمَ المساواةِ بيْنَ الأخيارِ والأشرارِ، فيقولُ: بل أنجعَلُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ كالَّذين يُفسِدونَ في الأرضِ؟!

بل أنجعَلُ المتَّقينَ كالَّذينَ يَنتَهِكونَ حُرُماتِ الله؟ كلَّا؛ لا يَستَوونَ عندَ اللهِ.

ثمَّ يُثْني الله سبحانَه على القرآنِ الكريم، ويُبيِّنُ حكمةَ إنزالِه، فيقولُ: هذا القُرآنُ أنزَلْناه إليك -يا مُحمَّدُ- مُبارَكٌ، كَثيرُ النَّفعِ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ لِيتدَبَّرَ النَّاسُ آياتِه، ولِيَتذَكَّرَ أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا جَرَى في خِطابِ داودَ عليه السَّلامُ ذِكرُ نِسيانِ يَومِ الحِسابِ وترتيبُ العذابِ الشَّديدِ على إنكارِه، وكان أقصى غاياتِ ذلك النِّسيانِ جحودُ وُقوعِه -لِأنَّه يُفْضي إلى عَدَمِ مُراعاتِه ومُراقَبَتِه أبَدًا-؛ اعتُرِضَ بيْنَ القِصَّتَينِ بثَلاثِ آياتٍ لِبَيانِ حِكمةِ اللهِ تَعالى في جَعلِ الجَزاءِ ويَومِه احتِجاجًا على مُنكِريهِ مِنَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

المُشرِكين[١].

وأيضًا بعدَ أنْ ذكَر أنَّ الَّذين يَضِلُّونَ عن سَبيلِ اللهِ لهم العذابُ الشَّديدُ يومَ الحِسابِ؛ لِظَنِّهم أنَّه ليس بكائنٍ- أعقَبَ هذا ببيانِ أنَّ هذا اليومَ آتٍ لا رَيْبَ فيه؛ لأنَّه سُبحانَه لم يَخلُقِ الخَلقَ عَبَثًا، بل خلَقَهم لعبادتِه وتوحيدِه، ثمَّ يَجمَعُهم يومَ الجَمعِ فيُثيبُ المُطيعينَ، ويُعذِّبُ الكافِرين[٢].

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾.

أي: وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما عَبَثًا ولَعِبًا ولَهْوًا بلا غايةٍ ولا حِكمةٍ[٣].

كما قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: ٨٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩١)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٥٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٢، ١٣٣).

قال ابنُ القيِّم: (اتَّفَق المفَسِّرون على أنَّ الحَقَّ الذي خُلِقَت به السَّمَواتُ والأرضُ هو الأمرُ والنَّهيُ، وما يترتَّبُ عليهما من الثَّوابِ والعِقابِ؛ فمن جَحَد ذلك وجَحَد رسالةَ الرُّسُلِ، وكَفَر بالمعادِ، وأحال حوادِثَ العالَم على حَرَكاتِ الكواكِبِ؛ فقد زعم أنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ أبطَلُ الباطِلِ، وأنَّ العالَمَ خُلِقَ عَبَثًا، وتُرِكَ سُدًى، وخُلِّيَ هَمَلًا! وغايةُ ما خُلِقَ له أن يكونَ مُتمَتِّعًا باللَّذَّاتِ الحِسِّيَّةِ، كالبهائم، في هذه المدَّةِ القصيرةِ جدًّا، ثمَّ يُفارِقُ الوجودَ، وتُحدِثُ حَرَكاتُ الكواكِبِ أشخاصًا مِثلَه هكذا أبدًا؛ فأيُّ باطِلٍ أبطَلُ مِن هذا؟! وأيُّ عَبَثٍ فوقَ هذا؟!). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٢٠١).

ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ * وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٧].

﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: الظَّنُّ بأنَّا خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما باطِلًا: هو ظَنُّ الَّذين كفَروا باللهِ واليومِ الآخِرِ، فلم يَعرِفوا عَظَمةَ اللهِ وحِكمَتَه[1].

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

أي: فوَيلٌ للَّذين كَفَروا مِن عذابِ النَّارِ في الآخِرةِ[2].

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى على سَبيلِ الإجمالِ: أنَّ إنكارَ الحَشرِ والنَّشرِ يُوجِبُ الشَّكَّ في حِكمةِ اللهِ تعالى؛ بيَّنَ ذلك على سَبيلِ التَّفصيلِ؛ فإنَّنا نرَى في الدُّنيا مَن أطاعَ اللهَ، واحتَرَز عن مَعصيتِه: في الفَقرِ والزَّمانةِ وأنواعِ البَلاءِ، ونرَى الكَفَرةَ والفُسَّاقَ في الرَّاحةِ والغِبطةِ؛ فلو لم يكُنْ حَشرٌ ونَشرٌ ومَعادٌ، فحينَئذٍ يكونُ حالُ المطيعِ أدْوَنَ مِن حالِ العاصي، وذلك لا يَليقُ بحِكمةِ الحَكيمِ الرَّحيمِ، وإذا كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٢، ١٣٣).

ذلك قادِحًا في الحِكمةِ ثَبَت أنَّ إنكارَ الحَشرِ والنَّشرِ يُوجِبُ إنكارَ حِكمةِ اللهِ[١].

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: بلْ أنجعَلُ الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه: كالَّذين يُفسِدونَ في الأرضِ بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي[٢]؟!

﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾.

أي: بلْ أنجعَلُ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعذابَه، بفِعلِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه: كالَّذينَ يَنتَهِكونَ حُرُماتِه؟ كلَّا؛ فأولئك لا يَستَوونَ عندَ اللهِ، ولا بُدَّ أن يُجازيَ كُلًّا منهم بما يَستَحِقُّه[٣].

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٠).

قال الشنقيطي: «أَمْ» في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ﴾، وقولِه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾: كِلْتاهما مُنقَطِعةٌ. و«أم» المُنقطِعةُ فيها لعُلَماءِ العَربيَّةِ ثلاثةُ مَذاهِبَ:

الأوَّلُ: أنَّها بمعنى همزةِ استِفهامِ الإنكارِ.

الثَّاني: أنَّها بمعنى «بل» الإضرابيَّةِ.

والثَّالثُ: أنَّها تَشملُ معنى الإنكارِ والإضرابِ مَعًا، وهو الَّذي اختاره بعضُ المحقِّقينَ، وعليه فالإضرابُ بها هنا انتقاليٌّ لا إبطاليٌّ، ووجْهُ الإنكارِ بها عليهم واضِحٌ؛ لأنَّ مَن ظَنَّ بالله الحَكيمِ الخَبيرِ أنَّه يُساوي بيْنَ الصَّالحِ المُصلِحِ، والمفسِدِ الفاجِرِ، فقد ظنَّ ظنًّا قَبيحًا جديرًا بالإنكارِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٤٣، ٣٤٤).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ * وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[الجاثية: ٢١، ٢٢].

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا انتَفَت التَّسويةُ؛ بَيَّن ما تَصلُحُ به لِمُتَّبِعِه السَّعادةُ الأبَديَّةُ، وهو كِتابُ اللهِ تعالى[1].

وأيضًا لَمَّا ثَبَت بما ذُكِرَ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا ما ذُكِرَ في هذا الذِّكرِ مِن البراهينِ الَّتي لا يأْباها إلَّا مَدخولُ الفِكرِ، مُخالَطُ العَقلِ؛ ثَبَت أنَّه ذو الذِّكرِ والشَّرَفِ الأعظَمِ، فقال تعالى مُنَبِّهًا على ذلك: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ ﴾ الآيةَ[2].

وأيضًا بعدَ الإمعانِ في تَهديدِ المُشرِكينَ، وتَجهيلِهم على إعراضِهم عن التَّدبُّرِ بحِكمةِ الجَزاءِ ويَومِ الحِسابِ عليه، والاحتِجاجِ عليهم؛ أعرَضَ اللهُ عن خِطابِ المُشرِكين، ووَجَّهَ الخِطابَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالثَّناءِ على الكِتابِ المُنَزَّلِ عليه، وكان هذا القُرآنُ قد بَيَّنَ لهم ما فيه لهم مَقنَعٌ، وردَّ على شبهاتِهم، وأنَّه إنْ حَرَمَ المُشرِكونَ أنْفُسَهم مِنَ الانتِفاعِ به، فقد انتَفَعَ به أُولو الألبابِ، وهمُ المُؤمِنونَ[3].

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ ﴾.

أي: هذا القُرآنُ أنزَلْناه إليك -يا مُحمَّدُ-، وهو دائِمُ الخَيرِ، غزيرُ العِلمِ، كثيرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥١).

النَّفعِ في الدُّنيا والآخرةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

أي: أنزَلْناه؛ لِيَتدَبَّرَ النَّاسُ آياتِه، فيَتفَهَّموا ويَتتَبَّعوا ظواهِرَ ألفاظِه ويتأمَّلوها، ويُكثِروا مِن إمعانِ النَّظَرِ وإعادةِ الفِكرِ فيها؛ لِيَفهَموا ما وراءَها مِن المعاني والحِكَمِ والأسرارِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي: ولِيَتَذكَّرَ أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ ما غَفَلوا عنه، فيَرتَدِعوا عن كُلِّ ضَلالةٍ، ويَهتَدوا إلى الرَّشادِ في كُلِّ أمرٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٤).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ يدُلُّ على الحَثِّ على تَدبُّرِ القُرآنِ، وأنَّه مِن أفضَلِ الأعمالِ، وأنَّ القِراءةَ المُشتَمِلةَ على التَّدَبُّرِ أفضَلُ مِن سُرعةِ التِّلاوةِ الَّتي لا يَحصُلُ بها هذا المَقصودُ[١]. وأنَّ تحديقَ ناظِرِ القَلبِ إلى معاني القرآنِ، وجَمعَ الفِكرِ على تدَبُّرِه وتعَقُّلِه؛ هو المقصودُ بإنزالِه، لا مجرَّدُ تِلاوتِه بلا فَهمٍ ولا تدَبُّرٍ[٢]، وقد ذَمَّ الله تعالى الَّذين يَقرؤونه قراءةً لا تَتجاوَزُ ألفاظَه إلى معانيها ومَراميها، فقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ﴾ [البقرة: ٧٨]، ﴿أَمَانِيَّ﴾: يعني قراءةً لفظيَّةً فقط، فوصَفَهم اللهُ بأنهم أُمِّيُّونَ؛ لأنَّهم لم يَنتفِعوا بالقرآنِ؛ إذْ لا يُمكِنُ أنْ يُنتفَعَ بالقرآنِ إلَّا بفَهمِ معانيه، فإذا لم تُفهَمْ معانيه صار العربيُّ والعجميُّ على حَدٍّ سواءٍ[٣]. والله تعالى إنَّما أنزَل كتابَه لِيَتأدَّبَ عِبادُه بآدابِه، ويَتخلَّقوا بأخلاقِه، ويَتأمَّلوا ما فيه مِن الثَّناءِ على الله تعالى، وما لم يُتدبَّرْ ذلك حتَّى يُفهَمَ لا يُمكِنُ العملُ به؛ فإنَّه رسائلُ أرسَلَها الله إلى عِبادِه لِيُنفذوها، لا لِتُقرأَ عليهم فلا يَفهموها ولا يُقيموها[٤].

٢- ما أحَقَّ مَن عَلِم كِتابَ اللهِ أن يَزدَجِرَ بنواهيه، ويَتذكَّرَ ما شُرِحَ له فيه، ويَخشَى اللهَ ويتَّقِيَه، ويُراقِبَه ويَستحيِيَه! فإنَّه حُمِّل أعباءَ الرُّسُلِ، وصار شهيدًا في القيامةِ على مَن خالَفَ مِن أهلِ المِلَلِ، ومَن أُوتيَ عِلمَ القُرآنِ فلم يَنتفِعْ، وزجَرَتْه نواهيه فلم يَرتَدِعْ، وارتكَبَ مِن المآثِمِ قَبيحًا، ومِنَ الجرائِمِ فُضُوحًا؛ كان القُرآنُ حُجَّةً عليه، وخَصمًا لَديه؛ فالواجِبُ على مَن خَصَّه اللهُ بحِفظِ كِتابِه أن يَتلوَه حَقَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٧).

تِلاوتِه، ويَتدَبَّرَ حقائِقَ عِبارتِه، ويَتفَهَّمَ عَجائِبَه، ويَتبَيَّنَ غرائِبَه؛ قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[1].

٣- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لا شَيءَ أنفَعُ للقَلبِ مِن قِراءةِ القُرآنِ بالتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ؛ فإنَّه جامعٌ لجَميعِ منَازِلِ السَّائِرينَ، وأحوالِ العامِلينَ، ومَقاماتِ العارِفينَ، وهو الَّذي يُورِثُ المَحَبَّةَ والشَّوقَ، والخَوفَ والرَّجاءَ، والإنابةَ والتَّوكُّلَ، والرِّضا والتَّفويضَ، والشُّكرَ والصَّبرَ، وسائِرَ الأحوالِ الَّتي بها حياةُ القَلبِ وكَمالُه[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ الحَثُّ على العِنايةِ بهذا الكتابِ والتِزامِه؛ لأنَّه إذا كان مُبارَكًا فإنَّ كُلَّ أحدٍ مِن البَشَرِ يريدُ أنْ يَنالَ بَركةَ هذا الشَّيءِ المُبارَكِ[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إثباتُ الحِكمةِ في أفعالِ اللهِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗا﴾؛ إذْ لو انتفتِ الحكمةُ لأمْكَنَ أنْ تُخلَقَ السَّماءُ والأرضُ باطِلًا[4]!

٢- قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗا﴾ وقد بُنِيتْ هذه الحُجَّةُ على الاستِدلالِ بأحوالِ المُشاهَداتِ، وهي أحوالُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما، والمُشرِكونَ يَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما، فأُقيمَ الدَّليلُ على أساسِ مُقدِّمةٍ لا نِزاعَ فيها، فإذا استَقرَّتْ هذه المُقدِّمةُ تَعيَّنَ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١/ ١).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٦).

إنكارَ البَعثِ والجَزاءِ يَلزَمُه أنْ يَكونَ مُنكِرُه قائِلًا بأنَّ خَلْقَ السَّماءِ والأرضِ وما بَيْنَهما شَيءٌ مِنَ الباطِلِ، وقد دَلَّتِ الدَّلائِلُ الأُخرى على أنَّه لا يَكونُ في خَلقِ ذلك شَيءٌ مِنَ الباطِلِ بقياسِ الخَفيِّ على الظَّاهِرِ؛ فبَطَلَ ما يُفْضي إلى القَولِ بأنَّ في خَلقِ بَعضِ ما ذُكِرَ شيئًا مِنَ الباطِلِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ احتُجَّ به على كَونِه تعالى خالِقًا لأعمالِ العبادِ؛ فهذه الآيةُ تدُلُّ على كَونِه تعالى خالِقًا لكُلِّ ما بيْنَ السَّمَواتِ والأرضِ، وأعمالُ العِبادِ حاصِلةٌ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ؛ فوجَبَ أن يكونَ اللهُ تعالى خالِقًا لها[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أنَّه لا أحدَ يَظُنُّ أنَّ ذلك باطِلٌ إلَّا الكافِرُ، وأنَّ مَن ظَنَّ ذلك فهو كافِرٌ، والفَرقُ بيْنَ الفائِدَتينِ: أنَّ الفائِدةَ الأُولى يكونُ الكُفرُ سابقًا على هذا الظَّنِّ، فيكونُ الكُفرُ سببًا لهذا الظَّنِّ. أمَّا الفائدةُ الثَّانيةُ: أنَّ هذا الظَّنَّ سابِقٌ على الكُفرِ؛ فيكونُ هذا الظَّنُّ سَببًا للكُفرِ[٣].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَن ظَنَّ باللهِ ما لا يَليقُ به -جَلَّ وعلا- فله النَّارُ[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إذا قيل: وإذا كانوا مُقِرِّينَ بأنَّ اللهَ خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما -بدَليلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٦- ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٢).

قَولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]- فبِمَ جُعِلوا ظانِّينَ أنَّه خَلَقَها لِلعَبَثِ، لا لِلحِكمةِ؟

**فالجَوابُ عن ذلك:** أنَّه لَمَّا كان إنكارُهم لِلبَعثِ والحِسابِ والثَّوابِ والعِقابِ مُؤَدِّيًا إلى أنَّ خَلْقَها عَبَثٌ وباطِلٌ؛ جُعِلوا كأنَّهم يَظُنُّونَ ذلك ويَقولونَه؛ لِأنَّ الجَزاءَ هو الَّذي سَبَقتْ إليه الحِكمةُ في خَلقِ العالَمِ، فمَن جَحَده فقد جَحَد الحِكمةَ مِن أصْلِها، ومَن جَحَد الحِكمةَ في خَلقِ العالَمِ فقد سَفَّهَ الخالِقَ، وظَهَر بذلك أنَّه لا يَعرِفُه ولا يَقدُرُه حَقَّ قَدْرِه، فكان إقرارُه بكَونِه خالِقًا كَلَا إقرارٍ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ سَبَبٌ لصَلاحِ الأرضِ، وهذا يُؤيِّدُه آياتٌ كثيرةٌ؛ مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٢] [الأعراف: ٩٦].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ المعاصِيَ سَبَبٌ للفَسادِ في الأرضِ؛ لأنَّه قابَلَ هذا بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، ويَشهَدُ لهذا قَولُه تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]؛ فكلُّ فَسادٍ يَحدُثُ في الأرضِ مِن جَدبٍ وفَقْرٍ ومَرَضٍ، وفَسادِ ثِمارٍ وغَيرِ ذلك؛ فإنَّه بسَبَبِ المعاصي بما كسَبَت أيدي النَّاسِ[٣].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ ذكَرَ أعلَى أحوالِ الفَسادِ؛ إشارةً إلى أنَّه يَغفِرُ ما دونَ ذلك لِمَن يَشاءُ، وذكرَ أعلَى أحوالِ التَّقوى؛ إيماءً إلى أنَّه لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُوصَفُ بها ويَستَحِقُّ جَزاءَها إلَّا الرَّاسِخُ فيها، تَرغيبًا للمُؤمِنِ في أنْ يَترقَّى إلى أوْجِها[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لا يُمكِنُ أنْ يَجعَلَ المتَّقِينَ كالفُجَّارِ في مآلِهم؛ فالمُتَّقي في جَنَّاتِ النَّعيمِ، والفاجِرُ في عذابِ الجَحيمِ[٢].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ استدَلَّ به الفُقَهاءُ على استِحبابِ تدَبُّرِ القِراءةِ[٣].

١٢- قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ فيه إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه: ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾، والإنزالُ لا يكونُ إلَّا مِن العُلوِّ[٤].

١٣- قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾، ومِن بَرَكةِ القُرآنِ أنه يُستَشفَى به، كما دَلَّتْ على ذلك آياتٌ كثيرةٌ أخرى؛ يُستَشفَى به مِن أمراضِ القُلوبِ، ومِن أمراضِ الأبدانِ؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٥] [يونس: ٥٧].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ فَضيلةُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيثُ كان أهلًا لِأَنْ يُنزَلَ عليه القُرآنُ، والقُرآنُ لا يُنزَلُ إلَّا على مَن هو أهلٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٢).

وقال ابن عثيمين: (تَدَبُّرُ القرآنِ فَرْضٌ؛ لأنَّ العملَ بالقرآنِ فَرْضٌ؛ ولا يَتِمُّ العملُ إلَّا بالتَّدبُّرِ؛ وما لا يَتِمُّ الفرضُ إلَّا به فهو فرضٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٥).

لإنزالِه عليه؛ لِجَمعِه صِفاتِ الكَمالِ البَشَريَّةَ[١].

١٥- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ﴾ كُلُّ آياتِ القُرآنِ إمَّا مُرشِدةٌ إلى خَيرٍ، وإمَّا صارِفةٌ عن شَرٍّ وفَسادٍ، وذلك سَبَبُ الخَيرِ في العاجِلِ والآجِلِ، ولا بَرَكةَ أعظَمُ مِن ذلك[٢].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ استدَلَّ به النُّحاةُ على جوازِ الوَصفِ بالجُملةِ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ قَبْلَ الوَصفِ بالمُفرَدِ ﴿مُبَٰرَكٞ﴾، خِلافًا لِمَن مَنَعَه[٣].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ فيه أنَّ مَن تَذَكَّرَ بالقرآنِ فهو صاحبُ عَقْلٍ، ومَن لم يَتَذَكَّرْ فليس له عَقْلُ رُشدٍ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ جَعَل التَّذكُّرَ لِمَنِ اتَّصَفوا بالعقولِ[٤]. وأنَّه بحَسَبِ لُبِّ الإنسانِ وعَقلِه يَحصُلُ له التَّذكُّرُ والانتِفاعُ بهذا الكِتابِ[٥].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أنَّ القُرآنَ الكَريمَ نَزَلَ مَوعِظةً للنَّاسِ، كما قال اللهُ تعالى في آياتٍ أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء: ٥٨]؛ فالقُرآنُ نَزَل لِيُؤثِّرَ، ولم يَنزِلْ لِيتبَرَّكَ الإنسانُ بقِراءتِه، أو يَنالَ الأجرَ بقراءتِه فقط، ولكِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٥١٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

لا بُدَّ أنْ يُؤَثِّرَ تَذَكُّرًا ومَوعِظةً[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أنَّ لُبَّ الإنسانِ ورُوحَه هو العَقلُ؛ عَقلُ الرُّشْدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى سمَّى هذه العُقولَ ألبابًا[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾

- قَولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مُقرِّرٌ لِمَا قَبْلَه مِن أمْرِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ، أيْ: وما خَلَقْنا السَّماءَ والأرضَ وما بَيْنَهما مِنَ المَخلوقاتِ على هذا النِّظامِ البَديعِ الَّذي تَحارُ في فَهمِه العُقولُ خَلقًا باطِلًا، أي: خاليًا عن الغايةِ الجَليلةِ، والحِكمةِ الباهِرةِ، بل مُنطَويًا على الحَقِّ المُبينِ، والحِكَمِ البالِغةِ[٣].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لإفادةِ تَرتُّبِ ثُبوتِ الوَيلِ لهم على ظَنِّهم الباطِلِ، كما أنَّه عَبَّرَ بالاسمِ المَوصولِ بَدَلًا مِن ضَميرِهم؛ لِمَا تُشيرُ إليه الصِّلةُ مِن أنَّهمُ استَحَقُّوا العِقابَ على سُوءِ اعتِقادِهم، وسُوءِ أعمالِهم، وأنَّ ذلك أيضًا مِن آثارِ انتِفاءِ الباطِلِ عن خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما؛ لِأنَّهم كانوا على باطِلٍ في إعراضِهم عن الاستِدلالِ بنِظامِ السَّمَواتِ والأرضِ، وفي ارتِكابِهم مَفاسِدَ عَوائِدِ الشِّركِ ومِلَّتِه، وقد تَمَتَّعوا بالحياةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٤).

الدُّنيا أكثَرَ ممَّا تَمتَّعَ بها الصَّالِحونَ؛ فلا جَرَمَ استَحَقُّوا جَزاءَ أعمالِهم[١].

- ولَفظُ (وَيْلٌ) يدُلُّ على أشَدِّ السُّوءِ، وكَلِمةُ (وَيْلٌ له) تُقالُ للتَّعجُّبِ مِن شِدَّةِ سُوءِ حالةِ المُتَحدَّثِ عنه، وهي هنا كِنايةٌ عن شِدَّةِ عَذابِهم في النارِ[٢].

- و(مِنْ) في قَولِه: ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾ تَعليليَّةٌ، كما في قَولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ [البقرة: ٧٩]، ونَظائِرِه، مُفيدةٌ لِعلِّيَّةِ النَّارِ؛ لِثُبوتِ الوَيلِ لهم صَريحًا بَعدَ الإشعارِ بعِلِّيَّةِ ما يُؤدِّي إليها مِن ظَنِّهم وكُفرِهم، أيْ: فوَيْلٌ لهم بِسَببِ النَّارِ المُترتِّبةِ على ظَنِّهم وكُفرِهم، ويجوزُ أن تكونَ (مِنْ) ابتدائيةً أو بيانيةً[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ (أَمْ) مُنقَطِعةٌ، أفادَتْ إضْرابًا انتِقاليًّا، وهو ارتِقاءٌ في الاستِدلالِ على ثُبوتِ البَعثِ، وبَيانٌ لِمَا هو مِن مُقتَضى خَلقِ السَّماءِ والأرضِ بالحَقِّ، بَعدَ أنْ سِيقَ ذلك بوَجهِ الاستِدلالِ الجُمَلِيِّ، وقد كان هذا الانتِقالُ بِناءً على ما اقتَضاهُ قَولُه: ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [ص: ٢٧]؛ فلِأجْلِ ذلك بُنِيَ على استِفهامٍ مُقدَّرٍ بَعدَ (أَمْ)، وهو مِن لَوازِمِ استِعمالِها، وهو استِفهامٌ إنْكاريٌّ لإنكارِ التَّسويةِ بيْنَ الحِزبَينِ الَّتي هي مِن لَوازِمِ خَلقِها باطِلًا؛ لِيَدُلَّ على نَفيِه، والمَعنى: لو انتَفَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩).

البَعثُ والجَزاءُ -كما تَزعُمونَ- لاستَوَتْ عِندَ اللهِ أحوالُ الصَّالِحينَ وأحوالُ المُفسِدينَ، ومَن سَوَّى بَيْنَهم كان سَفيهًا، ولم يَكُنْ حَكيمًا[١].

- والتَّشبيهُ في قَولِه: ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لِلتَّسويةِ، والمَعنى: إنكارُ أنْ يَكونوا سَواءً في جَعلِ اللهِ، أيْ: إذا لم يُجازَ كُلُّ فَريقٍ بما يَستَحِقُّه على عَمَلِه؛ فالمُشاهَدُ في هذه الحَياةِ الدُّنيا خِلافُ ذلك، فتَعيَّنَ أنْ يَكونَ الجَزاءُ في عالَمٍ آخَرَ، وهو الَّذي يُسلَكُ له النَّاسُ بَعدَ البَعثِ، وقد أُخِذَ في الاستِدلالِ جانِبُ المُساواةِ بيْنَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ وبيْنَ المُفسِدينَ في الأرضِ؛ لِأنَّه يُوجَدُ كَثيرٌ مِنَ الفَريقَينِ مُتَساوونَ في حالةِ الحياةِ الدُّنيا في النِّعمةِ، أو في التَّوَسُّطِ، أو في البُؤسِ والخَصاصةِ، فحالةُ المُساواةِ كافيةٌ لِتَكونَ مَناطَ الاستِدلالِ على إبطالِ ظَنِّ الَّذين كَفَروا بقَطعِ النَّظَرِ عن حالةٍ أُخرَى أوْلَى بالدَّلالةِ؛ وهي المُقابَلةُ بيْنَ فَريقِ المُفسِدينَ أُولي النِّعمةِ، وفَريقِ الصَّالِحينَ أُولي البُؤسِ، وعن حالةٍ دونَ ذلك؛ وهي فَريقُ المُفسِدينَ أصحابِ البُؤسِ والخَصاصةِ، وفَريقُ الصَّالِحينَ أُولي النِّعمةِ؛ لأنَّها لا تَستَرعي خاطِرَ النَّاظِرِ[٢].

- و(أَمْ) في قَولِه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ مُنقَطِعةٌ أيضًا، ومُفادُها إضرابُ انتِقالٍ عن تَقريرِ أمْرِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ بما مَرَّ مِن نَفيِ خَلقِ العالَمِ خَاليًا مِنَ الحِكَمِ والمَصالِحِ، إلى تَقريرِه وتَحقيقِه، ولِلارتِقاءِ في الاستِدلالِ على أنَّ الحِكمةَ الرَّبَّانيَّةَ بمُراعاةِ الحَقِّ وانتِفاعِ الباطِلِ في الخَلقِ تَقتَضي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤٩، ٢٥٠).

الجَزاءَ والبَعثَ لِأجْلِه[١].

- قَولُه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ مَعنى الاستِفهامِ الَّذي تَقتَضيه (أَمْ) الإنكارُ، وهذا الارتِقاءُ في الاستِدلالِ؛ لِقَصدِ زِيادةِ التَّشنيعِ على مُنكِري البَعثِ والجَزاءِ، بأنَّ ظَنَّهم ذلك يَقتَضي أنْ جَعَلَ اللهُ المُتَّقينَ مُساوينَ لِلفُجَّارِ في أحوالِ وُجودِ الفَريقَيْنِ، فأنكَرَ التَّسويةَ بيْنَ الفَريقَينِ، ونَفاها على أبلَغِ وَجهٍ وآكَدِه، أيْ: بلْ أنَجعَلُ المُؤمِنينَ المُصلِحينَ كالكَفَرةِ المُفسِدينَ في أقطارِ الأرضِ؟! كما يَقتَضيهِ عَدَمُ البَعثِ، وما يَترتَّبُ عليهِ مِنَ الجَزاءِ؛ لِاستِواءِ الفَريقَينِ في التَّمتُّعِ بالحَياةِ الدُّنيا، بلِ الكَفَرةُ أوفَرُ حَظًّا منها مِن المُؤمِنينَ، لكِنَّ ذلك الجَعلَ مُحالٌ؛ فتَعيَّنَ البَعثُ والجَزاءُ حَتمًا؛ لِرَفعِ الأوَّلينَ إلى أعْلى عِلِّيِّينَ، ورَدِّ الآخَرينَ إلى أسفَلِ سافِلينَ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ إطنابٌ مَقصودٌ منه زِيادةُ التَّهويلِ والتَّفظيعِ على الَّذين ظَنُّوا ظَنًّا يُفْضي إلى أنَّ اللهَ خَلَقَ شَيئًا مِنَ السَّماءِ والأرضِ وما بَيْنَهما باطِلًا؛ فإنَّ في الانتِقالِ مِن دَلالةِ الأضعَفِ إلى دَلالةِ الأقوَى، وفي تَكريرِ أداةِ الإنكارِ: شأنًا عَظيمًا مِن فَضحِ أمْرِ الضَّالِّينَ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

- قَولُه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ استِئنافٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٠).

مُعتَرَضٌ، وفي هذا الاستِئنافِ نَظَرٌ إلى قَولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]؛ إعادةً لِلتَّنويهِ بشأنِ القُرآنِ، كما سَيُعادُ ذلك في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾[١] [ص: ٤٩].

- وتَنكيرُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ لِلتَّعظيمِ؛ لِأنَّ الكِتابَ مَعلومٌ، فما كان تَنكيرُه إلَّا لِتَعظيمِ شَأنِه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَتذَكَّروا بالقُرآنِ لَيسوا مِن أهلِ العُقولِ، وأنَّ التَّذكُّرَ مِن شأْنِ المُسلِمينَ الَّذين يَستَمِعونَ القَولَ فيَتَّبِعونَ أحسَنَه؛ فهُمْ مِمَّن تَدبَّروا آياتِه فاستَنبَطوا مِنَ المَعاني ما لم يَعلَموا، ومَن قَرَأَهُ فتَذكَّرَ به ما كان عَلِمَه وتَذكَّر به حَقًّا كان عليه أنْ يَرعاهُ، والكافِرونَ أعرَضوا عنِ التَّدبُّرِ؛ فلا جَرَمَ فاتَهُمُ التَّذكُّرُ[٣].

- وأسنَدَ التَّدبُّرَ إلى الجَميعِ في قَولِه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وهو التَّفكُّرُ في الآياتِ، والتَّأمُّلُ الَّذي يُفْضي بصاحِبِه إلى النَّظَرِ في عَواقِبِ الأشياءِ، وأسنَدَ التَّذكُّرَ إلى أُولي العُقولِ؛ لِأنَّ ذا العَقلِ فيه ما يَهديه إلى الحَقِّ، وهو عَقلُه، فلا يَحتاجُ إلَّا إلى ما يُذكِّرُه فيَتذَكَّر[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٣).

## الآيات (٣٠-٤٠)

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نِعْمَ ﴾: كلمةٌ تُستعمَلُ في المدحِ بإزاءِ (بِئْسَ)[1].

﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ﴾: أي: الخَيلُ القائِمةُ على ثلاثِ قوائِمَ، وأقامت واحِدةً على طَرفِ الحافِرِ، وأصلُ (صفن): يدُلُّ على جِنسٍ مِن القيامِ[2].

﴿ٱلْجِيَادُ ﴾: أي: الخَيلُ السِّراعُ، جمعُ جوادٍ، وأصلُ (جود): يدُلُّ على تسَمُّحٍ بالشَّيءِ، وكَثرةِ عَطاءٍ[3].

﴿تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾: أي: استتَرَتْ وتَغيَّبت بما يَحجُبُها عن الأبصارِ، يُقالُ:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧)،

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

وارَيْتُ كذا: إذا ستَرْتَه، والتَّواري: الاستتارُ، وأصلُ (حجب): المنعُ[١].

﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا﴾: طَفِق مِن أفعالِ المُقارَبةِ للشُّروعِ فِي الفعلِ، يُقالُ: طَفِق يَفعَلُ كذا، كما يُقالُ: ظَلَّ يَفعلُ كذا، وأخَذ يفعلُ كذا، وأصلُ (مسح): يدُلُّ على إمرارِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، ويُطلَقُ على القطعِ، يُقالُ: مسَح رأسَه؛ إذا قطَعه[٢].

﴿بِٱلسُّوقِ﴾: جمعُ ساقٍ؛ وسمِّيَت بذلك لأنَّ الماشيَ يَنساقُ عليها[٣].

﴿رُخَآءً﴾: أي: رِخوةً لَيِّنةً، وأصلُ (رخو): يدُلُّ على لِينٍ[٤].

﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾: أي: حيثُ أراد، مِن قولِهم: أصاب اللهُ بك خيرًا: أي: أراد الله بك خيرًا، وأصلُ (صوب): يدُلُّ على نزولِ شَيءٍ واستِقرارِه قَرارَه[٥].

﴿مُقَرَّنِينَ﴾: أي: مَشدُودينَ، قد قُرِنَ بَعضُهم إلى بَعضٍ، أو مُقَرَّنةً أيديهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٣) و(٥/ ٣٢٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

وأرجُلُهم إلى رِقابِهم، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾: أي: الأغلالِ والقُيودِ، واحدُها صَفَدٌ، كأصنامٍ وصنَمٍ، وأصلُ (صفد): يدُلُّ على شَدٍّ بشَيءٍ[٢].

﴿فَٱمُنُّ﴾: أي: أعْطِ وأنْفِقْ، وأصلُ (المنة): النِّعمةُ الثَّقيلةُ[٣].

﴿لَزُلْفَىٰ﴾: أي: قُرْبى، ومَنزِلةً عاليةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على اندفاعٍ وتقدُّمٍ في قُرْبٍ إلى شَيءٍ[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾

قَولُه: ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ في نَصبِه أوجهٌ:

**أحدُها**: أنَّه مَفعولُ ﴿أَحْبَبْتُ﴾؛ لتَضمينِه معنى (آثَرْتُ)، و﴿عَن﴾ بمعنى (على)، أي: آثَرْتُ حُبَّ الخَيرِ على ذِكْرِ رَبِّي.

**الثاني**: أنَّ ﴿حُبَّ﴾ مفعولٌ مُطلَقٌ لـ﴿أَحْبَبْتُ﴾ على حَذْفِ الزَّوائدِ، أو نائبٌ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (٣/ ١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٠/ ٦٢٣٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٤٤).

عن المصدَرِ؛ لأنَّه اسمُ مَصدرٍ.

**الثالثُ**: أنَّه مَصدرٌ تشبيهيٌّ منصوبٌ، أي: حُبًّا مِثلَ حُبِّ الخَيرِ.

**الرَّابعُ**: قيل: إنَّ ﴿أَحْبَبْتُ﴾ مِنْ أحَبَّ البعيرُ: إذا سَقَطَ وبَرَك مِن الإعياءِ. والمعنى: قَعَدْتُ عن ذِكْر ربِّي، فيكونُ ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ مَفعولًا لأجْلِه[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن قصَّةِ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ: ووَهَبْنا لداودَ ابنَه سُلَيمانَ، نِعْمَ العَبدُ سُلَيمانُ؛ فهو كثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى؛ إذ عُرِضَ عليه آخِرَ النَّهارِ الخُيولُ الَّتي مِن صِفاتِها أنَّها لا تَعتمِدُ بجَميعِ قوائِمِها على الأرضِ إذا وقَفَت، وأنَّها سريعةُ العَدْوِ، فقال سُلَيمانُ: إنِّي أحبَبتُ حُبَّ الخَيلِ عن ذِكرِ رَبِّي. إلى أنْ غابَتْ، ثمَّ أمَرَ مَن تحتَ يَدِه فقال: أعيدُوا لي تلك الخَيلَ، فلمَّا أعادوها إليه شَرَع يَمسَحُ سِيقانَها وأعناقَها.

ثمَّ يقولُ تعالى: ولقد اختبَرْنا سُلَيمانَ، وألقَيْنا على كُرسِيِّه جَسَدًا، ثمَّ رجَعَ سُلَيمانُ إلى رَبِّه وتابَ وقال: ربِّ اغفِرْ لي، وهَبْ لي مُلكًا لا يكونُ لأحدٍ مِن بَعدي؛ إنَّك أنت الوهَّابُ. فاستجابَ اللهُ تعالى له دُعاءَه؛ فسَخَّرَ له الرِّيحَ تَجري رِخوةً لَيِّنةً إلى حيثُ أراد، وسخَّرَ له الشَّياطينَ؛ كُلَّ بنَّاءٍ منهم وكُلَّ غَوَّاصٍ، وآخَرينَ مِن مَرَدةِ الشَّياطينِ مُوثَقينَ في القُيودِ.

ثمَّ قال اللهُ تعالى لنَبيِّه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: هذا المُلكُ هو عَطاؤُنا لك؛ فأعْطِ مَن شِئْتَ، وامنَعْ مَن شِئتَ؛ فلا حِسابَ عليك، ولا حرَجَ في ذلك، وإنَّ لك عِندَنا مَنزِلةً عاليةً، وحُسنَ مَرجِعٍ.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٧٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٢٢).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٣٠ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أثنَى اللهُ تعالى على داودَ عليه السَّلامُ، وذكَرَ ما جرَى له ومنه؛ أثنَى على ابنِه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ[1]، فقال:

﴿ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيۡمَٰنَ ﴾.

أي: ووهَبْنا لِداودَ ابنَه سُلَيمانَ[2].

﴿ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴾.

أي: نِعمَ العَبدُ سُلَيمانُ؛ فهو كثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى[3].

﴿ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ٣١ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٩).

قيل: رَجَّاعٌ إلى الله في جميعِ أحوالِه؛ بالتَّألُّهِ والإنابةِ، والمَحَبَّةِ والذِّكرِ، والدُّعاءِ والتَّضرُّعِ، والاجتِهادِ في مَرْضاةِ الله، وتقديمِها على كلِّ شَيءٍ. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

وقيل: المرادُ: أنَّه أوَّابٌ إلى أمرِ الله ونَهْيِه، أي: إذا حصَل له ما يُبعِدُه عن ذلك تَذَكَّر فآبَ، أي: فتاب. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤).

أي: إذ[١] عُرِضَ على سُلَيمانَ في آخِرِ النَّهارِ الخَيلُ الَّتي مِن صِفاتِها أنَّها لا تَعتمِدُ بجَميعِ قوائِمِها على الأرضِ إذا وقَفَت[٢]، وأنَّها سريعةٌ في عَدْوِها إذا ركَضَت[٣].

---

(١) قيل: ﴿ إِذْ ﴾ مِن صِلةِ ﴿أَوَّابٌ﴾ أي: إنَّه تَوَّابٌ إلى اللهِ مِن خَطيئتِه الَّتي أخطأها حينَ عُرِضَ عليه بالعَشيِّ الصَّافناتُ الجِيادُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨١).

وقيل: ﴿ إِذْ ﴾ مفعولٌ به لفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ يا مُحمَّدُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: البِقاعي، وأبو السعود. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٤).

(٢) ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ أي: الَّتي تَقِفُ على ثلاثِ قوائِمَ وطَرَفِ حافرِ القائمةِ الرَّابعةِ؛ بحيث لا تَعتمِدُ عليها في وُقوفِها: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والثعلبي، وابن كثير، وابن عاشور، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٠٠)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٢).

قال ابنُ عاشور: (وتلك مِن علاماتِ خِفَّتِه الدَّالَّةِ على كَرمِ أصلِ الفَرَسِ، وحُسنِ خِلالِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٠).

وقيل: هي القائِمةُ عُمومًا، سواءٌ كانت على ثلاثٍ أو غيرِ ثلاثٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٣).

وممَّن اختار مِن السَّلفِ أنَّ الصُّفُونَ: القيامُ وبَسْطُ القوائمِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨١ - ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٩: ١٥٦).

و﴿ٱلْجِيَادُ﴾ قيل: هي السَّريعةُ في عَدْوِها. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، =

﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾.

أي: فقال سُلَيمانُ: إنِّي أحبَبتُ حُبَّ الخَيلِ[1] .....

= والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٣).

قال ابنُ عثيمين: (فهي إذا استُوقِفَت وقَفَت على أحسَنِ هَيئةٍ... وإذا ركَضَت ركَضَت على أكمَلِ هَيئةٍ... وهذا غايةُ ما يكونُ مِن جَمالِ الخَيلِ: أن تكونَ هيئتُها حينَ الوُقوفِ ممَّا يَسُرُّ النَّفْسَ، وأن يكونَ فِعلُها وأداؤُها حينَ السَّيرِ ممَّا يَنفَعُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٠).

وقيل: هي مِنَ الجَودةِ، بمعنى النَّفاسةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

(١) قال السمعاني: (أمَّا ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ فأكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّها الخَيلُ في هذه الآيةِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٩).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ معنى هذا يختلِفُ على حَسَبِ الاختلافِ في القِصَّةِ؛ فأمَّا الَّذين قالوا: إنَّ سُلَيمانَ عَقَر الخَيلَ لَمَّا اشتَغَل بها حتَّى فاتَتْه الصَّلاةُ، فاختلَفوا في هذا على ثلاثةِ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّ ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ هنا يُرادُ به الخَيلُ، وزعَموا أنَّ الخَيلَ يقالُ لها: خَيرٌ، و﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ بمعنى: آثَرْتُ، أو بمعنى فِعلٍ يَتعدَّى بـ «عن»، كأنَّه قال: آثَرتُ حُبَّ الخَيلِ فشَغَلني عن ذِكرِ رَبِّي.

والآخَرُ: أنَّ ﴿ٱلۡخَيۡرِ﴾ هنا يُرادُ به المالُ؛ لأنَّ الخَيلَ وغَيرَها مالٌ؛ فهو كقَولِه تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيۡرًا﴾ [البقرة: ١٨٠]، أي: مالًا.

والثَّالِثُ: أنَّ المفعولَ مَحذوفٌ، و﴿حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ مَصدرٌ، والتَّقديرُ: أحبَبتُ هذه الخَيلَ مِثلَ حُبِّ الخيرِ، فشَغَلني عن ذِكرِ رَبِّي.

وأمَّا الَّذين قالوا: كان يُصَلِّي فعُرِضَت عليه الخَيلُ فأشار بإزالتِها، فالمعنى أنَّه قال: إنِّي أحبَبتُ حُبَّ الخَيرِ الَّذي عندَ اللهِ في الآخرةِ؛ بسَبَبِ ذِكرِ رَبِّي، وشغَلَني ذلك عن النَّظَرِ إلى الخَيلِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٨).

وقال الشوكاني: (و«عن» في ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾ بمعنَى «على». والمعنَى: آثَرْتُ حُبَّ الخَيلِ على ذِكرِ رَبِّي). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٥). =

عن ذِكرِ ربِّي[١] .....

= وقال ابن كثير: (ذَكَر غيرُ واحدٍ مِن السَّلفِ والمفسِّرينَ أنَّه اشتَغَل بعَرْضِها حتَّى فاتَ وقتُ صلاةِ العصرِ، والَّذي يُقْطَعُ به أنَّه لم يَترُكْها عمدًا، بل نِسيانًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

ممَّن اختار أنَّ فِعلَ ﴿أَحْبَبْتُ﴾ ضُمِّن معنى (آثرْتُ)، أي: آثَرْتُ حُبَّ الخَيرِ على ذِكرِ ربِّي: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤٠٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

وقال ابن عاشور: (وأصلُ تركيبِ ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾: أحببتُ الخيرَ حُبًّا، فحُوِّل التَّركيبُ إلى ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾؛ فصار حُبُّ الخَيرِ تمييزًا لإسنادِ نِسبةِ المَحَبَّةِ إلى نفْسِه، لغرضِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

وقال ابنُ جرير: (ويعني بقوله: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ أي: أحببْتُ حبًّا للخيرِ، ثمَّ أُضيف الحبُّ إلى الخيرِ. وعُنيَ بالخيرِ في هذا الموضعِ الخيلُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٣).

وقال ابن عثيمين: (﴿أَحْبَبْتُ﴾ الأولى على بابِها، و﴿حُبَّ﴾ الثَّانيةُ على بابِها مِن بابِ التَّوكيدِ، كأنَّه أحَبَّ حُبَّ الخيلِ، فضلًا عن الخَيلِ، ومَن أحَبَّ حُبَّ الشَّيءِ لَزِم أن يكونَ مُحِبًّا للشَّيءِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٢).

وقيل: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ بمعنَى أنَّ هذه المحبَّةَ الشَّديدةَ إنَّما حَصَلتْ عن ذِكرِ اللهِ وأمْرِه، لا عن الشَّهوةِ والهوَى. وممَّن اختاره: الرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٠).

(١) قيل: المرادُ بالذِّكرِ هنا: الصَّلاةُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٧٧).

ذكر غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ والمفَسِّرين أنَّها صلاةُ العَصرِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

وقال ابن عاشور: (لعلَّها صلاةٌ كان رتَّبَها لِنَفْسِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

وقيل: المرادُ: عُمومُ الذِّكرِ، ويدخلُ فيه صَلاةُ العصرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٢، ١٥٣).

إلى أنْ غابَتْ عن أعيُنِ النَّاظِرينَ[١].

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ٣٣﴾.

أي: أعيدُوا لي تلك الخَيلَ، فلمَّا أعادوها إليه شَرَع يَمسَحُ سِيقانَها وأعناقَها[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٣ - ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٤، ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٣٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٧٩، ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

وممَّن قال: إنَّ الَّتي توارتْ بالحِجابِ هي الشَّمسُ وَقتَ غُروبِها: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، وابن رجب، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٥)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٣٣٨)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٦).

قال ابن عثيمين: (الحجابُ هو الأرضُ، فالَّذي يَستُرُها إذا غابَتْ هي الأرضُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٤).

وقيل: الضَّميرُ في ﴿تَوَارَتۡ﴾ عائدٌ على ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾، أي: دخَلَت اصطَبلاتِها، فهي الحِجابُ. واستظهر هذا المعنى: أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٤).

قال الرازي: (لو قُلْنا: المرادُ: حتَّى تَوَارَتِ الصَّافِناتُ بالحجابِ، كان معناه أنَّه حِينَ وَقَع بَصَرُه عليها حالَ جَرْيِها كان يقولُ هذه الكلمةَ إلى أنْ غابَتْ عن عَيْنِه، وذلك مُناسِبٌ... قالَ: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾، ثُمَّ قالَ: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾، وعَودُ الضَّميرِ إلى أقرَبِ المَذكورَينِ أولَى، وأقربُ المَذكورَينِ هو الصَّافناتُ الجِيادُ، وأمَّا العَشِيُّ فأبعَدُهما؛ فكان عَودُ ذلك الضَّميرِ إلى الصَّافناتِ أولَى). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٠، ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٠، ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٥، ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٥).

اختلَف المفسِّرونَ في المرادِ من قولِه تعالى: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾:

فقيل: إنَّ المراد: قَتْلُ سُلَيمانَ للخَيلِ، وأنَّه قطَع أعناقَها وسُوقَها. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبي، والبغوي ونسَبَه إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ، والزمخشري، وهو ظاهِرُ اختيار ابن الجوزي، واختاره القرطبيُّ، والبيضاوي، وابن القيِّم، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره البِقاعي، =

= والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٨)، ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٠، ٣٨١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٥، ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٥).

قال ابن الجوزي: (هذا اختيارُ السُّدِّيِّ، ومُقاتلٍ، والفَرَّاءِ، وأبي عُبَيدةَ، والزَّجَّاجِ، وابنِ قُتَيْبَةَ، وأبي سُلَيْمانَ الدِّمَشْقيِّ، والجمهورِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤٠٥)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٨٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

قال ابن كثير: (قد يكونُ في شرعِهم جوازُ مِثلِ هذا، ولا سِيَّما إذا كان غضَبًا لله عزَّ وجلَّ بسببِ أنَّه اشتَغَل بها حتَّى خَرَج وقتُ الصَّلاةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

وقيل: المرادُ: مَسَحَ عليها؛ حُبًّا وإكرامًا لها. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، والجَصَّاصُ، وابنُ حزم، والقاضي أبو يعلى-كما في ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)- والرازيُّ، وأبو حيَّان، ومحمد رشيد رضا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٦٤٦)، ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٥٠٢)، ((الفِصَل)) لابن حزم (٤/ ١٥، ١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩١، ٣٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٦/ ١٨٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، والزُّهْريُّ، وابنُ كَيْسانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٥).

قال أصحابُ هذا القولِ: وهذا القولُ أشْبَهُ بتأويلِ الآيةِ؛ لأنَّ القولَ بأنَّه قتَلها جمَع على سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ أنواعًا مِن الأفعالِ المذمومةِ؛ منها: تركُ الصَّلاةِ، وأنَّه استولَى عليه الاشتغالُ =

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: ولقد ابتَلَيْنا سُلَيمانَ واختبَرْناه، وألقَيْنا على كُرسِيِّه جَسَدًا[1]، ثمَّ رجَعَ سُلَيمانُ إلى رَبِّه، فعَلِمَ أنَّ الَّذي حَلَّ به مِنَ البلاءِ بسَبَبِ ذَنْبٍ صَدَر منه، فتاب إلى رَبِّه[2].

---

= بحبِّ الدُّنيا إلى حيثُ نَسِيَ الصَّلاةَ، وأنَّه بعدَ الإتيانِ بهذا الذَّنْبِ العظيمِ لم يَشتغِلْ بالتَّوبةِ والإنابةِ البتَّةَ، بل عاقَب خَيلًا لا ذنْبَ لها، ومثَّل بها، وأتلَفَ مالًا مُنتفَعًا به. يُنظر: ((الفصل)) لابن حزم (٤/ ١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩١).

قال الرازي: (والصَّوابُ أنْ نقولَ: إنَّ رباطَ الخيلِ كان مَندوبًا إليه في دينِهم، كما أنَّه كذلك في دينِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثُمَّ إنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ احتاج إلى الغزوِ فجَلَس، وأمَر بإحضارِ الخَيلِ، وأمَر بإجْرائِها، وذَكَر أنِّي لا أُحِبُّها لأجْلِ الدُّنيا ونَصيبِ النَّفْسِ، وإنَّما أُحِبُّها لأمْرِ اللهِ وطَلَبِ تَقويةِ دينِه، وهو المرادُ مِن قولِه: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾، ثمَّ إنَّه عليه السَّلامُ أمَر بإعدائِها وتسييرِها ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾، أي: غابَتْ عن بصرِه، ثمَّ أمَر الرَّائِضينَ بأنْ يَرُدُّوا تلكَ الخَيلَ إليه، فلمَّا عادَتْ إليه طَفِقَ يَمسَحُ سُوقَها وأعناقَها، والغرضُ مِن ذلكَ المسحِ أمورٌ:

الأوَّلُ: تشريفًا لها، وإبانةً لعِزَّتِها؛ لِكَونِها مِن أعظَمِ الأعوانِ في دفعِ العَدُوِّ.

الثَّاني: أنَّه أرادَ أن يُظهِرَ أنَّه في ضبطِ السِّياسةِ والمُلكِ يَتَّضِعُ إلى حيثُ يُباشِرُ أكثرَ الأمورِ بنفْسِه.

الثَّالثُ: أنَّه كان أعْلَمَ بأحوالِ الخَيلِ وأمراضِها وعُيوبِها، فكان يَمتحِنُها ويَمسَحُ سُوقَها وأعناقَها حَتَّى يَعلمَ هل فيها ما يدُلُّ على المرضِ؟ فهذا التَّفسيرُ الَّذي ذَكَرْناه يَنطَبِقُ عليه لفظُ القرآنِ انْطِباقًا مُطابِقًا مُوافِقًا). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩١).

وقيل: المرادُ أنَّه كوى سُوقَها وأعناقَها بكَيِّ الصَّدَقةِ، وحَبَّسها في سبيلِ اللهِ تعالى. حكاه الثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٤-١٦٨).

(٢) قيل: المرادُ بقوله: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾: شَيطانٌ جلَسَ على كُرسيِّ مُلكِه. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن أبي زَمَنينَ، ومكِّي، والواحدي، وابن عطية، وابن حجر، والسعدي. وجعَلَه ابنُ عثيمينَ قَولًا مُحتَمَلًا، وأنَّه أقربُ الأقوالِ إلى =

= ظاهِرِ اللَّفظِ، ونسَبه القرطبيُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٤-١٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٨٨).

وقيل: المرادُ هو ما جاء في الحديثِ أنَّه قال: لَأَطُوفَنَّ اللَّيلةَ على سبعينَ امرأةً، كُلُّ واحدةٍ تأتي بفارسٍ يُجاهِدُ في سبيلِ اللهِ، ولم يَقُلْ: إن شاء اللهُ، فطاف عليهِنَّ، فلم تَحمِلْ إلَّا امرأةٌ واحِدةٌ، وجاءَتْه بشِقِّ رَجُلٍ. قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لو قالَها لَجاهَدوا في سبيلِ اللهِ)) [البخاري (٣٤٢٤)] وفي روايةٍ: ((ولو قالَ: إنْ شاءَ اللهُ، لم يَحْنَثْ، وكان دَرَكًا له في حاجَتِه)) [مسلم (١٦٥٤)]. فالمرادُ بقَولِه: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ هو هذا، والجَسَدُ المُلْقى هو المولودُ شِقَّ رَجُلٍ. وقد استظهر هذا القولَ: البيضاويُّ، وأبو السعود، والألوسي، والشنقيطي، وذكر أبو حيَّان أنَّ هذا القَولَ هو أقرَبُ ما قيل في ذلك. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٥، ١٥٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٠).

قال الألوسي: (وغايتُه تَرْكُ الأَولى، فليس بذَنْبٍ، وإن عدَّه هو عليه السَّلامُ ذنْبًا، فالمرادُ بالجسَدِ ذلك الشِّقُّ الَّذي وُلِد له، ومعنى إلقائه على كُرسيِّه وضْعُ القابلةِ له عليه لِيَراه). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٩٠). ويُنظر: ((حاشية الشهاب تفسير البيضاوي)) (٧/ ٣١١).

وقال الشنقيطيُّ في تفسير الآيةِ (٢٣) من سورة الكهف: (اعلَمْ أنَّ هذا الحديثَ الصَّحيحَ بيَّن معنى قولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ الآيةَ، وأنَّ فِتنةَ سُلَيمانَ كانت بسببِ تركِه قولَ «إن شاء الله»، وأنَّه لم يَلِدْ مِن تلك النِّساءِ إلَّا واحدةٌ نِصْفَ إنسانٍ، وأنَّ ذلك الجسَدَ الَّذي هو نِصفُ إنسانٍ هو الَّذي أُلْقِيَ على كُرسيِّه بعدَ مَوتِه في قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ الآيةَ. فما يَذكُرُه المفسِّرون في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ ﴾ الآيةَ، مِن قصَّةِ الشَّيطانِ الَّذي أخَذ الخاتمَ وجلَس على كُرسيِّ سُلَيمانَ، وطَرِدِ سُلَيمانَ عن مُلكِه حتَّى وجَد الخاتمَ في بطنِ السَّمكةِ الَّتي أعطاها له مَن كان يَعملُ عندَه بأجرٍ مطرودًا عن مُلكِه، =

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾.

أي: قال سُلَيمانُ: رَبِّ استُرْ عليَّ ذنْبي، وتَجاوَزْ عن مُؤاخَذَتي به[1].

﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾.

أي: وهَبْ لي مُلكًا لا يكونُ لأحَدٍ سِوايَ مِثلُه[2].

---

= إلى آخرِ القِصَّةِ: لا يخفى أنَّه باطلٌ لا أصلَ له، وأنَّه لا يَليقُ بمقامِ النُّبوَّةِ، فهي مِن الإسرائيليَّاتِ الَّتي لا يَخفى أنَّها باطلةٌ. والظَّاهرُ في معنى الآيةِ هو ما ذكَرْنا، وقد دلَّتِ السُّنَّةُ الصَّحيحةُ عليه في الجملةِ، واختاره بعضُ المُحقِّقينَ، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٥٤).

وقال القاضي عياضٌ: (ولا يَصِحُّ ما نقله الأَخْباريُّون مِن تشبُّهِ الشَّيطانِ به، وتسلُّطِه على مُلكِه، وتصرُّفِه في أمَّتِه بالجَورِ في حُكمِه؛ لأنَّ الشَّياطينَ لا يُسَلَّطون على مِثلِ هذا، وقد عُصِم الأنبياءُ مِن مِثلِه). ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشُّمُنِّي)) (٢/ ١٦٧).

وذكر ابنُ عثيمين احتمالًا أن يكونَ المرادُ سليمانَ نفْسَه، سلَبَ اللهُ تعالى منه التَّفكيرَ وتدبيرَ شؤونِ المملكةِ، فصار لا يُحسِنُ التَّدبيرَ، وأنَّ هذا الاحتمالَ أقرَبُ مِن حيثُ المعنى؛ لأنَّ الإنسانَ إذا سُلِب عقله وتفكيره فهو بمنزلةِ الجسدِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٦).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٩٦)، ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى - وحاشية الشمني)) (٢/ ١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٨، ١٦٩).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ: ابنُ عطية، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: لا يَصلُحُ لأحدٍ أن يَسلُبَنيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، =

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ سُلَيمانَ بنَ داودَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا بنى بيتَ المَقدِسِ سأل اللهَ عزَّ وجَلَّ خِلالًا ثلاثةً: سأل اللهَ عزَّ وجلَّ حُكمًا يُصادِفُ حُكمَه، فأُوتِيَه، وسأل اللهَ عزَّ وجَلَّ مُلكًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، فأوتِيَه، وسأل اللهَ عزَّ وجَلَّ حينَ فَرَغ مِن بناءِ المسجِدِ ألَّا يأتيَه أحَدٌ لا يَنهَزُه[1] إلَّا الصَّلاةُ فيه أن يُخرِجَه مِن خَطيئتِه كيَومَ ولَدَتْه أمُّه))[2].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ عِفريتًا مِن الجِنِّ جَعَل يَفتِكُ[3] علَيَّ البارحةَ؛ لِيَقطَعَ علَيَّ الصَّلاةَ، وإنَّ اللهَ أمكَنَني منه فذَعَتُّه[4]، فلقد هَمَمْتُ أن أربِطَه إلى جَنبِ ساريةٍ مِن سواري المسجِدِ، حتَّى تُصبِحوا تَنظُرونَ إليه أجمَعونَ -أو كُلُّكم- ثمَّ ذكَرْتُ قَولَ أخي

---

= والسمعاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٣، ١٠٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٤٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وعطاءُ بنُ أبي رباحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٥).

(١) لا يَنهَزُه: أي: لا يُحَرِّكُه ويَدفَعُه. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن الجوزي (٢/ ٤٤٥).

(٢) أخرجه النَّسائي (٦٩٣) واللفظ له، وابن ماجه (١٤٠٨)، وأحمد (٦٦٤٤).

صحَّحه ابنُ حبَّان في ((صحيحه)) (١٦٣٣)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ١٨٨)، وابنُ القيِّم في ((المنار المُنِيف)) (٧٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٦٩٣)، وصحَّح إسنادَه القرطبيُّ في ((التفسير)) (٥/ ٢٠٧)، والنوويُّ في ((المجموع)) (٨/ ٢٧٨)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ١٢٨)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (١٦٣٣).

(٣) أي: يغفلُه عن الصلاةِ ويَشغلُه. وأصل الفَتكِ: القتلُ على غفلةٍ وغِرَّةٍ. يُنظر: ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قُرْقُول (٥/ ١٩١)، ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) لأبي العباس القرطبي (٢/ ١٥٠).

(٤) أي: خنَقْتُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ٢٩).

سُلَيمانَ: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾، فرَدَّه اللهُ خاسِئًا))[١].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم قام فصلَّى صلاةَ الصُّبحِ وهو خَلْفَه، فقرأَ فالتبَسَتْ[٢] عليه القِراءةُ، فلمَّا فرَغَ مِن صلاتِه قال: لو رأيتُموني وإبليسَ، فأهوَيتُ بيَدي، فما زِلتُ أخنُقُه حتَّى وَجدْتُ بَرْدَ لُعابِه بيْنَ إصْبَعَيَّ هاتَينِ: الإبهامِ والَّتي تليها! ولولا دَعوةُ أخي سُلَيمانَ لأصبَحَ مَربوطًا بساريةٍ مِن سواري المسجدِ يَتلاعَبُ به صِبيانُ المدينةِ! فمَنِ استطاع منكم ألَّا يَحولَ بيْنَه وبيْنَ القِبلةِ أحَدٌ فلْيَفعَلْ))[٣].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾.

أي: إنَّك كثيرُ الهِباتِ والعَطاءِ لِمَن تَشاءُ مِمَّا تَشاءُ مِن خزائِنِ رَحمتِك وفَضلِك[٤].

﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦﴾.

أي: فاستَجَبْنا دُعاءَ سُلَيمانَ بإعطائِه مُلكًا عَظيمًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، فذَلَّلْنا لأجْلِه الرِّيحَ طائِعةً له كيفما يأمُرُها، فتَهُبُّ رِخوةً في غايةِ اللِّينِ إلى حيثُ أراد[٥].

---

(١) رواه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١) واللفظ له.

(٢) التَبَسَت: أي: اختَلَطت واشتَبَهَت. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٧٨).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٦٩٩) مختصرًا، وأحمدُ (١١٧٨٠) واللفظ له.

جوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٦/ ٢٩٣)، وابنُ رجب في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٩٧)، ووثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٩٠)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٦٩٩): (حسَنٌ صحيحٌ).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير ان عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٤، ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٥)، ((تفسير =

﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ ﴾.

أي: وسَخَّرْنا له الشَّياطينَ، فذلَّلنا كُلَّ بَنَّاءٍ منهم، فيَبنونَ له ما يأمُرُهم ببِنائِه؛ وذَلَّلْنا كُلَّ غوَّاصٍ منهم، فيَغوصونَ له في البِحارِ، فيَستَخرِجونَ له اللآلِئَ وغَيرَها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ * يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨ ﴾.

أي: وذَلَّلْنا لسُلَيمانَ آخَرينَ مِن مَرَدةِ الشَّياطينِ حتَّى قَرَنَهم في القُيودِ، وأوثَقَهم في الأغلالِ[2].

---

= البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ان عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٩، ١٧٠).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾ إجماعُ المفَسِّرينَ وأهلِ اللُّغةِ أنَّه حيث أراد، وحقيقتُه: قَصَدَ، وكذلك قَولُك للمُجيبِ في المسألةِ: أصَبْتَ، أي: قصَدْتَ، فلم تُخطِئِ الجوابَ). ((معاني القرآن)) (٤/ ٣٣٣).

وقال الماوَرْدي: (﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ يحتمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: تَحمِلُ ما يأمُرُها. الثَّاني: تَجري إلى حيثُ يأمُرُها). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لِنَبيِّه سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: هذا المُلكُ الَّذي سألْتَ هو عَطاءٌ عَظيمٌ واسِعٌ وهَبْناه لك؛ فأعْطِ مَن شِئتَ مِنَ النَّاسِ، واحرِمْ مَن شِئتَ؛ فلا حرَجَ ولا مُؤاخَذةَ عليك في ذلك(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٠ - ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

قال ابن جُزَي: (﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ الإشارةُ إلى المُلكِ الَّذي أعطاه الله له، والمعنى: أنَّ الله قال له: أعطِ مَن شِئتَ، وامنَعْ مَن شِئتَ. وقيل: المعنى: امنُنْ على مَن شِئتَ مِن الجنِّ بالإطلاقِ مِن القُيودِ، وأمسِكْ مَن شِئتَ منهم في القيودِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٩).

وممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن تيميَّة، وابن جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٠، ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٦).

قال الماوَرْدي: (﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُه؛ أحدُها: بغيرِ تقديرٍ فيما تُعطي وتَمنعُ، حكاه ابنُ عيسى. الثَّاني: بغيرِ حرَجٍ، قاله مجاهدٌ. الثَّالثُ: بغيرِ حسابٍ تُحاسَبُ عليه يومَ القيامةِ، قاله سعيدُ بنُ جُبَيْر). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠٠).

وممَّن قال: إنَّ معنى ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾: بغيرِ مُؤاخَذةٍ عليك في ذلك: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن تيميَّة، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، وسعيدُ ابنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٦). =

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ٤٠﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما أنعَمَ به على سُلَيمانَ في الدُّنيا؛ أردَفَه بإنعامِه عليه في الآخِرةِ[1].

﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ٤٠﴾.

أي: وإنَّ لِسُلَيمانَ عِندَنا قُربةً مِنَّا ومَنزِلةً عاليةً، وحُسنَ مَرجِعٍ[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ أنَّ الأولادَ هِبةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ للعَبدِ، ويَتفرَّعُ على ذلك أنَّه يَجِبُ على العَبدِ شُكرُ اللهِ على هذه النِّعمةِ[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ۝ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾

---

= قال السَّعدي: (أي: لا حرَجَ عليك في ذلك ولا حِسابَ؛ لِعلمِه تعالى بكَمالِ عَدلِه، وحُسنِ أحكامِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٣).

وقيل: المرادُ: أنَّه عَطاءٌ واسِعٌ لا تَضييقَ عليك فيه، على أن جُمْلَتَيْ ﴿فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ مُعْترِضَتانِ بيْن قولِه: ﴿عَطَآؤُنَا﴾ وقَولِه: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

وقيل: المرادُ: أعطِ مَن شِئتَ بغيرِ حِسابٍ؛ لأنَّك لا تخشى مِن نَقصِه، ولا تُسألُ عنه في الآخرةِ؛ لأنَّه قد أُذِنَ لك؛ فنَفْيُ الحِسابِ عنه يُفيدُ شيئينِ: الكَثرةَ، وعدَمَ المؤاخَذةِ في إعطاءٍ أو مَنعٍ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٦).

فيه -على قولٍ في التَّفسيرِ- أنَّ كُلَّ ما شَغَل العَبدَ عن اللهِ تعالى، فإنَّه مَشؤومٌ مَذمومٌ، فلْيُفارِقْه، ولْيُقبِلْ على ما هو أنفَعُ له[١].

٣- قَولُ الله تعالى حكايةً عن سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ فجَعَل سُلَيمانُ يُعَرقِبُ[٢] سُوقَها ويُقطِّعُ أعناقَها -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِحِرمانِ نَفْسِه منها، مع محبَّتِه إيَّاها؛ تَوبةً منه، وتربيةً لِنَفْسِه، وهذه طريقةٌ جَليلةٌ مِن طرائِقِ تَربيةِ النَّفْسِ، ومَظاهِرِ كَمالِ التَّوبةِ بالنِّسبةِ إلى ما كان سَبَبًا في الهَفوةِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ الآياتُ المُتعَلِّقةُ بنَدَمِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ على الاشتِغالِ بالخَيلِ عن ذِكرِ اللهِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- مَوقعُ أُسوةٍ به في مُبادَرةِ التَّوبةِ، وتحذيرٌ مِن الوُقوعِ في الغفلةِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ يدُلُّ على أنَّه يَجبُ تَقديمُ مُهِمِّ الدِّينِ على مُهِمِّ الدُّنيا؛ لأنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ طَلَبَ المَغفِرةَ أوَّلًا، ثمَّ بَعْدَه طَلَبَ المَملَكةَ[٥]؛ وذلك لأنَّ زَوالَ أثَرِ الذُّنوبِ هو الَّذي يَحصُلُ به المقصودُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) أي: يَقْطعُ عُرْقُوبَها، وهو الوَتَرُ الَّذي خَلْفَ الكَعبَينِ بيْنَ مَفْصِلِ القَدَمِ والسَّاقِ مِن ذَواتِ الأرْبَعِ، وهو مِنَ الإنسانِ فُوَيْقَ العَقِبِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٤).

فالذُّنوبُ في الحقيقةِ تَتراكَمُ على القَلبِ، وتَمنَعُه مِن كثيرٍ مِن المصالحِ، فيَسألُ الإنسانُ التَّخَلُّصَ مِن آثارِ هذه الذُّنوبِ قبْلَ أنْ يَسألَ ما يُريدُ(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ طَلبَ المَغفرةِ مِن اللهِ تعالى سبَبٌ لانفِتاحِ أبوابِ الخَيراتِ في الدُّنيا؛ لأنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ طَلَبَ المَغفِرةَ أوَّلًا، ثمَّ توسَّلَ به إلى طَلَبِ المَملَكةِ(٢).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ * وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ فيه تنبيهٌ على القاعِدةِ المَشهورةِ: (مَن تركَ شَيئًا لله عوَّضه اللهُ خيرًا منه)؛ فسُليَمانُ عليه السَّلامُ عَقَرَ الجِيادَ الصَّافِناتِ المحبوبةَ للنُّفوسِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ تقديمًا لمحبَّةِ اللهِ، فعَوَّضه اللهُ خيرًا مِن ذلك، بأنْ سَخَّرَ له الرِّيحَ الرُّخاءَ اللَّيِّنةَ الَّتي تجري بأمْرِه إلى حيثُ أرادَ وقَصَد، غُدُوُّها شَهرٌ، ورَواحُها شَهرٌ، وسَخَّرَ له الشَّياطينَ أهلَ الاقتِدارِ على الأعمالِ الَّتي لا يَقدِرُ عليها الآدَميُّونَ(٣).

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ﴾ فيه أنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ مِن مِنَنِ اللهِ وفضائلِه على داودَ عليه السَّلامُ؛ حيثُ وهَبَه له، وأنَّ مِن أكبَرِ نِعَمِ اللهِ على عَبدِه أن يَهَبَ له ولَدًا صالِحًا، فإنْ كان عالِمًا كان نورًا على نورٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢). ويُنظر أيضًا: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾، ثمَّ قال بعدَه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، وهذه الكَلِمةُ للتَّعليلِ؛ فهذا يدُلُّ على أنَّه إنَّما كان نِعْمَ العَبدُ لأنَّه كان أوَّابًا، فيَلزَمُ أنَّ كُلَّ مَن كان كثيرَ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى في أكثَرِ الأوقاتِ، وفي أكثَرِ المُهِمَّاتِ؛ كان مَوصوفًا بأنَّه نِعمَ العَبدُ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فيه إثباتُ العِلَلِ والأسبابِ؛ فقولُه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾؛ هو سَبَبُ الثَّناءِ عليه[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فضيلةُ الأَوبةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والرُّجوعِ إليه بالقَلبِ والعَمَلِ؛ لأنَّ اللهَ أثنَى على سُلَيمانَ بسَبَبِ ذلك[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أنَّ الصَّلاةَ يقالُ لها: «ذِكْرٌ» كما هي، وفيها أفعالٌ[4]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أنَّ الأرضَ كُرَويَّةٌ؛ لأنَّه لَمَّا أَثْبَت أنَّها تَتوارَى بالحِجابِ دلَّ هذا على أنَّ الأرضَ هي الَّتي تَحْجُبُها، وهي كما تُشاهدُ تَنْزِلُ شيئًا فشيئًا حتَّى تكونَ في الأرضِ، فيدُلُّ ذلك على أنَّ الأرضَ كرويَّةٌ، وهذا أيضًا أمرٌ مقطوعٌ به، ولا إشكالَ فيه؛ فهو ظاهرٌ مِن القرآنِ، وظاهرٌ في الواقعِ؛ ففي القرآنِ يقول اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣] وذلك يكونُ يومَ القيامةِ، فقولُه: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ يدُلُّ على أنَّها قبْلَ هذا ليست ممدودةً، بل هي كرويَّةٌ، وهذا لا يُعارِضُ قولَه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٥٨).

ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ۞ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۞ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]؛ لأنَّ سَطْحَها باعتبارِ المُشاهَدةِ، فأنت الآنَ إذا وَقَفْتَ على الأرضِ تجدُها مستويةً إلى مَدِّ البصرِ(١).

٧- يَنقَسِمُ الأنبياءُ عليهم السَّلامُ إلى عَبدٍ رَسولٍ، ونَبيٍّ مَلِكٍ، وقد خَيَّرَ اللهُ سُبحانَه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيْنَ أنْ يكونَ عَبدًا رَسولًا، وبيْنَ أنْ يكونَ نَبيًّا مَلِكًا، فاختار أنْ يكونَ عبدًا رَسولًا.

فالنَّبيُّ المَلِكُ مِثلُ داودَ وسُلَيمانَ ونحوِهما -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ-؛ قال اللهُ تعالى في قِصَّةِ سُلَيمانَ الَّذي: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۞ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ۞ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ۞ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۞ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ أي: أعْطِ مَن شِئتَ، واحرِمْ مَن شِئْتَ، لا حِسابَ عليك؛ فالنَّبيُّ المَلِكُ يَفعَلُ ما فَرَض اللهُ عليه، ويَترُكُ ما حَرَّم اللهُ عليه، ويَتصَرَّفُ في الوِلايةِ والمالِ بما يُحِبُّه ويختارُ مِن غَيرِ إثمٍ عليه.

وأمَّا العَبدُ الرَّسولُ فلا يُعطي أحدًا إلَّا بأمرِ رَبِّه، ولا يُعطي مَن يَشاءُ ويَحرِمُ مَن يَشاءُ، بل جاء عنه أنَّه قال: ((ما أُعْطيكم ولا أَمْنَعُكم، أنا قاسِمٌ، أضَعُ حيثُ أُمِرتُ))(٢).

والمقصودُ هنا أنَّ العَبدَ الرَّسولَ هو أفضَلُ مِن النَّبيِّ المَلِكِ، كما أنَّ إبراهيمَ وموسى وعيسى ومُحمَّدًا -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- أفضَلُ مِن يُوسُفَ وداودَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣١١٧) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

وسُلَيمانَ -عليهم السَّلامُ[١].

٨- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ فيه جوازُ الذُّنوبِ على الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وذلك أنَّه لو لم يكنْ ذَنْبٌ لَمَا استَغفرَ، وفيه أيضًا أنهم مُحتاجون إلى مَغفرةِ اللهِ[٢].

٩- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي﴾ هذا أدبُ الأنبياءِ والصَّالحينَ مِن طَلَبِ المَغفِرةِ مِنَ اللهِ؛ هَضمًا لِلنَّفْسِ، وإظهارًا لِلذِّلَّةِ والخُشوعِ، وطَلَبًا لِلتَّرَقِّي في المَقاماتِ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ مَعنيُّونَ أكثرَ بأمورِ الآخرةِ؛ ولهذا طَلَبَ مِن اللهِ المَغفِرةَ قبْلَ أنْ يَطلُبَ المُلْكَ[٤].

١١- قال الله تعالى: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ إنْ قيل: كيف سأل سُلَيْمانُ المُلكَ، وهو مِن ناحيةِ الدُّنيا، وهو نَبيٌّ مِن الأنبياءِ، وإنَّما يَرغَبُ في المُلْكِ أهلُ الدُّنيا المُؤثِرونَ لها على الآخِرةِ؟

**فالجواب**: أنَّ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ إنَّما سأل المُلكَ لسياسةِ النَّاسِ، وإنصافِ بَعضِهم مِن بَعضٍ، والقيامِ بحَقِّ اللهِ، ولِيَستعينَ به على طاعةِ الله، ولم يَسألْه لأجْلِ مَيلِه إلى الدُّنيا، وهو كقَولِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧٤).

حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[١] [يوسف: ٥٥].

وأيضًا فرَغبتُه إلى رَبِّه فيما يَرغَبُ إليه مِن المُلْكِ لم تكُنْ -إن شاء اللهُ- به رَغبةٌ في الدُّنيا، ولكِنْ إرادةٌ منه أن يَعلَمَ مَنزِلتَه من اللهِ في إجابتِه فيما رَغِبَ إليه فيه، وقَبولِه تَوبتَه، وإجابتِه دُعاءَه[٢].

١٢- إن قال لنا قائِلٌ: ما وجْهُ مَسألةِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ ربَّه مُلْكًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، وما كان يَضُرُّه أن يكونَ كُلُّ مَن بعدَه يُؤتَى مِثلَ الَّذي أُوتيَ مِن ذلك؟

**فالجوابُ**: أنَّ مَسألتَه رَبَّه مُلْكًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدِه، قد قيلَ: إنَّ معنى ذلك: هَبْ لي مُلْكًا لا أُسلَبُه، وإنَّما معناه عندَ هؤلاء: هَبْ لي مُلكًا لا ينبغي لأحَدٍ مِن بَعدي أن يَسلُبَنيه.

وقد يَتَّجِهُ ذلك أن يكونَ بمعنى: لا ينبغي لأحَدٍ سِوايَ مِن أهلِ زماني، فيَكونَ حُجَّةً وعَلَمًا لي على نُبُوَّتي، وأنِّي رسولٌ لك إليهم مَبعوثٌ؛ إذ كانت الرُّسُلُ لا بدَّ لها مِن أعلامٍ تُفارِقُ بها سائِرَ النَّاسِ سِواهم. ويَتَّجِهُ أيضًا لأن يكونَ مَعناه: وهَبْ لي مُلكًا تَخُصُّني به، لا تُعطيه أحدًا غيري، تَشريفًا مِنك لي بذلك وتَكرِمةً؛ لِتُبَيِّنَ مَنزلتي منك به مِن مَنازِلِ مَن سِوايَ[٣].

وقيل: أرادَ أنْ يَقولَ: مُلْكًا عَظيمًا، فقال: لا يَنبَغي لِأحَدٍ مِن بَعدِي، ولم يَقصِدْ بذلك إلَّا عِظَمَ المُلْكِ وسَعَتَه، كما تَقولُ: لِفُلانٍ ما ليس لِأحَدٍ مِنَ الفَضلِ والمالِ، ورُبَّما كان لِلنَّاسِ أمثالُ ذلك، ولكِنَّكَ تُريدُ تَعظيمَ ما عِندَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٢٥٦)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣، ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((فتح الرحمن)) =

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓ﴾ فيه أنَّ تَسخيرَ الشَّياطينِ لا يكونُ لأحَدٍ بعدَ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ[١].

١٤- قولُه تعالى حكايةً عن سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ فيه جوازُ طَلَبِ الإنسانِ المُلْكَ؛ ولكنْ يُشترَطُ في ذلك أنْ يكونَ لدى الإنسانِ استِعدادٌ للقيامِ بما سَأل[٢].

١٥- التَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بالاسمِ المناسِبِ لِمَا يَدعو به؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ يُناسِبُ قَولَه: ﴿وَهَبۡ لِي﴾، وهذا هو أحدُ معاني قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فإنَّ أحدَ معانيها أنْ تَجعَلَها وَسيلةً لِمَا تدعو به؛ فإنْ أرَدْتَ أنْ تسألَ المَغفِرةَ تَقولُ: يا غَفورُ، أوِ الرَّحمةَ فتَقولُ: يا رحيمُ... وهكذا[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قد يُسَخِّرُ شَيئًا مِن الكَونِ لعبدٍ مِن عِبادِه، كما سَخَّرَ الرِّيحَ لسُلَيمانَ عليه السَّلامُ، فإنَّه مِن الجائزِ أنْ يُسَخِّرَها لغيرِه إذا دُعِيَ[٤].

١٧- الرِّياحُ لها شعورٌ واختيارٌ؛ لقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ لأنَّه إذا كان يأمُرُها وتَشْعُرُ بالأمرِ ثمَّ تمتثلُ؛ فهو دليلٌ أنَّ لها شعورًا ولها إرادةً[٥].

١٨- قال الله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ﴾ وصَفَ اللهُ تعالى الرِّيحَ

---

= للأنصاري (ص: ٤٨٨، ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٨).

المذكورةَ هنا بأنَّها تَجري بأمرِه رُخاءً، ووصَفَها في سورةِ (الأنبياء) بأنَّها عاصِفةٌ، أي: شَديدةُ الهُبوبِ، فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، والعاصِفةُ غَيرُ التي تجري رُخاءً، فكيف يُجمَعُ بيْنَهما؟

**والجوابُ: مِن أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ:** أنَّها عاصِفةٌ في بعضِ الأوقاتِ، ولَيِّنةٌ رُخاءٌ في بَعضِها؛ بحَسَبِ الحاجةِ، كأنْ تَعصِفَ ويَشتَدَّ هُبوبُها في أوَّلِ الأمرِ، حتَّى تَرفَعَ البِساطَ الَّذي عليه سُلَيمانُ وجُنودُه، فإذا ارتفَعَ سارت به رُخاءً حيثُ أصاب[١]، أو يكونَ ذلك باختِلافِ الأحوالِ؛ فإذا أراد سُلَيمانُ عليه السَّلامُ الإسراعَ في السَّيرِ سارت عاصِفةً، وإذا أراد اللِّينَ سارت رُخاءً، والمقامُ قَرينةٌ على أنَّ المرادَ المُواتاةُ لإرادةِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ﴾ المُشعِرُ باختِلافِ مَقصدِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ منها[٢].

**الثَّاني:** أنَّها كانت في نَفْسِها رَخيَّةً طَيِّبةً كالنَّسيمِ، فإذا مَرَّت بكُرسِيِّه أبعَدَت به في مُدَّةٍ يَسيرةٍ، على ما قال: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾، فكان جَمْعُها بيْنَ الأمْرَينِ: أن تكونَ رُخاءً في نَفْسِها، وعاصِفةً في عَمَلِها، مع طاعَتِها لسُلَيمانَ، وهُبوبِها على حَسَبِ ما يُريدُ[٣].

**الثَّالث:** أنَّ الرُّخاءَ في البُداءةِ، والعصْفَ بعْدَ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ١٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ١٢٣).

**الرَّابع**: أنَّها كانت رُخاءً في ذهابِه، وعاصفةً في رجوعِه إلى وطنِه؛ لأنَّ عادةَ المسافرينَ الإسراعُ في الرُّجوعِ[١].

١٩- قال الله تعالى هنا: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾، وقال في (الأنبياء): ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأنبياء: ٨١]، والسُّؤالُ هو أنَّه في سورةِ (الأنبياء) خَصَّ جَرْيَها به بكَونِه إلى الأرضِ الَّتي بارك فيها للعالَمينَ، وفي سورةِ (ص) قال: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ وقَولُه: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ يدُلُّ على التَّعميمِ في الأمكِنةِ الَّتي يُريدُ الذَّهابَ إليها على الرِّيحِ؟

**والجوابُ**: أنَّ قَولَه: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ يدُلُّ على أنَّها تجري بأمْرِه حَيثُ أراد مِن أقطارِ الأرضِ، وقَولَه: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾؛ لأنَّ مَسكَنَه فيها، وهي الشَّامُ، فتَرُدُّه إلى الشَّامِ، وعليه فقَولُه: ﴿حَيْثُ أَصَابَ﴾ في حالةِ الذَّهابِ، وقولُه: ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ في حالةِ الإيابِ إلى محَلِّ السُّكنى؛ فانفَكَّت الجِهةُ، فزال الإشكالُ[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ﴾ جوازُ التَّعزيرِ -إذا كان بحقٍّ، ولِمَن يَستحِقُّ- بمثلِ هذا العَمَلِ، أي: بالشَّدِّ والغَلِّ؛ وذلك لأنَّ التَّعزيرَ لا يَختَصُّ بعُقوبةٍ مُعَيَّنةٍ؛ لأنَّ المقصودَ به الإصلاحُ، فأيُّ عُقوبةٍ كان بها الإصلاحُ فهي الواجِبةُ[٣].

٢١- في قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ التَّنبيهُ على كَثرةِ خَيرِ اللهِ وبِرِّه بعَبيدِه: أنْ يَمُنَّ عليهم بصَالحِ الأعمالِ ومَكارِمِ الأخلاقِ، ثمَّ يُثنيَ عليهم بها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨١).

وهو المتفَضِّلُ الوهَّابُ[١].

٢٢- في قِصَّةِ داودَ وسُلَيمانَ عليهما السَّلامُ: أنَّ الأنبياءَ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم مَعصومون مِنَ الخَطَأِ فيما يُبَلِّغونَ عن اللهِ تعالى؛ لأنَّ مَقصودَ الرِّسالةِ لا يَحصُلُ إلَّا بذلك، وأنَّه قد يجري منهم بعضُ مُقتَضياتِ الطَّبيعةِ مِن المعاصي، ولكِنَّ اللهَ يَتدارَكُهم، ويُبادِرُهم بلُطفِه[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ الكَلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَسطِ قِصَّةِ سُلَيمانَ بَعدَ أنْ بَسَطَ قِصَّةَ داودَ، وجَعَل التَّخلُّصَ إلى مَناقِبِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ مِن جِهةِ أنَّه مِن مِنَنِ اللهِ على داودَ عليه السَّلامُ؛ فكانت قِصَّةُ سُلَيمانَ كالتَّكمِلةِ لِقِصَّةِ داودَ. ولهذه النُّكتةِ لم تُفتَتَحْ قِصَّةُ سُلَيمانَ بعِبارةِ: (وَاذْكُرْ)، كما افتُتِحتْ قِصَّةُ داودَ، ثم قِصَّةُ أيُّوبَ، والقِصَصُ بَعْدَها، مُفَصَّلُها ومُجمَلُها، غَيرَ أنَّها لم تَخْلُ مِن مَواضِعِ أُسوةٍ وعِبرةٍ وتَحذيرٍ على عادةِ القُرآنِ في انتهازِ فُرَصِ الإرشادِ[٣].

- وجُملةُ ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ ثَناءٌ على سُلَيمانَ ومَدحٌ له بأنَّه مِن جُملةِ مَنِ استَحَقُّوا عُنوانَ (العَبدُ للهِ)، وهو العُنوانُ المَقصودُ منه التَّقريبُ بالقَرينةِ، والمَخصوصُ بالمَدحِ مَحذوفٌ؛ لِتَقدُّمِ ذِكرِه، أيْ: نِعْمَ العَبدُ سُلَيمانُ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تَعليلٌ لِلثَّناءِ عليه بـ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾. والأوَّابُ: مُبالَغةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٨).

في الآئبِ، أيْ: كَثيرُ الأوْبِ، أيْ: الرُّجوعِ إلى اللهِ؛ بقَرينةِ أنَّه مادِحُه[١]. ووُضِعَ ﴿أَوَّابٌ﴾ مَوضِعَ المُسبِّحِ؛ لِأنَّ الأوَّابَ -وهو التَّوَّابُ الكَثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تَعالى- مِن عِبادَتِه أنْ يُكثِرَ ذِكرَ اللهِ، ويُديمَ تَسبيحَه، مُؤَوِّبًا لِلتَّسبيحِ، مُرَجِّعًا له؛ لِأنَّ كُلَّ مُؤَوِّبٍ أوَّابٌ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾

- تعَلَّقَ ﴿إِذْ عُرِضَ﴾ بـ ﴿أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠] تَعليقَ تَعليلٍ؛ لِظُهورِ أنْ ليس المُرادُ أنَّه أوَّابٌ في هذه القِصَّةِ فقط؛ لِأنَّ صِيغةَ ﴿أَوَّابٌ﴾ تَقتَضي المُبالَغةَ، والأصلُ منها الكَثرةُ؛ فتَعيَّنَ أنَّ ذِكرَ قِصَّةٍ مِن حَوادِثِ أَوْبَتِه كان لِأنَّها يَنجَلي فيها عِظَمُ أوْبَتِه. وذِكرُ العَشيِّ هنا ليس لِمُجرَّدِ التَّوقيتِ؛ بل لِيُبْنى عليه قَولُه: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[٣] [ص: ٣٢].

- وتأخيرُ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ عن الظَّرفَينِ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ﴾؛ لِلتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ[٤].

- والصَّافِناتُ: وَصْفٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ، استُغنيَ عن ذِكرِه لِدَلالةِ الصِّفةِ عليه؛ لِأنَّ الصَّافِنَ لا يكونُ إلَّا مِنَ الخَيلِ والأفراسِ، وهو الَّذي يَقِفُ على ثَلاثِ قَوائِمَ وطَرَفِ حافِرِ القائِمةِ الرَّابِعةِ، لا يُمكِّنُ القائِمةَ الرَّابِعةَ مِنَ الأرضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾

- كَرَّرَ لَفظَ الحُبِّ مع تَعديَتِه بحَرفِ (عَنْ)؛ لِأنَّ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ هنا بمَعنى آثَرتُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أيْ: آثَروه، و(عَنْ) بمَعنى (على)، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨]؛ فيَصيرُ المَعنى: آثَرتُ حُبَّ الخَيرِ على ذِكرِ رَبِّي[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- أو ضَمَّنَ ﴿أَحۡبَبۡتُ﴾ مَعنى عَوَّضتُ، فعُدِّيَ بـ (عن) في قَولِه: ﴿عَن ذِكۡرِ رَبِّي﴾؛ فصارَ المَعنى: أحبَبتُ الخَيرَ حُبًّا، فجاوَزتُ ذِكرَ رَبِّي[٢].

- قال سُلَيمانُ عَقِبَ عَرضِ الخَيلِ: إنِّي أحبَبتُ الخَيلَ فغَفَلتُ عن صَلاتي للهِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وكَلامُه هذا خَبرٌ مُستَعمَلٌ في التَّحسُّرِ؛ اعترافًا بما صَدَر عنه مِنَ الاشتِغالِ بها عنِ الصَّلاةِ، ونَدَمًا عليه، وتَمهيدًا لِمَا يَعقُبُه مِنَ الأمْرِ بردِّها وعَقرِها. والتَّعقيبُ باعتِبارِ أواخِرِ العَرضِ المُستَمِرِّ دُونَ ابتِدائِه، والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ اعترافَه ونَدَمَه عن صَميمِ القَلبِ، لا لِتَحقيقِ مَضمونِ الخَبَرِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ فصيحةٌ، مفصِحةٌ عن جملةٍ قد حُذِفتْ ثقةً بدلالةِ الحالِ عليها، وإيذانًا بغايةِ سُرعةِ الامتِثالِ بالأمْرِ،

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٦).

أيْ: فرَدُّوها عليه، فأخَذَ يَمسَحُ...[١]، وقيل: الفاءُ تَعقيبيَّةٌ[٢].

- وحَرفُ التَّعريفِ في ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ عِوَضٌ عنِ المُضافِ إليه، أيْ: بسُوقِها وأعناقِها[٣].

- والباءُ في ﴿بِٱلسُّوقِ﴾ مَزيدةٌ لِلتَّأكيدِ؛ أيْ: تَأكيدِ اتِّصالِ الفِعلِ بمَفعولِه[٤].

- قَولُه: ﴿فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ اختُلِفَ في مَعناه، ويَترَتَّبُ على ذلك اختِلافُ الدَّلالاتِ البَلاغيَّةِ؛ فقيلَ: معنى (طَفِقَ) يَمسَحُ أعرافَ الخَيلِ وسُوقَها بيَدِه حُبًّا لها، وهذا هو الجاري على المُناسِبِ لِمَقامِ نَبيٍّ، والأوْفَقُ بحَقيقةِ المَسحِ، ولكِنَّه يَقتَضي إجراءَ تَرتيبِ الجُمَلِ على خِلافِ مُقتَضى الظَّاهِرِ؛ بأنْ يَكونَ قَولُه: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ مُتَّصِلًا بقَولِه: ﴿إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ﴾ [ص: ٣١]، أيْ: بَعدَ أنِ استَعرَضَها وانصَرفوا بها لِتأويَ إلى مَذاوِدِها، قال: رُدُّوها عليَّ، فطَفِقَ مَسحًا بالسُّوقِ والأعناقِ؛ إكرامًا لها ولِحُبِّها، ويُجعَلَ قَولُه: ﴿إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] مُعتَرِضًا بَيْنَهما، وإنَّما قُدِّمَ؛ لِلتَّعجيلِ بذِكرِ نَدَمِه على تَفريطِه في ذِكرِ اللهِ في بَعضِ أوقاتِ ذِكرِه، أيْ: أنَّه لم يَستَغرِقْ في الذُّهولِ، بل بادَرَ الذِّكرى بمُجَرَّدِ فَواتِ وَقتِ الذِّكرِ الَّذي اعتادَه؛ إذْ لا يُناسِبُ أنْ يَكونَ قَولُه: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ مِن آثارِ نَدَمِه وتَحَسُّرِه، على هذا التَّفسيرِ، وهذا يُفيدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((لمصدر السابق)).

بأنَّ فَواتَ وَقتِ ذِكرِه نَشَأ عن ذلك الرَّدِّ الَّذي أمَرَ به بقَولِه: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾؛ فإنَّهمُ اعتادوا أنْ يَعرِضوها عليه ويَنصَرِفوا، وقد بَقيَ ما يَكفي مِنَ الوَقتِ لِلذِّكرِ، فلَمَّا حَمَلتْه بَهجَتُه بها على أنْ أمَرَ بإرجاعِها، واشتَغَل بمَسحِ أعناقِها وسُوقِها، خَرَج وَقتُ ذِكرِه فتَندَّمَ وتَحسَّرَ.

وقيل: إنَّ سُليمانَ لَمَّا نَدِمَ على اشتغالِه بالخَيلِ حتَّى أضاع ذِكرَ اللهِ في وقْتٍ كان يَذكُرُ اللهَ فيه؛ أَمَرَ أنْ تُرَدَّ عليه الخَيلُ الَّتي شَغلَتْه، فجَعَل يُعَرقِبُ سُوقَها ويُقطِّعُ أعناقَها؛ لِحِرْمانِ نفْسِه منها، مع محبَّتِه إيَّاها؛ توبةً منه، وتربيةً لنفْسِه. وأراد ذَبْحَها؛ لِيأكُلَها الفقراءُ. وقيل: لَعَلَّ المَسحَ مُعبَّرٌ به عنِ التَّوسيمِ بسِمةِ الخَيلِ المَوقوفةِ في سَبيلِ اللهِ بِكَيِّ نارٍ، أو كَشطِ جِلدٍ؛ لِأنَّ ذلك يُزيلُ الجِلدةَ الرَّقيقةَ الَّتي على ظاهِرِ الجِلدِ، فشُبِّهتْ تلك الإزالةُ بإزالةِ المَسحِ ما على ظَهرِ المَمسوحِ مِن مُلتَصِقٍ به، وعلى هذينِ التَّأويلينِ يكونُ قولُه: ﴿فَطَفِقَ﴾ تَعقيبًا على ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ وعلى مَحذوفٍ بعْدَه، والتَّقديرُ: فرَدُّوها عليه فطَفِقَ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ...﴾

- عَطَفَ ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ بحَرفِ (ثُمَّ) المُفيدِ لِلتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ لِأنَّ رُتبةَ الإنابةِ أعظَمُ ذِكرٍ في قَولِه: ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾[2] [ص: ٣٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾

- في قَولِه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا﴾ قَدَّمَ الاستِغفارَ على استيهابِ المُلْكِ؛ جَريًا على عادةِ الأنبياءِ والصَّالِحينَ في الأدَبِ، في تَقديمِهم أمْرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٦١).

دِينِهم على أُمورِ دُنياهم، ووُجوبِ تَقديمِ ما يَجعَلُ الدُّعاءَ بصَدَدِ الإجابةِ[١].

- وفي إرْدافِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ طَلَبَ المَغفِرةِ باستيهابِ مُلْكٍ لا يَنبَغي لِأحَدٍ مِن بَعدِه؛ لِأنَّه تَوقَّعَ مِن غَضَبِ اللهِ أمْرَيْنِ: العِقابَ في الآخِرةِ، وسَلْبَ النِّعمةِ في الدُّنيا، وكان سُلَيمانُ يَومَئِذٍ في مُلْكٍ عَظيمٍ، فسُؤالُ مَوهِبةِ المُلْكِ مُرادٌ به استِدامةُ ذلك المُلْكِ، وصيغةُ الطَّلَبِ تَرِدُ لِطَلَبِ الدَّوامِ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿مُلْكًا﴾ لِلتَّعظيمِ[٣].

- وارتَقَى سُلَيمانُ في تَدَرُّجِ سُؤالِه إلى أنْ وَصَفَ ﴿مُلْكًا﴾ بأنَّه لا يَنبَغي لِأحَدٍ مِن بَعدِه، أيْ: لا يَتأتَّى لِأحَدٍ مِن بَعدِه، أيْ: لا يُعطيهِ اللهُ أحَدًا يَبتَغيه مِن بَعدِه، فكَنَّى بـ ﴿لَّا يَنۢبَغِي﴾ عن مَعنى (لا يُعطى لِأحَدٍ)، أيْ: لا تُعطيه أحَدًا مِن بَعدي، وهذا مِنَ التَّأدُّبِ في دُعائِه؛ إذْ لم يَقُلْ: لا تُعطِه أحَدًا مِن بَعدي[٤].

- وحَكى اللهُ دُعاءَ سُلَيمانَ، وهو سِرٌّ بيْنَه وبيْنَ رَبِّه؛ إشعارًا بأنَّه ألهَمَه إيَّاه، وأنَّه استَجابَ له دَعوَتَه؛ تَعريفًا برِضاه عنه، وبأنَّه جَعَل استِجابَتَه مَكرُمةَ تَوبَتِه[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ عِلَّةٌ لِلسُّؤالِ كُلِّه، والدُّعاءِ بالمَغفِرةِ والهِبةِ، وتَمهيدٌ لِلإجابةِ؛ فقامَتْ (إنَّ) مَقامَ حَرفِ التَّفريعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦١، ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٦٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٦٠).

- قَولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ (أَنْتَ) ضَميرُ فَصلٍ، وأفادَ الفَصلُ به قَصرًا؛ فصارَ المَعنى: أنتَ القَويُّ المَوهِبةِ، لا غَيرُكَ؛ لِأنَّ اللهَ يَهَبُ ما لا يَملِكُ غَيرُه أنْ يَهَبَه[1].

- ولَمَّا بالَغَ سُلَيمانُ عليه السَّلامُ في صِفةِ هذا المُلْكِ الَّذي طَلَبه، أتى في صِفَتِه تعالى باللَّفظِ الدَّالِّ على المُبالَغةِ، فقال: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، أيْ: الكَثيرُ الهِباتِ، لا يَتَعاظَمُ عِندَه هِبةٌ[2].

- ودَلَّتْ صِيغةُ المُبالَغةِ في ﴿ٱلْوَهَّابُ﴾ على أنَّه تَعالى يَهَبُ الكَثيرَ والعَظيمَ؛ لِأنَّ المُبالَغةَ تُفيدُ شِدَّةَ الكَمِّيَّةِ، أو شِدَّةَ الكَيفيَّةِ، أو كِلتَيْهما، بقَرينةِ مَقامِ الدُّعاءِ، فمَغفِرةُ الذَّنبِ مِنَ المَواهِبِ العَظيمةِ؛ لِمَا يُرَتَّبُ عليه مِن دَرَجاتِ الآخِرةِ، وإعطاءُ مِثلِ هذا المُلْكِ هو هِبةٌ عَظيمةٌ[3].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾

- قَولُه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ اقتَضَتِ الفاءُ وتَرتيبُ الجُمَلِ أنَّ تَسخيرَ الرِّيحِ وتَسخيرَ الشَّياطينِ كانا بَعْدَ أنْ سألَ اللهَ مُلْكًا لا يَنبَغي لِأحَدٍ مِن بَعدِه؛ أنْ أعطاه هاتَينِ المَوهِبَتَينِ؛ زِيادةً في قُوَّةِ مُلْكِه، وتَحقيقًا لاستِجابةِ دَعوَتِه؛ لِأنَّه إنَّما سأَلَ مُلْكًا لا يَنبَغي لِأحَدٍ غَيرِه، ولم يَسألِ الزِّيادةَ فيما أُعطيَه مِنَ المُلْكِ، ولَعَلَّ اللهَ أرادَ أنْ يُعطيَه هاتَينِ المَوهِبتَينِ، وألَّا يُعطيَهما أحَدًا بَعْدَه، حتَّى إذا أعطَى أحَدًا بعْدَه مُلْكًا مِثلَ مُلْكِه فيما عدا هاتَينِ المَوهِبتَينِ؛ لم يَكُنْ قد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٣).

أخلَفَ إجابَتَه[١].

- واللَّامُ في ﴿لَهُ﴾ لِلعِلَّةِ، أيْ: لِأجْلِه، أيْ: ذلك التَّسخيرُ كَرامةٌ مِنَ اللهِ له بأنْ جَعَل تَصريفَ الرِّياحِ مُقدَّرًا على نَحوِ رَغبَتِه[٢].

- قَولُه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ قُرِئَ ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجَمْعِ[٣]، وهو أعَمُّ؛ لِعِظَمِ مُلْكِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ، وإنْ كان المُفرَدُ بمَعنى الجَمعِ؛ لِكَونِه اسْمَ جِنسٍ[٤].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾

- ﴿كُلَّ﴾ هنا مُستَعمَلةٌ في مَعنى الكَثيرِ، والبَنَّاءُ: الَّذي يَبني، وهو اسمُ فاعِلٍ مَصوغٌ على زِنةِ المُبالَغةِ؛ لِلدَّلالةِ على مَعنى الصِّناعةِ، مِثلُ نَجَّارٍ وقَصَّارٍ وحَدَّادٍ، والغَوَّاصُ: الَّذي يَغوصُ في البَحرِ لاستِخراجِ مَحارِ اللُّؤلُؤِ، وهو أيضًا مِمَّا صِيغَ على وَزنِ المُبالَغةِ؛ لِلدَّلالةِ على الصِّناعةِ[٥].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ عَطفٌ على ﴿كُلَّ﴾، كأنَّه فَصَّلَ الشَّياطينَ إلى عَمَلةٍ استَعمَلَهم في الأعمالِ الشَّاقَّةِ، كالبِناءِ والغَوصِ، ومَرَدةٍ قَرَنَ بَعضَهم مع بَعضٍ في السَّلاسِلِ؛ لِيَكُفُّوا عن الشَّرِّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) قرأها أبو جعفرٍ بالجمعِ، والباقون بالإفرادِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٦).

- والمُقرَّنُ: اسمُ مَفعولٍ مِن (قَرَنَه)، مُبالَغةً في قَرَنَه، أيْ: جَعَلَه قَرينًا لِغَيرِه، لا يَنفَكُّ أحَدُهما عن الآخَرِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ المعنى: مُقرَّنينَ في الأصفادِ حَقيقةً، ويَجوزُ أنْ يَكونَ تَمثيلًا لِمَنعِ الشَّياطينِ مِنَ التَّفلُّتِ[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾

- قَولُه: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ إشارةٌ لِمَا أعطاه اللهُ تَعالى مِنَ المُلْكِ الضَّخمِ، وتَسخيرِ الرِّيحِ والإنْسِ والجِنِّ والطَّيرِ، والإضافةُ لِتَعظيمِ شأنِ المُضافِ؛ لانتِسابِه إلى المُضافِ إليه، فكَأنَّه قيلَ: هذا عَطاءٌ عَظيمٌ أعطَيْناكَه، أو هذا عَطاؤُنا واسِعًا، وأنَّه مُفوَّضٌ إليه تَفويضًا كُلِّيًّا[٢].

- قَولُه: ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ أمْرٌ مُستَعمَلٌ في الإذْنِ والإباحةِ، وهو مُشتَقٌّ مِنَ المَنِّ المُكَنَّى به عن الإنعامِ، وَقَّفَه على قَدْرِ النِّعمةِ، ثمَّ أباحَ له التَّصرُّفَ فيها بمَشيئَتِه، وهو تعالى قد عَلِمَ أنَّه لا يَتصَرَّفُ إلَّا بطاعةِ اللهِ[٣].

- وجُملَتا ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ مُعتَرِضتانِ بَينَ قَولِه: ﴿عَطَآؤُنَا﴾ وقَولِه: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، وهو تَفريعٌ مُقدَّمٌ مِن تَأخيرٍ، والتَّقديمُ لِتَعجيلِ المَسرَّةِ بالنِّعمةِ[٤]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٧).

- أتْبَعَ اللهُ الخَبَرَ عن العَطاءِ والمَنِّ عليه بما هو أرفَعُ دَرَجةً؛ وهو أنَّه مِنَ المُقرَّبينَ عِندَ اللهِ المَرْضيِّ عنهم، وأنَّه لم يُوقَفْ به عِندَ حَدِّ العَطاءِ لا غَيرُ. وتأكيدُ الجُملةِ بـ «إنَّ» واللَّامِ؛ لِإزالةِ تَوهُّمِ أنَّ اللهَ غَضِبَ عليه إذْ فَتَنَه؛ تَنزيلًا لِمَقامِ الاستِغرابِ مَنزِلةَ مَقامِ الإنكارِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٤١).

## الآيات (٤١-٤٤)

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِنُصۡبٖ﴾: أي: بِشَرٍّ ومَشقَّةٍ وعَناءٍ، والنُّصْبُ والنَّصَبُ: التَّعَبُ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ[1].

﴿ٱرۡكُضۡ﴾: أي: اضرِبْ، والرَّكضُ: حَرَكةُ الرِّجلِ، وأصلُه يدُلُّ على حَرَكةٍ[2].

﴿ضِغۡثٗا﴾: أي: حُزمةً وقَبضةً مِنَ الحَشيشِ أو نَحوِه، وأصلُ (ضغث): يدُلُّ على التِباسِ شَيءٍ بشَيءٍ[3].

﴿وَلَا تَحۡنَثۡ﴾: أي: قد برَّتْ يمينُك، والحِنْثُ في اليمينِ: نَقْضُها والخُلْفُ فيها،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٦).
قال ابن فارس: (ومِن البابِ: النَّصَبُ: العناءُ، ومعناهُ أنَّ الإنسانَ لا يَزالُ مُنتصِبًا حتَّى يُعْيِيَ). ((مقاييس اللغة)) (٥/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦١).

وأصلُ (حنث): يدُلُّ على ذَنْبٍ وحَرَجٍ وإثمٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- عَبْدَنا أيُّوبَ حينَ نادَى رَبَّه قائلًا: يا رَبِّ، إنِّي مَسَّنيَ الشَّيطانُ بتَعَبٍ وألمٍ.

ثمَّ يذكُرُ الله تعالى إجابتَه لدعاءِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ وما مَنَّ به عليه، فيقولُ: فاستَجَبْنا لأيُّوبَ، وقُلْنا له: اضرِبْ برِجْلِك الأرضَ، ففعَل فنَبَعَ منها الماءُ، فقُلْنا له: هذا ماءٌ باردٌ تَغتَسِلُ به وتَشرَبُ منه، فلمَّا فَعَل ذلك أيُّوبُ كشَفَ اللهُ ما به مِن ضُرٍّ، ووَهَب له أهلَه في الدُّنيا ومِثلَهم مَعَهم؛ رَحمةً مِنَ اللهِ تعالى، وتَذكيرًا لأصحابِ العُقولِ الصَّحيحةِ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى مِنَّةً أُخرَى امتنَّ بها على أيُّوبَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: وقُلْنا له بعدَ شِفائِه: خُذْ بيَدِك حُزمةً صَغيرةً مِن الحَشيشِ فيها مِئةُ عُودٍ؛ فاضرِبْ بها ضَربةً واحِدةً مَن حَلَفْتَ أن تَضرِبَه مئةَ ضَربةٍ، وبذلك تكونُ غيرَ حانثٍ في يمينِك، إنَّا وجَدْنا أيُّوبَ صابِرًا على البَلاءِ العَظيمِ، نِعْمَ العَبدُ أيُّوبُ؛ فهو كَثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ اللهُ سُبحانَه نَبيَّه بالصَّبرِ، وذَكَر ابتِلاءَ داودَ وسُلَيمانَ، وأثْنَى عليهما؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠).

ذَكَر مَن كان أشَدَّ ابتِلاءً منهما، وأنَّه كان في غايةِ الصَّبرِ، بحيثُ أثْنَى اللهُ عليه بذلك[١].

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- عبْدَنا أيُّوبَ[٢] حينَ استغاثَ باللهِ تعالى قائِلًا: يا رَبِّ، إنِّي أصابَني الشَّيطانُ بتَعَبٍ وألَمٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أيُّوبَ نَبيَّ اللهِ كان في بَلائِه ثمانيَ عَشْرةَ سَنةً، فرفَضَه القَريبُ والبَعيدُ، إلَّا رجُلانِ مِن إخوانِه كانا مِن أخَصِّ إخوانِه، كانا يَغْدُوانِ إليه ويَرُوحانِ إليه، فقال أحَدُهما لصاحِبِه: أتعلَمُ، واللهِ لقد أذنَبَ أيُّوبُ ذَنْبًا ما أذنَبَه أحَدٌ! قال صاحِبُه: وما ذاك؟! قال: منذُ ثماني عَشْرةَ سَنةً لم يَرحَمْه اللهُ فيَكشِفَ عنه! فلمَّا راحا إليه لم يَصبِرِ الرَّجُلُ حتَّى ذكَرَ ذلك له، فقال أيُّوبُ: لا أدري ما يقولُ! غيرَ أنَّ اللهَ يَعلَمُ أنِّي كنتُ أمُرُّ على الرَّجُلَينِ يَتنازَعانِ فيَذْكُرانِ اللهَ[٤]، فأرجِعُ إلى بيتي فأُكفِّرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٠).

(٢) قال ابنُ عطيةَ: (أيُّوبُ هو نبيٌّ مِن بني إسرائيلَ، مِن ذُرِّيَّةِ يَعقوبَ عليه السَّلامُ، وهو نبيٌّ ابتُلِيَ في جَسَدِه ومالِه وأهلِه، وسَلِمَ دينُه ومُعتَقَدُه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٥-١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٣، ١٨٤).
قال ابنُ جرير: (معنى الكلام: إذ نادى ربَّه مُستغيثًا به، أنِّي مَسَّنيَ الشَّيطانُ ببلاءٍ في جَسدي، وعذابٍ بذَهابِ مالي وولدي). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧).

(٤) فيَذْكُرانِ اللهَ: أي: يَحلِفان بالله. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٣).

عنهما؛ كراهيةَ أن يُذكَرَ اللهُ إلَّا في حَقٍّ! قال: وكان يَخرُجُ إلى حاجتِه، فإذا قضى حاجتَه أمسَكَت امرأتُه بيَدِه حتَّى يَبلُغَ، فلمَّا كان ذاتَ يومٍ أبطأ عليها وأُوحِيَ إلى أيُّوبَ في مكانِه أن: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ [ص: ٤٢]، فاستبطَأَتْه فلَقِيَتْه يَنتَظِرُ، وأقبَلَ عليها قد أذهَبَ اللهُ ما به مِن البَلاءِ، وهو على أحسَنِ ما كان! فلمَّا رأَتْه قالت: أيْ باركَ اللهُ فيك، هل رأيتَ نبيَّ اللهِ، هذا المُبتلى؟ وواللهِ على ذلك ما رأيتُ أحدًا أشبَهَ به منك إذ كان صَحيحًا! قال: فإنِّي أنا هو. وكان له أنْدَرانِ[1]: أنْدَرٌ للقَمحِ، وأندَرٌ للشَّعيرِ، فبَعَث اللهُ سَحابتَينِ، فلمَّا كانت إحداهما على أندَرِ القَمحِ أفرَغَت فيه الذَّهَبَ حتَّى فاض، وأفرَغَت الأخرى على أندَرِ الشَّعيرِ الوَرِقَ[2] حتَّى فاض))[3].

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢﴾.

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾.

أي: فاستَجَبْنا لأيُّوبَ، وقُلْنا له: اضرِبْ برِجْلِك الأرضَ، فحرِّكْها بها وادفَعْها[4].

---

(١) الأندَرُ: البَيْدَرُ (الجُرْنُ) الَّذي يُجمَعُ فيه الطَّعامُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/ ٢٠٠)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٤/ ١٩٤).

(٢) الوَرِقَ: أي: الفِضَّةَ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٦/ ٤٥٨).

(٣) أخرجه البزار (٦٣٣٣)، وأبو يعلى (٣٦١٧) واللفظ له، وابن حبان (٢٨٩٨).

صحَّحه ابن حبَّان، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (١٧)، والوادعي في ((صحيح دلائل النبوة)) (٤٢٤)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٨٥): أصَحُّ ما ورد. وصحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخَينِ في ((المستدرك)) (٤١١٥)، وصَحَّح إسنادَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ١٤٢)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٨٩٨): (إسنادُه على شرطِ مُسلمٍ).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) =

﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾.

أي: فضَرَب أيُّوبُ الأرضَ برِجْلِه، فنَبَع منها ماءٌ، فقُلْنا له: هذا ماءٌ بارِدٌ تَغتَسِلُ به، وتَشرَبُ منه[1].

---

= (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٥).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ بالرَّكضِ بالرِّجلِ: ضَرْبُها وتحريكُها: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ووهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧).

وقال البِقاعي: (أي: قُلْنا له: اضرِبِ الأرضَ، وأوجِدِ الرَّكضَ، وهو المشيُ والتَّحريكُ والإسراعُ والاستِحثاثُ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٩٠، ٣٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٧، ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٥).

قال ابنُ جرير: (عَنى بقَولِه: ﴿مُغۡتَسَلُۢ﴾ ما يُغتسَلُ به مِن الماءِ، يُقالُ منه: هذا مُغتَسَلٌ وغَسولٌ للَّذي يُغتسَلُ به مِن الماءِ، وقَولُه: ﴿وَشَرَابٞ﴾ يعني: ويَشرَبُ منه، والموضِعُ الذي يُغتَسَلُ فيه يُسمَّى مُغتَسَلًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٨).

وقال البقاعي: (﴿مُغۡتَسَلُۢ﴾ أي: ماءٌ يُغتسَلُ به، ومَوضِعُه وزمانُه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٣٩١).

وقال ابن عطية: (فشَرِبَ منها، فذهَبَ كُلُّ مَرَضٍ في داخِلِ جَسَدِه، ثمَّ اغتسَل فذهَبَ ما كان في ظاهِرِ بدَنِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٧).

قيل: أنبَع اللهُ لأيُّوبَ عينَينِ، اغتسَلَ مِن إحداهما، وشَرِبَ مِن الأخرى. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير، ونسَبَه ابنُ الجَوزيِّ إلى جمهورِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٨).

وقيل: هي عينٌ واحِدةٌ، اغتسَل أيُّوبُ منها، وشَرِبَ مِن مائِها. وممَّن ذهب إلى أنَّ هذا المعنى هو ظاهِرُ الآيةِ: الرَّازيُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ١٩٨). =

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا﴾.

أي: فاغتَسَل أيُّوبُ، وشَرِبَ مِن ذلك الماءِ، فكَشَف اللهُ ما به مِن ضُرٍّ وداءٍ، ووهَبَ له في الدُّنيا أهْلَه[1]، ومِثلَهم معهم؛ رَحمةً مِنَ اللهِ تعالى[2].

كما قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

---

= وقيل: جائِزٌ أن يكونَ لَمَّا ضَرَب برِجْلِه الأرضَ وركَضَها، نبَع منها عَيْنانِ: إحداهما للاغتِسالِ فيها، والأخرى للشُّربِ منها؛ فكانت الَّتي للشُّربِ منها ماؤُها باردٌ على ما يوافِقُ للشُّربِ ويُختارُ له، والأخرى ماؤُها ما يوافِقُ للاغتِسالِ، وهو دونَه في البرودةِ، على ما قاله أهلُ التَّأويلِ عامَّةً... وجائِزٌ أن يكونَ العَينُ واحِدةً إلَّا أنَّه لَمَّا اغتسَل منها كان ماؤُها فاترًا يوافقُ للاغتِسالِ، وإذا شرِب منها كان ماؤُها باردًا يوافقُ للشُّربِ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٣٣).

(١) قال ابن جرير: (وهَبْنا له أهْلَه مِن زَوجةٍ ووَلَدٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٥، ١٨٦).

قال ابن الجوزي: (﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّ اللهَ تعالى أحيا له أهلَه بأعيانِهم، وآتاه مِثلَهم معهم في الدُّنيا. قاله ابنُ مسعودٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ... والثَّاني: أنَّهم كانوا قد غُيِّبوا عنه ولم يموتوا، فآتاه إيَّاهم في الدُّنيا ومِثلَهم معهم في الآخِرةِ. رواه هشامٌ عن الحسَنِ. والثَّالثُ: آتاه اللهُ أُجورَ أهلِه في الآخرةِ، وآتاه مِثلَهم في الدُّنيا. قاله نَوْفٌ، ومجاهدٌ. والرَّابعُ: آتاه أهلَه ومِثلَهم معهم في الآخرةِ. حكاه الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ٤٠١) و (٤/ ٣٣٥).

وقال الرازي: (قيل: هم عَينُ أهلِه وزيادةُ مِثلِهم، وقيل: غيرُهم مِثلُهم، والأوَّلُ أَولى؛ لأنَّه هو الظَّاهِرُ، فلا يجوزُ العُدولُ عنه مِن غيرِ ضَرورةٍ، ثمَّ اختلَفوا؛ فقال بعضُهم: معناه: أزَلْنا عنهم السَّقَمَ، فعادوا أصِحَّاءَ، وقال بعضُهم: بل حَضَروا عندَه بعدَ أن غابوا عنه، واجتَمَعوا بعدَ أن تفرَّقوا. وقال بعضُهم: بل تمكَّنَ منهم وتمكَّنوا منه فيما يتَّصِلُ بالعِشرةِ وبالخِدمةِ؛ أمَّا قَولُه تعالى: ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فالأقرَبُ أنَّه تعالى متَّعَه بصِحَّتِه وبمالِه، وقوَّاه حتَّى كثُرَ نَسْلُه، وصار أهلُه ضِعفَ ما كان، وأضعافَ ذلك). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٩).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((بَيْنَما أيُّوبُ يَغتَسِلُ عُريانًا، خَرَّ عليه رِجْلُ جَرَادٍ[١] مِن ذَهَبٍ، فجَعَل يَحْثِي[٢] في ثَوبِه، فناداه رَبُّه: يا أيُّوبُ، ألَمْ أكُنْ أغنَيْتُك عمَّا تَرى؟! قال: بلى يا رَبِّ، ولكِنْ لا غِنَى لي عن بَرَكَتِك!))[٣].

﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

أي: وتَذكيرًا لأصحابِ العُقولِ الصَّحيحةِ؛ لِيَعتَبِروا ويَتَّعِظوا، فيَقتَدوا بأيُّوبَ في صَبرِه، ويَعلَموا أنَّ عاقِبةَ الصَّبرِ الفَرَجُ، وأنَّ اللهَ يُجيبُ دُعاءَ عَبدِه إذا دعاه؛ فلا يَيْأسُوا مِن رَحمةِ الله[٤].

كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾.

﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾.

أي: وخُذْ بيَدِك -يا أيُّوبُ- حُزمةً مِن حَشيشٍ أو شماريخَ أو نحوِ ذلك، فاضرِبْ بها ضَربةً واحِدةً، فتبَرَّ بيَمينِك، ولا تَحنَثَ فيما حلَفْتَ عليه مِنَ الضَّربِ[٥].

---

(١) رِجْلُ جَرادٍ: أي: جماعةٌ مِن جَرادٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٣٧٣).

(٢) يَحْثي: أي: يأخُذُ بيَديه جميعًا ويَرمِي. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٣٧٣).

(٣) رواه البخاري (٣٣٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير =

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾.

أي: إنَّا وجَدْنا أيُّوبَ صابِرًا على البَلاءِ العَظيمِ الَّذي ابتُلِيَ به[1].

﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

أي: نِعْمَ العَبدُ أيُّوبُ؛ فهو كَثيرُ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ هذه هي القِصَّةُ الثَّالِثةُ مِن القِصَصِ المذكورةِ في هذه السُّورةِ، وداودُ وسُلَيمانُ كانا ممَّن أفاض اللهُ عليه أصنافَ الآلاءِ والنَّعْماءِ، وأيوبُ كان ممَّن خَصَّه اللهُ تعالى بأنواعِ البَلاءِ، والمقصودُ مِن جميعِ هذه القِصَصِ الاعتبارُ، كأنَّ الله تعالى قال: يا محمَّدُ، اصبِرْ على سَفاهةِ قَومِك؛ فإنَّه ما كان في الدُّنيا أكثَرُ نِعمةً ومالًا وجاهًا مِن داودَ وسُلَيمانَ عليهما

---

= ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٠).

مُعظَمُ المفَسِّرينَ على أنَّ أيُّوبَ عليه السَّلامُ كان قد أقسَمَ على ضَربِ زَوجتِه مِئةَ جَلدةٍ؛ بسَبَبِ غَضَبِه عليها في أمرٍ ما قد اختَلَفوا في بيانِه وتحديدِه. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابنُ عثيمين: (مَفعولُ ﴿فَٱضْرِب﴾ محذوفٌ، وحُذِفَ -والعِلمُ عندَ الله- للسَّترِ...، وليس المقصودُ أن نَعرِفَ عينَ المضروبِ، ولكِنَّ المقصودَ أنَّ الضَّربَ الَّذي كان قد حَلَف عليه يَحصُلُ بأخْذِ هذا الضِّغْثِ والضَّربِ به). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤).

قال ابنُ عاشور: (أي: أنعَمْنا عليه بجَبرِ حالِه؛ لأنَّا وجَدْناه صابِرًا على ما أصابه... ومعنى ﴿وَجَدْنَٰهُ﴾: أنَّه ظهَرَ في صَبرِه ما كان في عِلمِ الله منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤).

السَّلامُ، وما كان في الدُّنيا أكثَرُ بلاءً ومِحنةً مِن أيُّوبَ عليه السَّلامُ؛ فتأمَّلْ في أحوالِ هؤلاء؛ لِتَعرِفَ أنَّ أحوالَ الدُّنيا لا تَنتَظِمُ لأحَدٍ، وأنَّ العاقِلَ لا بُدَّ له مِن الصَّبرِ على المَكارِهِ[١].

٢- الشَّكوى إلى اللهِ سُبحانَه لا تُنافي الصَّبرَ بوَجهٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قال عن أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ مع إخبارِه عنه بالشَّكوى إليه، في قَولِه: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾[٢] [الأنبياء: ٨٣]، فما صدَرَ مِن أيُّوبَ: دُعاءٌ، وإظهارُ فَقرٍ، وحاجةٌ إلى رَبِّه، لا شكوى ولا جَزَعٌ[٣].

٣- عن عُمرَ بنِ السَّكَنِ، قال: (كنتُ عندَ سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، فقام إليه رجُلٌ مِن أهلِ بغدادَ، فقال: يا أبا محمَّدٍ، أخبِرْني عن قولِ مُطَرِّفٍ: «لَأَنْ أُعافى فأشكُرَ، أحَبُّ إلَيَّ مِن أن أُبتلَى فأصبِرَ»، أهو أحَبُّ إليك أمْ قولُ أخيه أبي العلاءِ: «اللَّهُمَّ رَضيتُ لِنَفْسي ما رضيتَ لي»؟ قال: فسكَتَ سكتةً، ثمَّ قال: قَولُ مُطَرِّفٍ أحَبُّ إلَيَّ، فقال الرَّجُلُ: كيف وقد رَضيَ هذا لِنَفْسِه ما رَضيَه اللهُ له؟! فقال سُفْيانُ: إنِّي قرأتُ القرآنَ فوجَدْتُ صِفةَ سُلَيْمانَ عليه السَّلامُ مع العافيةِ الَّتي كان فيها: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، ووجَدْتُ صِفةَ أيُّوبَ عليه السَّلامُ مع البلاءِ الَّذي كان فيه: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، فاستَوَتِ الصِّفَتانِ، وهذا مُعافًى، وهذا مُبتَلًى، فوجَدْتُ الشُّكرَ قد قام مَقامَ الصَّبرِ، فلمَّا اعتدَلَا كانت العافيةُ مع الشُّكرِ أحَبَّ إلَيَّ مِن البلاءِ مع الصَّبرِ)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٣٨).

(٤) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٢١٢) و (٧/ ٢٨٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ فيه تَنبيهٌ لأُولي الألبابِ على أنَّ مَن صَبَر ظَفِر[١]، فاللهُ تعالى يَمُنُّ على العَبدِ بأكثرَ ممَّا فَقَد إذا صَبَر واحتسَبَ؛ لأنَّ أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وَهَبَ اللهُ له أهلَه ومِثلَهم مَعَهم، فاصبِرْ تَظفَرْ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيه تَذكيرٌ لِغَيرِه؛ لِيتأسَّى به كُلُّ مُبتلًى، ويَرجو مِثلَ ما رجا؛ فإنَّ رَحمةَ اللهِ واسِعةٌ، وهو عندَ القُلوبِ المُنكَسِرةِ، فما بيْنَه وبيْنَ الإجابةِ إلَّا حُسْنُ الإنابةِ؛ فمَن دام إقبالُه عليه أغناه عن غَيرِه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ بيانُ أنَّ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَملِكونَ لأنفُسِهم نَفعًا ولا ضَرًّا[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ جوازُ إضافةِ الأشياءِ إلى أسبابِها؛ لأنَّ أيُّوبَ عليه السَّلامُ أضافَ هذا الضُّرَّ إلى الشَّيطانِ؛ لأنَّه سَبَبُه[٥].

٣- في قَولِه تعالى عن أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أنَّ الشَّيطانَ قد يُسَلَّطُ على بعضِ الأنبياءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٩). =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾ جوازُ التَّوسُّلِ إلى اللهِ تعالى بحالِ العَبدِ؛ لأنَّ أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تَوَسَّلَ إلى اللهِ تعالى بحالِه، وهو أنَّه مَسَّه الشَّيطانُ بنُصْبٍ وعَذابٍ، ونظيرُ هذا قَولُ موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ [القصص: ٢٤]، فتَوَسَّلَ إلى اللهِ تعالى بذِكْرِ حالِه، وأنَّه فَقيرٌ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، وهذا أحدُ أنواعِ التَّوسُّلِ الجائزِ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾، لَمَّا كان قد حَصَل عِندَ أيُّوبَ عليه السَّلامُ نَوعانِ مِن المَكروهِ: الغَمُّ الشَّديدُ بسَبَبِ زَوالِ الخَيراتِ وحُصولِ المَكروهاتِ، والألمُ الشَّديدُ في الجِسمِ- لا جَرَمَ ذكَرَ اللهُ تعالى لَفْظَينِ، وهما: (النُّصْبُ) و(العَذابُ)[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُجيبُ دَعوةَ المُضْطَرِّينَ إليه، إذا صَدَق الإنسانُ في دَعوتِه[٣].

---

= ذكر الشنقيطيُّ أنَّه يُمكِنُ أن يكونَ الشَّيطانُ قد سلَّطه الله على جسَدِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ ومالِه وأهلِه ابتِلاءً؛ لِيَظهَرَ صبرُه الجميلُ، وتكونَ له العاقبةُ الحميدةُ في الدُّنيا والآخرةِ، ويَرجِعَ له كلُّ ما أُصيبَ فيه، ثمَّ قال: (وهذا لا يُنافي أنَّ الشَّيطانَ لا سُلْطانَ له على مِثلِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ التَّسليطَ على الأهلِ والمالِ والجسدِ مِن جنسِ الأسبابِ الَّتي تَنشأُ عنها الأعراضُ البَشَريَّةُ، كالمرضِ، وذلك يقعُ للأنبياءِ؛ فإنَّهم يُصيبُهم المرضُ، وموتُ الأهلِ، وهلاكُ المالِ لأسبابٍ مُتنَوِّعةٍ. ولا مانعَ مِن أن يكونَ [من] جملةِ تلك الأسبابِ تسليطُ الشَّيطانِ على ذلك للابتِلاءِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٨٩).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ ولو شاء اللهُ تعالى لأنبَعَ له الماءَ بدونِ الرَّكضِ بالرِّجْلِ، ولكِنَّ اللهَ تعالى جَعَل ذلك سَببًا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قد يَجعَلُ السَّبَبَ الضَّعيفَ الَّذي لا يَقومُ بالمُسَبَّبِ سَببًا مُؤثِّرًا، كما أنَّه قادِرٌ على أنْ يَمنَعَ السَّببَ المُؤَثِّرَ فلا يُؤَثِّرُ؛ فالرَّكضُ بالرِّجْلِ ليس مِن العادةِ أنْ يُنبِعَ الماءَ، والإلقاءُ في النَّارِ مِن العادةِ أنْ يُحرِقَ؛ فإبراهيمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أُلقِيَ في النَّارِ ولم يحتَرِقْ، وأيُّوبُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رَكَضَ برِجْلِه الأرضَ فَنبَعَ الماءُ؛ ففيه دليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى قد يَجعَلُ السَّبَبَ الضَّعيفَ قَويًّا مُؤَثِّرًا، ويَجعَلُ السَّبَبَ القويَّ المُؤَثِّرَ غيرَ مُؤَثِّرٍ[٢].

٩- قَولُه تعالى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَ﴾ أي: اضرِبْ برِجْلِك الأرضَ، فضَرَب الأرضَ بها فنَبَع منها الماءُ بإذنِ اللهِ دونَ مُساعدةٍ مِن أحَدٍ، أو حاجةٍ إلى حَفَّارٍ؛ فاللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وهذه إحدى الضَّرَباتِ الَّتي نَبَع بها الماءُ على أنَّه آيةٌ مِن آياتِ اللهِ. والثَّانيةُ: ضَربُ موسى عليه السَّلامُ للحَجَرِ، فانفجَرَت منه اثنَتَا عَشْرةَ عَينًا. والثَّالثةُ: ضَربُ جِبريلَ عليه السَّلامُ بجَناحَيه مكانَ زَمزمَ فنَبَع الماءُ[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡ﴾ فيه جوازُ استِعمالِ الحِيَلِ المباحةِ، وهذا الحُكمُ ثابتٌ حتَّى في الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ، فلو حَلَف رجُلٌ على أن يَضرِبَ شخصًا مِئةَ مرَّةٍ، وكان هذا الشَّخصُ لا يَتحمَّلُ الضَّربَ مئةَ مرَّةٍ؛ قال أهلُ العلمِ: فله أنْ يأخُذَ ضِغْثًا به مِئةُ شِمْراخٍ، ويَضْرِبَ به ضربةً واحدةً. وبَنَوْا على هذا ما لو زنى رجُلٌ مريضٌ مرضًا لا يُرجى زوالُه، ولا يَتحمَّلُ الضَّربَ مِئةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٥).

على انفرادِ؛ قالوا: فإنه يُجْمَعْ له ضِغْثٌ به مِئةُ عُودٍ، ويُضرَبُ به ضربةً واحدةً[١]؛ أخْذًا بما أفْتى اللهُ عزَّ وجلَّ به أيُّوبَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ دَليلٌ على جَوازِ ضَربِ النِّساءِ فيما دعا إلى صَلاحِهنَّ وأدَبِهنَّ وأَوْبِهنَّ إلى اللهِ جلَّ وتعالى[٣].

١٢- في براءةِ أيُّوبَ صلَّى الله عليه مِن يمينِه وبِرِّه فيها بإعمالِ الضِّغث مرَّةً

---

(١) يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٤٨).

والقولُ المذكورُ هو مذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ في الجملةِ. يُنظر: ((البناية شرح الهداية)) للعيني (٦/ ٢٩٢)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٤/ ١٥٤)، ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٤٨)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٨٢).

وذلك خلافًا للمالكيَّةِ. يُنظر: ((المدونة)) (١/ ٦١٠) و(٤/ ٥١٣)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٣/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٦).

قال الْكِيَا الهَرَّاسي: (فأخبَرَ الله تعالى أنَّه إذا فعَل ذلك فقد بَرَّ في يمينِه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾، وهو قَولُ الشَّافعيِّ، ومَذهَبُ أبي حنيفةَ، ومحمَّدٍ، وزُفَرَ. وقال مالِكٌ: لا يَبَرُّ. ورأى أنَّ ذلك مختَصًّا بأيُّوبَ، وقال: لا يَحنَثُ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٦١).

قال الرازي: (وهذه الرُّخصةُ باقيةٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣٩٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (مَن تَأمَّل الآيةَ عَلِم أنَّ هذه الفُتْيا خاصَّةُ الحُكم؛ فإنَّها لو كانت عامَّةً في حقِّ كلِّ أحدٍ لم يُخَفَّفْ على نبيٍّ كريمٍ مُوجَبُ يمينِه، ولم يكُنْ في اقتِصاصِها علينا كبيرُ عِبرةٍ! فإنَّما يُقَصُّ ما خَرَج عن نظائرِه ليُعتبَرَ به، أمَّا ما كان مقتضى العبارةِ والقياسِ فلا يُقَصُّ، ولأنَّه قد قال عَقِيبَ هذه الفُتْيا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾، وهذه الجملةُ خَرَجتْ مخرَجَ التَّعليلِ كما في نظائرِه، فعُلِم أنَّ اللهَ إنَّما أفْتاه بهذا جزاءً له على صبرِه؛ تخفيفًا عنه ورحمةً به؛ لأنَّ هذا هو مُوجَبُ هذه اليمين، و... معلومٌ أنَّ اللهَ سُبحانَه إنَّما أفتاهُ بهذا لئلَّا يَحْنَثَ كما أخبَر اللهُ سبحانَه ... وهذا يدُلُّ على أنَّ كفَّارةَ الأيمانِ لم تكُنْ مشروعةً في تلكَ الشَّريعةِ، بل ليس في اليمينِ إلَّا البِرُّ أو الحِنْثُ). ((الفتاوى الكبرى)) (٦/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٦٥). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) للكيا الهراسي (٤/ ٣٦١).

واحدةً -كما في قولِه تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾- دليلٌ واضحٌ وحُجَّةٌ لِمَن يقول: الأَيْمانُ على الأسماءِ ليس على المعاني؛ لإحاطةِ العِلم بأنَّ مُماسَّةَ شَماريخِ الضِّغْثِ لا يُؤْلِمُ المضروبَ كما يُؤْلِمُه تفريقُ عددِ الضَّربِ عليه، وأيُّوبُ عليه السَّلامُ لا مَحالةَ حينَ حَلَف عليها قَصَدَ لِضَرْبٍ مُفَرَّقٍ يُعَدُّ عَدًّا -واحدًا بعدَ آخرَ-، إذْ مُحالٌ أنْ يكونَ عَرَف الضِّغْثَ قَبْلَ أنْ يأمُرَه اللهُ به! وكذا ضَرْبُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ الزَّانيَ النِّضْوَ[1] الخَلْقِ بِعِثْكَالٍ[2] النَّخلِ ضربةً واحدةً بما فيه مِئةُ شِمْراخٍ[3]؛ وقد أَمَر اللهُ بجَلْدِ مئةٍ! فهو يؤكِّدُ هذا[4].

١٣- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ إنْ قيلَ: كيف وَجَده صابرًا وقد شكا إليه ما به واسترحمَه؟

**فالجَوابُ**: أنَّ الشَّكوى إلى اللهِ عزَّ وعلا لا تُسَمَّى جَزَعًا، ولقد قال يَعقوبُ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]، وكذلك شكوى العَليلِ إلى الطَّبيبِ؛ وذلك أنَّ أصبرَ النَّاسِ على البَلاءِ لا يخلو مِن تمَنِّي العافيةِ وطَلَبِها، فإذا صَحَّ أن يُسَمَّى صابرًا مع تمنِّي العافيةِ، وطَلَبِ الشِّفاءِ، فلْيُسَمَّ صابرًا مع اللَّجَأِ إلى اللهِ تعالى، والدُّعاءِ بكَشفِ ما به، ومع التَّعالُجِ ومُشاوَرةِ الأطِبَّاءِ[5].

---

(١) النِّضْوُ: المَهْزُولُ مِنَ الإبلِ وغيرِها. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤٠/ ٩٨).

(٢) العِثْكالُ: هو عِذْقُ النَّخلَةِ بما فيه مِن الشَّماريخِ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ١١).

(٣) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٣٠٩)، وابن ماجه (٢٥٧٤)، وأحمد (٢١٩٣٥).

ذكر ثبوتَه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٣/ ٤٠٧)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((بلوغ المرام)) (٣٦٨)، والشوكانيُّ في ((الدراري المضية)) (٣٨٩)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٠٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢١٩٣٥).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٧٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٨).

١٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ فيه أنَّ الحِنْثَ[١] في اليَمينِ في الأصلِ حَرامٌ؛ ولكِنَّ اللهَ تعالى يَسَّرَ لعبادِه، وأجاز لهم الحِنثَ مع الكَفَّارةِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾ [المائدة: ٨٩] إلى قَولِه: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]، قال العلماءُ: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ أي: لا تُكثِروا اليَمينَ، وقال بَعضُهم: أي: احفَظوها مِن الحِنْثِ، فلا تَحنَثوا فيها. والوجهانِ كِلاهما لا يَتنافَيانِ[٢].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ للرَّجُلِ أن يَحلِفَ ولا يَستَثنيَ[٣].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الاستِثناءَ شَرطُه الاتِّصالُ؛ إذ لو لم يُشتَرَطْ لأمَرَه تعالى بالاستِثناءِ، ولم يَحتَجْ إلى الضَّربِ بالضِّغْثِ[٤].

١٧- عن عَطاءٍ: أنَّ رجُلًا قال: (إنِّي حلَفْتُ ألَّا أكسُوَ امرأتي دِرعًا حتَّى تَقِفَ بعَرَفةَ! فقال: احمِلْها على حِمارٍ، ثمَّ اذهَبْ فقِفْ بها بعَرَفةَ. فقال: إنَّما نَوَيتُ يومَ عَرَفةَ! فقال عَطاءٌ: وأيُّوبُ حينَ حَلَف لَيَجلِدَنَّ امرَأتَه مِئةَ جَلدةٍ: أنَوَى أن يَضرِبَها بالضِّغْثِ؟! إنَّما أمَرَه اللهُ أن يأخُذَ ضِغثًا فيَضرِبَها به. قال عَطاءٌ: إنَّما القُرآنُ عِبَرٌ)[٥].

---

(١) الحِنْثُ: الخُلْفُ في اليَمينِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٢، ٢٢٣).

وعزاه السيوطيُّ إلى سعيدِ بنِ منصورٍ، وصحَّح إسنادَه. =

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أنَّه سبحانَه أثْنَى على عبدِه أيُّوبَ بأحسَنِ الثَّناءِ على صبرِه؛ فأَطْلَق عليه: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ بكَونِه وَجَده صابرًا؛ وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن لم يَصبِرْ إذا ابتُلِيَ فإنَّه بِئْسَ العبدُ(١).

١٩- قال تعالى عن أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾؛ وذلك لأنَّه خرَج مِن البلاءِ على الوجهِ الَّذي دخَل فيه، فأيُّوبُ عليه السَّلامُ كان أحدَ الأغنياءِ مِن الأنبياءِ قبْلَ البلاءِ وبعدَه، وإنَّما ابتُليَ بذهابِ مالِه وولدِه وعظيمِ الدَّاءِ في جسَدِه، وكذلك الأنبياءُ صلواتُ الله عليهم وسلامُه صبروا على ما به امتُحِنوا وفُتِنوا، فأيُّوبُ عليه السَّلامُ دخَل في البلاءِ على صِفةٍ، فخرَج منه كما دخَل فيه، وما تغيَّرَ منه حالٌ ولا مَقالٌ(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ - هذا مَثَلٌ ثانٍ ذُكِّرَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ أُسوةً به في الصَّبرِ على أذَى قَومِه، والالتِجاءِ إلى اللهِ في كَشفِ الضُّرِّ، وهو عَطفٌ على ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، ولِكَونِه مَقصودًا بالمَثَلِ هنا أُعيدَ معه فِعلُ (اذْكُرْ)، ولم يَذكُرْ ذلك في قِصَّةِ سُلَيمانَ؛ لِكَمالِ الاتِّصالِ بيْنَ سُلَيمانَ وداودَ عليهما السَّلامُ، كأنَّ قِصَّتَيْهما قِصَّةٌ واحِدةٌ(٣).

---

= وأخرجه حربٌ الكرمانيُّ في مسائله (من كتاب النكاح إلى نهاية الكتاب) (١/ ٤٥٧)، عن سعيدِ بنِ منصورٍ بسندِه إلى عطاءٍ.

(١) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٦٦).

- وأيضًا لَمَّا كانت تَعديةُ فِعلِ (اذْكُرْ) إلى اسمِ أيُّوبَ على تَقديرِ مُضافٍ؛ لِأنَّ المَقصودَ تَذكُّرُ الحالةِ الخاصَّةِ به؛ كان قَولُه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بَدَلَ اشتِمالٍ مِن أيُّوبَ؛ لِأنَّ زَمَنَ نِدائِه رَبَّه مِمَّا تَشتَمِلُ عليه أحوالُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ. وخُصَّ هذا الحالُ بالذِّكرِ مِن بَينِ أحوالِه؛ لِأنَّ المَقصودَ تَذكُّرُ الحالةِ الخاصَّةِ به، ولِأنَّه مَظهَرُ تَوكُّلِه على الله، واستِجابةِ اللهِ دُعاءَه بكَشفِ الضُّرِّ عنه[1].

- والنِّداءُ: نِداءُ دُعاءٍ؛ لِأنَّ الدُّعاءَ يُفتَتَحُ بمِثلِ: يا رَبِّ، ونَحوِه، وقَولُه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ مُتَعلِّقٌ بقَولِه: ﴿نَادَىٰ﴾، بحَذفِ الباءِ المَحذوفةِ مع (أنَّ)، أيْ: نادَى بأنِّي مَسَّنيَ الشَّيطانُ، وهو في الأصلِ جُملةٌ مُبيِّنةٌ لِجُملةِ ﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾، والخَبَرُ مُستَعمَلٌ في الدُّعاءِ والشِّكايةِ[2].

- ونَسَب المَسَّ إلى الشَّيطانِ؛ لِأنَّه قد راعَى الأدَبَ في ذلك؛ حيث لم يَنسُبْه إلى اللهِ في دُعائِه، مع أنَّه فاعِلُه، ولا يَقدِرُ عليه إلَّا هو. قيلَ: أرادَ ما كان يُوَسوِسُ به إليه في مَرَضِه مِن تَعظيمِ ما نَزَل به مِنَ البَلاءِ، ويُغريه على الكَراهةِ والجَزَعِ، فالتَجَأ إلى اللهِ تعالى في أنْ يَكفيَه ذلك بكَشفِ البَلاءِ، أو بالتَّوفيقِ في دَفعِه ورَدِّه بالصَّبرِ الجَميلِ، أو لِأنَّه وَسوَسَ إلى أتْباعِه حتَّى رَفَضوه، وأخرَجوه مِن ديارِهم، وقيل غير ذلك[3].

- وفي قَولِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ ظاهِرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٦٨، ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٦٨).

إسنادِ المَسِّ بالنُّصْبِ والعَذابِ إلى الشَّيطانِ أنَّ الشَّيطانَ مَسَّ أيُّوبَ بهما، أيْ: أصابَه بهما حَقيقةً، مع أنَّ النُّصبَ والعَذابَ هُما الماسَّانِ أيُّوبَ، ففي سُورةِ (الأنبياءِ) ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فأسنَدَ المَسَّ إلى الضُّرِّ، والضُّرُّ هو النُّصْبُ والعَذابُ، والجمْعُ بيْنَهما: أنْ تُحمَلَ الباءُ على مَعنى السَّببيَّةِ بجَعلِ النُّصبِ والعَذابِ مُسبِّبَينِ لِمَسِّ الشَّيطانِ إيَّاه، أيْ: مَسَّني بوَسواسٍ سَبَبُه نُصبٌ وعَذابٌ، فجَعَلَ الشَّيطانُ يُوَسوِسُ إلى أيُّوبَ بتَعظيمِ النُّصبِ والعَذابِ عِندَه، ويُلْقي إليه أنَّه لم يَكُنْ مُستَحِقًّا لذلك العَذابِ؛ لِيُلقيَ في نَفْسِ أيُّوبَ سُوءَ الظَّنِّ باللهِ، أو السُّخطَ مِن ذلك. أو تُحمَلُ الباءُ على المُصاحَبةِ، أيْ: مَسَّني بوَسوَسةٍ مُصاحِبةٍ لِضُرٍّ وعَذابٍ، ففي قَولِ أيُّوبَ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ كِنايةٌ لَطيفةٌ عن طَلَبِ لُطفِ اللهِ به، ورَفعِ النُّصْبِ والعَذابِ عنه بأنَّهما صارا مَدخَلًا لِلشَّيطانِ إلى نَفْسِه، فَطَلَب العِصْمةَ مِن ذلك، على نَحْوِ قَولِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[1] [يوسف: ٣٣].

- وتَنوينُ ﴿بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ لِلتَّعظيمِ، أو لِلنَّوعيَّةِ، وعَدَلَ عن تَعريفِهما؛ لِأنَّهما مَعلومانِ للهِ[2].

- وقَولُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ﴾ ليس هذا تَمامَ دُعائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل مِن جُملَتِه قَولُه: ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، فاكتَفى هاهنا عن ذِكرِه بما في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، كما تَرَك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٧٠).

هناك ذِكرَ الشَّيطانِ؛ ثِقةً بما ذُكِرَ هاهنا[١].

- واقتِصارُ أيُّوبَ عليه السَّلامُ في دُعائِه على التَّعريضِ بإزالةِ النُّصْبِ والعَذابِ يُشعِرُ بأنَّه لم يُصَبْ بغَيرِ الضُّرِّ في بَدَنِه، ويحتمِلُ أنْ يَكونَ قد أصابَه تَلَفُ المالِ، وهَلاكُ العِيالِ؛ فيَكونَ اقتِصارُه على النُّصْبِ والعَذابِ في دُعائِه لِأنَّ في هَلاكِ الأهلِ والمالِ نُصْبًا وعَذابًا لِلنَّفْسِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ إمَّا حِكايةٌ لِمَا قيلَ له، أو مَقولةٌ لِقَولٍ مَحذوفٍ، أيْ: قُلْنا له: اركُضْ برِجْلِكَ، وذلك إيذانٌ بأنَّ هذا استِجابةٌ لِدُعاءِ أيُّوبَ عليه السَّلامُ. والرَّكضُ: الضَّربُ في الأرضِ بالرِّجلِ؛ فقَولُه: ﴿بِرِجۡلِكَ﴾ زيادةٌ في بَيانِ مَعنى الفِعلِ[٣].

- وجُملةُ ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ﴾ إمَّا حِكايةٌ لِمَا قيلَ له، أو مَقولةٌ لِقَولٍ مَحذوفٍ دَلَّ عليه المَقولُ الأوَّلُ، وفي الكَلامِ حَذفٌ دَلَّتْ عليه الإشارةُ؛ فالتَّقديرُ: فرَكَض الأرضَ، فنَبَع ماءٌ، فقُلْنا له: هذا مُغتَسَلٌ بارِدٌ وشَرابٌ، فالإشارةُ إلى ماءٍ؛ لِأنَّه الَّذي يُغتَسَلُ به ويُشرَبُ[٤].

- قَولُه: ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ وَصْفُ الماءِ بذلك في سياقِ الثَّناءِ عليه مُشيرٌ إلى أنَّ ذلك الماءَ فيه شِفاؤُه إذا اغتَسَل به، وشَرِب منه؛ لِيَتناسَبَ قَولُ اللهِ له مع نِدائِه رَبَّه؛ لِظُهورِ أنَّ القَولَ عَقِبَ النِّداءِ هو قَولُ استِجابةِ الدُّعاءِ مِنَ المَدعُوِّ. و ﴿مُغۡتَسَلُۢ﴾ اسمُ مَفعولٍ مِن فِعلِ (اغتَسَلَ)، أي: مُغتَسَلٌ به؛ فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

على حَذفِ حَرفِ الجَرِّ، وإيصالِ المُغتَسَلِ القاصِرِ إلى المَفعولِ[١].

- ووَصْفُ الماءِ بـ ﴿بَارِدٌ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ به زَوالَ ما بِأيُّوبَ مِنَ الحُمَّى مِنَ القُروحِ[٢].

- واستُغنيَ بالتَّنوينِ عن وَصفِ (شَرَابٌ)؛ إذْ مِنَ المَعلومِ أنَّ الماءَ شَرابٌ، فلولا إرادةُ التَّعظيمِ بالتَّنوينِ لَكانَ الإخبارُ عنِ الماءِ بأنَّه شَرابٌ إخبارًا بأمْرٍ مَعلومٍ، ومَرجِعُ تَعظيمِ (شَرَابٌ) إلى كَونِه عَظيمًا لِأيُّوبَ، وهو شِفاءُ ما به مِن مَرضٍ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

- قَولُه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾ مَعطوفٌ على مُقدَّرٍ مُتَرتِّبٍ على مُقدَّرٍ آخَرَ يَقتَضيه القَولُ المُقدَّرُ آنِفًا، كأنَّه قيلَ: فاغتَسَل وشَرِب، فكَشَفْنا بذلك ما به مِن ضُرٍّ، كما في سُورةِ (الأنبياءِ) ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾[٤] [الأنبياء: ٨٤].

- ولم يَتقَدَّمْ في هذه الآيةِ ولا في آيةِ سُورةِ (الأنبياءِ) أنَّ أيُّوبَ عليه السَّلامُ رُزِئَ أهلَه؛ قيل: يَجوزُ أنْ يَكونَ مَعنى ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ أنَّ اللهَ تَعالى أبْقَى له أهلَه، فلم يُصَبْ فيهم بما يَكرَهُ، وزَادَه بَنينَ وحَفَدةً، ويُؤيِّدُ هذا المَحمَلَ وُقوعُ كَلِمةِ ﴿مَّعَهُمْ﴾ عَقِبَ كَلِمةِ ﴿وَمِثْلَهُم﴾؛ فإنَّ (مع) تُشعِرُ بأنَّ المَوهوبَ لاحِقٌ بأهلِه، ومَزيدٌ فيهم، فليس في الآيةِ تَقديرُ مُضافٍ في قَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩).

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ﴾[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ في قَولِه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، وما بيْنَ الآيَتَيْنِ مِن تَغييرٍ يَسيرٍ هو مُجَرَّدُ تَفنُّنٍ في التَّعبيرِ، لا يَقتَضي تَفاوُتًا في البَلاغةِ، وأمَّا ما بَيْنَهما مِن مُخالَفةٍ في قَولِه هنا: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، وقَولِه في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٤]؛ فقَولُه هنا: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ الذِّكْرى: التَّذكيرُ بما خَفيَ، أو بما يَخفَى، وأُولو الألبابِ هم أهلُ العُقولِ، أيْ: تَذكِرةً لِأهلِ النَّظَرِ والاستِدلالِ؛ فإنَّ في قِصَّةِ أيُّوبَ مُجمَلِها ومُفَصَّلِها ما إذا سَمِعه العُقَلاءُ المُعتَبِرونَ بالحَوادِثِ، والقائِسونَ على النَّظائِرِ؛ استَدَلُّوا على أنَّ صَبرَه قُدوةٌ لِكُلِّ مَن هو في حَرَجٍ أنْ يَنتَظِرَ الفَرَجَ، وأمَّا الَّذي في سُورةِ (الأنبياءِ)؛ فإنَّه جيءَ به شاهِدًا على أنَّ النُّبُوَّةَ لا تُنافي البَشريَّةَ، وأنَّ الأنبياءَ يَعتَريهم مِنَ الأحداثِ ما يَعتَري البَشَرَ ممَّا لا يَنقُصُ منهم في نَظَرِ العَقلِ والحِكمةِ، وأنَّهم إنَّما يَقومونَ بأمْرِ اللهِ، وأنَّهم مُعَرَّضونَ لِأذَى النَّاسِ مِمَّا لا يُخِلُّ بحُرمَتِهمُ الحَقيقيَّةِ، وذَكَر مِنَ الأنبياءِ مَنِ ابتُلِيَ مِن قَومِه فصَبَر، ومَنِ ابتُلِيَ مِن غَيرِهم فصَبَر، وكيف كانت عاقِبةُ صَبرِهم واحِدةً، مع اختِلافِ الأسبابِ الدَّاعيةِ إليه؛ فكانت في ذلك آياتٌ لِلعابِدينَ، أيْ: المُمتَثِلينَ أمْرَ اللهِ، المُجتَنِبينَ نَهْيَه؛ فإنَّ ممَّا أمَرَ به اللهُ الصَّبرَ على ما يَلحَقُ المَرءَ مِن ضُرٍّ لا يَستَطيعُ دَفْعَه؛ لِكَونِ دَفْعِه خارِجًا عن طاقَتِه، فخَتَم بخاتِمةِ أنَّ في ذلك آياتٍ للعابِدينَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٧٢، ٢٧٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾

- قَولُه: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ﴾ في الكَلام حَذفٌ دَلَّتْ عليه صِيغةُ الكَلامِ، تَقديرُه: وكان حَلَف لَيَضرِبَنَّ امرأتَه مِئةَ ضَربةٍ؛ لِسَبَبٍ جَرى منها، وكانتْ مُحسِنةً له، فجَعَلْنا له خَلاصًا مِن يَمينِه بقَولِنا: ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾. وقيلَ: هو مَعطوفٌ على ﴿ ٱرْكُضْ ﴾، أو على (وَهَبْنَا) بتَقديرِ (قُلْنا)، أيْ: وقُلْنا: خُذْ بيَدِكَ... إلخ. والأوَّلُ أقرَبُ لَفظًا، وهذا أنسَبُ مَعنًى؛ فإنَّ الحاجةَ إلى هذا الأمْرِ لا تَمَسُّ إلَّا بعدَ الصِّحَّةِ[1].

- قَولُه: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ عِلَّةٌ لِجُملةِ ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ [ص: ٤٢]، وجُملةِ ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ ﴾ [ص: ٤٣]، أيْ: أنعَمْنا عليه بجَبرِ حالِه؛ لِأنَّا وَجَدْناه صابِرًا على ما أصابَه؛ فهو قُدوةٌ لِلمأمورِ بقَولِه: ﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [ص: ١٧] صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكانت (إنَّ) مُغْنيةً عن فاءِ التَّفريعِ[2].

- قولُه: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ﴾ فِعلٌ وفاعِلٌ، والمَخصوصُ بالمَدحِ مَحذوفٌ؛ لِلعِلْمِ به، أيْ: هو، أو: أيُّوبُ. و﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ تَعليلٌ لِمَدحِه، أيْ: رَجَّاعٌ إلى اللهِ تعالى. وقَولُه هنا: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ مِثلُ قَولِه في سُلَيمانَ: ﴿ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠]، وكان سُلَيمانُ أوَّابًا للهِ مِن فِتنةِ الغِنى والنَّعيمِ، وأيُّوبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٥).

أوَّابًا للهِ مِن فِتنةِ الضُّرِّ والاحتِياجِ، وكان الثَّناءُ عليهما مُتَماثِلًا؛ لِاستِوائِهما في الأَوْبةِ، وإنِ اختَلَفتِ الدَّواعي[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٦٨).

## الآيات (٤٥-٤٨)

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾: أي: أصحابِ القُوَّةِ والبَصائِرِ في الدِّينِ، وأصلُ (أيد): يدُلُّ على القُوَّةِ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على عِلمٍ بالشَّيءِ[1].

﴿ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾: أي: ذِكرُ الدَّارِ الآخِرةِ، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[2].

﴿ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ﴾: أي: المُختارينَ، والاصطِفاءُ: تَناوُلُ صَفوِ الشَّيءِ، وأصلُ (صفو): يدُلُّ على خُلوصٍ مِن كُلِّ شَوبٍ[3].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾

قَولُه: ﴿ بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ فيها وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ (خَالِصَة) مَصدرٌ بمعنى الإخلاصِ، فيكونُ ﴿ ذِكۡرَى ﴾ مَفعولًا به للمَصدَرِ، أي: بأن أخلَصوا ذِكْرى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣، ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨).

الدَّارِ، أو يكونُ المعنى: بأنْ أخلَصْنا نحنُ لهم ذِكرى الدَّارِ. وأنْ يكونَ بمعنى الخُلوصِ، فيكونَ ﴿ذِكۡرَى﴾ فاعِلًا للمَصدَرِ مَرفوعًا به، أي: بأنْ خَلَصَتْ لهم ذِكْرَى الدَّارِ. الثَّاني: أن يكونُ (خالِصة) اسمَ فاعلٍ على بابِه، و﴿ذِكۡرَى﴾ بَدَلًا منه، أو عَطْفَ بيانٍ له، أو مَقطوعًا عنه إلى النَّصبِ على المفعوليَّةِ بإضمارِ أعني، أو الرَّفعِ على الخبريَّةِ بإضمارِ (هي)[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى عددًا مِن الأنبياءِ على سبيلِ الإجمالِ، فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- عِبادَنا: إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ؛ أصحابَ القُوَّةِ والبَصيرةِ في دينِ اللهِ، إنَّا خَصَصْناهم بخاصَّةٍ امتازُوا بها هي ذِكرُ الدَّارِ الآخِرةِ، بالعَمَلِ لها، مع الزُّهدِ في الدُّنيا، وإنَّهم عِندَنا لَمِنَ الَّذين اصطفاهم اللهُ، ومِن عبادِه الأخيارِ.

ثمَّ يقولُ تعالى: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إسماعيلَ واليَسَعَ وذا الكِفلِ؛ فإنَّ كلًّا منهم مِن الأخيارِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥﴾.

أي: واذكرْ -يا مُحمَّدُ- عِبادَنا إبراهيمَ، وابنَه إسحاقَ، وابنَ ابنِه يَعقوبَ: أصحابَ القُوَّةِ والبَصيرةِ في دينِ اللهِ تعالى[2].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٤)، ((منهاج السنة)) لابن تيميَّة (٢/ ١٣)، ((جامع الرسائل)) لابن تيميَّة (٢/ ١٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٧/ ٥٤٠، ٥٤١) و(١٩/ ١٧٠، ١٧١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي =

﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى﴾ بالإضافةِ. قيل: المعنى: إنَّا أخلَصْناهم بأفضَلِ ما في الدَّارِ الآخرةِ. وقيل: المعنى: نزَعَ اللهُ ما في قُلوبِهم مِن حُبِّ الدُّنيا وذِكرِها، وأخلَصَهم بحُبِّ الآخرةِ والرَّغبةِ فيها، والزُّهدِ في الدُّنيا. وقيل «خالِصة»: مَصدرٌ بمعنى الإخلاصِ، أي: بإخلاصِهم ذِكرى الدَّارِ. وقيلَ غيرُ ذلك[1].

---

= (٦/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

قال ابنُ جرير: (الأيدي: القوَّةُ، والأبصارُ: العقولُ. فإنْ قال لنا قائلٌ: وما الأيدي مِن القُوَّةِ، والأيدي إنَّما هي جمْعُ يدٍ، واليدُ جارحةٌ؟ وما العُقولُ مِن الأبصارِ، وإنَّما الأبصارُ جمعُ بَصرٍ؟ قيل: إنَّ ذلك مَثَلٌ؛ وذلك أنَّ باليَدِ البَطشَ، وبالبَطشِ تُعرَفُ قُوَّةُ القَويِّ؛ فلذلك قيل للقَويِّ: ذو يَدٍ. وأمَّا البصَرُ فإنَّه عَنى به بصَرَ القَلبِ، وبه تُنالُ مَعرفةُ الأشياءِ؛ فلذلك قيل للرَّجُلِ العالِمِ بالشَّيءِ: بصيرٌ به، وقد يمكِنُ أن يكونَ عَنى بقَولِه: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾ أولي الأيدي عندَ اللهِ بالأعمالِ الصَّالحةِ؛ فجعَلَ اللهُ أعمالَهم الصَّالحةَ الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا أيديًا لهم عندَ الله؛ تمثيلًا لها باليدِ تكونُ عندَ الرَّجُلِ لآخَرَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٦).

وقال النحَّاسُ: (فأمَّا ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فمُتَّفَقٌ على تأويلِها أنَّها البصائرُ في الدِّينِ، وأمَّا ﴿ٱلۡأَيۡدِي﴾ فمُختَلَفٌ في تأويلِها؛ فأهلُ التَّفسيرِ يقولون: إنَّها القُوَّةُ في الدِّينِ، وقومٌ يقولونَ: الأيدي جمعُ يدٍ، وهي النِّعمةُ، أي: هم أصحابُ النِّعَمِ، أي: الَّذين أنعَمَ اللهُ عليهم، وقيل: هم أصحابُ النِّعَمِ والإحسانِ؛ لأنَّهم قد أحسَنوا، وقَدَّموا خَيرًا). ((إعراب القرآن)) (٣/ ٣١٣).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه تعالى: ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ عبارةٌ عن البصائرِ، أي: يُبصِرونَ الحقائِقَ، ويَنظُرونَ بنورِ اللهِ تعالى، وبنحوِ هذا فسَّر الجميعُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٠٩).

وقال ابنُ القيِّمِ: (﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ فالأيدي: القُوَى والعزائِمُ في ذاتِ اللهِ، والأبصارُ: البصائرُ في أمرِ اللهِ. وعباراتُ السَّلَفِ تدورُ على ذلك). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١٦٧).

(١) قرأ بها نافعٌ وأبو جعفرٍ المَدَنيَّانِ، وهشامٌ عن ابنِ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٧ - ١١٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٨).

٢- قراءةُ: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى﴾ بالتَّنوينِ. قيل: المعنى: إنَّا أخلَصْناهم بخالصةٍ هي ذِكْرى الدَّارِ، أي: أنَّهم كانوا يُذَكِّرون النَّاسَ بالدَّارِ الآخرةِ، ويَدْعونهم إلى العملِ لها بطاعةِ الله. وقيل: المعنى: أنَّ اللهَ تعالى قد أخلَصهم بعملِهم للآخرةِ وذِكْرِهم لها، أي: فجعَلهم له خالِصينَ بالإكثارِ مِن ذِكرِ الآخرةِ، والرُّجوعِ إلى الله. وقيل: الدَّارُ يجوزُ أن يُرادَ بها الدُّنيا، أي: لِيَتذكَّروا الدُّنيا ويَزهَدوا فيها، ولِتَخلصَ لهم بالثَّناءِ الحسَنِ عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾[1] [مريم: ٥٠].

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: إنَّا جعَلْناهم خالِصينَ لنا بخصلةٍ خالِصةٍ، لا شَوْبَ فيها، هي تذكُّرُهم دائمًا للدَّارِ الآخرةِ، والعملُ لها، والزُّهدُ في الدُّنيا[2].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٧ - ١١٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٠١).

قال ابنُ جُزَي: (معنى ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾: جعَلْناهم خالِصينَ لنا، أو أخلَصْناهم دونَ غَيرِهم، وخالِصة: صِفةٌ حُذِفَ مَوصوفُها، تقديرُه: بخَصلةٍ خالِصةٍ، وأمَّا الباءُ في قَولِه: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ فإنْ كان ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ بمعنى: جعَلْناهم خالِصينَ؛ فالباءُ سَبَبيَّةٌ للتَّعليلِ، وإن كان ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾ بمعنى: خصَصْناهم؛ فالباءِ لِتَعديةِ الفِعلِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١).

وقال أيضًا: (وإن أرادَ بالدَّارِ: الدُّنيا؛ فالمعنى: حُسْنُ الثَّناءِ، والذِّكرُ الجَميلُ في الدُّنيا، كقَولِه: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ [الشعراء: ٨٤]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ القيِّمِ، فقال: (﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ أي: خَصَصْناهم بخَصيصةٍ، وهو الذِّكرُ الجميلُ الَّذي يُذْكَرونَ به في هذه الدَّارِ، وهو لِسانُ الصِّدقِ الَّذي سأله إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء: =

﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: وإنَّ إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ عندَ اللهِ لَمِنَ الَّذين اصطفاهم، ومِن عِبادِه الأخيارِ(١).

﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إسماعيلَ والْيَسَعَ وذا الكِفْلِ؛ فإنَّ كُلًّا منهم مِنَ الأخيارِ(٢).

---

= ٨٤]، وقال سُبحانَه وتعالى عنه وعن بَنيه: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ [مريم: ٥٠]). ((الجواب الكافي)) (ص: ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧).

وقوله: ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ قيل: معناه: الَّذين اختارهم اللهُ لِرسالتِه. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبيضاوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥).

وقيل: ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾ جمعُ (خَيِّر) بالتَّشديدِ، والتَّخفيفِ، كأمواتٍ جمع مَيِّتٍ ومَيْتٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، والرسعني، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠١).

قال ابن عثيمين: (الخيِّر على وزنِ فيعلٍ، وهو كثيرُ الخيرِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٨).

قال السعدي: (اختارهم اللهُ مِن الخَلقِ، واختار لهم أكمَلَ الأحوالِ؛ مِن الأعمالِ والأخلاقِ، والصِّفاتِ الحميدةِ، والخِصالِ السَّديدةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

وقال الشوكاني: (المرادُ مِن ذِكرِ هؤلاء أنَّهم مِن جُملةِ مَن صبَرَ مِن الأنبياءِ، وتحمَّلوا الشَّدائدَ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٨٦].

وقال سبحانَه: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٥].

---

= في دينِ الله. أمَر الله رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يَذكُرَهم؛ لِيَسلُكَ مسلكَهم في الصَّبرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢).

والْيَسَع اسمُ نبيٍّ مِن الأنبياءِ، ذُكِر معهم هنا، وفي سورةِ (الأنعام) الآية (٨٦)، وهو اسمٌ أعجميٌّ، ودخَلت عليه الألفُ واللامُ زائدتينِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٣)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٢٨٥)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤٩٠).

واختَلَف العلماءُ في ذي الكِفْلِ، هل هو نبيٌّ أم لا؟

فذهَب مقاتلُ بنُ سليمانَ، والرازي، والقرطبي، وابنُ كثير، والبقاعي، والعُليمي، والسعدي إلى أنَّه نبيٌّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

قال ابن كثير: (وأمَّا ذو الكِفْلِ فالظَّاهرُ مِنَ السِّياقِ أنَّه ما قُرِنَ معَ الأَنبياءِ إلَّا وهو نَبِيٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٣٦٣).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: الحسنُ، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

وقيل: لم يكن نبيًّا، ونسَبه القرطبي إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٣٢٨).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: أبو موسى الأشعري، ومجاهدٌ، وقتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٧١)، ((تفسير الماوردي)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

وتوقَّفَ ابنُ جرير في ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٨).

واستظهر ابنُ عثيمينَ أنَّ معنى (ذي الكفل) صاحبُ العملِ الكثيرِ، والجدِّ والنَّشاطِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٣).

وقال الألوسي: (وقيل في تسميتِه «ذا الكفل» أقوالٌ مضطربةٌ لا تصحُّ، والله تعالى أعلم). ((تفسير الألوسي)) (٩/ ٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٠٧).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ أي: البَصائِرِ في دينِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ؛ فبالبصائِرِ يُدرَكُ الحَقُّ ويُعرَفُ، وبالقُوى يُتمَكَّنُ مِن تبليغِه وتَنفيذِه والدَّعوةِ إليه، ولذلك كان وَرَثةُ الرُّسُلِ وخُلَفاءُ الأنبياءِ -عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ- هم الَّذين قاموا بالدِّينِ عِلمًا وعَمَلًا ودَعوةً إلى اللهِ -عزَّ وجَلَّ- ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهؤلاء أتْباعُ الرُّسُلِ -صَلَواتُ اللهِ عليهم وسَلامُه- حَقًّا، وهؤلاء هم الَّذين جَمَعوا بيْنَ البَصيرةِ في الدِّينِ، والقُوَّةِ على الدَّعوةِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: أنَّه ينبغي ذِكرُ أهلِ الخيرِ بالثَّناءِ؛ لأنَّ في ذلك فائِدَتينِ:

**الفائِدةُ الأُولى**: إحياءُ ذِكْرِ هؤلاء؛ لِيَتبيَّنَ فَضلُهم، ويُدْعَى لهم.

**والفائِدةُ الثَّانيةُ**: الاقتِداءُ بهم، واتِّباعُهم فيما هم عليه ممَّا استحَقُّوا به الثَّناءَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّ مَن أَنعَمَ اللهُ عليه بهذه الصِّفَةِ -وهي تَذَكُّرُ الدَّارِ الآخرةِ- فإنَّ هذا مِن الأمْرِ الَّذي يَستَحِقُّ الثَّناءَ عليه هو، ويَستَحِقُّ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ عليه الشُّكرَ؛ حيث لم يَجعَلْ هذا مِمَّن يَنطوي في سِلْكِ أهلِ الدُّنيا[2]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ إطلاقُ الدَّارِ؛ للإشعارِ بأنَّها الدَّارُ الحَقيقيَّةُ، والدُّنيا مَعبَرٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٢٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ احتَجَّ العُلَماءُ بهذه الآيةِ في إثباتِ عِصمةِ الأنبياءِ[1]؛ لأنَّه تعالى حَكَم عليهم بكَونِهم أخيارًا على الإطلاقِ، وهذا يَعُمُّ حُصولَ الخَيريَّةِ في جَميعِ الأفعالِ والصِّفاتِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾

- ذِكرُ هؤلاء الثَّلاثةِ ﴿إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ذِكرُ اقتِداءٍ وائْتِساءٍ بهم؛ فأمَّا إبراهيمُ عليه السَّلامُ فبما عُرِفَ مِن صَبرِه على أذى قَومِه، وإلقائِه في النَّارِ، وابتِلائِه بتَكليفِ ذَبحِ ابْنِه، وأمَّا ذِكرُ إسحاقَ ويَعقوبَ فاستِطرادٌ بمُناسَبةِ ذِكرِ إبراهيمَ، ولِمَا اشتَرَكا به مِنَ الفَضائِلِ مع أبيهما؛ لِيَقتَديَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بثَلاثَتِهم في القُوَّةِ في إقامةِ الدِّينِ، والبَصيرةِ في حَقائِقِ الأُمورِ. وابتُدِئَ بإبراهيمَ؛ لِتَفضيلِه بمَقامِ الرِّسالةِ والشَّريعةِ، وعُطِفَ عليه ذِكرُ ابنِه، وعُطِفَ على ابنِه ابنُه يَعقوبُ[3].

---

(١) قال ابنُ تيميَّة: (القَولُ بأنَّ الأنبياءَ مَعصومونَ مِن الكبائرِ دونَ الصَّغائرِ هو قولُ أكثَرِ عُلَماءِ الإسلامِ، وجميعِ الطَّوائِفِ، حتَّى إنَّه قَولُ أكثَرِ أهلِ الكَلامِ، كما ذكَرَ أبو الحسَنِ الآمِديُّ أنَّ هذا قَولُ أكثَرِ الأَشعَريَّةِ، وهو أيضًا قَولُ أكثَرِ أهلِ التَّفسيرِ والحَديثِ والفُقَهاءِ، بل لم يُنقَلْ عن السَّلَفِ والأئمَّةِ والصَّحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهم إلَّا ما يُوافِقُ هذا القَولَ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣١٩).

وقال أيضًا: (أهلُ السُّنَّةِ مُتَّفِقونَ على أنَّ الأنبياءَ مَعصومون فيما يُبَلِّغونَه عن اللهِ تعالى، وهذا هو مَقصودُ الرِّسالةِ). ((منهاج السنة)) (١/ ٤٧٠).

وقال ابنُ حزم: (يَقَعُ مِن الأنبياءِ السَّهوُ عن غيرِ قَصدٍ، ويَقَعُ منهم أيضًا قَصدُ الشَّيءِ يُريدونَ به وَجْهَ الله تعالى والتَّقَرُّبَ به منه، فيُوافِقُ خِلافَ مُرادِ الله تعالى، إلَّا أنَّه تعالى لا يُقِرُّهم على شَيءٍ مِن هذينِ الوَجهَينِ). ((الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) (٤/ ٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٦).

- قَولُه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ﴾ قُرِئَ ﴿عَبۡدَنَآ﴾[١]؛ إمَّا على أنَّ إبراهيمَ وحْدَه -لِمَزيدِ شَرَفِه- عَطفُ بَيانٍ، وقيلَ: بَدَلٌ، وقيلَ: نُصِبَ بإضمارِ (أَعْنِي)، والباقيانِ عَطفٌ على (عَبدَنا)، وإمَّا على أنَّ (عَبدَنا) اسمُ جِنسٍ وُضِعَ مَوضِعَ الجَمعِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ كِنايةٌ عنِ العَمَلِ الصَّالِحِ، والفِكرِ، كأنَّ الَّذين لا يَعمَلونَ أعمالَ الآخِرةِ، ولا يُجاهِدونَ في اللهِ، ولا يُفَكِّرونَ أفكارَ ذَوي الدِّياناتِ، ولا يَستَبصِرونَ؛ في حُكمِ الزَّمْنى الَّذين لا يَقدِرونَ على إعْمالِ جَوارِحِهم، والمَسلوبي العُقولِ الَّذين لا استِبصارَ بهم، وفيه تَعريضٌ بكُلِّ مَن لم يَكُنْ مِن عُمَّالِ اللهِ مِنَ الجَهَلةِ البَطَّالينَ، ولا مِنَ المُستَبصِرينَ في دِينِ اللهِ، وتَوبيخٌ على تَركِهمُ المُجاهَدةَ والتَّأمُّلَ مع كَونِهم مُتَمكِّنينَ منهما[٣].

- قَولُه: ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي﴾ أي: القُوَّةِ الشَّديدةِ، والأعمالِ السَّديدةِ؛ لأنَّ الأيديَ أعظَمُ آلاتِ ذلك[٤]، أو لأنَّ أكثَرَها بمُباشَرتِها[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ عِلَّةٌ لِلأمْرِ بذِكرِهم، ولِمَا وُصِفوا به مِن شَرَفِ العُبوديَّةِ، وعُلُوِّ الرُّتبةِ في العِلْمِ؛ لِأنَّ ذِكرَهم يُكسِبُ الذَّاكِرَ الاقتِداءَ بهم في إخلاصِهم، ورَجاءَ الفَوزِ بما فازوا به مِنَ الاصطِفاءِ

---

(١) قرأ ابنُ كثيرٍ ﴿عَبۡدَنَآ﴾ بغيرِ ألِفٍ، وقرَأ الباقون ﴿عِبَٰدَنَآ﴾ بالألِفِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٢٢).

والأفضَليَّةِ في الخَيرِ، والمَعنى: أخلَصْناهم بسَبَبِ هذه الخَصلةِ، وبأنَّهم مِن أهلِها، أو أخلَصْناهم بتَوفيقِهم لها، واللُّطفِ بهم في اختيارِها؛ وذلك لِأنَّ مَطمَحَ نَظَرِهم فيما يأْتونَ ويَذَرونَ جِوارُ اللهِ، والفَوزُ بلِقائِه، وذلك في الآخِرةِ، أوِ المَعنى: أخلَصْناهم: جَعَلْناهم خالِصينَ، فالهَمزةُ لِلتَّعديةِ، أيْ: طَهَّرْناهم مِن دَرَنِ النُّفوسِ، فصارَتْ نُفوسُهم نَقيَّةً مِنَ العُيوبِ العارِضةِ لِلبَشَرِ، وهذا الإخلاصُ هو مَعنى العِصمةِ اللَّازِمةِ لِلنُّبُوَّةِ(١).

- قَولُه: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم﴾ إسنادُ الإخلاصِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه أمْرٌ لا يَحصُلُ لِلنَّفْسِ البَشَريَّةِ إلَّا بجَعلٍ خاصٍّ مِنَ اللهِ تَعالى، وعِنايةٍ لَدُنِّيَّةٍ، بحيثُ تُنزَعُ مِنَ النَّفْسِ غَلَبَةُ الهَوى في كُلِّ حالٍ، وتُصرَفُ النَّفْسُ إلى الخَيرِ المَحضِ؛ فلا تَبقَى في النَّفْسِ إلَّا نَزَعاتٌ خَفيفةٌ تُقلِعُ النَّفْسُ عنها سَريعًا بمُجرَّدِ خُطورِها(٢).

- وقَولُه: ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ أيْ: بخَصلةٍ خالِصةٍ لا شَوْبَ فيها، ثم فَسَّرَها بـ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾؛ شَهادةً لِذِكرى الدَّارِ بالخُلوصِ والصَّفاءِ وانتِفاءِ الكُدورةِ عنها. وقيلَ: أيْ: جَعَلْناهم خالِصينَ لنا بخَصلةٍ خالِصةٍ عَظيمةِ الشَّأنِ، كما يُنبِئُ عنه التَّنكيرُ التَّفخيميُّ. وقُرِئَ ﴿بِخَالِصَةِ﴾ بدونِ تنوينٍ؛ لِإضافَتِه إلى ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾، والإضافةُ بَيانيَّةٌ؛ لِأنَّ ذِكرى الدَّارِ هي نَفْسُها الخالِصةُ، فكَأنَّه قيلَ: بذِكرى الدَّارِ. وإنَّما ذَكَر لَفظَ (خَالِصة)؛ لِيَقَعَ إجمالٌ ثمَّ يُفَصَّلُ بالإضافةِ؛ لِلتَّنبيهِ على دِقَّةِ هذا الخُلوصِ. والتَّعريفُ بالإضافةِ؛ لِأنَّها أقصى طَريقٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٧).

لِلتَّعريفِ في هذا المَقامِ[١].

- والباءُ في ﴿بِخَالِصَةٍ﴾ لِلسَّبَبِيَّةِ؛ تَنبيهًا على سَبَبِ عِصمَتِهم، وعَبَّرَ عن هذا السَّبَبِ تَعبيرًا مُجمَلًا؛ تَنبيهًا على أنَّه أمْرٌ عَظيمٌ دَقيقٌ لا يُتصَوَّرُ بالكُنْهِ، ولكِنْ يُعرَفُ بالوَجْهِ؛ ولذلك استَحضَرَ هذا السَّبَبَ بوَصفٍ مُشتَقٍّ مِن فِعلِ ﴿أَخْلَصْنَٰهُم﴾، ثم بُيِّنتْ هذه الخالِصةُ بأقصَى ما تُعبِّرُ عنه اللُّغةُ، وهي أنَّها ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾[٢].

- والذِّكرى: اسمُ مَصدَرٍ يَدُلُّ على قُوَّةِ مَعنى المَصدَرِ، مِثلُ: الرُّجْعى، والبُقْيا؛ لِأنَّ زِيادةَ المَبنى تَقتَضي زِيادةَ المَعنى، والدَّارُ المَعهودةُ لِأمثالِهم هي الدَّارُ الآخِرةُ، أيْ: بحيث لا يَنسَوْنَ الآخِرةَ، ولا يُقْبِلونَ على الدُّنيا، فالدَّارُ الَّتي هي مَحَلُّ عِنايَتِهم هي الدَّارُ الآخِرةُ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ هذا عطفٌ على ما قَبْلَه؛ لِأنَّه مِمَّا يَبعَثُ على ذِكرِهم بأنَّهمُ اصطَفاهمُ اللهُ مِن بَينِ خَلقِه، فقَرَّبَهم إليه، وجَعَلَهم أخيارًا. وصيغَتا ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ تَدُلَّانِ على شِدَّةِ الوَصفِ في المَوصوفِ[٤].

- و﴿عِندَنَا﴾ ظَرفٌ مَعمولٌ لِمَحذوفٍ، دَلَّ عليه ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾، أيْ: وإنَّهم مُصطَفَوْنَ عِندَنا، أو مَعمولٌ لِـ﴿ٱلْمُصْطَفَيْنَ﴾، وإنْ كان بـ(ال)؛ لِأنَّهم يَتسَمَّحونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٤، ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٧٩).

في الظَّرفِ والمَجرورِ ما لا يَتسَمَّحونَ في غَيرِهما، أو على التَّبيينِ، أيْ: أعْني عِندَنا، ويَعني بالعِنديَّةِ: المَكانةَ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴾

- قولهُ: ﴿ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ ﴾ فُصِلَ ذِكرُه عن ذِكرِ أبيه وأخيه؛ لِلإشعارِ بعَراقَتِه في الصَّبرِ، الَّذي هُو المَقصودُ بالتَّذكيرِ. وقيلَ: لِأنَّ إسماعيلَ كان جَدَّ الأُمَّةِ العَربيَّةِ، أيْ: مُعظَمِها؛ فإنَّه أبو العَدنانيِّينَ، وجَدٌّ لِلأُمِّ لِمُعظَمِ القَحطانِيِّينَ؛ لِأنَّ زَوجَ إسماعيلَ جُرهُميَّةٌ؛ فلذلك قُطِعَ عن عَطفِه على ذِكرِ إبراهيمَ، وعادَ الكَلامُ إليه هنا[٢]، أو أفرَدَه بالذِّكرِ؛ دَلالةً على أنَّه أصلٌ عَظيمٌ برأسِه مِن أُصولِ الأئِمَّةِ الأعلامِ[٣].

- وقَرَنَ ذِكرَ إسماعيلَ بذِكرِ اليَسَعَ وذي الكِفلِ عليهم السَّلامُ، بعَطفِ اسمَيْهما على اسمِه؛ لِوَجهٍ دَقيقٍ في البَلاغةِ؛ فأمَّا عَطفُ اليَسَعَ على إسماعيلَ؛ فلِأنَّ اليَسَعَ كان مَقامُه في بَني إسرائيلَ كمَقامِ إسماعيلَ في بَني إبراهيمَ، وأمَّا عَطفُ ذي الكِفلِ على إسماعيلَ؛ فلِأنَّه مُماثِلٌ لِإسماعيلَ في صِفةِ الصَّبرِ؛ قال اللهُ تَعالى في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِدۡرِيسَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[٤] [الأنبياء: ٨٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٧٩، ٢٨٠).

## الآيات (٤٩-٥٤)

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَدْنٍ﴾: أي: إقامَةٍ وخُلدٍ، واستِقرارٍ وثباتٍ، يُقالُ: عَدَن بالمكانِ، يَعْدِنُ عَدْنًا، إذا لَزِمه، ولم يَبْرَحْ منه، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[1].

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: أي: حابِساتُ الأبصارِ على أزواجِهنَّ، وأصلُ (قصر): يدُلُّ على الحَبسِ[2].

﴿أَتْرَابٌ﴾: أي: مُتساوِياتٌ في السِّنِّ، وأصلُ (ترب): يدُلُّ على تَساوي شَيئَينِ[3].

﴿نَفَادٍ﴾: أي: فَناءٍ وانقِطاعٍ، وأصلُ (نفد): يدُلُّ على انقِطاعِ شَيءٍ وفَنائِه[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٩٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا عاقبةَ المتَّقينَ وما لَهم مِن النَّعيمِ في الآخرةِ: هذا الَّذي تقَدَّمَ مِن ذِكرِ هؤلاء الأنبياءِ ذِكرٌ جَميلٌ في الدُّنيا، وشَرَفٌ يُذْكَرونَ به أبدًا، وإنَّ لِلمُتَّقينَ لَحُسْنَ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ، وهو جَنَّاتُ إقامةٍ دائِمةٍ، يَبقَونَ فيها أبدًا، مَفتوحةً لهم أبوابُها، مُتَّكِئينَ في تلك الجنَّاتِ، يَطلُبونَ فيها فواكِهَ كثيرةً وشَرابًا.

وعندَ هؤلاء المتَّقينَ نِساءٌ قاصِراتٌ أطرافَهنَّ على أزواجِهنِّ، فلا يَتطَلَّعْنَ إلى غَيرِهم؛ لشِدَّةِ مَحبَّتِهنَّ لهم، مُتساوياتُ الأعمارِ.

هذا ما نَعِدُكم به -أيُّها المُؤمِنونَ- لِيَومِ الحِسابِ؛ جزاءً على أعمالِكم الصَّالحةِ.

ثُمَّ يخبرُ اللهُ تعالى عن دوامِ هذا النَّعيمِ، فيقولُ: إنَّ هذا الَّذي ذكَرْناه لكم مِن الجَزاءِ لَرِزْقُنا، ليس له زَوالٌ ولا انقِطاعٌ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٩ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على سَفاهةِ قَومِه، وذَكَر جُملةً مِنَ الأنبياءِ وأحوالِهم؛ ذَكَر ما يَؤولُ إليه حالُ المُؤمنينَ والكافِرينَ مِنَ الجَزاءِ، ومَقَرَّ كُلِّ واحِدٍ مِنَ الفَريقَينِ[1]، وذلك يوجِبُ الصَّبرَ على تكاليفِ اللهِ تعالى[2].

﴿ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠١).

أي: هذا الَّذي يُتْلَى عليكم ممَّا تقدَّم مِن أوصافِ الأنبياءِ شرَفٌ وثَناءٌ جميلٌ يُذْكَرون به أبدًا، وكيف لا يكونُ شرَفًا والمُثْني عليهم ربُّ العالَمينَ[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢).

قولُه: ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم في هذه السُّورةِ مِن ذِكرِ الأنبياءِ. وقيل: الإشارةُ إلى القرآنِ بجملتِه. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢).

وقال ابنُ عطية: (﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ يحتمِلُ معنيَين؛ أحدُهما: أن يُشيرَ إلى مدحِ مَن ذُكِرَ، وإبقاءِ الشَّرَفِ له...، والثَّاني: أن يُشيرَ بهذا إلى القُرآنِ؛ إذ هو ذِكرٌ للعالَمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٠).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ؛ أنَّ الذِّكرَ بمعنى الشَّرفِ والثَّناءِ الجميلِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والقرطبي، والعليمي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٦٧).

قال الألوسي: (وشاع الذِّكرُ بهذا المعنى [أي: الشَّرَفِ]؛ لأنَّ الشَّرَفَ يَلزَمُه الشُّهرةُ والذِّكرُ بيْن النَّاسِ، فتُجُوِّزَ به عنه بعَلاقةِ اللُّزومِ، والمرادُ: في ذِكرِ قَصَصِهم وتنويهِ اللهِ تعالى بهم شَرَفٌ عَظيمٌ لهم). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٠٣). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٣١٥).

وممَّن اختار أنَّ الذِّكرَ هنا بمعنى التَّذكيرِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابنُ كثير، ورجَّحه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٤).

قال ابنُ كثير: (وقَولُه: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾ أي: هذا فَصلٌ فيه ذِكرٌ لِمَن يَتذَكَّرُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧).

وقال البِقاعي: (﴿هَٰذَا﴾ أي: ما تَلَوْناه عليك مِن أمورِهم وأمورِ غَيرِهم ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: شَرَفٌ في الدُّنيا، ومَوعِظةٌ مِن ذِكرِ القُرآنِ ذي الذِّكرِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٠٠).

وقيل: المعنى: هذا المذكورُ مِن الآياتِ نوعٌ مِن الذِّكرِ الَّذي هو القرآنُ، وذَكَرَ ذلك للانتقالِ =

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

هذا شُروعٌ في بَيانِ أجْرِهمُ الجَزيلِ في الآجِلِ بَعدَ بَيانِ ذِكرِهمُ الجَميلِ في العاجِلِ[1].

﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

أي: وإنَّ للَّذينَ يَتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه: لَحُسْنَ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ[2].

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ۝٥٠﴾.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

أي: لهم حُسنُ مآبٍ، وهو جَنَّاتُ إقامةٍ دائِمةٍ، يَبقَونَ فيها أبدًا، فلا يُخرَجونَ

---

= مِن نوعٍ مِن الكلامِ إلى آخَرَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٦).

قال الرَّازيُّ في بيانِ هذا الوَجهِ: إنَّ الله تعالى (إنَّما شرَحَ ذِكرَ أحوالِ هؤلاء الأنبياءِ عليهم السَّلامُ؛ لأجْلِ أن يَصبِرَ مُحمَّدٌ عليه السَّلامُ على تحمُّلِ سَفاهةِ قَومِه، فلمَّا تمَّم بيانَ هذا الطَّريقِ، وأراد أن يَذكُرَ عَقيبَه طَريقًا آخَرَ يُوجِبُ الصَّبرَ على سَفاهةِ الجُهَّالِ، وأراد أن يُمَيِّزَ أحَدَ البابَينِ عن الآخَرِ: لا جَرَمَ قال: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾، ثمَّ شَرَع في تقريرِ البابِ الثَّاني، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾، كما أنَّ المصَنِّفَ إذا تمَّم كلامًا قال: هذا بابٌ، ثمَّ شَرَع في بابٍ آخَرَ، وإذا فَرَغ الكاتِبُ مِن فَصلٍ مِن كِتابِه وأراد الشُّروعَ في آخَرَ، قال: هذا وقد كان كَيْتَ وكَيْتَ، والدَّليلُ عليه أنَّه لَمَّا أتَمَّ ذِكرَ أهلِ الجنَّةِ وأراد أن يُردِفَه بذِكرِ أهلِ النَّارِ قال: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٥٥]). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

مِنها، ولا يُريدونَ التَّحَوُّلَ عنها[١].

﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾.

أي: مُفتَّحةً لهم أبوابُها[٢].

﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إقامَتَهم ويُسْرَ دُخولِهم؛ وَصَف حالَهم إذ ذاك، فقال[٣]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٥٥٠).

قال الشوكاني: (قال الحسَنُ: إنَّ الأبوابَ يُقالُ لها: انْفَتِحي فتَنفتِحُ، انْغَلِقي فتَنغَلِقُ. وقيلَ: تَفتحُ لهم الملائكةُ الأبوابَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٣).

وقال ابنُ جريرٍ: (فإنْ قال لنا قائلٌ: وما في قولِه: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ مِن فائدةِ خبرٍ حتَّى ذُكِر ذلك؟

قيل: فإنَّ الفائدةَ في ذلك إخبارُ الله تعالى عنها أنَّ أبوابَها تُفتَحُ لهم بغيرِ فتحِ سُكَّانِها إيَّاها بمعاناةٍ بيدٍ ولا جارحةٍ، ولكن بالأمرِ فيما ذُكِر). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٢).

وقال البِقاعي: (﴿لَّهُمُ﴾ أي: لا لِغَيرِهم ﴿ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ الَّتي لها والَّتي فيها، فلا يَلحَقُهم في دُخولِها ذُلُّ الحجابِ، ولا كُلْفةُ الاستِئذانِ، تَستَقبِلُهم الملائِكةُ بالتَّبجيلِ والإكرامِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٠١، ٤٠٢).

ويحتمِلُ قَولُه: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ أبوابَ الجنَّةِ، يقالُ له: ادخُلْ أيَّ بابٍ مِن أبوابِها شِئْتَ، على ما يَقولُه بَعضُ النَّاسِ. وجائِزٌ أن يكونَ أبوابُ كُلِّ أحَدٍ مِنهم في الجنَّةِ تكونُ مُفتَّحةً؛ لأنَّ إغلاقَ الأبوابِ إنَّما يكونُ في الدُّنيا: إمَّا لخَوفِ السَّرِقةِ، أو نظَرِ النَّاسِ إلى أهلِه وحَرَمِه، وخَوفِ نَظَرِ أهلِه إلى النَّاسِ؛ لهذا المعنى تُتَّخَذُ الأبوابُ في الدُّنيا والغَلَقُ والإغلاقُ دُونَهم، وليس ذلك المعنى في الجنَّةِ. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٣٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٢).

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١ ﴾.

أي: مُتَّكِئينَ في تلك الجنَّاتِ، يَطلُبونَ فيها فَواكِهَ كَثيرةً مِن فاكِهةِ الجنَّةِ، وشَرابًا مِن شَرابِها[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ * هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس: ٥٥ - ٥٧].

﴿ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ٥٢ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أمْرَ المَسكَنِ، وأمْرَ المأكولِ والمَشروبِ؛ ذكَرَ عَقِيبَه أمْرَ المَنكوحِ[2].

وأيضًا لَمَّا كان الأكلُ والشُّربُ داعيَينِ إلى النِّساءِ، لاسيَّما مع الرَّاحةِ؛ قال[3]:

﴿ وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ أَتۡرَابٌ ٥٢ ﴾.

أي: وعندَ المُتَّقينَ فيها نِساءٌ قاصِراتٌ أطرافَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَرينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

قيل: ﴿وَشَرَابٖ﴾ أي: وشَرابٍ كَثيرٍ. فحُذِفَت: «كثير»؛ لدَلالةِ الكلامِ عليها. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والرازي، والقرطبي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٣).

وقال ابن كثير: (أي: مِن أيِّ أنواعِه شاؤوا أتَتْهم به الخُدَّامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٢).

سِواهم، ولا يُرِدْنَ غَيرَهم[١]، وهُنَّ شابَّاتٌ مُتَساوياتٌ أعمارُهنَّ[٢].

---

(١) قال ابن القيِّم: (المفسِّرون كُلُّهم على أنَّ المعنى: قصَرْنَ طَرْفَهنَّ على أزواجِهنَّ؛ فلا يَطمَحْنَ إلى غيرِهم. وقيل: قصَرْنَ طَرْفَ أزواجِهنِّ، فلا يَدَعُهم حُسنُهنَّ وجمالُهنَّ أن يَنظُروا إلى غَيرِهنَّ. وهذا صحيحٌ مِن جهةِ المعنى، وأمَّا مِن جهةِ اللَّفظِ فقاصِراتٌ: صِفةٌ مُضافةٌ إلى الفاعلِ لِحسانِ الوُجوهِ، وأصلُه قاصِرٌ طَرْفُهنَّ، أي: ليس بطامِحٍ مُتَعدٍّ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٠).

وممَّن ذهب إلى حَملِ الآيةِ على كِلا المعنيَينِ: السعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

ممَّن اختار أنهنَّ أترابٌ بَعضُهنَّ لِبَعضٍ، مستوياتُ الأسنانِ فهُنَّ في سِنٍّ واحدةٍ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والبغويُّ، وأبو حيَّان، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٩٩).

وقيل: هُنَّ أترابٌ لأزواجِهنَّ؛ أسنانُهنَّ كأسنانِهم. وممَّن اختار هذا المعنى: أبو القاسمِ النَّيسابوريُّ، والنسفي. يُنظر: ((إيجاز البيان عن معاني القرآن)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٧١٦)، ((تفسير النسفي)) (٦/ ١٦٠).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ فقال: المرادُ أنَّهنَّ أترابٌ بَعضُهنَّ لبَعضٍ، وأنَّهنَّ أترابٌ لأزواجِهنَّ أيضًا: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٧).

قال ابن عاشور: (الظَّاهِرُ أنَّ ﴿أَتْرَابٌ﴾ وَصْفٌ قائِمٌ بجميعِ نِساءِ الجنَّةِ مِن مخلوقاتِ الجنَّةِ، ومِن النِّساءِ اللَّاتي كُنَّ أزواجًا في الدُّنيا لأصحابِ الجنَّةِ؛ فلا يكونُ بعَضُهنَّ أحسَنَ شَبابًا مِن بَعضٍ، فلا يَلحَقُ بعضَ أهلِ الجنَّةِ غَضٌّ إذا كانت نساءُ غَيرِه أجَدَّ شَبابًا، ولئلَّا تَتفاوَتَ نِساءُ الواحِدِ =

كما قال الله تباركَ وتعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١ - ٣٣].

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: هذا الجَزاءُ المذكورُ هو ما يَعِدُكم اللهُ به -أيُّها المُتَّقونَ- ليَومِ الحِسابِ؛ جَزاءً لكم على أعمالِكم الصَّالحةِ[1].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: إنَّ هذا الجَزاءَ المَذكورَ للمُتَّقينَ في الجنَّةِ لَرِزقُنا الَّذي نُعطيهم إيَّاه؛ كرامةً مِنَّا لهم، ليس له زَوالٌ ولا انقِطاعٌ عنهم أبَدًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ الحَثُّ على التَّقْوى، وذلك

---

= مِن المتَّقينَ في شَرخِ الشَّبابِ، فيَكونَ النَّعيمُ بالأقَلِّ شَبابًا دونَ النَّعيمِ بالأجَدِّ مِنهنَّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((أضواء البيان)) الشنقيطي (٦/ ٣٤٨).

قال الشوكاني: (﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: هذا الجزاءُ الَّذي وُعِدْتُم به لأجْلِ يومِ الحسابِ؛ فإنَّ الحسابَ عِلَّةٌ للوصولِ إلى الجزاءِ، أو المعنَى: في يومِ الحسابِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٣).

بذِكرِ ثَوابِها؛ لأنَّ الحَثَّ على الشَّيءِ يكونُ بالأمرِ به -كما هو ظاهِرٌ-، ويكونُ بالوَعيدِ على تَركِه، والثَّناءِ على فِعلِه، وطُرُقُ الحَثِّ على الشَّيءِ مُتنَوِّعةٌ، ومنها ذِكرُ حُسْنِ المآبِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ حَثُّ النَّاسِ على العَمَلِ؛ لأنَّه كُلَّما تَذَكَّرَ الإنسانُ أنَّه سوف يُحاسَبُ عن عَمَلِه فإنَّه سوف يَحرِصُ ويَجتهِدُ في العَمَلِ؛ حتَّى لا يُحاسَبَ على شَيءٍ يكونُ عليه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ بِشارةُ المتَّقينَ بأنَّ لهم حُسْنَ المآبِ -أي: المرجِع-، وعلى العَكسِ مِن ذلك: غيرُ المتَّقينَ لهم سُوءُ المآبِ؛ لأنَّ اللهَ إذا حَكَمَ للشَّيءِ بصِفةٍ مِن الصِّفاتِ فإنَّه يُحكَمُ له بضِدِّه إذا انتَفَتْ هذه الصِّفةُ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ هذا دليلٌ على الأمانِ التَّامِّ، وأنَّه ليس في جنَّاتِ عَدنٍ ما يُوجِبُ أن تُغلَقَ لأجْلِه أبوابُها[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ فلا يَحتاجونَ أن يَفْتَحوها هم، بل هم مَخْدومون[٥]، فأفاد ذلك كثرةَ الخَدَمِ[٦].

٤- تأمَّلْ قولَه سُبحانَه: ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ كيف تَجِدُ تحتَه معنًى بديعًا، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١١).

أنَّهم إذا دَخلوا الجنَّةَ لم تُغْلَقْ أبوابُها عليهم، بل تبقَى مُفَتَّحةً كما هي، وأمَّا النَّارُ فإذا دَخَلَها أهلُها أُغلِقَتْ عليهم أبوابُها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة: ٨] أي: مُطبَقةٌ، ومنه سُمِّيَ البابُ وَصيدًا، وهي مُؤْصَدةٌ في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ، قد جُعِلَتِ العَمَدُ مُمسِكةً للأبوابِ مِن خَلْفِها -على قولٍ- كالحَجَرِ العظيمِ الَّذي يُجعَلُ خَلْفَ البابِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ الاتِّكاءُ: مِن هَيئاتِ أهلِ السَّعادةِ. وقولُه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ يَدُلُّ على أنَّ عِندَهم مَن يَستَخدِمونَه فيما يَستَدعونَ؛ كَقَولِه: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾[٢] [الإنسان: ١٩].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ هذا يَدُلُّ على كَمالِ النَّعيمِ، وكَمالِ الرَّاحةِ والطُّمَأنينةِ، وتمامِ اللَّذَّةِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ كمالُ عِفَّةِ هؤلاءِ النِّساءِ؛ لِكَونِهنَّ قاصِراتِ الطَّرْفِ على أزواجِهنَّ، لا يَنظُرنَ إلى غيرِ أزواجِهنَّ، وفيها كمالُ جمالِ هؤلاءِ النِّساءِ حِسًّا ومعنًى؛ لأنَّهنَّ يَقصُرْنَ أطرافَ أزواجِهنَّ عليهنَّ، فالزَّوجُ لا يَنظُرُ إلى غيرِها؛ لأنَّها قد مَلأتْ عَينَه، وسَرَّت قَلبَه[٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ دَلالةٌ على بقاءِ نَعيمِ الجنَّةِ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١١).

(٥) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (١/ ٣١٠).

لِلإيذانِ بانتِهاءِ ما تَقدَّمَ مِن قَصَصٍ، والشُّروعِ في مَوضوعٍ آخَرَ، ولَمَّا كان ما يَذكُرُه نَوعًا مِن أنواعِ التَّنزيلِ، قالَ: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۗ﴾، وهي جُملةٌ فَصَلتِ الكَلامَ السَّابِقَ عن الكَلامِ الآتي بَعدَها؛ قَصدًا لِانتِقالِ الكَلامِ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ، مِثلَ جُملةِ (أمَّا بَعدُ)، وهذا الأُسلوبُ مِنَ الانتِقالِ هو المُسَمَّى في عُرفِ عُلَماءِ الأدَبِ: الاقتِضابَ[1]. وذلك على قولٍ.

- وصَرَّح بالخَبَرِ في قَولِه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۗ﴾؛ لِلاهتِمامِ بتَعيينِ الخَبَرِ، أيْ: هذا شَرَفٌ لهم، وذِكرٌ جَميلٌ يُذْكَرونَ به أبَدًا، أو نَوعٌ مِنَ الذِّكرِ الَّذي هو القُرآنُ، وبابٌ منه مُشتَمِلٌ على أنباءِ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ، وأرادَ أنْ يَذكُرَ على عَقِبِه بابًا آخَرَ، وهو ذِكرُ الجَنَّةِ وأهلِها[2].

- قَولُه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۗ﴾ قيل: المَقصودُ مِنَ المُشارِ إليه التَّذكُّرُ والاقتِداءُ، فلا يَأخُذِ السَّامِعُ اسمَ الإشارةِ مأْخَذَ الفَصلِ المُجرَّدِ والانتِقالِ الاقتِضابيِّ، مع إرادةِ التَّوجيهِ بلَفظِ (ذِكرٌ)، بتَحميلِه مَعنى حُسنِ السُّمعةِ، أيْ: هذا ذِكرٌ لِأولئك المُسَمَّينَ في الآخَرينَ، مع أنَّه تَذكِرةٌ لِلمُقتَدينَ، ومِن هنا احتُمِلَ أنْ تَكونَ الإشارةُ بهذا إلى القُرآنِ، أيْ: القُرآنُ ذِكرٌ؛ فتَكونَ الجُملةُ استِئنافًا ابتِدائيًّا لِلتَّنويهِ بشَأنِ القُرآنِ[3].

- قَولُه: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ المُرادُ بالمُتَّقينَ إمَّا الجِنسُ، وهم داخِلونَ في الحُكمِ دُخولًا أوَّليًّا، وإمَّا المَذكورونَ أنْفُسُهم؛ عَبَّرَ عنهم بذلك مَدْحًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨١).

لهم بالتَّقْوى الَّتي هي الغايةُ القاصيةُ مِنَ الكَمالِ[١].

- واللَّام في ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ لامُ الاختِصاصِ، أيْ: لهم حُسنُ مآبٍ يومَ الجَزاءِ[٢].

- وأظهَرَ الوَصفَ الَّذي أدَّاهم إلى هذا المآبِ؛ تَعميمًا لكُلِّ مَنِ اقتدَى بهم؛ حَثًّا على الاقتِداءِ، فقال: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾

- تَفتيحُ الأبوابِ كِنايةٌ عن التَّمكينِ مِنَ الانتِفاعِ بنَعيمِها؛ لِأنَّ تَفتيحَ الأبوابِ يَستَلزِمُ الإذْنَ بالدُّخولِ، وهو يَستَلزِمُ التَّخليةَ بيْنَ الدَّاخِلِ وبيْنَ الانتِفاعِ بما وراءَ الأبوابِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾

- قَولُه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ استِئنافٌ لِبيانِ حالِهم فيها[٥].

- والاقتِصارُ على ذِكرِ الفاكِهةِ؛ لِلإشعارِ بأنَّ مَطاعِمَهم لِمَحضِ التَّلذُّذِ والتَّفكُّهِ، وليستْ لِلتَّغذِّي وإقامةِ الجِسمِ؛ فإنَّ التَّغذِّيَ لِلتَّحلُّلِ، ولا تَحلُّلَ ثَمَّةَ[٦].

وقيل: المقصودُ مِن ذِكرِ الفاكهةِ التَّنبيهُ بالأدْنى على الأعلَى، يعني: لَمَّا كانت

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٤).

الفاكهةُ حاضرةً أبدًا، كان الإدامُ أَولى بالحضورِ[١].

- والشَّرابُ: اسمٌ للمشروبِ، وغَلَب إطلاقُه على الخَمرِ إذا لم يَكُنْ في الكلامِ ذِكْرٌ للماءِ، وتَنوينُ (شَرَابٍ) هنا لِلتَّعظيم، أيْ: شَرابٍ نَفيسٍ في جِنسِه. قيل: لَمَّا كانتِ الفاكِهةُ يَتَنوَّعُ وَصْفُها بالكَثرةِ، وكَثرَتُها باختِلافِ أنواعِها، وكَثرةِ كُلِّ نَوعٍ منها، ولَمَّا كانَ الشَّرابُ نَوعًا واحِدًا وهو الخَمرُ؛ أُفرِدَ. وقيل: التَّقديرُ: وشرابٌ كثيرٌ، لكنْ حُذِف (كثيرٌ)؛ لدَلالةِ ما قبْلُ، ورعايةً للفاصلةِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾

- إسنادُ ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾ إلى ضَميرِهِنَّ إسنادٌ حَقيقيٌّ، أيْ: لا يُوَجِّهنَ أنظارَهُنَّ إلى غَيرِهم، وذلك كِنايةٌ عن قَصرِ مَحَبَّتِهِنَّ على أزواجِهِنَّ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعنى: أنَّهُنَّ يَقصُرنَ أطرافَ أزواجِهِنَّ عليهِنَّ، فلا تَتوَجَّهُ أنظارُ أزواجِهِنَّ إلى غَيرِهِنَّ؛ اكتِفاءً منهم بحُسنِهِنَّ؛ وذلك كِنايةٌ عن تَمامِ حُسنِهِنَّ في أنظارِ أزواجِهِنَّ بحيث لا يَتعَلَّقُ استِحسانُهم بغَيرِهِنَّ[٣].

- وقَولُه: ﴿أَتْرَابٌ﴾ كأنَّ اللِّدَاتِ[٤] سُمِّينَ أتْرابًا؛ لِأنَّ التُّرابَ مَسَّهُنَّ في وَقتٍ واحِدٍ، وإنَّما جُعِلنَ على سِنٍّ واحِدةٍ؛ لِأنَّ التَّحابَّ بيْنَ الأقرانِ أثبَتُ. وقيلَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٤) اللِّدَات: جمعُ اللِّدَةِ -بالكسر-، وهو الَّذي يولَدُ معك في وقتٍ واحدٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٩/ ٣٢٦).

هُنَّ أترابٌ لِأزواجِهِنَّ، أسنانُهُنَّ كأسنانِهم، أو بَعضُهُنَّ لِبَعضٍ، لا عَجوزَ فيهِنَّ ولا صَبيَّةَ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٩]، والإشارةُ إذَنْ إلى ما سَبَقَ ذِكرُه مِن قَولِه: ﴿لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٩]. وجيءَ باسمِ الإشارةِ القَريبِ ﴿هَٰذَا﴾؛ تَنزيلًا لِلمُشارِ إليه مَنزِلةَ المُشارِ إليه الحاضِرِ؛ إيماءً إلى أنَّه مُحَقَّقٌ وُقوعُه تَبشيرًا لِلمُتَّقينَ[٢].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ في قَولِه: ﴿تُوعَدُونَ﴾ على ظاهِرِه، ويَجوزُ أنْ يَكونَ كَلامًا يُقالُ لِلمُتَّقينَ في الجَنَّةِ، فتَكونَ الجُملةُ مَقولَ قَولٍ مَحذوفٍ، هو في مَحَلِّ حالٍ ثانيةٍ مِنَ (المُتَّقِينَ)، والتَّقديرُ: مَقولًا لهم: هذا ما تُوعَدونَ لِيَومِ الحِسابِ[٣].

- قولُه: ﴿تُوعَدُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ فيه التِفاتٌ مِنَ الغَيبةِ إلى الخِطابِ، وهو أَلْيَقُ بمقامِ الامتِنانِ والتَّكريمِ، وتَشريفِ المُتَّقينَ بعِزِّ الحُضورِ لِخِطابِ اللهِ تَعالى، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الكَلامُ لِلمُتَّقينَ في الجنَّةِ، فالخِطابُ لهم على ظاهِرِه. وقرئ ﴿يُوعَدُونَ﴾ بياءِ الغَيبةِ[٤]، وهو يوافقُ ما قبْلَه مِن الآياتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٨٣، ٢٨٤).

(٤) قرأها بالياءِ للغَيْبةِ: ابنُ كثير، وأبو عَمرٍو، وقرأها الباقون بالتَّاءِ للخِطابِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٤)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٤).

- واللَّامُ في ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ لامُ العِلَّةِ، أيْ: وُعِدتُموه لِأجْلِ يَومِ الحِسابِ، والمَعنى: لِأجْلِ الجَزاءِ يَومَ الحِسابِ؛ فإنَّ الحِسابَ عِلَّةٌ لِلوُصولِ إلى الجَزاءِ، فلَمَّا كانَ الحِسابُ مُؤْذِنًا بالجَزاءِ، جُعِلَ اليَومُ هو العِلَّةَ، وهذه اللَّامُ تُفيدُ مَعنى التَّوقيتِ تَبَعًا، كقَولِه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]؛ تَنزيلًا لِلوَقتِ مَنزِلةَ العِلَّةِ(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ فيه التَّوكيدُ بـ(إنَّ)؛ لِلاهتِمامِ(٢).

- والعُدولُ عن الضَّميرِ إلى اسمِ الإشارةِ في قَولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا﴾؛ لِكَمالِ العِنايةِ بتَمييزِه وتَوجيهِ ذِهنِ السَّامِعِ إليه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٨٤).

## الآيات (٥٥-٦٤)

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ
حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡۖ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ
صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن
قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ
﴿٦٢﴾ أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِلطَّٰغِينَ﴾: أي: الضَّالِّينَ المُتجاوِزينَ الحَدَّ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[1].

﴿فَبِئۡسَ﴾: بئسَ: كلمةٌ موضوعةٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، مستوفيةٌ لجميعِه[2].

﴿ٱلۡمِهَادُ﴾: أي: الفِراشُ والقَرارُ، والمَهدُ: ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ، وأصلُ المهادِ: المكانُ المُمَهَّدُ المُوطَّأُ[3].

﴿حَمِيمٞ﴾: أي: ماءٌ شَديدُ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على الحَرارةِ[4].

﴿وَغَسَّاقٞ﴾: أي: ما يَسيلُ مِن جُلودِ أهلِ النَّارِ، وهو الصَّديدُ، مِن قَولِهم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

غَسَقَتْ عَينُه: إذا انصَبَّتْ، والغَسَقانُ: الانصِبابُ. وقيل: هو الزَّمهريرُ الَّذي انتهَى بَرْدُه، يُحرِقُهم ببَرْدِه كما تُحرِقُهم النَّارُ بحَرِّها[١].

﴿شَكۡلِهِۦٓ﴾: أي: مِثْلِه وضَرْبِه ونَظيرِه، وأصلُ (شكل): يدُلُّ على مُماثَلةٍ[٢].

﴿أَزۡوَٰجٞ﴾: أي: أنواعٌ وأصنافٌ، يُقالُ لِكُلِّ ما يَقترِنُ بآخَرَ مُماثِلًا له أو مُضادًّا: زَوجٌ، وأصلُ (زوج): يَدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[٣].

﴿فَوۡجٞ﴾: أي: فِرقةٌ وجماعةٌ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تَجمُّعٍ[٤].

﴿مُّقۡتَحِمٌ﴾: أي: داخِلٌ كُرهًا، والاقتِحامُ: الدُّخولُ في الشَّيءِ بشِدَّةٍ وصُعوبةٍ، وأصلُ (قحم): يدُلُّ على وُرودِ الشَّيءِ بدونِ رَوِيَّةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٣٩)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٠/ ١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦١).

﴿صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾: أي: مُقاسو حَرِّها وشِدَّتِها، وأصلُ الصلي: الإيقادُ بالنَّارِ[١].

﴿زَاغَتۡ﴾: أي: عدَلتْ ومالَتْ، وأصلُ الزيغِ: المَيلُ عن الاستقامةِ[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ﴾

﴿هَٰذَا﴾: مُبتدَأٌ، وفي الخبَرِ وَجهانِ؛ أحدُهما: ﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾، و﴿حَمِيمٞ﴾ بدَلٌ مِن ﴿هَٰذَا﴾، أو خبَرُ مُبتَدأٍ مَحذوفٍ، أي: هو حَميمٌ، أو مُبتدأٌ وخبَرُه محذوفٌ، أي: مِنه حَميمٌ وغَسَّاقٌ، أو خبرٌ ثانٍ لـ﴿هَٰذَا﴾. والوَجهُ الثَّاني: أن يكونَ ﴿حَمِيمٞ﴾ خبَرَ ﴿هَٰذَا﴾، و﴿فَلۡيَذُوقُوهُ﴾ مُعتَرِضٌ بَيْنَهما لا محلَّ له. وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ في مَوضِعِ نَصبٍ على الاشتِغالِ بفِعلٍ مَحذوفٍ يُفسِّرُه المذكورُ، أي: فلْيَذوقوا هذا، ثمَّ استأنفَ فقال: ﴿حَمِيمٞ﴾ أي: هو حَميمٌ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ﴾

قَولُه: ﴿تَخَاصُمُ﴾ فيه أوجُهٌ:

**أحدُها**: أنَّه بَدَلٌ مِن (حَقٌّ)، أو عَطفُ بَيانٍ.

**الثَّاني**: أنَّه خبَرٌ ثانٍ لـ﴿إِنَّ﴾.

**الثَّالِثُ**: أنَّه خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هو تُخاصُمُ، والجملةُ بيانٌ لاسمِ الإشارةِ،

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٨٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٣٤).

وقيل غيرُ ذلك[١].

## المعنى الإجماليُّ:

بعدَما انتهى الحديثُ عن المؤمِنينَ وحُسنِ عاقِبتِهم؛ شَرَع تعالى يُبَيِّنُ حالَ الكافِرينَ وسُوءَ مُنقَلَبِهم، فقال: هذا الَّذي ذُكِرَ مِن الجزاءِ هو شأنُ المتَّقينَ، وإنَّ لِلَّذين تَجاوَزوا حُدودَ اللهِ بالكُفرِ والعِصيانِ لَشَرَّ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ؛ جهنَّمَ يَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها؛ فبِئسَ الفِراشُ هي، هذا هو عَذابُنا الَّذي أعدَدْناه لهم؛ ماءٌ بالِغُ الحَرارةِ، وقَيحٌ وصَديدٌ يَسيلانِ مِن أجسادِهم، فلْيَذوقوه، ولهم عَذابٌ آخَرُ على شاكِلةِ الحَميمِ والغَسَّاقِ يُعذَّبونَ به.

ثمَّ حكَى سُبحانَه أنَّه يُقالُ: هذا جَمعٌ كَثيرٌ مِن أتْباعِكم وإخوانِكم داخِلونَ معكم النَّارَ لا مَرحَبًا ولا أهلًا بهم؛ إنَّهم داخِلونَ النَّارَ، ومُقاسُونَ حَرَّها!

فقال الفَوجُ الدَّاخِلونَ في النَّارِ: بل أنتم لا مَرحبًا بكم؛ إذ دَعَوْتُمونا في الدُّنيا إلى الكُفرِ فاتَّبَعْناكم؛ فتَسبَّبْتُم لنا في دُخولِ النَّارِ معكم، فبِئسَ القَرارُ والمَنزِلُ لنا ولكم: جَهنَّمُ!

ثمَّ قال الأتْباعُ: ربَّنا مَن أضَلَّنا في الدُّنيا فكان سَبَبًا في دُخولِنا النَّارَ، فضاعِفْ له العذابَ فيها.

وقال أولئك الطَّاغون: ما بالُنا لا نرَى معنا رِجالًا مِن فُقَراءِ المؤمِنينَ كُنَّا نَعُدُّهم في الدُّنيا أشرارًا، أكان تحقيرُنا إيَّاهم في الدُّنيا وسخريتُنا واستهزاؤُنا منهم خطأً وما دخَلوا النارَ معَنا؟ أمْ دخَلوها ولكِنْ أبصارُنا لا تَراهم وزاغَت عنهم؟!

ثمَّ يقولُ تعالى مؤكِّدًا ما أخبَر به، وهو أصدَقُ القائلينَ: إنَّ ذلك الَّذي

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٣٩٤).

قصَصْناه مِن تخاصُمِ أهلِ النَّارِ فيما بيْنَهم وتلاعُنِهم: حَقٌّ لا شَكَّ فيه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف ثوابَ المتَّقينَ، وصَفَ بَعدَه عِقابَ الطَّاغينَ؛ لِيَكونَ الوَعيدُ مَذكورًا عَقِيبَ الوَعدِ، والتَّرهيبُ عَقيبَ التَّرغيبِ[1].

﴿ هَٰذَاۚ ﴾.

أي: هذا الَّذي ذُكِرَ مِن الجزاءِ هو شَأنُ المتَّقينَ[2].

﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴾.

أي: وإنَّ لِلَّذين لم يَصبِروا على ما أُمِروا به، واجتِنابِ ما نُهُوا عنه، فتَجاوَزوا حُدودَ اللهِ بالكُفرِ والظُّلمِ ومَعصيةِ اللهِ تعالى: لَشَرَّ مَرجِعٍ يَصيرونَ إليه في الآخِرةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٣).

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ جُزَي، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال البِقاعي: (﴿ هَٰذَاۚ ﴾ أي: الأمرُ العظيمُ الَّذي هو جديرٌ بأن يُجعَلَ نُصبَ العَينِ، وهو أنَّه لكُلٍّ مِن الفريقَينِ ما ذُكِرَ وإنْ أنكَرَه الكَفَرةُ. وحَذفُ الخبَرِ بعدَ إثباتِه في الأوَّلِ أهْوَلُ؛ لِيَذهَبَ الوَهمُ فيه كُلَّ مَذهَبٍ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: وهو جَهنَّمُ، فيَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها، فبِئسَ الفِراشُ الَّذي افتَرَشوه لأنفُسِهم في الآخِرةِ؛ بسَبَبِ طُغيانِهم في الدُّنيا[1].

﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾.

أي: هذا ماءٌ بالِغُ الحَرارةِ، وصديدٌ يَسيلُ مِن أجسادِ أهلِ النَّارِ، فلْيَذوقُوه[2]!

---

= (٧/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٣).

وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ المرادَ بالطَّاغينَ هنا: عُظَماءُ أهلِ الشِّركِ؛ لأنَّهم تكبَّروا بعظَمتِهم على قَبولِ الإسلامِ، وأعرَضوا عن دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بكِبرٍ واستِهزاءٍ، وحَكَموا على عامَّةِ قَومِهم بالابتِعادِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن المُسلِمينَ، وعن سَماعِ القُرآنِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٣، ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٦).

ممَّن اختار أنَّ في الآية تقديمًا وتأخيرًا، أي: هذا حميمٌ وغسَّاقٌ فلْيَذوقوه: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٦)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٥).

وقال الفَرَّاءُ بعدَ أن ذكَرَ الوجهَ السَّابقَ: (وإن شِئتَ جعَلْتُه مُستأنَفًا، وجعلْتَ الكلامَ قبْلَه مكتفيًا، كأنَّك قُلْتَ: هذا فلْيَذوقوه، ثمَّ قلتَ: منه حميمٌ ومنه غَسَّاقٌ). ((معاني القرآن)) (٢/ ٤١٠).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٠).

وقال الماوَرْديُّ: (﴿ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ أي: منه حميمٌ ومنه غسَّاقٌ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠٦).

ويُنظر ما تقدَّم في مُشكِلِ الإعرابِ (ص: ٢٤٥). =

﴿وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ٥٨﴾.

أي: ولهم عَذابٌ آخَرُ مِن نحوِ الحَميمِ والغَسَّاقِ، وعلى شاكِلتِه، ذو أنواعٍ وأصنافٍ يُعذَّبونَ بها[1].

---

= وممَّن اختار أنَّ الغَسَّاقَ هو ما يَسيلُ مِن صديدِ أهلِ النَّارِ: ابنُ جرير، وابنُ جُزَي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٦).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعبدُ الله بنُ عَمرٍو، وقَتادةُ، وإبراهيمُ، وابنُ زَيدٍ، وعطيَّةُ العَوفيُّ، وأبو رَزينٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ١٩٩).

قال السعدي: (هو أكْرَهُ ما يكونُ مِن الشَّرابِ، مِن قَيحٍ وصَديدٍ، مُرِّ المذاقِ، كَريهِ الرَّائِحةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥).

وقيل: الغَسَّاقُ ضِدُّ الحميم، فهو البارِدُ الَّذي لا يُستطاعُ؛ مِن شِدَّةِ بَردِه المؤلِم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٧٩).

قال ابنُ عاشور: (الغَسَّاقُ: سائِلٌ يَسيلُ في جَهنَّمَ، وأحسَبُ أنَّ هذا الاسمَ بهذا الوزنِ أطلَقَه القرآنُ على سائلٍ كَريهٍ يُسقَونَه، كقَولِه: ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ﴾ [الكهف: ٢٩]، وأحسَبُ أنَّه لم تكُنْ هذه الزِّنةُ مِن هذه المادَّةِ مَعروفةً عندَ العَرَبِ، وبذلك يُومئُ كلامُ الرَّاغِبِ، وهذا سَبَبُ اختلافِ المفَسِّرينَ في المرادِ منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٦).

وذهب البِقاعي إلى جميعِ هذه المعاني وغيرِها، فعَرَّف الغَسَّاق بأنَّه سائِلٌ مُنتِنٌ عَظيمٌ جِدًّا، بارِدٌ أسْوَدُ مُظلِمٌ شَديدٌ في جميعِ هذه الصِّفاتِ مِن صَديدٍ ونَحوِه. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣١ - ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٧). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣ - ٤٦].

وعن أبي هُرَيرةَ رضي اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المَيِّتُ تَحضُرُه الملائِكةُ، فإذا كان الرَّجُلُ صالحًا قالوا: اخرُجي أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ... وإذا كان الرَّجُلُ السَّوءُ قال: اخرُجي أيَّتُها النَّفْسُ الخَبيثةُ كانت في الجَسَدِ الخَبيثِ، اخرُجي ذميمةً، وأبْشِري بحَميمٍ وغَسَّاقٍ وآخَرَ مِن شَكلِه أزواجٍ، فلا يَزالُ يُقالُ لها ذلك حتَّى تَخرُجَ، ثمَّ يُعرَجُ بها إلى السَّماءِ، فلا يُفتحُ لها، فيُقالُ: مَن هذا؟ فيُقالُ: فُلانٌ، فيُقالُ: لا مَرحبًا بالنَّفْسِ الخَبيثةِ كانت في الجسَدِ الخَبيثِ، ارجِعي ذَميمةً؛ فإنَّها لا تُفتَّحُ لكِ أبوابُ السَّماءِ، فيُرسَلُ بها مِنَ السَّماءِ، ثمَّ تَصيرُ إلى القَبرِ))(١).

﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾﴾.

---

= قال ابنُ جُزَي: (﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ (آخرُ) مَعطوفٌ على ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾، تقديرُه: وعذابٌ آخَرُ. قيل: يعني الزَّمهريرَ، ومعنى ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ مِن مِثلِه ونَوعِه، أي: مِن مِثلِ العَذابِ المذكورِ، و﴿أَزْوَٰجٌ﴾ معناه أصنافٌ، وهو صِفةٌ للحَميمِ والغَسَّاقِ والعذابِ الآخَرِ، والمعنى: أنَّهما أصنافٌ مِن العذابِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١١).

وقال ابن كثير: (أَمَّا الحميمُ فهو: الحارُّ الَّذي قد انتهَى حَرُّه، وأمَّا الغَسَّاقُ فهو: ضِدُّه، وهو البارِدُ الَّذي لا يُستطاعُ مِن شِدَّةِ بردِه المؤلِمِ؛ ولهذا قال: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ أي: وأشياءُ مِن هذا القبيلِ، الشَّيءُ وضِدُّه يُعاقَبونَ بها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٨).

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٤٢)، وابن ماجه (٤٢٦٢) واللفظ له، وأحمد (٨٧٦٩).

صَحَّح الحديثَ الذهبيُّ في ((العرش)) (٢٩)، وابنُ القيِّم في ((الروح)) (٢/ ٥٨٩)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢٦٢). وصَحَّح إسنادَه ابنُ جرير في ((تهذيب الآثار- مسند عمر)) (٢/ ٤٩١، ٥٠٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف مَسْكَنَ الطَّاغِينَ ومَأكولَهم؛ حكَى أحوالَهم مع الَّذين كانوا أحِبَّاءَ لهم في الدُّنيا أوَّلًا، ثمَّ مع الَّذين كانوا أعداءً لهم في الدُّنيا ثانيًا[1].

﴿هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾.

أي: هذه جَماعةٌ كَبيرةٌ مُقتَحِمونَ النَّارَ مَعكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٨).

قيل: القائِلُ لهم ذلك: هم ملائِكةُ العذابِ (خزنة النَّار- الزَّبانِيَة). وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطية، وابن الجوزي، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١١)، ))تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَوۡجٞ﴾ هذا قولُ الزَّبانيةِ للقادةِ المتقدِّمينَ في الكفرِ إذا جاؤوهم بالأتْباعِ. وقيل: بل هو قولُ الملائكةِ لأهلِ النَّارِ كلَّما جاؤوهم بأمَّةٍ بعدَ أُمَّةٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٠).

وقيل: هذا مِن كلامِ أهلِ النَّارِ بعضِهم لبعضٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٧).

واختار ابنُ كثير أنَّ هذا الكلامَ تقولُه الطَّائفةُ الَّتي تدخلُ قبْلَ الأخرَى إذا أقْبَلَتِ الَّتي بعدَها مع الخَزَنةِ مِن الزَّبانيةِ.

واختار ابنُ عاشور أنَّ هذا الكلامَ يقولُه الطَّاغونَ بعضُهم لبعضٍ.

والمرادُ بالفَوجِ المُقتَحِمِ: قيل: الأتْباعُ، والضَّميرُ في ﴿مَّعَكُمۡ﴾ يعودُ إلى رؤسائِهم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطية، وابن الجوزي، وابن جُزَي، والبِقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٧). =

﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾.

أي: لا اتَّسَعَت مَداخِلُهم ومَنازِلُهم في النَّارِ؛ إنَّهم داخِلوها ومُقاسُونَ حَرَّها[1].

---

= وقال مكِّي: (ثمَّ قال تعالى: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ أي: هذه فِرقةٌ مقتحمةٌ معكم في النَّارِ، وذلك دُخولُ أمَّةٍ مِن الكفَّارِ بعدَ أمَّةٍ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٢٧٨).

قال الماوَرْديُّ: (وفي الفَوجِ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّهم بنو إبليسَ. والثَّاني: بنو آدمَ، قاله الحسَنُ. والقولُ الثَّاني: أنَّ كِلا الفَوجَينِ بنو آدَمَ، إلَّا أنَّ الأوَّلَ الرُّؤساءُ، والثَّانيَ الأتْباعُ. وحكى النَّقَّاشُ أنَّ الفَوجَ الأوَّلَ قادةُ المشركينَ ومُطعِموهم يومَ بَدرٍ، والفَوجَ الثَّانيَ أتْباعُهم ببَدرٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٠٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٤، ١٣٥)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٣)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩).

قال ابن جُزَي: (﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ أي: لا يَلْقَون رُحْبًا ولا خيرًا، وهو دعاءٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ هذا مِن قولِ السَّادةِ والرُّؤساءِ والقادةِ الطَّاغينَ الَّذينَ كانوا قد دَخَلوا النَّارَ قبْلَ هذا الفَوجِ المُقتحِمِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي، والزمخشري، والنسفي، وابن جزي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني (٤/ ٥٠٧).

وممَّن اختار أنَّه مِن قولِ بعضِ أهلِ النَّارِ لبعضٍ (المتقدِّمينَ في النَّارِ للدَّاخِلينَ عليهم): مكِّي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

وقيل: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ هو مِن تمام كلام الخَزَنةِ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢).

وممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ مِن كلامِ الخَزَنةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢).

وممَّن اختار أنَّه مِن كلامِ السَّادةِ والرُّؤساءِ والقادةِ: الثعلبيُّ، والواحدي، والزمخشري، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٤)، ((الوجيز)) للواحدي =

﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾.

أي: قال لهم الفَوجُ الدَّاخِلونَ النَّارَ: بل[1] أنتم لا اتَّسَعَتْ بكم أماكِنُكم؛ فأنتم دَعَوْتُمونا في الدُّنيا إلى الضَّلالِ الَّذي أفضَى بنا في الآخِرةِ إلى هذا المصيرِ[2]!

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾.

أي: فبِئسَ المُستَقَرُّ النَّارُ[3].

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾﴾.

أي: وقال الأتْباعُ: ربَّنا مَن أضَلَّنا في الدُّنيا فكان سَبَبًا في استِحقاقِنا عذابَ النَّارِ، فضاعِفْ له العذابَ فيها زيادةً على عَذابِه[4].

---

= (ص: ٩٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٧).

(١) قال ابنُ عاشور: (﴿بَلْ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ؛ لِرَدِّ الشَّتمِ عليهم، وأنَّهم أَولى به منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٥)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

قال ابن عاشور: (﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾... أي: أنتم أَولى بالشَّتمِ والكراهيةِ بأن يُقالَ: لا مَرحبًا بكم؛ لأنَّكم الَّذين تَسبَّبْتُم لأنفُسِكم ولنا في هذا العذابِ، بإغرائِكم إيَّانا على التَّكذيبِ والدَّوامِ على الكُفرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٨، ٢٨٩).

قال ابن جُزَي: (الضَّمير في ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ للعذابِ، ومعنى ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾: أوجَبْتُموه لنا بما قدَّمْتُم في الدُّنيا مِن إغوائِنا، وأمْرِكم لنا بالكفرِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٤)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) =

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ٦٢﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعدَ أن شَرَح أحوالَ الكُفَّارِ مع الَّذين كانوا أحبابًا لهم في الدُّنيا؛ شَرَح أحوالَهم مع الَّذين كانوا أعداءً لهم في الدُّنيا[1].

﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ٦٢﴾.

أي وقال الطَّاغُونَ: ما بالُنا لا نَرى مَعَنا رِجالًا كُنَّا نَعُدُّهم في الدُّنيا أشرارًا[2]

---

= للبقاعي (١٦/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩١).

قال ابنُ القيِّم: (يجوزُ أن يكونَ الأتْباعُ دَعَوا على سادتِهم وكُبَرائِهم وأئمَّتِهم به؛ لأنَّهم هم الَّذين حَمَلوهم عليه، ودَعَوهم إليه، ويجوزُ أن يكونَ جَميعُ أهلِ النَّارِ سألوا ربَّهم أن يَزيدَ مَن سَنَّ لهم الشِّركَ وتكذيبَ الرُّسُلِ -صلَّى اللهُ عليهم وسلَّم- ضِعفًا، وهم الشَّياطينُ). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٧٤).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، والبقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٨).

ونسَب ابنُ الجوزيِّ إلى ابنِ السَّائبِ: أنَّه قولُ جميعِ أهلِ النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٥).

(٢) قال ابنُ عاشور: (أي: كنَّا نَحْسَبُهم أشقياءَ قد خَسِروا لَذَّةَ الحياةِ باتِّباعِهم الإسلامَ، ورِضاهم بشَظَفِ العيشِ، وهم يَعنُونَ أمثالَ بلالٍ، وعمَّارِ بنِ ياسرٍ، وصُهَيبٍ، وخَبَّابٍ، وسَلمانَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٢).

وممَّن قال بأنَّهم يَعْنون: مُستضعَفي المؤمنينَ: ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢).

وقال البِقاعي: ﴿مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ أي: الأراذلِ الَّذين لا خيرَ فيهم بأنَّهم قد قطعوا الرَّحِمَ، وفرَّقوا بيْنَ العشيرةِ، وأفسَدوا ذاتَ البَينِ، وغيَّروا الدِّينَ بكَونِهم لا يَزالون يُخالِفون النَّاسَ في أقوالِهم =

لا خَلاقَ لهم، يَعنُونَ بذلك المؤمنينَ[١]؟!

﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

أ- قولُه: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ ﴾ فيه قراءتانِ:

١- قِراءةُ: ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بوَصلِ الهَمزةِ، فتَكونُ جُملةً خَبريَّةً، أي: إنَّا اتَّخَذْناهم سِخْرِيًّا[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ ﴾ بقَطعِ الهَمزةِ على الاستِفهامِ، بمعنى: هل اتَّخَذْناهم سِخْريًّا، ولم يكونوا كذلك[٣]؟!

---

= وأفعالِهم، مع ما كانوا فيه مِن الضَّعفِ والذُّلِّ والهَوانِ وسوءِ الحالِ في الدُّنيا، فيَظُنُّ أهلُها نقْصَ حظِّهم منها، وكثرةَ مصائبهم فيها لسوءِ حالِهم عندَ الله!). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤١٠).

وقال ابنُ عطيَّة: (الضَّميرُ في: «قَالُوا» لأشرافِ الكُفَّارِ ورُؤَسائِهم، أخبَرَ اللهُ عنهم أنَّهم يَتذكَّرونَ إذا دخَلوا النَّارَ لِقَومٍ مِن مُستَضعَفي المؤمنينَ، فيقولونَ هذه المقالةَ، وهذا مُطَّرِدٌ في كُلِّ أمَّةٍ جاءَها رَسولٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وشِمْرُ بنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٠١).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بهم المؤمِنونَ دونَ أن يَخصُصَهم بالمُستَضعَفينَ منهم: ابنُ كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو، وحمزةُ، والكِسائيُّ، ويعقوبُ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١، ٣٦٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦١، ٣٦٢). =

ب- قولُه: ﴿سِخْرِيًّا﴾ فيه قراءتانِ:

١- قِراءةُ: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضَمِّ السِّينِ. قيل: مِنَ السُّخرةِ والاستِخدامِ. وقيل: هي بمعنى الاستِهزاءِ كالقِراءةِ الأُخرى(١).

٢- قِراءةُ: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكَسرِ السِّينِ. بمعنى: الاستِهزاءِ(٢).

﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: أكان تحقيرُنا إيَّاهم في الدُّنيا وسخريتُنا واستهزاؤُنا منهم خطأً؛ فلم يَكونوا كذلك، وما دخَلوا النَّارَ معَنا، أم مالَتْ عنهم أبصارُنا، فلا نَراهم وهم في النَّارِ قد دخَلوها معَنا(٣)؟

---

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢).

(١) قرأ بها نافعٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٢٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢٦، ١٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٨/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).
قال ابنُ عطيةَ: (﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ بألِفِ الاستفهامِ، ومعناها: تقريرُ أنفُسِهم على هذا على جهةِ التَّوبيخِ لها والأسَفِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥١). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقّٞ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤﴾.

أي: إنَّ ذلك الَّذي ذُكِر مِن مُراجَعاتِ أهلِ النَّارِ فيما بيْنَهم، ودُعاءِ بَعضِهم على بَعضٍ: لَحَقٌّ وصِدقٌ ثابِتٌ لا بُدَّ أن يقَعَ يومَ القيامةِ كما أخبَرَ اللهُ تعالى عنهم[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ مع قَولِه سُبحانَه: ﴿هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ أنَّ الأفضلَ للدَّاعِيةِ أنْ يَجعَلَ دَعوتَه مُشتَمِلةً على التَّرغيبِ والتَّرهيبِ؛ وذلك لأنَّ الدَّعوةَ إذا كانت مُقتَصِرةً على التَّرغيبِ صارتْ

---

= قال ابن جزي: (﴿أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ هذا يحتمِلُ ثلاثةَ أوجهٍ:

أحدُها: أنْ يكونَ معادلًا لقولِهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا﴾، والمعنى: ما لنا لا نراهم في جهنَّمَ، فهم ليسوا فيها، أم هم فيها ولكِنْ زاغَتْ عنهم أبصارُنا؟ ومعنى ﴿زَاغَتۡ عَنۡهُمُ﴾ مالت فلم نرَهم.

الثاني: أنْ يكونَ معادلًا لقولِهم: ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ والمعنى: أتَّخذناهم سخريًّا. و«أم زاغت الأبصار» على هذا: مالت عن النَّظرِ إليهم احتقارًا لهم.

الثالث: أنْ تكونَ «أم» منقطعةً بمعنى «بل والهمزةِ» فلا تعادلُ شيئًا مما قبلَها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٣، ٢٩٤).

قيل: أهلُ النَّارِ هنا هم الخالِدونَ فيها، كقَولِهم: أهلُ قريةِ كذا؛ فإنَّه لا يَشملُ المغتربَ بيْنَهم، وأنَّه وقتَ نُزولِ هذه الآيةِ لم يكُنْ في مكَّةَ غَيرُ المُسلمينَ الصَّالحينَ، وغيرُ المُشرِكين، فوصْفُ أهلِ النَّارِ يومَئذٍ لا يَتحقَّقُ إلَّا في المُشرِكينَ دونَ عُصاةِ المُسلِمينَ. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٤).

سَبَبًا للأمْنِ مِن مَكرِ اللهِ، وأنْ يَتمادَى الإنسانُ في مَعصيةِ اللهِ ويَرجو اللهَ، وإذا كانت مُقتصِرةً على التَّرهيبِ صارتْ سَبَبًا للقُنوطِ مِن رَحمةِ اللهِ، واستِبعادِ الرَّحمةِ، وهذا ضَرَرٌ، بل ينبغي أنْ يكونَ الدَّاعِيةُ جامِعًا بيْنَ هذا وهذا؛ لِيَحْمِلَ النَّاسَ على الرَّجاءِ وعلى الخَوفِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ ﴾ أنَّ هذا الخِصامَ الَّذي يَقَعُ بيْنَ أهلِ النَّارِ حَقٌّ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّه يجبُ على كلِّ أحدٍ ألَّا يَغتَرَّ بالسَّادةِ والمَتبوعِينَ، بل يكونُ هَمُّه نَفْسَه(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- كمالُ القُرآنِ في التَّعليمِ والتَّبليغِ، وأنَّه مَثانٍ؛ إذا ذَكَر المتَّقينَ وثَوابَهم ذَكَر المجرِمينَ وعِقابَهم؛ ولهذا قال: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾، الطَّاغون ضِدُّ المتَّقينَ؛ لهم شَرُّ مآبٍ(٣).

٢- في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴾ أنَّ أهلَ النَّارِ يَتذَكَّرونَ ما جَرَى لهم في الدُّنيا(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ أنَّ الأتْباعَ والمتبوعِينَ مِن أهلِ النَّارِ كلَّهم يَكونونَ في النَّارِ، فلا يُعذَرُ هؤلاء بتبَعيَّتِهم للسَّادةِ والكُبَراءِ، ولكِنْ هذا ليس على إطلاقِه؛ فإنَّه قد دَلَّتِ النُّصوصُ على أنَّه لا يُعَذَّبُ أحَدٌ حتَّى تقومَ عليه الحُجَّةُ، وعلى هذا فيُحمَلُ الأتْباعُ هنا على الأتْباعِ الَّذين بَلَغَتْهم الحُجَّةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٤).

وبَلَّغَتْهم الرُّسُلُ، ولكنْ قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ ولهذا قال تعالى في سورةِ (الأحزابِ): ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ۞ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ۞ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦ - ٦٨]؛ فدلَّ هذا على أنَّ هؤلاءِ الأتْباعَ قد قامتْ عليهمُ الحُجَّةُ؛ ولهذا يَقولونَ: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ مُستَعمَلٌ في الانتِقالِ مِن غَرَضٍ إلى غَرَضٍ؛ تَنهيةً لِلغَرَضِ الَّذي قَبْلَه. واسمُ الإشارةِ (هذا) في هذا المَقامِ مِنَ الفَصلِ الَّذي هو خَيرٌ مِنَ الوَصلِ، وهي عَلاقةٌ وَكيدةٌ بيْنَ الخُروجِ مِنَ الكَلامِ إلى كَلامٍ آخَرَ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾

- جُملةُ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ حالٌ مِن ﴿جَهَنَّمَ﴾، مُؤكِّدةٌ لِمَعنى اللَّامِ الَّذي هو عامِلٌ في (الطَّاغِينَ)؛ فإنَّ معنى اللَّامِ أنَّهم تَختَصُّ بهم جَهنَّمُ، واختِصاصُها بهم هو ذَوقُ عَذابِها؛ لِأنَّ العَذابَ ذاتيٌّ لِجَهنَّمَ[٣].

- والفاءُ في ﴿فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ لِتَرتيبِ الإخبارِ وتَسَبُّبِه على ما قَبْلَه، والمَعنى: جَهنَّمَ يَصلَوْنها، فيَتسَبَّبُ على ذلك أنْ نَذكُرَ ذَمَّ هذا المَقرِّ لهم، وهذا استِعمالٌ بَديعٌ كَثيرٌ في القُرآنِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والْمِهادُ: المَهدُ والمُفترَشُ، شَبَّهَ ما تَحتَهم مِنَ النارِ بالمِهادِ الَّذي يَفترِشُه النَّائِمُ، والمَخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ، وهو جَهنَّمُ؛ لِقَولِه: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾[1] [الأعراف: ٤١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾

- قوله: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ إشارةُ القَريبِ ﴿هَٰذَا﴾ لِتَقريبِ الإنذارِ[2].

- و(غَسَّاقٌ) بالتَّشديدِ مُبالَغةٌ في (غاسِقٌ)، بمَعنى سائِلٍ، وصِيغَ له هذا الوَزنُ؛ لِيَكونَ اسْمًا لِشَيءٍ يُشبِهُ ما يَغسِقُ به الجُرحُ[3]؛ ولذلك سُمِّيَ المُهلَ والصَّديدَ في آياتٍ أُخرى[4].

- وجُملةُ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾ مُعتَرِضةٌ بيْنَ اسمِ الإشارةِ والخَبَرِ عنه -على أحدِ الأقوالِ-، وهذا مِنَ الاعتِراضِ المُقتَرِنِ بالفاءِ دُونَ الواوِ، والفاءُ فيه؛ لِتَرتيبِ الإخبارِ وتَسَبُّبِه على ما قَبْلَه[5].

- وقولُه: ﴿وَءَاخَرُ﴾ صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ دَلَّتْ عليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿هَٰذَا﴾ وضَميرُ ﴿فَلْيَذُوقُوهُ﴾، ووَصْفُ (آخَرُ) يدُلُّ على مُغايِرٍ، وقَولُه: ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ يدُلُّ على أنَّه مُغايِرٌ له بالذَّاتِ، ومُوافِقٌ في النَّوعِ؛ فحَصَل مِن ذلك أنَّه عَذابٌ آخَرُ، أو مَذوقٌ آخَرُ مِن شَكلِ هذا المَذوقِ مِن مِثلِه في الشِّدَّةِ والفَظاعةِ. وتَوحيدُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ مع أنَّ مُعادَه ﴿حَمِيمٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٦).

(٣) غَسَق الجرحُ: أي: سالَ منه ماءٌ أصفرُ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٨٦، ٢٨٧).

وَغَسَّاقٌ ﴾، على أنَّه لِمَا ذُكِرَ، أو لِلشَّرابِ الشَّامِلِ لِلحَميمِ والغَسَّاقِ، أو لِلغَسَّاقِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴾ هذا ابتِداءُ كَلامٍ حُكيَ به تَخاصُمُ المُشرِكينَ في النَّارِ فيما بَيْنَهم إذا دَخَلوها، كما دَلَّ عليه قَولُه تعالى في آخِرِه: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ [ص: ٦٤]، وجَرَيانُه بَيْنَهم لِيَزدادوا مَقْتًا؛ بأنْ يُضافَ إلى عَذابِهمُ الجُسمانيِّ عَذابُ أنْفُسِهم برُجوعِ بَعضِهم على بَعضٍ بالتَّنديمِ وسُوءِ المُعامَلةِ، وأُسلوبُ الكَلامِ يَقتَضي مُتكَلِّمًا صادِرًا منه، وأُسلوبُ المُقاوَلةِ يَقتَضي أنَّ المُتكَلِّمَ به همُ الطَّاغونَ الَّذين لهم شَرُّ المآبِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِأنَّهم أساسُ هذه القَضيَّةِ، فالتَّقديرُ: يَقولونَ -أي: الطَّاغونَ- بَعضُهم لِبَعضٍ: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾، أيْ: يَقولونَ مُشيرينَ إلى فَوجٍ مِن أهلِ النَّارِ أُقحِمَ فيهم، ليسوا مِن أكْفَائِهم ولا مِن طَبَقَتِهم، وهم فَوجُ الأتْباعِ مِنَ المُشرِكينَ الَّذين اتَّبَعوا الطَّاغينَ في الحياةِ الدُّنيا، وذلك ما دَلَّ عليه قَولُه: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ [ص: ٦٠]، أيْ: أنتم سَبَبُ إحضارِ هذا العَذابِ لنا(٢).

- قولُه: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ﴾ الاقتِحامُ: الدُّخولُ في النَّاسِ، و(مع) مُؤْذِنةٌ بأنَّ المُتَكلِّمينَ مَتبوعونَ، وأنَّ الفَوجَ المُقتَحِمَ أتْباعٌ لهم، فأُدخِلوا فيهم مُدخَلَ التَّابِعِ مع المَتبوعِ بعَلاماتٍ تُشعِرُ بذلك(٣).

- وقولُه: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ ﴾ دُعاءٌ منهم على أتْباعِهم، وهي جُملةٌ مُعتَرِضةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٨٨).

مُستَأنَفةٌ لِإنشاءِ ذَمِّ الفَوجِ، و ﴿لَا مَرْحَبًا﴾ نَفيٌ لِكَلِمةٍ يَقولُها المَزورُ لِزائِرِه، وهي إنشاءُ دُعاءِ الوافِدِ، فإذا أرادوا كَراهيةَ الوافِدِ والدُّعاءَ عليه قالوا: لا مَرحَبًا به، كأنَّهم أرادوا النَّفيَ بمَجموعِ الكَلِمةِ. قيل: إنَّما قالوا ذلك؛ لِأنَّهم كَرِهوا أنْ يَكونوا هم وأتْباعُهم في مَكانٍ واحِدٍ، جَريًا على خُلُقِ جاهِلِيَّتِهم مِنَ الكِبرياءِ واحتِقارِ الضُّعَفاءِ[1]. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ هي مِن إتمامِ كَلامِ الخَزَنةِ بطَريقِ الدُّعاءِ على الفَوجِ بضِيقِ المَكانِ. أو صِفةٌ لِلفَوجِ. أو حالٌ منه، أيْ: مَقولٌ -أو مَقولًا- في حَقِّهم: ﴿لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾، أيْ: لا أتَوْا مَرحَبًا، أو لا رَحُبَتْ بهمُ الدَّارُ مَرحَبًا[2]، و﴿بِهِمْ﴾ بَيانٌ لِلمَدعُوِّ عليهم، أيْ: بَيانٌ لِمَن وُجِّهَ الدُّعاءُ لهم، أيْ: إيضاحًا لِلسَّامِعِ أنَّ الدُّعاءَ على أصحابِ الضَّميرِ المَجرورِ بالباءِ، فكانتِ الباءُ فيه لِلتَّبيينِ[3].

- وقَولُه: ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ قيل: هو تَعليلٌ مِن جِهةِ الخَزَنةِ لِاستِحقاقِهمُ الدُّعاءَ عليهم، أو وَصْفَهم بما ذُكِر[4]. وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ هي خَبَرٌ ثانٍ عن اسمِ الإشارةِ، والخَبَرُ مُستعمَلٌ في التَّضَجُّرِ منهم، أيْ: إنَّهم مُضايقونَنا في مَضيقِ النَّارِ، كما أوْمَأ إليه قَولُهم: ﴿مُّقْتَحِمُونَ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾[5].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾، أيْ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٩).

قال الفَوجُ: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾، وهو رَدٌّ على الرُّؤَساءِ ما دَعَوْا به عليهم، وعَلَّلوا ذلك فذَكَروا أنَّ ما وَقَعوا فيه مِنَ العَذابِ وصَلْيِ النارِ، إنَّما هو بما ألقَيتُم إلينا وزَيَّنتُموه مِنَ الكُفرِ، فكَأنَّكم قَدَّمتُم لنا العَذابَ أو الصَّلْيَ. وإذا كان ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ﴾ مِن كَلامِ الخَزَنةِ، فلمْ يَجِئِ التَّركيبُ: قالوا: بل هؤلاء لا مَرحَبًا بهم، بل جاءَ بخِطابِ الأتْباعِ لِلرُّؤساءِ؛ لِتَكونَ المُواجَهةُ لِمَن كانوا لا يَقدِرونَ على مُواجَهَتِهم في الدُّنيا بقَبيحٍ، أشْفَى لِصُدورِهم -حيث تَسَبَّبوا في كُفرِهم-، وأنْكى لِلرُّؤَساءِ[1].

- وجيءَ بحِكايةِ قَولِهم على طَريقةِ المُحاوَراتِ؛ فلذلك جُرِّدَ مِن حَرفِ العَطفِ؛ فقولُه: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾، أيْ: فسَمِعَهم الأتْباعُ فقالوا: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾؛ إضرابًا عن كَلامِهم. وحَرفُ ﴿بَلۡ﴾ لِلإضْرابِ الإبطاليِّ؛ لِرَدِّ الشَّتمِ عليهم، وأنَّهم أَوْلى به منهم[2].

- وذُكِر ضَميرُ المُخاطَبينَ في قَولِه: ﴿أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ لِلتَّنصُّلِ مِن شَتمِهم، أيْ: أنتم المَشتومونَ، أيْ: أَوْلى بالشَّتمِ منَّا[3].

- وفي قَولِه: ﴿قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ﴾ لَعَلَّهم إنَّما خاطَبُوهم مع أنَّ الظَّاهِرَ أنْ يَقولُوا بطَريقِ الاعتِذارِ إلى الخَزَنةِ: بل هُم لا مَرحَبًا بهم... إلخ؛ قَصْدًا منهم إلى إظهارِ صِدقِهم بالمُخاطَبةِ مع الرُّؤَساءِ، والتَّحاكُمِ إلى الخَزَنةِ؛ طَمَعًا في قَضائِهم بتَخفيفِ عَذابِهم، أو تَضعيفِ عَذابِ خُصَمائِهم، أيْ: بل أنتم أحَقُّ بما قيلَ لنا أو قُلتُم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٣).

- وإذا كان قَولُه: ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ مِن كَلامِ الخَزَنةِ فماذا يُصنَعُ بقَولِه: ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾، والمُخاطَبونَ -أعني: رُؤَساءَهم- لم يَتكَلَّموا بما يَكونُ هذا جَوابًا لهم؟

**فالجوابُ**: كأنَّه قيلَ: هذا الَّذي دعا به علينا الخَزَنةُ أنتُم يا رُؤَساءُ أحَقُّ به منَّا؛ لإغوائِكم إيَّانا، وتَسبُّبِكم فيما نحن فيه مِنَ العَذابِ، كما لو زَيَّنَ قَومٌ لِقَومٍ بَعضَ المَساوي فارتَكَبوها، فقيلَ لِلمُزَيِّنينَ: أخْزى اللهُ هؤلاء، ما أسْوَأَ فِعلَهم! فقال المُزَيَّنُ لهم لِلمُزَيِّنينَ: بل أنتُم أَوْلى بالخِزيِ منَّا؛ فلولا أنتم لم نَرتَكِبْ ذلك[1].

- وجُملةُ ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ عِلَّةٌ لِقَلبِ سَبَبِ الشَّتمِ إليهم، وتَعليلٌ لِأحَقِّيَتِهم بذلك، أيْ: لِأنَّكم قَدَّمتُمُ العَذابَ لنا؛ فضَميرُ النَّصبِ في ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ عائِدٌ إلى العَذابِ المُشاهَدِ، وهو حاضِرٌ في الذِّهنِ غَيرُ مَذكورٍ في اللَّفظِ[2].

- ووُقوعُ ﴿أَنتُمْ﴾ قَبلَ ﴿قَدَّمْتُمُوهُ﴾ المُسنَدِ الفِعليِّ، يُفيدُ الحَصرَ، أيْ: لم يُضِلَّنا غَيرُكم؛ فأنتُم أحِقَّاءُ بالعَذابِ[3].

- قَولُه: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ ذَمٌّ لِإقامَتِهم في جَهنَّمَ؛ تَشنيعًا عليهم فيما تَسَبَّبوا لِأنْفُسِهم فيه، وقَصَدُوا بذَمِّها تَغليظَ جِنايةِ الرُّؤساءِ عليهم[4].

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ لم يَكتَفِ الأتْباعُ بردِّ الدُّعاءِ على رُؤَسائِهم، ولا بمُواجَهَتِهم بقَولِ: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَنَا ﴾، حتَّى سَأَلوا مِنَ اللهِ أنْ يَزيدَ رُؤَساءَهم ضِعفًا مِنَ النارِ، والمَعنى: مَن حَمَلَنا على عَمَلِ السُّوءِ حتَّى صار جَزاؤُنا النَّارَ، فزِدْه عَذابًا ضِعفًا. ولَمَّا كان الرُّؤَساءُ ضُلَّالًا في أنْفُسِهم، وأضَلُّوا أتْباعَهم؛ ناسَبَ أنْ يَدعُوا عليهم بأنْ يَزيدَهم ضِعفًا، كما جاءَ: ((مَن سَنَّ في الإسلامِ سُنَّةً سَيِّئةً كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها مِن بَعدِه مِن غيرِ أن يَنقُصَ مِن أوزارِهم شَيءٌ))[١]؛ فعلى هذا: الضَّميرُ في قَولِه: ﴿قَالُواْ﴾ لِلأتْباعِ، و ﴿مَن قَدَّمَ﴾ هُمُ الرُّؤَساءُ[٢].

- قولُه: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا ...﴾، أيْ: قال الأتْباعُ لِمَتبوعيهم في النَّارِ هذا الكَلامَ، وتَوسيطُه بَينَ كَلامَيْهم؛ لِمَا بَيْنَهما مِنَ التَّبايُنِ البَيِّنِ ذاتًا وخِطابًا[٣].

وفيه إعادةُ فِعلِ القَولِ؛ لِإفادةِ أنَّ القائِلينَ همُ الأتْباعُ، فأُعيدَ فِعلُ القَولِ تَأكيدًا لِلفِعلِ الأوَّلِ؛ لِقَصدِ تَأكيدِ فاعِلِ القَولِ تَبَعًا؛ لأنَّه مُحتملٌ لِضَميرِ القائِلينَ[٤].

- والمَقصودُ مِن حِكايةِ قَولِهم هذا تَحذيرُ كُبَراءِ المُشرِكينَ مِن عَواقِبِ رِئاسَتِهم وزَعامَتِهمُ الَّتي يَجُرُّونَ بها الوَيلاتِ على أتْباعِهم، فيُوقِعونَهم في هاويةِ السُّوءِ حتَّى لا يَجِدَ الأتْباعُ لهم جَزاءً بَعدَ الفَوتِ إلَّا طَلَبَ مُضاعَفةِ العَذابِ لهم[٥].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾

- عَطفٌ على ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ [ص: ٥٩]، على ما قُدِّرَ فيه مِن

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٦٩، ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فِعلِ قَولٍ مَحذوفٍ -على قولٍ-، فهذا مِن قَولِ الطَّاغينَ؛ فإنَّهمُ الَّذين كانوا يَحقِرونَ المُسلِمينَ[١].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ استِفهامٌ يُلقيه بَعضُهم لِبَعضٍ تَلَهُّفًا على عَدَمِ رُؤيَتِهم مَن عَرَفوهم مِنَ المُسلِمينَ، مُكَنًّى به عن مَلامِ بَعضِهم لِبَعضٍ على تَحقيرِهمُ المُسلِمينَ، واعتِرافِهم بالخَطَأِ في حِسْبانِهم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاستِفهامُ حَقيقيًّا؛ استَفهَموا عن مَصيرِ المُسلِمينَ؛ لِأنَّهم لم يَرَوْهم يَومَئذٍ؛ إذْ قد عَلِموا أنَّ النَّاسَ صاروا إلى عالَمٍ آخَرَ، وهو الَّذي كانوا يُنذَرونَ به، ويَكونَ قَولُهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ تَمهيدًا لِقَولِهم: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾[٢] [ص: ٦٣].

٨- قولُه تعالَى: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾

- الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ لِإنكارِ الكافِرينَ على أنْفُسِهم وتأنيبِهم لها في الاستِسخارِ مِنَ المُؤمِنينَ والزَّيغِ عنهم، ولِتَقريرِ أنْفُسِهم على هذا، على جِهةِ التَّوبيخِ لها والأسَفِ، أيْ: أتَّخَذْناهم سِخريًّا ولم يَكونوا كذلك[٣]؟

- وجُملةُ ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ بَدَلٌ مِن جُملةِ ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا﴾ [ص: ٦٢]، و(ال) في ﴿ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ عِوضٌ عنِ المُضافِ إليه، أيْ: أبصارُنا؛ فيَكونُ المَعنى: أكان تَحقيرُنا إيَّاهم في الدُّنيا خَطَأً[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٣).

- وكَنَّى عن تَحقيرِهم لِلمُسلِمينَ في الدُّنيا باتِّخاذِهم سِخرِيًّا؛ لِأنَّ في فِعلِ ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ إيماءً إلى أنَّهم ليسوا بأهلٍ لِلسُّخريةِ، وهذا تَنَدُّمٌ منهم على الاستِسخارِ بهم[1]. والسُّخريُّ دالٌّ على شِدَّةِ الاستِهزاءِ؛ لِأنَّ ياءَه في الأصْلِ ياءُ نَسَبٍ، وياءُ النَّسَبِ تأتي لِلمُبالَغةِ في الوَصفِ[2].

- ولَفظُ ﴿أَمْ﴾ إنْ كان قَولُه: ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ﴾ استِفهامًا: إمَّا مُصرَّحًا بهَمزَتِه كقِراءةِ مَن قَرَأ كذلك، أو مُؤوَّلًا بالاستِفهامِ، وحُذِفتِ الهَمزةُ لِلدَّلالةِ، فالظَّاهِرُ أنَّها مُتَّصِلةٌ؛ لِتَقدُّمِ الهَمزةِ، وقولُه: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ له وجهانِ مِن الاتِّصالِ؛ أحدهما: أنْ يتَّصِلَ بقولِه: ﴿مَا لَنَا﴾ أي: ما لنا لا نَراهم في النَّارِ، كأنَّهم ليسوا فيها؟ بلْ أزاغَتْ عنهم أبصارُنا فلا نراهم وهم فيها؟

**والوجه الثاني**: أنْ يتَّصِلَ بـ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾، إمَّا أنْ تكونَ (أم) متصلةً على معنى: أيُّ الفِعلَيْنِ فَعَلْنا بهم: الاستِسخارُ منهم، أم ازدِراؤُهم وتَحقيرُهم وأنَّ أبصارَنا كانت تَعلو عنهم، وتَقتَحِمُهم؟ ويَكونُ استِفهامًا على مَعنى الإنكارِ على أنْفُسِهم؛ لِلاستِسخارِ والزَّيغِ جَميعًا. وقيلَ: كُلَّ ذلك قد فَعَلوا؛ اتَّخَذوهم سِخريًّا، وزاغَتْ عنهم أبصارُهم مُحقِّرةً لهم. وفي ﴿زَاغَتْ﴾ دونَ (أزغنا) مبالغةٌ عظيمةٌ كأنَّ العينَ بنفسِها تمجُّهم لقبحِ منظرِهم. وإنْ كانَ قَولُه: ﴿أَتَّخَذْنَاهُمْ﴾ ليس استِفهامًا، فـ﴿أَمْ﴾ مُنقَطِعةٌ، ويَجوزُ أنْ تَكونَ مُنقَطِعةً أيضًا مع تَقدُّمِ الاستِفهامِ، فالتَّقديرُ: بل أزاغَتْ عنهمُ الأبصارُ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ قَولُهم: ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ له تَعلُّقٌ بقَولِه: ﴿مَا لَنَا لَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نَرَىٰ رِجَالًا ﴾؛ لِأنَّ الاستِفهامَ أوَّلًا دَلَّ على انتِفاءِ رُؤيَتِهم إيَّاهم، وذلك دَليلٌ على أنَّهم ليسوا معهم، ثمَّ جَوَّزوا أنْ يَكونوا معهم، ولكنَّ أبصارَهم لم تَرَهم(١).

٩- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ تَذييلٌ وتَنهيةٌ لِوَصفِ حالِ الطَّاغينَ وأتْباعِهم، وعَذابِهم، وجِدالِهم(٢).

- وتأْكيدُ الخَبَرِ بحرفَي التَّوكيدِ (إنَّ واللَّام) في قولِه: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ ﴾ مَنظورٌ فيه لِمَا يَلزَمُ الخَبَرَ مِنَ التَّعريضِ بوَعيدِ المُشرِكينَ وإثباتِ حَشرِهم وجَزائِهم بأنَّه حَقٌّ، أي: ثابِتٌ(٣).

- وقَولُه: ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ خَبَرُ مُبتَدأٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ بَيانٌ لـ﴿ ذَٰلِكَ ﴾، وفي الإبهامِ أوَّلًا والتَّبيينِ ثانيًا مَزيدُ تَقريرٍ له(٤).

- في قَولِه: ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ تَشبيهُ تَقاوُلِهم وما يَدورُ بَيْنَهم مِن حِوارٍ ويَتَبادَلونَه مِن سُؤالٍ وجَوابٍ بما يَجري بيْنَ المُتَخاصِمينَ مِن نَحوِ ذلك؛ لِأنَّ قَولَ الرُّؤَساءِ لِتابِعيهم: ﴿ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ﴾ [ص: ٥٩]، وقَولَ التَّابِعينَ: ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ﴾ [ص: ٦٠]؛ لا يَعدو الخُصومةَ الَّتي يَتَراشَقُها المُتَخاصِمونَ، أو كان ذَمُّهم لِبَعضِهم أشَدَّ مِنَ المُخاصَمةِ.

وأُضيفَ هذا التَّخاصُمُ إلى أهلِ النارِ كُلِّهمُ اعتِبارًا بغالِبِ أهلِها؛ لِأنَّ غالِبَ أهلِ النَّارِ أهلُ الضَّلالاتِ الاعتِقاديَّةِ، وهم لا يَعْدُونَ أنْ يَكونوا دُعاةً لِلضَّلالِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤).

أو أتْباعًا لِلدُّعاةِ إليه؛ فكُلُّهم يَجري بَيْنَهم هذا التَّخاصُمُ، أمَّا مَن كان في النَّارِ مِنَ العُصاةِ فكَثيرٌ منهم ليس عِصيانُه إلَّا تَبَعًا لِهَواه مع كَونِه على عِلمٍ بأنَّ ما يأتيه ضَلالةٌ، لم يُسَوِّلْه له أحَدٌ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٧٨).

## الآيات (٦٥-٧٠)

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾

قَولُه: ﴿إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ﴾ في هذا المصدَرِ وَجهانِ:

**أحدُهما**: أنَّه مع ما في حَيِّزِه في محلِّ رفعٍ نائِبُ فاعلٍ، أي: ما يُوحَى إلَيَّ إلَّا الإنذارُ، أو: إلَّا كَوني نَذيرًا مُبينًا.

**والثَّاني**: أنَّه في مَحلِّ نَصبٍ أو جرٍّ على نزَعِ الخافِضِ. ونائِبُ الفاعِلِ على هذا الجارُّ والمجرورُ، أي: ما يُوْحى إلَيَّ إلَّا للإنذارِ أو لِكَوني نَذيرًا. أو نائِبُ الفاعِلِ ضَميرُ ما يَدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: ما يُوْحى إلَيَّ ما لم أكُنْ أعلَمُه مِن اختِصامِ الملأِ الأعلَى إلَّا للإنذارِ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُلقِّنًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم الرَّدَّ الَّذي يرُدُّ به على المشركينَ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ: إنَّما أنا مُنذِرٌ أُنذِرُكم عَذابَ اللهِ، وما مِن مَعبودٍ بحَقٍّ إلَّا اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ، خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما مِنَ الخَلقِ، العزيزُ الَّذي لا يَغلِبُه شَيءٌ، الغَفَّارُ ذُنوبَ عِبادِه.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤١٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢١٢).

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه أنْ يُبيِّنَ لهم أنَّ ما جاءهم به مِن عندِ ربِّه أمرٌ عظيمٌ، لا يَليقُ بعاقلٍ أنْ يُعرِضَ عنه، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: هذا القُرآنُ خَبَرٌ عَظيمٌ، أنتم مُنصَرِفونَ عنه، ما ليَ مِن عِلمٍ باختِلافِ الملائكةِ في شَأنِ آدَمَ، فإنَّما يُوحَى إلَيَّ ما لم أكُنْ أعلَمُه مِن اختِصامِ الملأِ الأعلى؛ لأنِّي رَسولٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، أُنذِرُكم إنذارًا واضِحًا بيِّنًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى في أوَّلِ السُّورةِ أنَّ مُحمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَمَّا دعا النَّاسَ إلى أنَّه لا إلهَ إلَّا إلهٌ واحِدٌ، وإلى أنَّه رَسولٌ مُبينٌ مِن عندِ الله، وإلى أنَّ القَولَ بالقيامةِ حَقٌّ؛ فأولئك الكُفَّارُ أظهَروا السَّفاهةَ، وقالوا: إنَّه ساحِرٌ كَذَّابٌ، واستَهزَؤوا بقَولِه، ثمَّ إنَّه تعالى ذَكَر قَصَصَ الأنبياءِ؛ لِيَصيرَ ذلك حامِلًا لمُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على التَّأسِّي بالأنبياءِ عليهم السَّلامُ في الصَّبرِ على سَفاهةِ القَومِ، ولِيَصيرَ ذلك رادِعًا للكُفَّارِ عن الإصرارِ على الكُفرِ والسَّفاهةِ، وداعيًا إلى قَبولِ الإيمانِ، ولَمَّا تَمَّم اللهُ تعالى ذلك الطَّريقَ؛ أردَفَه بطَريقٍ آخَرَ وهو شَرحُ نَعيمِ أهلِ الثَّوابِ، وشَرحُ عِقابِ أهلِ العِقابِ، فلمَّا تَمَّم اللهُ تعالى هذه البياناتِ؛ عاد إلى تقريرِ المَطالِبِ المذكورةِ في أوَّلِ السُّورةِ، وهي: تقريرُ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ والبَعثِ[1].

وأيضًا فهذا راجِعٌ إلى قَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وإلى قَولِه: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: ٨]، فلَمَّا ابتَدَرهمُ الجَوابُ عن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٦).

ذلك التَّكذيبِ بأنْ نَظَّرَ حالَهم بحالِ الأُمَمِ المُكذِّبةِ مِن قَبلِهم، ولِتَنظيرِ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ الأنبياءِ الَّذين صَبَروا، واستَوعَبَ ذلك بما فيه مَقنَعٌ؛ عادَ الكَلامُ إلى تَحقيقِ مَقامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قَومِه، فأمَرَه اللهُ أنْ يَقولَ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ مُقابِلَ قَولِهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وأنْ يَقولَ: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ مُقابِلَ إنكارِهمُ التَّوحيدَ كقَولِهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًا﴾[1] [ص: ٥].

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُشرِكينَ: إنَّما أنا مُنذِرٌ أُنذِرُكم عذابَ اللهِ على كُفرِكم به[2].

﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾.

أي: وما مِن مَعبودٍ تَصلُحُ له العِبادةُ إلَّا اللهُ الواحِدُ الَّذي لا شَريكَ له، القَهَّارُ الَّذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرتِه[3].

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٦٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ ذِكرَ كَونِه سُبحانَه قَهَّارًا مُشعِرٌ بالتَّرهيبِ والتَّخويفِ، فلمَّا ذَكَر ذلك أردَفَه بما يدُلُّ على الرَّجاءِ والتَّرغيبِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٤، ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٩، ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٦).

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾.

أي: خالِقُ ومالِكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بَيْنَهما مِنَ الخَلقِ، المُتصَرِّفُ في ذلك كُلِّه[1].

﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾.

أي: العَزيزُ ذو القَدْرِ العَظيمِ، الَّذي يَغلِبُ كُلَّ شَيءٍ ولا يَغلِبُه شَيءٌ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الغَفَّارُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[2].

﴿قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ٦٧﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك المُكَذِّبينَ: هذا القُرآنُ -المُشتَمِلُ على توحيدِ اللهِ، وإثباتِ رِسالتي، ووُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ بعدَ الموتِ، وغيرِ ذلك- خبَرٌ عَظيمٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٧، ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالنَّبأِ العظيمِ: القُرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحدي، والبقاعي، وابن عثيمين. وحكَى الواحديُّ فيه الإجماعَ، ونسَبه ابنُ الجوزي إلى الجُمهورِ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، وشُرَيحٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٥). =

﴿ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾.

أي: أنتم مُنصَرِفونَ عن تَصديقِه، وقَبولِه، وتَدَبُّرِه، والعمَلِ به[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٣٠].

﴿ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

أي: لولا وَحيُ اللهِ إلَيَّ لَمَا عَلِمْتُ باختِلافِ الملائِكةِ في السَّماءِ في شأنِ آدَمَ[2]؛ فإخباري بذلك دَليلٌ واضِحٌ على صِدقِ نُبُوَّتي، وأنَّ القُرآنَ حَقٌّ مِن

---

= قال ابنُ عطية: (الإشارةُ بقَولِه تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴾ إلى التَّوحيدِ والمَعادِ، فهي إلى القُرآنِ وجميعِ ما تضَمَّنَه وعدُه أنَّ التَّصديقَ به نجاةٌ، والتَّكذيبَ به هَلَكَةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٣).

وقيل: المرادُ بالنَّبأِ نَبأُ خلقِ آدمَ وما جرَى بعدَه. وقيل: المرادُ به: خبرُ الحشرِ وما أُعِدَّ فيه للمتَّقينَ مِن حُسْنِ مآبٍ، وللطَّاغينَ مِن شرِّ مآبٍ... يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٠).

(٢) ممَّن اختار أنَّ اختِصامَ الملائِكةِ في شأنِ آدَمَ حينَ قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠]: مقاتلُ بن سليمان، وابن جرير، والسمرقندي، والثعلبي -ونسَبه لأكثرِ المفسِّرينَ-، ومكِّي، والبغوي، والقرطبي، وأبو حيان، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، ونسَبَه الماتُريديُّ لعامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤١، ١٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٤٤). =

عندِ اللهِ تعالى[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ

---

= وممَّن قال بنحوِ ذلك من السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٢).

قال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: لولا الوحيُ مِن أينَ كنتُ أدري باختلافِ الملأِ الأعلَى؟ يعني: في شأنِ آدَمَ وامتناعِ إبليسَ مِن السُّجودِ له، ومُحاجَّتِه رَبَّه في تفضيلِه عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠).

وقال ابن عطيَّة: (وقالت فِرقةٌ: بل اختصامُهم في الكفَّاراتِ وغَفرِ الذُّنوبِ ونحوِه؛ فإنَّ العبدَ إذا فعَل حسنةً اختلَف الملائكةُ في قدرِ ثوابِه في ذلك حتَّى يَقضيَ اللهُ بما شاء، وورد في هذا حديثٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٣).

وقال السمعاني: (اختصامُ الملائكةِ هو كلامُهم في هذه الأعمالِ [مشْيِ الأقدامِ إلى الجماعاتِ، وإسباغِ الوُضوءِ على المكروهاتِ، والجلوسِ في المَساجِدِ بعدَ الصَّلاةِ...]، وأقدارِ المَثوبةِ فيها، وزيادةِ بعضِ الأعمالِ على البعضِ في الثَّوابِ). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٤).

وذكر ابنُ كثيرٍ الحديثَ الواردَ في اختصامِ المَلأِ الأعلى في ((مسند أحمد)) (٢٢١٠٩) والترمذي (٣٢٣٥)، ثمَّ قال: (وليس هذا الاختِصامُ هو الاختصامَ المذكورَ في القرآنِ؛ فإنَّ هذا قد فُسِّر، وأمَّا الاختِصامُ الَّذي في القرآنِ فقد فُسِّرَ بعدَ هذا، وهو قولُه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ...﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨١).

وقيل: اختِصامُ الملأِ الأعلى يَشملُ اختِصامَ الملائكةِ في شأنِ آدَمَ، وفي الدَّرَجاتِ العُلا، وغيرِها ممَّا يَختَصِمُ فيه الملائِكةُ. وممَّن ذهب إلى هذا العُموم: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٠، ٢٣١). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦).

إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣٤].

﴿ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قُرَيشٍ: ما يُوحي اللهُ إلَيَّ ما لم أكُنْ أعلَمُه مِن اختِصامِ الملَأِ الأعلى إلَّا لأنِّي نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، أُنذِرُكم بما يُوحَى إلَيَّ إنذارًا واضِحًا لا لَبْسَ فيه[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ إثباتُ القَهْرِ التَّامِّ للهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾، وهذا يَستَلزِمُ للمُؤمِنِ به أن يَخافَ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ مِن قَهرِه، ويَستَلزِمُ أيضًا تقويةَ المؤمِنِ الواثِقِ باللهِ في قَهْرِ أعدائِه؛ لأنَّك إذا وَثِقتَ بأنَّ اللهَ هو القَهَّارُ، وأنَّ اللهَ معك لِكَونِك أتَيْتَ بالأوصافِ الَّتي تَستوجِبُ مَعيَّةَ اللهِ لك؛ فإنَّ هذا يُقَوِّيك على عَدُوِّك، وتَعلَمُ أنَّ هذا العَدُوَّ لا بُدَّ أنْ يكونَ مَقهورًا بقَهْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ هذا الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩).

قال الرازي: (يعني: أنا ما عرَفْتُ هذه المُخاصَمةَ إلَّا بالوَحيِ، وإنَّما أَوحى اللهُ إليَّ هذه القِصَّةَ؛ لأُنذِرَكم بها، ولِتَصيرَ هذه القِصَّةَ حامِلةً لكم على الإخلاصِ في الطَّاعةِ، والاحترازِ عن الجَهلِ والتَّقليدِ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٩).

يجِبُ ويَستَحِقُّ أن يُعبَدَ دونَ مَن لا يَخلُقُ ولا يَرزُقُ، ولا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ، ولا يَملِكُ مِن الأمرِ شَيئًا، وليس له قُوَّةُ الاقتِدارِ، ولا بيَدِه مَغفِرةُ الذُّنوبِ والأوزارِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴾ أنَّه متى عَظُمَ هذا النَّبأُ العَظيمُ عَظُمَ مَن يأخُذُ بهذا النَّبأِ؛ لأنَّه أساسٌ ومِنهاجٌ وطَريقٌ، فإذا عَظُمَ عَظُمَ الآخِذُ به؛ ولهذا كانت الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ عَظيمةً مَرموقةً مَهيبةً حينَ كانت آخِذةً به[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ﴾ أنَّه ينبغي في الكلامِ مُراعاةُ الحالِ؛ حيثُ إنَّ المقامَ هنا مَقامُ تهديدٍ؛ فلهذا اقتَصَرَ على الإنذارِ فقط؛ مع أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[٣] [البقرة: ١١٩].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أنَّ الأسماءَ لا تُغَيِّرُ المُسَمَّياتِ؛ فإنَّ هناك مَن يُسَمَّى إلهًا، ولكِنَّه حَقًّا ليس بإلهٍ! ويَتفَرَّعُ عن هذه الفائدةِ أنَّنا لو سَمَّينا الشَّيءَ المُحَرَّمَ باسم حَلالٍ؛ فإنه لا يَتغَيَّرُ الحُكْمُ فيه؛ ولهذا جاء في الحديثِ: ((أنه يَشْرَبُ الخَمرَ أُناسٌ يُسَمُّونَها بغيرِ اسمِها!))[٤]، وهذا يدُلُّ على أنَّ الأسماءَ لا تُغَيِّرُ المُسَمَّياتِ والحقائِقَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٨).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٨٨)، وابن ماجه (٤٠٢٠)، وأحمد (٢٢٩٠٠) من حديث أبي مالكٍ الأشعَريِّ رضي الله عنه.

صحَّحه ابنُ حبَّان في ((صحيحه)) (٦٧٥٨)، وابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٥/ ٢١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٦٨٨)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣٦٨٨)، وصحَّح إسنادَه ابنُ القيِّم في ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٣٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ قَرَنَ سُبحانَه العِزَّةَ بالمَغفِرةِ؛ وإذا اجتمعتِ العِزَّةُ والمَغفِرةُ حَصَلَ مِن ذلك مَعنًى مُرَكَّبٌ مِن اجتماعِهما، وهو أكمَلُ ممَّا لو انفردَ أحدُهما، ولا شكَّ أنَّ غَلَبَةَ المغفرةِ على العِزَّةِ فيها نَقصٌ، وغَلَبَةَ العِزَّةِ على المغفرةِ فيها نَقصٌ، فإذا اجتَمَعا جميعًا صار هذا أكمَلَ، أي: أنَّ عِزَّتَه وغَلَبتَه وقَهرَه لا تخلو مِن المَغفِرةِ، بخلافِ مَن يَتَّصِفُ بالعِزَّةِ مِن المخلوقِين؛ فإنَّه في الغالبِ تكونُ عِزَّتُه تَغْلِبُ مَغفِرتَه، أو مَنِ اتَّصَفَ بالمغفرةِ، فتَجِدُ عندَه ضَعفًا وليس عِندَه عِزَّةٌ[1]. وأيضًا قرَن بيْنَهما سبحانَه لبيانِ أنَّ مغفرتَه صادرةٌ عن عزَّةٍ لا عن عجزٍ، كما حكَى تعالى عن عيسَى عليه السَّلامُ قولَه: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

٤- قَولُه تعالى حكايةً عن نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ فيه نَفيُ عِلْمِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالغَيبِ، سَواءٌ كان مُستقبَلًا أم حاضِرًا ولكِنَّه غائِبٌ عنه، فالآيةُ فيها نَفيُ عِلمٍ بمَلَأٍ مَوجودٍ لكِنَّه غائِبٌ عنه، فإذا كان لا يَعلَمُ الغائبَ الموجودَ فالغائِبُ عنه المُنتَظَرُ مِن بابِ أَولَى[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ﴾ بيانُ عُلُوِّ مَرتبةِ الملائكةِ، كما أنَّ مَكانَهم كذلك عالٍ؛ لأنَّهم في السَّمَواتِ، كما قال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾[3] [النجم: ٢٦].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: الملائكةُ لا يجوزُ أن يُقالَ: إنَّهم اختَصَموا بسَبَبِ قَولِهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ [البقرة: ٣٠]؛ فإنَّ المُخاصَمةَ مع اللهِ كُفرٌ؟

**الجوابُ**: أنَّه لا شَكَّ أنَّه جرَى هناك سُؤالٌ وجَوابٌ، وذلك يُشابِهُ المُخاصَمةَ والمُناظَرةَ؛ فلهذا السَّبَبِ حَسُنَ إطلاقُ لَفظِ المخاصَمةِ عليه[١]، وقيل غيرُ ذلك[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يكونَ في شريعةِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شَيءٌ مَجهولٌ أبدًا، بل كلُّ ما جاء به فهو بَيِّنٌ، لكنَّ الجَهلَ أمرٌ نِسبيٌّ؛ قد يكونُ المجهولُ شيئًا مُعَيَّنًا لبَعضِ النَّاسِ، وهو بَيِّنٌ مَعلومٌ لأُناسٍ آخَرينَ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞۖ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٞ﴾ ردٌّ لقولِهم: ﴿هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]؛ فإنَّ الإنذارَ ينافي السحرَ والكذِبَ. وقد يُقالُ: المرادُ إنَّما أنا رسولٌ منذرٌ لا ساحرٌ كذَّابٌ، وفيه مِن الحسنِ ما فيه؛ فإنَّ كلَّ واحدٍ مِن وصفَيِ الرسالةِ والإنذارِ يُنافي كلَّ واحدٍ مِن وصفَيِ السِّحرِ والكذبِ، لكنْ منافاةُ الرسالةِ للسحرِ أظهرُ[٤].

- وفي إبهامِ ﴿مُنذِرٞ﴾ تَفخيمُ أمْرِ ما يُنذِرُ به[٥].

- قوله: ﴿وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ذِكرُ صِفةِ (الواحِد) تأكيدٌ لِمَدلولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣١٤).

﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ إيماءً إلى رَدِّ إنكارِهم، وذِكرُ صِفةِ القَهَّارِ تَعريضٌ بتَهديدِ المُشرِكينَ بأنَّ اللهَ قادِرٌ على قَهرِهم، أيْ: غَلبِهم[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾

- في هذه الأوصافِ ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ * رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ تَقريرٌ لِلتَّوحيدِ، ووَعدٌ لِلمُوحِّدينَ، ووَعيدٌ لِلمُشرِكينَ، وتَثنيةُ ما يُشعِرُ بالوَعيدِ مِن وَصفَيِ القَهرِ والعِزَّةِ، وتَقديمُهما على وَصفِ المَغفِرةِ؛ لِتَوفيةِ مَقامِ الإنذارِ حَقَّه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ تَصريحٌ بعُمومِ رُبوبيَّتِه تعالى، وأنَّه لا شَريكَ له في شَيءٍ منها[٣].

- ووَصفُ العَزيزِ في قَولِه: ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ تَمهيدٌ لِلوَصفِ بالغَفَّارِ، أيْ: الغَفَّارُ عن عِزَّةٍ ومَقدِرةٍ، لا عن عَجزٍ ومَلَقٍ، أو مُراعاةِ جانِبٍ مُساوٍ، والمَقصودُ مِن وَصفِ الغَفَّارِ هنا استِدعاءُ المُشرِكينَ إلى التَّوحيدِ بَعدَ تَهديدِهم بمُفادِ وَصفِ القَهَّارِ؛ لِكَيْ لا يَيئسوا مِن قَبولِ التَّوبةِ بسَبَبِ كَثرةِ ما سِيقَ إليهم مِنَ الوَعيدِ؛ جَريًا على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ، والعكس[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ فيه إعادةُ الأمْرِ بالقَولِ هنا مُستأنَفًا، والعُدولُ عنِ الإتيانِ بحَرفٍ يَعطِفُ المَقولَ -أعني: ﴿هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾- على المَقولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السَّابِقِ -أعني: ﴿أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ [ص: ٦٥]-؛ عُدولٌ يُشعِرُ بالاهتِمامِ بالمَقولِ هنا؛ كيْ لا يُؤتَى به تابعًا لِمَقولٍ آخَرَ، فيَضعُفَ تَصدِّي السَّامِعينَ لِوَعيِه، ولِلإيذانِ بأنَّ المَقولَ أمْرٌ جَليلٌ له شَأنٌ خَطيرٌ، لا بُدَّ مِنَ الاعتِناءِ به أمْرًا وائْتِمارًا[1].

- وأيضًا جُملةُ ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ...﴾ يَجوزُ أنْ تَكونَ في مَوقِعِ الاستِئنافِ الابتِدائيِّ؛ انتِقالًا مِن غَرَضِ وَصفِ أحوالِ أهلِ المَحشَرِ إلى غَرَضِ قِصَّةِ خَلقِ آدَمَ، وشَقاءِ الشَّيطانِ، فيَكونَ ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ ضَميرَ شَأنٍ يُفَسِّرُه ما بَعْدَه، وما يُبَيَّنُ به ما بعْدَه مِن قَولِه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، جُعِلَ هذا كالمُقدِّمةِ لِقِصَّةِ خَلقِ آدَمَ؛ تَشويقًا لِتَلقِّيها، فيَكونَ المُرادُ بالنَّبَأِ نَبَأَ خَلْقِ آدَمَ وما جَرى بعْدَه، ويَكونَ ضَميرُ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ عائِدًا إلى (المَلأِ الأعلى)؛ لِأنَّ المَلَأَ جَماعةٌ، ويُرادُ بالاختِصامِ -على قولٍ- الاختِلافُ الَّذي جَرى بيْنَ الشَّيطانِ وبيْنَ مَن بَلَّغَ إليه مِنَ المَلائِكةِ أمْرَ اللهِ بالسُّجودِ لِآدَمَ، فالمَلائِكةُ همُ المَلَأُ الأعلى، وكان الشَّيطانُ بَيْنَهم؛ فعُدَّ منهم قبْلَ أنْ يُطرَدَ مِنَ السَّماءِ.

ويَجوزُ أنْ تَكونَ الجملةُ تَذييلًا لِلَّذي سَبَقَ مِن قَولِه: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٤٩] إلى هنا، تَذييلًا يُشعِرُ بالتَّنويهِ به، وبطَلَبِ الإقبالِ على التَّدبُّرِ فيه، والاعتِبارِ به، وعليه يَكونُ ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ ضَميرًا عائِدًا إلى الكَلامِ السَّابِقِ على تأويلِه بالمَذكورِ؛ فلذلك أُتيَ لِتَعريفِه بضَميرِ المُفرَدِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ استِئنافٌ لِلَفتِ انتِباهِهم، ولِلنَّعيِ عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٥، ٢٩٦).

سُوءَ صَنيعِهم بالنَّبَأِ العَظيمِ، وتَوبيخٌ وتَحميقٌ لِلمُعرِضينَ عن النَّبَأِ العَظيمِ؛ ببَيانِ أنَّهم لا يَقدُرونَ قَدْرَه الجَليلَ، حيثُ يُعرِضونَ عنه مع عَظَمَتِه، وكَونِه مُوجِبًا لِلإقبالِ الكُلِّيِّ عليه، وتَلَقِّيه بحُسنِ القَبولِ(١).

- وجيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ في قَولِه: ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾؛ لإفادةِ إثباتِ إعراضِهم، وتَمكُّنِه منهم، فأمَّا إعراضُهم عنِ النَّبَأِ بمَعناه الأوَّلِ -خبَرُ الحشْرِ وما أُعِدَّ فيه للمُتَّقينَ مِن حُسنِ مآبٍ، وللطَّاغينَ مِن شرِّ مآبٍ- فظاهِرٌ؛ لأنَّه طالما أنذَرَهم بعَذابِ الآخِرةِ ووَصَفه، فلم يَكتَرِثوا بذلك، ولا ارعَوَوْا عن كُفرِهم، وأمَّا إعراضُهم عن النَّبَأِ بمَعناه الثَّاني -نبَأُ خَلْقِ آدَمَ وما جَرى بعدَه- فتأويلُ تَمكُّنِه مِن نُفوسِهم عَدَمُ استِعدادِهم لِلاعتِبارِ بمَغزاهُ مِن تَحقُّقِ أنَّ ما هم فيه هو وَسوَسةٌ مِنَ الشَّيطانِ؛ قَصدًا لِلشَّرِّ بهم(٢).

- ولعلَّ هذه الآيةَ مِن هذه السُّورةِ هي أوَّلُ ما نزَلَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن ذِكرِ قصَّةِ خلْقِ آدَمَ، وسُجودِ الملائكةِ، وإباءِ إبليسَ مِن السُّجودِ؛ فإنَّ هذه السُّورةَ في تَرتيبِ نُزولِ سُوَرِ القُرآنِ -إنْ ثبَت- لا يُوجَدُ ذِكرُ قِصَّةِ آدَمَ في سُورةٍ نَزَلتْ قَبْلَها؛ فذلك وَجهُ التَّوطئةِ لِلقِصَّةِ بأساليبِ العِنايةِ والاهتِمامِ مِمَّا خَلا غَيرُها عن مِثلِه، وبأنَّها نَبَأٌ كانوا مُعرِضينَ عنه(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَحقيقِ أنَّه نَبَأٌ عَظيمٌ واردٌ مِن جِهتِه تَعالى بذِكرِ نَبَأٍ مِن أنبائِه على التَّفصيلِ مِن غَيرِ سابِقةِ مَعرِفةٍ به، ولا مُباشَرةِ سَبَبٍ مِن أسبابِها المُعتادةِ؛ فإنَّ ذلك حُجَّةٌ بَيِّنةٌ دالَّةٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٠، ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ ذلك بطَريقِ الوَحيِ مِن عِندِ اللهِ تَعالى، وأنَّ سائِرَ أنبائِه أيضًا كذلك[١]. أو اعتِراضُ إبلاغٍ في التَّوبيخِ على الإعراضِ عن النَّبأِ العَظيم، وحُجَّةٌ على تَحقُّقِ النَّبأِ بسَببِ أنَّه مُوحًى به مِنَ اللهِ، وليس لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سَبيلٌ إلى عِلْمِه لولا وَحيُ اللهِ إليه به. وذِكرُ فِعلِ (كان) دالٌّ على أنَّ المَنفيَّ عِلمُه بذلك فيما مَضى مِنَ الزَّمَنِ قَبْلَ أنْ يُوحَى إليه بذلك[٢].

- والباءُ في قَولِه: ﴿بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾؛ لِتَعديةِ ﴿عِلۡمِ﴾ لِتَضمينِه مَعنى الإحاطةِ، وهو استِعمالٌ شائعٌ في تَعديةِ العِلْمِ.

ويَجوزُ على مَعنى أنَّ النَّبَأَ خلْقُ آدَمَ وما جَرى بعْدَه أنْ تَكونَ الباءُ ظَرفيَّةً، أيْ: ما كان لي عِلْمٌ كائِنٌ في المَلَأِ الأعلى، أيْ: ما كُنتُ حاضِرًا في المَلَأِ الأعلى؛ فهي كالباءِ في قَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ﴾[٣] [القصص: ٤٤].

- والمَلَأُ: الجَماعةُ ذاتُ الشَّأنِ، ووَصَفَه بالأعْلى في قولِه: ﴿بِٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰٓ﴾؛ لِأنَّ المُرادَ مَلَأُ السَّمَواتِ، وهمُ المَلائِكةُ[٤].

- والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ ﴿يَخۡتَصِمُونَ﴾ في مَوضِعِ المُضيِّ؛ لِقَصدِ استِحضارِ الحالةِ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ اعتِراضٌ وُسِّطَ بيْنَ إجمالِ اختِصامِهم وتَفصيلِه؛ تَقريرًا لِثُبوتِ عِلْمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وتَعيينًا لِسَبَبِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢٩٨).

إلَّا أنَّ بَيانَ انتِفائِه فيما سَبَقَ لَمَّا كان مُنبئًا عن ثُبوتِه الآنَ، ومِنَ البَيِّنِ عَدَمُ مُلابَسَتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بشَيءٍ مِن مَباديه المَعهودةِ؛ تَعيَّنَ أنَّه ليس إلَّا بطَريقِ الوَحيِ حَتمًا؛ فجَعَل ذلك أمْرًا مُسلَّمَ الثُّبوتِ، غَنيًّا عن الإخبارِ به قَصْدًا، وجَعَل مَصَبَّ الفائِدةِ والمَقصودَ إخبارَ ما هو داعٍ إلى الوَحيِ، ومُصحِّحٌ له؛ تَحقيقًا لِقَولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ [ص: ٦٥]، في ضِمنِ تَحقيقِ عِلْمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بقِصَّةِ المَلَأِ الأعلَى(١).

- جملةُ ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، أي: ما عَلِمتُ بذلك النَّبأِ إلَّا بوَحيٍ مِنَ اللهِ، وإنَّما أَوْحى اللهُ إلَيَّ ذلك لِأكونَ نَذيرًا مُبينًا.

- وهذه الجُملةُ قيل: رُكِّبَتْ مِن طَريقَينِ للقَصرِ: أحَدُهما طريقُ النَّفيِ والاستِثناءِ، والآخَرُ طريقُ (أنَّما) المَفتوحةِ الهمزةِ، المفيدةِ للحَصرِ، والَّذي يقتَضيه مقامُ الكلامِ هنا أنَّ المعنى للتَّعليلِ، والتَّقديرُ: إلَّا لأنَّما أنا نذيرٌ، أي: إلَّا لعِلَّةِ الإنذارِ، أي: ما أُوحيَ إلَيَّ نبأُ الملأِ الأعلى إلَّا لأُنذِرَكم به، أو معناه: ما يُوحى إلَيَّ إلَّا للإنذارِ، وليس لمجرَّدِ القَصَصِ، وهذه مُهمَّةُ الرُّسُلِ، وليس لهم أن يَدَّعُوا أنَّهم أكثَرُ مِن رُسُلٍ مُنذِرينَ، وإنْ شِئتَ جعَلْتَ المعنى: ما يُوحَى إلَيَّ إلَّا لأنِّي نذيرٌ مُبينٌ؛ فبان أنَّ سَبَبَ الوَحيِ إليه أنَّه نذيرٌ مُبينٌ للنَّاسِ(٢).

- وقيل: يَجوزُ أنْ يَرتفِعَ قَولُه: ﴿أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على معنَى: ما يُوحَى إلَيَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤١١، ٤١٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩).

إلَّا هذا، وهو أنْ أُنذِرَ وأُبَلِّغَ ولا أُفَرِّطَ في ذلك، أي: ما أُومَرُ إلَّا بهذا الأمرِ وحْدَه، وليس إلَيَّ غيْرُ ذلك؛ مِن علمِ ما يدورُ في الملأِ الأعلَى، ويَستَلزِمُ هذانِ الحَصرانِ حَصرًا ثالِثًا، وهو: أنَّ إخبارَ القُرآنِ وَحيٌ مِنَ اللهِ، وليس أساطيرَ الأوَّلينَ كما زَعَموا[1].

- وقيل: وُرودَ هذَينِ الحَصرَينِ في الآيةِ كأنَّه صلَواتُ اللهِ عليه لم يُوحَ إليه إلَّا لاختِصاصِ النِّذارةِ، أو لم يؤمَرْ إلَّا باختِصاصِ الإنذارِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ مُشرِكونَ، وكانَ الَّذي يُنكِرونَ عليه صلواتُ اللهِ عليه الإنذارَ والدَّعوةَ إلى التَّوحيدِ، كما مضَى مِن مُفتَتَحِ السُّورةِ إلى أنْ بلَغَ إلى قَولِه: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾، فما أُوثِرَ اختِصاصُ الإنذارِ إلَّا لاختِصاصٍ مِنَ المُنذَرينَ، وبذا أمَرَهم، وكانَ الواجبُ قَلْعَ الشِّركِ، وإزالةَ ما يَنبَغي إزالتُه، فإذا أُزيلَ ذلك وبُدِّلَ بالإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ جازَ أنْ يُبَشَّروا، كما قال تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ [الكهف: ٢]، كأنَّه قال صلَواتُ اللهِ عليه: ما يوحَى الآنَ في شأنِكم إلَّا لِأنْ أُنذِرَكم، وأُوضحَ لكم حقيقةَ الأمرِ بما أوحَى اللهُ إلَيَّ[2].

- وقيل: هذه الحصورُ: اثنانِ منها إضافيَّانِ[3]، وهما قصرُ ما يُوحى إليه على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩- ٣٠٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨١).

(٣) القصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ =

علَّةِ النِّذارةِ، وقصرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم على صِفةِ النِّذارةِ، وكِلاهما قلبٌ لاعتقادِهم أنَّهم يَسمَعون القرآنَ لِيَتَّخِذوه لَعِبًا، واعتِقادِهم أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم ساحرٌ أو مجنونٌ، وعُلِم مِن هذا أنَّ ذِكرَ نَبأِ خَلْقِ آدَمَ قُصِد به الإنذارُ مِن كَيدِ الشَّيطانِ[١].

- قوله: ﴿يُوحَىٰٓ﴾ بناه للمَفعولِ؛ لأنَّ ذلك كافٍ في تَنبيهِهم على مَوضعِ الإشارةِ في أنَّ دعواه إنَّما هي النبُوَّةُ لا الإلهيَّةُ[٢].

- وقُرِئَ ﴿إِنَّمَا﴾ بالكَسرِ على الحِكايةِ[٣]، وعلى تَقديرِ القَولِ، أيْ: ما يُوحَى إلَّا هذه الجُملةُ، والمعنى: أي: قَصْري على النِّذارةِ لا أنِّي أُنجِزُ ما يَتوعَّدُ به اللهُ؛ فـ ﴿أَنَّمَآ﴾ مفعولُ ﴿يُوحَىٰٓ﴾ القائِمُ مقامَ الفاعِلِ في القراءتَينِ، وإن اختَلَف التَّوجيهانِ؛ فالتَّقديرُ على قراءةِ الجَماعةِ بالفَتحِ: إلَّا الإنذارُ أو إلَّا كَوني نَذيرًا، وعلى قراءةِ الكَسرِ: إلَّا هذا القَولُ، وهو أنِّي أقولُ لكم كذا[٤].

---

= شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥). ويُنظر ما تقدم (ص: ٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٧).

(٣) قرأها بكسرِ الهمزةِ أبو جعفرٍ، وقرأها الباقونَ بالفتحِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٠).

## الآيات (٧١-٨٥)

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَقَعُواْ﴾: أي: فَخِرُّوا له، والوقوعُ: يدُلُّ على سُقوطِ شيءٍ[١].

﴿إِبْلِيسَ﴾: هو أبو الشَّياطينِ، وأصْلُ الإبلاسِ: اليأسُ، والحُزنُ المعترِضُ مِن شِدَّةِ اليأسِ، ومِنه اشتُقَّ إبليسُ. وقيل: هو اسمٌ أعجميٌّ[٢].

﴿رَجِيمٌ﴾: أي: مَطرودٌ مِن رحمةِ اللهِ تعالَى، وأصلُ الرَّجمِ: الرَّميُ بالحِجارةِ، ثم تُؤخَذُ منه بقيَّةُ المعاني[٣].

﴿فَأَنظِرْنِيٓ﴾: أي: أخِّرْني، وأصْلُ (نظر): يدُلُّ على تأمُّلِ الشَّيءِ ومُعايَنتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((المقاييس)) لابن فارس (٦/ ١٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).
و(قعوا) فعلُ أمرٍ، والواوُ فاعلٌ. يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٥/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٣٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، =

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾: أي: لأُضِلَّنَّهم، ولأستَدْعِيَنَّهم إلى المعاصي، ولأُزَيِّنَنَّ لهم، والغَيُّ: الجَهلُ والانهِماكُ في الباطِلِ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمْرِ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿فَٱلْحَقُّ﴾ مُبتدأٌ مَرفوعٌ، وخبَرُه محذوفٌ تَقديرُه (منِّي) أو (قَسَمي). أو الخبَرُ جملةُ القَسَمِ وجوابُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾، ويجوزُ أن يكونَ (الحقُّ) خبرًا لمبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه (أنا)، أو (قَولي).

﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ (الواو) اعتراضيَّةٌ، (الحقَّ) مَفعولٌ به مُقدَّمٌ مَنصوبٌ. وجُملةُ ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ اعتراضيَّةٌ، لا محلَّ لها مِن الإعرابِ.

وجُملةُ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ جوابُ قَسَمٍ مُقدَّرٍ لا مَحلَّ لها مِن الإعرابِ، وجملةُ القَسَمِ المقدَّرةِ (أُقْسِمُ بالحَقِّ) معَ الجوابِ في مَحلِّ رَفْعٍ، خبَرُ المبتدأِ، أو استئنافيةٌ لا محَلَّ لها[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ تعالَى عن قولِه للمَلائِكةِ، ومعهم إبليسُ: إنِّي سأخلُقُ بَشَرًا مِن طِينٍ،

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١، ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٠٠)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٥١٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٤٦).

فإذا اكتمَلَ خَلقُ آدَمَ، ونَفخْتُ فيه الرُّوحَ، فخِرُّوا له ساجِدينَ تَحيَّةً وتَكريمًا؛ فامتثَلَ الملائِكةُ كُلُّهم أمْرَ اللهِ، فسَجَدوا لآدَمَ إلَّا إبليسَ، تكبَّرَ عن السُّجودِ، وكان مِنَ الكافِرينَ.

قال اللهُ تعالَى: يا إبليسُ، ما منَعَك مِن السُّجودِ لِآدَمَ الَّذي خلَقْتُه بيَدَيَّ؟ أتكبَّرْتَ عن السُّجودِ له بغَيرِ حَقٍّ، أم كنتَ ممَّن علَا على غيرِه؟! فقال إبليسُ: أنا خيرٌ مِن آدَمَ؛ خلَقْتَني من نارٍ، وخلَقْتَه مِن طِينٍ!

فقال اللهُ تعالَى لإبليسَ: فاخرُجْ من الجنَّةِ؛ فإنَّك مَرجومٌ، وإنَّ عليك لَعنتي إلى يومِ القِيامةِ.

قال إبليسُ: رَبِّ فأخِّرْ أجَلي ولا تُعَذِّبْني إلى يومِ بَعثِ الخَلائِقِ.

فقال اللهُ له: فإنَّك مِن المُؤخَّرينَ إلى وَقتِ النَّفخةِ الأُولى؛ يومِ يموتُ الخلائِقُ أجمَعون.

فقال إبليسُ: فبِعزَّتِك -يا رَبِّ- لأُضِلَّنَّ آدَمَ وذُرِّيَّتَه أجمعينَ، إلَّا عِبادَك الذين أخلَصْتَهم لك وَحدَك، وعَصَمْتَهم مِنِّي.

قال اللهُ تعالى: فالحقُّ، وأنا أقولُ الحَقَّ، لأملأنَّ جهنَّمَ منك وممَّن تَبِعَك مِن بَني آدَمَ أجمَعينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّه لَمَّا كانتْ قُرَيشٌ خالَفوا الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ بسَبَبِ الحَسَدِ والكِبرِ؛ ذكَرَ حالَ إبليسَ؛ حيثُ خالَفَ أمْرَ اللهِ بسَبَبِ الحَسَدِ والكِبرِ، وما آلَ إليه

مِنَ اللَّعنةِ والطَّردِ مِن رَحمةِ اللهِ؛ لِيَزدجِرَ عن ذلك مَن فيه شَيءٌ مِنهما[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه خُصومةَ الملائكةِ إجمالًا فيما تقدَّمَ؛ ذكَرَها هنا تَفصيلًا، فقال[٢]:

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ٧١﴾.

أي: ما كان ليَ مِن عِلمٍ باختِصامِ الملأِ الأعْلَى حِينَ قال اللهُ تعالى للمَلائِكةِ: إنِّي سأخْلُقُ بَشَرًا[٣] مِن طِينٍ، هو آدَمُ عليه السَّلامُ[٤].

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٧٢﴾.

أي: فإذا اكتَمَل خَلْقُ آدَمَ، وصار جَسَدًا تامًّا مُتقَنًا، ونَفخْتُ فيه الرُّوحَ التي هي مِن خَلقِي، فخِرُّوا على الأرضِ ساجِدينَ لآدَمَ؛ تَحيَّةً له وتَكريمًا وتَعظيمًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

(٣) قال الشوكانيُّ: (﴿بَشَرًا﴾: أي: جِسمًا مِن جِنسِ البَشرِ مأخوذٌ مِن مُباشرتِه للأرضِ، أو مِن كونِه باديَ البشرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٤-٢٣٦).

قال النيسابوريُّ: (لا خِلافَ في أنَّ الإضافةَ في قَولِه تعالَى: ﴿رُّوحِي﴾ للتَّشريفِ والتكريمِ، مِثلُ: ناقةِ اللهِ، وبيتِ اللهِ). ((تفسير النيسابوري)) (٤/ ٢٢٠). ويُنظر: ((الرُّوح)) لابن القيِّم (ص: ١٥٤ - ١٥٦).

وقال الواحديُّ: (قال الكلبي: فخِرُّوا له ساجِدينَ سَجدةَ تحيَّةٍ، ولم تكُنْ سَجدةَ طاعةٍ، ونحوَ هذا قال جميعُ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (١٢/ ٦٠١).

وقال ابنُ العربيِّ: (اتَّفَقت الأمَّةُ على أنَّ السُّجودَ لآدمَ عليه السلامُ لم يكُنْ سجودَ عِبادةٍ). =

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

أي: فلمَّا خلَقَ اللهُ آدَمَ ونفَخَ فيه الرُّوحَ، سَجَد كلُّ الملائِكةِ لآدَمَ؛ امتِثالًا لأمْرِ اللهِ تعالَى[١].

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ ﴾.

أي: إلَّا[٢] إبليسَ تَكبَّرَ عن السُّجودِ لآدَمَ؛ تعَظُّمًا وأنَفةً[٣].

كما قال تعالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤].

﴿ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: وكان إبليسُ مِن الكافِرينَ[٤].

---

= ((أحكام القرآن)) (١/ ٢٧)، ونقَل الرازي أيضًا الإجماعَ على ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(٢) قال الشوكانيُّ: (الاستِثناءُ مُتَّصِلٌ على تَقديرِ أنَّه كان متَّصِفًا بصفاتِ الملائكةِ، داخِلًا في عدادِهم، فغُلِّبوا عليه. أو مُنقَطِعٌ على ما هو الظَّاهِرُ مِن عدَمِ دُخولِه فيهم، أي: لكِنْ إبليسُ استكبَرَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠١).

قال الشوكاني: (كان استكبارُه استكبارَ كُفرٍ، فلذلك كان مِن الكافرينَ أي: صار مِنهم =

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾.

أي: قال اللهُ: يا إبليسُ، أيُّ شَيءٍ مَنَعَك من السُّجودِ لِلَّذي كرَّمتُه بخَلْقِه بيَدَيَّ[1]؟

---

= بمُخالَفَتِه لأمرِ اللَّهِ واستكبارِه عن طاعَتِه، أوْ كان مِن الكافرينَ في عِلْمِ اللَّهِ سُبحانَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠).

ممن ذهَب إلى أنَّ المرادَ: كان قدْ سبَق في عِلمِ اللهِ أنَّه مِن الكافِرينَ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٥).

وممن ذهب إلى أن المعنى: صارَ مِن الكافِرينَ بإباء الأمرِ: النسفي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٤).

قال ابن عاشور: (فعلُ «كانَ» الَّذي وَقَع في هذا الكلامِ حِكايةً لكفرِه الواقعِ في ذلك الوَقتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠١)، ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٤).

وقال الزمخشري: (﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ أُريدَ وُجودُ كُفرِه ذلك الوَقتَ، وإن لم يكُنْ قَبْلَه كافِرًا، لأنَّ «كانَ» مُطلَقٌ في جِنسِ الأوقاتِ الماضيةِ؛ فهو صالِحٌ لأيِّها شِئتَ، ويجوزُ أن يرادَ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ في الأزمِنةِ الماضيةِ في عِلمِ اللهِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥).

وقال ابنُ كثير: (امتَثَلَ الملائِكةُ كُلُّهم ذلك سوى إبليسَ، ولم يكنْ منهم جِنسًا، كان مِن الجِنِّ فخانه طَبعُه وجِبِلَّتُه أحوَجَ ما كان إليه، فاستَنكفَ عن السُّجودِ لآدَمَ، وخاصَمَ رَبَّه عزَّ وجلَّ فيه!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

قال أبو الحسن الأشعريُّ: (أجمَعوا على أنَّه عزَّ وجَلَّ يَسمَعُ ويَرى، وأنَّ له تعالى يَدينِ مَبسوطتَينِ... وأنَّ يَديهِ تعالى غيرُ نِعمتِه). ((رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب)) (ص: ١٢٧).

وقال البغويُّ: (كلُّ ما جاء مِن هذا القَبيلِ في الكِتابِ أو السُّنَّةِ -كاليَدِ، والإصبعِ، والعينِ، والمجيءِ، والإتيانِ- فالإيمانُ بها فَرضٌ، والامتِناعُ عن الخَوضِ فيها واجِبٌ؛ فالمُهتدي مَن سلَك فيها طريقَ التَّسليمِ، والخائِضُ فيها زائِغٌ، والمنكِرُ مُعَطِّلٌ، والمكَيِّفُ مُشَبِّهٌ). ((شرح =

﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾.

أي: هل تَعظَّمتَ عن السُّجودِ لآدمَ، وحدَث لك الاستِكبارُ الآنَ، فتركتَ السُّجودَ له، أمْ كُنتَ كذلك مِن قَبلُ مِن المتكبِّرينَ العالِينَ، ممَّنْ لا يَليقُ أنْ تُكلَّفَ مِثلَ هذا؛ لعلوِّ مكانِك[1].

﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾.

أي: قال إبليسُ مُجيبًا ربَّه: أنا خيرٌ مِن آدَمَ؛ لأنَّك خلَقْتَني مِن نارٍ، وخلَقْتَ آدَمَ مِن طِينٍ؛ فلَمْ أسجُدْ له[2].

---

= السنة)) (١٥/ ٢٥٧). ويُنظر: ((الإبانة عن أصول الديانة)) للأشعري (ص: ١٢٥ - ١٢٨)، ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) للَّالَكائي (٣/ ٤٥٧)، ((الأسماء والصفات)) للبيهقي (٢/ ١١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٣٦٢ - ٣٧٠).

(١) ممَّن اختارَ المعنى المذكورَ في الجُملةِ: ابنُ جَرير، وابنُ عطيَّة، والرازي، والثعالبي، وابن جُزَي، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٩).

والاستِفهامُ هنا على وَجهِ التوبيخِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٣).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: أستكبرْتَ وتعظَّمْتَ بنفْسِك عن السُّجودِ لآدمَ، أمْ كُنتَ مِن القومِ الذين يَتكبَّرون، فتكبَّرتَ عن السُّجودِ؛ لكونِك منهم؟ ممَّن اختاره في الجُملةِ: السمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، والعليمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٦).

قال البقاعيُّ: (﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ أي: طلَبْتَ أن تكونَ أعلَى منه وأنت تعلَمُ أنَّك دونَه؟! فأنتَ بذلك ظالِمٌ، فكُنتَ مِن المُستكبرينَ العَريقينَ في وَصْفِ الظُّلم؛ فإنَّ مَن اجتَرَأ على أدناه أوشَكَ أن يَصِلَ إلى أعلاه. ﴿أَمۡ كُنتَ﴾ أي: ممَّا لك مِن الجبِلَّةِ الرَّاسِخةِ ﴿مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ أي: الكُبَراءِ المُستَحِقِّينَ للكِبرِ، وأنا لا أعلَمُ ذلك فنقَصْتُك مِن مَنزِلتِك، فكنتُ جائِرًا في أمري؟!). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٥، ١٤٦)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٨)، ((تفسير =

كما قالَ تعالَى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: فاخرُجْ مِن الجَنَّةِ[١]؛ فإنَّك مَرجومٌ[٢].

---

= ابن كثير)) (٧/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(١) ممَّن اختار القولَ المذكورَ؛ أنَّ المرادَ: الخروجُ مِن الجنَّةِ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، والقرطبيُّ، والخازن، والبقاعيُّ، والعُلَيميُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥).

وقيل: المرادُ: الخروجُ مِنَ السَّماءِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابن أبي زمنين، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٠).

وقال السعديُّ: (مِن السَّماءِ والمَحلِّ الكريم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

وقيل: ﴿مِنْهَا﴾: أي: مِن زُمرةِ الملائكةِ وجُملَتِهم. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٢/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

قيل: المرادُ بـ﴿رَجِيمٌ﴾: أي: مَلعونٌ، وممَّن اختارَ هذا القولَ: مقاتلُ بن سليمان، والزَّجَّاج، ومكي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٣/ ١٨٠)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: قَتادة، والضَّحَّاك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٦).

وقال ابنُ جَرير: (مرجومٌ بالقولِ، مشتومٌ ملعونٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٦)، ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٣).

وقيل: المرادُ: مطرودٌ. وممَّن ذهَب إلى ذلك: البغوي، والزمخشري، والنَّسَفي، والخازن، وجلال الدِّين المَحلي، والعُلَيمي، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٨)، =

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

أي: وإنَّ طَرْدي وإبعادي لك مِن رَحمتي: مُستَمِرٌّ وحاقٌّ عليك إلى يَومِ القِيامةِ؛ إذ يُجازَى العِبادُ، ويُلاقِي فيه إبليسُ جَزاءَه[1].

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

أي: قال إبليسُ: رَبِّ فأخِّرْ أجَلي وأمْهِلْني ولا تُعَذِّبْني إلى اليَومِ الذي تَبعَثُ فيه خَلْقَك[2].

﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

أي: قال اللهُ لإبليسَ: فإنَّك مِنَ المؤخَّرينَ المُمهَلينَ[3].

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾.

---

= ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٠).

وقيل: المراد: مَرجومٌ بالكواكِبِ والشُّهُبِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩).

واختارَ الشوكانيُّ أنَّ المرادَ: مَرجومٌ بالكواكبِ، مَطرودٌ مِن كلِّ خيرٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٤-٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

قال القرطبي: (أراد الملعونُ ألَّا يموتَ، فلم يُجَبْ إلى ذلك، وأُخِّرَ إلى وَقتٍ مَعلومٍ، وهو يومٌ يموتُ الخَلقُ فيه، فأُخِّرَ إليه؛ تهاونًا به). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

أي: إلى اليَومِ الذي يَموتُ فيه الخلائِقُ، وهو وَقتُ النَّفخةِ الأُولى[١].

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

أي: قال إبليسُ: فبعِزَّتِك[٢] لأُضِلَّنَّ آدَمَ وذُرِّيَّتَه أجمَعينَ[٣].

كما قال تعالَى حكايةً عن إبليسَ: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفَتحِ اللَّامِ: اسمُ مَفعولٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالَى أخلَصَهم لعِبادتِه، واختارَهم، فصاروا مُخلَصينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٦-٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤١).

(٢) الباءُ في قولِه ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ للقَسَمِ، ويحتَمِلُ أن تكونَ للاستِعانةِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤١-٢٤٢).

ممَّن اختارَ أنَّ هذا قَسَمٌ بعِزَّةِ الله تعالى: الزمخشريُّ، وابنُ عطية، والقُرطبيُّ، وابن جُزي، وأبو السُّعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤١-٢٤٢).

(٤) قرأ بها نافع، وعاصم، وحمزة، والكِسائي، وأبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).=

٢- قِراءةُ: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكَسرِ اللَّام: اسمُ فاعِلٍ مِن أخلَصَ، بمعنى: أنَّهم أخلَصوا للهِ دِينَهم، وأعمالَهم مِنَ الشِّركِ والرِّياءِ[1].

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: إلَّا عِبادَكَ الذين أخلَصْتَهم لعِبادتِك، وعصَمْتَهم مِنِّي، فلا أستطيعُ إغواءَهم[2].

كما قالَ الله تباركَ وتعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠].

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ بالرَّفعِ. قيل: بمعنى: فاللهُ الحَقُّ، أو فأنا الحَقُّ، أو فهذا الحَقُّ، أو فالحَقُّ منِّي، أو فوَعدُ اللهِ هو الحَقُّ، أو فالحَقُّ قَسَمي[3].

---

= ويُنظرُ لِمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((الحُجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حُجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٩).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٥).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ١٩٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٧).

(٣) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، وخلف. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦).

٢- قِراءةُ: ﴿فَالْحَقَّ﴾ بالنَّصبِ. قيل: بمعنَى: حقًّا لأملَأنَّ جَهنَّمَ. وقيل: التَّقديرُ: فيُحِقُّ اللهُ الحَقَّ. وقيل: نُصِبَ على الإغراءِ، أي: فاتَّبِعوا الحَقَّ، أو الْزَموا الحَقَّ(١).

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾﴾.

أي: قال اللهُ: فالحقُّ(٢)، وأنا أقولُ الحَقَّ(٣).

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٨٧، ٨٨).

(٢) كلمةُ ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ مرفوعةٌ؛ إمَّا لأنَّها خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، تقديره: أنا الحقُّ، أو: قولي الحقُّ، أو تكونُ مبتدأً لخبرٍ محذوفٍ تقديرُه فالحقُّ منِّي، أو يكونُ الخبرُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٢).

وممَّن اختار أنَّ التقدير: فأنا الحَقُّ: الزجَّاج، والسمعانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٥)

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: مجاهد. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٩).

وممَّن اختار أنَّ التقديرَ: فالحقُّ منِّي: البغوي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٨).

وممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿فَٱلْحَقُّ﴾ مبتدأٌ ضُمِّن معنى القسَمِ، وجوابُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ...﴾، ويكونُ في هذا الجوابِ كفايةٌ عن خَبرِ المبتدأِ: ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٣).

وذكر البقاعيُّ -بناءً على قِراءةِ الرفعِ هذه- أنَّ قولَه: (﴿فَٱلْحَقُّ﴾ يكونُ هو المقسَمَ به، أي: فالحقُّ قَسَمي، والجوابُ ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ وما بينَهما اعتراضٌ مبيِّنٌ أنَّ هذا ممَّا لا يُخلَفُ أصلًا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٤٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٧).

قال القرطبي: (ولا اختلافَ في الثَّاني [أي قوله: ﴿وَٱلْحَقَّ﴾] في أنَّه منصوبٌ بـ ﴿أَقُولُ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠).

كما قال تعالَى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٢].

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

أي: لَأملأنَّ جَهنَّمَ مِن جِنسِك مِن الشَّياطينِ[1] -يا إبليسُ- وممَّن تَبِعَك مِن بَني آدَمَ أجمَعينَ[2].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ

---

(١) ممَّن قال بالمعنى المذكورِ: الزمخشري، والرازي، والرَّسْعني، والبيضاوي، والنَّسَفي، والبقاعي، والشوكاني، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٧-٤٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٣).

ونحوُ المعنى المذكورِ قولُ مَن قال: إنَّ معنى ﴿مِنكَ﴾ أي: مِن نفْسِك ومِن ذُرِّيتِك- وممَّن قال به: مكي، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والعُليمي. يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥).

فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ المقصودُ مِن ذِكرِ هذه القِصَّةِ: تَنبيهُ بَني آدَمَ في هذا المقامِ علَى شَرفِ أبيهم آدَمَ، وتَبيينُ عداوةِ عدوِّهم إبليسَ لهم، وما هو مُنطوٍ عليه مِنَ الحسَدِ لهم ولأبيهم آدَمَ؛ ليَحْذَروه، ولا يتَّبعوا طرائقَه[1]، والمَنعُ مِن الحَسَدِ والكِبرِ؛ وذلك لأنَّ إبليسَ إنَّما وقَعَ فيما وقَعَ فيه بسَبَبِ الحَسَدِ والكِبرِ، والكُفَّارُ إنَّما نازَعوا مُحمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بسبَبِ الحسَدِ والكِبرِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ ۞ فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ كانتْ نَزعةُ الكِبرِ والعِصيانِ كامِنةً في جِبلَّةِ إبليسَ، ولم يكُنْ مِن الملأِ الذي كان معهم مُثيرٌ لِما سكَنَ في نفْسِه مِن طَبعِ الكِبرِ والعِصيانِ، فلمَّا طرأَ على ذلك الملأِ مَخلوقٌ جديدٌ، وأُمِرَ أهلُ الملأِ الأعْلَى بتَعظيمِه؛ كان ذلك مُوريًا زِنادَ الكِبرِ في نفْسِ إبليسَ؛ فنشأَ عنه الكُفرُ باللهِ، وعِصيانُ أمْرِه، وهذا ناموسٌ خِلْقيٌّ جعَلَه اللهُ مَبدأً لهذا العالَمِ قبلَ تَعميرِه، وهو أنْ تكونَ الحوادِثُ والمضائِقُ معيارَ الأخلاقِ والفَضيلةِ؛ فلا يُحكَمُ على نَفسٍ بتزكيةٍ أو ضِدِّها إلَّا بعدَ تَجربتِها، ومُلاحَظةِ تصَرُّفاتِها عند حُلولِ الحوادِثِ بها[3].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ أنَّ مَن قَدَّمَ العَقلَ على السَّمعِ فإنَّما هو مُتَّبِعٌ لخُطواتِ الشَّيطانِ؛ لأنَّ الشَّيطانَ قَدَّمَ ما يَدَّعي أنَّه عَقلٌ على السَّمعِ، فأخطأَ في ذلك؛ فهكذا كلُّ مَن قَدَّمَ العَقلَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٣٠١-٣٠٢).

السَّمعِ، سواءٌ في العِلمِيَّاتِ -وهي عِلمُ العقائدِ- أو في العَمَليَّاتِ؛ فإنَّه مُشابِهٌ لإبليسَ، مُتَّبِعٌ لخُطُواتِه، واعلَمْ أنَّ كُلَّ بَليَّةٍ تَقَعُ مِن تحريفِ الكَلِمِ عن مَواضِعِه، والاستكبارِ عن عِبادةِ اللهِ، وغيرِ ذلك: فأصلُها مِن إبليسَ[١].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ أنَّ مِن أسبابِ الإعانةِ أنْ يَستعينَ الإنسانُ بما يُناسِبُ المقامَ مِن أسماءِ اللهِ وصِفاتِه؛ لأنَّه لم يَقُلْ: «فبِمَغفِرتِك لأُغوينَّهم»؛ لأنَّه يُريدُ أنْ يَتَسَلَّطَ، والسُّلطةُ يُناسِبُها مِن الصِّفاتِ «العِزَّةُ» دونَ «المغفرةِ»[٢].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أنَّ إبليسَ وَعَدَ -مُتَوسِّلًا بعِزَّةِ اللهِ- أنْ يُغويَ جميعَ بني آدمَ، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ أنَّه يَجِبُ الحَذَرُ مِن إبليسَ ووَساوسِه، فإذا وَجَدْتَ في نَفْسِك تأخُّرًا في الخَيرِ فاستَعِذْ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، وإذا وَجدْتَ في نَفْسِك إقدامًا على الشَّرِّ فاستَعِذْ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ؛ قال تعالَى: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾[٣] [البقرة: ٢٦٨].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى وَعَدَ جَهنَّمَ بمَلئِها، ويَتفرَّعُ عن هذه الفائدةِ الحذَرُ الشَّديدُ مِن أنْ يكونَ الإنسانُ مِن أهلِ جَهنَّمَ -نعوذُ باللهِ منها- وفي الصَّحيحَينِ أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا تزالُ جَهنَّمُ يُلقَى فيها وتَقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ حتى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها قَدَمَه؛ فيَنزَوي[٤] بعضُها إلى بَعضٍ، وتقولُ: قَطْ قَطْ[٥]))[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) فيَنزَوي: أي: فيَجتمِعُ ويَنقبِضُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٣٦٩).

(٥) قَطْ قَطْ: أي: حَسْبي حَسْبي، قد اكتفَيتُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٣٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٢). =

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ﴾ إثباتُ الكَلامِ للهِ عزَّ وجلَّ، وإثباتُ أنَّ كلامَه بصَوتٍ مَسموعٍ تَسمَعُه الملائكةُ، كما في هذه القِصَّةِ، وإثباتُ أنَّه بحَرفٍ، أي: بحُروفٍ مُتتابِعةٍ يَتبَعُ بَعضُها بَعضًا؛ لِقَولِه: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، وكُلُّ هذا تأكيدٌ لِمَذهَبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ، وفي هذا أيضًا إثباتُ أنَّ الكَلامَ يتعلَّقُ بمَشيئتِه سُبحانَه[1].

٢- صَحَّ أنْ يَقولَ لهم: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾، وما عَرَفوا ما البَشَرُ، ولا عَهِدوا به قَبلُ، ووَجهُه: أنْ يَكونَ قد قال لهم: إنِّي خالِقٌ خَلْقًا مِن صِفَتِه كَيْتَ وكَيْتَ، ولكِنَّه حين حَكاه اقتَصَرَ على الاسمِ.

وقيلَ: ولَعَلَّ ما جرَى عِندَ وُقوعِ المَحكيِّ ليس هذا الاسمَ الذي لم يُخلَقْ مُسَمَّاهُ حِينَئذٍ، فَضلًا على تَسميَتِه به، بلْ عِبارةٌ كاشِفةٌ عن حالِه، وإنَّما عَبَّرَ عنه بهذا الاسمِ عِندَ الحِكايةِ[2].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ إثباتُ أنَّ أصلَ بني آدمَ هو الطِّينُ؛ ولهذا جاءتْ طبائِعُ بني آدمَ وألوانُهم مُختلِفةً كاختِلافِ الأرضِ، أو كاختِلافِ تُربةِ الأرضِ؛ فيها السَّهلُ واللَّيِّنُ، والأحمرُ والأبيضُ والأسودُ، والحَزْنُ والصَّعْبُ؛ لأنَّهم خُلِقُوا مِن هذه التُّربةِ، فصارَ اختلافُهم كاختِلافِ

---

= والحديث أخرجه البُخاريُّ (٧٣٨٤)، ومسلمٌ (٢٨٤٨) واللفظ له، مِن حديثِ أنسِ بنِ مالِكٍ رَضي اللهُ عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥).

الأصلِ الذي خُلِقُوا منه[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾، فيه سؤالٌ: ذكَر هاهنا أنَّه خلَق البشرَ مِن طِينٍ، وقد جاء في آياتٍ أُخَرَ ما يَدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وكقَولِه تعالَى: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقولِه: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

**والجوابُ**: أنَّه ذكَرَ أطوارَ ذلك التُّرابِ، فذكَرَ طَورَه الأوَّلَ بقَولِه: ﴿مِن تُرَابٍ﴾، ثُمَّ بُلَّ فصارَ طِينًا لازِبًا، ثم خُمِّرَ فصار حمَأً مسنونًا، ثمَّ يَبِسَ فصار صَلصالًا كالفَخَّارِ[٢]، فثبَت أنَّه لا منافاةَ بينَ الكلِّ[٣].

٥- في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ إثباتُ الأفعالِ للهِ تعالَى، وبيانُ أنَّ أفعالَه تَتعلَّقُ بمَشيئتِه؛ لأنَّ «إذا» شَرطيةٌ تُفيدُ المُستقبَلَ[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ يدُلُّ على تَفخيمِ شأنِ آدَمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه تعالَى خلَقَ ما خلَقَ مِن الكَونَينِ (العلويِّ والسفليِّ)، والجنَّةِ والنَّارِ، والعَرشِ والكُرسيِّ، والملائِكةِ، ولم يَقُلْ في صِفةِ شَيءٍ منها ما قاله في صِفةِ آدَمَ -عليه السَّلامُ- وأولادِه، ولم يأمُرْ بالسُّجودِ لِشَيءٍ غَيرِه[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ جوازُ تعليقِ الأمرِ بالشَّرطِ، أي: إذا جازَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٠٩)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٣، ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤١٩).

تعليقُ الأمرِ بالشرطِ؛ فإنَّ المأمورَ به يمكنُ أنْ يَنْفُذَ فيه الشَّرطُ؛ ولهذا قال الرسولُ عليه الصلاةُ والسلامُ لِضُبَاعَةَ بنتِ الزبيرِ -وقد اشتكَتْ إليه عِندَ إرادةِ الحجِّ- قال: ((حُجِّي واشترطي، قولي: اللهمَّ مَحِلِّي حيثُ حَبَسْتَنِي))[١].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ تَشريفُ الرُّوحِ التي نُفِخَتْ في آدَمَ عليه السَّلامُ، وهذا تَشريفٌ مِن وجهَينِ:

**الأوَّلُ**: أنَّ اللهَ هو الذي نَفَخَها، ولم يأمُرْ أحدًا مِن الملائِكةِ بنَفخِها.

**والثَّاني**: أنَّ اللهَ أضاف هذه الرُّوحَ إلى نَفسِه المُقَدَّسةِ[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف ساغ السُّجودُ لِغَيرِ اللهِ تعالى؟

**الجوابُ**: أنَّ السَّجدةَ كانتْ لآدمَ عليه السَّلامُ تَعظيمًا له وتَحِيَّةً له، كالسَّلامِ منهم عليه، وقدْ أجْمَع المسلمونَ على أنَّ ذلك السُّجودَ ليس سُجودَ عِبادةٍ[٣].

وأيضًا فالأصلُ أنَّ سُجودَ الملائِكةِ لآدَمَ كان على الجَبهةِ، ولَمَّا وقَع ذلك امتِثالًا لأمْرِ اللهِ كان طاعةً مِن الطَّاعاتِ، كما أنَّ قَتْلَ النَّفسِ بغيرِ حَقٍّ مِن كَبائرِ الذُّنوبِ، لكِنْ لَمَّا أُمِرَ إبراهيمُ الخَليلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بذَبحِ ابنِه فامتَثَل أمْرَ اللهِ، وشَرَع في تنفيذِ الذَّبحِ؛ صار طاعةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٥).

والحديث أخرجه البخاري (٥٠٨٩) واللفظ له، ومسلم (١٢٠٧) من حديثِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٨٨-٨٩).

١٠- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ﴾ جوازُ تَوَجُّهِ الأمْرِ -الخِطابِ- إلى العُمومِ، وإنْ كان فيهم مِن غَيرِ جِنسِهم؛ فإنَّ إبليسَ -بلا شَكٍّ- مِن غيرِ الملائِكةِ أصلًا ونِهايةً، لكِنَّه كان فيهم؛ فصَحَّ أنْ يَتَوَجَّه الخِطابُ إليه، وهذا ظاهِرٌ. لو أنَّك أمَرْتَ جماعةً بالسُّجودِ وفيهم مَن ليس منهم، ولكِنَّه على صِفتِهم ويَعمَلُ بعَمَلِهم، فتَخَلَّفَ، لا بُدَّ أنْ تَلومَه؛ لأنَّ الخِطابَ مُوَجَّهٌ للجَميعِ[١].

١١- قولُه تعالَى: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فيه أنَّ الاستكبارَ عن أمْرِ اللهِ كُفْرٌ؛ فمعنَى قولِه: ﴿ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: جزاءً لاستكبارِه كان مِن الكافِرين[٢]؟

١٢- في قَولِه تعالَى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ ﴾ أنَّ كلامَ اللهِ تعالَى يَتعلَّقُ بمَشيئتِه؛ حيثُ صَدَّرَ هذا القولَ بعْدَ استِكبارِ إبليسَ وتَركِه السُّجودَ[٣].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ قد يَستَدِلُّ به مَن رأى أنَّ (لا) في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾ [الأعراف: ١٢] زائدةٌ؛ حيثُ سقَطَتْ هنا، والقِصَّةُ واحِدةٌ[٤].

١٤- قال تعالَى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ كُلُّ مَن رَدَّ نُصوصَ الوَحيِ بالأقيِسَةِ فسَلَفُه في ذلك إبليسُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٤٥٤).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٣).

١٥- قَولُه تعالَى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ ﴾ فيه إثباتُ اليَدَينِ للهِ تعالَى؛ لِقَولِه تعالَى: ﴿بِيَدَيَّ﴾، وهذه صِيغةُ تَثنيةٍ تُفيدُ أنَّ للهِ تعالَى يَدينِ اثنتَينِ تَليقُ بجلالِه[1].

١٦- في قَولِه تعالَى: ﴿بِيَدَيَّ﴾ الرَّدُّ على أهلِ التَّعطيلِ الذين قالوا: إنَّ المرادَ باليَدِ النِّعمةُ أو القوَّةُ؛ وذلك أنَّ النِّعمةَ أو القُوَّةَ لا تأتي بصِيغةِ التَّثنيةِ؛ لأنَّ صِيغةَ التَّثنيةِ تدُلُّ على الحَصرِ؛ وقوةُ اللهِ غيرُ مَحصورةٍ، ونِعَمُه أيضًا غيرُ محصورةٍ؛ قال تعالَى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾[2] [النحل: ١٨].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿بِيَدَيَّ﴾ أنَّ يَدَ اللهِ تعالى لا تُماثِلُ أيديَ المخلوقينَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أضافَها إلى نَفسِه، والمضافُ يكونُ حَسَبَ المضافِ إليه، فكما أنَّ ذاتَ اللهِ مُقَدَّسةٌ لا تُماثِلُ ذواتِ المَخلوقينَ كذلك صِفاتُه[3].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ فيه استِعمالُ الحَصْرِ -أو كما يقولون: السَّبرُ والتَّقسيمُ[4]- في المناظَرةِ والمجادَلةِ؛ فمعنَى الآيةِ: هل أنتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابنُ القيِّم: (لا ريبَ أنَّ العرَبَ تقولُ: لفُلانٍ عِندي يَدٌ، وقال عُروةُ بنُ مَسعودٍ للصِّدِّيقِ: «لولا يدٌ لك عندي لم أَجْزِك بها لأجَبْتُك». ولكِنْ وقوعُ اليدِ في هذا التركيبِ الذي أضاف سُبحانَه فيه الفِعلَ إلى نفْسِه، ثمَّ تعدَّى الفِعلَ إلى اليَدِ بالباءِ التي هي نظيرُ: كَتبتُ بالقَلَمِ، وهي اليَدُ، وجَعْلُ ذلك خاصَّةً خَصَّ بها صَفيَّه آدَمَ دونَ البشَرِ، كما خَصَّ المسيحَ بأنَّه نَفَخ فيه مِن رُوحِه، وخَصَّ موسى بأنَّه كَلَّمه بلا واسِطةٍ: فهذا مِمَّا يُحيلُ تأويلَ اليَدِ في النَّصِّ بالنِّعمةِ، وإنْ كانتْ في تركيبٍ آخَرَ تَصلُحُ لذلك؛ فلا يلزَمُ مِن صلاحِيةِ اللَّفظِ لِمعنًى ما في تركيبٍ صلاحيتُه له في كلِّ تركيبٍ). ((الصواعق المرسلة)) (١/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٧).

(٤) السَّبْرُ والتَّقسيمُ: هو حصْرُ الأوصافِ في الأصلِ المَقيسِ عليه وإبطالُ بعضِها ممَّا لا يَصلُحُ =

استكبَرْتَ في نَفسِك، وأنتَ لستَ أهلًا للعُلُوِّ؟ أو كنتَ عاليًا في أصلِكَ حتى تَمتَنعَ عن السُّجودِ؟ أمْ أنتَ أكبَرُ وفي مَرتبةٍ عاليةٍ أعْلى مِن آدمَ حتى تَمتَنعَ عن السُّجودِ[1]؟

١٩- حُجَّةُ إبليسَ في قولِه: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ هي حُجَّةٌ باطلةٌ؛ لأنَّه عارضَ النصَّ بالقِياسِ[2].

---

= للتَّعليلِ، فيَتعيَّنُ الباقي للعِلِّيَّةِ. والتَّقسيمُ يكونُ قبْلَ السَّبرِ؛ لأنَّه تَعدادُ الأوصافِ الَّتي يُتَوهَّمُ صَلاحيتُها للتَّعليلِ ثمَّ يَسْبُرُها، أي: يَختبِرُها ليميزَ الصَّالحَ للتَّعليلِ مِن غيرِه. يُنظر: ((الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب)) للبابرتي (٢/ ٥٣٠)، ((التحبير شرح التحرير)) للمرداوي (٧/ ٣٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥).

وذكَر ابنُ تيميةَ أنَّ حُجةَ إبليس فاسدةٌ بالعقلِ، وذلك مِن خَمسةِ وجوهٍ:

أحدُها: أنَّه ادَّعَى أنَّ النارَ خيرٌ مِن الطينِ! وهذا قدْ يُمْنَعُ؛ فإنَّ الطينَ فيه السَّكينةُ والوقارُ والاستقرارُ والثباتُ والإمساكُ ونحو ذلك؛ وفي النارِ الخِفَّةُ والحِدَّةُ والطَّيْشُ! والطِّينُ فيه الماءُ والترابُ.

الثاني: أنَّه -وإنْ كانتِ النارُ خيرًا مِن الطِّينِ- فلا يجبُ أنْ يكونَ المخلوقُ مِن الأفضلِ أفضلَ؛ فإنَّ الفرعَ قد يَخْتَصُّ بما لا يكونُ في أصلِه، وهذا الترابُ يُخْلَقُ منه مِن الحيوانِ والمعادنِ والنباتِ ما هو خيرٌ منه، والاحتجاجُ على فَضْلِ الإنسانِ على غيرِه بفضلِ أصلِه على أصلِه! حُجَّةٌ فاسدةٌ احتجَّ بها إبليسُ، وهي حُجَّةُ الذين يَفْخَرون بأنسابهم.

الثالثُ: أنه -وإنْ كان مخلوقًا مِن طِينٍ- فقد حَصَلَ له بنفخِ الرُّوحِ المُقَدَّسَةِ فيه ما شَرُفَ به؛ فلهذا قال: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ فعَلَّقَ السُّجودَ بأنْ يُنْفَخَ فيه مِن رُوحِه، فالموجِبُ للتفضيلِ هذا المعنى الشريفُ الذي ليس لإبليسَ مثلُه.

الرابعُ: أنه مخلوقٌ بيدي اللهِ تعالى، كما قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾.

الخامسُ: أنَّه لو فُرِضَ أنَّه أَفْضَلُ؛ فقد يُقالُ: إكرامُ الأفضلِ للمفضولِ ليس بمُستنكَرٍ! يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال الشوكاني: (علَّل ما ادَّعاه مِن كَونِه خَيرًا منه، بقَولِه: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ وفي =

٢٠- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ أنَّ الإنسانَ قدْ يَعمَى عن الحَقِّ، فيَستَدِلُّ بما هو حُجَّةٌ عليه، يَظُنُّ أنَّه حُجَّةٌ له؛ وذلك أنَّ أهلَ العلمِ ذكَروا في هذا المقامِ بيانَ أنَّ ما خُلِقَ منه آدَمُ خَيرٌ ممَّا خُلِقَ منه إبليسُ[١].

٢١- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُۖ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ أنَّ إبليسَ أعلَمُ بحَقائِقِ صِفاتِ اللهِ تعالَى مِن كَثيرٍ مِن أهلِ التَّعطيلِ؛ فالذين فَسَّروا اليدَ بالقُوَّةِ هنا لو كان تَفسيرُهم صَحيحًا لقال إبليسُ: «يا رَبِّ، وأنا خلَقْتَني بيدَيكَ»؛ لأنَّ اللهَ خَلَقَ إبليسَ بقُوَّتِه كما خَلَقَ آدَمَ، لكِنَّ إبليسَ فَهِمَ أنَّ المرادَ باليدِ غيرُ القُوَّةِ؛ ولهذا لم يَنْقُصْ فَضيلةَ آدمَ بأنَّه هو خُلِقَ بيَدِ اللهِ[٢].

٢٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ احتُجَّ به في مَسألةِ أنَّ الكُلَّ بقَضاءِ اللهِ، فهو إخبارٌ مِن اللهِ تعالى بأنَّ إبليسَ لا يُؤمِنُ، فلو آمَنَ لانقلبَ خبَرُ اللهِ الصِّدقُ كَذِبًا، وهو مُحالٌ؛ فكان صُدورُ الإيمانِ منه مُحالًا مع أنَّه أُمِرَ به[٣].

٢٣- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۞ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ أنَّ اللهَ قد يُقَدِّرُ أسبابَ الشَّرِّ لحِكمةٍ، وذلك بإجابةِ دُعاءِ إبليسَ أنْ يُنظِرَه إلى يومِ

---

= زَعمِه أنَّ عُنصُرَ النَّارِ أشرَفُ مِن عنصُرِ الطِّينِ! وذهَبَ عنه أنَّ النَّارَ إنَّما هي بمنزلةِ الخادِمِ لعُنصُرِ الطِّينِ؛ إن احتِيجَ إليها استُدعِيَت كما يُستدعَى الخادِمُ، وإن استُغنِيَ عنها طُرِدَت، وأيضًا فالطِّينُ يَستولي على النَّارِ فيُطفِئُها، وأيضًا فهي لا تُوجَدُ إلَّا بما أصلُه مِن عُنصُرِ الأرضِ؛ وعلى كُلِّ حالٍ فقد شَرُفَ آدَمُ بشَرَفٍ وكَرُمَ بكَرامةٍ لا يُوازيها شَيءٌ مِن شَرَفِ العناصِرِ؛ وذلك أنَّ اللهَ خلَقَه بيَديه، ونَفَخَ فيه مِن رُوحِه! والجواهِرُ في أنفُسِها مُتجانِسةٌ، وإنَّما تَشْرُف بعارِضٍ مِن عوارِضِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٣٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٠، ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٦).

الوَقتِ المعلومِ، وإبليسُ لا شكَّ أنَّه مَبدَأُ كُلِّ شَرٍّ، ولكِنَّ اللهَ تعالى أبقاه لحِكمةٍ عَظيمةٍ، ولولا بقاءُ إبليسَ ما وُجِدَ عاصٍ في الأرضِ، وإذا انتفَى العِصيانُ صارَ الناسُ أُمَّةً واحِدةً، ولم يكنِ الإيمانُ مَزيَّةً، ولم يكنْ جِهادٌ، ولا أمرٌ بالمعروفِ، ولا نهيٌ عن المُنكَرِ، ولو كان النَّاسُ أُمَّةً واحدةً لتَعطَّلَ كثيرٌ مِن شَعائرِ الإسلامِ؛ فكان مِن الحِكمةِ بقاءُ إبليسَ، وبقاءُ ما يَدعو إليه إبليسُ[1].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ إنْ قال قائِلٌ: فهل أحَدٌ مُنظَرٌ إلى ذلك اليومِ سِوى إبليسَ، فيُقالَ له: إنَّك منهم؟

**الجوابُ**: نعمْ، مَن لم يَقبِضِ اللهُ رُوحَه مِن خَلْقِه إلى ذلك اليَومِ مِمَّن تقومُ عليه السَّاعةُ؛ فهُم مِن المُنظَرينَ بآجالِهم إليه؛ ولذلك قيل لإبليسَ: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥]، بمعنى: إنَّك مِمَّن لا يُميتُه اللهُ إلَّا ذلك اليومَ[2].

٢٥- قال تعالى حكايةً عن إبليسَ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ والعِزَّةُ: القَهرُ والسُّلطانُ، وعِزَّةُ اللهِ هي العِزَّةُ الكامِلةُ التي لا تَختَلُّ حَقيقَتُها، ولا يَتَخلَّفُ سُلطانُها. وأقسَمَ الشَّيطانُ بعِزَّةِ اللهِ؛ تَحقيقًا لقِيامِه بالإغواءِ دُونَ تَخلُّفٍ، وإنَّما أقسَمَ على ذلك وهو يَعلَمُ عَظمةَ هذا القَسَمِ؛ لِأنَّه وَجَدَ في نَفْسِه أنَّ اللهَ أقدَرَه على القِيامِ بالإغواءِ والوَسوَسةِ، وقد قال في سُورةِ (الحِجرِ): ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، وقَسَمُ إبليسَ بها ناشِئٌ عن عِلْمِه بأنَّه لا يَستَطيعُ الإغواءَ إلَّا لِأنَّ اللهَ أقدَرَه، ولولا ذلك لم يَستَطِعْ نَقضَ قُدرةِ اللهِ تَعالى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦).

٢٦- في قَولِه تعالَى عن إبليسَ: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ لَفظَ «الغَيِّ» إذا أُطلِقَ تناولَ كلَّ مَعصيةٍ للهِ[١].

٢٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ يدُلُّ على أنَّ إبليسَ لا يُغوي عِبادَ اللهِ المُخلَصينَ، وقال تعالَى في صِفةِ يُوسُفَ: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]؛ فيُستفادُ مِن مَجموعِ هاتينِ الآيتَينِ أنَّ إبليسَ ما أغْوَى يوسُفَ عليه السَّلامُ، وذلك يدُلُّ على كذِبِ ما نُسِبَ إلى يوسُفَ عليه السَّلامُ مِن القَبائحِ[٢].

٢٨- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلَصَهم اللهُ تعالَى لطاعتِه، فأخلَصوا قَصْدَهم لها، وعُرِفَ مِن الاستِثناءِ أنَّهم قَليلٌ، وأنَّ الغُواةَ هم الأصلُ[٣].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ أنَّ كلَّ ما قَدَّرَه اللهُ تعالى فهو حَقٌّ -سواءٌ كان ملائمًا للبشرِ أو غيرَ ملائم-، وجهُ ذلك: أنَّ كلَّ شيءٍ قَدَّرَه اللهُ كائنٌ بقوله: «كُنْ»، و «كُنْ» قولٌ، فإذا كانَ كُلُّ ما قاله اللهُ حَقًّا لَزِمَ أنْ يكونَ كلُّ ما قضاه حَقًّا، وهو كذلك، ولهذا قال النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ: ((الخيرُ كلُّه في يديك؛ والشَّرُّ ليس إليك))[٤].

٣٠- في قَولِه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ﴾ المرادُ: الجِنسُ، ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ المرادُ: النَّاسُ الذين أقسَمْتَ أنْ تُغويَهم؛ ولهذا كانتِ النَّارُ دارًا لصِنفَينِ مِن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٢).

والحديث أخرجه مسلم (٧٧١) مطوَّلًا، من حديثِ عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه.

المخلوقاتِ فقط، وهما الجِنُّ والإنسُ؛ فالملائكةُ ليسُوا مِن أهلِها، والوُحوشُ والحشَراتُ وغيرُها ليسوا مِن أهلِها[١].

٣١- في قَولِه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أنَّ مَن لم يُكَلَّفْ في الدُّنيا مِن الصِّبيانِ والمجانينِ، ومَن مات في الفَترةِ: لا يُحكَمُ لهم بالنَّارِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه أقسَمَ أنَّه لا بُدَّ أنْ يَملأَ جهنَّمَ مِن إبليسَ وأتْباعِه -وأتْباعُه همُ العُصاةُ- ولا مَعصيةَ إلَّا بعدَ التَّكليفِ؛ فلو دَخَلَها الصَّبيُّ والمجنونُ لدَخَلَها مَن هو مِن غيرِ أتباعِه؛ فلم تَمتَلِئْ منهم[٢]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ لَمَّا أمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّه صَلَواتُ اللهِ عليه بأنْ يَقولَ: ﴿هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾، أيْ: هذا الذي أنبَأْتُكم به مِن كَوْني رَسولًا مُنذِرًا، وأنَّ اللهَ واحِدٌ لا شَريكَ له، وقَهَّارٌ ومالِكٌ للعالَمينَ، وعَزيزٌ غَفَّارٌ، وأدمَجَ فيه مَعنى العِبادةِ، وأنَّه تَعالى ما خَلَقَ الخَلقَ إلَّا لِيُعبَدَ ويُعرَفَ، وأرادَ أنْ يُعَظِّمَ ذلكَ؛ فأمَرَ نَبيَّه صَلَواتُ اللهِ عليه بأنْ يُعَظِّمَه ثانيًا ويَقولَ: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [ص: ٦٩]، أيْ: بفَضلِ هذا واختِصاصه ببَني آدَمَ واختِصامِ المَلائِكةِ فيه، واغتِباطِهم لِلبَشَرِ، وما أُمِروا بالسُّجودِ لِآدَمَ إلَّا لِتلكَ الكَراماتِ والفَضائِلِ، إلَّا أنَّ اللهَ تَعالى أعلَمَني بالوَحيِ وأمَرَني بالدَّعوةِ فيه، والإنذارِ لِمَنِ امتَنَعَ منه؛ فيَكونُ قَولُه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ مُستَطردًا لِحَديثِ الخُصومةِ في فَضائِلِ البَشَرِ؛ لِمَا فيه مِنَ التَّكرِمةِ لِآدَمَ مِن كَونِه مَسجودًا لِلمَلائِكةِ، واللهُ أعلَمُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٦٤٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣١٩).

- وهو شُروعٌ في تَفصيلِ ما أُجمِلَ مِنَ الاختِصامِ، الذي هو ما جرَى بَينَهم مِنَ التَّقاوُلِ، وحيثُ كان تَكليمُه تَعالى إيَّاهم بواسِطةِ المَلَكِ صَحَّ إسنادُ الاختِصامِ إلى المَلائِكةِ، والقِصَّةُ التي دَخَلتْ (إذْ) عليها مُشتَمِلةٌ على تَقاوُلِ المَلائِكةِ وإبليسَ في خَلقِ آدَمَ عليه السَّلامُ، واستِحقاقِه لِلخِلافةِ والسُّجودِ، غَيرَ أنَّها اختُصِرتِ؛ اكتِفاءً بذلك، واقتِصارًا على ما هو المَقصودُ منها، وهو وَعظُ المُشرِكينَ وإنذارُهم على استِكبارِهم على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمِثلِ ما حاقَ بإبليسَ على استِكبارِه على آدَمَ عليه السَّلامُ[1].

- قَولُه: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ فيه التَّعرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِتَشريفِه، والإيذانِ بأنَّ وَحيَ هذا النَّبَأِ إليه تَربيةٌ وتأييدٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. والكافُ واردٌ باعتِبارِ حالِ الآمِرِ؛ لِكَونِه أدَلَّ على كَونِه وَحيًا مُنزَّلًا مِن عِندِه تَعالى، كما في قَولِه تَعالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، دُونَ حالِ المَأمورِ، وإلَّا لَقيلَ: رَبِّي؛ لِأنَّه داخِلٌ في حَيِّزِ الأمْرِ[2].

- وفي قَولِه: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا﴾ ما ليسَ في صِيغةِ المُضارِعِ؛ مِنَ الدَّلالةِ على أنَّه تَعالَى فاعِلٌ له البَتَّةَ، مِنْ غَيرِ صارِفٍ يَلويهِ، ولا عاطِفٍ يَثْنيهِ[3].

- قولُه: ﴿مِّن طِينٍ﴾ نَعتٌ لِكَلِمةِ ﴿بَشَرًا﴾، وقد أغْنى بهذا الوَصفِ عنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

النُّعوتِ البَشريَّةِ كُلِّها، وتِلك هي بَراعةُ الإيجازِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾

- ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ التَّسويةُ: تعديلُ ذاتِ الشيءِ، وقدْ أُطلِقتْ هنا على اعتِدالِ العناصِرِ فيه واكتمالِها بحيثُ صارتْ قابلةً لنَفْخِ الرُّوحِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ إضافةُ الرُّوحِ إلى اللهِ؛ لِشَرَفِ الإنسانِ وطَهارَتِه[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾

- اللَّامُ في ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ لِلاستِغراقِ، دَخَلتْ على صِيغةِ الجَمعِ؛ فتُفيدُ الشُّمولَ، ثم أكَّدَ بقَولِه: ﴿كُلُّهُمْ﴾؛ لِدَفعِ تَوهُّمِ غَيرِ الشُّمولِ والإحاطةِ، و﴿أَجْمَعُونَ﴾ لِلاجتِماعِ، فأفادَا مَعًا أنَّهم سَجَدوا عن آخِرِهم، ما بَقِيَ منهم مَلَكٌ إلَّا سَجَدَ، وأنَّهم سَجَدوا جَميعًا في وَقتٍ واحِدٍ، غَيرَ مُتَفرِّقينَ في أوقاتٍ، على أنَّ مُطلَقَ الأمْرِ في هذا المَقامِ لا يُفيدُ إلَّا الفَورَ[٤].

- قَولُه: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ، أيْ: فخَلَقَه فسَوَّاه فنَفَخَ فيه الرُّوحَ، فسَجَدَ له المَلائكةُ كلُّهمْ، بحيثُ لم يَبْقَ منهم أحَدٌ إلَّا سَجَدَ ﴿أَجْمَعُونَ﴾، أيْ: بطَريقِ المَعيَّةِ، بحَيثُ لم يَتأخَّرْ في ذلك أحَدٌ منهم عن أحَدٍ، ولا اختِصاصَ لِإفادةِ هذا المَعنى بالحاليَّةِ، بلْ يُفيدُ التَّأكيدَ أيضًا. وقيلَ: أُكِّدَ بتَأكيدَيْنِ؛

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٢).

مُبالَغةً في التَّعميمِ هذا[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ وَقَعَ في سُورةِ (الحِجرِ): ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ﴾ [الحجر: ٣١]، وفي هذه السُّورةِ: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ﴾، فيَكونُ ما في هذه الآيةِ يُبيِّنُ الباعِثَ على الإبايةِ، ووَقَعتْ هنا زِيادةُ: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهي بَيانٌ لِكَونِ المُرادِ في سُورةِ (الحِجرِ) مِن قَولِه: ﴿أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣١]، الإبايةَ مِنَ الكَونِ مِنَ السَّاجِدينَ للهِ، أيْ: المُنَزِّهينَ اللهَ عنِ الظُّلمِ والجَهلِ[٢].

- قولُه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ استِثناءٌ مُتَّصِلٌ؛ لِمَا أنَّه كانَ جِنِّيًّا مُفرَدًا مَغمورًا بأُلوفٍ مِنَ المَلائِكةِ، مَوصُوفًا بصِفاتِهم، فغُلِّبُوا عليه، ثم استُثنيَ استِثناءَ واحدٍ منهم، أو مُنقَطِعٌ. وقولُه تعالَى: ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ على الأوَّلِ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِكَيفيَّةِ تَركِ السُّجودِ المَفهومِ مِنَ الاستِثناءِ؛ فإنَّ تَركَه يحتمِلُ أنْ يَكونَ لِلتَّأمُّلِ والتَّروِّي، وبه يَتحَقَّقُ أنَّه لِلإباءِ والاستِكبارِ، وعلى الثَّاني يَجوزُ اتِّصالُه بما قَبلَه، أيْ: لكِنَّ إبليسَ استَكبَرَ[٣].

- قَولُه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ ٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الآيةُ مِن الاحتِباكِ[٤]: ذكَرَ فِعلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٢).

(٤) الاحْتِباك: هو الحذْفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذْفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القُرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو =

الاستِكبارِ أولًا دَليلًا على فِعلِ الكُفرِ ثانيًا، ووَصَف الكُفرَ ثانيًا دَليلًا على وَصْفِ الاستِكبارِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: أنَّ ما ذكَرَه أقعَدُ في التَّحذيرِ بأنَّ مَن وقَع منه كِبرٌ جرَّه إلى الكُفرِ(١).

٥- قولُه تعالَى: ﴿ قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴾

- في قَولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ﴾ عَبَّرَ عن آدَمَ باسمِ (ما) المَوصولةِ، وهو حينَئذٍ إنسانٌ؛ لِأنَّ سُجودَ المَلائكةِ لِآدَمَ كان بَعدَ خَلقِه وتَعليمِه الأسماءَ، كما في سُورةِ البَقَرةِ(٢). وقيل: كأنَّه يقولُ سبحانَه: لِمَ عصيتني وتَكَبَّرْتَ على ما لم تَخْلُقْه وخلقتُه أنا وشَرَّفْتُه؛ وأمَرْتُك بالسُّجودِ له؟ فهذا موضِعُ «ما»؛ لأنَّ معناها أبلغُ؛ ولفْظُها أعَمُّ، وهو في الحُجَّةِ أوقعُ؛ وللعُذرِ والشُّبهةِ أَقْطَعُ، فلو قال: ما منَعَك أنْ تسجُدَ لـ «مَن» خلقتُ؟ لكان استِفهامًا مجرَّدًا مِن تَوبيخٍ وتَبكيتٍ، ولَتُوُهِّمَ أنَّه وَجَب السُّجودُ له مِن حيثُ كان يَعْقِلُ؛ ولعلَّه موجودٌ في ذاتِه وعيْنِه! وليس المرادُ كذلك، وإنَّما المرادُ توبيخُه وتبكيتُه على ترْكِ سُجودِه لِمَا خَلَقَ اللهُ وأَمَرَه بالسُّجودِ له؛ ولهذا عَدَلَ عن اسمِ آدمَ العَلَمِ معَ كونِه أخَصَّ؛ وأتَى بالاسمِ الموصولِ الدَّالِّ على أنَّ جِهةَ التشريفِ المقتضيةَ لسجودِه له؛ كونُه خَلَقه بيديه، وأنتَ لو وضعتَ مكانَ «ما» لفظةَ «مَن» لَمَا رأيتَ هذا المعنى المذكورَ في الصِّلَةِ! وأنَّ «ما» جِيءَ بها وصلةً إلى ذِكْرِ الصِّلَةِ، فتأمَّلْ ذلك؛ فلا معنى -إذنْ- للتعيين بالذِّكْرِ!

---

= مِن أَلْطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٣).

إذْ لو أُرِيْدَ التعيينُ لكان بالاسمِ العَلَمِ أَوْلَى وأَحْرَى[١].

- والهَمزةُ في قَولِه: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾، للإنكارِ التَّوبيخيِّ، وقيلَ: لِلتَّقريرِ، ويَحتَمِلُ أنْ تكونَ الجُملةُ إخبارًا، خُوطِبَ بذلك على سَبيلِ التَّقريعِ، والمَعنى: بلْ أنتَ مِنَ العالينَ عِندَ نَفسِكَ؛ استِخفافًا به، وفيه مَزيدٌ مِنَ الإنكارِ على إبليسَ، ومَزيدٌ مِنَ التَّوبيخِ، فجَمَعه وأدخَلَه في زُمرةِ العالينَ[٢]؟

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ هذا إبداءٌ لِلمانعِ مِنَ السُّجودِ، أيْ: لو كانَ مَخلوقًا مِن نارٍ لَمَا سَجَدْتُ له؛ لأنَّه مَخلوقٌ مِثلي؛ فكيف أسجُدُ لِمَن هو دُوني؛ لِأنَّه مِن طِينٍ، والنارُ تَغلِبُ الطِّينَ وتأكُلُه؟ وقد جَرَتِ الجُملةُ الثانيةُ مِنَ الأُولى -وهي ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ﴾- مَجرى المَعطوفِ عَطْفَ البَيانِ مِنَ المَعطوفِ عليه في البَيانِ والإيضاحِ؛ فهي دَليلٌ على المانعِ لإبليسَ مِنَ السُّجودِ في ظَنِّه، ولم يَرِدْ في القُرآنِ أنَّ اللهَ رَدَّ عليه هذا التَّأصيلَ؛ لأنَّه أحقَرُ مِن ذلك، فلَعَنَه وطَرَدَه؛ لأنَّه ادَّعى باطِلًا، وعَصَى رَبَّه استِكبارًا، وطَردُه أجمَعُ؛ لإبطالِ عِلْمِه، ودَحْضِ دَليلِه[٣].

- وقَولُه: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ادِّعاءٌ مِن إبليسَ -عليه اللَّعنةُ- لِشَيءٍ مُستَلزِمٍ لِمَنعِه مِنَ السُّجودِ على زَعمِه، وإشعارٌ بأنَّه لا يَليقُ أنْ يَسجُدَ الفاضِلُ لِلمَفضولِ كما يُعرِبُ عنه قَولُه: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٣).

حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[١] [الحجر: ٣٣].

- وقَولُه: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ تَعليلٌ لِمَا ادَّعاهُ مِن فَضلِه علَيهِ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ-، ولقد أخطَأ اللَّعينُ حيثُ خَصَّ الفَضلَ بما مِن جِهةِ المادَّةِ والعُنصُرِ -مع أنَّ عنصرَ آدَمَ أفضَلُ-، وزَلَّ عنه ما مِن جِهةِ الفاعِلِ، كَمَا أنبَأَ عَنْهُ قَولُه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، وما مِن جِهةِ الصُّورةِ، كما نَبَّه عليه قَولُه: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، وما مِن جِهةِ الغايةِ، وهو مِلاكُ الأمْرِ؛ ولذلك أُمِرَ المَلائِكةُ بسُجودِهم عليهمُ السَّلامُ، حين ظَهَر لهم أنَّه أعلَمُ منهم بما يَدورُ عليه أمْرُ الخِلافةِ في الأرضِ، وأنَّ له خَواصَّ ليستْ لِغَيرِه[٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾

- ضَميرُ ﴿قَالَ﴾ عائِدٌ إلى اللهِ تَعالَى، على طَريقةِ حِكايةِ المُقاوَلاتِ، وفَرَّعَ أمْرَه بالخُروجِ مِنَ الجَنَّةِ بالفاءِ على ما تَقدَّمَه مِنَ السُّؤالِ والجَوابِ؛ لِأنَّ جَوابَه دَلَّ على كَونِ خُبثٍ في نَفْسِه بَدَتْ آثارُه في عَمَلِه، فلم يَصلُحْ لِمُخالَطةِ أهلِ المَلَأِ الأعلَى[٣].

- وقَولُه: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ تَعليلٌ لِلأمْرِ بالخُروجِ، أيْ: مَطرودٌ مِن كُلِّ خَيرٍ وكَرامةٍ؛ فإنَّ مَن يُطرَدُ يُرجَمُ بالحِجارةِ، أو شَيطانٌ يُرجَمُ بالشُّهُبِ[٤]. وقيل غيرُ ذلك.

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧).

- اللَّعنةُ: الإبعادُ مِن رَحمةِ اللهِ، وأُضيفَ إلى اللهِ لِتَشنيعِ مُتَعلَّقِها، وهو المَلعونُ؛ لِأنَّ المَلعونَ مِن جانِبِ اللهِ هو أشنَعُ مَلعونٍ. وتَقييدُ اللَّعنةِ بالإضافةِ مع إطلاقِها في قَولِه: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر: ٣٥]؛ لِمَا أنَّ لَعنةَ اللَّاعِنينَ مِنَ المَلائِكةِ والثَّقَلَينِ أيضًا مِن جِهتِه تَعالى، وأنَّهم يَدْعُونَ عليه بلَعنةِ اللهِ تَعالى، وإبعادِه مِنَ الرَّحمةِ[1].

- قَولُه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، أيْ: إلى يَومِ الجَزاءِ والعُقوبةِ، وفيه إيذانٌ بأنَّ اللَّعنةَ مع كَمالِ فَظاعَتِها ليستْ جَزاءً لِجِنايَتِه، بل هي أُنموذجٌ لِمَا سَيَلقاه مُستَمِرًّا إلى ذلك اليَومِ، لكِنْ لا يَدُلُّ على أنَّ غايةَ لَعنةِ اللهِ تَعالى لِإبليسَ إلى يَومِ القِيامةِ، ثم تَنقَطِعُ عنه اللَّعنةُ بقيامِ القِيامةِ، وكيف تَنقَطِعُ وقدْ قال تَعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، وإبليسُ أظلَمُ الظَّلَمةِ؟ والمُرادُ أنَّ عليه اللَّعنةَ طُوالَ مُدَّةِ الدُّنيا، فإذا كان يَومُ القِيامةِ اقتَرَنَ له باللَّعنةِ مِن أنواعِ العَذابِ ما يَنسَى معه اللَّعنةَ؛ فكَأنَّها انقَطَعتْ. ويَتعَلَّقُ بذلك ثَلاثُ عِباراتٍ: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهو: يَومُ الجَزاءِ، و﴿يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧] وهو يَومُ الحَشرِ، و﴿يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ [ص: ٨١] وهو الوَقتُ الذي فيه النَّفخةُ الأُولى، ولا ارتيابَ أنَّ إغواءَه إنَّما يَنتَهي إلى آخِرِ أيَّامِ التَّكليفِ، وهو الوَقتُ المَعلومُ؛ ولِهذا لَمَّا طَلَبَ الإغواءَ إلى يَومِ البَعثِ أُجيبَ إلى يَومِ الوَقتِ المَعلومِ، واختِصاصُ يَومِ الدِّينِ؛ لِأجْلِ أنَّ الجَزاءَ والعَذابَ إنَّما يُبتَدآنِ منه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٢٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥).

٩- قولُه تعالَى: ﴿ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ ﴾، أيْ: أمهِلْني وأخِّرْني، والفاءُ مُتَعلِّقةٌ بمَحذوفٍ يَنسَحِبُ عليه الكَلامُ، أيْ: إذا جَعَلتَني رَجيمًا فأمهِلْني ولا تُمِتْني ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾[1].

- قَولُه: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴾ وُرودُ الجَوابِ بالجُملةِ الاسميَّةِ مع التَّعرُّضِ لِشُمولِ ما سَألَه لِآخَرينَ على وَجهٍ يُشعِرُ بكَونِ السَّائلِ تَبعًا لهم في ذلك؛ دَليلٌ واضِحٌ على أنَّه إخبارٌ بالإنظارِ المُقَدَّرِ لهم أزَلًا، لا إنشاءً لإنظارٍ خاصٍّ به قد وَقَعَ إجابةً لِدُعائِه، وأنَّ استِنظارَه كانَ طَلَبًا لِتأخيرِ المَوتِ؛ إذْ بِهِ يَتحقَّقُ كَونُه منهم، لا لِتأخيرِ العُقوبةِ كما قيلَ؛ فإنَّ ذلكَ مَعلومٌ مِن إضافةِ اليَومِ إلى الدِّينِ، أيْ: إنَّكَ مِن جُملةِ الذينَ أُخِّرَتْ آجالُهم أزَلًا حَسبَما تَقتَضيه حِكمةُ التَّكوينِ[2].

- قولُه: ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾ وهو وَقتُ النَّفخةِ الأُولى، لا إلى وَقتِ البَعثِ الذي هو المَسؤولُ؛ فالفاءُ في قوله: ﴿فَإِنَّكَ ﴾ ليستْ لِرَبطِ الإنظارِ نَفْسِه بالاستِنظارِ، بل لِرَبطِ الإخبارِ المَذكورِ به، كما في قَولِ مَن قال: (فإنْ تَرحَمْ فأنتَ لِذاكَ أهلٌ)؛ فإنَّه لا إمكانَ لِجَعلِ الفاءِ فيه لِرَبطِ ما له تَعالى مِنَ الأهليَّةِ القَديمةِ لِلرَّحمةِ بوُقوعِ الرَّحمةِ الحادِثةِ، بلْ هي لِرَبطِ الإخبارِ بتِلك الأهليَّةِ لِلرَّحمةِ بوُقوعِها هذا. وقد تُرِكَ التَّوقيتُ في سُورةِ (الأعرافِ)، كما تُرِكَ النِّداءُ والفاءُ في الاستِنظارِ والإنظارِ؛ تَعويلًا على ما ذُكِرَ هاهنا، وفي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٣٧، ٢٣٨).

سُورةِ (الحِجرِ)، وإنْ خَطَرَ ببالكَ أنَّ كُلَّ وَجهٍ مِن وُجوهِ النَّظمِ الكَريمِ لا بُدَّ أنْ يَكونَ له مَقامٌ يَقتَضيه مُغايرٌ لِمَقامِ غَيرِه، وأنَّ ما حُكيَ مِنَ اللَّعينِ إنَّما صَدَرَ عنه مَرَّةً، وكذا جَوابُه لم يَقَعْ إلَّا دَفعةً، فمَقامُ الاستِنظارِ والإنظارِ إنِ اقتَضَى أحدَ الوُجوهِ المَحكيَّةِ فذلك الوَجهُ هو المُطابِقُ لِمُقتَضى الحالِ، والبالِغُ إلى رُتبةِ البَلاغةِ ودَرَجةِ الإعجازِ، وأمَّا ما عَداهُ مِنَ الوُجوهِ فهو بمَعزِلٍ مِن بُلوغِ طَبَقةِ البَلاغةِ، فَضلًا على العُروجِ إلى مَعارِجِ الإعجازِ[1].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾

- الباءُ في قولِه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ لِلقَسَمِ، والفاءُ لِتَفريعِ كَلامِه على أمْرِ اللهِ إيَّاه بالخُروجِ مِنَ الجَنَّةِ وعِقابِه إيَّاه باللَّعنةِ الدَّائِمةِ، وهذا التَّفريعُ مِن تَركيبِ كَلامِ مُتَكلِّمٍ على كَلامِ مُتكَلِّمٍ آخَرَ، وهو المُلقَّبُ بـ (عَطفِ التَّلقينِ)[2] في قَولِه تَعالى: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]. وقيلَ: الفاءُ لِتَرتيبِ مَضمونِ الجُملةِ على الإنظارِ، ولا يُنافيه قولُه تعالَى: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦]؛ فإنَّ إغواءَه تَعالى إيَّاه أثَرٌ مِن آثارِ قُدرتِه تَعالى وعِزَّتِه، وحُكمٌ مِن أحكامِ قَهرِه وسَلطَنَتِه، فمَآلُ الإقسامِ بهما واحِدٌ، ولَعَلَّ اللَّعينَ أقسَمَ بهما جَميعًا، فحَكى تارةً قَسَمَه بأحَدِهما، وأُخرى بالآخَرِ، أيْ: فأُقسِمُ بعِزَّتِكَ ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) عطْف التلقين: هو أن يُلقِّنَ المخاطَبُ المتكلِّمَ بالعطف. أو: هو عطْفُ المخاطَبِ كلامًا على ما وقَع في كلامِ المتكلِّمِ تنزيلًا لنفْسه في منزلةِ المتكلِّمِ يُكملُ له شيئًا ترَكَه المتكلِّمُ؛ إمَّا عن غفلةٍ، وإمَّا عن اقتصارٍ، فيُلقِّنُ المخاطَبُ المتكلِّمَ ما تَدارَكَه، بحيثُ يلتئمُ مِن الكلامينِ كلامٌ تامٌّ في اعتقاد المخاطَب. أو: هو عطفُ المتكلِّمِ كلامًا على كلامٍ صدَرَ مِن المخاطَب؛ إيماءً إلى أنَّ حقَّه أنْ يكونَ مِن بقيَّة كلامِه وألَّا يُغفلَه. يُنظر: ((كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم)) للتهانوي (٢/ ١١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٧٠٤) و (٢٤/ ١٦٥).

أيْ: ذُرِّيَّةَ آدَمَ بتَزيينِ المَعَاصي لهم[١].

١١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾

- الفاءُ لِترتيبِ ما بَعدَها على ما قَبلَها، أيْ: فالحَقُّ قَسَمي، ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [ص: ٨٥]، على أنَّ الحَقَّ إمَّا اسمُه تَعالَى، أو نَقيضُ الباطِلِ، عَظَّمَه اللهُ تَعالى بإقسامِه به، أو فأنا الحَقُّ، أو فقَوْلِي الحَقُّ، وقولُه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٥] حينَئِذٍ جَوابٌ لِقَسَمٍ مَحذوفٍ، أيْ: واللهِ لَأملأنَّ... وقولُه تعالَى: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ على كُلِّ تَقديرٍ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ على الوَجهَيْنِ الأوَّلَيْنِ لِمَضمونِ الجُملةِ القَسَميَّةِ، وعلى الوَجهِ الثَّالثِ لِمَضمونِ الجُملةِ المُتقَدِّمةِ، أعني: فقَوْلي الحَقُّ، وقُوبِلَ تأكيدُ عَزمِ الشَّيطانِ الذي دَلَّ عليه قَولُه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص: ٨٢] بتأكيدٍ مِثلِه، وهو لَفظُ (الحَقِّ) الدَّالِّ على أنَّ ما بَعدَه حَقٌّ ثابتٌ لا يَتخَلَّفُ، ولم يَزِدْ في تأكيدِ الخَبَرِ على لَفظِ (الحَقِّ)؛ تَذكيرًا بأنَّ وَعدَ اللهِ تَعالى حَقٌّ لا يَحتاجُ إلى قَسَمٍ عليه؛ تَرَفُّعًا مِن جَلالِ اللهِ عن أنْ يُقابِلَ كَلامَ الشَّيطانِ بقَسَمٍ مِثلِه؛ ولذلك زادَ هذا المَعنى تَقريرًا بالجُملةِ المُعتَرِضةِ وهي: ﴿وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾. ﴿وَٱلْحَقَّ﴾ مَنصوبٌ على أنَّه مَفعولٌ لِمَا بَعدَه، وقُدِّمَ عليه؛ لِلقَصرِ، أو الاختِصاصِ، وهو بمَعنَى: لا أقولُ إلَّا الحَقَّ، أو هو على حِكايةِ لَفظِ المُقسَمِ به، ولا حاجةَ إلى القَسَمِ، ومَعناه التَّوكيدُ والتَّسديدُ[٢].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٦، ٣٠٧).

- (مِنْ) في قَولِه: ﴿مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ بَيانيَّةٌ، وهي هنا بَيانٌ لِمَا دَلَّ عليه ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ مِن مِقدارٍ مُبهَم، فبُيِّنَ بآيةِ ﴿مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾، وكافُ الخِطابِ في قَولِه: ﴿مِنكَ﴾ في مَعنى اسمِ الجِنسِ، أيْ: مِن جِنسِكَ الشَّياطينِ؛ إذْ لا تَكونُ ذاتُ إبليسَ مِلئًا لِجَهنَّمَ، وإذْ قدْ عَطَفَ عليه ﴿وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، أيْ: مَن تَبِعَكَ مِنَ الذين أغوَيتَهم مِن بَني آدَمَ، فلا جائِزَ أنْ يَبقى مَن عدا هذَيْنِ مِنَ الشَّياطينِ والجِنَّةِ غَيرُ مِلءٍ لِجَهنَّمَ[1].

- ولَفظُ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ لا يَخلو أنْ يُؤكَّدَ به الضَّميرُ في ﴿مِنْهُمْ﴾ أوِ الكافُ في ﴿مِنكَ﴾ مع (مَنْ تَبِعَكَ)، ومَعناه: لَأملَأنَّ جَهنَّمَ مِنَ المَتبوعِينَ والتَّابِعينَ أجمَعينَ، لا أترُكُ منهم أحَدًا، أو: لَأمْلَأنَّها مِنَ الشَّياطينِ ومِمَّن تَبِعَهم مِن جَميعِ النَّاسِ، لا تَفاوُتَ في ذلك بَينَ ناسٍ وناسٍ بَعدَ وُجودِ الأتْباعِ منهم مِن أولادِ الأنبياءِ وغَيرِهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٧).

## الآيات (٨٦-٨٨)

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾: أي: المُتصَنِّعينَ المدَّعينَ ما ليس عندَهم؛ فلا أتكَلَّفُ إتيانَكم بما لم يأمُرْني اللهُ به. وتكَلُّفُ الشَّيءِ: ما يَفعَلُه الإنسانُ بإظهارِ كَلَفٍ مع مَشقَّةٍ تنالُه في تعاطيه، وصارت الكُلفةُ في التَّعارُفِ اسمًا للمشَقَّةِ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: لا أسألُكم على تَبْليغي إيَّاكم رِسالةَ رَبِّي أجرًا دُنيويًّا، وما أنا مِن الذين يَتصنَّعون ويتَحلَّوْن بما ليسوا مِن أهلِه حتَّى أنتحِلَ النُّبوَّةَ، وأتقوَّلَ القُرآنَ، ما هذا القُرآنُ إلَّا تَذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالى للجِنِّ والإنسِ، وشَرَفٌ عَظيمٌ لهما في اتِّباعِ أوامِرِه وتَرْكِ نَواهيه، ولَتَعلَمُنَّ صِدقَ أخْبارِ القُرآنِ، وتحقُّقَ ما فيه بعدَ وَقتٍ من الزمانِ، مُحدَّدٍ في عِلمِ اللهِ تعالَى.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا تَمَّ ما أرادَ مِنَ الدَّليلِ على أنَّ ما ذَكَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للمُشرِكينَ نَبأٌ عَظيمٌ هم عنه مُعرِضونَ، بما أخبَرَ به مِن الغَيبِ معَ ما له مِن الإعجازِ، فثَبَت

---

(١) ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

بذلك ما اقتضَى أنَّه صادِقٌ في نِسبتِه إلى اللهِ تعالى، وخَتَم بالتَّحذيرِ مِن اتِّباعِ إبليسَ؛ أمَرَه تعالَى بالبَراءةِ مِن طَريقِه، وأنْ يَنفيَ عن نَفسِه ما قدْ يُحمَلُ على التقَوُّلِ بقَولِه(١):

﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: لا أسألُكم على تَبْليغي إيَّاكم القُرآنَ ورِسالةَ ربِّي أجرًا دُنيويًّا تُعطونَني إيَّاه(٢).

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾.

أي: وما أنا مِن الذين يَتصنَّعون ويتَحلَّوْن بما ليسوا مِن أهلِه -على ما عرَفتُم مِن حالي- حتَّى أنتحِلَ النُّبوَّةَ، وأتقوَّلَ القُرآنَ، وأتكلَّفَ ما لم أُؤمَرْ به(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٢).

قال ابنُ عاشور: (المعنى عُمومُ نَفيِ سُؤالِه الأجرَ منهم مِن يوم بُعِث إلى وَقتِ نُزولِ هذه الآيةِ، وهو قِياسُ استِقراءٍ؛ لأنَّهم إذا استَقْرَوا أحوالَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما مضَى، وجَدوا انتِفاءَ سُؤالِه أجرًا: أمرًا عامًّا بالاستقراءِ التَّامِّ الحاصِلِ مِن جميعِ أفراد المُشرِكينَ في جميعِ مُخالطاتِهم إيَّاه؛ فهو أمرٌ مُتواتِرٌ بينهم). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: الزمخشري، والرسعني، والبيضاوي، والنسفي، وابن جزي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٧٧).

قال الماورديُّ: (﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدها: وما أنا مِن المتكلِّفينَ لهذا القُرآنِ مِن تِلقاءِ نفْسي. =

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (يا أيُّها النَّاسُ، مَن عَلِمَ شَيئًا فلْيَقُلْ به، ومَن لم يَعلَمْ فلْيَقُل: اللهُ أعلَمُ؛ فإنَّ مِن العِلمِ أنْ يقولَ لِما لا يَعلَمُ: اللهُ أعلَمُ؛ قال اللهُ عزَّ وجَلَّ لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾)[1].

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

---

= الثاني: وما أنا مِن المتكلِّفين لأنْ آمرَكم بما لم أؤمرْ به.

الثالث: وما أنا بالذي أُكلِّفُكم الأجْرَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّل: أي: ما أنا بالمتقوِّلين لهذا القُرآنِ مِن تلقاءِ نفْسي: مقاتلُ بنُ سليمان، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وجلال الدِّين المحلي، والعُليمي، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٥٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٤).

قال ابنُ جَرير: (﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ يقولُ: وما أنا ممَّن يتكلَّفُ تَخرُّصَه وافتِراءَه، فتقولون: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤] و﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ [ص: ٧]). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠).

وقال ابن كثير: (﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: وما أزيدُ على ما أرسَلَني اللَّهُ به، ولا أبْتَغي زيادَةً عليه بل ما أُمِرتُ به أدَّيتُه، لا أزيدُ عليه ولا أنقصُ منه، وإنَّما أبْتَغي بذلك وجهَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ والدَّارَ الآخرةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٢).

وقال البقاعيُّ: (﴿ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أي: المتحلِّينَ بما ليسوا مِن أهلِه مِن قولٍ ولا فِعلٍ، الذين يُكلِّفون أنفسَهم تَزويرَ الكلامِ والتصنُّعَ فيه وترتيبَه على طريقٍ مِن الطُّرقِ بنَظمٍ أو نثرٍ: سَجْعٍ أو خُطبٍ أو غيرِ ذلك، أو وضْعِ أنفسِهم في غيرِ مَواضعِها، كما فعَل إبليسُ؛ لستُ منهم بسَبيلٍ، ولا أُعَدُّ في عِدادِهم بوجهٍ، لا أفعلُ أفعالَهم، ولا أحبُّهم ولا أتعصبُ لهم). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٣٢-٤٣٣).

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٠٩) واللفظ له، ومُسلِمٌ (٢٧٩٨).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا أثبَتَ اللهُ تعالى ما يقتَضي أنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ، وأزال الموانِعَ؛ بيَّن حقيقتَه التي لا يتعدَّاها إلى ما نَسَبوه إليه، بِقَولِه[1]:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾.

أي: ما هذا القُرآنُ إلَّا تَذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالَى لجَميعِ الجِنِّ والإنسِ، وشَرَفٌ ورِفعةٌ لهم إنْ عَمِلوا وتمَسَّكوا به[2].

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: ولَتعلَمُنَّ -أيُّها المشركونَ- صِدقَ أخبارِ القُرآنِ، وتَحقُّقَ ما فيه مِنَ الوَعدِ والوَعيدِ؛ بعدَ وَقتٍ مِن الزَّمانِ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٣-٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٤).

ممَّن اختارَ المعنَى المذكورَ للذِّكرِ في الجملةِ: البقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٣-٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٠، ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٩).

قال ابنُ جَرير: (لا حَدَّ عند العَرَبِ للحِينِ لا يُجاوَزُ ولا يُقصَرُ عنه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٢). يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٣/ ١٦٠)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سيده (٣/ ٤٤٦).

قال ابن جزي: (﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ هذا وعيدٌ، أي: لتعلمُنَّ صِدقَ خبرِه بعدَ حينٍ، والحِينُ يومُ القيامةِ، أو موتُهم، أو ظهورُ الإسلامِ يومَ بدرٍ وغيرِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٤). =

كما قال تعالَى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالَى لِنَبيِّه عليه السَّلامُ: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ ولم يُطلِقْ لأحدٍ أنْ يُبلِّغَ عن اللهِ ما ائْتَمَنه عليه مِن عِلمِه ووَحْيِه بعَرَضِ الدُّنيا. وكذلك العُلماءُ نَعُدُّهم خُلفاءَ الرُّسلِ، وهمْ مُبلِّغون عن اللهِ؛ فليس لأحدٍ منْهم أنْ يَأخُذَ عليه نَوالًا مِن حُطامِ الدُّنيا؛ فقدْ كان العُلماءُ يَتوقَّون في حالةِ البَيعِ والشِّراءِ أنْ يُحابُوا أو يُزادُوا لِمكانِهم مِن العِلمِ. ورُوِيَ عن الحسَنِ البصْريِّ أنَّه قِيل له: هذا لكَ بكذا؟ فقال: (إنَّما جِئتُ أشْتَري بدِرْهمي لا بدِيني)[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ فيه ذَمُّ التكَلُّفِ[٢]، والنَّهيُ عنه وعن التصَنُّعِ، وهو نَوعٌ مِنَ النِّفاقِ، وضَربٌ مِن الرِّياءِ[٣].

٣- خَتَمَ الله سُبْحانَه هذه السُّورةَ بهذه الخاتِمةِ الشَّريفةِ؛ لأنَّه تعالَي ذَكَرَ طُرُقًا كَثيرةً دالَّةً على وُجوبِ الاحْتِياطِ في طَلَبِ الدِّينِ، ثُمَّ قال عندَ الخَتْمِ: هذا الَّذي أدْعُو النَّاسَ إليْه يَجِبُ أنْ يُنْظَرَ في حالِ الدَّاعِي وفي حالِ الدَّعْوةِ؛ لِيَظْهَرَ أنَّه حقٌّ أو باطِلٌ. أمَّا الدَّاعِي -وهو أنَا- فأنَا لا أسْألُكم على هذه الدَّعْوةِ أجْرًا ومالًا،

---

= قال ابن كثير: (قالَ قتادةُ: بعدَ الموتِ. وقال عِكرِمةُ: يعني يومَ القيامةِ. ولا منافاةَ بينَ القولَيْنِ؛ فإنَّ مَن ماتَ فقَدْ دَخَل في حكمِ القيامةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٣). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤٩).

وقال ابنُ عُثَيمين: (هناك أشياءُ أخبَرَ عنها القُرآنُ مَضَتْ وانقَضَتْ؛ فهذه عَلِمَها بعدَ حِينٍ مَن سَبَقَ هذه الحوادِثَ وأدركَها، وهناك حوادِثُ ستأتي يَعلَمُها بعدَ حينٍ مَن يُدرِكُها، وأمَّا الذي يُدرِكُه جميعُ النَّاسِ فهو ما يكونُ يومَ القِيامةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((المنهيات)) للحكيم الترمذي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤٦).

ومن الظَّاهِرِ أنَّ الكذَّابَ لا يَنقطِعُ طَمَعُه عن طَلَبِ المالِ البتَّةَ، وكان صلَّى اللهُ عليْه وسلَّم بَعِيدًا عن الدُّنْيا عَديمَ الرَّغْبَةِ فيها. وأمَّا كَيفِيَّةُ الدَّعْوةِ فقال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ فيه ما لا مَزيدَ عليه في التَّخويفِ والتَّرهيبِ والتَّهديدِ لِمَن أصرَّ على الجهلِ والتقليدِ، وأبَى قَبولَ البيِّناتِ، وأنه سيعلَمُ بعدَ حِينٍ إنْ كان مُصيبًا في هذا الإعراض، أو مُخطئًا[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أُخِذَ منه أنَّ ما جاء به مِنَ الدِّينِ: لا تكَلُّفَ فيه، أي: لا مَشَقَّةَ في تكاليفِه، وهو معنى سَماحةِ الإسلامِ[3].

٢- قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه السُّورةُ العظيمةُ مشتملةٌ على الذِّكرِ الحكيمِ، والنبأِ العظيمِ، وإقامةِ الحُجَجِ والبراهينِ، على مَن كذَّب بالقرآنِ وعارَضه، وكذَّب مَن جاء به، والإخبارِ عن عبادِ الله المخلَصينَ، وجزاءِ المتَّقينَ والطَّاغينَ، فلهذا أقسَم في أوَّلِها بأنَّه ذو الذِّكرِ، ووصَفه في آخرِها بأنَّه ذِكرٌ للعالَمينَ، وأكثَرَ التَّذكيرَ بها فيما بينَ ذلك، كقولِه: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ﴾، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾، ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ﴾، ﴿هَٰذَا ذِكْرٌ﴾[4].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أنَّ آياتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

وسلَّم تأتي مُتتابِعةً، منها ما عُلِمَ في عَهدِه، ومنها ما عُلِمَ بعدَ ذلك، ومنها ما لا يُعلَمُ إلَّا يومَ القِيامةِ[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ إنَّما أخَّروا إلى هذا الحِينِ؛ لِيُبلِغَ في الإعذارِ إليهم، فتَنقَطِعَ حُجَجُهم، وتَتناهى ذُنوبُهم التي يَستَحِقُّونَ الأخذَ بها[٢].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ أنَّ اللهَ تعالى تَكَفَّلَ بأن يُعْلِمَ النَّاسَ صِدقَ نَبَأِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لِقَولِه: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ فإنَّ هذه الجُملةَ خَبَريَّةٌ مُؤكَّدةٌ بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ: اللَّامِ، والقَسَمِ المُقَدَّرِ، ونونِ التَّوكيدِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ لَمَّا أمَرَ اللهُ رَسولَه بإبلاغِ المَواعِظِ والعِبَرِ التي تَضَمَّنَتْها هذه السُّورةُ أمَرَه عِندَ انتِهائِها أنْ يَقرَعَ أسماعَهم بهذا الكَلامِ الذي هو كالفَذلَكةِ[٤] لِلسُّورةِ؛ تَنهيةً لها؛ تَسجيلًا عليهم أنَّه ما جاءَهم إلَّا بما يَنفَعُهم، وليس طالِبًا مِن ذلك جَزاءً، أيْ: لو سألَهم عليه أجْرًا لَراجَ اتِّهامُهم إيَّاه بالكَذِبِ لِنَفعِ نَفْسِه، فلَمَّا انتَفَى ذلك وَجَبَ أنْ يَنتَفيَ تَوهُّمُ اتِّهامِه بالكَذِبِ؛ لِأنَّ وازِعَ العَقلِ يَصرِفُ صاحِبَه عن أنْ يَكذِبَ لِغَيرِ نَفْعٍ يَرجوه لِنَفْسِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٥٨).

(٤) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٨).

- قَولُه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ هذا إبطالٌ لِقَولِهم: ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤] المَحكيِّ عنهم في أوَّلِ السُّورةِ، وإقامةُ الحُجَّةِ على صِدقِ رِسالَتِه(١).

- وضَميرُ ﴿عَلَيْهِ﴾ عائِدٌ إلى القُرآنِ المَعلومِ مِنَ المَقامِ؛ فإنَّ مَبدَأَ السُّورةِ قَولُه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١]؛ فهذا مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ(٢).

- والتَّكلُّفُ: مُعالَجةُ الكُلْفةِ، وهي ما يَشُقُّ على المَرءِ عَمَلُه والتِزامُه؛ لِكَونِه يُحرِجُه أو يَشُقُّ عليه، ومادَّةُ التَّفعُّلِ تَدُلُّ على مُعالَجةِ ما ليس بسَهلٍ، فالمُتكلِّفُ هو الذي يَتطَلَّبُ ما ليس له، أو يَدَّعي عِلْمَ ما لا يَعلَمُه؛ فالمَعنى هنا: ما أنا بمُدَّعٍ النُّبوَّةَ باطِلًا مِن غَيرِ أنْ يُوحى إلَيَّ، وهو رَدٌّ لِقَولِهم: ﴿كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وبذلك كان كالنَّتيجةِ لِقَولِه: ﴿مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾؛ لِأنَّ المُتكلِّفَ شَيئًا إنَّما يَطلُبُ مِن تَكلُّفِه نَفعًا؛ فالمَعنى: ومَا أنا مِمَّن يَدَّعونَ ما ليس لهم(٣).

- وتَركيبُ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أبلَغُ، وأشَدُّ في نَفْيِ التَّكلُّفِ مِن أنْ يَقولَ: وما أنا مُتكلِّفًا، أو: ما أنا بمُتَكلِّفٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ورَدُّ العَجُز على الصَّدر: هو جَعْلُ أحدِ اللَّفظين المُكرَّرين -المتَّفقَينِ في اللَّفظِ والمعنَى، أو المُتجانسَينِ المُتفقَينِ في اللَّفظِ دون المعنى، أو المُلحقَينِ بهما، بأنْ جمَعَهما اشتقاقٌ أو شبهُه- في أوَّلِ الكلام، ثم إعادةُ ذلك في آخِرِ الكلام، كقوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، وهو مِن جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٣٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((علوم البلاغة)) للميداني (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٩).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] اشتِمالَ نَفْيِ الشَّيءِ على ثُبوتِ ضِدِّه؛ فلَمَّا نَفَى بقَولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦] أنْ يَكونَ تَقَوَّلَ القُرآنَ على اللهِ؛ ثَبَتَ مِن ذلك أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ لِلناسِ ذَكَّرَهمُ اللهُ به، أيْ: ليس هو بالأساطيرِ أو التُّرَّهاتِ، ولكَ أنْ تَجعَلَها تَذييلًا؛ إذْ لا مُنافاةَ بَينَهما هنا. وعُمومُ (العالَمينَ) يُكسِبُ الجُملةَ مَعنى التَّذييلِ لِلجُملَتَيْنِ قَبلَها[١].

- والقَصرُ الذي اشتَمَلَتْ عليه جُملةُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ قَصرُ قَلبٍ[٢] إضافيٍّ، أيْ: هو ذِكرٌ، لا أساطيرُ، ولا سِحرٌ، ولا شِعرٌ، ولا غَيرُ ذلك؛ لِلرَّدِّ على المُشرِكينَ ما وَسَموا به القُرآنَ مِن غَيرِ صِفاتِه الحَقيقيَّةِ[٣].

- وأيضًا هذه الآيةُ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أثبَتَتْ -مِن كَونِ القُرآنِ ذِكرًا- ما أثبَتَتْه أوَّلُ آيةٍ في السُّورةِ ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص: ١] على أتَمِّ وَجهٍ، مع زيادةِ الوَعيدِ ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾؛ فانعطَفَ الآخِرُ على الأوَّلِ، واتَّصَل به أحسَنَ اتِّصالٍ وأجمَلَ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]، باعتِبارِ ما يَشتَمِلُ عليه القَصرُ مِن جانِبِ الإثباتِ، أيْ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٠٩، ٣١٠).

(٢) قصْر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لمن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٥).

وستَعلَمونَ خَبَرَ هذا القُرآنِ بَعدَ زَمانٍ عِلْمًا جَزمًا فيَزولُ شَكُّكم فيه، فالكَلامُ إخبارٌ عنِ المُستَقبَلِ كما هو مُقتَضى وُجودِ نُونِ التَّوكيدِ(١).

- وفيه مِنَ التَّهديدِ لهم ما لا يَخْفى، وخَتَم الكَلامَ بتَسجيلِ التَّبليغِ، وأنَّ فائِدةَ ما أبلَغَهم به لهم، لا لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وخَتَمَ بالمُواعَدةِ لِوَقتٍ يَقينِهم بنَبيِّه، وهذا مُؤْذِنٌ بانتِهاءِ الكَلامِ، ومُراعاةِ حُسنِ الخِتامِ(٢).

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّامنُ والعشرونَ**

**ويليه المجلدُ التَّاسعُ والعشرونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الزُّمَر**

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٠).

ذكَرَ القاضي عِياضٌ أنَّ من وُجوهِ إعْجازِ القُرآنِ: مُشاكَلةَ بَعضِ أجْزائِه بَعضًا، وحُسنَ ائْتِلافِ أنْواعِها، والْتِئامِ أقْسامِها، وحُسنَ التَّخلُّصِ من قصَّةٍ إلى أُخْرى، والخُروجِ من بابٍ إلى غَيرِه على اخْتِلافِ مَعانيهِ، وانْقِسامَ السُّورةِ الواحِدةِ إلى أمْرٍ ونَهيٍ، وخَبرٍ واستِخْبارٍ، ووَعدٍ ووَعيدٍ، وإثْباتِ نُبوَّةٍ، وتَوْحيدٍ وتَفْريدٍ، وتَرْغيبٍ وتَرْهيبٍ إلى غيرِ ذلك من فَوائدِه دونَ خلَلٍ يَتخلَّلُ فُصولَه، والكلامُ الفَصيحُ إذا اعْتَوَرَه مثلُ هذا ضعُفَت قوَّتُه، ولانَتْ جَزالَتُه، وقَلَّ رَوْنقُه، وتَقلقَلَت ألْفاظُه. ثمَّ قال: (فتأمَّلْ أوَّلَ «ص»، وما جُمِعَ فيها من أخْبارِ الكُفَّارِ وشِقاقِهم، وتَقْريعِهم بإهْلاكِ القُرونِ مِن قَبلِهم، وما ذُكِرَ من تَكْذيبِهم بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعجُّبِهم ممَّا أتَى به، والخَبرِ عنِ اجتِماعِ مَلَئِهم على الكُفرِ، وما ظَهَرَ منَ الحسَدِ في كَلامِهم، وتَعْجيزِهم، وتَوْهينِهم، ووَعيدِهم بخِزيِ الدُّنْيا والآخِرةِ، وتَكْذيبِ الأُمَمِ قَبلَهم، وإهْلاكِ اللهِ لهم، ووَعيدُ هؤلاء مثَّلَ مُصابِهم، وتَصبيرَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على أذاهُم، وتَسليَتَه بكلِّ ما تَقدَّمَ ذِكرُه، ثمَّ أخَذ في ذِكرِ داوُدَ وقَصصِ الأنْبياءِ، كلُّ هذا في أوْجَزِ كلامٍ وأحسَنِ نِظامٍ). ((الشِّفا بتَعريفِ حُقوقِ المُصطَفى - وحاشيةُ الشُّمُنِّيِّ)) (١/ ٢٧٩، ٢٨٠).

# الفهرس

# الفهرس

سورةُ ص ..... ٧
أسماءُ السُّورةِ ..... ٧
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٧
الآيات (١-٣) ..... ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٠
المعنى الإجماليُّ ..... ١١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٧
الآيات (٤-١١) ..... ٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٣
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٨

بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٢
الآيات (١٢-١٦) ..... ٥٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٦٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٩
الآيات (١٧-٢٠) ..... ٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٧٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٧٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٨٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٨٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٨٩
الآيات (٢١-٢٦) ..... ٩٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١١٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٢٧
الآيات (٢٧-٢٩) ..... ١٣٨

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٣٨
المعنى الإجماليُّ ..... ١٣٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٣٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٤٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٥١
الآيات (٣٠-٤٠) ..... ١٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٥٦
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٥٨
المعنى الإجماليُّ ..... ١٥٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٦٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٧٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٨٣
الآيات (٤١-٤٤) ..... ١٩٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٩٣
المعنى الإجماليُّ ..... ١٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٩٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٠٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٠٨
الآيات (٤٥-٤٨) ..... ٢١٦

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢١٦
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢١٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٢١٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٢٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٢٣
الآيات (٤٩-٥٤) ..... ٢٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٢٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٣٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٣٧
الآيات (٥٥-٦٤) ..... ٢٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٤٣
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٤٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٤٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٥٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٥٩

الآيات (٦٥-٧٠) ..... ٢٧٠
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٧٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٧٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٧١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٧٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٧٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٧٩
الآيات (٧١-٨٥) ..... ٢٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٨٧
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٨٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٨٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٨٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٠٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣١١
الآيات (٨٦-٨٨) ..... ٣٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٢٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٢٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٢٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٢٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٢٩

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة الزمر)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد التاسع والعشرون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الزمر)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد التاسع والعشرون – سورة الزمر/

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٤٩٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-٩٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة الزمر – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٩٥٥٤

رقم الإيداع: ١٤٤٢/٩٥٥٤

ردمك: ٣-٩٥-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م**

**(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ الزُّمَرِ

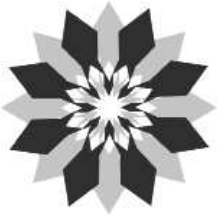

# سورةُ الزُّمَرِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الزُّمَرِ)[١].

فعن عائِشةَ رَضِي الله عنها أنَّها قالت: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا ينامُ على فِراشِه حتَّى يَقرأَ كُلَّ لَيلةٍ ببَني إسرائيلَ والزُّمَرِ))[٢].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرؤُها كُلَّ لَيلةٍ:

كما جاء في حديثِ عائِشةَ رَضِيَ الله عنها السَّابقِ.

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الزُّمَرِ مَكِّيَّةٌ[٣]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٤].

---

(١) سُمِّيَت السُّورةُ بذلك؛ لاشتِمالِها على الآيةِ الَّتي ذُكِرَ فيها زُمَرُ الفَريقَينِ، ولِوقوعِ هذا اللَّفظِ فيها دونَ غَيرِها مِن سُوَرِ القرآن. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٢٠) واللفظ له، وأحمد (٢٤٣٨٨)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٤٤).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ)، ووثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٧٥)، وحسَّنه ابنُ حجرٍ في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٦٥)، وجوَّد إسنادَه ووثَّقَ رجالَه ابنُ باز في ((النكت على التقريب)) (١٧٢)، وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩٢٠).

(٣) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيَتَينِ نزَلَتا بالمدينةِ؛ إحداهما قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ ...﴾ [الزمر: ٢٣]، والأُخرى قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ ...﴾ [الزمر: ٥٣]. وقيل: إلَّا سَبْعَ آياتٍ، مِن قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ ...﴾ [الزمر: ٥٣] إلى آخِرِ السَّبعِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٦٩).

(٤) ممَّن حكى الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٨٧).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

إثباتُ تفَرُّدِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، وإبطالُ الشِّركِ[1].

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:**

١- التَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ، والثَّناءُ على اللهِ تعالى الَّذي أنزَلَه على نَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالحَقِّ.

٢- الأمرُ بإخلاصِ العبادةِ لله، وبَيانُ شُبهةِ الَّذين عَبَدوا غَيرَه وإبطالُها، وذِكرُ بَعضِ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّتِه؛ مِن خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ، وتَسخيرِه الشَّمسَ والقَمَرَ، وخَلقِ الإنسانِ... إلى غيرِ ذلك.

٣- مُقارَنةٌ بيْنَ أحوالِ الكافِرينَ وأحوالِ المؤمِنينَ، وبَيانُ عاقِبةِ الصَّابِرينَ.

٤- ذِكرُ بَعضِ التَّوجيهاتِ للمُؤمِنينَ، وبَيانُ حُسنِ عاقِبتِهم؛ ووَعيدُ مَن عَبَد غَيرَ اللهِ، وبَيانُ ما أُعِدَّ لهم مِنَ العذابِ.

٥- بَيانُ بَعضِ دَلائِلِ وَحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه.

٦- ذِكرُ إنزالِ اللهِ تعالى للقُرآنِ، ومَدحُه وبيانُ حالِ المؤمِنينَ معه.

٧- الحَديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، ومُحاجَّةِ المُشرِكينَ، وبَيانُ ما هم عليه مِن ضَلالٍ، وما لَهم مِن سُوءِ العاقِبةِ.

٨- ذِكرُ حالِ الإنسانِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٢).

٩- ذِكرُ ما يدُلُّ على سَعةِ رَحمةِ اللهِ سُبحانَه بعِبادِه، ودَعوتُهم إلى الإنابةِ إليه قبْلَ نُزولِ العَذابِ، والنَّدَمِ على التَّفريطِ حيثُ لا يَنفَعُ النَّدَمُ.

١٠- عَرضُ بَعضِ مَشاهِدِ يَومِ القيامةِ وأهوالِها، وأحوالِ الكافِرينَ والمؤمِنينَ، وما أُعِدَّ لكُلٍّ منهما، وتَسبيحُ المَلائِكةِ الحافِّينَ مِن حَولِ العَرشِ بحَمدِ رَبِّهم، وخَتْمُ السُّورةِ بحَمدِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

## الآيات (١-٤)

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: أي: أصنامًا يَتولَّونَهم بعبادتِهم ودعائِهم، وأصْلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ، سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ[1].

﴿زُلْفَىٰٓ﴾: أي: قُربةً ودَرَجةً ومَنزِلةً، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[2].

﴿لَّٱصْطَفَىٰ﴾: أي: لَاختار، ولَاجتبَى، وأصلُ (صفو): خُلوصُ الشَّيءِ مِن كلِّ شَوبٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤).

## المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن هذا القُرآنِ الكَريمِ أنَّه تَنزيلٌ مِن عِندِه سُبحانَه، وهو العزيزُ الغالِبُ، المُمتَنعُ عليه كلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ يُخاطِبُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِلًا له: إنَّا أنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ بالحَقِّ، فاعبُدِ اللهَ مُخلِصًا له وَحْدَه في جميعِ عِباداتِك. ألَا للهِ وحْدَه الطَّاعةُ الخالِصةُ مِن الشِّركِ والرِّياءِ.

ثمَّ يذكرُ سُبحانَه ما عليه المُشرِكونَ مِن ضَلالٍ، فيقولُ: والمُشرِكونَ الَّذين اتَّخَذوا مَعبوداتٍ باطِلةً يَعبُدونها مِن دونِ اللهِ يَقولونَ: ما نَعبُدُ هذه المعبوداتِ إلَّا لِتُقَرِّبَنا إلى اللهِ قُرْبى! إنَّ اللهَ يَفصِلُ بيْنَهم يومَ القيامةِ فيما هم فيه مُختَلِفونَ في الدُّنيا، إنَّ اللهَ لا يَهدي مَن هو كاذِبٌ شديدُ الكُفرِ.

ثُمَّ يُبَيِّنُ الله سبحانَه أنَّه لا وَلَدَ له؛ ردًّا على مَن زعَم ذلك، فيقولُ: لو أراد اللهُ سُبحانَه وتعالى أن يتَّخِذَ لنَفْسِه ولَدًا لَاختار ما يَشاءُ مِمَّا يَخلُقُه، ولم يَكِلْ ذلك إلى المُشرِكينَ لِيَختاروا له ما شاؤوا بأهوائِهم! تَنزَّهَ اللهُ عن الولَدِ، وعمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ، هو الواحِدُ في ذاتِه وأسمائِه، وصفاتِه وأفعالِه؛ القهَّارُ الَّذي ذلَّ له وخضَع كُلُّ شَيءٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾.

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ شديدِ القوَّةِ، الغالِبِ الَّذي لا يَغلِبُه شَيءٌ، والمُمتَنع عليه كلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الحَكيمِ في شَرعِه وخَلقِه وقَدَرِه، فيَضَعُ كُلَّ

شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائقِ به[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا إليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ المُشتَمِلَ على الحقِّ؛ فأخبارُه صادِقةٌ، وأحكامُه عادِلةٌ، ومِن ذلك الإخبارُ بألوهيَّةِ اللهِ، والأمرُ بعبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له[٢].

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن تعالى أنَّ هذا الكِتابَ مُشتَمِلٌ على الحَقِّ والصِّدقِ؛ أردَفَه ببَيانِ بَعضِ ما فيه مِن الحَقِّ والصِّدقِ[٣].

وأيضًا لَمَّا امتَنَّ تعالى على رَسولِه بإنزالِ الكِتابِ عليه بالحَقِّ، وكان الحَقُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣-١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٣٩، ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥).
والباءُ في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ قيل: للملابَسةِ، أي: أنزَلْنا إليكَ القرآنَ مُلابِسًا للحقِّ. وقيل: للسَّببيَّةِ، أي: أنزَلْناه بسببِ الحقِّ، أي: إثباتِه وإظهارِه. وقيل: للتَّعديةِ، أي: أنَّ ما اشتَمَل عليه القرآنُ فهو حقٌّ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣١).

إخلاصَ العبادةِ لله؛ أمَرَه تعالى بعبادتِه[١].

وأيضًا لَمَّا كان الكِتابُ نازِلًا مِنَ الحَقِّ، مُشتَمِلًا على الحَقِّ لِهدايةِ الخَلقِ، على أشرَفِ الخَلقِ؛ عَظُمَت فيه النِّعمةُ وجَلَّت، ووجَبَ القِيامُ بشُكرِها، وذلك بإخلاصِ الدِّينِ لله؛ فلهذا قال[٢]:

﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: فاعبُدِ اللهَ مُخلِصًا له وَحْدَه في جميعِ عباداتِك الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، ولا تُشرِكْ به شَيئًا، ولا تَقصِدْ بعِبادتِك حَظًّا دُنيويًّا[٣].

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَر الله سُبحانَه رسولَه بهذا الأمرِ نادى باستِحقاقِه لذلك، وأنَّه لم يَطلُبْ غَيرَ حَقِّه، وأنَّ ذلك لا يُتصَوَّرُ أن يكونَ لِغَيرِه سُبحانَه[٤].

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾.

أي: ألَا لله وَحْدَه الطَّاعةُ والعِبادةُ النَّقيَّةُ مِن شوائِبِ الشِّركِ والرِّياءِ، فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤١).

المُستَحِقُّ وحْدَه لإفرادِه بالعبادةِ؛ فلا يَقبَلُ مِن العَمَلِ إلَّا ما كان خالِصًا له وحْدَه دونَ ما سِواه[١].

عن أبي أُمامةَ الباهِليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: أرأيْتَ رَجُلًا غَزا يَلتَمِسُ الأجرَ والذِّكرَ، ما لَه؟ فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا شَيءَ له! فأعادها ثلاثَ مَرَّاتٍ، يقولُ له رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا شَيءَ له! ثمَّ قال: إنَّ اللهَ لا يَقبَلُ مِن العَمَلِ إلَّا ما كان له خالِصًا، وابتُغِيَ به وَجهُه))[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه أنَّ رأسَ العباداتِ ورَئيسَها الإخلاصُ في التَّوحيدِ؛ أردفَه بذَمِّ طَريقةِ المُشرِكينَ[٣]، وبيَّن شُبهتَهم الَّتي احتجُّوا بها للإشراكِ به تعالى[٤] الَّذي هو مُخالِفٌ للإخلاصِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٧، ٣١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٢).

(٢) أخرجه من طُرقٍ: النَّسائيُّ (٣١٤٠) واللَّفظُ له، والطبرانيُّ (٨/ ١٦٥) (٧٦٢٨).
جوَّد إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٤٠)، وابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٨١)، وابن حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٣٥)، والصنعاني في ((سبل السلام)) (٤/ ٦٨)، وحسَّن إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٥/ ١١٢)، وقال الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣١٤٠): (حسَنٌ صحيحٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٥). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٦).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾.

أي: والمُشركونَ الَّذين اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ يَتولَّونَهم ويَعبُدونَهم يقولونَ: ما نَعبُدُهم إلَّا لِيُقرِّبونا إلى اللهِ قُربةً منه ومَنزِلَةً في الدُّنيا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَفصِلُ بَيْنَهم(٢) .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢١، ٣٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٩-٣١).

قال السعدي: (أي: لِتَرفعَ حوائِجَنا لله، وتَشفَعَ لنا عندَه، وإلَّا فنحن نعلَمُ أنَّها لا تَخلُقُ، ولا تَرزُقُ، ولا تَملِكُ مِن الأمرِ شيئًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي (١٥/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٤).

وقال الشوكاني: (والموصولُ [أي: قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾]: عبارةٌ عن المشركين، ومحلُّه الرَّفعُ على الابتداءِ، وخبرُه قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾، وجملةُ: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ بتقديرِ القولِ، والاستثناءُ مُفرَّغٌ مِن أعمِّ العللِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٥). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١).

(٢) اختَلف المفسِّرونَ في عَودِ الضَّميرِ في قوله: ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾؛ فقيل: أي: بيْنَ أهلِ الأديانِ. وممَّن اختاره: ابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٥).

وقيل: بيْنَ الكفَرةِ والمشركين، ومُقابليهم مِن المُسلِمينَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: البيضاويُّ، والنسفي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨). =

يومَ القيامةِ فيما هم فيه يَختَلِفونَ في الدُّنيا[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ إلى الحَقِّ كُلَّ مَن هو كاذِبٌ على الله، شَديدُ الكُفرِ به، فيَصِفُه بما لا يَليقُ به، ويتَّخِذُ مِن دُونِه أولياءَ، ويَدَّعي أنَّ عِبادتَهم تُقرِّبُهم إلى اللهِ زُلْفى[٢]!

﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ

---

= وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الَّذين اتَّخَذوا أولياءَ. والمرادُ بـ ﴿مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: اختِلافُ طرائِقِهم في العبادةِ، وفي أنواعِها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢).

قال ابن عاشور: (ومعنى الحُكمِ بيْنَهم أنَّه يُبَيِّنُ لهم ضلالَهم جميعًا يومَ القيامةِ؛ إذ ليس معنى الحُكمِ بيْنَهم مُقتضيًا الحُكمَ لفريقٍ منهم على فريقٍ آخَرَ، بل قد يكونُ الحُكمُ بيْنَ المُتخاصِمَينِ بإبطالِ دَعوى جميعِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٢).

وقال الواحدي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ بيْن أهلِ الأديانِ، وهم الَّذين اتَّخذوا مِن دونِه أولياءَ). ((الوسيط)) (٣/ ٥٧٠).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى الَّذين اتَّخَذوا أولياءَ مِن دون الله، وأوليائِهم، أي: بيْنَ المُتَّخِذينَ والمُتَّخَذينَ، والمعنى: إنَّ الله يَحكُمُ بيْنَهم بأنَّه يُدخِلُ الملائكةَ وعيسى عليهم السَّلامُ الجنَّةَ، ويُدخِلُهم النَّارَ مع الحجارةِ الَّتي نَحَتوها وعبَدوها مِن دون الله تعالى. وممَّن اختار هذا القولَ: الزمخشريُّ، والرسعني، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٣).

وقال العُلَيمي: (بيْنَ العابدِ والمعبودِ، والمسلمِ والكافرِ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٣، ٣٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣، ٣٤).

ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ سُبحانَه بالحُكمِ بيْنَهم، فكان ذلك -مع تضَمُّنِه التَّهديدَ- وافيًا بنَفيِ الشَّريكِ، كافيًا في ذلك؛ لأنَّ المحكومَ فيه لا يجوزُ أن يكونَ قَسيمًا للحاكِمِ، فلم يَبْقَ في شَيءٍ مِن ذلك شُبهةٌ إلَّا عندَ ادِّعاءِ الوَلَديَّةِ: قال نافيًا لها على سَبيلِ الاستِئنافِ، جوابًا لِمَن يقولُ: فما حالُ مَن يتولَّى الولَدَ[1]:

﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: لو أراد اللهُ أن يَتَّخِذَ لنَفْسِه ولَدًا لاختارَ ما يَشاءُ مِمَّا يَخلُقُه، ولم يَكِلْ ذلك إلى المُشرِكينَ لِيَختاروا له ما شاؤوا بأهوائِهم[2]!

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ عن الوَلَدِ، وعمَّا يَصِفُه به المُشرِكونَ مِن النَّقائِصِ والعُيوبِ[3].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾.

أي: هو اللهُ الواحِدُ في ذاتِه وأسمائِه، وصِفاتِه وأفعالِه، لا شَبيهَ له مِن خَلْقِه،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٥، ٣٢٦).

قال ابن كثير: (هذا شَرطٌ لا يَلزَمُ وُقوعُه ولا جوازُه، بل هو مُحالٌ، وإنَّما قَصَد تَجهيلَهم فيما ادَّعَوه وزَعَموه... ويجوزُ تعليقُ الشَّرطِ على المُستحيلِ؛ لِقَصدِ المتكَلِّمِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

ولا نِدَّ له ولا شَريكَ ولا نَظيرَ؛ وهو القَهَّارُ الَّذي قهَرَ كُلَّ شَيءٍ وغَلَبه بقُدرتِه، فذَلَّ له وخَضَع[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في وَصفِ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الله تعالى أنزَلَ القرآنَ بالحِكمةِ ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وفي هذا إرشادٌ إلى وُجوبِ التَّدبُّرِ في معاني هذا الكِتابِ؛ لِيُتوصَّلَ بذلك التَّدبُّرِ إلى العِلمِ بأنَّه حَقٌّ مِن عندِ الله؛ قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[2] [فصلت: ٥٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أنَّ العِبادةَ دِينٌ يَدينُ به الإنسانُ، ومعنى كَونِه دِينًا: أنَّه يَعمَلُ لِيُثابَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّه ينبغي للإنسانِ حينَ العبادةِ أن يُلاحِظَ هذا المعنى -وهو أنَّه يَعمَلُ لِيُثابَ- لأنَّه إذا شَعَر بهذا الشُّعورِ فسوف يُتقِنُ العَمَلَ؛ إذ إنَّ العَقلَ يَهدي الإنسانَ إلى أنَّ الثَّوابَ على قَدْرِ العَمَلِ؛ إنْ أحسنْتَ العمَلَ حَسُنَ الثَّوابُ، وإنْ قَصَّرْتَ فالثَّوابُ يَنقُصُ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ التَّحذيرُ مِن الكَذِبِ وخِصالِ الكُفرِ، وأنَّ الكَذِبَ سببٌ لِمَنعِ الهدايةِ، والقاعِدةُ في ذلك: «أنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ وُجِدَ بوُجودِه»، وانتفَى بانتفائِه، ويدُلُّ لهذا أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والكَذِبَ؛ فإنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٧).

وإنَّ الفُجورَ يَهدي إلى النَّارِ))[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أنَّ الصِّدقَ سَبَبٌ للهِدايةِ. وَجْهُه: أنَّه إذا كان الكذِبُ سَببًا للغَوايةِ، فضِدُّه سببٌ لضِدِّه؛ فيَكونُ الصِّدقُ سَببًا للهدايةِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: التَّرغيبُ في الصِّدقِ، والصِّدقُ يَكونُ مع اللهِ، ومع رَسولِ اللهِ، ومع عِبادِ اللهِ؛ فالصِّدْقُ مع اللهِ هو بالإخلاصِ له، ومع الرَّسولِ هو باتِّباعِه، ومعَ عِبادِ اللهِ هو بحُسنِ المعاملةِ؛ فعليك بالصِّدقِ: ((فإنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يَهدي إلى الجنَّةِ، وما يَزالُ الرَّجُلُ يَصدُقُ ويَتَحَرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكتَبَ عندَ اللهِ صِدِّيقًا))[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ دَلَّ استِقراءُ القُرآنِ العَظيمِ على أنَّ اللهَ جَلَّ وعلا إذا ذكَرَ تَنزيلَه لكِتابِه، أتْبَعَ ذلك ببَعضِ أسمائِه الحُسنى المُتضَمِّنةِ صِفاتِه العُليا؛ ففي أوَّلِ هذه السُّورةِ الكريمةِ لَمَّا ذكَرَ تَنزيلَه كِتابَه، بيَّن أنَّ مَبدأَ تَنزيلِه كائِنٌ منه جَلَّ وعلا، وذكرَ اسمَه (اللهَ)، واسمَه (العزيزَ) و(الحَكيمَ)، ولا يخفَى أنَّ ذِكرَه جَلَّ وعلا هذه الأسماءَ الحُسنى العَظيمةَ بعدَ ذِكرِه تَنزيلَ هذا القُرآنِ العَظيمِ: يدُلُّ بإيضاحٍ على عَظَمةِ القُرآنِ العَظيمِ، وجَلالةِ شَأنِه، وأهمِّيَّةِ نُزولِه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ غيرُ مَخلوقٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧).

والحديث أخرجه مسلم (٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧).

والحديثُ جزءٌ من حديثِ ابنِ مسعودٍ الذي تقدَّم تخريجُه قريبًا.

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥١).

ووجْهُ كَونِه مُنَزَّلًا ظاهِرٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، ووجْهُ كَونِه غيرَ مخلوقٍ: أنَّ الإنزالَ إذا أُضِيفَ إلى عَينٍ قائمةٍ بنَفْسِها فهذه العَينُ مَخلوقةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ [ق: ٩]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، وإذا أُضِيفَ إلى وَصفٍ كان هذا الوَصفُ حسَبَ الموصوفِ، والكلامُ وَصفٌ؛ فإذا كان اللهُ أنزَلَ القرآنَ -وهو كَلامٌ- وأضافه إلى نَفْسِه، فهو عزَّ وجَلَّ -هو بصِفاتِه- أزَلِيٌّ أبَدِيٌّ ليس بمَخلوقٍ، واجبُ الوجودِ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أنَّ القُرآنَ نازِلٌ ممَّن هذا وَصْفُه -والكلامُ وَصفٌ للمُتكَلِّم، والوَصفُ يَتْبَعُ الموصوفَ- فكما أنَّ الله تعالى هو الكامِلُ مِن كلِّ وَجهٍ، الَّذي لا مَثيلَ له؛ فكذلك كلامُه كامِلٌ مِن كُلِّ وَجهٍ، لا مَثيلَ له؛ فهذا وَحْدَه كافٍ في وَصفِ القُرآنِ، دالٌّ على مَرتبتِه[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ دَليلٌ على عُلُوِّ اللهِ؛ وَجْهُه: أنَّه قال: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾، ومِن: للابتداءِ؛ فإذا كان ابتِداءُ الكتابِ مِن عندِ اللهِ -وهو مُنَزَّلٌ- دَلَّ على عُلُوِّ مَن كان مِن عِندِه، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ سؤالٌ: لَفظُ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الزمر: ١] يُشعِرُ بأنَّه تعالى أنزَلَه منَجَّمًا على سبيلِ التَّدريجِ، ولفظُ «الإنزالِ» يُشعِرُ بأنَّه تعالى أنزَلَه دَفعةً واحِدةً؟

**الجوابُ**: أنَّ طَريقَ الجَمعِ أن يُقالَ: إنَّا حكَمْنا حُكمًا كُلِّيًّا بأن نُوصِلَ إليك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٥-١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١١٧، ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨).

هذا الكِتابَ، وهذا هو الإنزالُ، ثمَّ أوصَلْناه إليك نَجمًا نَجمًا على وَفقِ المصالحِ، وهذا هو التَّنزيلُ[١].

أو: أنَّه نزَل جملةً واحدةً مِن اللَّوحِ المحفوظِ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ثمَّ أُنزِل بعدَ ذلك مُفَرَّقًا[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ ﴾ أنَّ مَن لم يَبْلُغْه القُرآنُ لم تَلزَمْه العِبادةُ، ووَجهُ ذلك: أنَّ الفاءَ للتَّفريعِ -وعَلامةُ فاءِ التَّفريعِ أنَّ ما بعدَها يكونُ مُرَتَّبًا على ما قبْلَها- فالمعنى: «فلِإنزالِنا إليك الكتابَ اعبُدِ اللهَ مخلِصًا له الدِّينَ»، ويدُلُّ لهذا آياتٌ أُخرَى، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴾[٣] [الإسراء: ١٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَ الكِتابِ عليه نِعمةٌ كُبرى، تَقتَضي أنْ يُقابِلَها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالشُّكرِ بإفرادِ الله تعالى بالعِبادةِ، وإيماءٌ إلى أنَّ إشراكَ المُشرِكينَ باللهِ غَيرَه في العِبادةِ كُفرٌ لنِعَمِه الَّتي أنعَمَ بها؛ فإنَّ الشُّكرَ صَرفُ العَبدِ جَميعَ ما أنعَمَ اللهُ به عليه فيما خُلِقَ لأجْلِه، وفي العِبادةِ تَحقيقُ هذا المَعنى؛ قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾[٤] [الذاريات: ٥٦].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لا يَقبَلُ إلَّا دِينًا خالِصًا، وأمَّا ما سِواه فليس لله، حتَّى وإنْ أشرَكْتَ به مع الله؛ لأنَّ الدِّينَ لله: هو الخالِصُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٤٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤،٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٦).

النَّقيُّ مِن شوائِبِ الشِّركِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ وُجوبُ الإخلاصِ للهِ في العبادةِ، والإخلاصُ: تَنقيةُ الشَّيءِ مِمَّا يَشُوبُه؛ ولهذا جاء في الحديثِ الصَّحيحِ: أنَّ اللهَ تعالى قال: ((أنا أغنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ؛ مَن عَمِلَ عمَلًا أشرَكَ فيه معيَ غيري تَرَكْتُه وشِرْكَه))[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ غِنَى اللهِ عزَّ وجلَّ الغِنى التَّامَّ، ووَجهُ ذلك: أنَّه إذا كان اللهُ لا يَقبَلُ إلَّا ما كان خالِصًا، دلَّ على غِناه عن عَمَلِ العِبادِ؛ لأنَّه -وحاشاه مِن ذلك- لو كان فَقيرًا مُحتاجًا لِذلك لَاكتفَى بما يأتيه منهم، ولو على سَبيلِ المُشارَكةِ، كالإنسانِ المُحتاجِ يَقبَلُ منك ما كان خاصًّا له، وما كان مُشتَرَكًا، فلمَّا كان اللهُ لا يَقبَلُ إلَّا ما كان خالِصًا عُلِمَ بهذا غِناه عن العِبادِ، وإلى هذا يُشيرُ قولُه تعالى في الحديثِ القُدُسيِّ: ((أنا أغنى الشُّرَكاءِ عن الشِّركِ))[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ أنَّه لَمَّا كان الإنسانُ مَفطورًا على الخُضوعِ للمَلِكِ الدَّيَّانِ، ولا يَلتَفِتُ إلى غيرِه إلَّا بمُعالَجةِ النَّفْسِ بما لَها مِنَ الهوى والطُّغيانِ؛ عبَّرَ بصيغةِ الافتِعالِ، فقال: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، أي: عالَجوا عُقولَهم حتَّى صَرَفوها عن الله[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٦).

والحديث أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥).

والحديثُ تقدَّم تخريجُه قريبًا.

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٤).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ تَنبيهٌ على خَطَئِهم في رِضاهم بالأدْنَى عن الأعلَى، ومَعلومٌ أنَّ كُلَّ شَيءٍ دُونَه[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أنَّ المُشرِكينَ في عَهدِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُقِرُّون بوُجودِ اللهِ تعالى، وأنَّه أعظَمُ مِن كلِّ عَظيمٍ، فهم مُعتَرِفونَ باللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه أعظَمُ مِن أصنامِهم؛ ولهذا جَعَلوها وسيلةً للتَّقَرُّبِ إليه[٢].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أنَّ اتِّخاذَ الوَسائِطِ مِن دُونِ اللهِ هو مِن أصولِ كُفرِ الكُفَّارِ[٣].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ هذه الشُّبهةُ هي الَّتي اعتَمَدها المُشرِكونَ في قديمِ الدَّهرِ وحَديثِه، وجاءَتْهم الرُّسُلُ -صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم أجمعينَ- بردِّها والنَّهيِ عنها، والدَّعوةِ إلى إفرادِ العبادةِ لله وَحْدَه لا شَريكَ له، وأنَّ هذا شَيءٌ اختَرَعه المُشرِكونَ مِن عندِ أنفُسِهم، لم يأذَنِ اللهُ فيه، ولا رَضِيَ به، بل أبغَضَه ونهَى عنه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وأخبَرَ أنَّ الملائِكةَ الَّتي في السَّمَواتِ -مِن المقرَّبينَ وغَيرِهم- كُلُّهم عَبيدٌ خاضِعونَ لله، لا يَشفَعونَ عِندَه إلَّا بإذنِه لِمَنِ ارتَضَى، وليسوا عندَه كالأُمراءِ عندَ مُلوكِهم، يَشفَعونَ عِندَهم بغيرِ إذنِهم فيما أحَبَّه الملوكُ وأبَوْه، ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٠٣).

ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]. تعالى اللهُ عن ذلك(١).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ أنَّ هؤلاء قاسُوا الَّذي ليس كمِثلِه شَيءٌ، المَلِكَ العَظيمَ: بالملوكِ، وزَعَموا بعُقولِهم الفاسِدةِ ورأيِهم السَّقيمِ أنَّ الملوكَ كما أنَّه لا يُوصَلُ إليهم إلَّا بوُجَهاءَ وشُفَعاءَ ووُزراءَ يَرفَعونَ إليهم حوائِجَ رعاياهم، ويَستَعطِفونَهم عليهم، ويُمهِّدون لهم الأمرَ في ذلك؛ أنَّ الله تعالى كذلك! وهذا القياسُ مِن أفسَدِ الأقيسةِ، وهو يَتضَمَّنُ التَّسويةَ بيْنَ الخالِقِ والمخلوقِ، مع ثُبوتِ الفَرقِ العظيمِ عقلًا ونَقلًا وفِطرةً؛ فإنَّ الملوكَ إنَّما احتاجوا للوَساطةِ بيْنَهم وبيْنَ رعاياهم لأنَّهم لا يَعلَمونَ أحوالَهم، فيَحتاجُون مَن يُعلِمُهم بأحوالِهم، ورُبَّما لا يكونُ في قُلوبِهم رَحمةٌ لصاحِبِ الحاجةِ، فيَحتاجُون مَن يُعَطِّفُهم عليه، ويَسترحِمُه لهم، ويحتاجونَ إلى الشُّفَعاءِ والوُزَراءِ، ويخافونَ مِنهم؛ فيَقضُونَ حوائِجَ مَن توسَّطوا لهم؛ مُراعاةً لهم، ومُداراةً لخواطِرِهم، وهم أيضًا فُقَراءُ؛ قد يَمنَعونَ لِما يَخشَونَ مِن الفَقرِ، وأمَّا الرَّبُّ تعالى فهو الَّذي أحاط عِلمُه بظواهِرِ الأمورِ وبواطِنِها، الَّذي لا يَحتاجُ مَن يُخبِرُه بأحوالِ رعيَّتِه وعبادِه، وهو تعالى أرحَمُ الرَّاحِمينَ، وأجوَدُ الأجوَدِينَ، لا يَحتاجُ إلى أحَدٍ مِن خَلْقِه يَجعَلُه راحِمًا لعبادِه، بل هو أرحَمُ بهم مِن أنفُسِهم ووالدِيهم، وهو الَّذي يَحُثُّهم ويَدْعوهم إلى الأسبابِ الَّتي يَنالُونَ بها رَحمتَه، وهو يريدُ مِن مَصالِحِهم ما لا يُريدونَه لأنفُسِهم، وهو الغَنيُّ الَّذي له الغِنى التَّامُّ المُطلَقُ، الَّذي لو اجتمَعَ الخَلقُ مِن أوَّلِهم وآخِرِهم في صَعيدٍ واحدٍ فسَألوه، فأعطَى كلًّا منهم ما سَأل وتمنَّى: لم يَنقُصوا مِن غِناه شيئًا، ولم يَنقُصوا ممَّا عندَه إلَّا كما يَنقُصُ البَحرُ إذا غُمِسَ فيه المِخْيَطُ! وجميعُ الشُّفَعاءِ يَخافونَه؛ فلا يَشفَعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٥).

منهم أحَدٌ إلَّا بإذْنِه، وله الشَّفاعةُ كُلُّها. فبهذه الفُروقِ يُعلَمُ جَهلُ المُشرِكينَ به، وسَفَهُهم العَظيمُ، وشِدَّةُ جَراءتِهم عليه، ويُعلَمُ أيضًا الحِكمةُ في كَونِ الشِّركِ لا يَغفِرُه اللهُ تعالى؛ لأنَّه يَتضَمَّنُ القَدْحَ في الله تعالى؛ ولهذا قال حاكِمًا بيْنَ الفريقَينِ: المُخلِصينَ والمُشرِكينَ -على قولٍ في التَّفسيرِ- وفي ضِمنِه التَّهديدُ للمُشرِكينَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾[1]!

١٧- لَمَّا حكَى الله تعالى مَذهبَ المشركينَ اقتَصَر في الجوابِ على مجرَّدِ التَّهديدِ، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ الرَّجُلَ المُبطِلَ إذا ذَكَر مَذهَبًا باطِلًا، وكان مُصِرًّا عليه؛ فالطَّريقُ في علاجِه أن يُحتالَ بحِيلةٍ تُوجِبُ زَوالَ ذلك الإصرارِ عن قَلبِه، فإذا زال الإصرارُ عن قَلبِه فبعدَ ذلك يُسمِعُه الدَّليلَ الدَّالَّ على بُطلانِه؛ فيَكونُ هذا الطَّريقُ أفضَى إلى المقصودِ[2].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أنَّهم ليس لهم أصلٌ يَضبِطُهم؛ فهم لا يَرجِعونَ إلَّا إلى الخَلفِ كيفَما تقلَّبوا؛ لأنَّهم مَظروفون لذلك العمَلِ الَّذي مبناه الهوى الَّذي هو مَنشَأُ الاختِلافِ، فكيف إذا انضَمَّ إلى ذلك خِلافُ المُخلِصينَ وإنكارُهم عليهم، الَّذي أرشَدَ إليه اعتِذارُهم؟! فظهَرَ مِن هذا أنَّ اختِلافَ الأئمَّةِ في فَهمِ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لقواعِدَ مُعتبَرةٍ استَنبطوها مِن ذلك لا يَخرُجونَ عنها: ليس مِن الخِلافِ المذمومِ؛ لِوَحدةِ ما يَرجِعونَ إليه مِنَ الأصلِ الصَّحيحِ الثَّابتِ عن اللهِ[3].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أنَّ الكُفرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٦).

سَبَبٌ للغَوايةِ، ويُؤَيِّدُ هذا قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥][١]، وأنَّ مَن أصَرَّ على الكَذِبِ والكُفرِ بَقِيَ مَحرومًا مِن الهِدايةِ[٢].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ أي: دائِمٌ على كُفرِه وكَذِبِه، أو لا يَهديه إلى حُجَّةٍ يُلزِمُ بها المؤمِنينَ[٣]، أو يكونُ المعنى: إنَّ اللهَ لا يَهدي الكاذبَ الكفَّارَ في حالِ كذبِه وكفرِه، أو يَكونُ لفظُها العمومَ ومعناها الخصوصَ فيمَن ختَم الله عليه بالكفرِ، وقضَى في الأزلِ أنَّه لا يؤمنُ أبدًا، وإلَّا فقد وُجِد الكاذبُ الكَفَّارُ وقد هُدِيَ كثيرًا[٤].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ دَليلٌ على أنَّ المؤمِنَ هداه اللهُ إلى إيمانِه، وهو حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ في أشياءَ؛ فمِنها: ما يَزعُمونَ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه ليس له في فِعلِ العبدِ صُنعٌ بمَعونةٍ ولا غَيرِها! وقد أخبَرَ نصًّا هاهنا أنَّ الكافرَ مُحتاجٌ إلى هدايةِ اللهِ إيَّاه، وأنَّ المؤمِنَ به اهتدى. ومنها: ما يَلزَمُهم في ادِّعاءِ العَدْلِ الَّذي لا يَعقِلونَه، مِن مُطالَبةِ الكافرِ بالإيمانِ، وعُقوبتِه على الكُفرِ، وليس يَقدِرُ على ما أُمِرَ به إلَّا بهِدايةِ آمِرِه[٥]!

٢٢- قَولُه تعالى: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ المقصودُ مِن هذه الآيةِ إبطالُ إلهيَّةِ أصنامِ المشركينَ، وقد بُنِيَ الدَّليلُ على قاعِدةِ استِحالةِ الوَلَدِ على اللهِ تَعالى؛ إذْ بُنيَ القياسُ الشَّرطيُّ[٦] على فَرضِ اتِّخاذِ الوَلَدِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩١، ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥١٨).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣).

(٦) يُنظر: ((المستصفى)) للغزالي (ص: ١٦٣)، ((الموافقات)) للشاطبي (٥/ ٤٢١).

لا على فَرضِ التَّوَلُّدِ، فاقتَضى أنَّ المُرادَ باتِّخاذِ الوَلَدِ التَّبَنِّي؛ لِأنَّ إبطالَ التَّبَنِّي بهذا الاستِدلالِ يَستَلزِمُ إبطالَ تَوَلُّدِ الابنِ بالأَوْلى، وعَزَّزَ المَقصودَ مِن ذِكرِ فِعلِ الاتِّخاذِ بتَعقيبِه بفِعلِ الاصطِفاءِ على طَريقةِ مُجاراةِ الخَصمِ المُخطِئِ؛ لِيُغيرَ في مَهواةِ خَطَئِه، أيْ: لو كان لِأحَدٍ مِنَ اللهِ نِسبةُ بُنوَّةٍ لَكانت تلك النِّسبةُ التَّبَنِّيَ، لا غَيرُ؛ إذْ لا تُعقَلُ بُنوَّةٌ للهِ غَيرُ التَّبَنِّي، ولو كان اللهُ مُتبَنِّيًا لَاختارَ ما هو الأليَقُ بالتَّبَنِّي مِن مَخلوقاتِه دُونَ الحِجارةِ الَّتي زَعَمتُموها بَناتٍ للهِ. وإذا بَطَلتْ بُنوَّةُ تلك الأصنامِ الثَّلاثةِ المَزعومةِ، بَطَلتْ إلَهيَّةُ سائِرِ الأصنامِ الأُخرى الَّتي اعتَرَفوا بأنَّها في مَرتَبةٍ دونَ مَرتَبةِ اللَّاتِ والعُزَّى ومَناةَ بطَريقِ الأَوْلى، واتِّفاقِ الخَصمَيْنِ؛ فقدِ اقتَضى الكَلامُ دَليلَيْنِ، طُوِيَ أحَدُهما، وهو دَليلُ استِحالةِ الوَلَدِ بالمَعنى الحَقيقيِّ عن الله تعالى، وذُكِرَ دَليلُ إبطالِ التَّبَنِّي لِمَا لا يَليقُ أنْ يَتبَنَّاه الحَكيمُ[١].

٢٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فيه بيانُ كمالِ سُلطانِ اللهِ سُبحانه وتعالى، وأنَّه لو أراد شَيئًا لم يَمتنعْ عليه، ومِن وَجهٍ آخَرَ: أنَّ فيه رَدًّا لِدَعواهم بأنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، أو المسيحَ ابنُ اللهِ، أو عُزَيرًا، فيَقولُ: لو أراد اللهُ أنْ يَتَّخِذَ ولدًا لَاصطفى ما يَشاءُ دون أنْ يَتَّخِذَ ما ادَّعَوه[٢]!

٢٤- قَولُه تعالى: ﴿لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ فيه إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للهِ عزَّ وجَلَّ. والأفعالُ الاختياريَّةُ للهِ ثابتةٌ بالسَّمعِ والعَقلِ؛ أمَّا السَّمعُ فما أكثرَ الأفعالَ الَّتي يُضيفُها اللهُ عزَّ وجلَّ إلى نَفْسِه، وأمَّا العَقلُ فلِأنَّ الفاعِلَ بالاختيارِ أكمَلُ ممَّن لا يَفعَلُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٣).

٢٥- قَولُه تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ﴾ أي: الواحِدُ في ذاتِه، وفي أسمائِه، وفي صِفاتِه، وفي أفعالِه؛ فلا شَبيهَ له في شَيءٍ مِن ذلك، ولا مُماثِلَ؛ فلو كان له ولَدٌ لاقتَضَى أن يَكونَ شَبيهًا له في وَحدتِه؛ لأنَّه بَعضُه وجُزءٌ منه، ووَحدتُه تعالى وقَهرُه مُتلازِمانِ؛ فالواحِدُ لا يكونُ إلَّا قهَّارًا، والقهَّارُ لا يكونُ إلَّا واحِدًا، وذلك يَنفي الشَّرِكةَ له مِن كُلِّ وَجهٍ[1]، وكَونُه قَهَّارًا يَمنَعُ مِن ثُبوتِ الولَدِ له؛ لأنَّ المُحتاجَ إلى الولَدِ هو الَّذي يَموتُ فيَحتاجُ إلى ولَدٍ يَقومُ مَقامَه؛ فالمُحتاجُ إلى الولَدِ هو الَّذي يكونُ مَقهورًا بالموتِ، أمَّا الَّذي يكونُ قاهِرًا ولا يَقهَرُه غَيرُه فيكونُ الولَدُ في حَقِّه مُحالًا؛ فثَبَت أنَّ في قَولِه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ﴾ ألفاظًا مُشتَمِلةً على دلائِلَ قاطِعةٍ في نَفيِ الولَدِ عنِ اللهِ تعالى[2].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ أنَّ الولَدَ لا يَحصُلُ إلَّا مِن الزَّوجِ والزَّوجةِ، والزَّوجانِ لا بُدَّ أن يكونَا مِن جِنسٍ واحِدٍ؛ فلو كان له -تعالى- ولَدٌ لَما كان واحِدًا، بل كانت زَوجتُه مِن جِنسِه[3]!

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْوَٰحِدُ﴾ إثباتُ الوَحدانيَّةِ له سبحانَه، وهذا يُبطِلُ الشَّريكَ في الإلهيَّةِ على تفاوُتِ مَراتبِه، وإثباتُ ﴿ٱلْقَهَّـٰرُ﴾ يُبطِلُ ما زَعَموه مِن أنَّ أولياءَهم تُقَرِّبُهم إلى اللهِ زُلْفى وتَشفَعُ لهم[4].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فاتِحةٌ أنيقةٌ في التَّنويهِ بالقُرآنِ، جُعِلَت مُقدِّمةً لهذه السُّورةِ؛ لأنَّ القُرآنَ جامِعٌ لِمَا حَوَتْه وغيرِه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٧).

أُصولِ الدِّينِ[١].

- و﴿تَنزِيلُ﴾ خَبَرٌ لِمُبتَدَأٍ مَحذوفٍ هو اسمُ إشارةٍ، أُشيرَ به إلى السُّورةِ تَنزيلًا لها مَنزِلةَ الحاضِرِ المُشارِ إليه؛ لِكَونِها على شَرَفِ الذِّكرِ والحُضورِ. وقيلَ: إنَّه خَبَرٌ، والمُبتَدأُ (هو)؛ لِيَعودَ على قَولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٧]، كأنَّه قيلَ: وهذا الذِّكرُ ما هو؟ فقيلَ: هو تَنزيلُ الكِتابِ[٢].

- وأيضًا ﴿تَنزِيلُ﴾: مَصدرُ (نَزَّلَ) المضاعَفِ، وهو مُشعِرٌ بأنَّه أنزَلَه مُنجَّمًا. واختيارُ هذه الصِّيغةِ هنا للرَّدِّ على الطَّاعنينَ؛ لأنَّ مِن جُملةِ ما تَعلَّلوا به قولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾[٣] [الفرقان: ٣٢].

- وأُجْرِيَ على اسمِ الجَلالةِ الوَصفُ بـ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّ ما يَنزِلُ منه يأْتي على ما يُناسِبُ الصِّفتَينِ؛ فيكونُ عَزيزًا؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، أي: القرآنُ عزيزٌ غالبٌ بالحُجَّةِ لِمَن كذَّبَ به، وغالِبٌ بالفَضْلِ لِما سِواهُ مِن الكُتبِ، مِن حيثُ إنَّ الغَلَبةَ تَستلزِمُ التَّفضُّلَ والتَّفوُّقَ، وغالِبٌ لِبُلغاءِ العرَبِ؛ إذ أعجَزَهم عن مُعارَضةِ سُورةٍ منه، ويكونُ حَكيمًا مِثلَ صِفَةِ مُنزِّلِه[٤].

- والحَكيمُ: إمَّا بمعنى الحاكِمِ؛ فالقرآنُ أيضًا حاكمٌ على مُعارِضيه بالحُجَّةِ، وحاكمٌ على غَيرِه مِن الكُتبِ السَّماويَّةِ بما فيه مِن التَّفصيلِ والبيانِ؛ قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. وإمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤).

بمعنى: المُحكِمِ المُتقِنِ؛ فالقُرآنُ مُشتمِلٌ على البَيانِ الَّذي لا يَحتمِلُ الخطَأَ، وإمَّا بمعنى الموصوفِ بالحِكمةِ؛ فالقُرآنُ مُشتمِلٌ على الحِكمةِ كاتِّصافِ مُنزِّلِه بها. على أنَّ في هذَينِ الوَصفَينِ إيماءً إلى أنَّ القُرآنَ مُعجِزٌ ببَلاغةِ لَفظِه، وبإعجازِه العِلميِّ؛ إذِ اشتَمَلَ على عُلومٍ لم يَكُنْ لِلنَّاسِ عِلْمٌ بها[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ لِلعَهدِ، وهو القُرآنُ المَعهودُ بَيْنَهم عِندَ كُلِّ تَذكيرٍ، وكُلِّ مُجادَلةٍ[٢]. ويَجوزُ أنْ يَكونَ لَفظُ ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ اسمًا عامًّا لِجَميعِ ما تَنَزَّلَ مِن عِندِ اللهِ مِنَ الكُتُبِ، وكأنَّه أخبَرَ إخبارًا مُجرَّدًا أنَّ الكُتُبَ الهاديةَ الشَّارعةَ إنَّما تَنزيلُها مِنَ اللهِ، وجَعَل هذا الإخبارَ تَقدِمةً وتَوطِئةً لِقَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٣] [الزمر: ٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ استِئنافٌ وشُروعٌ في بَيانِ شَأنِ المُنَزَّلِ إليه، وما يَجِبُ عليه، إثْرَ بَيانِ شَأنِ المُنزَّلِ، وكَونِه مِن عِندِ اللهِ تَعالى[٤].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ (إنَّ) مُراعًى فيه ما استُعمِلَ فيه الخَبَرُ مِنَ الامتِنانِ؛ فيُحمَلُ حَرفُ (إنَّ) على الاهتِمامِ بالخَبَرِ. وما أُريدَ به مِنَ التَّعريضِ بالَّذين أنكَروا أنْ يَكونَ مُنَزَّلًا مِنَ اللهِ، فيُحمَلُ حَرفُ (إنَّ) على التَّأكيدِ؛ استِعمالًا لِلمُشتَرَكِ في مَعنَيَيْه، ولِمَا أنَّ ما في هذه الآيةِ مِن زِيادةِ الإعلانِ بصِدقِ النَّبيِّ المُنَزَّلِ عليه الكِتابُ جَديرٌ بالتَّأكيدِ؛ لِأنَّ دَليلَ صِدقِه ليس في ذاتِه، بل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٤، ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٨).

هو قائِمٌ بالإعجازِ الَّذي في القُرآنِ، وبغَيرِه مِنَ المُعجزاتِ؛ فكان مُقتَضَى التَّأكيدِ مَوجودًا، بخِلافِ مُقتَضى الحالِ في قَولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١]؛ فجُملةُ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ تَتنَزَّلُ مَنزِلةَ البَيانِ لِجُملةِ ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾[1] [الزمر: ١].

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ﴾ فيه إعادةُ لَفظِ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ لتَعظيمِه، ولِمَزيدِ الاعتناءِ بشأنِه؛ جَريًا على خِلافِ مُقتَضَى الظَّاهِرِ بالإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ. فهو تكريرٌ على جِهةِ التَّفخيمِ والتَّعظيمِ؛ أُبرِز في جُملةٍ أخرَى مَلحوظًا فيه إسنادُ إنزالِه إلى ضَميرِ العَظَمةِ، وتَشريفُ مَن أُنزِلَ إليه بالخِطابِ، وتَخصيصُه بالحَقِّ[2].

- والباءُ في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ لِلمُلابَسةِ، وهي ظَرفٌ مُستَقَرٌّ[3] هو حالٌ مِنَ الكِتابِ، أيْ: أنزَلْنا إليكَ القُرآنَ مُلابِسًا لِلحَقِّ في جَميعِ مَعانيه ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٢]، أو بسَبَبِ إثباتِ الحَقِّ وإظهارِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥).

(٣) الظَّرْف المُستقَرُّ -بفتح القاف-: سُمِّي بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

وتَفصيلِه، وإمَّا مُتعَلِّقةٌ بمَحذوفٍ هو حالٌ مِن نُونِ العَظَمةِ[١].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ لِتَرتيبِ الأمْرِ بالعِبادةِ على إنزالِ الكِتابِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالحَقِّ؛ فأُمِرَ بأنْ يَعبُدَ اللهَ مُخلِصًا له العِبادةَ، مُمَحِّضًا له الدِّينَ مِن شَوائِبِ الشِّركِ والرِّياءِ، حَسبَما بُيِّنَ في تَضاعيفِ ما أُنزِلَ إليكَ. وفي هذا التَّفريعِ تَعريضٌ بما يُناسِبُ المَعنى التَّعريضيَّ في المُفَرَّعِ عليه، وهو أنَّ المُعرَّضَ بهم أنْ يَعبُدوا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّينَ، عليهم أنْ يَدَّبَّروا في المَعنى المُعَرَّضِ به[٢].

- قَولُه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ المَقصودُ مِنَ الأمْرِ بالعِبادةِ التَّوطِئةُ إلى تَقييدِ العِبادةِ بحالةِ الإخلاصِ مِن قَولِه: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، فالمَأمورُ به عِبادةٌ خاصَّةٌ؛ ولذلك لم يَكُنِ الأمْرُ بالعِبادةِ مُستَعمَلًا في مَعنى الأمْرِ بالدَّوامِ عليها، ولذلك أيضًا لم يُؤتَ في هذا التَّركيبِ بصِيغةِ قَصرٍ، خِلافَ قَولِه: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ [الزمر: ٦٦]؛ لِأنَّ المَقصودَ هنا زِيادةُ التَّصريحِ بالإخلاصِ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُنَزَّهٌ عن أنْ يَعبُدَ غيرَ اللهِ[٣].

- قَولُه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ الإخلاصُ: الإمحاضُ وعَدَمُ الشَّوبِ بمُغايِرٍ، وهو يَشملُ الإفرادَ، وسُمِّيَتِ السُّورةُ الَّتي فيها تَوحيدُ اللهِ (سُورةَ الإخلاصِ)، أيْ: إفرادُ اللهِ بالإلَهيَّةِ، وأُوثِرَ الإخلاصُ هنا لِإفادةِ التَّوحيدِ، وأخَصَّ منه؛ وهو أنْ تَكونَ عِبادةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رَبَّه غَيرَ مَشوبةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥، ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٥، ٣١٦).

بحَظٍّ دُنيَويٍّ[١].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، بلَفظِ ﴿إِلَيۡكَ﴾، وقال فيما بعْدُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ [الزمر: ٤١]، بلَفظِ ﴿عَلَيۡكَ﴾؛ ووَجْهُه: أنَّ ﴿إِلَيۡكَ﴾ و﴿عَلَيۡكَ﴾ هنا مُترادِفَتانِ على معنًى واحدٍ مِن معنى الخِطابِ؛ فتارةً يُراعى وُصولُ المنزَّلِ بواسطةِ المَلَكِ، وتارةً يُراعى وُصولُه مِن عندِ اللهِ سُبحانه مِن غيرِ واسطةٍ، فإذا رُوعِيَ هذا قيل: (عليك)، وإذا رُوعِي الأوَّلُ قِيل: (إليك)، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ [البقرة: ٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، والأوَّلُ أكثَرُ، فبُدِئَ هنا به. ثمَّ إنَّه ورَدَ في الآيةِ الثَّانيةِ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾، واللَّامُ الجارَّةُ في قولِه: ﴿لِلنَّاسِ﴾ تُفيدُ الاختصاصَ، وتُرادِفُ كثيرًا لفظةَ (إلى)، فلو ورَدَتِ الآيةُ الثَّانيةُ بـ (إلى)، فقِيل: (إنَّا أنْزَلْنا إليك الكتابَ للنَّاسِ)، لَكان ذلك كالمُرادِفِ لِقولِه: (إنَّا أنْزَلْنا إليك الكتابَ إلى النَّاسِ)، وكان يكونُ فيه إيصالُ الفِعلِ إلى مَجرورينِ بحرْفٍ واحدٍ، وليس أحدُهما مَعطوفًا على الآخَرِ! فجِيءَ بالآيتَينِ على ما يُناسِبُ ويُلائمُ، واللهُ أعلمُ[٢]. وقيل: إنَّ (على) تَتضمَّنُ معنَى (فوق)، وأنْ يكون الوحيُ جاءه مِن تلك الجهةِ، وإنَّ (إلى) للنِّهايةِ، فلا تَختَصُّ بجهةٍ دونَ جهةٍ؛ ولذلك كان أكثرُ المواضعِ الَّتي ذُكِرَ فيها إنزالُ القرآنِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عُدِّيَ بـ (على)، كقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١]، وقولِه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢]، وقولِه: ﴿وَنَزَّلۡنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٢٤).

عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [النحل: ٨٩]، وأكثَرُ ما ذُكِرَ إنزالُه على النَّاسِ جاء مُعدًّى بـ (إلى)، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾[1] [النساء: ١٧٤].

وقيل: إنَّ كلَّ مَوضعٍ خاطَبَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ ففيه تَكليفٌ، وإذا خاطَبَه بقولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾ ففيه تَخفيفٌ؛ فالَّذي في أوَّلِ السُّورةِ (إليك)؛ فكلَّفَه الإخلاصَ في العبادةِ، والَّذي في آخِرِها (عليك)، فختَمَ الآيةَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١]، أي: لستَ بمسؤولٍ عنهم؛ فخفَّفَ عنه ذلك[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾

- قَولُه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ استِئنافٌ؛ لِلتَّخلُّصِ إلى استِحقاقِه تعالى الإفرادَ بالعِبادةِ، وهو غَرَضُ السُّورةِ، وأفادَ التَّعليلَ لِلأمْرِ بالعِبادةِ الخالِصةِ للهِ؛ لِأنَّه إذا كان الدِّينُ الخالِصُ مُستَحَقًّا للهِ وخاصًّا به، كان الأمْرُ بالإخلاصِ له مُصيبًا مَحَزَّه[3]؛ فصارَ أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإخلاصِ العِبادةِ له مُسَبَّبًا عن نِعمةِ إنزالِ الكِتابِ إليه، ومُقتَضًى لِكَونِه مُستَحِقَّ الإخلاصِ في العِبادةِ اقتِضاءَ الكُلِّيَّةِ لِجُزئيَّاتِها، وبهذا العُمومِ أفادَتِ الجُملةُ مَعنى التَّذييلِ،

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٠٥-١١٠٩).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٧).

(٣) المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ: أي: القَطعِ. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

فتَحمَّلتْ ثَلاثةَ مَواقِعَ، كُلُّها تَقتَضي الفَصلَ[١].

- وأيضًا افتُتِحتِ هذه الجُملةُ بأداةِ التَّنبيهِ (ألَا)؛ تَنويهًا بمَضمونِها لِتَتَلقَّاه النَّفْسُ بشَراشِرِها -أي: بجُملتِها أو بكُلِّيتِها-، وذلك هو ما رَجَّحَ اعتِبارَ الاستِئنافِ فيها، وجَعَل مَعنى التَّعليلِ حاصِلًا تَبَعًا مِنْ ذِكرِ إخلاصٍ عامٍّ بَعدَ إخلاصٍ خاصٍّ، ومَورِدُهما واحِدٌ[٢].

- واللَّامُ في ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ لامُ المِلْكِ، الَّذي هو بمَعنى الاستِحقاقِ، أيْ: لا يَحِقُّ الدِّينُ الخالِصُ -أيْ: الطَّاعةُ غَيرُ المَشوبةِ- إلَّا له[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ في قَولِه: ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ؛ فأفادَ قولُه: ﴿لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أنَّه مُستحِقُّه، وأنَّه مُختَصٌّ به[٤].

- وفي إبرازِ اسمِ (اللَّه) الجامِعِ: شأنٌ عَظيمٌ، وخَطبٌ جَليلٌ؛ لِإفادةِ إيجابِ اختِصاصِه بأنْ تُخلَصَ له العِبادةُ[٥].

- قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾؛ لِزيادةِ تَحقيقِ مَعنى الإخلاصِ للهِ في العِبادةِ، وأنَّه خُلوصٌ كامِلٌ لا يَشوبُه شَيءٌ مِنَ الإشراكِ، ولا إشراكُ الَّذين زَعَموا أنَّهمُ اتَّخَذوا أولياءَ وعَبَدوهم حِرصًا على القُربِ مِنَ اللهِ، يَزعُمونَه عُذرًا لهم، فقَولُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣١٧، ٣١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٦).

مِن فَسادِ الوَضعِ، وقَلبِ حَقيقةِ العِبادةِ؛ بأنْ جَعَلوا عِبادةَ غَيرِ اللهِ وَسيلةً إلى القُربِ مِنَ اللهِ، فنَقَضوا بهذه الوَسيلةِ مَقصدَها، وتَطَلَّبوا القُربةَ بما أبْعَدَها، والوَسيلةُ إذا أفضَتْ إلى إبطالِ المَقصدِ كان التَّوسُّلُ بها ضَربًا مِنَ العَبَثِ(١).

- والاستِثناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ﴾ استِثناءٌ مِن عِلَلٍ مَحذوفةٍ، أيْ: ما نَعبُدُهم لِشَيءٍ إلَّا لِعِلَّةِ أنْ يُقَرِّبونا إلى الله؛ فيُفيدُ قَصرًا على هذه العِلَّةِ قَصرَ قَلبٍ إضافيًّا(٢)، أيْ: دُونَ ما شَنَّعتُم علينا مِن أنَّنا كَفَرْنا نِعمةَ خالِقِنا إذْ عَبَدْنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢١).

(٢) القصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك.

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

غَيرَه[١]!

- وقَولُهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ فيه احتباكٌ[٢]: فذَكَر فِعلَ التَّقريبِ أوَّلًا؛ دَليلًا على فِعلِ الزَّلَفِ ثانيًا، واسمَ الزَّلَفِ ثانيًا؛ دَليلًا على الاسمِ مِن التَّقريبِ أوَّلًا[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ وَعيدٌ وتَهديدٌ لهم على قَولِهم ذلك؛ فعُلِمَ منه إبطالُ تَعَلُّلِهم في قَولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾؛ لِأنَّ الواقِعَ أنَّهم عَبَدوا الأصنامَ أكثَرَ مِن عِبادَتِهم للهِ[٤].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ أيْ: بَيْنَهم وبيْنَ خُصَمائِهمُ الَّذين همُ المُخلِصونَ لِلدِّينِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وقد حُذِفَ لِدَلالةِ الحالِ عليهِ[٥].

- وعلى القولِ بأنَّ ضَميرَ ﴿بَيۡنَهُمۡ﴾ عائدٌ إلى الَّذينَ اتَّخذوا أولياءَ، وأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ اختلافُ طرائِقِهم في عبادةِ الأصنامِ وفي أنواعِها- فنَظمُ قَولِه: ﴿هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يفيدُ أمْرَينِ: أنَّ الاختِلافَ ثابِتٌ لهم، وأنَّه مُتكَرِّرٌ مُتَجدِّدٌ؛ فالأوَّلُ مِن تَقديمِ المُسنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾ على الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿يَخۡتَلِفُونَ﴾، والآخَرُ مِن كَونِ المُسنَدِ فِعلًا مُضارِعًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٢).

(٢) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٢).

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ خَبَرًا ثانيًا عن قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾، وهو كِنايةٌ عن كَونِهم كاذِبينَ في قَولِهم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾، وعن كَونِهم كَفَّارينَ بسَبَبِ ذلك، وكِنايةٌ عن كَونِهم ضالِّينَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِأنَّ قَولَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ يُثيرُ في نُفوسِ السَّامِعينَ سُؤالًا عن مَصيرِ حالِهم في الدُّنيا مِن جَرَّاءِ اتِّخاذِهم أولياءَ مِن دُونِه، فيُجابُ بأنَّ اللهَ لا يَهدي مَن هو كاذِبٌ كَفَّارٌ، أيْ: يَذَرُهم في ضَلالِهم، ويُمهِلُهم إلى يَومِ الجَزاءِ، بعدَ أنْ بَيَّنَ لهمُ الدِّينَ فخالَفوه[1].

- وقيل: الجُملةُ تَعليلٌ لِمَا ذُكِرَ مِن حُكمِه تَعالى، واعتِراضٌ لِلتَّأكيدِ، ودفْعِ ذلك التَّأويلِ[2].

- وعُلِمَ مِن مُقارَنةِ وَصفِهم بالكَذِبِ بوَصفِهم بالأبلَغيَّةِ في الكُفرِ أنَّهم مُتبالِغونَ في الكَذِبِ أيضًا؛ لِأنَّ كَذِبَهمُ المَذمومَ إنَّما هو كَذِبُهم في كُفريَّاتِهم؛ فلَزِمَ مِن مُبالَغةِ الكُفرِ مُبالَغةُ الكَذِبِ فيه[3].

- والمُرادُ بـ﴿مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ الَّذين اتَّخَذوا مِن دونِه أولياءَ، أيْ: المُشرِكونَ، فكان مُقتَضَى الظَّاهِرِ الإتيانَ بضَميرِهم، وعُدِلَ عنه إلى الإضمارِ، والتَّعبيرِ عنهم بطَريقِ المَوصوليَّةِ؛ لِمَا في المَوصولِ مِنَ الصَّلاحيةِ لإفادةِ الإيماءِ إلى عِلَّةِ الفِعلِ؛ لِيُفيدَ أنَّ سَبَبَ حِرمانِهمُ التَّوفيقَ هو كَذِبُهم وشِدَّةُ كُفرِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٢٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ مَوقِعُ هذه الآيةِ مَوقِعُ الاحتِجاجِ على أنَّ المُشرِكينَ كاذِبونَ وكَفَّارونَ في اتِّخاذِهم أولياءَ مِن دونِ اللهِ، وفي قَولِهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وأنَّ اللهَ حَرَمَهمُ الهُدى، وذلك ما تَضَمَّنَه قَولُه قَبْلَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر: ٣]، فقَصَد إبطالَ شِركِهم بإبطالِ أقْواه، وهو عَدُّهم في جُملةِ شُرَكائِهم شُرَكاءَ زَعَموا لهم بُنُوَّةً لله تعالى، حيثُ قالوا: ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ [البقرة: ١١٦]؛ فإنَّ المُشرِكينَ يَزعُمونَ أنَّ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ بَناتٌ لله، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾[1] [النجم: ١٩- ٢١].

- وقَولُه: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ قيل: إنَّه استِئنافٌ مَسوقٌ لِتَحقيقِ الحَقِّ، وإبطالِ القَولِ بأنَّ المَلائكةَ بَناتُ اللهِ، وأنَّ عيسى ابنُه -تَعالى عن ذلك عُلوًّا كَبيرًا-؛ ببَيانِ استِحالةِ اتِّخاذِ الوَلَدِ في حَقِّه تعالى على الإطلاقِ؛ لِيَندَرِجَ فيه استِحالةُ ما قيل اندِراجًا أوَّليًّا[2].

- في قولِه: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ عَبَّر بـ «ما» دونَ «مَن»؛ وذلك لأنَّ «ما» أعَمُّ مِن «مَن»، وأيضًا لأنَّه إذا أُريدَ ملاحظةُ الصِّفةِ فإنه يُعَبَّرُ بـ «ما» عن «مَن»، وهنا يُرادُ ملاحظةُ الصِّفةِ، وهي: العبادةُ[3].

- وجُملةُ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تَقريرٌ لِمَا ذُكِرَ مِن استِحالةِ اتِّخاذِ الشُّرَكاءِ والأولياءِ والوَلَدِ في حَقِّه تَعالى، وتَأكيدٌ له ببَيانِ تَنَزُّهِه تَعالى عنه، أيْ: تَنَزَّهَ بالذَّاتِ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤١، ٢٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨، ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٠).

ذلك تَنَزُّهَه الخاصَّ به[١].

- وقولُه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِتَنَزُّهِه تعالى بحَسَبِ الصِّفاتِ إثْرَ بَيانِ تَنَزُّهِه تعالى عنه بحَسَبِ الذَّاتِ؛ فإنَّ صِفةَ الأُلوهيَّةِ المُستَتبِعةَ لِسائِرِ صِفاتِ الكَمالِ، النَّافيةَ لِسِماتِ النُّقصانِ، والوَحدةَ الذَّاتيَّةَ المُوجِبةَ لِامتِناعِ المُماثَلةِ والمُشارَكةِ بَيْنَه تعالى وبيْنَ غَيرِه على الإطلاقِ، مِمَّا يَقضِي بتَنَزُّهِه تعالى عمَّا قالوا قضاءً مُتقَنًا. وكذا وَصفُ القَهَّاريَّةِ؛ لِمَا أنَّ اتِّخاذَ الوَلَدِ شَأنُ مَن يَكونُ تَحتَ مَلَكوتِ الغَيرِ عُرضةً لِلفَناءِ؛ لِيَقومَ وَلَدُه مَقامَه عِندَ فَنائِه، ومَن هو مُستَحيلُ الفَناءِ قَهَّارٌ لِكُلِّ الكَائِناتِ، كيف يُتَصوَّرُ أنْ يَتَّخِذَ مِنَ الأشياءِ الفانيةِ ما يَقومُ مَقامَه[٢]؟!

- وأيضًا جُملةُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ دَليلٌ لِتَنزيهِ اللهِ المُستَفادِ مِن ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾؛ فجُملةُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ تَمهيدٌ لِلوَصفَينِ، وذِكرُ اسمِه العَلَمِ ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لِإحضارِه في الأذهانِ بالاسمِ المُختَصِّ به؛ فلِذلك لم يَقُلْ: هو الواحِدُ القَهَّارُ، كما قال بَعدُ: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ [الزمر: ٥]. وإثباتُ الوَحدانيَّةِ له يُبطِلُ الشَّريكَ في الإلهيَّةِ على تَفاوُتِ مَراتِبِه، وإثباتُ القَهَّارِ يُبطِلُ ما زَعَموه مِن أنَّ أولياءَهم يُقَرِّبونَهم إلى اللهِ زُلْفى ويَشفَعونَ لهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٧).

## الآيتان (٥-٦)

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُكَوِّرُ﴾: تكويرُ اللَّيلِ على النَّهارِ: تَغشيتُه إيَّاه حتَّى يُذهِبَ ضَوءَه، وتكويرُ النَّهارِ على اللَّيلِ: تَغشيتُه إيَّاه حتَّى يُذهِبَ ظُلمَتَه، والتَّكويرُ في اللُّغةِ: طَرحُ الشَّيءِ بَعضِه على بَعضٍ، يُقالُ: كَوَّرَ المتاعَ، أي: ألقى بعضَه على بعضٍ. وأصلُ (كور): يدُلُّ على لَفٍّ وجَمعٍ[1].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّل، والتَّسخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قَهْرًا، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله سُبحانَه مظاهِرَ وَحدانيَّتِه وقدرتِه، فيُخبرُ أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ بالحِكمةِ والصَّوابِ، ولم يَخلُقْهما عَبَثًا ولا باطِلًا، سُبحانَه وتعالى، وأنَّه يُديرُ اللَّيلَ على النَّهارِ حتَّى يَذهَبَ ضَوؤُه، ويُديرُ النَّهارَ على اللَّيلِ حتَّى تَذهبَ ظُلمتُه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢).

وسَخَّر سُبحانَه الشَّمسَ والقَمَرَ، كُلُّ واحدٍ منهما يَسيرُ سَريعًا لِوَقتٍ مَعلومٍ عندَ الله. ألَا إنَّ اللهَ الَّذي خلَقَ هذه المخلوقاتِ وسَخَّرها لعِبادِه هو العزيزُ الغالِبُ، الغَفَّارُ ذُنوبَ عِبادِه.

ثمَّ يقولُ تعالى: خلَقَكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- مِن نَفْسٍ واحِدةٍ، وهي آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثمَّ خَلَق اللهُ مِن آدَمَ زَوجَتَه، وأنزل لكم مِن الأنعامِ ثمانيةَ أزواجٍ، وهي الذُّكورُ والإناثُ مِن الإبلِ، والبَقَرِ، والضَّأنِ، والمَعْزِ. يَخلُقُكم اللهُ في بُطونِ أمَّهاتِكم طَورًا بعدَ طَورٍ في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ: ظُلمةِ بَطنِ الأُمِّ، وظُلمةِ الرَّحِمِ، وظُلمةِ المَشيمةِ، ذلكم الَّذي فعَلَ كُلَّ ما تقدَّمَ هو اللهُ رَبُّكم له وَحْدَه المُلْكُ كُلُّه، لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو سُبحانَه، فكيف تَميلونَ عن الحَقِّ؟!

## تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نزَّه تعالى نفْسَه ووصَف ذاتَه بالوَحدةِ والقَهرِ؛ ذكَر ما دلَّ على ذلك مِن اختراعِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ بالحقِّ، وتكويرِ اللَّيلِ والنهارِ، وتَسخيرِ الشَّمسِ والقَمرِ، وجَريِهما على نِظامٍ واحدٍ، واتِّساقِ أمرِهما على ما أرادَ إلى أجَلٍ مُسمًّى[1].

وأيضًا لَمَّا طَعَن تعالى في إلهيَّةِ الأصنامِ؛ ذكَرَ عَقِيبَها الصِّفاتِ الَّتي باعتبارِها تَحصُلُ الإلهيَّةُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٣).

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: خَلَق اللهُ الواحِدُ القَهَّارُ السَّمَواتِ والأرضَ بالأمرِ الثَّابتِ، وبالحِكمةِ والصَّوابِ والنَّفعِ؛ خَلقًا تامًّا مُتقَنًا، لا خيالَ فيه ولا سِحرَ، ولا اختِلالَ ولا عَيبَ ولا نَقصَ؛ خَلقًا دالًّا على وَحدانيَّتِه وقَهْرِه لكُلِّ شَيءٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾.

أي: يُغشِي اللَّيلَ النَّهارَ ويُديرُه عليه حتَّى يَذهبَ ضوؤُه، ويُغشِي النَّهارَ اللَّيلَ ويُديرُه عليه حتَّى تَذهبَ ظُلمتُه، وسَخَّرهما يَجْريانِ مُتَعاقِبَيْنِ[2].

كما قال تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٥-٤٧).

قال القرطبي: (أي: هو القادِرُ على الكَمالِ، المُستغني عن الصَّاحِبةِ والوَلَدِ، ومَن كان هكذا فحَقُّه أن يُفرَدَ بالعبادةِ لا أنَّه يُشرَكُ به، ونبَّه بهذا على أنَّ له أنْ يَتعَبَّدَ العِبادَ بما شاءَ، وقد فعَلَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٥/ ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧، ٤٨).

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾.

أي: وذلَّل اللهُ الشَّمسَ والقَمَرَ، كلَّ واحِدٍ مِنهما يَسيرُ سَريعًا في مَنازِلِه لِوَقتٍ مَعلومٍ عندَ اللهِ تعالى[1].

﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾.

أي: ألَا إنَّ اللهَ الَّذي خَلَق هذه المخلوقاتِ وسَخَّرها لعِبادِه: هو شديدُ القوَّةِ، الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، المُمتَنعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الغَفَّارُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[2].

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٩).

قيل: المرادُ بالأجَلِ المُسمَّى: يومُ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٩).

قال ابن الجوزي: (﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ أي: إلى الأجَلِ الَّذي وقَّت اللهُ للدُّنيا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨).

وقيل: الأجَلُ المُسمَّى هو: الوَقتُ الَّذي ينتهي فيه سَيرُ الشَّمسِ والقَمَرِ إلى المنازِلِ المُرتَّبةِ لِغُروبِها وطُلوعِها. وممَّن ذهب إلى ذلك: الكَلْبيُّ، ويُروى عن ابنِ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٢٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩، ٥٠).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أَتْبَعَ اللهُ تعالى ذِكرَ الدَّلائِلِ الفَلَكيَّةِ بذِكرِ الدَّلائِلِ المأخوذةِ مِن هذا العالَمِ الأسفَلِ؛ فبدأ بذِكرِ الإنسانِ[1]، فقال تعالى:

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾.

أي: خلَقَكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ[2]- مِن نَفْسٍ واحِدةٍ، وهي آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأنعام: ٩٨].

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾.

أي: ثمَّ خَلَق اللهُ مِن آدَمَ زَوجتَه[4].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٣).

(٢) ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ هنا للنَّاسِ: ابنُ جرير، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٤).

وقيل: الخِطابُ للَّذِين يَدْعونَ آلهةً غيرَ اللهِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦١)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ١٦٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٤-٥٦).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((استَوصوا بالنِّساءِ؛ فإنَّ المرأةَ خُلِقَت مِن ضِلَع، وإنَّ أعْوَجَ شَيءٍ في الضِّلَعِ أعلاه، فإنْ ذهَبْتَ تُقيمُه كسَرْتَه، وإنْ ترَكْتَه لم يَزَلْ أعوَجَ؛ فاستَوصوا بالنِّساءِ))(١).

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ الاستِدلالَ بخَلْقِه الإنسانَ على وُجودِ الصَّانعِ؛ ذكر عَقِيبَه الاستِدلالَ بوُجودِ الحَيوانِ عليه(٢).

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾.

أي: وأنزَلَ اللهُ لكم مِنَ الأنعامِ ثمانيةَ أزواجٍ، وهي الذُّكورُ والإناثُ مِن الإبِلِ، والبَقَرِ، والضَّأنِ، والمَعْزِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ خَلْقَ أبينا وأُمِّنا؛ ذكرَ ابتِداءَ خَلْقِنا(٤).

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٣٣١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

أي: يَخلُقُكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ[١]- في بُطونِ أُمَّهاتِكم طَورًا بعدَ طَورٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يَكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك))[٣].

﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾.

أي: يَخلُقُكم اللهُ في ظُلمةِ بَطنِ الأمِّ، وظُلمةِ الرَّحِمِ، وظُلمةِ المَشيمةِ[٤] الَّتي

---

(١) قيل: المرادُ: خَلقُ النَّاسِ. وممَّن نصَّ على ذلك: ابنُ جرير، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

وقيل: المرادُ: خَلْقُ النَّاسِ والأنعامِ. وممَّن ذهب إليه: البيضاوي، والبِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٣).

وقال النيسابوري: (والمقصودُ ذِكرُ تَخليقِ الحيوانِ على الإطلاقِ بعدَ ذِكرِ تخليقِ الإنسانِ والأنعامِ، إلَّا أنَّه غَلَّب أُولِي العَقلِ؛ لِشَرَفِهم). ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٦١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٣، ١٦٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٧).

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٤٣).

(٤) قال ابن عاشور: (هي غِشاءٌ مِن جِلدٍ يُخلَقُ مع الجنينِ مُحيطًا به؛ لِيَقيَه ولِيَكونَ به استِقلالُه =

تكونُ على الجَنينِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۞ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٥، ٦].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾.

أي: ذلكم العَليُّ العَظيمُ الَّذي فَعَل كُلَّ ما تقَدَّم ذِكرُه: اللهُ المتَّصِفُ بصِفاتِ الكَمالِ، رَبُّكم الخالِقُ الرَّازِقُ المدَبِّرُ، له وَحْدَه مُلْكُ كُلِّ شَيءٍ، والمتصَرِّفُ وحْدَه في كُلِّ شَيءٍ كما يَشاءُ سُبحانَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۞ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه لا شَريكَ له، ولا تَنبغي العبادةُ لِغَيرِه[٣].

---

= مِمَّا يَنجَرُّ إليه مِن الأغذيةِ في دَورتِه الدَّمَويَّةِ الخاصَّةِ به دونَ أمِّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٦)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٩، ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير =

﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾.

أي: فمِن أيِّ جِهةٍ تَضِلُّونَ عن الحَقِّ؟! وكيف يَصرِفُكم صارِفٌ عنه بعدَ هذا البيانِ وتلك الدَّلائِلِ الوَاضِحةِ[1]؟!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ بعدَ ذِكرِ الأنواعِ الثَّلاثةِ مِن الدَّلائِلِ الفَلَكيَّةِ: أنَّ خَلْقَ هذه الأجرامِ العَظيمةِ وإن دَلَّ على كَونِه عَزيزًا -أي: كامِلَ القُدرةِ- إلَّا أنَّه غَفَّارٌ عَظيمُ الرَّحمةِ والفَضلِ والإحسانِ؛ فإنَّه لَمَّا كان الإخبارُ عن كَونِه عَظيمَ القُدرةِ يُوجِبُ الخَوفَ والرَّهبةَ، فكَونُه غَفَّارًا يُوجِبُ كَثرةَ الرَّحمةِ، وكَثرةُ الرَّحمةِ تُوجِبُ الرَّجاءَ والرَّغبةَ[2].

٢- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ في وَصفِ ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ مُناسَبةٌ لذِكرِ الأجَلِ؛ لأنَّ المَغفِرةَ يَظهَرُ أثَرُها بعدَ البَعثِ الَّذي يكونُ بعدَ الموتِ وانتِهاءِ الأجَلِ؛ تحريضًا على البِدارِ

---

= السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٩-٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٣).

بالتَّوبةِ قبْلَ الموتِ حينَ يَفوتُ التَّدارُكُ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ إثباتُ خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ، وهذه الفائدةُ يَترتَّبُ عليها: الرَّدُّ على الطَّبائِعيِّينَ والفلاسِفةِ الَّذين يَقولونَ بقِدَمِ العالَمِ، وأنَّ العالَمَ أزَليٌّ، وأنَّ هذه السَّمَواتِ ليس لها أوَّلُ، بل هي مَوجودةٌ في الأزَلِ! فهذه الآيةَ تَرُدُّ عليهم؛ لأنَّه تعالى يَقولُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: أوجَدَها بعدَ العَدَمِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ فيه إثباتُ كُرَويَّةِ الأرضِ، ومَعلومٌ أنَّ الليلَ والنَّهارَ يَتعاقَبانِ على الأرضِ؛ فإذا كان سَيرُهما تَكويرًا دلَّ على أنَّ الأرضَ كُرَويَّةٌ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ إثباتُ كمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ بتَكويرِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وقد أشار اللهُ إلى ذلك في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ * قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال ابنُ حزم: (إنَّ أحدًا مِن أئمَّةِ المُسلِمينَ المُستَحِقِّينَ لاسمِ الإمامةِ بالعِلمِ رَضِيَ اللهُ عنهم: لم يُنكِروا تكويرَ الأرضِ، ولا يُحفَظُ لأحَدٍ منهم في دَفْعِه كَلِمةٌ، بل البراهينُ مِن القُرآنِ والسُّنَّةِ قد جاءت بتكويرِها؛ قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٥]، وهذا أوضَحُ بَيانٍ في تكويرِ بَعضِها على بَعضٍ، مأخوذٌ مِن كَورِ العِمامةِ، وهو: إدارتُها، وهذا نَصٌّ على تكويرِ الأرضِ ودَوَرانِ الشَّمسِ كذلك). ((الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) (٢/ ٧٨).

إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢]، ولو اجتمعَ الخَلقُ كُلُّهم على أنْ يأتوا باللَّيلِ في مَوضعِ النَّهارِ أو بالنَّهارِ في مَوضِعِ اللَّيلِ، ما استَطاعوا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ دَليلٌ على أنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجريانِ جَريًا حِسِّيًّا مَكانيًّا؛ لأنَّ تَسخيرَ المتحرِّكِ بحَرَكتِه أظهرُ مِن تَسخيرِ الثَّابتِ الَّذي لا يَتحَرَّكُ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ سُؤالٌ: كيف عَطَف بـ «ثُمَّ» مع أنَّ خَلْقَ حوَّاءَ مِن آدَمَ سابِقٌ على خَلْقِنا منه؟!

**الجوابُ مِن أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتَّرتيبِ في الإخبارِ لا في الإيجادِ.

**الثَّاني**: أنَّ المعطوفَ مُتعَلِّقٌ بمعنى ﴿وَٰحِدَةٖ﴾، و﴿ثُمَّ﴾ عاطِفةٌ عليه لا على ﴿خَلَقَكُم﴾، فمعناه: «خلَقَكم مِن نَفْسٍ واحدةٍ أُفرِدَت بالإيجادِ، ثمَّ شُفِعَت بزَوجٍ».

**الثَّالثُ**: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿خَلَقَكُم﴾، لكِنَّ المرادَ بخَلْقِهم خَلْقُهم يومَ أخذِ الميثاقِ، لا هذا الخَلقُ الَّذي هم فيه الآنَ بالتَّوالُدِ والتَّناسُلِ؛ وذلك أنَّ اللهَ خَلَق آدَمَ عليه السَّلامُ، ثمَّ أخرَجَ أولادَه مِن ظَهرِه كالذَّرِّ، وأخَذَ عليهم الميثاقَ، ثمَّ رَدَّهم إلى ظَهْرِه[٣]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٧٤).

(٣) يُنظَر ما أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١١٩١)، وأحمد (٢٤٥٥) من حديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما. =

ثمَّ خَلَق منه حوَّاءَ[١].

**الرَّابعُ**: أنَّها للتَّرتيبِ في الأحوالِ والرُّتَبِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أنَّ أصلَ البشريةِ مِن آدمَ؛ وفيه ردٌّ على الفكرةِ الملحدةِ: أنَّ أصلَ الإنسانِ قِرْدٌ، وأنَّ النَّاسَ تطوَّروا مِن القرودِ إلى البشريَّةِ! ولا شكَّ أنَّ اعتقادَ ذلك كفرٌ؛ لأنَّه تكذيبٌ للقرآنِ، وقد بَيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالى كيف خَلَق الإنسانَ في مواضعَ مِن القرآنِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الإشارةُ إلى أنَّ تكوينَ هذه الخليقةِ مِن زَوجَينِ؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩]، فكلُّ شَيءٍ مِن الخليقةِ فلا بُدَّ لتركيبِه مِن زوجَينِ؛ كالمياهِ، والهواءِ، وغيرِهما[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ

---

= والحديث جوَّد إسنادَه وقوَّاه على شرطِ مسلمٍ ابنُ كثيرٍ في ((البداية والنهاية)) (١/ ٨٣)، وقال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ٢٨): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ)، وقال الشوكاني في ((فتح القدير)) (٢/ ٣٧٠): (إسناده لا مطعنَ فيه)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ١٥١)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (١٧٠١)، ووثَّق رجالَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٤٥٥).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٣).

واختار هذا القولَ ابنُ جرير، وقال: (وبذلك جاءَت الرِّوايةُ عن جماعةٍ مِن أصحابِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٢). واختاره أيضًا: القَصَّابُ. يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٧)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٥١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٢).

الأنعامَ مَخلوقةٌ في الأرضِ لا مُنَزَّلةٌ مِن السَّماءِ؟!

**الجوابُ مِن أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ الأنعامَ لَمَّا كانت لا تَعيشُ إلَّا بالنَّباتِ، والنَّباتُ لا يَعيشُ إلَّا بالمطَرِ، والمطَرُ مُنَزَّلٌ مِنَ السَّماءِ؛ وَصَفَها بالإنزالِ، مِن تَسميةِ المسَبَّبِ باسمِ سَبَبِ سَبَبِه.

**الثَّاني**: أنَّ مَعناه: «وقَضَى لكم»؛ لأنَّ قَضاءَه مُنَزَّلٌ مِن السَّماءِ مِن حيثُ كُتِبَ في اللَّوحِ المَحفوظِ.

**الثَّالثُ**: أنَّ المعنى «خلَقَها في الجنَّةِ، ثمَّ أنزَلَها على آدَمَ عليه السَّلامُ بعدَ إنزالِه إلى الأرضِ»[١]، فمِنَ الممكنِ نزولُ أصلِ هذا الحيوانِ؛ كنُزولِ أصلِ الإنسانِ والجنِّ[٢].

**الرَّابعُ**: أنَّ إطلاقَ الإنزالِ هنا بمعنى التَّذليلِ والتَّمكينِ.

**الخامسُ**: أن يكونَ إنزالُ الأنعامِ إنزالَها الحَقيقيَّ، أي: إنزالَ أُصولِها مِن سَفينةِ نوحٍ؛ قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]، فيكونُ الإنزالُ هو الإهباطَ، قال تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾[٣] [هود: ٤٨].

**السَّادسُ**: أنَّ الإنزالَ هنا بمعنى الخَلْقِ؛ لأنَّها أُضيفَتْ إلى أعْيانٍ، وهي الأنعامُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٦).

**السَّابعُ**: أنَّ اللهَ تعالى يُنزِلُ الماءَ مِن أصلابِ الذُّكورِ إلى بُطونِ الإناثِ، ثمَّ يُنزلُ الأجِنَّةَ مِن بطونِ الإناثِ إلى الأرضِ، ومِن المشهورِ في اللُّغةِ أنَّه يُقالُ عن ابنِ آدَمَ: أنزَل الماءَ أو المَنيَّ، فالأنعامُ يَعلو بعضُها بعضًا وهي قائمةٌ أو قاعدةٌ، وتَلِدُ وهي كذلك قائمة، فيُنزلُ اللهُ تعالى منها أولادَها، وتسميةُ ذلك إنزالًا ليس بدُونِ تسميةِ إخراجِ المَنيِّ إنزالًا، بل أبلَغُ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ إذا نَظَرْتَ هذه العِبارةَ مع العِبارةِ عن خَلقِ الإنسانِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾؛ فَهِمْتَ أنَّ الأنعامَ خُلِقَ كُلُّ ذَكَرِها وأُنثاها على انفرادِه، لا أنَّ أحدًا منها مِن صاحِبِه، وذلك أدَلُّ على إطلاقِ التَّصَرُّفِ وتَنويعِه مِمَّا لو جُعِلَ خَلْقُها مِثلَ خَلْقِ الآدَميِّ[2].

١٠- في ذِكرِ هذه الظُّلُماتِ في قَولِه تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ تَنبيهٌ على إحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى بالأشياءِ، ونُفوذِ قُدرتِه إليها في أشَدِّ ما تكونُ فيه مِن الخَفاءِ[3]، فقد ركَّب تعالى عِظامَ الإنسانِ بعضَها ببعضٍ، وكساها اللَّحمَ، وجعَل فيها العُروقَ والعصَبَ، وفتَح مجاريَ البَولِ والغائطِ، وفتَح العيونَ والآذانَ والأفواهَ، وفرَّق الأصابعَ، وشَدَّ رُؤوسَها بالأظفارِ، إلى غيرِ ذلك مِن غرائبِ صُنعِه وعجائبِه، وكلُّ هذا في تلك الظُّلُماتِ الثَّلاثِ -ظُلمةِ البطنِ، وظُلمةِ الرَّحِمِ، وظُلمةِ المَشيمةِ-، لم يَحتَجْ إلى شقِّ بطنِ أمِّه وإزالةِ تلك الظُّلُماتِ، أو أن يُسَلِّطَ عليها أشعةً كهربائيةً! العِلمُ والبصرُ نافذٌ لهذا الصُّنعِ الغريبِ العجيبِ في بطنِ أمِّه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ

---

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٤).

يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ٦]؛ ولذا لَمَّا قال: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾، قال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[1].

١١- ذِكْرُ الرُّبوبيَّةِ بعدَ الأُلوهيَّةِ في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ فيه إشارةٌ إلى التَّربيةِ الخاصَّةِ في حالِ الحَملِ، وإلى العنايةِ التَّامَّةِ؛ لأنَّ الحَملَ في بَطنِ أُمِّه لا يُمكِنُ لأحَدٍ أنْ يَصِلَ إليه، لا بِجَلبِ مَنفَعةٍ، ولا بِدَفعِ مَضَرَّةٍ، ولكِنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هو الَّذي يَتولَّى العنايةَ به[2].

## بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾

- قولُه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ ...﴾ هذه الجُملةُ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، وتَفصيلٌ لِبَعضِ أفعالِه تعالى الدَّالَّةِ على تَفرُّدِه بما ذُكِرَ مِنَ الصِّفاتِ الجَليلةِ؛ فإنَّ خَلْقَ هذه العَوالِمِ والتَّصرُّفَ فيها -على شِدَّتِها وعَظَمَتِها- يُبَيِّنُ معنى الوَحدانيَّةِ ومَعنى القَهَّاريَّةِ؛ فتكونُ جُملةُ ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] ذاتَ اتِّصالَينِ: اتِّصالٍ بجُملةِ ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا﴾ [الزمر: ٤] كاتِّصالِ التَّذييلِ، واتِّصالٍ بجُملةِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ اتِّصالَ التَّمهيدِ؛ فالقَهَّاريَّةُ المُطلَقةُ تُنافي قَبولَ الزَّوالِ المُحوِجِ إلى الولدِ، ثمَّ استدلَّ على ذلك بقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٠)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥٠٩، ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٩).

وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ يُغشي كلَّ واحدٍ منهما الآخَرَ كأنَّه يَلُفُّه عليه لَفَّ اللِّباسِ باللابِسِ، أو يُغيِّبُه به كما يُغيَّبُ الملفوفُ باللِّفافةِ، أو يَجعلُه كارًّا عليه كُرورًا مُتتابِعًا تَتابُعَ أكوارِ العِمامةِ. وقد انتُقِلَ مِنَ الاستِدلالِ باقتِضاءِ حَقيقةِ الإلَهيَّةِ نَفْيَ الشَّريكِ، إلى الاستِدلالِ بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ على أنَّه المُنفرِدُ بالخَلقِ، وأنَّه واحِدٌ لا يُشارَكُ، قَهَّارٌ لا يُغالَبُ؛ إذْ لا يَستَطيعُ شُركاؤُهم خَلْقَ العَوالِمِ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ بَيانٌ لِكَيفيَّةِ تَصرُّفِه تَعالى فيهما بَعدَ بَيانِ خَلقِهما(٢).

- واستِعمالُ التَّكويرِ هنا في قولِه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ مِن محاسِنِ البَلاغةِ؛ فالتَّكويرُ حَقيقَتُه: اللَّفُّ واللَّيُّ، ومُثِّلَتْ به هنا هَيئةُ غِشْيانِ اللَّيلِ على النَّهارِ في جُزءٍ مِن سَطحِ الأرضِ وعَكسُ ذلك على التَّعاقُبِ بهَيئةِ كَوْرِ العِمامةِ؛ إذْ تَغشى اللَّيَّةُ اللَّيَّةَ الَّتي قَبْلَها، وهو تَمثيلٌ بَديعٌ قابِلٌ لِلتَّجزِئةِ بأنْ تُشَبَّهَ الأرضُ بالرَّأسِ، ويُشَبَّهَ تَعاوُرُ اللَّيلِ والنَّهارِ عليها بلَفِّ طَيَّاتِ العِمامةِ. قيل: ومِمَّا يَزيدُه إبداعًا إيثارُ مادَّةِ التَّكويرِ الَّذي هو مُعجِزةٌ عِلْميَّةٌ مِن مُعجِزاتِ القرآنِ؛ فإنَّ مادَّةَ التَّكويرِ جائيةٌ مِن اسمِ الكُرَةِ، وهي الجسمُ المستديرُ مِن جَميعِ جِهاتِه على التَّساوي، والأرضُ كُرَويَّةُ الشَّكلِ في الواقِعِ، وذلك كان يَجهَلُه العَرَبُ وجُمهورُ البَشَرِ يَومَئِذٍ، فأوْمَأ القُرآنُ إليه بوَصفِ العَرَضَينِ اللَّذَيْنِ يَعتَريانِ الأرضَ على التَّعاقُبِ، وهُما النُّورُ والظُّلمةُ، أو اللَّيلُ والنَّهارُ؛ إذْ جَعَلَ تَعاوُرَهما تَكويرًا؛ لِأنَّ عَرَضَ الكُرةِ يَكونُ كُرَويًّا تَبَعًا لِذاتِها، فلَمَّا كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨، ٣٢٩).

سِياقُ هذه الآيةِ لِلاستِدلالِ على الإلَهيَّةِ الحقَّةِ بإنشاءِ السَّمَواتِ والأرضِ، اختيرَ لِلاستِدلالِ على ما يَتبَعُ ذلك الإنشاءَ مِن خَلْقِ العَرَضَيْنِ العَظيمَينِ لِلأرضِ مادَّةُ التَّكويرِ دُونَ غَيرِها؛ لِأنَّ تلك الآيةَ مَسوقةٌ لِلدَّلالةِ على سَعةِ التَّصرُّفِ في المَخلوقاتِ، فكان تَصويرُ ذلك بإغشاءِ اللَّيلِ والنَّهارِ خاصَّةً؛ لِأنَّه دَلَّ على قُوَّةِ التَّمكُّنِ مِن تَغييرِه أعراضَ مَخلوقاتِه؛ ولذلك اقتُصِرَ على تَغييرِ أعظَمِ عَرَضٍ -وهو النُّورُ- بتَسليطِ الظُّلمةِ عليه؛ لِتكونَ هاتِه الآيةُ لِمَن يَأتي مِنَ المُسلِمينَ الَّذين يَطَّلِعونَ على عِلْمِ الهَيئةِ؛ فتَكونَ مُعجِزةً عِندَهم[1].

- وكذلك قولُه: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ يَحتَمِلُ ثَلاثةَ أوْجُهٍ مِنَ التَّشبيهِ؛ أحَدُها: أنْ يَكونَ مِن تَشبيهِ المَحسوسِ بالمَحسوسِ، ووَجهُ الشَّبَهِ أُمورٌ، ولكنْ في حُكمٍ واحِدٍ، وهو تَشبيهُ الهَيئةِ الحاصِلةِ مِن اختِلاطِ اللَّيلِ بالنَّهارِ عِندَ طُلوعِ الفَجرَيْنِ وظُهورِ الخَيطَينِ في قَولِه: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]؛ بالهَيئةِ الحاصِلةِ مِن لَفِّ اللِّباسِ على اللَّابِسِ، بحيثُ لا يَطَّرِدُ اللِّباسُ في التَّستُّرِ. وثانيها: تَشبيهُ مَحسوسٍ بمَحسوسٍ، والوَجهُ واحِدٌ حَقيقةً؛ شَبَّهَ غِشيانَ كُلِّ واحِدٍ مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ الآخَرَ في قَولِه تعالى: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقَولِه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]، بشَيءٍ ظاهِرٍ لَفَّ ما غَيَّبَه عن مَطامِحِ الأبصارِ. وثالِثُها: يَحتمِلُ أنْ يَكونَ تَمثيلًا؛ بأنْ يُشَبَّهَ حالةُ كُرورِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ومَجيءِ أحَدِهما في أثَرِ بَعضٍ، وما يَتَّصِلُ بها مِنَ المَنافِعِ -كقَولِه: ﴿جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]- بحالةِ تَتابُعِ أكوارِ العِمامةِ بَعضِها عَقِيبَ بَعضٍ، وما يَتَّصِلُ بها مِنَ الحُسنِ؛ فإنَّها كالتِّيجانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨، ٣٢٩).

لِلعَرَبِ، وما يَحصُلُ مِنَ التَّغييرِ وتَبديلِ الأحوالِ[١].

- وأُوثِرَ التَّعبيرُ بالمُضارِعِ في هذه الجُملةِ ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ﴾؛ لِلدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك وتَكَرُّرِه، أو لِاستِحضارِ حالةِ التَّكويرِ تَبَعًا لِاستِحضارِ آثارِها؛ فإنَّ حالةَ تَكويرِ اللهِ اللَّيلَ على النَّهارِ غَيرُ مُشاهَدةٍ، وإنَّما المُشاهَدُ أثَرُها، وتَجَدُّدُ الأثَرِ يدُلُّ على تَجَدُّدِ التَّأثيرِ[٢].

- وعُطِفتْ جُملةُ ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾ على جُملةِ ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾؛ لِأنَّ ذلك التَّسخيرَ مُناسِبٌ لِتكويرِ اللَّيلِ على النَّهارِ وعَكسِه؛ فإنَّ ذلك التَّكويرَ مِن آثارِ ذلك التَّسخيرِ؛ فتلك المُناسَبةُ اقتَضَتْ عَطفَ الجُملةِ الَّتي تَضَمَّنتْه على الجُملةِ الَّتي قَبْلَها[٣].

- قولُه: ﴿كُلٌّ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ بَيانٌ لِكَيفيَّةِ تَسخيرِهما، أيْ: كُلٌّ منهما يَجري لِمُنتَهى دَورَتِه، أو مُنقَطَعِ حَرَكَتِه[٤].

- وقد جاء في آياتٍ أُخرى: ﴿كُلٌّ يَجۡرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ [لقمان: ٢٩]، بحرْفِ انتهاءِ الغايةِ (إلى)، ولامُ العِلَّةِ وحرْفُ الغايةِ مُتقارِبانِ في المعنى الأصليِّ، واختِلافُ التَّعبيرِ بهما تَفنُّنٌ في الكلامِ[٥].

- قولُه: ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، وهو في مَعنى الوَعيدِ والوَعدِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٢، ١١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٠).

فإنَّ وَصْفَ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ كِنايةٌ عن أنَّه يَفعَلُ ما يَشاءُ، لا غالِبَ له، فلا تُجْدي المُشرِكينَ عِبادةُ أوليائِهم، ووَصْفَ ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ مُؤْذِنٌ باستِدعائِهم إلى التَّوبةِ باتِّباعِ الإسلامِ. وفي افتِتاحِ الجُملةِ بحَرفِ التَّنبيهِ إيذانٌ بأهَمِّيَّةِ مَدلولِها الصَّريحِ والكِنائيِّ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ بَيانٌ لِبَعضٍ آخَرَ مِن أفعالِ اللهِ الدَّالَّةِ على ما ذُكِرَ، وانتِقالٌ إلى الاستِدلالِ بخَلقِ النَّاسِ، وهو الخَلقُ العَجيبُ، وأُدمِجَ فيه الاستِدلالُ بخَلقِ أصلِهم، وهو نَفْسٌ واحِدةٌ تَشعَّبَ منها عَدَدٌ عَظيمٌ، وبخَلقِ زَوجِ آدَمَ لِيَتقَوَّمَ ناموسُ التَّناسُلِ. والجُملةُ يجوزُ أنْ تكونَ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ الجلالةِ، ويجوزُ أنْ تكونَ استئنافًا ابتدائيًّا؛ تَكريرًا للاستدلالِ[٢].

- وتُرِكَ عَطْفُ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ...﴾ على خَلقِ السَّمَواتِ؛ لِلإيذانِ باستِقلالِه في الدَّلالةِ، ولِتَعلُّقِه بالعالَمِ السُّفليِّ. والبُداءةُ بخَلقِ الإنسانِ؛ لِعَراقَتِه في الدَّلالةِ؛ لِمَا فيه مِن تَعاجيبِ آثارِ القُدرةِ، وأسرارِ الحِكمةِ، وأصالَتِه في المَعرِفةِ؛ فإنَّ الإنسانَ بحالِ نَفْسِه أعرَفُ[٣].

- وعلى القَولِ بأنَّ الخِطابَ في قَولِه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ...﴾ لِلمُشرِكينَ؛ بدَليلِ قَولِه بَعدَه: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، فهو التِفاتٌ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣).

مِنَ الغَيبةِ إلى الخِطابِ، ونُكتَتُه: أنَّه لَمَّا أخبَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عنهم بطَريقِ الغَيبةِ، أقْبَلَ على خِطابِهم؛ لِيَجمَعَ في تَوجيهِ الاستِدلالِ إليهم بيْن طَريقَيِ التَّعريضِ والتَّصريحِ(١).

- وقدْ تَقدَّمَ نَظيرُ هذه الجُملةِ في سُورةِ (الأعرافِ)، إلَّا أنَّ في هذه الجُملةِ عُطِفَ قولُه: ﴿جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ بحرْفِ (ثُمَّ) الدَّالِّ على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ مَساقَها الاستِدلالُ على الوَحدانيَّةِ وإبطالِ الشَّريكِ بمَراتبه؛ فكان خَلْقُ آدَمَ دليلًا على عَظيمِ قُدْرتِه تعالى، وخلْقُ زَوجِه مِن نفْسِه دَليلًا آخَرَ مُستقِلَّ الدَّلالةِ على عَظيمِ قُدْرتِه. فعُطِفَ بحرْفِ (ثُمَّ) الدَّالِّ في عطْفِ الجُمَلِ على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ إشارةً إلى استِقلالِ الجُملةِ المعطوفةِ بها بالدَّلالةِ مِثلَ الجُملةِ المعطوفةِ هي عليها، فكان خلْقُ زَوجِ آدَمَ منه أدَلَّ على عَظيمِ القُدْرةِ مِن خلْقِ النَّاسِ مِن تلك النَّفْسِ الواحدةِ ومِن زَوجِها؛ لأنَّه خلْقٌ لم تَجْرِ به عادةٌ؛ فكان ذلك الخلْقُ أجلَبَ لِعَجَبِ السَّامعِ مِن خلْقِ الناسِ، فجِيءَ له بحرْفِ التَّراخي المُستعمَلِ في تَراخي المنزلةِ لا في تَراخي الزَّمنِ؛ لأنَّ زمَنَ خلْقِ زَوجِ آدَمَ سابقٌ على خلْقِ النَّاسِ. فأمَّا آيةُ (الأعرافِ) -﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]- فمَساقُها مَساقُ الامتِنانِ على النَّاسِ بنِعمةِ الإيجادِ؛ فذُكِرَ الأصْلانِ لِلنَّاسِ، مَعطوفًا أحَدُهما على الآخَرِ بحَرفِ التَّشريكِ في الحُكمِ الَّذي هو الكَونُ أصلًا لِخَلقِ النَّاسِ. وقيلَ: المَعطوفُ مُتعَلِّقٌ بمَعنى ﴿وَٰحِدَةٍ﴾؛ فـ﴿ثُمَّ﴾ عاطِفةٌ عليه، لا على ﴿خَلَقَكُم﴾، فمَعناه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أُفرِدَتْ بالإيجادِ، ثمَّ شُفِعتْ بزَوجٍ، فكانت هاهنا على بابِها؛ لِتَراخي الوُجودِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٣، ١١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧)، ((حاشية =

- وقولُه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ بَيانٌ واستِدلالٌ آخَرُ بما خَلَقَه اللهُ تعالى مِنَ الأنعامِ، عُطِفَ على الاستِدلالِ بخَلقِ الإنسانِ؛ لِأنَّ المُخاطَبينَ بالقُرآنِ يَومَئِذٍ قِوامُ حَياتِهم بالأنعامِ، ولا تَخلو الأُمَمُ يَومَئِذٍ مِنَ الحاجةِ إلى الأنعامِ، ولم تَزَلِ الحاجةُ إلى الأنعامِ حافَّةً بالبَشَرِ في قِوامِ حياتِهم، وهذا اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وبيْن ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾؛ لِمُناسَبةِ أزواجِ الأنعامِ لِزَوجِ النَّفْسِ الواحدةِ. وأُدمِجَ في هذا الاستِدلالِ امتِنانٌ بما فيها مِنَ المَنافِعِ لِلنَّاسِ؛ لِمَا دلَّ عليه قولُه: ﴿لَكُم﴾؛ لأنَّ في الأنعامِ مَوادَّ عظيمةً لِبَقاءِ الإنسانِ، وهي الَّتي في قولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥- ٧]، وقولِه: ﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾[1] [النحل: ٨٠].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ تَقديمُ الظَّرفَيْنِ ﴿لَكُم﴾ ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ على المَفعولِ الصَّريحِ ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾؛ لِلاعتِناءِ بما قُدِّمَ، والتَّشويقِ إلى ما أُخِّرَ؛ فإنَّ كَوْنَ الإنزالِ لِمَنافِعِهم وكَوْنَه مِنَ الجِهةِ العاليةِ، مِنَ الأُمورِ المُهمَّةِ المُشَوِّقةِ إلى ما أُنزِلَ لا مَحالةَ[2].

- وخَصَّها سُبحانَه بالذِّكرِ -مع أنَّه أنزَلَ لِمَصالحِ عِبادِه مِنَ البَهائِمِ غَيرَها-

---

= الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٣٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣).

لِكَثرةِ نَفعِها، وعُمومِ مَصالِحِها، ولِشَرَفِها، ولاختِصاصِها بأشياءَ لا يَصلُحُ غَيرُها؛ كالأُضحِيَّةِ، والهَدْيِ، والعَقيقةِ، ووُجوبِ الزَّكاةِ فيها، واختِصاصِها بالدِّيَةِ[١].

- وقولُه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ كَيفيَّةِ خَلقِهم وأطوارِه المُختَلِفةِ الدَّالَّةِ على القُدرةِ الباهِرةِ، واستِدلالٌ بتَطَوُّرِ خَلْقِ الإنسانِ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وحِكمَتِه ودَقائِقِ صُنعِه[٢]. وقيل: هو بَيانٌ لِكَيفيَّةِ خَلقِ ما ذُكِرَ مِنَ الأناسيِّ والأنعامِ؛ إظهارًا لِمَا فيها مِن عَجائِبِ القُدرةِ، غَيرَ أنَّه غَلَّبَ أُولِي العَقلِ، أو خَصَّهم بالخِطابِ؛ لِأنَّهمُ المَقصودونَ[٣].

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾؛ لِإفادةِ تَجدُّدِ الخَلقِ وتَدَرُّجِه وتَكَرُّرِه، مع استِحضارِ صُورةِ هذا التَّطوُّرِ العَجيبِ استِحضارًا بالوَجهِ والإجمالِ الحاصِلِ لِلأذهانِ على حَسَبِ اختِلافِ مَراتِبِ إدراكِها[٤].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إشارةٌ إليه تعالى باعتِبارِ أفعالِه المَذكورةِ، وما فيه مِن مَعْنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَتِه تعالى في العَظَمةِ والكِبرياءِ[٥]. وبَعدَ أنْ أُجرِيَ على اسمِ اللهِ تعالى مِنَ الأخبارِ والصِّفاتِ القاضيةِ بأنَّه المُتصَرِّفُ في الأكْوانِ كُلِّها: جَواهِرِها وأعراضِها، ظاهِرِها وخَفيِّها، ما يُرشِدُ العاقِلَ إلى أنَّه المُنفَرِدُ بالتَّصرُّفِ، المُستَحِقُّ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣).

العِبادةَ، المُنفَرِدُ بالإلَهيَّةِ؛ أعقَبَ ذلك باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾؛ لِلتَّنبيه على أنَّ اللهَ حَقيقٌ بما يَرِدُ بَعْدَه؛ مِن أجْلِ تلك التَّصرُّفاتِ والصِّفاتِ. والجُملةُ فَذلَكةٌ[1]، ونَتيجةٌ أنتَجَتْها الأدِلَّةُ السَّابِقةُ عليها مِن قَولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٥]؛ ولِذلك فُصِلتْ. واسمُ الإشارةِ لِتَمييزِ صاحِبِ تلك الصِّفاتِ عن غَيرِه تَمييزًا يُفْضي إلى ما يَرِدُ بَعدَ اسمِ الإشارةِ، والمَعنى: ذلكمُ الَّذي خَلَقَ وسَخَّرَ، وأنشَأَ النَّاسَ والأنعامَ، وخَلَقَ الإنسانَ أطوارًا؛ هو اللهُ؛ فلا تُشرِكوا معه غَيرَه؛ إذْ لم تَبقَ شُبهةٌ تَعذِرُ أهلَ الشِّركِ بشِركِهم[2].

- والإتيانُ باسمِه تعالى العَلَمِ في قَولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لإحضارِ المُسَمَّى في الأذهانِ باسمٍ مُختَصٍّ؛ زِيادةً في البَيانِ؛ لأنَّ حالَ المُخاطَبينَ نُزِّلَ مَنزِلةَ حالِ مَن لم يَعلَمْ أنَّ فاعِلَ تلك الأفعالِ العَظيمةِ هو اللهُ تَعالى[3].

- ووَصْفُه بالرُّبوبيَّةِ في قَولِه: ﴿رَبُّكُمْ﴾ تَذكيرٌ لهم بنِعمةِ الإيجادِ والإمدادِ، وهو معنَى الرُّبوبيَّةِ، وتَوطِئةٌ لِلتَّسجيلِ عليهم بكُفرانِ نِعمَتِه الآتي في قَولِه: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾[4] [الزمر: ٧].

---

(١) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و (الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦).

- وقولُه: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيه تَقديمُ المَجرورِ ﴿لَهُ﴾؛ لإفادةِ الحَصرِ الادِّعائيِّ[1]، أي: المُلْكُ للهِ، لا لِغَيرِه، فالإلَهيَّةُ هي المُلْكُ الحَقُّ؛ ولذلك كان ادِّعاؤُهم شُركاءَ لِلإلهِ الحَقِّ خَطَأً، فكان الحَصرُ الادِّعائيُّ لإبطالِ ادِّعاءِ المُشرِكينَ. وجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ الحَصرِ في قَولِه: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾[2].

- والاستِفهامُ في ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ مُفَرَّعٌ على ما قَبْلَه، وهو استِفهامٌ إنكاريٌّ عن انصِرافِهم عن تَوحيدِ اللهِ تعالى، ولَمَّا كان الانصِرافُ حالةً، استُفهِمَ عنها بكَلِمةِ (أَنَّى)، الَّتي هي هنا بمَعنى (كيف)[3].

- وفي قولِه: ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ جعَلَهم مَصروفينَ عن التَّوحيدِ، ولم يَذكُرْ لهم صارفًا؛ فجاءَ بالفِعلِ المَبنيِّ لِلمَجهولِ ﴿تُصْرَفُونَ﴾، ولم يَقُلْ لهم: فأنَّى تَنصَرِفونَ؛ نَعيًا عليهم بأنَّهم كالمَقودينَ إلى الكُفرِ غَيرِ المُستَقِلِّينَ بأُمورِهم، يَصرِفُهمُ الصَّارِفونَ، يَعني أئِمَّةَ الكُفرِ، أو الشَّياطينَ المُوَسوِسينَ لهم، وذلك إلْهابٌ لِأنْفُسِهم؛ لِيَكُفُّوا عن امتِثالِ أئِمَّتِهم الَّذين يَقولونَ لهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ عسَى أنْ يَنظُروا بأنْفُسِهم في دَلائِلِ الوَحدانيَّةِ المَذكورةِ لهم[4].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٦).

## الآيتان (٧-٨)

﴿ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: أي: لا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثْمَ نَفْسٍ أُخرَى، ولا تُؤخَذُ نَفْسٌ بذَنْبِ غَيرِها، والوِزْرُ: الإثمُ والثِّقْلُ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقْلِ في الشَّيءِ[1].

﴿خَوَّلَهُۥ﴾: أي: أعطاه ومَلَّكه، وأصلُ (خول): يدُلُّ على تَعهُّدِ شَيءٍ[2].

﴿أَندَادًا﴾: أي: أمثالًا، ونُظَراءَ، وشُرَكاءَ، وحَقيقةُ النِّدِّ: المِثْلُ المُناوِئُ المُخالِفُ، وأصلُه مِن قَولِهم: ندَّ: إذا نَفَر؛ ولهذا يُقالُ للضِّدِّ: نِدٌّ، ثمَّ استُعمِلَ في المِثْلِ وإن لم يكُنْ هناك مُخالَفةٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبَيِّنًا أنَّه غنيٌّ عن خَلقِه، وأنَّهم هم الفقراءُ إليه: إنْ تَكفُروا -أيُّها النَّاسُ- باللهِ تعالى، فإنَّه سُبحانَه غَنيٌّ عنكم وعن عبادتِكم إيَّاه، وهو سُبحانَه لا يَرضى لعِبادِه الكُفرَ، وإنْ تَشكُروا رَبَّكم يَرْضَ شُكْرَكم ويُثِبْكم عليه.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه كمالَ عدلِه، فيقولُ: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثمَ نَفْسٍ أُخرى؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعمَلِه، ولا يَحمِلُ ذَنْبَ غَيرِه، ثمَّ إلى ربِّكم وَحْدَه مَصيرُكم، فيُخبِرُكم يومَ القيامةِ بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن أسرارٍ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى طبيعةَ الإنسانِ في حالَتَيِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، فيقولُ: وإذا أصابَ الإنسانَ ضُرٌّ وشِدَّةٌ دعا رَبَّه لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه، ورجَعَ إليه وَحْدَه، ثمَّ إذا كشَفَ اللهُ ضُرَّه، وأعطاه نِعمةً منه، نَسِيَ الضُّرَّ الَّذي كان يَتضَرَّعُ إلى رَبِّه أن يَكشِفَه عنه مِن قَبْلُ، وجعَلَ لله شُرَكاءَ ونَظائِرَ يَعبُدُها؛ لِيُضِلَّ النَّاسَ بذلك الفِعلِ عن سَبيلِ اللهِ وعن دينِه الَّذي ارتضاه لعِبادِه!

قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهذا الإنسانِ الَّذي جعَلَ لله شُرَكاءَ في العبادةِ: تمتَّعْ بكُفرِك زَمانًا قَليلًا، إنَّك مِن أصحابِ النَّارِ المُلازِمينَ لها، والخالِدينَ فيها.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ ﴾.

﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ ﴾.

أي: إنْ تَكفُروا باللهِ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن إيمانِكم به، وعبادتِكم إيَّاه، فلا يَنفَعُه إيمانُكم وطاعتُكم، ولا يَضُرُّه كُفرُكم ومَعصيتُكم؛ فهو الغَنيُّ عن كُلِّ ما سِواه[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكۡفُرُوٓاْ أَنتُمۡ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٨].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما رَوى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عِبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رجُلٍ واحِدٍ، ما نَقَص ذلك مِن مُلْكي شَيئًا))[٢].

﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾.

أي: ولا يَرضَى اللهُ لعِبادِه أن يَكفُروا به، ولا يُحِبُّ ذلك[٣].

﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾.

أي: وإن تَشكُروا ربَّكم بالإيمانِ به وتوحيدِه وطاعتِه، يَرْضَ شُكرَكم له، ويُحِبَّه منكم، ويُثِبْكم عليه[٤].

كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٤٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٤).

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٩)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧١٩).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَرَ قَبْلَها أنَّ في المُخاطَبينَ كافِرًا وشاكِرًا، وهم في بَلَدٍ واحِدٍ، بَيْنَهم وشائِجُ القَرابةِ والوَلاءِ؛ فرُبَّما تَحرَّجَ المُؤمِنونَ مِن أنْ يَمَسَّهم إثْمٌ مِن جَرَّاءِ كُفرِ أقرِبائِهم وأوليائِهم، أو أنَّهم خَشُوا أنْ يُصيبَ اللهُ الكافِرينَ بعَذابٍ في الدُّنيا، فيَلحَقَ منه القاطِنينَ معهم بمَكَّةَ؛ فأنْبَأهمُ اللهُ بأنَّ كُفرَ أولئك لا يَنقُصُ إيمانَ هؤلاء، وأرادَ اطمِئنانَهم على أنْفُسِهم[1].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

أي: ولا تَحمِلُ نَفْسٌ آثمةٌ[2] إثمَ نَفْسٍ غَيرِها؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعَمَلِه، ولا يَحمِلُ ذَنْبَ غَيرِه[3].

كما قال تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٠، ٣٤١).

(٢) قال ابن عاشور: (وتأنيثُ ﴿وَازِرَةٌ﴾ و﴿أُخْرَىٰ﴾ باعتِبارِ إرادةِ معنَى النَّفْسِ في قولِه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]. والمعنَى: لا تحمِلُ نفْسٌ وِزرَ نفْسٍ أخرَى، أي: لا تُغْني نفْسٌ عن نفْسٍ شيئًا مِن إثمِها، فلا تَطمَعُ نفْسٌ بإعانةِ ذَويها وأقربائِها، وكذلك لا تَخشى نفْسٌ صالحةٌ أنْ تُؤاخَذَ بتَبِعةِ نفْسٍ أُخرى مِن ذَويها أو قرابتِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤١).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الوازرةَ هنا تَشملُ الوازرةَ حُكمًا -وهي الَّتي يمكِنُ أن تتحمَّلَ الإثمَ وإن لم تعمَلْه، وهي النَّفْسُ المكلَّفةُ- والوازرةَ فعلًا، وهي الَّتي فعَلَتِ الإثمَ حقيقةً. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٩، ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٩، ٧٠).

وعن عمرِو بنِ الأحوَصِ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ في حجَّةِ الوَداعِ: ((ألا لا يجني جانٍ إلَّا على نفسِه[١]، لا يجني والدٌ على ولدِه، ولا مولودٌ على والدِه))[٢].

وعن أبي رِمْثةَ رضي الله عنه، قال: ((انطلقتُ مع أبي نحوَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ إنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال لأبي: ابنُكَ هذا؟ قال: إي ورَبِّ الكعبةِ،... ثمَّ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: أما إنَّه لا يَجني عليكَ ولا تَجني عليه[٣]. وقرَأ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾...))[٤].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

---

(١) الجناية: الذَّنْبُ والجُرْمُ وما يفعلُه الإنسانُ ممَّا يُوجِبُ عليه العذابَ أو القِصاصَ في الدُّنيا والآخرةِ. والمعنَى: أنَّه لا يُطالَبُ بجنايةِ غيرِه مِن أقاربِه وأباعِدِه، فإذا جنَى أحدُهما جِنايةً لا يُعاقَبُ بها الآخَرُ، كقولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. ينظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٨٧) مطولًا، وابن ماجه (٢٦٦٩)، وأحمد (١٦٠٦٤).

قال الترمذي: (حسن صحيح)، وصحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ١٧٩)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٦٦٩)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦٠٦٤)، وحسَّن إسناده ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٦٦٣).

(٣) أي: إنْ جَنَى لم تُؤْخَذْ بجنايتِه، وإنْ جَنيْتَ لم يُؤخَذْ بجنايتِك. يُنظر: ((المسائل والأجوبة)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٤٩٥) واللفظ له، وأحمد (٧١٠٩)، وابن حبان في ((صحيحه)) (٥٩٩٥) وأخرجه النسائي (٤٨٣٢) مختصرًا.

صحَّحه ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٥/ ٢٣)، وابن دقيق العيد في ((الاقتراح)) (١١٧)، وابن الملقن في ((البدر المنير)) (٨/ ٤٧٣)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٤٩٥)، وصحَّح إسنادَه: الحاكم في ((المستدرك)) (٣٥٩٠)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٢/ ٧٥)، وشعيب الأرناؤوط -على شرط مسلم- في تخريج ((مسند أحمد)) (٧١٠٩).

أي: ثمَّ إلى ربِّكم وَحْدَه مَصيرُكم بعدَ مَوتِكم، فيُخبِرُكم يومَ القيامةِ بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ(١).

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُضمِرُه صُدورُ العبادِ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك(٢).

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن فَسادَ القَولِ بالشِّركِ، وبَيَّن أنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يجِبُ أن يُعبَدَ؛ بَيَّن في هذه الآيةِ أنَّ طَريقةَ هؤلاء الكُفَّارِ الَّذين يَعبُدونَ الأصنامَ: مُتناقِضةٌ؛ وذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠).

قال ابن عاشور: (وذاتُ: صاحبةُ، مؤنَّث «ذو» بمعنى صاحبٍ، صِفةٌ لِمَحذوفٍ تقديرُه الأعمالُ، أي: بالأعمالِ صاحبةِ الصُّدورِ، أي: المُستقِرَّةِ في النَّوايا، فعَبَّر بالصُّدورِ عما يَحلُّ بها، والصُّدورُ مُرادٌ بها القلوبُ المُعَبَّرُ بها عمَّا به الإدراكُ والعزمُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٢).

وقال ابنُ القَيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليس المرادُ به عليمًا بمُجَرَّدِ الصُّدورِ؛ فإنَّ هذا ليس فيه كَبيرُ أمرٍ، وهو بمنزلةِ أن يُقالَ: عَليمٌ بالرُّؤوسِ والظُّهورِ والأيدي والأرجُلِ، وإنَّما المرادُ به: عليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، أي: بالأسرارِ الَّتي في الصُّدورِ، وصاحِبةِ الصُّدورِ؛ فأضافها إليها بلَفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصُّدورِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٨٤).

لأنَّهم إذا مَسَّهم نَوعٌ مِن أنواعِ الضُّرِّ لم يَرجِعوا في طَلَبِ دَفعِه إلَّا إلى الله، وإذا زال ذلك الضُّرُّ عنهم رجَعوا إلى عبادةِ الأصنامِ! ومعلومٌ أنَّهم إنَّما رَجَعوا إلى اللهِ تعالى عندَ حُصولِ الضُّرِّ؛ لأنَّه هو القادِرُ على إيصالِ الخَيرِ ودَفعِ الضُّرِّ، وإذا عَرَفوا أنَّ الأمرَ كذلك في بَعضِ الأحوالِ كان الواجِبُ عليهم أن يَعتَرِفوا به في كُلِّ الأحوالِ؛ فثَبَت أنَّ طَريقتَهم في هذا البابِ مُتناقِضةٌ[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سُبحانَه أنَّه المُختَصُّ بالمُلْكِ وَحْدَه، وأتْبَعَه بما يُرضيه وما يُسخِطُه؛ أقام الدَّليلَ على ذلك الاختِصاصِ -مع أنَّه أوضَحُ مِن الشَّمسِ- بدَليلٍ وِجدانيٍّ لكُلِّ أحَدٍ، على وجْهٍ ذمَّهم فيه بالتَّناقُضِ الَّذي هم أعظَمُ النَّاسِ ذَمًّا له، ونُفرةً منه، وذَمًّا به، فقال[2]:

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾.

أي: وإذا أصاب الإنسانَ[3] كَربٌ وشِدَّةٌ دعا رَبَّه؛ لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه، راجِعًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٢).

(٣) قيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: الكافِرُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عطية، والرسعني، والقرطبي، وابن عادل، وجلال الدين المحلي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٤٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٠، ١٧١).

قال ابن عاشور: (المرادُ بالإنسانِ كلُّ مُشركٍ، فالتَّعريفُ تعريفُ الجنسِ، والمرادُ جماعةٌ مِن النَّاسِ وهم أهلُ الشِّركِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥).

وقيلَ: المرادُ بالإنسانِ أقوامٌ مُعَيَّنونَ، مِثلُ عُتْبَةَ بنِ ربيعةَ وغيرِه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٧).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: المؤمِنُ والكافِرُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٢).

إليه وَحْدَه، مُعرِضًا عمَّا سِواه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ثمَّ إذا منَحَه اللهُ نِعمةً مِنه نَسِيَ الضُّرَّ الَّذي كان يَتضَرَّعُ إلى رَبِّه أن يَكشِفَه عنه، واستمَرَّ على شِركِه[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٠، ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٢، ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧١، ١٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٧٠) و (٢٢/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٣).

وممَّن قال بأنَّ النِّسيانَ يعودُ على الضُّرِّ، أي: نَسِيَ ما مَسَّه مِن ضُرٍّ كان يَدْعو اللهَ لدَفْعِه عنه: الرسعنيُّ، وابنُ تيميَّة، والبِقاعي، والعُلَيمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٧٠) و(٢٢/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٣).

وقيل: النِّسيانُ يعودُ على الدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ لِرَبِّه لكَشفِ الضُّرِّ عنه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابن كثير. وجوَّزه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، (تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٣).

وقيل: المعنى: نَسِيَ اللهَ تعالى الَّذي دعاه وتضَرَّع إليه. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس: ١٢].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿لِيَضِلَّ﴾ على معنى: أنَّه يَضِلُّ بنَفْسِه[١].

٢- قِراءةُ: ﴿لِّيُضِلَّ﴾ على معنى: أنَّه يُضِلُّ غَيرَه[٢].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

أي: وجعَلَ شُرَكاءَ للهِ مِن الأصنامِ أو غَيرِها، فيَعبُدُهم؛ ليُضِلَّ غَيرَه عن طريقِ اللهِ، الموصِلِ إليه وإلى رِضوانِه[٣].

---

(١) قرأ بها: ابنُ كثير، وأبو عَمرٍو، ورُوَيسٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).
واختُلِف عن رُوَيسٍ؛ فروى التَّمَّارُ مِن كلِّ طُرُقِه إلَّا طريقَ أبي الطَّيِّبِ بفتحِ الياءِ، ومِن طريقِ أبي الطَّيِّبِ بضَمِّ الياءِ. يُنظر: ((المصدر السابق)).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦١٩).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٠). ويُنظر أيضًا: ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٣٨٣).
قال ابن عثيمين: (وهاتانِ القِراءتانِ كِلْتاهما صحيحةٌ، وكلُّ واحدةٍ تُفيدُ معنًى يُكملُ معنَى الأخرى؛ فهو يَضِلُّ بنفْسِه، ويُضِلُّ غيرَه أيضًا... فمجموعُ القِراءتَينِ فيهما فائدةٌ لا تحصُلُ بانفرادِ إحداهما). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٤-٨٧).
قال السعدي: (﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ أي: لِيَضِلَّ بنفْسِه، ويُضِلَّ غيرَه؛ لأنَّ الإضلالَ فرعٌ عن الضَّلالِ، فأتى بالملزومِ لِيَدُلَّ على اللَّازِمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠). =

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى عنهم هذا الفِعلَ المُتناقِضَ؛ هَدَّدَهم، فقال[1]:

﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهذا الإنسانِ الَّذي تلك حالُه وطريقتُه: عِشْ مُتمَتِّعًا بكُفرِك يَسيرًا مُدَّةَ حياتِك الفانيةِ، إنَّك في الآخرةِ مِن أهلِ النَّارِ المُلازِمينَ لها أبدًا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ مَوعِظةٌ عَظيمةٌ في أن يَعلَمَ الإنسانُ أنَّ حَرَكاتِه في الدُّنيا وسَكَناتِه؛ أنَّ ما فيها مِن نَفعٍ فهو عائِدٌ إلى خُصوصِ نَفْسِه، وما فيها مِن ضُرٍّ فهو عائِدٌ إلى خُصوصِ نَفْسِه؛ فلْيَجتهِدِ الإنسانُ وَقتَ إمكانِ الفُرصةِ أن يُسلِّمَ نَفْسَه مِن البَلايا، وأن يَكسِبَها الخَيراتِ؛ فحَرَكاتُ الإنسانِ في دارِ الدُّنيا إنَّما يَبني بها بَيتَه الَّذي إليه مَصيرُه الأخيرُ، وهو إمَّا غُرفةٌ مِن غُرَفِ الجنَّةِ، أو سِجنٌ مِن سُجونِ النَّارِ؛ فعلى كُلِّ مُكَلَّفٍ أن يَتأمَّلَ في نورِ القُرآنِ في الحياةِ الدُّنيا، في صِحَّتِه وفراغِه، ويَعلَمَ أنَّ حَرَكاتِه مِن أقوالِه، وأفعالِه،

---

= وقال ابن عاشور: (وقَرَأ الجمهورُ ﴿لِّيُضِلَّ﴾ بضمِّ الياءِ، أيْ: لِيُضِلَّ النَّاسَ بعدَ أنْ أضلَّ نفْسَه؛ إذْ لا يُضِلُّ النَّاسَ إلَّا ضالٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤، ٣٤٥).

ونِيَّاتِه، وقُصودِه: إنَّما يَبني بها مَقَرَّه الأخيرَ النِّهائيَّ: إمَّا غُرفةٌ مِن غُرَفِ الجنَّةِ، وإمَّا سِجنٌ مِن سُجونِ النَّارِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ أنَّ المرجِعَ إلى اللهِ يومَ القيامةِ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: وُجوبُ الاستعدادِ لهذا اللِّقاءِ وهذا المرجِعِ، والاستِعدادُ له يكون بتركِ المعاصي وفِعلِ الطَّاعاتِ، فما دام المرجِعُ إلى اللهِ فلا يمكنُ أن تَرجِعَ إلى غيرِه؛ ومهما كان فإنَّ مَرجِعَكم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فهو منه المُبتدَأُ، وإليه المُنتهَى(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إنَّما ذَكَر اللهُ هذه الجُملةَ بعدَ قَولِه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ الحِسابَ يَكونُ على ما في القَلبِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٨، ٩]، فالمدارُ يومَ القيامةِ على ما في القَلبِ، أمَّا في الدُّنيا فالمدارُ على الأعمالِ الظَّاهِرةِ؛ ولهذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعامِلُ المُنافِقينَ مُعاملةَ المُسلِمينَ؛ لأنَّهم كانوا يَتظاهَرونَ بالإسلامِ، ونحن نحاسِبُ النَّاسَ في الدُّنيا على ما يَظهَرُ مِن أعمالِهم، ونَكِلُ سرائِرَهم إلى الله، أمَّا في الآخرةِ فإنَّ الحِسابَ على ما في القَلبِ؛ ولهذا يجِبُ على الإنسانِ أن يَعتنيَ بصَلاحِ قَلبِه قبْلَ صلاحِ جِسمِه؛ لأنَّ صَلاحَ الجِسمِ واجِهةٌ أمامَ الخَلقِ، لكِنْ صَلاحُ القَلبِ هو الَّذي يكونُ بيْنَ الإنسانِ وبيْنَ رَبِّه عزَّ وجَلَّ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ تَقريعٌ لِمَن يُهمِلُ الدُّعاءَ في الرَّخاءِ، ويَفزَعُ

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٤).

إليه في الشِّدَّةِ، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وليس ذلك مِن أخلاقِ المؤمنينَ؛ إذ مِن أخلاقِهم إكثارُ الدُّعاءِ في الرَّخاءِ عُدَّةً للشِّدَّةِ؛ فقد ورَد أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لابنِ عبَّاسٍ: ((تَعَرَّفْ إلى اللهِ في الرَّخاءِ، يَعرِفْك في الشِّدَّةِ))[1]؛ فلا ينبغي للمُؤمنِ أن يَستَنَّ بالكافرِ ولا يَفزَعَ إلى الدُّعاءِ إلَّا عندَ الشَّدائدِ[2]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أنَّه كما يكونُ الاقتداءُ بالقولِ يكونُ الاقتداءُ بالفعلِ؛ لأنَّ هذا الكافرَ جَعَل لله أندادًا؛ وكان جعلُه للأندادِ سببًا لضلالِ غيرِه، لذا قال: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، ولم يَقُلْ: ودعا النَّاسَ ليَضِلُّوا عن سبيلِ اللهِ! بل جَعَل فِعلَه سببًا لضلالِ النَّاسِ، ويَتفرَّعُ على هذا فائدةٌ، وهي: تحذيرُ الإنسانِ -ولا سيَّما القدوةُ- مِن المُخالَفةِ؛ لأنَّ النَّاسَ سوف يَقتدونَ به، ويَحتجُّون بفِعلِه[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾

---

(١) أخرجه مِن طُرقٍ: أحمدُ (٢٨٠٣) باختلافٍ يسيرٍ، والطبرانيُّ (١١/ ٢٢٣) (١١٥٦٠)، والحاكمُ (٦٣٠٣) واللفظ لهما من حديث عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما.

صَحَّحه عبدُ الحَقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، والقرطبي في ((التفسير)) (٨/ ٣٣٥)، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٩٦١)، وشُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨٠٣)، وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (١/ ٣٢٧)، والسخاوي في ((المقاصد الحسنة)) (١٨٨). وحسَّن إسنادَه الصَّنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٤/ ٢٦٧)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩٤).

إخبارٌ عن عدَم محبَّتِه سبحانه لهذا الأمرِ، وعدَمِ رِضاهُ به بعدَ وُقوعِه؛ فهذا صريحٌ في إبطالِ قَولِ مَن تأوَّلَ هذا النصَّ وغيرَه على أنَّه لا يُحِبُّه ممَّن لم يقَعْ منه، ويُحِبُّه إذا وقَعَ، وهذا مِن أعظَمِ الباطلِ والكَذِبِ على الله، بل هو سُبحانَه يَكرَهُه ويُبغِضُه قبْلَ وُقوعِه، وحالَ وقوعِه، وبعدَ وُقوعِه؛ فإنَّه من القبائحِ والخبائثِ، واللهُ مُنَزَّهٌ عن مَحبَّةِ القَبيحِ والخَبيثِ، بل هو أَكْرَهُ شَيءٍ إليه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾، فالله تعالى يكرهُ بعضَ الأعيانِ والأفعالِ والصِّفاتِ، وإنْ كانت واقعةً بمشيئتِه، فهو يبغِضُها ويمقُتُها كما يُبغضُ ذاتَ إبليسَ وذواتَ جنودِه، ويبغضُ أعمالَهم، ولا يحِبُّ ذلك، وإنْ وُجِد بمشيئتِه[1] [الإسراء: ٣٨].

٢- أنَّه لا تَلازُمَ بيْنَ الرِّضا والإرادةِ؛ وَجْهُه: أنَّه تعالى قال: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ مع أنَّه أخبَرَ في آياتٍ كثيرةٍ أنَّ الكُفرَ واقِعٌ بإرادتِه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، فإذا جمَعْنا بيْن هذا وهذا عرَفْنا بأنَّه لا تَلازُمَ بيْن الرِّضا والإرادةِ؛ فقد يُريدُ ما لا يَرضاه، وقد يَرضى ما لا يُريدُه؛ فهو -مثلًا- يَرضى مِن كلِّ واحدٍ مِن النَّاسِ أن يَشكُرَ للهِ، لكنَّه ما أراد ذلك[2]، وفي ذلك تكذيبٌ لِدعوى الكُفَّارِ: «أنَّه لَمَّا كان كُفرُهم وعِصيانُهم بمَشيئةِ اللهِ، وأنَّه لو شاء لَمَنَعَهم مِن ذلك؛ فعَدَمُ مَنعِه لهم دليلٌ على رضاه بفِعلِهم!». فالكُفَّارُ زَعَموا أنَّ الإرادةَ الكَونيَّةَ يَلزَمُها الرِّضا، وهو زَعمٌ باطِلٌ، بل اللهُ يريدُ بإرادتِه الكَونيَّةِ ما لا يَرضاه، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧] مع قَولِه: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾، والَّذي يُلازِمُ الرِّضا حقًّا إنَّما هو الإرادةُ الشَّرعيَّةُ[3].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٩٨).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ الآيةَ دَلَّت على أنَّه لا يَحمِلُ أحَدٌ وِزرَ غَيرِه، فما الجَمعُ مع قَولِه تعالى: ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]؛ حيث تدُلُّ هذه الآيةُ الكريمةُ على أنَّ هؤلاء الضَّالِّينَ يَحمِلونَ أوزارَهم كامِلةً، ويَحمِلونَ أيضًا مِن أوزارِ الأتْباعِ الَّذين أضَلُّوهم؟

**الجوابُ**: أنَّ هؤلاء الضَّالِّينَ ما حَمَلوا إلَّا أوزارَ أنفُسِهم؛ لأنَّهم تحَمَّلوا وِزرَ الضَّلالِ ووِزرَ الإضلالِ؛ ((ومَن سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سَيِّئةً كان عليه وِزرُها ووِزرُ مَن عَمِلَ بها مِن بَعدِه، مِن غَيْرِ أن يَنقُصَ مِن أوزارِهم شَيءٌ))[1]؛ لأنَّ تشريعَه السَّيِّئةَ لِغَيرِه ذنْبٌ مِن ذُنوبِه؛ فأُخِذَ به، وبهذا يَزولُ الإشكالُ أيضًا في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[2] [العنكبوت: ١٣].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٣٢).

قال الشنقيطي: (في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ سؤالٌ: أنَّ اللهَ نَصَّ فيه أنَّه لا يُؤاخِذُ أحَدًا بِفِعلِ أحَدٍ آخَرَ، وقد جاءت مسألتانِ وَقَعَت فيهما المؤاخَذةُ بفِعلِ الغَيرِ؛ الأُولى: تحمُّلُ العاقِلةِ للدِّيَةِ... الثَّانيةُ: ما ثبَتَ في الصَّحيحِ عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما أنَّه قال: «إنَّ الميِّتَ لَيُعَذَّبُ ببُكاءِ أهلِه عليه». [البخاري «١٣٠٤» - مسلم «٩٢٨»]، وهذا كأنَّه عُذِّبَ بفِعلِ غَيرِه!

الجوابُ: أجاب العُلماءُ عن هذا بأجوبةٍ، فقالوا: أمَّا العاقِلةُ فإنَّ الإنسانَ القاتِلَ خَطأً لا ذنبَ عليه؛ لأنَّه لا يَقصِدُ شَيئًا، ولا مُؤاخَذةَ عليه عندَ الله إجماعًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥]، ويقولُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا﴾ [النساء: ٩٢]، والكَفَّارةُ الَّتي وَجَبَت عليه قال بَعضُ العُلماءِ: إنَّما هي مُؤاخَذةٌ لعَدَمِ شِدَّةِ التَّحفُّظِ والتَّحرُّزِ أوَّلًا، والتَّسبُّبِ في عدَمِ وُقوعِ الخطأِ، أمَّا بعدَ وُقوعِ الخطَأِ فلا إثمَ فيه قطعًا. قالوا: هذا رجُلٌ مُسلِمٌ لَزِمَتْه دِيَةٌ، وهو لم يَقصِدْ سُوءًا، ولم يَقصِدْ بها ذَنْبًا ولا جريمةً، فالله جَلَّ وعلا أمَرَ عاقِلَتَه مِن أهلِ ديوانِه -ممَّن يقولُ بالدِّيوانِ- أو مِن عَصَبتِه -ممَّن =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَحمِلُ آثامَ غَيرِه، ويَنبني على هذه الفائدةِ: ثبوتُ كمالِ عَدلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيث لا يَحمِلُ أحدٌ وِزرَ أحَدٍ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه بيانُ شُمولِ عِلْمِ اللهِ تعالى، فقولُه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بالَّذي كنتُم تَعمَلونَ كلِّه؛ صَغيرِه وكَبيرِه، والخِطابُ لجَميعِ النَّاسِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الإشارةُ إلى أنَّ القلبَ هو الَّذي عليه مَدارُ الصَّلاحِ؛ لأنَّه إذا كان الحسابُ على ما في القلبِ فيكونُ مدارُ الصلاحِ عليه، ويؤيِّدُه قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألَا وإنَّ في الجسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَح الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدتْ فَسَد الجسدُ كلُّه؛ ألَا وهي

---

= يَقصُرُها على العَصَبةِ-؛ أمَرَهم أن يُساعِدوه، وخالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ يُدَبِّرُ على البَعضِ مِن البَعضِ، ويأمُرُ البَعضَ بمُساعدةِ البَعضِ؛ إكرامًا وجريًا على مكارِمِ الأخلاقِ، كما أمَرَ بأن تُؤخَذَ الزَّكاةُ مِن أغنيائِنا وتُرَدَّ على فُقَرائِنا، فهذه إعانةٌ مَحضٌ، ومكارِمُ أخلاقٍ جاء القرآنُ بها؛ مُعاوَنةً لذلك الإنسانِ، كما أوجَبَ الزَّكاةَ مُساعدةً للفَقيرِ، وما جرى مجرى ذلك.

أمَّا حديثُ ابنِ عُمَرَ فلِلعُلماءِ عنه أجوبةٌ كثيرةٌ؛ منها: أنَّهم حَمَلوه على الميِّتِ الَّذي أوصاهم أن يَبكُوا عليه، أو: عَرَفَ أنَّه إذا مات يَبكُون عليه ولم يَنْهَهم...[فالأوَّلُ:] لأنَّه أمَرَ بها في الدُّنيا وهو مِن فِعْلِه، ...[والثَّاني: لأنَّه] عَلِم أنَّه إذا مات يَفعَلونَه ولم يَنْهَهم؛ فهو مُتسَبِّبٌ بعَدَمِ نَهْيِهم. وقال بعضُ العُلَماءِ: تَعذيبُه ببُكاءِ أهلِه: أنَّ أهلَه إذا بَكَوا عليه: أنَّ اللهَ يُطلِعُه على ذلك، ويأسَفُ ويَحزَنُ مِن حُزنِ أهْلِه، إلى غيرِ ذلك مِن الأقوالِ، وأظهَرُها الأوَّلُ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٦٣٢-٦٣٤).

واختار ابنُ عُثيمين أنَّ المرادَ بالعَذابِ في هذا الحديثِ: التَّألُّمُ النَّفْسيُّ، لا العذابُ البَدَنيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير سورة فاطر)) لابن عثيمين (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨٠).

القلبُ))[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾ أنَّ عبادةَ الضَّرورةِ لا تنفَعُ غالبًا، أي أنَّ الإنسانَ إذا عَرَف ربَّه عندَ الضَّرورةِ فقطْ فالغالبُ أنَّه لا يَنتفِعُ بهذه العبادةِ؛ لأنَّها ليست عبادةً عن رغبةٍ، ولكنَّها عبادةٌ مِن أجْلِ إنجاءِ الإنسانِ مِن الهَلَكَةِ، وإنْ كان أحيانًا يَنتفِعُ، فرُبَّما يكونُ هذا سببًا لفَتْحِ اللهِ عليه، كما يُوجَدُ الآنَ مِن النَّاسِ مثلًا مَن يُصابُ بمرضٍ شديدٍ، ويَخافُ منه الهلاكَ؛ فيُنيبُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ويدعو اللهَ سُبحانَه وتعالى؛ ثم يَمُنُّ اللهُ عليه بالاستمرارِ، لكنَّ الغالبَ أنَّ التَّعَبُّدَ ضرورةً لا يُفيدُ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾ أنَّ الكافِرَ يُؤمِنُ برُبوبيَّةِ اللهِ، وأنَّ إيمانَه هذا باللهِ لا يُخرِجُه مِن الكُفرِ؛ فالإيمانُ باللهِ وبرُبوبيَّتِه لا يكفي، ولا يُخرِجُ الإنسانَ مِن الكُفرِ، ودليلُ ذلك: أنَّ المُشرِكينَ الَّذين بُعِثَ فيهم رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كانوا يُقِرُّون باللهِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، يعني: يُقِرُّونَ بأنَّ الَّذي خَلَقَهم هو اللهُ، ويَصِفُونه بالصِّفاتِ الكاملةِ، ومع ذلك فهم كفَّارٌ استباحَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم دماءَهم ونِساءَهم وأموالَهم وذُرِّيَّتَهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٨١).

والحديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ﴾ التَّعبيرُ بـ «خوَّل»، وفيه أنَّ عَطاءَه سُبحانَه ابتِداءً فَضلٌ منه، لا يَستَحِقُّ أحَدٌ عليه شيئًا؛ لأنَّ التَّخويلَ لا يكونُ جَزاءً، بل ابتِداءً[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُجيبُ دعوةَ المُضْطَرِّ ولو كان كافرًا[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا نِدَّ له؛ لأنَّ اللهَ أنْكَر على مَن جَعَلوا له أندادًا؛ فيكونُ في هذا رَدٌّ على أهلِ التَّمثيلِ الَّذين أَثْبَتوا للهِ الصِّفاتِ مع التَّمثيلِ؛ فقالوا: إنَّ اللهَ تعالى له وجْهٌ كوُجوهِنا! ويَدٌ كأيدينا! وعينٌ كأعيُنِنا! وساقٌ كسُوقِنا! وهكذا[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا﴾ إشارةٌ إلى قِلَّةِ زَمَنِ الدُّنيا وما فيها في جَنبِ الآخِرةِ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ أنَّهم لا يُفارِقونَها؛ فإنَّ الصُّحبةَ تُشعِرُ بالمُلازَمةِ، فأصحابُ النَّارِ: المُخَلَّدونَ فيها[٥].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٥).

تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

- قولُه: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡ ﴾ أُتْبِعَ إنكارُ انصِرافِهم عن تَوحيدِ اللهِ بَعدَ ما ظَهَر على ثُبوتِه مِنَ الأدِلَّةِ، بأنْ أُعلِموا بأنَّ كُفرَهم إنْ أصَرُّوا عليه لا يَضُرُّ اللهَ، وإنَّما يَضُرُّ أنْفُسَهم، وهذا شُروعٌ في الإنذارِ والتَّهديدِ لِلكافِرينَ، ومُقابَلَتِه بالتَّرغيبِ والبِشارةِ لِلمُؤمِنينَ؛ فالجُملةُ مُستَأنَفةٌ واقِعةٌ مَوقِعَ النَّتيجةِ لِمَا سَبَقَ مِن إثباتِ تَوحيدِ اللهِ بالإلَهيَّةِ؛ فجُملةُ ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ ﴾ مُبيِّنةٌ لِإنكارِ انصِرافِهم عنِ التَّوحيدِ، أيْ: إنْ كَفَرتُم بَعدَ هذا الزَّمَنِ، فاعلَموا أنَّ اللهَ غَنيٌّ عنكم، ومَعناه: غَنيٌّ عن إقرارِكم له بالوَحدانيَّةِ، أيْ: غَيرُ مُفتَقِرٍ له، وهذا كِنايةٌ عن كَونِ طَلَبِ التَّوحيدِ منهم لِنَفعِهم، ودَفْعِ الضُّرِّ عنهم، لا لِنَفعِ اللهِ، ولتَذكيرِهم بهذا، والخَبرُ مُستَعمَلٌ كِنايةً في تَنبيه المُخاطَبِ على الخَطَأِ مِن فِعلِه[1].

- قولُه: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ جُملةٌ مُستَطرَدةٌ كالتَّتميمِ لِلشَّرطِ الأوَّلِ، تَعريضًا بهم وبكُفرِهم، وهو مع الشَّرطِ كالمُقابِلِ لِلشَّرطِ الثَّاني، والمَعنى: أنَّهم ليسوا مِن جُملةِ عِبادِه المُرتَضَيْنَ، بلْ هم مِنَ الَّذين سَخِطَ اللهُ عليهم[2]. أو اعتِراضٌ بيْنَ الشَّرطَينِ؛ لِقَصدِ الاحتِراسِ مِن أنْ يَتوهَّمَ السَّامِعونَ أنَّ اللهَ لا يَكتَرِثُ بكُفرِهم ولا يَعبَأُ به، فيَتَوهَّموا أنَّه والشُّكرَ سَواءٌ عِندَه؛ لِيَتأكَّدَ بذلك مَعنى استِعمالِ الخَبَرِ في تَنبيه المُخاطَبِ على الخَطَأِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٣٧).

قولُه: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَ﴾ قال: ﴿لِعِبَادِهِ﴾، ولم يَقُل: «مِن عبادِه»، أو: «عن عِبادِه»؛ لأنَّ اللَّامَ أبلَغُ في كَونِ هذا الشَّيءِ لا يليقُ بهم[١].

- قَولُه: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ فيه تَعريضٌ بالمُتارَكةِ، وقَطْعِ اللَّجاجِ مع المُشرِكينَ، وأنَّ قُصارَى المُؤمِنينَ أنْ يُرشِدوا الضُّلَّالَ، لا أنْ يُلجِئوهم إلى الإيمانِ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ لِلتَّرتيبَينِ: الرُّتبيِّ والتَّراخي، أيْ: وأعظَمُ مِن كَونِ اللهِ غَنيًّا عنكم أنَّه أعَدَّ لكمُ الجَزاءَ على كُفرِكم، وسَترجِعونَ إليه[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُه في آخِرِ سُورةِ (الأنعام)، وإنَّما جاءَ في آيةِ (الأنعام): ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤]؛ لِأنَّها وَقَعَتْ إثْرَ آياتٍ كَثيرةٍ تَضَمَّنتْ الاختِلافَ بيْنَ أحوالِ المُؤمِنينَ وأحوالِ المُشرِكينَ، ولم يَجِئْ مِثلُ ذلك هنا؛ فلذلك قيلَ هنا: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾، أيْ: مِن كُفرِ مَن كَفَر، وشُكرِ مَن شَكَر[٤].

- وقولُه: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ فيه تَعريضٌ بالوَعدِ والوَعيدِ[٥]؛ ففيها تهديدٌ للعاصي، وبِشارةٌ للمُطيعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٠، ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٦).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تَعليلٌ لِجُملةِ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لِأنَّ العَليمَ بذاتِ الصُّدورِ لا يُغادِرُ شَيئًا إلَّا عَلِمَه، فإذا أنبَأ بأعمالِهم كان إنباؤُه كامِلًا(١).

- وقيل: إنَّ قولَه: (يُنَبِّئُكُمْ) فيه إشارةٌ إلى اللُّطفِ والإحسانِ، حيثُ لم يقُلْ: يُؤاخِذُكم؛ لأنَّه ثبَتَ في الصَّحيحِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يُدْني المؤمنَ فيَضَعُ عليه كَنَفَه(٢) ويَسترُه، فيقولُ: أتَعرِفُ ذنْبَ كذا؟ أتَعرِفُ ذنْبَ كذا؟ فيقولُ: نعمْ، أيْ رَبِّ. حتَّى إذا قَرَّره بذُنوبِه ورَأَى في نفْسِه أنَّه هَلَك قال: سَتَرْتُها عليكَ في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لكَ اليومَ))(٣)؛ فهذا إنباءٌ بدونِ مؤاخَذةٍ؛ ولهذا قال هنا: (يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). ثمَّ إنَّ المؤاخَذةَ إليه، والإنباءَ وَعْدٌ عليه؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]؛ ولهذا كان الكفَّارُ لا يُنَبَّؤونَ بعمَلِهم كما يُنَبَّأُ المؤمنُ، يعني أنَّ اللهَ يَخْلو به ويَستُرُ عليه، ويُقرِّرُه بذُنوبِه معه وحْدَه، أمَّا الكفَّارُ -والعياذُ باللهِ- فيُنادَى على رُؤوسِ الأشهادِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]، واللهُ أعلَمُ(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢) كَنَفَه: أي: سِتْرَه وعَفْوَه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٧٣).

نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ هذا مِثالٌ لِتَقلُّبِ المُشرِكينَ بيْنَ إشراكِهم مع اللهِ غَيرَه في العِبادةِ، وبيْنَ إظهارِ احتياجِهم إليه، فذلك عُنوانٌ على مَبلَغِ كُفرِهم وأقْصاه، والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ [الزمر: ٦] الآيةَ؛ لاشتراكِ الجُملتَينِ في الدَّلالةِ على أنَّ اللهَ مُنفرِدٌ بالتَّصرُّفِ، مُستوجِبٌ للشُّكرِ، وعلى أنَّ الكُفرَ به قَبيحٌ، وتَتضَمَّنُ الاستِدلالَ على وحدانيَّةِ إلهيَّتِه، بدَليلٍ مِن أحوالِ المُشرِكينَ به؛ فإنَّهم إذا مَسَّهمُ الضُّرُّ لَجَؤوا إليه وَحْدَه، وإذا أصابَتْهم نِعمةٌ أعرَضوا عن شُكرِه، وجَعَلوا له شُركاءَ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، ولكِنَّ عُمومَه هنا عُمومٌ عُرفيٌّ لِفَريقٍ مِنَ الإنسانِ، وهم أهلُ الشِّركِ خاصَّةً؛ لِأنَّ قَولَه: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ لا يَتَّفِقُ مع حالِ المُؤمِنينَ(١).

- وذِكرُ (الإنسانِ) في ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لِأنَّ المَقصودَ به المُخاطَبونَ بقَولِه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الزمر: ٦]، إلى قَولِه: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٧]، فكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: وإذا مَسَّكمُ الضُّرُّ دَعَوْتُم رَبَّكم... إلخ، فعُدِلَ إلى الإظهارِ؛ لِمَا في مَعنى (الإنسانِ) مِن مُراعاةِ ما في الإنسانيَّةِ مِنَ التَّقلُّبِ والاضطِرابِ، إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ بالتَّوفيقِ، ولِأنَّ في اسمِ (الإنسانِ) مُناسَبةً مع النِّسيانِ الآتي في قَولِه: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٤٢، ٣٤٣).

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِّيُضِلَّ﴾ لامُ العاقِبةِ؛ لِأنَّ الإضلالَ لَمَّا كان نَتيجةَ الجَعلِ جازَ تَعليلُ الجَعلِ به، كأنَّه هو العِلَّةُ لِلجاعِلِ(١).

- قولُه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكرَ حالةِ الإنسانِ الكافرِ المُعرِضِ عن شُكرِ ربِّه، يُثيرُ وَصْفُها سُؤالَ السَّامعِ عن عاقِبةِ هذا الكافرِ(٢).

- وصِيغةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿تَمَتَّعْ﴾ مُستعمَلةٌ في الإمهالِ المرادِ منه الإنذارُ والوعيدُ(٣). وهو أمْرُ تَهديدٍ فيه إشعارٌ بأنَّ الكُفرَ نَوعُ تَشَهٍّ لا سَنَدَ له، وإقناطٌ للكافِرينَ مِنَ التَّمتُّعِ في الآخِرةِ؛ ولذلك علَّله بقولِه: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ على سَبيلِ الاستِئنافِ للمُبالَغةِ(٤).

- ومُتعلَّقُ التَّمتُّعِ في قولِه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه سِياقُ التَّهديدِ، والتَّقديرُ: تَمَتَّعْ بالسَّلامةِ مِنَ العَذابِ في زَمَنِ كُفرِكَ، أو مُتَكسِّبًا بكُفرِكَ تَمَتُّعًا قَليلًا؛ فأنتَ آيِلٌ إلى العَذابِ؛ لِأنَّكَ مِن أصحابِ النارِ(٥).

- ووَصْفُ التَّمتُّعِ بالقَليلِ؛ لِأنَّ مُدَّةَ الحَياةِ الدُّنيا قَليلةٌ بالنِّسبةِ إلى العَذابِ في الآخِرةِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤).

قَلِيلٌ ﴾[١] [التوبة: ٣٨].

- وجُملةُ ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ بَيانٌ لِلمَقصودِ مِن جُملةِ ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾، وهو الإنذارُ بالمَصيرِ إلى النَّارِ بَعدَ مُدَّةِ الحَياةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيتان (٩-١٠)

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَٰنِتٌ﴾: أي: دائِمُ الطَّاعةِ، أو: مُصَلٍّ، أو: قائِمٌ في صلاتِه، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دينٍ[١].

﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾: أي: ساعاتِ اللَّيلِ، وأصلُه: يدُلُّ على ساعةٍ مِن الزَّمانِ[٢].

﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: أصحابُ العقولِ الزَّكيَّةِ، ومفردُ ألبابٍ: لُبٌّ، وأصلُ اللُّبِّ: الخُلوصُ والجَوْدةُ، والشَّيءُ المُنتقَى[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١).

قال ابن القيِّم: (القنوت... هو الطَّاعةُ الدَّائمةُ؛ فيَدخُلُ فيه القيامُ، والذِّكرُ، والدُّعاءُ، وأنواعُ الطَّاعةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١) و(٥/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠١).

وآناء جمْعٌ، مُفْرَدُه: إِنْيٌ وإِنًى وأَنا وإنو. يُنظر: ((التبيان في آداب حملة القرآن)) للنووي (ص: ٢٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٧)

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى نافيًا المُساواةَ بيْنَ الإنسانِ المُشرِكِ وبيْنَ الإنسانِ الملازِمِ لطاعةِ رَبِّه: آلَّذي هو مُطيعٌ لِرَبِّه قائِمٌ ساعاتِ اللَّيلِ لعبادتِه ساجِدًا وقائِمًا، يَحْذَرُ عذابَ الآخِرةِ، ويَرجو رحمةَ رَبِّه: كمَنْ هو جاعِلٌ لله تعالى شُرَكاءَ في العبادةِ؟!

ثمَّ يَنفي اللهُ تعالى أيضًا المساواةَ بيْنَ العالِمِ والجاهِلِ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: هل يَستوي العُلَماءُ العامِلونَ بعِلمِهم، القانِتونَ لله؛ والجُهَّالُ الَّذين لا يَعلَمونَ ولا يَعمَلونَ؟ كلَّا، لا يَستَوونَ؛ إنَّما يَتذكَّرُ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ!

ثمَّ يقولُ تعالى: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لعِباديَ المؤمِنينَ: اتَّقوا رَبَّكم، لِلَّذين أحسَنوا العَمَلَ في هذه الحياةِ الدُّنيا حَسَنةٌ، وأرضُ اللهِ فَسيحةٌ، وبلادُه كَثيرةٌ، فإذا عجَزْتُم عن عِبادتي في أرضٍ فتحَوَّلوا إلى أرضٍ أُخرَى تَتَمكَّنونَ فيها مِنَ العبادةِ؛ فلا عُذرَ لأحَدٍ في تَركِ الهِجرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى عاقبةَ الصَّبرِ، فيقولُ: إنَّما يُوفَّى الصَّابِرونَ أجْرَهم تامًّا كثيرًا بغيرِ حَدٍّ ولا عَدٍّ.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا شَرَح تَعالى شَيئًا مِن أحوالِ الظَّالِمينَ الضَّالِّينَ المُشرِكينَ؛ أردَفَه بشَرحِ أحوالِ المُهتَدينَ المُوَحِّدينَ، فقال[1]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨).

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿أَمَنْ﴾ بتخفيفِ الميمِ. وهي همزةُ الاستِفهامِ دَخَلَتْ على (مَنْ) بمعنى (الَّذي)، والاستِفهامُ للتَّقريرِ، ومُقابِلُه مَحذوفٌ تقديرُه: أَمَنْ هو قانتٌ كمَنْ جعَلَ للهِ أندادًا؟ أو أَمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه؟ وقيل: الهَمزةُ للنِّداءِ، و(مَنْ) مُنادى، أي: يا مَن هو قانتٌ، قُلْ كَيْتَ وكَيْتَ، أو أبشِرْ؛ إنَّك مِن أهلِ الجنَّةِ[١].

٢- قِراءةُ: ﴿ أَمَّنْ﴾ بتَشديدِ الميمِ، على إدخالِ (أم) على (مَن) الموصولةِ، وإدغامِ الميمِ. وفي (أم) قولانِ؛ أحدُهما: أنَّها مُتَّصِلةٌ، ومُعادِلُها محذوفٌ تقديرُه: آلكافِرُ خيرٌ أم الَّذي هو قانِتٌ؟ وقيل: (أم) في ﴿ أَمَّنْ﴾ مُنقَطِعةٌ، فتتقَدَّرُ بـ (بل والهمزةِ) أي: بل أمَنْ هو قانِتٌ كغيرِه، أو كالكافِرِ المَقولِ له: تمتَّعْ بكُفْرِك[٢]؟

﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ ﴾.

أي: أذَلِكَ الكافِرُ الَّذي يَتمتَّعُ بكُفرِه قَليلًا وهو مِن أصحابِ النَّارِ خَيرٌ أم المُطيعُ للهِ، المُصَلِّي ساعاتِ اللَّيلِ ساجِدًا وقائِمًا، وهو على حَذَرٍ وخَوفٍ مِن الآخرةِ، ورَجاءٍ وطَمَعٍ في نَيلِ رَحمةِ اللهِ تعالى[٣]؟

---

(١) قرأ بها ابنُ كثير، ونافعٌ، وحمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٨، ٣٠٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٠، ٦٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤١٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٠٨، ٣٠٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٠، ٦٢١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٥-١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أفضَلُ الصَّلاةِ طُولُ القُنوتِ))(١).

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دخل على شابٍّ وهو في الموتِ، فقال: كيفَ تَجِدُك؟ قال: واللهِ يا رَسولَ اللهِ، إنِّي أرجو اللهَ، وإنِّي أخافُ ذُنوبي! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا يَجتَمِعانِ في قَلبِ عَبدٍ في مِثلِ هذا الموطِنِ إلَّا أعطاه اللهُ ما يَرجو، وآمَنَه ممَّا يَخافُ))(٢).

---

= القرطبي)) (١٥/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٥، ٣٤٦).

قال القرطبي: (وفي ﴿قَٰنِتٌ﴾ أربعةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّه المطيعُ. قاله ابنُ مسعودٍ. الثَّاني: أنَّه الخاشِعُ في صلاتِه. قاله ابنُ شِهابٍ. الثَّالثُ: أنَّه القائِمُ في صلاتِه. قاله يحيى بنُ سلام. الرَّابعُ: أنَّه الدَّاعي لرَبِّه. وقولُ ابنِ مَسعودٍ يَجمَعُ ذلك). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٣٩).

وممَّن قال بأنَّ القنوتَ هو الطَّاعةُ: ابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠).

وقيل: القنوتُ هو دوامُ الطَّاعةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزَّجَّاجُ، وابنُ تيميَّة، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٤٧)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩٨).

وقيل: هو دوامُ الإخلاصِ لله تعالى في العبادةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٦).

(١) رواه مسلم (٧٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٩٨٣) واللَّفظ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٩٠١)، وابنُ ماجه (٤٢٦١). =

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر العَمَلَ؛ ذَكَر العِلمَ[1].

وأيضًا لَمَّا كان الحامِلُ على الخَوفِ والرَّجاءِ والعَمَلِ إنَّما هو العِلمُ النَّافِعُ، وكان العِلمُ الَّذي لا يَنفَعُ كالجَهلِ، أو الجَهلُ خَيرٌ- كان جوابُ ما تقدَّم مِن الاستفهامِ: لا يَستويانِ؛ لأنَّ المُخلِصَ عالِمٌ، والمُشرِكَ جاهِلٌ؛ فأمَرَه بالجَوابِ بقَولِه[2]:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: هل يَستوي العُلَماءُ بدِينِ اللهِ العامِلونَ بعِلمِهم، القانِتون لِرَبِّهم، مع الجُهَّالِ الَّذين لا يَعلَمونَ ذلك، ولا يَعمَلونَ به؟ كلَّا، لا يَستَوونَ[3].

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد: ١٩].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

---

= حسَّنه ابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٢/ ٣٧٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٩٨٣)، وجوَّد إسنادَه النوويُّ في ((الخلاصة)) (٢/ ٩٠٢)، وابنُ المُلَقِّنِ في ((تحفة المحتاج)) (١/ ٥٨٢)، والصَّنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٢/ ١٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٧، ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٨، ٣٤٩).

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مدارُ السَّدادِ التَّذَكُّرَ، وكان مدارُ التَّذَكُّرِ الَّذي به الصَّلاحُ والفَسادُ هو القَلبَ؛ لأنَّه مرَكزُ العَقلِ الَّذي هو آلةُ العِلمِ، وكان القَلبُ الَّذي لا يَحمِلُ على الصَّلاحِ عَدَمًا، بل العَدَمُ خَيرٌ منه- قال[1]:

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

أي: إنَّما يَتذكَّرُ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ، فيَتَّبِعونَ الحَقَّ، ويُؤْثِرونَ العِلمَ على الجَهلِ، وطاعةَ اللهِ على مَعصيتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥١).

قال الشوكاني: (هذه الجملةُ ليست مِن جملةِ الكلامِ المأمورِ به، بل مِن جِهةِ اللهِ سُبحانَه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٠).

وقال الألوسي: (وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كلامٌ مُستقِلٌّ، غيرُ داخلٍ عندَ الكافَّةِ في الكلامِ المأمورِ، واردٌ مِن جِهتِه تعالى). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٣٧).

وقيل: ليس قولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كلامًا مُستقِلًّا، إنَّما هو واقعٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لنَفيِ الاستواءِ بيْنَ العالِمِ وغيرِه. وذهب إليه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥١).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أُجرِيَ الثَّناءُ على المُؤمِنينَ بإقبالِهم على عبادةِ اللهِ في أشَدِّ الآناءِ، وبشِدَّةِ مُراقبتِهم إيَّاه بالخَوفِ والرَّجاءِ، وبتَمييزِهم بصِفةِ العِلمِ والعَقلِ والتَّذَكُّرِ، بخِلافِ حالِ المُشرِكينَ في ذلك كُلِّه؛ أتْبَعَ ذلك بأمرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإقبالِ على خِطابِهم؛ للاستِزادةِ مِن ثباتِهم، ورِباطةِ جَأْشِهم[١].

وأيضًا بعدَ أنْ نفَى المساواةَ بيْنَ مَن يَعلَمُ ومَن لا يَعلَمُ- أردَفَه أمْرَ رسولِه أن يَنصَحَ المؤمنينَ بجُملةِ نصائِحَ[٢]، فقال:

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِعباديَ المؤمِنينَ: اتَّقوا ربَّكم، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[٣].

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه المُؤمِنينَ بالاتِّقاءِ؛ بَيَّن لهم ما في هذا الاتِّقاءِ مِن الفوائِدِ، فقال تعالى[٤]:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٣/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١١، ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٠).

أي: للَّذين أحسَنوا العَمَلَ في هذه الحياةِ الدُّنيا حَسَنةٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [البقرة: ٢٠١، ٢٠٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٣-١١٥).

وقيل: المعنى: للَّذين أحسَنوا في الدُّنيا حَسَنةٌ في الآخرةِ، وهي الجنَّةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عطية، وابن جُزَي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٠).

قال الماتُريدي: (قال عامَّةُ أهلِ التَّأويلِ: لِلَّذِينَ أحسَنوا في هذه الدُّنيا حسَنةٌ لهم في الآخرةِ). ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٦٦).

وقال الماوَرْدي: (قَولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: معناه: للَّذين أحسَنوا في هذه الدُّنيا حَسَنةٌ في الآخِرةِ، وهي الجنَّةُ. الثَّاني: للَّذين أحسَنوا في الدُّنيا حَسَنةٌ في الدُّنيا، فيكونُ ذلك زائدًا على ثَوابِ الآخِرةِ. وفيما أُريدَ بالحَسَنةِ الَّتي لهم في الدُّنيا أربعةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: العافيةُ والصِّحَّةُ. قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: ما رزَقَهم اللهُ مِن خيرِ الدُّنيا. قاله يحيى بنُ سلام. الثَّالثُ: ما أعطاهم مِن طاعتِه في الدُّنيا وجَنَّتِه في الآخِرةِ. قاله الحَسَنُ. الرَّابعُ: الظَّفَرُ والغنائِمُ. حكاه النَّقَّاشُ. ويحتمِلُ خامسًا: أنَّ الحَسَنةَ في الدُّنيا الثَّناءُ، وفي الآخرةِ الجزاءُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٨).

وفسَّر السعديُّ الحسنةَ بأنَّها رزقٌ واسعٌ، وعِيشةٌ هنيَّةٌ، وطُمَأنينةُ قلبٍ، وأمْنٌ وسرورٌ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بالَّذين أحسَنوا: الَّذين اتَّقَوُا اللهَ، وهم المؤمِنونَ المَوصوفونَ بما تقدَّمَ مِن قَولِه: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ﴾ [الزمر: ٩] الآيةَ؛ لأنَّ تلك الخِصالَ تدُلُّ على الإحسانِ المفَسَّرِ بقَولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: «أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراهُ، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنَّه يَراكَ» [البخاري «٥٠» ومسلم «٩»]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٣).

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗ ﴾ [النحل: ٩٧].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لا يَظلِمُ مُؤمِنًا حَسَنةً؛ يُعطَى بها في الدُّنيا، ويُجزَى بها في الآخِرةِ، وأمَّا الكافِرُ فيُطعَمُ بحَسَناتِ ما عَمِلَ بها لله في الدُّنيا، حتَّى إذا أفضَى إلى الآخِرةِ لم تكُنْ له حَسَنةٌ يُجزَى بها))[١].

﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

في قَولِه تعالى: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ﴾ مناسَبةٌ مع قولِه سُبحانَه: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾، وهي أنَّ مِن جملةِ الإحسانِ في الدُّنيا الهجرةَ لا شَكَّ؛ لأنَّ الهجرةَ مِن أكبَرِ ما يدُلُّ على صِدْقِ العاملِ؛ إذْ إنَّ المُهاجِرَ يَدَعُ أهلَه ووطنَه وعشيرتَه ومالَه للهِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان رُبَّما عَرَض للإنسانِ في أرضٍ مَن يَمنَعُه الإحسانَ، ويَحمِلُه على العِصيانِ؛ حَثَّ سُبحانَه على الهِجرةِ إلى حيثُ يَزولُ عنه ذلك المانِعُ؛ تنبيهًا على أنَّ مِثلَ هذا ليس عُذرًا في التَّقصيرِ[٣].

وأيضًا لَمَّا قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ كان لبَعضِ النُّفوسِ

---

(١) رواه مسلم (٢٨٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧١).

مَجالٌ في هذا الموضِعِ، وهو أنَّ النَّصَّ عامٌّ: أنَّه كُلُّ مَن أحسَنَ فله في الدُّنيا حَسَنةٌ، فما بالُ مَن آمَنَ في أرضٍ يُضطَهَدُ فيها ويُمتَهَنُ، لا يحصُلُ له ذلك؟! دفَعَ هذا الظَّنَّ بِقَولِه[1]:

﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾.

أي: وأرضُ اللهِ فَسيحةٌ، فمَن لم يَستَطِعْ أن يَعبُدَ اللهَ في أرضٍ فلْيُهاجِرْ إلى أُخرى يَتمَكَّنُ فيها مِن إقامةِ دينِه؛ فلا عُذرَ لأحَدٍ في تَرْكِ الهِجرةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [العنكبوت: ٥٦].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الصَّبرُ على هِجرةِ الوَطَنِ -ولا سيَّما إن كان ثَمَّ أهلٌ وعَشيرةٌ- شَديدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧١، ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٥).

وذَكَر الماوَرْديُّ احتِمالًا مال إليه، وهو أنَّ المرادَ بسَعةِ الأرضِ: سَعةُ الرِّزقِ؛ لأنَّه يَرزُقُهم مِن الأرضِ، فيَكونُ معناه: ورِزقُ اللهِ واسِعٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١١٩).

قال القرطبيُّ بعدَ أن ذكَرَ كلامَ الماوَرْديِّ: (فتكونُ الآيةُ دليلًا على الانتِقالِ مِن الأرضِ الغالِيةِ، إلى الأرضِ الرَّاخيةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤١).

وقيل: المرادُ بالأرضِ: أرضُ الجنَّةِ، رغَّبَهم في سَعَتِها، وسَعةِ نعيمِها. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٠).

جِدًّا؛ ذَكَر ما للصَّابِرِ على ذلك[١].

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

أي: إنَّما يُعطَى الصَّابِرونَ على البَلاءِ، وعلى طاعةِ اللهِ وعن مَعصيتِه: ثَوابًا تامًّا كَثيرًا، بغيرِ حَدٍّ ولا عَدٍّ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ...﴾ أنَّه تعالى نبَّه على أنَّ الانتِفاعَ بالعَمَلِ إنَّما يَحصُلُ إذا كان الإنسانُ مُواظِبًا عليه؛ فإنَّ القُنوتَ عِبارةٌ عن كَونِ الرَّجُلِ قائِمًا بما يجِبُ عليه مِنَ الطَّاعاتِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ العمَلَ إنَّما يُفيدُ إذا واظَبَ عليه الإنسانُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ...﴾ أنَّ القرآنَ الكريمَ يَفْتَحُ للإنسانِ الاستِدلالَ العقليَّ، يعني أنَّه يَعْرِضُ الأشياءَ عَرضًا عقليًّا؛ وذلك بطلب

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٦-١١٨).

قال ابن عطية: (هذا يَحتمِلُ مَعنيَينِ؛ أحَدُهما: أنَّ الصَّابِرَ يُوفَّى أجْرَه، ثمَّ لا يُحاسَبُ عن نَعيمٍ، ولا يُتابَعُ بذُنوبٍ... والمعنى الثَّاني: أنَّ أُجورَ الصَّابرينَ تُوفَّى بغيرِ حَصرٍ ولا عَدٍّ، بل جُزافًا، وهذه استِعارةٌ للكثرةِ الَّتي لا تُحصى... وإلى هذا التَّأويلِ ذهب جُمهورُ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٢).

ممَّن ذهب مِن السَّلفِ إلى نحوِ المعنى الثَّاني: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وقَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ، وابنُ عَونٍ، وسُلَيمانُ بنُ القاسمِ، ومحمَّدُ بنُ مَيمونٍ. يُنظر: ((الصبر والثواب عليه)) لابن أبي الدنيا (ص: ٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨).

التَّدَبُّرِ والتَّفَهُّمِ، فمثلًا: إذا عَرَضْتَ حالَ القانتِ وحالَ العاصي على العقلِ؛ سيقولُ: لا يَسْتَويان؛ مَن هو قانتٌ آناءَ اللَّيلِ ليس كمَن هو عاصٍ! وهذه مِن الطُّرُقِ الَّتي يَنبغي لطالبِ العلمِ أنْ يَتَّخِذَها عندَ المُناظَرةِ سبيلًا إلى إفحامِ الخَصمِ؛ لأنَّ كثيرًا مِن الخصومِ قد لا يَقتنِعون بمُجرَّدِ الدَّليلِ الأثَريِّ؛ فنَسوقُ إليهم الدَّليلَ النَّظريَّ، ولا سيَّما في الوقتِ الحاضرِ؛ حيثُ اتَّخَذَ كثيرٌ مِن النَّاسِ -إنْ لم يكُنْ: أكثرُهم- طريقَ إبليسَ سبيلًا؛ وهو مُعارَضةُ السَّمعِ بما يَظُنُّه عقلًا! يعني: مُعارَضةَ النُّصوصِ بما يَظُنُّونَ أنَّه عقلٌ، ونحن نَعْلَمُ عِلمَ اليقينِ أنَّه ليس في النُّصوصِ ما يُخالِفُ العقلَ الصَّريحَ أبدًا، بل في النُّصوصِ ما يُؤيِّدُه العقلُ الصَّريحُ، ويكونُ هذا شاهدًا لهذا؛ كلٌّ منهما يَقوَى بالآخَرِ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ فيه أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يكونَ في سَيرِه إلى اللهِ جامِعًا بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فَضيلةُ العِلمِ، ولكنْ يجِبُ أن نَعلمَ أنَّ العِلمَ يَشرُفُ بشَرَفِ مَوضوعِه، وعلى هذا فأفضَلُ العُلومِ العِلمُ بأسماءِ اللهِ وصِفاتِه؛ لأنَّ هذا أشرَفُ مَوضوعاتِ العِلمِ؛ ثمَّ العِلمُ بأحكامِه: ((مَن يُرِدِ اللهُ به خَيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ))[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فيه أنَّ مِن الدَّعوةِ إلى اللهِ، ومِن حُسْنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٩).

والحديث أخرجه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاويةَ بنِ أبي سُفْيانَ رضي الله عنهما.

الدَّعوةِ: إقامةَ الحُجَّةِ؛ فإنَّه لا عُذْرَ لأحدٍ أنْ يقولَ: لا أَجِدُ مَلجأً، أو لا أجِدُ مُهاجَرًا(١).

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فيه فضيلةُ الصَّبرِ(٢)، عن عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ أنَّه خَطَبَ النَّاسَ فقال: (ما أنعَمَ اللهُ على عبدٍ نِعمةً فانتَزَعها منه، فعاضَه مكانَ ما انتَزَع منه الصَّبرَ: إلَّا كان ما عوَّضه اللهُ خيرًا مِمَّا انتَزَع منه)، ثمَّ تلا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] أنَّ كلَّ مَن خَشِيَ اللهَ سُبحانَه وتعالى وأطاعَه وتَرَكَ مَعصيتَه: فهو عالِمٌ(٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ ...﴾ إلى آخرِ الآيةِ: أنَّه بدأ فيها بذِكرِ العَمَلِ، وخَتَمها بذِكرِ العِلمِ؛ أمَّا العَمَلُ فكَونُه قانتًا ساجدًا قائمًا، وأمَّا العِلمُ فقَولُه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلَمَّا ذَكَر العملَ ذَكَر العِلمَ، وهذا يدُلُّ على أنَّ كَمالَ الإنسانِ مَحصورٌ في هذَينِ المَقصودَينِ(٥).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ تَنبيهٌ على فَضلِ قيامِ اللَّيلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١٥٣).

والأثر أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الصبر والثواب عليه)) (٢٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٩).

وأنَّه أرجَحُ مِن قيامِ النَّهارِ، ويُؤكِّدُه وُجوهٌ:

**الأوَّلُ**: أنَّ عِبادةَ اللَّيلِ أستَرُ عن العُيونِ؛ فتَكونُ أبْعَدَ عن الرِّياءِ.

**الثَّاني**: أنَّ الظُّلمةَ تمنَعُ مِن الإبصارِ، ونَومَ الخَلقِ يَمنَعُ مِن السَّماعِ؛ فإذا صار القَلبُ فارِغًا عن الاشتِغالِ بالأحوالِ الخارجيَّةِ عاد إلى المطلوبِ الأصليِّ، وهو مَعرِفةُ اللهِ وعبادتُه.

**الثَّالِثُ**: أنَّ اللَّيلَ وَقتُ النَّومِ، فتَركُه يكونُ أشَقَّ؛ فيكونُ الثَّوابُ أكثَرَ.

**الرَّابِعُ**: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[1] [المزمل: ٦].

**الخامِسُ**: قَولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أفضلُ الصَّلاةِ بعدَ الفريضةِ صلاةُ اللَّيلِ))[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ فَضيلةُ القيامِ والسُّجودِ مِن بيْنِ أركانِ الصَّلاةِ؛ وذلك أنَّ القيامَ شَريفٌ بذِكرِه، والسُّجودَ شَريفٌ بهَيئتِه[3].

٥- قَولُه تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ الرَّدُّ على مَن ذَمَّ العباداتِ خَوفًا مِن النَّارِ، أو رَجاءَ الجنَّةِ، وقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((حَوْلَها نُدَنْدِنُ))[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٠٧).

والحديث أخرجه مسلم (١١٦٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٢٤).

والحديث أخرجه أبو داود (٧٩٢)، وأحمدُ (١٥٨٩٨) عن بعض أصحاب النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. =

٦- قَولُه تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ أنَّه قال في مَقام الخَوفِ: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ فما أضاف الحَذَرَ إلى نَفْسِه، وفي مَقامِ الرَّجاءِ أضافه إلى نَفْسِه، وهذا يدُلُّ على أنَّ جانِبَ الرَّجاءِ أكمَلُ وأليَقُ بحَضرةِ اللهِ تعالى[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ حُجَّةٌ لِمَن قال: العالِمُ -وإنْ لم يَعمَلْ بعِلمِه- أفضَلُ مِن جاهلٍ لا يَعمَلُ: بالخَبرِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وتعالى فَرَضَ العِلمَ والعملَ معًا؛ فمَن أطاعَه في العِلْمِ فقد جاء بشَطْرِ الأمرِ، وبَقِيَ عليه الشَّطْرُ، ويُوشِكُ الشَّطْرُ الَّذي أطاع فيه أنْ يُلْحِقَه بالشَّطْرِ الآخَرِ، والجاهِلُ مُضَيِّعٌ لجَميعِه، وغيرُ آخِذٍ عُدَّةَ العَمَلِ، ودَليلَ النجاةِ[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ مَدحُ العِلمِ ورِفعةُ قَدْرِه، وذَمُّ الجَهلِ ونَقصُه[3].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إنَّما وَصَفَ اللهُ تعالى الكُفَّارَ بأنَّهم لا يَعلَمونَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وإن أعطاهم آلَةَ العِلمِ فإنَّهم أعرَضوا عن تَحصيلِ العِلمِ؛ فلِهذا جعَلَهم اللهُ تعالى كأنَّهم لَيسُوا مِن أُولي الألبابِ؛ مِن حيثُ إنَّهم لم يَنتَفِعوا بعُقولِهم وقُلوبِهم، وفي هذا تَنبيهٌ على فَضيلةِ العِلمِ[4].

---

= صحَّحه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٢٢٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٧٩٢)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((المجموع)) (٣/ ٤٧١)، و((الأذكار)) (ص: ٦٨)، وصحَّحه على شرطِ الشَّيخَينِ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥٨٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٦).

١٠- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فيه الثَّناءُ على ذوي العقولِ؛ حيثُ جَعَلهم هم المُتذَكِّرينَ المُتَّعِظينَ المُنتفعينَ بما يَسمعونَ، وأنَّ مَن لا يَتذكَّرُ فهو ناقصُ العقلِ؛ لأنَّه إذا كان لا يَتذكَّرُ إلَّا أصحابُ العقولِ؛ فمَن لا يَتذكَّرُ يكونُ ناقصَ العقلِ ولا شكَّ، ونقصانُ عقْلِه بحسَبِ نَقْصِه مِن التَّذَكُّرِ، ووجْهُ ذلك مِن الناحيةِ العقليَّةِ النَّظريَّةِ: أنَّ الإنسانَ العاقلَ لا يمكِنُ أنْ يَختارَ لنفْسِه إلَّا ما فيه النجاةُ؛ ولا نجاةَ مِن عذابِ اللهِ إلَّا بالتَّذَكُّرِ والاتِّعاظِ؛ فلهذا كان العقلُ السَّليمُ يَستلزِمُ أنْ يَتذكَّرَ الإنسانُ ويَتَّعِظَ مِن أجْلِ طَلَبِ ما هو أحَظُّ للنَّفْسِ وأنفعُ ﴿وَلَلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ﴾[1] [الضحى: ٤].

١١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ فيه أنَّه لا بُدَّ مع الإيمانِ مِن التَّقْوى[2].

١٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ هناك بِشارةٌ نَصَّ عليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بقَولِه: ((لا يَزالُ مِن أمَّتي أُمَّةٌ قائمةٌ بأمرِ الله، لا يَضُرُّهم مَن خَذَلهم ولا مَن خالَفَهم، حتَّى يأتيَهم أمرُ الله وهم على ذلك))[3]، تُشيرُ إليه هذه الآيةُ، وتَرمي إليه مِن قَريبٍ، وهو أنَّه تعالى أخبَرَ أنَّ أرضَه واسِعةٌ، فمهما مُنِعتُم مِن عبادتِه في مَوضِعٍ فهاجِروا إلى غَيرِها، وهذا عامٌّ في كُلِّ زَمانٍ ومَكانٍ؛ فلا بُدَّ أن يكونَ لكُلِّ مُهاجِرٍ مَلجأٌ مِن المُسلِمينَ يَلجَأُ إليه، ومَوضِعٌ يَتمَكَّنُ مِن إقامةِ دينِه فيه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦٤١) واللفظ له، ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاويةَ بنِ أبي سُفيانَ رضي الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٠، ٧٢١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ حَثٌّ على الهِجرةِ مِن البَلَدِ الَّذي تَظهَرُ فيه المعاصي، ونَظيرُه قَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧][1]. وفيه أيضًا أنَّ الإنسانَ إذا كان في محَلٍّ لا يَتمَكَّنُ فيه مِن إقامةِ دِينِه على الوَجهِ المطلوبِ؛ فعليه أن يُهاجِرَ منه في مَناكِبِ أرضِ اللهِ الواسِعةِ؛ حتَّى يجِدَ محَلًّا تُمكِنُه فيه إقامةُ دينِه[2].

١٤- كَرَمُ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ حيثُ جَعَل الثَّوابَ بمَنزلةِ الأجرِ، كأنَّه مُعاوَضةٌ يُعاوِضُ به العامِلُ؛ لِقَولِه: ﴿أَجۡرَهُم﴾[3].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ على قِراءةِ ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ بتَشديدِ مِيمِ (مَن)، على أنَّه لَفظٌ مُركَّبٌ مِن كَلمتَينِ (أمْ) و(مَن)؛ فأُدْغِمَت مِيمُ (أمْ) في مِيمِ (مَن)؛ ففي معناهُ وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ تكونَ (أمْ) مُعادِلةً لِهَمزةِ استِفهامٍ مَحذوفةٍ مع جُملَتِها، دلَّت عليها (أمْ)؛ لاقتِضائِها مُعادِلًا. ودلَّ عليها تَعقيبُه بـ ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنَّ التَّسويةَ لا تكونُ إلَّا بيْن شَيئينِ؛ فالتَّقديرُ: أهذا الجاعلُ للهِ أندادًا الكافرُ خيرٌ أمَّن هو قانتٌ؟ والاستِفهامُ حقيقيٌّ، والمقصودُ لازمُه، وهو التَّنبيهُ على الخطَأِ عندَ التَّأمُّلِ. والوجهُ الثَّاني: أنْ تكونَ (أمْ) مُنقطعةً لِمُجرَّدِ الإضرابِ الانتقاليِّ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٠).

و(أمْ) تَقْتضي استِفهامًا مُقدَّرًا بعْدَها، ومعنى الكلامِ هنا: دعْ تَهديدَهم بعذابِ النَّارِ، وانتقِلْ بهم إلى هذا السُّؤالِ: الَّذي هو قانتٌ وقائمٌ، ويَحذَرُ اللهَ ويَرْجو رحمتَه. والمعنى: أذَلِكَ الإنسانُ الَّذي جعَلَ للهِ أندادًا هو قانتٌ... إلخ، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ لِظُهورِ أنَّه لا تَتلاقى تلك الصِّفاتُ الأربعُ -القُنوتُ، والسُّجودُ والقيامُ، والحَذَرُ، ورَجاءُ رَحمةِ اللهِ- مع صِفةِ جَعْلِه للهِ أندادًا. و(أَمْ) إمَّا مُتَّصِلةٌ قد حُذِفَ مُعادِلُها؛ ثِقةً بدَلالةِ مَساقِ الكَلامِ عليه، كأنَّه قيلَ له -تَأكيدًا لِلتَّهديدِ وتَهَكُّمًا به-: أأنتَ أحسَنُ حالًا ومَآلًا، أَمَّن هو قائِمٌ بمَواجِبِ الطَّاعاتِ، ودائمٌ على أداءِ وظائفِ العِباداتِ في ساعاتِ اللَّيلِ حالَتَي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ، لا عِندَ مَساسِ الضُّرِّ فقطْ كدَأبِكَ؟! وإمَّا مُنقَطِعةٌ، وما فيها مِنَ الإضْرابِ؛ لِلانتِقالِ مِنَ التَّهديدِ إلى التَّبكيتِ بتَكليفِ الجَوابِ المُلجِئِ إلى الاعترافِ بما بَيْنَهما مِنَ التَّبايُنِ البَيِّنِ، كأنَّه قيلَ: بلْ أَمَّن هو قانِتٌ... إلخ، أفْضَلُ أمَّن هو كافِرٌ مِثلُكَ.

وعلى قِراءةِ ﴿أَمَنْ﴾ بتَخفيفِ الميمِ -على أنَّ الهمزةَ دخَلَت على (مَن) الموصولةِ-؛ فيجوزُ أنْ تكونَ الهمزةُ همزةَ استِفهامٍ، و(مَن) مُبتدأٌ، والخبَرُ مَحذوفٌ دلَّ عليه الكلامُ قبْلَه مِن ذِكرِ الكافرِ في قولِه: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ إلى قولِه: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨]. والاستِفهامُ إنكاريٌّ، والقَرينةُ على إرادةِ الإنكارِ تَعقيبُه بقولِه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لِظُهورِ أنَّ (هل) فيه للاستِفهامِ الإنكاريِّ، وبقَرينةِ صِلَةِ الموصولِ. تَقديرُه: أمَن هو قانتٌ أفْضَلُ أمَّن هو كافرٌ؟ والاستِفهامُ حينَئذٍ تَقريريٌّ، ويُقدَّرُ له مُعادلٌ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه عَقِبَه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٥، ٣٤٦).

- وتَخصيصُ اللَّيلِ بقُنوتِ القانِتينَ؛ لِأنَّ العِبادةَ باللَّيلِ أعْوَنُ على تَمَحُّضِ القَلبِ لِذِكرِ اللهِ، وأبْعَدُ عن مُداخَلةِ الرِّياءِ، وأدَلُّ على إيثارِ عِبادةِ اللهِ على حَظِّ النَّفْسِ مِنَ الرَّاحةِ والنَّومِ؛ فإنَّ اللَّيلَ أدْعى إلى طَلَبِ الرَّاحةِ، فإذا آثَرَ المَرءُ العِبادةَ فيه، استَنارَ قَلبُه بحُبِّ التَّقَرُّبِ إلى الله؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، فلا جَرَمَ كان تَخصيصُ اللَّيلِ بالذِّكرِ دالًّا على أنَّ هذا القانِتَ لا يَخلو مِنَ السُّجودِ والقِيامِ آناءَ النَّهارِ، بدَلالةِ فَحوى الخِطابِ[1]؛ قال تَعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا﴾ [المزمل: ٧]، وبذلك يَتِمُّ انطِباقُ هذه الصِّلةِ على حالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

- وتَقديمُ السُّجودِ على القِيامِ في قولِه: ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾؛ لِكَونِه أدْخَلَ في مَعنى العِبادةِ[3].

- وأيضًا قَولُه: ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾ حالانِ مُبيِّنانِ لِـ﴿قَٰنِتٌ﴾، ومُؤَكِّدانِ لِمَعناه. وجُملةُ ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ﴾ حالانِ؛ فالحالُ الأوَّلُ والثَّاني لِوَصفِ عَمَلِه الظَّاهِرِ، والجُملَتانِ اللَّتانِ هما ثالِثٌ ورابِعٌ لِوَصفِ عَمَلِ قَلبِه، وهو أنَّه بيْنَ الخَوفِ مِن سَيِّئاتِه وفَلَتاتِه، وبيْنَ الرَّجاءِ لِرَحمةِ رَبِّه أنْ يُثيبَه على حَسَناتِه. وفي هذا تَمامُ المُقابَلةِ بيْنَ حالِ المُؤمِنينَ الجاريةِ على وَفْقِ حالِ

---

(١) فحْوى الخِطابِ: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطَريقِ الأَولى، وهو نوعانِ:
الأوَّلُ: تَنبيهٌ بالأقَلِّ على الأكثَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نَبَّه بالنَّهيِ عن قَولِ أُفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].
الثَّاني: تنبيهٌ بالأكثَرِ على الأقَلِّ، كقَولِه تعالى: ﴿مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].
يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥).

نَبيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وبيْنَ حالِ أهلِ الشِّركِ الَّذين لا يَدْعونَ اللهَ إلَّا في نادِرِ الأوقاتِ، وهي أوقاتُ الاضطِرارِ، ثمَّ يُشرِكونَ به بعدَ ذلك؛ فلا اهتِمامَ لهم إلَّا بعاجِلِ الدُّنيا، لا يَحذَرونَ الآخِرةَ ولا يَرجونَ ثَوابَها[١]!

- وقَولُه: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ فيه احتِباكٌ[٢]؛ فذكَرَ السُّجودَ دَليلًا على الرُّكوعِ، والقيامَ دَليلًا على القُعودِ، والسِّرُّ في ذِكرِ ما ذُكِرَ، وتَركِ ما تُرِكَ: أنَّ السُّجودَ يدُلُّ على العِبادةِ، وقَرْنُ القيامِ به دالٌّ على أنَّه قيامٌ منه، فهو عِبادةٌ، وذلك مع الإيذانِ بأنَّهما أعظَمُ الأركانِ؛ فهو نَدبٌ إلى تطويلِهما على الرُّكنَينِ الآخَرينِ[٣].

- وقولُه: ﴿يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ﴾ قيل: هو استِئنافٌ لِلتَّعليلِ، وَقَع جَوابًا عَمَّا نَشَأ مِن حِكايةِ حالِه مِنَ القُنوتِ والسُّجودِ والقِيامِ، كأنَّه قيلَ: ما بالُه يَفعَلُ ذلك؟ فقيلَ: يَحذَرُ عَذابَ الآخِرةِ ﴿وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾، فيَنجُو بذلك مِمَّا يَحذَرُه، ويَفوزُ بما يَرجوه، كما يُنبِئُ عنه التَّعَرُّضُ لِعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُنبِئةِ عنِ التَّبليغِ إلى الكَمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِ الرَّاجي، لا أنَّه يَحذَرُ ضُرَّ الدُّنيا ويَرجُو خَيرَها فَقطْ[٤].

- قولُه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ مَوقِعُه كمَوقِعِ قَولِه: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ [الزمر: ٨]، أثارَه وَصْفُ المُؤمِنِ الطَّائِعِ، والمَعنى: أعلِمْهم -يا أيُّها الرَّسولُ- بأنَّ هذا المُؤمِنَ العالِمَ بحَقِّ رَبِّه ليس سَواءً لِلكافِرِ الجاهِلِ برَبِّه. وإعادةُ فِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ لِلاهتِمامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥).

بهذا المَقولِ، ولِاسترعاءِ الأسماعِ إليه[١].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مُستَعمَلٌ في الإنكارِ، والمَقصودُ: إثباتُ عَدَمِ المُساواةِ بيْن الفَريقَين، وعَدَمُ المُساواةِ يُكنَّى به عن التَّفضيلِ، والمُرادُ: تَفضيلُ الَّذين يَعلَمونَ على الَّذين لا يَعلَمونَ، كقولِه تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ [النساء: ٩٥] الآيةَ، فيُعرَفُ المُفضَّلُ بالتَّصريحِ، كما في آيةِ ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ [النساء: ٩٥]، أو بالقَرينةِ، كما في قولِه هنا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ إلخ؛ لِظُهورِ أنَّ العِلمَ كَمالٌ، ولِتَعْقيبِه بقولِه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٢]. أو الاستِفهامُ للتَّنبيهِ على أنَّ كَوْنَ الأَوَّلينَ في أعلَى مَعارجِ الخَيرِ، وكَوْنَ الآخَرينَ في أقْصَى مَدارجِ الشَّرِّ، مِنَ الظُّهورِ بحيثُ لا يَكادُ يَخْفَى على أحدٍ؛ مِن مُنصفٍ ومُكابرٍ. وقيل: واردٌ على سَبيلِ التَّشبيهِ، أيْ: كما لا يَستَوي العالِمونَ والجاهِلونَ، كذلك لا يَستَوي القانِتونَ والعاصونَ[٣].

- ووُقوعُ فِعلِ ﴿يَسْتَوِى﴾ في حَيِّزِ النَّفيِ يَكسِبُه عُمومَ النَّفيِ لِجَميعِ جِهاتِ الاستِواءِ، وإذْ قد كان نَفْيُ الاستِواءِ كِنايةً عنِ الفَضلِ، آلَ إلى إثباتِ الفَضلِ لِلَّذين يَعلَمونَ على وَجهِ العُمومِ[٤].

- وأرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ العامِلينَ مِن عُلَماءِ الدِّيانةِ، كأنَّه جَعَل مَن لا يَعمَلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٩).

غَيرَ عالِمٍ، وفيه ازدِراءٌ عَظيمٌ بالَّذين يَقتَنونَ العُلومَ ثم لا يَقنُتونَ، ويَفْتَنُّون فيها ثم يُفتَنونَ بالدُّنيا؛ فهم عِندَ اللهِ جَهَلةٌ، حيثُ جَعَلَ القانِتينَ هُمُ العُلماءَ باعتِبارِ القُوَّةِ العِلميَّةِ، بَعدَ نَفيِه باعتِبارِ القُوَّةِ العَمَليَّةِ على وَجهٍ أبلَغَ؛ لِمَزيدِ فَضلِ العِلْمِ[1].

- وفِعلُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ في المَوضِعَينِ مُنزَّلٌ مَنزلةَ اللَّازِمِ؛ فلم يُذكَرْ له مَفعولٌ، والمَعنى: الَّذين اتَّصَفوا بصِفةِ العِلْمِ، وليس المَقصودُ الَّذين عَلِموا شَيئًا مُعَيَّنًا حتَّى يَكونَ مِن حَذفِ المَفعولَينِ اختِصارًا؛ إذْ ليس المَعنى عليه[2].

- وعَدَل في قولِه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عن أنْ يَقولَ: (هل يَستَوي هذا وذاك) إلى التَّعبيرِ بالمَوصولِ؛ إدْماجًا لِلثَّناءِ على فَريقٍ، ولِذَمِّ فَريقٍ بأنَّ أهلَ الإيمانِ أهلُ عِلْمٍ، وأهلَ الشِّركِ أهلُ جَهالةٍ، فأغنَتِ الجُملةُ بما فيها مِن إدماجٍ[3] عن ذِكرِ جُملَتَينِ؛ فالَّذين يَعلَمونَ هم أهلُ الإيمانِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، والَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٨).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

لا يَعلَمونَ هم أهلُ الشِّركِ الجاهِلونُ؛ قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ [الزمر: ٦٤]. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الإيمانَ أخو العِلْمِ؛ لِأنَّ كِلَيْهما نُورٌ ومعرفةٌ حقٌّ، وأنَّ الكُفرَ أخو الضَّلالِ؛ لِأنَّه والضَّلالَ ظُلمةٌ وأوهامٌ باطِلةٌ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ كَلامٌ مُستقِلٌّ غيرُ داخلٍ في الكلامِ المأمورِ به، واردٌ مِن جِهَتِه تعالى بعْدَ الأمْرِ بما ذُكِرَ مِن القَوارعِ الزَّاجرةِ عن الكُفْرِ والمعاصِي؛ لِبَيانِ عدَمِ تأْثيرِها في قُلوبِ الكَفرةِ؛ لاختلالِ عُقولِهم، وهو أيضًا كالتَّوطئةِ لإفرادِ المؤمِنينَ بالخِطابِ، والإعراضِ عن غيرِهم؛ أي: إنَّما يَتَّعِظُ بهذه البياناتِ الواضحةِ أصحابُ العقولِ الخالصةِ عن شوائبِ الخَللِ، وأمَّا هؤلاءِ فبمَعزلٍ عن ذلك(٢).

- وقيل: قولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ واقِعٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لِنَفيِ الاستِواءِ بيْنَ العالِمِ وغَيرِه، والمَقصودُ منه تَفضيلُ العالِمِ والعِلْمِ؛ فإنَّ كلمةَ (إنَّما) مُركَّبةٌ مِن حرفَينِ: (إنَّ) و(ما) الكافَّةِ، أو النَّافيةِ؛ فكانت (إنَّ) فيه مُفِيدةً لِتَعليلِ ما قبْلَها، مُغْنيةً غَناءَ فاءِ التَّعليلِ؛ إذ لا فرْقَ بيْن (إنَّ) المفرَدةِ و(إنَّ) المركَّبةِ مع (ما)، بلْ أفادَها التَّركيبُ زِيادةَ تأْكيدٍ، وهو نفْيُ الحُكمِ الَّذي أثبَتَتْه (إنَّ) عن غيرِ مَن أثبَتَتْه له. وقد أُخِذَ في تَعليلِ ذلك جانِبُ إثباتِ التَّذَكُّرِ للعالِمينَ، ونَفيه مِن غَيرِ العالِمينَ، بطَريقِ الحَصرِ؛ لِأنَّ جانِبَ التَّذكُّرِ هو جانِبُ العَمَلِ الدِّينيِّ، وهو المَقصدُ الأهَمُّ في الإسلامِ؛ لِأنَّ به تَزكيةَ النَّفْسِ والسَّعادةَ الأبَديَّةَ، والألبابُ: العُقولُ، وأُولو الألبابِ: هم أهلُ العُقولِ الصَّحيحةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٥)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٣٧).

وهم أهلُ العِلْم، فلَمَّا كان أهلُ العِلْمِ هم أهلَ التَّذكُّرِ دُونَ غيرِهم، أفادَ عَدَمَ استِواءِ الَّذين يَعلَمونَ والَّذين لا يَعلَمونَ، فليس قَولُه: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ كَلامًا مُستَقِلًّا[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ...﴾ أُمِرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَذكيرِ المُؤمِنينَ، وحَمْلِهم على التَّقْوى والطَّاعةِ، إثْرَ تَخصيصِ التَّذكُّرِ بأُولي الألبابِ؛ إيذانًا بأنَّهم هم، كما سيُصَرَّحُ به، أيْ: قُل لهم قَولي هذا بعَينِه[٢].

- وابتِداءُ المَقولِ بالنِّداءِ وبوَصفِ العُبوديَّةِ المُضافِ إلى ضَميرِ اللهِ تَعالى فيه تَشريفٌ لهم، ومَزيدُ اعتِناءٍ بشَأنِ المَأمورِ به؛ فإنَّ نَقْلَ عَينِ أمْرِ اللهِ أدخَلُ في إيجابِ الامتِثالِ به، وهذا وضْعٌ لهم في مَقامِ المُخاطَبةِ مِنَ اللهِ، وهي دَرَجةٌ عَظيمةٌ[٣].

- وقولُه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قرَأَه العَشَرةُ بدُونِ ياءٍ في الوصْلِ والوقْفِ[٤]، بخِلافِ قولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣] الآتي في هذه السُّورةِ؛ فالمُخالَفةُ بيْنَهما مُجرَّدُ تَفنُّنٍ. وقد يُوجَّهُ هذا التَّخالُفُ بأنَّ المخاطَبينَ في هذه الآيةِ همْ عِبادُ اللهِ المتَّقون؛ فانتِسابُهم إلى اللهِ مُقرَّرٌ، فاستُغْنِيَ عن إظهارِ ضَميرِ الجَلالةِ في إضافتِهم إليه، بخِلافِ الآيةِ الآتيةِ، فليس في كَلمةِ ﴿يَٰعِبَادِ﴾ مِن هذه الآيةِ إلَّا وَجهٌ واحدٌ باتِّفاقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ١٣٨).

العشَرةِ؛ ولذلك كتَبَها كُتَّابُ المصحَفِ بدُونِ ياءٍ بعْدَ الدَّالِ[١].

- وفي استِحضارِ عِبادِ اللهِ بالمَوصولِ وصِلَتِه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ تَقرُّرَ إيمانِهم مِمَّا يَقتَضي التَّقْوى والامتِثالَ لِلمُهاجَرةِ[٢].

- والأمْرُ بالتَّقْوى في قولِه: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ مُرادٌ به الدَّوامُ على المَأمورِ به؛ لِأنَّهم مُتَّقونَ مِن قَبْلُ، وهو يُشعِرُ بأنَّهم قد نَزَل بهم مِنَ الأذَى في الدِّينِ ما يُخشَى عليهم معه أنْ يُقَصِّروا في تَقْواهم، وهذا الأمْرُ تَمهيدٌ لِمَا سَيُوجَّهُ إليهم مِن أمْرِهم بالهِجرةِ؛ لِلسَّلامةِ مِنَ الأذى في دِينِهم، وهو ما عَرَّضَ به في قَولِه: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾[٣].

- وجُملةُ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ وما عُطِفَ عليها: استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ إيرادَ الأمْرِ بالتَّقوى للمتَّصفينَ بها يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن المقصودِ مِن ذلك الأمْرِ، فأُرِيدَ بَيانُه بقولِه: (أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ)، ولكن جُعِل قَولُه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ تَمهيدًا؛ لِقَصدِ تَعجيلِ التَّكَفُّلِ لهم بمُوافَقةِ الحُسْنى في هِجرَتِهم. ويَجوزُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ مَسوقةً مَساقَ التَّعليلِ لِلأمْرِ بالتَّقْوى الواقِعِ بَعدَها[٤]، أو لِوُجوبِ الامتِثالِ به، وإيرادُ الإحسانِ في حَيِّزِ الصِّلةِ دُونَ التَّقْوى؛ لِلإيذانِ بأنَّه مِن بابِ الإحسانِ، وأنَّهما مُتَلازِمانِ، والمُرادُ بـ (الَّذين أحسَنوا): الَّذين اتَّقَوُا اللهَ، وهمُ المُؤمِنونَ الموصوفون بما تقدَّم مِن قولِه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ [الزمر: ٩] الآيةَ، فعَدَلَ عن التَّعبيرِ بضَميرِ الخِطابِ بأنْ يُقالَ: لَكم في الدُّنيا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٥٣).

حَسَنةٌ، إلى الإتيانِ باسمِ المَوصولِ الظَّاهِرِ، وهو (الَّذين أحسَنوا)؛ لِيَشملَ المُخاطَبينَ وغَيرَهم مِمَّن ثَبَتتْ له هذه الصِّلةُ، وذلك في مَعنى: اتَّقوا رَبَّكم لِتَكونوا مُحسِنينَ؛ فإنَّ لِلَّذين أحسَنوا حَسَنةً عَظيمةً؛ فكونوا منهم. وتَقديمُ المُسنَدِ في ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾؛ لِلاهتِمامِ بالمُحسَنِ إليهم، وأنَّهم أحْرياءُ بالإحسانِ[1].

- وتَوسيطُ قولِه: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بيْن ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ وبيْن ﴿حَسَنَةٞ﴾ نَظْمٌ بليغٌ حسَنٌ ممَّا اختُصَّ به القُرآنُ في مَواقعِ الكَلِمِ؛ لإكثارِ المعاني الَّتي يَسمَحُ بها النَّظْمُ، وهذا مِن طُرُقِ إعجازِ القرآنِ؛ فيَجوزُ أنْ يَكونَ قَولُه: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾ حالًا مِن ﴿حَسَنَةٞ﴾ قُدِّمَ على صاحِبِ الحالِ؛ لِلتَّنبيهِ مِن أوَّلِ الكَلامِ على أنَّها جَزاؤُهم في الدُّنيا؛ لِقِلَّةِ خُطورِ ذلك في بالِهم، ضَمِنَ اللهُ لهم تَعجيلَ الجَزاءِ الحَسَنِ في الدُّنيا قبْلَ ثَوابِ الآخِرةِ، على نحوِ ما أثْنى على مَن يقولُ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ [البقرة: ٢٠١]، ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ مُتَعَلِّقًا بفعلِ ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ على أنَّه ظرفٌ لُغَويٌّ[2]، أي: فَعَلوا الحسناتِ في الدُّنيا، فيكونُ المقصودُ التَّنبيهَ على المبادرةِ بالحسناتِ في الحياةِ الدُّنيا قبلَ الفواتِ، والتَّنبيهَ على عدمِ التَّقصيرِ في ذلك[3].

- وفي قولِه: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ جاء في نَظيرِ هذه الجُملةِ في سُورةِ (النَّحلِ) قولُه: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ [النحل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٣).

(٢) الظَّرْفُ اللُّغويُّ: هو ما كان العاملُ فيه مذكورًا، نحو: زيدٌ حصَل في الدَّارِ. ينظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٣، ٣٥٤).

٣٠]، أي: خيرٌ مِن أُمورِ الدُّنيا، ويَكونَ الاقتِصارُ على حَسَنةِ الدُّنيا في آيةِ (الزُّمَر) هنا؛ لِأنَّها مَسوقةٌ لِتَثبيتِ المُسلِمينَ على ما يُلاقونَه مِنَ الأذَى، ولِأمْرِهم بالهِجرةِ عن دارِ الشِّركِ والفِتنةِ في الدِّينِ، فأمَّا ثَوابُ الآخِرةِ فأمْرٌ مُقَرَّرٌ عِندَهم مِن قبْلُ، ومُوماٌ إليه بقَولِه بَعدَه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أيْ: يُوَفَّوْنَ أجرَهم في الآخِرةِ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ فيه نُكتةٌ، وهي أنَّ اسمَ الإشارةِ لِلإشعارِ بأنَّ الدَّارَ الدُّنيا نِعْمَ الدَّارُ إنْ جُعِلَتْ مَكانًا لِلعَمَلِ، وحَرثًا لِلآخِرةِ[2].

- وتَنوينُ ﴿حَسَنَةٌ﴾ لِلتَّعظيمِ، وهو بالنِّسبةِ لِحَسَنةِ الآخِرةِ لِلتَّعظيمِ الذَّاتيِّ، وبالنِّسبةِ لِحَسَنةِ الدُّنيا تَعظيمٌ وَصْفيٌّ، أيْ: حَسَنةٌ أعظَمُ مِنَ المُتَعارَفِ، وأيًّا ما كان فاسْمُ الإشارةِ في قَولِه: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ لِتَمييزِ المُشارِ إليه، وإحضارِه في الأذهانِ، وعليه فالمُرادُ بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ يَحتمِلُ حَسَنةَ الآخِرةِ، ويَحتمِلُ حَسَنةَ الدُّنيا[3].

- وقولُه: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، مُستَأنَفٌ لِتَعليلِ الأمْرِ بالتَّقْوى، وإنَّما قُيِّدَ الفِعلُ بالظَّرفِ -وهو ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾- لِلإشعارِ بأنَّ الدُّنيا مَكانُ الإحسانِ، ومَزرَعةٌ لِحَرثِ الآخِرةِ، فأُريدَ تَتميمُ ذلك المَعنى، فقيلَ: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾؛ لِئلَّا يَعتَذِرَ العامِلُ لِتَفريطِه في الأعمالِ بالاعتِلالِ بالأوطانِ، وأنَّه لم يَكُنْ مُتَمكِّنًا مِنَ الإحسانِ في أرضِه، كأنَّه قيلَ لهم: اتَّقوا رَبَّكم فيما تَأتونَ به وتَذَرونَ، وتَيَقَّنوا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٤).

بحُصولِ أمْرَيْنِ: جَزاءِ الإحسانِ، وفُسحةِ المَكانِ، فهاجِروا وتَحَوَّلوا إنْ لم تَتمكَّنوا مِنَ التَّقْوى في أرضِكم، ثمَّ اتَّجَه لهم أنْ يَسألوا ويَقولوا: فماذا يَكونُ بَعدَ تلك الحَسَنةِ لنا مِنَ الأجْرِ حِينَئِذٍ؟ فأُجيبوا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، يعني أنَّ اللهَ تعالى وَفَّي أجْرَ مَن سَبَق عليكم مِنَ الأنبياءِ والصَّالِحينَ بصَبرِهم على مُهاجَرَتِهم إلى غَيرِ بِلادِهم؛ لِيَزدادوا إحسانًا إلى إحسانِهم، وطاعةً إلى طاعَتِهم، فلَكُمُ الأجْرُ وتَوفيَتُه إذا اقتَفَيتُم أثَرَهم، واقتَدَيتُم بهُداهم[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ عَطفٌ على قَولِه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ عَطفَ المَقصودِ على التَّوطِئةِ، وهو خَبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بالحَثِّ على الهِجرةِ في الأرضِ؛ فِرارًا بدِينِهم مِنَ الفِتَنِ، بقَرينةِ أنَّ كَونَ الأرضِ واسِعةً أمْرٌ مَعلومٌ، لا يَتعَلَّقُ الغَرَضُ بإفادَتِه، وإنَّما كُنِّيَ به عن لازِمِ مَعناه، والوَجهُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ مُعتَرِضةً، والواوُ اعتِراضيَّةٌ؛ لِأنَّ تلك الجُملةَ جَرَتْ مَجرى المَثَلِ، ونُكتةُ الكِنايةِ هنا: إلقاءُ الإشارةِ إليهم بلُطفٍ وتَأنيسٍ دُونَ صَريحِ الأمْرِ؛ لِمَا في مُفارَقةِ الأوطانِ مِنَ الغَمِّ على النَّفْسِ، وأمَّا الآيةُ الَّتي في سُورةِ (النِّساءِ): ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]؛ فإنَّها حِكايةُ تَوبيخِ المَلائِكةِ لِمَن لم يُهاجِروا[2].

- ومَوقِعُ جُملةِ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ مَوقِعُ التَّذييلِ لِجُملةِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٤، ٣٥٥).

﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ وما عُطِفَ عليها؛ لِأنَّ مُفارَقةَ الوَطَنِ والتَّغرُّبَ والسَّفَرَ مَشاقٌّ لا يَستَطيعُها إلَّا صابِرٌ؛ فذَيَّلَ الأمْرَ به بتَعظيمِ أجْرِ الصَّابِرينَ لِيَكونَ إعلامًا للمُخاطَبينَ بأنَّ أجرَهم على ذلك عَظيمٌ؛ لِأنَّهم حِينَئذٍ مِنَ الصَّابِرينَ الَّذين أجْرُهم بغَيرِ حِسابٍ. وصِيغةُ العُمومِ في قَولِه: ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ تَشمَلُ كُلَّ مَن صَبَرَ على مَشَقَّةٍ في القِيامِ بواجِباتِ الدِّينِ، وامتِثالِ المَأموراتِ، واجتِنابِ المَنهيَّاتِ، ومَراتِبُ هذا الصَّبرِ مُتفاوِتةٌ، وبقَدْرِها يَتفاوَتُ الأجْرُ[١].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ تَرغيبٌ في التَّقْوى المَأمورِ بها. وإيثارُ (الصَّابِرينَ) على (المُتَّقينَ)؛ لِلإيذانِ بأنَّهم حائِزونَ لِفَضيلةِ الصَّبرِ كحيازَتِهم لِفَضيلةِ الإحسانِ؛ لِمَا أُشيرَ إليه مِن استِلزامِ التَّقْوى لهما، مع ما فيه مِن زيادةِ حثٍّ على المُصابَرةِ والمُجاهَدةِ في تَحمُّلِ مَشاقِّ المُهاجَرةِ ومَتاعِبِها[٢].

- والحَصرُ المُستَفادُ مِن ﴿إِنَّمَا﴾ مُنصَبٌّ على القَيدِ، وهو ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾، والمَعنى: ما يُوَفَّى الصَّابِرونَ أجْرَهم إلَّا بغَيرِ حِسابٍ، وهو قَصرُ قَلبٍ[٣] مَبنيٌّ على قَلبِ ظَنِّ الصَّابرينَ أنَّ أجْرَ صَبرِهم بمِقدارِ صَبرِهم، أيْ: أنَّ أجْرَهم لا يَزيدُ على مِقدارِ مَشَقَّةِ صَبرِهم[٤].

- وفي ذِكرِ التَّوفيةِ وإضافةِ الأجْرِ إلى ضَميرِهم ﴿أَجۡرَهُم﴾، تَأنيسٌ لهم بأنَّهمُ استَحَقُّوا ذلك، لا مِنَّةَ عليهم فيه، وإنْ كانتِ المِنَّةُ للهِ على كُلِّ حالٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص:٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ كِنايةٌ عنِ الوَفرةِ والتَّعظيم؛ لِأنَّ الشَّيءَ الكثيرَ لا يُتصَدَّى لِعَدِّه، والشَّيءَ العظيمَ لا يُحاطُ بمِقدارِه؛ فإنَّ الإحاطةَ بالمِقدارِ ضَربٌ مِنَ الحِسابِ، وذلك شَأنُ ثَوابِ الآخِرةِ الَّذي لا يَخطُرُ على قَلبِ بَشَرٍ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٥).

## الآيات (١١-١٦)

﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظُلَلٌ﴾: أي: أطباقٌ وسُرادِقاتٌ، والظُّلَّةُ: شَيءٌ مُرتَفِعٌ مِن بِناءٍ أو أعوادٍ، يَستَظِلُّ به الجالِسُ تَحتَه، وأصلُ (ظلل): يدُلُّ على سَترِ شَيءٍ لِشَيءٍ[1].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

قَولُه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾: في هذه اللَّام وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها للتَّعليلِ، ويكونُ المأمورُ به مَحذوفًا، تَقديرُه: وأُمِرْتُ أن أعبُدَ اللهَ لِأنْ أكونَ. الثَّاني: أن تكونَ اللَّامُ مَزيدةً في المَفعولِ للتَّأكيدِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبيِّنَ للنَّاسِ ما أمَره به سبحانَه، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: إنِّي أُمِرتُ أنْ أعبُدَ اللهَ تعالى وَحْدَه عِبادةً خالِصةً لا شِركَ فيها ولا رِياءَ، وأُمِرتُ بذلك؛ لأجْلِ أن أكونَ أوَّلَ المُسلِمينَ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤١٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٦٠).

قُلْ: إنِّي أخافُ إن عَصَيتُ رَبِّي عذابَ يَومٍ عَظيمٍ.

قُلِ: اللهُ وَحْدَه أعبُدُه وأُخلِصُ له في طاعتي، ولا أُشرِكُ به شَيئًا؛ فاعبُدوا -أيُّها المُشرِكونَ- ما شِئتُم مِن دُونِه سُبحانَه!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبيِّنَ سوءَ عاقبةِ مَن أعرَض عن دعوةِ الحقِّ، فيقولُ: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: إنَّ الخاسِرينَ هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ بالحِرمانِ مِن الجنَّةِ، ودُخولِ النَّارِ، ألَا ذلك الخُسرانُ هو الخُسرانُ الواضِحُ؛ لهم مِن فَوقِهم أطباقٌ مِن النَّارِ تَلتَهِبُ عليهم، ومِن تَحتِهم أطباقٌ مِن النَّارِ، ذلك العذابُ يُخوِّفُ اللهُ به عِبادَه؛ فاتَّقوا اللهَ يا عِبادَ اللهِ، بامتِثالِ ما أَمَر، واجتِنابِ ما عنه نهى وزَجَر.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ: إنِّي أُمِرتُ بإفرادِ اللهِ تعالى وَحْدَه في جَميعِ عِباداتي الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وإخلاصِها له؛ فلا ينبغي أن أُشرِكَ به شَيئًا[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

قيل: أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِ ذلك للمُشرِكينَ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، وابن عطية، وأبو حيان، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٧).

وقيل: أُمِر أن يقولَ ذلك للنَّاسِ. وممَّن قال به: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النمل: ٩١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٦].

﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان للعبادةِ رُكنانِ: عَمَلُ القَلبِ وعَمَلُ الجَوارِحِ، وكان عمَلُ القلبِ أشرَفَ مِن عَمَلِ الجوارحِ؛ قَدَّمَه سُبحانَه بقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي: مُخلِصًا له التَّوحيدَ، لا أُشرِكُ به شيئًا، ثمَّ ذَكَر عَقِبَه الأدْوَنَ، وهو عَمَلُ الجوارحِ، وهو الإسلامُ المذكورُ في قَولِه[1]:

﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾.

أي: وأُمِرتُ بإفرادِه بالعبادةِ؛ لأجْلِ أن أكونَ بذلك أوَّلَ المُسلِمينَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٦).

قال الزمخشري في تفسيرِ قَولِه: ﴿أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾: (أي: مُقَدَّمَهم وسابِقَهم في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٨).

وممَّن قال بهذا القولِ أيضًا: البيضاويُّ، والنسفي، والنيسابوري. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٣)، ((تفسير النيسابوري)) (٥/ ٦١٨).

وقيل: المرادُ: أوَّلُ المُسلِمينَ مِن أُمَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢١).

قال ابنُ عثيمين: (وهناك احتِمالٌ آخَرُ: أنَّ الأوَّليَّةَ هنا أوَّليَّةُ الصِّفةِ، يعني: أنَّني أسبَقُ المسلمينَ =

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أمْرَه بالإخلاصِ بالقَلبِ، وبالأعمالِ المخصوصةِ، وكان الأمرُ يَحتمِلُ الوُجوبَ ويَحتمِلُ النَّدبَ؛ بيَّنَ أنَّ ذلك الأمرَ للوُجوبِ، فقال[1]:

﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: قُلْ: إنِّي أخافُ إن عَصَيتُ ربِّي فيما أمَرَني به مِن تَوحيدِه وإخلاصِ العِبادةِ له: عذابَ يومِ القيامةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

---

= مِن حيثُ التَّقَدُّمُ إلى الإسلامِ... لأنَّنا نعلَمُ أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم هو أوَّلُ مَن يَنقادُ لله سُبحانَه وتعالى، وأنَّه أعظَمُ النَّاسِ انقيادًا، وأشَدُّهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٦، ١٢٧).

وقال ابن عاشور: (المقصودُ أنَّه مأمورٌ بأنْ يكونَ أقوَى المسلمينَ إسلامًا، بحيثُ أنَّ ما يقومُ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أمورِ الإسلامِ أعظَمُ مِمَّا يقومُ به كلُّ مُسلمٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن ما أُمِرَ به، وأعلَمَ أنَّه يَخافُ مِن مُخالَفةِ الأمرِ له بذلك، فأفهَمَ أنَّه مُمتَثِلٌ لِما أُمِرَ به؛ أمَرَه سُبحانَه بأن يُصَرِّحَ بذلك؛ لأنَّ للتَّصريحِ مِن المَزيَّةِ ما لا يَخفَى[1].

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤﴾.

أي: قُلِ: اللهُ وَحْدَه أُفرِدُه بعبادتي، وأُخلِصُ له في طاعتي، ولا أُشرِكُ به شَيئًا[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾.

﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾.

أي: فاعبُدوا -أيُّها المُشرِكونَ- مِن دُونِ اللهِ أيَّ شَيءٍ شِئتُموه مِنَ الأوثانِ أو غَيرِها؛ اتِّباعًا لأهوائِكم بلا بُرهانٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٠)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٩).

قال الشَّوكاني: (هذا الأمرُ للتَّهديدِ والتَّقريعِ والتَّوبيخِ، كقَولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: ٤٠]). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٢، ٥٢٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤). =

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ: إنَّ الخاسِرينَ حَقيقةً هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم بحِرمانِها مِنَ الجنَّةِ، واستِحقاقِها دُخولَ النَّارِ، وخَسِروا أهليهم يومَ القيامةِ كذلك[1].

---

= وممَّن قال بأنَّ الأمرَ هنا للتَّهديدِ: ابنُ عطية، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٥).

قال ابنُ عثيمين: (هذا يحتمِلُ أن يكونَ تَهديدًا، ويحتمِلُ أن يكونَ تَحدِّيًا... والقاعِدةُ عندَنا في التَّفسيرِ: أنَّه إذا كانت الآيةُ تَحمِلُ مَعنيَينِ لا يَتنافَيانِ تُحمَلُ عليهما جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨١)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٣/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٠، ٣٦١).

قيل: المرادُ بخُسرانِهم أهليهم يومَ القيامةِ: أنَّهم يُفرَّقُ بيْنَهم وبيْن أهليهم، فلا التِقاءَ لهم أبدًا، سواءٌ ذهب أهلوهم إلى الجنَّةِ، أو سكنوا جميعًا النَّارَ، ولكنْ لا اجتِماعَ لهم ولا سرور. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٤، ١٣٥). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٦).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ -أي: أنَّه لا يكونُ لهم أهلٌ في النَّارِ يَرجِعون إليهم-: ابنُ زَيدٍ، ومُجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨١).

قال الشوكاني: (وأمَّا خُسْرانُهم لِأهْليهم فلأنَّهم إنْ كانوا معهم في النَّارِ فلا يَنتفِعونَ بهم، وإنْ كانوا في الجنَّةِ فقد حِيلَ بيْنَهم وبيْنَهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٢).

وقال البِقاعي: (ولَمَّا كان أعَزُّ ما على الإنسانِ بعدَ نفْسِه أهْلَه الَّذين عِزُّه بهم؛ قال: ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾، أي: لِأنَّهم إن كانوا مِثلَهم فحالُهم في الخَسارةِ كحالِهم، ولا يُمكِنُ أحدًا منهم أن يواسيَ =

﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: ألَا إنَّ خُسرانَ المُشرِكينَ أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ هو الخُسرانُ الواضِحُ الَّذي لا خُسرانَ مِثلُه[1].

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر خُسرانَهم أنفُسَهم وأهليهم؛ ذَكَر حالَهم في جَهنَّمَ[2].

وأيضًا لَمَّا شرَحَ الله تعالى أحوالَ حِرمانِهم مِن الرِّبحِ، وبيَّن كَيفيَّةَ خُسرانِهم؛ بيَّن أنَّهم لم يَقتَصِروا على الحِرمانِ والخُسرانِ، بل ضَمُّوا إليه استِحقاقَ العَذابِ العَظيمِ، والعِقابِ الشَّديدِ؛ فقال[3]:

﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

أي: للخاسِرينَ يومَ القيامةِ أطباقٌ مِن النَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تَحتِهم، محيطةٌ

---

= صاحبَه بوجهٍ؛ فإنَّه لِكُلٍّ منهم شأنٌ يُغْنيه، وإن كانوا ناجينَ فلا اجتِماعَ بيْنَهم). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٧٦).

وقيلَ: خُسرانُ الأهلِ: أنَّهم لو آمَنوا لَكانَ لهم في الجنَّةِ أهلٌ مِن الحُورِ العِينِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الخازنُ، وجلالُ الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٤).

بهم، تلتهِبُ عليهم[١].

كما قال سُبحانَه: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ﴾.

أي: ذلك الَّذي أخبَرَ اللهُ به مِن عذابِ الخاسِرينَ يومَ القيامةِ: يُخَوِّفُ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١، ٣٦٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالظُّلَلِ: الأطباقُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابن الجوزي، والبيضاوي، والنسفي، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨٤).

قال الشوكاني: (وسُمِّيَ ما تحتَهم ظُلَلًا؛ لأنَّها تُظِلُّ مَن تحتَها مِن أهلِ النَّارِ؛ لأنَّ طبقاتِ النَّارِ صارَ في كلِّ طبقةٍ منها طائفةٌ مِن طوائفِ الكفَّارِ، ومِثلُ هذه الآيةِ قولُه: ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾، وقولُه: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٣).

وقال ابن جرير: (﴿ مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ وذلك كهيئةِ الظُّلَلِ المَبنيَّةِ مِن النَّارِ، ﴿ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾ يقولُ: ومِن تحتِهم مِن النَّارِ ما يَعلوهم، حتَّى يَصيرَ ما يَعلوهم منها مِن تحتِهم ظُلَلًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٢).

وقال السعدي: (﴿ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي: قِطَعُ عذابٍ كالسَّحابِ العظيمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

وقيل: المرادُ أنَّهم مُعلَّقونَ في غَمَراتِ الاضطرابِ، يُصعِدُهم اللَّهيبُ تارةً، ويَهبِطُهم انعكاسُه عليهم برُجوعِه إليهم مرَّةً أخرَى، فلا قرارَ لهم أصلًا، كما يكونُ الحَبُّ في الماءِ على النَّارِ، يَغلي به صعودًا وهبوطًا، فلا يَقِرُّ في أسفَلِ القِدرِ أصلًا. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٧).

عِبادَه[١].

﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾.

أي: فاتَّقوا اللهَ يا عبادَ اللهِ، بامتِثالِ ما أمَر، واجتِنابِ ما نهَى عنه وزَجَر؛ للنَّجاةِ مِن سَخَطِه وعَذابِه[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ هذا يَشتَمِلُ على قَيدَينِ؛ أحدُهما: الأمرُ بعبادةِ اللهِ. الثَّاني: كَونُ تلك العبادةِ خالِصةً عن شوائِبِ الشِّركِ الجَليِّ، وشَوائِبِ الشِّركِ الخَفيِّ، وإنَّما خَصَّ اللهُ تعالى الرَّسولَ بهذا الأمرِ؛ لِيُنبِّهَ على أنَّ غَيرَه بذلك أحَقُّ؛ فهو كالتَّرغيبِ للغَيرِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ* وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فلأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو الدَّاعي الهادي للخَلقِ إلى رَبِّهم يَقتضي ذلك أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوَّلُ مَن ائتَمَر بما يأمُرُ به، وأوَّلُ مَن أسلَمَ، وهذا الأمرُ لا بُدَّ مِن إيقاعِه أيضًا مِمَّن زَعَم أنَّه مِن أتْباعِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلا بُدَّ مِن الإسلامِ في الأعمالِ الظَّاهِرةِ، والإخلاصِ لله في الأعمالِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أنَّ اللهَ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٢، ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

أمَرَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجريَ هذا الكَلامَ على نَفْسِه، والمقصودُ منه المُبالَغةُ في زَجرِ الغَيرِ عن المعاصي؛ لأنَّه مع جلالةِ قَدرِه وشَرَفِ نُبُوَّتِه إذا وَجَب أن يكونَ خائفًا حَذِرًا عن المعاصي، فغَيرُه بذلك أَولى[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ فيه أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يُعلِنَ بالحَقِّ الَّذي هو عليه، ولا يُبالي بمَنْ خالَفَه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَسيرَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ على جانبٍ مِن الخَوفِ مِن العذابِ، وأنْ يَخافَ ممَّا خَوَّفَه اللهُ؛ حتَّى يُحَقِّقَ العبوديَّةَ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إذا جمَعْتَ بيْن قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾، عرَفْتَ شِدَّةَ امتِثالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لرَبِّه، وأنَّه عَبَد اللهَ مُخلِصًا له الدِّينَ، وأعلَنَ ذلك للمَلأِ غيرَ مُبالٍ بمُخالَفتِهم[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ فيه أنَّ الإنسانَ مأمورٌ بأنْ يُعلِنَ ما أمَرَ اللهُ به مِن عبادتِه؛ ولهذا فائِدتانِ؛ الفائِدةُ الأُولى: الحَثُّ على اتِّباعِه في هذا. والفائِدةُ الثَّانيةُ: بيانُ استِحقاقِ اللهِ سُبحانَه وتعالى لذلك، وأنَّه هو المُستَحِقُّ أن يُعبَدَ وَحْدَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أنَّ مَن لم يُخْلِصْ لم يَكُنْ قد أَتَى بالأمرِ، ويَتَفَرَّعُ على هذه القاعدةِ: أنَّ عمَلَه يكونُ مردودًا عليه؛ فإذا أشركَ يكونُ قد عَمِل عمَلًا ليس عليه أمرُ اللهِ ورسولِه، وقد قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن عَمِلَ عملًا ليس عليه أمْرُنا فهو رَدٌّ))[١].

٤- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ﴾ أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم عبدٌ مأمورٌ، ويَتفرَّعُ على هذا: أنَّه ليس له مِن الأمرِ شَيءٌ، وقد صَرَّحَ اللهُ بذلك في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ويَتفرَّعُ على ذلك أيضًا ضَلالُ أولئك القومِ الَّذين يَدْعُونَ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُغِيثَهم، أو أنْ يَجلِبَ لهمُ الخَيرَ، ويَدفَعَ عنهم الشَّرَّ[٢]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أنَّه لَمَّا كان الإسلامُ هو دينَ الأنبياءِ في خاصَّتِهم، كان في هذه الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أفضَلُ الرُّسُلِ؛ لِشُمولِ لَفظِ المُسلِمينَ للرُّسُلِ السَّابِقينَ[٣]، على القَولِ بأنَّ ﴿أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ بمعنى أقوَى المُسلِمينَ إسلامًا.

٦- قولُه: ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه جوازُ وَصْفِ غيرِ اللهِ بالعِظَمِ، فوصَفه بذلك لِشِدَّتِه وأهوالِه، وشِدَّةِ ما يكونُ فيه، وقد قال اللهُ تعالى عن ملكةِ سَبَأٍ: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣] إلى غيرِ ذلك، فوصْفُ غيرِ اللهِ بالعِظَمِ لا بأسَ به؛ لكنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٣).

والحديث ذكره البخاريُّ معلَّقًا بصيغة الجزمِ قبل حديث (٢١٤٢)، وأخرجه موصولًا مسلمٌ (١٧١٨) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٨).

العِظَمَ المُطْلَقَ إنَّما يكونُ للهِ عزَّ وجلَّ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أنَّ ظاهِرَ الأمرِ للوُجوبِ؛ وذلك لأنَّه قال: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾، ثمَّ قال بَعْدَه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ فيَكونُ معنى هذا العِصيانِ: تَرْكَ الأمرِ الَّذي تقَدَّم ذِكرُه، وذلك يَقتَضي أن يكونَ تارِكُ الأمرِ عاصِيًا، والعاصي يَترتَّبُ عليه الخَوفُ مِن العِقابِ، ولا مَعنى للوُجوبِ إلَّا ذلك[٢].

٨- أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُحتاجٌ إلى العَمَلِ الَّذي يُنجيه مِن عَذابِ اللهِ؛ لِقَولِه: ﴿مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ بالياءِ بالإضافةِ، وهو كذلك، ولَمَّا حَدَّثَ أصحابَه بأنَّه: ((ما مِن أحدٍ يُدخِلُه عمَلُه الجنَّةَ، فقيل: ولا أنتَ يا رسولَ الله؟ قال: ولا أنا، إلَّا أن يَتغمَّدَني ربِّي برحمةٍ))[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أنَّ عُمُرَ الإنسانِ حقيقةً هو ما أمضاه في طاعةِ اللهِ؛ ولهذا وَصَفَ اللهُ هؤلاء بأنَّهم قد خَسِروا أنفُسَهم؛ لأنَّهم لم يَعمَلوا خيرًا[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ أنَّ أهلَ الشِّركِ يومَ القيامةِ لا يَجتمِعونَ بأهْليهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٥).

والحديث أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٧٢) (٢٨١٦) -واللَّفظُ له- من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ سُؤالٌ: أنَّ الظُّلَلَ ما على الإنسانِ، فكيف سُمِّيَ ما تحتَه بالظُّلَلِ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّه مِن بابِ إطلاقِ اسمِ أحَدِ الضِّدَّينِ على الآخَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

**الثَّاني**: أنَّ الَّذي يكونُ تحتَه يكونُ ظُلَّةً لإنسانٍ آخَرَ تَحتَه؛ لأنَّ النَّارَ دَرَكاتٌ، كما أنَّ الجنَّةَ دَرَجاتٌ.

**الثَّالِثُ**: أنَّ الظُّلَّةَ التَّحتانيَّةَ إذا كانت مُشابِهةً للظُّلَّةِ الفَوقانيَّةِ في الحرارةِ والإحراقِ والإيذاءِ، أُطلِقَ اسمُ أحَدِهما على الآخَرِ؛ لأجْلِ المُماثَلةِ والمُشابَهةِ[1].

**الرَّابعُ**: أنَّ ما تحتَهم يَلتَهِبُ ويَتصاعَدُ منه شَيءٌ حتَّى يكونَ ظُلَّةً؛ فسُمِّيَ ظُلَّةً باعتِبارِ ما آلَ إليه أخيرًا[2].

**الخامِسُ**: أنَّ المرادَ إحاطةُ النَّارِ بهم مِن جميعِ الجِهاتِ[3].

١٢- رُبَّما احتَجَّ بَعضُهم بقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ على القَولِ بأنَّه ما ثَمَّ عذابٌ أصلًا، وإنَّما هو تخويفٌ لا حقيقةَ له! وهذا مِن أقوالِ الملاحِدةِ والكُفَّارِ. فيُقالُ لهذا: التَّخويفُ إنَّما يكونُ تَخويفًا إذا كان هناك مَخُوفٌ يُمكِنُ وُقوعُه بالمُخَوَّفِ، فإنْ لم يكُنْ هناك ما يُمكِنُ وُقوعُه امتَنَع التَّخويفُ، لكِنْ يكونُ حاصِلُه إيهامَ الخائِفينَ بما لا حَقيقةَ له، كما تُوهِمُ الصَّبيَّ الصَّغيرَ. ومَعلومٌ أنَّ مِثلَ هذا لا يَحصُلُ به تخويفٌ للعُقَلاءِ المُمَيِّزينَ؛ لأنَّهم إذا عَلِموا أنَّه ليس هناك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٣٨).

شَيءٌ مَخوفٌ زال الخَوفُ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أُمِرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ببَيانِ ما أُمِرَ به هو نَفْسُه مِنَ الإخلاصِ في عِبادةِ اللهِ، الَّذي هو عِبارةٌ عَمَّا أُمِرَ به المُؤمِنونَ مِنَ التَّقْوى؛ مُبالَغةً في حَثِّهم على الإتيانِ بما كُلِّفوه، وتَمهيدًا لِمَا يَعقُبُه مِمَّا خُوطِبَ به المُشرِكونَ[٢].

- وفي قولِه: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ جاءتْ هنا بتَعريفِ لَفظِ ﴿ٱلدِّينَ﴾ بـ (أل)، وقال بَعدُ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]، مُعَرِّفًا لَفظَ الدِّينِ بالإضافةِ؛ ووَجْهه: أنَّ قَولَه: ﴿ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ إخبارٌ عنِ المُتَكلِّمِ؛ فناسَبتِ الإضافةُ إليه، وأنَّ قَولَه: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ ليس إخبارًا عنِ المُتكَلِّم، وإنَّما الإخبارُ: ﴿أُمِرْتُ﴾ فَقَطْ، وما بَعدَه فَضلةٌ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

- عُطِفَ فِعلُ (أُمِرْتُ) هنا على فِعلِ ﴿أُمِرْتُ﴾ مِن قولِه: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، ووَجهُ هذا العَطفِ: أنَّهما ليسا بمَعنًى واحِدٍ؛ لاختِلافِ جِهَتَيْهما؛ وذلك أنَّ الأمْرَ بالإخلاصِ وتَكليفَه شَيءٌ، والأمْرَ به لِيُحرِزَ القائِمُ به قَصَبَ السَّبقِ في الدِّينِ شَيءٌ آخَرُ، وإذا اختَلَفَ الشَّيءُ وَجهًا ووصفًا يُنزَّلُ بذلك مَنزِلةَ شَيئَينِ مُختَلِفَينِ، فالتَّقديرُ: أُمِرْتُ بإخلاصِ الدِّين، وأُمِرْتُ بذلك لأنَّ أكونَ مِن السَّابِقينَ. أو: وأُمِرتُ بذلك لأجلِ أن أكونَ مقدَّمَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٥).

المسلمينَ في الدُّنيا والآخرةِ؛ لأنَّ إحرازَ قَصَبِ السَّبقِ في الدِّينِ بالإخلاصِ فيه، وإخلاصُه عليه الصلاةُ والسلامُ أتمُّ مِن إخلاصِ كلِّ مخلصٍ، فالمرادُ بالأوليَّةِ الأوليَّةُ في الشَّرفِ والرُّتبةِ[١].

وقيل: لَفظُ «أُمِرْتُ» أوَّلًا في عَمَلِ القَلبِ، وثانيًا في عَملِ الجوارِحِ، ولا يكونُ هذا تكريرًا[٢].

- وفي قَولِه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عدَّى ﴿أُمِرْتُ﴾ الأوَّلَ بـ«أن»، وعدَّى ﴿أُمِرْتُ﴾ الثَّاني باللَّامِ فقال: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ القصدَ في الأمرِ الثَّاني غيرُ القصدِ في الأمرِ الأوَّلِ، وذلك أنَّ الأوَّلَ يَتعدَّى إلى العبادةِ، والثَّاني معناه: «وأُمِرتُ أن أعبُدَ اللهَ لأنْ أكونَ أوَّلَ المسلمينَ»، أي: إنَّما أُمِرتُ بإخلاصِ العبادةِ لله تعالى، وبُعِثتُ رسولًا لأن أكونَ أوَّلَ مَن يَبدأُ بطاعةِ الله تعالى وعبادتِه على الإخلاصِ المطلوبِ؛ فاللَّامُ ليست مقحمةً -على ما ذهب إليه كثيرٌ مِن النَّحْويِّينَ- وإنَّما معناه ما ذكَرْنا مِن أنَّ الأمرَ بالعبادةِ لأجْلِ أن يفعلَ أوَّلًا ما أُمِر به، ثمَّ يحمِلَ النَّاسَ على مِثلِه[٣]، فقولُه: ﴿لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ عِلَّةٌ لـ ﴿أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ فالتَّقديرُ: وأُمِرْتُ بذلك؛ لأنْ أكونَ أوَّلَ المسلمينَ، فمُتعلَّقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١١٠). ويُنظر أيضًا: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٥).

﴿أُمِرْتُ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ عليه[١]. فدخلَتِ اللَّامُ لأنَّ مُتعلَّقَ (أُمِرْتُ) الثَّاني غيرُ الأوَّلِ؛ لاختِلافِ جِهتَيْهِما[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾

- على القَولِ بأنَّ المخاطَبَ بقولِه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ هو المشركونَ، فإعادةُ الأمْرِ بالقَولِ لِلتَّأكيدِ؛ اهتِمامًا بهذا المَقولِ. وعلى أنَّ المخاطَبَ المؤمنونَ، فإعادةُ فِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ لِأجْلِ اختِلافِ المقصودينَ بتَوجيهِ القَولِ إليهم[٣].

- والمرادُ بقولِه: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يَومُ القِيامةِ، ووُصِفَ بالعَظَمةِ؛ لِعَظَمةِ ما فيهِ مِنَ الدَّواهي والأهوالِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي﴾ أعادَ الأمْرَ بعِبادةِ اللهِ هنا بعدَ قولِه: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]؛ لِأنَّ الأوَّلَ إخبارٌ بأنَّه مَأمورٌ مِن جِهةِ اللهِ بإحداثِ العِبادةِ والإخلاصِ، والثَّاني: إخبارٌ بأنَّه يَختَصُّ اللهَ وَحْدَه دُونَ غَيرِه بعِبادَتِه مُخلِصًا له دِينَه، ولِدَلالَتِه على ذلك قَدَّمَ المَعبودَ (الله سُبحانَه) على فِعلِ العِبادةِ، وأخَّرَه في الأوَّلِ؛ فالكَلامُ أوَّلًا واقعٌ في الفِعلِ نَفْسِه وإيجادِه، وثانيًا فيمَن يَفعَلُ الفِعلَ لِأجْلِه، فأخبَرَ بامتِثالِه بالأمْرِ على أبلَغِ وَجهٍ وآكَدِه؛ إظهارًا لِتَصلُّبِه في الدِّينِ، وحَسمًا لِأطماعِهمُ الفارِغةِ، وتَمهيدًا لِتَهديدِهم بقَولِه: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ١٥]. وقيل: تَقديمُ اسمِ الجَلالةِ في قولِه: ﴿قُلِ

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٣١٤، ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧).

ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ دالٌّ على الاهتِمامِ بمَن يَعبُدُ، وليس الاختِصاصَ[١].

- وأيضًا أُمِرَ بأنْ يُعيدَ التَّصريحَ بأنَّه يَعبُدُ اللهَ وحْدَه؛ تَأكيدًا لقولِه: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١]؛ لأهمِّيَّتِه، وإنْ كان مُفادُ الجملتَينِ واحدًا؛ لأنَّهما معًا تُفيدانِ أنَّه لا يَعبُدُ إلَّا اللهَ تعالى، باعتبارِ تَقْييدِ ﴿أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ الأوَّلِ بقَيدِ ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وباعتبارِ تَقديمِ المفعولِ على (أَعْبُدُ) الثَّاني، فتأكَّدَ معنى التَّوحيدِ مرَّتينِ؛ لِيَتقرَّرَ ثلاثَ مرَّاتٍ، وتَمهيدًا لقولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾، وهو المقصودُ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ الفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ﴾ لِتَفريعِ الكَلامِ الَّذي بَعدَها على الكَلامِ قَبْلَها؛ فهو تَفريعٌ ذِكريٌّ، والأمْرُ مُستَعمَلٌ في مَعنى التَّخليةِ، ويُعبَّرُ عنه بالتَّسويةِ، والمَقصودُ: التَّسويةُ في ذلك عِندَ المُتكَلِّم، فتَكونُ التَّسويةُ كِنايةً عن قِلَّةِ الاكتِراثِ بفِعلِ المُخاطَبِ، أيْ: إنَّ ذلك لا يَضُرُّني. وقيل: صِيغةُ الأمْرِ على جِهةِ التَّهديدِ[٣].

- وجُعِلَتِ الصِّلةُ فِعلَ المَشيئةِ ﴿شِئۡتُم﴾؛ إيماءً إلى أنَّ رائِدَهم في تَعيينِ مَعبوداتِهم هو مُجرَّدُ المَشيئةِ والهَوى بلا دَليلٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٥٩).

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ مِنَ الدَّلالةِ على شِدَّةِ الغَضَبِ عليهم ما لا يَخفى، كأنَّهم لَمَّا لم يَنتَهُوا عمَّا نُهوا عنه أُمِروا به؛ كي يَحِلَّ بهمُ العِقابُ[١].

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ أعقَبَ أمْرَ التَّسويةِ في شَأنِهم بشَيءٍ مِنَ المَوعِظةِ؛ حِرصًا على إصلاحِهم، على عادةِ القُرآنِ، ولُوحِظَ في إبلاغِهم هذه المَوعِظةَ مَقامُ ما سَبَق مِنَ التَّخليةِ بيْنَهم وبيْنَ شَأنِهم؛ جَمعًا بيْن الإرشادِ وبيْن التَّوبيخِ؛ فجيءَ بالمَوعظةِ على طَريقِ التَّعريضِ والحَديثِ عنِ الغائِبِ، والمُرادُ المُخاطَبونَ[٢].

- وافتُتِحَ المَقولُ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ تَنبيهًا على أنَّه واقِعٌ[٣].

- وتَعريفُ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أيْ: إنَّ الجِنسَ الَّذين عُرِفوا بالخُسرانِ همُ الَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم، وتَعريفُ المُسنَدِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والمُسنَدِ إليه ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ مِن طَريقِ القَصرِ؛ فيُفيدُ هذا التَّركيبُ قَصرَ جِنسِ الخاسِرينَ على الَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم، وهو قَصرُ مُبالَغةٍ؛ لِكَمالِ جِنسِ الخُسرانِ في الَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم، فخُسرانُ غَيرِهم كَلا خُسرانٍ[٤].

- ولَمَّا كانَ الكَلامُ مَسوقًا بطَريقِ التَّعريضِ بالَّذين دارَ الجِدالُ معهم مِن قَولِه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزمر: ٧]، إلى قَولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ [الزمر: ١٥]؛ عُلِمَ أنَّ المُرادَ بالَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٠).

همُ الَّذين جَرى الجِدالُ معهم، فأفادَ مَعنى: إنَّ الخاسِرينَ أنتم، إلَّا أنَّ وجْهَ العُدولِ عن الضَّميرِ إلى المَوصوليَّةِ في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ لإدماجِ وَعيدِهم بأنَّهم يَخسَرونَ أنفُسَهُم وأهْلِيهم يومَ القِيامةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَأَهۡلِيهِمۡ﴾ تَتميمٌ[٢]، كأنَّه قيلَ: خَسِروا رَأسَ المالِ والرِّبحَ[٣].

- قولُه: ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ استِئنافٌ، بمَنزِلةِ الفَذْلَكةِ[٤] والنَّتيجةِ مِنَ الكَلامِ السَّابِقِ، والتَّذييلِ له؛ لأنَّ وَصْفَ الَّذين خَسِروا بأنَّهم خَسِروا أحَبَّ ما عِندَهم، وبأنَّهمُ الَّذين انحَصَر فيهم جِنسُ الخاسِرينَ: يُستَخلَصُ منه أنَّ خَسارَتَهم أعظَمُ خَسارةٍ وأوضَحُها لِلعِيانِ؛ ولذلك أُوثِرَتْ خَسارَتُهم باسمِ ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ الَّذي هو اسمُ مَصدَرِ الخَسارةِ، وهو دالٌّ على قُوَّةِ المَصدَرِ والمُبالَغةِ فيه، وأُشيرَ إلى العِنايةِ والاهتِمامِ بوَصفِ خَسارَتِهم، وتَهويلِها؛ فصُدِّرَتِ الجُملةُ بحَرفِ التَّنبيهِ، ووُسِّطَ ضَميرُ الفَصلِ بيْن المُبتَدأِ والخَبَرِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٠).

(٢) التَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةِ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٠).

(٤) تقدم تعريفها (ص: ٦٣).

وعُرِّفَ ﴿ٱلْخُسْرَانُ﴾، كأنَّه مِمَّا تُعورِفَ أمْرُه، واشتُهِرَ هَوْلُه، ووَصَفَه بـ﴿ٱلْمُبِينُ﴾، فجَعَلَ خُسرانَهم غايةً في الفَظاعةِ، ونِهايةً في الشَّناعةِ(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾

- قولُه: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، وخُصَّ بالإبدالِ؛ لِأنَّه أشَدُّ خُسرانِهم عليهم؛ لِتَسلُّطِه على إهلاكِ أجسامِهم(٢).

- و(الظُّلَلُ): جمعُ ظُلَّةٍ، وهي شَيءٌ مُرتَفِعٌ مِن بِناءٍ أو أعوادٍ، مِثلُ الصُّفَّةِ، يَستَظِلُّ به الجالِسُ تَحتَه، مُشتَقَّةٌ مِنَ الظِّلِّ؛ لِأنَّها يَكونُ لها ظِلٌّ في الشَّمسِ، وهي هنا لِلتَّعبيرِ عن الطَّبَقةِ الَّتي تَعلو أهلَ النَّارِ في نارِ جَهنَّمَ، بقَرينةِ قَولِه: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، شُبِّهتْ بالظُّلَّةِ في العُلوِّ والغِشْيانِ، مع ما فيها مِنَ التَّهكُّمِ بهم؛ لِأنَّهم يَتمَنَّونَ ما يَحجُبُ عنهم حَرَّ النارِ، فعُبِّرَ عن طَبَقاتِ النَّارِ بالظُّلَلِ إشارةً إلى أنَّهم لا واقيَ لهم مِن حَرِّ النَّارِ، على نَحوِ تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه(٣).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ تَذييلٌ لِلتَّهديدِ بالوَعيدِ مِن قَولِه: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الزمر: ١٥] الآيةَ. أو استِئنافٌ بَيانيٌّ بتَقديرِ سُؤالٍ يَخطُرُ في نَفْسِ السَّامِعِ لِوَصفِ عَذابِهم بأنَّه ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩١، ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦١، ٣٦٢).

مِن فَوقِهم، وظُلَلٌ مِن تَحتِهم، أنْ يَقولَ سائِلٌ: ما يَنفَعُ إعدادُ العَذابِ لهمْ في الآخِرةِ بَعدَ فَواتِ تَدارُكِ كُفرِهم؟ فأُجيبَ بأنَّ اللهَ جَعَلَ ذلك العَذابَ الفَظيعَ في الآخِرةِ لِتَخويفِ اللهِ عِبادَه حينَ يَأمُرُهم بالاستِقامةِ، ويَشرَعُ لهمُ الشَّرائِعَ؛ لِيَعلَموا أنَّهم إذا لم يَستَجيبوا للهِ ورُسُلِه تَكونُ تلك عاقِبَتَهم، ولَمَّا كان وَعيدُ اللهِ خَبَرًا منه، ولا يَكونُ إلَّا صِدقًا؛ حَقَّقَ لهم في الآخِرةِ ما تَوَعَّدَهم به في الحياةِ، وتَخويفُ اللهِ به مَعناه أنَّه يُخوِّفُهم بالإخبارِ به وبوَصفِه، أمَّا إذاقَتُهم إيَّاه فهي تَحقيقٌ لِلوَعيدِ[1].

- ويُعلَمُ مِن قولِه: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ بطَريقِ المُقابَلةِ جَعْلُ الجَنَّةِ لِتَرغيبِ عِبادِ اللهِ في التَّقْوى، إلَّا أنَّه طُوِيَ ذِكرُه؛ لِأنَّ السِّياقَ مَوعِظةٌ لِأهلِ الشِّركِ؛ فاللهُ جَعَلَ الجَنَّةَ وجَهنَّمَ إتمامًا لِحِكمَتِه ومُرادِه مِن نِظامِ الحَياةِ الدُّنيا؛ لِيَكونَ النَّاسُ فيها على أكمَلِ ما تَرتَقي إليه النَّفْسُ الزَّكيَّةُ[2].

- قولُه: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ تَفريعٌ وتَعقيبٌ لِجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾؛ لِأنَّ التَّخويفَ مُؤْذِنٌ بأنَّ العَذابَ أُعِدَّ لِأهلِ العِصيانِ، فناسَبَ أنْ يُعقَبَ بأمْرِ النَّاسِ بالتَّقْوى؛ لِلتَّفادي مِنَ العَذابِ[3].

- وهذه عِظةٌ مِنَ اللهِ تَعالى بالِغةٌ مُنطَويةٌ على غايةِ اللُّطفِ والمَرحَمةِ[4].

- وفي قولِه: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ قَدَّمَ النِّداءَ على التَّفريعِ، مع أنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ تَأخيرُه عنه، كَقَولِه: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ١٩٧]؛ لِأنَّ المَقامَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨).

هنا مَقامُ تَحذيرٍ وتَرهيبٍ؛ فهو جَديرٌ باسترعاءِ ألبابِ المُخاطَبينَ إلى ما سَيَرِدُ مِن بَعدُ مِنَ التَّفريعِ على التَّخويفِ، بخِلافِ آيةِ سورةِ البَقَرةِ؛ فإنَّها في سِياقِ التَّرغيبِ في إكمالِ أعمالِ الحَجِّ والتَّزَوُّدِ لِلآخِرةِ؛ فلِذلك جاءَ الأمْرُ بالتَّقْوى فيها مَعطوفًا بالواوِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٣).

## الآيات (١٧-٢٠)

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨ أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: الطَّاغوتُ هو كُلُّ ذِي طُغْيانٍ على الله، فكلُّ معبودٍ مِن دُونِ الله إذا لم يَكُنْ كارِهًا لذلك: طاغوتٌ؛ إنسانًا كان ذلك المعبودُ، أو شيطانًا، أو وَثَنًا، أو صَنمًا، كائِنًا ما كان مِن شَيءٍ، والمُطاعُ في معصيةِ اللهِ طاغوتٌ، وكذلك السَّاحِرُ والكاهِنُ، واشتِقاقُه مِن الطُّغيانِ: وهو الظُّلْمُ والبَغْيُ، وأصلُه: يدُلُّ على مُجاوَزةِ الحَدِّ في العِصيانِ[1].

﴿وَأَنَابُوٓاْ﴾: أي: تابوا ورَجعوا، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[2].

﴿حَقَّ﴾: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابَقةُ والموافَقةُ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

﴿غُرَفٌ﴾: أي: مَنازِلُ عاليةٌ في الجنَّةِ، جمْعُ غُرفةٍ: وهي العُلِّيَّةُ[١] المُشرِفةُ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعدَّه للمتَّقينَ: والَّذين ابتَعدوا عن عبادةِ كُلِّ ما يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ تعالى، ورجَعوا إلى اللهِ تعالى: لهم البُشرى في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فبَشِّرْ -يا مُحمَّدُ- عباديَ الَّذين يَستَمِعونَ القَولَ فيَتَّبِعونَ أحسَنَ ما فيه، أولئك هم الَّذين أرشَدَهم اللهُ ووفَّقَهم، وأولئك هم أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: أفمَنْ وجَبَ عليه العذابُ في سابقِ عِلمِ الله لكُفرِه، أفأنت -يا محمَّدُ- تَستطيعُ إنقاذَه مِن النَّارِ؟!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حُسنَ عاقبةِ المتَّقينَ، فيقولُ: لكِنِ الَّذين اتَّقوا ربَّهم لهم في الجنَّةِ غُرَفٌ عاليةٌ، بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، تجري مِن تحتِها الأنهارُ، وعَدَهم اللهُ تعالى بذلك وعْدًا لا يَتخَلَّفُ؛ فهو سُبحانَه لا يُخلِفُ ما وعَدَ به عِبادَه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى وَعيدَ عَبَدةِ الأصنامِ والأوثانِ؛ ذكَرَ وعْدَ مَن اجتنَبَ عِبادتَها، واحتَرَز عن الشِّركِ؛ لِيَكونَ الوَعدُ مَقرونًا بالوعيدِ أبدًا، فيَحصُلَ كمالُ التَّرغيبِ

---

(١) العُلِّيَّةُ: الغُرفةُ في الطبقةِ الثانيةِ مِن الدَّارِ وما فوقَها. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (٢/ ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٩٢).

والتَّرهيبِ[١].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾

أي: والَّذين ابتَعَدوا عن عبادةِ الطَّاغوتِ[٢]، وتابوا إلى اللهِ تعالى مِنَ الشِّركِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٤).

(٢) قيل: هو الشَّيطانُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمعاني، والزمخشري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٣).

قال الرازي: (اخْتَلَفوا في أنَّ المرادَ مِن الطَّاغوتِ هاهنا الشَّيطانُ أم الأوثانُ، فقيل: إنَّه الشَّيطانُ، فإنْ قِيل: إنَّهم ما عَبَدوا الشَّيطانَ وإنَّما عَبَدوا الصَّنمَ، قُلْنا: الدَّاعي إلى عِبادةِ الصَّنمِ لَمَّا كان هو الشَّيطانَ كان الإقدامُ على عِبادةِ الصَّنَمِ عِبادةً للشَّيطانِ). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٥).

وقال ابن عطية: (الطَّاغوت: كُلُّ ما يُعبَدُ مِن دونِ الله. والطَّاغوتُ أيضًا: الشَّيطانُ، وبه فسَّر هنا مجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، وأوقعه هنا على جماعةِ الشَّياطينِ؛ ولذلك أنَّث الضَّميرَ بعدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥).

وقيل: الطَّاغوتُ: الأوثانُ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٣١).

قال الشنقيطي: (الأصنامُ تدخُلُ في الطَّاغوتِ دُخولًا أوَّليًّا). ((أضواء البيان)) (٥/ ٢٥٥).

فإن قِيلَ: لِمَ سُمِّيت بذلك مع أنَّه لا فعلَ لها، والطُّغاةُ هم الَّذينَ يَعْبُدونَها؟

أُجيبَ عن ذلك: بأنَّه لَمَّا حَصَل الطُّغيانُ عندَ مُشاهَدَتِها والقُربِ منها، وُصِفتْ بهذه الصِّفةِ؛ إطلاقًا لاسمِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ بحَسَبِ الظَّاهرِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٥).

وقيل: الطَّاغوتُ: الكاهِنُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١).

وقيل: الطَّاغوتُ: اسمٌ لكلِّ ما عُبدَ مِن دُونِ الله؛ فكُلُّ مُشركٍ إلهُه طاغوتُه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ القيِّم، والسعديُّ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير =

والعِصيانِ، وأقبلوا على طاعةِ الرَّحمنِ: لهم البُشرى بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ...﴾

---

= السعدي)) (ص: ٧٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٢، ١٤٣).

قال ابنُ القَيِّم: (الطَّاغوتُ: كُلُّ ما تَجاوَزَ به العبدُ حَدَّه مِن معبودٍ أو مَتبوعٍ أو مُطاعٍ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٢-١٤٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالبُشرى هنا: عُمومُ البُشرى في الدُّنيا والآخرةِ: الزمخشريُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٤، ١٤٥).

قال السعدي: (﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ﴾ الَّتي لا يُقادِرُ قَدْرَها ولا يَعلَمُ وَصْفَها إلَّا مَن أكرمَهم بها، وهذا شامِلٌ للبُشرى في الحياةِ الدُّنيا بالثَّناءِ الحَسَنِ، والرُّؤيا الصَّالحةِ، والعنايةِ الرَّبانيَّةِ مِن الله، الَّتي يَرَون في خِلالِها أنَّه مُريدٌ لإكرامِهم في الدُّنيا والآخرةِ، ولهم البُشرَى في الآخرةِ عندَ الموتِ، وفي القبرِ، وفي القيامةِ، وخاتمةُ البُشْرى ما يُبشِّرُهم به الرَّبُّ الكريمُ مِن دَوامِ رِضوانِه وبِرِّه وإحسانِه، وحلولِ أمانِه في الجنَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

وقيل: المرادُ أنهم يُبشَّرون في الدُّنيا بالفوزِ بالجنَّةِ في الآخرةِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والثعلبي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٤).

وقيل: البُشرى المرادُ بها: الجنَّةُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٠٨).

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ الله تعالى أنَّ لهم البُشرى أمَرَ نبيَّه ببِشارتِهم، وذكَرَ الوَصفَ الَّذي استحَقُّوا به البِشارةَ[١].

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ...﴾

أي: فبَشِّرْ -يا محمَّدُ- عِباديَ الَّذين يَستَمِعونَ القَولَ[٢] فيَتَّبِعونَ أحسَنَ ما فيه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

(٢) قال السمين الحلبي: (قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ﴾: الظَّاهرُ أنه نعتٌ لـ «عبادي»، أو بدَلٌ منه، أو بيانٌ له. وقيل: يجوزُ أنْ يكونَ مبتدأً). ((الدر المصون)) (٩/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥ - ٣٦٧).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾: هم المُجتنِبونَ الطَّاغوتَ، المُنيبون إلى الله. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرازي، وأبو حيان، والسمين الحلبي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤١٩).

وقيل: المرادُ بالعِبادِ هنا العمومُ؛ فيدخُلُ المَوصوفونَ بالاجتِنابِ والإنابةِ إليه دُخولًا أوَّليًّا. وممَّن اختاره: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٣).

واختلف المفسِّرون أيضًا في معنى قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾؛ على أقوالٍ: القولُ الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بالقولِ: عمومُ الكلام، وجميعُ الأقوالِ حسَنِها وسَيِّئِها. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وأبو حيَّان، والثعالبي، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢١٩).

قال ابنُ الجوزي في بيانِ هذا القولِ: (أنَّه الرَّجُلُ يَجلِسُ مع القَومِ فيَسْمَعُ كلامَهم، فيَعمَلُ بالمَحاسِنِ ويُحدِّثُ بها، ويَكُفُّ عن المَساوِئِ ولا يُظهِرُها، قاله ابنُ السَّائبِ). ((تفسير ابن =

= الجوزي)) (٤/ ١٢).

وقال ابن عطية: (وقَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ كلامٌ عامٌّ في جميعِ الأقوالِ، وإنَّما القَصدُ الثَّناءُ على هؤلاءِ ببَصائِرَ هي لهم، وقَوام في نَظَرِهم؛ حتى إنَّهم إذا سَمِعوا قَولًا مَيَّزوه واتَّبَعوا أحسَنَه. واختلَف المفَسِّرون في العبارةِ عن هذا؛ فقالت فِرقةٌ: أحسَنُ القَولِ كِتابُ اللهِ، أي: إذا سَمِعوا الأقاويلَ وسَمِعوا القرآنَ اتَّبَعوا القُرآنَ. وقالت فِرقةٌ: القَولُ هو القُرآنُ، وأحسَنُه: ما فيه مِن عَفْوٍ وصَفحٍ واحتِمالٍ على صَبرٍ، ونحوِ ذلك. وقال قَتادةُ: أحسَنُ القَولِ طاعةُ اللهِ. وهذه أمثِلةٌ، وما قُلْناه أوَّلًا يَعُمُّها). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٥).

وقال السَّعدي: (وأحسَنُه على الإطلاقِ كَلامُ اللهِ وكَلامُ رَسولِه، كما قال في هذه السُّورةِ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآيةَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

وخصَّه ابنُ عُثيمينَ بالقَولِ الحَسَنِ لا بكُلِّ قَولٍ، أي: إنَّ هؤلاء العِبادَ يَستَمِعونَ القَولَ الحَسَنَ فيَتَّبِعونَ أحسَنَه، فأمَّا القَولُ السَّيِّئُ أو اللَّغوُ فإنَّهم يُعرِضونَ عنه، ولا يَستَمِعونَ إليه أصلًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]؛ فإذا كانوا لا يَستَمِعونَ إلى الكَلامِ الَّذي لا فائِدةَ منه فهُم أبعَدُ عن الاستِماعِ إلى الكَلامِ المحَرَّمِ مِن بابِ أَولى. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٦، ١٤٧).

القولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالقولِ هاهنا: ما قاله اللهُ ورسوله. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ القيم، والشنقيطي. يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٥٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٥٦ - ٣٥٨).

قال الشنقيطي موضِّحًا هذا القولَ الَّذي اختاره: (المراد بالقولِ ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِن وحيِ الكِتابِ والسُّنَّةِ، ومِن إطلاقِ القولِ على القرآنِ قولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]... وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ أي: يُقَدِّمون الأحسَنَ، الَّذي هو أشدُّ حُسنًا... وأمَّا كَوْنُ القرآنِ فيه الأحسَنُ والحسَنُ، فقد دلَّتْ عليه آياتٌ مِن كتابِه. واعلَمْ أوَّلًا أنَّه لا شكَّ في أنَّ الواجبَ أحسَنُ مِن المندوبِ، وأنَّ المندوبَ أحسَنُ مِن مُطلَقِ الحسَنِ، فإذا سمِعوا مثلًا قولَه تعالى: ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧] قدَّموا فِعلَ الخَيرِ الواجبِ على فعلِ الخَيرِ المندوبِ، وقدَّموا هذا الأخيرَ على مُطلَقِ الحسَنِ الَّذي هو الجائزُ؛ ولذا كان الجزاءُ بخصوصِ الأحسَنِ الَّذي هو الواجبُ والمندوبُ، لا على مُطلَقِ الحسَنِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: =

= ٩٧]... ومِن أمثلةِ التَّرغيبِ في الأخذِ بالأحسَنِ وأفْضَليَّتِه مع جوازِ الأخذِ بالحسَنِ قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]... وكقولِه جلَّ وعلا مُثْنيًا على مَن تَصَدَّق فأبدَى صدَقتَه: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ [البقرة: ٢٧١]، ثمَّ بيَّن أنَّ إخفاءَها وإيتاءَها الفقراءَ خيرٌ مِن إبدائِها في قولِه: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١]. وكقولِه في نِصفِ الصَّداقِ اللَّازمِ للزَّوجةِ بالطَّلاقِ قبْلَ الدُّخولِ: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ولا شكَّ أنَّ أخْذَ كلِّ واحدٍ مِن الزَّوجَينِ النِّصْفَ حسَنٌ؛ لأنَّ اللهَ شرَعه في كتابِه في قولِه: ﴿فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، مع أنَّه رغَّب كلَّ واحدٍ منهما أن يَعفوَ للآخَرِ عن نِصفِه، وبيَّن أنَّ ذلك أقرَبُ للتَّقْوى، وذلك في قولِه بعدَه: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. وقد قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، ثمَّ أرشدَ إلى الأحسَنِ بقولِه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]. وقال تعالى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، ثمَّ أرشد إلى الأحسَنِ في قولِه: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٥٦ - ٣٥٨).

وقال ابنُ القيِّمِ: (القولُ هاهنا ما قاله اللهُ ورسولُه، واتِّباعُ أحسَنِه هو الاقتداءُ به؛ فهذا أحسَنُ مِن قولِ كلِّ قائلٍ عَداه). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٥٢٥).

القولُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ: القرآنُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلام -ونسَبَه إليه الماوَرْديُّ -، وابنُ تيميَّةَ، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢).

قال مقاتلُ بنُ سُليمانَ: (﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ﴾ يعني: القرآنَ ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ يعني: أحسَنَ ما في القرآنِ مِن طاعةِ الله عزَّ وجلَّ، ولا يَتَّبِعون المعاصيَ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٣).

وقال ابن تيميَّةَ: (والمرادُ بالقولِ القرآنُ، كما فسَّره بذلك سلَفُ الأمَّةِ وأئمَّتُها، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، واللَّامُ لتعريفِ القولِ المعهودِ؛ فإنَّ السُّورةَ كلَّها إنَّما تضمَّنتْ مدْحَ القرآنِ واستِماعِه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥).

وتقدَّم في كلام ابنِ عطيَّةَ والشِّنقيطيِّ بيانُ معنَى ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ بناءً على هذا القولِ.

ويُنظر ما في قولِه تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ مِن أوجُهٍ أخرى في: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٠).

كما قال تعالى عن موسى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [الزمر: ٥٥].

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾

أي: أولئك العِبادُ العالو المَنزِلةِ والرُّتبةِ: هم الَّذين أرشَدَهم اللهُ ووفَّقَهم لِمَعرفةِ الحَقِّ والعَمَلِ به[١].

عن عليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ((أنَّه كان إذا قامَ إلى الصَّلاةِ، قال: وَجَّهْتُ وجهِيَ لِلَّذي فَطَر السَّمواتِ والأرضَ حَنيفًا، وما أنا مِن المشركينَ، إنَّ صَلاتي، ونُسُكِي، ومَحْيايَ، ومَماتي للهِ رَبِّ العالَمينَ، لا شريكَ له، وبذلك أُمِرْتُ وأنا مِن المسلمينَ، اللَّهُمَّ أنت المَلِكُ لا إلهَ إلَّا أنت، أنت ربِّي، وأنا عبْدُكَ، ظَلَمْتُ نفْسي، واعتَرَفْتُ بذَنْبي، فاغفِرْ لي ذُنوبي جميعًا، إنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنتَ، واهْدِني لأحسَنِ الأخلاقِ لا يَهدي لأحسَنِها إلَّا أنت، واصْرِفْ عنِّي سَيِّئَها لا يَصْرِفُ عنِّي سَيِّئَها إلَّا أنت، لَبَّيْكَ وسَعْدَيْكَ، والخَيرُ كلُّه في يدَيكَ، والشَّرُّ ليس إليكَ، أنا بك وإليكَ، تبارَكْتَ وتَعالَيْتَ، أستغفِرُكَ وأتوبُ إليكَ...))[٢].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا استفتَحَ الصَّلاةَ كبَّرَ، ثمَّ قال: إنَّ صَلاتي ونُسُكي ومَحْيايَ ومَماتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٧، ١٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٧٧١).

للهِ رَبِّ العالَمينَ، لا شَريكَ له، وبذلك أُمِرتُ وأنا مِنَ المُسلِمينَ، اللَّهُمَّ اهدني لأحسَنِ الأعمالِ وأحسَنِ الأخلاقِ، لا يَهدي لأحسَنِها إلَّا أنتَ، وقِني سَيِّئَ الأعمالِ وسَيِّئَ الأخلاقِ، لا يَقِي سَيِّئَها إلَّا أنت))[١].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

أي: وأولئك هم أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ، الَّذين انتَفَعوا بها في مَعرِفةِ الحقِّ واتِّباعِه[٢].

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا خَصَّ سُبحانَه البشارةَ بالمُحسِنينَ، عُلِمَ أنَّ غَيْرَهم قد حُكِمَ بشَقاوتِه، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -لِما جُبِلَ عليه مِن عَظيمِ الرَّحمةِ، ومَزيدِ الشَّفَقةِ- جَديرًا بالأسَفِ على مَن أعرَضَ؛ سَبَّبَ عن أسَفِه عليهم قَولَه[٣]:

﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾

أي: أفمَنْ وَجَب عليه العَذابُ في سابقِ عِلمِ الله لِكُفرِه تَقدِرُ -يا محمَّدُ- على هدايتِه في الدُّنيا، وإنقاذِه مِن النَّارِ يومَ القيامةِ[٤]؟!

---

(١) أخرجه النَّسائي (٨٩٦) واللَّفظُ له، والطبراني في ((الدعاء)) (٤٩٩)، والدارقطني (١/ ٢٩٨). صحَّحه الألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٨٩٦)، وقوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((تنقيح التحقيق)) (١/ ١٤١)، ووثَّق رجالَه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٧، ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨١)، ((تفسير =

= القرطبي)) (١٥/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

قال الخازن: (﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ قال ابنُ عبَّاس: سبَق في عِلم الله تعالى أنَّه في النَّارِ. وقيل: ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ قولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾. وقيل: قولُه: «هؤلاءِ في النَّارِ ولا أُبالي»). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٤). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٤).

ممَّن اختار نحوَ القولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، وابن الجوزي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩١).

وقيل: المرادُ بكلمةِ العذابِ هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، وممن اختاره: ابنُ عثيمين، قال: (الصَّحيحُ أنَّ المرادَ بكلمةِ العذابِ هي ما ذكَره الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أنَّهم مِن أهلِ النَّارِ، هؤلاء لا يُمكِنُ أن يُؤمِنوا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٥٣).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أي: أنَّ المرادَ قولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ ...﴾-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٤٣).

وممَّن اختار القولَ الثَّالثَ: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٦١).

قال ابن الجوزي: (﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ إنْ قيل: كيف اجتمَع في هذه الآيةِ استِفهامانِ بلا جوابٍ؟

قيل: أمَّا الفَرَّاءُ فإنَّه يقولُ: هذا ممَّا يُرادُ به استِفهامٌ واحدٌ، فسبق الاستِفهامُ إلى غيرِ مَوضِعه، فرُدَّ إلى مَوضِعه الَّذي هو له، فيَكونُ المعنى: أفأنتَ تُنقِذُ مَن في النَّارِ مَن حقَّتْ عليه كَلمةُ العذابِ؟ ومِثلُه: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥] فردَّ ﴿أَنَّكُمْ﴾ مرَّتَينِ، والمعنى: أيَعِدُكم أنَّكم مُخرَجون إذا مِتُّمْ؟ ومِثلُه: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟﴾ [آل عمران: ١٨٨]، ثمَّ قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم﴾ [آل عمران: ١٨٨]، فردَّ «تَحسَبَنَّ» مرَّتَينِ، والمعنى: لا تَحسَبَنَّ الَّذين يَفرَحون بمَفازةٍ مِن العذابِ.

وقال الزَّجَّاجُ: يجوزُ أن يكونَ في الكلامِ محذوفٌ، تقديرُه: أفمَنْ حقَّ عليه كَلِمةُ العذابِ فيَتخلَّصُ منه أو يَنجو، أفأنتَ تُنقِذُه؟ قال المفسِّرون: أفأنتَ تُخَلِّصُه ممَّا قُدِّر له فتَجعَله =

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [فصلت: ٤٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّما مَثَلي ومَثَلُ النَّاسِ كمَثَلِ رَجُلٍ استَوقَدَ نارًا، فلمَّا أضاءتْ ما حَوْلَه جَعَلَ الفَراشُ وهذه الدَّوابُّ الَّتي تَقَعُ في النَّارِ يَقَعْنَ فيها، فجعَل يَنزِعُهنَّ ويَغلِبْنَه فيَقتَحِمْنَ[١] فيها، فأنا آخِذٌ بحُجَزِكم[٢] عن النَّارِ، وهم يَقتَحِمونَ فيها))[٣].

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر حالَ الكُفَّارِ في النَّارِ وأنَّ الخاسِرينَ لهم ظُلَلٌ؛ ذكَرَ حالَ المؤمِنينَ، وناسَبَ الاستِدراكَ هنا؛ إذ هو واقِعٌ بينَ الكافِرينَ والمؤمِنينَ؛ فقال[٤]:

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ﴾

أي: لكِنِ الَّذين اتَّقَوا رَبَّهم في الدُّنيا، بامتِثالِ أمْرِه، واجتِنابِ نَهْيِه: لهم في الجنَّةِ بِناياتٌ عاليةٌ، بَعضُها فَوقَ بَعضٍ[٥].

---

= مؤمنًا؟ والمعنى: ما تَقدِرُ على ذلك). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٤١٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(١) فيَقتَحِمْنَ: أي: فيَدخُلْنَ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٩/ ٢٧٧).

(٢) بحُجَزِكُم: جَمعُ حُجْزةٍ، وهي مَعقِدُ الإزارِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٩/ ٢٧٧).

(٣) رواه البخاري (٦٤٨٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩١)، ((نظم الدرر)) =

كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَوْنَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم، كما تَتراءَونَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ[١] الغابِرَ مِن الأُفُقِ[٢]، مِن المَشرِقِ أو المَغرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم. قالوا: يا رسولَ اللهِ، تلك مَنازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غَيرُهم. قال: بلى، والَّذي نَفْسي بيَدِه، رِجالٌ آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ))[٣].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَونَ الغُرفةَ في الجنَّةِ كما تَراءَونَ الكوكَبَ في السَّماءِ))[٤].

﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت المنازِلُ لا تَطيبُ إلَّا بالماءِ، وكان الجاري أشرَفَ وأحسَنَ؛ قال[٥]:

---

= للبقاعي (١٦/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٦٢-١٦٥).

(١) الدُّرِّيَّ: أي: الشَّديدَ الإضاءةِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

(٢) الغابرَ: أي: الباقِيَ في الأفُقِ بعدَ انتِشارِ ضَوءِ الفَجرِ، وإنَّما يَستنيرُ في ذلك الوقتِ الكوكبُ الشَّديدُ الإضاءةِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

(٣) رواه البخاري (٣٢٥٦)، ومسلم (٢٨٣١) واللَّفظ له.

(٤) رواه البخاري (٦٥٥٥)، ومسلم (٢٨٣٠) واللَّفظ له.

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٢).

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾

أي: تَجري مِن تحتِ تلك الغُرَفِ الأنهارُ المُتدَفِّقةُ[١].

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر يومَ القيامةِ وما يكونُ فيه؛ بَيَّن أنَّه أمرٌ لا بُدَّ منه، فقال[٢]:

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾

أي: وَعَدَهم اللهُ تلك الغُرَفَ والمَنازِلَ وعْدًا مؤكَّدًا لا يُخلِفُه؛ فاللهُ لا يُخلِفُ ما وَعَد به عِبادَه، بل يُوفِي به سُبحانَه[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ أنَّ رأسَ السَّعاداتِ، ومَركزَ الخَيراتِ، ومَعدِنَ الكَراماتِ: هو الإعراضُ عن غَيرِ اللهِ تعالى، والإقبالُ بالكُلِّيَّةِ على طاعةِ اللهِ[٤].

٢- قال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ فإذا رأيتَ مِن نَفْسِك الحرصَ على استِماعِ قَولِ الخَيرِ واتِّباعِ أحْسَنِه فاعلَمْ أنَّ هذا مِن هدايةِ اللهِ لك؛ لأنَّه قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٧).

وإذا رأيتَ مِن نَفْسِك كراهةَ الاستِماعِ إلى القولِ الحَسَنِ فاتَّهِم نَفْسَك؛ لأنَّ اللهَ جَعَل الهِدايةَ في هؤلاء القَومِ، فإذا لم يَحصُلْ لك هذا فاتَّهِمْ نفْسَك، وصَحِّحِ الخطأَ، وأقبِلْ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ﴾ فيه حضٌّ على التَّقْوَى[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أنَّ التَّوحيدَ لا يَتِمُّ إلَّا باجتِنابِ الطَّاغوتِ، والإخلاصِ للهِ تعالى[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ هذا مِن أحسَنِ الاحترازِ مِن الحَكيمِ العَليمِ؛ لأنَّ المدحَ إنَّما يَتناوَلُ المجتَنِبَ لها في عِبادتِها[٤].

٣- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾، فدَلَّ ثَناءُ اللهِ على عِبادِه المُؤمِنينَ الكُمَّلِ بأنَّهم أحرَزوا صِفةَ اتِّباعِ أحسَنِ القَولِ الَّذي يَسمَعونَه، على شَرَفِ النَّظَرِ والاستِدلالِ؛ لِلتَّفرِقةِ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وللتَّفرِقةِ بيْنَ الصَّوابِ والخَطَأِ، ولِغَلقِ المَجالِ في وَجهِ الشُّبهةِ، ونَفيِ تَلَبُّسِ السَّفسَطةِ[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ حَثُّ أهلِ الكِتابِ على اتِّباعِ هذا القُرآنِ العَظيمِ؛ فإنَّ كُتُبَ اللهِ كُلَّها حَسَنةٌ، وهذا القُرآنُ أحسَنُها كَلامًا ومَعانيَ ونِظامًا؛ لا يَشُكُّ في هذا أحَدٌ له أدنَى ذَوقٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ حُجَّةٌ على المُقَلِّدِينَ؛ إذِ القولُ المسموعُ لا يَخلو مِن أنْ يكونَ قولَ مَن يكونُ قولُه حُجَّةً، أو قولَ مَن لا يكونُ قولُه حُجَّةً، فلمَّا كان قولُ مَن يكونُ حُجَّةً حسَنًا كلُّه لا تزييفَ فيه؛ عُلِمَ أنَّه المُتَّبَعُ دونَ قولِ مَن لا يكونُ حُجَّةً(١).

٦- هنا سُؤالٌ مَشهورٌ، وهو أنَّه تعالى قال: ﴿يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾، فقد قَسَّم القَولَ إلى حَسَنٍ وأحسَنَ، والقُرآنُ كُلُّه مُتَّبَعٌ. وهذا على أنَّ المرادَ بالقولِ القرآنُ.

**فيُقالُ: الجَوابُ مِن أوجُهٍ:**

منها: أنَّ هذا مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، ومِثلُ قَولِه: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]؛ فقد أمَرَ المُؤمِنينَ باتِّباعِ أحسَنِ ما أُنزِلَ إليهم مِن رَبِّهم، وأمَرَ بني إسرائيلَ أن يأخُذوا بأحسَنِ التَّوراةِ، وهذا أبلَغُ مِن تلك الآيةِ؛ فإنَّ تلك إنَّما فيها مدْحٌ باتِّباعِ الأحسَنِ، ولا رَيبَ أنَّ القُرآنَ فيه الخَبَرُ والأمرُ بالحَسَنِ والأحسَنِ، واتِّباعُ القَولِ إنَّما هو العَمَلُ بمُقتضاه، ومُقتضاه فيه حَسَنٌ وأحسَنُ، ليس كُلُّه أحسَنَ، وإنْ كان القُرآنُ في نَفْسِه أحسَنَ الحديثِ؛ ففَرْقٌ بيْن حُسنِ الكلامِ بالنِّسبةِ إلى غَيرِه مِن الكَلامِ، وبيْنَ حُسنِه بالنِّسبةِ إلى مُقتضاه المأمورِ والمُخبَرِ عنه.

ومنها: أن يُقالَ: إنَّه قال: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، والقُرآنُ تضَمَّنَ خَبرًا وأمرًا؛ فالخَبرُ عن الأبرارِ والمقرَّبينَ، وعن الكُفَّارِ والفُجَّارِ؛ فلا رَيبَ أنَّ اتِّباعَ الصِّنفَينِ (الأبرارِ والمقرَّبينَ)

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١، ٢٢).

حَسَنٌ، واتِّباعَ المقرَّبينَ أحسَنُ، والأمرُ يتَضَمَّنُ الأمرَ بالواجباتِ والمُستحَبَّاتِ، ولا رَيبَ أنَّ الاقتِصارَ على فِعلِ الواجباتِ حَسَنٌ، وفِعلَ المُستحَبَّاتِ معها أحسَنُ، ومَنِ اتَّبَع الأحسَنَ فاقتدى بالمقرَّبينَ وتقرَّب إلى اللهِ بالنَّوافِلِ بعدَ الفرائِضِ كان أحَقَّ بالبُشرى. وعلى هذا فقَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥]: هو أيضًا أمرٌ بذلك؛ لكِنَّ الأمرَ يَعُمُّ أمرَ الإيجابِ والاستِحبابِ؛ فهم مأمورونَ بما في ذلك مِن واجبٍ أمرَ إيجابٍ، وبما فيه مِن مُستحَبٍّ أمْرَ استحبابٍ، كما هم مأمورونَ مِثلَ ذلك في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠]، وقَولِه: ﴿يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، والمعروفُ يتناوَلُ القِسمَينِ، وقَولِه: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، وهو يَعُمُّ القِسمَينِ، وقَولِه: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧]، وأمثالِ ذلك[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أي: أصحابُ العُقولِ؛ لأنَّ الإنسانَ كُلَّما كان للحَقِّ أتْبَعَ كان أكمَلَ عَقلًا، وكُلَّما نَقَص اتِّباعُه للحَقِّ كان أدَلَّ على قِلَّةِ عَقلِه؛ فأعقَلُ النَّاسِ أتْبَعُهم لدِينِ اللهِ لا شَكَّ؛ لأنَّهم هم الَّذين عِندَهم الحَزمُ وانتِهازُ الفُرَصِ وحِفظُ الوَقتِ[٢].

٨- أنَّه لا تلازُمَ بيْن الذَّكاءِ والعَقلِ؛ فالذَّكاءُ شَيءٌ والعَقلُ شَيءٌ آخَرُ، حتَّى في عَقلِ الإدراكِ لا تلازُمَ بيْن الذَّكاءِ وعَقلِ الإدراكِ؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مَن تَجِدُه ذَكيًّا شديدَ الملاحظةِ، يَفهَمُ الشَّيءَ بسُرعةٍ، ويُعطي الجوابَ بسرعةٍ، لكِنَّه في التَّصَرُّفِ أحمقُ ليس عندَه عَقلٌ! ومِن النَّاسِ مَن يكونُ بالعَكسِ؛ عندَه شيءٌ مِن

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥-٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٨).

البلادةِ، ولكِنَّه في التَّصرُّفِ عاقِلٌ مُتَأَنٍّ، ولكنَّ أعقلَ النَّاسِ أطْوَعُهم للهِ تعالى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أنَّ الإنقاذَ أُطلِقَ على الإلحاحِ في الإنذارِ -مِن إطلاقِ اسمِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ- وأنَّ ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ مَن هو صائِرٌ إلى النَّارِ، فلا مُتمَسَّكَ للمُعتَزِلةِ في الاستِدلالِ بالآيةِ على نَفيِ الشَّفاعةِ المُحمَّديَّةِ لأهلِ الكبائِرِ، على أنَّنا لو سَلَّمْنا أنَّ الآيةَ مَسوقةٌ في غَرَضِ الشَّفاعةِ فإنَّما نَفَت الشَّفاعةَ لأهلِ الشِّركِ؛ لأنَّ ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يَحتمِلُ العَهدَ -وهم المُتحَدَّثُ عنهم في هذه الآيةِ- ولا خِلافَ في أنَّ المُشرِكينَ لا شَفاعةَ فيهم؛ قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، على أنَّ المنفيَّ هو أن يكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنقِذًا لِمَن أراد اللهُ عَدَمَ إنقاذِه، فأمَّا الشَّفاعةُ فهي سؤالُ اللهِ أن يُنقِذَه[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يستطيعُ أنْ يُنقِذَ مَن في النَّارِ، وإذا كان هذا للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم فغَيْرُه مِن بابِ أَولى[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ بيانُ عُلُوِّ مَنزلةِ المتَّقينَ؛ لأنَّ الاستِدراكَ هنا كأنَّه انتِشالٌ لهم ممَّا سَبَق ذِكرُه مِن الوَعيدِ الشَّديدِ لهؤلاء الَّذين حَقَّت عليهم كَلِمةُ العَذابِ[4].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ دَقيقةٌ شَريفةٌ، وهي أنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٧).

تعالى في كثيرٍ مِن آياتِ الوَعدِ صَرَّح بأنَّ هذا وعْدُ الله، وأنَّه لا يُخلِفُ وَعْدَه، ولم يَذكُرْ في آياتِ الوَعيدِ ألبتَّةَ مِثلَ هذا التَّأكيدِ والتَّقويةِ؛ وذلك يدُلُّ على أنَّ جانِبَ الوَعدِ أرجَحُ مِن جانبِ الوَعيدِ، بخِلافِ ما يقولُه المُعتَزِلةُ(١).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ إنَّما كان كذلك؛ لِكَمالِ صِدقِه، وكَمالِ قُدرتِه؛ لأنَّ إخلافَ الميعادِ إمَّا أن يكونَ لكَذِبِ الواعِدِ، وإمَّا أن يكونَ لِعَجزِه، واللهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن هذا وهذا؛ فهو كامِلُ الصِّدقِ، كامِلُ القُدرةِ(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ لَمَّا انتَهى تَهديدُ المُشرِكينَ، ومَوعِظةُ الخَلائِقِ أجمَعينَ؛ ثُنيَ عِنانُ الخِطابِ إلى جانِبِ المُؤمِنينَ فيما يَختَصُّ بهم مِنَ البِشارةِ مُقابَلةً لِنذارةِ المُشرِكينَ(٣).

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ فيه التَّعبيرُ عن المُؤمِنينَ بالَّذين اجتَنَبوا الطَّاغوتَ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخَبَرِ، وهو ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾، وهذا مُقابِلُ قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾(٤) [الزمر: ١٦].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ تَشبيهُ الشَّيطانِ بالطَّاغوتِ -على أحدِ الأقوالِ-، وفيه وُجوهٌ ثَلاثةٌ مِنَ المُبالَغةِ: تَسميَتُه بالمَصدَرِ، كأنَّه نَفْسُ الطُّغيانِ. وبِناؤُه على (فَعَلوتٌ)، وهي صِيغةُ مُبالَغةٍ، كالرَّحَموتِ، وهي الرَّحمةُ الواسِعةُ، والمَلَكوتِ وهو المُلْكُ الواسِعُ. والثَّالثُ: تَقديمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٦٤).

لامِه على عَينِه؛ لِيُفيدَ اختِصاصَه بهذه التَّسميةِ[١].

- قَولُه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ (لهم)؛ لِإفادةِ القَصرِ، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصرٌ إضافيٌّ قَصرَ تَعيينٍ[٢].

- ولم يُبَيِّنِ اللهُ وقتَ البُشرى؛ فهو شاملٌ للبُشْرى في الدُّنيا وفي الآخرةِ[٣].

- وفُرِّعَ على قَولِه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ قَولُه: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]، وهمُ الَّذين اجتَنَبوا الطَّاغوتَ؛ فعُدِلَ عن الإتيانِ بضَميرِهم بأنْ يُقالَ: فبَشِّرْهم، إلى الإظهارِ باسمِ العِبادِ مُضافًا إلى ضَميرِ اللهِ تعالى، وبالصِّلةِ؛ لِزيادةِ مَدحِهم بصِفتَينِ أُخرَيَينِ، وهُما: صِفةُ العُبوديَّةِ للهِ، أيْ: عُبوديَّةِ التَّقرُّبِ، وصِفةُ استِماعِ القَولِ واتِّباعِ أحسَنِه[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ همُ المَوصوفونَ بالاجتِنابِ والإنابةِ بأعيانِهم، لكنْ وُضِعَ مَوضِعَ ضَميرِهمُ الظَّاهِرُ؛ تَشريفًا لهم بالإضافةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ١١٨، ١٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٠٣).

قال السمين: (وأصلُ الطاغوت... «طغووت» أو «طغيوت» فقُلِبت الكلمةُ بأنْ أُخِّرتْ عينُها إلى موضعِ لامِها، ولامُها إلى موضعِ عينِها، فصارت طغيوتًا أو طيغوتًا، فتحرَّك حرفُ العلةِ، وانفتَح ما قبلَه، فقُلِبت الفاءُ؛ فوزنُه بعدَ القلبِ «فلعوت»). ((عمدة الحفاظ)) (٢/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥).

والقصر تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥).

ودَلالةً على أنَّ مَدارَ اتِّصافِهم بالوَصفَينِ الجَليلَينِ كَونُهم نُقَّادًا في الدِّينِ؛ يُمَيِّزونَ الحَقَّ مِنَ الباطِلِ، ويُؤْثِرونَ الأفضَلَ فالأفضَلَ، ولِيَترَتَّبَ على الظَّاهِرِ الوَصفُ، وهو ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾[1].

- وأيضًا في المَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ اتِّباعَ أحسَنِ القَولِ سَبَبٌ في حُصولِ هِدايةِ اللهِ إيَّاهم[2].

- وقولُه: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ ثَناءٌ عليهم بنُفوذِ بَصائِرِهم وتَمييزِهمُ الأحسَنَ، فإذا سَمِعوا قَولًا تَبَصَّروه، واسمُ التَّفضيلِ (أحْسَن) ليس مُستَعمَلًا في تَفاوُتِ المَوصوفِ به في الفَضلِ على غَيرِه؛ فهو لِلدَّلالةِ على قُوَّةِ الوَصفِ[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مُستَأنَفةٌ لِاستِرعاءِ الذِّهنِ لِتَلَقِّي هذا الخَبَرِ، وأُكِّدَ هذا الاستِرعاءُ بجَعلِ المُسنَدِ إليه اسمَ إشارةٍ؛ لِيَتمَيَّزَ المُشارُ إليهم أكمَلَ تميُّزٍ، مع التَّنبيهِ على أنَّهم كانوا أحْرياءَ بهذه العِنايةِ الرَّبَّانيَّةِ لِأجْلِ ما اتَّصَفوا به مِنَ الصِّفاتِ المَذكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[4].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ بعُلوِّ رُتبَتِهم، وبُعدِ مَنزِلَتِهم في الفَضلِ[5].

- وقد أفادَ تَعريفُ الجُزأيْنِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ قَصْرَ الهِدايةِ عليهم، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصرٌ إضافيٌّ قَصرَ تَعيينٍ، أيْ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨).

دُونَ الخاسِرينَ الَّذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم[١].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه لَمَّا كان في هؤلاء المُجْتَبَينَ العالُو الرُّتبةِ جدًّا وغيرُهم، أبرَزَ المفعولَ فقال مُحوِّلًا الأسلوبَ إلى الاسمِ الأعظَمِ؛ إشارةً إلى عَظيمِ هِدايتِهم؛ فقال: ﴿هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ بما له مِن صِفاتِ الكَمالِ؛ فبيَّن سُبحانه أنْ لا وُصولَ إليه إلَّا به، وهذا بخِلافِ آيةِ (الأنعام)؛ حيثُ ذكَرَ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فحذَفَ المفعولَ؛ لِتَصيرَ هِدايتُهم مُكرَّرةً بوُجوبِ تَسليطِ العاملِ على المَوصولِ الَّذي أعادَ عليه الضَّميرَ في هذه الآيةِ[٢].

- وأشارَتْ جُملةُ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إلى مَعنى تَهَيُّئِهم لِلاهتِداءِ بما فَطَرَهمُ اللهُ عليه مِن عُقولٍ كامِلةٍ، وأصْلُ الخِلقةِ مَيَّالةٌ لِفَهمِ الحَقائِقِ، غَيرُ مُكتَرِثةٍ بالمَألوفِ، ولا مُراعاةِ الباطِلِ، على تَفاوُتِ تلك العُقولِ في مَدى سُرعةِ البُلوغِ لِلاهتِداءِ. وأُشيرَ إلى رُسوخِ هذه الأحوالِ في عُقولِهم بذِكرِ ضَميرِ الفَصلِ ﴿هُمۡ﴾، مع كَلِمةِ ﴿أُوْلُواْ﴾ الدَّالَّةِ على أنَّ المَوصوفَ بها مُمسِكٌ بما أُضيفَتْ إليه كَلِمةُ ﴿أُوْلُواْ﴾، وبما دَلَّ عليه تَعريفُ ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مِن مَعنى الكَمالِ[٣].

- وأشارَ إعادةُ اسمِ الإشارةِ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلى تَمَيُّزِهم بهذه الخَصلةِ مِن بَينِ نُظَرائِهم وأهلِ عَصرِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقد أفادَ تَعريفُ الجُزأيْنِ في قَولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ قَصْرَ العقْلِ عليهم، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصرٌ إضافيٌّ قَصرَ تَعيينٍ، أيْ: دونَ مَسْلوبي العُقولِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لَمَّا أفادَ الحَصرُ في قَولِه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧]، والحَصرانِ اللَّذانِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]؛ أنَّ مَن سِواهم -وهمُ المُشرِكونَ- لا بُشْرى لهم، ولم يَهدِهمُ اللهُ، ولا ألبابَ لهم؛ لِعَدَمِ انتِفاعِهم بعُقولِهم، وكان حاصِلُ ذلك أنَّ المُشرِكينَ مَحرومونَ مِن حُسنِ العاقِبةِ بالنَّعيمِ الخالِدِ؛ لِحِرمانِهم مِنَ الطَّاعةِ الَّتي هي سَبَبُه -فُرِّعَ على ذلك استِفهامٌ إنكاريٌّ مُفيدٌ التَّنبيهَ على انتِفاءِ الطَّماعيةِ في هِدايةِ الفَريقِ الَّذي حَقَّتْ عليه كَلِمةُ العَذابِ، وهمُ الَّذين قُصِدَ إقصاؤُهم عن البُشرى، والهِدايةِ، والانتِفاعِ بعُقولِهم، بالقصْرِ المَصوغةِ عليه صِيغُ القصْرِ الثَّلاثِ المتقدِّمةِ[2].

- وقولُه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ ...﴾ بيانٌ لأحوالِ أضْدادِ المذكورينَ على طَريقةِ الإجمالِ، وتسجيلٌ عليهم بحِرمانِ الهِدايةِ، وهم عَبَدةُ الطَّاغوتِ، ومُتَّبِعو خُطواتِها، كما يُلَوِّحُ به التَّعبيرُ عنهم بـ(مَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ)[3].

- وفي هذه الآيةِ جاء نَظمُ الكلامِ على طَريقةٍ مُبتَكَرةٍ في الخَبَرِ المُهتَمِّ به؛ بأنْ يُؤكَّدَ مَضمونُه الثَّابتُ لِلخَبَرِ عنه، بإثباتِ نَقيضِ -أو ضِدِّ- ذلك المَضمونِ لِضِدِّ المُخبَرِ عنه؛ لِيَتقَرَّرَ مَضمونُ الخَبَرِ مَرَّتَينِ: مَرَّةً بأصْلِه، ومَرَّةً بنَقيضِه أو ضِدِّه، لِضِدِّ المُخبَرِ عنه، فبعْدَ أنْ أُشِيرَ إلى المَوصوفِينَ مرَّتينِ، فُرِّعَ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨).

بعْدَه إثباتُ ضِدِّ حُكمِهم لِمَن هم مُتَّصِفون بضِدِّ حالِهم. وبهذا يَظهَرُ حُسنُ مَوقِعِ الفاءِ؛ لِتَفريعِ هذه الجُملةِ على جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]؛ لِأنَّ التَّفريعَ يَقتَضي اتِّصالًا وارتِباطًا بيْن المُفرَّعِ والمُفرَّعِ عليه(١).

- قولُه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ معنى (حقَّ) هنا تحقَّق، وحقُّ كلمةِ العذابِ عليهم ضِدُّ هدْيِ الله الآخَرينَ، وكَوْنُهم في النَّارِ ضِدُّ كَونِ الآخَرينَ لهم البُشْرى، وترتيبُ المُتضادَّينِ جرَى على طريقةِ شِبهِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ(٢)، وهو مِثلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ * خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [البقرة: ٦، ٧] بعدَ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٨، ٣٦٩).

(٢) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

رَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥]؛ فإنَّ قولَه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ضدٌّ لقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾، وقولَه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ضدُّ قولِه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

- وقَولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ يُفيدُ أنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يَقدِرُ على الإنقاذِ مِنَ النَّارِ وَحْدَه، لا يَقدِرُ على ذلك أحَدٌ غيرُه، فكما لا تَقدِرُ أنتَ أنْ تُنقِذَ الدَّاخِلَ في النَّارِ مِنَ النَّارِ، لا تَقدِرُ أنْ تُخَلِّصَه ممَّا هو فيه مِن استِحقاقِ العَذابِ بتَحصيلِ الإيمانِ فيه؛ فتَقديمُ الفاعلِ المعنويِّ على الفِعلِ، وإيلاؤُه همزةَ الإنكارِ؛ يدُلُّ على أنَّ الكلامَ في الفاعلِ لا في الفعلِ، أي: لَسْتَ أنت الفاعلَ لهذا الفعلِ، بل فاعِلُه غيرُك، وهو اللهُ وحْدَه[2].

- و(مَن) مِن قولِه تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ قيل: المرادُ بها أبو لهبٍ وولَدُه، ومَن تخلَّفَ عن الإيمانِ مِن عَشيرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فيكونُ (مَن) مُبتدأً حُذِفَ خبَرُه. والتَّقديرُ: تُنقِذُه مِن النَّارِ، كما دلَّ عليه ما بَعْدَه، وتكونُ جُملةُ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ تَذييلًا، أي: أنت لا تُنقِذُ الَّذين في النَّارِ. والهمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، والهمزةُ الثَّانيةُ كذلك، وهي تأكيدٌ للَّتي قبْلَها؛ للاهتِمامِ بشَأنِ هذا الاستِفهامِ الإنكاريِّ.

ويجوزُ أنْ تكونَ (مَن) في قولِه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ شرطيَّةً، بِناءً على أنَّ الفاءَ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يَحسُنُ أنْ تكونَ لِمَعنًى غيرِ معنَى التَّفريعِ المستفادِ مِن الَّتي قبْلَها، وإلَّا كانت مُؤكِّدةً للأُولى، وذلك يَنقُصُ معنًى مِن الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٦٥).

ويجوزُ أنْ تكونَ (مَن) الأُولى موصولةً مُبتدأً، وخبرُه ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، وتكونَ الفاءُ في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ مؤكِّدةً للفاءِ الأُولى في قولِه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ ...﴾ إلخ؛ فتكونَ الهَمْزةُ والفاءُ معًا مُؤكِّدتَينِ للهمْزةِ الأُولى والفاءِ الَّتي معها؛ لاتِّصالِهما، ولأنَّ جُملةَ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾ صادقةٌ على ما صدَقَت عليه جُملةُ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾، ويكونَ الاستفهامُ الإنكاريُّ جاريًا على غالِبِ استعمالِه؛ مِن تَوجُّهِه إلى كلامٍ لا شرْطَ فيه. وأصلُ الكلامِ -على اعتبارِ (مَن) شرطيَّةً-: أمَنْ تَحْقُقُ عليه كلمةُ العذابِ في المستقبَلِ، فأنت لا تُنقِذُه منه؛ فتكونُ همزةُ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، وتكونُ همزةُ ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ افتُتِحَ بها الكلامُ المُتضمِّنُ الإنكارَ؛ للتَّنبيهِ مِن أوَّلِ الأمْرِ على أنَّ الكلامَ يَتضمَّنُ إنكارًا. وأصلُ الكلامِ على اعتبارِ (مَن) الأُولى مَوصولةً: الَّذين تَحِقُّ عليهم كلمةُ العذابِ أنت لا تُنقِذُهم مِن النَّارِ، فتكونُ الهمزةُ في قولِه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، وتكونُ همزةُ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ تأْكيدًا للهمزةِ الأُولى[1].

- وتَجريدُ فِعلِ ﴿حَقَّ﴾ مِن تاءِ التَّأنيثِ، مع أنَّ فاعِلَه مُؤنَّثُ اللَّفظِ -وهو ﴿كَلِمَةُ﴾-؛ لأنَّ الفاعلَ اكتسَبَ التَّذكيرَ ممَّا أُضِيفَ هو إليه، نظرًا لإمكانِ الاستِغناءِ عن المُضافِ بالمُضافِ إليه، فكأنَّه قِيل: أفمَن حقَّ عليه العذابُ. وفائِدةُ إقْحامِ ﴿كَلِمَةُ﴾؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ ذلك أمْرُ اللهِ ووَعيدُه[2].

- و﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ هم مَن حَقَّ عليهم كَلِمةُ العَذابِ؛ لِأنَّ كَلِمةَ العَذابِ هي أنْ يَكونوا مِن أهلِ النَّارِ، فوَقَع إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، والأصلُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧١).

(أفأنتَ تُنقِذُه مِنَ النارِ)، وفائِدةُ هذا الإظهارِ: تَهويلُ حالَتِهم؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن حَرفِ الظَّرفيَّةِ المُصوِّرِ لِحالةِ إحاطةِ النَّارِ بهم، مع ما فيه مِن تَشهيرٍ بحالِهم، وإظهارٍ لِخِسَّةِ مَنازِلِهم، أيْ: أفأنتَ تُريدُ إنقاذَهم مِنَ الوُقوعِ في النَّارِ وهمُ الآنَ في النَّارِ؛ لِأنَّه مُحقَّقٌ مَصيرُهم إلى النارِ، فشَبَّهَ تَحقُّقَ الوُقوعِ في المُستَقبَلِ بتَحقُّقِه في الحالِ[1].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ مُفيدٌ لِتَقَوِّي الحُكمِ؛ وهو إنكارُ أنْ يَكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَكريرِ دَعوَتِه يُخَلِّصُهم مِن تَحقُّقِ الوَعيدِ، أو يُحصِّلُ لهمُ الهِدايةَ إذا لم يُقَدِّرْها اللهُ لهم[2].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَهوينًا عليه بَعضَ حِرصِه على تَكريرِ دَعوَتِهم إلى الإسلامِ، وحُزنَه على إعراضِهم وضَلالِهم، وإلَّا فلم يَكُنِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالَّذي يَظُنُّ أنَّه يُنقِذُهم مِن وَعيدِ اللهِ؛ ولذلك اجتُلِبَ فِعلُ الإنقاذِ هنا؛ تَشبيهًا لِحالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حِرصِه على هَدْيِهم وبُلوغِ جهدِه في إقناعِهم بتَصديقِ دَعوَتِه، وحالِهم في انغِماسِهم في مُوجِباتِ وَعيدِهم؛ بحالِ مَن يُحاوِلُ إنقاذَ ساقِطٍ في النَّارِ قد أحاطَتِ النَّارُ بجَوانِبِه استِحقاقًا قَضى به مَن لا يُرَدُّ مُرادُه، فحالُهم تُشبِهُ حالَ وُقوعِهم في النَّارِ مِنَ الآنَ؛ لِتَحقُّقِ وُقوعِه[3].

- وقد اشتَمَلَتْ هذه الآيةُ على نُكَتٍ بَديعةٍ مِنَ الإعجازِ؛ إذْ أفادَت أنَّ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الفَريقَ مِن أهلِ الشِّركِ الَّذين يَكمُنُ الكُفرُ في قُلوبِهم، حَقَّتْ عليهم كَلِمةُ اللهِ بتَعذيبِهم، فهم لا يُؤمِنونَ، وأنَّ حالَهمُ الآنَ كحالِ مَن وَقَع في النَّارِ، فهو هالِكٌ لا مَحالةَ، وأنَّ حالَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حِرصِه على هَديِهم كحالِ مَن رَأى ساقِطًا في النَّارِ فاندَفَع بدافِعِ الشَّفَقةِ إلى مُحاوَلةِ إنقاذِه، ولكِنَّه لا يَستَطيعُ ذلك؛ فلِذلك أُنكِرَتْ شِدَّةُ حِرصِه على تَخليصِهم، فكان إيداعُ هذا المَعنى في جُملَتَينِ نِهايةً في الإيجازِ، مع قَرنِه بما دَلَّ عليه تَأكيدُ الهَمزةِ والفاءِ في الجُملةِ الثَّانيةِ مِنَ الإطنابِ في مَقامِ الصَّراحةِ. وحاصِلُ نَظمِ هذا التَّركيبِ: أفمَنْ حَقَّ عليه كَلِمةُ العَذابِ فهو في النَّارِ؛ أفأنتَ تُنقِذُه وتُنقِذُ مَن في النَّارِ[1]؟!

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾

- في قولِه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ...﴾ أُعيدَتْ بِشارةُ الَّذين اجتَنَبوا الطَّاغوتَ؛ تَفصيلًا لِلإجمالِ الواقِعِ مِن قَبْلُ. وافتُتِحَ الإخبارُ عنهم بحَرفِ الاستِدراكِ؛ لِزيادةِ تَقريرِ الفارِقِ بيْنَ حالِ المُؤمِنينَ وحالِ المُشرِكينَ والمُضادَّةِ بَيْنَهما، فحَرفُ الاستِدراكِ هنا لِمُجرَّدِ الإشعارِ بتَضادِّ الحالَيْنِ؛ لِيَعلَمَ السَّامِعُ أنَّه سيَتلَقَّى حُكمًا مُخالِفًا لِمَا سبَقَ، فحَصَل في قَضيةِ الَّذين اجتَنَبوا عِبادةَ الطَّاغوتِ تَقريرٌ على تَقريرٍ، ابتُدِئَ بالإشارَتَينِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨]، ثمَّ بما أُعقِبَ مِن تَفريعِ حالِ أضْدادِهم على ذِكرِ أحوالِهم، ثمَّ بالاستِدراكِ الفارِقِ بيْنَ حالِهم وحالِ أضْدادِهم[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٣).

- والمُرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ هُمُ الَّذين اجتَنَبوا عِبادةَ الطَّاغوتِ، وأنابوا إلى الله، واتَّبَعوا أحسَنَ القَولِ، واهتَدَوْا بهَدْيِ الله، وكانوا أُولي الألبابِ؛ فعَدَلَ عن الإتيانِ بضَميرِهم هنا إلى المَوصولِ؛ لِقَصدِ مَدحِهم بمَدلولِ الصِّلةِ، ولِلإيماءِ إلى أنَّ الصِّلةَ سَبَبٌ لِلحُكمِ المَحكومِ به على المَوصولِ، وهو نَوالُهمُ الغُرَفَ[1].

- وعُدِلَ أيضًا عن اسمِ الجَلالةِ إلى وَصْفِ الرَّبِّ المُضافِ إلى ضَميرِ المُتَّقينَ في قَولِه: ﴿ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾؛ لِمَا في تلك الإضافةِ مِن تَشريفِهم برِضا رَبِّهم عنهم[2].

- وقولُه: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ مُقابِلُ ما جُعِلَ لِأهلِ النَّارِ في قَولِه: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞ﴾ [الزمر: ١٦]، وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ خُولِفَ بيْنَ الحالَتَينِ: فجُعِل لِلمُتَّقينَ غُرَفٌ مَوصوفةٌ بأنَّها فَوقَها غُرَفٌ، وجُعِلتْ لِلمُشرِكينَ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ، وعُطِفَ عليها أنَّ مِن تَحتِهم ظُلَلًا؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ المُتَّقينَ مُتَنعِّمونَ بالتَّنقُّلِ في تلك الغُرَفِ، وإلى أنَّ المُشرِكينَ مَحبوسونَ في مَكانِهم، وأنَّ الظُّلَلَ مِنَ النَّارِ مِن فَوقِهم ومِن تَحتِهم؛ لِتَتَظاهَرَ الظُّلَلُ بتَوجيهِ لَفحِ النَّارِ إليهم مِن جَميعِ جِهاتِهم[3].

- وذِكرُ الغُرَفِ المَبنيَّةِ في قولِه: ﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّها غُرَفٌ حَقيقةً، ليستْ أشياءَ مُشابِهةً لِلغُرَفِ؛ فَرْقًا بَيْنَها وبيْنَ الظُّلَلِ الَّتي جُعِلتْ لِلَّذين خَسِروا يَومَ القِيامةِ؛ فإنَّ ظُلَلَهم كانتْ مِن نارٍ. وقيل: ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ مِثلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المنازلِ اللَّاصقةِ للأرضِ؛ فذِكرُ الوصفِ تَمهيدٌ لقولِه: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ الأنهارَ لا تَجْري إلَّا تحتَ المنازلِ السُّفليَّةِ، أي: لم يَفُتِ الغُرَفَ شَيءٌ مِن مَحاسنِ المنازلِ السُّفليَّةِ. وقِيل: أُرِيدَ أنَّها مُهيَّأةٌ لهم مِنَ الآنَ، فهي موجودةٌ؛ لأنَّ اسمَ المفعولِ كاسمِ الفاعلِ في اقتِضائِه الاتِّصافَ بالوصفِ في زمَنِ الحالِ؛ فيكونُ إيماءً إلى أنَّ الجنَّةَ مَخلوقةٌ مِنَ الآنَ.

ويجوزُ أنْ يكونَ الوصفُ احترازًا عن نَوعٍ مِن الغُرَفِ تكونُ نَحتًا في الحَجَرِ في الجبالِ، مِثلُ غُرَفِ ثَمودَ، ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ وَصفًا للغُرَفِ باعتبارِ ما دلَّ عليه لَفْظُها مِن معنى المبنيِّ المُعْتَلي؛ فيكونَ الوصفُ دالًّا على تَمكُّنِ المعنى الموصوفِ، أي: مَبنيَّةٌ بِناءً بالغًا الغايةَ في نَوعِه، كقولِهم: لَيلٌ أَلْيَلُ (أي: شديدُ الظُّلمةِ)، وظِلٌّ ظَليلٌ[1].

- قولُه: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ إضافةُ ﴿وَعْدَ﴾ إلى اسمِ الجَلالةِ مُؤْذِنةٌ بأنَّه وعْدٌ مُوفًى به؛ فوَقَعتْ جُملةُ ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ بَيانًا لِمَعنى ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٧٥).

## الآيات (٢١-٢٢)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: أي: فأجْراه وأدخَلَه، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ[1].

﴿يَنَٰبِيعَ﴾: أي: عُيونًا تَنبُعُ، ومفردُها: يَنبوعٌ، مِن قَولِهم: نَبَع الماءُ: إذا ظهَرَ وفارَ، وأصلُ (نبع): يدُلُّ على خُروجِ الماءِ مِن العَينِ[2].

﴿يَهِيجُ﴾: أي: يَيبَسُ ويَجِفُّ، يُقالُ: هاج النَّبتُ هِياجًا، أي: يَبِسَ، وأرضٌ هائِجةٌ: يَبِسَ بَقلُها واصفَرَّ، وأصل (هيج): يدُلُّ على ثَورانِ شَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٧٨) و(٢٠/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣).

﴿حُطَٰمًا﴾: أي: فُتاتًا مُكَسَّرًا، مِن تحطَّمَ العُودُ: إذا تفَتَّت مِن اليُبْسِ، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسرِ الشَّيءِ[١].

﴿مَّثَانِيَ﴾: أي: تُثَنَّى وتُكَرَّرُ فيه الأنباءُ والأخبارُ، والقَضاءُ والأحكامُ والحُجَجُ، وأصلُ (ثني): يدُلُّ على تَكريرِ الشَّيءِ[٢].

﴿تَقْشَعِرُّ﴾: أي: تَنقَبِضُ وتَضطَرِبُ مِنَ الخَوفِ[٣].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾

﴿يَنَٰبِيعَ﴾: مَنصوبٌ على نَزعِ الخافِضِ، أي: سَلَكه في ينابيعَ، أو مَفعولٌ به ثانٍ بتَضمينِ سَلَكه معنى: جعَلَه، أو مَنصوبٌ على الحالِ مِن الضَّميرِ في (سَلَكَه)، أي: فأَجْراه عُيونًا في الأرضِ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٠)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١٠٧٩)، ((إعراب القرآن)) للدعاس (٣/ ١٣٦).

﴿ كِتَٰبًا ﴾: بَدَلٌ مَنصوبٌ مِنْ ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾، ﴿مُّتَشَٰبِهًا ﴾: نَعتٌ لـ ﴿ كِتَٰبًا ﴾، ﴿مَّثَانِيَ ﴾: نَعتٌ ثانٍ، أو حالٌ مِن ﴿ كِتَٰبًا ﴾ لِوَصفِه، أو تَمييزٌ مَنقولٌ مِن الفاعِليَّةِ، أي: مُتشابِهًا مَثانِيه. ﴿نَقْشَعِرُّ ﴾: نَعْتٌ ثَالِثٌ لـ ﴿ كِتَٰبًا ﴾ أو حالٌ مِنه؛ لاختِصاصِه بالصِّفةِ، أو مُستأنَفٌ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا سرعةَ زوالِ الحياةِ الدُّنيا: ألَمْ تَرَ أنَّ اللهَ أنزَلَ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فأدخَلَه في الأرضِ، وجعَلَه فيها عُيونًا جاريةً، ثمَّ يُنبِتُ به زُروعًا مُختَلِفةَ الألوانِ، ثمَّ يُصابُ هذا الزَّرعُ بالجَفافِ، فتَراه مُصفَرًّا مِن بَعدِ اخضِرارِه ونَضارتِه، ثمَّ يَجعَلُه اللهُ فُتاتًا مُتكَسِّرًا؟! إنَّ في ذلك لَذِكرَى لأهلِ العُقولِ الصَّحيحةِ.

ثمَّ يَنفي اللهُ تعالى المُساواةَ بيْنَ المؤمنِ والكافرِ، وبيْنَ المُهتدي والضَّالِّ، فيقولُ: أفَمَنْ شَرَح اللهُ صَدْرَه للإسلامِ فهو على بَصيرةٍ وهِدايةٍ مِن رَبِّه، كمَنْ قَسا قَلبُه وغَلُظ؟! فوَيْلٌ للقاسيةِ قُلوبُهم إذا سَمِعوا ذِكرَ اللهِ الَّذي مِن شَأنِه أن تَلينَ له القُلوبُ، أولئك في ضَلالٍ ظاهِرٍ عن الحَقِّ.

ثمَّ يَمدَحُ تعالى كتابَه، فيقولُ: اللهُ نزَّل القُرآنَ الَّذي هو أحسَنُ الحديثِ، كِتابًا يُشبِهُ بَعضُه بَعضًا في فَصاحتِه وبَلاغتِه، وفي نَظمِه وإعجازِه، وفي صِحَّةِ مَعانيه وأحكامِه، تُثَنَّى وتُكرَّرُ فيه القِصَصُ والمواعِظُ، والأمثالُ والأحكامُ، والوَعدُ والوَعيدُ.

ثمَّ يُبيِّنُ حالَ المؤمنينَ الصَّادِقينَ عندَ سماعِ القرآنِ، وأثرَه فيهم، فيقولُ: تَضْطَرِبُ وتَتقبَّضُ منه جُلودُ الَّذين يَخشَونَ رَبَّهم، ثمَّ تَلينُ جُلودُهم وتَسكُنُ

---

(١) يُنظر: ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١١١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٢٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٣/ ١٧١).

قُلوبُهم إلى كِتابِ اللهِ، ذلك هُدى اللهِ يَهدي به مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ومَن يُضْلِلْه اللهُ فلا هادِيَ له.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ ﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَصَف الآخِرةَ بصِفاتٍ تُوجِبُ الرَّغبةَ العَظيمةَ لأُولي الألبابِ فيها؛ وَصَف الدُّنيا بصِفةٍ تُوجِبُ اشتِدادَ النفرةِ عنها[١].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ سُبحانَه بقُدرتِه على البَعثِ؛ دَلَّ عليها بما يَتكَرَّرُ مُشاهَدتُه مِن مِثلِها[٢].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

أي: ألَمْ تَرَ[٣] أنَّ اللهَ أنزَلَ المطَرَ مِن السَّماءِ، فأدخَلَه في الأرضِ وأجراه فيها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٣).

(٣) ذكر ابنُ عاشور أنَّ الخطابُ لكُلِّ مَن يَصْلُحُ للخِطابِ، فليسَ المرادُ به مُخاطَبًا مُعَيَّنًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٧).

وقال ابنُ عطيَّة: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكُلُّ بَشَرٍ داخِلٌ معه في معناه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٦-١٧٠). =

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾

أي: ثمَّ يُنبِتُ اللهُ بهذا الماءِ زُروعًا مُختَلِفةَ الألوانِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾

أي: ثُمَّ يَيبسُ الزَّرعُ ويجِفُّ فتَراه مُصفَرَّ اللَّونِ بعدَ تلك البَهجةِ والنَّضْرةِ(٢).

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾

أي: ثمَّ يَجعَلُ اللهُ الزَّرعَ الذَّابِلَ فُتاتًا مُتكَسِّرًا(٣).

---

= قال الشوكاني: (اليَنبُوعُ: عَينُ الماءِ، والأمكِنةُ الَّتي يَنبُعُ منها الماءُ، والمعنى: أدخَلَ الماءَ النَّازِلَ مِن السَّماءِ في الأرضِ، وجعَلَه فيها عُيونًا جاريةً، أو جعَلَه في يَنابيعَ، أي: في أمكِنةٍ يَنبُعُ منها الماءُ، فهو على الوَجهِ الثَّاني مَنصوبٌ بنَزعِ الخافِضِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٠)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تَمَّ هذا المِنوالُ البَديعُ الدَّالُّ بلا شَكٍّ لكُلِّ مَن رآه على أنَّ فاعِلَه قادِرٌ على الإعادةِ لِما يُريدُ بعدَ الإبادةِ، كما قدَرَ على الإيجادِ مِن العَدَمِ، والإفادةِ لكُلِّ ما لم يكُنْ؛ قال على سَبيلِ التَّأكيدِ للتَّنبيهِ على أنَّ إنكارَهم غايةٌ في الحُمقِ والجُمودِ[1]:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾

أي: إنَّ في ذلك[2] لَذِكْرى يَتذكَّرُ بها أهلُ العُقولِ الصَّحيحةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٤).

(٢) الإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّم ذِكرُه مِن إنزالِ المطرِ إلى آخِرِ الأطوارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨).

قيل: إنَّ ما ذُكِرَ تَذكيرٌ وتَنبيهٌ على أنَّه لا بُدَّ مِن صانعٍ حَكيمٍ، وأنَّ ذلك كائِنٌ عن تقديرٍ وتَدبيرٍ، لا عن تَعطيلٍ وإهمالٍ. قاله الزمخشري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٢).

وقيل: إنَّه مَثَلٌ للدُّنيا؛ فالدُّنيا هكذا، تكونُ خَضِرةً نَضِرةً حَسناءَ، ثمَّ تعودُ عَجوزًا شَوهاءَ، والشَّابُّ يعودُ شَيخًا هَرِمًا كبيرًا ضَعيفًا، وبعدَ ذلك كُلِّه الموتُ. قال ابنُ كثير: (وكثيرًا ما يَضرِبُ اللهُ تعالى مَثَلَ الحياةِ الدُّنيا بما يُنزِلُ اللهُ مِن السَّماءِ مِن ماءٍ، ويُنبِتُ به زُروعًا وثمارًا، ثمَّ يكونُ بعدَ ذلك حُطامًا، كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٥).

وقيل: إنَّها ذِكرى للبَعثِ مِن القُبورِ وإحياءِ الموتى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧). =

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن تعالى الدَّلائِلَ على وُجوبِ الإقبالِ على طاعةِ اللهِ تعالى، ووُجوبِ الإعراضِ عن الدُّنيا ولَذَّاتِها؛ ذكَرَ أنَّ الانتِفاعَ بهذه البَياناتِ لا يَكمُلُ إلَّا إذا شَرَح الصُّدورَ، ونَوَّر القُلوبَ(١).

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾

أي: أفمَنْ وسَّع اللهُ قَلبَه لِمَعرفتِه، وفَسَحَه للإقرارِ بوَحدانيَّتِه، والخُضوعِ لطاعتِه، والعَمَلِ بدِينِه، فهو على بَصيرةٍ ويَقينٍ مِن رَبِّه، وشُعورٍ بالرَّاحةِ والطُّمأنينةِ والسُّرورِ: كمَنْ ليس كذلك ممَّن هو ضَيِّقُ الصَّدرِ عن استِماعِ الحَقِّ واتِّباعِه، قاسي القَلبِ، مُعرِضٌ عن ذِكرِ الرَّبِّ تعالى(٢)؟!

---

= وقيل: يَذْكُرونَ به عنايةَ رَبِّهم ورَحمتَه بعِبادِه؛ حيث يَسَّرَ لهم هذا الماءَ، وخَزَنَه بخزائِنِ الأرضِ تبَعًا لِمَصالِحِهم، ويَذكُرونَ به كَمالَ قُدرتِه، وأنَّه يُحيي الموتى، كما أحيا الأرضَ بعدَ مَوتِها، ويَذكُرونَ به أنَّ الفاعِلَ لذلك هو المُستَحِقُّ للعِبادةِ. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨، ٣٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

قال الماوردي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: وسَّع صَدرَه للإسلامِ حتَّى يثبت فيه، قاله ابنُ عبَّاسٍ والسُّدِّيُّ. الثَّاني: وسَّع صَدرَه بالإسلامِ بالفرحِ به والطمأنينةِ إليه. فعلى هذا لا يجوزُ أن يكونَ الشرحُ قبلَ الإسلامِ، وعلى الوجهِ الأوَّلِ يجوزُ أن يكونَ الشرحُ قبلَ الإسلامِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

أي: فوَيلٌ للَّذين تَقسو قُلوبُهم إذا سَمِعوا ذِكرَ اللهِ؛ فلا تَلينُ لكِتابِه، ولا تَتذكَّرُ آياتِه، ولا تَطمَئِنُّ عندَ ذِكرِه، ولا تَخشَعُ ولا تَعِي، بل هي مُعرِضةٌ عن رَبِّها[1]!

---

= (١٥/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٩، ٣٨٠).

قال الزَّجَّاجُ: (المعنَى: أفمَنْ شرَح اللهُ صدرَه فاهتدَى كمَنْ طبع على قلبِه فلم يَهْتَدِ لِقَسْوتِه؟ والجوابُ متروكٌ؛ لأنَّ الكلامَ دَالٌّ عليه. ويؤكِّدُ ذلك قولُه جلَّ وعزَّ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

قال الزَّجَّاجُ: (يُقال: قَسا قَلبُه عن ذِكرِ اللهِ، ومِن ذِكْرِ اللهِ؛ فمَن قال: مِن ذِكْرِ اللهِ، فالمعنى: كُلَّما تُلِيَ عليه ذِكرُ اللهِ قَسا قَلْبُه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]. ومَن قال: عن ذِكْرِ اللهِ، فالمعنى: أنَّه غَلُظ قَلبُه وجَفا عن قَبولِ ذِكْرِ اللهِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٥١).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، والبيضاوي، والخازن، وأبو حيان، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨٧).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: ابنُ جرير، ومكِّي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٦).

قال السمعاني: (قَولُه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: الَّذين لا يَذْكُرونَ اللهَ، وكلُّ مَن ترَك ذِكرَ الله فقد قسَا قلبُه). ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٥).

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

أي: أولئك القاسِيةُ قُلوبُهم مِن ذِكرِ اللهِ: في ضَلالٍ ظاهرٍ عن الحَقِّ[1].

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ سُبحانَه عن هؤلاءِ المَمدوحينَ أنَّهم يَستَمِعونَ القَولَ فيَتَّبِعونَ أحْسَنَه؛ كأنَّه قيل: هل مِن طَريقٍ إلى مَعرفةِ أحسَنِه حتَّى نَتَّصِفَ بصِفاتِ أُولي الألبابِ، وحتَّى نَعرِفَ أنَّ مَن آثَرَه عَلِمْنا أنَّه مِن أُولي الألبابِ؟ قيل: نَعَمْ، أحْسَنُه ما نَصَّ اللهُ تعالى عليه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[2].

**سَبَبُ النُّزولِ:**

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أُنزِلَ القُرآنُ على رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتلا عليهم زَمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، لو قَصَصْتَ علينا! فأنزل اللهُ: ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١] إلى قَولِه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٢).

عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، فتلاها عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، لو حدَّثْتَنا، فأنزَلَ الله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ...﴾ [الزمر: ٢٣] الآيةَ، كُلُّ ذلك يُؤْمَرونَ بالقُرآنِ))(١).

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾

أي: اللهُ نزَّل القرآنَ الَّذي هو أحسَنُ الحَديثِ، كِتابًا يُشبِهُ بَعضُه بَعضًا في صِدقِ الأخبارِ، وعَدلِ الأحكامِ، وبَلاغةِ الألفاظِ، وشَرَفِ المعاني؛ فلا تَفاوُتَ فيه في لَفظٍ ولا مَعنًى، ويُصَدِّقُ بَعضُه بَعضًا، فلا اختِلافَ فيه ولا تَضادَّ(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦].

وقال جَلَّ ثناؤُه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ

---

(١) أخرجه البزار (١١٥٣)، وابن حبان (٦٢٠٩)، والحاكم (٣٣١٩).
حَسَّنه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ٢٢٢)، وابنُ حجر في ((المطالب العالية)) (٤/ ١٢٦)، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح الموارد)) (١٤٦٢)، وحَسَّن إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٠)، وقوَّاه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٦٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (٧/ ٩٣).

وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا خَطَب يقولُ: أمَّا بَعْدُ، فإنَّ خَيْرَ الحَديثِ كِتابُ اللهِ، وخَيرَ الهُدْى هُدَى مُحمَّدٍ، وشَرَّ الأُمورِ مُحْدَثاتُها، وكُلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ))[1].

﴿مَّثَانِيَ ﴾

أي: يُثنَّى ما فيه؛ كالوَعدِ والوَعيدِ، والقصصِ، والأحكامِ[2].

﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ﴾

---

(١) رواه مسلم (٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: يُكرَّرُ ما فيه؛ كالأخبارِ والقَصَصِ، والأحكامِ والحُجَجِ، والمواعِظِ، والوَعدِ والوَعيدِ. وممَّن قال بهذا المعنَى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزمخشري، وابن عطية، والقرطبي، وابن تيميَّة، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٣).

قال ابن تيميَّةَ: (﴿مَّثَانِيَ ﴾ يُثَنِّي اللهُ فيه الأقسامَ ويَستوفيها. والحقائِقُ: إمَّا مُتماثِلةٌ، وهي «المُتشابِهُ»، وإمَّا مُماثِلةٌ، وهي: الأصنافُ والأقسامُ والأنواعُ، وهي «المَثاني». و«التَّثنيةُ» يُرادُ بها: جِنسُ التَّعديدِ مِن غيرِ اقتِصارٍ على اثنَينِ فقط). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٤٠٧).

وقيل: معنى ﴿مَّثَانِيَ ﴾: اقترانُ المعنى بما يُقابِلُه؛ فإذا ذُكِرَت النَّارُ ذُكِرَت بعدَها الجنَّةُ، وإذا ذُكِرَ المؤمنون ذُكِرَ بَعدَهم الكافِرون... وهكذا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨٨، ١٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٦).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِن السَّلَفِ: سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٤).

أي: تَضطَرِبُ وتَتقَبَّضُ جُلودُ الَّذين يَخشَونَ رَبَّهم إذا تَلَوُا القُرآنَ أو سَمِعوه[١].

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾

أي: ثمَّ تَلينُ جُلودُهم، وتَسكُنُ وتَطمَئِنُّ قُلوبُهم إلى كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ...﴾ [الأنفال: ٢].

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾

أي: ذلك هُدى اللهِ، يَهدي به مَن يَشاءُ مِن عِبادِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٠، ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

قيل: المرادُ بـ ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾: إلى العمَلِ بما في كتابِ اللهِ، والتَّصديقِ به. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٣٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٢٧).

وقيل: المرادُ: أنَّها تَلينُ عندَ سَماعِ آياتِ الرَّحمةِ والرَّجاءِ والتَّرغيبِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والبَغَويُّ، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٩، ٣٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥).

قال الواحدي: (﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ إذا ذُكِرَتْ آياتُ الرَّحمةِ، وهذا معنى قولِ جميعِ المفسِّرينَ). ((الوسيط)) (٣/ ٥٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩١، ٣٩٢). =

كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾

أي: ومَن يُضْلِلْه اللهُ عن الحَقِّ فلا أحَدَ يَهديه إليه[1].

---

= قال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾ يحتمِلُ أن يُشيرَ إلى القرآنِ، أي: ذلك الَّذي هذه صِفَتُه: هُدَى الله. ويحتمِلُ أن يُشيرَ إلى الخَشيةِ واقْشِعْرارِ الجُلودِ، أي: ذلك أمارةُ هُدى اللهِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٨).

وقال ابنُ عثيمين: (يحتملُ أن يكونَ المشارُ إليه باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾: ما حصَلَ لهم مِن الخَشيةِ، وعلى هذا فيَكونُ المرادُ بالهدايةِ هِدايةَ التَّوفيقِ؛ لأنَّ الخَشيةَ عَمَلٌ. ويحتملُ أن يكونَ المشارُ إليه بـ﴿ذَٰلِكَ﴾: الكِتابَ الَّذي هو أحسَنُ الحديثِ؛ فتكون الهدايةُ هنا هدايةَ دَلالةٍ؛ لأنَّ الكِتابَ يَهدي، بمعنى: يَدُلُّ، والتَّوفيقُ بيَدِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٣).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ هنا تعودُ إلى القرآنِ: البَغَويُّ، والقرطبي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٧٧).

وممَّن قال بأنَّ الإشارةَ تعودُ إلى ما ذكَره الله تعالى مِن تأثيرِ القرآنِ الَّذي يُوجِبُ الخشيةَ واقْشِعْرارَ الجُلودِ ولِينَها: ابنُ جرير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩١).

قال ابن كثير: (قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: هذه صِفةُ مَن هداه اللهُ، ومَن كان على خِلافِ ذلك فهو ممَّن أضَلَّه اللهُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥).

وممَّن جمَع بيْن المَعنَيَينِ: البِقاعي، فقال: (﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ العظيمُ الغريبُ مِن الحديثِ المنزَّلِ، والقبضِ والبَسطِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٧).

كما قال الله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَستَعمِلَ عقْلَه في مخلوقاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِيَتذكَّرَ به فيما في هذه المخلوقاتِ مِن عَظَمةِ الخالِقِ؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ﴾ أنَّ الهدايةَ بيَدِ اللهِ تعالى، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه متى عَلِم الإنسانُ أنَّ الهدايةَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه لا يَلْتَفِتُ في طلبِ الهدايةِ إلَّا إلى اللهِ تعالى، وإذا عَلِم أنَّ الهدايةَ بيَدِ اللهِ تعالى فلا يُعْجَبُ بنَفْسِه إذا اهتدَى! بل يقولُ لِنَفْسِه: لولا أنَّ اللهَ تعالى هَداه لَكان ضالًّا، فلا يقولُ: إنَّما أُوتيتُه على عِلْمٍ عندي! أو يقولُ: هذا لي! بل يَعتَرِفُ بفَضْلِ اللهِ تعالى عليه؛ وأنَّه لولا هدايةُ اللهِ تعالى ما انتَفَعَ إلى يومِ الدِّينِ[2].

٣- قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إذا رأيْتَ مِن قلبِك عدَمَ لِينٍ لِذِكْرِ اللهِ فعالِجْ نفْسَك لِتَسْلَمَ مِن هذا الوعيدِ، فأحيانًا يَقْسُو القلبُ ولا يَلِينُ، ويَقرأُ الآياتِ العظيمةَ الرَّادِعةَ ولا يَتأثَّرُ! وأحيانًا يَقرأُ نَفْسَ الآياتِ ثمَّ يَتأثَّرُ، فإذا عَرَفْتَ مِن نَفْسِك قَسوةَ القلبِ فالْجَأْ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، واسألْه أنْ يُلينَ قلبَك لِذِكْرِه، وتَأَهَّبْ للوعيدِ إذا لم يَتدارَكْك اللهُ تعالى بلُطْفِه ومغفرتِه[3].

٤- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٤).

ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ قَولُه تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ هذا مِن جَلالةِ القُرآنِ وحُسنِه؛ فإنَّه تعالى لَمَّا عَلِم احتياجَ الخَلقِ إلى مَعانيه المُزَكِّيةِ للقُلوبِ، المكَمِّلةِ للأخلاقِ، وأنَّ تلك المعانيَ للقُلوبِ بمنزلةِ الماءِ لِسَقيِ الأشجارِ، فكما أنَّ الأشجارَ كُلَّما بَعُدَ عَهْدُها بسَقيِ الماءِ نَقَصَت، بل رُبَّما تَلِفَت، وكُلَّما تكَرَّر سَقْيُها حَسُنَت وأثمَرَت أنواعَ الثِّمارِ النَّافِعةِ؛ فكذلك القَلبُ يَحتاجُ دائمًا إلى تكَرُّرِ معاني كلامِ اللهِ تعالى عليه، وأنَّه لو تكرَّر عليه المعنى مَرَّةً واحِدةً في جميعِ القُرآنِ لم يقَعْ منه مَوقِعًا، ولم تحصُلِ النَّتيجةُ منه، وهكذا ينبغي للقارئِ للقُرآنِ المُتدَبِّرِ لِمَعانيه ألَّا يَدَعَ التَّدَبُّرَ في جميعِ المواضِعِ منه؛ فإنَّه يَحصُلُ له بسَبَبِ ذلك خيرٌ كثيرٌ، ونَفعٌ غَزيرٌ[1].

٥- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ أنَّ القُرآنَ قد بَلَغَ الغايةَ في البَلاغةِ؛ لِكَونِه يأتي مَثانيَ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائِدةِ: أنَّه يَنبغي لِمَن تَكَلَّمَ في مَوعِظةِ النَّاسِ ألَّا يأتيَ بالتَّرغيبِ المُطْلَقِ ولا بالتَّرهيبِ المُطلَقِ؛ وذلك أنَّه إذا أتى بالتَّرغيبِ المُطلَقِ حَمَلَهم على الرَّجاءِ فتَهاوَنوا، وإذا أتى بالتَّرهيبِ المُطلَقِ حَمَلَهم على اليَأسِ فقَنَطوا مِن رَحمةِ اللهِ تعالى؛ فالَّذي ينبغي للإنسانِ الَّذي يَتكلَّمُ مع النَّاسِ في المواعظِ أنْ يَتكلَّمَ أحيانًا بهذا، وأحيانًا بهذا؛ حتَّى لا يَحمِلَ النَّاسَ على القُنوطِ أو على الرَّجاءِ الَّذي يُوجِبُ الأمْنَ مِن مَكْرِ اللهِ تعالى[2].

٦- أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَلْجَأَ إلى اللهِ تعالى وحْدَه في طلبِ الهدايةِ؛ لقولِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٧).

تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وكان النَّبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ -وهو الهادي المَهْديُّ- يَستَفْتِحُ ويقولُ: ((اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرائيلَ، ومِيكائيلَ، وإسرافيلَ، فاطِرَ السَّمواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ؛ أنت تَحْكُمُ بيْنَ عِبادِك فيما كانوا فيه يَختَلِفون، اهْدِني لِمَا اختُلِفَ فيه مِن الحقِّ بإذْنِك؛ إنَّك تَهْدي مَن تَشاءُ إلى صراطٍ مستقيمٍ))[1]، فهذا وهو النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فكيف بنا نحن؟! فعليك أنْ تَلْجَأَ إلى ربِّك في طلبِ الهِدايةِ؛ وألَّا تَعتمِدَ على نفْسِك، بل اعتمِدْ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ تعالى مَرْجِعُك[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ كلَّ ماءٍ نَبَع مِن الأرضِ فهو طَهورٌ، ووجْهُ ذلك: أنَّ الماءَ النَّابِعَ مِن الأرضِ هو الماءُ النَّازِلُ مِن السَّماءِ، وكُلُّ ماءٍ نَزَلَ مِن السَّماءِ فهو طَهورٌ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا﴾[3] [الفرقان: ٤٨].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بيانُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ ورَحمتِه بالعِبادِ؛ حيثُ سَلَكَ هذا الماءَ يَنابيعَ في الأرضِ، ولم يَبْقَ راكِدًا على ظَهرِها؛ لِمَا في ذلك مِن الحِكمةِ والرَّحمةِ، فنراه مخزونًا في الأرضِ متى احتاجَه النَّاسُ استَخرَجوه[4].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، وأنَّ السَّببَ لا يَستَقِلُّ بالتَّأثيرِ في المُسَبَّبِ؛ فقد أضاف الإخراجَ إلى اللهِ تعالى، وهذا هو الَّذي عليه

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧٠) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (٢٠٦/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٣).

سَلَفُ الأُمَّةِ وأئمَّتُها؛ فالأسبابُ لها تأثيرٌ في المُسَبَّباتِ، ولكِنَّ تأثيرَها بفِعلِ اللهِ تعالى[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ أنَّ كَمالَ الدُّنيا مُؤْذِنٌ بنَقصِها؛ لأنَّ اللهَ تعالى ضَرَبَ ذلك مَثَلًا للدُّنيا[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أنَّ مَن شرَحَ اللهُ تعالى صَدْرَه للإسلامِ فقَبِلَ الحقَّ، فإنَّه على نورٍ مِن اللهِ تعالى، ويَتفرَّعُ عليها زيادةُ عِلمِه؛ لأنَّ العِلمَ نورٌ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤]، ويَتفرَّعُ عليها قُوَّةُ الفِراسةِ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالى يُعطي الإنسانَ فِراسةً بحيث يَعلَمُ أحوالَ النَّاسِ مِن لَمَحاتِ وُجوهِهم، بل أكثَرَ مِن ذلك؛ يَستَدِلُّ بالحاضرِ على الغائبِ، ويُعطيه اللهُ تعالى استِنتاجاتٍ لا تَكونُ لِغَيرِه[٣].

٦- أنَّ أعْظَمَ أسبابِ شَرحِ الصَّدرِ التَّوحيدُ، وعلى حَسَبِ كَمالِه وقُوَّتِه وزيادتِه يكونُ انشِراحُ صَدرِ صاحبِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ تعالى، ووجْهُه: أنَّه إذا كان القرآنُ كلامَه، ووُصِفَ القرآنُ بأنَّه مُنَزَّلٌ؛ دلَّ على أنَّ المتكَلِّمَ به عالٍ، وعُلُوُّ اللهِ عزَّ وجلَّ يَنقَسِمُ إلى قِسْمَينِ: عُلُوٌّ ذاتٍ، وعُلُوٌّ صِفةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((زاد المَعاد)) لابن القيم (٢/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٤).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ﴾ بصيغةِ الإفرادِ: دَلالةٌ على أنَّ المرادَ بالضَّمائرِ الَّتي فيها صيغةُ الجَمعِ في الإنزالِ، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ [الحجر: ٩]؛ أنَّ المرادَ بهما التَّعظيمُ قَطعًا، ولاستِحالةِ التَّعَدُّدِ، أو إرادةِ معنى الجَمعِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أنَّ القُرآنَ أحسَنُ الحَديثِ بحَسَبِ لَفظِه؛ وذلك مِن وَجهَينِ:

**الأوَّلُ**: أن يكونَ ذلك الحُسنُ لأجْلِ الفَصاحةِ والجَزالةِ.

**الثَّاني**: أن يكونَ بحَسَبِ النَّظْمِ في الأُسلوبِ؛ وذلك لأنَّ القُرآنَ ليس مِن جِنسِ الشِّعرِ، ولا مِن جِنسِ الخُطَبِ، ولا مِن جِنسِ الرَّسائِلِ، بل هو نوعٌ يُخالِفُ الكُلَّ، مع أنَّ كُلَّ ذي طَبعٍ سَليمٍ يَستَطيبُه ويَستَلِذُّه.

وهو أحسَنُ الحَديثِ لأجْلِ المعنى، وفيه وُجوهٌ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّه كِتابٌ مُنَزَّهٌ عن التَّناقُضِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ٨٢]، ومِثلُ هذا الكِتابِ إذا خلا عن التَّناقُضِ كان ذلك مِن المُعجِزاتِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: اشتِمالُه على الغُيوبِ الكثيرةِ في الماضي والمُستقبَلِ.

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّ العُلومَ الموجودةَ فيه كثيرةٌ جِدًّا[٢].

١٠- قولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٗا﴾ فيه أنَّ القرآنَ مكتوبٌ؛ فهو يُكْتَبُ في ثلاثةِ مواضعَ: اللَّوحِ المحفوظِ، الصُّحُفِ الَّتي بأيدي الملائكةِ، الصُّحُفِ الَّتي بأيدينا[٣].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٥).

١١- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ القرآنَ كلَّه مُتشابِهٌ، وفي سُورةِ (آلِ عِمرانَ): ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧] تدُلُّ على أنَّ مِن القرآنِ مُحْكَمًا ومنه مُتشابِهًا، وقولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] يدُلُّ على أنَّ كلَّه مُحْكَمٌ.

ووَجْهُ الجمْعِ بيْن هذه الآياتِ: أنَّ معنى كَونِه كلِّه مُحْكَمًا -وهو ما يُعرَفُ بالإحكامِ العامِّ-: أنَّه في غايةِ الإحكامِ -أي: الإتقانِ- في ألفاظِه ومَعانيه وإعجازِه؛ أخبارُه صِدْقٌ، وأحكامُه عَدْلٌ، لا تَعْتريه وَصْمةٌ ولا عَيبٌ؛ لا في الألفاظِ ولا في المعاني. ومعنى كَونِه مُتشابِهًا -ويُعرَفُ بالتَّشابُهِ العامِّ-: أنَّ آياتِه يُشبِهُ بعضُها بعضًا في الحُسنِ، والصِّدقِ، والإعجازِ، والسَّلامةِ مِن جَميعِ العيوبِ. ومعنى كَونِ بَعضِه مُحْكَمًا وبعضِه مُتشابِهًا -وهو الإحكامُ الخاصُّ والتَّشابُهُ الخاصُّ-: أنَّ المُحكَمَ منه هو واضحُ المعنى لكلِّ النَّاسِ، كقولِه: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، والمُتشابِهَ هو ما خفِيَ عِلمُه على غيرِ الرَّاسخينَ في العِلمِ -بِناءً على أنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ [آل عمران: ٧] عاطفةٌ-، أو هو ما استأْثَرَ اللهُ بعِلمِه، بِناءً على أنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ استئنافيَّةٌ لا عاطفةٌ[1].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٣٨).

قال ابن عثيمين: (الوقف عندَ قولِه: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وهو قولُ جمهورِ السَّلفِ والخلَفِ، وبناءً عليه يكونُ المرادُ بالتَّأويلِ في قولِه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]: الحقيقةَ الَّتي يَؤولُ الكلامُ إليها، لا التَّفسيرَ الَّذي هو بيانُ المعنى). ((تقريب التدمرية)) (ص: ٧١).

وقال أيضًا: (إنَّ وصْفَ القرآنِ جميعِه بالإحكامِ، ووصْفَه جميعِه بالتَّشابُهِ لا يَتعارَضانِ، والجمعُ بيْنَهما: أنَّ الكلامَ المُحْكَمَ المُتقَنَ يُشْبِهُ بعضُه بعضًا في الكمالِ والصِّدقِ؛ فلا يَتناقَضُ في أحكامِه، ولا يَتكاذَبُ في أخبارِه. وأمَّا وصْفُ القرآنِ بأنَّ بعضَه مُحْكَمٌ وبعضَه مُتشابِهٌ فلا =

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَّثَانِيَ﴾ تَنبيهٌ على ناحيةٍ مِن نواحي إعجازِ القُرآنِ، وهي: عدَمُ الملَلِ مِن سَماعِه، وأنَّه كُلَّما تكَرَّر غَرَضٌ مِن أغراضِه زاده تكَرُّرُه قَبولًا وحلاوةً في نُفوسِ السَّامِعينَ[١].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾ أُعجُوبةُ جَمعِ القُرآنِ بيْنَ التَّأثيرَينِ المُتضادَّينِ: مَرَّةً بتأثيرِ الرَّهبةِ، ومرَّةً بتأثيرِ الرَّغبةِ؛ وذلك لِيَكونَ المُسلِمونَ في مُعامَلةِ رَبِّهم جارِينَ على ما يَقتَضيه جَلالُه، وما يَقتَضيه حِلمُه ورَحمتُه، وهذه الجِهةُ اقتَضاها الجَمعُ بيْنَ الجِهَتينِ المُصَرَّحِ بهما -وهما: جِهةُ القُشَعْريرةِ، وجِهةُ اللِّينِ- مع كَونِ المَوصوفِ بالأمْرَينِ فَريقًا واحِدًا، وهم الَّذين يَخشَونَ رَبَّهم، والمقصودُ وَصْفُهم بالتَّأثُّرَينِ عندَ تَعاقُبِ آياتِ الرَّحمةِ بعدَ آياتِ الرَّهبةِ[٢].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ قال قَتادةُ: (هذا نَعْتُ أولياءِ اللهِ؛ نعَتَهم اللهُ بأن تَقشَعِرَّ جُلودُهم، وتَبكيَ أعيُنُهم، وتَطمَئِنَّ قُلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ، ولم يَنعَتْهم بذَهابِ عُقولِهم، والغَشَيانِ عليهم، وإنَّما هذا في أهلِ البِدَعِ، وهذا مِنَ الشَّيطانِ)[٣].

١٥- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لِينُ القُلوبِ هو زَوالُ قَساوتِها؛ لحُدوثِ الخُشوعِ فيها والرِّقَّةِ، وقد قَبَّح اللهُ مَن لا يَخشَعُ قَلبُه

---

= تَعارُضَ بيْنَهما أصلًا؛ لأنَّ كلَّ وصْفٍ واردٌ على محلٍّ لم يَرِدْ عليه الآخَرُ؛ فبعضُ القرآنِ مُحْكَمٌ ظاهرُ المعنى، وبعضُه مُتشابِهٌ خَفيُّ المعنى). ((تقريب التدمرية)) (ص: ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩٠).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في ((تفسيره)) (٣/ ١٣٠) (٢٦٢٦). ويُنظر: ((تلبيس إبليس)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٣-٢٢٨)، ((الاعتصام)) للشاطبي (٢/ ١٢١-١٢٥).

لِسَماعِ كِتابِه وتدَبُّرِه؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[1] [الحديد: ١٦].

١٦- أنَّ ذِكْرَ اللهِ عزَّ وجَلَّ سَبَبٌ لِلِينِ القُلوبِ وطُمأنينتِها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ويَشهَدُ لهذا قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[2] [الرعد: ٢٨].

١٧- مِن وجوهِ إعجازِ القرآنِ الكريمِ: الرَّوعةُ التي تلحقُ قلوبَ سامعيه وأسماعَهم عندَ سماعِه، والهيبةُ التي تعتريهم عندَ تلاوتِه لقوةِ حالِه وإنافةِ خطرِه، وهي على المكذِّبينَ به أعظمُ، حتى كانوا يستثقِلونَ سماعَه، ويزيدُهم نفورًا كما قال تعالى، ويودُّون انقطاعَه لكراهتِهم له.

وأمَّا المؤمنُ فلا تزالُ روعتُه به وهيبتُه إياه معَ تلاوتِه تُوليه انجذابًا، وتكسبُه هشاشةً لميلِ قلبِه إليه، وتصديقِه به؛ قال الله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ ...﴾ الآية [الحشر: ٢١]. ويدلُّ على أنَّ هذا شيءٌ خُصَّ به أنَّه يعتري مَن لا يفهمُ معانيَه، ولا يعلمُ تفاسيرَه.

وهذه الروعةُ قد اعترَتْ جماعةً قبلَ الإسلامِ وبعدَه، فمِنهم مَن أسلمَ لها لأوَّلِ وهلةٍ وآمَن به، ومنهم مَن كفَر، فعن جُبيرِ بنِ مطعِمٍ قال: ((سمِعْتُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقرأُ في المغربِ بـ(الطور) فلمَّا بلَغ هذه الآيةَ: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥] إلى قوله: ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧]

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٨).

كاد قلبي أنْ يطيرَ))[١]، وفي رواية[٢]: (وذلك أولَ ما وقَر الإيمانُ في قلبي)[٣].

١٨- قولُه تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فيه إثباتُ أنَّ الهدايةَ بمشيئةِ اللهِ تعالى، وهذه الآيةُ فَرْدٌ مِن أفرادِ أدلَّةٍ كثيرةٍ تدُلُّ على أنَّ فِعلَ العبدِ واقعٌ بمشيئةِ اللهِ تعالى، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٤] [التكوير: ٢٨، ٢٩].

١٩- قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ فيه أنَّ اسمَ الهادي يُطلَقُ على غَيرِ اللهِ تعالى، وكما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]؛ فالهادي تُطلَقُ على اللهِ تعالى وعلى غيرِه، لكنِ الَّذي يَمتنعُ إطلاقُه على غَيرِه هو هدايةُ التَّوفيقِ؛ فإنَّ هِدايةَ التَّوفيقِ لا تَكونُ إلَّا للهِ تعالى وَحْدَه، أمَّا هِدايةُ الدَّلالةِ فإنَّها تَكونُ للهِ تعالى ولِغَيرِه[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ استِئنافٌ واردٌ إمَّا لِتَمثيلِ الحَياةِ الدُّنيا في سُرعةِ الزَّوالِ، وقُربِ الاضمِحلالِ بما ذُكِر مِن أحوالِ الزَّرعِ؛ تَرغيبًا عن زَخارِفِها وزينَتِها، وتَحذيرًا مِنَ الاغترارِ بزَهرتِها، كما في نَظائِرِ قَولِه: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ الآيةَ [يونس: ٢٤]. أو لِلاستِشهادِ على تَحقُّقِ المَوعودِ مِنَ الأنهارِ الجاريةِ مِن

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٤). وأخرجه مسلم مختصرًا (٤٦٣).

(٢) أخرجها البخاري (٤٠٢٣).

(٣) يُنظر: ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى- وحاشية الشمني)) (١/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٥).

تَحتِ الغُرَفِ بما يُشاهَدُ مِن إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ، وما يَترَتَّبُ عليهِ مِن آثارِ قُدرَتِه تَعالى، وأحكامِ حِكمَتِه ورَحمَتِه[1].

- أو هو استِئنافٌ ابتِدائيٌّ انتُقِلَ به إلى غَرَضِ التَّنويهِ بالقُرآنِ، وما احتَوى عليه مِن هُدى الإسلامِ، وهو الغَرَضُ الَّذي ابتُدِئَتْ به السُّورةُ، وانثَنى الكَلامُ منه إلى الاستِطرادِ بقَولِه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢] إلى هنا؛ فهذا تَمهيدٌ لِقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، إلى قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الزمر: ٢٣]، فمُثِّلَتْ حالةُ إنزالِ القُرآنِ، واهتِداءِ المُؤمِنينَ به، والوَعدِ بنَماءِ ذلك الاهتِداءِ: بحالةِ إنزالِ المَطَرِ ونَباتِ الزَّرعِ به واكتِمالِه، وهذا التَّمثيلُ قابِلٌ لِتَجزِئةِ أجزائِه على أجزاءِ الحالةِ المُشَبَّهِ بها: فإنزالُ الماءِ مِنَ السَّماءِ تَشبيهٌ لإنزالِ القُرآنِ لإحياءِ القُلوبِ، وإسلاكُ الماءِ يَنابيعَ في الأرضِ تَشبيهٌ لِتَبليغِ القُرآنِ لِلنَّاسِ، وإخراجُ الزَّرعِ المُختَلِفِ الألوانِ تَشبيهٌ لِحالِ اختِلافِ النَّاسِ مِن طَيِّبٍ وغَيرِه، ونافِعٍ وضارٍّ، وهَياجُ الزَّرعِ تَشبيهٌ لِتَكاثُرِ المُؤمِنينَ بيْنَ المُشرِكينَ، وأمَّا قَولُه: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فهو إدماجٌ[2] لِلتَّذكيرِ بحالةِ المَماتِ، واستِواءِ النَّاسِ فيها مِن نافِعٍ وضارٍّ، وفي تَعقيبِ هذا بقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: ٢٢]، إلى قَولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] إشارةٌ إلى العِبرةِ مِن هذا التَّمثيلِ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَعنى أصالةً وإدماجًا على عَكسِ ما ذُكِرَ؛ فيَكونَ عَوْدًا إلى الاستِدلالِ على تَفَرُّدِ اللهِ تَعالى بالإلَهيَّةِ، بدَليلٍ مِن مَخلوقاتِه الَّتي يُشاهِدُها النَّاسُ مُشاهَدةً مُتكَرِّرةً، فيكونَ قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٠٩).

إلى قولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مُتَّصِلًا بقولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الزمر: ٦] المتَّصِلِ بقولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمر: ٥]، ويكونَ ما بيَّنَّاه مِن تَمثيلِ حالِ نُزولِ القُرآنِ وانتِفاعِ المُؤمِنينَ إدماجًا في هذا الاستِدلالِ، وقد أُدمِجَ في أثناءِ الكَلامِ إيماء إلى إمكانِ إحياءِ النَّاسِ حياةً ثانيةً[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ، والخِطابُ لِكُلِّ مَن يَصلُحُ لِلخِطابِ؛ فليس المُرادُ به مُخاطَبًا مُعَيَّنًا، وهو خِطابٌ وتَوقيفٌ لِلسَّامعِ على ما يُعتَبَرُ به مِن أفعالِ اللهِ الدَّالَّةِ على فَناءِ الدُّنيا واضمِحلالِها[٢].

- وعُطِفَ قَولُه: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ بحَرفِ (ثُمَّ)؛ لِإفادةِ التَّراخي الرُّتْبيِّ، أو الزَّمانِ؛ لِأنَّ إخراجَ الزَّرعِ مِنَ الأرضِ بعدَ إقحالِها أوقَعُ في نُفوسِ النَّاسِ؛ لِأنَّه أقرَبُ لِأبصارِهم، وأنفَعُ لِعَيشِهم، وإذْ هو المَقصودُ مِنَ المَطَرِ[٣]. وصيغةُ المُضارِعِ؛ لِاستِحضارِ الصُّورةِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾، بلَفظِ ﴿يَجْعَلُهُۥ﴾، وفي سورةِ (الحَديدِ) قال: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ [الحديد: ٢٠] بلَفظِ ﴿يَكُونُ﴾؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ آيةَ (الزُّمَرِ) ورَدَتْ مَوردَ التَّنبيهِ على الاعتبارِ، وبالنَّصِّيَّةِ على ذلك افتُتِحَت الآيةُ، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ...﴾؛ فنسَبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٦، ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٤٩، ٢٥٠).

سُبحانه كلَّ حالةٍ مِن تقَلُّباتِ الزَّرعِ إلى نفْسِه، وتَنقُّلاتِه -مِن لَدُنْ خُروجِه ونَباتِه وما بعْدَ ذلك إلى تحطُّمِه- إلى نفْسِه -إذ لا طمَعَ لمخلوقٍ في إعادةِ شَيءٍ مِن ذلك-، ثمَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فافتُتِحَت الآيةُ واختُتِمَت بالتَّنبيهِ على الاعتبارِ، فلمَّا كان مَبْناها على ذلك ناسَبَ نِسبةُ الفِعلِ إليه تعالى؛ فقال: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾.

وأمَّا آيةُ (الحديدِ) فورَدَتْ مِثالًا للدُّنيا وغُرورِها، وإعراضِ الكافرِ عن سُرعةِ تَقلُّبِها وزَوالِها وفَنائِها؛ فلمَّا قُصِدَ هنا المثالُ ناسَبَ هذا المقصودَ قولُه: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾؛ إذ لمْ يَتقدَّمْ في أوَّلِ الآيةِ النِّسبةُ للفاعلِ، اكتِفاءً بما هو غيرُ خافٍ على كلِّ ذي عقْلٍ سليمٍ؛ فجَرى آخِرُها على ما يَجْري عليه أوَّلُها -كما جَرى في آيةِ (الزُّمَرِ) مِن آخِرِها مِن التَّنبيهِ على ما جَرى عليه أوَّلُها-، وتَناسَبَ ذلك كلُّه، ولم يكُنْ -بِناءً على ما صُدِّرَت به كلُّ آيةٍ منهما- أنْ يكونَ في آيةِ (الزُّمَرِ): ﴿ثُمَّ يَكُونُ﴾، ولا في آيةِ (الحديدِ): ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ﴾، بلْ ورَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُ، واللهُ أعلَمُ[1].

- قَولُه: ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ عُلِّقتْ هذه الحَالةُ بجَعْلِ اللهِ تعالى، كالإخراجِ؛ لكَونِها مِنَ الآثارِ القَويَّةِ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مُبيِّنةٌ لِلاستِفهامِ التَّقريريِّ، وفَذْلَكةٌ[3] لِلأطوارِ المُستَفهَمِ عنها؛ فالإشارةُ بذلك إلى المَذكورِ مِنَ الإنزالِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٥٥، ١٢٥٦)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٥). ويُنظر أيضًا: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٠).

(٣) تقدَّمَ تعريفُه (ص: ٦٣).

إلى آخرِ الأطوارِ، وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَتِه في الغَرابةِ والدَّلالةِ على ما قُصِدَ بَيانُه(١).

- والمُرادُ: ذِكْرى بالدَّلالةِ على ما يَغفُلُ عنه العاقِلُ، ويَجوزُ أنْ تَكونَ الذِّكرى لِمَا يَذهَلُ عنه العاقِلُ مِمَّا تَشتَمِلُ عليه هذه الأحوالُ مِن مَبدَئِها إلى مُنتَهاها، فمِن ذلك أنَّها تَصلُحُ مِثالًا لِتَقريبِ البَعثِ، فتَتَضمَّنُ الآيةُ إدماجَ(٢) تَقريبِ البَعثِ وإمكانِه، مع الاستِدلالِ على انفِرادِ اللهِ تَعالى بالتَّصرُّفِ، ومِن ذلك أنَّها تَصلُحُ مَثَلًا لِلحياةِ الدُّنيا، والمَقصودُ تَشبيهُ الحالةِ بالحالةِ، فلا يُعتبَرُ التَّجَوُّزُ في مُفرَداتِ هذا المُرَكَّبِ؛ بأنْ يُطلَبَ لِكُلِّ طَورٍ مِن أطوارِ الدُّنيا طَورٌ يُشَبَّه به مِن أطوارِ النَّباتِ، ومنها أنَّها مَثَلٌ لِأطوارِ الإنسانِ مِن طَورِ النُّطَفِ إلى الشَّبابِ إلى الشَّيخوخةِ، ثمَّ الهَلاكِ، والمَقصودُ تَشبيهُ الحالةِ بالحالةِ، مع إمكانِ تَوزيعِ تَشبيهِ كُلِّ طَورٍ مِن أطوارِ الحالةِ المُشَبَّهةِ بطَورٍ مِن أطوارِ الحالةِ المُشَبَّهِ بها(٣).

- قولُه: ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أُولو الألبابِ همُ الَّذين يَنتَفِعونَ بألبابِهم، فيَهتدونَ بما نُصِبَ لهم مِنَ الأدِلَّةِ، وهمُ الَّذين استَدَلُّوا فآمَنوا، وفي هذا تَعريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَستَفيدوا مِنَ الأدِلَّةِ بمَنزِلةِ مَن عَدِموا العُقولَ(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجرى التَّعليلِ لِمَا قَبْلَه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨).

(٢) تقدَّمَ تعريفُه (ص: ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٨، ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٧٩).

تَخصيصِ الذِّكرى بأُولي الألبابِ[١].

- قولُه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فيه حذْفُ خَبَرِ (مَنْ)؛ لِدَلالةِ ما بَعْدَه عليه، والتَّقديرُ: أكُلُّ النَّاسِ سَواءٌ[٢]؟! أو دَلَّ عليه قَولُه: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر: ٢٠]، مِمَّا اقتَضاه حَرفُ الاستِدراكِ (لكن) مِن مُخالَفةِ حالِه لِحالِ مَن حَقَّ عليه كَلِمةُ العَذابِ، والتَّقديرُ: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مِثلُ الَّذي حَقَّ عليه كَلِمةُ العَذابِ؛ فهو في ظُلمةِ الكُفرِ؟! أو تَقديرُه: مِثلُ مَن قَسا قَلبُه؟! بدَلالةِ قَولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾، وهذا مِن دَلالةِ اللَّاحِقِ[٣].

- ومِن رَشاقةِ ألفاظِ القُرآنِ إيثارُ كَلِمةِ ﴿شَرَحَ﴾ لِلدَّلالةِ على قَبولِ الإسلامِ؛ لِأنَّ تعاليمَ الإسلامِ وأخلاقَه وآدابَه تُكسِبُ المُسلِمَ فَرَحًا بحالِه، ومَسَرَّةً برِضا رَبِّه، واستِخفافًا لِلمَصائِبِ والكَوارِثِ؛ لِجَزمِه بأنَّه على حَقٍّ في أمْرِه، وأنَّه مُثابٌ على ضُرِّه، وأنَّه راجٍ رَحمةَ رَبِّه في الدُّنيا والآخِرةِ، ولِعَدَمِ مُخالَطةِ الشَّكِّ والحَيرةِ ضَميرَه[٤].

- واللَّامُ في ﴿لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ لامُ العِلَّةِ، أيْ: شَرَحَه لِأجْلِ الإسلامِ، أيْ: لِأجْلِ قَبولِه[٥]. وذلك على وجهٍ في التفسيرِ.

- وعُبِّرَ بالنُّورِ هنا في قولِه: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ عن الهُدى ووُضوحِ الحَقِّ؛ لِأنَّ النُّورَ به تَنجَلي الأشياءُ، ويَخرُجُ المُبصِرُ مِن غَياهِبِ الضَّلالةِ، وتَردُّدِ اللَّبسِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٠).

بيْن الحَقائِقِ والأشباحِ، وأفادَ حَرفُ الاستعلاءِ (على) التَّمَكُّنَ مِنَ النُّورِ[١].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ على وصْفِ حالِ مَن شَرَحَ اللهُ صَدرَه لِلإسلامِ فهو على نُورٍ مِن رَبِّه، وهو يدُلُّ على حالِ ضِدِّه؛ وهمُ الَّذين لم يَشرَحِ اللهُ صُدورَهم لِلإسلامِ؛ فكانت لِقُلوبِهم قَساوةٌ فُطِروا عليها، فلا تَسلُكُ دَعوةُ الخَيرِ إلى قُلوبِهم. وأُجمِلَ سُوءُ حالِهم بما تدُلُّ عليه كَلِمةُ ﴿فَوَيْلٌ﴾ مِن بُلوغِهم أقصَى غاياتِ الشَّقاوةِ والتَّعاسةِ[٢].

- والمُرادُ بذِكرِ اللهِ: القُرآنُ، وإضافَتُه إلى اللهِ زيادةُ تَشريفٍ له[٣]، ولأنَّه كلامُه عزَّ وجلَّ.

- وقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فيه احتِباكٌ[٤]؛ ذكَرَ أوَّلًا: الشَّرحَ والنُّورَ دَليلًا على حَذفِ ضِدِّه ثانيًا، وثانيًا: الوَيْلَ للقاسي، والضَّلالَ؛ دليلًا على حَذفِ ضِدِّه أوَّلًا[٥].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مُستَأنَفٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِأنَّ ما قَبْلَه مِنَ الحُكمِ بأنَّ قَساوةَ قُلوبِهم مِن أجْلِ أنْ يُذكَرَ اللهُ عِندَهم، يُثيرُ في نَفْسِ السَّامعِ أنْ يَتَساءَلَ: كيف كان ذِكرُ اللهِ سَبَبَ قَساوةِ قُلوبِهم؟ فأُفيدَ بأنَّ سَبَبَ ذلك هو أنَّهم مُتَمَكِّنونَ مِنَ الضَّلالةِ، مُنغَمِسونَ في حَمْأَتِها، فكان ضَلالُهم أشَدَّ مِن أنْ يَتقَشَّعَ حينَ يَسمَعونَ ذِكْرَ اللهِ.

وافتِتاحُ هذه الجُملةِ باسمِ الإشارةِ عَقِبَ ما وُصِفوا به مِن قَساوةِ القُلوبِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨١، ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٢).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٨٦).

لإفادةِ أنَّ ما سيُذْكَرُ مِن حالِهم بعْدَ الإشارةِ إليهم، صاروا به أحْرياءَ لأجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ، فكان مَضمونُ قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ -وهو الضَّلالُ الشَّديدُ- عِلَّةً لِقَسوةِ قُلوبِهم حَسبَما اقتَضاه وُقوعُ جُملَتِه استِئنافًا بَيانيًّا، وكان مَضمونُها مَفعولًا لِقَسوةِ قُلوبِهم حَسبَما اقتَضاه تَصديرُ جُملَتِها باسمِ الإشارةِ عَقِبَ وَصْفِ المُشارِ إليهم بأوصافٍ[1].

- وقَولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ فيه الإشارةُ إليهم بإشارةِ البَعيدِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنويهِ بسُفولِهم، وانحِطاطِ مَرتبَتِهم[2].

- وما أحسَنَ التَّعبيرَ بـ (في) الَّتي للظَّرفيَّةِ، في هذا الموضعِ! حيث تُشيرُ إلى أنَّ الضَّلالَ قد أحاطَ بهم مِن كلِّ جانبٍ، كما تُحِيطُ الحُجْرةُ بساكِنِها، وإذا كان الضَّلالُ قد أحاطَ بهم مِن كلِّ جانبٍ، فإنَّه لا يُرْجى لهم خيرٌ -والعياذُ باللهِ تعالى-؛ لأنَّهم في ضَلالٍ مُبينٍ[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ ...﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ نَشأ بمُناسَبةِ المُضادَّةِ بيْن مَضمونِ جُملةِ ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] وبيْنَ مَضمونِ هذه الجُملةِ؛ وهو أنَّ القُرآنَ يُلينُ قُلوبَ الَّذين يَخشَوْنَ رَبَّهم؛ لِأنَّ مَضمونَ الجُملةِ السَّابِقةِ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن وَجهِ قَسوةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٢، ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٩).

قُلوبِ الضَّالِّينَ مِن ذِكرِ اللهِ؛ فكانتْ جُملةُ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، إلى قَولِه: ﴿مِنۡ هَادٍ﴾ مُبَيِّنةً أنَّ قَساوةَ قُلوبِ الضَّالِّينَ مِن سَماعِ القُرآنِ إنَّما هي لِرَيْنٍ في قُلوبِهم وعُقولِهم، لا لِنَقصٍ في هِدايَتِه[1].

- وهذه الجُملةُ تَكميلٌ؛ لِلتَّنويهِ بالقُرآنِ المُفتَتَحِ به غَرَضُ السُّورةِ، وسيُقَفَّى بثَناءٍ آخَرَ عِندَ قَولِه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]، ثمَّ بقَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزمر: ٤١]، ثم بقَولِه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[2] [الزمر: ٥٥].

- وإيقاعُ اسمِ اللهِ مُبتدَأً، وبِناءُ ﴿نَزَّلَ﴾ عليه: فيه تَفْخيمٌ لأحسَنِ الحديثِ، ورَفْعٌ منه، واستِشْهادٌ على حُسنِه، وتَأكيدٌ لاستِنادِه إلى اللهِ تعالى، وأنَّه مِن عِندِه، وأنَّ مِثلَه لا يجوزُ أنْ يَصدُرَ إلَّا عنه، وتَنْبيهٌ على أنَّه وَحْيٌ مُعجِزٌ مُباينٌ لِسائرِ الأحاديثِ، حيثُ نَزَّلَه العَليمُ بنِهايةِ مَحاسِنِ الأخْبارِ والذِّكرِ[3]، وحِكْمةُ البَدءِ باسْمِ اللهِ هو البُداءةُ بالأشرَفِ ثمَّ تذكرُ ما تُسنَدُ إليه، وهو كثيرٌ في القُرآنِ، كَقَولِه: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾[4] [الحج: ٧٥].

- والإخبارُ عنِ اسمِ الجَلالةِ بالخَبَرِ الفِعليِّ ﴿نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يدُلُّ على تَقويةِ الحُكمِ وتَحقيقِه، ويُفيدُ مع التَّقويةِ دَلالةً على الاختِصاصِ، أي: اختِصاصَ تَنزيلِ الكِتابِ باللهِ تعالى؛ ففيه إثباتُ أنَّه مُنَزَّلٌ مِن الله تعالى، وأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥).

مِثلَ هذا الكَلامِ في حُسنِ نَظمِهِ وغَرابَتِه، وكَونِه جامِعًا للمَعارِفِ الحقَّةِ، وحائِزًا لِمَحاسِنِ الأخلاقِ، ومَكارِمِ الشِّيَمِ، لا يَنبَغي أنْ يَصدُرَ إلَّا عمَّنِ استُجمِعَ فيه الأسماءُ الحُسْنى والصِّفاتُ العُلْيا، وذلك أيضًا كِنايةٌ عن كَونِه وَحيًا مِن عِندِ اللهِ، لا مِن وضْعِ البَشَرِ؛ فدَلَّتِ الجُملةُ على تَقَوٍّ واختِصاصٍ بالصَّراحةِ، وعلى اختِصاصٍ بالكِنايةِ، وإذْ أُخِذَ مَفهومُ القَصرِ ومَفهومُ الكِنايةِ -وهو المُغايِرُ لِمَنطوقِهما- كذلك يُؤخَذُ مُغايِرُ التَّنزيلِ فِعلًا يَليقُ بوَضعِ البَشَرِ، فالتَّقديرُ: لا غَيرُ اللهِ وَضَعَه، رَدًّا لِقَولِ المُشرِكينَ: هو أساطيرُ الأوَّلينَ[1].

- ومُفادُ تَقْديمِ لَفظِ الجلالةِ على الخَبَرِ الفِعْليِّ فيه تَحْقيقٌ لِمَا تَضمَّنَتْه الإضافةُ مِن التَّعْظيمِ لِشَأنِ المُضافِ في قَولِه تعالى: ﴿مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]؛ فالمُرادُ بـ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ عَينُ المُرادِ بـ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وهو القُرآنُ، عَدَل عن ذِكرِ ضَميرِه؛ لِقَصدِ إجراءِ الأوصافِ عليه، وهي قَولُه: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إلخ[2].

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا﴾ وُصِفَ القُرآنُ بأنَّه أحسَنُ الحَديثِ، أيْ: أحسَنُ الخَبَرِ، والتَّعريفُ لِلجنسِ، وسُمِّيَ حَديثًا؛ لِأنَّ شَأنَ الإخبارِ أنْ يَكونَ عن أمْرٍ حَدَثَ ووُجِدَ، وسُمِّيَ القُرآنُ حَديثًا باسمِ بَعضِ ما اشتَمَلَ عليه مِن أخبارِ الأُمَمِ والوَعدِ والوَعيدِ، وأمَّا ما فيه مِن الإنشاءِ مِن أمْرٍ ونهْيٍ ونحوِهما، فإنَّه لَمَّا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُبلِّغَه للنَّاسِ؛ آلَ إلى أنَّه إخبارٌ عن أمْرِ اللهِ ونهْيِه[3].

- ووُصِفَ القُرآنُ أيضًا بأنَّه كِتابٌ، أيْ: مَجموعُ كَلامٍ مُرادٍ قِراءَتُه وتِلاوَتُه

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٣، ٣٨٤).
(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٤).

والاستِفادةُ منه، مأمورٍ بكِتابَتِه؛ لِيَبقى حُجَّةً على مَرِّ الزَّمانِ؛ فإنَّ جَعْلَ الكَلامِ كِتابًا يَقتَضي أهمِّيَّةَ ذلك الكَلامِ، والعِنايةَ بتَنسيقِه، والاهتِمامَ بحِفظِه على حالَتِه، ولَمَّا سمَّى اللهُ القُرآنَ كِتابًا، كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأمُرُ كُتَّابَ الوَحْيِ مِن أصْحابِه أنْ يَكتُبوا كُلَّ آيةٍ تَنزِلُ مِن الوَحْيِ في المَوضِعِ المُعَيَّنِ لها بيْنَ أخَواتِها؛ استِنادًا إلى أمْرٍ مِن اللهِ؛ لأنَّ اللهَ أشارَ إلى الأمْرِ بكِتابتِه في مَواضِعَ كَثيرةٍ، مِن أوَّلِها قَولُه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقَولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[1] [الواقعة: ٧٧، ٧٨].

- وفي قولِه: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ وُصِفَ الكتابُ بأنَّه مُتشابِهٌ، أي: مُتشابِهةٌ أجزاؤُه، مُتماثِلةٌ في فَصاحةِ ألْفاظِها، وشرَفَ مَعانيها، ولا تَناقُضَ فيها ولا تَعارُضَ؛ فهي مُتكافئةٌ في الشَّرَفِ والحُسنِ، فمَعانيه مُتشابِهةٌ في صِحَّتِها وأحكامِها، وابتِنائِها على الحقِّ والصِّدْقِ، وإصابتِها المِحَزَّ[2] مِن الحُجَّةِ، وتَبْكيتِ الخُصومِ، وكَونِها صلاحًا للنَّاسِ وهُدًى، وألفاظُه مُتماثِلةٌ في الشَّرَفِ والفصاحةِ، والإصابةِ للأغراضِ مِن المعاني، بحيث تَبلُغُ ألفاظُه ومَعانيه أقْصى ما تَحتمِلُه أشرَفُ لُغةٍ للبشرِ -وهي اللُّغةُ العربيَّةُ-؛ مُفرَداتٍ ونظْمًا، فتَجاوَبَ نَظْمُه وتَأليفُه في الإعْجازِ، وبذلك كان مُعجِزًا لكلِّ بَليغٍ عن أنْ يَأتيَ بمِثْلِه، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ جَميعَ آياتِ القُرآنِ بالغةٌ الطَّرَفَ الأعلَى مِن البَلاغةِ، وأنَّها مُتَساويةٌ في ذلك بحَسَبِ ما يَقتَضيه حالُ كُلِّ آيةٍ مِنها، وأمَّا تَفاوُتُها في كثرةِ الخُصوصيَّاتِ وقِلَّتِها، فذلك تابعٌ لاختلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٥).

(٢) المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ، أي: القَطعِ. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

المقاماتِ ومُقتضياتِ الأحوالِ؛ فإنَّ بلاغةَ الكلامِ مُطابَقتُه لِمُقتضَى الحالِ، والطَّرَفُ الأعلَى مِن البلاغةِ هو مُطابَقةُ الكلامِ لِجَميعِ ما يَقتضِيه الحالُ؛ فآياتُ القرآنِ مُتماثِلةٌ مُتشابِهةٌ في الحُسْنِ لَدى أهْلِ الذَّوقِ مِن البُلَغاءِ بالسَّليقةِ أو بالعِلْمِ، وهو في هذا مُخالِفٌ لِغَيرِه مِن الكلامِ البليغِ؛ فإنَّ ذلك لا يَخْلو عن تَفاوُتٍ رُبَّما بلَغَ بعْضُه مَبلَغَ ألَّا يُشبِهَ بقيَّتَه، وهذا المعنى ممَّا يَدخُلُ في قولِه تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]؛ فالكاتبُ البليغُ والشَّاعرُ المُجيدُ لا يَخْلو كلامُ أحدٍ منهما مِن ضَعفٍ في بَعضِه، وأيضًا لا تَتشابَهُ أقوالُ أحدٍ منهما، بلْ تجدُ لكلٍّ منهما قِطَعًا مُتفاوِتةً في الحُسْنِ والبلاغةِ وصِحَّةِ المعاني. وبما قُرِّر تَعلَمُ أنَّ المُتشابِهَ هنا مُرادٌ به معنًى غيرُ المرادِ في قولِه تعالى: ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾ [آل عمران: ٧]؛ لاختِلافِ ما فيه التَّشابُهُ[1].

- ووُصِفَ القُرآنُ بكَونِه ﴿مَّثَانِيَ ﴾ وهو جَمعُ (مُثَنًّى) جَمْعًا على غَيرِ قِياسٍ، أو اسْمُ جَمْعٍ بمَعْنى مُردَّدٍ ومُكرَّرٍ؛ لِمَا ثُنِّيَ من قَصَصِه، وأنْبائِه، وأحْكامِه، وأوامِرِه، ونَواهيه، ووَعْدِه، ووَعيدِه، ومَواعِظِه، وقيلَ: لأنَّه يُثنَّى في التِّلاوةِ. ويجوزُ كَوْنُه جَمْعَ (مَثْنًى)، وهو اسمٌ لجعلِ المَعْدودِ أزواجًا اثنَينِ، اثنَينِ، مِن التَّثنيةِ، بمَعْنى التَّكريرِ والإعادةِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك: ٤]، أي: كَرَّةً بعدَ كرَّةٍ، وكِلا الاحتِمالَينِ يُطلَقُ على مَعْنى التَّكْريرِ، فكُنِّيَ عن مَعنى التَّكريرِ بمادَّةِ التَّثنيةِ؛ لِأنَّ التَّثنيةَ أُولى مَراتِبِ التَّكريرِ، فالقرآنُ ﴿مَّثَانِيَ ﴾؛ لأنَّه مُكرَّرُ الأغراضِ، وهذا يَتضَمَّنُ امتِنانًا على الأُمَّةِ بأنَّ أغراضَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٥، ٣٨٦).

كِتابِها مُكرَّرةٌ فيه؛ لِتكونَ مَقاصِدُه أرسَخَ في نُفوسِها، ولِيَسمَعَها مَن فاتَه سَماعُ أمثالِها مِن قَبْلُ(١).

- ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَّثَانِيَ﴾ بَيانًا لِكَونِه ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾؛ لأنَّ القِصصَ المُكرَّرةَ لا تكونُ إلَّا مُتشابِهةً(٢).

- ووَصْفُ المُفرَدِ ﴿كِتَٰبًا﴾ باللَّفظِ الجَمعِ ﴿مَّثَانِيَ﴾ -وهو مُقتَضٍ التَّعدُّدَ- يُعيِّنُ أنَّ هذا الوَصْفَ جَرَى عليه باعتِبارِ أجْزائِه، أي: سُوَرِه أو آياتِه، باعتِبارِ أنَّ كُلَّ غَرَضٍ منه يُكرَّرُ، أي: باعتِبارِ تَباعيضِه؛ لِأنَّ الكِتابَ جُملةٌ ذاتُ تَفاصيلَ، ألَا تَراكَ تَقولُ: القُرآنُ أسباعٌ وأخماسٌ، وسُوَرٌ وآياتٌ، وأقاصيصُ وأحكامٌ، ومَواعِظُ مُكَرَّراتٌ، ونَظيرُه قَولُكَ: الإنسانُ عِظامٌ وعُروقٌ وأعصابٌ(٣).

- قولُه: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ...﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ آثارِ القُرآنِ العظيمِ الظَّاهِرةِ في سامِعيه، بعدَ بَيانِ أوصافِه في نَفْسِه، ولِتَقريرِ كَونِه أحسَنَ الحَديثِ، أو صفةٌ لـ﴿كِتَٰبًا﴾، أو حالٌ منهُ لتخصُّصِه بالصِّفةِ(٤).

- وهذا الوَصفُ مُرتَّبٌ على الوَصفِ قَبْلَه، وهو كَوْنُ القُرآنِ مَثانيَ، أيْ: مُثَنًّى الأغراضِ، وهو مُشتَمِلٌ على عِدَّةِ جِهاتٍ؛ منها: وَصْفُ القُرآنِ بالجَلالةِ والرَّوعةِ في قُلوبِ سامِعيه؛ وذلك لِمَا في آياتِه الكَثيرةِ مِنَ المَوعِظةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٠، ٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١).

الَّتي تَوْجَلُ منها القُلوبُ، وهو وصْفُ كَمالٍ؛ لِأنَّه مِن آثارِ قُوَّةِ تأثيرِ كلامِه في النُّفوسِ. ومِن جِهاتِ هذا الوَصفِ: لِينُ قُلوبِ المُؤمِنينَ عِندَ سَماعِه أيضًا عَقِبَ وَجَلِها العارِضِ مِن سَماعِه قَبْلُ. الجِهةُ الثَّالِثةُ مِن جِهاتِ هذا الوَصفِ: أُعْجوبةُ جَمعِهِ بيْنَ التَّأثيرَينِ المُتَضادَّينِ: مرَّةً بتَأْثيرِ الرَّهْبةِ، ومرَّةً بتَأْثيرِ الرَّغْبةِ[1].

- وقدِ اقتَضى قَولُه: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أنَّ القُرآنَ يَشتَمِلُ على مَعانٍ تَقشَعِرُّ منها الجُلودُ، وهي المَعاني المَوسومةُ بالجَزالةِ الَّتي تُثيرُ في النُّفوسِ رَوعةً وجَلالةً ورَهبةً تَبعَثُ على امتِثالِ السَّامِعينَ له، وعَمَلِهم بما يَتَلقَّونَه مِن قَوارِعِ القُرآنِ وزَواجِرِه، وكُنِّيَ عن ذلك بحالةٍ تُقارِنُ انفِعالَ الخَشيةِ والرَّهبةِ في النَّفْسِ؛ لِأنَّ الإنسانَ إذا ارتاعَ وخَشيَ، اقشَعَرَّ جِلدُه مِن أثَرِ هذا الانفِعالِ، ومَعنى ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ﴾: تَقشَعِرُّ مِن سَماعِه وفَهمِه؛ فإنَّ السَّماعَ والفَهْمَ يَومَئذٍ مُتَقارِنانِ؛ لأنَّ السَّامِعينَ أهْلُ اللِّسانِ، يُقالُ: اقْشعَرَّ الجِلدُ: إذا تقبَّضَ تَقبُّضًا شَديدًا، وتَركيبُه مِن حُروفِ القشْعِ، وهو الأديمُ اليابِسُ، مُضمومًا إليها حرفٌ رابعٌ، وهو الرَّاءُ؛ لِيَكونُ رُباعيًّا ودالًّا على معنًى زائدٍ؛ يقال: اقْشَعَرَّ جِلدُه مِن الخَوفِ، وقَفَّ شَعرُه، وهو مَثَلٌ في شِدَّةِ الخَوفِ، وكِنايةٌ عن وَجَلِ القُلوبِ الَّذي تَلزَمُه قُشَعْريرةٌ في الجِلدِ غالِبًا، فيجوزُ أنْ يُريدَ به اللهُ سُبْحانَه التَّمْثيلَ؛ تَصْويرًا لإفْراطِ خَشيَتِهم، وأنْ يُريدَ التَّحقيقَ، والمَعْنى: أنَّهم إذا سَمِعوا بالقُرآنِ وبآياتِ وَعيدِه: أصابَتْهم خَشْيةٌ تَقشعِرُّ منها جُلودُهم، ثُمَّ إذا ذَكَروا اللهَ ورَحْمَتَه وَجُودَه بالمَغْفِرةِ: لَانَتْ جُلودُهم وقُلوبُهم، وزالَ عنها ما كان بها مِن الخَشْيةِ والقُشَعْريرةِ. وقيلَ: إنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٧ - ٢٨٩).

المَعنى أنَّ القُرآنَ لَمَّا كان في غايةِ الجَزالةِ والبَلاغةِ، كانوا إذا رَأَوْا عَجْزَهم عن مُعارَضَتِه اقشَعَرَّتِ الجُلودُ منه؛ إعظامًا له، وتَعَجُّبًا مِن حُسنِه وبَلاغَتِه، ثمَّ تَلينُ جُلودُهم وقُلوبُهم إلى ذِكرِ اللهِ[١].

- وخَصَّ القُشَعْريرةَ بالَّذين يَخْشَون ربَّهم، باعتِبارِ ما سيُرْدَفُ به مِن قولِه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ﴾[٢].

- وضُمِّنَ ﴿تَلِينُ﴾ مَعنى تَطمَئِنُّ جُلودُهم لَيِّنةً غَيرَ مُنقَبِضةٍ، وقُلوبُهم راجيةٌ غَيرُ خاشيةٍ؛ ولذلك عَدَّاه بـ﴿إِلَىٰ﴾[٣]. على أنَّ ذِكرَ اللِّينِ هنا أبلَغُ مِن ذِكرِ الطُّمأنينةِ؛ لأنَّ القُشَعْريرةَ تَقْتضي نُشوزَ الجِلدِ وارتفاعَه وتَصلُّبَه، والَّذي يُقابِلُ ذلك اللِّينُ والهُدوءُ؛ فذِكرُ اللِّينِ هنا؛ لأنَّ الجِلدَ إذا اقشعَرَّ يَتصلَّبُ، ولهذا تجِدُ أطرافَ الإنسانِ تَبرُدُ؛ لانحسارِ الدَّمِ عنها بعضَ الشَّيءِ، فإذا هدَأَ الرَّوعُ فإنَّه يَلينُ ويَزولُ ذلك التَّصلُّبُ[٤].

- واللِّينُ: مُعبَّرٌ به عن القَبولِ والسُّرورِ، وهو ضِدٌّ للقَساوةِ الَّتي في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢]، فإنَّ المُؤمِنَ إذا سَمِعَ آياتِ الوَعيدِ والتَّهْديدِ يَخْشى ربَّه، ويَتَجنَّبُ ما حذَّرَ منه، فيَقشعِرُّ جِلدُه، فإذا عقَّبَ ذلك بآياتِ البِشارةِ والوَعدِ استَبْشَرَ وفَرِحَ، وعرَضَ أعْمالَهُ على تلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٥، ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٨٧، ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩١).

الآياتِ، فرأى نفْسَه مُتحلِّيةً بالعَمَلِ الَّذي وَعَدَ اللهُ عليه بالثَّوابِ، فاطمَأَنَّتْ نَفْسُه، وانقَلَبَ الوَجَلُ والخَوفُ رجاءً وتَرقُّبًا، فذلك مَعْنى لِينِ القُلوبِ[1].

- وجُمِعَ بيْنَ الجُلودِ والقُلوبِ في قَولِه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، ولم يُكتَفَ بأحَدِ الأمْرَينِ عنِ الآخَرِ كما اكتُفِيَ في قَولِه: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ لِأنَّ اقشِعرارَ الجُلودِ حالةٌ طارِئةٌ عليها، لا يَكونُ إلَّا مِن وَجَلِ القُلوبِ ورَوعَتِها، فكُنِّيَ به عن تلك الرَّوعةِ، وأمَّا لِينُ الجُلودِ عَقِبَ تلك القُشَعْريرةِ فهو رُجوعُ الجُلودِ إلى حالَتِها السَّابِقةِ قبْلَ اقشِعرارِها، وذلك قد يَحصُلُ عن تَناسٍ أو تَشاغُلٍ بَعدَ تلك الرَّوعةِ، فعُطِفَ عليه لِينُ القُلوبِ؛ لِيُعلَمَ أنَّه لِينٌ خاصٌّ ناشئٌ عنِ اطمِئنانِ القُلوبِ بالذِّكرِ، كما قال تَعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وليس مُجَرَّدَ رُجوعِ الجُلودِ إلى حالَتِها الَّتي كانت قبْلَ القُشَعْريرةِ، ولم يُكتَفَ بذِكرِ لِينِ القُلوبِ عن لِينِ الجُلودِ؛ لِأنَّه قُصِدَ أنَّ لِينَ القُلوبِ أفعَمَها حتَّى ظَهَر أثَرُه على ظاهِرِ الجُلودِ[2]. أو ذُكِرَتِ الجُلودُ وَحْدَها أوَّلًا، ثمَّ قُرِنتْ بها القُلوبُ؛ لِأنَّه إذا ذُكِرتِ الخَشيةُ الَّتي مَحَلُّها القُلوبُ فقد ذُكِرتِ القُلوبُ، فكان ذِكرُ القُلوبِ لِتقدُّمِ الخَشْيةِ الَّتي هي مِن عَوارِضِها، فكأنَّه قيلَ: تَقشَعِرُّ جُلودُهم مِن آياتِ الوَعيدِ، وتَخشى قُلوبُهم في أوَّلِ وَهْلةٍ، فإذا ذَكَروا اللهَ ومَبْنى أمْرِه على الرَّأفةِ والمَرحَمةِ، استَبدَلوا بالخَشيةِ رَجاءً في قُلوبِهم، وبالقُشَعْريرةِ لِينًا في جُلودِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١١).

- وقيلَ: إنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف القُرآنَ المَجيدَ، وبالَغَ في مَدحِه حتَّى بَلَغ غايَتَه مِنَ الكَمالِ، على ما سَبَق في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾، وأرادَ أنْ يُبيِّنَ كيفيَّةَ هِدايَتِه لِلخَلقِ، فإنَّ جُلَّ الغَرَضِ مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّةِ الهِدايةُ؛ قال: ﴿مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، يَعْني: مَن أرادُ اللهُ أنْ يَهدِيَه به أوْقَعَ في قَلبِهِ الخَشْيةَ، كقَولِه: ﴿هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢]، ثُمَّ يَتأثَّرُ منه ظاهِرُه بأنْ يأخُذَه في بَدءِ الحالِ قُشَعْريرةٌ في الجِلْدِ؛ لِضَعفِ الحالِ أو قُوَّةِ سَطْوةِ الوارِدِ، فإذا أدْمَنَ سَماعَه، وأَلِفَ أنْوارَه، تَلينُ جُلودُه، فيتأثَّرُ منه القَلْبُ، فيَطمَئِنُّ إليه، فتَنقلِبُ النَّفْسُ الأمَّارةُ مُطمَئِنَّةً، ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فكما يتأثَّرُ الظَّاهِرُ مِن القَلبِ في بَدءِ الحالِ، يَنعَكِسُ في ثاني الحالِ، ويتأثَّرُ القَلْبُ مِن الظَّاهِرِ؛ ولذلك جُعِلَ اقْشِعرارُ الجِلدِ تابعًا لِخَشْيةِ اللهِ أوَّلًا، ولِينُ القَلْبِ تابعًا لِلِينِ الجِلْدِ ثانيًا، فيَستَمِدُّ الظَّاهِرُ مِن الباطِنِ أنْوارَه، والباطِنُ مِن الظَّاهِرِ آثارَه، فلا يَزالانِ يَتَناوَبانِ حتَّى يَصعَدَ السَّالِكُ بذلك إلى مَدارِجِ القُدسِ، ومَعارِجِ الكَمالِ، فيَتوطَّنُ في مَخدَعِ القُربِ، ثمَّ يَفيضُ نورُهُ المُسْتَفيضُ على الغَيرِ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وكُشِفَ عن القِناعِ، حيث أشارَ مَن صَحِبَ أولئك ورآهُمْ خاشِينَ راجِينَ، فكان ذلك مُرغِّبًا لهم في الاقتِداءِ بسيرتِهِم، وسُلوكِ طَريقَتِهِم، رَزَقَنا اللهُ الاقتِداءَ بهم بفَضلِه وجُودِه[1].

- وكان في ذِكْرِ القُلوبِ في هذه الجُملةِ دليلٌ على تأثُّرِها عِندَ السَّماعِ، فاكْتَفَى بقُشَعْريرةِ الجُلودِ عن ذِكرِ خَشْيةِ القُلوبِ لِقيامِ المُسبَّبِ مَقامَ السَّبَبِ، فلمَّا ذكَرَ اللِّينَ ذَكَرهما، وفي ذِكرِ اللِّينِ دَليلٌ على المَحذوفِ الَّذي هو رَحمةُ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٧٣، ٣٧٤).

اللهِ، كما كان في قَولِه: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] دَليلٌ بقَولِه: ﴿وَجِلَتْ﴾ عن ذِكرِ المَحذوفِ، أي: إذا ذُكِرَ وَعيدُ اللهِ وبَطشُه[١].

- و(ذِكْر اللَّه) هو (أَحْسَنُ الْحَدِيثِ)، وعُدِلَ عن ضَميرِه في قولِه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لِبُعدِ الـمعادِ، وعُدِلَ عن إعادةِ اسمِه السَّابِقِ؛ لِمَدحِه بأنَّه ذِكرٌ مِنَ اللهِ بَعدَ أنْ مُدِحَ بأنَّه أحسَنُ الحَديثِ، والمُرادُ بذِكرِ اللهِ: ما في آياتِه مِن ذِكرِ الرَّحمةِ والبِشارةِ؛ وذلك أنَّ القُرآنَ ما ذَكَرَ مَوعِظةً وتَرهيبًا إلَّا أعقَبَها بتَرغيبٍ وبِشارةٍ[٢].

وقيل: مفعولُ ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ محذوفٌ، والتقديرُ: إلى ذكرِ الله رحمتَه وثوابَه وجنتَه. وحُذف؛ للعِلم به[٣].

- وقيل: لم يَقُلْ سُبحانَه: «لذكرِ اللهِ»! بل قال: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وكأنَّ هذا اللِّينَ صار له غايةً، وهو ذِكْرُ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

- واقتُصِرَ على ﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، مِن غَيرِ ذِكرِ الرَّحمةِ؛ لِأنَّ أصْلَ أمْرِه الرَّحمةُ والرَّأفةُ، ورَحمَتُه سابِقةٌ غَضَبَه، فلِأصالةِ رَحمَتِه إذا ذُكِرَ لم يَخطُرْ بالبالِ قَبْلَ كُلِّ شَيءٍ مِن صِفاتِه إلَّا كَونُه رَؤوفًا رَحيمًا[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ذُكِرَ للمؤمنينَ هنا في هذه الآيةِ حالتانِ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾؛ لِوُقوعِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٤).

بعْدَ قولِه: ﴿مَّثَانِيَ﴾، وفي سُورةِ (الأنفالِ) اقتُصِرَ على وَصْفِ اللهِ المؤمنينَ بالوَجَلِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ المقامَ هنا لِبَيانِ تأثُّرِ المؤمنينَ بالقرآنِ، والمقامَ هنالك للثَّناءِ على المؤمنينَ بالخشيةِ مِن اللهِ في غيرِ حالةِ قِراءةِ القرآنِ(١).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ فإنَّ إجراءَ الصِّفاتِ الغُرِّ على القُرآنِ الدَّالَّةِ على أنَّه قدِ استَكمَلَ أقصَى ما يُوصَفُ به كَلامٌ بالِغٌ في نُفوسِ المُخاطَبينَ كيف سُلِكَتْ آثارُه إلى نُفوسِ الَّذين يَخشَوْنَ رَبَّهم؛ مِمَّا يُثيرُ سُؤالًا يَهجِسُ في نَفْسِ السَّامِعِ أنْ يَقولَ: كيف لم تَتأثَّرْ به نُفوسُ فَريقِ المُصِرِّينَ على الكُفرِ وهو يَقرَعُ أسماعَهم يَومًا فيَومًا؟ فتَقَعُ جُملةُ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ جَوابًا عن هذا السُّؤالِ الهاجِسِ(٢).

- والإشارةُ إلى مَضمونِ صِفاتِ القُرآنِ المَذكورةِ وتأثُّرِ المُؤمِنينَ بهَدْيِه، أيْ: ذلك المَذكورُ هُدى اللهِ، أيْ: جَعَله اللهُ سَبَبًا كامِلًا جامِعًا لِوَسائِلِ الهُدى.

ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، وهو الكتابُ، أي: ذلك القرآنُ هُدى اللهِ، أي: دليلُ هُدى اللهِ ومَقصدُه؛ اهتدى به مَن شاء اللهُ اهتِداءَه، وكفَرَ به مَن شاء اللهُ ضَلالَه(٣).

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ تَذييلٌ للاستِئنافِ البَيانيِّ(٤).

- وفي قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩١، ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩٢).

هَادٍ﴾ احتِباكٌ[١]؛ ذكَرَ أوَّلًا: إطلاقَ أمْرِه في الهدايةِ دَليلًا على حَذفِ مِثلِه في الضَّلالِ، وثانيًا: انسِدادَ بابِ الهدايةِ على مَن أضَلَّه دَليلًا على حَذْفِ مِثْلِه فيمَن هداه، وهي دامِغةٌ للقَدَريَّةِ[٢].

(١) تقدَّمَ تعريفُه (ص: ٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩١).

## الآيات (٢٤-٢٦)

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْخِزْيَ﴾: أي: الذُّلَّ والهوانَ، بما أنزَل بهم مِن العذابِ والنَّكالِ، وأصلُ الخِزيِ: الإبعادُ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: أفمَن يَلْقى النَّارَ بوَجهِه يَومَ القيامةِ لِيَكُفَّها عن نَفْسِه: خَيرٌ أمَّنْ هو آمِنٌ مِن العذابِ؟ ويُقالُ للظَّالِمينَ: ذُوقوا جزاءَ ما كُنتُم تَكسِبونَ مِن الكُفرِ والعِصيانِ.

كذَّب الَّذين مِن قَبْلِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، فأهلَكَهم اللهُ بالعَذابِ مِن حيثُ لا يَشعُرونَ، فأذاقهم اللهُ العذابَ الَّذي يُذِلُّهم ويُخزِيهم في الحياةِ الدُّنيا، ولَعذابُ الآخرةِ أكبَرُ، لو كانوا يَعلَمونَ ذلك لاتَّعَظوا وآمَنوا.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٨).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أتَمَّ اللهُ عزَّ وجلَّ الإنكارَ على مَن سَوَّى بيْنَ مَن شَرَح صَدْرَه ومَن ضَيَّق، وما تَبِعَه، وخَتَم بأنَّ الأوَّلَ مُهتَدٍ، والثَّانيَ ضالٌّ؛ شَرَع في بيانِ ما لِكُلٍّ منهما[1].

وأيضًا لَمَّا حَكَم على القاسيةِ قُلوبُهم بحُكمٍ في الدُّنيا، وهو الضَّلالُ التَّامُّ؛ حَكَم عليهم في الآخِرةِ بحُكمٍ آخَرَ، وهو العَذابُ الشَّديدُ، فقال[2]:

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: أفمَن يتَّقي بوَجهِه العَذابَ السَّيِّئَ يومَ القيامةِ خَيرٌ أمَّنْ ليس كذلك، فهو مِنَ الآمِنينَ المُنعَّمينَ[3]؟

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

أي: ويُقالُ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم في الدُّنيا بالكُفرِ والمعاصي: ذوقوا جزاءَ ما

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٧).

قال ابن جُزَي: (ومعنى ﴿يَتَّقِي﴾ يَلْقَى النَّارَ بوجْهِه لِيَكُفَّها عن نفْسِه؛ وذلك أنَّ الإنسانَ إذا لَقِيَ شيئًا مِن المَخاوفِ استقبَله بيدَيْه، وأيدي هؤلاء مَغلولةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٠).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾ قال عَطاءٌ وابنُ زَيدٍ: يُرْمَى به مكتوفًا في النَّارِ، فأوَّلُ شَيءٍ تَمَسُّ منه وَجْهُه. وقال مُجاهِدٌ: يُجَرُّ على وَجْهِه في النَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥١).

وقال البِقاعي: (دلَّ على أنَّ يَدَه الَّتي جَرَت العادةُ بأنَّه يَتَّقي بها المَخاوِفَ مَغلولةٌ، بقَولِه: ﴿بِوَجْهِهِۦ﴾ الَّذي كان يَقيه المخاوفَ ويَحميه منها، بجَعْلِه -وهو أشرَفُ أعضائِه- وِقايةً يَقي به غيرَه مِن بَدَنِه ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ﴾... يُرمَى به في النَّارِ منكوسًا وهو مُكَبَّلٌ، لا شَيءَ له مِن أعضائِه مُطلَقٌ يَرُدُّ به عن وَجْهِه... ويُسحَبُ في النَّارِ على وَجهِه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٩٢).

كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن كُفرٍ وعِصيانٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر: ٤٨].

﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

أي: كذَّب كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلَهم، فأهلَكَهم اللهُ بعَذابٍ جاءَهم مِن جِهةٍ لم يَتوقَّعوا مَجيئَه منها(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٥).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: مِن قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ. وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والبغويُّ، وابن الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٦).

وقيل: المرادُ العُمومُ؛ فيَشملُ كُفَّارَ مَكَّةَ وغَيرَهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٠٧-٢٠٨).

قال أبو حيان: (﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: مِن الجهةِ الَّتي لا يَشعُرونَ أنَّ العذابَ يأتيهم مِن قِبَلِها، ولا يَخطُرُ ببالِهم أنَّ الشَّرَّ يأتيهم منها، كانوا في أمْنٍ وغِبطةٍ وسرورٍ، فإذا هم مُعَذَّبونَ مَخزيُّونَ ذَليلونَ في الدُّنيا؛ مِن ممسوخٍ ومقتولٍ ومأسورٍ ومَنفيٍّ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٧).

وقال ابنُ عاشور: (﴿حَيْثُ﴾ ظَرفُ مَكانٍ، أي: جاء العذابُ الَّذين مِن قَبْلِهم مِن مَكانٍ لا يَشعُرونَ =

كما قال اللهُ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ * أَوَلَمۡ يَهۡدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ أَهۡلِهَآ أَن لَّوۡ نَشَآءُ أَصَبۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾ [الأعراف: ٩٦ - ١٠٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: فعَجَّل اللهُ لِكُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ عَذابَ الذُّلِّ والهَوانِ في الحياةِ الدُّنيا[1].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان انتِظارُ الفَرَجِ مِمَّا يُسَلِّي، قال مُعْلِمًا أنَّ عَذابَهم دائِمٌ على سَبيلِ التَّرقِّي إلى ما هو أشَدُّ[2]:

---

= به؛ فقَومٌ أتاهم مِن جِهةِ السَّماءِ بالصَّواعِقِ، وقَومٌ أتاهم مِنَ الجَوِّ مِثلُ رِيحِ عادٍ... وقَومٌ أتاهم مِن تحتِهم بالزَّلازِلِ والخَسْفِ...، وقَومٌ أتاهم مِن نَبعِ الماءِ مِن الأرضِ مِثلُ قَومِ نُوحٍ، وقَومٌ عَمَّ عليهم البَحرُ مِثلُ قَومِ فِرعَونَ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٥، ٣٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٤).

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولَعذابُ الآخِرةِ أكبَرُ مِن عَذابِ الدُّنيا، فلو كانوا يَعلَمونَ ذلك لاعتَبَروا واتَّعَظوا، فآمَنوا ولم يُعَرِّضوا أنفُسَهم لِعَذابِ اللهِ تعالى(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جُعِل إتيانُه مِن مَأمَنِهم؛ لِيَكونَ ذلك أوجَعَ للمُعَذَّبِ، وأدَلَّ على القُدرةِ، بأنَّه سَواءٌ عندَه تعالى الإتيانُ بالعذابِ مِن جِهةٍ يُتوقَّعُ منها، ومِن جِهةٍ لا يُتوقَّعُ أن يأتيَ منها شَرٌّ ما -فَضلًا عمَّا أُخِذوا به- بل لا يُتوقَّعُ منها إلَّا الخَيرُ(٢)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أنَّه لَمَّا بَيَّن أنَّه أتاهم العَذابُ في الدُّنيا؛ بَيَّنَ أيضًا أنَّه أتاهم الخِزيُ، وهو الذُّلُّ والصَّغارُ والهَوانُ؛ والفائِدةُ في ذِكرِ هذا القَيدِ: أنَّ العذابَ التَّامَّ هو أن يَحصُلَ فيه الألمُ مَقرونًا بالهَوانِ والذُّلِّ(٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٠٩).

قال الشوكاني: (﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كانوا مِمَّنْ يعلمُ الأشياءَ، ويتَفَكَّرُ فيها، ويعمَلُ بمقتضَى عِلْمِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٢٨).

وقيل: المعنى: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ما حَلَّ بهم سَبَبُه تكذيبُهم رُسُلَهم كما كَذَّب هؤلاءِ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٩).

ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجرى التَّعليلِ لِمَا قَبْلَه مِن تَبايُنِ حالَي المُهتَدي والضَّالِّ[1]. أو اعتراضٌ بيْن الثَّناءِ على القُرآنِ فيما مضَى وقولِه الآتي: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر: ٢٧]. وقيل: هو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، بدَلالةِ مَجموعِ الجُملتَينِ على فَريقينِ: فَريقٍ مُهتدٍ، وفريقٍ ضالٍّ، ففُرِّعَ على ذلك هذا الاستِفهامُ، وفي الكلامِ حذْفٌ، تَقديرُه: كمَنْ أمِنَ العذابَ، أو كمَنْ هو في النَّعيمِ؟ والاستِفهامُ تَقريريٌّ، أو إنكاريٌّ، والمَقصودُ: عَدَمُ التَّسويةِ بيْن مَن هو في العَذابِ، وهو الضَّالُّ، ومَن هو في النَّعيمِ، وهو الَّذي هداه اللهُ، وحُذِفَ حالُ الفَريقِ الآخَرِ؛ لِظُهورِه مِنَ المُقابَلةِ الَّتي اقتَضاها الاستِفهامُ، وتَقديرُ الكَلامِ: أفمَن يَتَّقي بوَجهِه سُوءَ العَذابِ لِأنَّ اللهَ أضَلَّه، كمَنْ أمِنَ مِنَ العَذابِ لِأنَّ اللهَ هَداه؟ ويَجوزُ أنْ يَكونَ الكَلامُ تَفريعًا على جُملةِ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، تَفريعًا لِتَعيينِ ماصَدَقَ[2] (مَنْ) في قَولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، ويَكونَ (مَن يَتَّقي) خَبَرًا لِمُبتَدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: أفهو مَن يَتَّقي بوَجهِه سُوءَ العَذابِ؟ والاستِفهامُ لِلتَّقريرِ[3].

- قولُه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إذا كان وَجْهُ الإنسانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢).

(٢) الماصَدَق -عندَ المَناطِقةِ-: الأفرادُ الَّتي يتحقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ، ويُقابِلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصِّفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كُلِّيٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و (٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٢، ٣٩٣).

ليس مِن شأْنِه أنْ يُوقَى به شَيءٌ مِن الجسَدِ؛ إذ الوجهُ أعَزُّ ما في الجسَدِ، وهو يُوقَى ولا يُتَّقى به؛ فإنَّ مِن جِبِلَّةِ الإنسانِ إذا تَوقَّعَ ما يُصِيبُ جسَدَه، ستَرَ وَجْهَه خوفًا عليه؛ فتعيَّنَ أنْ يكونَ الاتِّقاءُ بالوَجهِ مُستعمَلًا كِنايةً عن عَدَمِ الاتِّقاءِ، على طَريقةِ التَّهكُّمِ أو التَّلميحِ، فكأنَّه قِيل: مَن يَطلُبُ وِقايةَ وَجهِه، فلا يَجِدُ ما يَقِيه به إلَّا وَجهَه، وهذا مِن إثباتِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ نفْيَه[1].

- قَولُه: ﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ فيه احتِباكٌ[2]؛ فذَكَر الاستِفهامَ أوَّلًا دَليلًا على حَذفِ مُتعَلَّقِه ثانيًا، وما يُقالُ للظَّالِمِ ثانيًا دَليلًا على ما يُقالُ للعَدلِ أوَّلًا[3].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ جاءَ فِعلُ ﴿وَقِيلَ﴾ بصِيغةِ المُضيِّ وهو واقِعٌ في المُستَقبَلِ؛ لِأنَّه لِتَحقُّقِ وُقوعِه نُزِّلَ مَنزِلةَ فِعلٍ مَضى. ويَجوزُ أنْ يَكونَ جُملةُ ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، بتَقديرِ (قد)؛ ولذلك لا يُحتاجُ إلى تأويلِ صِيغةِ المُضيِّ على مَعنى الأمْرِ المُحقَّقِ وُقوعُه[4].

- والتَّعبيرُ هنا بـ(الظَّالِمينَ) إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -على القولِ بأنَّ المرادَ بالظالِمينَ هنا المشرِكونَ المُتحدَّثُ عنهم-؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ ما يُلاقونَه مِنَ العَذابِ مُسَبَّبٌ على ظُلمِهم، أيْ: شِركِهم، أي: أفمَن يَتَّقي بوَجهِه سُوءَ العَذابِ فلا يَجِدُ وِقايةً تُنجيه مِن ذَوقِ العَذابِ؟ فيُقالُ لهم: ذُوقوا العَذابَ.

ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بالظَّالِمينَ جَميعَ الَّذين أشرَكوا باللهِ مِنَ الأُمَمِ، غَيرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٤).

خاصٍّ بالمُشرِكينَ المُتَحدَّثِ عنهم؛ فيَكونَ (الظَّالِمينَ) إظهارًا على أصْلِه؛ لِقَصدِ التَّعميمِ؛ فتكونَ الجُملةُ في مَعنى التَّذييلِ، أيْ: ويُقالُ لِهؤلاء وأشباهِهم، ويَظهَرُ بذلك وَجهُ تَعقيبِه بقَولِه: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[1] [الزمر: ٢٥].

- قولُه: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ المَذوقُ هو العَذابُ؛ فهو جَزاءُ ما اكتَسَبوه في الدُّنيا مِنَ الشِّركِ وشَرائِعِه، فجُعِلَ المَذوقُ نَفْسَ ما كانوا يَكسِبونَ؛ مُبالَغةً مُشيرةً إلى أنَّ الجَزاءَ وَفْقَ أعمالِهم، وأنَّ اللهَ عادِلٌ في تَعذيبِهم[2].

- وأُوثِرَ ﴿تَكْسِبُونَ﴾ على (تَعمَلونَ)؛ لِأنَّ خِطابَهم كان في حالِ اتِّقائِهم سُوءَ العَذابِ، ولا يَخلو حالُ المُعذَّبِ مِنَ التَّبرُّمِ الَّذي هو كالإنكارِ على مُعَذِّبِه؛ فجيءَ بالصِّلةِ الدَّالَّةِ على أنَّ ما ذاقوه جَزاءُ ما اكتَسَبوه؛ قَطعًا لِتَبرُّمِهم[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لِأنَّ ما ذُكِر قَبْلَه مِن مَصيرِ المُشرِكينَ إلى سُوءِ العَذابِ يَومَ القِيامةِ ويَومَ يُقالُ لِلظَّالِمينَ هم وأمثالِهم: ﴿ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]؛ يُثيرُ في نُفوسِ المُؤمِنينَ سُؤالًا عن تَمتُّعِ المُشرِكينَ بالنِّعمةِ في الدُّنيا، ويَتمَنَّوْنَ أنْ يُجعَلَ لهمُ العَذابُ؛ فكان جَوابًا عن ذلك قَولُه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أيْ: هم مَظِنَّةُ أنْ يَأتيَهم العَذابُ، كما أتَى العَذابُ الَّذين مِن قَبلِهم، إذْ أتاهمُ العَذابُ في الدُّنيا بدُونِ إنذارٍ، غَيرَ مُترقِّبينَ مَجيئَه، فكان عَذابُ الدُّنيا خِزيًا يُخزي به اللهُ مَن يَشاءُ مِنَ الظَّالِمينَ، وأمَّا عَذابُ الآخِرةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٣، ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فجَزاءٌ يَجزي به اللهُ الظَّالِمينَ على ظُلمِهم[١].

- وضَميرُ ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ عائِدٌ على (مَنْ) في قولِه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٢٤] باعتبارِ أنَّ معنى (مَن) جمْعٌ، وفي هذا تَعريضٌ بإنذارِ المُشرِكينَ بعَذابٍ يَحِلُّ بهم في الدُّنيا، وهو عذابُ السَّيفِ الَّذي أخزاهم اللهُ به يومَ بَدرٍ؛ فالمرادُ بالعذابِ الَّذي أتَى الَّذين مِن قبْلِهم: هو عذابُ الدُّنيا؛ لأنَّه الَّذي يُوصَفُ بالإتيانِ مِن حيثُ لا يَشعُرونَ[٢].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ دالَّةٌ على تَسَبُّبِ التَّكذيبِ في إتيانِ العَذابِ إليهم، فلَمَّا ساواهم مُشرِكو العَرَبِ في تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كان سَبَبُ حُلولِ العَذابِ بأولئك مَوجودًا فيهم، فهو مُنذِرٌ بأنَّهم يَحِلُّ بهم مِثلُ ما حَلَّ بأولئك[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ في هذه الآيةِ احتِباكٌ[٤]، حيثُ ذكَرَ (الخِزْي) أوَّلًا دليلًا على إرادتِه ثانيًا، و(الأكْبَر) ثانيًا دليلًا على الكَبيرِ أوَّلًا. وسِرُّ هذا الاحتِباكِ: تَغليظُ الأمْرِ عليهم -بالجمْعِ بيْن الخِزيِ والعذابِ- لِمَا فَعَلوا برُسلِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، بخِلافِ ما في سُورةِ (فُصِّلت) في قولِه تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦]؛ فإنَّ سِياقَه للطَّعنِ في الوَحدانيَّةِ، وهي لِكثرةِ أدلَّتِها، وبُعدِها عن الشُّكوكِ، وعظيمِ المتَّصِفِ بها، وعدَمِ تأْثيرِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السبق)).

(٤) تقدَّمَ تعريفُه (ص: ٣٧).

بشَيءٍ؛ يَكفي في نَكالِ الكافرِ به مُطلَقُ العذابِ[١].

- وعُطِفَ قَولُه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ على ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لِلاحتِراسِ، أيْ: إنَّ عَذابَ الآخِرةِ هو الجَزاءُ، وأمَّا عَذابُ الدُّنيا فقد يُصيبُ اللهُ به بَعضَ الظَّلَمةِ زِيادةَ خِزيٍ لهم[٢].

- وقولُه: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ جُملةٌ مُعتَرِضةٌ في آخِرِ الكَلامِ، ومَفعولُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ دَلَّ عليه الكَلامُ المُتقَدِّمُ، أيْ: لو كان هؤلاء يَعلَمونَ أنَّ اللهَ أذاقَ الآخَرينَ الخِزيَ في الدُّنيا بسَبَبِ تَكذيبِهمُ الرُّسُلَ، وأنَّ اللهَ أعَدَّ لهم عَذابًا في الآخِرةِ هو أشَدُّ، وضَميرُ ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عائِدٌ إلى ما عادَ إليه ضَميرُ ﴿قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر: ٢٥].

وجَوابُ ﴿لَوْ﴾ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه التَّعريضُ بالوَعيدِ في قَولِه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الزمر: ٢٥] الآيةَ، تَقديرُه: لو كانوا يَعلَمونَ أنَّ ما حَلَّ بهم سَبَبُه تَكذيبُهم رُسُلَهم كما كَذَّبَ هؤلاء مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣]. على قولٍ في التفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٧-٣١)

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: أي: لا اعوِجاجَ فيه ولا انحِرافَ، وقيل: العِوَجُ -بالكَسرِ- في المعاني، والعَوَجُ -بالفتحِ- في الأعيانِ، وأصلُ (عوج): يدُلُّ على مَيلٍ[1].

﴿مُتَشَاكِسُونَ﴾: أي: مُختَلِفونَ مُتنازِعونَ، وأصلُ (شكس): يدُلُّ على سُوءِ خُلُقٍ[2].

﴿سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾: أي: خالصًا له، لا يَشرَكُه فيه غيرُه[3].

﴿تَخْتَصِمُونَ﴾: أي: تَتنازَعونَ، وتَختلِفونَ، وأصلُ (خصم): مُنازَعةٌ، وأصلُ المُخاصَمةِ: أن يَتعلَّقَ كلُّ واحدٍ بخُصْمِ الآخَرِ، أي: جانِبِه[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٣/ ٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٣١٧) و (١٩/ ٣٠١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٢١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ * قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

قَولُه: ﴿ قُرْءَانًا ﴾: مَنصوبٌ على الحالِ مِنِ اسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا ﴾ المُبَيَّنِ بالقُرآنِ، وهي حالٌ مُوَطِّئَةٌ؛ لأنَّ الحالَ في الحقيقةِ ﴿عَرَبِيًّا﴾، و﴿ قُرْءَانًا ﴾ تَوطِئَةٌ له. وقيل: إنَّه مَنصوبٌ بمُقدَّرٍ، تقديرُه: أعْني، أو أخُصُّ، أو أمْدَحُ، ونحو ذلك. وقيل: يجوزُ نَصبُه على المفعوليَّةِ بـ﴿يَتَذَكَّرُونَ ﴾، أي: يَتذكَّرونَ قُرآنًا.

قَولُه: ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ نعتٌ ثانٍ لـ﴿ قُرْءَانًا ﴾، أو حالٌ منه[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُثْنِيًا على كتابِه الكريمِ: ولقد بَيَّنَّا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ يَحتاجُونَ إليه في أُمورِهم وشُؤونِهم؛ لعلَّهم يَتذَكَّرون فيَتَّعِظونَ؛ قُرآنًا عَربيًّا لا اعوِجاجَ فيه، ولا تَناقُضَ ولا اختِلافَ؛ لَعَلَّهم يَتَّقونَ اللهَ، فيَمتَثِلونَ أوامِرَه، ويَجتَنِبونَ نواهيَه.

ثمَّ يَضرِبُ اللهُ تعالى مَثَلًا للمُشرِكِ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً شَتَّى، بعَبدٍ مَملوكٍ لِشُرَكاءَ مُتنازِعينَ؛ لِسُوءِ أخلاقِهم وطِباعِهم، وهذا العَبدُ مُوَزَّعٌ ومُمَزَّقٌ بيْنَهم، كلٌّ منهم يَستَخدِمُه بقَدْرِ مِلْكِه فيه، وهو حائِرٌ بيْنَهم جَميعًا؛ لا يُمكِنُه أن يُرضِيَهم جَميعًا، ولا يَملِكُ أن يُطيعَ أهواءَهم المُتنازِعةَ.

ويَضرِبُ سُبحانَه مَثَلًا للمُوحِّدِ الَّذي يَعبُدُ اللهَ وَحْدَه، بعَبدٍ مَملوكٍ لسَيِّدٍ

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١٠٨٠).

واحِدٍ، وخالِصٍ له، وليس لِغَيرِه مِن سَبيلٍ عليه؛ فهو في سَلامةٍ وراحةٍ مِن تَشاحُنِ الشُّرَكاءِ فيه، فهل يَستوي هَذانِ في العُقولِ؟ كلَّا لا يَستويانِ؛ فكذلك لا يَستوي المُشرِكُ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً كَثيرةً، والموحِّدُ الَّذي لا يَعبُدُ إلَّا اللهَ وَحْدَه. الحَمدُ للهِ، بل أكثَرُهم لا يَعلَمونَ!

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ سبحانَه رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ الموتَ سيَنزِلُ به كما سيَنزِلُ بأعدائِه، فيقولُ: إنَّك -يا مُحمَّدُ- صائِرٌ إلى الموتِ، وكذلك قَومُك سيَموتونَ، ثمَّ إنَّكم جَميعًا يومَ القيامةِ عِندَ ربِّكم تَختَصِمونَ فيما كُنتُم تَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا، فيَفصِلُ اللهُ بيْنَكم بالحَقِّ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى هذه الفوائدَ المُتكاثِرةَ والنَّفائسَ المُتوافرةَ في هذه المَطالِبِ؛ بيَّن تعالى أنَّه بلَغت هذه البياناتُ إلى حدِّ الكمالِ والتمامِ(١).

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾.

أي: ولقد ذكَرْنا وبَيَّنَّا للنَّاسِ في هذا القُرآنِ كُلَّ صِنفٍ ممَّا يَحتاجُونَ إليه مِنَ الأمثالِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ٦٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٠٩).

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: لَعلَّهم يَتذَكَّرونَ الحَقَّ، فيَتَّعِظونَ ويَنزَجِرونَ عمَّا هم فيه مِن ضَلالٍ[1].

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾.

أي: قُرآنًا عَرَبيًّا، لا اعوِجاجَ فيه؛ فلا لَبْسَ فيه ولا اختِلافَ، ولا خَلَلَ ولا تَناقُضَ[2].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ [الكهف: ١].

﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

أي: جعَلْناه قرآنًا عربيًّا غيرَ ذي عِوَجٍ؛ لِيَفْهَمَه النَّاسُ ويَعْملوا به؛ فيَتَّقوا سخَطَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

الله وعذابَه، بامتِثالِ أوامرِه، واجتِنابِ نواهيه[١].

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بالَغَ تعالى في شَرحِ وَعيدِ الكُفَّارِ؛ أردَفَه بذِكرِ مَثَلٍ ما يدُلُّ على فَسادِ مَذهَبِهم، وقُبحِ طريقتِهم، فقال[٢]:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾.

أي: ذكَرَ اللهُ تعالى مَثَلًا للمُشرِكِ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً شتَّى، بعَبدٍ مملوكٍ لِشُرَكاءَ مُتنازِعينَ سَيِّئةٍ أخلاقُهم، وكلٌّ مِنهم يَستَخدِمُه بقَدْرِ مِلْكِه فيه؛ فهو يُعاني منهم لاختِلافِهم، ولا يَقِرُّ له قَرارٌ، ولا يُمكِنُه أن يُرضِيَهم جميعًا؛ وضرَب مَثَلًا للمُوَحِّدِ الَّذي يَعبُدُ اللهَ وَحْدَه، بعَبدٍ خالِصٍ لرَجُلٍ واحِدٍ، لا يَملِكُه غَيرُه؛ فعَلِمَ مَقاصِدَ سَيِّدِه، وعَرَف الطَّريقَ إلى رِضاه، وهو في سَلامةٍ وطُمَأنينةٍ وراحةٍ مِن تَشاحُنِ الشُّرَكاءِ فيه، مع رَحمةِ مالِكِه به، وشَفَقَتِه عليه، وإحسانِه إليه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

قال البِقاعي: (أي: لِيَكونَ حالُهم بعدَ التَّذَكُّرِ النَّاشِئِ عن التَّذكيرِ حالَ مَن يُرجى له أن يَجعَلَ بيْنَه وبيْن غَضَبِ اللهِ وقايةً). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٦، ١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٣٣)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٣، ١٤٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٤)، ((تفسير =

﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًا﴾.

أي: فهل يَستوي في العُقولِ العَبدُ المَملوكُ لِشُرَكاءَ مُتشاكِسينَ، والمملوكُ لسَيِّدٍ واحِدٍ؟ كلَّا، لا يَستَويانِ؛ فكذلك لا يَستوي المُشرِكُ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً كَثيرةً، والموَحِّدُ الَّذي لا يَعبُدُ إلَّا اللهَ وَحْدَه[1].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَطَلَ القَولُ بإثباتِ الشُّرَكاءِ والأندادِ، وثَبَت أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ الواحِدُ الأحَدُ الحَقُّ؛ ثَبَت أنَّ الحَمْدَ له لا لِغَيرِه[2].

وأيضًا لَمَّا سَبَقَت هذه الدَّلائِلُ الظَّاهِرةُ، والبَيِّناتُ الباهِرةُ؛ قال: الحَمدُ لله على حُصولِ هذه البياناتِ، وظهورِ هذه البَيِّناتِ، وإن كان أكثَرُ الخَلقِ لم يَعرِفوها، ولم يَقِفوا عليها[3].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾.

أي: الحَمدُ[4] لله وَحْدَه دونَ كُلِّ مَن سِواه، الَّذي أقام بهذا المَثَلِ الواضِحِ

---

= ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٩٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٨، ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الحمدُ: هو وصْفُ المحمودِ بالكمالِ محبَّةً وتعظيمًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧).

الحُجَّةَ على المُشرِكينَ، وأبان الحَقَّ مِن الباطِلِ؛ فلا يَنبغي أن يكونَ له شَريكٌ[١].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: بل أكثَرُهم[٢] لا يَعلَمونَ الحَقَّ، فهم لا يَعلَمونَ أنَّ المُوحِّدَ والمُشرِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

قال الماوَرْدي: (﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يحتمِلُ وجهَينِ؛ أحَدُهما: على احتِجاجِه بالمَثَلِ الَّذي خَصَمَ به المُشرِكينَ. الثَّاني: على هِدايتِه الَّتي أعان بها المؤمِنينَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٤).

(٢) قيل: أكثرُ على بابِها، والمرادُ بقولِه: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أي: أكثرُ النَّاسِ، وهم المشركون. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٨٨).

قال الشوكاني: (فإنَّ المؤمِنينَ باللهِ يَعلَمونَ ما في التَّوحيدِ مِن رِفعةِ شَأنِه، وعُلُوِّ مَكانِه، وأنَّ الشِّركَ لا يُماثِلُه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، ولا يُساويه في وَصفٍ مِن الأوصافِ، ويَعلَمونَ أنَّ اللهَ سُبحانَه يَستَحِقُّ الحَمدَ على هذه النِّعمةِ، وأنَّ الحَمدَ مُختَصٌّ به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٠).

وقال ابنُ عثيمين: (فأكثَرُ الخَلقِ لا يَعلَمونَ؛ إمَّا لجَهلِهم، أو لِغَيِّهم، فإن كانوا لِجَهلِهم... فهم قد انتفى عنهم العِلمُ، وإن كان لِغَيِّهم فإنَّ العِلمَ انتفى عنهم لانتِفاءِ فائِدتِه؛ حيثُ لم يَسترشِدوا به). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٢٤).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ على المشركين، قال ابنُ جرير: (بل أكثرُ هؤلاءِ المشركينَ باللهِ لا يَعلَمونَ أنَّهما لا يَستَويانِ، فهم بجهلِهم بذلك يَعْبُدونَ آلِهةً شَتَّى مِن دونِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠).

وذكَر ابنُ عاشور أنَّ الله تعالى قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأن أكثَرَ المشركينَ عامَّةٌ أتْباعٌ لزُعمائِهم الَّذينَ سَنُّوا لهم الإشْراكَ وشَرائِعَه. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٣).

وقال ابن عطيَّة: (و«أكثر» في هذه الآيةِ على بابِها؛ لأنَّا وجَدْنا الأقَلَّ عَلِمَ أمْرَ التَّوحيدِ، وتكلَّم به، ورفَض الأصنامَ؛ كوَرَقةَ، وزَيدٍ، وقُسٍّ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٠).

وقيل: المرادُ بالأكثَرِ الكُلُّ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٦١٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧).

والأكثَرُ قد يُذْكَرُ ويُرادُ به الجميعُ؛ لأنَّ أكثَرَ الشَّيءِ يَقومُ مَقامَ الكلِّ؛ فذِكْرُ الأكثَرِ كذِكْرِ الجميعِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٥٥).

لا يَستَويانِ، وأنَّ عِبادةَ رَبٍّ واحدٍ خَيرٌ مِن عِبادةِ أربابٍ شَتَّى؛ فيَعبُدونَ غَيرَ اللهِ ويُشرِكونَ به(١)!

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا لم يَلتَفِتوا إلى هذه الدَّلائِلِ الباهِرةِ، أخبَرَ سُبحانَه الجَميعَ بأنَّهم مَيِّتونَ وصائِرونَ إليه، وأنَّ اختِصامَكم يكونُ بيْنَ يَدَيه يومَ القيامةِ، وهو الحَكَمُ العَدلُ؛ فيَتمَيَّزُ المُحِقُّ مِن المُبطِلِ، والنَّبيُّ عليه السَّلامُ وأتْباعُه: المُحِقُّونَ الفائِزونَ بالظَّفَرِ والغَلَبةِ، والكافِرونَ هم المُبطِلونَ(٢).

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

أي: إنَّك -يا مُحمَّدُ- صائرٌ إلى الموتِ لا مَحالةَ، وإنَّ جَميعَ قَومِك؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم، سيَموتونَ كذلك(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٩، ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٤).

قال القرطبي: (هو خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أخبَرَه بمَوتِه ومَوتِهم، فاحتمَلَ خَمسةَ أوجُهٍ؛ أحدُها: أن يكونَ ذلك تحذيرًا مِن الآخرةِ. الثَّاني: أن يُذَكِّرَه حَثًّا على العمَلِ. الثَّالثُ: أن يُذَكِّرَه تَوطِئةً للمَوتِ. الرَّابعُ: لئلَّا يَختَلِفوا في مَوتِه كما اختَلَفت الأمَمُ في غيرِه، حتَّى إنَّ عُمَرَ رَضِيَ الله عنه لَمَّا أنكر مَوتَه احتَجَّ أبو بكرٍ رَضِيَ الله عنه بهذه الآيةِ، فأمسَك [البخاري «١٢٤٢»]. الخامسُ: لِيُعْلِمَه أنَّ اللهَ تعالى قد سَوَّى فيه بيْن خَلْقِه مع تفاضُلِهم في غيرِه؛ لِتَكثُرَ فيه السَّلوةُ، وتَقِلَّ فيه الحَسرةُ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٠، ٥٠١). =

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

أي: ثمَّ إنَّكم تَختَصِمونَ يومَ القيامةِ عِندَ اللهِ رَبِّكم فيما كُنتُم تَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا، فيَفصِلُ بيْنكم بالحَقِّ(١).

---

= ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُم﴾: جميعُ العالَمِ، وكلُّ العبادِ؛ أتباعُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وغيرُهم: ابنُ عطية، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٠).

وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُم﴾: المكذِّبونَ مِن قومِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، والمؤمنونَ منهم: ابن جرير، ومكي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٧).

وقال ابنُ عاشورٍ: (وضميرُ الغيبةِ في ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ للمشركينَ المتحدَّثِ عنهم، وأمَّا المؤمنونَ فلا غرضَ هنا للإخبارِ بأنَّهم ميتونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٤).

وممن اختار أنَّ الضميرَ يعودُ إلى الكفَّارِ: ابن جزي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٣).

قال ابن كثير: (هذه الآيةُ وإن كان سياقُها في المؤمنينَ والكافِرينَ، وذِكرِ الخُصومةِ بيْنَهم في الدَّارِ الآخِرةِ؛ فإنَّها شامِلةٌ لكُلِّ مُتنازِعَينِ في الدُّنيا، فإنَّه تعادُ عليهم الخُصومةُ في الدَّارِ الآخِرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٦، ٩٨).

كما قال الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [البقرة: ١١٣].

وقال الله سُبحانَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [السجدة: ٢٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ، عن الزُّبَيرِ بنِ العوَّامِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نَزَلت هذه السُّورةُ على رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ قال الزُّبَيرُ: أيْ رَسولَ الله، أيُكَرَّرُ علينا ما كان بَيْنَنا في الدُّنيا مع خَواصِّ الذُّنوبِ[1]؟ قال: نعَمْ، لَيُكَرَّرَنَّ عليكم حتَّى يُؤدَّى إلى كُلِّ ذي حَقٍّ حَقَّه! فقال الزُّبَيرُ: واللهِ إنَّ الأمرَ لَشَديدٌ))[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ أنَّه ينبغي للمُعَلِّمِ غيرَه أنْ يُكْثِرَ له مِن ضَربِ الأمثالِ الَّتي تُعينُه على فَهمِ المعنى؛ لأنَّ هذا هو أُسلوبُ القُرآنِ الكريمِ[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ تذكيرٌ بأنَّ النَّاسَ كُلَّهم صائِرونَ إلى المَوتِ؛ فإنَّ الموتَ آخِرُ ما

---

(١) أي: مع السُّؤالِ عن الذُّنوبِ المخصوصةِ بكلِّ أحدٍ مِنَّا. يُنظر: ((حاشية السندي على مسند الإمام أحمد بن حنبل)) (١/ ٢٢٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٣٦)، وأحمد (١٤٣٤) واللفظُ له.

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صحيحٌ). وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٣٦)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ٢١)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٢).

يُذَكَّرُ به السَّادِرُ في غُلَوائِه[١] إذا كان قد اغتَرَّ بعَظَمةِ الحياةِ، ولم يَتفَكَّرْ في اختيارِ طَريقِ السَّلامةِ والنَّجاةِ[٢]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ خُصَّت أمثالُ القُرآنِ بالذِّكرِ مِن بيْنِ مزايا القُرآنِ؛ لأجْلِ لَفْتِ بَصائِرِهم للتَّدَبُّرِ في ناحيةٍ عَظيمةٍ مِن نواحي إعجازِه، وهي بلاغةُ أمثالِه؛ فإنَّ بُلَغاءَهم كانوا يَتنافَسونَ في جَودةِ الأمثالِ وإصابتِها المحَزَّ مِن تشبيهِ الحالةِ بالحالةِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ كُلَّ مَثَلٍ في القُرآنِ فإنَّ فيه دَليلًا على إثباتِ القياسِ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيه إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ في أفعالِ اللهِ تعالى وشَرعِه[٥]، والرَّدُّ على الجَهميَّةِ وأشباهِهم ممَّن أنكَروا حِكمةَ اللهِ تعالى، وقالوا: «إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَفعَلُ الشَّيءَ لا لِعِلَّةٍ وحِكمةٍ، ولكنْ لِمُجَرَّدِ المَشيئةِ»! ووجْهُ ذلك: أنَّ «لعلَّ» هنا للتَّعليلِ، والتَّعليلُ يعني: إثباتَ الحِكمةِ[٦].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ثناءٌ على القُرآنِ مِن حيثُ إنَّه كلامٌ، باستِقامةِ

---

(١) السَّادِرُ: الَّذي لا يَهتَمُّ لِشَيءٍ، ولا يُبالي ما صَنَع. والغُلَواءُ: الغُلُوُّ والتَّجاوُزُ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١١/ ٥٢٨) و (٣٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ألفاظِه؛ لأنَّ اللُّغةَ العَربيَّةَ أفصَحُ لُغاتِ البَشَرِ[١].

٥- قَولُه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يُستدَلُّ به على أنَّه لا يُوجدُ في القرآنِ لفظٌ أعجميٌّ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ القرآنَ كلَّه بأنَّه عربيٌّ، وهذا يقتضي أنَّه ليس فيه شَيءٌ مِن لغةِ العَجَمِ، ولا شكَّ أنَّ هذا هو الواقعُ؛ فليس في القرآنِ لفظٌ أعجميٌّ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ دَلالةٌ على شَرَفِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ وعِظَمِها[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ يعني: ليس فيه خَلَلٌ ولا نَقْصٌ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ لا في ألفاظِه، ولا في مَعانيه، وهذا يَستلزِمُ كَمالَ اعتِدالِه واستِقامتِه، كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[٤] [الكهف: ١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ جوازُ الشَّرِكةِ، وأنَّها مُشاعةٌ[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أنَّ الحَمدَ المُطلَقَ إنَّما يكونُ للهِ عزَّ وجلَّ، أمَّا غيرُه فهو وإنْ حُمِدَ فليس حَمْدُه على الإطلاقِ، بل يُحمَدُ على شَيءٍ مُعَيَّنٍ وجُزءٍ مُعَيَّنٍ ممَّا يُحمَدُ عليه، أمَّا الحَمدُ على الإطلاقِ فهو للهِ ربِّ العالَمينَ عزَّ وجلَّ؛ فهو المحمودُ على كُلِّ حالٍ[٦].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يُشعِرُ بوقوعِ الهلاكِ بالذين أشرَكوا باللهِ غيرَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢١٥). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٢٥).

كقولِه: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [الأنعام: ٤٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] دَلالةٌ بظاهِرِها على أنَّ الشُّهَداءَ أحياءٌ غيرُ أمواتٍ، وقد قال في الآيةِ هنا لِمَن هو أفضَلُ مِن كُلِّ الشُّهَداءِ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾؟

**الجوابُ**: أنَّ الشُّهَداءَ يَموتونَ المَوتةَ الدُّنيَويَّةَ، فتُورَثُ أموالُهم، وتُنكَحُ نِساؤُهم بإجماعِ المُسلِمينَ، وهذه المَوتةُ هي الَّتي أخبَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه أنَّه يموتُها صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمَّا الحياةُ الَّتي أثْبَتَها اللهُ للشُّهَداءِ في القُرآنِ، وحياتُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّتي ثَبَت في الحديثِ أنَّه يَرُدُّ بها السَّلامَ على مَن سَلَّم عليه[2]: فكِلْتاهما حياةٌ بَرزخيَّةٌ ليست مَعقولةً لأهلِ الدُّنيا، فأمَّا ما جاء في الشُّهَداءِ، فقد نَصَّ تعالى على ذلك بقَولِه: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾، وقد فسَّرها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم تُجعَلُ أرواحُهم في حواصِلِ طُيورٍ خُضرٍ تَرتَعُ في الجنَّةِ وتأوي إلى قناديلَ مُعَلَّقةٍ تحتَ العَرشِ[3]؛ فهم يتنَعَّمون بذلك، وأمَّا ما ثبت عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أنَّه لا يُسَلِّمُ عليه أحدٌ إلَّا رَدَّ اللهُ عليه رُوحَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ١٩٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٤١)، وأحمد (١٠٨١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

صحَّحه ابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (١٤/ ١٥٨)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٠٤١)، وصحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((المجموع)) (٨/ ٢٧٢)، وجوَّده العِراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٤٠٩)، وحسَّنه السَّخاويُّ في ((القول البديع)) (ص: ٢٢٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٠٤١). وقال ابن حجر في ((فتح الباري)) (٦/ ٤٨٨): (رواته ثقات).

(٣) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

حتَّى يَرُدَّ عليه السَّلامَ[١]، وأنَّ اللهَ وكَلَ ملائِكةً يُبَلِّغونَه سَلامَ أُمَّتِه[٢]؛ فإنَّ تلك الحياةَ أيضًا لا يَعقِلُ حقيقتَها أهلُ الدُّنيا، وهي ثابتةٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّ رُوحَه الكريمةَ في أعلى عِلِّيِّينَ مع الرَّفيقِ الأعلى فَوقَ أرواحِ الشُّهَداءِ؛ فتَعَلُّقُ هذه الرُّوحِ الطَّاهرةِ -الَّتي هي في أعلى عِلِّيِّينَ- بهذا البَدَنِ الشَّريفِ الَّذي لا تأكُلُه الأرضُ: يَعلَمُ اللهُ حَقيقتَه ولا يَعلَمُها الخَلْقُ، كما قال في جِنسِ ذلك: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾، ولو كانت كالحياةِ الَّتي يَعرِفُها أهلُ الدُّنيا لَمَا قال الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عنه إنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مات[٣]، ولَمَا جاز دَفْنُه، ولا نُصِبَ خَليفةٌ غَيرُه، ولا قُتِل عُثمانُ، ولا اختلَف أصحابُه، ولا جرَى على عائِشةَ ما جرى، ولَسألوه عن الأحكامِ الَّتي اختلَفوا فيها بعدَه كالعَولِ[٤]، وميراثِ الجَدِّ والإخوةِ... ونحو ذلك، وممَّا يُقرِّبُ هذا للذِّهنِ حياةُ النَّائِمِ؛ فإنَّه يُخالِفُ الحيَّ في جميعِ التَّصَرُّفاتِ، مع أنَّه يُدرِكُ الرُّؤيا، ويَعقِلُ المعانيَ[٥]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا الاختِصامَ مِن مُقتَضَى

---

(١) تقدَّم تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه النسائي (١٢٨٢)، وأحمد (٣٦٦٦) من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.
صحَّحه ابنُ حبَّانَ في ((صحيحه)) (٩١٤)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٩/ ٣١١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٢٨٢)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٤٥٦)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ١٥٤)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاري (٣٦٦٨) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٤) العَول: هو زيادةُ السِّهامِ على أجزاءِ أصلِ المسألةِ وارتفاعُها، أو زيادةُ السِّهامِ على الفريضةِ، فتَعولُ المسألةُ إلى سِهامِ الفريضةِ، فيَدخُلُ النُّقصانُ عليهم بقَدرِ حِصَصِهم. يُنظر: ((تحرير ألفاظ التنبيه)) للنووي (ص: ٢٤٧)، ((المطلع على ألفاظ المقنع)) للبعلي (ص: ٣٦٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤، ٢٥).

رُبوبيَّتِه عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه حَكَمٌ عَدلٌ، ومِن عَدلِه أنَّه يَفصِلُ بيْنَ المُتنازِعِينَ فيه يومَ القيامةِ كما يَفصِلُ بيْنَ المُتنازِعِينَ في الحُقوقِ الخاصَّةِ(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهو تَتِمَّةٌ لِلتَّنويهِ بالقُرآنِ وإرشادِه، ولِلتَّعريضِ بتَسفيهِ أحلامِ الَّذين كَذَّبوا به، وأعرَضوا عن الاهتِداءِ بهَدْيِه(٢).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ فيه تَأكيدُ الخَبَرِ بلامِ القَسَمِ وحَرفِ التَّحقيقِ (قدْ)، وهو مَنظورٌ فيه إلى حالِ الفَريقِ الَّذين لم يَتَدبَّروا القُرآنَ، وطَعَنوا فيه، وأنكَروا أنَّه مِن عِندِ اللهِ(٣).

- والتَّعريفُ في (النَّاسِ) لِلاستِغراقِ، أي: لِجَميعِ النَّاسِ؛ فإنَّ اللهَ بَعَثَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِلنَّاسِ كافَّةً(٤).

- وتَنوينُ ﴿مَثَلٍ﴾ لِلتَّعظيمِ والشَّرَفِ، أيْ: مِن كُلِّ أشرَفِ الأمثالِ، فالمَعنى: ذَكَرْنا لِلنَّاسِ في القُرآنِ أمثالًا هي بَعضٌ مِن كُلِّ أنفَعِ الأمثالِ وأشرَفِها(٥).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

- انتَصَبَ ﴿قُرْءَانًا﴾ على الحالِ مِنِ اسمِ الإشارةِ المُبَيَّنِ بالقُرآنِ؛ فالحالُ هنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٦، ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُوطِّئةٌ -على أحدِ الأقوالِ-، والمَقصودُ مِنَ الحالِ التَّوَرُّكُ على المُشركينَ؛ حيثُ تَلَقَّوُا القُرآنَ تَلقِّيَ مَن سَمِعَ كَلامًا لم يَفهَمْه، كأنَّه بِلُغةٍ غَيرِ لُغَتِه، لا يُعيرُه بالًا، كقَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨]، مع التَّحدِّي لهم بأنَّهم عَجَزوا عن مُعارَضَتِه وهو مِن لُغَتِهم[١].

- قولُه: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ هذا ثَناءٌ على القُرآنِ بكَمالِ مَعانيه بَعدَ أنْ أُثنيَ عليه باستِقامةِ ألفاظِه، ووَجْهُ العُدولِ عن وَصْفِه بالاستِقامةِ إلى وَصفِه بانتِفاءِ العِوَجِ عنه التَّوسُّلُ إلى إيقاعِ ﴿عِوَجٍ﴾ وهو نَكِرةٌ في سياقِ ما هو بمَعنى النَّفيِ، وهو كَلِمةُ (غَير)، فيُفيدُ انتِفاءَ جِنسِ العِوَجِ على وَجهِ عُمومِ النَّفيِ، أيْ: ليس فيه عِوَجٌ قَطُّ، ولا اختِلافَ فيه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، والاستقامةُ يجوزُ أن تكونَ مِن وجْهٍ دونَ وجهٍ؛ فقولُه: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أبْلَغُ مِن المستقيمِ، وأخَصُّ بالمعانِي، ولِأنَّ لَفْظَ ﴿عِوَجٍ﴾ مُختَصٌّ باختِلالِ المَعاني، فيَكونُ الكَلامُ نَصًّا في استِقامةِ مَعاني القُرآنِ؛ لِأنَّ الدَّلالةَ على استِقامةِ ألفاظِه ونَظْمِه قدِ استُفيدَتْ مِن وَصْفِه بكَونِه عَرَبيًّا[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وقال قبْلُ: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧]؛ لِأنَّهم إذا تَذَكَّروا يُسِّرتْ عليهمُ التَّقْوى، ولِأنَّ التَّذكُّرَ أنسَبُ بضَربِ الأمثالِ؛ لِأنَّ في الأمثالِ عِبرةً بأحوالِ المُمَثَّلِ به، فهي مُفْضيةٌ إلى التَّذكُّرِ، والاتِّقاءُ أنسَبُ بانتِفاءِ العِوَجِ؛ لِأنَّه إذا استَقامَتْ مَعانيه واتَّضَحتْ، كان العَمَلُ بما يَدعو إليه أيسَرَ، وذلك هو التَّقْوى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٩).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ الآيةَ، استِئنافٌ، وهو مِن قَبيلِ التَّعرُّضِ إلى المَقصودِ بَعدَ المُقدِّمةِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧] تَوطِئةٌ لِهذا المَثَلِ المَضروبِ لِحالِ أهلِ الشِّركِ وحالِ أهلِ التَّوحيدِ، وفي هذا الانتِقالِ تَخلُّصٌ؛ أُتْبِعَ تَذكيرُهم بما ضُرِبَ لهم في القُرآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ على وَجهِ إجمالِ العُمومِ؛ استِقصاءً في التَّذكيرِ، ومُعاوَدةً لِلإرشادِ، وتَخلُّصًا مِن وَصفِ القُرآنِ بأنَّ فيه مِن كُلِّ مَثَلٍ؛ إلى تَمثيلِ حالِ الَّذين كَفَروا بحالٍ خاصٍّ، فهذا المَثَلُ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾، إلى قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢]؛ فهو مَثَلٌ لِحالِ مَن شَرَحَ اللهُ صُدورَهم لِلإسلامِ، وحالِ مَن قَسَتْ قُلوبُهم(١).

- قولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا ...﴾ فيه مَجيءُ فِعلِ ﴿ضَرَبَ﴾ بصِيغةِ الماضي، مع أنَّ ضَرْبَ هذا المَثلِ ما حَصَل إلَّا في زَمَنِ نُزولِ هذه الآيةِ؛ لِتَقريبِ زَمَنِ الحالِ مِن زَمَنِ الماضي؛ لِقَصدِ التَّشويقِ إلى عِلْمِ هذا المَثَلِ، فيُجعَلُ كالإخبارِ عن أمْرٍ حَصَل؛ لِأنَّ النُّفوسَ أرغَبُ في عِلْمِه، كقَولِ المُثَوِّبِ: قد قامَتِ الصَّلاةُ، وفيه التَّنبيهُ على أنَّه أمْرٌ مُحقَّقُ الوُقوعِ(٢). وقيل: إنَّ فِعلَ (ضرَبَ) مُستعمَلٌ في معنى الأمْرِ، فالمعنى: اضرِبْ لهم مَثلًا، وقُلْ لهم: ما تَقولون في رجُلٍ مِن المَماليكِ قد اشترَكَ فيه شُركاءُ... إلخ؟ والخبَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هنا مُستعمَلٌ في الطَّلبِ؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا سمِعَ قولَه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر: ٢٧]، عَلِم أنَّه سيَنزِلُ عليه مَثَلٌ مِن أمثالِ القرآنِ، فأنْبَأه اللهُ بصِدقِ ما عَلِمَه، وجَعَله -لِتَحقُّقِه- كأنَّه ماضٍ. والاستِفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ سؤالُ تَبكيتٍ؛ فعُدِلَ عن مُقْتضى الظَّاهرِ مِن إلقاءِ ضَرْبِ المثَلِ بصِيغةِ الأمْرِ، إلى إلقائِه بصِيغةِ المُضِيِّ؛ لإفادةِ صِدقِ عِلمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

وقد يُقال: إنَّما عُدِل عن أنْ يُصاغَ بصِيغةِ الطَّلبِ -كما في قولِه تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢]، ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥]، ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣]- إلى أنْ صِيغَ بصِيغةِ الخبرِ؛ ليُتَوسَّلَ بذلك إلى إسنادِه إلى اللهِ؛ تَنويهًا بشَأْنِ المثَلِ[1].

- قولُه: ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ...﴾ وما بَعْدَه في مَوضِعِ البَيانِ لـ ﴿مَثَلًا﴾، وجَعْلُ المُمَثَّلِ به حالةَ رَجُلٍ، ليس لِلاحترازِ عنِ امرأةٍ أو طِفلٍ؛ ولكنْ لِأنَّ الرَّجُلَ هو الَّذي يَسبِقُ إلى أذهانِ النَّاسِ في المُخاطَباتِ والحِكاياتِ، ولِأنَّ ما يُرادُ مِنَ الرَّجُلِ مِنَ الأعمالِ أكثَرُ مِمَّا يُرادُ مِنَ المَرأةِ والصَّبيِّ، ولِأنَّ الرَّجُلَ أشَدُّ شُعورًا بما هو فيه مِنَ الدَّعةِ أو الكَدِّ، وأمَّا المَرأةُ والصَّبيُّ فقد يَغفُلانِ ويَلهَيانِ[2].

- وهذا تَمثيلٌ لِحالِ المُشرِكِ في تَقسُّمِ عَقلِه بيْنَ آلِهةٍ كَثيرينَ، فهو في حَيرةٍ وشَكٍّ مِن رِضا بَعضِهم عنه، وغَضَبِ بَعضٍ، وفي تَردُّدِ عِبادَتِه إنْ أرضى بها أحَدَ آلِهَتِه، لَعَلَّه يُغضِبُ بها ضِدَّه؛ فرَغَباتُهم مُختَلِفةٌ، وبَعضُ القَبائِلِ أوْلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٤/ ٣٠٤) و (٢٣/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٤٠١).

ببَعضِ الأصنامِ مِن بَعضٍ، ويَبقَى هو ضائِعًا لا يَدري على أيِّهم يَعتَمِدُ؛ فهَمُّه شَعاعٌ (مُتفرِّقٌ)، وقَلْبُه أوزاعٌ -بحالِ مَملوكٍ اشتَرَك فيه مالِكونَ لا يَخلونَ مِن أنْ يَكونَ بَيْنَهمُ اختِلافٌ وتَنازُعٌ، فهم يَتعاوَرونَه في مِهَنٍ شَتَّى، ويَتَدافَعونَه في حَوائِجِهم، فهو حَيرانُ في إرضائِهم، تَعبانُ في أداءِ حُقوقِهم، لا يَستَقِلُّ لَحظةً، ولا يَتمَكَّنُ مِن استِراحةٍ، ويُقابِلُه تَمثيلُ حالِ المُسلِمِ المُوحِّدِ؛ يَقومُ بما كَلَّفَه رَبُّه، عارِفًا بمَرضاتِه، مُؤمِّلًا رِضاه وجَزاءَه، مُستَقِرَّ البالِ؛ بحالِ العَبدِ المَملوكِ الخالِصِ لِمالِكٍ واحِدٍ، قد عَرَف مُرادَ مَولاه، وعَلِم ما أوجَبَه عليه؛ ففَهْمُه واحِدٌ، وقَلبُه مُجتَمِعٌ، وكذلك الحالُ في كُلِّ مُتَّبِعِ حَقٍّ ومُتَّبِعِ باطِلٍ؛ فإنَّ الحَقَّ هو المُوافِقُ لِمَا في الوُجودِ والواقِعِ، والباطِلَ مُخالِفٌ لِما في الواقِعِ، فمُتَّبِعُ الحَقِّ لا يَعتَرِضُه ما يُشَوِّشُ عليه بالَه، ولا ما يُثقِلُ عليه أعمالَه، ومُتَّبِعُ الباطِلِ يَتَعثَّرُ به في مَزالِقِ الخُطى، ويَتخَبَّطُ في أعمالِه بيْن تَناقُضٍ وخَطَأٍ[1].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ تَقريريًّا، ويَجوزُ أنْ يَكونَ إنكاريًّا، وجيءَ فيه بـ﴿هَلْ﴾؛ لِتَحقيقِ التَّقريرِ أو الإنكارِ، والاقتِصارُ في التَّمييزِ على الواحِدِ لِبَيانِ الجِنسِ، وقد عُرِفَ التَّعدُّدُ مِن فاعِلِ ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾[2]. وأيضًا جاء التَّعبيرُ بقولِه: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ ولم يقُلْ: مَثَلَينِ؛ لأنَّهما كِلَيْهما ضُرِبَا مثَلًا واحدًا؛ فجَرى المثَلُ بالتَّوحيدِ، كما قال جَلَّ ثَناؤه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠]؛ إذ كان مَعناهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠١، ٤٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٢).

واحدًا في الآيةِ[١].

- وجُملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ جَوابًا لِلاستِفهامِ التَّقريريِّ، بِناءً على أنَّ أحَدَ الظَّرفَينِ المُقَرَّرَ عليهما مُحقَّقُ الوُقوعِ، لا يَسَعُ المُقرَّرَ عليه إلَّا الإقرارُ به، فيُقَدَّرونَ: أنَّهم أقَرُّوا بعَدَمِ استِوائِهما في الحالةِ، أيْ: بأنَّ أحَدَهما أفضَلُ مِنَ الآخَرِ؛ فإنَّ مِثلَ هذا الاستِفهامِ لا يَنتظِرُ السَّائلُ جوابًا عنه. وقد يُبنى على أنَّ المَسؤولَ اعتَرَف، فيُؤتَى بما يُناسِبُ اعترافَه كما هنا، فكَأنَّهم قالوا: لا يَستَويانِ، وذلك هو ما يَبتَغيه المُتكَلِّمُ مِن استِفهامِه، فلَمَّا وافَقَ جَوابُهم بُغيةَ المُستَفهِمِ حَمِدَ اللهَ على نُهوضِ حُجَّتِه، فتَكونُ الجُملةُ استِئنافًا؛ فمَوقِعُها كمَوقِعِ النَّتيجةِ بَعدَ الدَّليلِ، وتكون جُملةُ ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ قَرينةً على أنَّهم نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن عَلِم فأقَرَّ، وأنَّهم ليسوا كذلك في الأمْرِ نَفْسِه. ويَجوزُ أنْ تَكونَ مُعتَرِضةً إذا جُعِلَ الاستِفهامُ إنكاريًّا، فتَكونَ مُعتَرِضةً بيْنَ الإنكارِ وبيْنَ الإضرابِ الانتِقاليِّ في قَولِه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، أيْ: لا يَعلَمونَ عَدَمَ استِواءِ الحالَتَيْنِ، ولو عَلِموا لاختاروا لأنفُسِهمُ الحُسنَى منهما، ولَمَا أصَرُّوا على الإشراكِ، وأفادَ هذا أنَّ ما انتَحَلوه مِنَ الشِّركِ وتَكاذيبِه لا يَمُتُّ إلى العِلْمِ بصِلةٍ؛ فهو جَهالةٌ واختِلاقٌ[٢].

- قولُه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ﴿بَلۡ﴾ لِلإضرابِ الانتِقاليِّ؛ تَسجيلًا عليهم بالجَهلِ المُفرِطِ، وأنَّهم مِمَّن طُبِعَ على قُلوبِهم، فلا يَلتَفِتونَ إلى هذه البَيانَاتِ الظَّاهِرةِ، والحُجَجِ المُتَظاهِرةِ، مع كمالِ ظُهورِها، فيَبْقَون في وَرطةِ الشِّركِ والضَّلالِ، وأسنَدَ عَدَمَ العِلْمِ لِأكثَرِهم؛ لِأنَّ أكثَرَهم عامَّةٌ أتْباعٌ لِزُعَمائِهمُ الَّذين سَنُّوا لهمُ الإشراكَ وشَرائِعَه؛ انتِفاعًا بالجاهِ والثَّناءِ الكاذِبِ، بحيثُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٢، ٤٠٣).

غَشَّى ذلك على عَمَلِهم[١]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾

- جُمْلَتا ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ استِئنافٌ، تَمهيدٌ لِمَا يَعقُبُه مِنَ الاختِصامِ يَومَ القيامةِ، وعُطِفَ على هاتَينِ الجُملتَينِ ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ بحَرفِ (ثُمَّ) الدَّالِّ على التَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لِأنَّ الإنباءَ بالفَصلِ بيْنَهم يَومَ القيامةِ أهَمُّ في هذا المَقامِ مِنَ الإنباءِ بأنَّهم صائِرونَ إلى المَوتِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ قَدَّم تذكيرَهم بأنَّ النَّاسَ كلَّهم صائِرونَ إلى الموتِ، وهذا مِن انتِهازِ القُرآنِ فُرَصَ الإرشادِ والمَوعِظةِ؛ فالمَقصودُ هو قَولُه: ﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾، فاغتُنِمَ هذا الغَرَضُ لِيُجتَلَبَ معه مَوعِظةٌ بما يَتقَدَّمُه مِنَ الحَوادِثِ؛ عَسى أنْ يَكونَ لهم بها مُعتَبَرٌ، فحَصَلتْ بهذا فَوائِدُ؛ منها: تَمهيدُ ذِكرِ يَومِ القِيامةِ، ومِنها التَّذكيرُ بزَوالِ هذه الحَياةِ، فهذانِ عامَّانِ لِلمُشرِكينَ والمُؤمِنينَ. ومنها: حَثُّ المُؤمِنينَ على المُبادَرةِ لِلعَمَلِ الصَّالِحِ. ومِنها: إشعارُهم بأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَموتُ كما مات النَّبيُّونَ مِن قَبلِه؛ لِيَغتَنِموا الانتِفاعَ به في حَياتِه، ويَحرِصوا على مُلازَمةِ مَجلِسِه. ومنها: ألَّا يَختَلِفوا في مَوتِه كما اختَلَفتِ الأُمَمُ في غَيرِه. ومنها: تَعليمُ المُسلِمينَ أنَّ اللهَ سَوَّى في المَوتِ بيْنَ الخَلقِ دُونَ رَعْيٍ لِتَفاضُلِهم في الحياةِ؛ لِتَكثُرَ السَّلوةُ، وتَقِلَّ الحَسرةُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٣، ٤٠٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٤).

- والخِطابُ في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في التَّعريضِ بالمُشرِكينَ؛ إذْ كانوا يَقولونَ: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، والمَعنى: أنَّ المَوتَ يأتيكَ ويأتيهم، فما يُدري القائِلينَ: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أنْ يَكونوا يَموتونَ قَبْلَكَ؟! وتَأكيدُ الخَبرَيْنِ بـ (إنَّ)؛ لِتَحقيقِ المَعنى التَّعريضيِّ المَقصودِ منهما[1].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ تَأكيدُ هذه الجُملةِ بـ (إنَّ)؛ لِرَدِّ إنكارِ المُشرِكينَ البَعثَ[2].

- وتَقديمُ ﴿عِندَ رَبِّكُمْ﴾ على ﴿تَخْتَصِمُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ، ورِعايةِ الفاصِلةِ[3].

- والاختِصامُ: قيل: هو كِنايةٌ عنِ الحُكمِ بيْنَهم، أيْ: يَحكُمُ بيْنَكم فيما اختَصَمتُم فيه في الدُّنيا؛ مِن إثباتِ المُشرِكينَ آلِهةً، وإبطالِكم ذلك؛ فهو كقَولِه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤]. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاختِصامُ أُطلِقَ على حِكايةِ ما وَقَعَ بيْنَهم في الدُّنيا حينَ تُعرَضُ أعمالُهم، كما يُقالُ: هذا تَخاصُمُ فُلانٍ وفُلانٍ، في طالِعِ مَحضَرِ خُصومةٍ ومُقاوَلةٍ بيْنَهما يُقرَأُ بيْن يَدَي القاضي. ويَجوزُ أنْ تُصوَّرَ خُصومةٌ بيْن الفَريقَينِ يَومَئذٍ؛ لِيُفتَضَحَ المُبطِلونَ، ويُبهَجَ أهلُ الحَقِّ، على نَحوِ قَولِه تَعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾[4] [ص: ٦٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٣٢-٣٥)

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَثْوًى﴾: أي: منزلٌ ومقامٌ ومَأوًى، والثَّواءُ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ[1].

﴿لِيُكَفِّرَ﴾: أي: لِيَستُرَ، ولا يؤاخِذَ، وأصلُ (كفر): سترٌ وتغطيةٌ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى محذِّرًا المشركينَ الَّذين افتَرَوا على الله، وكذَّبوا بالحقِّ: لا أحَدَ أظْلَمُ مِمَّن كذَبَ على اللهِ، وكذَّبَ بالحَقِّ إذ جاءَه مِن قِبَلِ الرَّسولِ، أليس في جَهنَّمَ مُستقَرٌّ للكافِرينَ؟

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حُسْنَ عاقِبةِ أهلِ الصِّدقِ والإيمانِ، فيقولُ: والَّذين دَعَوا إلى القُرآنِ وما اشتمَلَ عليه مِنَ الحَقِّ، وصَدَّقوا به، أولئكَ هم المتَّقونَ. لهم عِندَ رَبِّهم ما يَشاؤونَ، وذلك جزاءُ الَّذين أحْسَنوا في الدُّنيا؛ لِيُكفِّرَ اللهُ عن المحسِنينَ أسْوَأَ الَّذي عَمِلوه مِنَ السَّيِّئاتِ، ويَجزيَهم اللهُ ثوابَهم بأحسَنِ الَّذي كانوا يَعمَلونَه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤).

في الدُّنيا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾.

أي: لا أحَدَ أظلَمُ مِمَّن كذَبَ على اللهِ، فنَسَب إليه باطِلًا -كمَن زعَمَ أنَّ لله شُرَكاءَ في عبادتِه- وكذَّب بالحَقِّ المُشتَمِلِ على الصِّدقِ حينَ بلَغَه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥، ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٠-٢٣٢).

قال الماوَرْدي: (وفي «الصِّدقِ» قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: القُرآنُ. قاله مجاهِدٌ وقَتادةُ. ويحتمِلُ ثالثًا: أنَّه البَعثُ والجَزاءُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصِّدقِ هنا: التَّوحيدُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الإخبارُ بوحدانيَّةِ الله تعالى، وأنَّه يَبعَثُ عبادَه للجزاءِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٣، ٥٠٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصِّدق هنا: القُرآنُ: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: التَّوحيدُ والقرآنُ: السمرقنديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨).

وممَّن اختار العمومَ، وأنَّ المرادَ: ما جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم: الزمخشري، وابن عطية، والبيضاوي، وأبو حيَّان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

أي: أليس في جَهنَّمَ مَأوًى ومُستَقَرٌّ لأولئك الَّذين كَفَروا؛ بكَذِبِهم على اللهِ، وتكذيبِهم بالصِّدقِ لَمَّا جاءهم، وكذلك لِكُلِّ كافِرٍ باللهِ تعالى[1]؟

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالى الكاذِبَ المكَذِّبَ، وجِنايتَه وعُقوبتَه؛ ذكَرَ الصَّادِقَ المصَدِّقَ وثَوابَه[2].

---

= ابن عطية)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٠).

قال ابن عثيمين: (قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بما كان صادِقًا؛ سواءٌ في القرآنِ أو في السُّنَّةِ، فإنَّه داخلٌ في قولِه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٢-٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أي: والَّذين دَعَوا إلى القُرآنِ وما اشتمَلَ عليه مِنَ الحَقِّ، وصدَّقوا به: هم الَّذين تَتحَقَّقُ فيهم صِفةُ التَّقْوى لله تعالى(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٦، ٢٠٨)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٢/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤١-٢٤٤).

قال ابن جرير: (اختَلَف أهلُ التَّأويلِ في الَّذي جاءَ بالصِّدْقِ وصَدَّق به، وما ذلك؟ فقال بعضُهم: الَّذي جاءَ بالصِّدْقِ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قالوا: والصِّدْقُ الَّذي جاء به: لا إلهَ إلَّا اللهُ، والَّذي صَدَّق به أيضًا هو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم...

وقال آخَرونَ: الَّذي جاء بالصِّدْقِ: رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والَّذي صَدَّقَ به: أبو بكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه...

وقال آخَرونَ: الَّذي جاء بالصَّدْقِ: رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والصِّدْقُ: القرآنُ، والمُصَدِّقون به: المؤمِنونَ...

وقال آخَرونَ: الَّذي جاء بالصِّدْقِ جبريلُ، والصِّدْقُ: القرآنُ الَّذي جاء به مِن عِنْدِ اللهِ، وصَدَّق به رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم...

وقال آخَرونَ: الَّذي جاء بالصِّدْقِ: المؤمِنونِ، والصِّدْقُ: القرآنُ، وهم المُصَدِّقون به ...). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٤، ٢٠٥). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ذكر البخاريُّ في «صحيحه» تفسيرَ مجاهِدٍ، وهو أصَحُّ تفاسيرِ التَّابعينَ، قال: «﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ القُرآنِ، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ المؤمِنُ يجيءُ يومَ القيامةِ يقولُ: هذا الَّذي أعطَيْتَني عَمِلتُ بما فيه». فذكَرَ الصِّدقَ والمصَدِّقَ به مُثْنيًا عليه، وذكَرَ الكاذِبَ والمكَذِّبَ للحَقِّ، وهما نوعانِ مِن القَولِ مَلْعونانِ هما وأهلُهما). ((الاستقامة)) (١/ ٢٢٤، ٢٢٥). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٢٥) و(٩/ ١٥٢).

وقال ابنُ كثير: (وهذا القولُ عن مُجاهِدٍ يَشمِلُ كلَّ المؤمنينَ؛ فإنَّ المؤمنَ يقولُ الحقَّ ويَعمَلُ به، والرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم أَوْلى النَّاسِ بالدُّخولِ في هذه الآيةِ على هذا التَّفسيرِ؛ فإنَّه جاء بالصِّدقِ، وصَدَّقَ المُرسَلينَ، وآمَنَ بما أُنزِل إليه مِن ربِّه والمؤمنونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (لَفظُ الآيةِ عامٌّ مُطلَقٌ، لا يَختَصُّ بأبي بَكرٍ ولا بعَليٍّ، بل كلُّ مَن دخَلَ في =

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا مَدَحَهم على تَقْواهم؛ قال في جوابِ مَن سأَلَ عن ثَوابِهم، لافِتًا القَولَ إلى صِفةِ الإحسانِ تعريفًا بمَزيدِ إكرامِهم(١):

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

---

= عُمومِها دخَل في حُكمِها، ولا رَيبَ أنَّ أبا بكرٍ وعُمَرَ وعُثمانَ وعَليًّا أحَقُّ هذه الأمَّةِ بالدُّخولِ فيها، لكِنَّها لا تختَصُّ بهم، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ * وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٢، ٣٣] الآيةَ، فقد ذمَّ اللهُ سبحانه وتعالى الكاذِبَ على الله والمكذِّبَ بالصِّدقِ، وهذا ذمٌّ عامٌّ). ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ١٨٩، ١٩٠). ويُنظر: ((مقدمة في أصول التفسير)) لابن تيمية (ص: ٣٧).

وقال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه عَنى بقولِه: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ كلَّ مَن دعا إلى توحيدِ الله، وتصديقِ رُسُلِه، والعملِ بما ابتُعِث به رسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ مِن بيْنِ رسولِ الله وأتْباعِه والمؤمنينَ به، وأن يُقالَ: الصِّدقُ هو القرآنُ، وشَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، والمُصَدِّقُ به: المؤمنونَ بالقرآنِ، مِن جميعِ خَلْقِ الله كائنًا مَن كان، مِن نبيِّ الله وأتْباعِه...). ثم ذكَرَ حُجَّتَه في ترجيحِ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٦).

وقال ابن عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ معادلٌ لقولِه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ﴾ [الزمر: ٣٢]، ﴿فَمَنۡ﴾ هنالك للجميعِ والعُموم، فكذلك هاهنا هي للجنسِ أيضًا، كأنَّه قال: والفريقُ الَّذي جاء بعضُه بالصِّدقِ وصدَّق بعضُه، ويستقيمُ المعنى واللَّفظُ على هذا التَّرتيبِ ...، وهو أصْوَبُ الأقوالِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣١).

وقال السعدي: (﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ في قولِه وعمَلِه، فدخل في ذلك الأنبياءُ ومَن قام مَقامَهم، ممَّن صدَق فيما قاله عن خبرِ الله وأحكامِه، وفيما فعَلَه مِن خِصالِ الصِّدقِ. ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي: بالصِّدقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٦).

أي: لأولئك المتَّقينَ عندَ رَبِّهم يومَ القيامةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم في الجنَّةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ [ق: ٣٥].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

أي: ذلك النَّعيمُ ثَوابُ الَّذين أحسَنوا في الدُّنيا[٢].

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾.

أي: لِيُكفِّرَ[٣] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

قوله: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هم الَّذين أحسَنوا في عبادةِ الله، فعبَدوه كأنَّهم يَرَوْنه، فإن لم يَكونوا يَرَوْنه فإنَّه يَراهم، وأحسَنوا إلى عِبادِ الله. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٦).

قال ابن عاشور: (الإحسانُ: هو كمالُ التَّقْوى؛ لأنَّه فسَّره النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه: «أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه» [البخاريُّ «٥٠»، ومسلم «٩»]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩).

(٣) قيل: التَّعليلُ هنا راجِعٌ إلى جزاء المحسِنينَ، أي: وجزى هؤلاء المحسِنينَ رَبُّهم بإحسانِهم؛ كي يُكَفِّرَ عنهم أسْوَأَ الَّذي عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والكرماني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٤١)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠١٤). =

اللهُ عن المُحسِنينَ أسْوَأَ الَّذي عَمِلوه مِنَ السَّيِّئاتِ(١).

= قال الرسعني: (قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ اللَّامُ مِن صِلةِ قولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الزمر: ٣٤]). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢).

وقال أبو السعود: (﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ إلخ مُتعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ [الزمر: ٣٤]، لكنْ لا باعتِبارِ مَنطوقِه؛ ضرورةَ أنَّ التَّكفيرَ المذكورَ لا يُتصَوَّرُ كَوْنُه غايةً لِثُبوتِ ما يَشاؤونَ لهم في الآخرةِ، كيف لا وهو بعضُ ما سيَثْبُتُ لهم فيها، بل باعتِبارِ فَحْواهُ؛ فإنَّه حيثُ لم يكنْ إخبارًا بما ثبت لهم فيما مَضَى -بل بما سيَثْبُتُ لهم فيما سيأتي- كان في معنَى الوعدِ به). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤).

وقيل: التَّعليلُ راجِعٌ إلى الإحسانِ، أي: لَمَّا كان المحسِنُ مَن جَعَل أكبَرَ ذُنوبِه نُصبَ عَينَيه، وعَمِل على هَدْمِه؛ علَّل الإحسانَ بقَولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾، كأنَّه قال: المحسِنون الَّذين أحسَنوا لهذا الغَرَضِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٧).

وقيل: اللَّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ لامُ العاقبةِ، أي: عاقِبةُ التَّقْوى أن يُكفِّرَ اللهُ عنهم أسْوَأَ الَّذي عَمِلوا. واستظهَر هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٨).

وقال النَّيسابوري: (قولُه: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ ظاهرُه تعلُّقُه بـ ﴿يَشَآءُونَ﴾؛ فتكونُ لامَ العاقبةِ). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٦).

ويحتمِلُ أن تكونَ للتَّعليلِ، بمعنى: أنَّهم اتَّقَوُا اللهَ؛ مِن أجْلِ التَّكفيرِ. ذكره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

قال ابنُ عاشور: (و﴿أَسۡوَأَ﴾ يَجوزُ أن يكونَ باقيًا على ظاهرِ اسمِ التَّفضيلِ مِن اقتِضاءِ مُفَضَّلٍ عليه... ويجوزُ أن يكونَ «أَسْوَأ» مَسْلوبَ المُفاضَلةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

والقولُ بأنَّ أسْوَأَ اسمُ تفضيلٍ: هو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جرير، ومكِّي، وابن الجوزي، واختاره الرسعني، واستظهره أبو حيان، وهو اختيار الشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١). =

= وممَّن اختار أنَّ المعنى: أنَّ اللهَ تعالى يُكَفِّرُ عنهم أسْوَأَ أعمالِهم، فما ظَنُّك بغيرِ الأسْوَأِ، فإذا غفَر لهم ما هو الأسْوَأُ مِن أعمالِهم غفَر لهم ما دونَه بطريقةِ الأَوْلى: الرسعنيُّ، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١).

وقال الماوَرْدي: (قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ قبْلَ الإيمانِ والتَّوبةِ. ووَجْهٌ آخَرُ: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ مِنَ الصَّغائِرِ؛ لأنَّهم يَتَّقونَ الكبائِرَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٧).

وانتقَد الرَّسْعَنيُّ هذَينِ الوَجهَينِ بأنَّه لا معنَى لهما؛ لأنَّ مَدلولَ الأوَّلِ أنَّ المُصَدِّقَ لا يَعمَلُ عَمَلًا يُوصَفُ بالأسوَأِ، ولأنَّ الثَّانيَ مُشعِرٌ أنَّ المُصدِّقَ لا يَقَعُ في كبيرةٍ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢).

وقال الألوسي: (وقال غيرُ واحدٍ: «أفْعَلُ» على ما هو الشَّائعُ، والأسْوَأُ: الكفرُ السَّابقُ على التَّقْوى والإحسانِ، والمرادُ: تكفيرُ جميعِ ما سلَف منهم قبْلَ الإيمانِ مِن المعاصي بطريقٍ برهانيٍّ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦٠).

وذكر ابنُ عاشور أنَّه بِناءً على هذا القولِ فالمرادُ بأسْوَأِ عَمَلِهم هو: أعظَمُه سُوءًا، وهو الشِّركُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

وقال الرَّسْعَني: (وقيل: الَّذي فَرَطَ منهم هو عندَهم الأسْوَأُ؛ لاستِعظامِهم المعصيةَ، والحَسَنُ الَّذي يَعمَلونَه هو عندَ الله الأحسَنُ؛ لحُسنِ إخلاصِهم فيه؛ فلذلك ذَكَر سَيِّئَهم بالأسْوَأِ، وحَسَنَهم بالأحسَنِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٥٢). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٠).

وقال الألوسي: (لأنَّ التَّفضيلَ هنا مِن بابِ الزِّيادةِ المُطْلَقةِ مِن غيرِ نظرٍ إلى مُفَضَّلٍ عليه، نظرًا إلى وُصولِه إلى أقصى الغايةِ الكماليَّةِ، ثمَّ لَمَّا كانوا مُتَّقِينَ كامِلِي التُّقَى لم يكُنْ في عمَلِهم أسْوَأُ إلَّا فرضًا وتقديرًا). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٦٠).

وممَّن نصَّ على أنَّ ﴿أَسْوَأَ﴾ بمعنى سَيِّئٍ، أي: أنَّه مَسلوبُ المُفاضَلةِ: جلالُ الدِّينِ المحلي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١١).

قال النسفي: (إضافةُ ﴿أَسْوَأَ﴾ و«أحسَن» مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى ما هو بعضُه مِن غيرِ تفضيلٍ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٨٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨).

وقال أبو السعود: (وإضافةُ الأسوأِ والأحسنِ إلى ما بعدَهما ليستْ مِن قبيلِ إضافةِ المفضَّلِ إلى المفضَّلِ عليه، بل مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى بعضِه؛ للقصدِ إلى التَّحقيقِ والتَّوضيحِ، مِن غيرِ =

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر سبحانَه ما يَدُلُّ على دفعِ المَضارِّ عنهم؛ ذَكَر ما يدُلُّ على جَلْبِ أعظَمِ المنافعِ إليهم[1].

﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ويَجزيَهم اللهُ ثَوابَهم بأحسَنِ الَّذي كانوا يَعمَلونَه مِنَ الطَّاعاتِ[2].

---

= اعتبارِ تفضيلِه عليه، وإنَّما المُعتبرُ فيهما مطلقُ الفضلِ والزِّيادةِ، لا على المضافِ إليه المعيَّنِ بخصوصِه...، وحمْلُ الزِّيادةِ على الحقيقةِ وإنْ أمكَنَ في الأوَّلِ [أي: قولِه: ﴿أَسْوَأَ﴾] بناءً على أنَّ تخصيصَ الأسْوَأِ بالذِّكرِ لبيانِ تكفيرِ ما دُونَه بطريقِ الأولويَّةِ ضرورةَ استِلزامِ تكفيرِ الأسْوَأِ لتكفيرِ السَّيِّئِ، لكنْ لَمَّا لم يكُنْ ذلك في الأحسَنِ كان الأحسَنُ نظْمَهما في سلكٍ واحدٍ مِن الاعتِبارِ). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

وقال السعدي: (عَمَلُ الإنسانِ له ثَلاثُ حالاتٍ: إمَّا أسْوَأُ، أو أحسَنُ، أو لا أسْوَأُ ولا أحسَنُ؛ والقِسمُ الأخيرُ قِسمُ المباحاتِ وما لا يَتعَلَّقُ به ثَوابٌ ولا عِقابٌ، والأسْوَأُ: المعاصي كُلُّها، والأحسَنُ: الطَّاعاتُ كُلُّها؛ فبهذا التَّفصيلِ يَتبَيَّنُ معنى الآيةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧).

قال أبو حيان: (والظَّاهرُ أنَّ ﴿بِأَحْسَنِ﴾ أفعَلُ تفضيلٍ، فقيل: لِينظرَ إلى أحسَنِ طاعاتِه فيُجزى الباقي في الجزاءِ على قياسِه، وإن تخلَّف عنه بالتَّقصيرِ. وقيل: بأحسَنِ ثَوابِ أعمالِهم. وقيل: بأحسَنَ مِن عمَلِهم، وهو الجنَّةُ، وهذا يَنْبو عنه ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى﴾). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤، ٢٠٥).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: يَجزيهم بأجرِ أحسَنِ الأعمالِ، وهي الجنَّةُ: الماوَرْديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧).

وقيل: المرادُ بالأحسَنِ: الأحسَنُ مِن الطَّاعاتِ؛ فثَمَّ حَسَنٌ وأحسَنُ منها، فإذا كان جزاءُ أحسَنِ أعمالِهم أنَّ لهم ما يَشاؤونَ عندَ رَبِّهم، كان جزاءُ ما هو دونَ الأحسَنِ مِن أعمالِهم جَزاءً دُونَ =

قال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦، ٩٧].

---

= ذلك. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١).

وممَّن نصَّ على أنَّ أحْسَنَ هنا بمعنى حَسَنٍ، أي: أنَّه مَسلوبُ المُفاضَلةِ: جلالُ الدِّينِ المحلِّي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١١).

وقيل: المعنى: يَجزيهم بمحاسِنِ أعمالِهم، ولا يَجزيهم بمَساوئِها. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ الجوزي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٧٠).

وقيل: المرادُ بالأحسَنِ: الطَّاعاتُ كُلُّها. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

قال الشوكاني: (وإضافةُ الأحسَنِ إلى ما بَعْدَه ليست مِن إضافةِ المفَضَّلِ إلى المفَضَّلِ عليه، بل مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى بَعضِه؛ قَصدًا إلى التَّوضيحِ، مِن غَيرِ اعتِبارِ تَفضيلٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣١). ويُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٨٠).

قال الزمخشري: (وأمَّا التَّفضيلُ فإيذانٌ بأنَّ... الحَسَنَ الَّذي يَعمَلونَه هو عندَ اللهِ الأحسَنُ؛ لحُسنِ إخلاصِهم فيه، فلذلك ذكَرَ... حَسَنَهم بالأحسَنِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨).

وقيل: المعنى: أنَّ اللهَ يَعُدُّ لهم مَحاسِنَ أعمالِهم بأحسَنِها في زيادةِ الأجرِ وعِظَمِه؛ لفَرطِ إخلاصِهم فيها. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البيضاوي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤٨).

قال الألوسي: (جُوِّزَ أن يكونَ المعنى: لَنَجزيَنَّهم بحَسَبِ أحسَنِ أفرادِ أعمالِهم، أي: لَنُعطيَنَّهم بمُقابَلةِ الفَردِ الأَدنى مِن أعمالِهم ما نُعطيه بمُقابَلةِ الفَردِ الأعلى منها مِنَ الأجرِ الجَزيلِ، لا أنَّا نُعطي الأجرَ بحَسَبِ أفرادِها المُتفاوِتةِ في مَراتِبِ الحُسنِ بأنْ نَجزيَ الحَسَنَ منها بالحَسَنِ، والأحسَنَ بالأحسَنِ). ((تفسير الألوسي)) (٧/ ٤٦١).

وقال ابنُ عثيمين: (بَشَّرهم بأنَّه يَجزيهم أحسَنَ ما كانوا يَعمَلونَ، لا أنَّه يَجزيهم الحَسَنةَ بمِثلِها، بل أحسَنَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٠).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا أحسَنَ أحَدُكم إسلامَه، فكُلُّ حَسَنةٍ يَعمَلُها تُكتَبُ له بعَشرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مِئةِ ضِعفٍ، وكُلُّ سَيِّئةٍ يَعمَلُها تُكتَبُ له بمِثلِها))(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- تجِدُ كثيرًا من المُنتَسِبينَ إلى عِلمٍ ودينٍ لا يَكذِبونَ فيما يَقولونَه، بل لا يَقولونَ إلَّا الصِّدقَ، لكِنْ لا يَقبَلونَ ما يُخبِرُ به غَيرُهم مِنَ الصِّدقِ، بل يَحمِلُهم الهَوى والجَهلُ على تَكذيبِ غَيرِهم وإن كان صادِقًا؛ إمَّا تكذيبِ نَظيرِه، وإمَّا تكذيبِ مَن ليس مِن طائفتِه. ونَفْسُ تَكذيبِ الصَّادِقِ هو مِنَ الكَذِبِ؛ ولهذا قرَنَه بالكاذِبِ على اللهِ، فقال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾(٢).

٢- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾: هو مَن شَأنُه الصِّدقُ في قَولِه وعَمَلِه وحالِه، فالصِّدقُ: في هذه الثَّلاثةِ؛ فالصِّدقُ في الأقوالِ: استِواءُ اللِّسانِ على الأقوالِ كاستِواءِ السُّنبُلةِ على ساقِها، والصِّدقُ في الأعمالِ: استِواءُ الأفعالِ على الأمرِ والمُتابعةِ كاستِواءِ الرَّأسِ على الجَسَدِ، والصِّدقُ في الأحوالِ: استِواءُ أعمالِ القَلبِ والجوارِحِ على الإخلاصِ، واستِفراغُ الوُسعِ، وبَذْلُ الطَّاقةِ؛ فبذلك يكونُ العَبدُ مِن الَّذين جاؤوا بالصِّدقِ، وبحَسَبِ كمالِ هذه الأُمورِ فيه وقيامِها به تكونُ صِدِّيقيَّتُه(٣)، ولا يَكْفي صِدقُك، بل لا بدَّ مِن صدقِك وتصديقِك للصادِقينَ، فكثيرٌ مِن النَّاسِ

---

(١) رواه البخاري (٤٢) واللَّفظُ له، ومسلم (١٢٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٨).

يَصدُقُ، ولكنْ يَمنَعُه مِن التَّصديقِ كِبْرٌ أو حسدٌ أو غيرُ ذلك[١]، فلا بدَّ في المدحِ مِن الصِّدقِ والتَّصديقِ؛ فصِدقُه يدُلُّ على عِلمِه وعدلِه، وتصديقُه يدُلُّ على تَواضُعِه وعدَمِ استِكبارِه[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ فيه الحَثُّ على الإحسانِ؛ والأمرُ بالإحسانِ والحَثُّ عليه كثيرٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ، والإحسانُ يَتَضَمَّنُ الإحسانَ في عبادةِ اللهِ تعالى، والإحسانَ إلى عبادِ اللهِ تعالى، والإحسانُ إلى عبادِ اللهِ تعالى يكونُ بالقولِ وبالفعلِ وبالجاهِ وغيرِ ذلك مِن أنواعِ الإحسانِ، فلا تَدَّخِرْ وُسْعًا في بَذْلِ الإحسانِ إلى إخوانِك؛ فإنَّ ذلك ممَّا يكونُ سببًا لدُخولِ الجنَّةِ، ويكونُ أيضًا سببًا في عَونِ اللهِ تعالى لك؛ فإنَّ اللهَ تعالى في عَوْنِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه[٣].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ الكَذِبَ على اللهِ تعالى أظلَمُ أنواعِ الكَذِبِ، وإذا كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ كَذِبًا علَيَّ ليس ككَذِبٍ على أحَدٍ!))[٤]، فما بالُكم بالكَذِبِ على اللهِ تعالى الَّذي أرسَلَه[٥]؟!

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٧).

(٤) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم في مقدمة ((صحيحه)) (٤) من حديث المُغيرةِ بنِ شُعْبةَ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٧).

سؤالٌ، فـ (أظلمُ) صيغةُ تفضيلٍ، أي: أنَّه يفوقُ غيرَه، ويفضلُه في الظُّلمِ، وإذا كان المعنى: لا أحدَ أظلمُ ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾، فإنَّ هذا يُشكِلُ عليه آياتٌ أُخرى، كقولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، مما قد يُتوهَّمُ منه شِبهُ تعارضٍ.

**الجوابُ مِن وجهَينِ:**

**أحدُهما**: أنَّه لا تعارُضَ أصلًا بيْن الآياتِ؛ وإنَّما دلَّت الآياتُ على أنَّ كلَّ مَن ذُكِرَ في قولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ لا يُمكِنُ أنْ يَفوقَه أحدٌ مِن أهلِ الدُّنيا في الظُّلمِ، إلَّا أنَّهم جميعًا مُتساوونَ لا يَفوقُ بعضُهم بعضًا، وهمْ يَفوقون غيرَهم في الظُّلمِ، كما لو قلْتَ: ليس في هذا البلدِ أعلَمُ مِن زَيدٍ، وليس فيه أعلَمُ مِن عَمرٍو -وزيدٌ وعمرٌو مُستويانِ في العِلمِ-؛ فتكون صادقًا، ولا مُعارَضةَ بيْن قولَيك.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّها تَتخصَّصُ بِصِلاتِها، وعليه فيكونُ المعنى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [الأعراف: ٣٧]: أنَّه لا أحَدَ مِن جِنسِ المفترينَ أظلَمُ ممَّن افترى على اللهِ كذِبًا، ولا أحَدَ مِن جِنسِ المانِعينَ أظْلَمُ ممَّن منَعَ مَساجِدَ اللهِ، ولا أحَدَ مِن جِنسِ المكذِّبينَ أظلَمُ ممَّنْ كذَبَ على اللهِ وكذَّبَ بالصِّدْقِ... وهكذا[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وُجوبُ التَّحَرِّي في تفسيرِ القُرآنِ؛ لأنَّ المُفَسِّرَ للقُرآنِ شاهِدٌ على اللهِ تعالى بأنَّه أرادَ كذا وكذا، وقد

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢)، و(٣/ ٢٠٩). ويُنظر أيضًا: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٧٤-٧٧).

والوجهُ الأوَّلُ مُخرَّجٌ على قاعدةِ: (نفْيُ التَّفضيلِ لا يَستلزِمُ نفْيَ المُساواةِ). يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٢٨).

يكونُ الأمرُ على خِلافِ ذلك، فيكونُ كاذِبًا على اللهِ[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أنَّ مَنِ ادَّعَى النُّبُوَّةَ وهو كاذِبٌ فهو مِن أكفَرِ الكُفَّارِ، وأظلَمِ الظَّالِمينَ[٢].

٥- أنَّ مَن كَذَّبَ بالشَّيءِ المباشِرِ له فهو أعظمُ ممَّن كَذَّب بما سَمِع؛ لأنَّ الواسِطةَ بيْنَه وبيْنَ الواقعِ قد تُضْعِفُ مَقامَ الصِّدْقِ عندَه؛ لقَولِه تبارك وتعالى: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾[٣].

٦- قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ في قَولِه: ﴿مَثْوًى﴾ بَيانُ خَطَأِ ما يُطلِقُه كَثيرٌ مِن النَّاسِ اليومَ: إذا مات الإنسانُ قالوا: ذَهَبَ إلى مَثواهُ الأخيرِ! فإذا جُعِلَ القَبرُ هو المَثوى الأخيرَ فلا بَعثَ، ولكِنَّ كَثيرًا مِن العامَّةِ يأخُذونَ الكَلِماتِ لا يُفَكِّرون في معناها، والمَثوى الأخيرُ هو إمَّا الجنَّةُ وإمَّا النَّارُ، وعلى هذا فيَجِبُ التَّنبُّهُ لهذه العبارةِ[٤]!

٧- قولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ فيه أنَّ المؤمنَ لا يَخْلُدُ في النَّارِ؛ لقولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، والمؤمنُ ليستِ النَّارُ مَثوًى له! بل إنْ عُذِّبَ في النَّارِ - على قَدْرِ ذَنْبِه - فمآلُه إلى الجنَّةِ[٥].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ فائدةٌ أصوليَّةٌ، وهي: أنَّ المَوصولَ مِن صِيَغِ العُمومِ؛ فقد أخبَرَ عن الاسمِ المَوصولِ (الَّذي) -وهو اسمٌ مُفرَدٌ- بكلمةٍ دالَّةٍ على الجَمعِ، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ولم يقُلْ: هو المُتَّقي، وذلك لأنَّ الاسمَ الموصولَ يُفيدُ العُمومَ، وإن كان مُفرَدًا[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ مَدْحُ مَن جاء بالصِّدقِ وصَدَّق بالحَقِّ الَّذي جاءه، وهذه حالُ مَن لم يَقبَلْ إلَّا الصِّدقَ، ولم يَرُدَّ ما يَجيئُه به غَيرُه مِن الصِّدقِ، بل قَبِلَه ولم يُعارِضْ بيْنَهما، ولم يَدفَعْ أحَدَهما بالآخَرِ[٢]، وأمَّا مَن لم يُصَدِّقْ بما يَشُكُّ فيه فلا حَرَجَ عليه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ سُؤالٌ: هذا الوَعدُ يَدخُلُ فيه كُلُّ ما يَرغَبُ المكَلَّفُ فيه، فإنْ قيلَ: لا شَكَّ أنَّ الكَمالَ مَحبوبٌ لِذَاتِه، مَرغوبٌ فيه لِذَاتِه، وأهلُ الجنَّةِ لا شَكَّ أنَّهم عُقَلاءُ، فإذا شاهَدوا الدَّرَجاتِ العاليةَ الَّتي هي للأنبياءِ وأكابِرِ الأَولياءِ، عَرَفوا أنَّها خَيراتٌ عاليةٌ، ودَرَجاتٌ كامِلةٌ، والعِلمُ بالشَّيءِ مِن حيثُ إنَّه كَمالٌ وخَيرٌ يُوجِبُ المَيلَ إليه، والرَّغبةَ فيه، وإذا كان كذلك فهم يَشاؤونَ حُصولَ تلك الدَّرَجاتِ لأنفُسِهم؛ فوَجَب حُصولُها لهم بحُكمِ هذه الآيةِ! وأيضًا فإنْ لم يَحصُلْ لهم ذلك المرادُ كانوا في الغُصَّةِ ووَحشةِ القَلبِ!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤١، ٢٤٥).

قال الشنقيطي: (قد تَقَرَّرَ عندَ العلماءِ أن لفظةَ «الَّذي» تأتي بمعنَى «الَّذين»، وإتيانُ «الَّذي» بمعنَى «الَّذين» أمْرٌ لا شَكَّ فيه، وهو كثيرٌ في القرآنِ وفي كلامِ العربِ، وإيضاحُه: أنَّ لفْظَ «الَّذي» مُفْرَدٌ، وأنَّ معناها جَمْعٌ؛ لأنَّه اسمٌ مَوصولٌ، والمَوصولاتُ صِيَغُ عُمومٍ؛ تَعُمُّ كلَّ ما تَشملُه صِلاتُها، فقد يُراعَى لفظُ «الَّذي» فيُفرَدُ، وقد يُراعى معناه وهو شاملٌ لِكُلِّ ما تَشملُه صِلَتُه فيَعُمُّ، ويكونُ بمعنَى الجَمعِ. وإتيانُ «الَّذي» بمعنَى «الَّذين» في القرآنِ العظيمِ وفي كلامِ العربِ كثيرٌ جِدًّا، فمِن أمثلتِه في القرآنِ العظيمِ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ﴾ [البقرة: ١٧] أي: كمثلِ الَّذينَ اسْتَوْقَدُوا، بدليلِ قولِه بعدَه يَليهِ: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]. وكقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ معناه: والَّذين جاؤوا بالصِّدقِ وصَدَّقُوا به، بدليلِ قولِه بعدَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾). ((العذب النمير)) (٥/ ٦٣٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٥).

**الجوابُ**: أنَّ اللهَ تعالى يُزيلُ الحِقدَ والحَسَدَ عن قُلوبِ أهلِ الآخِرةِ، وذلك يقتَضي أنَّ أحوالَهم في الآخرةِ بخِلافِ أحوالِهم في الدُّنيا(١).

ويجوزُ أنَّ اللهَ يُلهِمُهم أنْ يَشاؤوا ما لا يتجاوزُ قَدْرَ ما عيَّن اللهُ مِن الدَّرجاتِ في الجنَّةِ؛ فإنَّ أهلَ الجنَّةِ مُتفاوِتونَ في الدَّرَجاتِ.

ويجوزُ أنَّ ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ ممَّا يقعُ تحتَ أنظارِهم في قُصورِهم، ويَحجُبُ اللهُ عنهم ما فوقَ ذلك بحيثُ لا يَسألون إلَّا ما هو مِن عطاءِ أمثالِهم، وهو عظيمٌ، ويَقلعُ اللهُ مِن نفوسِهم ما ليس مِن حُظوظِهم.

ويجوزُ أنَّ ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ كنايةٌ عن سَعةِ ما يُعطَوْنَه(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ أنَّهم سَلَّموا له في الأُولى ما يَشاءُ؛ فسَلَّم لهم في الأُخرى ما يَشاؤونَ(٣).

١٢- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥] فهؤلاء الصِّدِّيقونَ المُتَّقونَ قد أخبَرَ سُبحانَه أنَّ لهم أعمالًا سَيِّئةً يُكَفِّرُها، ولا رَيبَ أنَّها ظُلمٌ للنَّفْسِ، وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٥]، فأخبَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨، ٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٦).

سُبحانَه عن صِفاتِ المتَّقينَ، وأنَّهم يقَعُ منهم ظُلمُ النَّفْسِ، والفاحِشةُ، لكِنْ لا يُصِرُّونَ على ذلك[١]. فليس مِن شرطِ أولياءِ اللهِ المُتَّقِينَ ألَّا يَكونوا مُخْطِئِينَ في بعضِ الأشياءِ خطأً مغفورًا لهم! بل ولا مِن شرطِهم تَرْكُ الصَّغائرِ مُطلقًا! بل ولا مِن شرطِهم تَرْكُ الكبائرِ أو الكفرِ الَّذي تَعْقُبُه التَّوبةُ! فقد وَصَفَهم اللهُ تعالى بأنَّهم هم المُتَّقونَ -والمُتَّقون هم أولياءُ اللهِ-؛ ومع هذا فأَخْبَر أنَّه يُكَفِّرُ عنهم أسْوَأَ الَّذي عمِلوا[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ «أسوأُ» اسمُ تفضيلٍ، وهو على بابِه -وذلك على قولٍ-؛ فإذا كان اللهُ تعالى يُكَفِّرُ عنهم أسْوَأَ ما عَمِلوا، فما دونَه مِن بابِ أَولى، ويكونُ التَّعبيرُ بالأسْوَأِ مِن بابِ البِشارةِ لهم[٣]، وفيه دَلالةٌ على سُقوطِ العِقابِ عنهم على أكمَلِ الوُجوهِ، ومعنَى تكفيرِها أن يَستُرَها عليهم بالمَغفِرةِ[٤]، وقد عُلِمَ أنَّه إذا مُحِيَ الأكبَرُ انمحَى الأصغَرُ؛ لأنَّ الحَسَناتِ يُذهِبْنَ السَّيِّئاتِ؛ فلِلَّه دَرُّ أهلِ البَصائرِ، والإخلاصِ في الإعلانِ والسَّرائرِ[٥].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، وقولُه: ﴿ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ فيه أنَّ الخَطَراتِ الَّتي تَخطُرُ على القُلوبِ لا حُكمَ لها؛ وقد جاء الحديثُ مُؤَيِّدًا لذلك، فقال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ اللهَ تَجاوَزَ عن أُمَّتي ما حَدَّثَتْ به أنفُسَها، ما لم تَعمَلْ أو تَتكلَّمْ))[٦].

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٠). =

١٥- قال تعالى: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فمَن كان في هذه الدَّارِ مُحسِنًا في وَقتٍ ما، يَعبُدُ اللهَ كأنَّه يَراه؛ فهو في الآخِرةِ كُلَّ حينٍ يَراه[١]! قال القُشَيْرِيُّ: (ثمَّ أحسَنُ الأعمالِ عليها أحسَنُ الثَّوابِ، وأحسَنُ الثَّوابِ الرُّؤيةُ؛ فيَجِبُ أن تكونَ على الدَّوامِ)[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ بيانٌ وتَفسيرٌ للَّذين يكونُ بيْنَهم الخُصومةُ[٣].

- وأفادَتِ الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ تَفْريعَ ما بعدَها على ما قَبْلَها تَفريعَ القَضاءِ عن الخُصومةِ الَّتي في قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]؛ فالاختِصامُ كُنِّيَ به عن الحُكمِ بيْنَهم فيما خالَفوا فيه وأنْكَروهُ[٤]. وقد كُنِّيَ عن كَونِهم مَدينِينَ بتَحْقيقِ أنَّهم أظلَمُ؛ لأنَّ مِن العَدلِ ألَّا يُقَرَّ الظَّالِمُ على ظُلمِه، فإذا وُصِفَ الخَصمُ بأنَّه ظالِمٌ، عُلِمَ أنَّه مَحْكومٌ عليه[٥].

---

= والحديث أخرجه البخاري (٥٢٦٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٢٧) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وأيضًا في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ قد عُدِلَ عن صَوغِ الحُكمِ عليهم بصِيغةِ الإخْبارِ إلى صَوغِه في صُورةِ الاستِفْهامِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ السَّامِعَ لا يَسَعُه إلَّا الجَوابُ بأنَّهم أظلَمُ؛ فالاستِفهامُ كِنَايةٌ، مُرادٌ به أنَّهم أظلَمُ الظَّالِمِين، وأنَّه لا ظالِمَ أظلَمُ منهم، فآلَ مَعْناه إلى نَفيِ أنْ يكونَ فَريقٌ أظلَمَ منهم؛ فإنَّهم أتَوْا أصْنافًا مِن الظُّلمِ العَظيمِ: ظُلمِ الاعتِداءِ على حُرمةِ الرَّبِّ بالكَذِبِ في صِفاتِه؛ إذْ زَعَموا أنَّ له شُرَكاءَ في الرُّبوبيَّةِ، والكَذِبِ عليه بادِّعاءِ أنَّه أمَرَهم بما هم عليه مِن الباطِلِ، وظُلمِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَكْذيبِه، وظُلمِ القُرآنِ بنِسْبَتِه إلى الباطِلِ، وظُلمِ المُؤمِنينَ بالأذى، وظُلمِ حَقائِقِ العالَمِ بقَلْبِها وإفْسادِها، وظُلمِ أنفُسِهم بإقْحامِها في العذابِ الخالِدِ[1].

- وعُدِلَ عن الإتيانِ بضَميرِهم إلى الإتيانِ بالموصولِ ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن الإيماءِ إلى وَجهِ كَونِهم أظلَمَ النَّاسِ، وإنَّما اقتُصِرَ في التَّعْليلِ على أنَّهم كَذَبوا على اللهِ، وكَذَّبوا بالصِّدقِ؛ لأنَّ هَذَينِ الكَذِبَينِ هُما جِماعُ ما أتَوْا به مِن الظُّلمِ[2].

- قولُه: ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي: وَقْتَ مَجيئِه، وهذا يدُلُّ على أنَّه كذَّبَ بالحَقِّ بمُجرَّدِ بُلوغِه إيَّاه بدُونِ مُهلةٍ، وفاجَأَهُ بالتَّكْذيبِ مِن غَيرِ فِكرٍ، ولا ارْتياءٍ، ولا نَظَرٍ، ومِن غَيرِ وَقفةٍ لإعْمالِ رُؤيةٍ، ولا اهتِمامٍ بمَيْزٍ بيْنَ حقٍّ وباطِلٍ، بلْ وَقتَ مَجيئِه كذَّبَ به[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥، ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦).

- وجمُلةُ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ مُبيِّنةٌ لِمَضْمونِ جُملةِ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: أنَّ ظُلمَهم أوجَبَ أنْ يَكونَ مَثْواهُم في جَهنَّمَ[١].

- والاستِفْهامُ ﴿أَلَيْسَ﴾ تَقْريريٌّ، وإنَّما وُجِّهَ الاستِفْهامُ إلى نَفْيِ ما المقصودُ التَّقْريرُ به، جَرْيًا على الغالِبِ في الاستِفْهامِ التَّقْريريِّ، وهي طَريقةُ إرْخاءِ العِنانِ للمُقرَّرِ بحيثُ يُفتَحُ له بابُ الإنكارِ، عِلمًا مِن المُتكلِّم بأنَّ المُخاطَبَ لا يَسَعُه الإنكارُ، فلا يَلبَثُ أنْ يُقِرَّ بالإثباتِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الاستِفْهامُ إنْكاريًّا؛ ردًّا لاعتِقادِهِم أنَّهم ناجُونَ مِن النَّارِ، الدَّالِّ عليه تَصميمُهم على الإعْراضِ عن التَّدبُّرِ في دَعْوةِ القُرآنِ[٢].

- وفيه تَوعُّدٌ للكافِرينَ تَوعُّدًا فيه احتِقارُهم على جِهةِ التَّوقيفِ[٣].

- وقولُه: ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ ممَّا قامَ فيه الظَّاهِرُ مَقامَ المُضمَرِ، أي: مَثوًى لهم، وفيه تَنبيهٌ على عِلَّةِ كَذِبِهم وتَكْذيبِهم، وهو الكُفرُ[٤]، وأفاد الإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ أيضًا العمومَ -أي أنَّه مَثْوًى له ولغيرِه مِن الكافرينَ-، وتسجيلَ الوصفِ على هؤلاء بأنَّهم كفَّارٌ[٥].

أو التَّعريفُ في (الكافِرينَ) للجِنْسِ المُفيدِ للاستِغْراقِ، فشَمِلَ الكافِرينَ المُتحَدَّثَ عنهم شُمولًا أوَّليًّا، وتكونُ الجُملةُ مُفيدةً للتَّذْييلِ أيضًا، ويكونُ اقتِضاءُ مَصيرِ الكافِرينَ المُتحَدَّثِ عنهم إلى النَّارِ ثابتًا بشِبهِ الدَّليلِ الَّذي يعُمُّ مَصيرَ جَميعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦، ٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٣٢).

الجِنْسِ الَّذي هُمْ من أصْنافِه، وليس في الكلامِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ(١).

- والجَمْعُ في الكافِرينَ باعتِبارِ معْنَى (مَن) في قَولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ فإنَّه يُرادُ به جَمْعٌ، كما أنَّ الإفْرادَ في الضَّمائرِ السَّابقةِ باعتِبارِ لَفظِها، أو لجِنْسِ الكَفَرةِ، وهُم داخِلونَ في الحُكمِ دُخولًا أوَّليًّا(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

- جُملةُ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ صِلةُ مَوصولٍ مَحْذوفٍ، تَقْديرُه: والَّذي صدَّقَ به، والقَرينةُ ظاهِرةٌ؛ لأنَّ الَّذي صَدَّقَ غَيرُ الَّذي جاءَ بالصِّدقِ؛ فالعَطفُ عَطفُ جُملةٍ كامِلةٍ، وليس عَطْفَ جُملةِ صِلةٍ(٣).

- وأيضًا قولُه: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ كِنايةٌ عن كَونِه صَلَواتُ اللهِ عليه صارَ صادِقًا بسَبَبِ القُرآنِ؛ وذلك أنَّه صَلَواتُ اللهِ عليه جاءَ بالصِّدقِ الَّذي هو القُرآنُ -على أحدِ الأوجُهِ في التَّفسيرِ-، وسُمِّيَ بالصِّدقِ مُبالَغةً، كما أشارَ إليه بقَولِه: ﴿بِٱلصِّدْقِ﴾ أي: بالأمْرِ الَّذي هو الصِّدقُ بعَينِه، أي: جاءَ بالقُرآنِ الَّذي هو مَحضُ الصِّدقِ، والحالُ أنَّه هو السَّبَبُ في صَيْرورتِه صادِقًا؛ لأنَّه مُعجِزةٌ، والمُعجِزةُ تَصْديقٌ مِن اللهِ الَّذي لا يُصَدِّقُ إلَّا الصَّادِقَ(٤).

- وقولُه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ مُعادِلٌ لِقَولِه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾. وقَولُه: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ مُقابِلٌ لِقَولِه: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾، و(الَّذي) جِنسٌ، كأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٨٥).

قال: والفريقُ الَّذي جاء بالصِّدقِ، ويدُلُّ عليه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ فإنَّه جمْعٌ، كما أنَّ قولَه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ يُرادُ به جمْعٌ؛ ولذلك قال: ﴿مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾؛ فإنَّه سبحانه لَمَّا ذَكَر الظَّالِمينَ بالكذِبِ ذَكَر أضْدادَهم الَّذين يُخاصِمونَهم عِندَ ربِّهم -وهم المُحسِنون- بالصِّدقِ، ولعلَّه أفْردَ الضَّميرَ إشارةً إلى قِلَّةِ المَوصوفِ بهذا الوصفِ مِن الصِّدقِ، وهذا الفريقُ هو الرُّسُلُ وأتْباعُهم؛ ولذلك حصَرَ التَّقْوَى فيهم بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1].

- والضَّميرُ في (بِه) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ﴾ يجوزُ أنْ يعودَ على (الصِّدقِ)، ويجوزُ أنْ يعودَ على (الَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ)، والتَّصْديقُ بكِلَيْهِما مُتلازِمٌ، وإذْ قد كان المُصَدِّقونَ بالقُرآنِ أو بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَن ثَبَتَ له هذا الوَصْفُ كان مُرادًا به أصْحابُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهُم جمَاعةٌ، فلا تَقَعُ صِفَتُهم صِلةً (للَّذِي)؛ لأنَّ أصْلَه للمُفرَدِ؛ فتَعيَّنَ تَأويلُه بـ (فَريقٍ)، وقَرينَتُه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وإنَّما أُفرِدَ عائِدُ المَوْصولِ في قَولِه: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ رَعْيًا لِلَفْظِ (الَّذي)؛ وذلك كُلُّه مِن الإيجازِ[2].

وقيلَ: جِيءَ بقَولِه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦ﴾ على الإفْرادِ، ثمَّ حُمِلَ عليه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وحُكِمَ بقَولِه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾، والتَّأويلُ أنْ يُقالَ: إنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إمامُ أُمَّتِه وقُدوَتُهم، وإنَّ مَجيئَه بالصِّدقِ وتَصْديقَه كمَجيئِهم به وتَصْديقِهم، كما يُقالُ لِرَئيسِ القَومِ وكَبيرِهِم: يا فُلانُ، افْعَلوا، ونحوُه قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨).

أي: مُوسى وقَومَه، بدَليلِ قَولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[١] [المؤمنون: ٤٩].

- وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ خَبرٌ عنِ اسْمِ المَوصُولِ (الَّذي). وجِيءَ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ وهو للبعيدِ -مع دُنُوِّ التَّحدُّثِ عنهم- لعُلُوِّ مرتبتِهم[٢]، وللعِنايةِ بتَمْييزِهم أكمَلَ تَمْييزٍ. وضَميرُ الفَصْلِ ﴿هُمُ﴾ يُفيدُ قَصْرَ جِنْسِ المُتَّقينَ على الَّذي جاءَ بالصِّدقِ وصَدَّقَ به؛ لأنَّه لا مُتَّقِيَ يَومَئذٍ غَيرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه، وكُلُّهم مُتَّقونَ، والمَعْنى: أولئك هُمُ الَّذين تحقَّقَ فيهم ما أُريدَ مِن إنْزالِ القُرآنِ الَّذي أُشيرَ إليه في قَولِه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾[٣] [الزمر: ٢٨].

- وفي هذه الآيةِ والآيةِ السَّابِقةِ احتِباكٌ[٤]: فذَكَر الكَذِبَ والتَّكذيبَ أوَّلًا؛ دليلًا على الصِّدقِ والتَّصديقِ ثانيًا، والاتِّقاءَ وجزاءَه وما يَتْبَعُه ثانيًا؛ دَليلًا على ضِدِّه أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذَكَر في شِقِّ المُسيءِ أنْكَأَ ما يكونُ مِن الكَذِبِ والتَّكذيبِ في أقبَحِ مَواضِعِه -ولا سيَّما عندَ العرَبِ-، وأسَرَّ ما يكونُ في شِقِّ المحسِنِ مِن استِقامةِ الطَّبعِ وحُسنِ الجَزاءِ[٥].

- وجُملةُ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مُستأنَفةٌ استِئْنافًا بيانيًّا؛ لأنَّهم لَمَّا قُصِرَ عليهم جِنسُ المُتَّقينَ كان ذلك مُشعِرًا بمَزِيَّةٍ عَظيمةٍ، فكان يَقتَضي أنْ يَسأَلَ السَّامِعُ عن جَزاءِ هذه المَزِيَّةِ؛ فبُيِّنَ له أنَّ لهم ما يَشاؤُونَ عِندَ اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٦).

و﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ هو ما يُريدونَ ويَتمنَّونَ، أي: يُعْطيهمُ اللهُ ما يَطلُبونَ في الجَنَّةِ. ويجوزُ أنَّ ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾ كِنايةٌ عَن سَعةِ ما يُعطَوْنَه(١).

- وفي قَولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ عُدِلَ عن اسْمِ الجَلالةِ إلى وَصْفِ ﴿رَبِّهِمْ﴾؛ إيماءً إلى أنَّه يُعْطيهم عطاءَ الرُّبوبيَّةِ، والإيثارِ بالخَيرِ(٢).

- وفي قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تَنويهٌ بالوَعدِ الصَّادِقِ مِن اللهِ، والمُشارُ إليه هو ﴿مَّا يَشَآءُونَ﴾؛ لِمَا تَضمَّنَه مِن أنَّه جَزاءٌ لهم على التَّصْديقِ، وأُشيرَ إليه باسْمِ الإشارةِ؛ لِتضَمُّنِه تَعْظيمًا لِشَأنِ المُشارِ إليه(٣).

- والمُرادُ بالمُحْسِنينَ: أولئك المَوْصوفونَ بأنَّهم المُتَّقونَ، وكان مُقتَضَى الظَّاهِرِ أنْ يُؤْتى بضَميرِهم فيُقالَ: ذلك جَزاؤُهم؛ فوقَعَ الإظهارُ في مَقامِ الإضْمارِ لإفادةِ الثَّناءِ عليهم بأنَّهم مُحسِنونَ، ونُبِّهَ بالظَّاهِرِ على العِلَّةِ المُقتَضِيةِ لِحُصولِ الثَّوابِ(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

- اللَّامُ في قولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ...﴾ للتَّعْليلِ، وهي مُتعلِّقةٌ بـ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أي: الَّذين أحْسَنُوا لِيُكفِّرَ، أو تَتعلَّقُ بفِعلٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، والمَعْنى: أنَّ اللهَ وَعَدَهُم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩).

وَعْدًا مُطلَقًا؛ لِيُكفِّرَ عنهم أَسْوَأَ ما عَمِلوهُ، أي: ما وَعَدَهُم بذلك الجَزاءِ إلَّا لأنَّه أرادَ أنْ يُكفِّرَ عنهم سَيِّئاتِ ما عَمِلوا، والمَقْصودُ مِن هذا الخَبَرِ إعْلامُهم به؛ لِيَطمَئِنُّوا من عَدَمِ مُؤاخَذَتِهم على ما فَرَطَ منهم مِن الشِّركِ وأحْوالِه[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ...﴾ إظهارُ اسْمِ الجَلالةِ (الله) في مَوضِعِ الإضْمارِ بضَميرِ (ربِّهم)؛ لِزَيادةِ تَمكُّنِ الإخبارِ بتَكْفيرِ سيِّئاتِهم تَمْكينًا لاطْمِئْنانِ نُفوسِهم بوَعْدِ رَبِّهم، ولإبرازِ كَمالِ الاعتِناءِ بمَضْمونِ الكلامِ[2].

- وإضافةُ الأسْوَأِ والأحسَنِ إلى ما بَعْدَهما في قَولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ قيل: هي مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى بَعضِه؛ للقَصدِ إلى التَّحْقيقِ والتَّوْضيحِ مِن غَيرِ اعتِبارِ تَفْضيلِه عليه، والزِّيادةُ المُعتَبَرةُ فيهما هي في الأوَّلِ بالنَّظرِ إلى ما يَليقُ بحالِهم مِن استِعْظامِ سَيِّئاتِهم وإنْ قَلَّتْ، واستِصْغارِ حَسَناتِهم وإنْ جَلَّتْ، والثَّاني بالنَّظَرِ إلى لُطفِ أكرَمِ الأكْرَمينَ مِن استِكْثارِ الحَسَنةِ اليَسيرةِ، ومُقابَلَتِها بالمَثُوباتِ الكَثيرةِ[3].

- والجَمْعُ بيْنَ صِيغتَيِ الماضِي والمُستَقبَلِ في صِلةِ المَوْصولِ الثَّاني ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ دُونَ الأوَّلِ ﴿ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾؛ للإيذانِ باستِمْرارِهم على

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥).

الأعمالِ الصَّالحةِ بخِلافِ السَّيِّئةِ[١]، ودوامِهم على الخَيرِ مجدِّدينَ له وقتًا بعدَ وقتٍ؛ لأنَّه في طبائعِهم، فهم عَريقونَ في تعاطيه[٢].

- والباءُ في قَولِه: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ للسَّبَبيَّةِ، أي: يَجْزيهم أجْرًا على أحسَنِ أعْمالِهم، وإذا كان الجَزاءُ على العَمَلِ الأحسَنِ بهذا الوَعدِ، وهو ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾؛ فدَلَّ على أنَّهم يُجازَونَ على ما هو دُونَ الأحسَنِ مِن مَحاسِنِ أعْمالِهم؛ بدَلالةِ إيذانِ وَصفِ (الأحسَنِ) بأنَّ عِلَّةَ الجَزاءِ هِيَ الأحسَنيَّةُ، وهي تَتضمَّنُ أنَّ لِمَعْنى الحُسنِ تأثيرًا في الجَزاءِ، فإذا كان جزاءُ أحسَنِ أعْمالِهم أنَّ لهم ما يَشاؤُونَ عِندَ ربِّهم، كان جزاءُ ما هو دُونَ الأحسَنِ مِن أعْمالِهم جزاءً دُونَ ذلك؛ بأنْ يُجازَوْا بزِيادةٍ وتَنْفيلٍ على ما استَحَقُّوهُ على أحسَنِ أعْمالِهم بزِيادةِ تَنعُّمٍ، أو كَرامةٍ، أو نَحوِ ذلك[٣]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، بلَفظِ (الَّذي)، وقال في سُورةِ (النَّحلِ): ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦]، بلَفظِ (ما)؛ ووَجْهُه: أنَّ هذه السُّورةَ خُصَّتْ بـ (الَّذي)؛ لِيُوافِقَ ما قبْلَه، وهو: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾، وقبْلَه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾، وخُصَّت سُورةُ (النَّحلِ) بـ (ما) للمُوافَقةِ أيضًا، وهو قولُه: ﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النحل: ٩٥]، و﴿مَا عِندَكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١).

يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾[النحل: ٩٦]؛ فتَلاءَمَ اللَّفظانِ في السُّورتينِ[١]. وقيل: لَمَّا كان مَقصودُ هذه السُّورةِ أخَصَّ مِن مَقصودِ سُورةِ (النَّحلِ)، وكانت (الَّذي) و(مَنْ) أقَلَّ إبهامًا مِن (ما)؛ قال: (الَّذي)، أي: العمَلُ الَّذي، وهو مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى ما هو بعْضُه، كخاتمِ فِضَّةٍ[٢].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٨).

## الآيات (٣٦-٤١)

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾: أي: اللهُ كافِيَّ، يُقالُ: أعطاني فأحْسَبَني، أيْ: كَفاني، وأصلُ (حسب) هنا: الكِفايةُ[1].

﴿مَكَانَتِكُمْ﴾: أي: طَريقتِكم الَّتي أنتم عليها، تقولُ للرَّجُلِ إذا أمَرْتَه أن يَثبُتَ على حالِه: على مكانَتِك يا فُلانُ، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه[2].

﴿يُخْزِيهِ﴾: أي: يُذِلُّه ويُهينُه، وأصلُه هنا: الإبعادُ[3].

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾: أي: يَنزِلُ به، ويجِبُ عليه، وأصلُ (حلل): فَتْحُ الشَّيءِ، ومنه:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٩- ٦١)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠) و(٨/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص:١٦٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٢/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٠).

حلَّ أي: نزَل؛ لأنَّ المسافِرَ يَشُدُّ ويَعقِدُ، فإذا نزلَ حَلَّ[١].

﴿بِوَكِيلٍ﴾: أي: حافِظٍ وكَفيلٍ، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتِمادِ غَيرِك في أمْرِك[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: أليس اللهُ بكافٍ عَبْدَه كُلَّ سُوءٍ؟! ويُخَوِّفُك مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- بمَنْ دونَ اللهِ! ومَن يُضِلَّه اللهُ عن طريقِ الحَقِّ فلا أحَدَ يَهديه إليه، ومَن يَهدِه اللهُ إلى الحَقِّ فلا أحَدَ يُضِلُّه، أليس اللهُ بعزيزٍ ذي انتِقامٍ مِن الكُفَّارِ والمكَذِّبينَ؟!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى ما كان عليه هؤلاءِ المشركونَ مِن تناقُضٍ، فيقولُ: ولئِنْ سألْتَ المُشرِكينَ -يا مُحمَّدُ-: مَنِ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه. قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهم: أرَأيْتُم الآلِهةَ الَّتي تَدْعُونَها مِن دونِ اللهِ: هل تَقدِرُ أن تَكشِفَ عنِّي ما يُصيبُني مِن ضُرٍّ إن أراده اللهُ بي، أو هل تَقدِرُ أن تمنَعَ عنِّي رَحمةَ رَبِّي إن أرادَها اللهُ بي؟!

قُلْ -يا مُحمَّدُ-: يَكفيني اللهُ وَحْدَه، عليه وَحْدَه يَعتَمِدُ المتوكِّلونَ.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُهدِّدَهم بسوءِ المصيرِ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: يا قَومِ، اعمَلوا على طريقتِكم ومنهجِكم فأنا عامِلٌ بمَنهجي الَّذي أمَرَني اللهُ به؛ فسوف تَعلَمونَ مَن يأتيه في الدُّنيا عَذابٌ يُخزيه ويُذِلُّه، ومَن يَنزِلُ عليه عَذابٌ مُستَمِرٌّ لا يُفارِقُه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨، ٣١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦).

ثمَّ يقولُ تعالى مُسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّا أنزَلْنا عليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ للنَّاسِ بالحَقِّ، فمَنِ اهتدَى فإنَّما يَعودُ نَفْعُ ذلك على نَفْسِه، ومَن ضَلَّ فإنَّما يَعودُ وَبالُ ذلك على نَفْسِه، وما أنتَ -يا مُحمَّدُ- بمُوكَّلٍ باهتِداءِ النَّاسِ؛ فتَقهَرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ضرَب اللهُ عزَّ وجلَّ مَثَلًا للمُشرِكينَ والمُؤمِنينَ بِمَثَلِ رَجُلٍ فيه شُرَكاءُ مُتَشاكِسونَ ورَجُلٍ خالِصٍ لِرَجُلٍ، كان ذلك المَثَلُ مُثيرًا لأنْ يقولَ قائِلُ المُشرِكينَ: لَتَتألَّبَنَّ شُركاؤُنا على الَّذي جاء يُحَقِّرُها ويَسُبُّها، ومُثيرًا لِحَمِيَّةِ المُشرِكينَ أنْ يَنتَصِروا لآلِهَتِهِم، ورُبَّما أنْطَقَتْهم حَميَّتُهم بتَخْويفِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلمَّا حَكى تَكْذيبَهم النَّبيَّ عَطَف الكَلامَ إلى ما هدَّدوه به وخوَّفوه مِن شَرِّ أصْنامِهم[1].

وأيضًا لَمَّا فُهِم مِن قولِه: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ٣٢] أنَّ المشركينَ يُكَذِّبونَه، وكان مِن طبْعِ الآدميِّ الاهتِمامُ بمِثلِ ذلك ولا سيَّما إذا كان المُكَذِّبُ كثيرًا وقَوِيًّا، وتقرَّر أنَّه سُبحانَه الحَكَمُ العدْلُ بيْنَ المُتخاصِمينَ وغيرِهم في الدُّنيا والآخرةِ، ولَزِمَ كلَّ سامِعٍ الإقرارُ بالآخرةِ، وبشَّرَ المُحسِنينَ وحذَّرَ المُسيئينَ، وكان مِن المعلومِ أنَّهم يُحَذِّرونَه آلهتَهم كما يُحَذِّرُهم إلهَه؛ حَسُنَ كُلَّ الحُسنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢).

قولُه مُقرًّا للكِفايةِ غايةَ الإقرارِ، ومُنكرًا لِنَفْيِها كلَّ الإنكارِ[١]:

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿عِبَادَهُۥ﴾ جَمعُ عَبدٍ، فيَدخُلُ فيهم كُلُّ مَن عبَدَ اللهَ مِن الأنبياءِ والمُؤمِنينَ. وقيل: المرادُ: عِبادُه الأنبياءُ[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿عَبْدَهُۥ﴾ بالإفرادِ. قيل: المرادُ به: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقيل: يحتمِلُ أنَّه لَفظُ جِنسٍ يَشملُ جميعَ عبادِ اللهِ، فتَكونُ بمعنى القِراءةِ الأُولى[٣].

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾.

أي: أليس اللهُ كافيًا مَن قام بعُبوديَّتِه[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٠٨).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٨)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٩٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٢، ٣٦٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٣٨)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥).

(٤) قيل: المرادُ بـ﴿عَبْدَهُۥ﴾: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزمخشري، والقرطبي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣).
وقيل: المرادُ العُمومُ في كُلِّ مَن قام بعُبوديَّةِ اللهِ تعالى وأداءِ حُقوقِه، فكُلُّ مَن كان عبدًا لله تعالى حقًّا فإنَّ اللهَ تعالى كافيه. ومِمَّن ذهب إلى هذا العُموم: ابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وابن رجب، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، =

كلَّ سُوءٍ، وعاصِمًا له مِن كُلِّ كَيدٍ[١]؟

كما قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

وقال الله سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ المقَدِّمةَ؛ رَتَّب عليها النَّتيجةَ المطلوبةَ؛ فإنَّه إذا ثبَت أنَّ اللهَ كافٍ عبْدَه، كان التَّخويفُ بغيرِ الله عبَثًا وباطلًا[٢].

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

أي: ويُخَوِّفُك مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- بمَنْ دونَ اللهِ أنَّهم يَنالونَك بسُوءٍ[٣]!

---

= ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢، ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٥، ٢٥٦).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾: مِن دونِ اللهِ مِن الأوثانِ والأصنامِ، أي: ممَّا يَعبُدون. ومِمَّن ذهب إلى هذا في الجُملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابن الجوزي، وابن كثير، =

كما قال تعالى حكايةً عن قَولِ عادٍ لِنَبيِّهم هودٍ عليه السَّلامُ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾ [هود: ٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أطنَبَ سُبحانَه في شَرحِ الوَعيدِ والوَعدِ، والتَّرهيبِ والتَّرغيبِ؛ خَتَم الكَلامَ بخاتِمةٍ هي الفَصلُ الحَقُّ(١).

وأيضًا لَمَّا اشتمَلَت الآيةُ على مُهتَدِينَ وضالِّينَ؛ أخبَرَ أنَّ ذلك كُلَّه هو فاعِلُه(٢).

وأيضًا لَمَّا كان مِنَ الحَقِّ الواضِحِ كالشَّمسِ أنَّ ما قالوه لا يَقولُه عاقِلٌ، وكان التَّقديرُ: «فقد أضَلَّهم اللهُ إهانةً لهم، وهداك إكرامًا لك»؛ بيَّنَ أنَّه سُبحانَه قسَرَهم

---

= والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٢٩).

وقيل: المرادُ: العمومُ؛ فمَن دونَ اللهِ يَشملُ الأصنامَ وغيرَها، كالجِنِّ، وذَوِي السُّلطانِ، وغَيرِهم. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٥، ٢٥٦).

قال القرطبي: (ويَدخُلُ في الآيةِ تخويفُهم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بكثرةِ جمعِهم وقوَّتِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥).

على ذلك؛ لِيَكونَ إضلالُه لهم آيةً، كما أنَّ هُداه لِمَن هداه آيةٌ؛ فقال مُخَفِّفًا عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في إذهابِ نَفْسِه عليهم حَسَراتٍ، دامِغًا للقَدَرِيَّةِ[١]:

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾.

أي: ومَن يُضِلَّه اللهُ عن طريقِ الحَقِّ فلا أحدَ يَهديه إليه[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾.

أي: ومَن يَهْدِه اللهُ إلى الحَقِّ فلا أحَدَ يُضِلُّه عنه[٣].

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا لم تَبقَ شُبهةٌ ولا شَيءٌ مِن شَكٍّ أنَّ الهاديَ المُضِلَّ إنَّما هو اللهُ وَحْدَه، وأنَّه جَعَل شَيئًا واحِدًا سَبَبًا لضَلالِ قَومٍ -لِيَكونَ ضَلالُهم في الظَّاهِرِ عِلَّةً للنِّقمةِ- وهُدًى لآخَرينَ، فيَكونَ هُداهم سَبَبًا للنِّعمةِ؛ بلَغَ النِّهايةَ في الحُسنِ قَولُه[٤]:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٠).

أي: أليس اللهُ عَزيزًا في انتِقامِه مِن الكُفَّارِ، مَنيعَ الجَنابِ، قاهِرًا للعبادِ، وبعِزَّتِه يَكفي عَبْدَه ويَدفَعُ عنه مَكْرَ أعدائِه؛ ذا انتِقامٍ مِن الجاحِدينَ وحدانيَّتَه، المكَذِّبينَ رُسُلَه، العاصِينَ أمْرَه[1]؟

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أطنَبَ تعالى في وعيدِ المُشرِكينَ، وفي وَعْدِ الموحِّدينَ؛ عاد إلى إقامةِ الدَّليلِ على تَزييفِ طريقةِ عَبَدةِ الأصنامِ[2].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

أي: ولَئِنْ سألْتَ المُشرِكينَ -يا مُحمَّدُ-: مَنِ الَّذي خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: اللهُ وَحْدَه هو خالِقُهما[3].

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١١، ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

قال القرطبي: (وإذا كان اللهُ هو الخالِقَ، فكيف يُخَوِّفونك بآلهتِهم الَّتي هي مخلوقةٌ لله تعالى، وأنت رَسولُ الله الَّذي خلَقَها، وخَلَق السَّمواتِ والأرضَ؟!). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨).

**مناسبتُها لما قبلَها:**

لَمَّا أقَرُّوا بالخالقِ -وهو اللهُ سُبحانَه- أخْبَرهم أنَّه تَعالَى هو المُتصرِّفُ في نَبيِّهِ بما أرادَ؛ فإنَّ تلك الأصْنامَ الَّتي يَدْعونَها آلِهةً مِن دُونِهِ لا تَكشِفُ ضُرًّا، ولا تُمسِكُ رَحْمةً، أي: صِحَّةً وسَعةً في الرِّزقِ ونحو ذلك[1].

﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لهؤلاء المُشركينَ الَّذين أقَرُّوا بأنَّ اللهَ وَحْدَه خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ: أرأَيْتُم الآلِهةَ الَّتي تَدْعونَها مِن دُونِ اللهِ: هل تَقدِرُ على كَشْفِ ما يُصيبُني مِن ضُرٍّ إن أراد اللهُ أن يُصيبَني به[2]؟

﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾.

أي: أو هل تَقدِرُ آلهتُكم أن تَمنَعَ عنِّي رَحمةَ رَبِّي إن أراد اللهُ أن يُصيبَني بها[3]؟

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦، ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تقرَّر أنَّه تعالى كافِيه، وأنَّ أصنامَهم لا تَضُرُّ ولا تَنفَعُ؛ أمَرَه تعالى أن يُعلِمُ أنَّه تعالى هو حَسْبُه، أي: كافيه[1].

﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: يَكفيني اللهُ وَحْدَه مِن كُلِّ شَيءٍ، فأنا أفَوِّضُ إليه جميعَ أُموري، وأعتَمِدُ عليه وَحْدَه دونَ غَيرِه؛ على اللهِ وَحْدَه يَعتَمِدُ المتوكِّلونَ في جَلْبِ مَصالِحِهم، ودَفْعِ مَضارِّهم[2].

كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أبلَغَهم اللهُ مِن المَوعِظةِ أقصَى مَبلَغٍ، ونَصَب لهم مِنَ الحُجَجِ أسْطَعَ حُجَّةٍ، وثَبَّت رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أرسَخَ تَثبيتٍ: لا جَرَمَ أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُوادِعَهم مُوادَعةَ مُستَقرِبِ النَّصرِ، ويُواعِدَهم ما أُعِدَّ لهم مِن خُسرٍ[3].

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: يا قَومِ، اعمَلوا على طَريقتِكم ومَنهَجِكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨، ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩).

وحالَتِكم الَّتي رَضِيتُموها لأنفُسِكم، وجمَدْتُم عليها[١]، أمَّا أنا فعامِلٌ بمَنهجي الَّذي أمَرَني اللهُ به[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ * وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا

---

(١) قال الشوكاني: (﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على حالَتِكم الَّتي أنتم عليها، وتمكَّنْتُم منها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

قيل: المرادُ: ما هم عليه مِنَ الشِّركِ بالله تعالى. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنين، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

وقيل: المرادُ: ما هم عليه مِن العداوةِ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن قال بذلك: الزمخشريُّ، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠).

وقيل: المرادُ كِلا الأمْرَينِ، أي: ما هم عليه مِن الكُفرِ والعداوةِ والإيذاءِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: النسفيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (١/ ٥٣٩) و (٣/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٢، ٢٨٣).

قال الشوكاني: (﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ أي: على حالتي الَّتي أنا عليها، وتمكَّنْتُ منها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

قيل: المرادُ بقَولِه: ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾: على ما أنا عليه مِن الهدَى. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمَنين، والماوَرْديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٢٨).

وقال الخازنُ: (﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ أي: بما أُمِرتُ به مِن إقامةِ الدِّينِ). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٨).

وقال السعدي: (﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ على ما دعَوْتُكم إليه مِن إخلاصِ الدِّينِ لله تعالى وَحْدَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

وقال ابنُ عاشورٍ: (أرادَ مِنْ ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ أنَّه ثابِتٌ على عَمَلِه في نُصحِهم ودعوتِهم إلى ما يُنَجِّيهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠).

مُنتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢١، ١٢٢].

﴿... فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

أي: فسوفَ تَعلَمونَ مَن يأتيه في الدُّنيا عذابٌ مِنَ اللهِ يُذِلُّه ويُهينُه[1].

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

أي: ومَن يَنزِلُ عليه في وَقتِه المحدَّدِ له عَذابٌ مُستَمِرٌّ لا يُفارِقُه[2].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن تعالى فَسادَ مَذاهِبِ المشركين؛ تارةً بالدَّلائِلِ، وتارةً بضَربِ الأمثالِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٣-٢٨٥).

قال الشوكاني: (أي: يُهينُه ويُذِلُّه في الدُّنيا، فيَظهَرُ عندَ ذلك أنَّه المُبطِلُ، وخَصْمَه المُحِقُّ، والمرادُ بهذا العذابِ عذابُ الدُّنيا، وما حلَّ بهم مِن القَتلِ والأسْرِ، والقَهرِ والذِّلَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٣-٢٨٤).

والعذابُ المقيمُ هو عذابُ النَّارِ يومَ القيامةِ؛ فهم مُخلَّدونَ فيه. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١).

وتارةً بذِكرِ الوَعدِ والوَعيدِ، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعظُمُ عليه إصرارُهم على الكُفرِ، وعَدَمُ إيمانِهم ورُجوعِهم إلى ما أنزَلَ اللهُ سبحانه وتَعالى عليه- أردَفَه بكَلامٍ يُزيلُ ذلك الحُزنَ العَظيمَ عن قَلبِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأخْبَره أنَّه أنزَلَ عليه الكِتابَ -وهو القُرآنُ- بالحقِّ؛ لأجْلِ النَّاسِ؛ إذ فيه تَكاليفُهم(١).

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا عليك -يا مُحمَّدُ- القُرآنَ للنَّاسِ بالحَقِّ، فتُنذِرُهم به، وتُبَيِّنُ لهم الهُدى(٢).

كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١).

قَولُه تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ يحتمِلُ معنيَينِ؛ الأوَّلُ: أنَّ القُرآنَ مُشتَمِلٌ على الحَقِّ في أخبارِه وأحكامِه. والثَّاني: أنَّ نُزولَه حَقٌّ مِن عندِ اللهِ تعالى، ليس بباطِلٍ، بخِلافِ أخبارِ الكُهَّانِ الواردةِ مِن الشَّياطينِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٨، ٢٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣).

قال البِقاعي: (﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُصاحِبًا له، لا يَقدِرُ الخَلقُ على أن يُزيحوا مَعنًى مِن معانيه عن قَصْدِه، ولا لَفظًا مِن ألفاظِه عن سَبيلِه وحَدِّه، بل هو مُعجِزٌ في معانيه -حاضِرةً كانت أو غائبةً- ونُظومِه، وألفاظِه وأسماءِ سُوَرِه وآياتِه وجَميعِ رُسومِه؛ فلا بُدَّ مِن إتيانِ ما فيه مِن وَعدٍ ووَعيدٍ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥١٦).

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [الإسراء: ١٠٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تسَبَّبَ عن عِلمِ ذلك وُجوبُ المبادَرةِ إلى الإذعانِ له؛ لِفَوزِ الدَّارَينِ؛ حَسُنَ جِدًّا قَولُه تعالى -تَسليةً له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لعَظيمِ ما لَه مِنَ الشَّفَقةِ عليهم، وتهديدًا لهم-[1]:

﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾.

أي: فمَن عَمِلَ بالقُرآنِ واتَّبَعَه، فإنَّما يعودُ نَفْعُ ذلك على نَفْسِه[2].

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان رُبَّما وقَعَ في وَهم أنَّه يَلحَقُ الدَّاعيَ بعدَ البَيانِ مِن إثمِ الضَّالِّ، وكان السِّياقُ لِتَهديدِ الضَّالِّينَ؛ زاد في التَّأكيدِ، فقال[3]:

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾.

أي: ومَن ضَلَّ عن الحَقِّ، فلم يُؤمِنْ بالقُرآنِ ويَتَّبِعْه؛ فإنَّما يعودُ وَبالُ ذلك

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٨٨، ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٦).

وضَرَرُه على نَفْسِه، لا على غَيرِه[١].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾.

أي: وما أنتَ -يا مُحمَّدُ- بمُوكَّلٍ باهتِداءِ النَّاسِ؛ فتَقهَرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ، ولا بمُراقِبٍ لأعمالِهم، ولا حَفيظٍ عليها، ولا مُحاسِبٍ لهم، وإنَّما عليك البَلاغُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- لله تعالى على العَبدِ عُبوديَّةُ الضَّرَّاءِ، وله عُبوديَّةٌ عليه فيما يَكرَهُ، كما له عُبوديَّةٌ فيما يُحِبُّ، وأكثَرُ الخَلقِ يُعطُونَ العُبوديَّةَ فيما يُحِبُّونَ، والشَّأنُ في إعطاءِ العُبوديَّةِ في المَكارِهِ؛ فبِهِ تَفاوَتَتْ مراتِبُ العِبادِ، وبحَسَبِه كانت مَنازِلُهم عندَ اللهِ تعالى، فمَنْ كان عبدًا لله في الحالتَينِ، قائمًا بحَقِّه في المكروهِ والمحبوبِ؛ فذلك الَّذي تَناوَلَه قَولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ فمَن قام بحُقوقِ اللهِ عليه فإنَّ اللهَ يَتكَفَّلُ له بالقِيامِ بجَميعِ مَصالِحِه في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فمَن أراد أن يَتولَّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٥).

(٣) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥).

اللهُ حِفظَه ورِعايتَه في أمورِه كُلِّها فلْيُراعِ حُقوقَ اللهِ عليه، ومَن أراد ألَّا يُصيبَه شَيءٌ مِمَّا يَكرَهُ فلا يأتِ شَيئًا مِمَّا يَكرَهُه اللهُ منه. كان بَعضُ السَّلَفِ يَدورُ على المجالِسِ ويَقولُ: (مَن أحَبَّ أن تَدومَ له العافيةُ فلْيَتَّقِ اللهَ عزَّ وجلَّ)(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الحَثُّ على تحقيقِ العبوديَّةِ للهِ تعالى؛ لأنَّك إذا حَقَّقْتَ العبوديَّةَ تَحَقَّقَتْ لك الكِفايةُ، فإذا كانتِ الكفايةُ مُرَتَّبةً على وَصفِ العُبوديَّةِ حَصَل للعابدِ مِن هذه الكفايةِ بقَدْرِ عبوديَّتِه، على القاعدةِ «أنَّ الحُكمَ المُعَلَّقَ بوَصفٍ، يَقوَى بقُوَّتِه، ويَضعُفُ بضَعْفِه»(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أنَّه جَرَت العادةُ أنَّ المُبطِلينَ يُخَوِّفونَ المُحِقِّينَ بالتَّخويفاتِ الكَثيرةِ، فحَسَمَ اللهُ مادَّةَ هذه الشُّبهةِ بقَولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾(٣)، فلَمَّا ثَبَت أنَّ اللهَ كافٍ عَبْدَه، كان التَّخويفُ بغيرِ اللهِ عَبَثًا وباطِلًا(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَطْلُبُ الهدايةَ إلَّا مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّه وحْدَه هو الَّذي يُضِلُّ ويَهدي؛ فتُطْلَبُ الهدايةُ منه؛ لأنَّه ليس المرادُ بهذه الآيةِ التَّيئيسَ مِن هدايةِ الخَلْقِ! ولكنَّ المرادَ الرُّجوعُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ في هدايةِ الخَلْقِ(٥).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ الرَّدُّ على المُعتزِلةِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٦٠).

الَّذين يَقولُونَ: إنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه؛ يَهدي نَفْسَه، ويُضِلُّ نفْسَه، ولا عَلاقةَ لِمَشيئةِ اللهِ تعالى في فِعلِه[1]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ أنَّ هذه الدَّلائِلَ والبَيِّناتِ لا تَنفَعُ إلَّا إذا خَصَّ اللهُ العَبدَ بالهدايةِ والتَّوفيقِ[2].

٣- قال تعالى: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ ولم يَقُلْ: «مُنتَقِمٌ»، ولم تأتِ «المُنتَقِمُ» في أسماءِ اللهِ تعالى في حديثٍ صحيحٍ، وإنَّما جاءتْ باسمِ الفاعلِ مُقيَّدةً، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، فلم يَقُلْ: «إنَّا مُنتَقِمونَ»، فهو سبحانَه يُوصَفُ بالانتقامِ مُقيَّدًا، وقال تعالى: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أي: صاحِبِ انتقامٍ في مَوضِعِه، فاللهُ تعالى يُوصَفُ بأنَّ الانتِقامَ يَصدُرُ منه، لا أنَّه «مُنتَقِمٌ»؛ فـ «المُنتَقِمُ» ليس مِن أسماءِ اللهِ تعالى؛ لا مَقرونًا بالعَفوِ، ولا مُنفَرِدًا عنه، خِلافًا لِمَا ذَهَبَ إليه بعضُ العلماءِ مِن أنَّه إذا قُرِنَتْ بالعَفوِ فلا بأسَ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أنَّ هؤلاء المُشرِكينَ مُقِرُّونَ بوُجودِ الإلهِ القادِرِ العالمِ الحَكيمِ الرَّحيمِ[4]، وفيه أنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ وَحْدَها لا يَنفَعُ العبدَ، ولا يُدْخِلُه في الإسلامِ، ودليلُ ذلك: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قاتَلَ المُقرِّينَ بالرُّبوبيَّةِ، واستباحَ دِماءَهم ونِساءَهم وأموالَهم، ولو كان إقرارُهم بالرُّبوبيَّةِ وحْدَها نافعًا لَكانت دماؤُهم مَعصومةً، وأموالُهم مَعصومةً، وأهلوهم مَعصومينَ، وفي هذا ردٌّ على أولئكَ المتكلِّمينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٤).

الَّذين يَجعَلونَ تَوحيدَ الألوهيَّةِ هو تَوحيدَ الرُّبوبيَّةِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ تسليةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّ اللهَ تعالى أمَرَه بذلك تَبشيرًا له، وتَسليةً بأنَّه ستَكونُ العاقِبةُ له[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أنَّ عذابَ أهلِ النَّارِ مُقيمٌ لا يَنفَكُّ عنهم، ويَتفرَّعُ على ذلك: أنَّ فيها ما دلَّ عليه القُرآنُ والسُّنَّةُ مِن أنَّ أهلَ النَّارِ مُخلَّدون فيها أبدًا، وأنَّها لا تَفنَى، وأنَّ القَولَ بفَنائِها قَولٌ ضعيفٌ، بل باطِلٌ؛ لِمُخالَفتِه للكِتابِ والسُّنَّةِ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بيانُ أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى أنزَلَه وهو كلامٌ، ليس ذاتًا مُعَيَّنةً كالحديدِ الَّذي قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وكالمواشي الَّتي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦]، فالقرآنُ كلامٌ، فإذا كان كلامًا فإنَّه لا يكونُ مَخلوقًا؛ لأنَّ الكلامَ صِفةُ المتكلِّمِ، والمتكلِّمُ به -وهو اللهُ- هو الأوَّلُ والآخِرُ، والظَّاهرُ والباطِنُ[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ لأنَّه قال: ﴿أَنزَلْنَا﴾، والإنزالُ لا يكونُ إلَّا مِن عُلوٍّ[٥].

٩- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ قولُه تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٧١، ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ الله سبحانَه وتعالى أنزَل القرآنَ الكريمَ لمصلحةِ الخَلْقِ؛ وأنَّه لم يَنزِلْ ضِدَّ مَصالِحِهم[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ عُمومُ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لقولِه تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾، ولم يَقُلْ: «لقومِك» مثلًا! بل للنَّاسِ عمومًا[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ الرَّدُّ على الجَبريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه! ووَجْهُ ذلك: أنَّه أضاف الاهتِداءَ والضَّلالَ إلى العَبدِ؛ فدلَّ هذا على أنَّه فِعلُه الَّذي اختارَ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أنَّ الدَّاعيَ المُبَلِّغَ لِشَريعةِ اللهِ تعالى إذا بَلَّغَ على الوَجهِ الَّذي أُمِرَ به فقد بَرِئَتْ ذِمَّتُه، ولا يَلزَمُه شَيءٌ وراءَ ذلك، ووجْهُ الدَّلالةِ منها: أنَّه إذا كان إمامُ الدَّاعينَ المُبَلِّغينَ مُحمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس وَكيلًا على النَّاسِ، ولا حفيظًا عليهم؛ فمَنْ دونَه مِن بابِ أَولى[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾

- ما أحسَنَ هذا النَّظْمَ! وما أَلْطَفَ مَوقِعَ مَعْنى الكِفايةِ، وتَخْصيصَ لَفظِ (العَبْدِ)، ووَصْفَ الأصْنامِ بالَّذين مِن دُونِه في هذا المقامِ! وما أدَقَّ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٦).

التَّعْريضَ بحالِ عَبْدٍ يُثبِتُ مَعْبوداتٍ شَتَّى، ويَدَّعي كُلُّ واحدٍ عُبودِيَّتَه، ويَبْقَى هو مُتحيِّرًا ضائِعًا، وحالِ عَبدٍ لم يُثبِتْ إلَّا مَعْبودًا واحِدًا، فهو قائِمٌ بما كَلَّفَه، عارِفٌ بما يَرْضاهُ(١)!

- قولُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ الهَمْزةُ في ﴿أَلَيْسَ﴾ للاستِفْهامِ التَّقْريريِّ؛ لأنَّ هَمْزةَ الإنكارِ إذا دَخَلَتْ على النَّفْيِ أثْبَتَتْه بطَريقِ المُبالَغةِ؛ فالاستِفْهامُ إنكارٌ عليهم ظَنَّهم أنْ لا حامِيَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن ضُرِّ الأصْنامِ، فأُفيدَ مَعْنى إثباتِ الكفايةِ وتَقْريرِها(٢).

- وأيضًا قولُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ تَمْهيدٌ لِقَولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ قُدِّمَ عليه لِتَعْجيلِ مَساءةِ المُشركينَ بذلك، ويَستَتبِعُ ذلك تعجيلَ مَسَرَّةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ اللهَ ضامِنٌ له الوِقايةَ. وأصْلُ النَّظْمِ: (ويُخوِّفونَكَ بالَّذين مِن دُونِ اللهِ واللهُ كافِيكَ)؛ فغُيِّرَ مَجْرى النَّظمِ لهذا الغَرَضِ. ولكَ أنْ تَجعَلَ نَظْمَ الكَلامِ على تَرْتيبِه في اللَّفظِ؛ فتَجعَلَ جُملةَ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ استِئْنافًا، وتَصيرُ جُملةُ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ حالًا(٣).

- وفيه تَسْليةٌ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا قالتْ له قُريشٌ: إنَّا نَخافُ أنْ تَخبِلَكَ آلهتُنا، ويُصيبَكَ مَضَرَّتُها لِعَيبِكَ إيَّاها(٤).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢، ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥).

- وحُذِفَ المَفْعولُ الثَّاني لـ (كَافٍ)؛ لِظُهورِ أنَّ المَقْصودَ كافِيكَ أذاهُم، فأمَّا الأصْنامُ فلا تَستطيعُ أذًى حتَّى يُكْفاهُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

- ووَقَعَ التَّعبيرُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالاسْمِ الظَّاهِرِ، وهو ﴿عَبْدَهُۥ﴾ دُونَ ضَميرِ الخِطابِ؛ لأنَّ المَقْصودَ تَوجيهُ الكَلامِ إلى المُشرِكينَ. وفي استِحْضارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوَصفِ العُبوديَّةِ، وإضافَتِه إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ مَعْنًى عَظيمٌ مِن تَشْريفِه بهذه الإضافةِ، وتَحْقيقِ أنَّه غَيرُ مُسْلِمِه إلى أعْدائِه[2]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والواوُ في قولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ يُمكِنُ أنْ تكونَ للحالِ؛ فتكونَ الجُملةُ حاليَّةً، والمَعْنى: (أليس اللهُ كافِيَكَ حالَ تَخْويفِهم إيَّاكَ؟)، هذا إذا أرادَ بالعَبدِ نَبيَّهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويجوزُ جعْلُها استِئْنافيَّةً؛ فتكونُ الجُملةُ مُستأنَفةً مَسوقةً لِتَفْنيدِ ما يَعمِدونَ إليه مِن تَخْويفٍ بالأصْنامِ[3].

- والخِطابُ في قَولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو الْتِفاتٌ مِن ضَميرِ الغَيبةِ العائِدِ على ﴿عَبْدَهُۥ﴾، ونُكتةُ هذا الالتِفاتِ: هو تَمْحيضُ قَصْدِ النَّبيِّ بمَضْمونِ هذه الجُملةِ، بخِلافِ جُملةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[4].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ تَهَكُّمٌ بهم؛ لأنَّهم خَوَّفوه مِن أصْنامِهم، وهي لا تَقدِرُ على نَفْعٍ ولا ضُرٍّ، ونَظيرُ هذا التَّخْويفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣).

قَولُ قَومِ هُودٍ له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖ﴾[1] [هود: ٥٤].

- وعبَّر عنهم وهُم حِجارةٌ بمَوْصولِ العُقلاءِ (الَّذينَ)؛ مُجاراةً للمُشركينَ؛ لِكَثْرةِ استِعْمالِ التَّعْبيرِ عنهم في الكَلامِ بصِيَغِ العُقَلاءِ؛ لأنَّهم يَعتَقِدونها مُدْرِكةً[2].

- قولُه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ * وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ الآيةَ، وجُملةِ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾؛ قُصِدَ مِن هذا الاعتِراضِ أنَّ ضَلالَهم داءٌ عَياءٌ -أي: صَعبٌ لا دواءَ له، كأنَّه أعيا الأطبَّاءَ-؛ لأنَّه ضَلالٌ مُكوَّنٌ في نُفوسِهم وجِبِلَّتِهم قد ثَبَّتَتْه الأيَّامُ، ورَسَّخَه تعاقُبُ الأجيالُ، فرانَ بغِشاوَتِه على ألْبابِهم[3].

- وفي قَولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ أُريدَ مِن نَفيِ الهادِي نَفيُ حُصولِ الاهتِداءِ؛ فكُنِّيَ عن عَدَمِ حُصولِ الهُدَى بانتِفاءِ الهادي؛ لأنَّ عَدَمَ الاهتِداءِ يَجعَلُ هادِيَهم كالمَنْفيِّ، ونَظيرُ ذلك قَولُه: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، والآيتانِ مُتَساوِيَتانِ في إفادةِ نَفْيِ جِنسِ الهادي، إلَّا أنَّ إفادةَ ذلك هُنا بزِيادةِ (مِنْ) تَنْصيصًا على نَفيِ الجِنْسِ، وفي آيةِ (الأعْرافِ) ببِناءِ ﴿هَادِيَ﴾ على الفَتْحِ بعدَ (لا) النَّافِيَةِ للجِنْسِ؛ فإنَّ بِناءَ اسْمِها على الفَتحِ مُشعِرٌ بأنَّ المُرادَ نَفيُ الجِنْسِ نصًّا، والاختِلافُ بيْنَ الأُسلُوبَينِ تَفنُّنٌ في الكَلامِ، وهو مِن مَقاصِدِ البُلَغاءِ.

وتَقْديمُ ﴿لَهُۥ﴾ هنا على ﴿هَادِيَ﴾؛ للاهتِمامِ بضَميرِهم في مَقامِ نَفْيِ الهادي

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٤٠) و(٢١/ ١٤٧) و(٢٤/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٤).

لهم؛ لأنَّ ضَلالَهم المَحْكيَّ هنا بالِغٌ في الشَّناعةِ؛ إذْ بَلَغ بهم حَدَّ الطَّمَعِ في تَخْويفِ النَّبيِّ بأصْنامِهم في حالِ ظُهورِ عَدَمِ اعتِدادِه بأصْنامِهم لِكُلِّ مُتأمِّلٍ مِن حالِ دَعْوَتِه، وإذْ بَلَغ بهم اعتِقادَ مَقدِرةِ أصْنامِهم، مع الغَفْلةِ عن قُدْرةِ الرَّبِّ الحَقِّ، بخِلافِ آيةِ (الأعْرافِ)؛ فإنَّ فيها ذِكْرَ إعْراضِهم عن النَّظَرِ في مَلَكوتِ السَّمَواتِ والأرضِ، وهو ضَلالٌ دُونَ ضَلالِ التَّخْويفِ مِن بأْسِ أصْنامِهم[١].

- والَّذي اقتضَى جُملةَ ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ هنا: أنَّ الكَلامَ اقْتَضى فَريقَينِ: فَريقًا مُتمسِّكًا باللهِ القَادِرِ على النَّفْعِ والضُّرِّ، وهو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمِنونَ، وفريقًا آخَرَ مُسْتَمسِكًا بالأصْنامِ العاجِزةِ عن الأمْرَينِ؛ فلمَّا بُيِّنَ أنَّ ضَلالَ الفَريقِ الثَّاني ضَلالٌ مَكينٌ، ببَيانِ أنَّ هُدى الفَريقِ الآخَرِ راسِخٌ مَتينٌ؛ فلا مَطمَعَ للفَريقِ الضَّالِّ بأنْ يَجُرُّوا المُهتَدِينَ إلى ضَلالِهِم[٢].

- وقولُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ تَعْليلٌ لإنكارِ انتِفاءِ كِفايةِ اللهِ عن ذلك كإنْكارِ أنَّ اللهَ عَزيزٌ ذو انتِقامٍ؛ فلذلك فُصِلَتِ الجُملةُ عن الَّتي قَبْلَها[٣].

- والاستِفْهامُ تَقْريريٌّ؛ لأنَّ العِلمَ بعِزَّةِ اللهِ مُتقرِّرٌ في النُّفوسِ؛ لاعتِرافِ الكُلِّ بإلَهيَّتِه، والإلهيَّةُ تَقتَضي العِزَّةَ، ولأنَّ العِلمَ بأنَّه مُنتقِمٌ مُتقرِّرٌ مِن مُشاهَدةِ آثارِ أخْذِه لِبَعضِ الأُمَمِ مِثلِ عادٍ وثَمودَ، فإذا كانوا يُقِرُّونَ للهِ بالوَصفَينِ المَذكُورَينِ، فما عليهم إلَّا أنْ يَعلَموا أنَّه كافٍ عَبْدَه بعِزَّتِه، فلا يَقدِرُ أحَدٌ على إصابةِ عَبدِه بسُوءٍ، وبانتِقامِه مِن الَّذين يَبتَغونَ لِعَبدِه الأذَى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٢).

- وفيه وَعيدٌ لِقُريشٍ، ووَعْدٌ للمُؤمِنينَ بأنَّه يَنتقِمُ لهم منهم، ويَنصُرُهم عليهم[١].

- وإظهارُ الاسْمِ الجَليلِ ﴿ٱللَّهُ﴾ في مَوقعِ الإضْمارِ؛ لِتَحْقيقِ مَضْمونِ الكَلامِ، وتَربيةِ المَهابةِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ [الزمر: ٣٧] وجُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فالواوُ اعتِراضيَّةٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ مَعْطوفًا على جُملةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وهو تَمْهيدٌ لِمَا يأتي بَعْدَه مِن قَولِه: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه قُصِدَ به التَّوطِئةُ إليه بما لا نِزاعَ فيه؛ لأنَّهم يَعترِفونَ بأنَّ اللهَ هو المُتصرِّفُ في عَظائمِ الأُمورِ، أي: خلَقَهُما وما تَحْويانِه[٣].

- وجاءَتْ جُملةُ ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على أُسلوبِ حِكايةِ المُقاوَلةِ والمُجاوَبةِ لِكَلامِهِم المَحْكيِّ بجُملةِ ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾؛ ولذلك لم تُعطَفِ الثَّانيةُ بالواوِ ولا بالفاءِ، والمَعْنى: لَيَقولُنَّ اللهُ، فقُلْ تَبْكيتًا لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ إلخ[٤].

- والفاءُ مِن ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ لِتَفْريعِ الاستِفْهامِ الإنْكاريِّ على جَوابِهم، تَفْريعًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦).

يُفيدُ مُحاجَّتَهم على لازِمِ اعترافِهم بأنَّ اللهَ هو خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ، وهذا تَفْريعُ الإلْزامِ على الإقْرارِ، والنَّتيجةِ على الدَّليلِ؛ فإنَّهم لَمَّا أقَرُّوا بأنَّه خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ يَلزَمُهُم أنْ يُقِرُّوا بأنَّه المُتصرِّفُ فيما تَحْويهِ السَّمَواتُ والأرضُ[1].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا﴾ أنَّه لَمَّا كان السَّائلُ النَّصوحُ يَنبغي له أن يُنَبِّهَ الخَصْمَ على محلِّ النُّكتةِ؛ لِيَنتبهَ مِن غفلتِه فيَرجِعَ عن غلطتِه؛ عبَّر بأداةِ ما لا يَعقِلُ (ما) عن مَعبوداتِهم بعدَ التَّعبيرِ عنها سابقًا بأداةِ الذُّكورِ العُقلاءِ (الَّذِينَ) [الزمر: ٣٦]؛ بيانًا لِغَلَطِهم[2].

- وفي قولِه: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ جِيءَ بحَرفِ (هل) في جَوابِ الشَّرطِ -وهي للاستِفْهامِ الإنْكاريِّ-؛ تَأْكيدًا لِمَا أفادَتْه هَمْزةُ الاستِفْهامِ، مع ما في (هَلْ) من إفادةِ التَّحْقيقِ[3].

- وضَميرُ (هُنَّ) في قولِه: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ عائِدٌ إلى (مَا) المَوْصولةِ، وكذلك الضَّمائِرُ المُؤنَّثةُ الواردةُ بَعْدَه ظاهِرةٌ ومُستَتِرةٌ؛ إمَّا لأنَّ ما صَدَقَ[4] (مَا) المَوْصولةِ هُنا أحْجارٌ غَيرُ عاقِلةٍ، وجَمْعُ غَيرِ العُقَلاءِ يَجْري على اعتِبارِ التَّأنيثِ، ولأنَّ ذلك يُصيِّرُ الكَلامَ مِن قَبيلِ الكَلامِ المُوجَّهِ بأنَّ آلِهتَهم كالإناثِ لا تَقدِرُ على النَّصْرِ؛ ففيه تَضْعيفٌ وتَعْجيزٌ عمَّا طالَبَهم به مِن كَشْفِ الضُّرِّ وإمْساكِ الرَّحْمةِ؛ لأنَّ الأُنوثةَ مِن بابِ اللِّينِ والرَّخاوَةِ، كما أنَّ الذُّكورةَ مِن بابِ الشِّدَّةِ والصَّلابةِ، كأنَّه قال: الإناثُ اللَّاتي هُنَّ اللَّاتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧).

(٤) تقدَّم تعريفه (ص: ٢١٥).

والعُزَّى ومَناةُ أضعَفُ ممَّا تَدَّعُونَ لَهُنَّ وأعجَزُ، وفيه تَهكُّمٌ أيضًا[١].

- والجَوابُ في هذا الاستِخْبارِ ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ مَحْذوفٌ؛ وإنَّما تُرِكَ الجوابُ لاستِغناءِ السَّامعِ بمَعرفةِ ذلك، ودَلالةِ ما ظهَرَ مِن الكلامِ عليه، والتَّقْديرُ: فإنَّهم سَيَقولونَ: لا تَقدِرُ على شَيءٍ مِن ذلك[٢].

- وعُدِلَ عن تَعديةِ فِعْلِ الإرادةِ لِلضُّرِّ والرَّحمةِ في قولِه: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ إلى تَعديَتِه لِضَميرِ المُتكلِّمِ، مع أنَّ مُتعلَّقَ الإراداتِ المَعاني دُونَ الذَّواتِ؛ فكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (إنْ أرادَ ضُرِّي أو أرادَ رَحْمَتي)؛ وذلك لِقَصْدِ الاهتِمامِ بالمُرادِ به؛ لإيصالِ المُرادِ إليه حتَّى كأنَّ ذاتَه هي المُرادُ لِمَنْ يُريدُ إيصالَ شَيءٍ إليه[٣].

- وأيضًا إنَّما فَرَض إرادةَ الضُّرِّ وإرادةَ الرَّحْمةِ في نَفْسِه دُونَ أنْ يقولَ: (إنْ أرادَكُم)؛ لأنَّ الكَلامَ مُوجَّهٌ إلى ما خَوَّفوه مِن ضُرِّ أصْنامِهم إيَّاه؛ فأُمِر بأنْ يُقرِّرَهم أوَّلًا بأنَّ خالِقَ العالَمِ هو اللهُ وَحْدَه، ثُمَّ يقولَ لهم بعدَ التَّقْريرِ: فإذا أرادني خالِقُ العالَمِ الَّذي أقرَرْتُم به بضُرٍّ مِن مَرَضٍ أو فَقرٍ أو غَيرِ ذلك من النَّوازِلِ، أو بِرَحْمةٍ مِن صِحَّةٍ أو غِنًى أو نَحوِهما، هل هؤلاءِ اللَّاتي خَوَّفْتُموني إيَّاهُنَّ كاشِفاتٌ عَنِّي ضُرَّه أو مُمْسِكاتٌ رَحْمَتَه؟ وأيضًا لِمَا فيه مِن الإيذانِ بإمْحاضِ النَّصيحةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧، ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩٢)، =

- قولُه: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لَمَّا أَلْقَمَهمُ الحَجَرَ وقَطَعَهم حتَّى لا يُجيبوا بكلمةٍ، قال: حَسْبِيَ اللهُ كافِيًا لِمَعَرَّةِ أَوْثانِكُم، عليه يَتوكَّلُ المُتوكِّلُون. وفيه تَهكُّمٌ؛ لأنَّه لا مَعَرَّةَ للأَوْثانِ[1].

- وفي قولِه: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أُعيدَ الأمْرُ بالقَولِ، ولم يَنتظِمْ ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ في جُملةِ الأمْرِ الأوَّلِ؛ لأنَّ هذا المَأْمورَ بأنْ يقولَه ليس المَقْصودُ تَوْجيهَه إلى المُشركينَ؛ فإنَّ فيما سَبَقه مَقنَعًا مِن قِلَّةِ الاكتِراثِ بأصْنامِهم، وإنَّما المَقْصودُ أنْ يكونَ هذا القَولُ شِعارَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جَميعِ شُؤونِه، وفيه حَظٌّ للمُؤمِنينَ معه حاصِلٌ مِن قَولِه: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ فإعادةُ فِعلِ ﴿قُلْ﴾ للتَّنبيهِ على استِقْلالِ هذا الغَرَضِ عن الغَرَضِ الَّذي قَبْلَه[2].

- والحَسْبُ: الكافي، وحُذِفَ المُتعلِّقُ في هذه الجُملةِ لِعُمومِ المُتعلِّقاتِ، أي: حَسْبِيَ اللهُ مِن كُلِّ شَيءٍ، وفي كُلِّ حالٍ، والمُرادُ بقَولِه اعتِقادُه، ثمَّ تَذَكُّرُه، ثمَّ الإعلانُ به؛ لِتَعْليمِ المُسلِمينَ، وإغاظةِ المُشركينَ[3].

- وجُملةُ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يجوزُ أنْ تَكونَ ممَّا أُمِرَ بأنْ يَقولَه تَذكُّرًا مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَعْليمًا للمُسلِمينَ، فتكونَ الجُملةُ تَذْييلًا للَّتي قَبْلَها؛ لأنَّها أعَمُّ منها باعتِبارِ القائِلينَ؛ لأنَّ (حَسْبِيَ اللهُ) يَؤولُ إلى مَعْنى: تَوكَّلتُ على اللهِ، أي: حَسْبِي أنا، وحَسْبُ كُلِّ مُتوكِّلٍ، أي: كُلِّ مُؤمِنٍ يَعرِفُ

---

= ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٢٩، ١٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨).

اللهَ حقَّ مَعرِفَتِه، ويَعتَمِدُ على كِفايَتِه دُونَ غَيرِه؛ فتَعْريفُ ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ للعُمومِ العُرفيِّ[1]، أي: المُتوكِّلونَ الحَقيقيُّونَ؛ إذْ لا عِبْرَةَ بغَيرِهم. ويجوزُ أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ مِن كَلامِ اللهِ تعالى خاطَبَ به رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولم يَأمُرْه بأنْ يَقولَه؛ فتَكونَ الجُملةُ تَعْليلًا للأمْرِ بقَولِ: حَسْبِيَ اللهُ، أي: اجْعَلِ اللهَ حَسْبَكَ؛ لأنَّ أهْلَ التَّوكُّلِ يَتوكَّلونَ على اللهِ دُونَ غَيرِه، وهُمُ الرُّسُلُ والصَّالِحونَ، فكُنْ مِثلَهم في ذلك[2].

- وتَقْديمُ المَجْرورِ ﴿عَلَيْهِ﴾ على ﴿يَتَوَكَّلُ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ؛ لأنَّ أهْلَ التَّوكُّلِ الحَقيقيِّينَ لا يَتوكَّلون إلَّا على اللهِ تعالى، وذلك تَعْريضٌ بالمُشرِكينَ؛ إذ اعْتَمَدوا في أُمورِهم على أصْنامِهم[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾

- لم تُعطَفْ جُملةُ ﴿قُلْ﴾ على جُملةِ ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٣٨]؛ لِدَفعِ

---

(١) العُموم العُرْفي: هو نقْلُ العُرفِ للَّفظِ مِن معناه اللُّغويِّ، واستِعمالُه في معنًى أعَمَّ منه وتكرَّر استِعمالُه فيه، حتَّى شاع فأصبحَ حقيقةً عُرفيَّةً، ومِن صِيَغِ الدَّلالةِ على العموم عُرفًا دونَ اللغة: صيغةُ (أكل) في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨]؛ فالمعنى اللُّغويُّ لِلَفْظةِ (أكل) واضحٌ، لكنَّه غيرُ مرادٍ للشَّارعِ هنا، وإنَّما أراد ما هو أعَمُّ منه عُرْفًا، وهو أنَّ كلَّ إتلافٍ لمالِ الغيرِ وحقِّه، وكلَّ تَجاوُزٍ عليه بدونِ مُسَوِّغٍ شرعيٍّ، فهو مُحرَّمٌ كحُرمةِ الأكْلِ بالمعنى اللُّغويِّ دونَ إذنِ صاحبِه، أو بدونِ حقٍّ. يُنظر: ((الإشارة في معرفة الأصول)) لأبي الوليد الباجي (ص: ٥)، ((المحصول في علم الأصول)) للفخر الرازي (١/ ٥١٦)، ((مفتاح الوصول)) لأبي عبد الله التلمساني (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَوهُّمِ أنْ يَكونَ أمْرُه ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ لِقَصدِ إبلاغِه إلى المُشرِكينَ، ولأنَّها انتِقالٌ مِن غَرَضِ الدَّعوةِ والمُحاجَّةِ إلى غَرَضِ التَّهْديدِ، وابْتَدَأَ المَقولُ بالنِّداءِ بوَصفِ القَومِ؛ لِمَا يُشعِرُ به مِن التَّرقيقِ لِحالِهم، والأَسَفِ على ضَلالِهم؛ لأنَّ كَونَهم قَومَه يَقتَضي ألَّا يَدَّخِرَهم نُصحًا[1].

- قولُه: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ كان مُقتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (فإنِّي عاملٌ على مَكانتي)، وإنَّما حُذِفَ؛ للاختصارِ، ولِما فيه مِن زِيادةِ الوعيدِ، والإيذانِ بأنَّ حالَه لا تقِفُ، وتَزدادُ كلَّ يومٍ قوَّةً وشِدَّةً؛ لأنَّ اللهَ ناصِرُه ومُعِينُه، ومُظهِرُه على الدِّين كلِّه، والدَّليلُ على أنَّ في تَرْكِ ذِكرِ (مَكانتي) زيادةً في الوعيدِ والإنذارِ، وأنَّ حالَه لم تزَلْ في التَّزايُدِ إلى الأبدِ قولُه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، وكيف أنَّه تَوعَّدَهم بكَونِه مَنْصورًا عليهم، غالِبًا عليهم في الدُّنيا والآخِرةِ؛ لأنَّهم إذا أتاهُمُ الخِزيُ والعَذابُ فذاك عِزُّه وغَلَبَتُه، مِن حيثُ إنَّ الغَلَبةَ تَتِمُّ له بعِزِّ عَزيزٍ مِن أوْليائِه، أو بِذُلِّ ذَليلٍ مِن أعدائِه، وكان مِن حَقِّ الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (فسوفَ تَعْلَمونَ مَكانَتي وأنِّي غالِبٌ عليكم في الدُّنيا والآخرةِ)؛ فوُضِعَ مَوضِعَ (عَذابِ الدُّنيا) قَولُه: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي: عذابٌ مُخزٍ له، وهو يومُ بدرٍ، ووُضِعَ موضعَ (عَذابِ الآخِرَةِ) قَولُه: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أي: يَنزِلُ عليه أو يحِلُّ عليه -حُلولَ الدَّينِ الَّذي لا انفكاكَ عنه- عذابٌ دائمٌ، وهو عذابُ النَّارِ؛ فحُذِفَ مُتعلِّقُ ﴿إِنِّى عَٰمِلٌ﴾؛ لِيَعُمَّ كُلَّ مُتعلِّقٍ يَصلُحُ أنْ يَتعلَّقَ بعامِلٍ مع الاختِصارِ؛ فإنَّ مُقابَلَتَه بقَولِه: ﴿ٱعْمَلُوا۟

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩، ٢٠).

عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ يدُلُّ على أنَّه أرادَ مِن ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ أنَّه ثابتٌ على عَمَلِه في نُصحِهم ودَعْوَتِهم إلى ما يُنجيهم، وأنَّ حَذْفَ ذلك مُشعِرٌ بأنَّه لا يَقتصِرُ على مِقْدارِ مَكانَتِه وحالَتِه، بل حالُه تَزْدادُ كُلَّ حينٍ قُوَّةً وشِدَّةً، لا يَعْتريها تَقْصيرٌ، ولا يُثبِّطُها إعْراضُهم، وهذا مِن مُستَتْبَعاتِ الحَذفِ[1].

- وأُسنِدَ فِعلُ ﴿يَأْتِيهِ﴾ إلى العَذابِ المُخْزي؛ لأنَّ الإتيانَ مُشعِرٌ بأنَّه يُفاجِئُهم كما يَأْتي الطَّارِقُ، وكذلك إسنادُ فِعْلِ (يَحِلُّ) إلى العَذابِ المُقيمِ؛ لأنَّ الحُلولَ مُشعِرٌ بالمُلازَمةِ والإقامةِ معهم، وهو عذابُ الخُلودِ؛ ولذلك يُسمَّى مَنزِلُ القَومِ (حِلَّةً)، ويُقالُ للقَومِ القاطِنينَ غَيرِ المُسافِرينَ: هُمْ حِلالٌ، فكان الفِعلُ مُناسِبًا لِوَصْفِه بالمُقيمِ[2].

- وتَنْوينُ ﴿عَذَابٌ﴾ في المَوضِعَينِ؛ للتَّعْظيمِ المُرادِ به التَّهْويلُ[3].

- وتَعدِيةُ فِعْلِ (يَحِلُّ) بحَرفِ (على)؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِه[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تَعالى هنا: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ لِيَكونَ التَّهْديدُ بعَذابٍ خِزيٍ في الدُّنيا، وعَذابٍ مُقيمٍ في الآخِرةِ؛ فأمَّا قَولُه: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ﴾ [الأنعام: ١٣٥]، فلم يُذكَرْ فيها العَذابُ؛ لأنَّها جاءَتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٣/ ١٣٤) و(٥/ ٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩٣، ٣٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعدَ تَهْديدِهم بقَولِه: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾[١] [الأنعام: ١٣٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾

- قيل: إنَّ قولَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ...﴾ تَعْليلٌ للأمْرِ بأنْ يقولَ لهم: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾، المُفيدِ مُوادَعَتَهم، وتَهْوينَ تَصْميمِ كُفْرِهم عليه، وتَثْبيتَه على دَعْوتِه، والمَعْنى: لأنَّا نَزَّلْنا عليك الكِتابَ بالحَقِّ لِفائِدةِ النَّاسِ[٢].

- واللَّامُ في ﴿لِلنَّاسِ﴾ للعِلَّةِ، أي: لأَجْلِ النَّاسِ. وفي الكَلامِ مُضافٌ مَفْهومٌ ممَّا تُؤذِنُ به اللَّامُ مِن مَعْنى الفائِدةِ والنَّفعِ، أي: لِنَفعِ النَّاسِ، أو ممَّا يُؤذِنُ به التَّفْريعُ في قَولِه: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ...﴾ إلخ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾، أي: لَسْتَ مأمورًا بإرغامِهم على الاهتِداءِ، فصِيغَ الخَبرُ في جُملةٍ اسميَّةٍ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ حُكمِ النَّفيِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ خُولِفَ بيْنَه وبيْنَ قَولِه في صَدرِ السُّورةِ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٢]؛ لأنَّ تلك في غَرَضِ التَّنويهِ بشَأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فناسَبَ أنْ يكونَ إنْزالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٢).

الكِتابِ إليه، وأمَّا هنا فالمعنى: أنَّ مَن ضلَّ فلمْ يَهتَدِ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فضَلالُه على نفْسِه، وما عليه مِن ضَلالِهم تَبِعةٌ[1].

- وأيضًا تقدَّمَ نَظيرُ هذه الآيةِ: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ في آخِرِ سُورةِ (يُونس): ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٨]، وفي آخِرِ سُورةِ (النَّمْلِ) في قَولِه: ﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾ [النمل: ٩١، ٩٢]، ولكِنْ جِيءَ في تَينِكَ الآيتَينِ بصِيغةِ قَصرِ الاهتِداءِ على نَفْسِ المُهْتدي ﴿فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦ﴾، وتُرِكَ ذلك في هذه السُّورةِ، حيث قال: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦ﴾؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ تَينِكَ الآيتَينِ وارِدَتانِ بالأمْرِ بمُخاطَبةِ المُشرِكينَ؛ فكان المَقامُ فيهما مُناسِبًا لإفادةِ أنَّ فائِدةَ اهتِدائِهم لا تَعودُ إلَّا لأنفُسِهم، أي: ليستْ لي مَنفَعةٌ مِن اهتِدائِهم، خلافًا لهذه الآيةِ؛ فإنَّها خِطابٌ مُوجَّهٌ مِن اللهِ تعالى إلى رَسولِهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس فيها حالُ مَن يُنزَّلُ مَنزِلةَ المُدِلِّ باهْتِدائِه. أمَّا قَولُه: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾ فصِيغةُ القَصرِ فيه لِتَنْزيلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في أسَفِه على ضَلالِهم المُفْضِي بهم إلى العَذابِ، مَنزِلةَ مَن يَعودُ عليه مِن ضَلالِهم ضُرٌّ؛ فخُوطِبَ بصِيغةِ القَصرِ، وهو قَصرُ قَلبٍ[2] على خِلافِ مُقتَضَى الظَّاهِرِ؛ ولذلك اتَّحَدَتِ الآياتُ الثَّلاثُ في الاشتِمالِ على القَصرِ بالنِّسْبةِ لجانِبِ ضَلالِهم؛ فإنَّ قَولَه في سُورةِ (النَّمْلِ): ﴿فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢] في مَعْنى قولِه هنا: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا﴾، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٦).

ليس ضَلالُكُم علَيَّ؛ فإنَّما أنا مِن المُنذِرينَ، وهذه نُكَتٌ مِن دَقائِقِ إعْجازِ القُرآنِ[١].

- وقيل: إنَّما قال هنا: ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ بحذفِ (فإنَّما يَهْتدي) -المذكورِ في (يُونس) و(الإسراء)-؛ اكتِفاءً بما ذكَرَه بقولِه قبْلُ: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ * وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٦).

## الآيات (٤٢-٤٥)

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شُفَعَآءَ﴾: جَمْعُ شَفيعٍ، والشَّفاعةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ: إذا جاءَ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعِينًا له؛ والشَّفْعُ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه، وأصلُ (شفع): يدلُّ على مقارنةِ الشيئينِ[1].

﴿ٱشْمَأَزَّتْ﴾: أي: انقَبَضَت ونَفَرَت، يُقالُ: اشمأَزَّ الرَّجُلُ اشمِئزازًا: انقَبَض، واجتَمَع بَعضُه إلى بَعضٍ[2].

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: أي: يَفرَحونَ، وأصلُ (بشر): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجَمالٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٩).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبَيِّنًا كمالَ قدرتِه، ونفاذَ مشيئتِه: اللهُ يَتوفَّى الأرواحَ حينَ انقِضاءِ أجَلِ أصحابِها، ويَتوفَّى اللهُ الأرواحَ الَّتي لم يَنقَضِ بَعْدُ أجَلُ أصحابِها، في نَومِهم؛ فيَحبِسُ اللهُ الأرواحَ الَّتي حَكَم على أصحابِها بالمَوتِ، فلا يَرُدُّ أرواحَهم إلى أجسادِهم، ويُرسِلُ اللهُ أرواحَ الأحياءِ حينَ استيقاظِهم مِن مَنامِهم، فتَعودُ إلى أجسادِهم فلا يَتوفَّاها اللهُ الوَفاةَ الكُبرى إلَّا حينَ انقِضاءِ أجَلِهم في الحياةِ الدُّنيا، إنَّ في ذلك لَعَلاماتٍ وعِظاتٍ لِقَومٍ يَتفَكَّرونَ.

ثمَّ يقولُ الله تعالى منكرًا على المشركينَ: أمِ اتَّخَذ أولئك المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ آلِهةً يَعبُدونَها؛ لِتَشفَعَ لهم عندَ اللهِ؟

ثمَّ يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يردَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ لهم يا مُحمَّدُ: أيَتَّخِذونَ تلك الأصنامَ شُفَعاءَ لهم، ولو كانت لا تَملِكُ شَيئًا ولا تَعقِلُ؟!

ثُمَّ يأمرُ نبيَّه أنْ يُخْبِرَهم أنَّ الشَّفاعةَ لِلهِ وَحْدَه، فيقولُ: قُلْ لهم يا مُحمَّدُ: لله وَحْدَه الشَّفاعةُ جَميعًا، فلا يَملِكُ أحَدٌ سِواه شيئًا منها، وهو وَحْدَه يأذَنُ بها لِمَن شاء، له سُبحانَه وتعالى وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، ثمَّ إليه وَحْدَه تُرجَعونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه أحوالَ هؤلاء المشرِكينَ عندَما يُذكَرُ وحْدَه، فيقولُ: وإذا ذُكِرَ اللهُ تعالى وَحْدَه دونَ غَيرِه مِن المعبوداتِ الباطِلةِ انقَبَضَت قُلوبُ المُشرِكين، وإذا ذُكِرَت آلهتُهم اشتدَّ فرَحُهم واستَبشَروا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بَيَّن تعالى في الآيةِ السَّابِقةِ أنَّ الهِدايةَ والضَّلالَ لا يَحصُلانِ إلَّا مِنَ اللهِ تعالى؛ وذلك لأنَّ الهِدايةَ تُشبِهُ الحياةَ واليَقَظةَ، والضَّلالَ يُشبِهُ الموتَ والنَّومَ، وكما أنَّ الحياةَ واليَقَظةَ -وكذلك الموتُ والنَّومُ- لا يَحصُلانِ إلَّا بتخليقِ اللهِ عزَّ وجَلَّ وإيجادِه؛ فكذلك الهدايةُ والضَّلالُ لا يَحصُلانِ إلَّا مِنَ الله تعالى، ومَن عَرَف هذه الدَّقيقةَ فقد عَرَف سِرَّ اللهِ تعالى في القَدَرِ، ومَن عَرَف سِرَّ اللهِ تعالى في القَدَر هانت عليه المصائِبُ؛ فيَصيرُ التَّنبيهُ على هذه الدَّقيقةِ سَبَبًا لِزَوالِ ذلك الحُزنِ عن قَلبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهذا وَجهُ النَّظمِ في الآيةِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى أنَّه أنزَلَ الكتابَ على رسولِه بالحقِّ للنَّاسِ؛ نَبَّه على آيةٍ مِن آياتِه الكُبْرى تدُلُّ على الوَحدانِيَّةِ، لا يَشْرَكُه في ذلك صَنَمٌ ولا غيرُه، فقال[2]:

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا ﴾.

أي: اللهُ يَتوفَّى الأرواحَ حينَ انقِضاءِ أجَلِ أصحابِها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٥٧٠، ٥٧١)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٠، ٢١، ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣، ٢٤).

قال القرطبي: (اختلَف النَّاسُ مِن هذه الآيةِ في النَّفْسِ والرُّوحِ؛ هل هما شَيءٌ واحدٌ أو شَيْئانِ؟ ... والأظهرُ أنَّهما شَيءٌ واحدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦١).

وقال أبو حيَّان: (الَّذي يدُلُّ عليه الحديثُ واللُّغةُ أنَّ النَّفْسَ والرُّوحَ مُترادِفانِ، وأنَّ فِراقَ ذلك مِن الجسدِ هو الموتُ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٧).

وقال ابنُ القَيِّم: (الأنفُسُ هاهنا هي الأرواحُ قَطعًا). ((الروح)) (ص: ١٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (الأنفُسُ: جمعُ نَفْسٍ، وهي الشَّخصُ والذَّاتُ؛ قال تعالى: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾، وتُطلَقُ على الرُّوحِ الَّذي به الحياةُ والإدراكُ، ومعنى التَّوفِّي يَتعلَّقُ بالأنفُسِ على =

﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾.

أي: ويَتوفَّى اللهُ في المنامِ الأرواحَ الَّتي لم يَنقَضِ بَعْدُ أجَلُ أصحابِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾ [الأنعام: ٦٠].

﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾.

أي: فيَحبِسُ اللهُ الأرواحَ الَّتي حَكَم على أصحابِها بالموتِ، فلا يَرُدُّ أرواحَهم إلى أجسادِهم في الدُّنيا[2].

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾.

أي: ويُرسِلُ اللهُ أرواحَ الأحياءِ حينَ استيقاظِهم مِن مَنامِهم، فتَعودُ إلى أجسادِهم، فلا يَتوفَّاها اللهُ الوَفاةَ الكُبرى إلَّا حينَ انقِضاءِ أجَلِهم في الحياةِ

---

= كِلا الإطلاقَينِ، والمعنى: يَتوفَّى النَّاسَ الَّذين يَموتون؛ فإنَّ الَّذي يُوصَفُ بالموتِ هو الذَّاتُ لا الرُّوحُ، وإنَّ توَفِّيَها سَلْبُ الأرواحِ عنها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤).

قال ابنُ عطيَّة: (يكفيك أنَّ في هذه الآيةِ ﴿يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾، وفي الحديثِ الصَّحيحِ: «إنَّ اللهَ قَبَض أرواحَنا حينَ شاء، ورَدَّها علينا حينَ شاء» في حديث بلالٍ في الوادي؛ فقد نَطَقَت الشَّريعةُ بقَبضِ الرُّوحِ والنَّفْسِ في النَّومِ، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فظاهِرٌ أنَّ التَّفصيلَ والخَوضَ في هذا كُلُّه عَناءٌ، وإن كان قد تعَرَّضَ للقَولِ في هذا ونحوِه أئمَّةٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٣، ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٦)، ((شرح حديث النزول)) لابن تيمية (ص: ٩٤)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٠، ٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

الدُّنيا[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا أوى أحَدُكم إلى فِراشِه فلْيَأخُذْ داخِلةَ إزارِه[٢]، فلْيَنفُضْ بها فِراشَه، ولْيُسَمِّ اللهَ؛ فإنَّه لا يَعلَمُ ما خَلَفَه بَعْدَه على فِراشِه[٣]، فإذا أراد أن يَضْطَجِعَ فلْيَضْطَجِعْ على شِقِّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

قال ابنُ القيِّم: (أحَدُ القَولَينِ في الآيةِ... أنَّ المُمسَكةَ مَن تُوُفِّيَت وفاةَ الموتِ أوَّلًا، والمُرسَلةَ مَن تُوُفِّيَت وفاةَ النَّومِ، والمعنى على هذا القَولِ: أنَّه يَتوفَّى نَفْسَ الميِّتِ فيُمسِكُها ولا يُرسِلُها إلى جَسَدِها قبْلَ يومِ القيامةِ، ويَتوفَّى نَفْسَ النَّائمِ ثمَّ يُرسِلُها إلى جَسَدِه إلى بَقيَّةِ أجَلِها فيَتوفَّاها الوَفاةَ الأُخرى.

والقَولُ الثَّاني في الآيةِ: أنَّ المُمسَكةَ والمُرسَلةَ في الآيةِ كِلاهما تُوُفِّيَ وَفاةَ النَّومِ؛ فمَنِ استكمَلَت أجَلَها أمسَكَها عِندَه، فلا يَرُدُّها إلى جَسَدِها، ومَن لم تَستكمِلْ أجَلَها رَدَّها إلى جَسَدِها لتَستكمِلَه.

واختار شيخُ الإسلامِ هذا القولَ، وقال: عليه يدُلُّ القُرآنُ والسُّنَّةُ، قال: فإنَّه سُبحانَه ذَكَر إمساكَ الَّتي قضَى عليها المَوتَ مِن هذه الأنفُسِ الَّتي تَوَفَّاها وَفاةَ النَّومِ، وأمَّا الَّتي توَفَّاها حين مَوْتِها فتلك لم يَصِفْها بإمساكٍ ولا بإرسالٍ، بل هي قِسمٌ ثالثٌ.

والَّذي يَترجَّحُ هو القَولُ الأوَّلُ؛ لأنَّه سُبحانَه أخبَرَ بوفاتَينِ: وَفاةٍ كُبرى، وهي وفاةُ المَوتِ، ووَفاةٍ صُغرى، وهي وَفاةُ النَّومِ، وقَسَّم الأرواحَ قِسْمَينِ: قِسمًا قَضَى عليها بالموتِ فأمسَكَها عِندَه، وهي الَّتي تَوفَّاها وفاةَ المَوتِ، وقِسمًا لها بقيَّةُ أجَلٍ، فرَدَّها إلى جَسَدِها إلى استِكمالِ أجَلِها، وجَعَل سُبحانَه الإمساكَ والإرسالَ حُكمَينِ للوَفاتَينِ المذكورتَينِ أوَّلًا؛ فهذه مُمسَكةٌ، وهذه مُرسَلةٌ، وأخبَرَ أنَّ الَّتي لم تَمُتْ هي الَّتي توَفَّاها في مَنامِها، فلو كان قد قَسَّم وَفاةَ النَّومِ إلى قِسمَينِ: وَفاةِ مَوتٍ، ووَفاةِ نَومٍ؛ لم يَقُلْ: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾؛ فإنَّها مِن حينِ قُبِضَت ماتت، وهو سُبحانَه قد أخبَرَ أنَّها لم تَمُتْ، فكيف يقولُ بعدَ ذلك ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾؟!). ((الروح)) (ص: ٢٠). ويُنظر: ((شرح حديث النزول)) لابن تيمية (ص: ٩٤).

(٢) داخِلةَ إزارِه: أي: طَرَفَ الإزارِ المُتَدَلِّي الدَّاخِلَ إلى البَدَنِ، الَّذي يَلِي الجَسَدَ. يُنظر: ((غريب الحديث)) لأبي عبيد (٤/ ٧٠)، ((تفسير الموطأ)) للقَنازِعي (٢/ ٧٦١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٣٧).

(٣) أيْ: ما صارَ بعْدَه خَلَفًا وبَدَلًا عنه إذا غابَ. وقيل: معناه: لا يَدْري ما وَقَع في فِراشِه بعدَما =

الأيمَنِ، ولْيَقُلْ: سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبِّي، بك وضَعْتُ جنبي، وبك أرفَعُه، إنْ أمسَكْتَ نَفْسي فاغفِرْ لها، وإنْ أرسَلْتَها فاحفَظْها بما تحفَظُ به عِبادَك الصَّالِحينَ))[١].

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا أوَى إلى فِراشِه قال: باسمِك أموتُ وأحْيا، وإذا قام قال: الحَمدُ لله الَّذي أحيانَا بعدَ ما أماتَنا، وإليه النُّشورُ))[٢].

وعن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سِرْنا معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيْلَةً، فقال: بعضُ القوم: لو عَرَّسْتَ[٣] بنا يا رسولَ اللهِ، قال: أخافُ أنْ تَناموا عن الصَّلاةِ، قال بلالٌ: أنا أُوقِظُكم، فاضْطَجَعوا، وأسْنَد بلالٌ ظهرَه إلى راحِلَتِه، فغَلَبَتْه عَيْناهُ فنام، فاسْتَيْقَظ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد طَلَع حَاجِبُ الشَّمْسِ، فقال: يا بلالُ، أينَ ما قُلْتَ؟ قال: ما أُلْقِيَتْ عَلَيَّ نَوْمَةٌ مِثْلُها قَطُّ، قال: إنَّ اللهَ قَبَض أرواحَكم حِينَ شاءَ، ورَدَّها عليكم حِينَ شاءَ، يا بلالُ، قُمْ فأَذِّنْ بالنَّاسِ بالصَّلاةِ، فتوَضَّأَ، فلَمَّا ارْتَفَعت الشَّمسُ وابياضَّتْ، قام فصَلَّى))[٤].

وفي روايةٍ عن أبي قَتادةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ قَبَض أرواحَكم حينَ شاء، ورَدَّها حينَ شاء، فقَضَوا حوائِجَهم، وتَوَضَّؤُوا إلى أن طَلَعَت الشَّمسُ وابيَضَّتْ، فقام فصَلَّى))[٥].

---

= خَرَج مِنه مِنْ تُرابٍ أو قَذاةٍ أو هَوامَّ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٦/ ١٨٧٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ١٢٧).

(١) رواه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٦٣١٢).

(٣) التعريسُ: نزولُ المسافرِ لغيرِ إقامةٍ، وأصلُه نزولُ آخرِ الليلِ للنَّومِ والراحةِ، ويُستعمَلُ في كلِّ وقتٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥٥) و(٢/ ٦٧).

(٤) رواه البخاري (٥٩٥).

(٥) رواه البخاري (٧٤٧١).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ في هذا التَّوَفِّي للأرواحِ وإمساكِها وإرسالِها: لَعَلاماتٍ ودَلائِلَ، وعِبَرًا وعِظاتٍ للَّذينَ يَتفكَّرونَ في شأنِها، فيَستَدِلُّونَ بها على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، واستِحقاقِه العِبادةَ وَحْدَه دونَ غَيرِه، وعلى تَحقُّقِ وُقوعِ البَعثِ... وغَيرِ ذلك[1].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ٤٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

انتِقالٌ مِن تَشنيعِ إشراكِهم إلى إبطالِ مَعاذيرِهم في شِركِهم؛ ذلك أنَّهم لَمَّا دمَغَتْهم حُجَجُ القُرآنِ باستِحالةِ أن يكونَ لله شُرَكاءُ؛ تمحَّلوا تأويلًا لشِركِهم، فقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] كما حُكِيَ عنهم في أوَّلِ هذه السُّورةِ، فلمَّا استُوفِيَت الحُجَجُ على إبطالِ الشِّركِ؛ أقْبَلَ هنا على إبطالِ تأويلِهم منه، ومَعذرتِهم[2].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾.

أي: أم اتَّخَذ المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ آلِهةً يَعبُدونَها؛ لِتَشفَعَ لهم عندَ اللهِ في قَضاءِ حاجاتِهم[3]؟

﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢).

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: أيَتَّخِذونَ تلك الأصنامَ شُفَعاءَ لهم، ولو كانت لا تَملِكُ شَيئًا، ولا تَعقِلُ[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ * إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نَفَى أنْ يكونَ لأصْنامِهم شَيءٌ مِن الشَّفاعةِ في عُمومِ نَفيِ مِلْكِ شَيءٍ مِن المَوْجوداتِ عن الأصْنام، قُوبِلَ بقَولِه: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، أي: الشَّفاعةُ كُلُّها للهِ، وأُمِر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَ ذلك لهم؛ لِيَعلَموا أنَّ الشَّفاعةَ لا يَملِكُها إلَّا اللهُ[٢].

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: لله وَحْدَه الشَّفاعةُ، ومَرجِعُها كُلِّها إليه؛ فلا يَملِكُ أحَدٌ سِواه شَيئًا منها، وهو وَحْدَه مَن يأذَنُ بها إنْ شاء، لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣١١-٣١٤).
قال الشوكاني: (ومعنَى ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾: أنَّهم غيرُ مالكينَ لشَيءٍ مِن الأشياءِ، وتَدخُلُ الشَّفاعةُ في ذلك دخولًا أوَّليًّا، ﴿وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ شيئًا؛ لأنَّها جماداتٌ لا عقلَ لها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، =

كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: لله وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ ومُلكُ الأرضِ، وله وَحْدَه التَّصَرُّفُ فيهما كما يُريدُ؛ فاعبُدوا اللهَ المالِكَ كُلَّ شَيءٍ، الَّذي يَقدِرُ على نَفْعِكم وضَرِّكم، ولا تَعبُدوا غَيْرَه مِمَّا لا يَملِكُ شَيئًا[1].

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: ثُمَّ إلى اللهِ مَصيرُكم يومَ القيامةِ لا إلى غَيرِه، فيَحكُمُ بيْنَكم، ويُجازي كُلًّا منكم[2].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا دَلَّ على أنَّ شُفَعاءَهم ليسَت بأهلٍ للشَّفاعةِ، وعلى أنَّ الأمرَ كُلَّه مَقصورٌ

---

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٥).

عليه، وخَتَم بأنَّه لا بُدَّ مِن الرُّجوعِ إليه المُقتَضي لِأنْ تُصرَفَ الهِمَمُ كُلُّها نَحوَه، وتُوَجَّهَ العزائِمُ جَميعُها تِلْقاءَه، ولأنَّه لا يُخشَى سِواه، ولا يُرجَى غَيرُه- ذكَرَ حالًا مِن أحوالِهم[١].

﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ﴾.

أي: وإذا أُفرِدَ اللهُ تعالى وَحْدَه بالذِّكرِ دُونَ غَيرِه مِنَ المعبوداتِ الباطِلةِ انقَبَضَت قُلوبُ المُشرِكينَ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، وتمعَّرَت وُجوهُهم ونَفَروا؛ كراهيةً لِتَوحيدِ اللهِ سُبحانَه[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ * وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا ﴾ [الحج: ٧١، ٧٢].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾.

أي: وإذا ذُكِرَت آلِهتُهم بالخَيرِ اشتَدَّ فَرَحُهم، وظَهَر السُّرورُ على وُجوهِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٤، ٥٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٩، ٣٣٠).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه الحَثُّ على التَّفَكُّرِ، وأنَّه مِفتاحُ العِلمِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فالواجِبُ أن تُطلَبَ الشَّفاعةُ مِمَّن يَملِكُها، وهو اللهُ تعالى، وأن تُخلَصَ له العِبادةُ(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّ المُتوفِّيَ هو اللهُ فقط، وتأكَّدَ هذا بقَولِه: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢]، وبقَولِه: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وبقَولِه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، ثمَّ إنَّ اللهَ تعالى قال في آيةٍ أُخرى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١]، وقال في آيةٍ ثالثةٍ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١].

**الجوابُ**: أنَّ المتوفِّيَ في الحقيقةِ هو اللهُ، إلَّا أنَّه تعالى أسنَد في عالَمِ الأسبابِ كُلَّ نَوعٍ مِن أنواعِ الأعمالِ إلى مَلَكٍ مِن الملائِكةِ؛ فأسنَد قَبضَ الأرواحِ إلى مَلَكِ الموتِ -وهو رئيسٌ وتحتَه أتْباعٌ وأعْوانٌ- فأُضيفَ التَّوفِّي في هذه الآيةِ إلى اللهِ تعالى بالإضافةِ الحَقيقيَّةِ، وفي الآيةِ الثَّانيةِ إلى مَلَكِ المَوتِ؛ لأنَّه هو الرَّئيسُ في هذا العَمَلِ، وإلى سائِرِ الملائِكةِ؛ لأنَّهم هم الأتْباعُ لِمَلَكِ الموتِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٧). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٧٣، ٣٧٤) و(٦/ ١٨٥)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٨٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا ﴾ أنَّه سُبحانَه سَوَّى في الاسمِ بيْنَ الوفاتَينِ مع اختِلافِ المَعنَيَينِ، وفيه حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ في امتِناعِهم مِن تَسميةِ الشَّيءِ باسمِ غَيرِه إذا خالفَه في بَعضِ صفاتِه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴾ أنَّ الرُّوحَ مخلوقةٌ؛ ودلَّ لذلك: أنَّها تُوصَفُ بالوفاةِ والقبضِ والإمساكِ والإرسالِ؛ وهذا شأنُ المخلوقِ المُحدَثِ المَرْبوبِ[٢]، ودلَّ أيضًا على أنَّها جسمٌ قائمٌ بنفْسِه؛ مُخالِفٌ جوهرُه جوهرَ البدنِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا ﴾ يَظهَرُ مِن التَّقديرِ -الَّذي هدَى إليه قطعًا السِّياقُ- أنَّ النَّفْسَ الَّتي تنامُ هي الَّتي تموتُ، وهي الرُّوحُ[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا ﴾ يدُلُّ على أنَّ النَّائِمَ قد خرَجت الرُّوحُ مِن جسَدِه، ونحنُ نعلمُ قطعًا أنَّ الرُّوحَ في جسَدِه، ألَا ترَى أنَّه يَتنفَّسُ ويرَى الرُّؤْيا، وذلك لا يكونُ إلَّا مع قيامِ الرُّوحِ[٥]؟

**والجوابُ عنه**: أنَّ انفِصالَ رُوحِ النَّائمِ عنه، ورُجوعَها إليه، سمَّاه اللهُ تعالى وفاةً، ويُسمَّى مَوتًا وحياةً، كما كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ إذا استيقظَ مِن منامِه: ((الحمدُ لله الَّذي أحْيانا بعدَ ما أماتنا، وإليه النُّشورُ))[٦]، ومع هذا فلا

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٠).

(٦) أخرجه البخاري (٦٣١٢) من حديث حذيفةَ رضي الله عنه. =

يُنافي ذلك أن يكونَ النَّائمُ حيًّا[١].

وقيل: إنَّ النَّفْسَ على وجهَينِ؛ أحدُهما: النَّفْسُ المميِّزةُ الَّتي تكونُ لها إدراكُ الأشياءِ. والآخرُ: هي النَّفْسُ الَّتي بها الحياةُ.

ويُقالُ: للإنسانِ نفْسٌ ورُوحٌ، فعندَ النَّومِ تخرُجُ النَّفْسُ وتبقَى الرُّوحُ، وهذا القولُ قريبٌ مِن السَّابقِ[٢].

٦- قَولُه سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾ فيه أنَّ النَّومَ وَفاةٌ؛ ويَشهَدُ لذلك قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾[٣] [الأنعام: ٦٠].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ إثباتُ وَصْفِ اللهِ تعالى بالإمساكِ والإرسالِ؛ فهو يُمْسِكُ ويُرْسِلُ[٤].

٨- قال تعالى: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾، أي: يَمنَعُها أن تَرجِعَ إلى الحياةِ. وإطلاقُ الإمساكِ على بقاءِ حالةِ الموتِ تَمثيلٌ لِدَوامِ تلك الحالةِ، ومِن لَطائِفِه أنَّ أهلَ الميِّتِ يَتمَنَّونَ عَوْدَ مَيِّتِهم لو وَجَدوا إلى عَودِه سَبيلًا، ولكِنَّ اللهَ لم يَسمَحْ لِنَفْسٍ ماتت أن تَعودَ إلى الحياةِ[٥]، إلَّا ما استُثْنِيَ ممَّا أخبَرَ اللهُ عنه؛ كقتيلِ

---

= وأخرجه أيضًا (٦٣٢٥) من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه.

وأخرجه مسلم (٢٧١١) من حديث البَراءِ رضي الله عنه.

(١) يُنظر: ((أهوال القبور)) لابن رجب (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٣٢٥). ويُنظر أيضًا: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

بني إسرائيلَ وغيرِه مِن الأُلوفِ الَّذين خرَجوا مِن ديارِهم حذَرَ الموتِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ رَدٌّ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَزعُمونَ: أنَّ المَقتولَ مَيِّتٌ بغَيرِ أجَلِه، وقاتِلَه قاطِعٌ حياتَه الموهوبةَ له مِن عندِ رَبِّه[1]!

١٠- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، جَعَل الله ما تدُلُّ عليه حالَتَا المَوتِ والنَّومِ مِن دَلائِلَ آياتٍ كثيرةً؛ لأنَّهما حالَتانِ عَجيبَتانِ، ثمَّ في كُلِّ حالةٍ تَصرُّفٌ يُغايِرُ التَّصرُّفَ الَّذي في الأُخرى؛ ففي حالةِ المَوتِ سَلْبُ الحَياةِ عن الجِسمِ، وبقاءُ الجِسمِ كالجَمادِ، ومَنعٌ مِن أنْ تَعودَ إليه الحَياةُ، وفي حالةِ النَّومِ سَلبُ بَعضِ الحَياةِ عن الجِسْمِ حتَّى يَكونَ كالميِّتِ، وما هو بميِّتٍ، ثمَّ مَنْحُ الحَياةِ أنْ تَعودَ إليه، دَوالَيْكَ إلى أنْ يَأتِيَ إبَّانُ سَلْبِها عنه سَلْبًا مُستَمِرًّا[2].

١١- قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فأخبَرَ أنَّ الشَّفاعةَ لِمَن له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، وهو اللهُ وَحْدَه؛ فهو الَّذي يَشفَعُ بنَفْسِه إلى نَفْسِه؛ لِيَرحَمَ عَبْدَه، فيَأذَنَ هو لِمَن يَشاءُ أن يَشفَعَ فيه؛ فصارت الشَّفاعةُ في الحقيقةِ إنَّما هي له، والَّذي يَشفَعُ عِندَه إنَّما يَشفَعُ بإذْنِه له وأمْرِه بعدَ شفاعتِه سُبحانَه إلى نَفْسِه، وهي إرادتُه مِن نَفْسِه أن يَرحَمَ عَبْدَه. وهذا ضِدُّ الشَّفاعةِ الشِّركيَّةِ الَّتي أثبَتَها هؤلاء المُشرِكونَ ومَن وافَقَهم، وهي الَّتي أبطَلَها اللهُ سُبحانَه في كتابِه، بقَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٣]، وقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦).

مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞ ﴾[1] [البقرة: ٢٥٤].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾ فيه إقامةُ الحُجَّةِ العَقليَّةِ في مُجادَلةِ الخَصمِ، فإذا كانوا لا يَملِكونَ شَيئًا، فكيف تَتَّخِذونَهم شُفَعاءَ وتَعبُدونَهم مِن دونِ اللهِ تعالى[2]؟!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ إثباتُ الشَّفاعةِ، ووَجْهُ إثباتِها: أنَّه لولا وُجودُها ما صحَّ أنْ يقولَ تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾، وفيه أيضا ردٌّ على المُعتزِلةِ والخَوارجِ؛ لأنَّ المُعتزِلةَ والخوارِجَ يُنكِرونَ الشَّفاعةَ في أهلِ الكبائرِ، سواءٌ أدَخلوا النَّارَ أم لم يَدْخُلوها؛ وذلك لأنَّ أهلَ الكبائرِ عندَ المُعتزِلةِ والخوارجِ مُخَلَّدون في النَّارِ، لكِنَّهم عندَ الخوارجِ كفَّارٌ، وعندَ المُعتزِلةِ لا مُؤمِنونَ ولا كافِرونَ، بل في مَنزِلةٍ بيْنَ مَنزِلَتينِ[3]!

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ بصيغةِ الحَصرِ، سؤالٌ: أنَّه كيف قال ذلك مع أنَّ للأنبياءِ والعُلَماءِ والشُّهَداءِ والأطفالِ شَفاعةً؟

**الجَوابُ**: أنَّ معناه أنَّ أحدًا لا يَملِكُها إلَّا بتَمليكِه سبحانَه، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾[4] [الأنبياء: ٢٨].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ أنَّه لا أحدَ يَشْفَعُ إلَّا بإذْنِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٦). ويُنظر أيضًا: ((أنموذج جليل)) لزين الدين الرازي (ص: ٤٤٩).

تعالى، ووجْهُه: أنَّه إذا كانتِ الشَّفاعةُ خاصَّةً باللهِ؛ فإنَّها لا تكونُ إلَّا منه وإليه[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ إثباتُ شَفاعاتٍ مُتعَدِّدةٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾؛ لأنَّ «جميعًا» تَقتضي أن يكونَ هناك شَيءٌ مَجموعٌ؛ فهناك شفاعةٌ في الدُّنيا، وشفاعةٌ في الآخرةِ، وشفاعةٌ في جلبِ نفْعٍ، وشفاعةٌ في دفعِ ضُرٍّ[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَذكُرُ الشَّيءَ مُنذِرًا بلازمِه؛ لأنَّ مُجَرَّدَ الرُّجوعِ ليس فيه شَيءٌ يُذكَرُ، لكِنَّ المرادَ الرُّجوعُ الَّذي يَحصُلُ به الحِسابُ والجَزاءُ[٣].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أنَّ استِبشارَهم بالاقتِصارِ على ذِكْرِ أصنامِهم مُؤذِنٌ بأنَّهم يُرجِّحونَ جانِبَ الأصنامِ على جانِبِ اللهِ تعالى[٤]، ويدُلُّ على شدَّةِ تَعَلُّقِ هؤلاء بأصنامِهم، حيثُ يَكرَهونَ ما يُضادُّها مِن التَّوحيدِ، وإذا ذُكِرَتْ هذه الأصنامُ استَبْشَروا[٥]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ...﴾ الآيةَ، يَصلُحُ هذا أنْ يَكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٢، ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣٢).

مَثَلًا لحالِ ضَلالِ الضَّالِّينَ وهُدى المُهتدينَ، نَشَأ عن قَولِه: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ [الزمر: ٤١]، والمَعْنى: أنَّ استِمْرارَ الضَّالِّ على ضَلالِه قد يَحصُلُ بعدَه اهتِداءٌ، وقد يُوافيهِ أجَلُه وهو في ضَلالِه؛ فضُرِبَ المَثَلُ لذلك بنَومِ النَّائِمِ قد تَعقُبُه إفاقةٌ، وقد يموتُ النَّائِمُ في نَومِه، وهذا تَهْوينٌ على نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ برَجاءِ إيمانِ كَثيرٍ ممَّن هُمْ يَومَئذٍ في ضَلالٍ وشِركٍ كما تحقَّقَ ذلك، فتكونُ الجُملةُ تَعْليلًا للجُملةِ قَبْلَها، ولها اتِّصالٌ بقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ إلى قَولِه: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

ويجوزُ أنْ يكونَ انتِقالًا إلى استِدْلالٍ على تفرُّدِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في الأحْوالِ؛ فإنَّه ذُكِرَ دَليلُ التَّصرُّفِ بخَلْقِ الذَّواتِ ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إلى قَولِه: ﴿فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖ﴾ [الزمر: ٥، ٦]، ثمَّ دَليلُ التَّصرُّفِ بخَلقِ أحْوالِ ذَواتٍ، وإنشاءِ ذَواتٍ مِن تلك الأحْوالِ، وذلك مِن قَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى قَولِه: ﴿لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١]، وأعقَبَ كُلَّ دَليلٍ بما يَظهَرُ فيه أثَرُه مِن المَوعِظةِ والعِبْرةِ والزَّجْرِ عن مُخالَفةِ مُقتَضاهُ، فانتَقَلَ هنا إلى الاستِدلالِ بحالةٍ عَجيبةٍ مِن أحوالِ أنفُسِ المَخْلوقاتِ، وهي حالةُ المَوتِ، وحالةُ النَّومِ، وقد أنبَأَ عن الاستِدْلالِ قَولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فهذا دَليلٌ للنَّاسِ مِن أنفُسِهم؛ فتَكونَ الجُملةُ استِئْنافًا ابتِدائيًّا للتَّدرُّجِ في الاستِدْلالِ، ولها اتِّصالٌ بجُملةِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزمر: ٥] وجُملةِ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [الزمر: ٢١] المُتقدِّمَتَينِ. وعلى كِلَا الوَجْهَينِ أفادتِ الآيةُ إبرازَ حَقيقَتَينِ عَظيمَتَينِ مِن نَواميسِ

الحَياتَينِ النَّفْسيَّةِ والجَسَديَّةِ[١].

- وقولُه: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ... ﴾ فيه تَقْديمُ اسْمِ الجَلالةِ على الخَبَرِ الفِعْليِّ؛ لإفادةِ تَخْصيصِه بِمَضْمونِ الخَبَرِ، أي: اللهُ يَتوَفَّى الأنفُسَ لا غَيْرُه، فهو قَصرٌ حَقيقيٌّ[٢]؛ لإظهارِ فَسادِ أنْ أشْرَكوا به آلِهةً لا تَملِكُ تَصرُّفًا في أحْوالِ النَّاسِ[٣].

- وقولُه: ﴿ٱلْأَنفُسَ﴾ عبَّر عن جمعِ الكثرةِ بجمعِ القلَّةِ؛ إشارةً إلى أنَّها -وإن تجاوَزت الحصرَ- فهي كنفسٍ واحدةٍ[٤].

- والفاءُ في ﴿فَيُمْسِكُ﴾ فاءُ الفَصيحةِ؛ لأنَّ ما تقدَّمَ يَقتَضي مِقدارًا يُفصِحُ عنه الفاءُ؛ لِبَيانِ تَوَفِّي النُّفوسِ في المنامِ[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ مُستأنَفةٌ كما تُذكَرُ النَّتيجةُ عَقِبَ الدَّليلِ، أي: إنَّ في حالةِ الإماتةِ والإنامةِ دَلائلَ على انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ، وأنَّه المُستَحِقُّ للعِبادةِ دُونَ غَيرِه، وأنْ ليس المَقْصودُ مِن هذا الخَبَرِ الإخْبارَ باختِلافِ حالَتَي المَوتِ والنَّومِ، بلِ المَقْصودُ التَّفكُّرُ والنَّظَرُ في مَضرِبِ المَثَلِ، وفي دَقائِقِ صُنعِ اللهِ، والتَّذْكيرُ بما تَنْطَوي عليه مِن دَقائِقِ الحِكْمةِ الَّتي تَمُرُّ على كُلِّ إنسانٍ كُلَّ يَومٍ في نَفْسِه، وتَمُرُّ على كَثيرٍ مِن النَّاسِ في آلِهم، وفي عَشائِرِهم، وهم مُعرِضونَ عمَّا في ذلك مِن الحِكَمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣، ٢٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥).

وبَديعِ الصُّنعِ[١].

- وتَأْكيدُ الخَبَرِ بحَرفِ (إنَّ)؛ لِتَنْزيلِ مُعظَمِ النَّاسِ مَنزِلةَ المُنكِرِ لتلك الآياتِ؛ لِعَدَمِ جَرْيِهم في أحْوالِهم على مُقتَضى ما تدُلُّ عليه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾

- (أَمْ) في قولِه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ﴾ مُنقَطِعةٌ -تُقدَّرُ بـ (بل) والهمزةِ-، وهي للإضرابِ الانتِقاليِّ، انتِقالًا مِن تَشْنيعِ إشْراكِهم إلى إبطالِ مَعاذيرِهم في شِرْكِهم[٣].

- والاستِفْهامُ الَّذي تُشعِرُ به (أَمْ) -فإنَّها بمعنى: (أَبَلْ)- هو للإنكارِ والتَّقْريرِ والتَّوْبيخِ، بمَعْنى أنَّ تَأويلَهم وعُذرَهم مُنكَرٌ كما كان المُعْتذَرُ عنه مُنكَرًا، فلم يَقْضُوا بهذه المَعذِرةِ وَطَرًا[٤].

- قَولُه: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ﴾ الهَمْزةُ في ﴿أَوَلَوۡ﴾ للاستِفْهامِ الإنْكاريِّ؛ لإنكارِ الواقِعِ واستِقْباحِه والتَّوْبيخِ عليه، ومَدْخولُها مَحْذوفٌ، تَقْديرُه: (أَيَشْفَعونَ؟!)، والمَعْنى: أَيَشْفَعونَ في حالةِ كَونِهم لا يَملِكون ولا يَعقِلون، وذلك عامُّ النَّقصِ، فكيف يَشفَعُ هؤلاءِ؟! ولذلك أتْبَعه بما اشْتَمَل على الاسْمِ الجامِعِ والمِلْكِ على الإطلاقِ دُنيا وأُخرى مِن غَيرِ مُنازِعٍ فيه، حيثُ قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥، ٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦، ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧).

وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيةَ. أو هي هَمْزةٌ للاستِفْهامِ؛ لإنكارِ وُقوعِ الشَّفاعةِ منهم، ونفْيِ ذلك عنهم، على أنَّ المُرادَ بَيانُ أنَّ ما فَعَلوا ليس مِن اتِّخاذِ الشُّفَعاءِ في شَيءٍ؛ لأنَّه فَرعُ كَونِ الأوْثانِ شُفَعاءَ، وذلك أظهَرُ المُحالاتِ، فالمُقدَّرُ حينَئذٍ غَيرُ ما قُدِّرَ أوَّلًا. وعلى أيِّ تَقْديرٍ كان، فالواوُ للعَطْفِ على شَرطيَّةٍ قد حُذِفَتْ؛ لِدَلالةِ المَذْكورةِ عليها، أي: أَيَشْفَعونَ لو كانُوا يَملِكونَ شَيئًا، ولو كانُوا لا يَملِكونَ... إلخ، وجَوابُ (لو) مَحْذوفٌ؛ لِدَلالةِ المَذْكورِ عليه[1].

- وأفادَ تَنْكيرُ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في سِياقِ النَّفيِ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ عُمومَ كُلِّ ما يُملَكُ؛ فيَدخُلُ في عُمومِه جَميعُ أنْواعِ الشَّفاعةِ[2].

- ولَمَّا كانتِ الشَّفاعةُ أمْرًا مَعْنويًّا، كان مَعْنى مِلكِها تَحْصيلَ إجابَتِها. والكَلامُ تَهكُّمٌ؛ إذ كيف يَشفَعُ مَن لا يَعقِلُ؟! فإنَّه لِعَدَمِ عَقْلِه لا يُتصوَّرُ خُطورُ مَعْنى الشَّفاعةِ عِندَه، فَضْلًا عن أنْ تَتوجَّهَ إرادَتُه إلى الاستِشْفاعِ؛ فاتِّخاذُهم شُفَعاءَ مِن الحَماقةِ[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾

- في قولِه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗا﴾ تَقْديمُ الخَبَرِ المَجْرورِ ﴿لِّلَّهِ﴾ على المُبتَدَأِ ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾؛ لإفادةِ الحَصرِ. واللَّامُ للمِلْكِ، أي: قَصرُ مِلْكِ الشَّفاعةِ على اللهِ تعالى، لا يَملِكُ أحَدٌ الشَّفاعةَ عِندَه[4].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨).

- و﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ مِن الشَّفاعةِ مُفيدةٌ للاستِغْراقِ، أي: لا يَشِذُّ جُزْئِيٌّ مِن جُزْئيَّاتِ حَقيقةِ الشَّفاعةِ عن كَونِه مِلْكًا للهِ، وقد تَأكَّدَ بلازِمِ هذه الحالِ ما دلَّ عليه الحَصرُ مِن انتِفاءِ أنْ يكونَ شَيءٌ مِن الشَّفاعةِ لِغَيرِ اللهِ[١].

- وقولُه: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تَقْريرٌ لِما قبْلَه وتَأْكيدٌ، أي: له مِلْكُهما، وما فيهما مِن المَخْلوقاتِ[٢].

- وجُملةُ ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لِتَعْميمِ انفِرادِ اللهِ بالتَّصرُّفِ في السَّمَواتِ والأرضِ، الشَّامِلِ للتَّصرُّفِ في مُؤاخَذةِ المَخْلوقاتِ، وتَسْييرِ أُمورِهم؛ فمَوقِعُها مَوقِعُ التَّذْييلِ المُفيدِ لِتَقْريرِ الجُملةِ الَّتي قَبْلَه وزِيادةٌ، فإذا كان ذلك المُلكُ له، فلا يَستَطيعُ أحَدٌ صَرْفَه عن أمْرٍ أرادَ وُقوعَه إلى ضِدِّ ذلك الأمْرِ في مُدَّةِ وُجودِ السَّمَواتِ والأرضِ، وهذا إبطالٌ لِأنْ تَكونَ لآلِهَتِهم شَفاعةٌ لهم في أحْوالِهم في الدُّنيا[٣].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ على ما قبْلَه؛ للإشارةِ إلى إثْباتِ البَعْثِ، وإلى أنَّه لا يَشفَعُ أحَدٌ عِندَ اللهِ بعدَ الحَشْرِ إلَّا مَن أَذِنَ له اللهُ بذلك[٤].

- وأيضًا لَمَّا أخبَرَ أنَّه له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، هدَّدَهم بقَولِه: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فيَعلَمونَ أنَّهم لا يَشفَعونَ، ويَخيبُ سَعيُكم في عِبادَتِهم[٥].

- وحَرفُ (ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتْبيِّ كشَأنِها في عَطفِ الجُمَلِ؛ ذلك لأنَّ مَضْمونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٨).

﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أنَّ للهِ مُلكَ الآخِرةِ كما كان له مُلكُ الدُّنيا، ومُلكُ الآخِرةِ أعظَمُ؛ لِسَعةِ مَمْلوكاتِه وبَقائِها[١].

- وَتَقْديمُ ﴿إِلَيۡهِ﴾ على ﴿تُرۡجَعُونَ﴾؛ للاهتِمامِ والتَّقَوِّي، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٢]، وللدَّلالةِ على الحصرِ؛ إذِ المعنى: إليه لا إلى غيرِه[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ [الزمر: ٤٣]؛ فحَكَى اللهُ تعالى عنهم ذلك إنكارًا وتَعجُّبًا، ولإظهارِ تَناقُضِهم في أقْوالِهم المُشعِرِ بأنَّ ما يَقولونَه أقضيةٌ سُفُسطائيَّةٌ[٤] يَقولونَها للتَّنصُّلِ مِن دَمَغاتِ الحُجَجِ الَّتي جَبَهَهم بها القُرآنُ؛ فإنَّهم يَعتَذِرونَ تارَةً على إشْراكِهم بأنَّ شُركاءَهُم شُفَعاءُ لهم عِندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٣٤١).

(٤) السُفِسْطائيَّةُ: فرقةٌ يونانيَّةٌ قديمةٌ، وهم أصنافٌ ثلاثةٌ: فمِنهم الَّذين ينفون حقائقَ الاشياءِ كلَّها، ومنهم الَّذين شكُّوا فى وجودِ الحقائقِ، ومنهم مَن ذهَب إلى أنَّ حقائقَ الاشياءِ تابِعَةٌ للاعتقادِ، وصحَّحوا جميعَ الاعتقاداتِ معَ تضادِّها وتنافيها. يُنظر: ((الفرق بين الفرق)) للبغدادي (ص: ٣١١)، ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ١٤)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (٢/ ١٠٧٣).

والسَّفْسَطَةُ: هي قياسٌ مركَّبٌ مِن الوهميَّاتِ، والغرضُ منه تغليطُ الخصمِ وإسكاتُه. وهي كلمةٌ يونانيَّةٌ معناها: الغلطُ، والحِكمةُ المُمَوَّهَةُ. والغلطُ يقعُ بوجوهٍ كثيرةٍ: مِن جهةِ اللفظِ، أو مِن جهةِ المعنَى، أو مِن طريقِ الحذفِ والإضمارِ، أو في تركيبِ المقدِّماتِ الوهميَّةِ مكانَ القطعيَّةِ إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((تقريب الوصول)) لابن جزي (ص: ١٤٩)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١١٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (١٩/ ٣٥٣).

اللهِ، وهذا يَقتَضي أنَّهم مُعتَرِفونَ بأنَّ اللهَ هو إلَهُهم وإلهُ شُرَكائِهم، ثُمَّ إذا ذَكَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ اللهَ واحِدٌ، أو ذَكَر المُسلِمونَ كَلِمةَ (لا إلَهَ إلَّا اللهُ)؛ اشْمَأَزَّتْ قُلوبُهم مِن الاقتِصارِ على ذِكْرِ اللهِ، فلا يَرضَونَ بالسُّكوتِ عن وَصفِ أصْنامِهم بالإلهيَّةِ! وذلك مُؤذِنٌ بأنَّهم يُسَوُّونَها باللهِ تعالى[1].

- وقولُه: ﴿وَحْدَهُ﴾ على القولِ بأنَّه مَصدَرٌ، أي: هو مَفْعولٌ مُطلَقٌ لِفعلِ (ذُكِرَ)؛ لِبَيانِ نَوعِه، أي: ذِكْرًا وَحْدًا، أي: لم يُذكَرْ مع اسْمِ اللهِ أسماءُ أصْنامِهم. وإضافةُ المَصدَرِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ لاشْتِهارِ المُضافِ إليه بهذا الوَحْدِ[2].

- ونبَّهَ اللهُ سُبحانَه وتَعالى بوَضعِ قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ على أنَّهم إنَّما اشْمَأَزُّوا لأنَّهم رَكَنوا إلى اللَّذَّاتِ العاجِلةِ، وانْغَمَسوا في الشَّهَواتِ النَّفْسانيَّةِ، فإذا سَمِعوا بأنْ لا إلَهَ إلَّا هو وَحْدَه، واسْتَلزَمَ ذلك العِبادةَ والتَّجافِيَ عن دارِ الغُرورِ، والإنابةَ إلى دارِ الخُلودِ؛ ظَهَرَتْ آثارُ الكآبةِ على وُجوهِهم، وانقَبَضَتْ قُلوبُهم، وضاقتْ صُدورُهم، وإذا ذُكِرَتِ الأصْنامُ مالتْ قُلوبُهم إلى اللَّذَّاتِ العاجِلةِ، واسْتَبْشَروا وفَرِحوا[3].

- والتَّعْبيرُ عنِ المُشرِكينَ بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لأنَّهم عُرِفوا بهذه الصِّلةِ بيْنَ النَّاسِ، مع قَصدِ إعادةِ تَذْكيرِهم بوُقوعِ القيامةِ[4].

- والتَّعْبيرُ عن آلِهَتِهم بـ﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾، دُونَ لَفظِ: (شُرَكائِهم أو شُفَعائِهم)؛ للإيماءِ إلى أنَّ عِلَّةَ استِبْشارِهم بذلك الذِّكْرِ هو أنَّه ذِكْرُ مَنْ هُم دُونَ اللهِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨، ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠).

ذِكرٌ مُناسِبٌ لهذه الصِّلةِ، أي: هو ذِكرٌ خالٍ عن اسْمِ اللهِ، فالمَعْنى: وإذا ذُكِر شُرَكاؤُهُم دُونَ ذِكْرِ اللهِ إذا هُمْ يَستَبْشِرون[١].

- قَولُه: ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ كَلِمةُ (إِذَا) لِلمُفاجَأةِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم يُعاجِلُهم الاستِبْشارُ حِينَئذٍ مِن فَرْطِ حُبِّهم آلِهَتَهم؛ ولذلك جِيءَ بالمُضارِعِ في ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ دُونَ أنْ يُقالَ: مُستَبشِرونَ؛ لإفادةِ تَجدُّدِ استِبْشارِهِم[٢].

- وقد بُولِغَ في بَيانِ حالَيهم القَبيحَتَينِ بمُقابَلةِ الاشْمِئْزازِ بالاستِبْشارِ مقابلةً كامِلةً؛ لأنَّ الاشمئزازَ غايةُ الكراهيةِ، والاستبشارُ غايةُ الفرحِ، والاشْمِئْزازُ: امتِلاءُ القَلبِ غَمًّا وغَيظًا، فيَظهَرُ أثَرُه، وهو الانقِباضُ في الوَجهِ، والاستِبْشارُ: امتِلاؤُه سُرورًا، فيَظهَرُ أثَرُه، وهو الانبِساطُ والتَّهلُّلُ في الوَجهِ[٣].

- والاقتِصارُ على التَّعرُّضِ لِهَذَينِ الذِّكْرينِ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ لأنَّهما أظهَرُ في سُوءِ نِيَّاتِ المُشرِكينَ نَحوَ اللهِ تعالى، وفي بُطلانِ اعتِذارِهِم بأنَّهم ما يَعبُدونَ الأصْنامَ إلَّا لِيُقَرِّبوهُم إلى اللهِ، ويَشْفَعوا لهم عِندَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩).

## الآيات (٤٦-٤٨)

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: أي: خالِقَهما ومُبدِعَهما ومُبتَدِئَهما، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[1].

﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ﴾: أي: لَبَذَلوا ذلك افتِداءً مِن النَّارِ، والفِدَى والفِداءُ: حِفظُ الإنسانِ عن النَّائبةِ بما يَبذُلُه عنه، وافْتَدى: إذا بذَلَ ذلك عن نفْسِه، والافتِداءُ: جَعْلُ أحدِ الشَّيئينِ بدَلًا مِن الآخَرِ، وأصلُ (فدي) هنا: أنْ يُجْعَلَ شَيءٌ مكانَ شَيءٍ حِمًى له[2].

﴿يَحْتَسِبُونَ﴾: أي: يَظُنُّونَ، مِن حَسِبْتُ، أي: ظَنَنْتُ، والحِسْبانُ: الظَّنُّ، وأصلُ (حسب) هنا: العَدُّ؛ لأنَّه إذا قال: حَسِبْتُه كَذا، فكأنَّه قال: هو في الَّذي أعُدُّه مِنَ الأمورِ الكائنةِ[3].

﴿وَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ ونَزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٩)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٤٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، =

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُسَلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، وآمِرًا له بتفويضِ الأمورِ إليه: قُلْ -يا مُحمَّدُ-: اللَّهُمَّ خالِقَ السَّمَواتِ والأرضِ على غَيرِ مِثالٍ سابِقٍ، عالِمَ ما غاب عن الخَلقِ، وما ظهَرَ لهم، أنتَ وَحْدَكَ تَقضي بيْنَ عِبادِك يومَ القيامةِ بالعَدلِ فيما كانوا يَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى ما للمشركينَ مِن سوءِ المصيرِ، فيقولُ: ولو أنَّ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ ما في الأرضِ جَميعًا ومِثلَه معه، لَقَدَّموه فِداءً لأنفُسِهم مِنَ العذابِ السَّيِّئِ يومَ القيامةِ، وظهَرَ لهم يومَ القيامةِ مِن عذابِ اللهِ ما لم يَخطُرْ ببالِهم، وظهَرَ لهم سَيِّئاتُ ما عَمِلوا في الدُّنيا، وأحاط بالكافِرينَ العذابُ الَّذي كانوا يَسْخَرونَ منه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أكثَرُ ما تَقدَّمَ مِن السُّورةِ مُشعِرًا بالاختِلافِ بيْنَ المشركينَ والمؤمنينَ، وبأنَّ المشركينَ مُصمِّمون على باطِلِهم على ما غمَرَهم مِن حُجَجِ الحقِّ دونَ إغناءِ الآياتِ والنُّذُرِ عنهم؛ أُمِر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولَ هذا القَولَ؛ تَنفيسًا عنه مِن كَدَرِ الأسى على قَومِه، وإعذارًا لهم بالنِّذارةِ، وإشعارًا

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦).

لهم بأنَّ الحَقَّ في جانِبِهم مُضاعٌ، وأنَّه لا يُجدي فيهم إنذارُه واجتِهادُه، وأنَّ الأجدَرَ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُتارَكَتُهم، وأنْ يُفَوِّضَ الحُكمَ في خِلافِهم إلى الله[١].

وأيضا لَمَّا أخبَرَ عن سَخافةِ عُقولِهم باشمِئزازِهم مِن ذِكرِ اللهِ، واستِبشارِهم بذِكرِ الأصنامِ؛ أمَرَه أن يدعوَ بأسماءِ اللهِ العُظمى -مِنَ القُدرةِ، والعِلمِ، ونِسبةِ الحُكمِ إليه-؛ إذ غَيرُه لا قُدرةَ له، ولا عِلمَ تامٌّ، ولا حُكْمَ، وفي ذلك وَصفٌ لحالِهم السَّيِّئِ، ووعيدٌ لهم، وتَسليةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- داعيًا ربَّك وَحْدَه: يا اللهُ يا خالِقَ السَّمَواتِ والأرضِ على غَيرِ مثالٍ سابِقٍ[٣].

﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾.

أي: يا عالِمَ ما غاب عن الخَلقِ، وما ظَهَرَ لهم، فلا يخفَى عليك شَيءٌ مِن ذلك[٤].

كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((يا رَسولَ اللهِ، مُرْني بكَلِماتٍ أقولُهنَّ إذا أصبحْتُ وإذا أمسَيتُ. قال: قُل: اللَّهُمَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٨٩)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٩)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

فاطِرَ السَّمَواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، رَبَّ كُلِّ شَيءٍ ومَليكَه، أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا أنت، أعوذُ بك مِن شَرِّ نَفْسي، وشَرِّ الشَّيطانِ وشِرْكِه. قال: قُلْها إذا أصبَحْتَ، وإذا أمسَيْتَ، وإذا أخذْتَ مَضْجَعَك))[1].

﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾.

أي: أنتَ وَحْدَكَ تَقضي بيْنَ عِبادِك يومَ القيامةِ بالعَدلِ فيما كانوا يَختلِفونَ فيه في الدُّنيا[2].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

---

(١) أخرجه أبو داودَ (٥٠٦٧) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (٣٣٩٢)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٧٦٩٩)، وأحمد (٧٩٦١).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصحَّحه ابنُ حبَّانَ في ((صحيحه)) (٦٩٢)، وابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (ص: ١٢٨)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٣٦٣)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٦٧)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥٠٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣٤).

قال الشوكاني: (معنى ﴿تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾: تُجازي المحسِنَ بإحسانِه، وتُعاقِبُ المُسيءَ بإساءتِه؛ فإنَّه بذلك يَظهَرُ مَن هو المحِقُّ، ومَن هو المُبطِلُ، ويَرتَفِعُ عِندَه خلافُ المختَلِفينَ، وتَخاصُمُ المُتخاصِمينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٣٦).

وقال ابن عاشور: (الحُكمُ يَصدُقُ بحُكمِ الآخِرةِ، وهو المحقَّقُ الَّذي لا يُخلَفُ، ويَشملُ حُكمَ الدُّنيا بنَصرِ المحِقِّ على المُبطِلِ إذا شاءَ اللهُ أن يُعَجِّلَ بَعضَ حُكمِه بأن يُعَجِّلَ لهم العذابَ في الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٢). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٥).

ومعنى قَولِه تعالى: ﴿فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾: قيل: اختِلافُهم في الهُدى والضَّلالةِ. وقيل: اختِلافُهم في الحُقوقِ والمظالِمِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٠).

عن أبي سَلَمةَ بنِ عَبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ، قال: ((سألتُ عائشةَ أمَّ المؤمِنينَ: بأيِّ شَيءٍ كان نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَفتَتِحُ صَلاتَه إذا قام مِنَ اللَّيلِ؟ قالت: كان إذا قام مِنَ اللَّيلِ افتتَحَ صَلاتَه: اللَّهُمَّ ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ، فاطِرَ السَّمَواتِ والأرضِ، عالِمَ الغَيبِ والشَّهادةِ، أنت تَحكُمُ بيْنَ عِبادِك فيما كانوا فيه يَختَلِفونَ، اهدِني لِما اختُلِفَ فيه مِنَ الحَقِّ بإذْنِك؛ إنَّك تَهدي مَن تَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ))[1].

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّه الحاكِمُ بيْنَ عِبادِه، وذكَرَ مَقالةَ المُشرِكينَ وشناعتَها؛ كأنَّ النُّفوسَ تشَوَّفَت إلى ما يَفعَلُ اللهُ بهم يومَ القيامةِ، فأخبَرَ أنَّ لهم سُوءَ العَذابِ، أي: أشَدَّه وأفْظَعَه، كما قالوا أشَدَّ الكُفرِ وأشْنَعَه[2].

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾.

أي: ولو أنَّ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ جَميعَ ما في الأرضِ وضِعْفَ ذلك معه، لَقَدَّموه فِداءً يَفدُونَ به أنفُسَهم للنَّجاةِ مِن العَذابِ السَّيِّئِ يومَ القيامةِ[3].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الْأَرْضِ

---

(١) رواه مسلم (٧٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٠-٣٤٢).

ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٩١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [الرعد: ١٨].

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴾.

أي: وظَهَر للظَّالِمينَ يومَ القيامةِ مِن أمرِ اللهِ وعَذابِه الَّذي أعدَّه لهم: ما لم يكُنْ يَخطُرُ ببالِهم، ولم يَقَعْ لهم في ظُنونِهم، وقد كانوا يَحكُمونَ لأنفُسِهم بغَيرِ ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢].

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ ﴾.

أي: وظَهَرَ للمُشرِكينَ يومَ القيامةِ السَّيِّئاتُ الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٥).

قيل: المرادُ: تَبدو لهم نَفْسُ سَيِّئاتِهم فيَرَونَها في كتُبِهم إذا أُعطُوها بشَمائِلِهم. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبغوي، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨).

وقيل: المرادُ: الجزاءُ، أي: يَظهَرُ لهم عِقابُ ما كَسَبوه. وممَّن قال بذلك: السمرقنديُّ، ومكِّي، والرازي، والقرطبي، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٠)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، =

كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾.

أي: وأحاط بالكافِرينَ ولَزِمَهم عذابُ اللهِ الَّذي كانوا يَسخَرونَ منه في الدُّنيا[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾ تحذيرُ المرءِ مِن المخالَفةِ؛ لأنَّه إذا آمَنَ بأنَّ اللهَ عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ؛ فسوف يَحْذَرُ؛ لأنَّه مهما عَمِل فاللهُ تعالى عالِمٌ به[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلْمِ؛ لأنَّ ذِكْرَ هذا يعني: التَّحذيرَ منه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ التَّوسُّلُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى بأفعالِه[٤].

٢- قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ

---

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٧).

تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ في تفويضِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الحُكمَ في خِلافِهم إلى اللَّهِ إشارةٌ إلى أنَّ الَّذي فوَّض أمْرَه إلى اللهِ هو الواثِقُ بأحَقِّيَّةِ دِينِه، المُطمَئِنُّ بأنَّ التَّحكيمَ يُظهِرُ حَقَّه، وباطِلَ خَصمِه(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ تسليةُ المؤمنينَ؛ لِكَونِ اللهِ تعالى يَحْكُمُ بيْنَهم فيما يَختلِفون فيه مع الكفَّارِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴾ سُؤالٌ: أنَّ في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴾ [العاديات: ٦، ٧] دَلالةً على أنَّ الإنسانَ شاهِدٌ على كُنودِ نَفْسِه -أي: مُبالَغتِه في الكُفرِ- وهذه بخِلافِ الآيةِ الشَّاهِدِ عِندَنا!

**الجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ شَهادةَ الإنسانِ بأنَّه كَنودٌ هي شَهادةُ حالِه بظُهورِ كُنودِه، والحالُ رُبَّما تكفي عن المَقالِ.

**الثَّاني**: أنَّ شَهادتَه على نَفْسِه بذلك هي يومَ القيامةِ، كما يدُلُّ له قَولُه تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقَولُه تعالى: ﴿ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقَولُه تعالى: ﴿ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١].

**الثَّالِثُ**: أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ﴾ راجِعٌ إلى رَبِّ الإنسانِ المذكورِ في قَولِه: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾، وعليه فلا إشكالَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٣٩).

الآيةِ، ولكِنْ رُجوعُه إلى الإنسانِ أظهَرُ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٞ﴾[1] [العاديات: ٨].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ * وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّهم لَيسُوا بمُؤمِنينَ؛ لأنَّ المؤمِنَ لا يَستَهزِئُ بوَعيدِ ربِّه، وإنِ اغْتَرَّ بذَنْبِه؛ فهؤلاء همُ اليَهودُ والنَّصارى ومَن يرَى مِن الكُفَّارِ أنَّ عمَلَه الَّذي يَتقرَّبُ به إلى اللهِ يُجازَى عليه بخَيرٍ، فيَبدو له مِن ربِّه خِلافُ ما قَدَّرَ[2]!

٦- قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ رُبَّما ظَنَّ الإنسانُ أنَّه على الاعتِقادِ الحَقِّ، والعَمَلِ الصَّالحِ، ثمَّ إنَّه يومَ القيامةِ يَظهَرُ له أنَّ اعتِقادَه كان ضَلالًا، وعمَلَه كان ذَنْبًا؛ فهناك تَحصُلُ الخَجالةُ العَظيمةُ، والحَسرةُ الكامِلةُ، والأسَفُ الشَّديدُ[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ تهويلٌ للأمرِ بإبهامِه؛ لِيَكونَ ضِدَّ ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾[4] [السجدة: ١٧].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ إثباتُ الكَسبِ للعبدِ؛ فيكونُ فيه رَدٌّ على الجَبريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه! فنقولُ لهم: بلِ الإنسانُ غيرُ مُجبَرٍ، وعمَلُه مِن كَسْبِه[5].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٧).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أنَّ الاستِهزاءَ باللهِ تعالى وآياتِه: سَبَبٌ للعذابِ، وهو كُفرٌ مُخرِجٌ عن المِلَّةِ؛ لِقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم﴾[1] [التوبة: ٦٥، ٦٦].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾

- جُعِلَ هذا الدُّعاءُ مُعتَرِضًا بيْنَ كَلامَينِ؛ اهتِمامًا به، وتَوكيدًا لِلوَعيدِ[2].

- وفي قَولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ ...﴾ ابتُدِئَ خِطابُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لِرَبِّه بالنِّداءِ؛ لِأنَّ المَقامَ مَقامُ تَوجيهٍ وتَحاكُمٍ. وإجراءُ الوَصفَينِ على اسمِ الجَلالةِ ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ لِمَا فيهما مِنَ المُناسَبةِ بخُضوعِ الخَلقِ كُلِّهم لِحُكمِه، وشُمولِ عِلْمِه لِدَخائِلِهم مِن مُحِقٍّ ومُبطِلٍ[3].

- ووَصْفُ ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُشعِرٌ بصِفةِ القُدرةِ، وتَقديمُه قبْلَ وصْفِ العِلْمِ؛ لِأنَّ شُعورَ النَّاسِ بقُدرَتِه سابِقٌ على شُعورِهم بعِلْمِه، ولأنَّ القُدرةَ أشَدُّ مُناسَبةً لِطَلَبِ الحُكمِ؛ لأنَّ الحُكمَ إلزامٌ وقَهرٌ، فهو مِن آثارِ القُدرةِ مُباشرةً[4].

- قَولُه: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الدُّعاءِ، والمَعنى: احكُمْ بَيْنَنا[١].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿أَنتَ﴾ على الخَبَرِ الفِعليِّ ﴿تَحۡكُمُ﴾؛ لِإفادةِ الاختِصاصِ، أيْ: أنتَ لا غَيرُكَ، وإذْ لم يَكُنْ في الفَريقَينِ مَن يَعتَقِدُ أنَّ غيرَ اللهِ يَحكُمُ بيْنَ الناسِ في مِثلِ هذا الاختِلافِ فيَكونَ الرَّدُّ عليه بمُفادِ القَصرِ؛ تَعيَّنَ أنَّ القَصرَ مُستَعمَلٌ كِنايةً تَلويحيَّةً عن شِدَّةِ شَكيمَتِهم في العِنادِ، وعَدَمِ الإنصافِ والانصياعِ إلى قَواطِعِ الحُجَجِ، بحيث إنَّ مَن يَتطلَّبُ حاكمًا فيهم لا يَجِدُ حاكمًا فيهم إلَّا اللهَ تعالى. وهذا أيضًا يُومِئُ إلى العُذرِ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قِيامِه بأقصَى ما كُلِّفَ به؛ لِأنَّ هذا القَولَ إنَّما يَصدُرُ عمَّن بَذَلَ وُسْعَه فيما وَجَبَ عليه، فلَمَّا لَقَّنَه رَبُّه أنْ يَقولَه كان ذلك في مَعنى: إنَّكَ أبلَغْتَ وأدَّيتَ الرِّسالةَ، فلم يَبْقَ إلَّا ما يَدخُلُ تَحتَ قُدرةِ اللهِ تعالى الَّتي لا يُعجِزُها الألِدَّاءُ أمثالُ قَومِكَ، وفيه تَسليةٌ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وفيه وَعيدٌ لِلمُعانِدينَ[٢].

- والعُدولُ عنِ الإضمارِ إلى الاسمِ الظَّاهِرِ في قَولِه: ﴿بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ دُونَ أنْ يَقولَ: (بَيْنَنا)؛ لِمَا في ﴿عِبَادِكَ﴾ مِنَ العُمومِ؛ لأنَّه جَمعٌ مُضافٌ، فيَشمَلُ الحُكمَ بَيْنَهم في قَضيَّتِهم هذه، والحُكمَ بيْنَ كُلِّ مُختَلِفَينِ؛ لِأنَّ التَّعميمَ أنسَبُ بالدُّعاءِ والمُباهَلةِ[٣].

- والإتيانُ بفِعلِ الكَونِ ﴿كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ صِلةً لـ ﴿مَا﴾ المَوصولةِ؛ لِيَدُلَّ على تَحَقُّقِ الاختِلافِ، وكَونُ خَبَرِ (كانَ) مُضارِعًا تَعريضٌ بأنَّه اختِلافٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١، ٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١).

مُتَجَدِّدٌ؛ إذْ لا طَماعِيةَ في ارْعِواءِ المُشرِكينَ عن باطِلِهم[١].

- وتَقديمُ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿يَخْتَلِفُونَ﴾؛ لِلرِّعايةِ على الفاصِلةِ، مع الاهتِمامِ بالأمْرِ المُختَلَفِ فيه[٢].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ سِيقَ الكَلامُ في الأمْرِ بالدُّعاءِ في الأسماءِ الحُسْنى، والأمْرِ بالتَّفويضِ في الحُكمِ بَيْنَهم إلى اللهِ تَعالى، وأُدمِجَ فيه مَعانٍ أربَعةٌ؛ أحَدُها: قَولُه: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ﴾، دَلَّ على الاختِصاصِ؛ لِأنَّه مِن قَبيلِ: أنتَ عَرَفتَ، وأفادَ أنَّه تَعالى هو وَحْدَه يَحكُمُ بيْنَهم، فدَلَّ ذلك على شِدَّةِ شَكيمَتِهم في الكُفرِ والعِنادِ، وهو كِنايةٌ. وثانيها: اعتِذارٌ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِأنَّ هذا القَولَ إنَّما يَصدُرُ عمَّن بَذَلَ وُسْعَه فيما وَجَبَ عليه، أيْ: أبلَغتَ وأدَّيتَ ما عليكَ، بَقيَ الآنَ على مَن هو أحكَمُ الحاكِمينَ هو وَحْدَه يَحكُمُ بَيْنَهم. وثالِثُها: تَسليةٌ له صَلَواتُ اللهِ عليه؛ لِأنَّه كانَ حَريصًا على إيمانِ القَومِ؛ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ [الكهف: ٦]، وهذه الآيةُ كالمُتارَكةِ والمُوادَعةِ واليَأْسِ مِن إيمانِهم، واليَأْسُ إحدى الرَّاحَتَينِ. ورابِعُها: وَعيدٌ لهم، ولا وَعيدَ بَعْدَه؛ فقولُه: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ دَلَّ على القُدرةِ التَّامَّةِ، وقَولُه: ﴿عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ دَلَّ على العِلْمِ الشَّامِلِ، وأنَّه عالِمٌ بما ظَهَرَ منهم وما بَطَنَ، فيُجازيهم عليه، وقَولُه: ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ دَلَّ على القَضاءِ الحَقِّ والحُكمِ العَدلِ، واللهُ أعلَمُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠١، ٤٠٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ نَمَطٍ مِن أنماطِ الهَولِ الَّذي يَنتَظِرُهم، والعَذابِ الشَّديدِ الَّذي أُعِدَّ لهم، ولِبَيانِ آثارِ الحُكمِ الَّذي استَدعاه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وغايةِ شِدَّتِه وفَظاعَتِه[1]. أو عَطفٌ على جُملةِ ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ [الزمر: ٤٦] إلَخ؛ لِأنَّها تُشيرُ إلى أنَّ الحَقَّ في جانِبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ الحُكمَ سَيَكونُ على المُشرِكينَ، فأعقَبَ ذلك بتَهويلِ ما سيَكونُ به الحُكمُ بأنَّه لو وَجَدَ المُشرِكونَ فِديةً منه بالِغةً ما بَلَغتْ لَافتَدَوْا بها[2].

- وإنْ جُعِلَ قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عامًّا، كانتِ الآيةُ اعتِراضًا بَعْدَ اعتِراضٍ. وإذا جُعِلَ مِن إقامةِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ إشعارًا بالعِلِّيَّةِ، كان استِطرادًا بعدَ اعتِراضٍ[3].

- وقولُه: ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ يَشملُ كُلَّ عَزيزٍ عليهم مِن أهليهم وأموالِهم، بل وأنْفُسِهم؛ فهو أهوَنُ مِن سُوءِ العَذابِ يَومَ القِيامةِ، ووَجهُ التَّهويلِ في ذلك هو ما يَستَلزِمُه مِلكُ هذه الأشياءِ مِنَ الشُّحِّ بها في مُتَعارَفِ النُّفوسِ[4].

- وتَضَمَّنَ حَرفُ الشَّرطِ (لو) أنَّ كَونَ ما في الأرضِ لهم مُنتَفٍ؛ فأفادَ أنْ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

فِداءَ لهم مِن سُوءِ العَذابِ، فهذا وَعيدٌ شَديدٌ، وإقناطٌ كُلِّيٌّ لهم مِنَ الخَلاصِ[١].

- وعُطِفَ على هذا التَّأييسِ تَهويلٌ آخَرُ في عِظَمِ ما يَنالُهم مِنَ العَذابِ، وهو ما في المَوصولِ مِن قَولِه: ﴿مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ مِنَ الإيهامِ الَّذي تَذهَبُ فيه نَفْسُ السَّامِعِ إلى كُلِّ تَصويرٍ مِنَ الشِّدَّةِ[٢].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ ابتِدائيَّةٌ، أيْ: ظَهَرَ لهم مِمَّا أعَدَّ اللهُ لهمُ الَّذي لم يَكونوا يَظُنُّونَه. والاحتِسابُ: مُبالَغةٌ في الحِسابِ، بمَعنى الظَّنِّ، مِثلَ: اقتَرَبَ بمَعنى قَرُبَ، والمَعنى: ما لم يَكونوا يَظُنُّونَه، وذلك كِنايةٌ عن كَونِه مُتَجاوِزًا أقصى ما يَتَخَيَّلُه المُتَخَيِّلُ حينَ يَسمَعُ أوصافَه؛ فلا التِفاتَ في هذه الكِنايةِ إلى كَونِهم كانوا مُكَذِّبينَ بالبَعثِ، فلمْ يَكُنْ يَخطُرُ ببالِهم[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عَطفٌ على ما تَقَدَّمَ، ويُمكِنُ أنْ يَكونَ الكَلامُ مُستَأنَفًا مَسوقًا لِإبرازِ وَعيدِهم في أبلَغِ ما يَكونُ الوَعيدُ والتَّهديدُ[٤].

- و﴿سَيِّـَٔاتُ﴾ جَمْعُ سَيِّئةٍ، وهو وَصفٌ أُضيفَ إلى مَوصوفِه، وهو المَوصولُ ﴿مَا كَسَبُواْ﴾، أيْ: مَكسوباتهمُ السَّيِّئات، وتَأنيثُها باعتِبارِ شُهرةِ إطلاقِ السَّيِّئةِ على الفَعلةِ، وإنْ كان فيما كَسَبوه ما هو مِن فاسِدِ الاعتِقادِ؛ كاعتِقادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٢٩).

الشُّرَكاءِ للهِ، وإضمارِ البُغضِ لِلرَّسولِ والصَّالِحينَ، والأحقادِ والتَّحاسُدِ، فجَرى تَأنيثُ الوَصفِ على تَغليبِ السَّيِّئاتِ العَمليَّةِ -مِثلَ الغَصْبِ والقَتلِ والفَواحِشِ- تَغليبًا لَفظيًّا؛ لِكَثرةِ الاستِعمالِ[1].

- وأُوثِرَ فِعلُ ﴿كَسَبُواْ﴾ على فِعلِ (عَمِلوا)؛ لِقَطعِ تَبَرُّمِهم مِنَ العَذابِ بتَسجيلِ أنَّهمُ اكتَسَبوا أسبابَه بأنْفُسِهم[2].

- قوله: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ يحتملُ أن يكونَ هذا على حذفِ مُضافٍ تقديرُه: حاقَ بهم جزاءُ ما كانوا به يَسْتهزِئونَ، ويحتملُ أن يكونَ الكلامُ دونَ حذفٍ، ومعناه: حاقَ بهم العذابُ الَّذي كانوا به يَستهزِئونَ[3].

- وقيل: الباءُ في قَولِه: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ لِلسَّبَبيَّةِ[4].

- وتَقديمُ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ به، ولِلرِّعايةِ على الفاصِلةِ[5].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثيةِ): ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾ [الجاثية: ٣٣]؛ ووَجهُ ذلك: أنَّ ﴿مَا كَسَبُواْ﴾ في هذه السُّورةِ وَقَع بيْنَ ألفاظِ الكَسبِ، وهو ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤]، وما تَبِعَه مِن ذِكرِ السَّبَبِ بَعْدَها في قَولِه: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [الزمر:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٣، ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥٠، ٥١]، وأمَّا في سُورةِ (الجاثيةِ) فوَقَع بيْنَ ألفاظِ العَمَلِ، وهي ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩]، و﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٣٠]، وبعْدَه ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟﴾ [الجاثية: ٣٣]؛ فخُصَّتْ كُلُّ سُورةٍ بما اقتَضاه طَرَفاه[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١١٧، ١١١٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٨، ٢١٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٦، ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٢٦-٤٢٨).

## الآيات (٤٩-٥٢)

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَوَّلْنَٰهُ﴾: أي: مَلَّكْناه وأعطَيْناه، وأصلُه: يدُلُّ على تَعهُّدِ الشَّيءِ[1].

﴿فِتْنَةٌ﴾: أي: اختبارٌ، وابتلاءٌ، وامتحانٌ، وأصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه[2].

﴿يَبْسُطُ﴾: أي: يُوَسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[3].

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه، كأنَّما جُعِلَ رِزقُه بقَدْرٍ يَسيرٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢ / ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) =

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ الإنسانِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ: فإذا أصاب الإنسانَ ضَرَرٌ أو كَربٌ دَعانا؛ لِنَكشِفَ عنه ما أصابه، ثمَّ إذا أعطَيْناه نِعمةً مِنَّا قال: إنَّما أُعطيتُ ذلك على عِلمٍ! بل هذه النِّعمةُ فِتنةٌ له، ولكِنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ ذلك.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى المصيرَ السَّيِّئَ لقائلِ تلك المقالةِ، فيقولُ: قد قال هذه المقالةَ مَنْ سبَقَهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، فما أغْنَى عنهم ما كَسَبوه شَيئًا مِن العَذابِ. فحَلَّ عليهم عِقابُ كَسبِهم، والَّذين ظَلَموا مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ سيُصيبُهم أيضًا عِقابُ كَسبِهم، وما هم بمُعجِزينَ اللهَ تعالى؛ فهو قادِرٌ على عِقابِهم.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا عظيمَ قدرتِه، وبديعَ حكمتِه: أوَلَمْ يَعلَموا أنَّ اللهَ يُوسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ لِقَومٍ يُؤمِنونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

هذه حكايةُ طريقةٍ أُخرَى مِن طرائقِهم الفاسدةِ[1]، فبَعْدَ أنْ حكَى عن المشركينَ بعضَ هَنَواتِهم[2] .....

---

= للراغب (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٨).

(٢) الهَنَوات: خِصالُ سُوءٍ. يُنظر: ((أساس البلاغة)) للزمخشري (٢/ ٣٨١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٣٦٦).

الفاسِدةِ- حكَى عنهم هَناةً أخرَى[١].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، وأخبَرَ عن ظُهورِ هذا لهم؛ عَلَّلَه بأنَّهم كانوا يَفعَلونَ ما لم يَكُنْ في العادةِ يُتوقَّعُ منهم، وهو مُجازاةُ الإحسانِ بالإساءةِ، وقد كانوا جَديرينَ بضِدِّه؛ فقال[٢]:

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾.

أي: فإذا أصاب الإنسانَ[٣] ضَرَرٌ وشِدَّةٌ وكَربٌ دعانا؛ لِنَكشِفَ عنه ذلك[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

أي: ثمَّ إذا أعطَيْناه نِعمةً مِن غِنًى أو عافيةٍ أو غَيرِ ذلك، قال: إنَّما أُعطِيتُ ذلك على عِلمٍ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٤/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٧).

(٣) قيل: المرادُ: جِنسُ الإنسانِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ عطيَّة، والبيضاوي، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

قال أبو السعود: (إخبارٌ عن الجنسِ بما يَفعَلُه غالبُ أفرادِه). ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨).

وقال السعدي: (يخبِرُ تعالى عن حالةِ الإنسانِ وطبيعتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: كُلُّ مُشرِكٍ. وممَّن قال بهذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ [فصلت: ٥٠].

﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ؛ أنَّه أُوتِيَ تلك النِّعمةَ على عِلمٍ، إنَّما هذه النِّعمةُ الَّتي أنعَمْنا بها عليه بلاءٌ واختبارٌ[1]!

---

= القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

قيل: معنى قَولِه: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: أي: على عِلمٍ مِنِّي بطُرُقِ اكتِسابِها. واستظهر هذا المعنى ابنُ جُزَي، وذهب إليه البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٦).

وقيل: المعنى: على عِلمٍ مِن اللهِ بأنِّي له أهلٌ، ومُستَحِقٌّ له؛ لِشَرَفي، ورِضاه بعَمَلي، وكَرَمي عليه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٣٤).

وممَّن جمع بيْنَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥١).

قال ابنُ عطية: (يحتمِلُ أنْ يريدَ: على عِلمٍ مِنِّي بوَجهِ المكاسِبِ والتِّجاراتِ، وغير ذلك. قاله قَتادةُ؛ ففي هذا التَّأويلِ إعجابٌ بالنَّفْسِ، وتعاطٍ مُفرطٌ، ونحوُ هذا. ويحتمِلُ أن يريدَ: على عِلمٍ مِنَ الله فيَّ، وشَيءٍ سَبَق لي، واستِحقاقٍ حُزتُه عندَ اللهِ لا يَضُرُّني معه شَيءٌ؛ ففي هذا التَّأويلِ اغترارٌ باللهِ تعالى، وعَجزٌ وتَمَنٍّ على اللهِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

وممَّن قال بأنَّ الفِتنةَ هنا عائدةٌ على النِّعمةِ الَّتي خَوَّله اللهُ تعالى إيَّاها: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن القيم، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: ١٥].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لجَهلِهم لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ يُعطي النِّعَمَ لعِبادِه؛ فِتنةً لهم(١).

﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٥٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان كُفَّارُ قُرَيشٍ مَقصودينَ بهذا قَصدًا عَظيمًا، وإن كان شامِلًا بإطلاقِه غَيرَهم مِن الأوَّلِينَ والآخِرينَ؛ قال مُوَضِّحًا لذلك(٢):

﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

أي: قد قال هذه المقالةَ -إنَّما أُوتِيتُه على عِلمٍ- وادَّعى هذه الدَّعوَى: مَنْ سلَف مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ(٣).

---

= (٧/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

وقيل: المرادُ بالفِتنةِ: قَولُه: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٠).

قال الرازي: (و﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ هم قارونُ وقومُه، حيثُ قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [القصص: ٧٨]، وقومُه راضونَ به، فكأنَّهم قالوها. ويجوزُ أيضًا أنْ يكونَ في الأُمَمِ الخاليةِ قائِلونَ مِثْلَها). ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٩).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالَى ذِكْرُه: قد قال هذه المَقالةَ -يعني قولَهم لنعمةِ اللهِ الَّتي خَوَّلهم =

كما قال تعالى حاكيًا عن قارونَ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ * وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٤، ٣٥].

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

أي: فما دفَع عنهم ما كَسَبوه شَيئًا مِن العَذابِ لَمَّا جاءَهم(١).

---

= وهم مشركونَ: أُوتِيناه على عِلْم عِندَنا- ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يعني: الَّذينَ مِن قَبلِ مشركي قُريشٍ مِن الأُمَمِ الخالِيةِ لِرُسُلِها؛ تكذيبًا منهم لهم، واستِهزاءً بهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: الشِّركُ والكفرُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٩٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٠).

وقيل: المرادُ: ما كانوا يَكْسِبونَ مِن أموالٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعالبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧).

وقيل: ما كانوا يَكْسِبونَ مِن أموالٍ وأولادٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٦).

وقيل: ما كانوا يَكْسِبونَ مِن المالِ والجاهِ. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٨).

وقيل: المرادُ: ما كانوا يَكْسِبونَ مِن مَتاعِ الدُّنيا. وممَّن اختاره: البيضاويُّ، والنسفي، وأبو =

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾.

أي: فأصابَهم جزاءُ سَيِّئاتِ أعمالِهم، وحلَّ عليهم وَبالُ ما كَسَبوه[١].

كما قال تعالى عن قارونَ: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾.

أي: والَّذين ظَلَموا مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ سيُصيبُهم أيضًا وَبالُ ما كَسَبوه[٢].

﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

أي: ولن يُعجِزوا اللهَ فيَغلِبوه أو يَفُوتُوه ويَسبِقُوه بالهَربِ في الأرضِ؛ فلا يَقدِرَ على عِقابِهم[٣]!

ثمَّ أقام سبحانَه الدَّليلَ على عظيمِ قدرتِه، وبديعِ حكمتِه، فقال[٤]:

---

= السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧).

قال البِقاعي: (تسبَّب عن عدَمِ الإغناءِ أنَّه أصابَهم ﴿سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾، أي: وَبالُ ذلك، وما يَسوءُ مِن آثارِه). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٤/ ٢٠).

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾.

أي: أوَلَم يَعلَمْ أولئك الَّذين يَزعُمونَ أنَّهم أُوتُوا النِّعَمَ على عِلمٍ: أنَّ اللهَ يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم[1]؟

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: إنَّ في توسيعِ اللهِ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، وتَضييقِه على مَن يَشاءُ: لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ للمُؤمِنينَ، فيَستَدِلُّونَ بها على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى حِكمتِه ورَحمتِه، وتفَرُّدِه بالتَّصَرُّفِ في أرزاقِ عِبادِه، وغيرِ ذلك[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ اللُّجوءُ إلى اللهِ تعالى؛ حيثُ إنَّ جميعَ ما كَسَبه مِن مالٍ أو جاهٍ، أو ولدٍ أو زوجةٍ، أو غيرِه: لا يُغْني عنه مِن اللهِ تعالى شَيئًا، فلا يُرجَعُ إلَّا إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ[3]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ﴾ أنَّ المشركين في زمانِنا الَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٨).

يَدْعُون مع اللهِ تعالى غيرَه أشَدُّ شِرْكًا مِن السَّابِقينَ؛ لأنَّ السَّابِقينَ إنَّما كانوا يُشرِكون في الرَّخاءِ، وإذا مَسَّهم الضُّرُّ لَجَؤُوا إلى اللهِ تعالى، أمَّا اللَّاحِقون فإنَّهم يُشرِكون في حالِ الشِّدَّةِ كما يُشرِكون في حالِ الرَّخاءِ إذا أصابَهم الضُّرُّ؛ فيُنادُون: يا فُلانُ! يا فلانُ! يا فلانُ! فهذا أشدُّ شِرْكًا مِن الأوَّلِينَ، وهذا أيضًا مخالِفٌ للفِطرةِ الَّتي فُطِرَ النَّاسُ عليها؛ لأنَّ الإنسانَ لا يَلْجَأُ عندَ الشدائدِ إلَّا بمَن يُؤمِنُ أنَّه يَكْشِفُ هذه الشدائدَ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى يَبتَلي بالنِّعَم كما يَبتَلي بالنِّقَم؛ وقد قال سُلَيمانُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠](٢)، وأكثرُ النَّاسِ غافِلونَ عن هذه المسألةِ؛ أي: عن كَونِ اللهِ سُبحانَه وتعالى يَبْتَلِيهم بالنِّعَم، فيَظُنُّون أنَّ النِّعَمَ دليلٌ على الرِّضا، فيَستمِرُّونَ في معاصيهم، وقد يكونُ هذا مِن بابِ الاستِدراجِ بالنِّعَم حتَّى يَهْلِكَ الإنسانُ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وصحَّ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظَّالِمِ حتَّى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْهُ))(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ فيه أنَّ عَمَلَ الإنسانِ كَسْبٌ له، وفيه ردٌّ على الجبريةِ الذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُجْبَرٌ على عملِه؛ فليس كسبًا له؛ ولا يُضافُ إليه(٤)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاري (٤٦٨٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٨٣) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٥٨).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ الإيمانَ وسيلةٌ للاهتِداءِ ومعرفةِ الآياتِ، وإذا كان هذا الحُكْمُ مُعَلَّقًا على هذا الوصفِ؛ فإنَّ القاعدةَ: أنَّ ما عُلِّقَ على وَصْفٍ فإنَّه يَقوى بقوَّتِه، ويَضْعُفُ بضَعْفِه، فكُلَّما قَوِيَ الإيمانُ ظَهَرَ للإنسانِ مِن آياتِ اللهِ تعالى ما لم يَظْهَرْ له مع ضَعفِ الإيمانِ، وكلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَتْ معرفةُ الإنسانِ وإدراكُه للآياتِ الَّتي يُنْزِلُها اللهُ عزَّ وجلَّ مِن الوَحيِ؛ والَّتي يُقَدِّرُها مِن القضاءِ[1].

٥- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خُصَّ المؤمِنُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه هو الَّذي يَتدَبَّرُ الآياتِ ويَنتفعُ بها، ويَعلَمُ أنَّ سَعةَ الرِّزقِ قد تكونُ مَكرًا واستِدراجًا، وتَقتيرَه رِفْعةً وإعظامًا[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عُطِفَتْ هذه الآيةُ بالفاءِ هاهنا، وعُطِفَ مِثلُها في أوَّلِ السُّورةِ بالواوِ، وفي ذلك وَجْهانِ:

**الأوَّلُ**: أنَّ الفاءَ لِتَفريعِ هذا الكلامِ على قولِه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥] الآيةَ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ مُسلسَلٌ بعضُه مع بعضٍ للمُناسَباتِ. وتَفريعُ ما بعْدَ الفاءِ تَفريعُ وَصْفِ بعْضٍ مِن غرائبِ أحوالِهم على بعْضٍ، وهل أغرَبُ مِن فَزَعِهم إلى اللهِ وَحْدَه بالدُّعاءِ إذا مَسَّهمُ الضُّرُّ وقد كانوا يَشمَئِزُّونَ مِن ذِكرِ اسمِه وَحْدَه؟! فهذا تَناقُضٌ مِن أفعالِهم وتَعكيسٌ؛ فإنَّه تَسَبُّبُ حَديثٍ على حَديثٍ، وليس تَسَبُّبًا على الوُجودِ. وهذه النُّكتةُ هي الفارِقةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٤، ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٧).

بيْن العَطفِ بالفاءِ هنا وعَطفِ نَظيرِها بالواوِ في قَولِه أوَّلَ السُّورةِ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر: ٨]؛ فإنَّها لم تَقَعْ مُسَبَّبةً، بل ناسَبَتْ ما قَبْلَها، فعُطِفتْ عليه بالواوِ.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ الَّذي يَظهَرُ في الرَّبطِ: أنَّه لَمَّا قال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [الزمر: ٤٧] الآيةَ، كان ذلك إشعارًا بما يَنالُ الظَّالِمينَ مِن شِدَّةِ العَذابِ، وأنَّه يَظهَرُ لهم يَومَ القِيامةِ مِنَ العَذابِ ما لم يَكُنْ في حِسابِهم؛ أتْبَعَ ذلك بما يدُلُّ على ظُلمِ الإنسانِ وبَغْيِه؛ إذْ كان إذا مَسَّه ضُرٌّ دعا رَبَّه، فإذا أحسَنَ إليه لم يَنسِبْ ذلك إليه[1]!

- والمقصودُ بالتَّفريعِ هو قولُه: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾، وأمَّا ما بعْدَه فتَتميمٌ واستطرادٌ[2].

- تَقدَّمَ نَظيرُ صَدْرِ هذه الآيةِ في قولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ﴾ [الزمر: ٨] الآيةَ، والمرادُ بالإنسانِ كلُّ مُشرِكٍ -على قولٍ-؛ فالتَّعريفُ تَعريفُ الجِنسِ، والمُرادُ جَماعةٌ مِنَ الناسِ، وهم أهلُ الشِّركِ؛ فهو لِلاستِغراقِ العُرفيِّ، والمُخالَفةُ بَيْنَ الآيَتَينِ تَفَنُّنٌ، ولِئَلَّا تَخلُوَ إعادةُ الآيةِ مِن فائِدةٍ زائِدةٍ كما هو عادةُ القرآنِ في القصصِ المكرَّرةِ[3].

- وتَخصيصُ ذِكرِ الإنسانِ مِن إقامةِ المُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ لِلتَّلويحِ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٤٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٤، ٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَولِه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾[١] [عبس: ١٧].

- وتَذكيرُ ضَميرِ الغائِبِ في قَولِه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۭ﴾ وإنْ كان عائِدًا إلى ﴿نِعۡمَةً﴾؛ لِأنَّ مَعناها مُذَكَّرٌ، وهو الإنعامُ والإحسانُ أو المالُ، أو المَعنى: شَيئًا مِنَ النِّعمةِ، أو لِأنَّها تَشتَمِلُ على مُذَكَّرٍ ومُؤَنَّثٍ، فغُلِّبَ المُذَكَّرُ، أو على تَأويلِ حِكايةِ مَقالَتِهم بأنَّها صادِرةٌ منهم في حالِ حُضورِ ما بيْنَ أيديهم مِن أنواعِ النِّعَمِ، فهو مِن عَودِ الضَّميرِ إلى ذاتٍ مُشاهَدةٍ، فالضَّميرُ بمَنزِلةِ اسمِ الإشارةِ، كقَولِه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأحقاف: ٢٤][٢]. وقيل غيرُ ذلك[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خُولِفَ بيْنَ هذه الآيةِ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۭ﴾ وبيْنَ آيةِ سُورةِ (القَصَصِ) في قَولِه: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨]، فلم يَذكُرْ هنا ﴿عِندِيٓ﴾؛ لِأنَّ المُرادَ بالعِلمِ هنا مُجرَّدُ الفِطنةِ والتَّدبيرِ -على قول في التفسيرِ-، وأُريدَ هنالك عِلْمٌ خاصٌّ به، قيل: هو الَّذي اكتَسب قارونُ بسببِ معرفتِه به مالًا عظيمًا، وأمَّا ما هنا فهو العِلْمُ الَّذي يُوجَدُ في جَميعِ أهلِ الرَّأيِ والتَّدبيرِ، والمَعنى: أنَّه يَقولُ ذلك إذا ذَكَّرَه بنِعمةِ اللهِ عليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أو أحَدُ المُؤمِنينَ، وبذلك يَظهَرُ مَوقعُ صيغةِ الحَصرِ؛ لِأنَّه قَصَدَ قَلْبَ كَلامِ مَن يَقولُ له: إنَّ ذلك مِن رَحمةِ اللهِ به[٤].

- قولُه: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ حَرفُ (بَلْ) لِلإضرابِ الإبطاليِّ، إضرابٌ عن

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٥، ٣٦).

دَعْواه أنَّه إنَّما أُوتيَ على عِلْمٍ، بل تلك النِّعمةُ فِتنةٌ -على قولٍ-، أيْ: مِحنةٌ وابتِلاءٌ له أيَشكُرُ أمْ يَكفُرُ، وهو رَدٌّ لِمَا قالَه، وتَغييرُ السَّبكِ؛ لِلمُبالَغةِ فيه، والإيذانِ بأنَّ ذلك ليس مِن بابِ الإيتاءِ المُنبِئِ عنِ الكَرامةِ، وإنَّما هو أمْرٌ مُباينٌ له بالكُلِّيَّةِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

- جُملةُ ﴿قَدْ قَالَهَا ...﴾ مُبيِّنةٌ لِمَضمونِ ﴿هِىَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]؛ لأنَّ بَيانَ مَغَبَّةِ الَّذين قالوا هذا القولَ في شأْنِ النِّعمةِ الَّتي تَنالُهم، يُبيِّنُ أنَّ نِعمةَ هؤلاء كانتْ فِتنةً لهم(٢).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ لِتَفريعِ عَدَمِ إغناءِ ما كَسَبوه على مَقالَتِهم تلك؛ فإنَّ عَدَمَ الإغناءِ مُشعِرٌ بأنَّهم حَلَّ بهم مِنَ السُّوءِ ما شَأْنُ مِثلِه أنْ يَتطَلَّبَ صاحِبُه الافتِداءَ منه، فإذا كان ذلك السُّوءُ عَظيمًا لم يَكُنْ له فِداءٌ؛ ففي الكَلامِ إيجازُ حَذفٍ يُبيِّنُه قَولُه بَعْدَه: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٥١]، فالفاءُ فيها مُفرَّعةٌ على جُملةِ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم﴾، أيْ: تَسَبَّبَ على انتِفاءِ إغناءِ الكَسبِ عنهم حُلولُ العِقابِ بهم، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ في تَرتيبِ الجُمَلِ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٥١] مُقَدَّمةً على جُملةِ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾؛ لأنَّ الإغناءَ إنَّما يُترَقَّبُ عِندَ حُلولِ الضَّيرِ بهم، فإذا تَقرَّرَ عَدَمُ الإغناءِ يُذكَرُ بَعْدَه حُلولُ المُصيبةِ، فعُكِسَ التَّرتيبُ على خِلافِ مُقتَضى الظَّاهِرِ؛ لِقَصدِ التَّعجيلِ بإبطالِ مَقالةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧).

قائِلِهم ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾ [الزمر: ٤٩]، أيْ: لو كان لِعِلْمِهم أَثَرٌ في جَلبِ النِّعمةِ لهم لَكانَ له أَثَرٌ في دَفعِ الضُّرِّ عنهم(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أيْ: جَزاءُ سَيِّئاتِ أعمالِهم، أو جَزاءُ أعمالِهم، وسَمَّاه سَيِّئةً؛ لِأنَّه في مُقابَلةِ أعمالِهمُ السَّيِّئةِ؛ رَمْزًا إلى أنَّ جَميعَ أعمالِهم كذلك(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩]؛ فبَعْدَ أنْ وصَفَ أكثرَهم بانتفاءِ العِلمِ بأنَّ الرَّحمةَ لهم فِتنةٌ وابتلاءٌ، عطَفَ عليه إنكارَ انتفاءِ عِلمِهم بذلك، وإهمالَهم النَّظرَ في الأدلَّةِ المفيدةِ للعِلمِ، وصَمَّهم آذانَهم عن الآياتِ الَّتي تُذكِّرُهم بذلك، حتَّى بَقُوا في جَهالةٍ مُركَّبةٍ، وكان الشَّأنُ أنْ يَعلَموا أنَّ اللهَ يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ ويَقدِرُ، أي: يُعطي الخيرَ مَن يَشاءُ، ويمنعُ مَن يَشاءُ(٣).

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾ لِلإنكارِ على المُشرِكينَ في انتِفاءِ عِلْمِهم بذلك؛ لأنَّهم تَسبَّبوا في انتِفاءِ العِلمِ، فالإنكارُ عليهم يَتضَمَّنُ تَوبيخًا. واقتُصِرَ في الإنكارِ على إنكارِ انتِفاءِ العِلمِ بأنَّ بَسْطَ الرِّزقِ وقَدْرَه مِن فِعلِ اللهِ تعالى؛ لِأنَّه أدْنى لمُشاهَدَتِهم أحوالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٨).

قَومِهم، فكمْ مِن كادٍّ غيرُ مَرزوقٍ، وكم مِن آخَرَ يَجيئُه الرِّزقُ مِن حيث لا يَحتَسِبُ[١]!

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ جُعِل في ذلك آياتٌ كثيرةٌ؛ لِأنَّ اختِلافَ أحوالِ الرِّزقِ الدَّالَّةِ على أنَّ التَّصرُّفَ بيَدِ اللهِ تعالى يُنبِئُ عن بَقيَّةِ الأحوالِ، فتَحصُلُ في ذلك آياتٌ كثيرةٌ دالَّةٌ على انفِرادِ اللهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في نفْسِ الأمرِ[٢].

- قولُه: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ جُعِلتِ الآياتُ لِقَومٍ يُؤمِنونَ وخُصُّوا بالذِّكرِ؛ لِأنَّ المُؤمِنينَ قد عَلِموا ذلك وتَخَلَّقوا به، ولم تَكُنْ فيه آياتٌ لِلمُشرِكينَ الغافِلينَ عنه[٣].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقال في سُورةِ (الرُّوم): ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ [الروم: ٣٧]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه في (الزُّمَرِ) اتَّصَل بقولِه: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾، وبعْدَه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ فحَسُنَ ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾. وأمَّا في سُورةِ (الرُّومِ)؛ فلأنَّ بَسْطَ الرِّزقِ هو ممَّا يُشاهَدُ ويُرى؛ فجاء في تلك السُّورةِ على ما يَقْتضيهِ اللَّفظُ والمعنى، مع فصاحةِ التَّفنُّنِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٨، ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٢٩٤، ٢٩٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦٩).

## الآيات (٥٢-٥٩)

﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسْرَفُوا۟﴾: أي: تَجاوَزُوا الحدَّ في العِصيانِ، وأصلُه: يدُلُّ على تَعدِّي الحَدِّ[1].

﴿تَقْنَطُوا۟﴾: أي: تَيْأَسوا، والقُنوطُ: اليأسُ مِنَ الخَيرِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأْسِ مِن الشَّيءِ[2].

﴿وَأَنِيبُوٓا۟﴾: أي: ارجِعوا وأقْبِلوا، والإنابةُ: الرُّجوعُ إلى اللهِ بالإخلاصِ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مكانٍ، ورُجوعٍ إليه[3].

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فَجأةً، وأصلُ (بغت): يدُلُّ على مُفاجأةِ الشَّيءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، =

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾: الحسرةُ: النَّدمُ، والاغتِمامُ على ما فاتَ ولا يُمكِنُ ارتجاعُه، والتَّلهُّفُ عليه، وقيل: الحسرةُ شِدَّةُ النَّدامةِ، حتَّى يبقَى النَّادمُ كالحَسيرِ مِن الدَّوابِّ، وهو الَّذي لا مَنفعةَ فيه، وأصلُ (حسر): كشفُ الشَّيءِ، فالحسرةُ انكِشافٌ عن حالِ النَّدامةِ[1].

﴿فَرَّطۡتُ﴾: أي: قَصَّرتُ، وأصلُ (فرط): يدُلُّ على إزالةِ شَيءٍ مِن مكانِه، وتَنحيتِه عنه[2].

﴿جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾: أي: جانِبِه تعالى، أو أمْرِه، أو حَقِّه[3].

﴿كَرَّةٗ﴾: أي: رَجعةً إلى الدُّنيا، والكَرُّ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ[4].

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٧٦).

قال القرطبي: (والأصلُ «يا حَسْرَتِي»، فأُبْدِل مِن الياءِ ألِفٌ؛ لأنَّها أخفُّ وأمكَنُ في الاستِغاثةِ بمدِّ الصَّوتِ، ورُبَّما أَلْحَقوا بها الهاءَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

## المعنى الإجماليُّ:

يَنهَى اللهُ تعالى عن اليأسِ مِن رحمتِه، ويَفتحُ لعِبادِه بابَ رحمتِه، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِعِباديَ الَّذين أسرَفوا على أنفُسِهم، وأكثَروا مِنَ السَّيِّئاتِ: لا تَيأسُوا مِن رَحمةِ اللهِ، إنَّ اللهَ يَغفِرُ الذُّنوبَ كُلَّها؛ إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الغَفورُ الرَّحيمُ، وارجِعوا -أيُّها النَّاسُ- إلى رَبِّكم، وتُوبوا إليه، واستَسلِموا له مِن قَبلِ أن يأتيَكم عذابُ اللهِ، ثمَّ لا تُنصَرونَ.

ثمَّ يأمُرُ تعالى باتِّباعِ أوامرِ القرآنِ ونواهيه، فيقولُ: واتَّبِعوا القُرآنَ، وامتَثِلوا أوامِرَه، واجتَنِبوا نواهيَه؛ مِن قَبلِ أن يأتيَكم عذابُ اللهِ فَجأةً، وأنتم لا تَشعُرونَ؛ لئلَّا تقولَ نَفْسٌ يومَ القيامةِ تَحَسُّرًا على عدَمِ التَّوبةِ: يا حَسرتي على ما ضَيَّعتُ وقَصَّرتُ في حقِّ اللهِ، والحالُ أنَّني كنتُ مِن السَّاخِرينَ، أو تقولَ نَفْسٌ: لو أنَّ اللهَ هداني إلى الحَقِّ لَكُنتُ مِن المتَّقينَ، أو تَقولَ نَفْسٌ حينَ تَرى العذابَ في الآخِرةِ: لَيْتَ لي رَجعةً إلى الدُّنيا، فأكونَ مِن الَّذين أحسَنوا العَمَلَ.

فيَقولُ اللهُ تعالى: ليس الأمرُ كما تَقولُ؛ فقد جاءتك آياتُ القُرآنِ فكَذَّبتَ بها واستكبَرْتَ عن قَبولِها، وكُنتَ مِن الكافِرينَ بها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا شَدَّد تعالى على الكفَّارِ وذَكَر ما أعدَّ لهم مِن العذابِ، وأنَّهم لو كان لأحدِهم ما في الأرضِ ومِثلَه معه لافْتَدى به مِن عذابِ اللهِ؛ ذَكَر ما في إحسانِه

مِن غُفرانِ الذُّنوبِ إذا آمَن العبدُ ورَجَع إلى اللهِ[١]، فلَمَّا أطنَبَ سُبحانَه في الوَعيدِ؛ أردَفَه بشَرحِ كَمالِ رَحمتِه وفَضلِه وإحسانِه في حَقِّ العَبيدِ[٢]، وهذا على عادةِ هذا الكِتابِ المجيدِ مِن مُداواةِ النُّفوسِ بمَزيجِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ[٣].

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: ((أنَّ ناسًا مِن أهلِ الشِّركِ كانوا قد قَتَلوا وأكثَروا، وزَنَوا وأكثَروا، فأتَوا مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالوا: إنَّ الَّذي تقولُ وتدعو إليه لَحَسَنٌ لو تُخبِرُنا أنَّ لِما عَمِلْنا كَفَّارةً، فنزَل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨]، ونزَلت: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾))[٤].

﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- مُبلِّغًا عن الله أنَّه يقولُ[٥]: يا عباديَ الَّذين أكثَروا مِنَ السَّيِّئاتِ بالكُفرِ أو المعاصي، فأثقَلوا أنفُسَهم بالآثامِ: لا يَنقَطِعْ رَجاؤُكم وتَيأسُوا مِن رحمةِ اللهِ، مُعتَقدينَ أنَّ الله لن يَغفِرَ لكم ذُنوبَكم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٩).

(٤) رواه البخاري (٤٨١٠) واللَّفظُ له، ومسلم (١٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٦٦).

قال السعدي: (﴿قُلۡ﴾ يا أيُّها الرَّسولُ ومَن قام مَقامَه مِن الدُّعاةِ لدينِ الله، مُخبِرًا للعِبادِ عن ربِّهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٦، ١٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤١، ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٦-٣٦٩).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لو يَعلَمُ الكافِرُ ما عندَ اللهِ مِن الرَّحمةِ، ما قَنَطَ مِن جَنَّتِه أحَدٌ))(١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَستُرُ الذُّنوبَ كُلَّها، ويَتجاوَزُ عن المؤاخَذةِ بها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((والَّذي نفْسي بيَدِه، لو لم تُذْنِبوا لَذَهَب اللهُ بكم، ولَجاءَ بقَومٍ يُذْنِبون، فيَستغفِرونَ اللهَ فيَغفِرُ لهم))(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٧٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١١/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٦٩، ٣٧٠).

قال البِقاعي: (سبَقَ منه القَولُ؛ أنَّه إنَّما يَغفِرُ الشِّركَ بالتَّوبةِ عنه، وأمَّا غيرُه فيَغفِرُه إن شاء بتَوبةٍ، وإن شاء بلا تَوبةٍ، ولا يَقدِرُ أحَدٌ أن يَمنَعَه مِن شَيءٍ من ذلك). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٣٤).

وقال ابنُ عاشور: (هذه المغفِرةُ تقتَضي أسبابًا أُجمِلَت هنا، وفُصِّلَت في دلائِلَ أخرى مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ منها قَولُه تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، وتلك الدَّلائِلُ يَجمَعُها أنَّ للغُفرانِ أسبابًا تَطرأُ على المُذنِبِ، ولولا ذلك لَكانت المؤاخَذةُ بالذُّنوبِ عَبَثًا يُنَزَّهُ عنه الحكيمُ تعالى، كيف وقد سمَّاها ذُنوبًا وتوعَّد عليها، فكان قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ دعوةً إلى تطلُّبِ أسبابِ هذه المغفرةِ، فإذا طلَبها المذنِبُ عَرَف تفصيلَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢).

(٣) رواه مسلم (٢٧٤٩).

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((قال اللهُ تبارك وتعالى: يا ابنَ آدَمَ إنَّك ما دَعَوْتَني ورَجَوْتَني غفَرتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ لو بلَغَتْ ذُنوبُك عَنانَ[1] السَّماءِ ثمَّ استَغفَرْتَني غفَرْتُ لك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ إنَّك لو أَتَيْتَني بقُرابِ[2] الأرضِ خَطايا ثمَّ لَقيتَني لا تُشرِكُ بي شَيئًا لَأَتَيْتُك بقُرابِها مَغفِرةً))[3].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه البالِغُ المَغفِرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، العَظيمُ الرَّحمةِ بهم[4].

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت الآيةُ السَّابقةُ فيها فُسحةٌ عَظيمةٌ للمُسرِفِ؛ أَتْبَعَها بأنَّ الإنابةَ -وهي

---

(١) عَنانَ السَّماءِ: أي: سَحابَها وما علا منها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦٢٠).

(٢) بقُرابِ الأرضِ: أي: بمِثْلِها وقدرِها، أو: بما يقاربُ ملأَها. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ٣٤)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٧/ ٣٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٣٠٥)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٢٣١).

صحَّح الحديثَ ابنُ القيِّم في ((أعلام الموقعين)) (١/ ٢٠٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٤٠)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((رياض الصالحين)) (٤٤٢)، وقال ابن رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (٢/ ٤٠٠): (إسنادُه لا بأس به).

والحديثُ أخرجه من طريقٍ آخَرَ ابنُ شاهين في ((الترغيب في فضائل الأعمال)) (١٧٩)، والضياءُ في ((الأحاديث المختارة)) (٤/ ٣٩٩).

وصحَّح إسنادَه الضياءُ المقدسيُّ، وصحَّحه ابنُ القيِّم في ((هداية الحيارى)) (٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣١)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٧٤، ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧١-٣٧٣).

الرُّجوعُ- مَطلوبةٌ مأمورٌ بها، ثمَّ توعَّدَ مَن لم يَتُبْ بالعَذابِ؛ حتَّى لا يَبقَى المرءُ كالمُمِلِّ مِن الطَّاعةِ، والمتَّكِلِ على الغُفرانِ دونَ إنابةٍ[١]!

وأيضًا لَمَّا فَتَح لهم بابَ الرَّجاءِ؛ أعْقَبه بالإرشادِ إلى وسيلةِ المغفرةِ[٢].

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ ﴾.

أي: وارجِعوا -أيُّها النَّاسُ- إلى رَبِّكم، بالتَّوبةِ إليه وطاعتِه وَحْدَه، واستَسلِموا واخضَعوا له، وانقادُوا إليه[٣].

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾.

أي: مِن قَبلِ أن يأتيَكم عَذابُ اللهِ على كُفرِكم به، ومَعصيتِكم إيَّاه، ثمَّ لا يَنصُرُكم ناصِرٌ[٤].

كما قال تعالى: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٦، ٣٨٧).

قال ابنُ عاشور: (هذا الخِطابُ يأخُذُ كُلُّ فَريقٍ منه بنصيبٍ؛ فنَصيبُ المُشرِكينَ الإنابةُ إلى التَّوحيدِ، واتِّباعُ دينِ الإسلامِ. ونصيبُ المؤمِنينَ منه التَّوبةُ إذا أسرَفوا على أنفُسِهم، والإكثارُ مِن الحَسَناتِ، وأمَّا الإسلامُ فحاصِلٌ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٩).

ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى بالإنابةِ والإسلامِ إليه كأنَّه قيل: ما الإنابةُ والإسلامُ؟ وما جزئيَّاتُها وأعمالُها؟ فأجابَ تعالى بقولِه[1]:

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾.

أي: واتَّبِعوا القُرآنَ فصَدِّقوا أخبارَه، واتَّعِظوا واعتَبِروا بقَصَصِه وأمثالِه، وامتَثِلوا أوامِرَه، واجتَنِبوا نواهيَه، وكِلُوا مُتشابِهَه إلى عالِمِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٦).

قيل: المرادُ بـ﴿أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ﴾: القرآنُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، وابنُ جُزَي، وأبو حيان، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٤).

وقيل: المرادُ: الأمرُ باتِّباعِ القُرآنِ الَّذي هو أحسَنُ ما نَزَل مِن كُتُبِ اللهِ، واتِّباعِ أحاسِنِ ما فيه. وممَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩١).

قال ابن عطية: (وقَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ﴾ معناه: أنَّ القُرآنَ العزيزَ تضَمَّنَ عَقائِدَ نَيِّرةً، وأوامِرَ ونَواهيَ مُنجِيةً، وعِداتٍ على الطَّاعاتِ والبِرِّ، وحُدودًا على المعاصي، ووَعيدًا على =

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾.

أي: مِن قَبلِ أن يأتيَكم عذابُ اللهِ فَجأةً وأنتم غافِلونَ لا تَشعُرونَ بمَجيئِه[1].

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا خَوَّفَهم سُبحانَه بالعَذابِ؛ بَيَّن تعالى أنَّ بتَقديرِ نُزولِ العَذابِ عليهم ماذا يَقولون؛ فحَكى اللهُ تعالى عنهم ثلاثةَ أنواعٍ مِن الكَلِماتِ[2].

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لِئَلَّا[3] تقولَ نَفْسٌ يومَ القيامةِ تَحسُّرًا على عدَمِ التَّوبةِ: يا ندامَتي على ما

---

= بَعضِها؛ فالأحسَنُ أن يَسلُكَ الإنسانُ طَريقَ التَّفَهُّمِ والتَّحصيلِ، وطَريقَ الطَّاعةِ والانتِهاءِ، والعَفوِ في الأُمورِ ونَحوِ ذلك، فهو أحسَنُ مِن أن يَسلُكَ طَريقَ الغَفلةِ والمَعصيةِ فيُجزَى، أو يَقَع تحتَ الوَعيدِ، فهذا المعنى هو المقصودُ بـ﴿أَحۡسَنَ﴾. ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٧).

وفي معنى الآيةِ أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠).

وقد سبق ذِكرُ الخِلافِ في معنى قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨] (ص: ١٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٦٦).

(٣) قال الشوكاني: (قال البَصريُّونَ: أيْ: حَذَرًا أنْ تقولَ. وقال الكوفيُّونَ: لئلَّا تقولَ. قال المُبَرِّدُ: بادِروا خَوْفَ أنْ تقولَ، أو حَذَرًا مِن أنْ تقولَ نفْسٌ. وقال الزَّجَّاجُ: خَوْفَ أنْ تَصيروا إلى حالٍ تقولونَ فيها: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٨٨).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ «أَنْ» في موضعِ نصبٍ، أي: كراهةَ =

قصَّرتُ في حَقِّ اللهِ، وضَيَّعتُ مِن العملِ بما أمَرني به[١].

﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾.

أي: والحالُ أنَّني كُنتُ مِن السَّاخِرينَ مِن أمْرِ اللهِ وكِتابِه، ورَسولِه والمُؤمِنينَ[٢].

---

= ﴿أَن تَقُولَ﴾ ... وقيل: أيْ: مِن قبلِ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾؛ لأنَّه قال قبْلَ هذا: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: وأنِيبوا إلى ربِّكم، وأسلِموا له؛ ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾، بمعنى: لئلَّا تقولَ نفْسٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٣).

وذكر البِقاعي أنَّ هذ الجملةَ تعليلٌ للإقبالِ على الاتِّباعِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٣٧).

وجعل ابنُ عاشورٍ قولَه: ﴿أَن تَقُولَ﴾ تَعْليلًا للأوامرِ في قولِه: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤] ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ﴾ [الزمر: ٥٥]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٥، ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٧- ٣٩٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (...لا يُعرَفُ عالِمٌ مَشهورٌ عند المُسلِمينَ، ولا طائِفةٌ مَشهورةٌ مِن طوائفِ المُسلِمينَ: أثبَتوا لله جَنْبًا نظيرَ جَنبِ الإنسانِ، وهذا اللَّفظُ جاء في القُرآنِ في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، فليس في مجرَّدِ الإضافةِ ما يَستلزِمُ أنْ يكونَ المضافُ إلى الله صِفةً له... وفي القُرآنِ ما يُبيِّنُ أنَّه ليس المرادُ بالجَنبِ ما هو نَظيرُ جَنْبِ الإنسانِ؛ فإنَّه قال: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، والتَّفريطُ ليس في شَيءٍ مِن صِفاتِ الله عزَّ وجلَّ، والإنسانُ إذا قال: فلانٌ قد فَرَّط في جَنبِ فُلانٍ أو جانِبِه، لا يريدُ به أنَّ التَّفريطَ وقَعَ في شَيءٍ مِن نَفْسِ ذلك الشَّخصِ، بل يريدُ به أنَّه فَرَّط في جِهتِه وفي حَقِّه). ((الجواب الصحيح)) (٣/ ١٤٥، ١٤٦). ويُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٥٠)، ((الاعتصام)) للشاطبي (٣/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((صفات الله عزَّ وجلَّ الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ١١٣، ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩، ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ولِئَلَّا تَقولَ نَفْسٌ: لو أنَّ اللهَ هداني إلى الحَقِّ لَكُنتُ مِن الَّذين اتَّقَوه فأطاعوه، واجتَنَبوا الشِّركَ به، ومَعصيتَه[1].

---

= (٧/ ١١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٠٠، ٤٠١).

قال قَتادةُ: (فلمْ يَكْفِه أنْ ضَيَّع طاعةَ اللهِ، حتَّى جعَل يَسْخَرُ بأهلِ طاعةِ اللهِ!). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٠٨، ٤٠٩).

قال القرطبي: (هذا القَولُ: لو أنَّ اللهَ هداني لاهتَدَيْتُ: قَولٌ صِدقٌ، وهو قريبٌ مِن احتِجاجِ المُشرِكينَ فيما أخبَرَ الرَّبُّ جلَّ وعَزَّ عنهم في قَولِه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ فهي كَلِمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطِلٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٢).

وقال الألوسي: (وفسَّر غيرُ واحدٍ الهدايةَ هنا بالإرشادِ والدَّلالةِ الموصولةِ؛ بناءً على أنَّه الأنسَبُ بالشَّرطيَّةِ، والمُطابقُ للرَّدِّ بقولِه سبحانه: ﴿بَلَىٰ ...﴾ إلخ، ... وأيًّا ما كان فالظَّاهرُ أنَّ هذه المقالةَ في الآخرةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٣).

وقال السعدي: (﴿لَوْ﴾ في هذا الموضعِ للتَّمنِّي، أي: لَيْتَ أنَّ الله هداني فأكونَ مُتَّقيًا له، فأسْلَمَ مِن العِقابِ، وأستحِقَّ الثَّوابَ، وليست ﴿لَوْ﴾ هنا شرطيَّةً؛ لأنَّها لو كانت شرطيَّةً لَكانوا مُحتجِّينَ بالقضاءِ والقدَرِ على ضلالِهم، وهو حُجَّةٌ باطلةٌ، ويومَ القيامةِ تَضمَحِلُّ كلُّ حجَّةٍ باطلةٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٣٨).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كُلُّ أهلِ النَّارِ يَرى مَقعَدَه مِن الجَنَّةِ، فيَقولُ: لو أنَّ اللهَ هداني، فيَكونُ عليه حَسْرةٌ، وكُلُّ أهلِ الجَنَّةِ يَرى مَقعَدَه مِنَ النَّارِ، فيَقولُ: لولا أنَّ اللهَ هداني، فيكونُ له شُكرٌ))(١).

﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ حالَ النَّفْسِ في الاعترافِ بالبُطلانِ، ثمَّ الفَزَعِ إلى الزُّورِ والبُهتانِ؛ أتْبَعَه التَّمنِّيَ الَّذي لا يُفيدُ غيرَ الخُسرانِ، فقال(٢):

﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾.

أي: أو لِئَلَّا تَقولَ نَفْسٌ حينَ ترَى عذابَ اللهِ في الآخِرةِ: لَيْتَ لي رَجعةً إلى الدُّنيا فأكونَ مِن الَّذين أحسَنوا العَمَلَ(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

---

(١) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٥٤) مختصرًا، وأحمد (١٠٦٥٢) واللَّفظُ له. صحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخينِ في ((المستدرك)) (٢/ ٤٧٣)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٤٠٢): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٤٥١٤)، وصَحَّح شعيبٌ الأرناؤوطُ إسنادَه على شرط البخاريِّ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤١١-٤١٣).

﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩ ﴾.

أي: يَقولُ اللهُ مُكَذِّبًا له: ليس الأمرُ كما تَقولُ؛ فقد جاءتك آياتُ القُرآنِ الدَّالَّةُ على الحَقِّ، فكَذَّبْتَ بها واستكبَرْتَ عن قَبولِها واتِّباعِها، وكنتَ في الدُّنيا مِن الكافِرينَ بها؛ فلا عُذرَ لك[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه لا يَحِلُّ لأحدٍ أنْ يَقْنَطَ مِن رحمةِ اللهِ -وإنْ عَظُمَتْ ذنوبُه-، ولا أنْ يُقَنِّطَ النَّاسَ مِن رحمةِ اللهِ[٢]، فقوله: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ﴾ نهيٌ، والأصلُ في النَّهيِ التَّحريمُ، والقُنوطَ مِن رحمةِ اللهِ مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّه ظَنُّ ما لا يَليقُ باللهِ جلَّ وعلا؛ فإنَّ اللَّائقَ باللهِ عزَّ وجلَّ أنَّ مَن لَجَأ إليه فإنَّه أكرمُ الأكرمينَ لا يُخَيِّبُه، فإذا قَنَطْتَ مِن رحمتِه فقد اسْتَهَنْتَ بحقِّه سُبحانَه وتعالى[٣]. وهذا النَّهيُ عن القُنوطِ يَقتضي الأمرَ بالرَّجاءِ[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾، وكذلك قوله: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ فيه وُجوبُ الإخلاصِ للهِ[٥]، وأنَّه مِن دونِ إخلاصٍ لا تُفيدُ الأعمالُ الظَّاهرةُ والباطنةُ شيئًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

﴿ بَلَىٰ ﴾ جوابُ النَّفيِ؛ لأنَّ معنى قولِه: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ أنَّه ما هداني! فلا جَرَمَ حَسُنَ ذِكرُ لفظةِ ﴿ بَلَىٰ ﴾ بعدَه. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٥٩، ٣٦٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٧).

٣- قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ كلُّ هذا حَثٌّ على المُبادَرةِ وانتِهازِ الفُرصةِ[1]، فمتى واتَتْكَ الفرصةُ فلا تُضَيِّعْها[2].

٤- في قولِه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ الحذرُ مِن نزولِ العذابِ عندَ المخالَفةِ، فلا أحدَ يَأْمَنُ عذابَ اللهِ تعالى! فالإنسانُ إذا لم يتُبْ إلى اللهِ تعالى مبادرةً؛ فإنَّ العذابَ ربما يَنْزِلُ به[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ المُفَرِّطَ سيَتَحَسَّرُ على تفريطِه، ويَنبني على هذه الفائدةِ: أنَّه ينبغي أنْ يكونَ الإنسانُ حازمًا ذا نشاطٍ وقوَّةٍ؛ حتَّى لا تَفوتَه الأمورُ، ثمَّ بعدَ ذلك يَنْدَمُ[4].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ اعلَمْ أنَّ هذه الآيةَ تدُلُّ على الرَّحمةِ مِن وُجوهٍ:

**الأوَّلُ**: أنَّه سَمَّى المُذنِبَ بـ«العبد»، والعُبوديَّةُ مُفسَّرةٌ بالحاجةِ والذِّلَّةِ والمَسكَنةِ، واللَّائِقُ بالرَّحيمِ الكَريمِ إفاضةُ الخَيرِ والرَّحمةِ على المِسكينِ المُحتاجِ.

**الثَّاني**: أنَّه تعالى أضافهم إلى نَفْسِه بياءِ الإضافةِ، فقال: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٠٢).

وشَرَفُ الإضافةِ إليه يفيدُ الأمْنَ مِنَ العذابِ.

**الثَّالِثُ**: أنَّه تعالى قال: ﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ومعناه: أنَّ ضرَرَ تلك الذُّنوبِ ما عاد إليه، بل هو عائِدٌ إليهم، فيَكفيهم مِن تلك الذُّنوبِ عَودُ مَضارِّها إليهم، ولا حاجةَ إلى إلحاقِ ضرَرٍ آخَرَ بهم!

**الرَّابعُ**: أنَّه قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، نَهاهم عن القُنوطِ، فيَستلزِمُ هذا أمرًا بالرَّجاءِ، والكريمُ إذا أمَرَ بالرَّجاءِ فلا يَليقُ به إلَّا الكرَمُ.

**الخامِسُ**: أنَّه تعالى قال أوَّلًا: ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾، وكان المُتبادرُ أن يقولَ: «لا تقنَطوا مِن رحمتي»، لكِنَّه ترَك هذا اللَّفظَ، وقال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ قَولَه: «الله» هو أعظَمُ أسماءِ اللهِ وأجَلُّها، فالرَّحمةُ المضافةُ إليه يجِبُ أن تكونَ أعظَمَ أنواعِ الرَّحمةِ والفَضلِ.

**السَّادِسُ**: أنَّه لَمَّا قال: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ كان المُتبادرُ أن يقولَ: «إنَّه يغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا»، ولكِنَّه لم يقُلْ ذلك، بل أعاد اسمَ اللهِ، وقَرَن به لَفظةَ «إنَّ» المفيدةَ لأعظَمِ وُجوهِ التَّأكيدِ، وكُلُّ ذلك يدُلُّ على المبالغةِ في الوَعدِ بالرَّحمةِ.

**السَّابعُ**: أنَّه لو قال: ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ لَكان المقصودُ حاصِلًا، لكِنَّه أردَفَه باللَّفظِ الدَّالِّ على التَّأكيدِ، فقال: ﴿جَمِيعًا﴾، وهذا أيضًا مِن المؤكِّداتِ.

**الثَّامِنُ**: أنَّه وَصَف نَفسَه بكَونِه غَفورًا، ولَفظُ الغَفورِ يُفيدُ المبالغةَ.

**التَّاسِعُ**: أنَّه وَصَف نَفْسَه بكَونِه رَحيمًا، والرَّحمةُ تفيدُ فائدةً على المغفِرةِ؛ فكان قَولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ إشارةً إلى إزالةِ مُوجِباتِ العِقابِ، وقَولُه: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ إشارةً إلى تحصيلِ مُوجِباتِ الرَّحمةِ والثَّوابِ.

**العاشِرُ**: أنَّ قَولَه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يُفيدُ الحَصرَ، ومعناه: أنَّه لا غَفورَ

ولا رَحيمَ إلَّا هو، وذلك يُفيدُ الكَمالَ في وَصفِه سُبحانَه بالغُفرانِ والرَّحمةِ؛ فهذه الوُجوهُ العَشَرةُ مَجموعةٌ في هذه الآيةِ، وهي بأسْرِها دالَّةٌ على كَمالِ الرَّحمةِ والغُفرانِ(١).

٢- قال جلَّ وعلا: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ﴾ عنايةُ اللهِ عزَّ وجلَّ بهذا الأمرِ -أي: بإبلاغِ عبادِه أنَّه يَغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا-؛ حيث أمَرَ نبيَّه أمرًا خاصًّا بأنْ يُبْلِغَ النَّاسَ هذه القَضيَّةَ، فالقرآنُ كلُّه أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبَلِّغَه؛ لقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، لكنْ هناك أشياءُ خاصَّةٌ يَنُصُّ اللهُ عليها أنْ يُبَلِّغَها، وهذا يقتضي العنايةَ بها(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ الأمرُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خالِقِ السَّمواتِ والأرضِ بأنْ يُوَجِّهَ هذا الخِطابَ العَظيمَ لخُصوصِ المُسرفينَ؛ ففيه دَلالةٌ على سَعةِ رَحمةِ اللهِ جَلَّ وعلا، فلم يقُل: «الَّذين آمَنوا»، ولا «الَّذين أخلَصوا»، خَصَّ به المُسرفينَ على أنفُسِهم(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآيةَ: الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ الكبائِرَ لا تُغفَرُ(٤)!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآيةَ: دَلالةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٢٥).

على أنَّ المُسرِفينَ ليس لهم أن يَقنَطوا مِن رحمةِ اللهِ، مع أنَّه جاءت آيةٌ تدُلُّ على خِلافِ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٣]؟

**الجوابُ**: أنَّ الإسرافَ يكونُ بالكُفرِ، ويكونُ بارتكابِ المعاصي دونَ الكُفرِ؛ فآيةُ ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ في الإسرافِ الَّذي هو كُفرٌ، وآيةُ ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ في الإسرافِ بالمعاصي دونَ الكُفرِ.

ويُجابُ أيضًا بأنَّ آيةَ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ فيما إذا لم يَتوبوا، وأنَّ قَولَه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ فيما إذا تابوا[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ...﴾ الآيةَ: دَلالةٌ على غُفرانِ جميعِ الذُّنوبِ، مع أنَّه دَلَّت آياتٌ أُخَرُ على أنَّ مِن الذُّنوبِ ما لا يُغفَرُ، وهو الشِّركُ باللهِ تعالى؟

**الجوابُ**: أنَّ آيةَ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨] مُخصِّصةٌ لهذه. وقال بَعضُ العُلَماءِ: هذه مُقَيَّدةٌ بالتَّوبةِ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾؛ فإنَّه عَطفٌ على قَولِه: ﴿لَا تَقْنَطُوا۟﴾، وعليه فلا إشكالَ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أفهَمَ تَقييدُ الإسرافِ بأنَّه على أنفُسِهم أنَّ الإسرافَ على الغَيرِ لا يُغفَرُ إلَّا بالخُروجِ عن عُهدةِ ذلك الغَيرِ[3].

٨- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، ومادةُ «الغفرِ» ترجِعُ إلى السَّترِ؛ وهو يَقتَضي وُجودَ المستورِ واحتياجَه للسَّترِ؛ فدلَّ ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾ على أنَّ الذُّنوبَ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٣٤).

ثابتةٌ -أي: المؤاخَذةُ بها ثابتةٌ- واللهُ يَغفِرُها، أي: يُزيلُ المؤاخَذةَ بها وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليلٌ لجُملةِ ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، أي: لا يُعجِزُه أن يَغفِرَ جَميعَ الذُّنوبِ مهما بلغ جميعُها مِن الكَثرةِ؛ لأنَّه شديدُ الغُفرانِ، شَديدُ الرَّحمةِ؛ فبَطَل بهذه الآيةِ قَولُ المُرجِئةِ: إنَّه لا يَضُرُّ مع الإيمانِ شَيءٌ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أنَّ أحكامَ اللهِ تعالى مِن مُقتَضى أسمائِه وصِفاتِه، وأحكامُه هنا جَزائيَّةٌ؛ فلِكَونِه غَفورًا رَحيمًا كان ذا مَغفِرةٍ، فغَفَر لِمَن تابَ[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إثباتُ اسمَينِ مِن أسماءِ اللهِ تعالى عَظيمَينِ، يَقترِنانِ كَثيرًا في القُرآنِ؛ هما: «الغفور» و«الرَّحيم»، ووَجْهُ اقترانِهما: أنَّ بالأوَّلِ زَوالَ المكروهِ. وبالثَّاني: حُصولَ المطلوبِ؛ فيَتكَوَّنُ مِن اجتِماعِهما وَصْفٌ زائِدٌ على الوَصفِ عندَ انفرادِهما؛ لأنَّه إذا انفردَ «الغفورُ» استفَدْنا المغفِرةَ منه، وإنِ انفرَدَ «الرَّحيمُ» استفَدْنا الرَّحمةَ، لكِنْ إذا اجتَمَعا استفَدْنا فائِدةً جديدةً، وهي: أنَّ مَغفِرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ مَقرونةٌ برَحمتِه، فهو جامعٌ بيْن المَغفرةِ والرَّحمةِ[3].

١١- قَولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فيه الإشارةُ إلى أنَّ الإنسانَ بعدَ التَّوبةِ قد يكونُ خَيرًا منه قبْلَها، وقبْلَ فِعْلِ الذَّنْبِ؛ لأنَّ الرَّحمةَ تَقتَضي عَطاءً جديدًا، وهذا هو المُشاهَدُ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ ذَكَر عن آدَمَ أنَّه لَمَّا عصَى ربَّه وغَوى وتابَ، قال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، وهذه المَنقَبةُ -وهي الاجتِباءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٣).

والهِدايةُ- لم تُذكَرْ له قَبْلُ[١].

١٢- قولُه تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ فيه وُجوبُ الإنابةِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّ الأصلَ في الأمرِ الوُجوبُ إلَّا بدليلٍ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ دَليلٌ على أنَّ كَشْفَ العذابِ والعُقوباتِ يَكونُ بالمُسارَعةِ في الطَّاعاتِ، والمُسارَعةِ إلى التَّوبةِ والنَّداماتِ، ويَدخُلُ في هذا المعنى ما نُدِبَ إليه النَّاسُ مِن إحداثِ التَّوبةِ، والتَّقدُّمِ في الطَّاعةِ إذا أرادوا الخُروجَ إلى الاستِسقاءِ في حينِ الجَدْبِ والقَحْطِ؛ وذلك أنَّ مَنْعَ القَطْرِ لا يكونُ إلَّا بسخْطةٍ، ولا السُّقْيا إلَّا برَحمةٍ، فإذا قَدَّموا الطَّاعاتِ كانوا أقرَبَ إلى الإجاباتِ، وأجدَرَ برَفعِ العُقوباتِ[٣].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ فيه وُجوبُ اتِّباعِ القرآنِ، وتحريمُ اتِّباعِ غيرِه؛ لأنَّه إذا وَجَب اتِّباعُ القرآنِ؛ فضِدُّه حرامٌ، ولكنْ إذا قال قائلٌ: هل تقولون: إنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنا شرعٌ لنا؟

**فالجوابُ**: على القَولِ بأنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا ما لم يأتِ شرْعُنا بخِلافِه، فنحن نتَّبِعُه لا لأنَّه شرْعُ مَن قبْلَنا، ولكنْ لأنَّ شَرْعَنا دَلَّنا على العملِ به[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ الثَّناءُ على القرآنِ الكريمِ؛ لأنَّه أحسَنُ ما أُنْزِلَ إلى العِبادِ؛ في ذاتِه، وفي أخبارِه، وفي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٣).

أحكامِه، وفي آثارِه؛ فلَمْ تَنَلْ أُمَّةٌ العِزَّةَ والكرامةَ كما نالَتْه هذه الأُمَّةُ بما آتاها اللهُ تعالى مِن القرآنِ(١).

١٦- قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أي: عالِجوا أنفُسَكم وكلِّفوها أنْ تَتَّبِعَ ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾، ولَمَّا كان هذا شَديدًا على النَّفْسِ رَغَّب فيه بقَولِه تعالى -بمظهَرِ صِفةِ الإحسانِ مَوضِعَ الإضمارِ-: ﴿مِّن رَّبِّكُم﴾، أي: الَّذي لم يَزَلْ يُحسِنُ إليكم، وأنتم تُبارِزونَه بالعظائِمِ(٢)!

١٧- قولُه تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ فيه إثباتُ عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ وجْهُ ذلك: أنَّ النُّزولَ لا يكونُ إلَّا مِن أعلَى(٣).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ أنَّ إنزالَ القرآنِ إلينا مِن كمالِ ربوبيَّتِه تعالى، حيثُ أضاف إنزالَه إلى نفْسِه بوصفِ الرُّبوبيَّةِ، فمِن كمالِ ربوبيَّتِه تعالى لِخَلْقِه وتربيتِه لهم أنْ نَزَّلَ إليهم هذا القرآنَ(٤).

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وُجوبُ العملِ بما في القرآنِ؛ لأنَّه نَزَل مِن الرَّبِّ، والرَّبُّ له السُّلطانُ الكاملُ على خَلْقِه، ومُقتضى رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى لنا: أنْ نعملَ بما أنزَل إلينا(٥).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ أنَّ التَّقْوَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩٥).

سببٌ للنَّجاةِ مِن العذابِ[١].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي ﴾ إبطالُ الاحتِجاجِ بالقَدَرِ على مَعصيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ووجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ إرسالَ الرُّسُلِ حُجَّةً، ولو كان القَدَرُ حُجَّةً لصاحِبِه لم يَبطُلْ بإرسالِ الرُّسُلِ[٢]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- الكلامُ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الزَّواجِرَ السَّابِقةَ تُثيرُ في نُفوسِ المُواجَهينَ بها خاطِرَ التَّساؤُلِ عن مَسالِكِ النَّجاةِ، فتَتَلاحَمُ فيها الخَواطِرُ المَلَكيَّةِ والخَواطِرُ الشَّيطانيَّةُ، إلى أنْ يُرْسِيَ التَّلاحُمُ على انتِصارِ إحدى الطَّائِفَتَينِ، فكان في إنارةِ السَّبيلِ لها ما يُسَهِّلُ خَطْوَ الحائِرينَ في ظُلُماتِ الشَّكِّ، ويَرتَفِقُ بها ويُواسِيها بعْدَ أنْ أثخَنَتْها جُروحُ التَّوبيخِ والزَّجرِ والوَعيدِ، ويُضَمِّدُ تلك الجِراحةَ، والحَليمُ يَزجُرُ ويَلينُ، وتُثيرُ في نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خَشيةَ أنْ يُحيطَ غَضَبُ اللهِ بالَّذين دَعاهم إليه فأعرَضوا، أو حَبَّبَهم في الحَقِّ فأَبغَضوا، فلَعَلَّه لا يَفتَحُ لهم بابَ التَّوبةِ، ولا يقبَلُ منهم بعدَ إعراضِهم أَوْبةً، ولا سيَّما بعْدَ أنْ أمَرَه بتَفويضِ الأمْرِ إلى حُكمِه المُشتَمِّ منه تَرَقُّبُ قَطعِ الجِدالِ وفَصمِه، فكانَ أمْرُه لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُناديَهم بهذه الدَّعوةِ تَنفيسًا عليه، وتَفتيحًا لِبابِ الأَوْبةِ إليه. فهذا كلامٌ يَنحَلُّ إلى استئنافَينِ؛ فجُملةُ ﴿قُلۡ﴾ استِئنافٌ لِبَيانِ ما تَرقَّبَه أفضلُ النَّبيِّينَ صلَّى اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١٦).

عليه وسلَّمَ، أي: بلِّغْ عنِّي هذا القولَ. وجُملةُ ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ مِن خِطابِ اللهِ لهم(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِىَ﴾ فيه إقبالُه سُبحانه عليهم، وفي ذلك مُنتَهى الاطمِئنانِ لهم؛ لِمَحوِ ما سَبَقَ لهم مِن ذُنوبٍ وأوضارٍ، والإشعارِ بأنَّ أمامَهم مَندوحةٌ مِنَ الوَقتِ لِاستِدراكِ ما فَرَطَ، ورَأْبِ ما انصَدَع. وفيه نِداؤُهم، وفي ذلك مِنَ التَّودُّدِ إليهم والتَّلَطُّفِ بهم ما يُهيبُ بذَوي المُسْكةِ مِنَ العُقولِ منهم إلى المُبادَرةِ بالإنابةِ والرُّجوعِ بالتَّوبةِ. وفيه إضافتُهم إليه إضافةَ تَشريفٍ لهم، وأنَّهم خُلَقاءُ بآصِرةِ العُبوديَّةِ، يَمُتُّونَ بها إليه سُبحانَه، وذلك كافٍ لِمُقابَلَتِهم ذلك بالمِثلِ وإعلانِ التَّوبةِ؛ لِلازدِلافِ إليه بها(٢).

- والخِطابُ بقَولِه: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ تَمهيدٌ بإجمالٍ يأتي بَيانُه في الآياتِ بَعْدَه مِن قَولِه: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر: ٥٤]، وبَعْدَ هذا؛ فعُمومُ (عِبَادِيَ) وعُمومُ صِلةِ ﴿ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾ يَشملُ أهْلَ المَعاصي مِنَ المُسلِمينَ، وإنْ كان المَقصودُ الأصليُّ مِنَ الخِطابِ المُشرِكينَ، على عادةِ الكَلامِ البَليغِ مِن كَثرةِ المَقاصِدِ والمعاني الَّتي تُفَرَّغُ في قَوالِبَ تَسَعُها(٣).

- ولَعَلَّ وجْهَ ثُبوتِ الياءِ في ﴿يَٰعِبَادِىَ﴾ في هذه الآيةِ دُونَ نَظيرِها -وهو قَولُه: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [الزمر: ١٠]-: أنَّ الخِطابَ هنا لِلَّذين أسرَفوا، وفي مُقَدِّمَتِهِمُ المُشرِكونَ، وكُلُّهم مَظِنَّةُ تَطَرُّقِ اليَأْسِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٩- ٤١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٠)،

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٠، ٤١).

رَحمةِ اللهِ إلى نُفوسِهم، فكان إثباتُ ياءِ المُتكلِّم في خِطابِهم زِيادةَ تَصريح بعَلامةِ التَّكَلُّمِ؛ تَقويةً لِنسبةِ عُبودِيَّتِهم إلى اللهِ تَعالى؛ إيماءً إلى أنَّ شَأنَ الرَّبِّ الرَّحمةُ بعِبادِه[١].

- وفِعلُ (أسْرَفَ) الأكثَرُ أنْ يُعدَّى إلى مُتعلَّقِه بحَرْفِ (في)، وتَعديتُه هنا بـ (على)؛ لأنَّ الإكثارَ هنا مِن أعمالٍ تَتحمَّلُها النَّفْسُ وتَثقُلُ بها، وذلك مُتعارَفٌ في التَّبِعاتِ والعُدْوانِ، تقول: أكثَرْتُ على فُلانٍ؛ فمعنى ﴿أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾: أنَّهم جَلَبوا لأنفُسِهم ما تُثقِلُهم تَبِعَتُه؛ لِيَشملَ ما اقْتَرَفوه مِن شِركٍ وسيِّئاتٍ[٢].

- وإضافةُ الرَّحمةِ إلى اللهِ الْتِفاتٌ مِن ضَميرِ المُتكلِّمِ إلى الاسمِ الغائبِ؛ لأنَّ في إضافتِها تَخصيصًا للرَّحمةِ بالاسمِ الكريم، وبيانًا لِسَعةِ الرَّحمةِ؛ إذْ أُضِيفَتْ إلى اللهِ الَّذي هو أَعظَمُ الأسماءِ؛ لأنَّه العَلَمُ المُحتَوي على مَعاني جميعِ الأسماءِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن اليأْسِ مِن رَحمةِ اللهِ[٤].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وَضْعُ اسمِ الجَلالةِ (الله) مَوضِعَ الضَّميرِ؛ لدَلالتِه على أنَّه المُستَغْني والمُنعِمُ على الإطلاقِ. وفيه التَّأكيدُ بـ (الجميعِ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تعليلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾، وهو تعليلٌ على المُبالَغةِ وإفادةِ الحَصرِ(١).

- وإبرازُ الجُملةِ مِن قولِه ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ مُؤكَّدةً بـ (إنَّ) وبضميرِ الفَصلِ (هو) المُقتَضي -عِندَ البعضِ- الحَصرَ، وبالصِّفتَينِ المُودَعتَينِ (الغفور - الرحيم): مُبالَغةٌ في الوعدِ بالغُفرانِ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾

- في قولِه: ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ إيذانٌ بوعيدٍ قريبٍ إنْ لم يُنيبوا ويُسلِموا كما يُلمِحُ إليه فِعلُ ﴿يَأْتِيَكُمُ﴾. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وهو يَقتَضي أنَّهم إنْ لم يُنيبوا ويُسلِموا يأتِهمُ العَذابُ(٣).

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالإيضاحِ(٤)؛ فلِقائلٍ أنْ يَقولَ: لِمَ لَمْ يُعطَفْ ﴿تُنصَرُونَ﴾ على ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ﴾ المنصوبِ؟ **والجوابُ عن هذا الإشكالِ**: أنَّه أرادَ -وهو أعلَمُ- العِدَةَ بإخبارِهم أنَّه لن يَنصُرَهم أبدًا في الاستِقبالِ ما داموا مُصِرِّينَ على عدَمِ الإنابةِ، مُحجِمينَ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٣).

(٤) الإيضاح: هو أن يَذكُرَ المتكلِّمُ كلامًا في ظاهِرِه لَبْسٌ، ثمَّ يوضِّحَه في بقيَّةِ كلامِه، والإشكالُ الَّذي يحلُّه الإيضاحُ يكونُ في معاني البديعِ مِن الألفاظِ وفي إعرابِها. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٢/ ٢٣).

الإسلامِ[١].

- وأَتَى بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالةِ على المُهْلةِ، يعني: مهما طَلَبْتُم مِن ناصرٍ، وطالَتْ مُدَّةُ طلبِكم للنَّاصرِ- فإنَّكم لن تَجِدوا مَن يَنصُرُكم مِن عذابِ اللهِ تعالى[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ لا يَتعارَضُ هذا مع كَونِ القرآنِ كلِّه حَسَنًا، فـ(أحسَنُ) اسمُ تَفضيلٍ مُستعمَلٌ في معنَى كامِلِ الحُسنِ. وإضافةُ ﴿أَحۡسَنَ﴾ إلى ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى المَوصوفِ، ومَعناهُ: أحسَنَ وَحْيٍ، وهو القرآنُ كلُّه، أو: أحسَنَ القرآنِ؛ آياتِه المُحْكَماتِ، أو آياتِه الَّتي تَضمَّنَتْ أمْرَ طاعةٍ أو إحسانٍ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾

- السِّرُّ في تَنكيرِ النَّفْسِ في قولِه: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ﴾ التَّقليلُ؛ لأنَّ المُرادَ بها بعضُ الأنفُسِ، وهي نفْسُ الكافِرِ، وأنَّها نفْسٌ مُتَمَيِّزةٌ مِنَ الأنفُسِ بهذه السِّمةِ مِنَ اللَّجاجِ في الكُفرِ، ورُبَّما أُريدَ بها التَّكثيرُ، كقولِ القائلِ: رُبَّ بلدٍ قطَعْتُ، ورُبَّ بطَلٍ قارَعْتُ، وهو يَقصِدُ بلادًا وأبطالًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٦، ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير =

- قولُه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ فيه تَشبيهُ الحسرةِ بالعاقلِ الَّذي يُنادَى لِيُقْبِلَ، أي: هذا وقتُكِ فاحضُري. والنِّداءُ مِن رَوادِفِ المُشَبَّهِ به المَحذوفِ، ومعنَى نداءِ الحسرةِ: أي: يا حَسرَتي احضُري؛ فأنا مُحتاجٌ إليكِ، أي: إلى التَّحسُّرِ. وشاعَ ذلك في كلامِهم حتَّى صارتْ هذه الكَلِمةُ كالمَثَلِ لشِدَّةِ التَّحسُّرِ(١).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ تَعديةُ الحَسرةِ بحرفِ الاستِعلاءِ (على) كما هو غالِبُها؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ التَّحسُّرِ مِن مَدخولِ (عَلَى)(٢).

- قولُه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ جنبُ اللهِ: كِنايةٌ

---

= أبي حيان)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٥).

قال الزَّجَّاجُ: (إذا قال القائلُ: ما الفائدةُ في مُناداةِ الحسرةِ، والحسرةُ ممَّا لا يُجيبُ؟

فالفائدةُ في مُناداتِها كالفائدةِ في مُناداةِ ما لا يعقلُ؛ لأنَّ النِّداءَ بابُ تنبيهٍ. إذا قلتَ: يا زَيْدُ، فإن لم تكُنْ دَعَوْتَه لِتُخاطِبَه لِغيرِ النِّداءِ فلا معنى للكلامِ، إنَّما تقولُ: يا زَيدُ، فتُنَبِّهُه بالنِّداءِ، ثمَّ تقولُ له: فعَلْتَ كذا وافعَلْ كذا، وما أحبَبْتَ ممَّا له فيه فائدةٌ، ألَا ترى أنَّك تقولُ لِمَن هو مُقْبِلٌ عليك: «يا زَيدُ، ما أحْسَنَ ما صنَعْتَ!»، ولو قلتَ له: «ما أحْسَنَ ما صنَعْتَ!» كنتَ قد بلَغْتَ في الفائدةِ ما أفهَمْتَ به، غيرَ أنَّ قولَك: «يا زَيدُ» أوْكَدُ في الكلامِ، وأبلَغُ في الإفهامِ. وكذا إذا قلتَ للمُخاطَبِ: «أنا أعجَبُ ممَّا فَعَلْتَ» فقد أفَدْتَه أنَّك مُتعجِّبٌ، ولو قلتَ: «واعَجَباه ممَّا فعلْتَ، ويا عَجَباه أتَفْعَلُ كذا وكذا!» كان دعاؤُك العجَبَ أبلَغَ في الفائدةِ، والمعنى: يا عَجَبُ أقْبِلْ؛ فإنَّه مِن أوقاتِك، وإنَّما نِداءُ العَجَبِ تنبيهٌ لِتمكِّن عِلمِ المُخاطَبِ بالتَّعجُّبِ مِن فِعلِه. وكذلك إذا قلتَ: «وَيْلٌ لِزَيدٍ، أو: وَيْلَ زَيدٍ لِمَ فعَلَ كذا وكذا؟!» كان أبلَغَ. وكذلك في كتابِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢]، وكذلك: ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، وكذلك: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٤).

فيها مُبالَغةٌ، والجَنْبُ: الجانِبُ، يُقالُ: أنا في جَنبِ فُلانٍ وجانِبِه وناحيتِه، وفُلانٌ لَيِّنُ الجَنبِ والجانِبِ، ثمَّ قالوا: فَرَّطَ في جَنبِه وفي جانِبِه، يُريدونُ: في حَقِّه، أي: شأنِ اللهِ وصِفاتِه ووَصاياهُ، وقيل غيرُ ذلك(١).

- وجملةُ ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في إنشاءِ النَّدامةِ على ما فاتَها مِن قَبولِ ما جاءَها به الرَّسولُ مِنَ الهُدى فكانتْ تَسخَرُ منه، والجُملةُ حالٌ مِن فاعِلِ ﴿فَرَّطتُ﴾، أي: فرَّطْتُ في جَنبِ اللهِ تَفريطَ السَّاخِرِ لا تَفريطَ الغافِلِ، وهذا إقرارٌ بصورةِ التَّفريطِ. وقيل: الجملةُ استِئنافُ إخبارٍ عن نفْسِه بما كان عليه في الدُّنيا(٢).

وقولُه: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أشَدُّ مُبالَغةً في الدَّلالةِ على اتِّصافِهم بالسُّخريةِ مِن أنْ يُقالَ: وإنْ كنتُ لَساخِرةً(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

- في قولِه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ حُكِيَ كَلامُ النَّفْسِ في ذلك المَوقفِ على تَرتيبِه الطَّبيعيِّ في جَوَلانِه في الخاطِرِ بالابتِداءِ بالتَّحسُّرِ على ما أَوقعَتْ فيه نفْسَها، وهذا مِنَ الكِنايةِ عن التَّفجُّعِ والنَّدَمِ على ما فَرَّطَتْ فيه مِن طاعةِ اللهِ، ثمَّ بالاعتِذارِ والتَّنصُّلِ طَمَعًا أنْ يُنَجِّيَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٧، ١٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٧).

ذلك، ثمَّ بتَمنِّي أنْ تَعودَ إلى الدُّنيا لتَعمَلَ الإحسانَ، فهذا التَّرتيبُ في النَّظمِ هو أَحْكَمُ تَرتيبٍ، ولو رُتِّب الكَلامُ على خِلافِه لَفاتَتِ الإشارةُ إلى تَوَلُّدِ هذه المعاني في الخاطِرِ حينَما يأتيهِمُ العَذابُ(١).

- وتَكرارُ حَرفِ (أو) في قولِه: ﴿أَن تَقُولَ﴾ للتَّنويعِ لِمَا تَقولُه النَّفْسُ في ذلك اليَومِ العَصيبِ، وللدَّلالةِ على أنَّ أقوالَهم لا تَخْلو منه تَحيُّرًا وتَعلُّلًا بما لا طائلَ تَحتَه، ولا يُسفِرُ عن فائدةٍ(٢).

٦- قولُه تعالَى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ حَرفُ (بَلَى) حَرفٌ لإبطالِ مَنفيٍّ أو فيه رائحةُ النَّفيِ؛ لقَصدِ إثبات ما نُفِيَ قَبْلَه؛ فتَعَيَّنَ أنْ تَكونَ هنا جوابًا لقولِ النَّفْسِ: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]؛ لِمَا تَقتَضيه ﴿لَوْ﴾ الَّتي استُعمِلَتْ للتَّمنِّي مِن انتِفاءِ ما تَمنَّاهُ، وهو أنْ يَكونَ اللهُ هَداهُ لِيَكونَ مِنَ المُتَّقينَ، أي: لم يَهْدِني اللهُ فلمْ أتَّقِ(٣).

- وجملةُ ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ تفصيلٌ للإبطالِ وبَيانٌ له، وهو مِثلُ الجَوابِ بالتَّسليمِ بعْدَ المَنعِ، أي: هَداكَ اللهُ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقد قُوبِلَ كَلامُ النَّفْسِ بجَوابٍ يُقابِلُه على عددِ قَرائِنِه -أي: فِقَرِه-[١] الثَّلاثِ؛ وذلك بقولِه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾، وهذا مُقابِلُ ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]، ثمَّ بقَولِه: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾، وهو مُقابِلُ قَولِها: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] أي: ليست نِهايةُ أمْرِكَ التَّفريطَ، بلْ أَعظَمَ منه وهو الاستِكبارُ، ثمَّ بقولِه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وهذا مُقابِلُ قَولِ النَّفْسِ: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزمر: ٥٧]؛ فهذه قَرائنُ ثلاثٌ، والمعنَى: أنَّ اللهَ هَداكَ في الدُّنيا بالإرشادِ بآياتِ القرآنِ، فقابَلْتَ الإرشادَ بالتَّكذيبِ والاستِكبارِ والكُفرِ بها؛ فلا عُذرَ لك[٢].

- قولُه: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ جاء الجوابُ على طَريقةِ النَّشرِ المُشَوَّشِ بعْدَ اللَّفِّ[٣] رَعْيًا لمُقتَضى ذلك التَّشويشِ، وهو أنْ يَقَعَ ابتِداءُ النَّشرِ بإبطالِ الأهَمِّ ممَّا اشتمَلَ عليه اللَّفُّ، وهو ما ساقُوهُ على معنَى التَّنصُّلِ والاعتِذارِ مِن قَولِهم: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾ [الزمر: ٥٧]؛ لقَصدِ المُبادَرةِ بإعلامِهم بما يَدحَضُ مَعذِرتَهم، ثمَّ عاد إلى إبطالِ قَولِهم: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، فأبطَل بقَولِه: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾، ثمَّ أكمَلَ بإبطالِ قَولِهم: ﴿لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٨] بقَولِه: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. ولم يأتِ جَوابٌ عن قولِ النَّفْسِ: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٦]؛ لأنَّه إقرارٌ. ولو لم يُسلَكْ هذا الأُسلوبُ في النَّشرِ لهذا اللَّفِّ لَفاتَ التَّعجيلُ بدَحْضِ المَعذِرةِ، ولَفاتَتْ مُقابَلةُ القَرائنِ الثَّلاثِ المُجابِ

---

(١) القرائنُ القرآنيَّةُ: جمْعُ قرينةٍ، وهي الفقرةُ ذاتُ الفاصِلةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٦٢).

عنها بقَرائنَ أمثالِها؛ لِما عَلِمتَ مِن أنَّ الإبطالَ رُوعيَ فيه قَرائنُ ثلاثٌ على وِزانِ أقوالِ النَّفْسِ، وأنَّ ترتيبَ أقوالِ النَّفْسِ كان جاريًا على التَّرتيبِ الطَّبيعيِّ، فلو لم يُشَوَّشِ النَّشرُ لَوَجَبَ أنْ يُقتَصَرَ فيه على أقَلَّ مِن عدَدِ قَرائنِ اللَّفِّ، فتَفوتَ نُكتةُ المُقابَلةِ الَّتي هي شأنُ الجِدالِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٨).

## الآيات (٦٠-٦٦)

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَثْوًى﴾: أي: مَنزِلٌ ومقامٌ ومأوًى، والثَّواءُ: الإقامةُ مع الاستِقرارِ؛ يُقالُ: ثَوَى يَثْوي ثَواءً، وأصلُ (ثوي): يدلُّ على الإقامةِ[1].

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: أي: بفَوزِهم ومَنجاتِهم وفَلاحِهم، والفَوزُ: الظَّفَرُ بالخَيرِ مع حُصولِ السَّلامةِ، وأصلُه: يدُلُّ على النَّجاةِ[2].

﴿مَقَالِيدُ﴾: أي: مَفاتيحُ، وقيل: هي الخَزائِنُ، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَحفَظُ الأشياءَ وتَحوزُها، وقيل: أصلُها كلمةٌ فارسيةٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦١، ٦٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، =

﴿لَيَحۡبَطَنَّ﴾: أي: لَيَبْطُلَنَّ؛ فالحَبَطُ: البُطلانُ والألمُ، وأصلُه: أن تُكثِرَ الدَّابَّةُ أكلًا حتَّى يَنتفِخَ بطنُها فتَموتَ(١).

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى حالَ الكافرينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: ويومَ القيامةِ ترَى المُشرِكينَ الَّذين كَذَبوا على اللهِ وُجوهُهم مُسْودَّةٌ، أليس في جَهنَّمَ مُستَقَرٌّ للمُتكبِّرينَ؟

ثمَّ يُبيِّنُ حالَ المؤمنينَ، فيقولُ: ويُنجِّي اللهُ الَّذين اتَّقَوا اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتِنابِ ما نهَى، بفَوزِهم: بالنَّجاةِ مِن النَّارِ، ودُخولِهم جَنَّتَه، لا يُصيبُهم في الآخِرةِ سُوءٌ، ولا هم يَحزَنونَ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه خالِقُ كُلِّ شَيءٍ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قائِمٌ وحافِظٌ، له سُبحانَه وَحْدَه خزائِنُ السَّمَواتِ والأرضِ ومفاتيحُها. والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ أولئك هم الخاسِرونَ.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يوبِّخَ الكافرينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قُرَيشٍ: أتأمُرونَني بعبادةِ غيرِ اللهِ تعالى، أيُّها الجاهِلونَ؟!

ثمَّ يُحذِّرُ سبحانَه مِن الشِّركِ أبْلَغَ تحذيرٍ، فيقولُ: ولقد أُوحِيَ إليك -يا مُحمَّدُ- وإلى الَّذين مِن قَبْلِك مِن الأنبياءِ: لَئِنْ أشرَكْتَ باللهِ لَيَبطُلَنَّ عَمَلُك، ولَتَكونَنَّ مِن

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩، ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٤).

ومقاليدُ جمعٌ وَاحِدُه مقليدٌ ومقلادٌ ومقلدٌ، ويُقالُ: هو جمعٌ لا واحِدَ له مِن لفظِه. يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٣٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

الخاسِرينَ، بل اعبُدِ اللهَ وَحْدَه -يا مُحمَّدُ- وكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ مَقالةَ الكافِرِ؛ ذكَرَ ما يَعرِضُ له يومَ القيامةِ مِن الإنذارِ بسُوءِ مُنقَلَبِه، وفي ضِمنِه وعَيدٌ لِمُعاصِريه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾.

أي: وتَرى[2] يومَ القيامةِ المُشرِكينَ الَّذين كَذَبوا على اللهِ -بادِّعاءِ أنَّ له شَريكًا أو وَلَدًا، أو زعْمِ أنَّه شَرَع شَيئًا وهو لم يَشرَعْه، إلى غيرِ ذلك- وُجوهُهم قد اسودَّتْ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٥).

(٢) قال الألوسي: (الخِطابُ إمَّا لسَيِّدِ المُخاطَبينَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإمَّا لِكُلِّ مَن تَتأتَّى منه الرُّؤيةُ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٤).

ممَّن اختار الأوَّلَ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٦٨).

وممَّن اختار أنَّ الخِطابَ لغيرِ مُعَيَّنٍ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٠).

قال السعدي: (الكَذِبُ على اللهِ يَشملُ: الكَذِبَ عليه باتِّخاذِ الشَّريكِ والوَلَدِ والصَّاحِبةِ، والإخبارَ عنه بما لا يَليقُ بجَلالِه، أو ادِّعاءَ النُّبُوَّةِ، أو القَولَ في شَرعِه بما لم يَقُلْه، والإخبارَ بأنَّه قالَه وشَرَعَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨). =

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

أي: أليس في جَهنَّمَ مَقامٌ ومُستَقَرٌّ للَّذين تَكَبَّروا عن الحَقِّ، فأعرَضوا عن توحيدِ اللهِ، وقَبولِ شَرعِه، وامتَنَعوا عن طاعتِه في أمْرِه ونَهْيِه[1]؟

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كان في قَلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ. قال رجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أن يكونَ ثَوبُه حَسَنًا، ونَعْلُه حَسَنةً. قال: إنَّ اللهَ جَميلٌ يُحِبُّ الجَمالَ. الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ[2]، وغَمْطُ النَّاسِ[3]))[4].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((يُحشَرُ المُتكَبِّرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ[5] في صُوَرِ الرِّجالِ، يَغْشاهم الذُّلُّ مِن

---

= وقال البِقاعي: (ويَدخُلُ فيه كُلُّ مَن تكَلَّم في الدِّينِ بجَهلٍ، وكلُّ مَن كَذَب وهو يَعلَمُ أنَّه كاذِبٌ، في أيِّ شَيءٍ كان؛ فإنَّه مِن حيثُ إنَّ فِعلَه فِعلُ مَن يَظُنُّ أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كَذِبَه أو لا يَقدِرُ على جَزائِه، كأنَّه كَذَب على اللهِ). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

(٢) بطَرُ الحَقِّ: دَفْعُه وإنكارُه؛ ترفُّعًا وتجبُّرًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٩٠).

(٣) الغَمْطُ: الازدِراءُ والاحتِقارُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٩٠).

(٤) رواه مسلم (٩١).

(٥) أمثالَ الذَّرِّ: أي: مِثلَ الذَّرَّةِ -وهي النَّملةُ الصَّغيرةُ- في الصِّغَرِ والحَقارةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٥/ ٢٥٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٢).

كُلِّ مَكانٍ، فيُساقُونَ إلى سِجنٍ في جَهنَّمَ يُسمَّى «بُولَسَ»، تَعلوهم نارُ الأنْيارِ[١]، يُسْقَونَ مِن عُصارةِ أهلِ النَّارِ؛ طِينةِ الخَبالِ[٢]))[٣].

﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ حالةَ المتكبِّرينَ؛ ذكَرَ حالةَ المتَّقينَ، فقال[٤]:

﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ ﴾.

أي: ويُنَجِّي اللهُ الَّذين اتَّقَوُا اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتِنابِ ما نهَى، بفوزِهم: بنَجاتِهم مِن النَّارِ، ودُخولِهم الجنَّةَ[٥].

---

(١) نارُ الأنْيارِ: أي: نارُ النِّيرانِ، وإضافةُ النَّارِ إليها للمُبالغةِ، كأنَّ هذه النَّارَ لِفَرطِ إحراقِها وشِدَّةِ حَرِّها تَفعَلُ بسائرِ النِّيرانِ ما تَفعَلُ النَّارُ بغَيرِها، أو لأنَّها أصلُ نِيرانِ العالَمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٣).

(٢) طِينةِ الخَبالِ: تفسيرٌ لِما قَبْلَه، وهو اسمُ عُصارةِ أهلِ النَّارِ، وهو ما يَسيلُ منهم مِنَ الصَّديدِ والقَيحِ والدَّمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) واللَّفظُ له، وأحمد (٦٦٧٧).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٩٢)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ١٥٧)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٢).

قال ابنُ عاشور: (الباءُ للمُلابَسةِ، أي: مُتلبِّسينَ بالفَوزِ، أو الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: بسَبَبِ ما حَصَلوا عليه مِنَ الفَوزِ. ويجوزُ أن تكونَ المفازةُ اسمًا للفَلاةِ، سُمِّيَت مفازةً باسمِ مكانِ الفَوزِ، أي: النَّجاةِ، وتأنيثُها بتأويلِ البُقعةِ، وسَمَّوْها مَفازةً باعتبارِ أنَّ مَن حَلَّ بها سَلِمَ مِن أن يَلحَقَه عَدُوُّه، وعلى هذا المعنى فالباءُ بمعنى «في». والمفازةُ: الجنَّةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٢). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا * جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣١ - ٣٦].

﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

---

= وقال ابن الجوزي في معنى ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: (وفيها للمفسِّرينَ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: بفضائلِهم، قاله السُّدِّيُّ. والثَّاني: بأعمالِهم، قاله ابنُ السَّائبِ، ومُقاتِلٌ. والثَّالثُ: بفَوزِهم مِن النَّارِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: بنَجاتِهم بأعمالِهم الحسَنةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثَّعلبيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: بفَلاحِهم: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٩٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: بمكانِ فَوزِهم مِن الجنَّةِ: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦١).

وقيل: معنى قَولِه تعالى: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بسَبَبِ ما سبَقَ لهم من السَّعادةِ والفَوزِ عند الله تعالى. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١).

وقال الزمخشري: (﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: بفَلاحِهم، يُقالُ: فاز بكذا؛ إذا أفلَحَ به، وظَفِرَ بمُرادِه منه. وتفسيرُ المَفازةِ قولُه: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، كأنَّه قيل: ما مَفازَتُهم؟ فقيل: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، أي: يُنجِّيهم بنَفْيِ السُّوءِ والحزنِ عنهم. أو بسببِ مَنْجاتِهم، مِن قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران: ١٨٨]، أي: بمَنجاةٍ منه، لأنَّ النَّجاةَ مِن أعظَمِ الفَلاحِ، وسببُ مَنجاتِهم العملُ الصَّالحُ؛ ولهذا فسَّر ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما المَفازةَ بالأعمالِ الحسَنةِ. ويجوزُ: بسببِ فَلاحِهم؛ لأنَّ العملَ الصَّالحَ سببُ الفَلاحِ، وهو دُخولُ الجنَّةِ. ويجوزُ أن يُسمَّى العملُ الصَّالحُ في نفْسِه مَفازةً؛ لأنَّه سببُها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠).

وقال البِقاعي: (﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ أي: بسببِ أنَّهم عدُّوا أنفُسَهم في مَفازةٍ بعيدةٍ مَخوفةٍ، فوقَفوا فيها عن كلِّ عمَلٍ إلَّا بدليلٍ؛ لئلَّا يَمشوا بغيرِ دليلٍ فيَهلِكوا، فأدَّتْهم تَقْواهم إلى الفوزِ، -وهو الظَّفَرُ بالمُرادِ- وزمانِه ومكانِه الَّذي سُمِّيَتِ المَفازةُ به تَفاؤُلًا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٤٣).

أي: لا يُصيبُ المتَّقينَ في الآخِرةِ سُوءٌ، ولا يُصيبُهم حُزنٌ أبَدًا[١].

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر: ٤٥، ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠١ - ١٠٣].

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أطال الكلامَ في شَرحِ الوَعدِ والوَعيدِ؛ عاد إلى دَلائِلِ الإلهيَّةِ والتَّوحيدِ، فقال[٢]:

﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه خالِقُ الأشياءِ كُلِّها، فهو ربُّها ومالِكُها، والمتفرِّدُ بالتَّصرُّفِ فيها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

قال ابنُ جريرٍ: (﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما فاتَهم مِن آرابِ الدُّنيا، إذْ صاروا إلى كرامةِ اللهِ، ونعيمِ الجِنانِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤١).

وقال ابن كثير: (﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ أي: ولا يَحْزُنُهم الفزعُ الأكبرُ، بل هم آمِنونَ مِن كلِّ فزَعٍ، مُزَحْزَحونَ عن كُلِّ شرٍّ، مُؤمَّلون كُلَّ خَيرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.

أي: واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قائِمٌ وحافِظٌ، ومُدَبِّرٌ له[1].

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: أزِمَّةُ الأمورِ بيَدِ اللهِ تعالى وَحْدَه لا شَريكَ له، فعِندَه وَحْدَه خَزائِنُ السَّمَواتِ والأرضِ ومفاتيحُها، وهو المُنفَرِدُ بتَدبيرِها والتَّصَرُّفِ فيها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣١).

قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال مجاهِدٌ: المَقاليدُ هي: المفاتيحُ... وقال السُّدِّيُّ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خزائِنُ السَّمَواتِ والأرضِ. والمعنى على كِلا القولَينِ: أنَّ أزِمَّةَ الأمورِ بيَدِه، له المُلكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢).

وقال ابن جرير: (يعني تعالَى ذِكرُه بقولِه: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: له مفاتيحُ خزائِنِ السَّمواتِ والأرضِ، وبيَدِه مَغاليقُ الخَيرِ والشَّرِّ ومفاتيحُها، فما يَفْتَحْ مِن رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها، وما يُمْسِكْ فلا مُرسِلَ له مِن بَعدِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٨).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يدُ اللهِ مَلْأى لا تَغِيضُها[١] نَفَقةٌ، سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ[٢]، أرَأَيْتُم ما أنفَقَ مُنذُ خَلَق السَّماءَ والأرضَ؟ فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَدِه، وكان عَرشُه على الماءِ، وبيَدِه الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ))[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن مِن عَظَمتِه ما يَقتَضي أن تَمتلِئَ القُلوبُ له إجلالًا وإكرامًا؛ ذكَرَ حالَ مَن عَكَس القَضيَّةَ فلم يَقدُرْه حَقَّ قَدْرِه[٤]!

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ وحُجَجِه الدَّالَّةِ عليه -سُبحانَه- وعلى وَحدانيَّتِه: أولئك هم الَّذين خَسِروا نَصيبَهم مِنَ الخَيرِ الَّذي بيَدِ اللهِ تعالى؛ فهم مَخذولونَ في الدُّنيا عن الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ، مُخَلَّدونَ يومَ القيامةِ في النَّارِ، مَحرومونَ مِن دُخولِ الجنَّةِ[٥].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

---

(١) لا تَغِيضُها: أي: لا تَنقُصُها. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٣٨٦).

(٢) سَحَّاءُ اللَّيلَ والنَّهارَ: أي: دائِمةُ الصَّبِّ والهَطلِ بالعَطاءِ. يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤) واللفظ له، ومسلم (٩٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٣).

﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قُرَيشٍ: أتأمُرونَني بعِبادةِ غَيرِ اللهِ تعالى، أيُّها الجاهِلونَ بعَظَمتِه وباستِحقاقِه العِبادةَ وَحْدَه دونَ ما سِواه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم: ٨، ٩].

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾.

أي: ولقد أُوحِيَ إليك -يا مُحمَّدُ- وأُوحِيَ إلى الَّذين مِن قَبْلِك مِنَ الأنبياءِ: لَئِنْ أشرَكْتَ باللهِ لَيَبطُلَنَّ عَمَلُك الصَّالِحُ، فلا يُثيبُك اللهُ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٧، ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٨، ٥٩).

قال الشوكاني: (هذا الكلامُ مِن بابِ التَّعريضِ لِغَيرِ الرُّسُلِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه قد عَصَمَهم عن الشِّركِ، ووَجْهُ إيرادِه على هذا الوَجهِ: التَّحذيرُ والإنذارُ للعبادِ مِن الشِّركِ؛ لأنَّه إذا كان مُوجِبًا لإحباطِ عَمَلِ الأنبياءِ على الفَرضِ والتَّقديرِ، فهو مُحبِطٌ لعَمَلِ غَيرِهم مِن أُمَمِهم بطَريقِ الأَولى). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٤).

وقال القاسمي: (وإطلاقُ الإحباطِ هنا يَستَدِلُّ به مَن ذَهَب إلى أنَّ الرِّدَّةَ مُبطِلةٌ للعَمَلِ مُطلَقًا، كالحَنَفيَّةِ. وغيرُهم يرَى الإحباطَ مُقيَّدًا بالاستمرارِ عليه إلى الموتِ، وأنَّه هو المُحبِطُ في =

كما قال الله تعالى: ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤ - ٨٨].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

---

= الحقيقةِ، وأنَّه إنَّما تَرَكَ التَّقييدَ به اعتِمادًا على التَّصريحِ به في آيةٍ أخرى، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٥).

وممَّن اختار أنَّ هذه الآيةَ مُقَيَّدةٌ بالموتِ على الشِّركِ، كما في الآيةِ الأخرى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]: ابنُ تيميَّة، والشوكاني. يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أمَّا الرِّدَّةُ عن الإسلام بأن يَصيرَ الرَّجُلُ كافِرًا مُشرِكًا أو كِتابيًّا، فإنَّه إذا مات على ذلك حَبِطَ عَمَلُه باتِّفاقِ العُلَماءِ، كما نَطَق بذلك القُرآنُ في غيرِ مَوضِعٍ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقَولِه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥]، وقَولِه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقَولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾. ولكِنْ تَنازَعوا فيما إذا ارتَدَّ ثمَّ عاد إلى الإسلامِ: هل تَحبَطُ الأعمالُ الَّتي عَمِلَها قبْلَ الرِّدَّةِ أم لا تَحبَطُ إلَّا إذا مات مُرتدًّا؟ على قولَينِ مَشهورَينِ، هما قَولانِ في مَذهَبِ الإمامِ أحمَدَ. والحُبوطُ: مَذهَبُ أبي حنيفةَ ومالكٍ. والوُقوفُ: مَذهَبُ الشَّافعيِّ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٥٧). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٦٢).

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

أي: ولَتَكونَنَّ -إنْ أشرَكْتَ باللهِ- مِن جُملةِ الَّذين خَسِروا ثوابَ أعمالِهم، واستحقُّوا عذابَ اللهِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾.

أي: بَلِ[2] اعبُدِ اللهَ وَحْدَه -يا مُحمَّدُ- دونَ ما سِواه مِن الآلهةِ، مُخلِصًا له في عِبادتِك[3].

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت عِبادتُه لا يُمكِنُ أن تَقَع إلَّا شُكرًا؛ لِما له مِن عُمومِ النِّعَمِ سابِقًا ولاحِقًا -وشُكرُ المُنعِمِ واجِبٌ- نَبَّه على ذلك[4].

﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩).

(٢) قيل: ﴿بَلِ﴾ لإبطالِ مَضمونِ جُملةِ ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾، أي: بل لا تُشرِكْ، أو لإبطالِ مَضمونِ جُملةِ ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩، ٦٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩، ٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٨).

أي: وكُنْ مِنَ الشَّاكِرينَ لله على نِعَمِه بالأعمالِ الصَّالِحةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا صلَّى قام حتَّى تَفطَّرَ رِجْلاه! قالت عائِشةُ: يا رَسولَ اللهِ، أتصنَعُ هذا وقد غُفِرَ لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِك وما تأخَّرَ؟! فقال: يا عائِشةُ، أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا؟!))[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن التَّكَبُّرِ، وأنَّ عُقوبةَ المُتكبِّرين دُخولُ النَّارِ، بل إذا كان التَّكبُّرُ تكبُّرًا مُطلَقًا فإنَّ عُقوبتَه السُّكنى في النَّارِ، والخُلودُ في النَّارِ، أمَّا مَن تَكَبَّرَ مُطلَقَ تَكَبُّرٍ فهذا لا يُحكَمُ له بالخُلودِ في النَّارِ؛ لأنَّه قد يَتكبَّرُ عن بَعضِ الحَقِّ، أو يَتكَبَّرُ على الخَلقِ؛ فلا يَستَحِقُّ الخُلودَ[٣].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ فيه التَّرغيبُ في هذا الوصفِ الجليلِ الَّذي هو التَّقْوى[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لَفْتُ نَظَرِ الإنسانِ إلى ألَّا يَستعينَ إلَّا بالله تعالى، ولا يَسألَ إلَّا اللهَ تعالى، ولا يَتوكَّلَ إلَّا على اللهِ تعالى؛ وجْهُ ذلك: أنَّه هو الَّذي له مَقاليدُ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإذًا لا تَلتفِتْ إلى غيرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٥).

٤- قَولُه تعالى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ ﴾ فيه وُجوبُ إخلاصِ العبادةِ للهِ تعالى؛ والإخلاصُ للهِ تعالى هو مِن شُكْرِ اللهِ؛ لأنَّه أعقَبَ قَولَه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ ﴾ بقَولِه تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فيه وُجوبُ الشُّكرِ على كلِّ أحدٍ[2]، وكما أنَّ اللهَ تعالى يُشكَرُ على النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ، كصِحَّةِ الجِسمِ وعافيتِه، وحُصولِ الرِّزقِ وغَيرِ ذلك؛ كذلك يُشكَرُ ويُثْنَى عليه بالنِّعَمِ الدِّينيَّةِ، كالتَّوفيقِ للإخلاصِ والتَّقْوى. بل نِعَمُ الدِّينِ هي النِّعَمُ على الحقيقةِ، وفي تدبُّرِ أنَّها مِنَ اللهِ تعالى، والشُّكرِ للهِ عليها: سَلامةٌ مِن آفةِ العُجبِ الَّتي تَعرِضُ لكثيرٍ مِن العامِلينَ؛ بسَبَبِ جَهْلِهم[3]!

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ ﴾ فكما سَوَّدوا وَجْهَ الحَقِّ بالكَذِبِ، سَوَّد اللهُ وُجوهَهم؛ جزاءً مِن جِنسِ عَمَلِهم[4].

٢- الحاكِمُ والمُفتي والشَّاهِدُ: كُلٌّ مِنهم مُخبِرٌ عن حُكمِ اللهِ؛ فالحاكِمُ مُخبِرٌ مُنفِّذٌ، والمُفتي مُخبِرٌ غيرُ مُنفِّذٍ، والشَّاهِدُ مُخبِرٌ عن الحُكمِ الكَونيِّ القَدَريِّ المُطابِقِ للحُكمِ الدِّينيِّ الأمْريِّ؛ فمَنْ أخبَرَ منهم عمَّا يَعلَمُ خِلافَه فهو كاذِبٌ على اللهِ عَمدًا ﴿ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌ ﴾، ولا أظلَمَ مِمَّن كَذَب على اللهِ وعلى دينِه، وإنْ أخبَروا بما لم يَعلَموا فقد كَذَبوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٢٨).

على اللهِ جَهلًا وإنْ أصابوا في الباطِنِ، وأخبَروا بما لم يأذَنِ اللهُ لهم في الإخبارِ به، وهم أسْوَأُ حالًا مِن القاذِفِ إذا رأى الفاحِشةَ وَحْدَه فأخبَرَ بها؛ فإنَّه كاذِبٌ عندَ اللهِ، وإن أخبَرَ بالواقِعِ؛ فإنَّ اللهَ لم يأذَنْ له في الإخبارِ بها إلَّا إذا كان رابِعَ أربعةٍ، فإنْ كان كاذِبًا عندَ اللهِ في خبَرٍ مُطابِقٍ لِمَخْبَرِه؛ حيثُ لم يأذَنْ له في الإخبارِ به، فكيف بمَن أخبَرَ عن حُكمِه بما لم يَعلَمْ أنَّ اللهَ حَكَمَ به، ولم يأذَنْ له في الإخبارِ به؟! وهذه الآياتُ وإن كانت في حَقِّ المُشرِكينَ والكُفَّارِ فإنَّها مُتناوِلةٌ لِمَن كَذَب على اللهِ في تَوحيدِه ودِينِه، وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، ولا تَتناوَلُ المُخطِئَ المأجورَ إذا بَذَل جُهْدَه واستَفرَغَ وُسْعَه في إصابةِ حُكمِ اللهِ وشَرْعِه؛ فإنَّ هذا هو الَّذي فَرَضه اللهُ عليه، فلا يَتناوَلُ المُطيعَ لله وإنْ أخطَأ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أنَّ هؤلاء النَّاجينَ لا يَمَسُّهُم سوءٌ في المستقبَلِ؛ ولا يَحزَنونَ على شَيءٍ مَضَى؛ وبذلك يَتِمُّ نعيمُهم؛ لأنَّ النَّعيمَ يَنْقُصُ إذا أصاب الإنسانَ هَمٌّ أو غَمٌّ للمُستقبَلِ، ويَنْقُصُ أيضًا إذا أصابَه حُزْنٌ على الماضي، أمَّا إذا عَرَف أنَّه كَسَبَ الماضيَ، وأنَّه لن يَنالَه سوءٌ في المستقبَلِ؛ فسوف يَتِمُّ له النَّعيمُ[2].

٤- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هذا عامٌّ مَحفوظٌ لا يَخرُجُ عنه شَيءٌ مِن العالَمِ؛ أعيانِه وأفعالِه، وحَرَكاتِه وسَكَناتِه، وليس مخصوصًا بذاتِه وصِفاتِه؛ فإنَّه الخالِقُ بذاتِه وصِفاتِه، وما سِواه مخلوقٌ له، واللَّفظُ قد فَرَّق بيْن الخالِقِ والمخلوقِ، وصِفاتُه سُبحانَه داخِلةٌ في مُسمَّى اسمِه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه اسمٌ للإلهِ المَوصوفِ بكُلِّ صِفةِ كَمالٍ، المنَزَّهِ عن كُلِّ صِفةِ نَقصٍ ومِثالٍ، والعالَمُ قِسْمانِ:

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٧).

أعيانٌ وأفعالٌ، وهو الخالِقُ لأعيانِه، وما يَصدُرُ عنها مِن الأفعالِ، كما أنَّه العالِمُ بتفاصيلِ ذلك؛ فلا يَخرُجُ شَيءٌ منه عن عِلمِه، ولا عن قُدرتِه، ولا عن خَلْقِه ومَشيئتِه(١).

٥- استدَلَّ الجَهميَّةُ على قَولِهم الباطِلِ بخَلقِ القُرآنِ، بقَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الرعد: ١٦]، قالوا: والقُرآنُ شَيءٌ! فأجابهم السَّلَفُ بأنَّ القُرآنَ كَلامُه، وكلامُه مِن صِفاتِه، وصِفاتُه داخِلةٌ في مُسمَّى اسمِه؛ كعِلْمِه وقُدرتِه وحياتِه، وسَمْعِه وبصَرِه، ووَجْهِه ويَدَيه؛ فليس اللهُ اسمًا لِذاتٍ لا نَعْتَ لها ولا صِفةَ ولا فِعلَ، ولا وَجْهَ ولا يَدينِ؛ ذلك إلهٌ مَعدومٌ مَفروضٌ في الأذهانِ، لا وُجودَ له في الأعيانِ(٢)!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ الَّذين قالوا: إنَّ الإنسانَ خالِقُ أفعالِه. ووجهُ الرَّدِّ: أنَّ أفعالَ العِبادِ شَيءٌ مِن الأشياءِ؛ فتكونُ داخِلةً في العُمومِ(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ هذه العِبارةُ وما أشبَهَها ممَّا هو كثيرٌ في القُرآنِ: تدُلُّ على أنَّ جَميعَ الأشياءِ -غيرَ اللهِ- مَخلوقةٌ؛ ففيها ردٌّ على كُلِّ مَن قال بقِدَمِ بَعضِ المَخلوقاتِ، كالفلاسِفةِ القائِلينَ بقِدَمِ الأرضِ والسَّمَواتِ، وكالقائِلينَ بقِدَمِ الأرواحِ، ونحوِ ذلك مِن أقوالِ أهلِ الباطِلِ المتضَمِّنةِ تَعطيلَ الخالِقِ عن خَلْقِه(٤)!

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٨).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أنَّ أعمالَ العبادِ مَخلوقةٌ للهِ تعالى؛ لأنَّ فِعلَ العَبدِ لو وَقَع بتَخليقِ العبدِ لَكان ذلك الفِعلُ غيرَ مَوكولٍ إلى اللهِ تعالى؛ فلم يَكُنِ اللهُ تعالى وكيلًا عليه، وذلك يُنافي عُمومَ الآيةِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ عنايةُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بما خَلَقَ؛ لأنَّه لَمَّا ذَكَرَ أنَّه خَلَق كلَّ شيءٍ بَيَّنَ أنَّه على كلِّ شيءٍ وكيلٌ، وهذا يدُلُّ على عنايةِ اللهِ تبارَك وتعالى بخَلْقِه[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذه المقَدِّمةُ تُشيرُ إلى أنَّ اللهَ تعالى هو مُعطي ما يَشاءُ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ومِن أعظَمِ ذلك النُّبوَّةُ وهَدْيُ الشَّريعةِ؛ فإنَّ جَهْلَ المُشرِكينَ بذلك هو الَّذي جرَّأهم على أنْ أنكَروا اختِصاصَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالرِّسالةِ دُونَهم، واختِصاصَ أتْباعِه بالهُدى، فقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾[٣] [الأنعام: ٥٣]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أنَّه إذا كان المشركونَ يُحاوِلونَ أنْ يُشْرِكَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فما بالُك بأتْباعِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟! فإنَّهم سوفَ يُحاوِلونَ أنْ يَجعلوهم مُشركينَ أكثرَ مِن مُحاوَلتِهم إشراكَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويَتَفرَّعُ على هذه الفائدةِ: الحذرُ مِن دعاةِ الشِّركِ والكفرِ، الَّذين يُحاوِلونَ بكلِّ ما يَستطيعونَ أنْ يُضَلِّلُوا المُسلِمينَ، ويَعمَلونَ على إخراجِهم مِن دينِهم[٤].

١٢- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٩).

في تَقديرِ فَرضِ وُقوعِ الإشراكِ مِنَ الرَّسولِ والَّذينَ مِن قَبْلِه مع تَحقُّقِ عِصمَتِهم: التَّنبيهُ على عِظَمِ أمْرِ التَّوحيدِ، وخَطَرِ الإشراكِ؛ لِيَعلَمَ النَّاسُ أنَّ أعلى الدَّرجاتِ في الفَضلِ لو فُرِضَ أنْ يَأتيَ عليها الإشراكُ لَمَا أَبقَى منها أثرًا، ولَدَحَضَها دَحْضًا[1]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أنَّ الشِّركَ -والعياذُ باللهِ- مَحبَطةٌ للعَمَلِ، وأنَّه يُبطِلُ جَميعَ أعمالِ الإنسانِ[2]، ويُستدَلُّ بهذه الآيةِ على حُبوطِ عَمَلِ المرتَدِّ مِن صلاةٍ وغَيرِها[3].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ أنَّ في نُبُوَّةِ جَميعِ الأنبياءِ أنَّ الشِّركَ مُحبِطٌ لجَميعِ الأعمالِ، كما قال تعالى في سورةِ (الأنعام) لَمَّا عدَّدَ كَثيرًا مِن أنبيائِه ورُسُلِه؛ قال عنهم: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[4] [الأنعام: ٨٨].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ سُؤالٌ: كيف صَحَّ هذا الكلامُ مع عِلمِ اللهِ تعالى أنَّ رُسُلَه لا يُشرِكونَ ولا تَحبَطُ أعمالُهم؟! **الجوابُ**: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٩).

قال ابنُ العربي: (إنَّه بيانٌ أنَّ الكُفرَ يُحبِطُ العمَلَ كيف كان، ولا يَعني به الكُفرَ الأصليَّ؛ لأنَّه لم يكُنْ فيه عَمَلٌ يُحبَطُ، وإنَّما يعني به أنَّ الكُفرَ يُحبِطُ العَمَلَ الَّذي كان مع الإيمانِ... وقد بَيَّن اللهُ تعالى ذلك بقَولِه: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ [المائدة: ٥]، فمَن كَفَر مِن أهلِ الإيمانِ حَبِطَ عَمَلُه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

على سَبيلِ الفَرضِ، والمُحالاتُ يَصِحُّ فَرْضُها[١]، وهو شرطٌ، والشَّرطُ لا يَقتضي جَوازَ الوُقوعِ، كقولِه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ الآيةَ [الزخرف: ٨١] على القولِ بأنَّ (إنْ) شرطيَّةٌ، وقولِه: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ الآيةَ [الأنبياء: ١٧]، وقولِه: ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ الآيةَ[٢] [الزمر: ٤].

وقيل: الخِطابُ في قولِه: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ كالخِطابِ العامِّ المُوَجَّهِ لجميعِ النَّاسِ وإن كان لفظُه مفردًا، كما هو معروفٌ، كقولِ طَرَفةَ بنِ العبدِ[٣]:

ستُبْدي لك الأيَّامُ ما كنتَ جاهلًا ... ويأتيك بالأخبارِ مَنْ لم تُزَوِّدِ[٤]

فإنَّ هذا الخِطابَ لَفْظُه كأنَّه مُفرَدٌ، ومعناه عامٌّ موجَّهٌ لكلِّ مَن يصِحُّ منه الخِطابُ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ عطْفٌ على إحْدَى الجُمَلِ المُتقَدِّمةِ المُتعلِّقةِ بعَذابِ المُشركينَ في الدُّنيا والآخِرةِ، والأحسَنُ أنْ يَكونَ عَطفًا على جملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ [الزمر: ٥١]، أي: في الدُّنيا كما أَصابَ الَّذينَ مِن قَبْلِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٨٧) و (٤/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((ديوان طرفة بن العبد)) (ص: ٢٩).

(٤) قوله: (ويأتيكَ بالأخبارِ مَن لم تُزَوِّدِ) معناه: يأتيك بالخبرِ مَن لم تَسألْه عن ذلك. يُنظر: ((شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات)) لأبي بكر الأنباري (ص: ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٧٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٨٦).

ويَومَ القيامةِ تَسْوَدُّ وُجوهُهم، فيَجوزُ أنْ يَكونَ اسْوِدادُ الوُجوهِ حقيقةً جَعَلَه اللهُ عَلامةً لهم، وجعَلَ بَقيَّةَ النَّاسِ بخِلافِهم، وقد جعَلَ اللهُ اسْوِدادَ الوُجوهِ يَومَ القيامةِ عَلامةً على سوءِ المَصيرِ، كما جعَلَ بَياضَها عَلامةً على حُسنِ المَصيرِ[١]. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ عبَّرَ بالسَّوادِ عن اربِدادِ[٢] وُجوهِهم، وغالِبِ همِّهم، وظاهِرِ كآبَتِهم[٣].

- و﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هُمُ الَّذينَ نَسَبوا إليه ما هو مُنَزَّهٌ عنه مِنَ الشَّريكِ وغيرِ ذلك مِن تَكاذيبِ الشِّركِ؛ فـ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ هُمُ الَّذينَ ظَلَموا، الَّذينَ ذُكِروا في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: ٥١]، وُصِفوا أوَّلًا بالظُّلْمِ، ثمَّ وُصِفوا بالكَذِبِ على اللهِ في حكايةٍ أخرى؛ فليس قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ[٤].

- وجملةُ ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ واقِعةٌ مَوقعَ الاستِئنافِ البَيانيِّ لجُملةِ ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾، ولتَعليلِ اسْوِدادِ وُجوهِهم؛ لأنَّ السَّامعَ يَسألُ عن سببِ اسْوِدادِ الوُجوهِ، فيُجابُ بأنَّ في جَهنَّمَ مَثْواهُم، يعني: لأنَّ السَّوادَ يُناسِبُ ما سيَلْفَحُ وُجوهَهم مِن مَسِّ النَّارِ، فأُجيبَ بطريقةِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ؛ لتَقريرِ ما قَبْلَه مِن رُؤيتِهم كذلك، بتَنزيلِ السَّائلِ المُقَدَّرِ مَنزِلةَ مَن يَعلَمُ أنَّ مَثْواهُم جَهنَّمُ، فلا يَليقُ به أنْ يَغفُلَ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٤٩).

(٢) الارْبِدادُ والرُّبْدَة: الغُبْرةُ، أو لَونٌ إلى الغُبْرةِ، وقيل: هو لونٌ بيْن السَّوادِ والغُبْرةِ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (٢/ ٢٤٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٨/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٠).

مُناسَبةِ سَوادِ وُجوهِهم لِمَصيرِهم إلى النَّارِ؛ فإنَّ للدَّخائلِ عَناوينَها[١].

- وتعريفُ المُتكبِّرينَ في قولِه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ للاستِغراقِ، ووَصْفُهم بالمُتكبِّرينَ إيماءٌ إلى أنَّ عِقابَهم بتَسويدِ وُجوهِهم كان مُناسِبًا لكِبريائِهم؛ لأنَّ المُتكبِّرَ إذا كان سَيِّئَ الوَجهِ انكسَرَتْ كِبرياؤُه؛ لأنَّ الكِبرياءَ تَضعُفُ بمِقدارِ شُعورِ صاحِبِها بمَعرفةِ النَّاسِ نَقائصَه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ...﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر: ٦٠] إلى آخِرِها، أي: ويُنَجِّي اللهُ الَّذينَ اتَّقوا مِن جَهنَّمَ؛ لأنَّهم ليسوا بمُتكبِّرينَ، وهذا إيذانٌ بأنَّ التَّقْوى تُنافي التَّكبُّرَ؛ لأنَّ التَّقوى كمالُ الخُلُقِ الشَّرعيِّ، وتَقتَضي اجتِنابَ المَنْهيَّاتِ، وامتِثالَ الأمرِ في الظَّاهرِ والباطِنِ. والكِبْرُ مرَضٌ قَلْبيٌّ باطِنيٌّ، فإذا كان الكِبْرُ مُلْقيًا صاحِبَه في النَّارِ بحُكمِ قَولِه: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، فضِدُّ أولئك ناجُون منها وهُمُ المُتَّقونَ؛ إذِ التَّقْوى تَحولُ دُونَ أسبابِ العِقابِ الَّتي منها الكِبْرُ، فالَّذينَ اتَّقوا هُم أهْلُ التَّقْوى وهي مَعروفةٌ؛ ولذلك فِعلُ ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾ مُنَزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ لا يُقَدَّرُ له مَفعولٌ[٣].

- وإضافةُ مَفازةٍ إلى ضَميرِهم في قولِه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٠، ٥١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٥١، ٥٢).

كِنايةٌ عن شِدَّةِ تَلَبُّسِهم بالفَوزِ حتَّى عُرِفَ بهم، كما يُقالُ: فازَ فَوْزَ فُلانٍ، وهذه الإضافةُ لتَعريفِها بهم، أي: المَفازةِ الَّتي عَلِمتُم أنَّها لهم، وهي الجَنَّةُ، وقد عُلِم ذلك مِن آياتٍ وأخبارٍ؛ منها قولُه: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾[1] [النبأ: ٣١ - ٣٣].

- وجملةُ ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ مُبيِّنةٌ ومُفسِّرةٌ لجُملةِ ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ﴾، كأنَّه قيل: ما مَفازَتُهم؟ فقيل: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، أي: يُنَجِّيهم بنَفْيِ السُّوءِ والحُزنِ عنهم؛ لأنَّ نَفْيَ مَسِّ السُّوءِ هو إنجاؤُهم، ونَفْيَ الحُزنِ عنهم نَفْيٌ لأثَرِ المَسِّ السُّوءِ، وهي حالٌ مُفيدةٌ لكَونِ نَجاتِهم أو فَوْزِهم بالجَنَّةِ غَيْرَ مَسبوقةٍ بمَساسِ العَذابِ والحُزنِ[2].

- وجيءَ في جانبِ نَفْيِ السُّوءِ بالجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾؛ لأنَّ ذلك لنَفْيِ حالةِ أهْلِ النَّارِ عنهم، وأهْلُ النَّارِ في مَسٍّ مِنَ السُّوءِ مُتَجدِّدٍ، وجيءَ في نَفْيِ الحُزنِ عنهم بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ لأنَّ أهْلَ النَّارِ أيضًا في حُزنٍ وغَمٍّ ثابتٍ لازِمٍ لهم. ومِن لَطيفِ التَّعبيرِ هذا التَّفَنُّنُ؛ فإنَّ شأنَ الأَسْواءِ الجسَديَّةِ تَجدُّدُ آلامِها، وشأنَ الأكدارِ القَلبيَّةِ دَوامُ الإحساسِ بها[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ تَمهيدٌ لقولِه: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤] في ذِكرِ تَمسُّكِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والرُّسلِ مِن قَبْلِه بالتَّوحيدِ، ونَبْذِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٣).

الشِّركِ والبَراءةِ منه، والتَّصلُّبِ في مَقاوَمتِه، والتَّصميم على قَطعِ دابِرِه. وجُعِلَتِ الجُمَلُ الثَّلاثُ مِن قَولِه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مُقدِّماتٍ تؤيِّدُ ما يَجيءُ بَعْدَها مِن قولِه: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾[1] [الزمر: ٦٤].

- وجيءَ بجملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ مَعطوفةً؛ لِأنَّ مَدلولَها مُغايرٌ لِمَدلولِ الَّتي قَبْلَها مِن قولِه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾. والوكيلُ: المُتصرِّفُ في شَيءٍ بدُونِ تَعقُّبٍ، ولَمَّا لم يُعَلَّقْ بذلك الوَصفِ شَيءٌ عُلِم أنَّه مَوكولٌ إليه جِنسُ التَّصرُّفِ وحقيقتُه الَّتي تَعُمُّ جميعَ أفرادِ ما يُتصَرَّفُ فيه؛ فعَمَّ تَصرُّفُه أحوالَ جميعِ المَوجوداتِ مِن تقديرِ الأعمالِ والآجالِ والحرَكاتِ، وهذه المُقدِّمةُ تَقتَضي الاحتياجَ إليه بالإمدادِ، فهُمْ بعْدَ أنْ أَوجَدَهم لم يَستَغْنوا عنه لَمحةً ما[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

- جملةُ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ جيءَ بها مَفصولةً؛ لأنَّها تُفيدُ بيانَ الجُملةِ الَّتي قَبْلَها مِن قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾؛ فإنَّ الوكيلَ على شَيءٍ يَكونُ هو المُتصرِّفَ في العطاءِ والمنعِ[3].

- وفيها مَزيدُ دَلالةٍ على الاستِقلالِ والاستِبدادِ؛ لأنَّ الخزائنَ لا يَدخُلُها ولا يَتصرَّفُ فيها إلَّا مَن بيَدِه مَفاتيحُها؛ فهي كِنايةٌ عن حِفظِ ذَخائرِها، فذَخائرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأرضِ عَناصِرُها ومَعادِنُها وكَيفيَّاتُ أجوائِها وبِحارِها، وذَخائرُ السَّمواتِ سَيْرُ كَواكِبِها وتَصرُّفاتِ أرواحِها في عَوالِمِها وعَوالِمِنا وما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى، ولَمَّا كانت تلك العناصِرُ والقُوى شَديدةَ النَّفعِ للنَّاسِ، وكان النَّاسُ في حاجةٍ إليها؛ شُبِّهَتْ بنَفائسِ المَخزوناتِ[1].

- وقَدَّمَ الخَبَرَ في قَولِه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ﴾، وتقديمُ الخَبَرِ يُفيدُ الحصرَ، أي: أنَّ المُدَبِّرَ للسَّمواتِ والأرضِ هو اللهُ تعالى وحْدَه[2].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، وما بيْنَهما اعتِراضٌ للدَّلالةِ على أنَّه مُهَيمِنٌ على العبادِ، مُطَّلِعٌ على أفْعالِهِم، مُجازٍ عليها، وقد جُعِل مُتَّصِلًا بما يليهِ على أنَّ كُلَّ شَيءٍ في السَّمَواتِ والأرضِ فاللهُ خالِقُه، وفاتِحُ بابِهِ، والَّذين كَفَروا وجَحَدوا أنْ يكونَ الأمْرُ كذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[3].

- وتَغْييرُ النَّظْمِ من التَّعْبيرِ بالجُمْلةِ الفِعْليَّةِ ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ...﴾ إلى التَّعْبيرِ بالجُمْلةِ الاسميَّةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ للإشْعارِ بأنَّ العُمْدةَ في فَلاحِ المُؤمِنينَ فَضْلُ اللهِ، فلذا جعَل نجاتَهم مُسنَدةً له تعالى، غيرَ ثابتةٍ قبْلَ ذلك بالاستِحقاقِ والأعمالِ، بخلافِ هلاكِ الكفرةِ؛ فإنَّهم قدَّموه لأنفُسِهم بما اتَّصَفوا به مِن الكفرِ والضَّلالِ، كما أنَّ فيه التَّصْريحَ بالوَعْدِ والتَّعْريضَ بالوعيدِ، حيثُ قيل: ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، ولم يُقَلِ: الهالِكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢).

أو المعَذَّبونَ أو نحوَه[١].

وقيل: لَمَّا كان التَّقديرُ: فالَّذين آمَنوا باللهِ، وتقبَّلوا آياتِه أولئك هم الفائزونَ، عطَف عليه قولَه الَّذي اقتضاه سياقُ التَّهديدِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[٢].

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تَخْصيصُ الخَسارِ بهم؛ لأنَّ غَيرَهُم ذو حظٍّ مِن الرَّحْمةِ والثَّوابِ، مع ما في اسْمِ الإشارةِ مِن البُعدِ، فهُمُ البُعَداءُ الَّذين كَفَروا، فإنَّهم خَسِروا نُفوسَهُم وكُلَّ شَيءٍ يَتَّصِلُ بها على وَجهِ النَّفعِ؛ لأنَّ كُفرَهم أقبَحُ الكُفرِ مِن حيث إنَّه مُتعلِّقٌ بأظهَرِ الأشياءِ، وهي الآياتُ الظَّاهِرةُ[٣].

- وكذلك جملةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تَحتمِلُ الاعتِراضَ، ولكنَّ اقتِرانَها بالواوِ بعْدَ نَظائِرِها يُرَجِّحُ أنْ تَكونَ الواوُ فيها عاطفةً، وأنَّها مَقصودةٌ بالعَطفِ على ما قَبْلَها؛ لأنَّ فيها زيادةً على مُفادِ الجُملةِ قَبْلَها، وهي مُقدِّمةٌ مَقصودٌ بها تَجهيلُ الَّذينَ كَفَروا الَّذينَ هُم ضِدُّ المَقصودِ مِن هذه المُقدِّماتِ مِنَ الاهتِداءِ؛ فإنَّ الاستِدلالَ على الحقِّ بإبطالِ ضِدِّه ضَربٌ مِن ضُروبِ الاستِدلالِ؛ لأنَّ الاستِدلالَ يَعودُ إلى تَرغيبٍ وتَنفيرٍ، فإذا كان الَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ خاسِرينَ؛ لا جَرَمَ كان الَّذينَ آمَنوا بآياتِ اللهِ هُمُ الفائزينَ[٤].

- وأيضًا جُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ تُقابِلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧، ٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٦/ ٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٥).

جُملةَ ﴿ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ [الزمر: ٦١] المُنتقَلَ منها إلى هؤلاء الآياتِ، وهي مع ذلك مُفيدةٌ إنذارَهم وإضْعافَ آرائِهم؛ لأنَّ مَوقِعَها بعْدَ دَلائلِ الوَحدانيَّةِ -وهي آياتٌ دالَّةٌ على أنَّ اللهَ واحِدٌ- يَقتَضي التَّنديدَ عليهم في عدَمِ الاهتِداءِ بها[١].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ وُصِف (الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ) بأنَّهمُ ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾؛ لأنَّهم كَفَروا بآياتِ مَن له مَقاليدُ خَزائنِ الخَيرِ، فعَرَّضوا أنفُسَهم للحِرمانِ ممَّا في خَزائنِه، وأَعظَمُها خَزائنُ خَيرِ الآخرةِ[٢].

- والإخبارُ عن (الَّذِينَ كَفَرُوا) باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم خَسِروا لأجْلِ ما وُصِفوا به قبْلَ اسمِ الإشارةِ، وهو الكُفرُ بآياتِ اللهِ[٣].

- وتَوسُّطُ ضَميرِ الفَصلِ ﴿هُمُ ﴾؛ لإفادةِ حَصرِ الخَسارةِ فيهم، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ[٤] بِناءً على عدَمِ الاعتِدادِ بخَسارةِ غَيرِهم بالنِّسبةِ إلى خَسارتِهم؛ فخَسارتُهم أعظَمُ خَسارةٍ[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ هو نَتيجةُ المُقدِّماتِ السَّابقة، وهو المَقصودُ بالإثباتِ؛ فالفاءُ في قولِه: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ ﴾ لتَفريعِ الكلامِ الَّذي أُمِر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولَه على الكلامِ المُوحَى به إليه لِيَقرَعَ به أسماعَهم؛ فإنَّ الحقائقَ المُتَقدِّمةَ موَجَّهةٌ إلى المُشرِكينَ، فبَعْدَ تَقرُّرِها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٥٦).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٦).

عِندَهم وإنذارِهم على مُخالَفةِ حالِهم لِما تَقتَضيهِ تلك الحقائقُ أُمِر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يوَجِّهَ إليهم هذا الاستِفهامَ الإنكاريَّ مُنَوَّعًا على ما قَبْلَه؛ إذْ كانت أنفُسُهم قد خَسِئَتْ بما جَبَهَها مِنَ الكلامِ السَّابِقِ تأييسًا لهم مِن محاولةِ صَرفِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن التَّوحيدِ إلى عِبادةِ غَيرِ اللهِ[1].

- وتَوسُّطُ فِعلِ ﴿ قُلْ ﴾ في قولِه: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ اعتِراضٌ بيْن التَّفريعِ والمُفرَّعِ عنه؛ لتَصييرِ المَقامِ لِخطابِ المُشرِكينَ خاصَّةً بعْدَ أنْ كان مَقامُ الكَلامِ قَبْلَه مَقامَ البَيانِ لكلِّ سامِعٍ مِنَ المؤمِنينَ وغَيرِهم؛ فكان قولُه: ﴿ قُلْ ﴾ هو الواسِطةَ في جَعلِ التَّفريعِ خاصًّا بهم، وهذا مِن بَديعِ النَّظمِ ووَفرةِ المَعاني، وهو حقيقٌ بأنْ يُسمَّى (تلوينَ البِساطِ). و﴿ تَأْمُرُوٓنِّيٓ ﴾ اعتِراضٌ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم أَمَروه به عَقِيبَ ذلك وقالوا: استَلِمْ بعضَ آلِهَتِنا ونؤْمِنْ بإلهِكَ؛ لفَرطِ غَباوَتِهم[2].

- قولُه: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ لَمَّا كان الأمرُ بعِبادةِ غَيرِ اللهِ لا يَصدُرُ إلَّا مِن غَبيٍّ جاهِلٍ، ناداهُم بالوَصفِ المُقتَضي ذلك، فقال: ﴿ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾[3].

- ونداؤُهم بوَصفِ الجاهِلينَ في قولِه: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴾ تَقريعٌ لهم بعْدَ أنْ وُصِفوا بالخُسرانِ؛ ليُجمَعَ لهم بيْنَ نَقصِ الآخرةِ ونَقصِ الدُّنيا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٧).

- وحُذِف مَفعولُ ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؛ لتَنزيلِ الفِعلِ مَنزِلةَ اللَّازِمِ، كأنَّ الجهلَ صار لهم سَجيَّةً، فلا يَفقَهونَ شَيئًا؛ فهُم جاهِلونَ بما أفادَتْه الدَّلائلُ مِنَ الوَحدانيَّةِ الَّتي لو عَلِموها لَمَا أَشرَكوا، ولَمَا دَعَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى اتِّباعِ شِركِهم، وهُم جاهِلونَ بمَراتِبِ النُّفوسِ الكامِلةِ جَهلًا أَطمَعَهم أنْ يَصرِفوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن التَّوحيدِ، وأنْ يَستَزِلُّوه بخُزَعْبلاتِهم وإطماعِهم إيَّاهُ أنْ يَعبُدوا اللهَ إنْ هو شارَكَهم في عِبادةِ أصنامِهم، يَحسَبونَ الدِّينَ مُساوَمةً ومُغابَنةً وتَطفيفًا[1]!

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ كلامٌ واردٌ على طريقةِ الفَرضِ؛ لتَهْييجِ الرُّسلِ وإقناطِ الكَفَرةِ، والإيذانِ بغايةِ شَناعةِ الإشراكِ وقُبْحِه. وإطلاقُ الإحباطِ يَحتمِلُ أنْ يَكونَ مِن خَصائصِهم؛ لأنَّ شِركَهم أَقبَحُ، أو يَكونَ على التَّقييدِ بالمَوتِ، كما صُرِّح في قَولِه: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وعَطْفُ: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ مِن عَطفِ المُسَبَّبِ على السَّبَبِ. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ المعنَى: ولَتَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ بسَببِ حُبوطِ العمَلِ. ويَحتمِلُ: ولتَكونَنَّ في الآخرةِ مِن جُملةِ الخاسِرينَ الَّذينَ خَسِروا أنفُسَهم إنْ مِتَّ على الرِّدَّةِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ غضَبُ اللهِ على الرَّسولِ أشَدَّ، فلا يُمهِلَه بعْدَ الرِّدَّةِ، ألَا ترى إلى قَولِه تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾[2] [الإسراء: ٧٥].

- وهذه الآيةُ تمثيلٌ لحالِ مَن أشرَكَ بعْدَ التَّوحيدِ؛ فإنَّ الإشراكَ قد طَلَب

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٧، ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢).

به مُبتَكِروهُ زيادةَ القُرْبِ مِنَ اللهِ إذْ قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فكان حالُهم كحالِ التَّاجِرِ الَّذي طلَبَ الزِّيادةَ على ما عِندَه مِنَ المالِ، ولكنَّه طلَبَ الرِّبحَ مِن غَيرِ بابِه، فباءَ بخُسرانِه وتَبابِه[1].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ إنْ قيلَ: المُوحَى إليهم جماعةٌ؛ فكيف قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ على الإفرادِ؟

قيل: لأنَّ معناه: أُوحِيَ إليك: لَئِنْ أشركْتَ ليَحبطَنَّ عمَلُك، وإلى الَّذين مِن قَبلِك مِثلُه؛ فيكون فيه تقديمٌ وتأخيرٌ، تَقديرُه: ولقد أُوحيَ إليك لئنْ أَشرَكْتَ، وكذلك أُوحِيَ إلى الَّذينَ مِن قَبْلِكَ. أو أُوحيَ إليك وإلى كُلِّ واحدٍ منهم: لئنْ أشركتَ. وقيل: فيه إضمارُ نائبِ الفاعِلِ، تَقديرُه: ولقد أُوحيَ إليك وإلى الَّذينَ مِن قَبْلِكَ التَّوحيدُ، ثمَّ ابتَدأَ فقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾[2].

- والتَّاءُ في ﴿أَشْرَكْتَ﴾ تاءُ الخِطابِ لكلِّ مَن أُوحيَ إليه بمَضمونِ هذه الجُملةِ مِنَ الأنبياءِ؛ فتَكونُ الجُملةُ بَيانًا لِما أُوحيَ إليه وإلى الَّذينَ مِن قَبْلِه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فتَكونَ الجُملةُ بَيانًا لجُملةِ ﴿أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، ويَكونَ ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ اعتِراضًا؛ لأنَّ البَيانَ تابِعٌ للمُبَيَّنِ عُمومُه ونحوه. وأيًّا ما كان فالمَقصودُ بالخِطابِ تَعريضٌ بقَومِ الَّذي أُوحيَ إليه؛ لأنَّ فَرْضَ إشراكِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ غَيرُ مُتَوقَّعٍ[3].

- وقولُه: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٨).

إلى قولِه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ تأييدٌ لأمرِ النَّبيِّ بأنْ يَقولَ للمُشرِكينَ تلكَ المَقالةَ مَقالةَ إنكارٍ أنْ يَطمَعوا منه في عِبادةِ اللهِ، بأنَّه قَولٌ استَحَقُّوا أنْ يُرْمَوا بغِلظتِه؛ لأنَّهم جاهِلونَ بالأدِلَّةِ، وجاهِلونَ بنفْسِ الرَّسولِ وزَكائِها. وأعقَبَ بأنَّهم جاهِلونَ بأنَّ التَّوحيدَ هو سُنَّةُ الأنبياءِ، وأنَّهم لا يَتطَرَّقُ الإشراكُ حوالَيْ قُلوبِهم، فالمَقصودُ الأهَمُّ مِن هذا الخبَرِ التَّعريضُ بالمُشركينَ إذْ حاوَلوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الاعترافِ بإلهيَّةِ أصنامِهم. وتأكيدُ الخبَرِ بلامِ القَسَمِ وبحَرفِ (قد) تأكيدٌ لِمَا فيه مِنَ التَّعريضِ للمُشرِكينَ[1].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (بل) لإبطالِ مَضمونِ جملةِ ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ ﴾، أي: بلْ لا تُشرِكْ. أو لإبطالِ مَضمونِ جملةِ ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ ﴾؛ فهو رَدٌّ لِما أَمَروهُ به مِن استِلامِ بعضِ آلهتِهم[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱعۡبُدۡ ﴾ يَظهَرُ أنَّها تَفريعٌ على التَّحذيرِ مِن حَبطِ العمَلِ ومِنَ الخُسرانِ، فحصَلَ باجتِماعِ (بل) والفاءِ في صَدرِ الجُملةِ أنْ جَمعَتْ غَرَضَينِ: غرَضَ إبطالِ كلامِهم، وغرضَ التَّحذيرِ مِن أحوالِهم، وهذا وَجْهٌ رَشيقٌ[3].

- قولُه: ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ فيه تقديمُ المَعمولِ ﴿ٱللَّهَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٥٩).

على ﴿فَٱعۡبُدۡ﴾؛ لإفادةِ القَصرِ والاختِصاصِ، كما تَقدَّمَ في قولِه في هذه السُّورةِ: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾ [الزمر: ١٤] أيْ: أعبُدُ اللهَ لا غَيْرَه، وهذا في مَقامِ الرَّدِّ على المُشركينَ كما تَضَمَّنَه قولُه: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤]، ولولا دَلالةُ التَّقديمِ على القَصرِ والاختِصاصِ لم يَكُنْ ردًّا لِما أمَروه به؛ فإنَّهم لم يأمُروه بتركِ عبادةِ الله، بل باستلامِ آلهتِهم والشِّركِ[1].

- قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أيْ: إنعامَه عليك، وفيه إشارةٌ الى مُوجبِ الاختِصاصِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٧/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨).

## الآيات (٦٧-٧٠)

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾: أي: ومَا عظَّموا الله حقَّ عظمتِه، ولا وصَفوه بصِفَتِه الَّتي تَنْبَغي له تعالَى، ولا نزَّهوه عمَّا لا يليقُ به، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه[1].

﴿قَبْضَتُهُۥ﴾: أي: مَقْبوضةٌ له، والقَبْضُ: تَناولُ الشَّيءِ بجَميعِ الكَفِّ، وأصلُ (قبض): يَدُلُّ على شَيءٍ مأْخوذٍ وتَجَمُّعٍ في شَيءٍ[2].

﴿مَطْوِيَّٰتُۢ﴾: مِن الطَّيِّ الذي هو ضِدُّ النَّشرِ، وأصل (طوي): يدُلُّ على إدراجِ شَيءٍ حتَّى يُدرَجَ بعْضُه في بعضٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص ٦٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٥).

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرْنِ الذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ[١].

﴿فَصَعِقَ﴾: أي: مات، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شَدَّةِ صَوتٍ[٢].

﴿وَأَشْرَقَتِ﴾: أي: أضاءتْ، يُقالُ: شَرَقَت الشَّمسُ؛ إذا طَلَعت، وأشْرَقَت؛ إذا أضاءتْ، وأصلُ (شرق): يدُلُّ على إضاءةٍ وفتْحٍ[٣].

﴿وَوُفِّيَتْ﴾: أي: جُوزِيَتْ مُكَمَّلًا، والتَّوفيةُ: إعطاءُ الشَّيءِ وقَضاؤُه وافيًا لا نَقْصَ فيه، وأصلُ (وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى وَحْدانيَّتَه، وعظَمتَه، وكَمالَ قُدرتِه، وما عليه المشركونَ مِن جَهالةٍ، فيقولُ: وما عَظَّم المُشركونَ اللهَ سُبحانَه حَقَّ تَعظيمِه؛ حيثُ عَبَدوا معه غَيرَه، والحالُ أنَّ الأرضَ كُلَّها في قَبضتِه، يَقبِضُها سُبحانَه يومَ القِيامةِ، والسَّمَواتِ السَّبعَ كُلَّها يَطْويها اللهُ تعالَى بيَدِه اليُمنى، تَنزَّه اللهُ وعَلا عُلُوًّا عَظيمًا عن شِركِ أولئك المُشرِكينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سُبحانَه بعضَ مَشاهدِ يومِ القِيامةِ، فيقولُ: ونُفِخَ في البُوقِ يومَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((تفسير الطبري)) (٢٠/ ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٨).

القِيامةِ نَفخةٌ، فصَعِقَ بها أهلُ السَّمَواتِ وأهلُ الأرضِ إلَّا مَن شاء اللهُ، ثمَّ نُفِخَ فيه نَفخةٌ ثانيةٌ فإذا الذين صَعِقوا قِيامٌ يَنظُرونَ، وأضاءتْ أرضُ المَحشَرِ بنُورِ رَبِّها إذا تَجلَّى لِفَصلِ القَضاءِ بيْنَ عِبادِه، ووُضِعَت كُتُبُ أعمالِ العبادِ لِمُحاسبتِهم ومُجازاتِهم، وجِيءَ بالنَّبيِّين وبالذين يَشهَدونَ على النَّاسِ بأعمالِهم، وحَكَم اللهُ بيْنَ العِبادِ يومَ القِيامةِ بالعَدلِ التَّامِّ، ولا يَظلِمُهم رَبُّهم شَيئًا، ووَفَّى اللهُ كُلَّ نَفسٍ جَزاءَ عَمَلِها مِن خيْرٍ أو شَرٍّ، واللهُ أعلَمُ بما يَفعَلُ عِبادُه في الدُّنيا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكَى سُبحانَه عن المُشرِكينَ أنَّهم أمَروا الرَّسولَ بعِبادةِ الأصنامِ، ثمَّ إنَّه تعالَى أقام الدَّلائِلَ على فَسادِ قَولِهم، وأمَرَ الرَّسولَ بأنْ يَعبُدَ اللهَ ولا يَعبُدَ شَيئًا آخَرَ سِواه؛ بَيَّن أنَّهم لو عَرَفوا اللهَ حَقَّ مَعرفتِه لَما جَعَلوا هذه الأشياءَ الخَسيسةَ مُشارِكةً له المَعبوديَّةَ، فقال[1]:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾.

أي: وما عظَّم المُشرِكونَ اللهَ كما يَنْبغي له؛ حيثُ عَبَدوا معه غَيرَه، ولم يَصِفُوه بصِفَتِه الَّتي تَنْبَغي له تعالَى[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٧)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٦٣، ١٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٧).

﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن تعالَى أنَّهم ما عَظَّموه تَعظيمًا لائِقًا به، أردَفَه بما يدُلُّ على كَمالِ عَظَمتِه، ونِهايةِ جَلالتِه[1].

﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: ما قَدَروا اللهَ حَقَّ قَدْرِه، والحالُ أنَّ الأرضَ كُلَّها في قَبضتِه، يَقبِضُها بيَدِه يومَ القِيامةِ[2].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ اللهَ يَقبِضُ يومَ القِيامةِ الأرضَ، وتكونُ السَّمَواتُ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ!))[3].

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٧٨٦، ٧٨٧)، ((مختصر الصواعق المرسلة)) للموصلي (ص: ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وقد وَرَدتْ أحاديثُ كثيرةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بهذه الآيةِ الكريمةِ، والطَّريقُ فيها وفي أمثالِها مَذهبُ السَّلَفِ، وهو إمْرارُها كما جاءَتْ مِن غيرِ تَكييفٍ ولا تَحْريفٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٣).

وقال ابنُ عُثَيْمين ردًّا على مَن فسَّر القبضَ بالملكِ والتَّصرُّفِ، قال: (وفي هذا نظرٌ ظاهرٌ، بل هذا تحريفٌ؛ لأنَّ الملكَ والتَّصرُّفَ... يومَ القيامةِ وقبْلَ يومِ القيامةِ، لكنَّ القبضةَ بمعنى المقبوضةِ التي تكونُ في اليدِ تُحيطُ بها اليدُ، فالصَّوابُ المُتعيِّنُ أن يُقالَ: المرادُ بالقبضةِ أنَّها في قبضةِ يدِه عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٤٨).

(٣) رواه البخاري (٧٤١٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٨).

أي: والسَّمَواتُ السَّبعُ كُلُّها يَطويها اللهُ بيَدِه اليُمنى[١].

كما قال تعالَى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَقبِضُ اللهُ الأرضَ، ويَطوي السَّمَواتِ بيَمينِه، ثمَّ يَقولُ: أنا المَلِكُ، أين مُلوكُ الأرضِ؟!))[٢].

وعن مُجاهِدٍ قال: قال ابنُ عبَّاس: ((أتْدري ما سَعةُ جَهنَّمَ؟ قُلتُ: لا، قال: أجَلْ، واللهِ ما تَدري! حدَّثَتْني عائِشةُ أنَّها سَألَت رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن قَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، قالت: قُلتُ: فأين النَّاسُ يَومَئذٍ يا رَسولِ اللهِ؟ قال: على جِسرِ جَهنَّمَ))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٥٠-٤٥٢).

قال ابنُ تَيميَّةَ: (لم يَكُنِ العَرشُ داخلًا فيما يُقبَضُ ويُطوَى ويُبدَّلُ ويُغيَّرُ، كما قال في الآيةِ: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٤ - ١٧]). ((بيان تلبيس الجهمية)) (١/ ٤٦٩).

(٢) رواه البخاري (٤٨١٢) واللفظ له، ومسلم (٢٧٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٢٤١) واللفظ له، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٥٣)، وأحمد (٢٤٨٥٦).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الوجه). وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٦٣٠)، وصحَّح الحديثَ ابنُ الملقِّن في ((شرح البخاري)) (١٩/ ١٧٨)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٤١)، وصحَّح إسناده شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٤٨٥٦).

وأخرجه من طريقٍ آخَرَ وبلفظٍ مُقارِبٍ: التِّرمذيُّ (٣٢٤٢) عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها أنَّها قالت: ((يا رَسولَ اللهِ ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، فأين المؤمِنونَ يومَئذٍ؟! قال: على الصِّراطِ يا عائِشةُ)). =

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء حَبْرٌ[١] إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا محمَّدُ -أو يا أبا القاسِمِ- إنَّ اللهَ تعالى يُمسِكُ السَّمَواتِ يومَ القِيامةِ على إصْبَعٍ، والأَرَضينَ على إصْبَعٍ، والجِبالَ والشَّجَرَ على إصْبَعٍ، والماءَ والثَّرَى على إصْبَعٍ، وسائِرَ الخَلقِ على إصْبَعٍ، ثمَّ يَهُزُّهنَّ، فيَقولُ: أنا المَلِكُ، أنا المَلِكُ! فضَحِكَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعجُّبًا ممَّا قال الحَبرُ؛ تصديقًا له، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾))[٢].

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

أي: تَنزَّه اللهُ وعَلا عن شِركِ المُشرِكينَ عُلُوًّا عَظيمًا[٣].

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا خَوَّفَهم تعالَى مِن عَظَمتِه؛ خَوَّفهم بأحوالِ يومِ القِيامةِ، ورَغَّبَهم ورَهَّبَهم[٤].

وأيضًا لَمَّا قَدَّرَ كَمالَ عَظَمتِه بما سَبَق ذِكرُه؛ أردَفَه بذِكرِ طَريقةٍ أُخرَى تدُلُّ

---

= قال الترمذيُّ: (حسنٌ صحيحٌ). وصحَّحه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٣١٤)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٤٢).

(١) الحَبْر: العالِم، والمرادُ هنا حَبْرٌ مِن أحبارِ اليَهودِ آنذاكَ. يُنظر: ((إكمال المعلِم)) للقاضي عياض (٨/ ٣١٥، ٣١٦)، ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٢٧٠).

(٢) رواه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

أيضًا على كَمالِ قُدرتِه وعَظَمتِه، وذلك بشَرحِ مُقَدِّماتِ يومِ القِيامةِ؛ لأنَّ نَفْخَ الصُّورِ يكونُ قبْل ذلك اليَومِ، فقال[1]:

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: ويُنفَخُ في البُوقِ العَظيمِ يومَ القِيامةِ نَفخةٌ يَموتُ بها أهلُ السَّمَواتِ وأهلُ الأرضِ إلَّا مَن استَثناه اللهُ منهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤، ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

قيل: هذه النَّفخةُ: هي النَّفخةُ الأُولى. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ جَرير، والسعدي، وعِندَه أنَّهما نَفختانِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

قال السعديُّ: (هذه النَّفخةُ الأولى نَفخةُ الصَّعقِ، ونَفخةُ الفَزَعِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

وقيل: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ مِن نَفَخاتٍ ثلاثٍ. وممَّن قال بذلك: ابنُ تَيميةَ، وابن كثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وهي التي يَموتُ بها الأحياءُ مِن أهلِ السَّمَواتِ والأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).

وقال أيضًا: (أوَّلُ ذلك نَفخةُ الفَزَعِ، ثمَّ يَعقُبُها نَفخةُ الصَّعقِ حينَ يَصعَقُ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ إلَّا مَن شاء الله، ثمَّ بَعدَها نَفخةُ القيامِ لرَبِّ العالَمينَ، والبَعثِ والنُّشورِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١).

وقيل: هي النَّفخةُ الثَّالِثةُ مِن أربعِ نَفَخاتٍ، والأُولى مِن نفْخَتينِ خاصَّتينِ بيَومِ القِيامةِ بعْدَ وقوعِ البَعثِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: البقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٢-٥٥٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالصَّعقِ هنا: الموتُ: ابنُ جَرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).

وقيل: المرادُ بالصَّعقِ هنا: الغَشْيُ، أي: يَقَعُ الخَلقُ مَغشيًّا عليهم دونَ مَوتٍ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: البقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٣). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((استَبَّ رَجُلانِ: رجُلٌ مِن المُسلِمينَ، ورجُلٌ مِن اليَهودِ؛ قال المُسلِمُ: والذي اصْطفَى محمَّدًا على العالَمينَ، فقال اليهوديُّ: والذي اصْطفَى موسَى على العالَمينَ، فرَفَع المُسلِمُ يَدَه عِندَ ذلك فلَطَم وَجْهَ اليَهوديِّ، فذهَبَ اليَهوديُّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبَرَه بما كان مِن أمْرِه وأمْرِ المُسلِمِ، فدعا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُسلِمَ، فسَأَلَه عن ذلك، فأخبَرَه، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تُخَيِّروني على مُوسى؛ فإنَّ النَّاسَ يَصعَقونَ يومَ القِيامةِ فأَصعَقُ معهم، فأكونُ أوَّلَ مَن يُفيقُ، فإذا مُوسى باطِشٌ[1] جانِبَ العَرشِ! فلا أدْري أكان فيمَن صَعِقَ فأفاقَ قَبْلي، أو كان ممَّن استَثنى اللهُ!))[2].

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

أي: ثمَّ يُنفَخُ في البُوقِ نَفخةٌ ثانيةٌ[3]، .....

---

= قال السَّعديُّ: (﴿فَصَعِقَ﴾ أي: غُشِيَ أو ماتَ، على اختِلافِ القَولينِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

واختلَف المفسِّرون فيمَن استثنَى اللهُ تعالى من الصَّعقِ؛ فقال القاسميُّ: (﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: مِن خَواصِّ الملائكةِ، أو مِن الشُّهَداءِ، رُوِيَ ذلك عن بَعضِ التابعين. وقال قَتادةُ: قد استثنى اللهُ، واللهُ أعلمُ إلى ما صارتْ ثُنْيتُه. وهذا هو الوَجهُ؛ إذ لا يُصارُ إلى بَيانِ المُبهَماتِ إلَّا بقاطعٍ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦٠).

(١) باطشٌ: أي: آخِذٌ بقُوَّةٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٤٢٤).

(٢) رواه البخاري (٢٤١١) واللفظ له، ومسلم (٢٣٧٣).

(٣) قيل: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ، وهي نفْخةُ البَعثِ والنُّشورِ، وإحياءِ العِبادِ مِن القُبورِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جَرير، والماوَرْديُّ، وأبو السُّعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٩).

وقيل: هي نَفخةُ البَعثِ، ولكِنَّها الثَّالثةُ بعْدَ نَفختَيِ الفَزَعِ ثمَّ الصَّعقِ. وممَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ =

فإذا الذين صَعِقوا قدْ قاموا يَنظُرونَ[١].

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾.

أي: وأضاءت أرضُ المحشَرِ بنُورِ رَبِّها إذا تجلَّى لِفَصلِ القَضاءِ بيْنَ عِبادِه[٢].

كما قال تعالَى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢].

---

= كَثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦) وَ(٨/ ٢١١).

وقيل: هي النَّفخةُ الرَّابعةُ التي يُفيقُ بها العِبادُ مِن غَشْيَتِهم، وهي الثَّانيةُ مِن نفْختَينِ بعْد البَعثِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القول: البقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٣، ٥٥٨- ٥٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٩، ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٧٩، ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥، ٦٦).

واختلَف المفَسِّرون في معنى ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ فقيل: يَقلِبون أبصارَهم في الجِهاتِ نظَرَ المبهوتِ إذا فاجأهُ خطْبٌ. وممَّن اختاره الزَّمخشريُّ، وابنُ عادلٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٧).

وقيل: يَنظُرونَ إلى أهوالِ يومِ القِيامةِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨١).

وقيل: النَّظَرُ هنا بمعنى الإبصارِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم حَيُوا حَياةً كامِلةً لا غِشاوةَ معها على أبْصارِهم. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥).

وقيل: هذا النَّظَرُ بمعنى الانتِظارِ، أي: يَنتَظِرون أمْرَ اللهِ فيهم. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والبَغَويُّ، والخازن. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُحشَرُ النَّاسُ يومَ القِيامةِ على أرضٍ بَيضاءَ عَفراءَ[١]، كقُرصةِ النَّقِيِّ[٢]، ليس فيها عَلَمٌ[٣] لأحَدٍ))[٤].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يَنامُ، ولا يَنْبغي له أن يَنامَ، يَخفِضُ القِسطَ ويَرفَعُه، يُرفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيلِ، حِجابُه النُّورُ، لو كشَفَه لَأحْرَقَت سُبُحاتُ[٥] وَجْهِه ما انتهَى إليه بَصَرُه مِن خَلْقِه))[٦].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ شَقيقٍ، قال: قُلتُ لأبي ذَرٍّ: لو رأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَسَألتُه. فقال: عن أيِّ شَيءٍ كُنتَ تَسألُه؟ قال: كنتُ أسألُه: هلْ رأيتَ رَبَّك؟ قال أبو ذَرٍّ: قدْ سألتُ، فقال: ((رأيتُ نُورًا))[٧].

---

(١) عَفْراءَ، أي: غيرِ شَديدةِ البَياضِ، بلْ يَضرِبُ بياضُها إلى الحُمرةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥١٠).

(٢) كقُرصَةِ النَّقِيِّ: القُرصةُ: الرَّغيفُ، والنَّقِيُّ: هو الدَّقيقُ المنخولُ المُنظَّفُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥١٠).

(٣) عَلَمٌ: أي: عَلامةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥١٠).

(٤) رواه البخاري (٦٥٢١)، ومسلم (٢٧٩٠) واللفظ له.

قال البخاري: (قالَ سهلٌ أوْ غيرُه: «ليسَ فيها مَعْلَمٌ لأحدٍ»).

قال ابن حجر: (وقَع هذا الكلامُ الأخيرُ لمسلمٍ... مدرجًا بالحديثِ، ولفظُه: «ليس فيها علمٌ لأحدٍ»). ((فتح الباري)) (١١/ ٣٧٥).

(٥) سُبُحاتُ: جَمعُ سُبْحَةٍ: أيْ: أنوارُ وَجْهِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١٦٦).

(٦) رواه مسلم (١٧٩).

(٧) رواه مسلم (١٧٨).

ومعْنَى قولِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لأبي ذَرٍّ: ((رَأَيْتُ نُورًا)): أنَّه رَأَى الحجابَ؛ ففي ((صحيح مسلم)) (١٧٩) أيضًا عن أبي مُوسَى الأشعريِّ رَضِي اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((حِجابُه النُّورُ، لوْ كَشَفه لَأحْرَقَتْ سُبُحاتُ وجْهِه ما انتهَى إليه بَصَرُه =

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾.

أي: وأُحضِرَت كُتُبُ أعْمالِ العِبادِ يومَ القِيامةِ، ووُضِعَتْ لِمُحاسبتِهم ومُجازاتِهم بما فيها مِن خَيرٍ أو شَرٍّ(١).

كما قال تعالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾.

أي: وجِيءَ بالنَّبِيِّينَ لِيَسألَهم رَبُّهم عمَّا أجابتَهْم به أُمَمُهم، وجِيءَ بالَّذين يَشهَدونَ على النَّاسِ بأعْمالِهم(٢).

---

= مِن خَلْقِه))، وجاء في رِوايةٍ لحديثِ أبي ذَرٍّ عندَ مسلم أيضًا (١٧٨): ((نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ)): أي: النُّورُ الَّذي هو الحجابُ يَمنَعُ مِن رُؤيَتِه سُبحانَه؛ فأنَّى أَراهُ؟ أي: فكيْفَ أراهُ والنُّورُ حِجابٌ بيْني وبيْنَه يَمنَعُني مِن رُؤيتِه؟! وهذا صَريحٌ في نفْيِ رُؤيةِ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم رَبَّه بعَيْني رأسِه في الدُّنيا. يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٨)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦٥-٤٦٧).

وقيل: يَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بالكِتابِ: كُتُبَ الشَّرائعِ الَّتي شَرَعها اللهُ للعِبادِ على ألْسِنةِ الرُّسلِ، ويَكونَ إحضارُها شاهِدةً على الأُمَمِ بتَفاصيلِ ما بَلَّغَه الرُّسلُ إليهم؛ لئلَّا يَزعُموا أنَّهم لم تَبلُغْهمُ الأحكامُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٢، ٢٨٣)، =

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧).

اختلَف المفَسِّرون في المرادِ بالشُّهداءِ هنا؛ فقيل: همْ أُمَّةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَشهَدونَ للرُّسُلِ في تَبليغِهم رِسالةَ اللهِ إلى أُمَمِهم. وممَّن ذهَب إلى هذا القول: ابنُ جَرير، ومَكِّي، والقُرْطبيُّ، وابنُ عُثَيْمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٢-٢٦٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٢- ٢٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩٤).

وقيل: الشُّهَداءُ هم الملائكةُ الحَفَظةُ الذين يُحصُونَ أعمالَ العِبادِ مِن خيرٍ وشَرٍّ. وممَّن ذهَب إلى هذا القول: ابنُ كَثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: عَطاءٌ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩٤).

وقيل: الشُّهَداءُ من الملائكة والمؤمنين، وممَّن اختاره: البيضاوي، وأبو السُّعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣).

وقيل: هم الملائكةُ، وأعضاءُ الإنسان، والأرضُ. وممَّن ذهَب إلى هذا القول: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

وقيل: هم الرُّسُلُ مِن البَشَرِ الذين أُرسِلوا إلى الأُمَم؛ لأنَّه لا يُقضَى بيْنَ الأُمَّةِ حتى يأتيَ رَسولُها، كما قال تعالَى في سُورةِ (يونس): ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]، وممَّن ذهَب إلى هذا القول: الشِّنقيطيُّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٨).

قال الشِّنقيطيُّ: (قدْ بيَّن تعالى أنَّ الشَّهيدَ على كُلِّ أمَّةٍ مِن أنفُسِ الأمَّةِ؛ فدَلَّ على أنَّه ليس مِن الملائكةِ، وذلك في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩]، والرُّسُلُ مِن أنفُسِ الأُمَم، كما قال تعالَى في نبيِّنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٦٨).

وقيل: هم الذين قُتِلوا في سَبيلِ اللهِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣). =

كما قال تعالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾ [النساء: ٤١].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُجاءُ بنُوحٍ يومَ القِيامةِ، فيُقالُ له: هل بلَّغْتَ؟ فيقولُ: نعَمْ يا رَبِّ، فتُسألُ أمَّتُه: هلْ بلَّغَكم؟ فيقولونَ: ما جاءَنا مِن نَذيرٍ! فيقولُ: مَن شُهودُك؟ فيقولُ: محمَّدٌ وأمَّتُه، فيُجاءُ بكم، فتَشهَدونَ. ثمَّ قرأَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ﴾ قال: عَدْلًا، ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗا ﴾ [البقرة: ١٤٣]))[1].

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾.

أي: ويَحكُمُ اللهُ بيْنَ العِبادِ يومَ القِيامةِ بالعَدلِ التَّامِّ، ولا يَظلِمُهم شَيئًا؛ فلا يُعاقِبُ أحَدًا بما لم يَعمَلْه، أو يُحَمِّلُه ذَنْبَ غَيرِه، أو يَنقُصُه مِن أجْرِه، أو يَزيدُ في سَيِّئاتِه[2].

كما قال تعالَى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٦٢).

(١) رواه البخاري (٧٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦٨-٤٦٩).

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

أي: ويُوَفِّي اللهُ كُلَّ نَفْسٍ جَزاءَ عَمَلِها مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[1].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المرادُ بالشُّهَداءِ إقامةَ الحُقوقِ على ما يَتعارَفُه العِبادُ، وكان ذلك ربَّما أوهَمَ نَقْصًا في العِلمِ؛ قال[2]:

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

أي: واللهُ أعلَمُ مِنَ النَّبيِّينَ والشُّهَداءِ بما يَفعَلُ عِبادُه في الدُّنيا، وسيُجازيهم يومَ القِيامةِ بحَسَبِ أفعالِهم[3].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ أنَّه يَجِبُ أنْ يُعَظَّمَ اللهُ تعالَى حَقَّ تَعظيمِه بقَدْرِ المُستطاعِ؛ لقولِه تَبارَك وتعالَى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣).

قال السَّمرْقَنديُّ: (أخبَرَ أنَّه لم يَدْعُ الشُّهَداءَ لِيَشهَدوا بما يَعلَمون، بل هو أعلَمُ بما يَفعَلونَ، وإنَّما يَدْعو الشُّهَداءَ لِتأكيدِ الحُجَّةِ عليهم). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٤). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦).

وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولقولِه تعالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وإلَّا فمَن الذي يُحصي أنْ يُعظِّمَ اللهَ تعالىَ حَقَّ تَعظيمِه، على الوَجهِ الذي أرادَه اللهُ عزَّ وجلَّ[١]؟!

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ رُوِي عن بعضِ السَّلفِ أنَّه قال: (مَن أراد أنْ يُشاهِدَ يوْمَ القيامةِ -يعني: بقَلْبِه- فلْيَقرَأْ آخِرَ سُورةِ الزُّمَرِ)[٢].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أنَّه يَجِبُ على الإنسانِ الحذرُ مِن العَمَلِ بما لا يُرضي اللهَ تعالَى؛ لأنَّ اللهَ تعالَى يَعلَمُ ذلك، والإنسانُ الحَيُّ القَلبِ لا شَكَّ أنَّه سيَخجَلُ إذا عَلِمَ أنَّ اللهَ تعالَى يَعلَمُ عَمَلَه، فعَمِلَ ما لا يُرضِيه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾، قولُه تعالَى: ﴿جَمِيعًا﴾ حالٌ، وهي دالَّةٌ على أنَّ المرادَ بالأرضِ الأرَضونَ السَّبعُ؛ فإنَّ هذا التَّأكيدَ لا يحسُنُ إدخالُه إلَّا على الجمْعِ، ويَشهَدُ لذلك قولُه الآتي: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾، ولأنَّ الموضعَ مَوضعُ تَعظيمٍ، فهو مُقتضٍ للمبالَغةِ، والمعنى: الأرَضونَ جميعًا ذواتُ قبضتِه؛ يَقبِضُهنَّ قبْضةً واحدةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٣، ١٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ١٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٦/ ٥٤٣)، ((تفسير القنوجي)) (١٢/ ١٤٣).

قال البِقاعيُّ: (لمَّا كان ما يُدْرِكون منها مِن السَّعةِ والكِبَرِ كافيًا في العظَمةِ، وإنْ لم يُدرِكوا أنَّها سَبعٌ؛ أكَّد بما يَصلُحُ لجميعِ طَبقاتِها؛ تَنبيهًا للبُصراءِ على أنَّها سَبعٌ مِن غيرِ تَصريحٍ به فقال: ﴿جَمِيعًا﴾). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٤٩).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿قَبۡضَتُهُۥ﴾، وقَولُه تعالَى: ﴿بِيَمِينِهِۦ﴾ فيه إثباتُ اليَدِ للهِ تعالَى[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ فيه تَنبيهٌ على عَظَمتِه سُبحانَه، وحَقارةِ الأفعالِ العِظامِ الَّتي تَتحَيَّرُ فيها الأوهامُ بالإضافةِ إلى قُدرتِه، ودَلالةٌ على أنَّ تَخريبَ العالَمِ أهْوَنُ شَيءٍ عليه[٢].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ أنَّ الصَّعْقَ شاملٌ لكلِّ مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ إلَّا مَن شاء اللهُ تعالَى، وهمْ أقلُّ ممَّن يَصْعَقُون؛ لأنَّ الغالبَ أنَّ المُسْتَثْنَى يكونُ أقلَّ مِن المُسْتَثْنَى منه[٣].

٥- قال تعالَى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا هُمۡ﴾ دَلالةٌ على أنَّ قِيامَهم يَحصُلُ عقِبَ هذه النَّفخةِ الأخيرةِ في الحالِ، مِن غيْرِ تَراخٍ؛ لأنَّ الفاءَ تدُلُّ على التَّعقيبِ[٤].

٦- قَولُه تعالَى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ فيه إثباتُ النُّورِ صِفةً للهِ تعالَى[٥].

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أنَّ الأنوارَ الموجودةَ تَذهَبُ يومَ القِيامةِ وتَضمَحِلُّ -وهو كذلك-؛ فإنَّ اللهَ تعالَى أخبَرَ أنَّ الشَّمسَ تُكَوَّرُ، والقَمَرَ يُخسَفُ، والنُّجومَ تَندَثِرُ، ويكونُ النَّاسُ في ظُلمةٍ، فتُشرِقُ عندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧٠)، ويُنظر: ((صفات الله)) للسقَّاف (ص: ٣٥٦).

ذلك الأرضُ بنُورِ رَبِّها عندما يَتجَلَّى ويَجيءُ للفَصلِ بيْنهم، وذلك اليومَ يَجعَلُ اللهُ للخَلقِ قُوَّةً، ويُنشِئُهم نَشأةً يَقوَونَ على ألَّا يُحرِقَهم نُورُه سُبحانَه وتعالَى، ويَتمَكَّنونَ أيضًا مِن رُؤيتِه؛ وإلَّا فنُورُه تعالَى عَظيمٌ، لو كشَفَه لَأحرَقَت سُبُحاتُ وَجْهِه ما انتهى إليه بَصَرُه مِن خَلْقِه(١).

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فيه انتفاءُ الظُّلمِ في ذلك اليوم، وانتفاءُ الظُّلمِ هنا ليس المرادُ به نفْيَ الظُّلمِ فقط، بلِ المرادُ به إثباتُ كَمالِ العدْلِ الذي ليس فيه ظُلمٌ بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ(٢).

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ فيه عَدْلُ اللهِ تعالَى في جَزائِه؛ لِقَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ لا زِيادةً ولا نَقصًا، ويُؤكِّدُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾؛ فإذا كان أعلمَ بما يَفعَلونَ، وهو حَكَمٌ عَدْلٌ، عُلِمَ أنَّه لن يَنْقُصَ الإنسانَ مِن أجْرِه شَيئًا(٣).

١٠- لمَّا بيَّن اللهُ تعالَى أنَّه يَحضُرُ في مَحفِلِ القيامةِ جميعُ ما يُحتاجُ إليه في فصْلِ الحكوماتِ وقطْعِ الخُصوماتِ؛ بيَّن تعالَى أنَّه يُوصَلُ إلى كلِّ أحدٍ حقُّه، وعبَّر تعالَى عن هذا المعنى بأربعِ عباراتٍ؛ أوَّلُها قولُه تعالَى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾، وثانيها قولُه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وثالثُها قولُه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي: وُفِّيَت كلُّ نفْسٍ جَزاءَ ما عَمِلَت، ورابعُها قولُه: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، يعني أنَّه تعالَى إذا لم يكُنْ عالمًا بكَيفيَّاتِ أحوالِهم، فلعلَّه لا يَقْضي بالحقِّ لأجْلِ عدَمِ العلمِ، أمَّا إذا كان عالمًا بمَقاديرِ أفعالِهم وبكَيْفيَّاتِها امتَنَعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٦).

دُخولُ الخطأِ في ذلك الحكمِ، فثَبَتَ أنَّه تعالَى عبَّر عن هذا المقصودِ بهذه العباراتِ المختلفةِ، والمقصودُ المبالغةُ في تَقْريرِ أنَّ كلَّ مُكلَّفٍ فإنَّه يَصِلُ إلى حقِّه[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

- قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ معطوفًا على جُملةِ ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٣]، ويَكونَ قولُه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ إلخ مُعترِضًا بيْن الجُملتَينِ، اقتَضاها التَّناسُبُ مع جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

ويَجوزُ أنْ تَكونَ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]؛ فتَكونَ جُملةُ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وجُملةُ ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كِلْتاهُما مَعطوفتَينِ على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]. والمعنى هو هو، إلَّا أنَّ الحالَ أوضَحُ إفصاحًا عنه.

ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ عَطْفَ غَرَضٍ على غَرَضٍ انتُقِلَ به إلى وَصْفِ يَومِ القِيامةِ وأحوالِ الفَريقَينِ فيه، وجُملةُ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ اعتِراضًا[2].

- وهذا الأسلوبُ مِن بابِ الكِنايةِ؛ لأنَّ تَعظيمَكَ الشَّيءَ، واحترامَكَ إيَّاهُ، وقِيامَك بواجِبِه؛ مُستلزِمٌ لتَقديرِك إيَّاهُ في نفْسِكَ حَقَّ تَقْديرِه، وهو مُستلزِمٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٠، ٦١).

لأنْ تكونَ قدْ عَرَفْتَه حَقَّ مَعرفتِه[١].

- والإخبارُ عن الأرضِ بهذا المَصدرِ ﴿قَبْضَتُهُۥ﴾ الَّذي هو بمعنَى المَفعولِ، أي: مَقبوضةٌ، كالخَلْقِ بمعنَى المَخلوقِ؛ للمُبالَغةِ في الاتِّصافِ بالمعنَى المَصدريِّ؛ لأنَّ المَوضِعَ مَوضِعُ تَفخيمٍ، فهو مُقتَضٍ المُبالَغةَ، وإنَّما صِيغَ لها وَزنُ المَرَّةِ؛ تَحقيرًا لها في جانِبِ عَظَمةِ مُلكِ اللهِ تعالَى، والقَبضةُ تدُلُّ على تَمامِ التَّمكُّنِ مِنَ المَقبوضِ، وأنَّ المَقبوضَ لا تَصَرُّفَ له ولا تَحرُّكَ[٢].

- وقَدَّمَ الأرضَ على السَّمواتِ؛ لمُباشَرتِهم بها، ومَعرفتِهم بحَقيقتِها[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ انتقالٌ مِن إجْمالِ عَظَمةِ القُدرةِ يَومَ القِيامةِ إلى تَفصيلِها؛ فالجُملةُ مِن عَطفِ القِصَّةِ على القِصَّةِ، ومُناسَبةُ العَطفِ ظاهِرةٌ[٤].

- قولُه: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ...﴾ عبَّرَ بالماضي في قولِه: ﴿وَنُفِخَ﴾ وقولِه: ﴿فَصَعِقَ﴾؛ لأنَّه مُحقَّقُ الوُقوعِ. وابتُدِئَتِ الجُملةُ بحَديثِ النَّفخِ في الصُّورِ؛ إذْ هو مِيقاتُ يَومِ القِيامةِ وما يَتقدَّمُه مِن مَوتِ كلِّ حَيٍّ على وَجْهِ الأرضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القنوجي)) (١٢/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤٦).

- قولُه: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لمَّا كان المقامُ للتَّهويلِ، وكان التَّصريحُ أهوَلَ، أعاد الفاعلَ بلفْظِه فقال: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ (ثُمَّ) حرفُ عَطفٍ للتَّرتيبِ مع التَّراخي؛ لِبُعْدِ ما بيْن النَّفختَينِ. ويَجوزُ أنْ تُفيدَ مع ذلك المُهلةَ المُناسِبةَ لِما بيْن النَّفختَينِ(٢).

- قولُه: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ إنَّما ذُكِرَتِ النَّفخةُ الأُخرَى في هذه الآيةِ، ولم تُذكَرْ في قولِه في سُورةِ (النَّمل): ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]؛ لأنَّ تِلك في غَرَضِ المَوعظةِ بفَناءِ الدُّنيا، وهذه الآيةَ في غَرَضِ عَظَمةِ شَأنِ اللهِ في يَومِ القِيامةِ، وكذلك وَصْفُ النَّفخةِ بالواحِدةِ في سُورةِ (الحاقَّة): ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣- ١٥]، وذُكِرَتْ هنا نَفختانِ(٣).

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ ضَميرُ (هُمْ) عائدٌ على مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ فيما بَقيَ مِن مَفهومِه بعْدَ التَّخصيصِ بـ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، و(إذَا) للمُفاجأةِ؛ للتَّنبيهِ على سُرعةِ حُلولِ الحَياةِ فيهم، وقِيامِهم إثْرَه(٤).

- وجُملةُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ حالٌ، وفائدةُ هذه الحالِ الدَّلالةُ على أنَّهم حَيُوا حَياةً

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كاملةً لا غِشاوةَ معها على أبصارِهم، أي: لا دَهَشَ فيها[١]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ التَّعريفُ في الأرضِ تَعريفُ العَهدِ الذِّكريِّ الضِّمنيِّ؛ فقدْ تَضمَّنَ قولُه: ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨] أنَّهم قِيامٌ على قَرارٍ؛ فإنَّ القِيامَ يَستَدعي مَكانًا تَقومُ فيه تلك الخَلائقُ، وهو أرضُ الحَشرِ، وليس المرادُ الأرضَ الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا؛ قال تعالَى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾[٢] [إبراهيم: ٤٨].

- قولُه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ إضافةُ (رَبٍّ) إلى ضَميرِ الأرضِ لتَشريفِ المُضافِ إليه[٣]، وإضافةُ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالَى إلى شَيءٍ مُعَيَّنٍ تَقتَضي تَعظيمَ هذا الشَّيءِ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ عَدَل الكَلامَ عن الاسمِ الأعظَمِ (الله) إلى صِفةِ الإحسانِ ﴿رَبِّهَا﴾؛ لغَلَبةِ الرَّحمةِ، لا سِيَّما في ذلك اليَومِ؛ فإنَّه لا يَدخُلُ أحَدٌ الجنَّةَ إلَّا بها[٥].

- وتعريفُ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ في قولِه: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٥، ٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٦، ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦١).

وُضِعَتِ الكُتُبُ، وهي صَحائفُ أعْمالِ العِبادِ، أُحضِرَتْ للحِسابِ بما فيها مِن صالحٍ وسَيِّئٍ، وأُعطيَ كلُّ واحدٍ كِتابَه وصَحائفَ أعمالِه المُدَوَّنةَ فيها حَسناتُه أو سَيِّئاتُه، ووُحِّدَ على اسمِ الجنسِ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ له كِتابٌ على حِدَةٍ. والوَضعُ: الحَطُّ، والمُرادُ به هنا: الإحضارُ، والآيةُ تَهديدٌ جاءَ في سِياقِ الخبَرِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أيْ: جُوزِيَتْ على أعْمالِها جَزاءً مُكَمَّلًا، واللهُ أعلَمُ بما يَفعَلونَ؛ فلا يَحتاجُ إلى كاتِبٍ ولا شاهِدٍ، وفي ذلك وَعيدٌ وزِيادةُ تَهديدٍ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ مُضافٌ مَحذوفٌ، أي: جَزاءَ ما عَمِلَتْ؛ لظُهورِ أنَّ ما عَمِلَه المرءُ لا يُوَفَّاهُ بعْدَ أنْ عَمِلَه، وإنَّما يُوفَّى جَزاءَه[٣].

- وعُبِّر بالماضي في قولِه: ﴿وَأَشْرَقَتِ﴾، ﴿وَوُضِعَ﴾، ﴿وَجِاْيٓءَ﴾، ﴿وَوُفِّيَتْ﴾؛ لأنَّه مُحَقَّقُ الوُقوعِ[٤].

- قيل: في قَولِه: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ احتِباكٌ[٥]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٣)، ((فتح الرحمن في تفسير القرآن)) للأنصاري (٦/ ٨٩)، ((روح البيان)) (٨/ ١٤٠) للخلوتي الحنفي، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٦٤- ٦٨).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٣٧).

فإنَّ ذِكرَ ﴿مَّا عَمِلَتۡ﴾ أولًا يدُلُّ على ما فَعَلت ثانيًا، وذِكرُ (ما يَفعَلون) ثانيًا يدُلُّ عليه ما يَفعَلونَ أوَّلًا، وسِرُّه أنَّ ما ذُكِر أوْفَقُ للمُرادِ مِن نفْيِ الظُّلمِ على حُكمِ الوَعدِ بالعدْلِ والفضلِ؛ لأنَّ فيه الجزاءَ على كلِّ ما بُنِي على عِلمٍ، وأمَّا المُشْتَهَى فما ذكَر أنَّه يُجازَى عليه! بلِ اللهُ يَعلَمُه[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٤).

وقدْ فرَّق البِقاعيُّ بيْن العَملِ والفِعلِ هنا؛ فقال: (﴿مَّا عَمِلَتۡ﴾ أي: مِن الحَسناتِ، لذلك عبَّر بالعَملِ الذي لا يكونُ إلَّا مع العِلم... ﴿بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ أي: ممَّا عُمِل به بداعيةٍ مِن النفْسِ، سواءٌ كان مع مُراعاةِ العِلمِ أوْ لا). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٦٤).

## الآيتان (٧١-٧٢)

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَسِيقَ﴾: أي: وحُشِر، والسَّوْقُ يَقْتَضي الحثَّ على المَسيرِ بعُنْفٍ، وهو الغالبُ فيه[1].

﴿زُمَرًا﴾: أي: جَماعاتٍ وأفْواجًا مُتفرِّقةً، وأصلُ (زمر) هنا: يدُلُّ على جِنْسٍ مِن الأصواتِ، واشتُقَّت الزُّمرةُ -بمعْنى الجماعةِ- مِن هذا؛ لأنَّها إذا اجْتَمَعتْ كانَتْ لها جَلَبَةٌ[2].

﴿حَقَّتۡ﴾: أي: وجَبَت، والحقُّ نَقيضُ الباطلِ، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ تعالَى مُبيِّنًا مَصيرَ الكافرينَ وما يَقولُه لهم خَزَنَةُ جَهنَّمَ: وسِيقَ الكُفَّارُ يَومَ القِيامةِ إلى جَهنَّمَ جَماعاتٍ مُتفرِّقةً، حتَّى إذا جاؤُوا جَهنَّمَ فُتِحَت لهم أبْوابُها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٧)، ((تفسير الطبري)) (٢٠/ ٢٦٥)، (مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٣).

السَّبعةُ، وقال لهمْ خَزَنةُ جَهنَّمَ: ألمْ يَأتِكم رسُلٌ مِنكم يقرؤُونَ عليكمْ آياتِ رَبِّكم، ويُخَوِّفونَكم لِقاءَ يوْمِ القِيامةِ؟

قال الَّذين كَفَروا مُجيبينَ خَزَنةَ جَهنَّمَ: بلَى! قدْ كان ذلك، ولكِنْ وَجَب عَذابُ اللهِ على الكافِرينَ. قيل لهمْ: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ ماكِثينَ فيها أبدًا؛ فبِئسَ مَقامُ المتكَبِّرينَ نارُ جَهنَّمَ!

## تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالَى أشياءَ مِن أحوالِ يومِ القِيامةِ على سَبيلِ الإجمالِ؛ بَيَّن بعْدُ كَيفيَّةَ أحوالِ الفَريقَينِ، وما أفضَى إليه كُلُّ واحدٍ مِنهما[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالَى حُكمَه بيْنَ عِبادِه الذينَ جمَعَهم في خَلْقِه ورِزقِه وتَدبيرِه، واجتِماعَهم في الدُّنيا، واجتِماعَهم في مَوقِفِ القِيامةِ؛ فرَّقَهم تعالَى عندَ جَزائِهم، كما افترَقوا في الدُّنيا بالإيمانِ والكُفرِ، والتَّقوى والفُجورِ[2].

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾.

أي: ويُساقُ الكُفَّارُ يوْمَ القِيامةِ إلى جَهنَّمَ جَماعاتٍ مُتفَرِّقةً[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، =

كما قال تعالَى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ٨٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾.

أي: حتَّى إذا بلَغَ الكُفَّارُ جهنَّمَ فُتِحَت لهمْ أبْوابُها السَّبعةُ فَجأةً فَوْرَ وُصولِهم[1].

قال تَعالَى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ

---

= ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٦٩).

قال الرسعني: (سَوْق الكفار: طردُهم إلى النَّارِ، وزجرُهم بأبلغِ ما يكونُ مِن العنفِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٧٩).

ممَّن اختار أنَّ معْنى ﴿زُمَرًا﴾: جَماعاتٌ متفرِّقةٌ: أبو عُبَيدة، وابنُ عطيَّةَ، وجلالُ الدِّين المحلِّي، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦).

قال السعديُّ: (ويُساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ أي: فِرَقًا مُتفرِّقةً، كلُّ زُمرةٍ معَ الزُّمْرةِ التي تُناسِبُ عَمَلَها، وتُشاكِلُ سَعْيَها، يَلعَنُ بَعضُهم بعضًا، ويَبرَأُ بَعضُهم من بعضٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

وقال ابنُ عاشورٍ: (إنَّما جُعِلوا زُمَرًا؛ لاختلافِ دَرَجاتِ كُفرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٧٩-٤٨٠).

قيل: يُساقُ كُفَّارُ كُلِّ أمَّةٍ على حِدَةٍ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مُقاتِلُ بنُ سُليمان، والثَّعلبيُّ، والبَغَويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٠-٤٨١).

مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾.

أي: وقال لهم خَزَنَةُ جَهنَّمَ القائِمونَ عليها، الموكَّلونَ بها: ألَمْ يَأتِكم رسُلٌ مِنكم[1] يقرؤُونَ عليكم آياتِ رَبِّكم التي أنْزَلَها إليكم[2]؟

---

(١) قيل: المرادُ: مِن جِنسِكم البَشَريِّ. وممَّن قال بهذا المعنى: السَّمَرْقنديُّ، ومكِّيٌّ، وابنُ عطيَّةَ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، وأبو حيَّانَ، وابنُ كَثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٣٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨).

وعبَّر عن ذلك المعنى مُقاتلُ بن سُلَيمان، والواحديُّ، وابنُ الجَوْزيِّ، والبغويُّ، والشَّوكانيُّ؛ بقولِهم: مِن أنفُسِكم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦).

وقيل: المرادُ: مِن قَومِكم، فتَعرِفونَ صِدْقَهم وأمانتَهم. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: القاسميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٧).

قال ابنُ عُثَيمين: (يقولُ: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، وهذا أبلَغُ مِن أن يُقالَ: مِن أنفُسِكم؛ فمُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قُرَيشٍ مِن بَني هاشِم، يَعرِفونَه ويَعرِفونَ أباه ويَعرِفونَ أجدادَه، ويَصِفونَه بالأمينِ ويَثِقونَ به... ولهذا قال تعالَى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]: مِن جِنسِهم؛ لأنَّ الرَّسولَ ليس مَلَكًا، وقال تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]؛ لأنَّه مِنَ العَرَبِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨١-٤٨٢).

وقال السعديُّ -والظاهرُ أنَّه جمَع بينَ القولَين-: (﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أي: مِن جِنسِكم تَعرِفونَهم، وتَعرِفونَ صِدقَهم، وتَتمكَّنونَ مِن التَّلقِّي عنهم؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٠-٤٨٢).

﴿ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ﴾.

أي: ويُخَوِّفونَكم ويُحَذِّرونَكم شَرَّ يَومِ القِيامةِ، ومَصيرَكم إليه؛ فتَستَعِدُّوا له بالتَّقوى[1]؟

﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: قال الذين كَفَروا مُجيبينَ خَزَنَةَ جَهنَّمَ: بلَى! قدْ أتَتْنا رسُلٌ مِنَّا يقرؤُونَ علينا وَحْيَ رَبِّنا، ويُنذِرونَنا يوْمَ القِيامةِ، ولكِنْ كذَّبْناهم، ووَجَبتْ كَلِمةُ العذابِ -في عِلمِ اللهِ السَّابقِ- على الكافِرينَ به وبآياتِه ورُسُلِه[2].

---

قال ابن عاشور: (التِّلاوةُ: قِراءةُ الرِّسالَةِ والكتابِ؛ لأنَّ القارِئَ يَتْلو بعضَ الكلامِ ببَعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٠).

وقال ابن كثير: (﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ ﴾ أيْ: يُقيمونَ عليكم الحُجَجَ والبراهينَ على صِحَّةِ ما دَعَوْكم إليه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٨، ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨١-٤٨٢).

قيل: معنى ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: وجَبَت كَلِمةُ اللهِ أنَّ عَذابَه لأهلِ الكُفرِ به. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جَرير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

قال ابنُ كَثير: (﴿ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: ولكنْ كذَّبْناهم وخَالَفْناهم؛ لِمَا سَبَق إلينا مِن الشِّقوةِ الَّتي كنَّا نَسْتَحِقُّها حيثُ عَدَلْنا عن الحقِّ إلى الباطلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (أي: الكَلِمةُ المُقتَضيةُ مِن اللهِ تعالَى تَخليدَهم في النَّارِ، وهي عِبارةٌ عن قَضائِه السَّابِقِ لهم بذلك، وهي التي في قَولِه تعالَى لإبليسَ: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٥]). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣). =

كما قال الله تعالَى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ * أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣- ١٠٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ * وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١١].

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: فيُقالُ لهم: ادْخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ السَّبعةَ ماكِثينَ فيها أبدًا، لا يَنقَطِعُ عنكم

---

= وممَّن فسَّر الكلمةَ بقولِه تعالَى لإبليسَ في سُورةِ (ص): مُقاتلُ بنُ سُليمان، والثَّعلبيُّ، والسَّمعانيُّ، والكرمانيُّ، والبَغَويُّ، وأبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٢١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤).

قال الشِّنْقيطيُّ: (المرادُ بالكَلمةِ هو قولُه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، كما دلَّتْ على ذلك آياتٌ مِن كِتابِ اللهِ تعالى؛ كقَولِه تعالَى في آخِرِ سُورةِ «هودٍ»: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، وقولِه تعالَى في «السَّجدةِ»: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السَّجدةُ: ١٣]. وقولِه تعالى في أُخْرَياتِ «ص»: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤- ٨٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٧) بتصرف. ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦).

عَذابُها، ولا أنتمْ تُخرَجونَ منها[١].

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان سَببُ كُفرِهم بالآياتِ هو التَّكبُّرَ؛ قالوا لهم[٢]:

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

أي: فبِئْسَ المَقامُ والمُستقَرُّ للمُتكبِّرينَ عن الحَقِّ، نارُ جَهنَّمَ[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالَى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أنَّهم تكَبَّروا عن الحَقِّ، فجازاهم اللهُ مِن جِنسِ عَمَلِهم بالإهانةِ والذُّلِّ والخِزْيِ[٤]، وفي ذلك التَّحذيرُ مِن الكِبْرِ؛ لئلَّا يكونَ الإنسانُ مِن أصحابِ النَّارِ، فالنَّارُ مَثْوَى أهلِ الكِبْرِ، وأمَّا أهلُ التَّواضُعِ فمَأْواهم الجنَّةُ؛ فالمتواضِعون للحَقِّ وللخَلْقِ هؤلاء في الجنَّةِ، والمتكبِّرون عن الحقِّ وعن الخَلْقِ هؤلاء مَثْواهم النَّارُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

قال السعديُّ: (كلُّ طائفةٍ تَدخُلُ مِن البابِ الذي يُناسِبُها ويُوافِقُ عَمَلَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٥).

وقال ابنُ عاشورٍ: (دخولُ البابِ: وُلوجُه لوُصولِ ما وراءَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ أنَّ أبوابَ جَهنَّمَ لا تُفتحُ إلَّا إذا جاءَتْ هذه الزُّمَرُ، كسائرِ أبوابِ السُّجونِ؛ فإنَّها لا تَزالُ مُغْلقةً حتَّى يَأتِيَ أصحابُ الجرائمِ الذين يُسْجَنون فيها، فتُفتَحُ ثم تُغلَقُ عليهم[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا﴾ أنَّه لا وُجوبَ قَبْلَ مَجيءِ الشَّرعِ؛ لأنَّ الملائِكةَ بَيَّنوا أنَّه ما بَقِيَ لهم عِلَّةٌ ولا عُذرٌ بعْدَ مَجيءِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، ولو لم يكُنْ مَجيءُ الأنبياءِ شَرطًا في استِحقاقِ العَذابِ لَمَا بَقِيَ في هذا الكلامِ فائِدةٌ[٢]؛ فالآيةُ دلَّتْ على أنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ إلَّا مَن أرْسَل إليه رَسولًا تَقومُ به الحُجَّةُ عليه، ودلَّ على ذلك أيضًا قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقولُه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، إلى غيْرِ ذلك مِن النُّصوصِ[٣].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه قدْ أقامَ الحُجَّةَ على خَلْقِه برُسُلِه، وقال تعالَى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ [الملك: ٨، ٩]، إلى غيْرِ ذلك[٤].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ فيه تَمامُ الحُجَّةِ على بَني آدمَ بإرسالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٣٥).

الرُّسُلِ منهم؛ لأنَّهم لوْ كانوا مِن غيْرِ الجِنسِ لم تَتِمَّ الحُجَّةُ، فإذا كانوا مِن الجِنسِ نَفْسِه، بلْ مِن القَبيلةِ نَفْسِها، تَمَّتِ الحُجَّةُ[١].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أنَّ ما جاءتْ به الرُّسُلُ مِن الوحْيِ حُجَّةٌ مُلْزِمَةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى سَمَّاها آيَاتٍ، والآيةُ: العلامةُ المعَيِّنَةُ لِمَا دَلَّتْ عليه؛ فهي حُجَّةٌ مُلْزِمةٌ لكلِّ مَن سَمِعها[٢].

٦- اجتماعُ العذابِ القَلْبيِّ والبَدَنيِّ على أهلِ النَّارِ؛ أمَّا البَدَنيُّ فظاهِرٌ، وأمَّا القَلْبيُّ فما يَحْصُلُ لهم مِن التَّوبيخِ والتَّقريعِ، كما في قَولِه تعالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ...﴾، والتَّوبيخُ ليْس بالأمرِ الهَيِّنِ -لا سيَّما في مِثلِ هذا الحالِ-؛ لأنَّهم إذا ذُكِّروا بهذه النِّعمةِ في حالٍ لا يَتمكَّنونَ مِن استدراكِ ما فات، كان ذلك أشَدَّ حَسْرةً، والعِياذُ باللهِ[٣]!

٧- قولُه تعالَى: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ فيه أنَّه ما مِن رَسولٍ إلَّا وقدْ أتَى بكِتابٍ، ويُؤيِّدُ هذا قولُه سُبحانَه وتعالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقولُه تعالَى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، لكنَّنا لا نَعْلَمُ كلَّ كِتابٍ أُوتِيَه رَسولٌ! فالذي نَعْرِفُه: التَّوراةُ، والإنجيلُ، والزَّبُورُ، وصُحفُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والقُرآنُ[٤].

٨- قَولُه تعالَى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ فيه بَيانُ مُقتَضَى رُبوبيَّةِ اللهِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٥).

أنَّها رُبوبيَّةٌ مَبنيَّةٌ على الرَّحمةِ، فلوْ أنَّ اللهَ تعالَى تَرَكَنا هَمَلًا، لم تكُنْ رُبوبيَّتُه تامَّةً، لكِنَّه سُبحانَه وتعالَى لم يَترُكْنا هَمَلًا، بلْ أرسَلَ إلينا الرُّسُلَ؛ فتَمَّتْ بذلك الرُّبوبيَّةُ التي كان مُقتضاها هِدايةَ الخَلْقِ(١).

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أنَّ جميعَ أهلِ النَّارِ قدْ أنْذَرَتْهم الرُّسلُ في دارِ الدُّنيا؛ فعَصَوْا أمْرَ ربِّهم(٢)؛ فـ﴿بَلَىٰ﴾ حرْفُ جَوابٍ لإثباتِ النَّفيِ المُصَدَّرِ بالاستفهامِ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾، وأفاد إقرارَ المُكَذِّبين في ذلك اليومِ إقرارًا كاملًا(٣).

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ في هذه الآيةِ وأمثالِها أنَّهم لَمَّا سُئِلوا اعترَفوا وأقَرُّوا بما كانوا فيه، وأخْبَروا بالواقعِ، وأيضًا في القُرآنِ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على إنكارِهم وحَلِفِهم على الإنكارِ، كقَولِه عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]! فهذه الآياتُ تدُلُّ على إنكارِهم لِما جاؤوا به مِن الكُفرِ، وتلك تدُلُّ على إقرارِهم!

**والجوابُ**: أنَّه قدْ سُئِلَ ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما عن ذلِك، فأجاب: أنَّهم إذا رأَوا أنَّ أهلَ الشِّركِ لا خَلاصَ لهم، قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فعِندَ ذلك يَختِمُ اللهُ على ألْسِنتِهم، وتَشهَدُ أيديهم وأرجُلُهم بما كانوا يَكسِبونَ(٤)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٨٦).

(٤) عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (جاء رجُلٌ إلى ابنِ عبَّاسٍ، فقال: أشْياءُ تَختلِفُ علَيَّ في القُرآنِ، فقال: ما هو؟ أَشَكٌّ في القُرآنِ؟! قال: ليس بالشَّكِّ، ولكنَّه اخْتِلافٌ. قال: فهاتِ ما اختلَفَ عليكَ مِن ذلك. قال: أسمَعُ اللهَ يقولُ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]؛ فقدْ كَتَموا. فقال ابنُ عبَّاسٍ: أمَّا قولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعامُ: ٢٣]؛ فإنَّهم لمَّا رَأَوْا يومَ القِيامةِ أنَّ اللهَ =

قال تعالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]... فهذه الأسرارُ التي تُقالُ ويُفصِحُ عنها إنَّما هي لأيْديهم وألسِنَتِهم وجُلودِهم، كما قال تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[1] [فصلت: ٢٢].

وأيضًا فإنَّ يوْمَ القِيامةِ يومٌ طويلٌ، والأحوالُ فيه مُختلِفةٌ؛ فتارةً يُقِرُّونَ، وأُخرَى يَجْحَدونَ، وذلك يدُلُّ على شِدَّةِ خَوفِهم، واضطرابِ أحوالِهم؛ فإنَّ مَن عَظُمَ خَوفُه كَثُرَ الاضطرابُ في كَلامِه[2].

## بلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ تَنفيذٌ للقَضاءِ الذي جاء في قولِه: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [الزمر: ٦٩]، وقولِه: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ [الزمر: ٧٠]؛ فإنَّ عاقِبةَ ذلك ونَتيجتَه إيداعُ المُجْرمينَ في العِقابِ، وإيداعُ الصَّالحينَ في دارِ الثَّوابِ. وابتُدِئَ في الخبَرِ بذِكرِ مُستحقِّي العِقابِ؛

---

= يَغفِرُ لأهْلِ الإسْلام، ويَغفِرُ الذُّنوبَ، ولا يَغفِرُ شِركًا، ولا يَتعاظَمُه ذَنْبٌ أنْ يَغفِرَه؛ جحَدَ المُشرِكونَ فقالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾؛ رَجاءَ أنْ يَغفِرَ لهم، فختَم على أفْواهِهم، وتكلَّمَتْ أيْديهم وأرجُلُهم بما كانوا يَعمَلونَ، فعِندَ ذلك ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]. أخرَجَه عبدُ الرَّزَّاقِ في ((تفسيره)) (١/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ومن طريقِه ابنُ جَرير في ((تفسيره)) (٧/ ٤٣).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٣/ ١٥١).

لأنَّه الأهمُّ في هذا المقامِ؛ إذْ هو مَقامُ إعادةِ الموعظةِ والتَّرهيبِ للذين لم يَتَّعِظوا بما تَكرَّرَ في القُرآنِ مِن العِظاتِ مِثلِ هذه، فأمَّا أهلُ الثَّوابِ فقدْ حصَلَ المقصودُ منهم، فما يُذكَرُ عنهم فإنَّما هو تَكريرُ بِشارةٍ وثَناءٍ(١).

- قولُه: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ جَوابُ ﴿إِذَا﴾، وأغْنى ذِكرُ ﴿إِذَا﴾ عن الإتيانِ بـ (لمَّا) التَّوقيتيَّةِ، والتَّقديرُ: فلمَّا جاؤوها فُتِحَت أبوابُها، أي: وكانتْ مُغلقةً؛ لِتُفتَحَ في وُجوهِهم حِين مَجيئِهم فَجْأةً تَهويلًا ورُعْبًا(٢).

- قولُه: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ قُرِئَ ﴿فُتِّحَتْ﴾ بتَشديدِ التَّاءِ(٣)؛ للمُبالَغةِ في الفتْحِ(٤).

- والاستفهامُ الموجَّهُ مِن خَزَنةِ جَهنَّمَ إلى أهلِ النَّارِ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ استفهامٌ تَقريريٌّ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والزَّجْرِ والتَّقريعِ، كما دلَّ عليه قولُهم بعْدَه: ﴿ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، و﴿مِّنكُمْ﴾ صِفةٌ لـ ﴿رُسُلٌ﴾، والمقصودُ مِن الوَصْفِ التَّورُّكُ عليهم؛ لأنَّهم كانوا يَقولون: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾(٥) [القمر: ٢٤].

- وفي قولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ أُسْنِدَت التِّلاوةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٨، ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٩).

(٣) قرَأ عاصمٌ وحمْزةُ والكِسائيُّ وخَلَف بالتخفيفِ هنا وفي الآيةِ (٧٣)، وقرَأ الباقونَ بالتَّشديدِ فيهما. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٥)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٠).

إلى جَميعِ الرُّسلِ وإنْ كان فيهم مَن ليْس له كِتابٌ، على طَريقةِ التَّغليبِ[١].

- وأُضِيف اليوْمُ إليهم في قولِه: ﴿لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؛ لأنَّ المرادَ لِقاءُ وقْتِكم هذا، وهو وقْتُ دُخولِهم النَّارَ، لا يومُ القِيامةِ، واستِعمالُ لفْظِ اليومِ والأيَّامِ في أوقاتِ الشِّدَّةِ مُستفيضٌ[٢].

- قولُه: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ لم يُعطَفْ فِعلُ ﴿قَالُواْ﴾ على ما قبْلَه؛ لأنَّه جاء في مَعرِضِ المقاوَلةِ في المُحاوَراتِ[٣].

- مَحلُّ الاستِدراكِ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هو ما طُوِيَ في الكلامِ ممَّا اقْتَضى أنْ تَحِقَّ عليهم كَلِماتُ الوَعيدِ؛ وذلك بإعراضِهم عن الإصغاءِ لأمْرِ الرُّسلِ، فالتَّقديرُ: ولكنْ تَكبَّرْنا وعانَدْنا، فحَقَّتْ كَلِمةُ العذابِ على الكافرينَ[٤].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: علينا؛ فوُضِعَ الظَّاهرُ مَوضعَ الضَّميرِ، فصرَّحوا بالوصْفِ المُوجِبِ لهمُ العِقابَ، وللدَّلالةِ على اختِصاصِ ذلك بالكَفَرةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٠).

- قولُه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ فيه إبهامُ القائلِ؛ لِتَهويلِ المَقُولِ[١].
وقيل: حُذِف الفاعلُ في قولِه: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ كأنَّ الكونَ كلَّه نطَق بذلك وقالَه لهم، حتَّى تقولَه أعضاؤُهم وأرواحُهم وأرضُهم وسَماؤُهم[٢]، وكلُّ مَن رآهم وعَلِم حالَهم يَشهَدُ عليهم بأنَّهم مُستحِقُّون للعَذابِ؛ ولهذا لم يُسنِدْ هذا القولَ إلى قائلٍ معيَّنٍ، بلْ أطْلَقه؛ لِيدُلَّ على أنَّ الكونَ شاهدٌ عليهم بأنَّهم مُستحِقُّونَ ما همْ فيه بما حكَم العدْلُ الخبيرُ عليهمْ به[٣]. وقيل: عبَّر بالمبنيِّ للمفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّهم وصَلوا إلى أقصَى ما يكونُ مِن الذُّلِّ؛ بحيثُ إنَّهم يَمتثِلونَ قوْلَ كلِّ قائلٍ جَلَّ أو قَلَّ[٤]!

- والمَخصوصُ بالذَّمِّ في قولِه: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ مَحذوفٌ، دلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ: بِئسَ مَثوَى المتكبِّرين جَهنَّمُ، ووُصِفوا بالمتكبِّرين؛ لأنَّهم أعْرَضوا عن قَبولِ الإسلامِ تَكبُّرًا عن أنْ يَتَّبِعوا واحِدًا منْهم[٥].

- وفي الآيةِ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ فتحتَ قَوْلِ خَزَنةِ النَّارِ لأهْلِها: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، وقَوْلِ خَزَنةِ الجنَّةِ لأهلِها: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا﴾ [الزمر: ٧٣]؛ سِرٌّ لَطيفٌ ومعْنًى بَديعٌ لا يَخفَى على المتأمِّلِ، وهو أنَّها لَمَّا كانتْ النَّارُ دارَ العُقوبةِ، وأبوابُها أفظَعَ شَيءٍ، وأشَدَّه حَرًّا، وأعظَمَه غمًّا، يَستَقبِلُ فيها الدَّاخِلُ مِن العذابِ ما هو أشَدُّ منها، ويَدْنو مِن الغَمِّ والخِزْيِ والحُزنِ والكَرْبِ بدُخولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٦٤-٦٥)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١).

الأبوابِ، فقِيلَ: ادخُلوا أبوابَها؛ صَغارًا لهم، وإذلالًا وخِزيًا، ثمَّ قيل لهم: لا يَقتَصِرْ بكمْ على مُجرَّدِ دُخولِ الأبوابِ الفَظيعةِ، ولكِنْ وَراءَها الخُلودُ في النَّارِ. وأمَّا الجنَّةُ فهي دارُ الكَرامةِ، والمَنزِلُ الذي أعَدَّه اللهُ لأوليائِه؛ فبُشِّروا مِن أوَّلِ وَهْلةٍ بالدُّخولِ إلى المقاعِدِ والمنازِلِ والخُلودِ فيها[1].

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣).

## الآيات (٧٢-٧٥)

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَتَبَوَّأُ﴾: أي: نَنزِلُ ونَسكُنُ، وأصلُ (بوأ): يدُلُّ على رُجوعٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿فَنِعْمَ﴾: نِعْمَ: كَلِمةٌ تُستعمَلُ في المدحِ، وهي مُقابِلُ (بِئْسَ) التي للذَّمِّ[2].

﴿حَآفِّينَ﴾: أي: مُحيطينَ ومُطيفِينَ بحافَتَيهِ، وأصلُ (حفف): يدُلُّ على إطافةِ شَيءٍ بشَيءٍ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى مَصيرَ المتَّقينَ، وما يَقولونَه عِندَما يَرَونَ النَّعيمَ المقيمَ الذي أعَدَّه لهم، فيَقولُ: وسِيقَ الذين اتَّقَوا رَبَّهم إلى الجنَّةِ أفْواجًا وجَماعاتٍ، حتَّى إذا جاؤُوا الجنَّةَ، وفُتِحَت لهم أبْوابُها، وقال خَزَنةُ الجنَّةِ للمُتَّقِينَ: تَحيَّةٌ وأمَنَةٌ مِنَ اللهِ لكم، طِبتُم، فادخُلوا الجنَّةَ، ماكِثينَ فيها أبدًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٥).

وقال المتَّقون: الحَمدُ للهِ وَحْدَه الذي حَقَّق لنا ما وعَدَنا به، وملَّكَنا أرضَ الجنَّةِ نتَّخِذُ منها سَكنًا حيثُ نُحِبُّ، ونَنزِلُ في أيِّ مَكانٍ شِئْناه منها؛ فنِعمَ ثَوابُ العامِلينَ الجنَّةُ!

وترَى الملائِكةَ مُحيطِينَ بعَرشِ الرَّحمنِ يُنزِّهون ربَّهم مِن كُلِّ العُيوبِ والنَّقائِصِ تَنزيهًا مُقترِنًا بحَمدِه تعالَى، وحَكَم اللهُ بيْن عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ. وقيل: الحَمدُ لله رَبِّ العالَمينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا شَرَح سُبحانَه أحوالَ أهلِ العِقابِ في الآيةِ المتقَدِّمةِ؛ شَرَح أحوالَ أهلِ الثَّوابِ في هذه الآيةِ، فقال[1]:

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًا ﴾.

أي: ويُساقُ يوْمَ القِيامةِ الذين اتَّقَوا رَبَّهم بامتِثالِ ما أمَرَ واجتِنابِ ما نهَى: إلى الجنَّةِ أفواجًا وجَماعاتٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٥، ٢٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٦، ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

قال الرسعني: (سوقُ المتقينَ: سوقُ مراكبِهم إسراعًا بهم إلى ما أُعِدَّ لهم مِن الكرامةِ في الجنَّةِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٧٩).

وقال ابنُ كثيرٍ: (﴿زُمَرًا﴾ أي: جَماعةً بعدَ جماعةٍ: المقرَّبون، ثمَّ الأبرارُ، ثمَّ الذين يَلُونَهم، =

كما قال تعالَى: ﴿يَوۡمَ نَحۡشُرُ ٱلۡمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحۡمَٰنِ وَفۡدٗا﴾ [مريم: ٨٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أوَّلَ زُمرةٍ يَدخُلونَ الجنَّةَ على صُورةِ القَمرِ ليلةَ البدْرِ، والذين يَلونَهم على أشَدِّ كَوكبٍ دُرِّيٍّ[١] في السَّماءِ إضاءةً؛ لا يَبولون، ولا يَتغوَّطون، ولا يَمتَخِطونَ، ولا يَتْفُلونَ، أمشاطُهم الذَّهَبُ، ورَشْحُهم[٢] المِسكُ، ومَجامِرُهم الأَلُوَّةُ[٣]، وأزواجُهم الحُورُ العِينُ، أخلاقُهم على خُلُقِ رجُلٍ واحدٍ[٤]، على صُورةِ أبيهم آدمَ؛ سِتُّونَ ذِراعًا في السَّماءِ))[٥].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾.

أي: حتَّى إذا بلَغَ المتَّقونَ الجنَّةَ، وفُتِحت لهمْ أبوابُها[٦].

---

= ثمَّ الذين يَلُونَهم، كلُّ طائفةٍ مع مَن يُناسِبُهم: الأنبياءُ مع الأنبياءِ، والصِّدِّيقونَ مع أشكالِهم، والشُّهداءُ مع أضرابِهم، والعُلَماءُ مع أقرانِهم، وكُلُّ صِنفٍ مع صِنفٍ، كُلُّ زُمرةٍ تُناسِبُ بَعضُها بعضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٩).

(١) دُرِّيٍّ: أي: مُضيءٍ مُتلالِئٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

(٢) رَشْحُهم: أي: عَرَقُهم. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٣٢١).

(٣) مَجامِرُهم الأَلُوَّةُ: المجامِرُ: جَمعُ مِجمَرةٍ، وهي المِبخَرةُ، سُمِّيَت مِجمَرةً لأنَّها يُوضَعُ فيها الجَمرُ لِيَفوحَ به ما يُوضَعُ فيها مِنَ البَخورِ، والأَلُوَّةُ: العُودُ الهِنديُّ، جُعِلَت مَجامِرُهم نَفْسَ العُودِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٧٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٢٤).

(٤) على خُلُقِ رجُلٍ واحدٍ: رُوِيَ (خُلُق) بضَمِّ الخاءِ واللَّام، أي: أنَّهم على قَلبٍ واحِدٍ، أخلاقُهم مُتساويةٌ في الحُسنِ والكَمالِ، ورُوِي (خَلْق): بفَتحِ الخاء وتَسكينِ اللَّام، أي: أنَّهم في سِنٍّ واحدةٍ، مُتشابِهونَ فيما بيْنهم في الخِلْقةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٧٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٥٨١)، ((الكوكب الوهاج)) للهرري (٢٥/ ٤٩٤).

(٥) رواه البخاري (٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤) واللفظ له.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١، ٧٢). =

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى عليه وسلَّم قال: ((ما

= اختلَف المفسِّرون في جَوابِ ﴿إِذَا﴾ في هذه الآيةِ؛ فقيل: مَحذوفٌ، تَقديرُه: دَخَلوها. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جَرير، والزَّجَّاج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٦٤).

وقيل: المحذوفُ تقديرُه: سَعِدوا وطابوا، وسُرُّوا وفَرِحوا. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢١).

وعلى هذينِ الوَجهَينِ فتكونُ الجملةُ مِنْ قَولِه: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ في مَحلِّ نصْبٍ على الحالِ.

وقيل: الواوُ للعَطفِ على الجوابِ المحذوفِ، تَقديرُه: حتى إذا جاؤُوها هُذِّبوا ونُقُّوا وفُتِحَت أبوابُها. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩٨).

وقيل: جوابُ ﴿إِذَا﴾ قَولُه: ﴿وَفُتِحَتْ﴾، والواوُ زائِدةٌ، وهو رأيُ الكوفيِّينَ والأخفَشِ. أو الجوابُ قَولُه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ على زِيادةِ الواوِ أيضًا، أي: حتى إذا جاؤُوها قال لهم خَزَنَتُها. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٤٧).

قال القُرطبيُّ: (قد قيل: إنَّ زِيادةَ الواوِ دَليلٌ على أنَّ الأبوابَ فُتِحَت لهم قبْل أنْ يأتُوا؛ لكَرامتِهم على اللهِ تعالى، والتَّقديرُ: حتى إذا جاؤوها وأبوابُها مُفتَّحةٌ؛ بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ [ص: ٥٠]، وحُذِفت الواوُ في قِصَّةِ أهلِ النَّارِ؛ لأنَّهم وَقَفوا على النَّارِ وفُتِحَت بعْد وُقوفِهم؛ إذلالًا وتَرويعًا لهم. ذكَره المهْدويُّ، وحكَى معناه النحَّاسُ قَبْلَه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٥). ويُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٧، ١٨)، ((تفسير المهدوي)) (٥/ ٥٣٩).

وقال ابنُ عُثَيمين: (دعْوَى أنَّ أبوابَها فُتِحت قبْلَ مَجيئِهم دَعوى لا يُسعِفُها الدَّليلُ؛ بل الدليلُ على خِلافِها؛ لأنَّهم إذا جاؤوها لا يَجدونها مَفتوحةً، بل يَجدونَها مُغْلقةً، ثم يَشفَعُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن تُفتَح الأبوابُ لأهلِها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠١).

وقيل: إنَّ هذه واوٌ تُسمَّى (واوَ الثَّمانيةِ) تَدخُلُ على ما هو ثامِنٌ: إمَّا لأنَّه ثامِنٌ في التَّعدادِ، نَحوُ قَولِه تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ١١٢]؛ فإنَّه الوَصفُ الثَّامِنُ في التَّعدادِ، وإمَّا لأنَّ فيه مادةَ ثمانيةٍ، كقَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]، فقالوا في ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾: جيءَ بالواوِ؛ لأنَّ أبوابَ الجنَّةِ ثمانيةٌ. يُنظر ما قيل في هذه (الواو): ((مغني اللبيب)) لابن هشام الأنصاري (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٢).

مِنكم مِن أحدٍ يَتوضَّأُ فيَبلُغُ -أو فيُسبِغُ- الوُضوءَ، ثمَّ يقولُ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا عَبدُ اللهِ ورَسولُه؛ إلَّا فُتِحَت له أبوابُ الجنَّةِ الثَّمانيةُ، يَدخُلُ مِن أيِّها شاءَ))[1].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((في الجنَّةِ ثَمانيةُ أبوابٍ، فيها بابٌ يُسمَّى الرَّيَّانَ، لا يَدخُلُه إلَّا الصَّائِمونَ))[2].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((آتِي بابَ الجنَّةِ يوْمَ القِيامةِ فأستفتِحُ، فيَقولُ الخازِنُ: مَن أنت؟ فأقولُ: مُحمَّدٌ، فيقولُ: بك أُمِرتُ لا أفتَحُ لأحدٍ قَبْلَك))[3].

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾.

أي: وقال خَزَنةُ الجَنَّةِ المُوكَّلونَ بها للمُتَّقينَ: تَحيَّةٌ وأمَنةٌ مِنَ اللهِ لكم، فلا يَنالُكم شَرٌّ ولا مَكروهٌ[4].

﴿طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾.

أي: طابَت أعْمالُكم وأقْوالُكم، فصَلَحْتُم لِسُكنى الجنَّةِ، فادخُلوها ماكِثينَ فيها أبدًا[5].

---

(١) رواه مسلم (٢٣٤).

(٢) رواه البخاري (٣٢٥٧) واللفظ له، ومسلِم (١١٥٢).

(٣) رواه مسلم (١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٦)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩٩).

قال ابنُ عُثَيمين: (هذا خبَرٌ وليس دُعاءً، فيما يَظهَرُ... فكأنَّها تُخبِرُهم بأنَّهم حَلَّ عليهم السَّلامُ؛ لأنَّ الجنَّةَ هي دارُ السَّلامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٧)، ((زاد =

قال تعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٣٢].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

---

= المعاد)) لابن القيم (١/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٢، ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

في قولِه تعالى: ﴿ طِبْتُمْ ﴾ أقْوالٌ؛ منها: طابَ لكمُ المُقامُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ.

ومنها: طِبْتُم بطاعةِ اللهِ، قاله مُجاهِدٌ.

ومنها: أنَّهم طُيِّبوا قَبْلَ دُخولِ الجنَّةِ بالمَغْفرةِ، واقتُصَّ من بَعْضِهم لِبَعضٍ، فلمَّا هُذِّبوا قالت لهمُ الخَزَنةُ: طِبْتُم، قاله قَتادةُ. واقْتِصاصُ بَعضِهم من بَعضٍ وتَهْذيبُهم قبْلَ دُخولِ الجنَّةِ ورَد فيه حَديثُ أبي سَعيدٍ عندَ البُخاريِّ (٦٥٣٥).

ومنها: كُنْتم طيِّبينَ في الدُّنْيا، قاله الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجَوزي)) (٤/ ٢٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٣٦٤).

ممَّن اخْتارَ أنَّ المرادَ: طابَ لكمُ المُقامُ: العُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير العُليمي)) (٦/ ٩٢).

وممَّن اخْتار في الجُملةِ أنَّ المرادَ: طِبْتم من دَنَسِ المعاصي، وطَهُرتم مِن خَبَثِ الخَطايا: الرازيُّ، والرَّسْعَنيُّ، والبيضاويُّ، والشَّوكانيُّ، والقاسِميُّ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٨).

قال السعديُّ: (﴿ طِبْتُمْ ﴾؛ أي: طابَت قُلوبُكم بمَعرفةِ اللهِ ومَحبَّتِه وخَشيَتِه، وألسِنَتُكم بذِكْرِه، وجَوارِحُكم بطاعَتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

وممَّن اخْتار أنَّ المرادَ: طَابَتْ أعْمَالُكم في الدُّنيا، فطَابَ اليَومَ مَثوَاكُم: ابنُ جَريرٍ، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٣٩٠).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وقولُه: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ ﴾: أي: طابَتْ أعْمالُكم وأقْوالُكم، وطابَ سَعْيُكم فطابَ جَزاؤُكم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٢).

وممَّن اخْتار أنَّ المرادَ ﴿ طِبْتُمْ ﴾: أي أعْمالًا، ومُعتَقدًا، ومُستَقرًّا، وجَزاءً: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٥).

وسلَّم: ((يَخلُصُ المؤمِنونَ مِن النَّارِ، فيُحبَسُون على قَنطرةٍ[١] بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقَصُّ[٢] لِبَعضِهم مِن بَعضٍ مَظالِمُ كانت بيْنَهم في الدُّنيا، حتَّى إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخولِ الجنَّةِ؛ فوالَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لَأحَدُهم أَهدَى بمَنزِلِه في الجنَّةِ منه بمَنزِلِه كان في الدُّنيا))[٣].

وعن عبْدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((الجنَّةُ لا يَدخُلُها إلَّا نَفْسٌ مُسلِمةٌ))[٤].

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ٧٤﴾.

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ﴾.

أي: وقال المُتَّقونَ: الحَمدُ للهِ وَحْدَه الذي حَقَّق لنا ما وعَدَنا مِنَ الثَّوابِ على طاعتِه في الدُّنيا، فأنجَزَه لنا في الآخِرةِ[٥].

كما قال تعالَى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) القَنطرةُ: الجسْرُ، وهي عبارةٌ عن الصِّراطِ الممدودِ بيْنَ الجنةِ والنارِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٥٢٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٦٢).

(٢) فيُقَصُّ: أي: يُمكَّنُ صاحِبُ الحَقِّ مِن أخْذِ القِصاصِ، وهو أنْ يَفعلَ به مِثلَ فِعلِه؛ مِن قتْلٍ، أو قَطعٍ، أو ضرْبٍ، أو جرْحٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٧٢).

(٣) رواه البخاري (٦٥٣٥).

(٤) رواه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٩).

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ * ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

﴿وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُ﴾.

أي: وملَّكَنا اللهُ أرضَ الجنَّةِ[1] نَسكُنُ منها حيثُ نُحِبُّ ونَشْتَهي، ونَنزِلُ في

(١) قال الماوَرْديُّ: (في هذه الأرضِ قَوْلانِ؛ أحَدُهما: أرضُ الجنَّةِ...، الثاني: أرضُ الدُّنْيا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٨).

ممَّن اخْتار القولَ الأوَّلَ: مُقاتِلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والثَّعْلبيُّ، والسَّمْعانيُّ، وابنُ عَطيَّةَ، وابنُ الجَوْزيِّ، والرازيُّ، وابنُ جُزَيٍّ، والسعديُّ، وغَيرُهم، ونسَبَه الماوَرْديُّ لأكثَرِ المُفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٦٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ -في رِوايةِ عَطاءٍ-، وأبو العاليةِ، وأبو صالحٍ، وقَتادةُ، ومُجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ، وسَعيدُ بنُ جُبيرٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٢٢٧)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٣).

لكنْ قال ابنُ عُثَيْمين: (وهذا التَّفسيرُ يَرِدُ عليه أمْرانِ:

الأمرُ الأوَّلُ: أنَّ الأرضَ إذا أُطلِقَت فهي الأرضُ المقابِلةُ للسَّماءِ، وهي أرضُنا هذه.

الأمرُ الثَّاني: أنَّه تعالَى قال: ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾، وكان مُقْتَضى السِّياقِ إذا كانتِ الأرضُ هي الجنَّةَ أنْ يُقالَ: (وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ نَشَاءُ)، فلا يَأْتي بالظَّاهِرِ؛ لأنَّ الظَّاهرَ في هذا المكانِ لا مَعْنى له). ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزمر)) (ص: ٥٠٦).

قال الواحِديُّ: (ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه قال: يَعني الدُّنْيا تَصيرُ للمؤمِنينَ مِن هذه الأمَّةِ، وهذا حُكمٌ منَ اللهِ عزَّ وجلَّ بإظْهارِ الدِّينِ وقَهرِ الكافِرينَ). ((البسيط)) (١٥/ ٢٢٨).

وممَّن اخْتار أنَّ المرادَ بالأرضِ هنا المقابِلةُ للسَّماءِ: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزمر)) (ص: ٥٠٦). =

أيِّ مَكانٍ شِئْناه منها، فأينَ شِئْنا حَلَلْنا[١].

كما قال تعالَى: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ:

---

= وذكَر أنَّ (أل) هنا للعَهدِ، وأنَّ مَعنى الإيراثِ -على القولِ بأنَّها أرضُ الدُّنيا- هو ما يَسْتَولي عليه المسلِمونَ مِن أراضي الكُفَّارِ، وإيراثٌ آخَرُ: أنَّ وُجودَهم على الأرضِ بحقٍّ، ووجودَ الكُفَّارِ بغَيرِ حقٍّ، لكنَّ اللهَ أبْقاهُم لحِكْمةٍ. يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٠٦، ٥٠٧).

واستَبعَدَ أبو حيَّانَ القولَ بأنَّها أرضُ الدُّنْيا، وقال الألوسيُّ: (ليس بشَيءٍ). يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠، ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

قيل: معْنى وِراثةِ الجَنَّة: أنَّ أهلَها أخَذوا فيها المواضعَ التي كانت لأهلِ النار لو كانوا آمَنوا وأطاعوا اللهَ في الدُّنيا. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جَرير، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، والعُليمي، ونسَبه القُرطبيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧).

وقيل: معْنى (أَوْرَثْنَا): ملَّكَنا نَتَصَرَّفُ فيها كما نشاءُ، تَشبيهًا بحالِ الوارِثِ وتَصَرُّفِه فيما يَرِثُه. وممَّن اختار هذا المعنى: الخازنُ، وأبو حيَّانَ، والنَّسفيُّ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٩٥).

قال البِقاعيُّ: (جعَل حالَنا فيها في تَمامِ الملكِ، وعدَمِ التسبُّبِ في الحقيقةِ فيه حالَ الوارثِ الذي هو بعْدَ مَوروثِه، ولا شَيءَ بعْدَه، ولا مُنازِعَ له). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٧٠).

وقيل غيرُ ذلك في سَببِ التعبيرِ بالإرثِ هنا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٠).

((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومَنزِلٌ في النَّارِ، فإذا مات فدَخَل النَّارَ وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قَولُه تعالَى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠]))[١].

﴿ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾.

أي: فنِعْمَ ثَوابُ العامِلينَ بطاعةِ اللهِ في الدُّنيا: نَعيمُ الجنَّةِ في الآخِرةِ[٢].

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٥﴾.

﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ ﴾.

أي: وتَرى يا مُحمَّدُ[٣] الملائِكةَ مُحيطينَ بعَرشِ الرَّحمنِ[٤].

﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).

(٣) قال الألوسي: (الخِطابُ لسَيِّد المُخاطَبين صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجُوِّز أنْ يكونَ لكُلِّ مَن تَصِحُّ منه الرُّؤيةُ، كأنَّه قيل: وتَرى -أيُّها الرَّائي- الملائِكةَ حافِّينَ مِن حَولِ العَرشِ، أي: حولَ العَرشِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٠).
وقال ابنُ عاشورٍ: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيكونُ إيذانًا بأنَّها رُؤيةُ دُنُوٍّ مِن العَرشِ وملائكتِه، وذلك تَكريمٌ له بأنْ يكونَ قدْ حَواه مَوكِبُ الملائكةِ الذين حَولَ العَرشِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٦٢).
قال البقاعيُّ: (فإدخالُ ﴿مِنۡ﴾ يُفهِمُ أنَّهم مع كَثرتِهم إلى حَدٍّ لا يُحصيه إلَّا اللهُ: لا يَملَؤونَ ما حَولَه!). ((نظم الدرر)) (١٦/ ٥٧١).

أي: يُنَزِّهون ربَّهم عِن كُلِّ العُيوبِ والنَّقائِصِ تَنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحبَّةً له وتَعظيمًا[1].

كما قال تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ [غافر: ٧].

﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: وحَكَم اللهُ بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ[2].

﴿وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ويُقالُ: الحَمدُ للهِ تعالى وَحْدَه الخالِقِ المالِكِ، الرَّازِقِ المُدَبِّرِ لجَميعِ الخلائِقِ[3].

كما قال تعالَى: ﴿دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۞

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

قال الشَّوكانيُّ: (﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بيْنَ العبادِ بإدخالِ بعضِهم الجنَّةَ، وبعضِهم النَّارَ، وقيل: بيْنَ النَّبيينَ الذين جِيءَ بهم معَ الشهداءِ وبيْنَ أُممِهم بالحقِّ، وقيل: بيْنَ الملائكةِ بإقامتِهم في مَنازِلِهم على حسبِ درجاتِهم، والأوَّلُ أولَى). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥١٦).

وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۚ﴾ إغراءُ النُّفُوسِ على العَمَلِ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا تَبيَّنَ له الفَرقُ العظيمُ والتَّبايُنُ الكبيرُ بيْنَ أهلِ النَّارِ وأهلِ الجنَّةِ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ عِندَه ما يَحُثُّه ويُزعِجُه إزعاجًا إلى العَمَلِ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ(١).

٢- حَرَّم اللهُ سُبحانَه الجنَّةَ على مَن في قَلبِه نَجاسةٌ وخُبثٌ، ولا يَدخُلُها إلَّا بعْد طِيبِه وطُهْرِه؛ فإنَّها دارُ الطَّيِّبينَ؛ ولهذا يُقالُ لهم: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، أي: ادخُلوها بسَبَبِ طِيبِكم، والبِشارةُ عندَ الموتِ لهؤلاء دونَ غَيرِهم، كما قال تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]؛ فالجنَّةُ لا يَدخُلُها خَبيثٌ، ولا مَن فيه شَيءٌ مِن الخُبْثِ؛ فمَن تَطهَّرَ في الدُّنيا، ولَقِيَ اللهَ طاهِرًا مِن نَجاساتِه؛ دخَلَها بغيرِ مُعَوِّقٍ، ومَن لم يَتطهَّرْ في الدُّنيا؛ فإنْ كانت نَجاستُه عَينيَّةً -كالكافِرِ- لم يَدخُلْها بحالٍ، وإنْ كانت نجاستُه كَسبيَّةً عارِضةً دَخَلها بعْدَما يَتطَهَّرُ في النَّارِ مِن تلك النَّجاسةِ، ثمَّ يَخرُجُ منها، حتَّى إنَّ أهلَ الإيمانِ إذا جازُوا الصِّراطَ حُبِسوا على قَنطرةٍ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُهَذَّبونَ ويُنَقَّونَ مِن بَقايا بَقِيَت عليهم، قَصَرَتْ بهم عن الجنَّةِ، ولم تُوجِبْ لهم دُخولَ النَّارِ، حتَّى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِنَ لهم في دُخولِ الجنَّةِ(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ فيه أنَّ التَّقْوى سَببٌ لدُخولِ الجنَّةِ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ تَرتيبَ الحُكْمِ على الوَصفِ يدُلُّ على عِلِّيَّتِه؛ يعني: إذا رُتِّبَ الحُكْمُ على وَصْفٍ دَلَّ ذلك على أنَّ هذا الوصفَ هو عِلَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٥٦).

الحُكْم، فالسِّياقُ إلى الجنَّةِ هو بسَببِ التَّقوَى؛ إذنْ: تُفيدُ الآيةُ أنَّ التَّقْوى سَببٌ لدُخولِ الجنَّةِ؛ ويُؤيِّدُ هذا قولُه تعالَى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾[1] [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾ وكذا: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧١]، هذه الآياتُ وَصَفَت مَصيرَ أهلِ الكُفرِ، ومَصيرَ المتَّقينَ يومَ الحَشرِ، وسكَتَت عن مَصيرِ أهلِ المعاصي الذين لم يَلتَحِقوا بالمتَّقين بالتَّوبةِ مِن الكبائِرِ، وغُفرانِ الصَّغائِرِ باجتِنابِ الكَبائِرِ، وهذه عادةُ القُرآنِ في الإعراضِ عن وَصْفِ رِجالٍ مِن الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ بمَعصيةِ رَبِّهم إلَّا عندَ الاقتِضاءِ لِبَيانِ الأحكامِ؛ فإنَّ الكبائِرَ مِن أمْرِ الجاهليَّةِ. فما كان لأهلِ الإسلامِ أنْ يَقَعوا فيها، فإذا وَقَعوا فيها فعليْهم بالتَّوبةِ، فإذا ماتُوا غيْرَ تائِبينَ فإنَّ اللهَ تعالَى يُحصِي لهم حَسَناتِ أعمالِهم، وطَيِّباتِ نَواياهم، فيُقاصُّهم بها إنْ شاء، ثمَّ هم فيما دونَ ذلك يَقتَرِبونَ مِن العِقابِ بمِقدارِ اقترابِهم مِن حالِ أهلِ الكُفرِ في وَفْرةِ المعاصي، فيُؤمَرُ بهم إلى النَّارِ، أو إلى الجنَّةِ، ومنهم أهلُ الأعرافِ[2].

٣- في قَولِه تعالَى عن الجنَّةِ: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وكذا عن النار: ﴿فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]؛ دَليلٌ على أنَّ النَّارَ والجنَّةَ لهما أبوابٌ تُفتَحُ وتُغلَقُ، وأنَّ لكلٍّ منهما خَزَنةً، وهما الدَّارانِ الخالصتانِ اللَّتانِ لا يَدخُلُ فيهما إلَّا مَن استَحقَّهما؛ بخِلافِ سائرِ الأمكنةِ والدُّورِ[3].

٤- قال تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

قال خَزَنَةُ أهْلِ الجنَّةِ لأهْلِها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾، فبَدؤوهُم بالسَّلام المتضَمِّنِ للسَّلامةِ مِن كلِّ شَرٍّ ومَكْروهٍ؛ أي: سَلِمتُم فلا يَلحَقُكم بعْدَ اليومِ ما تَكرَهونَ، ثمَّ قال لهم: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾؛ أي: سَلامَتُكم ودُخولُها بطِيبِكُم؛ فإنَّ اللهَ حرَّمَها إلَّا على الطَّيِّبينَ، فبَشَّروهم بالسَّلامةِ، والطِّيبِ، والدُّخولِ، والخُلودِ[1].

٥- قال تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾، فالجنَّةُ دارُ الطَّيِّبينَ، لا يَدخُلُها إلَّا طيِّبٌ، وأمَّا النَّارُ فإنَّها دارُ الخُبثِ في الأقْوالِ، والأعْمالِ، والمآكِلِ، والمشارِبِ، ودارُ الخَبيثينَ؛ فاللهُ تعالَى يَجمَعُ الخَبيثَ بَعضَه إلى بَعضٍ، فيَركُمُه[2] كما يُركَمُ الشَّيءُ لتَراكُبِ بَعضِه على بَعضٍ، ثمَّ يَجعَلُه في جَهنَّمَ معَ أهْلِه، فليْس فيها إلَّا خَبيثٌ.

ولَمَّا كان النَّاسُ على ثَلاثِ طبَقاتٍ: طيِّبٌ لا يَشينُه خَبيثٌ، وخَبيثٌ لا طيِّبَ فيه، وآخَرونَ فيهم خُبثٌ وطِيبٌ، دُورُهم ثَلاثةٌ: دارُ الطَّيِّبِ المحْضِ، ودارُ الخَبيثِ المحْضِ، وهاتانِ الدَّارانِ لا تَفْنَيانِ، ودارٌ لمَن معَه خُبثٌ وطِيبٌ، وهي الدَّارُ الَّتي تَفْنى، وهي دارُ العُصاةِ؛ فإنَّه لا يَبْقي في جَهنَّمَ مِن عُصاةِ الموَحِّدينَ أحَدٌ؛ فإنَّه إذا عُذِّبوا بقَدْرِ جَزائِهم أُخرِجوا مِن النَّارِ فأُدخِلوا الجنَّةَ، ولا يَبْقى إلَّا دارُ الطِّيبِ المحْضِ، ودارُ الخُبثِ المحْضِ[3].

٦- أنَّ أهلَ الجنَّةِ في مَنازِلِهم لا يُريدونَ غيْرَها؛ لقولِه تعالَى: ﴿حَيۡثُ نَشَآءُ﴾، وهذا مِن تَمامِ النَّعيمِ؛ لأنَّ الإنسانَ لو تَطَلَّعَ إلى مَنازِلِ غيْرِه، لَرَأى أنَّه لم يَكْمُلْ له النَّعيمُ، يقولُ مثلًا: فلانٌ أحسنُ منِّي قصْرًا! فلانٌ أكثرُ منِّي مالًا! فيَتَنَغَّصُ عليه

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٥٣).

(٢) رَكَم الشَّيءَ: إذا جَمَعه وألْقَى بعضَه على بعضٍ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ٢٠).

النَّعيمُ، لكنْ إذا رأى أنَّه في المكانِ الذي يَشاؤُه، ولا يُريدُ التَّحَوُّلَ عنه؛ فإنَّ هذا مِن كَمالِ النَّعيمِ، قال اللهُ تعالَى: ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[1] [الكهف: ١٠٨].

٧- قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ في قَولِه تعالَى: ﴿أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ بَيانُ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى بالجَزاءِ؛ حيثُ جَعَله أجْرًا، وكأنَّه أجرٌ مَفْروضٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ أرادوا بـ «العامِلينَ» أنفُسَهم -أي: عامِلِي الخَيرِ- وهذا مِن التَّصريحِ بالحَقائِقِ، وليس فيه عَيْبُ تَزكيةِ النَّفسِ؛ لأنَّ ذلك العالَمَ عالَمُ الحقائِقِ الكامِلةِ المجَرَّدةِ عن شَوبِ النَّقائِصِ[3].

٩- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ ذكَرَ هنا أنَّ الملائكةَ تَحُفُّ مِن حَولِ العَرشِ، وذكَرَ في مَوضِعٍ آخَرَ أنَّ له حَمَلةً، فقال: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧]، وجَمَع في مَوضِعٍ ثالثٍ بيْنَ حَمَلتِه ومَن حَولَه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥١١).

قال الألوسيُّ: (﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾: أي: يَتبوَّأُ كلٌّ منَّا في أيِّ مكانٍ أرادَه مِن جنَّتِه الواسِعةِ، لا أنَّ كلًّا منهم يَتبوَّأُ في أيِّ مكانٍ من مُطلَقِ الجنَّةِ، أو مِن جنَّاتِ غَيرِه المُعيَّنةِ لذلك الغَيرِ، فلا يُقالُ: إنَّه يَلزَمُ جَوازُ تَبوُّءِ الجَميعِ في مكانٍ واحدٍ وَحْدةً حَقيقةً، وهو مُحالٌ، أو أنْ يأخُذَ أحَدُهم جنَّةَ غَيرِه، وهو غَيرُ مُرادٍ.

وقيلَ: الكَلامُ على ظاهِرِه، ولكلٍّ منهم أنْ يَتبوَّأَ في أيِّ مكانٍ شاء مِن مُطلَقِ الجنَّةِ، ومن جنَّاتِ غَيرِه، إلَّا أنَّه لا يَشاءُ غيْرَ مَكانِه؛ لسَلامةِ نفْسِه، وعِصْمةِ اللهِ تعالى له عن تلك المَشيئةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٣).

وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[1] [غافر: ٧].

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بيانُ أنَّ اللهَ تعالَى يَختِمُ الأمورَ بالحَمدِ، كقَولِه تعالَى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، وكقَولِه تعالَى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] [يونس: ١٠].

١١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قيل: إنَّ اللهَ تعالَى ابتَدأَ ذِكرَ الخَلقِ بـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في قَولِه سُبحانَه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وخَتَم بالحَمدِ في آخِرِ الأمرِ، وهو استِقرارُ الفَريقَينِ في مَنازِلِهم؛ فنَبَّه بذلك على تَحميدِه في بِدايةِ كُلِّ أمرٍ وخاتِمتِه. واللهُ أعلَمُ بمُرادِه وأسرارِ كِتابِه[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ في قولِه: ﴿وَسِيقَ﴾ -بالنِّسبةِ لأهلِ النَّارِ وأهلِ الجنَّةِ؛ إذ عُبِّرَ عن الذَّهابِ بالفَريقينِ جَميعًا بلَفظٍ واحدٍ-: نَوعُ بَلاغةٍ دَقيقُ المسلَكِ؛ وهو أنْ يأتيَ المتكلِّمُ بكلمةٍ واحدةٍ، فتكونُ تارةً دالَّةً على الهَوانِ والعِقابِ، ثمَّ يأْتي بها ثانيةً، فتكونُ دالَّةً على الإكرامِ وحُسْنِ الثَّوابِ، والمرادُ بسَوقِ أهلِ النَّارِ طَرْدُهم إليها بالهَوانِ

(١) يُنظر: ((الرسالة العرشية)) لابن تيمية (ص: ٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٥).

والعُنْفِ كما يُفعَلُ بالأَسارَى والخارجينَ على السُّلطانِ إذا سِيقوا إلى حَبْسٍ أو قتْلٍ. والمرادُ بسَوقِ أهْلِ الجنَّةِ مَساقُ إعزازٍ وتَشريفٍ؛ للإسراعِ بهم إلى دارِ الكَرامةِ، وقيل: سَوقُ مَراكِبِهم؛ لأنَّه لا يُذهَبُ بهم إلَّا راكبينَ، وحَثُّها إسراعًا إلى دارِ الكرامةِ والرِّضوانِ، كما يُفعَلُ بمَن يُشرَّفُ ويُكرَّمُ مِن الوافدينَ على بَعضِ الملوكِ؛ فشتَّانَ ما بيْنَ السَّوقينِ![1]

- وأيضًا اختيارُ لَفظِ (السَّوقِ)، وبِناءُ الفِعلِ للمَفعولِ؛ لِلدَّلالةِ على عَظَمةِ الكِبْرياءِ والجَلالِ، ولِتُوافِقَ ما خُتِم به الكلامُ بما بُدِئَ به؛ ألَا تَرَى كيف قِيل: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾؟ فكما أنَّ ذلك المَجيءَ لا يدُلُّ على فَضْلِهم وكَرامتِهم، بلْ على الكِبْرياءِ والجَلالِ، وكذلك هذا السَّوقُ. ويُمكِنُ أنْ يُجْرى على المشاكَلةِ؛ فإنَّه لَمَّا نُسِبَ السَّوقُ إلى الكفَّارِ، وانضمَّ معه مَقامُ الجَبروتِ والكِبْرياءِ، قِيل: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾[2].

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ؛ حيثُ قال في أهلِ النَّارِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ [الزمر: ٧١]، وقال هنا في أهلِ الجنَّةِ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ بزِيادة الواوِ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ أهلَ النَّارِ بمُجرَّدِ وُصولِهم إليها فُتِحَت لهمْ أبوابُها مِن غيرِ إنظارٍ ولا إمهالٍ، ولِيَكونَ فتْحُها في وُجوهِهم وعلى وُصولِهم أعظَمَ لِحَرِّها، وأشدَّ لِعَذابِها، وأمَّا الجنَّةُ؛ فإنَّها الدَّارُ العاليةُ الغاليةُ، التي لا يُوصَلُ إليها، ولا يَنالُها كلُّ أحدٍ إلَّا مَن أتَى بالوَسائلِ الموصِلةِ إليها، ومع ذلك فيَحتاجون لِدُخولِها لِشَفاعةِ أكرَمِ الشُّفعاءِ على اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٤٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٥١).

وقد انتقَدَ الطِّيبيُّ هذا القولَ الثانيَ. يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٨).

تعالَى؛ فلمْ تُفتَحْ لهمْ بمُجرَّدِ ما وَصَلوا إليها، بلْ يَسْتشفِعون إلى اللهِ بمُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى يَشفَعَ؛ فيُشفِّعُه اللهُ تعالَى[١]. وقيل: إنَّها واوُ الحالِ، أي: جاؤوها وقدْ فُتِحَت أبوابُها قبْلَ مَجيئِهم، بخِلافِ أبوابِ النَّارِ؛ فإنَّها إنَّما فُتِحَت عندَ مَجيئِهم، والسِّرُّ في ذلك: أنْ يَتعجَّلوا الفرَحَ والسُّرورَ إذا رأَوا الأبوابَ مُفتَّحةً، وأهلُ النَّارِ يَأْتونها وأبوابُها مُغلَقةٌ؛ لِيَكونَ أشدَّ لِحَرِّها، أو أنَّ الوقوفَ على البابِ المغلَقِ نَوعُ ذُلٍّ وهَوانٍ؛ فصِينَ أهْلُ الجنَّةِ عنه، أو أنَّ الكريمَ يُعجِّلُ المثوبةَ ويُؤخِّرُ العُقوبةَ، أو اعتُبِرَ في ذلك عادةُ دارِ الدُّنيا؛ لأنَّ عادةَ مَن في مَنازِلِها مِن الخدَمِ إذا بُشِّروا بقُدومِ أهْلِ المنازِلِ؛ فتْحُ أبوابِها قبْلَ مَجيئِهم -استبشارًا وتطلُّعًا إليهم-، وعادةَ أهلِ الحُبوسِ إذا شُدِّدَ في أمْرِها؛ ألَّا تُفتَحَ أبوابُها إلَّا عندَ الدُّخولِ إليها أو الخروجِ[٢]. أو فُتِحتْ أبوابُها؛ إكرامًا لهم -قبْلَ وُصولِهم- إليها بنفْسِ الفتْحِ وبما يَخرُجُ إليهم مِن رائحتِها، ويرَوْنَ مِن زَهْرتِها وبَهْجتِها[٣]. وقيل غيرُ ذلك في زِيادةِ الواوِ[٤].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ﴿إِذَا﴾ ظَرْفُ مُسْتقبَلٍ مُتضمِّنٌ معْنى الشَّرْطِ، وجُملةُ ﴿جَآءُوهَا﴾ في مَحلِّ جَرٍّ بإضافةِ الظَّرْفِ إليها، وجَوابُها هنا مَحذوفٌ -على قوْلٍ-؛ لأنَّه في صِفَةِ أهْلِ الجنَّةِ؛ فدَلَّ بحَذْفِه على أنَّه شَيءٌ لا يُكتَنَهُ، ولا يُحيطُ به الوصْفُ، كأنَّه قِيل: حصَلوا على النَّعيمِ المقيمِ الذي لا يَشوبُه التَّنغيصُ والتَّكديرُ، وإنَّما صار الحذْفُ في مِثلِ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧١، ٧٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٦٨).

(٤) ويُنظر ما تقدَّم في حاشية تفسير الآية (ص: ٤٥٩).

أبلَغَ مِن الذِّكرِ؛ للإيذانِ بأنَّ لهم حِينئذٍ مِن فُنونِ الكراماتِ ما لا يَحدِقُ به نِطاقُ العباراتِ، فتَذهَبُ النَّفْسُ فيه كلَّ مَذهَبٍ، ولو ذُكِرَ الجوابُ لَقصُرَ عن الوجْهِ الذي تَضمَّنَه البَيانُ[1]، فحُذِف؛ تَفخيمًا لِشأنِه وتَعظيمًا لقَدْرِه؛ كعادتِهم في حذْفِ الأجوبةِ[2].

- وهذه الآياتُ السَّابقةُ مِن بابِ الجمْعِ معَ التَّقسيمِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ﴾ [الزمر: ٧٠] جمَعَ الأنفُسَ كلَّها في حُكمِ تَوفيةِ أُجورِ الأعْمالِ صالحِها وسَيِّئِها. وقولَه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، وقولَه: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ إلى آخرِ الآياتِ؛ تَقسيمٌ لذلك الجمْعِ، وتَفصيلٌ لذلك المُجمَلِ، وقدْ أُوثِرَ فيهما ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ و﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ على الكافرينَ والمتَّقِين؛ لِيَدُلَّ على العُمومِ[3].

- قولُه: ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ عقَّبَ دُخولَها على الطِّيبِ بحَرفِ الفاءِ الَّذي يؤْذِنُ بأنَّه سَببٌ للدُّخولِ؛ أي: بسَببِ طِيبِكم، قيلَ لكمُ: ادْخُلوها[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ ...﴾ عطْفُ هذا الكلامِ يُؤذِنُ بأنَّ قولَهم ذلك غيْرُ جَوابٍ لِقَولِ الملائكةِ، بلْ حَمِدوا اللهَ على ما منَحَهم مِن النَّعيمِ الذي وَعَدَهم به، وإنَّما وعَدَهم به بعُنوانِ الأعمالِ الصَّالحةِ، فلمَّا كانوا أصحابَ الأعمالِ الصَّالحةِ، جَعَلوا وَعْدَ العامِلينَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ٢٠).

للصَّالحاتِ وَعْدًا لهم؛ لِتَحقُّقِ المعلَّقِ عليه الوعدُ فيهم[١].

- قولُه: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ والأصلُ هو «فنِعْم أجْرُنا»، ولكنَّه قال: ﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ تَرْغيبًا في الأعمالِ، وحثًّا على عدَمِ الاتِّكالِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِوَصفِ الملائكةِ المقرَّبينَ في ذلِك اليوم. أو هو عَطْفٌ على ما قبْلَه مِن ذِكرِ أحوالِ يوْمِ القِيامةِ التي عُطِفَ بعضُها على بعضٍ؛ ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨]، أنَّ مِن جُملةِ تلك الأحوالِ حَفَّ الملائكةِ حوْلَ العرْشِ. والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فيكونُ إيذانًا بأنَّها رُؤيةُ دُنوٍّ مِن العرْشِ ومَلائكتِه، وذلك تَكريمٌ له بأنْ يكونَ قدْ حَواهُ مَوكبُ الملائكةِ الذين حوْلَ العرْشِ[٣].

- وفي استِحضارِ اللهِ تعالَى بوَصْفِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ قُرْبَهم مِن العرْشِ تَرفيعٌ في مَقامِ العُبوديَّةِ الملازِمةِ للخلائقِ[٤].

- قولُه: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ تَأْكيدٌ لِجُملةِ ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩] المتقدِّمةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ تَوكيدًا لِجُملةِ ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٧٤]، ويجوزُ أنْ يكونَ حِكايةَ قولٍ آخَرَ لِقائلينَ مِن الملائكةِ والرُّسلِ وأهْلِ الجنَّةِ؛ فهو أعمُّ مِن القولِ المتقدِّمِ الذي هو قوْلُ المَسُوقينَ إلى الجنَّةِ مِن المتَّقينَ، فهذا قوْلُهم يَحمَدون اللهَ على عَدْلِ قَضائِه وجَميعِ صِفاتِ كَمالِه[1].

- قَولُه: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حُذِفَ فاعِلُ القَولِ؛ إشعارًا بالعُموم، وأنَّ الكونَ كلَّه قال: «الحَمدُ للهِ ربِّ العالَمين»؛ لِمَا شاهَدوا مِن حِكمةِ الحَقِّ وعَدْلِه وفَضْلِه؛ فيَحمَدُه أهلُ السَّمواتِ وأهلُ الأرضِ، والأبرارُ والفُجَّارُ، والإنسُ والجِنُّ، حتَّى أهلُ النَّارِ، قال الحسنُ: (لقدْ دخَلوا النَّارَ وإنَّ حمْدَه لَفي قُلوبِهم، ما وجَدوا عليه سبيلًا)[2].

وقيل: لم يُبَيِّنْ أنَّ ذلك القائِلَ مَن هو؟! والمقصودُ مِن هذا الإبهامِ التَّنبيهُ على أنَّ خاتِمةَ كَلامِ العُقَلاءِ في الثَّناءِ على حَضرةِ الجَلالِ والكِبرياءِ ليْس إلَّا أنْ يَقولوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وتَأكَّدَ هذا بقَولِه تعالَى في صِفةِ أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[3] [يونس: ١٠].

- والمَقْضيُّ بيْنهم إمَّا جميعُ العِبادِ، وإمَّا الملائكةُ بإقامتِهم في مَنازِلِهم على حسَبِ تَفاضُلِهم؛ فعلَى الأوَّلِ تكريرُ الحمْدِ في قولِه: ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لإناطةِ معنًى زائدٍ به؛ لأنَّ الأوَّلَ للتَّفضلةِ بيْن الفريقينِ بحسَبِ الوعْدِ والوعيدِ، والسَّخطِ والرِّضوانِ، والثَّاني للتَّفرقةِ بيْنهما بحسَبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٦٢)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٦٤-٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨١).

الأبدانِ: فَريقٌ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السَّعيرِ، فتكونُ الآيةُ كالتَّتميمِ بالنِّسبةِ إلى الأُولى في إتمامِ القضاءِ، وعلى الثَّاني كالتَّكميلِ؛ لأنَّ ذلك القضاءَ في حقِّ بني آدَمَ، وهذا في حقِّ الملائكةِ[1].

- وقد تميَّزَ خِتامُ سُورةِ الزُّمَرِ بذِكرِ أحوالِ القِيامةِ والتَّحميدِ والتَّسبيحِ، كما تَميَّزَ بالجَزالةِ في اللَّفظِ، والمرادُ بالجَزالةِ كوْنُ اللَّفظِ مَتينًا قويًّا، على عُذوبةٍ في الفَمِ، وحَلاوةِ جَرْسِه في السَّمْعِ، ولو تأمَّلَ المتأمِّلُ قَوارعَ القُرآنِ عندَ ذِكرِ الحِسابِ والعذابِ، والميزانِ والصِّراطِ، وعندَ ذِكرِ الموتِ ومُفارَقةِ الدُّنيا، وما جَرى هذا المَجْرى؛ فإنَّه لا يَرى شيئًا مِن ذلك وَحْشِيَّ الألْفاظِ، ولا مُتوعِّرًا مُوغِلًا في الجَساوةِ والنُّبوِّ[2].

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ التَّاسعُ والعشرونَ**

**ويليه المجلدُ الثَّلاثونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ غافِرٍ**

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٤٩، ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٤٥٠).

# الفهرس

# الفهرس

سورةُ الزُّمَرِ ..... ١٣
أسماءُ السُّورةِ ..... ١٣
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ..... ١٣
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٤
موضوعاتُ السُّورةِ ..... ١٤
الآيات (١-٤) ..... ١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٤
الآيتان (٥-٦) ..... ٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٧
تَفسيرُ الآيتينِ ..... ٤٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٦
بلاغةُ الآيتينِ ..... ٦١

الآيتان (٧-٨) ..... ٧١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٧١
المعنى الإجماليُّ ..... ٧٢
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٧٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٨٢
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٨٧
الآيتان (٩-١٠) ..... ٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٩٥
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٠٦
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ١١٠
الآيات (١١-١٦) ..... ١٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٢٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٢٤
المعنى الإجماليُّ ..... ١٢٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٢٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٣٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٣٧

الآيات (١٧-٢٠) ..... ١٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٤٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٥٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٦٣
الآيات (٢١-٢٣) ..... ١٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٧٥
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٧٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٧٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٨٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٩٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٩٦
الآيات (٢٤-٢٦) ..... ٢١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢١٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٢١٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٢٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٢٠
الآيات (٢٧-٣١) ..... ٢٢٦

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٢٦
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٢٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٢٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٢٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٣٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٤٠
الآيات (٣٢-٣٥) ..... ٢٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٤٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٤٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٤٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٥٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٦٥
الآيات (٣٦-٤١) ..... ٢٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٧٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٧٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٧٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٩٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٩٣
الآيات (٤٢-٤٥) ..... ٣٠٨

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٠٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٠٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٠٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣١٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٢٣
الآيات (٤٦-٤٨) ..... ٣٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٣٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٣٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٣٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٣٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٤١
الآيات (٤٩-٥٢) ..... ٣٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٤٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٤٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٥٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٥٧
الآيات (٥٣-٥٩) ..... ٣٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٦٣

المعنى الإجماليُّ ..... ٣٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٧٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٨٣
الآيات (٦٠-٦٦) ..... ٣٩٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٩٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٠٥
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٠٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤١١
الآيات (٦٧-٧٠) ..... ٤٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٢٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٣٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤١
الآيتان (٧١-٧٢) ..... ٤٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٤٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٤٧

تَفسيرُ الآيتينِ ..... ٤٤٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٥٤
بلاغةُ الآيتينِ ..... ٤٥٧
الآيات (٧٣-٧٥) ..... ٤٦٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٦٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٦٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٦٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٧٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٧٧
الفهرس ..... ٤٨٥

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة غافر)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


المجلد الثلاثون


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة غافر)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد الثلاثون – سورة غافر / القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٢ هـ

٤٣٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٠-٩٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن – سورة غافر – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/١٠٣٣٨

رقم الإيداع: ١٤٤٢/١٠٣٣٨

ردمك: ٠-٩٦-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ غافِرٍ

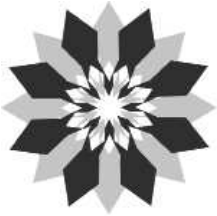

# سورةُ غافرٍ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: غافرٍ[١]، وسُورةِ المُؤمِنِ[٢].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

سورةُ غافرٍ هي أوَّلُ السُّوَرِ السَّبْعِ الَّتي تَبدَأُ بقَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾، ويُطلَقُ على هذه السُّورِ (الحواميم)[٣].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ غافرٍ مَكِّيَّةٌ[٤]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٥].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بهذا الاسمِ؛ لذِكْرِه في أوَّلِها؛ قال ابنُ عاشور: (تُسمَّى سورةَ غافرٍ؛ لذِكرِ وَصْفِه تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ [غافر: ٣] في أوَّلِها، وبهذا الاسمِ اشتَهَرتْ في مَصاحفِ المغربِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٥).

(٢) سُمِّيَت بهذا الاسمِ؛ لاشتِمالِها على حديثِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٩).

قال ابنُ عاشور: (وبذلك اشتَهَرت في مصاحفِ المَشرقِ، وبذلك تَرجَمها البخاريُّ في «صحيحِه»، والتِّرمذيُّ في «الجامعِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٥). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٢٦)، ((سنن الترمذي)) (٥/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٢٥٥).

والحواميم هي: (غافر)، و(فصلت)، و(الشورى)، و(الزخرف)، و(الدخان)، و(الجاثية)، و(الأحقاف)، ويقالُ لها أيضًا: (ذوات حم)، و(آل حم). يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٩٠٧)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٢٢٤).

(٤) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلاَّ آيَتَينِ منها نزلَتَا بالمدينةِ، وهما: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ...﴾ [غافر: ٥٦]، والَّتي بعْدَها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٤١).

(٥) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٠٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٣٢).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

إبطالُ جَدَلِ الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ(١).

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:**

١- افتِتاحُ السُّورةِ بالثَّناءِ على اللهِ تعالى.

٢- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا لَقِيَه مِن المُشرِكينَ.

٣- بيانُ وظيفةِ الملائِكةِ الَّذين يَحمِلونَ العَرشَ، وأنَّ منها الاستِغفارَ للمُؤمِنينَ، والدُّعاءَ لهم.

٤- دَعوةُ العِبادِ إلى إخلاصِ الطَّاعةِ له، وتَذكيرُهم بأهوالِ يومِ القيامةِ، وأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠).

قال الألوسي نقلًا عن القَزْويني في ((الكشف)): (... ولو تُؤمِّلَ في هذه السُّورةِ الكريمةِ حقَّ التَّأمُّلِ، وُجِد جُلُّ الكلامِ فيها مبنيًّا على ردِّ المُجادِلينَ في آياتِ الله المُشتمِلةِ على التَّوحيدِ والبعثِ، وتبيينِ وجْهِ الرَّدِّ في ذلك بفنونٍ مختلِفةٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٤).

وقال ابنُ عاشور: (إذ كان مِن أوَّلِها قَولُه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وتكَرَّر ذلك خَمْسَ مرَّاتٍ فيها؛ فنَبَّه على إبطالِ جِدالِهم في مُناسَباتِ الإبطالِ كُلِّها؛ إذ ابتُدِئَ بإبطالِه على الإجمالِ عَقِبَ الآياتِ الثَّلاثِ مِن أوَّلِها بقَولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، ثمَّ بإبطالِه بقَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٣٥]، ثمَّ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾ [غافر: ٥٦]، ثمَّ بقَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ﴾ [غافر: ٦٩]، وذلك كُلُّه إيماءٌ إلى أنَّ الباعِثَ لهم على المجادَلةِ في آياتِ اللهِ هو ما اشتمَلَ عليه القرآنُ مِن إبطالِ الشِّركِ؛ فلذلك أعقَبَ كُلَّ طريقةٍ مِن طرائقِ إبطالِ شِرْكِهم بالإنحاءِ على جِدالِهم في آياتِ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠).

المُلْكَ في هذا اليومِ لله وَحْدَه.

٥- ذِكرُ جانبٍ مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع فِرعَونَ وهامانَ وقارونَ، وما وَعَظ به الرَّجُلُ المؤمِنُ مِن آلِ فِرعَونَ قَومَه.

٦- حِكايةُ جانبٍ مِن المُحاوَراتِ الَّتي تَدورُ بيْنَ الضُّعَفاءِ والمتكَبِّرينَ في النَّارِ، وما يَقولونَه لِخَزَنةِ جَهنَّمَ.

٧- التَّنبيهُ على دَلائلِ تفرُّدِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ إجمالًا، وإبطالُ عبادةِ ما يَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ.

٨- ذِكرُ ألوانٍ مِن نِعَمِ اللهِ على النَّاسِ؛ لكي يَشكُروه عليها.

٩- الحَديثُ عن الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ بغيرِ عِلمٍ، وتوبيخُهم وتهديدُهم بسُوءِ المصيرِ، وأمْرُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على أذاهم، مع تذكيرِه بأحوالِ الرُّسُلِ السَّابِقينَ مع أقوامِهم.

١٠- إنذارُ مُشرِكي مكَّةَ بأنَّ مَصيرَهم سيَكونُ كمَصيرِ مَن قَبْلَهم مِمَّن أشرك، وذلك في حالِ بقائِهم على كُفرِهم، وأنَّهم إذا نزَل بهم عذابُ اللهِ فلن يَنفَعَهم الإيمانُ حينَئذٍ.

## الآيات (١-٢)

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلتَّوۡبِ﴾: أي: التَّوبةِ، وهو مصدرُ تابَ يَتوبُ، والتَّوبُ: ترْكُ الذَّنْبِ على أجمَلِ الوُجوهِ، وقيلَ: التَّوبُ جمعُ تَوبةٍ، وأصلُ (توب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[1].

﴿ٱلطَّوۡلِ﴾: أي: القُدرةِ والغِنى والفَضلِ، وأصلُ (طول): يدُلُّ على فَضلٍ وامتِدادٍ في شَيءٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

بدأت هذه السُّورةُ الكريمةُ بقَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾، المشتمِلِ على حرفَينِ مِن الحُروفِ المُقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القُرآنِ؛ وذلك للإشارةِ إلى إعجازِه، ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ تَنزيلٌ مِن عندِ اللهِ العزيزِ، العَليمِ، غافِرِ ذُنوبِ عبادِه، وقابِلِ تَوبةِ التَّائبينَ، شَديدِ العِقابِ، ذي الفَضلِ والإنعامِ الواسِعِ، لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا هو وَحْدَه دونَ ما سِواه، وإليه وَحْدَه مَرجِعُ العبادِ، فيُجازيهم بأعمالِهم؛ خَيرِها وشَرِّها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥١).

قال البِقاعي: (جَعْلُه اسمَ جِنسٍ كأخَواتِه أنسَبُ مِن جَعْلِه بيْنَها جَمعًا كتَمْرٍ وتَمرةٍ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

هذانِ الحرفانِ مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ؛ لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[١].

﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٢﴾.

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ القاهِرِ الغالِبِ، المَنيعِ الجَنابِ، الممتنعِ عن كلِّ نقصٍ وعيبٍ، ذي القدرِ والسيادةِ؛ العليمِ الَّذي أحاط عِلمُه بكُلِّ شَيءٍ[٢].

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ٣﴾.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾.

أي: سَاتِرِ ذُنوبِ عبادِه، ومُتجاوِزٍ عن مُؤاخَذتِهم بها[٣].

﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾.

أي: وقابِلِ تَوبةِ التَّائِبينَ مِن الشِّركِ وجَميعِ المعاصي[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عبد السلام)) (٣/ ١٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ اللهَ يَقبَلُ تَوبةَ العَبدِ ما لم يُغَرْغِرْ[١]))[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن تابَ قبلَ أنْ تطلُعَ الشَّمسُ مِن مغربِها، تابَ الله عليه))[٣].

﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾.

أي: شديدِ العِقابِ لِمَن يَستحِقُّ مِن عِبادِه[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لو

---

(١) أي: ما لم تَبلُغْ رُوحُه حُلقومَه، فيكون بمنزلةِ الشَّيءِ الَّذي يَتغَرغَرُ به المريضُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٦٠).

(٢) رواه الترمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد (٦١٦٠).

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ غريبٌ). وقال ابن القطَّان في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٤١٢): (محتملٌ أن يُقال فيه: صحيحٌ). وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٩/ ١٨)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٣٧).

(٣) رواه مسلم (٢٧٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣).

قال ابن جرير: (فلا تَتَّكِلوا على سَعةِ رَحمتِه، ولكِنْ كونوا منه على حَذَرٍ، باجتنابِ معاصيه، وأداءِ فرائِضِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٨).

يَعلَمُ المؤمِنُ ما عندَ اللهِ مِن العُقوبةِ ما طَمِعَ بجَنَّتِه أحَدٌ، ولو يَعلَمُ الكافِرُ ما عندَ اللهِ مِن الرَّحمةِ ما قَنَط مِن جنَّتِه أحَدٌ))[١].

﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾.

أي: صاحبِ الغنَى الواسِعِ، والفَضلِ والإنعامِ على خَلْقِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ وَحْدَه دونَ ما سِواه[٣].

﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: إلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُ العِبادِ، فيُجازيهم بأعمالِهم؛ خَيرِها وشَرِّها[٤].

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٩)، ومسلم (٢٧٥٥) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧، ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالمصيرِ إلى الله تعالى: الرُّجوعُ إليه يومَ القيامةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ الحَثُّ على كُلِّ ما تَكونُ به المَغفِرةُ. وَجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالى لم يُخبِرْنا بأنَّه غافِرُ الذَّنْبِ مِن أجْلِ أن نعلَمَ أنَّه غافِرٌ فقط، لكِنْ مِن أجْلِ أن نتعَرَّضَ لِمَغفرتِه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾؛ تأنيسًا لِمَنِ استجاب بحَمدِه، وأناب بلُطفِه، وجريًا على حُكمِ الرَّحمةِ وتَغليبِها، ثمَّ قال: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾؛ ليأخُذَ المؤمِنُ بلازِمِ عُبوديَّتِه مِن الخَوفِ والرَّجاءِ[٢]، فهذه الآيةُ قد اجتَمع فيها الرَّجاءُ والخَوفُ، وهي كقولِه تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]؛ حيثُ يُقرَنُ هذان الوصْفانِ كثيرًا في مواضعَ متعدِّدةٍ مِن القرآنِ؛ ليبقَى العبدُ بيْنَ الرَّجاءِ والخَوفِ[٣] في السَّيرِ إلى اللهِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنَّ المَصيرَ إلى اللهِ، وأنَّه غافِرُ الذَّنْبِ وقابِلُ التَّوبِ وشَديدُ العِقابِ؛ فإنَّه يَرجو مِن وَجهٍ، ويَخافُ مِن وَجهٍ آخَرَ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ أنَّ عِقابَ الله تعالى شديدٌ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: الحذرُ مِن التَّعرُّضِ لِعقابِه، وقد قال الله عزَّ وجلَّ لنبيِّه صلَّى الله عليه

---

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عُمرَ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٧٢). وقيل: المرادُ: إليه المرجِعُ في كُلِّ شَيءٍ في الدُّنيا والآخرةِ، كالحُكمِ بيْنَ النَّاسِ، وتدبيرِ الأمورِ؛ وإليه المرجِعُ بعدَ الموتِ. وممَّن ذهب إلى هذا العموم: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٦٣).

وسلَّم: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، وقال في آيةٍ أخرى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1] [المائدة: ٩٨].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ مُشعِرٌ بتَرجيحِ جانِبِ الرَّحمةِ والفَضلِ؛ لأنَّه تعالى لَمَّا أراد أن يَصِفَ نَفْسَه بأنَّه شديدُ العِقابِ ذكَرَ قَبْلَه أمْرَينِ كُلُّ واحدٍ منهما يَقتضي زَوالَ العِقابِ، وهو كَونُه ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾، وذكَرَ بَعْدَه ما يدُلُّ على حُصولِ الرَّحمةِ العَظيمةِ، وهو قَولُه: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾، فكَونُه ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ لَمَّا كان مَسبوقًا بتَيْنِك الصِّفَتينِ، ومَلحوقًا بهذه الصِّفةِ؛ دَلَّ ذلك على أنَّ جانِبَ الرَّحمةِ والكَرَمِ أرجَحُ[2]، وفي هذا تَصديقُ الحَديثِ الصَّحيحِ وشاهِدٌ له، وهو قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لَمَّا خَلَق اللهُ الخَلْقَ، كَتَب في كتابِه، فهو عندَه فوقَ العرشِ: إنَّ رحمَتي تَغلِبُ غَضَبي))[3]، وفي لَفظٍ: ((سَبَقَتْ غضبي))[4]، وقد سبَقَت صِفةُ الرَّحمةِ هنا وغَلَبَت[5].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ * غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وَجْهُ المُناسَبةِ بذِكرِ نُزولِ القُرآنِ مِن اللهِ المَوصوفِ بهذه الأوصافِ: أنَّ هذه الأوصافَ مُستلزِمةٌ لجَميعِ ما يَشتَمِلُ عليه القُرآنُ مِن المعاني؛ فإنَّ القُرآنَ إمَّا إخبارٌ عن أسماءِ اللهِ وصِفاتِه وأفعالِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٤، ٤٨٥).

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٠٤)، ومسلم (٢٧٥١) واللَّفظُ له من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٥٤) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٣).

وهذه أسماءٌ وأوصافٌ وأفعالٌ. وإمَّا إخبارٌ عن الغُيوبِ الماضيةِ والمُستَقبَلةِ، فهي مِن تعليمِ العليمِ لعِبادِه. وإمَّا إخبارٌ عن نِعَمِه العَظيمةِ وآلائِه الجَسيمةِ، وما يُوصِلُ إلى ذلك مِن الأوامِرِ، فذلك يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿ذِى ٱلطَّوۡلِ﴾. وإما إخبارٌ عن نِقَمِه الشَّديدةِ، وعمَّا يُوجِبُها ويَقتَضيها مِن المعاصي، فذلك يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾. وإمَّا دَعوةٌ للمُذنِبينَ إلى التَّوبةِ والإنابةِ والاستِغفارِ، فذلك يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾. وإمَّا إخبارٌ بأنَّه وَحْدَه المألوهُ المعبودُ، معَ إقامةِ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ والنَّقليَّةِ على ذلك، والحَثِّ عليه، والنَّهيِ عن عِبادةِ ما سِوى اللهِ، وإقامةِ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ والنَّقليَّةِ على فَسادِها والتَّرهيبِ منها، فذلك يدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. وإمَّا إخبارٌ عن حُكمِه الجزائيِّ العَدلِ، وثوابِ المُحسِنينَ، وعِقابِ العاصينَ، فهذا يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾. فهذا جميعُ ما يَشتَمِلُ عليه القُرآنُ مِن المطالِبِ العالياتِ[1]، وأيضًا فبَعْدَ أن بَيَّنَ أنَّ الكِتابَ مُنَزَّلٌ مِنَ الله بيَّنَ أنَّه تعالى مَوصوفٌ بصِفاتِ الجَلالِ، وسِماتِ العَظَمةِ؛ ليَصيرَ ذلك حامِلًا على التَّشميرِ عن ساقِ الجِدِّ عندَ الاستِماعِ، وزَجرِه عن التَّهاوُنِ والتَّواني فيه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾ أنَّ القُرآنَ الكَريمَ حُروفٌ، تكَلَّمَ اللهُ به بحُروفٍ؛ ففيه الرَّدُّ على الأشاعِرةِ ومَن سلَك سبيلَهم، الَّذين يقولون: إنَّ كلامَ اللهِ هو المعنى القائِمُ بالنَّفْسِ، وأنَّ اللهَ لا يَتكَلَّمُ بحَرفٍ وصَوتٍ، لكِنْ يَخلُقُ حُروفًا وأصواتًا تُسمَعُ تَعبيرًا عمَّا في نفْسِه! وحقيقةُ هذا القَولِ نَفيُ الكلامِ؛ لأنَّ ما في النَّفْسِ مِن المعلوماتِ المُرتَّبةِ ليست كلامًا، ولكِنَّها مَعلوماتٌ؛ عِلمٌ، وليست كلامًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٠).

٣- قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ التَّنزيلُ يَستلزِمُ عُلُوَّ المُنزَّلِ مِن عِندِه، ولا تَعقِلُ العَرَبُ مِن لُغتِها -بل ولا غَيرُها مِن الأُمَمِ السَّليمةِ الفِطرةِ- إلَّا ذلك، وقد أخبَرَ سُبحانَه أنَّ تنزيلَ الكِتابِ منه؛ فهذا يدُلُّ على شَيئينِ:

**أحَدُهما**: عُلُوُّه تعالى على خَلْقِه.

**والثَّاني**: أنَّه هو المتكَلِّمُ بالكتابِ المُنزَّلِ مِن عِندِه لا غَيرُه؛ فإنَّه أخبَرَ أنَّه منه، وهذا يَقتضي أن يكونَ منه قولًا، كما أنَّه منه تنزيلًا؛ فإنَّ غيرَه لو كان هو المتكَلِّمَ به لَكان الكِتابُ مِن ذلك الغَيرِ؛ فإنَّ الكلامَ إنَّما يُضافُ إلى المتكَلِّم به، ومِثلُ هذا: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]، ومِثلُه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، ومِثلُه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]؛ فاستَمسِكْ بحَرفِ «مِنْ» في هذه المواضِعِ؛ فإنَّه يَقطَعُ شَغَبَ المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ، وتأمَّلْ كيف قال: ﴿تَنزِيلُ مِّنَ﴾ ولم يقُلْ: «تنزيلُه»! فتضَمَّنَت الآيةُ إثباتَ عُلُوِّه وكلامِه، وثُبوتَ الرِّسالةِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أنَّ القُرآنَ غيرُ مَخلوقٍ[2]؛ وذلك لأنَّ ما كان مِنَ اللهِ إنْ كان عَيْنًا قائمةً أو صِفةً قائمةً بغَيرِها -كما في السَّمَواتِ والأرضِ، والنِّعَمِ، والرُّوحِ الَّذي أرسَلَه إلى مَريمَ وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]- كان مخلوقًا، وإن كان صِفةً لا تقومُ بنَفْسِها ولا يتَّصِفُ بها المخلوقُ، لم يكُنْ مخلوقًا، كالقُرآنِ؛ فإنَّ ذلك قائِمٌ باللهِ، وما يَقومُ باللهِ لا يكونُ مَخلوقًا[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ وصْفُ القرآنِ الكريمِ بالكتابِ، وهو بمعنى

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٧١).

مَكتوبٍ؛ وذلك لأنَّه يُكتَبُ؛ فهو مَكتوبٌ بالمصاحفِ الَّتي بأيدينا، والصُّحُفِ الَّتي بأيدي الملائكةِ؛ قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٢، ١٣]، ومكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ؛ قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[1] [البروج: ٢١، ٢٢].

٦- قال تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾، وتَضمَّنَ هذان الاسْمانِ صِفتَيِ القُدرةِ والعِلمِ، وخَلْقَ أعمالِ العِبادِ، وحُدوثَ كُلِّ ما سِوى اللهِ؛ لأنَّ القَدَرَ هو قُدرةُ اللهِ، كما قال أحمدُ بنُ حَنبلٍ؛ فتضَمَّنَت إثباتَ القَدَرِ، ولأنَّ عِزَّتَه تَمنَعُ أن يكونَ في مُلكِه ما لا يَشاؤُه، أو أن يَشاءَ ما لا يكونُ؛ فكانت عِزَّتُه تُبطِلُ ذلك، وكذلك كَمالُ قُدرتِه يُوجِبُ أن يكونَ خالِقَ كُلِّ شَيءٍ، وذلك يَنفي أن يكونَ في العالَمِ شَيءٌ قَديمٌ لا يَتعَلَّقُ به خَلْقُه؛ لأنَّ كَمالَ قُدرتِه وعِزَّتِه يُبطِلُ ذلك[2].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ جمَعَ جَلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ بيْن التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، والوَعدِ والوَعيدِ؛ لأنَّ مَطامعَ العُقَلاءِ مَحصورةٌ في أمْرَينِ؛ هما: جَلبُ النَّفعِ، ودَفعُ الضُّرِّ[3].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ فكما أنَّه لا يُؤْيِسُ أهلَ الإجرامِ والآثامِ مِن عَفْوِه، وقَبولِ تَوبةِ مَن تاب منهم مِن جُرْمِه، كذلك لا يُؤَمِّنُهم مِن عِقابِه وانتِقامِه منهم بما استحَلُّوا مِن مَحارِمِه، ورَكِبوا مِن مَعاصِيه[4].

٩- قال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ والذَّنْبُ مُخالَفةُ شَرعِه وأمْرِه؛ فتَضَمَّنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٨).

هذان الاسْمانِ إثباتَ شَرعِه وإحسانِه وفَضلِه[١].

١٠- قال تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ لَمَّا ذكَرَ تعالى شِدَّةَ عِقابِه أردَفَه بما يُطمِعُ في رحمتِه، وهو قَولُه: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾؛ فجاء ذلك وعيدًا اكتَنَفَه وَعْدانِ[٢].

١١- قَولُه تعالى: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ هذا جزاؤُه للمُذنِبينَ، و﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ جزاؤُه للمُحسِنينَ؛ فتضَمَّنَت الآيةُ إثباتَ الثَّوابِ والعِقابِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إثباتُ التَّوحيدِ والمَعادِ[٤].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ * تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾

- قولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ المقصودُ بتَوجيهِ هذا الخبَرِ هُمُ المُشرِكونَ المُنكِرونَ أنَّ القرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ؛ فتَجريدُ الخبَرِ عن المؤكِّدِ إخراجٌ على خِلافِ مُقتَضَى الظَّاهِرِ بجَعلِ المُنْكِرِ كغَيرِ المُنكِرِ؛ لأنَّه يَحُفُّ به مِنَ الأدلَّةِ ما إنْ تأمَّلَه ارتَدَع عن إنكارِه، فما كان مِن حَقِّه أنْ يُنكِرَ ذلك[٥]!

- ووصْفُ اللهِ تعالَى بوَصفَيِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ هنا تَعريضٌ بأنَّ مُنكِري تَنزيلِ الكِتابِ منه مَغلوبونَ مَقهورونَ، وبأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تُكِنُّه نُفوسُهم؛ فهو مُحاسِبُهم على ذلك. ورمزٌ إلى أنَّ القرآنَ كلامُ العزيزِ العليمِ؛ فلا يَقدِرُ غَيرُ اللهِ على أنْ يأتيَ بمِثلِه. وفي ذِكرِهما رمزٌ إلى أنَّ اللهَ أعلَمُ حيث يَجعَلُ رسالتَه، وأنَّه

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٨، ٧٩).

لا يُجاري أهواءَ النَّاسِ فيمَن يُرَشِّحونَه لذلك مِن كُبَرائِهم؛ ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، وهُما صِفتانِ دالَّتانِ على المُبالَغةِ في القُدرةِ والغَلَبةِ والعِلمِ[١]. وأيضًا فهذه السُّورةُ تَتحدَّثُ عن المكَذِّبينَ للرُّسُلِ، وما جرَى عليهم مِنَ الهَلاكِ والانتِقامِ؛ فالَّذي يُناسِبُ ذلك: العِزَّةُ الَّتي فيها الغَلَبةُ والأخْذُ؛ فلهذا جاء هنا «العَزيزُ»، وجاء «العَليمُ»؛ لِيُفيدَ أنَّه لعِزَّته أخَذَ هؤلاء المكَذِّبينَ، ولعِلْمِه أنزَلَ الكُتُبَ، وعَلِمَ كيفَ يأخُذُ هؤلاء المكَذِّبينَ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

- قولُه: ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ ... ﴾ أُجريَ على اسمِ اللهِ تعالى مِن صِفاتِه ما فيه تَعريضٌ بدَعْوتِهم إلى الإقلاعِ عمَّا هُم فيه، فكانتْ فاتحةُ السُّورةِ مِثلَ دِيباجةِ الخُطبةِ؛ مُشيرةً إلى الغرَضِ مِن تَنزيلِ هذه السُّورةِ. وفي إتْباعِ الوصفَينِ العَظيمَينِ ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ بأوصافِ ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ تَرشيحٌ[٣] لذلك التَّعريضِ، كأنَّه يقولُ: إنْ كنتُم أذنَبْتُم بالكُفرِ بالقرآنِ، فإنَّ تَدارُكَ ذَنْبِكم في مُكنَتِكم؛ لأنَّ اللهَ مُقَرَّرٌ اتِّصافُه بقَبولِ التَّوبةِ، وبغُفرانِ الذَّنْبِ، فكما غفَرَ لِمَن تابوا مِنَ الأُمَمِ فقَبِلَ إيمانَهم، يَغفِرُ لِمَن يَتوبُ منكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٢).

(٣) التَّرشيحُ: هو أنْ يأتيَ المتكلمُ بكلمةٍ لا تصلُحُ لضربٍ مِن المحاسنِ، حتَّى يُؤتَى بلفظةٍ ترشِّحُها وتؤهِّلُها لذلك. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لأبن أبي الأصبع (ص: ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن =

- والذَّنْبُ في قولِه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ هنا مفردٌ محلَّى بـ «أل»، فيكونُ عامًّا، أي: أنَّ الله جلَّ وعلا يغفرُ الذُّنوبَ جميعًا[١].

- وتَقديمُ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ على (قَابِلِ التَّوْبِ) مع أنَّه مُرتَّبٌ عليه في الحُصولِ؛ للاهتِمامِ بتَعجيلِ الإعلامِ به لِمَنِ استعَدَّ لتَدارُكِ أمْرِه؛ فوصْفُ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ تَعريضٌ بالتَّرغيبِ، وصِفتَا ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ تَعريضٌ بالتَّرهيبِ[٢].

- قولُه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اختلفَتْ هذه الصِّفاتُ تعريفًا وتنكيرًا، والمَوصوفُ مَعرفةٌ يَقتَضي أنْ يَكونَ مِثلُه مَعارِفَ؛ وذلك أنَّ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ مَعرِفتانِ؛ لأنَّه لم يُرَدْ بهما حُدوثُ الفِعلَينِ، وأنَّه يَغفِرُ الذَّنْبَ ويَقبَلُ التَّوبَ الآنَ أو غدًا حتَّى يَكونَا في تَقديرِ الانفِصالِ، فتَكونَ إضافَتُهما غيْرَ حقيقيَّةٍ، وإنَّما أُريدَ ثُبوتُ ذلك ودوامُه. وتَنكيرُ ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾؛ لأنَّه في تقديرِ: شديدٌ عِقابُه، فيَجوزُ أنْ يُقالَ: قد تُعُمِّدَ تَنكيرُه وإبهامُه؛ للدَّلالةِ على فَرْطِ الشِّدَّةِ، وعلى ما

---

= عاشور)) (٢٤/ ٧٧ - ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٧٩، ٨٠).

قال ابن عاشور: (والطَّوْلُ يُطلقُ على سَعةِ الفضلِ وسَعةِ المالِ، ويُطلقُ على مُطلقِ القُدرةِ، وظاهِرُه الإطلاقُ، ووُقوعُه مع شديدِ العِقابِ ومُزاوجَتُها بوصْفَيْ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ لِيُشيرَ إلى التَّخويفِ بعذابِ الآخرةِ مِن وصْفِ شديدِ العقابِ، وبعذابِ الدُّنيا مِن وصفِ ذي الطَّوْلِ، كقولِه: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤٢]، وقولِه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً﴾ [الأنعام: ٣٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٠، ٨١) بتصرفٍ يسيرٍ.

وتقدَّم في الفوائدِ أنَّ قولَه تعالى: ﴿ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ يدُلُّ على حُصولِ الرَّحمةِ العَظيمةِ، ويُطمِعُ فيها.

لا شَيءَ أدهَى منه وأمَرُّ؛ لِزيادةِ الإنذارِ[١].

- قولهُ: ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ جُرِّد المصدَرُ؛ لِيُفهِمَ أنَّ أدنَى ما يُطلَقُ عليه الاسمُ كافٍ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ أُتيَ بالواوِ في الوَصفَينِ الأوَّلَينِ، وحُذِفَت في الوصفَينِ الآخَرينِ؛ لأنَّ غُفرانَ الذَّنْبِ وقَبولَ التَّوبِ قد يُظَنُّ أنَّهما يَجريانِ مجرى الوَصفِ الواحِدِ؛ لِتَلازُمِهما؛ فمَن غَفَر الذَّنْبَ قَبِلَ التَّوبَ، فكان في عَطفِ أحَدِهما على الآخَرِ ما يَدُلُّ على أنَّهما صِفتانِ وفِعلانِ مُتغايِرانِ، ومَفهومان مختَلِفانِ لكُلٍّ منهما حُكمُه، أحَدُهما يَتعلَّقُ بالإساءةِ والإعراضِ، وهو المَغفِرةُ، والثَّاني يَتعلَّقُ بالإحسانِ والإقبالِ على اللهِ تعالى والرُّجوعِ إليه، وهو التَّوبةُ؛ فتُقبَلُ هذه الحَسَنةُ، وتُغفَرُ تلك السَّيِّئةُ، وحَسَّنَ العطفَ هاهنا هذا التَّغايُرُ الظَّاهِرُ، وكلَّما كان التَّغايرُ أبْيَنَ كان العَطفُ أحسَنَ؛ ولهذا جاء العَطفُ في قَولِه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وتُرِكَ في قَولِه: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقَولِه: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾[٣] [الحشر: ٢٤].

- وقيل: عُطِفَتْ صِفةُ ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ﴾ بالواوِ على صِفةِ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾، ولم تُفصَلْ؛ إشارةً إلى نُكتةٍ جليلةٍ، وهي إفادةُ أنْ يَجمَعَ للمُذنِبِ التَّائبِ بيْنَ رحمتَينِ: بيْن أنْ يَقبَلَ تَوبتَه فيَجعَلَها له طاعةً، وبيْن أنْ يَمحوَ عنه بها الذُّنوبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٨، ١٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٥٧، ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٢).

الَّتي تاب منها، ونَدِمَ على فِعلِها، فيُصبِحَ كأنَّه لم يَفعَلْها، كأنَّه قال: جامِعُ المَغفرةِ والقَبولِ، وهذا فَضلٌ مِنَ اللهِ(١).

وأمَّا قَولُه: ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ﴾ فتُرِكَ العَطفُ بيْنَهما؛ لنُكتةٍ بَديعةٍ، وهي: الدَّلالةُ على اجتِماعِ هذينِ الأمْرَينِ في ذاتِه سُبحانَه، وأنَّه حالَ كَونِه شَديدَ العِقابِ فهو ذو الطَّولِ، وطَولُه لا يُنافي شِدَّةَ عِقابِه، بل هما مُجتَمِعانِ له، بخِلافِ قَولِه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: ٣]؛ فإنَّ الأوَّلِيَّةَ لا تُجامِعُ الآخِرِيَّةَ؛ فأوَّلِيَّتُه أزلِيَّتُه، وآخرِيَّتُه أبَدِيَّتُه(٢).

- والوَصفُ بـ﴿شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾ إفضاءٌ بصَريحِ الوَعيدِ على التَّكذيبِ بالقُرآنِ؛ لأنَّ مَجيئَه بعدَ قَولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٢] يُفيدُ أنَّه المَقصودُ مِن هذا الكلامِ بواسِطةِ دَلالةِ مُستَتبَعاتِ التَّراكيبِ(٣).

- قولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لَمَّا ذكَرَ جُملةً مِن صِفاتِه العُلا الذَّاتيَّةِ والفِعليَّةِ، ذكَرَ أنَّه المُنفرِدُ بالأُلوهيَّةِ والوَحدانيَّةِ، المَرجوعُ إليه في الحشرِ بأنَّ المصيرَ والمَرجِعَ إليه؛ تَسجيلًا لبُطلانِ الشِّركِ، وإفسادًا لإحالَتِهمُ البَعثَ(٤).

- وجُملةُ ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ إنذارٌ بالبَعثِ والجَزاءِ؛ لأنَّه لَمَّا أُجريَتْ صِفاتُ ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ﴾، أُثيرَ في الكلامِ الإطماعُ والتَّخويفُ؛ فكان حَقيقًا بأنْ يَشعروا بأنَّ المصيرَ إمَّا إلى ثَوابِه وإمَّا إلى عِقابِه، فلْيَزِنوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١).

أنفُسَهم؛ لِيَضَعوها حيثُ يَلوحُ مِن حالِهم[١].

- وقولُه: ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: إليه فحَسْبُ، لا إلى غَيرِه، لا استِقلالًا ولا اشتِراكًا، فيَجزي كُلًّا مِنَ المُطيعِ والعاصي؛ فتقديمُ المَجرورِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ لإفادةِ الاختِصاصِ[٢]. وقيل: إنَّ تقديمَ المَجرورِ في ﴿إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾؛ للاهتِمامِ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ بحَرفَينِ: حَرفِ لِينٍ، وحَرفٍ صَحيحٍ؛ مِثلَ: ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]، و﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، و﴿عِقَابِ﴾[٣] [غافر: ٥].

- وقد اشتملَتْ فاتحةُ سُورةِ (غافرٍ) على ما يُشيرُ إلى جَوامِعِ أغراضِها، ويُناسِبُ الخَوضَ في تَكذيبِ المُشركينَ بالقرآنِ، ويُشيرُ إلى أنَّهم قد اعتَزُّوا بقوَّتِهم ومَكانَتِهم، وأنَّ ذلك زائلٌ عنهم كما زال عن أُمَمٍ أشَدَّ منهم؛ فاستَوفَتْ هذه الفاتحةُ كَمالَ ما يُطلَبُ في فَواتِحِ الأغراضِ ممَّا يُسمَّى بَراعةَ المَطْلَعِ أو بَراعةَ الاستِهلالِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٤-٦)

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَغۡرُرۡكَ﴾: أي: يَخدَعْك، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، وأصلُ (غرر) هنا: نُقصانٌ[1].

﴿تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾: أي: تَصَرُّفُهم في البِلادِ، وتَرَدُّدُهم في أسفارِهم سالِمينَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[2].

﴿وَٱلۡأَحۡزَابُ﴾: أي: الأُممُ الَّذين تحزَّبوا وتجمَّعوا على رُسلِهم بالتَّكذيبِ، مِن قَولِهم: تحزَّبَ القَومُ: إذا اجتَمَعوا، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجمُّعِ الشَّيءِ[3].

﴿وَهَمَّتۡ﴾: الهمُّ: جَرَيانُ الشَّيءِ في القلبِ، وأصلُ (همم): يدُلُّ على ذَوْبٍ وجَرَيانٍ ودَبيبٍ وما أشْبَهَ ذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢، ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦ / ١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٣).

﴿لِيُدۡحِضُواْ﴾: أي: لِيُبطِلوا ويُذهِبوا، وأصلُ (دحض): يدُلُّ على زَوالٍ[١].

﴿حَقَّتۡ﴾: أي: وجَبَتْ ولَزِمَتْ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابَقةُ والموافَقةُ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾

قَولُه: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ مصدرٌ مُؤَوَّلٌ في محلِّ نَصبٍ أو جَرٍّ بنَزعِ الخافِضِ، وهو لامُ التَّعليلِ، أي: لأنَّهم أصحابُ النَّارِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ في محلِّ رَفعٍ بدلًا مِنْ ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بَدَلًا مُطابِقًا أو بدَلَ اشتِمالٍ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ما يُجادِلُ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ إلَّا الكافِرونَ، فلا يَخدَعْك -يا مُحمَّدُ- تصَرُّفُ الكُفَّارِ في الأرضِ، وتمتُّعُهم في الدُّنيا سالِمينَ مع كُفرِهم بالله.

ثُمَّ يقولُ تعالَى مُسَلِّيًا لنبِيِّه مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كذَّبَت قَبْلَهم قَومُ نُوحٍ ومَنْ بَعْدَهم مِمَّن تحزَّبوا واتَّفَقوا على رُسُلِهم، وهمَّت كُلُّ أمَّةٍ مِن أولئك الكُفَّارِ المتحَزِّبينَ بقَتلِ رَسولِهم، وجادَلوا رَسولَهم بالباطِلِ؛ لِيُزيلوا به الحَقَّ ويُبطِلوه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٥٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٤/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٨).

فأخَذْتُهم بعذابي، فكيف كان عِقابي؟! وكما وجَبَ العذابُ على كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، كذلك وَجَب العذابُ على جميع الكُفَّارِ؛ أنَّهم في الآخِرةِ أصحابُ النَّارِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قرَّرَ اللهُ تعالى أنَّ القُرآنَ كِتابٌ أنزَلَه؛ ليُهتَدَى به في الدِّينِ- ذكَرَ أحوالَ مَن يُجادِلُ لغَرَضِ إبطالِه، وإخفاءِ أمْرِه، فقال تعالى[1]:

﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

أي: ما يُجادِلُ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ إلَّا الكافِرونَ الَّذين يَرُدُّونَها، ويَطعُنونَ فيها، يَقصِدونَ إدحاضَ الحَقِّ، وإطفاءَ نُورِ اللهِ تعالى[2].

كما قال الله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦].

﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾.

أي: فلا يَخدَعْك -يا مُحمَّدُ- تصَرُّفُ الكُفَّارِ في الأرضِ، وتَردُّدُهم فيها بالأسفارِ وأنواعِ المكاسِبِ وغَيرِها، وتمتُّعُهم في الدُّنيا سالِمينَ مع كُفرِهم بالله؛ فتَظُنَّ بهم ظَنًّا حَسَنًا، وأنَّهم على الحَقِّ، أو أنَّ اللهَ لا يُؤاخِذُهم بذُنوبِهم؛ فاللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٢، ٨٣).

عالمٌ بحالِهم، فيُمهِلُهم ويَستَدرِجُهم بالنِّعَمِ حتَّى يُهلِكَهم[١].

كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ * مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان جِدالُ الكفَّارِ ناشئًا عن تَكذيبِ ما جاء به الرَّسولُ عليه السَّلامُ مِن آياتِ اللهِ؛ ذكَرَ مَن كَذَّبَ قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ السَّالِفةِ، وما صار إليه حالُهم مِن حُلولِ نَقِماتِ اللهِ بهم؛ ليَرتَدِعَ بهم كفَّارُ مَن بُعِث الرَّسولُ عليه السَّلامُ إليهم[٢].

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾.

أي: كذَّبت الأُمَمُ الماضيةُ رُسُلَها مِن قَبْلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ، وهم قَومُ نُوحٍ، ومَنْ بَعْدَهم مِنَ الأُمَمِ المكَذِّبةِ مِمَّن تحَزَّبوا واتَّفَقوا على إبطالِ الحَقِّ، ونَصرِ الباطِلِ؛ كعادٍ، وثمودَ، وقَومِ لُوطٍ، وأصحابِ مَدْينَ، وقَومِ فِرعَونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣، ٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٣، ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٤، ٨٥).

قال ابن عثيمين: (هذا كالتَّعليلِ لقولِه: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، يعني: فلينظر عاقبة مَن كان قبْلَهم حينَ كذَّبوا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٤).

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾.

أي: وهَمَّ كُلُّ قَومٍ مِن أولئك الكُفَّارِ المتحَزِّبينَ مِن تلك الأُمَمِ بقَتلِ رَسولِهم الَّذي كَذَّبوه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٥).

وممَّن قال بأنَّ الأخْذَ هنا يعني: القتْلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٥).

وقيل: المرادُ: الحَبسُ والتَّعذيبُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٧).

وقال الزمخشري: (﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ لِيَتمكَّنوا منه، ومِن الإيقاعِ به، وإصابَتِه بما أرادوا مِن تعذيبٍ أو قَتلٍ؛ ويُقالُ للأسيرِ: أخِيذٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١).

واختار الرَّازيُّ العُمومَ، فقال: (وقولُه: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: وعَزَمتْ كلُّ أُمَّةٍ مِن هؤلاءِ الأحزابِ أنْ يأخُذوا رسولَهم لِيَقْتُلوه ويُعَذِّبوه ويَحْبِسوه). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٦).

وممَّن اختار العمومَ أيضًا: أبو حيَّان، والألوسي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٩٨).

أي: وجادَلوا رَسولَهم بالباطِلِ؛ لِيُزيلوا به الحَقَّ ويُبطِلوه(١).

﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾.

أي: فأخَذْتُهم بعَذابٍ أهلَكَهم، فكيف كان عِقابي الَّذي أصابَهم(٢)؟

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

أي: وكما وَجَب العَذابُ على كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، كذلك وَجَب العَذابُ على جَميعِ الكُفَّارِ؛ أنَّهم الملازِمونَ في الآخِرةِ عَذابَ النَّارِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٧).

قال ابن كثير: (أي: فكيف بلَغَك عذابي لهم، ونَكالي بهم؟! قد كان شديدًا مُوجِعًا مُؤلِمًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١).

قال الشنقيطي: (المراد بالكلمةِ هو قولُه تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، كما دلَّت على ذلك آياتٌ مِن كتابِ الله تعالى؛ كقولِه تعالى في آخرِ سورةِ «هود»: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقولِه تعالى في «السجدة»: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقولِه تعالى في أخريات «ص»: =

= ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ * لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٧) بتصرف.

وممَّن اختار أنَّ كلمةَ العذابِ هي قولُه تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٦٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١).

قال ابنُ القيِّم: (الكَلِمةُ التي حَقَّت كَلِمتانِ: كلمةُ الإضلالِ، وكَلِمةُ العذابِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]، وكَلِمتُه سُبحانَه إنَّما حَقَّت عليهم بالعذابِ؛ بسَبَبِ كُفرِهم، فحَقَّت عليهم كَلِمةُ حُجَّتِه، وكَلِمةُ عَدلِه بعُقوبتِه). ((مدارج السالكين)) (١/ ٢٣٤).

وقال السعدي: (﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ أي: كما حقَّتْ على أولئك، حقَّتْ عليهم كلمةُ الضَّلالِ الَّتي نشأت عنها كلمةُ العذابِ؛ ولهذا قال: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

وقال الزمخشري: (كما وجَب إهلاكُ أولئك الأُمَمِ، كذلك وجَب إهلاكُ هؤلاء؛ لأنَّ عِلَّةً واحدةً تَجمَعُهم: أنَّهم مِن أصحابِ النَّارِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٩٨).

وممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ للتَّعليلِ، أي: لأنَّهم أصحابُ النَّارِ، أو لأجْلِ أنَّهم مُستحِقُّونَ للنَّارِ: الزمخشري، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٢٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٠٢).

قال ابن عاشور: (وقولُه: ﴿أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يجوزُ أن يكونَ بدَلًا مِن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدلًا مطابِقًا، فيكونَ ضميرُ ﴿أَنَّهُمۡ﴾ عائدٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أي: حَقَّ عليهم أن يَكونوا أصحابَ النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٨).

وقال ابن جرير: (اختلَف أهلُ العربيَّةِ في موضعِ قَولِه: ﴿أَنَّهُمۡ﴾؛ فقال بعضُ نَحْويِّي البَصرةِ: معنى ذلك: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾: أي: لأنَّهم، أو: بأنَّهم،... وكان غيرُه يقولُ: ﴿أَنَّهُمۡ﴾ بدَلٌ مِن الكلمةِ، كأنَّه: حَقَّتِ الكلمةُ حقًّا أنَّهم أصحابُ النَّارِ. والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك أنَّ قولَه: ﴿أَنَّهُمۡ﴾ ترجمةٌ عن الكلمةِ، بمعنى: وكذلك حقَّ عليهم عذابُ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه أنَّ الجِدالَ في تَقريرِ الباطِلِ مَذمومٌ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ فيه أنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أن يَغتَرَّ بحالةِ الإنسانِ الدُّنيويَّةِ، ويَظُنَّ أنَّ إعطاءَ اللهِ إيَّاه في الدُّنيا دليلٌ على محبَّتِه له، وأنَّه على الحَقِّ! بل الواجِبُ على العَبدِ أن يَعتبِرَ النَّاسَ بالحَقِّ، ويَنظُرَ إلى الحقائِقِ الشَّرعيَّةِ، ويَزِنَ بها النَّاسَ، ولا يَزِنَ الحَقَّ بالنَّاسِ[٢]، فإنَّ بَعضَ المُسلِمينَ ضُعفاءِ الإيمانِ انبَهَروا بما عليه الكُفَّارُ، وظَنُّوا أنَّ ما هم عليه مِن تحَلُّلِ الأخلاقِ، وفَسادِ العقائِدِ، والكُفرِ: هو الَّذي أوجَبَ أن يَكونوا على هذا المُستوى مِن التَّقَدُّمِ المادِّيِّ، فانبَهَروا بذلك، وانفَلَتوا مِنَ الدِّينِ[٣]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مُعارَضةُ أقوالِ الرُّسُلِ بأقوالِ غَيرِهم: مِن فِعلِ الكُفَّارِ، كما قال تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وكُلُّ مَن عارَضَ القُرآنَ وجادَلَ في ذلك بعَقلِه ورَأيِه، فهو داخِلٌ في ذلك، وإنْ لم يَزعُمْ تَقديمَ كَلامِه على كَلامِ اللهِ ورَسولِه، بل إذا قال ما يُوجِبُ المِرْيةَ والشَّكَّ في كلامِ اللهِ فقد دخَلَ في ذلك،

---

= النَّارِ، الَّذي وعَد اللهُ أهلَ الكفرِ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٠).

فكيفَ بمَن يَزعُمُ أنَّ ما يَقولُه بعَقلِه ورَأيِه مُقَدَّمٌ على نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ[١]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُمْلي للكفَّارِ، ويُمهِلُهم ويُمَكِّنُهم مِن التَّقلُّبِ في البلادِ حيث شاؤُوا[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ جعَل سبحانَه الأحزابَ المكذِّبينَ كلَّهم مِن بَعدِ قَومِ نوحٍ، وهذا يدُلُّ على أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ هو أوَّلُ الرُّسلِ، وهذا أمرٌ معلومٌ متقرِّرٌ في عدَّةِ آياتٍ وفي الأحاديثِ أيضًا، وبه نَعلَمُ أنَّ مَن زعَم أنَّ إدريسَ عليه السَّلامُ كان قبْلَ نوحٍ عليه السَّلامُ فإنَّه مخطئٌ، ولا وجْهَ لقولِه[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ بيانُ ما تَنطوي عليه صدورُ المكذِّبينَ للرُّسلِ مِن الهَمِّ بقتلِهم، يعني: أنَّ المكذِّبينَ للرُّسلِ لم يَقتصِروا على أنْ يُكذِّبوا فقط، بل هَمُّوا بالقتلِ، والقتلُ والاغتيالُ والسَّجنُ والسَّبُّ والشَّتمُ كلُّه سلاحُ العاجزِ؛ لأنَّ القادرَ على دفْعِ الحُجَّةِ هو الَّذي يَدفَعُ الحُجَّةَ بحُجَّةٍ مِثلِها، أمَّا أن يَستعمِلَ سُلطتَه فهذا يدُلُّ على عجْزِه؛ ولهذا قال فِرعَونُ لموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وقال أبو إبراهيمَ «آزَرُ»: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾[٤] [مريم: ٤٦].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ لقولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾؛ لأنَّ الفاءَ للسَّببيَّةِ، وإثباتُ الأسبابِ

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حقٌّ، وهو مقتضَى حِكمةِ الله عزَّ وجلَّ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إثباتُ تقديرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ للأشياءِ، أي: إثباتُ أنَّ الأشياءَ قد كُتِبَت مِن قَبْلُ، وهذا لا يُنافي إرسالَ الرُّسُلِ، ولا يُنافي الأمرَ بما أَمَر به، ولا النَّهيَ عمَّا نهى اللهُ عنه؛ لأنَّ اللهَ تعالى أعطى الإنسانَ عَقلًا ورُشدًا وبَصيرةً يَعرِفُ كيف يَتصَرَّفُ، فإذا أُرسِلَت الرُّسُلُ مع الفِطرةِ الأُولى ثمَّ عانَدَ، فقد قامت عليه الحُجَّةُ[٢].

٧- في قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ إثباتُ الكلامِ لله؛ لقولِه: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، ومِن عقيدةِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ اللهَ تعالى يَتكلَّمُ بكلامٍ مَسموعٍ، وبحَرْفٍ[٣].

٨- في قولِ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ عنايةُ الله عزَّ وجلَّ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيثُ أضاف إليه الرُّبوبيَّةَ، فقال: ﴿رَبِّكَ﴾، وهذه الرُّبوبيَّةُ خاصَّةٌ؛ لأنَّ رُبوبيَّةَ الله عزَّ وجلَّ نَوعانِ: عامَّةٌ وخاصَّةٌ، فالعامَّةُ: الشَّامِلةُ لكلِّ شَيءٍ، والخاصَّةُ: المُختصَّةُ بما أُضيفَتْ له[٤].

٩- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ خُلودُ الَّذين كَفَروا في النَّارِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾، ووَجْهُ ذلك: أنَّ الصُّحبةَ تَقتضي المُلازَمةَ، ولا يُمكِنُ أن تكونَ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ لِمَن تُوُعِّدوا بدُخولِ النَّارِ ثمَّ يُخرَجونَ منها، إنَّما تكونُ لِمَن هم أهلُ النَّارِ الَّذين هم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥).

أهلُها وأصحابُها[١].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾

- قولُه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ نشَأَ مِن قَولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]، المُقتَضي أنَّ كَوْنَ القرآنِ مُنَزَّلًا مِن عِندِ اللهِ أمْرٌ لا رَيبَ فيه، فيَنشأُ في نُفوسِ السَّامِعينَ أنْ يَقولوا: فما بالُ هؤلاء المُجادِلينَ في صِدقِ نِسبةِ القرآنِ إلى اللهِ لم تُقنِعْهم دَلائلُ نُزولِ القرآنِ مِنَ اللهِ؟ فأُجيبَ بأنَّه ما يُجادِلُ في صِدقِ القرآنِ إلَّا الَّذينَ كَفَروا باللهِ. وإذْ قد كان كُفْرُ المُكَذِّبينَ بالقرآنِ أمرًا معلومًا، كان الإخبارُ عنهم بأنَّهم كافِرونَ غيْرَ مَقصودٍ منه إفادةُ اتِّصافِهم بالكُفرِ؛ فتعَيَّنَ أنْ يَكونَ الخبَرُ غيْرَ مُستعمَلٍ في فائدةِ الخبَرِ، لا بمَنطوقِه ولا بمَفهومِه؛ فإنَّ مَفهومَ الحَصرِ -وهو أنَّ الَّذينَ آمَنوا لا يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ- كذلك أمْرٌ مَعلومٌ مُقرَّرٌ، فيَجوزُ أنْ يُجعَلَ المُرادُ بالَّذينَ كَفَروا نَفْسَ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ، وأنَّ المُرادَ بكُفرِهم كُفْرُهم بوَحدانيَّةِ اللهِ بسببِ إشراكِهم، فالمَعنى: لا عَجَبَ في جِدالِهم بآياتِ اللهِ؛ فإنَّهم أتَوْا بما هو أعظَمُ، وهو الإشراكُ. ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ المُرادُ بالَّذينَ كَفَروا جميعَ الكافِرينَ باللهِ مِنَ السَّابِقينَ والحاضِرينَ، أي: ما الجَدَلُ في آياتِ اللهِ إلَّا مِن شأنِ أهْلِ الكُفرِ والإشراكِ، ومُجادَلةُ مُشرِكي مكَّةَ شُعْبةٌ مِن شُعَبِ مُجادَلةِ كلِّ الكافِرينَ؛ فيَكونَ استِدلالًا بالأعَمِّ على الخاصِّ. وعلى كِلا الوَجهَينِ تُرِكَ عَطفُ هذه الجُملةِ على الَّتي قَبْلَها[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٣، ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨١، ٨٢).

- والمُرادُ بالمُجادَلةِ هنا في قولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المُجادَلةُ بالباطِلِ، بقَرينةِ السِّياقِ؛ فمعنى ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في صِدقِ آياتِ اللهِ، بقَرينةِ قَولِه: ﴿تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [غافر: ٢]؛ فتعَيَّنَ تَقديرُ مُضافٍ دَلَّ عليه المَقامُ(١).

- وصِيغةُ المُفاعَلةِ ﴿يُجَٰدِلُ﴾؛ للمُبالَغةِ في الفِعلِ مِن جانبٍ واحدٍ؛ لإفادةِ التَّكرُّرِ(٢).

- ولِتَعلُّقِ (في) الظَّرفيَّةِ بالجِدالِ، ولِدُخولِه على نفْسِ الآياتِ دُونَ أحوالِها في قَولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ مَوقِعٌ عظيمٌ مِنَ البَلاغةِ؛ لأنَّ الظَّرفيَّةَ تَحوي جميعَ أصنافِ الجِدالِ. وجُعِل مَجرورُ الحَرفِ نفْسَ الآياتِ دُونَ تَعيينِ نَحوِ «صِدقِها»، أو «وُقوعِها»، أو «صِنفِها»؛ فكان قَولُه: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ جامِعًا للجدَلِ بأنواعِه، ولمُتعلَّقِ الجدَلِ باختِلافِ أحوالِه، والمرادُ الجِدالُ بالباطِلِ؛ كما دَلَّ عليه تَنظيرُ حالِهم بحالِ مَن قال فيهم: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾ [غافر: ٥]، فإذا أُريدَ الجِدالُ بالحقِّ يُقَيَّدُ فِعلُ الجِدالِ بما يدُلُّ عليه، والمعنى: ما يُجادِلُ في آياتِ اللهِ أنَّها مِن عِندِ اللهِ؛ فإنَّ القرآنَ تَحدَّاهم أنْ يأتوا بمِثلِه فعَجَزوا، وإنَّما هو تَلفيقٌ وتَستُّرٌ عن عَجزِهم عن ذلك، واعتِصامٌ بالمُكابَرةِ، فمُجادَلتُهم بعدَ ما تَقدَّمَ مِنَ التَّحدِّي دالَّةٌ على تَمكُّنِ الكفرِ منهم، وأنَّهم مُعانِدونَ، وبذلك حصَلَ المقصودُ مِن فائدةِ هذا، وإلَّا فكَوْنُهم كُفَّارًا مَعلومٌ(٣).

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ في قَولِه: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دُونَ أنْ يَقولَ: (في آياتِه)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٨٢، ٨٣).

لتَفظيعِ أمْرِها بالصَّريحِ؛ لأنَّ ذِكرَ اسمِ الجَلالةِ مؤْذِنٌ بتَفظيعِ جِدالِهم وكُفرِهم، وللتَّصريحِ بزِيادةِ التَّنويهِ بالقرآنِ(١).

- وفُرِّع قَولُه: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ على مَضمونِ ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ مُقتَضى تلك الجُملةِ أنَّ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ هُم أهلُ الكفرِ، وذلك مِن شأنِه أنْ يُثيرَ في نفْسِ مَن يَراهُم في متعةٍ ونِعمةٍ أنْ يَتساءَلَ في نفْسِه: كيف يَترُكُهمُ اللهُ على ذلك؟ ويَظُنَّ أنَّهم أَمِنوا مِن عَذابِ اللهِ؛ ففُرِّع عليه الجَوابُ ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، أي: إنَّما هو استِدراجٌ ومِقدارٌ مِن حِلمِ اللهِ ورحمتِه بهم وقتًا ما، أو أنَّ مَعناهُ: نحنُ نعلمُ أنَّهم يُجادِلونَ في آياتِنا إصرارًا على الكُفرِ، فلا يُوهِمْكَ تَقلُّبُهم في البلادِ أنَّا لا نؤاخِذُهم بذلك؛ فإنَّا نأخُذُهم أَخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ(٢).

- والتَّقلُّبُ: اختِلافُ الأحوالِ، وهو كِنايةٌ عن تَناوُلِ مَحبوبٍ ومَرغوبٍ. والبِلادُ: الأرضُ، وأُريدَ بها هنا الدُّنيا؛ كِنايةً عن الحَياةِ(٣).

- والمُخاطَبُ بالنَّهيِ في قَولِه: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ غيْرَ مُعَيَّنٍ؛ فيَعُمَّ كلَّ مَن شأنُه أنْ يَغُرَّه تَقَلُّبُ الَّذينَ كَفَروا في البِلادِ، وعلى هذا يَكونُ النَّهيُ جاريًا على حقيقةِ بابِه، أي: موَجَّهًا إلى مَن يُتَوقَّعُ منه الغُرورُ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الخِطابُ موَجَّهًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، على أنْ تَكونَ صيغةُ النَّهيِ تَمثيليَّةً؛ بتَمثيلِ حالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في استِبطائِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣).

عِقابَ الكافِرينَ بحالِ مَن غَرَّهُ تَقَلُّبُهم في البِلادِ سالِمينَ[١]. أو يكونَ نهَى اللهُ جلَّ وعلا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم في هذه الآيةِ الكريمةِ -ليُشرِّعَ لأُمَّتِه- عن أنْ يُغرَّه تقلُّبُ الَّذين كفَروا في بلادِ الله[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾

- قولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ...﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، باعتِبارِ التَّفريعِ الواقِعِ عَقِبَ هاتِهِ الجُمَلِ مِن قَولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ فالمَعنى: سبَقَتْهم أُمَمٌ بتَكذيبِ الرُّسُلِ كما كَذَّبوكَ، وجادَلوا بالباطِلِ رُسُلَهم كما جادَلَكَ هؤلاء، فأخَذْتُهم، فكيف رأيْتَ عِقابي إيَّاهُم؟ كذلك مثلُ هؤلاء في إمهالِهم إلى أنْ آخُذَهُم[٣].

- وبَدأ بقَومِ نوحٍ؛ إذْ كان عليه السَّلامُ أوَّلَ رَسولٍ في الأرضِ، وعطَفَ على قَومِه الأحزابَ، وهُمُ الَّذينَ تَحزَّبوا على الرُّسُلِ ولم يَقْبَلوا ما جاؤُوا به مِن عِندِ اللهِ، ومنهم: عادٌ، وثَمودُ، وفِرعونُ وأتْباعُه[٤].

- قولُه: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ قال: (هَمَّتْ)، ثمَّ بيَّن أنَّهم هَمُّوا بأخْذِ رسولِهم؛ فكان فيه إجمالٌ، وأَعقَبَه تَفصيلٌ. واختِيرَ الفِعلُ ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ هنا؛ لِيَشملَ مُختلفَ ما همَّتْ به كُلُّ أمَّةٍ برَسولِها؛ مِن قتلٍ أو غيرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٣، ٨٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٥).

- وفي قولِه: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ قُدِّمَ الهَمُّ بالأخذِ على الجِدالِ بالباطِلِ؛ لأنَّ الرُّسُلَ لَمَّا عصَمَهمُ اللهُ منهم أنْ يَقتُلوهم رَجَعوا إلى الجِدالِ بالباطِلِ[1].

- والباءُ في ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾ للمُلابَسةِ، أي: جادَلوا مُلابِسينَ للباطِلِ، أو الباءُ للآلةِ، بتَنزيلِ الباطِلِ مَنزِلةَ الآلةِ لجِدالِهم[2].

- ويُفهَمُ مِن تَفريعِ قَولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ على قَولِه: ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ إنذارُ المُشرِكينَ أنَّ هَمَّهم بقَتلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو مُنتهَى أمَدِ الإمهالِ لهم، فإذا صَمَّموا العَزمَ على ذلك أخَذَهمُ اللهُ كما أخَذَ الأُمَمَ المُكَذِّبةَ قَبْلَهم حينَ همَّتْ كلُّ أمَّةٍ برسولِهم لِيأخُذوه؛ فإنَّ قُرَيشًا لَمَّا هَمُّوا بقتلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَنْجاهُ اللهُ منهم بالهِجرةِ، ثمَّ أمكَنَه مِن نَواصيهم يَومَ بَدرٍ؛ فالمقصودُ مِن تَعدادِ جرائمِ الأُمَمِ السَّابِقةِ؛ مِن تَكذيبِ الرُّسُلِ، والهَمِّ بقَتلِهم، والجِدالِ بالباطِلِ: تَنظيرُ حالِ المُشرِكينَ النَّازِلِ فيهم قَولُه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤] بحالِ الأُمَمِ السَّابِقينَ سَواءً؛ لِيَنطبِقَ الوعيدُ على حالِهم أكمَلَ انطِباقٍ في قَولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[3].

- قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الاستِفهامُ بـ (كيف) مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ مِن حالةِ العِقابِ، واستِعظامٌ لِما حَلَّ بهم، وذلك يَقتَضي أنَّ المُخاطَبَ بالاستِفهامِ قد شاهَدَ ذلك الأخْذَ والعِقابَ، وإنَّما بُنيَ ذلك على مُشاهَدةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

آثارِ ذلك الأخْذِ في مُرورِ الكثيرِ على دِيارِهم في الأسفارِ، وفي سَماعِ الأخبارِ عن نُزولِ العِقابِ بهم وتَوصيفِهم، فنُزِّلَ جميعُ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن شاهَدَ نُزولَ العَذابِ بهم؛ ففي هذا الاستِفهامِ تَحقيقٌ وتَثبيتٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾. ويَجوزُ أنْ يَكونَ في هذا الاستِفهامِ معنَى التَّقريرِ؛ بِناءً على أنَّ المَقصودَ بقَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ التَّعريضُ بتَهديدِ المُشرِكينَ مِن قُرَيشٍ، بتَنبيهِهم على ما حَلَّ بالأُمَمِ قَبْلَهم؛ لأنَّهم أمثالُهم في الإشراكِ والتَّكذيبِ؛ فلذلك يَكونُ الاستِفهامُ عمَّا حَلَّ بنُظَرائِهم تَقريريًّا لهم بذلك[1].

- وقولُه: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ أي: بالعِقابِ؛ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ فالأخْذُ واقعٌ موقعَ العِقابِ، وهذا بِناءً على أنَّ الاستِفهامَ تقريريٌّ، وعلى القول بأنَّه للتَّعظيمِ يكونُ معنَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فما أعْظَمَ عِقابي وأشَدَّه، حيثُ أزالهم عن آخِرِهم[2]! ولَمَّا كان أخْذُه عظيمًا، دلَّ على عظَمتِه بأنَّه أهلٌ لأنْ يُسأَلَ عن حالِه؛ لزِيادةِ عَظَمةِ الأخْذةِ في قوَّةِ بطْشِها، وسُرعةِ إهلاكِها، وخرْقِها للعوائدِ؛ فقال: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ الواوُ عاطفةٌ على جملةِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾، أي: ومِثلُ ذلك الحقِّ حَقَّتْ كَلِماتُ ربِّكَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٧٧، ٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠).

فالمُشارُ إليه المَصدرُ المأخوذُ مِن قَولِه: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾، وهو يُفيدُ أنَّ المُشَبَّهَ بلَغَ الغايةَ في وَجهِ الشَّبَهِ، حتَّى لو أرادَ أحَدٌ أنْ يُشَبِّهَه لم يُشَبِّهْهُ إلَّا بنفْسِه. ويجوزُ جعْلُ المُشارِ إليه الأخْذَ المأخوذَ مِن قَولِه: ﴿فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾ [غافر: ٥]، أيْ: ومِثلُ ذلك الأخذِ الَّذي أخَذَ اللهُ به قَومَ نوحٍ والأحزابَ مِن بَعدِهم حَقَّتْ كَلِماتُ اللهِ على الَّذين كفَروا، فعُلِمَ مِن تَشبيهِ تَحقُّقِ كَلِماتِ اللهِ على الَّذين كَفَروا بذلك الأخذِ؛ لأنَّ ذلك الأخْذَ كان تَحقيقًا لكَلِماتِ اللهِ، أي: تَصديقًا لِمَا أخبَرَهم به مِنَ الوَعيدِ، فالمُرادُ بالَّذينَ كَفَروا جميعُ الكافِرينَ، فالكلامُ تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ، فهو تَذْييلٌ؛ لأنَّ المُرادَ بالأحزابِ الأُمَمُ المَعهودةُ الَّتي ذُكِرتْ قِصَصُها؛ فيَكونُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أعَمَّ، وبذلك يَكونُ التَّشبيهُ في قَولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ جاريًا على أصلِ التَّشبيهِ مِنَ المُغايَرةِ بيْن المُشَبَّهِ والمُشَبَّهِ به. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ عَيْنَ المُرادِ بقَولِه آنِفًا: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، أي: مِثلُ أخْذِ قَومِ نوحٍ والأحزابِ حَقَّتْ كَلِماتُ ربِّكَ على كفَّارِ قَومِكَ، أيْ: حَقَّتْ عليهم كَلِماتُ الوَعيدِ إذا لم يُقلِعوا عن كُفرِهم(١).

- قولُه: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ قُرِئَ بالإفرادِ، وقُرِئَ بصيغةِ الجَمعِ ﴿كَلِمَاتُ﴾(٢)، والإفرادُ هنا مُساوٍ للجَمعِ؛ لأنَّ المُرادَ به الجِنسُ، بقَرينةِ أنَّ الضَّميرَ المَجرورَ بـ ﴿عَلَى﴾ تَعلَّقَ بفِعلِ ﴿حَقَّتۡ﴾، وهو ضَميرُ جَمعٍ؛ فلا جَرَمَ أنْ تَكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٧، ٨٨).

(٢) قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو جعفرٍ بالجَمعِ ﴿كَلِمَاتُ﴾، والباقون بالإفرادِ. يُنظر: ((المبسوط في القراءات العشر)) لأبي بكر الأصبهاني (ص: ٣٨٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٢٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٦٢).

الكَلِمةُ جِنسًا صادقًا بالمُتَعدِّدِ بحسَبِ تَعدُّدِ أزمانِ كَلِماتِ الوَعيدِ، وتَعدُّدِ الأُمَمِ المُتوعَّدةِ(١).

- قولُه: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ بدَلًا مِن ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ بدَلًا مُطابِقًا؛ فيَكونَ ضَميرُ ﴿أَنَّهُمْ﴾ عائدًا إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، أي: حَقَّ عليهم أنْ يَكونوا أصحابَ النَّارِ، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ غيرُ مُعاقِبٍ أمَّةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ (أمَّةَ الدَّعوةِ) بالاستِئصالِ؛ لأنَّه أراد أنْ يُخرِجَ منهم ذُرِّيَّةً مؤمِنينَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المعنى: لأنَّهم أصحابُ النَّارِ، على تقديرِ لامِ تَعليلٍ مَحذوفةٍ على طَريقةِ كَثرةِ حَذفِها قبْلَ (أنَّ)؛ فيَكونَ ضميرُ ﴿أَنَّهُمْ﴾ عائدًا إلى جميعِ ما ذُكِرَ قَبْلَه مِن قَومِ نوحٍ والأحزابِ مِن بَعدِهم ومِنَ الَّذينَ كَفَروا. وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ قُرَيشٌ، ومَعناهُ: كما وجَبَ إهلاكُ أولئك الأُمَمِ، كذلك وجَبَ إهلاكُ هؤلاء؛ لأنَّ عِلَّةً واحدةً تَجمَعُهم: أنَّهم مِن أصحابِ النَّارِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٨).

## الآيات (٧-٩)

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩﴾.

### غريب الكلمات:

﴿عَدۡنٍ﴾: أي: إقامةٍ واستِقرارٍ وثباتٍ، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[1].

﴿وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾: الذُّرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسْلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، قيل: أصلُها مِن (ذرَأ)، أي: خلَق؛ لأنَّها خلْقُ الله، وحُذِفت الهمزةُ منها، وقيل: أصلُها مِن الذَّرِّ، بمعنَى التَّفريقِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذَرَّهم في الأرضِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى عن حمَلةِ العَرشِ ومَن حَوْلَه، وعن كمالِ لُطفِه بعبادِه المؤمنينَ، وأنَّه قيَّض هؤلاء الملائكةَ أنْ يَدْعوا لهم، فيقولُ: الملائِكةُ الَّذين يَحمِلونَ عَرشَ الرَّحمنِ ومَن حَوْلَ العَرشِ يُنَزِّهونَ رَبَّهم عن النَّقائِصِ، ويُؤمِنونَ به، ويَطلُبونَ مِن اللهِ المَغفِرةَ للَّذين آمَنوا قائِلينَ: ربَّنا وَسِعَتْ رحمتُك كُلَّ شَيءٍ، ووَسِعَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

عِلمُك كلَّ شَيءٍ؛ فاغفِرْ للَّذين تابوا واتَّبَعوا دينَ الإسلامِ، واصرِفْ عنهم عذابَ الجَحيمِ.

ربَّنا وأدخِلْهم جنَّاتِ عَدْنٍ الَّتي وعَدْتَهم، وأدخِلْ معهم مَنْ صلَحَ في الدُّنيا مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم؛ إنَّك أنت العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، الحَكيمُ في شَرعِك وقَدَرِك، وقِهِمْ يا ربَّنا السَّيِّئاتِ، ومَن تَصرِفْ عنه عاقِبةَ سَيِّئاتِه يومَ القيامةِ فقد رَحِمْتَه، وذلك هو الفَوزُ العظيمُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الكُفَّارَ يُبالِغونَ في إظهارِ العَداوةِ مع المؤمِنينَ؛ بيَّنَ أنَّ أشرَفَ طَبقاتِ المخلوقاتِ هم الملائكةُ الَّذين هم حَمَلةُ العَرشِ، والحافُّونَ حَوْلَ العَرشِ؛ يُبالِغونَ في إظهارِ المَحَبَّةِ والنُّصرةِ للمُؤمِنينَ، كأنَّه تعالى يقولُ: إنْ كان هؤلاء الأراذِلُ يُبالِغونَ في العَداوةِ، فلا تُبالِ بهم، ولا تَلتَفِتْ إليهم، ولا تُقِمْ لهم وَزنًا؛ فإنَّ حَمَلةَ العَرشِ معك، والحافُّونَ مِن حَوْلِ العَرشِ معك يَنصُرونَك[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ جِدالَ الكفَّارِ في آياتِ اللهِ وعِصيانَهم؛ ذكَرَ طاعةَ هؤلاء المُصطَفَينَ مِن خَلقِه، وهُم حَمَلةُ العَرشِ ومَن حَوْلَه، وهُمُ الحافُّونَ به مِنَ المَلائكةِ[2].

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٧).

أي: الملائكةُ الَّذين يَحمِلونَ عَرشَ الرَّحمنِ والملائكةُ المُقَرَّبونَ الَّذين يَحُفُّونَ بالعَرشِ يُنَزِّهونَ رَبَّهم عن النَّقائِصِ تَنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحَبَّةً وتعظيمًا، ويُؤمِنونَ برَبِّهم، فيُقِرُّونَ بوُجودِه ورُبوبيَّتِه وألوهيَّتِه، وأسمائِه وصِفاتِه، ويُقِرُّونَ بأنَّه الإلهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه؛ فلا يَستَكبِرونَ عن عِبادتِه[1].

قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٧].

وعن جابِرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((أُذِنَ لي أن أُحَدِّثَ عن مَلَكٍ من مَلائِكةِ اللهِ مِن حَمَلةِ العَرشِ: إنَّ ما بيْنَ شَحْمةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةُ سَبْعِمئةِ عامٍ!))[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٨، ٨٩).

قال الرسعني: (﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ﴾ وهم أربعةُ أملاكٍ، فإذا كان يومُ القيامةِ جُعِلوا ثمانيةً). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٩١). ونسَبه ابنُ الجوزيِّ إلى قولِ الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣١).

وقال ابنُ عثيمين: (والمشهورُ أنَّ حمَلَتَه الآنَ أربعةٌ، وفي يومِ القيامةِ يَكونون ثمانيةً). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٧).

قال جلالُ الدِّينِ المحلي، والشِّربيني: في قولِه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: يقولونَ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٥).

وقال السعدي: (﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ هذا مدحٌ لهم بكثرةِ عبادتِهم للهِ تعالى، وخصوصًا التسبيحَ والتحميدَ. وسائرُ العباداتِ تدخُلُ في تسبيحِ الله وتحميدِه؛ لأنَّها تنزيهٌ له عن كونِ العبدِ يصرفُها لغيرِه، وحمدٌ له تعالى، بل الحمدُ هو العبادةُ للهِ تعالى، وأمَّا قولُ العبدِ: «سبحانَ اللهِ وبحمدِه» فهو داخلٌ في ذلك، وهو مِن جملةِ العباداتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٧٢٧) واللَّفظُ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٤٢١) بلفظ: ((سبعين))، والبيهقي في ((الأسماء والصفات)) (٨٤٦). =

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: ويَطلُبونَ مِن الله المَغفرةَ للَّذين آمَنوا بما يجِبُ الإيمانُ به، وأقَرُّوا بوَحدانيَّةِ الله، وتَبَرَّؤوا مِن كُلِّ مَعبودٍ سِواه[1].

كما قال الله سبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥].

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت المَغفِرةَ لها لوازِمُ لا تَتِمُّ إلَّا بها غيرُ ما يَتبادَرُ إلى كثيرٍ مِن الأذهانِ؛ أنَّ سُؤالَها وطَلَبَها غايتُه مُجَرَّدُ مَغفرةِ الذُّنوبِ- ذكَرَ تعالى صِفةَ دُعائِهم لهم بالمَغفِرةِ، بذِكرِ ما لا تَتِمُّ إلَّا به، فقال[2]:

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.

أي: تَقولُ الملائِكةُ: يا رَبَّنا وَسِعَتْ رَحمتُك كُلَّ شَيءٍ، ووَسِعَ عِلمُك كُلَّ شَيءٍ، فما مِن شَيءٍ إلَّا شَمِلَتْه رحمتُك، ونالَه منها حَظٌّ ونصيبٌ، وأحاطَ به عِلمُك[3].

---

= صَحَّح إسنادَه الذهبيُّ في ((العلو)) (ص: ٩٧)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٧٢٧)، وجوَّده ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٢٣٩)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١/ ٨٠): (رجالُه رجالُ الصَّحيح). وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٣٣): (إسنادُه على شرط الصَّحيح). وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٧٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٥)، =

﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾.

أي: فاستُرِ الذُّنوبَ وتَجاوَزْ عن المؤاخَذةِ بها: للَّذين تابوا مِنَ الشِّركِ والمعاصي، والتَزَموا بما شرَعْتَه مِن دينِ الإسلامِ، فوَحَّدوك وعَمِلوا بما أمَرْتَهم به، وانتَهَوا عمَّا نَهَيْتَهم عنه[١].

﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

أي: واصرِفْ عنهم عذابَ النَّارِ يومَ القيامةِ[٢].

﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا طَلَبَ الملائِكةُ مِنَ اللهِ إزالةَ العَذابِ عنهم؛ أردَفوه بأنْ طَلَبوا مِنَ اللهِ إيصالَ الثَّوابِ إليهم[٣]؛ إذ كانت النَّجاةُ مِنَ العذابِ لا تَستلزِمُ الثَّوابَ[٤].

---

= ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٨٩).

قال ابنُ عثيمين: (جملةُ ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ هي عبارةٌ عن توسُّلٍ، أي: توسَّلوا بسَعةِ عِلمِ اللهِ ورَحمتِه إلى مَطلوبِهم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١، ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤).

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ﴾.

أي: يا رَبَّنا وأدخِلِ الَّذين تابُوا واتَّبَعوا سَبيلَك جنَّاتِ عَدْنٍ الَّتي وعَدْتَهم بإدخالِهم إيَّاها(١).

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا * جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا * تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٠ - ٦٣].

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾.

أي: وأدخِلْ جنَّاتِ عَدْنٍ أيضًا مَنْ صَلَح في الدُّنيا مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم، فآمَنَ وعَمِلَ الصَّالحاتِ(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٥، ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

قال الشَّوكاني: (المرادُ بالصَّلاحِ هاهنا: الإيمانُ باللهِ، والعَمَلُ بما شرَعَه اللهُ؛ فمَنْ فَعَل ذلك فقد صَلَح لدُخولِ الجنَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٣).

أي: إنَّك أنت العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، ولا يُرامُ جَنابُه، فأنت ذو القَدْرِ والسِّيادةِ، الغالِبُ القاهِرُ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ الحَكيمُ في شَرْعِك وقَدَرِك وتدبيرِ خَلْقِك، فتَضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[١].

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٩ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان طلَبُ الغُفرانِ يَتضمَّنُ إسقاطَ العَذابِ؛ أَردَفوهُ بالتَّضرُّعِ بوِقايَتِهِمُ العَذابَ على سبيلِ المُبالَغةِ والتَّأكيدِ[٢].

وأيضًا لمَّا كان الإنسانُ قد يُغفرُ له ويُكرمُ، وفيه مِن الأخلاقِ ما رُبَّما حمَله على بعضِ الأفعالِ النَّاقِصةِ، دَعَوْا لهم بالكمالِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، فقالوا[٣]:

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾.

أي: واحفَظِ المؤمِنينَ الَّذين تابوا واتَّبَعوا سَبيلَك مِمَّا يَسوؤُهم، مِن ارتِكابِ الأعمالِ السَّيِّئةِ، وعُقوباتِها الَّتي تَسوءُ أصحابَها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥، ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣).

قال ابنُ جُزَي: (يحتمِلُ أن يكونَ المعنى: قِهِمُ السَّيِّئاتِ نَفْسَها، بحيثُ لا يَفعَلونَها، أو يكونَ المعنى: قِهِمْ جزاءَ السَّيِّئاتِ، فلا تُؤاخِذْهم بها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٨). وبنحوِه قال =

﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾.

أي: ومَن تَصْرِفْ عنه سوءَ عاقِبةِ سَيِّئاتِه يومَ القيامةِ فقد رَحِمْتَه بالنَّجاةِ مِن عَذابِك، ودُخولِ جنَّتِك[1].

﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

---

= ابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦).

واختار مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ أنَّ المرادَ بالسَّيِّئاتِ: الشِّركُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٧).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني، وهو وِقايَتُهم عاقِبةَ السَّيِّئاتِ وهو العذابُ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي، والنسفي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١١، ١١٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٧).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ -أي: قِهِمُ الأعمالَ السَّيِّئةَ وجزاءَها-: ابنُ القيِّم، والسعدي. يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

قال ابنُ القيِّم: (وِقايةُ السَّيِّئاتِ نَوعانِ؛ أحدُهما: وِقايةُ فِعلِها بالتَّوفيقِ فلا تَصدُرُ منه. والثَّاني: وقايةُ جزائِها بالمَغفرةِ فلا يُعاقَبُ عليها، فتضَمَّنَتِ الآيةُ سُؤالَ الأمْرَينِ). ((الجواب الكافي)) (ص: ١١٥).

وقال ابن عاشور: (السَّيِّئاتُ هنا جمْعُ سَيِّئةٍ، وهي الحالةُ أو الفَعلةُ الَّتي تَسوءُ مَن تعلَّقَت به، مِثلُ ما في قَولِه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ [غافر: ٤٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ﴾ [الأعراف: ١٣١]... والمرادُ: إبلاغُ هؤلاء المؤمِنينَ أعلى درجاتِ الرِّضا والقَبولِ يومَ الجزاءِ، بحيث لا يَنالُهم العذابُ، ويَكونونَ في بُحبُوحةِ النَّعيمِ، ولا يَعتريهم ما يُكَدِّرُهم مِن نحوِ التَّوبيخِ والفَضيحةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣، ٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤).

أي: والنَّجاةُ مِن النَّارِ ودُخولُ الجنَّةِ في الآخرةِ هو الفَوزُ الكبيرُ الَّذي لا فَوْزَ مِثلُه(١).

كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا مِن جُملةِ فَوائِدِ الإيمانِ وفَضائِلِه الكثيرةِ جِدًّا: أنَّ الملائِكةَ الَّذين لا ذُنوبَ عليهم يَستَغفِرونَ لأهلِ الإيمانِ؛ فالمؤمِنُ بإيمانِه تسَبَّبَ لهذا الفَضلِ العَظيمِ(٢). وفيه الحَثُّ على الإيمانِ؛ حتَّى تَدخُلَ ضِمْنَ مَن تَستَغفِرُ لهم الملائِكةُ، والإيمانُ كلُّه خَيرٌ وسُرورٌ، ونِعمةٌ في القَلبِ، ونِعمةٌ في البَدَنِ، حتَّى البلاءُ الَّذي يُصيبُ المؤمِنَ هو له خَيرٌ؛ لذا فاحرِصْ على تَحقيقِ إيمانِك بفِعلِ الوَسائلِ الَّتي تُنَمِّي هذا الإيمانَ وتُغَذِّيه وتُقَوِّيه(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ الاشتِراكَ في الإيمانِ يَجِبُ أن يكونَ أدعى شَيءٍ إلى النَّصيحةِ، وأبْعَثَه على إمحاضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١٢-١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩٣).

الشَّفَقةِ، وإن تفاوَتَت الأجناسُ، وتباعَدَت الأماكِنُ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ فيه أنَّ السُّنَّةَ في الدُّعاءِ أن يُبدَأَ فيه بالثَّناءِ على اللهِ تعالى، ثمَّ يُذكَرَ الدُّعاءُ عَقِيبَه[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فيه سَعَةُ رحمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فإنْ قال قائلٌ: كيف يَصِحُّ ذلك وأكثرُ بني آدمَ كُفَّارٌ! فأين الرَّحمةُ؟

**فالجواب**: هم مَرحومونَ بالرَّحمةِ العامَّةِ، مَن يُخرِجُ لهمُ النَّباتَ؟ مَن يُنزِلُ لهمُ المطرَ؟ مَن يَجْعَلُهم أصِحَّاءَ؟ مَن يُمَتِّعُهم بالأسماعِ والأبصارِ إلَّا اللهُ؟! وهذه رحمةٌ، فرحمةُ اللهِ وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ[٣]، وفي الآيةِ أيضًا سَعَةُ عِلْمِ اللهِ تعالى؛ لقولِه: ﴿وَعِلْمًا﴾، ويَترتَّبُ على هاتَينِ الفائدتَينِ أنَّ الإنسانَ متى عَلِمَ ذلك تَعَرَّضَ لرحمةِ اللهِ لعلَّه يَكونُ مِن الدَّاخِلِينَ فيها، وإذا آمَنَ بسَعَةِ عِلْمِ اللهِ استحيا مِن اللهِ أنْ يَفْقِدَه حيثُ أمَرَه، أو يَجِدَه حيثُ نَهاه[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ إثباتُ أنَّ لهذا العَرشِ حَمَلةً، وإثباتُ الحَمَلةِ له -مع قُدرةِ اللهِ سُبحانه وتعالى على إمساكِه بدونِ حَمَلةٍ- إشعارٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩١).

(٣) قال ابن عاشور: (ولَمَّا كان سِياقُ هذا الدُّعاءِ أنَّه واقِعٌ في الدُّنيا... اندفَعَ ما عسى أنْ يُقالَ: إنَّ رحمةَ اللهِ لا تَسَعُ المُشركينَ يَومَ القِيامةِ؛ إذْ هُم في عَذابٍ خالدٍ؛ فلا حاجةَ إلى تَخصيصِ عُمومِ كلِّ شَيءٍ بالنِّسبةِ إلى سَعةِ الرَّحمةِ بمُخَصِّصاتِ الأدلَّةِ المُنفصِلةِ القاضيةِ بعدَمِ سَعةِ رحمةِ اللهِ للمُشرِكينَ بعْدَ الحِسابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٣).

بتَعظيمِه، وأنَّه عظيمٌ مُعتنًى به؛ ولهذا فإنَّ اللهَ قال في السَّمَواتِ: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ [الرعد: ٢] ولم يَذْكُرْ لها حَمَلةً، والعَرشُ ذَكَرَ له حَمَلةً مع أنَّ الَّذي أمسَك السَّمَواتِ والأرضَ أنْ تَزولا قادِرٌ على إمساكِ العَرشِ بلا حَمَلةٍ، لكِنْ هذا مِن بابِ التَّعظيمِ والتَّنويهِ بشَرَفِه وعَظَمتِه(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تَدُلُّ على أنَّ استِغفارَ الملائِكةِ لأهلِ الأرضِ خاصٌّ بالمؤمِنينَ منهم، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يدُلُّ ظاهِرُها على خِلافِ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]؟

**الجواب**: أنَّ آيةَ (غافر) مُخَصِّصةٌ لآيةِ (الشورى)، والمعنى: ويَستَغفِرونَ لِمَن في الأرضِ مِنَ المؤمِنينَ؛ لِوُجوبِ تَخصيصِ العامِّ بالخاصِّ(٢).

٣- دُعاءُ الملائكةِ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ...﴾ إلى آخِرِ الدُّعاءِ، تَضَمَّنَ أمورًا؛ منها:

**أوَّلًا**: قد تَضَمَّنَ هذا الدُّعاءُ مِن الملائكةِ كَمالَ مَعرفتِهم برَبِّهم، والتَّوسُّلَ إلى اللهِ بأسمائِه الحُسنى الَّتي يُحِبُّ مِن عِبادِه التَّوسُّلَ بها إليه، والدُّعاءَ بما يناسِبُ ما دَعَوُا اللهَ فيه؛ فلمَّا كان دعاؤُهم بحُصولِ الرَّحمةِ، وإزالةِ أثَرِ ما اقتَضَتْه النُّفوسُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧).

البَشَريَّةُ الَّتي عَلِمَ اللهُ نَقْصَها واقتِضاءَها لِما اقتَضَتْه مِنَ المعاصي، ونحوِ ذلك مِن المَبادئِ والأسبابِ الَّتي قد أحاط اللهُ بها عِلمًا- تَوَسَّلوا بالرَّحيم العَليم، وتضَمَّن كَمالَ أدَبِهم مع اللهِ تعالى بإقرارِهم برُبوبيَّتِه لهم الرُّبوبيَّةَ العامَّةَ والخاصَّةَ، وأنَّه ليس لهم مِنَ الأمرِ شَيءٌ، وإنَّما دُعاؤُهم لرَبِّهم صَدَر مِن فَقيرٍ بالذَّاتِ مِن جَميعِ الوُجوهِ لا يُدِلُّ على رَبِّه بحالةٍ مِن الأحوالِ، إنْ هو إلَّا فَضْلُ اللهِ وكَرَمُه وإحسانُه.

**ثانيًا**: تضَمَّن أيضًا مُوافقَتَهم لرَبِّهم تمامَ المُوافَقةِ، بمَحبَّةِ ما يُحِبُّه مِن الأعمالِ الَّتي هي العِباداتُ الَّتي قاموا بها، واجتَهَدوا اجتِهادَ المُحِبِّينَ، ومِن العُمَّالِ الَّذين هم المؤمِنونَ الَّذين يحِبُّهم اللهُ تعالى مِن بيْنِ خَلْقِه؛ فسائِرُ الخَلقِ المُكَلَّفينَ يُبغِضُهم اللهُ إلَّا المؤمِنينَ منهم، فمِن مَحَبَّةِ الملائكةِ لهم دَعَوُا اللهَ، واجتَهَدوا في صَلاحِ أحوالِهم؛ لأنَّ الدُّعاءَ للشَّخصِ مِن أدَلِّ الدَّلائِلِ على مَحَبَّتِه؛ لأنَّه لا يدعو إلَّا لِمَن يُحِبُّه.

**ثالثًا**: تضَمَّن ما شَرَحه اللهُ وفَصَّله مِن دُعائِهم بعْدَ قَولِه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ التَّنبيهَ اللَّطيفَ على كيفيَّةِ تدَبُّرِ كِتابِه، وألَّا يَكونَ المُتدَبِّرُ مُقتَصِرًا على مجرَّدِ معنى اللَّفظِ بمُفردِه، بل يَنبغي له أن يَتدبَّرَ معنى اللَّفظِ، فإذا فَهِمَه فَهمًا صَحيحًا على وَجْهِه نظَرَ بعَقلِه إلى ذلك الأمرِ، والطُّرُقِ المُوصِلةِ إليه، وما لا يَتِمُّ إلَّا به، وما يتوقَّفُ عليه، وجزَم بأنَّ اللهَ أراده، كما يَجزِمُ أنَّه أراد المعنى الخاصَّ الدَّالَّ عليه اللَّفظُ، والَّذي يُوجِبُ له الجَزمَ بأنَّ اللهَ أراده أمْرانِ؛ أحَدُهما: مَعرفتُه وجَزْمُه بأنَّه مِن توابِعِ المعنى والمتوقِّفُ عليه. والثَّاني: عِلمُه بأنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ، وأنَّ اللهَ أمَرَ عِبادَه بالتَّدَبُّرِ والتَّفَكُّرِ في كتابِه. وقد عَلِمَ تعالى ما يَلزَمُ مِن تلك المعاني، وهو المُخبِرُ بأنَّ كِتابَه هُدًى ونُورٌ وتِبيانٌ لكُلِّ شَيءٍ، وأنَّه أفصَحُ الكَلامِ وأجَلُّه إيضاحًا، فبذلك يَحصُلُ للعَبدِ مِن العِلمِ العَظيمِ والخَيرِ الكثيرِ

بحَسَبِ ما وفَّقَه اللهُ له.

**رابعًا:** قَولُ الله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ تضَمَّن أنَّ المقارِنَ مِن زَوجٍ وولَدٍ وصاحِبٍ: يَسعَدُ بقَرينِه، ويَكونُ اتِّصالُه به سَببًا لخَيرٍ يَحصُلُ له خارِجًا عن عَمَلِه وسَبَبِ عَمَلِه، كما كانت الملائِكةُ تدعو للمؤمِنينَ ولِمَن صَلَح مِن آبائِهم وأزواجِهم وذُرِّيَّاتِهم، وقد يُقالُ: إنَّه لا بُدَّ مِن وُجودِ صَلاحِهم؛ لِقَولِه: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾؛ فحينَئذٍ يكونُ ذلك مِن نتيجةِ عَمَلِهم[1].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ يُوجِبُ أنَّ لله تعالى عَرشًا يُحمَلُ، ويُوجِبُ أنَّ ذلك العَرشَ ليس هو المُلْكَ، كما تَقولُه طائِفةٌ مِن الجَهميَّةِ؛ فإنَّ المُلْكَ هو مجموعُ الخَلقِ، فهنا دَلَّت الآيةُ على أنَّ لله ملائِكةً مِن جُملةِ خَلْقِه يَحمِلونَ عَرشَه، وآخَرونَ يكونونَ حَوْلَه[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ لَمَّا كان رُبَّما وقَعَ وَهمٌ أنَّه سُبحانَه مُحتاجٌ إلى حَملِهم لِعَرشِه، أو إلى عَرشِه، أو إلى شَيءٍ؛ نَبَّه بالتَّسبيحِ على أنَّه غَنيٌّ عن كُلِّ شَيءٍ[3].

٦- المَيتُ يَنتفِعُ بدُعاءِ الخَلْقِ له، واتَّفقَ أئمَّةُ الإسلامِ على ذلك، ودلَّ عليه كِتابُ الله تعالى؛ كقَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ...﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَقِهِمُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٢).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢).

ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾؛ فقد أخبرَ سُبحانَه أنَّ الملائِكةَ يَدْعُونَ للمُؤمِنينَ بالمَغفِرةِ، ووِقايةِ العَذابِ، ودُخولِ الجنَّةِ(١).

٧- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ تأمَّلْ ما تضَمَّنَه هذا الخبَرُ عن الملائِكةِ مِن مَدْحِهم بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، والإحسانِ إلى المؤمِنينَ بالاستِغفارِ لهم، وقَدَّموا بيْنَ يَدَيِ استِغفارِهم تَوسُّلَهم إلى اللهِ تعالى بسَعةِ عِلمِه وسَعةِ رَحمتِه؛ فسَعةُ عِلمِه تَتضَمَّنُ عِلمَه بذُنوبِهم وأسبابِها، وضَعفِهم عن العِصمةِ، واستيلاءِ عَدُوِّهم وأنفُسِهم وهواهم وطِباعِهم، وما زُيِّنَ لهم مِن الدُّنيا وزينتِها، وعِلمَه بهم إذ أنشَأَهم مِن الأرضِ وإذ هم أجِنَّةٌ في بُطونِ أمَّهاتِهم، وعِلمَه السَّابِقَ بأنَّهم لا بُدَّ أن يَعصُوه، وأنَّه يُحِبُّ العَفوَ والمَغفِرةَ، وغيرَ ذلك مِن سَعةِ عِلمِه الَّذي لا يُحيطُ به أحَدٌ سِواه. وسَعةُ رَحمتِه تَتضَمَّنُ أنَّه لا يَهلِكُ عليه أحَدٌ مِن المؤمِنينَ به أهلِ تَوحيدِه ومَحبَّتِه؛ فإنَّه واسِعُ الرَّحمةِ لا يَخرُجُ عن دائرةِ رَحمتِه إلَّا الأشقياءُ، ولا أشقَى ممَّن لم تَسَعْه رَحمتُه الَّتي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ(٢).

٨- قولُه تعالى: ﴿وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ فيه أنَّ الملائكةَ مُكَلَّفون، ووجْهُ الدَّلالةِ: أنَّهم لولا أنَّهم مُكَلَّفون قد قاموا بما كُلِّفوا به؛ لم يَكونوا مُستحِقِّينَ للثَّناءِ بالإيمانِ! لو كان هذا مِن طبيعتِهم وسَجِيَّتِهم لم يكنْ للثَّناءِ عليهم بذلك كبيرُ فائدةٍ(٣).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا﴾ إلى قولِه سبحانه: ﴿وَمَن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩٣).

صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ دليلٌ على كرامةِ المؤمنِ على اللهِ؛ إذْ قد أَلْهَم حَمَلةَ عرْشِه ومَن حَوْلَه الاستِغفارَ له، والدُّعاءَ، وما فيه -له ولآبائِه وأزواجِه وذُرِّيَّاتِه- النَّجاةُ[١].

١٠- قال الوَزيرُ ابنُ هُبَيرةَ في قَولِه تعالى: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ ﴾: (عَلِمَت الملائِكةُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يُحِبُّ عبادَه المؤمِنينَ، فتَقرَّبوا إليه بالشَّفاعةِ فيهم، وأحسَنُ القُرَبِ أنْ يُسأَلَ المُحِبُّ إكرامَ حَبيبِه؛ فإنَّك لو سألْتَ شَخصًا أن يَزيدَ في إكرامِ وَلَدِه لارتفَعْتَ عندَه؛ حيثُ تَحُثُّه على إكرامِ مَحبوبِه)[٢].

١١- يُتوسَّلُ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى بصِفاتِه كما يُتَوَسَّلُ إليه بأسمائِه، فهنا تَوَسَّلَ الملائِكةُ إلى اللهِ بالرُّبوبيَّةِ في قَولِهم: ﴿رَبَّنَا﴾، وتوسَّلوا إليه بسَعةِ الرَّحمةِ: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً ﴾، وبسَعةِ العلمِ: ﴿وَعِلْمًا﴾، والتَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بصِفاتِه هو مِن أسبابِ إجابةِ الدُّعاءِ، كالتَّوسُّلِ إليه بأسمائِه[٣].

١٢- الدُّعاءُ في أكثَرِ الأمرِ مَذكورٌ بلَفظِ (رَبَّنا)، ويدُلُّ عليه أنَّ الملائِكةَ عندَ الدُّعاءِ قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾، وقال آدَمُ عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وقال نوحٌ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧]، إلى غيرِ ذلك؛ فثَبَت أنَّ مِن أرضَى الدُّعاءِ أن يُناديَ العَبدُ رَبَّه بقَولِه: (يا رَبِّ)[٤]؛ ففيه استِعطافُ العَبدِ لِمَولاه الَّذي ربَّاه وقام بمَصالِحه مِن لَدُنْ نَشأتِه إلى وَقتِ ندائِه؛ فهو جَديرٌ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٠).

بألَّا يُناديَه إلَّا بلَفظِ الرَّبِّ[١] المُقتضي للقيامِ بأمورِ العِبادِ وإصلاحِها، فكان العبدُ مُتعلِّقًا بمَنْ شأنُه التَّربيةُ والرِّفقُ والإحسانُ، قائلًا: يا مَن هو المُصلِحُ لِشُؤونِنا على الإطلاقِ، أتِمَّ لنا ذلك بكذا، وهو مُقتضى ما يَدعو به. وإنَّما أتى «اللَّهُمَّ» في مواضعَ قليلةٍ، ولِمَعانٍ اقتضَتْها الأحوالُ[٢].

١٣- جَعْلُ الرَّحمةِ عِلَّةً للمَغفرةِ في قولِ الملائكةِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ ظاهِرٌ، أمَّا جَعْلُ العِلمِ عِلَّةً للمَغفرةِ، فمَعناهُ: حقِّقْنا أنَّ رحمتَك وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ فاغفِرْ للَّذينَ تابوا، وعرِّفْنا أنَّ عِلمَك أحاطَ بكلِّ شَيءٍ فأَنجِحْ مَقاصِدَهم ما عَلِموا وما لم يَعلَموا؛ فإنَّك أَعلَمُ بأحوالِهم ومَصالِحِهم[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ دعاءُ حمَلةِ العَرشِ ومَن حَوْلَه للتَّائبينَ المُتَّبِعينَ سبيلَ اللهِ بالمغفرةِ؛ وفيه دليلٌ على أنَّ التَّائبَ وغيرَ التَّائبِ مُحتاجٌ إلى مغفرةِ اللهِ ورِضوانِه؛ لا يُنَجِّيه عمَلُه دونَ أنْ يَجودَ عليه مَولاه برحمتِه[٤].

١٥- قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ فهذا دعاءُ الملائكةِ للمُؤمنينَ التَّائبينَ المُتَّبِعينَ لكِتابِه وسُنَّةِ رَسولِه، الَّذين لا سبيلَ لهم غيرُهما؛ فلا يَطمَعْ غيرُ هؤلاء بإجابةِ هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧).

الدَّعوةِ؛ إذْ لم يَتَّصِفْ بصِفاتِ المَدعُوِّ له بها[١]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ أنَّ مؤمني الجِنِّ يَدخُلونَ الجَنَّةَ، ودليلُ ذلك أنَّ كلَّ مؤمنٍ غَفَر اللهُ له ووقاه عذابَ الجحيم؛ فقد وَعَده الجَنَّةَ، والجِنُّ قد ثَبَت في حقِّ مؤمنِهم الإيمانُ، ومغفرةُ الذَّنْبِ، ووِقايةُ النَّارِ، كما في قولِه تعالى عن نَفَرٍ مِن الجِنِّ أنَّهم قالوا لقومِهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٣١]؛ فتَعَيَّنَ دُخولُهم الجَنَّةَ[٢].

١٧- قولُه تعالى حكايةً عن الملائكةِ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ فيه أنَّ مِن تحقيقِ التَّوبةِ اتِّباعَ سَبيلِ اللهِ؛ ولهذا نَجِدُ أنَّ اللهَ تعالى يَقرِنُ دائمًا مع التَّوبةِ ذِكْرَ العَمَلِ الصَّالحِ، كقَولِه تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾[٣] [الفرقان: ٧٠].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ أنَّ الشَّيءَ لا يَتِمُّ إلَّا بانتِفاءِ المُؤذي، وحُصولِ المطلوبِ؛ وَجْهُ ذلك: أنَّهم لَمَّا انتَهَوا مِن دُعاءِ اللهِ تعالى بانتِفاءِ المُؤذي، سألوا اللهَ تعالى حُصولَ المطلوبِ، وهو إدخالُ الجنَّاتِ[٤].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ﴾ التَّوسُّلُ إلى اللهِ تعالى بإجابةِ الدُّعاءِ، كأنَّهم يقولونَ: أدْخِلْهم هذا؛ لأنَّك وعَدْتَهم إيَّاه؛ فيكونُ مِن بابِ التَّوسُّلِ بوَعدِه

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٨).

إلى تحقُّقِ مَوعودِه[١].

٢٠- قولُهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ فيه أنَّ مِن تمامِ النَّعيمِ أنْ يَجمَعَ اللهُ بيْنَ الإنسانِ وبيْن قَرابَتِه وزَوجِه، فإنْ قال قائلٌ: هل يَلزَمُ مِن ذلك أنْ يكونوا في درجةٍ واحدةٍ؟

قُلْنا: لا يَلزَمُ، ولكِنَّ الأزواجَ لا بُدَّ أنْ يَكونوا في دَرَجةِ أزواجِهم، والذُّرِّيَّةُ ذَكَر اللهُ سبحانه وتعالى في سورةِ (الطُّورِ) أنَّها في دَرَجةِ آبائِهم أيضًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، وهذا يدُلُّ على أنَّ الذُّرِّيَّةَ الَّذين لم يَبلُغوا مَنازِلَ آبائِهم أنَّهم يُرفَعونَ حتَّى يَكونوا في مَنازِلِ آبائِهم، وأنَّ ذلك لا يَقتضي نَقْصَ الآباءِ مِن المَنازِلِ؛ ولذلك قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾[٢].

٢١- قولُهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ فيه الاحترازُ في الدُّعاءِ عن التَّعميمِ؛ حيثُ قالوا: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾، ولم يَقولوا: (وآباءَهم وأزواجَهم وذُرِّيَّاتِهم)، ومِن ذلك قولُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ﴾ أي: أهلَ المسجدِ الحرامِ ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ١٢٦]؛ فقال: ﴿أَهْلَهُۥ﴾ ثم أبدَلَ منها قَولَه: ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فاحترَزَ، ولكِنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ يعني: أرزُقُ مَن في هذا البلدِ ولو كانوا كُفَّارًا، لكِنْ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ فيَنبغي للإنسانِ في الدُّعاءِ أنْ يَحترِزَ مِن التَّعميمِ الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٨، ١٠٩).

قد يَتناوَلُ مَن لا يَستحِقُّ الدُّعاءَ، فيَكونُ في دعائِه هذا نَوعٌ مِن الاعتداءِ[١].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ﴾ أثبَتَ سبحانه الزَّوجيَّةَ لهنَّ بعدَ دُخولِ الجنَّةِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ زَوجةَ الإنسانِ في الدُّنيا تكونُ زوجتَه في الآخرةِ إذا كانت مِن أهلِ الجنَّةِ[٢].

٢٣- أخبَرَ سُبحانَه عن ملائكتِه أنَّهم قالوا عَقِيبَ هذه الدَّعوةِ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: مَصدَرُ ذلك وسَبَبُه وغايتُه صادِرٌ عن كَمالِ قُدرتِك وكمالِ عِلمِك؛ فإنَّ العِزَّةَ كَمالُ القُدرةِ، والحِكمةَ كَمالُ العِلمِ، وبهاتَينِ الصِّفَتينِ يَقضي سُبحانَه وتعالى ما شاء، ويأمُرُ ويَنهى، ويُثيبُ ويُعاقِبُ؛ فهاتان الصِّفتانِ مَصدَرُ الخَلقِ والأمرِ[٣].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ أنَّ الملائِكةَ الَّذين يَحمِلونَ العَرشَ ومَن حوْلَه يَسألونَ اللهَ تعالى أن يَقِيَ الَّذين آمَنوا السَّيِّئاتِ -أي: عذابَها (على قولٍ في التَّفسيرِ)- حتَّى يَتِمَّ لهمُ المطلوبُ، فإنْ قال قائلٌ: أليس هذا حاصِلًا مِمَّا سبَقَ ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ ﴿وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾؟

قُلْنا: بلى، ولكِنْ مقامُ الدُّعاءِ ينبغي فيه البَسطُ؛ لعِدَّةِ أسبابٍ:

**السَّببُ الأوَّلُ**: لأنَّه عِبادةٌ، فكُلَّما بَسَطْتَ فيه ازدَدْتَ تَعبُّدًا وتَقرُّبًا للهِ.

**الثَّاني**: أنَّه تفصيلٌ، والتَّفصيلُ خيرٌ مِن الإجمالِ؛ لأنَّه قد يكونُ في التَّفصيلِ ما يَغيبُ عنك عندَ الإجمالِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١١٦).

**الثَّالثُ**: أنَّه انبساطٌ مع اللهِ الَّذي هو أحَبُّ شَيءٍ إليك، والحَديثُ مع المحبوبِ لا شكَّ أنَّ كلَّ أحدٍ يُحِبُّ أن يَطولَ؛ انظُرْ إلى قَولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنْبي كُلَّه؛ دِقَّه وجِلَّه[1]، وأوَّلَه وآخِرَه، وعلانيتَه وسِرَّه))[2]، ((اللَّهمَّ اغفِرْ لي ما قدَّمْتُ وما أخَّرْتُ، وما أسرَرتُ وما أعلَنْتُ، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي))[3]، وكان يَكفي عن هذا كُلِّه أن يَقولَ: اللَّهمَّ اغفِرْ لي ذنْبي. لكِنَّ البَسطَ له تأثيرٌ على القَلبِ[4].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ أنَّ الرَّحمةَ كما تكونُ في جَلبِ المحبوبِ، تكونُ في دَفعِ المكروهِ[5].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ استِئْنافٌ ابتِدائيٌّ اقتَضاهُ الانتِقالُ مِن ذِكرِ الوعيدِ المُؤْذِنِ بذَمِّ الَّذين كَفَروا إلى ذِكرِ الثَّناءِ على المؤمِنينَ؛ فإنَّ الكلامَ الجاريَ على أَلْسِنةِ المَلائكةِ مِثلُ الكلامِ

---

(١) دِقَّه: أي: دَقيقَه وصَغيرَه. وجِلَّه: أي: جَليلَه وكَبيرَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٧٢١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٣) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩) واللفظ له، من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٧).

الجاري على ألْسِنةِ الرُّسُلِ؛ إذِ الجميعُ مِن وَحيِ اللهِ، والمُناسَبةُ: المُضادَّةُ بيْنَ الحالَينِ والمَقالَينِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن وعيدِ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ أنْ يَسألَ سائلٌ عن حالِ الَّذينَ لا يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ فآمَنوا بها[1]. أو هو استِئنافٌ مَسوقٌ لتَسليةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ببَيانِ أنَّ أشرافَ المَلائكةِ عليهمُ السَّلامُ مُثابِرونَ على ولايةِ مَن معَه مِنَ المؤمِنينَ، ونُصْرتِهم، واستِدعاءِ ما يُسعِدُهم في الدَّارَينِ[2].

- والباءُ في قَولِه: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ للمُلابَسةِ، أيْ: يُسَبِّحونَ اللهَ تَسبيحًا مُصاحِبًا للحمدِ؛ فحُذِف مَفعولُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ لدَلالةِ المُتعلِّقِ به عليه[3].

- قولُه: ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ فيه وصْفُ حَمَلةِ العرشِ بالإيمانِ -مع أنَّ إيمانَهم به مَعلومٌ لكلِّ أحَدٍ-؛ لإظهارِ شَرَفِ الإيمانِ وفَضلِه، والتَّرغيبِ فيه، وتَعظيمًا لأهلِه، كما وُصِف الأنبياءُ عليهمُ السَّلامُ بالإيمانِ والصَّلاحِ، والإشعارِ بعِلَّةِ دُعائِهم للمؤمِنينَ، حَسَبَما يَنطِقُ به قَولُه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ فإنَّ المُشارَكةَ في الإيمانِ أقْوى المُناسَباتِ وأتَمُّها، وأَدْعى الدَّواعي إلى النُّصحِ والشَّفَقةِ، وللتَّعريضِ بالمُشرِكينَ أنْ لم يَكونوا مِثلَ أشرَفِ أجناسِ المَخلوقاتِ، مِثلُ قَولِه تعالى في حقِّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[4] [الأنعام: ١٦١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٩).

- قولُه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في نَظْمِ استِغفارِ المَلائكةِ للمؤمِنينَ في سِلْكِ وظائِفِهم المَفروضةِ عليهم مِن تَسبيحِهم، وتَحميدِهم، وإيمانِهم: إيذانٌ بكمالِ اعتِنائِهم به، وإشعارٌ بوُقوعِه عِندَ اللهِ تعالى في مَوقِعِ القَبولِ[١].

- والإخبارُ عن صِنفَيِ المَلائكةِ بأنَّهم يُسَبِّحونَ ويؤْمِنونَ به تَوطئةٌ وتمهيدٌ للإخبارِ عنهم بأنَّهم يَستغفِرونَ للَّذينَ آمَنوا، فذلك هو المقصودُ مِنَ الخبَرِ، فقُدِّم له ما فيه تحقيقُ استِجابةِ استِغفارِهم؛ لصُدورِه ممَّن دأْبُهمُ التَّسبيحُ، وصِفَتُهمُ الإيمانُ[٢].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ ﴿وَيُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ﴾ مُفيدةٌ لتَجدُّدِ ذلك وتَكرُّرِه، وذلك مُشعِرٌ بأنَّ المُرادَ أنَّهم يَفعَلونَ ذلك في الدُّنيا[٣].

- وخُصَّ في هذه الآيةِ طائفةٌ مِنَ المَلائكةِ مَوصوفةٌ بأوصافٍ تَقتَضي رِفْعةَ شأنِهم؛ تَذَرُّعًا مِن ذلك إلى التَّنويهِ بشَأنِ المؤمِنينَ الَّذينَ تَستغفِرُ لهم هذه الطَّائفةُ الشَّريفةُ مِنَ المَلائكةِ[٤].

- قولُه: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ...﴾ افتُتِح دُعاءُ المَلائكةِ للمؤمِنينَ بالنِّداءِ؛ لأنَّه أدخَلُ في التَّضرُّعِ، وأرْجَى للإجابةِ، وفيها قولٌ مَحذوفٌ دلَّتْ عليه طريقةُ التَّكلُّمِ، وتقديرُ الكلامِ أنَّهم يَقولونَ: رَبَّنا ...[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٨٩، ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦١).

- وفي قولِهم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ توجَّهوا إلى اللهِ بالثَّناءِ بسَعةِ رحمتِه وعِلمِه؛ لأنَّ سَعةَ الرَّحمةِ ممَّا يُطمِعُ باستِجابةِ الغُفرانِ، وسَعةَ العِلمِ تَتعلَّقُ بثُبوتِ إيمانِ الَّذينَ آمَنوا. ومعنَى السَّعةِ في الصِّفتَينِ: كَثرةُ تَعلُّقاتِهما، وذِكرُ سَعةِ العِلمِ كِنايةٌ عن يَقينِهم بصِدقِ إيمانِ المؤمِنينَ؛ فهو بمَنزِلةِ قَولِ القائلِ: أنت تَعلَمُ أنَّهم آمَنوا بك ووَحَّدوكَ[1].

- وجِيءَ في وَصفِه تعالى بالرَّحمةِ الواسِعةِ والعِلمِ الواسِعِ بأُسلوبِ التَّمييزِ المُحَوَّلِ عن النِّسبةِ ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾؛ لِما في تَركيبِه مِنَ المُبالَغةِ بإسنادِ السَّعةِ إلى الذَّاتِ ظاهِرًا، حتَّى كأنَّ ذاتَه رحمةٌ وعِلمٌ واسِعانِ كلَّ شَيءٍ، فهيَ الَّتي وَسِعَتْ، فذلك إجمالٌ يَستَشرِفُ به السَّامعُ إلى ما يَرِدُ بَعْدَه، فيَجيءُ بَعْدَه التَّمييزُ المُبَيِّنُ لنِسبةِ السَّعةِ أنَّها مِن جانبِ الرَّحمةِ وجانبِ العِلمِ، وهي فائدةُ تَمييزِ النِّسبةِ في كلامِ العربِ؛ لأنَّ للتَّفصيلِ بعدَ الإجمالِ تَمكينًا للصِّفةِ في النَّفْسِ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ تقديمُ الرَّحمةِ على العِلمِ؛ لأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ هاهنا؛ لأنَّهم بها يَستَمطِرونَ إحسانَه، ويَتَوسَّلونَ بها إلى حُصولِ مَطلوبِهم مِن سؤالِ المَغفرةِ[3].

- وفائدةُ العُدولِ عن المُضمَرِ وأنَّه لم يُقَلْ: (فاغفِرْ لهم)، بل قيل: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ هي: أنَّ الملائكةَ كما علَّلوا الغُفرانَ في حقِّ مُفيضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧).

الخَيراتِ بالعِلمِ الشَّامِلِ والرَّحمةِ الواسِعةِ، عَلَّلوا قابلَ الفَيضِ أيضًا بالتَّوبةِ عن الشِّركِ، واتِّباعِ سبيلِ الإسلامِ[١].

- ومَفعولُ ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾ مَحذوفٌ؛ للعِلمِ، أيْ: اغفِرْ لهم ما تابوا منه، أي: ذُنوبَ الَّذينَ تابوا[٢].

- وتفَرَّعَ على التَّوطئةِ بمُناجاةِ اللهِ تعالى ما هو المُتَوسَّلُ إليه منها، وهو طلَبُ المَغفرةِ للَّذينَ تابوا؛ لأنَّه إذا كان قد عَلِم صِدقَ تَوبةِ مَن تابَ منهم، وكانت رحمتُه وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ؛ فقد استَحَقُّوا أنْ تَشملَهم رَحمتُه؛ لأنَّهم أَحْرياءُ بها[٣].

- قولُه: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ عطْفٌ على ﴿فَٱغۡفِرۡ﴾، فهو مِن جُملةِ التَّفريعِ؛ فإنَّ الغُفرانَ يَقتَضي هذه الوِقايةَ؛ لأنَّ غُفرانَ الذَّنْبِ هو عدَمُ المؤاخَذةِ به. وعَذابُ الجَحيمِ جعَلَه اللهُ لجَزاءِ المُذْنِبينَ، إلَّا أنَّهم عَضَّدوا دَلالةَ الالتِزامِ بدَلالةِ المُطابَقةِ[٤]؛ إظهارًا للحِرصِ على المَطلوبِ[٥]، وهو تصريحٌ بعدَ إشعارٍ؛ للتَّأكيدِ والدَّلالةِ على شدَّةِ العَذابِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩١).

(٤) الدَّلالةُ اللَّفظيَّةُ الوَضْعيَّةُ تَنقسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: دَلالةِ المُطابَقةِ، ودَلالةِ التَّضَمُّنِ، ودَلالةِ الالتِزامِ؛ فدَلالةُ المُطابَقةِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على تمامِ مُسَمَّاهُ؛ كدَلالةِ الإنسانِ والأسدِ على حقيقتَيْهِما. ودَلالةُ التَّضمُّنِ: دَلالةُ اللَّفظِ على بعضِ مُسَمَّاهُ؛ كدَلالةِ البَيتِ على السَّقفِ أو الحائطِ. ودَلالةُ الالتِزامِ: دَلالةُ اللَّفظِ على معنًى آخَرَ خارِجٍ عن معناه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٩، ٣٣٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٢٠٩، ٢١٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن ابن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٣٠، ١٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٧، ٢٦٨).

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ إعادةُ النِّداءِ ﴿رَبَّنَا﴾ في خِلالِ جُمَلِ الدُّعاءِ اعتِراضٌ؛ للتَّأكيدِ بزيادةِ التَّضرُّعِ، وهذا ارتِقاءٌ مِن طلَبِ وِقايَتِهمُ العَذابَ إلى طلَبِ إدخالِهم مَكانَ النَّعيمِ[1].

- وجعَلوا هذه الجُملةَ مَعطوفةً على ما سَبَق لا مُستأنَفةً، أي: لم يَقولوا: (ربَّنا أدخِلْهم)، بل قالوا: ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾؛ لتحَقُّقِ ما قبْلَها؛ لأنَّ العَطفَ يَقتضي ثُبوتَ المَعطوفِ عليه وكَوْنَه أصلًا، فكأنَّهم قالوا: ربَّنا واجمَعْ لهم مع ما سبَقَ أن تُدخِلَهم جنَّاتِ عَدْنٍ[2].

- وفي قَولِه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ نوعٌ طَريفٌ مِن أنواعِ البَلاغةِ، وهو ما يعرفُ بـ «الإسجالِ بعدَ المُغالَطةِ»، وهو أنْ يَقصِدَ المُتكلِّمُ غَرَضًا مِن مَمدوحٍ، فيأتيَ بألفاظٍ تُقرِّرُ بُلوغَه ذلك الغرَضَ؛ إسجالًا منه على المَمدوحِ به، وبيانُ ذلك: أنْ يَشترِطَ شَرطًا يَلزَمُ مِن وُقوعِه وُقوعُ ذلك الغرَضِ، ثمَّ يُخبِرَ بوُقوعِه مُغالَطةً -وإنْ لم يَكُنْ قد وقَعَ بَعْدُ- لِيَقعَ المَشروطُ، وقد يَقَعُ الإسجالُ لغَيرِ مُغالَطةٍ، وهذا القِسْمُ هو الَّذي يأتي في الكتابِ العزيزِ كثيرًا، ومنه هذه الآيةُ الكريمةُ، حيث سجَّلَ المولى سبحانَه على ألْسِنةِ عِبادِه تحقيقَ مَوعودِه على لِسانِ رَسولِه؛ ففي قولِه: ﴿ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ أنَّ هذا الوعدَ قد أصبح مُبرَمًا لا انفكاكَ لإبرامِه، وهذا هو الغرضُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٠٥).

الحقيقيُّ مِن الدُّعاءِ للمؤمنينَ؛ فبان بذلك تقريرُ هذا الغرضِ وتأكيدُه، وأنَّ الحقَّ سبحانَه سَيَفي به لعِبادِه المؤمنينَ في الآخِرةِ كما وعَدَهم(١).

- قولُه: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ عطْفٌ على الضَّميرِ (هُم) الأوَّلِ في ﴿وَأَدْخِلْهُمْ﴾، أي: أَدخِلْهُم ومعهم هؤلاءِ؛ لِيَتِمَّ سُرورُهم، ويَتضاعَفَ ابتِهاجُهم، وهو دعاءٌ بأنْ يَجعَلَهمُ اللهُ معهم في مَساكِنَ مُتقارِبةٍ، أو يُمكِنُ أنْ يَكونَ مَعطوفًا على الضَّميرِ الثَّاني في ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾؛ لبَيانِ عُمومِ الوعدِ. وقيل: هو عطْفٌ على الثَّاني في ﴿وَعَدتَّهُمْ﴾، لكنْ لا بِناءً عَلى الوَعدِ العامِّ للكلِّ كما قيلَ؛ إذْ لا يَبقى حينَئذٍ للعَطفِ وَجْهٌ، بلْ بِناءً على الوعدِ الخاصِّ بهم بقولِه تعالى: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١] بأنْ يَكونُوا أعلى درجةً مِن ذُرِّيَّتِهم(٢).

- ورُتِّبَتِ القَراباتُ في هذه الآيةِ على ترتيبِها الطَّبيعيِّ؛ فإنَّ الآباءَ أسبَقُ عَلاقةً بالأبناءِ، ثمَّ الأزواجُ، ثمَّ الذُّرِّيَّاتُ(٣). وقيل: قدَّموا الآباءَ؛ لأنَّ الآباءَ أحَقُّ النَّاسِ بالإجلالِ، وقدَّموا الأزواجَ في اللَّفظِ على الذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّهم أشَدُّ إلصاقًا بالشَّخصِ(٤).

- وجملةُ ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تَعليلٌ لِما قَبْلَها، وهي اعتِراضٌ بيْن الدَّعَواتِ؛ استِقصاءً للرَّغبةِ في الإجابةِ بداعي مَحبَّةِ المَلائكةِ لأهلِ

---

(١) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٧٤، ٥٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٢/ ١٤٢) و(٨/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٢، ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٧١).

الصَّلاحِ؛ لِما بيْن نُفوسِهم والنُّفوسِ المَلَكيَّةِ مِنَ التَّناسُبِ[١].

- واقترانُ هذه الجُملةِ بحرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بها، و(إنَّ) في مِثلِ هذا المَقامِ تُغْني غَناءَ فاءِ السَّببيَّةِ، أي: فعِزَّتُك وحِكمتُك هُما اللَّتانِ جَرَّأتَانا على سؤالِ ذلك مِن جَلالِكَ؛ فالعِزَّةُ تَقتَضي الاستِغناءَ عن الانتِفاعِ بالأشياءِ النَّفيسةِ، فلمَّا وعَدَ الصَّالِحينَ الجَنَّةَ لم يَكُنْ للهِ ما يَضِنُّه بذلك، فلا يَصدُرُ منه مَطْلٌ، والحِكمةُ تَقتَضي مُعامَلةَ المُحسِنِ بالإحسانِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾

- قولُه: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾، أي: امنَعْهُم مِنَ الوُقوعِ فيها؛ حتَّى لا يَترتَّبَ عليها جَزاؤُها، أو العُقوباتِ؛ لأنَّ جزاءَ السَّيِّئةِ سيِّئةٌ مِثلُها، أو قِهِمْ جَزاءَ السَّيِّئاتِ الَّتي اجترَحوها؛ فحُذِفَ المُضافُ، وهو تَعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ، أو مَخصوصٌ بالأتْباعِ فعلى هذا يكونُ الدعاءُ الأوَّلُ للمَتْبوعينَ، أو المعاصي في الدُّنيا؛ فقولُه: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾، أي: ومَن تَقِها في الدُّنيا فقد رَحِمْتَه في الآخِرةِ، كأنَّهم طَلَبوا السَّببَ بعدَ ما سَألوا المُسَبَّبَ[٣].

- لا تَكرارَ في قولِه: ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ ﴾ وقولِه: ﴿وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾؛ لعدَمِ تَوافُقِ المَدعُوِّ؛ إذِ الدُّعاءُ الأوَّلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨).

للَّذينَ تابوا، والثَّاني لهم ولِمَن صَلَح مِن المَذكورينَ، أو لاختِلافِ الدُّعائينِ إذا أُريدَ بالسَّيِّئاتِ أنفُسُها؛ فذلك وِقايةُ عَذابِ الجَحيمِ، وهذا وِقايةُ الوُقوعِ في السَّيِّئاتِ[١].

- وصِيغَتْ كَلِمةُ (سَيِّئة) على وَزنِ فَيْعَلة؛ للمُبالَغةِ في قِيامِ الوَصفِ بالمَوصوفِ، أي: وقِهِمْ مِن كلِّ ما يَسوؤُهم؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ للجِنسِ، وهو صالحٌ لإفادةِ الاستِغراقِ، فوُقوعُه في سِياقِ ما هو كالنَّفيِ -وهو فِعلُ الوِقايةِ- يُفيدُ عُمومَ الجِنسِ، على أنَّ بِساطَ الدُّعاءِ يَقتَضي عُمومَ الجِنسِ ولو بدُونِ لامِ نَفيٍ[٢].

- وقولُه: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ تَذييلٌ، أي: وكلُّ مَن وُقِيَ السَّيِّئاتِ يَومَ القِيامةِ فقد نالَتْهُ رحمةُ اللهِ، أي: نالَتْهُ الرَّحمةُ كامِلةً، ففِعلُ ﴿رَحِمۡتَهُۥۚ﴾ مُرادٌ به تَعظيمُ مَصدَرِه[٣].

- والتَّنوينُ في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ تَنوينُ العِوَضِ، والمَحذوفُ جُملةٌ عُوِّضَ منها التَّنوينُ، ولم تَتقَدَّمْ جُملةٌ يَكونُ التَّنوينُ عِوَضًا منها؛ فلا بدَّ مِنَ تَقديرِ جُملةٍ يَكونُ التَّنوينُ عِوَضًا منها يدُلُّ عليها معنَى الكلامِ، وهي: ومَن تَقِ السَّيِّئاتِ -أي: جزاءَها- يَومَ إذْ يُؤاخَذُ بها فقد رَحِمْتَهُ، أو يومَ إذْ تُدخِلُهم جنَّاتِ عدْنٍ[٤].

- قولُه: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ما في اسمِ الإشارةِ (ذَلِكَ) مِن معنَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٢).

البُعدِ؛ للإشعارِ ببُعْدِ دَرجةِ المُشارِ إليه، مع التَّنويهِ والتَّعظيمِ[١].

- ووُصِفُ ﴿ٱلْفَوْزُ﴾ بـ﴿ٱلْعَظِيمُ﴾؛ لأنَّه فَوْزٌ بالنَّعيمِ خالِصًا مِن الكُدراتِ الَّتي تَنقُصُ حلاوةَ النِّعمةِ[٢].

- وقَولُه: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۞ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ﴾ فيه احتِباكٌ[٣]؛ فذُكِرَ إدخالُ الجنَّاتِ أوَّلًا؛ دَليلًا على حَذفِ النَّجاةِ مِن النَّارِ ثانيًا، ووِقايةُ السَّيِّئاتِ ثانيًا؛ دَليلًا على التَّوفيقِ للصَّالحاتِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: التَّشويقُ إلى المحبوبِ، وهو الجِنانُ، بعَمَلِ المحبوبِ، وهو الصَّالِحُ، والتَّنفيرُ مِن النِّيرانِ باجتنابِ المَمقوتِ مِن الأعمالِ، وهو السَّيِّئُ؛ فذُكِرَ المُسَبَّبُ أوَّلًا، وحُذِفَ السَّبَبُ؛ لأنَّه لا سَبَبَ في الحقيقةِ إلَّا الرَّحمةُ، وذُكِرَ السَّبَبُ ثانيًا في إدخالِ النَّارِ، وحُذِفَ المُسَبَّبُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤).

(٣) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦، ١٧).

## الآيات (١٠-١٤)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَمَقْتُ﴾: المَقتُ: البُغضُ الشَّديدُ[1].

﴿يُنِيبُ﴾: أي: يَرجِعُ ويَتوبُ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالى ما يُقالُ للكافِرينَ وهم يُعذَّبونَ في النَّارِ، فيقولُ: إنَّ الكافِرينَ يُنادَونَ وهم في النَّارِ: لَبُغْضُ اللهِ لكم في الدُّنيا حينَ كُنتُم تُدْعَونَ فيها إلى الإيمانِ فتَكفُرونَ- أعظَمُ مِن بُغضِكم اليومَ لأنفُسِكم!

ثمَّ يَحكي سبحانَه ما يقولُه الكافرونَ بعدَ أنْ أنزَل بهم عِقابَه، فيقولُ: قالوا: يا رَبَّنا أمَتَّنا موتَتَينِ اثنتَينِ -قبْلَ نَفخِ الرُّوحِ فيهم، وعندَ انتِهاءِ آجالِهم-، وأحيَيْتَنا إحيائتَينِ اثنتَينِ -بنَفخِ الرُّوحِ فيهم في الدُّنيا، وحينَ بَعثِهم يومَ القيامةِ-، فأقرَرْنا

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

بذُنوبِنا، فهل مِن طريقٍ للخُروجِ مِن النَّارِ؟

فأُجيبوا بأنَّه لا سَبيلَ لِخُروجِكم مِنَ النَّارِ؛ لأنَّكم كنتُم في الدُّنيا إذا دُعيَ اللهُ وَحْدَه كفَرْتُم بوَحدانيَّتِه، وإن يُجعَلْ له شَريكٌ في عبادتِه تُؤمِنوا بالشِّركِ؛ فالقَضاءُ العادِلُ للهِ العَليِّ الكبيرِ.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه ما يدُلُّ على وحدانيَّتِه وكمالِ قُدرتِه، وعلى رحمتِه بعِبادِه، فيقولُ: وهو وَحْدَه الَّذي يُريكم -أيُّها النَّاسُ- آياتِه الدَّالَّةَ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه، ويُنزِلُ لكم رِزقًا مِن السَّماءِ، وما يَتذكَّرُ ويَتَّعِظُ إلَّا مَن يَرجِعُ إلى اللهِ تعالى؛ فادعُوا اللهَ وَحْدَه مُخلِصينَ له الدِّينَ ولو كَرِهَ الكافِرونَ ذلك.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ شَيئًا مِن أحوالِ المؤمِنينَ؛ ذكَرَ شَيئًا مِن أحوالِ الكافِرينَ، وما يَجري لهم في الآخِرةِ؛ مِن اعترافِهم بذُنوبِهم، واستِحقاقِهمُ العَذابَ، وسؤالِهمُ الرُّجوعَ إلى الدُّنيا(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سبحانَه حالَ أصحابِ النَّارِ، وأنَّها حَقَّتْ عليهم كلمةُ العذابِ، وأنَّهم أصحابُ النَّارِ؛ ذَكَر أحوالَهم بعدَ دُخولِ النَّارِ(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٤).

أي: إنَّ الكافرين يُنادَونَ وهم في النَّارِ يُعذَّبونَ: لَبُغْضُ اللهِ الشَّديدُ لكم في الدُّنيا حينَ كُنتُم تُدْعَونَ فيها إلى الإيمانِ، فتَكفُرونَ- أعظَمُ مِن بُغضِكم الشَّديدِ اليَومَ لأنفُسِكم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ [فاطر: ٣٩].

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

وجْهُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قَبْلَها: أنَّهم كانوا في الدُّنيا يَكفُرونَ بالبعثِ، فلمَّا دخَلوا النَّارَ مقَتوا أنفُسَهم على ذلك، فأقَرُّوا به حينَئذٍ ليُرضُوا اللهَ بإقرارِهم حينَئذٍ، فقولُهم: ﴿أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إقرارٌ بالبعثِ على أكملِ الوُجوهِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١٨-١٢٠).

والمعنى المذكورُ في قولِه: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ﴾ مبنيٌّ على أنَّه مصدرٌ مضافٌ إلى الفاعلِ، أي: لَمَقْتُ الله إيَّاكم في الدُّنيا على كفرِكم، ويحتملُ أيضًا أن يكونَ المعنى: لَمَقْتُ الله إيَّاكم اليومَ حينَ شاهَدْتُم ما وُعِدْتُم به أكبرُ مِن مَقتِكم أنفُسَكم. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠).

قال أبو حيَّان: (والظَّاهرُ أنَّ مَقْتَ اللهِ إيَّاهم هو في الدُّنيا، ويَضْعُفُ أنْ يكونَ في الآخرةِ كما قال بعضُهم؛ لبَقاءِ ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ مُفْلَتًا مِن الكلامِ، لِكَونِه ليس له عاملٌ تَقَدَّم، ولا مُفَسِّرٌ لعاملٍ. فإذا كان المَقْتُ السَّابقُ في الدُّنيا أمْكَنَ أنْ يُضْمَرَ له عاملٌ تقديرُه: مَقْتُكم إذْ تُدْعَوْن). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠).

ويحتملُ أن يكونَ المَقْتُ مُضافًا إلى مفعولِه لا إلى فاعِلِه، ويكونَ المعنى: لَمَقْتُكم اللهَ حينَ تُدْعَوْنَ إلى الإيمانِ أكبرُ مِن مَقتِكم أنفُسَكم اليومَ. واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١١٨).

طمعًا منهم أنْ يَخرجوا عن المَقتِ الَّذي مقَتَهم الله؛ إذ كانوا يُدعَونَ إلى الإسلامِ فيَكفرونَ(١).

﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾.

أي: قال أولئك الكافِرونَ مِن أهلِ النَّارِ: يا رَبَّنا أمَتَّنا مَوتَتَينِ اثنتَينِ -حينَ كانوا نُطَفًا قبْلَ نَفخِ الرُّوحِ فيهم، ثمَّ عندَ انتهاءِ آجالِهم في الدُّنيا-، وأحيَيْتَنا إحيائتَينِ اثنتَينِ، بنَفخِ الرُّوحِ فيهم في الدُّنيا، وحينَ بَعثِهم يومَ القيامةِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٤، ١٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٧٥)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٧، ٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٤، ٣٧٥).

وممَّن ذهبَ إلى المعنى المذكورِ هنا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ عطيَّة، وابن تيميَّة، وابن القيم، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (اختلَف أهلُ التَّأويلِ في معنى قَولِهم: ﴿أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾؛ فقال ابنُ مَسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ: كانوا أمواتًا في أصلابِ آبائِهم، ثمَّ أحياهم، ثمَّ أماتهم المَوتةَ الَّتي لا بدَّ منها في الدُّنيا، ثمَّ أحياهم للبَعثِ والقيامة؛ فهاتان حياتانِ وموتَتانِ... وقال السُّدِّيُّ: أُميتوا في الدُّنيا، ثمَّ أحياهم في القبورِ للمسألةِ، ثمَّ أُميتوا، ثمَّ أُحيُوا في الآخرةِ... وقال ابنُ زَيدٍ: خلَقَهم في ظَهرِ آدَمَ، وأخرَجَهم وأحياهم وأخَذَ عليهم الميثاقَ، ثمَّ أماتهم، ثمَّ أحياهم في الدُّنيا، ثمَّ أماتَهم). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٧، ٢٩٨).

أي: فأقرَرْنا بما اقترَفْناه مِنَ الذُّنوبِ في الدُّنيا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ * فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾.

أي: فهل مِن طَريقٍ أو وَسيلةٍ للخُروجِ مِن النَّارِ(٢)؟

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾.

أي: فأُجيبوا بأنَّه لا سَبيلَ لكم للخُروجِ مِن النَّارِ؛ لأنَّكم كنتُم في الدُّنيا إذا دُعِيَ اللهُ وَحْدَه كفَرْتُم بوَحدانيَّتِه، وإن يُجعَلْ له شَريكٌ في عبادتِه تُؤمِنوا بالشِّركِ(٣)!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٢٧-١٢٩).

قال ابنُ عاشور: (الدُّعاءُ: النِّداءُ، والتَّوجُّهُ بالخِطابِ. وكِلا المعنيَينِ يُستعمَلُ فيه الدُّعاءُ، ويُطلَقُ الدُّعاءُ على العبادةِ... فالمعنى: إذا نُودِيَ اللهُ بمَسمَعِكم نداءً دالًّا على أنَّه إلهٌ واحِدٌ، مِثلُ آياتِ القُرآنِ الدَّالَّةِ على نداءِ اللهِ بالوَحدانيَّةِ؛ فالدُّعاءُ هنا: الإعلانُ والذِّكرُ؛ ولذلك قُوبِلَ بقَولِه: ﴿كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾، والدُّعاءُ بهذا المعنى أعَمُّ مِن الدُّعاءِ بمعنى سؤالِ الحاجاتِ، ولكِنَّه يَشملُه، أو إذا عُبِدَ اللهُ وَحْدَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٠).

لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ ﴾.

أي: فالقَضاءُ العادِلُ بيْنَ العِبادِ للهِ وَحْدَه العَليِّ الذَّاتِ والقَدْرِ والصِّفاتِ؛ القاهِرِ لكُلِّ شَيءٍ، العَليِّ عن أن يكونَ له شَريكٌ؛ الكبيرِ، ذي الكِبرياءِ والعَظَمةِ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه؛ فكُلُّ شَيءٍ دُونَه مُتصاغِرٌ له[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴾ [الكهف: ٢٦].

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٢٩-١٣٥، ١٤٢).

قال ابن عطية: (فالحكمُ اليومَ بعذابِكم وتخليدِكم في النَّارِ للهِ، لا لتلك التي كنتُم تُشركونها معه في الألوهيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٠). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣).

وقال ابن عثيمين: (حكمُ الله ينقسمُ إلى قسمينِ: كونيٍّ وشرعيٍّ، فالكونيُّ ما قضَى به على عبادِه كونًا وتقديرًا، والشرعيُّ ما قضَى به على عبادِه شرعًا وتنظيمًا... وقولُه: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ ﴾ هنا يشملُ الأمرينِ جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٢٦).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى ما يوجِبُ التَّهديدَ الشَّديدَ في حقِّ المُشرِكينَ؛ أَردَفَه بذِكرِ ما يدُلُّ على كَمالِ قُدرتِه وحِكمتِه؛ ليَصيرَ ذلك دليلًا على أنَّه لا يَجوزُ جَعْلُ الأحجارِ المَنحوتةِ والخُشُبِ المَعبودةِ شُرَكاءَ للهِ[1].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه الَّذي يُريكم -أيُّها النَّاسُ- آياتِه الدَّالَّةَ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، وكَمالِ صِفاتِه وأفعالِه[2].

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٦، ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٦).

قيل: هذه الآياتُ تَشملُ الآياتِ الكونيَّةَ والقرآنيَّةَ والمعجزاتِ الجاريةَ على أيدي الرُّسلِ عليهم السَّلامُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٢).

وقيل: المرادُ بها: الآياتُ الكونيَّةُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢).

وقيل: هي الآياتُ الكونيَّةُ، وآثارُ العقوباتِ الَّتي حلَّت بالأقوامِ المُهلَكينَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ، ووافقه الشنقيطيُّ وزاد عليها معجزاتِ الرُّسلِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٧).

وقال السعدي: (يذكرُ تعالى نِعَمَه العظيمةَ على عبادِه، بتبيينِ الحقِّ مِن الباطلِ، بما يُري عِبادَه مِن آياتِه النَّفْسيَّةِ والآفاقيَّةِ والقرآنيَّةِ، الدَّالَّةِ على كلِّ مطلوبٍ مقصودٍ، الموضحةِ للهدى مِن الضَّلالِ، بحيث لا يبقَى عندَ النَّاظرِ فيها والمُتأمِّلِ لها أدنَى شكٍّ في معرفةِ الحقائقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

ٱلثِّقَالَ ﴾ [الرعد: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ * وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر: ٧٩ - ٨١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ﴾.

أي: ويُنَزِّلُ اللهُ لأجْلِكم -أيُّها النَّاسُ- رِزقًا مِنَ السَّماءِ[1].

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٥].

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢).

المرادُ بالرِّزقِ هنا: المطَرُ الَّذي تخرُجُ به الزُّروعُ والثِّمارُ. ومِمَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

قال ابنُ عاشور: (تنزيلُ الرِّزقِ مِن السَّماءِ هو نُزولُ المطَرِ؛ لأنَّ المطَرَ سَبَبُ الرِّزقِ، وهو في نَفْسِه آيةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿رِزْقًا ﴾ أي: ماءً يكونُ به الرِّزقُ، فالَّذي ينزلُ ماءٌ يكونُ به الرِّزقُ، فهو نفْسُه رزقٌ... وبه يكونُ الرِّزقُ... والثَّمراتُ أرزاقٌ تُؤكلُ، والماءُ رزقٌ يُشربُ، فهو رزقٌ بكلِّ حالٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٤٥).

وقال ابن عطية: (وتنزيلُ الرزقِ: هو في تنزيلِ المطرِ، وفي تنزيلِ القضاءِ والحُكمِ، بنيلِ ما ينالُه المرءُ في تجارةٍ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٠).

أي: وما يَتذكَّرُ بالآياتِ فيَعتَبِرُ ويَتَّعِظُ حينَ يُذكَّرُ بها إلَّا مَن يُنيبُ إلى اللهِ تعالى بالرُّجوعِ عن الكُفرِ والشِّركِ والمعاصي، إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ والطَّاعةِ، والإقبالِ على مَحبَّتِه وخَشيتِه، والتَّضَرُّعِ إليه[1].

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت الآياتُ تُثمِرُ التَّذَكُّرَ، والتَّذكُّرُ يُوجِبُ الإخلاصَ لله؛ رَتَّب عليه قَولَه[2]:

﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١٤﴾.

أي: فادعُوا اللهَ وَحْدَه مُخلِصينَ له، غيرَ مُشرِكينَ به شَيئًا في كُلِّ حالٍ، حتَّى في حالِ كَراهةِ الكافِرينَ إفرادَكم العبادةَ للهِ وَحْدَه[3].

كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٣).

قال ابن تيميَّة: (وقولُه تعالَى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ هو دعاءُ العبادةِ، والمعنَى: اعبُدُوه وحْدَه، وأَخْلِصوا عِبادَتَه، لا تَعْبُدوا معه غيرَه). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ١٣).

وقال السعدي: (هذا شامِلٌ لدُعاءِ العبادةِ، ودُعاءِ المسألةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

وعن أبي الزُّبَيرِ[١]، قال: ((كان ابنُ الزُّبَيرِ[٢] يَقولُ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ حينَ يُسَلِّمُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ له، له المُلْكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، لا إلهَ إلَّا اللهُ، ولا نَعبُدُ إلَّا إيَّاه، له النِّعمةُ وله الفَضلُ، وله الثَّناءُ الحَسَنُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ مُخلِصينَ له الدِّينَ، ولو كَرِهَ الكافِرونَ، وقال: كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُهَلِّلُ[٣] بهِنَّ دُبُرَ[٤] كُلِّ صَلاةٍ))[٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- ما تَتَغذَّى به الرُّوحُ أهمُّ مما يَتغذَّى به البَدَنُ؛ لقولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾؛ وجْهُ الدلالةِ أنَّه قَدَّمَ إراءةَ الآياتِ على الرِّزْقِ الَّذي يَنزِلُ مِن السَّماءِ، وهذا يدُلُّ على أنَّه أهَمُّ، وهو كذلك، هذا هو الواقعُ؛ وذلك لأنَّ فَقْدَ الغذاءِ البدَنيِّ لا يكونُ فيه إلَّا شيءٌ لا بُدَّ منه وهو الموتُ، حتَّى لو كان الإنسانُ في أَنْعَمِ ما يكونُ مِن نعيمِ البَدَنِ وأتْرَفِ ما يكونُ فلا بُدَّ أنْ يموتَ، لكنَّ غذاءَ الرُّوحِ هو الَّذي يَحتاجُ إلى مُعاناةٍ ومُعالَجةٍ؛ وبفَقْدِه يكونُ الهلاكُ في الدُّنيا والآخرةِ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[٦] [الزمر: ١٥].

٢- في قَولِ الله تعالى: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مُراغَمةُ الكُفَّارِ في الإخلاصِ للهِ وفي العَمَلِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ويَنبني

---

(١) هو محمَّدُ بنُ مُسلِمِ بنِ تَدْرُسَ.

(٢) أي: عبدُ الله بنُ الزُّبيرِ بنِ العوَّامِ رضي الله عنهما.

(٣) يُهَلِّلُ: أي: يُعلِنُ بذلك، ويَرفَعُ صَوتَه. يُنظر: ((مطالع الأنوار)) لابن قُرْقُول (٦/ ١٢٧).

(٤) دُبُرَ: أي: عَقِبَها وخَلْفَها، أو في آخِرِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٧٥٦).

(٥) رواه مسلم (٥٩٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٤٦).

على ذلك أنَّه يَجِبُ على الإنسانِ أنْ يَقومَ بالواجِبِ ولو كَرِهَ ذلك غَيرُه، ولا يُحابيَ أحَدًا في هذا(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أنَّ الكافرين تَبَيَّنَ لهم ما هم عليه مِن الضَّلالِ والكُفرِ حينَ رأوُا العِقابَ؛ وَجْهُه: أنَّهم مَقَتوا أنفُسَهم في ذلك الوَقتِ حينَ رأوُا العذابَ، وهذا يدُلُّ على أنَّهم تَبَيَّنَ لهمُ الضَّلالُ في ذلك اليَومِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ إثباتُ المَقتِ للهِ تعالى، أي: أنَّ اللهَ يُبغِضُ، والمَقْتُ هو أشَدُّ البُغضِ، والبُغضُ مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ الَّتي تَتعَلَّقُ بمَشيئتِه وإرادتِه سبحانه(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ أنه لا يَجوزُ الحُكْمُ بالقوانينِ المُخالِفةِ للشَّريعةِ، وهذه الجملةُ تُفيدُ الحصرَ؛ أي: الحُكْمُ للهِ لا لغيرِه(٤).

٤- قولُه تعالى: ﴿ٱلْعَلِيِّ﴾ فيه إثباتُ العُلُوِّ للهِ عزَّ وجلَّ، فالعليُّ: الذي له العلوُّ المطلَقُ مِن جميعِ الوجوهِ: علوُّ الذَّاتِ- فهو نَفْسُه سُبحانَه وتعالى فوقَ كلِّ شَيءٍ-، وعلوُّ القدْرِ، وعلوُّ القَهرِ(٥).

٥- قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أهَمُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٣٦). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٣٩).

المُهِمَّاتِ رِعايةُ مَصالحِ الأديانِ، ومَصالحِ الأبدانِ؛ فهو سُبحانَه وتعالى راعَى مَصالِحَ أديانِ العِبادِ بإظهارِ البَيِّناتِ والآياتِ، وراعَى مصالِحَ أبدانِهم بإنزالِ الرِّزقِ مِن السَّماءِ؛ فمَوقِعُ الآياتِ مِن الأديانِ كمَوقِعِ الأرزاقِ مِن الأبدانِ، فالآياتُ لحياةِ الأديانِ، والأرزاقُ لحياةِ الأبدانِ، وعندَ حُصولِهما يَحصُلُ الإنعامُ على أقوى الاعتِباراتِ، وأكمَلِ الجِهاتِ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ جعَلَه تذَكُّرًا؛ لأنَّه مَركوزٌ في العُقولِ دلائِلُ التَّوحيدِ، ثمَّ قد يَعرِضُ الاشتِغالُ بعبادةِ غَيرِ اللهِ، فيَمنَعُ مِن تجلِّي نورِ العَقلِ، فإذا تاب إلى اللهِ تذكَّرَ[٢].

٧- إنَّ مِن حكمةِ الله إنزالَ المطرِ مِن السَّماءِ، قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾؛ لأنَّ المطرَ إذا نَزَلَ مِن أعلى شَمِلَ قِمَمَ الجبالِ؛ فيَشْملُ السَّهْلَ والوَعْرَ والنَّازِلَ والعاليَ، وهذه مِن الحكمةِ أنْ يكونَ المطرُ يَنْزِلُ مِن فوقٍ حتَّى يَشملَ الأرضَ كلَّها[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أنَّه كلَّما كان الإنسانُ أكثرَ إنابةً إلى اللهِ كان أقوَى تَذَكُّرًا بالآياتِ؛ لأنَّ الحُكمَ المُعلَّقَ على وصْفٍ يَقوَى بقوَّتِه ويَضْعُفُ بضَعفِه، فإذا كان التَّذَكُّرُ لِمَن يُنيبُ؛ فكلَّما كان الإنسانُ أقوَى إنابةً كان أقوى تَذَكُّرًا[٤].

٩- في قوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ وُجوبُ إخلاصِ العبادةِ للهِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٧).

فمَن تَعَبَّدَ لِغيرِ اللهِ استقلالًا؛ فقد صَرَفَ شيئًا مِن أنواعِ العبادةِ لغيرِ اللهِ؛ فيَكونُ بذلك مشركًا شركًا أكبرَ، وأمَّا إذا فَعَل العبادةَ للهِ لكنْ رَائَى فيها أو سَمَّعَ فهذا لا يكونُ مشركًا شركًا أكبرَ؛ ولكنَّه مشركٌ شركًا أصغرَ، وعبادتُه مردودةٌ عليه؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم -فيما رواه عن ربِّه-: ((أنا أغْنى الشُّركاءِ عنِ الشِّرْكِ؛ مَنْ عَمِلَ عمَلًا أَشْرَكَ فيه معي غيري تَرَكْتُه وشِرْكَه))[1].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾

- مُقابَلةُ سُؤالِ الملائكةِ للمؤمِنينَ بالنَّعيمِ الخالصِ يَومَ القِيامةِ بما يُخاطَبُ به المُشرِكونَ يَومَئذٍ مِنَ التَّوبيخِ والتَّنديمِ، وما يُراجِعونَ به مِن طلَبِ العَفوِ؛ مؤْذِنةٌ بتَقديرِ معنَى الوعدِ باستِجابةِ دُعاءِ المَلائكةِ للمؤمِنينَ، فطَيُّ ذِكرِ ذلك ضَربٌ مِنَ الإيجازِ، والانتِقالُ منه إلى بَيانِ ما سيَحُلُّ بالمُشرِكينَ يَومَئذٍ ضَربٌ مِنَ الأُسلوبِ الحكيمِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ الآياتِ مُستأنَفٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ كأنَّ سائلًا سَألَ عن تَقبُّلِ دعاءِ المَلائكةِ للمؤمِنينَ، فأُجيبَ بأنَّ الأهَمَّ أنْ يَسألَ عن ضِدِّ ذلك. وفي هذا الأُسلوبِ إيماءٌ ورمزٌ إلى أنَّ المُهِمَّ مِن هذه الآياتِ كلِّها هو مَوعظةُ أهلِ الشِّركِ، رُجوعًا إلى قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾[2] [غافر: ٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٣).

والحديث أخرجه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٤، ٩٥).

- قولُه: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ التَّقديرُ: لَمَقْتُ اللهِ إيَّاكم، أو لَمَقْتُ اللهِ أنفُسَكم أكبَرُ مِن مَقتِكم أنفُسَكم، وحُذِف المَفعولُ؛ لدَلالةِ ما بعْدَه عليه في قولِه: ﴿أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ فاستُغنيَ بذِكرِها مرَّةً. وقيل: مَعناهُ: لَمَقْتُ اللهِ إيَّاكمُ الآنَ أكبَرُ مِن مَقتِ بعضِكم لبَعضٍ[١].

- وفي ذِكرِ ﴿يُنَادَوْنَ﴾ ما يدُلُّ على كلامٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: إنَّ الَّذينَ كَفَروا يَمقُتُهمُ اللهُ ويُنادَونَ: لَمَقْتُ اللهِ... إلخ[٢].

- وقولُه: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ تعليلٌ للحُكمِ لِما بيْن الظَّرفِ والسَّببِ مِن عَلاقةِ اللُّزومِ، وإنَّما جُعِل ﴿إِذْ﴾ تَعليلًا لا ظَرفًا في هذا الوَجهِ؛ لأنَّهم لم يَمقُتوا أنفُسَهم حينَ دُعُوا إلى الإيمانِ، وإنَّما مَقَتُوها في النَّارِ، وعِندَ ذلك لا يُدْعَونَ إلى الإيمانِ[٣].

- وبُنيَ فِعلُ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه؛ للعِلمِ بالفاعِلِ؛ لظُهورِ أنَّ الداعيَ هو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو الرُّسُلُ عليهمُ السَّلامُ[٤]، وأيضًا للإشارةِ إلى أنَّ الإيمانَ لِظُهورِ دَلائِلِه ينبغي أن يُقبَلَ مِن أيِّ داعٍ كان[٥].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ في ﴿تُدْعَوْنَ﴾ و(تَكْفُرُونَ)؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٥، ٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧).

دَعوتِهم إلى الإيمانِ، وتكرُّرِ كُفرِهم، أي: تَجَدُّدِه[١].

- وتَفريعُ ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾ بالفاءِ على ﴿تُدْعَوْنَ﴾ يُفيدُ أنَّهم أعقَبوا الدَّعوةَ بالكُفرِ، أيْ: بتَجديدِ كُفرِهمُ السَّابِقِ، وبإعلانِه، أيْ: دُونَ أنْ يَتمَهَّلوا مُهلةَ النَّظرِ والتَّدبُّرِ فيما دُعُوا إليه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ جوابٌ عن النِّداءِ الَّذي نُودُوا به مِن قِبَلِ اللهِ تعالى؛ فحَكَى مَقالَهم على طَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ بحَذفِ حرفِ العَطفِ، طَمِعوا أنْ يَكونَ اعترافُهم بذُنوبِهم وَسيلةً إلى مَنحِهم خُروجًا مِنَ العَذابِ خُروجًا ما لِيَستريحوا منه ولو بعضَ الزَّمنِ؛ وذلك لأنَّ النِّداءَ المُوَجَّهَ إليهم مِن قِبَلِ اللهِ أَوْهَمَهم أنَّ فيه إقبالًا عليهم[٣].

- وانتصَبَ ﴿اثْنَتَيْنِ﴾ في المَوضعَينِ على الصِّفةِ لمَفعولٍ مُطْلَقٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: مَوتَتَينِ اثنتَينِ، وإحياءَتَينِ اثنتَينِ[٤].

- قولُه: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ المقصودُ مِنَ الاعترافِ هو اعترافُهم بالحياةِ الثَّانيةِ؛ لأنَّهم كانوا يُنكِرونَها، وأمَّا المَوْتَتانِ والحياةُ الأُولى فإنَّما ذُكِرْنَ إدماجًا[٥]؛ للاستِدلالِ في صُلبِ الاعترافِ تَزَلُّفًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٩٨).

(٥) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المُتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن =

منهم، أيْ: أيْقَنَّا أنَّ الحياةَ الثَّانيةَ حَقٌّ، وذلك تَعريضٌ بأنَّ إقرارَهم صِدقٌ لا مُواربةَ فيه ولا تَصَنُّعَ؛ لأنَّه حاصِلٌ عن دليلٍ؛ ولذلك جُعِلَ مُسَبَّبًا على هذا الكلامِ بعطْفِه بفاءِ السَّببيَّةِ في قولِه: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾؛ فإنَّهم لَمَّا رأَوُا الإماتةَ والإحياءَ قد تَكرَّرَا عليهم، عَلِموا بأنَّ اللهَ قادرٌ على الإعادةِ قُدرتَه على الإنشاءِ، فاعترَفوا بذُنوبِهمُ الَّتي اقترَفوها مِن إنكارِ البَعثِ وما تَبِعَه مِن مَعاصيهم[1].

- وتَفرَّعَ قَولُهم: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ على قَولِهم: ﴿وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ باعتبار أنَّ إحدى الإحياءتَينِ كانتِ السَّببَ في تَحقُّقِ ذُنوبِهمُ الَّتي مِن أُصولِها إنكارُهمُ البَعثَ، فلمَّا رأَوُا البَعثَ رأْيَ العَينِ أَيْقَنوا بأنَّهم مُذنِبونَ إذْ أنْكَروهُ، ومُذنِبونَ بما استَكثَروهُ مِنَ الذُّنوبِ؛ لاغترارِهم بالأمنِ مِنَ المؤاخَذةِ عليهم بعدَ الحياةِ العاجِلةِ[2].

- وجُملةُ ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ إنشاءُ إقرارٍ بالذُّنوبِ؛ ولذلك جيءَ فيه بالفِعلِ الماضي كما هو غالِبُ صِيَغِ الخَبَرِ المُستعمَلِ في الإنشاءِ، والمعنى: نَعترِفُ

---

= مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحمدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٨).

بذُنوبِنا. وجَعَلوا اعترافَهم بذُنوبِهم ضَربًا مِنَ التَّوبةِ، تَوَهُّمًا منهم أنَّ التَّوبةَ تَنفَعُ يَومَئذٍ؛ فلذلك فَرَّعوا عليه: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ فالاستِفهامُ مُستعمَلٌ في العَرضِ والاستِعطافِ كُلِّيًّا لرَفعِ العَذابِ(١).

- وفي هذا الاستِفهامِ ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ يَأسٌ مُقنِطٌ، واستِحالةٌ مُفرِطةٌ، كأنَّهم لفَرطِ ما يُكابِدونَه يَتَمَنَّوْنَ الخروجَ مِن هذا الأسى المُطبِقِ مِنَ الهَولِ المُستحكِمِ، ولكنْ أيُّ تَمَنٍّ؟ إنَّه تَمنِّي مَن غلَبَ عليه اليأسُ والقُنوطُ؛ ولهذا جاء الجوابُ على حسَبِ ذلك، وهو قولُه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ [غافر: ١٢]، ومَعناهُ: أنَّ السَّببَ يَعودُ إلى كُفرِكم، فلا تَطمَعوا في زَوالِ ما أنتم فيه؛ لأنَّه جَريرتُكم، وعلى أنفُسِكم تَقَعُ المَلامةُ. وقيل: قالوا ذلك على نحوٍ فيه نوعُ استِبعادٍ للخروجِ مِنَ النَّارِ واستِشعارِ يأسٍ منه، لا أنَّهم قالوه بطَريقِ القُنوطِ البَحتِ، وإنَّما يَقولونَ ذلك تَعَلُّلًا وتَحَيُّرًا(٢).

- قولُه: ﴿فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ﴾ حرفُ (مِنْ) زائدٌ لتَوكيدِ العُمومِ الَّذي في النَّكِرةِ؛ ليُفيدَ تَطَلُّبَهم كلَّ سبيلٍ للخُروجِ(٣).

- وتَنكيرُ ﴿خُرُوجٖ﴾ و﴿سَبِيلٖ﴾ للنَّوعيَّةِ؛ تَلَطُّفًا في السُّؤالِ، أيْ: إلى شَيءٍ مِنَ الخروجِ قليلٍ أو كثيرٍ، سواءٌ أكان سريعًا أمْ بطيئًا. أو التَّنكيرُ للإبهامِ، أيْ: مِن سبيلٍ ما كَيْفَما كان، بحقٍّ أو بعَفْوٍ، بتخفيفٍ أو غَيرِ ذلك؛ لأنَّ كلَّ خروجٍ يَنتفِعونَ به راحةٌ مِنَ العَذابِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن =

٣- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ ...﴾ جوابٌ لهم باستِحالةِ حُصولِ ما يَرجُونَه، ببَيانِ ما يُوجِبُها مِن أعمالِهمُ السَّيِّئةِ. وعدَلَ عن جَوابِهم بالحِرمانِ مِنَ الخُروجِ مِنَ النَّارِ إلى ذِكرِ سَببِ وُقوعِهم في العَذابِ، وإذْ قد كانوا عالِمينَ به حينَ قالوا: ﴿فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [غافر: ١١]؛ كانت إعادةُ التَّوقيفِ عليه بعْدَ سؤالِ الصَّفحِ عنه كِنايةً عنِ استِدامتِه، وعدَمِ استِجابةِ سُؤالِهمُ الخروجَ منه، على وَجهٍ يُشعِرُ بتَحقيرِهم، وزِيدَ ذلك تحقيقًا بقولِه: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾[1].

- والباءُ في ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ للسَّبَبيَّةِ، أي: بسَببِ كُفرِكم إذا دُعيَ اللهُ وحْدَه، وضميرُ ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ ضميرُ الشَّأنِ، وهو مُفَسَّرٌ بما بعْدَه مِن قولِه: ﴿إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾؛ فالسَّببُ هو مَضمونُ القِصَّةِ الَّذي حاصِلُ سَبكِه: بكُفرِكم بالوَحدانيَّةِ وإيمانِكم بالشِّركِ. و﴿إِذَا﴾ مُستعمَلةٌ هنا في الزَّمنِ الماضي؛ لأنَّ دُعاءَ اللهِ واقِعٌ في الحياةِ الدُّنيا، وكذلك كُفرُهم بوَحدانيَّةِ اللهِ، فالدُّعاءُ الَّذي مَضى مع كُفرِهم به كان سبَبَ وُقوعِهم في العَذابِ[2].

- ومَجيءُ ﴿وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ في الفِعلَينِ مؤَوَّلٌ بالماضي، بقَرينةِ ما قَبْلَه. وإيثارُ صِيغةِ المُضارِعِ في الفِعلَينِ؛ لدَلالتِهما

---

= عاشور)) (٢٤/ ٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٩، ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٩٩).

على تَكرُّرِ ذلك منهم في الحَياةِ الدُّنيا؛ فإنَّ لتَكرُّرِه أثرًا في مُضاعَفةِ العَذابِ لهم[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ جيءَ في الشَّرطِ الأوَّلِ بأداةِ الشَّرطِ ﴿إِذَا﴾ الَّتي الغالِبُ في شَرطِها تَحقُّقُ وُقوعِه؛ إشارةً إلى أنَّ دُعاءَ اللهِ وحْدَه أمْرٌ مُحَقَّقٌ بيْنَ المؤمِنينَ لا تَخْلو عنه أيَّامُهم ولا مَجامِعُهم، معَ ما تُفيدُ ﴿إِذَا﴾ مِنَ الرَّغبةِ في حُصولِ مَضمونِ شَرطِها. وجيءَ في الشَّرطِ الثَّاني بحرفِ (إنْ) الَّتي أصْلُها عدَمُ الجَزمِ بوُقوعِ شَرطِها، أو أنَّ شَرْطَها أمرٌ مَفروضٌ، مع أنَّ الإشراكَ مُحَقَّقٌ؛ تَنزيلًا للمُحَقَّقِ مَنزِلةَ المَشكوكِ المَفروضِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ دَلائلَ بُطلانِ الشِّركِ واضِحةٌ بأدْنى تأمُّلٍ وتدَبُّرٍ، فنُزِّلَ إشراكُهمُ المُحَقَّقُ مَنزِلةَ المَفروضِ؛ لأنَّ المَقامَ مُشتمِلٌ على ما يَقلَعُ مَضمونَ الشَّرطِ مِن أصْلِه، فلا يَصلُحُ إلَّا لفَرْضِه، على نَحوِ ما يُفرَضُ المَعدومُ مَوجودًا، أو المُحالُ مُمكِنًا[٢].

- وأيضًا في إيرادِ ﴿إِذَا﴾ وصِيغةِ الماضي في الشَّرطيَّةِ الأُولى، و(إنْ) وصِيغةِ المُضارِعِ في الثَّانيةِ ما لا يَخْفى مِنَ الدَّلالةِ على كَمالِ سوءِ حالِهم[٣].

- ومُتعلَّقُ ﴿كَفَرۡتُمۡ﴾ و﴿تُؤۡمِنُواْ﴾ مَحذوفانِ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَهما، والتَّقديرُ: كَفَرْتُم بتَوحيدِه وتؤْمِنوا بالشُّركاءِ[٤].

- قولُه: ﴿فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ﴾ الألِفُ واللَّامُ في (الحُكم) للجِنسِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠١).

واللَّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾ للمِلكِ، أي: جِنسُ الحُكمِ مِلكٌ للهِ، وهذا يُفيدُ قَصْرَ هذا الجِنسِ على الكَونِ للهِ، وهو قَصْرٌ حَقيقيٌّ[١]؛ إذْ لا حُكمَ يومَ القِيامةِ لغَيرِ اللهِ تعالى[٢].

- وإيثارُ صِفَتَي ﴿ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ بالذِّكرِ هنا؛ لأنَّ مَعْناهما مُناسِبٌ لحِرمانِهم مِنَ الخُروجِ مِنَ النَّارِ، أي: لعدَمِ نَقضِ حُكمِ اللهِ عليهم بالخُلودِ في النَّارِ؛ فهو العَليُّ، ومِن جملةِ ما يَقتَضيهِ ذلك تَمامُ العِلمِ، وتَمامُ العَدلِ؛ فلذلك لا يَحكُمُ إلَّا بما تَقتَضيهِ الحِكمةُ والعَدلُ، ووَصْفُ الكبيرِ كذلك[٣]، فالكبيرُ: الَّذي له الكبرياءُ والعَظَمةُ والمَجدُ، في أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، المُتَنزِّهُ عن كلِّ آفةٍ وعَيبٍ ونقصٍ، فإذا كان الحُكمُ له تعالى، وقد حكَم عليكم بالخلودِ الدَّائمِ؛ فحُكمُه لا يُغيَّرُ ولا يُبدَّلُ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾

---

(١) القصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ والحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١٧٥، ١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥، ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّدليلِ على أنَّ الحُكمَ له سبحانه[١].

- قولُه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ تَنزيلُ الرِّزقِ مِنَ السَّماءِ هو نُزولُ المطَرِ؛ لأنَّ المطَرَ سَبَبُ الرِّزقِ، وهو في نفْسِه آيةٌ أُدمِجَ معها امتِنانٌ؛ ولذلك عُقِّبَ الأمْرانِ بقولِه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾[٢].

- وإفرادُ إنزالِ الرِّزقِ بالذِّكرِ -مع كَونِه مِن جملةِ الآياتِ الدَّالَّةِ على كمالِ قُدرتِه تعالى-؛ لتَفرُّدِه بعُنوانِ كَونِه مِن آثارِ رحمتِه وجَلائلِ نِعمتِه الموجِبةِ للشُّكرِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ تقديمُ ﴿لَكُم﴾ على مَفعولِ (يُنَزِّلُ) وهو ﴿رِزْقًا﴾؛ لكمالِ الامتِنانِ بأنْ جعَلَ تَنزيلَ الرِّزقِ لأجْلِ النَّاسِ، ولو أُخِّرَ المَجرورُ لَصارَ صِفةً لـ ﴿رِزْقًا﴾؛ فلا يُفيدُ أنَّ التَّنزيلَ لأجْلِ المُخاطَبينَ، بلْ يُفيدُ أنَّ الرِّزقَ صالحٌ للمُخاطَبينَ، وبيْن المَعنَيَينِ بَوْنٌ بعيدٌ؛ فكان تَقديمُ المَجرورِ في التَّرتيبِ على مَفعولِ الفِعلِ على خِلافِ مُقتَضى الظَّاهِرِ؛ لأنَّ حقَّ المَفعولِ أنْ يَتقدَّمَ على غَيرِه مِن مُتعلِّقاتِ الفِعلِ، وإنَّما خُولِفَ الظَّاهِرُ لهذه النُّكتةِ اللَّطيفةِ[٤].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُرِيكُمْ﴾ ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ تدُلُّ على أنَّ المُرادَ إراءَةٌ مُتَجدِّدةٌ وتَنزيلٌ مُتَجدِّدٌ، وإنَّما يَكونُ ذلك في الدُّنيا؛ فتَعَيَّنَ أنَّ الخِطابَ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٢، ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٣).

مُستأنَفٌ مُرادٌ به المؤمِنونَ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وليس مِن بَقيَّةِ خِطابِ المُشركينَ في جَهنَّمَ، ويَزيدُ ذلك تأييدًا قولُه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[1] [غافر: ١٤].

- وعُدِّيَ فِعلَا (يُري) (ويُنَزِّلُ) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ وهُمُ المؤمِنونَ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّهمُ الَّذينَ انتَفَعوا بالآياتِ فآمَنوا، وانتَفَعوا بالرِّزقِ فشَكَروا بالعملِ بالطَّاعاتِ، فجعَلَ غيرَهم بمَنزِلةِ غَيرِ المَقصودينَ بالآياتِ؛ لأنَّهم لم يَنتَفِعوا بها؛ ولذلك ذُيِّلَتْ إراءةُ الآياتِ وإنزالُ الرِّزقِ لهم بقولِه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾، أي: مَن آمَنَ ونَبَذَ الشِّركَ؛ لأنَّ الشِّركَ يَصُدُّ أهْلَه عن الإنصافِ، وإعمالِ النَّظَرِ في الأدِلَّةِ[2].

- وفي التَّعبيرِ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يُنِيبُ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنابةَ المُحصِّلةَ للمَطلوبِ هي الإنابةُ المُتجدِّدةُ المُتكرِّرةُ، وإذْ قد كان المُخاطَبونَ مُنيبينَ إلى اللهِ كان قولُه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ دالًّا بدَلالةِ الاقتِضاءِ على أنَّهم رأَوُا الآياتِ واطْمأنُّوا بها، وأنَّهم عَرَفوا قَدْرَ النِّعمةِ وشَكَروها؛ فكان بيْن الإنابةِ وبيْن التَّذكُّرِ تَلازُمٌ عاديٌّ؛ ولذلك فجُملةُ ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ تَذييلٌ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ هي الفَصيحةُ، أي: إذا كان الأمرُ كما ذُكِر

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٧، ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فادْعُوا، وهو تَفريعٌ على ما شاهَدوا مِنَ الآياتِ، وما أُفيضَ عليهم مِنَ الرِّزقِ، وعلى أنَّهم المُرْجَونَ للتَّذَكُّرِ، والمعنى: أنَّ اللهَ أَراكُم آياتِه، وأَنزَلَ لكمُ الرِّزقَ، وما يَتذَكَّرُ بذلك إلَّا المُنِيبونَ، وأنتم منهم، فادْعُوا اللهَ مُخلِصينَ؛ لتَوَفُّرِ دَواعي تلك العِبادةِ(١).

- والأمرُ بالدُّعاءِ هنا مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ؛ لأنَّ المؤمِنينَ قد دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ له، فالمَقصودُ: دُوموا على ذلك ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنَّ كَراهيةَ الكافِرينَ ذلك مِنَ المؤمِنينَ تَكونُ سَببًا لِمُحاوَلتِهم صَرْفَهم عن ذلك بكلِّ وَسيلةٍ يَجِدونَ إليها سبيلًا، فيُخشى ذلك أنْ يَفتِنَ فَريقًا مِنَ المؤمِنينَ، فالكراهيةُ كِنايةٌ عن المُقاوَمةِ والصَّدِّ؛ لأنَّهما لازِمانِ للكَراهيةِ؛ لأنَّ شأنَ الكارِهِ ألَّا يَصبِرَ على دَوامِ ما يَكرَهُه(٢).

- قولُه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ فيه إظهارُ اسمِ الجَلالةِ؛ لأنَّ الكلامَ تَفريعٌ لاستِجدادِ غرَضٍ آخَرَ، فجُعِل مُستقِلًّا عمَّا قَبْلَه(٣).

- قولُه: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ (لَوْ) وَصْليَّةٌ تُفيدُ أنَّ شَرْطَها أقصَى ما يَكونُ مِنَ الأحوالِ الَّتي يُرادُ تَقييدُ عامِلِ الحالِ بها، أيْ: اعْبُدوه في كلِّ حالٍ حتَّى في حالِ كَراهيةِ الكافِرينَ ذلك؛ لأنَّ كَراهيةَ الكافِرينَ ذلك -والمؤمِنونَ بيْنَ ظَهرانَيْهِم وفي بلدٍ فيه سُلْطانُ الكافِرينَ- مَظِنَّةٌ لأنْ يَصُدَّهم ذلك عن دُعاءِ اللهِ مُخلِصينَ له الدِّينَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٤، ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٥-١٧)

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٌۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾: أي: العَلِيُّ الأعلَى، مُرتفِعُ الدَّرَجاتِ، وأصلُ (رفع): يدُلُّ على خلافِ الوضعِ. وأصلُ (درج): يدُلُّ على مُضِيِّ الشَّيءِ، والمُضِيِّ في الشَّيءِ[1].

﴿ٱلرُّوحَ﴾: أي: الوحْيَ، وسُمِّيَ الوحْيُ رُوحًا؛ لأنَّ حياةَ القُلوبِ والأرواحِ به، كما أنَّ حياةَ الأبدانِ بالأرواحِ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسْحةٍ واطِّرادٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالى مِن جلالِه وكمالِه وعَظَمتِه ما يَقْتضي إخلاصَ العبادةِ له، فيقولُ: اللهُ هو العَليُّ الأعلَى، صاحِبُ العَرشِ العَظيمِ، يُنزِّلُ الوَحيَ مِنْ أمْرِه على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه وهم الرُّسلُ؛ لِيُخَوِّفَ النَّاسَ ويُحَذِّرَهم يومَ القيامةِ.

ثمَّ يَذكُرُ بعضَ أحوالِ النَّاسِ في هذا اليومِ، فيقولُ: وهو اليَومُ الَّذي يَبرُزُ فيه

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٣، ٢٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤١١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٣٦٣).

النَّاسُ بعدَ خُروجِهم مِن قُبورِهم في صَعيدٍ واحِدٍ، لا يَخفَى على اللهِ مِنَ النَّاسِ شَيءٌ.

ثمَّ يَقولُ اللهُ يومَ القيامةِ: لِمَنِ المُلكُ اليَومَ؟ فيُجيبُ نَفْسَه تعالى فيَقولُ: لله الواحِدِ الَّذي لا شَريكَ له، القَهَّارِ الَّذي قَهَر وغَلَب كُلَّ شَيءٍ، اليَومَ يُثابُ كُلُّ عاملٍ بما عَمِلَ، لا ظُلْمَ اليَومَ؛ إنَّ اللهَ سَريعٌ حِسابُه لعِبادِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ١٥﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ مِن صِفاتِ كِبريائِه وإكرامِه كَوْنَه مُظهِرًا للآياتِ، مُنزِلًا للأرزاقِ؛ ذَكَر في هذه الآيةِ ثَلاثةً أُخرى مِن صِفاتِ الجَلالِ والعَظَمةِ، وهو قَولُه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى في الآيةِ السَّابِقةِ: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [غافر: ١٤]؛ ذكَرَ مِن جَلالِه وكَمالِه ما يَقتَضي إخلاصَ العِبادةِ له، فقال[2]:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾.

أي: هو العَلِيُّ الأعلى فَوقَ السَّمَواتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٩، ١٦٠). =

كما قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج: ٣، ٤].

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾.

أي: صاحِبُ العَرشِ العَظيم، العالي على جَميعِ المخلوقاتِ، وقد استَوى عليه استواءً يَليقُ بعَظَمتِه وجَلالِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: يُنزِّلُ اللهُ الوَحيَ مِنْ أمْرِه[2] .....

---

= قال السعدي: (﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي: العَلِيُّ الأعلَى، الَّذي استوى على العرشِ واختصَّ به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

وقال ابن عثيمين: (وتفسيرُ الآيةِ المُتعيِّنُ أن نقولَ: إنَّه رفيعُ الدَّرَجاتِ، أي: هو نفْسُه عزَّ وجلَّ مُرتفِعٌ، بل رفيعُ الدَّرَجاتِ، أتى بالصِّفةَ المُشَبَّهةِ الدَّالَّةِ على الثُّبوتِ والدَّوامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٠).

وقيل: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي: رافعُ السَّمواتِ السَّبْعِ، قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والكَلْبيُّ. وقيل: معناه: عظيمُ الصِّفاتِ، قاله ابنُ زيادٍ. وقيل: هو رَفْعُه دَرَجاتِ أوليائِه، قاله يحيى. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٤٧).

وأنكَر ابنُ عثيمينَ تفسيرَ ذلك بعظيمِ الصِّفاتِ، أو رافعِ دَرَجاتِ المؤمنينَ، وجعَله مِن تحريفِ الكَلِمِ عن مَواضِعِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٠).

(٢) قال السعدي: (﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ﴾ أي: الوحيَ الذي للأرواحِ والقلوبِ بمنزلةِ الأرواحِ للأجسادِ، فكما أنَّ الجسَدَ بدونِ الرُّوحِ لا يحيا ولا يعيشُ، فالرُّوحُ والقلبُ بدونِ روحِ الوَحْيِ لا يصلُحُ ولا يُفلِحُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤). =

على مَن يَشاءُ مِن عبادِه، وهم الرُّسُلُ[١].

كما قال تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ [النحل: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾.

أي: لِيُخَوِّفَ النَّاسَ ويُحَذِّرَهم يومَ القيامةِ[٢].

---

= وقال ابنُ الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: مِن قضائِه. قاله ابن عباس. والثاني: بأمْرِه. قاله مقاتل. والثالث: مِن قَولِه تعالى. ذَكَره الثعلبي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢).

قال مقاتلٌ: (بإذنه)، وفي سورةِ (النحل) في قولِه تعالى: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ [النحل: ٢] قال: (بأمرِه) وممن اختار أنَّ المرادَ: بأمرِه: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٥٩) و(٣/ ٧٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مِنْ أَمْرِهِۦ ﴾ أي: مِن قَولِه وكلامِه تعالى: الثعلبي، والقرطبي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٠-١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٤، ٢٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٠-١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

وممَّن قال بأنَّ المُنذِرَ هو الرَّسولُ: ابن جرير، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابن عثيمين: (الرَّسولُ لا شَكَّ أنَّه هو المنذِرُ مُباشَرةً، ويحتَمِلُ أنَّ الفاعِلَ يعودُ على فاعلِ ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ ﴾ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ، أي: لِيُنذِرَ اللهُ. والحِكمةُ مِن عَدَمِ ذِكرِ الفاعِلِ -والله أعلمُ- =

كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾.

أي: يومَ يكونُ النَّاسُ بعدَ خُروجِهم مِن قُبورِهم ظاهِرينَ في صَعيدٍ واحِدٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾.

---

= لِيَصلُحَ الفِعلُ للأمرَينِ، أي: لِيَكونَ صالِحًا لأنْ يعودَ الإنذارُ إلى اللهِ، وأن يعودَ إلى الرَّسولِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦١) بتصرف.

وقال ابنُ كثير: (قال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ اسمٌ مِن أسماءِ يومِ القيامةِ حَذَّر منه عبادَه. وقال ابنُ جريج: قال ابنُ عبَّاسٍ: يلتقي فيه آدَمُ وآخِرُ ولَدِه. وقال ابنُ زيد: يلتقي فيه العِبادُ. وقال قتادةُ والسُّدِّي، وبلالُ بنُ سعد، وسُفيانُ بن عيينة: يلتقي فيه أهلُ السَّماءِ وأهلُ الأرضِ. وقال قتادةُ أيضًا: يلتقي فيه أهلُ السَّماءِ وأهلُ الأرض، والخالِقُ والخَلْقُ. وقال ميمونُ ابنُ مِهرانَ: يلتقي فيه الظَّالِمُ والمظلومُ. وقد يُقالُ: إنَّ يومَ القيامةِ هو يَشمَلُ هذا كُلَّه، ويَشمَلُ أنَّ كُلَّ عاملٍ سيلقى ما عَمِلَ مِن خيرٍ وشَرٍّ. كما قاله آخَرونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٥-١٣٦).

وقال ابن عثيمين: (... ولو قلنا بمعنًى أعمَّ: لِتَلاقي الخلائقِ في ذلك اليوم؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ يُلاقيه الآخرُ حتى الوحوشَ؛ ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ فسُمِّي يومَ التلاقي؛ لِتَلاقي الخلقِ فيه، يَحشُرُ الله عزَّ وجلَّ الخلائقَ كلَّها في ذلك اليومِ فيتلاقَونَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤).

أي: لا يَخفَى على اللهِ مِن النَّاسِ شَيءٌ مِن ذَواتِهم وأحوالِهم، وظواهِرِهم وبواطِنِهم(١).

﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾.

أي: يَقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ: لِمَنِ المُلكُ اليومَ؟ فيُجيبُ نَفْسَه تعالى فيَقولُ: للهِ الواحِدِ القَهَّارِ؛ الواحِدِ الَّذي لا شَريكَ له في مُلكِه، ولا مِثْلَ له في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه، القَهَّارِ الَّذي قَهَر وغَلَب كُلَّ شَيءٍ؛ فكُلُّ ما سِواه خاضِعٌ له(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٩، ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٧).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ اتَّفَقوا على أنَّ هذا يقولُه الله عزَّ وجلَّ بعدَ فَناءِ الخلائق). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣).

وممَّن قال بأنَّ السَّائِلَ والمُجيبَ هو اللهُ تعالى: ابنُ جرير، والواحديُّ -ونسَبَه لجماعةِ المفَسِّرينَ-، والقرطبيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٠، ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسنُ، وعَطاءٌ، وشَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ، ومحمَّدُ ابنُ كعبٍ القُرَظيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٣٦)، ((الأهوال)) لابن أبي الدنيا (ص: ٤٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦).

وقيل: إنَّ الخلائقَ كلَّهم يُجيبونَه فيقولونَ: ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، قاله ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣).

وقال الرازي: (لا يَبعُدُ أن يكونَ... السَّائِلُ جَمعًا مِن الملائكةِ، والمُجيبُ جَمعًا آخَرينَ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٠، ٥٠١).

=

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((يَقبِضُ اللهُ تبارك وتعالى الأرضَ يومَ القيامةِ، ويَطوي السَّماءَ بيَمينِه، ثمَّ يقولُ: أنا المَلِكُ! أين مُلوكُ الأرضِ؟!))[١].

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قرَّر الله تعالى أنَّ الملكَ لله وحدَه في ذلك اليومِ؛ عدَّد نتائجَ ذلك، وهي أنَّ كلَّ نفسٍ تجزَى ما كسَبتْ، وأنَّ الظُّلمَ مأمونٌ[٢].

وأيضًا لَمَّا شَرَح الله سُبحانَه صِفاتِ القَهرِ في ذلك اليَومِ؛ أردَفَه ببَيانِ صِفاتِ العَدلِ والفَضلِ في ذلك اليَومِ[٣].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن إذعانِ كُلِّ نَفْسٍ بانقِطاعِ الأسبابِ؛ أخبَرَهم بما يَزيدُ رُعبَهم، ويَبعَثُ رَغَبَهم ورَهَبَهم، وهو نتيجةُ تفَرُّدِه بالمُلْكِ، فقال[٤]:

---

= وقال النَّحَّاس: (أصَحُّ ما قيل فيه: ما رواه أبو وائلٍ عن ابنِ مَسعودٍ، قال: يُحشَرُ النَّاسُ على أرضٍ بَيضاءَ مِثلِ الفِضَّةِ، لم يُعصَ اللهُ جَلَّ وعَزَّ عليها، فيُؤمَرُ مُنادٍ أن يُناديَ: لِمَنِ المُلكُ اليَومَ؟ فهذا قَولٌ بيِّنٌ، فأمَّا أن يكونَ هذا والخَلقُ غيرُ موجودينَ فبعيدٌ؛ لأنَّه لا فائدةَ فيه. والقَولُ الأوَّلُ صَحيحٌ عن ابنِ مَسعودٍ، وليس هو ممَّا يُؤخَذُ بالقياسِ، ولا بالتَّأويلِ. والمعنى على قولِه: فيُنادي منادٍ يومَ القيامةِ؛ لِيُقرِّرَ النَّاسَ: لِمَنِ المُلكُ اليومَ؟ فيَقولُ العِبادُ مُؤمِنُهم وكافِرُهم: لله الواحِدِ القهَّارِ! فيَقولُ المؤمِنونَ هذا سرورًا وتَلْذاذًا، ويقولُ الكافِرونَ هذا رَغمًا وانقيادًا وخُضوعًا). ((إعراب القرآن)) (٤/ ٢١، ٢٢). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٨٠).

(١) رواه البخاري (٦٥١٩)، ومسلم (٢٧٨٧) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨).

﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾.

أي: اليَومَ يُثابُ كُلُّ عاملٍ بما عَمِلَه في الدُّنيا جزاءً مُناسِبًا لعَمَلِه مِن خيرٍ أو شَرٍّ(١).

كما قال تعالى: ﴿لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾ [طه: ١٥].

﴿لَا ظُلۡمَ﴾.

أي: لا ظُلْمَ يومَ القيامةِ على أحَدٍ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ فلا يُعاقَبُ أحَدٌ بذَنْبِ غَيرِه، ولا يُعاقَبُ بأكثَرَ مِمَّا يَستَحِقُّ، ولا يُزادُ في سَيِّئاتِه شَيءٌ، ولا يُنقَصُ مِن حَسَناتِه شَيءٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما رَوى عن اللهِ تبارَك وتعالى أنَّه قال: ((يا عِبادي، إنِّي حَرَّمتُ الظُّلْمَ على نفْسي، وجعَلْتُه بيْنَكم مُحَرَّمًا، فلا تَظَالَموا))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

قال ابنُ عثيمين: (﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: لا ظُلمَ واقِعٌ مِن الله، ولا ظُلمَ واقِعٌ مِن الخَلقِ بَعضِهم لبَعضٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٧٠).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٧).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو سُرعةٍ بالِغةٍ في مُحاسَبةِ عِبادِه يومَ القيامةِ على ما عَمِلوا في الدُّنيا(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المُرادَ: إنَّ الله ذو سرعةٍ في مُحاسَبةِ عِبادِه، وأنَّ الحسابَ لا يُبطِئُ؛ لأنَّ اللهَ لا يَشغَلُه حسابٌ عن حسابٍ، فيُحاسِبُ الخَلْقَ كلَّه في وقتٍ واحدٍ كما يُحاسِبُ نفْسًا واحدةً، وهو أسرَعُ الحاسِبينَ، فلا يَحتاجُ إلى تفكُّرٍ كما يَحتاجُه غيرُه: ابنُ جرير، والزمخشري، وابن عطية، والقرطبي، وابن كثير، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

وقال السعدي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لا تَستَبْطِئوا ذلك اليَومَ؛ فإنَّه آتٍ، وكلُّ آتٍ قريبٌ، وهو أيضًا سريعُ المُحاسَبةِ لعِبادِه يومَ القيامةِ؛ لإحاطةِ عِلمِه، وكمالِ قُدرتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

وقال ابنُ كثيرٍ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ (إبراهيمَ)، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١]، قال: (يحتملُ أنْ يكونَ كقولِه تعالَى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]، ويحتملُ أنَّه في حالِ مُحاسَبتِه لعبدِه سريعُ النَّجازِ؛ لأنَّه يَعلَمُ كلَّ شَيءٍ، ولا يَخفَى عليه خافيةٌ، وإنَّ جميعَ الخلقِ بالنِّسبةِ إلى قُدرتِه كالواحدِ مِنهم، كقولِه تعالَى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]، وهذا معنَى قولِ مُجاهِدٍ: سَرِيعُ الْحِسَابِ إحصاءً. ويحتملُ أنْ يكونَ المَعْنَيانِ مُرادَينِ، واللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٥٢٣).

واختار ابنُ عثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ (النُّورِ)، وهو قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] أنَّ المعنيَينِ مُرادانِ؛ الأوَّلُ: قُرْبُ وقتِ المُجازاةِ، فتكونُ السُّرعةُ زَمَنيَّةً، أي: أنَّ حسابَه للعِبادِ قَرُبَ، والثَّاني: إنجازُ الحسابِ، فتكونُ السُّرعةُ عمَليَّةً، أي: أنَّه في مُحاسَبتِه سريعٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النور)) (ص: ٢٧٦).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ التَّحذيرُ مِن خِزْيِ يومِ القيامةِ؛ لأنَّه يومُ التَّلاقِ، ولا شَكَّ أنَّ العُقوبةَ إذا كانت لا يَطَّلعُ عليها إلَّا القَليلُ أهْوَنُ مِمَّا إذا اطَّلَع عليها الكثيرُ، فكيف إذا اطَّلَع عليها الخَلقُ كُلُّهم؟! تكونُ أشَدَّ وأعظَمَ[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ إثباتُ صِفَتينِ مِن صِفاتِ اللهِ، دَلَّ عليهما قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾، وهما الوَحدانيَّةُ والقَهرُ، ويَترتَّبُ على ذلك مِن النَّاحيةِ المَسلَكيَّةِ أنَّ الإنسانَ إذا اعتقَدَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى واحِدٌ، لم يَلتَفِتْ إلى أحَدٍ سِواه، وإذا اعتَقَد أنَّ اللهَ قَهَّارٌ خاف مِن قَهْرِه، واستعان بقَهرِه على عَدُوِّه[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ فيه تَرجيةٌ للفَريقَينِ وتَخويفٌ؛ لأنَّ الظَّالِمَ يَخشى إسراعَ الأخذِ بالعَذابِ، والمؤمِنَ يَرجو إسراعَ البَسطِ بالثَّوابِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ إثباتُ عُلُوِّ الذَّاتِ؛ ذاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ يُشيرُ إلى أنَّ النُّبُوَّةَ غَيرُ مُكتَسَبةٍ؛ لأنَّه جيءَ بفِعلِ الإلقاءِ، وبكَونِ الرُّوحِ مِن أمْرِه في قَولِه: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾، وبصِلةِ ﴿مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾؛ فآذَنَ بأنَّ ذلك بمَحضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩، ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٢).

اختِيارِه وعِلْمِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[١] [الأنعام: ١٢٤]، فهي فَضْلٌ مِن اللهِ سبحانَه وتعالى على مَن يشاءُ مِن عبادِه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ إثباتُ الحكمةِ للهِ تعالى؛ وأنَّ أفعالَه سبحانَه مقرونةٌ بالحكمةِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿لِيُنذِرَ﴾، واللَّامُ لِلتَّعليلِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ ذِكْرُ هذا الكَلامِ في هذا الموضِعِ لائِقٌ جِدًّا؛ لأنَّه تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّه لا ظُلْمَ؛ بيَّنَ أنَّه سَريعُ الحِسابِ، وذلك يدُلُّ على أنَّه يَصِلُ إليهم ما يَستَحِقُّونَه في الحالِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ في الآيةِ إيماءٌ إلى أنَّ تأخيرَ القَضاءِ بالحَقِّ بعدَ تَبيُّنِه للقاضي، بدونِ عُذرٍ: ضَربٌ مِن ضُروبِ الجَورِ؛ لأنَّ الحَقَّ إن كان حَقَّ العبادِ فتأخيرُ الحُكمِ لصاحِبِ الحَقِّ إبقاءٌ لحَقِّه بيَدِ غَيرِه، ففيه تَعطيلُ انتِفاعِه بحَقِّه بُرهةً مِن الزَّمانِ، وذلك ظُلمٌ، ولَعَلَّ صاحِبَ الحَقِّ في حاجةٍ إلى تَعجيلِ حَقِّه لِنَفعِ مُعَطَّلٍ، أو لِدَفعِ ضُرٍّ جاثمٍ، ولَعَلَّه أن يَهلِكَ في مُدَّةِ تأخيرِ حَقِّه، فلا ينتَفِعَ به، أو لعَلَّ الشَّيءَ المحكومَ به يَتلَفُ بعارِضٍ أو قَصدٍ، فلا يَصِلُ إليه صاحِبُه بَعْدُ. وإن كان الحَقُّ حَقَّ اللهِ كان تأخيرُ القَضاءِ فيه إقرارًا للمُنكَرِ[٥].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٧، ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢، ١١٣).

عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾

- قولُه: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ خَبَرانِ آخَرانِ لقولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ١٣]، وقولُه: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ خبرٌ آخَرُ، مُنبِئٌ عن إنزالِ الرِّزقِ الرُّوحانِيِّ -الَّذي هُو الوحيُ- بعدَ بَيانِ إنزالِ الرِّزقِ الجُسمانيِّ -الَّذي هُو المطرُ-، أي: يُنزِلُ الوحيَ الجاريَ مِن القلوبِ مَنزلةَ الرُّوحِ مِنَ الأجسادِ[١].

- والإلقاءُ: حَقيقتُه رمْيُ الشَّيءِ مِن اليَدِ إلى الأرضِ، ويُعبَّرُ به عن الإعطاءِ إذا كان غيرَ مُترقَّبٍ، وعُبِّرَ به هنا عن الوحْيِ؛ لأنَّه يَجِيءُ فَجأةً على غيرِ تَرقُّبٍ، كإلْقاءِ الشَّيءِ إلى الأرضِ[٢].

- قولُه: ﴿لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ تَخلُّصٌ مِن ذِكرِ النُّبوَّةِ إلى النِّذارةِ بيَومِ الجزاءِ؛ لِيَعودَ وصْفُ يومِ الجزاءِ الَّذي انقطَعَ الكلامُ عليه مِن قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ﴾ [غافر: ١٢]... إلخ[٣].

- والضَّميرُ المُستتِرُ في ﴿لِيُنذِرَ﴾ قيل: إنَّه عائدٌ إلى اسمِ الجلالةِ مِن قولِه: ﴿فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ [غافر: ١٤]، وقيل: الأحسَنُ أنْ يعودَ على ﴿مَن﴾ المَوصولةِ مِن قولِه: ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، أي: لِيُنذِرَ مَن أَلْقى عليه الرُّوحَ قومَه، ولأنَّ فيه تَخلُّصًا إلى ذِكرِ الرَّسولِ الأعظَمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي هو بصَددِ الإنذارِ دونَ الرُّسلِ الَّذين سَبَقوا؛ إذ لا تُلائمُهم صِيغةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٠٨).

المضارِعِ، ولأنَّه مُرجِّحٌ لإظهارِ اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾[1].

- و﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ إمَّا ظرفٌ للمفعولِ الثَّاني لـ (يُنْذِرَ)، وحُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ لِظُهورِه، أي: لِيُنذِرَ النَّاسَ العذابَ يومَ التَّلاقِ، وهو يومُ القِيامةِ؛ لأنَّه يَتلاقَى فيهِ الأرواحُ والأجسامُ وأهلُ السَّمواتِ والأرضِ، أو هو المفعولُ الثَّاني اتِّساعًا، أوْ أصالةً؛ فإنَّه مِن شِدَّةِ هَولِه وفَظاعتِه حَقيقٌ بالإنذارِ أصالةً[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾

- جملةُ ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ استئنافٌ لِبَيانِ بُروزِهم، وتَقريرٌ له، وإزاحةٌ لِما كان يَتوهَّمُه المتوهِّمونَ في الدُّنيا مِن الاستتارِ تَوهُّمًا باطلًا؛ بأنَّهم إذا استَتَروا بالحيطانِ والحُجُبِ: أنَّ اللهَ لا يَراهم ويَخْفى عليه أعمالُهم! فهم اليومَ صائرونَ مِن البُروزِ والانكشافِ إلى حالٍ لا يَتوهَّمون فيها مِثلَ ما كانوا يَتوهَّمونَه، والمعنى: أنَّهم واضحةٌ ظَواهِرُهم وبَواطِنُهم؛ فإنَّ ذلك مُقْتضى قولِه: ﴿مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾[3].

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ إظهارَه أصرَحُ؛ لِبُعدِ مَعادِه بما عَقِبَه مِن قولِه: ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، ولأنَّ ضَميرَ ﴿لِيُنذِرَ﴾ عائدٌ إلى ﴿مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٨، ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٩).

يَشَآءُ﴾[١]. وذلك على قولٍ.

- ومعنى ﴿مِنۡهُمۡ﴾: مِن مَجموعِهم، أي: مِن مَجموعِ أحوالِهم وشُؤونِهم؛ ولهذا أُوثِرَ ضَميرُ الجمْعِ؛ لِما فيه مِن الإجمالِ الصَّالحِ لِتَقديرِ مُضافٍ مُناسِبٍ للمَقامِ. وأُوثِرَ أيضًا لفظُ ﴿شَيۡءٌ﴾؛ لِتوغُّلِه في العُموم، ولم يقُلْ: لا يَخْفى على اللهِ منهم أحدٌ، أو لا يَخْفى على اللهِ مِن أحدٍ شَيءٌ، أي: مِن أجزاءِ جِسْمِه؛ فالمعنى: لا يَخْفى على اللهِ شَيءٌ مِن أحوالِهم؛ ظاهِرِها وباطِنِها[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ إمَّا تَقريريٌّ؛ لِيَشهَدَ الطُّغاةُ مِن أهْلِ المَحشَرِ على أنفُسِهم أنَّهم كانوا في الدُّنيا مُخطِئينَ فيما يَزْعُمونَه لأنفُسِهم مِن مُلْكٍ لأصنامِهم حينَ يُضِيفونَ إليها التَّصرُّفَ في مَمالِكَ مِن الأرضِ والسَّماءِ، ويجوزُ أيضًا أنْ يكونَ الاستفهامُ كِنايةً عن التَّشويقِ إلى ما يَرِدُ بعْدَه مِن الجوابِ؛ لأنَّ الشَّأْنَ أنَّ الَّذي يَسمَعُ استِفهامًا يَترقَّبُ جَوابَه، فيَتمكَّنُ مِن نفْسِه الجوابُ عندَ سَماعِه فضْلَ تَمكُّنٍ، على أنَّ حُصولَ التَّشويقِ لا يَفوتُ على اعتبارِ الاستفهامِ للتَّقريرِ[٣].

- قولُه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ إنَّما خُصَّ التَّقريرُ باليومِ، وإنْ كان المُلْكُ له تَعالى في ذلك اليومِ وفي غَيرِه؛ لِظُهورِ ذلك للكَفَرةِ والجَهَلةِ، ووُضوحِه يومَ القيامةِ[٤].

- وجملةُ ﴿لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مِن بقيَّةِ القولِ المُقَدَّرِ الصَّادرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٠٩، ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٥).

مِن جانبِ اللهِ تعالى؛ بأنْ يَصدُرَ مِن ذلك الجانبِ استِفهامٌ، ويَصدُرَ منه جَوابُه؛ لأنَّه لَمَّا كان الاستِفهامُ مُستعمَلًا في التَّقريرِ أو التَّشويقِ، كان مِن الشَّأنِ أنْ يَتولَّى النَّاطقُ به الجوابَ عنه، ويجوزُ أنْ تكونَ مَقولَ قولٍ آخَرَ مَحذوفٍ، أي: فيقولُ المَسؤولونَ: للهِ الواحدِ القهَّارِ؛ إقرارًا منهم بذلك، والتَّقديرُ: فيقولُ البارزونَ: للهِ الواحدِ القهَّارِ، فتَكونَ مُعترِضةً[1].

- وذِكْرُ الصِّفتَينِ ﴿ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ دونِ غَيرِهما مِن الصِّفاتِ العُلَى؛ لأنَّ لِمَعْنَيَيْهِما مَزيدَ مُناسَبةٍ بقولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾؛ حيثُ شُوهِدَت دَلائلُ الوَحدانيَّةِ للهِ، وقَهْرُه جميعَ الطُّغاةِ والجبَّارينَ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ لَمَّا تَقرَّرَ أنَّ المُلْكَ للهِ وحْدَه في ذلك اليومِ بمَجموعِ الجُملتَينِ السَّابقتَينِ؛ عُدِّدَت آثارُ التَّصرُّفِ بذلك المُلْكِ، وهي الحُكْمُ على العِبادِ بنَتائجِ أعمالِهم، وأنَّه حُكْمٌ عادلٌ لا يَشوبُه ظُلْمٌ، وأنَّه عاجلٌ لا يُبطِئُ؛ لأنَّ اللهَ لا يَشغَلُه عن إقامةِ الحقِّ شاغلٌ، ولا هو بحاجةٍ إلى التَّدبُّرِ والتَّأمُّلِ في طُرقِ قَضائِه، وعلى هذه النَّتائجِ جاء تَرتيبُ: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾، ثمَّ ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾، ثمَّ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾، وجُملةُ ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ ...﴾ إلخ واقعةٌ مَوقعَ البَيانِ لِما في جُملةِ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦] وجَوابِها مِن إجمالٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١١، ١١٢).

- قولُه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾ قيل: إنَّه كأنَّه نَتيجةٌ لِما سبَقَ، وتَحقيقُه أنَّ النُّفوسَ تَكتسِبُ بالعقائدِ والأعمالِ هَيئاتٍ تُوجِبُ لَذَّتَها وألَمَها، لكنَّها لا تَشعُرُ بها في الدُّنيا؛ لِعَوائقَ تَشغَلُها، فإذا قامتْ قِيامتُها زالَتِ العوائقُ، وأدْرَكَت لذَّتَها وألَمَها[1]. وقيل: إنَّه إمَّا مِنْ تَتمَّةِ الجَوابِ؛ لِبَيانِ حُكمِ اختصاصِ المُلكِ بِهِ تعالَى ونَتيجتِه الَّتي هيَ الحُكْم السَّوِيُّ والقضاءُ الحقُّ. أوْ هو حِكايةٌ لِمَا سَيَقولُه تعالى يَومَئذٍ عَقِيبَ السُّؤالِ والجوابِ، أيْ: تُجْزى كلُّ نفْسٍ مِن النُّفوسِ البَرَّةِ والفاجرةِ بما كسَبَتْ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[2].

- وقَولُه: ﴿تُجۡزَىٰ﴾ بناه للمَفعولِ؛ لأنَّ المُرغَّبَ المُرَهَّبَ نَفْسُ الجَزاءِ، ولِبَيانِ سُهولتِه عليه سُبحانَه[3].

- وجُملةُ ﴿لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ واقِعةٌ مَوقِعَ بَدَلِ الاشتِمالِ مِن جُملةِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾، أي: جزاءً عادلًا لا ظُلْمَ فيه، أي: ليس فيه أقَلُّ شَوبٍ مِن الظُّلمِ، حسَبَما اقتضاهُ وُقوعُ النَّكِرةِ بعْدَ (لا) النَّافيةِ للجنْسِ[4].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ واقِعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ لِوُقوعِ الجزاءِ في ذلك اليوم، ولانتِفاءِ الظُّلمِ عن ذلك الجزاءِ. وتأْخيرُها عن تَينِك الجُملتَينِ مُشيرٌ إلى أنَّها عِلَّةٌ لهما؛ فحرْفُ التَّوكيدِ (إنَّ) واقعٌ مَوقِعَ فاءِ السَّببيَّةِ، كما هو شأْنُ (إنَّ) إذا جاءتْ في غيرِ مَقامِ ردِّ الإنكارِ؛ فسُرْعةُ الحِسابِ تَقْتضي سُرعةَ الحكْمِ، وسُرعةُ الحكْمِ تَقْتضي تَملُّؤَ الحاكمِ مِن العِلْمِ بالحقِّ، ومِن

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢).

تَقديرِ جزاءِ كلِّ عاملٍ على عمَلِه دونَ تردُّدٍ ولا بحْثٍ؛ لأنَّ الحاكمَ علَّامُ الغُيوبِ؛ فكان قولُه: ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ عِلَّةً لجميعِ ما تَقدَّمَه في هذا الغرَضِ، والمعنى: أنَّ اللهَ مُحاسِبُهم حسابًا سريعًا؛ لأنَّه سريعُ الحسابِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٦٩).

## الآيات (١٨-٢٠)

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْآزِفَةِ﴾: أي: القيامةِ، سُمِّيت بذلك لِقُربِها، وأصلُ (أزف): يدُلُّ على الدُّنُوِّ والمُقارَبةِ[١].

﴿ٱلْحَنَاجِرِ﴾: أي: الحُلُوقِ، جمعُ حَنْجَرةٍ: وهي آخرُ الحَلْقِ ممَّا يَلِي الفَمَ، أو: طرَفُ المَرِيءِ ممَّا يَلي الفَمَ، وترَاه ناتِئًا مِنْ خَارِجِ الحَلْقِ[٢].

﴿كَٰظِمِينَ﴾: أي: مَكروبينَ مُمتَلِئينَ خَوفًا وحُزنًا، والكَظْمُ: تَرَدُّدُ الغَيظِ والخَوفِ والحُزنِ في القَلبِ حتَّى يَضيقَ به، وأصلُ (كظم): يدُلُّ على إمساكٍ وجَمعٍ للشَّيءِ[٣].

﴿حَمِيمٍ﴾: أي: قَريبٍ مُشفِقٍ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على دُنُوٍّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠١)، ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البر (٢٣/ ٣٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قُرْقُول (٢/ ٣١٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، =

﴿شَفِيعٍ﴾: أي: شافعٍ، فعيلٌ بمعنى فاعلٍ، والشَّفاعةُ: الانضِمامُ إلى آخَرَ نُصرةً له، وسُؤالًا عنه، والشَّفعُ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه، وأصلُ (شفع): يدُلُّ على مُقارَنةِ الشَّيئَينِ[1].

﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: أي: خِيانَتَها، وهي مُسارَقةُ النَّظَرِ إلى ما لا يَحِلُّ، وأصلُ (خون): يدُلُّ على تَنَقُّصٍ، وذلك نُقصانُ الوَفاءِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُحذِّرَ النَّاسَ مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: وخَوِّفِ النَّاسَ -يا مُحمَّدُ- وحَذِّرْهم مِن يومِ القيامةِ وما فيه مِن أهوالٍ، حينَ تَبلُغُ قُلوبُ العِبادِ حناجِرَهم؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم، فلا يَقدِرونَ على الكَلامِ، ليس للظَّالِمينَ يومَ القيامةِ قَريبٌ مُحِبٌّ أو مُشفِقٌ، وليس لهم شَفيعٌ تُقبَلُ شَفاعتُه فيهم.

ثمَّ يقولُ تعالى مؤكِّدًا سَعةَ عِلمِه سبحانَه، وإحاطتَه بكلِّ شَيءٍ: يَعلَمُ اللهُ خيانةَ أعيُنِ عِبادِه، وما تَنطوي عليه صُدورُهم.

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (١/ ٣٠٦).

قال الشنقيطي: (وأصلُ الشَّفاعةِ مُشتقَّةٌ مِن الشَّفعِ، والشَّفعُ ضِدُّ الوترِ، وإنَّما قيل للشَّفيعِ: شفيعٌ؛ لأنَّ صاحِبَ الحاجةِ كان فردًا في حاجتِه، فلمَّا جاء إلى مَن يَشفَعُ له شَفَعَه، فصارا اثنَينِ في حاجتِه). ((العذب النمير)) (١/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣).

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ الحُكمَ الحقَّ في هذا اليومِ مَرجِعُه إليه وحْدَه، فيقولُ: واللهُ يَحكُمُ بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ. والَّذينَ يَدْعوهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَحكُمونَ بشَيءٍ، إنَّ اللهَ هو السَّميعُ البَصيرُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾.

أي: وخَوِّفِ النَّاسَ[1] -يا مُحمَّدُ- وحَذِّرْهم مِن يَومِ القيامةِ وما فيه مِن أهوالٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨].

﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾.

أي: حينَ تَبلُغُ قُلوبُ العِبادِ حَناجِرَهم؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم، فعَلِقَت فيها، فلا تَخرُجُ مِن أبدانِهم فيَموتوا، ولا تَرجِعُ إلى مَواضِعِها، قد امتلأَتْ خَوفًا وغَمًّا

---

(١) ممَّن اختارَ المعنَى المذْكورَ: ابنُ عطيَّةَ، والشَّوكانيُّ، والشِّنقيطي، وعبارةُ ابنِ عطيَّةَ (العالَم)، وعبارةُ الشَّوكاني (العِباد). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٢).

وقال ابن جرير: (وأنْذِرْ يا محمَّدُ مُشْركي قَومِكَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٠).

وممَّن اختار أنَّ المُرادَ: أهلُ مكَّةَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٠).

ورُعبًا، فلا يَقدِرونَ على الكَلامِ[١].

﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

أي: ليس للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ يومَ القيامةِ قَريبٌ أو صاحِبٌ مُحِبٌّ مُشفِقٌ يَدفَعُ عنهم عذابَ اللهِ، وليس لهم شَفيعٌ يَشفَعُ لهم عندَ اللهِ؛ فيُجابَ فيما سألَ، وتُقبَلَ شَفاعتُه فيهم[٢].

كما قال تعالى حاكيًا عن أهلِ النَّارِ قولَهم: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ [الحاقة: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨١، ٣٨٢).

وقيل: إنَّ المرادَ بكَونِ القلوبِ لَدى الحناجرِ: بيانُ شِدَّةِ الهَولِ، وفظاعةِ الأمرِ؛ وعليه فالآيةُ كقولِه تعالَى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ * هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]، وهو زِلزالُ خَوفٍ وفزَعٍ، لا زِلزالُ حركةِ الأرضِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨١).

وهذه الحالُ قيل: إنَّها عامَّةٌ للمؤمنينَ وللكافِرين، لكنْ لا يَلْحَقُ المؤمنينَ شَرٌّ مِن ذلك اليَومِ. واختار ذلك ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٨٢).

وقيل: قولُه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ تَخصيصٌ لِقَولِه سُبحانَه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾، فدلَّ على أنَّ الفَزَعَ إنَّما هو للكُفَّارِ، فالظَّالِمون همُ الكافِرونَ في هذا الموضِعِ. واختاره القَصَّابُ. يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٤).

قال الماوَرْدي: (﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي: يُجابُ إلى الشَّفاعةِ، وسُمِّيت الإجابةُ طاعةً؛ لموافَقتِها إرادةَ المُجابِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٤٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠ - ١٤].

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ بإنذارِه يومَ الآزفةِ، وما يَعرِضُ فيه مِن شِدَّةِ الكَرْبِ والغَمِّ، وأنَّ الظَّالمَ لا يَجِدُ مَن يَحمِيه مِن ذلك، ولا مَن يَشفَعُ له؛ ذكَرَ اطِّلاعَه تعالى على جَميعِ ما يَصدُرُ مِن العبدِ، وأنَّه مُجازًى بما عَمِلَ؛ لِيَكونَ على حذَرٍ مِن ذلك اليومِ إذا علِمَ أنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على أعمالِه[1].

وأيضًا بعدَ أنْ أيْأَسَهم اللهُ تعالى مِن شَفيعٍ يَسعَى لهم في عدَمِ المُؤاخَذةِ بذُنوبِهم؛ أيأَسَهم مِن أن يَتوهَّموا أنَّهم يَستَطيعونَ إخفاءَ شَيءٍ مِن نيَّاتِهم، أو أدنَى حَركاتِ أعمالِهم على ربِّهم[2].

وأيضًا لَمَّا كانت الشَّفاعةُ إنَّما تَقَعُ وتَنفَعُ بشَرطِ بَراءةِ المشفوعِ له مِن الذَّنْبِ؛ إمَّا بالاعترافِ بما نُسِبَ إليه والإقلاعِ عنه، وإمَّا بالاعتذارِ عنه، وكان ذلك إنَّما يجري عندَ المخلوقينَ على الظَّاهِرِ؛ ولذلك كانوا رُبَّما وقَع لهم الغَلَطُ فيمَن لو عَلِموا باطِنَه لَما قَبِلوا الشَّفاعةَ فيه- عَلَّل تعالى ما تقَدَّمَ بعِلْمِه أنَّ المشفوعَ له ليس بأهلٍ لِقَبولِ الشَّفاعةِ فيه؛ لإحاطةِ عِلْمِه، فقال[3]:

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢).

أي: يَعلَمُ اللهُ خيانةَ الأعيُنِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

والخائنةُ: مصدرٌ كالخيانةِ، أو اسمُ فاعلٍ فيكونُ مِن بابِ إضافةِ الصِّفةِ لمَوصوفِها، أي: الأعْيُنَ الخائنةَ، أو تكونُ صِفةً لِمَوصوفٍ محذوفٍ دَلَّ عليه الأعينُ، أي: يَعلَمُ نظرةَ الأعيُنِ الخائنةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين)) (ص: ١٨٥).

قال ابنُ الجوزي: (للمُفَسِّرينَ فيها أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّه الرَّجُلُ يكونُ في القَومِ، فتَمُرُّ به المرأةُ فيُريهم أنَّه يَغُضُّ بَصَرَه، فإذا رأى منهم غَفلةً لَحَظَ إليها، فإنْ خاف أن يَفطِنوا له غَضَّ بصَرَه. قاله ابنُ عبَّاسٍ. والثَّاني: أنَّه نظَرُ العَينِ إلى ما نُهيَ عنه. قاله مُجاهِدٌ. والثَّالثُ: الغَمزُ بالعَينِ. قاله الضَّحَّاكُ والسُّدِّيُّ. قال قَتادةُ: هو الغَمزُ بالعَينِ فيما لا يُحِبُّه اللهُ ولا يَرضاه. والرَّابعُ: النَّظرةُ بعدَ النَّظرةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣).

ممَّن اختار أنَّ خائنةَ الأعيُنِ هي مُسارَقتُها النَّظرَ إلى ما لا يحلُّ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، والخازن، والعُليمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

وممَّن اختار أنَّها الغمزةُ فيما لا يحلُّ بالعَينِ، والنَّظرةُ في المعصيةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٠٩).

وممَّن اختار أنَّها: النَّظرُ إلى المُحرَّماتِ: الكرمانيُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ الشِّنقيطيِّ. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٩).

قال ابن عاشور: (ومعنَى: ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: خيانةَ النَّظَرِ، أي: مُسارَقَةَ النَّظرِ لشيءٍ بحضرةِ مَن لا يُحِبُّ النَّظرَ إليه... والمرادُ بـ﴿خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾: النَّظرةُ المقصودُ منها إشعارُ المنظورِ إليه بما يَسوءُ غيرَه الحاضرَ؛ استِهزاءً به، أو إغراءً به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦).

وقال ابن عطيَّة: (وهذه الآيةُ عبارةٌ عن عِلمِ الله تعالى بجميعِ الخَفيَّاتِ، فمِن ذلك كسرُ الجفونِ والغمزُ بالعَينِ أو النَّظرةُ الَّتي تُفهِمُ معنًى، أو يُريدُ بها صاحبُها معنًى، ومِن هذا قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ جاءه عبدُ الله بنُ أبي سَرْحٍ لِيُسْلِمَ بعدَ رِدَّتِه بشَفاعةِ عُثمانَ، فتَلَكَّأ عليه رسولُ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠].

﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ أخفى أفعالِ الظَّاهِرِ؛ أتْبَعَه أخفَى ما في الباطِنِ، فقال[1]:

﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ ما تَنطوي عليه صُدورُهم مِنَ الضَّمائِرِ[2].

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٢٠﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾.

---

= الله صلَّى الله عليه وسلَّم ثمَّ بايَعه، ثمَّ قال عليه السَّلامُ لأصحابِه: هلَّا قام إليه رجُلٌ حينَ تلكَّأتُ عليه فضرَب عُنُقَه؟ فقالوا: يا رسولَ الله، ألَا أَوْمَأْتَ إلينا؟ فقال عليه السَّلامُ: ما يَنبغي لِنَبيٍّ أن تكونَ له خائنةُ الأعيُنِ [أبو داود (٢٦٨٣، ٤٣٥٩)، والنسائي (٤٠٦٧)]). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٣).

وقال الألوسي: (﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾ أي: النَّظرةَ الخائنةَ؛ كالنَّظرةِ إلى غيرِ المَحْرَمِ، واستِراقِ النَّظرِ إليه، وغيرِ ذلك). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦).

قولُه تعالى: ﴿وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: الوَسوسةُ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: ما تُضمِرُه عندَما ترَى امرأةً إذا أنت قدرْتَ عليها أتَزْني بها أم لا، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّالثُ: ما يُسِرُّه الإنسانُ مِن أمانةٍ أو خيانةٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٠).

أي: واللهُ يَحكُمُ بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ التَّامِّ، ومِن ذلك مُجازاتُه لكُلِّ مَن غَضَّ بَصَرَه وأخفَى الخَيرَ، أو خانت عَينُه وأضمَرَ الشَّرَّ[1].

كما قال الله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾.

أي: والَّذين يَدْعوهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ لا يَحكُمونَ بشَيءٍ؛ فهم لا يَعلَمونَ شَيئًا، ولا يَملِكونَ شَيئًا، ولا يَقدِرونَ على شَيءٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُواْ مَا ٱسْتَجَابُواْ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لكُلِّ صَوتٍ، البَصيرُ بكُلِّ شَيءٍ[3].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ * يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي ٱلصُّدُورُ﴾ قال

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

في أوَّلِ هاتَينِ الآيتَينِ: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ ﴾، ثمَّ وصَفَها بهذه الأوصافِ المقتَضيةِ للاستِعدادِ لذلك اليَومِ العَظيمِ؛ لاشتِمالِها على التَّرغيبِ والتَّرهيبِ[١].

٢- يَنبغي للدَّاعيةِ أنْ يكونَ مُخَوِّفًا أحيانًا، ومُبَشِّرًا أحيانًا؛ مِن أجْلِ أنْ يُحَرِّكَ القلوبَ، ويَنبغي في الإنذارِ أنْ يُذَكِّرَ الدَّاعيةُ النَّاسَ أحوالَ يومِ القيامةِ وأهوالَها؛ قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ ﴾[٢]، أي: أنذِرْهم يومَ القيامةِ، بمعنى: خَوِّفْهم إيَّاه، وهدِّدْهم بما فيه مِن الأهوالِ العِظامِ؛ لِيَستعِدُّوا لذلك في الدُّنيا بالإيمانِ والطاعةِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴾ يُخبِرُ تعالَى عن عِلمِه التَّامِّ المُحيطِ بجميعِ الأشياءِ؛ جليلِها وحقيرِها، صغيرِها وكبيرِها، دقيقِها ولطيفِها؛ لِيَحذَرَ النَّاسُ عِلمَه فيهم، فيَسْتَحْيوا مِن اللهِ حَقَّ الحَياءِ، ويَتَّقوه حقَّ تَقْواه، ويُراقِبوه مُراقبةَ مَن يَعلَمُ أنَّه يَراه؛ فإنَّه تعالَى يَعلَمُ العَينَ الخائنةَ وإنْ أبدَتْ أمانةً، ويَعلَمُ ما تَنطوي عليه خبايا الصُّدورِ مِن الضَّمائرِ والسَّرائرِ[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ ﴾ فيه ذَمُّ النَّظَرِ إلى ما لا يَجوزُ[٥]، والزَّجْرُ عن ذلك، وتهديدُ مَن لم يَمتثِلْه، ولم يَغُضَّ بَصَرَه عن الحرامِ، فقد أمَرَ اللهُ تعالى بغضِّ البصرِ فقال: ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ ﴾ [النور: ٣٠]، وقال: ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ ﴾[٦] [النور: ٣١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٦).

(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٥٠٩).

٥- كلُّ عمَلٍ لا يحِلُّ فهو خيانةٌ، وإن كان بأدنَى إشارةٍ، وقد نبَّه الله على هذا بقولِه: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ﴾، وهي مُسارَقةُ النَّظرُ إلى ما لا يحلُّ، والإشارةُ بطَرْفِ العَينِ فيما يَحرُمُ، فحقٌّ على المسلمِ أن يَحذَرَ مِن الخيانةِ دقيقِها وجليلِها، وخصوصًا ما اتَّصل بالنَّاسِ منها، ويَتنبَّهَ مِن أقلِّ كلمةٍ، وأدنَى إشارةٍ توقِعُه في خطرِها[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾ يُوجِبُ عَظيمَ الخَوفِ؛ لأنَّ الحاكِمَ إذا كان عالِمًا بجَميعِ الأحوالِ، لا يَقضي إلَّا بالحَقِّ فيما دَقَّ وجَلَّ؛ خافه الخَلْقُ غايةً[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ لا حُجَّةَ للمُعتَزِلةِ بهذه الآيةِ على نَفْيِ الشَّفاعةِ عن المُذنِبينَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى نفَى أن يَحصُلَ للظَّالِمينَ شَفيعٌ يُطاعُ، وهذا لا يدُلُّ على نفْيِ الشَّفيعِ، كقَولِك: (ما عندي كتابٌ يُباعُ)، فهذا يَقتضي نفْيَ كِتابٍ يُباعُ، ولا يَقتَضي نفْيَ الكِتابِ؛ فهذا يَنفي أنَّ لهم شَفيعًا يُطيعُه اللهُ تعالى؛ لأنَّه ليس في الوُجودِ أحَدٌ أعلى حالًا مِن اللهِ تعالى حتَّى يقالَ إنَّ اللهَ يُطيعُه ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦ﴾ [يونس: ٣].

وأيضًا فلَفظُ الظَّالِمينَ إمَّا أن يُفيدَ الاستِغراقَ، وإمَّا ألَّا يُفيدَ: فإنْ أفاد الاستِغراقَ كان المرادُ مِن الظَّالِمينَ مَجموعَهم وجُملتَهم، ويَدخُلُ في مجموعِ هذا الكَلامِ الكُفَّارُ، وهذا المجموعُ ليس له شفيعٌ؛ لأنَّ بَعضَ هذا المجموعِ هم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٨).

الكُفَّارُ، وليس لهم شَفيعٌ؛ فحينَئِذٍ لا يكونُ لهذا المجموعِ شَفيعٌ، وإنْ لم يُفِدِ الاستِغراقَ كان المرادُ مِن الظَّالِمينَ بَعضَ مَن كان مَوصوفًا بهذه الصِّفةِ، فبعضُ الموصوفينَ بهذه الصِّفةِ ممَّنْ ليس لهم شفيعٌ هم الكفَّارُ.

وأيضًا فإنَّ المرادَ بالظَّالِمينَ في هذه الآيةِ هاهنا الكُفَّارُ؛ لأنَّها ورَدَت في زَجرِ الكُفَّارِ، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾ [لقمان:١٣]؛ فوَجَب أن يكونَ مُختَصًّا بهم، فلا شَفاعةَ في حَقِّ الكُفَّارِ(١).

فإنْ قال قائِلٌ: الظُّلمُ أعَمُّ مِن الكُفرِ، فكيف فَسَّرتُم الظُّلمَ هنا بالكُفرِ؟

قُلْنا: لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ولأنَّ ما دونَ الكُفرِ مِن المعاصي تُمكِنُ فيه الشَّفاعةُ؛ فإنَّ الشَّفاعةَ ثابِتةٌ لأهلِ الكبائِرِ مِن هذه الأُمَّةِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ تحذيرُ هؤلاء الكُفَّارِ مِن ذلك اليومِ؛ فإنَّهم في الدُّنيا يَجِدونَ مَن يُناصِرُهم ويُواليهم، ويُساعِدُهم ويُعاوِنُهم، ولكنْ في الآخرةِ لا يَجِدونَ شَيئًا مِن ذلك(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ فيه جوازُ المقارَنةِ بيْنَ شيئَينِ لا يَشترِكانِ في المعنى؛ مِن أجْلِ إقامةِ الحُجَّةِ، فما قال سبحانه: (لا يَقضون بالحقِّ)، إنَّما قال: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾، يعني: ليس لهم أيُّ حُكْمٍ، وليس لهم أيُّ سُلطةٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٣٤١).

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [غافر: ١٧] وجُملةِ ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾ [غافر: ١٩]، والمناسَبةُ أنَّ ذِكرَ الحسابِ به يَقْتضي التَّذكيرَ بالاستِعدادِ ليومِ الحِسابِ، وهو يومُ الآزفةِ(١).

- والآزفةُ في قولِه: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ صِفةٌ لِمَحذوفٍ، تَقديرُه: يومَ السَّاعةِ الآزفةِ، أو الطَّامةِ الآزفةِ، ونحوَ هذا(٢).

- وقولُه: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ذلك في يومِ القِيامةِ حَقيقةً، ويَبْقَون أحياءً معَ ذلك، بخِلافِ حالةِ الدُّنيا؛ فإنَّ مَنِ انتقَلَ قلْبُه إلى حَنْجرتِه مات، ويجوزُ أنْ يكونَ ذلك كِنايةً عمَّا يَبْلُغون إليه مِن شِدَّةِ الجزَعِ(٣).

- وإنَّما جمَعَ الكاظِمَ جمْعَ السَّلامةِ فقال: ﴿كَٰظِمِينَ ﴾؛ لأنَّه وَصَفَ القُلوبَ بالكَظْمِ الَّذي هو مِن أفعالِ العُقلاءِ(٤).

- قولُه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ﴾ التَّعريفُ في (الظَّالِمين) للاستِغراقِ؛ لِيَعُمَّ كلَّ ظالمٍ، أي: مُشرِكٍ، فيَشملَ الظَّالِمينَ المُنْذَرين، ومَن مضَى مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧١).

أمثالِهم، فيَكونَ بمَنزلةِ التَّذييلِ؛ ولذلك فليس ذِكرُ الظَّالِمينَ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ(١).

- وقيل: إنْ كانت الضَّمائرُ للكُفَّارِ -وهو الظَّاهرُ- كان وَضْعُ (الظَّالِمين) مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للدَّلالةِ على اختِصاصِ ذلك بهم، وللتَّسجيلِ عليهم بالظُّلمِ، وأنَّ العَذابَ لِظُلْمِهم(٢).

- ووَصْفُ ﴿شَفِيعٍ﴾ بجُملةِ ﴿يُطَاعُ﴾ وَصْفٌ كاشفٌ؛ إذ ليس المرادُ أنَّ لهم شُفعاءَ لا تُطاعُ شَفاعتُهم؛ لِظُهورِ قِلَّةِ جَدْوى ذلك، ولكنْ لَمَّا كان شأْنُ مَن يَتعرَّضُ للشَّفاعةِ أنْ يَثِقَ بطاعةِ المشفوعِ عِندَه له جِيءَ بهذا الوصْفِ. وأُتبِعَ ﴿شَفِيعٍ﴾ بوَصْفِ ﴿يُطَاعُ﴾؛ لِتَلازُمِهما عُرْفًا؛ فهو مِن إيرادِ نفْيِ الصِّفةِ اللَّازمةِ للموصوفِ، والمقصودُ: نفْيُ الموصوفِ بضَرْبٍ مِن الكِنايةِ التَّلميحيَّةِ، والمعنى: أنَّ الشَّفيعَ إذا لم يُطَعْ فليس بشَفيعٍ، فنَفَى الصِّفةَ والمَوصوفَ، أي: لا شَفيعَ فيُطاع، واللهُ لا يَجتَرِئُ أحدٌ على الشَّفاعةِ عِندَه إلَّا إذا أذِنَ له، فلا يَشفَعُ عندَه إلَّا مَن يُطاعُ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾

- يجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ خَبرًا عن مُبتدأٍ مَحذوفٍ، هو ضَميرٌ عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٠).

١٧]، ومجموعُ الظَّاهرِ والمقدَّرِ استِئنافٌ؛ للمُبالَغةِ في الإنذارِ؛ لأنَّهم إذا ذُكِّروا بأنَّ اللهَ يَعلَمُ الخَفايا، كان إنذارًا بالغًا يَقْتضي الحذَرَ مِن كلِّ اعتقادٍ أو عمَلٍ نَهاهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنه.

ويجوزُ أنْ تكونَ خبرًا ثانيًا عن اسمِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ١٧]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ على كِلَا التَّقديرينِ[١].

- وقيل: هو خبرٌ آخَرُ لقولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ١٣]؛ للدَّلالةِ على أنَّه ما مِن خَفِيٍّ إلَّا وهو مُتعلَّقُ العِلمِ والجزاءِ[٢].

- فإنْ قيل: لم لا يُجعَلُ قولُه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ عِلَّةً لقولِه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، كما في قولِه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فكأنَّه قِيل: ما للظَّالِمينَ مِن شَفيعٍ؛ لِمَا يَعلَمُ اللهُ منهم الخِيانةَ سِرًّا وعلانيةً، ظاهرًا وباطنًا؟

**والجوابُ**: أنَّه إذا جُعِل مِن الأخبارِ المستقِلَّةِ بالدَّلالةِ لإثباتِ وَصفِ العِلمِ، ويَتَّصلُ به حديثُ العدْلِ والقضاءِ الحقِّ، ويكونُ تَخلُّصًا إلى ذَمِّ آلهتِهم، ولا يَفوتُ تَعليلُ نفْيِ الشَّفاعةِ أيضًا على سَبيلِ الإدماجِ[٣]؛ لاقترانِه به- كان أحسَنَ مِن تَعليقِه بنفْيِ الشَّفاعةِ وحْدَه[٤].

- و﴿خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ مَصدرٌ مُضافٌ إلى فاعِلِه؛ فالخائنةُ مَصدرٌ على وزْنِ اسمِ الفاعلِ، مِثلُ العافيةِ للمُعافاةِ، والعاقبةِ، والكاذبةِ. ويجوزُ إبقاءُ ﴿خَآئِنَةَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٨٦).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٩١).

على ظاهرِ اسم الفاعلِ؛ فيكونُ صِفةً لموصوفٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿ٱلْأَعْيُنِ﴾، أي: يَعلَمُ نَظرةَ الأعيُنِ الخائنةِ[١]، فجعَل النَّظرَ بمنزلةِ شَيءٍ يُسرَقُ مِن المنظورِ إليه، ولذا عبِّر فيه بالاستِراقِ. وقيل: هو وصْفٌ مُضافٌ إلى موصوفِه[٢].

- ولَمَّا كان السِّياقُ هنا للإبلاغِ في أنَّ عِلمَه تعالى مُحيطٌ بكُلِّ كُلِّيٍّ وجُزئيٍّ، فكان مِنَ المعلومِ أنَّ الحالَ يَقتَضي جمْعَ الكَثرةِ، وأنَّه ما عَدَل عنه إلى جمعِ القِلَّةِ إلَّا للإشارةِ إلى أنَّ عِلمَه تعالى بالكَثيرِ كعِلْمِه بالقَليلِ، الكُلُّ عليه هَيِّنٌ، فالكثيرُ عِندَه في ذلك قَليلٌ؛ فلذا قال: ﴿ٱلْأَعْيُنِ﴾[٣].

- و(مَا تُخْفِي الصُّدُورُ) هي النِّيَّاتُ والعزائمُ الَّتي يُضمِرُها صاحبُها في نفْسِه[٤]، وعبَّر عن القلوبِ بالصدورِ؛ لأنَّها مواضعُ القلوبِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۗ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۗ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾، أي: والَّذي هذه صِفاتُه وأحوالُه لا يَقْضي إلَّا بالحقِّ والعدْلِ؛ لاستِغنائِه عن الظُّلْمِ، وآلهتُكم لا يَقْضون بشَيءٍ؛ فهذا تَهكُّمٌ بالأصنامِ وقدْحٌ فيهم؛ لأنَّ ما لا يُوصَفُ بالقُدرةِ لا يُقال فيه: يَقْضي، أو لا يَقْضي[٦]، فلم يَقُلْ سبحانه: (لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢).

يَقضونَ بالباطلِ)، بل قال: ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ ليَشملَ الباطلَ وغيرَ الباطلِ، يعني: ليس لهم قضاءٌ إطلاقًا؛ لأنهم مَرْبوبون مَملوكونَ، فلا يَقضونَ بشيءٍ[1]. و(شيء) نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ، فتَعُمُّ كلَّ شَيءٍ؛ فدلَّ على أنَّ هذه الأصنامَ لا تنفعُ عابديها إطلاقًا[2].

- وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُؤتَى بجُملةِ ﴿يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ مَعطوفةً بالواوِ على جُملةِ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩]، فيُقال: (ويَقْضي بالحقِّ)، ولكنْ عُدِلَ عن ذلك فقال: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾؛ لِما في الاسمِ العَلَمِ للهِ تعالى مِن الإشعارِ بما يَقْتضيهِ المُسمَّى به مِن صِفاتِ الكمالِ، الَّتي منها العدْلُ في القضاءِ، ولِيَحصُلَ مِن تَقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ تَقَوِّي المعنى، أي: أنَّ ذلك مِن القضاءِ بالحقِّ، والجُملةُ مِن تَمامِ الغرَضِ الَّذي سِيقَت إليه جملةُ ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ [غافر: ١٩]، وكِلْتاهما ناظرةٌ إلى قولِه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [غافر: ١٨]، أي: إنَّ ذلك مِن القضاءِ بالحقِّ[3].

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ ناظرةٌ إلى جُملةِ ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [غافر: ١٨]؛ فبَعْدَ أنْ نُفيَ عن أصنامِهم الشَّفاعةُ، نُفِيَ عنها القضاءُ بشَيءٍ ما بالحقِّ أو بالباطلِ؛ وذلك إظهارٌ لِعَجْزِها. ولا تَحسبَنَّ جُملةَ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ﴾ مَسوقةً ضَميمةً إلى جُملةِ ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾؛ لِيُفيدَ مَجموعُ الجُملتَينِ قصْرَ القضاءِ بالحقِّ على اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٧).

تعالى قَصرَ قلْبٍ[١]، أي: دونَ الأصنام؛ لأنَّ المنفيَّ عن آلهتِهم أعمُّ مِن المُثبَتِ للهِ تعالى، وليس مِثلُ ذلك ممَّا يُضادُّ صِيغةَ القصْرِ؛ فكَفَى في إفادتِه تَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ بحَمْلِه على إرادةِ الاختِصاصِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾؛ فالمرادُ مِن قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ التَّذكيرُ بعَجْزِ الَّذين يَدْعونهم، وأنَّهم غيرُ أهلٍ للإلهيَّةِ، وهذه طريقةٌ في إثباتِ صِفةٍ لموصوفٍ، ثمَّ تعقيبُ ذلك بإظهارِ نَقيضِه فيما يُعَدُّ مُساويًا له[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ على قراءةِ ﴿تَدۡعُونَ﴾ بالتَّاءِ[٣]، فيكون فيها التِفاتٌ؛ لِقَرْعِ أسماعِ المشركينَ بذلك. أو على إضمارِ (قُل)، أي: قُلْ لهم يا محمَّدُ[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ مُقرِّرةٌ لِجُمَلِ ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ إلى قولِه: ﴿لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍ﴾ [غافر: ١٩، ٢٠]؛ فتَوسيطُ ضَميرِ الفصْلِ مُفيدٌ للقصْرِ، وهو تَعريضٌ بأنَّ آلهتَهم لا تَسمَعُ ولا

---

(١) قصرُ القلبِ: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).
ويُنظر ما تقدم (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٧، ١١٨).

(٣) قرأ نافعٌ وابنُ عامرٍ بالتَّاءِ، والباقون بالياءِ. يُنظر: ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ١٠٢)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٨).

تُبصِرُ، فكيف يَنسِبون إليها الإلهيَّةَ؟! وإثباتُ المُبالَغةِ في السَّمعِ والبصَرِ للهِ تعالى يُقرِّرُ معنى ﴿يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّ﴾، وتأْكيدُ الجُملةِ بحرْفِ التَّأكيدِ تَحقيقٌ للقَصْرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٨).

## الآيتان (٢١-٢٢)

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَءَاثَارًا﴾: أي: ما تُرِكَ في الأرضِ مِنَ البِناياتِ والمَعالِمِ والحُصونِ، وأثَرُ الشَّيءِ: حُصولُ ما يدُلُّ على وُجودِه، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[1].

﴿وَاقٍ﴾: أي: حافِظٍ ونافعٍ، والوِقايةُ: حِفظُ الشَّيءِ مِمَّا يُؤذيه ويَضُرُّه، وأصلُ (وقي): يدُلُّ على دَفعِ شَيءٍ عن شَيءٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى: أوَلَم يَسِرْ أولئك المُشرِكونَ من قُريشٍ في الأرضِ، فيَنظُروا مُعتَبِرينَ كيف كانتْ نهايةُ مَن قَبلَهم مِنَ الأُمَمِ الماضِيةِ؛ كانوا أشَدَّ قُوَّةً مِنهم، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ مِنهم، فعاقَبَهمُ اللهُ بذُنوبِهم فأهلَكَهم، ولم يكُنْ لهم مَن يَقيهم مِنَ اللهِ تعالَى.

ثُمَّ يَذكُرُ تعالَى عِلَّةَ أخْذِه إيَّاهم، وذُنوبَهمُ الَّتي ارْتَكَبوها، فيقولُ: ذلك العَذابُ لأنَّهم كانتْ تأتيهم رسُلُهم بالبَيِّناتِ على توحيدِ اللهِ وصِدقِ رُسُلِه، فكَفَروا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

فأخَذَهمُ اللهُ بعَذابِه فأهلَكَهم؛ إنَّ اللهَ قَويٌّ شَديدُ العِقابِ.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ٢١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا خَوَّفَ اللهُ تعالى الكُفَّارَ بعَذابِ الآخِرةِ؛ أردَفَه ببَيانِ تَخويفِهم بأحوالِ الدُّنيا[١].

وأيضًا لَمَّا وعَظَهمُ اللهُ سُبحانَه بصادِقِ الأخبارِ عن قَومِ نُوحٍ ومَن تَبِعَهم، وختَمَه بالإنذارِ بما يقَعُ في دارِ القَرارِ للظَّالِمينَ؛ أتْبَعَه الوَعظَ والتَّخويفَ بالمُشاهَدةِ مِن تتَبُّعِ الدِّيارِ والاعتبارِ[٢].

﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾.

أي: أوَلَم يَسِرْ أولئكَ المُشرِكونَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ في الأرضِ، فيَنظُروا مُعتَبِرينَ نهايةَ أمْرِ مَن كان قَبلَهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ[٣]؟

﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: كان كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ أشَدَّ قوَّةً مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤-٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥). =

كما قال تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الروم: ٩].

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: فلمْ تَنفَعْهم شِدَّةُ قُوَّتِهم ولا آثارُهم في الأرضِ؛ حيثُ عاقَبَهمُ اللهُ فأهلَكَهم بسَببِ ذُنوبِهم(١).

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾.

أي: ولم يَكُنْ لهم حِينَ جاءَهم عذابُ اللهِ أحدٌ يَقيهم منه، ويدفعُه عنهم(٢).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾﴾.

---

= قال ابنُ تيميَّةَ: (القُوَّةُ تَعُمُّ قُوَّةَ الإدراكِ النَّظريَّةَ، وقُوَّةَ الحَركةِ العَمَليَّةَ، وقال في الآيةِ الأُخرى: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [غافر: ٨٢]، فأخبَرَ بفَضلِهم في الكَمِّ والكَيفِ، وأنَّهم أشَدُّ في أنفُسِهم، وفي آثارِهم في الأرضِ). ((مجموع الفتاوى)) (٩/ ٤٠).

قال الماورديُّ: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فيه وجهان: أحدهما: يعني بطشًا، قاله يحيى. الثاني: قدرةً، قاله ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٠).

وقال السعديُّ: (كانوا أشدَّ قوةً مِن هؤلاء في العَدَدِ والعُدَدِ وكِبَرِ الأجسامِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٥).

والآثارُ في الأَرض؛ قيل: هي الأبنيةُ والمساكنُ وسائِرُ العِماراتِ. وقيل: هي المباني والمآثرُ والصِّيتُ الدُّنياوي. وقيل: حُصونُهم وقصورُهم وعساكِرُهم. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢١).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانَه أخْذَهم؛ ذكَرَ سببَه بما حاصِلُه أنَّ الاستِهانةَ بالرَّسولِ استِهانةٌ بمَن أرسَلَه[١].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ﴾.

أي: إنَّما نَزَل ذلك العَذابُ بهم؛ لأنَّهم كانتْ تأتيهم رسُلُهم بالدَّلالاتِ الواضِحاتِ على تَوحيدِ اللهِ وصِدقِ رُسُلِه، فكفَروا، وجَحَدوا توحيدَ اللهِ، وكَذَّبوا رسُلَه؛ فعاقَبَهم اللهُ بعَذابِه فأهلَكَهم[٢].

﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو قُوَّةٍ عَظيمةٍ؛ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، ولا يَقهَرُه شَيءٌ سُبحانَه، وعِقابُه شَديدٌ على مَن يَستَحِقُّه[٣].

كما قال تعالَى: ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٥٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ المعنى: أنَّ العاقِلَ مَن اعتبَرَ بغَيرِه؛ فإنَّ الذين مضَوْا مِنَ الكُفَّارِ كانوا أشَدَّ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سوة غافر)) (ص: ٢١١-٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٩).

قُوَّةً مِن هؤلاء الحاضِرينَ مِنَ الكُفَّارِ، وأقْوى آثارًا في الأرضِ مِنهم، فلمَّا كَذَّبوا رُسُلَهم أهلكَهمُ اللهُ بضُروبِ الهلاكِ مُعَجِّلًا، حتى إنَّ هؤلاء الحاضِرينَ مِنَ الكُفَّارِ يُشاهِدونَ تلك الآثارَ؛ فحَذَّرهمُ اللهُ تعالَى مِن مِثلِ ذلك بهذا القَولِ، وبَيَّنَ بقَولِه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١] أنَّه لَمَّا نَزَل العذابُ بهم عِندَ أخْذِه تعالَى لهم لم يَجِدوا مَن يُعينُهم ويُخَلِّصُهم، ثمَّ بَيَّن أنَّ ذلك نَزَل بهم؛ لأجْلِ أنَّهم كَفَروا وكَذَّبوا الرُّسلَ، فحَذَّر قَومَ الرَّسولِ مِن مِثلِه، وخَتَم الكَلامَ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر: ٢٢]؛ مُبالَغةً في التَّحذيرِ والتَّخويفِ(١).

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أنَّ السَّيرَ في أرضِ المُكَذِّبين، وتَبَيُّنَ ما أحَلَّ اللهُ بهم مِنَ النَّكالِ، إذا كان على سَبيلِ العِبرةِ بما جرَى لهم مِنَ الهَلاكِ؛ فلا بأسَ به، وبِناءً على ذلك نَعرِفُ أنَّ الذين يَذهَبونَ الآنَ إلى دِيارِ ثمودَ للاطِّلاعِ على قُوَّتِهم والاعتِبارِ بصَنعَتِهم: هُمْ على خَطأٍ عَظيمٍ؛ لأنَّهم لم يَسيروا في الأرضِ السَّيرَ الذي أمَرَ اللهُ به، بل ساروا في الأرضِ السَّيرَ الذي نهَى عنه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لا تَدْخُلوا على هؤلاءِ القَومِ المُعَذَّبينَ، إلَّا أنْ تَكونوا باكِينَ، فإنْ لَمْ تَكونوا باكِينَ فلا تَدْخُلوا عليهم؛ أنْ يُصيبَكُم مِثلُ ما أصابَهُم))(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نَبَّه على آثارِهم؛ لأنَّ آثارَهم لم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

والحديثُ أخرجه البُخاريُّ (٤٣٣)، ومُسلِم (٢٩٨٠) من حديثِ عبد الله بن عُمرَ رضي الله عنهما.

يَندَرِسْ بَعضُها إلى هذا الزَّمانِ، وقد مضَى عليها أُلوفٌ مِنَ السِّنينَ، وأمَّا المتأخِّرونَ فتَنطَمِسُ آثارُهم في أقَلَّ مِن قَرنٍ[١].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أنَّ هؤلاء الذين كانوا مِن قَبلِهم كانوا أشدَّ منهم قوةً في الأبْدانِ، وقوةً في الصِّناعةِ، وقوةً في الآثارِ؛ ومع هذا لم تمنَعْهم قوَّتُهم هذه مِن أخْذِ اللهِ لهم، ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ فلا يقي دونَ ما أرادَ اللهُ؛ لا قصورٌ ولا مدافعُ، ولا طائراتٌ ولا أيُّ شيءٍ، فإذا أرادَ بقومٍ سُوءًا فلا مَرَدَّ له، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[٢] [الرعد: ١١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ فيه إثباتُ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه لا يُؤاخِذُ أحدًا بدونِ ذنْبٍ[٣].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ إثباتُ الأسبابِ، وأنَّ اللهَ تعالى ربَطَ المُسَبَّباتِ بأسبابِها، وهذا يدُلُّ على تمامِ حِكمةِ اللهِ، وأنَّه عزَّ وجلَّ لم يَفعَلْ شيئًا عَبَثًا، ولا لِمُجَرَّدِ المشيئةِ، خِلافًا لِمَن قال مِن الجَبريَّةِ وغَيرِهم: إنَّ اللهَ تعالى يَفعَلُ ما يَشاءُ لِمُجَرَّدِ المشيئةِ، وليس لحِكمةٍ، وأنكَروا حِكمةَ اللهِ! فيُقالُ لهم: الحِكمةُ هي غايةُ الحُكمِ، أي: أنَّ الحِكمةَ أكبَرُ ما يَدُلُّ على البُعدِ عن السَّفَهِ واللَّعِبِ، والحِكمةُ التي يَشرَعُ اللهُ الشَّرائعَ مِن أجْلِها لا تعودُ إلى نَفسِها إلَّا مِن حيثُ الكَمالُ فقط، أمَّا المَصلحةُ فالذي يَنتَفِعُ بها هم الخَلقُ، أمَّا اللهُ عزَّ وجلَّ فإنَّ حِكمتَه لا تعودُ إليه بشَيءٍ سِوى

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٠٧، ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢١٣).

بيانِ كَمالِ صِفاتِه عزَّ وجَلَّ[١].

## بَلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَـٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ هذا انتقالٌ مِن إنذارِهم بعَذابِ الآخِرةِ على كُفْرِهم، إلى مَوعظتِهم وتَحذيرِهم مِن أنْ يَحُلَّ بهم عذابُ الدُّنيا قبْلَ عَذابِ الآخِرةِ كما حَلَّ بأُمَمٍ أمثالِهم[٢].

- والواوُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ عاطفةٌ جُملةَ: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ على جُمْلةِ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ ...﴾ إلخ [غافر: ١٨]. والاستفهامُ تَقريريٌّ، والتَّقريرُ مُوجَّهٌ للَّذين ساروا مِن قُريشٍ ونَظَروا آثارَ الأُمَمِ الذين أبادَهم اللهُ جَزاءَ تَكذيبِهم رُسلَهم؛ فهُمْ شاهَدوا ذلك في رِحلتَيْهم رِحلةِ الشِّتاءِ ورِحلةِ الصَّيفِ، وإنَّهم حَدَّثوا بما شاهَدوه مَن تَضُمُّهم نَوادِيهم ومَجالِسُهم؛ فقد صار مَعلومًا للجميعِ، فبهذا الاعتبارِ أُسنِدَ الفِعلُ المقرَّرُ به إلى ضَميرِ الجمْعِ على الجُملةِ[٣]. أو تكونُ الهمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ؛ أنكَرَ عليهم عدَمَ الاعتبارِ بأحوالِ غَيرِهم، والواوُ عاطفةٌ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ المقامُ، أي: أَغَفَلُوا ولم يَسِيروا[٤].

- وجُملةُ: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ...﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِتَفصيلِ الإجمالِ الذي في قولِه: ﴿كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ لأنَّ العِبرةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٣).

بالتَّفريعِ بعْدَها بقولِه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾[١].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُمْ) في جُملةِ ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً ...﴾؛ لِتَوكيدِ الحُكْمِ وتَقويتِه، وليسَ مُرادًا به قَصرُ المُسْنَدِ على المُسْنَدِ إليه؛ إذْ ليسَ للقَصْرِ معنًى هنا[٢].

- والفاءُ في ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لِتَفريعِ الأخْذِ على كَونِهم أشدَّ قوَّةً مِن قُريشٍ؛ لأنَّ القوَّةَ أُرِيدَ بها هنا الكِنايةُ عن الإباءِ مِن الحَقِّ والنُّفورِ مِن الدَّعوةِ؛ فالتَّقديرُ: فأعْرَضوا، أو فكَفَروا فأخَذَهم اللهُ، والأخْذُ: الاستِئصالُ والإهلاكُ؛ كُنِّيَ عن العِقابِ بالأخْذِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ (مِن) الأُولى مُتعلِّقةٌ بلَفظِ ﴿وَاقٍ﴾، قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ؛ للاهتمامِ بالمجرورِ، و(مِن) الثَّانيةُ صِلةٌ؛ لِتَأكيدِ النَّفْيِ بحرْفِ (ما)[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ (ذلك) إشارةٌ إلى المذكورِ، وهو أخْذُ اللهِ إيَّاهم بذُنوبِهم، والباءُ للسَّببيَّةِ، أي: ذلك الأخْذُ بسَببِ أنَّهم كانتْ تأْتِيهم رُسلُهم بالبيِّناتِ فكَفَروا بهم، وفي هذا تَفصيلٌ للإجمالِ الذي في قولِه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡ﴾، والجُملةُ بعْدَ (أنَّ) المفتوحةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٢١).

تأويلِ مَصدرٍ؛ فالتَّقديرُ: ذلك بسَببِ تَحقُّقِ مَجيءِ الرُّسلِ إليهم فكُفْرِهم بهم[١].

- وأفادَ المضارِعُ في قولِه: ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ تَجدُّدَ الإتيانِ مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ لِمَجموعِ تلك الأُمَمِ، أي: يأْتي لكلِّ أُمَّةٍ منهم رسولٌ؛ فجَمْعُ الضَّميرِ في ﴿تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم﴾، وجمْعُ الرُّسلِ في قولِه: ﴿رُسُلُهُم﴾ مِن مُقابَلةِ الجمْعِ بالجمْعِ؛ فالمعنى: أنَّ كلَّ أُمَّةٍ منهم أتاها رسولٌ. ولم يُؤتَ بالمضارِعِ في قولِه: ﴿فَكَفَرُوا۟﴾؛ لأنَّ كُفْرَ أولئك الأُمَمِ واحِدٌ، وهو الإشراكُ، وتكذيبُ الرُّسلِ[٢].

- وكُرِّرَ قولُه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بعْدَ أنْ تَقدَّمَ نَظيرُه في قولِه: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ...﴾ إلخ [غافر: ٢١]؛ إطنابًا لِتَقريرِ أخْذِ اللهِ إيَّاهم بكُفْرِهم برُسلِهم، وتَهويلًا على المنذَرينَ بهم أنْ يُساوُوهم في عاقِبتِهم كما ساوَوْهُم في أسْبابِها[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تَعليلٌ وتَبْيينٌ لأخْذِ اللهِ إيَّاهم، وكيفيَّتِه، وسُرعةِ أخْذِه المُستفادةِ مِن فاءِ التَّعقيبِ؛ فالقويُّ لا يُعجِزُه شَيءٌ، فلا يُعطِّلُ مُرادَه ولا يَتريَّثُ، و﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ بَيانٌ لذلك الأخْذِ على حَدِّ قولِه تعالَى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٤] [القمر: ٤٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بجمْعِ الضَّميرِ ﴿بِأَنَّهُمْ﴾، وقال في سُورةِ (التَّغابُن): ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٤).

كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [التغابن: ٦] بإفرادِه ﴿بِأَنَّهُۥ﴾؛ وذلك مُوافقةٌ هنا لِما قبْلَه في قولِه: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾ إلى آخِرِه، وأفْرَدَه هناك؛ لأنَّه ضَميرُ الشَّأنِ زِيدَ توصُّلًا إلى دُخولِ «أنَّ» على «كان»[1].

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٩، ٢٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠١).

## الآيات (٢٢-٢٧)

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَسُلْطَٰنٍ﴾: أي: حُجَّةٍ وبُرهانٍ، وأصْلُ السُّلطانِ: القوَّةُ والقهرُ، مِن التَّسلُّطِ؛ ولذلك سُمِّي السُّلطانُ سُلطانًا[1].

﴿وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾: أي: استَبقُوهنَّ أحياءً، والاستحياءُ: الإبقاءُ حَيًّا، واستَفعَلَ فيه بمعنى أفعَلَ، وأصلُ (حيي): يدُلُّ على خِلافِ الموتِ[2].

﴿ذَرُونِىٓ﴾: أي: اتْرُكوني، ودَعُوني، يُقالُ: فلانٌ يَذَرُ الشيءَ، أي: يَرْميه لِقلَّةِ اعتِدادِه به[3].

﴿عُذْتُ﴾: أي: التجَأْتُ واعتَصَمْتُ واستَجَرْتُ، وأصلُ العَوذِ: الالتِجاءُ إلى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

الغَيرِ، والتعَلُّقُ به[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ اللهُ تعالَى جانبًا مِن قِصَّةِ موسى عليه السلامُ معَ فرعونَ، مُسَلِّيًا لنبيِّه صلَّى اللَّه عليه وسَلَّم، بذِكرِ نموذجٍ مِن أحوالِ المكذِّبينَ بالرُّسلِ، فيقولُ: ولقدْ أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا وبحُجَّةٍ ظاهِرةٍ مُوضِّحةٍ للحَقِّ، إلى فِرعَونَ، ووَزيرِه هامانَ، وقارونَ، فقالوا: إنَّ موسى ساحِرٌ كَذَّابٌ! فلمَّا جاءَهم موسَى بالحَقِّ مِن عِندِ اللهِ قالوا: اقتُلوا أبناءَ الَّذين آمَنوا معَ موسى، واستَبقُوا نِساءَهم أحياءً. وما كَيدُهم هذا إلَّا كَيدٌ باطلٌ زائِلٌ!

وقال فِرعَونُ: اتْرُكوني أقتُلْ موسى، ولْيَدْعُ رَبَّه فيَمنَعَه مِنِّي؛ إنِّي أخافُ -لو ترَكْتُ موسى- أن يُغَيِّرَ دِينَكم بسِحْرِه، أو أنْ يُظهِرَ في أرضِ مِصرَ الفَسادَ! وقال موسى: إنِّي أستَجيرُ وأعتَصِمُ برَبِّي ورَبِّكم مِن كُلِّ مُتكَبِّرٍ لا يُؤمِنُ بيَومِ القِيامةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا سلَّى اللهُ تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذِكرِ الكُفَّارِ الذين كذَّبوا الأنبياءَ قَبْلَه، وبمُشاهَدةِ آثارِهم؛ سلَّاه أيضًا بذِكرِ موسَى عليه السَّلامُ، وأنَّه معَ قوَّةِ مُعجِزاتِه بعَثَه إلى فِرعَونَ وهامانَ وقارونَ، فكَذَّبوه، وقالوا: هو ساحِرٌ كذَّابٌ[٢]!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٦).

أي: ولقدْ أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا، وبحُجَّةٍ ظاهِرةٍ مُظهِرةٍ للحَقِّ(١).

كما قال تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: إلى فِرعَونَ مَلِكِ مِصرَ، ووَزيرِه هامانَ، وقارونَ الذي كان مِن قَومِ مُوسَى فبغَى عليهم؛ فقالوا عن مُوسَى: هو ساحِرٌ فيما يُرينا مِن آياتٍ، كذَّابٌ في زَعْمِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢١٦-٢٢٠).

ممَّن قال: إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: المعجزاتُ: السمعاني، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣).

وممَّن قال: المرادُ بها الآياتُ التسعُ؛ أي: المذكورةُ في قولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١]: السمرقندي، والقرطبي، والنسفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٥٩).

وممن قال: إنَّ المرادَ بالسلطانِ: الحجةُ: مقاتل بن سليمان، والزجاج، والسمرقندي، ومكي، والسمعاني، والقرطبي، والبيضاوي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤١٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٥٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٥).

قال البقاعيُّ: (﴿وَسُلْطَٰنٍ ﴾ أي: أمرٍ قاهِرٍ عَظيمٍ جِدًّا، لا حِيلةَ لهم في مُدافَعةِ شَيءٍ منه ﴿مُّبِينٍ ﴾ أي: بَيِّنٍ في نَفسِه، مُنادٍ لكُلِّ مَن يُمكِنُ اطِّلاعُه عليه أنَّه ظاهِرٌ جِدًّا، وذلك الأمرُ هو الذي كان يمنَعُ فِرعَونَ مِن الوُصولِ إلى أذاه مع ما له مِن القُوَّةِ والسُّلطانِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٨).

أنَّ اللهَ أرسَلَه إلينا[١].

كما قال تعالَى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾.

أي: فلمَّا جاءَهم مُوسى بالحَقِّ مِن عِندِ اللهِ، لم يُذعِنوا له، وقالوا: اقتُلوا أبناءَ الذين آمَنوا مع مُوسى، واستَبْقُوا نِساءَهم أحياءً[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٢، ١٢٣).
قال ابنُ كثير: (هذا أمرٌ ثانٍ مِن فِرعَونَ بقَتلِ ذُكورِ بني إسرائيلَ؛ أمَّا الأوَّلُ: فكان لأجْلِ الاحترازِ مِن وُجودِ موسى، أو لإذلالِ هذا الشَّعبِ وتَقليلِ عَدَدِهم، أو لِمَجموعِ الأمْرَينِ. وأمَّا الأمرُ الثَّاني: فلِلعلَّةِ الثَّانيةِ: لإهانةِ هذا الشَّعبِ، ولكي يَتشاءَموا بمُوسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٨).
ممَّن اختار أنَّ الأمرَ بالقتلِ مِن فرعونَ: مقاتلُ بنُ سليمان، والماتريدي، ومكي، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٠)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤١٩، ٦٤٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥).
وممَّن قال: إنَّ المرادَ بقوله: ﴿قَالُوا۟﴾: فرعونُ وقومُه: الثعلبي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٠٩). =

كما قال تعالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٦].

﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾.

أي: كادُوا هذه المَكِيدةَ زاعِمينَ أنَّهم إذا قَتَلوا أبناءَهم واستَحْيَوا نِساءَهم، لم يَقْوَوا، وبَقُوا تحتَ عُبُوديَّتِهم؛ فما كيْدُهم هذا إلَّا كَيدٌ باطِلٌ مُضمَحِلٌّ؛ فلا يَتمُّ لهم ما قَصَدوه به[1].

كما قال الله سُبحانَه: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٧].

وقال سُبحانَه عن أصحابِ الفيلِ: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ [الفيل: ٢].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالَى بفِعلِ فِرعَونَ بمَن تابَعَ موسى عليه السَّلامُ؛ أخبَرَ عن

---

= وقال ابنُ عطية وأبو حيان: إنَّ المرادَ: فرعونُ، وهامانُ، وقارونُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٣، ١٢٤).

فِعلِه معه بما عُلِمَ به أنَّه عاجِزٌ؛ فقال[١]:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾.

أي: وقال فِرعَونُ: دَعوني أقتُلْ مُوسى، ولْيَدْعُ رَبَّه الذي يَزعُمُ أنَّه أرسَلَه إلينا؛ فيَمنَعَه منِّي[٢]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٠).

قيل: إنَّما قال فرعونُ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ لأنَّهم كانوا يكُفُّونَه عن قتلِه، ويمنعونَه منه، وممن اختار هذا المعنى: السَّمرقندي، والواحدي، والبغوي، وابنُ الجوزي، والرَّسعني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٠٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٠).

قيل: إنَّما منَعوه عن قتلِه؛ لأنَّه كان فيهم مَن يعتقِدُ بقلبِه أنَّه كان صادِقًا، وقيل: كان في خاصةِ قومِ فرعونَ مَن يمنعُه مِن قتلِه خوفًا مِن الهلاكِ، وقيل: قالوا: لا تقتُلْه؛ فإنَّه هو ساحرٌ ضعيفٌ، فلا يقدِرُ أنْ يغلبَ سحرَنا، وإن قتلته قالت العامَّةُ: كان محقًّا صادقًا، وعجزوا عن جوابِه فقتلوه. وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٢).

وقال السمرقندي: (وذلك أنَّ قومَه كانوا يقولونَ: أرجِئْه وأخاه، ولا تقتُلْه حتَّى لا يُفسدوا عليك الملكَ. فقال لهم فرعونُ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾؛ فإنِّي أعلمُ أنَّ صلاحَ مُلكي في قتلِه). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٣). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٤/ ٥٢٦).

وقيل: إنَّ فرعونَ كانَ قد استيقنَ أنَّ موسَى عليه السلامُ نبيٌّ، وأنَّ ما جاءَ بِه آياتٌ باهرةٌ، وما هو بسحرٍ ولكنْ كان يخافُ إنْ همَّ بقتلِه أنْ يُعاجَلَ بالهلاكِ، وكانَ قولُه هذا تمويهًا على قومِه، وإيهامًا أنَّهم هم الكافُّونَ له عن قتلِه، وممن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والنسفي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٦). =

﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ﴾.

أي: قال فِرعَونُ مُعَلِّلًا إرادتَه قَتْلَ موسى: إنِّي أخافُ -لو ترَكْتُ مُوسى- أن يُغَيِّرَ دِينَكم الذي أنتُم عليه بسِحْرِه[1]!

﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾.

أي: أو أنْ يُظهِرَ مُوسى في أرضِ مِصرَ الفَسادَ[2].

---

= وقال ابنُ عطيةَ: (الظاهرُ مِن أمرِ فرعونَ أنَّه لما بهَرتْ آياتُ موسَى عليه السلامُ انهدَّ ركنُه، واضْطَربتْ معتقداتُ أصحابِه، ولم يفقِدْ منهم مَن يجاذبُه الخلافَ في أمرِه، وذلك بيِّنٌ مِن غيرِ ما موضعٍ مِن قصتِهما، وفي هذه الآيةِ على ذلك دليلان: أحدهما: قولُه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ فليسَتْ هذه مِن ألفاظِ الجبابرةِ المتمكِّنينَ مِن إنفاذِ أوامرِهم. والدليلُ الثاني: مقالةُ المؤمنِ وما صدَع به، وأنَّ مكاشفتَه لفرعونَ أكثرُ مِن مساترتِه، وحكمَه بنُبوَّةِ موسَى أظهرُ مِن توريتِه في أمرِه. وأمَّا فرعونُ فإنَّما لجأ إلى المخرقةِ والاضطرابِ والتَّعاطي، ومِن ذلك قولُه: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ أي: إنِّي لا أُبالي عن ربِّ موسَى، ثمَّ رجَع إلى قومِه يُريهم النَّصيحةَ والحمايةَ لهم فقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ...﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

قال الواحديُّ: (معنى «أو» وقوعُ أحدِ الشَّيئَينِ، المعنى: أخافُ أن يُبدِّلَ دِينَكم، وإنْ لم يُبَدِّلْه أوقَعَ فيه الفَسادَ). ((الوسيط)) (٤/ ٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالأرضِ هنا: أرضُ مِصرَ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠).

قال ابن عاشور: (الأرضُ: هي المعهودةُ عِندَهم، وهي مملكةُ فِرعَونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

وقيل: المرادُ بقَولِ فِرعَونَ: ﴿أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾: هو إظهارُ موسى عِبادةَ رَبِّه، وتغييرُ دِينِهم وتبديلُه. ومِمَّن قال بذلك في الجُملة: ابن جرير، والثعلبي، البَغوي، والرَّسْعني، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٢)، ((تفسير =

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ٢٧﴾.

أي: وقال موسى: إنِّي أستَجيرُ وأعتَصِمُ برَبِّي ورَبِّكم مِن كُلِّ مُتكَبِّرٍ مُتعاظِمٍ عن الحَقِّ، لا يُؤمِنُ بيَومِ القِيامةِ الَّذي يحاسِبُ اللهُ فيه عِبادَه، ويُجازيهم على أعمالِهم[1].

---

= البغوي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

قال قتادة: (والفسادُ عِندَه أنْ يُعمَلَ بطاعةِ اللهِ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠).

وقيل: هو أنْ يُقَتِّلَ أبناءَكم ويَستحْيِيَ نساءَكم، كما فعَلْتُم بقَومِه يفعَلُ بكم. قاله مقاتل بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُريجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٢٨٤).

وقيل: المرادُ أنَّه يَقَعُ بينَ النَّاسِ خِلافٌ بسبَبِ موسى. ومِمَّن قال بهذا: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٠).

وقيل: الفسادُ: هو ما يُفسدُ دُنياهم مِن التحارُبِ والتهارُجِ، وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والبيضاوي، والنَّسَفي، وأبو حيان، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤).

وقيل: المرادُ: فَسادُ المعايِشِ؛ فإنَّه إذا غَلَب قَوِيَ على مَن سِواه، فسَفَك الدِّماءَ وسَبَى الذُّرِّيَّةَ، وانتهَبَ الأموالَ؛ ففَسَدت الدُّنيا مع فسادِ الدِّينِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥١).

قال ابنُ جُزَيٍّ: (يَعني: فَسادَ أحْوالِهم في الدُّنْيا). ((تفسير ابن جُزَيٍّ)) (٢/ ٢٣٠).

وقال الرازيُّ: (المَقصودُ من هذا الكَلامِ بَيانُ السَّببِ الموجِبِ لقَتلِه، وهو أنَّ وُجودَه يُوجِبُ إمَّا فَسادَ الدِّينِ أو فَسادَ الدُّنيا، أمَّا فَسادُ الدِّينِ؛ فلأنَّ القومَ اعتَقَدوا أنَّ الدِّينَ الصَّحيحَ هو الَّذي كانوا عليه، فلمَّا كان موسى ساعيًا في إفْسادِه كان في اعْتِقادِهم أنَّه ساعٍ في إفْسادِ الدِّينِ الحقِّ، وأمَّا فَسادُ الدُّنيا؛ فهو أنَّه لا بدَّ وأنْ يجتَمِعَ عليه قومٌ، ويَصيرَ ذلك سَببًا لوُقوعِ الخُصوماتِ، وإثارةِ الفِتَنِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن =

كما قال الله تعالَى حاكيًا قَولَ موسى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ﴾ [الدخان: ٢٠].

وعن أبي مُوسَى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان إذا خاف قَومًا قال: ((اللـهُمَّ إنَّا نَجعَلُك في نُحورِهم، ونَعوذُ بك مِن شُرورِهم))[1].

## الفَوائِدُ التربويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ الطَّريقَ المؤكَّدَ المُعتبَرَ في دَفعِ الشُّرورِ والآفاتِ عن النَّفسِ: الاعتِمادُ على اللهِ، والتوكُّلُ على عِصمةِ اللهِ تعالَى[2].

٢- في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ جاء بذِكرِ الرَّبِّ

---

= كثير)) (٧/ ١٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٣).

قيل: هذا الخِطابُ من موسى لِفرعَونَ ومَلَئِه. ومِمَّن قال بهذا القول: ابن جرير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٣٦).

وقيل: هذا الخِطابُ مِن موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ. ومِمَّن قال بهذا القول: الزمخشري، والبيضاوي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٦، ١٢٧).

(١) أخرجه أبو داود (١٥٣٧)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٦٣١)، وأحمد (١٩٧٢٠).

صحَّحه ابن حبان في ((الصحيح)) (٤٧٦٥)، والحاكمُ على شرط الشيخينِ في ((المستدرك)) (٢٦٢٩)، وصحَّح إسنادَه النووي في ((المجموع)) (٤/ ٣٩٦)، والعراقي في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٤٢٩)، وقال ابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (١٢٧): (حسنٌ غريبٌ). وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٣٧)، وحَسَّنه شُعَيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٩٧٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٧).

مُضافًا إلى ضَميرِ نفْسِه مُبتدأً به، ثمَّ إلى ضَميرِ قوْمِه ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ علَى عادةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مِن البَداءةِ بأنفُسِهم في الدُّعاءِ، وإشارةً إلى أنَّ الاجتماعَ على الدُّعاءِ واتِّفاقَ الأرواحِ على التَّوجُّهِ والطَّلبِ؛ أبلَغُ في إنجاحِ الحاجاتِ؛ ولذلك شُرِعَت الجماعةُ في الصَّلواتِ. وصِفةُ الرُّبوبيَّةِ المشْعِرة بالحِفظِ والتَّربيةِ للتَّوسُّلِ بها إلى اللهِ تعالَى خُصوصيَّةٌ عَظيمةٌ في إنجاحِ المطالبِ؛ لِما فيها مِن التَّملُّقِ والتَّعطُّفِ، والانضيافِ إلى اللهِ تعالَى بأخصِّ أنواعِ التَّقرُّبِ، على أنَّه أتى بها مُتحقِّقًا بالتَّعلُّقِ بها مِن حيث أطْلَقَها فِرعونُ في قولِه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] على وجْهِ التَّهكُّمِ والاستهزاءِ، فاستَظهَرَ بتَعلُّقِه بها وثِقتِه بها على عكْسِ ما ظَنَّه فِرعونُ(١).

٣- قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ قدْ أراد مُوسى عليه السَّلامُ بتَشريكِه قوْمَه معه في إضافةِ الرَّبِّ أنْ يُشارِكوه في هذا الخيْرِ؛ إذ كَمالُ إيمانِ العبْدِ أنْ يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِه، وبهذا يَتخلَّقُ العبدُ بالوَدوديَّةِ، وليس في العبادِ أوَدُّ لهم مِن الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

٤- في قولِه: ﴿عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ لم يَأْتِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في دفْعِ الشِّدَّةِ إلَّا بأنِ استعاذَ باللهِ واعتَمَدَ عليه؛ فلا جرَمَ أنْ صانَه اللهُ عن كلِّ بَلِيَّةٍ، وأوْصَلَه إلى كلِّ أُمنيَّةٍ؛ فكما أنَّ عِندَ القِراءةِ يقولُ المسلمُ: أعوذُ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، فاللهُ تعالَى يَصونُ دِينَه وإخلاصَه عن وَساوسِ شَياطينِ الجِنِّ، فكذلك عندَ تَوجُّهِ الآفاتِ والمخافاتِ مِن شَياطينِ الإنسِ؛ إذا قال المسلمُ: (أعوذُ باللهِ) فاللهُ يَصونُه عن كلِّ الآفاتِ والمخافاتِ؛ فمعنَى قولِه: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ كأنَّ

---

(١) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٧/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٧٩، ٢٨٠).

العبْدَ يقولُ: إنَّ اللهَ سُبحانه هو الذي رَبَّاني، وإلى دَرَجاتِ الخيْرِ رَقَّاني، ومِن الآفاتِ وَقَّاني، وأعْطاني نِعَمًا لا حدَّ لها ولا حصْرَ، فلمَّا كان المولى ليْس إلَّا اللهَ وجَبَ ألَّا يَرجِعَ العاقلُ في دفْعِ كلِّ الآفاتِ إلَّا إلى حِفظِ اللهِ تعالَى[١].

٥- قولُه: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ الاستقراءُ يدُلُّ على أنَّه كلَّما كان الرَّجلُ أعظَمَ استكبارًا عن عِبادةِ اللهِ، كان أعظَمَ إشراكًا باللهِ؛ لأنَّه كلَّما استَكبَرَ عن عِبادةِ اللهِ ازدادَ فقْرُه وحاجتُه إلى المرادِ المحبوبِ الذي هو المقصودُ؛ مَقصودُ القلْبِ بالقصْدِ الأوَّلِ، فيكونُ مُشرِكًا بما استَعبَدَه مِن ذلك، ولنْ يَستغنِيَ القلْبُ عن جَميعِ المخلوقاتِ إلَّا بأنْ يكونَ اللهُ هو مَوْلاهُ الذي لا يَعبُدُ إلَّا إيَّاه، ولا يَستعينُ إلَّا به، ولا يَتوكَّلُ إلَّا عليه، ولا يَفرَحُ إلَّا بما يُحِبُّه ويَرْضاه، ولا يَكرَهُ إلَّا ما يُبغِضُه الرَّبُّ ويَكرَهُه، ولا يُوالي إلَّا منَ والاهُ اللهُ، ولا يُعادي إلَّا مَن عاداهُ اللهُ، ولا يُحِبُّ إلَّا للهِ، ولا يُبغِضُ شيئًا إلَّا للهِ، ولا يُعْطي إلَّا للهِ، ولا يَمنَعُ إلَّا للهِ، فكلَّما قَوِيَ إخلاصُ دِينِه للهِ كمَلَت عُبوديَّتُه واستِغْناؤه عن المخلوقاتِ، وبكَمالِ عُبوديَّتِه للهِ يُبرِّئُه مِن الكِبرِ والشِّركِ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ لَعلَّك تَعلَمُ وتَفهَمُ مِن دُعاءِ مُوسى هذا في مُقابَلةِ قوْلِ فِرعونَ، وهو يَعلَمُ أنَّه مَحفوظٌ منه -لقولِه تعالَى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]- أنَّ العبْدَ لا يَنْبغي له أنْ يَغفُلَ عن ذِكرِ اللهِ تعالَى عندَ كلِّ قَليلٍ وكثيرٍ، واللَّجاءِ إليه في كلِّ خطْبٍ حَقيرٍ وجَليلٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٧، ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٧/ ٢٨٠).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَـآ﴾ أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى لا يُرسِلُ رَسولًا إلَّا بآيةٍ بَيِّنةٍ تَدُلُّ على صِدقِه، وقدْ أكَّدَ ذلك الحَديثُ الثَّابتُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِن الأنبياءِ مِن نبيٍّ إلَّا قد أُعطِيَ مِن الآياتِ ما مِثلُه آمَنَ عليه البَشَرُ))[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ أنَّ الزُّعماءَ يقومونَ مَقامَ الأتْباعِ؛ لأنَّ الرِّسالةَ ليستْ إلى هؤلاءِ الثَّلاثةِ فقط، بلْ إلى آلِ فِرعَونَ كلِّهم، لكِنَّ الأسيادَ يقومونَ مَقامَ الأتْباعِ[٢].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ أنَّ العُتاةَ المُعانِدينَ للرُّسُلِ تتنَوَّعُ أسبابُ عِنادِهم ومُعارضتِهم للرُّسُلِ؛ قد تكونُ السُّلطةَ، وقد تكونُ الوَزارةَ، وقد يكونُ المالَ، وقدْ تكونُ القُوَّةَ البَدنيَّةَ؛ ففي هذه الآيةِ ثلاثةُ أسبابٍ: المُلْكُ. والثَّاني: الوَزارةُ. والثَّالثُ: المالُ. وفي عادٍ القُوَّةُ البَدنيَّةُ، قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾[٣] [فصلت: ١٥].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ أنَّ ما قالوه في رَدِّ الدَّعوةِ مُجرَّدُ دَعوى؛ لأنَّهم لم يُقيموا على دَعواهم أيَّ دليلٍ، بل قالوا: «ساحِرٌ كذَّابٌ»، وهذا يَلجَأُ إليه الضُّعَفاءُ العاجِزونَ؛ إذا عَجَزوا عن مُدافعةِ الحُجَّةِ بالحُجَّةِ ذهَبوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٢١).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٧٢٧٤)، ومسلم (١٥٢) مطوَّلًا، واللفظُ له، مِن حديث أبي هُرَيرَةَ رَضيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلى السَّبِّ والشَّتمِ، وما أشبهَ ذلك[١]!

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى قدْ يُسَلِّطُ أعداءَه على المؤمِنينَ امتِحانًا وابتِلاءً، والواقعُ كذلك، وقد يكونُ الإنسانُ كُلَّما اشتدَّ إيمانُه اشتَدَّ إيذاءُ أعداءِ اللهِ له[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾، أي: إلَّا في مُجانَبةٍ للسَّدادِ المُوصِلِ إلى الظَّفَرِ والفَوزِ، وكذا أفعالُ الفَجَرةِ مع أولياءِ اللهِ؛ ما حَفَر أحَدٌ منهم لأحَدٍ منهم حُفرةَ مَكرٍ إلَّا أرْكَسَه اللهُ فيها[٣].

٧- قولُه: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ فيه البُشرى التَّامَّةُ للمُؤمِنينَ بأنَّ الكُفَّارَ مهْما كادوا فإنَّ كيْدَهم ضائعٌ وهالكٌ، لنْ يَنفَعَهم، ولنْ يَسْتفيدوا منه شيئًا، وإنِ استَفادوا فإنَّما يَسْتفيدون فائدةً مُؤقَّتةً؛ ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[٤] [الأعراف: ١٢٨].

٨- في قولِه: ﴿وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٦] خوْفُ الكفَّارِ مِن سِلاحِ المؤمنينَ بالدُّعاءِ، وإنْ كان المقصودُ التَّحدِّيَ، لكنْ لا شَكَّ أنَّه قدْ فَهِم أنَّ الدُّعاءَ سِلاحٌ لمُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٥].

٩- في قولِه: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ أنَّ الموجِبَ للإقدامِ على إيذاءِ النَّاسِ أمرانِ؛ أحدُهما: كوْنُ الإنسانِ مُتكبِّرًا قاسيَ القلْبِ، والثَّاني: كونُه مُنكِرًا للبعثِ والقيامةِ؛ وذلك لأنَّ المُتكبِّرَ القاسيَ قدْ يَحمِلُه طبْعُه على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص ٢٣٥).

إيذاءِ النَّاسِ، إلَّا أنَّه إذا كان مُقِرًّا بالبعثِ والحسابِ صار خوْفُه مِن الحسابِ مانعًا له مِن الجرْيِ على مُوجِبِ تَكبُّرِه، فإذا لم يَحصُلْ عنده الإيمانُ بالبعثِ والقيامةِ كانت الطَّبيعةُ داعيةً له إلى الإيذاءِ، والمانعُ -وهو الخوْفُ مِن السُّؤالِ والحسابِ- زائلًا، وإذا كان الخوْفُ مِن السُّؤالِ والحسابِ زائلًا، فلا جَرَمَ تَحصُلُ القسْوةُ والإيذاءُ[١].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ الواوُ استئنافيَّةٌ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للشُّروعِ في قِصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ[٢].

- وفيه تَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهذه القِصَّةُ تَزيدُ على ما أُجمِلَ مِن قَصصِ أُمَمٍ أُخرى أنَّ فيها عِبرتَينِ: عِبرةً بكَيدِ المكذِّبينَ وعِنادِهم ثمَّ هَلاكِهم، وعِبرةً بصَبْرِ المؤمنينَ وثَباتِهم ثم نَصْرِهم، وفي كِلْتا العِبرتَينِ وَعيدٌ لِقُريشٍ أنْ يَحُلَّ بهم ما حَلَّ بفِرْعونَ وقَومِه مِن نِقْماتِ اللهِ، ووَعدٌ للمؤمنينَ بالظَّفَرِ والنَّصْرِ وحُسْنِ العاقبةِ[٣].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ على ﴿بِـَٔايَـٰتِنَا﴾؛ لِتَغايُرِ الوَصفَينِ، أو لإفرادِ بعضِ المُعجزاتِ كالعَصا؛ تَفْخيمًا لِشأْنِه[٤].

وقيل: إنَّ الآياتِ سُلطانٌ وحُجَّةٌ للرُّسُلِ على مَن أُرسِلوا إليهم، وعلى هذا فيكونُ عَطفُ «سلطان» على «آيات» مِن بابِ عَطْفِ الشَّيءِ على نَفسِه؛ لبيانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣).

فائِدتِه وثَمَرتِه؛ فالآياتُ هي السُّلطانُ، ويُستفادُ مِن الآيةِ كذلك أنَّ الآياتِ لا بُدَّ أنْ تكونَ مُبِينةً مُظهِرةً للحَقِّ(١).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ نصَّ على هامانَ وقارونَ؛ لِمَكانتِهما في الكُفرِ، ولأنَّهما أشهَرُ أتْباعِ فِرعَونَ(٢).

- قولُه: ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ لم يَقولوا: سَحَّارٌ، كما قالوا: ﴿كَذَّابٌ﴾؛ لأنَّهم كانوا يَزعُمون أنَّه ساحرٌ، وأنَّ سَحَرَتَهم أسْحَرُ منه، كما قالوا: ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧](٣)، ولئَلَّا يَتوهَّمَ أحَدٌ أنَّه يمدَحُه بالبَراعةِ في عِلمِ السِّحرِ، فتتحَرَّكَ الهِمَمُ للإقبالِ عليه للاستِفادةِ منه(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾، أي: أظهَرَ لهم الآياتِ الحقَّ، أي: الواضحةَ، فأطلَقَ ﴿جَاءَهُم﴾ على ظُهورِ الحقِّ(٥).

- وقولُه: ﴿مِنْ عِندِنَا﴾ وَصفٌ للحقِّ؛ لإفادةِ أنَّه حقٌّ خارقٌ للعادةِ لا يكونُ إلَّا مِن تَسخيرِ اللهِ وتأْييدِه، وهو آياتُ نُبوَّتِه التِّسعُ(٦).

- ووَجهُ وُقوعِ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا﴾ بعْدَ قولِه: ﴿أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ [غافر: ٢٣] مع اتِّحادِ مُفادِ الجُملتَينِ؛ فإنَّ مُفادَ جُملةِ ﴿جَاءَهُم﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُساوٍ لِمُفادِ جُملةِ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، ومُفادَ قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُساوٍ لِمُفادِ قولِه: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ [غافر: ٢٣]-: أنَّ الأوَّلَ للتَّنويهِ برِسالةِ مُوسى وعَظَمةِ مَوقِفِه أمامَ أعظَمِ مُلوكِ الأرضِ يَومئذٍ، وأمَّا قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ فهو بَيانٌ لِدَعوتِه إيَّاهم وما نشَأَ عنها، وتَقديرُ الكلامِ: أرسَلْنا مُوسى بآياتِنا إلى فِرْعونَ، فلمَّا جاءهُم بالحقِّ، فسُلِكَت في هذا النَّظْمِ طَريقةُ الإطنابِ؛ للتَّنويهِ والتَّشريفِ، وجُملةُ ﴿فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٌ﴾ مُعترِضةٌ[1].

- قولُه: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ اعتِراضٌ جِيءَ به في تَضاعيفِ ما حُكِيَ عنهم مِن الأباطيلِ؛ للمُسارعةِ إلى بَيانِ بُطلانِ ما أظْهَروه مِن الإبراقِ والإرعادِ واضمِحْلالِه بالمرَّةِ[2].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ سُمِّيَ هذا الرَّأيُ كَيدًا؛ لأنَّهم تَشاوَروا فيه فيما بيْنهم دونَ أنْ يَعلَمَ بذلك مُوسى والذين آمَنوا معه، وأنَّهم أضْمَروه ولم يُعْلِنوه، ثُمَّ شغَلَهم عن إنفاذِه ما حَلَّ بهم مِن المصائبِ التي ذُكِرت في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿وَلَقَدۡ أَخَذۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ بِٱلسِّنِينَ ...﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٣٠]، ثُمَّ بقولِه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] الآيةَ[3].

- واللَّامُ في ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ للعهْدِ، والإظهارُ في مَوضعِ الإضمارِ فلمْ يقُلْ: (وما كيدُهم)؛ لِذمِّهم بالكُفْرِ، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ وتَعميمِه، أو تكونُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٣، ١٢٤).

للجِنْسِ، وهم داخِلون فيه دُخولًا أوَّليًّا[١]؛ فتدبَّرْ هذه النُّكتةَ التي يَكثُرُ مُرورُها في كِتابِ اللهِ تعالَى: إذا كان السِّياقُ في قِصَّةٍ مُعَيَّنةٍ أو على شَيءٍ مُعَيَّنٍ، وأرادَ اللهُ أن يحكُمَ على ذلك المُعَيَّنِ بحُكمٍ لا يختَصُّ به، ذكَرَ الحُكْمَ وعلَّقَه على الوَصفِ العامِّ؛ لِيَكونَ أعَمَّ، وتندَرِجَ فيه الصُّورةُ التي سِيقَ الكلامُ لأجْلِها، ولِيَندفعَ الإيهامُ باختِصاصِ الحُكمِ بذلك المعَيَّنِ؛ فلهذا لم يَقُلْ: (وما كيدُهم إلَّا في ضَلالٍ)، بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾

- ومعنى ﴿ذَرُونِىٓ﴾ إعْلامُهم بعَزْمِه بضَرْبٍ مِن إظْهارِ مَيلِه لذلك، وانتظارِه الموافَقةَ عليه، بحيث يُمثِّلُ حالَه وحالَ المخاطَبينَ بحالِ مَن يُريدُ فِعلَ شَيءٍ فيُصَدُّ عنه، فلِرَغبتِه فيه يقولُ لِمَن يَصُدُّه: دَعْني أفعَلْ كذا؛ لأنَّ ذلك التَّركيبَ ممَّا يُخاطَبُ به الممانعُ والملائمُ، ثمَّ استُعْمِلَ هذا في التَّعبيرِ عن الرَّغبةِ ولم يكُنْ ثَمةَ مُعارِضٌ أو مُمانِعٌ، وهو استِعمالٌ شائعٌ في هذا وما يُرادِفُه، مِثلُ: دَعْني وخَلِّني، وذلك يَستتبِعُ كِنايةً عن خَطَرِ ذلك العمَلِ وصُعوبةِ تَحصيلِه؛ لأنَّ مِثلَه ممَّا يَمنَعُ المستَشارُ مُستشيرَه مِن الإقدامِ عليه، وكان قولُه: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ تَمويهًا على قَومِه، وإيهامًا أنَّهم هم الذين يَكُفُّونه، وما كان يَكُفُّه إلَّا ما في نفْسِه مِن هَولِ الفزَعِ -وذلك على قولٍ-؛ ولذلك عطَفَ عليه: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾؛ لأنَّ مُوسى خوَّفَهم عذابَ اللهِ، وتحدَّاهم بالآياتِ التِّسعِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ويُنظر أيضًا: ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) =

- ولامُ الأمْرِ في ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ مُستعمَلةٌ في التَّسويةِ، وإظهارِ التَّجلُّدِ، وعدَمِ الاكتراثِ بدُعاءِ مُوسى ربَّه. وقيل: المقصودُ بالأمْرِ هنا التَّعجيزُ، بزَعْمِه[1].

- وجُملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ تَعليلٌ للعزْمِ على قتْلِ مُوسى، والإضافةُ في قولِه: ﴿دِينَكُمْ﴾ تَعريضٌ بأنَّهم أَولى بالذَّبِّ عن الدِّينِ، وإنْ كان هو دِينَه أيضًا، لكنَّه تَجرَّدَ في مُشاوَرتِهم عن أنْ يكونَ فيه مُراعاةٌ لِحَظِّ نفْسِه، كما قالوا همْ: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]؛ وذلك كلُّه إلهابٌ وتَحضيضٌ[2].

- قولُه: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ معنى إظهارِ مُوسى الفَسادَ عِندَهم أنَّه يَتسبَّبُ في ظُهورِه بدَعوتِه إلى تَغييرِ ما همْ عليه مِن الدِّيانةِ والعوائدِ، وعُبِّرَ بالإظهارِ عن الفُشُوِّ والانتشارِ[3].

- ولَمَّا كان حُبُّ النَّاسِ لأديانِهم فَوقَ حُبِّهم لأموالِهم، لا جَرَمَ بدأ فِرعَونُ بذِكرِ الدِّينِ[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ قيل: هذا حِكايةُ كَلامٍ صَدَرَ مِن مُوسى في غَيرِ حَضْرةِ فِرعونَ؛ لأنَّ مُوسَى لم يكُنْ ممَّن يَضُمُّه مَلأُ استشارةِ فِرْعونَ حين قال لِقَومِه: ﴿ذَرُونِيٓ

---

= (٧/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٤، ١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٧).

أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦]، ولكنَّ مُوسى لَمَّا بلَغَه ما قالَه فِرعونُ في مَلَئِه، قال مُوسى في قُومِه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾؛ ولذلك حُكِيَ فِعلُ قولِه مَعطوفًا بالواوِ؛ لأنَّ ذلك القولَ لم يقَعْ في مُحاوَرةٍ مع مَقالِ فِرعونَ، بخِلافِ الأقوالِ المحكيَّةِ في سُورةِ (الشُّعراءِ) مِن قولِه: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾، إلى قولِه: ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[1] [الشعراء: ١٨ - ٣١].

- قولُه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صدَّرَ الكلامَ بـ(إنَّ) تأْكيدًا، وإظْهارًا لِمَزيدِ الاعتناءِ بمَضمونِه، وفرْطِ الرَّغبةِ فيهِ، وإشْعارًا أنَّ السَّببَ المؤكِّدَ في دفْعِ الشَّرِّ هو العِياذُ باللهِ[2]. وأيضًا تأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) مُتوجِّهٌ إلى لازِمِ الخبَرِ؛ وهو أنَّ اللهَ ضمِنَ له السَّلامةَ، وأكَّدَ ذلك؛ لِتَنزيلِ بعْضِ قَومِه -أو جُلِّهم- مَنزلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك لِما رَأى مِن إشفاقِهم عليه[3].

- وكذلك في قولِه: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم﴾ خَصَّ اسمَ الرَّبِّ؛ لأنَّ المطلوبَ هو الحِفظُ والتَّربيةُ، وأضافَه إليه وإليهم؛ حثًّا لهم علَى مُوافَقتِه؛ لِما في تَظاهُرِ الأرواحِ مِن استِجلابِ الإجابةِ. وللإيماءِ إلى أنَّ عليهم ألَّا يَجْزَعوا مِن مُناوأةِ فِرْعونَ لهم، وأنَّ عليهم أنْ يَعوذوا باللهِ مِن كلِّ ما يُفْظِعُهم؛ ففيه إيماءٌ إلى تَوجيهِ العَوذِ به؛ لأنَّ العبْدَ يَعوذُ بمَولاهُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٧).

- وقولُه: ﴿كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ يَشمَلُ فِرْعونَ وغيرَه مِن الجَبابرةِ، ولكنَّه قال ذلك على طَريقِ التَّعريضِ؛ فكان أبلَغَ، وجُعِلَت صِفةُ ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ مُغنيةً عن صِفةِ الكُفْرِ أو الإشراكِ؛ لأنَّها تَتضمَّنُ الإشراكَ وزِيادةً؛ لأنَّه إذا اجتمَعَ في الرَّجلِ التَّجبُّرُ والتَّكذيبُ بالجزاءِ، قَلَّت مُبالاتُه بعواقبِ أعمالِه؛ فكمَلَتْ فيه أسبابُ القسْوةِ والجُرأةِ على اللهِ وعِبادِه، ولم يَترُكْ عَظيمةً إلَّا ارْتكَبَها[1]. وقيل: لم يَذكُرْ فِرعَونَ في هذا الدُّعاءِ؛ لأنَّه كان قد سَبَق له حَقٌّ تَربيةٍ على موسى مِن بَعضِ الوُجوهِ، فتَرَك التَّعيينَ رِعايةً لذلك الحَقِّ[2].

- قولُه: ﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ يَعْني يوْمَ القِيامةِ، وعدَلَ عن (يوْم القيامةِ) إلى (يوْم الحسابِ)؛ لأنَّ الحسابَ أشدُّ خوْفًا مِن (يوْم القيامةِ)، إذا قِيل للإنسانِ: إنَّك سوْفَ تُحاسَبُ على ما عَمِلْتَ مِن خيْرٍ وشَرٍّ؛ فإنَّه سوْفَ يَخافُ ويَوجَلُ، ويَستقيمُ؛ فيَرتدِعُ عن المعاصي، ويَقومُ بالأوامرِ[3].

- ومِن بَلاغةِ القُرآنِ أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالَى يُكرِّرُ ذِكرَ قِصَّةِ مُوسى، ويَبسُطُها تارةً، ويَختصِرُها تارةً، ويُنوِّعُها؛ فقدْ جَمَعت بيْن الكثرةِ والتَّنويعِ مِن حيث الأسلوبُ والتَّنويعُ مِن حيث البسْطُ والاختصارُ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عاش في قومٍ مُشركين أوَّلَ الرِّسالةِ، وفي قوْمٍ يَهودَ بعْدَ الهجرةِ، ولهذا جاءت السُّوَرُ المكِّيَّةُ يُذكَرُ فيها قِصَّةُ مُوسى ببسْطٍ واختصارٍ تارةً؛ لأجْلِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص ٢٣٧).

يَتهيَّأَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لمجادَلةِ اليهودِ الذين سَتكونُ الهجرةُ إلى بلدٍ همْ ساكنونَ فيه، ولهذا لا تَجِدُ قِصَّةَ نَبيٍّ مِثلَ قِصَّةِ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لا في تَنوُّعِها، ولا في تَكرارِها، ولا في أُسلوبِها[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص ٢٢٠).

## الآيتان (٢٨-٢٩)

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

### غريبُ الكلماتِ:

﴿مُسْرِفٌ﴾: السَّرَفُ: تجاوزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعَلُه الإنسانُ، وأصلُ (سرف): تعدِّي الحَدِّ[1].

﴿بَأْسِ ٱللَّهِ﴾: أي: عذابِه، وأصْلُ (بأس): الشِّدَّةُ وما شابَهها[2].

### المعنَى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى: وقال رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن قَومِ فِرعَونَ يُسِرُّ إيمانَه باللهِ: أتَقتُلونَ موسى مِن أجْلِ قَولِه: رَبِّيَ اللهُ، وقد جاءَكم بالدَّلائِلِ الواضِحةِ مِن رَبِّكم؟! وإنْ كان كاذِبًا في دَعواه فعليه ضَرَرُ كَذِبِه، وإنْ كان صادِقًا في دَعواه فكَذَّبتُموه يُصِبْكم بَعضُ ما يَعِدُكم ويُهدِّدُكم به مِنَ العُقوباتِ، إنَّ اللهَ لا يَهدي مَن هو مُتجاوِزٌ للحَدِّ، كذَّابٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

يا قَومِ لكم الغَلَبةُ والسُّلطانُ اليومَ في أرضِ مِصرَ؛ فمَن يَدفَعُ عنَّا عذابَ اللهِ إنْ حَلَّ بنا؟! قال فِرعَونُ: ما أُشيرُ عليكم إلَّا بما أعتقدُه، وأرَى أنَّه هو الحقُّ والصوابُ، وما أدعوكم إلَّا إلى طريقِ الحَقِّ والسَّدادِ!

## تَفسيرُ الآيتينِ:

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَـٰدِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا حكَى عن موسى عليه السَّلامُ أنَّه ما زاد في دَفْعِ مَكْرِ فِرعَونَ وشَرِّه على الاستِعاذةِ باللهِ؛ بيَّنَ أنَّه تعالَى قيَّضَ إنسانًا آخَرَ غيرَ موسى حتى ذَبَّ عنه على أحسَنِ الوُجوهِ، وبالغَ في تَسكينِ تلك الفِتنةِ، واجتهَدَ في إزالةِ ذلك الشَّرِّ[1].

﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ ﴾.

أي: وقال رجُلٌ مُؤمِنٌ مِن قَومِ فِرعَونَ يُخفي عنهم إيمانَه باللهِ وبنُبُوَّةِ موسى: كيفَ تستَحِلُّون قتْلَ موسَى مِن أجْلِ قَولِه: رَبِّيَ اللهُ ؟! فاقبَلوا قَولَه أو ارفُضوه؛ فإنَّه لا ذنْبَ له يَستحِقُّ به القتلَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١١، ٣١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٣، ٣٨٤).

عن عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ، قال: ((سألتُ عبدَ اللهِ بنَ عَمرٍو عن أشَدِّ ما صنَعَ المُشرِكونَ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ قال: رأيتُ عُقبةَ بنَ أبي مُعَيطٍ جاء إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يُصَلِّي، فوضَعَ رِداءَه في عُنُقِه فخَنَقَه به خَنقًا شديدًا، فجاء أبو بكرٍ حتَّى دفَعَه عنه، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾؟!))[1].

﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾.

أي: ولم يكُنْ قولُه أيضًا مجرَّدًا عن البيِّناتِ؛ فقد جاءَكم بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ، فلِمَ تَستحِلُّونَ قَتْلَه[2]؟!

﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾.

أي: وإنْ كان موسى كاذِبًا في دعواه فإنَّما يَعودُ ضَرَرُ كَذِبِه عليه، وليسَ عليكم في ذلِك ضَرَرٌ[3].

﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾.

أي: وإنْ كان موسى صادِقًا في دعواه فكذَّبتُموه، فلا بُدَّ أن يُصيبَكم بَعضُ ما يَعِدُكم ويَتهدَّدُكم به مِن العُقوباتِ؛ فلا حاجةَ لكم -إذَنْ- إلى قَتْلِه[4]!

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٦٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧). =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يَهدي للحَقِّ مَن هو مُظهِرٌ للفَسادِ، مُتجاوِزٌ للحَدِّ، مُفترٍ للكَذِبِ[1].

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ٢٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ لَمَّا أقام أنواعَ الدَّلائِلِ على أنَّه لا يجوزُ الإقدامُ على قَتلِ موسى؛ خوَّفَهم في ذلك بعَذابِ اللهِ[2].

وأيضًا لَمَّا توسَّمَ نُهوضَ حُجَّتِه بيْنَهم، وأنَّها داخَلَت نُفوسَهم، أَمِن بأْسَهم، وانتهَزَ فُرصةَ انكسارِ قُلوبِهم، فصارَحَهم بمَقصودِه مِن الإيمانِ بمُوسى؛ على سَننِ الخُطباءِ وأهْلِ الجدَلِ بعْدَ تَقريرِ المقدِّماتِ والحُجَجِ أنْ يَهْجُموا على الغرَضِ المقصودِ، فوعَظَهم بهذه الموعظةِ[3].

---

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿يَعِدُكُمۡ﴾: العذابُ الذي توعَّدهم به موسى عليه السَّلامُ: مقاتل بن سليمان، وابن جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة، ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١١).

وقيل: المرادُ العُمومُ؛ فهو يَشمَلُ ما وعَدَهم مِن الخيرِ إنْ وافَقوه، وما وعدَهم مِنَ الشَّرِّ إنْ خالَفوه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧).

قال الشوكانيُّ: (هذا مِن تمامِ كلامِ الرَّجُلِ المؤمِنِ، وهو احتِجاجٌ آخَرُ ذو وَجهَينِ: أحدُهما: أنَّه لو كان مُسرِفًا كذَّابًا لَما هداه اللهُ إلى البيِّناتِ، ولا أيَّده بالمُعجِزاتِ. وثانيهما: أنَّه إذا كان كذلك خذَلَه اللهُ وأهلَكَه، فلا حاجةَ لكم إلى قَتْلِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٢-٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣١-١٣٢).

﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: يا قَومِ لكم الغَلَبةُ والسُّلطانُ اليومَ في أرضِ مِصرَ، والعُلُوُّ على أهلِها[١].

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾.

أي: فمَن يَدفَعُ عنَّا عذابَ اللهِ إنْ حَلَّ بنا؟! فقُوَّتُنا لنْ تنفَعَنا شَيئًا إنْ جاءَتْنا عُقوبةُ اللهِ[٢].

﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾.

أي: قال فِرعَونُ: ما أُشيرُ عليكم ولا أقولُ لكم إلَّا ما أعتقدُه، وأرَى أنَّه هو الحَقُّ والصَّوابُ، فلا أُظهرُ لكم شيئًا خِلافَ ما أُبطنُه[٣]!

﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾.

أي: وما أدْعوكم إلَّا إلى طَريقِ الحَقِّ والسَّدادِ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧).

قال القُرطبي: (﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي: مِن عذابِ اللهِ؛ تحذيرًا لهم مِن نِقَمِه إنْ كان موسى صادقًا، فذكَّر وحذَّر، فعلِم فِرعَونُ ظُهورَ حُجَّتِه، فقال: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾) ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ مُراعاةُ الخَصمِ فيما يُؤَلِّفُه ويُقَرِّبُه؛ لأنَّه بدَأَ بما كانوا يَعتَقِدونَ، وهو كَذِبُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فبدَأَ بالكَذِبِ قبلَ أنْ يَبدَأَ بالصِّدقِ؛ مِن أجْلِ تأليفِهم؛ ولم يَبدَأْ بالصِّدقِ الذي هو أحدُ الاحتِمالَينِ[1]، تلَطُّفًا في الاستِكفافِ -أي: طلَبِ الكَفِّ عن موسى عليه السَّلامُ-، واستِنزالًا عن الأذَى، فلمْ يكُنْ ذلك لشَكٍّ منه في رِسالتِه وصِدقِه[2].

٢- في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾، وقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤] إشارةٌ إلى أنَّ الإصرارَ على المعاصي، والكَذبَ، والارتيابَ في الدِّين قدْ يكونُ سببًا لسَدِّ أبوابِ الهِدايةِ عن العَبدِ، بخِلافِ الطَّاعةِ فإنَّها تَفتَحُ بابَ الهُدَى؛ لأنَّها شُكرٌ، وقدْ قال تعالَى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧]، والنِّعمةُ قَيْدُها شُكرُها، وفي كُفرانِها تعريضٌ لها للزَّوالِ، وذلك إنَّما أوردَه مؤمنُ آلِ فِرعونَ على سَبيلِ النَّصيحةِ لهم والتَّحذيرِ، وهو مِن الحِكَمِ البالِغةِ، وفيه أنَّ مِن أحوالِ الصِّدِّيقينَ النُّطقَ بالحِكمةِ[3].

٣- قولُه: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ فيه حُسْنُ احترازِ هذا الرَّجُلِ المؤمنِ؛ فقال: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ يعني: وأمَّا في المستقبلِ فقد يَزُولُ مُلْكُكم؛ لكنِ اشكُروا

---

= كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٥٠).

قال الشنقيطيُّ: (كان غَرَضُ فِرعَونَ بهذا الكَذِبِ التَّدليسَ والتَّمويهَ؛ لِيَظُنَّ جَهَلةُ قَومِه أنَّ معه الحَقَّ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٤/ ١٠٢).

النِّعمةَ الحاضِرةَ، وذِكْرُ حُسْنِ خَطابةِ هذا الرَّجُلِ أو احترازاتِه أو ما أشبهَ ذلك؛ ليس معناه الإخبارَ عن قِصَّةٍ مَضَتْ وتاريخٍ مَضَى! لا، وإنَّما مِن أجْلِ أخْذِ العِبرةِ والسَّيْرِ عليها؛ لأنَّ الثَّناءَ على هذا الرَّجُلِ بخِطابِه ومُعالجتِه للأُمورِ يعني الحَثَّ على اتِّباعِ طريقِه[١].

٤- قولُه: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ فيه التَّلَطُّفُ بالخِطابِ حتى يُشعِرَ الإنسانَ المخاطَبَ وكأنَّه هو أوَّلُ مَن يُرادُ بهذا الأمرِ أو بهذا الخِطابِ؛ فقال: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ ولم يَقُلْ: فمَن يَنصرُكم مِن بأسِ اللهِ إنْ جاءَكم! كلُّ هذا مِن بابِ التَّنَزُّلِ مع هؤلاء؛ وإشعارِهم بأنَّه واحدٌ منهم[٢]، فأدرَجَ نَفْسَه فيهم عندَ ذِكرِ الشَّرِّ بعدَ إفرادِه لهم بالمُلْكِ؛ إبعادًا للتُّهمةِ[٣]، وتَطْييبًا لِقُلوبِهم، وإيذانًا بأنَّه مُناصِحٌ لهم، ساعٍ في تَحصيلِ ما يُجْديهم، ودَفْعِ ما يُرْدِيهم سَعْيَه في حَقِّ نفْسِه؛ لِيتأثَّروا بنُصْحِه، ولِيُرِيَهم أنَّه يأبَى لِقَومِه ما يَأْباه لِنَفسِه، وأنَّ المصيبةَ إنْ حلَّتْ لا تُصِيبُ بعْضَهم دونَ بعضٍ[٤].

٥- في قولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ [غافر: ٢٩] إشارةٌ إلى أنَّ مِن شأنِ الصِّدِّيقينَ التَّذكرةَ بالنِّعمِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢).

ذكَر ابنُ عثيمين أنَّه قد يُقالُ: إنَّ في هذا إشارةً إلى أنَّ العذابَ إذا نَزَلَ يَعُمُّ الصالحَ والفاسدَ؛ ويكونُ قولُه: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ يُرادُ به حقيقتُه، أي: أنَّه هو سيُصيبُه ما أصابَهم، وشاهِدُه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗ﴾ [الأنفال: ٢٥]، ثم قال: (وهذا ليس ببعيدٍ). يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٥٥).

وأنَّها يَنبغي أنْ تُعرَفَ وتُشكَرَ، ولا تُكفَرَ؛ لتدومَ، أو لتُحمدَ عواقِبُها، والتحذيرَ مِن الاغترارِ بالمُلكِ، والحولِ والقوَّةِ، والظهورِ والغَلبةِ حَذرًا مِن غِبِّ ذلك[١].

٦- في خِطابِ مُؤمِنِ آلِ فِرعونَ: أنَّ مِن شأنِ الصِّدِّيقينَ النَّصيحةَ، والنُّصرةَ للدِّينِ والحقِّ، ولأولياءِ اللهِ تعالَى، والأمْرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المُنكَرِ، والأخْذَ بيَدِ المظلومِ، والتَّلطُّفَ في الإنكارِ على الظالمِ إذا كان ذا شَوكةٍ وغَلبةٍ، والتأنُّقَ في الاحتِيالِ للتخليصِ منه، ومُناظرتَه في أثناءِ ذلك على ألْطَفِ الوُجوهِ وأَوْضَحِها في بَيانِ الحقِّ والإلزامِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، فيه أنَّ اللهَ يُقيِّضُ لعِبادِه الصَّالحينَ حُماةً عِندَ الشَّدائدِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ فيه جَوازُ إخفاءِ الإيمانِ إذا خاف الإنسانُ على نَفسِه؛ لِقَولِه: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾، ولكِنْ إذا كان الإنسانُ لا يَستطيعُ أن يَعيشَ مُؤمِنًا إلَّا بالكِتمانِ؛ فإنَّه في دِينِ الإسلامِ تَجِبُ عليه الهِجرةُ، ولكِنْ بشَرطِ أنْ يكونَ قادِرًا عليها، فإنْ كان عاجِزًا فإنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۞ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾[٤] [النساء: ٩٨، ٩٩].

---

(١) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٤/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٤٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ... ﴾ فيه استِدراجُ المُخاطَبِ؛ وذلك أنَّه لَمَّا رأى فِرعَونَ قد عزَمَ على قَتلِ موسى، والقَومَ على تَكذيبِه؛ أراد الانتِصارَ له بطَريقٍ يُخفي عليهم بها أنَّه مِن أتْباعِه، فجاءَهم مِن طَريقِ النُّصحِ والملاطَفةِ، فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، ولم يذكُرِ اسمَه، بلْ قال: ﴿رَجُلًا﴾ يُوهِمُ أنَّه لا يَعرِفُه ولا يُدافِعُ عنه، ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾، ولم يَقُلْ: (رجُلًا مُؤمِنًا باللهِ)، أو (هو نَبيُّ الله)؛ إذ لو قال شيئًا مِن ذلك لعَلِموا أنَّه مِن أتْباعِه، ولم يَقبَلوا قَولَه؛ ثمَّ أتْبَعَه بما بعدَ ذلك، فقَدَّمَ قَولَه: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا﴾؛ مُوافَقةً لِرَأيهم فيه، ثمَّ تلاه بقَولِه: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾، ولو قال: هو صادِقٌ في كُلِّ ما يَعِدُكم لعَلِموا أنَّه مِن أتْباعِه، وأنَّه يَزعُمُ أنَّه نبيٌّ، وأنَّه يُصَدِّقُه؛ فإنَّ الأنبياءَ لا تُخِلُّ بشَيءٍ ممَّا يَقولونَه؛ ثمَّ أتبَعَه بكَلامٍ يُفهَمُ منه أنَّه ليس بمُصَدِّقٍ، وهو قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[1].

٤- قولُه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ فيه الإنكارُ على مَن عَمِلَ عمَلًا بدونِ سَببٍ يَقتضيه؛ وقولُ الإنسان: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ ليس سَببًا للقتْلِ! بلْ على الأقلِّ يُتْرَكُ وشأنَه، أمَّا أنْ يُقْتَلَ لهذا السَّببِ، فإنَّ هذا مُنْكَرٌ، ولا يجوزُ إقرارُه[2].

٥- قَولُه: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: يَسبِقُ إلى الذِّهنِ في هذه الآيةِ تَوهُّمُ المنافاةِ بيْنَ الشَّرطِ والجزاءِ في البَعضِ؛ لأنَّ المناسِبَ لاشتراطِ الصِّدقِ هو أنْ يُصيبَهم جَميعُ الذي يَعِدُهم لا بَعضُه، مع أنَّه تعالَى لم يَقُل: (وإن يكُ صادِقًا يُصِبْكم كلُّ الذي يَعِدُكم)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٤).

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ المرادَ بالبَعضِ الذي يُصيبُهم هو: البَعضُ العاجِلُ الذي هو عذابُ الدُّنيا؛ لأنَّهم أشَدُّ خَوفًا مِن العذابِ العاجِلِ، ولأنَّهم أقرَبُ إلى التَّصديقِ بعذابِ الدُّنيا منهم بعذابِ الآخِرةِ[١]، وتكونُ (بعض) باقيةً على مَعناها؛ لأنَّه وعَدَهم على كُفْرِهم الهلاكَ في الدُّنيا، والعذابَ في الآخرةِ؛ فهلاكُهم في الدُّنيا بعضُ ما وعَدَهم به[٢].

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ المعنى: إنْ يكُ صادِقًا فلا أقَلَّ مِن أن يُصيبَكم بعضُ الذي يَعِدُكم، وعلى هذا فالنُّكتةُ هي المُبالَغةُ في التَّحذيرِ؛ لأنَّه إذا حَذَّرهم مِن إصابةِ البَعضِ أفاد أنَّه مُهلِكٌ مَخُوفٌ، فما بالُ الكُلِّ؟! وفيه إظهارٌ لكَمالِ الإنصافِ، وعدَمِ التعَصُّبِ؛ ولذا قدَّم احتِمالَ كَونِه كاذِبًا.

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّ لَفظةَ (البعض) يُرادُ بها الكُلُّ؛ وعليه فمعنَى ﴿بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾: كُلُّ الذي يَعِدُكم[٣].

**الوَجهُ الرَّابعُ**: أنَّ المعنى: وإنْ تَبَيَّنَ لكم صِدقُه يُصِبْكم بعضُ ما توعَّدَكم به، أي: تُصِبْكم بوارِقُه، فتَعلَموا صِدقَه فتَتَّبِعوه، وهذا وَجهُ التَّعبيرِ بـ(بعض) دونَ أن يقولَ: (يُصِبْكم الَّذي يَعِدُكم به)[٤].

**الوَجهُ الخامس**: أنَّه أثبَتَ أنَّه صادِقٌ في جَميعِ ما يَعِدُ، ولكنَّه أرْدَفَه ﴿يُصِبۡكُم

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (٩/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٢، ١٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٠، ٥٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (٩/ ٢٠٢-٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٠).

بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾؛ لِيَهضِمَه بعضَ حَقِّه في ظاهِرِ الكلامِ، فيُريهم أنَّه ليس بكلامِ مَن أعطاه حَقَّه وافيًا، فضلًا أنْ يَتعصَّبَ له، أو فضْلًا عن أنْ يَذُبَّ عنه[١].

٦- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ فيه أنَّ الذي وَصْفُه السَّرَفُ والكَذِبُ لا يَنفَكُّ عنهما: لا يَهدِيه اللهُ، ولا يُوَفِّقُه للخيرِ؛ لأنَّه رَدَّ الحَقَّ بعْدَ أنْ وَصَل إليه وعَرَفه، فجزاؤُه أن يُعاقِبَه اللهُ بأنْ يمنَعَه الهُدى، كما قال تعالَى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ [الصف: ٥]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] [البقرة: ٢٥٨].

٧- قَولُه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أدخَلَ قَومَه في الخِطابِ فناداهم؛ لِيَستهويَهم إلى تَعضيدِه أمامَ فِرعَونَ، فلا يَجِدَ فِرعَونُ بُدًّا مِن الانصياعِ إلى اتِّفاقِهم وتَظاهُرِهم، وأيضًا فإنَّ تَشريكَ قَومِه في الموعِظةِ أدخَلُ في بابِ النَّصيحةِ[٣].

٨- قَولُه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ المقصودُ: تخويفُ فِرعَونَ مِن زَوالِ مُلكِه، ولكِنَّه جَعَل المُلْكَ لِقَومِه؛ لِتَجنُّبِ مُواجَهةِ فِرعَونَ بفَرضِ زَوالِ مُلكِه[٤]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المُلكَ إنْ لم يَحُطْه صاحبُه بالعدلِ والإنصافِ، والكفِّ عن الجَورِ والانكفافِ، فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُتعرِّضٌ لزوالِ مُلكِه، بلْ لنزولِ هُلْكِه[١].

٩- قال تعالَى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ تفطَّنَ فِرْعونُ إلى أنَّه المعرَّضُ به في خِطابِ الرَّجلِ المؤمِنِ قومَه، فقاطَعَه كلامَه، وبيَّن سببَ عَزْمِه على قتْلِ مُوسى عليه السَّلامُ؛ بأنَّه ما عرَضَ عليهم ذلك إلَّا لأنَّه لا يَرى نفْعًا إلَّا في قتْلِ مُوسى، ولا يَستصوبُ غيرَ ذلك، ويَرى ذلك هو سَبيلَ الرَّشادِ، وكأنَّه أراد ألَّا يَترُكَ لِنَصيحةِ مُؤمنِهم مَدْخلًا إلى نُفوسِ مَلَئِه؛ خِيفةَ أنْ يَتأثَّروا بنُصْحِه، فلا يُساعِدوا فِرْعونَ على قتْلِ مُوسى[٢].

## بَلاغةُ الآيتينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ...﴾ قيل: عَطْفُ قولِ هذا الرَّجلِ يَقْتضي أنَّه قال قولَه هذا في غيرِ مَجلِسِ شُورى فِرعونَ؛ لأنَّه لو كان قولُه جاريًا مَجرَى المحاوَرةِ مع فِرعونَ في مَجلِسِ استشارتِه، أو كان أجابَ به عن قولِ فِرْعونَ: ﴿ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦]؛ لكانتْ حِكايةُ قَولِه بدونِ عطْفٍ على طَريقةِ المُحاوراتِ[٣].

- وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتَى بـ ﴿رَجُلًا﴾ النَّكرةِ؛ إبهامًا للأمْرِ، وشِدَّةً في إخفائِه، وإبعادًا للتُّهمةِ عن نفْسِه؛ لئلَّا يظُنَّ أحدٌ أنَّه كان يَعرِفُ مُوسى، وأنَّه

(١) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) للغزي (٧/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٢٧، ١٢٨).

يُدافِعُ عنه عن مَعرفةٍ[١].

- وأرادَ بقولِه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا ...﴾ إلى آخِرِه أنْ يَسْعى لحِفْظِ مُوسى مِن القتْلِ بفَتْحِ بابِ المجادَلةِ في شأْنِه؛ لِتَشكيكِ فِرْعونَ في تَكذيبِه بمُوسى[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ استفهامُ إنكارٍ وتَبكيتٍ لهم، أي: يَقبُحُ بكم أنْ تَقتُلوا رجُلًا لأنَّه يقولُ: ربِّيَ اللهُ، أي: ولم يُجبِرْكم على أنْ تُؤمنوا به، ولكنَّه قال لكم قولًا، فاقْبَلوه أو ارْفُضوه، فهذا مَحمَلُ قولِه: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ الذي يَدلُّ على حصْرِ الرُّبوبيَّةِ في اللهِ سُبحانه[٣].

- وقولُه: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ مَجرورٌ بلامِ التَّعليلِ المُقدَّرةِ، والتقديرُ: لِأنْ يقولَ. وذكَرَ اسمَ (اللهِ)؛ لأنَّه الذي ذكَرَه مُوسى ولم يكُنْ مِن أسماءِ آلهةِ القِبْطِ[٤].

- قولُه: ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ارْتقاءٌ في الحِجاجِ بعْدَ أنِ استأْنَسَ في خِطابِ قَومِه بالكلامِ الموجَّهِ، فارْتَقى إلى التَّصريحِ بتَصديقِ مُوسى بعِلَّةِ أنَّه جاء بالبيِّناتِ، أي: الحُجَجِ الواضحةِ بصِدْقِه، وإلى التَّصريحِ بأنَّ الذي سمَّاه اللهُ في قولِه: ﴿أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ هو ربُّ المخاطَبينَ فقال: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافَ الربَّ إليهم بعدَ ذِكرِ البيِّناتِ احتجاجًا عليهم، واستنزالًا لَهمُ عن رُتبةِ المكابرةِ، واستدراجًا لهم إلى الاعترافِ به، ثمَّ أخذَهُم بالاحتجاجِ مِن بابِ الاحتِياطِ فقالَ: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ﴾[1].

- قولُه: ﴿أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ ...﴾ الآيةَ، كلامٌ مُنصِفٌ؛ فقدِ استَدْرَجَهم هذا الرَّجلُ المؤمِنُ باستشهادِه على صِدْقِ مُوسى عليه السَّلامُ مِن عِندِ مَن تُنسَبُ إليه الرُّبوبيَّةُ ببيِّناتٍ عدَّةٍ لا ببيِّنةٍ واحدةٍ، وأتَى بها مَعرِفةً؛ لِيُلَيِّنَ بذلك جِماحَهم[2]، ويَكسِرَ مِن سَوْرتِهم -أي: سَطوتِهم واعتدائِهم-، ثم أخَذَهم بالاحتِجاجِ بطَريقِ التَّقسيمِ، فقال: لا يَخْلو أنْ يكونَ صادقًا أو كاذبًا؛ فإنْ يَكُ كاذبًا فضرَرُ كذِبِه عائدٌ عليه، أو صادِقًا فأنتم مُستهْدَفون لإصابتِكم ببَعضِ ما يَعِدُكم به، وهذا فيه مُبالَغةٌ في التَّحذيرِ، وإظهارٌ للإنصافِ وعدَمِ التَّعصُّبِ. وكذلك قدَّمَ الكاذِبَ على الصَّادقِ لهذا الغرَضِ، وزِيادةً في التَّباعُدِ عن ظنِّهم به الانتصارَ لِمُوسى، فأرادَ أنْ يَظهَرَ في مَظهَرِ المهتَمِّ بأمْرِ قَومِه ابتداءً[3].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ﴾ يجوزُ أنَّها مِن قولِ مُؤمنِ آلِ فِرْعونَ، فالمقصودُ منها تَعليلُ قولِه: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤).

(٢) الجَموحُ مِن الرِّجال: الذي يَركَبُ هواه فلا يُمكِن رَدُّه. ويُقَالُ: جَمَحَ وطَمَحَ: إذا أَسْرَع ولَمْ يَرُدَّ وجهَه شيءٌ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣٦٠)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٢/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٨٠، ٤٨١).

يَكُ صَـادِقًا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمۡ﴾، أي: لأنَّ اللهَ لا يُقِرُّه على كذِبِه؛ فإنْ كان كاذبًا على اللهِ، فلا يَلبَثُ أنْ يَفتضِحَ أمْرُه أو يُهلِكَه؛ لأنَّ اللهَ لا يُمهِلُ الكاذبَ عليه، ولأنَّه إذا جاءَكم بخَوارقِ العاداتِ فقدْ تبيَّنَ صِدْقُه؛ لأنَّ اللهَ لا يَخرِقُ العادةَ بعْدَ تَحدِّي المتحدِّي بها إلَّا لِيَجعَلَها أمارةً على أنَّه مُرسَلٌ منه؛ لأنَّ تَصديقَ الكاذبِ مُحالٌ على اللهِ تعالَى. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةً مُعترِضةً بيْن كلاميْ مُؤمنِ آلِ فِرعونَ ليستْ مِن حِكايةِ كلامِه، وإنَّما هي قولٌ مِن جانبِ اللهِ في قُرآنِه، يُقصَدُ منها تَزكيةُ هذا الرَّجُلِ المؤمِنِ؛ إذ هداهُ اللهُ للحقِّ، وأنَّه تقِيٌّ صادقٌ؛ فيكونُ نفْيُ الهِدايةِ عن المسرِفِ الكذَّابِ كِنايةً عن تقْوى هذا الرَّجلِ وصِدْقِه؛ لأنَّه نطَقَ عن هدًى، واللهُ لا يُعْطي الهدَى مَن هو مُسرِفٌ كذَّابٌ[1].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٌ كَذَّابٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى عُلوِّ شأْنِ مُوسى عليه السَّلامُ، وأنَّ مَن اصطفاهُ اللهُ للنُّبوَّةِ لا يُمكِنُ أنْ يقَعَ منه إسرافٌ ولا كذِبٌ، وفيه تَعريضٌ بفِرْعونَ؛ إذ هو غايةُ الإسرافِ على نفْسِه بقتْلِ أبناءِ المؤمنينَ، وفي غايةِ الكذِبِ؛ إذ ادَّعى الإلهيَّةَ والرُّبوبيَّةَ، ومَن هذا شأْنُه لا يَهْديه اللهُ[2].

- والمسْرِفُ: مُتجاوزُ المعروفِ في شَيءٍ؛ قيل: المُرادُ هنا مُسرِفٌ في الكذِبِ؛ لأنَّ أعظَمَ الكذِبِ أنْ يكونَ على اللهِ. وإذا كان المرادُ الإسرافَ في الكذِبِ، تعيَّنَ أنَّ قولَه: ﴿كَذَّابٌ﴾ عطْفُ بَيانٍ وليس خبَرًا ثانيًا؛ إذ ليس ثَمَّةَ إسرافٌ هنا غيرَ إسرافِ الكذِبِ[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٠، ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰقَوۡمِ لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

- فيه حُسنُ تَرتيبٍ، حيثُ ابتدَأَ بنُصْحِ فِرعونَ لأنَّه الذي بيَدِه الأمْرُ والنَّهيُ، وثنَّى بنَصيحةِ الحاضرينَ مِن قَومِه؛ تَحذيرًا لهم مِن مَصائبَ تُصيبُهم مِن جرَّاءِ امتثالِهم أمْرَ فِرْعونَ بقتْلِ مُوسى؛ فإنَّ ذلك يُهِمُّهم كما يُهِمُّ فِرْعونَ، ولا يَخْفى ما في نِدائهم بعُنوانِ أنَّهم قومُه مِن الاستصغاءِ لِنُصْحِه، وتَرقيقِ قُلوبِهم لِقَولِه[1].

- وابتدَأَ الموعظةَ بقولِه: ﴿لَكُمُ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ ظَٰهِرِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فناداهمْ بالمُلْكِ الذي هو أعظَمُ مَراتبِ الدُّنيا، ونسَبَ ما يسُرُّهم مِن المُلكِ والظُّهورِ في الأرضِ إليهم خاصَّةً، وهذا خِطابٌ مِن جِهةِ شَهواتِهم، وفيه تَذكيرٌ بنِعمةِ اللهِ عليهم، وتَمهيدٌ لِتَخويفِهم مِن غضَبِ اللهِ، يعني: لا تَغُرَّنَّكم عظَمَتُكم ومُلْكُكم؛ فإنَّهما مُعرَّضانِ للزَّوالِ إنْ غضِبَ اللهُ عليكم[2].

- و(مَن) في قولِه: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ عن كلِّ ناصرٍ؛ فالمعنَى: فلا نصْرَ لنا مِن بأْسِ اللهِ[3].

- قولُه: ﴿قَالَ فِرۡعَوۡنُ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ لكونِ كلامِ فِرْعونَ صدَرَ مَصدرَ المقاطَعةِ لِكلامِ المؤمِنِ، جاء فِعلُ قَولِ فِرْعونَ مَفصولًا غيرَ مَعطوفٍ، وهي طريقةُ حِكايةِ المقاولاتِ والمحاوَرةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ إضافةُ السَّبيلِ إلى الرَّشادِ معناه أي: ما أَهْدِيكم وأُشِيرُ عليكم إلَّا بعمَلٍ فيه رَشادٌ، وكأنَّه يُعرِّضُ بأنَّ كلامَ مُؤمنِهم سَفاهةُ رأْيٍ، وأتَى بـ(ما - وإلَّا) للحصْرِ والتَّأكيدِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣).

## الآيات (٢٠-٢٥)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١ وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ ٣٢ يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣ وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دَأۡبِ﴾: أي: عادةٍ وشَأنٍ، وأمْرٍ، وفِعلٍ، وأصلُ (دأب): يدُلُّ على ملازَمةٍ ودوامٍ، يُقالُ: دأبْتُ في الأمرِ دأبًا: إذا أدمنْتَ العملَ والتَّعبَ فيه[1].

﴿تُوَلُّونَ﴾: أي: تهرُبونَ، والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ[2].

﴿مُدۡبِرِينَ﴾: أي: هارِبينَ، والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على خِلافِ القُبُلِ[3].

﴿مُّرۡتَابٌ﴾: أي: شاكٌّ، والرَّيبُ: الشَّكُّ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، =

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: أي: عَظُمَ بُغضًا، والمَقْتُ: البُغضُ الشَّديدُ لِمنْ تراه تعاطى القَبيحَ[١].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾

قَولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ فيه أوجُهٌ؛ **أحدُها**: أنَّه في مَحَلِّ نَصبٍ، بَدَلٌ مِنْ ﴿مَنْ﴾ في قَولِه: ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾، وإنَّما جُمِع ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اعتِبارًا بمعنَى ﴿مَنْ﴾. **الثاني**: أنْ يكونَ مُبتدأً، خبَرُه ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾، ويكونُ فاعلُ ﴿كَبُرَ﴾ ضَميرًا عائدًا على جِدالِهم المفهومِ مِن قَولِه: ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾، والتَّقديرُ: كَبُرَ جِدالُهم مَقْتًا. **الثَّالِثُ**: أنْ يكونَ مُبتدأً، خبَرُه ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾، والعائِدُ من جُملةِ الخَبرِ على المبتَدأِ محذوفٌ، أي: على كُلِّ قلبِ مُتكبِّرٍ منهم، و﴿كَذَٰلِكَ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ أيضًا، أي: الأمرُ كذلك. **الرَّابعُ**: أنْ يكونَ خبَرَ مبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هم الذين. **الخامِسُ**: أنْ يكونَ مُبتدأً، وخبَرُه مَحذوفٌ، أي: مُعانِدون ونَحوُه. **السَّادِسُ**: أنْ يكونَ مَنصوبًا على المفعوليَّةِ بإضْمارِ (أعني). وقيل: غيرُ ذلك[٢].

---

= ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٧٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٠٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وقال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: يا قَومِ إنِّي أخافُ عليكم -إنْ قتَلْتُم موسى- يومًا مِثلَ أيَّامِ الأحزابِ الذين تحَزَّبوا على رُسُلِهم فأهلَكهم اللهُ؛ مِثلَ عادةِ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ، والذين جاؤُوا بَعدَهم؛ حيثُ كَذَّبوا رسُلَهم، فأهلَكَهم اللهُ، وما يُريدُ اللهُ ظُلمًا لعِبادِه!

ويا قَومِ إنِّي أخافُ عليكم يومَ القِيامةِ؛ يومَ تَفِرُّون هارِبينَ مِن عَذابِ اللهِ، ما لكم مِنَ اللهِ مَن يَمنَعُكم مِن عَذابِه، ومَن يُضِلَّه اللهُ عن الحَقِّ فلا أحَدَ يَهْديه.

ولقدْ جاء يُوسُفُ إلى أسْلافِكم مِن قَبلِ موسى بالحُجَجِ الواضِحةِ، فما زِلتُم -تَبَعًا لأسلافِكم- في شَكٍّ مِمَّا جاءَكم به يوسُفُ، حتى إذا مات يوسُفُ قال أسلافُكم: لن يُرسِلَ اللهُ مِن بَعدِ يوسُفَ رَسولًا غيرَه، مثلَ ذلك الإضلالِ يُضِلُّ اللهُ مَن هو مُسرِفٌ على نَفسِه، شاكٌّ مُرتابٌ في الحَقِّ!

الذين يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ بغَيرِ دَليلٍ أتاهم، عَظُمَ بُغضُ اللهِ والمؤمِنينَ لهم، كذلك يَختِمُ اللهُ على كُلِّ قَلبِ مُتكَبِّرٍ عن الحَقِّ، جَبَّارٍ على الخَلقِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّ هذا المؤمِنَ لَمَّا رأى ما لَحِقَ فِرعَونَ مِن الخَوَرِ -أي: الضَّعْف- والخَوفِ، أتَى بنَوعٍ آخَرَ مِن التَّهديدِ، وخَوَّفَهم أنْ يُصيبَهم ما أصابَ الأُمَمَ السَّابِقةَ مِن استِئصالِ الهَلاكِ حين كَذَّبوا رسُلَهم، وقَوِيَت نَفْسُه حتَّى سَرَد عليه ما سَرَد، ولم

يَهَبْ فِرعَونَ[١].

وأيضًا لَمَّا نصَحَ المؤمنُ القومَ بقولِه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، وأثبَتَ أنَّ موسى عليه السَّلامُ نَبيٌّ صادِقٌ ثابتةٌ نُبوَّتُه، واجِبٌ اتِّباعُه، وما قصَّرَ في النُّصحِ، وما زاد فِرعونُ اللَّعينُ على ما بدَأَ أوَّلًا: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، فحينئذٍ أيِسَ المؤمِنُ واستشْعَرَ الخوفَ، وأيقَنَ أنَّ حُجَّةِ اللهِ لَزِمَتْهم؛ قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾؛ لأنَّه تعالى بعَثَ إليهم الرُّسلَ بالبيِّناتِ كرَسولِكم فلمْ يُؤمِنوا، فدَمَّرَهم اللهُ[٢].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: وقال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: يا قَومِ إنِّي أخافُ عليكم -إنْ قتَلْتُم موسى- يومًا يَحُلُّ فيه هلاكُكم مِثلَ أيَّامِ الأُمَمِ التي تحَزَّبتْ على رُسُلِها، واجتَمَعَتْ على تَكذيبِهم؛ فأهلَكَهم اللهُ تعالَى[٣].

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾.

أي: مِثْلَ عادةِ قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ، والأُمَمِ الذين جاؤُوا بَعْدَهم، كقَومِ لُوطٍ وشُعَيبٍ؛ الذين لَزِموا تَكذيبَ رُسُلِهم، فأهلَكَهم اللهُ بعَذابِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾.

أي: ولا يُريدُ اللهُ أيَّ ظُلمٍ لعِبادِه، وإنَّما أهلَكَ أحزابَ الكُفرِ مِن الأُمَمِ الماضيةِ؛ بسَبَبِ كُفرِهم به، ومُخالفتِهم أمْرَه، وتَكذيبِهم رُسُلَه؛ فأهلَكَهم بذُنوبِهم(١).

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ * كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥١، ٥٢].

وقال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا خَوَّفَهم أنْ يَحُلَّ بهم في الدُّنيا ما حَلَّ بالأحزابِ، خَوَّفَهم أمْرَ الآخِرةِ(٢).

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: ويا قَومِ إنِّي أخافُ عليكم يومَ القِيامةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٥، ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣١٦، ٣١٩)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠، ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٦).

قال الرازي: (أجمع المفَسِّرون على أنَّ يومَ التَّنادِ يومُ القِيامةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٢).

وقال ابن عطية: (يَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ التَّذكيرَ بكلِّ نِداءٍ في القِيامةِ فيه مَشقَّةٌ على الكُفَّارِ =

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

أنَّه لَمَّا كانتْ عادةُ المتنادِينَ الإقبالَ؛ وصَفَ ذلك اليومَ بضِدِّ ذلك لشِدَّةِ الأهوالِ[1].

﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ﴾.

أي: يومَ تَفِرُّونَ هارِبينَ مِن عَذابِ اللهِ[2].

﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

---

= والعُصاةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٨).

وقال ابن عاشور: (و﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ هو يومُ الحِسابِ والحَشرِ، سُمِّي يومَ التَّنادِ؛ لأنَّ الخلقَ يَتَنادونَ يومئِذٍ: فمِن مُسْتَشْفِعٍ ومِن مُتَضَرِّعٍ، ومِن مسلِّمٍ ومُهَنِّئٍ، ومِن مُوَبِّخٍ ومِن مُعتذِرٍ، ومِن آمِرٍ ومِن مُعلِنٍ بالطَّاعةِ؛ قالَ تعالَى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ [فصلت: ٤٧]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٤٤]، ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٥٠] ونحوَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٦) بتصرُّف.

وقال الشوكاني: (المعنَى: يومَ يُنادي بعضُهم بعضًا، أو يُنادي أهلُ النَّارِ أهلَ الجنَّةِ، وأهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ، أو يُنادَى فيه بسعادَةِ السُّعداءِ، وشقاوةِ الأشقياءِ، أو يومَ يُنادَى فِيه كلُّ أُناسٍ بإمامِهم، ولا مانعَ مِن الحمْلِ على جميعِ هذه المعاني). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٣).

وقال ابنُ كثيرٍ بعدَ أنْ ذكَر عددًا مِن النِّداءاتِ يومَ القيامةِ: (اختار البغويُّ وغيرُه: أنَّه سُمِّي بذلك لمجموعِ ذلك، وهو قولٌ حسنٌ جيدٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٧١).

أي: ما لكم مِنَ اللهِ أيُّ مانعٍ يَمنَعُكم مِن عَذابِه[١].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖ﴾ [يونس: ٢٧].

وقال تعالَى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ * فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطارق: ٩، ١٠].

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾.

أي: ومَن يَخذُلْه اللهُ عن الحَقِّ فلا أحَدَ يَهديه إليه[٢].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء: ٨٨].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ وَيَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ٣٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ لَمَّا قال: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ [غافر: ٣٣] ذكَرَ لهذا مَثَلًا، وهو أنَّ يُوسُفَ لَمَّا جاءهم بالبَيِّناتِ الباهِرةِ فأصَرُّوا على الشَّكِّ والشُّبهةِ، ولم يَنتَفِعوا بتلك الدَّلائِلِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن أضَلَّه اللهُ فما له مِن هادٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٢).

وأيضًا لَمَّا كان حاصِلُ ما مضَى مِن حالِهم في أمْرِ مُوسى عليه السَّلامُ: أنَّه جاءَهم بالبَيِّناتِ فشَكُّوا فيها، وخَتَم بتَحذيرِهم مِن عَذابِ الدُّنيا والآخِرةِ؛ عَطَف عليه شَكَّ آبائِهم في مِثلِ ذلك(١).

وأيضًا لَمَّا تَوسَّمَ فيهم قِلَّةَ جَدوى النُّصحِ لهم، وأنَّهم مُصمِّمون على تَكذيبِ مُوسى؛ ارتَقى في مَوعظتِهم إلى اللَّومِ على ما مَضى، ولِتَذكيرِهم بأنَّهم مِن ذُرِّيَّةِ قَومٍ كذَّبوا يُوسُفَ لَمَّا جاءَهم بالبيِّناتِ؛ فتَكذيبُ المُرشِدين إلى الحقِّ شِنْشِنةٌ (عادةٌ وطبيعةٌ) مَعروفةٌ في أسلافِهم، فتكونُ سَجِيَّةً فيهم(٢).

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: ولقدْ جاء يُوسُفُ إلى أسلافِكم مِن قَبلِ موسى بالحُجَجِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على تَوحيدِ اللهِ، وصِدقِ نبُوَّتِه(٣).

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧).

قال ابنُ عاشور: (البَيِّناتُ: إخبارُه بما هو مَغيبٌ عنهم من أحوالِهم بطريقِ الوَحيِ في تعبيرِ الرُّؤى، وكذلك آيةُ العِصمةِ التي انفرد بها مِن بينهم، وشَهِدَت له بها امرأةُ العزيزِ، وشاهِدُ أهلِها، حتى قال المَلِكُ: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤]، فكانت دلائِلُ نُبُوَّةِ يُوسُفَ واضِحةً، ولكِنَّهم لم يَستخلِصوا منها استِدلالًا يَقتَفونَ به أثَرَه في صلاحِ آخِرتِهم، وحَرَصوا على الانتِفاعِ به في تدبيرِ أمورِ دُنياهم؛ فأودَعوه خزائِنَ أموالِهم، وتدبيرَ مملكتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٩). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٣).

وقال ابن عطية: (البَيِّناتُ التي جاء بها يوسُفُ لم تُعَيَّنْ لنا حتى نَقِفَ على مُعجِزاتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣١).

أي: فما زِلتُم -تَبَعًا لأسلافِكم- تَشُكُّونَ فيما جاء به يوسُفُ مِن البَيِّناتِ، فلم تُؤمِنوا الإيمانَ الواجِبَ الخاليَ مِن الشَّكِّ(١).

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ﴾.

أي: حتَّى إذا مات يُوسُفُ قال أسلافُكم بالظَّنِّ الباطِلِ: لن يُرسِلَ اللهُ مِن بَعدِ يُوسُفَ رَسولًا غَيرَه(٢).

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾.

أي: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: كما أضَلَّكم اللهُ حِينَ لم تَقبَلوا ما جاءَكم به يُوسُفُ؛ لإسرافِكم وارتيابِكم، يُضِلُّ اللهُ كُلَّ مَن هو مُسرِفٌ على نَفسِه بالكُفرِ أو الظُّلمِ أو العِصيانِ، ذو شَكٍّ ورِيبةٍ واضطِرابٍ في شأنِ الحَقِّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٠).

قال البقاعيُّ: (هذا ليس إقرارًا منهم برِسالتِه، بل هو ضَمٌّ منهم إلى الشَّكِّ في رِسالتِه التَّكذيبَ برِسالةِ مَن بَعدَه، والحَجْرَ على المَلِكِ الأعظَمِ في عِبادِه وبلادِه، والإخبارَ عنه بما يُنافي كمالَه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (أي: قال أسلافُكم في وَقتِ وفاة يُوسُفَ: لا يَبعَثُ اللهُ في المستقبَلِ أبدًا رَسولًا بعدَ يُوسُفَ، يعنون: أنَّا كُنَّا مُتردِّدين في الإيمانِ بيُوسُفَ، فقدِ استرَحْنا من التَرَدُّدِ؛ فإنَّه لا يَجيءُ مَن يدَّعي الرِّسالةَ عن اللهِ مِن بَعدِه، وهذا قَولٌ جرَى منهم على عادةِ المعانِدينَ والمقاوِمينَ لأهلِ الإصلاحِ والفَضلِ: أنْ يَعتَرِفوا بفَضلِهم بعد الموتِ تندُّمًا على ما فاتهم من خيرٍ كانوا يَدعُونَهم إليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٥-٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٧)، =

كما قال تعالَى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال الله سُبحانَه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الصف: ٧].

﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّه لَمَّا ظهَر ظُهورًا لا يحتَمِلُ شَكًّا بما أتَى به موسى عليه السَّلامُ مِن البَيِّناتِ: أنَّ شَكَّهم في رِسالةِ الماضي، وجَزْمَهم في الحُكمِ بنَفي رِسالةِ الآتي: أعظَمُ ضَلالٍ، وأنَّه مِن الجِدالِ الذي لا معنى له إلَّا صرْفُ المحِقِّ عَمَّا هو عليه مِن الحَقِّ إلى ما عليه المجادِلُ مِن الضَّلالِ؛ وَصَل بذلك قَولَه على سَبيلِ الاستِنتاجِ ذَمًّا لهم بعبارةٍ تَعُمُّ غيرَهم[1]:

﴿ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

أي: الذين[2] يُجادِلون بالباطِلِ في آياتِ اللهِ وحُجَجِه التي جاءَتْ بها الرُّسُلُ

---

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٧٩-٢٨٠).

استظهر ابنُ عاشورٍ أنَّ قولَه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ إلَى قولِه: ﴿جَبَّارٍ﴾. كُلُّه مِنْ كلامِ اللهِ تعالَى. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٦).

(٢) قيل: هذا وَصفٌ لِمن سَبَق ذِكرُهم في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ =

بغيرِ دَليلٍ عِندَهم مِنَ اللهِ[١]: عَظُمَ بُغضُ اللهِ والمؤمِنينَ لهم ولجِدالِهم[٢].

﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ﴾.

أي: كما طبَع اللهُ على قُلوبِ هؤلاءِ المجادلينَ[٣] يَختِمُ اللهُ على قَلبِ كُلِّ مُتكَبِّرٍ عن الحَقِّ، مُتعاظِمٍ على الخَلقِ، مُبالِغٍ في الظُّلمِ والعُدوانِ[٤].

---

= مُّرۡتَابٌ ﴾. وممَّن قال بهذا: ابن جرير، والسمرقندي، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

وقيل: الجُملةُ هنا مُنفَصِلةٌ عمَّا قَبلَها، وليستْ ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ بدلًا مِن (مَنْ) في قَولِه: ﴿مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ ﴾. ومِمَّن قال بهذا القول: ابن تَيميَّة. يُنظر: ((الاستقامة)) (١/ ١٩).

(١) عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما قال: (كلُّ سُلطانٍ في القرآنِ فهو حُجَّةٌ). رواه البخاري في ((صَحيحِه)) مُعَلَّقًا (٦/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٥)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ١٨، ٢١، ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٦-٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٣، ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٨٥-٢٨٧).

قال القُرطبي: (قيل: هذا مِن كَلامِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ. وقيل: ابتداءُ خِطابٍ مِنَ الله تعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٤).

قال ابن كثير: (مَن كانت هذه صفتَه، يطبعُ الله على قلبه، فلا يعرفُ بعدَ ذلك معروفًا، ولا ينكرُ منكرًا؛ ولهذا قال: ﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ ﴾ أي: على اتباعِ الحقِّ ﴿جَبَّارٖ ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٤، ١٤٥).

قال الفرَّاء: (المعنى في تقدُّمِ القَلبِ وتأخُّرِه واحِدٌ، واللهُ أعلم. قال: سَمِعتُ بعضَ العَرَبِ: يُرَجِّلُ شَعْرَه يومَ كُلِّ جُمعةٍ، يريدُ: كُلَّ يومِ جُمُعةٍ، والمعنى واحِدٌ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٩). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ كرَّر ذلك الرَّجُلُ الذي آمَن دَعوةَ قَومِه، غيرَ آيِسٍ مِن هِدايتِهم، كما هي حالةُ الدُّعاةِ إلى اللهِ تعالَى؛ لا يزالون يَدعُونَ إلى رَبِّهم، ولا يَرُدُّهم عن ذلك رادٌّ، ولا يَثنِيهم عُتُوُّ مَن دَعَوه عن تَكرارِ الدَّعوةِ[1].

٢- قولُه: ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۞ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ فيه تحذيرُ اللَّاحِقِ أنْ يُصيبَه ما أصاب السابقَ، ووجهُ ذلك: أنَّ اللهَ سبحانَه وتعالَى سُنَّتُه في خَلْقِه واحدةٌ، هو لا يُعَذِّبُ هؤلاء لأنَّه يَكرهُ أشخاصَهم! بلْ يُعَذِّبُ هؤلاء لأنَّه يَكْرَهُ عمَلَهم، فإذا وُجِدَ عمَلُهم في آخَرينَ؛ فالكراهةُ حاصلةٌ، وهو كقولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، وحَذَّرَ شُعيبٌ قومَه أنْ يُصيبَهم ما أصاب مَن قَبْلَهم؛ فالحاصلُ أنَّ الأممَ لا بُدَّ أنْ يَتَّعِظَ اللاحِقُ بالسابقِ بناءً على أنَّ سُنَّةَ اللهِ واحدةٌ[2].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يكونَ لديه عِلْمٌ بما سَبَقَ؛ فإنَّ التاريخَ عِبَرٌ سواءٌ في هذه المسألةِ الكبيرةِ أو في المسائلِ الصَّغيرةِ؛ اقرأِ التاريخَ يَتبيَّنْ لك ما قَدَّرَه اللهُ على العِبادِ، وأنَّ سُنَّةَ اللهِ سُبحانَه

---

= ويُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٢٢٣).

وقال ابن عطية: (ويتَّجِهُ أن يكونَ المرادُ عمومَ قلبِ المتكبرِ الجبَّارِ بالطَّبْعِ، أي: لا ذرةَ فيه مِن إيمانٍ ولا مقاربة، فهي عبارةٌ عن شدةِ إظلامِه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٥٩).

ومِمَّن رجح أن المراد: الطبع على عموم القلوبِ لكلِّ متكبرٍ جبارٍ، وليس عمومَ القلبِ الواحدِ: القرطبي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٩٦-٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٦٣).

وتعالَى في السَّابِقينَ ستكونُ في اللَّاحِقينَ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أنَّ ما يَكرهُه اللهُ فإنَّ المؤمنينَ يَكرهونَه، وهذه علامةُ الإيمانِ، فلتُؤخَذْ قياسًا وميزانَ عَدْلٍ؛ متَى رأَى الإنسانُ مِن نفسِه أنَّه يَكرَهُ ما يَكرهُه اللهُ، ويُحِبُّ ما يُحِبُّه اللهُ فذلك الإيمانُ، دلَّ عليه هذه الآيةُ وغيرُها مِن الآياتِ والأحاديثِ، ودلَّ عليها العقلُ أيضًا؛ لأنَّ مِن كَمالِ المحبةِ محبَّةَ ما يُحِبُّه المحبوبُ، وكراهةَ ما يَكرهُه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلى قولِه سبحانَه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ أنَّه لا يجوزُ أنْ يكونَ الظُّلمُ -المنفيُّ عنِ اللهِ- شيئًا ممتنِعًا غيرَ مَقدورٍ عليه! يُبَيِّنُ هذا أنَّ ذلك العِقابَ لم يكنْ ظلمًا! لاستحقاقِهم ذلك، وأنَّ اللهَ لا يريدُ الظلمَ، والأمرُ الذي لا يُمكِنُ القُدرةُ عليه لا يَصْلُحُ أنْ يُمْدَحَ الممدوحُ بعدمِ إرادتِه! وإنَّما يكونُ المدحُ بتركِ الأفعالِ إذا كان الممدوحُ قادرًا عليها، فعُلِمَ أنَّ اللهَ قادرٌ على ما نَزَّه نَفْسَه عنه مِن الظلمِ، وأنَّه لا يَفعَلُه، وبذلك يَصِحُّ قولُه في الحديثِ القدسيِّ: ((إني حَرَّمْتُ الظُّلمَ على نفْسِي))[٣]، وأنَّ التحريمَ هو المنعُ؛ وهذا لا يجوزُ أنْ يكونَ فيما هو ممتنِعٌ لذاتِه[٤].

٢- في قَولِه: ﴿مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ۞ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أنَّ أخبارَ الأنبياءِ مِن عَجائبَ وآياتٍ كانتْ مُنتَشِرةً مُتواتِرةً في العالَمِ، وقد عَلِمَ النَّاسُ أنَّها آياتٌ للأنبياءِ وعُقوبةٌ لمُكذِّبيهم؛ ولهذا كانوا يَذكُرونَها عِندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢٩٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٤٤).

نَظائرِها للاعتبارِ[١].

٣- في قَولِه: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ أنَّ قومَ نوحٍ وعادٍ وثمودَ كانوا أوَّلَ الأحزابِ[٢].

٤- قال اللهُ تعالى حِكايةً لِقَولِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ وهذا يَقْتضي أنَّ القِبطَ كانوا على عِلمٍ بما حَلَّ بقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ؛ فأمَّا قَومُ نُوحٍ فكان طُوفانُهم مَشهورًا، وأمَّا عادٌ وثمودُ فلِقُربِ بلادِهم مِن البِلادِ المِصريَّةِ، وكان عظيمًا لا يَخفَى على مُجاوِريهم[٣].

٥- في قَولِه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أنَّ اللهَ يَتَّصِفُ بالصِّفاتِ المنفيَّةِ التي يُعَبِّرُ عنها بَعضُ العُلَماءِ بالصِّفاتِ السَّلبيَّةِ؛ لأنَّ النَّفيَ سَلْبٌ[٤].

٦- قولُه تعالَى حِكايةً لِقَولِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ زادَ مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ في الوَعظِ والتَّخويفِ، وأفصَحَ عن إيمانِه؛ إمَّا مُستَسلِمًا مُوَطِّنًا نَفسَه على القَتلِ، أو واثِقًا بأنَّهم لا يَقصِدونَه بسُوءٍ، وقدْ وقاه اللهُ شَرَّهم بِقَولِه الحَقِّ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾[٥] [غافر: ٤٥].

٧- في قَولِه: ﴿يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أنَّ يومَ القِيامةِ له أحوالٌ، وقدْ قالَ اللهُ تعالَى في

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٦٤).

واللهُ تعالَى يُمدَحُ بالنَّفيِ إذا تَضَمَّن أمرًا وُجوديًّا، كمدحِه بنَفْيِ الظُّلمِ، المتضمِّنِ كمالَ عدلِه وعِلْمِه وغِناه. يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٠).

سورةِ (طه): ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [طه: ١٠٨]، وهنا يَذكُرُ أنَّه يومُ تَنَادٍ -والنِّداءُ هو الصَّوتُ الرَّفيعُ- وعلى هذا فيكونُ الجَمعُ بينَ هذه الآيةِ وبينَ قَولِه: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ هو أنَّ يومَ القيامةِ له أحوالٌ؛ لأنَّ يومَ القيامةِ مِقدارُه خمسون ألفَ سَنَةٍ؛ فلا بُدَّ أنْ تتغيَّرَ أحوالُ النَّاسِ[١].

٨- في قَولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ الرَّدُّ على المعتزلةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُستَقِلٌّ بعَمَلِه؛ يَهدي نفْسَه ويُضِلُّ نَفسَه، ولا عَلاقةَ لِمَشيئةِ اللهِ تعالى في فِعلِه[٢]!

٩- في قَولِه: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكّٖ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ أنَّ مَلِكَ مِصرَ وقَومَه زمَنَ يُوسُفَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانوا كُفَّارًا[٣].

١٠- في قَولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ أنَّ أولئك الَّذين بُعِثَ إليهم يُوسُفُ كانوا يُقِرُّونَ باللهِ[٤]، ومع ذلك لم يَنْفَعْهم إقرارُهم باللهِ؛ لأنَّ الإيمانَ بوُجودِ اللهِ لا يَكْفي في التَّوحيدِ والخَلاصِ مِن عَذابِ اللهِ[٥].

١١- في قَولِه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ أنَّ إضلالَ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يكونُ إلَّا في مَحَلِّ مَن هو أهلٌ للإضلالِ[٦].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾ أنَّ مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٨٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٢٨٣).

لَزِمَ حَدَّه، وأيقَنَ بما يجِبُ الإيقانُ به، فإنَّه أبعدُ النَّاسِ عن الإضلالِ؛ يُؤخَذُ هذا مِن المفهومِ، فإذا كان اللهُ يُضِلُّ مَن هو مُسرِفٌ مرتابٌ فإنَّه يَهدي مَن لَزِمَ حَدَّه، وأيقَنَ في أمْرِه وآمَنَ بذلك[١].

١٣- قال تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾، وكذلك قال: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾، فذكَرَ ضَلالَ الأوَّلِ، وذكَرَ تَجبُّرَ الثاني؛ وذلك لأنَّ الأوَّلَ مُرْتابٌ، ففاتَه العِلمُ حيثُ ابْتَغى الهُدى في غَيرِه، والثانيَ جبَّارٌ عمِلَ بخِلافِ ما فيه، فقصَمَه اللهُ، وهذان الوَصْفانِ يَجمَعانِ العِلمَ والعَملَ. وفي ذلك بَيانُ أنَّ كلَّ عِلمٍ دِينٍ لا يُطلَبُ منَ القُرآنِ فهو ضَلالٌ، كفاسِدِ كَلامِ الفَلاسِفةِ والمُتكَلِّمةِ والمتَصوِّفةِ والمُتفَقِّهةِ، وكلُّ عاقلٍ يَترُكُ كتابَ اللهِ مُريدًا للعُلوِّ في الأرضِ والفسادِ؛ فإنَّ اللهَ يَقصِمُه، فالضَّالُّ لم يَحصُلْ له المَطلوبُ، بل يُعذَّبُ بالعمَلِ الَّذي لا فائدةَ فيه، والجبَّارُ حصَّلَ لذَّةً فقصَمَه اللهُ عليها، فهذا عَذابٌ بإزاءِ لذَّاتِه الَّتي طلَبَها بالباطِلِ، وذلك يُعذَّبُ بسَعيِه الباطِلِ الَّذي لم يُفِدْه[٢].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ذَمُّه لهم بأنَّهم يُجادِلونَ بغَيرِ سُلطانٍ: فيه دَلالةٌ على أنَّ الجِدالَ بالحُجَّةِ حَسَنٌ وحَقٌّ، وفيه إبطالٌ للتَّقليدِ[٣].

١٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لا يَجوزُ لأحَدٍ أن يُعارِضَ كِتابَ اللهِ بغيرِ كِتابٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢١)

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٣).

فمَن عارَضَ كِتابَ اللهِ وجادَلَ فيه بما يُسَمِّيه مَعقولاتٍ وبَراهينَ وأقيسةً، أو ما يُسَمِّيه مُكاشَفاتٍ ومَواجيدَ وأذواقًا، مِن غيرِ أنْ يأتيَ على ما يقولُه بكِتابٍ مُنَزَّلٍ- فقدْ جادَلَ في آياتِ اللهِ بغيرِ سُلطانٍ. ومُعارضةُ القُرآنِ بمَعقولٍ أو قِياسٍ: هذا لم يكُنْ يَستَحِلُّه أحَدٌ مِن السَّلَفِ، وإنَّما ابتُدِعَ ذلك لَمَّا ظهَرَت الجَهميَّةُ والمُعتَزِلةُ ونَحوُهم ممَّن بَنَوا أُصولَ دِينِهم على ما سَمَّوه مَعقولًا، ورَدُّوا القُرآنَ إليه، وقالوا: إذا تعارَضَ العَقلُ والشَّرعُ إمَّا أنْ يُفَوَّضَ أو يُتأَوَّلَ؛ فهؤلاء مِن أعظَمِ المجادِلينَ في آياتِ اللهِ بغيرِ سُلطانٍ أتاهم[1].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ مِن أعظَمِ الجِدالِ في آياتِ اللهِ جِدالُ مَن يُعارِضُ النَّقلَ بالعَقلِ، ثمَّ يُقَدِّمُه عليه؛ فإنَّ جِدالَه يَتضَمَّنُ أربَعةَ مَقاماتٍ:

**أحدُها**: أنَّه يُبيِّنُ أنَّ الأدِلَّةَ النَّقليَّةَ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ لا تُفيدُ عِلمًا ولا يقينًا.

**الثَّاني**: أنَّ ظاهِرَها يدُلُّ على الباطِلِ والتَّشبيهِ والتَّمثيلِ.

**الثَّالِثُ**: أنَّ صَريحَ العَقلِ يُخالِفُها.

**الرَّابعُ**: أنَّه يتعَيَّنُ تقديمُه عليها، ولا يَصِلُ إلى هذه المقاماتِ إلَّا بأعظَمِ الجِدالِ.

فهو مُرادٌ بهذه الآياتِ قَطعًا، وأعمالُهم شاهِدةٌ عليهم لِمَن لم يَطَّلِعْ على حَقيقةِ أقوالِهم، وهي التكَبُّرُ والتجَبُّرُ، والفَرَحُ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ، والمرَحُ، وطَلَبُ العُلُوِّ في الأرضِ والفَسادِ، ولا تَجِدُ من يُعارِضُ الوَحيَ بالعَقلِ ويُقَدِّمُه عليه إلَّا بهذه المنزلةِ؛ فهذه عُلومُهم وعقائِدُهم، وهذه إرادتُهم وأعمالُهم[2].

---

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢٢-٢٣).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ١١٣٠-١١٣١).

١٧- في قَولِه تعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أنَّه ليس لأحَدٍ مِن خَلْقِ اللهِ كائنًا مَن كان أنْ يُبطِلَ قَولًا، أو يُحَرِّمَ فِعلًا إلَّا بسُلطانِ الحُجَّةِ، وإلَّا كان ممَّن قال اللهُ فيه ذلك[١].

١٨- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ ﴾، أي: بغيرِ حُجَّةٍ وبُرهانٍ، وهذا وَصفٌ لازِمٌ لكُلِّ مَن جادَلَ في آياتِ اللهِ؛ فإنَّه مِن المُحالِ أنْ يُجادِلَ بسُلطانٍ؛ لأنَّ الحَقَّ لا يُعارِضُه مُعارِضٌ، فلا يُمكِنُ أن يُعارَضَ بدَليلٍ شَرعيٍّ أو عقليٍّ أصلًا[٢]؛ فقَولُه: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ فيه أنَّه لا سُلطانَ لكلِّ إنسانٍ جادَلَ لإدحاضِ الحَقِّ وإظهارِ الباطلِ، يُؤخذُ مِن قَولِه: ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾؛ فهذا الوَصفُ وَصفٌ لبيانِ الواقعِ، وليس وَصفًا مُقَيِّدًا، والفَرقُ أنَّنا لو قُلْنا: إنَّه وَصفٌ مُقَيِّدٌ صارَ الذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ لإبطالِها: أحيانًا يكونُ معهم سُلطانٌ، وأحيانًا لا يكونُ معهم سُلطانٌ! والواقعُ أنَّه ليس لهم سُلطانٌ، والقَيدُ المُبَيِّنُ للواقعِ ليس له مَفهومٌ، وهذا آتٍ في القُرآنِ كَثيرًا، وإنَّما المَقصودُ به -أي: بالقَيدِ المُبَيِّنِ للواقعِ- الاستِدلالُ، يعني: فكأنَّه تعليلٌ للمَوصوفِ[٣].

١٩- قَولُه تعالَى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فيه إثباتُ المَقْتِ للهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه يَتفاضَلُ، فيكونُ مَقْتُه على شَخصٍ أو طائفةٍ أكبرَ مِن مَقْتِه على شَخصٍ أو طائفةٍ أُخرَى[٤].

٢٠- في قَولِه تعالَى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ ﴾ إثباتُ العِنْدِيَّةِ للهِ تعالَى، ثمَّ العِنْدِيَّةُ نوعانِ: عِنديَّةُ وَصفٍ، وعِنديَّةُ قُرْبٍ؛ فقَولُ اللهِ تبارَك وتعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩١).

يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] هذه عِنْديَّة قُربٍ، وقولُه هنا: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ عِنديَّةُ وَصفٍ؛ لأنَّ المَقْتَ ليس شَيئًا مُنفَصِلًا بائنًا عنِ اللهِ حتى يَكونَ عِنديَّةَ قُرْبٍ، بل هذا عِنديَّةُ وَصفٍ، كما يُقالُ: فلانٌ عندي عزيزٌ، أي: إنَّ عِزَّتَه قائمةٌ به، فهذه عِنديَّةُ وصفٍ، لا قُربٍ[1].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ لَمَّا كان هذا تَكملةً لكلامِ الذي آمَنَ، ولم يكُنْ فيه تَعريجٌ على مُحاوَرةِ فِرعونَ على قولِه: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ ...﴾ [غافر: ٢٩] إلخ، وكان الَّذي آمَنَ قد جعَلَ كلامَ فِرعونَ في البَينِ، واسترْسَلَ يُكمِلُ مَقالَتَه؛ عُطِفَ فِعلُ قولِه بـ(الواوِ)؛ لِيَتَّصِلَ كلامُه بالكَلامِ الذي قبْلَه، ولئلَّا يُتوهَّمَ أنَّه قَصَدَ به مُراجعةَ فِرعونَ، ولكنَّه قصَدَ إكمالَ خِطابِه، وعُبِّرَ عنه بـ﴿ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾؛ لأنَّه قد عُرِفَ بمَضمونِ الصِّلةِ بعْدَ ما تقدَّمَ[2].

- وإعادَتُه نِداءَ قَومِه بقولِه: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ تأْكيدٌ لِما قصَدَه مِن النِّداءِ الأوَّلِ[3].

- قولُه: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يومُ الأحزابِ مُرادٌ به الجِنسُ لا يومٌ مُعيَّنٌ؛ بقَرينةِ إضافتِه إلى جمْعٍ أزمانُهُم مُتباعِدةٌ؛ فالتَّقديرُ: مِثلَ أيَّامِ الأحزابِ؛ فإفرادُ (يوم) للإيجازِ؛ لأنَّه لَمَّا أضافَه إلى الأحزابِ، وفسَّرَهم بقَومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ، ومعلومٌ أنَّ كلَّ حِزبٍ كان له يَومُ دَمارٍ؛ اقتَصَرَ على الواحِدِ مِن الجمْعِ؛ لأنَّ المُضافَ إليه أغْنى عن ذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٣، ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير أبي =

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا كان أقَلُّ ما يُخشَى يَكفي العاقِلَ، وكانتْ قُدرةُ اللهِ سُبحانَه عليهم كُلِّهم على حَدٍّ سَواءٍ لا تفاوُتَ فيها، فكان هلاكُهم كُلِّهم كهَلاكِ نَفْسٍ واحِدةٍ- أفردَ فقال: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾، مع أنَّ إفرادَه أروعُ وأقوَى في التَّخويفِ وأفظَعُ؛ للإشارةِ إلى قُوَّةِ اللهِ تعالَى، وأنَّه قادِرٌ على إهلاكِهم في أقَلِّ زَمانٍ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾

- لَمَّا كان قولُه: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ بَيانًا لقولِه: ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾، كان ما يُضافانِ إليه مُتَّحِدًا لا مَحالةَ، فصارَ الأحزابُ والدَّأْبُ في معنًى واحِدٍ، وإنَّما يتِمُّ ذلك بتَقديرِ مُضافٍ مُتَّحِدٍ فيهما؛ فالتَّقديرُ: مِثلَ يومِ جَزاءِ الأحزابِ، مِثلَ يومِ جَزاءِ دَأْبِ قومِ نُوحٍ وعادٍ وثمودَ، أي: جَزاءِ عَمَلِهم[2].

- قَولُه: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ لَمَّا كان هؤلاء أقوَى الأُمَمِ اكتفَى بهم، وأجمَلَ مَن بَعدَهم[3].

- وجُملةُ ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ مُعترِضةٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وهي اعتراضٌ بيْن كلامَيه المُتعاطفَينِ، أي: أخافُ عليكم جَزاءً عادلًا مِن اللهِ، وهو جَزاءُ الإشراكِ[4].

- قَولُه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فيه مُبالَغةٌ في نَفيِ الظُّلمِ؛ حيثُ عَلَّقَه بالإرادةِ،

---

= حيان)) (٩/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٥٩-٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٥).

فإذا نفاه عن الإرادةِ كان نفيُه عن الوُقوعِ أَوْلَى وأَحْرَى[١].

- قولُه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ الظُّلمُ يُطلَقُ على الشِّركِ، ويُطلَقُ على المُعامَلةِ بغيرِ الحقِّ، وقدْ جمَع قولُه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ نفْيَ الظُّلمِ بمَعنَييهِ على طَريقةِ استِعمالِ المشترَكِ في مَعنَيْيهِ. وفيه تَقديمُ اسمِ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ على الخبَرِ الفِعليِّ ﴿يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾؛ لإفادةِ قَصرِ مَدلولِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه، وإذ كان المُسنَدُ واقعًا في سِياقِ النَّفيِ، فالمعنى: قَصْرُ نفْيِ إرادةِ الظُّلمِ على اللهِ تعالى قصْرَ قلْبٍ[٢]، أي: اللهُ لا يُريدُ ظُلْمًا للعِبادِ، بلْ غيرُه يُريدونه لهم، وهم قادةُ الشِّركِ وأئمَّتُه؛ إذ يَدْعُونهم إليه، ويَزْعُمون أنَّ اللهَ أمَرَهم به؛ قال تعالَى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]؛ هذا على المعنى الأوَّلِ للظُّلم، وأمَّا على المعنى الثَّاني، فالمعنى: ما اللهُ يُريدُ أنْ يَظلِمَ عِبادَه، ولكنَّهم يَظلِمون أنفُسَهم باتِّباعِ أئمَّتِهم على غيرِ بَصيرةٍ؛ فلمْ يَخرُجْ تَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ في سِياقِ النَّفيِ في هذه الآيةِ عن مَهْيَعِ[٣] استِعمالِه في إفادةِ قَصرِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ أعقَبَ تَخويفَهم بعِقابِ الدُّنيا الذي حَلَّ مِثلُه بقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثمودَ والَّذين مِن بعْدِهم؛ بأنْ خوَّفَهم وأنْذَرَهم عذابَ الآخِرةِ، عاطِفًا جُملتَه على جُملةِ عذابِ الدُّنيا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٥٧).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٢٨).

(٣) المهيع: الطَّريقُ الواسِعُ الواضِحُ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٧٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٥، ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٣٦).

- وأقْحَمَ بيْن حرْفِ العَطْفِ والمعطوفِ نِداءَ قَومِه ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾؛ تأْكيدًا لِما قصَدَه مِن النِّداءِ الأوَّلِ[١].

- ومِن بَديعِ البَلاغةِ: ذِكرُ وَصفِ ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ لليومِ في هذا المقامِ؛ لِيُذكِّرَهم أنَّه في مَوقفِه بيْنهم يُناديهم بـ (يا قوم) ناصِحًا، ومُرِيدًا خَلاصَهم مِن كلِّ نِداءٍ مُفزِعٍ يومَ القِيامةِ، وتأْهِيلَهم لكُلِّ نِداءٍ سارٍّ فيه[٢].

- وعلى قِراءةِ ﴿يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ بدُونِ ياءٍ في الوصلِ والوقفِ، وهو غيرُ مُنوَّنٍ، ولكنْ عُومِلَ مُعامَلةِ المُنوَّنِ؛ فهو لِقَصْدِ الرِّعايةِ على الفواصلِ. وقُرِئَ ﴿يَوْمَ التَّنَادِي﴾ بإثْباتِ الياءِ على الأصْلِ[٣]؛ اعتبارًا بأنَّ الفاصلةَ هي قولُه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾

- (مِن) الدَّاخلةُ على ﴿عَاصِمٖ﴾ صِلةٌ لِتَأكيدِ النَّفيِ[٥].

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾؛ لِتَضمُّنِها معنى: إنِّي أرْشَدْتُكم إلى الحَذَرِ مِن يومِ التَّنادي. وفي الكلامِ إيجازٌ بحَذْفِ جُمَلٍ تَدلُّ عليها الجُملةُ المعطوفةُ، والتَّقديرُ: هذا إرشادٌ لكمْ؛ فإنْ هَداكم اللهُ عمِلْتُم به، وإنْ أعرَضْتُم عنه فذلك لأنَّ اللهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) قرأ ﴿التَّنَادِي﴾ بإثباتِ الياءِ: ابنُ كثير وَيَعقوبُ، وأثبتَهما فِي الوصلِ: ورش وَابْن وردان، وقرأ الباقون بحذْفها ﴿ٱلتَّنَادِ﴾. يُنظر: ((تحبير التيسير)) لابن الجزري (ص: ٥٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٦، ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٣٧).

أضَلَّكم، ومَن يُضلِلِ اللهُ فما له مِن هادٍ، وفي هذه الجُملةِ معنَى التَّذييلِ[١].

- والمرادُ مِن قولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ العمومُ الشَّاملُ لكلِّ مَن حرَمَه اللهُ التَّوفيقَ. وفيه تَعريضٌ بتَوقُّعِه أنْ يكونَ فِرعونُ وقومُه مِن جُملةِ هذا العُمومِ، وآثَرَ لهم هذا هنا دونَ أنْ يقولَ: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ [الزمر: ٣٧]؛ لأنَّه أحسَّ منهم الإعراضَ، ولمْ يَتوسَّمْ فيهم مَخائلَ الانتفاعِ بنُصْحِه ومَوعظتِه[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ مُّرۡتَابٌ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَكُمۡ يُوسُفُ مِن قَبۡلُ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ تَوبيخٌ مُوجَّهٌ لهم مِن المؤمِنِ؛ بأنَّ يُوسفَ عليه السَّلامُ أتاكمْ بالمُعجِزاتِ فشَكَكْتُم فيها، ولم تَزالوا شاكِّينَ كافرينَ...[٣].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (قدْ) ولامِ القسَمِ لِتَحقيقِه؛ لأنَّهم مَظِنَّةُ أنْ يُنكِروه لِبُعدِ عَهْدِهم به[٤].

- قولُه: ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلۡتُمۡ لَن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِهِۦ رَسُولٗا﴾ عُدِّيَ فِعلُ ﴿جَآءَكُم﴾ إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ، وأُسنِدَ ﴿فَمَا زِلۡتُمۡ﴾ و﴿قُلۡتُمۡ﴾ إلى ضَميرِهم أيضًا، وهمْ ما كانوا مَوجودينَ حِينئذٍ؛ قصْدًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٣٨).

لِحَمْلِ تَبِعةِ أسلافِهم عليهم، وتَسجيلًا عليهم بأنَّ التَّكذيبَ للنَّاصحينَ، واضطرابَ عُقولِهم في الانتفاعِ بدَلائلِ الصِّدقِ؛ قد وَرِثوه عن أسلافِهم في جِبلَّتِهم، وتَقرَّرَ في نُفوسِهم، فانتقالُه إليهم جِيلًا بعْدَ جِيلٍ[١].

- وفي قولِه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ كأنَّه عبَّرَ بالهَلاكِ؛ إيهامًا لهم أنَّه غيرُ مُعظِّمٍ له، وأنَّه إنَّما يقولُ ما يُشعِرُ بالتَّعظيمِ؛ لأجْلِ مَحْضِ النَّصيحةِ والنَّظرِ في العاقبةِ[٢].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ مِن كَلامِ اللهِ تعالى -على قولٍ- مُعترِضٌ بيْن كَلامِ المؤمنِ وكلامِ فِرعونَ؛ فإنَّ هذا مِن المعاني الإسلاميَّةِ، قُصِدَ منه العِبرةُ بحالِ المُكذِّبينَ بمُوسى تَعريضًا بمُشْركي قُريشٍ، أي: كضَلالِ قَومِ فِرعونَ يُضِلُّ اللهُ مَن هو مُسرِفٌ مُرتابٌ أمْثالُكم، فكذلك يكونُ جَزاؤُكم[٣].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ إلى الضَّلالِ المأْخوذِ مِن قولِه: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ﴾، أي: مِثلَ ذلك الضَّلالِ يُضِلُّ اللهُ المُسرِفين المُرتابين، أي: أنَّ ضَلالَ المُشرِكين في تَكذيبِهم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِثلُ ضَلالِ قَومِ فِرعونَ في تَكذيبِهم مُوسى عليه السَّلامُ[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٤٢).

- قولُه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾ فيه اختِيارُ التعبيرِ بالمضارِعِ ﴿يُجَٰدِلُونَ ﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ مُجادلَتِهم وتَكرُّرِها، وأنَّهم لا يَنفَكُّون عنها، وهذا صَريحٌ في ذَمِّهم، وكِنايةٌ عن ذَمِّ جِدالِهم الذي أوجَبَ ضَلالَهم. وفي الموصوليَّةِ ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ ... ﴾ إيماءٌ إلى عِلَّةِ إضلالِهم، وهو تَكرُّرُ مُجادلَتِهم قَصْدًا للباطِلِ[1].

- وهذه الصِّفةُ ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ﴾ مَوجودةٌ في فِرعونَ وقومِه، وقد عدَلَ الواعظُ عن مُخاطَبتِهم إلى الاسمِ الغائِبِ؛ لِحُسْنِ مُحاوَرتِه لهم، واستِجلابِ قُلوبِهم، وأبرَزَ ذلك في صُورةٍ تُذكِّرُهم، فلم يَخُصَّهم بالخِطابِ[2].

- وجُملةُ ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ خبَرٌ، مِن بابِ الإخبارِ بالإنشاءِ، وهي إنشاءُ ذَمِّ جِدالِهم المقصودِ منه كَمُّ (أي: تَغطيةُ وسَدُّ) فَمِ الحقِّ، أي: كبُرَ جِدالُهم مَقتًا عندَ اللهِ، وفي هذا تَفظيعٌ صَريحٌ لِجِدالِهم بعْدَ أنِ استُفِيدَ مِن صِلَةِ الموصولِ أنَّ جِدالَهم هو سبَبُ إضلالِهم ذلك الإضلالَ المَكينَ؛ فحصَلَ بهذا الاستِئنافِ تَقريرُ فَظاعةِ جِدالِهم بطريقَيِ الكِنايةِ والتَّصريحِ[3].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ على ﴿عِندَ ٱللَّهِ ﴾؛ قيل: لأنَّ كونَه مقْتًا عِندَ اللهِ لا يَحصُلُ في عِلمِ الناسِ إلَّا بالخبَرِ، فزِيدَ الخبَرُ تأْييدًا بالمُشاهَدةِ؛ فإنَّ الذين آمَنوا -على قِلَّتِهم يَومئذٍ- يَظهَرُ بيْنَهم بُغضُ مُجادَلةِ المشركينَ. والأظهرُ: أنَّ اللهَ أرادَ التَّنويهَ بالمؤمنينَ، ولم يُرِدْ إقْناعَ المشركينَ؛ فإنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٨٥).

لا يَعْبَؤون ببُغضِ المؤمنِينَ، ولا يُصدِّقون ببُغضِ اللهِ إيَّاهم؛ فالمقصودُ الثَّناءُ على المؤمنينَ بأنَّهم يَكرَهون الباطِلَ، مع الإشارةِ إلى تَبْجيلِ مَكانتِهم بأنْ ضُمَّتْ عِنديَّتُهم إلى عِنديَّةِ اللهِ تعالى[١].

- وفي إسنادِ كَراهيةِ الجِدالِ في آياتِ اللهِ بغيرِ سُلطانٍ في قولِه: ﴿وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للمُؤمنِينَ: تَلقينٌ للمُؤمنِينَ بالإعراضِ عن مُجادَلةِ المشركينَ، على نحْوِ ما في قولِه تعالَى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾[٢] [القصص: ٥٥].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ استِئنافٌ للدَّلالةِ على المُوجِبِ لِجدالِهم[٣].

- وقُرِئَ ﴿قَلْبٍ﴾ بالتَّنوينِ[٤] على وَصْفِه بالتَّكبُّرِ والتَّجبُّرِ؛ لأنَّه مَركَزُهما ومَنبَعُهما، كما تقولُ: رأَتِ العينُ، وسمِعَت الأُذُنُ[٥].

- والمُتكبِّرُ: ذو الكِبْرِ المبالَغِ فيه؛ ولذلك عُبِّرَ بصِيغةِ التَّكلُّفِ (مُتفعِّل)[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٧).

(٤) قرأ أبو عَمرو وابنُ ذَكوان بالتنوينِ، والباقون بدون تَنوينٍ. يُنظر: ((الإقناع في القراءات السبع)) لابن البَاذِش (ص: ٣٧١)، ((تحبير التيسير في القراءات العشر)) لابن الجزري (ص: ٥٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٤).

## الآيات (٣٦-٤٠)

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَرْحًا﴾: أي: بِناءً وقَصرًا عاليًا، وأصلُ (صرح): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبُروزِه[١].

﴿تَبَابٍ﴾: أي: بُطلانٍ وخَسارٍ وذَهابٍ، والتَّبابُ: الاستِمرارُ في الخُسرانِ[٢].

﴿مَتَٰعٌ﴾: أي: مَنفعةٌ ومُتعةٌ قليلةٌ غيرُ باقيةٍ، والمَتاعُ والمُتعةُ: ما يُنتفَعُ به انتِفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، ثمَّ يَنقضي عن قَريبٍ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ[٣].

﴿ٱلْقَرَارِ﴾: أي: المُستَقَرِّ الَّذي لا يَزولُ، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على تمكُّنٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وقال فِرعَونُ لهامانَ: يا هامانُ ابْنِ لي بِناءً عظيمًا مُرتَفِعًا؛ لَعَلِّي أصِلُ إلى طُرُقِ السَّمواتِ وأبوابِها المُوصِلةِ إلى إلهِ موسى، فأنظُرَ إليه، وإنِّي لَأَظُنُّ موسى كاذِبًا في دَعواه أنَّ في السَّماءِ إلهًا! وكذلك زُيِّنَ لِفِرعَونَ سُوءُ عَمَلِه، وصُرِفَ عن طريقِ الحَقِّ، وما كَيْدُ فِرعَونَ إلَّا في خَسارٍ وهَلاكٍ!

وقال الَّذي آمَنَ ناصِحًا لِقَومِه: يا قَومِ اتَّبِعوني أُبَيِّنْ لكم طريقَ الحَقِّ، ويا قَومِ إنَّما هذه الحياةُ الدُّنيا مَتاعٌ، وإنَّ الدَّارَ الآخِرةَ هي دارُ الاستِقرارِ والخُلودِ؛ مَن عَمِلَ في الدُّنيا سَيِّئةً فلا يُجزى في الآخِرةِ إلَّا سَيِّئةً مِثلَها، ومَن عَمِلَ صالحًا وهو مؤمِنٌ باللهِ ورُسُلِه فأولئك يَدخُلونَ الجنَّةَ، يُرزَقونَ فيها بلا حِسابٍ ولا عَدَدٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَصَفَ اللهُ تعالى فِرعَونَ بكَونِه مُتكَبِّرًا جبَّارًا؛ بيَّنَ أنَّه أبلَغَ في البَلادةِ والحَماقةِ إلى أنْ قَصَدَ الصُّعودَ إلى السَّمَواتِ[1]!

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾.

أي: وقال فِرعَونُ لهامانَ: يا هامانُ ابْنِ لي بِناءً عَظيمًا شاهِقًا[2].

كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [القصص: ٣٨].

﴿... لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿... لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾.

أي: رجاءَ الوُصولِ لطُرُقِ السَّمواتِ وأبوابِها الَّتي تُوصِلُني إلى إلهِ موسى فأنظُرَ إليه[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

قال ابن الجوزي في معنى الأسبابِ: (قال ابنُ عبَّاسٍ وقَتادةُ: يعني: أبوابَها. وقال أبو صالحٍ: طُرُقَها. وقال غيرُه: المعنى: لَعَلِّي أبلُغُ الطُّرقَ مِن سماءٍ إلى سماءٍ. وقال الزَّجَّاجُ: لَعَلِّي أبلُغُ ما يؤدِّيني إلى السَّمَواتِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الأبوابُ: السَّمعانيُّ، وابنُ القيِّمِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الطُّرقُ: الواحديُّ، والنيسابوري، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٤).

قال الرَّسْعَني: (قوله: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَـٰبَ * أَسْبَـٰبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ يعني: أبوابَها وطُرقَها، وهذا قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦١٨).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى العُمومِ دونَ تخصيصٍ؛ فذكَر أنَّ السَّببَ هو كلُّ ما تُسُبِّبَ به إلى الوُصولِ إلى ما يُطلَبُ؛ مِن مَنزِلٍ أو بابٍ أو طريقٍ وغيرِ ذلك، فالمعنى: لَعَلِّي أبْلُغُ مِن أسبابِ السَّمواتِ أسبابًا أتَسَبَّبُ بها إلى رؤيةِ إلهِ موسى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٦).

إِلَـٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾ [القصص: ٣٨].

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾.

أي: وإنِّي لَأَظُنُّ موسى كاذبًا في دَعْواه أنَّ في السَّماء إلهًا[1]!

﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

أي: وهكذا زُيِّنَ لِفرعونَ عَمَلُه السَّيِّئُ، فرأَى الباطِلَ حَسَنًا[2]!

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٧٥)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٦/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

قال ابن كثير: (﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ يحتملُ هذا معنيَين؛ أحدُهما: وإنِّي لَأَظُنُّه كاذبًا في قولِه: إنَّ للعالَم ربًّا غيري. والثَّاني: في دَعْواه أنَّ اللهَ أرسَلَه. والأوَّلُ أشْبَهُ بظاهِرِ حالِ فِرعونَ؛ فإنَّه كان يُنكِرُ ظاهرَ إثباتِ الصَّانعِ، والثَّاني أقرَبُ إلى اللَّفظِ؛ حيث قال: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِ مُوسَىٰ﴾، أي: فأسألَه هل أرسَلَه أمْ لا؟ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ أي: في دَعْواه ذلك. وإنَّما كان مقصودُ فِرعونَ أن يَصُدَّ النَّاسَ عن تصديقِ موسى عليه السَّلامُ، وأن يَحُثَّهم على تكذيبِه). ((البداية والنهاية)) (٢/ ٩٠).

وقال الذهبي: (﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَـٰذِبًا﴾ يعني: أظُنُّ مُوسى كاذِبًا أنَّ إلهَه في السَّماءِ). ((العرش)) (٢/ ٢٠). ويُنظر: ((التوحيد)) لابن خزيمة (١/ ٢٦٣)، ((الإبانة)) لأبي الحسن الأشعري (ص: ١٠٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨).

قال ابنُ جرير: (يقولُ الله تعالى ذِكرُه: وهكذا زَيَّن اللهُ لِفرعَونَ -حينَ عَتَا عليه وتَمرَّد- قبيحَ عَمَلِه، حتَّى سَوَّلَتْ له نفْسُه بُلوغَ أسبابِ السَّمواتِ؛ لِيَطَّلعَ إلى إلهِ مُوسى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٧).

وقال القرطبي: (﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: الشِّركُ والتَّكذيبُ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٥).

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَصُدَّ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَصُدَّ﴾ بضَمِّ الصَّادِ على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، أي: مُنِعَ مِن طريقِ الحَقِّ(١).

٢- قِراءةُ ﴿وَصَدَّ﴾ بفَتحِ الصَّادِ إسنادًا إلى الفاعِلِ، فقيل: المعنى: صَدَّ نَفْسَه عن الحَقِّ. وقيل: صَدَّ غَيْرَه عن الحَقِّ(٢).

﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: ومُنعَ فِرعَونُ، وصُرِفَ عن طَريقِ الحَقِّ(٣).

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾.

أي: وما احتيالُ فِرعَونَ الَّذي احتاله للاطِّلاعِ إلى إلهِ موسى -بزَعْمِه- إلَّا في خَسارٍ وهَلاكٍ لا يَنالُ به شَيئًا مِمَّا أرادَه(٤).

---

(١) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣١٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩٨).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣١٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦).
قال ابنُ القيِّم: (صَدَّ بفتح الصَّادِ، ويحتمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: أعرَضَ، فيَكونُ لازِمًا. والثَّاني: يكونُ صَدَّ غَيرَه، فيكونُ مُتعدِّيًا، والقِراءتانِ كالآيتَينِ؛ لا يَتناقَضانِ). ((شفاء العليل)) (ص: ٩٦).
وذكر ابنُ عثيمين أنَّها تَشملُ المعنيَينِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي: وقال الَّذي آمَنَ ناصِحًا لِقَومِه: يا قَومِ إنِ اتَّبَعتُموني أُبَيِّنْ لكم الطَّريقَ الصَّحيحَ الَّذي تَصِلونَ به إلى الجنَّةِ[1].

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ ﴾.

أي: يا قَومِ ما هذه الحياةُ الدُّنيا إلَّا مَتاعٌ قَليلٌ فانٍ لا يَبقَى[2].

﴿وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾.

أي: وإنَّ الدَّارَ الآخِرةَ هي دارُ الاستِقرارِ والخُلودِ؛ إمَّا في نعيمِ الجنَّةِ، أو

---

= (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨).

قال الماوَرْدي: (﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: في خُسرانٍ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: في ضلالٍ. قاله قَتادةُ. وفيه وجْهانِ: أحدُهما: في الدُّنيا؛ لِما أطْلَعَه الله عليه مِن هلاكِه. الثَّاني: في الآخِرةِ؛ لِمَصيرِه إلى النَّارِ. قاله الكَلْبيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٧).

وقال ابن عطيَّة: (وتَبُّ فِرعَونَ ظاهِرٌ؛ لأنَّه خَسِرَ مالَه في الصَّرحِ وغَيرِه، وخَسِرَ مُلكَه، وخَسِرَ نَفْسَه، وخُلِّدَ في جهنَّمَ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٠).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بكَيدِه: ما أمَرَ به مِن بناءِ الصَّرحِ، والغايةُ منه، وسُمِّيَ كيدًا؛ لأنَّه عَمَلٌ ليس المرادُ به ظاهِرَه، بل أُريدَ به الإفضاءُ إلى إيهامِ قَومِه كَذِبَ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١١، ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

عذابِ النَّارِ؛ فاعمَلوا لآخِرتِكم الَّتي لا زَوالَ لها، ولا انتِقالَ منها[١].

ثُمَّ بَيَّن كيفَ تحصُلُ المُجازاةُ في الآخرةِ[٢]، فقال:

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾.

أي: مَن عَمِلَ في الدُّنيا سَيِّئةً مِن كُفرٍ أو شِركٍ أو مَعصيةٍ، فلا يَجزيه اللهُ في الآخِرةِ إلَّا سَيِّئةً واحِدةً مِثلَها بلا زيادةٍ، فيُعاقِبُه بما يَسوؤُه؛ جَزاءً بما عَمِلَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النمل: ٩٠].

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ﴾.

أي: ومَن عَمِلَ مِن العبادِ -سواءٌ كان ذكرًا أو أنثى- عمَلًا صالِحًا، بامتِثالِ أمْرِ اللهِ واجتِنابِ نَهْيِه، وهو مُؤمِنٌ باللهِ ورُسُلِه: فأولئك يَدخُلونَ الجنَّةَ في الآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٣، ٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

قال الشوكاني: (والظَّاهِرُ شمولُ الآيةِ لكلِّ ما يُطلَقُ عليه اسمُ السَّيِّئةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٧-٣١٩).

كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٤].

﴿يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾.

أي: يُرزَقونَ فيها ثوابًا كَثيرًا لا نَفادَ له، بلا حَدٍّ ولا عَدٍّ(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى حكايةً عن فِرعونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ أنَّ رؤساءَ الضَّلالِ وأئمَّةَ الضَّلالِ يَدْعُونَ النَّاسَ إلى الضَّلالِ بكُلِّ ما يَستطيعونَ، ويُحاوِلونَ أنْ يَحُولوا بيْنَهم وبيْنَ الحَقِّ، وقَولُ فِرعَونَ: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾ أي: موسى ﴿كَٰذِبًا﴾ في أنَّ له إلهًا غيري؛ قال هذا تمويهًا على أصحابِه، وخوفًا أنْ يَقَعَ في نُفوسِهم شَيءٌ حينَ أمَر وزيرَه أنْ يَبنيَ له صَرحًا، قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾، وفِرعَونُ في هذه المقالةِ كاذِبٌ؛ فهو لا يَظُنُّ أنَّ موسى كاذِبٌ؛ فلا تَغْتَرَّ برُؤساءِ الضَّلالِ وأئمَّةِ الضَّلالِ وما يقولونَ مِن التَّمويهِ والدَّجَلِ، وليس هذا مقصورًا على أئمَّةِ السُّلطةِ الَّذين لهم السُّلطةُ، بل حتَّى على أئمَّةِ الدَّعوةِ الَّذين يَدْعُون النَّاسَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥١).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال قَتادةُ: (لا واللهِ ما هناكم مِكْيالٌ ولا ميزانٌ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣١).

وقيل: المعنى: أنَّهم يُرزَقونَ في الجنَّةِ بغيرِ تَبِعةٍ عليهم. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمان، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٩).

قال ابنُ عثيمين: (يعني: لا يُحاسَبون عليه، ولا يَنقُدونَ له ثمنًا... لا يُطلَبُ مِن الإنسانِ عِوَضٌ، ولا يَلحَقُه تَبِعةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٩، ٣٢٢).

أفكارِهم الهَدَّامةِ وأخلاقِهم السَّافلةِ؛ تَجِدُ عندَهم مِن التَّمويهِ والتَّضليلِ ما يُوجِبُ أنْ يكونَ فَخًّا يَقَعُ به مَن ليس له بَصيرةٌ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ ﴾ عبَّر بالفِعلِ إشارةً إلى أنَّه يَنبغي لأدنى أهلِ الإيمانِ ألَّا يَحقِرَ نَفْسَه عن الوَعظِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أنَّه يَنبغي للدَّاعِيةِ إذا دعا إلى شَيءٍ أنْ يُبَيِّنَ ما يكونُ به تَرغيبُ المَدعُوِّ؛ حتَّى يَنشَطَ ويَفعَلَ(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ فيه تَفصيلُ سَبيلِ الرَّشادِ، وأنَّها العُدولُ عمَّا يَفنى إلى ما يَبقى(٤)، فتضَمَّنَتْ هذه الآيةُ فائدتَينِ؛ هما: الزُّهْدُ في الدُّنيا، والرَّغبةُ في الآخرةِ(٥).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ فيه التَّحقيرُ للدُّنيا، والتَّصغيرُ لِشَأنِها؛ لأنَّ الإخلادَ إليها أصلُ الشَّرِّ كُلِّه، ومنه يَتشَعَّبُ ما يُؤدِّي إلى سَخَطِ اللهِ تعالى(٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ ... ﴾ الآيةَ: أنَّه في مَقامِ التَّهديدِ يَنبغي أنْ يُبدَأَ بما يدُلُّ على التَّهديدِ قبْلَ أنْ يُبدَأَ بما يدُلُّ على التَّرغيبِ؛ لأنَّه هنا بَدَأَ بالسَّيِّئةِ ثمَّ أعقَبَ بالصَّالحِ، وانظُرْ إلى قَولِ اللهِ تبارك وتعالى في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣١٥).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٢).

مَقامِ ذِكْرِ الأحكامِ الشَّرعيَّة، قال: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨]، ولَمَّا أراد جلَّ وعلا أنْ يَتحدَّثَ عن نَفْسِه ويُبَيِّنَ كَمالَ صِفاتِه قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]؛ فلِكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ، فالإنسانُ ينبغي له أنْ يُرَتِّبَ المعانيَ حَسَبَ ما تقتضيه الحالُ؛ لا يُلْقِي الحديثَ على عَواهِنِه[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ تعليلُه بالتَّرَجِّي الَّذي لا يكونُ إلَّا في المُمكِنِ: دَليلٌ على أنَّه كان يُلَبِّسُ على قَومِه وهو يَعرِفُ الحَقَّ؛ فإنَّ عاقِلًا لا يَعُدُّ ما رامَه في عِدادِ المُمكِنِ العاديِّ[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ -ومَن وافقهم- لِمَا يَزعُمونَ أنَّه سُبحانَه ليس بنَفْسِه في السَّماءِ! وهذا المعنى مِن قَولِ فِرعَونَ -وفِرعَونُ كافرٌ- قد قَطَعَ كلَّ رَيبٍ أنَّه لا مَحالةَ في السَّماءِ؛ إذ مُحالٌ أنْ يقولَ فِرعَونُ إلَّا بعدَ أنْ سَمِعَ موسى عليه السَّلامُ يَدْعوه إلى مَن هو في السَّماءِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَبتَلي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢٠).

يُقالُ: رَمَى الكلامَ على عَواهِنِه: أي: لم يُبالِ أصابَ أمْ أخطأَ، ولم يَتَدبَّرْه، وأورَدَه مِن غيرِ فِكرٍ ورَوِيَّةٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢١٦٩)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٥/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧).

قال الذهبي: (لو لم يكُنْ موسى عليه السَّلامُ يدعوه إلى إلهٍ في السَّماءِ لَما قال هذا؛ إذ لو كان موسى قال له: إنَّ الإلهَ الَّذي أدعوك إليه ليس في السَّماءِ، لَكان هذا القَولُ مِن فِرعَونَ عبَثًا، ولَكان بِناؤُه القَصرَ جُنونًا). ((العرش)) (٢/ ٢٠).

العبدَ فيُزَيِّنُ له سوءَ عمَلِه، ويدُلُّ لهذا قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾[1] [الأنعام: ١٠٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ فيما ذُكِرَ مِن التَّزيينِ لِفرعَونَ سوءَ عمَلِه؛ فإنْ كان أراد به أنَّه سُبحانَه هو الَّذي زَيَّنَ له، كما قال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [النمل: ٤] فهو ما يُريدونَ رَدَّه، وإنْ أراد أنَّ الشَّيطانَ زَيَّنَ له، كقَولِه: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ [النمل: ٢٤] فهو تَبَعٌ للهِ في ذلك؛ إذْ لا يجوزُ أنْ يكونَ اللهُ جلَّ جَلالُه تَبَعًا له[2].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَصِحُّ هذا الكَلامُ، مع أنَّ كُفرَ ساعةٍ يُوجِبُ عِقابَ الأبَدِ؟

**الجوابُ**: أنَّ الكافِرَ يَعتَقِدُ في كُفرِه كَوْنَه طاعةً وإيمانًا؛ فلهذا السَّبَبِ يكونُ الكافِرُ على عَزمٍ أن يَبقَى مُصِرًّا على ذلك الاعتِقادِ أبدًا؛ فلا جَرَمَ كان عِقابُه مُؤَبَّدًا، بخِلافِ الفاسِقِ: فإنَّه يَعتقِدُ فيه كَوْنَه خِيانةً ومَعصيةً، فيَكونُ على عَزمٍ ألَّا يبقَى مُصِرًّا عليه؛ فلا جَرَمَ كان عِقابُ الفاسِقِ مُنقَطِعًا[3].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الجِناياتِ تُغرَّمُ بمِثْلِها[4]. وهذه الآيةُ أصلٌ كبيرٌ في عُلومِ الشَّريعةِ فيما يَتعَلَّقُ بأحكامِ الجِناياتِ؛ فإنَّه يَقتَضي أن يكونَ المِثْلُ مَشروعًا، وأن يكونَ الزَّائِدُ على المِثْلِ غيرَ مَشروعٍ؛ فالأحكامُ الكثيرةُ في بابِ الجناياتِ على النُّفوسِ وعلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨).

الأعضاءِ وعلى الأموالِ: يمكِنُ تَفريعُها على هذه الآيةِ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ واقِعٌ في مُقابَلةِ قَولِه: ﴿إِلَّا مِثۡلَهَا﴾، يعني: أنَّ جَزاءَ السَّيِّئةِ له حِسابٌ وتقديرٌ؛ لِئَلَّا يَزيدَ على الاستِحقاقِ، فأمَّا جزاءُ العَمَلِ الصَّالِحِ فَبِغَيرِ تقديرٍ ولا حِسابٍ، بل ما شِئتَ مِن الزِّيادةِ على الحَقِّ والكَثرةِ والسَّعةِ، وهذا يدُلُّ على أنَّ جانِبَ الرَّحمةِ والفَضلِ راجِحٌ على جانِبِ القَهرِ والعِقابِ[٢].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾ هذه مَقالةٌ أُخرى لِفِرْعونَ في مَجلسٍ آخَرَ غيرِ المجلِسِ الَّذي حاجَّه فيه مُوسى؛ ولذلك عُطِفَ قولُه بالواوِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ انتصَبَ ﴿أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على البدَلِ المُطابِقِ لقولِه: ﴿ٱلۡأَسۡبَٰبَ﴾، وجِيءَ بأُسلوبٍ مِن الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ؛ للتَّشويقِ إلى المرادِ بالأسبابِ؛ تَفخيمًا لِشأْنِها وشأْنِ عمَلِه؛ لأنَّه أمْرٌ عَجيبٌ؛ لِيُورَدَ على نفْسٍ مُتشَوِّقةٍ إلى مَعرفتِه، وهي نفْسُ هامانَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٦)، =

- وقولُه: ﴿ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال في سورةِ (القَصَصِ): ﴿فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨] بحذْفِ ﴿أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وذكَرَها هنا؛ وذلك لأنَّ ما في (القَصَصِ) تَقَدَّمَه ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، مِن غَيرِ ذِكرِ أرضٍ وغَيرِها؛ فناسَبَه الحذْفُ، وما هنا تَقدَّمَه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]؛ فناسَبَه مُقابَلتُه بالسَّماءِ في قولِه: ﴿لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ * أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[1] [غافر: ٣٦، ٣٧].

- وجُملةُ ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ مُعترِضةٌ؛ للاحتِراسِ مِن أنْ يَظُنَّ هامانُ وقَومُه أنَّ دَعوةَ مُوسى أوهَنَت منه يَقينَه بدِينِه وآلهتِه، وأنَّه يَرومُ أنْ يَبحَثَ بَحثَ مُتأمِّلٍ ناظِرٍ في أدلَّةِ المعرفةِ، فحقَّقَ لهم أنَّه ما أراد بذلك إلَّا نفْيَ ما ادَّعاهُ مُوسى بدَليلِ الحسِّ. وجِيءَ بحَرْفِ التَّوكيدِ المعزَّزِ بلامِ الابتِداءِ في ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ﴾؛ لِيَنْفِيَ عن نفْسِه اتِّهامَ وَزيرِه إيَّاهُ بتَزلزُلِ اعتِقادِه في دِينِه، والمعنى: أنِّي أفعَلُ ذلك لِيَظهَرَ كذِبُ مُوسى[2].

- والظَّنُّ هنا مُستعمَلٌ في مَعنى اليقينِ والقطْعِ؛ ولذلك سمَّى اللهُ عَزْمَه هذا كَيْدًا في قولِه: ﴿وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ﴾[3].

- وقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ﴾؛ لِبَيانِ حالِ اعتِقادِه وعمَلِه، بعْدَ أنْ بيَّنَ حالَ أقوالِه، والمعنى: أنَّه

---

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٠).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال قولًا مُنبعِثًا عن ضَلالِ اعتِقادٍ، ومُغريًا بفَسادِ الأعمالِ؛ ولهذا الاعتبارِ -اعتِبارِ جَميعِ أحوالِ فِرعونَ- لم تُفصَلْ هذه الجُملةُ عن الَّتي قبْلَها؛ إذ لم يُقصَدْ بها ابتِداءُ قصَّةٍ أُخرى، وهذا يُسمَّى بالتَّوسُّطِ بيْنَ كَمالَيِ الاتِّصالِ والانقِطاعِ في بابِ الفَصْلِ والوَصْلِ مِن عِلمِ المعاني[1].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بلَفظِ (كَذَلِكَ)، أي: مِثلَ ذلك التَّزيينِ -أي: تَزْيينِ عَمَلِ فِرعونَ- زُيِّنَ له سُوءُ عمَلِه: مُبالَغةٌ في أنَّ تَزْيينَ عمَلِه له بلَغَ مِن القُوَّةِ في نَوعِه ما لا يُوجَدُ له شَبَهٌ يُشَبَّهُ به، فمَنْ أراد تَشبيهَه فلْيُشَبِّهْه بعَينِه! وبُنِيَ فِعلُ ﴿زُيِّنَ﴾ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنَّ المقصودَ مَعرفةُ مَفعولِ التَّزيينِ لا مَعرفةُ فاعِلِه، أي: حصَلَ له تَزيينُ سُوءِ عَمَلِه في نفْسِه، فحَسِبَ الباطلَ حقًّا، والضَّلالَ اهتِداءً[2].

- وتَعريفُ السَّبيلِ في قولِه: ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ للعهْدِ، أي: سَبيلِ اللهِ، أو سَبيلِ الخَيرِ، أو سَبيلِ الهُدى، ويجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للدَّلالةِ على الكَمالِ في النَّوعِ، أي: صُدَّ عن السَّبيلِ الكاملِ الصَّالحِ[3].

- وجُملةُ ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) .

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَقالٌ في مَقامٍ آخَرَ قالَه مُؤمنُ آلِ فِرعونَ، فهذه المقالاتُ المعطوفةُ بالواوِ مَقالاتٌ مُتفرِّقةٌ، فابتدَأَ مَوعظتَه بنِدائِهم؛ لِيَلْفِتَ إليه أذهانَهم، ويَسْتصغيَ أسماعَهم، وبعُنوانِ أنَّهم قَومُه؛ لِتَصْغى إليه أفْئدتُهم(١).

- ورتَّبَ خُطْبتَه على أُسلوبِ تَقديمِ الإجمالِ ثمَّ تَعقيبِه بالتَّفصيلِ؛ فابتدَأَ بقولِه: ﴿ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾. وسَبيلُ الرَّشادِ مُجمَلٌ، وهو على إجمالِه ممَّا تَتوقُ إليه النُّفوسُ؛ فرَبْطُ حُصولِه باتِّباعِهم إيَّاه ممَّا يُقبِلُ بهم على تَلَقِّي ما يُفسِّرُ هذا السَّبيلَ، ويَسْترعي أسماعَهم إلى ما يقولُه؛ إذ لعلَّه سَيأْتيهم بما تَرغَبُه أنفُسُهم؛ إذ قد يَظُنُّون أنَّه نقَّحَ رأْيَه، ونخَلَ مَقالَه، وأنَّه سَيأْتي بما هو الحقُّ الملائمُ لهم(٢).

- قولُه: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ الرَّشادُ نَقيضُ الغَيِّ، وفيه تَعريضٌ شَبيهٌ بالتَّصريحِ أنَّ ما عليه فِرعونُ وقَومُه هو سَبيلُ الغَيِّ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ﴾

- قولُه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ أعاد النِّداءَ تأْكيدًا لإقبالِهم؛ إذ لاحَتْ بَوارِقُه، فأكمَلَ مُقدِّمتَه بتَفصيلِ ما أجمَلَه؛ يُذكِّرُهم بأنَّ الحياةَ الدُّنيا مَحدودةٌ بأجَلٍ غيرِ طَويلٍ، وأنَّ وراءَها حياةً أبَديَّةً؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّ أشَدَّ دِفاعِهم عن دِينِهم مُنبعِثٌ عن مَحبَّةِ السِّيادةِ والرَّفاهيةِ، وذلك مِن مَتاعِ الدُّنيا الزَّائلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٨، ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧).

وأنَّ الخَيرَ لهم هو العمَلُ للسَّعادةِ الأبَديَّةِ، وقد بنَى هذه المُقدِّمةَ على ما كانوا عليه مِن مَعرفةِ أنَّ وراءَ هذه الحَياةِ حَياةً أبَديَّةً فيها حَقيقةُ السَّعادةِ والشَّقاءِ، وفيها الجزاءُ على الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ بالنَّعيمِ أو العذابِ؛ إذ كانت دِيانتُهم تُثبِتُ حياةً أُخرى بعْدَ الحياةِ الدُّنيا، ولكنَّها حرَّفَت مُعظَمَ وَسائلِ السَّعادةِ والشَّقاوةِ، فهذه حقائقُ مُسَلَّمةٌ عِندَهم على إجْمالِها، وهي مِن نوعِ الأصولِ الموضوعةِ في صِناعةِ الجدَلِ، وبذلك تمَّتْ مُقدِّمةُ خُطْبتِه، وتَهيَّأتْ نُفوسُهم لِبَيانِ مَقصدِه المفسِّرِ لإجمالِ مُقدِّمتِه[1].

- وكرَّرَ قَولَه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ زيادةً في استِعطافِهم بكَونِهم أهلَه، فهو غيرُ مُتَّهَمٍ في نُصحِهم؛ لأنَّه لا يُريدُ لهم إلَّا ما يُريدُ لِنَفْسِه[2].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن قَولِه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ﴾ قَصْرُ مَوصوفٍ على صِفةٍ، أي: لا صِفةَ للدُّنيا إلَّا أنَّها نفْعٌ مُؤقَّتٌ، وهو قصْرُ قلْبٍ[3]؛ لِتَنزيلِ قَومِه في تَهالُكِهم على مَنافِعِ الدُّنيا مَنزِلةَ مَن يَحسَبُها مَنافعَ خالدةً[4].

- وفيه تفسيرُ ما أجْمَلَه في قولِه: ﴿أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾، حيثُ افتَتَحَ بذمِّ الدُّنيا وتَصغيرِ شأنِها؛ لأنَّ الإخلادَ إليها منه يَتشعَّبُ جميعُ ما يُؤدِّي إلى سَخطِ اللهِ، ويَجلِبُ الشقاوةَ في العاقبةِ، وثنَّى بتعظيمِ الآخِرةِ، والاطِّلاعِ على حقيقتِها، وأنَّها هي الوطنُ والمُستقَرُّ، وذَكَر الأعمالَ سيِّئَها وحسَنَها وعاقبةَ كلٍّ منهما؛ لِيُثبِّطَ عمَّا يُتلِفُ، ويُنشِّطَ لِمَا يُزلِفُ، ثمَّ وازَنَ بيْنَ الدَّعْوتَينِ: دَعوةٍ إلى دِينِ اللهِ الَّذي ثَمَرتُه النَّجاةُ، ودَعوتِهم إلى اتِّخاذِ الأندادِ الَّذي عاقِبَتُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٢).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٩).

النَّارُ، وحذَّر، وأنْذَر، واجتهَد في ذلك واحتشَدَ[١].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفصْلِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ قصْرُ قلْبٍ، أي: لا الدُّنيا، نَظيرُ القصْرِ في قولِه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾، وهو مُؤكِّدٌ للقصْرِ في قولِه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ مِن تأْكيدِ إثباتِ ضِدِّ الحُكْمِ لِضِدِّ المحكومِ عليه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

- جُمْلتَا ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ إلى آخرِهما، بَيانٌ لِجُملةِ ﴿وَإِنَّ ٱلْأَخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾[٣].

- قولُه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ لَعلَّ تَقسيمَ العُمَّالِ، وجَعْلَ الجزاءِ جُملةً اسميَّةً مُصَدَّرةً باسمِ الإشارةِ، وتفضيلَ الثَّوابِ؛ لِتَغليبِ الرَّحمةِ، وجَعْلَ العمَلِ عُمْدةً، والإيمانِ حالًا؛ للدَّلالةِ على أنَّه شَرْطٌ في اعتبارِ العمَلِ، وأنَّ ثَوابَه أعلى مِن ذلك[٤].

- وقولُه: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بَيانٌ لِمَا في (مَن) مِن الإبهامِ مِن جانبِ احتِمالِ التَّعميمِ؛ فلَفْظُ ﴿ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ مُرادٌ به عُمومُ النَّاسِ بذِكرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٤٩، ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧).

صِنْفَيهم؛ تَنصيصًا على إرادةِ العُمومِ[١]؛ وتَعريضًا بفِرعونَ وخاصَّتِه أنَّهم غيرُ مُفلَتِينَ مِن الجزاءِ[٢].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليه يَستحِقُّ ما سيُذكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ، وهي عمَلُ الصَّالحاتِ مع الإيمانِ، زِيادةً على استِفادةِ ذلك مِن تَعليقِه على الجُملةِ الشَّرطيَّةِ[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ في جُملةِ جَوابِ الشَّرطِ؛ لإفادةِ الحَصْرِ، والمعنى: أنَّكم إنْ مُتُّمْ على الشِّركِ والعمَلِ السَّيِّئِ لا تَدخُلُونها[٤].

- قولُه: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ كِنايةٌ على سَعةِ الرِّزقِ ووَفْرَتِه، وهو واقعٌ في مُقابَلةِ ﴿إِلَّا مِثۡلَهَا﴾[٥].

---

(١) وذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّه ليس المقصودُ به إفادةَ مُساواةِ الأنثى للذَّكَرِ في الجزاءِ على الأعمالِ؛ إذ لا مُناسَبةَ له في هذا المقامِ، لكِنْ جَعَل ابنُ عُثيمينَ مِن فوائدِ الآيةِ مُساواةَ الأنثَى للذَّكَرِ في الجزاءِ على الأعمالِ، واشتِراكَهما في الثَّوابِ والعِقابِ، وجَعَل نظيرَ هذه الآيةِ قولَه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ١٩٥]. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥١).

## الآيات (٤١-٤٦)

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَا جَرَمَ﴾: أي: حقًّا، وهي كَلِمةٌ تَرِدُ بمعْنَى تَحقيقِ الشَّيءِ، فقِيل: أصْلُها التَّبرِئةُ، بمعنَى: لا بُدَّ، ثُمَّ استُعْمِلت في معنى: حقًّا. وقيلَ: جَرَمَ بمعْنَى كسَبَ. وقيلَ: بمعنَى: وجَبَ وحَقَّ، و (لا) رَدٌّ لِمَا قبْلَها مِن الكلام، ثُمَّ يُبْتَدأُ بها[1].

﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: أرُدُّ الأمرَ إليه، وأتوكَّلُ عليه، وأُسلِّمُ أمْري إليه، وأصلُ (فوض): يدُلُّ على اتِّكالٍ في الأمرِ على آخَرَ وردِّه عليه[2].

﴿وَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ ونَزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزُولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٢٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

﴿غُدُوًّا﴾: جمعُ غَداةٍ: وهي أوَّلُ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يَدُلُّ على زَمانٍ[١].

﴿وَعَشِيًّا﴾: العَشِيُّ: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو: آخِرُ النَّهارِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظلامٍ، وقِلَّةِ وُضوحِ الشَّيءِ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَون لِقَومِه: ويا قَومي ما لي أدعوكم إلى سَبيلِ النَّجاةِ، وتَدعُونَني إلى طَريقِ النَّارِ؟! تَدعُونَني لِأكفُرَ باللهِ وأُشرِكَ به ما لا أعلَمُ عليه دَليلًا، وأنا أدعوكم إلى عبادةِ العَزيزِ الغَفَّارِ! حقًّا لا شكَّ فيه أنَّ الَّذي تَدْعونَني إلى عبادتِه مِن الأوثانِ لا يَصلُحُ للألوهيَّةِ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ، وأنَّ مَرجِعَنا جميعًا بعدَ مماتِنا إلى الله، وأنَّ الَّذين تَعَدَّوا حُدودَ اللهِ هم أصحابُ النَّارِ.

فستَتذَكَّرونَ ما نَصحتُكم به، وتَعلَمونَ صِدقي، وأُسَلِّمُ أمْري إلى الله؛ إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على عِبادِه، لا يَخفَى عليه منهم شَيءٌ. فدفَعَ اللهُ عنه كَيْدَهم، ونَزَل بفِرعَونَ وأتْباعِه العَذابُ السَّيِّئُ؛ النَّارُ يُعرَضُون عليها كُلَّ صَباحٍ ومَساءٍ؛ ليُعذَّبوا بها إلى أن تقومَ السَّاعةُ، ويومَ القيامةِ يُقولُ اللهُ للملائكةِ: أَدخِلوا قومَ فِرعَونَ أشدَّ العَذابِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ٤١﴾.

أي: قال مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ لِقَومِه: ويا قَومي ما لي[٣] أدعُوكم إلى سَبيلِ النَّجاةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٦٩ - ٦٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧) و(٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

(٣) قيل: المعنى: ما لَكم، كما يُقالُ: ما لي أراكَ حزينًا؟ معناه: ما لَك؟ ومعنَى الآيةِ: أخبِروني =

مِن العَذابِ، وتَدعُونَني أنتم إلى طَريقِ النَّارِ[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ٤٢﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر هذا المؤمِنُ أنَّه يَدعوهم إلى النَّجاةِ، وهم يَدْعُونَه إلى النَّارِ؛ فسَّرَ ذلك بأنَّهم يَدْعُونَه إلى الكُفرِ باللهِ، وإلى الشِّركِ به[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ المُسبِّبَينِ ﴿أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ ذكَرَ

---

= عنكم كيف هذه الحالُ؟ ومِمَّن قال بذلك: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥).

قال ابن عاشور: (أصلُ استِعمالِ: ما لي أفعلُ، وما لي لا أفعلُ ونحوِه، أنْ يكونَ استِفهامًا عن فِعلٍ أو حالٍ ثَبَت للمجرورِ باللَّامِ «وهي لامُ الاختِصاصِ»، ومعنَى لامِ الاختصاصِ يَكسِبُ مَدخولَها حالةً خَفِيًّا سَبَبُها الَّذي عُلِّقَ بمَدخولِ اللَّامِ، نحوَ قولِه تعالَى: ﴿مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [التَّوْبَة: ٣٨]، ﴿مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلۡهُدۡهُدَ﴾ [النَّمل: ٢٠]، وقولِكَ لِمَنْ يَستوقِفُكَ: ما لَكَ؟ فتكونُ الجُملةُ الَّتي بعدَ اسمِ الاستِفهامِ وخبرِه جُملةً فِعليَّةً. وتَركيبُ: «ما لي» ونحوِه، هو كتَركيبِ: «هل لَكَ» ونحوِه في قولِه تعالَى: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ [النازعات: ١٨] ... فإذا قامَتِ القرينةُ على انتِفاءِ إرادةِ الاستِفهامِ الحقيقيِّ انصَرَف ذلك إلى التَّعَجُّبِ مِن الحالةِ، أو إلى الإنكارِ أوْ نحوِ ذلك. فالمعنَى هنا على التَّعَجُّبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٢، ١٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥١٩).

سببَهما ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾، وهو دُعاؤهم إلى الكُفْرِ والشِّركِ، ودُعاؤه إيَّاهم إلى الإيمانِ والتَّوحيدِ[١].

﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ ﴾.

أي: تَدْعُونَني لِأكفُرَ باللهِ وأُشرِكَ بِه ما لا أعلَمُ دَليلًا على صِحَّتِه[٢].

﴿وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴾.

أي: وأنا أدعوكم إلى عبادةِ العَزيزِ ذي القَهرِ والانتِقامِ مِمَّن استكبَرَ عن الحَقِّ وكَفَر به، البالِغِ المَغفرةَ لِمَن تابَ إليه[٣].

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ٤٣ ﴾.

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾.

أي: حَقًّا يَقينًا لا شَكَّ فيه أنَّ الَّذي تَدْعُونَني إلى عبادتِه مِن الأوثانِ: عاجِزٌ لا يَصلُحُ لِلألوهيَّةِ في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٧/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٣).
قال الشنقيطي: (الظَّاهِرُ أنَّ جُملةَ قَولِه: ﴿ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ ﴾ بدَلٌ مِن قَولِه: ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾؛ لأنَّ الدَّعوةَ إلى الكُفرِ باللهِ والإشراكِ به: دعوةٌ إلى النَّارِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ * إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

وقال الله سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

---

= ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢٨-٣٣١).

قيل: المرادُ: ليس له استِجابةُ دَعوةٍ تَنفَعُ، فلا يُجيبُ داعِيَه لا في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والسمعاني، والرسعني، والخازن. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٧).

وقيل: المعنى: أنَّه ليس له قَدْرٌ وحَقٌّ، فلا يَستَحِقُّ الدَّعوةَ إليه، والحَثَّ على عبادتِه، أو اللُّجوءَ إليه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

وقال الكَلْبي: (ليس له شفاعةٌ في الدُّنيا ولا في الآخرةِ). يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٥٨).

وقال مكِّي: (لا يَنفُذُ له أمرٌ ولا نهيٌ ولا شفاعةٌ في الدَّارَينِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٤٣٦، ٦٤٣٧).

وقيل: ليست له دَعوةٌ إلى عبادتِه في الدُّنيا؛ لأنَّ الأوثانَ لا تَدَّعي الرُّبوبيَّةَ، ولا تدعو إلى عبادتِها، وفي الآخرةِ تَتبرَّأُ مِن عابِديها، أمَّا المعبودُ بالحقِّ فيَدعو العِبادَ إلى طاعتِه، ثمَّ يدعو العِبادُ إليها إظهارًا لدعوةِ ربِّهم. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠، ٢٦١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٌ﴾ أي: إلى نفْسِه قَطُّ بالعبادةِ: العُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢١).

أي: ولا شَكَّ أيضًا أنَّ مَرجِعَنا جميعًا بعدَ مماتِنا إلى الله، فيُجازي كلَّ عامِلٍ بحَسَبِ عَمَلِه[١].

﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾.

أي: ولا شَكَّ أنَّ الَّذين تَعَدَّوا حُدودَ اللهِ؛ كالوُقوعِ في الشِّركِ، وسَفكِ الدِّماءِ بغَيرِ حَقٍّ: هم أصحابُ النَّارِ المُلازِمونَ لها عندَ مَرجِعِنا إلى الله[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

وعن مُعاوِيةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كُلُّ ذَنْبٍ عسَى اللهُ أن يَغفِرَه إلَّا الرَّجُلَ يَقتُلُ المؤمِنَ مُتعَمِّدًا، أو الرَّجُلَ يَموتُ كافِرًا))[٣].

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾.

أي: فسوفَ تَتذَكَّرونَ ما نَصحتُكم به، وتَعلَمونَ صِدقي، وتَندَمونَ حينَ يأتيكم عَذابُ اللهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٣١).

(٣) أخرجه النسائي (٣٩٨٤) واللَّفظُ له، وأحمد (١٦٩٠٧).

وثَّق رجالَه الشَّوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٧/ ١٩٦) وذكر أنَّ له شاهدًا، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٥٢١)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٩٨٤)، وصحَّحه لغيرِه شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦٩٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: وأُسَلِّمُ أمْري إلى الله، وأتَوَكَّلُ عليه، وأعتَصِمُ به[١].

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمَرَ رجُلًا إذا أخَذَ مَضجَعَه مِنَ اللَّيلِ أن يقولَ: اللَّهُمَّ أسلَمْتُ نَفْسي إليك، ووجَّهتُ وَجْهي إليك، وألجَأْتُ ظَهري إليك، وفَوَّضتُ أمري إليك؛ رَغبةً ورَهبةً إليك، لا مَلجَأَ ولا مَنجَا مِنك إلَّا إليك، آمَنتُ بكِتابِك الَّذي أنزَلْتَ، وبِرَسولِك الَّذي أرسَلْتَ، فإنْ مات ماتَ على الفِطرةِ))[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ على عِبادِه، عالِمٌ بأعمالِهم وأحوالِهم وأُمورِهم كُلِّها، لا يَخفى عليه منهم شَيءٌ[٣].

---

= (ص: ٧٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٦).

قال القرطبي: (قيل: هذا يدُلُّ على أنَّهم أرادوا قتلَه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨).

وقال الرازي: (﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهذا كلامُ مَن هُدِّد بأمرٍ يخافُه، فكأنَّهم خَوَّفوه بالقتلِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٠).

(٢) رواه البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧).

قيل: المعنى: إنَّ الله عالمٌ بأمورِ عبادِه، ومَن المطيعُ منهم، والعاصي له، والمُستحِقُّ للثوابِ، والمُستوجِبُ للعِقابِ. قاله ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦).

وبمعناه قال مكِّي، والنسفي، والقاسمي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٤٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١١). =

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ٤٥ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ ذلك الرَّجُلَ لم يُقَصِّرْ في تقريرِ الدِّينِ الحَقِّ، وفي الذَّبِّ عنه، فاللهُ تعالى رَدَّ عنه كَيْدَ الكافِرينَ، وقَصْدَ القاصِدينَ(١).

﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾.

أي: فحَفِظَ اللهُ مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ، ودَفَع عنه كَيْدَهم(٢).

---

= وقيل: يَعلَمُ المُحِقَّ مِن المُبطِلِ. وممَّن قال به: الثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢١).

وقال الواحدي، وابن الجوزي، والرسعني: ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾ بأوليائِه وأعدائِه. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٢٠).

وقيل: المرادُ: يَهدي مَن يَستحِقُّ الهِدايةَ، ويُضِلُّ مَن يَستحِقُّ الإضلالَ. قاله ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦).

وقيل: المعنى: يَعلَمُ مَن يَستحِقُّ النُّصرةَ لاتِّصافِه بأوصافِ الكمالِ، ويَعلَمُ مَن يَمكُرُ فيَرُدُّ مَكْرَه عليه بما لَه مِن الإحاطةِ. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٠).

وقيل: أي: يَعلَمُ حالي وضَعفي فيَمنَعُني منكم، ويَكفيني شرَّكم، ويَعلَمُ أحوالَكم فلا تَتصرَّفون إلَّا بإرادتِه ومَشيئتِه، فإنْ سلَّطكم عليَّ فبِحِكمةٍ منه تعالى، وعن إرادتِه ومَشيئتِه صدَر ذلك. قاله: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

وقيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ فيَحرُسُ مَن يَلوذُ به -منهم- مِن المَكارِهِ. وممَّن قال به في الجملةِ: البيضاويُّ، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨).

قيل: المرادُ بسَيِّئاتِ مَكرِهم: أضرارُ مَكرِهم وشدائِدُه. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾.

أي: ونَزَل وأحاطَ بفِرعَونَ وأتْباعِه ما ساءَهم مِن عذابِ اللهِ، الَّذي وَجَبَ عليهم(١).

---

= والبِقاعي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨).

وقيل: ﴿سَيِّـَٔاتِ﴾ هنا مِن بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى مَوصوفِها، أي: المكْرَ السَّيِّئَ. وممَّن قال بهذا المعنى: الشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٢).

وقال الشنقيطي: (بعضُ العُلَماءِ يقولُ: نجَّاه اللهُ منهم مع موسى وقَومِه، وبَعضُهم يقولُ: صَعِدَ جَبَلًا فأعجَزَهم اللهُ عنه ونجَّاه منهم، وكُلُّ هذا لا دليلَ عليه، وغايةُ ما دَلَّ عليه القُرآنُ أنَّ اللهَ وَقاه سَيِّئاتِ مَكْرِهم، أي: حَفِظَه ونجَّاه منها). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٨٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨، ٣٨٩).

قيل: آلُ فِرعَونَ في هذا الموضِعِ: أتْباعُه وأهلُ طاعتِه مِن قَومِه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٦)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١١٨).

قال مكِّي: (وقولُه: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ يدُلُّ على أنَّ فِرعونَ في أشَدِّ ما في العذابِ؛ لأنَّ مَن كان على دِينِه إذا حلَّ به أشَدُّ العذابِ، فهو أحرَى أن يحلَّ عليه أشدُّ مِن ذلك). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٤٤٠).

وقيل: المرادُ بآلِ فِرعَونَ: فِرعونُ نفْسُه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤).

وقيل: المرادُ بآلِ فِرعَونَ: فِرعَونُ وقَومُه. وممَّن قال بهذا القولِ: البيضاويُّ، والبِقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

---

= (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٢).

واختلف المفسِّرونَ في المرادِ بقولِه: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾؛ فقيل: هو نارُ جهنَّمَ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠).

قال الزمخشري: (النَّارُ بدَلٌ مِن ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾. أو خبرُ مبتدَأٍ محذوفٍ، كأنَّ قائلًا قال: ما سوءُ العذابِ؟ فقيل: هو النَّارُ. أو مبتدأٌ خبرُه ﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، وفي هذا الوجهِ تعظيمٌ للنَّارِ، وتهويلٌ مِن عذابِها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠).

وقيل: المرادُ: الغرقُ. ومِمَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والرازيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٠٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧، ١٥٨).

قال ابن عاشور: (وإنَّما كانَ الغرقُ سوءَ عذابٍ؛ لأنَّ الغريقَ يُعَذَّبُ باحتباسِ النَّفَسِ مُدَّةً وهو يَطْفو على الماءِ، ويَغوصُ فيه، وَيُرْعِبُه هولُ الأمواجِ، وهو موقنٌ بالهلاكِ، ثُمَّ يكونُ عُرضةً لأكلِ الحيتانِ حَيًّا ومَيِّتًا، وذلك ألمٌ في الحياةِ، وخِزيٌ بعدَ المماتِ يُذْكَرونَ به بيْنَ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٨).

وقيل: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾: الغرقُ وما بعدَه مِن النَّارِ وعذابِها. ومِمَّن قال بهذا القولِ: الثعلبيُّ، والبغوي، وابن عطية، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٢).

قال ابن كثير: (هو: الغرقُ في اليَمِّ، ثمَّ النُّقْلةُ منه إلى الجحيم؛ فإنَّ أرواحَهم تُعرضُ على النَّارِ صباحًا ومساءً إلى قيامِ السَّاعةِ، فإذا كان يومُ القيامةِ اجتمعتْ أرواحُهم وأجسادُهم في النَّارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨، ٣٨٩).

وقال ابن عثيمين: (قوله: ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ هذا أيضًا مِن بابِ إضافةِ الصِّفةِ إلى مَوصوفِها. أي المعنى: العذابُ السَّيِّئُ، والغرَقُ لا شكَّ أنَّه مِن سوءِ العذابِ، لكنْ هناك عذاباتٌ أخرى أُصيبَ بها آلُ فِرعَونَ: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، كلُّ هذا مِن سوءِ العذابِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٣) بتصرُّف.

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾.

أي: يُعرَضونَ على النَّارِ كلَّ صَباحٍ ومَساءٍ؛ ليُعذَّبوا بها إلى أن تَقومَ السَّاعةُ[1].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ * وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٤، ٤٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ إن كان مِن أهلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٣٧، ٣٣٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٧٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦).

قال القُرطبي: (الجمهورُ على أنَّ هذا العَرضَ في البَرزخِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣١٨).

قال الزمخشري: (﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ في هذَينِ الوَقتَينِ يُعَذَّبونَ بالنَّارِ، وفيما بيْنَ ذلك اللهُ أعلَمُ بحالِهم؛ فإمَّا أن يُعَذَّبوا بجِنسٍ آخَرَ مِن العذابِ، أو يُنَفَّسَ عنهم، ويجوزُ أن يكون ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾: عِبارةً عن الدَّوامِ، هذا ما دامَتِ الدُّنيا). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠). ويُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير القنوجي)) (١٢/ ١٩٦).

وقال البِقاعي: (﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ أي: في البَرزخِ ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ أي: غادِينَ ورائِحينَ في وَقتِ استِرواحِهم بالأكلِ واستِلذاذِهم به، هذا دأبُهم طولَ أيَّامِ البرزخِ، وكان عليهم في هذا العَرضِ زِيادةُ نَكَدٍ فَوقَ ما وَرَد عامًّا مِمَّا روى مالِكٌ والشَّيخانِ وغَيرُهم عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ...»، ولعلَّ زيادةَ النَّكَدِ أنَّهم هم المعروضونَ، فيُذهَبُ بهم في الأغلالِ يُساقُونَ لِيَنظُروا ما أعَدَّ اللهُ لهم، وعامَّةُ النَّاسِ يقتصرُ في ذلك على أن يُكشَفَ لهم -وهم في محالِّهم- عن مقاعِدِهم). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٨١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٤).

الجنَّةِ فمِن أهلِ الجَنَّةِ، وإنْ كان مِن أهلِ النَّارِ فمِن أهلِ النَّارِ، يُقال: هذا مَقعَدُك حتَّى يَبعَثَك اللهُ إليه يومَ القيامةِ))[١].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

**القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:**

في قولِه تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ قِراءتانِ:

٥- قِراءةُ: ﴿ٱدْخُلُوا﴾ بهمزةِ وصْلٍ مضمومةٍ، وضمِّ الخاءِ، على الأمرِ لهم بالدُّخولِ، والمعنى: ويومَ تقومُ السَّاعةُ نقولُ: ادخُلوا يا آلَ فِرعونَ...، ونصْبُ ﴿ءَالَ﴾ على هذه القراءةِ؛ لأنَّه نِداءٌ مضافٌ[٢].

٦- قِراءةُ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ﴾ بهمزةِ قطْعٍ مفتوحةٍ، وكسرِ الخاءِ، على جِهةِ الأمرِ للملائكةِ بإدخالِهم، أي: يُقالُ للملائكةِ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾، ونصْبُ ﴿ءَالَ﴾ على هذه القراءةِ؛ لأنَّه مفعولٌ به[٣].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾.

أي: ويومَ القيامةِ يُقولُ اللهُ للملائكةِ[٤]: أدخِلوا فِرعَونَ وأتْباعَه أشَدَّ عذابِ

---

(١) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦).

(٢) قَرأ بها ابنُ كثيرٍ وابنُ عَمرٍو وابنُ عامرٍ وأبو بكرٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٧).

النَّارِ[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى حكايةً عن مُؤمنِ آلِ فرعونَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهكذا يجبُ على كلِّ مؤمنٍ إذا أراد أنْ تُقضَى أمورُه وتُسَهَّلَ؛ أن يُفَوِّضَ أمْرَه إلى اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال لِنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢] [الأنفال: ٦٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ * فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ فيه دَليلٌ واضِحٌ على أنَّ التَّوَكُّلَ الصَّادِقَ على اللهِ، وتَفويضَ الأُمورِ إليه: سَبَبٌ للحِفظِ والوقايةِ مِن كُلِّ سُوءٍ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ﴾ التَّحذيرُ مِن أعداءِ المُسلِمينَ؛ لِقَولِه: ﴿مَا مَكَرُواْ﴾، وأنَّ أعداءَ المُسلِمينَ قد لا يُواجِهونَهم بالعداوةِ، ولكِنَّهم يَمكُرونَ بهم؛ فلْيَحْذَرِ المؤمنُ مَكْرَ أعداءِ اللهِ، وهذا في القُرآنِ كثيرٌ؛ قال اللهُ تعالى لِنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[٤] [الطارق: ١٥ - ١٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٥).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- كلُّ مَنِ استفرَغ وُسْعَه استحقَّ الثَّوابَ، وكذلك الكفَّارُ: مَن بلَغه دَعْوةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في دارِ الكفرِ، وعَلِم أنَّه رسولُ الله، فآمَنَ به، وآمَن بما أُنزِل عليه، واتَّقَى الله ما استطاعَ، كما فعَل النَّجاشيُّ وغيرُه، ولم تُمكِنْه الهِجرةُ إلى دارِ الإسلامِ، ولا التِزامُ جميعِ شرائعِ الإسلامِ؛ لِكَونِه ممنوعًا مِن الهجرةِ، وممنوعًا مِن إظهارِ دينِه، وليس عندَه مَن يُعلِّمُه جميعَ شرائعِ الإسلامِ- فهذا مؤمنٌ مِن أهلِ الجنةِ، كما كان مؤمنُ آلِ فِرعَونَ مع قَومِ فِرعَونَ، وكما كانت امرأةُ فِرعَونَ(١).

٢- قومُ فِرعَونَ قد يَكونونَ أعرَضوا عن الله بالكُلِّيَّةِ بعدَ أن كانوا مشركينَ به، واستجابوا لفِرعَونَ في قولِه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] و: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]. ولهذا لَمَّا خاطبَهم المؤمنُ ذكَر الأمْرَينِ، فقال: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ﴾، فذكَر الكفرَ به الَّذي قد يَتناوَلُ جُحودَه، وذكَر الإشراكَ به أيضًا؛ فكان كلامُه مُتناوِلًا للمقالتَيْنِ والحالَيْنِ جميعًا(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ استِعمالُ التَّعريضِ؛ لأنَّه لا شَكَّ أنَّ أوَّلَ مَن يَدخُلُ في هذه الجُملةِ هؤلاء، لكِنَّه لم يَشَأْ أنْ يَتكلَّمَ بذلك صَريحًا(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ أنَّ النَّارَ موجودةٌ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٦٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٣٨).

الآنَ[١].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ قال ابنُ سِيرينَ: (كان أبو هُريرةَ يأتينا بعدَ صَلاةِ العَصرِ، فيَقولُ: عَرَجَتْ ملائِكةٌ، وهَبَطَت ملائِكةٌ، وعُرِضَ آلُ فِرعَونَ على النَّارِ، فلا يَسمَعُه أحَدٌ إلَّا يَتعوَّذُ باللهِ مِن النَّارِ)[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ إثباتُ عذابِ القَبرِ[٣]؛ لأنَّه يَقتَضي عَرْضَ النَّارِ عليهم غُدُوًّا وعَشِيًّا، وليس المرادُ منه يومَ القيامةِ؛ لأنَّه قال: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، وليس المرادُ منه أيضًا الدُّنيا؛ لأنَّ عَرْضَ النَّارِ عليهم غُدُوًّا وعَشِيًّا ما كان حاصِلًا في الدُّنيا؛ فثَبَت أنَّ هذا العَرْضَ إنَّما حَصَل بعدَ المَوتِ وقبْلَ يومِ القيامةِ، وذلك يدُلُّ على إثباتِ عَذابِ القَبرِ في حَقِّ هؤلاء، وإذ ثَبَت في حَقِّهم ثَبَت في حَقِّ غَيرِهم؛ لأنَّه لا قائِلَ بالفَرقِ[٤].

٧- عذابُ القَبرِ نَوعانِ: نَوعٌ دائِمٌ -سِوى ما ورَدَ في بعضِ الأحاديثِ أنَّه يُخَفَّفُ عنهم ما بيْنَ النَّفخَتَينِ- ويدُلُّ على دَوامِه قَولُه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾، ويدُلُّ عليه أيضًا حَديثُ سَمُرةَ الَّذي رواه البُخاريُّ في رُؤْيا النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وفيه: ((فهو يُفعَلُ به ذلك إلى يَومِ القيامةِ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور)) لابن رجب (ص: ٤٢).

ويُنظر ما أخرجه اللَّالَكائيُّ (٢١٤٢)، والبيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٣٩٦) من طريق ميمونِ ابنِ مَيْسَرةَ عن أبي هريرةَ بنحوِه.

(٣) يُنظر: ((الرُّوح)) لابن القيم (ص: ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢١).

(٥) أخرجه البخاري (١٣٨٦). ولفظُه: ((أمَّا الَّذي رأيْتَه يُشَقُّ شِدْقُه، فكذَّابٌ يُحَدِّثُ بالكَذْبةِ، فتُحْمَلُ عنه حتَّى تَبْلُغَ الآفاقَ، فيُصْنَعُ به إلى يومِ القيامةِ، والَّذي رأيْتَه يُشْدَخُ رأسُه، فرجُلٌ عَلَّمه اللهُ =

والنَّوعُ الثَّاني: إلى مُدَّةٍ ثمَّ يَنقَطِعُ، وهو عذابُ بَعضِ العُصاةِ الَّذين خَفَّت جرائِمُهم، فيُعَذَّبُ بحَسَبِ جُرمِه، ثمَّ يُخَفَّفُ عنه، كما يُعذَّبُ في النَّارِ مُدَّةً، ثمَّ يَزولُ عنه العَذابُ، وقد ينقَطِعُ عنه العذابُ بدُعاءٍ أو صَدَقةٍ أو استِغفارٍ أو ثَوابِ حَجٍّ تَصِلُ إليه مِن بَعضِ أقاربِه أو غَيرِهم(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ أنَّ هذا العَرْضَ قبْلَ الحَشرِ؛ إذْ هم بعدَ الحَشرِ إذا دَخَلوها فهم دائِمونَ فيها، مُعَذَّبونَ بسَرمَدِ العَذابِ، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، فإنَّما العَرْضُ بالغُدُوِّ والعَشِيِّ على مَن ليس دائِمًا فيها، وقد أكَّدَ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، فهذا عَذابٌ سِوى العَرضِ، وفي مَحَلٍّ غَيرِ مَحَلِّ العَرْضِ(٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ استدَلَّ به مَن قال: إنَّ أرواحَ الكُفَّارِ بعدَ مُفارَقةِ البَدَنِ ليس مَقَرُّها النَّارَ(٣).

١٠- لَفظُ «آلِ فُلانٍ» إذا أُطلِقَ في الكِتابِ والسُّنَّةِ دَخَلَ فيه فُلانٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وقولِه: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤]، ومنه قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((اللَّهُمَّ صَلِّ على

---

= القُرآنَ، فنامَ عنه باللَّيلِ ولم يَعْمَلْ فيه بالنَّهارِ، يُفْعَلُ به إلى يومِ القيامةِ)).

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٦).

ويُنظر الكلامُ عن مُستقَرِّ الأرواحِ في البرزخ في ((الرُّوح)) لابن القيِّم (ص: ١١٥).

آلِ أبي أَوْفَى))[١].

١١- إذا قيل: إنْ قال الله تعالى في المنافِقينَ: إنَّهم في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِن النَّارِ، وقال في آلِ فِرعَونَ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، فأيُّهما أشَدُّ عَذابًا: المُنافِقونَ أم آلُ فِرعَونَ؟

**والجوابُ**: أنَّ الدَّرْكَ الأسْفَلَ يَجوزُ أن يكونَ هو أشَدَّ العَذابِ، فسُمِّيَ باسمَينِ مُختَلِفَينِ، كما يقول القائِلُ: أدخِلْ فُلانًا المُطبقَ[٢]، ثمَّ يقولُ بعدَ ذلك: أدخِلْه أضْيَقَ المجالِسِ وأشَدَّها، فيكونُ هذا مُوافِقًا للأوَّلِ، غيرَ مُخالِفٍ له[٣].

١٢- أنَّ تَفاوُتَ أهلِ النَّارِ في العَذابِ هو بحَسَبِ تفاوُتِ أعمالِهم الَّتي دخَلوا بها النَّارَ، فليس عِقابُ مَن تَغلَّظ كُفرُه، وأفسَدَ في الأرضِ، ودعا إلى الكُفرِ: كمَن ليس كذلك؛ قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]، وكذلك تَفاوُتُ عذابِ عُصاةِ الموحِّدينَ في النَّارِ بحَسَبِ أعمالِهم؛ فليس عقوبةُ أهلِ الكبائِرِ كعُقوبةِ أصحابِ الصَّغائِرِ، وقد يُخَفَّفُ عن بَعضِهم العذابُ بحَسَناتٍ أُخَرَ له، أو بما شاء اللهُ مِن الأسبابِ[٤].

١٣- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ هذا تنبيهٌ على أنَّ فِرعَونَ نَفْسَه في الأشَدِّ مِن ذلك؛ لأنَّهم إنَّما دَخَلوا أشَدَّ العَذابِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٢).

والحديث رواه البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ أبي أَوْفَى رضي الله عنه.

(٢) المُطبقُ: سِجنٌ تحتَ الأرضِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٦/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٧/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨٢).

تَبَعًا له؛ فإنَّه هو الَّذي استخَفَّهم فأطاعوه، وغَرَّهم فاتَّبَعوه؛ ولهذا يكونُ يومَ القيامةِ إمامَهم وفَرَطَهم[1] في هذا الوِردِ؛ قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]. والمقصودُ: أنَّهم استَحَقُّوا أشَدَّ العذابِ؛ لِغلَظِ كُفرِهم، وصَدِّهم عن سَبيلِ اللهِ، وعُقوبتِهم مَنْ آمَنَ باللهِ[2].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيَـٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ أعاد نِداءَهم، وعُطِفَت حِكايتُه بواوِ العطْفِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ نِداءَه اشتمَلَ على ما يَقْتضي في لُغتِهم أنَّ الكلامَ قد تَخطَّى مِن غرَضٍ إلى غرَضٍ، وأنَّه سيَطْرُقُ ما يُغايِرُ أوَّلَ كَلامِه مُغايرةً ما تُشبِهُ مُغايرةَ المتعاطفَينِ في لُغةِ العرَبِ، وأنَّه سيَرْتَقي باستِدراجِهم في دَرَجِ الاستِدلالِ إلى المقصودِ بعْدَ المقدِّماتِ؛ فانتقَلَ هنا إلى أنْ أنكَرَ عليهم شيئًا جَرى منهم نحوه؛ وهو أنَّهم أعْقَبوا مَوعظتَه إيَّاهم بدَعوتِه للإقلاعِ عن ذلك، وأنْ يَتمسَّكَ بدِينِهم، وهذا شَيءٌ مَطْويٌّ في خِلالِ القصَّةِ دلَّتْ عليه حِكايةُ إنكارِه عليهم، وهو كلامُ آيِسٍ مِنِ استِجابتِهم؛ لقولِه فيه: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٤]، ومُتوقِّعٍ أذاهم؛ لقولِه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤]، ولقولِه تعالى آخِرَ القصَّةِ: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ [غافر: ٤٥]، فصرَّحَ هنا وبيَّن بأنَّه لم يَزَلْ يَدعوهم إلى اتِّباعِ ما جاء به مُوسى، وفي

---

(١) أي: مُتقدِّمَهم وسابقَهم، والفَرَطُ والفارِطُ هو الَّذي يَسبِقُ القَومَ إلى الماءِ لِيُصلِحَ لهم الحِياضَ والدِّلاءَ ونحوَها حتَّى يَرِدُوا فيَشرَبوا. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطَّابي (٣/ ٢٢٧٤)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (٩/ ١٥٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٠٩).

قال البقاعي: (وإذا كان هذا لآلِه لِأَجْلِه؛ كان له أعظَمُ منه مِن بابِ الأَوْلى). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٨٢).

اتِّباعِه النَّجاةُ مِن عَذابِ الآخرةِ[١].

- وقيل: قد جِيءَ بالواوِ في النِّداءِ الثَّالثِ ﴿وَيَٰقَوۡمِ﴾ خِلافًا للنِّداءِ الثَّاني؛ لأنَّ النِّداءَ الثَّانيَ بمنزلةِ بَيانٍ للأوَّلِ وتَفسيرٍ له، فأُعطِيَ حُكمَه في عَدَمِ دُخولِ الواوِ عليه، وأمَّا الثَّالثُ فداخلٌ على كَلامٍ ليس بتلك المنزلةِ[٢].

- وتَكريرُ نِدائِهم فيه زِيادةُ تَنبيهٍ لهم، وإيقاظٌ عن سِنَةِ الغَفلةِ. وفيه أنَّهم قَومُه وعَشيرتُه، وهمْ فيما يُوبِقُهم، وهو يَعلَمُ وَجْهَ خَلاصِهم، ونَصيحتُهم عليه واجبةٌ، فهو يَتحزَّنُ لهم ويَتلطَّفُ بهم، ويَسْتدعي ذلك ألَّا يَتَّهِموه؛ فإنَّ سُرورَهم سُرورُه، وغَمَّهم غَمُّه، ويَنزِلوا على تَنصيحِه لهم[٣].

- والاستِفهامُ في ﴿مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾ استِفهامٌ تَعجُّبيٌّ؛ فإنَّه يَعجَبُ مِن دَعوتِهم إيَّاه لِدِينِهم، مع ما رَأَوْا مِن حِرْصِه على نُصْحِهم، ودَعوتِهم إلى النَّجاةِ، وما أتاهم به مِن الدَّلائلِ على صِحَّةِ دَعوتِه، وبُطلانِ دَعوتِهم[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ﴾

- جُملةُ ﴿تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ ...﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥١، ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨، ١٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٦٨، ١٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٢).

لأنَّ الدَّعوةَ إلى النَّارِ أمْرٌ مُجمَلٌ مُستغرَبٌ، فبَيَّنه ببَيانِ أنَّهم يَدْعونه إلى التَّلبُّسِ بالأسبابِ الموجِبةِ عَذابَ النَّارِ، والمعنى: تَدْعونني للكفْرِ باللهِ، وإشراكِ ما لا أعلَمُ مع اللهِ في الإلهيَّةِ، ومعنى ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ ما ليس لي بصِحَّتِه أو بوُجودِه عِلمٌ، والكلامُ كِنايةٌ عن كَونِه يَعلَمُ أنَّها ليستْ آلهةً بطَريقِ الكِنايةِ بنَفْيِ اللَّازمِ عن نَفْيِ الملزومِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ الأُلوهيَّةَ لا بُدَّ لها مِن بُرهانٍ يُوجِبُ العِلمَ بها؛ فاعتِقادُها لا يصِحُّ إلَّا عن إيقانٍ، وعُطِفَ عليه ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ فكان بَيانًا لِمُجمَلِ جُملةِ ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ﴾[1].

- وجاء في حقِّهم بالجُملةِ الفِعليَّةِ ﴿وَتَدْعُونَنِي﴾ الَّتي لا تَقْتضي تَوكيدًا؛ إذ دَعوتُهم باطلةٌ لا ثُبوتَ لها فتُؤكَّدَ[2].

- وإبرازُ ضَميرِ المتكلِّمِ في قولِه: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ لإفادةِ تَقَوِّي الخبَرِ بتَقديمِ المُسنَدِ إليه على خَبَرِه الفِعليِّ[3].

- وأوصَلَ سَببَ دُعائِهم بمُسَبَّبِه، وهو الكُفرُ والنَّارُ ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾، وأخَّرَ سببَ مُسبَّبِه ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ لِيَكونَ افتِتاحُ كَلامِه واختِتامُه بما يَدْعو إلى الخَيرِ[4].

- وعُدِلَ عن اسمِ الجَلالةِ إلى الصِّفتَينِ ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾؛ لإدماجِ الاستِدلالِ على استِحقاقِه تعالى الإفرادَ بالإلهيَّةِ والعِبادةِ، بوَصْفِه العزيزِ؛ لأنَّه لا تَنالُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠).

النَّاسُ، بخِلافِ أصنامِهم؛ فإنَّها ذَليلةٌ تُوضَعُ على الأرضِ، ويَلتصِقُ بها القَتامُ -أي: الغُبارُ- وتُلوِّثُها الطُّيورُ بذَرْقِها[1]، ولإدماجِ تَرغيبِهم في الإقلاعِ عن الشِّركِ بأنَّ الموحَّدَ بالإلهيَّةِ يَغفِرُ لهم ما سلَفَ مِن شِرْكِهم به؛ حتَّى لا يَيْئسوا مِن عَفْوِه بعْدَ أنْ أساؤُوا إليه[2].

- وبدأ هنا باسم العَزيزِ؛ لأنَّ المقامَ يَقتَضيه؛ إذ إنَّ هؤلاء أقباطٌ مِن آلِ فِرعَونَ يَظُنُّونَ أنَّ العِزَّةَ لهم، ولم يَقُلْ: (إلى الغَفورِ الرَّحيمِ)، بل قال: ﴿إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾، يعني: العزيزَ الغالِبَ، فيُهلِكُكم إذا أنتم كفَرْتُم به أو أشركْتُم به؛ ﴿ٱلْغَفَّٰرِ﴾ يَغفِرُ لكم ما سَبَق إن أنتم آمَنْتُم به، وهذا مِن تمامِ فِقهِ هذا الرَّجُلِ المؤمِنِ؛ فالمقامُ يَقتَضي ذِكرَ اسمِه العزيزِ؛ لأنَّ هؤلاء يَدَّعُونَ أنَّهم فوقَ النَّاسِ، وأنَّ رَبَّهم فِرعَونُ، وأنَّه لا غالِبَ له[3]!

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأَخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾

- قولُه: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ...﴾ واقعٌ مَوقِعَ التَّعليلِ لِجُملَتَيْ ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؛ لأنَّه إذا تَحقَّقَ أنْ لا دَعوةَ للأصنامِ في الدُّنيا بدَليلِ المشاهَدةِ، ولا في الآخرةِ بدَلالةِ الفَحْوى؛ فقدْ تَحقَّق أنَّها لا تُنْجي أتْباعَها في الدُّنيا، ولا يُفيدُهم دُعاؤُها ولا نِداؤُها، وتَحقَّقَ إذَنْ أنَّ المرْجُوَّ للإنعامِ في الدُّنيا والآخرةِ هو الرَّبُّ الَّذي يَدْعوهم هو إليه، وهذا دَليلٌ إقناعيٌّ غيرُ قاطعٍ للمُنازِعِ في إلهيَّةِ ربِّ هذا المؤمِنِ، ولكنَّه أراد إقْناعَهم،

---

(١) الذَّرقُ مِنَ الطَّائِرِ كالتَّغَوُّطِ مِن الإنسانِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٢٥).

واستَحْفَظَهم دَليلَه؛ لأنَّهم سيَظهَرُ لهم قَريبًا أنَّ ربَّ مُوسى له دَعوةٌ في الدُّنيا؛ ثِقةً منه بأنَّهم سيَرَون انتصارَ مُوسى على فِرعونَ، ويَرَونَ صَرْفَ فِرعونَ عن قتْلِ مُوسى بعْدَ عَزْمِه عليه، فيَعلَمون أنَّ الَّذي دَعا إليه مُوسى هو المُتصرِّفُ في الدُّنيا، فيَعلَمون أنَّه المُتصرِّفُ في الآخرةِ[1].

- وفِعلُ الدَّعوةِ (دعا) إذا رُبِطَ بمُتعلَّقٍ غَيرِ مَفعولِه يُعدَّى تارةً باللَّامِ، وهو الأكثرُ في الكلامِ، ويُعدَّى بحَرْفِ (إلى)، وهو الأكثَرُ في القرآنِ؛ لِمَا يَشتمِلُ عليه مِن الاعتباراتِ؛ ولذلك عُلِّقَ به مَعمولُه في هذه الآياتِ أربَعَ مرَّاتٍ بـ (إلى) ومرَّةً باللَّامِ، مع ما في رَبْطِ فِعلِ الدَّعوةِ بمُتعلَّقِه -الَّذي هو مِن المَعنويَّاتِ- مِن مُناسَبةِ لامِ التَّعليلِ، مِثلُ ﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ ﴾، ورَبْطِه بما هو ذاتٌ بحَرْفِ (إلى) في قولِه: ﴿أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ ﴾؛ فإنَّ النَّجاةَ هي نَجاةٌ مِن النَّارِ؛ فهي نَجاةٌ مِن أمْرٍ مَحسوسٍ، وقولِه: ﴿وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، وقولِه: ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴾ و﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾؛ لأنَّ حرْفَ (إلى) دالٌّ على الانتهاءِ؛ لأنَّ الَّذي يَدْعو أحدًا إلى شَيءٍ إنَّما يَدْعوه إلى أنْ يَنتهِيَ إليه، فالدُّعاءُ إلى اللهِ الدُّعاءُ إلى تَوحيدِهِ؛ فشُبِّهَ بشَيءٍ مَحسوسٍ تَشبيهَ المعقولِ بالمحسوسِ، وشُبِّهَ اعتقادُه صِحَّتَه بالوُصولِ إلى الشَّيءِ المَسْعيِّ إليه، وشُبِّهَت الدَّعوةُ إليه بالدَّلالةِ على الشَّيءِ المرغوبِ الوصولُ إليه[2].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ عطْفَ اللَّازمِ على مَلزومِه؛ لأنَّه إذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٤، ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٥٣).

تبيَّن أنَّ ربَّ مُوسى المُسمَّى (الله) هو الَّذي له الدَّعوةُ، تبيَّن أنَّ المَرَدَّ -أي: المصيرَ- إلى الله؛ في الدُّنيا بالالتِجاءِ والاستِنصارِ، وفي الآخرةِ بالحُكْمِ والجزاءِ، ولو عُطِفَ مَضمونُ هذه الجُملةِ بالفاءِ المفيدةِ للتَّفريعِ لَكانت حَقيقةً بها، ولكنْ عُدِلَ عن ذلك إلى عطْفِها بالواوِ؛ اهتِمامًا بشَأْنِها؛ لِتَكونَ مُستقِلَّةَ الدَّلالةِ بنفْسِها، غيرَ باحثٍ سامِعُها على ما تَرتبِطُ به؛ لأنَّ الشَّيءَ المُتفرِّعَ على شَيءٍ يُعتبَرُ تابعًا له. وكذلك جُملةُ ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بالنِّسبةِ إلى تَفرُّعِ مَضمونِها على مَضمونِ جُملةِ ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه إذا كان المصيرُ إليه كان الحُكْمُ والجزاءُ بيْن الصَّائرينَ إليه مِن مُثابٍ ومُعاقَبٍ، فيَتعيَّنُ أنَّ المعاقَبَ هم الكافرونَ بالله[1].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ تَعريفُ الجنْسِ المُفيدِ للاستِغراقِ، وهو تَعريضٌ بالَّذين يُخاطِبُهم؛ إذ هم مُسرِفون على كلِّ تَقديرٍ؛ فهمْ مُسرِفون في إفراطِ كُفْرِهم بالرَّبِّ الَّذي دعا إليه مُوسى، ومُسرِفون فيما يَسْتتبِعُ ذلك مِن المعاصي والجرائمِ؛ فضَميرُ الفصْلِ في قولِه: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ يُفيدُ قصْرًا ادِّعائيًّا[2]؛ لأنَّهم المُتناهُون في صُحبةِ النَّارِ بسَببِ الخُلودِ، بخِلافِ عُصاةِ المؤمنينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٥).

(٢) القصرُ الادِّعائي: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاء والمبالَغةِ، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرُ الشيء على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٦)، ((عروس الأفراح)) للسبكي (١/ ٣٩٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٤، ٥٤٥).

ويُنظر ما تقدم (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٥، ١٥٦).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ ختَمَ المؤمنُ كَلامَه بخاتمةٍ لَطيفةٍ تُوجِبُ التَّخويفَ والتَّهديدَ، وهي قولُه: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ﴾، أي: إذا حلَّ بكم عِقابُ اللهِ، وهذا الكلامُ مُتارَكةٌ لِقَومِه، وتَنهيةٌ لِخِطابِه إيَّاهم، ولَعلَّه استَشْعَرَ مِن مَلامِحِهم أو مِن مُقاطعتِهم كَلامَه بعباراتِ الإنكارِ، ما أيْأَسَه مِن تَأثُّرِهم بكَلامِه، فتَحدَّاهم بأنَّهم إنْ أعْرَضوا عن الانتِصاحِ لِنُصْحِه، سيَنْدَمون حينَ يَرَونَ العذابَ؛ إمَّا في الدُّنيا، كما اقتضاهُ تَهديدُه لهم بقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ [غافر: ٣٠]، أو في الآخرةِ، كما اقتضاهُ قولُه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴾ [غافر: ٣٢]؛ فالفاءُ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾[1] [غافر: ٤١].

- وقولُه: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾، ومَساقُ هذه الجُملةِ مَساقُ الانتِصافِ منهم؛ لِمَا أظْهَروه له مِن الشَّرِّ، يعني: أنِّي أَكِلُ شَأْني وشَأْنَكم معي إلى قَضاءِ اللهِ وقدَرِه، لا إليكمْ ولا إلى أصنامِكم؛ فهو يَجْزي كلَّ فاعلٍ بما فَعَل، وهذا كَلامُ مُنصِفٍ؛ فالمُرادُ بـ﴿أَمْرِيٓ ﴾ شأْني ومُهِمِّي، ويدُلُّ لمعنى الانتِصافِ تَعقيبُه بما يُوجِبُ تَفويضَ الأمْرِ للهِ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾، مُعلِّلًا تَفويضَ أمْرِه معهم إلى اللهِ بأنَّ اللهَ بصيرٌ بجَميعِ العِبادِ؛ فعُمومُ (العِبادِ) شَمِلَه وشَمِلَ خُصومَه[2].

- وختَمَ كَلامَه بجُملةٍ اسميَّةٍ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾؛ لِيَكونَ أبلَغَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٦، ١٥٧).

تَوكيدِ الأخبارِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾

- تَفريعُ ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّهم أضْمَروا مَكرًا بمُؤمنِ آلِ فِرعونَ، وتَسميتُه مَكْرًا مُؤذِنٌ بأنَّهم لم يُشعِروه به، وأنَّ اللهَ تَكفَّلَ بوقايتِه؛ لأنَّه فوَّضَ أمْرَه إليه[٢].

- قولُه: ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ (ما) مَصدريَّةٌ، والمعنى: سَيِّئاتِ مَكْرِهم. وإضافةُ ﴿سَيِّـَٔاتِ﴾ إلى (مَكْر) إضافةٌ بَيانيَّةٌ، وهي هنا في قوَّةِ إضافةِ الصِّفةِ إلى المَوصوفِ؛ لأنَّ المكْرَ سيِّئٌ، وإنَّما جُمِعَ السَّيِّئاتُ باعتبارِ تَعدُّدِ أنواعِ مَكْرِهم الَّتي بَيَّتُوها[٣].

- قولُه: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ ﴾ أي: بفِرعونَ وقَومِه، وعَدمُ التَّصريحِ به؛ للاستِغناءِ بذِكرِهم عن ذِكرِه؛ ضرورةَ أنَّه أَولَى منهم بذلك[٤].

- والعذابُ هنا: الغرَقُ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، ومُناسَبةُ فِعلِ (حاق) لذلك العذابِ أنَّه ممَّا يَحيقُ على الحقيقةِ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ كيفيَّةِ سُوءِ العذابِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٧، ١٥٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٨).

- وقولُه: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا﴾ فيه تَعظيمٌ للنَّارِ، وتَهويلٌ مِن عذابِها[١].

- وقوله: ﴿غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ قيل: هو كِنايةٌ عن الدَّوامِ؛ لأنَّ الزَّمانِ لا يَخْلو عن هذَينِ الوقتَينِ، وقيل: ذِكرُ الوقتَينِ يَحتمِلُ التَّخصيصَ[٢].

- وقولُه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ ذِكرٌ لِعَذابِ الآخرةِ الخالدِ، وقيل: عُلِمَ مِن عَذابِ آلِ فِرعونَ أنَّ فِرعونَ داخلٌ في ذلك العذابِ بدَلالةِ الفَحْوى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٠).

وذلك على أنَّ قولَه: ﴿ٱلنَّارُ﴾ مبتدأٌ، وجملةَ: ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ خبرُه، والجملةَ تفسيرٌ لقولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ ٱلۡعَذَابِ﴾ ففي هذا الوجهِ تعظيمُ أمرِ النَّارِ، وتهويلُ عذابِها، ومنشأُ التعظيمِ: الإجمالُ، والتفسيرُ في كيفيةِ تعذيبِهم، وإفادةُ كلٍّ مِن الجملتينِ نوعًا مِن التَّهويلِ؛ الأُولى: الإحاطةُ بعذابٍ يستحِقُّ أنْ يسمَّى (سوءَ العذابِ). والثانيةُ: النَّارُ المعروضُ عليها غدوًّا وعشيًّا. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٩).

وفحْوَى الخطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظَمُ مِن التَّافيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القِنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأُولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

## الآيات (٤٧-٥٠)

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَحَآجُّونَ﴾: أي: يَختَصِمونَ، والمُحاجَّةُ: أن يَطلُبَ كلُّ واحدٍ أن يَرُدَّ الآخَرَ عن حُجَّتِه ومَحَجَّتِه، والحُجَّةُ: البُرهانُ والسُّلطانُ، وأصلُ (حجج): يدُلُّ على قَصدِ جادَّةِ الطَّريقِ[1].

﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾: الخَزَنَةُ: جمْعُ الخازِنِ، وهم الملائكةُ الموكَّلونَ على النَّارِ، والخَزْنُ: حِفظُ الشَّيءِ في الخِزانةِ، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ حِفْظٍ؛ كحِفْظِ السِّرِّ ونحوِه، وأصلُ (خزن): يدُلُّ على صيانةِ الشَّيءِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن بعضِ ما يَدورُ بيْنَ أهلِ النَّارِ مِن جدالٍ، فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ يَتجادَلُ الكُفَّارُ في النَّارِ، فيَقولُ الضُّعَفاءُ مِن الأتْباعِ لِكُبَرائِهم المتبوعينَ في الدُّنيا: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا تابِعينَ مُطيعينَ لكم، فهل أنتم دافِعونَ عَنَّا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٦/ ٤٠).

شيئًا مِن عذابِ النَّارِ؟ قال كُبَراؤُهم: إنَّنا جميعًا في النَّارِ، إنَّ اللهَ قد حَكَم بيْنَ عِبادِه!

وقال أهلُ النَّارِ لخَزَنةِ جَهنَّمَ الموكَّلِينَ بها: ادعُوا رَبَّكم يُخَفِّفْ عنَّا يومًا واحِدًا مِن عذابِ النَّارِ. قال لهم خَزَنةُ جَهنَّمَ: أوَلَم تكُ تأتيكم رُسُلُكم في الدُّنيا بالحُجَجِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ؟ قالوا: بلى. قالوا لهم: فادعُوا اللهَ إذَنْ أن يُخَفِّفَ عنكم العَذابَ، وما دُعاءُ الكافِرينَ لله إلَّا في ضَياعٍ وخُسرانٍ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ الكلامَ في تلك القِصَّةِ لَمَّا انجَرَّ إلى شَرحِ أحوالِ النَّارِ؛ لا جَرَمَ ذَكَر اللهُ عَقِبَها قِصَّةَ المناظَراتِ الَّتي تجري بيْنَ الرُّؤَساءِ والأتْباعِ مِن أهلِ النَّارِ[1].

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ يَتجادَلُ الكُفَّارُ[2] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٢).

(٢) قيل: المرادُ بهم هنا: مُشرِكو أمَّةِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٢).
وقيل: المرادُ: فِرعَونُ وقَومُه. وممَّن استظهَر هذا: أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٢).
وقيل: هم الَّذين تقدَّمَ ذِكرُهم في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ ﴾ [غافر: ٣٥]. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٩، ١٦٠).
وقيل: المرادُ: جميعُ كُفَّارِ الأُمَمِ، وأنَّ هذا ابتِداءُ قَصَصٍ لا يختَصُّ بآلِ فِرعَونَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عطيَّة، وهو ظاهرُ اختيارِ القرطبي، واختاره الثعالبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير =

ويَتخاصَمونَ في النَّارِ[١].

﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾.

أي: فيَقولُ الضُّعَفاءُ -وهم الأتْباعُ- لِرُؤسائِهم المَتبوعينَ الَّذين تَكبَّروا وتَعاظَموا عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا نَتَّبِعُكم ونُطيعُكم فيما دَعَوْتُمونا إليه مِنَ الضَّلالِ[٢].

﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾.

أي: فهل أنتم -أيُّها المُستَكبِرونَ- مُتحَمِّلونَ عنَّا قِسطًا وجُزءًا مِنَ النَّارِ[٣]؟!

---

= ابن عطية)) (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٧).

قال ابن كثير: (يخبِرُ تعالى عن تَحاجِّ أهلِ النَّارِ في النَّارِ، وتخاصُمِهم، وفِرعَونُ وقَومُه مِن جُملتِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩).

وممَّن اختار العُمومَ أيضًا -وأنَّ المرادَ: أهلُ النَّارِ-: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

(١) يُنظر: ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٤٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

قال ابنُ عاشور: (الضُّعَفاءُ: عامَّةُ النَّاسِ الَّذين لا تَصَرُّفَ لهم في أمورِ الأُمَّةِ. والَّذين استَكبَروا: سادةُ القَومِ، أي: الَّذين تكَبَّروا كِبْرًا شَديدًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٠، ١٦١).

وقال ابن عثيمين: (الضُّعفاءُ إمَّا في المالِ، وإمَّا في الشَّرفِ والسِّيادةِ، وإمَّا في غيرِ ذلك ممَّا يُعَدُّ ضَعفًا، والغالبُ أنَّ الضَّعيفَ يَتبعُ القَويَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ ﴾.

أي: قال المُستكبِرونَ: نحن وأنتم جميعًا مُعَذَّبونَ في النَّارِ[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قد حَكَم بيْنَ عِبادِه بالعَدلِ، فلا يُؤاخِذُ أحَدًا بذَنْبِ غَيرِه، وقَسَم بيْنَنا العَذابَ بقَدرِ ما يَستَحِقُّه كُلُّ واحدٍ مِنَّا، ولن يُغنيَ أحَدٌ عن أحَدٍ شيئًا[2]!

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ظَهَر أنَّه لا يُغْني أحَدٌ عن أحَدٍ شَيئًا؛ أخبَرَ أنَّهم لَمَّا رأَوا بُعْدَهم مِنَ اللهِ، وأنَّهم لَيسُوا بأهلٍ لِدُعائِه سُبحانَه؛ عَلَّقوا آمالَهم بتوسُّطِ الملائِكةِ[3].

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢).

قال ابن عاشور: (معنى قولِهم: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ نحنُ وأنتم مُستَوونَ في الكَونِ في النَّارِ، فكيفَ تَطمعونَ أن نَدفَعَ عنكم شيئًا مِن العذابِ؟ وعلى وجْهِ أن يكونَ قولُ الضُّعفاءِ: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ إلى آخِرِه توبيخًا ولَومًا لزعمائِهم يَكونُ قولُ الزُّعماءِ: ﴿إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ﴾ اعترافًا بالغلَطِ، أي: دَعُوا لَوْمَنا وتَوبيخَنا؛ فقد كَفانا أنَّا معكم في النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢، ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٤).

أي: وقال أهلُ النَّارِ مِن المُستَكبِرينَ والضُّعَفاءِ لخَزَنةِ جَهنَّمَ الموكَّلِينَ بها: ادعُوا رَبَّكم يُخَفِّفْ عنَّا يومًا واحِدًا مِن عذابِ النَّارِ؛ فتَحصُلَ لنا بعضُ الرَّاحةِ[1]!

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ٥٠﴾.

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: قال لهم خَزَنةُ جَهنَّمَ: أوَلَم تَكُ تأتيكم رُسُلُكم في الدُّنيا بالحُجَجِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ[2]؟

﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

أي: قال الَّذين في النَّارِ لخَزَنةِ جَهنَّمَ: بلى، قد جاءَنا الرُّسُلُ بالبَيِّناتِ، فكذَّبْناهم ولم نُؤمِنْ بالحَقِّ بعد أن قامَت علينا حُجَّةُ اللهِ البالِغةُ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٤).

قال ابنُ جرير: (معنى ذلك: قَدْرَ يَومٍ مِن أيَّامِ الدُّنيا؛ لأنَّ الآخِرةَ يومٌ لا لَيْلَ بعدَه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٥).

قال ابن عاشور: (الواوُ في قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم﴾ لم يُعرِّجِ المفسِّرونَ على مَوقِعِها. وهي واوُ العطفِ، عطَف بها خَزَنةُ جهنَّمَ كلامَهم على كلامِ الَّذين في النَّارِ مِن قَبيلِ طريقةِ عطفِ المُتكلِّمِ كلامًا على كلامٍ صدَر مِن المخاطَبِ إيماءً إلى أنَّ حقَّه أن يكونَ مِن بقيَّةِ كلامِه وألَّا يُغفِلَه، وهو ما يُلَقَّبُ بـ «عطفِ التَّلقينِ»، كقولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [البقرة: ١٢٤]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

﴿قَالُواْ فَٱدۡعُواْ﴾.

أي: قال خَزَنةُ جَهَنَّمَ: فادعُوا الله إذَنْ أن يُخَفِّفَ عنكم العَذابَ[١].

﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾.

أي: وما دُعاءُ الكافِرينَ لله وهم في نارِ جَهنَّمَ إلَّا في ضَياعٍ؛ فهو غيرُ مُوصِلٍ للمَقصودِ، ولا مُحَقِّقٍ للمَطلوبِ؛ فاللهُ لا يَستجيبُ دُعاءَهم، ولا يَتقَبَّلُه منهم[٢]!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ فيه عِبرةٌ لِزُعماءِ الأُمَمِ وقادتِهم: أن يَحذَروا الارتِماءَ بأنفُسِهم في مَهاوي الخُسرانِ، فيُوقِعوا المُقتَدِينَ بهم في تلك المَهاوي؛ فإنْ كان إقدامُهم ومُغامَرتُهم بأنفُسِهم وأُمَمِهم على عِلمٍ بعواقِبِ ذلك كانوا أحْرِياءَ بالمَذَمَّةِ والخِزْيِ في الدُّنيا، ومُضاعَفةِ العذابِ في الآخِرةِ؛ إذ ما كان لهم أن يَغُرُّوا بأقوامٍ وكَّلوا أُمورَهم بقادتِهم عن حُسنِ ظَنٍّ فيهم: أن يَخونوا أمانَتَهم فيهم، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وإن كان قَحْمُهم أنفُسَهم في مَضائِقِ الزَّعامةِ عن جَهلٍ بعَواقِبِ قُصورِهم وتَقصيرِهم، فإنَّهم مَلُومونَ على عدَمِ التَّوَثُّقِ مِن كفاءتِهم لتَدبيرِ الأُمَّةِ، فيَخبِطوا بها خَبْطَ عَشواءَ حتَّى يَزِلُّوا بها، فيَهْوُوا بها مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٦٢).

شواهِقَ بَعيدةٍ، فيَصيروا رَميمًا، ويَلْقَوا في الآخِرةِ جَحيمًا[١]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱدۡعُواْۚ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾، أي: ذَهابٍ في غيرِ طَريقٍ مُوصِلٍ، كما كانوا هُم في الدُّنيا كذلك؛ فإنَّ الدُّنيا مَزرَعةُ الآخِرةِ: مَن زرَع شَيئًا في الدُّنيا، حَصَده في الآخِرةِ، والآخرةَ ثَمرةُ الدُّنيا: لا تُثمِرُ إلَّا مِن جِنسِ ما غُرِسَ في الدُّنيا[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ بيانُ أنَّ مَن أطاع مَخلوقًا في مَعصيةِ اللهِ كان له نَصيبٌ مِن هذا الذَّمِّ والعِقابِ، والمُطيعُ للمَخلوقِ في مَعصيةِ اللهِ ورَسولِه: إمَّا أن يَتَّبِعَ الظَّنَّ، وإمَّا أن يَتَّبِعَ ما يَهواه، وكثيرٌ يَتَّبِعُهما، وهذه حالُ كُلِّ مَن عصَى رَسولَ اللهِ مِن المُشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى، ومِن أهلِ البِدَعِ والفُجورِ مِن هذه الأُمَّةِ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ هذا إخبارٌ مِن الله وتحذيرٌ بأنَّ المَتبوعينَ والتَّابِعينَ اشْتَركوا في العذابِ، ولم يُغْنِ عنهم تقليدُهم شيئًا، وأصرَحُ مِن هذا قولُه تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٩٨).

ٱلْأَسْبَابُ * وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧]، وهذا يدُلُّ على أنَّ كُفرَ مَنِ اتَّبَعهم إنَّما هو بمُجرَّدِ اتِّباعِهم وتقليدِهم(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ ﴾ بَعْدَ قَولِه سبحانه: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ حُجَّةٌ في تعذيبِ فِرعَونَ مع سائرِ آلِ فِرعَونَ في البَرزخِ وفي يومِ القيامةِ، ومعلومٌ أنَّ فِرعَونَ هو رأسُ المستكبِرينَ؛ وهو الَّذي استخفَّ قَومَه فأطاعوه، ولم يَسْتكبِرْ أحدٌ استِكبارَ فِرعَونَ! فهو أحَقُّ بهذا النَّعتِ والحُكمِ مِن جميعِ قَومِه(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ المرادُ بالعبادةِ هنا: العبادةُ العامَّةُ -وهي العبادةُ الكَونيَّةُ-؛ لأنَّ العبادةَ نَوعانِ:

**النَّوعُ الأوَّلُ**: عبوديةٌ عامَّةٌ: وهي العُبوديَّةُ الكَونيَّةُ، وتشمَلُ المؤمِنَ والكافِرَ، والبرَّ والفاجِرَ؛ لقولِه تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٣] . فكلُّ مَن في السَّمواتِ والأرضِ فهو خاضِعٌ لله سبحانَه كونًا.

**والنَّوعُ الثاني**: عُبوديَّةٌ خاصَّةٌ: وهي العبوديَّةُ الشَّرعيَّةُ، وهي التَّذلُّلُ له سبحانَه

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٢، ٤١٣).

وفصَّل ابنُ القيِّم في أمرِ المقلِّدِ؛ ففرَّق بيْنَ مُقلِّدٍ تمكَّن مِن العِلمِ ومعرفةِ الحقِّ فأعرَضَ عنه، ومُقلِّدٍ لم يَتمكَّنْ مِن ذلك بوجهٍ، والقِسمانِ واقِعانِ في الوُجودِ؛ فالمُتمكِّنُ المُعرِضُ مُفرِّطٌ تارِكٌ للواجبِ عليه، لا عُذرَ له عندَ الله، وأمَّا العاجزُ عن السُّؤالِ والعِلمِ، الَّذي لا يَتمكَّنُ مِن العلمِ بوجهٍ، فهم قِسمانِ أيضًا: أحدُهما: مُريدٌ للهدَى، مُؤْثِرٌ له، مُحِبٌّ له، غيرُ قادرٍ عليه ولا على طلبِه؛ لعدمِ مَن يُرشِدُه، فهذا حُكمُه حُكمُ أربابِ الفَتراتِ، ومَن لم تَبلُغْه الدَّعوةُ. الثَّاني: مُعرِضٌ لا إرادةَ له، ولا يُحدِّثُ نفْسَه بغيرِ ما هو عليه، وهذا لا يجِبُ أن يَلحقَ بالأولِ؛ لِما بيْنَهما مِن الفَرقِ، فهناك فَرقٌ بيْنَ عَجْزِ الطَّالبِ وعَجزِ المُعرِضِ. ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢٨٢).

شرعًا، فهذه خاصَّةٌ بالمؤمنينَ بالله، القائِمينَ بأمرِه[١].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ...﴾ كُلُّ كَلامٍ ذُكِرَ في القُرآنِ مِن كَلامِهم كُلِّه فهو قَبْلَ أن يَقولَ: ﴿ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾[٢] [المؤمنون: ١٠٨].

٦- أنَّ أهلَ النارِ يُعَذَّبون عذابًا بدنيًّا وعذابًا قلبيًّا؛ فالعذابُ القلبيُّ هو التَّقريعُ والتَّوبيخُ لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، فهذا يكونُ أشَدَّ عليهم مِن عذابِ البَدَنِ، ولهذا يقولونَ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، قال تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾[٣] [الملك: ١١].

٧- قال الله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾، دَلَّتْ هذه الآيةُ وأمثالُها في القرآنِ العظيمِ على أنَّ اللهَ جَلَّ وعلا لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ الإنذارِ والإعذارِ على ألْسِنةِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، وقال جلَّ وعلا: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾، ودلَّت هذه الآياتُ أيضًا على أنَّ جميعَ أهلِ النَّارِ أنْذَرَتْهم الرُّسلُ في دارِ الدُّنيا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٥٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٨٩). ويُنظر أيضًا: ((معارج القبول)) للحكمي (٢/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٦، ٦٧).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾، استدَلَّ به مَن قال: إنَّ دعاءَ الكافرينَ لا يُستجابُ، وأنَّهم لا يُمكَّنونَ مِن الخروجِ في الاستِسقاءِ[1]، وأمَّا ما يُوهِمُ استِجابةَ دُعاءِ الكافرينَ، نحو قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤]، وقولِه: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣]؛ فظاهرٌ أنَّ هذه لا تدُلُّ على استِجابةِ كَرامةٍ، ولكنَّها لِتَسجيلِ كُفْرِهم ونُكرانِهم، وقد يُتوهَّمُ في بَعضِ الأحوالِ أنْ يَدْعُوَ الكافرُ فيَقَعَ ما طَلَبَه، وإنَّما ذلك لِمُصادَفةِ دُعائِه وَقْتَ إجابةِ دُعاءِ غَيرِه مِن الصَّالحينَ، وكيف يُستجابُ دُعاءُ الكافرِ وقد جاء عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ استِبعادُ استِجابةِ دُعاءِ المؤمنِ الَّذي يأْكُلُ الحرامَ ويَلبَسُ الحرامَ في حديثِ مُسلم عن أبي هُريرةَ أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ((ذكَر الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفرَ، أشْعَثَ أغبَرَ، يَمُدُّ يَدَيه إلى السَّماءِ: يا ربِّ، يا ربِّ، ومَطعَمُه حَرامٌ، ومَشْرَبُه حرامٌ، وغُذِيَ بالحرامِ؛ فأنَّى يُستجابُ لذلك؟!))[2]؛ ولهذا لم يَقُلِ اللهُ: فلمَّا استجابَ دُعاءَهم، وإنَّما قال: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٥] [لقمان: ٣٢]، أي: لأنَّه قدَّرَ نَجاتَهم مِن قبْلِ أنْ يَدْعوا، أو لأنَّ دُعاءَهم صادَفَ دُعاءَ بَعضِ المؤمنينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٦، ١٦٧).

لكن قال القرطبي: (ضَمِن اللهُ تعالى إجابةَ المُضطَرِّ إذا دعاه، وأخبَر بذلك عن نفْسِه، والسَّببُ في ذلك أنَّ الضَّرورةَ إليه باللَّجاءِ يَنشأُ عن الإخلاصِ، وقطْعِ القلبِ عمَّا سِواه، وللإخلاصِ عندَه سبحانَه موقعٌ وذِمَّةٌ، وُجِد مِن مؤمنٍ أو كافرٍ، طائعٍ أو فاجرٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٢٣). =

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ ... ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ (إذ) مَعمولًا لـ (اذْكُرْ) مَحذوفٍ؛ فيكونَ عطفًا على جُملةِ ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ ﴾، والضَّميرُ عائدًا إلى ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ [غافر: ٣٥]، وما بيْنَ هذا وذاك اعتراضٌ واستِطرادٌ؛ لأنَّها قُصِدَ منها عِظَةُ المشركينَ بمَن سبَقَهم مِن الأُمَمِ المكذِّبينَ، فلمَّا استُوفِيَ ذلك عادَ الكلامُ إليهم، ويُفِيدُ ذلك صَريحَ الوعيدِ للمشركينَ بعْدَ أنْ ضُرِبَتْ لهمُ الأمثالُ[١].

- قولُه: ﴿ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا ﴾ قُرِنَ ﴿ فَيَقُولُ ﴾ بالفاءِ؛ لإفادةِ كَونِ هذا القولِ ناشئًا عن تَحاجِّهم في النارِ[٢].

- و(الذين استَكْبروا)، أي: الَّذين تَكبَّروا كِبْرًا شَديدًا؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للمُبالَغةِ[٣].

- قولُه: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ قولُ الضُّعفاءِ للكُبراءِ هذا الكلامَ يَحتمِلُ أنَّه على حَقيقتِه؛ فهو ناشئٌ عمَّا اعْتادُوه مِن اللَّجَأِ إليهم في مُهِمِّهم حِينَ كانوا في الدُّنيا، فظَنُّوا أنَّهم يَتولَّون تَدبيرَ

---

= ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٥٩، ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٦١).

أُمورِهم في ذلك المكانِ؛ ولهذا أجاب الَّذين استَكْبَروا بما يُفِيدُ أنَّهم اليومَ سواءٌ في العَجْزِ، وعدمِ الحِيلةِ؛ فقالوا: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾، أي: لو أغْنَيْنا عنكم لَأغْنَيْنا عن أنفُسِنا. وتَقديمُ قولِهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ على طلَبِ التَّخفيفِ عنهم مِن النَّارِ مُقدِّمةٌ للطَّلبِ؛ لِقَصْدِ تَوجيهِه وتَعليلِه، وتَذكيرِهم بالوَلاءِ الَّذي بيْنَهم في الدُّنيا، يُلهِمُهم اللهُ هذا القولَ؛ لافتِضاحِ عَجْزِ المستكبِرينَ أنْ يَنفَعوا أتْباعَهم؛ تَحقيرًا لهم جَزاءً على تَعاظُمِهم الَّذي كانوا يَتعاظَمون به في الدُّنيا. ويحتملُ أنَّ قولَ الضُّعفاءِ ليس مُستعمَلًا في حَقيقةِ الحثِّ على التَّخفيفِ عنهم، ولكنَّه مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ، أي: كُنتم تَدْعُوننا إلى دِينِ الشِّركِ، فكانت عاقبةُ ذلك أنَّا صِرْنا في هذا العذابِ؛ فهلْ تَسْتطيعونَ الدَّفْعَ عنَّا؟! وتَأْكيدُ ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ بـ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخبرِ، وليس لِرَدِّ إنكارٍ[1].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مُستعمَلٌ في الحثِّ واللَّومِ على خِذلانِهم، وتَرْكِ الاهتِمامِ بما همْ فيه مِن عَذابٍ. وجِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ، أي: هلْ مِن شأْنِكم أنَّكم مُغْنون عنَّا[2]؟

- وضُمِّنَ ﴿مُّغْنُونَ﴾ معنى: (دافِعون) و(رادُّون)؛ فلذلك عُدِّيَ إلى مفعولٍ، وهو ﴿نَصِيبًا﴾، أي: جُزْءًا مِن حَرِّ النَّارِ غيرَ مُحدَّدِ المِقدارِ مِن قُوَّتِها، و﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بَيانٌ لـ ﴿نَصِيبًا﴾، كقَولِه تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]؛ فهم قانِعونَ بكلِّ ما يُخفَّفُ عنهم مِن شِدَّةِ حَرِّ النَّارِ، وغيرُ طامِعينَ في الخُروجِ منها. ويجوزُ أنْ يكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿مُّغْنُونَ﴾ على معناهُ دونَ تَضمينٍ، ويكونَ ﴿نَصِيبًا﴾ مَنصوبًا على المفعولِ المطلَقِ لِـ ﴿مُّغْنُونَ﴾، والتَّقديرُ: غَناءً نَصيبًا، أي: غَناءً ما ولو قَليلًا، و﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿مُّغْنُونَ﴾، كقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧]. ويجوزُ أنْ يكونَ النَّصيبُ الجزْءَ مِن أزمِنةِ العذابِ؛ فيَكونَ على حَذْفِ مُضافٍ، تَقديرُه: مِن مُدَّةِ النَّارِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ لَمَّا كان جَوابُ الَّذين استَكْبَروا للَّذين استُضْعِفوا جاريًا في مَجرى المُحاوَرةِ، جُرِّدَ فِعلُ ﴿قَالَ﴾ مِن حرْفِ العطْفِ على طَريقةِ المُحاوَرةِ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ فيه تأْكيدُ الكلامِ بـ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بتَحقيقِه، أو لِتَنزيلِ مَن طالَبوهم بالغَناءِ عنهم مِن عَذابِ النَّارِ، مع مُشاهَدتِهم أنَّهم في العذابِ مِثلُهم، مَنزِلةَ مَن يَحسَبُهم غيرَ واقِعينَ في النَّارِ(٣).

- وفي هذا التَّنزيلِ ضَرْبٌ مِن التَّوبيخِ؛ يَقولون: أَلَسْتُم تَرَوْنَنا في النَّارِ مِثلَكم، فكيف نُغْني عنكم(٤)؟!

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ بَدَلِ الاشتِمالِ مِن جُملةِ ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾؛ فكِلْتَا الجُملتَينِ جَوابٌ لهم مُؤيِسٌ مِن حُصولِ التَّخفيفِ عنهم. وما في هذه الجُملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن عُمومِ تَعلُّقِ فِعلِ الحُكْمِ بيْنَ العِبادِ ما يَجعَلُ هذا البَدَلَ بمَنزلةِ التَّذييلِ، أي: إنَّ اللهَ حكَمَ بيْنَ العِبادِ كلِّهم بجَزاءِ أعْمالِهم، فكان قِسْطُنا مِن الحُكْمِ هذا العذابَ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ لَمَّا لم يَجِدوا مَساغًا للتَّخفيفِ مِن العذابِ في جانبِ كُبرائِهم، وتَنصَّلَ كُبراؤُهم مِن ذلك، أو اعْتَرَفوا بغَلَطِهم وتَوريطِهم قَومَهم وأنفُسَهم؛ تَمالأَ الجميعُ على مُحاوَلةِ طلَبِ تَخفيفِ العذابِ بدَعوةٍ مِن خَزَنةِ جهنَّمَ؛ فلذلك أُسنِدَ القولُ إلى ﴿ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾، أي: جَميعِهم مِن الضُّعفاءِ والَّذين استَكْبَروا[2].

- وإنَّما قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ ولمْ يَقُلْ: (الَّذين في النَّارِ لِخَزنَتِها)، مع أنَّه أخصَرُ؛ لأنَّ في ذِكرِ (جهنَّمَ) تَهويلًا وتَفظيعًا، والتَّهويلُ والتَّفخيمُ مِن وجهَينِ؛ أحدُهما: وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ[3]، والثَّاني: ذِكْرُه -وهو شَيءٌ واحدٌ- بظاهرٍ غيرِ الأوَّلِ أفظَعَ منه؛ لأنَّ جهنَّمَ أفظَعُ مِن النَّارِ؛ إذ النَّارُ مُطلَقةٌ، وجهنَّمُ أشَدُّها. وقيل: قال: ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾؛ لأنَّ جهنَّمَ أبعَدُ النَّارِ، فغَدَا خَزَنتُها أعْلى الملائكةِ الموكَّلينَ بالنَّارِ مَرتبةً، فطلَبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٣، ١٦٤).

(٣) قال ابن عاشور: (خَزنة جَهنَّمَ هم الملائكةُ الموكَّلونَ بما تَحويه مِن النَّارِ ووَقودِها والمُعذَّبينَ فيها، ومُوكَّلونَ بتسييرِ ما تَحتوي عليه دارُ العذابِ وأهلِها؛ ولذلك [لا] يُقالُ لهم: خَزنةُ النَّارِ؛ لأنَّ الخَزْنَ لا يَتعلَّقُ بالنَّارِ، بلْ بما يَحويها؛ فليس قوله هنا: ﴿جَهَنَّمَ﴾ إظهارًا في مقامِ الإضمارِ؛ إذ لا يَحسُنُ إضافةُ «خَزَنة» إلى «النَّارِ»، ولو تَقدَّمَ لفظُ «جَهَنَّم» لَقال: لخَزنتِها، كما في قولِه في سورةِ «الملكِ»: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ إلى قولِه: ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ [الملك: ٦- ٨]؛ فإنَّ الضَّميرَ لـ «جهنَّمَ» لا لـ «النَّارِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٤).

أهلُ النَّارِ الدُّعاءَ منهم لذلك[١].

- قولُهم: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ في إضافةِ (رب) إلى ضَميرِ المخاطَبينَ ضَرْبٌ مِن الإغراءِ بالدُّعاءِ، أي: لأنَّكم أقرَبُ إلى استِجابتِه لكمْ، ولَمَّا ظنُّوهم أرْجى للاستِجابةِ سَأَلوا التَّخفيفَ يومًا مِن أزْمِنةِ العذابِ، وهو أنفَعُ لهم مِن تَخفيفِ قوَّةِ النَّارِ الَّذي سَأَلوه مِن مُستكبِريهم[٢].

- وجُزِمَ ﴿يُخَفِّفۡ﴾ في جَوابِ الطَّلبِ؛ لِتَحقيقِ التَّسبُّبِ؛ فيَكونُ فيه إيذانٌ بأنَّ الَّذين في النَّارِ واثِقون بأنَّ خَزَنةَ جهنَّمَ إذا دَعَوُا اللهَ استجابَ لهم[٣].

- و(اليوم) في قولِه: ﴿يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ كِنايةٌ عن القِلَّةِ، أي: يُخفِّفْ عنَّا ولو زمَنًا قليلًا، وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ بَيانٌ لـ ﴿يَوۡمٗا﴾؛ لأنَّه أُرِيدَ به المِقدارُ، فاحتاجَ إلى البَيانِ[٤].

- واقتِصارُهم في الاستِدعاءِ على ما ذُكِرَ مِن تَخفيفِ قَدْرٍ يَسيرٍ مِن العذابِ في مِقدارٍ قَصيرٍ مِن الزَّمانِ، دونَ رَفْعِه رأْسًا، أو تَخفيفِ قَدْرٍ كَثيرٍ منه في زَمانٍ مَديدٍ؛ لأنَّ ذلك عِندَهم ممَّا ليس في حَيِّزِ الإمكانِ، ولا يَكادُ يَدخُلُ تحتَ أمانِيِّهم[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧١، ١٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٧٩).

فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾

- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ جَوابُ خَزَنةِ جهنَّمَ لهم بطَريقِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ التَّقريريِّ، مُرادٌ به: إلْزامُ الحُجَّةِ، وإظْهارُ سُوءِ صَنيعِهم بأنفُسِهم؛ إذ لمْ يَتَّبِعوا الرُّسلَ حتَّى وَقَعوا في هذا العذابِ، وتَنديمُهم على ما أضاعُوه في حَياتِهم الدُّنيا مِن وَسائلِ النَّجاةِ مِن العِقابِ، وأنَّهم خَلَّفوا وَراءَهم أوقاتَ الدُّعاءِ والتَّضرُّعِ، وعطَّلوا الأسبابَ الَّتي يَسْتجيبُ اللهُ لها الدَّعَواتِ، وهو كَلامٌ جامعٌ يَتضمَّنُ التَّوبيخَ، والتَّنديمَ، والتَّحسيرَ، وبَيانَ سَبَبِ تَجنُّبِ الدُّعاءِ لهم، وتَذكيرَهم بأنَّ الرُّسلَ كانت تُحذِّرُهم مِن الخُلودِ في العذابِ[1].

- وزِيادةُ فِعلِ الكَونِ في ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ مَجيءَ الرُّسلِ إلى الأُمَمِ أمْرٌ مُتقرِّرٌ مُحقَّقٌ؛ لِمَا يدُلُّ عليه فِعلُ الكَونِ مِن الوُجودِ بمَعنى التَّحقُّقِ، وأمَّا الدَّلالةُ على أنَّ فِعلَ الإتيانِ كان في الزَّمنِ الماضي فهو مُستفادٌ مِن (لم) النَّافيةِ في الماضي[2].

- قَولُه: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ لم يَقُلْ: «بالآياتِ البيِّناتِ»، بلْ أتَى بالوصفِ، وطَوَى ذِكْرَ المَوصوفِ؛ لأنَّ المهمَّ هو الوصفُ؛ لأنَّ الوصفَ هو الَّذي يُبيِّنُ الأشياءَ[3].

- وجُملةُ ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ مِن كَلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ تَذْييلًا لِكلامِهم يُبيِّنُ أنَّ قولَهم: ﴿فَٱدۡعُواْۗ﴾ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٦٤).

الخَطأِ، أي: دُعاؤكم لم يَنفَعْكم؛ لأنَّ دُعاءَ الكافرينَ في ضَلالٍ، ففيه إقناطٌ لهم عن الإجابةِ، والواوُ اعتِراضيَّةٌ.

ويجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مِن كَلامِ اللهِ تعالى تَذْييلًا واعتِراضًا، والكافِرون في النَّارِ لم يَسَعْهم إلَّا الاعتِرافُ بمَجيءِ الرُّسلِ إليهم بالبيِّناتِ، فقالوا: ﴿بَلَىٰ﴾، فرَدَّ عليهم خَزَنةُ جهنَّمَ بالتَّنصُّلِ مِن أنْ يَدْعُوا اللهَ بذلك، إلى إيكالِ أمْرِهم إلى أنفُسِهم بقولِهم: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ تَفريعًا على اعتِرافِهم بمَجيءِ الرُّسلِ إليهم بالبيِّناتِ، ومعنى تَفريعِه عليه هو أنَّه مُفرَّعٌ عليه باعتبارِ معناه الكِنائيِّ الَّذي هو التَّنصُّلُ مِن أنْ يَدْعُوا لهم، أي: كما تَولَّيتُم الإعراضَ عن الرُّسلِ استِبْدادًا بآرائِكم، فتَولَّوُا اليَومَ أمْرَ أنفُسِكم، فادْعُوا أنتم؛ فإنَّ (مَن تَولَّى قُرَّها يَتولَّى حَرَّها[1])، فالأمْرُ في قولِه: ﴿فَٱدۡعُواْ﴾ مُستعمَلٌ في الإباحةِ أو في التَّسويةِ، وفيه تَنبيهٌ على خَطأِ السَّائلينَ في سُؤالِهم[2].

- قولُه: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾، أي: وما دُعاؤُكم إلَّا في ضَلالٍ، ووُضِعَ الظَّاهرُ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ للإشعارِ بالعِلِّيَّةِ، وأنَّ المانعَ هو صِفةُ الكفْرِ[3]، فأتَى بالوصفِ؛ تعليقًا للحكمِ به[4].

- وجاءتْ هذه الأخبارُ مُعبَّرًا عنها بلَفظِ الماضي الواقعِ؛ لِتَيقُّنِ وُقوعِها[5].

---

(١) أي: يَتولَّى شَرَّها مَن تَولَّى خَيْرَها، أو يَتحَمَّلُ ثِقْلَك مَن يَنتفِعُ بك. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٥، ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤).

## الآيات (٥١-٥٦)

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: أي: العقولِ الزَّكيَّةِ، مُفرَدُها لُبٌّ، وأصْلُ اللُّبِّ: الخُلُوصُ والجَوْدةُ، والشَّيءُ المُنتقَى[1].

﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: أي: أوَّلِ النَّهارِ، أو مِن مَطلعِ الفَجرِ إلى وَقتِ الضُّحى، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدْئِه[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا سُنَّةً مِن سُنَنِه: إنَّا لَننصُرُ رُسُلَنا والمؤمِنينَ في الحياةِ الدُّنيا ويومَ القيامةِ؛ يومَ لا يَنفَعُ الظَّالِمينَ اعتِذارُهم عن ظُلمِهم، ولهم الطَّردُ مِن رَحمةِ الله تعالى، ولهم النَّارُ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى مثالًا لنَصرِه رُسلَه وعبادَه المؤمنينَ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

موسى ما يُهْتدَى به، وأورَثْنا بني إسرائيلَ التَّوراةَ؛ بَيانًا للحَقِّ، وتذكيرًا مِنَّا لأهلِ العُقولِ منهم.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ، فيقولُ: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على أذى الكُفَّارِ؛ إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ، واستَغفِرِ اللهَ لِذَنْبِك، ونَزِّه رَبَّك آخِرَ النَّهارِ وأوَّلَه عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، مع إثباتِ صِفاتِ الكمالِ له سبحانَه.

ثمَّ يُوبِّخُ اللهُ تعالى الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِه بغيرِ بُرهانٍ، مُبيِّنًا ما حمَلهم على ذلك، فيقولُ: إنَّ الَّذين يُخاصِمونَ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ بغَيرِ دَليلٍ عِندَهم: ما في صُدورِهم إلَّا كِبْرٌ عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه، وما هم بِبالِغي مُقتضى ذلك الكِبْرِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ مُذِلُّهم، وناصرٌ دينَه.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه بما يَقيه مِن شُرورِهم، فيقولُ: فاعتَصِمْ واستَجِرْ باللهِ -يا مُحمَّدُ- مِن شَرِّ أعدائِك، إنَّ اللهَ هو السَّميعُ البَصيرُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى وِقايتَه موسى -عليه السَّلامُ- وذلك المؤمِنَ مِن مَكرِ فِرعَونَ؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّه يَنصُرُ رُسُلَه والَّذين آمَنوا معه.

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ مِن قَبْلُ ما يقَعُ بيْنَ أهلِ النَّارِ مِن التَّخاصُمِ، وأنَّهم عندَ الفَزَعِ إلى خَزَنةِ جَهنَّمَ يقولونَ: ﴿أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٥٠]؛ أتبعَ ذلك بذِكرِ الرُّسُلِ، وأنَّه يَنصُرُهم في الدُّنيا والآخِرةِ.

وأيضًا فإنَّ الكلامَ في أوَّلِ السُّورةِ إنَّما وَقَع مِن قَولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، وامتَدَّ الكَلامُ في الرَّدِّ على أولئك المجادِلينَ، وعلى أنَّ المحِقِّينَ أبدًا كانوا مَشغولينَ بدَفعِ كَيدِ المُبطِلينَ، وكُلُّ ذلك إنَّما ذَكَره اللهُ تعالى تَسليةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَصبيرًا له على تحمُّلِ أذَى قَومِه، ولَمَّا بَلَغ الكلامُ في تقريرِ المطلوبِ إلى الغايةِ القُصوى؛ وَعَد تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَنصُرَه على أعدائِه في الحياةِ الدُّنيا وفي الآخِرةِ، فقال[1]:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾.

أي: إنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنا والمؤمِنينَ على أعدائِهم في الحياةِ الدُّنيا[2]، وفي يومِ القيامةِ الَّذي يَقومُ فيه الأشهادُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٣).

(٢) قال الواحدي: (النَّصرُ قد يكونُ بالحُجَّةِ، ويكونُ بالغَلَبةِ والقَهرِ، ويكونُ بإهلاكِ العَدُوِّ، وكُلُّ هذا قد كان للأنبياءِ والمؤمِنينَ مِن قِبَلِ الله تعالى؛ فهم مَنصورون بالحُجَّةِ على مَن خالَفَهم، وقد نصَرَهم اللهُ بالقَهرِ على مَن ناوأهم، وقد نصَرَهم بإهلاكِ عَدُوِّهم، وأنجاهم مع مَنْ آمَنَ معهم، وقد يكونُ نَصرٌ بالانتِقامِ لهم...، فهم لا مَحالةَ منصورونَ في الدُّنيا بأحدِ هذه الوُجوهِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٧، ١٨). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤).

وقال ابن تيميَّة: (اللهُ تعالى قد يُديلُ الكافرينَ [يجعلُ لهم الغَلَبَةَ] على المؤمنينَ تارةً، كما يُديلُ المؤمنينَ على الكافرينَ، كما كان يكونُ لأصحابِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مع عدوِّهم، لكنَّ العاقِبةَ للمُتَّقينَ... وإذا كان في المسلمينَ ضَعفٌ، وكان عدوُّهم مُستظهرًا عليهم، كان ذلك بسببِ ذُنوبِهم وخطاياهم؛ إمَّا لتفريطِهم في أداءِ الواجباتِ باطنًا وظاهرًا، وإمَّا لعُدوانِهم بتَعدِّي الحدودِ باطنًا وظاهرًا). ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ٦٤٥).

وقال السعدي: (النَّصرُ على قِسمَينِ: نصرُ المسلمينَ إذا طَمِعوا في عدوِّهم بأنْ يُتِمَّ اللهُ لهم ما طلَبوا وقصَدوا، ويَستولوا على عدوِّهم ويَظْهروا عليهم. والثَّاني: نصرُ المُستضعَفِ الَّذي طمِع فيه عدوُّه القادرُ، فنَصْرُ اللهِ إيَّاه أن يَرُدَّ عنه عدوَّه، ويُدافعَ عنه، ولَعلَّ هذا النَّصرَ أنفَعُ النَّصْرَينِ، ونصرُ الله رسولَه إذ أخرَجه الَّذينَ كفروا ثانيَ اثنَينِ مِن هذا النَّوعِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١١٥)، ((مجموع =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال جَلَّ ثناؤُه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا

---

= الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٩٤)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٢، ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٨).

قال ابنُ عطيَّة: (والأشهادُ: جمعُ شاهدٍ، كصاحبٍ وأصحابٍ. وقالت فِرقةٌ: أشهادٌ: جمعُ شهيدٍ، كشَريفٍ وأشرافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٤).

وقال الماوَرْدي: (في ﴿ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: أنَّهم الملائكةُ، شَهِدوا للأنبياءِ بالإبلاغِ، وعلى الأُمَمِ بالتَّكذيبِ. قاله مُجاهِدٌ والسُّدِّيُّ.

الثَّاني: أنَّهم الملائكةُ والأنبياءُ. قاله قَتادةُ.

الثَّالثُ: أنَّهم أربعةٌ: الملائِكةُ، والنَّبيُّونَ، والمؤمِنونَ، والأجسادُ. قاله زيدُ بنُ أسْلَمَ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٦٠، ١٦١).

وقيل: هم الملائكةُ والأنبياءُ والمؤمنونَ. ومِمَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: ابنُ جرير، والرازي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٨).

قال ابن عاشور: (والأشهادُ: الرُّسُلُ، والملائِكةُ الحَفَظةُ، والمؤمِنونَ مِن هذه الأمَّةِ... وشَهادةُ الرُّسُلِ على الَّذين كَفَروا بهم مِن جُملةِ نَصْرِهم عليهم، وكذلك شَهادةُ المؤمنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٨).

لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ المقصودَ شَرحُ تَعظيمِ ثَوابِ أهلِ الثَّوابِ؛ وذلك لأنَّه تعالى بيَّنَ أنَّه يَنصُرُهم في يومٍ يَجتَمِعُ فيه الأوَّلونَ والآخِرونَ، فحالُهم في عُلُوِّ الدَّرَجاتِ في ذلك اليَومِ ما ذُكِرَ، وأمَّا حالُ أعدائِهم فهو أنَّه حَصَلت لهم أمورٌ ثلاثةٌ؛ أحَدُها: أنَّه لا يَنفَعُهم شَيءٌ مِن المعاذيرِ البتَّةَ. وثانيها: أنَّ لهم اللَّعنةَ. وثالِثُها: أنَّ لهم سوءَ الدَّارِ(١).

﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ﴾.

أي: وهو اليَومُ الَّذي لا يَنفَعُ الظَّالِمينَ فيه اعتِذارُهم عن ظُلمِهم، فقد أعذَرَ اللهُ إليهم في الدُّنيا؛ فلا عُذرَ مَقبولٌ مِنهم في الآخِرةِ(٢).

﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ ﴾.

أي: وللظَّالِمينَ البُعدُ والطَّردُ مِن رَحمةِ الله تعالى، فهم مُستَحِقُّونَ لذلك(٣).

﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١).

أي: ولهم معَ ذلك النَّارُ، فبِئسَ المَنزِلُ هيَ[١].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه يَنصُرُ الأنبياءَ والمؤمِنينَ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ ذكَرَ نَوعًا مِن أنواعِ تلك النُّصرةِ في الدُّنيا[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ ما حلَّ بآلِ فِرعونَ، واستَطْرَدَ مِن ذلك إلى ذِكرِ شَيءٍ مِن أحوالِ الكفَّارِ في الآخرةِ؛ عاد إلى ذِكرِ ما منَحَ رسولَه مُوسى عليه السَّلامُ، فقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾؛ تأْنيسًا لمحمَّدٍ عليه السَّلامُ، وتَذكيرًا لِما كانت العرَبُ تَعرِفُه مِن قصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ[٣].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾.

أي: ولقد آتَيْنا موسَى ما يُهتَدَى به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

قال ابنُ عطيَّةَ: (﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ فيه حذْفُ مُضافٍ تقديرُه: سوءُ عاقبةِ الدَّارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٤).

وقال ابنُ عثيمين: (يحتمِلُ أن تكونَ ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ مِن بابِ إضافة الصِّفةِ إلى المَوصوفِ، أي: الدَّارُ السُّوءُ، ويحتمِلُ أن تكونَ على بابِها... أي: السَّيِّئُ في الدَّارِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٧١).

وقال السعدي: (أي: الدَّارُ السَّيِّئةُ، الَّتي تَسوءُ نازليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩). =

﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾.

أي: وأورَثْنا بني إسرائيلَ التَّوراةَ[1].

---

= قال الرازي: (يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ مِن الهدَى ما آتاهُ اللهُ مِن العلومِ الكثيرةِ النَّافعةِ في الدُّنيا والآخرةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ تلك الدَّلائلَ القاهِرةَ الَّتي أوْرَدَها على فِرعونَ وأتْباعِه وكادَهم بها، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ هو النُّبُوَّةَ الَّتي هي أعظَمُ المناصِبِ الإنسانيَّةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ إنزالَ التَّوراةِ عليه). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالهدى هنا: التَّوراةُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٢).

قال القرطبي: (وسُمِّيَت التَّوراةُ هُدًى بما فيها مِن الهدَى والنُّورِ، وفي التَّنْزيلِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣).

وقال الشنقيطي: (والمرادُ بالهُدَى ما تَضَمَّنَه التَّوراةُ مِن الهدَى في العقائدِ والأعمالِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٩٢).

وقال ابنُ عطيَّة: (الهُدى: النُّبُوَّةُ والحِكمةُ، والتَّوراةُ تعُمُّ جميعَ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٤). ويُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالهُدى: النُّبوَّةُ: السَّمْعانيُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: التَّوراةُ والنُّبوَّةُ: القرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٩).

قال ابن عاشور: (الهُدى الَّذي أُوتيَه موسى هو ما أُوحيَ إليه مِن الأمرِ بالدَّعوةِ إلى الدِّينِ الحقِّ، أي: الرِّسالةُ وما أُنزِل إليه مِن الشَّريعةِ... وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ الكِتابَ مِن جملةِ الهُدى الَّذي أُوتيَه موسى... فإنَّ موسى أُوتيَ مِن الهُدى ما لم يَرِثْه بنو إسرائيلَ، وهو الرِّسالةُ، وأُوتيَ مِن الهُدى ما أُورِثَه بنو إسرائيلَ، وهو الشَّريعةُ الَّتي في التَّوراةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

وقال الرسعني: (﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو جميعُ ما أُوتيَه مِن الآياتِ والمُعجِزاتِ وشرائعِ الدِّينِ). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٢٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٢). =

كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿ هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٤ ﴾.

أي: بيانًا للحَقِّ وتَذكيرًا مِنَّا به لأهلِ العُقولِ منهم[١].

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥ ﴾.

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على أذَى الكُفَّارِ وتعَنُّتِهم، وعلى دَعوتِهم؛ فإنَّ ما وَعَد اللهُ به مِن النَّصرِ في الدُّنيا والآخِرة: آتٍ لا مَحالةَ، كما نصَرَ اللهُ تعالى موسى وبني إسرائيلَ على فِرعَونَ وقَومِه[٢].

---

= قال ابن الجوزي: (﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ بعدَ موسى، وهو التَّوراةُ أيضًا في قولِ الأكثَرينَ. وقال ابنُ السَّائبِ: التَّوراةُ والإنجيلُ والزَّبورُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٥).

قيل: المرادُ بوِراثةِ الكِتابِ: أنَّ الله تعالى جعَله باقيًا فيهم بعدَ موسى عليه السَّلامُ؛ فهم وَرِثوه عن موسى، أي: أخَذوه منه في حياتِه، وأبقاه اللهُ لهم بعدَ وفاتِه يَتوارَثونَه خَلَفًا عن سَلَفٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

قال ابنُ عطيَّة: (عَبَّرَ عن ذلك بالوِراثةِ؛ إذ كانت طائِفةُ بني إسرائيلَ قَرنًا بعدَ قَرنٍ تَصيرُ فيهم التَّوراةُ إمامًا، فكان بعضُهم يَرِثُها عن بَعضٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن =

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾.

أي: واطلُبْ مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- سَتْرَ ذَنْبِك، والتَّجاوُزَ عن المؤاخَذةِ به[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((واللهِ إنِّي لَأستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه في اليَومِ أكثَرَ مِن سَبعينَ مَرَّةً))[٢].

وعن الأغَرِّ المُزَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّه لَيُغانُ[٣] على قَلبي، وإنِّي لَأستَغفِرُ اللهَ في اليَومِ مِئةَ مَرَّةٍ))[٤].

وعن أبي مُوسى الأشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاءِ: ((اللـهُمَّ اغفِرْ لي خَطيئتي وجَهْلي، وإسرافي في أمْري، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي، اللـهُمَّ اغْفِرْ لي جِدِّي وهَزْلي، وخَطَئي وَعَمْدي، وكُلُّ ذلك عندي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ما قَدَّمْتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرْتُ وما أعلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أنت المقَدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ))[٥].

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾.

أي: ونَزِّه رَبَّك -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ تَنزيهًا مُقتَرِنًا بوَصفِه بصِفاتِ

---

= كثير)) (٧/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٨٩، ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٤٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٠).

(٢) رواه البخاري (٦٣٠٧).

(٣) أي: يُطبَقُ ويُستَرُ ويُغَطَّى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٠).

(٤) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٥) رواه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩)، واللفظ له.

الكَمالِ؛ محبَّةً وتَعظيمًا له سُبحانَه، وذلك في آخِرِ النَّهارِ وأوَّلِه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٨٦، ٣٨٧).

قال ابن القيِّم: (الإبكارُ أوَّلُ النَّهارِ، والعَشيُّ آخِرُه، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]، وهذا تفسيرُ ما جاء في الأحاديثِ: «مَن قال كذا وكذا حينَ يُصبِحُ وحينَ يُمسي»، أنَّ المرادَ به قبْلَ طلوعِ الشَّمسِ، وقبْلَ غروبِها، وأنَّ محلَّ هذه الأذكارِ بعدَ الصُّبحِ وبعدَ العصرِ). ((الوابل الصيب)) (ص: ٩٣).

وقال ابن كثير: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ﴾ أي: في أواخِرِ النَّهارِ وأوائلِ اللَّيلِ، ﴿وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ وهي أوائلُ النَّهارِ وأواخِرُ اللَّيلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

وقيل: المعنى: دُمْ على التَّسبيحِ والتَّحميدِ لربِّك. وممَّن اختاره: البيضاويُّ، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٠).

قال الألوسي: (أي: ودُمْ على التَّسبيحِ والتَّحميدِ لربِّك، على أنَّه عبَّر بالطَّرَفَينِ وأُريدَ جميعُ الأوقاتِ، وجُوِّز أن يُرادَ خُصوصُ الوقتَينِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٠).

وقيل: معنى (سَبِّحْ): صَلِّ، وفي المرادِ بصلاةِ العَشيِّ والإبكارِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها الصَّلَواتُ الخَمْسُ، قاله ابنُ عبَّاس. والثَّاني: صَلاةُ الغَداةِ وصلاةُ العصرِ، قاله قَتادةُ. والثَّالثُ: أنَّها صلاةٌ كانت قبْلَ أن تُفرَضَ الصَّلَواتُ: ركعتانِ غُدوةً، وركعتانِ عَشيَّةً، قاله الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢).

وقال الزمخشري: (ودُمْ على عبادةِ ربِّك والثَّناءِ عليه بالعَشيِّ والإبكارِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه جَرَى الكلامُ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا في مَيدانِ الرَّدِّ على مُجادَلةِ المشركينَ في آياتِ اللهِ، ودَحْضِ شُبَهِهم، وتَوعُّدِهم على كُفْرِهم، وضَرْبِ الأمثالِ لهم بأمثالِهم مِن أهلِ العِنادِ، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وقولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [غافر: ٢١]، كما ذُكِرَت أمثالُ أضْدادِهم مِن أهلِ الإيمانِ مَن حضَرَ منهم ومَن غَبَر، مِن قولِه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ * إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤]، ثمَّ قولِه: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [غافر: ٢٨]، وخُتِمَ ذلك بوَعدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ بالنَّصرِ، كما نُصِرَ النَّبيُّونَ مِن قبْلِه والَّذين آمَنوا بهم، وأُمِرَ بالصَّبرِ على عِنادِ قَومِه، والتَّوجُّهِ إلى عِبادةِ ربِّه؛ فكان ذِكرُ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ عقِبَ ذلك مِن بابِ المثَلِ المشهورِ: «الشَّيءُ بالشَّيءِ يُذكَرُ»، وبهذه المُناسَبةِ انتُقِلَ هنا إلى كَشْفِ ما تُكِنُّه صُدورُ المجادِلينَ مِن أسبابِ جِدالِهم بغَيرِ حقٍّ؛ لِيَعلَمَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَخيلتَهم، فلا يَحسَبُ أنَّهم يُكذِّبونَه تَنقُّصًا له، ولا تَجويزًا للكذِبِ عليه، ولكنَّ الَّذي يَدفَعُهم إلى التَّكذيبِ هو التَّكبُّرُ عن أنْ يَكونوا تَبعًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووراءَ الَّذين سَبَقوهم بالإيمانِ ممَّن كانوا لا يَعْبَؤونَ بهم[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُجادِلونَ ويُخاصِمونَ بالباطِلِ في آياتِ اللهِ وحُجَجِه الَّتي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٢).

جاءت بها الرُّسُلُ؛ بغيرِ دَليلٍ عِندَهم مِن اللهِ: في صُدورِهم كِبْرٌ وتَعاظُمٌ عن قَبولِ الحَقِّ واتِّباعِه، واحتِقارٌ لِمَن جاء به واتَّبَعه، ولن يَنالوا الاستِعلاءَ والرِّفعةَ والعَظَمةَ الَّتي أمَّلوها في الدُّنيا؛ فاللهُ ناصِرٌ دينَه، ومُعْلٍ كَلِمَتَه(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٨، ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥١، ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٢، ٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٩١-٣٩٦، ٤٠٠-٤٠١).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ والسَّمَرْقَنْديُّ، والكرْمانيُّ: الكِبْرُ: العَظَمةُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١١)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٣٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بالكِبْرِ: التَّكبُّرُ والتَّعاظُمُ: الزمخشريُّ، والنسفي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٧).

قال الزمخشري عن الكِبْرِ: (وهو إرادةُ التَّقدُّمِ والرِّياسةِ، وألَّا يكونَ أحدٌ فوقَهم؛ ولذلك عادَوْكَ ودفَعوا آياتِك خِيفةَ أن تَتقَدَّمَهم ويَكونوا تحتَ يدِك وأمْرِك ونَهيِك؛ لأنَّ النُّبوَّةَ تحتَها كلُّ مُلكٍ ورياسةٍ. أو إرادةُ أن تكونَ لهم النُّبوَّةُ دُونَك حسَدًا وبَغْيًا، ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]. أو إرادةُ دفْعِ الآياتِ بالجِدالِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣).

وقال ابن جرير: (﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ يقولُ: ما في صُدورِهم إلَّا كِبْرٌ يَتكبَّرون مِن أجْلِه عن اتِّباعِك، وقَبولِ الحقِّ الَّذي أتَيْتَهم به؛ حسَدًا منهم على الفضلِ الَّذي آتاك اللهُ، والكرامةِ الَّتي أكرمَك بها مِن النُّبُوَّةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٩). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢).

وقال الزمخشري: (﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ أي: ببالِغي موجبِ الكِبْرِ ومُقتضيه، وهو مُتعلَّقُ إرادتِهم مِن الرِّياسةِ أو النُّبُوَّةِ أو دفْعِ الآياتِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٣).

قيل: قولُه: ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾: هو على حذفِ مُضافٍ تقديرُه: ببالِغي إرادتِهم فيه. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابنُ عطية. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٥). =

﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾.

أي: فاعتَصِمْ واستَجِرْ باللهِ -يا مُحمَّدُ- مِن شَرِّ أعدائِك الَّذين يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ[1].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لِقَولِ المُجادِلينَ في آياتِ اللهِ، وغَيرِهم مِنَ الخَلقِ؛ البَصيرُ بما يَعمَلونَه وبكُلِّ شَيءٍ سِواه؛ فلا يَخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن أصواتِ الخَلقِ وذواتِهم وأعمالِهم[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أنَّ النَّصرَ والتَّأييدَ الكاملَ إنَّما هو لأهلِ الإيمانِ الكامِلِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، وقال سُبحانَه: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، فمَن نَقَصَ

---

= قال الزَّجَّاجُ: (إرادتُهم دفْعَ آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٧٧).

وقال السمعاني: (وكان مُرادُهم أن يَهلِكَ محمَّدٌ ويَهلِكَ أصحابُه، ويَندرِسَ أثَرُه، ويَصيروا حكايةً). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧).

وقال ابن جرير: (﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ يقولُ: الَّذي حسَدوك عليه أمرٌ ليسوا بمُدْرِكيه ولا نائِليه؛ لأنَّ ذلك فضْلُ الله يؤتيه مَن يَشاءُ، وليس بالأمرِ الَّذي يُدرَكُ بالأمانيِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٩).

وقال الكرماني: (ما هم ببالِغي تلك العَظَمةِ؛ فإنَّ اللهَ يَخذُلُهم). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٣).

قال السعدي: (أي: استعِذْ بالله مِن الكِبْرِ الَّذي يوجِبُ التَّكبُّرَ على الحقِّ، واستعِذْ بالله مِن شَياطينِ الإنسِ والجنِّ، واستعِذْ بالله مِن جميعِ الشُّرورِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٤٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٥).

إيمانُه نَقَصَ نصيبُه مِن النَّصرِ والتَّأييدِ؛ ولهذا إذا أُصيبَ العبدُ بمُصيبةٍ في نَفْسِه أو مالِه، أو بإدالةِ عَدُوِّه عليه: فإنَّما هي بذُنوبِه: إمَّا بتركِ واجبٍ، أو فِعلِ مُحَرَّمٍ، وهو مِن نَقصِ إيمانِه، وبهذا يَزولُ الإشكالُ الَّذي يُورِدُه كثيرٌ مِن النَّاسِ على قَولِه تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، ويُجيبُ عنه كثيرٌ منهم بأنَّه لن يَجعَلَ لهم عليهم سَبيلًا في الآخِرةِ، ويُجيبُ آخَرونَ بأنَّه لن يَجعَلَ لهم عليهم سَبيلًا في الحُجَّةِ. والتَّحقيقُ: أنَّها مِثلُ هذه الآياتِ، وأنَّ انتفاءَ السَّبيلِ هو عن أهلِ الإيمانِ الكامِلِ، فإذا ضَعُفَ الإيمانُ صار لِعَدُوِّهم عليهم مِن السَّبيلِ بحَسَبِ ما نَقَصَ مِن إيمانِهم؛ فهم جَعَلوا لهم عليهمُ السَّبيلَ بما تَركوا مِن طاعةِ اللهِ تعالى؛ فالمؤمِنُ عزيزٌ غالِبٌ، مُؤَيَّدٌ منصورٌ، مَكْفِيٌّ مدفوعٌ عنه بالذَّاتِ أين كان، ولو اجتمَعَ عليه مَن بأقطارِها، إذا قام بحَقيقةِ الإيمانِ وواجباتِه ظاهِرًا وباطِنًا، وقد قال تعالى للمُؤمنينَ: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]. فهذا الضَّمانُ إنَّما هو بإيمانِهم وأعمالِهم الَّتي هي جُندٌ مِن جُنودِ الله، يحفَظُهم بها، ولا يُفرِدُها عنهم ويَقتَطِعُها عنهم؛ فيُبطِلَها عليهم، كما يَترُ الكافِرينَ والمنافِقينَ أعمالَهم؛ إذ كانت لِغَيرِه، ولم تكُنْ مُوافِقةً لأمْرِه(١).

٢- كثيرٌ مِن النَّاسِ يَظُنُّ أنَّ أهلَ الدِّينِ الحَقِّ يَكونونَ في الدُّنيا أذِلَّاءَ مَقهورينَ مَغلوبينَ دائِمًا، بخِلافِ مَن فارَقَهم إلى سَبيلٍ أُخرى وطاعةٍ أُخرى؛ فلا يَثِقُ بوَعدِ اللهِ بنَصرِ دِينِه وعِبادِه، بل إمَّا أن يجعَلَ ذلك خاصًّا بطائفةٍ دونَ طائِفةٍ، أو بزَمانٍ دُونَ زَمانٍ، أو يَجعَلَه مُعَلَّقًا بالمَشيئةِ، وإنْ لم يُصَرِّحْ بها، وهذا مِن عَدَمِ الوُثوقِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٢).

بوَعدِ الله تعالى، ومِن سُوءِ الفَهمِ في كِتابِه، واللهُ سُبحانَه قد بَيَّنَ في كتابِه أنَّه ناصِرٌ المؤمِنينَ في الدُّنيا والآخرةِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١]، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، وقد بَيَّنَ سُبحانَه فيه أنَّ ما أصاب العَبدَ مِن مُصيبةٍ، أو إدالةِ عَدُوٍّ، أو كَسرٍ وغيرِ ذلك: فبِذُنوبِه[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ أمَرَه بالصَّبرِ الَّذي به يَحصُلُ المحبوبُ، وبالاستِغفارِ الَّذي فيه دَفْعُ المَحذورِ، وبالتَّسبيحِ بحَمدِ اللهِ تعالى، خُصوصًا ﴿بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ اللَّذينِ هما أفضَلُ الأوقاتِ، وفيهما مِنَ الأورادِ والوظائِفِ الواجِبةِ والمُستَحَبَّةِ ما فيهما؛ لأنَّ في ذلك عَونًا على جميعِ الأمورِ[2].

٤- العَبدُ مأمورٌ أنْ يَرجِعَ إلى القَدَرِ عندَ المصائِبِ، ويَستغفِرَ اللهَ عندَ الذُّنوبِ والمعايِبِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ دقيقةٌ مُعتبَرةٌ، وهي أنَّ السُّلطانَ العَظيمَ إذا خَصَّ بَعضَ خواصِّه بالإكرامِ العَظيمِ، والتَّشريفِ الكامِلِ عندَ حُضورِ الجَمعِ العَظيمِ مِن أهلِ المَشرِقِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٣٩).

(٣) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٩).

والمَغرِبِ؛ كان ذلك أَلَذَّ وأبهَجَ، فقولُه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ إلى قَولِه: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ المقصودُ منه هذه الدَّقيقةُ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا الكَلامُ يدُلُّ على أنَّهم يَذْكُرونَ الأعذارَ إلَّا أنَّ تلك الأعذارَ لا تَنفَعُهم، فكيف الجَمعُ بيْن هذا وبيْن قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦]؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** قَولُه: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لا يدُلُّ على أنَّهم ذَكَروا الأعذارَ، بل ليس فيه إلَّا أنَّه ليس عندَهم عُذرٌ مَقبولٌ نافِعٌ، وهذا القَدْرُ لا يدُلُّ على أنَّهم ذكَروه أم لا.

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّ يومَ القيامةِ يومٌ طَويلٌ، فيَعتَذِرونَ في وَقتٍ، ولا يَعتَذِرونَ في وَقتٍ آخَرَ(٢)، فليس بيْنَهما تعارُضٌ؛ لأنَّ اليومَ طويلٌ، مِقدارُ اليومِ خمسونَ ألْفَ سَنةٍ، فيُمكِنُ أنْ تتغيَّرَ فيه الأحوالُ؛ يكونُ في أوَّلِه للنَّاسِ حالٌ، وفي آخِرِه للنَّاسِ حالٌ، وما أشْبَهَ ذلك، فمَثلًا قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥، ٣٦] هذا يدُلُّ على أنَّهم في ذلك اليومِ سُكوتٌ لا يُؤذَنُ لهم بأيِّ كَلامٍ؛ فيَنتَهِزوا الفُرصةَ بالاعتِذارِ. لكنْ في موقفٍ آخَرَ يَعتَذِرونَ، ولكِنْ لا يَنفعُهم الاعتِذارُ(٣).

**الوَجهُ الثَّالثُ:** أنَّ قولَه تعالى: ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ لا يُنافي قَولَه تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات:٣٦] الَّذي هو في انتِفاءِ الاعتذارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٢٤، ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٧٣).

مِن أصلِه؛ لأنَّ ذلك الاعتِذارَ هو الاعتِذارُ المأذونُ فيه، أي: المقبولُ؛ لأنَّ الله لو أذِنَ لهم في الاعتِذارِ لَكان ذلك تَوطِئةً لِقَبولِه اعتِذارَهم، نَظيرُ قَولِه تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والمُثبَتُ هنا مَعذِرةٌ مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم لم يُؤذَنْ لهم بها، فهي غيرُ نافِعةٍ لهم، كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨]، وقَولِه: ﴿لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾[1] [المؤمنون: ٦٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أنَّ الكافِرينَ مُستَحِقُّون لِلَعنةِ اللهِ، وفيه جَوازُ أنْ نَلعنَ الكافرينَ على سبيلِ العُمومِ؛ فلَنا أنْ نقولَ: (لعنةُ اللهِ على كلِّ كافرٍ)، وكان أبو هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه يَلعَنُ الكَفَرةَ في قُنوتِه[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ * هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ هذا مِن أوضَحِ مُثُلِ نَصرِ اللهِ رُسُلَه والَّذين آمَنوا بهم، وهو أشْبَهُ الأمثالِ بالنَّصرِ الَّذي قَدَّره اللهُ تعالى للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنينَ؛ فإنَّ نَصْرَ موسى على قَومِ فِرعَونَ كَوَّنَ اللهُ به أُمَّةً عَظيمةً لم تكُنْ يُؤبَهُ بها، وأُوتِيَت شَريعةً عَظيمةً، ومُلكًا عَظيمًا، وكذلك كان نَصرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنينَ، وكان أعظَمَ مِن ذلك وأكمَلَ وأشرَفَ، وأيُّ نَصرٍ أعظَمُ مِن الخَلاصِ مِن العُبوديَّةِ والقِلَّةِ والتَّبَعِ لأُمَّةٍ أُخرَى في أحكامٍ تُلائِمُ أحوالَ الأُمَّةِ التَّابِعةِ، إلى مَصيرِ الأُمَّةِ مالِكةِ أمْرِ نَفْسِها، ذاتِ شَريعةٍ مُلائِمةٍ لأحوالِها ومصالِحِها، وسيادةٍ على أُمَمٍ أخرى، وذلك مَثَلُ المُسلِمينَ مع النَّبيِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ١٣٢، ١٣٣) و (٢٤/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٧٣).

والأثر المُشار إليه أخرجه البخاري (٧٩٧)، ومسلم (٦٧٦).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبَعْدَه، وهو إيماءٌ إلى الوَعدِ بأنَّ القُرآنَ الَّذي كذَّب به المُشرِكونَ باقٍ مَوروثٌ في الأمَّةِ الإسلاميَّةِ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الثَّناءُ على العقلِ؛ لأنَّ أهْلَه هم أهلُ التَّذكُّرِ؛ الَّذين يَنتفِعونَ بما سمِعوا، والمرادُ بالعقلِ هنا هو عقلُ الرُّشْدِ، أمَّا عقلُ الإدراكِ فهو الَّذي يُناطُ به التَّكليفُ، ويُذكَرُ في كُتُبِ الفقهاءِ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أنَّ كلَّ مَن لم يَتذكَّرْ بآياتِ اللهِ فإنَّه ليس ذا عقلٍ، فإنْ قال قائلٌ: يَرِدُ عليكم أنَّا نَجِدُ في أئمَّةِ الكفرِ مَن هو على جانبٍ كبيرٍ مِن الدَّهاءِ والذَّكاءِ!

**فالجوابُ**: أنَّ هناك فَرْقًا بيْنَ العقلِ والذَّكاءِ؛ لأنَّ العقلَ يَعْقِلُ صاحِبَه عمَّا يَضُرُّه؛ ولهذا سُمِّيَ عقلًا بمنزلةِ العِقَالِ للبعيرِ، لكنَّ الذَّكاءَ ليس كذلك؛ فالذَّكاءُ غريزةٌ أو كَسْبٌ يَجعَلُه اللهُ تعالى في الإنسانِ، ورُبَّما يكونُ بعضُ الحيواناتِ أذكَى مِن الإنسانِ(٣).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ هذا نَصٌّ صَريحٌ وبِشارةٌ بأنَّ كُلَّ مَن جادَلَ الحَقَّ فهو مَغلوبٌ، وكُلَّ مَن تكبَّرَ عليه فهو في نهايتِه ذَليلٌ(٤).

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٨٠، ٣٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، وهو استِخلاصٌ للعِبرةِ مِن القَصصِ الماضيةِ، ولِبَيانِ أنَّ ما أصابَ الكفَرةَ مِن العذابِ المحكِيِّ مِن فُروعِ حُكْمٍ كُلِّيٍّ تَقْتضيهِ الحِكمةُ؛ وهو أنَّ شأْنَنا المُستمِرَّ أنَّا نَنصُرُ رُسلَنا وأتْباعَهم، وهذا الكلامُ مَسوقٌ لِتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَبْشيرِه ووَعْدِه بحُسنِ العاقِبةِ، وتَسليةِ المؤمنينَ ووَعْدِهم بالنَّصرِ وحُسنِ العاقِبةِ في الدُّنيا والآخرةِ؛ وذلك أنَّ الكلامَ مِن ابتِداءِ السُّورةِ كان بذِكرِ مُجادَلةِ المشركينَ في القرآنِ بقولِه تعالى: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، وأومَأَ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّ شِيَعَهم يَؤولُ أمْرُهم إلى خَسارٍ بقولِه: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، وامتدَّ الكلامُ في الرَّدِّ على المجادِلين، وتَمثيلِ حالِهم بحالِ أمْثالِهم مِن الأُمَمِ الَّتي آلَ أمْرُها إلى خَيبةٍ واضمِحلالٍ في الدُّنيا، وإلى عَذابٍ دائمٍ في الآخِرةِ. ولَمَّا استوفى الغرَضُ مُقتضاهُ مِن إطنابِ البيانِ، بيَّن اللهُ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَقِبَه أنَّه يَنصُرُ رُسلَه والَّذين آمَنوا في الدُّنيا، كما دلَّ عليه قولُه في آخِرِ الكلامِ: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾[1] [غافر: ٧٧].

- وقيل: قولُه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ تَعليلٌ لِضَياعِ دُعاءِ الكافرينَ في قولِه: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [غافر: ٥٠]؛ لأنَّه مَسلوبُ الحُجَّةِ، و(إنَّ) واسمُها واللَّامُ المُزَحْلَقةُ للتَّوكيدِ، ولا يَقدَحُ في هذا التَّأكيدِ ما يَبْدو أنَّ المؤمنينَ يُغلَبون في بعضِ الأحيانِ ابتلاءً وامتحانًا؛ فإنَّ العِبرةَ بالعواقبِ، والأمورَ بخَواتيمِها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٤٩٨).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد التربوية (ص: ٢٢٧).

- وعُبِّرَ بالمضارِعِ في قولِه: ﴿لَنَنصُرُ﴾؛ لِما فيه مِن استِحضارِ حالاتِ النَّصرِ العجيبةِ الَّتي وُصِفَ بعضُها في هذه السُّورةِ، ووُصِفَ بعضٌ آخَرُ في سُوَرٍ أُخرى تقدَّمَ نُزولُها؛ وإلَّا فإنَّ نَصْرَ الرُّسلِ الَّذين سَبَقوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد مَضى، ونصْرُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُترقَّبٌ غيرُ حاصلٍ حِينَ نُزولِ الآيةِ[١].

- وتأْكيدُ الخَبرِ بـ (إنَّ)، وبجَعْلِ المسنَدِ فِعليًّا في قولِه: ﴿لَنَنصُرُ﴾، مُراعًى فيه حالُ المعرَّضِ بهم بأنَّ اللهَ يَنصُرُ رُسلَه عليهم، وهمُ المشرِكون؛ لأنَّهم كانوا يُكذِّبون بذلك، وهذا وَعدٌ للمؤمنينَ بأنَّ اللهَ ناصِرُهم على مَن ظَلَمَهم في الحياةِ الدُّنيا بأنْ يُوقِعَ الظَّالِمَ في سُوءِ عاقبةٍ، أو بأنْ يُسلِّطَ عليه مَن يَنتقِمُ منه بنَحوٍ أو أشدَّ ممَّا ظلَمَ به مُؤمنًا[٢].

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ أي: يومَ القِيامةِ، عُبِّرَ عنه بذلك؛ للإشعارِ بكَيفيَّةِ النُّصرةِ، وأنَّها تكونُ عندَ جميعِ الأوَّلينَ والآخِرينَ بشَهادةِ الأشهادِ للرُّسلِ بالتَّبليغِ، وعلى الكَفَرةِ بالتَّكذيبِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ مِن بابِ نفْيِ الشَّيءِ بنَفْيِ لازِمِه؛ فأصلُ الكلامِ: ليس لهم مَعذرةٌ نافِعةٌ، فعُدِلَ إلى ﴿لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾؛ للمُبالَغةِ، وجُعِلَ انتِفاءُ النَّفعِ دليلًا على انتفاءِ العُذْرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٢٧).

- وتَقديمُ (لهم) في هاتَينِ الجُملتَين ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾؛ للاهتِمامِ بالانتقامِ منهم[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ * هُدٗى وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾

- جُملةُ ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡهُدَىٰ ...﴾ مُعترِضةٌ بيْن ﴿لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١] وبيْن التَّفريعِ عليه في قولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾[2] [غافر: ٥٥].

- قولُه: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: التَّوراةَ، وهو الَّذي أورَثَه اللهُ بني إسرائيلَ، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ الكتابَ مِن جُملةِ الهُدى الَّذي أُوتِيَه مُوسى، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞ﴾ [المائدة: ٤٤]؛ ففي الكلامِ إيجازُ حَذْفٍ[3]، تَقديرُه: ولقدْ آتَيْنا مُوسى الهُدى والكتابَ، وأوْرَثْنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الإيجازُ: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغةِ كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعان؛ الأوَّلُ: إيجازُ القِصَرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتال؛ فارتفع بالقتْلِ -الَّذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ النَّاسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم. الثَّاني: إيجازُ الحَذْفِ. والإيجازُ بالحذفِ: هو حذْفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بشرطِ وُجودِ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقد يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. والفرقُ بينَ الحذفِ والإيجازِ أن يكونَ في الحذفِ مقدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عِبارةٌ عن اللَّفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما =

بني إسرائيلَ الكتابَ؛ فإنَّ مُوسى أُوتِيَ مِن الهُدى ما لم يَرِثْه بنو إسرائيلَ، وهو الرِّسالةُ، وأُوتِيَ مِن الهُدَى ما وَرِثه بنو إسرائيلَ، وهو الشَّريعةُ الَّتي في التَّوراةِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴾

- قولُه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا ﴾ [غافر: ٥١]، أي: فاعْلَمْ أنَّا ناصِروك والَّذين آمَنوا، واصبِرْ على ما تُلاقِيه مِن قَومِك ولا تَهِنْ(٢).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالصَّبرِ؛ لأنَّ نُصرةَ الرُّسلِ في ضَمانِ اللهِ، وضَمانُ اللهِ لا يُخلَفُ. و(إنَّ) للاهتمامِ بالخبَرِ، وهي تُغْني غَناءَ فاءِ التَّعليلِ، فكأنَّه قِيل: فوَعْدُ اللهِ حقٌّ، ويُفادُ بـ (إنَّ) التَّأكيدُ الَّذي هو للاهتمامِ والتَّحقيقِ، والمعنى: لا تَستبطِئِ النَّصرَ؛ فإنَّه واقعٌ(٣).

- وعُطِفَ على الأمْرِ بالصَّبرِ الأمْرُ بالاستِغفارِ والتَّسبيحِ، فكانا داخلَينِ في سِياقِ التَّفريعِ على الوعْدِ بالنَّصرِ؛ رَمْزًا إلى تَحقيقِ الوعدِ؛ لأنَّه أمَرَ عَقِبَه بما هو مِن آثارِ الشُّكرِ؛ كِنايةً عن كَونِ نِعمةِ النَّصرِ حاصلةً لا مَحالةَ، وهذه كِنايةٌ رمْزيَّةٌ(٤).

---

= بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والأمْرُ بالاستغفارِ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ هذا مَقامُ التَّخليةِ عن الأكدارِ النَّفْسيَّةِ. وفيه تَعريضٌ بأنَّ أُمَّتَه صلَّى الله عليه وسلَّم مَطلوبون بذلك بالأحْرى. وأُمِرَ بتَسبيحِ اللهِ تعالى وتَنزيهِه بالعَشِيِّ والإبكارِ ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾، أي: الأوقاتِ كلِّها -وذلك على قولٍ-؛ فاقتُصِرَ على طَرَفَيْ أوقاتِ العملِ، وهذا مَقامُ التَّحلِّي بالكَمالاتِ النَّفْسيَّةِ، وبذلك يَتِمُّ الشُّكرُ ظاهرًا وباطنًا[1].

- وجُعِلَ الأمْرانِ بالاستِغفارِ والتَّسبيحِ مَعطوفَينِ على الأمْرِ بالصَّبرِ؛ لأنَّ الصَّبرَ هنا لانتِظارِ النَّصرِ الموعودِ؛ ولذلك لم يُؤمَرْ بالصَّبرِ لَمَّا حصَلَ النَّصرُ في قولِه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١ - ٣]؛ فإنَّ ذلك مَقامُ مَحضِ الشُّكرِ دونَ الصَّبرِ[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ ...﴾ الآيةَ، استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو كالتَّكريرِ لِجُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [غافر: ٣٥] تَكريرَ تَعدادٍ للتَّوبيخِ عِندَ تَنْهيةِ غَرَضِ الاستِدلالِ، كما يُوقَفُ الموبَّخُ المرَّةَ بعْدَ المرَّةِ[3].

- وفائدةُ تَقييدِ مُجادَلةِ المشركينَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّها ﴿بِغَيۡرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٢).

سُلۡطَٰنٍ﴾ تَشنيعُ مُجادَلتِهم؛ وإلَّا فإنَّ المُجادَلةَ في آياتِ اللهِ لا تَكونُ إلَّا بغَيرِ سُلطانٍ؛ لأنَّ آياتِ اللهِ لا تكونُ مُخالِفةً للواقعِ، وكذلك وَصْفُ ﴿سُلۡطَٰنٍ﴾ بجُملةِ ﴿أَتَىٰهُمۡ﴾؛ لِزيادةِ تَفظيعِ مُجادَلتِهم بأنَّها عَرِيَّةٌ عن حُجَّةٍ لَديهم؛ فهم يُجادِلون بما ليس لهمْ به عِلمٌ[1]. وأيضًا تَقييدُ المجادَلةِ بذلكَ مع استِحالةِ إتيانِه؛ للإيذانِ بأنَّ التَّكلُّمَ في أمْرِ الدِّينِ لا بُدَّ مِن استِنادِه إلى سُلطانٍ مُبينٍ البتَّةَ، وهذا عامٌّ لكلِّ مُجادِلٍ مُبطِلٍ[2].

- ومعنَى قولِه: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾: ما يَحمِلُهم على المُجادَلةِ في آياتِ اللهِ إلَّا الكِبْرُ على الَّذي جاءهم بها، وليستْ مُجادَلتُهم لِدَليلٍ لاحَ لهم، وقد أُثبِتَ لهم الكِبرُ الباعثُ على المجادَلةِ بطَريقِ القصْرِ (إنْ - إلَّا)؛ ليُنْفَى أنْ يكونَ داعيَهم إلى المجادَلةِ شَيءٌ آخَرُ غيرُ الكِبرِ على وَجهٍ مُؤكَّدٍ؛ فإنَّ القصْرَ تأْكيدٌ على تأْكيدٍ؛ لِمَا يَتضَمَّنُه مِن إثباتِ الشَّيءِ بوَجْهٍ مَخصوصٍ مُؤكَّدٍ، ومِن نفْيِ ما عَداه، فتَضمَّنَ جُملتَين[3].

- وذِكرُ الصُّدورِ دونَ القُلوبِ؛ لِعِظَمِ الكِبْرِ جِدًّا، بأنَّه قد ملأَ القُلوبَ وفاض منها حتَّى شَغَل الصُّدورَ الَّتي هي مَساكِنُها[4]! وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه أطلَقَ الصُّدورَ على القُلوبِ؛ لأنَّها محلُّ القلوبِ[5].

- وجُملةُ ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً. ويجوزُ أنْ تكونَ في مَوضعِ الصِّفةِ لـ ﴿كِبۡرٞ﴾، وإذ قد كان الكِبرُ مُثبَتًا حُصولُه في نُفوسِهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٣).

إثباتًا مُؤكَّدًا بقولِه: ﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾؛ تَعيَّنَ أنَّ نفْيَ بُلوغِهم الكِبْرَ مُنصرِفٌ إلى حالاتِ الكِبْرِ: فإمَّا أنْ يُرادَ نفْيُ أهْليَّتِهم للكِبرِ؛ إذ هم أقلُّ مِن أنْ يكونَ لهم الكِبرُ، فالمعنى هنا: كِبْرٌ زَيفٌ. وإمَّا أنْ يُرادَ نفْيُ نَوالِهم شيئًا مِن آثارِ كِبْرِهم، فالمعنى: ما همْ ببالِغينَ مُرادَهم الَّذي يأْمُلُونه منك في نُفوسِهم الدَّالَّةِ عليه أقوالُهم، مِثلُ قولِهم: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، ونَحوِ ذلك مِن أقوالِهم الكاشفةِ لِآمالِهم.

وتَنكيرُ ﴿كِبْرٌ﴾ للتَّعظيمِ، أي: كِبرٌ شَديدٌ بتَعدُّدِ أنواعِه، وتَمكُّنِه مِن نُفوسِهم[1].

- وقد نُفِيَ أنْ يَبلُغوا مُرادَهم بصَوغِه في قالبِ الجُملةِ الاسميَّةِ ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾؛ لِإفادتِها ثَباتَ مَدلولِها ودَوامَه؛ فالمعنى: أنَّهم مَحرومون مِن بُلوغِه حِرمانًا مُستمِرًّا، فاشتمَلَ تَشويهُ حالِهم إثباتًا ونفْيًا على خُصوصيَّاتٍ بلاغيَّةٍ كثيرةٍ[2].

- قولُه: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لَمَّا ضمِنَ اللهُ لِرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ الَّذين يُجادِلونه فيما جاءَهمْ به يَحْدُوهم إلى الجِدالِ كِبْرُهم المُنْطوي على كَيدِهم، وأنَّهم لا يَبلُغون ما أضْمَروه وما يُضْمِرونه؛ فَرَّعَ على ذلك أنْ أمَرَه بأنْ يَجعَلَ اللهَ مَعاذَه منهم، أي: لا يَعبَأْ بما يُبيِّتونَه، أي: فَدُمْ على طلَبِ العَوذِ باللهِ. وحُذِفَ مُتعلَّقُ (استَعِذْ)؛ لِقَصْدِ تَعميمِ الاستِعاذةِ مِن كلِّ ما يُخافُ منه[3].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالدَّوامِ على الاستِعاذةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٥).

أي: لأنَّه المطَّلِعُ على أقوالِهم وأعمالِهم، وأنت لا تُحِيطُ عِلمًا بتَصاريفِ مَكْرِهم وكَيدِهم[١]. فخَتَم الآيةَ بالسَّمعِ والبَصَرِ؛ لأنَّ ما يُؤذُونَ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إمَّا قَولٌ فيُدرَكُ بالسَّمْعِ، أو فِعلٌ فيُدرَكُ بالبَصَرِ، يعني: إنْ آذَوك بالقَولِ فنحن نَسمَعُ، أو بالفِعلِ فنحن نُبصِرُ، وهذا فيه تطمينٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

- والتَّوكيدُ بحَرْفِ (إنَّ)، والحصْرُ بضَميرِ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ مُراعًى فيه التَّعريضُ بالمُتحدَّثِ عنهم، وهمُ الَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ بغَيرِ سُلطانٍ، والمعنى: أنَّه هو القادرُ على إبطالِ ما يَصنعونه لا أنتَ، فكيف يَتِمُّ لهم ما أضْمَروه لك[٣]؟!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فإنَّه لَمَّا كان السِّياقُ للعياذِ مِن شَياطينِ الإنسِ الَّذين لهم المكْرُ الظَّاهرُ والباطنُ، ختَمَ بقولِه: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ الصَّالحِ للبصَرِ والبصيرةِ، فيَعُمُّ المحسوسَ والمعلومَ، وختَمَ آيتَي (الأعراف) و(فُصِّلَت) بالسَّمعِ والعِلمِ، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦] المسبوقَتَينِ بنَزْغِ الشَّيطانِ -الَّذي هو وَساوسُ وخَطراتٌ باطنةٌ- بالعليمِ[٤]. فتأمَّلْ حكمةَ القرآنِ الكريمِ كيف جاء في الاستعاذةِ مِن الشيطانِ -الَّذي نَعْلَمُ وُجودَه ولا نَراه- بلفظِ «السَّميعِ العليمِ» في (الأعرافِ) و(فُصِّلَت)؛ وجاءتِ الاستِعاذةُ مِن شرِّ الإنسِ -الَّذين يُؤْنَسون ويُرَون بالإبصارِ- بلفظِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٣).

«السَّميعِ البصيرِ» في سورةِ (غافر)؛ لأنَّ أفعالَ هؤلاء أفعالٌ مُعايَنةٌ تُرى بالبصرِ، وأمَّا نَزْغُ الشَّيطانِ فوساوسُ وخَطَراتٌ يُلقيها في القلبِ يَتعلَّقُ بها العلمُ، فأَمَر بالاستِعاذةِ بـ «السَّميعِ العليمِ» فيها، وأمَر بالاستِعاذةِ بـ «السَّميعِ البصيرِ» في بابِ ما يُرى بالبصرِ ويُدْرَكُ بالرُّؤيةِ[1].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٨).

## الآيات (٥٧-٥٩)

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا عظيمَ قُدرتِه، ومُنبِّهًا على إعادةِ الخلائِقِ يومَ القيامةِ: لَخَلْقُ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ أعظَمُ مِن خَلْقِه النَّاسَ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ؛ فمِنهم مَن يُنكِرُ البَعثَ بعدَ الموتِ!

ثمَّ يقولُ سبحانَه: ولا يَستوي الأعمَى والمُبصِرُ، كذلك لا يَسْتوي الكافرُ والمؤمنُ، ولا يَستوي المؤمِنونَ الَّذين يَعمَلونَ الصَّالِحاتِ معَ المُسيئينَ، قليلًا ما تَتذَكَّرونَ.

ثمَّ يُؤكِّدُ على مَجيءِ السَّاعةِ، فيقولُ: إنَّ القيامةَ لَآتِيةٌ لا شَكَّ في وُقوعِها، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بذلك.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ مُجادَلتَهم في آياتِ اللهِ كانت مُشتَمِلةً على إنكارِ البَعثِ، وهو أصلُ المُجادَلةِ ومَدارُها، فحُجُّوا بخَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ لأنَّهم كانوا مُقِرِّينَ بأنَّ

اللهَ خالِقُها، وبأنَّها خَلقٌ عَظيمٌ لا يُقادَرُ قَدْرُه، وخَلقُ النَّاسِ بالقياسِ إليه شَيءٌ قَليلٌ مَهينٌ، فمَن قدَرَ على خَلْقِها معَ عِظَمِها، كان على خَلْقِ الإنسانِ معَ مَهانتِه أقْدَرَ(١).

﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾.

أي: لَخَلْقُ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ أعظَمُ مِن خَلْقِه النَّاسَ، فكَيفَ يَعجِزُ عن خَلقِهم خَلقًا جديدًا بعدَما أماتَهم؟! فمَنْ قَدَر على خَلقِ الأجرامِ العَظيمةِ وأتْقَنَها: قادِرٌ على إعادةِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم بطَريقِ الأَولى(٢).

كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٦).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن اختاره أيضًا: ابنُ جُزَي، وابنُ تيميَّة، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٢٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٧ فما بعدها) و(٦/ ٣٩٢ فما بعدها) و(٧/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٣، ٤٠٤).

ورجَّح ابنُ جُزَي هذا المعنى، وهو أنَّ المرادَ بالآيةِ الاستِدلالُ على البعثِ؛ وذلك لوُرودِه في مواضِعَ مِن القرآنِ، ولأنَّه قال بعدَه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا ﴾؛ فقدَّم الدَّليلَ، ثمَّ ذكَر المدلولَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٤).

وذكر ابنُ عثيمين أنَّ الآيةَ نزلَتْ في مُنكري البعثِ، وفي بيانِ قدرةِ الله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٣، ٤٠٤).

وقيل: هذا توبيخٌ لهؤلاء الكفَرةِ المتكبِّرينَ، كأنَّه قال: مَخلوقاتُ الله أكبَرُ وأجَلُّ قدرًا مِن خَلْقِ البشَرِ، فما لأحدٍ منهم أن يَتكبَّرَ على خالِقِه سبحانَه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٧).

بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ، فلا يَتدَبَّرونَ ولا يَتأمَّلونَ لِيَعلَموا أنَّ خَلْقَ كُلِّ شَيءٍ يَسيرٌ على الله؛ فلذا يُنكِرونَ البَعثَ بعدَ الموتِ[1]!

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الجِدالَ المَقْرونَ بالكِبْرِ والحَسَدِ والجَهلِ كيف يكونُ، وأنَّ الجِدالَ المقْرونَ بالحُجَّةِ والبُرهانِ كيف يكونُ؛ نبَّه تعالى على الفَرقِ بيْنَ البابَينِ بذِكرِ المِثالِ[2].

وأيضًا لَمَّا نزَّل المُشرِكينَ مَنزِلةَ مَن لا يَعلَمُ، ضرَبَ مثَلًا لهم وللمُؤمِنينَ؛ فمَثَلُ الَّذين يُجادِلونَ في أمْرِ البَعثِ مع وُضوحِ إمكانِه مَثَلُ الأعمَى، ومَثَلُ المؤمِنينَ الَّذين آمَنوا به مَثَلُ حالِ البَصيرِ[3].

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾.

أي: ولا يَستوي الأعمَى الَّذي لا يُبصِرُ، والمُبصِرُ الَّذي يرَى؛ فبَيْنَهما فَرقٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧).

عَظيمٌ، كذلك لا يَسْتوي الكفَرةُ الفُجَّارُ، والمؤمِنونَ الأبرارُ[١].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود: ٢٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيٓـُٔ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٦).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ بالأعمى والبصيرِ: المؤمِنُ والكافِرُ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٧٧) و (٦/ ١٢٧).

قال ابن جرير: (﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الَّذي لا يُبصِرُ شيئًا، وهو مثَلُ الكافرِ الَّذي لا يَتأمَّلُ حُجَجَ اللهِ بعينَيْهِ، فيَتَدَبَّرَها ويَعتبِرَ بها، فيَعلَمَ وحدانيَّتَه وقدرَتَه على خَلقِ ما شاءَ مِن شَيءٍ، ويُؤمِنَ به ويُصَدِّقَ. والبصيرُ الَّذي يرَى بعينَيْهِ ما شَخَص لهما ويُبصِرُه، وذلك مَثَلٌ للمؤمنِ الَّذي يرَى بعينَيْهِ حُجَجَ اللهِ، فيُفَكِّرُ فيها، ويَتَّعِظُ بها، ويَعلَمُ ما دَلَّتْ عليه مِن توحيدِ صانِعِه، وعظيمِ سُلطانِه، وقُدرَتِه على خَلقِ ما يَشاءُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠).

وقال ابن عاشور: (المقصودُ: أنَّ الكافِرَ وإن كان ذا عَقلٍ يُدرِكُ به الأمورَ، فإنَّ عَقْلَه تَمحَّضَ لإدراكِ أحوالِ الحياةِ الدُّنيا، وكان كالعَدَمِ في أحوالِ الآخرةِ... يُشبِهُ حالَ الأعمى في إدراكِه أشياءَ وعدَمِ إدراكِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٩٢).

وقيل: المرادُ بالأعمَى والبصيرِ: الجاهلُ والعالِمُ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، والخازنُ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٨).

وقيل: المرادُ بالأعمَى والبصيرِ: الَّذي يُجادِلُ بالباطِلِ، والَّذي يُجادِلُ بالحقِّ. وممَّن اختاره: الشوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٠).

أي: ولا يَستوي المؤمِنونَ المُطيعونَ لله، معَ الَّذين يَعمَلونَ السَّيِّئاتِ[١].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

أي: ما أقَلَّ ما تَتذَكَّرونَ[٢] حُجَجَ الله، فتَتَّعِظونَ وتَعتبِرون! فلو تذكَّرْتُم واعتبَرْتُم لَآثرْتُم الهدَى على الضَّلالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧، ١٧٨).

(٢) قيل: الخِطابُ للنَّاسِ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢).

وقيل: الخِطابُ للكُفَّارِ، فقَلَّ نَظَرُهم فيما يَنبغي أن يَنظُروا فيه. ومِمَّن قال بهذا: الواحديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩).

وقيل: الخِطابُ للَّذين يُجادِلون في آياتِ الله. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٧).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذَكُّرُكم قليلٌ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

وقيل: المعنى: لا تَتذكَّرون أصلًا؛ فإنَّه قد يُعبَّرُ بقِلَّةِ الشَّيءِ عن عدَمِه. يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي (٨/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ٥٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قرَّر الدَّليلَ الدَّالَّ على إمكانِ وُجودِ يومِ القيامةِ؛ أردَفه بأنْ أخبَر عن وُقوعِها ودُخولِها في الوجودِ[1].

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾.

أي: إنَّ القيامةَ لَآتِيةٌ لا شَكَّ في وُقوعِها[2].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يُؤمِنونَ بمَجيءِ يومِ القيامةِ؛ فهم يُكذِّبونَ به[3].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾ أنَّه يَنبغي لمعَلِّمِ النَّاسِ أن يَربِطَ المَعقولاتِ بالمَحسوساتِ؛ لأنَّ ذلك أقرَبُ إلى الفَهمِ، وأدعَى إلى التَّصديقِ؛ إذْ إنَّ المحسوسَ لا يُنكَرُ، لكِنَّ المَعقولَ قد يُكابِرُ فيه مَن يُكابِرُ ويُنكِرُه[4]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكُّرُكم قَليلٌ، وإلَّا فلو تذكَّرتُم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٨).

مراتِبَ الأُمورِ، ومَنازِلَ الخَيرِ والشَّرِّ، والفَرقَ بيْنَ الأبرارِ والفُجَّارِ، وكانت لكم همَّةٌ عَلِيَّةٌ؛ لآثَرتُم النَّافِعَ على الضَّارِّ، والهُدَى على الضَّلالِ، والسَّعادةَ الدَّائِمةَ على الدُّنيا الفانيةِ(١).

٣- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ وُجوبُ الإيمانِ بالبعثِ؛ لأنَّه خبَرٌ مِن الله مؤكَّدٌ، وكلُّ أخبارِ الله تعالى صِدقٌ، وكلُّ وعدِ الله حقٌّ(٢). والإيمانُ بالسَّاعةِ له أثرٌ عظيمٌ في تحقيقِ الإيمانِ؛ فإنَّ مَن لا يؤمنُ بالسَّاعةِ لا يَعمَلُ، فلأيِّ شَيءٍ يَعملُ وهو لا يؤمنُ بيومِ الحسابِ؟! ومَنْ آمَنَ بيومِ الحسابِ كان حريصًا على أن يَنجوَ مِن وَبالِ هذا اليومِ(٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ دَلالةٌ على المَعادِ؛ فإنَّه مِن المعلومِ ببَداهةِ العُقولِ أنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ أعظَمُ مِن خَلْقِ أمثالِ بني آدمَ، والقُدرةَ عليه أبلَغُ؛ وأنَّ هذا الأيسَرَ أَولى بالإمكانِ والقُدرةِ مِن ذلك(٤).

٢- نَفْيُ العِلمِ عن الأكثرِ وتَخصيصُه به في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ القليلَ يَعلَمُ(٥).

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ نفْيُ المُساواةِ بيْنَ الأمورِ المُختلِفةِ، وهذا مِن قواعدِ الشَّريعةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٨، ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤١١).

(٤) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (١/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٨).

أنَّها لا تُساوي بيْن مُختلِفَينِ، ولا تَجمَعُ بيْن مُفترقَينِ[١].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ فيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالإلجاءِ؛ وهو أنْ يُبادِرَ المُتكلِّمُ خَصْمَه بما يُلْجِئُه إلى الاعترافِ بصِحَّتِه، وبهذا صَحَّ الْتِحامُه معَ ما قبْلَه مِن الكلامِ؛ فإنَّ مُجادَلتَهم في آياتِ اللهِ كانت مُشتمِلةً على أُمورٍ كَثيرةٍ مِن الجِدالِ والمُغالَطةِ، واللَّجاجِ والسَّفْسَطةِ، وفي مُقدِّمتِها إنكارُ البعثِ، وهو في الواقعِ أصْلُ المُجادَلةِ ومِحْورُها الَّذي عليه تَدورُ، فبادَرَ سُبحانه إلى مُبادَهتِهم بما يُسْقَطُ في أيْدِيهم، ويَقطَعُ عليهم طُرقَ المكابَرةِ والمعانَدةِ، وهو خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ، وقد كانوا مُقِرِّين بأنَّ اللهَ خالِقُها، وبأنَّها خلْقٌ عظيمٌ، فخلْقُ النَّاسِ بالقياسِ شَيءٌ هيِّنٌ، ومَن قدَرَ على خلْقِها مع عِظَمِها، كان -ولا شكَّ- على خلْقِ الإنسانِ الضَّعيفِ أقدَرَ، وبه أقمَنَ. هذا والأولويَّةُ في هذا الاستِشهادِ على دَرَجتينِ؛ إحْداهما: أنَّ القادرَ على العظيمِ هو على الحقيرِ أقدَرُ، وثانيهما: أنَّ مُجادَلتَهم كانت في البعثِ، وهو الإعادةُ، وما مِن رَيبٍ في أنَّ الابتِداءَ أعظَمُ وأبهَرُ مِن الإعادةِ[٢].

- والكلامُ مُؤذِنٌ بقَسَمٍ مُقدَّرٍ؛ لأنَّ اللَّامَ في ﴿ لَخَلْقُ ﴾ لامُ جَوابِ القسَمِ، والمقصودُ تأْكيدُ الخبرِ، ومعنى ﴿أَكْبَرُ﴾ أنَّه أعظَمُ وأهمُّ، وأكثرُ مُتعلَّقاتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٥، ١٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٢).

قُدرةٍ بالقادرِ عليه، لا يَعجِزُ عن خلْقِ ناسٍ يَبعَثُهم للحسابِ، وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في غيرِ معناهُ؛ لأنَّ كَوْنَ خَلْقِها أكبَرَ هو أمْرٌ مَعلومٌ، وإنَّما أُرِيدَ التَّذكيرُ والتَّنبيهُ عليه؛ لِعَدَمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ عِلْمِهم به(١).

- ومَوقِعُ الاستِدراكِ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ ما اقتَضاهُ التَّوكيدُ بالقسَمِ المقدَّرِ مِن اتِّضاحِ أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ أكبَرُ مِن خلْقِ النَّاسِ، فالمعنى: أنَّ حُجَّةَ إمكانِ البعثِ واضحةٌ، ولكنَّ الَّذين يُنكِرونها لا يَعلَمون الدَّليلَ؛ لأنَّهم مُتلاهُون عن النَّظرِ في الأدلَّةِ، مُقتنِعون بِبادِئِ الخواطرِ الَّتي تَبْدو لهم، فيَتَّخِذونها عقيدةً، فلمَّا جَرَوا على حالةِ انتفاءِ العِلمِ نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن لا عِلمَ لهم؛ فلذلك نُزِّل فِعلُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ مَنزِلةَ اللَّازمِ، ولم يُذكَرْ له مَفعولٌ(٢).

- والمرادُ بـ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قيل: همُ الَّذين يُجادِلون في آياتِ البعثِ، وهم المشرِكون، وإظهارُ لَفظِ النَّاسِ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، مع أنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ الإضمارُ؛ لِتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بالدَّلالةِ، فتَصلُحَ لأنْ تَسيرَ مَسيرَ الأمثالِ، فالمعنى: أنَّهم أنْكَروا البعثَ لاستِبعادِهم خلْقَ الأجسامِ، مع أنَّ في خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ ما لا يَبْقى معه استبعادُ مِثلِ ذلك(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قد عُلِمَ حالُ المؤمنينَ مِن مَفهومِ صِفةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٦، ١٧٧).

﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الأكثرينَ مِن الَّذين لا يَعلَمون يُقابِلُهم أقَلُّون يَعلَمون[١].

- قولُه: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾ نَفْيُ الاستِواءِ بيْن الفَريقَينِ يَقْتضي تَفضيلَ أحدِهما على الآخَرِ، ومِن المتبادَرِ أنَّ الأفضلَ هو صاحبُ الحالِ الأفضلِ، وهو البصيرُ؛ إذ لا يَختلِفُ النَّاسُ في أنَّ البصرَ أشرَفُ مِن العمَى في شَخْصٍ واحدٍ. ونفْيُ الاستواءِ بدُونِ مُتعلَّقٍ يَقْتضي العُمومَ في مُتعلَّقاتِه، لكنَّه يُخَصُّ بالمُتعلَّقاتِ الَّتي يَدلُّ عليها سِياقُ الكلامِ، وهي آياتُ اللهِ ودلائلُ صِفاتِه، ويُسمَّى مِثلُ هذا العمومِ: العُمومَ العُرفيَّ[٢].

- وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾ زِيادةُ بَيانٍ لِفَضيلةِ أهْلِ الإيمانِ بذِكرِ فَضيلتِهم في أعمالِهم، بعْدَ ذِكرِ فَضْلِهم في إدراكِ أدلَّةِ إمكانِ البعثِ ونحْوِه مِن أدلَّةِ الإيمانِ، والمعنى: وما يَسْتوي الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ والمُسيئون، أي: في أعمالِهم؛ كما يُؤذِنُ بذلك قولُه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾، وفيه إيماءٌ إلى اختِلافِ جَزاءِ الفريقَينِ، وهذا الإيماءُ إدماجٌ[٣] للتَّنبيهِ على الثَّوابِ والعِقابِ[٤].

- وقدَّمَ ذِكرَ الأعمَى على ذِكرِ البصيرِ، معَ أنَّ البصَرَ أشرَفُ مِن العَمى بالنِّسبةِ لِذاتٍ واحدةٍ، والمُشبَّهَ بالبصيرِ أشرَفُ مِن المُشبَّهِ بالأعمَى؛ إذ المُشبَّهُ بالبصيرِ المؤمنونَ، فقُدِّمَ ذِكرُ تَشبيهِ الكافرينَ مُراعاةً لِكَونِ الأهمِّ في المقامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧). ويُنظر أيضًا: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (ص: ٥٦٩، ٥٩٧).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٧، ١٧٨).

بَيانَ حالِ الَّذين يُجادِلون في الآياتِ؛ إذ همُ المقصودُ بالموعظةِ، وأمَّا قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُ﴾ فإنَّما رُتِّبَ فيه ذِكرُ الفَريقَينِ على عَكسِ تَرتيبِه في التَّشبيهِ بالأعمى والبصيرِ؛ اهتِمامًا بشَرَفِ المؤمنينَ[1].

وقيل: قدَّم الأعمَى في نفْيِ التَّساوي؛ لمجيئِه بعدَ صِفةِ الذَّمِّ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وقدَّم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لمُجاوَرتِه للبصيرِ[2].

- وأُعيدَت (لا) النَّافيةُ بعْدَ واوِ العطْفِ على النَّفيِ في قولِه: ﴿وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾، وكان العطْفُ مُغْنيًا عنها؛ فإعادتُها لإفادةِ تأْكيدِ نفْيِ مُساواتِه للمُحسِنِ فيما له مِن الفضْلِ والكرامةِ، ومَقامُ التَّوبيخِ يَقْتضي الإطنابَ، وكان الظَّاهرُ أنْ تقعَ (لا) قبْلَ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فعُدِلَ عن ذلك؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المقصودَ عدَمُ مُساواةِ المُسِيءِ لِمَن عمِلَ الصَّالحاتِ، وأنَّ ذِكرَ الَّذين آمَنوا قبْلَ المُسِيءِ؛ للاهتِمامِ بالَّذين آمنوا، ولا مُقْتضي للعُدولِ عنه بعْدَ أنْ قُضِيَ حقُّ الاهتِمامِ بالَّذين سِيقَ الكلامُ لأجْلِ تَمثيلِهم، فحصَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٨/ ٥٠٣).

قال درويش: (وفي قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ﴾ الآيةَ: فنُّ حُسْنِ النَّسَقِ، وفي ترتيبِ النَّسَقِ ثلاثُ طُرُقٍ؛ إحداها: أن يُجاوِرَ المناسِبُ ما يُناسِبُه، كهذه الآيةِ؛ فالأعمى يُجاوِرُ البصيرَ... وثاني الطَّريقتَينِ: أن يَتأخَّرَ المُتقابِلانِ، كقَولِه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ [هود: ٢٤]، وثالثتُهما: أن يُقدَّمَ مُقابِلُ الأوَّلِ ويُؤخَّرَ مُقابِلُ الآخَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ * وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ [فاطر: ١٩، ٢٠]. وهذه الطُّرُقُ الثَّلاثُ يَتخيَّرُ المتكلِّمُ في إيرادِها حَسَبَ مُقتضى الحالِ، ووَفْقَ نواميسِ البلاغةِ وطَرائقِها). ((إعراب القرآن وبيانه)) (٨/ ٥٠٣)، ويُنظر: (٤/ ٣٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٢٥)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٨٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٦٢).

في الكلامِ اهتمامانِ[١].

- وفيه احتِباكٌ[٢]: فذُكِرَ عَمَلُ الصَّالحاتِ أوَّلًا؛ دَليلًا على ضِدِّها ثانيًا، والمُسيءُ ثانيًا؛ دليلًا على المُحسِنينَ أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذُكِرَ الصَّلاحُ تَرغيبًا، والإساءةُ تَرهيبًا[٣].

- قولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قيل: القِلَّةُ هنا كِنايةٌ عن العَدَمِ، وهو استِعمالٌ كثيرٌ، ويجوزُ أنْ تكونَ على صَريحِ مَعناها، ويكونَ المرادُ بالقِلَّةِ عَدَمَ التَّمامِ، أي: إذا تَذكَّروا تَذكُّرًا لا يُتمِّمونَه، فيَنقطِعون في أثنائِه عن التَّعمُّقِ إلى استِنباطِ الدَّلالةِ منه؛ فهو كالعَدَمِ في عَدَمِ تَرتُّبِ أثَرِه عليه[٤].

- قولُه: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ على الالتِفاتِ، والخِطابُ للَّذين يُجادِلون في آياتِ الله، وذلك على قولٍ. والعُدولُ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ في مَقامِ التَّوبيخِ يدُلُّ على العُنْفِ الشَّديدِ، والإنكارِ البليغِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ لَمَّا أُعطِيَ إثباتُ البعثِ ما يَحِقُّ مِن الحِجاجِ والاستِدلالِ، تَهيَّأَ المقامُ لاستِخلاصِ تَحقيقِه كما تُستخلَصُ النَّتيجةُ مِن القياسِ، فأُعلِنَ بتَحقيقِ مَجيءِ السَّاعةِ، وهي ساعةُ البعثِ؛ إذ السَّاعةُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٣).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٨، ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٩).

اصطلاحِ الإسلامِ عَلَمٌ بالغَلَبةِ على ساعةِ البعثِ؛ فالسَّاعةُ والبَعثُ مُترادِفانِ في المآلِ، فكأنَّه قِيل: إنَّ الَّذي جادَلَ فيه المجادِلون سيَقَعُ لا مَحالةَ؛ إذ انكشَفَتْ عنه شُبَهُ الضَّالِّينَ وتَمويهاتُهم، فصار بَيِّنًا لا رَيبَ فيه[1].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ لِزيادةِ التَّحقيقِ، وللإشارةِ إلى أنَّ الخبَرَ تَحقَّقَ بالأدِلَّةِ السَّابقةِ؛ وذلك أنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ للَّذين أنْكَروا البعثَ[2]. وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث قال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٌ﴾ هنا وفي (الحِجرِ): [الآية: ٨٥]، فدخَلَت اللَّامُ على (آتِية) فيهما، وخَلَت منها في سُورةِ (طه)، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ١٥]، وهذه اللَّامُ تُؤكِّدُ الكلامَ، والعرَبُ تُحرِّضُ على التَّوكيدِ في مَوضعِه، وتَرْكِه في غَيرِ مَوضعِه، وهذانِ الموضعان في (الحجر) و(غافر) مِن مَواضعِ التَّوكيدِ، وتَحقيقِ الخبَرِ أنَّ السَّاعةَ حقٌّ، وأنَّها آتيةٌ لا رَيبَ فيها، والخِطابُ لِقَومٍ كُفَّارٍ يُنكِرونها. والَّتي في سُورةِ (طه) خِطابٌ لِمُوسى عليه السَّلامُ، ولم يكُنْ مُوسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّن يُنكِرُ ذلك؛ فيُؤكَّدَ الكلامُ عليه تَوكيدَه على مُنكِريه والجاحِدينَ له، على أنَّه تَحميلٌ له لِيُعلِمَ قَومَه، وهو ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦]، فبذلك وضَحَ الفرْقُ بيْن الموضِعَينِ[3].

- وجِيءَ باسمِ الفاعلِ في (آتِيَةٌ) الَّذي هو حَقيقةٌ في الحالِ؛ للإيماءِ إلى أنَّها لَمَّا تَحقَّقت فقد صارتْ كالشَّيءِ الحاضرِ المُشاهَدِ، والمرادُ تَحقيقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٧٩، ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٢٥-١١٢٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١).

وُقوعِها، لا الإخبارُ عن وُقوعِها[١].

- وجُملةُ ﴿لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ مُؤكِّدةٌ لِجُملةِ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ﴾، ونُفِيَ الرَّيبُ عن نفْسِ السَّاعةِ، والمُرادُ نفْيُه عن إتيانِها؛ لِدَلالةِ قولِه: (آتِيَةٌ) على ذلك[٢].

- وهذا الاستِدراكُ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، ومَوقعُ الاستِدراكِ هو ما يُثِيرُه نفْيُ الرَّيبِ عن وُقوعِها مِن أنْ يَتساءلَ مُتسائِلٌ: كيف يُنْفَى الرَّيبُ عنها، والرَّيبُ حاصلٌ لكثيرٍ مِن النَّاسِ؟ فكان الاستدراكُ بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ جَوابًا لذلك السُّؤالِ، والمعنى: ولكنَّ أكثَرَ الناسِ يَمُرُّون بالأدلَّةِ والآياتِ وهم مُعرِضون عن دَلالتِها، فيَبْقَون غيرَ مؤمنينَ بمَدلولاتِها، ولو تأمَّلوا واستَنْبَطوا بعُقولِهم، لَظهَرَ لهم مِن الأدِلَّةِ ما يُؤمِنونَ بعْدَه؛ فلذلك نُفِيَ عنهم هنا وصْفُ الإيمانِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٧٩، ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٦٠-٦٥)

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دَاخِرِينَ﴾: أي: صاغِرينَ أذِلَّاءَ، وأصلُ (دخر): يدُلُّ على الذُّلِّ[1].

﴿تُؤْفَكُونَ﴾: أي: تُصرَفونَ عن الحَقِّ، وتَعدِلونَ عنه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن جِهَتِه[2].

﴿قَرَارًا﴾: أي: مُستقَرًّا، وسَكَنًا، يُقال: قرَّ في مكانِه: إذا ثَبَت ثُبوتًا جامِدًا، وأصلُه يدُلُّ على تمَكُّنٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢).

﴿فَتَبَارَكَ﴾: أي: تعاظَم، وتعالَى، وتقَدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثباتُ الشَّيءِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: وقال رَبُّكم: ادعُوني -أيُّها النَّاسُ- دعاءَ مَسألةٍ ودعاءَ عِبادةٍ؛ أُجِبْ دُعاءَكم، وأتقبَّلْ عبادتَكم، وأُثِبْكم عليها.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى سوءَ عاقبةِ المتكبِّرينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين يَتكَبَّرونَ عن دُعاءِ اللهِ تعالى وعِبادتِه سيَدخُلونَ جَهنَّمَ أذِلَّاءَ صاغِرينَ.

ثمَّ يذكرُ اللهُ تعالى بعضَ نِعَمِه الَّتي أنعَم بها على عِبادِه، فيقولُ: اللهُ هو الَّذي خَلَق لكم اللَّيلَ؛ لِتَسكُنوا وتَستريحوا فيه مِن عَناءِ أشغالِكم في النَّهارِ، وجَعَل اللهُ لكم النَّهارَ مُضيئًا؛ لِتَقضُوا فيه حَوائِجَكم، إنَّ اللهَ لَذُو فَضلٍ على النَّاسِ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ!

ذلِكم اللهُ رَبُّكم الَّذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ، لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا هو سُبحانَه، فكيف تُصرَفونَ عن الإيمانِ به؟! مِثلَ ذلك الصَّرفِ يُصَرفُ أيضًا الَّذين يَجحَدونَ بآياتِ اللهِ كِبْرًا.

اللهُ الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُهَيَّأةً للاستِقرارِ عليها، وجَعَل السَّماءَ بِناءً مَرفوعًا عن الأرضِ، وصَوَّركم فجعَلَكم في أشكالٍ حَسَنةٍ، ورزَقَكم اللهُ مِنَ الطَّيِّباتِ، ذلِكم اللهُ رَبُّكم، فتَبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ، هو سُبحانَه الحَيُّ أزَلًا وأبَدًا، لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا هو وَحْدَه؛ فادعُوه مُخلِصينَ له الدِّينَ. الحَمدُ للهِ رَبِّ العالَمينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّنَ أنَّ القَولَ بالقيامةِ حَقٌّ وصِدقٌ، وكان مِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ الإنسانَ لا ينتفِعُ في يومِ القيامةِ إلَّا بطاعةِ اللهِ تعالى؛ لا جَرَمَ كان الاشتِغالُ بالطَّاعةِ مِن أهَمِّ المهِمَّاتِ، ولَمَّا كان أشرَفُ أنواعِ الطَّاعاتِ الدُّعاءَ والتَّضَرُّعَ؛ لا جَرَمَ أمَرَ اللهُ تعالى به في هذه الآيةِ[1].

وأيضًا لَمَّا كانت المُجادَلةُ في آياتِ اللهِ تَشملُ مُجادلتَهم في وَحدانيَّةِ الإلهيَّةِ، وتَشملُ المُجادَلةَ في وُقوعِ البعثِ؛ أعقَبَ ذِكرَ المجادَلةِ أوَّلًا بقولِه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ ﴾ [غافر: ٥٧]، وذلك استِدلالٌ على إمكانِ البعثِ، ثمَّ عطَفَ عليه قولَه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ الآيةَ؛ تَحذيرًا مِن الإشراكِ به[2].

وأيضًا لَمَّا ذُكِرَ أمْرُ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بدُعاءِ اللهِ وحْدَه أمْرًا مُفرَّعًا على تَوبيخِ المشركينَ بقولِه: ﴿ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ﴾ [غافر: ١٢]، وعلى قولِه عَقِبَ ذلك: ﴿ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ [غافر: ١٣]، وانتقَلَ الكلامُ إثْرَ ذلك إلى الأهمِّ، وهو الأمرُ بإنذارِ المشركينَ بقولِه: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ ﴾ [غافر: ١٨] إلخ، وتَتابَعَت الأغراضُ حتَّى استوفَتْ مُقْتضاها؛ عاد الكلامُ الآنَ إلى ما يَشملُ عِبادةَ المؤمنينَ الخالِصةَ للهِ تعالى، وهو أيضًا مُتَّصِلٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٠، ١٨١).

بقولِه: ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [غافر: ٥٠]؛ فلمَّا تقدَّمَ ذِكرُ الدُّعاءِ بمَعْنيَيه: معنى العِبادةِ، ومعنى سُؤالِ المطلوبِ، أُردِفَ بهذا الأمْرِ الجامعِ لِكِلا المعنيَينِ(١).

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾.

أي: وقال ربُّكم -أيُّها النَّاسُ-: ادعُوني دعاءَ مَسألةٍ ودعاءَ عِبادةٍ؛ أُعْطِكم سُؤْلَكم، وأتَقبَّلْ مِنكم عبادتَكم، وأُثِبْكم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٣)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١٤).

ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ المرادُ به العِبادةُ: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٦).

ومعنى قولِه: ﴿أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ على ذلك القولِ: أي: أُجِبْكم، وأُثِبْكم، وأتقبَّلْ عِبادتَكم، وأغفِرْ لكم، وأعْفُ عنكم وأرحمْكم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥١، ٣٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٦).

ويجوزُ أن يكونَ الدُّعاءُ والاستِجابةُ هنا على ظاهِرِهما. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، فقال: (الدُّعاءُ هنا هو الطَّلبُ والرَّغبةُ، وهذا وعْدٌ مُقيَّدٌ بالمشيئةِ، وهي موافَقةُ القَدَرِ لِمَن أراد أن يَستجيبَ له). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٤).

وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٣).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ، فقال: المرادُ دعاءُ العِبادةِ ودعاءُ المسألةِ: السعديُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) =

عن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾، قال: ((الدُّعاءُ هو العِبادةُ، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾))[1].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن مُسلِمٍ يدعو بدَعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قَطيعةُ رَحِمٍ إلَّا أعطاه اللهُ بها إحدى ثلاثٍ: إمَّا أن تُعجَّلَ له دَعوتُه، وإمَّا أن يَدَّخِرَها له في الآخِرةِ، وإمَّا أن يَصرِفَ

---

= (٢٤/ ١٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١٤).

وبناءً على هذا القولِ تكونُ الاستِجابةُ أُريدَ بها قَبولُ الدعاءِ وإعطاؤُهم سُؤْلَهم، وأيضًا حصولُ أثرِ العِبادةِ وقَبولُها منهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١٤).

وقال ابن القيِّم: (الدُّعاءُ يَتضمَّنُ النَّوعَينِ [أي: دعاءَ العبادةِ، ودعاءَ المسألةِ]، وهو في دعاءِ العِبادةِ أظهَرُ؛ ولهذا عقَّبَه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، فُسِّر الدُّعاءُ في الآيةِ بهذا وهذا). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٣).

وقال ابن تيميَّة: (وكلُّ سائلٍ راغبٍ راهبٍ فهو عابدٌ للمَسؤولِ، وكلُّ عابدٍ له فهو أيضًا راغبٌ وراهبٌ، يَرجو رحمتَه، ويَخافُ عذابَه؛ فكلُّ عابدٍ سائلٌ، وكلُّ سائلٍ عابدٌ، فأحَدُ الاسمَينِ يَتناوَلُ الآخَرَ عندَ تَجرُّدِه عنه، ولكنْ إذا جُمِع بيْنَهما فإنَّه يُرادُ بالسَّائلِ الَّذي يَطلُبُ جَلْبَ المَنفَعةِ ودَفْعَ المَضَرَّةِ بصِيَغِ السُّؤالِ والطَّلَبِ، ويُرادُ بالعابدِ مَن يَطلُبُ ذلك بامتِثالِ الأمرِ وإن لم يكُنْ في ذلك صِيَغُ سؤالٍ). ((الفتاوى الكبرى)) (٥/ ٢٢٠).

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٦٤)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، وأحمد (١٨٣٥٢).

قال الترمذي: (حسَنٌ صَحيحٌ)، وصَحَّحه ابن حِبَّان في ((الصحيح)) (٨٩٠)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ١١٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٨٢٨)، وصَحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((الأذكار)) (٤٧٨)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٨٣٥٢)، وجَوَّده ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١/ ٦٤).

عنه مِنَ السُّوءِ مِثْلَها. قالوا: إذًا نُكثِرُ، قال: اللهُ أَكْثَرُ!))[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَتكَبَّرونَ ويَتعاظَمونَ عن عِبادتي ودُعائي سيَدخُلونَ جَهنَّمَ وهم أذِلَّاءُ صاغِرونَ[٢].

عن عبدِ الله بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((يُحشَرُ المُتكَبِّرونَ يومَ القيامةِ أمثالَ الذَّرِّ[٣] في صُوَرِ الرِّجالِ، يَغْشاهم الذُّلُّ مِن كُلِّ مَكانٍ، فيُساقُونَ إلى سِجنٍ في جَهنَّمَ يُسمَّى بُولَسَ، تَعلوهم نارُ الأنْيارِ[٤]، يُسقَونَ مِن عُصارةِ أهلِ النَّارِ؛ طِينةِ الخَبالِ[٥]))[٦].

---

(١) أخرجه مِن طُرُقٍ: أحمدُ (١١١٣٣) واللَّفظُ له، والحاكم (١٨١٦)، والبيهقي في ((شُعَب الإيمان)) (١١٣٠).

صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحَسَّن الحديثَ ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (١/ ١٧٤)، وذكَرَ ثبوتَه الشَّوكانيُّ في ((فتح القدير)) (١/ ٢٧٤)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٦/ ١٢٢)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب)) (١٦٣٣): (حسَنٌ صحيحٌ)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ١٥١): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ عليِّ بن عليٍّ الرِّفاعيِّ، وهو ثقةٌ). وجوَّد إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٣) أمثالَ الذَّرِّ: أي: مِثلَ الذَّرَّةِ -وهي النَّملةُ الصَّغيرةُ- في الصِّغَرِ والحَقارةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهري (٥/ ٢٥٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٢).

(٤) نارُ الأنْيارِ: أي: نارُ النِّيرانِ، وإضافةُ النَّارِ إليها للمُبالغةِ، كأنَّ هذه النَّارَ لِفَرطِ إحراقِها وشِدَّةِ حَرِّها تَفعَلُ بسائرِ النِّيرانِ ما تَفعَلُ النَّارُ بغَيرِها، أو لأنَّها أصلُ نِيرانِ العالَمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٣).

(٥) طِينةِ الخَبالِ: تفسيرٌ لِما قَبْلَه، وهو اسمُ عُصارةِ أهلِ النَّارِ: وهو ما يَسيلُ منهم مِنَ الصَّديدِ والقَيحِ والدَّمِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٩٣).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٤٩٢) واللفظ له، وأحمد (٦٦٧٧). =

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ٦١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

كأنَّ اللهَ تعالى قال: إنِّي أنعمْتُ عليك قبْلَ طَلَبِك لهذه النِّعَمِ الجَليلةِ العَظيمةِ، ومَن أنعَم قبْلَ السُّؤالِ بهذه النِّعَمِ العاليةِ، فكيف لا يُنعِمُ بالأشياءِ القَليلةِ بعدَ السُّؤالِ[1]؟!

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾.

أي: اللهُ المُستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه هو الَّذي خَلَق لكم اللَّيلَ -أيُّها النَّاسُ-؛ لأجْلِ أن تَستَريحوا فيه مِن حَركةِ وعَناءِ أشغالِكم في النَّهارِ[2].

﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾.

أي: وجَعَلَ اللهُ لكم النَّهارَ مُضيئًا تُبصِرونَ فيه؛ لِتَطلُبوا فيه حوائِجَكم وتَقضُوها[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾

---

= قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وحَسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٩٢)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ١٥٧)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

قال البقاعي: (﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ راحةٌ ظاهِريَّةٌ بالنَّومِ الَّذي هو الموتُ الأصغَرُ، وراحةٌ حقيقيَّةٌ بالعبادةِ الَّتي هي الحياةُ الدَّائِمةُ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

أي: إنَّ اللهَ لَمُتفَضِّلٌ على النَّاسِ كافَّةً، وفضْلُه عليهم كثيرٌ جِدًّا، ومِن فَضلِه أنْ جَعَل اللَّيلَ سَكَنًا، والنَّهارَ مُبصِرًا[١].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ لا يَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه؛ بالاعتِرافِ بها، أو طاعةِ المُنْعِمِ بها، وإخلاصِ العبادةِ له[٢].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ٦٢﴾.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

أي: ذَلِكم المتفَرِّدُ بإجابةِ دُعائِكم، الَّذي جَعَل لكم اللَّيلَ سَكَنًا والنَّهارَ مُبصِرًا: هو وَحْدَه اللهُ المُرَبِّي لكم، والمُحسِنُ إليكم، الذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ[٣].

﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا اللهُ، ولا تَنبغي العِبادةُ إلَّا له سُبحانَه دونَ ما سِواه[٤].

﴿فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ﴾.

أي: فكيف تُصرَفونَ عن الإيمانِ باللهِ وعِبادتِه وَحْدَه إلى عبادةِ غَيرِه، مع قيامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢٢، ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

الأدِلَّةِ على تَوحيدِه[١]؟!

﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الصَّرفِ العَجيبِ عن التَّوحيدِ والإخلاصِ يُصرَفُ أيضًا كُلُّ مَن استَمَرَّ على جُحودِ آياتِ اللهِ عِنادًا ومُكابَرةً، دونَ تأمُّلٍ وتدَبُّرٍ في معانيها ودلائِلِها[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٧].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما امتَنَّ به مِنَ اللَّيلِ والنَّهارِ؛ ذكَرَ أيضًا ما امتَنَّ به مِن جَعلِ الأرضِ مُستَقَرًّا، والسَّماءِ بِناءً[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢٨، ٤٢٩).

قال ابنُ جريرٍ: (يقولُ: كَذَهابِكم عنه أيُّها القَومُ، وانصِرافِكم عن الحقِّ إلى الباطلِ، والرشدِ إلى الضَّلالِ، ذهَب عنه الَّذين كانوا مِن قَبْلِكم مِن الأمَمِ. ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: بحُجَجِ الله وأدِلَّتِه يُكَذِّبون فلا يؤمِنونَ؛ يقول: فسَلَكْتُم أنتم -مَعْشَرَ قُرَيشٍ- مَسْلَكَهم، وركِبْتُم مَحَجَّتَهم في الضَّلالِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٦٩).

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾.

أي: اللهُ الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مَوضِعًا مُهَيَّأً للاستِقرارِ عليه دونَ اضطِرابٍ، فتَتَمَكَّنونَ مِن الإقامةِ والسُّكنى فيها، والمشْيِ عليها، وحَرْثِها وغَرْسِها والبناءِ عليها(١).

﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾.

أي: وجَعَل اللهُ لكم السَّماءَ بِناءً مَرفوعًا وسَقفًا للأرضِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ: ١٢].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لا جَرَمَ أنَّ حِكمةَ اللهِ تعالى الَّتي تَعلَّقَت بإيجادِ ما يَحُفُّ بالإنسانِ مِن العوالَمِ على كيفيَّاتٍ مُلائمةٍ لِحياةِ الإنسانِ وراحَتِه قد تَعلَّقَت بإيجادِ الإنسانِ في ذاتِه على كَيفيَّةٍ مُلائمةٍ له مُدَّةَ بَقاءِ نَوعِه على الأرضِ، وتحْتَ أديمِ السَّماءِ؛ ولذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٤).

قال ابن عاشور: (ويحتملُ أنَّ المعنى: جعَل الأرضَ ذاتَ قرارٍ، أي: قرارٍ لكم، أي: جعَلها مُستقرًّا لكم، كقولِه تعالى: ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، أي: خلَقها على كيفيَّةٍ تلائمُ الاستِقرارَ عليها بأنْ جعَلها يابسةً غيرَ سائلةٍ، ولو شاء لجعَل سطحَ الأرضِ سيَّالًا كالزِّئبَقِ، فلا يَزالُ الإنسانُ سائحًا فيها يَطفو تارةً ويَسيخُ أخرى، فلا يَكادُ يبقَى على تلك الحالةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٠) بتصرف.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٥).

أعقَبَ التَّذكيرَ بما مهَّدَ له مِن خلْقِ الأرضِ والسَّماءِ، بالتَّذكيرِ بأنَّه خلَقَه خلْقًا مُستوفيًا مَصلحتَه وراحتَه[1]، فقال تعالى:

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

أي: خَلَقَكم اللهُ فجعَلَكم في أشكالٍ حَسَنةٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الرِّزقُ شَهوةً في ظاهِرِه، وكان مُشتمِلًا على حِكمةِ إمدادِ الجسْمِ بوَسائلِ تَجديدِ قُواهُ الحيويَّةِ، وكان في قولِه: ﴿وَرَزَقَكُمْ﴾ إيماءٌ إلى نِعمةِ طُولِ الوُجودِ، فلمْ يكُنِ الإنسانُ مِن الموجوداتِ الَّتي تَظهَرُ على الأرضِ، ثمَّ تَضْمحِلُّ في زمَنٍ قريبٍ؛ جمَعَ له بيْنَ حُسنِ الإيجادِ وبيْنَ حُسنِ الإمدادِ، فجعَلَ ما به مَدَدُ الحياةَ -وهو الرِّزقُ- مِن أحسَنِ الطَّيِّباتِ، على خِلافِ رِزقِ بقيَّةِ أنواعِ الحيوانِ[3].

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: ورزَقَكم اللهُ مِنَ الأرزاقِ الشَّهيَّةِ اللَّذيذةِ النَّافِعةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٥، ٤٣٦).

=

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾.

أي: ذَلِكم الَّذي فعَل هذه الأفعالَ وأنعَمَ عليكم بهذه النِّعَمِ هو اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه دونَ غَيرِه، وهو وَحْدَه رَبُّكم الخالِقُ الرَّازِقُ، المالِكُ المدَبِّرُ لجَميعِ شُؤونِكم[1].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: فتَعالَى وتَقَدَّس، وكَثُر خَيرُه وإحسانُه: اللهُ خالقُ ومالكُ ورازقُ ومُدَبِّرُ جميعِ الخَلقِ، الَّذي يُربِّيهم بنِعَمِه وإحسانِه[2].

---

= قال السعدي: (هذا شامِلٌ لكُلِّ طَيِّبٍ؛ من مأكَلٍ ومَشرَبٍ ومَنكَحٍ، ومَلبَسٍ ومَنظَرٍ ومَسمَعٍ... وغيرِ ذلك من الطَّيِّباتِ الَّتي يسَّرَها اللهُ لعِبادِه، ويسَّرَ لهم أسبابَها، ومنَعَهم مِن الخبائِثِ الَّتي تُضادُّها، وتَضُرُّ أبدانَهم وقُلوبَهم وأديانَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٦).

قال ابن عثيمين: (قولُه: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال العلماءُ: العالَمُ كلُّ مَن سِوى الله). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥٢). =

﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۗ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٥ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي له الحَياةُ الكامِلةُ المُستَلزِمةُ للصِّفاتِ الكامِلةِ؛ فلم يَسبِقْ حياتَه سُبحانَه عَدَمٌ، ولا يَلحَقُها زَوالٌ؛ فهو أزَلًا وأبَدًا حَيٌّ لا يموتُ، لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه سُبحانَه، فلا مِثْلَ له، ولا نَظيرَ له[1].

﴿ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾.

أي: فادعُوا اللهَ وَحْدَه مُخلِصينَ له بلا رِياءٍ، غيرَ مُشرِكينَ به شَيئًا مِن خَلْقِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢].

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: الحمدُ للهِ[3]، .....

---

= وقال ابن عاشور: (﴿ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ خالِقُ أجناسِ العقلاءِ مِن النَّاسِ والملائكةِ والجِنِّ... وهم أشرفُ أجناسِ الموجوداتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٢).

وذكر الشنقيطي أنَّ قولَه تعالى: ﴿ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ بيَّنه اللهُ سبحانَه في موضعٍ آخَرَ بقولِه: ﴿ قَالَ فِرۡعَوۡنُ وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآ ﴾ [الشعراء: ٢٣، ٢٤]. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٩-٤٥١).

(٣) الحَمدُ هو وصفُ المحمودِ بالكمالِ على وجهِ المحبةِ والتعظيمِ. واللامُ في قولِه: ﴿ لِلَّهِ ﴾ للاختِصاصِ -لأنَّ الحمدَ المطلقَ لا يصِحُّ إلَّا لله وحدَه- والاستحقاقِ؛ لأنَّ المستحِقَّ =

خالقِ جميعِ الخَلْقِ ومالكِهم ومُدَبِّرِهم[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ فيه دَليلٌ على طَلَبِ اللهِ مِن عِبادِه أن يَدعُوه في حاجاتِهم[٢]، وهذا مِن لُطفِه بعِبادِه، ونِعمتِه العَظيمةِ؛ حيثُ دعاهم إلى ما فيه صَلاحُ دِينِهم ودُنياهم، وأمَرَهم بدُعائِه دُعاءَ العِبادةِ، ودُعاءَ المسألةِ، ووعَدَهم أن يَستجيبَ لهم، وتوعَّدَ مَن استكبَرَ عنها[٣]. قال طاووسٌ لِعَطاءٍ: (إيَّاك أن تَطلُبَ حوائجَك إلى مَن غلَّق دونَك أبوابَه، وجعَل دُونَها حُجَّابَه، وعليك بمَن أمَرَك أن تَسألَه، ووعَدَك الإجابةَ)[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ هذا تَنبيهٌ مِن اللهِ

---

= للحَمدِ حقيقةً هو الله عزَّ وجلَّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٩-٤٥١).

قال ابن عاشور: (يجوزُ أن تكونَ إنشاءً للثَّناءِ على الله... أي: قائِلينَ: الحَمدُ لله رَبِّ العالَمينَ، أو قولوا: الحَمدُ لله رَبِّ العالَمينَ... ويجوزُ أن تكونَ كلامًا مُستأنفًا أريدَ به إنشاءُ الثَّناءِ على اللهِ مِن نَفسِه؛ تَعليمًا للنَّاسِ كيف يَحمَدونَه... وعندي: أنَّه يجوزُ أن يكونَ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ مَصدرًا جيءَ به بدلًا مِن فِعلِه على معنى الأمرِ، أي: احمَدوا اللهَ رَبَّ العالَمينَ، وعَدَل به عن النَّصبِ إلى الرَّفعِ؛ لِقَصدِ الدَّلالةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٠).

(٤) يُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نُعَيم (٨/ ١٤١).

تعالى على آياتٍ وعِبَرٍ متى تأمَّلَها العاقِلُ أدَّتْه إلى توحيدِ اللهِ، وعبادتِه وحْدَه[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۞ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ۞ كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَدبَّرْ هذه الآياتِ الكريماتِ الدَّالَّةَ على سَعةِ رحمةِ اللهِ تعالى، وجَزيلِ فَضلِه، ووُجوبِ شُكرِه، وكَمالِ قُدرتِه، وعظيمِ سُلطانِه، وسَعةِ مُلكِه، وعُمومِ خَلْقِه لجَميعِ الأشياءِ، وكَمالِ حياتِه، واتِّصافِه بالحَمدِ على كُلِّ ما اتَّصَف به مِن الصِّفاتِ الكامِلةِ، وما فعَلَه مِن الأفعالِ الحَسَنةِ، وتمامِ رُبوبيَّتِه، وانفرادِه فيها، وأنَّ جميعَ التَّدبيرِ في العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ في ماضي الأوقاتِ وحاضِرِها ومُستَقبَلِها: بيَدِ اللهِ تعالى، ليس لأحَدٍ مِن الأمرِ شَيءٌ، ولا مِن القُدرةِ شَيءٌ؛ فيَنتُجَ من ذلك أنَّه تعالى المألوهُ المعبودُ وَحْدَه، الَّذي لا يَستَحِقُّ أحَدٌ سِواه مِن العُبوديَّةِ شَيئًا، كما لم يَستَحِقَّ مِن الرُّبوبيَّةِ شَيئًا، ويَنتُجَ مِن ذلك امتِلاءُ القُلوبِ بمعرفةِ اللهِ تعالى ومحبَّتِه، وخَوفِه ورَجائِه، وهذان الأمْرانِ -وهما مَعرفتُه وعِبادتُه- هما اللَّذانِ خَلَق اللهُ الخَلْقَ لأجْلِهما، وهما الغايةُ المقصودةُ منه تعالى لعبادِه، وهما المُوصِلانِ إلى كُلِّ خَيرٍ وفَلاحٍ وصَلاحٍ، وسَعادةٍ دُنيويَّةٍ وأُخرويَّةٍ، وهما أشرَفُ عطايا الكريمِ لعِبادِه، وهما أشرَفُ اللَّذَّاتِ على الإطلاقِ، وهما اللَّذانِ إنْ فاتا فات كُلُّ خَيرٍ، وحَضَر كُلُّ شَرٍّ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن قياسِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ بأعمالِ العِبادِ، بمعنى أنَّه إذا قيل لشَخصٍ: هذا حرامٌ، فلا يَنْبغي له أن يقولَ: إنَّ كلَّ النَّاسِ يَفعلُه! ولا أن يَجعَلَ المعيارَ أعمالَ النَّاسِ، فهذا خطأٌ؛ فأعمالُ النَّاسِ ليست بحُجَّةٍ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، فالحُجَّةُ فيما قاله اللهُ ورسولُه ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، إذَنْ لا يجوزُ أنْ نَجعَلَ أعمالَ النَّاسِ مِعيارًا للأحكامِ الشَّرعيَّةِ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ فيه أنَّ كُلَّ مَن جَحَد بآياتِ اللهِ ولم يَتأمَّلْها، ولم يكُنْ فيه هِمَّةٌ لِطَلبِ الحَقِّ وخَوفِ العاقِبةِ؛ أُفِكَ كما أُفِكوا[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤۡفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ أنَّ الذُّنوبَ تَحولُ بيْنَ الإنسانِ وبينَ رؤيةِ الحقِّ؛ لأنَّ هؤلاء لَمَّا جَحَدوا بآياتِ اللهِ صُرِفوا عنه[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي: اقصِدوا بكُلِّ عِبادةٍ ودُعاءٍ وعَمَلٍ وَجْهَ اللهِ تعالى؛ فإنَّ الإخلاصَ هو المأمورُ به، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥][٤]، فدلَّ قولُه: ﴿فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ على وُجوبِ الإخلاصِ للهِ عزَّ وجلَّ في العبادةِ والدُّعاءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥٣).

٨- قولُه تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فيه عُمومُ رُبوبيَّةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويَتَفَرَّعُ على ذلك أنَّه يجبُ أنْ يَقوَى اعتِمادُ الإنسانِ على اللهِ في جَلْبِ المنافعِ، ودَفْعِ المَضارِّ؛ لأنَّه إذا كان اللهُ عزَّ وجلَّ هو ربَّ العالَمينَ فهو مُسيطرٌ على كلِّ العالَمينَ، وله السُّلطانُ على كلِّ العالَمينَ، ويَتَفَرَّعُ على ذلك أيضًا مسألةٌ أخرَى: وهي اللُّجوءُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ عندَ حصولِ المُضايقاتِ مِن بني آدَمَ أو غيرِ بني آدَمَ؛ لأنَّه سبحانَه ربُّ العالَمينَ؛ بيدِه الأمرُ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن بُشرَى الإنسانِ أنْ يُوفَّقَ للعبادةِ، فمَنْ وُفِّق للعبادةِ على ما يُرضي اللهَ تعالى فهي بُشرَى بالقبولِ، كما أنَّ مَن وُفِّقَ للدُّعاءِ فهو بُشرَى بالإجابةِ؛ قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ظاهِرٌ في تَرجيحِ الدُّعاءِ على التَّفويضِ والاستِسلامِ للقضاءِ، فالدُّعاءُ مِن أعظَمِ العبادةِ، وقد توارَدَت الآثارُ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّرغيبِ فيه، والحثِّ عليه[3].

٣- الدُّعاءُ سببٌ مُقْتضٍ للإجابةِ معَ استِكمالِ شرائطِه، وانتِفاءِ مَوانِعِه، وقد تَتخلَّفُ إجابتُه؛ لانتِفاءِ بعضِ شروطِه، أو وُجودِ بعضِ موانعِه[4]، أو لِمَصلحةِ الدَّاعي، فأمَّا إذا تمَّتِ الشُّروطُ وانتَفتِ الموانعُ ولم تَقتَضِ المَصلحةُ خِلافَ ما دعا به الدَّاعي؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَستجيبُ الدُّعاءَ قطعًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٠٢).

أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الدُّعاءَ عِبادةٌ يُثابُ عليه الدَّاعي؛ فقد سمَّاه عِبادةً[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٥- مِن الشِّركِ أنْ يدعوَ العبدُ غيرَ اللهِ؛ وذلك لأنَّ الدُّعاءَ مِن العبادةِ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، و﴿عِبَادَتِي﴾ أي: دعائي؛ فسمَّى اللهُ الدُّعاءَ عِبادةً، وقال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الدُّعاءُ هو العِبادةُ))[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أنَّ الكِبْرَ المُباينَ للإيمانِ لا يَدخُلُ صاحِبُه الجنَّةَ، ومِن هذا كِبرُ إبليسَ وكِبرُ فِرعَونَ وغيرِهما مِمَّن كان كِبرُه مُنافيًا للإيمانِ، وكذلك كِبرُ اليَهودِ، وأيضًا الَّذين أخبرَ اللهُ عنهم بقَولِه تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، والكِبرُ كلُّه مُباينٌ للإيمانِ الواجِبِ؛ فمَنْ في قلبِه مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ لا يَفعَلُ ما أوجَبَ اللهُ عليه، ولا يَترُكُ ما حَرَّمَ عليه، بل كِبرُه يُوجِبُ له جَحْدَ الحقِّ، واحتِقارَ الخَلقِ، وهذا هو الكِبرُ الَّذي فَسَّره النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيث قال: ((الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وغَمْطُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٣٩).

قال ابنُ تيميَّة: (الدُّعاءُ في اقتِضائِه الإجابةَ كسائرِ الأعمالِ الصَّالحةِ في اقتِضائِها الإثابةَ، وكسائرِ الأسبابِ في اقتِضائِها المُسبَّباتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٣/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٠).

والحديث تقدَّم تخريجُه (ص: ٣١٠).

النَّاسِ))[١]، وبَطَرُ الحَقِّ: جَحْدُه ودَفْعُه. وغَمْطُ النَّاسِ: ازدِراؤُهم واحتِقارُهم، فمَنْ في قَلبِه مِثقالُ ذرَّةٍ مِن هذا يُوجِبُ له أنْ يَجحَدَ الحقَّ الَّذي يَجِبُ عليه أن يُقِرَّ به، وأن يَحتَقِرَ النَّاسَ فيَكونَ ظالِمًا لهم مُعتَديًا عليهم؛ فمَن كان مُضَيِّعًا للحَقِّ الواجبِ ظالِمًا للخَلقِ: لم يكُنْ مِن أهلِ الجنَّةِ ولا مُستَحِقًّا لها، بل يكونُ مِن أهلِ الوعيدِ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، يعني: أنَّ العُقوبةَ تُقابِلُ الجُرمَ؛ لأنَّهم لَمَّا استكبَروا في الدُّنيا أُدخِلوا النَّارَ صاغِرينَ في الآخِرةِ[٣].

٨- تَعليلُ أحكامِ اللهِ القَدَريَّةِ -كما هو ثابتٌ في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ- يعني: أنَّ أحكامَ اللهِ الكَونيَّةَ لا يُمكِنُ أنْ تكونَ إلَّا لحِكمةٍ؛ تُؤخَذُ مِن: ﴿لِتَسۡكُنُواْ﴾، واللَّامُ للتَّعليلِ، إذَنْ جَعَلَ اللهُ ذلك لِنَسكُنَ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ وُجوبُ شُكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ والإشارةُ إلى أنْ يكونَ هذا الشُّكرُ مِن جنسِ الفضلِ، فشُكْرُ صاحبِ المالِ لربِّه هو أنْ يُنْفِقَه في سبيلِ اللهِ، وشُكْرُ العِلمِ بَذْلُه، وشُكْرُ مَن أعطاه اللهُ شجاعةً وقوَّةً بَدَنيَّةً -والجهادُ قائمٌ- أنْ يُجاهِدَ في سبيلِ اللهِ، إذًا الشكرُ مِن جنسِ النِّعَمِ[٥].

١٠- قَولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بعدَ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢٦).

فيه بناءُ توحيدِ الألوهيَّةِ على توحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو، أي: لا تَعبُدوا إلَّا إيَّاه[١].

١١- قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، فدَلَّ هذا على أنَّ كُلَّ مَن تكَبَّرَ عن حَقٍّ فأنكَرَه مع عِلْمِه به، عُوقِبَ بمَسخِ القَلبِ وعَكْسِ الفَهمِ؛ فصار له الصَّرفُ عن وُجوهِ الدَّلائِلِ إلى أقفائِها دَيْدَنًا، بحيث يموتُ كافِرًا إنْ لم يَتدارَكْه اللهُ برَحمةٍ منه[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ هذا أصلٌ عَظيمٌ في الأخلاقِ العِلميَّةِ؛ فإنَّ العُقولَ الَّتي تَتخَلَّقُ بالإنكارِ والمُكابَرةِ قبْلَ التَّأمُّلِ في المعلوماتِ: تُصرَفُ عن انكِشافِ الحقائِقِ العِلميَّةِ، فتَختَلِطُ عليها المعلوماتُ، ولا تُميِّزُ بيْنَ الصَّحيحِ والفاسِدِ[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ تحريمُ التَّصويرِ؛ فإنَّ مَن صَوَّرَ فقد نازَعَ اللهَ تعالى فيما هو مِن اختِصاصِه وهو الخَلْقُ، ولهذا جاء في الحديثِ: ((إنَّ أصحابَ هذه الصُّوَرِ يُعذَّبونَ يومَ القيامةِ، ويُقالُ لهم: أَحيوا ما خَلَقْتُم))[٤]، وهذا هو الصَّحيحُ أنَّ التَّصويرَ حرامٌ؛ بل هو مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَعَنَ فاعِلَه، فأمَّا الصُّورةُ التِّمثاليَّةُ فهذه لا شكَّ في تحريمِها، وكذلك التَّصويرُ باليدِ الصَّحيحُ أنَّه حرامٌ، أمَّا التَّصويرُ بالالتِقاطِ (التَّصوير الفوتوغرافي) فمُختلَفٌ فيه بيْنَ المتأخِّرينَ اختلافًا كبيرًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٨، ١٨٩).

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٥٧)، ومسلم (٢١٠٧) من حديث عائشةَ رضي الله عنها.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٠). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) =

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ إذا أردْتَ أن تَعرِفَ حُسنَ الآدَميِّ وكَمالَ حِكمةِ اللهِ تعالى فيه، فانظُرْ إليه عُضوًا عُضوًا: هل تجِدُ عُضوًا مِن أعضائِه يَليقُ به ويَصلُحُ أن يكونَ في غيرِ مَحلِّه؟! وانظُرْ أيضًا إلى المَيلِ الَّذي في القُلوبِ بَعضِهم لِبَعضٍ: هل تجِدُ ذلك في غيرِ الآدَميِّينَ؟! وانظُرْ إلى ما خَصَّه اللهُ به مِنَ العَقلِ والإيمانِ، والمحبَّةِ والمَعرِفةِ؛ الَّتي هي أحسَنُ الأخلاقِ المُناسِبةِ لأجمَلِ الصُّوَرِ[1].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، فإن وُجِد بعضُ النَّاسِ قبيحَ المنظرِ، فلا يُخرِجُه ذلك عن حُسنِ الصُّورةِ الإنسانيَّةِ، وإنَّما هو قبيحٌ بالنَّظرِ إلى مَن هو أحسَنُ منه مِن النَّاسِ[2].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ كلَّ المخلوقاتِ آيةٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فالعالَمونَ كلُّ مَن سِوى اللهِ تعالى، وهم سُمُّوا بذلك لأنَّهم عَلَمٌ على خالِقِهم جلَّ وعلا[3].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أنَّ الإجابةَ مُشترَطةٌ بالإخلاصِ[4].

---

= للشنقيطي (٣/ ٦، ٤٤٦-٤٤٧).

قال ابن عثيمين عن التصويرِ الفوتوغرافي: (والَّذي يَتبيَّنُ لي أنَّه لا يدخُلُ في التَّصويرِ؛ لأنَّ هذا لم يخلقْ بيدِه كما خلَق اللهُ عزَّ وجلَّ... فإن كان لغرَضٍ مُباحٍ فهو مُباحٌ، وإن كان لغرَضٍ مُحرَّمٍ فهو مُحرَّمٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤١، ٤٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٩٥).

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ فضْلِ الدُّعاءِ[1].

- والاستِجابةُ تُطلَقُ على إعطاءِ المَسؤولِ لِمَن سألَه، وهو أشهَرُ إطلاقِها، وتُطلَقُ على أثَرِ قَبولِ العِبادةِ بمَغفرةِ الشِّركِ السَّابقِ، وبحُصولِ الثَّوابِ على أعمالِ الإيمانِ؛ فإفادةُ الآيةِ على معنى طَلَبِ الحاجةِ مِن اللهِ يُناسِبُ تَرتُّبَ الاستِجابةِ على ذلك الطَّلبِ مُعلَّقًا على مَشيئةِ اللهِ، أو على استيفاءِ شُروطِ قَبولِ الطَّلبِ، وإعطاءِ خَيرٍ منه في الدُّنيا، أو إعطاءِ عِوَضٍ منه في الآخرةِ. وإفادتُها على معنَى إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، أي: بأنْ يَتوبوا عن الشِّركِ؛ فتَرتُّبُ الاستِجابةِ هو قَبولُ ذلك؛ فإنَّ قَبولَ التَّوبةِ مِن الشِّركِ مَقطوعٌ به. فلمَّا جَمَعَت هذِه الآيةُ بيْن الفِعلَينِ على تَفاوُتٍ بيْن شُيوعِ الإطلاقِ في كِلَيهما، عَلِمْنا أنَّ في المعنى المرادِ ما يُشْبِهُ الاحتباكَ[2]؛ بأنْ صُرِّحَ بالمعنى المشهورِ في كِلا الفِعلَينِ، ثمَّ أُعقِبَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، فعَلِمْنا أنَّ المرادَ الدُّعاءُ والعِبادةُ، وأنَّ الاستِجابةَ أُرِيدَ بها قَبولُ الدُّعاءِ، وحُصولُ أثَرِ العبادةِ؛ ففِعلُ ﴿ٱدْعُونِيٓ﴾ مُستعمَلٌ في مَعْنَيَيْه بطَريقةِ عُمومِ المشترَكِ[3].

وعلى القولِ بأنَّ الدُّعاءَ المرادُ به: العبادةُ ففي قولِه: ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ مُشاكَلةٌ؛

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٤، ٥٠٥).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٢).

لأنَّ الإثابةَ مُترتِّبةٌ عليها[١].

- وتَعريفُ اللهِ بوَصْفِ الرَّبِّ مُضافًا إلى ضَميرِ المخاطَبينَ ﴿رَبُّكُمُ﴾؛ لِما في هذا الوصْفِ وإضافتِه مِن الإيماءِ إلى وُجوبِ امتِثالِ أمْرِه؛ لأنَّ مِن حقِّ الرُّبوبيَّةِ امتثالَ ما يَأمُرُ به مَوصوفُها؛ لأنَّ المَربوبَ مَحقوقٌ بالطَّاعةِ لِربِّه؛ ولهذا لم يُعرَّجْ مع هذا الوصفِ على تَذكيرٍ بنِعمتِه، ولا إشارةٍ إلى كَمالاتِ ذاتِه[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ تَعليلٌ للأمرِ بالدُّعاءِ تَعليلًا يُفيدُ التَّحذيرَ مِن إبايةِ دُعاءِ اللهِ حِينَ الإقبالِ على دُعاءِ الأصنامِ، وكان المشْرِكونَ لا يَضَّرَّعون إلى اللهِ إلَّا إذا لم يَتوسَّموا استِجابةَ شُركائِهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡ﴾ [الإسراء: ٦٧]، ومعنى التَّعليلِ للأمْرِ بالدُّعاءِ بهذا التَّحذيرِ: أنَّ اللهَ لا يُحِبُّ لِعبادِه ما يُفْضي بهم إلى العَذابِ؛ ففي الآيةِ دَليلٌ على طَلَبِ اللهِ مِن عِبادِه أنْ يَدعُوه في حاجاتِهم، وفي الإتيانِ بالموصولِ إيماءٌ إلى التَّعليلِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الجلالةِ بدَلًا مِن ﴿رَبُّكُمۡ﴾ في ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ﴾ [غافر: ٦٠]؛ أُتبِعَ ﴿رَبُّكُمۡ﴾ بالاسمِ العَلَمِ لِيُقْضى بذلك حَقَّانِ: حقُّ استِحقاقِه أنْ يُطاعَ بمُقْتضى الرُّبوبيَّةِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٤، ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٢، ١٨٣).

والعُبوديَّةِ، وحقُّ استِحقاقِه الطَّاعةَ لِصِفاتِ كَمالِه الَّتي يَجمَعُها اسمُ الذَّاتِ؛ ولذلك لم يُؤْتَ معَ وَصْفِ الرَّبِّ المتقدِّم بشَيءٍ مِن ذِكرِ نِعَمِه ولا كَمالاتِه؛ اجتزاءً بمُقْتَضَى حقِّ الرُّبوبيَّةِ، وذُكِرَ مع الاسمِ العَلَمِ بعضُ إنعامِه وإفضالِه، ثمَّ وُصِفَ الاسمُ بالمَوصولِ وصِلَتِه؛ إشارةً إلى بَعضِ صِفاتِه، وإيماءً إلى وَجْهِ الأمْرِ بعِبادتِه، وتكونَ الجُملةُ استئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن تَقْويةِ الأمْرِ بدُعائِه.

ويجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الجلالةِ مُبتدَأً، والموصولُ صِفةً له، ويكونَ الخبَرُ قولَه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ [غافر: ٦٤]، ويكونَ جُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ﴾ مُعترِضةً، أو أنْ يكونَ اسمُ الجلالةِ مُبتدَأً، والموصولُ خبَرًا، واعتبارُ الجُملةِ مُستأنَفةً، وهو أحسَنُ مِن اعتبارِ اسمِ الجلالةِ بَدَلًا؛ لأنَّه أنسَبُ بالتَّوقيفِ على سُوءِ شُكْرِهم، وبمَقامِ تَعدادِ الدَّلائلِ، وأسعَدُ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ [غافر: ٦٤]، فتكونَ الجُملةُ واقِعةً مَوقعَ التَّعليلِ لِجُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: تَسبَّبوا لأنفُسِهم بذلك العِقابِ؛ لأنَّهم كَفَروا نِعمةَ اللهِ؛ إذ جَعَل لهم اللَّيلَ والنَّهارَ. وعلى هذه الاعتِباراتِ كلِّها فقد سجَّلَت هذه الآيةُ على النَّاسِ تَقسيمَهم إلى شاكرِ نِعمةٍ، وكَفُورِها، كما سجَّلَت عليهم الآيةُ السَّابِقةُ تَقسيمَهم إلى مُؤمنٍ بوَحدانيَّةِ اللهِ، وكافرٍ بها[1].

- وهذه الآيةُ للتَّذكيرِ بنِعمةِ اللهِ تعالى على الخلْقِ، كما اقتَضاهُ لامُ التَّعليلِ في قولِه: ﴿لَكُمُ﴾، واقتضاهُ التَّذييلُ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾، وأُدمِجَ في التَّذكيرِ بالنِّعمةِ استِدلالٌ على انفِرادِه تعالى بالتَّصرُّفِ بالخلْقِ والتَّدبيرِ الَّذي هو مُلازِمٌ حَقيقةَ الإلهيَّةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٣، ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٨٤).

- وفي قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ ابتُدِئَ الاستدلالُ بدَلائلِ الأكوانِ العُلْويَّةِ وآثارِها الواصِلةِ إلى الأكوانِ السُّفليَّةِ، وهي مَظهَرُ النِّعمةِ باللَّيلِ والنَّهارِ؛ فهما تَكوينانِ عَظيمانِ دالَّانِ على عَظيمِ قُدْرةِ مُكوِّنِهما ومُنظِّمِهما، وجاعِلِهما مُتعاقِبَينِ، فنِيطَتْ بهما أكثرُ مَصالحِ هذا العالَمِ ومَصالحِ أهْلِه[1].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾ أُسنِدَ الإبصارُ إلى النَّهارِ؛ للتَّنويهِ بشَأْنِ إبصارِ النَّاسِ في الضِّياءِ، وكَثرةِ الفوائدِ الحاصِلةِ لهم مِن ذلك؛ لِقُوَّةِ الملابَسةِ بيْنَ الأفعالِ وزَمانِها، فأُسنِدَ إبصارُ النَّاسِ إلى نفْسِ النَّهارِ؛ لأنَّه سبَبُ بَعضِه، وسَببُ كَمالِ بعضٍ آخَرَ. فأمَّا نِعمةُ السُّكونِ في اللَّيلِ فهي نِعمةٌ واحدةٌ؛ هي رُجوعُ النَّشاطِ. وفي ذِكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ تَذكيرٌ بآيةٍ عَظيمةٍ مِن المخلوقاتِ، وهي الشَّمسُ الَّتي يَنشَأُ اللَّيلُ مِن احتِجابِ أشِعَّتِها عن نِصفِ الكُرةِ الأرضيَّةِ، ويَنشَأُ النَّهارُ مِن انتِشارِ شُعاعِها على النِّصفِ المقابِلِ مِن الكُرةِ الأرضيَّةِ، ولكنْ لَمَّا كان المَقصدُ الأوَّلُ مِن هذه الآيةِ الامتنانَ، ذُكِرَ اللَّيلُ والنَّهارُ دونَ الشَّمسِ، وقد ذُكِرَت الشَّمسُ في آياتٍ أُخرى كان الغرَضُ الأهمُّ منها الدَّلالةَ على عَظيمِ القُدرةِ والوَحدانيَّةِ، كقولِه: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]. ودلَّت مُقابَلةُ تَعليلِ إيجادِ اللَّيلِ بعِلَّةِ سُكونِ النَّاسِ فيه بإسنادِ الإبصارِ إلى ذاتِ النَّهارِ -وإنَّما المُبصِرونَ النَّاسُ في النَّهارِ- على احتباكٍ[2]؛ إذ يُفهَمُ مِن كِلَيهما أنَّ اللَّيلَ ساكنٌ أيضًا، وأنَّ النَّهارَ خُلِقَ لِيُبصِرَ النَّاسُ فيه؛ إذ المِنَّةُ بهما سواءٌ، فهذا مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٤).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٧١).

بَديعِ الإيجازِ، ولم يُعكَسْ فيُقَلْ: (جعَلَ لكمُ اللَّيلَ ساكنًا والنَّهارَ لِتُبْصِروا فيه)؛ لئلَّا تَفوتَ صَراحةُ المرادِ مِن السُّكونِ؛ كيْلَا يُتوهَّمَ أنَّ سُكونَ اللَّيلِ هو شِدَّةُ الظَّلامِ فيه كما يُقالُ: لَيلٌ ساجٍ؛ لِقِلَّةِ الأصواتِ فيه[١].

- وقيل: قدَّم ذِكْرَ اللَّيلِ على ذِكْرِ النَّهارِ معَ أنَّ النَّهارَ أشرَفُ مِن اللَّيلِ؛ لأنَّ الظُّلمةَ طبيعةٌ عَدَمِيَّةٌ، والنُّورَ طبيعةٌ وُجودِيَّةٌ، والعدَمُ في المُحْدَثاتِ مُقَدَّمٌ على الوُجودِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ اعتِراضٌ، وهو كالتَّذييلِ لِجُملةِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا﴾؛ لأنَّ الفضْلَ يَشملُ جعْلَ اللَّيلِ والنَّهارِ وغيرِ ذلك مِن النِّعَمِ، ولأنَّ (النَّاسَ) يَعُمُّ المخاطَبينَ بقولِه: ﴿جَعَلَ لَكُمُ﴾ وغيرَهم مِن النَّاسِ[٣].

- وتَنكيرُ ﴿فَضۡلٍ﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ نِعَمَ اللهِ تعالى عظيمةٌ جَليلةٌ، وأنْ يُجعَلَ فضْلًا لا يُوازيه فضْلٌ؛ ولذلك قال: ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾، ولم يقُلْ: لَمُتفضِّلٌ، ولا: لَمُفضِلٌ، فعُدِلَ إلى إضافةِ (ذو) إلى (فضْل)؛ لِتأتِّي التَّنكيرِ المُشعِرِ بالتَّعظيمِ، وعُدِلَ عن نَحْوِ: له فضْلٌ، إلى ﴿لَذُو فَضۡلٍ﴾؛ لِما يَدلُّ عليه (ذو) مِن شَرَفِ ما يُضاف هو إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٦).

- والاستِدراكُ بـ (لكنَّ) في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ ناشئٌ عن لازِمِ ﴿لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾؛ لأنَّ الشَّأنَ أنْ يَشكُرَ النَّاسُ ربَّهم على فضْلِه، فكان أكثَرُهم كافرًا بنِعَمِه، وأيُّ كُفرٍ للنِّعمةِ أعظَمُ مِن أنْ يَترُكوا عِبادةَ خالِقِهم المتفضِّلِ عليهم ويَعْبُدوا ما لا يَملِكُ لهم نفْعًا ولا ضَرًّا؟! وخرَجَ بقولِه: ﴿أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ الأقلُّ، وهم المؤمِنون؛ فإنَّهم أقلُّ ﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾[1] [المائدة: ١٠٠].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ وضْعُ الظاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ فقد كان السِّياقُ يَقْتضي أنْ يُقالَ: (ولكنَّ أكثَرَهم لا يَشكُرون)، فلا يَتكرَّرُ ذِكرُ النَّاسِ، ولكنْ في هذا التَّكريرِ تَخصيصٌ لِكُفرانِ النِّعمةِ بهم، وأنَّهم هم الَّذين يَكفُرونَ فضْلَ اللهِ ولا يَشكُرونَه، وأنَّهم هم المُتميِّزونَ بهذه الصِّفةِ المنبوَّةِ على الطِّباعِ؛ تَتوالى عليهم النِّعَمُ، وتَترادَفُ الآلاءُ، ويَتهيَّأُ لهم كلُّ ما يَصْبُون إليه مِن مَناعِمِ العَيشِ، وهم مُصِرُّون على الجُحودِ والنُّكرانِ! أَلَيْسَتْ هذه سِمَةَ النَّاسِ في مُختلِفِ الظُّروفِ والأحوالِ[2]؟!

- وفي قولِه تعالَى: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۞ وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٧، ٥٨]، وبعْدَه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٠٧).

دَاخِرِينَ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [غافر: ٥٩ - ٦١]، ثمَّ بعْدَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر: ٦١]: مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ اختلَفَت المواضعُ الثَّلاثةُ الَّتي جاء فيها ﴿لَا يَعْلَمُونَ ﴾، ثمَّ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، ثمَّ ﴿لَا يَشْكُرُونَ ﴾؛ وذلك أنَّ مَن أقرَّ بخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وأنكَرَ الإعادةَ والبعثَ نُبِّهَ على أنْ يَعلَمَ أنَّ مَن قدَرَ على الأكبَرِ قادرٌ على الأصغَر، وهذا مَوضعٌ يَفتقِرُ إلى العِلمِ الَّذي نَفاهُ عمَّن لمْ يُقِرَّ به، فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، فاختُصَّ هذا الموضعُ بنَفْيِ العِلمِ، والعِلمُ هو المحتاجُ إليه، والمبعوثُ عليه. وأمَّا قولُه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩] فإنَّ مَن أنكَرَ البعثَ فهو مُحتاجٌ إلى الإيمانِ به بعْدَ عِلْمِه أنَّ القادرَ على خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ قادرٌ على أنْ يَخلُقَ مِثلَهم. وأمَّا قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [غافر: ٦١] فمَن كان للهِ فضْلٌ عليه، فهو مُحتاجٌ إلى أنْ يُؤدِّيَ حقَّه بالشُّكرِ، فقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾، أي: لا يُقابِلون نِعمةَ اللهِ عليهم بما يَسْتديمُها لهم مِن الشُّكرِ الَّذي يَربِطُها لَديهم، بهذا بان أنَّ كلَّ ما خُتِمَت به آيةٌ هو في مَكانِه اللَّائقِ به[1].

- ومِن المناسَبةِ أيضًا قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾، وقال في سُورةِ (يُونسَ): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٣٢-١١٣٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٠)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٢، ٥٠٣).

فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٠]، فأظهَرَ (النَّاسَ) في مَوضعِ الإضمارِ في سُورةِ (غافرٍ)، وأضمَرَ في مَوضعِ الإظهارِ في سُورةِ (يُونسَ)؛ وذلك لِمُناسَبةٍ حَسَنةٍ: وهي أنَّ كلَّ مَوضعٍ يَحتمِلُ الإضمارَ لِقُرْبِ الذِّكرِ، ويَحتمِلُ الإظهارَ لِتَعظيمِ الأمْرِ، وذِكرُ أخصِّ الأسماءِ المقصودِ بالتَّقريعِ والتَّفنيدِ؛ فإنَّه يُحمَلُ على ما يلائِمُ الآياتِ المتقدِّمةَ له؛ فأمَّا في سورةِ (غافرٍ) فإنَّ هذا الموضعَ محمولٌ على الآياتِ الَّتي قبْلَه، وهي قولُه: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال بعدَه: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩]، ثمَّ جاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾، فأظهَرَ ذِكرَ النَّاسِ كما أظهر في الآيتَينِ قبْلَها للمُشاكَلةِ والمُلاءَمةِ، وليس كذلك الأمرُ في سورةِ يونسَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّ الكلامَ هناك بُنيَ على الإضمارِ في الآيِ المُتقدِّمةِ، فقد قال تعالى مُخبرًا عمَّن يَدخُلُ مِن الظَّالِمينَ النَّارَ: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٥٢]، فانقَضى هذا الكلامُ، واستُؤنِفَ خَبَرٌ عن القَومِ الَّذين بعَثَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم، فقال: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [يونس: ٥٣]، فأضمَرَ ذِكرَه في قولِه: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ﴾، ثمَّ قال بعدَه: ﴿أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥٥]، فأضمَرَ ما أضاف إليه أكثَرَ، ثمَّ انْتَهى إلى قولِه تعالى بعْدَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يونس: ٦٠]، فاقْتَضى ما بُنِيَ عليه الكلامُ في هذه الآياتِ أنْ يكونَ ما بعْدَ الشَّرطِ بلَفظِ الإضمارِ كما كان ما تَقدَّمه، فاختِلافُ

المَوضعَينِ في الإظهارِ والإضمارِ لِما ذُكِرَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ [غافر: ٦١]، وعُدِلَ عن الضَّميرِ إلى اسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ أنَّه تعالى مَعلومٌ مُتميِّزٌ بأفعالِه المنفرِدِ بها، بحيث إذا ذُكِرَت أفعالُه تميَّزَ عمَّا سِواهُ، فصار كالمشاهَدِ المشارِ إليه، فكيف تَلتبِسُ إلهيَّتُه بإلهيَّةٍ مَزعومةٍ للأصنامِ؟! فليستْ للَّذين أشْرَكوا به شُبهةٌ تُلبِّسُ عليهمْ ما لا يَفعَلُ مِثلَ فِعلِه، أي: ذلِكم ربُّكم لا غيرُه، وفي اسمِ الإشارةِ هذا تَعريضٌ بغَباوةِ المُخاطَبينَ الَّذين الْتبَسَت عليهم حَقيقةُ إلهيَّتِه[٢].

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أخبارٌ أربعةٌ عن اسمِ الإشارةِ مُترادِفةٌ تُخصِّصُ اللَّاحِقةُ منها السَّابقةَ وتُقرِّرُها، وابتُدِئَ فيها بالاسمِ الجامعِ لِصِفاتِ الإلهيَّةِ إجمالًا ﴿ٱللَّهُ﴾، وأُردِفَ بقولِه: ﴿رَبُّكُمْ﴾، أي: الَّذي دبَّرَ خلْقَ النَّاسِ، وهيَّأَ لهمْ ما به قِوامُ حَياتِهم. ولَمَّا كان في معنى الرُّبوبيَّةِ مِن معنى الخلْقِ ما هو خلْقٌ خاصٌّ بالبشَرِ أرْدَفَ بأنَّه خالقُ الأشياءِ كلِّها كما خلَقَهم فقال: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، وأردَفَ بنَفْيِ الإلهيَّةِ عن غَيرِه، فجاءتْ مَضامينُ هذه الأخبارِ الأربعةِ مُترتِّبةً بطَريقةِ التَّرقِّي، وكان رابعُها نَتيجةً لها. ثمَّ فُرِّعَ عليها استِفهامٌ تَعجُّبيٌّ -﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾- مِن

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٢٩-١١٣١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٧).

انصِرافِهم عن عِبادتِه إلى جانبِ عِبادةِ غَيرِه، مع وُضوحِ فَسادِ إعراضِهم عن عِبادتِه[١]!

- وجِيءَ قولُه: ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ بالبناءِ لِما لمْ يُسَمَّ فاعلُه؛ لإجمالٍ بسَببِ إعراضِهم؛ إذ سيُبيَّنُ بحاصلِ الجُملةِ بعْدَه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ هذه الجُملةُ مُعترِضةٌ بمَنزلةِ التَّعليلِ لِمَضمونِ الجُملةِ الَّتي قبْلَها، وهو التَّعجُّبُ مِن انصِرافِهم عن عِبادةِ ربِّهم؛ خالِقِهم وخالِقِ كلِّ شَيءٍ؛ فإنَّ في تَعليلِ ذلك ما يُبيِّنُ سَببَ التَّعجُّبِ، فجِيءَ في جانبِ المأْفوكِينَ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ لأنَّ الصِّلةَ تُومِئُ إلى وَجهِ بِناءِ الخبَرِ وعِلَّتِه، أي: أنَّ استِمرارَهم على الجحْدِ بآياتِ اللهِ دونَ تأمُّلٍ ولا تَدبُّرٍ في مَعانيها ودَلائِلِها، يَطبَعُ نُفوسَهم على الانصِرافِ عن العِلمِ بوُجوبِ الوَحدانيَّةِ له تعالى؛ فالإشارةُ بـ (ذلك) إلى الإفْكِ المأخوذِ مِن فِعلِ ﴿تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، أي: مِثلَ إفْكِكُم ذلك يُؤفَكُ الَّذين كانوا بآياتِ اللهِ يَجْحَدون[٣].

- ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ المخاطَبينَ بقولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ [غافر: ٦٢]، ويكونَ الموصولُ وصِلَتُه إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ، والمعنى: كذلك تُؤفَكونَ، أي: مِثلَ إفْكِكُم تُؤفَكونَ، ويكونَ التَّشبيهُ مُبالَغةً في أنَّ إفْكَهم بلَغَ في كُنْهِ الإفكِ النِّهايةَ، بحيثُ لو أرادَ المُقرِّبُ أنْ يُقرِّبَه للسَّامعينَ بشَبيهٍ له، لم يَجِدْ شَبيهًا له أوضَحَ منه وأجْلى في ماهيَّتِه، فلا يَسَعُه إلَّا أنْ يُشبِّهَه بنفْسِه على الطَّريقةِ المألوفةِ المبيَّنةِ في

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٨٨).

قولِه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وبذلك تكونُ صِلةُ المَوصولِ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ إيماءً إلى عِلَّةِ إفْكِهم تَعليلًا صَريحًا.

ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ كلَّ مَن جحَدَ بآياتِ اللهِ مِن مُشْركي العرَبِ، ومِن غَيرِهم مِن المشركينَ والمكذِّبينَ، فيَصيرَ التَّعليلُ المُومأُ إليه بالصِّلةِ تَعليلًا تَعريضيًّا؛ لأنَّه إذا كان الإفكُ شأْنَ الَّذين يَجحَدون بآياتِ اللهِ كلِّهم، فقد شمِلَ ذلك هؤلاء بحُكْمِ المُماثَلةِ[1].

- قولُه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ صِيغةُ المضارِعِ لاستِحضارِ الحالةِ، وذِكرُ فِعلِ الكَونِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الجحْدَ بآياتِ اللهِ شأْنُهم وهِجِّيراهم[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ استِئنافٌ ثانٍ بِناءً على أنَّ اسمَ الجلالةِ مُبتدَأٌ، والموصولَ صِفةٌ له، ويكونُ الخبرُ قولَه: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، أوْ يكونُ اسمُ الجلالةِ مُبتدَأً والموصولُ خَبَرًا، ولم تُعطَفْ هذه الجملةُ على الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تَعدادِ دَلائلِ انفرادِه تعالى بالتَّصرُّفِ وبالإنعامِ عليهم؛ حتَّى يَفتضِحَ حُمقُهم وفسادُ رأيِهم في الإشراكِ به وكُفرانِ نِعَمِه، فذكَّرَهم في الآيةِ السَّابقةِ بآثارِ قُدْرتِه في إيجادِ الأعراضِ القائمةِ بجَواهرِ هذا العالَمِ، وهما عَرَضا الظُّلمةِ والنُّورِ، وفي كِلَيهما نِعَمٌ عَظيمةٌ على النَّاسِ، وذكَّرَهم في هذه الآيةِ بآثارِ خلْقِ الجواهرِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في هذا العالَم على كَيفيَّاتٍ هي نِعمةٌ لهم، وفي خلْقِ أنفُسِهم على صُوَرٍ صالحةٍ بهم. فأمَّا إنْ جُعِلَ اسمُ الجلالةِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ بدَلًا مِن ﴿رَبُّكُمُ﴾ في ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ [غافر: ٦٠]؛ فإنَّ جُملةَ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ تكونُ مُستأْنَفةً استئنافًا ابتدائيًّا، والموصولُ وصِلَتُه يَجوزُ أنْ يكونَ صِفةً لاسمِ الجَلالةِ، فيكونَ الخبَرُ قولَه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، وهو أَولى؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ إلهيَّتِه وحْدَه، بدَليلِ ما هو مُشاهَدٌ مِن إتقانِ صُنْعِه الممْزوجِ بنِعمتِه، ويجوزُ أنْ يكونَ الموصولُ خبَرًا، فيكونَ الخبَرُ مُستعمَلًا في الامتنانِ والاعتبارِ(١).

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ...﴾ استئنافٌ لِبَيانِ تَفضُّلِه تعالى المتعلِّقِ بالمكانِ، بعْدَ بَيانِ تَفضُّلِه المتعلِّقِ بالزَّمانِ(٢).

- ولَمَّا كان المقصودُ الأوَّلُ مِن هذه الآيةِ الامتنانَ -كما دلَّ عليه قولُه: ﴿لَكُمُ﴾- قُدِّمَت الأرضُ على السَّماءِ؛ لأنَّ الانتفاعَ بها مَحسوسٌ، وذُكِرَت السَّماءُ بعْدَها كما يُستحضَرُ الشَّيءُ بضِدِّه، مع قصْدِ إيداعِ دَلائلِ عِلمِ الهيئةِ لِمَن فيهم استِعدادٌ للنَّظرِ فيها، وتَتبُّعِ أحوالِها على تَفاوُتِ المَدارِكِ، وتعاقُبِ الأجيالِ، واتِّساعِ العلومِ(٣).

- ووَصْفُ السَّماءِ بالبناءِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ...﴾ جارٍ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ؛ فقد جُعِلَت فوقَ هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٨٩).

العالَمِ، فهي كالبِناءِ له، ونفْعُها كنَفْعِ البِناءِ[١].

- قولُه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ خلَقَ اللهُ تعالى الإنسانَ خلْقًا مُستوفيًا مَصلحتَه وراحتَه، وعبَّرَ عن هذا الخلْقِ بفِعلِ ﴿صُوَرَكُمْ﴾؛ لأنَّ التَّصويرَ خلْقٌ على صُورةٍ مُرادةٍ تُشعِرُ بالعِنايةِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١]، فاقْتَضى حُسْنَ الصُّوَرِ؛ فلذلك عُدِلَ في جانبِ خلْقِ الإنسانِ عن فِعلِ الجَعلِ إلى فِعلِ التَّصويرِ بقولِه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾، ثمَّ صرَّحَ بما اقتَضاهُ فِعلُ التَّصويرِ مِن الإتقانِ والتَّحسينِ بقولِه: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾، والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ عاطفةٌ جُملةً على جُملةٍ، ودالَّةٌ على التَّعقيبِ، أي: أوجَدَ صُورةَ الإنسانِ فجاءت حَسَنةً. وعُطِف على هذه العِبرةِ والمِنَّةِ مِنَّةٌ أُخرى فيها عِبرةٌ، أي: خلَقَكم في أحسَنِ صُورةٍ، ثمَّ أمَدَّكُم بأحسَنِ رِزقٍ، فجمَعَ لكم بيْن الإيجادِ والإمدادِ[٢].

- ومَوقعُ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ كمَوقعِ نَظيرِه المتقدِّمِ آنِفًا -وهو قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [غافر: ٦٢]- وإعادةُ هذا تَكريرٌ للتَّوقيفِ على فسادِ رأْيِهم في عِبادةِ غَيرِه على طَريقةِ التَّعريضِ؛ بقَرينةِ ما تقدَّمَ في نَظيرِه مِن قولِه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، وقَرينةِ قولِه هنا: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٣] [غافر: ٦٥].

- وفُرِّع على ما ذُكِر مِن بَدائعِ صُنْعِه وجَزيلِ مَنِّه أنْ أُنشِئَ الثَّناءُ على اللهِ بما يُفِيدُ اتِّصافَه بعَظيمِ صِفاتِ الكَمالِ، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾. وإظهارُ اسمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣١) و (٢٤/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٠، ١٩١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩١).

الجلالةِ معَ فِعلِ (تبارك) دونَ الإتيانِ بضَميرٍ مع تَقدُّمِ اسْمِه؛ لِتَكونَ الجُملةُ كلمةَ ثَناءٍ مُستقلَّةً[١].

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هذا الوصْفُ مِن تَمامِ الإنشاءِ؛ لأنَّ في ذِكرِ رُبوبيَّتِه للعالَمينَ استِحضارًا لِما أفاضَهُ عليهم مِن خَيراتِ الإيجادِ والإمدادِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ﴾ استئنافٌ ثالثٌ؛ للارتِقاءِ في إثباتِ إلهيَّتِه الحقِّ بإثباتِ ما يُناسِبُها، وهو الحياةُ الكاملةُ؛ فهذه الجُملةُ مُقدِّمةٌ لِجُملةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بإثباتِ الحياةِ الواجبةِ لِذاتِه؛ فإنَّ الَّذي هو ربُّ العالَمينَ، وأوجَدَهم على أكمَلِ الأحوالِ، وأمَدَّهم بما به قِوامُهم على ممَرِّ الأزمانِ؛ لا جَرَمَ أنَّه مَوصوفٌ بالحياةِ الحقِّ؛ لأنَّ مُدَبِّرَ المخلوقاتِ على طُولِ العصورِ يجِبُ أنْ يكونَ مَوصوفًا بالحياةِ، وهي الحياةُ الحقيقيَّةُ؛ لأنَّها غيرُ مُعرَّضةٍ للنَّقصِ ولا للزَّوالِ، فلذلك كان الحيُّ حَقيقةً هو اللهَ تعالى، كما أنبَأَتْ عنه صِيغةُ الحصْرِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلْحَيُّ﴾، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٣]؛ لِعَدمِ الاعتِدادِ بحياةِ ما سِواهُ مِن الأحياءِ؛ لأنَّها عارِضةٌ ومُعرَّضةٌ للفَناءِ والزَّوالِ؛ فمَوقِعُ قولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ؛ لأنَّ كلَّ مَن سِواهُ لا حياةَ له واجبةٌ؛ فهو مُعرَّضٌ للزَّوالِ، فكيف يكونُ إلهًا مُدبِّرًا للعالَمِ[٤]؟!

- قولُه: ﴿فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ بعْدَ اتِّضاحِ الدَّلالةِ على انفِرادِه تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٢).

(٣) تقدَّم تعريفه (ص: ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٢، ١٩٣).

بالإلهيَّةِ، فُرِّعَ عليه الأمْرُ بعِبادتِه وحْدَه غيرَ مُشركين غيرَه في العِبادةِ؛ لِنُهوضِ انفرادِه باستِحقاقِ أنْ يُعبَدَ(١).

- وتَقديمُ ﴿لَهُ﴾ المتعلِّقِ بكَلمةِ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾ على مَفعولِ ﴿مُخۡلِصِينَ﴾؛ لأنَّه الأهمُّ في هذا المقامِ به؛ لأنَّه أشدُّ تَعلُّقًا بمُتعلَّقِه مِن تَعلُّقِ المفعولِ بعامِلِه(٢).

- وجُملةُ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ إنشاءً للثَّناءِ على اللهِ؛ فيَجوزُ أنْ تكونَ مُتَّصِلةً بفِعلِ ﴿فَٱدۡعُوهُ﴾ على تَقديرِ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: قائلينَ: الحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ، وقرينةُ المحذوفِ هو أنَّ مِثلَ هذه الجُملةِ ممَّا يَجْري على ألْسِنةِ النَّاسِ كثيرًا، فصارتْ كالمَثَلِ في إنشاءِ الثَّناءِ على الله. ويجوزُ أنْ تكونَ كلامًا مُستأنَفًا أُرِيدَ به إنشاءُ الثَّناءِ على اللهِ مِن نفْسِه؛ تَعليمًا للنَّاسِ كيف يَحْمَدونه، أو جاريًا على لِسانِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

ويجوزُ أنْ يكونَ الحمْدُ مَصدرًا جِيءَ به بَدَلًا مِن فِعلِه على معنى الأمْرِ، أي: احْمَدوا اللهَ ربَّ العالَمينَ، وعُدِلَ به عن النَّصبِ إلى الرَّفعِ؛ لِقَصْدِ الدَّلالةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ(٣).

- وفي قولِه تعالَى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مدَحَ نفْسَه سُبحانَه، وختَمَ ثلاثَ آياتٍ على التَّوالي بقولِه: (رَبّ الْعَالَمِينَ) [٦٤، ٦٥، ٦٦]، وليس له في القُرآنِ نَظيرٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١).

## الآيات (٦٦-٦٨)

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نُّطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[1].

﴿عَلَقَةٍ﴾: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ[2].

﴿لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾: بُلوغُ الأشُدِّ، أي: بُلوغُ مُنْتهَى الشَّبابِ والقُوَّةِ، أو: اشتِدادُ الجِسْمِ وقوَّتُه، والبُلوغُ والبَلاغُ: الانتِهاءُ إلى أقصَى المَقصدِ والمُنتهَى، والأشُدُّ قيل: جمْعٌ لا واحدَ له، وقيل: مُفردُه شَدٌّ، وأصلُ (بلغ): الوُصولُ إلى الشَّيءِ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٥٤، ٢٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١) و (٣/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٤، ٤٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢١).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُصرِّحَ للمشركينَ بأنَّه مَنْهيٌّ عن عبادةِ غيرِ الله: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنِّي نُهيتُ أن أعبُدَ ما تَدْعُونَه مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَتْني الآياتُ الواضِحاتُ مِن رَبِّي، وأُمِرتُ أن أستَسلِمَ بالطَّاعةِ لِرَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى بعضَ مَظاهرِ قُدرتِه، وأنَّه لا يَستحِقُّ العبادةَ أحدٌ سِواه، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه الَّذي خلَقَ أباكم آدَمَ مِن تُرابٍ، ثمَّ خَلَقَكم مِن مَنِيٍّ، ثمَّ مِن قِطعةِ دَمٍ جامِدةٍ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ، ثمَّ يُخرِجُكم اللهُ مِن بُطونِ أُمَّهاتِكم أطفالًا، ثمَّ لِتَبلُغوا تمامَ قُوَّتِكم، ثمَّ لِتَكونوا كِبارًا في السِّنِّ، ومِنكم مَن يموتُ قبْلَ ذلك، ولِتَبلُغوا أجَلًا مُحَدَّدًا تَموتونَ فيه، ولعَلَّكم تَعقِلونَ آياتِ اللهِ. وهو وَحْدَه الَّذي يُحيي ويُميتُ، فإذا قَضى سُبحانَه شَيئًا فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيَكونُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ صِفاتِ الجَلالِ والعَظَمةِ؛ قال: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، فأورَدَ ذلك على المُشرِكينَ بأليَنِ قَولٍ؛ لِيَصرِفَهم عن عبادةِ الأوثانِ، وبَيَّنَ أنَّ وَجْهَ النَّهيِ في ذلك ما جاءه مِنَ البَيِّناتِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الأمرَ بإخلاصِ العبادةِ لله وَحْدَه، وذكَرَ الأدِلَّةَ على ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٠).

والبيِّناتِ؛ صرَّحَ بالنَّهيِ عن عِبادةِ ما سِواه[١].

﴿قُلۡ إِنِّي نُهِيتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلۡبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: إنِّي نُهيتُ أن أعبُدَ الآلِهةَ الَّتي تَدْعُونَها مِن دُونِ اللهِ لَمَّا جاءَتْني الآياتُ الواضِحاتُ مِن عندِ رَبِّي دالَّةً على تَوحيدِه وصِفاتِ كَمالِه[٢].

﴿وَأُمِرۡتُ أَنۡ أُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وأُمِرْتُ أن أنقادَ وأستَسلِمَ وأذِلَّ وأخضَعَ بالطَّاعةِ لخالِقِ كُلِّ شَيءٍ ومالِكِه ومُدَبِّرِه[٣].

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗاۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٦٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ نبيَّه نُهِيَ عن عِبادةِ الأوثانِ، وأنَّه أُمِر بالاستِسلامِ لِلَّهِ تعالَى؛ بَيَّن أمْرَ الوحدانيَّةِ والألوهِيَّةِ الَّتي أصنامُهم عاريةٌ عن شَيءٍ منهما، بالاعتِبارِ في تدريجِ ابنِ آدَمَ بأنْ ذَكَر مَبدأَه الأوَّلَ، وهو مِن تُرابٍ، ثُمَّ أشارَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥٥-٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٧).

التَّناسُلِ بخَلْقِه مِن نطفةٍ[١].

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه الَّذي خَلَق أباكم آدَمَ -أيُّها النَّاسُ- مِن تُرابٍ، ثمَّ خَلَقكم مِن مَنِيٍّ، ثمَّ مِن قِطعةِ دَمٍ جامِدةٍ تَعلَقُ برَحِمِ المرأةِ[٢].

كما قالَ اللهَ تباركَ وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المَصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أُمِّه أربَعينَ يومًا، ثمَّ يَكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَكونُ مُضْغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقيٌّ أو سَعيدٌ، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ))[٣].

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

قيل: المرادُ بذِكرِ ابتِداءِ الخَلقِ هنا الدَّلالةُ على توحيدِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يَستَحِقُّ العِبادةَ سِواه. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

وقيل: للدَّلالةِ على البَعثِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠).

(٣) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٤٣).

أي: ثُمَّ يُخرِجُكم اللهُ مِن بُطونِ أُمَّهاتِكم أطفالًا صِغارًا[١].

﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾.

أي: ثمَّ لِتَبلُغوا بالتَّدريجِ تَمامَ قُوَّتِكم وعُقولِكم[٢].

﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾.

أي: ثمَّ لِتكونوا كِبارًا في السِّنِّ ضُعَفاءَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٣).

قال الشَّوكاني: (﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ أي: أطفالًا، وأفرَدَه لِكَونِه اسمَ جِنسٍ، أو على معنى: يُخرِجُ كُلَّ واحِدٍ مِنكم طِفلًا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

قيل: اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ مُتعَلِّقةٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: يُبقيكم، أي: يُبقيكم لِتَبلُغوا أشُدَّكم. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٣).

قال البِقاعي: (ثمَّ يُدَرِّجُكم في مَدارجِ التَّربيةِ، صاعِدينَ بالقوَّةِ في أَوْجِ الكمالِ طَورًا بعد طَورٍ، وحالًا بعدَ حالٍ؛ لِتَبلُغوا أشُدَّكم). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٠).

واللَّامُ في قولِه: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُه: ثمَّ يُبقيكم، أي: يُبقيكم لِتَكونوا شيوخًا. ويجوزُ عَطْفُه على ﴿لِتَبۡلُغُوٓاْ﴾. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣).

قال ابنُ سِيْدَه: (الشَّيخُ: الَّذي استبانت فيه السِّنُّ، وظهَر عليه الشَّيبُ). ((المحكم)) (٥/ ٢٤٣).

وذهب النَّحَّاسُ وتَبِعَه القُرطبيُّ إلى أنَّ الشَّيخَ مَن جاوز أربعينَ سَنةً. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠). =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾.

أي: ومِنكم مَن يموتُ قَبْلَ ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ [الحج: ٥].

---

= وذهب السَّمينُ الحلبيُّ وابنُ عاشور إلى أنَّ الشَّيخَ مَن بلَغ سِنَّ الخمسينَ إلى الثَّمانينَ. يُنظر: ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٢/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿مِن قَبْلُ﴾: مِن قَبلِ بُلوغِ الشَّيخوخةِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبي، والسمعاني، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣١٩).

وقيل: مِن قَبلِ بُلوغِ الأشُدِّ. ومِمَّن قال بهذا: السمرقنديُّ، وابن الجوزي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

وقيل: مِن قَبْلِ الشَّيخوخةِ بعدَ بُلوغِ الأشُدِّ أو قبْلَه أيضًا. وممَّن اختاره: أبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٠٨).

وقيل: مِن قَبلِ هذه الأحوالِ؛ فمِنَ النَّاسِ مَن يَموتُ قبْلَ أن يُخرَجَ طِفلًا، وآخَرونَ قبْلَ الأشُدِّ، وآخَرونَ قبْلَ الشَّيخوخةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ عطية، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

قال ابنُ عطيَّة: (قوله تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ عبارةٌ تتردَّدُ في الأدراجِ المذكورةِ كلِّها؛ فمِنَ النَّاسِ مَن يموتُ قبْلَ أن يخرجَ طفلًا، وآخَرونَ قبلَ الأشدِّ، وآخَرونَ قبْلَ الشَّيخوخةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨).

﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾.

أي: ولِتَبلُغوا زَمَنًا مُحَدَّدًا تَموتونَ فيه، لا تتَجاوَزونَه، ولا تَتقَدَّمونَ عليه[1].

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

أي: ولِتَعقِلوا حُجَجَ اللهِ وآياتِه، فتُوَحِّدوه وتَعلَموا كَمالَ قُدرتِه وحِكمتِه، وغيرَ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه[2].

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى انتِقالَ الإنسانِ مِن كَونِه تُرابًا إلى كَونِه نُطفةً، ثمَّ إلى كَونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

قال السَّعدي: (﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ﴾ بهذه الأطوارِ المقَدَّرةِ ﴿أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ تَنتهي عندَه أعمارُكم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

وقال ابن عاشور: (قَولُه: ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾ عَطفٌ على ﴿لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾، أي: للشَّيخوخةِ غايةٌ -وهي الأجَلُ المُسمَّى، أي: الموتُ- فلا طَورَ بعدَ الشَّيخوخةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٦٥).

قال البقاعي: (﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: فتَعلَموا بالمُفاوَتةِ بيْنَ النَّاسِ فيها ببَراهينِ المُشاهَدةِ بالتَّقليبِ في أطوارِ الخِلقةِ وأدوارِ الأسنانِ، وإرجاعِ أواخِرِ الأحكامِ على أوائِلِها: أنَّ فاعِلَ ذلك قادِرٌ مُختارٌ، حَكيمٌ قَهَّارٌ، لا يُشبِهُ شَيئًا، ولا يُشبِهُه شَيءٌ!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١١٠، ١١١).

وقال السعدي: (﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أحوالَكم، فتَعلمونَ أنَّ المُطَوِّرَ لكم في هذه الأطوارِ كاملُ الاقتِدارِ، وأنَّه الَّذي لا تنبغي العبادةُ إلَّا له، وأنَّكم ناقِصونَ مِن كلِّ وجهٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

عَلَقةً، ثمَّ إلى كَونِه طِفلًا، ثمَّ إلى بُلوغِ الأَشُدِّ، ثمَّ إلى الشَّيخوخةِ، واستَدَلَّ بهذه التَّغَيُّراتِ على وُجودِ الإلهِ القادِرِ؛ قال بعدَه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ ﴾، يعني: كما أنَّ الانتِقالَ مِن صِفةٍ إلى صِفةٍ أُخرى مِن الصِّفاتِ الَّتي تقَدَّمَ ذِكرُها يدُلُّ على الإلهِ القادِرِ، فكذلك الانتِقالُ مِن الحياةِ إلى المَوتِ وبالعَكسِ يدُلُّ على الإلهِ القادِرِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى رُتَبَ الإيجادِ، ذكَرَ أنَّه المتَّصِفُ بالإحياءِ والإماتةِ، وأنَّه متى تعَلَّقَت إرادتُه بإيجادِ شَيءٍ، أوْجَدَه مِن غيرِ تأخُّرٍ(٢).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ ﴾.

أي: اللهُ هو المُنفَرِدُ بالإحياءِ والإماتةِ؛ فلا يَقدِرُ على ذلك أحَدٌ سِواه(٣).

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٦].

﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾.

أي: فإذا أراد اللهُ شَيئًا فإنَّما يقولُ له مَرَّةً واحِدةً: كُنْ، فيَكونُ ما أرادَه(٤).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٠)، ((التوحيد)) لابن خزيمة (١/ ٣٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير القنوجي)) (١/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: بقَلبي ولِساني وجوارِحي، بحيثُ تكونُ مُنقادةً لِطاعتِه، مُستَسلِمةً لأمْرِه، وهذا أعظَمُ مَأمورٍ به على الإطلاقِ، كما أنَّ النَّهيَ عن عبادةِ ما سِواه أعظَمُ مَنهيٍّ عنه على الإطلاقِ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا بُدَّ للقلبِ مِن حركةٍ؛ فإمَّا إلى باطلٍ، وإمَّا إلى حقٍّ؛ فقولُه: ﴿نُهِيتُ﴾ تفريغٌ، وهذا الفراغُ لا بُدَّ أنْ يكونَ له ما يَمْلَؤُه، فالباطلُ لا بُدَّ أن يَخْلُفَه حقٌّ؛ لذا قال تعالى بعدَها: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

٢- الإشارةُ إلى القاعدةِ المشهورةِ؛ وهي أنَّ التَّخليةَ قبْلَ التَّحليةِ، التَّحليةُ يعني: التَّزيينَ، فقولُه: ﴿نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ﴾ هذه تخليةٌ، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ﴾ هذه تحليةٌ، وهكذا كلمةُ الإخلاصِ «لا إلهَ» نفْيٌ «إلَّا اللهُ» إثباتٌ، الأوَّلُ تخليةٌ، والثَّاني تحليةٌ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَزعُمون أنَّ المقتولَ مَيِّتٌ بغيرِ أجَلِه، ومَقطوعٌ عليه حَياتُه[4]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ بيانُ كمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولهذا قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ للَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٦١).

حاجَّه في ربِّه: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فلا يُمكِنُ أنْ يُحيِيَ أحدٌ مَيِّتًا، ولا أنْ يُميتَ حيًّا، فإنْ قيلَ: أليس عيسى ابنُ مريمَ عليه السَّلامُ كان يُحيي الموتَى؟! قُلْنا: بلى، ولكنْ بإذنِ اللهِ؛ بنَفْسِ الآيةِ: ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فإنْ قيلَ: أليسَ الرَّجُلُ يَقتُلُ الآخَرَ -وهو حيٌّ- فيَموتُ؟! قُلْنا: بلى، ولكنْ ما فَعَلَه هو سببُ الموتِ وليس هو الإماتةَ! وكثيرًا ما تُقْطَعُ أوداجُ الإنسانِ؛ ويُشَقُّ بطْنُه؛ ثمَّ يَبقَى حيًّا ويَحيا، فالحاصلُ أنَّ الإحياءَ والإماتةَ بيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١].

٥- قولُ البعضِ: «سُبحانَ مَن أَمْرُه بيْنَ الكافِ والنُّونِ» قولٌ غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّه سُبحانَه أَمْرُه بعدَ الكافِ والنُّونِ ﴿كُن﴾، فإنَّ الأمْرَ هنا بمعنى المأمورِ، أما إنْ كان الأمرُ الَّذي هو فِعْلُه -يعني: أَمْرَه- فهو قبْلَ الكافِ والنُّونِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أنَّ قولَ اللهِ بحروفٍ؛ لقولِه تعالى: ﴿كُن﴾؛ وهي كلمةٌ بحرفَينِ، ويكونُ قولُه بصوتٍ مَسموعٍ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أنَّه ليس بيْنَ أمْرِ اللهِ بالتَّكوينِ وتكَوُّنِه تَراخٍ؛ بل يكونُ على الفَوريَّةِ؛ وذلك لقولِه تعالى: ﴿فَيَكُونُ﴾[٤]، فالفاءُ للتَّعقيبِ تدُلُّ على أنَّه يكونُ عَقِبَ قولِه: (كُنْ) سواء لا يَتأخَّرُ عنه[٥].

٨- احتجَّ كثيرٌ مِن السَّلَفِ على أنَّ القُرآنَ غيرُ مَخلوقٍ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٢٢٦).

أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، فلو كان ﴿ كُن ﴾ مَخلوقةً لَزِمَ ألَّا يُوجَدَ شَيءٌ مِن المَخلوقاتِ؛ لأنَّ ﴿ كُن ﴾ تكونُ مَخلوقةً بـ ﴿ كُن ﴾ أُخرى، وهَلُمَّ جرًّا، فلا يُوجَدُ شَيءٌ[1]!

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

- جُملةُ ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ أدلَّةِ الوَحدانيَّةِ بدَلالةِ الآياتِ الكَونيَّةِ والنَّفْسيَّةِ؛ لِيَجْرُوا على مُقْتَضاها في أنفُسِهم بأنْ يَعبُدوا اللهَ وحْدَه، فانتُقِلَ إلى تَقريرِ دَليلِ الوَحدانيَّةِ بخبَرِ الوحْيِ الإلهيِّ بإبطالِ عِبادةِ غَيرِ اللهِ على لِسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَعمَلَ بذلك في نفْسِه، ويُبلِّغَ ذلك إليهم، فيَعلَموا أنَّه حُكْمُ اللهِ فيهم، وأنَّهم لا عُذْرَ لهمْ في الغَفْلةِ عنها، أو عَدَمِ إتقانِ النَّظرِ فيها، أو قُصورِ الاستِنتاجِ منها بعْدَ أنْ جاءَهُم رسولٌ مِن اللهِ يُبيِّنُ لهم أنواعًا بمُختلَفِ البَيانِ مِن أدلَّةٍ بُرهانيَّةٍ وتَقريبيَّةٍ إقناعيَّةٍ؛ فكان قولُه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي ﴾ إبطالًا لِعِبادةِ غَيرِ اللهِ بالقولِ الدَّالِّ على التَّحذيرِ والتَّخويفِ بعْدَ أنْ أُبطِلَ ذلك بدَلالةِ الحُجَّةِ على المقصودِ، وهذه دَلالةٌ كِنائيَّةٌ؛ لأنَّ النَّهيَ يَستلزِمُ التَّحذيرَ[2].

- ومعنى الدُّعاءِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ على ظاهرِ الدُّعاءِ، وهو القولُ الَّذي تُسأَلُ به حاجةٌ، ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى تَعبُدون؛ فيَكونَ

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٥).

العُدولُ عن أنْ يَقولَ: (أنْ أعبُدَ الَّذين تَعبُدون) تَفنُّنًا[١].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ ذِكرُ مَجيءِ البَيِّناتِ في أثناءِ هذا الخبَرِ إشارةٌ إلى طُرقٍ أُخرى مِن الأدِلَّةِ على تَفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ تَكرَّرتْ قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ. وكان تَقديمُ المسنَدِ إليه -وهو ضَميرُ ﴿إِنِّي﴾- على الخبَرِ الفِعليِّ؛ لِتَقويةِ الحُكْمِ، نحوُ: هو يُعْطي الجزيلَ[٢].

- والمقصودُ مِن إسنادِ المنْهيَّةِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: التَّعريضُ بنَهْيِ المشركينَ؛ فإنَّ الأمْرَ بأنْ يقولَ ذلك لا قصْدَ منه إلَّا التَّبليغُ لهم، وإلَّا فلا فائدةَ لهم في الإخبارِ بأنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَنْهيٌّ عن أنْ يَعبُدَ الَّذين يَدْعُون مِن دونِ اللهِ، يعني: فإذا كنتُ أنا مَنهيًّا عن ذلك، فتَأمَّلوا في شأْنِكم، واستَعْمِلوا أنْظارَكم فيه؛ لِيَسوقَهم إلى النَّظرِ في الأدِلَّةِ سَوقًا ليِّنًا خَفيًّا؛ لاتِّباعِه فيما نَهى عنه[٣].

- وبُنِيَ الفِعلُ ﴿نُهِيتُ﴾ للنَّائبِ؛ لِظُهورِ أنَّ النَّاهيَ هو اللهُ تعالى، بقَرينةِ مَقامِ التَّبليغِ والرِّسالةِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾ جُعِلَ المجرورُ بحرْفِ (مِن) وَصْفَ (رب) مُضافًا إلى ضَميرِ المتكلِّمِ دونَ أنْ يُجعَلَ مَجرورُها ضَميرًا يَعودُ على اسمِ الجلالةِ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لِتَرْبيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٥، ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٦).

المهابةِ في نُفوسِ المُعرَّضِ بهم؛ لِيَعلَموا أنَّ هذا النَّهيَ ومَجِيءَ البَيِّناتِ هو مِن جانبِ سيِّدِه وسَيِّدِهم، فما يَسَعُهم إلَّا أنْ يُطِيعوه؛ ولذلك عزَّزَه بإضافةِ الرَّبِّ إلى الجميعِ في قولِه: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: ربِّكم وربِّ غَيرِكم، فلا مُنصرَفَ لكمْ عن طاعتِه[1].

- وقال هنا: ﴿أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ولم يقُلْ: أنْ أُسلِمَ للهِ؛ لِيَكونَ ذلك دليلًا على وَجهِ الإسلامِ، كأنَّه قِيل: لماذا أسلمْتَ؟ فقال: لأنَّ اللهَ ربُّ العالَمينَ، وربُّ العالَمينَ أحَقُّ أن يُسلَمَ له، وأنْ يُتعبَّدَ له عزَّ وجلَّ؛ فهو كالدَّليلِ للحُكْمِ السَّابقِ الَّذي هو الإسلامُ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ...﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ كيفيَّةِ تَكوُّنِ البدَنِ، وهو استِئنافٌ رابعٌ بعْدَ استئنافِ جُملةِ ﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ [غافر: ٦٥] وما تَفرَّعَ عليها، وكلُّها ناشئٌ بعضُه عنْ بَعضٍ، وهذا الامتِنانُ بنِعمةِ الإيجادِ، وهو نِعمةٌ؛ لأنَّ الموجودَ شَرَفٌ، والمعدومُ لا عِنايةَ به، وأُدمِجَ فيه الاستِدلالُ على الإبداعِ[3].

وقيل: قولُه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ مِن تَتمَّةِ قولِه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]؛ ولذلك اكتُفِيَ بالضَّميرِ دونَ الاسمِ الجامعِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥١٤).

ولم يُؤتَ باسم الإشارةِ أو بما يَقومُ مَقامَه مِن الضَّميرِ؛ لانْبناءِ التَّوحيدِ عليه، لكنْ فيه اعتناءٌ بدَليلِ الأنفُسِ؛ لِذِكْرِه أوَّلًا مُجمَلًا، ثمَّ مُفصَّلًا ثانيًا(١).

- واللَّاماتُ في قولِه: ﴿ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ﴾ وما عُطِفَ عليه بـ (ثمَّ) مُتعلِّقاتٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: ثم يُبْقِيكم، أو ثمَّ يُنشِئُكم لِتَبْلُغوا أشُدَّكم، وهي لاماتُ التَّعليلِ مُستعمَلةٌ في مَعنى (إلى)؛ لأنَّ الغايةَ المقدَّرةَ مِن اللهِ تُشبِهُ العلَّةَ فيما يُفْضي إليها(٢).

- قولُه: ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى﴾، أي: إنَّ مِن جُملةِ ما أرادهُ اللهُ مِن خلْقِ الإنسانِ على الحالةِ المبيَّنةِ أنْ تكونَ في تلك الخِلْقةِ دَلالةٌ لآحادِه على وُجودِ هذا الخالقِ البديعِ، وعلى انفرادِه بالإلهيَّةِ، وعلى أنَّ ما عداهُ لا يَستحِقُّ وصْفَ الإلهيَّةِ، فمَن عقَلَ ذلك مِن النَّاسِ فقدِ اهْتَدى إلى ما أُريدَ منه، ومَن لم يَعقِلْ ذلك فهو بمَنزلةِ عَديمِ العقْلِ، ولأجْلِ هذه النُّكتةِ لم يُؤتَ لِفِعلِ ﴿تَعۡقِلُونَ﴾ بمَفعولٍ، ولا بمَجرورٍ؛ لأنَّه نُزِّلَ مَنزِلةَ اللَّازمِ، أي: رَجاءَ أنْ يكونَ لكم عُقولٌ؛ فهو مُرادٌ للهِ مِن ذلك الخلْقِ، فمِن حِكمتِه أنْ جعَلَ ذلك الخلْقَ العجيبَ عِلَّةً لأُمورٍ كثيرةٍ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ استِئنافٌ خامِسٌ، ومُناسَبةُ مَوقعِه مِن قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا﴾ إلى ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبۡلُۖ وَلِتَبۡلُغُوٓاْ أَجَلٗا مُّسَمّٗى وَلَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]؛ فإنَّ مِن أوَّلِ ما يُرْجَى أنْ يَعقِلوه هو ذلك

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٧، ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ١٩٨، ١٩٩).

التَّصرُّفُ البديعُ بخلْقِ الحياةِ في الإنسانِ عندَ تَكوينِه بعْدَ أنْ كان جُثَّةً لا حَياةَ فيها، وخلْقِ الموتِ فيه عِندَ انتِهاءِ أجَلِه بعْدَ أنْ كان حيًّا مُتصرِّفًا بقُوَّتِه وتَدبيرِه[1].

- قولُه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ المقصودُ منه الامتِنانُ بالحياةِ تَبَعًا لقولِه قبْلَ هذا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾. وفُرِّعَ على هذا الخبرِ إخبارٌ بأنَّه إذا أراد أمْرًا مِن أُمورِ التَّكوينِ مِن إحياءٍ، أو إماتةٍ، أو غيرِهما؛ فإنَّه يَقدِرُ على فِعلِه دونَ تَردُّدٍ ولا مُعالَجةٍ، فالفاءُ مِن قولِه: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ ﴾ فاءُ تَفريعِ الإخبارِ بما بعْدَها على الإخبارِ بما قبْلَها[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ١٩٩).

## الآيات (٦٩-٧٦)

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾: جَمعُ غُلٍّ، وهو القَيدُ الَّذي يُوضَعُ في العُنُقِ، وأصلُه يدُلُّ على تَدرُّعِ الشَّيءِ وتَوسُّطِه[1].

﴿ٱلْحَمِيمِ﴾: أي: الماءِ الشَّديدِ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الحَرارةِ[2].

﴿يُسْجَرُونَ﴾: أي: يُطرَحونَ فيها فيَكونونَ وَقودًا لها، والسَّجْرُ: مَلءُ النَّارِ بالوَقودِ لِتَقويتِها وتَهييجِها، وأصلُ (سجر) هنا: يدُلُّ على إيقادٍ[3].

﴿تَمْرَحُونَ﴾: المَرَحُ: شِدَّةُ الفَرَحِ، والتَّوسُّعُ فيه، وأصلُ (مرح): يدُلُّ على مَسَرَّةٍ لا يَكادُ يستقرُّ معها طَرَبًا[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤). =

﴿مَثْوَى﴾: أي: مَنزِلُ، ومقامُ، ومَسكنُ، ومأوَى، والثَّواءُ: الإقامةُ معَ الاستِقرارِ، وأصلُ (ثوي): يدُلُّ على الإقامةِ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ﴾

قَولُه: ﴿وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ في رَفعِه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾، وأخبَرَ عن النَّوعَينِ بالجارِّ، فالجارُّ في نيَّةِ التَّأخيرِ، والتَّقديرُ: إذ الأغلالُ والسَّلاسِلُ في أعناقِهم. الثَّاني: أنَّه مُبتدأٌ وخَبَرُه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ عليه. الثَّالثُ: أنَّه مُبتَدأٌ خبَرُه جُملةُ ﴿يُسْحَبُونَ﴾، والعائِدُ على المُبتَدأِ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: والسَّلاسِلُ يُسحَبونَ بها. و﴿يُسْحَبُونَ﴾ مَرفوعُ المحلِّ على هذا الوَجهِ، وأمَّا في الوَجهَيْنِ المتقدِّمَينِ فيَجوزُ فيه النَّصبُ على الحالِ مِن الضَّميرِ المَنْويِّ في شِبْهِ الجُملةِ ﴿فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾، ويجوزُ أنْ يكونَ مُستأنَفًا لا محَلَّ له مِنَ الإعرابِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُسَلِّيًا نبيَّه عمَّا أصابَه مِن المشركينَ، ومُبيِّنًا سوءَ عاقبتِهم: ألَمْ تَرَ -يا مُحمَّدُ- إلى مُشرِكي قَومِك الَّذين يُخاصِمونَ في آياتِ اللهِ: كيفَ يُصرَفونَ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ؟! أولئكَ هم الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، وبالَّذي أرسَلْنا به رُسُلَنا

---

= قال ابن عاشور: (الفرَحُ: المَسَرَّةُ ورِضا الإنسانِ على أحوالِه، فهو انفعالٌ نفْسانيٌّ. والمَرَحُ ما يَظهَرُ على الفارِحِ مِن الحَرَكاتِ في مَشْيِه ونَظَرِه، ومُعامَلتِه معَ النَّاسِ، وكَلامِه وتكَبُّرِه؛ فهو هَيئةٌ ظاهِريَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٤٩٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٤/ ٢٧٣).

مِنَ التَّوحيدِ، والبَعثِ، وغَيرِ ذلك؛ فسوفَ يَعلَمونَ حينَ تُجعَلُ الأغلالُ في أعناقِهم والسَّلاسِلُ، فيُسحَبونَ في ماءِ الحَميمِ الَّذي اشتَدَّ غَلَيانُه، ثمَّ في النَّارِ يُطرَحونَ فيَكونونَ وَقودًا لها، فتُحمَى بهم!

ثمَّ يُقالُ لهم: أينَ آلهتُكم الَّتي كُنتُم تَجعَلونَها شُرَكاءَ لله؟! قالوا: غابُوا عنَّا، بل لم نكُنْ نَعبُدُ في الدُّنيا أيَّ شَيءٍ مِن دُونِ اللهِ، كذلك الضَّلالِ يُضِلُّ اللهُ الكافِرينَ!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى الأسبابَ الَّتي أدَّتْ بهم إلى هذا العذابِ، وأنَّه يُقالُ لهم: ذَلِكم بسَبَبِ فَرَحِكم في الدُّنيا بالباطِلِ في أَشَرٍ وبَطَرٍ واختيالٍ؛ فادخُلوا أبوابَ جهنَّمَ ماكِثينَ فيها أبَدًا، فبِئْسَ مَنزِلُ المتكبِّرينَ عن الحَقِّ: جَهنَّمُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا عُلِمَ مِن قَولِ الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨] أنَّه تعالى لا كُلفةَ عليه في شَيءٍ مِن الأشياءِ بهذه الأُمورِ المُشاهَدةِ في أنفُسِهم وفي الآفاقِ؛ أنتَجَ التَّعجُّبَ مِن حالِهم لِمَن له الفَهمُ الثَّاقِبُ والبَصيرةُ الوقَّادةُ[1].

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

أي: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- إلى مُشرِكي قَومِك الَّذين يُجادِلونَ ويُخاصِمونَ في آياتِ اللهِ؛ فتَعْجَبَ كيف تُصرَفُ عُقولُهم عن الحَقِّ إلى الباطِلِ[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٠، ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٧٨-٤٨٠).

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٧٠ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾.

أي: وهم الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، وكَذَّبوا بالَّذي أُرسِلَ به رُسُلُ اللهِ مِنَ الهدَى والبيانِ؛ كإخلاصِ العبادةِ لِلَّهِ، والإقرارِ بالبعثِ بعدَ المماتِ، والبَراءةِ مِمَّا يُعبَدُ مِن دونِ اللهِ، إلى غيرِ ذلك(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠١).

قال الشوكاني: (والمرادُ ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾: إمَّا القرآنُ، أوْ: جِنسُ الكتبِ المنزَّلةِ مِن عندِ اللهِ، وقولُه: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿بِٱلۡكِتَٰبِ﴾، ويُرادُ به ما يوحَى إلى الرُّسلِ مِن غيرِ كتابٍ إنْ كانَت اللَّامُ في الكتابِ للجنسِ، أو سائرُ الكُتُبِ إنْ كان المرادُ بالكتابِ: القرآنَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالكِتابِ هنا: القُرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والزمخشري، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى جُمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٨).

والمرادُ بالرُّسُلِ هنا: جِنسُ الرُّسُلِ. وقيل: المرادُ بالرُّسُلِ: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي: مِن سائرِ الكتبِ: الزمخشريُّ، والرازي، والنسفي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٤).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ أي: مِن الهدَى والبيانِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧).

وقال ابن جرير: (﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ يقولُ: وكذَّبوا أيضًا -معَ تكذيبِهم بكتابِ اللهِ- بما أرسَلْنا به رُسلَنا مِن إخلاصِ العبادةِ لِلَّهِ، والبَراءةِ مِمَّا يُعبَدُ مِن دونِه مِن الآلهةِ والأندادِ، والإقرارِ بالبعثِ بعدَ المماتِ للثَّوابِ والعِقابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢).

وقال أبو حيان: (والظَّاهرُ أنَّها في الكفَّارِ المجادِلينَ فِي رسالةِ الرَّسولِ عليه السَّلامُ، والكتابِ =

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسوفَ يَعلَمُون عاقِبةَ أمْرِهم[١].

كما قال الله تعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٩٦].

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

أي: فسوفَ يَعلَمونَ ذلك حينَ تُجعَلُ الأغلالُ في أعناقِهم والسَّلاسِلُ، فيُجَرُّونَ إهانةً وتَعذيبًا لهم[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا

---

= الَّذي جاءَ به، بدليلِ قولِه: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾، ثُمَّ هَدَّدهم بقولِه: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، وهذا قولُ الجمهورِ. وقال محمَّدُ بنُ سِيرينَ وغيرُه: هي إشارةٌ إلى أهلِ الأهواءِ مِن الأُمَّةِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧١).

وقال الشوكاني: (﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي: بالقرآنِ، وهذا وصْفٌ لا يَصِحُّ أنْ يُطْلَقَ على فِرْقةٍ مِن فِرَقِ الإسلام). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤).

قال ابن جرير: (يقولُ جلَّ ثناؤُه: فسوفَ يَعلَمُ هؤلاءِ الَّذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ، المكَذِّبونَ بالكِتابِ حقيقةَ ما تُخبِرُهم به يا محمَّدُ، وصِحَّةَ ما هم به اليَومَ مُكَذِّبونَ مِن هذا الكتابِ، حينَ تُجعَلُ الأغلالُ والسَّلاسلُ في أعناقِهم في جهنَّمَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢، ٣٦٣).

وقال ابن عاشور: (أي: سوفَ يَجِدونَ العذابَ الَّذي كانوا يُجادِلونَ فيه فيَعلَمونَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٢، ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٣-٤٨٥).

فَٱسۡلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ - ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢﴾.

﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾.

أي: يُسحَبونَ في الماءِ الحَميمِ الَّذي اشتَدَّ غَلَيانُه، وانتَهى حَرُّه[1].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبٗا مِّنۡ حَمِيمٖ * ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾.

أي: ثُمَّ يُطرَحونَ في النَّارِ فيَكونونَ وَقودًا لها، فتُحمَى بهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: يُسحَبون في الحميمِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤، ٥٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

قال الشوكاني: (يُقالُ: سَجَرْتُ التَّنُّورَ: أي: أوقَدْتُه، وسَجرْتُه: ملأْتُه بالوَقودِ...، فالمعنَى: تُوقَدُ بهم النَّارُ، أو تُملأُ بهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٤).

ممَّن اختار المعنى الأوَّلَ، أي: تُوقَدُ بهم النَّارُ: الثعلبيُّ، وابنُ أبي زمَنين، والرَّسْعَني، والخازن. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٠). =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ...﴾.

أي: ثمَّ يُقالُ لهم: أين آلهتُكم الَّتي كُنتُم تَجعلونَها شُرَكاءَ للهِ في عِبادتِه؛ لِتُنقِذَكم اليَومَ مِن العَذابِ[1]؟!

﴿...قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾.

﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾.

أي: قالوا: غابُوا عنَّا، فتَرَكونا في العَذابِ، ولم يَنفَعونا بشَيءٍ[2].

﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: بل لم نَكُنْ أصلًا نَعبُدُ في الدُّنيا أيَّ شَيءٍ مِن دونِ اللهِ[3]!

---

= وممَّن اختار المعنى الثَّانيَ وأنَّه مِن سَجَرَ التَّنُّورَ؛ إذا ملأه بالوقودِ، فمعناه: أنَّهم في النَّارِ وهم مَسجورونَ بالنَّارِ، مَملوءةٌ بها أجوافُهم: الزمخشريُّ، والنسفيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٧، ٤٨٨).

ممَّن قال: إنَّ المرادَ إنكارُهم لِوُقوعِ الشِّركِ منهم أصلًا: ابنُ عطيَّة، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عثيمين، وذكره السعدي احتمالًا. يُنظر: المصادر السابقة.

وهو أيضًا اختيارُ جلالِ الدِّينِ المحلِّي، والشنقيطي، يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢٨)، =

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ * ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ

---

= ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٦٨) و (٣/ ٥١٠).

وقد ذكر الشنقيطيُّ هذه الآيةَ: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾، وقولَه تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقولَه: ﴿فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ﴾ [النحل: ٢٨]، ثمَّ قال: (فهذه الآياتُ تدُلُّ على إنكارِهم لِما جاؤوا به مِن الكفرِ). (العذب النمير)) (٢/ ٢٧٦).

قال ابن عثيمين: (فهؤلاء أنكروا، كذَبوا على أنفُسِهم، ظَنُّوا أنَّ هذا سيَنفَعُهم، كما لو أنَّ الجانيَ في الدُّنيا أنكَر جنايتَه رُبَّما يَنفَعُه ذلك، لكنْ في الآخرةِ لا يَنفعُ، حتَّى إذا أنكَروا خُتِم على أفواهِهم، فتَتكلَّمُ الأيدي والأرجُلُ والجُلودُ والألسُنُ بما تَعملُ، وحينَئذٍ لا يَستطيعون حِيلةً ولا يَهتدونَ سبيلًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٨، ٤٨٩).

وقيل: المعنى: بل لم نكُنْ نَعبُدُ مِن قَبْلُ في الدُّنيا شَيئًا مُستَحِقًّا للعبادةِ؛ فيَنفَعَنا، بل كانت عبادتُنا لغَيرِ اللهِ باطِلةً ضائِعةً لا تَنفَعُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعاني، والزمخشري، والرسعني، والعُلَيمي، والشوكاني، واستظهره السعدي، وذهب إليه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٣٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤، ٢٠٥).

قال ابنُ عاشور: (أضرَبوا عن قَولِهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾، وقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أي: لم نكُنْ في الدُّنيا نَدعو شيئًا يُغْني عنَّا؛ فنَفْيُ دُعاءِ شَيءٍ هنا راجِعٌ إلى نَفيِ دُعاءِ شَيءٍ يُعتَدُّ به، كما تقولُ: حَسِبتُ أنَّ فُلانًا شَيءٌ فإذا هو ليس بشَيءٍ! إن كُنتَ خَبَرْتَه فلم تَرَ عِندَه خَيرًا. وفي الحديثِ: سُئِلَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن الكُهَّانِ، فقال: «لَيْسوا بشَيءٍ» [البخاري (٦٢١٣)، ومسلم (٢٢٢٨)]، أي: ليسوا بشَيءٍ مُعتَدٍّ به فيما يَقصِدُهم النَّاسُ لأجْلِه... إذ ليس المعنى على إنكارِ أن يَكونوا عَبَدوا شيئًا؛ لِمُنافاتِه لِقَولِهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ المُقتضِي الاعترافَ الضِّمنيَّ بعبادتِهم. وفَسَّر كثيرٌ مِن المفسِّرينَ قَولَهم: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ أنَّه إنكارٌ لعبادةِ الأصنامِ بعدَ الاعترافِ بها؛ لاضطرابِهم مِنَ الرُّعبِ، فيكونُ مِن نَحوِ قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]. ويجوزُ أن يكونَ لهم في ذلك الموقِفِ مَقالانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤، ٢٠٥).

أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٢ - ٢٤].

﴿ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾.

أي: كهذا الضَّلالِ يُضِلُّ اللهُ الكافِرينَ؛ بسَبَبِ كُفرِهم(١).

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: يُقالُ لهم: ذَلِكم(٢) بسَبَبِ أنَّكم كُنتُم في الدُّنيا تَفرَحونَ بالباطِلِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٤٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((حاشية الخفاجي)) (٧/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

قال الألوسي: (معنى هذا: مِثلَ ذلك الإضلالِ يُضِلُّ اللهُ تعالى في الدُّنيا الكافِرينَ، حتى إنَّهم يَدْعُونَ فيها ما يَتَبَيَّنُ لهم أنَّه ليس بشَيءٍ، أو: مِثلَ ضَلالِ آلهتِهم عنهم في الآخِرةِ نُضِلُّهم عن آلهتِهم فيها، حتَّى لو طلَبوا الآلِهةَ وطلَبَتْهم لم يَلْقَ بعضُهم بعضًا، أو: مِثلَ ذلك الضَّلالِ وعَدَمِ النَّفعِ يُضِلُّ اللهُ تعالى الكافِرينَ، حتَّى لا يَهتَدوا في الدُّنيا إلى ما يَنفَعُهم في الآخِرة. وفي «المجمَع»: كما أضلَّ اللهُ تعالى أعمالَ هؤلاءِ وأبطَلَ ما كانوا يُؤَمِّلونَه، كذلك يَفعَلُ بأعمالِ جميعِ مَن يَتدَيَّنُ بالكُفرِ، فلا يَنتَفِعونَ بشَيءٍ منها، فإضلالُ الكافِرينَ على معنى إضلالِ أعمالِهم، أي: إبطالِها. ونُقِلَ ذلك عن الحَسَنِ، وقيل في معناه غيرُ ذلك). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٩).

(٢) قيل: المرادُ: ذَلِكم العَذابُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبي، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

وقيل: المرادُ: ذَلِكم الإضلالُ. وممَّن قال بهذا: الزمخشريُّ، والرازي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

قال ابنُ جريرٍ، والقاسِميُّ في قولِه تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: بغيرِ ما أذِنَ لكم به مِن الباطِلِ =

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾.

أي: وبِسَبَبِ أنَّكم كُنتُم في الدُّنيا في أشَرٍ وبَطَرٍ واختيالٍ وزَهْوٍ بالباطِلِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: يُقالُ لهم يومَ القيامةِ: ادخُلوا أبوابَ جَهنَّمَ السَّبعةَ ماكِثينَ فيها أبدًا[2].

---

= والمعاصي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٠).

وقال الألوسي: (﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ وهو الشِّركُ والمعاصي، أو بغيرِ استحقاقٍ لذلك). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٩).

وقال الزمخشريُّ، والرازيُّ، والنسفيُّ: هو الشِّركُ وعِبادةُ الأوثانِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢١).

وقال البيضاوي والعُلَيمي وأبو السعود: هو الشِّركُ والطُّغيانُ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

قال السعدي: (﴿ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ كُلٌّ بطَبَقةٍ مِن طَبَقاتِها، على قَدْرِ عَمَلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ * لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر: ٤٣، ٤٤].

﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

أي: فبِئْسَ مَنزِلُ الَّذين تَكبَّروا عن الحَقِّ: جَهنَّمُ يُقيمونَ فيها إقامةً دائِمةً[١]!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ أنَّ الإنسانَ قد يُصْرَفُ عن الحقِّ مع بيانِه ووُضوحِه، وهذا يُؤدِّي إلى فائدةٍ أخرَى، وهي خَوفُ الإنسانِ مِن أنْ يُصْرَفَ عن الحقِّ، ويَنتِجُ عن ذلك فائدةٌ ثالثةٌ: وهو سؤالُ الإنسانِ ربَّه دائمًا أنْ يُثَبِّتَه، ولهذا كان مِن دعاءِ المؤمنينَ: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨]، فيَنبغي للإنسانِ أنْ يكونَ دائمًا على خَوفٍ؛ وأنْ يَسألَ اللهَ الثَّباتَ دائمًا[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قَولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ يُشعِرُ أنَّ السُّرورَ لا يَنبغي إلَّا إذا كان مع كَمالِ هذه الحَقيقةِ، وهي الثَّباتُ دائِمًا للمَفروحِ به، وذلك لا يَكونُ إلَّا في الجنَّةِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هذا هو الفَرَحُ المذمومُ الموجِبُ للعِقابِ، بخِلافِ الفَرَحِ المَمدوحِ الَّذي قال اللهُ فيه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ ﴾ [يونس: ٥٨]، وهو الفَرَحُ بالعِلمِ النَّافِعِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٨).

والعَمَلِ الصَّالِحِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن التَّكَبُّرِ، ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ أحدٌ في قلبِه مِثقالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِن كِبْرِياءَ))[٢]، فالكِبْرُ -والعياذُ باللهِ- سببٌ لدُخولِ النَّارِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ قَولُه تعالى: ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ عَطَفَها على قَولِه: ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بإعادةِ العاملِ؛ لإفادةِ استِقلالِ المعطوفِ عن المَعطوفِ عليه؛ لأنَّه ليس تابِعًا له مِن كلِّ وجهٍ، بدَليلِ إعادةِ العامِلِ؛ فقَولُه: ﴿وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ يدُلُّ على أنَّ ما أُرسِلَتْ به الرُّسُلُ كأنَّه مُستَقِلٌّ عنِ الكِتابِ؛ ولهذا كانتِ السُّنَّةُ بمَنزِلةِ الكِتابِ في الدَّلالةِ، ووُجوبِ العَمَلِ بها[٤]، وعلى القولِ بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿رُسُلَنَا﴾: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم فيُفيدُ أنَّ مِمَّا جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَواعِظَ وإرشادًا كَثيرًا ليس مِنَ القُرآنِ[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ فيه أنَّ هؤلاء المكذِّبين بالكتابِ وبما أرسلَ اللهُ به الرُّسُلَ يُعَذَّبُون عذابًا جسديًّا بالسَّلاسلِ والأغلالِ والسَّحْبِ في النَّارِ؛ ويُعَذَّبون عذابًا قلبيًّا بالتَّوبيخِ والتَّقريعِ والتَّنديمِ؛ فيُقالُ: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٢).

(٢) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٨٩).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يُضِلُّ الكافرَ لِكُفْرِه؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ على وصْفٍ كان ذلك الوصفُ عِلَّةً له، فالَّذي عُلِّقَ على الكفرِ هنا الإضلالُ، إذًا الكفرُ سببٌ للإضلالِ، ويؤيِّدُ هذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، ويَتَفَرَّعُ على ذلك أنَّ الضَّالَّ إذا ضَلَّ فإنَّه هو السَّببُ في ضلالِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لو عَلِمَ فيه خيرًا لَأسْمَعه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الرَّدُّ على القَدَريَّةِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ القَدَريَّةَ يَقولونَ: إنَّ أفعالَ العِبادِ ليست مَخلوقةً للهِ سُبحانَه وتعالى، ولا عَلاقةَ للهِ بها! لكِنَّ الآيةَ تدُلُّ على أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى هو الَّذي يُضِلُّهم[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أنَّ الشَّارِعَ يَذكُرُ العِلَلَ والأوصافَ المؤَثِّرةَ والمعانيَ المُعتبَرةَ في الأحكامِ القَدَريَّةِ والشَّرعيَّةِ والجزائيَّةِ؛ لِيَدُلَّ بذلك على تَعلُّقِ الحُكمِ بها أين وُجِدَتْ، واقتِضائِها لأحكامِها، وعَدَمِ تَخَلُّفِها عنها إلَّا لِمانعٍ يُعارِضُ اقتِضاءَها، ويُوجِبُ تَخَلُّفَ أثَرِها عنها[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أنَّ الفَرَحَ بغيرِ الحقِّ سببٌ للعذابِ والإضلالِ[٤]، وأنَّ الفَرَحَ بالحقِّ محمودٌ، ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، فالفرحُ بالحقِّ محمودٌ، والفرحُ بغيرِ الحقِّ مذمومٌ، والفرحُ بما ليس حقًّا ولا باطلًا ليس محمودًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٩٥).

ولا مذمومًا؛ لأنَّه مِن اللَّغْوِ، ولكنَّ عبادَ الرَّحمنِ إذا مَرُّوا باللَّغوِ مَرُّوا كِرامًا[١].

٧- في قَولِ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أنَّ الأسبابَ تَتوارَدُ، بمعنى أنَّه قد يَرِدُ على الشَّيءِ سَببانِ؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، والمَرَحُ أشدُّ الفَرَحِ، وهكذا الأسبابُ الشَّرعيَّةُ تتوارَدُ، بمعنى أنَّه قد يكونُ في الإنسانِ سَبَبانِ، كلُّ واحِدٍ منهما يُوجِبُ الحُكمَ، فإذا اجتَمَعا صار كُلُّ واحِدٍ يقَوِّي الآخَرَ[٢].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ للتَّعجيبِ مِن حالِ انصِرافِهم عن الإيمانِ، بعدَ تلك الدَّلائلِ البَيِّنةِ[٣]، وتمهيدٌ لما يعقُبُه مِن بيانِ تكذيبِهم بكلِّ القُرآنِ وبسائرِ الكتبِ والشرائعِ، وترتيبُ الوعيدِ على ذلكَ[٤].

وسَجَّلَ على جَهالَتِهم وصَرْفِهم عن الطَّريقِ الحقِّ، مع قِيامِ تلك الحُجَجِ القاطِعةِ والبَراهينِ السَّاطِعةِ بقولِه: ﴿أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾[٥].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُجَٰدِلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ المُجادَلةِ وتَكرُّرِها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٩٧).

ثمَّ ذكَر أنَّه إذا اجتَمَع سببانِ، واختَلف موجَبُهما؛ أخَذْنا بموجَبِ كلٍّ منهما ما لم يكُنْ أحدُهما أقوَى، فيُؤخَذُ بالأقوَى، فالرَّجلُ إذا ماتَتْ زوجتُه، وكانتْ ابنةَ عمِّه اجتمَع في حقِّه النِّصفُ فرضًا، والباقي تعصيبًا، فيرِثُ بالفرضِ والتَّعصيبِ مع توفُّرِ الشُّروطِ. يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٣).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٤٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٤).

- وتكريرُ ذمِّ المُجادَلةِ لِتَعدُّدِ المجادِلِ -بأن يكونَ المجادِلُ هناك قومًا، وهنا قومًا آخرينَ-، أو المجادَلِ فيه -بأنْ يُحمَلَ في كلٍّ على معنًى مناسبٍ؛ ففيما مرَّ في البعثِ وهنا في التَّوحيدِ-، أو هو للتأكيدِ؛ اهتمامًا بشأنِ ذلك[1].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصۡرَفُونَ ﴾ مُستعمَلٌ في التَّقريرِ، وهو مَنْفيٌّ لَفظًا، والمرادُ به التَّقريرُ على الإثباتِ، و(أنَّى) بمعنى (كيف)، وهي مُستعمَلةٌ في التَّعجيبِ، أي: أرأيتَ عَجيبَ انصِرافِهم عن التَّصديقِ بالقُرآنِ بصارفٍ غيرِ بَيِّنٍ مَنْشَؤه؟! ولذلك بُنيَ فِعلُ (يُصرَفون) للنَّائبِ؛ لأنَّ سَببَ صَرْفِهم عن الآياتِ ليس غيرَ أنفُسِهم، ويجوزُ أنْ تكونَ (أنَّى) بمعنى (أين)، أي: ألَا تَعجَبُ مِن أين يَصرِفُهم صارفٌ عن الإيمانِ حتَّى جادَلوا في آياتِ اللهِ، مع أنَّ شُبَهَ انصِرافِهم عن الإيمانِ مُنتفيةٌ بما تَكرَّرَ مِن دَلائلِ الآفاقِ وأنفُسِهم، وبما شاهَدوا مِن عاقبةِ الَّذين جادَلوا في آياتِ اللهِ ممَّن سبَقَهم؟! وهذا كما يقولُ المُتعجِّبُ مِن فِعلِ أحدٍ: أين يُذهَبُ بك؟! وبِناءُ فِعلِ ﴿يُصۡرَفُونَ﴾ للمَجهولِ على هذا الوجْهِ للتَّعجيبِ مِن الصَّارفِ الذي يَصرِفُهم، وهو غيرُ كائنٍ في مَكانٍ غيرِ نُفوسِهم[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾

- وُصِلَ ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ ﴾ بالتَّكذيبِ دُونَ المُجادَلةِ؛ لأنَّ المُعتادَ وُقوعُ المُجادَلةِ في بَعضِ الموادِّ لا في الكُلِّ. وصِيغةُ الماضي ﴿كَذَّبُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٠، ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٤).

- وعَطْفُ قولِه: ﴿وَبِمَآ أَرۡسَلۡنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ على أصْلِ العطْفِ مُقتضيًا المُغايَرةَ؛ فيَكونَ المرادُ: كذَّبوا بما أرسَلْنا به رُسُلَنا مِن الكُتبِ قبْلَ نُزولِ القرآنِ، فيَكونَ تَكذيبُهم ما أُرسِلَت به الرُّسلُ مُرادًا به تَكذيبُهم جميعَ الأديانِ. ويَحتمِلُ أنَّه أُرِيدَ به التَّكذيبُ بالبَعثِ؛ فلعلَّهم لَمَّا جاءَهُم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإثباتِ البَعثِ سَأَلوا عنه أهلَ الكِتابِ، فأثْبَتوه، فأنكَرَ المشْرِكون جميعَ الشَّرائعِ لذلك. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفَ مُرادفٍ، فائدتُه التَّوكيدُ، والمرادُ بـ﴿رُسُلَنَا﴾ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

- وتَفرَّعَ على تَكذيبِهم وَعيدُهم بما سَيَلْقَونَه يومَ القِيامةِ، فقيل: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: سوفَ يَجِدونَ العذابَ الَّذي كانوا يُجادِلونَ فيه فيَعلَمونه، وعُبِّر عن وِجْدانِهم العذابَ بالعِلمِ به بمُناسَبةِ استِمرارِهم على جَهْلِهم بالبعثِ، وتَظاهُرِهم بعَدمِ فَهمِ ما يقولُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فأُنْذِروا بأنَّ ما جَهِلوه سيَتحقَّقونَه يومَئذٍ[2].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ لِدَلالةِ ﴿كَذَّبُواْ بِٱلۡكِتَٰبِ﴾ عليه، أي: يَتحقَّقون ما كذَّبوا به[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ﴾ (إذ) ظَرْفٌ لـ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، وهو ظَرْفٌ لِما مَضَى؛ فلا يَعمَلُ فيه المستقبلُ، فلا يصِحُّ أنْ يُقالَ: سأقومُ أمْسِ. ولَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٠١، ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٠٢).

كان وُقوعُ معنى الجُملةِ سيَقَعُ في الآخِرةِ على الاستِقبالِ؛ كان استخدامُ (إذ) الدَّالَّةِ على الماضِي للدَّلالةِ على تَيقُّنِ حُدوثِه؛ لأنَّه لَمَّا كانتِ الأمورُ المُستقبَلةُ في أخبارِ اللهِ تعالى مُتيَقَّنةً مَقطوعًا بها؛ عُبِّرَ عنها بلَفظِ ما كان ووُجِدَ، والمعنى على الاستِقبالِ[1].

- و(ثُمَّ) عاطفةٌ جملةَ ﴿فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ على جُملةِ ﴿يُسۡحَبُونَ * فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾، وشأْنُ (ثُمَّ) إذا عطَفَت الجُمَلَ أنْ تكونَ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ وذلك أنَّ احتِراقَهم بالنَّارِ أشدُّ في تَعذيبِهم مِن سَحْبِهم على النَّارِ؛ فهو ارتِقاءٌ في وَصْفِ التَّعذيبِ الَّذي أُجمِلَ بقولِه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، والسَّجرُ بالنَّارِ حاصلٌ عقِبَ السَّحبِ، سواءٌ أكان بتَراخٍ أمْ بدونِه[2].

- قولُه: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ السَّجرُ: مَلْءُ التَّنُّورِ بالوقودِ؛ لِتَقويةِ النَّارِ فيه، وهذا يُفيدُ أنَّهم في النَّارِ، فهي مُحيطةٌ بهم، وهم مَسْجورون بالنَّارِ مَملوءةٌ بها أجوافُهم، والمرادُ أنَّهم يُعذَّبون بأنواعٍ مِن العذابِ، ويُنقَلون مِن بعضِها إلى بعضٍ. وإسنادُ فِعلِ ﴿يُسۡجَرُونَ﴾ إلى ضَميرِهم أُرِيدَ به المبالَغةُ في تَعلُّقِ السَّجْرِ بهم[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـًٔاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ (ثُمَّ) هذه للتَّراخي الرُّتبيِّ لا مَحالةَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٣).

لأنَّ هذا القولَ يُقالُ لهم قبْلَ دُخولِ النَّارِ؛ بدَليلِ أنَّ ممَّا وقَعَ في آخرِ القَولِ: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، ودُخولُ أبوابِ جهنَّمَ قبْلَ السَّحبِ في حَميمِها والسَّجرِ في نارِها. وهذا القيلُ ارتِقاءٌ في تَقريعِهم وتَوبيخِهم، وإعلانِ خَطَلِ[1] آرائِهم بيْنَ أهْلِ المحشَرِ، وهو أشدُّ على النَّفْسِ مِن ألَمِ الجسْمِ، ولأنَّ هذا القولَ مُقدِّمةٌ لِتَسليطِ العذابِ عليهم؛ لاشتِمالِه على بَيانِ سَببِ العذابِ؛ مِن عِبادةِ الأصنامِ، وازْدهائِهم في الأرضِ بكُفْرِهم ومَرَحِهم، وهو أيضًا ارتِقاءٌ في وَصفِ أحوالِهم الدَّالَّةِ على نكالِهم؛ إذ ارْتَقى مِن صِفةِ جَزائهم على إشْراكِهم -وهو شَيءٌ غيرُ مُستغرَبٍ تَرتُّبُه على الشِّركِ- إلى وَصفِ تَحقيرِهم آلهتَهم الَّتي كانوا يَعبُدونها، وذلك غَريبٌ مِن أحوالِهم وأشدُّ دَلالةً على بُطلانِ إلهيَّةِ أصْنامِهم، وهو المَقصدُ المهمُّ مِن القَوارعِ الَّتي سُلِّطَت عليهم في هذه السُّورةِ[2].

- وصِيغَ ﴿قِيلَ﴾ بصِيغةِ المُضِيِّ؛ لأنَّه مُحقَّقُ الوُقوعِ، فكأنَّه وقَعَ ومَضَى[3].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ على الغَلَطِ والفضيحةِ في الموقفِ؛ فإنَّهم كانوا يَزْعُمون أنَّهم يَعبُدون الأصنامَ لِيَكونوا شُفعاءَ لهم مِن غضَبِ اللهِ، فلمَّا حَقَّ عليهم العذابُ، فلمْ يَجِدوا شُفعاءَ؛ ذُكِّروا بما كانوا يَزْعُمونه، فقِيل لهم: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فابْتَدَروا بالجوابِ قبْلَ انتِهاءِ المقالةِ؛ طَمَعًا في أنْ يَنفَعَهم الاعتذارُ؛ فجُملةُ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ مُعترِضةٌ في أثناءِ القولِ الَّذي قِيل لهم. ومعنى

---

(١) أي: فَسادِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿ضَلُّواْ﴾: غابوا، أي: غُيِّبْنا في التُّرابِ، ثمَّ عرَضَ لهم فعَلِموا أنَّ الأصنامَ لا تُفيدُهم، فأضْرَبوا عن قَولِهم: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾، وقالوا: ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾، أي: لم نكُنْ في الدُّنيا نَدْعو شيئًا يُغْني عنَّا، فنَفْيُ دُعاءِ شَيءٍ هنا راجعٌ إلى نَفْيِ دُعاءِ شَيءٍ يُعتَدُّ به[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وصِيغَ الفِعلانِ ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ﴾ بصِيغةِ المُضِيِّ؛ لأنَّه مُحقَّقُ الوُقوعِ، فكأنَّه وقَعَ ومَضَى[2].

- وجُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تَذييلٌ مُعترِضٌ بيْنَ أجزاءِ القَولِ الَّذي يُقالُ لهم، ومعنى الإشارةِ تَعجيبٌ مِن ضَلالِهم، أي: مِثلَ ضَلالِهم ذلك يُضِلُّ اللهُ الكافرينَ. والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يُفيدُ تَشبيهَ إضلالِ جَميعِ الكافرينَ بإضلالِه هؤلاء الَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ؛ فتكونُ جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تَذييلًا، أي: مِثلَ إضلالِ الَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ يُضِلُّ اللهُ جميعَ الكافرينَ؛ فيكونُ إضلالُ هؤلاء الَّذين يُجادِلون مُشبَّهًا به إضلالُ الكافرينَ كلِّهم، والتَّشبيهُ كِنايةٌ عن كَونِ إضلالِ الَّذين يُجادِلون في آياتِ اللهِ بلَغَ قُوَّةَ نَوعِه، بحيثُ يُنظَّرُ به كلُّ ما خَفِيَ مِن أصنافِ الضَّلالِ، وهو كِنايةٌ عن كَونِ مُجادَلةِ هؤلاء في آياتِ اللهِ أشَدَّ الكفْرِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ فيه العُدولُ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ للمُبالَغةِ في التَّوبيخِ، أي: هذا بما كُنتُم تُظهِرون

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٥).

في الدُّنيا مِن السُّرورِ بالمعاصي، وكثْرةِ المالِ والأتْباعِ، والصِّحَّةِ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾

- جُملةُ ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّهم لَمَّا سَمِعوا التَّقريعَ والتَّوبيخَ، وأيْقَنوا بانتِفاءِ الشَّفيعِ؛ تَرقَّبوا ماذا سيُؤمَرُ به في حقِّهم؟ فقِيل لهم: ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ بدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾؛ فإنَّ مَدلولَ اسمِ الإشارةِ العذابُ المُشاهَدُ لهمْ، وهو يَشتمِلُ على إدْخالِهم أبوابَ جهنَّمَ والخُلودِ فيها، ودُخولُ الأبوابِ كِنايةٌ عن الكَونِ في جهنَّمَ؛ لأنَّ الأبوابَ إنَّما جُعِلَت لِيُسلَكَ منها إلى البَيتِ ونحْوِه[٢].

- والمخصوصُ بالذَّمِّ في قولِه: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ مَحذوفٌ؛ لأنَّه يدُلُّ عليه ذِكرُ جَهنَّمَ، أي: فبِئسَ مَثوى المتكبِّرينَ جهنَّمُ. وأُوثِرَ لَفظُ ﴿مَثۡوَى ﴾ دونَ (مَدخَل) المُناسِبِ ﴿ ٱدۡخُلُوٓاْ ﴾؛ لأنَّ المَثْوى أدَلُّ على الخُلودِ؛ فهو أَولى بمَساءتِهم[٣].

- والمرادُ بالمتكبِّرينَ في قولِه: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ المُخاطَبونَ ابتِداءً؛ لأنَّهم جادَلوا في آياتِ اللهِ عن كِبْرٍ في صُدورِهم، ولأنَّ تَكبُّرَهم مِن فَرَحِهم، وإنَّما عُدِلَ عن ضَميرِهم إلى الاسمِ الظَّاهرِ -﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾-؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥١٩).

للإشارةِ إلى أنَّ مِن أسبابِ وُقوعِهم في النَّارِ تَكبُّرَهم على الرُّسلِ، ولِيَكونَ لكلِّ مَوصوفٍ بالكِبْرِ حظٌّ مِنِ استِحقاقِ العِقابِ إذا لم يَتُبْ ولم تَغلِبْ حَسناتُه على سَيِّئاتِه إنْ كان مِن أهلِ الإيمانِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧).

## الآيات (٧٧-٨١)

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمَ لِتَرۡكَبُواْ مِنۡهَا وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةٗ فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾: أي: الذين جادَلوا بالباطِلِ، والباطِلُ: نَقيضُ الحَقِّ، وهو ما لا ثَباتَ له عِندَ الفَحصِ عنه، وأصلُ (بطل): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ، وقِلَّةِ مُكثِه[1].

﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: السُّفنِ، وواحِدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلكِ: الاستدارةُ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيت فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى مُوصيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على أذى الكُفَّارِ؛ إنَّ وَعدَ اللهِ حَقٌّ، وهو مُنجِزٌ لك ما وعَدَك؛ فإنْ نُرِكَ بَعضَ العَذابِ الذي نَعِدُ به أولئك الكُفَّارَ في الدُّنيا، ونُعجِّلْ به في حَياتِك؛ أو نُمِتْكَ قبْلَ أنْ يَحُلَّ بهم ذلك: فإلينا يُرجَعونَ، فنُجازيهم.

ثمَّ يقولُ تعالَى مُسلِّيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ولقدْ أرسَلْنا -يا مُحمَّدُ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص:١٢٩، ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

في الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا مِن قَبلِك، مِنهم مَن قصَصْناهم عليك، ومِنهم مَن لم نَقصُصْ عليك أخبارَهم، وليس لِرَسولٍ أنْ يَأتيَ النَّاسَ بآيةٍ إلَّا بأمْرِ اللهِ، فإذا جاء أمرُ اللهِ بالفَصلِ بيْنَ الرُّسُلِ وأقوامِهم قَضى اللهُ بيْنهم بالعَدلِ، وخَسِرَ عِندَ ذلك المُشرِكونَ المتَّبِعونَ للباطِلِ.

ثمَّ يقولُ تعالَى مُمتَنًّا على عِبادِه: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خَلَق لكم الأنعامَ، فتَركَبونَ بَعضًا منها، وتَأكُلونَ بَعضًا، ولكمْ فيها مَنافِعُ أُخرى، ولِتُسافِروا عليها إلى أماكِنَ بَعيدةٍ تُريدونَها، وعلى تِلك الأنعامِ وعلى السُّفُنِ تَركَبونَ، ويُريكم اللهُ آياتِه الدَّالَّةَ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه؛ فأيَّ آياتِه سُبحانَه تُنكِرونَ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا تكَلَّم مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هذا الموضِعِ في تَزييفِ طَريقةِ المجادِلينَ في آياتِ اللهِ؛ أمَرَ في هذه الآيةِ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَصبِرَ على إيذائِهم وإيحاشِهم بتلك المجادَلاتِ[1].

وأيضًا فقدْ كان فيما سَبَق مِن السُّورةِ ما فيه تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على ما تلَقَّاه به المُشرِكونَ مِن الإساءةِ والتَّصميمِ على الإعراضِ، ابتِداءً مِن قَولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، ثمَّ قَولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [غافر: ٢١]، ثمَّ قَولِه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، ثُمَّ قَولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣).

وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥] الآيةَ؛ ففرَّع هنا على جَميعِ ما سَبَق وما تخَلَّله مِن تَصريحٍ وتَعريضٍ: أنْ أمَرَ اللهُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالصَّبرِ على ما يُلاقيه منهم(١).

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- على أذى الكُفَّارِ؛ فإنَّ اللهَ مُنجِزٌ -لا مَحالةَ- ما وعَدَك به مِن عُقوبةِ الكافِرينَ، ونَصْرِ المؤمِنينَ في الدُّنيا والآخِرةِ(٢).

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾.

أي: فإنْ نُرِكَ بَعضَ العَذابِ الذي نَعِدُ به الكُفَّارَ في الدُّنيا، ونُعجِّلْ به في حياتِك؛ أو نُمِتْك قَبْلَ أنْ يَحُلَّ بهم ذلك: فإلينا مَصيرُهم وعَلَيْنا حِسابُهم، فيَنالونَ حِينَها نَصيبَهم مِن عذابِ الآخِرةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧-٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

قولُه تعالَى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ ﴾ أصْلُه: فإنْ نُرِك، و(ما) مَزيدةٌ لتأكيدِ معْنى الشَّرطِ؛ ولذلك أُلحِقَت النُّونُ بالفِعلِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩).

وقولُه تعالى: ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ قيل: هو جَوابُ الشَّرطِ ﴿نُرِيَنَّكَ ﴾ والمعطوفِ عليه ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾، وهو ظاهِرُ اختيارِ مُقاتلِ بنِ سُليمانَ، وابنِ جَريرٍ، والسَّمرْقنديِّ، وابنِ أبي زَمَنِين، ومكِّيٍّ، والبغويِّ، والقرطبيِّ، والعُلَيميِّ، والشَّوكانيِّ، والقاسميِّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٠). =

كما قال تعالَى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبْلها:**

لَمَّا انْقَضى تَفصيلُ الإبطالِ لِضَلالِهم بالأدلَّةِ البيِّنةِ، والتَّذكيرِ بالنِّعمةِ، والإنذارِ بالتَّرهيبِ والتَّرغيبِ، وضَرْبِ الأمْثالِ بأحوالِ الأُمَمِ المكذِّبةِ، ثمَّ بوَعْدِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ بالنَّصرِ، وتَحقيقِ الوعْدِ؛ أُعقِبَ ذلك بتَثبيتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه ما كان شأْنُه إلَّا شأْنَ الرُّسلِ مِن قبْلِه؛ ألَّا يَأْتوا بالآياتِ مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم ولا استِجابةً لِرَغائبِ مُعانِديهم(١).

---

= وقيل: جَوابُ الشَّرطِ لقولِه تعالَى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ مَحذوفٌ تَقديرُه: فذاك، أي: فذاك المرادُ، أو المطلوبُ، أو نحْوُ ذلك، وقيل: فذاكَ إلينا، وهو علينا هيِّنٌ، وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: الزَّمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ جُزَيٍّ، وجَلال الدينِ المحلِّيُّ، والبقاعيُّ، وأبو السعودِ، والألوسيُّ، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٩).

وقال ابنُ جُزَيٍّ: (وجَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ، تَقديرُه: إنْ أَرَيْناك بعضَ الذي نَعِدُهم مِن العذابِ قرَّت عيْنُك بذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٠).

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾.

أي: ولقدْ أرسَلْنا -يا مُحمَّدُ- إلى الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلًا مِن قَبْلِك يَدْعونَهم إلى اللهِ تعالَى[1].

﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

أي: مِن أُولئك الرُّسُلِ مَن أَنْبأناكَ بقَصَصِهم وأخْبارِهم، ومِنهم مَن لم نُنَبِّئْك بقَصَصِهم ولا أخْبارِهم[2].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وليس لأيِّ رَسولٍ مِن رُسُلِ اللهِ أنْ يَأتيَ النَّاسَ بآيةٍ تَدُلُّ على صِدقِه وصِحَّةِ ما جاء به مِن الحَقِّ إلَّا بأمرِ اللهِ تعالَى ومَشيئتِه[3].

﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي فإذا جاء الوَقتُ المحَدَّدُ للفَصلِ بيْنَ الرُّسُلِ وأقوامِهم، قَضى اللهُ بيْنهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٧- ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٢).

بالعَدلِ[١].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

أي: وهَلَك عندَ ذلك المُشرِكونَ المُتَّبِعونَ للباطِلِ؛ فما رَبِحَت تجارتُهم[٢].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بأمْرِ اللهِ: القِيامةُ: السمعاني، والزمخشري، والرازي، والرَّسْعني، والنَّسَفي، والثعالبي، والشِّنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٣)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٥).

وقال مكِّيٌّ، والواحديُّ، والبَغويُّ، وابنُ الجوزيِّ، والخازنُ، والسعديُّ: أمْرُ اللهِ: هو قضاؤُه بيْنَ الأنبياءِ وأُممِهم. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٤٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: العذاب: السَّمرقنديُّ، والقرطبيُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٣٨).

وذكَرَ البيضاويُّ والشَّوكانيُّ أنَّه العذابُ في الدُّنيا أو الآخِرة. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥).

وخصَّ مقاتلُ بنُ سليمان هذا العذابَ بالقتلِ ببدرٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٢).

قال البقاعي: (و«أمرُه» ما توعَّد به مِن العذابِ عندَ العنادِ بعدَ الإجابةِ إلى المقترحِ، ومِن القيامةِ وما فيها). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٢١).

وقال ابنُ عطيةَ: (قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: إذا أراد الله إرسالَ رَسولٍ وبَعثةَ نبيٍّ، قضَى ذلك وأنفذَه). ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

هو انتِقالٌ مِن الامتِنانِ على النَّاسِ بما سُخِّرَ لأجْلِهم مِن نِظامِ العوالمِ العُلْيا والسُّفلَى، وبما منَحَهم مِن الإيجادِ، وما في ذلك مِن الألْطافِ بهم، وما أُدمِجَ فيه مِن الاستِدلالِ على انفِرادِه تعالَى بالتَّصرُّفِ، فكيْف يَنصرِفُ عن عِبادتِه الذين أشْرَكوا به آلهةً أُخرى؟! إلى الامتِنانِ بما سُخِّرَ لهم مِن الأنعامِ لِمَنافِعِهم[1].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾.

أي: اللهُ المُستَحِقُّ وَحْدَه للعِبادةِ هو الذي خَلَق لكم[2] الأنعامَ؛ فمِنها تَركَبونَ، ومنها تَأكُلونَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

(٢) هذه الآية امتِنانٌ مِن اللهِ على العِبادِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

وجعَل ابنُ جريرٍ الخِطابَ هنا لِمُشركي قُرَيشٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٦).

قيل: (مِن) في قَولِه تعالى: ﴿مِنْهَا﴾ في كِلا الموضعينِ: للتبعيض، والمعنى: تَرْكبونَ بَعضًا منها، وتأكُلونَ بَعضًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ جَريرٍ، ورجَّحه الشَّوكانيُّ، وذهَب إليه ابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٣٥).

قال الشَّوكانيُّ: (﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ «مِنْ»: للتَّبعيضِ، وكذلك في قَولِه: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، ويجوزُ أن تكونَ لابتداءِ الغايةِ في الموضِعَينِ، ومعناها: ابتداءُ الرُّكوب وابتداءُ الأكلِ، والأوَّلُ أَوْلى، والمعنى: لِتَركبوا بَعضَها وتأكُلوا بَعضَها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٥).

وقيل: ﴿مِنْهَا﴾ الأُولى للتَّبعيضِ؛ لأنَّ المركوبَ ليس كُلَّ الأنعامِ، بل الإبِلُ خاصَّةً. وَ﴿مِنْهَا﴾ الثَّانيةُ لِبَيانِ الجِنسِ؛ لأنَّ الجميعَ منها يُؤكَل. وممَّن قال بهذا: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١). =

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾.

أي: ولكمْ في الأنعامِ مَنافِعُ؛ فتَتَّخِذونَ منها لِباسًا وأثاثًا، وتَنتَفِعونَ بنَسْلِها والحِراثةِ بها... وغَيرِ ذلك مِنَ المنافِعِ[1].

= وذهَب أبو حيَّانَ إلى أنَّ الأُولى للتَّبعيضِ، وأنَّه يجوزُ أن تكونَ الثَّانيةُ للتَّبعيضِ ولابتداءِ الغايةِ، وأنَّه لا يَظهَرُ كَونُها لبيانِ الجنسِ، خِلافًا لابنِ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٥).

وقال البيضاويُّ: (مِن جِنسِها ما يُؤكَلُ كالغَنَمِ، ومنها ما يُؤكَلُ ويُركَبُ كالإبِلِ والبَقَرِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤).

وقيل: المرادُ بالأنعامِ هنا: الإبِلُ والبقَرُ والغَنَمُ. وممَّن ذهَب إلى هذا: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ كثير، إلَّا أنَّ مُقاتِلًا ذهَب إلى أنَّ التي تُركَبُ هي الإبِلُ والبَقَرُ، والتي تُؤكَلُ منها هي الغنَمُ، وذهَب ابنُ كثير إلى أنَّ التي تُركَبُ هي الإبِلُ، والتي تُؤكَلُ هي البَقَرُ والغَنَمُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩).

وقيل: المرادُ بالأنعامِ: الإبِلُ خاصَّةً. وممَّن ذهَب إلى هذا: الزجَّاج، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

قال السَّمعاني: (قال أهلُ التَّفسيرِ: الأنعامُ: هي الإبلُ والبَقَرُ والغَنَمُ في اللُّغةِ، إلَّا أنَّها الإبِلُ خاصَّةً في هذه الآيةِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣).

وقال ابنُ عاشور: (أُريد بالركوبِ هنا الركوبُ للراحةِ مِن تعَبِ الرِّجلينِ في الحاجةِ القريبةِ؛ بقرينةِ مقابلتِه بقولِه: ﴿وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤، ٢١٥).

وقيل: المرادُ: الإبِلُ والبَقَرُ والغَنَمُ والخَيلُ، وغيرُ ذلك من البهائِمِ التي يَقتنيها أهلُ الإسلامِ لِمَركبٍ أو لِمَطعمٍ. وممَّن ذهَب إلى هذا العُمومِ: ابن جرير، واستظْهَره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٣٤).

قال ابنُ عثيمين: (الظَّاهِرُ ما هو أعَمُّ مِن ذلك، وهو ما أنعَمَ اللهُ به علينا من الحيوانِ الذي سَخَّرَه لنا؛ مِن إبِلٍ وبقَرٍ، وغنَمٍ وفِيَلةٍ، وغَيرِها، وكُلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالَى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥ - ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧٣].

﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾.

أي: ولِتُسافِروا عليها إلى أماكِنَ بَعيدةٍ مِمَّا في صُدورِكم حاجةٌ للوُصولِ إليها[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧].

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

أي: وعلَى الأنعامِ في البَرِّ، وعلى السُّفُنِ في البَحرِ تَركَبونَ، وتَحمِلونَ مَتاعَكم[2].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

---

= (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٥، ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

أي: ويُريكم اللهُ آياتِه الدَّالَّةَ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه وغيرِ ذلك مِن صِفاتِه، فيُظهِرُها ويُجَلِّيها لكم[1].

﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

أي: فأيَّ آياتِ اللهِ تَقدِرونَ على إنكارِها وعَدَمِ الاعترافِ بها، حتى يحِقَّ لكم اتِّباعُ الباطِلِ أو المجادَلةُ في الحَقِّ مِن شأنِ التَّوحيدِ أو البَعثِ أو غيْرِهما؟! فقدْ تقرَّر عِندَكم أنَّ جَميعَ الآياتِ مِنَ اللهِ تعالى؛ فلمْ يَبْقَ مَجالٌ لإنكارِها أو الإعراضِ عنها إلَّا أنْ تُعانِدوا وتُكابِروا[2]!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُواْ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ فيه الامتِنانُ بما سَخَّرَ اللهُ تعالَى لهم مِنَ الأنعامِ؛ لِمَنافِعِهم الجَمَّةِ خاصَّةً وعامَّةً، وفائِدةُ هذا الامتِنانِ: تَقريبُ نُفوسِهم مِنَ التَّوحيدِ؛ لأنَّ شَأنَ أهلِ المروءةِ: الاستِحياءُ مِن المُنعِمِ[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لا بأسَ أنْ نَفْرَحَ إذا أصابَ اللهُ عَدوَّنا بمُصيبةٍ؛ لأنَّ الظَّاهرَ أنَّ قولَه تعالَى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ لأجْلِ أنْ تَقَرَّ عيْنُه بذلك، فإذا أُصيبُ أعداؤُنا بخسْفٍ، أو صَواعقَ، أو فَيضاناتٍ، أو ما أشبهَ ذلك، وفَرِحْنا بهذا؛ فلا لَوْمَ علينا لأنَّهم أعداؤُنا، ويَفرَحونَ بما يُصيبُنا؛ فالجزاءُ مِن جِنسِ العَملِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ استَنبَط منه بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّ كلَّ مَن قَصَّه اللهُ في القرآنِ فهو رَسولٌ، وإنْ كان لم يَرِدْ ذِكْرُه إلَّا بلفْظِ النُّبُوَّةِ، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ إلى أنْ قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٣- ١٦٥]، وأوَّلُ الرُّسلِ نوحٌ عليه السَّلامُ، وآخِرُهم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأفاد قولُه تعالَى: ﴿وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ أنَّه ليس كلُّ الرُّسُلِ قدْ عَلِمْناهم[2].

٣- في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ تَسليةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ الكُفَّارَ يَطلُبون منه آياتٍ، ولكنَّ اللهَ تعالَى يقولُ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، يُسَلِّي الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ وأنَّ هذا الأمرَ ليْس إليك؛ بلْ هو إلى اللهِ، إذا شاء أنْ يُؤتيَك آيةً آتاكَ، وإلَّا فهو الحكيمُ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ الإذْنِ للهِ عزَّ وجَلَّ، والإذنُ نَوعانِ: إذْنٌ شَرعيٌّ، وإذْنٌ كَونيٌّ؛ فالإذْنُ الكَونيُّ: ما يَتَعَلَّقُ بالمَخلوقاتِ وإيجادِها وإعدامِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٩٩)، ((مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين)) (١/ ٣١١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٢٩).

وتَغييرِها وما أشْبَهَ هذا، والإذْنُ الشَّرعيُّ: ما يَتعَلَّقُ بالمَشروعاتِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩] الإذنُ فيهُ شَرْعيٌّ، ولا يَصِحُّ أنْ يكونَ كَونيًّا؛ لأنَّنا نَعلَمُ أنَّه إذا فَعَلوه فقدْ أَذِنَ اللهُ فيه إذْنًا كَوْنيًّا، وقَولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] الإذنُ فيهُ شَرعيٌّ، أي: لم يَأْذَنْ به شَرعًا، ولا يجوزُ أنْ يكونَ إذْنًا كَونيًّا؛ لأنَّه وقَعَ، فقدْ أذِنَ اللهُ تعالَى فيما شَرَعَ هؤلاء إذْنًا كَونيًّا، وقال اللهُ تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] الشَّفاعةُ تُطلَبُ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ: أنْ يُخَفِّفَ العَذابَ عن شَخصٍ أو ما أشْبهَ ذلك، أو يَرفَعَ دَرَجاتِه، وهذا إذْنٌ كَوْنيٌّ لا شَكَّ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ فيه إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ، يعني: أنَّ اللهَ تعالى قدْ يُحدِثُ مِن أمْرِه ما شاء، و«إذا» هنا شَرطِيَّةٌ للمُستقبَلِ؛ إذَنِ الأمرُ لم يَأتِ بَعدُ، وهذا يدُلُّ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى مُتَّصِفٌ بالأفعالِ الاختياريَّةِ، خِلافًا للأشاعِرةِ ونَحوِهم؛ الذين قالوا: إنَّ اللهَ تعالَى لا يُوصَفُ بالأفعالِ الاختياريَّةِ[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿قُضِىَ بِٱلْحَقِّ﴾ فيه أنَّ ما قَضَى اللهُ مِن عِقابٍ أو عَذابٍ فإنَّه حقٌّ؛ وعلى هذا فيَنْتفي بذلك أنْ يكونَ اللهُ تعالَى ظالِمًا لِمَن عاقَبَه، فإنْ قال قائلٌ: أليْستِ العقوبةُ تَنْزِلُ بالأُمَّةِ وفيهمُ الصَّالحون؟

**فالجوابُ**: بلَى، تَنْزِلُ العقوبةُ على الأُمَّةِ وفيهم الصَّالحون؛ لكنَّها تكونُ عُقوبةً على المسيءِ، ورِفْعَةَ درَجاتٍ وتَكفيرَ سيِّئاتٍ على الصَّالحِ؛ ولهذا لَمَّا قالتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٥٣٠).

إحْدى أُمهاتِ المؤمنِينَ للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((أَنَهْلِكُ وفينا الصَّالحونَ؟ قال: نعمْ؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ[١]))[٢]، فإذا غَلَبَ الخَبَثُ على الطَّيِّبِ حَلَّتِ العقوبةُ بالجميعِ[٣].

٧- في قولِه تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ ﴾ أنَّ الأصلَ جَوازُ كلِّ ما يُنتفَعُ به مِن وُجوهِ الانتِفاعِ في هذه الأنعامِ، وبِناءً على ذلك يَجوزُ أنْ يُركَبَ ما لا يُركَبُ عادةً إذا لم يَشُقَّ عليه؛ لأنَّ ذلك مِن المنافِعِ، فإنْ شَقَّ عليها كان مَمنوعًا؛ لأنَّ إيذاءَ الحيوانِ مُحَرَّمٌ[٤].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ نِعمةُ اللهِ سُبحانَه وتعالَى على عِبادِه بأنْ يُرِيَهم الآياتِ الدَّالَّةَ عليه، ولو شاء اللهُ تعالَى لَأخفَى عنَّا ذلك، ووَكَلَنا إلى ما في نُفوسِنا وفِطَرِنا، ولكِنْ مِن رَحمتِه أنَّه يُظهِرُ الآياتِ حتَّى يكونَ هذا عَونًا على ما في الفِطرةِ مِن مَعرفةِ آياتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٥].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ قدْ كان فيما سبَقَ مِن السُّورةِ ما فيه تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما تَلقَّاه به المشْرِكون مِن الإساءةِ

---

(١) الخَبَثُ أي: الفُسُوقُ والفُجورُ والمعاصي. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٣٦). ويُنظر أيضًا: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٩/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٤٠).

والتَّصميم على الإعراضِ، ابتداءً مِن قولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ﴾ [غافر: ٤]، ثم قولِه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأَزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ [غافر: ١٨]، ثم قولِه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [غافر: ٢١]، ثم قولِه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، فلمَّا حصَلَ الوعدُ بالانتصافِ مِن مُكذِّبي النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الدُّنيا والآخِرةِ، أعقَبَ بقولِه: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾؛ فإنَّ مُناسَبةَ الأمْرِ بالصَّبرِ عقِبَ ذلك أنْ يكونَ تَعريضًا بالانتصارِ له؛ ولذلك فُرِّعَ على الأمْرِ بالصَّبرِ الشَّرطُ المردَّدُ بيْنَ أنْ يُريَه بعْضَ ما تَوعَّدَهم اللهُ به وبيْن ألَّا يَراهُ؛ فإنَّ جَوابَ الشَّرطِ حاصلٌ على كِلْتا الحالتَين، وهو مَضمونُ ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾، أي: أنَّهمْ غَيْرُ مُفْلِتينَ مِن العِقابِ(١).

- وجُملةُ ﴿فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ جَوابٌ للشَّرطِ الثَّاني، وهو ﴿نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، وجَوابُ الشَّرطِ الأوَّلِ مَحذوفٌ -وذلك على قولٍ-، والتَّقديرُ: فإمَّا نُرينَّك بعضَ الذي نَعِدُهم مِن العذابِ -وهو القَتْلُ والأسْرُ يومَ بدْرٍ- فذاك، أو أنْ نَتوفَّينَّك قبْلَ يومِ بدْرٍ، فإلينا يُرْجَعون يومَ القِيامةِ، فنَنتقِمُ منهم أشدَّ الانتقام، وإنَّما حُذِفَ جَوابُ الأوَّلِ دونَ الثَّاني؛ لأنَّ الأوَّلَ إنْ وقَعَ فذاك غايةُ الأمَلِ في إنْكائِهم؛ فالثَّابتُ على تَقديرِ وُقوعِه مَعلومٌ، وهو حُصولُ المرادِ على التَّمامِ، وأمَّا إنْ لم يقَعْ ووَقَعَ الثَّاني -وهو تَوفِّيه قبْلَ حُلولِ المجازاةِ بهم- فهذا هو الذي يَحتاجُ إلى ذِكرِه للتَّسليةِ، وتَطمينِ النَّفْسِ، على أنَّه وإنْ تَأخَّرَ جَزاؤُهم عن الدُّنيا فهو حَتْمٌ في الآخِرةِ، ولا بُدَّ منه(٢).

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - الحاشية)) (٤/ ١٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير =

- وللتَّأكيدِ بـ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ مَوقعُه؛ وذلك أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ استَبْطؤوا النَّصرَ، كما قال تعالَى: ﴿وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فنُزِّلوا مَنزلةَ المتردِّدِ فيه، فأكَّدَ وعْدَه بحَرْفِ التَّوكيدِ[١].

- قولُه: ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ ﴿فَإِلَيۡنَا﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، وللاهتمامِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ نَظيرُ هذَين الشَّرطينِ اللَّذينِ في قولِه: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ في سُورةِ (يُونسَ)، إلَّا أنَّ في سُورةِ (يُونسَ): ﴿فَإِلَيۡنَا مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [يونس: ٤٦]، وهنا في سُورةِ (غافرٍ) ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧]، والمخالفةُ بيْن الآيتَين تَفنُّنٌ، ولأنَّ ما في (يُونسَ) اقْتَضى تَهديدَهم بأنَّ اللهَ شَهيدٌ على ما يَفعَلون، أي: علَى ما يَفعَلُه الفريقانِ مِن قولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ إِلَيۡكَ﴾ [يونس: ٤٢]، وقولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيۡكَ﴾ [يونس: ٤٣]؛ فكانتِ الفاصِلةُ حاصلةً بقولِه: ﴿عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، وأمَّا هنا فالفاصلةُ مُعاقِبةٌ للشَّرطِ؛ فاقتَضَت صَوغَ الرُّجوعِ بصِيغةِ المضارعِ المختتَمِ بواوٍ ونونٍ، على أنَّ ﴿مَرۡجِعُهُمۡ﴾ [يونس: ٤٦] مُعرَّفٌ بالإضافةِ؛ فهو مُشعِرٌ بالمرجِعِ المعهودِ، وهو مَرجِعُهم في الآخِرةِ، بخِلافِ قولِه: ﴿يُرۡجَعُونَ﴾ المشعِرِ برُجوعٍ مُتجدِّدٍ[٣].

---

= أبي السعود)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٠٩).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فيه تَثبيتُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه ما كان شأْنُه إلَّا شأْنَ الرُّسلِ مِن قبْلِه، وأنَّ الآياتِ عندَ اللهِ يُظهِرُ ما شاء منها بمُقْتضى إرادتِه الجاريةِ على وَفْقِ عِلْمِه وحِكمتِه؛ فالرُّسلُ لا يَأتون بها مِن تِلْقاءِ أنفُسِهم. وفي ذلك تَعريضٌ بالرَّدِّ على المجادِلين في آياتِ اللهِ، وتَنبيهٌ لهمْ على خَطأِ ظَنِّهم أنَّ الرُّسلَ تَنتصِبُ لِمُناقَشةِ المعانِدينَ؛ فالمقصودُ الأهمُّ مِن هذه الآيةِ هو قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ ...﴾ إلخ، فهو كمُقدِّمةٍ للمقصودِ؛ لِتأكيدِ العُمومِ مِن قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾، وهو معَ ذلك يُفيدُ بتَقديمِه معنًى مُستقِلًّا مِن رَدِّ مُجادَلتِهم؛ فإنَّهم كانوا يَقولونَ: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فدُمِغَت مَزاعِمُهم بما هو مَعلومٌ بالتَّواتُرِ مِن تَكرُّرِ بَعثةِ الرُّسلِ في العُصورِ والأُمَمِ الكثيرةِ[١].

- وتَنكيرُ ﴿رُسُلًا﴾ مُفيدٌ للتَّعظيمِ والتَّكثيرِ، أي: أرْسَلْنا رُسلًا عدَدُهم كثيرٌ، وشأْنُهم عظيمٌ[٢].

- وعطْفُ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ...﴾ بالواوِ دونَ الفاءِ يُفيدُ استقلالَ هذه الجُملةِ بنفْسِها؛ لِما فيها مِن معنًى عَظيمٍ حَقيقٍ بألَّا يكونَ تابعًا لِغَيرِه، ويُكْتفَى في الدَّلالةِ على ارتباطِ الجُملتَينِ بمَوقعِ إحداهما مِن الأُخرى[٣].

- والباءُ في ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ هي باءُ السَّببيَّةِ دخَلَتْ على مُسْتثنًى مِن أسبابٍ مَحذوفةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في الاستِثناءِ المفرَّغِ، أي: ما كان له أنْ يَأتِيَ بآيةٍ بسَببٍ مِن الأسبابِ إلَّا بسَببِ إذْنِ اللهِ تعالَى. وهذا إبطالٌ لِما يَتعنَّتون به مِن المُقترَحاتِ(١).

- قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ في العُدولِ عن (إذْنِ اللهِ) إلى ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ تَعريضٌ بأنَّ ما سيُظْهِرُه اللهُ مِن الإذْنِ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هي آياتُ عِقابٍ لِمُعانِديه، كآيةِ الجُوعِ سَبْعَ سِنينَ حتى أكَلوا الميتةَ، وآيةِ السَّيفِ يَومَ بَدْرٍ إذ استأصَلَ صَناديدَ المكذِّبينَ مِن أهلِ مَكَّةَ. وفي إيثارِ ﴿قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالذِّكرِ دونَ غَيرِه، مِن نحْوِ: ظهَرَ الحقُّ، أو تبيَّنَ الصِّدقُ؛ تَرشيحٌ(٢) لِمَا في قولِه: ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ مِن التَّعريضِ بأنَّه أمرُ انتصافٍ مِن المكذِّبين؛ ولذلك عُطِفَ عليه ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، أي: خسِرَ الذين جادَلوا بالباطلِ؛ لِيُدْحِضوا به الحقَّ.(٣)

- قولُه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ (هنالك) أصْلُه اسمُ إشارةٍ إلى المكانِ، وعُبِّرَ به هنا عن الإشارةِ إلى الزَّمانِ المعبَّرِ عنه بـ(إذا) في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك نُكتةٌ بَديعةٌ؛ وهي الإيماءُ إلى أنَّ المبطِلينَ مِن قُريشٍ ستَأْتيهم الآيةُ في مَكانٍ مِن الأرضِ، وهو مكانُ بَدْرٍ وغيرِه مِن مَواقعِ إعمالِ السَّيفِ فيهم؛ فكانتْ آياتُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حُجَّةً على مُعانِديه أقْوى مِن الآياتِ السَّماويةِ، نَحْوِ الصَّواعقِ أو الرِّيحِ، وعن الآياتِ الأرضيَّةِ، نَحْوِ الغرَقِ والخَسْفِ؛ لأنَّها كانتْ مع مُشاركتِهم ومُداخلتِهم حتَّى يَكونَ انْغلابُهم أقطَعَ لِحُجَّتِهم وأخْزى لهم، نَظيرَ آيةِ عَصا مُوسى مع عِصِيِّ السَّحرةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٢).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٣، ٢١٤).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ختَمَ هذه الآيةَ هنا بقولِه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾، وختَمَ السُّورةَ بقولِه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾؛ ووَجْهُه أنَّ الأوَّلَ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾، ونَقيضُ الحقِّ الباطلُ، والثَّاني مُتَّصلٌ بإيمانٍ غيرِ نافعٍ، ونَقيضُ الإيمانِ الكُفْرُ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ امْتنَّ اللهُ تعالَى عليهم بما سخَّرَ لهم، وأُدمِجَ في الامتِنانِ استِدلالٌ على دَقيقِ الصُّنعِ وبَليغِ الحِكمةِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ٨١]، أي: في ذلك كلِّه[2].

- اللَّامُ في ﴿لَكُمُ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: لأجْلِكم، وهو امتنانٌ مُجمَلٌ يَشمَلُ بالتَّأمُّلِ كلَّ ما في الإبلِ لهم مِن مَنافِعَ، وهم يَعلَمونها إذا تَذكَّروها وعَدُّوها، ثم فُصِّلَ ذلك الإجمالُ بعضَ التَّفصيلِ بذِكرِ المهمِّ مِن النِعَمِ التي في الإبلِ بقولِه: ﴿لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا﴾ إلى ﴿تُحْمَلُونَ﴾[3].

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ تَقديمُ ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلْأَنْعَٰمَ﴾، مع أنَّ المفعولَ أشَدُّ اتِّصالًا بفِعلِه مِن المجرورِ؛ لِقَصْدِ الاهتِمامِ بالمنعَمِ عليهم[4].

- وأيضًا تَغييرُ النَّظْمِ الكَريمِ بتَقديمِ المجرورِ في قولِه: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ؛ إذ لو جِيءَ على ظاهِرِه لاختلَّتْ، وكذلك جرَى في

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص:٢٢١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١١، ٤١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٧).

الفاصلةِ الآتيةِ، مع الاهتمامِ بما هو المقصودُ في السِّياقِ، والإشعارِ بأصالةِ الرُّكوبِ في الانتفاعِ بالأنعامِ. وقيل: لأنَّه في حيِّزِ الضَّرورةِ، وقيل: لأنَّه يُقصَدُ به التَّعيُّشُ، وهو مِن الضَّروريات، والتَّلذُّذُ والرُّكوبُ والمسافرةُ عليها قدْ تكونُ لأغراضٍ دِينيَّةٍ واجبةٍ أو مَندوبةٍ، أو للفرْقِ بيْن العَينِ والمنفَعةِ[1].

وقيل: إنَّما قال: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ ولم يقل: (لِتأكُلوا منها ولِتَصِلوا إلى المنافِعِ)؛ لأنَّهم في الحالِ آكِلونَ وآخِذونَ المنافِعَ، وأمَّا الرُّكوبُ وبُلوغُ الحاجةِ فأمرانِ مُنتَظرانِ؛ فجِيءَ بما يدُلُّ على الاستقبالِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾

- جُملةُ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، والمعنى على اعتِبارِ التَّعليلِ، كأنَّه قِيل: ولِتَجْتَنُوا مَنافعَها المجْعولةَ لكمْ، وإنَّما غُيِّرَ أُسلوبُ التَّعليلِ؛ تَفنُّنًا في الكلامِ، وتَنشيطًا للسَّامعِ؛ لئلَّا يَتكرَّرَ حرْفُ التَّعليلِ تَكْراراتٍ كثيرةً[3].

- قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ المنافِعُ شامِلةٌ للرُّكوبِ الذي في قولِه: ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾؛ فذِكْرُ المنافعِ بعْدَ ﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾ تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ، فذكَرَ هنا الشَّائعَ المطروقَ عِندَهم، ثمَّ ذكَرَ مَثِيلَه في الشُّيوعِ، وهو الأكْلُ منها، ثمَّ عاد إلى عُمومِ المنافِعِ، ثم خَصَّ مِن المنافعِ الأسفارَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٥).

فإنَّ اشتدادَ الحاجةِ إلى الأنعامِ فيها تَجعَلُ الانتفاعَ برُكوبِها للسَّفرِ في مَحلِّ الاهتِمامِ[١].

- ولَمَّا كانتِ المنافعُ ليْستْ مُنْحصِرةً في أجزاءِ الأنعامِ، جِيءَ في مُتعلَّقِها بحرْفِ (في) دونَ (مِن)، فتَشمَلُ كلَّ ما يُعَدُّ كالشَّيءِ المحْويِّ في الأنعامِ[٢].

- وتَقْديمُ المجرورَيْنِ في قولِه: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾؛ للاهتِمامِ بالمنعَمِ عليهم والمُنعِمِ بها؛ لأنَّه الغرَضُ الأوَّلُ مِن قولِه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ ﴾[٣].

- وأنبَأَ فِعلُ (لِتَبْلُغُوا) أنَّ الحاجةَ التي في الصُّدورِ حاجةٌ في مَكانٍ بعيدٍ يَطلُبُها صاحبُها[٤].

- وقولُه: ﴿فِى صُدُورِكُمْ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ حاجةً واحدةً ضاقتْ عنها قُلوبُ الجميعِ حتى فاضَتْ منها، فمَلأت مَساكِنَها[٥].

- ولَمَّا كان الرُّكوبُ منها هو أعْظمَ مَنفعةٍ؛ إذ فيه مَنفعةُ الأكْلِ والرُّكوبِ -وذَكَر أيضًا أنَّ في الجَميعِ منافعَ مِن شُربِ لَبَنٍ واتِّخاذِ دِثارٍ وغيرِ ذلك-؛ أكَّدَ مَنفعةَ الرُّكوبِ بقولِه: ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾[٦].

- ولَمَّا كان الرُّكوبُ وبُلوغُ الحَاجةِ المترتِّبةِ عليه قدْ يُتوصَّلُ به إلى الانتِقالِ لأمْرٍ واجِبٍ، أو مَندوبٍ، كالحَجِّ وطَلَبِ العِلمِ؛ دخَلَ حرْفُ التَّعليلِ (اللام)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢١٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٥).

على الرُّكوبِ وعلى المترتِّبِ عليه مِن بُلوغِ الحاجاتِ؛ فجعَلَ ذلك عِلَّةً لجَعْلِ الأنعامِ لنا. ولَمَّا كان الأكلُ وإصابةُ المنافِعِ مِن جِنسِ المُباحاتِ، لم يَجعَلْ ذلك عِلَّةً في الجَعْلِ، بلْ ذَكَر أنَّ منها نأكُلُ، ولنا فيها منافِعَ مِن شُرْبِ لَبَنٍ واتِّخاذِ دِثارٍ وغيرِ ذلك، كما أَدْخَل لامَ التَّعليلِ في ﴿لِتَرْكَبُوا﴾، ولم يُدْخِلْها على الزِّينةِ في قولِه: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[1] [النحل: ٨].

- وأُعقِبَ الامتِنانُ بالأنعامِ بالامتنانِ بالفُلْكِ؛ لِمُناسَبةِ قولِه: ﴿وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾، فقال: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، وهو انتقالٌ مِن الامتنانِ بجَعْلِ الأنعامِ إلى الامتنانِ بنِعمةِ الرُّكوبِ في الفُلْكِ في البِحارِ والأنهارِ؛ فالمقصودُ هو قولُه: ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾. وأمَّا قولُه: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ فهو تَمهيدٌ له، وهو اعتراضٌ بالواوِ الاعتراضيَّةِ؛ تَكريرًا للمِنَّةِ، على أنَّه قدْ يَشمَلُ حمْلَ الأثْقالِ على الإبلِ، كقولِه تعالَى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ [النحل: ٧]؛ فيكونُ إسنادُ الحمْلِ إلى ضَميرِ النَّاسِ تَغليبًا. وقيل: لعلَّ المرادَ به حمْلُ النِّساءِ والوِلدانِ عليها بالهوْدَجِ، وهو السِّرُّ في فصْلِه عن الرُّكوبِ[2].

وقيل: قَولُه: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ تَوطِئةٌ لِقَولِه سُبحانَه: ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ لِيَجمَعَ بيْنَ سَفائِنِ البَرِّ وسَفائِنِ البَحرِ، فكأنَّه قيل: وعليها في البَرِّ وعلى الفُلكِ في البَحرِ تُحمَلونَ؛ فلا تَكرارَ[3].

- وإنَّما قال: ﴿وَعَلَى الْفُلْكِ﴾، ولم يقُلْ: وفي الفُلْكِ، كما قال: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٦).

(٣))) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٤٢).

فِي ٱلْفُلْكِ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]؛ للمُزاوَجةِ والمشاكَلةِ مع لَفظِ ﴿وَعَلَيْهَا ﴾، وإنَّما أُعِيدَ حرْفُ (على) في الفُلْكِ؛ لأنَّها هي المقصودةُ بالذِّكرِ، وكان ذِكرُ ﴿وَعَلَيْهَا ﴾ كالتَّوطئةِ لها، فجاءتْ على مِثالِها[1].

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، مع الاهتِمامِ بما هو المقصودُ في السِّياقِ[2].

- وأشارَ بالبِناءِ للمَفعولِ ﴿تُحْمَلُونَ ﴾ أنَّه سخَّرَ ذلك تَسخيرًا عظيمًا، لا يُحتاجُ معه إلى عِلاجٍ في نفْسِ الحمْلِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ﴾ [غافر: ٧٩]، أي: اللهُ الذي يُرِيكم آياتِه، وهذا انتقالٌ مِن مُتعدِّدِ الامتِنانِ بما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ [غافر: ٦١]، ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا ﴾ [غافر: ٦٤]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴾ [غافر: ٦٧]؛ فإنَّ تلك ذُكِرَت في مَعرِضِ الامتنانِ تَذكيرًا بالشُّكرِ، فنُبِّهَ هنا على أنَّ في تلك المِنَنِ آياتٍ دالَّةً على ما يَجِبُ للهِ مِن الوَحدانيَّةِ والقُدْرةِ والحِكمةِ؛ ولذلك كان قولُه: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ مُفيدًا مُفادَ التَّذييلِ؛ لِما في قولِه: ﴿ءَايَٰتِهِۦ ﴾ مِن العُمومِ؛ لأنَّ الجمْعَ المُعرَّفَ بالإضافةِ مِن صِيَغِ العُمومِ، أي: يُرِيكم آياتِه في النِّعَمِ المذكوراتِ وغيرِها مِن كلِّ ما يَدلُّ على وُجوبِ تَوحيدِه، وتَصديقِ رُسلِه، ونَبْذِ المُكابَرةِ فيما يَأْتونهم به مِن آياتِ صِدقِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٧، ٢١٨).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ جِيءَ في جانبِ إراءةِ الآياتِ بالفِعلِ المضارِعِ؛ لِدَلالتِه على التَّجدُّدِ؛ لأنَّ الإنسانَ كلَّما انتفَعَ بشَيءٍ مِن النِّعَمِ عَلِمَ ما في ذلك مِن دَلالةٍ على وَحدانيَّةِ خالِقِها وقُدرتِه وحِكْمتِه. والإراءةُ هنا بَصَريَّةٌ، عبَّرَ بها عن العِلمِ بصِفاتِ اللهِ؛ إذ كان طَريقُ ذلك العِلمِ هو مُشاهدةَ تلك الأحوالِ المختلِفةِ، فمِن تلك المشاهَدةِ يَنتقِلُ العقْلُ إلى الاستِدلالِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ دَلالةَ وُجودِ الخالِقِ ووَحدانيَّتِه وقُدرتِه بُرهانيَّةٌ تَنْتهي إلى اليَقينِ والضَّرورةِ[1].

- وإضافةُ الآياتِ إلى ضَميرِ الجلالةِ والاسمِ الجَليلِ في قولِه: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾؛ لِتَربيةِ المَهابةِ، وتَهويلِ إنْكارِها، ولزِيادةِ التَّنويهِ بها، والإرشادِ إلى إجادةِ النَّظرِ العقْليِّ في دَلائلِها. وأمَّا كونُها جائيةً مِن لَدُنِ اللهِ، وكونُ إضافتِها مِن الإضافةِ إلى ما هو في معنَى الفاعلِ، فذلك أمْرٌ مُستفادٌ مِن إسنادِ فِعلِ ﴿وَيُرِيكُمْ﴾ إلى ضَميرِه تعالَى[2].

- وفُرِّعَ على إراءةِ الآياتِ قولُه: ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ وهو استِفهامٌ إنْكاريٌّ عليهم مِن أجْلِ إنْكارِهم ما دلَّت عليه تلك الآياتُ، وهو هنا مُستعمَلٌ في إنكارِ أنْ يكونَ شَيءٌ مِن آياتِ اللهِ يُمكِنُ أنْ يُنكَرَ دونَ غيْرِه مِن الآياتِ؛ فيُفِيدُ أنَّ جميعَ الآياتِ صالحٌ للدَّلالةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ وقُدْرتِه، لا مَساغَ لادِّعاءِ خَفائِه، وأنَّهم لا عُذْرَ لهمْ في عَدمِ الاستِفادةِ مِن إحْدَى الآياتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٨).

## الآيات (٨٢-٨٥)

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَـٰرًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَـٰقِبَةُ﴾: عاقبةُ كلِّ شَيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تَختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقدْ تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تَأخيرُ شَيءٍ، وإتيانُه بعْدَ غيرِه[1].

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾: السُّنَّةُ: هي الطَّريقةُ المَسلوكةُ والمِنهاجُ المتَّبَعُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ، واطِّرادِه في سُهولةٍ[2].

﴿خَلَتْ﴾: أي: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خَلا الزَّمانُ: إذا مَضَى وذهَبَ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالَى عن الأُممِ السَّابقةِ المُكذِّبةِ بالرُّسلِ، وماذا حَلَّ بهم مِن العذابِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧- ٤٩٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

مُوبِّخًا المشركينَ لعدَمِ اعتِبارِهم واتِّعاظِهم، فيَقولُ: أفلَمْ يَسِرْ أولئك المُشرِكونَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ- في الأرضِ، فيَنظُروا كيْف كانتْ عاقِبةُ الكُفَّارِ مِن قَبْلِهم، فيَعتَبِروا؟! كان كُفَّارُ تلك الأُمَمِ السَّابِقةِ أكثَرَ عَددًا مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ، وأشَدَّ قُوَّةً منهم، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ، فما دَفَع عنهم العَذابَ كَثرةُ عَددِهم، ولا شِدَّةُ قُوَّتِهم ولا عِظَمُ آثارِهم!

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالَى جُرمَهم الكبيرَ، فيَقولُ: فلمَّا جاءت تلك الأُمَمَ الماضيةَ رُسُلُهم بآياتِ اللهِ الواضِحاتِ فَرِحوا بما عِندَهم مِنَ العِلمِ، ونَزَل بهم عَذابُ اللهِ الذي كانوا يُكذِّبونَ بوُقوعِه ويَسخَرونَ منه، فلمَّا رأَوا عَذابَ اللهِ نازِلًا بهم قالوا: آمَنَّا باللهِ وَحْدَه، وكفَرْنا بالآلِهةِ التي كُنَّا نَعبُدُها مع اللهِ!

ثمَّ يُبيِّنُ تعالَى أنَّ الإيمانَ لا يَنفَعُ إذا نزَل العذابُ، فيقولُ: فلمْ يَنفَعْهم إيمانُهم حينَ رأَوا عَذابَ اللهِ نازِلًا بهم؛ سَنَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في الكُفَّارِ سُنَّةً: أنَّه لا يَنفَعُهم الإيمانُ إذا رأَوُا العَذابَ، وأنَّ التَّوبةَ لا تُقبَلُ بعْدَ رُؤيةِ العذابِ، وخَسِرَ عندَ مَجيءِ عَذابِ اللهِ الكافِرونَ برَبِّهم!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

رَاعَى اللهُ تعالَى تَرْتِيبًا لَطِيفًا فِي آخِرِ هذِه السُّورَةِ؛ وذلك أنَّه ذَكَر فصْلًا في دَلائلِ الإلهِيَّةِ وكَمالِ القُدرةِ والرَّحمةِ والحِكمةِ، ثمَّ أردَفه بفصْلٍ في التَّهديدِ

والوَعيدِ، وهذا الفصلُ الَّذي وَقَع عليه خَتْمُ هذه السُّورةِ هو الفصلُ المشتمِلُ على الوَعيدِ[١].

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾.

أي: أفَلَم يَسِرْ أولئك المُشرِكونَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ- في الأرضِ، فيَنظُروا بأعيُنِهم، ويَتفَكَّروا بقُلوبِهم: كيف كانتْ خاتِمةُ أمرِ الكُفَّارِ الذين مِن قَبْلِهم، فيَعتَبِروا لِرُؤيتِهم آثارَ إهلاكِ اللهِ لهم؛ لِتكذيبِهم رُسُلَهم[٢]؟!

﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ ﴾.

أي: كان كُفَّارُ الأُمَمِ السَّابِقةِ الذين أهلَكَهم اللهُ أكثَرَ عَددًا مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ[٣].

﴿وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: وكانوا أشَدَّ قُوَّةً مِنهم، وأعظَمَ آثارًا في الأرضِ[٤].

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

أي: فما دَفَع عنهم العَذابَ كَثرةُ عَدَدِهم، ولا شِدَّةُ قُوَّتِهم، ولا عِظَمُ آثارِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

قال ابنُ عُثيمين: (هذا الاستِفهامُ يحتَمِلُ أنْ يكونَ للحَثِّ... ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ للتَّوبيخِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩، ١٦٠)، ((تفسير =

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾.

أي: فلَمَّا جاءتْ أولئك الأُمَمَ الماضيةَ رُسُلُهم بآياتِ اللهِ الواضِحاتِ، والبراهينِ القاطِعاتِ، لم يُؤمِنوا بها، وفَرِح هؤلاء الكافِرونَ بما عِندَهم مِنَ العِلمِ، ورضُوا به[1].

---

= السعدي)) (ص: ٧٤٤).

قال القاسمي: (﴿ كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةٗ وَءَاثَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ أي: مِن الحصونِ والقصورِ والمباني والعُدَدِ والعَدَدِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢١).

وقال ابنُ الجوْزيِّ: (قولُه تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم ﴾، في ﴿مَّا ﴾ قولانِ: أحدُهما: أنَّها للنفيِ. والثاني: أنَّها للاستفهامِ، ذكَرهما ابنُ جريرٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧١).

وممَّن قال بأنَّها للنفيِ: ابنُ عطيةَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦).

وقال الشَّوكانيُّ: (و«ما» الثَّانيةُ -يعني في قولِه: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾- يجوزُ أن تكونَ مَوصولةً، وأن تكونَ مَصدريَّةً). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٥٩، ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

والضَّميرُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾: عائِدٌ على الأُمَمِ المكَذِّبةِ. ونسَبَه ابن الجوْزيِّ إلى الجمهور، وقيل: الضميرُ عائدٌ على الرُّسلِ، وفيه حذفٌ تقديرُه: كذَّبوهم ففرِحوا أي: الرسلُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤).

قال القُرطبي: (﴿فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ في معناه ثلاثةُ أقوالٍ:

قال مجاهِدٌ: إنَّ الكُفَّارَ الذين فَرِحوا بما عِندَهم مِن العِلمِ قالوا: نحن أعلَمُ منهم؛ لن نُعَذَّبَ ولن نُبعَثَ.

وقيل: فَرِحَ الكُفَّارُ بما عِندَهم مِن عِلمِ الدُّنيا، نحوُ: ﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [الروم: ٧]. =

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي: ونَزَل وأحاطَ بالكافِرينَ عَذابُ اللهِ الذي كانوا يَسخَرونَ منه ويُكَذِّبونَ بوُقوعِه[1].

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾.

أي: فلَمَّا رأَوا عَذابَ اللهِ نازِلًا بهم قالوا: آمَنَّا بوَحدانيَّةِ اللهِ، فلا مَعبودَ بحَقٍّ سِواه[2].

﴿وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾.

---

= وقيل: الذين فَرِحوا: الرُّسُلُ؛ لَمَّا كَذَّبَهم قَومُهم أعلَمَهم اللهُ عزَّ وجَلَّ أنَّه مُهلِكُ الكافِرينَ ومُنَجِّيهم والمؤمِنينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ٥٧١).

وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ (قولِ مجاهدٍ): ابنُ جَرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٠).

وقال الرَّسْعني: (وعِلْمُهم الذي فرِحوا به: إنكارُهم الوَحدانيةَ والبعثَ، بالشُّبهِ التي كانوا يدْفعون بها البيِّناتِ. وتَسميةُ ذلك علمًا؛ تهكُّمٌ بهم). ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٦٣٤).

وقال السمعاني: (قد كانَ فِي ظنِّهم أنَّهم عُلماء، فسمَّى ما عِندَهم عِلمًا على ظنِّهم، وكان الَّذي ظنُّوه أَن لَا بعثَ ولا جنَّةَ ولا نارَ ولا حياةَ بعدَ الموتِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤).

وقيل: هذا عامٌّ في جميعِ العُلومِ المناقِضةِ لدِينِ الرُّسُلِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملة: الشَّوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٧٦).

ويُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٤٨-٥٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

أي: وكفَرْنا بالآلِهةِ التي كُنَّا نَعبُدُها، وتبرَّأْنا منها[١].

كما قال تعالَى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۞ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤، ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ۞ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۞ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٢ - ١٥].

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾.

أي: فلمْ يَنفَعْهم إيمانُهم بتَوحيدِ اللهِ حِينَ رأَوْا عذابَه نازِلًا بهم[٢]!

كما قال تعالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

قال ابنُ عثيمين: (و﴿بِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ أن تكونَ للسَّببيَّةِ، أي: بما كُنَّا بسَبَبِه مُشرِكينَ، وأن تكونَ مُتعَلِّقةً بـ﴿مُشْرِكِينَ﴾ تعَلُّقَ الجارِّ بعامِلِه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾.

أي: سَنَّ اللهُ تعالى أنَّه لا يَقبَلُ تَوبةَ الكافِرينَ حينَ نُزولِ العَذابِ، ولا يَنفَعُهم إيمانُهم في تِلك الحالِ، وقدْ مَضَت هذه السُّنةُ والطريقةُ في عِبادِه[1].

﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

أي: وهلَكَ عِندَ مَجيءِ عَذابِ اللهِ الكافِرونَ برَبِّهم، المُشرِكونَ في عِبادتِه، فما رَبِحَت تجارتُهم[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَن تَرَكَ الانقيادَ للحَقِّ لأجْلِ طَلَبِ الرِّياسةِ، والتَّقَدُّمِ على الغيرِ في المالِ والجاهِ؛ فقدْ باعَ الآخِرةَ بالدُّنيا، فبَيَّنَ اللهُ تعالَى أنَّ هذه الطَّريقةَ فاسِدةٌ؛ لأنَّ الدُّنيا فانيةٌ ذاهِبةٌ، واحتَجَّ عليه بقَولِه تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

قال القُرطبي: (﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ؛ لأنَّ العربَ تقولُ: سَنَّ يَسُنُّ سَنًّا وسُنَّةً، أي: سَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ في الكفَّارِ أنَّه لا يَنفعُهم الإيمانُ إذا رأوُا العذابَ... وقيلَ: أي: احْذَروا يا أهلَ مكَّةَ سُنَّةَ اللهِ في إهلاكِ الكفرةِ؛ فـ ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ﴾ منصوبٌ على التَّحذيرِ والإغراءِ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٤-٥٣٥).

قَبْلِهِمْ ﴾ فيه الحَثُّ على النَّظرِ في أحوالِ الأُممِ السابقةِ؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ وَبَّخَهُم على عدَمِ السَّيرِ، والسَّيرُ في الأرضِ لا بدَّ أنْ يَصحَبَه النَّظرُ والاعتبارُ؛ وإلَّا فإنَّه لا يَنفَعُ، ويَتفرَّعُ على هذا ما يَفعَلُه كَثيرٌ مِن النَّاسِ اليومَ مِن السَّيرِ إلى دِيارِ ثَمودَ للاطِّلاعِ على آثارِ القومِ الدَّالَّةِ على قُوَّتِهم! أو يَذهَبون للفُرجةِ والنُّزهةِ فقطْ دونَ أنْ يعتَبِروا، وهذا لا يَجوزُ، فالواجبُ على مَن سار إلى تلك الدِّيارِ أنْ يَدْخُلَها وهو باكٍ؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((فإنْ لم تَكونوا باكِينَ فلا تَدخُلوا عليهم))[1]، ولا يَنفَعُ التَّباكي؛ فإنَّه لم يَقُلْ: (فتَبَاكَوْا)! ومَن لم يُوَطِّنْ نفْسَه على هذا الوَصفِ فإنَّه لا يَجوزُ له أنْ يَدخُلَ[2].

٣- قال اللهُ تعالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، هذه الآيةُ مُرشِدةٌ إلى أنَّه لا يَتعَلَّمُ إلَّا مَن ظَنَّ مِن نَفسِه القُصورَ؛ ولهذا كان أقبَلَ شَيءٍ على العِلمِ الصِّغارُ[3].

٤- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أنَّ آياتِ الرُّسُلِ بَيِّنَةٌ لا تَحْتَمِلُ الشَّكَّ، ويَتَفرَّعُ على ذلك أنَّه يَنْبغي للعالِمِ الذي يَنْشُرُ شَريعةَ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ إذا نَشَرَها بيْنَ الناسِ أنْ يكونَ نَشْرُه إيَّاها على وجْهٍ بَيِّنٍ لا اشتباهَ فيه؛ أوَّلًا: اقتداءً بالرُّسُلِ، وثانيًا: لِيزدادَ المخاطَبُ طُمأنينةً؛ لأنَّ الطُّمأنينةَ لها أثَرٌ في قَبولِ ما يُلْقَى وفي القيامِ به؛ فإنَّ الإنسانَ إذا لم يُبَيَّنْ له الحقُّ على وجْهٍ تَحْصُلُ به الطُّمأنينةُ قدْ يَحصُلُ له تردُّدٌ؛ لكنْ إذا زِيدَ طُمأنينةً انْتَفَع بذلك[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣)، ومسلم (٢٩٨٠) مِن حديثِ عَبدِ اللهِ بنِ عُمرَ رَضيَ اللهُ عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٥١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى أرْسَلَ الرُّسلَ بالآياتِ البيِّناتِ الدَّالَّةِ على صِدْقِهم، ويَتَفَرَّعُ على هذا فائدتانِ؛ وهما: رَحمةُ اللهِ بالعِبادِ، وحِكمةُ اللهِ تعالَى في فِعْلِه؛ أمَّا رَحمةُ اللهِ بالعِبادِ فلأنَّ اللهَ تعالَى لوْ أرسَلَ إليهم رُسلًا بدونِ آياتٍ، لكان في ذلك تَكليفٌ بما لا يُطاقُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يُمكِنُ أنْ يُصَدِّقَ برَسولٍ بدونِ آياتٍ تدُلُّ على صِدْقِه، وإلَّا لأمْكَنَ كلَّ كاذبٍ أنْ يقولَ: إنَّه رسولٌ! وأمَّا الحِكمةُ فظاهرةٌ أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالَى لمّا أَرْسَلَ الرُّسُلَ لم يَتْرُكْهم هَمَلًا! بلْ أعطاهم ما على مثلِه يُؤمِنُ البشرُ، كما أخبَرَ بذلك نَبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ما مِن الأنبياءِ مِن نَبيٍّ إلَّا قدْ أُعطِيَ مِن الآياتِ ما مِثلُه آمَنَ عليه البشرُ))، والذي أُوْتِيَه الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ هو الوحيُ؛ القرآنُ؛ ولهذا قال: ((فأرْجو أنْ أكونَ أكثَرَهم تابِعًا يومَ القيامةِ))[١]؛ لأنَّ القرآنَ آيةٌ باقيةٌ إلى يومِ القِيامةِ، أو إلى أنْ يَأْذَنَ اللهُ تعالى بفَسَادِ العالَمِ، أمَّا آياتُ الرُّسُلِ فغالِبُها تَنْقضي في زمانِها[٢].

٢- في قولِه تعالَى: ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ لَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ أنَّ التَّوبةَ مَقْبولةٌ -ولو في شِدَّةِ مَرضِ الموتِ- حتَّى يَصِلَ الإنسانُ إلى المعايَنةِ؛ فلا تُقبَلُ توبتُه[٣]؛ فقدْ بيَّن تعالَى أنَّ التَّوبةَ بعْدَ رُؤيةِ البَأْسِ لا تَنْفَعُ، وأنَّ هذه سُنَّةُ اللهِ التي قدْ خَلَتْ في عِبادِه[٤]، وبيَّن أنَّ الإيمانَ النَّافِعَ الذي يُنَجِّي صاحِبَه هو الإيمانُ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٩١).

الاختياريُّ الذي يكونُ إيمانًا بالغَيبِ، وذلك قبْلَ وُجودِ قَرائنِ العَذابِ[١]، وفيه حَضٌّ على المبادَرةِ إلى الإيمانِ، وتَخويفٌ مِن التَّأنِّي[٢].

٣- في قولِه تعالَى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مع ما سَبَقَ: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] بَيانُ أنَّ كلَّ كافرٍ فهو مُبْطِلٌ ليْس معه حقٌّ، وكلَّ مُبْطِلٍ -لا يَقولُ إلَّا الباطِلَ- فهو كافِرٌ، أي: أنَّ المُبْطِلَ في كلِّ أحْوالِه كافرٌ ليْس معه شَيءٌ مِن الحقِّ؛ فاختلافُ التَّعبيرِ لزِيادةِ المعنى[٣].

٤- في قولِه تعالَى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ظُهورُ الخُسرانِ لهؤلاء المُكَذِّبينَ قبْلَ أنْ يَموتوا؛ لقولِه: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ﴾، أي: حينَ جاءَهم البأسُ تَبَيَّنَ لهم الخُسرانُ[٤].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كَلامٌ مُستأنفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في تَوبيخِهم، والهَمزةُ في ﴿أَفَلَمْ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ[٥].

- وتَفريعُ هذا الاستِفهامِ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص:٥٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص:٥٥٨).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٢٤).

ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ عقِبَ قولِه: ﴿وَيُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [غافر: ٨١]؛ يَقْتضي أنَّه مُساوِقٌ للتَّفريعِ الذي قبْلَه، وهو ﴿فَأَيَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١]؛ فيَقْتضي أنَّ السَّيرَ المُستفهَمَ عنه بالإنكارِ على تَرْكِه هو سيْرٌ تَحصُلُ فيه آياتٌ ودَلائلُ على وُجودِ اللهِ ووَحْدانيَّتِه، وكِلَا التَّفريعينِ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَلِتَبۡلُغُواْ عَلَيۡهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمۡ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ [غافر: ٨٠]، فذلك هو مُناسَبةُ الانتقالِ إلى التَّذكيرِ بعِبرةِ آثارِ الأُمَمِ التي استأْصَلَها اللهُ تعالَى لَمَّا كذَّبَت رُسلَه، وجَحَدتْ آياتِه ونِعَمَه. وحصَلَ بذلك تَكريرُ الإنكارِ الذي في قولِه قبْلَ هذا: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ ...﴾ [غافر: ٢١] الآيةَ؛ فكان ما تَقدَّمَ انتقالًا عقِبَ آياتِ الإنذارِ والتَّهديدِ، وكان هذا انتقالًا عَقِبَ آياتِ الامتنانِ والاستدلالِ، وفي كِلا الانتقالَينِ تَذكيرٌ وتَهديدٌ ووَعيدٌ، وهو يُشيرُ إلى أنَّهم إنْ لم يَكونوا ممَّن تَكُفُّهم النِّعَمُ عن كُفرانِ مُسْدِيها، كشأْنِ أهلِ النُّفوسِ الكريمةِ، فلْيَكونوا ممَّن يَردَعُهم الخوفُ مِن البطْشِ كشأْنِ أهلِ النُّفوسِ اللَّئيمةِ، فلْيَضَعوا أنفُسَهم حيثُ يَختارون مِن إحْدى الخُطَّتَينِ[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾، وقال قبْلُ في نفْسِ السُّورةِ: ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾ [غافر: ٢١]؛ فخُولِفَ في عَطْفِ جُملةِ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ...﴾، فعُطِفَت بالفاءِ للتَّفريعِ؛ لِوُقوعِها بعْدَما يَصلُحُ لأنْ يُفرَّعَ عنه إنكارُ عَدَمِ النَّظرِ في عاقبةِ الذين مِن قبْلِهم، بخِلافِ نَظيرتِها التي قبْلَها؛ فقدْ وقَعَتْ بعْدَ إنذارِهم بيَومِ الآزفةِ[2].

- وقولُه: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ وَأَشَدَّ قُوَّةً ...﴾ إلخ، استِئنافٌ مَسوقٌ لِبَيانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٢٠).

مَبادِي أحوالِ الأُمَمِ السَّابقةِ وعَواقِبِها[١].

- وجُملةُ ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ مُعترِضةٌ، والفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾، وفائدةُ هذا الاعتراضِ التَّعجيلُ بإفادةِ أنَّ كَثرتَهم وقُوَّتَهم، وحُصونَهم وجنَّاتِهم؛ لم تُغْنِ عنهم مِن بأْسِ اللهِ شيئًا[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ...﴾ [غافر: ٨٢- ٨٥] جاءتِ الفاءُ، ثمَّ تَرادَفَت بعْدَها فاءاتٌ؛ فأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ فهو نَتيجةُ قولِه: ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ فجارٍ مَجْرى البَيانِ والتَّفسيرِ لقولِه تعالَى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾، كقولِك: رُزِقَ زيْدٌ المالَ، فمنَعَ المعروفَ، فلمْ يُحسِنْ إلى الفُقراءِ، وقولُه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡاْ بَأۡسَنَا﴾ تابعٌ لِقولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ﴾؛ كأنَّه قال: فكَفَروا، فلمَّا رَأَوا بأْسَنا آمَنوا، وكذلك ﴿فَلَمۡ يَكُ يَنفَعُهُمۡ إِيمَٰنُهُمۡ﴾ تابعٌ لإيمانِهم لَمَّا رَأَوا بأْسَ اللهِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾

- جُملةُ ﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ...﴾ الآيةَ، مُفرَّعةٌ على جُملةِ ﴿كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِنۡهُمۡ﴾، أي: كانوا كذلك إلى أنْ جاءتْهم رُسلُ اللهِ إليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٧).

بالبيِّناتِ، فلمْ يُصدِّقوهم فرَأَوا بأْسَنا[١].

- وأفادَتْ (لَمَّا) في قولِه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ معنى أنَّ اللهَ لم يُغيِّرْ ما بهم مِن النِّعَمِ العُظْمى حتَّى كذَّبوا رُسلَه؛ لِما فيها مِن معنَى التَّوقيتِ[٢].

- والفرَحُ هنا مُكنًّى به عن آثارِه، وهي الازدهاءُ، كما في قولِه تعالَى: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡ ﴾ [القصص: ٧٦]، أي: بما أنْت فيه، مُكنًّى به هنا عن تَمسُّكِهم بما همْ عليه؛ فالمعنَى: أنَّهم جادَلوا الرُّسلَ، وكابَروا الأدلَّةَ[٣].

- وفي قولِه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّهكُّمِ، وهو الاستِهزاءُ والسُّخريةِ مِن المتكبِّرينَ لِمُخاطَبتِهم بلَفظِ الإجلالِ في مَوضعِ التَّحقيرِ، والبِشارةِ في مَوضعِ التَّحذيرِ، والوَعدِ في مَوضعِ الوَعيدِ، والعِلمِ في مَوضعِ الجَهلِ؛ تَهاوُنًا مِن القائلِ بالمقولِ له، واستِهزاءً به[٤].

- وقولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم ﴾ أي: أحاطَ، وهو هنا مُعبَّرٌ به عن الشِّدَّةِ الَّتي لا تَنْفيسَ بها؛ لأنَّ المُحيطَ بشَيءٍ لا يَدَعُ له مَفْرَجًا[٥].

- وفي ذِكرِ فِعلِ الكونِ في قولِه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ تَنبيهٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٢٦، ٥٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢١).

على أنَّ الاستهزاءَ بوَعيدِ الرُّسلِ كان شِنْشنةً -أي: عادةً مُستقِرَّةً- لهم. وفي الإتيانِ بالفِعلِ ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾ مُضارِعًا إفادةٌ لِتَكرُّرِ استِهزائِهم(١).

- وهذِه الآيةُ مِن الاحتِباكِ: إثباتُ الفَرَحِ أولًا دَليلٌ على حذْفِ ضِدِّه ثانيًا، وإثباتُ الاستهزاءِ ثانيًا دليلٌ على حذْفِ مِثلِه أولًا(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

- مَوقعُ جُملةِ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [غافر: ٨٣] كمَوقعِ جُملةِ ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ مِن قولِه: ﴿كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾ [غافر: ٨٢]، وهو التَّفريعُ عليها؛ لأنَّ إفادةَ (لَمَّا) معْنى التَّوقيتِ يُثِيرُ معْنى تَوقيتِ انتِهاءِ ما قبْلَها، أي: دامَ دُعاءُ الرُّسلِ إيَّاهم، ودامَ تَكذيبُهم واستِهْزاؤهم إلى أنْ رَأَوا بأْسَنا، فلمَّا رَأَوا بأْسَنا قالوا: آمنَّا باللهِ وحْدَه(٣).

- والبأْسُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ﴾ هو العذابُ الخارقُ للعادةِ المنذِرُ بالفَناءِ؛ فإنَّهم لَمَّا رَأَوه عَلِموا أنَّه العذابُ الذي أُنذِروه، وفُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾، أي: حِين شاهَدوا العذابَ لم يَنفَعْهم الإيمانُ؛ لأنَّ اللهَ لا يَقبَلُ الإيمانَ عندَ نُزولِ عَذابِه، وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (فلمْ يَنفَعْهم)، إلى قولِه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾؛ لِدَلالةِ فِعلِ الكونِ على أنَّ خبَرَه مُقرَّرُ الثُّبوتِ لاسْمِه، فلمَّا أُرِيدَ نفْيُ ثُبوتِ النَّفعِ إيَّاهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٢٩، ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢١، ٢٢٢).

بعْدَ فَواتِ وَقتِه، اجتُلِبَ لذلك نَفْيُ فِعلِ الكونِ الذي خبَرُه ﴿يَنفَعُهُمْ﴾، والمعنَى: أنَّ الإيمانَ بعْدَ رُؤيةِ بَوارِقِ العذابِ لا يُفيدُ صاحبَه، مِثلُ الإيمانِ عندَ الغَرْغرةِ، ومِثلُ الإيمانِ عندَ طُلوعِ الشَّمْسِ مِن مَغرِبِها(١).

- وجُملةُ ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِۦ﴾ مُستأنفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا جَوابًا لِسُؤالِ مَن يَسأَلُ: لماذا لم يَنفَعْهم الإيمانُ وقدْ آمَنوا؟ فالجوابُ: أنَّ ذلك تَقديرٌ قدَّرَه اللهُ للأُمَمِ السَّالفةِ، أعْلَمَهم به وشرَطَهُ عليهم؛ فهي قَديمةٌ في عِبادِه، لا يَنفَعُ الكافرَ الإيمانُ إلَّا قبْلَ ظُهورِ البأْسِ(٢).

- وجُملةُ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ كالفَذْلكةِ(٣) لقولِه: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾، وبذلك آذنَتْ بانتهاءِ الغرَضِ مِن السُّورةِ(٤).

- و﴿هُنَالِكَ﴾ اسمُ إشارةٍ إلى مَكانٍ، عُبِّرَ به عن الإشارةِ إلى الزَّمانِ، أي: خَسِروا وقْتَ رُؤيتِهم بأْسَنا؛ إذ انقضَتْ حياتُهم وسُلطانُهم، وصاروا إلى تَرقُّبِ عَذابٍ خالدٍ مُستقبَلٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٢٢).

(٣) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ مَنحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذلكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٣).

- والعُدولُ عن ضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [غافر: ٢١] إلى الاسمِ الظَّاهرِ -وهو ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾- إيماءٌ إلى أنَّ سَببَ خُسرانِهم هو الكفْرُ باللهِ، وذلك إعذارٌ للمُشركينَ مِن قُريشٍ[1].

- وقد الْتَفَّ آخرُ هذه السُّورةِ -بما بُيِّن مِن كمالِ العِزَّةِ، وتمامِ القدرةِ، وشُمولِ العِلمِ ممَّا رتِّب مِن أسبابِ الهداية والإضلالِ، والإشقاءِ والإسعادِ، والنَّجاةِ والإهلاكِ- بأوَّلِها أيَّ التفافٍ، واكتَنَفت البدايةُ والنِّهايةُ بيانَ ذلك معَ ما اشْتَمل عليه الوسطُ أيضًا منه أعظمَ اكتنافٍ؛ فسبحانَ مَن هذا إنزالُه، وتبارَك اسمُه، وجل جلاله[2].

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّلاثونَ**

**ويليه المجلدُ الحادي والثَّلاثونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ فُصِّلَت**

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٣٣).

# الفهرس

# الفهرس

سورةُ غافِرٍ ..... ١٣
أسماءُ السُّورةِ ..... ١٣
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ..... ١٣
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٤
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ١٤
الآيات (١-٣) ..... ١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢١
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٢٥
الآيات (٤-٦) ..... ٣١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٨

بَلاغةُ الآياتِ ..... ٤١
الآيات (٧-٩) ..... ٤٩
غريب الكلمات ..... ٤٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٨
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٦٨
الآيات (١٠-١٤) ..... ٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٧٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٧٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٧٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٨٨
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٩٠
الآيات (١٥-١٧) ..... ١٠١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٠١
المعنى الإجماليُّ ..... ١٠١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٠٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١١٠
بَلاغةُ الآياتِ ..... ١١١

الآيات (١٨-٢٠) ..... ١١٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١١٨
المعنى الإجماليُّ ..... ١١٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٢٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٢٧
بَلاغةُ الآياتِ ..... ١٢٩
الآيتان (٢١-٢٢) ..... ١٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٣٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٣٦
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ١٣٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٤٠
بَلاغةُ الآيتينِ ..... ١٤٢
الآيات (٢٣-٢٧) ..... ١٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٤٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٤٧
الفَوائِدُ التربويَّةُ ..... ١٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٥٧
بَلاغةُ الآياتِ ..... ١٥٩
الآيتان (٢٨-٢٩) ..... ١٦٧

غريبُ الكلماتِ ..... ١٦٧
المعنَى الإجماليُّ ..... ١٦٧
تَفسيرُ الآيتينِ ..... ١٦٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٧٤
بَلاغةُ الآيتينِ ..... ١٧٨
الآيات (٣٠-٣٥) ..... ١٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٨٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٨٥
المعنى الإجماليُّ ..... ١٨٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٨٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٩٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٩٦
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٢٠٢
الآيات (٣٦-٤٠) ..... ٢١٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢١٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٢١١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢١٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢١٩
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٢٢١
الآيات (٤١-٤٦) ..... ٢٢٨

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٢٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٤١
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٢٤٥
الآيات (٤٧-٥٠) ..... ٢٥٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٥٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٥٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٥٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٦٠
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٢٦٤
الآيات (٥١-٥٦) ..... ٢٧١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٧١
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٧١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٧٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٨٥
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٢٨٨
الآيات (٥٧-٥٩) ..... ٢٩٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٩٨

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٩٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٠٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٠٤
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٣٠٥
الآيات (٦٠-٦٥) ..... ٣١٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣١٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٣١٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣١٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٢٨
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٣٣٣
الآيات (٦٦-٦٨) ..... ٣٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٤٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٤٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٥٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٥٦
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٣٥٨
الآيات (٦٩-٧٦) ..... ٣٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٦٣
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٦٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٦٤

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٧٤
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٣٧٦
الآيات (٧٧-٨١) ..... ٣٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٨٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٨٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٨٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٩٣
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٣٩٦
الآيات (٨٢-٨٥) ..... ٤٠٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٠٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٠٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٠٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤١٥
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٤١٦
الفهرس ..... ٤٢٣

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة فصلت وسورة الشورى)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد الحادي والثلاثون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة فصلت وسورة الشورى)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

السنية، القسم العلمي بمؤسسة الدرر

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الحادي والثلاثون - سورة فصلت وسورة الشورى/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٦٥٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٧-٩٧-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- سورة فصلت- تفسير ٢- القرآن- سورة الشورى - تفسير

أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/٩٧١

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩٧١

ردمك: ٧-٩٧-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م**

**(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ فُصِّلَت

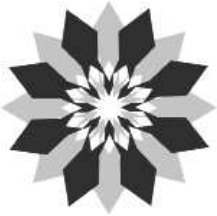

# سورةُ فُصِّلَت

## أسماءُ السُّورةِ:

مِمَّا سُمِّيَت به هذه السُّورةُ: سُورةُ (فُصِّلَت)[١]، و(حم السَّجْدةِ)[٢].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

هذه السُّورةُ اشتَمَلت على أحَدِ مَواضِعِ سُجودِ التِّلاوةِ[٣].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ فُصِّلَت مَكِّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٤].

---

(١) اشتَهَرت هذه السُّورةُ بهذا الاسمِ؛ لِوُقوعِ كَلِمةِ ﴿فُصِّلَتۡ﴾ في أوَّلِها؛ فعُرِفَت بها تمييزًا لها مِن بينِ السُّوَرِ المُفتَتَحةِ بحروفِ (حم). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٣).

قال ابن عاشور: (تُسمَّى «حم السَّجدةِ» بإضافةِ «حم» إلى السَّجدةِ... وبذلك تُرجِمَتْ في «صحيحِ البُخاريِّ»، وفي «جامعِ التِّرمذيِّ»؛ لأنَّها تَمَيَّزَتْ عن السُّورِ المُفتَتَحةِ بحُروفِ «حم»؛ بأنَّ فيها سَجدةً مِن سُجودِ القرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٧). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٢٧)، ((سنن الترمذي)) (٥/ ٣٧٥).

(٣) وقد نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ. يُنظر: ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٥٥١).

وقد اختَلَفوا في مَوضِعِ هذه السَّجدةِ: هل هو قَولُه: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]، أو قَولُه: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، وسيأتي ذِكرُ الخِلافِ في مَوضِعِه مِن هذه السُّورةِ (ص: ٢١١).

(٤) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وأبو حيان، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٣)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٤٢).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه، وأنَّ هذا القُرآنَ مِن عِندِه سُبحانَه تعالى[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلتْ عليها السُّورةُ:**

١- مدْحُ القُرآنِ، وبيانُ شَرَفِه.

٢- بيانُ مَوقِفُ الكُفَّارِ مِن القرآنِ.

٣- ذِكرُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ الله تعالى؛ كتَخليقِ الأرضِ، وما جُعِل فيها مِن جِبالٍ، وما قُدِّر فيها مِن أقواتٍ، وتَخليقِ السَّمواتِ السَّبعِ، وتَزيينِ السَّماءِ الدُّنيا منها بالنُّجومِ.

٤- إنذارُ المُشرِكينَ المُعرِضينَ عن سَماعِ القُرآنِ بما حَلَّ بالأُمَمِ المكَذِّبةِ، وذِكرُ ما حَلَّ بعادٍ وثمودَ مِن العُقوبةِ في الدُّنيا.

٥- ذِكرُ بَعضِ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، وبَيانُ بَعضِ أحوالِ الكُفَّارِ السَّيِّئةِ في هذا اليَومِ؛ كشَهادةِ جَوارِحِهم عليهم.

٥- بيانُ حالِ المؤمِنينَ وحُسنِ مَصيرِهم، وفَضلُ الدَّعوةِ إلى اللهِ والدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ، والأمرُ بالاستِعاذةِ باللهِ تعالى مِن نَزَغاتِ الشَّيطانِ.

٦- ذِكرُ عدَدٍ مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وقُدرتِه على كُلِّ

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٢/ ٣٢٣).

شَيءٍ، ومِن ذلك قُدرتُه على إحياءِ الموتى.

٧- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٨- إقامةُ الأدِلَّةِ على أنَّ هذا القُرآنَ مِن عندِ اللهِ تعالى، وإبطالُ مَطاعِنِ المُشرِكينَ فيه.

٩- بيانُ سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى، وأنَّ مَرَدَّ عِلمِ قيامِ السَّاعةِ إليه.

١٠- ذِكرُ طَبيعةِ الإنسانِ في السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ.

١١- خُتِمَت السُّورةُ بأنَّ حِكمةَ اللهِ اقتَضَت إطْلاعَ النَّاسِ في كُلِّ وَقتٍ على بَعضٍ مِن آياتِه -سُبحانَه- في الآفاقِ وفي أنفُسِهم؛ حتَّى يَتبَيَّنَ لهم أنَّ القُرآنَ حَقٌّ.

## الآيات (١-٨)

﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُصِّلَتۡ﴾: أي: بُيِّنَت، والتَّفصيلُ ضدُّ الإجمالِ، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ وإبانتِه[1].

﴿بَشِيرًا﴾: أي: مُبشِّرًا، وأصلُه: ظهورُ الشَّيءِ معَ حُسنٍ وجمالٍ، ومنه البِشارةُ، ولا تكونُ البِشارةُ عندَ إطلاقِ الكلامِ إلَّا بالخَيرِ، وقد تُقيَّدُ وتُحمَلُ على الشَّرِّ[2].

﴿وَنَذِيرًا﴾: أي: مُنذِرًا، ومُحذِّرًا، ومُخوِّفًا، والإنذارُ: الإعلامُ بالشَّيءِ الَّذي حذَّر منه، وأصلُ الإنذارِ: الإعلامُ، وأصلُ (نذر): تخويفٌ أو تخوُّفٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٩)، ((أضواء البيان)) (٧/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٨٢٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

﴿أَكِنَّةٍ﴾: أي: أغطِيةٍ. وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[١].

﴿وَقْرٌ﴾: أي: ثِقْلٌ وصَمَمٌ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقَلٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿حِجَابٌ﴾: أي: سِترٌ، وكُلُّ ما يَستُرُ المطلوبَ ويَمنَعُ مِن الوُصولِ إليه فهو حِجابٌ، وأصلُ (حجب): يدُلُّ على المَنعِ مِن الوُصولِ[٣].

﴿مَمْنُونٍ﴾: أي: مَقطوعٍ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على قَطعٍ[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

قَولُه: ﴿قُرْءَانًا﴾ في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه حالٌ مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾ النَّكرةِ؛ لِوَصفِه بـ﴿فُصِّلَتْ﴾، أو مِنْ ﴿ءَايَٰتُهُۥ﴾، و﴿عَرَبِيًّا﴾ صِفةٌ لـ﴿قُرْءَانًا﴾. الثَّاني: أنَّه حالٌ مُوَطِّئةٌ، والحالُ في الحقيقةِ ﴿عَرَبِيًّا﴾. الثَّالِثُ: أنَّه مَنصوبٌ على الاختِصاصِ والمَدحِ على إضمارِ (أمدَحُ) أو (أخُصُّ). وقيلَ غيرُ ذلك.

قَولُه: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿فُصِّلَتْ﴾، أي: فُصِّلَت لهؤلاء وبُيِّنَت لهم، أو بـ﴿تَنزِيلٌ﴾، أو مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ هو صفةٌ أُخْرى لـ﴿قُرْءَانًا﴾، أي: كائِنًا لِقَومٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢، ٧٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

يَعلَمونَ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

ابتدأَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكَريمةَ بِقَولِه تعالى: ﴿حمٓ﴾، المشتمِلِ على حرفَينِ مِن الحُروفِ المُقَطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القُرآنِ؛ وذلك للإشارةِ إلى إعجازِه، ثمَّ ذَكَر اللهُ تعالى أنَّ هذا القُرآنَ مُنزَّلٌ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيم، وأنَّ هذا كِتابٌ فَصَّلَ اللهُ آياتِه وأوضَحَ معانيَه وأحكامَه باللُّغةِ العربيَّةِ، لِقَومٍ يَعلَمونَ اللِّسانَ العَربيَّ، فيَنتَفِعونَ ببَيانِه ويَتدبَّرونَه، بشيرًا بحُصولِ الخَيرِ والرَّحمةِ لِمَنْ آمَنَ وعَمِلَ صالِحًا، ونذيرًا بالشَّرِّ لِمَن كَفَر وعَمِلَ السَّيِّئاتِ.

فما كان مِن كفَّارِ قريشٍ إلَّا أنْ أعرَضَ أكثَرُهم عن سَماعِ القُرآنِ، فهم لا يَسمَعونَه سَماعَ قَبولٍ وانتِفاعٍ، وقالوا: قُلوبُنا في أغطِيةٍ تَمنَعُ عنَّا فَهْمَ القُرآنِ، وفي آذانِنا ثِقلٌ قد أصَمَّها عن السَّماعِ، ومِن بَيْنِنا وبَيْنِك حاجِزٌ يَحجُبُنا عنك وعن مُوافَقتِك؛ فاعمَلْ -يا مُحمَّدُ- بدينِك الَّذي ارتَضَيتَ، إنَّنا عامِلونَ بدِينِنا!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالرَّدِّ على هؤلاءِ المشركينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لأولئك المُشرِكينَ: إنَّما أنا بَشَرٌ مِثلُكم، يُوحَى إلَيَّ أنَّ إلهَكم إلهٌ واحِدٌ لا شَريكَ له؛ فاسلُكوا الطَّريقَ المُستقيمَ مُتوجِّهينَ إليه سُبحانَه، واستَغفِروه؛ وهَلاكٌ وعَذابٌ شَديدٌ للمُشرِكينَ الَّذين لا يُزَكُّونَ أنفُسَهم بالإيمانِ باللهِ وطاعتِه، والبُعدِ عن الإشراكِ به، وهم بالآخِرةِ جاحِدونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٠٥).

الصَّالحاتِ لهم أجرٌ دائِمٌ غيرُ مُنقَطِعٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

هذانِ الحرفانِ مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها بعضُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ؛ لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢﴾.

أي: هذا القُرآنُ مُنزَّلٌ على مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- مِن عندِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، الَّذي وَسِعَتْ رَحمتُه كُلَّ شَيءٍ؛ ومِن رَحمتِه بعِبادِه إنزالُ القُرآنِ المُشتَمِلِ على العِلمِ والهُدى، والنُّورِ والشِّفاءِ، والرَّحمةِ والخَيرِ والسَّعادةِ[2].

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣﴾.

أي: هذا كِتابٌ بيَّن اللهُ آياتِه بَيانًا تامًّا واضِحًا حالَ كونِه قرآنًا عربيًّا، لِقَومٍ يَعلَمونَ اللِّسانَ العَرَبيَّ، فيَتمَكَّنونَ مِن فَهمِه وتدَبُّرِه والانتِفاعِ ببَيانِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦-١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٩-٢٣١).

قال ابن عطية: (﴿فُصِّلَتۡ﴾ معناه: بُيِّنَت آياتُه، أي: فُسِّرَت معانيه، ففصل بيْنَ حلالِه وحرامِه، =

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾.

أي: يُبَشِّرُ القُرآنُ مَنْ آمَنَ وعَمِلَ الصَّالحاتِ بحُصولِ الخَيرِ والرَّحمةِ، ويُنذِرُ مَنْ كَفَر وعَمِلَ السَّيِّئاتِ بالشَّرِّ والنِّقمةِ[1].

﴿ فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾.

---

= وزَجْرِه وأمْرِه، ووَعْدِه ووَعيدِه. وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾ في التَّنزيلِ، أي: نُزِّل نجومًا، لم يُنَزَّلْ مَرَّةً واحِدةً. وقيل: ﴿فُصِّلَتْ﴾ بالمواقِفِ وأنواعِ أواخِرِ الآيِ، ولم يكُنْ يَرجِعُ إلى قافيةٍ ونَحوِها، كالشِّعرِ والسَّجعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ: أنَّ آياتِ القُرآنِ واضِحةُ الأغراضِ، لا تَلتبِسُ إلَّا على مُكابرٍ في دَلالةِ كُلِّ آيةٍ على المقصودِ منها، وفي مَواقِعِها وتمييزِ بَعضِها عن بَعضٍ في المعنى، باختلافِ فُنونِ المعاني الَّتي تَشتمِلُ عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣١).

وقال الماوَرْدي: (﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: يَعلَمونَ أنَّه إلهٌ واحِدٌ في التَّوراةِ والإنجيلِ. قاله مجاهدٌ. الثَّاني: أنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ نَزَل. قاله الضَّحَّاكُ. الثَّالثُ: يَعلَمونَ العَربيَّةَ فيَعجِزونَ عن مِثْلِه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٦٨).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي: اللُّغةَ العربيَّةَ: ابنُ جرير، والنحاس، والبغوي، والقرطبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٦)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٣).

وقال البقاعي: (﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي: فيهم قابليَّةُ العِلمِ، وتجَدُّدُ الفَهمِ، بما فيهم مِن سَلامةِ الطَّبعِ، وسَلاسةِ الانقيادِ لِبَراهينِ العَقلِ والسَّمعِ، وحِدَّةِ الأذهانِ، وفَصاحةِ اللِّسانِ، وصِحَّةِ الأفكارِ، وبُعْدِ الأغوارِ، وفي هذا تَبكيتٌ لهم في كَونِهم لا ينظرونَ مَحاسِنَه فيَهتَدوا بها، كما يَعتَنونَ بالنَّظَرِ في القَصائِدِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧).

أي: فأعرَضَ[١] أكثَرُ كفَّارِ قريشٍ[٢] عن سَماعِ القُرآنِ وتدَبُّرِه واتِّباعِه، فهم لا يَسمَعونَه سَماعَ قَبولٍ وانتِفاعٍ[٣].

---

(١) قال ابنُ عثيمين: (الفاءُ عاطِفةٌ، و«أَعْرَضَ» مَعطوفةٌ على ﴿فُصِّلَتْ﴾، يعني: كتابٌ فُصِّلَت آياتُه، ومعَ ذلك أعرَضَ أكثَرُهم، ويحتمِلُ أن تكونَ الفاءُ للاستئنافِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧).

(٢) ممَّن اختار القولَ المذكورَ؛ أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى كُفَّارِ قُرَيشٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١).

وقيل: يعودُ إلى القَومِ المذكورينَ في قَولِه تعالى: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: كانوا مِن أهلِ العِلمِ، ولكِنْ لم ينظروا النَّظَرَ التَّامَّ، بل أعرَضوا، فهم لا يَسمَعونَ؛ لإعراضِهم عمَّا احتوَى عليه من الحُجَجِ والبراهينِ، أو لَمَّا لم يَنتفِعْ به ولم يَقبَلْه، جُعِلَ كأنَّه لم يَسمَعْه. وممَّن ذهَب إلى أنَّه يعودُ إلى القومِ المذكورينَ: ابنُ عطية، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٥).

وردَّ هذا القولَ ابنُ عاشور، فذكر أنَّ الضَّميرَ (ليس عائدًا إلى ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾؛ لِأنَّ الذين يَعلَمونَ لا يُعرِضُ أحَدٌ منهم). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٣).

وقيل: المرادُ: أكثَرُ الخَلقِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧، ٢٨).

قال السَّعدي: (أعرَضَ أكثَرُ الخَلقِ عنه إعراضَ المُستَكبِرينَ ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ له سَماعَ قَبولٍ وإجابةٍ، وإن كانوا قد سَمِعوه سماعًا تقومُ عليهم به الحُجَّةُ الشَّرعيَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤، ٧٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (أي: فهُم لا يُلقُونَ أسماعَهم للقُرآنِ، فَضلًا عن تدَبُّرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف القُرآنَ بأنَّهم أعرَضوا عنه ولا يَسمَعونَه؛ بيَّنَ أنَّهم صَرَّحوا بهذه النَّفرةِ والمُباعَدةِ(١).

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾.

أي: وقال المُعرِضونَ عن القُرآنِ: قُلوبُنا الَّتي نَعقِلُ بها ونَفهمُ في أَغطِيةٍ مُحيطةٍ بها، تَمنَعُ عنَّا فَهْمَ ما تَدْعونا إليه، يا مُحمَّدُ(٢)!

﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾.

أي: وفي آذانِنا ثِقْلٌ قد أصَمَّها عن السَّماعِ؛ فنَحن لا نَسمَعُ ما تَدْعونا إليه(٣)!

﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾.

أي: ومِن بَيْنِنا وبَينِك حاجِزٌ يَحجُبُنا عنك؛ فنحن لا نراك(٤)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥، ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦).

قال ابنُ جرير: (﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ وهو الثِّقْلُ، لا نَسمَعُ ما تَدْعونا إليه؛ استِثقالًا لِما يَدعو إليه، وكراهةً له). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾.

أي: فاعمَلْ -يا مُحمَّدُ- بدينِك، إنَّنا عامِلونَ بدِينِنا الَّذي رَضِيناه لأنفُسِنا، فلن نتَّبِعَك[1].

---

= السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٠، ٣١).

قال البقاعي: (فنحن لا نراكَ لِنَفهمَ عنك بالإشارةِ، فانسدَّت طُرُقُ الفَهمِ لِما تقولُ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٤٣).

وقال السعدي: (القَصدُ مِن ذلك: أنَّهم أظهَروا الإعراضَ عنه مِن كُلِّ وَجهٍ، وأظهَروا بُغْضَه، والرِّضا بما هم عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

وقال الشنقيطي: (أنَّ مِن بَيْنِهم وبينِه حِجابًا مانِعًا لهم مِنَ الاتِّصالِ والاتِّفاقِ؛ لأنَّ ذلك الحِجابَ يَحجُبُ كُلًّا منهما عن الآخَرِ، ويَحولُ بيْنَهم وبيْنَ رؤيةِ ما يُبدِيه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الحَقِّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٦).

وقال أيضًا: (اللهُ جَعَل لهم قلوبًا يَفهَمونَ بها، وآذانًا يَسمَعونَ بها، خِلافًا لِما زَعَموا، ولكِنَّه سبَّب لهم الأكِنَّةَ والوَقْرَ والحِجابَ؛ بسَبَبِ مُبادرتِهم إلى الكُفرِ وتكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا المعنى أوضَحَه رَدُّه تعالى على اليهودِ في قَولِه عنهم: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٨).

وقيل: المرادُ بالحجابِ: فُرقةٌ في الدِّينِ، وحاجزٌ في النِّحلةِ. وممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، والواحدي، وابن الجوزي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥).

وقال ابن عطية: (والحِجابُ الَّذي أشاروا إليه: هو مُخالَفتُه إيَّاهم، ودعوتُه إلى اللهِ دونَ أصنامِهم، أي: هذا أمرٌ يَحجُبُنا عنك، وهذه مقالةٌ تَحتمِلُ أن تكونَ معها قرينةُ الجِدِّ في المُحاوَرةِ وتتضَمَّنُ المباعَدةَ، ويحتمِلُ أن تكونَ معها قرينةُ الهَزلِ والاستِخفافِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَروا بإعراضِهم، وعَلَّلوا بعَدَمِ فَهْمِهم بما يَدعو إليه؛ أمَرَ الله سُبحانَه نبيَّه بجَوابٍ يُبَيِّنُ أنَّهم على مَحضِ العِنادِ[1].

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: إنَّما أنا مِثلُكم في الجِنسِ والهَيئةِ، والصُّورةِ والصِّفاتِ البَشَريَّةِ[2].

---

= (ص: ٧٤٤).

قال ابن عطية: (يحتمِلُ أن يكونَ القَولُ تهديدًا، ويحتمِلُ أن يكونَ مُتارَكةً مَحضةً). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩).

قال السعدي: (﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أي: هذه صِفتي ووظيفتي، أنِّي بشرٌ مِثلُكم، ليس بيدي مِن الأمرِ شَيءٌ، ولا عندي ما تَستعجِلونَ به، وإنَّما فضَّلني الله عليكم وميَّزني وخصَّني بالوحيِ الَّذي أوحاه إلَيَّ، وأمَرني باتِّباعِه، ودعوَتِكم إليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

وقال ابنُ عاشور: (كأنَّه يقولُ: وماذا أستطيعُ أن أعمَلَ معكم، فإنِّي رَسولٌ مِن اللهِ، فحِسابُكم على اللهِ،... أي: أنا مقصورٌ على البَشَريَّةِ، دونَ التصَرُّفِ في قُلوبِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٧).

وقال الشوكاني: (قيل: ومعنَى الآيةِ: أنِّي لا أقدِرُ على أنْ أحْمِلَكم على الإيمانِ قَسْرًا؛ فإنِّي بشرٌ مِثلُكم، ولا امتيازَ لي عنكم إلَّا أنِّي أُوحِي إلَيَّ التَّوحيدُ والأمرُ به، فعلَيَّ البلاغُ وحْدَه، فإنْ قَبِلْتُم رَشَدْتُم، وإنْ أبَيْتُم هلَكْتُم. =

﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾.

أي: يُوحَى إلَيَّ أنَّ مَعبودَكم مَعبودٌ واحِدٌ لا تَصلُحُ العبادةُ إلَّا له وَحْدَه سُبحانَه لا شَريكَ له[١].

﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾.

أي: فاسلُكوا الصِّراطَ المُستقيمَ المُوصِلَ إلى الله، مُتوَجِّهينَ إليه بإخلاصِ العبادةِ له، وسَلُوه سَتْرَ ذُنوبِكم، والتَّجاوُزَ عن مُؤاخَذتِكم بها[٢].

﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾.

أي: وهَلاكٌ وعَذابٌ شديدٌ للَّذين يَجعَلونَ لله شَريكًا في عِبادتِه[٣].

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: الَّذين لا يُزَكُّونَ أنفُسَهم ولا يُطَهِّرونَها بالإيمانِ باللهِ، وطاعتِه وَحْدَه، والعملِ الصَّالحِ، والبُعدِ عن الإشراكِ بالله ومَعصيتِه[٤].

---

= وقيل: المعنَى: إنِّي لستُ بمَلَكٍ، وإنَّما أنا بشرٌ مِثلُكم، وقد أُوحِيَ إلَيَّ دونكم، فصِرْتُ بالوحيِ نبيًّا، ووَجَب عليكم اتِّباعي). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٥-٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٢٩)، ((مجموع =

= الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٣٣)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٧، ٣٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالزَّكاةِ هنا: التَّوحيدُ: ابن عطيَّةَ ونسَبَه للجمهورِ، وابنُ القيِّم -ونسَبَه لأكثرِ المفسِّرينَ-، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٧، ٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٩).

قال ابن القيِّم: (قال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قال أكثرُ المفسِّرينَ مِن السَّلفِ ومَن بعدَهم: هي التَّوحيدُ: شَهادةُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، والإيمانُ الَّذي به يَزكو القلبُ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٤٩).

وقال ابن عثيمين: (متى حقَّق الإنسانُ التَّوحيدَ فلا بدَّ أن يقومَ بشَرائعِ الإسلامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٥).

وقيل: المرادُ بالزَّكاةِ: زكاةُ المالِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والبيضاويُّ، وابن جُزَي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٦).

وقال السمعاني: (وقوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: لا يَرَوْنَ الزَّكاةَ واجبةً عليهم كما يَراه المسلمون. ويُقالُ: معنى الإيتاءِ هو على ظاهِرِه، والكافرُ يُعاقَبُ في الآخرةِ بتركِ إيتاءِ الزَّكاةِ؛ لأنَّهم مُخاطَبون بالشَّرائعِ. ذكره جماعةٌ مِن أهلِ العِلمِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٧).

واختار مقاتلٌ أنَّ المرادَ: لا يُعطون الصَّدقةَ، ولا يُطعِمون الطَّعامَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٦).

وقال ابنُ جُزَي: (قيل: يعني بالزَّكاةِ: التَّوحيدَ. وهذا بعيدٌ، وإنَّما حمَلَه على ذلك؛ لأنَّ الآياتِ مَكِّيَّةٌ، ولم تُفرَضِ الزَّكاةُ إلَّا بالمدينةِ، والجوابُ: أنَّ المرادَ: النَّفَقةُ في طاعةِ الله مُطلقًا، وقد =

﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: وهم مُنكِرونَ للآخرةِ، جاحِدونَ بها، فلا يُؤمِنونَ بالحياةِ الأُخرى بعدَ المَوتِ[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَر عقوبةَ المشركينَ؛ بيَّن ثوابَ المؤمنينَ[2].

---

= كانت مأمورًا بها بمكَّةَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٧).

وقال ابنُ كثير: (هذا هو الظَّاهِرُ عندَ كثيرٍ مِن المفَسِّرينَ [أي أنَّ المرادَ منْعُ زكاةِ أموالِهم]، واختاره ابنُ جرير. وفيه نَظَرٌ؛ لأنَّ إيجابَ الزَّكاةِ إنَّما كان في السَّنةِ الثَّانيةِ مِن الهِجرةِ إلى المدينةِ، على ما ذكَرَه غيرُ واحدٍ، وهذه الآيةُ مَكِّيَّةٌ، اللَّهُمَّ إلَّا أن يُقالَ: لا يَبعُدُ أن يكونَ أصلُ الزَّكاةِ الصَّدَقةَ، وكان مأمورًا به في ابتداءِ البَعثةِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]، فأمَّا الزَّكاةُ ذاتُ النُّصُبِ والمقاديرِ فإنَّما بُيِّنَ أمْرُها بالمدينةِ، ويكونُ هذا جَمعًا بيْن القولَينِ، كما أنَّ أصلَ الصَّلاةِ كان واجبًا قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها في ابتداءِ البَعثةِ، فلمَّا كان لَيلةُ الإسراءِ قبْلَ الهِجرةِ بسَنةٍ ونِصفٍ فَرَضَ اللهُ على رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم الصَّلَواتِ الخَمْسَ، وفَصَّل شُروطَها وأركانَها وما يَتعلَّقُ بها بعدَ ذلك شيئًا فشَيئًا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤).

وممَّن جَمَع بيْن المعنيَينِ: السعدي، فقال: (لم يُزَكُّوها بتوحيدِ رَبِّهم والإخلاصِ له، ولم يُصَلُّوا ولا زكَّوا؛ فلا إخلاصَ للخالِقِ بالتَّوحيدِ والصَّلاةِ، ولا نَفْعَ للخَلقِ بالزَّكاةِ وغَيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٥، ١٤٦).

واختار ابنُ تيميَّةَ ما هو أعَمُّ مِن ذلك، فقال: (التَّحقيقُ أنَّ الآيةَ تَتناوَلُ كُلَّ ما يَتزكَّى به الإنسانُ مِن التَّوحيدِ والأعمالِ الصَّالحةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٦٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٧). =

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٨﴾.

أي: إنَّ الَّذين آمَنوا بما وجَبَ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ لهم أجرٌ دائِمٌ، وثَوابٌ غيرُ مُنقَطِعٍ(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فيه تنبيهٌ على الإخلاصِ، وأنَّ العامِلَ يَنبغي له أن يجعَلَ مَقصودَه وغايتَه الَّتي يَعمَلُ لأجْلِها الوُصولَ إلى اللهِ تعالى، وإلى دارِ كَرامتِه؛ فبذلك يكونُ عَمَلُه خالِصًا صالِحًا نافِعًا، وبفَواتِه يَكونُ عَمَلُه باطِلًا(٢)، فالآيةُ دلَّت على وُجوبِ الإخلاصِ للهِ، والاستِقامةِ على دينِه؛ فـ «استقيموا» هذا العَمَلُ، و «إليه» هذا الإخلاصُ(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ لَمَّا كان العَبدُ -ولو حَرَص

---

= وفي ذلك تحقيقُ أنَّ القُرآنَ مَثَانٍ؛ تُثَنَّى فيه المعاني المُتقابِلةُ، فإذا ذُكِرَ ثوابُ المجرِمينَ ذُكِرَ ثوابُ المتَّقينَ، وإذا ذُكِرَتِ الجنَّةُ ذُكِرتِ النَّارُ، وهَلُمَّ جَرًّا؛ مِن أجْلِ أنْ يكونَ الإنسانُ سائِرًا إلى ربِّه بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ، وهكذا يَنبغي للإنسانِ في سَيرِه إلى ربِّه أن يَكونَ خائفًا راجيًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١، ١٢).

قال ابن عثيمين: (وقيل: ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾: غَيرُ مَمنونٍ به، أي: يُعطَونَه بلا مِنَّةٍ، وهذا محتمِلٌ، وإذا كان محتمِلًا لا يُنافي المعنى الأوَّلَ كان المرادُ بالآيةِ المعنيَينِ جميعًا؛ إذ لدينا قاعِدةٌ ... وهي: إذا كان النَّصُّ يحتمِلُ معنيَينِ لا يُنافي أحَدُهما الآخَرَ، فإنَّ النَّصَّ يُحمَلُ عليهما جميعًا ... لكِنْ إذا كان أحَدُهما أرجَحَ مِن الآخَرِ فإنَّه يُتبَعُ الأرجَحُ، إذَنْ قَولُه تعالى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ أي: ثوابٌ غيرُ مَقطوعٍ، وثوابٌ غَيرُ مَمنونٍ به). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٧).

على الاستِقامةِ- لا بُدَّ أن يَحصُلَ منه خَلَلٌ بتَقصيرٍ بمأمورٍ، أو ارتِكابِ مَنهيٍّ؛ أمَرَه بدواءِ ذلك بالاستِغفارِ المتضَمِّنِ للتَّوبةِ[١]، فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّه لا بُدَّ مِن تقصيرٍ في الاستِقامةِ المأمورِ بها، فيُجبَرُ ذلك بالاستغفارِ المُقتَضي للتَّوبةِ، والرُّجوعِ إلى الاستِقامةِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّ التَّوحيدَ تزكيةٌ للنَّفْسِ، ولا شكَّ أنَّ التَّوحيدَ تزكيةٌ للنَّفْسِ؛ لأنَّك تَقْطَعُ العَلائقَ مع غيرِ اللهِ إلَّا فيما يُحِبُّ اللهُ تعالى[٣]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ كلمةِ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ إثباتُ العُلُوِّ للهِ تعالى؛ ووجْهُ ذلك: الإخبارُ بنزولِ الأشياءِ مِن عِندِه سبحانَه[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ...﴾ فيه إيماءٌ إلى استِحماقِ الَّذين أعرَضوا عن الاهتِداءِ بهذا الكِتابِ بأنَّهم أعرَضوا عن رَحمةٍ، وأنَّ الَّذين اهتَدَوا به هم أهلُ المَرحَمةِ[٥].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ فيه أنَّه يَجِبُ على المكَلَّفِ تَنزيلُ ألفاظِ القُرآنِ على المعاني الَّتي هي مَوضوعةٌ لها بحَسَبِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ، فأمَّا حَمْلُها على مَعانٍ أُخَرَ لا بهذا الطَّريقِ فهذا باطِلٌ قَطعًا، وذلك مِثلُ الوُجوهِ الَّتي يَذكُرُها أهلُ الباطِنِ، مِثلُ أنَّهم تارةً يَحمِلونَ الحُروفَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٤).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحِكَم)) لابن رجب (١/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٠).

على حِسابِ الجُمَّلِ[١]، وتارةً يَحمِلونَ كُلَّ حَرفٍ على شَيءٍ آخَرَ، وللصُّوفيَّةِ طُرُقٌ كَثيرةٌ في البابِ، ويُسَمُّونَها عِلمَ المكاشَفةِ! والَّذي يدُلُّ على فَسادِ تلك الوُجوهِ بأسْرِها قَولُه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾، وإنَّما سمَّاه عرَبيًّا؛ لِكَونِه دالًّا على هذه المعاني المَخصوصةِ بوَضعِ العَرَبِ وباصطِلاحاتِهم، وذلك يدُلُّ على أنَّ دَلالةَ هذه الألفاظِ لم تَحصُلْ إلَّا على تلك المعاني المَخصوصةِ، وأنَّ ما سِواه فهو باطِلٌ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أنَّ القُرآنَ نَزَلَ باللُّغةِ العَرَبيَّةِ؛ ففيه مَنقَبةٌ للعَرَبِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ نَزَلَ بلُغتِهم، وفيه إحياءٌ للُّغةِ العَرَبيَّةِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ سيبقَى إلى أنْ يأذَنَ اللهُ بخَرابِ العالَمِ، ومِن المعلومِ أنَّه إذا بَقِيَ باللِّسانِ العربيِّ فسوف تَحيا اللُّغةُ العَرَبيَّةُ وتبقَى، وهذا مِن آثارِ القُرآنِ الكريمِ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، قولُه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ استُدِلَّ به على فسادِ ما ذهَب إليه قومٌ مِن أنَّه حصَل في القرآنِ مِن سائرِ اللُّغاتِ، كقولِه: ﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، و: ﴿سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]، فقالوا: إنَّهما فارسيَّانِ، وقولِه: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥]، قالوا: إنَّها مِن لغةِ الحبشةِ، وقولِه ﴿بِٱلْقِسْطَاسِ﴾ [الإسراء: ٣٥]، قالوا: إنَّه مِن لغةِ الرُّومِ[٤].

---

(١) حسابُ الجُمَّلِ: ضربٌ مِن الحسابِ يُجعَلُ فيه لكلِّ حرفٍ مِن الحروفِ الأبجديةِ عددٌ مِن الواحِدِ إلى الألْفِ على ترتيبٍ خاصٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٣٦)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (١/ ٣٩٩). ويُنظر أيضًا: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٧٤، ٧٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٨٢) و (١٧/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٩). ويُنظر أيضًا: ((الاعتصام)) للشاطبي (٢/ ٤٧-٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤). =

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ وَصَف اللهُ تعالى القُرآنَ بكَونِه ﴿عَرَبِيّٗا﴾ في مَعرِضِ المَدحِ والتَّعظيمِ، وهذا المَطلوبُ لا يَتِمُّ إلَّا إذا ثَبَت أنَّ لُغةَ العَربِ أفضَلُ اللُّغاتِ[1].

٧- قولُه تعالى: ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ فيه جوازُ نفيِ السَّمعِ لِمَن لا يَنتَفِعُ به، وكذلك يُقالُ في بقيَّةِ الحَوَاسِّ لِمَن لم يَنتفِعْ بها، نقولُ: إنَّ وُجودَها كالعدمِ! فمَنْ لم يَنتفِعْ بما رأَى نقولُ: هذا لا يُبصِرُ، ولو كان له عينانِ[2]!

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ المَهدِيَّ مَن هداه اللهُ، وأنَّ الضَّالَّ مَن أضلَّه اللهُ، وتقريرُه: أنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ للقُرآنِ في الآياتِ السَّابِقةِ تُوجِبُ قُوَّةَ الاهتِمامِ بمَعرفتِه، والوُقوفَ على معانيه؛ فكَونُه نازِلًا مِن عندِ الإلهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ يدُلُّ على اشتِمالِه على أفضَلِ المنافِعِ، وأجَلِّ المَطالِبِ، وكَونُه قُرآنًا عَربيًّا مُفَصَّلًا يدُلُّ على أنَّه في غايةِ الكَشفِ والبَيانِ، وكَونُه بَشيرًا ونَذيرًا يدُلُّ على أنَّ الاحتياجَ إلى فَهمِ ما فيه مِن أهَمِّ المُهِمَّاتِ؛ لأنَّ سَعيَ الإنسانِ في مَعرفةِ ما يُوصِلُه إلى الثَّوابِ أو إلى العِقابِ مِن أهَمِّ المُهِمَّاتِ، وقد حَصَلتْ هذه المُوجِباتُ الثَّلاثةُ في تأكيدِ الرَّغبةِ في فَهمِ القُرآنِ، وفي شِدَّةِ المَيلِ إلى الإحاطةِ به، ثمَّ مع ذلك فقد أعرَضوا عنه، ولم يَلتَفِتوا إليه، ونَبَذوه وراءَ ظُهورِهم! وذلك يدُلُّ على أنَّه لا مَهدِيَّ إلَّا مَن هداه اللهُ، ولا ضالَّ إلَّا مَن أضَلَّه اللهُ[3].

---

= ويُنظر الخلافُ في المسألةِ في: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ١٢٥)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٧٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٠).

٩- قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ الحِجابُ يَمنَعُ رُؤيةَ الحَقِّ، والأكِنَّةُ تَمنَعُ مِن فَهْمِه، والوَقرُ يَمنَعُ مِن سَماعِه(١).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ اللهَ تعالى ذكر ذلك عن الكُفَّارِ في مَعرِضِ الذَّمِّ، مع أنَّه تعالى صرَّح في آيات أُخرَى بأنَّه جعَل على قلوبِهم الأكِنَّةَ، وفي آذانِهم الوَقْرَ، وجعَل بيْنَهم وبيْن رسولِه حِجابًا عندَ قراءتِه القُرآنَ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا * وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ [الإسراء: ٤٥، ٤٦]، وقوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۚ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗاۖ وَإِن تَدۡعُهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ فَلَن يَهۡتَدُوٓاْ إِذًا أَبَدٗا﴾ [الكهف: ٥٧]، فذمَّهم على دعواهم الأكنةَ والوقرَ والحجابَ في هذه الآيةِ الكريمةِ مِن (فُصِّلت)، وبيَّن في الآياتِ الأُخرَى أنَّ ما ذمَّهم على ادِّعائِه واقعٌ بهم فعلًا، وأنَّه تعالى هو الذي جعَله فيهم، فكيفَ يُذَمُّونَ على قَولِ شَيءٍ هو حَقٌّ في نَفْسِ الأمرِ؟

**والجوابُ**: أنَّ اللهَ تعالى إنَّما جَعَل على قُلوبِهم الأكِنَّةَ، وطَبَع عليها، وخَتَم عليها، وجَعَل الوَقْرَ في آذانِهم، ونحوَ ذلك مِن الموانِعِ مِن الهُدى؛ بسَبَبِ أنَّهم بادَروا إلى الكُفرِ وتكذيبِ الرُّسُلِ طائِعينَ مُختارينَ، فجزاهم اللهُ على ذلك الذَّنْبِ الأعظَمِ طَمْسَ البَصيرةِ، والعَمى عن الهُدى جزاءً وِفاقًا؛ فالأكِنَّةُ والوَقرُ والحِجابُ المذكورةُ إنَّما جعَلَها اللهُ عليهم مُجازاةً لكُفرِهم الأوَّلِ، ومِن جَزاءِ السَّيِّئةِ تَمادي

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٤).

صاحِبِها في الضَّلالِ، ولله الحِكمةُ البالغةُ في ذلك. والآياتُ المصَرِّحةُ بمعنى هذا كثيرةٌ في القُرآنِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، فقَولُ اليَهودِ في هذه الآيةِ: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۚ﴾ كقَولِ كُفَّارِ مكَّةَ: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ﴾، وقد رَدَّ اللهُ على اليَهودِ دَعواهم بـ(بل) الَّتي هي للإضرابِ الإبطاليِّ، في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥]، فالباءُ في قَولِه: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ سَبَبيَّةٌ، وهي دالَّةٌ على أنَّ سَبَبَ الطَّبعِ على قُلوبِهم هو كُفرُهم، والأكِنَّةُ والوَقرُ والطَّبعُ كُلُّها مِن بابٍ واحِدٍ؛ وكقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، والفاءُ في قَولِه: ﴿فَطُبِعَ﴾ سَبَبيَّةٌ، أي: ثمَّ كَفَروا، فطُبِعَ على قُلوبِهم بسَبَبِ ذلك الكُفرِ[١].

١١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فيه الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم خُلِق مِن نورٍ، وأنَّه لا يكونُ له ظِلٌّ إذا مشَى في الشَّمسِ! وجْهُ ذلك: تحقيقُ البشريَّةِ بالمُماثَلةِ؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، فأيُّ أحاديثَ تأتي بمثلِ هذه الأمورِ الَّتي تُوجِبُ إخراجَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن نطاقِ البشريَّةِ فإنَّها موضوعةٌ مكذوبةٌ؛ لأنَّه بَشَرٌ مِثلُنا[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَجتهِدُ؛ ورُبَّما يُخطِئُ في اجتِهادِه؛ لأنَّ هذا مقتضَى البشريَّةِ، وكما هو الواقعُ في مِثلِ قولِ اللهِ تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وفي قَولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ *

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦، ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٠).

فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۞ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۞ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۞ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۞ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴾ [عبس: ١ - ١٠]، لكنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لا يمكِنُ أنْ يُقَرَّ على خطأٍ؛ ولا يمكنُ أنْ يُقَرَّ على نسيانِ ما يجبُ! بل لا بُدَّ أنْ يَتَنَبَّهَ أو يُنَبَّهَ(١).

١٣- في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾ أهمِّيَّةُ التَّوحيدِ؛ حيثُ حَصَرَ الوَحيَ بالتَّوحيدِ، قال تعالى: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ ﴾، مع أنَّه يُوحَى إليه أشياءُ أُخرى؛ كالصَّلاةِ والزَّكاةِ وغيرِ ذلك، لكِنْ لَمَّا كان أهمَّ ما جاء به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم التَّوحيدُ، حَصَرَ الوحيَ به، فقال: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ ﴾(٢).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ﴾ فيه سُؤالٌ: المقصودُ مِن الاستِغفارِ والتَّوبةِ: إزالةُ ما لا ينبغي، وذلك مُقَدَّمٌ على فِعلِ ما يَنبغي، فلِمَ عَكَس هذا التَّرتيبَ هاهنا، وقدَّم ما ينبغي على إزالةِ ما لا ينبغي؟

**الجوابُ**: ليس المرادُ مِن هذا الاستِغفارِ الاستِغفارَ عن الكُفرِ، بل المرادُ منه أن يَعمَلَ ثمَّ يَستَغفِرَ بعدَه؛ لأجْلِ الخَوفِ مِن وُقوعِ التَّقصيرِ في العَمَلِ الَّذي أَتى به، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((وإنَّه لَيُغانُ(٣) على قَلبي، وإنِّي لأستَغفِرُ اللهَ في اليَومِ واللَّيلةِ مئةَ مرَّةٍ))(٤).

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۞ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ استَدَلَّ بَعضُ عُلَماءِ الأُصولِ بهذه الآيةِ الكَريمةِ على أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّريعةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٥).

(٣) أي: يُطبَقُ ويُستَرُ ويُغَطَّى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٢).

والحديث رواه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغَرِّ المُزَنيِّ رضيَ اللهُ عنه.

لأنَّه تعالى صَرَّح في هذه الآيةِ الكريمةِ بأنَّهم مُشرِكونَ، وأنَّهم كافِرونَ بالآخِرةِ، وقد تَوعَّدَهم بالوَيلِ على شِرْكِهم وكُفْرِهم بالآخِرةِ، وعَدَمِ إيتائِهم الزَّكاةَ، سواءٌ قيل: إنَّ الزَّكاةَ في الآيةِ هي زَكاةُ المالِ المَعروفةُ، أو زكاةُ الأبدانِ بفِعلِ الطَّاعاتِ واجتِنابِ المعاصي[١]؛ فعلى كُلِّ حالٍ فالآيةُ تدُلُّ على خِطابِ الكُفَّارِ بفُروعِ الإسلامِ[٢].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فيه بَعثٌ للمُؤمِنينَ على أداءِ الزَّكاةِ[٣]، وزِيادةُ التَّحذيرِ والتَّخويفِ عن مَنعِها -على قولٍ في التَّفسيرِ-، حيثُ جُعِلَ مِن أوصافِ المُشرِكينَ بَعدَ قَولِه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾، وقُرِنَ بالكُفرِ بالآخِرةِ حيثُ قيلَ: ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٤]، فمانِعُ الزَّكاةِ مِن المُسلِمينَ له حَظٌّ مِنَ الوَيلِ الَّذي استحَقَّه المُشرِكونَ لِمَنعِهم الزَّكاةَ في ضِمنِ شِرْكِهم[٥].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أنَّ الإيمانَ وَحْدَه لا يكفي حتَّى يَقتَرِنَ بعَمَلٍ، لكنْ إذا أُطلِقَ الإيمانُ شَمِلَ العمَلَ، وإنْ ذُكِرَ معه العَمَلُ صار العَمَلُ علانيةً والإيمانُ سِرًّا، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هنا جَمَعَ بيْنَ الإيمانِ والعَمَلِ، فيكونُ الإيمانُ في القلبِ، والعَمَلُ في الجَوارحِ[٦].

---

(١) بخِلافِ القولِ بأنَّ المرادَ بالزَّكاةِ: الزَّكاةُ بالتَّوحيدِ والإيمانِ؛ فلا دليلَ فيها على ذلك.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ * تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

- افتُتِحتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ بالحَرفَيْنِ المقطَّعَيْنِ مِن حُروفِ الهِجاءِ ﴿حمٓ﴾؛ لأنَّ أوَّلَ أغراضِها أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ ففي حَرفَي الهِجاءِ رَمزٌ إلى عَجزِهم عن مُعارَضَتِه بعدَ أنْ تَحَدَّاهم، لذلك لم يَفعَلوا، وفي ذلك الافتِتاحِ تَشويقٌ إلى تَطَلُّعِ ما يأتي بَعدَه؛ لِلاهتِمامِ به[١].

- ولَعَلَّ افتِتاحَ هذه السُّوَرِ الحَواميمِ السَّبعِ بـ﴿حمٓ﴾، وتَسميَتَها به؛ لِكَونِها مُصَدَّرةً ببَيانِ الكِتابِ، مُتَشاكِلةً في النَّظمِ والمَعنى[٢].

- وأيضًا افتُتِحَ الكَلامُ باسمٍ نَكِرةٍ ﴿تَنزِيلٌ﴾؛ لِمَا في التَّنكيرِ مِنَ التَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿تَنزِيلٌ﴾، مُؤكِّدٌ لِما أفادَه التَّنوينُ مِن الفَخامةِ الذَّاتيَّةِ بالفَخامةِ الإضافيَّةِ[٤].

- وإيثارُ الصِّفَتَيْنِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ على غَيرِهما مِنَ الصِّفاتِ العَليَّةِ؛ لِلإيماءِ إلى أنَّ هذا التَّنزيلَ رَحمةٌ مِنَ اللهِ بعِبادِه؛ لِيُخرِجَهم مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، كقولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ جَآءَكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢).

لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[١] [العنكبوت: ٥١].

- والجَمعُ بيْنَ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فيه معنًى حَسَنٌ، وهو أنَّ الرَّحمنَ دالٌّ على الصِّفةِ القائمةِ به سُبحانَه، والرَّحيمَ دالٌّ على تعَلُّقِها بالمرحوم؛ فكان الأوَّلُ للوَصفِ، والثَّاني للفِعلِ؛ فالأوَّلُ دالٌّ أنَّ الرَّحمةَ صِفتُه، والثَّاني دالٌّ على أنَّه يَرحَمُ خَلْقَه برَحمتِه. وقيل: فائدةُ الجَمعِ بيْن الصِّفتَينِ «الرَّحمنِ والرَّحيمِ»: الإنباءُ عن رَحمةٍ عاجِلةٍ وآجِلةٍ، وخاصَّةٍ وعامَّةٍ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿تَنزِيلٌ﴾؛ فحُصِّلَ مِنَ المَعنى أنَّ التَّنزيلَ مِنَ اللهِ ﴿كِتَٰبٌ﴾، وأنَّ صِفتَه ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، مَوسومًا بكَونِه ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾. ويجوزُ جعْلُ قولِه: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ في مَوضعِ الصِّفةِ للمُبتدأ، وجعْلُ قولِه: ﴿كِتَٰبٌ﴾ خبَرَ المُبتدأ، وعلى كِلا التَّقديرينِ هو أُسلوبٌ فَخمٌ، والمُرادُ: أنَّه مُنزَّلٌ؛ فالمَصدرُ بمَعنى المَفعولِ، كقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، وهو مُبالَغةٌ في كَونِه فَعَل اللهُ تنزيلَه؛ تَحقيقًا لِكَونِه مُوحًى به، وليس مَنقولًا مِن صُحُفِ الأوَّلينَ. وتَنكيرُ لَفظِ ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ لإفادةِ التَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ ومِن كَمالِ تَفصيلِه أنَّه كان بِلُغةٍ كَثيرةِ المَعاني، واسِعةِ الأفنانِ، فَصيحةِ الألفاظِ؛ فكانت سالِمةً مِنِ الْتباسِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٩، ٢٣٠).

الدَّلالةِ، وانغلاقِ الألفاظِ، مع وَفرةِ المَعاني غيرِ المُتنافيةِ في قِلَّةِ التَّراكيبِ؛ فكان وَصْفُه بأنَّه عَربيٌّ مِن مُكَمِّلاتِ الإخبارِ عنه بالتَّفصيلِ، وقد تَكرَّرَ التَّنويهُ بالقُرآنِ مِن هذه الجِهةِ، كقَولِه: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]؛ ولهذا فَرَّعَ عليه ذَمَّ الَّذين أعرَضوا عنه بقَولِه هنا: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٤]، وقَولِه هُنالِكَ: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾[1] [الشعراء: ٢٠٠، ٢٠١].

- قَوله: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ القُرآنُ: الكَلامُ المَقروءُ المَتلُوُّ، وكَونُه قُرآنًا مِن صِفاتِ كَمالِه، وهو أنَّه سَهلُ الحِفظِ، سَهلُ التِّلاوةِ؛ ففيه امتِنانٌ بسُهولةِ قِراءَتِه وفَهمِه، كما قال تَعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]، و﴿قُرْآنًا﴾ انتَصَبَ على الحالِ، أيْ: فُصِّلتْ آياتُه في حالِ كَونِه قُرآنًا عَربيًّا وقيل: انتَصَبَ ﴿قُرْآنًا﴾ على النَّعتِ المَقطوعِ لِلاختِصاصِ بالمَدحِ؛ فقَولُه: ﴿قُرْآنًا﴾ مَقصودٌ بالذِّكرِ؛ لِلإشارةِ إلى هذه الخُصوصيَّةِ الَّتي اختُصَّ بها مِن بَينِ سائِرِ الكُتُبِ الدِّينيَّةِ، ولولا ذلك لَقال: كِتابٌ فُصِّلت آياتُه عَربيٌّ، كما قال في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2] [الآية: ١٩٥].

- قولُه: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ صِفةٌ لِقَولِه: ﴿قُرْآنًا﴾ ظَرفٌ مُستَقَرٌّ[3]، أيْ: كائنًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣١).

(٣) الظَّرْف المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ =

لِقَومٍ، باعتِبارِ ما أفادَه قَولُه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ مِن مَعنى وُضوحِ الدَّلالةِ، وسُطوعِ الحُجَّةِ، أو يَتعلَّقُ ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ بِقَولِه: ﴿تَنزِيلٌ﴾، أو بقَولِه: ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾، على مَعنى أنَّ فَوائِدَ تَنزيلِه وتَفصيلِه لِقَومٍ يَعلَمونَ دُونَ غَيرِهم؛ فكَأنَّه لم يُنزَّلْ إلَّا لهم، أيْ: فلا بِدْعَ إذا أعرَضَ عن فَهمِه المُعانِدونَ؛ فإنَّهم قَومٌ لا يَعلَمونَ[1]. وقيل: ﴿لِّقَوْمٍ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿فُصِّلَتْ﴾ أي: يَعلَمون الأشياءَ، ويَعقِلون الدَّلائلَ، فكأنَّه فُصِّلَ لهؤلاء؛ إذ همْ يَنتفِعون به، فخُصُّوا بالذِّكرِ تَشريفًا، ومَن لمْ يَنتفِعْ بالتَّفصيلِ، فكأنَّه لم يُفصَّلَ له[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

- انتَصَبَ ﴿بَشِيرًا﴾ على أنَّه حالٌ ثانيةٌ مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾، أو صِفةٌ لِلَفظِ ﴿قُرْءَانًا﴾، وصِفةُ الحالِ في مَعنى الحالِ؛ فالأَولَى كَونُه حالًا ثانيةً، وجيءَ بقَولِه: ﴿وَنَذِيرًا﴾ مَعطوفًا بالواوِ؛ لِلتَّنبيهِ على اختِلافِ مَوقِعِ كُلٍّ مِنَ الحالَيْنِ، فهو بَشيرٌ لِقَومٍ، وهمُ الَّذينَ اتَّبَعوه، ونَذيرٌ لِآخَرينَ، وهمُ المُعرِضونَ عنه، وليس هو جامِعًا بيْنَ البِشارةِ والنِّذارةِ لِطائِفةٍ واحِدةٍ[3].

- قولُه: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ﴾ تفريعٌ على ما ذُكِرَ مِن صِفاتِ القُرآنِ، وضَميرُ ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ عائِدٌ إلى مَعلومٍ مِنَ المَقامِ، وهمُ المُشرِكونَ، والمَعنى: فأعرَضَ

---

= للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣١، ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢).

أكثَرُ هؤلاء عمَّا في القُرآنِ مِنَ الهُدى؛ فلم يَهتَدوا، ومِنَ البشارةِ فلم يُعنَوْا بها، ومِنَ النِّذارةِ فلم يَحذَروها، فكانوا في أشَدِّ الحَماقةِ؛ إذْ لم يُعنَوْا بخَيرٍ، ولا حَذِروا الشَّرَّ، فلم يَأخُذوا بالحَيطةِ لِأنفُسِهم(١).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ لِلتَّفريعِ على الإعراضِ، أيْ: فهمْ لا يُلْقونَ أسماعَهم لِلقُرآنِ، فَضلًا عن تَدَبُّرِه، وهذا إجمالٌ لِإعراضِهم. وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ دُونَ أنْ يَقولَ: (فلا يَسمَعونَ)؛ لِإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ وتأكيدِه، والمَعنى: أنَّهم لا يَقبَلونَ ولا يُطيعونَ، مِن قَولِكَ: تَشَفَّعتُ إلى فُلانٍ فلم يَسمَعْ قَولي، ولقد سَمِعَه، ولكِنَّه لَمَّا لم يَقبَلْه، ولم يَعمَلْ بمُقتَضاه؛ فكَأنَّه لم يَسمَعْه(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالُوا۟﴾ عطفٌ على ﴿فَأَعْرَضَ﴾، أو حالٌ مِن ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، أو عُطِفَ على ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ في الآيةِ السَّابقةِ، أو حالٌ مِن ضَميرِه، والمَعنى: أنَّهم أعرَضوا مُصَرِّحينَ بقِلَّةِ الاكتِراثِ، وبالانتِصابِ لِلجَفاءِ والعَداءِ. وهذا تَفصيلٌ لِلإعراضِ عمَّا وُصِفَ به القُرآنُ مِنَ الصِّفاتِ الَّتي شأنُها أنْ تُقَرِّبَهم إلى تَلَقِّيه، لا أنْ يَبعُدوا ويُعرِضوا، وقد جاءَ بالتَّفصيلِ بأقوالِهمُ الَّتي حَرَمَتْهم مِنَ الانتِفاعِ بالقُرآنِ واحِدًا واحِدًا(٣).

- قولُه: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ إنْ قِيلَ: هلَّا قِيلَ: (على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٣).

قُلوبِنا أكِنَّةٌ)، كما قِيل: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾؛ لِيَكونَ الكلامُ على نَمطٍ واحدٍ؟

**فالجوابُ**: أنَّه على نمَطٍ واحدٍ؛ لأنَّه لا فرْقَ في المعنى بيْن قَولِك: قُلوبُنا في أكِنَّةٍ، وعلى قُلوبِنا أكِنَّةٌ، والدَّليلُ عليه قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: ٥٧]. ولو قِيل: إنَّا جَعَلْنا قُلوبَهم في أكِنَّةٍ، لم يَختلِفِ المعنى؛ فالمَظروفُ كما هو مُستقِرٌّ في الظَّرْفِ، فإنَّ الظَّرْفَ أيضًا مُشتمِلٌ عليه. وقيل: بلْ إنَّ (في) أبلَغُ في هذا الموضعِ مِن (على)؛ لأنَّهم قَصَدوا إفراطَ عَدمِ القَبولِ؛ لِحُصولِ قُلوبِهم في أكِنَّةٍ احتَوَت عليها احتواءَ الظَّرْفِ على المَظروفِ؛ فلا يُمكِنُ أنْ يَصِلَ إليها شَيءٌ، كما تقولُ: المالُ في الكِيسِ، بخلافِ قَولِك: على المالِ كِيسٌ؛ فإنَّه لا يدُلُّ على الحصْرِ وعَدَمِ الحُصولِ دَلالةَ الوِعاءِ. ولو قيل: (على قُلوبِنا أكِنَّةٌ) كما في تلك الآيةِ: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾، لم يَحصُلِ التَّطابُقُ في معنى الاستقرارِ وجَعْلِ أحدِهما ظَرْفًا والآخَرِ مَظروفًا. ولو قِيل: (على آذانِنا وَقْرٌ) لم يكُنْ بتلك المُبالَغةِ؛ لأنَّ المرادَ أنَّ الأصْمِخةَ[1] قد سُدَّت فلا يَدخُلُ فيها الهواءُ، فضْلًا عن الكلامِ. وأمَّا معنى (على) في آيةِ ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾ [الكهف: ٥٧]، فلِإرادةِ معنى الاستعلاءِ والقهْرِ مِن اللهِ تعالى[2].

- قَولُه: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ وقَع الاقتِصارُ على هذه الأعضاءِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ القَلبَ مَحَلُّ المَعرِفةِ، والسَّمعَ والبَصَرَ مُعينانِ على تحصيلِ المعارِفِ؛ لذا ذَكَروا أنَّ هذه

---

(١) الأصْمِخة: جمْع الصِّماخِ، وهو: خَرْقُ الأُذُنِ. وقيل: هو الأُذُنُ نفْسُها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٦٣، ٥٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٤).

الثَّلاثةَ مَحجوبةٌ عن أن يَصِلَ إليها مِمَّا يُلقيه الرَّسولُ شَيءٌ[١].

- وفي هذه الآيةِ مِن المُبالَغةِ والبلاغةِ ما لا يَلِيقُ أنْ يَنتظِمَ إلَّا في دُرَرِ الكِتابِ العزيزِ؛ فإنَّها اشتمَلَت على ذِكرِ حُجُبٍ ثلاثةٍ مُتواليةٍ، كلُّ واحدٍ منها كافٍ في فَنِّه: أوَّلُها: الحِجابُ الحائِلُ الخارِجُ؛ فقد شَبَّهوا قُلوبَهم بالشَّيءِ المُحوى المُحاطِ بالغِطاءِ المُحيطِ له، ووَجهُ الشَّبَهِ حَيلولةُ وُصولِ الدَّعوةِ إلى عُقولِهم، كما يَحولُ الغِطاءُ والغِلافُ دُونَ تَناوُلِ ما تَحتَه. ثانيها: حِجابُ الصَّمَمِ؛ فقد شَبَّهوا أسماعَهم بآذانٍ بها صَمَمٌ مِن حيثُ إنَّها تَمُجُّ الحَقَّ، ولا تَميلُ إلى استِماعِه. ثالِثُها: وأقصاها الحِجابُ الَّذي أكَنَّ القَلبَ -والعياذُ باللهِ- في قَولِه: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾؛ فقد شَبَّهوا حالَ أنفُسِهم مع الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بحالِ شَيئَيْنِ بَيْنَهما حِجابٌ عَظيمٌ يَمنَعُ مِن وُصولِ أحَدِهما إلى الآخَرِ، فلمْ تَدَعْ هذه الآيةُ حِجابًا مُرتَخيًا إلَّا سَدَلَتْه، ولم تُبقِ لِهؤلاء الأشقياءِ مَطمَعًا ولا صَريحًا إلَّا استَلَبَتْه، وقد جَمَعوا بيْنَ الحالاتِ الثَّلاثِ في التَّمثيلِ لِلمُبالَغةِ في أنَّهم لا يَقبَلونَ ما يَدعوهم إليه[٢].

- وفائِدةُ ذِكرِ (مِنْ) في قَولِه: ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ مع حُصولِ المَعنى بحَذفِها -كما في قولِه تعالى: ﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ [الإسراء: ٤٥]-: الدَّلالةُ على أنَّ حِجابًا ابتدَأَ مِنَّا، وابتدَأَ مِنكَ؛ فالمسافةُ المتوسِّطةُ لِجِهتِنا وجِهَتِك مُستوعَبةٌ بالحِجابِ لا فراغَ فيها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٣١، ٥٣٢).

وبتَقديرِ حَذفِها يَصيرُ المَعنى: إنَّ الحِجابَ حاصِلٌ في المَسافةِ بيْنَنا وبيْنَه[١].

وقيل: بلِ الصَّحيحُ أنَّها هاهنا مِثلُ ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾ [يس: ٩]؛ لِلإشعارِ بأنَّ الجِهةَ المُتوسِّطةَ بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبيْنَهم مَبدَأُ الحِجابِ[٢]. وقيل: إنَّ اجتلابَ حَرْفِ (مِن) في قولِه: ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾؛ لِتَقويةِ معنى الحِجابِ بيْن الطَّرَفينِ، وتَمكُّنِ لازِمِه الَّذي هو بُعدُ المسافةِ الَّتي بيْن الطَّرَفينِ؛ لأنَّ (مِن) هذه صِلةٌ لِتَأكيدِ مَضمونِ الجُملةِ[٣].

- وعَطفُ ﴿وَبَيْنِكَ﴾ تَأكيدٌ؛ لِأنَّ واوَ العَطفِ مُغْنيةٌ عنه[٤].

- القَولُ المَحكيُّ عنهم في القُرآنِ بـ(قَالُوا) في قولِه: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ يَحتَمِلُ أنْ يَكونَ القُرآنُ حَكاهُ عنهم بالمَعنى؛ فجَمَع القُرآنُ بإيجازِه وبَلاغَتِه ما أطالوا به الجِدالَ وأطنَبوا في اللَّجاجِ. ويَحتمِلُ أنَّه حكاهُ بلَفظِهم؛ فيَكونُ مِمَّا قاله أحَدُ بُلَغائِهم في مَجامِعِهمُ الَّتي جَمَعتْ بَيْنَهم وبيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويَحتمِلُ أنْ يَكونوا تَلَقَّفوه مِمَّا سَمِعوه في القُرآنِ مِن وَصْفِ قُلوبِهم وسَمعِهم وتَباعُدِهم، كقَولِه: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الإسراء: ٤٦]؛ فإنَّ سُورةَ (الإسراء) مَعدودةٌ في النُّزولِ قبْلَ سُورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ١٨٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٤). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٥).

(فُصِّلتْ)، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥] أيضًا، فجَمَعوا ذلك وجادَلوا به الرَّسولَ؛ فيَكونُ ما في هذه الآيةِ مِنَ البَلاغةِ قدِ اقتَبَسوه مِن آياتٍ أُخرى. وقيلَ: إنَّ قائِلَه أبو جَهلٍ في مَجمَعٍ مِن قُرَيشٍ؛ فلذلك أسنَدَ القَولَ إليهم جَميعًا؛ لِأنَّهم مُشايِعونَ له[1].

- وقد جاءَ في حِكايةِ أقوالِهم ما فيه تَفصيلُ ما يُقابِلُ ما ذُكِرَ قَبْلَه مِن صِفاتِ القُرآنِ، وهي ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢، ٣]؛ فإنَّ كَوْنَه تَنزيلًا مِنَ الرَّحمنِ الرَّحيمِ يَستَدعي تَفَهُّمَه والانتِفاعَ بما فيه، فقُوبِلَ بقَولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾، وكَوْنَه فُصِّلتْ آياتُه يَستَدعي تَلَقِّيَها والاستِماعَ إليها، فقُوبِلَ بقَولِهم: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾، أيْ: فلا نَسمَعُ تَفصيلَه، وكَوْنَه قُرآنًا عَرَبيًّا أشَدُّ إلزامًا لهم بفَهمِه، فقُوبِلَ ذلك بما يَقطَعُ هذه الحُجَّةَ وهو ﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، أيْ: فلا يَصِلُ كَلامُه إليهم، ولا يَتطَرَّقُ جانِبَهم، فهذه تَفاصيلُ إعراضِهم عن صِفاتِ القُرآنِ[2].

- وقَولُهم: ﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ تَفريعٌ على تأْييسِهمُ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن قَبولِهم دَعوَتَه، وجُعِلَ قَولُهم هذا مُقابِلَ وَصفِ القُرآنِ بأنَّه بَشيرٌ ونَذيرٌ؛ لِظُهورِ أنَّه تَعَيَّنَ كَونُه نَذيرًا لهم بعَذابٍ عَظيمٍ؛ لِأنَّهم أعرَضوا، فحُكيَ ما فيه تَصريحُهم بأنَّهم لا يَعبَؤونَ بِنِذارَتِه، فإنْ كانَ له أذًى فلْيُؤذِهم به[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٣٦).

- وحُذِفَ مَفعولَا (اعمَلْ) و﴿عَٰمِلُونَ﴾؛ لِيَعُمَّ كُلَّ ما يُمكِنُ عَمَلُه، كُلٌّ معَ الآخَرِ ما يُناسِبُه[١].

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّسويةِ، والخَبَرُ في قَولِهم: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّهديدِ[٢]. وذلك على قولٍ.

٥- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، هو تَلقينُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُجيبَ قَولَهم: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥] المُفرَّعَ على قَولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥] إلى آخِرِه، جَوابَ المُتَبرِّئِ مِن أنْ يَكونَ له حَولٌ وقُوَّةٌ لِيَعمَلَ في إلْجائِهم إلى الإيمانِ لَمَّا أبَوْه؛ إذْ ما هو إلَّا بَشَرٌ مِثلُهم في البَشريَّةِ، لا حَولَ له على تَقليبِ القُلوبِ الضَّالَّةِ إلى الهُدَى، وما عليه إلَّا أنْ يُبَلِّغَهم ما أوْحى اللهُ إليه، وهذا الخَبَرُ يُفيدُ كِنايةً عن تَفويضِ الأمْرِ في العَمَلِ بجَزائِهم إلى اللهِ تَعالى، كأنَّه يَقولُ: وماذا أستَطيعُ أنْ أعمَلَ مَعَكم؛ فإنِّي رَسولٌ مِنَ اللهِ، فحِسابُكم على اللهِ تَعالى؛ فصِيغةُ القَصرِ في ﴿إِنَّمَآ﴾ تُفيدُ قَصرًا إضافيًّا[٣]، أيْ: أنا مَقصورٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) القصرُ أو الحَصرُ في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلام، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما =

على البَشَريَّةِ دُونَ التَّصرُّفِ في قُلوبِ النَّاسِ. وقيلَ: المَعنى: لَستُ مَلَكًا ولا جِنِّيًّا لا يُمكِنُكمُ التَّلقِّي منه، ولا أدْعوكم إلى ما تَنبو عنه العُقولُ والأسماعُ، وإنَّما أدعوكُم إلى التَّوحيدِ والاستِقامةِ في العَمَلِ، وقد تدُلُّ عليهما دَلائِلُ العَقلِ وشَواهِدُ النَّقلِ. وقيلَ: المَعْنى: إنِّي لَستُ بملَكٍ، وإنَّما أنا بَشَرٌ مِثلُكم، وقد أُوحيَ إلَيَّ دُونَكم، فصَحَّتْ بالوَحيِ إلَيَّ وأنا بَشَرٌ نُبُوَّتي، وإذا صَحَّتْ نُبُوَّتي وَجَبَ عليكمُ اتِّباعي(١).

- وقدْ بَيَّنَ ممَّا تَمَيَّزَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن المُشرِكينَ على وَجهِ الاحتِراسِ مِن أنْ يَتَلَقَّفوا قَولَه: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ تَلَقُّفَ مَن حَصَل على اعتِرافِ خَصمِه بنُهوضِ حُجَّتِه بما يُثبِتُ الفارِقَ بيْنَه وبيْنَهم في البَشَريَّةِ، وهو مَضمونُ جُملةِ ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾؛ وذلك لِلتَّسجيلِ عليهم إبطالَ زَعمِهمُ المَشهورِ المُكَرَّرِ: أنَّ كَونَه بَشَرًا مانِعٌ مِن إرسالِه عنِ اللهِ تَعالى؛ لِقَولِهم: ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِ لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، ونحوِه ممَّا تَكرَّرَ في القُرآنِ. ومُماثَلتُه لهم: المُماثلةُ في البشريَّةِ؛ فتُفيدُ تأْكيدَ كَونِه بشَرًا(٢).

---

= هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقَرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و (٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٧، ٢٣٨).

- وحِرصًا على إبلاغِ الإرشادِ إليهم بَيَّنَ له ما يُوحى إليه بقَولِه: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾؛ إعادةً لِمَا أبلَغَهم إيَّاه غيْرَ مَرَّةٍ، شَأنَ القائِمِ بهَدي النَّاسِ ألَّا يُغادِرَ فُرصةً لِإبلاغِهمُ الحَقَّ إلَّا انتَهَزَها، و(أنَّما) مَفتوحةُ الهمزةِ أختُ (إنَّما) المكسورةِ؛ تُفيدُ القصْرَ؛ فقَولُه: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ إدماجٌ[1] لِلدَّعوةِ إلى الحَقِّ في خِلالِ الجَوابِ؛ حِرصًا على الهَدْيِ، وكذلك التَّفريعُ بالفاءِ في قَولِه: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾؛ فإنَّه إتمامٌ لذلك الإدماجِ بتَفريعِ فائِدَتِه عليه؛ لِأنَّ إثباتَ أنَّ اللهَ إلهٌ واحِدٌ إنَّما يُقصَدُ منه إفرادُه بالعِبادةِ، ونَبذُ الشِّركِ[2].

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ إنَّما عُدِّيَ بحرْفِ (إلى)؛ لأنَّها كثيرًا ما تُعاقِبُ اللَّامَ، يُقالُ: ذهَبْتُ له وذهَبْتُ إليه، والأحسَنُ أنَّ إيثارَ (إلى) هنا؛ لِتَضمينِ (استَقيموا) مَعنى: تَوَجَّهوا؛ لِأنَّ التَّوحيدَ تَوَجُّهٌ، أيْ: صَرفُ الوَجهِ إلى اللهِ دُونَ غَيرِه، كما حكَى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]،

---

(١) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المُتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحمدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٨).

أو ضُمِّنَ (استَقيموا) مَعنى: أنيبوا، أيْ: تُوبوا مِنَ الشِّركِ، كما دَلَّ عليه عَطفُ ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ وَعيدٌ لِلمُشرِكينَ بسُوءِ الحالِ والشَّقاءِ في الآخِرةِ، وتَرهيبٌ وتَنفيرٌ لهم عنِ الشِّركِ إثْرَ تَرغيبِهم في التَّوحيدِ، وهذا التَّهديدُ مِن فَرْطِ جَهالَتِهم، واستِخفافِهم باللهِ[2].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ مِن جُملةِ القَولِ الَّذي أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَقولَه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ كَلامًا مُعتَرِضًا مِن جانِبِ اللهِ تعالَى بيْنَ جُملةِ ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [فصلت: ٦]، وجُملةِ ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩]، أيْ: أجِبْهم بقَولِكَ: أنا بَشَرٌ مِثلُكم يُوحَى إلَيَّ، ونحن أعْتَدْنا لهم الوَيلَ والشَّقاءَ إنْ لم يَقبَلوا ما تَدعوهم إليه؛ فيَكونَ هذا إخبارًا مِنَ اللهِ تَعالى[3].

- وذِكرُ (المُشرِكينَ) إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، ويُستَفادُ تَعليقُ الوَعيدِ على استِمرارِهم على الكُفرِ مِنَ الإخبارِ عنِ الوَيلِ بكَونِه ثابِتًا لِلمُشرِكينَ والمَوصوفينَ بالَّذين لا يُؤتونَ الزَّكاةَ، وبأنَّهم كافِرونَ بالبَعثِ؛ لِأنَّ تَعليقَ الحُكمِ بالمُشتَقِّ يُؤذِنُ بعِلِّيَّةِ ما مِنه الاشتِقاقُ، ولِأنَّ المَوصولَ يُؤذِنُ بالإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٩).

الخَبَرِ[١].

- قولُه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ * ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مَعنى ﴿لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أنَّهم لا يَفعَلونَ ما يَكونونَ به أزكياءَ، وهو الإيمانُ. وقيل: خُصَّ مِن بينِ أوصافِ المشركينَ منعُ الزكاةِ مقرونًا بالكفرِ بالآخرةِ؛ لِتَشويهِ كُفرِهم، وتَفظيعِ شِركِهم وكُفرانِهم بالبَعثِ، بأنَّهما يَدعُوانِهم إلى مَنعِ الزَّكاةِ، أيْ: إلى القَسوةِ على الفُقَراءِ الضُّعَفاءِ، وإلى الشُّحِّ بالمالِ، وكَفى بذلك تَشويهًا في حُكمِ الأخلاقِ وحُكمِ العُرفِ فيهم؛ لِأنَّهم يَتَعيَّرونَ باللُّؤمِ، ولكِنَّهم يَبذُلونَ المالَ في غَيرِ وَجهِه، ويَحرِمونَ منه مُستَحِقِّيه، وأيضًا لِأنَّ أحَبَّ شَيءٍ إلى الإنسانِ مالُه، وهو شَقيقُ رُوحِه، فإذا بَذَلَه في سَبيلِ اللهِ فذلكَ أقوى دَليلٍ على ثَباتِه واستِقامَتِه، وصِدقِ نِيَّتِه، ونُصوعِ طَويَّتِه، وهذا ما لم يَفعَلْه الكافِرونَ[٢].

- وقولُه: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ عَطفٌ على ﴿لَا يُؤْتُونَ﴾، وهو داخِلٌ في حَيِّزِ الصِّلةِ، واختِلافُهما بالفِعليَّةِ والاسميَّةِ؛ لِمَا أنَّ عَدَمَ إيتائِها مُتَجدِّدٌ، فعُبِّرَ عنه بالفِعلِ ﴿لَا يُؤْتُونَ﴾، بيْنَما الكُفرُ أمْرٌ مُستَمِرٌّ، فعُبِّرَ عنه بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾[٣].

- قولُه: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ امتِناعَهم عنِ الزَّكاةِ؛ لِاستِغراقِهم في طَلَبِ الدُّنيا، وإنكارِهم لِلآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧).

- و(هم) في ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ضَميرُ فصْلٍ لا يُفيدُ هنا إلَّا تَوكيدَ الحُكمِ، ويُشبِهُ أنْ يكونَ هنا تَوكيدًا لَفظيًّا لا ضَميرَ فصْلٍ[١].

- وتَقديمُ ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ على مُتَعَلَّقِه وهو ﴿كَٰفِرُونَ﴾؛ لِإفادةِ الاهتِمامِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ نَشَأ عنِ الوَعيدِ الَّذي تُوُعِّدَ به المُشركونَ بَعدَ أنْ أُمِروا بالاستِقامةِ إلى اللهِ، واستِغفارِهم عمَّا فَرَطَ منهم؛ كأنَّ سائِلًا يَقولُ: فإنِ اتَّعَظوا وارتَدَعوا فماذا يَكونُ جَزاؤُهم؟ فأُفيدَ ذلك، وهو أنَّهم حِينَئِذٍ يَكونونَ مِن زُمرةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، وفي هذا تَنويهٌ بشَأنِ المُؤمِنينَ. وتَقديمُ ﴿لَهُمْ﴾؛ لِلاهتِمامِ بهم[٣].

- قولُه: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ المَمنونُ: مَفعولٌ مِنَ المَنِّ، وهو ذِكرُ النِّعمةِ لِلمُنعَمِ عليه بها، والتَّقديرُ: غَيرُ مَمنونٍ به عليهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وذلك كِنايةٌ عن كَونِهم أُعْطوا أجرَهم شُكرًا لهمْ على ما أسلَفوه مِن عَمَلٍ صالِحٍ؛ فإنَّ اللهَ غَفورٌ شَكورٌ، يَعني: أنَّ الإنعامَ عليهم في الجَنَّةِ تُرافِقُه الكَرامةُ والثَّناءُ، فلا يُحِسُّونَ بخَجَلِ العَطاءِ؛ فأجْرُهم بمَنزِلةِ الشَّيءِ المَملوكِ لهمُ الَّذي لم يُعطِه إيَّاهم أحَدٌ، وذلكَ تَفَضُّلٌ مِنَ اللهِ تَعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٤١).

## الآيات (٩-١٢)

﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَندَادًا﴾: أي: أمثالًا ونُظَراءَ وشُرَكاءَ، وحَقيقةُ النِّدِّ: المِثْلُ المُناوِئُ المُخالِفُ، وأصلُه مِن قَولِهم: نَدَّ: إذا نَفَر؛ ولهذا يُقالُ للضِّدِّ: نِدٌّ، ثمَّ استُعمِلَ في المِثْلِ وإن لم يكُنْ هناك مُخالَفةٌ[١].

﴿رَوَاسِيَ﴾: أي: جِبالًا ثوابِتَ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثَباتٍ[٢].

﴿أَقْوَاتَهَا﴾: أي: أرزاقَها، والقُوتُ: ما يُمسِكُ الرَّمَقَ؛ وإنَّما سُمِّيَ قُوتًا لأنَّه مِساكُ البَدَنِ وقُوَّتُه، وأصلُ (قوت): يدُلُّ على إمساكٍ وحِفظٍ، وقُدرةٍ على الشَّيءِ[٣].

﴿اسْتَوَىٰ﴾: أي: علا وارتَفَع. أو: ﴿اسْتَوَىٰ﴾ في هذا المَوضعِ بمعنى: عَمَدَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

وأقبَلَ وقَصَد، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ[١].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾: أي: أحْكَمَهُنَّ، وفرَغ مِن خَلْقِهنَّ، وأصل (قضي): يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِه وإنفاذِه لجِهَتِه[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿سَوَآءً﴾ في نصبِه أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه مَصدَرٌ مُؤَكِّدٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ هو صِفةٌ لـ﴿أَيَّامٍ﴾، أي: استَوَت سَواءً، أي: استِواءً. الثَّاني: أنَّه مَصدَرٌ في مَوضِعِ الحالِ مِنْ ﴿أَرْبَعَةِ﴾؛ لتخَصُّصِه بالإضافةِ إلَى ﴿أَيَّامٍ﴾ على معنى: أنَّها كامِلةٌ لا نَقْصَ فيها ولا زيادةَ. الثَّالثُ: أنَّه حالٌ مِن ﴿أَقْوَٰتَهَا﴾ على معنى: قَدَّر فيها أقواتَها سَواءً لِسائِلِيها على ما بهم إليه الحاجةُ وعلى ما يُصلِحُهم.

وقُرِئَ ﴿سَوَاءٍ﴾ بالخَفضِ صِفةً لـ﴿أَرْبَعَةِ﴾ أو لـ﴿أَيَّامٍ﴾ على معنى: في أربعةِ أيَّامٍ مُستَوِياتٍ تامَّاتٍ، فجَعَل المصدَرَ في مَوضِعِ الاسمِ. وقُرِئَ ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرَّفعِ[٣] على أنَّه خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: هي سَواءٌ لا تَزيدُ ولا تَنقُصُ.

وقَولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ﴿سَوَآءً﴾ بمعنى: مُسْتوياتٍ للسَّائِلينَ. أو مُتعَلِّقٌ بـ(قَدَّر)، أي: قَدَّر فيها أقواتَها لأجْلِ الطَّالِبينَ لها المحتاجِينَ المُقتاتِينَ. أو يَتعلَّقُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٢)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٣).

(٣) ويُنظر ما سيأتي في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التَّفسير (ص: ٥١).

بمَحذوفٍ، كأنَّه قيل: هذا الحَصرُ لأجلِ مَنْ سأل: في كم خُلِقَتِ الأرضُ وما فيها[١]؟

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بتوبيخ المشركينَ وبيانِ مَظاهِرِ قُدرتِه سبحانَه: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: أَإنَّكم لَتَكفُرونَ باللهِ الَّذي خَلَق الأرضَ في يَومَينِ، وتَجعَلونَ له نُظَراءَ وأمثالًا تَعبُدونَهم معه؟! ذلك رَبُّ العالَمينَ! وجعَلَ سُبحانَه في الأرضِ جِبالًا مِن فَوقِها، وبارَكَ فيها، وقَدَّرَ اللهُ فيها أرزاقَها، وذلك في يومَينِ آخَرَينِ؛ فهما مع اليَومَينِ السَّابِقَينِ أربعةُ أيَّامٍ استَوت استواءً، فلا زيادةَ على ذلك ولا نقصانَ، بيَّنَّا ذلك لِمَن سألَ: في كَمْ خُلِقت الأرضُ بما فيها؟

ثمَّ ارتفَع اللهُ وعَلا قاصدًا إلى خَلْقِ السَّماءِ وهي دُخَانٌ، فقال سُبحانَه للسَّماءِ والأرضِ بعدَ أنْ خلَقَهما: ائتِيَا وانقادَا لِطاعتي اختيارًا أو جَبرًا. قالَتا: أتَيْنا طائِعينَ. فأتَمَّ اللهُ خَلْقَهنَّ سَبْعَ سَمواتٍ في يومَينِ، وأوحَى اللهُ تعالى في كُلِّ سَماءٍ ما أرادَه مِن الخَلقِ والتَّدبيرِ، وزَيَّن اللهُ السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ المُنيرةِ، وحَفِظَها حِفظًا بهذه النُّجومِ مِن الشَّياطينِ المُستَرِقةِ للسَّمْعِ، ذلك الشَّأنُ العَظيمُ تقديرُ العزيزِ القاهِرِ الغالِبِ، العليمِ بكُلِّ شَيءٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفَرَّاء (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٣٨١)، ((شرح التسهيل)) لابن مالك (٢/ ٣٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٥٤).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الآيةِ الأُولى أن يقولَ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]؛ أردَفَه بما يدُلُّ على أنَّه لا يجوزُ إثباتُ الشَّركةِ بيْنَه تعالى وبيْنَ هذه الأصنامِ في الإلهيَّةِ والمعبوديَّةِ، وذلك بأنْ بيَّنَ كَمالَ قُدرتِه وحِكمتِه في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ في مُدَّةٍ قَليلةٍ، فمَنْ هذا صِفتُه كيفَ يجوزُ جَعْلُ الأصنامِ الخَسيسةِ شُرَكاءَ له في الإلهيَّةِ والمعبوديَّةِ[1]؟!

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سُبحانَه سَفَهَ الكافِرينَ في كُفرِهم بالآخِرةِ؛ شَرَع في ذِكرِ الأدِلَّةِ على قُدرتِه عليها، وعلى كُلِّ ما يُريدُ بخَلقِ الأكوانِ وما فيها، الشَّامِلِ لهم ولمعبوداتِهم مِن الجماداتِ وغَيرِها، الدَّالِّ على أنَّه واحِدٌ لا شريكَ له[2].

وأيضًا بعدَ أنْ أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُجيبَ المُشرِكينَ بأنَّه بَشَرٌ يُوحَى إليه، فما يَملِكُ إلجاءَهم إلى الإيمانِ؛ أمَرَه عَقِبَ ذلك بمُعاودةِ إرشادِهم إلى الحَقِّ[3].

﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: أإنَّكم لتكفُرونَ بالَّذي خَلَق الأرضَ على سَعَتِها وعظَمَتِها مِنَ العَدَمِ في يَومَينِ[4]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٥، ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٨، ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).
قال الشوكاني: (قيل: اليومانِ هما يومُ الأحدِ ويومُ الاثنينِ. وقيل: المرادُ: مِقدارُ يومَينِ؛ لأنَّ =

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾.

أي: وتَجعَلونَ له نُظَراءَ وأمثالًا تتَّخِذونَهم آلهةً معه[١]؟!

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: ذلك العَظيمُ الَّذي فَعَل ذلك: هو الخالِقُ الرَّازِقُ، المالِكُ المدَبِّرُ لجَميعِ المخلوقاتِ[٢].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما هم به مُقِرُّونَ مِن إبداعِ هذه الأرضِ؛ أتْبَعَه بثلاثةِ أنواعٍ مِن الصُّنعِ العَجيبِ والفِعلِ البَديعِ بعدَ ذلك[٣].

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا﴾.

أي: وجَعَل في الأرضِ جِبالًا ثوابِتَ مِن فَوقِ ظَهْرِها[٤].

---

= اليومَ الحقيقيَّ إنَّما يتحقَّقُ بعدَ وجودِ الأرضِ والسَّماءِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٤٩، ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧].

﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾.

أي: وبارَكَ اللهُ في الأرضِ بما خَلَق فيها مِن المنافِعِ والخَيراتِ الكثيرةِ الدَّائِمةِ لأهْلِها[1].

﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: وخَلَق اللهُ فيها أرزاقَها للنَّاسِ والدَّوابِّ، وذلك في يومَينِ آخَرَينِ، فهما معَ اليَومَينِ السَّابِقَينِ أربَعةُ أيَّامٍ[2].

---

= قال الماوَرْدي: (وفي تِسميتِها رواسِيَ وجهانِ؛ أحدُهما: لعُلُوِّ رُؤوسِها. الثَّاني: لأنَّ الأرضَ بها راسيةٌ، أو لأنَّها على الأرضِ ثابتةٌ راسيةٌ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٣٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢، ١٣).

قال الماوَرْدي: (﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ فيه أربعةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: قَدَّر أرزاقَ أهلِها، قاله الحسَنُ. الثَّاني: قدَّر فيها مصالِحَها؛ مِن جبالِها وبحارِها وأنهارِها، وشَجَرِها ودوابِّها، قاله قَتادةُ. الثَّالثُ: قَدَّر فيها أقواتَها مِن المطَرِ، قاله مجاهدٌ. الرَّابعُ: قدَّر في كلِّ بَلدةٍ منها ما لم يجعَلْه في الأُخرَى؛ ليعيشَ بَعضُهم مِن بَعضٍ بالتِّجارةِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، قاله عِكْرِمةُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٠، ١٧١).

قال ابن جرير: (الصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أخبَرَ أنَّه قَدَّر في الأرضِ أقواتَ أهلِها، وذلك ما يَقوتُهم مِن الغِذاءِ، ويُصلِحُهم مِنَ المعاشِ، ولم يَخصُصْ جَلَّ =

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرَّفعِ، أي: هي سَواءٌ لا تَزيدُ ولا تَنقُصُ[١].

٢- قراءةُ ﴿سَوَاءٍ﴾ بالخَفْضِ، أي: في أربعةِ أيَّامٍ مُستَوِياتٍ[٢].

---

= ثناؤُه بقَولِه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أنَّه قَدَّر فيها قُوتًا دونَ قوتٍ، بل عَمَّ الخبَرَ عن تقديرِه فيها جميعَ الأقواتِ، وممَّا يَقوتُ أهْلَها ما لا يُصلِحُهم غيرُه من الغذاءِ، وذلك لا يكونُ إلَّا بالمطَرِ والتَّصَرُّفِ في البلادِ؛ لِما خَصَّ به بعضًا دونَ بَعضٍ، وممَّا أخرج مِن الجبالِ مِن الجواهِرِ، ومِن البَحرِ مِن المآكِلِ والحُلِيِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٨٨).

وقال ابن عاشور: (﴿وَقَدَّرَ﴾ جَعَل قَدْرًا، أي: مِقدارًا، قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطَّلاق: ٣]. والمِقدارُ: النِّصابُ المحدودُ بالنَّوعِ أو بالكَمِّيَّةِ، فمعنَى «قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا»: أنَّه خَلَق في الأرضِ القُوَى الَّتي تَنْشَأُ منها الأقواتُ، وخَلَق أصولَ أجناسِ الأقواتِ وأنواعَها؛ مِن الحبِّ للحبوبِ، والكلأِ والكمْأَةِ، والنَّوى لِلثِّمارِ، والحرارةِ الَّتي يَتأثَّرُ بها تولُّدُ الحيوانِ مِن الدَّوابِّ والطَّيرِ، وما يتولَّدُ منه الحيتانُ ودوابُّ البحارِ والأنهارِ. ومِن التَّقديرِ: تقديرُ كلِّ نوعٍ بما يصلُحُ له مِن الأوقاتِ مِن حَرٍّ أو بردٍ أو اعتدالٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤).

وقال البِقاعي: (أي: جعَلَها مع البَرَكةِ على مِقدارٍ لا تتعدَّاه؛ مِنهاجٌ بَديعٌ دَبَّره في الأزَلِ وارتضاه، وقدَّرَه فأمضاه، ومِن ذلك أنَّه خَصَّ بَعضَ البلادِ بشَيءٍ لا يُوجَدُ في غيرِها؛ لتنظيمِ عِمارةِ الأرضِ كُلِّها باحتياجِ بَعضِهم إلى بعضٍ، فكان جميعُ ما تقدَّمَ مِن إبداعِها، وإيداعُها ما ذُكِرَ مِن مَتاعِها دَفعةً واحِدةً لا يَنقُصُ عن حاجةِ المحتاجينَ أصلًا، وإنَّما يَنقُصُ توصُّلُهم أو توصُّلُ بَعضِهم إليه، فلا يجِدُ له حينَئِذٍ ما يكفيه، وفي الأرضِ أضعافُ كِفايتِهِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٥٠، ١٥١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٨).

(١) قرأ بها أبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

(٢) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

٣- قراءةُ ﴿سَوَآءً﴾ بالنَّصبِ، أي: استَوَت سَواءً، أي: استِواءً[١]، وتقدَّم في مُشكِلِ الإعرابِ توجيهُ هذه القراءاتِ.

﴿سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾.

أي: أربعةِ أيَّام استَوت استواءً، فلا زيادةَ على ذلك ولا نُقصانَ، بيَّنَّا ذلك لِمَن سألَ في كمْ خُلِقَت الأرضُ بما فيها[٢].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

ممَّن اختار المعنَى المذكورَ في ﴿سَوَآءً﴾، وأنَّها مصدرٌ مؤكِّدٌ لفعلٍ محذوفٍ هو صفةٌ للأيَّامِ، أي: اسْتَوَتْ سواءً بمعنَى استواءً: الواحديُّ، والزمخشري، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة فصلت)) (ص: ٦٩).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿سَوَآءً﴾ يعني: أنَّ هذا الخلْقَ استوعَب الأربعةَ كلَّها، فلم يكُنْ في يومينِ أو ثلاثةٍ، بل في الأيامِ الأربعةِ كلِّها... أي: استوت الأربعةُ استِواءً لا تَزيدُ ولا تَنقُصُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٩).

وقال الرازي: (ما المرادُ مِن كونِ تلك الأيَّامِ الأربعةِ سَواءً؟ فنقولُ: إنَّ الأيَّامَ قد تكونُ متساويةَ المقاديرِ... وقد تكونُ مختلِفةً...، فبَيَّن تعالَى أنَّ تلك الأيَّامَ الأربعةَ كانت متساويةً غيرَ مختلِفةٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٥).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لِمَن سأل عن خلْقِ الأرضِ: ابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والواحدي، والخازن، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٦)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٤٨٣، ٦٤٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥)، =

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا شَرَح اللهُ تعالى كيفيَّةَ تَخليقِ الأرضِ وما فيها؛ أَتْبَعَه بكيفيَّةِ تَخليقِ السَّمَواتِ[1].

---

= ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٩).

وقولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: هذا الحصرُ والبيانُ لأجلِ السَّائلينَ، أو: هذا جوابٌ للسَّائلينَ. أو: بيَّنَّا ذلك للسَّائلينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٩).

وقيل: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: للرِّزقِ، المحتاجينَ للأقواتِ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والرَّسْعَني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٠).

قال الرسعني: (وإنَّما قيل: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾؛ لأنَّ كُلًّا يَطلُبُ القُوتَ ويَسألُه). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٠).

وقولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلِّقٌ بـ(قدَّر) على هذا القولِ، أيْ: قَدَّر فيها أقواتَها لأجْلِ الطَّالبينَ المُحتاجينَ إليها. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١).

وقال الشوكاني: (قال الفرَّاءُ: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنَى: وقَدَّر فيها أقواتَها سواءً للمُحتاجينَ في أربعةِ أيَّام. واختارَ هذا ابنُ جريرٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٠).

وقال ابن كثير: (قال تعالَى: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أيْ: لِمَن أرادَ السُّؤالَ عن ذلك لِيَعلَمَه... قال ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ في قولِه تعالَى: ﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أي: لِمَنْ أرادَ السُّؤالَ عن ذلك. وقال ابنُ زَيدٍ: معناه ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ أيْ: على وَفْقِ مُرادِ مَن له حاجةٌ إلى رِزْقٍ أو حاجةٍ، فإنَّ الله قَدَّر له ما هو مُحتاجٌ إليه. وهذا القولُ يُشْبِهُ ما ذَكَروه في قولِه تعالَى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، والله أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٦).

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ﴾.

أي: ثمَّ ارتفَع الله وعَلا قاصدًا إلى خَلْقِ السَّماءِ وهي دُخَانٌ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).

ممَّن اختار أن ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ هنا بمعنى ارتفَع: الخليلُ بنُ أحمدَ -كما نسبَه إليه ابنُ عبدِ البَرِّ-، وابنُ جريرٍ، ونسَبه السَّمعاني والبَغوي إلى ابنِ عباسٍ وأكثرِ مفسِّري السَّلفِ في نظيرِ هذه الآيةِ من سورةِ البقرةِ الآيةِ (٢٩)، وهو قولُ أبي العاليةِ، كما في ((صحيح البخاري)) (٩/ ١٢٤).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٦٣)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٠١)، ((التمهيد)) لابن عبد البَرِّ (٧/ ١٣٢).

وممَّن اختار أنَّ ﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ هنا بمعنى قصد: السمعانيُّ، وابن جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٧٤).

قال ابن كثير: (﴿ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أَيْ: قَصَدَ إِلَى السَّمَاءِ، والاستواءُ هاهنا تضَمَّن معنَى القصدِ والإقبالِ؛ لأنَّه عُدِّيَ بـ «إلى»). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٢١٣). ويُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٥٢، ٥٣).

وقال ابنُ القيم: (تقولُ: استَوى إلى كذا، إذا قصَد إليه علوًّا وارتفاعًا، نحو: استوَى إلى السَّطحِ والجبلِ). ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) (١/ ١٩٥).

وقال السعدي: (﴿ٱسۡتَوَىٰٓ﴾ تَرِدُ في القرآنِ على ثلاثةِ مَعانٍ: فتارةً لا تُعدَّى بالحرفِ، فيَكونُ معناها: الكمالَ والتَّمامَ، كما في قولِه عن موسى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]. وتارةً تكونُ بمعنى: عَلا وارتفَعَ، وذلك إذا عُدِّيَتْ بـ «على»، كما في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣]. وتارةً تكونُ بمعنى: قصَدَ، كما إذا عُدِّيَتْ بـ «إلى»، كما في هذه الآيةِ، أي: لَمَّا خلَقَ تعالى الأرضَ، قصَد إلى خلْقِ السَّمواتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨). ويُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٩٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ عن الدُّخَانِ: (قيل: هو البُخارُ الَّذي تصاعَدَ مِن الماءِ الَّذي كان عليه العَرشُ؛ فإنَّ البُخارَ نَوعٌ مِن الدُّخَانِ). ((الصفدية)) (٢/ ٧٦). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٦٥). يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٦).

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾.

أي: فقال اللهُ للسَّماءِ والأرضِ بعدَ أنْ خَلَقَهما: استَجيبا لأَمْري، وانقادا لِطاعَتي اختيارًا أو جَبرًا[١].

﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾.

أي: قالت السَّماءُ والأرضُ: استَجَبْنا لأمْرِك، وانقَدْنا لطاعتِك، فلا نخالِفُ إرادتَك رَبَّنا[٢].

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾.

أي: ففرَغ الله مِن خَلْقِهنَّ سَبْعَ سَمَواتٍ، وأكْمَلهنَّ وأتمَّهنَّ في يَومَينِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٦، ١٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: إنَّ اللهَ تعالى قال: أمَّا أنتِ يا سماءُ، فأطْلِعي شمسَكِ وقمرَكِ ونجومَكِ، وأمَّا أنتِ يا أرضُ، فشقِّقي أنهارَكِ، وأخرجي ثمارَكِ ونباتَكِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٧).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والثعلبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٧).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ رَضيَ الله عنهما. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٥).

قال القرطبي: (قال أكثَرُ أهلِ العِلمِ: خَلَق الله فيهما الكَلامَ، فتكَلَّمَتا كما أرادَ تعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٤). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٥)، ((الفتاوى =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (خَلَق الأرضَ في يومَينِ، ثمَّ خَلَق السَّماءَ، ثمَّ استوى إلى السَّماءِ فسَوَّاهنَّ في يومَينِ آخَرَينِ، ثمَّ دحا الأرضَ؛ ودَحْوُها: أنْ أخرَجَ منها الماءَ والمَرعَى، وخَلَق الجِبالَ والجِمالَ والآكامَ وما بَيْنَهما في يومَينِ آخَرَينِ، فذلك قَولُه: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، وقَولُه: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، فجُعِلت الأرضُ وما فيها مِن شَيءٍ في أربعةِ أيَّامٍ، وخُلِقَت السَّمواتُ في يَومَينِ)[١].

﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾.

أي: وأمَر اللهُ في كُلِّ سمَاءٍ مِن السَّمَواتِ السَّبْعِ بما أرادَه مِنَ الخَلقِ والتَّدبيرِ[٢].

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾.

أي: وزَيَّنَ اللهُ السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ المُنيرةِ، وحَفِظَها بهذه النُّجومِ مِن الشَّياطينِ المُستَرِقةِ للسَّمْعِ مِن المَلَأِ الأعلى[٣].

---

= الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧).

(١) رواه البخاري (٦/ ١٢٧، ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).
قال الشوكاني: (الإيحاءُ قد يكونُ بمعنَى الأمرِ، كما في قولِه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ﴾ [الزلزلة: ٥]، وقولِه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١]، أي: أمَرْتُهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

وقال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

أي: ذلك الشَّأنُ العَظيمُ البَديعُ الَّذي تقَدَّمَ ذِكرُه مِن خَلْقِ السَّماءِ والأرضِ والنُّجومِ: هو تَقديرُ العَزيزِ ذي القَدْرِ العَظيمِ، القاهِرِ الغالِبِ لكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعِ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ؛ العَليمِ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بتدبيرِ مَصالحِ خَلْقِه، وعِلمُه بجَميعِ حَرَكاتِهم وسَكَناتِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ * وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ * لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٧ - ٤٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ إنَّ عِلْمَنا بأنَّ اللهَ سبحانه ﴿ٱلۡعَلِيمِ﴾ يَستَوجِبُ -مِن النَّاحيةِ المسلكيَّةِ- بالنِّسبةِ للعبدِ: أنْ يَخافَ اللهَ عزَّ وجلَّ، وأنْ يَقومَ بطاعتِه، وأنْ يَدَعَ معصيتَه؛ لأنَّه يَعْلَمُ أنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ به، بل إنَّ اللهَ يَعْلَمُ مِن نَفْسِك ما لا تَعْلَمُه أنت؛ فيَعْلَمُ مُستقبلَك ومآلَك وحالَك، وهذا يُوجِبُ للعبدِ أنْ يخافَ ربَّه في السِّرِّ والعَلَنِ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ دليلٌ على وُجوبِ إعلانِ المؤمنِ ما عليه الكفَّارُ مِن الكفرِ باللهِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه لا تجوزُ مُداهَنةُ الكفَّارِ، والمُداهَنةُ: سكوتُ الإنسانِ عن معصيةِ العاصي، قال اللهُ تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]؛ فلا يجوزُ للمؤمنِ أنْ يُداهِنَ، والمُداهَنةُ في الحقيقةِ أشْبَهُ شَيءٍ لها في وقتِنا الحاضرِ ما يُسَمُّونه بالمجاملةِ أو بالعَلْمنةِ؛ فإنَّ العلمانيِّينَ يقولونَ: دَعْ كلَّ إنسانٍ وشأنَه! الدَّولةُ دولةٌ؛ والدِّينُ دِينٌ! فالدَّولةُ لا بُدَّ أنْ تَتَّحِدَ؛ وأمَّا الدِّينُ فلِكُلٍّ دينُه! فلا تُنْكِرْ على الكافرِ، ولا على الفاسقِ! دَعْ كلَّ إنسانٍ يَعْمَلُ ما شاء!! فهذه الآيةَ صريحةٌ في أنَّه يجبُ أنْ نُنكِرَ على الكافرين كُفْرَهم؛ وألَّا نُداهِنَهم[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ فيه سُؤالٌ: مَنِ استدَلَّ بشَيءٍ على إثباتِ شَيءٍ، فذلك الشَّيءُ المُستَدَلُّ به يَجِبُ أن يكونَ مُسَلَّمًا عندَ الخَصمِ، حتَّى يَصِحَّ الاستِدلالُ به، وكَوْنُه تعالى خالِقًا للأرضِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨).

يومَينِ أمرٌ لا يُمكِنُ إثباتُه بالعَقلِ المَحْضِ، وإنَّما يُمكِنُ إثباتُه بالسَّمعِ ووَحيِ الأنبياءِ، والكُفَّارُ كانوا مُنازِعينَ في الوَحيِ والنُّبُوَّةِ، فلا يُعقَلُ تَقريرُ هذه المقَدِّمةِ عليهم، وإذا امتنعَ تقريرُ هذه المقَدِّمةِ عليهم امتنَعَ الاستِدلالُ بها على فَسادِ مَذاهِبِهم؟

**الجوابُ**: أنَّ إثباتَ كَونِ السَّمَواتِ والأرضِ مخلوقةً بطَريقِ العَقلِ مُمكِنٌ، فإذا ثبت ذلك أمكَنَ الاستِدلالُ به على وُجودِ الإلهِ القادِرِ القاهِرِ العظيمِ، وحينَئذٍ يُقالُ للكافِرينَ: فكيف يُعقَلُ التَّسويةُ بيْنَ الإلهِ الموصوفِ بهذه القُدرةِ القاهِرةِ، وبيْنَ الصَّنَمِ الَّذي هو جمادٌ لا يَضُرُّ ولا ينفَعُ في المعبوديَّةِ والإلهيَّةِ؟ والاستِدلالُ بكَونِه تعالى خالِقًا للأرضِ في يومَينِ أثَرٌ، والظَّاهِرُ أنَّ المشرِكينَ كانوا قد سَمِعوا مِن أهلِ الكِتابِ هذه المعانيَ[1]، واعتَقَدوا في كَونِها حَقَّةً، وإذا كان الأمرُ كذلك فحينَئذٍ يَحسُنُ أن يُقالَ لهم: إنَّ الإلهَ الموصوفَ بالقُدرةِ على خَلقِ هذه الأشياءِ العظيمةِ في هذه المدَّةِ الصَّغيرةِ، كيف يَليقُ بالعَقلِ جَعلُ الخَشَبِ المَنجُورِ والحَجَرِ المنحوتِ شَريكًا له في المعبوديَّةِ والإلهيَّةِ؟ فظهَر بذلك أنَّ هذا الاستِدلالَ قَويٌّ حسَنٌ[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر أنَّه خَلَق الأرضَ في يومَينِ، وذكَرَ أنَّه جَعَل فيها الرَواسِيَ والبَرَكةَ وتقَديرَ الأقواتِ في أربعةِ أيَّامٍ أُخَرَ، وذكَرَ أنَّه خَلَق السَّمَواتِ في يومَينِ، فيكونُ المجموعُ ثمانيةَ أيَّامٍ، لكِنَّه ذَكَر في سائِرِ الآياتِ أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّامٍ[3]؟

---

(١) وقيل: إنَّهم تلقَّوْا ذلك خلَفًا عن سلفٍ، فاستفاضَ بيْنَهم. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٤).

(٣) قال السمعاني: (وأجْمَعوا على أنَّ خلقَ الكلِّ كان في سِتَّةِ أيَّامٍ، لا في ثمانيةِ أيَّامٍ). ((تفسير =

**والجوابُ**: أنَّ يومَيْ خَلقِ الأرضِ مِن جُملةِ الأربعةِ بَعْدَهما، والمعنى: في تَتِمَّةِ أربَعةِ أيَّامٍ، فكأنَّه قيل: في يومَينِ آخَرينِ، فتلك أربَعةُ أيَّامٍ، وهي مع يَومَيْ خَلْقِ السَّمَواتِ سِتَّةُ أيَّامٍ، وهذا كقَولِ القائِلِ: سِرتُ مِن البَصرةِ إلى بغدادَ في عَشَرةِ أيَّامٍ، وسِرتُ إلى الكُوفةِ في خَمْسةَ عَشَرَ يومًا، يريدُ كِلْتا المسافتَينِ[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿مِن فَوۡقِهَا﴾، ولِمَ لَمْ يقتَصِرْ على قَولِه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ [الأنبياء: ٣١]؟

**الجوابُ: أنَّ لذلك فوائِدَ:**

منها: استِحضارُ الصُّورةِ الرَّائِعةِ لمناظِرِ الجِبالِ؛ فمنها الجَميلُ المَنظَرِ، المجَلَّلُ بالخُضرةِ، أو المكْسُوُّ بالثُّلوجِ، ومنها الرَّهيبُ المَرأَى؛ مِثلُ جِبالِ النَّارِ (البراكين)، والجِبالِ المَعدِنيَّةِ السُّودِ[2].

ومنها: ظُهورُ هذه الرَّواسي وبيانُها للنَّاسِ؛ حتَّى يَعرِفوا بذلك حِكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، ورُبَّما لا تكونُ رواسيَ إلَّا إذا كانت مِن فَوقٍ، بِناءً على أنَّ الأرضَ تَدورُ حتَّى تَحفَظَ تَوازُنَها.

ومنها: أنَّ هذه الرَّواسيَ إذا كانت مِن فَوقٍ حَصَل فيها مِن المنافِعِ في دَرءِ العواصِفِ وفي الملاجِئِ شَيءٌ كثيرٌ، كما هو مَعروفٌ في المغاراتِ، وكما يُعرَفُ مِن سُفوحِ الجِبالِ، وخُدودِ الجِبالِ، ورُؤوسِ الجبالِ: مِن نوابِتَ لا تُوجَدُ

---

= السمعاني)) (١/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٤).

لولا هذه المُرتَفعاتُ.

ومنها: أنَّها تُوجِبُ أنْ تَندَفِعَ مياهُ الأمطارِ بشِدَّةٍ حتَّى تَصِلَ إلى أراضٍ صالحةٍ للنَّباتِ؛ لأنَّ بَعضَ الأرضِ سَبِخاتٌ ليس فيها خَيرٌ، وبَعضَها رِياضٌ تُنبِتُ، فإذا نَزَلَ الماءُ على هذه الجبالِ؛ على قِمَمِها وعلى خُدُودِها، نَزَلَ إلى الأرضِ بشِدَّةٍ عَظيمةٍ حتَّى يَصِلَ إلى ما أراد اللهُ إيصالَه.

ومنها: أنَّ في قِمَمِ الجِبالِ مِن المعادنِ الجَيِّدةِ أكثَرَ مِمَّا في الأرضِ السُّفلى[١].

ومنها: أنَّ اللهَ تعالى لو جَعَل فيها رواسيَ مِن تَحتِها لأوهَمَ ذلك أنَّ تلك الأساطينَ التَّحتانيَّةَ هي الَّتي أمسَكَت هذه الأرضَ الثَّقيلةَ عن النُّزولِ، ولكِنَّه تعالى قال: خلَقْتُ هذه الجِبالَ الثِّقالَ فَوقَ الأرضِ؛ لِيَرى الإنسانُ بعَينِه أنَّ الأرضَ والجِبالَ أثقالٌ على أثقالٍ، وكُلُّها مُفتَقِرةٌ إلى مُمسِكٍ وحافِظٍ، وما ذاك الحافِظُ المدَبِّرُ إلَّا اللهُ سُبحانَه وتعالى[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، لم يفعلْ ذلك في أقَلَّ مِن لمحِ البصرِ، معَ تمامِ القدرةِ عليه؛ لأنَّ هذا أدَلُّ على الاختيارِ، وأدخلُ في الابتلاءِ والاختبارِ؛ لِيُضِلَّ به كثيرًا، ويَهديَ به كثيرًا، فيكونَ أعظمَ لأُجورِهم؛ لأنَّه أدَلُّ على تسليمِهم[٣]، ولأنَّ الله تعالى رَبَطَ الأسبابَ والمُسبَّباتِ، وجَعَلها تتفاعلُ شيئًا فشيئًا حتَّى تنتهيَ، ولِيُعَلِّمَ عبادَه التَّأنِّيَ في الأمورِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أنَّ اللهَ تعالى قَدَّرَ في الأرضِ أقواتَها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥١، ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٠٦).

أي: جَعَلَها مُقَدَّرةً بقَدْرٍ مَعلومٍ، ومِن ذلك التَّقديرِ أنْ جَعَل في جِهاتٍ مِن الأرضِ مِن الأقواتِ ما ليس في جِهاتٍ أُخرى؛ حتَّى يَتَبادَلَ النَّاسُ هذه الأقواتَ، وتتحَرَّكَ التِّجارةُ، إلى غيرِ ذلك مِن الفوائدِ، ولعَلَّه يُشيرُ إلى هذا قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: المطَرَ ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾[1] [الفرقان: ٥٠].

٧- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾، إلى أنْ قالَ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ...﴾ الآيةَ: يدُلُّ على أن خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خلقِ السَّماءِ، وهذا كقولِه تعالى في سُورةِ (البقَرةِ): ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ولكِنْ هذا يُعارِضُه ظاهِرُ قَولِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا * وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧ - ٣٠] فهنا ذَكَر أنَّ الأرضَ دُحِيَتْ بعدَ خَلْقِ السَّماءِ.

**فالجوابُ مِن وجهينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ اللهَ تعالَى خَلَقَ الأرضَ أوَّلًا قبْلَ السَّماءِ غيرَ مَدْحُوَّةٍ، ثُمَّ استوَى إلى السَّماءِ فسوَّاهُنَّ سبْعًا في يومَيْنِ، ثُمَّ دَحا الأرضَ بعدَ ذلك، وجَعَل فيها الرَّواسِيَ والأنهارَ وغيرَ ذلك، فأصلُ خَلْقِ الأرضِ قبْلَ خلقِ السَّماءِ، ودَحْوُها بجِبالِها وأشجارِها ونحوِ ذلك بعدَ خلقِ السَّماءِ، ويدُلُّ لهذا أنَّه قالَ: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، ولم يَقُلْ: خَلَقها، ثُمَّ فَسَّر دَحْوَه إيَّاها بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣١]. وهذا هو الجمعُ الَّذي جَمَع به ابنُ عَبَّاسٍ بينَ هاتَيْنِ الآيتَيْنِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١١). =

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، أي: مع ذلك، فلَفظةُ (بعدَ) بمعنى (معَ). ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]؛ وعليه فلا إشكالَ في الآيةِ. ويُستأنَسُ لهذا القَولِ بالقِراءةِ الشَّاذَّةِ، وبها قرأ مجاهِدٌ: (والأرضَ مع ذلك دحاها)[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

---

= وأثرُ ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما الذي فيه الجمعُ بينَ الآيتينِ أخرجه البخاري (٦/ ١٢٧، ١٢٨).

وقال الشنقيطي: (هذا الجَمعُ الَّذي جمَعَ به ابنُ عبَّاسٍ بيْن هاتَينِ الآيتَينِ واضِحٌ لا إشكالَ فيه، مفهومٌ مِن ظاهِرِ القرآنِ العظيمِ، إلَّا أنَّه يَرِدُ عليه إشكالٌ مِن آيةِ «البقرة» هذه، وإيضاحُه أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ جَمَع بأنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، ودَحْوَها بما فيها بعدَ خَلقِ السَّماءِ. وفي هذه الآيةِ التَّصريحُ بأنَّ جميعَ ما في الأرضِ مخلوقٌ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّه قال فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]. وقد مكَثْتُ زَمَنًا طويلًا أُفَكِّرُ في حَلِّ هذا الإشكالِ حتَّى هداني اللهُ إليه ذاتَ يومٍ ففَهِمتُه مِن القُرآنِ العظيمِ، وإيضاحُه أنَّ هذا الإشكالَ مرفوعٌ مِن وَجهَينِ، كُلٌّ منهما تدُلُّ عليه آيةٌ مِن القُرآنِ:

الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بخَلقِ ما في الأرضِ جَميعًا قبْلَ خَلقِ السَّماءِ: الخَلقُ اللُّغَويُّ الَّذي هو التَّقديرُ، لا الخَلقُ بالفِعلِ الَّذي هو الإبرازُ مِن العَدَمِ إلى الوُجودِ، والعَرَبُ تُسَمِّي التَّقديرَ خَلقًا ... والدَّليلُ على أنَّ المرادَ بهذا الخَلقِ التَّقديرُ: أنَّه تعالى نَصَّ على ذلك في سُورةِ «فُصِّلَت»؛ حيث قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾، ثمَّ قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ الآيةَ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّه لَمَّا خَلَق الأرضَ غيرَ مَدحُوَّةٍ، وهي أصلٌ لكُلِّ ما فيها، كان كُلُّ ما فيها كأنَّه خُلِقَ بالفِعلِ؛ لوُجودِ أصلِه فعلًا، والدَّليلُ مِن القرآنِ على أنَّ وُجودَ الأصلِ يُمكِنُ به إطلاقُ الخَلقِ على الفَرعِ وإن لم يكُنْ مَوجودًا بالفِعلِ: قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأعراف: ١١]. قَولُه: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ بخَلْقِنا وتصويرِنا لأبيكم آدَمَ الَّذي هو أصلُكم). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ١٢، ١٣).

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩١، ٢٩٢).

قال الشنقيطي: (وجَمَع بعضُهم بأوجهٍ ضعيفةٍ؛ لأنَّها مَبنيَّةٌ على أنَّ خلْقَ السَّماءِ قبْلَ الأرضِ، وهو خلافُ التَّحقيقِ. منها: أنَّ «ثُمَّ» بمعنَى الواوِ. ومنها: أنَّها للتَّرتيبِ الذِّكْريِّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٥).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: لا يخفَى ما يَسبِقُ إلى الذِّهنِ مِن مُنافاةِ هذه الحالِ وصاحِبِها؛ لأنَّها جمعُ مُذكَّرٍ عاقِلٍ، وصاحِبُها ضميرُ تَثنيةٍ لِغَيرِ عاقِلٍ، ولو طابَقَت صاحِبَها في التَّثنيةِ حَسَبَ ما يَسبِقُ إلى الذِّهنِ لَقال: (أتينا طائِعَتَينِ)؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّ جَمْعَه للسَّمَواتِ والأرضِ؛ لأنَّ السَّمَواتِ سَبْعٌ، والأرَضينَ كذلك، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فالتَّثنيةُ لَفظيَّةٌ تَحتَها أربعةَ عَشَرَ فَردًا، وأمَّا إتيانُ الجَمعِ على صيغةِ جَمعِ العُقَلاءِ فلِأنَّ العادةَ في اللُّغةِ العَرَبيَّةِ أنَّه إذا وُصِفَ غيرُ العاقِلِ بصِفةٍ تختَصُّ بالعاقِلِ أُجرِيَ عليه حُكمُه، ومنه قَولُه تعالى: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]، لَمَّا كان السُّجودُ في الظَّاهِرِ مِن خَواصِّ العُقَلاءِ أجرَى حُكمَهم على الشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ؛ لِوَصفِها به. ووَجهُ تذكيرِ الجَمعِ: أنَّ السَّمواتِ والأرضَ تأنيثُها غيرُ حَقيقيٍّ.

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّ المعنى: قالَتا: أتَيْنا بمَن فينا طائِعينَ، فيكونُ فيه تغليبُ العاقِلِ على غَيرِه[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ أنَّ كُلَّ جَمادٍ أمامَ اللهِ مُدْرِكٌ وعاقِلٌ ومُرِيدٌ[2].

١٠- قَولُه تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ فيه إثباتُ الطَّوَاعِيَةِ والكَراهيةِ لِغَيرِ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٤، ٢٠٥). ويُنظر أيضًا: ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٤٧-٤٩).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٢١).

العاقلِ؛ وهذا يعني أنَّ لغيرِ العاقلِ إرادةً؛ لأنَّ الطَّائعَ له إرادةٌ، ومَن يُتصَوَّرُ إكراهُه فلَه إرادةٌ أيضًا، وإرادةُ كلِّ شَيءٍ بحَسَبِه، وقد وَرَدَ أنَّ الصَّحابةَ كانوا يسْمَعون تسبيحَ الطَّعامِ وهو يُؤكَلُ[١]، ولا تَسبيحَ إلَّا بعدَ إرادةٍ، وثَبَتَ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال في أُحُدٍ: ((يُحِبُّنا ونُحِبُّه))[٢]، والمَحبَّةُ أخَصُّ مِن الإرادةِ، وعلى هذا فهذه الجَماداتُ لها إرادةٌ وتُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجَلَّ، ولكنْ لا نَفْقَهُ تَسبيحَها[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ الرَّدُّ على ما أنكَرَتِ الجَهميَّةُ مِن أنَّ اللهَ تعالى كَلَّمَ موسى عليه السَّلامُ؛ حيثُ زَعَموا أنَّ الكلامَ لا يكونُ إلَّا مِن جَوفٍ ولِسانٍ وشَفَتَينِ! ووَجْهُ الرَّدِّ أنَّ اللهَ تعالى قال للسَّمَواتِ والأرضِ: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾، أتُراها أنَّها قالت بجَوفٍ وفَمٍ وشفَتَينِ ولِسانٍ؟! وقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، أتُراها أنَّها يُسَبِّحْنَ بجَوفٍ وفَمٍ ولِسانٍ وشفتَينِ؟! ولكِنَّ اللهَ أنطَقَها كيف شاء، وكذلك اللهُ تَكَلَّمَ كيفَ شاء مِن غيرِ أنْ نَقولَ: جَوفٌ ولا فَمٌ، ولا شَفتانِ ولا لِسانٌ[٤].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فيه سؤالٌ: اليومُ عبارةٌ عن النَّهارِ واللَّيلِ، وذلك إنَّما يحصُلُ بسببِ طلوعِ الشَّمسِ وغروبِها، وقبْلَ حدوثِ السَّمواتِ والشَّمسِ والقمرِ كيف يُعقلُ حصولُ اليومِ، فالشَّمسُ والقَمَرُ هما مِن السَّمَواتِ والأرضِ، وحَرَكتُهما بعدَ خَلْقِهما، والزَّمانُ المقدَّرُ بحَرَكتِهما

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٨٢) من حديث أبي حُمَيدٍ السَّاعِديِّ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٧٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٥٣).

-وهو اللَّيلُ والنَّهارُ التَّابِعانِ لحَركتِهما- إنَّما حَدَث بعدَ خَلْقِهما، وقد أخبَرَ اللهُ أنَّ خَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما في سِتَّةِ أيَّامٍ؟

**الجواب**: معناه: إنَّه مضَى مِن المُدَّةِ ما لو حصَل هناك فَلَكٌ وشمسٌ، لَكان المِقدارُ مُقَدَّرًا بيَوم، أو أنَّ تلك الأيَّامَ مُدَّةٌ وزمانٌ مُقدَّرٌ بحركةٍ أخرى غيرِ حَركةِ الشَّمسِ والقَمَرِ[1].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أنَّ مدَّةَ خَلْقِ السَّمواتِ أقَلُّ مِن مدَّةِ خَلْقِ الأرضِ؛ معَ أنَّ السَّمواتِ أعظَمُ، لكنْ لَمَّا كانتِ الأرضُ موضوعةً للأنامِ -كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ [الرحمن: ١٠]- كان خَلْقُها أكثرَ مدَّةً؛ لبيانِ عنايةِ اللهِ تعالى بهذه الأرضِ الَّتي وَضَعها للأنامِ، ولِيَعْلَمَ الأنامُ الَّذين على الأرضِ أنَّ العِبرةَ بالإتقانِ لا بالسُّرعةِ[2]. وأيضًا لأجْلِ التَّنبيهِ على ما في المُقَدَّرِ مِن المقدورِ وعجائِبِ الأُمورِ، ولِيُعلَمَ أيضًا بخَلقِ السَّماءِ -الَّتي هي أكبَرُ جِرمًا، وأتقَنُ جِسمًا، وأعظَمُ زينةً، وأكثَرُ مَنافعَ بما لا يُقايَسُ- في أقَلَّ مِن مُدَّةِ خَلقِ الأرضِ: أنَّ خَلْقَها في تلك المدَّةِ ليس للعَجزِ عن إيجادِها في أقَلَّ مِن اللَّمحِ، بل لحِكَمٍ تَعجزُ عن حَملِها العُقولُ[3]. وقيل غيرُ ذلك[4].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗا﴾ أنَّ اللهَ تعالى خَلَق هذه النُّجومَ لثَلاثِ فوائدَ؛ الفائدةُ الأُولى: زينةً للسَّماءِ. الفائدةُ الثَّانيةُ: لحِفْظِ السَّمَواتِ مِن الشَّياطينِ. والفائدةُ الثَّالثةُ: ذَكَرها اللهُ تعالى في سورةِ (النَّحلِ) في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]؛ ولهذا قال قَتادةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٤٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٩).

-وهو مِن أئمَّةِ التَّابعينَ-: (خَلَق اللهُ هذه النُّجومَ لثلاثٍ؛ زينةً للسَّماءِ، ورُجومًا للشَّياطينِ، وعَلاماتٍ يُهتَدَى بها)[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أنَّ تقديرَ حَرَكاتِ الشَّمسِ والقَمَرِ والأجرامِ العُلْويَّةِ وما نَشَأ عنها كان مِن مُقتضى عِزَّتِه وعِلْمِه، وأنَّه قدَّرَه بهاتَينِ الصِّفتَينِ، وفي هذا تَكذيبٌ لأعداءِ اللهِ الملاحِدةِ الَّذين يَنفُونَ قُدرَتَه واختيارَه وعِلمَه تعالى بالمُغَيَّباتِ[٢]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أمَر اللهُ سبحانَه نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بمُعاوَدةِ الأمْرِ بإرشادِ الكافِرينَ إلى الحَقِّ على طَريقةِ الاستِفهامِ التَّوبيخيِّ؛ إنكارًا وتَشنيعًا لِكُفرِهم، مُدمِجًا في ذلك تَذكيرَهم بالأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على أنَّ اللهَ واحِدٌ، بطَريقةِ التَّوبيخِ على إشراكِهم به، في حينِ وُضوحِ الدَّلائلِ على انفِرادِه بالخَلقِ، واتِّصافِه بتَمامِ القُدرةِ والعِلمِ؛ فجُملةُ ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ﴾ إلى آخِرِها استِئنافٌ ابتدائيٌّ ثانٍ، هو جوابٌ ثانٍ عن مَضمونِ قَولِهم: ﴿إِنَّا عَٰمِلُونَ﴾[٣] [فصلت: ٥].

- قولُه: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ﴾ (إنَّ) واللَّامُ؛ لِتَأكيدِ الإنكارِ، وتَقديمُ الهَمزةِ لِاقتضائِها الصَّدارةَ، لا لإنكارِ التَّأكيدِ، وإمَّا لِلإشعارِ بأنَّ كُفرَهم مِنَ البُعدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٦).
وأثرُ قَتادةَ علَّقه البخاريُّ في ((صحيحه)) (٤/ ١٣٠) مجزومًا به. والأثر وصله ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ١٢٣) وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (١٦٥٣٦). ويُنظر: ((تغليق التعليق)) لابن حجر (٣/ ٤٨٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٣/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤١).

بحيثُ يُنكِرُ العُقَلاءُ وُقوعَه؛ فيَحتاجُ إلى التَّأكيدِ[١].

- قولُه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ هَمزةُ الاستفهامِ المُفتتَحُ بها الكلامُ مُستعمَلةٌ في التَّوبيخِ. والافتِتاحُ بالاستِفهامِ وحَرفَي التَّوكيدِ -(إنَّ) واللام- تَشويقٌ لِتَلَقِّي ما بَعدَ ذلك؛ لِدَلالةِ ذلك على أنَّ أمرًا مُهِمًّا سَيُلقَى إليهم، وأيضًا تَوكيدُ الخَبَرِ بـ (إنَّ) ولامِ الابتِداءِ بَعدَ الاستِفهامِ التَّوبيخيِّ أو التَّعْجيبيِّ؛ لِيَكونَ الإنكارُ لِأمرٍ مُحَقَّقٍ، وهو هنا مَبنيٌّ على أنَّهم يَحسَبونَ أنَّهم مُهتَدونَ، وعلى تَجاهُلِهم المُلازَمةَ بيْنَ الانفرادِ بالخَلقِ وبَينَ استِحقاقِ الإفرادِ بالعِبادةِ، فأُعلِموا بتَوكيدِ أنَّهم يَكفُرونَ، وبتَوبيخِهم على ذلك؛ فالتَّوبيخُ المُفادُ مِنَ الاستِفهامِ مُسَلَّطٌ على تَحقيقِ كُفرِهم باللهِ، وذلك مِنَ البَلاغةِ بالمَكانةِ العُليا[٢].

- ومَجيءُ فِعلِ (تَكفُرونَ) بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لِإفادةِ أنَّ تَجَدُّدَ كُفرِهم يَومًا فيَومًا، مع سُطوعِ الأدِلَّةِ الَّتي تَقتَضي الإقلاعَ عنه؛ أمْرٌ أحَقُّ بالتَّوبيخِ. ومعنى الكُفرِ به الكُفرُ بانفرادِه بالإلهيَّةِ، فلمَّا أشْرَكوا معه آلِهةً كانوا واقِعينَ في إبطالِ إلَهيَّتِه؛ لأنَّ التَّعدُّدَ يُنافي حَقيقةَ الإلهيَّةِ، فكأنَّهم أنْكَروا وُجودَه؛ لأنَّهم لَمَّا أنْكَروا صِفاتِ ذاتِه، فقدْ تَصوَّرُوه على غيرِ كُنْهِه. وأُدمِجَ في هذا الاستِدلالِ بَيانُ ابتِداءِ خَلقِ هذه العَوالِمِ؛ فمَحَلُّ الاستِدلالِ هو صِلةُ المَوصولِ، وأمَّا ما تَعلَّقَ بها فهو إدماجٌ[٣].

- والتَّعبيرُ عنِ الجَلالةِ بالمَوصولِ ﴿بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ دُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤١، ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٤٢).

وتقدم تعريف الإدماج (ص: ٤١).

الاسمِ العَلَمِ؛ لِتَفخيمِ شَأنِه تعالَى، واستِعظامِ كُفرِهم به، ولِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلِ التَّوبيخِ؛ لِأنَّ الَّذي خَلَق الأرضَ هو المُستَحِقُّ لِلعِبادةِ(١).

- وإنَّما ابتُدِئَ بذِكرِ خَلقِ الأرضِ قبْلَ ذِكرِ خَلقِ السَّمَواتِ؛ لِأنَّ آثارَ خَلقِ الأرضِ أظهَرُ لِلْعِيانِ، وهي في مُتَناوَلِ الإنسانِ، فلا جَرَمَ أنْ كانتِ الحُجَّةُ عليهم بخَلقِ الأرضِ أسبَقَ نُهوضًا، ولِأنَّ النِّعمةَ بما تَحتَوي عليه الأرضُ أقْوى وأعَمُّ، فيَظهَرُ قُبحُ الكُفرانِ بخالِقِها أوضَحَ وأشنَعَ(٢).

- ولعلَّ تَخصيصَ البَيانِ بما يَتعلَّقُ بالأرْضِ وأهْلِها؛ لِمَا أنَّ بَيانَ اعتِنائِه تعالَى بأمْرِ المُخاطَبينَ، وتَرتيبِ مَبادِي مَعايِشِهم قبْلَ خَلقِهم مِمَّا يَحمِلُهم على الإيمانِ، ويَزجُرُهم عنِ الكُفرِ والطُّغيانِ(٣).

- وعَطْفُ ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ على ﴿لَتَكْفُرُونَ﴾ تَفسيرٌ لِكُفرِهم باللهِ، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنَّه في التَّفسيرِ لا يُعطَفُ؛ فعُدِلَ إلى عَطفِه لِيَكونَ مَضمونُه مُستَقِلًّا بذاتِه(٤).

- وأيضًا قولُه: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ المعطوفُ على (تَكفرُونَ) داخِلٌ في حُكمِ الإنكارِ والتَّوبيخِ. وجَمعُ (الأنداد) باعتِبارِ ما هو الواقِعُ، لا بأنْ يَكونَ مَدارُ الإنكارِ هو التَّعدُّدَ، أيْ: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ والحالُ أنَّه لا يُمكِنُ أنْ يَكونَ له نِدٌّ واحِدٌ(٥).

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مُعترِضةٌ بيْن المَعطوفاتِ على الصِّلةِ. وقولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤).

﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى المَوصولِ في قَولِه: ﴿بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، باعتِبارِ اتِّصافِه بما في حَيِّزِ الصِّلةِ، معَ ما في الإشارةِ مِنْ مَعنى البُعدِ معَ قُربِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَتِه في العَظَمةِ. وفي الإشارةِ نِداءٌ على بَلادةِ رَأيِهم؛ إذْ لم يَتَفَطَّنوا إلى أنَّ الَّذي خَلَق الأرضَ هو رَبُّ العالَمينَ؛ لِأنَّه خالِقُ الأرضِ وما فيها، ولا إلى أنَّ رُبوبيَّتَه سُبحانَه تَقتَضي انتِفاءَ النِّدِّ والشَّريكِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا﴾ يجوزُ أنْ يُجعلَ ابتِداءَ كلامٍ بِناءً على أنَّه يُصدَّرُ بالواوِ؛ فهو كَلامٌ مُستَأنَفٌ، ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ اعتراضيَّةً. وقيلَ: هو عَطفٌ على مُقَدَّرٍ بعدَ ﴿رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، أيْ: خَلَقها وجَعَل فيها رواسيَ، فكأنَّه ساقَ قولَه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ أولًا ردًّا عليهم في كُفرِهم، ثمَّ ذكَرَه ثانيًا تتميمًا للقِصَّةِ، وتأكيدًا للإنكارِ. وقيل غيرُ ذلك[2].

- والرَّواسي: الثَّوابِتُ، وهو صِفةٌ لِلجبالِ؛ لِأنَّ الجِبالَ حِجارةٌ لا تَنتَقِلُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٥٣).

وقد نصَّ أبو السُّعودِ وابنُ عاشورٍ وغيرُهما على أنَّ قولَه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ ...﴾ معطوفٌ علَى الفِعلِ (خلَقَ) في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾، لا على مَعمولِه؛ فجُملةُ ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ ...﴾ إلخ، صِلةٌ ثانيةٌ في المَعنَى؛ ولذلك جيءَ بفِعلٍ آخَرَ غَيرِ فِعلِ (خَلَقَ)؛ لِأنَّ هذا الجَعْلَ تكوينٌ آخَرُ حَصَلَ بَعْدَ خَلقِ الأرضِ، وهو خَلْقُ أجزاءٍ تَتَّصِلُ بها؛ إمَّا مِن جِنسِها كالجِبالِ، وإمَّا مِن غَيرِ جِنسِها كالأقواتِ؛ ولذلكَ أعقَبَ بقَولِه: ﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ بَعْدَ قَولِه: ﴿فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩]. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٣)، وقد رَدَّ هذا القولَ الألوسيُّ، والله أعلمُ.

بخِلافِ الرِّمالِ والكُثبانِ، وحُذِفَ المَوصوفُ (جِبالًا)؛ لِدَلالةِ الصِّفةِ عليه[١].

- قولُه: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ جَمْعُ الأقواتِ مُضافًا إلى ضَميرِ الأرضِ يُفيدُ العُمومَ، أيْ: جَميعَ أقواتِها، وعُمومُه باعتِبارِ تَعدُّدِ المُقتاتينَ؛ فلِلدَّوابِّ أقواتٌ، ولِلطَّيرِ أقواتٌ، ولِلوحوشِ أقواتٌ، ولِلزَّواحِفِ أقواتٌ، ولِلحَشَراتِ أقواتٌ، وجَعَلَ لِلإنسانِ جَميعَ تلك الأقواتِ مِمَّا استَطابَ منها، كما أفادَه قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[٢] [البقرة: ٢٩].

- وقد فَصَّل مِقدارَ ما خَلَق الأرضَ فيه، ومِقدارَ ما خَصَّ الأقواتَ والمنافِعَ؛ لإحاطةِ العِلمِ بأنَّه يخُصُّ كُلَّ أمرٍ مِن الأمْرَينِ يَومانِ، ونَصَّ على الأوَّلَينِ؛ لِيَكونَ ذلك أدَلَّ على القُدرةِ، فيَحسُنَ مَوقعُ النَّعيِ عليهم بما فَصَّل به الآيتَينِ مِن اتِّخاذِ الأندادِ، وإنَّما كان أدَلَّ على القُدرةِ؛ لأنَّه إيجادُ ذواتٍ مَحسوسةٍ مِن العَدَمِ قائِمةٍ بأنفُسِها، بخِلافِ البَرَكةِ وتقديرِ الأقواتِ؛ فإنَّه أمرٌ لا يقومُ بنَفْسِه، فلم يُفرِدْ يومَيْه بالذِّكرِ، بل جعَلَهما تابِعَينِ، كما أنَّ ما قَدَّرَ فيهما تابِعٌ[٣].

- قولُه: ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يَتنازَعُه كلٌّ مِن أفعالِ (جعَلَ) و(بارَكَ) و(قدَّرَ)؛ فيكونُ ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ جمْعَ سائلٍ، بمعنى الطَّالبِ للمَعرفةِ، ويجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بمَحذوفٍ، أي: بيَّنَّا ذلك للسَّائلينَ عن مُدَّةِ خلْقِ الأرضِ وما فيها. ويجوزُ أنْ يكونَ لـ ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ مُتعلِّقًا بفِعلِ (قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا)، فيكونَ المُرادُ بالسَّائلينَ الطَّالبينَ للقُوتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾

- حَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ لِلتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لِتَفاوُتِ ما بيْنَ الخِلقَتَيْنِ، لا لِلتَّراخي في المُدَّةِ؛ لِقَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، وهي تدُلُّ على أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المَعطوفةِ أهَمُّ مَرتَبةً مِن مَضمونِ الجُملةِ المَعطوفِ عليها؛ فإنَّ خَلقَ السَّمَواتِ أعظَمُ مِن خَلقِ الأرضِ، وعَوالِمَها أكثَرُ وأعظَمُ؛ فجِيءَ بحَرفِ التَّرتيبِ الرُّتبيِّ بَعدَ أنْ قُضِيَ حَقُّ الاهتِمامِ بذِكرِ خَلقِ الأرضِ حتَّى يُوَفَّى المُقتَضَيانِ حَقَّهما، وتَرقِّيًا مِن الأدْنى إلى الأعلى؛ لأنَّ الكلامَ مع المُعانِدينَ المُتمرِّدينَ. وقِيل: (ثُمَّ) لِتَرتيبِ الخبَرِ على الخبَرِ؛ أخبَرَ أوَّلًا بخلْقِ الأرضِ، ثمَّ أخبَرَ بخلْقِ السَّماءِ[1].

- قيل: إنَّما خَصَّ الاستِواءَ بالسَّماءِ في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ -مع أنَّ الخِطابَ المُترَتِّبَ عليه مُتوَجِّهٌ إليها وإلى الأرض مَعًا، حَسبَما يَنطِقُ به قولُه تعالَى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ﴾-؛ اكتِفاءً بذِكرِ تَقديرِها وتَقديرِ ما فيها، كَأنَّه قيلَ: فقال لها ولِلأرضِ الَّتي قَدَّرَ وُجودَها ووُجودَ ما فيها: ﴿ٱئْتِيَا﴾[2].

- قولُه: ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ كِنايةٌ عن عَدَمِ البُدِّ مِن قَبولِ الأمْرِ، وتَمَكُّنِ القُدرةِ مِن إيجادِهما على وَفقِ إرادةِ اللهِ تَعالى[3]، والمَقصودُ مِن هذه الآيةِ التَّعبيرُ عن عَظَمةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ ونُفُوذِها في المَقدوراتِ دَقَّتْ أو جَلَّتْ، ووُجوبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٧٧، ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٧).

وُقوعِ مُرادِه تعالى[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ تَفسيرٌ وتَفصيلٌ لِتكوينِ السَّماءِ المُجمَلِ المُعبَّرِ عنه بالأمْرِ وجَوابِه، لا أنَّه فِعلٌ مُترَتِّبٌ على تَكوينِها، أيْ: خَلَقهنَّ خَلقًا إبداعِيًّا، وأتقَن أمْرَهنَّ حَسبَما تَقتَضيه الحِكمةُ[٢]. وهو أيضًا تَفريعٌ على قولِه: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾[٣] [فصلت: ١١].

- وضَميرُ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ عائِدٌ إلى السَّمَواتِ على اعتِبارِ تَأنيثِ لَفظِها، وهذا تَفَنُّنٌ[٤].

- في قَولِه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكَلُّمِ؛ فقد أسنَدَ التَّزيينَ إلى ذاتِه سُبحانَه؛ تَجديدًا لِنَشاطِ السَّامِعينَ؛ لِطُولِ استِعمالِ طَريقِ الغَيبةِ ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، مع إظهارِ العِنايةِ بتَخصيصِ هذا الصُّنعِ الَّذي يَنفَعُ النَّاسَ دِينًا ودُنيا، وهو خَلقُ النُّجومِ الدَّقيقةِ والشُّهُبِ بتَخْصيصِه بالذِّكرِ مِن بيْنِ عُمومِ ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾، فما السَّماءُ الدُّنيا إلَّا مِن جُملةِ السَّمَواتِ، وما النُّجومُ والشُّهُبُ إلَّا مِن جُملةِ أمْرِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٣٨).

- قولُه: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ المُرادُ بالمَصابيحِ: النُّجومُ، وعُبِّرَ عنها بذلك؛ لِمَا يَبدو مِن نُورِها كالمَصابيحِ[1].

- وذِكرُ صِفتَي ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾؛ لِمُناسَبةِ مَعناهما للتَّعلُّقِ بنِظامِ سَيرِ الكواكبِ؛ فالعِزَّةُ تُناسِبُ تَسخيرَ هذا الكوكبِ العظيمِ، والعِلْمُ يُناسِبُ النِّظامَ البديعَ الدَّقيقَ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٣/ ٢١) و (٢٤/ ٢٥٢).

## الآيات (١٢-١٨)

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَاعِقَةً﴾: الصَّاعِقةُ: هي الصَّوتُ الشَّديدُ مِن الجوِّ، ثمَّ يكونُ منه نارٌ فقط، أو عذابٌ، أو موتٌ، وقيل: الصَّاعقةُ: كلُّ عَذابٍ مُهلِكٍ، أو: هي اسمٌ للعذابِ على أيِّ حالٍ كان، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شِدَّةِ الصَّوتِ(١).

﴿صَرْصَرًا﴾: أي: شَديدةَ البَردِ والصَّوتِ، والصَّرصَرُ: الرِّيحُ العاصِفةُ التي يكونُ لها صَرصَرةٌ، أي: دَوِيٌّ في هُبوبِها؛ مِن شِدَّةِ سُرعةِ تنقُّلِها، مأخوذٌ مِن الصِّرِّ: وهو البَردُ الذي يَصُرُّ، أي: يَجمَعُ ويَقبِضُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٠٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤- ٤٨٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣٢).

قال ابن جرير: (وأصْلُ الصَّاعِقةِ: كُلُّ أمْرٍ هائِلٍ رآه أو عايَنَه أو أصابَه، حتى يَصيرَ مِن هَوْلِه وعَظيمِ شَأْنِه إلى هَلاكٍ وعَطَبٍ، وإلى ذَهابِ عَقلٍ وغُمورِ فَهْمٍ، أو فَقْدِ بَعضِ آلاتِ الجِسمِ، صَوتًا كان ذلك، أو نارًا، أو زَلزَلةً، أو رَجْفًا). ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، =

﴿نَّحِسَاتٍ﴾: أي: نَكِداتٍ مَشؤوماتٍ، وأصلُ (نحس): يدُلُّ على خِلافِ السَّعدِ[١].

﴿ٱلْخِزْيِ﴾: أي: الهَوانِ والذُّلِّ، وأصلُ الخِزْيِ: الإبعادُ[٢].

﴿ٱلْهُونِ﴾: أي: الهَوانِ والخِزْيِ والذُّلِّ، وأصْلُ (هون) هنا: يدُلُّ على الذُّلِّ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُهدِّدًا المشركينَ: فإنْ أعرَضَ مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- عن الحَقِّ الذي دَعَوتَهم إليه، فقُلْ لهم: أنذَرْتُكم عَذابًا شَديدًا يَستأصِلُكم، كالعَذابِ الذي أهلَكَ اللهُ به عادًا وثَمودَ حينَ جاءَتْهم رُسُلُ اللهِ مِن كلِّ جانبٍ، واجتَهدوا في تبلِيغهم مِن كلِّ جِهةٍ بألَّا تَعبُدوا إلَّا اللهَ وَحْدَه لا شَريكَ له. قالوا: لو شاء ربُّنا عِبادَتَه وَحْدَه لأرسَلَ إلينا مَلائِكةً مِن السَّماءِ يأمُرونَنا بذلك، فإنَّا كافِرونَ بتَوحيدِ الله الذي أرسَلَكم به!

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٥/ ٣٣٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٢).

ثمَّ يقولُ تعالى -مُفصِّلًا حالَ كلٍّ مِن عادٍ وثمودَ-: فأمَّا عادٌ فتكبَّروا في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ، وقالوا: لا أحَدَ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً!

ثمَّ يردُّ اللهُ تعالى عليهم، فيقولُ: أوَلَم يرَوا أنَّ اللهَ الذي خلَقَهم من العَدَمِ هو أشَدُّ منهم قُوَّةً؟! وكان أولئك الكُفَّارُ جاحِدينَ بآياتِ الله.

ويَذكُرُ سبحانَه ما نزَل بهم مِن العذابِ، فيقولُ: فأرسَلْنا عليهم رِيحًا عظيمةً شَديدةَ البَردِ والصَّوتِ في أيَّامٍ مَشؤُوماتٍ عليهم؛ لكي نُذيقَهم العذابَ الذي يُهينُهم ويُذِلُّهم في الحياةِ الدُّنيا، ولَعَذابُ الآخِرةِ أشَدُّ خِزيًا وإهانةً وإذلالًا لهم!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حالَ ثمودَ وما نزَل بهم مِن العذابِ، فيقولُ: وأمَّا ثَمودُ فأرشَدْناهم إلى طَريقِ الحَقِّ فآثَروا الكُفرَ على الإيمانِ، والضَّلالَ على الهُدى؛ فأهلَكَهم اللهُ بصَيحةِ العَذابِ المُذِلِّ المُهينِ؛ بسَبَبِ ما كانوا يَكسِبونَه مِن الآثامِ، ونجَّينا مِن العَذابِ صالِحًا والمؤمِنينَ معه المتَّقينَ رَبَّهم بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهى.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

أنَّ الكلامَ إنَّما ابتُدِئَ مِن قَولِه تعالَى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [فصلت: ٦]، واحتَجَّ عليه بقَولِه تعالَى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، وحاصِلُه أنَّ الإلهَ الموصوفَ بهذه القُدرةِ القاهِرةِ كيف يجوزُ الكُفرُ به، وكيف يجوزُ جَعْلُ هذه الأجسامِ الخَسيسةِ شُرَكاءَ له في الإلهيَّةِ؟! ولَمَّا تَمَّم تلك الحُجَّةَ قال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾،

وبيانُ ذلك أنَّ وظيفةَ الحُجَّةِ قد تمَّتْ على أكمَلِ الوُجوهِ، فإنْ بَقُوا مُصِرِّينَ على الجَهلِ، لم يَبقَ حينئذٍ عِلاجٌ في حَقِّهم إلَّا إنزالُ العذابِ عليهم(١).

وأيضًا بعدَ أنْ أنكَرَ اللهُ عليهم عِبادةَ الأندادِ والأوثانِ، وطَلَب إليهم ألَّا يَعبُدوا إلَّا اللهَ الَّذي خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ، إلى غيرِ ذلك مِمَّا ذَكَر مِن دَلائِلِ ألوهيَّتِه ووَحدانيَّتِه، ثمَّ أعرَضوا عن كُلِّ ذلك؛ لم يَبقَ حينئذٍ طَريقٌ للعِلاجِ، ومِن ثَمَّ أمَرَ رَسولَه أن يُنذِرَهم بحُلولِ شَديدِ النِّقَمِ بهم إنْ هم أصَرُّوا على عِنادِهم(٢).

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: فإنْ أعرَضَ مُشرِكو قَومِك -يا مُحمَّدُ- عن الحَقِّ فلم يُؤمِنوا، وأصَرُّوا على باطِلِهم بعدَ هذا البَيانِ التَّامِّ في هذه الآياتِ التي دَلَّت على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ عِلمِه وقُدرتِه، وغَيرِها مِن صِفاتِ كَمالِه؛ فقُلْ لهم: حَذَّرْتُكم وخَوَّفْتُكم عَذابًا شَديدًا وَقعُه، فيُهلِكُكم ويَستأصِلُكم كالعَذابِ الذي أهلَكَ اللهُ به عادًا وثَمودَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٤/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٨-١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٨).

ممَّن اختارَ في الجُملةِ أنَّ الـمُرادَ بالصَّاعِقةِ هنا: العَذابُ الشَّديدُ والهَلاكُ: مقاتِل بن سُليمان، والسَّمرقندي، وابن أبي زَمنين، والواحدي، والسمعاني، والبَغوي، والزَّمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعني، والقُرطبي، والبقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٢١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي =

﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾.

أي: وذلك حينَ جاءتْ عادًا وثمودَ رُسُلُ اللهِ مِن كلِّ جانبٍ، واجتَهدوا في دَعوتِهم مِن كلِّ جِهةٍ بأَلَّا تَعبُدوا إلَّا اللهَ وَحْدَه لا شَريكَ له[1].

---

= (١٧/ ١٥٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

قال الشوكاني: (والمرادُ بالصَّاعقةِ العذابُ المُهْلِكُ مِنْ كلِّ شيءٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨).

وذكَر الزمخشري أنَّ الصَّاعِقةَ: العذابُ الشَّديدُ الوقْعِ الَّذي كأنَّه صاعِقةٌ. ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٥٩).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذكرُه: ...فقُلْ لهم: أنْذَرْتُكم أيُّها النَّاسُ صاعقةً تُهْلِكُكم مِثْلَ صاعقةِ عادٍ وثمودَ، ومعنَى الصَّاعِقَةِ: كلُّ ما أفسَد الشَّيءَ وغيَّرَه عن هَيْئَتِه. وقيل: في هذا الموضعِ عُنِي بها وقيعَةٌ مِن اللَّهِ وعذابٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٥) بتصرف.

وقال ابن عُثَيمين: (الـمِثْلِيَّةُ هنا لا تَقتَضي -واللهُ أعلَمُ- الـمُماثَلةَ مِن كُلِّ وَجْهٍ، بل مِثليَّةٌ في أصْلِ الهَلاكِ، أو في مَآلِ العَذابِ، ويَحتَمِلُ أنَّ اللهَ تعالى أنذَرَهم مِثلَ صاعِقةِ عادٍ وثَمودَ، وصاعِقةُ عادٍ وثَمودَ نوعان: الرَّجفةُ والرِّيحُ الشَّديدةُ. الذين أُهلِكوا بالرِّيحِ الشَّديدةِ هُم عادٌ، والذين أُهلِكوا بالرَّجفةِ والصَّيحةِ هُم ثَمودُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٣٩، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ في قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾: الزمخشريُّ، والرَّسْعني، والنَّسَفي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٣)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقوله: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الرُّسل الَّذين أُرسلوا إلى آبائِهم مِن قَبْلهم، وأنَّ قوله: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ يعني مِن بَعدِ الرُّسلِ الذين أُرسلوا إلى آبائِهم، وهُم الرُّسُل الذين =

= أُرسلوا إليهم (هود وصالح، عليهما السلام، وغيرهما): ابن جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٤).

وعلى هذا القولِ فالضميرُ في قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾، لعادٍ وثمودَ، وفي قولِه: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ للرسلِ.

قال ابن عطية: (أما الطبري فقال: الضميرُ في قَولِه: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ عائدٌ على الرسلِ، والضميرُ في قَولِه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ على الأمم، وتابَعه الثعلبيُّ، وهذا غيرُ قويٍّ؛ لأنَّه يُفرِّقُ الضمائرَ ويُشعِّبُ المعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨).

وقيل: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يعني: مِن قَبْل عادٍ وثمودَ، ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يعني: مِن بَعدِ عادٍ وثمودَ. وممن اختاره مقاتل بن سليمان، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٢١).

قال البيضاوي في بيانِ هذا الوجهِ: (أو: مِن قبلِهم ومِن بعدِهم؛ إذ قد بلَغهم خبرُ المتقدِّمينَ، وأخبَرهم هودٌ وصالحٌ عن المتأخرينَ، داعينَ إلى الإيمانِ بهم أجمعينَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨).

وقال الرازي: (فإنْ قِيلَ: الرُّسلُ الَّذينَ جاؤوا مِن قَبْلِهم ومِنْ بعدِهم، كيفَ يمكنُ وصفُهم بأنَّهم جاؤوهم؟ قُلْنا: قدْ جاءَهم هودٌ وصالحٌ داعِيَيْنِ إلى الإيمانِ بهما وبجَميعِ الرُّسلِ، وبهذا التَّقديرِ فكأنَّ جميعَ الرُّسلِ قدْ جاؤوهم). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥١).

وقيل: المعنى: أنذَرُوهم عَذابَ الدُّنيا وعذابَ الآخِرَةِ، وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمنين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٤٨).

وقال ابنُ عطية: (قولُه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أي: قد تقدَّموا في الزَّمنِ، واتَّصلتْ نذارتُهم إلى أعمارِ عادٍ وثمودَ، وبهذا الاتصالِ قامت الحُجَّةُ. وقولُه: «مِنْ خَلْفِهِمْ»، أي: جاءهم رسولٌ بعدَ اكتِمالِ أعمارِهم، وبعدَ تقدُّم وجودِهم في الزمنِ؛ فلذلك قال: ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾، وجاء مِن مجموعِ العِبارةِ إقامةُ الحُجَّةِ عليهم في أنَّ الرِّسالةَ والنِّذارةَ عمَّتهم خبرًا ومُباشَرةً، ولا يتوجَّهُ أنْ يُجعَلَ ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ عِبارةً عمَّا أتَى بعدَهم في الزمنِ؛ لأنَّ ذلك لا يَلحقُهم منه تقصيرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨).

وقال الألوسي: (قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ متعلِّقٌ بـ ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾، والضميرُ المضافُ إليه لعادٍ وثمودَ... وجُوِّز كونُ الضميرِ المضافِ إليه للرُّسلِ، والمرادُ: جاءتهم الرُّسُلُ =

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١].

﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾.

أي: قال كُفَّارُ عادٍ وثَمودَ لِرُسُلِهم حينَ دَعَوهم إلى تَوحيدِ اللهِ تعالى: لو شاء رَبُّنا أنْ يأمُرَنا بعِبادتِه وَحْدَه لأرسَلَ إلينا مَلائِكةً مِن السَّماءِ يأمُرونَنا بذلك، ولم يُرسِلْ إلينا بَشَرًا مِثْلَنا[1]!

كما قال تعالى عن قَومِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤].

---

= المتقدِّمونَ والمتأخِّرونَ، على تنزيلِ مجيءِ كلامِهم ودعوتِهم إلى الحقِّ منزلةَ مجيءِ أنفسِهم... وقال الطبريُّ: الضميرُ في قولِه تعالى: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ لعادٍ وثمودَ، وفي قولِه تعالى: ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ للرُّسلِ، وتعقُّبه في البحرِ. ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٣).

وقال البيضاوي: (﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أَتَوْهُم مِن جميعِ جوانبِهم، واجتَهدوا بهم مِن كلِّ جهةٍ، أو مِن جهةِ الزمنِ الماضي بالإنذارِ عمَّا جرَى فيه على الكُفَّارِ، ومِن جِهةِ المستقبلِ بالتحذيرِ عمَّا أُعِدَّ لهم في الآخِرةِ، وكلٌّ مِن اللفظينِ يَحتمِلُهما، ... ويَحتمِلُ أنْ يكونَ عِبارةً عن الكثرةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٥).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾ [التغابن: ٦].

﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: فإنَّا -إذَنْ- كافِرونَ بتَوحيدِ اللهِ الذي زعَمْتُم أنَّه أرسَلَكم به، ولا نَتَّبِعُكم وأنتم بشرٌ مِثلُنا[1]!

كما قال تعالَى عن عادٍ قَومِ هُودٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦].

وقال سُبحانَه عن ثمودَ قَومِ صالحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ * قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

بعْدَ أنْ حَكَى عن عادٍ وثَمودَ ما اشتَرَكَ فيه الأُمَّتانِ مِن المُكابَرةِ والإصرارِ على الكُفْرِ؛ فصَّلَ هنا بعضَ ما اختَصَّتْ به كلُّ أُمَّةٍ منهما مِن صُورةِ الكُفْرِ، وذكَرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩).

مِن ذلك ما له مُناسَبةٌ لِمَا حَلَّ بكلِّ أُمَّةٍ منهما مِن العذابِ[١].

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾.

أي: فأمَّا عادٌ فتكبَّروا وتجبَّروا وعَتَوْا في الأرضِ ظُلمًا دونَ أن يكونَ لهم الحَقُّ في ذلك[٢].

كما قال اللهُ سبحانَه حاكيًا ما قال لهم رسولُهم هودٌ عليه السلامُ: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ [الشعراء: ١٢٨ - ١٣٠].

﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر لهم هذا الذَّنبَ العَظيمَ -وهو الاستِكبارُ- وكان فِعلًا قَلبيًّا؛ ذكَرَ ما ظَهَر عليهم مِن الفِعلِ اللِّسانيِّ المعَبِّرَ عَمَّا في القَلبِ، فقال[٣]:

﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾.

أي: وقالوا -ظَنًّا منهم أنَّهم يَمتَنِعونَ بقُوَّتِهم مِن عذابِ اللهِ، وأنَّه لا يَغلِبُهم أحَدٌ-: لا أحَدَ أشَدُّ مِنَّا قُوَّةً[٤]!

فقال الله تعالى، ردًّا عليهم[٥]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٨).

(٥) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨).

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾.

أي: أوَلَم يرَ كُفَّارُ عادٍ أنَّ اللهَ الَّذي خَلَقَهم مِنَ العَدَمِ -حيثُ لم يكونوا شَيئًا-، وأعطاهم ما أعطاهم مِنَ القُوَّةِ: هو أشَدُّ مِنهم قُوَّةً[1]؟!

﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾.

أي: وكان كُفَّارُ عادٍ مُصِرِّينَ على الجُحودِ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على صِدقِ رُسُلِه فيما دَعَوْهم إليه مِنَ الحَقِّ[2].

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ١٦﴾.

﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾.

أي: فأرسَلْنا عليهم رِيحًا عَظيمةً بارِدةً، شَديدةَ الصَّوتِ والهُبوبِ، في أيَّامٍ مَشؤوماتٍ عليهم، أصابَهم فيها سُوءٌ وعَذابٌ شَديدٌ؛ فأُهلِكوا فيها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٩).

قال السعدي: (فلولا خَلْقُه إيَّاهم لم يُوجَدوا، فلو نَظَروا إلى هذه الحالِ نظَرًا صَحيحًا لم يغتَرُّوا بقُوَّتِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: إنكارُ عَدَمِ عِلمِهم بأنَّ اللهَ أشَدُّ منهم قُوَّةً، حيثُ أعرَضوا عن رِسالةِ رَسولِ رَبِّهم وعن إنذارِه إيَّاهم إعراضَ مَن لا يكتَرِثُ بعَظَمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّهم لو حَسَبوا لذلك حِسابَه لتوقَّعَوا عذابَه، فلأقبَلوا على النَّظَرِ في دلائِلِ صِدقِ رَسولِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٧)، =

كما قال تبارَك وتعالَى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

وقال تعالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ﴾ [الحاقة: ٦، ٧].

﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

أي: عَذَّبْناهم بذلك؛ لكي نُذيقَهم العذابَ الذي يُهينُهم ويُذِلُّهم ويَفضَحُهم في الحياةِ الدُّنيا(١).

---

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦، ١٧).
قال ابنُ عاشورٍ: (المرادُ: أنَّ تلك الأيَّامَ بخُصوصِها كانتْ نحسًا، وأنَّ نَحْسَها عليهم دونَ غَيرِهم من أهلِ الأرضِ؛ لأنَّ عادًا هم المقصودونَ بالعَذابِ، وليس المرادُ أنَّ تلك الأيَّامَ مِن كُلِّ عامٍ هي أيَّامُ نَحسٍ على البَشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٩). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨).
وقال ابنُ عاشور أيضًا: (وُصِفتْ تِلك الأيَّامُ بأنَّها نَحِساتٌ؛ لِأنَّها لم يَحدُثْ فيها إلَّا السُّوءُ لهم مِن إصابةِ آلامِ الهَشمِ المُحَقَّقِ إفضاؤُه إلى المَوتِ، ومُشاهَدةِ الأمواتِ مِن ذَويهم، ومَوتِ أنعامِهم، واقتِلاعِ نَخيلِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٠١).

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾.

أي: ولَعذابُ الآخِرةِ أشَدُّ خِزْيًا، وأعظَمُ إهانةً وإذلالًا لهم، ولا يَنصُرُهم مِنَ اللهِ ناصِرٌ؛ فيدفَعَ عنهم عذابَه، أو يُنقِذَهم منه[1]!

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾.

أي: وأمَّا ثَمودُ فأرشَدْناهم ودَلَلْناهم على طَريقِ الحَقِّ[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾.

أي: فاختاروا وآثَرُوا الكُفرَ على الإيمانِ، والضَّلالَ على الهُدَى، مع تَبَيُّنِ الحَقِّ لهم[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩).

قال ابنُ عاشور: (لَمَّا كان حالُ الأُمَّتَيْنِ واحِدًا في عدَمِ قَبولِ الإرشادِ مِن جانِبِ اللهِ تعالى، كما أشار إليه قَولُه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤]، كان الإخبارُ عن ثمودَ بأنَّ اللهَ هداهم مُقتَضيًا أنَّه هدَى عادًا مِثلَما هدَى ثمودَ، وأنَّ عادًا استحَبُّوا العَمى على الهُدى مِثلَما استحبَّت ثمودُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((مفتاح دار =

﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

أي: فأهلَكهم اللهُ بصَيحةِ عَذابٍ أذَلَّهم وأهانَهم بسَبَبِ ما كانوا يَكسِبونَه مِنَ الآثامِ؛ بكُفرِهم باللهِ، ومَعصيتِهم له، وتَكذيبِهم رَسولَه، وعَقْرِهم النَّاقةَ[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللَّهُ سُبحانَه الوَعيدَ أرْدَفه بالوَعدِ[2]، فقال تعالى:

﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ونَجَّينا مِن العَذابِ صالِحًا والمؤمِنينَ به مِن قَومِه الَّذين كانوا يَعبُدونَ اللهَ وَحْدَه، ويَمتَثِلونَ أمْرَه، ويجتَنِبونَ الشِّركَ به ومَعصيتَه[3].

---

= السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩، ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٤، ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١، ٢٣، ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ هنا: نجاةُ المؤمِنينَ مِن قومِ ثمودَ؛ صالِح عليه السَّلامُ ومَن اتَّبَعه مِن المؤمنينَ: القرطبيُّ، والخازن، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير =

كما قال تعالَى: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ [هود: ٦٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قولِ اللهِ تعالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ إثباتُ أنَّ العَمَلَ كَسْبٌ للإنسانِ؛ لِقَولِه تعالَى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنَّه إذا كان العَمَلُ كَسْبًا للإنسانِ فإنَّه يَجِبُ عليه بمُقتَضى العَقلِ -كما هو مُقتَضى الشَّرعِ- أنْ يَسعَى إلى الكَسبِ المفيدِ، لا إلى الكَسْبِ الضَّارِّ، كما كان يَفعَلُ في أُمورِ الدُّنيا؛ ولهذا ضَلَّ مَن ضَلَّ في عَقْلِه ودِينِه مَنِ احتجَّ بالقَدَرِ على معاصي اللهِ، ولم يَحتَجَّ بالقَدَرِ على أُمورِ الدُّنيا؛ ففي أمورِ الدُّنيا يَعمَلُ ويَكدَحُ ويَسعَى لِمَا فيه المَنفعةُ والمصلَحةُ، لكنْ في أُمورِ الآخِرةِ يَتكاسَلُ مُحتَجًّا بالقَدَرِ(١)؟!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَجوزُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُنذِرَ قَومَه مِثلَ صاعِقةِ عادٍ وثَمودَ، مع العِلمِ بأنَّ ذلك لا يَقَعُ في أُمَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وقدْ صَرَّح اللهُ تعالَى بذلك في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾ [الأنفال:٣٣]، وجاء في الأحاديثِ الصَّحيحةِ أنَّ اللهَ تعالَى رفَعَ عن هذه الأُمَّةِ هذه الأنواعَ مِن الآفاتِ(٢)؟

---

= السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤).

وقيل: المرادُ بالآيةِ: إنجاءُ المؤمِنينَ مِن عادٍ وثمودَ. وممَّن قال بهذا: البقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٣).

(٢) يُنظر: ما أخرجه مسلمٌ (٢٨٨٩) من حديث ثوبان، و(٢٨٩٠) من حديث سعدِ بن أبي وقَّاص.=

**الجوابُ**: أنَّ سورةَ الأنفالِ مَدنيَّةٌ، وهذه مَكِّيَّةٌ[١].

وقيل: إنَّهم لَمَّا عَرَفوا كَونَهم مُشارِكينَ لعادٍ وثَمودَ في الكُفرِ، عَرَفوا كَونَهم مُشارِكينَ لعادٍ وثَمودَ في استِحقاقِ مِثلِ تلك الصَّاعِقةِ، وأنَّ السَّبَبَ المُوجِبَ للعَذابِ واحِدٌ، ورُبَّما يكونُ العَذابُ النَّازِلُ مِن جِنسِ ذلك العَذابِ، وإنْ كان أقَلَّ دَرَجةً منهم، وهذا القَدرُ يَكفي في التَّخويفِ[٢].

ويُمكِنُ القولُ بأنَّ آيةَ الأنفالِ أخبرَتْ عن امتِناعِ العذابِ وهو بيْنَ أَظْهُرِهم، أو وهُمْ يَستغفرون، فإذا خرَج مِن بيْنَ أظْهُرِهم وانتفَى الاستِغفارُ منهم حَلَّ بهم العذابُ.

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ إثباتُ القِياسِ؛ لأنَّ إنذارَ المكذِّبين إذا لم يكُنِ المرادُ بذلك قِياسَ حالِ المكذِّبين للرسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم على حالِ المكذِّبين لهودٍ وصالحٍ؛ لم يكُنْ لهذا الإنذارِ فائدةٌ! إذنْ ففيه جوازُ القِياسِ والاعتبارِ بالنظيرِ والمماثِلِ، ولقدْ قال اللهُ تعالَى في آيةٍ أُخرَى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١]، وإثباتُ القِياسِ دليلًا هو مِن محاسِنِ الشَّريعةِ؛ لأنَّ ذلك مُقتضَى العقلِ السَّليمِ؛ إذْ إنَّ العقلَ لا يمكنُ أبدًا أنْ يُفرِّقَ بينَ متماثِلَينِ، وعلى هذا؛ فالَّذين أنكروا القياسَ؛ وقالوا: لا قِياسَ في الشريعةِ خالفوا الدَّليلَ السَّمعيَّ، والدَّليلَ العَقليَّ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ أنَّ الرُّسُلَ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أتَوْا بتحقيقِ التوحيدِ، وهذا هو

---

= وما أخرجه أحمد (٢١٠٥٣) والنسائي (١٦٣٨) من حديث خبَّاب بن الأرَتِّ.

(١) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٣).

الأصلُ الأصيلُ الذي دَعَتْ إليه الرُّسُلُ جميعًا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إنْ قِيل: الرُّسلُ الذين مِن قبْلِهم ومِن بَعدِهم -على قولٍ- كيفَ يُوصَفونَ بأنَّهم جاؤوهم، وكيف يُخاطِبونَهم بقولِهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أيْ: نَكفُرُ بما جاءَ به كُلُّ الرُّسُلِ، مع أنَّ اللهَ أرسَلَ إليهم هُودًا وصالِحًا فَقَطْ؟

**فالجوابُ**: أنَّه قد جاءهم هُودٌ وصالِحٌ داعيَيْنِ إلى الإيمانِ بهما وبجَميعِ الرُّسُلِ مِمَّن جاؤوا مِن بَينِ أيديهم، أيْ: مِن قَبلِهم، ومِمَّن يَجيءُ مِن خَلفِهم، أيْ: مِن بَعدِهم، فكَأنَّ الرُّسُلَ جَميعًا قد جاؤوهم، وقَولُهم: ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ خِطابٌ منهم لِهُودٍ وصالِحٍ ولسائِرِ الأنبياءِ الذين دَعَوْا إلى الإيمانِ بهم[٢].

٥- أنَّ الملائكةَ يُقِرُّ بها عامَّةُ الأممِ؛ كما ذَكَر اللهُ عن قومِ نوحٍ وعادٍ وثمودَ -مع شِرْكِهم وتكذيبِهم بالرُّسُلِ- أنهم كانوا يَعرفون الملائكةَ، قال قومُ نوحٍ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾[٣].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ هذه الشُّبهةُ لم تَزَلْ مُتوارَثةً بينَ المكَذِّبينَ مِنَ الأُمَمِ، وهي مِن أَوهَى الشُّبَهِ؛ فإنَّه ليس مِن شَرطِ الإرسالِ أنْ يكونَ المُرسَلُ مَلَكًا، وإنَّما شَرطُ الرِّسالةِ أنْ يأتيَ الرَّسولُ بما يدُلُّ على صِدقِه؛ فلْيَقدَحوا إنْ استَطاعوا في صِدْقِهم بقادِحٍ عَقليٍّ أو شَرعيٍّ، ولنْ يَستطيعوا إلى ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣١٩).

سَبيلًا[١]! وهذه الشُّبهةُ ليستْ بحُجَّةٍ؛ بدليلِ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ في آيةٍ أخرى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، وحِينئذٍ لو أنزَل اللهُ عزَّ وجلَّ مَلَكًا لَجَعَله رجُلًا ولعادَتِ الشُّبهةُ[٢]، فلو بعَثَ اللهُ إلى البشَرِ رسولًا مَلَكيًّا لكان على هيئةِ الرجُلِ؛ لتُمْكِنَهم مُخاطَبَتُه، والانتفاعُ بالأخذِ عنه؛ لأنَّهم لا يستطيعونَ النَّظرَ إلى الملائكةِ مِن شِدَّةِ النُّورِ، ولو كان كذلك لالْتبَس عليهم الأمرُ، كما هم يَلْبِسون على أنفُسِهم في قَبولِ رِسالةِ الرَّسولِ البشَريِّ. وهذه الآيةُ الكريمةُ مِن سورةِ (الأنعامِ) تدُلُّ على أنَّ الرسولَ يَنبغي أن يكونَ مِن نَوعِ المُرسَلِ إليهم، كما أشار تعالى إلى ذلك أيضًا بقولِه: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[٣] [الإسراء: ٩٥].

٧- أنَّ المُقِرَّ بالرُّبوبيَّةِ لا يُعَدُّ مُؤمِنًا حتَّى يُقِرَّ بالأُلوهيَّةِ؛ لقولِهم: ﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾، وهكذا الكُفَّارُ الَّذين بُعِثَ فيهم الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانوا مُقِرِّينَ بالرُّبوبيَّةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، ولكنَّ الإيمانَ بالرُّبوبيَّةِ لا يَكفي في كونِ الإنسانِ مُسلِمًا! لا بُدَّ مِن الإيمانِ بالأُلوهيَّةِ إضافةً إلى الإيمانِ بالرُّبوبيَّةِ[٤].

٨- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قَولُه تعالى: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هذه ليسَتْ صِفةً مُقَيِّدَةً، ولكِنَّها صِفَةٌ كاشِفَةٌ؛ لأنَّ كُلَّ استكبارٍ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٧٢) و (٣/ ١٨٦) و (٦/ ٣٣٥-٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٥).

الأرضِ هو بغيرِ الحقِّ؛ فالاستكبارُ لا يَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ، بل هو قِسْمٌ واحِدٌ، ويُسمَّى مِثْلُ هذا القَيدِ صِفةً كاشِفَةً، أي: تَكْشِفُ ما سَبَقَ، وتُبَيِّنُ حَقيقتَه(١).

٩- مَجامِعُ الخِصالِ الحَميدةِ: الإحسانُ إلى الخَلْقِ، والتَّعظيمُ لِلخالِقِ؛ فقَولُه: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ مُضادٌّ لِلإحسانِ إلى الخَلْقِ، وقَولُه: ﴿وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ مُضادٌّ لِلتَّعظيمِ لِلخالِقِ، وإذا كان الأمْرُ كذلك، فهُم قدْ بَلَغوا في الصِّفاتِ المَذمومةِ المُوجِبةِ لِلهَلاكِ والإبطالِ إلى الغايةِ القُصْوى؛ فلهذا المعنَى سَلَّطَ اللهُ العَذابَ عليهم، فقال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾ حِكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ بأخْذِهم بالعذابِ، حيثُ أُخِذوا بما هو ألطفُ الأشياءِ، وهو الرِّيحُ، الرِّيحُ اللَّطيفةُ الَّتي يكونُ بها إنعاشُ البَدَنِ وتقويتُه ونشاطُه؛ هي التي أَهْلَكَ بها عادًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾(٣).

١١- قَولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ وقَولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ فيه الاستِدلالُ بالأثَرِ على المُؤَثِّرِ وأنَّه أكمَلُ، وهكذا كُلُّ ما في المَخلوقاتِ مِن قُوَّةٍ وشِدَّةٍ تَدُلُّ على أنَّ اللهَ أقوى وأشَدُّ، وما فيها مِن عِلمٍ يَدُلُّ على أنَّ اللهَ أعلَمُ، وما فيها مِن حَياةٍ يَدُلُّ على أنَّ اللهَ أَوْلَى بالحَياةِ(٤).

١٢- قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ فيه جَوازُ عَقْدِ المفاضَلةِ بينَ الخالِقِ والمخلوقِ في مَقامِ المُحاجَّةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾ مع أنَّه سُبحانَه أَشَدُّ مِن كلِّ أحدٍ، لكِنَّ المقامَ مَقامُ مُحاجَّةٍ، ومقامُ المُحاجَّةِ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٥٧).

بأس أنْ تُذكَرَ فيه المفاضَلةُ بين المُفَضَّلِ والمُفَضَّلِ عليه، ونظيرُ هذا -بل أبلغُ منه- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، وليس في أصنامِهم خيرٌ، لكنْ هذا مِن بابِ المُحَاجَّةِ، وأنَّ الإنسانَ يُحَاجُّ الخَصْمَ بما يُقِرُّ به[١].

١٣- في قَولِه تعالَى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ إضافةُ النَّحْسِ إلى الأيامِ، وأنَّه لا بأسَ به، كما قال لوطٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، وهذا إذا كان المرادُ به مُجَرَّدَ الخَبرِ، كما هنا، وأمَّا إذا كان المرادُ به العَيبَ والسَّبَّ فإنَّه لا يَجوزُ[٢].

١٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾، وقال أيضًا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ [القمر: ١٩] ما يَذكُرُه بَعضُ أهلِ العِلمِ مِن أنَّ يَومَ النَّحسِ المُستَمِرِّ هو يومُ الأربعاءِ الأخيرِ مِن الشَّهرِ، أو يَومُ الأربعاءِ مُطلَقًا، حتَّى إنَّ بَعضَ المُنتَسِبينَ لطَلَبِ العِلمِ، وكثيرًا مِن العوامِّ صاروا يتشاءَمونَ بيَومِ الأربِعاءِ الأخيرِ مِن كلِّ شَهرٍ، حتَّى إنَّهم لا يُقدِمونَ على السَّفَرِ والتزَوُّجِ ونحوِ ذلك فيه، ظانِّينَ أنَّه يَومُ نَحسٍ وشُؤمٍ، وأنَّ نَحسَه مُستَمِرٌّ على جميعِ الخَلقِ في جميعِ الزَّمَنِ: لا أصلَ له ولا مُعَوَّلَ عليه، ولا يَلتَفِتُ إليه مَن عِندَه عِلمٌ؛ لأنَّ نَحْسَ ذلك اليَومِ مُستَمِرٌّ على عادٍ فقط، الذين أهلَكَهم اللهُ فيه؛ فاتَّصَل لهم عذابُ البَرزخِ والآخِرةِ بعَذابِ الدُّنيا، فصار ذلك الشُّؤمُ مُستَمِرًّا عليهم استِمرارًا لا انقِطاعَ له[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠١).

وينظر ما أخرجه البخاري (٦١٨١) (٦١٨٢) ومسلم (٢٢٤٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه في النهي عن سب الدهر.

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨).

١٥- قال اللهُ تعالَى ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ هذا هُدًى بعدَ البَيانِ والدَّلالةِ، وهو شَرْطٌ، لا مُوجِبٌ؛ فإنَّه إنْ لم يقترِنْ به هُدًى آخَرُ بَعدَه لم يَحصُلْ به كَمالُ الاهتِداءِ، وهو هُدى التَّوفيقِ والإلهامِ[1]؛ فهدايةُ البيانِ والدَّلالةِ -التي أقام اللهُ بها حُجَّتَه على عِبادِه- لا تَسْتَلْزِمُ الاهتداءَ التَّامَّ[2].

١٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾ عِقابُهم كان عِقابًا مُناسِبًا للجُرْمِ؛ لأنَّهم استَحَبُّوا الضَّلالَ الذي هو مِثْلُ العَمَى، فمَن يَستَحِبَّه فشَأْنُه أن يُحِبَّ العَمَى، فكان جزاؤُهم بالصَّاعِقةِ؛ لأنَّها تُعمي أبصارَهم في حينِ تُهلِكُهم؛ قال تعالَى: ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾[3] [البقرة:٢٠].

١٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ﴾ عبَّرَ عن الهلاكِ الذي أهلَكَ به ثَمودَ بعِباراتٍ مُختَلفةٍ؛ فذَكَرَه هنا باسمِ (الصَّاعِقةِ)، وكذا في قَولِه: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣]، وعَبَّرَ عنه أيضًا بالصَّاعقةِ في قولِه تعالَى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤]، وعبَّرَ عنه بالصَّيحةِ في آياتٍ أُخرَى مِن كِتابِه، كقَولِه تعالى: ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨]، وعَبَّرَ عنه بالرَّجفةِ في قَولِه تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨]، وعبَّرَ عنه بالتَّدميرِ في

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٢).

قولِه سُبحانَه: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١]، وعبَّرَ عنه بالطَّاغيةِ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥]، وعبَّرَ عنه بالدَّمدَمةِ في قولِه تعالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤]، وعبَّرَ عنه بالعَذابِ في قولِه جلَّ شأنُه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٧، ١٥٨]، ومعنى هذه العِباراتِ كُلِّها راجِعٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ، وهو أنَّ الله أرسَلَ عليهم صَيحةً أهلَكَتْهم، والصَّيحةُ: الصَّوتُ المُزعِجُ المُهلِكُ. والصَّاعِقةُ تُطلَقُ أيضًا على الصَّوتِ المُزعِجِ المُهلِكِ، وعلى النَّارِ المُحرِقةِ، وعليهما معًا؛ ولشِدَّةِ عِظَمِ الصَّيحةِ وهَولِها مِن فَوقِهم رَجَفَت بهم الأرضُ مِن تحتِهم، أي: تحَرَّكَت حَرَكةً قَويَّةً؛ فاجتمع فيها أنَّها صَيحةٌ وصاعِقةٌ ورَجفةٌ، وكونُ ذلك تدميرًا واضِحٌ. وقيل لها: طاغِيةٌ؛ لأنَّها واقِعةٌ مُجاوِزةٌ للحَدِّ في القُوَّةِ وشِدَّةِ الإهلاكِ[1].

١٨- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ﴾ فيه الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ الذين قالوا: إنَّ الإنسانَ مُجبَرٌ على عَمَلِه؛ ؛ لأنَّ «استحَبُّوا» تدلُّ على اختيارِهم لهذا الشَّيءِ، وأنَّهم آثَرُوه على الهُدى[2].

١٩- قولُه تعالَى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ؛ والباءُ هنا للسَّبَبيَّةِ. واعلمْ أنَّ اللهَ تعالَى لن يَحْكُمَ حُكْمًا شرعيًّا ولا حُكْمًا قَدَرِيًّا ولا حُكْمًا جزائيًّا إلَّا لسببٍ، وهذه قاعِدةٌ: لن يَحْكُمَ حُكْمًا شرعيًّا -كالإيجابِ والتحريمِ والإباحةِ-؛ ولا قَدَرِيًّا -كالخَلْقِ والتكوينِ-؛ ولا جزائيًّا إلَّا لسببٍ، نَعْلَمُ ذلك عِلْمَ اليقينِ، ونأخذُه مِن أنَّ اللهَ تعالى حَكيمٌ؛ والحَكيمُ هو الذي يَضَعُ الأشياءَ مواضعَها، لا يمكنُ أنْ يكونَ فِعْلُ اللهِ فَلْتَةً ولا صُدْفَةً، ولا لَغْوًا ولا لَعِبًا، بل لا بُدَّ له مِن سببٍ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١-٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١١).

اقتضاه، لكنْ ليس كلُّ سَبَبٍ اقتضَى حُكْمَ اللهِ يكونُ معلومًا للخَلْقِ! لأنَّ الخَلْقَ أَعْجَزُ مِن أنْ يُدْرِكوا حِكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وكم مِن أحكامٍ شرعيةٍ وكونيةٍ وجزائيةٍ لا نَعْلَمُ حِكْمَتَها؛ لأنَّنا أَقْصَرُ مِن أنْ نُحِيطَ بحكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[١]!

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ أنَّ الإيمانَ والتقوَى سببٌ للنَّجاةِ، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ [الزمر: ٦١]، وفيه أيضًا أنَّ الإيمانَ وحدَه لا يكفي؛ بل لا بُدَّ مِن إيمانٍ وتقوَى[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ مُتَّصِلٌ بقَولِه تَعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ ...﴾ إلخ، أيْ: فإنْ أعرَضُوا عنِ التَّدَبُّرِ فيما ذُكِر مِن عَظائِمِ الأُمورِ الدَّاعيةِ إلى الإيمانِ، أو عنِ الإيمانِ بَعدَ هذا البَيانِ، فقُلْ لهم: أنْذَرْتُكم[٣].

- وبَعدَ أنْ قَرَعَتْهم الحُجَّةُ التي لا تَترُكُ لِلشَّكِّ مَسرَبًا إلى النُّفوسِ بَعدَها في أنَّ اللهَ مُنفَرِدٌ بالإلهيَّةِ؛ لأنَّه مُنفَرِدٌ بإيجادِ العَوالِمِ كُلِّها، وكانَ ثُبوتُ الوَحدانيَّةِ مِن شَأنِه أنْ يُزيلَ الرِّيبةَ في أنَّ القُرآنَ مُنَزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ لِأنَّهم ما كَفَروا به إلَّا لِأجْلِ إعلانِه بنَفْيِ الشَّريكِ عنِ اللهِ تَعالى، فلَمَّا استَبانَ ذلك كان الشَّأنُ أنْ يَفِيئوا إلى تَصديقِ الرَّسولِ والإيمانِ بالقُرآنِ، وأنْ يُقلِعوا عن إعراضِهم المَحكيِّ عنهم بقَولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ...﴾ [فصلت: ٤] إلخ؛ فلذلك جُعِلَ استِمرارُهم على الإعراضِ بَعدَ تلك الحُجَجِ أمْرًا مَفروضًا كما يُفرَضُ المُحالُ؛ فجِيءَ في جانِبِه بحَرفِ (إنْ) الذي الأصْلُ فيه أنْ يَقَعَ في المَوقِعِ الذي لا جَزمَ فيه بحُصولِ الشَّرطِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧).

فمَعنى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾: إنِ استَمَرُّوا على إعراضِهم بَعدَما هَدَيتَهم بالدَّلائِلِ البَيِّنةِ وكابَروا فيها؛ فالفِعلُ مُستَعمَلٌ في مَعنى الاستِمرارِ[١].

- وفي قَولِه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ التِفاتٌ؛ فقد خاطَبَهم أوَّلًا بقَولِه: ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ بَيْدَ أنَّهم لم يَأْبَهوا لخِطابِه، ولم يَستَوعِبُوا نُصحَه؛ فالتَفَتَ مِنَ الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ لأنَّهم فَعَلوا الإعراضَ، فليس له إلَّا أنْ يُعرِضَ عن خِطابِهم؛ لِيَصِحَّ التَّلاؤُمُ، ويُناسِبَ اللَّفظُ المَعنى، وهذا مِن أرفَعِ أنواعِ البَلاغةِ وأرقاها، وكم لِلالتِفاتِ مِن أسرارٍ[٢]!

- وعُدِلَ عنِ المُضارِعِ المُستَقبَلِ إلى الماضي في قَولِه: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ ما يُنذِرُهم به أمْرٌ مُتَحقِّقٌ لا مَندوحةَ عنه[٣].

- قَولِه: ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ حَقيقةُ الصَّاعِقةِ: نارٌ تَخرُجُ مع البَرقِ تُحرِقُ ما تُصيبُه، وتُطلَقُ على الحادِثةِ المُبيرةِ - أي: المُهْلِكة- السَّريعةِ الإهلاكِ، ولَمَّا أُضيفَتْ ﴿صَٰعِقَةً﴾ هنا إلى عادٍ وثَمودَ، وعادٌ لم تُهلِكْهمُ الصَّاعِقةُ وإنَّما أهلَكَهمُ الرِّيحُ، وثَمودُ أُهلِكوا بالصَّاعِقةِ؛ فَقَدِ استعمَلَ الصَّاعِقةَ هنا بالمَعنيَينِ السابقَيْن؛ لقَصْدِ الإيجازِ، ولِيَقَعَ الإجمالُ ثم التَّفصيلُ بَعدُ بقَولِه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ [فصلت: ١٥] إلى قَولِه: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٤] [فصلت: ١٧].

- وفي قولِه: ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ خُصَّ بالذِّكرِ مِنَ الأُمَمِ المُهلَكةِ: عادٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣).

وثَمودُ؛ لِعِلْمِ قُرَيشٍ بحالِهما، ولِوقوعِهم على بِلادِهم في (اليَمَنِ) وفي (الحِجْرِ)[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

- الضَميرُ في ﴿جَآءَتْهُمُ﴾ عائِدٌ إلى عادٍ وثَمودَ باعتِبارِ عَدَدِ كُلِّ قَبيلةٍ منهما. وجَمْعُ ﴿ٱلرُّسُلُ﴾ هنا مِن بابِ إطلاقِ صِيغةِ الجَمعِ على الاثنَيْنِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والقَرينةُ واضحةٌ، وهو استِعمالٌ غيرُ عَزيزٍ، وإنَّما جاءهمْ رَسولانِ: هودٌ، وصالحٌ[٢].

- وقولُه: ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ تَمثيلٌ لحِرْصِ رَسولِ كُلٍّ منهم على هُداهم، بحيثُ لا يَترُكُ وَسيلةً يَتَوسَّلُ بها إلى إبلاغِهم الدِّينَ إلَّا تَوَسَّلَ بها، فمُثِّلَ ذلك بالمَجيءِ إلى كُلٍّ منهم تارةً مِن أمامِه وتارةً مِن خَلفِه، لا يَترُكُ له جِهةً، كما يَفعَلُ الحَريصُ على تَحصيلِ أمْرٍ أنْ يَتَطلَّبَه ويُعيدَ تَطَلُّبَه، ويَستَوعِبَ مَظانَّ وُجودِه أو مَظانَّ سَماعِه. وقيل: أي: أنْذَروهم مِن وَقائعِ اللهِ فيمَن قبْلَهم مِن الأُمَمِ وعَذابِ الآخِرةِ؛ لأنَّ الرُّسُلَ إذا حَذَّروهم مِن وقائِعِ اللهِ فيمَن قَبلَهم مِنَ الأُمَمِ، وحَذَّروهم مِن عَذابِ الآخِرةِ، فقد جاؤوهم بالوَعظِ مِن جِهةِ الزَّمَنِ الماضي، وما جَرى فيه على الكُفَّارِ، ومِن جِهةِ المُستَقبَلِ وما سَيَجْري عليهم. وقِيل: ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: تَقدَّموا في الزَّمنِ، واتَّصلَت نِذارتُهم إلى أعمارِ عادٍ وثَمودَ، وبهذا الاتِّصالِ قامَتِ الحُجَّةُ. و(مِنْ خَلْفِهِمْ)، أي: جاءهمْ رسولٌ بعْدَ تَقدُّمِ وُجودِهم في الزَّمنِ، وجاءَ مِن مَجموعِ العِبارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣).

إقامةُ الحُجَّةِ عليهم في أنَّ الرِّسالةَ والنِّذارةَ عَمَّتْهم خَبرًا ومُباشَرةً[١].

- وهذا التَّمثيلُ نَظيرُ الَّذي في قولِه تعالى حِكايةً عن الشَّيطانِ: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ﴾ [الأعراف: ١٧]. وإنَّما اقتُصِرَ في هذه الآيةِ على جِهتَينِ، ولم تَستوعِبِ الجِهاتِ الأربعَ، كما مُثِّلَ حالُ الشَّيطانِ في وَسوستِه؛ لأنَّ المقصودَ هنا تَمثيلُ الحِرصِ فقطْ، وقد حصَلَ، والمَقصودُ في الحِكايةِ عن الشَّيطانِ تَمثيلُ الحِرصِ مع التَّلهُّفِ؛ تَحذيرًا منه، وإثارةً لِبُغْضِه في نُفوسِ النَّاسِ[٢].

- قولُه: ﴿قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ حِكايةٌ لِجوابِ عادٍ وثَمودَ لِرَسولَيْهم، وقد كانَ جَوابًا مُتَماثِلًا؛ لأنَّه ناشِئٌ عن تَفكيرٍ مُتَماثِلٍ؛ فإنَّهم يَتصَوَّرونَ صِفاتِ اللهِ تعالَى وأفعالَه على غَيرِ كُنهِها، ويَقيسونَها على أحوالِ المَخلوقاتِ؛ ولذلك يَتَماثَلُ في هذا حالُ أهلِ الجَهالةِ؛ كما قال تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، أي: بلْ هم مُتماثِلون في الطُّغيانِ، أي: الكُفرِ الشَّديدِ، فتُمْلي عليهم أوهامُهم قَضايا مُتماثِلةً. ولكَونِ جَوابِهم جَرى في سياقِ المُحاوَرةِ أتَتْ حِكايةُ قَولِهم غَيرَ مَعطوفةٍ بأُسلوبِ المُقاوَلةِ؛ فإنَّ قَولَ الرُّسلِ لهم: (لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ) قد حُكِيَ بِفعلٍ فيه دَلالةٌ على القولِ، وهو فِعلُ ﴿جَاءَتۡهُمۡ﴾؛ فقَولُهم: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ يَتَضمَّنُ إبطالَ رِسالةِ البَشَرِ عنِ اللهِ تَعالى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٣، ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٤، ٢٥٥).

- ومَفعولُ ﴿شَآءَ﴾ في قولِه: ﴿لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ مَحذوفٌ؛ دلَّ عليه السِّياقُ، والتقديرُ: لو شاء ربُّنا أنْ يُرسِلَ إلينا لَأنزَلَ مَلائكةً مِن السَّماءِ مُرسَلينَ إلينا. أو: لو شاء ربُّنا إنزالَ ملائكةٍ بالرِّسالةِ منه إلى الإنسِ لأَنزلَهم بها إليهم، وهذا أبلغُ في الامتِناعِ من إرسالِ البَشرِ؛ إذ عَلَّقوا ذلك بأقوالِ المَلائكةِ، وهو لم يَشأْ ذلك؛ فكيف يشاءُ ذلك في البَشرِ؟! وقيل: التقديرُ: لوْ شاءَ رَبُّنا أنْ نُوحِّدَه، ولا نَعْبُدَ مِن دُونِه شَيئًا غَيرَه، لَأنزَلَ إلينا مَلائِكةً من السماءِ رُسلًا بما تَدْعونَنا أنتُم إليه، ولم يُرسِلْكم وأنتُم بشرٌ مِثلُنا، ولكنَّه رضِيَ عِبادتَنا ما نَعبُدُ؛ فلذلك لم يُرسِلْ إلينا بالنَّهيِ عن ذلك مَلائكةً، وهذا حذْفٌ خاصٌّ هو غيرُ حَذْفِ مَفعولِ فِعلِ المَشيئةِ الشَّائعِ في الكلامِ؛ لأنَّ ذلك فيما إذا كان المَحذوفُ مَدلولًا عليه بجوابِ (لو)، كقولِه تعالى: ﴿فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]، ونُكتتُه: الإبهامُ ثمَّ البَيانُ. وأمَّا الحذْفُ في هذه الآيةِ فهو لِلاعتِمادِ على قَرينةِ السِّياقِ والإيجازِ، وهو حذْفٌ عَزيزٌ لِمَفعولِ فِعلِ المَشيئةِ[1].

- وقَولُهم: ﴿أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ ليس بإقرارٍ بالإرسالِ، وإنَّما هو على كَلامِ الرُّسُلِ، وفيه تَهَكُّمٌ، أي: بما أُرسِلْتُم على زَعْمِكم، كما قالَ فِرعَونُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٌ﴾[2] [الشعراء: ٢٧].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٥).
ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨).

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ تفريعٌ على جُملةِ ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ [فصلت: ١٤] المُقتضيةِ أنَّهم رَفَضوا دَعوةَ رَسُولَيهم ولم يَقبَلوا إرشادَهما واستِدلالَهما(١).

- وبدأ بقِصَّةِ عادٍ؛ لأنَّها أقدَمُ زمانًا(٢).

- قولُه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ الاستِكبارُ: المُبالَغةُ في الكِبرِ، أيْ: التَّعاظُمُ واحتِقارُ الناسِ؛ فالسِّينُ والتاءُ فيه لِلمُبالَغةِ، والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ لِلعَهدِ، أيْ: أرضِهم المَعهودةِ، وإنَّما ذَكَر مِن مَساويهم الاستِكبارَ؛ لأنَّ تَكَبُّرَهم هو الذي صَرَفَهم عنِ اتِّباعِ رَسولِهم، وعن تَوَقُّعِ عِقابِ اللهِ(٣).

- وقولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زِيادةُ تَشنيعٍ لِاستِكبارِهم؛ فإنَّ الاستِكبارَ لا يَكونُ بِحَقٍّ؛ إذْ لا مُبَرِّرَ لِلكِبْرِ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ لأنَّ جَميعَ الأُمورِ المُغْرِياتِ بالكِبْرِ، مِن العِلمِ، والمالِ، والسُّلطانِ، والقوَّةِ، وغيرِ ذلك؛ لا تُبلِغُ الإنسانَ مَبلَغَ الخُلوِّ عن النَّقصِ، وليس للضَّعيفِ الناقصِ حقٌّ في الكِبْرِ؛ ولذلك كان الكِبرُ مِن خَصائصِ اللهِ تعالى(٤).

- ولَمَّا كانَ اغتِرارُهم بقُوَّتِهم هو باعِثَهم على الكُفرِ، وكانَ قَولُهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ دَليلًا عليه، خُصَّ بالذِّكرِ، وإنَّما عُطِفَ بالواوِ مع أنَّه كالبَيانِ لِقَولِه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ إشارةً إلى استِقلالِه بكَونِه مُوجِبَ الإنكارِ عليهم؛ لأنَّ قَولَهم ذلك هو بمُفرَدِه مُنكَرٌ مِن القَولِ، فذُكِرَ بالعَطفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على فِعلِ (استَكبَروا)؛ لأنَّ شَأنَ العَطفِ أنْ يَقتَضيَ المُغايَرةَ بيْن المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه، ولِيُعلَمَ أنَّه باعِثُهم على الاستِكبارِ بالسِّياقِ[١].

- وجُملةُ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ جُملةٌ مُعتَرِضةٌ، والواوُ اعتِراضيَّةٌ، والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ. والاستِفهامُ إنكاريٌّ، والمَعنى: إنكارُ عَدَمِ عِلْمِهم بأنَّ اللهَ أشَدُّ منهم قُوَّةً؛ حيثُ أعْرَضوا عن رِسالةِ رَسولِ رَبِّهم، وعن إنذارِه إيَّاهم، إعراضَ مَن لا يَكتَرِثُ بعَظَمةِ اللهِ تَعالى؛ لِأنَّهم لو حَسَبوا لذلك حِسابَه، لَتَوقَّعوا عَذابَه؛ فلَأقبَلوا على النَّظَرِ في دَلائِلِ صِدقِ رَسولِهم[٢]. وقيل: الهَمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، والواوُ حرْفُ عَطفٍ، وجُملةُ (لمْ يَرَوْا) مَعطوفةٌ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ السِّياقُ، أي: أغفَلُوا وضَلُّوا ولمْ يَرَوْا[٣].

- وإجراءُ وَصْفِ ﴿الَّذِي خَلَقَهُمْ﴾ على اسمِ الجَلالةِ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإشارةِ إلى وَجهِ الإنكارِ عليهم؛ لِجَهلِهم بأنَّ اللهَ أقوى منهم؛ فإنَّ كَونَهم مَخلوقينَ مَعلومٌ لهم بالضَّرورةِ؛ فكانَ العِلْمُ به كافيًا في الدَّلالةِ على أنَّه أشَدُّ منهم قُوَّةً، وأنَّه حَقيقٌ بأنْ يَحسِبوا لِغَضَبِه حِسابَه؛ فيَنظُروا في أدِلَّةِ صِدقِ رَسولِه إليهم[٤]. فأتَى بالموصولِ وصِلَتِه كالتعليلِ والدَّلالةِ على ضعفِهم أمامَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٥].

- والضَميرُ (هو) في قولِه: ﴿هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ﴾ ضَميرُ فَصلٍ، وهو يُفيدُ تقويةَ الحُكمِ، بمَعنى وُضوحِه، وإذا كانَ ذلك الحُكمُ مُحَقَّقًا كانَ عَدَمُ عِلْمِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير سورة العنكبوت)) لابن عثيمين (ص: ٩٧).

بمُقتَضاه أشنَعَ، وعُذرُهم في جَهلِه مُنتَفيًا[١].

- قولُه: ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ دَلَّ فِعلُ (كانوا) على أنَّ التَّكذيبَ بالآياتِ مُتَأصِّلٌ فيهم، ودَلَّتْ صِيغةُ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ على أنَّ الجَحدَ مُتَكَرِّرٌ فيهم مُتَجَدِّدٌ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحًا صَرۡصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحًا صَرۡصَرًا﴾ أشارَتِ الفاءُ إلى أنَّ عِقابَهم كانَ مُسَبَّبًا على حالةِ كُفرِهم بصِفَتِها؛ فإنَّ باعِثَ كُفرِهم كانَ اغترارَهم بقُوَّتِهم، فأهلَكَهمُ اللهُ بما لا يَترَقَّبُ الناسُ الهَلاكَ به؛ فإنَّ الناسَ يَقولونَ لِلشَّيءِ الذي لا يُؤبَهُ به: هو رِيحٌ؛ لِيُرِيَهم أنَّ اللهَ شَديدُ القُوَّةِ، وأنَّه يَضَعُ القُوَّةَ في الشَّيءِ الهَيِّنِ مِثلَ الرِّيحِ؛ لِيَكونَ عَذابًا وخِزيًا، أيْ: تَحقيرًا، كما قال: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، وأيُّ خِزيٍ أشَدُّ مِن أنْ تَتَراماهم الرِّيحُ في الجَوِّ كالرِّيشِ، وأنْ تُلقيَهم هَلْكى على التُّرابِ عن بَكْرةِ أبيهم، فيُشاهِدَهمُ المارُّونَ بدِيارِهم جُثَثًا صَرْعى قد تَقَلَّصتْ جُلودُهم وبَليَتْ أجسامُهم ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٍ﴾[٣] [الحاقة: ٧]؟!

- قولُه: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحًا صَرۡصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ الصَّرصَرُ: الرِّيحُ العاصِفةُ التي يَكونُ لها صَرصَرةٌ -أيْ: دَويٌّ في هُبوبِها- مِن شِدَّةِ سُرعةِ تَنَقُّلِها، وتَضعيفُ عَينِه (الراء)؛ لِلمُبالَغةِ في شِدَّتِها بيْن أفرادِ نَوعِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٥٩).

- قولُه: ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ جمعُ (نَحِسةٍ) بكسرِ الحاءِ، صِفةٌ مشبَّهةٌ مِنْ (نَحِس) إذا أصابَه النَّحْسُ إصابَةَ سُوءٍ أوْ ضُرٍّ شَديدٍ، وقُرِئَ بالسُّكونِ ﴿نَحْسَاتٍ﴾[1]، فاحتَمل أنْ يكونَ مصدرًا وُصِف به مبالغةً، واحتَمل أنْ يكونَ صفةً مخفَّفًا مِن (فَعْلٍ)، كـ (صَعْبٍ)[2].

- قولُه: ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ اللَّامُ في ﴿لِّنُذِيقَهُمْ﴾ للتَّعليلِ، وهي مُتعَلِّقةٌ بـ (أرسَلْنا)[3].

- والخِزْيُ: الذُّلُّ. وإضافةُ ﴿عَذَابَ﴾ إلى ﴿ٱلْخِزْيِ﴾ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ؛ بدَليلِ مُقابَلتِه بقَولِه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾، أي: أشدُّ إخْزاءً مِن إخزاءِ عَذابِ الدُّنيا، وذلك باعتِبارِ أنَّ الخِزْيَ وصْفٌ للعَذابِ مِن بابِ الوَصْفِ بالمَصدرِ، أو اسمِ المَصدرِ؛ للمُبالَغةِ في كَونِ ذلك العذابِ مُخزِيًا للذي يُعذَّبُ به. ومعنى كَونِ العذابِ مُخزِيًا: أنَّه سبَبُ خِزْيٍ. ويُقدَّرُ قبْلَ الإضافةِ: لِنُذيقَهم عَذابًا خِزْيًا، أي: مُخزِيًا؛ فلمَّا أُرِيدَت إضافةُ المَوصوفِ إلى صِفَتِه، قِيل: ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ للمُبالَغةِ أيضًا؛ لأنَّ إضافةَ المَوصوفِ إلى الصِّفةِ مُبالَغةٌ في الاتِّصافِ، حتَّى جُعِلَت الصِّفةُ بمَنزلةِ شَخصٍ آخَرَ يُضافُ إليه الموصوفُ، وهو قَريبٌ مِن مُحسِّنِ التَّجريدِ[4]؛ فحصَلَت مُبالَغتانِ في

---

(١) قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو ويعقوبُ ﴿نَحْسَاتٍ﴾ ساكنةَ الحاءِ، وقرأ الباقون ﴿نَّحِسَاتٍ﴾ بكسرِ الحاءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٠).

(٤) التجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مُباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئن لقيتَ زيدًا لتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، وهو عينُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

قولِه: ﴿عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾: مُبالغةُ الوَصفِ بالمَصدرِ، ومُبالغةُ إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ احتِراسٌ؛ لِئَلَّا يَحسَبَ السَّامِعونَ أنَّ حَظَّ أولئك مِنَ العِقابِ هو عَذابُ الإهلاكِ بالرِّيحِ؛ فعَطَفَ عليه الإخبارَ بأنَّ عَذابَ الآخِرةِ أخْزى، أيْ: لهم ولِكُلِّ مَن عُذِّبَ عَذابًا في الدُّنيا؛ لِغَضَبِ اللهِ عليه[٢].

- وجُملةُ ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ تَذييلٌ، أيْ: لا يَنصُرُهم مَن يَدفَعُ العَذابَ عنهم، ولا مَن يَشفَعُ لهم، ولا مَن يُخرِجُهم منه بَعدَ مُهلةٍ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ مَعطوفٌ على قولِه: ﴿وَأَمَّا عَادٌ﴾، وهما تَفصيلٌ لِمَا أُجمِلَ، ونَشرٌ لِمَا لُفَّ[٤] في قَولِه: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ۞

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٣، ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شَيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتملُ على متعدِّدٍ- ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به؛ فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مِثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجمالي. واللَّفُّ المُفصَّل يأتي النشرُ اللَّاحقُ له على وجهَيْن؛ الوجهُ الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّف، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنشر المرتَّب». الوجه الآخَر: =

إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤]؛ فإنَّ قولَه: ﴿فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ في مُقابِلِ ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ [فصلت: ١٤]، وقولَه: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ في مُقابِلِ ﴿قَالُواْ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ...﴾ [فصلت: ١٤]، الآيةَ. والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُواْ﴾ فَصيحةٌ تُفصِحُ عن مَحذوفٍ، أيْ: فهَدَيْناهُم فاستَكبَروا؛ بدَلالةِ قَرينَتِها[1].

- وإنَّما نَصَّ على ثمودَ وإنْ كان جميعُ الأُمَمِ المُهلَكةِ قد قامتْ عليهم الحُجَّةُ، وحَصَل لهم البيانُ؛ لأنَّ آيةَ ثَمودَ آيةٌ باهِرةٌ قد رآها صَغيرُهم وكَبيرُهم، وذَكَرُهم وأُنثاهم، وكانتْ آيةً مُبصِرةً؛ فلهذا خَصَّهم بزيادةِ البَيانِ والهُدى[2].

- قولُه: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ مَعناه: أحَبُّوا؛ فالسِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ، أيْ: كانَ العَمى مَحبوبًا لهم[3].

- وضُمِّنَ (استَحَبُّوا) مَعنى: فَضَّلُوا، وهَيَّأ لهذا التَّضمينِ اقترانُه بالسِّينِ والتَّاءِ؛ لِلمُبالَغةِ؛ لأنَّ المُبالَغةَ في المَحبَّةِ تَستَلزِمُ التَّفضيلَ على بَقيَّةِ المَحبوباتِ؛ فلذلك عُدِّيَ (استَحَبُّوا) بحَرفِ (على)، أيْ: رَجَّحوا باختيارِهم، وتَعليقُ ﴿عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ بفِعلِ (استَحَبُّوا)؛ لِتَضمينِه مَعنى: فَضَّلوا وآثَروا[4].

---

= أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّف والنَّشر المُشَوَّش»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٩١، ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قَولِه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ شَبَّهَ الكُفرَ بالعَمى؛ لأنَّ الكافِرَ ضالٌّ عنِ القَصدِ، مُتَعسِّفٌ الطَّريقَ كالأعمى، وشَبَّهَ الإيمانَ بالهُدى؛ لأنَّ المُؤمِنَ مُهتَدٍ إلى مَحَجَّةِ القَصدِ وسَواءِ السَّبيلِ، ثُمَّ حَذَفَ المُشَبَّهَ في كِلَيْهما، وأثبَتَ المُشَبَّهَ به[١].

- وقولُه: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ مُفَرَّعٌ على قَولِه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾، فعُجِّلت العقوبةُ لهم؛ فالفاءُ للتَّرتيبِ والتَّعقيبِ، هذا وجهٌ، ووجهٌ آخرُ: أنَّ الفاءَ هنا للسَّبَبِيَّةِ؛ والمُسَبَّبُ يَعْقُبُ السَّبَبَ[٢].

- وإضافةُ ﴿صَٰعِقَةُ﴾ إلى ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ في قولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّها صاعِقةٌ تُعَرَّفُ بطَريقِ الإضافةِ؛ إذْ لا يُعرَّفُ بها إلَّا ما تُضافُ إليهِ، أيْ: صاعِقةٌ خارِقةٌ لِمُعتادِ الصَّواعِقِ؛ فهي صاعِقةٌ مُسَخَّرةٌ مِنَ اللهِ لِعَذابِ ثَمودَ؛ فإنَّ أصْلَ معنى الإضافةِ أنَّها بتَقديرِ لامِ الاختِصاصِ؛ فتَعريفُ المُضافِ لا طَريقَ له إلَّا بَيانُ اختصاصِه بالمُضافِ إليه[٣].

- قولُه: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ الهُونُ: الهوانُ؛ وُصِفَ العَذابُ بـ ﴿ٱلْهُونِ﴾؛ للمُبالَغةِ، أو أُبْدِلَ منه، ووَجهُ كَونِ العذابِ هَوانًا: أنَّه إهلاكٌ فيه مَذَلَّةٌ؛ إذِ استُؤصِلوا عن بَكرةِ أبيهم، وتُرِكوا صَرْعى على وَجهِ الأرضِ، أيْ: أخَذَتْهمُ الصَّاعِقةُ بسَبَبِ كَسبِهم في اختِيارِهمُ البَقاءَ على الضَّلالِ بإعراضِهم عن دَعوةِ رَسولِهم، وعن دَلالةِ آياتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي =

- ويُعلَمُ مِن قَولِه في شَأنِ عادٍ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ [فصلت: ١٦] أنَّ لِثَمودَ عَذابًا في الآخِرةِ؛ لأنَّ الأُمَّتَيْنِ تَماثَلَتا في الكُفرِ؛ فلم يُذكَرْ ذلك هنا؛ اكتِفاءً بذِكرِه فيما تَقَدَّمَ، وهذا مُحَسِّنُ الاكتِفاءِ[1]، وهو مُحَسِّنٌ يَرجِعُ إلى الإيجازِ[2].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ قيل: إنَّه عَطفٌ على التَّفصيلِ في قَولِه: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [فصلت: ١٥]، وما عُطِفَ عليه مِن قَولِه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾ [فصلت: ١٧]؛ لِأنَّ مَوقِعَ هاتِه الجُملةِ المُتَضمِّنةِ إنجاءَ المُؤمِنينَ مِنَ العَذابِ بَعدَ أنْ ذَكَرَ عَذابَ عادٍ وعَذابَ ثَمودَ؛ يُشيرُ إلى أنَّ المعنَى إنجاءُ الذين آمَنوا مِن قَومِ عادٍ وقَومِ ثَمودَ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فمَضمونُ هذه الجُملةِ فيه مَعنى استِثناءٍ مِن عُمومِ أُمَّتَيْ عادٍ وثَمودَ، فيَكونُ لها حُكمُ الاستِثناءِ الوارِدِ بَعدَ جُمَلٍ مُتَعاقِبةٍ؛ أنَّه يَعودُ إلى جَميعِها[3].

- وقَولُه: ﴿وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، أيْ: كان سُنَّتُهم اتِّقاءَ اللهِ، والنَّظَرَ فيما يُنَجِّي مِن غَضَبِه وعِقابِه، وهو أبلَغُ في الوَصفِ مِن أنْ يُقالَ: والمُتَّقينَ[4].

---

= السعود)) (٨/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٣).

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضي المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّة؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذف، على سبيلِ الاكتفاءِ؛ إذِ التَّقْديرُ: تقيكُمُ الْحَرَّ والْبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦٤).

## الآيات (١٩-٢٤)

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُحْشَرُ﴾: أي: يُجمعُ ويُساقُ، والحَشرُ: الجمعُ مع سَوْقٍ، وكلُّ جمعٍ حَشْرٌ، وقيل: هو الجمعُ بكثرةٍ، والحشرُ: إخراجُ الجَماعةِ عن مقرِّهم، وإزعاجُهم عنه إلى الحربِ ونحوِها[1].

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُدفَعونَ، ويُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، وأصلُ الوَزْعِ: يدُلُّ على الكَفِّ والمَنعِ[2].

﴿أَرْدَاكُمْ﴾: أي: أهلَكَكم، والرَّدَى: الموتُ والهَلاكُ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَميٍ وتَرامٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦).

﴿مَثۡوٗى﴾: أي: مَنزِلٌ ومُقامٌ، وأصلُ الثَّواءِ: يدُلُّ على الإقامةِ مع الاستِقرارِ[١].

﴿يَسۡتَعۡتِبُواْ﴾: أي: يَطلُبوا إزالةَ غَضَبِ رَبِّهم بالتَّوبةِ وصالحِ العَمَلِ؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجُوعُ عَن الإساءَةِ، والتَّعَرُّضُ لِطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغَضَبُ والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتَبَه: إذا زالَ عنه عَتْبُه، واستَعْتَبَه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى -مبيِّنًا جانبًا مِن أحوالِ الكافرينَ يومَ القِيامةِ-: واذكُرْ يومَ يَجمَعُ اللهُ أعداءَه الكافِرينَ به، فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم، فيُساقُونَ إلى النَّارِ سَوقًا عَنيفًا مُهينًا، حتى إذا جاء أولئك الكُفَّارُ النَّارَ شَهِدَ عليهم سَمعُهم وأبصارُهم وجُلودُهم بما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا مِن آثامٍ! وقالوا لجُلودِهم مُنكِرينَ عليهم: لم شَهِدْتُم علينا؟! فقالتْ جلودُهم: أنطَقَنا اللهُ الَّذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرتِه، وهو خَلَقَكم أوَّلَ مَرَّةٍ، وإليه تُرجَعونَ بعدَ مَوتِكم!

وما كُنتُم في الدُّنيا تَستَخْفونَ بتَرْكِ الكُفرِ والمعاصي مخافةَ أنْ يَشهَدَ عليكم سَمعُكم وأبصارُكم وجُلودُكم يومَ القِيامةِ، ولكِنْ ظَنَنتُم أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كَثيرًا ممَّا تَعمَلونَ!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سُوءَ عاقبةِ ظنِّهم، فيقولُ: وذلكم الظَّنُّ السَّيِّئُ الذي ظَنَنْتُموه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣/ ٣٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٢٣).

بربِّكم أهلَكَكم فأصبَحتُم يومَ القِيامةِ مِنَ الخاسِرينَ الهالِكينَ.

فإنْ يَصبِرْ أولئك الكُفَّارُ على النَّارِ فالنَّارُ مُستَقَرٌّ لهم أبدًا، وإن يَطلُبوا مِنَ اللهِ الرِّضا عنهم وقَبولَ تَوبتِهم ومَعذِرتِهم، فلن يَرضَى عنهم، ولنْ يَقبَلَ تَوبتَهم ومَعذِرتَهم!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالَى كَيفيَّةَ عُقوبةِ أولئك الكُفَّارِ في الدُّنيا، أردَفَه بكَيفيَّةِ عُقوبةِ الكُفَّارِ أولئك وغَيرِهم في الآخِرةِ؛ ليحصُلَ منه تمامُ الاعتبارِ في الزَّجرِ والتَّحذيرِ[١].

وأيضًا لَمَّا فُرِغَ مِن مَوعِظةِ المُشرِكينَ بِحالِ الأُمَمِ المُكَذِّبةِ مِن قَبلِهم، وإنذارِهم بعَذابٍ يَحلُّ بهم في الدُّنيا كما حَلَّ بأولئك؛ لِيكونَ لهم ذلك عِبرةً؛ فإنَّ لاستِحضارِ النَّظائرِ أثَرًا في النَّفْسِ تَعتَبِرُ به ما لا تَعتَبِرُ بتَوصيفِ المَعاني العَقليَّةِ؛ انتُقِلَ إلى إنذارِهم بما سَيحِلُّ بهم في الآخِرةِ[٢].

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يَجمَعُ اللهُ أعداءَه الكافِرينَ به، فيُحبَسُ أوَّلُهم على آخِرِهم حتَّى يجتَمِعوا ويُساقوا إلى النَّارِ سَوقًا عَنيفًا[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤، ٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٦-١١٨). =

كما قال تعالَى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: حتَّى إذا جاء الكُفَّارُ النَّارَ شَهِدَ عليهم سَمعُهم وأبصارُهم وجُلودُهم بما كانوا يَعمَلونَ بها في الدُّنيا مِن آثامٍ(١).

---

= قال الشوكانيُّ: (ومعنَى حَشْرِهم إلى النَّارِ سَوْقُهم إليها، أوْ إلى موقفِ الحِسابِ؛ لأنَّه يَتَبَيَّنُ عندَه فريقُ الجنَّةِ، وفريقُ النَّارِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٦).

وقال ابنُ عطيةَ: (﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ هم الكفَّارُ المخالِفونَ لأمْرِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠).

وقال ابن عاشور: (و﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾: هم مُشْرِكو قُريشٍ؛ لأنَّهم أعداءُ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠).

وقال الشِّنقيطي: (أصلُ معنى ﴿يُوزَعُونَ﴾ أي: يُكَفُّ أوَّلُهم عن التقَدُّمِ، وآخِرُهم عن التأخُّرِ، حتى يجتَمِعوا جميعًا، وذلك يدُلُّ على أنَّهم يُساقُونَ سَوقًا عَنيفًا يُجمَعُ به أوَّلُهم مع آخِرِهم... ولعَلَّ الوَزْعَ المذكورَ في الآيةِ يكونُ في الزُّمرةِ الواحِدةِ مِن زُمَرِ أهلِ النَّارِ؛ لأنَّهم يُساقُونَ إلى النَّارِ زُمَرًا زُمَرًا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥).

وقال ابنُ عُثَيمين: (ولها معنًى آخَرُ أيضًا: يُساقون بالتوزيعِ، يعني: أنَّهم طوائفُ وأممٌ، كلَّما دخَلت أمَّةٌ لعَنتْ أختَها، فهُمْ يُوزَعونَ بالسِّياقِ، أي: يُساقونَ، ويُوزَعون أيضًا بالتفريقِ، كلُّ أمَّةٍ وحدَها). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

قال ابنُ الجوزي: (وفي المرادِ بالجُلودِ ثلاثةُ أقوالٍ: أحَدُها: الأيدي والأرجُلُ. والثاني: الفُروجُ. رُوِيَا عن ابنِ عبَّاسٍ. والثَّالثُ: أنَّه الجُلودُ نَفسُها. حكاه الماورديُّ) ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٦).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ عُمومُ الجُلودِ مِن جَسَدِ الإنسانِ: ابنُ جرير، واستظهره الماورديُّ، =

كما قال الله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢١﴾.

﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ عِتابًا لجُلودِهم، وإنكارًا عليهم حينَ شَهِدَت عليهم: لمَ شَهِدْتُم علينا بما كُنَّا نَعمَلُه مِنَ السَّيِّئاتِ في الدُّنيا[1]؟!

﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾.

أي: فأجابتِ الجُلودُ أصحابَها: أنطَقَنا اللهُ الذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ بقُدرتِه ومَشيئتِه، فنطَقْنا بغَيرِ اختيارٍ مِنَّا[2]!

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالَى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ

---

= واختاره ابنُ عاشور، ونَسَبَه ابنُ عطية للجمهور، ونسَبه القرطبيُّ لأكثرِ المفسِّرين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالجُلودِ هنا: الفُروجُ: الفَرَّاءُ، وأبو السعود. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠، ١١).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عباسٍ في رِوايةٍ عنه، وعُبَيدُ اللهِ بنُ أبي جَعفَرٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٨).

يَعۡمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا عِندَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فضَحِكَ، فقال: هل تَدرُونَ مِمَّ أضحَكُ؟! قُلْنا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ! قال: مِن مُخاطَبَةِ العَبدِ رَبَّه؛ يقولُ: يا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْني مِنَ الظُّلمِ؟ قال: يقولُ: بلَى! قال: فيقولُ: فإنِّي لا أُجيزُ على نَفسي إلَّا شاهِدًا مِنِّي! قال: فيقولُ: كفَى بنَفسِك اليومَ عليك شَهيدًا، وبالكِرامِ الكاتِبينَ شُهودًا. قال: فيُختَمُ على فيه، فيُقالُ لأركانِه[1]: انطِقِي. قال: فتَنطِقُ بأعمالِه، ثم يُخلَّى بيْنَه وبيْنَ الكلامِ، قال: فيقولُ: بُعدًا لَكُنَّ وسُحقًا؛ فعَنْكنَّ كنتُ أُناضِلُ[2]!))[3].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في حديثِ الرُّؤيةِ الطَّويلِ، وفي آخِرِه أنَّ اللهَ يُحاسِبُ المنافِقَ: ((فيَقولُ: يا رَبِّ آمَنتُ بك وبِكتابِك وبرُسُلِك، وصَلَّيتُ وصُمتُ وتصَدَّقتُ، ويُثني بخَيرٍ ما استطاعَ! فيقولُ: ها هنا إذَنْ، ثمَّ يُقالُ له: الآنَ نَبعَثُ شاهِدَنا عليك! ويتفَكَّرُ في نَفسِه: مَن ذا الذي يَشهَدُ عَليَّ؟! فيُختَمُ على فيه، ويُقالُ لِفَخِذِه ولَحمِه وعِظامِه: انطِقِي، فتَنطِقُ فَخِذُه ولَحمُه وعِظامُه بعَمَلِه؛ وذلك لِيُعذِرَ[4] مِن نَفسِه، وذلك المنافِقُ،

---

(١) لأركانِه: أي: لجوارِحِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٥).

(٢) أناضِلُ: أي: أُدافِعُ وأجادِلُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٥).

(٣) رواه مسلم (٢٩٦٩).

(٤) لِيُعذِرَ: مِنَ الإعذارِ، وهو إقامةُ الحُجَّةِ على أحَدٍ بحيثُ لا يَبقى له عُذرٌ، والمعنى: لِيُزيلَ اللهُ عُذرَه مِن قِبَلِ نَفسِه بكثرةِ ذُنوبِه وشَهادةِ أعضائِه عليه، بحيثُ لم يَبقَ له عُذرٌ يتمَسَّكُ به. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٢٩).

وذلك الَّذي يَسخَطُ اللهُ عليه))[١].

وعن مُعاويةَ بنِ حَيْدةَ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: ((أوَّلُ ما يُعرِبُ[٢] عن أحَدِكم فَخِذُه))[٣].

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

أي: واللهُ خلَقَكم أوَّلَ مَرَّةٍ ولم تكونوا شيئًا؛ فالذي قَدَر على ذلك قادِرٌ على إنطاقِ الجُلودِ[٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٢) يُعرِبُ: أي: يَنطِقُ ويَتكَلَّمُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٢٠١).

(٣) أخرجه مُطَوَّلًا النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٣١)، وأحمد (٢٠٠١١) واللَّفظُ له.
حَسَّنه البَغَوي في ((شرح السنة)) (٧/ ٥٠٠)، وصَحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مشكل الآثار)) (٤١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٨).
قال الألوسي: (قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن تمامِ كَلامِ الجُلودِ ومَقولِ القَولِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ مُستأنَفًا مِن كَلامِه عزَّ وجلَّ، والأوَّلُ أظهَرُ. والمرادُ على كُلِّ حالٍ: تقريرُ ما قَبلَه بأنَّ القادِرَ على الخَلقِ أوَّلَ مَرَّةٍ قادِرٌ على الإنطاقِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٨). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠).
وممَّن ذهَب إلى أنَّه من كلامِ الجُلودِ: ابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٠).
والقَولُ بأنَّه ابتداءُ كلامٍ لله تعالى هو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، وممَّن ذهَب إليه: النَّحَّاسُ، والواحديُّ، والبَغويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٩)، ((معاني القرآن)) للنَّحَّاس (٦/ ٢٥٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٠).
وذكَر ابنُ عُثَيمين أنَّ جعْلَه مِن كَلامِ الجُلودِ حتَّى يتَّصِلَ الكلامُ بَعضُه ببعض: أقرَبُ مِن حيثُ اللَّفظُ، لكِنَّ القَولَ الثَّانيَ أقوَمُ للمعنَى، وذَكَر وَجْهَ هذا القَولِ الثاني: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ أنَّ هؤلاء يُحاسَبونَ يَومَ القِيامةِ، وتَشهَدُ عليهم جَوارِحُهم وجُلودُهم، بَيَّنَ أنَّه قادِرٌ على الإعادة؛ =

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ تُردُّونَ بعدَ مَوتِكم، فيُجازيكم على أعمالِكم[1].

كما قال تعالَى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

وكما قال سُبحانَه: ﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾.

**سَبَبُ النُّزولِ:**

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (اجتمَعَ عندَ البَيتِ ثَلاثةُ نَفَرٍ؛ قُرَشِيَّانِ

---

= فالقادِرُ على الخَلْقِ أوَّلَ مَرَّةٍ قادِرٌ على الإعادةِ، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]؛ لأنَّ هؤلاء الذين كَذَّبوا يُنكِرونَ البَعثَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٢٢).

وقال السعديُّ: (﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما خلَقكم بذواتِكم، وأجسامِكم، خلَق أيضًا صفاتِكم، ومِن ذلك الإنطاقُ... ويحتَمِلُ أنَّ المرادَ بذلك: الاستِدلالُ على البَعثِ بالخَلقِ الأوَّلِ، كما هو طريقةُ القُرآنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

وثَقَفيٌّ، أو ثَقَفيَّانِ وقُرَشيٌّ، قَليلٌ فِقهُ قُلوبِهم، كثيرٌ شَحمُ بُطونِهم، فقال أحَدُهم: أتُرَونَ اللهَ يَسمَعُ ما نقولُ؟ وقال الآخَرُ: يَسمَعُ إنْ جَهَرْنا، ولا يَسمَعْ إنْ أخفَيْنا! وقال الآخَرُ: إنْ كان يَسمَعُ إذا جهَرْنا فهو يَسمَعُ إذا أخفَيْنا! فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ...﴾ [فصلت: ٢٢] الآية)[1].

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾.

أي: وما كُنتُم في الدُّنيا تَستَخْفُونَ بتَرْكِ الكفرِ والمعاصي؛ لِئَلَّا يَشهَدَ عليكم سَمعُكم ولا أبصارُكم ولا جُلودُكم يومَ القِيامةِ[2]!

---

(١) رواه البخاري (٤٨١٦) ومسلم (٢٧٧٥) واللفظ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧١).

قال ابنُ عطية: (يحتَمِلُ أنْ يكونَ مِن كَلامِ الجُلودِ ومُحاورتِها، ويحتَمِلُ أنْ يكونَ مِن كَلامِ اللهِ عزَّ وجَلَّ لهم، أو مِن كَلامِ مَلَكٍ يأمُرُه تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١).

وقال البغويُّ: (﴿تَسْتَتِرُونَ﴾، أي: تستَخْفونَ، عِندَ أكثرِ أهلِ العِلمِ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٠).

قيل: المرادُ: وما كنتُم في الدُّنيا تَسْتخفونَ حذرًا مِن شَهادةِ سمْعِكم وأبصارِكم وجلودِكم يومَ القِيامةِ، وذلك بتركِ الكُفرِ والمعاصي. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنَى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كَثير، والشوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

قال الشوكانيُّ: (لَمَّا كانَ الإنسانُ لا يقدِرُ على أنْ يستخفِيَ مِن جوارِحِه عندَ مباشرةِ المعصيةِ كانَ معنَى الاستخفاءِ هنا تركَ المعصيةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٧).

وقيل: معنى ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ﴾ أي: ما كُنتُم تَستَخْفونَ مِن أنْ تَشهَدَ عليكم جَوارِحُكم؛ لِأنَّكم ما كُنتُم تَظُنُّونَ ذلك، فلم تَكونوا تَخافون أنْ تَشهَدَ عليكم فتَستَتِروا منها، أو لِأنَّكم لا تَقدِرونَ على الاستِخفاءِ منها. ممَّن قال بهذا المعنَى في الجُملةِ: الواحديُّ، =

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ولكِنْ ظَنَنْتُم في الدُّنيا أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ كَثيرًا مِنَ السَّيِّئاتِ التي كُنتُم تَعمَلونَها[1].

﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾.

أي: وظَنُّكم السَّيِّئُ هذا قد أهلَكَكم، فأصبَحتُم يومَ القِيامةِ مِنَ الهالِكينَ[2].

---

= والسمعانيُّ، وابنُ الجوزي، والرَّسعنيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢١).

وقيل: المعنى: أنَّكم كُنتُم تَستَتِرونَ بالحِيطانِ والحُجُبِ عِندَ ارتِكابِ الفَواحِشِ، وما كان استِتارُكم ذلك خِيفةَ أنْ تَشهَدَ عليكم جَوارِحُكم. ومِمَّن ذَهَبَ إلى هذا: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والبيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، وأبو السعود، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٢).

قال الرازي: (المعنَى إثباتُ أنَّهم كانوا يستترونَ عندَ الإقدامِ على الأعمالِ القَبيحةِ، إلَّا أنَّ استتارَهم ما كانَ لأجلِ خوفِهم مِن أنْ يشهدَ عليهم سَمْعُهم وأبصارُهم وجُلودُهم؛ وذلك لأنَّهم كانوا منكرينَ للبعثِ والقِيامةِ، ولكنَّ ذلك الاستتارَ لأجلِ أنَّهم كانوا يظنُّونَ أنَّ اللَّهَ لا يعلمُ الأعمالَ الَّتي يُقْدِمونَ عليها على سبيلِ الخفيةِ والاستتارِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

قال ابن الجوزي: (﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: كان الكفَّارُ يقولونَ: إنَّ الله لا يَعلمُ ما في أنفُسِنا، ولكنَّه يعلمُ ما يَظهرُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠).

وقال السمعاني: (هو قَولُ مَن قالَ: إنَّ الله يسمعُ إذا جهرْنا، ولا يسمعُ إذا أخْفَيْنا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧).

وقال ابن عاشور: (معنى الآيةِ...: أنَّ اللهَ عليمٌ بأعمالِكم ونِيَّاتِكم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها إنْ جهَرْتُم أو سَتَرْتُم، وليس اللهُ بحاجةٍ إلى شَهادةِ جوارِحِكم عليكم، وما أوقَعَكم في هذا الضُّرِّ إلَّا سُوءُ ظَنِّكم بجلالِ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٢، ٤١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾.

أي: فإنْ يَصبِرْ أولئك الكُفَّارُ على النَّارِ، فالنَّارُ مَسكَنٌ لهم ومُستَقَرٌّ، ولا مَخرَجَ لهم مِنها أبدًا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

قال الألوسيُّ: (﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ أي: محلُّ ثواءٍ وإقامةٍ أَبديةٍ لهم بحيثُ لا براحَ لهم منها، وترتيبُ الجزاءِ على الشَّرطِ لأنَّ التقديرَ: إنْ يَصبِروا -والظنُّ أنَّ الصبرَ ينفعُهم؛ لأنَّه مفتاحُ الفرجِ- لا ينفَعْهم صبرُهم إذا لم يصادفْ محلَّه؛ فإنَّ النارَ محلُّهم لا محالةَ. وقيل: في الكلامِ حذْفٌ، والتقديرُ: أو لا يَصبروا كقولِه تعالى: ﴿فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [الطور: ١٦]. وقيل: المرادُ فإنْ يَصبِروا على ترْكِ دِينِك واتِّباعِ هواهم فالنارُ مثوًى لهم، وليس بذاك). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧٠).

وممَّن ذهَب إلى المعنى الأوَّل: الزمخشريُّ، والنسفيُّ، والبقاعيُّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٢٧).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المعنى: فإنْ يَصبِروا أو لا يَصبِروا لا يَنفَعْهم صبرٌ ولا جزَعٌ: مكيٌّ، والسمعانيُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ كثير. يُنظر: ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٥١١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٣).

قال السعديُّ: (﴿ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ فلا جَلَدَ عليها ولا صَبرَ، وكُلُّ حالةٍ قُدِّر إمكانُ الصَّبرِ عليها فالنَّارُ لا يمكِنُ الصَّبرُ عليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧).

وممَّن ذهب إلى القول الثَّالِث -وهو أنَّ المعنى: فإنْ يصبِروا في الدُّنيا على أعمالِ أهلِ النَّارِ فالنَّارُ مثوى لهم-: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٣).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى...: أنَّ حاصِلَ أمْرِهم أنَّهم قد زُجَّ بهم في النَّارِ؛ فإنْ صَبَروا واستَسلَموا فهم باقُونَ في النَّارِ، وإنْ اعتَذَروا لم ينفَعْهم العُذرُ ولم يُقبَلْ منهم تنَصُّلٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

كما قال تعالَى -حاكيًا عن أهلِ النَّارِ قولَهم-: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

﴿وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ﴾.

أي: وإنْ طَلَبوا مِنَ اللهِ الرِّضا عنهم، وقَبولَ تَوبتِهم واعتِذارِهم عن أعمالِهم السَّيِّئةِ؛ فلا يُؤاخِذُهم بها؛ فلنْ يَرضَى عنهم، ولن يَقبَلَ تَوبتَهم واعتِذارَهم، ولن يُخرِجَهم مِنَ النَّارِ(١).

كما قال الله تبارك تعالَى: ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ * رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ * قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٦ - ١٠٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [غافر: ٤٩، ٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ إثباتُ الرُّجوعِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فاستعِدَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣، ٢٧٤).

لهذا الرُّجوعِ، واعلمْ أنَّك مُلاقٍ ربَّك، ولكنْ أبْشِرْ إنْ كنتَ مؤمنًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، يعني: لا يَخافُ المؤمنُ مِن هذه الملاقاةِ؛ بلْ له البشارةُ في الدُّنيا قبْلَ الآخِرةِ، لكنَّ حَقيقةَ هذه البِشارةِ أنَّها للمُؤمنِ خاصَّةً[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۞ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ مِن حَقِّ المؤمِنِ ألَّا يَذهَبَ عنه ولا يَزولَ عن ذِهنِه أنَّ عليه مِنَ اللهِ تعالى عَينًا كالِئةً، ورَقيبًا مُهيمِنًا؛ حتَّى يكونَ في أوقاتِه وخَلَواتِه مِن رَبِّه أهيَبَ وأحسَنَ احتِشامًا، وأوفَرَ تحفُّظًا وتصوُّنًا منه مع الملأِ، ولا يَنبَسِطَ في سِرِّه؛ خوفًا مِن التشَبُّهِ بهؤلاءِ الظَّانِّينَ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ قَالَ الحَسَنُ البَصريُّ: (إنَّ قومًا ألهَتْهم الأمانيُّ حتى خَرَجوا مِنَ الدُّنيا وما لهم حَسَنةٌ، ويقولُ أحَدُهم: إنِّي أُحسِنُ الظَّنَّ برَبِّي، وكَذَبَ! ولو أحسَنَ الظَّنَّ لأحسَنَ العَمَلَ)[٣].

٤- قالَ اللَّه في حَقِّ مَنْ شَكَّ في تَعَلُّقِ سَمْعِه ببعضِ الجزئِيَّاتِ، وهو السِّرُّ مِنَ القولِ: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ فهؤلاءِ لَمَّا ظنُّوا أنَّ اللَّهَ سُبحانَه لا يَعْلَمُ كثيرًا مِمَّا يَعْملونَ، كان هذا إساءَةً لظَنِّهم بِرَبِّهم، فأَرْداهم ذلك الظَّنُّ، وهذا شَأْنُ كُلِّ مَنْ جَحَد صِفاتِ كمالِه، ونُعوتَ جَلالِه، ووَصَفه بما لا يَليقُ به، فإذا ظَنَّ هذا أنَّه يُدْخِلُه الجَنَّةَ كانَ هذا غُرورًا وَخِداعًا مِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٣).

نَفْسِه، وتَسْويلًا مِنَ الشَّيطانِ، لا إحسانَ ظَنٍّ برَبِّه.

فتَأَمَّلْ هذا الموضعَ، وتأمَّلْ شِدَّةَ الحاجةِ إليه، وكيفَ يَجْتَمِعُ في قلبِ العبدِ تَيَقُّنُه بأنَّه مُلاقٍ اللَّهَ، وأنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ ويَرَى مَكانَه، ويَعْلَمُ سِرَّه وعلانِيَتَه، ولا يخفَى عليه خافِيَةٌ مِنْ أمْرِه، وأنَّه مَوْقوفٌ بينَ يَدَيْه، ومَسْؤولٌ عن كُلِّ ما عَمِل، وهو مُقيمٌ على مَساخِطِه مُضَيِّعٌ لأوامِرِه، مُعَطِّلٌ لحُقوقِه، وهو معَ هذا يُحْسِنُ الظَّنَّ به، وهلْ هذا إلَّا مِنْ خِدَعِ النُّفوسِ، وغُرورِ الأمانِيِّ[1]؟!

٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ اعلَمْ أنَّ أسبابَ الضَّلالِ في العقائدِ كُلِّها إنَّما تأتي على النَّاسِ مِن فَسادِ التأمُّلِ، وسُرعةِ الإيقانِ، وعَدَمِ التَّمييزِ بينَ الدَّلائِلِ الصَّائِبةِ والدَّلائِلِ المُشابِهةِ؛ وكُلُّ ذلك يُفضِي إلى الوَهمِ المعَبَّرِ عنه بالظَّنِّ السَّيِّئِ أو الباطِلِ، وقد ذكَرَ اللهُ مِثْلَه في المُنافِقينَ، وأنَّ ظَنَّهم هو ظَنُّ أهلِ الجاهِلِيَّةِ، فقال: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ فلْيَحذَرِ المُؤمِنونَ مِن الوُقوعِ في مِثلِ هذه الأوهامِ، فيَبُوؤُوا ببَعضِ ما نُعِيَ على عَبَدةِ الأصنامِ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ شَهادةُ جَوارِحِهم وجُلودِهم عليهم: شَهادةُ تَكذيبٍ وافتِضاحٍ؛ لِأنَّ كَونَ ذلك شَهادةً يَقتَضي أنَّهم لَمَّا رَأَوُا النارَ اعتَذَروا بإنكارِ بَعضِ ذُنوبِهم؛ طَمَعًا في تَخفيفِ العَذابِ، وإلَّا فقدْ عَلِمَ اللهُ ما كانوا يَصنَعونَ، وشَهِدتْ به الحَفَظَةُ، وقُرِئَ عليهم كِتابُهم، وما أُحضِروا لِلنَّارِ إلَّا وقدْ تَحقَّقتْ إدانَتُهم، فما كانتْ

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

شَهادةُ جَوارِحِهم إلَّا زِيادةَ خِزيٍ لهم، وتَحسيرًا وتَنديمًا على سُوءِ اعتِقادِهم في سَعةِ عِلْمِ اللهِ[١].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ جوازُ استِعمالِ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ، ويُؤخَذُ ذلِك مِنَ استِدلالِ اللهِ تعالى بالمَبدأِ على المَعادِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فإنَّ هذا دَليلٌ عَقليٌّ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ إشارةٌ إلى الحِكمةِ مِن خَلْقِ الخَلْقِ: أنَّهم يُبتَلَوْنَ فيُؤمَرونَ ويُنهَوْنَ، ومآلُهم إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ يُجازيهم بحَسَبِ أعمالِهم التي كَلَّفَهم بها[٣].

٤- أصولُ الإحساسِ ثلاثةٌ: السمعُ والبصرُ والمَسُّ؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾[٤].

٥- قَولُ الله تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ هذا نَصٌّ صَريحٌ في أنَّ مَن ظَنَّ باللهِ تعالى أنَّه يَخرُجُ شَيءٌ مِن المعلوماتِ عن عِلمِه، فإنَّه يكونُ مِن الهالِكينَ الخاسِرينَ[٥].

٦- أنَّ اللهَ سُبحانَه جَعَلَ مُنكِرَ صِفاتِه مُسِيءَ الظَّنِّ به، وتَوَعَّدَه بما لم يَتَوَعَّدْ به غيرَه مِن أهلِ الشِّركِ والكُفرِ والكَبائرِ، فقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٣٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٧).

﴿ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ فأخبرَ سُبحانَه أنَّ إنكارَهم هذه الصِّفةَ مِن صِفاتِه هو مِن سُوءِ ظَنِّهم به، وأنَّه هو الذي أهلَكَهم[١]، فأعظمُ الذُّنوبِ عندَ اللَّهِ إساءَةُ الظَّنِّ بِه؛ فإنَّ المُسِيءَ به الظَّنَّ قدْ ظَنَّ به خِلافَ كمالِه المُقَدَّسِ، وظَنَّ به ما يُناقِضُ أسماءَه وصِفاتِه[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

- التَّعبيرُ عنهم بـ﴿أَعْدَآءُ ٱللَّهِ﴾ تَعالَى؛ لِذَمِّهم، والإيذانِ بعِلَّةِ ما يَحِيقُ بهم مِن ألوانِ العَذابِ[٣].

- قولُه: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ وَيَوْمَ ﴾ مَفعولٌ لِفعلِ (واذْكُرْ) مَحذوفًا، وقيل: جُملةُ ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ... ﴾ الآياتِ، مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً ... ﴾ [فصلت: ١٣] الآياتِ، والتَّقديرُ: وأنذِرْهم يومَ نَحشُرُ أعداءَ اللهِ إلى النارِ، ودَلَّ على هذا المُقَدَّرِ قَولُه: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً ... ﴾ [فصلت: ١٣] إلخ، أيْ: وأنذِرْهم يومَ عِقابِ الآخِرةِ[٤].

- ويَتعَلَّقُ قَولُه: ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بـ﴿يُحْشَرُ﴾؛ لِتَضمينِ ﴿يُحْشَرُ﴾ مَعنى: يُرسَلُ، أيْ: يُرسَلُون إلى النَّارِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٦٥).

- قولُه: ﴿إِلَى ٱلنَّارِ﴾، أيْ: إلى مَوقِفِ الحِسابِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ إذْ هناك تَتَحَقَّقُ الشَّهادةُ الآتيةُ، لا بِعَدَمِ تَمامِ السُّؤالِ والجَوابِ وسَوْقِهم إلى النَّارِ، والتَّعبيرُ عن مَوقفِ الحِسابِ بالنَّارِ؛ إمَّا للإيذانِ بأنَّها عاقِبةُ حَشرِهم، وأنَّهم على شَرَفِ دُخولِها، وإمَّا لِأنَّ حِسابَهُم يَكونُ على شَفيرِها[1].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ عَطفٌ وتَفريعٌ على ﴿يُحۡشَرُ﴾؛ لأنَّ الحَشرَ يَقتَضي الوَزعَ؛ إذْ هو مِن لَوازِمِه عُرفًا؛ إذ الحَشرُ يَستلزِمُ كَثرةَ عدَدِ المَحشورِين، وكَثرةُ العَدَدِ تَستَلزِمُ الاختِلاطَ، وتَداخُلَ بَعضِهم في بَعضٍ؛ فلا غِنى لهم عنِ الوَزعِ؛ لِتَصفيفِهم، ورَدِّ بَعضِهم عن بَعضٍ. والوَزعُ: كَفُّ بَعضِهم عن بَعضٍ، ومَنعُهم مِنَ الفَوضى، وهو كِنايةٌ وعِبارةٌ عن كَثرةِ المَحشورينَ[2].

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ﴾ قالَه هنا بذِكرِ (ما)، وبحَذفِها في قَولِه في (النَّملِ): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو﴾ [النمل: ٨٤]، وفي (الزُّمَرِ): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ [الزمر: ٧١]، وفي (الزُّخرُفِ): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ [الزخرف: ٣٨]؛ لِأنَّ الكَلامَ هنا في أعداءِ اللهِ أبسَطُ وآكَدُ منه في البَقيَّةِ، فناسَبَ ذلك ذِكرَ (مَا)؛ لِلتَّأكيدِ على اتِّصالِ الشَّهادةِ بالحُضورِ، ومَعنى التَّأكيدِ فيها: أنَّ وَقتَ مَجيئِهم النارَ لا مَحالةَ أنْ يَكونَ وَقتَ الشَّهادةِ عليهم، ولا وَجهَ لِأنْ يَخلُوَ منها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٥٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص ٥٠٥، ٥٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٦، ٥٤٧).

- وجُملةُ ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ ...﴾ جوابُ (إذا)؛ قيل: في الكلامِ حذْفٌ، والتَّقديرُ: حتَّى إذا ما جاؤُوها -أي: النارَ- وسُئِلوا عَمَّا أجْرَموا فأنكَروا، شَهِد عليهم سَمْعُهم وأبْصارُهم وجُلودُهم بما اكتَسَبوا مِنَ الجَرائِمِ، وكانوا حَسِبوا أنْ لا شاهِدَ عليهم. وقيل: أحسَنُ مِن ذلك أنْ يكونَ جوابُ (إذا) مَحذوفًا؛ للتَّهويلِ، وحذْفُ مِثلِه كثيرٌ في القرآنِ، وتكونَ جُملةُ ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾ إلى آخِرِها مُستَأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا نَشَأ عن مُفادِ (حَتَّى) مِنَ الغايةِ؛ لأنَّ السائِلَ يَتطَلَّبُ: ماذا حَصَلَ بيْن حَشرِهم إلى النَّارِ، وبيْن حُضورِهم عِندَ النارِ؟ فأُجيبَ بأنَّه ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم﴾، إلى قَولِه: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [فصلت: ٢١]، ويَتضَمَّنُ ذلك أنَّهم حُوسِبوا على أعمالِهم وأنكَروها، فشَهِدتْ عليهم جَوارِحُهم وأجسادُهم. أو أنْ يكونَ جوابُ (إذا) قولَه: ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ...﴾ [فصلت: ٢٤]، وجُملةُ ﴿شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ وما عُطِفَ عليها مُعترضةً بيْن الشَّرْطِ وجَوابِه[1].

- وتَخصيصُ السَّمعِ والأبصارِ والجُلودِ بالشَّهادةِ على هؤلاء دُونَ بَقيَّةِ الجَوارِحِ؛ لِأنَّ لِلسَّمعِ اختِصاصًا بتَلَقِّي دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَلَقِّي آياتِ القُرآنِ؛ فسَمْعُهم يَشهَدُ عليهم بأنَّهم كانوا يَصرِفونَه عن سَماعِ ذلك، كما حكَى اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، ولِأنَّ لِلأبصارِ اختِصاصًا بمُشاهَدةِ دَلائِلِ المَصنوعاتِ الدَّالَّةِ على انفِرادِ اللهِ تعالَى بالخَلقِ والتَّدبيرِ، فذلك دَليلُ وَحدانيَّتِه في إلهيَّتِه، وشَهادةُ الجُلودِ؛ لِأنَّ الجِلدَ يَحوي جَميعَ الجَسَدِ؛ لِتَكونَ شَهادةُ الجُلودِ عليهم شَهادةً على أنْفُسِها، فيَظهَرَ استِحقاقُها لِلحَرقِ بالنَّارِ لِبَقيَّةِ الأجسادِ دُونَ اقتِصارٍ على حَرقِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٦).

مَوضِعِ السَّمعِ والبَصَرِ؛ ولذلك اقتَصَروا في تَوجيهِ المَلامةِ على جُلودِهم؛ لأنَّها حاويةٌ لِجَميعِ الحَواسِّ والجَوارِحِ، وبهذا يَظهَرُ وَجهُ الاقتِصارِ على شَهادةِ السَّمعِ والأبصارِ والجُلودِ هنا، بخِلافِ آيةِ سُورةِ (النُّورِ): ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]؛ لِأنَّ آيةَ (النُّورِ) تَصِفُ الذين يَرمونَ المُحصَناتِ، وهمُ الذين اختَلَقوا تُهمةَ الإفْكِ، ومَشَوْا في المَجامِعِ يُشيعونَها بيْن الناسِ، ويُشيرونَ بأيديهم إلى مَنِ اتَّهَموه إفْكًا[١].

وقيلَ: لَمَّا كانتِ الحَواسُّ خَمسًا: السَّمعَ، والبَصَرَ، والشَّمَّ، والذَّوقَ، واللَّمسَ، وكانَ الذَّوقُ مُندَرِجًا في اللَّمسِ؛ إذْ بمُماسَّةِ جِلدةِ اللِّسانِ والحَنَكِ لِلمَذوقِ يَحصُلُ إدراكُ المَذوقِ، وكانَ حِسُّ الشَّمِّ ليسَ فيه تَكليفٌ ولا أمْرٌ ولا نَهيٌ[٢]، وهو ضَعيفٌ؛ اقتُصِرَ مِنَ الحَواسِّ على السَّمعِ والبَصَرِ واللَّمسِ؛ إذْ هذه هي التي جاءَ فيها التَّكليفُ؛ فهذه -واللهُ أعلَمُ- حِكمةُ الاقتِصارِ على هذه الثَّلاثةِ[٣]. أو خَصَّ هذه الأعضاءَ الثَّلاثةَ؛ لأنَّ أكثَرَ الذُّنوبِ إنَّما تقَعُ بها، أو بسَببِها[٤].

- وأفرَدَ ﴿سَمْعُهُمْ﴾؛ لِتَقارُبِ النَّاسِ فيه، وجمَعَ (أَبْصَارُهُمْ)؛ لِعِظَمِ التَّفاوتِ فيها[٥].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم﴾ كِنايةٌ عن مَوصوفٍ -على القولِ بأنَّ المرادَ بالجُلودِ الفُروجُ خاصَّةً-؛ فقد كَنَّى عنِ الفُروجِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٧).

(٢) لكن ذكَر ابنُ القيِّم أنَّ حاسةَ الشمِّ تتعلَّقُ بها العبودياتُ الخمسُ؛ فقد يكونُ الشمُّ واجبًا أو مستحبًّا أو حرامًا أو مكروهًا أو مباحًا. يُنظر: ((مدارج السالكين)) (١/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٤٧).

وتقدَّم في الفوائدِ أنَّ هذه الثلاثةَ هي أصولُ الإحساسِ.

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٩).

بالجُلودِ. وجَعْلُ الكلامِ كِنايةً أنسَبُ بتَخصيصِ السُّؤالِ بها في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ [فصلت: ٢١]؛ فإنَّ ما تَشهَدُ به مِنَ الزِّنا أعظَمُ جِنايةً وقُبحًا وأجلَبُ لِلخِزْيِ والعُقوبةِ مِمَّا يَشهَدُ به السَّمعُ والأبصارُ مِنَ الجِناياتِ المُكتَسَبةِ بتَوسُّطِهما، وعلى القولِ بأنَّه أرادَ بالجُلودِ الجَوارِحَ عامَّةً، والعَطفُ مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ فليس في الكَلامِ كِنايةٌ إذَنْ[1].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا﴾ مُستَعمَلٌ في المَلامةِ والتَّوبيخِ والتَّعَجُّبِ مِن هذا الأمْرِ، وهم يَحسَبونَ أنَّ جُلودَهم -لِكَونِها جُزءًا منهم- لا يَحِقُّ لها شَهادَتُها عليهم؛ لِأنَّها تَجُرُّ العَذابَ إليها[2]. وإنَّما قالوا ذلك لِجُلودِهم دُونَ أنْ يَقولوهُ لِسَمْعِهم وأبصارِهم؛ لِأنَّ الجُلودَ مُواجِهةٌ لهم يَتَوَجَّهونَ إليها بالمَلامةِ[3]، أو: لأنَّ عَذابَ الجِلدِ عامٌّ يَشمَلُ الجَسَدَ كلَّه، لكِنَّ عَذابَ السَّمْعِ والبَصَرِ خاصٌّ بالسَّمْعِ والبَصَرِ، كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾[4] [النساء: ٥٦].

وقيل: لا قصْدَ هنا للسُّؤالِ أصْلًا، وإنَّما القصْدُ إلى التَّعجُّبِ ابتداءً؛ لأنَّ التَّعجُّبَ يكونُ فيما لا يُعلَمُ سَببُه وعِلَّتُه؛ فالسُّؤالُ عن العِلَّةِ المُستلزِم لعدَمِ مَعرفتِها جُعِلَ كِنايةً عن التَّعجُّبِ، فقدْ قيل: إذا ظهَرَ السَّببُ بطَلَ العجَبُ، فكأنَّه قِيل: ليْس

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩، ١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ٢٣١).

نُطقُنا بعَجَبٍ مِن قُدرةِ اللهِ تعالَى الذي أنْطَقَ كلَّ شَيءٍ[١].

- وإجراءُ ضَمائِرِ السَّمعِ والبَصَرِ والجُلودِ بصِيغَتَيْ ضَميرِ جَمعِ العُقَلاءِ؛ لِأنَّ التَّحاوُرَ معها صَيَّرَها بحالةِ العُقَلاءِ يومَئِذٍ، ولِوُقوعِها في مَوقِعِ السُّؤالِ والجَوابِ المُختَصَّيْنِ بالعُقَلاءِ[٢].

- قَولُه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ قيل: المَعنى: الذي أنطَقَ كُلَّ شَيءٍ له نُطقٌ مِنَ الحَيَوانِ، واختِلافُ دَلالةِ أصواتِها على وِجدانِها؛ فعُمومُ ﴿كُلَّ شَىۡءٍ﴾ مَخصوصٌ بالعُرفِ[٣].

- قولُه: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ يَجوزُ أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ والتي عُطِفتْ عليها مِن تَمامِ ما أنطَقَ اللهُ به جُلودَهم؛ تَشهيرًا بخَطَئِهم في إنكارِهمُ البَعثَ والمَصيرَ إلى الله؛ لِزِيادةِ التَّنديمِ والتَّحسيرِ، وهذا ظاهِرُ كَونِ الواوِ في أوَّلِ الجُملةِ واوَ العَطفِ؛ فَيَكونَ التَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ لاستِحضارِ حالَتِهم؛ فإنَّهم ساعَتَئِذٍ في قَبضةِ تَصَرُّفِ اللهِ مُباشَرةً، وأمَّا رُجوعُهم بمَعنى البَعثِ فإنَّه قدْ مَضى بالنِّسبةِ لِوَقتِ إحضارِهم عِندَ جَهَنَّمَ، أو يَكونُ المُرادُ بالرُّجوعِ الرُّجوعَ إلى ما يَنتَظِرُهم مِنَ العَذابِ الخالِدِ المُترَتِّبِ عِندَ التَّخاطُبِ، على تَغليبِ المُتَوقَّعِ على الواقِعِ، على أنَّ فيه مراعاةَ الفواصلِ. ويَجوزُ أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ وما بَعدَها اعتِراضًا بيْن جُملةِ ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وجُملةِ ﴿فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡ﴾ [فصلت: ٢٤]، وهو كَلامٌ مُوَجَّهٌ مِن جانِبِ اللهِ تعالَى إلى المُشرِكينَ

---

(١) يُنظَر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٨)

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٨).

الأحياءِ؛ لِتَذكيرِهم بالبَعثِ عَقِبَ ذِكرِ حالِهم في القِيامةِ؛ انتِهازًا لِفُرصةِ المَوعِظةِ السَّابِقةِ عِندَ تَأثُّرِهم بسَماعِها، وَيَكونَ فِعلُ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ مُستَعمَلًا في الاستِقبالِ على أصْلِه. والكَلامُ استِدلالٌ على إمكانِ البَعثِ(١).

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ التَّعبيرُ بصِيغةِ المضارِعِ إذا كان الخِطابُ يومَ القِيامةِ -مع أنَّ الرَّجْعَ فيه مُتحقِّقٌ لا مُستقبَلٌ-؛ لِمَا أنَّ المرادَ بالرجْعِ ليس مجرَّدَ الرَّدِّ إلى الحَياةِ بالبعثِ، بلْ ما يعمُّه وما يَترتَّبُ عليه مِن العذابِ الخالِدِ المرتقَبِ عِندَ التَّخاطُبِ على تَغليبِ المتوقَّعِ على الواقِعِ. وجُوِّزَ أنْ تكونَ لاستحضارِ الصُّورةِ(٢).

- وتَقديمُ مُتعلَّقِ ﴿تُرْجَعُونَ﴾ عليه؛ لِلاهتِمامِ ورِعايةِ الفاصِلةِ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ حِكايةٌ لِمَا سَيُقالُ لَهم يومَئِذٍ مِن جِهَتِه تعالَى بطَريقِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ؛ تَقريرًا لِجَوابِ الجُلودِ -على قولٍ-، أيْ: ما كُنتُم تَستَتِرونَ في الدُّنيا عِندَ مُباشَرَتِكم الفَواحِشَ؛ مَخافةَ أنْ تَشهَدَ عليكم جَوارِحُكم بذلك كما كُنتُم تَستَتِرون مِنَ النَّاسِ؛ مَخافةَ الافتِضاحِ عِندَهم، بلْ كُنتُم جاحِدينَ البَعثَ والجَزاءَ رَأْسًا(٤).

ويَجوزُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ ...﴾ بتَمامِها مَعطوفةً على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠).

جُملةِ ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ...﴾ [فصلت: ٢١] إلخ؛ فتَكونَ مَشمولةً لِلاعتِراضِ، مُتَّصِلةً بالتي قَبلَها. ويَجوزُ أنْ تَكونَ مُستَقِلَّةً عنها: إمَّا مَعطوفةً على جُملةِ ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ [فصلت: ١٩] الآياتِ، وإمَّا مُعتَرِضةً بيْن تلك الجُملةِ وجُملةِ ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [فصلت: ٢٤]، وتَكونَ الواوُ اعتِراضيَّةً، ومُناسَبةُ الاعتِراضِ ما جَرَى مِن ذِكرِ شَهادةِ سَمعِهم وأبصارِهم وجُلودِهم عليهم؛ فيَكونَ الخِطابُ لِجَميعِ المُشرِكينَ الأحياءِ في الدُّنيا، أو لِلمُشرِكينَ في يَومِ القِيامةِ[1]؟!

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾، أيْ: تَستَتِرونَ بأعمالِكم عن سَمعِكم وأبصارِكم وجُلودِكم -على قولٍ في التفسيرِ-، وذلك تَوبيخٌ؛ كِنايةً عن أنَّهم ما كانوا يَرَوْنَ ما هم عليه قَبيحًا حتى يَستَتِروا منه[2].

- قولُه: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ الإشارةُ إلى الظَّنِّ المَأخوذِ مِن جُملةِ ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾، ويُستَفادُ مِنَ الإشارةِ إليه تَمييزُه أكمَلَ تَمييزٍ، وتَشهيرُ شَناعَتِه؛ لِلنِّداءِ على ضَلالِهم[3]. وما في الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ؛ لِلإيذانِ بغايةِ بُعدِ مَنزِلَتِه في الشَّرِّ والسُّوءِ[4].

- وأتْبَعَ اسمَ الإشارةِ بالبَدَلِ بقَولِه: ﴿ظَنُّكُمُ﴾؛ لِزيادةِ بَيانِه؛ لِيَتَمَكَّنَ ما يَعقُبُه مِنَ الخَبَرِ، والخبَرُ هو فِعلُ ﴿أَرْدَاكُمْ﴾ وما تَفَرَّعَ عليه ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١).

ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾[١].

- والإتيانُ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخَبَرِ، وهو ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ وما تَفرَّعَ عليه، أي: الذي ظَنَنتُم برَبِّكم ظَنًّا باطِلًا[٢].

- والعُدولُ عنِ اسمِ (الله) العَلَمِ إلى ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾؛ لِلتَّنبيهِ على ضَلالِ ظنِّهم؛ إذْ ظنُّوا خَفاءَ بَعضِ أعمالِهم عن عِلْمِه، مع أنَّه رَبُّهم وخالِقُهم؛ فكيف يَخلُقُهم وتَخفَى عنه أعمالُهم؟! وهو يُشيرُ إلى قَولِه: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]؛ ففي وَصفِ ﴿بِرَبِّكُمۡ﴾ إيماءٌ إلى هذا المَعنى[٣].

- وفي الإتيانِ بالمُسنَدِ ﴿أَرۡدَىٰكُمۡ﴾ فِعلًا، إفادةُ قَصرٍ، أيْ: ما أرْداكم إلَّا ظنُّكم ذلك، وهو قَصرٌ إضافيٌّ، أيْ: لم تُرْدِكُم شَهادةُ جَوارِحِكم حتى تَلوموها، بلْ أرْداكم ظنُّكم أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ أعمالَكم، فلم تَحذَروا عِقابَه[٤].

- ونُعِيَ عليهم سُوءُ استِدلالِهم، وفَسادُ قِياسِهم في الأُمورِ الإلهيَّةِ، وقياسِهمُ الغائِبَ على الشَّاهِدِ؛ تلك الأُصولُ الَّتي استَدرَجَتْهم في الضَّلالةِ، فأحالوا رِسالةَ البَشَرِ عنِ اللهِ، ونَفَوُا البَعثَ، ثمَّ أثبَتوا شُركاءَ لله في الإلهيَّةِ، وتَفرَّعَ لهمْ مِن ذلك كُلِّه قَطعُ نَظَرِهم عمَّا وَراءَ الحياةِ الدُّنيا، وأمْنُهم مِنَ التَّبِعاتِ في الحياةِ الدُّنيا؛ فذلك جِماعُ قَولِه تَعالى: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ تَفريعٌ على جَوابِ ﴿إِذَا﴾ [فصلت: ٢٠]، أو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ [فصلت: ٢١]، أو هو جَوابُ ﴿إِذَا﴾ [فصلت: ٢٠]، وما بيْنهما اعتِراضٌ، على حَسَبِ ما يُناسِبُ وُجوهَ التَّفسيرِ، والمَعنى على جَميعِ الوُجوهِ: أنَّ حاصِلَ أمْرِهم أنَّهم قد زُجَّ بهم في النارِ، فإنْ صَبَروا واستَسلَموا فهمْ باقونَ في النَّارِ، وإنِ اعتَذَروا لم يَنفَعْهمُ العُذرُ، ولم يُقبَلْ منهم تَنَصُّلٌ، وقَولُه: ﴿فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ دَليلُ جَوابِ الشَّرطِ؛ لِأنَّ كَونَ النارِ مَثوًى لهم ليسَ مُسَبَّبًا على حُصولِ صَبرِهم، وإنَّما هو مِن بابِ قَولِهم: إنْ قُبِلَ ذلك فذاكَ، أيْ: فهو على ذلك الحالِ، فالتَّقديرُ: فإنْ يَصبِروا فلا يَسَعُهم إلَّا الصَّبرُ؛ لأنَّ النَّارَ مَثوًى لهم[١].

- قولُه: ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ... ﴾ الآيةَ، فيه -على قولٍ في التَّفسيرِ- إضمارٌ، تَقديرُه: فإنْ يَصبِروا أو لا يَصبِروا، فالنارُ مَثوًى لهم. أو قَيَّدَ ذلك؛ لأنَّه جَوابٌ لِقَولِهم: ﴿أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ [ص: ٦]؛ فلا مَفهومَ له[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ الْتِفاتٌ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ؛ لِلإيذانِ باقتِضاءِ حالِهم أنْ يُعرِضَ عنهم، ويَحكي سُوءَ حالِهم لِغَيرِهم، أو لِلإشعارِ بإبعادِهم عن حَيِّزِ الخِطابِ، وإلقائِهم في غايةِ دَرَكاتِ النَّارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧٠).

## الآيات (٢٥-٢٩)

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ ۖ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَقَيَّضْنَا﴾: أي: هَيَّأْنا وسَبَّبْنا، يُقالُ: قَيَّض اللهُ فُلانًا لِفُلانٍ، أي: جاءَه به، وأتاحَه له[١].

﴿قُرَنَاءَ﴾: جَمعُ قَرينٍ، وهو الصَّاحِبُ المُلازِمُ، والقُرَناءُ هنا: هم المُلازِمونَ لهم في الضَّلالةِ، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٢].

﴿وَحَقَّ﴾: أي: وجَب ولَزِمَ، والحَقُّ في أصلِه: المُطابَقةُ والموافَقةُ، وأصلُ (حَقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[٣].

﴿خَلَتْ﴾: أي: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خلا الزَّمانُ: إذا مضَى وذهَب[٤].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٣٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، =

﴿وَٱلۡغَوۡاْ﴾: أي: ائتُوا باللَّغْوِ عندَ قِراءتِه؛ لِيَتشَوَّشَ على القارئِ، والمرادُ باللَّغْوِ: ما لا أصْلَ له وما لا مَعنى له، وأصلُ (لغو): يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا الأسبابَ الَّتي أدَّت إلى سوءِ عاقبةِ الكافرينَ: وقَدَّرْنا وسَبَّبْنا للكُفَّارِ قُرَناءَ سُوءٍ، فحَسَّنوا لهم الحياةَ الدُّنيا وشَهَواتِها المُحَرَّمةَ، والتَّكذيبَ بالبَعثِ والجَزاءِ، ووَجَب عليهم عذابُ اللهِ في جُملةِ أُمَمٍ قد مضَت قَبْلَهم مِن كُفَّارِ الجِنِّ والإنسِ؛ إنَّهم كانوا خاسِرينَ.

ثمَّ يَحكي اللهُ تعالى ما تَواصَى به المشركونَ فيما بيْنَهم، فيقولُ: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ خَوفًا مِن تأثيرِ القُرآنِ: لا تُنصِتُوا لهذا القُرآنِ، وعارِضوه بما لا يُفهَمُ مِن التَّصفيقِ والصَّفيرِ وباطِلِ الكَلامِ؛ لعَلَّكم تَغلِبونَ بذلك محمَّدًا وأتْباعَه!

ثمَّ يَرُدُّ اللهُ تعالى عليهم مُهدِّدًا لهم، فيقولُ: فلَنُذيقَنَّ أولئك الَّذين كَفَروا عَذابًا شديدًا، ولَنَجزيَنَّهم أسوَأَ ما كانوا يَعمَلونَ مِنَ السَّيِّئاتِ، ذلك العَذابُ الَّذي نَجزي به الكُفَّارَ هو النَّارُ، لهم فيها دارُ الخُلودِ الدَّائِمِ؛ جزاءً بسَبَبِ كُفْرِهم وتَكذيبِهم بآياتِنا.

ثمَّ يَحكي اللهُ تعالى بعضَ أقوالِهم الَّتي يقولونَها وهم في النَّارِ، فيقولُ: وقال الَّذين كَفَروا: رَبَّنا أرِنَا اللَّذَينِ أضَلَّانا عن الحَقِّ مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ نجعَلْهما تحتَ أقدامِنا؛ لِيَكونَا دونَنا، وأشَدَّ مِنَّا في العذابِ!

---

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧١).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر الوَعيدَ الشَّديدَ في الدُّنيا والآخِرةِ على كُفرِ أولئك الكُفَّارِ؛ أردَفَه بذِكرِ السَّبَبِ الَّذي لأجْلِه وَقَعوا في ذلك الكُفرِ[1].

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾.

أي: وهيَّأْنا ويَسَّرْنا للكُفَّارِ قُرَناءَ سُوءٍ[2]، قدَّرْنا عليهم مُلازَمتَهم لهم لِيُضِلُّوهم؛ بسَبَبِ جُحودِهم الحَقَّ، وإعراضِهم عن آياتِ اللهِ[3].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٧).

(٢) قيل: المرادُ بهم: الشَّياطينُ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦). وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥). وقيل: المرادُ: شَياطينُ الجِنِّ وغُواةُ الإنسِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطية، والقرطبي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٣٤).

﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

أي: فحَسَّنوا لهم الحياةَ الدُّنيا وشَهَواتِها المُحَرَّمةَ، حتَّى افتَتَنوا بها وآثَروها على الآخِرةِ، وحَسَّنوا لهم التَّكذيبَ بالبَعثِ والجَزاءِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦، ٢٧).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦، ٢٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا المعنى مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٢٠).

قال ابنُ عاشور: (﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ يُستعارُ للأُمورِ المُشاهَدةِ، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ يُستعارُ للأُمورِ المُغَيَّبةِ. والمرادُ بـ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أمورُ الدُّنيا، أي: زَيَّنوا لهم ما يَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الفَسادِ؛ مِثلُ عِبادةِ الأصنامِ، وقَتلِ النَّفْسِ بلا حَقٍّ، وأكْلِ الأموالِ، والعُدوانِ على النَّاسِ باليَدِ واللِّسانِ، والمَيسِرِ، وارتِكابِ الفواحِشِ، والوَأْدِ. فعَوَّدوهم باستِحسانِ ذلك كُلِّه لِما فيه مِن مُوافَقةِ الشَّهَواتِ والرَّغَباتِ العارِضةِ القَصيرةِ المدى، وصَرَفوهم عن النَّظَرِ فيما يُحيطُ بأفعالِهم تلك مِنَ المفاسِدِ الذَّاتيَّةِ الدَّائمةِ. والمرادُ بـ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ الأُمورُ المُغَيَّبةُ عن الحِسِّ مِن صِفاتِ اللهِ، وأُمورِ الآخرةِ مِن البَعثِ والجَزاءِ؛ مِثلُ الشِّركِ باللهِ، ونِسبةِ الوَلَدِ إليه، وظَنِّهم أنَّه يَخفَى عليه مَستورُ أعمالِهم، وإحالتِهم بَعثةَ الرُّسُلِ، وإحالتِهم البَعثَ والجَزاءَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٥).

وقيل بعكسِ القولِ السَّابقِ، أي أنَّ المرادَ بـ﴿مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: أمرُ الآخِرةِ، أي: زيَّنوا لهم التَّكذيبَ بالبعثِ والجَنَّةِ والنَّارِ، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أمرُ الدُّنيا ولَذَّاتها، فحبَّبوها إليهم، وزيَّنوا لهم جمْعَ المالِ وإمساكَه عن الإنفاقِ في الخَيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ * حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ * وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٩].

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

أي: ووَجَب عليهم عذابُ اللهِ الَّذي قدَّره على الكافِرينَ، في جُملةِ أُمَمٍ قد مَضَت قَبْلَهم مِن كُفَّارِ الجِنِّ والإنْسِ(١).

---

= وقيل: المرادُ بـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: أعمالُهم الَّتي يَعمَلونَها ويُشاهِدونَها، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يَعزِمونَ على عَمَلِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٤/ ٣٨٤).
وقيل: المعنى: حَسَّنوا لهم أعمالَهم في الماضي والمُستَقبَلِ، فلم يَرَوا أنفُسَهم إلَّا مُحسِنينَ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ كثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٥، ٢٧٦).
ممَّن اختار أنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجَب عليهم العذابُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكِّي (١٠/ ٦٥١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩).
وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: سبَق القضاءُ الحتمُ بعذابِهم: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣٥).
قال السعدي: (﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجَب عليهم، ونزَل القضاءُ والقَدَرُ بعذابِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).
وممَّن قال: إنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ هو قولُه تعالى لإبليسَ: ﴿فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]: جلالُ الدِّينِ المحلِّي، وأبو السعود، =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ * وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾.

أي: إنَّ الأُمَمَ الكافِرةَ الَّتي وَجَب عليها عَذابُ اللهِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ مِن السَّابِقينَ واللَّاحِقينَ: كانوا مَغبونينَ ببَيعِهم رِضا اللهِ ورَحمتَه بسَخَطِه وعَذابِه،

---

= والشوكاني، والألوسي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٨٧).

قال الشنقيطي: (المراد بالقولِ والكلمةِ... هو قولُه تعالى: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، كما دلَّت على ذلك آياتٌ مِن كتابِ الله تعالى؛ كقولِه تعالى في آخرِ سورةِ «هود»: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وقولِه تعالى في «السجدة»: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَأٓتَيۡنَا كُلَّ نَفۡسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، وقولِه تعالى في أُخرياتِ «ص»: ﴿قَالَ فَٱلۡحَقُّ وَٱلۡحَقَّ أَقُولُ * لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٨٧).

وخَسِروا أعمالَهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وخَسِروا أنفُسَهم وأهلِيهم في الآخِرةِ[١].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها حِكايةٌ لِحالٍ أُخرى مِن أحوالِ إعراضِهم عن دعوةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ بَعدَ أنْ وَصَفَ إعراضَهم في أنْفُسِهمُ انتَقَلَ إلى وَصْفِ تَلقينِهمُ النَّاسَ أساليبَ الإعراضِ[٢].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ خَوفًا مِن تأثيرِ القُرآنِ: لا تُنصِتوا لهذا القُرآنِ فتَنقادُوا له[٣].

﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾.

أي: ائْتُوا باللَّغوِ عندَ قراءتِه، وتكلَّموا بالباطِلِ مِنَ القَولِ إذا سَمِعتُم قارِئَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٤٤، ١٤٥).

قيل: القائِلونَ هم أئِمَّةُ الكُفرِ، يقولونَ ذلك لعامَّتِهم وأتْباعِهم. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧).

وقيل: بَعضُهم يُوصي بعضًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٤٤).

يَقرَؤُه؛ رجاءَ أن تَغلِبوا بذلك مُحمَّدًا وأتْباعَه[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٧، ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧، ٢٧٨).

قال ابن عاشور: (معنَى ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ قُولوا أقوالًا لا معنَى لها، أو تَكَلَّموا كلامًا غيرَ مرادٍ منه إفادةٌ، أو المقصودُ إحداثُ أصواتٍ تَغْمُرُ صَوتَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم بالقرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧).

ومِن اللَّغوِ فيه: الصِّياحُ والتَّصفيقُ المانِعُ مِن السَّماعِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤١).

قال القرطبي: (﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: قال أبو جهلٍ: إذا قرَأ محمَّدٌ فصيحوا في وجْهِه حتَّى لا يدري ما يقولُ. وقيل: إنَّهم فعَلوا ذلك لَمَّا أعجَزَهم القرآنُ. وقال مجاهدٌ: المعنى: ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ بالمُكاءِ والتَّصفيقِ والتَّخليطِ في المَنطِقِ حتَّى يَصيرَ لَغْوًا. وقال الضَّحَّاكُ: أكثِروا الكلامَ لِيَختَلِطَ عليه ما يقولُ. وقال أبو العاليةِ وابنُ عبَّاسٍ أيضًا: قِعوا فيه وعَيِّبوه). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦).

قيل: المرادُ بـ ﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾: تَطمِسون أمْرَ محمَّدٍ عليه السَّلامُ، وتُميتون ذِكْرَه، وتَصرِفون القلوبَ عنه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن عطية، والثعالبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٨).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: لعلَّكم تَغلِبون محمَّدًا على قراءتِه: الثعلبي، والبغويُّ، والبيضاوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٧).

قال القرطبي: (﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ محمَّدًا على قراءتِه، فلا يَظهرُ ولا يستميلُ القلوبَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦).

وقال العُلَيمي: (﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ محمَّدًا على قراءتِه، فيَسكُت). ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٤).

وقيل: المراد: لكيْ تغلبوهم فيَسكتوا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقندي، والواحدي، وابن الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩). =

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر إعراضَ الكُفَّارِ عن القُرآنِ وتواصِيَهم بذلك ظُلمًا منهم وعنادًا، لم يَبْقَ فيهم مَطمَعٌ للهِدايةِ، فلم يَبْقَ إلَّا عَذابُهم ونَكالُهم؛ لهذا قال الله تعالى[1]:

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾.

أي: فلَنُذيقَنَّ هؤلاءِ الَّذين كَفَروا بالحَقِّ عَذابًا شَديدًا[2].

﴿ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾.

---

= وقال البِقاعي: (﴿لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ أي: لِيَكونَ حالُكم حالَ مَن يُرجَى له أن يَغلبَ ويَظفرَ بمُرادِه في ألَّا يميلَ إليه أحدٌ، أو يَسكُتَ أو ينسَى ما كان يقولُ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٧٨، ١٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالذين كفروا: مشركو قريش: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، وأبو حيان، والثعالبي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

قال الشوكاني: (هذا وَعيدٌ لجَميعِ الكُفَّارِ، ويَدخُلُ فيهم الَّذين السِّياقُ معهم دُخولًا أوَّلِيًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٨٩). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨).

والمرادُ بالعذابِ الشديدِ: قيل: عذابُ الآخِرةِ؛ النَّارُ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاج، والقرطبي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٤).

وقيل: العَذابُ الشَّديدُ: هو عذابُ الدُّنيا في بَدرٍ وغَيرِها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطية، وأبو حيان، والثعالبي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٣٣).

وقال البقاعي: (﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الدُّنيا بالحِرمانِ وما يَتْبَعُه مِن فُنونِ الهَوانِ، وفي الآخِرةِ بالنِّيرانِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٧٩).

أي: ولَنُثيبَنَّهم جزاءَ أسوَأِ ما كانوا يُواظِبونَ على عَمَلِه مِنَ السَّيِّئاتِ[١].

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٢٨﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ذلك العَذابُ الَّذي نَجزي به الكُفَّارَ: هو النَّارُ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: بأسوأِ أعمالِهم، وهو الشِّركُ والكفرُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والبغوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٤).

وقال القرطبي: (ولَنَجْزِيَنَّهم في الآخرةِ جزاءَ قُبْحِ أعمالِهم الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وأسْوَأُ الأعمالِ الشِّركُ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦).

وقال السعدي: (﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وهو الكفرُ والمعاصي؛ فإنَّها أسْوَأُ ما كانوا يَعمَلون؛ لِكَونِهم يَعمَلون المعاصيَ وغيرَها، فالجزاءُ بالعقوبةِ إنَّما هو على عمَلِ الشِّركِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

وقال الرازي: (قال: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، واختلَفوا فيه؛ فقال الأكثَرونَ: المرادُ: جزاءُ سوءِ أعمالِهم. وقال الحسَنُ: بل المرادُ أنَّه لا يُجازيهم على مَحاسِنِ أعمالِهم؛ لأنَّهم أحبَطوها بالكفرِ، فضاعتْ تلك الأعمالُ الحسَنةُ عنهم، ولم يَبْقَ معهم إلَّا الأعمالُ القبيحةُ الباطلةُ، فلا جَرَمَ لم يَتحصَّلوا إلَّا على جزاءِ السَّيِّئاتِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٥٩).

وقال الألوسي: (﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي: جزاءَ سَيِّئاتِ أعمالِهم الَّتي هي في أنفُسِها أسْوَأُ، فأفْعَلُ للزِّيادةِ المُطْلَقةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٧١). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

وقال ابنُ جرير، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي، والعُلَيمي: بأقبَحِ جزاءِ أعمالِهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩). =

﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾.

أي: لهم في النَّارِ دارُ الخُلودِ والمُكْثِ الدَّائِمِ إلى غَيرِ نِهايةٍ(١).

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

أي: جازَيْناهم بذلك؛ بسَبَبِ أنَّهم كانوا في الدُّنيا يَكفُرونَ ويُكَذِّبونَ بآياتِنا(٢).

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

أي: وقال الَّذين كَفَروا: يا رَبَّنا أرِنَا مَن أضَلَّنا عن الحَقِّ مِن شَياطينِ الجِنِّ والإنسِ(٣).

---

= قال ابن عاشور: (الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تقدَّمَ، وهو الجزاءُ والعذابُ الشَّديدُ على أسوأِ أعمالِهم. وأعداءُ اللهِ: هم المُشرِكونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

قال ابن عاشور: (والخُلدُ: طُولُ البَقاءِ، وأُطلِقَ في اصطِلاحِ القُرآنِ على البَقاءِ المُؤَبَّدِ الَّذي لا نِهايةَ له). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

قال ابنُ جرير: (الدَّارُ الَّتي أخبَرَ جَلَّ ثناؤُه أنَّها لهم في النَّارِ: هي النَّارُ، وحَسُنَ ذلك؛ لاختِلافِ اللَّفظَينِ، كما يُقالُ: لك مِن بلدتِك دارٌ صالِحةٌ، ومِنَ الكُوفةِ دارٌ كَريمةٌ، والدَّارُ: هي الكُوفةُ والبَلْدةُ، فيَحسُنُ ذلك لاختِلافِ الألفاظِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٠)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠). =

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ * قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴾ [ق: ٢٧، ٢٨].

﴿ نَّجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾.

أي: نَجعَلْ هَذَينِ اللَّذَينِ أضَلَّانا تحتَ أقدامِنا؛ لِيَكونَا دونَنا، وأسفلَ مِنَّا في النَّارِ، وأشَدَّ مِنَّا في العذابِ، فنَشتَفِيَ منهما[1].

---

= قيل: المرادُ باللَّذَينِ أضَلَّاهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ: جِنسُ الجِنِّ والإنسِ، أي: الصِّنفَينِ اللَّذَينِ قاداهم إلى الضَّلالِ والعَذابِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، واستظهره ابنُ عطية، وذهب إليه البِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٢).

وقيل: المرادُ بهما: قابيلُ مِن الإنسِ، وإبليسُ مِن الجِنِّ. وممَّن ذهب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، والواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، وإبراهيمُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

قال الماوَرْدي: (يحتمِلُ قَولُه: ﴿ مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ وَجهَينِ؛ أحَدُهما: مِنَ الأذَلِّينَ. الثَّاني: مِنَ الأشَدِّينَ عَذابًا؛ لأنَّ مَن كان في أسفَلِ النَّارِ كان أشَدَّ عَذابًا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٧٩). =

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ فيه أنَّه على العاقِلِ أن يَجتَهِدَ في اختيارِ أصحابِه وأخدانِه وأحبابِه؛ فإنَّ العاقِبةَ فيهم حَسَنةٌ جَسيمةٌ، أو قبيحةٌ وَخيمةٌ[1]، وإذا أراد اللهُ بعَبدٍ خَيرًا قيَّضَ له قُرَناءَ خَيرٍ يُعينونَه على الطَّاعاتِ، ويَحمِلونَه عليها، ويَدْعونَه إليها، وإذا كانوا إخوانَ سُوءٍ حَمَلوه على المُخالَفاتِ، ودَعَوْه إليها[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ أنَّه لا يجوزُ اللَّغَطُ والضَّوضاءُ حينَ قراءةِ القرآنِ، فإمَّا أنْ يَستمِعَ المرءُ إليه، وإمَّا أنْ

---

= ممَّن قال بأنَّ المرادَ بالأسفَلِينَ: الَّذين في الدَّركِ الأسفَلِ مِنَ النَّارِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والثعلبي، والواحدي، وابن عطية، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٥).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ بالأسفَلينَ: الأذَلُّون المُهانُونَ: النيسابوري، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٢٥).

يقومَ، أمَّا أنْ يَجلِسَ إلى قارئِ القرآنِ، ويُثِيرَ الأصواتَ واللَّغَطَ والضَّوضاءَ؛ فهذا أقَلُّ ما فيه أنَّه شبيهٌ بصنيعِ المشركين، ويَتفرَّعُ على ذلك: ما يَفعلُه بعضُ النَّاسِ في مَتاجرِهم ومَساكنِهم مِن تشغيلِ المُسَجِّلِ بقراءةِ القرآنِ، وتَجِدُهم يَصدُرُ منهم الضَّوضاءُ، ويَتكلَّمون بقبيحِ الكلامِ، فمِثلُ هذا يُعَدُّ إهانةً للقرآنِ، وإنْ لم يَقصِدْه الإنسانُ، فإنَّ صورتَه صورةُ الامتِهانِ، فإمَّا أنْ يَستمِعَ الشَّخصُ إلى كلامِ اللهِ؛ وإمَّا أنْ يُغلِقَ المسجِّلَ[1].

٣- أنَّ ما كان مُباحًا في غيرِ حالِ القِراءةِ، مِثلُ المُزاحِ الَّذي جاءتْ به الآثارُ -وهو أنْ يَمزَحَ ولا يَقولَ إلَّا صِدْقًا[2]؛ لا يكونُ في مُزَاحِه كَذِبٌ ولا عُدوانٌ- فهذا لا يُفعَلُ في حالِ قراءةِ القرآنِ، بل يُنَزَّهُ عنه مَجلِسُ القُرآنِ؛ فليس كلُّ ما يُباحُ في حالٍ غيرِ القراءةِ يُباحُ فيها، كما أنَّه ليس كلُّ ما يُباحُ خارِجَ الصَّلاةِ يُباحُ فيها، لا سيَّما ما يَشْغَلُ القارِئَ والمُستَمِعَ عن التَّدَبُّرِ والفَهمِ، مِثلُ كَونِه يُخايِلُ ويَضحَكُ، فكيف واللَّغوُ والضَّحِكُ حالَ القِراءةِ: مِن أعمالِ المُشرِكينَ، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[3]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ ذَمُّ المعرِضينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٤٧).

(٢) جاء في الحديث: أنَّ الصَّحابةَ قالوا: يا رسولَ الله، إنَّك تُداعِبُنا، قال: ((إنِّي لا أقولُ إلَّا حقًّا)).
أخرجه الترمذي (١٩٩٠)، وأحمد (٨٧٢٣) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وقال الذهبي في ((المهذب)) (٨/ ٤٢٧٠): (إسنادُه صالحٌ)، وجوَّد إسنادَه ابنُ الملقِّنِ في ((شرح البخاري)) (٢٤/ ٦٠٧)، وحسَّنَ إسنادَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٩/ ٢٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤/ ٣٣٩)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (١٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٦٠٥).

عن سماعِ القرآنِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ أنَّ الإنسانَ يجبُ عليه أنْ يَبتعِدَ عن قُرَناءِ السوءِ، وقد حَذَّر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن جليسِ السوءِ؛ فقال: ((المرءُ على دِينِ خَليلِه[٢]؛ فلْيَنْظُرْ أحدُكم مَن يُخالِلُ))[٣]، وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَثَلُ الجليسِ السَّوءِ كنافِخِ الكِيرِ؛ إمَّا أنْ يُحرِقَ ثيابَك، وإمَّا أنْ تَجِدَ منه رائحةً خبيثةً))[٤]، فاحذَرْ قرينَ السُّوءِ لا تَجتَمِعْ به، لا تُصَادِقْه، لا تَسْتَأْمِنْه على أيِّ شَيءٍ[٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ في إنكارِهم أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيدِ اللهِ تعالى، وزعمِهم أنَّ أفعالَ العبادِ لا صُنْعَ لله فيها؛ إذْ قد أَخْبَر -نصًّا- أنَّ مَن زَيَّنَ لهم مِن قرنائِهم سيِّئَ أعمالِهم هو المُقَيِّضُ لهم، ولا يَخْلو

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٥٨٨).

(٢) على دِينِ خَليلِه: أي: على عادةِ صاحِبِه وطريقتِه وسيرتِه. يُنظر: ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمُناوي (٢/ ٤٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، والترمذي (٢٣٧٨)، وأحمد (٨٤١٧) واللفظُ له من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((رياض الصالحين)) (ص: ١٨٨)، وحسَّن الحديثَ ابنُ حجر في ((الأمالي المطلقة)) (ص: ١٥١)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٣٣)، وصحَّحه ابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٣٠٦)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٨٣٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٥).

القولُ الَّذي حَقَّ عليهم مِن أنْ يكونَ سابقًا فيهم قبْلَ العملِ، أو عقوبةً للعملِ الَّذي زَيَّنَه لهم قرناؤُهم، وإذا كان هو مُقَيِّضَ قرنائِهم؛ فأيُّهما كان فالحُجَّةُ عليهم به ظاهرةٌ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ أَبْيَنُ دَليلٍ على تَكليفِ الثَّقَلَينِ: الجِنِّ والإنْسِ، وتَعَلُّقِ الأمرِ والنَّهيِ بهم، وكذلك تَعَلُّقُ الثَّوابِ والعِقابِ بهم[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ * فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أنَّ حُجَّةَ اللهِ برُسُلِه قامتْ بالتَّمَكُّنِ مِن العِلمِ؛ فليس مِن شَرطِ حُجَّةِ اللهِ تعالى عِلمُ المَدْعُوِّينَ بها؛ ولهذا لم يَكُنْ إعراضُ الكُفَّارِ عن استِماعِ القُرآنِ وتَدَبُّرِه مانعًا مِن قيامِ حُجَّةِ اللهِ تعالى عليهم، وكذلك إعراضُهم عن استِماعِ المنقولِ عن الأنبياءِ، وقراءةِ الآثارِ المأثورةِ عنهم: لا يَمنَعُ الحُجَّةَ؛ إذِ المُكْنةُ حاصِلةٌ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ هذه شَهادةٌ مِن الأعداءِ، وأوضَحُ الحَقِّ ما شَهِدَت به الأعداءُ؛ فإنَّهم لم يَحكُموا بغَلَبتِهم لِمَن جاء بالحَقِّ إلَّا في حالِ الإعراضِ عنه، والتَّواصي بذلك، ومَفهومُ كَلامِهم أنَّهم إنْ لم يَلْغَوا فيه، بل استَمَعوا إليه، وألْقَوا أذهانَهم: أنَّهم لا يَغلِبونَ؛ فإنَّ الحَقَّ غالِبٌ غيرُ مَغلوبٍ، يَعرِفُ هذا أصحابُ الحَقِّ وأعداؤُه[٤]، وهذا مُشعِرٌ بأنَّهم كانوا يَجِدونَ القُرآنَ غالِبَهم؛ إذْ كانَ الَّذين يَسمَعونَه يُداخِلُ قُلوبَهم

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

فيُؤمِنونَ، أيْ: فإنْ لم تَفعَلوا فهو غالِبُكم[١].

٥- يَقولُ أئِمَّةُ الكُفرِ لِعامَّتِهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾؛ فإنَّهم عَلِموا أنَّ القُرآنَ كَلامٌ هو أكمَلُ الكَلامِ، وأيْقَنوا أنَّ كُلَّ مَن يَسمَعُه وتُداخِلُ نَفْسَه جَزالةُ ألفاظِه وسُمُوُّ أغراضِه، قَضى له فَهْمُه أنَّه حَقٌّ اتِّباعُه، وقد أدْرَكوا ذلك بأنْفُسِهم، ولكِنَّهم غالَبَتْهم مَحَبَّةُ الدَّوامِ على سِيادةِ قَومِهم، فتَمالَؤوا ودَبَّروا تَدبيرًا لِمَنعِ النَّاسِ مِن استِماعِه، وذلك خَشيةً مِن أنْ تَرِقَّ قُلوبُهم عِندَ سَماعِ القُرآنِ، فصَرَفوهم عن سَماعِه، وهذا مِن شَأنِ دُعاةِ الضَّلالِ والباطِلِ أنْ يَكُمُّوا أفواهَ النَّاطِقينَ بالحَقِّ والحُجَّةِ، بما يَستَطيعونَ مِن تَخويفٍ وتَسويلٍ، وتَرهيبٍ وتَرغيبٍ، ولا يَدَعوا النَّاسَ يَتَجادَلونَ بالحُجَّةِ، ويَتَراجَعونَ بالأدِلَّةِ؛ لِأنَّهم يُوقِنونَ أنَّ حُجَّةَ خُصومِهم أنهَضُ، فهمْ يَستُرونَها ويُدافِعونَها، لا بمِثلِها، ولكِنْ بأساليبَ مِنَ البُهتانِ والتَّضليلِ، فإذا أعيَتْهمُ الحِيَلُ، ورَأَوْا بَوارِقَ الحَقِّ تَخفِقُ، وخَشُوا أنْ يَعُمَّ نُورُها النَّاسَ الَّذين فيهم بَقيَّةٌ مِن خَيرٍ ورَشَدٍ، عَدَلوا إلى لَغوِ الكَلامِ، ونَفَخوا في أبواقِ اللَّغوِ والجَعجَعةِ، لَعَلَّهم يَغلِبونَ بذلك على حُجَجِ الحَقِّ، ويَغمُرونَ القَولَ الصَّالِحَ باللَّغوِ، وكذلك شَأنُ هؤلاءِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ عُبِّرَ بالعملِ عن جزائِهم إشارةً إلى أنَّ الجزاءَ بقَدْرِ العملِ، ولهذا قال العلماءُ: (الجزاءُ مِن جنسِ العملِ)، لكنَّه بالنِّسبةِ للسَّيِّئاتِ عَدْلٌ، وبالنِّسبةِ للحسناتِ فَضْلٌ؛ الحسَنةُ بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِ مئةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ؛ والسَّيِّئةُ بمِثلِها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٥١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعۡدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُۖ لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أنَّ التَّكذيبَ بآياتِ اللهِ رِدَّةٌ؛ لأنَّ اللهَ وَصَفَ المكذِّبينَ بأنَّهم أعداءٌ، وأنَّ جَزاءَهم دارُ الخُلدِ، وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه: أنَّ مَن كَذَّبَ اللهَ ورَسولَه فإنَّه مُرتَدٌّ كافِرٌ، يُستتابُ، فإنْ تاب وأقَرَّ، وإلَّا قُتِلَ(١).

٨- قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ، لأنَّ الباءَ هنا للسَّببيَّةِ(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]؛ وذلك أنَّه حُكيَ قولُهم المُقتَضي إعراضَهم عنِ التَّدَبُّرِ في دَعوةِ الإيمانِ، ثمَّ ذُكِر كُفرُهم بخالِقِ الأكوانِ بقَولِه: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: ٩]، ثمَّ ذُكِر مَصيرُهم في الآخِرةِ بقَولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: ١٩]، ثمَّ عُقِّب ذلك بذِكرِ سَبَبِ ضَلالِهمُ الَّذي نَشَأتْ عنه أحوالُهم بقَولِه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾، وتَخلَّلَ بيْن ما هُنالِكَ وما هنا أفانينُ مِنَ المَواعِظِ والدَّلائِلِ والمِنَنِ والتَّعاليمِ والقَوارِعِ والإيقاظِ(٣).

- قولُه: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم ...﴾ قَيَّضَ، أي: أتاحَ وهَيَّأَ شَيئًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٤).

لِلعَمَلِ في شَيءٍ، والقُرَناءُ: جَمعُ قَرينٍ، وهو الصَّاحِبُ المُلازِمُ، والقُرَناءُ هنا: همُ المُلازِمونَ لهم في الضَّلالةِ؛ إمَّا في الظَّاهِرِ، مِثلُ دُعاةِ الكُفرِ وأئمَّتِه، وإمَّا في باطِنِ النُّفوسِ، مِثلُ شَياطينِ الوَسواسِ، ومَعنى تَقييضِهم لهم: تَقديرُهم لهم، أيْ: خَلَق المُناسَباتِ الَّتي يَتسَبَّبُ عليها تَقارُنُ بَعضِهم مع بَعضٍ؛ لِتَناسُبِ أفكارِ الدُّعاةِ والقابِلينَ، فالتَّقييضُ بمَعنى التَّقديرِ، عِبارةٌ جامِعةٌ لِمُختَلِفِ المُؤَثِّراتِ والتَّجَمُّعاتِ الَّتي تُوجِبُ التَّآلُفَ والتَّحابَّ بيْنَ الجَماعاتِ، ولِمُختَلِفِ الطَّبائِعِ المُكَوَّنةِ في نُفوسِ بَعضِ النَّاسِ، فيَقتَضي بَعضُها جاذبيَّةَ الشَّياطينِ إليها، وحُدوثَ الخَواطِرِ السَّيِّئةِ فيها؛ ولِلإحاطةِ بهذا المَقصودِ أُوثِرَ التَّعبيرُ هنا بلَفظِ (قَيَّضْنَا) دُونَ غَيرِه مِن نَحوِ: بَعَثْنا، وأرسَلْنا[1].

- قولُه: ﴿وَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ أيْ: وهو وَعيدُ اللهِ إيَّاهم بالنَّارِ على الكُفرِ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلۡقَوۡلُ﴾ لِلعَهدِ، وفي هذا العَهدِ إجمالٌ؛ لِأنَّه وإنْ كانَ قد وَرَدَ في القُرآنِ ما يُعهَدُ منه هذا القَولُ، مِثلُ قَولِه: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ [الزمر: ١٩]؛ فإنَّه يُمكِنُ ألَّا تَكونَ الآياتُ المَذكورةُ قد سَبَقتْ هذه الآيةَ[2].

- وقولُه: ﴿فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ ﴿فِيٓ أُمَمٖ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿عَلَيۡهِمُ﴾، أيْ: حَقَّ عليهم حالةَ كَونِهم في أُمَمٍ أمثالِهم قد سَبَقوهم، و﴿مِنْ﴾ في قَولِه: ﴿مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ بَيانيَّةٌ؛ فيَجوزُ أنْ يَكونَ بَيانًا لـ ﴿أُمَمٖ﴾، أيْ: مِن أُمَمٍ مِنَ البَشَرِ ومِنَ الشَّياطينِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ بَيانًا لـ ﴿قُرَنَآءَ﴾، أيْ: مُلازِمينَ لهمْ مُلازَمةً خَفيَّةً، وهي مُلازَمةُ الشَّياطينِ لهم بالوَسوَسةِ، ومُلازَمةُ أئمَّةِ الكُفرِ لهم بالتَّشريعِ لهم ما لم يَأذَنْ به اللهُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧٦).

- وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ قدَّم فيه الأقوى؛ لِتُفهِمَ القُدرةُ عليه القُدرةَ على ما دُونَه مِن بابِ الأَولى؛ فإنَّ الإنسَ كانوا يَعُدُّونَ أنفُسَهم دونَ الجِنِّ، فيَعوذونَ بهم[١].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ بَيانًا لِلقَولِ، مِثلَ نَظيرَتِها ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ [الصافات: ٣١]. ويَجوزُ أنْ تَكونَ هذه الجُملةُ مُستَأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن جُملةِ ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾؛ تَعليلًا لِاستِحقاقِهِمُ العَذابَ، والمَعنيانِ مُتَقارِبانِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ، مَسوقٌ لِتَقريرِ حالِهم ومُكابَرَتِهم عِندَ قِراءةِ القُرآنِ[٣]. أو عَطفٌ على جُملةِ ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]؛ عَطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، ومُناسَبةُ التَّخَلُّصِ إليه: أنَّ هذا القَولَ مِمَّا يَنشَأُ عن تَزيينِ قُرَنائِهم مِنَ الإنْسِ. أو هو عَطفٌ على جُملةِ ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُمْ﴾[٤] [فصلت: ٢٥].

- قَولُهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ تَحذيرٌ واستِهزاءٌ بالقُرآنِ؛ فاسمُ الإشارةِ (هذا) مُستَعمَلٌ في التَّحقيرِ. وتَسميَتُهم إيَّاه بالقُرآنِ حِكايةٌ لِمَا يَجري على أَلْسِنةِ المُسلِمينَ مِن تَسميَتِه بذلك. وتَعديةُ فِعلِ ﴿تَسْمَعُوا۟﴾ باللَّامِ؛ لِتَضمينِه مَعنى: تَطمَئِنُّوا أو تَرْكَنوا[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٧٧).

- قولُهم: ﴿وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ لَمَّا كان المقصودُ بتَخلُّلِ أصْواتِهم صوتَ القارئِ حتَّى لا يَفقَهَه السَّامِعونَ، عُدِّيَ اللَّغوُ بحَرفِ (في) الظَّرفيَّةِ؛ لِإفادةِ إيقاعِ لَغوِهم في خِلالِ صَوتِ القارِئِ وُقوعَ المَظروفِ في الظَّرفِ. وأُدخِلَ حَرْفُ الظَّرفيَّةِ على اسمِ القُرآنِ دُونَ اسمِ شَيءٍ مِن أحوالِه -مِثلَ صَوتٍ أو كَلامٍ-؛ لِيَشملَ كُلَّ ما يُخفي ألفاظَ القُرآنِ، أو يُشَكِّكُ في مَعانيها، أو نَحوَ ذلك، وهذا نَظمٌ له مَكانةٌ مِنَ البَلاغةِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ[2]، حيثُ لم يقُلْ: (فَلَنُذِيقَنَّهم)-؛ لِقَصْدِ ما في المَوصولِ (الَّذين) مِنَ الإشارةِ إلى عِلَّةِ إذاقةِ العَذابِ، أيْ: لِكُفرِهمُ المَحكيِّ بَعضُه فيما تَقدَّمَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٢) وللإظهارِ في مَوضعِ الإضمارِ فوائدُ:

الأُولى: بَيانُ الصِّفةِ أو الوَصفِ الَّذي استَحَقَّ مِن أجْلِه أنْ يُعاقَبَ بهذه العُقوبةِ.

الثَّانية: تَنبيهُ المخاطَبِ؛ لأنَّ الكلامَ إذا كان على نَسَقٍ واحدٍ بضَمائرِه ومُظْهَراتِه؛ فإنَّ الإنسانَ لا يَنْتَبِهُ، لكنْ إذا جاء شَيءٌ يُخرِجُ الكلامَ عن سِياقِه، فإنَّه لا بُدَّ أنْ يَنتَبِهَ، وقد جَرَتِ العادةُ أنَّ الكلامَ إذا كان السِّياقُ يَقْتضي الإضمارَ فإنَّه يأْتي الإضمارُ، فإذا جاء الإظهارُ موضعَ الضَّميرِ صارَ هذا على خِلافِ العادةِ؛ فسوف يَتوقَّفُ الإنسانُ ويَتساءَلُ: لماذا جاء الظَّاهرُ مَوضعَ الضميرِ؟ فيكونُ في ذلك انتباهٌ له.

الثَّالثةُ: الحُكْمُ على مَرجعِ الضَّميرِ بمُقْتضى هذا الاسمِ الظَّاهرِ؛ ففي الآيةِ الَّتي معنا ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، إذنْ تكونُ الفائدةُ الحُكْمَ عليهم بالكُفْرِ.

الرَّابعةُ: العمومُ، لو قال: (فلَنُذيقَنَّهم) صار هذا الوعيدُ خاصًّا بالَّذين قالوا: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾، فإذا قال: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ صار عامًّا لهم ولغيرِهم.

الخامسةُ: مُراعاةُ فَواصلِ الآياتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٤٩، ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٨، ٢٧٩).

وقيل: يجوزُ أنْ يُذكَرَ الَّذين كَفَروا عامَّةً؛ فيَدخُلُ فيه هؤلاء اللَّاغون والآمرونَ لهم باللغوِ دُخولًا أوَّليًّا[١].

- قولُه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (أسوأ): اسمُ تَفضيلٍ مَسلوبُ المُفاضَلةِ هنا، وإنَّما أُريدَ به السَّيِّئُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فصِيغَ بصِيغةِ التَّفضيلِ لِلمُبالَغةِ في سُوئِه. وإضافَتُه إلى ﴿الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مِن إضافةِ البَعضِ إلى الكُلِّ، وليس مِن إضافةِ اسمِ التَّفضيلِ إلى المُفَضَّلِ عليه[٢].

- ويُمكِنُ أنْ تَجرِيَ إضافةُ (أسوأ) إلى (الَّذي) على ظاهِرِها، ويكونَ عطْفُ قولِه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي﴾ الآيةَ، على قولِه: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ...﴾ الآيةَ، على نَحوِ عطْفِ ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾ على ﴿وَمَلَائِكَتِهِ﴾ [البقرة: ٩٨]، كأنَّه قِيل: فلَنُذيقَنَّ أولئك اللَّاغينَ بما فَعَلوا مِن الشِّركِ والإفسادِ والعِصيانِ عَذابًا شَديدًا، وخُصوصًا لَنَجْزِيَنَّهم أسْوَأَ جَزاءِ أعْمالِهم؛ مِن الاستهزاءِ بآياتِ اللهِ، وتَحقيرِ القرآنِ المَجيدِ، وقولِهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾. والنَّظْمُ يُساعِدُ هذا التَّأويلَ؛ لأنَّه لَمَّا رُتِّبَ على ما سبَقَ، وعُطِفَ عليه ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾، بعْدَ إثباتِ الكُفرِ لهم والاستِخفافِ بكِتابِ اللهِ المَجيدِ؛ عُلِّلَ استِحقاقُ العذابِ الشَّديدِ بوَضعِ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مَوضعَ الضَّميرِ تَقْريرًا، وعُلِّلَ استِحقاقُ الأسوَأِ بوَضعِ ﴿أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ مَوضعَ (هُمْ) تَلويحًا، وأُشِيرَ إلى الأسوَأِ -وهو قريبٌ- باسمِ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعدِ؛ لِيُؤذِنَ بالفرْقِ بيْن الجَزاءينِ، والبَونِ بيْن الكَفرتَينِ، ثمَّ بُيِّنَ بأنَّ هذا الجزاءَ الخاصَّ مُوجِبُه ذلك الاستِخفافُ تَصْريحًا؛ بأنْ خُتِمَ الكلامُ بقولِه: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩).

وأعاد بذِكرِ الجَزاءِ، ووَضعَ الآياتِ مَوضعَ القُرآنِ، وأُوثِرَ صِيغةُ التَّعظيمِ؛ تَربيةً لتلك الفوائدِ، وتَرْشيحًا لها، وعُبِّرَ عن اللَّغْوِ بالجَحْدِ رَدًّا للعَجُزِ على الصَّدْرِ؛ فظهَرَ أنَّ الإضافةَ في الآيةِ ممَّا قُصِدَ بها الزِّيادةُ على ما أُضِيفَ إليه[١].

- والتَّعبيرُ بفِعلِ (الكَون) يدُلُّ على أنَّهم كانوا مَطبوعينَ على ما أوجَبَ لهم النَّارَ مِن الأوزارِ، فقال: ﴿كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، أي: يُجدِّدون عمَلَه مُستمِرِّينَ عليه[٢]؛ فعُبِّرَ بالمُضارعِ؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستِمرارِ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ في هذا تَعريضٌ بمَن لا يَكونُ عِندَ كَلامِ اللهِ المَجيدِ خاضِعًا خاشِعًا مُتَفكِّرًا مُتَدبِّرًا، وتَهديدٌ ووَعيدٌ شَديدٌ لِمَن يَصدُرُ عنه عِندَ سَماعِه ما يُشَوِّشُ على القارِئِ ويَخلِطُ عليه القِراءةَ، وإرعادٌ وإبراقٌ لِمَن يُدرَكُ منه قِلَّةُ مُبالاةٍ به؛ فَضلًا عمَّن يَنبِذُه وَراءَه ظِهْريًّا، واشتغَلَ بما يُنافِيهِ مِن العُلومِ المَذمومةِ، فانْظُرْ إلى عَظَمةِ القُرآنِ المَجيدِ، وتأمَّلْ في هذا التَّغليظِ والتَّشديدِ، واشهَدْ لِمَن عظَّمَه، وأجَلَّ قَدْرَه، وألْقَى إليه السَّمعَ وهو شَهيدٌ؛ بالفَوزِ العظيمِ، والأجرِ الكبيرِ[٣].

- قولُه: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ دارُ الخُلدِ هنا: النَّارُ، وجاءَ بالظَّرفيَّةِ بتَنزيلِ النَّارِ مَنزِلةَ ظَرفٍ لِـ ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾، وما دارُ الخُلدِ إلَّا عَينُ النَّارِ، وهذا مِن أُسلوبِ التَّجريدِ[٤]؛ لِيُفيدَ مُبالَغةَ مَعنى الخُلدِ في النَّارِ، وهو مَعدودٌ مِنَ المُحَسِّناتِ البَديعيَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠٠، ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠١).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ١٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ أي: جَزاءً بما كانوا يُلْغُون فيها؛ فذَكَر الجُحودَ الَّذي هو سَبَبُ اللَّغوِ، وهذا نَوعٌ مِن أنواعِ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ(١)؛ لِمَا بيْنَ قَولِهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦] الآيةَ، وبيْن قَولِه: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ مِنَ التَّوافُقِ المَعنويِّ؛ لِأنَّ مَن يَستَهزِئُ بالقُرآنِ لا بُدَّ أنْ يَكونَ جاحِدًا له(٢).

- وصِيغةُ المُضارِعِ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ دالَّةٌ على تَجَدُّدِ الجُحودِ حِينًا فَحِينًا وتَكَرُّرِه(٣).

- وعُدِّيَ فِعلُ ﴿يَجۡحَدُونَ﴾ بالباءِ؛ لِتَضمينِه مَعنى: يُكَذِّبونَ(٤).

- وتَقديمُ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ على ﴿يَجۡحَدُونَ﴾؛ لِلاهتِمامِ، ولِلرِّعايةِ على الفاصِلةِ(٥).

---

= حيان)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٥٢).

(١) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، أو المُلحقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ نَجۡعَلۡهُمَا تَحۡتَ أَقۡدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [فصلت: ٢٨]، أيْ: ويَقولونَ ذلك في جَهنَّمَ...؛ فعُدِلَ عن صِيغةِ الاستِقبالِ إلى صِيغةِ المُضيِّ؛ لِلدَّلالةِ على تَحقيقِ وُقوعِ هذا القَولِ، فالقائلونَ: ﴿رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾ هم عامَّةُ المُشرِكينَ، كما يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿ٱلَّذَيۡنِ أَضَلَّانَا﴾[1].

- ومَعنى ﴿أَرِنَا﴾: عَيِّنْ لنا، وهو كِنايةٌ عن إرادةِ انتِقامِهم منهم، وإنَّما طَلَبوا أنْ يَرَوْهما؛ لِأنَّ المُضِلِّينَ كانوا في دَرَكاتٍ مِنَ النارِ أسفَلَ مِن دَرَكاتِ أتْباعِهم؛ فلذلك لم يَعرِفوا أيْن هم[2].

- والتَّعليلُ بقَولِهم: ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾ تَوطِئةٌ لاستِجابةِ اللهِ تعالَى لهم أنْ يُرِيَهُموهما؛ لِأنَّهم عَلِموا مِن غَضَبِ اللهِ عليهم أنَّه أشَدُّ غَضَبًا على الفَريقَيْنِ المُضِلَّيْنِ، فتَوَسَّلوا بعَزْمِهم على الانتِقامِ منهم إلى تَيسيرِ تَمكينِهم مِنَ الانتِقامِ منهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٠، ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨١).

## الآيات (٣٠-٣٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَدَّعُونَ﴾: أي: تُريدونَ وتَطلُبونَ وتَتَمَنَّوْنَ، وأصلُ (دعو): هو أنْ تُميلَ الشَّيءَ إليك بصَوتٍ وكلامٍ يَكونُ منكَ[1].

﴿نُزُلًا﴾: أي: ثَوابًا ورِزقًا، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للنَّازِلِ مِنَ الزَّادِ، ويُهَيَّأُ للضَّيفِ، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[2].

﴿وَلِيٌّ﴾: أي: صَديقٌ ناصِرٌ، وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على القُرْبِ؛ سواءٌ مِن حيثُ المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتِقادُ، وكلُّ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٩).

مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[١].

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: قَريبٌ مُشفِقٌ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على دُنُوٍّ[٢].

﴿يَنزَغَنَّكَ﴾: أي: يَستَخِفَّنَّك منه خِفَّةٌ وغضَبٌ وعَجَلةٌ، أو يُحَرِّكنَّك بالشَّرِّ، وأصلُ (نزغ): يدُلُّ على إفسادٍ بيْنَ اثنَينِ[٣].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ﴾

قَولُه: ﴿أَلَّا تَخَافُواْ﴾: يجوزُ في (أن) المُدغَمةِ في (لا) أن تكونَ مَصدريَّةً ناصِبةً، و(لا) نافيةٌ، والمضارِعُ ﴿تَخَافُواْ﴾ مَنصوبٌ بـ (أَنْ)، والمصدَرُ المؤَوَّلُ مجرورٌ بحَرفِ جَرٍّ مَحذوفٍ مُتَعَلِّقٌ بـ﴿تَتَنَزَّلُ﴾، أي: تتنَزَّلُ بانتفاءِ خَوفِهم وحَزَنِهم. ويجوزُ أن تكونَ (أن) مُخفَّفةً مِن الثَّقيلةِ، واسمُها ضميرُ شأنٍ مَحذوفٌ، أو مُفَسِّرةً؛ لأنَّ التَّنَزُّلَ بمعنى القَولِ دُونِ حُروفِه، و (لا) ناهيةٌ على هذين الوَجهَينِ، والفِعل المضارِعُ ﴿تَخَافُواْ﴾ مَجزومٌ بِلا، والتَّقديرُ فيهما: بأنَّه لا تَخافوا، أو: أي لا تَخافوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٢٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٤/ ٣٠٧).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا حُسْنَ عاقبةِ المؤمنينَ: إنَّ الَّذين قالوا: ربُّنا اللهُ، ثمَّ استقاموا على أمْرِه سُبحانَه تتنَزَّلُ عليهم الملائكةُ بأنْ لا تخافُوا ممَّا يُستَقبَلُ، ولا تَحزَنوا على ما مضَى، وأبشِروا بالجنَّةِ الَّتي كُنتُم تُوعَدونَ بدُخولِها، نحن كنَّا أولياءَكم في الحياةِ الدُّنيا، وكذلك نكونُ في الآخِرةِ، ولكم في الآخِرةِ ما تَشتَهيه أنفُسُكم، وما تَطلُبونَه وتتَمَنَّونَه؛ ضيافةً وإكرامًا مِن الغَفورِ الرَّحيمِ سُبحانَه وبِحَمدِه.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه مَنزِلةَ الَّذين يقومونَ بالدَّعوةِ إلى الحقِّ، فيقولُ: ولا أحَدَ أحسَنُ قَولًا مِمَّن دعا النَّاسَ إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، وعَمِلَ صالِحًا، وقال: إنَّني مِن المُسلِمينَ.

ثمَّ يُرشِدُ اللهُ تعالى إلى ما يُؤدِّي إلى إشاعةِ المحَبَّةِ، فيقولُ: ولا تَستوي الخَصلةُ الحَسَنةُ مع الخَصلةِ السَّيِّئةِ في الجَزاءِ؛ فادفَعْ -يا مُحمَّدُ- السَّيِّئةَ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ؛ فأحسِنْ إلى مَن أساء إليك، وادْعُه بالحِكمةِ والرِّفقِ، واصفَحْ عنه، واصبِرْ على أذاه؛ فإنَّك إنْ فعَلْتَ ذلك صار مَن هو عدوٌّ لك كأنَّه صَديقٌ شَديدُ المحبَّةِ لك.

وما يُعطَى هذه الخَصلةَ الشَّريفةَ إلَّا الَّذين صَبَروا، وما يُعطاها إلَّا ذو نَصيبٍ وافرٍ مِنَ الخَيرِ. ثمَّ يُرشِدُ اللهُ عبادَه إلى ما يَعصِمُهم مِن الشَّيطانِ، فيقولُ: وإنْ يُوَسْوِسْ لك الشَّيطانُ -يا مُحمَّدُ- لِيُفسِدَ بيْنَك وبيْنَ غَيرِك، فالتَجِئْ إلى اللهِ؛ لِيَعصِمَك منه؛ إنَّ اللهَ هو السَّميعُ العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أطنَبَ في الوَعيدِ؛ أردَفَه بهذا الوَعدِ الشَّريفِ، وهذا ترتيبٌ لَطيفٌ مَدارُ كُلِّ القُرآنِ عليه[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾.

أي: إنَّ الَّذين قالوا نُطقًا بألسِنَتِهم، واعتِقادًا بقُلوبِهم: ربُّنا اللهُ وَحْدَه، ثمَّ استَقاموا على تَوحيدِ اللهِ، وامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه، وداوَموا على طاعتِه بإخلاصٍ له، ومُوافَقةٍ لِشَرعِه بلا إفراطٍ ولا تَفريطٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ [هود: ١١٢].

وعن سُفْيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[٣].

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾.

أي: أولئك المُؤمِنونَ المُستَقيمونَ تَتنَزَّلُ[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢ - ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).
قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ أنَّهم صَدَعوا بذلك، ولم يَخشَوا أحدًا بإعلانِهم التَّوحيدَ؛ فقَولُهم تصريحٌ بما في اعتِقادِهم؛ لأنَّ المرادَ أنَّهم قالوا ذلك عن اعتقادٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢).

(٣) رواه مسلم (٣٨).

(٤) قال ابن عثيمين: (﴿تَتَنَزَّلُ﴾ مدلولُها ... أنَّ تَنزُّلَهم يكونُ شيئًا فشيئًا... لا تَتنزَّلُ دَفْعةً واحدةً، والثَّاني أنَّ التَّنزُّلَ أو النُّزولَ مُتكرِّرٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

عليهم الملائِكةُ[١].

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ المؤمِنَ إذا كان في انقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ، بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهم الشَّمسُ، معهم كَفَنٌ مِن أكفانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٥)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨).

قيل: تنَزُّلُ الملائكةِ على المؤمِنِ يكونُ عندَ الموتِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: يحيى بنُ سلام، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ، وزيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

وقيل: عندَ الموتِ وفي وقتِ البعثِ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٥).

وقيل: عندَ الموتِ، وفي القبرِ، وعند البَعثِ. وممَّن قال بهذا القَولِ: ابنُ القيِّم. يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٩٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: وكيعُ بنُ الجَرَّاحِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٤).

وقيل: تنَزُّلُ الملائكةِ على المؤمِنِ: في حياتِه؛ لتأييدِه بإلهامِ الطَّاعاتِ، ومُحاربةِ الشَّياطينِ ونَحوِ ذلك، وبذلك تتِمُّ مُقابَلةُ تنَزُّلِهم على المؤمِنينَ بذِكرِ تَقييضِ القُرَناءِ للكافِرينَ، المتقَدِّمِ ذِكرُها في الآياتِ السَّابِقةِ. وممَّن اختاره: أبو السعود، واستحسَنَه ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٦).

وقيل: المرادُ: العُمومُ؛ فالملائِكةُ تتنَزَّلُ في الحياةِ، وعندَ الموتِ، وفي كُلِّ حالٍ تَقتضي نزولَهم على المؤمِنِ المستقيمِ. وممَّن ذهب إلى هذا العُمومِ في الجُملةِ: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٧، ١٦٨).

الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ[١] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ[٢]، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأسِه، فيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخرُجي إلى مَغفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضوانٍ، فتَخرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطرةُ مِن فِي السِّقاءِ، فيَأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَأخُذوها فيَجعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ وفي ذَلِك الحَنُوطِ، ويَخرُجُ مِنها كأَطْيَبِ نَفْحةٍ[٣] مِسْكٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنتَهوا بها إلى السَّماء الدُّنيا، فيَستَفتِحون له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنتَهى به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتُبوا كِتابَ عَبدي في عِلِّيِّينَ، وأعيدُوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى...))[٤].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن أحَبَّ لِقاءَ اللهِ أحَبَّ اللهُ لِقاءَه، ومَن كَرِهَ لِقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَه. قُلْنا: يا رَسولَ اللهِ،

---

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتَى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦).

(٢) مَدَّ البَصَرِ: أي: مَداه، وهي الغايةُ الَّتي يَنتهي إليها البَصَرُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢١٣).

(٣) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٤) أخرجه ابنُ أبي شيبة في ((المصنف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقاربةٍ.

صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وصحَّحَ الحديثَ ابنُ القيِّم في ((الروح)) (ص: ٤٦)، والألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٢٨٠/ ٤).

كُلُّنا نَكرَهُ الموتَ. قال: ليس ذاك كراهيةَ المَوتِ، ولكِنَّ المؤمِنَ إذا حُضِرَ[١] جاءَه البشيرُ مِنَ اللهِ بما هو صائِرٌ إليه، فليس شَيءٌ أحَبَّ إليه مِن أن يكونَ قد لَقِيَ اللهَ، فأحَبَّ اللهُ لِقاءَه؛ وإنَّ الفاجِرَ أو الكافِرَ إذا حُضِرَ جاءَه بما هو صائِرٌ إليه مِنَ الشَّرِّ، أو ما يَلقاه مِنَ الشَّرِّ، فكَرِهَ لِقاءَ اللهِ، وكَرِهَ اللهُ لِقاءَه))[٢].

﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾.

أي: تَتنَزَّلُ عليهم الملائِكةُ بأنْ لا تخافُوا ممَّا يُستَقبَلُ، ولا تَحزَنوا على ما مَضى[٣].

---

(١) حُضِر: أي: دَنا موتُه. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٠٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٢٠٤٧) واللَّفظُ له، والبزار (٦٦٠٤)، وأبو يعلى (٣٨٧٧).

صحَّحه ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٧/ ١٦٧)، والألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٤٨٥)، وقال المُنْذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٥٤): (رواه أحمد، ورواتُه رواةُ الصَّحيحِ). وقال البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ٤٢٩): (رواه أبو يعلى بسندٍ صحيحٍ). وصحَّح إسنادَه على شرطِ الشَّيخَينِ شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٩/ ١٠٤). والحديثُ أصلُه في الصَّحيحَينِ عن أنسٍ عن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٨).

قيل: المرادُ: لا تخافوا مِنَ الموتِ، ولا تَحزنوا على ما خلَّفتُم وراءَكم في الدُّنيا مِن أهلٍ أو ولدٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ بنَفيِ الخَوفِ مِن المُستقبَلِ، والحُزنِ على الماضي: ابنُ عطية، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٨).

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

أي: وأبشِروا بالجَنَّةِ الَّتي كُنتُم تُوعَدونَ بدُخولِها في كُتُبِ اللهِ وعلى ألسِنةِ رُسُلِه؛ جَزاءَ إيمانِكم باللهِ، واستِقامتِكم على دِينِه(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣، ١٤].

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ في هذه الآيةِ الكريمةِ عن الملائِكةِ أنَّهم قالوا للمُؤمِنينَ: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]، وهذا في مُقابَلةِ ما ذكَرَه في وَعيدِ الكُفَّارِ؛ حيث قال: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾(٢) [فصلت: ٢٥].

وأيضًا لَمَّا أثبَتوا للمُؤمِنينَ الخَيرَ، ونَفَوا عنهم الضَّيرَ؛ عَلَّلوه بقَولِهم(٣): ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

قال ابن القيِّم: (وأوَّلُ بِشارةِ الآخِرةِ: عندَ الموتِ). ((الروح)) (ص: ٩٣).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قال زيدُ بنُ أسْلَمَ: «يُبشِّرونَه عندَ مَوتِه، وفي قَبرِه، وحينَ يُبعَثُ». رواه ابنُ أبي حاتمٍ. وهذا القَولُ يَجمَعُ الأقوالَ كُلَّها، وهو حَسَنٌ جِدًّا، وهو الواقِعُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٤).

أي: نحن نَتَوَلَّاكم في الحياةِ الدُّنيا، ونتَولَّاكم في الآخِرةِ أيضًا[1].

كما قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٠).

ممَّن ذهب إلى أنَّ ذلك يُقالُ للمُؤمِنينَ عندَ الموتِ، والمعنى: كنَّا أولياءَكم في الدُّنيا، وكذلك نكونُ معكم في الآخِرةِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

قال ابنُ كثير: (أي: تقولُ الملائكةُ للمُؤمِنينَ عندَ الاحتِضارِ: نحن كُنَّا أولياءَكم، أي: قُرَناءَكم في الحياةِ الدُّنيا؛ نُسَدِّدُكم ونُوَفِّقُكم، ونَحفَظُكم بأمرِ الله، وكذلك نكونُ معكم في الآخِرةِ؛ نُؤنِسُ منكم الوَحشةَ في القُبورِ، وعندَ النَّفخةِ في الصُّورِ، ونُؤَمِّنُكم يومَ البَعثِ والنُّشورِ، ونُجاوِزُ بكم الصِّراطَ المستقيمَ، ونُوصِلُكم إلى جنَّاتِ النَّعيم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧).

وقال السعدي: (﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ يَحُثُّونَهم في الدُّنيا على الخَيرِ ويُزَيِّنونَه لهم، ويُرَهِّبونَهم عن الشَّرِّ ويُقَبِّحونَه في قُلوبِهم، ويَدْعُونَ اللهَ لهم، ويُثَبِّتونَهم عندَ المصائِبِ والمَخاوِفِ، وخُصوصًا عندَ الموتِ وشِدَّتِه، والقَبرِ وظُلمتِه، وفي القيامةِ وأهوالِها، وعلى الصِّراطِ، وفي الجنَّةِ يُهنِّئونَهم بكرامةِ رَبِّهم، ويَدخُلونَ عليهم مِن كُلِّ بابٍ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨، ٧٤٩).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَتعاقَبونَ فيكم مَلائِكةٌ باللَّيلِ، وملائِكةٌ بالنَّهارِ، ويَجتَمِعونَ في صَلاةِ الفَجرِ وصَلاةِ العَصرِ، ثمَّ يَعرُجُ الَّذين باتُوا فيكم، فيَسألُهم رَبُّهم وهو أعلَمُ بهم: كيف ترَكتُم عِبادي؟ فيَقولونَ: ترَكْناهم وهم يُصَلُّونَ، وأتَيْناهم وهم يُصَلُّونَ))[١].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾.

أي: ولكم في الحياةِ الآخِرةِ ما تَشتَهيه أنفُسُكم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ: أعدَدْتُ لِعِبادِيَ الصَّالِحينَ ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قَلبِ بَشَرٍ))[٣].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾.

أي: ولكم فيها ما تَطلُبونَه وتتَمَنَّونَه[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢) واللفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٠).

(٣) رواه البخاري (٧٤٩٨) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٦).

قال ابنُ عثيمين: (كُلُّ ما اشتهاه الإنسانُ وإن لم يَطلُبْه فإنَّه يَحصُلُ بيْنَ يديه، وكذلك أيضًا كُلُّ ما طَلَبَه فإنَّه يَحضُرُ بيْن يديه). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٠).

وقال الماوَرْدي: (﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: ما تَمنَّوْنَ، قاله مُقاتِلٌ. الثَّاني: =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَومًا يُحَدِّثُ وعِندَه رجُلٌ مِن أهلِ الباديةِ: أنَّ رَجُلًا مِن أهلِ الجنَّةِ استأذَنَ رَبَّه في الزَّرعِ، فقال له: أَلَسْتَ فيما شِئتَ؟! قال: بلى، ولكِنِّي أُحِبُّ أن أزرَعَ! قال: فبَذَرَ فبادَرَ الطَّرْفَ[1] نباتُه واستِواؤُه واستِحصادُه، فكان أمثالَ الجِبالِ! فيَقولُ اللهُ: دُونَك[2] يا ابنَ آدَمَ؛ فإنَّه لا يُشبِعُك شَيءٌ! فقال الأعرابيُّ: واللهِ لا تَجِدُه إلَّا قُرَشيًّا أو أنصاريًّا؛ فإنَّهم أصحابُ زَرعٍ! وأمَّا نحن فلَسْنا بأصحابِ زَرعٍ. فضَحِكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[3].

﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

أي: هذا الثَّوابُ العَظيمُ في الآخِرةِ تُعطَونَه ضِيافةً وإكرامًا مِنَ اللهِ الغَفورِ السَّاتِرِ لذُنوبِكم، المُتجاوِزِ عن عُقوبتِكم؛ الرَّحيمِ بكم، الَّذي مِن رَحمتِه أن وفَّقَكم لطاعتِه، وقَبِل حَسَناتِكم[4].

كما قال تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٩].

---

= ما تَدَّعي أنَّه لك فهو لك بحُكمِ ربِّك، قاله ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٠). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٢).

(١) فبادَرَ الطَّرْفَ نباتُه: أي: فسابَقَه نباتُه وحَصَل في الحالِ. والطَّرْفُ: هو امتِدادُ لَحْظِ الإنسانِ حيث أدرَكَ. وقيل: طَرْفُ العَينِ: حَرَكتُها، أي: تحَرُّكُ أجفانِها. يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (١٥/ ٢٩٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠٠).

(٢) دُونَك يا ابنَ آدَمَ: أي: خُذْ ما تمنَّيتَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠٠).

(٣) رواه البخاري (٢٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧١، ١٧٣).

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ الكَلامَ مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ إنَّما ابتُدِئَ حيثُ قال المُشرِكونَ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ [فصلت: ٥]، ومُرادُهم: ألَّا نَقبَلَ قَولَك، ولا نَلتَفِتَ إلى دليلِك، ثمَّ ذَكَروا طريقةً أُخرى في السَّفاهةِ، فقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ وأنَّه سُبحانَه ذكَرَ الأجوِبةَ الشَّافيةَ والبَياناتِ الكافيةَ في دَفعِ هذه الشُّبُهاتِ، وإزالةِ هذه الضَّلالاتِ، ثمَّ إنَّه سُبحانَه وتعالى بيَّنَ أنَّ القومَ وإنْ أَتَوا بهذه الكَلِماتِ الفاسِدةِ إلَّا أنَّه يَجِبُ عليك أن تُتابِعَ المُواظَبةَ على التَّبليغِ والدَّعوةِ؛ فإنَّ الدَّعوةَ إلى الدِّينِ الحَقِّ أكمَلُ الطَّاعاتِ، ورأسُ العِباداتِ، وعبَّرَ عن هذا المعنى فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا تقدَّمَ قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾؛ ذكَرَ مَن دعا إلى ذلك[2]؛ فإنَّ مراتِبَ السَّعاداتِ اثنتانِ: التَّامُّ، وفوقَ التَّامِّ؛ أمَّا التَّامُّ: فهو أن يَكتَسِبَ مِن الصِّفاتِ الفاضِلةِ ما لأجْلِها يَصيرُ كامِلًا في ذاتِه، فإذا فَرَغ مِن هذه الدَّرَجةِ اشتغَلَ بَعدَها بتَكميلِ النَّاقِصينَ، وهو فوقَ التَّامِّ؛ فقَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠] إشارةٌ إلى المرتبةِ الأُولى، وهي اكتِسابُ الأحوالِ الَّتي تُفيدُ كَمالَ النَّفْسِ في جَوهرِها، فإذا حَصَل الفَراغُ مِن هذه المَرتبةِ وَجَب الانتِقالُ إلى المرتبةِ الثَّانيةِ، وهي الاشتِغالُ بتَكميلِ النَّاقِصينَ، وذلك إنَّما يكونُ بدَعوةِ الخَلقِ إلى الدِّينِ الحَقِّ، وهو المرادُ مِن قَولِه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٥).

تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[١].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾.

أي: ولا أحَدَ أحسَنُ قَولًا مِمَّن دعا النَّاسَ إلى توحيدِ اللهِ وطاعتِه، وعَمِلَ عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ [يوسف: ١٠٨].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لعَليِّ ابنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه يومَ خَيْبَرَ: ((ادْعُهم إلى الإسلام، وأخبِرْهم بما يجِبُ عليهم مِن حَقِّ اللهِ فيه؛ فواللهِ لَأَنْ يَهديَ اللهُ بك رجُلًا واحِدًا خَيرٌ لك مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥، ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

قال ابنُ كثير: (هذه عامَّةٌ في كُلِّ مَن دعا إلى خيرٍ وهو في نَفْسِه مُهتَدٍ، ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَولى النَّاسِ بذلك... والصَّحيحُ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ في المؤَذِّنينَ وفي غَيرِهم؛ فأمَّا حالَ نُزولِ هذه الآيةِ فإنَّه لم يكُنِ الأذانُ مَشروعًا بالكُلِّيَّةِ؛ لأنَّها مكِّيَّةٌ، والأذانُ إنَّما شُرِعَ بالمدينةِ بعدَ الهِجرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٩، ١٨٠).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ: ابنُ عطية، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥، ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩١).

أنْ يكونَ لك حُمْرُ النَّعَمِ[١]))[٢].

﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

أي: وقال: إنَّني مِنَ المُستَسلِمينَ للهِ، المُقِرِّينَ بوَحدانيَّتِه، الخاضِعينَ له، المُنقادينَ إليه بطاعتِه[٣].

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه لا أحَدَ أحسَنُ مِمَّن دعا إلى اللهِ؛ ذكَرَ ما يَترتَّبُ على ذلك مِن حُسنِ الأخلاقِ، وأنَّ الدَّاعيَ إلى اللهِ قد يُجافيه المَدعُوُّ؛ فيَنبغي أن يَرفُقَ به، ويَتلطَّفَ في إيصالِ الخَيرِ إليه[٤].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ الدَّعوةَ إليه مِن أعظَمِ الدَّرَجاتِ، كأنَّ سائِلًا سألَ فقال: إنَّ الدَّعوةَ إلى اللهِ وإنْ كانت طاعةً عَظيمةً إلَّا أنَّ الصَّبرَ على سفاهةِ هؤلاء الكُفَّارِ شَديدٌ لا طاقةَ لنا به؛ فعِندَ هذا ذكَرَ اللهُ تعالى ما يَصلُحُ لِأنْ يكونَ دافِعًا لهذا الإشكالِ[٥].

﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾.

---

(١) حُمْرُ النَّعَمِ: هي الإبِلُ الحُمْرُ، وهي أنفَسُ أموالِ العَرَبِ، يَضرِبونَ بها المَثَلَ في نَفاسةِ الشَّيءِ، وأنَّه ليس هناك أعظَمُ منه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٧٨).

(٢) رواه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٤).

أي: ولا تَستوي الخَصلةُ الحَسَنةُ معَ الخَصلةِ السَّيِّئةِ في الجزاءِ وحُسنِ العاقِبةِ[١].

﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾.

أي: فادفَعْ -يا مُحمَّدُ- سَيِّئةَ النَّاسِ بالخَصلةِ الَّتي هي أحسَنُ الخِصالِ؛ فأحسِنْ إلى مَن أساء إليك، وادعُهم بالحِكمةِ والرِّفقِ، واللِّينِ وحُسنِ الخِطابِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٦).

قال السمعاني: (وأمَّا الحسَنةُ والسَّيِّئةُ ففيهما أقوالٌ؛ أحدُها: أنَّهما التَّوحيدُ والشِّركُ. والآخَرُ: أنَّهما العفوُ والانتِصارُ. والثَّالثُ: أنَّهما المُداراةُ والغلظةُ. والرَّابعُ: أنَّهما الصَّبرُ والجزَعُ. والخامسُ: أنَّهما الحِلمُ عندَ الغضَبِ والسَّفَهُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٢).

وقال الرازي: (المرادُ بالحسَنةِ دَعوةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الدِّينِ الحقِّ، والصَّبرُ على جهالةِ الكفَّارِ، وتركُ الانتقامِ، وتركُ الالتِفاتِ إليهم، والمرادُ بالسَّيِّئةِ ما أظهروه مِن الجَلافةِ في قَولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ﴾ [فصلت: ٥]، وما ذكروه في قَولِهم: ﴿لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، فكأنَّه قال: يا محمَّدُ فِعلُك حسَنةٌ وفِعلُهم سَيِّئةٌ، ولا تَستوي الحسنةُ ولا السَّيِّئةُ، بمعنى أنَّك إذا أتَيْتَ بهذه الحسَنةِ تكونُ مُستَوجِبًا للتَّعظيمِ في الدُّنيا والثَّوابِ في الآخرةِ، وهم بالضِّدِّ مِن ذلك، فلا يَنبغي أن يكونَ إقدامُهم على تلك السَّيِّئةِ مانعًا لك مِن الاشتغالِ بهذه الحسَنةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٤).

وقال ابن عاشور: (الحسَنةُ تَعُمُّ جميعَ أفرادِ جنسِها، وأُولاها تَبادُرًا إلى الأذهانِ حسَنةُ الدَّعوةِ إلى الإسلامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٠).

و(لا) الثانية هنا صلةٌ (زائدة) لتقويةِ الكلامِ وتوكيدِه، والمعنى: ولا تستوي الحسنةُ والسَّيِّئة. يُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١١١).

وقال جلالُ الدِّينِ المحليُّ: (﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ في جزئيَّاتِهما؛ لأنَّ بعضَهما فوقَ بعضٍ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٤)

قال ابنُ عثيمينَ: (وعلى هذا التَّفسيرِ تكونُ «لا» غيرَ زائدةٍ، تكونُ أصليَّةً، ويكونُ المرادُ بالآيةِ انتفاءَ تساوي الحسناتِ، وانتفاءَ تساوي السَّيِّئاتِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٥).

واحلُمْ عليهم، واصفَحْ عنهم، واصبِرْ على أذاهم[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَصِفُونَ * وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦ - ٩٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ * وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ * وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٥ - ١٢٨].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ الله عنهما، في وَصفِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في التَّوراةِ قال: ((لا يَدفَعُ بالسَّيِّئةِ السَّيِّئةَ، ولكِنْ يَعفو ويَغفِرُ))[٢].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، قالت: ((لم يكُنْ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فاحِشًا ولا مُتفَحِّشًا، ولا صَخَّابًا[٣] في الأسواقِ، ولا يَجْزي بالسَّيِّئةِ مِثلَها، ولكِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٤، ٥٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٥٢).

قال الرازي: (يعني: ادفَعْ سفاهتَهم وجهالتَهم بالطَّريقِ الَّذي هو أحسَنُ الطُّرقِ؛ فإنَّك إذا صبَرْتَ على سوءِ أخلاقِهم مرَّةً بعدَ أخرى، ولم تُقابِلْ سفاهتَهم بالغضبِ، ولا إضرارَهم بالإيذاءِ والإيحاشِ؛ استَحيَوا مِن تلك الأخلاقِ المذمومةِ، وترَكوا تلك الأفعالَ القبيحةَ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥).

(٢) رواه البخاري (٢١٢٥).

(٣) صَخَّابًا: أي: صَيَّاحًا، والصَّخَبُ: الضَّجَّةُ، واضطرابُ الأصواتِ للخِصامِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ١٤)، ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (٦/ ١٣٣).

يعفو ويَصفَحُ))[١].

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

**مناسبتُها لما قبلَها:**

لَمَّا كانتِ الآثارُ الصَّالحةُ تدُلُّ على صَلاحِ مَثارِها، وأمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالدَّفْعِ بالَّتي هي أحسَنُ؛ أرْدَفَه بذِكْرِ بَعضِ مَحاسنِه[٢]، فقال:

﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

أي: فإنَّك إنْ فعَلْتَ ذلك صار مَن هو عدُوٌّ لك كأنَّه صَديقٌ شَديدُ الوَلاءِ لك، يُحِبُّك ويُشفِقُ عليك، ويُحسِنُ إليك ويُناصِرُك[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٦)، وأحمد (٢٥٤١٧) واللفظُ له.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٦٤٤٣)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠١٦)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٢/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

وقيل: الوَليُّ: هو الصَّديقُ، والحَميمُ: هو القَريبُ. وممَّن قال بهذا: الماوَرْدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٧).

قال الشنقيطي: (﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: صديقٌ في غايةِ الصَّداقةِ). ((العذب النمير)) (٢/ ١٥١(.

وقيل: معنى ﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾: قريبٌ صديقٌ. وممَّن اختاره: الثعلبي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٢).

وقال ابن جرير: (يَصيرُ المُسيءُ إليك الَّذي بيْنَك وبيْنَه عداوةٌ، كأنَّه مِن مُلاطَفتِه إيَّاكَ وبِرِّه =

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أرشَدَ اللهُ تعالى إلى هذا الطَّريقِ النَّافِعِ في الدِّينِ والدُّنيا والآخِرةِ؛ عظَّمَه فقال[1]:

﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾.

أي: وما يُعطَى هذه الخَصلةَ الشَّريفةَ -وهي مُقابَلةُ الإساءةِ بالإحسانِ- ويُوفَّقُ للعَمَلِ بها إلَّا الَّذين صَبَروا على ذلك[2].

﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾.

أي: وما يُعطاها إلَّا ذو نَصيبٍ وافرٍ مِنَ الخَيرِ[3].

---

= لك، وَلِيٌّ لك مِن بني أعمامِك، قريبُ النَّسبِ بك. والحميمُ: هو القريبُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٣).

وقال مقاتلٌ: (كأنَّه وَلِيٌّ لك في الدِّينِ، حَمِيمٌ لك في النَّسَبِ، الشَّفيقُ عليك). ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٧٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٩، ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((قاعدة في الصبر)) لابن تيمية (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٠).

قيل: المرادُ بالحَظِّ العظيمِ: الجَنَّةُ. وممَّن قال به: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٦)، ((قاعدة في الصبر)) لابن تيمية (ص: ٩٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٤).=

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بدَفعِ السَّيِّئةِ بالأحسَنِ، كان قد يَعرِضُ للمُسلِمِ في بَعضِ الأوقاتِ مُقابَلةُ مَن أساء بالسَّيِّئةِ، فأمَرَه إنْ عَرَض له ذلك أن يَستعيذَ بالله؛ فإنَّ ذلك مِن نَزْغِ الشَّيطانِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما يُقابَلُ به العَدُوُّ مِن الإنسِ، وهو مُقابَلةُ إساءتِه بالإحسانِ، ذكَرَ ما يُدفَعُ به العَدُوُّ الجِنِّيُّ، وهو الاستِعاذةُ باللهِ، والاحتِماءُ مِن شَرِّه[2].

---

= وقيل: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: في الخَيرِ والثَّوابِ. وممَّن اختاره: البغوي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٢).

وقيل: ذو حظٍّ عظيمٍ مِن الفضائلِ النَّفْسانيَّةِ وكمالِ النَّفْسِ. وممَّن اختاره: الرازي، وأبو السعود، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥١٨).

وقال ابن عاشور: (أي: ما يحصُلُ دفْعُ السَّيِّئةِ بالحسنةِ إلَّا لصاحِبِ نصيبٍ عظيمٍ مِن الفضائلِ، أي: مِن الخُلُقِ الحسَنِ والاهتداءِ والتَّقوَى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٥).

وقال ابن عثيمين: (أي: وما يُلقَّاها إلا ذو نصيبٍ عظيمٍ، ليس مِن الثَّوابِ فحَسْبُ، بل مِن الثَّوابِ والأخلاقِ والرَّزانةِ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٠). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤١).

وقال الماوَرْدي: (﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: ذو جَدٍّ عظيمٍ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: ذو نصيبٍ وافرٍ مِن الخَيرِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّالثُ: أنَّ الحظَّ العظيمَ: الجنَّةُ. قال الحسَنُ: واللهِ ما عَظُمَ حظٌّ قَطُّ دونَ الجنَّةِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر هذا الطَّريقَ الكامِلَ في دَفعِ الغَضَبِ والانتِقامِ، وفي تَركِ الخُصومةِ، ذَكَر عَقِيبَه طريقًا آخَرَ عَظيمَ النَّفعِ أيضًا في هذا البابِ، فقال[1]:

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ ﴾.

أي: وإنْ وَجَدْتَ مِنَ الشَّيطانِ وَسوَسةً في نَفْسِك -يا مُحمَّدُ-؛ لِيُفسِدَ بيْنَك وبيْنَ غَيرِك، فيُغريَك بعَداوتِه، والإساءةِ إليه والانتِقامِ منه؛ فالتَجِئْ إلى الله، واطلُبْ منه أن يَعصِمَك منه، ويَحفَظَك مِن كَيدِه وشَرِّه[2].

كما قال تعالى: ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ * وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩، ٢٠٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

وقال تعالى حكايةً عن يُوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿... وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وعن سُلَيمانَ بنِ صُرَدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنتُ جالِسًا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ورجُلانِ يَسْتَبَّانِ، فأحدُهما احمَرَّ وَجْهُه، وانتَفَخَت أوداجُه[3]، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّي لَأعلَمُ كَلِمةً لو قالها ذَهَب عنه ما يَجِدُ؛ لو قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٦ - ٢٩٨).

(٣) الأَوداجُ: جَمعُ وَدَجٍ: وهو ما أحاطَ بالعُنُقِ مِن العُروقِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٠٤).

أعوذُ باللهِ مِنَ الشَّيطانِ، ذَهَب عنه ما يَجِدُ))[١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ الَّذي تَستعيذُ به مِن نَزْغِ الشَّيطانِ: هو السَّميعُ لكُلِّ قَولٍ، ومِن ذلك استِعاذتُك به؛ العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما يُلقِيه الشَّيطانُ في نَفْسِك، فلا يَخفَى عليه كَيدُ عَدُوِّك، وهو يَتولَّى أمْرَه وجَزاءَه[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ جَمَع أصلَي الكَمالِ الإسلاميِّ؛ فقَولُه: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ مُشيرٌ إلى الكَمالِ النَّفْسانيِّ، وهو مَعرِفةُ الحَقِّ لِلاهتِداءِ به، ومَعرِفةُ الخَيرِ لأجْلِ العَمَلِ به؛ فالكَمالُ عِلْمٌ يَقينيٌّ وعَمَلٌ صالِحٌ، فمَعرِفةُ اللهِ بالإلهيَّةِ هي أساسُ العِلْمِ اليَقينيِّ. وأشار قَولُه: ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ إلى أساسِ الأعمالِ الصَّالحةِ، وهو الاستِقامةُ على الحَقِّ، أي: أن يكونَ وَسَطًا غيرَ مائِلٍ إلى طَرَفَيِ الإفراطِ والتَّفريطِ؛ قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[٣] [البقرة: ١٤٣].

٢- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ دَليلٌ على أهمِّيَّةِ الاستِقامةِ على دينِ اللهِ؛ بأنْ يكونَ الإنسانُ ثابِتًا لا يَزيدُ ولا يَنْقُصُ، ولا يُبَدِّلُ ولا يُغَيِّرُ، فأمَّا مَن غلا في دينِ اللهِ أو

---

(١) رواه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠)، واللفظُ للبخاري.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٣).

جَفا عنه أو بَدَّلَ، فإنَّه لا يكونُ مُستَقيمًا على شَريعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، والاستقامةُ لا بُدَّ لها مِن الاعتدالِ في كلِّ شيءٍ حتَّى يكونَ الإنسانُ مُستقيمًا على شريعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

٣- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ الإشارةُ إلى الإخلاصِ في الدَّعوةِ، نأخُذُها مِن قَولِه: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الدَّاعيَ رُبَّما يَدعو النَّاسَ ويَعِظُهم يُريدُ بذلك المكانةَ المرموقةَ بيْنَهم، فهذا في حقيقةِ الأمرِ دعا إلى نفْسِه، فلا بُدَّ للداعي مِن الإخلاصِ(٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فيه أنَّه ينبغي للمُسلم أنْ يكونَ عزيزًا بدينِه؛ وأنْ يُعْلِنَ به؛ وأنْ يقولَ: ﴿إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ وألَّا يَستحيَ إذا قيلَ: إنَّه مسلمٌ(٣).

٥- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤]، واسمَع الآنَ ما الَّذي يُسَهِّلُ هذا على النَّفْسِ، ويُطَيِّبُه إليها، ويُنَعِّمُها به: اعلَمْ أنَّ لك ذُنوبًا بيْنَك وبيْنَ اللهِ تَخافُ عواقِبَها، وتَرجوه أن يعفوَ عنها، ويَغفِرَها لك، ويَهَبَها لك، ومع هذا لا يَقتَصِرُ على مُجرَّدِ العَفوِ والمُسامَحةِ حتَّى يُنعِمَ -سُبحانَه وتعالى- عليك ويُكرِمَك، ويَجلِبَ إليك مِنَ المنافِعِ والإحسانِ فَوقَ ما تؤمِّلُه! فإذا كنتَ ترجو هذا مِن ربِّك أن يُقابِلَ به إساءتَك، فما أَوْلاك وأجدَرَك أن تُعامِلَ به خَلْقَه، وتُقابِلَ به إساءتَهم!

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ليُعامِلَك اللهُ هذه المعامَلةَ؛ فإنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ، فكما تَعمَلُ معَ النَّاسِ في إساءتِهم في حَقِّك يَفعَلُ اللهُ معك في ذُنوبِك وإساءتِك جزاءً وِفاقًا؛ فانتَقِمْ بعدَ ذلك أو اعْفُ، وأحسِنْ أو اترُكْ؛ فكما تَدينُ تُدانُ، وكما تَفعَلُ معَ عبادِه يَفعَلُ معك. فمَن تصَوَّرَ هذا المعنى وشَغَل به فِكرَه هان عليه الإحسانُ إلى مَن أساء إليه، هذا معَ ما يَحصُلُ له بذلك مِن نَصرِ اللهِ ومَعِيَّتِه الخاصَّةِ، ومع ما يَتعَجَّلُه مِن ثَناءِ النَّاسِ عليه، ويَصيرونَ كُلُّهم معه على خَصمِه؛ فإنَّه كُلُّ مَن سَمِع أنَّه مُحسِنٌ إلى ذلك الغيرِ وهو مُسيءٌ إليه، وَجَد قَلْبَه ودعاءَه وهِمَّتَه مع المحسِنِ على المُسيءِ، وذلك أمرٌ فِطْريٌّ فَطَر اللهُ عِبادَه عليه، فهو بهذا الإحسانِ قد استَخدَمَ عسكرًا لا يَعرِفُهم ولا يَعرِفونَه، ولا يُريدونَ منه إقطاعًا ولا خبزًا، هذا مع أنَّه لا بُدَّ له مع عَدُوِّه وحاسِدِه من إحدى حالتَينِ: إمَّا أن يَملِكَه بإحسانِه فيَستعبِدَه ويَنقادَ له ويَذِلَّ له، ويَبقَى مِن أحَبِّ النَّاسِ إليه، وإمَّا أن يُفَتِّتَ كَبِدَه ويَقطَعَ دابِرَه إن أقام على إساءتِه إليه؛ فإنَّه يُذيقُه بإحسانِه أضعافَ ما يَنالُ منه بانتِقامِه، ومَن جَرَّب هذا عَرَفه حَقَّ المَعرِفةِ[1].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ فيه الحَثُّ على أنْ تُقابَلَ السَّيِّئةُ بحسنةٍ، وعلى فِعْلِ الحسَناتِ في مقابِلِ السَّيِّئاتِ، وليس الفائدةُ أنْ يَعْلَمَ أنَّ الحسَنةَ لا تُساوي السَّيِّئةَ! لأنَّ هذا أمرٌ معلومٌ[2]. وسُبحانَ اللهِ! إنسانٌ بَيْنَك وبَيْنَه عَداوةٌ أساء إليك، فتُؤمَرُ بـ ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، فإذا دفَعْتَ بالَّتي هي أحسَنُ يأتيك الثَّوابُ والجَزاءُ مِنَ اللهِ ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وقولُه: ﴿وَلِيٌّ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٣).

حَمِيمٌ﴾ أي: قَريبٌ صَديقٌ في غايةِ ما يكونُ مِن الصَّداقةِ والقُربِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والَّذي يَقولُ هو اللهُ عزَّ وجَلَّ مُقَلِّبُ القُلوبِ: ((إنَّ قلوبَ بَني آدَمَ كلَّها بيْنَ إصبَعَينِ مِن أصابعِ الرَّحمنِ كقلبٍ واحدٍ يُصَرِّفُه حيثُ يَشاءُ))(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ دليلٌ على أنَّه نُدِبَ إلى الإحسانِ إلى المُسيءِ؛ لِتأتلِفَ الأُمَّةُ، ولا تَفترِقَ، ولا تَتباغَضَ(٢).

٨- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ لِذِكرِ المُثُلِ والنَّتائِجِ عَقِبَ الإرشادِ شَأنٌ ظاهِرٌ في تقريرِ الحَقائِقِ، وخاصَّةً الَّتي قد لا تَقبَلُها النُّفوسُ لأنَّها شاقَّةٌ عليها، والعَداوةُ مَكروهةٌ، والصَّداقةُ والوَلايةُ مَرغوبةٌ؛ فلَمَّا كان الإحسانُ لِمَن أساء يُدنيه مِن الصَّداقةِ أو يَكسِبُه إيَّاها، كان ذلك مِن شَواهِدِ مَصلحةِ الأمرِ بالدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ(٣).

٩- الصَّبرُ ضابِطُ الأخلاقِ المأمورِ بها؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾(٤).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ فيه أنَّه إذا صبَّرَ الإنسانُ نَفْسَه، وامتَثَل أمْرَ رَبِّه، وعَرَف جَزيلَ الثَّوابِ، وعَلِم أنَّ مُقابَلَتَه للمُسيءِ بجِنسِ عَمَلِه لا تُفيدُه شَيئًا، ولا تَزيدُ العَداوةَ إلَّا شِدَّةً، وأنَّ إحسانَه إليه ليس بواضِعٍ قَدْرَه، بل مَن تواضَعَ لله رفَعَه: هان عليه الأمرُ، وفَعَل ذلك مُتلذِّذًا

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٨).

والحديث أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبدالله بن عَمرٍو رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٥).

مُستَحليًا له[١].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾، أي: استَجِرْ بالمَلِكِ الأعلَى، واطلُبْ منه الدُّخولَ في عِصمتِه، مُبادِرًا إلى ذلك حينَ يَنخُسُ بالنَّزْغةِ؛ فإنَّه لا يَقدِرُ على الإعاذةِ منه غيرُه، ولا تَذَرِ النَّزغةَ تَتكَرَّرُ، بل ارجِعْ إلى المحيطِ عِلمًا وقُدرةً في أوَّلِ الخَطْرةِ؛ فإنَّك إنْ لم تخالِفْ أوَّلَ الخَطْرةِ صارت فِكرةً، فيَحصُلُ العَزمُ، فتَقَعُ الزَّلَّةُ، فتصيرُ قَسوةً، فيَحصُلُ التَّمادي[٢]. ولا يتخَلَّصُ العبدُ مِن نَزَغاتِ الشَّيطانِ إلَّا بصِدقِ الاستِعانةِ وصِدقِ الاستغاثةِ، وبذلك يَنجو مِنَ الشَّيطانِ، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، فكلَّما ازداد العَبدُ في تبَرِّيه مِن حَولِه وقُوَّتِه، وأخلَصَ بيْنَ يَدَيِ اللهِ بتضَرُّعِه واستِعانتِه واستِعاذتِه؛ زاد اللهُ في حِفظِه، ودَفَع الشَّيطانَ عنه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ فيه أنَّ المُصلِحَ يُيَسِّرُ اللهُ له أولياءَ الخَيرِ مِن الإنسِ والمَلائِكةِ، يُعينونَه ويُحَبِّبونَه في جَميعِ الخَيراتِ، ويُبعِدونَه ويُكَرِّهونَه في جميعِ المَضَرَّاتِ، واللهُ يَتولَّى الصَّالحينَ[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ فمَن كان له أصلُ الاستِقامةِ في التَّوحيدِ أمِنَ مِن الخُلودِ في النَّارِ، ومَن كان له كَمالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٥).

الاستِقامةِ في الأُصولِ والفُروعِ أمِنَ الوَعيدَ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ يُفيدُ نَفيَ الخَوفِ والحُزنِ على الإطلاقِ، فيَدُلُّ على أنَّ المؤمِنَ عندَ الموتِ وفي القَبرِ وعندَ البَعثِ: لا يكونُ فازِعًا مِن الأهوالِ ومِن الفَزَعِ الشَّديدِ، بل يكونُ آمِنَ القَلبِ ساكِنَ الصَّدرِ[٢].

٤- نعيمُ القَبرِ وعَذابُه حَقٌّ ثابتٌ؛ لِقَولِه تعالى في آلِ فِرعَونَ: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقَولِه في المؤمِنينَ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[٣]، فهذا التَّنزُّلُ يكونُ عندَ الموتِ ويكونُ في القبرِ، ويكونُ عندَ البعثِ[٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٥- قال الله تعالى حِكايةً عن قَولِ الملائِكةِ: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾، قَولُه: ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ إشارةٌ إلى مُقابَلةِ قَولِه في المُشرِكينَ: ﴿وَقَيَّضۡنَا لَهُمۡ قُرَنَآءَ﴾ [فصلت: ٢٥]، فكما قَيَّض للكافِرِ قُرَناءَ في الدُّنيا قَيَّض للمُؤمِنينَ ملائِكةً يَكونونَ قُرَناءَهم في الدُّنيا، وكما أنطَقَ أتْباعَهم باللَّائِمةِ عليهم أنطَقَ الملائِكةَ بالثَّناءِ على المؤمِنينَ[٥].

٦- قَولُ الملائكةِ: ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ تعريفٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٦).

بأنفُسِهم للمُؤمِنينَ؛ تأنيسًا لهم؛ فإنَّ العِلمَ بأنَّ المتلَقِّيَ صاحِبٌ قديمٌ يَزيدُ نفْسَ القادِمِ انشِراحًا وأُنسًا، ويُزيلُ عنه دَهشةَ القُدومِ، ويُخَفِّفُ عنه مِن حِشمةِ الضِّيافةِ، ويُزيلُ عنه وَحشةَ الاغترابِ، أي: نحنُ الَّذين كنَّا في صُحبتِكم في الدُّنيا؛ إذ كانوا يَكتُبونَ حَسَناتِهم، ويَشهَدونَ عندَ اللهِ بصَلاتِهم[١].

٧- في قولِه تعالى: ﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾، ذكَر المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأنَّهم إنَّما وَصَلوا إلى ذلك بمغفرةِ اللهِ ورحمتِه، ولولا ذلك ما وَصَلوا إلى ما وَصَلوا إليه، ولهذا أخْبَر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه لن يَدْخُلَ الجنَّةَ أحدٌ بعَمَلِه، ((قالوا: ولا أنت يا رسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا؛ إلَّا أنْ يَتغمَّدنيَ اللهُ برحمتِه))[٢]، فالإنسانُ لا يَصِلُ إلى الجنَّةِ بالعملِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لو قُوبِلَ العملُ بالنِّعمةِ الَّتي أنْعَم اللهُ بها على الإنسانِ لم يكنْ شيئًا! إذْ إنَّ نِعَمَ اللهِ لا تُحصَى ولا تُعَدُّ[٣].

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فيه فضيلةُ الدَّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[٤].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ فيه مَنزَعٌ عَظيمٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٧٣).

وهذا لا يعني عدمَ أهميَّةِ العملِ، فالأعمالُ الصالحةُ سببٌ لدخولِ الجنَّةِ وثمنٌ لها، لكن ليس على وجهِ المقابلةِ أو البدلِ، وتلك الأعمالُ الصالحةُ حصَلتْ للعبدِ برحمةِ الله ومِنَّتِه عليه، لا بحَولِه وقوَّتِه. وأيضًا فإنَّ مقتضَى اسمِ الله «الرحيم»: الرحمةُ، فعلى العبدِ أنْ يعملَ العملَ الصالحَ الذي يكونُ جالبًا لرحمةِ الله، ومقتضَى اسمِه «الغفور» المغفرةُ، فعلى العبدِ أنْ يعملَ ما يكونُ سببًا في مغفرةِ ذنوبِه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٣٩)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٨٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٣).

لفَضيلةِ العُلَماءِ الَّذين بَيَّنوا السُّنَنَ، ووضَّحوا أحكامَ الشَّريعةِ، واجتَهَدوا في التَّوصُّلِ إلى مُرادِ الله تعالى مِن دينِه ومِن خَلْقِه[١].

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ لَمَّا تَفاوَتَت الحَسَنةُ والسَّيِّئةُ أمَرَ أن يَدفَعَ السَّيِّئةَ بالأحسَنِ، وذلك مُبالَغةٌ، ولم يَقُلْ: ادفَعْ بالحَسَنةِ السَّيِّئةَ؛ لأنَّ مَن هان عليه الدَّفعُ بالأحسَنِ، هان عليه الدَّفعُ بالحَسَنِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ انتِفاءُ تَساوي الحَسَناتِ بَعضِها ببَعضٍ، وانتِفاءُ تساوي السَّيِّئاتِ بَعضِها ببَعضٍ، فيَترتَّبُ على ذلك فائِدةٌ: أنَّ الحَسَناتِ تَتفاوَتُ، والسَّيِّئاتِ تَتفاوَتُ؛ فمِنَ الحَسَناتِ ما هو أصولٌ في الإسلامِ، كالأُصولِ الخَمسةِ، ومنها ما هو دونَ ذلك، ومنها ما هو فرائِضُ، ومنها ما هو نوافِلُ، وكذلك في المُحَرَّماتِ؛ فمنها ما هو شركٌ مُخرِجٌ عن المِلَّةِ، وما هو شِركٌ دونَ ذلك، وكذلك يُقالُ في الكُفرِ؛ فمنه ما هو فُسوقٌ، ومنه ما هو دونَ ذلك، هذا إذا قُلْنا: إنَّ المرادَ بالآيةِ «أنَّ الحَسَناتِ لا تَتساوى، والسَّيِّئاتِ لا تَتساوى»[٣].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إنَّما أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك؛ لأنَّ مُنتهَى الكَمالِ البَشَريِّ خُلُقُه، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّما بُعِثْتُ لأُتمِّمَ صالحَ الأخلاقِ))[٤]، وتَخَلُّقُ الأُمَّةِ بهذا الخُلُقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٣).

(٤) رواه أحمد (٨٩٥٢)، والحاكم (٤٢٢١) واللفظ لهما، والبيهقيُّ (٢١٣٠١) بلفظ: ((مكارم)) بدلًا من ((صالح)) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه. =

مَرغوبٌ فيه؛ قال الله تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾[1] [الشورى: ٤٠].

١٣- لَمَّا كان الشَّيطانُ على نَوعَينِ: نوعٍ يُرَى عِيانًا، وهو شَيطانُ الإنسِ، ونَوعٍ لا يُرَى، وهو شَيطانُ الجِنِّ؛ أمَرَ سُبحانَه وتعالى نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَكتفيَ مِن شَرِّ شَيطانِ الإنسِ بالإعراضِ عنه والعَفوِ، والدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ، ومِن شَيطانِ الجِنِّ بالاستعاذةِ باللهِ منه، وجَمَع بيْن النَّوعَينِ في سُورةِ (الأعرافِ)، وسُورةِ (المُؤمِنينَ)، وسُورةِ (فُصِّلَت). والاستِعاذةُ في القِراءةِ والذِّكرِ أبلَغُ في دَفعِ شَرِّ شَياطينِ الجِنِّ، والعَفوُ والإعراضُ والدَّفعُ بالإحسانِ أبلَغُ في دَفعِ شَرِّ شَياطينِ الإنسِ[2].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ أنَّ المُدافَعةَ بالَّتي هي أحسَنُ شاقَّةٌ على النَّفْسِ[3].

١٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾، وفائدةُ هذه الاستِعاذةِ تَجديدُ داعيةِ العِصمةِ المَرْكوزةِ في نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ الاستِعاذةَ باللهِ مِن الشَّيطانِ استِمدادٌ للعِصْمةِ، وصَقْلٌ لِزَكاءِ النَّفْسِ ممَّا قدْ يَقترِبُ منها مِن الكُدُراتِ. وهذا سِرٌّ مِن الاتِّصالِ بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وربِّه، وقد أشار إليه قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّه لَيُغانُ على قَلْبي، وإنِّي

---

= صحَّحه الحاكمُ وقال: (على شرطِ مسلمٍ)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٣٣٣)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤٥)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤/ ٥١٣)، وجوَّد إسنادَه ابنُ باز في ((مجموع فتاويه)) (٢/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٤).

لَأستَغْفِرُ اللهَ في اليَومِ مِئةَ مرَّةٍ))[١]، فبذلك تَسلَمُ نفْسُه مِن أنْ يَغْشاها شَيءٌ مِن الكُدُراتِ، ويَلحَقُ به في ذلك صالِحو المؤمنينَ، ثمَّ يَلتحِقُ بذلك بَقيَّةُ المؤمنينَ على تَفاوُتِهم[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ بَعدَ استيفاءِ الكَلامِ على ما أصابَ الأُمَمَ الماضيةَ المُشرِكينَ المُكَذِّبينَ مِن عَذابِ الدُّنيا، وما أُعِدَّ لهم مِن عَذابِ الآخِرةِ، مِمَّا فيه عِبرةٌ لِلمُشرِكينَ الذين كَذَّبوا مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطَريقِ التَّعريضِ، ثم أُنذِروا بالتَّصريحِ بما سَيَحِلُّ بهم في الآخِرةِ، ووَصفِ بَعضِ أهوالِه؛ تَشَوَّفَ السامعُ إلى مَعرِفةِ حَظِّ المُؤمِنينَ، ووَصفِ حالِهم، فجاءَ قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ...﴾ إلخ، بَيانًا لِلمُتَرقِّبِ، وبُشْرى لِلمُتطَلِّبِ بأنْ يَعرِفَ جَزاءَ المُؤمِنينَ بَعدَ أنْ عَرَفَ جَزاءَ الكافِرينَ؛ فالجُملةُ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عمَّا تَقدَّمَ مِن قَولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [فصلت: ١٩]، إلى قَولِه: ﴿مِنَ ٱلۡأَسۡفَلِينَ﴾[٣] [فصلت: ٢٩].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بحَرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) مَنظورٌ فيه إلى إنكارِ المُشرِكينَ ذلك؛ ففي تَوكيدِ الخَبَرِ زِيادةُ قَمْعٍ لهم[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ فيه تَعريفُ المُسنَدِ إليه

---

(١) تقدم تخريجه (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢).

﴿ٱلَّذِينَ﴾ بالمَوصوليَّةِ دُونَ أنْ يُقالَ: (إنَّ المُؤمِنينَ) ونَحوُه؛ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى أنَّها سَبَبُ ثُبوتِ المُسنَدِ لِلمُسنَدِ إليه؛ فيُفيدُ أنَّ تَنَزُّلَ المَلائِكةِ عليهم بتلك الكَرامةِ مُسَبَّبٌ على قَولِهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ واستِقامَتِهم؛ فإنَّ الاعتِقادَ الحَقَّ والإقبالَ على العَمَلِ الصَّالِحِ هما سَبَبُ الفَوزِ[١].

- وفيه حُسنُ تَرتيبٍ، حيثُ بَدَأَ أوَّلًا بالَّذي هو أمكَنُ في الإسلامِ، وهو العِلْمُ بِرُبوبيَّةِ اللهِ تعالى، ثمَّ أتْبَعَه بالعَمَلِ الصَّالِحِ، وهو الاستِقامةُ[٢].

- وقَولُه: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ يُفيدُ الحَصرَ بتَعريفِ المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ، أيْ: لا رَبَّ لنا إلَّا اللهُ، وذلك جامِعٌ لِأصْلِ الاعتِقادِ الحَقِّ؛ لِأنَّ الإقرارَ بالتَّوحيدِ يُزيلُ المانِعَ مِن تَصديقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما جاءَ به؛ إذْ لم يَصُدَّ المُشرِكينَ عنِ الإيمانِ بما جاءَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا أنَّه أمَرَهم بنَبْذِ عِبادةِ غَيرِ اللهِ، ولأنَّ التَّكذيبَ بالبَعثِ تَلَقَّوْه مِن دُعاةِ الشِّركِ[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ الاستِقامةُ: عَدَمُ الاعوِجاجِ والمَيلِ، والسِّينُ والتَّاءُ فيها لِلمُبالَغةِ في التَّقَوُّمِ، فاستَقامَ: استَقَلَّ غَيرَ مائِلٍ ولا مُنحَنٍ، وتُطلَقُ الاستِقامةُ أيضًا على ما يَجمَعُ مَعنى حُسْنِ العَمَلِ والسِّيرةِ على الحَقِّ والصِّدقِ؛ فـ ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ هنا يَشمَلُ مَعنى الوَفاءِ بما كُلِّفوا به، وأوَّلُ ما يشمَلُ مِن ذلك أنْ يَثبُتوا على أصْلِ التَّوحيدِ، أيْ: لا يُغَيِّروا ولا يَرجِعوا عنه[٤].

- وحَرفُ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ لِلتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لِأنَّ الاستِقامةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٢).

زائِدةٌ في المَرتَبةِ على الإقرارِ بالتَّوحيدِ؛ لِأنَّها تَشملُه، وتَشملُ الثَّباتَ عليه، والعَمَلَ بما يَستَدعيه، ولأنَّ الاستِقامةَ دَليلٌ على أنَّ قَولَهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ كان قَولًا مُنبَعِثًا عنِ اعتِقادِ الضَّميرِ والمَعرِفةِ الحَقيقيَّةِ(١).

- وكذلك في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ إيجازٌ بَليغٌ؛ لِأنَّ الاستِقامةَ كَلِمةٌ شَمِلتْ جَميعَ صِفاتِ التَّقْوى(٢).

- قولُه: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ تَنزُّلُ الملائكةِ على المؤمنينَ يَحتمِلُ أنْ يكونَ في وقْتِ الحشْرِ، كما دلَّ عليه قولُهم: ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، وكما يَقْتضيهِ كَلامُهم لهم؛ فذلك مُقابِلٌ لقَولِه: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]؛ فأولئك تُلاقيهمُ المَلائِكةُ بالوَزعِ، والمُؤمِنونَ تَتنَزَّلُ عليهمُ المَلائكةُ بالأمْنِ، وذِكرُ التَّنَزُّلِ هنا؛ لِلتَّنويهِ بشَأنِ المُؤمِنينَ أنَّ المَلائِكةَ يَنزِلونَ مِن عُلويَّاتِهم لِأجْلِهم. ولِتَضَمُّنِ ﴿تَتَنَزَّلُ﴾ مَعنى القَولِ وَرَدتْ بَعدَه (أنْ) التَّفسيريَّةُ، والتَّقديرُ: يَقولونَ: لا تَخافوا ولا تَحزَنوا. ويَجوزُ أنْ يَكونَ تَنَزُّلُ المَلائِكةِ عليهم في الدُّنيا، وهو تَنَزُّلٌ خَفيٌّ يُعرَفُ بحُصولِ آثارِه في نُفوسِ المُؤمِنينَ، ويَكونَ الخِطابُ بـ ﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ بمَعنى إلْقائِهم في رُوعِهم عَكسَ وَسوَسةِ الشَّياطينِ القُرَناءِ بالتَّزيينِ، أيْ: يُلقونَ في أنْفُسِ المُؤمِنينَ ما يَصرِفُهم عنِ الخَوفِ والحَزَنِ، ويُذَكِّرُهم بالجَنَّةِ، فتَحِلُّ فيهمُ السَّكينةُ، فتَنشَرِحُ صُدورُهم بالثِّقةِ بحُلولِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٣).

وقال ابن عثيمين: (أتَى بـ «ثُمَّ» الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ بمُهْلَةٍ، يعني أنَّ إيمانَهم لم يكنْ إيمانًا خاطفًا؛ آمَنَ ثمَّ زال! بل إيمانٌ مُستقِرٌّ؛ لأنَّهم استقاموا على دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦٣).

فذلك مُقابِلُ قَولِه: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ﴾ الآيةَ [فصلت: ٢٥]؛ فإنَّه تَقْييضٌ في الدُّنيا، وهذا يَقتَضي أنَّ المُؤمِنينَ الكامِلينَ لا يَخافونَ غيرَ اللهِ، ولا يَحزَنونَ على ما يُصيبُهم، ويُوقِنونَ أنَّ كُلَّ شَيءٍ بقَدَرٍ، وهم فَرِحونَ بما يَتَرَقَّبونَ مِن فَضلِ اللهِ، وعلى هذا المَعنى فالفِعل (كان) في قَولِه: ﴿ٱلَّتِي كُنتُمْ﴾ صِلَةٌ لِلتَّأكيدِ، ويكونُ المُضارِعُ في ﴿تُوعَدُونَ﴾ على أصْلِ استِعمالِه للحالِ والاستِقبالِ، ويَكونُ قَولُهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣١]، تَأييدًا لهم في الدُّنيا، ووَعدًا بنَفعِهم في الآخِرةِ[١].

- وفي قَولِه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ قَدَّم الخَوفَ مِن المُسْتقبلِ؛ لأنَّه أهمُّ مِن الحُزْنِ على ما مَضَى؛ لأنَّ مُستقبَلَ الإنسانِ هو الَّذي يَجْعَلُه يَسيرُ أو يَتوقَّفُ؛ فلهذا بَدَأ به قبْلَ ذِكْرِ الحُزْنِ[٢]. فالخوفُ ممَّا يُتوقَّعُ مِن المكروهِ أعظَمُ مِن الحزنِ على الفائتِ[٣].

- قولُه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (لا) ناهيةٌ[٤]، والمَقصودُ مِنَ النَّهيِ عنِ الخَوفِ النَّهيُ عن سَبَبِه، وهو تَوَقُّعُ الضُّرِّ، أيْ: لا تَحسَبوا أنَّ اللهَ مُعاقِبُكم؛ فالنَّهيُ كِنايةٌ عنِ التَّأمينِ مِن جانِبِ اللهِ تَعالى؛ لِأنَّهم إذا تَحَقَّقوا الأمْنَ زالَ خَوفُهم، وهذا تَطمينٌ مِنَ المَلائِكةِ لِأنْفُسِ المُؤمِنينَ. وألحَقوا بتَأْمينِهم بِشارَتَهم ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾؛ لِأنَّ وَقْعَ النَّعيمِ في النَّفْسِ مَوقعَ المَسَرَّةِ إذا لم يُخالِطْه تَوَقُّعُ المَكروهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٤).

(٤) على وجهٍ في الإعرابِ، ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥).

- قولُه: ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وَصفُ الجَنَّةِ بـ﴿ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ تَذكيرٌ لهمْ بأعمالِهم الَّتي وُعِدوا عليها بالجَنَّةِ، وتَعجيلٌ لهم بمَسَرَّةِ الفَوزِ برِضا اللهِ، وتَحقيقِ وَعدِه، أيْ: الَّتي كُنتُم تُوعَدونها في الدُّنيا. وفي ذِكرِ فِعلِ الكَونِ تَنبيهٌ على أنَّهم مُتَأصِّلونَ في الوَعدِ بالجَنَّةِ، وذلك مِن سابِقِ إيمانِهم وأعمالِهم[1].

- وفي التَّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿تُوعَدُونَ﴾ إفادةُ أنَّهم قد تَكَرَّرَ وَعدُهم بها، وذلك بتَكرُّرِ الأعمالِ المَوعودِ لِأجْلِها، وبتَكَرُّرِ الوَعدِ في مَواقِعِ التَّذكيرِ والتَّبشيرِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾

- قولُه: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ جِيءَ بهذا القَولِ مُعتَرِضًا بيْن صِفاتِ الجَنَّةِ؛ لِيَتحَقَّقَ المُؤمِنونَ أنَّ بِشارَتَهم بالجَنَّةِ بِشارةُ مُحِبٍّ يَفرَحُ لِحَبيبِه بالخَيرِ، ويَسعى لِيَزيدَه[3].

- قولُه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾، أي: لكم في الجَنَّةِ ما تَشتَهونَه مِمَّا يَقَعُ تَحتَ الحِسِّ، وما تَتَمَنَّونَه في نُفوسِكم مِن كُلِّ ما يَخطُرُ بالبالِ مِمَّا يَجولُ في الخَيالِ، فما يَدَّعونَ غَيرُ ما تَشتَهيه أنْفُسُهم، ولهذه المُغايَرةِ أُعِيدَ لَفظُ (لَكُمْ)؛ لِيُؤْذِنَ باستِقلالِ هذا الوَعدِ عن سابِقِه، فلا يُتوهَّمَ أنَّ العَطفَ عَطفُ تَفسيرٍ أو عَطفُ عامٍّ على خاصٍّ، ولِلإشباعِ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٥، ٢٨٦).

البِشارةِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ انتصَبَ ﴿نُزُلًا﴾ على الحالِ مِن ﴿مَا تَشْتَهِيٓ أَنفُسُكُمْ﴾ و﴿مَا تَدَّعُونَ﴾؛ وهي مُفيدةٌ لكَونِ ما يَتمنَّونَه بالنِّسبةِ إلى ما يُعْطَون مِن عَظائمِ الأُجورِ مِمَّا لا يَخطُرُ ببالِهم، كالنُّزُلِ للضَّيفِ[٢].

- وأُوثِرتْ صِفَتا (الغَفورِ الرَّحيمِ) هنا؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ اللهَ غَفَر لهم -أو لِأكثَرِهمُ- اللَّمَمَ وما تابوا منه، وأنَّه رَحيمٌ بهم؛ لِأنَّهم كانوا يُحِبُّونَه ويَخافونَه ويُناصِرونَ دينَه[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ليس هذا مِن حِكايةِ خِطابِ الملائكةِ للمؤمنينَ في الآخِرةِ، وإنَّما هو مُوجَّهٌ مِن اللهِ؛ فالأظهَرُ أنَّه تَكمِلةٌ لِلثَّناءِ على الَّذين قالوا: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [فصلت: ٣٠]، وتَوجيهٌ لاستِحقاقِهم تلك المُعامَلةَ الشَّريفةَ، وقَمعٌ لِلمُشرِكينَ؛ إذْ تَقرَعُ أسماعَهم، أيْ: كيف لا يَكونونَ بتلك المَثابةِ وقد قالوا أحسَنَ القَولِ، وعَمِلوا أحسَنَ العَمَلِ[٤]؟!

- وذِكرُ هذا الثَّناءِ عليهم بحُسنِ قَولِهم عَقِبَ ذِكرِ مَذَمَّةِ المُشرِكينَ ووَعيدِهم على سُوءِ قَولِهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦]؛ مُشعِرٌ لا مَحالةَ بأنَّ بيْنَ الفَريقَيْنِ بَونًا بَعيدًا، طَرَفاه: الأحسَنُ المُصَرَّحُ به، والأسوَأُ المَفهومُ بالمُقابَلةِ، أيْ: فلا يَستَوي الَّذين قالوا أحسَنَ القَولِ وعَمِلوا أصلَحَ العَمَلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مع الَّذين قالوا أسْوَأَ القَولِ وعَمِلوا أسوَأَ العَمَلِ؛ ولهذا عُقِّبَ بقَولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾[1] [فصلت: ٣٤].

- والاستِفهامُ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ مُستَعمَلٌ في النَّفيِ، أيْ: لا أحَدَ أحسَنُ قَولًا مِن هذا الفَريقِ[2].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ تَفضيليَّةٌ لاسمِ ﴿أَحْسَنُ﴾، والكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ تَقديرُه: مِن قَولِ مَن دَعا إلى اللهِ[3].

- وجُملةُ ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ ثَناءٌ على المُسلِمينَ بأنَّهمُ افتَخَروا بالإسلامِ، واعتَزُّوا به بيْن المُشرِكينَ، ولم يَتَستَّروا بالإسلامِ. والاعتِزازُ بالدِّينِ عَمَلٌ صالِحٌ، ولكِنَّه خُصَّ بالذِّكرِ؛ لِأنَّه أُرِيدَ به غَيظُ الكافِرينَ، وإنَّما لم يُذكَرْ نَظيرُ هذا القَولِ في الصِّلةِ المُشيرةِ إلى سَبَبِ تَنَزُّلِ المَلائِكةِ على المُؤمِنينَ بالكَرامةِ، وهي ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾ [فصلت: ٣٠]؛ لِأنَّ المَقصودَ مِن ذِكرِها هنا الثَّناءُ عليهم بتَفاخُرِهم على المُشرِكينَ بعِزَّةِ الإسلامِ، وذلك مِن آثارِ تلك الصِّلةِ؛ فلا حاجةَ إلى ذِكرِه هُنالك، بخِلافِ مَوقِعِه هنا[4].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ جامعٌ للمعاني السَّابقةِ، وليس مَحْصورًا في القَولِ المُجَرَّدِ؛ لِمَجيئِه على طَريقةِ التَّذييلِ، وعلى أُسلوبِ قَولِكَ: زَيدٌ مِنَ العُلَماءِ، أيْ: له إسْهامٌ مَعَهم في هذا الوَصفِ، والعِلْمُ له كاللَّقبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٨٨، ٢٨٩).

المَشهورِ، كأنَّه قال: إنَّني لَمِنَ الَّذين لهمُ القِدْحُ المُعَلَّى[١] في التَّسليمِ والتَّفويضِ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾

- جُملةُ ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ سِيقَتْ لِبَيانِ مَحاسِنِ الأعمالِ الجارِيةِ بيْن العِبادِ، إثْرَ بَيانِ مَحاسِنِ الأعمالِ الجاريةِ بيْن العَبدِ وبيْن الرَّبِّ عزَّ وجلَّ؛ تَرغيبًا لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الصَّبرِ على أذيَّةِ المُشرِكينَ، ومُقابَلةِ إساءَتِهم بالإحسانِ[٣].

- وقيل: هذه الجُملةُ ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ معطوفةٌ، وعَطفُها له مَوقِعٌ عَجيبٌ؛ فإنَّه يَجوزُ أنْ يَكونَ عَطفًا على جُملةِ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ ...﴾ [فصلت: ٣٣] إلخ، تَكمِلةً لها؛ فإنَّ المَعطوفَ عليها تَضَمَّنتِ الثَّناءَ على المُؤمِنينَ إثْرَ وَعيدِ المُشرِكينَ وذَمِّهم، وهذه الجُملةُ فيها بَيانُ التَّفاوُتِ بيْن مَرتَبةِ المُؤمِنينَ وحالِ المُشرِكينَ؛ فإنَّ الحَسَنةَ اسمٌ مَنقولٌ مِن الصِّفةِ، فتَلمُّحُ الصِّفةِ مُقارِنٌ له، فالحَسَنةُ حالةُ المُؤمِنينَ، والسَّيِّئةُ حالةُ المُشرِكينَ؛ فيكون المعنى كمَعْنى آياتٍ كَثيرةٍ مِن هذا القَبيلِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

---

(١) القِدْحُ المُعَلَّى: أي: النَّصيبُ الأوفَرُ. والقِدْحُ: السَّهْمُ. والمُعَلَّى: السَّهمُ السَّابِعُ في المَيسِرِ، وهو أفضَلُها. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ٩٢)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) لأحمد مختار عمر (٣/ ١٧٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦١).

وَلَا ٱلْمُسِيٓـُٔ ﴾ [غافر: ٥٨]، فعطْفُ هذه الجُملةِ على الَّتي قبْلَها على هذا الاعتبارِ يكونُ مِن عطْفِ الجُمَلِ الَّتي يَجمَعُها غرَضٌ واحدٌ، وليس مِن عطْفِ غرَضٍ على غرَضٍ.

ويَجوزُ أنْ تَكونَ عَطفًا على جُملةِ ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦] الواقِعةِ بَعدَ جُملةِ ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ٥]؛ فإنَّ ذلك مُثيرٌ في نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الضَّجَرَ مِن إصرارِ الكافِرينَ على كُفرِهم، وعَدَمِ التَّأثُّرِ بدَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الحَقِّ، فهو بحالِ مَن تَضيقُ طاقةُ صَبْرِه على سَفاهةِ أولئك الكافِرينَ، فأردَفَ اللهُ ما تَقدَّمَ بما يَدفَعُ هذا الضَّيقَ عن نَفْسِه بقَولِه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ الآيةَ، فالحَسَنةُ تَعُمُّ جَميعَ أفرادِ جِنسِها، وأُولاها تَبادُرًا إلى الأذهانِ حَسَنةُ الدَّعوةِ إلى الإسلامِ؛ لِمَا فيها مِن جَمِّ المَنافِعِ في الآخِرةِ والدُّنيا، وتَشملُ صِفةَ الصَّفحِ عنِ الجَفاءِ الَّذي يَلقَى به المُشرِكونَ دَعوةَ الإسلامِ؛ لِأنَّ الصَّفحَ مِنَ الإحسانِ، وفيه تَركُ ما يُثيرُ حَميَّتَهم لِدينِهم، ويُقَرِّبُ لِينَ نُفوسِ ذَوي النُّفوسِ اللَّيِّنةِ؛ فالعَطفُ مِن عَطفِ غَرَضٍ على غَرَضٍ، وهي تَمهيدٌ وتَوطِئةٌ لِقَولِه عَقِبَها: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ الآيةَ[1].

- قولُه: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ﴾ نفْيُ الاستواءِ مُرادٌ به تَفضيلُ الحَسَنةِ على السَّيِّئةِ؛ فكانَ مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: ولا تَستَوي الحَسَنةُ والسَّيِّئةُ، دُونَ إعادةِ (لا) النَّافيةِ بَعدَ الواوِ الثَّانيةِ، كما قالَ تَعالى: ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٥٨]؛ فإعادةُ (لا) النَّافيةِ تَأكيدٌ لِأُختِها السَّابِقةِ، وأحسَنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٩، ٢٩٠).

مِنِ اعتِبارِ التَّأكيدِ أنْ يَكونَ في الكَلامِ إيجازُ حَذفٍ[١] مُؤْذِنٌ باحتِباكٍ[٢] في الكَلامِ، تَقديرُه: وما تَستَوي الحَسَنةُ والسَّيِّئةُ ولا السَّيِّئةُ والحَسَنةُ؛ فالمُرادُ بالأوَّلِ نَفيُ أنْ تَلتَحِقَ فَضائِلُ الحَسَنةِ بمَساوِئِ السَّيِّئةِ، والمُرادُ بالثَّاني نَفيُ أنْ تَلتَحِقَ السَّيِّئةُ بشَرَفِ الحَسَنةِ، وذلك هو الاستِواءُ في الخَصائِصِ، وفي ذلك تَأكيدٌ وتَقويةٌ لِنَفيِ المُساواةِ؛ لِيَدُلَّ على أنَّه نَفيٌ تامٌّ بيْنَ الجِنسَيْنِ: جِنسِ الحَسَنةِ وجِنسِ السَّيِّئةِ، لا مُبالَغةَ فيه ولا مَجازَ[٣].

---

(١) الإيجازُ: هو الاختصارُ والجمعُ للمعاني الكثيرةِ بالألفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ محمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغة كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ. والإيجازُ نوعان؛ الأوَّلُ: إيجازُ القِصَرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه، مع أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفع بالقتْلِ -الَّذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ النَّاسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم. الثَّاني: إيجازُ الحَذْفِ، وهو حذْفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بشرطِ وُجودِ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقد يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. والفرقُ بيْنَ الحذفِ والإيجازِ: أنَّ الحذفَ يكونُ فيه مُقدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللَّفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجَمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(٢) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٠، ٢٩١).

- وفي التَّعبيرِ بالحَسَنةِ والسَّيِّئةِ في قولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ دُونَ (المُحسِنِ والمُسيءِ) إشارةٌ إلى أنَّ كُلَّ فَريقٍ مِن هذَيْنِ قد بَلَغ الغايةَ في جِنسِ وَصفِه مِن إحسانٍ وإساءةٍ، على طَريقةِ الوَصفِ بالمَصدَرِ، ولِيَتأتَّى الانتِقالُ إلى مَوعِظةِ تَهذيبِ الأخلاقِ في قَولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ فيُشبِهُ أنْ يَكونَ إيثارُ نَفيِ المُساواةِ بيْن الحَسَنةِ والسَّيِّئةِ تَوطِئةً لِلانتِقالِ إلى قَولِه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

- قولُه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِحُسنِ عاقِبةِ الحَسَنةِ، وإخراجُه مُخرَجَ جَوابِ مَن قالَ: كيف أصنَعُ؟ فقيلَ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾؛ لِلمُبالَغةِ؛ ولذلك وُضِعَ ﴿أَحْسَنُ﴾ مَوضِعَ الحَسَنةِ[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ تَخَلُّصٌ مِن غَرَضِ تَفضيلِ الحَسَنةِ على السَّيِّئةِ إلى الأمْرِ بخُلُقِ الدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ؛ لِمُناسَبةِ أنَّ ذلك الدَّفعَ مِن آثارِ تَفضيلِ الحَسَنةِ على السَّيِّئةِ؛ إرشادًا مِنَ اللهِ لِرَسولِه وأُمَّتِه بالتَّخَلُّقِ بخُلُقِ الدَّفعِ بالحُسْنى. أو واقعةٌ مَوقِعَ النَّتيجةِ مِنَ الدَّليلِ، والمَقصدِ مِنَ المُقَدِّمةِ؛ فمَضمونُها ناشِئٌ عن مَضمونِ الَّتي قَبْلَها. وكِلَا الاعتبارَينِ في الجُملةِ الأُولى مُقتضٍ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ مَفصولةً غيرَ مَعطوفةٍ[3].

- ومَفعولُ ﴿ٱدْفَعْ﴾ مَحذوفٌ، دَلَّ عليه انحِصارُ المَعنى بيْن السَّيِّئةِ والحَسَنةِ، فلَمَّا أُمِرَ بأنْ تَكونَ الحَسَنةُ مَدفوعًا بها، تَعيَّنَ أنَّ المَدفوعَ هو السَّيِّئةُ؛ فالتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣، ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩١).

ادفَعِ السَّيِّئَةَ بالَّتي هي أحسَنُ[١].

- ومَعنى ﴿بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أيْ: بالحَسَنةِ، وإنَّما صِيغَتْ بصِيغةِ التَّفضيلِ؛ تَرغيبًا في دَفعِ السَّيِّئةِ بها؛ لِأنَّ ذلك يَشُقُّ على النَّفْسِ؛ فإنَّ الغَضَبَ مِن سُوءِ المُعامَلةِ مِن طِباعِ النَّفْسِ، وهو يَبعَثُ على حُبِّ الانتِقامِ مِنَ المُسيءِ؛ ولكِنَّ مَن دَفَعَ بالحُسْنى هانَ عليه الدَّفعُ بما هو دُونَها، فلَمَّا أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُجازيَ السَّيِّئةَ بالحَسَنةِ أُشيرَ إلى فَضلِ ذلك[٢].

- وفُرِّعَ على الأمْرِ بالدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ قَولُه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾؛ لِبَيانِ ما في ذلك الأمْرِ مِنَ الصَّلاحِ؛ تَرويضًا على التَّخَلُّقِ بذلك الخُلُقِ الكَريمِ، وهو أنْ تَكونَ النَّفسُ مَصدَرًا لِلإحسانِ[٣].

- و(إذا) لِلمُفاجَأةِ، وهي كِنايةٌ عن سُرعةِ ظُهورِ أثَرِ الدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ في انقِلابِ العَدُوِّ صَديقًا[٤]، وبتأمُّلِ كَونِ الجوابِ بـ (إذا) الفُجائيَّةِ يَتبيَّنُ أنَّ انقلابَ عَداوتِه إلى ولايةٍ حَميمةٍ لا يَتأخَّرُ كثيرًا؛ لأنَّ (إذا) الفُجائيَّةَ تدُلُّ على الفَوريَّةِ ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾، فلو كان المُخبِرُ بذلك غيرَ اللهِ عزَّ وجلَّ لَكان الإنسانُ يَتردَّدُ ويَتساءلُ: كيف يَنقلِبُ العَدُوُّ صَديقًا حَميمًا بهذه السُّرعةِ؟! فنقولُ: إنَّ الَّذي أخبَرَ بذلك هو اللهُ عزَّ وجلَّ؛ ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾[٥] [النساء: ١٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٨٨).

- وعُدِلَ عن ذِكرِ العَدُوِّ مُعَرَّفًا بلامِ الجِنسِ إلى ذِكرِه بالاسمِ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾؛ لِيَتأتَّى تَنكيرُ ﴿عَدَٰوَةٌ﴾ لِلنَّوعيَّةِ، وهو أصلُ التَّنكيرِ؛ فيَصدُقَ بالعَداوةِ القَويَّةِ ودُونِها، كما أنَّ ظَرفَ ﴿بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ﴾ يَصدُقُ بالبَينِ القَريبِ والبَينِ البَعيدِ -يعني: مُلازَمةَ العَداوةِ أو طُروءَها- وهذا تَركيبٌ مِن أعلى طَرَفِ البَلاغةِ؛ لِأنَّه يَجمَعُ أحوالَ العَداواتِ؛ فيُعلَمُ أنَّ الإحسانَ ناجِعٌ في اقتِلاعِ عَداوةِ المُحسَنِ إليه لِلمُحسِنِ على تَفاوُتِ مَراتِبِ العَداوةِ قُوَّةً وضَعفًا، وتَمَكُّنًا وبُعدًا، ويُعلَمُ أنَّه يَنبَغي أنْ يَكونَ الإحسانُ لِلعَدُوِّ قَويًّا بقَدرِ تَمَكُّنِ عَداوَتِه؛ لِيَكونَ أنجَعَ في اقتِلاعِها. ومِن الأقوالِ المَشهورةِ: (النُّفوسُ مَجبولةٌ على حُبِّ مَن أحسَنَ إليها)[1].

- والتَّشبيهُ في قَولِه: ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ تَشبيهٌ في زَوالِ العَداوةِ، ومُخالَطةِ شَوائِبِ المَحَبَّةِ؛ فوَجهُ الشَّبَهِ هو المُصافاةُ والمُقارَبةُ، وهو مَعنًى مُتَفاوِتُ الأحوالِ، أيْ: مَقولٌ على جِنْسِه بالتَّشكيكِ على اختِلافِ تَأثُّرِ النَّفْسِ بالإحسانِ، وتَفاوُتِ قُوَّةِ العَداوةِ قبْلَ الإحسانِ، ولا يَبلُغُ مَبلَغَ المُشَبَّهِ به؛ إذْ مِنَ النَّادِرِ أنْ يَصيرَ العَدُوُّ وَليًّا حَميمًا، فإنْ صارَه فهو لِعَوارِضَ غَيرِ داخِلةٍ تَحتَ مَعنى الإسراعِ الَّذي آذَنَتْ به (إذا) الفُجائيَّةُ[2].

- الوليُّ هو: الحليفُ والنَّاصِرُ، والحَميمُ: القَريبُ والصَّديقُ، ووَجْهُ الجَمعِ بيْن ﴿وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ أنَّه جَمَعَ خَصلَتَيْنِ كِلتاهما لا تَجتَمِعُ مع العَداوةِ، وهُما خَصلَتا الوَلايةِ والقَرابةِ[3]، وذلك على قولٍ.

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٤).

عطْفٌ على جملةِ ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾، أو حالٌ مِن (الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)، وضميرُ ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ عائدٌ إلى (الَّتي هي أحسنُ) باعتبارِ تعلُّقِها بفعلِ (ادْفَعْ)، وهذا تَحريضٌ على الارتياضِ بخَصلةِ الدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ؛ بإظهارِ احتياجِها إلى قُوَّةِ عَزمٍ، وشِدَّةِ مِراسٍ لِلصَّبرِ على تَرْكِ هَوى النَّفْسِ في حُبِّ الانتِقامِ، وفي ذلك تَنويهٌ بفَضلِها بأنَّها تُلازِمُها خَصلةُ الصَّبرِ، وهي في ذاتِها خَصلةٌ حَميدةٌ، وثَوابُها جَزيلٌ، كما عُلِمَ مِن عِدَّةِ آياتٍ في القُرآنِ[١].

- ومَعنى ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ يُجعَلُ لاقيًا لها، وهو مُعبَّرٌ به هنا عن السَّعيِ لِتَحصيلِها؛ لِأنَّ التَّحصيلَ على الشَّيءِ بَعدَ المُعالَجةِ والتَّخَلُّقِ يُشبِهُ السَّعيَ لِمُلاقاةِ أحَدٍ فيَلقاهُ[٢].

- وجِيءَ في ﴿يُلَقَّىٰهَآ﴾ بالمُضارِعِ في المَوضِعَيْنِ، باعتِبارِ أنَّ المَأمورَ بالدَّفعِ بالَّتي هي أحسَنُ مَأْمورٌ بتَحصيلِ هذا الخُلُقِ في المُستَقبَلِ[٣].

- وكرَّر ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ لِوُجوهٍ؛ الأوَّلُ: تأْكيدٌ لهذه الفعلةِ الجَميلةِ الجَليلةِ[٤]. الثَّاني: أنَّه كرَّر إظهارَ البناءِ للمَفعولِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه لا قُدْرةَ عليها أصلًا إلَّا بتَوفيقِ الخالقِ بأمْرٍ باطِنيٍّ، يَقْذِفُه اللهُ في القلْبِ قذْفًا وَحْيًا، تَظهَرُ ثَمرتُه على سائرِ البَدنِ[٥]. الثَّالثُ: أنَّ في إعادةِ فِعلِ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ دُونَ اكتِفاءٍ بحَرفِ العَطفِ؛ إظهارًا لِمَزيدِ الاهتِمامِ بهذا الخَبَرِ، بحيث لا يَستتِرُ مِن صَريحِه شَيءٌ تحت العاطفِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٤، ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٨٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٥).

- وجيءَ في الصِّلةِ -وهي ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾- بالماضي؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ الصَّبرَ خُلُقٌ سابِقٌ فيهم، هو العَونُ على مُعامَلةِ المُسِيءِ بالحُسْنى، ولهذه النُّكتةِ عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (إلَّا الصَّابِرونَ)؛ لِنُكتةِ كَونِ الصَّبرِ سَجيَّةً فيهم مُتَأصِّلةً، ثمَّ زِيدَ في التَّنويهِ بها بأنَّها ما تَحصُلُ إلَّا لِذي حَظٍّ عَظيم. والحَظُّ: النَّصيبُ مِنَ الشَّيءِ مُطلَقًا، وقيلَ: خاصٌّ بالنَّصيبِ مِن خَيرٍ، والمُرادُ هنا: نَصيبُ الخَيرِ، بالقَرينةِ أو بدَلالةِ الوَضعِ، أيْ: ما يَحصُلُ دَفعُ السَّيِّئةِ بالحَسَنةِ إلَّا لِصاحِبِ نَصيبٍ عَظيمٍ مِنَ الفَضائِلِ، أيْ: مِنَ الخُلُقِ الحَسَنِ، والاهتِداءِ والتَّقوى، فتَحَصَّلَ مِن هذا أنَّ التَّخَلُّقَ بالصَّبرِ شَرْطٌ في الاضطِلاعِ بفَضيلةِ دَفعِ السَّيِّئةِ بالَّتي هي أحسَنُ، وأنَّه ليس وَحْدَه شَرطًا فيها، بلْ وَراءَه شُروطٌ أُخَرُ، يَجمَعُها قَولُه: ﴿حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، أيْ: مِنَ الأخلاقِ الفاضِلةِ -على قولٍ-، والصَّبرُ مِن جُملةِ الحَظِّ العَظيمِ؛ لِأنَّ الحَظَّ العَظيمَ أعَمُّ مِنَ الصَّبرِ، وإنَّما خُصَّ الصَّبرُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه أصلُها، ورَأْسُ أمْرِها، وعَمودُها[1].

- وأيضًا أفادَ قَولُه: ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أنَّ الحَظَّ العَظيمَ مِنَ الخَيرِ سَجيَّتُه ومَلَكَتُه، كما اقتَضَتْه إضافةُ ﴿ذُو﴾[2].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ [فصلت: ٣٥]؛ فبَعدَ أنْ أرشَدَ القُرآنُ إلى ما هو عَونٌ على تَحصيلِ الخُلُقِ المَأمورِ به، وهو دَفْعُ السَّيِّئةِ بالَّتي هي أحسَنُ، وبعْدَ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شُرِحَتْ فائدةُ العمَلِ بها بقولِه: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]؛ صُرِفَ العِنانُ هنا إلى التَّحذيرِ مِن عوائِقِها الَّتي تَجتَمِعُ كَثرَتُها في حَقيقةِ نَزْغِ الشَّيطانِ، فأمَرَ بأنَّه إنْ وَجَدَ في نَفْسِه خَواطِرَ تَصرِفُه عن ذلكَ، وتَدْعوه إلى دَفْعِ السَّيِّئةِ بمِثلِها، فإنَّ ذلك نَزْغٌ مِنَ الشَّيطانِ، دَواؤُه أنْ تَستَعيذَ باللهِ منه؛ فقد ضَمِنَ اللهُ له أنْ يُعيذَه إذا استَعاذَه؛ لِأنَّه أمَرَه بذلك، والخِطابُ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- قولُه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ النَّزغُ: النَّخسُ، وهو مَسٌّ شَديدٌ لِلجِلدِ بطَرَفِ عُودٍ أو إصبَعٍ، فهو مَصدَرٌ، وهو هنا مُعبَّرٌ به هنا عن اتِّصالِ القُوَّةِ الشَّيطانيَّةِ بخَواطِرِ الإنسانِ تَأمُرُه بالشَّرِّ وتَصرِفُه عنِ الخَيرِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُرادُ بالنَّزغِ هنا النَّازِغَ، وهو الشَّيطانُ، وُصِفَ بالمَصدَرِ لِلمُبالَغةِ، و(مِن) بَيانيَّةٌ، أيْ: يَنزَغَنَّكَ النَّازِغُ الَّذي هو الشَّيطانُ، والمُبالَغةُ حاصلةٌ على التَّقديرينِ، مع اختِلافِ جِهتِها[٢].

- وكذلك في جَعْلِ تَرْكِ الدَّفعِ بالأحسَنِ مِن آثارِ نَزَغاتِ الشَّيطانِ مَزيدُ تَحذيرٍ وتَنفيرٍ عنه[٣].

- قولُه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ ...﴾ جيءَ في هذا الشَّرطِ بـ (إنْ) الَّتي الأصلُ فيها عَدَمُ الجَزْمِ بوُقوعِ الشَّرطِ؛ تَرفيعًا لِقَدْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فإنَّ نَزْغَ الشَّيطانِ له إنَّما يُفرَضُ كما يُفرَضُ المُحالُ؛ ألَا تَرى إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤).

هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]؛ فجاء في ذلك الشَّرطِ بحَرْفِ (إذا) الَّتي الأصْلُ فيها الجزْمُ بوُقوعِ الشَّرطِ أو بغَلَبةِ وُقوعِه(١).

- وضَميرُ الفَصلِ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ لِتَقويةِ الحُكمِ، وهو هنا حُكمٌ كِنائيٌّ؛ لِأنَّ المَقصودَ لازِمُ وَصفِ ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾، وهو مُؤاخَذةُ مَن تَصدُرُ منهم أقوالٌ وأعمالٌ في أذَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والكَيدِ له، مِمَّن أُمِرَ بأنْ يَدفَعَ سَيِّئاتِهم بالَّتي هي أحسَنُ، والمَعنى: فإنْ سَوَّلَ لكَ الشَّيطانُ ألَّا تُعامِلَ أعداءَكَ بالحَسَنةِ، وزَيَّنَ لكَ الانتِقامَ، وقالَ لكَ: كيف تُحسِنُ إلى أعداءِ الدِّينِ، وفي الانتِقامِ منهم قَطعُ كَيدِهم لِلدِّينِ؟! فلا تَأخُذْ بنَزْغِه، وخُذْ بما أمَرْناكَ، واستَعِذْ باللهِ مِن أنْ يُزِلَّكَ الشَّيطانُ؛ فإنَّ اللهَ لا يَخفَى عليه أمْرُ أعدائِكَ، وهو يَتولَّى جَزاءَهم(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ فقالَه هنا بزِيادةِ ﴿هُوَ﴾ و(أل)، وفي سُورةِ (الأعرافِ) بدُونِهما، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ ما هنا في (فُصِّلت) مُتَّصِلٌ بمُؤَكِّدَيْنِ: بالتَّكرارِ، وبالحَصرِ في قولِه ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾؛ فناسَبَ التَّأكيدُ بما ذُكِرَ، وما في (الأعرافِ) ليس فيه ذلك؛ فجَرَى على القياسِ مِن كَونِ المُسنَدِ إليه مَعرِفةً، والمُسنَدِ نَكِرةً(٣). وقيل: الَّذي ذُكِرَ في (الأعراف) أخَفُّ على النَّفْسِ ممَّا ذُكِر في سُورةِ (فُصِّلت)؛ لأنَّ الإعراضَ عن الجاهلِ وترْكَه أخَفُّ على النَّفْسِ مِن الإحسانِ إلى المُسِيءِ، فتَتأفَّفُ النَّفْسُ مِن ذلك،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٥).

ولا تَنقادُ له إلَّا بمُعالَجةٍ، ويُساعِدُها الشَّيطانُ في هذه الحالِ، فتَنفعِلُ له وتَسْتعصي على صاحِبِها، فتَحتاجُ إلى مُجاهَدةٍ وقُوَّةِ إيمانٍ؛ فلهذا أُكِّدَ ذلك هاهنا بضَميرِ الفصْلِ والتَّعريفِ باللَّامِ فقال: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

وقيل: إنَّما قال هاهنا: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، فأكَّدَ بـ (إنَّ) وبضَميرِ الفصْلِ، وأتَى باللَّامِ في ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وقال في (الأعرافِ): ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]؛ لأنَّ سِرَّ ذلك -واللهُ أعلَمُ- أنَّه حيثُ اقتصَرَ على مُجرَّدِ الاسمِ ولم يُؤكِّدْه أُريدَ إثباتُ مُجرَّدِ الوصْفِ الكافي في الاستِعاذةِ، والإخبارِ بأنَّه سُبحانه يَسمَعُ ويَعلَمُ، فيَسمَعُ استِعاذتَك فيُجيبُك، ويَعلَمُ ما تَستعيذُ منه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨١).

قال ابن القيم: (تأمَّلْ سِرَّ القُرآنِ الكريم؛ يتَّضحُ كيف أَكَّدَ الوصْفَ بـ ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بذِكْرِ صِيغةِ «هو» الدَّالِّ على تأْكيدِ النِّسبةِ واختِصاصِها، وعَرَّفَ الوصْفَ بالألِفِ واللَّامِ في سورة «حم» [فصلت]؛ لاقتِضاءِ المقامِ لهذا التَّأكيدِ، وتَرَكه في سُورةِ «الأعرافِ»؛ لاستِغناءِ المقامِ عنه؛ فإنَّ الأمْرَ بالاستعاذةِ في سورةِ «حم» [فصلت] وَقَعَ بعدَ الأمرِ بأشَقِّ الأشياءِ على النَّفْسِ؛ وهو مُقابَلةُ إساءةِ المُسيءِ بالإحسانِ إليه، وهذا أمْرٌ لا يَقْدِرُ عليه إلَّا الصَّابِرون، ولا يُلَقَّاهُ إلَّا ذو حظٍّ عَظيمٍ -كما قال اللهُ تعالى-، والشَّيطانُ لا يَدَعُ العبدَ يَفْعَلُ هذا؛ بلْ يُريه أنَّ هذا ذُلٌّ وعجْزٌ، ويُسَلِّطُ عليه عَدُوَّه فيَدْعُوه إلى الانتقامِ، ويُزَيِّنُه له، فإنْ عَجَز عنه دَعاهُ إلى الإعراضِ عنه؛ وألَّا يُسيءَ إليه ولا يُحْسِنَ، فلا يُؤْثِرُ الإحسانَ إلى المُسيءِ إلَّا مَن خالَفَه وآثَرَ اللهَ تعالى وما عِنْدَه على حَظِّه العاجلِ؛ فكان المقامُ مَقامَ تأْكيدٍ وتحريضٍ؛ فقال فيه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، وأمَّا في سُورةِ «الأعرافِ»؛ فإنَّه أمَرَه أنْ يُعْرِضَ عن الجاهِلين، وليس فيها الأمْرُ بمُقابَلةِ إساءتِهم بالإحسانِ؛ بلْ بالإعراضِ، وهذا سَهْلٌ على النُّفوسِ؛ غيرُ مُستعْصٍ عليها، فليس حِرْصُ الشَّيطانِ وسَعْيُه في دَفْعِ هذا كحِرْصِه على دَفْعِ المُقابَلةِ بالإحسانِ؛ فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٦٧).

فيَدفَعُه عنك، فالسَّمْعُ لِكلامِ المُستعيذِ، والعِلْمُ بالفِعلِ المُستعاذِ منه، وبذلك يَحصُلُ مَقصودُ الاستعاذةِ، وهذا المعنى شاملٌ لِلموضعَينِ، وامتازَ المذْكورُ في سُورةِ (فُصِّلَتْ) بمَزيدِ التَّأكيدِ والتَّعريفِ والتَّخصيصِ؛ لأنَّ سِياقَ ذلك بعْدَ إنكارِه سُبحانه على الَّذين شَكُّوا في سمْعِه لِقَولِهم وعِلْمِه بهم؛ فجاء التَّوكيدُ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ في سِياقِ هذا الإنكارِ، أي: هو وحْدَه الَّذي له كَمالُ قُوَّةِ السَّمْعِ وإحاطةِ العِلْمِ، لا كما يَظُنُّ به أعْداؤُه الجاهِلون أنَّه لا يَسمَعُ إنْ أخْفَوا، وأنَّه لا يَعلَمُ كثيرًا ممَّا يَعمَلون! وحسَّنَ ذلك أيضًا: أنَّ المأمورَ به في سُورةِ (فُصِّلت) دفْعُ إساءتِهم إليه بإحْسانِه إليهم، وذلك أشَقُّ على النُّفوسِ مِن مُجرَّدِ الإعراضِ عنهم، ولهذا عقَّبَه بقولِه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٥]، فحسُنَ التَّأكيدُ لِحاجةِ المُستعيذِ. وأيضًا فإنَّ السِّياقَ هاهنا لإثباتِ صِفاتِ كَمالِه، وأدِلَّةِ ثُبوتِها، وآياتِ رُبوبيَّتِه، وشَواهدِ تَوحيدِه، ولهذا عُقِّبَ ذلك بقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وبقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]، فأتَى بأداةِ التَّعريفِ الدَّالَّةِ على أنَّ مِن أسمائِه (السَّميعَ العليمَ)، كما جاءت الأسماءُ الحُسْنى كلُّها مُعرَّفةً، والَّذي في (الأعرافِ) في سِياقِ وَعيدِ المشركينَ وإخوانِهم مِن الشَّياطينِ، ووَعْدِ المُستعيذِ بأنَّ له ربًّا يَسمَعُ ويَعلَمُ، وآلهةُ المُشركين الَّتي عبَدَوها مِن دُونِه ليس لهم أعيُنٌ يُبصِرون بها، ولا آذانٌ يَسْمَعون بها؛ فإنَّه سَميعٌ عَليمٌ، وآلِهَتُهم لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تَعلَمُ، فكيف تُسَوُّونَها به في العِبادةِ؟! فعلِمْتَ أنَّه لا يَليقُ بهذا السِّياقِ غيرُ التَّنكيرِ، كما لا يَليقُ بذلك غيرُ التَّعريفِ، واللهُ أعلَمُ بأسرارِ كَلامِه[1].

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٩٦، ٩٧).

## الآيات (٢٧-٢٩)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَسْـَٔمُونَ﴾: أي: يَمَلُّونَ ويَفتُرونَ، والسَّآمةُ: المَلالةُ مِمَّا يَكثُرُ لُبثُه فِعلًا كان أو انفِعالًا[1].

﴿خَٰشِعَةً﴾: أي: هامِدةً يَابِسةً جَدْبةً لا نَباتَ فيها، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[2].

﴿ٱهْتَزَّتْ﴾: أي: تحرَّكتْ بالنَّباتِ، والهزُّ: التَّحريكُ، وأصلُ (هزز): يدُلُّ على اضْطِرابٍ في شيءٍ وحَرَكةٍ[3].

﴿وَرَبَتْ﴾: أي: عَلَت وانتَفَخَت؛ لأنَّ النَّبتَ إذا أراد أن يَخرُجَ ارتَفَعتْ له

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) (٦/ ٩)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٩٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٠).

الأرضُ، وأصلُ (ربو): يدُلُّ على الزِّيادةِ والنَّماءِ والعُلُوِّ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى بعضَ الأدلَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، فيقولُ: ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وُجودِه ووَحدانيَّتِه وقُدرتِه سُبحانَه: اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمَرُ، لا تَسجُدوا -أيُّها النَّاسُ- للشَّمسِ ولا للقَمَرِ، واسجُدوا لله وَحْدَه الَّذي خلَقَهنَّ إنْ كُنتُم إيَّاه تَعبُدون.

فإنْ تكبَّرَ أولئك المُشرِكونَ عن إفرادِ اللهِ تعالى بالعُبوديَّةِ، فإنَّ له سُبحانَه عِبادًا آخَرينَ -يا مُحمَّدُ- هم الملائِكةُ الَّذين عِندَه، فهم يُنَزِّهونَه لَيلًا ونَهارًا، ولا يَمَلُّونَ مِن ذلك.

ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِه تعالى وقُدرتِه على إحياءِ الموتى: أنَّك ترَى الأرضَ يابِسةً مُجدِبةً لا نَباتَ فيها، فإذا أنزَلْنا عليها الماءَ تحَرَّكَت وارتَفَعت، إنَّ الَّذي أحيا تلك الأرضَ اليابِسةَ بالمطَرِ لَمُحْيي الأمواتِ يومَ القيامةِ، إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن تعالَى أنَّ أحسَنَ الأعمالِ والأقوالِ هو الدَّعوةُ إلى اللهِ؛ أردَفَه بذِكْرِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٦٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨).

الدَّلائلِ العُلْويَّةِ والسُّفليَّةِ على قُدْرتِه الباهرةِ، وحِكْمتِه البالِغةِ، وحُجَّتِه القاطعةِ[١]؛ تنبيهًا على أنَّ الدَّعوةَ إلى اللهِ تعالى عِبارةٌ عن تقريرِ الدَّلائِلِ الدَّالَّةِ على ذاتِ اللهِ وصِفاتِه، فهذه تنبيهاتٌ شَريفةٌ مُستفادةٌ مِن تناسُقِ هذه الآياتِ؛ فكان العِلمُ بهذه اللَّطائِفِ أحسَنَ عُلومِ القُرآنِ[٢].

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾.

أي: ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وُجودِه ووَحدانيَّتِه، وقُدرتِه ورَحمتِه بعِبادِه، وغيرِ ذلك مِن صفاتِ كَمالِه: اللَّيلُ والنَّهارُ في تَعاقُبِهما، واختِلافِهما في الظَّلامِ والضِّياءِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ، والاستِواءِ وغيرِ ذلك؛ ومِن آياتِه الشَّمسُ والقَمَرُ في دَوَرانِهما المُستَمِرِّ بانتِظامٍ، وتَقديرِ مَنازِلِهما لِمَصالِحِ الأنامِ، وغيرِ ذلك مِن مَنافِعِهما وعَجائِبِهما[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾ [الإسراء: ١٢].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ آيتانِ مِن آياتِ اللهِ، لا يَنكَسِفانِ لِمَوتِ أحَدٍ ولا لحَياتِه، ولكِنَّ اللهَ تعالى يُخَوِّفُ بها عِبادَه))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٥، ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٧، ١٩٨).

(٤) رواه البخاري (١٠٤٨).

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

أي: لا تَسجُدوا -أيُّها النَّاسُ- للشَّمسِ، ولا تَسجُدوا للقَمَرِ؛ فهما مُدَبَّرانِ مُسَخَّرانِ، واسجُدوا للهِ وَحْدَه الَّذي خلَقَهنَّ[1]، إنْ كنتُم تَعبُدونَ اللهَ وتَذِلُّونَ له بالطَّاعةِ حَقًّا[2].

كما قال تعالى حِكايةً عن هُدهُدِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۞ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۞ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۞ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٣ - ٢٦].

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ (٣٨)﴾.

﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾.

---

(١) قال ابنُ عطيَّةَ: (الضَّميرُ في: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ قالت فِرقةٌ: هو عائدٌ على الآياتِ المتقدِّمِ ذِكرُها في قَولِه ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ﴾. وقالت فِرقةٌ: الضَّميرُ عائدٌ على الشَّمسِ والقَمَرِ، والاثنانِ جَمْعٌ، وجَمعُ ما لا يَعقِلُ يُؤَنَّثُ؛ فلذلك قال: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾.

قال القاضي أبو محمدٍ [ابن عطية]: ومن حيثُ يُقالُ شُموسٌ وأقمارٌ لاختِلافِهما بالأيَّامِ، ساغ أن يَعودَ الضَّميرُ مَجموعًا. وقالت فِرقةٌ: هو عائدٌ على الأربعةِ المذكورةِ [يعني: اللَّيلَ والنَّهارَ، والشَّمسَ والقَمَرَ]، وشأنُ ضَميرِ ما لا يَعقِلُ إذا كان العَدَدُ أقَلَّ مِن العَشَرةِ أن يجيءَ هكذا، فإذا زاد أُفرِدَ مُؤَنَّثًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٩٩، ٢٠٠).

أي: فإنْ تكبَّرَ المُشركونَ وتعاظَموا عن إفرادِ الله بالعِبادةِ والسُّجودِ له وَحْدَه، فله عِبادٌ آخَرُونَ هم الملائِكةُ الَّذين عِندَ رَبِّك -يا مُحمَّدُ-، فهم يُنَزِّهونَه لَيلًا ونَهارًا[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾.

أي: وهم لا يَمَلُّونَ مِن ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۞ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٣٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٤، ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٠٠-٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٠).

وهذه السُّورةُ فيها مَوضِعُ سجودٍ كما تقدَّم ذِكرُ ذلك في خصائصِ السُّورةِ (ص: ٧)، لكن اختُلِف في مَوضِعِه؛ فمذهبُ المالكيَّةِ أنَّ مَوضِعَ السُّجودِ هو قولُه: ﴿تَعۡبُدُونَ﴾، ومذهبُ الجمهورِ -الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ- أنَّ مَوضِعَ السُّجودِ هو قولُه: ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾. يُنظر: ((المهذب في فقة الإمام الشافعي)) للشيرازي (١/ ١٦٢)، ((الهداية)) للمَرْغِيناني (١/ ٧٨)، ((المغني)) لابن قُدامة (١/ ٤٤٣)، ((الشرح الكبير)) للدردير (١/ ٣٠٩).

وممَّن قال بالقولِ الأوَّلِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، وأصحابُه، والحسَنُ. وممَّن قال بالقولِ الثَّاني: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ عُمرَ، وسعيدُ بنُ المُسَيِّبِ، ومَسروقٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير الرَّسْعَني)) (٧/ ٣٤).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر الآياتِ الأربَعَ الفَلَكيَّةَ، وهي اللَّيلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والقَمَرُ، أتْبَعَها بذِكرِ آيةٍ أرضيَّةٍ(١).

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾.

أي: ومِن آياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِه وقُدرتِه تعالى على إحياءِ الموتى وغَيرِ ذلك: أنَّك(٢) ترَى الأرضَ يابِسةً مُجدِبةً لا نَباتَ فيها ولا زَرْعَ(٣).

﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾.

أي: فإذا أنزَلْنا الماءَ على تلك الأرضِ اليابِسةِ تحَرَّكَت وارتَفَعت(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٧).

(٢) قيل: الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٧، ٤٣٨).

وقيل: الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ؛ لِيَصلُحَ لكُلِّ سامِعٍ، فهو خِطابٌ لكلِّ عاقلٍ، وقدَّره بعضُهم: يا إنسانُ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: مكِّي، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

قال ابنُ رجب: (وصَف اللهُ تعالى في كتابِه الأرضَ بالخشوعِ، فقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾، فاهتزازُها وربوُّها -وهو ارتفاعُها- مُزيلٌ لخُشوعِها؛ فدلَّ على أنَّ الخشوعَ الَّذي كانت عليه هو سكونُها وانخفاضُها). ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

قال الشوكاني: (معنَى ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾: تَحَرَّكَتْ بالنَّباتِ، يُقالُ: اهتزَّ الإنسانُ: إذا تَحَرَّك... ومعنَى =

كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الحج: ٥، ٦].

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾.

أي: إنَّ الَّذي أحيا تلك الأرضَ الخاشِعةَ، فأخرَج منها النَّباتَ والزَّرعَ بالمطَرِ: لَقادِرٌ على إحياءِ الأمواتِ يومَ القيامةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

---

= «رَبَتْ»: انْتَفَخَتْ وعَلَتْ قبْلَ أنْ تَنْبُتَ، قاله مجاهدٌ وغيرُه، وعلى هذا ففي الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، وتقديرُه: رَبَتْ وَاهْتَزَّتْ. وقيل: الاهتِزازُ والرَّبْوُ قد يَكونانِ قبْلَ خروجِ النَّباتِ، وقد يَكونانِ بعدَه، ومعنَى الرَّبوِ لغةً: الارتفاعُ، كما يقالُ للموضعِ المرتفعِ: رَبْوةٌ ورابِيَةٌ،... وقيل: اهتزَّت: استبْشَرتْ بالمطرِ، ورَبَت: انتفَخَتْ بالنَّباتِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٤).

وقال ابن عطية: (اهتزازُ الأرضِ: هو تخلخلُ أجزائِها بالماءِ، وتشقُّقُها للنَّباتِ. ورَبْوُها: هو انتِفاخُها بالماءِ، وعلوُّ سطحِها به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨).

وقال البِقاعي: (﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: تحرَّكتْ حركةً عظيمةً كثيرةً سريعةً، فكانت كمَن يُعالِجُ ذلك بنفْسِه ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: تشقَّقَتْ فارتفَع ترابُها، وخرَج منها النَّباتُ وسما في الجوِّ مُغطيًا لوجهِها، وتشعَّبت عُروقُه، وغَلُظَتْ سُوقُه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ١٩٧).

وقال ابن عثيمين: (﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ أي: اهتزَّ نباتُها مِن فوقِها... ﴿وَرَبَتْ﴾ أي: علَتْ. وهل المرادُ... انتفاخُ الأرضِ عندَما تريدُ الحبَّةُ أن تخرُجَ، فإنَّ الحبَّةَ تنتفخُ في باطنِ الأرضِ، ثمَّ إذا أراد غصنُها أن يخرجَ رفعَ الأرضَ... أو المرادُ: علَتْ بالنَّباتِ؟ الجوابُ: يحتملُ هذا وهذا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٨٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما بيْنَ النَّفخَتينِ أربعونَ. قالوا: يا أبا هُرَيرةَ، أربعونَ يَومًا؟ قال: أَبَيْتُ[١]. قالوا: أربَعونَ شَهرًا؟ قال: أَبَيتُ. قالوا: أربَعونَ سَنةً؟ قال: أَبَيتُ. ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ، وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلى إلَّا عَظْمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[٢]، ومِنه يُرَكَّبُ الخَلقُ يَومَ القيامةِ))[٣].

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو قدرةٍ على كلِّ شيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ كائِنًا ما كان[٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ فيه إشارةٌ إلى الحَثِّ على صِيانةِ الآدَميِّينَ عن أن يَقعَ منهم سُجودٌ لِغَيرِه تعالى؛ رَفعًا لِمَقامِهم عن أن يَكونوا ساجِدينَ لِمَخلوقٍ بعدَ أن كانوا مَسجودًا لهم؛ فإنَّه سُبحانَه أمَرَ الملائِكةَ الَّذين هم أشرَفُ خَلْقِه بَعْدَهم بالسُّجودِ لآدَمَ وهم في ظَهْرِه، فتكَبَّرَ اللَّعينُ إبليسُ، فأبَّدَ لَعْنَه، فشَتَّانَ ما بيْنَ المقامَينِ[٥].

---

(١) أَبَيتُ: أي: امتَنَعْتُ عن تعيينِ ذلك، وأن أقولَ في الخبَرِ ما لم أسمَعْه. والإباءُ: أشَدُّ الامتِناعِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٠)، ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٧/ ٣٢٣).

(٢) عَجْبُ الذَّنَبِ: هو العَظمُ بيْن الأَلْيَتينِ الَّذي في أسفَلِ الصُّلبِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٠٥).

(٣) رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٤).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ الشَّمسُ أعظَمُ ما يُرى في عالَمِ الشَّهادةِ، وأعَمُّه نَفعًا وتأثيرًا، فالنَّهيُ عن السُّجودِ لها نَهيٌ عَمَّا هو دُونَها بطَريقِ الأَولى، مِنَ الكواكِبِ والأشجارِ وغَيرِ ذلك[١].

٢- أنَّ مِن بلاغةِ القُرآنِ أنَّه إذا ذُكِرَ الحُكمُ ذُكِرَ الدَّليلُ العقليُّ عليه؛ لِقَولِه: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، فقولُه: (اسْجُدُوا للهِ) أمرٌ شَرعيٌّ، وقولُه: ﴿الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ دَليلٌ كَونيٌّ قَدَرِيٌّ على أنَّ المُستَحِقَّ للسُّجودِ هو الَّذي خَلَق هذه الأشياءَ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، استُدِلَّ به على صلاةِ الكسوفِ؛ لأنَّه ليس هاهنا صلاةٌ تتعلَّقُ بالشَّمسِ والقمرِ إلَّا صلاةُ الكسوفِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ رَدٌّ على الجَهميَّةِ والمُعتَزِلةِ ومَن يَزعُمُ أنَّ اللهَ ليس بنَفْسِه في السَّماءِ وَحْدَها دونَ الأرضِ؛ فقد قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ وهمُ الملائكةُ، لا يَشُكُّ أحَدٌ أنَّهم في السَّماءِ[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((المهذب في فقة الإمام الشافعي)) للشيرازي (١/ ١٥٧)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٧٩).

وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: قال هاهنا في صِفةِ الملائكةِ: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، فهذا يدُلُّ على أنَّهم مُواظِبونَ على التَّسبيحِ، لا ينفكُّونَ عنه لحظةً واحِدةً، واشتِغالُهم بهذا العَمَلِ على سَبيلِ الدَّوامِ يمنَعُهم مِنَ الاشتِغالِ بسائِرِ الأعمالِ، ككَونِهم يَنزِلونَ إلى الأرضِ، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ * عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الحجر: ٥١]، وقَولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ﴾ [التحريم: ٦]؟

**الجَوابُ**: أنَّ الَّذين ذكَرَهم اللهُ تعالى هاهنا بكَونِهم مُواظِبينَ على التَّسبيحِ أقوامٌ مُعَيَّنونَ مِن الملائِكةِ، وهم الأشرافُ الأكابِرُ منهم، وهذا لا يُنافي كَونَ طائفةٍ أُخرى مِن الملائِكةِ مُشتَغِلينَ بسائِرِ الأعمالِ(١).

٦- قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ فقد دَلَّ سُبحانَه عِبادَه بما أراهم مِنَ الإحياءِ الَّذي تحَقَّقوه وشاهَدوه على الإحياءِ الَّذي استَبعَدوه، وذلك قياسُ إحياءٍ على إحياءٍ، واعتبارُ الشَّيءِ بنَظيرِه، والعِلَّةُ المُوجِبةُ هي عُمومُ قُدرتِه سُبحانَه، وكَمالُ حِكمتِه، وإحياءُ الأرضِ دَليلُ العِلَّةِ، ويُسمَّى هذا القياسُ بقياسِ الدَّلالةِ، وهو الجَمعُ بيْنَ الأصلِ والفَرعِ بدَليلِ العِلَّةِ ومَلزومِها(٢).

٧- الاستِدلالُ بالعمومِ على الخصوصِ، فاللهُ تعالى استدَلَّ على قدرتِه على إحياءِ الموتَى بدليلَينِ؛ أحدُهما خاصٌّ، والثَّاني عامٌّ؛ الخاصُّ: «يُحيي الأرضَ بعدَ موتِها»، والعامُّ: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، ويَنبني على هذه الفائدةِ: أنَّ العامَّ يَتناوَلُ جميعَ أفرادِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٢٠).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] الآيةَ، عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ؛ فإنَّ المقصودَ مِن ذِكرِ خلْقِ العوالِمِ أنَّها دَلائلُ على انفرادِ اللهِ بالإلهيَّةِ؛ فلذلك أُخبِرَ هنا عن المَذْكوراتِ في هذه الجُملةِ بأنَّها مِن آياتِ اللهِ، انتِقالًا في أفانينِ الاستِدلالِ؛ فإنَّه انتِقالٌ مِنَ الاستِدلالِ بذَواتٍ مِن مَخلوقاتِه إلى الاستِدلالِ بأحوالٍ مِن أحوالِ تلك المَخلوقاتِ، فابتُدِئَ ببَعضِ الأحوالِ السَّماويَّةِ، وهي حالُ اللَّيلِ والنَّهارِ، وحالُ طُلوعِ الشَّمسِ وطُلوعِ القَمَرِ، ثمَّ ذَكَر بَعدَه بَعضَ الأحوالِ الأرضيَّةِ بقَولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ [فصلت: ٣٩]. ويدُلُّ لهذا الانتقالِ أنَّه انتَقَلَ مِن أُسلوبِ الغَيبةِ مِن قَولِه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ [فصلت: ١٣]، إلى قَولِه: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ [فصلت: ٣٤]، إلى أُسلوبِ خِطابِهم؛ رُجوعًا إلى خِطابِهمُ الَّذي في قَولِه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ﴾ [فصلت: ٩]، والآياتُ: الدَّلائِلُ، وإضافَتُها إلى ضَميرِ اللهِ لِأنَّها دَليلٌ على وَحدانيَّتِه وعلى وُجودِه[1].

- قولُه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ...﴾ فبَدَأ بذِكرِ الفَلَكيَّاتِ باللَّيلِ والنَّهارِ، وقدَّمَ ذِكرَ اللَّيلِ؛ قيلَ: تَنبيهًا على أنَّ الظُّلمةَ عَدَمٌ، والنُّورَ وُجودٌ، ولأنَّ اللَّيلَ متقدِّمٌ على النَّهارِ، وناسَبَ ذِكرُ الشَّمسِ بَعدَ النَّهارِ؛ لأنَّها سَبَبٌ لِتَنويرِه، ويَظهَرُ العالَمُ فيه، ولأنَّها أبلَغُ في التَّنويرِ مِنَ القَمَرِ، ولأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٨).

القَمَرَ فيما يَقولونَ مُستَفادٌ نُورُه مِن نُورِ الشَّمسِ[١].

- ولم يُذكَرْ ما يدُلُّ على بَعضِ أحوالِ الشَّمسِ والقمَرِ -مِثلُ طُلوعٍ أو غُروبٍ، أو فَلَكٍ أو نَحوِ ذلك-؛ لِيَكونَ صالحًا للاستِدلالِ بأحْوالِهما -وهو المَقصودُ الأوَّلُ- وبخَلْقِهما تأكيدًا لِمَا استُفِيدَ مِن قولِه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ﴾؛ تَوفيرًا للمعاني[٢].

- قولُه: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾ إمَّا أنْ يكونَ النَّهيُ نَهْيَ إقلاعٍ بالنِّسبةِ لِلَّذين يَسجُدونَ لِلشَّمسِ والقَمَرِ، أو نَهْيَ تَحذيرٍ لِمَن لم يَسجُدْ لهما ألَّا يَتَّبِعوا مَن يَعبُدونَهما، ووُقوعُ قَولِه: ﴿وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ بَعدَ النَّهيِ عنِ السُّجودِ لِلشَّمسِ والقَمَرِ يُفيدُ مُفادَ الحَصرِ؛ لِأنَّ النَّهيَ بمَنزِلةِ النَّفيِ، ووُقوعُ الإثباتِ بَعدَه بمَنزِلةِ مُقابَلةِ النَّفيِ بالإيجابِ؛ فإنَّه بمَنزِلةِ النَّفيِ والاستِثناءِ في إفادةِ الحَصرِ، فكَأنَّه قيلَ: لا تَسجُدوا إلَّا للهِ، أيْ: دُونَ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ فجُملةُ ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ مُعتَرِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ وبيْن جُملةِ ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾[٣] [فصلت: ٣٨].

- وأعاد النَّافيَ في قولِه: ﴿وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾؛ تأكيدًا للنَّفيِ، وإفادةً لأنَّ النَّهيَ عن كلٍّ منهما على حِدَتِه[٤].

- والضَّميرُ في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ لِلأربَعةِ -على قولٍ-؛ ﴿ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾؛ لأنَّ حُكْمَ جَماعةِ ما لا يَعقِلُ حُكْمُ الأُنثَى أو الإناثِ، أو عُبِّرَ عن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٢).

الأرْبعِ بضَميرِ الإناثِ، مع أنَّ فيها ثلاثةً مُذكَّرةً، والعادةُ تَغليبُ المُذكَّرِ على المُؤنَّثِ؛ لِأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ﴾ فنَظَمَ الأربعةَ في سِلكِ الآياتِ، صارَ كُلُّ واحِدٍ منها آيةً، فعَبَّرَ عنها بضَميرِ الإناثِ[1].

- وأيضًا تَعليقُ الفِعلِ ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ بالكُلِّ، مع كِفايةِ بَيانِ مَخلوقيَّةِ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ لِلإيذانِ بكَمالِ سُقوطِهما عن رُتبةِ المَسجوديَّةِ بنَظمِهما في المَخلوقيَّةِ في سِلكِ الأعراضِ الَّتي لا قيامَ لها بذاتِها[2].

- قَولُه: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ تَتميمٌ لِلمَعنى، وتَقريعٌ لِلغافِلينَ[3]، وقَدَّمَ المفعولَ به لإفادةِ الحَصْرِ؛ لأنَّ مِن القواعدِ المُقَرَّرَةِ في علمِ البلاغةِ وغيرِها أنَّ تقديمَ ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحَصْرَ[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ هذا تَتميمٌ بَعدَ تَتميمٍ، وتَسليةٌ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو مُتَضمِّنٌ لِلذَّمِّ على تَركِ السُّجودِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ وُضِعَ مَوضِعَ: فإنْ لم يَسجُدوا؛ إقامةً لِلسَّبَبِ مَوضِعَ المُسَبَّبِ؛ لِلعِلِّيَّةِ[5].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ ...﴾ لِلتَّفريعِ على نَهيِهم عنِ السُّجودِ لِلشَّمسِ والقَمَرِ، وأمْرِهم بالسُّجودِ للهِ وَحْدَه، أيْ: فإنِ استَكبَروا أنْ يَتَّبِعوكَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٠، ٦١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٠٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١١).

وصَمَّموا على السُّجودِ لِلشَّمسِ والقَمَرِ، أو فإنِ استَكبَروا عن الاعتِرافِ بدَلالةِ اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقَمَرِ على تَفَرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ، فيَعُمُّ ضَميرُ ﴿ٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ جَميعَ المُشرِكينَ؛ فاللهُ غَنيٌّ عن عِبادَتِهم إيَّاه(١).

- والاستِكبارُ: قُوَّةُ التَّكَبُّرِ، فالسِّينُ والتَّاءُ لِلمُبالَغةِ، أيْ: عَدُّوا أنْفُسَهم ذَوي كِبرٍ شَديدٍ مِن فَرْطِ تَكَبُّرِهم(٢).

- وجُملةُ ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ دَليلُ جَوابِ الشَّرطِ المَحذوفِ، والتَّقديرُ: فإنْ تَكَبَّروا عنِ السُّجودِ للهِ فهو غَنيٌّ عن سُجودِهم؛ لِأنَّ له عَبيدًا أفضَلَ منهم لا يَفْتُرونَ عن التَّسبيحِ له بإقبالٍ دُونَ سَآمةٍ(٣).

- قولُه: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ ذِكْرُ اللَّيلِ والنَّهارِ هنا؛ لِقَصدِ استِيعابِ الزَّمانِ، أيْ: يُسَبِّحونَ له الزَّمانَ كُلَّه(٤).

- وجُملةُ ﴿وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، وهو أوقَعُ مِن مَحمَلِ العَطفِ؛ لِأنَّ كَونَ الإخبارِ عنهم مُقَيَّدًا بهذه الحالِ أشَدُّ مِن إظهارِ عَجيبِ حالِهم؛ إذْ شَأنُ العَمَلِ الدَّائِمِ أنْ يَسْأمَ منه عامِلُه(٥).

- وأيضًا قولُه: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ﴾ فيه احتباكٌ(٦)، حيثُ ذكَرَ الاستِكبارَ أوَّلًا دليلًا على حذْفِه ثانيًا، والتَّسبيحَ ثانيًا دليلًا على حذْفِه أوَّلًا؛ وسِرُّ ذلك: أنَّه ذكَرَ أقبَحَ ما لِأعدائِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٠، ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

وأحسَنَ ما لِأوليائِه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]، وهذا استِدلالٌ بهذا الصُّنعِ العَظيمِ على أنَّه تعالَى مُنفَرِدٌ بفِعلِه، فهو دَليلُ إلهيَّتِه دُونَ غَيرِه؛ لِأنَّ مَن يَفعَلُ ما لا يَفعَلُه غَيرُه هو الإلهُ الحَقُّ، وإذا كان كذلك لم يَجُزْ أنْ يَتعَدَّدَ؛ لِكَونِ مَن لا يَفعَلُ مِثلَ فِعلِه ناقصَ القُدرةِ، والنَّقصُ يُنافي الإلهيَّةَ، كما قال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾[٢] [النحل: ١٧].

- ولَمَّا كان السِّياقُ لِلوَحْدانيَّةِ، عُبِّرَ بما هو أقرَبُ إلى حالِ العابدِ، بخِلافِ ما مَضى في (الحجِّ): ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الحج: ٥]، فقال: ﴿خَٰشِعَةً﴾، أي: يابسةً لا نَباتَ فيها؛ فهي بصُورةِ الذَّليلِ الَّذي لا مَنَعةَ عِندَه؛ لأنَّه لا مانعَ مِن المَشْيِ فيها؛ لِكَونِها مُتطامِنةً بعْدَ السَّاترِ لِوَجْهِها، بخلافِ ما إذا كانتْ مُهتزَّةً رابيةً مُتزَخْرِفةً تَختالُ بالنَّباتِ[٣].

- وعُطِفَ ﴿وَرَبَتْ﴾ على ﴿ٱهْتَزَّتْ﴾؛ لِأنَّ المَقصودَ مِنَ الاهتِزازِ هو ظُهورُ النَّباتِ عليها وتَحَرُّكُه، والمَقصودُ بالرَّبْوِ: انتِفاخُها بالماءِ واعتِلاؤُها[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ إدماجٌ[٥] لإثباتِ البَعثِ في أثناءِ الاستِدلالِ على تَفَرُّدِه تعالَى بالخَلقِ والتَّدبيرِ، ووُقوعُه على

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٢).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

عادةِ القُرآنِ في التَّفنُّنِ وانتهازِ فُرَصِ الهُدى إلى الحقِّ. والجُملةُ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ، والمُناسَبةُ مُشابَهةُ الإحياءَيْنِ(١).

- وحَرفُ التَّوكيدِ ﴿إِنَّ﴾ لِمُراعاةِ إنكارِ المُخاطَبينَ إحياءَ المَوتى، وتَعريفُ المُسنَدِ إليه بالمَوصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا﴾؛ لِمَا في المَوصولِ مِن تَعليلِ الخَبَرِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓ﴾ شَبَّهَ إمدادَ الأرضِ بماءِ المَطَرِ الَّذي هو سَبَبُ انبثاقِ البُذورِ الَّتي في باطِنِها الَّتي تَصيرُ نَباتًا بإحياءِ المَيِّتِ، ثمَّ ارتُقِيَ مِن ذلك إلى جَعْلِ ذلك -الَّذي سُمِّيَ إحياءً؛ لِأنَّه شَبيهُ الإحياءِ- دَليلًا على إمكانِ إحياءِ المَوتَى بطَريقةِ قِياسِ الشَّبَهِ، وهو يُفيدُ تَقريبَ المَقيسِ بالمَقيسِ عليه، وليس الاستِدلالُ بالشَّبهِ والتَّمثيلِ بحُجَّةٍ قَطعيَّةٍ، بلْ هو إقناعيٌّ، ولكِنَّه هنا يَصيرُ حُجَّةً؛ لِأنَّ المَقيسَ عليه، وإنْ كانَ أضعَفَ مِنَ المَقيسِ؛ إذِ المُشَبَّهُ لا يَبلُغُ قُوَّةَ المُشَبَّهِ به؛ فالمُشَبَّهُ به حيث كان لا يَقدِرُ على فِعلِه إلَّا الخالِقُ الَّذي اتَّصَفَ بالقُدرةِ التَّامَّةِ لِذاتِه، فقد تَساوى فيه قَويُّه وضَعيفُه، وهمْ كانوا يُحيلونَ إحياءَ الأمواتِ استِنادًا لِلاستِبعادِ العاديِّ، فلَمَّا نُظِّرَ إحياءُ الأمواتِ بإحياءِ الأرضِ المُشَبَّهِ، تَمَّ الدَّليلُ الإقناعيُّ المُناسِبُ لِشُبهَتِهِمُ الإقناعيَّةِ، وقد أشارَ إلى هذا تَذييلُه بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٤٠-٤٦)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿٤٥﴾ مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُلۡحِدُونَ﴾: أي: يَجُورونَ فيها عن الحَقِّ ويَميلونَ، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ عن الاستِقامةِ[1].

﴿مُرِيبٖ﴾: أي: مُوقِعٍ للتُّهمةِ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشَّكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مهدِّدًا ومتوعِّدًا الَّذين يُلحِدونَ في آياتِه: إنَّ الَّذين يَميلونَ في آياتِ اللهِ عن الحَقِّ لا يَخفَونَ عليه سُبحانَه وتعالى.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه الفَرقَ الكبيرَ بيْنَ عاقبةِ المؤمنينَ وعاقبةِ الكافرينَ، فيقولُ: أفمَن يُلْقَى في النَّارِ فيُعذَّبُ فيها خَيرٌ أمْ مَنْ يأتي آمِنًا يومَ القيامةِ مِن عَذابِ اللهِ؟! اعمَلوا -أيُّها المُشرِكونَ- ما شِئتُم؛ إنَّ اللهَ بما تَعمَلونَ بَصيرٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مهدِّدًا أيضًا: إنَّ الَّذين كَفَروا بالقُرآنِ لَمَّا جاءَهم لَخاسِرونَ، وإنَّ هذا القُرآنَ لكِتابٌ عزيزٌ مُمتَنِعٌ عن الخَلقِ أن يَقولوا مِثلَه، أو يَغلِبوا حُجَجَه، ليس للبُطلانِ إليه مِن سَبيلٍ، وهو تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، حَميدٍ مُنَزَّهٍ -سُبحانَه- عن النَّقائِصِ والعُيُوبِ، مَحمودٍ على ذلك.

ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابَه مِن أعدائِه، فيقولُ: ما يُقالُ لك -يا مُحمَّدُ- إلَّا ما قد قِيلَ للرُّسُلِ مِن قَبْلِك. إنَّ ربَّك لَذُو مَغفِرةٍ للتَّائِبينَ، وذو عِقابٍ مُؤلِمٍ للمُصِرِّينَ على الكُفرِ والعِصيانِ.

ثمَّ يرُدُّ سُبحانَه على بعضِ الشُّبهاتِ الَّتي أثاروها حوْلَ القرآنِ الكريمِ، فيقولُ: ولو جعَلْنا هذا القُرآنَ بغَيرِ العَربيَّةِ لَقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: لولا بيَّنَ اللهُ لنا آياتِ كِتابِه بِلُغَتِنا؛ لِنَعقِلَ ما فيه! ولو أنزَلْنا هذا القُرآنَ بغَيرِ العَربيَّةِ لَقال كُفَّارُ قُرَيشٍ مُتعَجِّبينَ: أقُرآنٌ أعجَميٌّ ورَسولٌ عَرَبيٌّ؟!

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: هذا القُرآنُ للمُؤمِنينَ هُدًى وشِفاءٌ لهم مِن أمراضِ القُلوبِ والأبدانِ.

ثمَّ يُبيِّنُ موقفَ الكافرينَ مِن القرآنِ، فيقولُ: والَّذين لا يُؤمِنونَ في آذانِهم ثِقْلٌ؛ فلا يَنتَفِعونَ بسَماعِ الحَقِّ، والقُرآنُ عليهم عَمًى؛ فلا يُبصِرونَ الحَقَّ الَّذي فيه، ولَا يَهْتدونَ به، أولئك كأنَّهم لعَمَى قلوبِهم عن فَهمِ ما أُنْزِل في القرآنِ، وعدمِ انتِفاعِهم به- يُنادَونَ مِن مَوضعٍ بعيدٍ منهم، فهُم لا يَسمعونَ النِّداءَ، ولا يَفهمونَه.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى -تسليةً لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم- أنَّ النَّاسَ صنَعوا معه كما صنَعوا معَ موسى عيه السَّلامُ، فيقولُ: ولقد آتَيْنا موسى التَّوراةَ، فاختَلَف قَومُه فيها؛ فآمَنَ بها بَعضُهم، وآخَرونَ مِنهم لم يُؤمِنوا بها، ولولا كَلِمةٌ سبَقَت مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- بتأخيرِ عذابِهم إلى أجَلٍ مُسَمًّى، لَأهلَكَهم اللهُ في الحالِ، وإنَّهم لَفي شَكٍّ منه مُوقِعٍ في القَلَقِ والاضطِرابِ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ سبحانَه سُنَّةً مِن سُنَنِه الَّتي لا تتخلَّفُ، مقرِّرًا كمالَ عدلِه، فيقولُ: مَن عَمِل صالِحًا فعَمَلُه لِنَفْسِه، ومَن عَمِل سُوءًا فعِقابُ إساءتِه على نَفْسِه، وما ربُّك -يا مُحمَّدُ- بظَلَّامٍ لعِبادِه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّ الدَّعوةَ إلى دينِه أعظَمُ المناصِبِ وأشرَفُ المراتِبِ، ثمَّ بيَّنَ أنَّ الدَّعوةَ إنَّما تَحصُلُ بذِكرِ دلائِلِ التَّوحيدِ والعَدلِ، وصِحَّةِ البَعثِ والقيامةِ- عاد إلى تهديدِ مَن يُنازِعُ في تلك الآياتِ، ويُحاوِلُ إلقاءَ الشُّبُهاتِ

فيها؛ فقال[١]:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَميلُونَ في آياتِ اللهِ عن الحَقِّ -كأن يُكَذِّبوا بها، أو يَسخَروا منها، أو يُحَرِّفوا مَعانيَها عن الصَّوابِ- لا يَخفَونَ على اللهِ تعالى؛ فهو مُطَّلِعٌ عليهم، وسَوفَ يُجازيهم على إلحادِهم، فيُلقِيهم في النَّارِ يَومَ القيامةِ[٢].

﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: أفمَن يُلقَى في النَّارِ فيُعَذَّبُ فيها خَيرٌ أمْ مَن يأتي يومَ القيامةِ آمِنًا مِن عَذابِ اللهِ؛ لِكَونِه آمَنَ بآياتِه ولم يُلحِدْ فيها؟ أيَسْتوي هذا وهذا؟ لا يَستَويانِ[٣].

﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تَبيَّنَ الحَقُّ مِن الباطِلِ، والطَّريقُ المُنجِي مِن عَذابِ الله مِن الطَّريقِ المُهلِكِ، قال[٤]:

﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٠، ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٢١-٢٢٥).

قال ابن عاشور: (الآياتُ تَشملُ الدَّلائِلَ الكَونيَّةَ... وتَشملُ الآياتِ القَوليَّةَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٢١، ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

أي: اعمَلوا -أيُّها المُشرِكونَ- ما شِئتُم بعدَ أن عَلِمْتُم عَدَمَ استِواءِ المعذَّبِ في النَّارِ والآمِنِ منها[١].

﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بما تَعمَلونَ بَصيرٌ، لا يَخفَى عليه -سُبحانَه- شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه أعقَبَ تَهديدَهم على الإلحادِ في آياتِ اللهِ على وَجهِ العُمومِ، بالتَّعرُّضِ إلى إلحادِهم في آياتِ القُرآنِ[٣].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾.

أي: إنَّ الَّذين كَفَروا بالقُرآنِ حينَ جاءَهم: هم الخاسِرونَ الأذَلُّونَ الأسفَلونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣).

قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ وعيدٌ في صيغةِ الأمرِ بإجماعٍ مِن أهلِ العِلمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٣، ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٢، ٢٤٣).

قال الماوَرْدي: (الذِّكْرُ هنا: القُرآنُ، في قَولِ الجَميعِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٥). =

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بالَغ في تهديدِ الَّذينَ يُلْحِدونَ في آياتِ القرآنِ؛ أتْبَعه ببيانِ تعظيمِ القرآنِ[١].

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾.

أي: وإنَّ هذا القُرآنَ لَكِتابٌ عزيزٌ أعزَّه اللهُ وحَفِظَه مِن الباطِلِ، ومِن كُلِّ تَبديلٍ وتَحريفٍ، ومُمتَنِعٌ عن الخَلقِ أن يَقولوا مِثْلَه، أو يَغلِبوا حُجَجَه[٢].

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مِن مَعاني العِزَّةِ أنَّه مُمتَنِعٌ بمَتانةِ رَصفِه، وجَزالةِ نَظْمِه، وجَلالةِ مَعانيه: مِن أن يَلحَقَه تَغييرٌ ما؛ بيَّن ذلك بقَولِه[٣]:

﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾.

أي: ليس للبُطلانِ مِن سَبيلٍ إلى القُرآنِ[٤].

---

= ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

قال الماوَرْدي: (﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: لا يأتيه الباطِلُ مِن كِتابٍ قَبْلَه، ولا يأتيه مِن كِتابٍ بعدَه. قاله قَتادةُ.

الثَّاني: لا يأتيه الباطِلُ مِن أوَّلِ التَّنزيلِ، ولا مِن آخِرِه.

الثَّالِثُ: لا يأتيه الباطِلُ في إخبارِه عمَّا تقَدَّمَ، ولا في إخبارِه عمَّا تأخَّر. قاله ابنُ جُرَيجٍ. =

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

أي: تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائقِ به، ومِن حَميدٍ بالِغِ الإحاطةِ بأوصافِ الكَمالِ، مُنَزَّهٍ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، مَحمودٍ على

---

= ويحتمِلُ رابعًا: ما بيْنَ يديه: لَفظُه. وما خَلْفَه: تأويلُه. فلا يأتيه الباطِلُ في لَفظٍ ولا تأويلٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٥، ١٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٤).

وممَّن قال بالوَجهِ الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٦).

وممَّن قال بالوجهِ الثَّالثِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٥). قال ابن عثيمين: (هذا القرآنُ الكريمُ ليس فيه شيءٌ مِن الكذبِ؛ لا في الإخبارِ عمَّا مضَى... ولا في الإخبارِ عمَّا يُستقبَلُ... وإن شئتَ اعكسْ فقُلْ: ما بيْنَ يديه هو المُستقبَلُ، وما خَلْفَه هو الماضي). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٥).

وقيل: معنى ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾: لا يستطيعُ ذو باطِلٍ بكَيدِه تَغييرَه وتَبديلَ شَيءٍ مِن معانيه، ومعنى ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾: لا يَستطيعُ المُبطِلُ إلحاقَ ما ليس منه فيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٥).

وقيل: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ معناه: ليس فيما تقَدَّمَه مِن الكُتُبِ ما يُبطِلُ شَيئًا منه. وقوله: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ أي: ليس يأتي بعدَه مِن نظَرِ ناظرٍ وفكرةِ عاقلٍ ما يُبطِلُ أشياءَ منه، فالمرادُ باللَّفظِ على الجملةِ: لا يأتيه الباطلُ مِن جهةٍ مِن الجهاتِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطية، والثعالبي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤٣).

وقيل: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أي مِن جهةِ الظَّاهرِ، مثل ما أخبَر به عمَّا كان قبْلَه، ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ مِن جهةِ العِلمِ الباطنِ، مثل عِلمِ ما لم يشتهِرْ مِن الكائنِ والآتي، سواءٌ كان حُكمًا أو خبرًا؛ لأنَّه في غايةِ الحَقِّيَّةِ والصِّدقِ، فالحاصلُ أنَّه لا يأتيه مِن جهةٍ مِن الجهاتِ؛ لأنَّ ما قُدَّامَ أوضحُ ما يكونُ، وما خَلْفَ أخفى ما يكونُ، فما بيْنَ ذلك مِن بابِ الأَولى. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠١).

ذلك[١].

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا هَدَّد المُلْحِدينَ في آياتِ اللهِ، ثمَّ بَيَّنَ شَرَف آياتِ اللهِ، وعُلُوَّ دَرَجةِ كِتابِ اللهِ؛ رَجَع إلى أمرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَصبِرَ على أذى قَومِه، وألَّا يَضيقَ قَلبُه بسَبَبِ ما حكاه عنهم في أوَّلِ السُّورةِ مِن أنَّهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾[٢] [فصلت: ٥].

﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾.

أي: ما يُقالُ لك -يا مُحمَّدُ- إلَّا ما قد قِيلَ للرُّسُلِ الَّذين بُعِثوا مِن قَبْلِك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٠).

وذكَر ابنُ عثيمينَ أنَّ ﴿حَمِيدٍ﴾ بمعنى فاعلٍ وبمعنى مفعولٍ، فهو محمودٌ وهو أيضًا حامدٌ، فالله تعالى يُثني كثيرًا على المؤمنينَ وعلى الرُّسلِ وعلى مَن شاء مِن عبادِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٨). ويُنظر تفصيلُ الكلامِ عن اسمِ (الحميد) (ص: ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

قال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: ما يقولُ المُشرِكونَ لك إلَّا ما قالَه مَن قَبْلَهم لأنبيائِهم: إنَّه ساحِرٌ أو مجنونٌ. قاله قَتادةُ. الثَّاني: ما تُخبَرُ إلَّا بما يُخبَرُ الأنبياءُ قَبْلَكَ بـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾. حكاه ابنُ عيسى، وقاله الكَلْبيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، ومكِّي، والسمعاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٨)، =

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- لَذُو سَترٍ عَظيمٍ على ذُنوبِ عِبادِه التَّائِبينَ، وتَجاوُزٍ عن مُؤاخَذتِهم بها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: وهو ذو عِقابٍ مُؤلِمٍ لِمَن أصَرَّ على كُفرِه ومَعاصيه، ولم يَتُبْ مِن ذُنوبِه قبْلَ مَوتِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

---

= ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، والسُّدِّيُّ، وأبو صالحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٣٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الغَزْنَوي. يُنظر: ((باهر البرهان)) للغزنوي (٢/ ١٢٧٨).

وذكر ابنُ عاشور أن في الآيات تفسيرَينِ؛ الأوَّل: أنَّ ما يقولُه المشركونَ في القرآنِ والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو دأبُ أمثالِهم المعانِدينَ مِن قبْلِهم، فالمعنى أنَّه قد تشابهتْ قلوبُ المكذِّبين فكانت مقالاتُهم مُتماثِلةً. والثَّاني: أنَّ المعنى: ما قُلْنا لك إلَّا ما قُلْناه للرُّسلِ مِن قبْلِك، فأنت لم تكنْ بِدْعًا مِن الرُّسلِ فيَكونَ لقَومِك بعضُ العُذرِ في التَّكذيبِ، ولكنَّهم كذَّبوا كما كذَّب الَّذين مِن قبْلِهم. وحمَل الآيةَ على كِلا المعنيَينِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ﴿٤٤﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى المُلْحِدينَ في آياتِه وأنَّهم لا يَخفَونَ عليه، والكافِرينَ بالقُرآنِ وما دَلَّ على تَعنُّتِهم وما ظَهَر مِن تَكذيبِهم، وقَولِهم: هلَّا أُنزِلَ بلُغةِ العَجَم! فقال: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا﴾ أي: لم يَترُكُوا الاعتِراضَ، ولَقالوا: ﴿لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾[1].

﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾.

أي: ولو جعَلْنا القرآنَ بلُغةٍ أُخرى غيرِ العَرَبيَّةِ لَقالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ: هلَّا بيَّنَ اللهُ لنا آياتِ كِتابِه بلُغتِنا العَرَبيَّةِ؛ حتى نَعقِلَ ما فيه[2]؟

﴿ءَأَعۡجَمِيّٞ وَعَرَبِيّٞۗ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

٤- قِراءةُ ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ بهَمزةٍ واحِدةٍ على الخَبَرِ. قيل: المعنى: لولا فُصِّلَت آياتُه فكان بَعضُها أعجَميًّا تَفهَمُه العَجَمُ، وبَعضُها عَربيًّا يَفهَمُه العَرَبُ. وقيل: المعنى: أنَّهم يَقولونَ مُتعَجِّبينَ: عُجمةٌ وإعرابٌ! إنَّ هذا لَشاذٌّ. وقيل: القراءتانِ بمعنًى واحِدٍ؛ لأنَّ الاستِفهامَ مُقدَّرٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٤، ٣١٥).

(٣) قرأ بها قُنْبُلٌ عن ابن كثير، وهشامٌ عن ابن عامر، ورُوَيسٌ عن يعقوبَ، باختلافٍ عنهم. يُنظر: =

٥- قِراءةُ ﴿ءَاعْجَمِيٌّ﴾ بهَمزَتينِ على الاستِفهامِ. قيل: المعنى: يقولونَ مُتعَجِّبينَ: أقُرآنٌ أعْجَميٌّ ورَسولٌ عَرَبيٌّ؟! وقيل: معناه: أبَعضُه أَعجَميٌّ وبَعضُه عَرَبيٌّ[1]؟!

﴿ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾.

أي: لو أُنزِلَ القُرآنُ بغَيرِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ لَقال كُفَّارُ قُرَيشٍ مُتعَجِّبينَ ومُنكِرينَ: أقُرآنٌ أَعجَميٌّ ورَسولٌ عَرَبيٌّ؟! كيف يَنزِلُ كَلامٌ أَعجَميٌّ على مُخاطَبٍ عَرَبيٍّ لا يَفهَمُه[2]؟!

---

= ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٦٦).

ويُنظر لِمعنى هذه القراءةِ: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٣٠، ٥٣١).

(١) قرأ بها الباقون، وهم على أصولِهم في البَدَلِ، وبَيْنَ بيْنَ، وإدخالِ الألِفِ بيْن الهمزتينِ وعَدَمِه. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (١/ ٣٦٦).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٥٢، ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٣٠، ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥٩).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤).

قال القرطبي: (العَجَميُّ: الَّذي ليس مِنَ العَرَبِ كان فصيحًا أو غيرَ فَصيحٍ، والأعْجَميُّ: الَّذي لا يُفصِحُ كان مِن العَرَبِ أو مِن العَجَمِ؛ فالأعْجَمُ ضِدُّ الفَصيحِ، وهو الَّذي لا يُبينُ كَلامَه. ويُقالُ للحَيوانِ غيرِ النَّاطِقِ: أعْجَمُ، ومنه: «صلاةُ النَّهارِ عَجْماءُ»، أي: لا يُجهَرُ فيها بالقِراءةِ؛ فكانت النِّسبةُ إلى الأعجَمِ آكَدَ؛ لأنَّ الرَّجُلَ العَجَميَّ الَّذي ليس مِن العَرَبِ قد يكونُ فَصيحًا بالعَرَبيَّةِ، والعَربيَّ قد يكونُ غَيرَ فَصيحٍ؛ فالنِّسبةُ إلى الأعجَميِّ آكَدُ في البيانِ. والمعنى: أقُرآنٌ أعْجَميٌّ، =

قال تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ * كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ * لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الشعراء: ١٩٨ - ٢٠١].

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: القُرآنُ للمُؤمِنينَ هُدًى يُرشِدُهم إلى الحَقِّ، ويُعَلِّمُهم ما يَنفَعُهم، وهو شِفاءٌ لهم مِنَ الجَهلِ والشَّكِّ والشُّبُهاتِ، وأمراضِ القُلوبِ والأبدانِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٦٤]

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء: ٨٢].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ ناسًا مِن أصحابِ رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كانوا في سَفَرٍ، فمرُّوا بحَيٍّ مِن أحياءِ العَرَبِ، فاستَضافوهم فلمْ يُضَيِّفوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راقٍ؛ فإنَّ سَيِّدَ الحَيِّ لَديغٌ أو مُصابٌ؟ فقال

---

= ونَبيٌّ عَرَبيٌّ؟! وهو استِفهامُ إنكارٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٨، ٣٦٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٩)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨، ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

رَجُلٌ منهم: نَعَم، فأتاه فَرَقاه بفاتحةِ الكِتابِ، فبَرَأ الرَّجُلُ. فأُعطِيَ قَطيعًا مِن غَنَمٍ، فأبى أن يَقبَلَها، وقال: حتَّى أذكُرَ ذلك للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فأتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فذكَرَ ذلك له؛ فقال: يا رَسولَ اللهِ، واللهِ ما رَقَيْتُ إلَّا بفاتحةِ الكِتابِ، فتَبَسَّمَ وقال: وما أدراك أنَّها رُقْيةٌ؟! ثمَّ قال: خُذُوا منهم، واضرِبوا لي بسَهمٍ معكم))[1].

وعن عائشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا اشتكى يَقرأُ على نَفْسِه بالمُعَوِّذاتِ، ويَنفُثُ، فلمَّا اشتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرأُ عليه، وأمسَحُ عنه بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكتِها))[2].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا مَرِضَ أحَدٌ مِن أهْلِه نَفَث عليه بالمُعَوِّذاتِ))[3].

﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٌ﴾.

أي: والَّذين لا يُؤمِنونَ في آذانِهم ثِقَلٌ؛ فلا يَنتَفِعونَ بسَماعِ الحَقِّ[4].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٠٧)، ومسلم (٢٢٠١) واللفظ له.

(٢) رواه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢) واللفظ له.

(٣) رواه مسلم (٢١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

قال الشوكاني: (الموصولُ في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: مبتدَأٌ، وخَبَرُه: ﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٌ﴾، أو: الموصولُ الثَّاني عَطفٌ على المَوصولِ الأوَّلِ، و ﴿وَقۡرٌ﴾: عَطفٌ على ﴿هُدٗى﴾ عنَد مَن جَوَّز العَطفَ على عاملَينِ مختلِفَينِ، والتَّقديرُ: هو للأوَّلينَ هُدًى وشِفاءٌ، وللآخَرينَ وَقرٌ في آذانِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٣).

قيل: المعنى: أنَّ في آذانِهم ما يَمنَعُ عنهم سَماعَ القُرآنِ سَماعَ فَهمٍ وانتِفاعٍ، فجعَلهم بمَنزِلةِ الصُّمِّ حِينَ لم يَسمَعوا سَماعَ قَبولٍ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، والسمعاني. =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾.

أي: والقُرآنُ على قُلوبِهم عَمًى؛ فلا يُبصِرونَ حُجَجَه عليهم، ولا يَهْتَدونَ إلى ما فيه مِن البيانِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤، ١٢٥].

---

= يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: أنَّ القُرآنَ نَفْسَه وَقرٌ في آذانِهم؛ لِقَولِه: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾: الرازيُّ، والبيضاويُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

قال الشوكاني: (﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ قال قَتادةُ: عَمُوا عن القرآنِ وصَمُّوا عنه. وقال السُّدِّيُّ: عَمِيَتْ قُلوبُهم عنه. والمعنَى: وهو عليهم ذو عَمًى، أوْ وُصِفَ بالمصدَرِ للمُبالَغةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٦).

قال الشنقيطي: (اللهُ جل وعلا يقولُ: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٠]، وفي بعضِ التَّفسيراتِ: تَكادُ أنوارُ القرآنِ تُعمي بقيَّةَ بصائرِهم، واللهُ يقولُ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾؛ لأنَّ النُّورَ السَّاطعَ الشَّديدَ يَقضي على البصرِ الأعشَى الضَّعيفِ). ((العذب النمير)) (٢/ ٢٣٥).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾.

أي: أولئك البُعَداءُ البُغَضاءُ كأنَّهم لِعَمَى قلوبِهم عن فَهمِ ما أُنْزِل في القرآنِ مِن حُجَجِه ومَواعِظِه، وعدمِ انتِفاعِهم به- يُنادَونَ مِن مَوضِعٍ بعيدٍ منهم، فهم لا يَسمَعونَ النِّداءَ، ولا يَفهَمونَه[1].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾.

أي: ولقد آتَيْنا مُوسى التَّوراةَ فاختَلَف قَومُه فيها؛ فآمَنَ بها بَعضُهم واتَّبَعوها، وآخَرونَ مِنهم لم يُؤمِنوا بها وأعرَضوا عنها، كما آمَنَ بكِتابِك قَومٌ، وكذَّبَ به قومٌ -يا مُحمَّدُ-؛ فلا تَحزَنْ مِن تكذيبِ المُشرِكينَ بما آتَيْناك مِنَ القُرآنِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

ممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: الثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وابن القيم، والقاسمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٦٤).

عن مجاهدٍ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ﴾ قال: (بعيدٍ مِن قلوبِهم). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥١).

وقيل: يُنادَونَ يومَ القيامةِ مِن مَكانٍ بعيدٍ منهم بأشنَعِ أسمائِهم. وممَّن حكى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ بنُ مُزاحِمٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ * وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: ولولا كَلِمةٌ سَبَقَت مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- بتأخيرِ العَذابِ إلى أجَلٍ مُسَمًّى، لأهلَكَهم اللهُ في الحالِ، وميَّزَ بيْنَ أهلِ الحَقِّ بنَجاتِهم، وأهلِ الباطِلِ بهَلاكِهم[1].

---

= (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿فِيهِ﴾ يعودُ إلى الكتابِ: البغويُّ، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والخازن، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى موسى عليه السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧).

قال أبو حيَّان في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ هود، الآية (١١٠): (والظَّاهرُ عَوْدُ الضَّميرِ فيه على الكِتابِ؛ لِقُرْبِه، ويجوزُ أنْ يَعودَ على موسَى عليه السَّلامُ. ويَلْزَمُ مِن الاختلافِ في أحَدِهما الاختلافُ في الآخَرِ). ((تفسير أبي حيان)) (٦/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٤، ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

والكلمةُ التي سبَقت هي تأخيرُ العذابِ إلى يومِ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٦) ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١).

وقال جلالُ الدينِ المحليُّ: (بتأخيرِ الحسابِ والجزاءِ للخَلائقِ إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٦).

والضَّميرُ في قولِه: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ قيل: يعودُ إلى قومِ موسى. وقيل: يعودُ إلى هذه الأُمَّةِ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٢٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ [الكهف: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

أي: وإنَّهم[1] .....

---

= قال ابن عاشور: (﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾... هذا مُتعلِّقٌ بالَّذين كذَّبوا بالقرآنِ مِن العربِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ﴾ يَقتضي أنَّ اللهَ أخَّر القضاءَ بيْنَهم وبيْنَ المؤمنينَ إلى أجَلٍ اقتَضَتْه حِكمتُه، فأمَّا قومُ موسى فقد قضَى بيْنَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٧، ٣١٨).

لكن قال ابن عثيمين: (المرادُ: القضاءُ التَّامُّ، فلا يُنافي هذا ما وقَع لآلِ فِرعونَ مِن الغرَقِ والهلاكِ لَمَّا كذَّبوا موسى). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٢).

(١) قال البيضاوي: (﴿وَإِنَّهُمْ ﴾: وإنَّ اليهودَ، أو: الَّذين لا يُؤمِنونَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣).

ممن اختارَ أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ ﴾ أي: المكذِّبينَ بالكتابِ، المبطلينَ من الذين اختلفوا فيه: ابن جرير، ومكي، وجلال الدين المحلي، ومحمد رشيد رضا، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٤١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين - سورة فصلت)) (ص: ٢٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١).

قال محمد رشيد رضا في نظير هذه الآية مِن سورةِ (هود) الآية (١١٠): (الظَّاهرُ أنَّ هذا في قومِ موسَى وكتابِهم التَّوراةِ، أيْ: إنَّهم لمُرْتَكِسونَ في شَكٍّ مِن أمرِ كِتابِهم، موقِعٍ في الرَّيْبِ والاضْطِرابِ، وذَهَب بعضُ كِبارِ المُفسِّرينَ إلى أنَّه في مُشركي مَكَّةَ وأمثالِهم الَّذينَ شكُّوا في القرآنِ، وهو خطأٌ ظاهرٌ في اللَّفظِ والمعنَى والسِّياقِ، وما في معنَى الآيةِ مِنَ السُّوَرِ الْأُخْرَى، وَمِثْلُهَا فِي سورةِ «حم السَّجْدَةِ فُصِّلَتْ» بنَصِّها، وفي معناها مِن سورةِ الشُّورى مَا يُفَسِّرُ =

لَفي شَكٍّ شَديدٍ منه[1]،.....

= الإجمالَ في هاتينِ الآيتيْنِ ويُفَصِّلُه). ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٣٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: كفَّار قريشٍ: القرطبيُّ، والنسفي، والخازن، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٧).

(١) قولُه: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ اختلَف فيه المفسِّرونَ؛ فممن اختار أن المرادَ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿مِّنْهُ﴾: الكتابُ، أي: التَّوراةُ: مقاتلِ بنِ سُلَيمانَ، وجلال الدين المحلي، وابنِ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٥).

قال الرَّسْعَنيُّ: (إن كان الضَّميرُ في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائدًا إلى قومِ موسى، فيكون الضَّميرُ في ﴿مِّنْهُ﴾ عائدًا إلى كتابِ موسى، ويكون ذلك حكايةَ حالٍ ماضيةٍ). ((تفسير الرسعني)) (٣/ ٢٤٥).

وقال القرطبي: (﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ إنْ حُمِلتْ على قومِ موسى، أي: لفي شكٍّ مِن كتابِ موسَى، فهم في شكٍّ مِن القرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١٠٤).

وقال ابن عطية: (﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ يحتملُ أن يعودَ على موسى، أو على كتابِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١).

وقيل: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أي: ممَّا قالوا فيه ﴿مُرِيبٍ﴾ أي: يَريبُهم قولُهم فيه ما قالوا؛ لأنَّهم قالوا بغيرِ ثَبَتٍ، وإنَّما قالوه ظَنًّا. قاله ابنُ جرير، وذكر ابنُ كثير أنَّه محتملٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٣، ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: القرآنُ: القرطبيُّ، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٣٨٢).

وقيل: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن صِدْقِك. وممَّن اختاره: البغوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٦٤).

وقيل: ﴿مِّنْهُ﴾ أي: مِن صِدقِك وكتابِك. وممَّن اختاره: الواحديُّ، وابن الجوزي، والرازي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير =

مُوقعٍ في القَلَقِ، ومُوجِبٍ للاضطِرابِ[١].

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا تقرَّر بما مضَى أنَّ المطيعَ ناجٍ، وتحرَّر أنَّ العاصيَ هالكٌ، كانت النَّتيجةُ مِن غيرِ تردُّدٍ: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾، كائنًا مَن كان[٢].

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ﴾.

أي: مَن عَمِل في الدُّنيا عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه؛ فثَوابُ ذلك العَمَلِ الصَّالحِ لِنَفْسِه، ونَفعُه له[٣].

كما قال تعالى: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ۞ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ﴾.

---

= الرازي)) (٢٧/ ٥٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩١).

وقيل: ﴿مِّنْهُ ﴾ أي: مِن العذابِ. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ -وقيده بقوله: (بعدَ البَعثِ)-، وابنُ أبي زَمَنين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٥٧).

وقال البِقاعي: (﴿مِّنْهُ ﴾ أي: القضاءِ يومَ الفَصلِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٠٩).

وقال ابن عاشور: (وأمَّا ضميرُ ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ فهو خاصٌّ بالمشركينَ الشَّاكِّينَ في البَعثِ، والشَّاكِّينَ في أنَّ اللهَ يَنصُرُ رسولَه والمؤمنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٨، ٢٧٩).

أي: ومَن عَمِل سُوءًا فعِقابُ إساءتِه على نَفْسِه، لا على غَيرِه[١].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيۡهِ كُفۡرُهُۥ﴾ [الروم: ٤٤].

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾.

أي: وما ربُّك -يا مُحمَّدُ- بظلَّامٍ لعِبادِه؛ فلا يُعاقِبُ أحَدًا بغَيرِ ذَنْبِه، أو يَزيدُ في سيِّئاتِه أو عِقابِه، أو يَنقُصُ مِن حَسَناتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ فَٱخۡتُلِفَ فِيهِ﴾ تَسليةُ المُصابِ بذِكْرِ المُشارِكِ له؛ لأنَّ الغَرَضَ مِن الإخبارِ بأنَّ اللهَ تعالى آتى موسى عليه السَّلامُ الكِتابَ فاختُلِفَ فيه: تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلى هذا فيَنبغي تسليةُ المُصابِ، ومِن ذلك تعزيةُ المصابِ بموتِ قريبٍ له أو صديقٍ -أي: تقويتُه على الصَّبرِ على المصيبةِ-، وتسليةُ المصابِ سُنَّةٌ؛ لِمَا في ذلك مِن رفْعِ أَلَمِ المصيبةِ عن أخيك المسلمِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ فيه حَثٌّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١١)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨١، ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٤).

فِعلِ الخَيرِ، وتَركِ الشَّرِّ، وانتِفاعُ العامِلينَ بأعمالِهم الحَسَنةِ، وضَرَرُهم بأعمالِهم السَّيِّئةِ[١]، فإذا علِم الإنسانُ أنَّ عمَلَه لِنَفْسِه فسوف يجتهدُ فيه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (هو أن يُوضَعَ الكَلامُ على غَيرِ مواضِعِه)؛ ففيه الرَّدُّ على مَن تعاطى تَفسيرَ القُرآنِ بما لا يَدُلُّ عليه جَوهَرُ اللَّفظِ، كما يَفعَلُه الباطِنيَّةُ والاتِّحاديَّةُ، والملاحِدةُ وغُلاةُ المتصَوِّفةِ[٣].

٢- جوازُ المُفاضَلةِ بيْنَ شيئينِ بيْنَهما مِن التَّباينِ أكثرُ ممَّا بيْنَ السَّماءِ والأرضِ؛ إفحامًا للخَصْمِ، والدَّليلُ: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾، وهذه فائدةٌ يُنْتَبَهُ لها: أنَّ المُفاضَلةَ بيْنَ شيئينِ -التَّفاوُتُ بيْنَهما ظاهرٌ- لا يُرادُ به المُقارَنةُ! ولكنْ يُرادُ به إفحامُ الخَصمِ[٤].

٣- قولُه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ فيه إثباتُ المشيئةِ للعبدِ؛ فيكونُ في ذلك رَدٌّ على الجَبْريَّةِ[٥].

٤- (افْعَلْ) صيغةُ أمرٍ، وقد تَرِدُ لغيرِ ذلك؛ كالتَّهديدِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٢٨). وعزا أثرَ ابنِ عبَّاسٍ لابنِ أبي حاتمٍ مِن طريقِ العَوْفي.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٩).

(٦) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٥٧٨)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٢٧).

٥- تخصيصُ الحُكمِ بما فيه النِّزاعُ، وإنْ كان الحُكمُ عامًّا فلَنا أنْ نُخَصِّصَ هذا الحُكمَ بمَحَلِّ النِّزاعِ؛ يُؤخَذُ هذا مِن تقديمِ المَعمولِ في ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، لا نقولُ: هذا الحَصرُ حقيقيٌّ؛ أنَّه لا يَعلَمُ عزَّ وجلَّ إلَّا بما عَمِلوا! بل يَعلَمُ كلَّ شيءٍ، لكنْ لَمَّا كان الكلامُ في عمَلِهم جاء الحُكمُ بصيغةِ الحَصرِ؛ مِن أجْلِ شِدَّةِ التَّحذيرِ، وأنَّهم لن يَفوتوا اللهَ عزَّ وجَلَّ. واللهُ أعلمُ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أنَّ مَن تَمَسَّك بالقرآنِ فله العِزَّةُ؛ وجْهُه: أنَّه إذا كان القرآنُ عزيزًا؛ فلا بُدَّ أنْ يَنالَ العِزَّةَ مَن تَمَسَّك به؛ وإلَّا لَكان القرآنُ غيرَ عزيزٍ! ويدُلُّ لهذا قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[2] [المنافقون: ٨].

٧- قَولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فيه أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ؛ وجْهُ كَونِه كلامَ اللهِ: أنَّ القُرآنَ صِفةٌ، ليس عَينًا مُستَقِلَّةً مُنفَصِلةً، فإذا كان صِفةً وذَكَرَ اللهُ أنَّه نَزَل منه، لَزِم أنْ يكونَ كلامَه، أمَّا لو كان الشَّيءُ الَّذي ذَكَرَ اللهُ أنَّه أنزَلَه: شَيئًا مُعَيَّنًا مُنفَصِلًا عن الله؛ فهذا لا يدُلُّ على أنَّه مِن صفاتِ اللهِ تعالى، كقَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ [الأنعام: ٩٩] هذا الماءُ مَخلوقٌ، وقَولِه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الزمر: ٦] الأنعامُ مخلوقةٌ؛ لأنَّها شَيءٌ مُنفَصِلٌ عن الله، وقَولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥] الحديدُ مَخلوقٌ[3].

٨- قوله تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ فيه أنَّ القرآنَ الكريمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٩). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٥ - ١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١١٧، ١١٨).

حقٌّ مُنْتَفٍ عنه الباطلُ مِن كلِّ وجهٍ، وهذه الصِّفةُ للقرآنِ مِن صِفاتِ النَّفيِ؛ وتضمَّنتْ بالإثباتِ أنَّه إذا انتفَى الباطلُ منه مِن كلِّ وجْهٍ مِن بيْنِ يديه ومِن خَلْفِه لَزِم مِن ذلك أنْ يكونَ حقًّا مِن كلِّ وجهٍ[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فيه سُؤالٌ: أمَا طَعَن في القُرآنِ الطَّاعِنونَ، وتأوَّلَه المُبطِلونَ؟

**الجوابُ**: أنَّ اللهَ تعالى حَماه عن تعلُّقِ الباطِلِ به بأن قيَّضَ قَومًا عارَضوهم بإبطالِ تأويلِهم، وإفسادِ أقاويلِهم، فلم يُخْلُوا طَعْنَ طاعِنٍ إلَّا مَمحوقًا، ولا قَولَ مُبطِلٍ إلَّا مُضمَحِلًّا، ونحوُ هذا قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[2] [الحجر: ٩].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّه سُبحانَه على خَلقِه، وأنَّ كلامَه نَزَلَ به الرُّوحُ الأمينُ مِن عندِه مِن أعلى مَكانٍ إلى رَسولِه[3].

١١- قولُه تعالى: ﴿حَكِيمٍ﴾ -بمعنى حاكمٍ- فيه أنَّه لا يجوزُ لأحدٍ أنْ يُشَرِّعَ شرعًا مِن عندِه؛ لأنَّ مِن الحُكْمِ الحُكْمَ بيْنَ النَّاسِ، فالحُكْمُ إمَّا أنْ يكونَ حُكْمًا في النَّاسِ أو أنْ يكونَ حُكْمًا بيْنَ الناسِ، فلا يجوزُ لأحدٍ أنْ يَحْكُمَ بيْنَ الناسِ إلَّا بما أنزَلَ اللهُ؛ لأنَّ الحُكْمَ لله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وليس لنا أنْ نَتجاوَزَ حَدَّ اللهِ عزَّ وجلَّ في الحُكْمِ على أحدٍ بالفسقِ أو البدعةِ أو الكفرِ أو الإيمانِ وصحَّةِ العقيدةِ إلَّا بدليلٍ مِن الشَّرعِ، يعني: إلَّا إذا عَرَضنا ما عليه على الكتابِ والسُّنَّةِ؛ وإلَّا: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٤٨، ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٥).

فِيهِنَّ ﴾[1] [المؤمنون: ٧١].

١٢- أنَّ اللهَ تعالى محمودٌ -بِناءً على أنَّ ﴿حَمِيدٍ﴾ اسمُ مفعولٍ-، واللهُ عزَّ وجلَّ يُحْمَدُ على كلِّ حالٍ، فعَلَى السَّرَّاءِ واضحٌ أنه يُحمَدُ؛ لأنَّه أحْسَنَ إليك ورَأَف بك، وأمَّا على الضَّرَّاءِ فيُحمَدُ؛ لأنَّه -لا شكَّ- ما قَدَّرَ هذا إلَّا لحكمةٍ، ولأنَّ ما يَتَرَتَّبُ على هذه الضَّرَّاءِ مِن المصالحِ العظيمةِ يَقتضي أنْ يُحْمَدَ اللهُ عليها[2].

١٣- أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجلَّ كاملُ العَدْلِ؛ بحيثُ يَحْمَدُ مَن يَستحقُّ الحمدَ، كما أنَّه يُحمَدُ؛ لأنَّه أهلٌ للحمدِ؛ وهذا بِناءً على أنَّ ﴿حَمِيدٍ﴾ بمعنى حامدٍ[3].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أنَّ هذا القُرآنَ مَثانٍ؛ فإذا ذُكِرَ فيه جانبُ التَّرغيبِ ذُكِرَ معه جانِبُ التَّرهيبِ؛ لئلَّا تَطمَعَ النَّفْسُ وتَغلوَ في الطَّمعِ فتأمَنَ مِن مَكْرِ اللهِ، ولِئلَّا يَخافَ فيَقنَطَ مِن رَحمةِ اللهِ، وعلى هذا فيَكونُ سَيرُه إلى اللهِ تعالى بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ؛ ولهذا قال الإمامُ أحمدُ رَحِمه اللهُ: «يَنبغي للسَّائرِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يكونَ خَوفُه ورجاؤُه واحِدًا، فأيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحِبُه»[4].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أنَّ الحُجَّةَ لا تقومُ حتَّى يَفْهَمَ الإنسانُ معنى هذه الحُجَّةِ؛ وأنَّ مُجرَّدَ البلاغِ لا يُعَدُّ حُجَّةً قائمةً حتَّى يَفْهَمَها مَن بَلَغَتْه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٥٦). ويُنظر أيضًا: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٩)، ((الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف)) للمرداوي (٦/ ١٠).

قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾[1] [إبراهيم: ٤].

١٦- قال الله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ﴾ هناك أمرٌ يَنبغي التَّفَطُّنُ له، وهو أنَّ الأذكارَ والآياتِ والأدعيةَ الَّتي يُستشفَى بها ويُرقَى بها: هي في نَفْسِها نافِعةٌ شافِيةٌ، ولكِنْ تَستدعي قَبولَ المحَلِّ، وقُوَّةَ هِمَّةِ الفاعِلِ وتأثيرِه؛ فمتى تخَلَّف الشِّفاءُ كان لِضَعفِ تأثيرِ الفاعِلِ، أو لعَدَمِ قَبولِ المُنفَعِلِ، أو لِمانعٍ قَويٍّ فيه يَمنَعُ أن يَنجَعَ فيه الدَّواءُ، كما يكونُ ذلك في الأدويةِ والأدواءِ الحِسِّيَّةِ؛ فإنَّ عَدَمَ تأثيرِها قد يكونُ لِعَدَمِ قَبولِ الطَّبيعةِ لذلك الدَّواءِ، وقد يكونُ لمانعٍ قَويٍّ يمنَعُ مِن اقتِضائِه أثَرَه؛ فإنَّ الطَّبيعةَ إذا أخَذَت الدَّواءَ بقَبولٍ تامٍّ كان انتِفاعُ البَدَنِ به بحَسَبِ ذلك القَبولِ، فكذلك القَلبُ إذا أخَذَ الرُّقَى والتَّعاويذَ بقَبولٍ تامٍّ، وكان للرَّاقي نَفْسٌ فَعَّالةٌ وهِمَّةٌ مُؤَثِّرةٌ في إزالةِ الدَّاءِ[2].

١٧- تَأمَّلْ إخبارَه سُبحانَه وتعالى عن القُرآنِ بأنَّه نَفْسَه شِفاءٌ ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ﴾، وقال عن العَسَلِ ﴿فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ﴾، وما كان نَفْسُه شِفاءً أبلَغُ مِمَّا جُعِلَ فيه شِفاءٌ[3]!

١٨- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ﴾ فيه أنَّ الإنسانَ كلَّما كان أقوَى إيمانًا كان أهدَى وأشفَى، وهنا قاعدةٌ مفيدةٌ مهمَّةٌ: أنَّ كلَّ حُكْمٍ مُرتَّبٍ على وَصْفٍ فإنَّه يَقْوى بقوَّةِ ذلك الوصفِ، ويَضعُفُ بضَعفِ ذلك الوصفِ[4].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٦٧).

﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ أنَّ الهُدَى في القرآنِ؛ مَنِ التَمَسَه في غيرِه أو في غيرِ ما أَمَر به ضَلَّ(١).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ الرَّدُّ على المُعتزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنكِرينَ أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى، وعلى زعمِهم أنَّ أفعالَ العِبادِ لا صُنْعَ لله فيها؛ لِذِكْرِ الوَقْرِ في آذانِ الكُفَّارِ، وتَحويلِ القرآنِ -الَّذي هو هُدًى للمُؤمِنينَ- عَمًى على الكافرينَ(٢).

٢١- قولُه تعالى: ﴿هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ فيه أنَّ القرآنَ شفاءٌ مِن أمراضِ القلوبِ، وأسقامِ الأبدانِ(٣).

٢٢- قولُه تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هذه رُبوبيَّةٌ خاصَّةٌ، وهي تُفيدُ عُلُوَّ مَنزِلةِ المَربوبِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وهناك رُبوبيَّةٌ عامَّةٌ، وقد اجتمعَتِ الرُّبوبيَّتانِ -العامَّةُ والخاصَّةُ- في قولِ السَّحَرةِ مِن آلِ فرعونَ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢١، ١٢٢]؛ الأُولى: «رَبِّ الْعَالَمِينَ» عامَّةٌ، والثَّانيةُ: خاصَّةٌ(٤).

٢٣- أنَّ اللهَ تعالى يُكَنِّي عن الشَّرِّ ببناءِ الفعلِ لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لقولِه: ﴿لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ ولم يَقُلْ: «لَقَضَى بينَهم»! وهذا هو المطَّرِدُ في القرآنِ والغالِبُ، وانظرْ إلى أَدَبِ الجِنِّ حيثُ قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾ [الجن: ١٠] أدَبٌ عالٍ؛ فقالوا في الشَّرِّ: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ولم يُضيفوه

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) للقصاب (٤/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧٥).

إلى اللهِ! وفي الرُّشْدِ قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ولم يقولوا: «أَمْ أُريدَ بهم رَشَدٌ»[١]!

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ أنَّ الإيمانَ يجبُ ألَّا يُخالِطَه شَكٌّ، وأنَّه إذا وَرَد على القَلبِ شَكٌّ -ولو يَسيرًا- بشَرطِ ألَّا يُدافِعَه، بل يَركَنُ إليه؛ فإنَّ هذا مُحبِطٌ للإيمانِ، أمَّا لو وَرَدَ الشَّكُّ على القَلبِ وطَرَدَه وجاهدَ نَفْسَه على دَفْعِه، فهذا لا يَضُرُّه؛ ولهذا أخبرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ النَّاسَ يتَساءلونَ مَن خَلَقَ كذا؟ مَن خَلَقَ كذا؟ حتَّى يقولوا: مَن خَلَقَ اللهَ؟ وهذا شكٌّ، ولكِنَّ الرَّسولَ أخبَرَ وقال: ((فإذا بَلَغَه فلْيَستَعِذْ باللهِ ولْيَنتَهِ))[٢]، وأخبرَه الصَّحابةُ أنَّهم يَجِدونَ في نُفوسِهم ما يتعاظَمُ أحدُهم أنْ يَتكلَّمَ به، فقال صلَّى الله عليه وسلَّم[٣]: ((ذاك صَريحُ الإيمانِ))[٤].

٢٥- الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ في قَولِهم: إنَّ الظُّلمَ في حقِّ اللهِ مُحالٌ، فقَولُه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ﴾ يُفيدُ أنَّ الظُّلمَ في حَقِّه مُمكِنٌ، وأنَّه ليس مُحالًا لِذاتِه في حَقِّ اللهِ، بل هو مُحالٌ لكَمالِ عَدْلِ اللهِ، وبهذا يَتحَقَّقُ المدْحُ -مدحُ اللهِ تعالى- بانتفاءِ الظُّلمِ عنه، أمَّا لو كان شَيئًا مُحالًا، فالمُحالُ لا يُمدَحُ به[٥].

٢٦- قوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيه إثباتُ العَدْلِ في أعلَى مقاماتِه؛ حيثُ قال: ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ أي: لِعَبيدِه، فمعَ قدرتِه عليهم، وكونِهم ملكَه وتحتَ تصرُّفِه لا يظلمُهم، فالإنسانُ إذا قيل له: أنت لا تظلِمُ عبيدَك. كان أبلغَ في إثباتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (١٣٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٠).

عدلِه مِن أنْ يُقالَ له: أنتَ لا تظلمُ النَّاسَ، وذلك لأنَّه لا سيطرةَ له عليهم[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآۗ أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

- قَولُهُ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ قُصِدَ به تَهديدُ الَّذين أهْمَلوا الاستِدلالَ بآياتِ اللهِ على تَوحيدِه[٢].

- وحَرْفُ ﴿فِيٓ﴾ مِن قَولِه: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ لِلظَّرفيَّةِ؛ لِإفادةِ تَمَكُّنِ إلْحادِهم حتَّى كَأنَّه مَظروفٌ في آياتِ اللهِ حيثما كانَتْ، أو كُلَّما سَمِعوها، ومَعنى نَفيِ خَفائِهم: نَفيُ خَفاءِ إلْحادِهم، لا خَفاءِ ذَواتِهم؛ إذْ لا غَرَضَ في العِلْمِ بذَواتِهم[٣].

- قَولُه: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ مُرادٌ به الكِنايةُ عنِ الوَعيدِ على التَّحريفِ؛ تَذكيرًا لهم بإحاطةِ عِلْمِ اللهِ بكُلِّ كائِنٍ[٤].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تَقريعٌ وتَقريرٌ، مُستَعمَلٌ في التَّنبيهِ على تَفاوُتِ المَرتَبتَيْنِ. وقيلَ: الاستِفهامُ لِلتَّقريرِ، كما يُقَرِّرُ المُناظِرُ خَصمَه على وَجهَيْنِ، أحَدُهما فاسِدٌ، يَرجو أنْ يَقَعَ في الفاسِدِ فيَتَّضِحَ جَهلُه[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ تَفريعٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦٩).

الوَعيدِ في قَولِه: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾؛ لِبَيانِ أنَّ الوَعيدَ بنارِ جَهنَّمَ تَعريضٌ بالمُشرِكينَ بأنَّهم صائِرونَ إلى النَّارِ، وبالمُؤمِنينَ بأنَّهم آمِنونَ مِن ذلك[١].

- ونُبِّهَ بقَولِه: ﴿يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ على مُستَقَرِّ الآمِنِ، وهو الجَنَّةُ، وبقَولِه: ﴿ءَامِنٗا﴾ على خَوفِ الكافِرِ، وطُولِ وَجَلِه[٢].

- وكُنِّيَ بقَولِه: ﴿يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ عن أنَّ ذلك الفَريقَ مَصيرُه الجَنَّةُ؛ إذْ لا غايةَ لِلآمِنِ إلَّا أنَّه في نَعيمٍ، وهذه كِنايةٌ تَعريضيَّةٌ بالَّذين يُلحِدونَ في آياتِ اللهِ[٣].

- قولُه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ لَمَّا تَقدَّمَ ذِكرُ الإلحادِ، ناسَبَ أنْ يَتَّصِلَ به مِنَ التَّقريرِ مَنِ اتَّصَفَ به، ولم يَكُنِ التَّركيبُ: أمْ مَنْ يَأتي آمِنًا يَومَ القيامةِ كمَن يُلقَى في النَّارِ، كما قَدَّمَ ما يُشبِهُه في قَولِه: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩]، وكما جاء في سُورةِ (القِتالِ): ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾[٤] [محمد: ١٤].

- وفي قولِه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قابَلَ الإلقاءَ في النَّارِ بالإتيانِ آمِنًا؛ مُبالَغةً في إحمادِ حالِ المُؤمِنينَ[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ خَيۡرٌ أَم مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ...﴾ الآيةَ، مِن الاحتِباكِ[٦]، حيثُ حُذِفَ مُقابِلُ: (مَن يُلقى في النَّارِ) وهو: مَن يَدخُلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢).

(٦) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

الجَنَّةَ، وحُذِفَ مُقابِلُ: ﴿مَّن يَأۡتِيٓ ءَامِنٗا﴾ وهو: مَن يأتي خائِفًا، وهم أهلُ النَّارِ؛ فذكَرَ الإلقاءَ في النَّارِ أوَّلًا دَليلًا على دُخولِ الجنَّةِ ثانيًا، والأمْنَ ثانيًا دليلًا على الخَوفِ أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذكَرَ المقصودَ بالذَّاتِ -وهو ما وقَعَ الخوفُ لأجْلِه- أوَّلًا، والأمْنَ -الَّذي هو العَيشُ في الحقيقةِ- ثانيًا[1].

- وجُملةُ ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ ...﴾ إلخ، كما دَلَّ عليه قَولُه عَقِبَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ [فصلت: ٤١] الآيةَ، أيْ: لا يَخفى علينا إلْحادُهم ولا غَيرُه مِن سَيِّئِ أعمالِهم، وإنَّما خُصَّ الإلحادُ بالذِّكرِ ابتِداءً؛ لِأنَّه أشنَعُ أعمالِهم، ومَصدَرُ أسوائِها[2].

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّهديدِ والوَعيدِ، أو في الإغراءِ المُكَنَّى به عنِ التَّهديدِ، وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وَعيدٌ بالعِقابِ على أعمالِهم على وَجهِ الكِنايةِ أيضًا، وتَوكيدُه بحَرفِ (إنَّ)؛ لِتَحقيقِ مَعنَيَيْه الكِنائيِّ والصَّريحِ، وهو تَحقيقُ إحاطةِ عِلْمِ اللهِ بأعمالِهم؛ لِأنَّهم كانوا شَاكِّينَ في ذلك[3].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، قدَّم أعمالَهم؛ تنبيهًا على الاهتمامِ بشأنِها جدًّا[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ * لَّا يَأۡتِيهِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٠).

ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ هو مِن ذِكرِ الخاصِّ بَعدَ العامِّ -فإلحادُهم في آياتِ القُرآنِ داخلٌ في عمومِ الإلحادِ في آياتِ اللهِ-؛ وذلك لِلتَّنويهِ بخِصالِ القُرآنِ، وأنَّه ليس بعُرضةٍ لِأنْ يُكفَرَ به، بلْ هو جَديرٌ بأنْ يُتَقبَّلَ بالاقتِداءِ والاهتِداءِ بهَدْيِه؛ فلِهذه الجُملةِ اتِّصالٌ في المَعنى بجُملةِ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصلت: ٤٠]، واتِّصالٌ في المَوقِعِ بجُملةِ ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ﴾[1] [فصلت: ٤٠].

- قولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ بَدَلٌ مِن قَولِه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ [فصلت: ٤٠]، وفي هذا الإبدالِ الإشعارُ بتَغليظِ مَن تَأوَّلَ القُرآنَ بالرَّأيِ الباطِلِ والهَوى الزَّائِغِ، وتَعظيمٌ لِشَأنِ القُرآنِ المَجيدِ، ونَعْيٌ على المُتَقاعِدينَ عنه، وتَسليةٌ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مَطاعِنِ القَومِ فيه؛ وذلك أنَّه تعالَى لَمَّا افتَتَحَ السُّورةَ بذِكرِ القُرآنِ المَجيدِ، وأنَّه آيةٌ عَظيمةٌ قاهِرةٌ، وعَقَّبَه بما بَيَّنَ عَجزَهم عنِ المُعارَضةِ بتِلكَ الشُّبهةِ الرَّكيكةِ؛ وهي أنَّ الرِّسالةَ مُنحَصِرةٌ على المَلائِكةِ لا تَتعدَّى إلى البَشَرِ، وذَكَر طَعنَهم فيه وقَولَهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت: ٢٦]، وذَيَّلَ المَعنى بوُجوهٍ مِنَ الاستِطراداتِ المُناسِبةِ؛ أتَى بنَوعٍ مِن مَطاعِنِهم، وهو الإلحادُ فيه؛ تَقريرًا لِلعَجزِ والانخِذالِ، وبَيانًا لِتَبكيتِهم عنِ الحُجَّةِ القاهِرةِ، وما يدُلُّ على أنَّ الإبدالَ لِلتَّعظيمِ وَضعُ قَولِه: ﴿بِٱلذِّكْرِ﴾ مَوضِعَ ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ وَضْعًا لِلمُظهَرِ مَوضِعَ المُضمَرِ مِن غَيرِ لَفظِه السَّابِقِ، وجَعلُه عِلَّةً لابتِناءِ أوصافِ الكَمالِ عليه ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ... ﴾ إلى آخِرِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٣).

- وقيل: الأظهَرُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡ ...﴾ إلخ واقِعةً مَوقِعَ التَّعليلِ لِلتَّهديدِ بالوَعيدِ في قَولِه: ﴿لَا يَخۡفَوۡنَ عَلَيۡنَآ﴾ [فصلت: ٤٠]، والمَعنى: لِأنَّهم جَديرونَ بالعُقوبةِ؛ إذْ كَفَروا بالآياتِ، وهيَ آيةُ القُرآنِ المُؤَيَّدِ بالحَقِّ، وبشَهادةِ ما أُوصيَ إلى الرُّسُلِ مِن قَولِه. ومَوقِعُ (إنَّ) مَوقِعُ فاءِ التَّعليلِ، وخَبَرُ (إنَّ) مَحذوفٌ، دَلَّ عليه سِياقُ الكَلامِ، والأحسَنُ أنْ يَكونَ تَقديرُه بما تدُلُّ عليه جُملةُ الحالِ مِن جَلالةِ الذِّكرِ ونَفاسَتِه؛ فيَكونَ التَّقديرُ: خَسِروا الدُّنيا والآخِرةَ، أو سَفِهوا أنْفُسَهم، أو نَحوَ ذلك مِمَّا تَذهَبُ إليه نَفْسُ السَّامِعِ البَليغِ؛ ففي هذا الحَذفِ تَوفيرٌ للمَعاني، وإيجازٌ في اللَّفظِ يَقومُ مَقامَ عِدَّةِ جُمَلٍ، وحَذفُ خَبَرِ (إنَّ) -إذا دَلَّ عليه دَليلٌ- وارِدٌ في الكَلامِ[1].

- وجملةُ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ مُفيدةٌ لِغايةِ شَناعةِ الكُفرِ بهِ[2].

- قولُه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ أيْ: لا يَتطَرَّقُ إليه الباطِلُ مِن جِهةٍ مِنَ الجِهاتِ، وهي صِفةٌ أُخرى لِـ (كِتابٌ)، وقولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ خَبرٌ لِمُبتَدأٍ مَحذوفٍ، أو صِفةٌ أُخرى لِـ (كِتابٌ) مُفيدةٌ لِفَخامَتِه الإضافيَّةِ، كما أنَّ الصِّفَتَيْنِ السَّابِقتَيْنِ مُفيدَتانِ لِفَخامَتِه الذَّاتيَّةِ، وقولُه تعالَى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ...﴾ إلخ، اعتِراضٌ عِندَ مَن لا يُجَوِّزُ تَقديمَ غَيرِ الصَّريحِ مِنَ الصِّفاتِ على الصَّريحِ، كُلُّ ذلك لِتَأكيدِ بُطلانِ الكُفرِ بالقُرآنِ[3].

- وقَولُه: ﴿تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ تَعليلٌ لاتِّصافِ الكِتابِ بالوَصفَيْنِ؛ فكَونُه حَكيمًا مُوجِبٌ لِأنْ يَكونَ مُنَزِّلُه مُحكِمًا مُتقِنًا رَصينًا يَغلِبُ ولا يُغلَبُ؛ فيَكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥، ١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ١٦).

عَزيزًا، وكَونُه حَميدًا يَستَدعي أنْ يَكونَ كَلامُه حَقًّا لا باطِلًا عَبَثًا، يَهدي النَّاسَ إلى النِّعمةِ العُظمى[1].

- وكذلك في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ * لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ أُجريَ على القُرآنِ سِتَّةُ أوصافٍ، ما منها واحِدٌ إلَّا وهو كَمالٌ عَظيمٌ: الوَصفُ الأوَّلُ: أنَّه ذِكرٌ، أيْ: يُذَكِّرُ النَّاسَ كُلَّهم بما يَغفُلونَ عنه مِمَّا في الغَفلةِ عنه فَواتُ فَوزِهم. الوَصفُ الثَّاني مِن مَعنى الذِّكرِ: أنَّه ذِكرٌ لِلعَرَبِ، وسُمعةٌ حَسَنةٌ لهم بيْنَ الأُمَمِ، يُخَلِّدُ لهم مَفخَرةً عَظيمةً. الوَصفُ الثَّالثُ: أنَّه كِتابٌ عَزيزٌ، والعَزيزُ: النَّفيسُ، وأصلُه مِنَ العِزَّةِ، وهي المَنَعةُ؛ لِأنَّ الشَّيءَ النَّفيسَ يُدافَعُ عنه ويُحمى عنِ النَّبذِ؛ فإنَّه بَيِّنُ الإتْقانِ وعُلُوِّ المَعاني ووُضوحِ الحُجَّةِ، ومِثلُ ذلك يَكونُ عَزيزًا، والعَزيزُ أيضًا: الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، وكذلك حُجَجُ القُرآنِ. الوَصفُ الرَّابِعُ: أنَّه لا يَتطَرَّقُه الباطِلُ، ولا يُخالِطُه صَريحُه ولا ضِمْنيُّه، أيْ: لا يَشتَمِلُ على الباطِلِ بحالٍ، فمُثِّل ذلك بـ ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، والمَقصودُ استيعابُ الجِهاتِ تَمثيلًا لِحالِ انتِفاءِ الباطِلِ عنه في ظاهِرِه وفي تَأويلِه بحالِ طَردِ المُهاجِمِ لِيَضُرَّ بشَخصٍ يَأتيه مِن بَينِ يَدَيْه؛ فإنْ صَدَّه خدَعه فأتاهُ مِن خَلفِه، فمَعنى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ لا يُوجَدُ فيه، ولا يُداخِلُه، وليس المُرادُ أنَّه لا يُدعَى عليه الباطِلُ. الوَصفُ الخامِسُ: أنَّه مُشتَمِلٌ على الحِكمةِ، وهي المَعرِفةُ الحَقيقيَّةُ؛ لِأنَّه تَنزيلٌ مِن حَكيمٍ، ولا يَصدُرُ عنِ الحَكيمِ إلَّا الحِكمةُ؛ فإنَّ كَلامَ الحَكيمِ يأتي مُحكَمًا مُتقَنًا رَصينًا لا يَشوبُه الباطِلُ. الوَصفُ السَّادِسُ: أنَّه تَنزيلٌ مِن حَميدٍ، والحميدُ هو المَحمودُ حمْدًا كَثيرًا، أي: مُستحِقُّ الحمْدِ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٣، ٦١٤).

الكثيرِ، فالكَلامُ المُنَزَّلُ منه يَستَحِقُّ الحَمدَ، وإنَّما يُحمَدُ الكَلامُ إذْ يَكونُ دَليلًا لِلخَيراتِ، وسائِقًا إليها، لا مَطعَنَ في لَفظِه ولا في مَعناه، فيَحمَدُه سامِعُه كَثيرًا؛ لِأنَّه يَجِدُه مَجلَبةً لِلخَيرِ الكَثيرِ، ويَحمَدُ قائِلَه لا مَحالةَ، خِلافًا لِلمُشرِكينَ. وفي إجْراءِ هذه الأوصافِ إيماءٌ إلى حَماقةِ الَّذين كَفَروا بهذا القُرآنِ، وسَفاهةِ آرائِهم؛ إذْ فَرَّطوا فيه ففَرَّطوا في أسبابِ فَوزِهم في الدُّنيا وفي الآخِرةِ؛ ولذلك جِيءَ بجُملةِ الحالِ مِنَ الكِتابِ عَقِبَ ذِكرِ تَكذيبِهم إيَّاهُ، فقالَ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ الآياتِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾

- قولُه: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابٌ لِسُؤالٍ يُثيرُه قَولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ﴾ [فصلت: ٤٠]، وقَولُه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ﴾ [فصلت: ٤١]، وما تَخَلَّلَ ذلك مِنَ الأوصافِ، فيَقولُ سائِلٌ: فما بالُ هؤلاء طَعَنوا فيه؟ فأُجِيبَ بأنَّ هذه سُنَّةُ الأنبياءِ معَ أُمَمِهم؛ لا يُعدَمونَ مُعانِدينَ جاحِدينَ يَكفُرونَ بما جاؤوا به، وهذا تَسليةٌ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطَريقِ الكِنايةِ، وأمْرٌ له بالصَّبرِ على ذلك كما صَبَرَ مَن قَبْلَه مِنَ الرُّسُلِ بطَريقِ التَّعريضِ[2].

- قولُه: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ لِهذا الكَلامِ تَفسيرانِ؛ أحَدُهما: أنَّ ما يَقولُه المُشرِكونَ في القُرآنِ والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٠).

دَأبُ أمثالِهِمُ المُعانِدينَ مِن قَبلِهم، فمَاصَدَقَ[١] ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ هو مَقالاتُ الَّذين كَذَّبوهم، أيْ: تَشابَهَتْ قُلوبُ المُكَذِّبينَ فكانَتْ مَقالاتُهم مُتَماثِلةً. التَّفسيرُ الثَّاني: ما قُلْنا لكَ إلَّا ما قُلْناه لِلرُّسُلِ مِن قَبلِكَ، فأنتَ لم تَكُنْ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ، فيَكونَ لِقَومِكَ بَعضُ العُذرِ في التَّكذيبِ، ولكِنَّهم كَذَّبوا كما كَذَّبَ الَّذين مِن قَبلِهم، فمَاصَدَقَ ﴿مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ﴾ هو الدِّينُ والوَحيُ، وكِلا المَعنَيَيْنِ واردٌ في القُرآنِ؛ فيُحمَلُ الكَلامُ على كِلَيْهما، وفي التَّعبيرِ بـ (مَا) المَوصولةِ، وفي حَذفِ فاعِلِ القَولَيْنِ في قَولِه: ﴿مَّا يُقَالُ﴾ وقَولِه: ﴿مَا قَدْ قِيلَ﴾؛ نَظمٌ مَتينٌ حَمَّلَ الكَلامَ هذَيْنِ المَعنَيَيْنِ العَظيمَيْنِ[٢].

- واجتِلابُ المُضارِعِ ﴿يُقَالُ﴾؛ لِإفادةِ تَجَدُّدِ هذا القَولِ منهم، وعَدَمِ ارعِوائِهم عنه، مع ظُهورِ ما شَأنُه أنْ يَصُدَّهم عن ذلك، واقتِرانُ الفِعلِ بـ (قَدْ)؛ لِتَحقيقِ أنَّه قد قيلَ لِلرُّسُلِ مِثلُ ما قالَ المُشرِكونَ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهو تَأكيدٌ لِلازِمِ الخَبَرِ، وهو لُزومُ الصَّبرِ على قَولِهم، وهو مَنظورٌ فيه إلى حالِ المَردودِ عليهم؛ إذْ حَسِبوا أنَّهم جابَهوا الرَّسولَ بما لم يَخطُرْ بِبالِ غَيرِهم[٣].

- وفي قَولِه: ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، والمَعنى: إلَّا مِثلُ ما قد قيلَ لِلرُّسُلِ[٤].

- وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ تَسليةٌ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) الماصَدَق -عند المناطقةِ-: الأفرادُ الَّتي يتحقَّقُ فيها معنى الكلِّيِّ، ويقابلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصِّفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كلِّيٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وسلَّمَ، ووَعدٌ بأنَّ اللهَ يَغفِرُ له، كما أنَّ فيه تَهديدًا بالعِقابِ لِلمُكَذِّبينَ، ووُقوعُ هذا الخَبَرِ عَقِبَ قَولِه: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ﴾ يُومِئُ إلى أنَّ هذا الوَعدَ جَزاءٌ على ما لَقيَه مِنَ الأذَى في ذاتِ اللهِ، وأنَّ الوَعيدَ لِلَّذينَ آذَوْه، وحَرفُ (إنَّ) فيه لِإفادةِ التَّعليلِ والتَّسَبُّبِ، لا لِلتَّأكيدِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فيه التَّرجِئةُ بالغُفرانِ، والزَّجْرُ بالعِقابِ، وهو وَعظٌ وتَهديدٌ[٢].

- وكَلِمةُ (ذو) مُؤذِنةٌ بأنَّ المَغفِرةَ والعِقابَ كِلَيْهما مِن شَأنِه تَعالى، وهو يَضَعُهما بحِكمَتِه في المَواضِعِ المُستَحَقَّةِ لِكُلٍّ منهما[٣].

- ووَصْفُ العِقابِ بأنَّه أليمٌ دُونَ وَصفٍ آخَرَ؛ لِلإشارةِ إلى أنَّه مُناسِبٌ لِمَا عُوقِبوا لِأجْلِه؛ فإنَّهم آلَموا نَفْسَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما عَصَوْا وآذَوْا[٤].

- في قَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ مُحَسِّنُ الجَمْعِ ثم التَّقسيمِ؛ فقَولُه: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ ﴾ يَجمَعُ قائِلًا ومَقولًا له، فكانَ الإيماءُ بوَصْفِ (ذو مَغفِرةٍ) إلى المَقولِ له، ووَصْفِ (ذو عِقابٍ أليمٍ) إلى القائِلينَ، وهو جارٍ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المَعكوسِ[٥]، وقَرينةُ المَقامِ تَرُدُّ كُلًّا إلى مُناسِبِه[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ١٠٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١١).

عَمًى أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ﴾

- اتِّصالُ نظْمِ الكلامِ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا وتناسُبِ تَنقُّلاتِه بالتَّفريعِ والبيانِ والاعتراضِ والاستطرادِ يَقتضي أنَّ قولَه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ ...﴾ إلى آخِرِه تَنَقُّلٌ في دَرَجِ إثباتِ أنَّ قَصدَ الكافِرينَ العِنادُ فيما يَتَعَلَّلونَ به؛ لِيُواجِهوا إعراضَهم عن القُرآنِ والانتِفاعِ بهَدْيِه بما يَختَلِقونَه عليه مِنَ الطَّعنِ فيه، والتَّكذيبِ به، وتَكَلُّفِ الأعذارِ الباطِلةِ؛ لِيَتَسَتَّروا بذلك مِنَ الظُّهورِ في مَظهَرِ المُنهَزِمِ المَحجوجِ، فأخَذَ يَنقُضُ دَعاويَهم عُرْوةً عُروةً، وإذْ قد كانتِ المُجادَلاتُ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا إبطالًا لِتَعلُّلاتِهم، وكان عِمادُه على أنَّ القُرآنَ عَرَبيٌّ مُفَصَّلُ الدَّلالةِ المَعروفةِ في لُغَتِهم حَسبَما ابتُدِئَ الكَلامُ بقَولِه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، وانتَهى هنا بقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]؛ فقد نَهَضتِ الحُجَّةُ عليهم، بدَلالَتِه على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن هذه الجِهةِ، فانتَقَلَ إلى حُجَّةٍ أُخرى عِمادُها الفَرضُ والتَّقديرُ أنْ يَكونَ قد جاءَهمُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بقُرآنٍ مِن لُغةٍ أُخرى غَيرِ لُغةِ العَرَبِ؛ ولِذلك فجُملةُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]. ومَعنى الآيةِ مُتفَرِّعٌ على ما يَتضَمَّنُه قَولُه: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٣]، وقَولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠]، مِنَ التَّحدِّي بصِفةِ الأُمِّيَّةِ، أيْ: لو جِئْناهم بلَونٍ آخَرَ مِن مُعجِزةِ الأُمِّيَّةِ، فأنزَلْنا على الرَّسولِ قُرآنًا أعجَميًّا، وليس لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِلْمٌ بتلك اللُّغةِ مِن قَبلُ؛ لَقَلَبوا مَعاذيرَهم، فقالوا: لَولا بُيِّنَتْ

آياتُه بلُغةٍ نَفهَمُها، وكيف يُخاطِبُنا بكَلامٍ أعجَميٍّ؟! فالكَلامُ جارٍ على طَريقةِ الفَرْضِ، كما هو مُقتَضى حَرفِ (لَوْ) الامتِناعيَّةِ. وهذا إبانةٌ على أنَّ هؤلاءِ القَومَ لا تُجْدي معهمُ الحُجَّةُ، ولا يَنقَطِعونَ عنِ المَعاذيرِ؛ لأنَّ جِدالَهم لا يُريدونَ به تَطَلُّبَ الحَقِّ، وما هو إلَّا تَعَنُّتٌ لِتَرويجِ هواهم(١).

- وقيل: قولُه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لِلرَّدِّ على تَساؤُلِهم: هلَّا أُنزِلَ القُرآنُ بلُغةِ العَجَمِ(٢)؟

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ إنكاريٌّ مُقرِّرٌ للتَّخصيصِ(٣).

- وأُفْرِد ﴿وَعَرَبِىٌّ﴾ على تَأويلِه بجِنسِ السَّامِعِ، والمَعنى: أكِتابٌ أعجميٌّ لِسامِعينَ عَرَبٍ؟! فكانَ حَقُّ (عَرَبيٌّ) أنْ يُجمَعَ، ولكِنَّه أُفرِدَ؛ لِأنَّ مَبنى الإنكارِ على تَنافُرِ حالَتَيِ الكِتابِ والمُرسَلِ إليهم، فاعتُبِرَ فيه الجِنسُ دُونَ أنْ يُنظَرَ إلى إفرادٍ أو جَمْعٍ(٤). وأيضًا في قَولِه: ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ طِباقٌ بَديعٌ(٥)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١١، ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٢، ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٢).

(٥) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِنَ الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. =

يَحتَمِلُ مَعنَيَيْنِ؛ أوَّلُهما: أنَّ الإنكارَ واقِعٌ على كَونِ القُرآنِ أعجَميًّا والرَّسولِ عَربيًّا. وثانيهما: أنَّ القُرآنَ أعجَميٌّ والمُرسَلَ إليهم أو إليه عَرَبيٌّ[1].

- وياءُ (أعجَميٌّ) في قولِه: ﴿ءَاعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ لم تُبْنَ الكَلِمةُ عليها، تَقولُ العَرَبُ: رَجُلٌ أعجَمُ، ورَجُلٌ أعجَميٌّ؛ فالياءُ لِلنِّسبةِ الدَّالَّةِ على المُبالَغةِ في الصِّفةِ، نَحوَ: أحمَريٌّ دَوَّاريٌّ، مُبالَغةً في أحمَرَ ودَوَّارٍ[2]. وحاصِلُ مَعنى الآيةِ أنَّها تُؤذِنُ بكَلامٍ مُقَدَّرٍ داخِلٍ في صِفاتِ الذِّكْرِ، وهو أنَّه بلِسانٍ عَرَبيٍّ بلُغَتِكم؛ إتمامًا لِهَديكم، فلمْ تُؤمِنوا به وكَفَرتُم وتَعَلَّلتُم بالتَّعلُّلاتِ الباطِلةِ، فلو جَعَلْناه أعجَميًّا لَقُلتُم: هَلَّا بُيِّنَتَ آياتُه لنا حتَّى نَفهَمَه[3]؟!

- وقولُه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ جوابٌ تَضمَّنَه قولُه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، أي: ما يُقالُ مِن

---

= ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةً، فتَبدو المطابقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧ - ٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٥).

الطَّعْنِ في القرآنِ، فجوابُه: أنَّ ذلك الذِّكرَ أو الكِتابَ للَّذين آمَنوا هُدًى وشِفاءٌ، أي: أنَّ تلك الخِصالَ العظيمةَ للقُرآنِ حَرَمَهم كُفْرُهم الانتفاعَ بها، وانتفَعَ بها المؤمِنونَ، فكان لهم هَدْيًا وشِفاءً. وهذا ناظرٌ إلى ما حَكاهُ عنهم مِن قولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، فهو إلزامٌ لهم بحُكْمِهم على أنفُسِهم[١].

- وفي قَولِه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ؛ جَعَل القُرآنَ نَفْسَ الهُدى ونَفْسَ الشِّفاءِ، يَهديهم إلى سُبُلِ الرَّشادِ، ويَشْفيهم مِن أوْصابِ الجُنونِ والالتياثِ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ ...﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾؛ فهي مُستَأنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا، أيْ: وأمَّا الَّذين لا يُؤمِنونَ فلا تَتَخلَّلُ آياتُه نُفوسَهم؛ لِأنَّهم كَمَن في آذانِهم وَقْرٌ دُونَ سَماعِه، وهو ما تَقدَّمَ في حِكايةِ قَولِهم: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، ولِهذا الاعتِبارِ كان مَعنى الجُملةِ مُتَعلِّقًا بأحوالِ القُرآنِ مع الفَريقِ غَيرِ المُؤمِنِ، مِن غَيرِ تَكَلُّفٍ لِتَقديرِ جَعْلِ الجُملةِ خَبَرًا عنِ القُرآنِ. ويَجوزُ أنْ تَكونَ الجُملةُ خَبَرًا ثانيًا عن ضَميرِ الذِّكرِ، أيْ: القُرآنِ؛ فتكونَ مِن مَقولِ القَولِ، وكذلك جُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾[٣].

- والإخبارُ عن القُرآنِ بأنَّه ﴿وَقۡرٞ﴾ و﴿عَمًى﴾ تَشْبيهٌ بَليغٌ، ووَجْهُ الشَّبَهِ هو عَدَمُ الانتِفاعِ به مع سَماعِ ألفاظِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٥، ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١٦).

- وفي قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ أخبرَ أنَّه ﴿عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ يَمنَعُهم مِن إبصارِ حِكمَتِه، والنَّظَرِ في مَعانيهِ، والتَّقريرِ لِآياتِه، وجاءَ بلَفظِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ الدَّالِّ على استِيلاءِ العَمَى عليهم، وجاءَ في حَقِّ المُؤمِنينَ باللَّامِ الدَّالَّةِ على الاختِصاصِ ﴿هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ ضَميرُ (هُوَ) ضَميرَ شَأنٍ؛ تَنبيهًا على فَظاعةِ ضَلالِهم، وجُملةُ ﴿عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ خَبَرَ ضَميرِ الشَّأنِ، أيْ: وأعظَمُ مِنَ الوَقرِ أنَّ علَيهم عَمًى، أيْ: على أبصارِهم عَمًى[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًى﴾ مِن الاحتِباكِ[3]؛ حيثُ ذكَرَ الهُدى والشِّفاءَ أوَّلًا دَليلًا على الضَّلالِ والدَّاءِ ثانيًا، وذَكَر الوَقْرَ والعَمى ثانيًا دَليلًا على السَّمْعِ والبصائرِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: أنَّه ذكَرَ أمدَحَ صِفاتِ المؤمنينَ، وأذَمَّ صِفاتِ الكافرينَ؛ لأنَّه لا أحقَرَ مِن أصَمَّ أعْمَى[4].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ إشارةٌ إلى ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ...﴾؛ لِقَصدِ التَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم بَعدَ تلك الأوصافِ أحْرياءُ بما سَيُذكَرُ بَعدَها مِنَ الحُكمِ مِن أجْلِها، وما في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ مع قُربِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ لِلإيذانِ ببُعدِ مَنزِلَتِه في الشَّرِّ، معَ ما فيه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٠٧).

مِن كَمالِ المُناسَبةِ لِلنِّداءِ مِن بَعيدٍ[١].

- وفي قَولِه: ﴿يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ تَمثيلٌ لِحالِ إعراضِ الكَافِرينَ عنِ الدَّعوةِ عِندَ سَماعِها، بحالِ مَن يُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ لا يَبلُغُ إليه في مِثلِه صَوتُ المُنادي، يَعني: أنَّهم لا يَقبَلونَ الهُدَى، ولا يُرْعُونَه أسماعَهم، فمَثَلُهم في ذلك مَثَلُ مَن يُصَيَّحُ به مِن مَسافةٍ شاطَّةٍ لا يُسمَعُ مِن مِثلِها الصَّوتُ، فلا يَسمَعُ النِّداءَ، وتَقولُ العَرَبُ لِمَن لا يَفهَمُ: أنتَ تُنادَى مِن مَكانٍ بَعيدٍ، أيْ: كأنَّه يُنادَى مِن مَوضِعٍ بَعيدٍ، فهو لا يَسمَعُ النِّداءَ ولا يَفهَمُه[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ؛ مَسوقٌ لِبَيانِ أنَّ الاختِلافَ في شَأنِ الكُتُبِ عادةٌ قَديمةٌ لِلأُمَمِ، غَيرُ مُختَصٍّ بقَومِكَ[٣]. وهو اعتراضٌ بتَسليةٍ لِلنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَكذيبِ المُشرِكينَ وكُفرِهم بالقُرآنِ بأنَّه ليس بأوحَدَ في ذلك؛ فقد أُوتيَ مُوسى التَّوراةَ، فاختَلَف الَّذين دَعاهم في ذلك؛ فمِنهم مَن آمَنَ به، ومنهم مَن كَفَر[٤].

- قولُه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ الكَلِمةُ السَّابِقةُ هي العِدَةُ بالقِيامةِ، وأنَّ الخُصوماتِ تُفصَلُ في ذلك اليَومِ، وهذا إشارةٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٦، ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٧).

أنَّ هذا القَولَ وارِدٌ على سَبيلِ التَّخَلُّصِ إلى ذِكرِ القِيامةِ، وهو قولُه تعالَى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، والتَّسليةِ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنِ اختِلافِ قَومِه في القُرآنِ، وطَعنِ الطَّاعِنينَ المُتَعنِّتينَ فيه؛ ولذلك أُتيَ بذِكرِ مُوسى عليه السَّلامُ واختِلافِ قَومِه في كِتابِه[1].

- التَّعبيرُ عنِ الجَلالةِ بلَفظِ ﴿رَّبِّكَ﴾ في قولِه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾؛ لِمَا في مَعنى الرَّبِّ مِنَ الرَّأفةِ به، والانتِصارِ له، ولِمَا في الإضافةِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ التَّشريفِ، وكِلا الأمْرَيْنِ تَعزيزٌ لِلتَّسليةِ. ويجوزُ جَعْلُ كَلِمةِ (بَينَ) دالَّةً على أُخرى مُقَدَّرةٍ، على سَبيلِ إيجازِ الحَذفِ، والتَّقديرُ: بيْنَهم وبيْنَ المُؤمِنينَ، أيْ: بما يَظهَرُ به انتِصارُ المُؤمِنينَ؛ فإنَّه يَكثُرُ أنْ يُقالَ: بيْنَ كذا وبيْنَ كذا[2].

- وفي قولِه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَه هنا هكذا، وقاله في سُورةِ (الشُّورى): ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: ١٤] بزِيادةِ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾؛ لِمُوافقَتِه هناك في (الشُّورَى) لسِياقِ الآيةِ، حيثُ قال في أوَّلِها: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾، أي: القرآنُ والآياتُ الَّتي أوقعتِ العِلمَ بصِحَّةِ ما جاءَ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ و(مِن) لابتداءِ الغايةِ؛ فلمَّا ذَكَر مَبدَأَ كُفرِ الَّذين تَفَرَّقوا في الدِّينِ، وهو مَجِيءُ العِلْمِ بالتَّوحيدِ؛ حَسُنَ ذِكرُ النِّهايةِ الَّتي أُمْهِلوا

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٣١٨).

إليها؛ ليكُونَ محدودًا مِنَ الطَّرَفَيْنِ، بخِلافِ ما هنا في سُورةِ (فُصِّلت)[١].

- و﴿مُرِيبٍ﴾ تأكيدٌ لمعنَى ﴿لَفِي شَكٍّ﴾، والمُريبُ: المُوقِعُ في الرَّيبِ، وهو مرادفُ الشَّكِّ، فوصفُ الشكِّ بالمُريبِ مِن تأكيدِ ماهيَّتِه، ولإفادةِ المبالغةِ، كقولِهم: شعرٌ شاعرٌ، وليلٌ أليلُ، أو ليلٌ داجٍ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ مِن مُكَمِّلاتِ التَّسليةِ، ومِن مُناسَباتِ ذِكرِ الأجَلِ المُسَمَّى، وفيه مَعنى التَّذييلِ؛ لِأنَّ ﴿مَّنْ﴾ في المَوضِعَيْنِ مُفيدةٌ لِلعُمومِ، سَواءٌ اعتُبِرتْ شَرطيَّةً أو مَوصولةً، والمَعنى: أنَّ الإمهالَ إعذارٌ لهم؛ لِيَتَدارَكوا أمْرَهم[٣].

- وحَرفُ (على) مُؤذِنٌ بمُؤاخَذةٍ، وتَحَمُّلِ أعباءٍ، كما أنَّ اللَّامَ في قَولِه: ﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ مُؤذِنٌ بالعَطاءِ[٤].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والتَّعبيرُ عنِ الجَلالةِ بلَفظِ ﴿رَبُّكَ﴾؛ لِمَا في مَعنى الرَّبِّ مِنَ الرَّأفةِ به، والانتِصارِ له، ولِمَا في الإضافةِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِنَ التَّشريفِ، وكِلا الأمْرَيْنِ تَعزيزٌ لِلتَّسليةِ[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقَرِّرٌ لِمَضمونِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل)) للإسكافي (ص: ١١٥١)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٦، ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٩٨) و(٢٤/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١٨، ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٤/ ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما قَبْلَه[١].

- وجاءت صِيغةُ المُبالَغةِ ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ -مع أنَّ نفْيَ المُبالَغةِ لا يَستلزِمُ نفْيَ الفِعلِ مِن أصلِه، والمرادُ بنَفْيِ المُبالَغةِ هو نفْيُ الظُّلْمِ مِن أصلِه-؛ لكَثرةِ العَبيدِ؛ فاللهُ جلَّ وعلَا نفَى ظُلْمَه للعبيدِ، والعبيدُ في غايةِ الكثرةِ، والظُّلمُ المنفيُّ عنهم تَستلزِمُ كَثْرتُهم كَثْرتَه؛ فناسَب ذلك الإتيانُ بصِيغةِ المُبالَغةِ؛ للدَّلالةِ على كَثرةِ المَنفيِّ التَّابعةِ لكَثرةِ العبيدِ المنفيِّ عنهم الظُّلمُ؛ إذ لو وقَع على كلِّ عبدٍ ظُلمٌ، ولو قليلًا، كان مجموعُ ذلك الظُّلْمِ في غايةِ الكَثرةِ؛ فالمرادُ بذلك نفْيُ أصْلِ الظُّلمِ عن كُلِّ عَبدٍ مِن أولئك العَبيدِ، الَّذين هم في غايةِ الكثرة، سُبحانَه وتعالى عن أنْ يَظلِمَ أحدًا شيئًا[٢].

وقيل: نفْيُ صِيغةِ المُبالَغةِ إذا دلَّتْ أدِلَّةٌ مُنفصِلةٌ على أنَّ المُرادَ به نفْيُ أصْلِ الفِعلِ؛ فلا إشكالَ؛ لقِيامِ الدَّليلِ على المرادِ، والآياتُ الدَّالَّةُ على نفْيِ الظُّلمِ مِن أصلِه عن اللهِ تعالى كثيرةٌ معروفةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ...﴾ [النساء: ٤٠]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وغيرِ ذلك من الآياتِ. أو يكون المسَوِّغُ لصِيغةِ المُبالَغةِ أنَّ عذابَه تعالَى بالغٌ مِن العِظَمِ والشِّدَّةِ أنَّه لولا استِحقاقُ المعذَّبينَ لذلك العذابِ بكُفرِهم ومَعاصيهم لَكان مُعذِّبُهم به ظَلَّامًا بليغَ الظُّلمِ مُتفاقِمَه، سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلوًّا كَبيرًا. أو يكون المرادُ بالنَّفيِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ نفْيَ نِسبةِ الظُّلمِ إليه؛ لأنَّ صِيغةَ (فَعَّال) تُستعمَلُ مُرادًا بها النِّسبةُ؛ فتُغْني عن ياءِ النَّسبِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٢١) و(٦/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣).

رَبُّكَ بذِي ظُلمٍ للعَبيدِ[١]. وقيل: صِيغةُ المُبالَغةِ (ظلَّام) تَقْتضي بظاهِرِها نَفْيَ الظُّلمِ الشَّديدِ، والمقصودُ: أنَّ الظُّلمَ مِن حَيثُ هو ظُلْمٌ أمْرٌ شَديدٌ؛ فصِيغَتْ له زِنَةُ المُبالَغةِ[٢]. وقيل غيرُ ذلك[٣].

- وعبَّر بـ(عبيد) دونَ (عباد)؛ لأنَّه موضعُ إشفاقٍ وإعلامٍ بضَعفٍ وعدَمِ قُدرةٍ على انتصارٍ، و(عباد) يدُلُّ على طاعةٍ وعدمِ حقارةٍ، بل إكرامٍ، هذا أغلبُ الاستعمالِ[٤].

وقيل: مدلولُ (عبيد) هو مدلولُ (عباد) سواءٌ، وحَسُنَ مجيءُ (عبيد) هنا لتَواخي الفواصلِ، ألَا ترى أنَّ قبْلَه ﴿بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وبعدَه: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾[٥] [فصلت: ٤٧].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ١١٧، ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٤٧٠، ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٧٤، ٢٧٥).

## الآيات (٤٧-٥١)

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ﴿٥١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَكۡمَامِهَا﴾: أي: أوعِيَتِها، وأصلُ (كمم): يدُلُّ على غِشاءٍ وغِطاءٍ[1].

﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾: أي: أعلَمْناك، وأصلُ (أذن): يدُلُّ على عِلمٍ[2].

﴿مَّحِيصٖ﴾: أي: مَهرَبٍ، وأصلُ (حيص): يدُلُّ على المَيلِ في جَورٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

﴿لَّا يَسْـَٔمُ﴾: أي: لا يملُّ، والسَّآمةُ: الملَلُ والضَّجرُ[١].

﴿فَيَـُٔوسٌ﴾: أي: يائِسٌ مِنَ الرَّحمةِ، وأصلُ اليأسِ: انتِفاءُ الطَّمَعِ[٢].

﴿قَنُوطٌ﴾: القُنوطُ: اليأسُ مِن الخَيرِ، وقيل: أتمُّ اليأسِ، وقيل: أشَدُّ اليأْسِ، وقيل: القُنوطُ أنْ يَظْهَرَ آثارُ اليأسِ في الوجهِ والأحوالِ الظَّاهرةِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأسِ مِن الشَّيءِ[٣].

﴿ضَرَّآءَ﴾: أي: شِدَّةٍ وبَلاءٍ وضُرٍّ، والضَّرَّاءُ كذلك: سوءُ الحالِ، والفَقْرُ والقَحْطُ. والضُّرُّ: خِلافُ النَّفْعِ[٤].

﴿وَنَـَٔا﴾: أي: تَباعَدَ، وأصلُ النَّأيِ: يدُلُّ على البُعدِ[٥].

﴿بِجَانِبِهِۦ﴾: أي: بنَفْسِه وناحِيَتِه، وأصلُ (جنب): يدُلُّ على ناحيةٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٣٨)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٣٦٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٣٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٣، ٥٠٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢، ١٢٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، =

﴿عَرِيضٍ﴾: أي: كَثيرٍ، والعَرَبُ تَستَعمِلُ الطُّولَ والعَرْضَ في الكَثرةِ، يُقالُ: أطالَ فُلانٌ الكَلامَ والدُّعاءَ وأعرَضَ، أي: أكثَرَ، وأصلُ (عرض): يدُلُّ على خِلافِ الطُّولِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى انفرادَه بعِلمِ وقتِ قيامِ السَّاعةِ، ويُقرِّرُ سَعةَ عِلمِه وإحاطتَه، فيقولُ: إلى اللهِ وَحْدَه يُرجَعُ عِلمُ القيامةِ، فلا يَعلَمُ وَقتَها غَيرُه سُبحانَه، وما تَخرُجُ ثَمرةٌ مِن الثَّمَراتِ مِن أوعِيَتِها إلَّا هو يَعلَمُها سُبحانَه، وما تَحمِلُ أُنثى حَملًا ولا تَضَعُه إلَّا بعِلمِ اللهِ سُبحانَه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه مشهدًا مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، فيه يَتبرَّأُ المشركونَ مِن آلهتِهم، فيقولُ: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم تَزعُمونَهم؟! فأجاب المُشرِكونَ رَبَّهم: أعلَمْناك اليَومَ رَبَّنا أنْ ليس مِنَّا مَن يَشهَدُ أنَّ لك شَريكًا! وغاب عن المُشرِكينَ يَومَ القيامةِ آلِهتُهم الَّتي كانوا يَدْعُونَها في الدُّنيا، فلم يَنفَعوهم بشَيءٍ، وظَنُّوا أنَّهم لا فِرارَ ولا مَهْرَبَ لهم مِن عَذابِ اللهِ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى أحوالَ الإنسانِ في الشِّدَّةِ والرَّخاءِ: لا يَمَلُّ الإنسانُ مِن سُؤالِ رَبِّه خَيرًا مِن مالٍ وصِحَّةٍ وغَيرِ ذلك، وإنْ أصابَه شَرٌّ ما فهو يَؤُوسٌ قَنوطٌ مِن رَحمةِ رَبِّه، ولَئِنْ أنعَمْنا عليه بنِعمةٍ بعدَ الشِّدَّةِ والضُّرِّ الَّذي أصابه لَيَقولَنَّ بغُرورٍ: أنا أهلٌ لهذا الخَيرِ مُستَحِقٌّ له، وما أظُنُّ القيامةَ تَقومُ، وعلى فَرْضِ قيامِ

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٧).

القيامةِ ورُجوعي إلى اللهِ فسَيُدخِلُني الجنَّةَ! فلَنُخبِرَنَّ يومَ القيامةِ أولئك الكافِرينَ بما عَمِلوه في الدُّنيا، ولَنُذيقَنَّهم مِن عذابٍ شَديدٍ.

وإذا أنعَمْنا على الإنسانِ بنِعمةٍ ما أعرَض عن عبادةِ رَبِّه وشُكْرِه تعالى، وتكبَّرَ عن الانقيادِ إلى رَبِّه، وإذا أصابه شَرٌّ ما فهو ذو دُعاءٍ كثيرٍ وتضَرُّعٍ إلى اللهِ؛ لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

كان المُشرِكونَ إذا أُنذِروا بالبَعثِ وساعَتِه، استَهزَؤوا فسَألوا عن وَقتِها، وكان ذلك مِمَّا يَتكَرَّرُ منهم؛ فلمَّا جَرى ذِكرُ دَليلِ إحياءِ المَوتى، وذِكْرُ إلْحادِ المُشركينَ في دَلالتِه بسُؤالِهم عنها استِهزاءً؛ انتَقَل الكَلامُ إلى حِكايةِ سُؤالِهم؛ تَمهيدًا لِلجَوابِ عن ظاهِرِه[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ الآيةَ [فصلت: ٤٦]، كان في ذلك دَلالةٌ على الجَزاءِ يومَ القيامةِ، وكأنَّ سائِلًا قال: ومتى ذلك؟ فقيل: لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ تعالى، ومَن سُئِلَ عنها فليس عندَه عِلمٌ بتَعْيينِ وَقتِها، وإنَّما يُرَدُّ ذلك إلى اللهِ تعالى[2].

﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٤).

أي: إلى اللهِ وَحْدَه يُرجَعُ عِلمُ وَقتِ مَجيءِ القِيامةِ؛ فلا يَعلَمُ وَقتَها إلَّا اللهُ وَحْدَه[١].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه في حَديثِ جِبريلَ الطَّويلِ، قال: متى السَّاعةُ؟ قال: ((ما المَسؤولُ عنها بأعلَمَ مِنَ السَّائِلِ))[٢].

﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا ﴾.

أي: وما تَبرُزُ في وَقتٍ مِن الأوقاتِ أيُّ ثَمَرةٍ مِنَ الثَّمَراتِ مِن أوعِيَتِها وظُروفِها إلَّا يَعلَمُها اللهُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴾ [الرحمن: ١١].

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ ﴾.

أي: وما تَحمِلُ أيُّ أُنثى مِن حَمْلٍ إلَّا بعِلمِ اللهِ تعالى، ولا تَضَعُ حَمْلَها إلَّا بعِلمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٣، ٢٩٤).

(٢) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٤، ٢٩٥).

اللهِ تعالى، لا يخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن ذلك[١].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾.

أي: واذكُرْ يومَ يُنادي اللهُ المُشرِكينَ يومَ القيامةِ، فيَقولُ لهم: أين شُرَكائيَ الَّذين كُنتُم في الدُّنيا تَزعُمونَ أنَّهم شُرَكاءُ لي في العبادةِ، وأنَّهم يَشفَعونَ لكم[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢].

﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾.

أي: فأجاب المُشرِكونَ رَبَّهم قائِلينَ: أعلَمْناك -رَبَّنا- اليومَ بأنَّه ليس مِنَّا أحَدٌ يَشهَدُ أنَّ لك شَريكًا[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٣، ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٦).

قال ابنُ عطية: (الضَّميرُ في: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ ظاهِرُه والأسبَقُ فيه: أنَّه يُريدُ به الكُفَّارَ عَبَدةَ الأوثانِ. ويحتمِلُ أن يريدَ به كُلَّ مَن عُبِدَ مِن دونِ اللهِ مِن إنسانٍ وغَيرِه، وفي هذا ضَعفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأول: ابنُ جرير فقال: (ينادي الله هؤلاء المشركينَ به في الدُّنيا الأوثانَ والأصنامَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٥، ٤٥٦).

وممَّن ذكر أيضًا أنَّ الضَّميرَ يعودُ على المشركين، أي: يُنادي اللهُ المشركين: مكِّيٌّ، والواحديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٥)، ((الوسيط)) =

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قرَّر جهْلَ المشركينَ؛ أتْبَعَه عَجْزَهم(١).

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾.

---

= للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧١، ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

ممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: آذَنَّاك الآنَ في يومِ القيامةِ: الثعلبيُّ، والواحدي، والزمخشري، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١).

قال البقاعي: (﴿آذَنَّاكَ﴾ أي: أعلَمْناك سابِقًا بألسِنَةِ أحوالِنا، والآنَ بألسِنَةِ مَقالِنا، وفي كِلْتا الحالتَينِ أنت سامِعٌ لذلك؛ لأنَّك سامِعٌ لكُلِّ ما يُمكِنُ أن يُسمَعَ وإنْ لم يَسمَعْه غَيرُك). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢١٥).

وقال الرَّسْعَني: (﴿ءَاذَنَّكَ﴾ أعْلَمْناك بما عَلِمتَ مِن عقائدِنا الآنَ، أو يقولونَ ذلك وقد سبَق إعلامُهم به أوَّلَ ما سُئِلوا، ثمَّ أُعِيد عليهم السَّؤالُ توبيخًا وتقريعًا، فحكَى اللهُ تعالى ذلك عنهم، أو يكونُ ذلك إنشاءً للإيذانِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٣).

وقيل: يحتمِلُ أن يكونَ الشَّهيدُ بمعنى المُشاهِدِ، أي: المُبصِرِ، أي: ما أحَدٌ مِنَّا يَرى الَّذين كُنَّا ندعوهم شُرَكاءَك الآنَ، أي: لا نرى واحِدًا مِن الأصنامِ الَّتي كنَّا نَعبُدُها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨).

وقيل: القائِلونَ بذلك مَعبوداتُهم، فهم يَتبَرَّؤون منهم فيَقولون: ما مِنَّا مِن أحَدٍ يَشهَدُ بصِحَّةِ ما أضافوا إلينا مِنَ الشِّركةِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١).

قال القرطبي: (﴿قَالُوٓا۟﴾ يعني: الأصنام. وقيل: المُشرِكونَ. ويحتمِلُ أن يُريدَهم جميعًا: العابِدَ والمَعبودَ). ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٥).

أي: وغاب عن المُشرِكينَ يومَ القيامةِ آلِهتُهم الَّتي كانوا يَدْعُونَها مِن قبْلُ في الدُّنيا، فلم يَنفَعوهم، ولم يَنتَفِعوا بدُعائِهم لهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُواْ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا * وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف: ٥٢، ٥٣].

﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴾.

أي: وظنُّوا أنَّهم ليس لهم فِرارٌ ولا مَهرَبٌ مِن عَذابِ اللهِ يَحيدُونَ إليه، أو أمرٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٠٠).

قال ابن جُزَي: (﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ﴾، أي: ضلَّ عنهم شركاؤُهم، بمعنى أنَّهم لا يرونَهم حينَئذٍ، فـ «ما» على هذا موصولةٌ. أو: ضلَّ عنهم قولُهم الَّذي كانوا يقولونَ مِن الشركِ، فـ «ما» على هذا مَصدريَّةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ ﴾: آلهتُهم، فالمعنى أنَّها غابتْ عنهم فلم يُبصِروها ولم يَجِدوها: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨).

قال البقاعي: (ولَمَّا كانت معبوداتُهم إمَّا ممَّن لا يَعقِلُ كالأصنامِ، وإمَّا في عِدادِ ذلك لكَونِهم لا فِعلَ لهم في الحقيقةِ؛ عبَّر عنهم بأداةِ ما لا يَعقِلُ، فقال: ﴿مَّا كَانُواْ ﴾). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢١٥).

وقال ابن عاشور: (فالمرادُ به هنا: غَيْبةُ أصنامِهم عنهم، وعدمُ وُجودِها في تلك الحضرةِ، بقطعِ النَّظرِ عن كَونِها مُلْقاةً في جهنَّمَ، أو بقيتْ في العالَمِ الدُّنيويِّ حينَ فنائِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨).

وقيل: معنى: ﴿ وَضَلَّ عَنْهُم ﴾: نَسُوا ما كانوا يَقولونَ في الدُّنيا ويَدْعُونَ مِن الآلهةِ والأصنامِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١، ٧٥٢).

يُمَوِّهونَ به ويُراوِغونَ[١].

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى مِن حالِ هؤلاء الكُفَّارِ أنَّهم بعدَ أنْ كانوا مُصِرِّينَ على القَولِ بإثباتِ الشُّرَكاءِ والأضْدادِ لله في الدُّنيا، تبَرَّؤوا عن تلك الشُّرَكاءِ في الآخِرةِ؛ بيَّنَ أنَّ الإنسانَ في جميعِ الأوقاتِ مُتبَدِّلُ الأحوالِ، مُتغَيِّرُ المنهجِ؛ فإنْ أحَسَّ بخَيرٍ وقُدرةٍ انتَفَخ وتعَظَّم، وإن أحسَّ ببَلاءٍ ومِحنةٍ ذَبَلَ، إنْ رأى خيرًا تَدَلَّى، وإن رأى شرًّا تَوَلَّى، فقال[٢]:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾.

أي: لا يَمَلُّ الإنسانُ مِن سُؤالِ رَبِّه المالَ والصِّحَّةَ وغَيرَ ذلك مِن مَطالِبِ الدُّنيا، ولا يَزالُ يَطلُبُ الزِّيادةَ مِنها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨).

قال ابن عطية: (قوله: ﴿وَظَنُّوا۟﴾ يحتملُ أن يكونَ متَّصِلًا بما قبْلَه ويكونَ الوقفُ عليه، ويكونَ قولُه: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ استئنافَ نفيٍ أن يكونَ لهم منجى أو موضعُ روغانٍ... ويكون الظَّنُّ على هذا التَّأويلِ على بابِه، أي: ظنُّوا أن هذه المقالةَ: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ منجاةٌ لهم، أو أمرٌ يموِّهون به. ويحتملُ أن يكونَ الوقفُ في قَولِه: ﴿مِن مَّحِيصٍ﴾، ويكونَ: ﴿وَظَنُّوا۟﴾ متَّصِلًا بقوله: ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي: ظنُّوا ذلك، ويكون الظَّنُّ على هذا التَّأويلِ بمعنى اليقينِ، وبه فسَّر السُّدِّيُّ، وهذه عبارةٌ يُطلِقُها أهلُ اللِّسانِ على الظَّنِّ، ولستَ تجدُ ذلك إلَّا فيما عُلِم عِلمًا قويًّا، وتقرَّر في النَّفْسِ، ولم يَتلبَّسْ به بعدُ، وإلَّا فمتى تلبَّس بالشَّيءِ، وحصَل تحتَ إدراكِ الحواسِّ؛ فلَسْتَ تَجِدُهم يوقِعونَ عليه لفظةَ الظَّنِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قَلْبُ الشَّيخِ شابٌّ على حُبِّ اثنتَينِ: طُولِ الحياةِ، وحُبِّ المالِ))(١).

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لو كان لابنِ آدَمَ وادِيانِ مِن مالٍ لَابْتَغى ثالِثًا، ولا يَملأُ جَوفَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّرابُ(٢)، ويَتوبُ اللهُ على مَن تاب))(٣).

﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾.

أي: وإن نالَ الإنسانَ شِدَّةٌ وكَربٌ، مِن مَرَضٍ أو فَقرٍ أو غَيرِ ذلك؛ فهو ذو يأسٍ شَديدٍ مِن تفريجِ اللهِ عنه، قَنوطٌ مِن أن يَرحَمَه اللهُ(٤).

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً

---

= (٧/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩، ١٠).

(١) رواه البخاري (٦٤٢٠)، ومسلم (١٠٤٦) واللفظ له.

(٢) ولا يَملأُ جَوفَ ابنِ آدمَ إلَّا التُّرابُ: أي: لا يَزالُ حَريصًا على الدُّنيا حتَّى يموتَ، ويَمتلِئَ جَوفُه مِن ترابِ قَبرِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ١٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦٤٣٦) واللفظ له، ومسلم (١٠٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠).

وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾.

أي: ولئن مَنَحْنا الإنسانَ نِعمةً وَخيرًا مِنَّا بعدَ الشِّدَّةِ والمحنةِ الَّتي أصابَتْه، لَيَقولَنَّ بغُرورٍ: أنا أهلٌ لهذا الخَيرِ ومُستَحِقٌّ له[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ [الزمر: ٤٩].

﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

أي: وما أظُنُّ القيامةَ كائِنةً؛ فلَستُ على يقينٍ مِن وُقوعِ البَعثِ وحُصولِ الجَزاءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٤٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

قيل: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾: لأنَّ اللهَ راضٍ عنِّي برِضاه عن عَمَلي، وما أنا عليه مُقيمٌ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣).

وقيل: المعنى: هذا الخَيرُ حَقٌّ لي حَصَلتُ عليه بعِلْمي وسَعْيي وتَدبيري، ويَنسى فضْلَ اللهِ عليه، ولُطفَه به. وممَّن ذهب إلى هذا القول: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: وعلى فَرْضِ أنِّي رُدِدْتُ إلى ربِّي، وبُعِثْتُ بعدَ مَوتي، فستَكونُ لي الجنَّةُ[1]!

كما قال تعالى حِكايةً لِقَولِ صاحِبِ الجنَّتينِ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٦].

﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾.

أي: فلَنُخبِرَنَّ يومَ القيامةِ هؤلاء الكافِرينَ بالَّذي عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ السَّيِّئاتِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالحُسنى الجنَّةُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبغويُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٦٦).

قيل: المعنى: كما أعطاني في الدُّنيا سيُعطيني في الآخرةِ. وقيل: إنَّه يقولُ ذلك استهزاءً. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٦٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالحُسنى الحالةُ الحسَنةُ: الرَّسْعَنيُّ، وأبو حيَّان، والبِقاعي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢).

وقال ابن جرير: (﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ يقولُ: إنَّ لي عندَه غنًى ومالًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩).

وقال ابن كثير: (﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي: ولَئِنْ كان ثَمَّ مَعادٌ فلَيُحسِنَنَّ إلَيَّ ربِّي، كما أحسَنَ إلَيَّ في هذه الدَّارِ، يَتمَنَّى على الله عزَّ وجلَّ، معَ إساءَتِه العملَ، وعدمِ اليقينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١١).

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

أي: ولَنُذِيقَنَّهم مِن عذابِ النَّارِ الشَّديدِ الإيلامِ[١].

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حكى اللهُ تعالى أقوالَ الَّذي أنعَمَ عليه بعدَ وُقوعِه في الآفاتِ؛ حكَى أفعالَه أيضًا[٢].

وأيضًا لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى جَهْلَ الإنسانِ في حالاتٍ مَخصوصةٍ؛ باليأسِ عندَ مَسِّ الشَّرِّ، والأمْنِ عندَ ذَوقِ النِّعمةِ بعدَ الضُّرِّ؛ بيَّنَ حالَه عندَ النِّعمةِ مُطلقًا، ودُعاءَه عندَ الشَّرِّ وإن كان قانِطًا؛ تكريرًا لتقَلُّبِ أحوالِه، وتناقُضِ أقوالِه وأفعالِه، تَصريفًا لذلك على وُجوهٍ شَتَّى؛ لِيَكونَ داعيًا له إلى عَدَمِ الأَنَفةِ مِن الرُّجوعِ عن الكُفرِ إلى الإيمانِ[٣].

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾.

أي: وإذا أنعَمْنا على الإنسانِ بنِعمةٍ مِن رِزقٍ أو صِحَّةٍ، أعرَض عن عبادةِ اللهِ وشُكْرِه وَحْدَه، وترفَّعَ عن الانقيادِ إلى الحَقِّ وتكَبَّرَ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤، ١٥). =

كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾.

أي: وإذا نال الإنسانَ شَرٌّ مِن مَرَضٍ أو فَقرٍ، تضَرَّعَ إلى اللهِ واستغاثَ به؛ لِيَكشِفَ عنه ضُرَّه، وأطال الدُّعاءَ واستكثَرَ منه(١).

كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ﴾ [يونس: ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [النحل: ٥٣، ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ [الزمر: ٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ [المعارج: ١٩، ٢٠].

---

= وقال ابن عثيمين في قوله تعالى: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾: (أعرَض ببدنِه وبقلبِه مفتخرًا متعاظمًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤، ١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٢١، ٣٢٢).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ دَليلٌ أنَّ على المرءِ أنْ يَصبِرَ عندَ المصائبِ، ولا يَيأسَ مِن رَحمةِ ربِّه، ولا يُلهِيَه مَسُّ المُصيبةِ عن الذِّكْرِ والشُّكرِ؛ فإنَّ المصائبَ وإنْ كانت تَشُقُّ عليه فهي كَفَّاراتٌ، وعاقِبتُها كَراماتٌ، ومِن صفةِ المؤمِنِ أنْ يكونَ شَكورًا عندَ الشَّدائدِ والرَّخاءِ؛ فما مِن شِدَّةٍ إلَّا وفَوقَها شِدَّةٌ، فإذا بُلِيَ بأدوَنِها كان عليه الشُّكرُ في صَرفِ أرفَعِها والمعافاةِ منها، فمَن جَعَل موضِعَ الشُّكرِ القُنوطَ واليأسَ قَلَّ تَبَصُّرُه، وساء تَخَيُّرُه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ وَصَف خُلُقَينِ ذَميمَينِ؛ أحَدُهما: خُلُقُ البَطَرِ بالنِّعمةِ، والغَفلةِ عن شُكرِ اللهِ عليها. وثانيهما: اليأسُ مِن رُجوعِ النِّعمةِ عندَ فَقْدِها[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ قَولُه: ﴿مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ يعني: أنَّه تيقَّنَ الضَّرَرَ ثمَّ جاءت الرَّحمةُ مِن عندِ اللهِ تعالى، وهذا أبلَغُ في النِّعمةِ: أنْ تأتيَ بعدَ الضَّرَرِ؛ لأنَّ النِّعمةَ الدَّائِمةَ لا يُحَسُّ بها، لكِنَّ النِّعمةَ الطَّارِئةَ بعدَ الضَّررِ هي الَّتي يُحَسُّ بها؛ ولهذا مَن لم يَذُقْ مَرارةَ المَرَضِ، فإنَّه لا يتذوَّقُ حَلاوةَ الصِّحَّةِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ فيه تَنبيهٌ أنَّه ينبغي للإنسانِ أن يَشرَعَ في الدُّعاءِ عندَ التوقُّعِ، بل قَبْلَه؛ تعَرُّفًا إلى اللهِ تعالى في الرَّخاءِ،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٠٨، ٣٠٩).

لِيَعرِفَه في الشِّدَّةِ، وهو خُلُقٌ شَريفٌ لا يَعرِفُه إلَّا أفرادٌ خَصَّهم اللهُ بلُطفِه[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أنَّ مَن ادَّعَى عِلمَ السَّاعةِ فهو كافرٌ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ للهِ ورسولِه، وتكذيبُ اللهِ ورسولِه مِن أسبابِ الرِّدَّةِ، ومَن صَدَّقَه فهو كافرٌ أيضًا؛ لأنَّه صَدَّقَ ما هو تكذيبٌ للقرآنِ؛ ومَن صَدَّقَ ما هو تكذيبٌ للقرآنِ فإنَّه كافرٌ بلا شكٍّ[٢].

٢- قوله: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ﴾ وبعدَه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ لا منافاةَ بيْنَهما؛ لأنَّ معناه: يَئوسٌ قَنُوطٌ بالقلبِ، دَعَّاءٌ باللِّسانِ. وقيل: قَنُوطٌ مِن الصَّنمِ، دَعَّاءٌ لله. وقيل: الأوَّلُ في قَومٍ، والثَّاني في آخَرينَ. وقيل: الدُّعاءُ مذكورٌ في الآيتَينِ، وهو ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ في الأوَّلِ، و: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ في الثَّاني[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ سَمَّى النِّعمةَ رَحمةً؛ إذ هي مِن آثارِ رَحمةِ اللهِ تعالى[٤]، ورحمةُ اللهِ تبارك وتعالى نَوعانِ: رحمةٌ خاصَّةٌ، ورحمةٌ عامَّةٌ، فما به قِوامُ البَدَنِ هو مِن الرَّحمةِ العامَّةِ؛ لأنَّه يَشملُ المؤمنَ والكافرَ، والبَرَّ والفاجرَ، والإنسانَ والحيوانَ، وما به قِوامُ الدِّينِ فهو مِن الرَّحمةِ الخاصَّةِ، وهذا يَختصُّ بالمؤمنينَ[٥].

٤- قال الله تعالى: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٞ قَنُوطٞ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٢).

* وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ فأسنَدَ إلى نَفْسِه تعالى الخَيرَ في قَولِه: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ بعدَ أنْ ذكَرَ الشَّرَّ ولم يُسنِدْه إليه في قَولِه: ﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ﴾؛ وأيضًا في قولِه: ﴿ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾ تَعليمًا للأدَبِ[1] مع اللهِ، كما قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ...﴾ [الشعراء: ٧٨] إلخ، ثمَّ قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، فلم يَقُلْ: وإذا أمرَضَني[2].

٥- قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ اعْلَمْ أنَّ الإنسانَ مُتفاوتةٌ أفرادُه في هذا الخُلُقِ المَعزُوِّ إليه هنا، على تَفاوتِ أفرادِه في الغُرورِ، ولَمَّا كان أكثرُ النَّاسِ يَومَئذٍ المُشركينَ، كان هذا الخُلُقُ فاشيًا فيهمْ يَقْتضيهِ دِينُ الشِّركِ. ولا نظَرَ في الآيةِ لِمَن كان يومَئذٍ مِن المسلمينَ؛ لأنَّهمُ النَّادرُ، على أنَّ المُسلِمَ قد يُخامِرُه بعضُ هذا الخُلُقِ، وتَرتسِمُ فيه شِياتٌ منه، ولكنَّ إيمانَه يَصرِفُه عنه انصِرافًا بقَدْرِ قُوَّةِ إيمانِه، ومَعلومٌ أنَّه لا يَبلُغُ به إلى الحدِّ الَّذي يقولُ: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، ولكنَّه قد تَجْري أعمالُ بعضِ المُسلمينَ على صُورةِ أعمالِ مَن لا يَظُنُّ أنَّ السَّاعةَ قائمةٌ، مِثلُ أولئك الَّذين يَأْتون السَّيِّئاتِ ثمَّ يَقولونَ: إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، واللهُ غَنِيٌّ عن عَذابِنا، وإذا ذُكِرَ لهم يومُ الجزاءِ قالوا: ما ثَمَّ إلَّا الخيرُ، ونحوَ ذلك، فجَعَل اللهُ في هذه الآيةِ مَذَمَّةً لِلمُشرِكينَ، ومَوعِظةً لِلمُؤمِنينَ؛ كَمَدًا لِلأوَّلينَ، وانتِشالًا لِلآخِرينَ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾ أنَّ كلَّ شَيءٍ مُقَيَّدٌ محفوظٌ على الإنسانِ؛ يُؤخَذُ مِن قوله: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾؛ فإنَّ «ما» اسمٌ موصولٌ تُفيدُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣).

العمومَ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أنَّ الإنسانَ يَعرِفُ مِن نَفْسِه الضَّعْفَ إذا أصابَه الضَّرَرُ، ويَلْجَأُ إلى اللهِ، حتَّى الكافرُ يَعرِفُ مِن نفْسِه الضَّعْفَ، ويَلْجأُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٨- قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ هذا وصْفٌ وتذكيرٌ بضَرْبٍ آخَرَ مِن طُغيانِ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ، غيرِ خاصٍّ بأهلِ الشِّركِ، بل هو مُنبَثٌّ في جميعِ النَّاسِ على تفاوُتٍ، إلَّا مَن عصَم اللهُ، وهو توصيفٌ لِنَزَقِ النَّفْسِ الإنسانيِّ وقلَّةِ ثباتِه، فإذا أصابَتْه السَّرَّاءُ طغَى وتكبَّر، ونسِيَ شُكرَ ربِّه نسيانًا قليلًا أو كثيرًا، وشُغِل بلَذَّاتِه، وإذا أصابَتْه الضَّرَّاءُ لم يَصبِرْ، وجزِع، ولجأ إلى ربِّه، يُلِحُّ بسؤالِ كشفِ الضَّرَّاءِ عنه سريعًا، لم يَتذكَّرِ الإقبالَ على دعاءِ ربِّه إلَّا عندَما يَمَسُّه الشَّرُّ، وكان الشَّأنُ ألَّا يَغفلَ عن ذلك في حالِ النِّعمةِ، فيدعو بدوامِها، ويَشكُرُ ربَّه عليها، وقَبولِ شكرِه؛ لأنَّ تلك الحالةَ أولَى بالعنايةِ مِن حالةِ مسِّ الضُّرِّ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾

- قولُه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فيه تَقديمُ المَجرورِ في ﴿إِلَيْهِ﴾ على مُتَعلَّقِه؛ لِإفادةِ الحَصرِ، أيْ: إلى اللهِ يُفَوَّضُ عِلمُ السَّاعةِ، لا إلَيَّ؛ فهو قَصرُ قَلبٍ[٤]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤).

(٤) قصر القلب: هو أنْ يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامع، كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ =

ورَدٌّ على المُستَهزِئينَ بالسَّاعةِ بطَريقِ الأُسلوبِ الحَكيمِ[١]، أيْ: الأجدَرُ أنْ تَعلَموا أنَّه لا يَعلَمُ أحَدٌ متى السَّاعةُ، وأنْ تُؤمِنوا بها، وتَستَعِدُّوا لها، والرَّدُّ: الإرجاعُ، وهو مُستَعمَلٌ لِتَفويضِ عِلْمِ ذلك إلى اللهِ، والتَّبَرُّؤِ مِن أنْ يَكونَ لِلمَسؤولِ عِلْمٌ به، فكَأنَّه جيءَ بالسُّؤالِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فرَدَّه إلى اللهِ[٢]. وهذا التَّقديمُ يَجوزُ أنْ يَكونَ إشارةً إلى جَوابِ مُنكِرٍ يَزعُمُ أنَّ عِلْمَ السَّاعةِ غَيرُ مُختَصٍّ باللهِ، فيُجابُ بالحَصرِ، أيْ: لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ، وأنْ يَكونَ جَوابًا عن مُتَرَدِّدٍ يَترَدَّدُ في ذلك، ويَشُكُّ فيه، فيُزالُ شَكُّه بقَولِه: اللهُ يَعلَمُ؛ لِإرادَتِه تَقَوِّي الحُكمِ المُستَلزِمِ لِلتَّخصيصِ؛ لِاختِصاصِ ذِكرِ الاسمِ الجامِعِ، وأنَّه تعالَى يَعلَمُه حَقًّا البَتَّةَ، فلا يَعلَمُ غَيرُه[٣].

- وعَطفُ جُملةِ ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ وما بَعدَها تَوجيهٌ لِصَرفِ العِلْمِ بوَقتِ السَّاعةِ إلى اللهِ، بذِكرِ نَظائِرَ لا يَعلَمُها النَّاسُ، وليس عِلْمُ السَّاعةِ بأقرَبَ منها؛ فإنَّها أُمورٌ مُشاهَدةٌ، ولا يَعلَمُ تَفصيلَ حالِها إلَّا اللهُ، أيْ: فليس في عَدَمِ العِلْمِ بوَقتِ السَّاعةِ حُجَّةٌ على تَكذيبِ مَن أنذَرَ بها؛ لِأنَّهم قالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يس: ٤٨]، أيْ: إنْ لم تُبَيِّنْ لنا وَقتَه فلَستَ

---

= أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ معيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨).

(١) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٠).

بصادِقٍ! فهذا وَجهُ ذِكرِ تلك النَّظائِرِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ عُدِلَ عن إعادةِ حَرفِ (ما) مَرَّةً أُخرى في قَولِه: ﴿وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾؛ لِلتَّفادي مِن ذِكرِ حَرفٍ واحِدٍ ثَلاثَ مَرَّاتٍ؛ لِأنَّ تَساويَ هذه المَنفيَّاتِ الثَّلاثةِ في عِلْمِ اللهِ تَعالى، وفي كَونِ أزمانِ حُصولِها سَواءٌ بالنِّسبةِ لِلحالِ ولِلاستِقبالِ[٢].

- وحَرفُ (مِنْ) بَعدَ مَدخُولَيْ (ما) في المَوضِعَيْنِ ﴿مِن ثَمَرَٰتٍ﴾ ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾؛ لِإفادةِ عُمومِ النَّفيِ والاستِغراقِ[٣].

- قوله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ لَمَّا كانَ ما يَخرُجُ مِن أكمامِ الشَّجَرةِ وما تَحمِلُ الإناثُ وتَضَعُه هو إيجادَ أشياءَ بَعدَ العَدَمِ، ناسَبَ أنْ يُذكَرَ مع عِلْمِ الساعةِ؛ إذْ في ذلك دَليلٌ على البَعثِ، إذْ هو إعادةٌ بَعدَ إعدامٍ، وناسَبَ ذِكرُ أحوالِ المُشرِكينَ في ذلك اليَومِ، وسُؤالُهم سُؤالَ التَّوبيخِ، فقالَ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾، أيْ: الَّذين نَسَبْتُموهم إلَيَّ، وزَعَمْتُم أنَّهم شُرَكاءُ لي، وفي ذلك تَهَكُّمٌ بهم وتَقريعٌ[٤].

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ عطْفٌ على الجُملةِ قبْلَها؛ فإنَّه لَمَّا تَضمَّن قولُه: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إبطالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥، ٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٨/ ٥٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٤).

شُبْهتِهم بأنَّ عدَمَ بَيانِ وقْتِها يدُلُّ على انتفاءِ حُصولِها، وأُتبِعَ ذلك بنَظائرَ لِوَقتِ السَّاعةِ ممَّا هو جارٍ في الدُّنيا دَومًا؛ عادَ الكَلامُ إلى شَأنِ السَّاعةِ على وَجهِ الإنذارِ، مُقتَضيًا إثباتَ وُقوعِ السَّاعةِ بذِكرِ بَعضِ ما يَلقَوْنَه في يَومِها[١].

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ ﴿وَيَوْمَ﴾ مَنصوبٌ بـ (اذكُرْ)، أو ظَرفٌ لِمُضمَرٍ مُؤَخَّرٍ قد حُذِف للتَّنبيهِ على كمالِ هَولِه، وفظاعةِ ما فيه، والإيذانِ بقُصورِ العبارةِ عن بيانِه، أي: يومَ يناديهم يكونُ مِن الأحوالِ والأهوالِ ما لا يَفي ببيانِه المقالُ[٢].

- وجُملةُ ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ يصِحُّ أنْ تكونَ مَقولَ قولٍ مَحذوفٍ، كما صُرِّحَ به في آيةٍ أُخرى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥]، وحذْفُ القولِ ليس بعَزيزٍ. ويصِحُّ أنْ تكونَ مُبيِّنةً لِمَا تَضمَّنَه ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ مِن معنى الكلامِ المُعلَنِ به[٣].

- وفي قولِه: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ تَهكُّمٌ بهم، وتَقريعٌ لهم[٤].

- قولُه: ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ جاءَتْ جُملةُ ﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ﴾ غيرَ مَعطوفةٍ؛ لِأنَّها جاريةٌ على طَريقةِ حِكايةِ المُحاوَراتِ، وقَولُهم: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾؛ إمَّا لِأنَّ هذا التَّوبيخَ مَسبوقٌ بتَوبيخٍ آخَرَ مُجابٍ بهذا الجَوابِ، وهذا يَقتَضي أنَّه تعالَى قد سألَ عنهم بمِثلِ هذا السُّؤالِ قبْلَ ذلك، وأنَّهم أجابوه بمِثلِ هذا الجَوابِ ثمَّ أعادَه عليهم، أو لِأنَّ مَعناهُ أنَّكَ عَلِمتَ مِن قُلوبِنا وعَقائِدِنا الآنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٦/ ٢٠٨) و (٨/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٤، ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨).

أنَّا لا نَشهَدُ تلكَ الشَّهادةَ الباطِلةَ؛ لِأنَّه إذا عَلِمَه مِن نُفوسِهم فكَأنَّهم أعلَمُوه، أو لِأنَّ مَعناهُ الإنشاءُ، لا الإخبارُ بإيذانٍ قد كان قبْلَ ذلكَ، كما تَقولُ: أعْلِم المَلِكَ إنَّه كان مِنَ الأمْرِ كَيْتَ وكَيْتَ. وقد سُئِلوا مَرَّةً أُخرى؛ لِأنَّه يَجوزُ أنْ يُعادَ عليهم ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾؛ إعادةً لِلتَّوبيخِ، وإعادَتُه في القُرآنِ على سَبيلِ الحِكايةِ: دَليلٌ على إعادةِ المَحكيِّ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ * وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾

- قولُه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ لِلشُّروعِ في وَصفِ الإنسانِ في حالَتَيْ شِدَّتِه ورَخائِه[2].

- وقولُه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ اعتِراضٌ بيْن أجزاءِ الوَعيدِ، وقد كانوا إذا أصابَتْهم نَعماءُ كَذَّبوا بقيامِ الساعةِ؛ فجُملةُ ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَنُوطٌ﴾ تَمهيدٌ لِجُملةِ ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا﴾ إلخ، ومَوقِعُ هذه الآياتِ عَقِبَ قَولِه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ يَقتَضي مُناسَبةً في النَّظمِ داعيةً إلى هذا الاعتِراضِ؛ فتلك قاضيةٌ بأنَّ الإنسانَ المُخبَرَ عنه بأنَّه لا يَسأمُ مِن دُعاءِ الخَيرِ، وما عُطِفَ عليه هو مِن صِنفِ النَّاسِ الَّذين جَرى ذِكرُ قَصَصِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٥).

قبْلَ هذه الآيةِ، وهم المُشركونَ، فإمَّا أنْ يكونَ المُرادُ فَريقًا مِن نَوعِ الإنسانِ، فيَكونَ تَعريفُ الإنسانِ تَعريفَ الجِنسِ العامِّ، لكنَّ عُمومَه عُرْفيٌّ بالقَرينةِ. وإمَّا أنْ يكونَ المُرادُ إنْسانًا مُعيَّنًا مِن هذا الصِّنفِ؛ فيَكونَ التَّعريفُ تَعريفَ العهْدِ. كما أنَّ الإخبارَ عن الإنسانِ بأنَّه يقولُ: (مَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) صَريحٌ أنَّ المُخبَرَ عنه مِن المُشركين مُعيَّنًا كان أو عامًّا عُمومًا عُرْفيًّا، وأيًّا ما كان فالإخبارُ عن إنسانٍ كافرٍ. ومَحمَلُ الكَلامِ البَليغِ يُرشِدُ إلى أنَّ إناطةَ هذه الأخبارِ بصِنفٍ مِنَ المُشركينَ أو بمُشركٍ مُعَيَّنٍ بعُنوانِ إنسانٍ؛ يُومِئُ بأنَّ لِلجِبلَّةِ الإنسانيَّةِ أثَرًا قَويًّا في الخُلُقِ الَّذي منه هذه العَقيدةُ، إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ بوازِعِ الإيمانِ[1].

- قَولُه: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ اليَأسُ مِن صِفةِ القَلبِ، وبدَأ بصِفةِ القَلبِ؛ لأنَّها هي المؤثِّرةُ فيما يَظهَرُ على الصُّورةِ مِن الانكِسارِ[2].

- ولم يَذكُرْ هنا أنَّه ذو دعاءٍ لِلَّهِ، كما ذَكَر في قولِه الآتي: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١]؛ قيل: لِأنَّ المَقصودَ أهلُ الشِّركِ، وهمْ إنَّما يَنصَرِفونَ إلى أصنامِهم[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾، ولمْ يُقيِّدْ مسَّ الشَّرِّ بلْ أطلَقَه؛ فلمْ يَذكُرْ (إذا) الَّتي تُفيدُ تَحقُّقَ الوُقوعِ، بل اقترَنَ شَرْطُ مَسِّ الشَّرِّ هنا بحَرفِ (إنْ) الَّتي مِن شَأنِها أنْ تَدخُلَ على النَّادِرِ وُقوعُه؛ فإنَّ إصابةَ الشَّرِّ الإنسانَ نادِرةٌ بالنِّسبةِ لِمَا هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠).

مَغمورٌ به مِنَ النِّعَمِ. ولَمَّا قيَّدَه بالبحرِ الَّذي هو مُتحقِّقٌ فيه ذلك أتَى بأداةِ (إذا) ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]؛ لأنَّ مَسَّ الضُّرِّ لهم في البَحرِ مُحقَّقٌ(١).

- وقولُه: ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ فيه وَصفٌ لِلجِنسِ بوَصفِ غالِبِ أفرادِه؛ لِمَا أنَّ اليَأْسَ مِن رَحمَتِه تعالَى لا يَتَأتَّى إلَّا مِنَ الكَافِرِ(٢).

- وأيضًا في نَظمِ هذه الآيةِ لَطائِفُ مِنَ البَلاغةِ؛ منها: التَّعبيرُ عن دَوامِ طَلَبِ النِّعمةِ بعَدَمِ السَّآمةِ. ومنها: التَّعبيرُ عن مَحبَّةِ الخَيرِ بدُعاءِ الخَيرِ. ومنها: التَّعبيرُ عن إضافةِ الضُّرِّ بالمَسِّ الَّذي هو أضعَفُ إحساسِ الإصابةِ؛ قالَ تَعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الزمر: ٦١]. ومنها: صِيغَتا المُبالَغةِ في ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾. ومنها: إتْباعُ (يَؤوسٌ) بـ (قَنوطٌ) الَّذي هو تَجاوُزُ إحساسِ اليَأْسِ إلى ظاهِرِ البَدَنِ بالانكِسارِ، وهو مِن شِدَّةِ يَأْسِه، فحَصَلَتْ مُبالَغَتانِ في التَّعبيرِ عن يَأْسِه بأنَّه اعتِقادٌ في ضَميرِه، وانفِعالٌ في سَحَناتِه؛ فالمُشرِكُ يَتأصَّلُ فيه هذا الخُلُقُ، ويَتَزايَدُ باستِمرارِ الزَّمانِ، والمُؤمِنُ لا تَزالُ تَربيةُ الإيمانِ تَكُفُّه عن هذا الخُلُقِ حتَّى يَزولَ منه أو يَكادَ(٣).

- وجاءَ قَولُ المُشرِكِ: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ على سَبيلِ الاستِهزاءِ مِن إمكانيَّةِ البَعثِ. وذِكرُ إنكارِ البَعثِ هنا إدماجٌ(٤) بذِكرِ أحوالِ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (١/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

الإنسانِ المُشرِكِ في عُمومِ أحوالِ الإنسانِ[١].

- وأيضًا جِيءَ في حِكايةِ قولِه: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ﴾ بحَرْفِ (إن) الشَّرطيَّةِ الَّتي يَغلِبُ وُقوعُها في الشَّرطِ المشكوكِ وُقوعُه؛ لأنَّه جعَلَ رُجوعَه إلى اللهِ أمْرًا مَفروضًا ضَعيفَ الاحتمالِ[٢].

- وأمَّا دُخولُ اللَّامِ المُوَطِّئةِ لِلقَسَمِ في ﴿وَلَئِن﴾ فمَورِدُ التَّحقيقِ بالقَسَمِ هو حُصولُ الجَوابِ لو حَصَلَ الشَّرطُ، وكذلك التَّأكيدُ بحَرفِ (إنَّ) ولامِ الابتِداءِ، مَورِدُه هو جَوابُ الشَّرطِ، وكذلك تَقديمُ ﴿لِي﴾ و﴿عِندَهُۥ﴾ على اسمِ (إنَّ) هو لِتَقَوِّي تَرَتُّبِ الجَوابِ على الشَّرطِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ قيل: الحُسْنى: صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ، أيْ: الحالةُ الحُسْنى، أوِ المُعامَلةُ الحُسْنى. وقيل: الحُسْنى صارَتِ اسمًا لِلإحسانِ الكثيرِ؛ أخذًا مِن صِيغةِ التَّفضيلِ[٤].

- قولُه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ [فصلت: ٤٧] وما اتَّصَلَ بها، أي: فلَنُعْلِمَنَّهم بما عَمِلوا عِلمًا يَعلَمون به أنَّا لا يَخْفَى علينا شَيءٌ ممَّا عَمِلوه، وتَقريعًا لهم، وقَولُه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ هو المَقصودُ مِنَ التَّقريعِ[٥].

- وقولُه: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ كِنايةٌ عَن جَزائِهم بأعْمالِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣).

السَّيِّئةِ[١].

- والتَّعبيرُ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، وكان مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (ولَنُنَبِّئَنَّهم بما عَمِلوا)؛ فعُدِلَ إلى المَوصولِ وصِلتِه؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن عِلَّةِ استِحقاقِهِمُ الإنباءَ بما عَمِلوا، وإذاقةَ العَذابِ[٢]، ولبَيانِ العُمومِ، يعني: أنَّ هذا الوعيدَ ليس لهذا الرَّجُلِ وحْدَه؛ بلْ لكلِّ كافرٍ[٣].

- في قولِه: ﴿عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ كَنَّى بغَليظِ العَذابِ عن شِدَّتِه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾ هذا وَصفٌ وتَذكيرٌ بضَرْبٍ آخَرَ مِن طُغيانِ النَّفْسِ الإنسانيَّةِ غَيرِ خاصٍّ بأهلِ الشِّركِ، وهو تَوصيفٌ لِنَزَقِ النَّفْسِ الإنسانيِّ وقِلَّةِ ثَباتِه، وأمَّا ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ إلى قولِه: ﴿لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ [فصلت: ٤٩، ٥٠]، فهو وَصفٌ لِضَرْبٍ آخَرَ أشَدَّ، وهو خاصٌّ بأهْلِ الشِّركِ؛ لِمَا وقَعَ فيه مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [الكهف: ٣٦]؛ فليس قَولُه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ إلخ تَكريرًا مع قَولِه: ﴿لَّا يَسۡـَٔمُ ٱلۡإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلۡخَيۡرِ﴾ [فصلت: ٤٩] الآيةَ؛ فهذا التَّفَنُّنُ في وَصفِ أحوالِ الإنسانِ مع رَبِّه هو الَّذي دَعا إلى ما اشتَمَلَ عليه قَولُه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا﴾ مِن بَعضِ التَّكريرِ لِما ذُكِرَ في الضَّربِ المُتَقدِّمِ؛ لِزيادةِ تَقريرِه، ولِلإشارةِ إلى اختِلافِ الحالَتَيْنِ؛ باعتِبارِ الشِّركِ وعَدَمِه مع اتِّحادِهما في مَثارِ الجِبِلَّةِ الإنسانيَّةِ، وباعتِبارِ ما قَدَّرَه اللهُ لِلإنسانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤).

- ومُتعلَّقُ فِعلِ ﴿أَعۡرَضَ﴾ مَحذوفٌ؛ لِدَلالةِ السِّياقِ عليه، والتَّقديرُ: أعرَضَ عن دُعائِنا[١].

- قولُه: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ المَعنى: أبْعَدَ جانِبَه، كِنايةً عن إبعادِ نَفْسِه عنِ الدُّعاءِ؛ تَكَبُّرًا وتَعاظُمًا، ووَلَّى مُعرِضًا غَيرَ مُلتَفِتٍ بوَجهِه إلى الشَّيءِ الَّذي ابتعَدَ هو عنه[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ كِنايةٌ؛ للتَّعظيمِ إذا أُرِيدَ بالجانبِ النَّفْسُ، أو مِن بابِ الرَّمْزِ إذا أُرِيدَ بالجانبِ العِطْفُ، ويكونُ عبارةً عن الانحرافِ، ومَرْجِعُه أيضًا إلى التَّكبُّرِ والخُيَلاءِ؛ لأنَّ المُتكبِّرَ لا يَخْلو مِن تلك الحَرَكاتِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا﴾ [الإسراء: ٨٣] أتَى بـ (إذا) المُشعِرةِ بتَحقيقِ الوُقوعِ المُستلزِمِ لِليأْسِ؛ فإنَّ اليأْسَ إنَّما حصَلَ عندَ تَحقُّقِ مَسِّ الشَّرِّ له؛ فكان الإتيانُ بـ (إذا) هاهنا أدَلَّ على المعنى المقصودِ مِن (إنْ)، بخِلافِ قولِه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ﴾؛ فإنَّه بقِلَّةِ صَبْرِه وضَعْفِ احتمالِه، متى تَوقَّعَ الشَّرَّ أعرَضَ، وأطال في الدُّعاءِ، فإذا تَحقَّقَ وُقوعَه كان يَؤوسًا[٤].

- وقيل: عَبَّرَ في جانِبِ الشَّرِّ بأداةِ التَّحقيقِ -على غيرِ عادةِ القُرآنِ في الأغلَبِ-؛ لِيَدُلَّ على أنَّه لزِيادةِ جَهلِه على الحَدِّ يَلزَمُ الكِبْرَ وإنْ كان يَتوقَّعُ الشَّرَّ، ولا يَزالُ حالُه حالَ الآمِنِ إلى أن يُخالِطَه، وحينَئذٍ تَنحَلُّ عُراه وتَضمَحِلُّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٤٧، ٤٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٢).

- قولُه: ﴿ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ شُبِّهَ الدُّعاءُ المُتَكرِّرُ المُلَحُّ فيه بالثَّوبِ أو المَكانِ العَريضِ، وهو أبلَغُ مِن الطَّويلِ؛ إذ الطُّولُ أطولُ الامتدادَينِ، فإذا كان عَرضُه كذلك فما ظَنُّكَ بطُولِه[1]؟!

- وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (فَداعٍ) إلى ﴿ فَذُو دُعَآءٍ ﴾؛ لِمَا تُشعِرُ به كَلِمةُ (ذو) مِن مُلازَمةِ الدُّعاءِ له، وتَمَلُّكِه منه[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴾ مِن الاحتباكِ[3]، حيثُ ذُكِرَ الإنعامُ أوَّلًا دليلًا على الانتقامِ ثانيًا، وذُكِرَ الشَّرُّ ثانيًا دَليلًا على الخيرِ أوَّلًا، وسِرُّه: تَعليمُ الأدَبِ بنِسبةِ الإنعامِ دونَ الشَّرِّ إليه، وإنْ كان الكلُّ منه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٢).

## الآيات (٥٢-٥٤)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِقَاقٍ﴾: أي: عَداوةٍ ومُبايَنةٍ ومُخالَفةٍ، وأصلُ الشِّقاقِ: الانصِداعُ[1].

﴿ٱلْءَافَاقِ﴾: أي: النَّواحي والأطرافِ، وأصلُ (أفق): يدُلُّ على تَباعُدِ ما بيْنَ أطرافِ الشَّيءِ واتِّساعِه[2].

﴿مِرْيَةٍ﴾: أي: شَكٍّ، والمِرْيةُ كذلك: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِنَ الشَّكِّ[3].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ الباءَ في ﴿بِرَبِّكَ﴾ مَزيدةٌ في الفاعِلِ للتَّأكيدِ، و(ربك) فاعِلُ ﴿يَكْفِ﴾ مرفوعٌ مَحَلًّا مَجرورٌ لَفظًا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤، ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

بالباءِ. والمفعولُ مَحذوفٌ، والمصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِنْ (ربك) فيكونُ مَرفوعَ المحلِّ، مَجرورَ اللَّفظِ مِثلَه، أو يكونُ المَصدَرُ المُؤَوَّلُ في مَحَلِّ جرٍّ بباءٍ محذوفةٍ، والتَّقديرُ عليهما: أولَمَ يَكفِك ربُّك شَهادتُه، أو بأنَّه على كلِّ شَيءٍ شَهيدٌ. الثَّاني: أنَّ الباءَ في ﴿بِرَبِّكَ﴾ مَزيدةٌ في المفعولِ، و (ربك) مَفعولٌ مُقَدَّمٌ لـ ﴿يَكۡفِ﴾ مَنصوبٌ مَحَلًّا مَجرورٌ لَفظًا بالباءِ، والمصدَرُ المؤَوَّلُ ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ فاعلٌ مُؤَخَّرٌ، أي: أوَلَم يكْفِ ربَّك شَهادتُه[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يوبِّخَ هؤلاءِ الكافرينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: أخبِرُوني إن كان هذا القُرآنُ حَقًّا مِن عندِ اللهِ ثمَّ كَفَرْتُم به، فمَن أشَدُّ ضَلالًا وبُعدًا عن الحَقِّ منكم؟!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ حِكمتَه قد اقتضَتْ أنْ يُطلِعَ النَّاسَ على دَلائلِ وحدانيَّتِه، وصدقِ رسولِه، وأنَّ القرآنَ حقٌّ، فيقولُ: سنُري أولئك الكافِرينَ آياتِنا في الآفاقِ والنَّواحي، وفي أنفُسِهم؛ حتَّى يَتبيَّنَ لهم أنَّ القُرآنَ حَقٌّ. أوَلَم يَكْفِ برَبِّك -يا مُحمَّدُ- أنَّه شاهِدٌ على كُلِّ شَيءٍ؟!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى حقيقةَ أمرِ هؤلاءِ الكافرينَ، فيقولُ: ألَا إنَّ أولئك الكافِرينَ في شَكٍّ مِن بَعثِهم بعدَ مَوتِهم، ولقاءِ رَبِّهم، ألَا إنَّ اللهَ سُبحانَه مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا وقُدرةً.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ

(١) ينظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٣٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ١٥)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٣٠).

بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر الوَعيدَ العَظيمَ على الشِّركِ، وبيَّنَ أنَّ المُشركينَ يَرجِعونَ عن القَولِ بالشِّركِ في يومِ القيامةِ، ويُظهِرونَ مِن أنفُسِهم الذِّلَّةَ والخُضوعَ بسَبَبِ استيلاءِ الخَوفِ عليهم، وبيَّنَ أنَّ الإنسانَ جُبِلَ على التَّبَدُّلِ؛ فإنْ وَجَد لِنَفْسِه قُوَّةً بالَغَ في التَّكَبُّرِ والتَّعَظُّمِ، وإنْ أحَسَّ بالفُتورِ والضَّعفِ بالَغَ في إظهارِ الذِّلَّةِ والمَسكَنةِ- ذكَرَ عَقِيبَه كَلامًا آخَرَ يُوجِبُ على هؤلاء الكُفَّارِ ألَّا يُبالِغوا في إظهارِ النفرةِ مِن قَبولِ التَّوحيدِ، وألَّا يُفرِطوا في إظهارِ العَداوةِ معَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1]:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لكُفَّارِ قَومِك: أخبِروني إن كان هذا القُرآنُ حَقًّا مِن عندِ اللهِ، ثُمَّ كَفَرتُم به، فلا أحَدَ أضَلُّ مِنكم لِفَرطِ شِقاقِكم وعِنادِكم وعداوَتِكم؛ لأنَّه تَبيَّنَ لكم الحقُّ والصَّوابُ، ثمَّ عَدلْتُم عنه، فأهْلَكتُم أنفُسَكم[2].

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦، ١٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أعقَبَ اللهُ أمْرَ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَقولَ لِلمُشرِكينَ ما فيه تَخويفُهم مِن عَواقِبِ الشِّقاقِ، على تَقديرِ أنْ يَكونَ القُرآنُ مِن عِندِ اللهِ وهُم قد كَفَروا به، بأنْ وَعَد رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على سَبيلِ التَّسليةِ والبِشارةِ- بأنَّ اللهَ سَيَغمُرُ المُشرِكينَ بطائِفةٍ مِن آياتِه ما يَتبَيَّنونَ به أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ حَقًّا؛ فلا يَسَعُهم إلَّا الإيمانُ به[1].

وأيضًا لَمَّا أمَر حبيبَه صلواتُ الله عليه بمُتارَكةِ القَومِ في قَولِه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ ﴾ إلى قولِه: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ دخَل في خَلَدِه اليأسُ مِن إيمانِ القَومِ، وكادَتْ نفْسُه تذهبُ عليهم حَسَراتٍ، فأعلَمه اللهُ تعالى بقولِه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾ أنَّه ما عليك إلَّا البلاغُ ومِنَّا الهدايةُ، فأنت قد أدَّيتَ ما عليك مِن البلاغِ، وليس الهدايةَ، ونحن سنَهدي منهم مَن نريدُ هدايتَه بأنْ نَفتحَ قلوبًا غُلْفًا وآذانًا صُمًّا وعيونًا عُمْيًا، فيرَوْن آياتِنا في الآفاقِ وفي الأنفُسِ، ثمَّ قرَّر ذلك بقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ إنجازًا للموعد، مُسليًا له صلواتُ الله عليه ممَّا اعتراه مِن اليأسِ[2].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى وُجوهًا كثيرةً في تقريرِ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ، وأجاب عن شُبُهاتِ المُشرِكينَ وتمويهاتِ الضَّالِّينَ، قال[3]:

﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾.

أي: سنُري أولئك الكافِرينَ بالقُرآنِ آياتِنا الدَّالَّةَ على أنَّ القُرآنَ حَقٌّ مِن عندِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٣).

اللهِ لا شَكَّ فيه ولا رَيبَ، وذلك بدَلائِلَ خارجيَّةٍ في الآفاقِ والنَّواحي، ودَلائِلَ في أنفُسِهم(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٤)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣١-٣٣٤).

قال السمعاني: (الآياتُ في الآفاقِ آياتُ السَّمواتِ والأرَضينَ؛ وذلك مِن رفْعِ السَّماءِ، وخَلقِ الكَواكِبِ، ودوَرانِ الفلَكِ، وإضاءةِ الشَّمسِ والقمرِ، وما أشْبَهَ ذلك، وكذلك بسْطُ الأرضِ، ونصبُ الجبالِ، وتفجيرُ الأنهارِ، وغرسُ الأشجارِ، إلى ما لا يُحصَى. وقولُه: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: مِن السَّمعِ والبصرِ، وخلْقِ سائرِ الجوارِحِ وجميعِ الحواسِّ. وفي بعضِ التَّفاسيرِ: أنَّ مِن الآياتِ في النَّفْسِ دُخولَ الطَّعامِ والشَّرابِ مِن مكانٍ واحِدٍ، وخروجَه مِن مكانَينِ. وقيل: دخولُ الأطعمةِ على ألوانٍ كثيرةٍ، وخروجُها على لونٍ واحِدٍ. وقال السُّدِّيُّ: الآياتُ في الآفاقِ هي فتحُ الأمصارِ، وفي الأنفُسِ فتحُ الرَّسُولِ مَكَّةَ. ويقالُ: الآياتُ في الآفاقِ هي الفتوحُ الَّتي كانت بعدَ الرَّسولِ، وفي أنفُسِهم هي الَّتي كانت في زمانِ الرَّسولِ. وقيل: الآياتُ في الآفاقِ ما أخبَرَ مِن الأُمَمِ المُتقدِّمةِ وما نزَل بهم، والآياتُ في الأنفُسِ هي ما أنْذَرَهم مِن الوعيدِ والعذابِ. وقال مجاهِدٌ: الآياتُ في الآفَاقِ هو إمساكُ المطرِ مِن السَّماءِ، والآياتُ في الأنفُسِ هي البلايا في الأجسادِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٠).

وقال السعدي: (سيُقيمُ اللهُ لكم ويُريكم مِن آياتِه ﴿فِي ٱلۡأٓفَاقِ﴾ كالآياتِ الَّتي في السَّماءِ وفي الأرضِ، وما يُحدِثُه اللهُ تعالى من الحوادِثِ العَظيمةِ الدَّالَّةِ للمُستبصِرِ على الحَقِّ. ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ ممَّا اشتمَلَت عليه أبدانُهم، مِن بديعِ آياتِ اللهِ وعجائبِ صَنعتِه، وباهِرِ قُدرتِه، وفي حُلولِ العُقوباتِ والمَثُلاتِ في المكَذِّبين، ونَصرِ المؤمنينَ... وقد فَعَل تعالى؛ فإنَّه أرى عِبادَه من الآياتِ ما به تَبيَّنَ لهم أنَّه الحَقُّ، ولكِنَّ اللهَ هو الموفِّقُ للإيمانِ مَن شاء، والخاذِلُ لِمَن يَشاءُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

وجوَّز ابنُ عاشور أن يكونَ المرادُ: وفي أفُقِ أنفُسِهم، أي: مكَّةَ وما حَوْلَها، ثمَّ قال: (والأحسَنُ أن يكونَ في الآفاقِ على عُمومِه الشَّاملِ لأُفُقِهم، ويكونَ معنى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أنَّهم يرون آياتِ صِدقِه في أحوالٍ تُصيبُ أنفُسَهم، أي: ذواتِهم؛ مِثلُ الجُوعِ الَّذي دعا عليهم به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ... ومِثلُ ما شاهَدوه مِن مَصارِعِ كُبَرائِهم يومَ بَدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠).

=

كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا﴾ [النمل: ٩٣].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾ [غافر: ٨١].

وقال الله جَلَّ جَلالُه: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾.

أي: سنُري المُشرِكينَ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهم؛ حتَّى يَتبيَّنَ لهم أنَّ القُرآنَ حَقٌّ، فلا يَجِدوا إلى إنكارِ ذلك سَبيلًا[1].

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: أوَلَم يَكْفِ بربِّك -يا مُحمَّدُ- أنَّه شاهِدٌ على كُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك شَهادتُه أنَّ القُرآنَ حَقٌّ نَزَل مِن عِندِه تعالى على رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2]؟

---

= قال ابن القيم: (﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: أنَّ القرآنَ حقٌّ، فأخبَر أنَّه لا بدَّ مِن أن يُريَهم مِن آياتِه المشهودةِ ما يُبيِّنُ لهم أنَّ آياتِه المَتلوَّةَ حقٌّ). ((الفوائد)) (ص: ٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٤٠٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٦-٣٣٨).

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ قيل: مُوَجَّهٌ للكُفَّارِ، أي: أو لم يَكْفِهم ويُغْنِهم. وممَّن قال بهذا القولِ في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشريُّ، والرازي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٧)، ((تفسير الرازي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: ألَا إنَّ الكافِرينَ بالقُرآنِ في شَكٍّ مِن وُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ؛ ولذلك لا يَرجُونَ في الآخِرةِ ثَوابًا، ولا يَخافونَ فيها عِقابًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥].

﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

---

= (٢٧/ ٥٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

قيل: معناه: أنَّ هذا الموعودَ مِن إظهارِ آياتِ الله في الآفاقِ وفي أنفُسِهم سيَرَوْنَه ويُشاهِدونه، فيَتبيَّنون عندَ ذلك أنَّ القرآنَ تنزيلُ عالمِ الغَيبِ الَّذي هو على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، أي: مُطَّلِعٌ مُهَيْمِنٌ، يَستوي عندَه غَيْبُه وشَهادتُه، فيَكفيهم ذلك دليلًا على أنَّه حقٌّ وأنَّه مِن عندِه، ولو لم يكنْ كذلك لَمَا قَوِيَ هذه القوَّةَ ولَمَا نُصِر حامِلوه هذه النُّصْرةَ. قاله الزمخشري. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٧).

وقيل: المعنى: ألم تَكفِهم هذه الدَّلائلُ الكثيرةُ الَّتي أوضحها اللهُ تعالى وقرَّرها في هذه السُّورةِ وفي كلِّ سوَرِ القرآنِ الدَّالَّة على التَّوحيدِ وغيرِه. قاله الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٤).

وقيل: هو مُوَجَّهٌ إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. أي: أو لم يَكْفِك يا مُحمَّدُ. وممَّن قال بهذا: الماوَرْديُّ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٨).

أي: ألَا إنَّ اللهَ مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا وقُدرةً وغَيرَ ذلك[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فيَنبغي للإنسانِ أنْ يَتفكَّرَ في آياتِ اللهِ تعالى في الآفاقِ وفي نَفْسِه؛ لأنَّ ذلك طريقٌ إلى أنْ يَتَبَيَّنَ له الحقُّ، فأنت كلَّما ازدَدْتَ تأمُّلًا وتدبُّرًا لآياتِ اللهِ الآفاقيَّةِ والآياتِ الَّتي في نفْسِك؛ فإنَّك لا شكَّ تَزدادُ إيمانًا، ويَتَبَيَّنُ لك صِدْقُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ يُؤخَذُ منه الحذرُ مِن المخالَفةِ، فإذا عَلِم العبدُ أنَّ اللهَ شهيدٌ على كلِّ شَيءٍ -على نَفْسِه؛ أفعالِه؛ أقوالِه؛ كلِّ تصرُّفاتِه- وأنَّه شهيدٌ عليه في خَلَواتِه؛ في وَحدتِه؛ في جلوسِه مع أهلِه؛ في جلوسِه مع صَحْبِه؛ فإنَّه سوف يُراقِبُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وهذا هو معنى قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه؛ فإنْ لم تَكُنْ تَراه فإنَّه يَراك))[٣]، ومَن لم يَتَّعِظْ بمِثْلِ هذه الآيةِ فإنَّه لن يَتَّعِظَ[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فيه أعظَمُ بِشارةٍ بتَمامِ أمرِ الدِّينِ، وظُهورِه على المُعتَدينَ؛ وذلك لأنَّ كُلَّ أحَدٍ يَجِدُ في نَفْسِه أنَّه إذا أراد ثُبوتَ حَقٍّ يُنكِرُه مَن هو عليه، ولصاحِبِ الحَقِّ مِنَ الشُّهودِ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٩).

(٣) أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٥٠) واللفظ له، ومسلمٌ (٩) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٤١).

يَتحَقَّقُ قَولُهم فيه، ووُصولُه بهم إليه: أنَّه يَكونُ مُطمَئِنًّا لا يَنزعِجُ بالجَحدِ؛ عِلمًا منه بأنَّ حَقَّه لا بُدَّ أن يَظهَرَ، ويُخزَى مُعانِدُه ويُقهَرَ، وفي هذا تأديبٌ لكُلِّ مَن كان على حَقٍّ ولا يَجِدُ مَن يُساعِدُه على ظُهورِه؛ فإنَّ اللهَ شاهِدُه، فلا بدَّ أن يَظهَرَ أمْرُه؛ فتوكَّلْ على اللهِ إنَّك على الحَقِّ المُبينِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾ تحقيقُ مراقبةِ اللهِ؛ لأنَّك إذا آمنتَ أنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ محيطٌ؛ فسوف تُرَاقِبُه مراقبةً تامَّةً، بحيثُ لا يَفْقِدُك حيثُ أمَرَك، ولا يَرَاك حيثُ نَهاك[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ؛ وَجهُ ذلك: أنَّ القُرآنَ وَصفٌ لأنَّه كَلامٌ، والوَصفُ لا بُدَّ أنْ يقومَ بمَوصوفٍ، وإذا كان مِن عندِ اللهِ لَزِمَ أنْ يكونَ الموصوفُ به هو اللهَ عزَّ وجلَّ، ثمَّ زيادةً على ذلك فوَجهُ الدَّلالةِ: كونُه مِن عندِ اللهِ، وأنَّ الكَلامَ صِفةٌ وليس عَينًا قائِمةً بنَفْسِها حتَّى نَقولَ: إنَّه مَخلوقٌ كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾[3] [الأعراف: ٢٠٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ أنَّه لا بُدَّ أنْ يُرِيَ اللهُ سُبحانَه أهلَ كلِّ قَرنٍ مِن الآياتِ ما يُبَيِّنُ لهم أنَّه اللهُ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو، وأنَّ رُسُلَه صادِقونَ[4].

٣- أنَّ القرآنَ قد نَبَّهَ على الطُّرُقِ الاعتباريَّةِ الَّتي بها يُستدَلُّ على مِثلِ ما في

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠٢).

القرآنِ؛ كما قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾، فأخْبَر أنَّه يُري عِبادَه مِن الآياتِ المشهودةِ العِيانيَّةِ في الآفاقِ وفي أنفُسِهم -الَّتي هي أدلَّةٌ عقليَّةٌ- ما يَتَبَيَّنُ به أنَّ آياتِه السَّمعيَّةَ القُرآنيَّةَ حَقٌّ وصِدقٌ؛ فآياتُ الرَّبِّ تعالى العِيانيَّةُ الأُفُقيَّةُ والنَّفْسيَّةُ مُستَلْزِمةٌ لإثباتِ الأدِلَّةِ السَّمعيَّةِ[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ فيه طَرَفٌ مِن الإعجازِ بالإخبارِ عن الغَيبِ؛ إذ أخبَرَ بالوَعدِ بحُصولِ النَّصرِ له تعالى ولدِينِه، وذلك بما يسَّرَ اللهُ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولخُلَفائِه مِن بَعدِه في آفاقِ الدُّنيا والمَشرِقِ والمَغرِبِ عامَّةً، وفي باحةِ العَرَبِ خاصَّةً- مِن الفُتوحِ وثَباتِها وانطِباعِ الأُمَمِ بها ما لم تَتيسَّرْ أمثالُها لأحَدٍ مِن مُلوكِ الأرضِ والقياصِرةِ والأكاسِرةِ، على قِلَّةِ المُسلِمينَ إنْ نُسِبَ عَدَدُهم إلى عَدَدِ الأُمَمِ الَّتي فَتَحوا آفاقَها بنَشرِ دَعوةِ الإسلامِ في أقطارِ الأرضِ، والتَّاريخُ شاهِدٌ بأنَّ ما تَهَيَّأَ لِلمُسلِمينَ مِن عَجائِبِ الانتِشارِ والسُّلطانِ على الأُمَمِ أمْرٌ خارِقٌ لِلعادةِ، فيَتَبَيَّنُ أنَّ دِينَ الإسلامِ هو الحَقُّ، وأنَّ المُسلِمينَ كُلَّما تَمَسَّكوا بعُرَى الإسلامِ لَقُوا مِن نَصرِ اللهِ أمْرًا عَجيبًا، يَشهَدُ بذلك السَّابِقُ واللَّاحِقُ، وقد تَحَدَّاهمُ اللهُ بذلك في قَولِه: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [الرعد: ٤١]، ثمَّ قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[2] [الرعد: ٤٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أنَّ الإنسانَ ناقصُ العلمِ نقصًا عظيمًا؛

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ١٢)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨، ١٩).

وجْهُه: أنَّ اللهَ تعالى يُريه آياتِه في نفْسِه، فالإنسانُ غيرُ عالِمٍ بنَفْسِه إلَّا إذا عَلَّمه اللهُ، ولذلك النَّفْسُ الَّتي هي مادَّةُ الحياةِ لا نَعْرِفُها[1]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [فصلت: ٤١]، إلى قَولِه: ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [فصلت: ٤٥]؛ فهذا انتِقالٌ إلى المُجادَلة في شَأنِ القُرآنِ رَجَع به إلى الغَرَضِ الأصليِّ مِن هذه السُّورةِ، وهو بَيانُ حَقِّيَّةِ القُرآنِ وصِدقِه وصِدقِ مَن جاءَ به، وهذا استِدعاءٌ لِيُعمِلوا النَّظَرَ في دَلائِلِ صِدقِ القُرآنِ، مِثلَ إعجازِه وانتِساقِه، وتَأييدِ بَعضِه بَعضًا، وكَونِه مُؤَيِّدًا لِلكُتُبِ قَبْلَه، وكَونِ تلك الكُتُبِ مُؤَيِّدةً له، والمَعنى: ما أنتم عليه مِن إنكارِ صِدقِ القُرآنِ ليس صادِرًا عن نَظَرٍ وتَمحيصٍ يُحَصِّلُ اليَقينَ، وإنَّما جازَفتُم به قبْلَ النَّظَرِ، فلو تَأمَّلتُم لاحتَمَلَ أنْ يُنتِجَ لكمُ التَّأمُّلُ أنَّه مِن عِندِ اللهِ، وألَّا يَكونَ مِن عِندِه، فإذا فُرِضَ الاحتِمالُ الأوَّلُ فقد أقحَمتُم أنفُسَكم في شِقاقٍ قَويٍّ. وهذا مِنَ الكَلامِ المُنصِفِ، واقتُصِرَ فيه على ذِكرِ الحالةِ المُنطَبِقةِ على صِفاتِهم؛ تَعريضًا بأنَّ ذلك هو الطَّرَفُ الرَّاجِحُ في هذا الإجمالِ، كَأنَّه يَقولُ: كما أنَّكم قَضَيتُم بأنَّه ليس مِن عِندِ اللهِ، وليس ذلك مَعلومًا بالضَّرورةِ، فكَذلك كَونُه مِن عِندِ اللهِ، فتَعالَوْا فتَأمَّلوا في الدَّلائِلِ، فهُمْ لَمَّا أنكَروا أنْ يَكونَ مِن عِندِ اللهِ، وصَدُّوا أنْفُسَهم وعامَّتَهم عن الاستِماعِ إليه والتَّدَبُّرِ فيه؛ فقد أعمَلوا شَهواتِ أنْفُسِهم، وأهمَلوا الأخْذَ بالحَيطةِ لهم أنْ يَتدَبَّروه؛ حتَّى يَكونوا على بَيِّنةٍ مِن أمْرِهم في شأنِه، وهم إذا تَدَبَّروه لا يَلبَثونَ أنْ يَعلَموا صِدقَه، فاستَدعاهمُ اللهُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٩).

النَّظَرِ بطَريقِ تَجويزِ أنْ يَكونَ مِن عِندِ الله؛ فإنَّه إذا جازَ ذلك وكانوا قد كَفَروا به دُونَ تَأمُّلٍ، كانوا قد قَضَوْا على أنْفُسِهم بالضَّلالِ الشَّديدِ، وإذا كانوا كذلك فقد حَقَّتْ عليهم كَلِماتُ الوَعيدِ(١).

- قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ (إنْ) الشَّرطيَّةُ شَأنُها أنْ تَدخُلَ على الشَّرطِ المَشكوكِ فيه، وهي هنا لإبرازِ الأمْرِ في صُورةِ الاحتِمالِ، أيْ: قُلْ: أرَأيتُم إن كان القُرآنُ مِن عِندِ اللهِ؟ وهو مِن عِندِ اللهِ بلا شَكٍّ، فالإتيانُ بها تَنَزُّلٌ معهم في الخِطابِ، وإرخاءٌ لِلعِنانِ معهم؛ لاستِنزالِ طائِرِ إنكارِهم، حتَّى يُقبِلوا على التَّأمُّلِ في دَلائِلِ صِدقِ القُرآنِ(٢).

- ويُشبِهُ أنْ يَكونَ المَقصودُ بهذا الخِطابِ والتَّشكيكِ أوَّلًا دَهماءَ المُشرِكينَ الَّذين لم يَنظُروا في دَلالةِ القُرآنِ، أو لم يُطيلوا النَّظَرَ، ولم يَبلُغوا به حَدَّ الاستِدلالِ، وأمَّا قادَتُهم وكُبَراؤُهم وأهلُ العُقولِ منهم، فهمْ يَعلَمونَ أنَّه مِن عِندِ اللهِ، ولكِنَّهم غَلَبَ عليهم حُبُّ الرِّئاسةِ، على أنَّهم مُتَفاوِتونَ في هذا العِلْمِ إلى أنْ يَبلُغَ بَعضُهم إلى حَدٍّ قَريبٍ مِن حالةِ الدَّهماءِ، ولكِنَّ القُرآنَ ألقَى بيْنَهم هذا التَّشكيكَ؛ تَغليبًا ومُراعاةً لِاختِلافِ دَرَجاتِ المُعانِدينَ، ومُجاراةً لهم في ادِّعائِهم أنَّهم لم يَهتَدوا، نَظَرًا لِقَولِهم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾(٣) [فصلت: ٥].

- و(ثمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ كَفَرْتُم﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لِأنَّ الكُفرَ بما هو مِن عِندِ اللهِ أمْرُه أخطَرُ مِن كَونِ القُرآنِ مِن عِندِ اللهِ(٤). وقيل: دلَّتْ «ثُمَّ» -وهي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦، ١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧).

للتَّرتيبِ والتَّراخي- على أنَّ كُفْرَهم كان بعدَ أنْ تَبَيَّنَ الأمرُ، ممَّا يدُلُّ على أنَّ الكفرَ بعدَ التَّبَيُّنِ أشَدُّ قُبْحًا مِن الكفرِ مع الجهلِ[١].

- وفي قولِه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ ... ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَه هنا بحَرفِ ﴿ثُمَّ﴾، وقالَه في سُورةِ (الأحقافِ): ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾ [الأحقاف: ١٠] بالواوِ؛ لِأنَّ مَعناها هنا: كان عاقبةُ أمْرِكم بَعدَ الإمهالِ لِلنَّظَرِ والتَّدَبُّرِ الكُفرَ؛ فناسَبَ ذِكرُ ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ، وفي (الأحقافِ) لم يُنظَرْ إلى تَرتيبِ كُفرِهم على ما ذُكِرَ، بل عُطِفَ على ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ [الأحقاف: ١٠] بالواوِ، فناسَبَ ذِكرُها؛ لِدَلالَتِها على مُطلَقِ الجَمعِ[٢].

- و(مَن) الأُولى في قولِه: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ لِلاستِفهامِ، وهو مُستَعمَلٌ في مَعنى النَّفيِ، أيْ: لا أضَلُّ مِمَّن هو في شِقاقٍ بَعيدٍ إذا تَحَقَّقَ الشَّرطُ. و(مَن) الثَّانيةُ مَوصولةٌ، وماصَدَقَها[٣] المُخاطَبونَ بقَولِه: ﴿كَفَرْتُم بِهِۦ﴾؛ فعَدَلَ عن الإضمارِ فلم يَقُلْ: (مَنْ أَضَلُّ مِنكم) إلى طَريقِ المَوصولِ ﴿مِمَّنْ﴾؛ بَيانًا وشَرحًا لِحالِهم وصِفَتِهم، ولِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلٍ؛ لِمَزيدِ ضَلالِهم، وأنَّهم أضَلُّ الضَّالِّينَ بكَونِهم شَديدي الشِّقاقِ، وذلك كِنايةٌ عن كَونِهم أشَدَّ الخَلقِ عُقوبةً؛ لِمَا هو مَعلومٌ مِن أنَّ الضَّلالَ سَبَبٌ لِلخُسرانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٧).

(٣) تقدَّم تعريف الماصَدَق (ص: ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧).

- قولُه: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ فيه وُقوعُ الاستِفهامِ مَوقعَ النَّفيِ، وفائدتُه: أنَّه إذا كان بصِيغةِ الاستفهامِ كان مُشْرَبًا بالتَّحدِّي؛ فقولُه: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ أبلَغُ مِن قولِه: (لا أَضَلُّ)؛ ففيه بَيانُ بلاغةِ القرآنِ التَّامَّةِ؛ حيثُ يَختارُ في كِلِّ تَركيبٍ ما يُناسِبُ الحالَ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ مِن الاحتباكِ(٢)، حيثُ ذُكِرَ الكُفرُ أوَّلًا دليلًا على الإيمانِ ثانيًا، وذُكِرَ الضَّلالُ ثانيًا دَليلًا على الهُدى أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّ ذِكرَ المَضارِّ أصْدَعُ للقلْبِ؛ فهو أنفَعُ في الوعْظِ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ وَعَدَ اللهُ تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على سَبيلِ التَّسليةِ والبِشارةِ بأنَّ اللهَ سَيَغمُرُ المُشركينَ بطائِفةٍ مِن آياتِه ما يَتبَيَّنونَ به أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ حَقًّا؛ فلا يَسَعُهم إلَّا الإيمانُ به، وفي هذا الوَعدِ لِلرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَعريضٌ بهم؛ إذْ يَسمَعونَه، على طَريقةِ: فاسمَعي يا جارةُ؛ فمَوقعُ هذه الجُملةِ بصَريحِها وتَعريضِها مِنَ الجُملةِ الَّتي قَبْلَها مَوقِعُ التَّعليلِ لِأمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولَ لهم ما أُمِرَ به، والتَّعليلُ راجِعٌ إلى إحالَتِهم على تَشكيكِهم في مَوقِفِهم لِلطَّعنِ في القُرآنِ(٤).

- وعَطفُ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ قيل: يَجوزُ أنْ يَكونَ مِن عَطفِ الخاصِّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٠).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨).

العامِّ، أيْ: وفي أُفْقِ أنْفُسِهم، أيْ: مَكَّةَ وما حَوْلَها، على حَذفِ مُضافٍ[١].

- وقد سُكِتَ عمَّا يَترَتَّبُ على ظُهورِ الآياتِ في الآفاقِ وفي أنْفُسِهم، المُبَيِّنةِ أنَّ القُرآنَ حَقٌّ؛ لِأنَّ ما قَبْلَه مِن قَولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢] يُنبِئُ عن تَقديرِه، أيْ: لا يَسَعُهم إلَّا الإيمانُ بأنَّه حَقٌّ، فمَن كانَ منهم شاكًّا مِن قَبْلُ عن قِلَّةِ تَبَصُّرٍ، حَصَل له العِلْمُ بَعدَ ذلك، ومَن كانَ إنَّما يَكفُرُ عِنادًا واحتِفاظًا بالسِّيادةِ، افتَضَحَ بُهتانُه، وسَفَّهَه جيرانُه، وكِلاهما قد فَوَّتَ بتَأخيرِ الإيمانِ خَيرًا عَظيمًا مِن خَيرِ الآخِرةِ بما أضاعَه مِن تَزَوُّدِ ثَوابٍ في مُدَّةِ كُفرِه، ومِن خَيرِ الدُّنيا بما فاتَه مِن شَرَفِ السَّبقِ بالإيمانِ والهِجرةِ، كما قال تَعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٢] [الحديد: ١٠].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ استِئنافٌ وارِدٌ لِتَوبيخِهم على تَرَدُّدِهم في شَأنِ القُرآنِ، وعِنادِهم المُحوِجِ إلى إراءةِ الآياتِ، وعَدَمِ اكتِفائِهم بإخبارِه تعالَى[٣].

- والهمزةُ في ﴿أَوَلَمْ﴾ للإنكارِ، والواوُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقْتضيه المقامُ، أي: ألَمْ يُغْنِ ولم يَكْفِ ربُّك. والباءُ في ﴿بِرَبِّكَ﴾ مَزيدةٌ للتَّأكيدِ[٤].

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ عطْفٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إعلامِ الرَّسولِ بما سَيَظهَرُ مِن دَلائلِ صِدقِ القُرآنِ وصِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ زِيادةً لِتَثبيتِ الرَّسولِ، وشَرحِ صَدرِه بأنَّ اللهَ تَكَفَّلَ له بظُهورِ دِينِه، ووُضوحِ صِدقِه في سائِرِ أقطارِ الأرضِ، على طَريقةِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّوبيخيِّ التَّقريريِّ؛ تَحقيقًا لِتَيَقُّنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بكَفالةِ رَبِّه، بحيث كانت مِمَّا يُقَرَّرُ عليها كِنايةً عن اليَقينِ بها؛ فالاستِفهامُ تَقريريٌّ. وهنالك وَجهٌ آخَرُ: أنْ يَكونَ مَساقُها مَساقَ تَلقينِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يَستَشهِدَ باللهِ على أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ فيَكونَ مَوقِعُها مَوقِعَ القَسَمِ بإشهادِ اللهِ، وهو قَسَمٌ غَليظٌ فيه مَعنى نِسبةِ المُقسَمِ عليه إلى أنَّه مِمَّا يَشهَدُ اللهُ به؛ فيَكونَ الاستِفهامُ إنكاريًّا إنكارًا لِعَدَمِ الاكتِفاءِ بالقَسَمِ باللهِ، وهو كِنايةٌ عن القَسَمِ، وعن عَدَمِ تَصديقِهم بالقَسَمِ، وليس مَعنى الآيةِ إنكارًا على المُشرِكينَ أنَّهم لم يَكتَفوا بشَهادةِ اللهِ على صِدقِ القُرآنِ ولا على صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِأنَّهم غَيرُ مُعتَرِفينَ بأنَّ اللهَ شَهِدَ بذلك، فلا يَظهَرُ تَوَجُّهُ الإنكارِ إليهم[1].

- قولُه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ دَلَّ هذا اللَّفظُ المُوجَزُ على مَعانٍ مَبسوطةٍ، وذلك مِن مُقتَضى المَقامِ، والعُدولِ مِنَ الظَّاهِرِ؛ فإنَّ أصْلَ المَعنى: سَنُريهم هذه الآياتِ إظهارًا لِلحَقِّ، وكَفى به دَليلًا على ذلك، وإنَّما أدخَلَ هَمزةَ التَّقريرِ على جُملةِ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ﴾ لِمَزيدِ تَقريرِ حُصولِ المَوعودِ، وأنَّ هذه الآياتِ كافيةٌ في المَطلوبِ، لا مَزيدَ عليها. ووُضِعَ المُظهَرُ في قَولِه: ﴿بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ مَوضِعَ ضَميرِ الآياتِ؛ لِلإشعارِ بالعِلِّيَّةِ، وأنَّ هذه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠، ٢١).

الآياتِ إنَّما صَلَحَتْ لِلدَّليلِ على حَقِّيَّةِ المَطلوبِ؛ لِأنَّ مُنشِئَها مَن هو على كُلِّ شَيءٍ مُهَيمِنٌ مُطَّلِعٌ، وأُبدِلَ ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ مِن ﴿بِرَبِّكَ﴾؛ بَيانًا وتَفسيرًا وإيذانًا بأنَّ هذا الوَصفَ مُتَعَيَّنٌ له، وشاهِدٌ بأنَّ الرَّبَّ هو الَّذي يَكونُ على كُلِّ شَيءٍ شَهيدًا. وأمَّا اختِصاصُ الضَّميرِ في ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ بالقُرآنِ، فمِن حيثُ المَقامُ؛ لِأنَّ هذه السُّورةَ الكَريمةَ نازِلةٌ في بَيانِ عَظَمةِ القُرآنِ المَجيدِ، والرَّدِّ على مُنكِريه ومُعانِديه، فكُلُّ ما جُعِلَ ذِكرُه مَشروعًا لِمَعنًى أتَى بما يُناسِبُه مِنَ المَعاني، فكان قَولُه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: ٥٢] كَلامًا على سَبيلِ إرخاءِ العِنانِ كالخاتِمةِ لِهذه المَعاني؛ فجِيءَ بقَولِه: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ ...﴾ الآيةَ مُسَلِّيًا لِحَبيبِه صَلَواتُ اللهِ عليه، ووَعدًا لِإظهارِ كَلِمَتِه، وقَهرِ أعدائِه، وسُلِكَ فيه مَسلَكُ الدَّليلِ والبُرهانِ؛ لِيَظهَرَ لِلمُوافِقِ والمُخالِفِ حَقِّيَّتُه، وأُدمِجَ في الكَلامِ مَعنى الإخبارِ بالغَيبِ بذِكرِ ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾؛ لِيَكونَ كالشَّاهِدِ على أنَّها بنَفْسِها آيةٌ مُستَقِلَّةٌ مِن حيثُ إنَّها مُخبِرةٌ عنِ الغَيبِ(١).

- قولُه: ﴿سَنُرِيهِمۡ﴾ صُدِّرَتْ بالسِّينِ الدَّالَّةِ على التَّحَقُّقِ والقُرْبِ؛ فدلَّ على أنَّ هذه الإراءةَ قريبةٌ مُحَقَّقَةٌ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ﴾

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡ﴾ المِريةُ هي الشَّكُّ، وأُطلِقَ الشَّكُّ على جَزمِهم بعَدَمِ وُقوعِ البَعثِ؛ لِأنَّ جَزمَهم خَليٌّ عن الدَّليلِ الَّذي يَقتَضيه؛ فكان إطلاقُ الشَّكِّ عليه تَعريضًا بهم بأنَّ الأَوْلَى بهم أنْ يَكونوا في شَكٍّ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٣/ ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٣٣٩).

على الأقَلِّ[١].

- وحَرْفُ الظَّرفيَّةِ (في) مُعبَّرٌ به عن تَمكُّنِ الشَّكِّ بهم، حتَّى كأنَّهم مَظْرُوفون فيه، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، وتعدَّى بها أفعالُ الشَّكِّ إلى الأمْرِ المَشكوكِ فيه بتَنزيلِ مُتعلَّقِ الفِعلِ مَنزلةَ مَثارِ الفِعلِ، بتَشبيهِ المفعولِ بالمُنشَأ، كأنَّ الشَّكَّ جاء مِن مكانٍ هو المَشكوكُ فيه. وفي تَعليقِه بذاتِ الشَّيءِ، مع أنَّ الشَّكَّ إنَّما يَتعلَّقُ بالأحكامِ؛ مُبالَغةً على طَريقةِ إسنادِ الأُمورِ إلى الأعيانِ، والمُرادُ أوصافُها؛ فتَقديرُ ﴿فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾: في مِرْيةٍ مِن وُقوعِ لِقاءِ ربِّهم وعَدَمِ وُقوعِه[٢].

- وقولُه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ تَذييلانِ لِلسُّورةِ وفَذلَكَتانِ[٣]، افتُتِحا بحَرفِ التَّنبيهِ (ألَا)؛ اهتِمامًا بما تَضَمَّناه، وتَنبيهًا لِلسَّامعِ على ما يُقالُ؛ فأمَّا التَّذييلُ الأوَّلُ فهو جِماعُ ما تَضَمَّنَتْه السُّورةُ مِن أحوالِ المُشرِكينَ المُعانِدينَ؛ إذْ كانتْ أحوالُهمُ المَذكورةُ فيها ناشِئةً عن إنكارِهمُ البَعثَ، فكانوا في مَأمَنٍ مِنَ التَّفكيرِ فيما بَعدَ هذه الحياةِ؛ فانحَصَرتْ مَساعيهم في تَدبيرِ الحياةِ الدُّنيا، وانكَبُّوا على ما يَعودُ عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذلكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

بالنَّفعِ فيها. وأمَّا التَّذييلُ الثَّاني فهو جامِعٌ لِكُلِّ ما تَضَمَّنَتْه السُّورةُ مِن إبطالٍ لِأقوالِهم، وتَقويمٍ لِاعوِجاجِهم؛ لأنَّ ذلك كُلَّه مِن آثارِ عِلْمِ اللهِ تعالَى بالغَيبِ والشَّهادةِ. وتَأكيدُ الجُملَتَيْنِ بحَرفِ التَّأكيدِ مع أنَّ المُخاطَبَ بهما لا يَشُكُّ في ذلك؛ لِقَصدِ الاهتِمامِ بهما، واستِدعاءِ النَّظَرِ لاستِخراجِ ما تَحويانِه مِنَ المَعاني والجُزئيَّاتِ، وبهاتَيْنِ الفَذلَكَتَيْنِ آذَنَ بانتِهاءِ الكَلامِ؛ فكان مِن بَراعةِ الخِتامِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١).

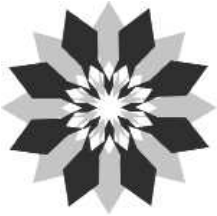

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ الشُّورى

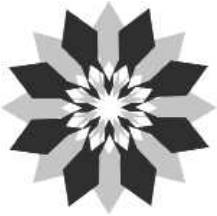

# سورة الشُّورى

## أسماءُ السُّورةِ:

**سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ:**

١- الشُّورى[١].

٢- ﴿حمٓ ۞ عٓسٓقٓ﴾[٢].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الشُّورى مَكِّيَّةٌ[٣]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٤].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

١- بيانُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى وقُدرتِه[٥].

---

(١) لم يَرِدْ في ذلك نَصٌّ صَريحٌ، وإنَّما اشتَهَرَت بهذا الاسمِ؛ وسُمِّيَت بذلك لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٨).

(٢) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٨).

(٣) وقيل: إلَّا أربعَ آياتٍ منها نزَلَت بالمدينةِ؛ قوله: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ﴾ [الشورى: ٢٣] إلى آخِرِ الآياتِ الأربعِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٨).

قال ابن عثيمين: (الأصلُ أنَّ السُّورةَ المكِّيَّةَ مَكِّيَّةٌ بجَميعِ آياتِها، وأنَّ السُّورةَ المَدَنيَّةَ مَدَنيَّةٌ بجَميعِ آياتِها... فالأصلُ أنَّ هذه السُّورةَ مَكِّيَّةٌ بجميعِ آياتِها حتَّى يقومَ دَليلٌ واضِحٌ على أنَّ هذه الآياتِ [أي: الأربَعَ المُستثناةَ]... مَدَنيَّةٌ. ثمَّ اعلَمْ أنَّ جميعَ السُّوَرِ المَبدوءةِ بالحُروفِ الهِجائيَّةِ مَكِّيَّةٌ إلَّا سورتينِ؛ هما: البَقَرةُ وآلُ عِمرانَ، والباقي كُلُّه مَكِّيٌّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٠).

(٤) ممَّن حكى الإجماعَ: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ٤١٨).

وقال ابن عطيَّة: (هذه السُّورةُ مَكِّيَّةٌ بإجماعٍ مِن أكثَرِ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢).

(٥) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٩).

٢- إثباتُ كَونِ القُرآنِ وحيًا مِنَ اللهِ تعالى إلى نبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلت عليها السُّورةُ:**

١- بيانُ أنَّ القُرآنَ وَحيٌ مِنَ اللهِ تعالى، وأنَّه أوحاه إلى نَبيِّه كما أوحَى إلى غَيرِه مِن الأنبياءِ.

٢- الحَديثُ عن بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى وسَعةِ مُلكِه، وأنَّه تعالى قادِرٌ على أن يَجعَلَ النَّاسَ أمَّةً واحِدةً.

٣- الإنكارُ على المُشرِكينَ، وسَوقُ بَعضِ الأدِلَّةِ على بُطلانِ شِرْكِهم.

٤- الأمرُ بالرُّجوعِ إلى حُكمِ اللهِ تعالى عندَ الاختِلافِ.

٥- تقريرُ وَحدةِ الرِّسالةِ، وأنَّ التَّفَرُّقَ الَّذي قد وقَعَ بيْنَ النَّاسِ يَرجِعُ إلى البَغيِ واتِّباعِ الأهواءِ.

٦- أمرُ اللهِ لِرَسولِه بالدَّعوةِ والاستِقامةِ، وإبطالُ حُجَجِ المعانِدينَ، وتوعُّدُهم بالوَعيدِ الشَّديدِ.

٧- ذِكرُ اقتِرابِ السَّاعةِ، ومَوقِفِ الكُفَّارِ والمؤمِنينَ منها في الدُّنيا، وحالِ كُلٍّ منهما يومَ القيامةِ.

٨- ذِكرُ شُبهةِ أنَّ الرَّسولَ افترَى على الله الكَذِبَ، مع الرَّدِّ عليها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٩).

قال الفيروزابادي: (مُعظَمُ مَقصودِ السُّورةِ: بيانُ حُجَّةِ التَّوحيدِ، وتقريرُ نُبُوَّةِ الرَّسولِ، وتأكيدُ شَريعةِ الإسلامِ). ((بصائر ذوي التمييز)) (١/ ٤١٨).

٩- ذِكرُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ الله تعالى ونِعَمِه على الخَلقِ، وأنَّه يَقبَلُ تَوبةَ التَّائِبينَ، ويَعفو عن سيِّئاتِهم، وأنَّه يُنَزِّلُ الغَيثَ عليهم، وأنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما فيهما مِن دَوابَّ، وأنَّه قادِرٌ على جَمْعِهم، وأنَّ مِن آياتِه السُّفُنَ الجاريةَ في البَحرِ.

١٠- بيانُ بَعضِ صِفاتِ المُؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

١١- بيانُ الأحوالِ السَّيِّئةِ الَّتي سيكونُ عليها الظَّالِمونَ يومَ القيامةِ.

١٢- الأمرُ بالاستِجابةِ لله، والاستِسلامِ لحُكمِه.

١٣- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ هو مُتولِّي جزاءِ المكَذِّبين، وما على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا البلاغُ.

١٤- الكَشفُ عن طبيعةِ الإنسانِ حالَ السَّعةِ والنِّعمةِ، وحالَ الضِّيقِ والشِّدَّةِ.

١٥- ذِكرُ مِلْكِ اللهِ للسَّمواتِ والأرضِ، وقُدرتِه وهِبَتِه الأولادَ لِمَن يَشاءُ.

١٦- بيانُ كيفيَّةِ نُزولِ الوَحيِ على الأنبياءِ.

١٧- خُتِمَت السُّورةُ بامتِنانِ اللهِ على رَسولِه بالوَحيِ، وتقريرِ أنَّ مَرجِعَ الأُمورِ إلى اللهِ تعالى وَحْدَه.

## الآيات (١-٦)

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَفَطَّرۡنَ﴾: أي: يَتشَقَّقْنَ ويَتصدَّعْنَ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[1].

﴿حَفِيظٌ﴾: أي: حافظٌ، ورَقيبٌ، وشاهدٌ، وأصلُ (حفظ): يدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

ابتدأَتْ هذه السُّورةُ الكَريمةُ ببَعضِ الحُروفِ المُقَطَّعةِ، وقد تقدَّم الكلامُ عنها في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ (فصلت)، ثمَّ يُخبِرُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِلًا له: مِثلَ ذلك الإيحاءِ يُوحِي إليك -يا مُحمَّدُ- وإلى الَّذين مِن قَبلِك مِنَ الأنبياءِ: اللهُ العَزيزُ الحَكيمُ، له سُبحانَه ملْكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، وهو العَليُّ العَظيمُ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ مظاهرِ كمالِه وجلالِه وعظَمتِه، فيقولُ: تَكادُ السَّمَواتُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٦، ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢).

يَتشقَّقْنَ مِن فَوقِهنَّ، والملائِكةُ يُنزِّهونَ اللهَ تعالى عمَّا لا يليقُ بجَلالِه وكَمالِه، ويَسألونَ اللهَ المَغفِرةَ لذُنوبِ مَن في الأرضِ، ألَا إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الغَفورُ الرَّحيمُ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سوءَ عاقبةِ المشركينَ، فيقولُ: والَّذين اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أَولياءَ يُطيعونَهم ويَعبُدونَهم فاللهُ شَهيدٌ ورَقيبٌ على أعمالِهم، وما أنت -يا مُحمَّدُ- بمُوكَّلٍ بحِفظِ أعمالِهم أو هِدايتِهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحُروفِ المُقطَّعةِ في تَفسيرِ أوَّلِ سُورةِ (فصلت)[1].

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣﴾.

أي: مِثلَ ذلك الإيحاءِ[2] يُوحِي إليك -يا مُحمَّدُ- وإلى الَّذين مِن قَبلِك مِنَ

---

(١) قال ابنُ عثيمين: (هذه الحروفُ ذاتُها ليس لها معنًى... لكِنْ لها مغزًى يقترِنُ بالتَّحَدِّي، وهو أن يُقالَ: إنَّكم -أيُّها العَرَبُ- تُرَكِّبونَ كَلامَكم مِن هذه الحُروفِ، والقرآنُ لم يأتِ بحَرفٍ لم تتكَلَّموا به، بل كُلُّه مِن الحروفِ الَّتي تتكَلَّمون بها، وهذا مِثالُ «ح م ع س ق»، ومع هذا عجَزْتُم أن تأتوا بمِثلِه... ويدُلُّ لهذا المغزى ... أنَّك لا تجِدُ سُورةً مَبدوءةً بهذه الحُروفِ إلَّا وبعدَها ذِكرُ القُرآنِ الكريمِ، أو ذِكرُ ما لا يمكِنُ إلَّا بوَحيٍ... ليس هناك إلَّا سورتانِ أو ثلاثٌ، لكِنْ في حقيقةِ الأمرِ أنَّ الَّذي يلي هذه الحروفَ لا يَتأتَّى العِلمُ به إلَّا عن طريقِ الوَحيِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١).

(٢) ممَّن اختار المعنَى المذكورَ، وأنَّ الإشارةَ تعودُ إلى الإيحاءِ: جلالُ الدِّين المحلِّي، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥).

وقال ابن عاشور: (المعنى: مِثلَ هذا الوحيِ يُوحي اللهُ إليك، فالمشارُ إليه: الإيحاءُ المأخوذُ مِن فِعلِ ﴿يُوحِيٓ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦).

وقيل: الإشارةُ بـ(ذلك) تعودُ على ما تَضَمَّنه القرآنُ أو السُّورةُ. =

الأنبياءِ: اللهُ العَزيزُ ذو القَدْرِ العَظيمِ، الغالبُ القاهرُ لِمَن سِواه، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[١].

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه أنَّه صاحِبُ الوَحيِ بالشَّرائِعِ دائِمًا قَديمًا وحديثًا؛ عَلَّل ذلك بأنَّه صاحِبُ المُلْكِ العامِّ، فقال[٢]:

﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: لله مُلكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ؛ فكُلُّ شَيءٍ تحتَ قَهرِه وتَدبيرِه[٣].

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾.

---

= ممَّن اختار أنَّ الإشارةَ تعودُ على القرآنِ: ابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

قال ابن كثير: (كما أنْزَل إليكَ هذا القرآنَ، كذلك أنْزَل الكُتُبَ والصُّحُفَ على الأنبياءِ قَبْلَك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠).

وممَّن اختار أنَّ الإشارةَ تعودُ على السُّورةِ، وأنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾: أي: مِثلَ ما في هذه السُّورةِ مِن المعاني: الزمخشريُّ، والرازي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧١).

قال أبو السُّعودِ: (على أنَّ مناطَ المُماثَلةِ ما أُشيرَ إليه مِن الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، والإرشادِ إلى الحَقِّ وما فيه صلاحُ العِبادِ، في المعاشِ والمَعادِ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

وقيل في معنى الآية غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤-٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤١، ٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

أي: وهو العَلِيُّ على كُلِّ شَيءٍ بذاتِه وصِفاتِه وقَدْرِه وقَهْرِه؛ فلا شَيءَ أعلَى منه، ذو العَظَمةِ في ذاتِه وصِفاتِه؛ فلا شَيءَ أعظَمُ منه[1].

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان السِّياقُ مُفهِمًا عَظيمَ مُلكِه سُبحانَه وقُدرتِه، بكَثرةِ ما في الأكوانِ مِن الأجسامِ والمعاني الَّتي هي لِفَظاعتِها لا تُحتَمَلُ، قال مُبَيِّنًا لذلك[2]:

﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ ﴾.

أي: تُوشِكُ السَّمَواتُ أن يَتشَقَّقْنَ مِن فَوقِهنَّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦-٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩، ٤٠).

قيل: المرادُ: تكادُ السَّمَواتُ يَتفَطَّرْنَ؛ تَعظيمًا ومَخافةً لِمَن فَوقَهنَّ، وهو اللهُ تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٣).

وقال الثَّعلبيُّ: (﴿يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ أي: مِن عَظَمةِ الله وجَلالِه فَوْقَهُنَّ). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٠٣). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٦).

وقيل: المرادُ: يَتشَقَّقنَ مِن فَوقِ الأرَضينَ؛ مِن عَظَمةِ الرَّحمنِ وجَلالِه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ ونسَبه لجميعِ المفسِّرينَ، والسَّمْعانيُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٥٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٣). =

= ممَّن قال مِن السَّلفِ إنَّ المعنى: مِن عَظَمةِ الله: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ، وكعبُ الأحبارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٦، ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٠).

وقال البِقاعي: (﴿مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ الَّذي جَرَت العادةُ أن يكونَ أصلَبَ ممَّا تحتَه؛ فانفطارُ غَيرِه مِن بابِ الأَولى، وابتداءُ الانفطارِ مِن ثَمَّ؛ لأنَّ جهةَ الفَوقِ أجدَرُ بتجَلِّي ما يَشُقُّ حَملُه مِن عظيمِ العَظَمةِ والجَلالِ والكِبرياءِ والعِزَّةِ... أو يكونُ انفطارُهنَّ مِن عظيمِ شَناعةِ الكُفرِ بالَّذي خَلَق الأرضَ في يومَينِ، وجَعْلِهم له أندادًا... وهذا كنايةٌ عن التَّخويفِ بالعذابِ؛ لأنَّ مِن المعلومِ أنَّ العاليَ إذا انفطر تهيَّأَ للسُّقوطِ، فإذا سَقَط أهلَكَ مَن تحتَه، فكيف إذا كان مِن العُلُوِّ والعِظَمِ وثِقلِ الجِسمِ على صِفةٍ لا يحيطُ بها إلَّا بارئُها؟! فذِكرُ الفَوقِ تَصويرٌ لِما يترتَّبُ على هذا الانفطارِ مِن البلايا الكِبارِ، وعلى هذا يَحسُنُ أن يعودَ الضَّميرُ على الأراضي الَّتي كَفَروا بفاطِرِها). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٤٢، ٢٤٣).

وقال ابنُ عاشور: (يُوشِكُ إنْ هُنَّ تفَطَّرْنَ أن يَخِرْنَ على الأرضِ، أي: يَكادُ يَقَعُ ذلك؛ لِما فشا في الأرضِ مِن إشراكٍ وفَسادٍ، على معنى قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ۞ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٠]، ويُرَجِّحُه قَولُه الآتي: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الشورى: ٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠).

وقيل: المعنى: كُلُّ واحدةٍ منها تتفَطَّرُ فوقَ الَّتي تليها؛ بسَبَبِ قَولِ المُشرِكينَ: اتَّخَذ اللهُ ولَدًا. وممَّن ذهب إليه: الواحديُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٠٣).

قال الشنقيطي: (اعلَمْ أنَّ سببَ مُقارَبةِ السَّمواتِ لِلتَّفطُّرِ في هذه الآيةِ الكريمةِ فيه للعلماءِ وجْهانِ، كِلاهما يدُلُّ له قرآنٌ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنَّ المعنى: تَكادُ السَّمواتُ يَتفطَّرْنَ خَوفًا مِن الله، وهَيْبةً وإجلالًا، ويدُلُّ لهذا الوجهِ قولُه تعالى قبْلَه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]؛ لأنَّ عُلُوَّه وعَظَمتَه سبَّبَ للسَّمواتِ ذلك الخَوفَ والهَيبةَ والإجلالَ، حتَّى كادتْ تَتفطَّرُ. وعلى هذا الوجهِ فقولُه بعدَه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مُناسَبتُه لِما قبْلَه واضحةٌ؛ لأنَّ المعنى: أنَّ السَّمواتِ في غايةِ الخَوفِ منه تعالى والهَيبةِ والإجلالِ له، وكذلك سُكَّانُها مِن الملائكةِ، فهم ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: يُنَزِّهونه عن كلِّ ما لا يَليقُ بكمالِه =

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٢].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

أي: والمَلائِكةُ يُنَزِّهونَ اللهَ تعالى عمَّا لا يَليقُ به مِنَ النَّقائِصِ، ويَصِفونَه بصِفاتِ الكَمالِ؛ مَحبَّةً له وتَعظيمًا(١).

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ويَسألونَ اللهَ المَغفِرةَ لذُنوبِ مَن في الأرضِ مِن المُؤمِنينَ(٢).

---

= وجَلالِه، مع إثباتِهم له كلَّ كمالٍ وجلالٍ؛ خَوفًا منه وهَيبةً وإجلالًا، كما قال تعالى: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾ [الرعد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٤٩، ٥٠]. فهُم لِشِدَّةِ خَوفِهم مِن الله وإجلالِهم له يُسَبِّحون بحمدِ ربِّهم، ويَخافون على أهلِ الأرضِ؛ ولذا يَستغفِرون لهم خَوفًا عليهم مِن سخطِ الله وعِقابِه...

الوجهُ الثَّاني: أنَّ المعنى: تَكادُ السَّمواتُ يَتفطَّرْنَ مِن شِدَّةِ عِظَمِ الفِريةِ الَّتي افتراها الكفَّارُ على خالقِ السَّمواتِ والأرضِ جلَّ وعلا، مِن كَونِه اتَّخذ ولَدًا سبحانه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا! وهذا الوجهُ جاء موضَّحًا في سورةِ «مريمَ» في قولِه تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٣]... وكِلا الوجهَينِ حقٌّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (٣٨-٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: ((الملائكةُ تُصَلِّي على أحَدِكُم ما دام في مُصلَّاه الذي صلَّى فيه، ما لم يُحدِثْ، تقولُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ له، اللَّهُمَّ ارحَمْه)) (١).

﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: ألَا إنَّ اللهَ وَحْدَه هو البالِغُ المَغفرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، العَظيمُ الرَّحمةِ بهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٦﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: وأمَّا الَّذين اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ يَتولَّونَهم بالعِبادةِ والطَّاعةِ، فاللهُ شَهيدٌ ورَقيبٌ على أعمالِهم يُحْصيها عليهم؛ ليُجازيَهم بها يومَ القيامةِ(٣).

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾.

أي: وما أنت -يا مُحمَّدُ- بمُوكَّلٍ بحِفظِ أعمالِهم، أو بقَسْرِهم على الهِدايةِ،

---

(١) رواه البخاري (٤٤٥) واللفظ له، ومسلم (٦٤٩) (١/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١، ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٨، ٤٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢ - ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٤٩، ٥٠).

وإنَّما عليك إنذارُهم وتَبليغُهم، وعلى الله حِسابُهم[١].

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾ [يونس: ١٠٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ فإذا آمَن العبدُ أنَّ الله حكيمٌ في شرعِه، حكيمٌ في خَلقِه، فإنَّه لا يبقَى لديه شكٌّ في أنَّ ما شرَعه خيرٌ، وما قدَّره خيرٌ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أنَّنا إذا عَلِمْنا أنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ؛ فجديرٌ بنا أنْ نسألَه المغفرةَ والرَّحمةَ؛ لأنَّه أهلٌ لذلك، فيكونُ في هذا تربيةٌ للإنسانِ وسلوكِه في وُصولِه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بأنْ يَعلَمَ بأنَّه غفورٌ فيَستغفِرَ؛ وأنَّه رحيمٌ فيَسترحِمَ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ تسليةُ الدُّعاةِ إلى اللهِ إذا لم يُطِعْهم النَّاسُ[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿حمٓ * عٓسٓقٓ﴾ لم تُوصَلِ الميمُ بالعَينِ كما وُصِلَتِ الميمُ بالرَّاءِ في طالعةِ سُورةِ (الرَّعْدِ) ﴿الٓمٓر﴾، وكما وُصِلَتِ الميمُ بالصَّادِ في مُفتتَحِ سُورةِ (الأعرافِ) ﴿الٓمٓصٓ﴾، وكما وُصِلَتِ العَينُ والصَّادُ بما قبْلَهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١).

في مُفتتَحِ سُورةِ (مريمَ) ﴿كٓهيعٓصٓ﴾؛ لأنَّ ما بعْدَ الميمِ في سورةِ (الرَّعدِ) وسورةِ (الأعرافِ) حرْفٌ واحدٌ، وما بعدَ الحرفِ الثَّالثِ في سورةِ (مريمَ) حَرفانِ، فاتِّصالُه بما قبْلَه أَولى، بخِلافِ ما في هذه السُّورةِ؛ فإنَّه ثلاثةُ حُروفٍ تُشبِهُ كلمةً، فكانتْ أَولى بالانفصالِ[1]. وقيل: لأنَّها سورةٌ أوائلُها «حم»، فجرَتْ مَجرى نظائرِها، فكان «حم» مُبتدَأً و«عسق» خبرَه، ولأنَّهما عُدَّا آيتَينِ، وأخَواتُها مِثلُ: «كهيعص» و«المص» و«المر» عُدَّتْ آيةً واحدةً. وقيل غيرُ ذلك[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فيه بَيانُ فَضلِه تعالى بإنزالِ الكُتُبِ وإرسالِ الرُّسُلِ سابِقًا ولاحِقًا، وأنَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس ببِدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ، وأنَّ طَريقتَه طَريقةُ مَن قَبْلَه، وأحوالَه تُناسِبُ أحوالَ مَن قبْلَه مِن المُرسَلينَ، وما جاء به يُشابِهُ ما جاؤوا به؛ لأنَّ الجَميعَ حَقٌّ وصِدقٌ[3].

٣- قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ كمالُ عِزَّتِه وكمالُ حكمتِه؛ لأنَّ اللهَ قَرَن بيْنَ العزيزِ والحكيمِ؛ إشارةً إلى أنَّ عِزَّتَه وغَلَبَتَه مَبنيَّةٌ على الحكمةِ، فعِزَّةُ المخلوقِ قد تُوجِبُ أنْ يَتصرَّفَ تصرُّفًا سفيهًا، كما في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، فهنا صار له عِزَّةٌ لكنَّها لم تَنْفَعْه؛ لأنَّها ليست مَقرونةً بالحكمةِ، كذلك أيضًا حكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ مقرونةٌ بعِزَّتِه؛ لأنَّ الحكيمَ قد يكونُ خَوَّارًا ليس عندَه غلَبةٌ؛ فيَفوتُه شَيءٌ كثيرٌ، ويَفوتُه الحَزْمُ مِن أجْلِ أنَّه يقولُ: إنَّ ذلك هو الحكمةُ! لكنَّ حكمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ مقرونةٌ بعِزَّتِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٢).

ولهذا نحن نستفيدُ الآنَ مِن قَرْنِ الأسماءِ بعضِها ببعضٍ معنًى زائدًا على ما نستفيدُه مِن مجرَّدِ الاسمِ[١].

٤- قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ أنَّ الشَّرائعَ الَّتي أُوحِيَت إلى الرُّسُلِ عِزَّةٌ وحِكمةٌ؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، فمَن تَمسَّكَ بهذه الشَّرائعِ نال الأمْرَينِ جَميعًا وهما مجتَمِعانِ: العِزَّةُ والحِكمةُ، والحُكمُ أيضًا[٢].

٥- قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ اسْتِقْراءُ القرآنِ قد دَلَّ على أنَّ اللهَ -جَلَّ وعَلا- إذا ذَكَر تَنْزيلَه لِكِتابِه أتْبَع ذلك بعضَ أسمائِه الحسنَى وصِفاتِه العُلْيا[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ أنَّ العُلُوَّ صِفةٌ لازِمةٌ ليست مِن صِفاتِ الأفعالِ الَّتي إنْ شاء فَعَلها وإنْ شاء لم يَفعَلْها. وَجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ العَلِيَّ صِفةٌ مُشبَّهةٌ[٤]، والصِّفةُ المُشبَّهةُ تُفيدُ الثُّبوتَ، وعدَمَ التَّحوُّلِ[٥].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ﴾ فيه التَّصريحُ بالعُلُوِّ المُطلَقِ الدَّالِّ على جَميعِ مَراتِبِ العُلُوِّ؛ ذاتًا وقَدْرًا وشَرَفًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨).

(٤) الصِّفةُ المُشَبَّهةُ: ما اشتُقَّ مِن فِعلٍ لازِمٍ لِمَن قام به على معنى الثُّبوتِ. يُنظر: ((الكافية في علم النحو)) للإسنوي (ص: ٤١)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢).

(٦) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٣٠١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ بيانُ عَظَمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وأنَّ هذه السَّمواتِ -على شِدَّتِها وقُوَّتِها- تَكادُ تَتَفَطَّرُ مِن عظَمةِ اللهِ تعالى، وهذا كقولِه لَمَّا سأل موسَى أنْ يرَى ربَّه، قال: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، بل إنَّ كلامَ اللهِ عزَّ وجلَّ -وهو كلامُه- لو نَزَل على جبلٍ ﴿لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ففي هذه الآيةِ: بيانُ عظَمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

٩- قولُه تعالى: ﴿مِن فَوۡقِهِنَّ﴾ فيه بيانُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ الذَّاتيِّ، ، فلم يقُلْ: (مِن أسفلُ)؛ لأنَّ اللهَ سبحانَه فوقُ، والسَّمواتُ تَكادُ تَنفطِرْنَ مِن فَوقِهنَّ مِن عظَمتِه(٢)، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٠- قولُه تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ فيه فَضيلةُ الجَمعِ بيْنَ التَّسبيحِ والتَّحميدِ، وقد ثَبَتَ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قَولُه: ((كَلِمتانِ حَبيبتانِ إلى الرَّحمنِ، خَفيفتانِ على اللِّسانِ، ثَقيلتانِ في الميزانِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه، سُبحانَ اللهِ العَظيمِ))(٣).

١١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ التَّسبيحُ مُقَدَّمٌ على التَّحميدِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ عِبارةٌ عن تنزيهِ اللهِ تعالى عمَّا لا يَنبغي، والتَّحميدَ عِبارةٌ عن وَصفِه بكَونِه مُفيضًا لكُلِّ الخَيراتِ. وكَونُه مُنزَّهًا في ذاتِه عمَّا لا يَنبغي مُقَدَّمٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٦).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٧٥٦٣) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

بالرُّتبةِ على كَونِه فيَّاضًا للخَيراتِ والسَّعاداتِ؛ لأنَّ وُجودَ الشَّيءِ مُقَدَّمٌ على إيجادِ غَيرِه، وحُصولَه في نَفْسِه مُقَدَّمٌ على تأثيرِه في حُصولِ غَيرِه؛ فلهذا السَّبَبِ كان التَّسبيحُ مُقَدَّمًا على التَّحميدِ[1].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَصِحُّ أن يَستَغفِروا لِمَن في الأرضِ وفيهم الكُفَّارُ، وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ١٦١]، فكيف يَكونونَ لاعِنينَ ومُستَغفِرينَ لهم؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ قَولَه ﴿لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لا يُفيدُ العُمومَ؛ لأنَّه يَصِحُّ أن يُقالَ: إنَّهم استَغفَروا لكُلِّ مَن في الأرضِ، وأن يُقالَ: إنَّهم استَغفَروا لِبَعضِ مَن في الأرضِ دونَ البَعضِ، ولو كان قَولُه: ﴿لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ صريحًا في العُمومِ لَما صَحَّ ذلك التَّقسيمُ.

**الوَجهُ الثَّاني**: هَبْ أنَّ هذا النَّصَّ يُفيدُ العُمومَ، إلَّا أنَّه تعالى حكى عن الملائِكةِ في سورةِ (غافرٍ) فقال: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧].

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: يجوزُ أن يكونَ المرادُ مِنَ الاستِغفارِ ألَّا يُعاجِلَهم بالعِقابِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] إلى أن قال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

**الوَجهُ الرَّابعُ**: يجوزُ أن يُقالَ: إنَّهم يَستَغفِرونَ لكُلِّ مَن في الأرضِ، أمَّا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٨).

حَقِّ الكُفَّارِ فبِواسِطةِ طَلَبِ الإيمانِ لهم، وأمَّا في حَقِّ المؤمِنينَ فبالتَّجاوُزِ عن سَيِّئاتِهم(١).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يدُلُّ على أنَّهم لا يَستغفِرونَ لأنفُسِهم، وحيثُ لم يَذكُرِ اللهُ عنهم استِغفارَهم لأنفُسِهم، عَلِمْنا أنَّهم مُبَرَّؤونَ عن كلِّ الذُّنوبِ(٢).

١٤- في قولِه تعالى: ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أنَّ الأسماءَ الحسنى تكونُ كامِلةً بانفِرادِها واجتِماعِها؛ لأنَّه لَمَّا جَمَعَ بيْنَ الغفورِ والرَّحيم تَوَلَّدَ منهما صِفةٌ ثالثةٌ غيرُ المغفرةِ والرَّحمةِ، وهي اجتماعُ هذَينِ الاسمَينِ الدَّالَّينِ على الوصفِ في حقِّ اللهِ عزَّ وجلَّ، فبِالمغفرةِ تُمْحَى الذُّنوبُ؛ وبالرَّحمةِ يَحصُلُ المطلوبُ(٣).

١٥- قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ في وَصفِه تعالى بهذه الأوصافِ بعدَ أنْ ذَكَر أنَّه أوحى إلى الرُّسُلِ كُلِّهم عُمومًا، وإلى محمَّدٍ -صلَّى الله عليهم أجمعينَ- خُصوصًا: إشارةٌ إلى أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ فيه مِنَ الأدِلَّةِ والبَراهينِ والآياتِ الدَّالَّةِ على كمالِ الباري تعالى، ووَصفِه بهذه الأسماءِ العَظيمةِ المُوجِبةِ لامتِلاءِ القُلوبِ مِن مَعرفتِه ومَحبَّتِه، وتَعظيمِه وإجلالِه وإكرامِه، وصَرفِ جَميعِ أنواعِ العُبوديَّةِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ له تعالى، وأنَّ مِن أكبَرِ الظُّلمِ وأفحَشِ القَولِ اتِّخاذَ أندادٍ لله مِن دونِه، ليس بيَدِهم نَفعٌ ولا ضَرَرٌ، بل هم مخلوقون مُفتَقِرون إلى اللهِ في جميعِ أحوالِهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٧٨، ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

١٦- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ فيه بيانُ عُمومِ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ يَشملُ جميعَ ما يَقومون به مِن عمَلٍ، وهذا يدُلُّ على سَعةِ عِلْمِ اللهِ سُبحانَه واطِّلاعِه(١).

١٧- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بَشَرٌ ليس له مِن الأمرِ شَيءٌ؛ فهو لا يَعْلَمُ الغَيبَ، ولا يستطيعُ أنْ يُحصيَ أعمالَ العبادِ، ولا أنْ يَهديَ أحدًا، ولا يَلْزَمُه إلَّا أنْ يُبَلِّغَ، وهذه الآيةُ لها شواهدُ لفظيَّةٌ ومعنويَّةٌ، قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]، يعني: لا تستطيعُ، وإذا كان سيِّدُ الدُّعاةِ وإمامُهم لا يَمْلِكُ أنْ يَهديَهم؛ فما بالُك بمَن سِواه(٢)؟!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿حمٓ ۞ عٓسٓقٓ ۞ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- ابتُدِئتْ هذه السُّورةُ بالحُروفِ المقطَّعةِ ﴿حمٓ ۞ عٓسٓقٓ﴾؛ لأنَّ ابتداءَها مُشيرٌ إلى التَّحدِّي بعَجْزِهم عن مُعارَضةِ القرآنِ، وأنَّ عجْزَهم عن مُعارَضتِه دَليلٌ على أنَّه كلامٌ مُنزَّلٌ مِن اللهِ تعالى. وخُصَّتْ بزِيادةِ كَلمةِ ﴿عٓسٓقٓ﴾ على أوائلِ السُّورِ مِن (آل حم)؛ ولعلَّ ذلك لحالٍ كانوا عليه مِن شِدَّةِ الطَّعنِ في القُرآنِ وَقتَ نُزولِ هذه السُّورةِ، فكان التَّحدِّي لهم بالمعارَضةِ أشَدَّ؛ فزِيدَ في تَحدِّيهم مِن حُروفِ التَّهجِّي(٣).

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ المشارُ إليه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥١، ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦).

الإيحاءُ المأخوذُ مِن فِعلِ ﴿يُوحِيٓ﴾، أي: مِثلَ هذا الوحْيِ يُوحِي اللهُ إليك. وقولُه: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ إدْماجٌ[1]. والتَّشبيهُ بالنِّسبةِ إليه على أصلِه، أي: مِثلُ وَحْيِ اللهِ إليك وَحْيُه إلى الَّذين مِن قبْلِك، والغرَضُ مِن التَّشبيهِ إثباتُ التَّسويةِ، أي: ليس وحْيُ اللهِ إليك إلَّا على سُنَّةِ وَحْيِه إلى الرُّسلِ مِن قبْلِك؛ فليس وَحْيُه إلى الرُّسلِ مِن قبْلِك بأوضَحَ مِن وَحْيِه إليك، وهذا كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، أي: ما جاء به مِن الوحْيِ إنْ هو إلَّا مِثلُ ما جاءتْ به الرُّسلُ السَّابِقونَ، فما إعراضُ قَومِك عنه إلَّا كإعراضِ الأُممِ السَّالِفةِ عمَّا جاءتْ به رُسُلُهم؛ فحصَلَ هذا المعنى الثَّاني بغايةِ الإيجازِ معَ حُسنِ مَوقعِ الاستِطرادِ[2].

- وقيل: قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ واردٌ لِتَحقيقِ أنَّ مَضمونَ السُّورةِ مُوافقٌ لِمَا في تَضاعيفِ سائرِ الكُتبِ المنزَّلةِ على الرُّسلِ المتقدِّمةِ في الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، والإرشادِ إلى الحقِّ، أو أنَّ إيحاءَها مِثلُ إيحائِها بعْدَ تَنويهِها بذِكرِ اسْمِها، والتَّنبيهِ على فَخامةِ شأْنِها[3].

- وما في اسمِ الإشارةِ (ذَلِكَ) مِن مَعنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبةِ المُشارِ إليهِ، وبُعْدِ مَنزلتِه في الفضْلِ[4].

- وفي جَعْلِ مَضمونِ السُّورةِ أو إيحائِها مُشبَّهًا به مِن تَفخيمِها ما لا يَخْفى[5].

- وتَقديمُ المجرورِ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على ﴿يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾؛ للاهتِمامِ

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦، ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالمشارِ إليه، والتَّشويقِ بتَنبيهِ الأذهانِ إليه[١].

- والجارُّ والمجرورُ ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ صِفةٌ لِمَفعولٍ مُطلَقٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿يُوحِيٓ﴾؛ إذ لمْ يَتقدَّمْ في الكلامِ ما يَحتمِلُ أنْ يكونَ مُشارًا إليه بـ (كذلك)، فعُلِمَ أنَّ المشارَ إليه مُقدَّرٌ مَعلومٌ مِن الفعلِ الَّذي بعْدَ اسمِ الإشارةِ، وهو المصدرُ المأْخوذُ مِن الفِعلِ، أي: كذلك الإيحاءِ يُوحي إليك اللهُ[٢].

- قولُه: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ ﴾ قاله بلَفظِ المضارِعِ، مع أنَّ الوحيَ إلى مَن قبْلَ النَّبيِّ ماضٍ؛ للإيذانِ باستِمرارِ الوحْيِ، وأنَّ إيحاءَ مِثلِه عادتُه وسُنَّتُه، وهذا لا يُوجَدُ في لفظِ الماضي[٣].

- وأيضًا العُدولُ عن صِيغةِ الماضي إلى صِيغةِ المضارِعِ في قولِه: ﴿يُوحِيٓ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ إيحاءَه إليه مُتجدِّدٌ لا يَنقطِعُ في مدَّةِ حياتِه الشَّريفةِ؛ لِيَيْئَسَ المشرِكونَ مِن إقلاعِه، بخِلافِ قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقولِه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾ [الشورى: ٧]؛ إذ لا غرَضَ في إفادةِ معنى التَّجدُّدِ هناك، وأمَّا مُراعاةُ التَّجدُّدِ هنا؛ فلأنَّ المقصودَ مِن الآيةِ هو ما أُوحِيَ به إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن القرآنِ، وأنَّ قولَه: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ إدماجٌ[٤]. ويجوزُ اعتبارُ صِيغةِ المضارِعِ مَنْظورًا فيها إلى مُتعلَّقَيِ الإيحاءِ، وهو ﴿إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾، فيَكونُ المضارِعُ لاستِحضارِ الصُّورةِ مِن الإيحاءِ إلى الرُّسلِ؛ حيثُ استبْعَدَ المشرِكونَ وُقوعَه، فجُعِلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

كأنَّه مُشاهَدٌ[١].

- وقولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ على قِراءةِ ﴿يُوحَى﴾ بالبِناءِ للمفعولِ[٢]، على أنَّ ﴿إِلَيۡكَ﴾ نائبُ فاعلٍ؛ فيكونُ اسمُ الجَلالةِ مَرْفوعًا على الابتِداءِ بجُملةٍ مُستأنَفةٍ استِئْنافًا بَيانيًّا، كأنَّه لَمَّا قال: يُوحى إليك، قِيل: ومَن يُوحِيه؟ فقِيل: اللهُ العزيزُ الحَكيمُ، أي: يُوحِيه اللهُ[٣].

- وتأخيرُ الفاعلِ ﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾؛ لِمُراعاةِ الفواصلِ، مع ما فيه من التَّشويقِ[٤].

- وإجراءُ وَصْفَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ على اسمِ الجَلالةِ دونَ غيرِهما؛ لأنَّ لِهاتَينِ الصِّفتَينِ مَزيدَ اختِصاصٍ بالغرَضِ المقصودِ مِن أنَّ اللهَ يَصْطفي مَن يَشاءُ لرِسالتِه؛ فالعزيزُ: المُتصرِّفُ بما يُريدُ لا يَصُدُّه أحدٌ، والحكيمُ: يَحمِلُ كَلامُه مَعانيَ لا يَبلُغُ إلى مِثلِها غيرُه، وهذا مِن مُتمِّماتِ الغرَضِ الَّذي افتُتِحَتْ به السُّورةُ؛ وهو الإشارةُ إلى تَحدِّي المعانِدينَ بأنْ يأْتوا بسُورةٍ مِثلِ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ[٥].

- وأيضًا في وَصْفِه تعالى بوَصفَيِ العِزَّةِ والحِكمةِ مِن التَّفخيمِ ما لا يَخْفى، وهما صِفتانِ للَفظِ الجلالةِ مُقرِّرتانِ لِعُلوِّ شأْنِ الموحَى به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧، ٢٨).

(٢) قرأها ابنُ كثيرٍ بفتحِ الحاءِ على ما لم يُسَمَّ فاعِلُه، وقرأها الباقون بكَسرِها. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٣٩)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١).

٢- قولُه تعالى: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

- جملةُ ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِوَصْفِ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣]؛ لأنَّ مَن كان ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِلكًا له، تَتحقَّقُ له العِزَّةُ؛ لقُوَّةِ ملَكوتِه، وتَتحقَّقُ له الحِكمةُ؛ لأنَّ الحِكمةَ تَقتضي خَلْقَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، وإتقانَ ذلك النِّظامِ الَّذي تَسيرُ به المخلوقاتُ. ولِكَونِ هذه الجُملةِ مُقرِّرةً معنَى الَّتي قبْلَها، كانتْ بمَنزلةِ التَّأكيدِ؛ فلم تُعطَفْ عليها[1].

- وجملةُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، مُقرِّرةٌ لِما قرَّرَتْه الجُملةُ قبْلَها؛ فإنَّ مَنِ اتَّصَفَ بالعَلاءِ والعظَمةِ لو لم يكُنْ عَزيزًا، لَتَخلَّفَ عَلاؤُه وعظَمتُه، ولا يكونُ إلَّا حكيمًا؛ لأنَّ عَلاءَه يَقتضي سُمُوَّه عن سَفاسفِ الصِّفاتِ والأفعالِ، ولو لم يكُنْ عظيمًا لَتعلَّقتْ إرادتُه بسَفاسفِ الأمورِ، ولَتنازَلَ إلى عبَثِ الفِعالِ. وأفادتْ صِيغةُ الجُملةِ (بتعريفِ جُزْأَيْها) معنى القَصْرِ، أي: لا عَلِيَّ ولا عظيمَ غيرُه؛ لأنَّ مَن عَداهُ لا يَخْلو عن افتقارٍ إليه؛ فلا عُلوَّ له ولا عظَمةَ، وهذا قصْرُ قلْبٍ[2].

٣- قولُه تعالى: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

- قولُه: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مقرِّرةٌ لمعنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩).

وقصرُ القلبِ تقدم تعريفه (ص: ٢٨٦).

جُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]؛ ولذلك لم تُعطَفْ عليها[١].

- قولُه: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ أي: يَتشقَّقْنَ مِن عَظَمةِ اللهِ؛ يَدُلُّ عليه أنَّ الآيةَ بجُمْلتِها مُبيِّنةٌ لِمَعنى العَظَمةِ والعُلوِّ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، ولذلك تُرِكَ العاطفُ. وقيل: يَتفطَّرْنَ مِنِ ادِّعاءِ الولَدِ له؛ يُؤيِّدُه مَجيءُ قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ بعْدَه؛ والآيةُ على الأوَّلِ زِيادةُ تَقريرٍ لِعَظَمتِه، وعلى الثَّاني بَيانٌ لِكَمالِ تَقدُّسِه عمَّا نُسِبَ إليه، وأنَّ تَرْكَ مُعاجَلَتِهم بالعِقابِ على تلك الكلمةِ الشَّنْعاءِ بسَببِ استِغفارِ الملائكةِ، وفَرْطِ غُفرانِه ورَحمتِه؛ ففيها رمْزٌ إلى أنَّه تعالى يَقبَلُ استِغفارَهم، ويَزيدُهم على ما طَلَبوه مِن المغفرةِ رَحمةً[٢].

- وقرَأَ الجُمهورُ بالياءِ: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾، وأصلُه مُضارعُ التَّفطُّرِ، وهو مُطاوِعُ التَّفطيرِ الَّذي هو تَكريرُ الشَّقِّ، وقُرِئَ: ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾[٣]، وهو مُضارعُ (انفطَرَ)، وليس المقصودُ منه على القِراءتَينِ قَبولَ أثَرِ الفاعلِ؛ إذ لا فاعلَ هنا للشَّقِّ؛ وإنَّما المقصودُ الخبرُ بحُصولِ الفعلِ، وهذا كثيرٌ؛ كقولِهم: انشَقَّ ضَوءُ الفَجرِ؛ فلا الْتِفاتَ هنا لِما يُقصَدُ غالبًا في مادَّةِ التَّفعُّلِ مِن تَكريرِ الفعلِ؛ إذ لا فاعلَ للشَّقِّ هنا ولا لِتكرُّرِه، فاستَوَتِ القِراءتانِ في بابِ البلاغةِ[٤]. وقيل: الأوَّلُ أبلَغُ؛ لأنَّه مُطاوِعُ (فطَّر)، والثَّاني مُطاوِعُ (فطَرَ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢).

(٣) قرأها أبو عَمْرٍو ويعقوبُ وأبو بكرٍ بالنُّونِ وكسرِ الطَّاءِ، والباقون ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٠)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢).

- ويَجوزُ أنْ يكونَ ضميرُ ﴿فَوْقِهِنَّ﴾ عائدًا على السَّمواتِ؛ فيكونَ المجرورُ مُتعلِّقًا بفِعلِ ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾؛ بمعنى: أنَّ انشِقاقَهنَّ يَحصُلُ ويُبْتدَأُ مِن أعلاهُنَّ، وذلك أبلَغُ الانشِقاقِ؛ لأنَّه إذا انشَقَّ أعلاهُنَّ كان انشِقاقُ ما دُونَه أَولى. ويَجوزُ أنْ يكونَ الضميرُ عائدًا إلى الأرضِ مِن قولِه: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤]، على تأويلِ الأرضِ بأرَضينَ؛ باعتبارِ أجزاءِ الكُرةِ الأرضيَّةِ، أو بتأويلِ الأرضِ بسُكَّانِها، وتَكونَ (مِن) زائدةً زِيادتَها مع الظُّروفِ لِتَأكيدِ الفَوقيَّةِ؛ فيُفيدُ الظَّرفُ استِحضارَ حالةِ التَّفطُّرِ وحالةِ مَوقعِه(١).

- وقيل: إنَّما قال: ﴿مِن فَوْقِهِنَّ﴾؛ لأنَّ أعظَمَ الآياتِ وأدَلَّها على الجَلالِ والعَظَمةِ فَوقَ السَّمواتِ، وهي: العرْشُ، والكُرسيُّ، وصُفوفُ الملائكةِ المرتجَّةُ بالتَّسبيحِ والتَّقديسِ حوْلَ العرْشِ، وما لا يَعلَمُ كُنْهَه إلَّا اللهُ تعالى مِن آثارِ مَلَكوتِه العُظْمى؛ فلذلك قال: ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾، أي: يَبتدِئُ الانفطارُ مِن جِهَتِهنَّ الفوقانيَّةِ. أو لأنَّ كَلمةَ الكُفرِ جاءتْ مِن الَّذين تحتَ السَّمواتِ؛ فكان القياسُ أنْ يُقالَ: يَتفطَّرْنَ مِن تَحتِهنَّ مِن الجِهةِ الَّتي جاءتْ منها الكلمةُ، ولكنَّه بُولغَ في ذلك، فجُعِلَت مُؤثِّرةً في جِهةِ الفَوقِ، كأنَّه قيل: يَكَدْنَ يَتفطَّرْنَ مِن الجِهةِ الَّتي فَوقَهنَّ، دَعِ الجِهةَ الَّتي تَحتَهنَّ، ونَظيرُه في المُبالَغةِ قولُه عزَّ وعلا: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠]؛ فجُعِلَ الحميمُ مُؤثِّرًا في أجْزائهم الباطنةِ(٢).

- وعُطِفتْ جُملةُ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ...﴾ على جُملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾؛ لإفادتِها تَقريرَ معنى عظَمةِ اللهِ تعالى وجلالِه، المدلولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١١).

عليهما بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]. وهي أيضًا كالبيانِ لِما في جُملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ [الشورى: ٥]؛ لأنَّ مِن أسبابِ مُقارَبةِ تَفطُّرِهنَّ كَثرةَ ما فيهنَّ مِن الملائكةِ، ولولا أنَّها أُريدَ منها زِيادةُ تَقريرِ معنى جملةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [الشورى: ٤]، لَكانتْ جَديرةً بأنْ تُفصَلَ ولا تُعطَفَ، ولكنْ رُجِّحَ العطفُ مِن أجْلِ الاهتِمامِ بتَقريرِ العُلوِّ والعظَمةِ للهِ تعالى، وأمَّا التَّبيينُ فيَحصُلُ بمُجرَّدِ تعقيبِ جُملةِ ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾؛ فقولُه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الشورى: ٥] مبتدَأٌ، وجُملةُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ [الشورى: ٥] خبرٌ، والمقصودُ الإعلامُ بجَلالِ اللهِ[١].

- ومَفعولُ ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ مَحذوفٌ؛ دَلَّ عليه مُصاحبتُه ﴿بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: ٥]، تَقديرُه: يُسبِّحونَ ربَّهم، والباءُ للمُصاحَبةِ، أي: يُسبِّحونَ تَسبيحًا مُصاحِبًا لحمْدِهم ربَّهم، أي: الثَّناءِ عليه بصِفاتِه الكَماليَّةِ، ومِن الثَّناءِ ما هو شُكرٌ على نِعَمِه عليهم وعلى غيرِهم؛ فالمعنى: يُسبِّحونَ اللهَ ويَحمَدونَه. وهذا تَعريضٌ بالمشرِكينَ؛ إذ أعرَضوا عن تَسبيحِ ربِّهم وحمْدِه، وشُغِلوا بتَحميدِ الأصنامِ الَّتي لا نِعمةَ لها عليهم، ولا تَنفَعُهم ولا تَضُرُّهم[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾ عدَل عن التَّأنيثِ مراعاةً للَّفظِ إلى التَّذكيرِ، وضميرِ الجمعِ؛ إشارةً إلى قوَّةِ التَّسبيحِ، وكثرةِ المسبِّحينَ[٣].

- وفي تَقديمِ التَّسبيحِ على الحمْدِ إشارةٌ إلى أنَّ تَنزيهَ اللهِ عمَّا لا يَليقُ به أهمُّ مِن إثباتِ صِفاتِ الكمالِ له؛ لأنَّ التَّنزيهَ تَمهيدٌ لإدراكِ كَمالاتِه تعالى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١، ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣).

- وجملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لإبطالِ وَهْمِ المشرِكينَ أنَّ شُركاءَهم يَشفَعونَ لهم؛ ولذلك جِيءَ في هذه الجُملةِ بصِيغةِ القَصْرِ بضَميرِ الفصْلِ، أي: إنَّ غيرَ اللهِ لا يَغفِرُ لأحدٍ. وصُدِّرَتْ بأداةِ التَّنبيهِ (ألَا)؛ للاهتِمامِ بمُفادِها[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٤]، بعْدَ أنْ أُفيدَ ما هو كالحُجَّةِ على أنَّ للهِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ * تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ﴾ [الشورى: ٤، ٥] الآيتَينِ؛ فالمعنى: قد نهَضَت حُجَّةُ انفرادِه تعالى بالعِزَّةِ والحِكمةِ والعُلوِّ والعظَمةِ، وعَلِم المؤمنونَ ذلك، فاستَغفَرتْ لهم الملائكةُ، وأمَّا الَّذين لم يُبصِروا تلك الحُجَّةَ، وعَمِيَتْ عليهم الأدِلَّةُ، فلا تَهتمَّ بشَأْنِهم؛ فإنَّ اللهَ حَسْبُهم، وما أنت عليهم بوكيلٍ؛ فهذا تَسكينٌ لحُزنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أجْلِ عدَمِ إيمانِهم بوَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وهذه مُقدِّمةٌ لِما سيُؤْمَرُ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الدَّعوةِ، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، ثمَّ قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ الآياتِ [الشورى: ١٣]، ثمَّ قولِه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ﴾ [الشورى: ١٥]، وقولِه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ الآيةَ[2] [الشورى: ٢٣].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ كأنَّه صَلواتُ اللهِ عليه -على ما هو دأْبُه وعادتُه- يَحرِصُ على إيمانِ المشركينَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١، ٣٢).

فجِيءَ بقولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾ إنكارًا عليه، ثمَّ بَنى عليه النَّفيَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾؛ للتَّشديدِ فيه، يعني: أمثالُ هؤلاء المُصرِّينَ ليس في وُسعِك وقُدرتِك أنْ تَهديَهم، واللهُ وحْدَه هو القادرُ على ذلك، والَّذي عليك هو الإنذارُ فقط. وأيضًا سِيقَ قولُه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ...﴾؛ لِنَهْيِ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن شِدَّةِ الحِرْصِ على إيمانِ قَومٍ اتَّخَذوا مِن دُونِ اللهِ أولياءَ، ونُزِّلَ لذلك مَنزلةَ مُدَّعٍ أنَّه ولِيُّهم ونَصيرُهم، وهو الوكيلُ على غَرْسِ الإيمانِ في قُلوبِهم، حتَّى رُدَّ بقولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾[1].

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾ الحَفيظُ: فَعيلٌ بمعنى فاعلٍ، أي: حافظٌ، وتَختلِفُ مَعانيه، ومَرْجِعُها إلى رِعايةِ الشَّيءِ والعِنايةِ به، ويَكثُرُ أنْ يُستعمَلَ كِنايةً عن مُراقَبةِ أحوالِ المَرقوبِ وأعمالِه، وباختلافِ مَعانيه تَختلِفُ تَعديتُه بنَفْسِه، أو بحَرْفِ جَرٍّ يُناسِبُ المعنى، وقد عُدِّيَ هنا بحَرْفِ (على) كما يُعدَّى الوكيلُ؛ لأنَّه بمَعناهُ. والوكيلُ: فَعيلٌ بمعنى مَفعولٍ، وهو المَوكولُ إليه عمَلٌ في شَيءٍ أو اقتِضاءُ حقٍّ؛ يُقالُ: وكَّلَه على كذا، ومنه الوكالةُ في التَّصرُّفاتِ الماليَّةِ والمُخاصَمةِ، ويَكثُرُ أنْ يُستعمَلَ كِنايةً عن مُراقَبةِ أحوالِ الموكَّلِ عليه وأعمالِه، وقد استُعْمِلَ (حَفيظٌ) و(وكيلٌ) هنا في استِعمالِهما الكِنائيِّ عن مُتقارِبِ المعنى، ومادَّةُ (حفِظ) تَقْتضي قِيامَ الحدَثِ بفاعلٍ وتَعديتَه إلى مَفعولٍ، ومادَّةُ (وكَل) تَقْتضي قِيامَ الحدَثِ بفاعلٍ وتَعديتَه إلى مَفعولٍ، وتُجاوزَه مِن ذلك المفعولِ إلى شَيءٍ آخَرَ هو مُتعلِّقٌ به، وبذلك كان فِعلُ (حَفِظَ) مُفيدًا بمُجرَّدِ ذِكرِ فاعلِه ومَفعولِه دونَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١- ١٤).

احتياجٍ إلى مُتعلَّقٍ آخَرَ، بخِلافِ فِعلِ (وَكَلَ)؛ فإفادتُه مُتوقِّفةٌ على ذِكرِ -أو على تَقديرِ- ما يدُلُّ على شَيءٍ آخَرَ زائدٍ على المفعولِ ومِن علائقِه؛ فلذلك أُوثِرَ وَصْفُ (حَفيظٍ) هنا بالإسنادِ إلى اسمِ الجلالةِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ عن أنْ يُكلِّفَه غيرُه حِفْظَ شَيءٍ، فهو فاعلُ الحِفظِ، وأُوثِرَ وَصْفُ (وكيلٍ) بالإسنادِ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ المقصودَ أنَّ اللهَ لم يُكلِّفْه بأكثَرَ مِن التَّبليغِ. وإذ قد كان الحَفيظُ والوَكيلُ بمعنًى، كان إثباتُ كَونِ اللهِ حفيظًا عليهم، ونفْيُ كَونِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وكيلًا عليهم: مُفيدًا قَصْرَ الكَونِ حَفيظًا عليهم على اللهِ تعالى دونَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بطَريقٍ غيرِ أحَدِ طُرقِ القصْرِ المعروفةِ؛ فإنَّ هذا مِن صَريحِ القصْرِ ومَنطوقِه لا مِن مَفهومِه، وهو الأصلُ في القصْرِ وإنْ كان قليلًا. والقصرُ قصرُ قلبٍ[1]، كما هو صريحُ طرَفِه الثَّاني في قولِه: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ﴾؛ نُزِّلَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَنزلةَ مَن يَحسَبُ أنَّه وكيلٌ على إيمانِهم، وحصَلَ مِن هذا التَّنزيلِ تَعريضٌ بهم بأنَّهم لا يَضُرُّونَ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا لم يُصدِّقوه[2].

(١) تقدم تعريفه (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢ - ٣٥).

## الآيات (٧-٩)

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾: أي: مكَّةَ، وسُمِّيَت مَكَّةُ أُمَّ القُرى؛ لأنَّها أقدَمُ القُرى وأشهَرُها، وما تقرَّت القُرى في بلادِ العَرَبِ إلَّا بَعدَها، وأصلُ (أمم): يدُلُّ على الأصلِ والمَرجِعِ، وأصلُ (قري): يدُلُّ على جَمعٍ واجتِماعٍ[1].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾: أي: لا شكَّ فيه، والرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو الشَّكُّ معَ الخَوفِ، ومعَ تُهمةِ المشكوكِ فيه، وتوهُّمُ أمْرٍ ما بالشَّيءِ، وهو مصدرُ (رابَني الشَّيءُ): إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وحقيقةُ الرِّيبةِ: قلَقُ النَّفْسِ واضطِرابُها[2].

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: هو اسْمٌ مِن أسماءِ جهنَّمَ، والسَّعْرُ: التِهابُ النَّارِ، يُقالُ: سعَّرتُ النَّارَ، إذا ألهَبْتَها، وأصلُ (سعر): اشتِعالُ الشَّيءِ واتِّقادُه وارتِفاعُه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١) و (٥/ ٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

﴿وَلِيٍّ﴾: كلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبينًا الحكمةَ مِن إنزالِ هذا القرآنِ على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ومِثْلَ ذلك الإيحاءِ أوحَيْنا إليك -يا مُحمَّدُ- قُرآنًا عَربيًّا لِيَعقِلَ النَّاسُ ما فيه؛ لِتُنذِرَ به أهلَ مَكَّةَ ومَن حَوْلَها في جَميعِ الأرضِ عذابًا شَديدًا إنْ لم يُؤمِنوا، وتُنذِرَ النَّاسَ يومَ القيامةِ الآتيَ لا مَحالةَ؛ فمِنهم فَريقٌ في الجنَّةِ، ومِنهم فَريقٌ في النَّارِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه كمالَ قدرتِه، فيقولُ: ولو شاء اللهُ تعالى لجَمَع النَّاسَ كُلَّهم على دينٍ واحِدٍ، ولكِنَّ اللهَ يُدخِلُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه في رَحمتِه، والظَّالِمونَ ليس لهم وَليٌّ يَتولَّاهم، ولا نَصيرٌ يَنصُرُهم.

ثمَّ يقولُ تعالى منكِرًا على كلِّ مَن تَولَّى غيرَه: أمِ اتَّخَذ أولئك الظَّالِمونَ أَولياءَ يَتولَّونَهم بطاعتِهم مِن دُونِ الله تعالى؟! فاللهُ هو الوَليُّ، يَتولَّى شؤونَ جميعِ عِبادِه، وهو يُحيي الموتَى بقُدرتِه سُبحانَه، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾.

أي: ومِثْلَ ذلك الإيحاءِ[٢] أوحَيْنا إليك -يا مُحمَّدُ- قُرآنًا بلِسانٍ عَربيٍّ؛ ليَفْهَموا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٥/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) =

ما فيه، فالَّذين أرسلْتُكَ إليهم قومٌ عَرَبٌ[1].

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

---

= (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: جلالُ الدِّين المحلِّي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر المصادر السابقة.

قال ابن عاشور: (والقولُ في ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ﴾ كالقولِ في ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥).

وقيل: المعنى: ومِثلَ ذلك أوْحَيْنا إليكَ، و«ذلك» إشارةٌ إلى معنى الآيةِ قبْلَها: مِن أنَّ اللهَ تعالى هو الرَّقيبُ عليهم، وما أنت برقيبٍ عليهم، ولكنْ نذيرٌ لهم؛ لأنَّ هذا المعنى كرَّره اللهُ تعالى في كتابه في مواضعَ جمَّةٍ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرازي، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٤).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّ كلمةَ «ذلك» للإشارةِ إلى شَيءٍ سبَق ذِكرُه، فقولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ يَقتضي تشبيهَ وحْيِ اللهِ بالقرآنِ بشَيءٍ هاهنا قد سبَق ذِكرُه، وليس هاهنا شَيءٌ سبَق ذِكرُه يُمكِنُ تشبيهُ وحْيِ القرآنِ به إلَّا قولَه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أوحَيْنا إليك وإلى مَن قَبْلَك هذه المعانيَ فكذلك أوحَيْنا إليك قُرآنًا عربيًّا بَيَّنَّاه بلُغةِ العَرَبِ. وقيل: أي: أنزَلْنا عليك قرآنًا عربيًّا بلِسانِ قَومِك كما أرسَلْنا كُلَّ رسولٍ بلِسانِ قَومِه. والمعنى واحِدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ ﴿قُرْءَانًا﴾ مَصدَرٌ يجوزُ أن يكونَ بمعنى اسمِ الفاعِلِ، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى اسمِ المفعولِ؛ فأمَّا الأوَّلُ فيكونُ بمعنى قارئٍ، أي: جامِعٍ لجميعِ الكَمالاتِ، وجامِعٍ لعُلومِ الأوَّلينَ والآخِرينَ، ولكُلِّ عِلمٍ نافِعٍ وعَمَلٍ صالحٍ، وأمَّا الثَّاني فلأنَّه مَقروءٌ ومَتْلوٌّ، ولا مُنافاةَ بيْنَ المعنَيَينِ؛ فيُحمَلُ عليهما جميعًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٤- ٥٦).

أي: أوحَيْنا إليك قُرآنًا عَربيًّا؛ لِتُنذِرَ به أهلَ مَكَّةَ ومَن حَوْلَها مِن سائِرِ النَّاسِ في جَميعِ الأرضِ عذابًا شَديدًا إنْ لم يُؤمِنوا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ سائِرُ النَّاسِ مِن كُلِّ القُرى في جميعِ الأرضِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابنُ عطية، والقرطبي، والبِقاعي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: مَن حَوْلَها مِن العَرَبِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٧، ٥٨).

قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ يقولُ بعضُ العلماءِ: المُعَلَّلُ محذوفٌ ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أَنْزَلْنا إليكَ هذا الكتابَ. وبعضُ العلماءِ يقولُ: هو معطوفٌ على معنى ما قبْلَه. والمعنَى: كتابٌ أنزَلْناه إليكَ لأجْلِ البَرَكاتِ المشتملِ عليها؛ ولتصديقِ الَّذي بيْنَ يَدَيه؛ ولِتُنذِرَ أُمَّ القرَى. وأكثرُ العلماءِ على أن المُعَلَّلَ محذوفٌ، والمعنَى: ولِتُنذِرَ أُمَّ القرى أنزَلْناه إليكَ). ((العذب النمير)) (١/ ٥٠٦).

وقال الرَّسْعَني: (﴿لِّتُنذِرَ﴾ يُقالُ: أنذَرْتُه كذا، وأنذَرْتُه بكذا، وقد عَدَّى الأوَّلَ -أعني: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾- إلى المفعولِ الأوَّلِ، والثَّانيَ -وهو قَولُه تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾- إلى المفعولِ الثَّاني). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠).

وقال ابن عثيمين: (فتَجِدُ الآيةَ الكريمةَ الجُملةُ الأُولى حُذِفَ منها مفعولٌ، والثَّانيةُ حُذِفَ منها مفعولٌ، لكِنِ الجُملةُ الأُولى حُذِفَ مَفعولُها الثَّاني، والجُملةُ الثَّانيةُ حُذِفَ مَفعولُها الأوَّلُ، وهذا مِن بلاغةِ القُرآنِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٨).

وقال الشوكاني: (لِتُنذِرَ أمَّ القُرى... والمفعولُ الثَّاني محذوفٌ، أي: لِتُنْذِرَهم العذابَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٣).

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

أي: ولِتُنذِرَ النَّاسَ بالقُرآنِ -يا مُحمَّدُ- فتُخَوِّفَهم وتُحذِّرَهم مِن يومِ القيامةِ الآتي لا مَحالةَ[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥).

قال الرازي: (وفي تسميَتِه بيوم الجَمعِ وُجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ الخلائقَ يُجْمَعونَ فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ [التَّغَابُن: ٩]، فيَجتمِعُ فيه أهلُ السَّمواتِ وأهلُ الأرضِ.

الثَّاني: أنَّه يجمعُ بيْنَ الأرواحِ والأجسادِ.

الثَّالثُ: يجمعُ بيْنَ كُلِّ عامِلٍ وعمَلِه.

الرَّابعُ: يجمعُ بيْنَ الظَّالمِ والمظلومِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠).

وقيل: لاجتِماعِ بني آدَمَ للعَرضِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧).

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩].

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

أي: مِنهم جماعةٌ في الجنَّةِ، وهم المؤمِنونَ باللهِ المتَّبِعونَ لِرَسولِه، ومنهم جماعةٌ في النَّارِ المُلتَهِبةِ المُوقَدةِ، وهم الكافِرونَ باللهِ المُخالِفونَ لِرَسولِه[1].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ المرادَ تَقريرُ قَولِه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦]، أي: ليس في قُدرتِك أن تَحمِلَهم على الإيمانِ، فلو شاء اللهُ ذلك لَفَعلَه؛ لأنَّه أقدَرُ منك، ولَكِنَّه جَعَلَ البَعضَ مُؤمِنًا والبَعضَ كافِرًا[2].

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.

أي: ولو شاء اللهُ أن يَجمَعَ كُلَّ النَّاسِ على دينٍ واحِدٍ لَفَعلَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٠)، ((المفردات)) للراغب الأصفهاني (ص: ٦٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

قيل: المرادُ أمَّةٌ واحِدةٌ، سواءٌ اجتَمَعوا جميعًا على الهدايةِ، أو اجتَمَعوا على الضَّلالةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البيضاوي، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٦٦). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [الأنعام: ٣٥].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ شاء مَشيئةً أُخرى تَجري على وَفْقِ حِكمتِه، فيُدخِلُ بَعضَ عِبادِه في دينِه، ويَتولَّاهم ويَنصُرُهم، ويُدخِلُهم في الآخرةِ في جَنَّتِه[1].

---

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، فقال: على دينٍ واحدٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤٠).

وقيل: المرادُ: أمَّةٌ واحِدةٌ مُجتَمِعةٌ على الهُدى، أي: مِلَّةِ الإسلامِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٦٦، ٦٧).

قيل: المرادُ برَحمةِ الله تعالى هنا: دينُ الإسلامِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٤).

وقيل: المرادُ بها: الجنَّةُ. وهو اختيارُ ابنِ عاشور، وابنِ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

أي: وأمَّا الظَّالِمونَ فليس لهم -بسَبَبِ ظُلمِهم- أيُّ وَليٍّ يَتولَّاهم، وليس لهم أيُّ نَصيرٍ يَنصُرُهم، فهم مَحرومونَ مِن الدُّخولِ في رَحمةِ الله تعالى(١).

كما قال اللهُ سبحانه وتعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: ٣١].

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى حكَى عن المُشرِكينَ أوَّلًا أنَّهم اتَّخَذوا مِن دُونِه أولياءَ، ثمَّ قال بَعدَه لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لَسْتَ عليهم رَقيبًا ولا حافِظًا، ولا يَجِبُ عليك أن تَحمِلَهم على الإيمانِ شاؤوا أم أبَوْا؛ فإنَّ هذا المعنى لو كان واجِبًا لَفعَلَه اللهُ؛ لأنَّه أقدَرُ منك، ثمَّ إنَّه تعالى أعاد بَعدَه ذلك الكلامَ على سَبيلِ الاستِنكارِ، فقال تعالى(٢):

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ﴾.

أي: أمِ اتَّخَذ الظَّالِمونَ أولياءَ يَتولَّونَهم بطاعتِهم مِن دونِ اللهِ(٣)؟!

---

= (٢٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٦٧).

قال السمرقندي: (﴿وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ يعني: يُكرِمُ بدينِه مَن يَشاءُ، مَن كان أهلًا لذلك، ويُدخِلُه في الآخرةِ في رحمتِه، أي: في جنَّتِه). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٢، ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣). =

﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ﴾.

أي: فاللهُ هو الوَليُّ الحَقُّ، يَتولَّى شؤونَ جميعِ عبادِه عامَّةً، ويَتولَّى عبادَه المؤمنينَ خاصَّةً بتربيتِهم، وإعانتِهم في جميعِ أمورِهم، ونصرِهم وتأييدِهم، فلْيَتَّخِذوه وَلِيًّا بعبادتِه وطاعتِه، لا ما لا يملِكُ لهم ضَرًّا ولا نفعًا[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

﴿وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

أي: واللهُ يُحيي الموتى بقُدرتِه سُبحانَه[2].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ وحْدَه هو البالغُ القُدرةِ على فِعلِ كُلِّ شَيءٍ، كإحياءِ المَوتى وغَيرِه، لا يَقدِرُ على ذلك سِواه[3].

---

= قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ كلامٌ مُنقَطِعٌ مِمَّا قَبْلَه، وليست مُعادِلةً، ولكِنَّ الكلامَ: كأنَّه أضرَبَ عن حُجَّةٍ لهم أو مقالةٍ مُقَرَّرةٍ، فقال: «بَلِ اتَّخَذوا»، هذا مَشهورُ قَولِ النَّحْويِّينَ في مِثلِ هذا. وذَهَب بعضُهم إلى أنَّ (أَمْ) هذه هي بمنزلةِ ألِفِ الاستِفهامِ دونَ تقديرِ إضرابٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧).

وقيل: (أم) للإضرابِ الانتِقاليِّ، وتُقَدَّرُ بعد (أم) همزةُ استِفهامٍ إنكاريٍّ. فالمعنى: بل أَتَّخَذُوا مِن دُونِه أولياءَ؟! ومِمَّن قال بذلك: أبو حيَّان، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٤، ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠، ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيه حَثُّ الإنسانِ على أنْ يَدعوَ اللهَ بكلِّ ما أراد -ما لم يَعْتَدِ في الدُّعاءِ-، وهذه فائدةٌ تربويَّةٌ: أنْ تَدْعوَ اللهَ بكلِّ شَيءٍ إلَّا ما حَرَّمَ اللهُ عليك الدُّعاءَ به؛ وهذا يَفتحُ للإنسانِ بابَ الرَّجاءِ وبابَ دعاءِ اللهِ واللُّجوءِ إليه، لو كان عندَك مريضٌ مُزْمِنٌ أَيِسْتَ منه؛ فادعُ اللهَ، ولو أنَّ إنسانًا تقطَّعتْ به الأسبابُ؛ طَلَبَ الرِّزقَ في البَيعِ والشِّراءِ فخَسِرَ؛ تقدَّم لوظيفةٍ فلم يَنْجَحْ؛ فلْيَدْعُ اللهَ؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ على كلِّ شيءٍ قديرٌ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ فيه إثباتُ حكمةِ اللهِ؛ لأنَّ اللَّامَ هنا للتَّعليلِ، وكلَّما وُجِدت لامُ التَّعليلِ في القرآنِ فإنَّ فيها إثباتَ حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وحينَئذٍ نَعلَمُ أنَّ جميعَ ما يَفعَلُه اللهُ عزَّ وجلَّ أو ما يشرعُه فهو لحكمةٍ[2].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فيه سُؤالٌ: ظاهِرُ اللَّفظِ يَقتَضي أنَّ اللهَ تعالى إنَّما أوحى إلى النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِيُنذِرَ أهلَ مَكَّةَ وأهلَ القُرى المحيطةِ بمكَّةَ، وهذا يَقتَضي أن يكونَ رَسولًا إليهم فقط، وألَّا يكونَ رسولًا إلى كُلِّ العالَمينَ!

**الجَوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ شامِلٌ لجَميعِ الأرضِ، وهو مَرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر ما أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٩/ ٤٠٣)، وابنُ أبي حاتم في في ((تفسيره)) =

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ التَّخصيصَ بالذِّكرِ لا يدُلُّ على نَفيِ الحُكمِ عمَّا سِواه؛ فهذه الآيةُ على فَرْضِ كَوْنِها تدُلُّ على كَونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ رَسولًا إلى هؤلاء خاصَّةً، وأنَّ قولَه: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ لا يَتناوَلُ إلَّا القريبَ مِن مكَّةَ المكَرَّمةِ، كجَزيرةِ العَرَبِ مَثَلًا؛ فإنَّ الآياتِ الأُخَرَ نَصَّت على العُمومِ، كقَولِه تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، فهذا يدُلُّ على كَونِه رَسولًا إلى كُلِّ العالَمينَ. وذِكرُ بَعضِ أفرادِ العامِّ بحُكمِ العامِّ لا يُخَصِّصُه عندَ عامَّةِ العُلَماءِ[1].

**الوَجهُ الثَّالثُ**: لَمَّا ثَبَت كَونُه رَسولًا إلى أهلِ مكَّةَ وَجَب كَونُه صادِقًا، ثمَّ إنَّه نُقِلَ إلينا بالتَّواتُرِ أنَّه كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخبِرُ أنَّه رَسولٌ إلى كُلِّ العالَمينَ[2]، والصَّادِقُ إذا أخبَرَ عن شَيءٍ وَجَب تصديقُه فيه؛ فثَبَت أنَّه رَسولٌ إلى كُلِّ العالَمينَ[3].

**الوَجهُ الرَّابعُ**: أنَّ الاقتِصارَ على إنذارِ أمِّ القُرى ومَن حَولَها لا يَقتَضي تخصيصَ إنذارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأهلِ مكَّةَ ومَن حوْلَها؛ لأنَّ تَعليلَ الفِعلِ بعِلَّةِ باعِثِه لا يَقتضي أنَّ الفِعلَ المُعلَّلَ مُخَصَّصٌ بتلك العِلَّةِ ولا بمُتعَلَّقاتِها؛ إذ قد يكونُ للفِعلِ الواحِدِ عِلَلٌ باعِثةٌ؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بُعِثَ للنَّاسِ كافَّةً، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا

---

= (٧٦١٤، ٧٦١٨)، والبيهقي في ((الأسماء والصفات)) (٥٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥).

(٢) وفي الحديثِ قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((... وكان النَّبيُّ يُبعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً، وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عامَّةً)). أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر بن عبد الله رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠).

وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ: ٢٨]، والاقتِصارُ هنا على إنذارِ أهلِ مكَّةَ ومَن حَولَها؛ لأنَّهم المقصودُ بالرَّدِّ عليهم؛ لإنكارِهم رسالةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

٣- قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ إنْ قِيل: كيف يَكونونَ مَجموعينَ مُتفرِّقينَ في حالةٍ واحدةٍ؟

**فالجواب**: أنَّهم مَجموعونَ في ذلك اليومِ، مع افتراقِهم في دارَيِ البؤسِ والنَّعيمِ، كما يَجتمِعُ الناسُ يومَ الجُمعةِ مُتفرِّقينَ في مَسجدَينِ، وإنْ أُريدَ بالجمْعِ جمْعُهم في الموقفِ، فالتَّفرُّقُ على معنى مُشارَفتِهم للتَّفرُّقِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ رَدٌّ على المُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ المُنْكِرينَ أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ إذْ في قَولِه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ دَليلٌ على أنَّه لم يَجعَلْهم، وخَصَّ بالرَّحمةِ مَن شاء منهم، والرَّحمةُ لا محالةَ سَبَبُ الهِدايةِ، ومَنعُ الرَّحمةِ سَبَبُ الضَّلالةِ، لولا ذلك ما كان في الكَلامِ فائدةٌ عندَ مَن تَدَبَّرَه(٣)!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ... ﴾ إلخ [الشورى: ٣]، باعتبارِ المُغايَرةِ بيْنَ المعطوفةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٨٨).

والمعطوفِ عليها؛ بما في المعطوفةِ مِن كَونِ الموحَى به قُرآنًا عربيًّا، وما في المعطوفِ عليها مِن كَونِه مِن نوعِ ما أُوحِيَ به إلى الَّذين مِن قبْلِه. وإنَّما أُعيدَ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ ﴾؛ ليُبنى عليه قولُه: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾؛ لِما حجَزَ بيْنَهما مِن الفَصْلِ، وأصلُ النَّظمِ: كذلك يُوحِي إليك اللهُ العزيزُ الحكيمُ قُرآنًا عربيًّا، معَ ما حصَلَ بتلك الإعادةِ مِن التَّأكيدِ؛ لتقريرِ ذلك المعنى أفضلَ تقريرٍ[1].

- قولُه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ الآيةَ، قيل: مُعترِضةٌ لِتَوكيدِ مَضمونِ الآيتَينِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الشورى: ٦]، و﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ ﴾[2] [الشورى: ٨].

- والعُدولُ عن ضَميرِ الغائبِ في ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الشورى: ٦] إلى ضَميرِ العظَمةِ ﴿أَوۡحَيۡنَآ ﴾ الْتفاتٌ[3].

- قولُه: ﴿قُرۡءَانًا ﴾ القُرآنُ مَصدرُ: قرَأَ، وأُطلِقَ هنا على المقروءِ؛ مُبالَغةً في الاتِّصافِ بالمَقروئيَّةِ؛ لكثرةِ ما يَقرَؤُه القارِئونَ، وذلك لِحُسنِه وفائدتِه؛ فقد تَضمَّنَ هذا الاسمُ معنى الكمالِ بيْن المَقروآتِ[4].

- وقولُه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا ﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا ﴾؛ لأنَّ كَونَه عربيًّا يَليقُ بحالِ المُنذَرينَ به، وهم أهلُ مكَّةَ ومَن حوْلَها؛ فأولئك هم المخاطَبونَ بالدِّينِ ابتداءً؛ لِما اقتضَتْه الحِكمةُ الإلهيَّةُ مِن اختيارِ الأُمَّةِ العربيَّةِ لتكونَ أوَّلَ مَن يَتلقَّى الإسلامَ، ويَنشُرُه بيْنَ الأُمَمِ، ولو رُوعِيَ فيه جميعُ الأُممِ المخاطَبينَ بدعوةِ الإسلامِ، لَاقتَضى أنْ يَنزِلَ بلُغاتٍ لا تُحصَى؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥).

فلا جَرَمَ اختارَ اللهُ له أفضَلَ اللُّغاتِ، واختارَ إنزالَه على أفضَلِ البَشَرِ[١].

- واقتصَر على أحدِ موضوعَي الرِّسالةِ وهو الإنذارُ، فقال: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، ولم يَذْكُرِ البشارةَ! معَ أنَّ اللهَ تعالى في مواضعَ كثيرةٍ يَذكُرُهما، كقولِه: ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧]؛ وذلك لأنَّ السياقَ معَ قريشٍ -وقريشٌ عُتاةٌ مُعْتَدونَ-؛ فناسَبَ ذِكْرُ الإنذارِ دونَ ذِكْرِ البِشارةِ[٢].

- وانتصَبَ ﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ على المفعولِ به لِفعلِ (تُنذِرَ)؛ بتَنزيلِ الفِعلِ منزلةَ المُعدَّى إلى مَفعولٍ واحدٍ؛ إذ لم يُذكَرْ معه المنذَرُ منه، وهو الَّذي يكونُ مَفعولًا ثانيًا لِفعلِ الإنذارِ؛ لأنَّ (أنذَرَ) يَتعدَّى إلى مفعولَينِ؛ فالمعنى: لِتُنذِرَ أُمَّ القُرَى ومَن حوْلَها ما يُنذَرونَه مِن العذابِ في الدُّنيا والآخِرةِ[٣].

- وقولُه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ عامٌّ في الإنذارِ بأحوالِ الدُّنيا والآخِرةِ، ثمَّ خُصَّ بقولِه: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾، وأُعيدَ فِعلُ (تُنذِر)؛ لِزيادةِ تَهويلِ أمْرِ يَومِ الجَمْعِ؛ لأنَّ تَخصيصَه بالذِّكرِ بعْدَ عُمومِ الإنذارِ يَقتضي تَهويلَه، ولأنَّ تَعديةَ فِعلِ ﴿وَتُنذِرَ﴾ إلى ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ تَعديةٌ مُخالِفةٌ لإنذارِ أُمِّ القُرى؛ لأنَّ ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ مَفعولٌ ثانٍ لِفعلِ ﴿وَتُنذِرَ﴾، أي: وتُنذِرَ النَّاسَ يومَ الجمْعِ، فمَفعولُ ﴿وَتُنذِرَ﴾ الثَّاني هو المُنذَرُ به، ومَفعولُ (لِتُنْذِرَ) الأوَّلُ هو المُنذَرُ، وانتصَبَ ﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ على أنَّه مَفعولٌ ثانٍ لِفعلِ ﴿وَتُنذِرَ﴾، وحُذِفَ مَفعولُه الأوَّلُ؛ لِدَلالةِ ما تَقدَّمَ عليه، أي: وتُنذِرَهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٣)، ((تفسير =

- وقيل: في الآيةِ احتِباكٌ[١]؛ فذِكرُ المُنذَرينَ أوَّلًا دَلالةٌ على إرادتِها ثانيًا، وذِكرُ المُنذَرِ به -وهو يومُ الجَمعِ- ثانيًا دَلالةٌ على المُنذَرِ به مِن عَذابِ الأُمَمِ أوَّلًا؛ لِيَذهَبَ به الوَهمُ في المحذوفِ كلَّ مَذهَبٍ، فيَكونَ أهْوَلَ، وذِكرُ هذا المذكورِ أفخَمُ وأوجَلُ[٢].

- وجُملةُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مُعترِضةٌ بيْن البيانِ والمبيَّنِ، مُقرِّرةٌ لِما قبْلَها، ومعنى ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أنَّ دلائلَه تَنفي الشَّكَّ في أنَّه سيقعُ، فنُزِّلَ رَيْبُ المُرتابينَ فيه مَنزِلةَ العَدَمِ؛ لأنَّ مُوجِباتِ اليقينِ بوقوعِه بَيِّنةٌ[٣].

- وظرفيَّةُ الرَّيبِ المنفيِّ في ضَميرِ اليومِ في قولِه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ مِن بابِ إيقاعِ الفِعلِ ونحوِه على اسمِ الذَّاتِ، والمرادُ إيقاعُه على بَعضِ أحوالِها الَّتي يدُلُّ عليها المَقامُ؛ مِثلُ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، أي: أكْلُها، أي: لا ريبَ في وُقوعِه[٤].

- وجُملةُ ﴿فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا، وعُطِفتْ عليها جُملةُ ﴿وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾؛ فكان الجُملتانِ جَوابًا لسؤالِ سائلٍ عن شأْنِ هذا الجَمْعِ إنْ كان بمَعنى المصدَرِ، فقيل: فريقٌ في الجنَّةِ وفريقٌ في السَّعيرِ، أي: فَريقٌ مِن المجموعينَ بهذا الجمْعِ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السَّعيرِ. أو لِسُؤالِ سائلٍ عن حالِ هذا الجمْعِ إنْ كان الجمْعُ بمعنى المجموعينَ، والتَّقديرُ: فريقٌ

---

= أبي السعود)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧).

(١) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

منهم في الجنَّةِ، وفريقٌ منهم في السَّعيرِ[١].

- وجُملةُ ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ ...﴾ إلخ مُعترِضةٌ، و﴿فَرِيقٌ﴾ خَبرُ مبتدأٍ مَحذوفٍ على طريقةِ الحذْفِ المُتابَعِ فيه الاستِعمالُ، أي: هم فريقٌ في الجنَّةِ... إلخ[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧]، والغرضُ مِن هذا العطْفِ إفادةُ أنَّ كونَهم فَريقينِ أمْرٌ شاءَ اللهُ تَقديرَه، وهذا مَسوقٌ لِتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ على تَمنِّيهم أنْ يكونَ النَّاسُ كلُّهم مُهتدينَ، ويكونَ جميعُهم في الجنَّةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ نفْيُ النَّصيرِ كِنايةٌ عن كَونِهم في بُؤسٍ وضُرٍّ ومَغلوبيَّةٍ، بحيثُ يَحتاجونَ إلى نَصيرٍ لو كان لهم نَصيرٌ؛ فيَدخُلُ في (الظَّالِمُونَ) مُشرِكو أهلِ مكَّةَ دُخولًا أوَّليًّا؛ لأنَّهم سببُ وُرودِ هذا العمومِ، وأصلُ النَّظمِ: (ويُدخِلُ مَن يَشاءُ في غَضَبِه)؛ فعُدِلَ عنه إلى ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٨).

لكنْ قال أبو السعود: (وأنت خبيرٌ بأنَّ فَرْضَ جعلِ الكلِّ مؤمنينَ يأباهُ تصديرُ الاستدراكِ بإدخالِ بعضِهم في رحمتِه؛ إذِ الكُلُّ حينَئذٍ داخلونَ فيها، فكانَ المناسِبُ حينَئذٍ تصديرَه بإخراجِ بعضِهم مِنْ بَيْنِهم وإدخالِهم في عذابِه، فالَّذي يَقتضيه سياقُ النَّظمِ الكريمِ وسِباقُه أنْ يُرادَ الاتِّحادُ في الكُفرِ... فالمعنى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ مُتَّفِقةً على الكُفرِ، بألَّا يُرسِلَ إليهم رسولًا لِيُنذِرَهُم ما ذُكِرَ مِن يومِ الجَمعِ وما فيه مِن ألوانِ الأهوالِ؛ فيَبقَوا على ما هم عليه مِن الكُفرِ، ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣).

في الآيةِ ﴿وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ سَببَ إدخالِهم في غَضَبِه هو ظُلمُهم، أي: شِركُهم؛ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، مع إفادةِ أنَّهم لا يَجِدونَ وليًّا يَدفَعُ عنهم غضَبَه، ولا نَصيرًا يَثأرُ لهم. وقيل: لَعلَّ تَغييرَ المُقابَلةِ؛ للمُبالَغةِ في الوعيدِ؛ إذ الكلامُ في الإنذارِ(١).

- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ مِن الاحتِباكِ(٢)؛ ذَكَر الرَّحمةَ أوَّلاً دَليلاً على اللَّعنةِ ثانيًا، والظُّلْمَ وما معه ثانيًا دَليلًا على أضْدادِه أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذَكَر السَّبَبَ الحقيقيَّ في أهلِ السَّعادةِ؛ لِيَحمِلَهم على مَزيدِ الشُّكرِ، والسَّبَبَ الظَّاهِريَّ في أهلِ الشَّقاوةِ؛ لِيَنْهاهم عن الكُفرِ(٣).

٣- قولُه تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مُقرِّرةٌ لِما قبْلَها مِن انتفاءِ أنْ يكونَ للظَّالِمينَ وليٌّ أو نَصيرٌ(٤).

- و(أمْ) مُنقطِعةٌ، وما فيها مِن مَعنى (بل)؛ للانتقالِ مِن بَيانِ ما قبْلَها إلى بَيانِ ما بعْدَها، والهمْزةُ لإنكارِ الوُقوعِ ونفْيِه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه، لا لإنكارِ الواقعِ واستِقباحِه كما قِيل؛ إذ المرادُ بَيانُ أنَّ ما فَعَلوا ليس مِن اتِّخاذِ الأولياءِ في شَيءٍ؛ لأنَّ ذلك فرْعُ كَونِ الأصنامِ أولياءَ، وهو أظهَرُ المُمتنِعاتِ، أي: بلْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤).

أَتَّخَذوا مُتجاوِزينَ اللهَ أولياءَ مِن الأصنامِ وغيرِها؟ هَيهاتَ[١].

- وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ جَوابُ شَرْطٍ مقدَّرٍ[٢]؛ كأنَّه قِيل بعدَ إنكارِ كلِّ وليٍّ سِواهُ: إنْ أرادُوا وليًّا بحقٍّ، فاللهُ هو الوليُّ بالحقِّ، لا وليَّ سِواه؛ لأنَّ إنكارَ ذلك يَقتضي أنَّ أولياءَهم ليستْ جَديرةً بالوَلايةِ، وأنَّهم ضَلُّوا في وَلايتِهم إيَّاها[٣].

- وأفاد تَعريفُ المُسنَدِ في قولِه: ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ قَصْرَ جِنسِ الوليِّ بهذا الوصْفِ على الله، وإذ قد عبَدوا غيرَ اللهِ تَعيَّنَ أنَّ المرادَ قصْرُ الولايةِ الحقِّ عليه تعالى، وأفاد ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ تأْكيدَ القَصرِ وتَحقيقَه، وأنَّه لا مُبالَغةَ فيه؛ تَذْكيرًا بأنَّ الوَلايةَ الحقَّ في هذا الشَّأنِ مُختصَّةٌ باللهِ تعالى، وهذا كلُّه مَسوقٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ تَسليةً وتثبيتًا، وتَعريضًا بالمشرِكينَ؛ فإنَّهم لا يَخْلُونَ مِن أنْ يَسمَعوه[٤].

- وعطْفُ ﴿وَهُوَ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ على جُملةِ ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِيُّ﴾ إدماجٌ[٥] لإعادةِ إثباتِ البعثِ؛ تَرْسيخًا لعِلمِ المسلمينَ، وإبلاغًا لمَسامِعِ المُنكِرينَ؛ لأنَّهم أنكَروا ذلك في ضِمنِ اتِّخاذِهم أولياءَ مِن دُونِ اللهِ، فلمَّا أبْطَلَ مُعتقدَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٩).

(٢) لكن قال أبو حيَّان: (ولا حاجةَ إلى تقديرِ شرطٍ محذوفٍ، والكلامُ يَتِمُّ بدونِه). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

إلهيَّةَ غيرِ اللهِ، أردَفَ بإبطالِ ما هو مِن عَلائقِ شِركِهم، وهو نفْيُ البَعثِ، وليس ذلك استدلالًا عليهم لإبطالِ إلهيَّةِ آلهتِهم؛ لأنَّ وُقوعَ البعثِ مَجحودٌ عِندَهم(١).

- وعطْفُ جُملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لإثباتِ هذه الصِّفةِ للهِ تعالى؛ تَذكيرًا بانفرادِه بتَمامِ القُدرةِ، ويُفيدُ الاستِدلالَ على إمكانِ البعثِ، ويُفيدُ الاستدلالَ على نفْيِ الإلهيَّةِ عن أصنامِهم؛ لأنَّ مَن لا يَقدِرُ على كلِّ شَيءٍ لا يَصلُحُ للإلهيَّةِ، والغرَضُ مِن هذا تَعريضٌ بإبلاغِه إلى مَسامِعِ المشرِكِين. ولَمَّا كان المقصودُ إثباتَ القُدرةِ للهِ تعالى عُطِفَتِ الجُملةُ على الَّتي قبْلَها؛ لأنَّها مِثلُها في إفادةِ الحُكمِ، وكانتْ إفادةُ التَّعليلِ بها حاصلةً مِن مَوقعِها عَقِبَها، ولو أُريدَ التَّعليلُ ابتداءً لَفُصِلَتِ الجُملةُ ولم تُعطَفْ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٠، ٤١).

## الآيات (١٠-١٢)

﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٢ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُنِيبُ﴾: أي: أَرجِعُ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إليه[١].

﴿فَاطِرُ﴾: أي: خالِقُ ومُبدِعُ ومُبتَدِئُ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[٢].

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾: أي: يَخلُقُكم ويُكَثِّرُكم، والذَّرْءُ: بَثُّ الخَلقِ وتَكثيرُه، وأصلُ (ذرأ) هنا: يدُلُّ على بَذْرٍ وزَرعٍ[٣].

﴿مَقَالِيدُ﴾: أي: مَفاتيحُ، وقيل: خَزائِنُ، ومالكُ المفاتيحِ مالكُ الخزائنِ، قيل: هو فارسيٌّ معرَّبٌ، ومفردُ مقاليدَ إقليدٌ، وقيل: مُفردُها مِقْليدٌ ومِقْلادٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩، ٢٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٩٥)، ((المفردات)) =

﴿يَبْسُطُ﴾: أي: يُوَسِّعُ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[١].

﴿وَيَقْدِرُ﴾: أي: يُضَيِّقُ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونهايتِه[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾

**في هذه الآيةِ أوجُهٌ:**

**أحدُها -وهو المشهورُ عندَ المُعْرِبينَ-**: أنَّ الكافَ زائدةٌ في خبرِ ﴿لَيْسَ﴾، و﴿شَىْءٌ﴾ اسمُها. والتَّقديرُ: ليس شَيءٌ مِثلَه. قالوا: ولولا ادِّعاءُ زيادتِها لَلَزِمَ أَنْ يكونَ له مِثْلٌ! وهو مُحالٌ؛ إذ يَصيرُ التَّقديرُ على أصالةِ الكافِ: ليس مِثلَ مِثلِه شَيءٌ، فنفى المُماثَلةَ عن مِثلِه، فثبَتَ أنَّ له مِثْلًا لا مِثْلَ لذلك المَثْلِ! وهذا مُحالٌ، تَعالى اللهُ عن ذلك.

**والثَّاني**: أنَّ مِثْلًا هي الزَّائدةُ، كزيادتِها في قَولِه تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧]. وهذا ليس بجيِّدٍ؛ لأنَّ زيادةَ الأسماءِ ليسَتْ بجائزةٍ، وأيضًا يصيرُ التَّقديرُ: ليس كَهُوَ شَيءٌ، ودخولُ الكافِ على الضَّمائرِ لا يجوزُ إلَّا في شِعرٍ.

**الثَّالثُ**: أنَّ العربَ تقولُ: «مِثلُكَ لا يَفْعَلُ كذا»، يَعْنُون المُخاطَبَ نفْسَه؛ لأنَّهم

---

= للراغب (ص: ٦٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٧).

يُريدون المُبالَغةَ في نَفْيِ الوصفِ عن المُخاطَبِ، فيَنفونَها في اللَّفظِ عن مِثلِه، فيَثْبُتُ انتِفاؤُها عنه بدليلِها، فالعَرَبُ تُقيمُ المِثْلَ مُقامَ النَّفْسِ، فتقولُ: مِثلي لا يُقالُ له هذا، أي: أنا لا يُقالُ لي هذا.

**الرَّابعُ**: أَنْ يُرادَ بالمِثْلِ الصِّفةُ، وذلك أنَّ المِثْلَ بمعنى المَثَلِ، والمَثَلُ: الصِّفةُ، كقولِه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الرعد: ٣٥]، فيَكونَ المعنى: ليس مِثْلَ صِفَتِه تعالى شَيءٌ مِن الصِّفاتِ الَّتي لِغَيرِه(١).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موجِّهًا إلى الاحتكامِ إلى شريعتِه عندَ الاختلافِ: وما تَنازَعتُم فيه -أيُّها النَّاسُ- فحُكمُه إلى اللهِ وَحْدَه، وذلكم اللهُ هو رَبِّي عليه وَحْدَه اعتَمَدتُ، وإليه وَحْدَه أرجِعُ في جَميعِ شُؤوني.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى كمالَ قدرتِه، فيقولُ: هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، جعَل لكم -أيُّها النَّاسُ- مِن جنسِكم إناثًا، وجعَل لكم مِنَ الأنعامِ ذُكورًا وإناثًا، يَخلُقُكم اللهُ ويُكثِّرُكم -أيُّها النَّاسُ- أنتم وأنعامُكم في هذا الجَعلِ المذكورِ.

ثمَّ يقولُ منزِّهًا نفْسَه عن النِّدِّ والنَّظيرِ، ومُثبِتًا ما له مِن صفاتِ الكمالِ: ليس مِثلَ اللهِ شَيءٌ مِن خَلْقِه، وهو السَّميعُ البَصيرُ سُبحانَه.

له وَحْدَه مَفاتيحُ خَزائِنِ السَّمَواتِ والأرضِ، يُوَسِّعُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ منهم، إنَّ اللهَ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٥١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٤٣-٥٤٦)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٢٣٧).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ١٠ ﴾.

﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾.

أي: وما تَنازَعتُم فيه -أيُّها النَّاسُ- مِن أيِّ شَيءٍ كان، فحُكمُه إلى اللهِ وَحْدَه؛ فهو مَن يَقضي بيْنَكم فيما فيه تَختلِفونَ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (ذلك أنَّ أهلَ مكَّةَ كفَر بعضُهم بالقرآنِ، وآمَن بعضُهم، فقال الله تعالى: إنَّ الَّذي اختلَفْتُم فيه فإنِّي أرُدُّ قضاءَه إلَيَّ، وأنا أحكُمُ فيه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٥).

والمرادُ بهذا القولِ -كما ذكر الواحديُّ- أن يحكمَ يومَ القيامةِ للمؤمنينَ بالقرآنِ بالجنَّةِ، وللمكذِّبينَ به بالنَّارِ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥).

وقيل: المعنى في الجملةِ: وما اختلَفْتُم فيه أيُّها النَّاسُ مِن تكذيبٍ وتصديقٍ وإيمانٍ وكفرٍ وغيرِ ذلك مِن أمورِ الدِّينِ، فالحُكمُ فيه إلى الله، وهو إثابةُ المُحِقِّينَ فيه مِن المؤمنينَ، ومُعاقَبةُ المُبطِلينَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ أبي زَمَنين، والزمخشري، وابن عطية، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤١).

وقال الواحدي: (﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ ﴾ مِن أمرِ الدِّينِ ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لا إليكم، وقد حكم أنَّ الدِّينَ هو الإِسلامُ لا غيرُه). ((الوجيز)) (ص: ٩٦١). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧).

وممَّن قصَر الاختِلافَ في الآيةِ على أمورِ الدِّينِ أيضًا: القرطبيُّ، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

وقيل: هذا عامٌّ في أمورِ الدِّينِ وغيرِها. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرَّسْعَني، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٨٥). =

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡتَغِي حَكَمٗا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ ﴾ [الأنعام: ١١٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ [الزمر: ٤٦].

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴾.

أي: ذلِكم اللهُ العَظيمُ هو رَبِّي، عليه وَحْدَه اعتمَدْتُ، وإليه فوَّضْتُ جميعَ أُموري، وإليه وَحْدَه أرجِعُ في جميعِ شُؤوني، وأُقبِلُ عليه وأتوبُ إليه مِن ذُنوبي[1].

---

= قال ابن كثير: (﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي: مهما اختلَفْتُم فيه مِن الأمورِ، وهذا عامٌّ في جميعِ الأشياءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣).

وقال ابن عثيمين: (أيُّ شَيءٍ يقعُ بيْنَ الناسِ مِن الخلافِ فمَرَدُّه إلى الله عزَّ وجلَّ؛ سواءٌ كان في الأمورِ الدِّينيَّةِ أو في الأمورِ الدُّنيويَّةِ، وسواءٌ كان معَ المسلمينَ... أو كان معَ الكفَّارِ، أيُّ شَيءٍ فحُكمُه إلى الله عزَّ وجلَّ... مَردودٌ إلى الله في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٨٦-٨٨).

قال البِقاعي: (﴿أُنِيبُ ﴾ أي: أرجِعُ بالتَّوبةِ إذا قصَّرتُ في شَيءٍ مِن فروعِ شرعِه، وأرجعُ إلى كتابِه إذا نابَني أمرٌ مِن الأمورِ، فأعرِفُ منه حُكمَه، فافعلوا أنتم كذلك؛ اجعلوه الحَكَمَ تُفلحوا، ولا تَعدِلوا عنه في شَيءٍ مِن الأشياءِ فتَهلِكوا). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٥٦).

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: هو خالِقُ السَّمَواتِ السَّبعِ والأرضِ وما بَيْنَهما[1].

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾.

أي: جعَل اللهُ لكم مِن جنسِكم[2] إناثًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٤).

(٢) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾: أي: مِن جِنسِكم: الرَّسْعَنيُّ، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٥).

قال ابنُ عاشور: (وكَونُ الأزواجِ مِن أنفُسِهم كَمالٌ في النِّعمةِ؛ لأنَّه لو جَعَل أحَدَ الزَّوجَينِ مِن نَوعٍ آخَرَ لَفاتَ نَعيمُ الأُنسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤).

وقال الواحدي: (قال المفَسِّرون: يعني النِّساءَ، خَلَق حوَّاءَ مِن ضِلَعِ آدَمَ). ((البسيط)) (١٣/ ١٣٤).

وقال ابن جرير: (وإنَّما قال جَلَّ ثَناؤُه: ﴿مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لأنَّه خَلَق حَوَّاءَ مِن ضِلَعِ آدَمَ، فَهُنَّ مِنَ الرِّجالِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤).

وقال الرازي: (قال بعضُهم: المرادُ أنَّه تعالى خَلَق حَوَّاءَ مِن ضِلَعِ آدَمَ. وهذا ضَعيفٌ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ خِطابٌ مع الكُلِّ، فتَخصيصُه بآدَمَ وحَوَّاءَ خِلافُ الدَّليلِ، بل هذا الحُكمُ عامٌّ في جميعِ الذُّكورِ والإناثِ. والمعنى: أنَّه تعالى خَلَق النِّساءَ لِيَتزوَّجَ بهِنَّ الذُّكورُ). ((تفسير الرازي)) (٢٠/ ٢٤٤). ويُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ١٤)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي =

كما قال سُبحانَه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾.

أي: وجعَل اللهُ لكم مِنَ الضَّأنِ والمَعْزِ والإبِلِ والبَقَرِ ذُكورًا وإناثًا(١).

كما قال تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

---

= (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٥).

ممَّن اختار أنَّ المُرادَ بالأزواجِ: الإناثُ: ابنُ أبي زَمَنين، والسمعاني، وابنُ عطية، وابن الجوزي، وابن جُزَي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٥).

وقيلَ: المُرادُ: خلَقكم ذكورًا وإناثًا. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والماوَرْدي، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ جرير، وابن أبي زمنين، والسمعاني، والرسعني، والعليمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٧).

قال ابن جُزَي: (﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ﴾ يحتملُ أن يريدَ الإناثَ، أو الأصنافَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٥).

﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ﴾.

أي: يَخلُقُكم اللهُ ويُكثِّرُكم -أيُّها النَّاسُ- أنتم وأنعامُكم في هذا الجَعْلِ المذكورِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

قال ابن جزي: (﴿يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِ﴾ معنى ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾: يَخلُقُكم نسلًا بعدَ نسلٍ، وقرنًا بعدَ قرنٍ. وقيل: يُكَثِّرُكم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٥).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ معنى ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾: يخلقُكم: السمرقندي، والثعلبي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾: يُكَثِّرُكم: الرازيُّ، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ القيِّم، والبِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٣٠).

قال ابن القيم: (ومعنى الذَّرءِ: الخَلقُ، وهو هنا الخلقُ الكثيرُ، فهو خلقٌ وتكثيرٌ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٢٨٠).

وقال الشنقيطي: (﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾ أي: يَخلُقُكم ويَبُثُّكم ويَنْشُرُكم). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٨).

واختُلِف في قوله: ﴿فِيهِ﴾؛ فالأكثَرون على أنَّ (في) على أصلِها. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٠).

واختلَف القائلون بهذا القولِ فيما يَعودُ عليه الضَّميرُ في قولِه: ﴿فِيهِ﴾؛ فقيل: يعودُ على الجَعلِ، وقيل: يعودُ على التَّدبيرِ، وقيل: يعودُ على الرَّحم، وقيل يعود على التَّزاوُجِ.

ممَّن ذهب إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿فِيهِ﴾ عائدٌ على الجَعلِ الَّذي يتضمَّنُه قولُه: ﴿جَعَلَ لَكُمۡ﴾: ابنُ عطية، وابن جُزَي، وابن القيِّم، والثعالبي، والشوكاني، وابن عاشور. ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠)، =

= ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

قال ابنُ جرير: (﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ يقولُ: يَخْلُقُكم فيما جَعَل لكم مِن أزواجِكم، ويُعِيشُكم فيما جَعَل لكم مِن الأنعام). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٤).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿فِيهِ﴾ يعودُ على التَّدبيرِ: الزمخشريُّ، والرازي، والنسفي، والنيسابوري، والعليمي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٧)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤).

قال النسفي: (﴿فِيهِ﴾: في هذا التَّدبيرِ، وهو أنْ جعَل النَّاسَ والأنعامَ أزواجًا حتَّى كان بيْنَ ذُكورِهم وإناثِهم التَّوالدُ والتَّناسُلُ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿فِيهِ﴾ يعودُ على الأرحامِ: القصَّابُ، والسمرقندي، والثعلبي، والرَّسْعَني، والقُرطبي، والخازن. يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٤٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٥).

وقال الشنقيطي: (﴿فِيهِ﴾ أي: فيما ذَكَر مِن الذُّكورِ والإناثِ، أي: في ضِمنِه عن طريقِ التَّناسُلِ، كما هو معروفٌ. ويُوَضِّحُ ذلك في قولِه تعالَى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]؛ فقولُه تعالَى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ يُوَضِّحُ معنَى قولِه: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾.

فإنْ قِيلَ: ما وجهُ إفرادِ الضَّميرِ المجرورِ في قولِه: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ معَ أنَّه على ما ذكرتُم عائدٌ إلى الذُّكورِ والإناثِ مِن الآدمِيِّينَ والأنعامِ؟

فالجوابُ: أنَّ مِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّتي نَزَل بها القرآنُ رُجوعَ الضَّميرِ أو الإشارةِ بصيغةِ الإفرادِ إلى مُثَنًّى أو مجموعٍ باعتبارِ ما ذُكِر مَثَلًا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٨).

وقال البِقاعي: (﴿فِيهِ﴾ أي: في ذلك التَّزاوُجِ، بحيثُ يجعلُكم مُولَعينَ به). ((نظم الدرر)) (١/ ١٧).

وقيل: ﴿فِيهِ﴾ معناه: (بِهِ). وممَّن اختاره: الزَّجَّاج، والفرَّاء، والكرماني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٤٩).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٩].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

أي: ليس مِثلَ اللهِ سُبحانَه شَيءٌ مِن خَلْقِه؛ لا في ذاتِه ولا في أسمائِه، ولا في صِفاتِه ولا في أفعالِه؛ فهو الواحِدُ الأحَدُ الَّذي لا نَظيرَ له[1].

كما قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤].

﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

أي: واللهُ هو السَّميعُ لكُلِّ صَوتٍ، البَصيرُ بكُلِّ ما في الوُجودِ؛ فلا يَغيبُ عن عِلْمِه شَيءٌ[2].

كما قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤).

أي: لله وَحْدَه مَفاتيحُ خزائِنِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فجَميعُ الأشياءِ مِلكُه وبِيَدِه وَحْدَه لا شَريكَ له[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٨، ٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٢٤، ١٢٥).

قال ابن الجوزي: (وللمفسِّرينَ في المقاليدِ قَولانِ؛ أحدُهما: المفاتيحُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. والثَّاني: الخزائنُ، قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمقاليدِ: المفاتيحُ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، وابن جُزَي، والشنقيطي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٦١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ١٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٩).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: مفاتيحُ السَّمواتِ: المطرُ، ومفاتيحُ الأرضِ: النَّباتُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥).

وقال النَّحَّاسُ: (قال الحسَنُ ومجاهدٌ وقَتادةُ: المقاليدُ: المفاتيحُ. قال أبو جعفرٍ [النحاس]: والَّذي يَملِكُ المفاتيحَ يَملكُ الخزائنَ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٢٩٨). ويُنظَر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩١).

وقال الزَّجَّاجُ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ «الزمر» الآية (٦٣): (أي: مفاتيحُ السَّمَواتِ، المعنى: ما كان مِن شَيءٍ مِن السَّمَواتِ والأرضِ فاللهُ خالِقُه وفاتحُ بابِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٣٦١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: مفاتيحُ خزائنِ السَّمواتِ والأرضِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والنيسابوري، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٨٦).

قال جلال الدين المحلي: (مفاتيحُ خَزائنِهما، مِن المطرِ والنَّباتِ وغيرِهما). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٣٩).

وقال الزمخشري: (أي: هو مالكُ أمرِها وحافِظُها، وهو مِن بابِ الكنايةِ؛ لأنَّ حافظَ الخزائنِ ومُدَبِّرَ أمْرِها هو الَّذي يَملِكُ مَقاليدَها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ١٤٠). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٤٧١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ١٩٠). =

كما قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [المنافقون: ٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يدُ اللهِ مَلْأَى لا تَغِيضُها[1] نَفَقةٌ، سَحَّاءُ[2] اللَّيلَ والنَّهارَ، أرَأَيْتُم ما أنفَقَ مُنذُ خَلَقَ السَّماءَ والأرضَ؟ فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَدِه، وكان عَرشُه على الماءِ، وبيَدِه الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ))[3].

---

= وقال البيضاوي: (لأنَّ الخزائنَ لا يَدخُلُها ولا يَتصرَّفُ فيها إلَّا مَن بيَدِه مَفاتيحُها). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٤٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمقاليدِ: الخزائنُ: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٤٧٨).

وقال القاسمي: (مفاتيحُ الأرزاقِ، وخزائنُ المُلكِ والمَلَكوتِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٨).

وقال البِقاعي: (أي: خزائنُهما، ومفاتيحُ خزائنِهما، مِن الأمطارِ والنَّباتِ وغيرِهما). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٦٢).

وقال ابن كثير في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ «الزمر» الآية (٦٣): (قال مجاهدٌ: المقاليدُ هي: المفاتيحُ بالفارسيَّةِ. وكذا قال قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ، وسُفيانُ بنُ عُيَيْنةَ. وقال السُّدِّيُّ: ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ أي: خزائنُ السَّمواتِ والأرضِ.

والمعنَى على كِلا القولَينِ: أنَّ أزِمَّةَ الأمورِ بيَدِه، له المُلْكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شَيءٍ قديرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٢).

وأحال في سورةِ «الشورى» على ما تقدَّم في سورةِ «الزُّمَرِ»، ثمَّ قال: (وحاصلُ ذلك أنَّه المتصرِّفُ الحاكِمُ فيهما). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤).

(١) لا تَغيضُها: أي: لا تَنقُصُها. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١٠/ ٣٨٦).

(٢) سَحَّاءُ: أي: دائِمةُ الصَّبِّ والهَطْلِ بالعَطاءِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١٠/ ٣٨٦).

(٣) رواه البخاري (٤٦٨٤) واللَّفظُ له، ومسلم (٩٩٣).

﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ﴾.

أي: يُوسِّعُ اللهُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ منهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ﴾ [النحل: ٧١].

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُحيطٌ عِلمًا بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك مصالِحُ عِبادِه؛ فيَعلَمُ ما يُصلِحُهم ويُفسِدُهم مِن الغِنى والفَقرِ، ويُعطي كُلًّا مِنهم ما يَليقُ بحِكمتِه وتَقتَضيه مَشيئتُه، بما يُناسِبُ أحوالَهم مِن توسيعٍ أو تضييقٍ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أنَّ الواجبَ عندَ الاختلافِ الرُّجوعُ إلى حُكْمِ اللهِ؛ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٣]، فالآيةُ نَصٌّ صَريحٌ في أنَّ حُكمَ جميعِ ما تنازَعْنا فيه مَردودٌ إلى اللهِ وَحْدَه، وهو الحاكِمُ فيه على لِسانِ رَسولِه، فلو قُدِّمَ حُكمُ العَقلِ على حُكمِه لم يكُن هو الحاكِمَ بوَحيِه وكتابِه[٤]. وتدُلُّ أيضًا على الرُّجوعِ إلى المُحكَمِ مِن كتابِ اللهِ، والظَّاهِرِ مِن سُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا اختَلَفوا في تأويلِ آيةٍ واشتَبَه عليهم، وعلى تفويضِ ما لم تَصِلْ إلى دَرَكِه العُقولُ إلى اللهِ تعالى، بأن يُقالَ: اللهُ أعلَمُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٢).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٨٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ هذانِ الأصلانِ كثيرًا ما يَذكُرُهما اللهُ تعالى في كِتابِه؛ لأنَّهما يَحصُلُ بمَجموعِهما كَمالُ العَبدِ، ويَفوتُه الكَمالُ بفَوتِهما أو فَوتِ أحَدِهما، كقَولِه تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقَولِه: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾[1] [هود: ١٢٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ لَفْتُ نَظَرِ الإنسانِ إلى أنْ لا يَستعينَ إلَّا باللهِ تعالى؛ ولا يَسألَ إلَّا اللهَ تعالى؛ ولا يَتوكَّلَ إلَّا على اللهِ تعالى؛ وجْهُ ذلك: أنَّه هو الَّذي له مَقاليدُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فإذًا لا تَلتفِتْ إلى غيرِه، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لابنِ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما: ((إذا سألْتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنتَ فاسْتَعِنْ باللهِ))[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ أنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ اختلافٌ بيْنَ النَّاسِ، وهذا هو الواقعُ، يعني: لا يمكنُ أنْ تَرْفَعَ الاختِلافَ بيْنَ النَّاسِ! لا بُدَّ أنْ يَختلِفوا[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه أنَّ اللهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٤٣٥).

والحديث أخرجه الترمذيُّ (٢٥١٦)، وأحمدُ (٢٧٦٣) مطوَّلًا.

صحَّحه الترمذي، وعبدُالحقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، والقرطبي في ((التفسير)) (٨/ ٣٣٥)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (١/ ١٦٠)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥١٦)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٤٨٨)، وحسَّنه ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابن حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (١/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٢).

-تعالى- الحاكمُ بيْنَ عِبادِه بشرعِه في جميعِ أمورِهم[١]. وفيه أيضًا تحريمُ الرُّجوعِ إلى القوانينِ البشريَّةِ عندَ الاختلافِ؛ لقوله: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ لا إلى غيرِه[٢]، فالحَلالُ هو ما أحلَّه اللهُ، والحرامُ هو ما حرَّمه اللهُ، والدِّينُ هو ما شَرَعه اللهُ؛ فكُلُّ تَشريعٍ مِن غَيرِه باطِلٌ، والعَمَلُ به بَدَلَ تَشريعِ اللهِ -عندَ مَن يَعتَقِدُ أنَّه مِثلُه أو خَيرٌ منه- كُفرٌ بَواحٌ لا نِزاعَ فيه[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ مَفهومُه أنَّ اتِّفاقَ الأُمَّةِ حُجَّةٌ قاطِعةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يأمُرْنا أن نَرُدَّ إليه إلَّا ما اختلَفْنا فيه، فما اتَّفَقْنا عليه يكفي اتِّفاقُ الأُمَّةِ عليه؛ لأنَّها مَعصومةٌ عن الخَطَأِ، ولا بُدَّ أن يكونَ اتِّفاقُها مُوافِقًا لِما في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه[٤].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ فيه سؤالٌ: في ظاهرِ هذه الآيةِ إشكالٌ؛ فإنَّه يُقالُ: المقصودُ منها نَفيُ المِثْلِ عن اللهِ تعالى، وظاهِرُها يُوجِبُ إثباتَ المِثْلِ لله تعالى؛ فإنَّه يَقتَضي نَفْيَ المَثْلِ عن مِثْلِه لا عنه، وذلك يُوجِبُ إثباتَ المِثْلِ لله تعالى!

**الجوابُ**: أنَّ العَرَبَ تَقولُ: مِثلُك لا يَبخَلُ، أي: أنت لا تَبخَلُ، فنَفَوُا البُخلَ عن مِثْلِه، وهم يُريدونَ نَفْيَه عنه، ويقولُ الرَّجلُ: هذا الكَلامُ لا يُقالُ لِمِثْلي، أي: لا يُقالُ لي. والمرادُ منه المُبالَغةُ؛ فإنَّه إذا كان ذلك الحُكمُ مُنتَفِيًا عمَّن كان مُشابِهًا بسَبَبِ كَونِه مُشابِهًا له، فلَأَنْ يَكونَ مُنتَفِيًا عنه كان ذلك أَوْلى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٤، ٥٨٥). ويُنظر أيضًا: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ قَطْعُ الشَّبَهِ بيْنَه وبيْنَ الأشياءِ كلِّها، وإبطالٌ للقياسِ فيها(١).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ يُفيدُ الحَصرَ، فما معنى هذا الحَصرِ مع أنَّ العِبادَ أيضًا مَوصوفونَ بكَونِهم سَميعينَ بَصيرينَ؟

**الجوابُ**: السَّميعُ والبَصيرُ لَفظانِ مُشعِرانِ بحُصولِ هاتَينِ الصِّفَتينِ على سَبيلِ الكَمالِ، والكَمالُ في كُلِّ الصِّفاتِ ليس إلَّا للهِ تعالى، فهذا هو المرادُ مِن هذا الحَصرِ(٢).

٧- تأمَّلْ قَولَه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعدَ قولِه سُبحانَه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: كيف ذَكَر سُبحانَه هذا النَّفيَ تَقريرًا للتَّوحيدِ، وإبطالًا لِمَا عليه أهلُ الشِّركِ مِن تَشبيهِ آلهتِهم وأوليائِهم به حتَّى عَبَدوهم معه، فحَرَّفَها المُحَرِّفونَ وجَعَلوها تُرْسًا لهم في نَفيِ صِفاتِ كَمالِه، وحَقائقِ أسمائِه وأفعالِه(٣)!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ إثباتَ الصِّفاتِ لا يَستلزِمُ التَّمثيلَ، ولو كان يَستَلزِمُ التَّمثيلَ لَكان كلامُ اللهِ تعالى مُتناقِضًا(٤)!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ أنَّه لا يجوزُ إثباتُ اسمٍ أو صِفةٍ للهِ تعالى مع التَّمثيلِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٥، ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ٢٣٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٣٠).

١٠- أنَّ تَمثيلَ اللهِ بخَلْقِه كُفرٌ؛ لِكَونِه تَكذيبًا لِقَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فيه دَليلٌ لِمَذهَبِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ مِن إثباتِ الصِّفاتِ، ونَفيِ مُماثَلةِ المَخلوقاتِ، وفيه رَدٌّ على المُشَبِّهةِ؛ في قَولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، وعلى المُعَطِّلةِ؛ في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾، فأوَّلُ الآيةِ تنزيهٌ مِن غيرِ تعطيلٍ، وآخِرُها إثباتٌ للصِّفاتِ مِن غيرِ تشبيهٍ ولا تمثيلٍ[2]، فالمُمَثِّلُ يَعبُدُ صَنَمًا، والمُعَطِّلُ يَعبُدُ عَدَمًا[3].

١٢- التَّعبيرُ بنفيِ التَّمثيلِ أحسَنُ مِن التَّعبيرِ بنفيِ التَّشبيهِ؛ لأنَّه هو الَّذي نفاه اللهُ في القرآنِ؛ فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[4].

١٣- شَمِلَ نفْيُ المُماثَلةِ في قولِه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ إبطالَ ما نسَبوا للهِ البناتِ، وهو مُناسَبةُ وُقوعِه عَقِبَ قولِه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٧١، ٧٢)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ١١١)، ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٠٣)، ((التدمرية)) لابن تيمية (ص: ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (١/ ٣١٧، ٣١٩)، ((الأسماء والصفات نقلًا وعقلًا)) للشنقيطي (ص: ٢٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥١٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٤٠٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٦)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٥٢٦)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٦/ ٣٤٨) و (١٠/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣١٨). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٦٦، ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٧).

١٤- بَيَّن الله تعالى في آياتٍ كثيرةٍ صِفاتِ مَن يَستحِقُّ أنْ يكونَ الحُكمُ له، فعلى كُلِّ عَاقِلٍ أَنْ يَتَأَمَّلَها، ويُقابِلَها معَ صفاتِ البشرِ المشرِّعينَ للقوانينِ الوضعيَّةِ، فيَنظُرَ هل تَنطَبِقُ عليهم صِفاتُ مَن له التَّشريعُ؟! سبحانَ اللهِ وتعالَى عن ذلك. فإنْ كانت تنطَبِقُ عليهم -ولن تكونَ- فَلْيَتَّبِعْ تشريعَهم! وإنْ ظَهَر يقينًا أنَّهم أحقرُ وأخسُّ وأذلُّ وأصغرُ مِن ذلك، فَلْيَقِفْ بهم عندَ حَدِّهم، ولا يُجاوِزْه بهم إلى مَقامِ الرُّبوبيَّةِ. سبحانَه وتعالَى أنْ يكونَ له شريكٌ في عبادتِه أو حُكْمِه أو مُلْكِه. ومِن هذه الآياتِ قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ثمَّ قال مُبَيِّنًا صِفاتِ مَن له الحُكمُ والتَّشريعُ: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، فهل في الكَفَرةِ الفَجَرةِ المُشَرِّعينَ للنُّظُمِ الشَّيطانيَّةِ مَن يَستَحِقُّ أن يُوصَفَ بأنَّه الرَّبُّ الَّذي تُفَوَّضُ إليه الأمورُ، ويُتوَكَّلُ عليه، وأنَّه خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ ومُختَرِعُهما على غيرِ مِثالٍ سابِقٍ، وأنَّه هو الَّذي خَلَق للبَشَرِ أزواجًا، وخلَق لهم أزواجَ الأنعامِ الثَّمانيةَ، وأنَّه ليس كمِثْلِه شَيءٌ وهو السَّميعُ البصيرُ، وأنَّه له مَقاليدُ السَّمَواتِ والأرضِ، وأنَّه هو الَّذي يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يَشاءُ، وهو بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ؟! فعليكم -أيُّها المُسلِمونَ- أن تَتفَهَّموا صِفاتِ مَن يَستَحِقُّ أن يُشَرِّعَ ويُحَلِّلَ ويُحَرِّمَ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ هذا تَكملةً

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ٤٤٤، ٤٤٥).

للاعتِراضِ، فيَكونَ كلامًا مُوجَّهًا مِن اللهِ تعالى إلى النَّاسِ. ويجوزُ أن يكونَ ابتِداءَ كلامٍ مُتَّصِلًا بقولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾؛ فتَعيَّنَ أنْ يكونَ مَجموعُ هذا الكلامِ لِمُتكلِّمٍ واحدٍ؛ لأنَّ ضَمائرَ (رَبِّي، وتَوَكَّلْتُ، وأُنِيبُ) ضَمائرُه، وتلك الضَّمائرُ لا تَصلُحُ أنْ تعودَ إلى اللهِ تعالى، ولا حَظَّ في سِياقِ الوحيِ إلى أحدٍ سِوى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فتَعيَّنَ تَقديرُ فِعلِ أمْرٍ بقَولٍ يَقولُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُمَلِ الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وإلى المسلِمينَ، والواوُ عاطفةٌ فِعلَ أمْرٍ بالقولِ، وحذْفُ القولِ شائعٌ في القُرآنِ بدَلالةِ القرائنِ؛ لأنَّ مادَّةَ الاختلافِ مُشعِرةٌ بأنَّه بيْنَ فَريقَينِ، وحالةَ الفَريقَينِ مُشعِرةٌ بأنَّه اختِلافٌ في أُمورِ الاعتقادِ الَّتي أنْكَرَها الكافرونَ مِن التَّوحيدِ والبَعثِ، والنَّفعِ والإضرارِ[1].

- ولَفظةُ ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ تَدُلُّ على العُمومِ، وهي بَيانٌ لإبهامِ (ما)، أيْ: أيُّ شَيءٍ اختَلفتُم فيه، والمرادُ -على قولٍ-: مِن أشياءِ الدِّينِ وشُؤونِ اللهِ تعالى[2].

- يَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ مَقولَ قَولٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ﴾ الآيةَ [الشورى: ٧]، فتكونَ كلامًا مُستأنَفًا؛ لأنَّ الإنذارَ يَقتضي كلامًا مُنذَرًا به. ويجوزُ أنْ تكونَ مُتَّصلةً بجُملةِ ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ﴾ تَكملةً للكلامِ الموجَّهِ مِن اللهِ، ويكونَ في قولِه: ﴿رَبِّي﴾ الْتفاتٌ مِن الخِطابِ إلى التَّكلُّمِ، والتَّقديرُ: ذلكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤١).

اللهُ ربُّكم، وتكونَ جُملتا ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ مُعترِضتَينِ[١].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي﴾ لِتَمييزِ المشارِ إليه، وهو المفهومُ مِن ﴿فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، وهذا التَّمييزُ لإبطالِ الْتباسِ ماهيَّةِ الإلهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ على المشرِكينَ؛ إذ سَمَّوُا الأصنامَ آلهةً وأربابًا. وأُوثِرَ اسمُ الإشارةِ الَّذي يُستعمَلُ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾؛ لِقَصْدِ التَّعظيمِ بالبُعدِ الاعتباريِّ، اللَّازِمِ للسُّمُوِّ وشَرَفِ القَدْرِ، أي: ذلكم اللهُ العظيمُ، ويُتوصَّلُ مِن ذلك إلى تَعظيمِ حُكمِه، فالمعنى: اللهُ العظيمُ في حُكمِه هو ربِّي الَّذي توكَّلتُ عليه، فهو كافِيني منكم[٢].

- والإنابةُ: الرُّجوعُ، والمرادُ بها هنا في قولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ الكِنايةُ عن تَرْكِ الاعتمادِ على الغيرِ؛ لأنَّ الرُّجوعَ إلى الشَّيءِ يَستلزِمُ عدَمَ وُجودِ المطلوبِ عِندَ غيرِه[٣].

- وجِيءَ في فِعلِ ﴿تَوَكَّلۡتُ﴾ بصِيغةِ الماضي، وفي فِعلِ ﴿أُنِيبُ﴾ بصِيغةِ المضارِعِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ توكُّلَه على اللهِ كان سابقًا مِن قَبلِ أنْ يَظهَرَ له تَنكُّرُ قَومِه له، فقد صادَفَ تَنكُّرُهم منه عبْدًا مُتوكِّلًا على ربِّه، وإذا كان تَوكُّلُه قد سبَقَ تَنكُّرَ قَومِه، فاستِمرارُه بعدَ أنْ كَشَّروا له عن أنيابِ العُدوانِ مُحقَّقٌ. وأمَّا فِعلُ ﴿أُنِيبُ﴾ فجِيءَ فيه بصِيغةِ المُضارِعِ؛ للإشارةِ إلى تَجدُّدِ الإنابةِ وطلَبِ المغفرةِ، ويُعلَمُ تَحقُّقُها في الماضي بمُقارنتِها لِجُملةِ ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾؛ لأنَّ المتوكِّلَ مُنيبٌ. ويَجوزُ أن يكونَ ذلك مِن الاحْتِباكِ[٤]، والتَّقديرُ: عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٣).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

تَوكَّلتُ وأتَوكَّلُ، وإليه أنَبْتُ وأُنيبُ[١].

- وتَقديمُ المُتعَلَّقَينِ في ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: لا أتَوكَّلُ إلَّا عليه، ولا أُنيبُ إلَّا إليه[٢].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ خَبرٌ ثانٍ عن الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الشورى: ٩]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ؛ أَعْقَبَ به أنَّه على كلِّ شَيءٍ قديرٌ؛ فإنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ مِن أبرَزِ آثارِ صِفةِ القُدرةِ المنفرِدِ بها[٣].

- قولُه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضميرِ ﴿فَاطِرُ﴾؛ لأنَّ مضمونَها حالٌ مِن أحوالِ فَطْرِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإنَّ خلْقَ الإنسانِ والأنعامِ مِن أعجَبِ أحوالِ خلْقِ الأرضِ. ويَجوزُ كونُها خَبرًا ثالثًا عن ضَميرِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الشورى: ٩]، والمعنى: قدَّرَ في تَكوينِ نوعِ الإنسانِ أزواجًا لأفرادِه، ولَمَّا كان ذلك التَّقديرُ مُقارِنًا لأصلِ تَكوينِ النَّوعِ، جِيءَ فيه بالفعلِ الماضي[٤].

- قولُه: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا﴾ الخِطابُ في قولِه: ﴿لَكُم﴾ للنَّاسِ كلِّهم، والخِطابُ الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ، واللَّامُ للتَّعليلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٣، ٤٤).

وتَقديمُ ﴿لَكُمْ﴾ على غيرِه مِن مَعمولاتِ ﴿جَعَلَ﴾؛ لِيُعرَفَ أنَّه مَعمولٌ لذلك الفِعلِ، فلا يُتوهَّم أنَّه صِفةٌ لـ ﴿أَزْوَٰجًا﴾، ولِيكونَ التَّعليلُ به مُلاحَظًا في المعطوفِ بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾[1].

- وقولُه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ عطفٌ على ﴿أَزْوَٰجًا﴾ الأوَّلِ؛ فهو كمَفعولٍ لـ (جعَلَ)، والتَّقديرُ: وجعَلَ مِن الأنعامِ أزواجًا، أي: جعَلَ منها أزواجًا بعضَها لبعضٍ، وفائدةُ ذِكرِ أزواجِ الأنعامِ دونَ أزواجِ الوَحْشِ: أنَّ في أنواعِ الأنعامِ فائدةً لحياةِ الإنسانِ؛ لأنَّها تَعيشُ معه، ولا تَنفِرُ منه، ويَنتفِعُ بألبانِها وأصوافِها، ولُحومِها ونَسْلِها، وعمَلِها مِن حَمْلٍ وحَرْثٍ؛ فبِجَعْلِها أزواجًا حصَلَ مُعظمُ نفْعِها للإنسانِ[2].

- وضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ للمُخاطَبينَ بقولِه: ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾، ومُرادُ شُمولِه لجَعْلِ أزواجٍ مِن الأنعامِ المتقدِّمِ ذِكرُه؛ لأنَّ ذِكرَ أزواجِ الأنعامِ لم يكُنْ هَمَلًا؛ بلْ مُرادًا منه زِيادةُ المِنَّةِ؛ فإنَّ ذَرْءَ نَسْلِ الإنسانِ نِعمةٌ للنَّاسِ، وذَرْءَ نَسْلِ الأنعامِ نِعمةٌ أُخرى للنَّاسِ؛ ولذلك اكتَفَى بذِكرِ الأزواجِ في جانبِ الأنعامِ عن ذِكرِ الذَّرءِ؛ إذ لا مَنْفعةَ للنَّاسِ في تَزاوُجِ الأنعامِ سِوى ما يَحصُلُ مِن نَسْلِها، وإذ كان الضَّميرُ ضَميرَ جَماعةِ العقلاءِ، وكان ضَميرَ خِطابٍ، في حينِ أنَّ الأنعامَ ليستْ عُقلاءَ ولا مُخاطَبةً؛ فقد جاء في ذلك الضَّميرِ تَغليبُ العُقلاءِ؛ إذ لم يُذْكَرْ ضَميرٌ صالحٌ للعُقلاءِ وغيرِهم، كأنْ يُقالَ: يَذْراكِ بكسْرِ الكافِ، على تأْويلِ إرادةِ خِطابِ الجَماعةِ، وجاء فيه تَغليبُ الخِطابِ على الغَيبةِ؛ فقد جاء فيه تَغليبانِ، وهو تَغليبٌ دقيقٌ؛ إذ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اجتمَعَ في لفظٍ واحدٍ نَوعانِ مِن التَّغليبِ[١].

- وجِيءَ بالمضارعِ في ﴿يَذۡرَؤُكُمۡ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ، والتَّجدُّدُ أنسَبُ بالامتِنانِ[٢].

- ولَفظةُ (ذَرَأَ) -والذَّرْءُ: بَثُّ الخَلقِ وتكثيرُه- تَزيدُ على لفظةِ (خَلَقَ) معنًى آخَرَ ليس في (خلَقَ)، وهو تَوالي الطَّبقاتِ على مَرِّ الزَّمانِ[٣].

- وحرْفُ (في) مُعبَّرٌ به عن معنى السَّببيَّةِ؛ تَشْبيهًا للسَّببِ بالظَّرفِ في احتوائِه على مُسبَّباتِه؛ كاحتواءِ المنبعِ على مائِه، والمَعدِنِ على تُرابِه، وفيه مُبالَغةٌ لِلْبَثِّ والتَّكثيرِ[٤].

- ومَوقعُ هذه الجُملةِ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ كالنَّتيجةِ للدَّليلِ؛ فإنَّه لَمَّا قدَّمَ ما هو نِعَمٌ عَظيمةٌ، تَبيَّنَ أنَّ اللهَ لا يُماثِلُه شَيءٌ مِن الأشياءِ في تَدبيرِه وإنعامِه، ومعنى ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾: ليس مِثلَه شَيءٌ، فأُقْحِمَت كافُ التَّشبيهِ على (مِثلٍ) وهي بمعناهُ؛ لأنَّ معنى المِثْلِ هو الشَّبيهُ؛ فتَعيَّنَ أنَّ الكافَ مُفيدةٌ تأكيدًا لِمَعنى المِثلِ، وهو مِن التَّأكيدِ اللَّفظيِّ باللَّفظِ المرادِفِ مِن غَيرِ جِنْسِه، وحسَّنَه أنَّ المؤكَّدَ اسمٌ؛ فأشْبَهَ مَدخولَ كافِ التَّشبيهِ المخالِفِ لمعنى الكافِ، وإذ قد كان المثلُ واقعًا في حيِّزِ النَّفْيِ، فالكافُ تأْكيدٌ لِنَفْيِه، فكأنَّه نَفى المثلَ عنه تعالى بجُملتَينِ؛ تَعليمًا للمسلمينَ كيف يُبطِلون مُماثَلةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤، ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥).

الأصنامِ للهِ تعالى[١].

- قَدَّمَ سُبحانَه نَفْيَ المُماثَلةِ على الإثباتِ مِن أجْلِ أنْ يَرِدَ الإثباتُ على قَلبٍ خالٍ مِن تَوَهُّمِ المُماثَلةِ، ويكونَ الإثباتُ حينَئذٍ على الوَجهِ اللَّائقِ به تعالى، وأنَّه لا يُماثَلُ في صِفاتِه كما لا يُماثَلُ في ذاتِه تعالى[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

- مَوقعُ هذه الجُملةِ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ كمَوقعِ الَّتي قبْلَها؛ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ النَّتيجةِ لِما تَقدَّمَه؛ لأنَّه إذا ثبَتَ أنَّ اللهَ هو الوليُّ، وما تَضمَّنَتْه الجُمَلُ بعدَها إلى قولِه: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١١] مِنِ انفِرادِه بالخَلقِ؛ ثبَتَ أنَّه المنفرِدُ بالرِّزقِ[٣].

- وتقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: هي مِلكُه لا مِلكُ غيرِه[٤].

- وجُملةُ ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ مُبيِّنةٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وبَسْطُ الرِّزقِ: توسِعتُه، وقَدْرُه: كِنايةٌ عن قِلَّتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٨، ٥٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٥ - ٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩).

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ هو كالعِلَّةِ لقولِه: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾، أي: إنَّ مَشيئتَه جاريةٌ على حسَبِ عِلمِه بما يُناسِبُ أحوالَ المَرزوقينَ مِن بَسْطٍ أو قَدْرٍ. فهذه الجملةُ تعليلٌ لِما قبْلَها، وتَمهيدٌ لِما بعدَها مِن قولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ ...﴾، وإيذانٌ بأنَّ ما شرع لهم صادرٌ عن كَمالِ العِلمِ والحِكمةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩).

## الآيات (١٢-١٥)

﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شَرَعَ لَكُم﴾: أي: بيَّن وأوضَح لكم، والشَّرْعُ هو البيانُ والإظهارُ، وقيل: فتَح لكم وعرَّفكم الطَّريقَ، والشَّرْعُ: نهجُ الطَّريقِ الواضح، وأصلُ (شرع): شَيءٌ يُفتَحُ في امتِدادٍ يكونُ فيه[1].

﴿يَجْتَبِىٓ﴾: أي: يَختارُ ويَصطَفي، والاجتِباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصلُ (جبي): يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٩٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (٧/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

﴿يُنِيبُ﴾: أي: يَرجِعُ ويَتوبُ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[١].

﴿بَغۡيَۢا﴾: أي: فَسادًا وتَعدِّيًا، وأصلُ البَغيِ هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الفَسادِ[٢].

﴿أُورِثُواْ﴾: أي: استُخْلِفوا، وأُوتوا، وأصلُه: أنْ يكونَ الشَّيءُ لقومٍ ثُمَّ يَصيرَ إلى آخَرينَ بِنَسَبٍ أو سَبَبٍ[٣].

﴿مُرِيبٖ﴾: أي: مُوقِعٍ في الرِّيبةِ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشَّكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتِفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا نِعمتَه بما شرَع مِن شرائعِ الدِّينِ: سَنَّ اللهُ لكم -أيُّها المُسلِمونَ- وبيَّن ما وصَّى به نوحًا وما أوحاه إلى مُحمَّدٍ، وما وصَّى به إبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك هو إقامةُ دينِ الإسلامِ، وعَدَمُ التَّفَرُّقِ والاختِلافِ فيه.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى موقفَ المشركينَ مِن هذا الدِّينِ، فيقولُ: عَظُمَ وشَقَّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٢٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١، ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦)، ((مفردات القرآن)) للفراهي (ص: ٣٥٨).

المُشرِكينَ ما تَدعوهم إليه -يا محمَّدُ- مِن تَوحيدِ اللهِ وَحْدَه.

اللهُ يَصطَفي إليه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويَهدي إليه مَن يُقبِلُ عليه.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سببَ اختِلافِ المختلِفينَ في أمرِ الدِّينِ، فيقولُ: وما تَفرَّقوا إلَّا مِن بَعدِ ما جاءهم العِلمُ مِن اللهِ؛ بسَبَبِ فَسادِهم وعُدوانِ بعضِهم على بعضٍ، ولولا كَلِمةٌ سَبَقَتْ مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- بتأخيرِ العذابِ وإمهالِهم إلى وَقتٍ مَعلومٍ، لَعجَّل العُقوبةَ لهم، وإنَّ اليهودَ والنَّصارَى الَّذين أُوتُوا الكِتابَ مِن بَعدِ أولئكَ المختلِفينَ في الحَقِّ: لَفي شَكٍّ مُوقِعٍ في الارتيابِ والاضطِرابِ مِن كتابِهم.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالمُضِيِّ في دعوتِه، فيقولُ: فلِذلك الدِّينِ الحَقِّ فادْعُ النَّاسَ -يا مُحمَّدُ- واستَقِمْ على الدِّينِ الَّذي أمَرَك اللهُ به، ولا تتَّبِعْ أهواءَهم، وقُلْ: آمَنتُ بما أنزَلَ اللهُ مِن الكُتُبِ كُلِّها، وأمرني ربِّي بأن أعدِلَ بيْنَكم، اللهُ رَبُّنا ورَبُّكم، لنا جَزاءُ أعمالِنا، ولكم جَزاءُ أعمالِكم، وسيُجازي اللهُ كُلًّا بعَمَلِه، لا جِدالَ ولا مُنازَعةَ بيْنَنا وبيْنَكم، اللهُ يَجمَعُ بينَنا وبينَكم يومَ القيامةِ، فيَقضي بينَنا بالحَقِّ، وإليه وَحْدَه مَرجِعُنا جَميعًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا عظَّم اللهُ تعالى وحْيَه إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ

يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣]؛ ذكر في هذه الآيةِ تفصيلَ ذلك، فقال(١):

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾.

أي: سَنَّ اللهُ لكم وبيَّن -أيُّها المُسلِمونَ- ما وصَّى به نوحًا أن يَعمَلَه، وما أوحاه إلى مُحمَّدٍ، وما وصَّى به إبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذلك هو إقامةُ دينِ الإسلامِ الَّذي شَرَعه اللهُ، بلا تَحريفٍ ولا غُلُوٍّ ولا تَقصيرٍ في العَمَلِ به، مع الاجتِماعِ على ذلك، ونَبْذِ التَّفَرُّقِ والاختِلافِ فيه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٧٩-٤٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٢-١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٦٣-٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٢٨-١٣٦).

قال الزمخشري: (المرادُ: إقامةُ دينِ الإسلامِ الَّذي هو توحيدُ اللهِ وطاعتُه، والإيمانُ برُسُلِه وكُتُبِه، وبيَومِ الجزاءِ، وسائِرِ ما يكونُ الرَّجُلُ بإقامتِه مُسلِمًا، ولم يُرِدِ الشَّرائعَ الَّتي هي مصالحُ الأُممِ على حَسَبِ أحوالِها؛ فإنَّها مختلِفةٌ مُتَفاوِتةٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٥).

وقال ابنُ العربي: (المعنى: ووصَّيْناك -يا محمَّدُ- ونوحًا دينًا واحِدًا، يعني في الأُصولِ الَّتي لا تختلِفُ فيها الشَّريعةُ، وهي: التَّوحيدُ، والصَّلاةُ، والزَّكاةُ، والصِّيامُ، والحَجُّ، والتَّقَرُّبُ إلى الله تعالى بصالحِ الأعمالِ، والتَّزَلُّفُ إليه بما يَرُدُّ القَلبَ والجارِحةَ إليه، والصِّدقُ، والوَفاءُ بالعَهدِ، وأداءُ الأمانةِ، وصِلةُ الرَّحِمِ، وتحريمُ الكُفرِ والقَتلِ والزِّنا، والإذايةِ للخَلقِ كيفما تصَرَّفَت، والاعتداءِ على الحيوانِ كيفما كان، واقتِحامِ الدَّناءاتِ، وما يعودُ بخَرمِ المروءاتِ؛ فهذا كُلُّه شُرِعَ دينًا واحِدًا ومِلَّةً مُتَّحِدةً لم يختلِفْ على ألسِنةِ الأنبياءِ... واختَلَفتِ الشَّرائعُ وراءَ هذا في مَعانٍ حَسَبَما أراده اللهُ مِمَّا اقتضَتْه المصلحةُ، وأوجبت الحِكمةُ وَضْعَه في الأزمنةِ على الأُمَمِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٨٩، ٩٠). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٧، ١٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (الدِّينُ الَّذي اتَّفَقوا عليه: هو الأُصولُ، فتضَمَّن الكلامُ أشياءَ؛ أحَدُها: أنَّه شَرَعَ لنا الدِّينَ المشتَرَكَ، وهو الإسلامُ والإيمانُ العامُّ، والدِّينَ المختَصَّ بنا، وهو الإسلامُ والإيمانُ =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٤، ١٠٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٢، ٥٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... الأنبياءُ إخوةٌ مِن عَلَّاتٍ[١]، وأُمَّهاتُهم شَتَّى، ودينُهم واحِدٌ ...))[٢].

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

أي: عَظُمَ وشَقَّ على المُشرِكينَ ما تَدعُوهم إليه -يا مُحمَّدُ- مِن تَوحيدِ اللهِ وطاعتِه، وتَرْكِ عبادةِ ما سِواه[٣].

---

= الخاصُّ. الثَّاني: أنَّه أمَرَنا بإقامةِ هذا الدِّينِ كُلِّه؛ المُشترَكِ والمختَصِّ، ونهانا عن التَّفَرُّقِ فيه. الثَّالثُ: أنَّه أمَرَ المرسَلينَ بإقامةِ الدِّينِ المُشترَكِ، ونهاهم عن التَّفَرُّقِ فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١/ ١٣، ١٤).

وقال ابن عاشور: (الإقامةُ مُجمَلةٌ، يُفَسِّرُها ما في كُلِّ دينٍ مِن الفُروعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٣).

(١) العَلَّاتُ: هم الإخوةُ لأبٍ مِن أمَّهاتٍ شَتَّى، والمرادُ أنَّ إيمانَهم واحِدٌ، وشرائِعَهم مُختَلِفةٌ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٢٩١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١١٩، ١٢٠).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨].

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: اللهُ يَصطفي ويَختارُ لِنَفْسِه وولايتِه مَن أحَبَّ مِن عبادِه[1].

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾.

---

= (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٢).

قال ابن عاشور: (وقد كبُرَ عليهم ذلك مِن ثلاثِ جِهاتٍ: جهةِ الدَّاعي؛ لأنَّه بشَرٌ مِثلُهم ﴿قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، ولأنَّه لم يكُنْ قبْلَ الدَّعوةِ مِن عُظماءِ القَريتينِ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. وجِهةِ ما به الدَّعوةُ؛ فإنَّهم حَسِبوا أنَّ اللهَ لا يُخاطِبُ الرُّسلَ إلَّا بكتابٍ يُنزلُه إليه دَفْعةً مِن السَّماءِ، فقد قالوا: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٨]، والقائلونَ هم المشركونَ. ومِن جِهةِ ما تَضمَّنَتْه الدَّعوةُ ممَّا لم تُساعِدْ أهواؤُهم عليه؛ قالُوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٣٧).

أي: ويَهدي اللهُ إليه مَن يَتوبُ مِن ذُنوبِه، ويُقبِلُ على طاعتِه[١].

كما الله قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَر اللهُ تعالى باجتِماعِ المُسلِمينَ على دينِهم، ونهاهم عن التَّفَرُّقِ، أخبَرَهم أنَّكم لا تَغتَرُّوا بما أنزَل اللهُ عليكم مِنَ الكِتابِ؛ فإنَّ أهلَ الكِتابِ لم يَتفَرَّقوا حتَّى أنزَلَ اللهُ عليهم الكِتابَ الموجِبَ للاجتِماعِ، ففَعَلوا ضِدَّ ما يأمُرُ به كتابُهم! وذلك كُلُّه بَغْيًا وعُدوانًا منهم، فإنَّهم تباغَضوا وتحاسَدوا، وحصَلَت بيْنَهم المُشاحَنةُ والعَداوةُ، فوقَع الاختِلافُ؛ فاحذَروا -أيُّها المُسلِمونَ- أن تَكونوا مِثلَهم[٢].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن أنَّه أمَرَ كُلَّ الأنبياءِ والأُمَمِ بالأخذِ بالدِّينِ المُتَّفَقِ عليه، كان لِقائِلٍ أن يقولَ: فلماذا نَجِدُهم مُتفَرِّقينَ؟ فأجاب اللهُ تعالى عنهم بقَولِه[٣]:

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

أي: وما تفرَّقَ أهلُ الأديانِ فصاروا أحزابًا، وحصلَتْ منهم المُخالَفةُ إلَّا

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٨).

مِن بَعدِ ما جاءَهم العِلمُ مِن اللهِ بإقامةِ دِينِه، وعدَمِ التَّفَرُّقِ فيه، وإنَّما حَمَلهم على ذلك بَغْيُ بعضِهم على بعضٍ، وتحاسُدُهم، وطلبُهم للرِّئاسةِ، واشتِغالُهم بالدُّنيا، ولم يكُنْ تَفَرُّقُهم لقُصورٍ في البيانِ والحُجَجِ؛ فقد بلَغهم الحقُّ، وقامَتْ عليهم الحُجَّةُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص ١٤٣، ١٤٤).

ممن اختارَ في الجملةِ أنَّ معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ﴾ أنَّه قد بلَغهم الحقُّ، وأُقيمتْ عليهم الحجةُ: مكي، وابن كثير، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير سورة الشورى- ابن عثيمين)) (ص: ١٤٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٣)

وقيل المعنى: إلا عن علْمٍ بأنَّ الفرقةَ ضلالةٌ وفسادٌ، وممن اختاره: الزجاج، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والرازي، والرسعني، والنسفي، والخازن، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٧).

قال ابن عاشور: (ومجيءُ العلمِ إليهم يُؤذِنُ بأنَّ رسلَهم بيَّنوا لهم مضارَّ التفرُّقِ مِن عهدِ نوحٍ... ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالعلمِ سببَ العلمِ، أي: إلَّا مِن بعدِ مجيءِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بصفاتِه الموافقةِ لما في كتابِهم، فتفرَّقوا في اختلاقِ المطاعنِ والمعاذيرِ الباطلةِ؛ لينفوا مطابقةَ الصِّفاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٦).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((تَفرَّقَتِ اليَهودُ على إحدى وسَبعِينَ أو اثنتَينِ وسَبعينَ فِرقةً، والنَّصارى مِثلَ ذلك، وتَفترِقُ أُمَّتي على ثلاثٍ وسَبعينَ فِرقةً))(١).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: ولولا قَولٌ سَبَق مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- بتأخيرِ العذابِ وإمهالِهم إلى وَقتٍ مُحَدَّدٍ، لَعجَّلَ العُقوبةَ لأولئك المتفرِّقينَ في دينِهم بَغيًا بغَيرِ حَقٍّ(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠) واللفظ له، وابن ماجه (٣٩٩١)، وأحمد (٨٣٩٦).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وقال الشوكاني في ((الفتح الرباني)) (١/ ٢٠٧): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٦/ ١٦٩)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٦٤٠): (حسنٌ صحيح).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٣، ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥).

قال ابنُ عطية: (قال المفسِّرون: هي حَتمُه تعالى القَضاءَ بأنَّ مُجازاتَهم إنَّما تقَعُ في الآخرةِ، فلولا ذلك لَفَصَل بيْنَهم في الدُّنيا، وغَلَب المحِقُّ على المُبطِلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠).

وقال القرطبي: (﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قيل: القيامةُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ [القمر: ٤٦]. وقيل: إلى الأجَلِ الَّذي قضَى فيه بعذابِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بالكَلِمةِ: ما أراده اللهُ مِن إمهالهم وتأخيرِ مُؤاخَذتِهم إلى أجَلٍ لهم اقتَضَتْه حِكمتُه في نظامِ هذا العالَمِ؛ فرُبَّما أخَّرَهم ثمَّ عذَّبَهم في الدُّنيا، ورُبَّما أخَّرَهم إلى عذابِ الآخرةِ، وكُلُّ ذلك يَدخُلُ في الأجَلِ المسَمَّى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٧).

قال الرازي: (واخْتَلَفوا في الَّذينَ أُريدوا بهذه الصِّفةِ مَن هُمْ؟ فقالَ الأكثرونَ: هم اليهودُ والنَّصارى، والدَّليلُ قولُه تعالَى في «آلِ عمرانَ» ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٩] وقالَ في سورةِ «لَمْ يَكُنْ»: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤] ولأنَّ قَولَه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ لائِقٌ بأهلِ الكتابِ، وقالَ آخرونَ: إنَّهم همُ العربُ، وهذا باطلٌ للوُجوهِ المَذْكورةِ، لأنَّ قولَه تعالَى =

كما قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾ [الكهف: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر: ٤٥].

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾.

أي: وإنَّ اليهودَ والنَّصارَى الَّذين أُوتُوا الكتابَ؛ التَّوراةَ والإنجيلَ[1] مِن بَعدِ

---

= بعدَ هذه الآيةِ ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ لا يليقُ بالعربِ، لأنَّ الَّذينَ أُورِثُوا الكتابَ مِنْ بعدِهم، هم أهلُ الكتابِ الَّذينَ كانوا في عهدِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٨).

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالَّذين أُورثوا الكتابَ: اليهودُ والنَّصارى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زَمَنين، ومكِّي، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٠/ ٦٥٧١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨).

وهذا القولُ نسَبه الرَّازيُّ للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٩).

وممَّن قصَر المرادَ بالَّذين أُورثوا الكتابَ على اليهودِ والنَّصارى الَّذين عاصَروا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم وصرَّحَ بذلك: ابنُ عطية، والرازي، وابن جزي، وأبو حيان، والعُليمي، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٧).

والمرادُ بالكتابِ على ذلك: التَّوراةُ والإنجيلُ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي =

أسلافِهم المُختَلِفينَ في الحَقِّ[1] لَفي شَكٍّ مُوجِبٍ للارتيابِ والاضطِرابِ مِن

= (١٠/ ٦٥٧١).

وقيل: المرادُ بالكتابِ: القرآنُ، والمرادُ بالَّذين أُورِثوا الكتابَ: اليهودُ والنَّصارى الَّذين أدركوا هذا القرآنَ. واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٥، ١٤٩).

قال ابن عطية: (وقولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إشارةٌ إلى مُعاصِري محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن اليهودِ والنَّصارى. وقيل: هي إشارةٌ إلى العربِ. والكتابُ: هو القرآنُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠).

وقيل: إنَّ المرادَ بهم: المشركون. وممَّن اختاره: النسفي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٥٩).

والمرادُ بالكتابِ على ذلك: القرآنُ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٩).

قال محمد رشيد رضا: (هذه الآيةُ ... تفسيرٌ لآيتَيْ «هُودٍ» و«حم السَّجْدَةِ فُصِّلَتْ» فإنَّ الَّذينَ أُورِثوا الكتابَ مِن بعدِ مَن ذُكِر في الآياتِ هم اليهودُ والنَّصارَى الَّذينَ جَاؤوا بعدَ أنبيائِهم وقبلَ بعثةِ نَبِيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهؤلاءِ قَدْ عَرَض لهم مِن الشَّكِّ والرَّيبِ في كُتُبِهم ما لم يَكُنْ في عهدِ سَلَفِهم.

ومِن الغفلَةِ الشَّنيعَةِ والتَّكَلُّفِ البعيدِ أنْ يُفَسِّروا الكتابَ في آيةِ سورةِ «الشُّورَى» معَ هذا التَّفصيلِ فيها بالقرآنِ الَّذي وُصِف بأنَّه لا ريبَ فيه، ويَصِفوا الَّذينَ أُورِثوه بأنَّهم في شكٍّ مِنْه مُريبٍ، ولا يَصِحُّ أنْ يُقالَ فيمَنْ لم يُؤْمِنوا به: أُورِثوه، وكذلك الَّذينَ لم يُؤْمِنوا بموسَى وبعيسَى لا يُقالُ: إنَّهم أُورِثوا التَّوراةَ والإنجيلَ، وإنَّما يُقالُ: وَرِثَ الكتابَ مَن آمَن به، سواءٌ منهم مَن أحسَن العملَ ومَنْ أساءَ، كما قالَ تعالَى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، ولكنَّ الَّذينَ أخْطؤوا في فهمِ الآيتيْنِ المجملتيْنِ في السُّورتيْنِ حَمَلوا عليهما الآيةَ المُفصَّلَةَ وجَعَلوا تَفسيرَهنَّ واحدًا). ((تفسير المنار)) (١٢/ ١٣٥).

(١) وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بَعدِ المختلِفينَ في الحقِّ: ابنُ جرير، ومكِّي ابن أبي طالب، والقرطبي، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢)، ((نظم =

كتابِهم[١].

= الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٩).

قال ابن عاشور: (ضميرُ ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ عائدٌ إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿نَفَرَّقُوٓاْ﴾، وهم الَّذين خُوطِبوا بقولِه: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]) . ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٩).

وقيل: معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بَعدِ أنبيائِهم. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبغويُّ، وابنُ الجوزي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٦).

وقيل: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: مِن بَعدِ مَن قَبْلَهم مِن اليهودِ والنَّصارى، وبعبارةٍ أخرى: بَعْدَ مَن تقدَّمَهم أو بعدَ أوائلِهم. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زمنين، والعليمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨).

وقيل: معنى ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ أي: هم المشركون أُورِثوا القرآنَ مِن بَعدِ ما أُورِث أهلُ الكتابِ التَّوارةَ والإنجيلَ. وممَّن اختاره: النسفي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

قيل: إنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿مِّنۡهُ﴾ يَرجِعُ إلى الكتابِ الَّذي عندَ اليهودِ والنَّصارى. وممَّن اختاره: مقاتلٌ، والزمخشري، والرازي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٤).

وقيل: إنَّ الضَّميرَ في ﴿مِّنۡهُ﴾ يرجعُ إلى القرآنِ. وممَّن اختاره: السمرقندي، وابنُ أبي زمنين، وأبو السعود، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٥).

وقيل: الضَّميرُ في ﴿مِّنۡهُ﴾ يرجعُ إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: الواحدي، وابن الجوزي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٧٩).

وقيل: المقصودُ: الدِّينُ الَّذي وصَّى اللهُ به نوحًا، وأوحاه إلى مُحمَّدٍ، وأمَرَهما بإقامتِه. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٧١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠] و [فصلت: ٤٥].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ثَبَت بما تقدَّمَ زَيغُهم عن أوامِرِ الكِتابِ الآتي مِنَ اللهِ؛ سَبَّب عنه أمْرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإبلاغِ النَّاسِ ما يَنفَعُهم عن رِسالةِ رَبِّه الَّذي أنزَلَ تلك الكُتُبَ[1].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ﴾.

أي: فلِلدِّينِ الحَقِّ الَّذي شَرَعه اللهُ لكم، وأمَرَكم بإقامتِه وعَدَمِ التَّفَرُّقِ فيه- فادْعُ النَّاسَ، يا مُحمَّدُ[2].

﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾.

أي: واثبُتْ على الدِّينِ الَّذي أمَرَك اللهُ به، فاستَمِرَّ على العَمَلِ به بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ، ولا إفراطٍ ولا تفريطٍ، ولا تَزِغْ عن ذلك[3].

كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟﴾ [هود: ١١٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص ١٥١).

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

وعن سُفيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحَدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[١].

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.

أي: ولا تَتَّبِعْ -يا مُحمَّدُ- أهواءَ أولئك المُنحَرِفينَ عن الحَقِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَن تَرۡضَىٰ عَنكَ ٱلۡيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمۡۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَ ٱلَّذِي جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانوا قد تفرَّقوا في الكتابِ وشَكُّوا، فآمَنوا ببَعضٍ وكَفَروا ببَعضٍ؛ أمَرَه بما يخالِفُ حالَهم، فقال[٣]:

﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: آمَنتُ بما أنزَلَ اللهُ مِنَ الكُتُبِ كُلِّها، فلا أُكذِّبُ بالتَّوراةِ

---

(١) رواه مسلم (٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٧٢).

ولا بالإنجيلِ ولا بالقُرآنِ، ولا بغَيرِ ذلك مِن كُتُبِ اللهِ الَّتي أنزَلَها على رُسُلِه[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.

أي: وقُلْ: وأمَرَني ربِّي بأن أعدِلَ بيْنكم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥، ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٤٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢).

قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ قالت فِرقةٌ: اللَّامُ في ﴿لِأَعْدِلَ﴾ بمعنى: «أن»، والتَّقديرُ: بأن أعدِلَ بيْنَكم. وقالت فِرقةٌ: المعنى: وأُمِرْتُ بما أُمِرْتُ به مِن التَّبليغِ والشَّرعِ؛ لكيْ أعدِلَ بيْنَكم، فحُذِفَ مِن الكلامِ ما يدُلُّ الظَّاهرُ عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠).

وقال القرطبي: (قال ابنُ عبَّاسٍ وأبو العالِيةِ: لِأُسَوِّيَ بيْنَكم في الدِّينِ، فأُومِنَ بكلِّ كتابٍ وبكلِّ رسولٍ. وقال غيرُهما: لِأَعدِلَ في جميعِ الأحوالِ. وقيل: هذا العدلُ هو العدلُ في الأحكامِ. وقيل: في التَّبليغِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ العدلُ في الحُكمِ: الزمخشريُّ، والرازي، والنسفي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦).

وممَّن اختار أنَّه العدلُ في الحُكمِ والتَّبليغِ: البيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨).

وقال الشوكاني: (وأُمِرْتُ لِأَعدِلَ بيْنَكم في أحكامِ اللهِ إذا تَرافَعْتُم إلَيَّ، ولا أَحِيفَ عليكم بزيادةٍ على ما شَرَعه اللهُ، أو بنُقصانٍ منه، وأُبَلِّغَ إليكم ما أمَرني اللهُ بتبليغِه كما هو). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨). =

كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨].

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

أي: اللهُ رَبُّنا ورَبُّكم، خالِقُ الجَميعِ ومالِكُهم ومُدَبِّرُ أمورِهم؛ فوجَبَت طاعتُه، وإقامةُ دينِه، وتَركُ التَّفَرُّقِ والاختِلافِ فيه[1].

﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾.

---

= وقال ابن القيِّم: (أُمِر بالعدلِ بيْنَهم، وهذا يَعُمُّ العدلَ في الأقوالِ والأفعالِ والآراءِ والمحاكماتِ كلِّها، فنصَبه ربُّه ومُرسِلُه للعدلِ بيْنَ الأُمَم). ((مِفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨).

وقال البِقاعي: (﴿بَيْنَكُمُ﴾ أيُّها المُفَرِّقونَ في الأديانِ مِن العربِ والعجمِ، مِن الجِنِّ والإنسِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٧٤).

واختار ابنُ تيميَّةَ أنَّ معنى ﴿بَيْنَكُمُ﴾ أي: بيْنَ النَّاسِ كُلِّهم. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٣٤٢).

وقال ابن عاشور: (وضميرُ ﴿بَيْنَكُمُ﴾ خِطابٌ لِلَّذينَ أُمِر بأنْ يُوَجِّهَ هذا القولَ إليهم، وهم اليهودُ، أي: أُمِرْتُ أنْ أُقيمَ بيْنَكم العدلَ بأنْ أدْعوَكم إلى الحقِّ، ولا أظْلِمَكم لأجْلِ عداواتِكم، ولكنِّي أُنَفِّذُ أمرَ اللهِ فيكم، ولا أنْتَمي إلى اليهودِ ولا إلى النَّصارَى. ومعنَى ﴿بَيْنَكُمُ﴾: أنَّني أُقيمُ العدلَ بيْنَكم فلا تَرَوْنَ بيْنَكم جَوْرًا مِنِّي، فـ «بَيْنَ» هنا ظرفٌ مُتَّحِدٌ غيرُ مُوَزَّعٍ، فهو بمعنَى وَسَطَ الجَمعِ وخِلالَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٢).

قال ابنُ القيِّم: (أمَرَه أن يُخبِرَهم بأنَّ الرَّبَّ المعبودَ واحِدٌ، فما الحامِلُ للتَّفَرُّقِ والاختِلافِ وهو ربُّنا ورَبُّكم، والدِّينُ واحِدٌ، ولِكُلِّ عامِلٍ عمَلُه لا يَعدوه إلى غَيرِه؟!). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٥٨).

أي: لنا جَزاءُ أعمالِنا، ولكم جَزاءُ أعمالِكم، وسيُجازي اللهُ كُلًّا بحَسَبِ أعمالِه، ولن يُؤاخَذَ أحَدٌ مِنَّا بذَنْبِ الآخَرِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾.

أي: لا جِدالَ ولا مُنازَعةَ بَينَنا وبيْنَكم؛ فقد تَبيَّنَ الحَقُّ وظَهَرَ، وصِرتُم مَحجوجينَ به، ولم يَبقَ إلَّا الإقرارُ به أو العِنادُ؛ فلا وَجْهَ للجِدالِ والتَّنازُعِ والحالةُ هذه(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ١١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٣).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ دَعوةُ إنصافٍ، أي: أنَّ اللهَ يُجازي كُلًّا بعَمَلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١)، ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣١٦)، ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٣/ ٧١، ٧٢)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٤٥) و(٢/ ٥٨، ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: لا خُصومةَ، والحُجَّةُ هي ما يَحتَجُّ به الخَصمُ وإن كان باطِلًا؛ فليس مِن شَرطِ لَفظِ الحُجَّةِ أن تكونَ حَقًّا، بل إذا كانت حَقًّا سُمِّيَت بَيِّنةً وبُرهانًا ودَليلًا). ((الصفدية)) (٢/ ٣١٦).

قال السعدي: (﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ أي: بعدَما تبيَّنَت الحقائِقُ، واتَّضَح الحَقُّ مِنَ الباطِلِ، والهدى مِنَ الضَّلالِ- لم يَبْقَ للجِدالِ والمُنازَعةِ مَحَلٌّ؛ لأنَّ المقصودَ مِن الجدالِ إنَّما هو بيانُ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ؛ لِيَهتديَ الرَّاشِدُ، ولِتَقومَ الحُجَّةُ على الغاوي، وليس المرادُ بهذا أنَّ أهلَ =

كما قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾.

أي: اللهُ يَجمَعُ بيْنَنا وبيْنَكم يومَ القيامةِ، فيَقضي بيْنَنا بالحَقِّ فيما نختَلِفُ فيه، ويَتبَيَّنُ حينَئذٍ المُحِقُّ مِنَ المُبطِلِ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفۡتَحُ بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَهُوَ ٱلۡفَتَّاحُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٦].

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُنا بعدَ مَوتِنا، فيَحكُمُ بَيْنَنا إذا صِرْنا إليه، ويُجازي كُلًّا مِنَّا بعَمَلِه(٢).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ فيه نَهيٌ عن التَّفرِقةِ في الدِّينِ؛ لأنَّ التَّفَرُّقَ سَبَبٌ للهَلاكِ، والاجتِماعَ والأُلْفةَ سَبَبٌ للنَّجاةِ(٣). ومعنى الآيةِ:

---

= الكتابِ لا يُجادَلونَ! كيف واللهُ يقولُ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؟! وإنَّما المرادُ ما ذكَرْنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

وقال الرَّسْعَني: (ذهب أكثَرُ المُفَسِّرينَ إلى نَسْخِ ما اشتمَلَت عليه هذه الآيةُ مِن مُنابَذةِ الكُفَّارِ ومُتارَكتِهم، وذهب جماعةٌ مِن المُفَسِّرينَ إلى أنَّها مُحْكَمةٌ، وأنَّ المعنى: لا حُجَّةَ بيْنَنا وبيْنَكم بعدَ ظُهورِ الحَقِّ ووُضوحِه؛ لأنَّ المُحاجَّةَ بعدَ ظُهورِ الحُجَّةِ لا حاجةَ إليها). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٨).

لِيَحصُلْ منكم الاتِّفاقُ على أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، واحرِصوا على ألَّا تُفرِّقَكم المسائِلُ وتُحَزِّبَكم أحزابًا، وألَّا يُعادِيَ بَعضُكم بَعضًا، مع اتِّفاقِكم على أصلِ دينِكم[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ هذا السَّبَبُ الَّذي مِنَ العَبدِ يتوصَّلُ به إلى هدايةِ اللهِ تعالى، وهو إنابتُه لِرَبِّه، وانجِذابُ دَواعي قَلبِه إليه، وكَونُه قاصِدًا وَجْهَه؛ فحُسْنُ مَقصَدِ العَبدِ مع اجتِهادِه في طَلَبِ الهِدايةِ: مِن أسبابِ التَّيسيرِ لها[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أمرٌ بالاستِقامةِ، أي الدَّوامِ عليها؛ للإشارةِ إلى أنَّ كَمالَ الدَّعوةِ إلى الحَقِّ لا يَحصُلُ إلَّا إذا كان الدَّاعي مُستَقيمًا في نَفْسِه[٣].

٤- إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ الإنصافَ، بل هو أفضَلُ حِليةٍ تَحَلَّى بها الرَّجُلُ، خُصوصًا مَن نَصَب نَفْسَه حَكَمًا بيْنَ الأقوالِ والمذاهِبِ، وقد قال اللهُ تعالى لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾، فوَرَثَةُ الرَّسولِ منصبُهم العدلُ بيْنَ الطَّوائفِ، وألَّا يَميلَ أحدُهم معَ قريبِه وذَوي مذهبِه وطائفتِه ومَتبوعِه، بل يكونُ الحقُّ مَطلوبَه، يَسيرُ بسَيْرِه، ويَنزِلُ بنُزولِه، ويَدِينُ بدِينِ العدلِ والإنصافِ، ويُحكِّمُ الحُجَّةَ وما كان عليه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابُه[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ يُوجِبُ أن يَشتَغِلَ كُلُّ واحِدٍ في الدُّنيا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٧٨).

بنَفْسِه؛ فإنَّ اللهَ يَجمَعُ بيْنَ الكُلِّ في يومِ القيامةِ، ويُجازيه على عَمَلِه، والمقصودُ منه المُتارَكةُ، واشتِغالُ كُلِّ أحَدٍ بمُهِمِّ نَفْسِه(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ أنَّ المرجِعَ إلى اللهِ خاصَّةً في كلِّ شَيءٍ؛ في الحُكْمِ الشَّرعيِّ، أو الحُكْمِ القَدَرِيِّ، أو الحُكْمِ في الدُّنيا، أو الحُكْمِ في الآخرةِ، ويَتفرَّعُ على هذه القاعدةِ: أنَّ الإنسانَ لا يَرجو، ولا يَخافُ، ولا يَدْعُو إلَّا اللهَ وحْدَه لا شريكَ له، ولا يَستغيثُ إلَّا باللهِ، ولا يَستعينُ إلَّا به(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ أنَّ الأصلَ في العِباداتِ المَنعُ إلَّا بدَليلٍ(٣).

٢- قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ ما لم يُنسَخْ مِن شَرعِ مَن قَبْلَنا شَرعٌ لنا(٤)، فشَرْعُ مَن قَبْلَنا -فيما لم يَرِدْ في شَرعِنا له وِفاقٌ ولا خِلافٌ- هو شَرعٌ لنا؛ لِدَلالةِ شَرعِنا عليه، وقال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾(٥) [الأنعام: ٩٠].

٣- دينُ الأنبياءِ واحِدٌ وإن تَنوَّعَت شَرائعُهم؛ قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٩١).

وذَكَر أنَّ ما ورَدَت شَريعتُنا بخِلافِه فهذا لا نَعمَلُ به؛ لأنَّ شَريعتَنا ناسِخةٌ لجَميعِ الأديانِ، وما وَرَد شَرْعُنا بوِفاقِه فإنَّنا نَعمَلُ به؛ اتِّباعًا لِشَريعتِنا المُصَدِّقةِ لِما سَبَق مِن الشَّرائعِ.

ويُنظر: ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ١٩٢).

مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ أنَّ شَريعةَ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حاويةٌ لفَضائلِ شرائعِ هؤلاء الرُّسُلِ المَخصوصينَ بالفَضلِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ هذه الشَّرائِعَ قِسمانِ: منها ما يمتَنِعُ دُخولُ النَّسخِ والتَّغييرِ فيه، بل يكونُ واجِبَ البَقاءِ في جميعِ الشَّرائِعِ والأديانِ، كالأمرِ بالصِّدقِ والعَدلِ والإحسانِ، والنَّهْيِ عن الكَذِبِ والظُّلمِ والإيذاءِ؛ ومنها ما يختَلِفُ باختِلافِ الشَّرائِعِ والأديانِ. ودَلَّت هذه الآيةُ على أنَّ سَعيَ الشَّرعِ في تقريرِ النَّوعِ الأوَّلِ أقوَى مِن سَعْيِه في تقريرِ النَّوعِ الثَّاني؛ لأنَّ المواظَبَةَ على القِسمِ الأوَّلِ مُهِمَّةٌ في اكتِسابِ الأحوالِ المُفيدةِ لحُصولِ السَّعادةِ في الدَّارِ الآخِرةِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ أنَّ جَميعَ رُسُلِ اللهِ وأنبيائِه يُصَدِّقُ بَعضُهم بعضًا، لا يختَلِفونَ مع تَنَوُّعِ شَرائِعِهم[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ ﴾ أنَّ التَّفَرُّقَ في دِينِ اللهِ مُنافٍ للَّذي أَوحى اللهُ إلى رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم ووَصَّى به نوحًا وإبراهيمَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٧، ٥٨٨).

(٤) يُنظر: ((الحسنة والسيئة)) لابن تيمية (ص: ٩٠).

وموسى وعيسى عليهم السَّلامُ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ فيه إثباتُ مشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ لفِعْلِ العبدِ؛ فيكونُ فيها رَدٌّ على القَدَرِيَّةِ؛ الَّذين يقولونَ: إنَّ الإنسانَ مُستقِلٌّ بعَمَلِه، ولا مشيئةَ للهِ تعالى في فِعْلِه! وفي قولِه: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ الرَّدُّ على الجَبْرِيَّةِ؛ فقد أضاف الفِعلَ إلى العَبدِ، والجَبريَّةُ لا يُضيفونَ الأفعالَ إلى العَبدِ؛ بل يقولونَ: إنَّ العبدَ يَفعَلُ بغيرِ إرادةٍ ولا اختيارٍ[٢]!

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ مع قَولِه: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] مع العِلمِ بأحوالِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، وشِدَّة إنابتِهم: دَليلٌ على أنَّ قَولَهم حُجَّةٌ، خُصوصًا الخُلفاءَ الرَّاشدِينَ رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعينَ[٣].

١٠- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ منهم مَن يُجيبُ إلى الدَّعوةِ، أي: اللهُ يَجتلِبُ إلى ما تَدْعُوهم إليه مَن يَشاءُ أنْ يَجْتبيَه إليه، وهو مَن صَرَف اختيارَه إلى ما دُعِيَ إليه، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾، أي: يُقبِلُ إليه؛ حيثُ يُمِدُّه بالتَّوفيقِ والألطافِ[٤]. وفيه تسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٥].

١١- قولُه تعالى: ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ فيه أنَّ مَن خالفَ الدِّينَ بعدَ مجيءِ العلمِ فإنَّه باغٍ مُعْتَدٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤١، ١٤٢). ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٦).

١٢- البَغيُ إمَّا تضييعٌ للحقِّ، وإمَّا تَعَدٍّ للحدِّ؛ فهو إمَّا تَرْكُ واجبٍ، وإمَّا فِعلُ محرَّمٍ؛ فعُلِم أنَّ مُوجِبَ التَّفرُّقِ هو ذلك، والبغيُ الَّذي هو مجاوزةُ الحدِّ إمَّا تفريطًا وتضييعًا للحقِّ، وإمَّا عدوانًا وفعلًا للظلمِ. والبغيُ تارةً يكونُ مِن بعضِهم على بعضٍ، وتارةً يكونُ في حقوقِ الله، وهما مُتلازِمانِ؛ ولهذا قال: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾؛ فإنَّ كلَّ طائفةٍ بغَتْ على الأُخرَى، فلم تعرِفْ حقَّها الَّذي بأيديها، ولم تَكُفَّ عن العدوانِ عليها، فظهَر أنَّ سببَ الاجتِماعِ والأُلْفةِ: جمعُ الدِّينِ والعملُ به كلِّه، وهو عبادةُ الله وَحْدَه لا شريكَ له، كما أمَر به باطنًا وظاهرًا، وسببَ الفُرقةِ: ترْكُ حظٍّ مما أُمِر العبدُ به، والبغيُ بيْنَهم[1].

١٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ فيه إثباتُ كلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا شكَّ أنَّ اللهَ تعالى مَوصوفٌ بالكلامِ؛ لأنَّه كمالٌ، وضِدُّ الكلامِ الخَرَسُ؛ والخَرَسُ نقصٌ، فلو نَفَيْنا الكلامَ؛ لَزِمَ مِن ذلك ثبوتُ الخَرَسِ! وهذا نقصٌ يُنَزَّهُ اللهُ تعالى عنه[2].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ في هذه الآيةِ -مع كَونِها نازِلةً في مكَّةَ في زَمَنِ ضَعفِ المُسلِمينَ- إعجازٌ بالغَيبِ، يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سيَكونُ له الحُكمُ على يَهودِ بلادِ العَربِ، مِثلُ أهلِ خَيْبَرَ، وتَيْماءَ، وقُرَيْظةَ، والنَّضيرِ، وبَني قَيْنُقاعٍ[3].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ أنَّه يجوزُ تَوجيهُ الأمرِ لِمَن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٤، ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢، ٦٣).

كان مُتَّصِفًا به مِن قَبْلُ؛ مِن أجْلِ الثَّباتِ عليه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم استقام كما أُمِرَ مِن حينِ ما أُرسِلَ، بل مِن حينِ ما بُعِثَ، لكِنَّ المرادَ بذلك الثُّبوتُ على هذا الشَّيءِ[١].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ لم يَقُلْ: «ولا تتَّبِعْ دِينَهم»؛ لأنَّ حَقيقةَ دِينِهم الَّذي شَرَعه اللهُ لهم هو دِينُ الرُّسُلِ كُلِّهم، ولكِنَّهم لم يَتَّبِعوه، بل اتَّبَعوا أهواءَهم، واتَّخَذوا دينَهم لَهْوًا ولَعِبًا[٢]!

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عَبْدٌ مأمورٌ؛ يُوَجَّهُ إليه الأمرُ؛ وليس له مِن الأمرِ شَيءٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، وفيه ردٌّ على أولئك القَومِ الَّذين يَدَّعون أنَّ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم تَصَرُّفًا في الكَونِ؛ وتدبيرًا له! ومِن بابِ أَولَى أنْ يكونَ فيها رَدٌّ على القائلِينَ بأنَّ مَن دونَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ له تَصَرُّفٌ في الكَونِ؛ كقولِ الرَّافضةِ وبعضِ الصُّوفيَّةِ[٣].

١٨- قولُه تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ إشارةٌ إلى كَمالِ القوَّةِ النَّظَريَّةِ، وقولُه: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ إشارةٌ إلى كَمالِ القوَّةِ العمَليَّةِ[٤].

١٩- قال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ اشتَمَلت هذه الآيةُ الكريمةُ على عَشْرِ كَلِماتٍ مُستَقِلَّاتٍ، كُلٌّ منها مُنفَصِلةٌ عن الَّتي قَبْلَها؛ لها حُكمٌ برأسِه، قالوا: ولا نظيرَ لها سِوى آيةِ الكُرسيِّ؛ فإنَّها أيضًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٧٩).

عَشَرةُ فُصولٍ كهذه[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

- هذا انتِقالٌ مِن الامتِنانِ بالنِّعَمِ الجُثمانيَّةِ إلى الامتنانِ بالنِّعمةِ الرُّوحيَّةِ، بطَريقِ الإقبالِ على خِطابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ؛ للتَّنويهِ بدِينِ الإسلامِ، وللتَّعريضِ بالكفَّارِ الَّذين أعرَضوا عنه؛ فالجُملةُ ابتدائيَّةٌ[٢].

- قولُه: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ مُقدَّرٌ فيه مُضافٌ، أي: مِثلَ ما وصَّى به نوحًا، أو هو بتَقديرِ كافِ التَّشبيهِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ؛ مُبالغةً في شِدَّةِ المُماثَلةِ حتَّى صارَ المِثلُ كأنَّه عَيْنُ مِثلِه[٣].

- وتَقديمُ تَوصيةِ نوحٍ عليه السَّلامُ؛ للمُسارَعةِ إلى بَيانِ كَونِ المشروعِ لهم دِينًا قديمًا[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فيه تَعقيبُ ذِكرِ دِينِ نوحٍ بما أُوحيَ إلى محمَّدٍ عليهما السَّلامُ؛ للإشارةِ إلى أنَّ دِينَ الإسلامِ هو الخاتَمُ للأديانِ، فعُطِفَ على أوَّلِ الأديانِ؛ جمْعًا بيْنَ طرَفَيِ الأديانِ، ثمَّ ذكَرَ بعدَهما الأديانَ الثَّلاثةَ الأُخَرَ؛ لأنَّها مُتوسِّطةٌ بيْنَ الدِّينَينِ المذكورَينِ قبْلَها، وهذا نسْجٌ بديعٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥، ٢٦).

مِن نَظْمِ الكلامِ، ولولا هذا الاعتبارُ لَكان ذِكرُ الإسلامِ مُبتدأً به، كما في قولِه: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ ...﴾ الآيةَ [الأحزاب: ٧]. أو السِّرُّ في تَقديمِه على ما بَعدَه معَ تَقدُّمِه عليهِ زَمانًا؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتناءِ بإيحائِه[١].

- وقولُه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ هو ما سبَقَ نُزولُه قبْلَ هذه الآيةِ مِن القُرآنِ بما فيه مِن أحكامٍ؛ فعَطْفُه على ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾؛ لِما بيْنَه وبيْنَ ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ مِن المُغايَرةِ بزِيادةِ التَّفصيلِ والتَّفريعِ[٢].

- وعُدِلَ مِن (أَوْصينا) إلى ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، وأُتِيَ بكافِ الخِطابِ؛ لِيُؤْذِنَ بالفَرقِ بيْن تَوصيَتِهم وتَوصيَتِه، ولِمُراعاةِ ما وقَعَ في الآياتِ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ﴾ [الشورى: ٧]، وقولِه: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗا﴾ [النحل: ١٢٣]، وقولِه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [الكهف: ١١٠] [فصلت: ٦]، وغيرِ ذلك، ولِما في الإيحاءِ مِن التَّصريحِ برِسالتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ القامعِ لإنكارِ الكفَرةِ[٣].

- وأيضًا ذُكِرَ في جانبِ الشَّرائعِ الأربعِ السَّابقةِ فِعلُ ﴿وَصَّىٰ﴾، وفي جانبِ شَريعةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذُكِرَ فِعلُ الإيحاءِ؛ لأنَّ الشَّرائعَ الَّتي سبَقتْ شَريعةَ الإسلامِ كانتْ شرائعَ مُوَقَّتةً، مُقدَّرًا وُرودُ شَريعةٍ بعدَها؛ فكان العملُ بها كالعملِ الَّذي يَقومُ به مُؤتمَنٌ على شَيءٍ حتَّى يأتيَ صاحبُه، ولِيَقَعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥١، ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥).

الاتِّصالُ بيْنَ فِعلِ ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وبيْنَ قولِه في صَدْرِ السُّورةِ: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1] [الشورى: ٣].

- وجِيءَ بالمَوصولِ (ما) في قولِه: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾، وقولِه: ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾، أمَّا في قولِه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فجِيءَ بالموصولِ (الَّذي)، وهو تَفنُّنٌ بتَجنُّبِ تَكريرِ الكلمةِ ثلاثَ مَرَّاتٍ مُتواليات. وهناك فرْقٌ دَقيقٌ في الاستِعمالِ البليغِ لهذه الأسماءِ المَوصولةِ؛ وهو أنَّ (الَّذي) وأخَواتِه هي الأصلُ في المَوصولاتِ؛ فهي مَوضوعةٌ مِن أصلِ الوضعِ للدَّلالةِ على مَن يُعيَّنُ بحالةٍ مَعروفةٍ هي مَضمونُ الصِّلةِ، فاسمُ الموصولِ (الَّذي) يدُلُّ على مَعروفٍ عندَ المُخاطَبِ بصِلتِه، وأمَّا (مَا) المَوصولةُ فأصلُها اسمٌ عامٌّ نكِرةٌ مُبهَمةٌ مُحتاجةٌ إلى صِفةٍ؛ فيَكونُ إيثارُ (ما) في مَوضِعَيْها لِمُناسَبةِ أنَّها شَرائعُ بَعُدَ العهدُ بها، فلم تكُنْ مَعهودةً عندَ المخاطَبينَ إلَّا إجمالًا، فكانتْ نَكِراتٍ لا تَتميَّزُ إلَّا بصِفاتِها، وأمَّا إيثارُ الموحَى به إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باسمِ (الَّذي)؛ فلِأنَّه شرْعٌ مُتداوَلٌ فيهم، مَعروفٌ عِندَهم؛ فناسَبَه الاسمُ الموصولُ المُعَرَّفُ، فالتَّقديرُ: شَرَعَ لكم شيئًا وصَّى به نُوحًا، وشيئًا وصَّى به إبراهيمَ ومُوسى وعِيسى، والشَّيءَ الموحَى به إليك. ولعلَّ هذا مِن نُكَتِ الإعجازِ المغفولِ عنها[2].

وقيل: التَّعبيرُ عن الإيحاء عِندَ نِسبتِه إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بـ (الَّذي)؛ لِزيادةِ تَفخيمِ شأْنِه مِن تلك الحيثيَّةِ[3].

- وفي العُدولِ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٢، ٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥).

بعدَ قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم﴾ الْتِفاتٌ؛ لإظهارِ كَمالِ الاعتِناءِ بإيحائِه. وتَوجيهُ الخِطابِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بطَريقِ التَّلوينِ؛ للتَّشريفِ والتَّنبيهِ على أنَّه تعالى شرَعه لهم على لِسانِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

- والاقتِصارُ على ذِكرِ دِينِ نوحٍ وإبراهيمَ ومُوسى وعِيسى؛ لِما ذُكِرَ مِن عُلُوِّ شأْنِهم، ولأنَّ نوحًا أوَّلُ رسولٍ أرسَلَه اللهُ إلى النَّاسِ، فدِينُه هو أساسُ الدِّياناتِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]، ولأنَّ دِينَ إبراهيمَ هو أصلُ الحَنيفيَّةِ، وانتشَرَ بيْنَ العرَبِ بدَعوةِ إسماعيلَ إليه؛ فهو أشهَرُ الأديانِ بيْنَ العربِ، وكانوا على أثارةٍ منه في الحجِّ والخِتانِ والقِرى والفُتوَّةِ، ودِينُ موسى هو أوسَعُ الأديانِ السَّابقةِ في تَشريعِ الأحكامِ، وأمَّا دِينُ عيسى؛ فلأنَّه الدِّينُ الَّذي سبَقَ دِينَ الإسلامِ، ولم يكُنْ بيْنَهما دِينٌ آخَرُ، ولِيَتضمَّنَ التَّهيئةَ إلى دَعوةِ اليهودِ والنَّصارى إلى دِينِ الإسلامِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ في سُورةِ (الأحزابِ) ذِكرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في التَّفصيلِ في قولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا﴾ [الأحزاب: ٧]؛ لبيانِ أفضليَّتِه؛ لأنَّ المَقامَ هنالك لسَردِ مَن أُخِذ عليهم الميثاقُ. وأمَّا هنا في آيةِ سُورةِ (الشُّورى)، فإنَّما أُورِدتْ في مَقامِ وصْفِ دِينِ الإسلامِ بالأصالةِ والاستِقامةِ، فكأنَّ اللهَ قال: شرَعَ لكم الدِّينَ الأصيلَ الَّذي بعَثَ به نوحًا في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥١).

العهدِ القديمِ، وبعَثَ به محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- في العهدِ الحديثِ، وبعَثَ به مَن تَوسَّطَ بيْنَهما[١].

- و(أنْ) في قولِه: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مَصدريَّةً، والمصدرُ الحاصلُ منها في مَوضعِ بدَلِ الاشتِمالِ مِن (ما) المَوصولةِ الأُولى أو الأخيرةِ، وإذا كان بدلًا مِن إحداهما، كان في معنى البَدلِ مِن جميعِ أخواتِهما؛ لأنَّها سَواءٌ في المفعوليَّةِ لِفعلِ (شرَعَ) بواسطةِ العطفِ؛ فيكونُ الأمرُ بإقامةِ الدِّينِ والنَّهيُ عن التَّفرُّقِ فيه ممَّا اشتَمَلتْ عليه وِصايةُ الأديانِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ تَفسيريَّةً لمعنى ﴿وَصَّىٰ﴾؛ لأنَّه يَتضمَّنُ معنى القولِ دونَ حُروفِه؛ فالمعنى: أنَّ إقامةَ الدِّينِ، واجتِماعَ الكلمةِ عليه: أَوصَى اللهُ بها كلَّ رسولٍ مِن الرُّسلِ الَّذين سمَّاهم، وهذا الوجهُ يَقتضي أنَّ ما حُكِيَ شَرْعُه في الأديانِ السَّابقةِ هو هذا المعنى، وهو إقامةُ الدِّينِ المشروعِ كما هو، والإقامةُ مُجمَلةٌ يُفسِّرُها ما في كلِّ دِينٍ مِن الفروعِ[٢].

- وضَميرُ ﴿أَقِيمُوا۟﴾ مُرادٌ به: أُمَمُ أولئك الرُّسلِ، ولم يَسبِقْ لهم ذِكرٌ في اللَّفظِ، لكنْ دلَّ على تَقديرِهم ما في فِعلِ (وصَّى) مِن معنى التَّبليغِ[٣].

- وقولُه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ شُروعٌ في بَيانِ أحوالِ بعضِ مَنْ شرَعَ لهم ما شرَعَ مِن الدِّينِ القويمِ[٤]. أو اعتراضٌ بيْن جُملةِ ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ وجُملةِ ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [الشورى: ١٤]. ويُمكِنُ أنْ يكونَ استئنافًا بَيانيًّا جَوابًا عن سُؤالِ مَن يَتعجَّبُ مِن إعراضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦).

المشركينَ عن الإسلامِ، مع أنَّه دِينٌ مُؤيَّدٌ بما سبَقَ مِن الشَّرائعِ الإلهيَّةِ! فأُجيبَ إجمالًا بأنَّه كبُرَ على المشركينَ وتَجَهَّموهُ وصعُبَ عليهم(١).

- وفي قولِه: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ عُبِّرَ عن دَعوةِ الإسلامِ بـ(ما) المَوصولةِ؛ اعتبارًا بنُكرانِ المشركينَ لهذه الدَّعوةِ، واستِغرابِهم إيَّاها، وعَدِّهم إيَّاها مِن المُحالِ الغريبِ(٢).

- وجِيءَ بالفِعلِ المُضارِعِ في ﴿تَدْعُوهُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ الدَّعوةِ واستِمرارِها(٣).

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابٌ عن سُؤالِ مَن يَسألُ: كيف كبُرتْ على المشركينَ دَعوةُ الإسلامِ؟ بأنَّ اللهَ يَجْتبي مَن يَشاءُ؛ فالمشركونَ الَّذين لم يَقتربوا مِن هُدى اللهِ غيرُ مُجتبَيْنَ إلى اللهِ؛ إذ لم يَشَأِ اجتِباءَهم، أي: لم يُقدِّرْ لهم الاهتِداءَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ردًّا على إحدى شُبَهِهم الباعثةِ على إنكارِهم رِسالتَه بأنَّ اللهَ يَجْتبي مَن يَشاءُ، ولا يَلزَمُه مُراعاةُ عَوائدِكم في الزَّعامةِ والاصطفاءِ(٤).

- وفي قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ تَقديمُ المسنَدِ إليه -وهو اسمُ الجلالةِ- على الخبرِ الفِعليِّ؛ لإفادةِ القَصْرِ؛ ردًّا على المشركينَ الَّذين أحالُوا رِسالةَ بَشرٍ مِن عِندِ اللهِ، وحينَ أكبَروا أنْ يكونَ الضَّعَفةُ مِن المؤمنينَ خيْرًا منهم(٥).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٥).

سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ شُروعٌ في بَيانِ أحوالِ أهلِ الكتابِ عَقِيبَ الإشارةِ الإجماليَّةِ إلى أحوالِ أهلِ الشِّركِ[1]. أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، وفي الكلامِ حذْفٌ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾، تَقديرُه: فتَفرَّقوا، وضَميرُ ﴿تَفَرَّقُوٓاْ﴾ عائدٌ إلى ما عادَ إليه ضميرُ ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ﴾ [الشورى: ١٣]، وهم أُمَمُ الرُّسُلِ المذكورينَ، أي: أَوْصَيْناهم بواسِطةِ رُسلِهم بأنْ يُقيموا الدِّينَ، دَلَّ على تَقديرِه ما في فِعلِ ﴿وَصَّىٰ﴾ [الشورى: ١٣] مِن معنَى التَّبليغِ[2].

- قولُه: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾ مَجِيءُ العِلمِ إليهم يُؤذِنُ بأنَّ رُسلَهم بيَّنوا لهم مَضارَّ التَّفرُّقِ مِن عَهْدِ نُوحٍ عليه السَّلامُ. ويَجوزُ أن يكونَ المرادُ بالعِلمِ هنا سبَبَ العِلمِ، أي: إلَّا مِن بعْدِ مَجيءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بصِفاتِه الموافِقةِ لِما في كِتابِهم، فتَفرَّقوا في اختلاقِ المَطاعِنِ والمعاذيرِ الباطلةِ؛ لِيَنْفُوا مُطابَقةَ الصِّفاتِ. أو المعنى: وما تَفرَّقَت أُمَمُهم في أدْيانِهم إلَّا مِن بعْدِ ما جاءهم العِلمُ على لِسانِ رُسلِهم مِن النَّهيِ عن التَّفرُّقِ في الدِّينِ مع بَيانِهم لهم مَفاسدَ التَّفرُّقِ وأضرارِه. وذكَرَ سبَبَ تفرُّقِهم بقولِه: ﴿بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ﴾، أي: تَفرَّقوا مِن أجْلِ العداوةِ بيْنَهم، أي: بيْنَ المُتفرِّقِينَ، أي: لم يُحافِظوا على وَصايا الرُّسلِ، وهذا تَعريضٌ بالمشرِكينَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٦).

في إعراضِهم عن دَعوةِ الإسلامِ لِعَداوتِهم للمؤمنينَ[١].

- قولُه: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ تَحذيرٌ للمؤمنينَ مِن مِثلِ ذلك الاختِلافِ، وتَنكيرُ لفظِ ﴿كَلِمَةٌ﴾ للتَّنويعِ؛ لأنَّ لِكلِّ فريقٍ مِن المتفرِّقينَ في الدِّينِ كلمةً مِن اللهِ في تأْجيلِهم، وتَنْكيرُ كلمةِ ﴿أَجَلٍ﴾ أيضًا للتَّنويعِ؛ لأنَّ لكلِّ أُمَّةٍ مِن المتفرِّقينَ أجَلًا مُسمًّى؛ فهي آجالٌ مُتفاوِتةٌ في الطُّولِ والقِصَرِ، ومُختلفةٌ بالأزمنةِ والأمكنةِ[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ ...﴾ تأْكيدُ الخبرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ، ومُجرَّدِ تَحقيقِه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ، وهذا الاهتِمامُ كِنايةٌ عن التَّحريضِ للحذَرِ مِن مَكرِهم، وعدَمِ الرُّكونِ إليهم؛ لِظُهورِ عَداوتِهم؛ لئلَّا يَركَنوا إليهم[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ للجنسِ؛ لِيَشملَ كتابَ اليهودِ وكتابَ النَّصارى[٤].

- قولُه: ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ شُبِّهَ تمكُّنُ الشَّكِّ مِن نُفوسِهم بإحاطةِ الظَّرفِ بالمظروفِ[٥].

- و(مِن) في قولِه: ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ ابتدائيَّةٌ، ووقَعَ حرفُ (مِن) مَوقعَ باءِ المصاحَبةِ أو السَّببيَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٥٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ حذَفَ الفاعلَ هنا، وبَنى الفِعلَ للمفعولِ لَمَّا كان في مَعرِضِ الذَّمِّ لهم ونفْيِ العِلمِ عنهم، ولَمَّا كان في سِياقِ ذِكرِ نِعَمِه وآلائِه ومِنَّتِه عليهم قال: ﴿وَأَوۡرَثۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [غافر: ٥٣]، ونَظيرُ هذه الآيةِ: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢]، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فإنَّه لَمَّا كان الكلامُ في سِياقِ ذمِّهم على اتِّباعِهم شِهواتِهم، وإيثارِهم العَرَضَ الفانيَ على حَظِّهم مِن الآخرةِ، وتَماديهم في ذلك؛ لم يَنسُبِ التَّوريثَ إليه، بل نسَبَه إلى المَحِلِّ فقال: ﴿وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ولم يقُلْ: أوْرَثْناهُم الكتابَ[1].

- وأيضًا جاء نَظْمُ الآيةِ على أسلوبِ إيجازٍ يَتحمَّلُ معانيَ كثيرةً وما يَتفرَّعُ عنها؛ فجِيءَ بضَميرِ ﴿مِّنۡهُ﴾ بعدَ تقدُّمِ ألفاظٍ صالحةٍ لأنْ تكونَ مَعادَ ذلك الضَّميرِ، وهي: لفظُ ﴿ٱلدِّينِ﴾ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣]، ولفظُ (الَّذِي) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الشورى: ١٣]، و(ما) المَوصولةُ في قولِه: ﴿مَا نَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وهذه الثَّلاثةُ مَدلولُها الإسلامُ، وهنالك لفظُ (مَا وَصَّيْنَا) [الشورى: ١٣] المتعدِّي إلى موسى وعِيسى، ولفظُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وهذانِ مَدلولُهما كتابًا أهلِ الكتابِ. وهؤلاء الَّذين أُوتوا الكتابَ هم الموجودونَ في وقْتِ نُزولِ الآيةِ، والإخبارُ عنهم بأنَّهم في شَكٍّ ناشئٍ مِن تلك المَعاداتِ للضَّميرِ، معناه: أنَّ مَبْلَغَ كُفرِهم وعِنادِهم لا يَتجاوَزُ حالةَ الشَّكِّ في صِدقِ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٥، ١٩٦).

الرِّسالةِ المحمَّديَّةِ، أي: لَيسوا مع ذلك بمُوقِنينَ بأنَّ الإسلامَ باطلٌ، ولكنَّهم تَرَدَّدوا ثمَّ أقدَموا على التَّكذيبِ به حَسدًا وعِنادًا؛ فمِنهم مَن بقِيَ حالُهم في الشَّكِّ، ومنهم مَن أيقَنَ بأنَّ الإسلامَ حقٌّ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]. ويَحتملُ أنَّ المعنى: لَفِي شَكٍّ بصِدقِ القرآنِ، أو في شكٍّ ممَّا في كِتابِهم مِن الأمورِ الَّتي تَفرَّقوا فيها، أو ما في كِتابِهم مِن الدَّلالةِ على مَجيءِ النَّبيِّ الموعودِ به وصِفاتِه. فهذه مَعانٍ كَثيرةٌ تَتحمَّلُها الآيةُ، وكلُّها مُنطبِقةٌ على أهلِ الكتابَينِ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

- قولُه: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا﴾ إلى آخِرِه [الشورى: ١٣]، المفسَّرِ بقولِه: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، المُخلَّلِ بعضُه بجُملٍ مُعترِضةٍ مِن قولِه: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ إلى ﴿مَن يُنِيبُ﴾[2] [الشورى: ١٣].

- واللَّامُ في ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ يجوزُ أن تكونَ للتَّعليلِ، وتكونَ الإشارةُ بذلك إلى المذكورِ، أي: جميعِ ما تَقدَّمَ مِن الأمرِ بإقامةِ الدِّينِ، والنَّهيِ عن التَّفرُّقِ فيه، وتلَقِّي المشركينَ للدَّعوةِ بالتَّجهُّمِ، وتَلقِّي المؤمنينَ لها بالقَبولِ والإنابةِ، وتلقِّي أهلِ الكتابِ لها بالشَّكِّ، أي: فمِن أجْلِ جميعِ ما ذُكِر فادعُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٠).

واستقِمْ، أي: مِن أجْلِ جميعِ ما تقدَّمَ مِن حُصولِ الاهتداءِ لِمَن هداهُم اللهُ، ومِن تبرُّمِ المشرِكينَ، ومِن شكِّ أهلِ الكتابِ؛ فادعُ. وتَقديمُ (لذلك) على مُتعلَّقِه -وهو فِعلُ (ادعُ)-؛ للاهتِمامِ بما احتوَى عليه اسمُ الإشارةِ؛ إذ هو مَجموعُ أسبابٍ للأمْرِ بالدَّوامِ على الدَّعوةِ. ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ في قولِه: ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ لامَ التَّقْويةِ، وتكونَ مع مَجرورِها مَفعولَ (ادعُ)، والإشارةُ إلى الدِّينِ مِن قولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣]، أي: فادعُ لذلك الدِّينِ، وتَقديمُ المجرورِ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ بالدِّينِ(١).

- وفِعلُ الأمْرِ في قولِه: ﴿فَٱدْعُ﴾ مُستعمَلٌ في الدَّوامِ على الدَّعوةِ؛ بقرينةِ قولِه: ﴿كَمَآ أُمِرْتَ﴾، وفي هذا إبطالٌ لِشُبهتِهم في الجهةِ الثَّالثةِ المتقدِّمةِ عِندَ قولِه تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾(٢) [الشورى: ١٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱدْعُ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مُؤكِّدةً لفاءِ التَّفريعِ الَّتي قبْلَها. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُضمَّنةً معنى الجزاءِ؛ لِما في تَقديمِ المجرورِ مِن مُشابَهةِ معنى الشَّرْطِ(٣).

- ولم يُذكَرْ مَفعولُ (ادعُ)؛ لِدَلالةِ ما تَقدَّمَ عليه، أي: ادعُ المشرِكينَ، والَّذين أُوتوا الكتابَ، والَّذين اهتَدَوْا وأنابُوا(٤).

- قولُه: ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ الاستِقامةُ: الاعتدالُ، والسِّينُ والتَّاءُ فيها للمُبالَغةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٠، ٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦١).

- والكافُ في ﴿كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ لِتَشبيهِ معنى المماثَلةِ، أي: دَعوةٍ واستِقامةٍ مِثل الَّذي أُمِرتَ به، أي: على وِفاقِه، أي: وافيةٍ بما أُمِرتَ به[1].

- قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ الاتِّباعُ يُطلَقُ على المُجاراةِ والموافَقةِ، وعلى المُحاكاةِ والمُماثَلةِ في العملِ، والمرادُ هنا كِلا الإطلاقَينِ؛ ليَرجِعَ النَّهيُ إلى النَّهيِ عن مُخالَفةِ الأمْرَينِ المأمورِ بهما في قولِه: ﴿فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ﴾[2].

- وضَميرُ ﴿أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ للَّذين ذُكِروا مِن قبْلُ مِن المشرِكينَ والَّذين أُوتوا الكتابَ، والمقصودُ: نهْيُ المسلمينَ عن ذلك، مِن بابِ ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ ألا تَرى إلى قولِه: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]. ويَجوزُ أنْ يكونَ معنى ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾: لا تُجارِهم في مُعامَلتِهم، أي: لا يَحمِلْكَ طعْنُهم في دَعوتِك على عَدمِ ذِكرِ فَضائلِ رُسُلِهم، وهدْيِ كُتُبِهم -عدا ما بدَّلوه منها-، فأَعلِنْ بأنَّك مُؤمنٌ بكُتبِهم؛ ولذلك عُطِفَ على قولِه: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ قولُه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ الآيةَ، فمَوقعُ واوِ العطْفِ فيه بمَنزلةِ مَوقعِ فاءِ التَّفريعِ[3].

- وقولُه: ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَٱدۡعُۖ﴾ أمرٌ بمُخالَفةِ اليهودِ؛ إذ قالوا: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠]؛ يَعْنونَ: التَّوراةَ، ﴿وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠]؛ يَعْنونَ: الإنجيلَ والقُرآنَ، فأُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمونَ بالإيمانِ بالكُتبِ الثَّلاثةِ الموحَى بها مِن اللهِ؛ فالمعنى: وقُلْ لِمَن يُهِمُّه هذا القولُ، وهم اليهودُ. وإنَّما أُمِرَ بأنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦١، ٦٢).

يقولَ ذلك؛ إعلانًا به وإبلاغًا لأسماعِ اليهودِ، وتَعريضًا بقولِهم: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ [النساء: ١٥٠]، وجاء مُسْتطرَدًا، كما جاءتِ الآيةُ السَّابقةُ مُستطرَدةً فيهم، فلا يُقابِلُ إنكارَهم حَقِّيَّةَ كِتابِه بإنكارِه حَقِّيَّةَ كِتابِهم، وفي هذا إظْهارٌ لِما تَشتمِلُ عليه دَعْوتُه مِن الإنصافِ[١].

- وقولُه: ﴿مِن كِتَٰبٍ﴾ بَيانٌ لِما ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ فالتَّنكيرُ في ﴿كِتَٰبٍ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: بأيِّ كِتابٍ أنزَلَه اللهُ، وليس يَومَئذٍ كِتابٌ مَعروفٌ غيرَ التَّوراةِ والإنجيلِ والقُرآنِ[٢].

- وجُملةُ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ مِن المَأْمورِ بأَنْ يَقولَه؛ فهيَ مُستأنَفةٌ عن جُملةِ ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، مُقرِّرةٌ لِمَضمونِها؛ لأنَّ المقصودَ مِن جُملةِ ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ بحَذافيرِها هو قولُه: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ فهي مُقرِّرةٌ لِمَضمونِ ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾، وإنَّما ابتُدِئتْ بجُملتَي: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ تَمْهيدًا للغرضِ المقصودِ، وهو ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾؛ فلذلك كانتِ الجُملُ كلُّها مَفصولةً عن جُملةِ ﴿ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[٣].

- والمقصودُ مِن قولِه: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أنَّنا مُتَّفِقونَ على تَوحيدِ اللهِ تعالى، أي: فاللهُ الشَّهيدُ علينا وعليكم إذ كذَّبتُم كِتابًا أُنزِلَ مِن عِندِه؛ فالخبرُ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٣).

مُستعمَلٌ في التَّسجيلِ والإلزامِ[١].

- وجُملةُ ﴿لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ دَعوةُ إنصافٍ، أي: إنَّ اللهَ يُجازي كُلًّا بعمَلِه، وهذا خَبرٌ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والتَّنبيهِ على الخطأِ[٢].

- وجُملةُ ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ هي الغرَضُ المقصودُ بعدَ قولِه: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾، أي: أَعدِلَ بيْنَكم، ولا أُخاصِمَكم على إنكارِكم صِدْقي[٣].

- والحُجَّةُ: الدَّليلُ الَّذي يدُلُّ المَسوقَ إليه على صِدقِ دَعوى القائمِ به؛ وإنَّما تكونُ الحُجَّةُ بيْن مُختلفَينِ في دَعوى، ونفْيُ الحُجَّةِ نفْيُ جِنسٍ يَجوزُ أنْ يكونَ كِنايةً عن نفْيِ المُجادَلةِ الَّتي مِن شأْنِها وُقوعُ الاحتجاجِ؛ كِنايةً عن عدَمِ التَّصدِّي لِخُصومتِهم؛ فيكونَ المعنى الإمساكَ عن مُجادَلتِهم؛ لأنَّ الحقَّ ظهَرَ وهم مُكابِرونَ فيه، وهذا تَعريضٌ بأنَّ الجدالَ معهم ليس بذي جَدْوى. ويَجوزُ أنْ يكونَ المنفيُّ جِنسَ الحُجَّةِ المفيدةِ، بمَعونةِ القرينةِ، والمعنى: أنَّ الاستِمرارَ على الاحتِجاجِ عليهم بعدَ ما أظهَرَ لهم مِن الأدِلَّةِ يكونُ مِن العبَثِ، وهذا تَعريضٌ بأنَّهم مُكابِرونَ[٤].

- والمرادُ بالجمْعِ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾ الحشرُ لِفَصْلِ القضاءِ، فيَوْمَئذٍ يَتبيَّنُ المُحِقُّ مِن المُبطِلِ، وهذا كلامٌ مُنصِفٌ، ولَمَّا كان مِثلُ هذا الكلامِ لا يَصدُرُ إلَّا مِن الواثقِ بحقِّه، كان خِطابُهم به مُستعمَلًا في المُتارَكةِ والمُحاجَزةِ، فهذا تَعريضٌ بأنَّ القضاءَ سيَكونُ له عليهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٣، ٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٤).

- وتَقديمُ المسنَدِ إليه على الخبرِ الفِعليِّ في قولِه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾ للتَّقَوِّي، أي: تَحقيقِ وُقوعِ هذا الجمْعِ، وإلَّا فإنَّ المخاطَبينَ -وهم اليهودُ- يُثبِتونَ البعثَ[1].

- وجُملةُ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَجۡمَعُ بَيۡنَنَا﴾، والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ للاستِغراقِ، أي: مُصيرُ النَّاسِ كلِّهم، فبذلك كانتِ الجُملةُ تذييلًا بما فيها مِن العُمومِ، أي: مَصيرُنا ومَصيرُكم ومَصيرُ الخلْقِ كلِّهم[2].

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٦-١٨)

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ١٨﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُحَآجُّونَ﴾: أي: يُجادِلونَ ويختَصِمونَ، والمُحاجَّةُ: أن يَطلُبَ كلُّ واحدٍ أن يَرُدَّ الآخَرَ عن حُجَّتِه، وأصلُ (حجج): يدُلُّ على قَصدٍ[1].

﴿دَاحِضَةٌ﴾: أي: باطِلةٌ ذاهِبةٌ، يُقالُ: دَحَضَتْ حُجَّةُ فلانٍ، إذا لم تَثبُتْ، وأصلُ (دحض): يدُلُّ على زَوالٍ وزَلَقٍ[2].

﴿مُشۡفِقُونَ﴾: أي: خائِفون حَذِرونَ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[3].

﴿يُمَارُونَ﴾: أي: يَشُكُّون ويُجادِلونَ، والمِرْيةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

مِن الشَّكِّ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقول تعالى مبيِّنًا سوءَ عاقِبةِ الَّذين يُجادِلونَ بالباطلِ: والَّذين يُجادِلونَ المؤمِنينَ في شأنِ اللهِ بشُبُهاتِهم مِن بَعدِ دُخولِ النَّاسِ في دِينِه سُبحانَه، فإنَّ جِدالَهم باطِلٌ عندَ رَبِّهم، وعليهم غَضَبٌ مِنَ اللهِ، ولهم عَذابٌ شَديدٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن فضلِه على عبادِه، وحالَ الكافرينَ والمؤمنينَ بالنِّسبةِ ليومِ القيامةِ، فيقولُ: اللهُ الَّذي أنزَلَ القُرآنَ على رَسولِه بالحَقِّ، وأنزل العَدْلَ؛ لِيُقضَى بيْنَ النَّاسِ بالإنصافِ، وما يُعلِمُك -يا مُحمَّدُ- لَعَلَّ وقتَ قيامِ القيامةِ قد دنا واقتَرَب، يَستعجِلُ مَجيئَها الَّذين لا يُؤمِنونَ بقيامِها؛ استِهزاءً وإنكارًا لِوُقوعِها. والَّذين آمَنوا بها خائِفونَ مِن قيامِها، ويَعلَمونَ أنَّها حَقٌّ لا شَكَّ فيه، ألَا إنَّ الَّذين يُجادِلونَ ويَشُكُّونَ في قيامِ السَّاعةِ لَفي ضَلالٍ بَعيدٍ عن الحَقِّ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ ١٦﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها تَقريرٌ لِقَولِه: ﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، فأخبَرَ هنا أنَّ الَّذين يُحاجُّونَ في اللهِ بالحُجَجِ الباطِلةِ والشُّبَهِ المُتناقِضةِ مِن بَعدِ ما استجابَ لله أولو الألبابِ والعُقولِ لَمَّا بَيَّنَ لهم مِن الآياتِ القاطِعةِ، والبَراهينِ السَّاطِعةِ؛ فهؤلاء

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

المجادِلونَ للحَقِّ مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ: حُجَّتُهُمْ باطِلةٌ مَدفوعةٌ[١].

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: والَّذين يُجادِلونَ ويُنازِعونَ المُؤمِنينَ في شأنِ اللهِ بشُبُهاتِهم وحُجَجِهم -كالمُجادَلةِ في تَوحيدِه أو أسمائِه وصِفاتِه- مِن بَعدِ دُخولِ النَّاسِ في دينِه والإيمانِ به سُبحانَه؛ فإنَّ مُجادَلتَهم باطِلةٌ عندَ اللهِ، ولا ثباتَ لها ولا بَقاءَ[٢].

﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: وعليهم مِنَ اللهِ غَضَبٌ، ولهم مع ذلك عَذابٌ شَديدٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٥، ٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٥٩، ١٦٠).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: يُخاصِمون في دينِه. قال قَتادةُ: هم اليهودُ؛ قالوا: كتابُنا قبْلَ كتابِكم، ونبيُّنا قبْلَ نبيِّكم، فنحن خيرٌ منكم. وعلى قولِ مجاهِدٍ: هم المشركون؛ طَمِعوا أن تعودَ الجاهليَّةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٧-٤٨٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: اليهودُ: الرازي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: المشركون: القرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦١).

قال الشنقيطي: (بيَّن تعالى ... أنَّ مِن أنواعِ جِدالِ الكفَّارِ: جِدالَهم للمؤمنينَ الَّذين استجابوا لله وآمَنوا به وبرسولِه، لِيَرُدُّوهم إلى الكفرِ بعدَ الإيمانِ، وبيَّن بُطْلانَ حُجَّةِ هؤلاء، وتوعَّدَهم بغَضَبِه عليهم، وعذابِه الشَّديدِ، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦). =

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ * ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [الحج: ٨ - ١٠].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ مَن يُحاجُّ في دينِ الإسلامِ؛ صَرَّح بأنَّه تعالى هو الَّذي أنزَل الكِتابَ[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّ حُجَجَه واضِحةٌ بَيِّنةٌ، بحيثُ استجابَ لها كُلُّ مَن فيه خيرٌ؛ ذَكَر أصلَها وقاعِدتَها، بل جميعُ الحُجَجِ الَّتي أوصَلَها إلى العبادِ تَرجِعُ إليه، فقال: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾، فالكِتابُ هو هذا القُرآنُ العَظيمُ، نَزَل بالحَقِّ، واشتَمَل على الحَقِّ والصِّدقِ واليَقينِ، وكُلُّه آياتٌ بَيِّناتٌ، وأدِلَّةٌ واضِحاتٌ، على جميعِ المطالِبِ الإلهيَّةِ، والعقائِدِ الدِّينيَّةِ، فجاء بأحسَنِ المسائِلِ، وأوضَحِ الدَّلائِلِ[2].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ ﴾.

---

= قِيلَ: المُرادُ بالعذابِ هنا: عَذابُ الآخِرةِ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (لعلَّ المرادَ به عذابُ السَّيفِ في الدُّنيا بالقَتلِ يومَ بَدرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٦).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ أي: قَوِيٌّ، قد يكونُ في الدُّنيا، وقد يكونُ في الآخرةِ، وقد يكونُ فيهما). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

أي: اللهُ الَّذي أنزَلَ القُرآنَ على رَسولِه مُشتَمِلًا على الحَقِّ، وأنزَلَ العَدلَ؛ ليُقضَى بيْنَ النَّاسِ بالإنصافِ، ويُحكَمَ فيهم بحُكمِ اللهِ تعالى(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

أي: وأيُّ شَيءٍ يُعلِمُك -يا مُحمَّدُ(٢)- لَعَلَّ وَقتَ مَجيءِ القيامةِ قد دنا واقتَرَبَ(٣)؟

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٤، ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٥، ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٨٧).
وقيل: الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: وما يُدْريكَ أيُّها المُخاطَبُ. وممَّن اختاره: أبو حيَّان، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).
قال السمين الحلبي: (قَولُه: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾: إنَّما ذَكَّر ﴿قَرِيبٌ﴾ وإنْ كان خبَرًا لمؤنَّثٍ؛ لأنَّ السَّاعةَ في معنى الوَقتِ، أو البَعثِ، أو على مَعنى النَّسَبِ، أي: ذاتُ قُرْبٍ، أو على حَذفِ مُضافٍ، أي: مَجيءَ السَّاعةِ. وقيلَ: للفَرْقِ بيْنَها وبيْنَ قَرابةِ النَّسَبِ). ((الدر المصون)) (٩/ ٥٤٧).

ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ﴾.

أي: يَطلُبُ التَّعجيلَ بمَجيءِ السَّاعةِ الَّذين لا يُؤمِنونَ بقِيامِها؛ استِهزاءً مِنهم، أو إنكارًا وتَكذيبًا لِوُقوعِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [النمل: ٧١، ٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [سبأ: ٢٩، ٣٠].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا بيَومِ القيامةِ خائِفونَ مِن مَجيءِ السَّاعةِ خَوفًا عَظيمًا، ويُوقِنونَ أنَّ مَجيئَها حَقٌّ لا شَكَّ فيه[2].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٨).

أي: ألَا إنَّ الَّذين يُجادِلونَ ويَشُكُّونَ[١] في قيامِ السَّاعةِ لَفي ذَهابٍ بَعيدٍ عن طَريقِ الحَقِّ والصَّوابِ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ أنَّ الَّذي يُجادِلُ -ولو فيما له فيه عِلْمٌ- إذا كان قصدُه إبطالَ الحقِّ وإثباتَ الباطلِ؛ فلا شكَّ أنَّه مذمومٌ[٣].

٢- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾: أي خائِفونَ منها[٤]، وقال تعالى: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وخوفُ القيامةِ وسيلةٌ إلى الاستعدادِ لها[٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ

---

(١) قال الشَّوكاني: (أي: يُخاصِمونَ فيها مُخاصَمةَ شَكٍّ وريبةٍ، مِنَ المُماراةِ، وهي: المُخاصَمةُ والمُجادَلةُ، أو مِنَ المِرْيةِ: وهي الشَّكُّ والرِّيبةُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٩).
وقال البِقاعي: (يُظهِرونَ شَكَّهم في مَعرِضِ اللَّجاجةِ الشَّديدةِ؛ طَلبًا لظُهورِ شَكِّ غَيرِهم؛ مِن مَرَيتُ النَّاقةَ: إذا مَسَحْتَ ضَرْعَها بشِدَّةٍ للحَلْبِ؛ لِتَستخرِجَ ما عساه يكونُ فيها مِنَ اللَّبَنِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي)) (٧/ ٦٨).

(٥) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٨).

عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ هذه عُقوبةُ كُلِّ مُجادِلٍ للحَقِّ بالباطِلِ(١).

٢- الحُجَّةُ في كتابِ اللهِ يُرادُ بها نوعانِ:

**أحدُهما**: الحُجَّةُ الحَقُّ الصَّحيحةُ، كقَولِه تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقَولِه تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

**والنَّوعُ الثَّاني**: حُجَّةٌ يُرادُ بها مُطلَقُ الاحتِجاجِ بحَقٍّ أو بباطِلٍ، كقَولِه هنا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾، وقَولِه: ﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقَولِه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الجاثية: ٢٥]، وقَولِه: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾(٢) [البقرة: ٢٥٨].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ أنَّ الحقَّ إذا ظَهَر وعُرِفَ، وكان مَقصودُ الدَّاعي إلى البِدعةِ إضرارَ النَّاسِ؛ قُوبِلَ بالعُقوبةِ(٣).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ يُشيرُ إلى الانتِصارِ على أهلِ الرِّدَّةِ، وضَربِهم بكُلِّ شِدَّةٍ؛ لِسُوءِ مَنزِلتِهم عِندَه، كما كَشَف عنه الحالُ، عندَ نَدْبِ الصِّدِّيقِ إليهم بالقِتالِ، رَضِي اللهُ عنه وأرضاه(٤).

٥- قولُه تعالى: ﴿ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ فيه إثباتُ عُلُوِّ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ والمرادُ بالكتابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٠).

هنا كلامُه عزَّ وجلَّ الَّذي أوحاه إلى رُسلِه؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ النُّزولَ يكونُ مِن الأعلَى إلى الأسفلِ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمِيزَانَ﴾ فيه إثباتُ القياسِ؛ لأنَّ الميزانَ ما تُوزَنُ به الأشياءُ ويُقارَنُ بيْنَها، ففيه إثباتُ القياسِ في الشَّرائعِ السَّماويةِ[٢].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَعلَمُ متى تقومُ السَّاعةُ؛ لقولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾، أي: ما يُعْلِمُك؟! وهذا حقٌّ ثابتٌ؛ فإنَّ جبريلَ عليه السَّلامُ سأل النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: متى السَّاعةُ، فقال: ((ما المَسؤولُ عنها بأعْلَمَ مِن السَّائلِ))[٣] يعني: كما أنَّك أنت تَجهَلُها؛ فأنا أجهلُها، ولهذا مَنِ ادَّعَى عِلْمَ السَّاعةِ فإنَّه كاذبٌ، مُكَذِّبٌ لقولِ اللهِ تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾[٤] [الأعراف: ١٨٧].

٨- كلُّ موضعٍ في القرآنِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّب ببيانِه؛ نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٩).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).

وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وما كان مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).

وأخرج ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٌ وَلَهُمۡ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ...﴾ إلخ [الشورى: ١٥]، وهو يَقتضي انتِقالَ الكلامِ؛ فلمَّا استَوفَى حظَّ أهلِ الكِتابِ في شأْنِ المُحاجَّةِ معهم، رجَعَ إلى المشرِكينَ في هذا الشَّأنِ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾. وتَغييرُ الأُسلوبِ بالإتيانِ بالاسمِ الظاهرِ المَوصولِ، وكَونِ صِلتِه مادَّةَ الاحتِجاجِ، مُؤْذِنٌ بتَغييرِ الغَرَضِ في المُتحدَّثِ عنهم، مع مُناسَبةِ ما أُلحِقَ به مِن قولِه: ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨]، وقولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]؛ فالمقصودُ بـ (الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ) المشرِكونَ؛ لأنَّهم يُحاجُّونَ في شأْنِ اللهِ، وهو الوَحدانيَّةُ[1]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وقيل: إطلاقُ اسمِ الحُجَّةِ على شُبُهاتِهم مُجاراةٌ لهم بطَريقِ التَّهكُّمِ، والقرينةُ قولُه: ﴿دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾[2].

- ومَفعولُ ﴿يُحَآجُّونَ﴾ مَحذوفٌ، دلَّ عليه قولُه: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾، والتَّقديرُ: يُحاجُّونَ المسْتَجيبينَ للهِ مِن بَعدِ ما اسْتَجابوا له، أي: اسْتَجابوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٦).

ويُنظر ما تقدَّم مِن القولِ بأنَّ الحُجَّةَ تُطلَقُ على مُطلَقِ الاحتِجاجِ (ص: ٤٣٦).

لِدَعْوتِه على لِسانِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- وأيضًا حُذِفَ فاعلُ ﴿ٱسۡتُجِيبَ﴾ إيجازًا؛ لأنَّ المقصودَ: مِن بَعدِ حُصولِ الاستِجابةِ المعروفةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ لم يُبيَّنْ وَجْهُ دَحضِ حُجَّتِهم؛ اكتِفاءً بما بُيِّنَ في تَضاعيفِ ما نزَلَ مِن القرآنِ مِن الأدِلَّةِ على فَسادِ تَعدُّدِ الآلهةِ، وعلى صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعلى إمكانِ البعْثِ، وبما ظهَرَ للعِيانِ مِن تَزايُدِ المسلمينَ يومًا فيومًا، وأمْنِهم مِن أنْ يُعْتدَى عليهم[٣].

- قولُه: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾ الغضبُ: غضَبُ اللهِ، وإنَّما نُكِّرَ للدَّلالةِ على شِدَّتِه، ولم يُحتَجْ إلى إضافتِه إلى اسمِ الجَلالةِ أو ضَميرِه؛ لِظُهورِ المقصودِ مِن قولِه: ﴿حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾؛ فالتَّقديرُ: وعليهم غضَبٌ منه. وإنَّما قُدِّمَ المسنَدُ على المسنَدِ إليه بقولِه: ﴿وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾؛ للاهتِمامِ بوُقوعِ الغضَبِ عليهم كما هو مُقتضَى حرْفِ الاستِعلاءِ، وكذلك القولُ في ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ﴾[٤].

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾ كان مِن جُملةِ مُحاجَّةِ المشرِكينَ في اللهِ، ومِن أشَدِّها تَشْغيبًا في زَعمِهم: مُحاجَّتُهم بإنكارِ البعْثِ، وقد دحَضَ اللهُ حُجَّتَهم في مَواضِعَ مِن كِتابِه بنفْيِ استِحالتِه، وبدَليلِ إمْكانِه، وأَوْمَأَ هنا إلى مُقتضِي إيجابِه؛ فبيَّنَ أنَّ البعْثَ والجزاءَ حقٌّ وعدْلٌ، فكيف لا يُقدِّرُه مُدبِّرُ الكَونِ ومُنزِّلُ الكتابِ والميزانِ؟! وقد

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أشارتْ إلى هذا المعنى آياتٌ كثيرةٌ؛ مِنها قولُه تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقولُه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الدُّخان: ٣٨- ٤٠]، وأكثرُها جاءَ نَظْمُها على نحوِ التَّرتيبِ الَّذي في نظْمِ هذه الآيةِ؛ مِن الابتِداءِ بما يُذكِّرُ بحِكمةِ الإيجادِ، وأنَّ تَمامَ الحِكمةِ بالجزاءِ على الأعمالِ[1].

- وقولُه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ استِئنافٌ وبيانٌ لحُكمِه المأمورِ به في قولِه: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ﴾ [الشورى: ١٥]، وهي كالتَّخلُّصِ والتَّمهيدِ إلى ذِكرِ عِنادِهم، وهو استِعجالُهم بالسَّاعةِ بقولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾؛ لأنَّه يُؤذِنُ بمُقدَّرٍ يَقتضيهِ المعنى، تقديرُه: فجُعِل الجزاءُ للسَّائرينَ على الحقِّ، والناكِبينَ عنه في يومِ السَّاعةِ، فلا مَحيصَ للعِبادِ عن لِقاءِ الجزاءِ، وما يُدْرِيك لعلَّ السَّاعةَ قريبٌ[2].

- وقولُه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ هذه الجُمْلةُ مَوقعُها مِن جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٦] مَوقعُ الدَّليلِ، والدَّليلُ مِن ضُروبِ البَيانِ؛ ولذلك فُصِلَتِ الجُملةُ عن الَّتي قبْلَها -أي: لم تُعطَفْ عليها-؛ لشِدَّةِ اتِّصالِ معناها بمَعنى الأُخرَى[3].

- والإخبارُ عن اسمِ الجلالةِ باسمِ المَوصولِ الَّذي مَضمونُ صِلَتِه إنزالُه الكتابَ والميزانَ ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾؛ مِن أجْلِ ما في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٧).

المَوصوليَّةِ مِن الإيماءِ إلى وَجْهِ بناءِ الخبرِ الآتي، وأنَّه مِن جِنسِ الحقِّ والعدْلِ[١].

- ولامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ لِتَعريفِ الجنسِ، أي: إنزالُ الكتُبِ، وهو يَنظُرُ إلى قولِه آنِفًا: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾[٢] [الشورى: ١٥].

- والباءُ في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للمُلابَسةِ، أي: أنزَلَ الكتُبَ مُقترِنةً بالحقِّ، بَعيدةً عن الباطلِ[٣].

- والميزانُ هنا معبَّرٌ به عن العدْلِ والهُدى؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿أَنزَلَ﴾؛ فإنَّ الدِّينَ هو المُنزَّلُ، والدِّينُ يدْعو إلى العدْلِ والإنصافِ في المجادَلةِ في الدِّينِ، وفي إعطاءِ الحُقوقِ؛ فشُبِّهَ بالميزانِ في تَساوي رُجحانِ كِفَّتَيْه[٤].

- وجُملةُ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾، والمُناسَبةُ هي إيذانُ تلك الجُملةِ بمُقدَّرٍ، وهو: فجُعِل الجزاءُ للسَّائرينَ على الحقِّ والناكِبينَ عنه في يومِ الساعةِ؛ فلا مَحيصَ للعِبادِ عن لِقاءِ الجزاءِ[٥].

- وكلمةُ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ جاريةٌ مَجْرَى المَثَلِ، والكافُ منها خِطابٌ لِغَيرِ مُعيَّنٍ -على قولٍ-، و(ما) استفهاميَّةٌ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في التَّنبيهِ والتَّهيئةِ، والمعنى: أيُّ شَيءٍ يُعلِمُك أيُّها السَّامعُ السَّاعةَ قريبًا[٦]؟

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، وفي (الأحزابِ):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٦٨، ٦٩).

﴿تَكُونُ قَرِيبًا﴾، زِيدَ معه ﴿تَكُونُ﴾؛ مُراعاةً للفواصلِ[١].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾

- جُملةُ ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ حالًا مِن ﴿ٱلسَّاعَةَ﴾ [الشورى: ١٧]. ويَجوزُ أنْ تكونَ بَيانًا لِجُملةِ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]؛ لِما تَضمَّنتْه مِن التَّنبيهِ والتَّهيئةِ بالنِّسبةِ إلى فَريقَي المؤمنينَ بالسَّاعةِ، والَّذين لا يُؤمِنونَ بها، فذكَرَ فيها حالَ كِلا الفريقَينِ تُجاهَ ذلك التَّنبيهِ؛ فأمَّا المشركونَ فيَتلقَّوْنَه بالاستِهزاءِ والتَّصميمِ على الجحْدِ بها، وهو المرادُ بقولِه: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، والَّذين آمَنوا بها يَعمَلونَ لِما به الفوزُ عِندَها؛ ولذلك جِيءَ عَقِبَها بجُملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[٢].

- والاستِعجالُ: طلبُ التَّعجيلِ، أي: يَطلُبُ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالسَّاعةِ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُعجِّلَ اللهُ بحُلولِ السَّاعةِ لِيَبينَ صِدقُه؛ تَهكُّمًا واستِهزاءً، وكِنايةً عن اتِّخاذِهم تأخُّرَها دليلًا على عَدمِ وُقوعِها، وهم آيِسُونَ منها، كما دلَّ عليه قولُه في مُقابِلِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾، أي: مُشفِقون مِن أهْوالِها، وجُعِلَ الإشفاقُ مِن ذاتِ السَّاعةِ؛ لإفادةِ تَعظيمِ أهوالِها حتَّى كأنَّ أهوالَها هي ذاتُها[٤].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٠).

- والمرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾: المشركونَ، وعُبِّرَ عنهم بالمَوصولِ؛ لأنَّ الصِّلةَ تدُلُّ على عِلَّةِ استِعجالِهم بها، والمرادُ بـ(الَّذِينَ آمَنُوا): المسلِمونَ؛ فإنَّ هذا لَقبٌ لهم، ففي الكلامِ احتِباكٌ[١]، تَقديرُه: يَستعجِلُ بها الَّذين لا يُؤمِنونَ بها فلا يُشفِقونَ منها، والَّذين آمَنوا مُشفِقونَ منها فلا يَستعجِلونَ بها[٢].

- وعُطِفتْ على ﴿مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ جملةُ ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾؛ لإفادةِ أنَّ إشفاقَهم منها إشفاقٌ عن يَقينٍ وجَزْمٍ، لا إشفاقٌ عن تَردُّدٍ وخشْيةِ أنْ يَكشِفَ الواقعُ عن صِدقِ الإخبارِ بها، وأنَّه احتمالٌ مُساوٍ عِندَهم[٣].

- وتَعريفُ الحَقِّ في قولِه: ﴿أَنَّهَا ٱلۡحَقُّ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وهو يُفيدُ قَصْرَ المسنَدِ على المسنَدِ إليه قصْرَ مُبالَغةٍ؛ لِكَمالِ الجنسِ في المسنَدِ إليه، أي: يُوقِنونَ بأنَّها الحقُّ كلَّ الحقِّ؛ وذلك لِظُهورِ دَلائلِ وُقوعِها حتَّى كأنَّه لا حَقَّ غيرُه[٤].

- وجُملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ﴾ تَذييلٌ لِما قبْلَها بصَريحِها وكِنايتِها؛ لأنَّ صَريحَها إثباتُ الضَّلالِ للَّذِين يُكذِّبونَ بالسَّاعةِ، وكِنايتَها إثباتُ الهُدى للَّذين يُؤمِنونَ بالسَّاعةِ، وهذا التَّذييلُ فَذْلَكةٌ[٥] للجُملةِ الَّتي قبْلَها[٦].

- وافتتاحُ الجُملةِ بحرْفِ (ألَا) الَّذي هو للتَّنبيهِ؛ لِقَصْدِ العِنايةِ بالكلامِ[٧].

---

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفها (ص: ٣١٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٠).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧١).

- وفي قولِه: ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ جُعِلَ الضَّلالُ كالظَّرفِ لهم؛ تَشبيهًا لِتَلبُّسِهم بالضَّلالِ بوُقوعِ المظروفِ في ظرْفِه[1].

- ووَصفُ الضَّلالِ بالبَعيدِ كِنايةٌ عن عُسرِ إرجاعِه إلى المقصودِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٩-٢٤)

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ٢٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٢١ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢ ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةٗ نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ ٢٣ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَطِيفُۢ﴾: أي: رَفيقٌ أو عالِمٌ بدقائقِ الأمورِ، وأصلُ (لطف): يدُلُّ على رِفْقٍ وعلى صِغَرٍ فِي الشَّيءِ[1].

﴿حَرۡثَ﴾: أي: عَمَلَ وثَوابَ وكَسْبَ، وأصلُ (حرث): يدُلُّ على جَمعٍ وكَسبٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦).

قال السعدي: (واللُّطفُ مِن أوصافِه تعالى معناه: الَّذي يُدرِكُ الضَّمائِرَ والسَّرائِرَ، والَّذي يُوصِلُ عِبادَه -وخُصوصًا المؤمِنينَ- إلى ما فيه الخَيرُ لهم مِن حيثُ لا يَعلَمونَ ولا يَحتَسِبونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٤، ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨).

﴿مُشۡفِقِينَ﴾: أي: خائفينَ، والإشفاقُ: عنايةٌ مُختلِطةٌ بخَوفٍ، فإذا عُدِّيَ بـ(مِن) فمعنى الخَوْفِ فيه أظهَرُ، وإذا عُدِّيَ بـ(على) فمعنى العنايةِ فيه أظهَرُ[١].

﴿رَوۡضَاتِ﴾: جمعُ رَوْضةٍ، وهي المكانُ الَّذي يَكثُرُ نَبْتُه، وأصلُ (روض): اتِّساعٌ[٢].

﴿ٱلۡمَوَدَّةَ﴾: أي: المَحَبَّةَ، والوُدُّ: محبَّةُ الشَّيءِ، أو هو خالصُ الحُبِّ وألطفُه وأرَقُّه، يُقالُ: وَدِدْتُ الرَّجُلَ وُدًّا: أحببْتُه، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محبَّةٍ[٣].

﴿يَقۡتَرِفۡ﴾: أي: يَكتَسِبْ ويَعمَلْ، والاقتِرافُ: الاكتِسابُ حُسنًا كان أو سُوءًا، وهو في الإساءةِ أكثرُ استِعمالًا، وأصلُ (قرف): يدُلُّ على مُخالَطةِ الشَّيءِ والالتِباسِ به[٤].

﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾: أي: يَطْبَعْ على قلبِك، فتَنْسَ هذا القرآنَ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على بُلوغِ آخِرِ الشَّيءِ، والطَّبعُ على الشَّيءِ لا يَكونُ إلَّا بعْدَ بُلوغِ آخِرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٨، ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٣٥)، ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٦، ٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٨٧).

﴿وَيَمۡحُ﴾: أي: يُذْهِبُ ويَمحَقُ، والمَحْوُ: إزالةُ الأثَرِ، وأصلُ (محو): يدُلُّ على الذَّهابِ بالشَّيءِ[١].

﴿وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ﴾: أي: ويُثبِتُه ويُعلِيه، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾

قَولُه: ﴿وَيَمۡحُ﴾: كَلامٌ مُستأنَفٌ ليس مَعطوفًا على جزاءِ الشَّرطِ ﴿يَخۡتِمۡ﴾؛ إذ ليس المعنى على: إنْ يَشَأِ اللهُ يَمحُ الباطِلَ، بل هو تحقيقٌ لِمَحْوِه للباطِلِ؛ لأنَّه تعالى يمحو الباطِلَ مُطلقًا. فـ(يَمْحُ) مرفوعٌ بضمَّةٍ مُقَدَّرةٍ على الواوِ المحذوفةِ، لا مجزومٌ بالعَطفِ على ﴿يَخۡتِمۡ﴾، وحَقُّه ظهورُ الواوِ في آخِرِه، ولكِنْ حُذِفَت الواوُ مِنه لفظًا لالتِقاءِ السَّاكِنَينِ، وحُذِفَت خَطًّا حَملًا للخَطِّ على اللَّفظِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وقَولِه تعالى: ﴿وَيَدۡعُ ٱلۡإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾ [الإسراء: ١١]، وكان القياسُ إثباتَ الواوِ رَسمًا، لكِنْ رَسمُ المُصحَفِ لا يلزَمُ جَريُه على القياسِ، ويُؤَيِّدُ الاستِئنافَ دونَ العَطفِ على ﴿يَخۡتِمۡ﴾ إعادةُ الاسمِ الجَليلِ (اللهُ) في ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ﴾، ورَفعُ المعطوفِ (يُحِقُّ)[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٦، ٢٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٧).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُخبرًا عن لُطْفِه بخَلْقِه: اللهُ بالغُ اللُّطفِ بعِبادِه، يَرزُقُ مَن يَشاءُ منهم حَسَبَ ما تَقتَضيه حِكمتُه، وهو القَويُّ العَزيزُ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى سُنَّةً مِن سُننِه الَّتي لا تتخلَّفُ، فيقولُ: مَن كان يريدُ عمَلَ الآخِرةِ والإعدادَ لها نُقَوِّه على الازديادِ مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ، ونُيَسِّرْ له ذلك، ونُضاعِفْ له ثوابَه، ومَن كان يريدُ الدُّنيا دونَ الآخِرةِ نُعْطِه مِن مَتاعِها ما قُسِمَ له، وليس له في الآخِرةِ نَصيبٌ مِن ثَوابِ اللهِ تعالى.

ثمَّ يقولُ تعالى مُوبِّخًا المشركينَ: أمْ لأولئك المُشرِكينَ شُرَكاءُ شَرَعوا لهم مِنَ الدِّينِ ما لم يأذَنْ به اللهُ ولم يأمُرْ به؟! ولولا قَضاءُ اللهِ السَّابِقُ بتأخيرِ العَذابِ عنهم لَعَجَّل لهم العُقوبةَ، وإنَّ الظَّالِمينَ لهم عذابٌ مُؤلِمٌ!

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى عاقِبةَ المشركينَ، مقابِلًا بيْنَها وبيْنَ عاقِبةِ المؤمنينَ، فيقولُ: ترَى الظَّالِمينَ يومَ القيامةِ -يا مُحمَّدُ- خائِفينَ مِن عذابِ اللهِ على ما عَمِلوه في الدُّنيا، وذلك العذابُ نازِلٌ بهم لا مَحالةَ. والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ في الدُّنيا هم في رَوْضاتِ الجنَّاتِ، لهم في الجَنَّةِ ما يَشاؤُونَه عندَ رَبِّهم، ذلك هو الفَضلُ الكبيرُ، ذلك النَّعيمُ العَظيمُ هو الَّذي يُبَشِّرُ اللهُ به عِبادَه الَّذين آمَنوا به وعَمِلوا الصَّالِحاتِ.

قل -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك مِن قُرَيشٍ: لا أسألُكم على تَبليغي رِسالةَ رَبِّي جَزاءً، لكِنِّي أطلُبُ منكم أنْ تَوَدُّوني في قَرابَتي مِنكم، فتَكُفُّوا عنِّي أذاكم، وتمنَعوا عنِّي أذَى غيرِكم.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه جانبًا مِن مَظاهِرِ فضلِه على عِبادِه، فيقولُ: ومَن يَعمَلْ مِنَ المؤمِنينَ عَمَلًا صالِحًا فإنَّ اللهَ تعالى يَزيدُ له ثوابَ عَمَلِه، إنَّ اللهَ غَفورٌ لِذُنوبِ

عبادِه، شَكورٌ أعمالَهم الصَّالِحةَ؛ فيَقبَلُها منهم، ويُضاعِفُها لهم.

ثمَّ يُوبِّخُ الله المشركينَ، فيقولُ: أمْ يَقولُ أولئك المُشرِكونَ: كَذَب مُحَمَّدٌ على رَبِّه في دعوى الوَحيِ والنُّبُوَّةِ؟! فإنْ يَشأِ اللهُ يَطبَعْ على قَلْبِك -يا مُحمَّدُ- فيُنسِك القُرآنَ. ويُذهِبُ اللهُ الباطِلَ، ويُثَبِّتُ الحَقَّ بكَلِماتِه الكَونيَّةِ والدِّينيَّةِ، إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُكِنُّه الضَّمائِرُ، لا يَخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ١٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه أنزَل عليهم الكِتابَ المُشتَمِلَ على تلك الدَّلائِلِ اللَّطيفةِ، فكان ذلك مِن لُطفِ الله بعبادِه، فحسُنَ ذِكرُ ذلك هاهنا.

وأيضًا المتفرِّقون استَوجَبوا العذابَ الشَّديدَ، ثمَّ إنَّه تعالى أخَّر عنهم ذلك العَذابَ، فكان ذلك أيضًا مِن لُطفِ الله تعالى، فلمَّا سَبَق ذِكرُ إيصالِ أعظَمِ المنافِعِ إليهم، ودَفْعِ أعظَمِ المَضارِّ عنهم؛ لا جَرَمَ حَسُنَ ذِكرُه هاهنا[1].

﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾.

أي: اللهُ بالغُ اللُّطفِ بعِبادِه، فيُيَسِّرُ لهم الخَيرَ، ويَسوقُ لهم الأرزاقَ بطُرُقٍ خَفيَّةٍ مِن حَيثُ لا يَشعُرونَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٠، ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

قال ابن عثيمين: (اللهُ لَطيفٌ بالعِبادِ كُلِّهم؛ البَرِّ والفاجِرِ، لكِنَّ لُطفَه بالبَرِّ لُطفٌ خاصٌّ مُستَمِرٌّ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ، ولُطفَه بالفاجِرِ لُطفٌ عامٌّ يكونُ ابتِلاءً وامتِحانًا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩١). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٧، ٢٨).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: يَرزُقُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عبادِه بحَسَبِ ما تَقتَضيه حِكمتُه(١).

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

أي: وهو المتَّصِفُ بكَمالِ القُوَّةِ؛ فلا يَلحَقُه سُبحانَه ضَعفٌ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ لأحَدٍ مِن المَخلوقينَ إلَّا به، وهو المتَّصِفُ بكَمالِ العِزَّةِ؛ فهو ذو القَدْرِ العَظيمِ، الغالِبُ القاهِرُ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ سُوءٍ ونَقصٍ(٢).

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِي حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن كَوْنَه لَطيفًا بعبادِه، كثيرَ الإحسانِ إليهم؛ بيَّن أنَّه لا بُدَّ لهم مِن أن يَسعَوا في طَلَبِ الخيراتِ، وفي الاحترازِ عن القبائِحِ(٣).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ الله تعالى الرِّزقَ؛ ذكَرَ حَديثَ الكَسبِ(٤).

وأيضًا لَمَّا بيَّن أنَّ الرِّزقَ ليس إلَّا في يَدِ الله تعالى؛ أتْبَعَه ما يُزَهِّدُ في طَلَبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٢، ١٩٣).

قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّه لِلُطفِه بجميعِ عبادِه لا يَترُكُ أحدًا منهم بلا رِزقٍ، وأنَّه فَضَّل بَعضَهم على بَعضٍ في الرِّزقِ؛ جَريًا على مَشيئتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٣- ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣١).

رِزقِ البَدَنِ، ويُرَغِّبُ في رِزقِ الرُّوحِ، فقال[١]:

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾.

أي: مَن كان يُريدُ عَمَلَ الآخِرةِ والسَّعيَ والإعدادَ لها، فإنَّ اللهَ يُقَوِّيه ويُعينُه، ويُيسِّرُ له ذلك، فيَزدادُ مِن الصَّالحاتِ، ويُضاعِفُ الله له الثَّوابَ، ويَجْزيه بالحسنةِ عَشْرَ أمثالِها إلى سَبعِمئةِ ضِعفٍ[٢].

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ﴾.

أي: ومَن كان يُريدُ عَمَلَ الدُّنيا والسَّعيَ لها دونَ الآخِرةِ، فإنَّ اللهَ يُعطيه مِن مَتاعِها نَصيبَه الَّذي قَسَمَه له، ولا يَحرِمُه مِمَّا شاء له مِنَ رِزقٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٧، ٢٨٨).

قال ابنُ عاشور: (﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ يحتمِلُ مَعنيَينِ: أن تكونَ الزِّيادةُ في ثوابِ العَمَلِ... وأن تكونَ الزِّيادةُ في العَمَلِ، أي: نُقَدِّرْ له العَونَ على الازديادِ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ، ونُيَسِّرْ له ذلك، فيَزداد مِن الصَّالِحاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٥).

ومِمَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: ابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، وابن جُزَي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٢).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: ابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٨٧). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٥).

﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

أي: وليس له في الآخِرةِ نَصيبٌ مِن ثَوابِ اللهِ(١).

كما قال تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩١، ٤٩٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

قال ابن القيِّم: (وهاهنا أمرٌ يَجِبُ التَّنبُّه له، وهو أنَّه لا يُمكِنُ إرادةُ الدُّنيا وعاجِلِها بأعمالِ البِرِّ دونَ الآخِرةِ مع الإيمانِ بالله ورَسولِه ولقائِه، أبدًا؛ فإنَّ الإيمانَ بالله والدَّارِ الآخِرةِ يَستلزِمُ إرادةَ العبدِ لرَحمةِ الله والدَّارِ الآخرةِ بأعمالِه؛ فحيث كان مُرادُه بها الدُّنيا فهذا لا يجامعُ الإيمانَ أبدًا، وإن جامَعَ الإقرارَ والعِلمَ، فالإيمانُ وراءَ ذلك، والإقرارُ والمعرفةُ حاصِلان لِمَن شَهِدَ اللهُ سُبحانَه له بالكُفرِ مع هذه المعرفةِ، كفِرعَونَ وثمودَ، واليهودِ الَّذين شاهَدوا رسولَ اللهِ وعَرَفوه كما عَرَفوا أبناءَهم وهم مِن أكفَرِ الخَلقِ؛ فإرادةُ الدُّنيا وعاجِلِها بالأعمالِ قد تُجامعُ هذه المعرفةَ والعِلمَ، ولكِنَّ الإيمانَ الَّذي هو وراءَ ذلك لا بدَّ أن يُريدَ صاحِبُه بأعمالِه اللهَ والدَّارَ الآخِرةَ. واللهُ المُستعانُ). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٦٧).

وقال ابن كثير: (﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ أيْ: ومَنْ كان إنَّما سَعْيُه لِيَحصُلَ له شَيءٌ مِن الدُّنيا، وليس له إلى الآخرةِ همَّةٌ البتَّةَ بالكلِّيَّةِ؛ حَرَمه اللهُ الآخرةَ، والدُّنيا إنْ شاءَ أعطاه منها، وإنْ لم يَشَأْ لم يَحصُلْ له لا هذه ولا هذه، وفازَ هذا السَّاعي بهذه النِّيَّةِ بالصَّفقةِ الخاسِرةِ في الدُّنيا والآخرةِ.

والدَّليلُ على هذا أنَّ هذه الآيةَ هاهنا مُقَيَّدَةٌ بالآيةِ الَّتي في «سُبْحانَ» وهي قولُه تعالَى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا * كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا * ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ١٨-٢١]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨).

فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّناءِ[١] والرِّفْعةِ، والدِّينِ والنَّصرِ، والتَّمكينِ في الأرضِ، فمَن عَمِلَ مِنهم عَمَلَ الآخِرةِ للدُّنيا لم يكُنْ له في الآخِرةِ نَصيبٌ))[٢].

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه شَرَع للنَّاسِ ما وصَّى به نوحًا... الآيةَ؛ أخَذَ يُنكِرُ ما شَرَع غَيرُه تعالى[٣].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن القانونَ الأعظَمَ والقِسْطاسَ الأقوَمَ في أعمالِ الآخِرةِ والدُّنيا؛ أردَفَه بالتَّنبيهِ على ما هو الأصلُ في بابِ الضَّلالةِ والشَّقاوةِ، فقال[٤]:

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

---

(١) بالسَّناءِ: أي: بارتِفاعِ المَنزلةِ والقَدْرِ عندَ اللهِ تعالى. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٤١٤).

(٢) أخرجه أحمد (٢١٢٢٠) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٤٠٥)، والحاكمُ (٧٨٦٢).

صَحَّحه ابنُ حِبَّان، والألباني في ((صحيح الجامع)) (٢٨٢٥)، وصَحَّح إسنادَه الحاكمُ، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢٢٣): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). ووثَّق رواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٤٨)، وقوَّى إسنادَه شُعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٥/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٢).

أي: أم للمُشرِكينَ شُرَكاءُ وَضَعوا لهم مِنَ الدِّينِ أمورًا لم يأذَنِ اللهُ بوَضعِها، ولم يأمُرْ بها[1]؟

كما قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۞ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦، ١١٧].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾.

أي: ولولا قَضاءُ اللهِ السَّابِقُ بتأخيرِ العَذابِ عنهم لَعَجَّل لهم العُقوبةَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٢، ٤٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢، ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٠٢، ٢٠٣).

قال الطِّيبي: (﴿أَمْ﴾ في قولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ مُنقطِعةٌ، فيها معنى: «بل» والهمزةِ، ولا بدَّ مِن سَبْقِ كلامِ إخبارٍ أو إنشاءٍ يُضرَبُ عنه، حتَّى يُقرَّرَ ما بعدَه، وما سبَق هو قولُه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣]). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٢).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ أي: ألَهم. والميمُ صِلةٌ، والهمزةُ للتَّقريعِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٧).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: ١٤].

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: وإنَّ الظَّالِمينَ لهم -بسَبَب ظُلمِهم- عَذابٌ مُؤلِمٌ[1].

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢﴾.

﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ﴾.

أي: ترى الظَّالِمينَ يَومَ القيامةِ -يا مُحمَّدُ- خائِفينَ خَوفًا عَظيمًا مِن عذابِ اللهِ لهم على ما كَسَبوه في الدُّنيا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨).

قِيلَ: المُرادُ بالعذابِ هنا: عذابُ الآخِرةِ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨).

وقِيلَ: المُرادُ: عذابُ الدُّنيا بالقَتلِ أو الأسْرِ والقَهرِ، وعذابُ الآخِرةِ. ومِمَّن قال بهذا: القرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

ممَّن اختار أنَّ الخِطابَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٨٢).

وقيل: الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ. وممَّن اختاره: الكرماني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) =

﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمۡۗ﴾.

أي: وذلك العَذابُ الَّذي يُشفِقونَ مِنه نازِلٌ بهم لا مَحالةَ[1].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا في الدُّنيا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ بإخلاصٍ لله تعالى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه: في رَوْضاتِ الجنَّاتِ مَسرُورون مُنَعَّمونَ[2].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾.

أي: للمُؤمِنينَ في الجنَّةِ عندَ رَبِّهم ما يَشاؤُونَه مِمَّا تَشتَهيه أنفُسُهم[3].

---

= (١/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٨).

قال الكرماني: (ليس بخِطابٍ لواحدٍ مُعَيَّنٍ، بل هو جارٍ مَجرى قولِ القائلِ: أيُّها الرَّجُلُ، وكلُّكم ذلك الرَّجُلُ، ومِثلُه في القرآنِ كثيرٌ، منه قولُه: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ [الزمر: ٢١] و[الحديد: ٢٠]، ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ﴾، وكذلك في سورةِ الملائكةِ -أي: قوله: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢]-). ((تفسير الكرماني)) (١/ ٦٠١).

وقال ابن عطية: (قوله: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هي رؤيةُ بصَرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

قال ابن جرير: (يعني بالرَّوضاتِ: جمْعَ رَوْضةٍ، وهي المكانُ الَّذي يَكثُرُ نَبْتُه... وإنَّما عنى جلَّ ثناؤُه بذلك: الخبرَ عمَّا هم فيه مِن السُّرورِ والنَّعيم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٣، ٤٩٤).

وقال الشوكاني: (رَوضةُ الجنَّةِ: أطيَبُ مَساكِنِها، كما أنَّها في الدُّنيا لأحسَنِ أمكِنَتِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

أي: ذلك النَّعيمُ العَظيمُ الَّذي يُؤتيه اللهُ للمُؤمِنينَ في الجنَّةِ: هو الفَضلُ الكبيرُ الَّذي لا تَبلُغُ العُقولُ عَظيمَ قَدْرِه، ولا حَقيقةَ صِفَتِه[1].

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰۗ وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: ذلك النَّعيمُ العَظيمُ هو الَّذي يُبَشِّرُ اللهُ به عِبادَه الَّذين آمَنوا به، وعَمِلوا بطاعتِه في الدُّنيا، فهم فائِزونَ به لا مَحالةَ[2].

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِى ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت العادةُ جاريةً بأنَّ البشيرَ لا بدَّ له مِن حِبَاءٍ[3] وإن لم يَسأَلْ؛ لأنَّ بِشارتَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٠).

قال ابن عاشور: (الفضلُ يجوزُ أن يكونَ مصدرًا بمعنى الشَّرفِ والتَّفوُّقِ على الغيرِ، فيَكونَ في معنى: فَضْلُهم، ويجوزُ أن يكونَ اسمًا لِما يتفضَّلُ به مِن عطاءٍ، فيكونَ في معنى: ذلك فَضْلُنا عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٠).

وقال البِقاعي: (﴿ٱلۡفَضۡلُ﴾ أي: الَّذي هو أهلٌ لأن يكونَ فاضلًا عن كفايةِ صاحبِه ولو بالغ في الإنفاقِ ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الَّذي ملأ جميعَ جهاتِ الحاجةِ، وصغرَ عندَه كلُّ ما ناله غيرُهم مِن هذا الحُطامِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٩).

(٣) الحِبَاءُ: ما يَحْبُو به الرَّجُلُ صاحِبَه ويُكرِمُه به. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٥/ ١٧٢).

قائمةٌ مَقامَ السُّؤالِ، كان كأنَّه قيل: ماذا تَطلُبُ على هذه البِشارةِ؟ فأُمِر بالجوابِ بقولِه[١]:

﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك مِن قُرَيشٍ: لا أطلُبُ منكم جَزاءً وعِوَضًا تُعطونَني إيَّاه على تبليغي إيَّاكم القُرآنَ ورِسالةَ اللهِ، لَكِنِّي أطلُبُ منكم أنْ تَوَدُّوني في قَرابَتي مِنكم، وتَصِلوا الرَّحِمَ الَّتي بيْني وبيْنَكم، فتَكُفُّوا عنِّي أذاكم، وتَمْنَعوني مِن أذَى النَّاسِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٤، ٥٠١، ٥٠٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٢، ٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٩، ٧٠).

ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن القيم، وابن كثير، والقاسمي، وابن عاشور، والشنقيطي ونَسَبه إلى جُمهورِ المفَسِّرينَ، وأكثَرِ عُلَماءِ السَّلَفِ. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وأبو مالكٍ، وعطاءُ بنُ دينارٍ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ، وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٩٩).

قيل: المُرادُ بذلك: طَلَبُ الإيمانِ به واتِّباعِه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١).

قال البِقاعي: (فإنَّكم إذا وصَلْتُم ما بيْني وبيْنَكم مِنَ الرَّحِمِ لم تُكَذِّبوني بالباطِلِ، ولم تَرُدُّوا ما جِئتُكم به مِن سَعادةِ الدَّارَينِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٩٦).

وقال الواحدي: (كأنَّه يقولُ: إذا لم تُؤمِنوا بي فاحفَظوا قَرابتي ولا تُؤْذُوني). ((الوجيز)) (ص: ٩٦٤).

وقال السعدي: (يحتمِلُ أنَّ المرادَ: لا أسألُكم عليه أجرًا إلَّا أجرًا واحِدًا هو لكم، وعائِدٌ نَفعُه إليكم، وهو أن تَوَدُّوني وتُحِبُّوني في القَرابةِ، أي: لأجْلِ القَرابةِ. ويكونُ على هذا المَوَدَّةَ الزَّائِدةَ على موَدَّةِ الإيمانِ... ويحتمِلُ أنَّ المرادَ: إلَّا مَوَدَّةَ اللهِ تعالى الصَّادقةَ، وهي الَّتي يَصحَبُها =

عنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّه سُئِلَ عن قَولِه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، فقال سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ: قُرْبَى آلِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. فقال ابنُ عبَّاسٍ: عَجِلْتَ؛ إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَكُنْ بَطنٌ مِن قُرَيشٍ إلَّا كان له فيهم قَرابةٌ، فقال: إلَّا أن تَصِلوا ما بيْني وبيْنَكم مِنَ القَرابةِ)[1].

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾.

أي: ومَن يَعمَلْ مِنَ المؤمِنينَ حسَنةً مِن الحسناتِ ويَكْتَسِبْها، فإنَّ اللهَ تعالى يَزيدُ له ثوابَ عمَلِه ويُضاعِفُه له[2].

---

= التَّقَرُّبُ إلى الله، والتَّوسُّلُ بطاعتِه الدَّالَّةِ على صِحَّتِها وصِدْقِها؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: في التَّقَرُّبِ إلى الله. وعلى كِلا القَولَينِ فهذا الاستِثناءُ دَليلٌ على أنَّه لا يَسألُهم عليه أجرًا بالكُلِّيَّةِ إلَّا أن يكونَ شَيئًا يعودُ نَفعُه إليهم، فهذا ليس مِن الأجرِ في شَيءٍ، بل هو مِن الأجرِ منه لهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧، ٧٥٨).

(١) رواه البخاري (٤٨١٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ابنُ عبَّاسٍ كان من كِبارِ أهلِ البَيتِ وأعلَمِهم بتفسيرِ القُرآنِ، وهذا تفسيرُه الثَّابتُ عنه... ويُبَيِّنُ ذلك أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَسألُ أجرًا أصلًا، إنَّما أجرُه على الله. وعلى المُسلمين مُوالاةُ أهلِ البيتِ، لكِنْ بأدِلَّةٍ أخرى غيرِ هذه الآيةِ، وليست مُوالاتُنا لأهلِ البَيتِ مِن أجرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في شَيءٍ. وأيضًا فإنَّ هذه الآيةَ مَكِّيَّةٌ، ولم يكُنْ عَلِيٌّ بعدُ قد تزوَّج بفاطِمةَ، ولا وُلِدَ له أولادٌ). ((منهاج السنة النبوية)) (٤/ ٢٦، ٢٧). ويُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٥٦٢، ٥٦٣).

وقال ابنُ كثير: (الحَقُّ تَفسيرُ الآيةِ بما فَسَّرَها به الإمامُ حَبْرُ الأمَّةِ وتَرجُمانُ القُرآنِ: عبدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ، كما رواه عنه البخاريُّ رحمه الله، ولا تُنكَرُ الوَصاةُ بأهلِ البَيتِ، والأمرُ بالإحسانِ إليهم، واحترامُهم وإكرامُهم؛ فإنَّهم مِن ذُرِّيَّةٍ طاهِرةٍ؛ مِن أشرَفِ بيتٍ وُجِدَ على وَجهِ الأرضِ؛ فَخرًا وحسَبًا ونَسَبًا، ولا سيَّما إذا كانوا مُتَّبِعينَ للسُّنَّةِ النَّبَويَّةِ الصَّحيحةِ الواضِحةِ الجَلِيَّةِ، كما كان عليه سَلَفُهم؛ كالعبَّاسِ وبَنِيه، وعليٍّ وأهلِ بَيتِه وذُرِّيَّتِه -رَضِيَ اللهُ عنهم أجمعينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٢). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بالِغُ المَغفِرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها وإنْ كَثُرتْ؛ شَكورٌ لحَسَناتِهم، فيَقبَلُها منهم، ويُضاعِفُها لهم وإن قَلَّتْ[1].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٢٤﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ الكلامَ في أوَّلِ السُّورةِ إنَّما ابتُدِئَ في تقريرِ أنَّ هذا الكِتابَ إنَّما حَصَل بوَحي اللهِ سبحانه، وهو قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

---

= ومِمَّن ذهب إلى أنَّ معنى: ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنٗا﴾: نَزيدُه أجرًا وثوابًا لعمَلِه الصَّالحِ: ابنُ جرير، والقرطبي، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال البِقاعي: (﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ﴾ أي: يَكسِبْ ويُخالِطْ، ويَعمَلْ بجِدٍّ واجتِهادٍ، وتعَمُّدٍ وعِلاجٍ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٢٩٨).

وقال السعدي: (﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنٗا﴾ بأنْ يَشرَحَ اللهُ صَدْرَه، ويُيَسِّرَ أمْرَه، وتكونَ سَببًا للتَّوفيقِ لعمَلٍ آخَرَ، ويَزدادَ بها عَمَلُ المؤمِنِ، ويَرتَفِعَ عندَ الله وعندَ خَلْقِه، ويَحصُلَ له الثَّوابُ العاجِلُ والآجِلُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

[الشورى: ٣]، واتَّصل الكَلامُ في تقريرِ هذا المعنى، وتعَلَّق البَعضُ بالبَعضِ حتَّى وَصَل إلى هاهنا، ثمَّ حكى هاهنا شُبهةَ القَومِ، وهي قَولُهم: إنَّ هذا ليس وحيًا مِن الله تعالى، فقال[1].

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾.

أي: أم يَقولُ المُشرِكونَ: اختَلَق مُحمَّدٌ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه دَعوى الوَحيِ والنُّبُوَّةِ؛ كَذِبًا منه على الله تعالى[2]؟!

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.

أي: إنِ افتَرَيتَ عليه كَذِبًا كما يَزعُمُ هؤلاء الجاهِلونَ -يا مُحمَّدُ- فإنَّ اللهَ قادِرٌ على أنْ يَطبَعَ على قَلْبِك، فيَسلُبَك ما آتاك مِنَ القُرآنِ؛ فإنَّ الله تعالى لا يُقِرُّه على افترائِه ولا يُمكِّنُه منه؛ فلولا أنَّ اللهَ أنزَلَه على قَلْبِه، ويَسَّرَه بلِسانِه، لَما أمكَنَه أنْ يأتيَهم بشَيءٍ منه[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٠).

قال ابن عطية: (أَمْ هذه ... مُنقطِعةٌ مُضمَّنةٌ إضرابًا عن كلامٍ مُتقدِّمٍ، وتقريرًا على هذه المقالةِ منهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٣)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ١٨٥ - ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٠-٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٠-٢١٢).

=

كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧].

﴿ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ ﴾.

أي: ويُذهِبُ اللهُ الباطِلَ ويُزيلُه[1].

---

= قال ابن عطية: (وقولُه تعالى: ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ ﴾ معناه في قولِ قَتادةَ وفِرقةٍ مِن المفسِّرينَ: يُنسِيك القرآنَ، والمرادُ: الرَّدُّ على مَقالةِ الكفَّارِ وبيانُ إبطالِها، وذلك كأنَّه يقولُ: وكيف يَصِحُّ أن تكونَ مُفتريًا وأنت مِن الله بمَرْأًى ومَسمَعٍ، وهو قادرٌ لو شاء على أن يَختِمَ على قلبِك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمر افتراؤُك؟! فمَقصدُ اللَّفظِ هذا المعنى، وحُذِف ما يدُلُّ عليه الظَّاهرُ اختصارًا واقتصارًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤).

وقال الشوكاني: (﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ أي: لو افْتَرى على اللهِ الكذبَ لَشاءَ عدَمَ صُدورِه منه، وخَتَم على قلبِه بحيثُ لا يُخطِرُ بباله شيئًا مِمَّا كَذَب فيه كما تَزْعُمونَ. قالَ قَتادةُ: يَخْتِمْ على قلبِكَ فيُنْسِكَ القرآنَ، فأخْبَرهم أنَّه لو افْتَرى عليه لَفَعَل به ما أخْبَرهم به في هذه الآيةِ. وقال مُجاهِدٌ ومُقاتِلٌ: إنْ يَشأْ يَربِطْ على قلبِكَ بالصَّبرِ على أذاهم حتَّى لا يَدخُلَ قلبَكَ مَشَقَّةٌ مِن قولِهم. وقيلَ: الخِطابُ له، والمرادُ الكفَّارُ، أي: إنْ يَشَأْ يَخْتِمْ على قلوبِ الكفَّارِ، ويُعاجِلْهم بالعقوبةِ، ذَكَره القُشَيْرِيُّ. وقيل: المعنَى: لو حدَّثَتْكَ نفْسُكَ أنْ تَفتَريَ على اللهِ كَذِبًا لَطَبَع على قَلْبِك؛ فإنَّه لا يَجتَرِئُ على الكذبِ إلَّا مَن كانَ مطبوعًا على قلبِه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦، ٨٧).

قال الزمخشري: (ومِن عادةِ اللهِ أن يَمحوَ الباطِلَ ويُثَبِّتَ الحَقَّ بكَلِماتِه بوَحْيِه أو بقَضائِه، كقَولِه تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ ﴾ [الأنبياء: ١٨]، يعني: لو كان مُفتَريًا كما تَزعُمونَ لَكَشَفَ اللهُ افتِراءَه ومَحَقَه، وقَذَف بالحَقِّ على باطِلِه فدَمَغَه! ويجوزُ أن يكونَ عِدَةً لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه يمحو الباطِلَ الَّذي هم عليه مِن البَهْتِ والتَّكذيبِ، ويُثَبِّتُ الحَقَّ الَّذي أنت عليه بالقُرآنِ وبقضائِه الَّذي لا مَرَدَّ له مِن نُصرتِك عليهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨).

كما قال الله تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾.

أي: ويُثبِّتُ اللهُ بكَلِماتِه الكَونيَّةِ والدِّينيَّةِ[١] الحقَّ على وَجهٍ لا يُمكِنُ معه زَوالُه[٢].

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ

---

(١) قِيلَ: المُرادُ بالكَلِماتِ: القُرآنُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٨).

وفسَّر السَّمعانيُّ الكلماتِ بالمعجزاتِ الَّتي يُظهِرُها، وفسَّرها ابنُ كثيرٍ بالحُجَجِ والبَراهينِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤).

وقيل: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ بوَحْيِه وقَضائِه. ومِمَّن اختاره: العُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦٧).

قال السعدي: (﴿وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ الكونيَّةِ، الَّتي لا تُغَيَّرُ ولا تُبَدَّلُ، ووعْدِه الصَّادقِ، وكلماتِه الدِّينيَّةِ الَّتي تُحقِّقُ ما شرَعه مِن الحقِّ، وتُثبِّتُه في القلوبِ، وتُبصِّرُ أُولي الألبابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

وقال ابن عاشور: (والباءُ في ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ للسَّبَبيَّةِ، والكَلِماتُ هي: كَلِماتُ القُرآنِ والوَحيِ، كقَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، أو المرادُ: كَلِماتُ التَّكوينِ المُتعَلِّقةُ بالإيجادِ على وَفْقِ عِلْمِه، كقَولِه تعالى: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦، ٨٧).

نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عَليمٌ بما تُكِنُّه الضَّمائِرُ، وتَنطوي عليه السَّرائِرُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، لا يَخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن ذلك(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ يُخبِرُ تعالى بلُطفِه بعِبادِه؛ لِيَعرِفوه ويُحِبُّوه، ويَتعَرَّضوا لِلُطفِه وكَرَمِه(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

قال ابن جرير: (يقولُ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: لو حَدَّثْتَ نَفْسَك أنْ تَفتَرِيَ عليَّ كذبًا، لَطَبَعْتُ على قلبِكَ، وأذهَبْتُ الَّذي آتَيْتُكَ مِن وحْيِي؛ لِأنِّي أمحُو الباطلَ فأُذْهِبُه، وأُحِقُّ الحقَّ. وإنَّما هذا إخبارٌ مِن اللهِ الكافرينَ به، الزَّاعِمينَ أنَّ مُحمَّدًا افترَى هذا القرآنَ مِن قِبَلِ نفْسِه، فأخبَرَهم أنَّه لو فَعَل ذلك لَفَعَل به ما أُخْبِر في هذه الآيةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٥).

وقال البِقاعي: (ولَمَّا كانوا يَعلَمونَ أنَّه على حَقٍّ وهم على باطِلٍ، وكان مَن أحاط عِلمُه بشَيءٍ قَدَرَ على ما يُريدُه مِن ذلك الشَّيءِ؛ بيَّنَ ذلك بقَولِه مُعَلِّلًا على وَجهِ التَّأكيدِ؛ لِأنَّ عَمَلَهم عَمَلُ مَن يَظُنُّ أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ مَكْرَهم: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: ما هو فيها مِمَّا يَعلَمُه صاحِبُه ومِمَّا لا يَعلَمُه، فيُبطِلُ باطِلَه ويُثَبِّتُ حَقَّه وإنْ كَرِهَ الخلائِقُ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٦).

عنهما قال: (مَن يُؤثِرُ دُنياه على آخِرتِه لم يُجعَلْ له نَصيبٌ في الآخرةِ إلَّا النَّارُ، ولم يَزْدَدْ بذلك مِنَ الدُّنيا شَيئًا إلَّا رِزقًا قد فُرِغَ منه، وقُسِمَ له)[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ حَثٌّ على أنْ يُريدَ الإنسانُ بعَمَلِه الآخرةَ[٢].

٤- الإشارةُ إلى أنَّ الأعمالَ بالنِّيَّاتِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿ يُرِيدُ ﴾، ففيه إشارةٌ إلى حُسنِ النِّيَّةِ، وأنَّ الإنسانَ يجبُ عليه إحسانُ النِّيَّةِ[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن إرادةِ الدُّنيا فقط[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: لِكُلِّ ذَنْبٍ تابَ منه صاحِبُه، أو كان يَقبَلُ الغُفرانَ وإنْ لم يَتُبْ منه، إنْ شاء؛ فلا يَصُدَّنَّ أحَدًا سَيِّئةٌ عَمِلَها عن الإقبالِ على الحَسَنةِ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ بأنَّ اللهَ تعالى عليمٌ بما في قَلبِه فإنَّه سوف يُمسِكُ عن كلِّ إرادةٍ سَيِّئةٍ، ويُقدِمُ على كلِّ إرادةٍ حَسَنةٍ[٦].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ أنَّ الطَّبعَ على القَلبِ عُقوبةٌ، سواءٌ كان

---

(١) أخرجه ابن المنذر كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٧).

طَبعًا على العِلمِ، أو طَبعًا على القَصدِ والإرادةِ؛ فإنَّه عُقوبةٌ بلا شَكٍّ؛ ولهذا كان مِن دُعاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا مُقَلِّبَ القلوبِ، ثبِّتْ قلبي على دينِك))[١]، ((اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلوبِ، صَرِّفْ قُلوبَنا على طاعتِك))[٢]؛ فالإنسانُ يَجِبُ ألَّا يَعتمِدَ على ما في قَلبِه مِن اليَقينِ؛ فإنَّ هذا رُبَّما يَزولُ، بل عليه أنْ يَسألَ اللهَ دائِمًا التَّثبيتَ؛ يُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أنَّه يجبُ على العبدِ أنْ يُصَحِّحَ ما في قَلبِه؛ لأنَّ المدارَ عليه؛ قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[٤] [العاديات: ٩، ١٠].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنْ قِيل: دلَّ قولُه: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ أنَّ بِرَّه تَوصَّلَ إلى جَميعِ العِبادِ، وقولُه: ﴿يَرۡزُقُ﴾ حُكمٌ تَرتَّبَ على ذلك الوصفِ؛ فيَنْبغي الشُّمولُ أيضًا، وقولُه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾ يُنافِيه. **والجوابُ**: إنَّما خَصَّ الرِّزقَ -والكلُّ مَرزوقونَ-؛ لأنَّه قد يَختَصُّ أحدٌ بنِعمةٍ، وغيرُه بأُخرى؛ فالعُمومُ لِجِنسِ البِرِّ، والخُصوصُ لِنَوعِه[٥].

---

(١) أخرجه مِن طُرُقٍ التِّرمذيُّ (٢١٤٠)، وأحمد (١٢١٠٧) واللَّفظُ لهما، وابن ماجه (٣٨٣٤) من حديثِ أنَسِ بن مالكٍ رَضِيَ الله عنه.
حَسَّنه الترمذي، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢١٤٠)، وقوَّى إسنادَه على شَرطِ مُسلمٍ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٩/ ١٦٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٨، ٣٩).
قال القرطبي: (في تفضيلِ قَومٍ بالمالِ حِكمةٌ؛ لِيَحتاجُ البَعضُ إلى البَعضِ، كما قال تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضًا سُخۡرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فكان هذا لُطفًا بالعبادِ، وأيضًا لِيُمتَحَنَ =

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ أنَّ النِّيَّةَ يُعَبَّرُ عنها بلَفظِ الإرادةِ في القُرآنِ كثيرًا[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ ﴾ إثباتُ كَرَمِ اللهِ، وأنَّه عزَّ وجلَّ أكرَمُ مِن عَبدِه؛ يَعمَلُ العبدُ قليلًا ويُثابُ كثيرًا[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ أظهَرَ اللهُ تعالى الفَرقَ في هذه الآيةِ بيْنَ مَن أراد الآخِرةَ وبيْنَ مَن أراد الدُّنيا؛ مِن وُجوهٍ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّه قَدَّم مُريدَ حَرثِ الآخرةِ في الذِّكرِ على مُريدِ حَرثِ الدُّنيا، وذلك يدُلُّ على التَّفضيلِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّه قال في مُريدِ حَرثِ الآخِرةِ: ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾، وقال في مُريدِ حَرثِ الدُّنيا: ﴿نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾، وكَلِمةُ (مِن) للتَّبعيضِ، فالمعنى: أنَّه يُعطيه بعضَ ما يَطلُبُه، ولا يُؤتيه كُلَّه، وقال في سورةِ (الإسراءِ): ﴿عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء: ١٨].

**الوَجهُ الثَّالثُ**: أنَّه تعالى قال في طالِبِ حَرثِ الآخِرةِ: ﴿نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾، ولم يَذكُرْ أنَّه تعالى يُعطيه الدُّنيا أمْ لا، وأمَّا طالِبُ حَرثِ الدُّنيا فإنَّه تعالى بيَّن أنَّه لا يُعطيه شيئًا مِن نَصيبِ الآخِرةِ على التَّنصيصِ، وهذا يدُلُّ على التَّفاوُتِ العَظيمِ، كأنَّه يقولُ: الآخِرةُ أصلٌ والدُّنيا تَبَعٌ، فواجِدُ الأصلِ يكونُ واجِدًا للتَّبَعِ

---

= الغِنيُّ بالفقيرِ، والفَقيرُ بالغَنيِّ، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَ ﴾ [الفرقان: ٢٠]). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧، ١٨).

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٠٠).

بقَدْرِ الحاجةِ، إلَّا أنَّه لم يَذكُرْ ذلك؛ تنبيهًا على أنَّ الدُّنيا أخَسُّ مِن أن يُقرَنَ ذِكرُها بذِكرِ الآخِرةِ.

**الوَجهُ الرَّابعُ**: أنَّه تعالى بَيَّنَ أنَّ طالِبَ الآخرةِ يُزادُ في مَطلوبِه، وبيَّن أنَّ طالِبَ الدُّنيا يُعطَى بعضَ مَطلوبِه مِنَ الدُّنيا، وأمَّا في الآخِرةِ فإنَّه لا يَحصُلُ له نَصيبٌ البتَّةَ؛ فبَيَّنَ بالكَلامِ الأوَّلِ أنَّ طالِبَ الآخِرةِ يكونُ حالُه أبدًا في التَّرَقِّي والتَّزايُدِ، وبيَّن بالكَلامِ الثَّاني أنَّ طالِبَ الدُّنيا يكونُ حالُه في المقامِ الأوَّلِ في النُّقصانِ، وفي المقامِ الثَّاني في البُطلانِ التَّامِّ.

**الوَجهُ الخامِسُ**: أنَّ الآخِرةَ نَسيئةٌ والدُّنيا نَقدٌ، والنَّسيئةُ مَرجوحةٌ بالنِّسبةِ إلى النَّقدِ؛ لأنَّ النَّاسَ يقولونَ: النَّقدُ خَيرٌ مِن النَّسيئةِ؛ فبَيَّن تعالى أنَّ هذه القضيَّةَ انعكَسَت بالنِّسبةِ إلى أحوالِ الآخِرةِ والدُّنيا؛ فالآخِرةُ وإن كانت نَسيئةً فإنَّها مُتوَجِّهةٌ للزِّيادةِ والدَّوامِ؛ فكانت أفضَلَ وأكمَلَ، والدُّنيا وإن كانت نقدًا فإنَّها مُتوَجِّهةٌ إلى النُّقصانِ، ثمَّ إلى البُطلانِ؛ فكانت أخَسَّ وأرذَلَ، فهذا يدُلُّ على أنَّ حالَ الآخرةِ لا يُناسِبُ حالَ الدُّنيا البتَّةَ، وأنَّه ليس في الدُّنيا مِن أحوالِ الآخِرةِ إلَّا مجرَّدُ الاسمِ.

**الوَجهُ السَّادِسُ**: الآيةُ دالَّةٌ على أنَّ منافِعَ الآخِرةِ والدُّنيا ليست حاضِرةً، بل لا بُدَّ في البابَينِ مِنَ الحَرثِ، والحَرثُ لا يَتأتَّى إلَّا بتحَمُّلِ المَشاقِّ في البَذرِ، ثمَّ التَّسقيةِ والتَّنميةِ والحَصدِ، ثمَّ التَّنقيةِ، فلمَّا سَمَّى اللهُ كِلا القِسمَينِ حَرثًا عَلِمْنا أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما لا يَحصُلُ إلَّا بتحَمُّلِ المتاعِبِ والمَشاقِّ، ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ مصيرَ الآخرةِ إلى الزِّيادةِ والكَمالِ، وأنَّ مصيرَ الدُّنيا إلى النُّقصانِ ثمَّ الفَناءِ؛ فكأنَّه قيل: إذا كان لا بُدَّ في القِسمَينِ جميعًا مِن تحمُّلِ مَتاعِبِ الحِراثةِ والتَّسقيةِ والتَّنميةِ، والحَصدِ والتَّنقيةِ، فلَأنْ تُصرَفَ هذه المتاعِبُ إلى ما يكونُ في التَّزايُدِ والبقاءِ

أَولى مِن صَرفِها إلى ما يكونُ في النُّقصان والانقِضاءِ والفَناءِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا سَعَى للآخرةِ حَصَّل الدُّنيا والآخرةَ، وإذا سَعَى للدُّنيا فقط فاتَتْه الدُّنيا والآخِرةُ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ أنَّ النَّاويَ للفِعلِ، الجازِمَ، الآتيَ بما يُمكِنُ: فإنَّه بمَنزلةِ الفاعلِ التَّامِّ؛ يُوَضِّحُ هذا أنَّ اللهَ سُبحانَه في القرآنِ رَتَّبَ الثَّوابَ والعِقابَ على مُجرَّدِ الإرادةِ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿يُرِيدُ﴾ فيه الرَّدُّ على الجَبْريَّةِ؛ لأنَّ الجَبْريَّةَ يقولونَ: إنَّ الإنسانَ لا إرادةَ له[٤]!

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ لا يَتوهَّمَنَّ مُتوهِّمٌ أنَّ هذه الآيةَ ونحوَها تَحجُرُ تَناوُلَ المسلمِ حُظوظَ الدُّنيا إذا أدَّى حقَّ الإيمانِ والتَّكليفِ، ولا أنَّها تَصُدُّ عن خَلْطِ الحُظوظِ الدُّنيويَّةِ مع حُظوظِ الآخرةِ إذا وقَعَ الإيفاءُ بكِلَيْهما، ولا أنَّ الخلطَ بيْن الحظَّينِ يُنافي الإخلاصَ؛ كطلَبِ التَّبرُّدِ مع الوضوءِ، وطلَبِ الصِّحَّةِ مع التَّطوُّعِ بالصَّومِ، إذا كان المَقصَدُ الأصليُّ الإيفاءَ بالحقِّ الدِّينيِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩١، ٥٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٥).

٩- قَولُه تعالى: ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ فيه أنَّ مَن أراد حَرْثَ الدُّنيا فإنَّه لا يُعطى كلَّ ما أراد؛ ومَن أراد حَرْثَ الآخرةِ يُعطى كلَّ مُرادِه وزيادةً(١).

١٠- قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ مَن كانت الدُّنيا مُرادَه، ولها يَعمَلُ في غايةِ سَعْيِه، لم يكُنْ له في الآخِرةِ نَصيبٌ؛ ومَن كانت الآخِرةُ مُرادَه، ولها يعمَلُ، وهي غايةُ سَعْيِه، فهي له. بَقِيَ أنْ يُقالُ: فما حُكمُ مَن يريدُ الدُّنيا والآخِرةَ؛ فإنَّه داخِلٌ تحت حُكم الإرادتَينِ فبأيِّهما يَلحَقُ؟ قيل: مِن هاهنا نشَأ الإشكالُ، وظَنَّ مَن ظَنَّ مِن المفَسِّرينَ أنَّ الآيةَ في حَقِّ الكافِرِ؛ فإنَّه هو الَّذي يُريدُ الدُّنيا دونَ الآخِرةِ، وهذا غيرُ لازمٍ طَردًا ولا عَكسًا؛ فإنَّ بَعضَ الكُفَّارِ قد يريدُ الآخِرةَ، وبَعضَ المُسلِمينَ قد لا يكونُ مرادُه إلَّا الدُّنيا، واللهُ تعالى قد عَلَّق السَّعادةَ بإرادةِ الآخِرةِ، والشَّقاوةَ بإرادةِ الدُّنيا، فإذا تجَرَّدت الإرادتانِ تجَرَّد مُوجَبُهما ومُقتَضاهما، وإن اجتمَعَتا فحُكمُ اجتِماعِهما حُكمُ اجتِماعِ البِرِّ والفُجورِ، والطَّاعةِ والمعصيةِ، والإيمانِ والشِّركِ: في العَبدِ، وقد قال تعالى لخَيرِ الخَلقِ بعدَ الرُّسُلِ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وهذا خِطابٌ للَّذين شَهِدوا معه الوَقعةَ، ولم يكُنْ فيهم مُنافِقٌ، والَّذين أُريدوا في هذه الآيةِ هم الَّذين أخْلَوا مَركزَهم الَّذي أمَرَهم رَسولُ الله بحِفظِه، وهم مِن خيارِ المُسلِمينَ، ولكِنَّ هذه إرادةٌ عارِضةٌ حمَلَتْهم على تَرْكِ المركزِ، والإقبالِ على كَسْبِ الغنائِمِ، بخِلافِ مَن كان مُرادُه بعَمَلِه الدُّنيا وعاجِلَها؛ فهذه الإرادةُ لونٌ، وإرادةُ هؤلاء لونٌ(٢).

---

ويُنظر أيضًا: ((الفروق)) للقرافي (٣/ ٢٢، ٢٣)، ((الموافقات)) للشاطبي (٢/ ٣٦٢-٣٧٣)، ((مقاصد المكلفين فيما يتعبد به لرب العالمين)) لعمر بن سليمان الأشقر (ص: ٤٥٠-٤٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٦٦).

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فيه أنَّ الأصلَ الحَجْرُ على كُلِّ أحَدٍ أن يَشرَعَ شَيئًا لم يأتِ عن اللهِ وعن رَسولِهِ[١].

١٢- بابُ العِباداتِ والدِّياناتِ والتَّقَرُّباتِ مُتَلقَّاةٌ عنِ اللهِ ورَسولِه؛ فليس لأحَدٍ أنْ يَجعَلَ شَيئًا عِبادةً أو قُربَةً إلَّا بدَليلٍ شَرعيٍّ؛ قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾[٢]، فالعباداتُ مبناها على التَّوقيفِ والاتِّباعِ؛ لا على الهوَى والابتِداعِ[٣]، فمَن تَرَكَ شَرْعَ الأنبياءِ وابتدعَ شرعًا، فشَرْعُه باطِلٌ لا يَجوزُ اتِّباعُه؛ ولهذا كَفَرَتِ اليَهودُ والنَّصارى؛ لأنَّهم تَمَسَّكوا بشَرعٍ مَنسوخٍ، واللهُ أوجَب على جميعِ الخلْقِ أنْ يُؤمِنوا بجميعِ كتبِه ورسلِه، ومحمَّدٌ خاتمُ الرُّسلِ؛ فعلى جميعِ الخلْقِ اتِّباعُه، واتِّباعُ ما شرَعه مِن الدِّينِ هو ما أتَى به مِن الكتابِ والسُّنَّةِ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أنَّ مَن أطاع الزُّعَماءَ والكِبارَ في تحريمِ شَيءٍ أحَلَّه اللهُ أو تَحليلِ شَيءٍ حَرَّمَه اللهُ أو إيجابِ شَيءٍ لم يُوجِبْه اللهُ؛ فإنَّه قد اتَّخَذَهم شُرَكاءَ، ويَترتَّبُ على هذه الفائدةِ: أنَّ مُتَّبِعي دُعاةِ البِدَعِ قد اتَّخَذوهم شُرَكاءَ[٥]، فالرَّسولُ وَجَبَت طاعتُه؛ لأنَّه مَن يُطِعِ الرَّسولَ فقد أطاع اللهَ، فالحَلالُ ما حَلَّلَه، والحَرامُ ما حَرَّمه، والدِّينُ ما شَرَعَه، ومَن سِوى الرَّسولِ مِنَ العُلماءِ والمشايخِ والأُمَراءِ والمُلوكِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣١/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية- المجموعة السابعة)) (ص: ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٠٤).

إنَّما تَجِبُ طاعتُهم إذا كانت طاعتُهم طاعةً لله[١].

١٤- قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فمَن نَدَبَ إلى شَيءٍ يُتقرَّبُ به إلى الله، أو أوجَبَه بقَولِه أو بفِعلِه مِن غيرِ أن يُشَرِّعَه اللهُ؛ فقد شَرَعَ مِنَ الدِّينِ ما لم يأذَنْ به اللهُ، ومَنِ اتَّبَعَه في ذلك فقد اتَّخَذه شريكًا لله شَرَعَ له مِنَ الدِّينِ ما لم يأذَنْ به اللهُ! نعم: قد يكونُ مُتأوِّلًا في هذا الشَّرعِ فيُغفَرُ له؛ مِن أجْلِ تأويلِه إذا كان مُجتَهِدًا الاجتِهادَ الَّذي يُعفَى فيه عن المُخطِئِ، ويُثابُ أيضًا على اجتهادِه، لكِنْ لا يجوزُ اتِّباعُه في ذلك، كما لا يجوزُ اتِّباعُ سائرِ مَن قال أو عَمِلَ قَولًا أو عمَلًا قد عُلِمَ الصَّوابُ في خِلافِه، وإن كان القائلُ أو الفاعِلُ مأجورًا أو معذورًا، وقد قال سُبحانَه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]. فمَنْ أطاع أحدًا في دينٍ لم يأذَنْ به اللهُ مِن تحليلٍ أو تحريمٍ، أو استِحبابٍ أو إيجابٍ؛ فقد لَحِقَه مِن هذا الذَّمِّ نَصيبٌ، كما يَلحَقُ الآمِرَ النَّاهِيَ أيضًا نَصيبٌ، ثمَّ قد يكونُ كلٌّ منهما معفُوًّا عنه لاجتِهادِه، ومُثابًا أيضًا على الاجتهادِ، فيَتخَلَّفُ عنه الذَّمُّ؛ لِفَواتِ شَرطِه أو لوُجودِ مانِعِه، وإن كان المُقتَضي له قائمًا، ويَلحَقُ الذَّمُّ مَن تبيَّن له الحَقُّ فتَرَكه، أو مَن قَصَّر في طَلَبِه حتَّى لم يَتبيَّنْ له، أو أعرَضَ عن طلَبِ مَعرفتِه لِهوًى، أو لكَسَلٍ، أو نحوِ ذلك[٢].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾ فيه أنَّ ما سِوى الأُمورِ الدِّينيَّةِ فإنَّه خاضِعٌ للأحوالِ العاديَّةِ؛ وعلى هذا لو شَرَعوا قوانينَ ونُظُمًا لا عَلاقةَ لها بالدِّينِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٨٤، ٨٥).

فإنَّ ذلك جائزٌ، ولا تُعَدُّ مُوافَقةُ هذه النُّظُمِ شِركًا، فكيف إذا كانت هذه النُّظُمُ تُؤَيَّدُ بالقَواعدِ العامَّةِ، وهي: «جَلْبُ المصالحِ، ودَفْعُ المفاسِدِ»[١]؟!

١٦- أنَّ الأُمورَ المشروعةَ الَّتي يَفعلُها الإنسانُ تَدَيُّنًا لا بُدَّ أنْ يكونَ فيها إذنٌ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى أنكَرَ على هؤلاء الَّذين اتَّخَذوا شُرَكاءَ ﴿شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾، وهذا بمعنى قولِنا: «الأصلُ في العباداتِ الحَظرُ والمَنعُ إلَّا إذا قام دَليلٌ على مَشروعيَّتِها»؛ وعليه فمَن تَعَبَّدَ بعبادةٍ غيرِ معروفةٍ يُنكَرُ عليه حتَّى يأتيَ بدَليلٍ؛ لأنَّ الدِّينَ مُتَلَقًّى مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢].

١٧- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ فيه أنَّ ما قضاه اللهُ أزَلًا في الماضي لا يَتغيَّرُ[٣].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ فيه إثباتُ الأسبابِ؛ فالكَلِمةُ هي السَّبَبُ بتأخيرِ العَذابِ، وإثباتُ الأسبابِ أمرٌ لا يُنكِرُه إلَّا الجاحِدُ[٤].

١٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ كلَّ الأشياءِ حاضرةٌ عندَه مُهيَّأةٌ[٥].

٢٠- قَولُ الله تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ جملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ في محَلِّ نَصبٍ حالٌ من ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، أي: تَرَى الظَّالِمينَ فِي إشفاقٍ في حالِ أنَّ الَّذينَ آمَنوا يَطْمئِنُّونَ في رَوْضاتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٣).

الجنَّاتِ، وفي هذه الحالِ دَلالةٌ على أنَّ الَّذين آمَنوا قد استقَرُّوا في الرَّوضاتِ مِن قَبلِ عَرْضِ الظَّالِمينَ على الحِسابِ، وإشفاقِهم مِن تَبِعاتِه، وهذا مِن تَضادِّ شَأْنَيِ الفريقَينِ في الآخِرةِ، على عكْسِه بما كانوا عليه في الدُّنيا المتقدِّمِ في قولِه: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا ﴾ [الشورى: ١٨]، أي: فاليومَ انقلَبَ إشفاقُ المؤمنينَ اطمِئنانًا، واطمئنانُ المشرِكينَ إشفاقًا، وشتَّانَ بيْنَ الاطمِئنانَينِ والإشفاقَينِ، وبهذه المُضادَّةِ في الحالتينِ وأسبابِهما صحَّ اعتبارُ كَينونةِ الَّذين آمَنوا في الجنَّةِ حالًا مِن الظالِمينَ[1].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ دَليلٌ على أنَّ في سَجايا البَشَرِ نُفورًا عن مَوعظةِ مَن أخَذَ الدِّينارَ والدِّرهمَ، وأنَّ التَّعَفُّفَ عنهما كان مَرموقًا في الجاهليَّةِ الجَهْلاءِ بعَينِ المَدحِ[2].

٢٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ فيه سُؤالٌ: الرُّسُلُ عليهم الصَّلواتُ والسَّلامُ لا يأخُذونَ أجرًا على التَّبليغِ، وهناك آياتٌ دالَّةٌ على ذلك، فما وجهُ الجَمعِ بيْنَ تلك الآياتِ وآيةِ سُورةِ (الشُّورى) هذه؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: على القَولِ بأنَّ معنى الآيةِ: إلَّا أن تَوَدُّوني في قَرابتي الَّتي بيْني وبيْنَكم، فتَكُفُّوا عنِّي أذاكم، وتمنَعوني مِن أذى النَّاسِ، كما تَمنَعونَ كُلَّ مَن بيْنَكم وبيْنَه مِثلُ قَرابتي منكم، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له في كُلِّ بَطنٍ مِن قُرَيشٍ رَحِمٌ؛ فهذا الَّذي سألهم ليس بأجرٍ على التَّبليغِ؛ لأنَّه مَبذولٌ لكُلِّ أحَدٍ؛ لأنَّ كُلَّ أحَدٍ يَوَدُّه أهلُ قَرابتِه، ويَنتَصِرونَ له مِن أذى النَّاسِ، وقد فَعَل له ذلك أبو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٩٨).

طالبٍ، ولم يكُنْ يَسألُ أجرًا على التَّبليغِ؛ لأنَّه لم يُؤمِنْ، وإذا كان لا يَسألُ أجرًا إلَّا هذا الَّذي ليس بأجرٍ؛ تحَقَّق أنَّه لا يَسألُ أجرًا.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ معنى الآيةِ ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: لا تُؤذُوا قَرابتي وعِتْرتي[1]، واحفَظوني فيهم، وعليه فلا إشكالَ؛ لأنَّ المَوَدَّةَ بيْنَ المُسلِمينَ واجِبةٌ فيما بيْنَهم، وأحرى قرابةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والأحاديثُ في مِثلِ هذا كثيرةٌ جِدًّا، وإذا كان نَفْسُ الدِّينِ يُوجِبُ هذا بيْنَ المسلِمينَ تَبيَّن أنَّه غيرُ عِوَضٍ عن التَّبليغ.

وقيل: الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ على كِلا القَولَينِ[2]، وعليه فلا إشكالَ، فمعناه على القَولِ الأوَّلِ: لا أسألُكم عليه أجرًا لكِنْ أُذَكِّرُكم قَرابتي فيكم. وعلى الثَّاني: لكِنْ أُذَكِّرُكم اللهَ في قَرابتي؛ فاحفَظوني فيهم.

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّ معنى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلَّا أن تَتَودَّدوا إلى اللهِ، وتَتقَرَّبوا إليه بالطَّاعةِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وعليه فلا إشكالَ؛ لأنَّ التَّقَرُّبَ إلى اللهِ ليس أجرًا على التَّبليغِ.

**الوَجهُ الرَّابعُ**: أنَّ معنى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلَّا أن تَتَودَّدوا إلى قراباتِكم، وتَصِلوا أرحامَكم، وعليه أيضًا فلا إشكالَ؛ لأنَّ صِلةَ الإنسانِ رَحِمَه ليست أجرًا على التَّبليغِ[3].

---

(١) العِتْرَةُ: نَسْلُ الإنسانِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٩١).

(٢) قال ابن عاشور: (الاستثناءُ مُنقطِعٌ؛ لأنَّ المودَّةَ لأجْلِ القَرابةِ ليسَت مِن الجزاءِ على تبليغِ الدَّعوةِ بالقرآنِ، ولكِنَّها مِمَّا تَقتَضيه المروءةُ؛ فليسَ استِثناؤُها مِن عُمومِ الأجرِ المنفيِّ استِثناءً حقيقيًّا. والمعنى: لا أسألُكم على التَّبليغِ أجرًا، وأسألُكم المودَّةَ لأجْلِ القُربى، وإنَّما سألهم المودَّةَ؛ لأنَّ مُعامَلتَهم إيَّاه مُعامَلةَ المودَّةِ مُعِينةٌ على نَشرِ دَعوةِ الإسلامِ؛ إذْ تَلينُ بتلك المعامَلةِ شَكيمتُهم، فيَترُكونَ مُقاوَمتَه، فيَتمكَّنُ مِن تَبليغِ دَعوةِ الإسلامِ على وَجهٍ أكمَلَ؛ فصارت هذه المودَّةُ غرَضًا دينيًّا لا نَفْعَ فيه لِنَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٩-٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٤).

٢٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ فيه وُجوبُ محبَّةِ قرابتِه صلَّى الله عليه وسلَّم -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ- فمَحَبَّتُه أَولى[١].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ أنَّ المُتنبِّئينَ الكَذَّابينَ لا يُطيلُ اللهُ تَمكينَهم، بل لا بُدَّ أن يُهلِكَهم؛ لأنَّ فَسادَهم عامٌّ في الدِّينِ والدُّنيا والآخِرةِ[٢].

٢٥- أنَّ اللهَ سُبحانَه لا يُخْلي الصَّادِقَ ممَّا يدُلُّ على صِدقِه، ولا يُخْلي الكاذِبَ ممَّا يدُلُّ على كَذِبِه؛ إذْ مِن نَعتِه ما أخبَرَ به في قَولِه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، ثمَّ قال خبرًا مُبتَدَأً: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾؛ فهو سُبحانَه لا بُدَّ أن يَمحَقَ الباطِلَ، ويُحِقَّ الحَقَّ بكَلِماتِه[٣].

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم مَربوبٌ للهِ، يَفعَلُ به ما شاء[٤].

٢٧- قَولُه تعالى: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ فلا يُمَكِّنْك مِن الباطلِ: فيه أنَّه لا يُمكِنُ أن يُمَكِّنَ اللهُ تبارك وتعالى لأحَدٍ كافرٍ تَمكينًا مُطلَقًا؛ وقَولُنا: «التَّمكينُ المُطلَقُ» خَرَجَ به تَمكينُ اللهِ تعالى للكافرِ على وَجهٍ لا يَستَقِرُّ، كما حَصَلَ في غَزوةِ أُحُدٍ؛ فإنَّ المُشرِكينَ هَزموا المُسلِمينَ، لكِنَّه ليس هَزْمًا مُستَقِرًّا، بل هو مِن حِكمةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ أنْ يُمَكِّنَ للكُفَّارِ حتَّى يَتشَجَّعوا على حَربِ المُسلِمينَ، ثمَّ يَقضيَ المُسلِمونَ عليهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٥).

٢٨- قَولُه تعالى: ﴿يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾ فيه أنَّ القَلبَ مَحَلُّ الإدراكِ والعَقلِ والتَّصَرُّفِ؛ فدلَّ هذا على أنَّ مَدارَ التَّصَرُّفِ كُلِّه على القَلبِ(١).

٢٩- قولُه تعالى: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى لا يُقِرُّ على باطلٍ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ فائدةٌ عظيمةٌ؛ وهي: «ما فُعِل في عهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يُعْلَمْ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم اطَّلَعَ عليه؛ فإنَّنا نَحْكُمُ بجوازِه»؛ لأنَّ اللهَ اطَّلَع عليه وسَكَت عنه، لأنَّ اللهَ تعالى لا يُقِرُّ على باطلٍ؛ والوحيُ ما زال ينزِلُ، ولهذا يُخْطِئُ بعضُ العلماءِ رحمهم اللهُ إذا استُدِلَّ بما وَقَع في عهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيَقولون: إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يَعْلَمْ! فنقولُ: هَبْ أنَّه لم يَعْلَمْ؛ فإنَّ اللهَ قد عَلِم(٢).

٣٠- قَولُه تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ فيه إثباتُ الكَلِماتِ للهِ تعالى، واللهُ سُبحانَه وتعالى مُتَكَلِّمٌ بكَلامٍ حَقيقيٍّ؛ بحُروفٍ وأصواتٍ مَسموعةٍ، ومُحاوَرةٍ بيْنَه وبيْنَ مَن شاء مِن خَلْقِه، وهذا مَذهَبُ السَّلَفِ الصَّالحِ(٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ هذه الجُملةُ تَوطئةٌ لِجُملةِ ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٠]؛ لأنَّ ما سيُذكَرُ في الجُملةِ الآتيةِ هو أثَرٌ مِن آثارِ لُطفِ اللهِ سبحانه بعِبادِه ورِفقِه بهم، وما يَسَّرَ مِن الرِّزقِ للمؤمنينَ منهم والكفَّارِ في الدُّنيا، ثمَّ ما خَصَّ به المؤمنينَ مِن رِزقِ الآخرةِ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، مُقدِّمةٌ لاستِئنافِ الجُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٦).

الموطَّأِ لها، وهي جُملةُ ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ ﴾[1] [الشورى: ٢٠].

- وعُطِفَ ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ على صِفةِ ﴿لَطِيفٌۢ﴾، أو على جُملةِ ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾، وهو تَمجيدٌ للهِ تعالى بهاتَينِ الصِّفتينِ، ويُفيدُ الاحتراسَ مِن تَوهُّمِ أنَّ لُطفَه عن عجْزٍ أو مُصانَعةٍ؛ فإنَّه قويٌّ عَزيزٌ لا يَعجِزُ ولا يُصانِعُ، أو عن تَوهُّمِ أنَّ رِزقَه لِمَن يَشاءُ عن شُحٍّ أو قلَّةٍ؛ فإنَّه القويُّ، والقويُّ تَنتفي عنه أسبابُ الشُّحِّ، والعزيزُ يَنْتفي عنه سَببُ الفقرِ، فرِزقُه لِمَن يَشاءُ بما يَشاءُ مَنوطٌ بحِكمةٍ عَلِمَها في أحوالِ خلْقِه عامَّةً وخاصَّةً؛ قال تعالى: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ ﴾ الآيةَ[2] [الشورى: ٢٧].

- والإخبارُ عن اسمِ الجلالةِ بالمسنَدِ المعرَّفِ باللَّامِ ﴿وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴾ يُفيدُ معنى قصْرِ القوَّةِ والعِزَّةِ عليه تعالى، وهو قصْرُ الجِنسِ للمُبالَغةِ؛ لِكَمالِه فيه تعالى، حتَّى كأنَّ قوَّةَ غيرِه وعِزَّةَ غيرِه عَدَمٌ[3].

٢- قولُه تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ الفَرْقِ بيْن عمَلَيِ العاملَينِ؛ بأنَّ مَن عَمِل للآخرةِ وُفِّق في عَملِه، وضُوعِفتْ حَسناتُه، ومَن كان عَملُه للدُّنيا أُعطِيَ شيئًا منها، لا ما يُريدُه ويَطمَحُ إليه، ولم يكُنْ له نَصيبٌ في الآخرةِ[4].

- وهذه الآيةُ مُتَّصِلةٌ بقولِه: ﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧).

ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا﴾ الآيةَ [الشورى: ١٨]؛ لِما تَضمَّنتْه مِن وُجودِ فَريقينِ: فريقِ المؤمنينَ أكبرُ همِّهم حَياةُ الآخرةِ، وفَريقِ الَّذين لا يُؤمِنونَ هِممُهم قاصِرةٌ على حياةِ الدُّنيا؛ فجاء في هذه الآيةِ تَفصيلُ مُعامَلةِ اللهِ الفَريقَينِ مُعامَلةً مُتفاوِتةً، مع استوائِهم في كَونِهم عَبيدَه، وكَونِهم بمَحَلِّ لُطفٍ منه؛ فكانتْ جُملةُ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩] تَمْهيدًا لهذه الجُملةِ، وكانتْ هاتِه الجُملةُ تَفصيلًا لِحُظوظِ الفَريقينِ في شأْنِ الإيمانِ بالآخِرةِ وعَدمِ الإيمانِ بها، ومِن أجْلِ هذا الاتِّصالِ بيْنَها وبيْن جُملةِ ﴿يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨] تُرِك عطْفُها عليها، وتُرِك عطْفُ تَوطئتِها كذلك، ومِن أجْلِ الاتِّصالِ بيْنَها وبيْن جُملةِ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ١٩] اتِّصالَ المقصودِ بالتَّوطئةِ تُرِك عطْفُها على جُملةِ ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ﴾[1].

- والحرْثُ في هذه الآيةِ تمثيلٌ للإقبالِ على كسبِ ما يَعُدُّه الكاسبُ نفْعًا له يَرْجو منه فائدةً وافرةً -بإقبالِ الفلَّاحِ على شَقِّ الأرضِ وزَرْعِها؛ لِيَحصُلَ له سنابلُ كثيرةٌ، وثمارٌ مِن شَجَرِ الحرْثِ[2].

- وفي قولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِي حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ لم يُذكَرْ في معنى عامِلِ الآخِرةِ (وله في الدُّنيا نَصيبٌ)، على أنَّ رِزقَه المقسومَ له واصلٌ إليه لا مَحالةَ؛ للاستِهانةِ بذلك إلى جنْبِ ما هو بصَددِه مِن زَكاءِ عمَلِه وفَوزِه في المآبِ[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٨).

وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ حرْفُ (أَمْ) للإضرابِ الانتقاليِّ، وهو انتقالٌ مِن الكلامِ على تَفرُّقِ أهلِ الشَّرائعِ السَّالفةِ في شَرائعِهم مَن انقرَضَ منهم، ومَن بَقِيَ؛ كأهلِ الكِتابَينِ، إلى الكلامِ على ما يُشابِهُ ذلك مِن الاختلافِ على أصلِ الدِّيانةِ، وتلك مُخالَفةُ المشركينَ للشَّرائعِ كلِّها، وتَلقِّيهم دِينَ الإشراكِ مِن أئمَّةِ الكُفرِ، وقادةِ الضَّلالِ[1].

- ومعنى الاستِفهامِ الذي تَقضيهِ (أَم) الَّتي للإضرابِ هو هنا للتَّقريعِ والتَّهكُّمِ؛ فالتَّقريعُ راجعٌ إلى أنَّهم شرَعوا مِن الدِّينِ ما لم يَأذَنْ به اللهُ، والتَّهكُّمُ راجعٌ إلى مَن شرَعوا لهم الشِّركَ، فسُئِلوا عمَّن شرَعَ لهم دِينَ الشِّركِ: أهُمْ شركاءُ آخَرونَ اعتَقَدوهم شُركاءَ للهِ في الإلهيَّةِ، وفي شَرْعِ الأديانِ كما شرَعَ اللهُ للنَّاسِ الأديانَ؟! وهذا تَهكُّمٌ بهم؛ لأنَّ هذا النَّوعَ مِن الشُّركاءِ لم يَدَّعِهِ أهلُ الشِّركِ مِن العرَبِ، وهذا المعنى هو الَّذي يُساعدُ تَنكيرَ ﴿ شُرَكَٰٓؤُا۟ ﴾ ووَصْفَه بجُملةِ ﴿ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ المسؤولُ عن الَّذي شرَعَ لهم هو الأصنامَ الَّتي يَعبُدونَها، والمقصودُ: فضْحُ فظاعةِ شِركِهم بعُرُوِّهِ عن الانتسابِ إلى اللهِ، أي: إنْ لم يكُنْ مَشروعًا مِن الإلهِ الحقِّ؛ فهو مَشروعٌ مِن الآلهةِ الباطلةِ، وهي الشُّركاءُ، وظاهرٌ أنَّ تلك الآلهةَ لا تَصلُحُ لِتَشريعِ دِينٍ؛ لأنَّها لا تَعقِلُ ولا تَتكلَّمُ، فتَعيَّنَ أنَّ دِينَ الشِّركِ دِينٌ لا مُستنَدَ له[2].

- وأُضيفَتِ الشُّركاءُ إليهم؛ لأنَّهم مُتَّخِذوها شُركاءَ للهِ، ولأنَّها سَببُ ضَلالتِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٦).

وافتِتانِهم، فتارةً تُضافُ إليهم لهذه المُلابَسةِ، وتارةً إلى اللهِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ﴾، والمقصودُ تَحقيقُ إمْهالِهم إلى أجَلٍ مُسمًّى لا يُفلِتُهم مِن المؤاخَذةِ بما ظلَموا؛ فالعذابُ الأليمُ: عذابُ الآخرةِ لجَميعِهم، وعذابُ الدُّنيا بالسَّيفِ والذُّلِّ للَّذين أُخِّروا إلى إبَّانِ حُلولِه؛ مِثلَ: قتلِهم يومَ بَدْرٍ[٢]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وتَوكيدُ الخبَرِ بحَرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّ هذا الخبرَ مُوجَّهٌ إليهم؛ لأنَّهم يَسمَعونَ هذا الكلامَ، ويَعلَمونَ أنَّهم المقصودونَ به[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾

- قولُه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]؛ بُيِّنَ حالُ هذا العَذابِ ببَيانِ حالِ أصحابِه حينَ تَوقُّعِ حُلولِه، وكَفَى بذلك مُنبئًا عن هَولِه[٤].

- والخِطابُ بـ(تَرَى) لِغَيرِ مُعيَّنٍ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فيَعُمُّ كلَّ مَن تُمكِنُ منه الرُّؤيةُ يومَئذٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ أي: خائفينَ خَوفًا شَديدًا. فإنْ قِيل: إذا كان معنى الخَوفِ: غَمٌّ يَلحَقُ الإنسانَ لِتَوقُّعِ مَكروهٍ؛ فكيف الجمْعُ بيْنَه وبيْنَ قولِه: ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾؟

**فالجوابُ**: أنَّ قولَه تعالى: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ﴾ استِحضارٌ لِصُورةِ حالِ الظَّالِمينَ في مُشاهَدةِ السَّامعِ؛ لِيَنظُرَ إلى تلك الحالةِ العجيبةِ الشَّأنِ، وهو أنَّهم خائفونَ مُشفِقونَ يُحاوِلونَ الحذَرَ حينَ لا يَنفَعُهم الحذَرُ؛ لأنَّ الخائفَ إذا استَشعَرَ بما يُتوقَّعُ منه المكروهُ، وأخَذَ في الدَّفْعِ؛ رُبَّما تَخلَّصَ منه، ومَن ترَكَ الحذَرَ حتَّى إذا ألَمَّ به المحذورُ زاوَلَ الدَّفْعَ؛ كان مَظِنَّةً للتَّعجُّبِ منه والتَّعجيبِ[1].

- وضَميرُ ﴿وَهُوَ وَاقِعُۢ﴾ عائدٌ على ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ باعتبارِ تَقديرِ مُضافٍ، أي: جَزاءَ ما كسَبوا، أي: في حالِ أنَّ الجزاءَ واقعٌ عليهم[2].

- قولُه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ خَبرٌ ثانٍ عن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، و(عِندَ) ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بالكَونِ الَّذي تَعلَّقَ به الجارُّ والمجرورُ في ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾. والعِنديَّةُ تَشريفٌ لمعنى الاختِصاصِ الَّذي أفادَتْه اللَّامُ في قولِه: ﴿لَهُم﴾، وعِنايةٌ بما يُعطَونَه مِن رَغْبةٍ، والمعنى: ما يَشاؤونَه حَقٌّ لهم مَحفوظٌ عِندَ ربِّهم. ولا يَنْبغي جَعْلُ (عِندَ) مُتعلِّقًا بفِعلِ (يَشاؤون)؛ لأنَّ (عِندَ) حينَئذٍ تَكونُ ظَرْفًا لِمَشيئتِهم، أي: مَشيئةٌ منهم مُتوجِّهةٌ إلى ربِّهم، فتَؤُولُ المشيئةُ إلى معنى الطَّلَبِ أنْ يُعطِيَهم ما يَطلُبون، فيَفُوتُ قصْدُ التَّشريفِ والعِنايةِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ خَبرًا ثالثًا عن (الَّذين آمَنوا)، أي: همْ عِندَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٨، ٧٩).

ربِّهم، أي: في ضِيافتِه وقِراهُ[١]، ويكونَ تَرتيبُ الأخبارِ الثَّلاثةِ جاريًا على نمطِ الارتقاءِ مِن الحسَنِ إلى الأحسَنِ بأنْ: أخبَرَ عنهم بأنَّهم نزَلوا في أحسَنِ مَنزِلٍ، ثمَّ أُحضِرَ لهم ما يَشتهُونَ، ثمَّ ارتَقى إلى ما هو أعظَمُ، وهو كونُهم عِندَ ربِّهم. ومِن لَطائفِ هذا الوجهِ أنَّه جاءَ على التَّرتيبِ المعهودِ في الحُصولِ في الخارجِ؛ فإنَّ الضَّيفَ أو الوافدَ يَنزِلُ أوَّلَ قُدومِه في مَنزِلِ إكرامٍ، ثمَّ يُحضَرُ إليه القِرَى، ثمَّ يُخالِطُه ربُّ المَنزِلِ ويَقتربُ منه[٢].

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ تَذييلٌ[٣].

- والإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما ذُكِرَ مِن حالِ المؤمنينَ، وهو مَضمونُ قولِه: ﴿فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بتَأويلِ: ذلك المذكورُ. وما فيه مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلةِ المُشارِ إليه في المكانةِ والشَّرفِ[٤].

- وضميرُ الفَصْلِ (هو) يُفيدُ قصْرًا ادِّعائيًّا[٥]؛ للمُبالَغةِ في أعظميَّةِ الفضْلِ، والفضلُ يَصلُحُ لأنْ يُعتبَرَ كالمضافِ إلى المفعولِ، أي: فضْلُ اللهِ عليهم،

---

(١) القِرَى: ضِيافةُ الضَّيفِ والإحسانُ إليه. والقِرَى أيضًا: ما يُقدَّمُ إلى الضَّيفِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٥٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ١٧٩)، ((المعجم الوسيط)) (٢/ ٧٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٧٩، ٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٠).

(٥) القصرُ الادِّعائي: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاء والمبالَغةِ، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزلةَ العدَمِ، وقصْرُ الشيء على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥-١٧٦)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

وأنْ يُعتبَرَ كالمضافِ إلى الفاعلِ: فضْلُهم، أي: شرَفُهم وبرَكتُهم؛ فيَؤولُ معنى القَصرِ إلى أنَّ الفضلَ الَّذي حصَلَ للَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصالحاتِ أكبرُ فضْلٍ(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مُؤكِّدٌ لِنَظيرِه الَّذي قبْلَه ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ [الشورى: ٢٢]، أي: ذلك المذكورُ الَّذي هو فضْلٌ يَحصُلُ لهم في الجنَّةِ هو أيضًا بُشرَى لهم مِن الحياةِ الدُّنيا(٢).

- والعائدُ مِن الصِّلةِ إلى الموصولِ مَحذوفٌ، تَقديرُه: الَّذي يُبشِّرُ اللهُ به عِبادَه. وحَذْفُه هنا لِتَنزيلِه مَنزلةَ الضَّميرِ المنصوبِ باعتبارِ حذْفِ الجارِّ، على طَريقةِ حَذْفِه في نَحْوِ قولِه: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، بتَقديرِ: مِن قَومِه، فلمَّا عُومِلَ مُعامَلةَ المنصوبِ حُذِفَ كما يُحذَفُ الضَّميرُ المنصوبُ(٣).

- وجمْعُ العِبادِ المُضافُ إلى اسمِ الجلالةِ أو ضَميرِه: غلَبَ إطلاقُه في القرآنِ في مَعرِضِ التَّقريبِ، وتَرفيعِ الشَّأنِ؛ ولذلك يكونُ مَوقعُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هنا مَوقعَ عطْفِ البَيانِ لـ ﴿عِبَادَهُ﴾(٤).

- وقولُه: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ بمُناسَبةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٨١).

ذِكرِ ما أُعِدَّ للمُشرِكينَ مِن عذابٍ، وما أُعِدَّ للمؤمنينَ مِن خيرٍ، وضَميرُ جَماعةِ المخاطَبينَ مُرادٌ به المشرِكونَ لا مَحالةَ. وليس في الكلامِ السَّابقِ ما يُتوهَّمُ منه أن يكونَ ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾ جوابًا عنه؛ فتَعيَّنَ أنَّ جُملةَ ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وكان مَوقعُها هنا لِمُناسَبةِ ما سبَقَ مِن ذِكرِ حِجاجِ المشرِكينَ وعِنادِهم؛ فإنَّ مُناسَبتَها لِما معها مِن الآياتِ مَوجودةٌ؛ إذ هي مِن جُملةِ ما واجَهَ به القرآنُ مُحاجَّةَ المشرِكينَ، ونَفَى به أوهامَهم، واستَفتَح بَصائرَهم إلى النَّظرِ في عَلاماتِ صِدقِ الرَّسولِ؛ فهي جُملةٌ ابتدائيَّةٌ وقَعتْ مُعترِضةً بيْنَ جُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وجُملةِ ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً﴾[1].

- وابتُدِئتْ الآيةُ بـ ﴿قُل﴾؛ إمَّا لأنَّها جَوابٌ عن كَلامٍ صدَرَ منهم، وإمَّا لأنَّها ممَّا يُهتَمُّ بإبلاغِه إليهم[2].

- والموَدَّةُ: المَحبَّةُ والمعامَلةُ الحسَنةُ المُشبِهةُ مُعاملةَ المتحابِّينَ، والكلامُ على تَقديرِ مضافٍ، أي: مُعاملةَ الموَدَّةِ، أي: المجاملة؛ بقَرينةِ أنَّ المَحبَّةَ لا تُسألُ؛ لأنَّها انبعاثٌ وانفعالٌ نَفْسانيٌّ، ومعنى الآيةِ على ما يَقتضيهِ نَظْمُها: لا أَسألُكم على القرآنِ جزاءً إلَّا أنْ تَوَدُّوني، أي: أن تُعامِلوني معامَلةَ الوُدِّ، أي: غيرَ معاملةِ العداوةِ، مِن أجْلِ القَرابةِ الَّتي بيْنَنا في النَّسَبِ القُرَشيِّ[3].

- قولُه: ﴿وَمَن يَقۡتَرِفۡ حَسَنَةً نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٌ﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والمعنى: وكلَّما عَمِل مُؤمنٌ حَسنةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

زِدْناهُ حُسنًا مِن ذلك الفضْلِ الكبيرِ[١].

- والاقتِرافُ: افتِعالٌ مِن القَرْفِ، وهو الاكتِسابُ؛ فالاقترافُ مُبالَغةٌ في الكسْبِ نَظيرَ الاكتِسابِ، وليس خاصًّا باكتِسابِ السُّوءِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿نَّزِدۡ لَهُۥ فِيهَا حُسۡنًا﴾ لَمَّا كانتِ الحَسَنةُ مَأْخوذةً مِن الحُسنِ؛ جُعِلَتِ الزِّيادةُ فيها مِن الزِّيادةِ في الحُسنِ؛ مُراعاةً لأصلِ الاشتِقاقِ؛ فكان ذِكرُ الحُسنِ مِن الجِناسِ المُعبَّرِ عنه بجِناسِ الاشتِقاقِ[٣]، ويَتعيَّنُ أنَّ الزِّيادةَ فيها زِيادةٌ مِن غَيرِ عَملِه، ولا تَكونُ الزِّيادةُ بعَملٍ يَعمَلُه غيرُه؛ لأنَّها تَصيرُ عمَلًا يَستحِقُّ الزِّيادةَ أيضًا، فلا تَنتهي الزِّيادةُ؛ فتَعيَّنَ أنَّ المرادَ الزِّيادةُ في جَزاءِ أمثالِها عِندَ اللهِ، وهذا معنى قولِه تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾[٤] [الأنعام: ١٦٠].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ شَكُورٞ﴾ تَذييلٌ وتعليلٌ للزِّيادةِ؛ لِقَصْدِ تَحقيقِها بأنَّ اللهَ كثيرةٌ مَغفرتُه لِمَن يَستحِقُّها، كَثيرٌ شُكْرُه للمُتقرِّبينَ إليه، والمقصودُ بالتَّعليلِ هو وَصْفُ (الشَّكورِ)، وأمَّا وَصْفُ (الغفورِ) فقد ذُكِر للإشارةِ إلى تَرْغيبِ المُقترِفينَ السَّيِّئاتِ في الاستِغفارِ والتَّوبةِ لِيُغفَرَ لهم؛ فلا يَقنَطوا مِن رَحمةِ اللهِ[٥].

٦- قولُه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) جِناسُ الاشتِقاقِ: هو أن يَجمَعَ بيْنَ اللَّفظَينِ اشتِقاقٌ، فإن توافَقَ اللَّفظانِ في الحروفِ وترتيبِها ولم يَجمَعْ بيْنَهما اشتِقاقٌ فهو الجناسُ المُطْلَقُ. يُنظر: ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٢٩٩).

ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

- قولُه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ إضْرابٌ انتقاليٌّ عطْفًا على قولِه: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١]، وهو الكلامُ المُضرَبُ عنه والمُنتقَلُ منه، والمرادُ الانتقالُ إلى تَوبيخٍ آخَرَ؛ فالهمزةُ المُقدَّرةُ بعْدَ (أَمْ) للاستِفهامِ التَّوبيخيِّ وللإنكارِ؛ فإنَّهم قالوا ذلك، فاستحَقُّوا التَّوبيخَ عليه، والمعنى: أم قالوا: افتَرَى؟ ويقولونَه[1].

- وجِيءَ بفِعلِ ﴿يَقُولُونَ﴾ بصِيغةِ المضارعِ؛ لِيَتوجَّهَ التَّوبيخُ لاستِمرارِهم على هذا القولِ الشَّنيعِ مع ظُهورِ دَلائلِ بُطلانِه، فإذا كان قَولُهم هذا شَنِعًا مِن القولِ، فاستِمرارُهم عليه أشنَعُ[2].

- وقولُه: ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ تَفريعٌ على تَوبيخِهم، وهو تَفريعٌ فيه خَفاءٌ ودِقَّةٌ؛ لأنَّ المُتبادرَ مِن التَّفريعِ أنَّ ما بعْدَ الفاءِ إبطالٌ لِمَا نَسَبوه إليه مِن الافتراءِ على اللهِ، وتَوكيدٌ للتَّوبيخِ، وإنَّما يُستفادُ هذا الإبطالُ مِن الشَّرطِ وجَوابِه المُفرَّعينِ على التَّوبيخِ؛ لأنَّ هذا الشَّرطَ وجَوابَه المُفرَّعينِ في ظاهرِ اللَّفظِ على التَّوبيخِ والإبطالِ هما دَليلٌ على المقصودِ بالتَّفريعِ المناسِبِ لِتَوبيخِهم، وإبطالِ قَولِهم، وتَقديرُ المُفرَّعِ هكذا: فكيف يكونُ الافتِراءُ منك على اللهِ واللهُ لا يُقِرُّ أحدًا أنْ يَكذِبَ عليه؟! فلو شاءَ لَخَتَمَ على قلبِك، أي: سلَبَك العقلَ الَّذي يُفكِّرُ في الكَذِبِ، فَتُفْحَمُ عن الكلامِ، فلا تَستطيعُ أنْ تَتقوَّلَ عليه، أي: وليس ثَمَّةَ حائلٌ يَحُولُ دونَ مَشيئةِ اللهِ ذلك لو افتَرَيتَ عليه؛ فيكونُ الشَّرطُ كِنايةً عن انتفاءِ الافتراءِ؛ لأنَّ اللهَ لا يُقِرُّ مَن يَكذِبُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٥).

كلامًا، فحصَلَ بهذا النَّظم إيجازٌ بَديعٌ. أو أنَّ ما بعْدَ الفاءِ هو المُفَرَّعُ على ما قبْلَها، ويكونُ الكَلامُ كِنايةً عن الإعراضِ عن قولِهم: افتَرى على اللهِ كذبًا، أي: أنَّ اللهَ يُخاطِبُ رسولَه بهذا تَعريضًا بالمشركينَ، والمعنى: أنَّ افتِراءَه على اللهِ لا يُهِمُّكم حتَّى تُناصِبوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ العداءَ؛ فاللهُ أَولى منكم بأنْ يَغارَ على انتهاكِ حُرمةِ رِسالتِه، وبأنْ يَذُبَّ عن جَلالِه، فلا تَجْعَلوا هذه الدَّعوى همَّكم؛ فإنَّ اللهَ لو شاء لَختَمَ على قلْبِكَ فسَلَبَك القُدرةَ على أنْ تَنسُبَ إليه كلامًا. وهذانِ الوجهانِ هما المناسِبانِ لموقعِ الآيةِ، ولِفاءِ التَّفريعِ، ولِما في الشَّرْطِ مِن الاستِقبالِ، ولِوُقوعِ فِعلِ الشَّرْطِ مُضارِعًا، فالوقْفُ على قولِه: ﴿عَلَىٰ قَلۡبِكَ﴾، وهو انتهاءُ كَلامٍ[1].

- وقيل: المعنى: يَختِمْ على قُلوبِ الكفَّارِ وعلى ألْسِنَتِهم، ويُعاجِلْهم بالعذابِ؛ فيَكونُ الْتِفاتًا مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، ومِن الجمْعِ إلى الإفرادِ، أي: يَختِمْ على قلبِك أيُّها القائلُ أنَّه افترَى على اللهِ كذبًا[2]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، مُرادٌ منه أنَّ اللهَ يَمْحو باطلَ المشركينَ وبُهتانَهم، ويُحقِّقُ ما جاءَ به رسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وليس عطْفًا على فِعلِ الجزاءِ؛ لأنَّ المُتبادرَ أنَّ هذا وعْدٌ مِن اللهِ بإظهارِ الإسلامِ، ووَعيدُ المشركينَ بأنَّ دِينَهم زائلٌ، والمرادُ بالمحْوِ على هذا: الإزالةُ، والمرادُ بالباطلِ: الباطلُ المعهودُ، وهو دِينُ الشِّركِ، وبالحقِّ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤، ٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦، ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٦).

الحقُّ المعهودُ، وهو الإسلامُ. أو يكونُ المعنى: أنَّ مِن شأْنِ اللهِ تعالى أنْ يُزيلَ الباطلَ ويَفضَحَه بإيجادِ أسبابِ زَوالِه، وأنْ يُوضِّحَ الحقَّ بإيجادِ أسبابِ ظُهورِه؛ حتَّى يكونَ ظُهورُه فاضحًا لِبُطلانِ الباطلِ، فلو كان القُرآنُ مُفترًى على اللهِ لَفضَحَ اللهُ بُطلانَه، وأظهَرَ الحقَّ؛ فالمرادُ بالباطلِ: جنسُ الباطلِ، وبالحقِّ: جنسُ الحقِّ، وتكونُ الجُملةُ كالتَّذييلِ للتَّفريعِ. والمعنى الأوَّلُ أنسَبُ بالاستئنافِ، ولإفادتِه الوعيدَ بإزالةِ ما همْ عليه، ونصْرَ المسلمينَ عليهم. وعلى كِلا المعنيَينِ فقولُه: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ ليس مَعطوفًا على جَزاءِ الشَّرْطِ؛ إذ ليس المعنى على: إنْ يَشأِ اللهُ يَمْحُ الباطلَ؛ بلْ هو تَحقيقٌ لِمَحْوِه للباطلِ[1].

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ في قولِه: ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ دونَ أنْ يقولَ: ويَمْحُ الباطلَ؛ لِتَقْويةِ تَمكُّنِ المُسنَدِ إليه مِن الذِّهنِ، ولإظهارِ عِنايةِ اللهِ بمَحْوِ الباطلِ[2].

- وإنَّما عُدِلَ عن الجُملةِ الاسميَّةِ في صَوغِ ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾، فلم يقُلْ: (واللهُ يَمْحو الباطلَ)؛ لأنَّه أُريدَ أنَّ ما في إفادةِ المضارعِ مِن التَّجدُّدِ والتَّكريرِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا شأْنُ اللهِ وعادتُه لا تَتخلَّفُ، ولم يَقصِدْ تَحقيقَ ذلك وتَثبيتَه؛ لأنَّ إفادةَ التَّكريرِ تَقتضي ذلك بطَريقِ الكِنايةِ، فحصَلَ الغرَضانِ[3].

- وجاء الرَّدُّ عليهم بأُسلوبِ الخِطابِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٦، ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٨٧، ٨٨).

أقْوى في الاعتِناءِ بتَلقينِه جَوابَ تَكذيبِهم؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ تَفظيعٍ لِبُهتانِهم، وهذا وَجْهُ التَّخالُفِ بيْنَ أُسلوبِ هذه الآيةِ وأُسلوبِ قولِه تعالى: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ﴾ [يونس: ١٦]؛ لأنَّ ذلك لم يكُنْ مَسوقًا لإبطالِ كَلامٍ صدَرَ منهم(١).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تَعليلٌ لِمَجموعِ جُملتَيْ ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ إلى قولِه: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦٓ﴾، أي: لأنَّه لا يَخفَى عليه افتِراءُ مُفترٍ، ولا صِدقُ مُحِقٍّ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٥-٢٨)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَبَغَوْاْ﴾: أي: لَطَغَوْا وأفسَدوا، وأصلُ (بغي) هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِن الفَسادِ[1].

﴿ٱلْغَيْثَ﴾: أي: المطرَ النَّازِلَ مِن السَّماءِ، وسُمِّي غَيْثًا؛ لأنَّه يُغيثُ الخلْقَ[2].

﴿قَنَطُواْ﴾: أي: يَئِسوا، والقُنوطُ: اليَأسُ مِنَ الخَيرِ، وقيل: هو أشدُّ اليأسِ، وأصلُ (قنط): يدُلُّ على اليأسِ مِن الشَّيءِ[3].

﴿ٱلْوَلِىُّ﴾: فَعيلٌ بمعنَى فاعِلٍ، أي: المُتَوَلِّي لأُمورِ العالَمِ والخَلائِقِ، القائِمُ بها، والوليُّ: الناصرُ، فهو يَنْصُرُ عِبادَه المؤمنينَ، ويَتولَّى أُمورَهم، وكلُّ مَن وَلِي أمْرَ آخَرَ فهو وليُّه، والوَلايَةُ: تَوَلِّي الأمرِ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨).

قال القرطبيُّ: (والغيثُ ما كان نافعًا في وقْتِه، والمطرُ قدْ يكونُ نافعًا وضارًّا، في وقتِه وغيرِ وقْتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(٤) يُنظر: ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فاس (٦/ ١٤١)، =

﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾: أي: المحمودُ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودُ على ما له مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه التي أنْعَمها على خلْقِه، المستحِقُّ لكلِّ حمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن مَحاسنِ المحمودِ معَ حُبِّه وإجلالِه وتَعظيمِه، وأصلُ (حمد): يَدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾

قَولُه: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: الاسمُ الموصولُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محَلِّ نَصبٍ

---

= ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٧/ ١٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٠)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٧٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨، ٧٥٨).

قال ابنُ القيِّم: (الحَميدُ فَعيلٌ مِن الحَمْدِ، وهو بمعنى مَحمودٍ، وأكثرُ ما يَأتي فَعيلًا في أسمائِه تعالَى، بمعنى فاعِل، كـ: سَميع، وبَصير، وعَليم، وقَدير، وعَليٍّ، وحَكيم، وحَليم، وهو كثيرٌ ... وأمَّا الحميدُ فلمْ يأتِ إلَّا بمعنى المحمودِ، وهو أبلغُ مِن المحمودِ؛ فإنَّ فَعيلًا إذا عُدِلَ به عن مَفعولٍ، دلَّ على أنَّ تِلك الصِّفةَ قد صارتْ مِثلَ السَّجيَّةِ والغَريزةِ والخُلُقِ اللَّازمِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٣١٥).

لكنْ قال ابنُ عُثَيمين: (كَلِمةُ «حميد» يَصِحُّ أن تكونَ اسمَ فاعلٍ، ويصِحُّ أنْ تكونَ بمعنى اسمِ المفعول؛ اسمُ الفاعِلِ: لأنَّه سُبحانَه وتعالَى حامِدٌ يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه؛ ولهذا يُثني على رسُلِه وأنبيائِه وعِبادِه الصَّالحين، والثناءُ عليهم هو الحَمدُ. وهو أيضًا المحمودُ على أمْرينِ: على ما له مِن كَمالِ الصِّفاتِ، وعلى ما له من كَمالِ الإنعامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣). ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤).

مَفعولٌ به، والفاعِلُ مُضمَرٌ يَعودُ على اللهِ تعالَى، بمعنى: ويُجيبُ اللهُ الذين آمَنوا. وقيل: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ مَوصولٌ مَبنيٌّ على الفَتحِ في مَحلِّ رَفعٍ فاعِلٌ، أي: يُجيبون ربَّهم إذا دعاهُمْ، واستجابَ كـ (أَجابَ) مَعنًى، ويجوزُ أنْ تكونَ السِّينُ في (يَسْتَجِيبُ) للطَّلبِ على بابِها، بمعْنى: ويَستَدعي الذين آمَنوا الإجابةَ مَن رَبِّهم بالأعمالِ الصَّالحةِ. وقيل: ثَمَّ لامٌ مُقَدَّرةٌ، أي: ويَستجيبُ اللهُ للَّذين آمَنوا[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مُمتنًّا على عِبادِه، ومُبيِّنًا كَمالَ كَرمِه، وسَعةَ جُودِه، وتَمامَ لُطفِه: اللهُ وَحْدَه هو الذي يَقبَلُ تَوبةَ عِبادِه إذا تابوا، ويَعفو عن سَيِّئاتِهم، ويَعلَمُ اللهُ ما تَفعَلونَ مِن خيرٍ أو شَرٍّ، ويُجيبُ اللهُ الذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ إذا دَعَوْه، ويُعْطيهم إذا سأَلوه، ويَزيدُهم مِن فَضلِه، والكافِرونَ لهم عَذابٌ شَديدٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه جانبًا ممَّا اقتضَتْه حِكمتُه في تَدبيرِ أُمورِ عِبادِه، فيَقولُ: ولو وسَّع اللهُ الرِّزقَ لعِبادِه لَأفسَدوا في الأرضِ، واعتدَى بعضُهم على بعضٍ، ولكِنْ يُنَزِّلُ اللهُ ما يَشاءُ بمِقدارٍ مُعَيَّنٍ حَسَبَ حِكمتِه سُبحانَه، إنَّ اللهَ خَبيرٌ بأحوالِ عبادِه، بَصيرٌ بهم.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالَى جانبًا مِن نِعَمِه على عبادِه، فيقولُ: واللهُ هو الذي يُنزِّلُ الماءَ مِن السَّماءِ فيُغيثُ به عِبادَه مِن بعْدِ انقِطاعِ رَجائِهم مِن نُزولِه، ويَنشُرُ رَحمتَه، وهو الوَليُّ الذي يَتولَّى عِبادَه، المحمودُ على ما أوصَلَه إلى خَلْقِه مِن أصنافِ النِّعَمِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَعۡفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ٢٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٥٢).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الشورى: ٢٤]، ثمَّ برَّأ رَسولَه مِمَّا أضافوه إليه مِن هذا، وكان مِن المعلومِ أنَّهم قدِ استحَقُّوا بهذه الفِريةِ عِقابًا عَظيمًا؛ لا جَرَمَ ندَبَهم اللهُ إلى التَّوبةِ، وعَرَّفهم أنَّه يَقبَلُها مِن كُلِّ مُسيءٍ، وإنْ عَظُمَت إساءتُه(١).

وأيضًا لَمَّا جَرَى وَعيدُ الذين يُحاجُّونَ في اللهِ لِتَأييدِ باطِلِهم مِن قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورى: ١٦]، ثمَّ أُتْبِعَ بوَصْفِ سُوءِ حالِهم يومَ الجزاءِ بقولِه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ [الشورى: ٢٢]، وقُوبِلَ بوَصْفِ نَعيمِ الذين آمَنوا بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ [الشورى: ٢٢]، وكان ذلك مَظِنَّةَ أنْ يَكسِرَ نُفوسَ أهلِ العِنادِ والضَّلالةِ؛ أُعقِبَ بإعلامِهم أنَّ اللهَ مِن شَأنِه قَبولُ تَوبةِ مَن يَتوبُ مِن عِبادِه، وعفْوُه بذلك عمَّا سلَفَ مِن سيِّئاتِهم(٢).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الذي يَقبَلُ تَوبةَ عِبادِه إذا تابوا ورَجَعوا إليه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٨-٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٣).

قيل: تضمَّن ﴿يَقْبَلُ﴾ معْنى (يعفو)، أي: يَقبَلُ التَّوبةَ فيَعفو عن عِبادِه. ومِمَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٣). =

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتَوبةِ عَبدِه حينَ يَتوبُ إليه مِن أَحَدِكم كان على راحِلتِه بأرضِ فَلاةٍ[١]، فانفلَتَتْ[٢] منه وعليها طَعامُه وشَرابُه، فأَيِسَ منها، فأَتَى شَجَرةً فاضْطَجَعَ في ظِلِّها قدْ أَيِسَ مِن راحلتِه، فبَيْنا هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده، فأَخَذَ بخِطامِها، ثمَّ قال مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أنت عَبْدي وأنا رَبُّك! أخطأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ!))[٣].

وعن أبي مُوسى رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَبسُطُ يَدَه باللَّيلِ لِيَتوبَ مُسيءُ النَّهارِ، ويَبسُطُ يَدَه بالنَّهارِ لِيَتوبَ مُسيءُ اللَّيلِ، حتى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِها))[٤].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((إنَّ اللهَ

---

= قال الألوسي: (قيل: القَبولُ مُضمَّن هنا معنى التَّجاوُزِ، والكلامُ على تَقديرِ مُضافٍ: أي يَقبَلُ التَّوبةَ مُتجاوزًا عن ذُنوبِ عبادِه، وهو تَكلُّف). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٦).

وقيل: قبِلْتُه عنه، أي: عزَلْتُه عنه وأبنْتُه عنه. فمعنى ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾: أي يُزيلُ الرُّجوعَ عن المعاصي. ومِمَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: الزمخشريُّ، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٧).

ومِمَّن ذهَب إلى أنَّ ﴿عَنْ﴾ هنا بمعنى: «مِن»: ابنُ قُتَيبة، وابن جزي، وجلالُ الدِّين المحلِّي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٢).

وقال ابنُ عَطيةَ: (قوله تعالى: ﴿عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بمعنى: من عبادِه، وكأنَّه قال: التَّوبةُ الصادرةِ عن عبادِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥).

(١) بأرضٍ فَلاةٍ: أي: صَحْراءَ خاليةٍ مِن النَّباتِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٧).

(٢) فانفلَتَت: أي: نَفَرَت وفَرَّت. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٧).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٧٤٧) بهذا اللَّفظِ، ورواه البخاريُّ (٦٣٠٩) مختَصرًا.

(٤) رواه مسلمٌ (٢٧٥٩).

يَقبَلُ تَوبةَ العَبدِ ما لم يُغَرغِرْ[١]))[٢].

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

أي: ويَعفو اللهُ عن سَيِّئاتِ أعمالِ عِبادِه، فيَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[٣].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠].

﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت التَّوبةُ مِن الأعمالِ العَظيمةِ التي قدْ تكونُ كامِلةً بسَبَبِ تَمامِ

---

(١) ما لم يُغَرْغِرْ: أي: ما لم تَبلُغْ رُوحُه حُلقومَه، فيكونُ بمنزلةِ الشَّيءِ الذي يَتغَرغَرُ به المريضُ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣٦٠).

(٢) رواه الترمذيُّ (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وأحمد (٦١٦٠).

قال الترمذيُّ: (حسنٌ غريبٌ). وقال ابنُ القَطَّان في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٤١٢): (محتمِلٌ أن يُقالَ فيه: صحيحٌ). وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٩/ ١٨)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٣).

قال ابنُ جُزي: (العَفوُ دونَ التَّوبةِ على أربعةِ أقسامٍ: الأوَّلُ: العَفوُ عن الكُفرِ، وهو لا يكونُ أصلًا. والثَّاني: العَفوُ عن مَظالمِ العِبادِ، وهو كذلكَ. والثالثُ: العَفوُ عن الذُّنوبِ الصَّغائِرِ إذا اجتُنِبَت الكبائِرُ، وهو حاصِلٌ باتِّفاقٍ. والرَّابعُ: العَفوُ عن الكبائِرِ، فمَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ أنَّها في المَشيئةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (العَفوُ عن السَّيِّئاتِ يكونُ بسَبَبِ التَّوبةِ؛ بأنْ يَعفوَ عن السَّيِّئاتِ التي اقتَرَفها العاصي قبْلَ توبتِه، ويكونُ بدون ذلك؛ مِثلُ العَفوِ عن السَّيِّئاتِ عَقِبَ الحَجِّ المبرورِ، ومِثلُ العَفوِ عن السَّيِّئاتِ لأجْلِ الشَّهادةِ في سبيلِ اللهِ، ومِثلُ العَفوِ عن السَّيِّئاتِ لكَثرةِ الحَسَناتِ، بأنْ يُمحَى عن العاصي مِن سَيِّئاتِه ما يُقابِلُ مِقدارًا مِن حَسَناتِه على وَجهٍ يَعلَمُه اللهُ تعالَى، ومِثلُ العَفوِ عن الصَّغائِرِ باجتِنابِ الكبائِرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠).

الإخلاصِ والصِّدقِ فيها، وقدْ تَكونُ ناقِصةً عندَ نَقصِهما، وقدْ تكونُ فاسِدةً إذا كان القَصدُ منها بُلوغَ غَرَضٍ مِن الأغراضِ الدُّنيويَّةِ، وكان محَلُّ ذلك القَلبَ الذي لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى؛ خَتَم هذه الآيةَ بقَولِه تعالى[١]:

﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ ما تَفعَلونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، لا يَخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن ذلك[٢].

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا رغَّب اللهُ تعالَى بالعفْوِ؛ زاد الإكرامَ فقال[٣]:

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: ويُجيبُ اللهُ الذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ بإخلاصٍ للهِ تعالَى ومُوافَقةٍ لِشَرعِه؛ إذا دَعَوْه، ويُعْطيهم ما طلَبوه منه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٧- ٢٣٢).

قال ابن جُزَيٍّ: (﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه ثَلاثةُ أقوالٍ: =

= أحدُها: أنَّ معنى «يَستجيبُ»: يُجيبُ. و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: مفعولٌ، والفاعِلُ ضَميرٌ يعودُ على اللهِ تعالى، أي: يُجيبُهم فيما يَطلُبونَ منه. وقال الزَّمخشريُّ: أي: أصلُه: يَستجيبُ لِلَّذين آمنوا، فحَذَف اللَّامَ.

والثَّاني: أنَّ معناه: يُجيبُ. و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فاعِلٌ، أي: يَستجيبُ المؤمِنونَ لِرَبِّهم باتِّباعِ دِينِه.

والثَّالثُ: أنَّ معناه: يَطلُبُ المؤمِنونَ الإجابةَ مِن رَبِّهم، واستَفعَلَ هذا على بابِه مِنَ الطَّلَبِ، والأوَّلُ أرجَحُ؛ لِدَلالةِ قَولِه: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، ولأنَّه قَولُ ابنِ عبَّاسٍ ومُعاذِ بنِ جَبَلٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٣).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجُملةِ: ابنُ جَريرٍ، والثَّعلبيُّ، والسَّمعاني، والبَغوي، والرَّسْعني، والقُرْطبي، وابن جُزَي، وابن تيْميةَ، وابن كثير، والعُلَيمي، والشَّوكاني، وابن عاشور، وابن عُثَيمين، وغيرهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٧).

قال ابنُ تيْميةَ: (قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أي يَستجيبُ لهمْ، وهو مَعروفٌ في اللُّغةِ؛ يُقال: استَجابَه واستجابَ له). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٢٣٩).

وذكَر ابنُ عُثَيمينَ أنَّ ممَّا يدُلُّ على هذا التَّفسيرِ قولُه تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقولُه تعالى بعْد ذلك: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، والأصلُ أنْ تكونَ الضَّمائرُ واحدةً، وحرْفُ العطْفِ يَقْتضي تَساويَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه، وأيضًا لو أراد أنَّ الذين آمَنوا همُ الذين استَجابوا، لَقال: فيَزيدُهم: أي بسَببِ استجابَتِهم يَزيدُهم مِن فضْلِه. يُنظَر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٧- ٢٢٨).

قال الزَّمخشريُّ: (أي: يُثيبُهم على طاعتِهم ويَزيدُهم على الثَّوابِ تفضُّلًا، أو إذا دعَوه استجابَ دُعاءَهم وأعطاهُم ما طلَبوا وزادَهم على مَطلوبِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٣).

وقال ابنُ جَرير: (ويُجيبُ الَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وعَمِلوا بما أمَرهم اللهُ به، وانتهَوْا عمَّا نَهاهم عنه لبَعضِهم دُعاءَ بعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٦).

وقال القُرطبيُّ: (أي: يَقبَلُ عِبادةَ مَن أخلَص له بقلْبِه وأطاع ببَدنِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦). =

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ ...﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾.

أي: ويَزيدُ اللهُ المُؤمِنينَ مِن فَضْلِه في الدُّنيا، فيُعطيهم ما لم يَسألُوه، أو يَزيدُهم ثَوابًا على ما عَمِلوه(١).

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: ١٧٣].

---

= وقيل: المعنى: ويَستجيبُ المؤمِنونَ لِرَبِّهم، فيُؤمِنونَ به ويُطيعونَه. ومِمَّن ذهَب إلى هذا القَولِ: ابنُ أبي زَمنين، ومكِّيُّ بن أبي طالب، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير مكي)) (١٠/ ٦٥٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣).

قال الشَّوكانيُّ: (﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: يَزيدُهم على ما طَلَبوه منه، أو على ما يَستَحِقُّونَه مِن الثَّوابِ تفضُّلًا منه). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٣).

ومِمَّن ذهَب إلى المعنى الأوَّلِ -وهو إعطاؤُهم ما لم يَسْألوه-: ابنُ جرير، والرازي، وابن جُزَي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٧).

ومِمَّن ذهَب إلى المعنى الثَّاني -وهو زيادةُ ثَوابِ أعمالِهم-: الواحديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٢).

وممَّن جمَع بين القولينِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩١).

وقال السعديُّ: (فإذا استَجابوا له شَكَرَ اللهُ لهم، وهو الغَفورُ الشَّكورُ، وزادهم مِن فَضلِه تَوفيقًا ونَشاطًا على العَمَلِ، وزادَهم مُضاعَفةً في الأجرِ زِيادةً عمَّا تَستَحِقُّه أعمالُهم مِنَ الثَّوابِ والفَوزِ العَظيمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

وقال السَّمعانيُّ: (وقولُه: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ أي: الثَّناءَ الحسَنَ فِي الدُّنيا، وقيل: الشَّفاعَةَ فِي الآخرةِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٧٦).

﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

أي: وأمَّا الكافِرونَ باللهِ فلهم عَذابٌ قَوِيٌّ؛ جَزاءَ كُفرِهم باللهِ[1].

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا قال في الآيةِ الأُولى: إنَّه يُجيبُ دُعاءَ المُؤمِنينَ، ورَدَ عليه سُؤالٌ؛ وهو: أنَّ المؤمِنَ قدْ يكونُ في شِدَّةٍ وبَلِيَّةٍ وفَقرٍ، ثمَّ يَدْعو فلا يُشاهِدُ أثَرَ الإجابةِ؛ فكيْف الحالُ فيه مع ما تقَدَّمَ مِن قَولِه: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟ فأجاب تعالَى عنه بقَولِه: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[2].

وأيضًا لَمَّا كان المُتبادِرُ مِن الاستجابةِ إيجادَ كُلِّ ما سَألوه في هذه الدُّنيا على ما أرادوه، وكان الموجودُ غيرَ ذلك، بلْ كان أكثَرُ أهلِ اللهِ مُضَيَّقًا عليهم، وكانت الإجابةُ إلى كُلِّ ما يُسألُ بأنْ يكونَ في هذه الدَّارِ يُؤدِّي في الغالِبِ إلى البَطَرِ المؤَدِّي إلى الشَّقاءِ، فيُؤَدِّي ذلك إلى عَكسِ المرادِ -قال تعالَى[3]:

﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٢).

ممَّن اختار أنَّ العذابَ المذكورَ هنا واقِعٌ يومَ القيامةِ: ابن جَرير، والنَّسفي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦).

وقيل: العَذابُ واقِعٌ في الدُّنيا والآخِرةِ. ومِمَّن قال بهذا: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٧-٣٠٨).

أي: ولو وسَّع اللهُ الرِّزقَ لعِبادِه، وكثَّرَه لهم فَوقَ حاجتِهم، لَأفضَى ذلك إلى أنْ يُفسِدوا في الأرضِ، ويُقدِموا على المعاصي ويَبْطَروا النِّعمةَ، ويَعتديَ بعْضُهم على بَعضٍ؛ ظُلمًا واستِكبارًا واستِعلاءً بغَيرِ حَقٍّ(١).

كما قال تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وعن عَمرِو بنِ عَوفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((واللهِ ما الفَقرَ أخْشى عليكم، ولكِنِّي أخشَى عليكم أنْ تُبسَطَ الدُّنيا عليكم كما بُسِطَت على مَن كان قَبلَكم، فتَنافَسُوها كما تَنافَسوها، وتُهلِكَكم كما أهلَكَتْهم))(٢).

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾.

أي: ولكِنَّ اللهَ تعالَى يُنَزِّلُ ما يَشاءُ تَنزيلَه مِن أرزاقِ العِبادِ بمِقدارٍ مُعَيَّنٍ، بحَسَبِ ما تَقتَضيهِ حِكمتُه سُبحانَه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٤-٢٣٥).

(٢) رواه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١)، واللفظ له.

قال البقاعي: (﴿لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لصاروا يُريدونَ كُلَّ ما يَشتَهونَه، فإنْ لم يُفعَلْ سَعَوا في إنفاذِه -كالمُلوكِ بما لهم مِن المُكْنةِ- بكُلِّ طَريقٍ يُوصِلُهم إليه؛ فيَكثُرُ القَتلُ والسَّلبُ، والنَّهبُ والضَّربُ، ونحوُ ذلك مِن أنواعِ الفَسادِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٠٨).

وقال السعديُّ: (أي: لغَفَلوا عن طاعةِ اللهِ، وأقبَلوا على التمَتُّعِ بشَهَواتِ الدُّنيا؛ فأوجَبَت لهم الإكبابَ على ما تَشتَهيه نفوسُهم، ولو كان مَعصيةً وظُلمًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٨-٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٣).

كما قال تعالَى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالَى خَبيرٌ بأحوالِ عِبادِه الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وطِباعِهم وعَواقبِ أُمورِهم، وهو بَصيرٌ بهم؛ يَراهم ويَعلَمُ ما يُصلِحُهم مِن تَوسيعِ الرِّزقِ أو تَضييقِه بحَسَبِ حِكمتِه البالِغةِ[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بَيَّن تعالَى أنَّه لا يُعطي عِبادَه ما زاد على قَدْرِ حاجتِهم؛ لأجْلِ أنَّه عَلِمَ أنَّ تلك الزِّيادةَ تضُرُّهم في دِينِهم؛ بيَّنَ أنَّهم إذا احتاجوا إلى الرِّزقِ فإنَّه لا يَمنَعُهم منه، فقال[2]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي يُنَزِّلُ الماءَ الذي تَحصُلُ به إعانةُ النَّاسِ، وإزالةُ الشِّدَّةِ عنهم، فيُغيثُهم به مِن بعدِ انقِطاعِ رَجائِهم مِن نُزولِه، ويَنشُرُ اللهُ تعالى رَحمتَه ويَبسُطُها؛ فتَحيا البِلادُ، ويَنتَفِعُ العِبادُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٥)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۞ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ۞ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ﴾ [الروم: ٤٨ - ٥٠].

﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الوَليُّ الذي يَتولَّى عِبادَه بإحسانِه وفَضلِه، ويَتصَرَّفُ لهم بما يَنفَعُهم؛ الحَميدُ على هذه الوَلايةِ، والمُستَحِقُّ للثَّناءِ والشُّكرِ مِن جَميعِ خَلقِه على ما له مِنَ الكَمالِ، وعلى تَدبيرِه وما أوصَلَه إلى خَلقِه مِن أصنافِ النِّعَمِ، المحمودُ العاقِبةِ في جَميعِ ما يُقَدِّرُه ويَفعَلُه[1].

---

= كثير)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٦، ٢٤٢).

قِيلَ: المُرادُ بالرَّحمةِ هنا: الغَيثُ. ومِمَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ جرير، والسَّمرقندي، والثَّعلبي، والواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣١٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٥).

وقِيلَ: المُرادُ بالرَّحمةِ: آثارُ الغَيثِ وبَرَكاتُه، كإخراجِ الأقواتِ للنَّاسِ ولِبَهائِمِهم. ومِمَّن قال بهذا المعنى: الزَّمخشريُّ، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٩).

وقال ابنُ عطيةَ: (وقالت فِرقةٌ: الرَّحمةُ في هذا الموضعِ الشَّمسُ، فذلك تَعديدُ نِعمةٍ غيرِ الأُولَى؛ وذلك أنَّ المطرَ إذا ألَمَّ بعْدَ القَنَطِ حسُنَ مَوقعُه، فإذا دام سُئِم، فتَجيءُ الشمسُ بعْدَه عَظيمةَ الموقعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٩-٢٤٠).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ هذا ليْس مُجرَّدَ خبَرٍ أنَّ اللهَ تعالَى يَقبَلُ التَّوبةَ، بلْ هو حَثٌّ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ نَتوبَ إليه[١].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ فيه إثباتُ عُمومِ عِلْمِ اللهِ سُبحانَه وتعالَى لكُلِّ ما نَفعَلُ؛ ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ فقولُه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ يعني: فاحذَروا أنْ تَفعَلوا شيْئًا يُغضِبُه؛ فإنَّه عالِمٌ بكم[٢]، وفي هذا لُطفٌ، وحَثٌّ على لُزومِ الحذَرِ منه تعالَى، والإخلاصِ له سُبحانه في إمْحاضِ التَّوبةِ[٣].

٣- مَن استجابَ لربِّه بامتثالِ أمْرِه ونَهيِه؛ حصَلَ مَقصودُه مِن الدُّعاءِ، وأُجيبَ دُعاؤه، كما قال تعالَى: ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾؛ فقدْ جعَل اللهُ تعالَى الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ سَببًا لإجابةِ الدُّعاءِ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ كُلَّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن خيرٍ فبِفَضلِ اللهِ، وعلى هذا يَجِبُ على الإنسانِ أنْ يَقطَعَ عن نَفسِه الإعجابَ، ويجِبُ عليه أَلَّا يقولَ: هذا مِن عِندي، أو أنا جديرٌ به، أو ما أشبَهَ ذلك مِن الكَلِماتِ التي يَفخَرُ بها على اللهِ عزَّ وجَلَّ[٥]!

٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٣).

مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ﴾ فيه أنَّ الرِّزقَ لو جاء على اقتراحِ البَشَرِ، لكان سَبَبَ بَغْيِهم وإفسادِهم، ولكِنَّه تعالَى أعلَمُ بالمَصلحةِ؛ فرُبَّ إنسانٍ لا يَصلُحُ ولا يُكَفُّ شَرُّه إلَّا بالفَقرِ، وآخَرَ بالغِنى(١).

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ﴾ أنَّ طَبيعةَ الإنسانِ أنَّه لا يَصْبِرُ؛ فيَسْتولي عليه اليأْسُ والقُنوطُ مِن رَحمةِ اللهِ! والذي يَجِبُ على المرْءِ ألَّا يَقْنَطَ مِن رَحمةِ اللهِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال تعالَى حِكايةً عن إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، إنَّما الواجبُ على المرءِ إذا مَسَّه السُّوءُ أنْ يَصْبِرَ ويَحتسِبَ، ودوامُ الحالِ مِن المُحالِ(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى يُعطي المؤمِنينَ العامِلينَ الصَّالحاتِ أكثرَ مِمَّا عَمِلوا، وهذه الزِّيادةُ بَيَّنَها اللهُ تعالَى في مَواضِعَ أُخرى مِن كتابِه؛ فقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وربَّما يُقالُ أيضًا بزِيادةٍ أُخرى غيرِ العدَدِ، وهي: أنَّه يَزيدُهم مِن الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ لأنَّه كُلَّما عَمِلَ الإنسانُ عَمَلًا صالِحًا ازدادَ يَقينُه؛ ولهذا كان مِن قَولِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ أنَّ الأعمالَ داخِلةٌ في الإيمانِ(٣).

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى يُنذِرُ النَّاسَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٣).

عن المعاصي والكُفرِ بذِكرِ العِقابِ، أخَذَ العُلَماءُ مِن هذا أنَّه إذا ذَكَرَ اللهُ تعالَى عِقابًا في عَمَلٍ مِن الأعمالِ دلَّ ذلك على تحريمِه، وإذا ذَكَرَ ثَوابًا في عَمَلٍ مِن الأعمالِ دلَّ ذلك على مَشروعيَّتِه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ دَليلٌ على أنَّ كَثرةَ المالِ سَببٌ لفَسادِ الدِّينِ إلَّا مَن عَصَمَه اللهُ عزَّ وجلَّ، فلمْ يَجعَلْه فِتنةً عليه[٢]؛ فالغِنَى مَظِنَّةُ البَطَرِ والأَشَرِ إذا صادَفَ نفْسًا خَبيثةً، فأمَّا الفقرُ فقلَّما كان سَببًا للبغْيِ إلَّا بَغيًا مَشُوبًا بمَخافةٍ؛ كبَغْيِ الجائعِ بالافتكاكِ بالعُنفِ، فذلك لِنُدرتِه لا يُلتفَتُ إليه، على أنَّ السِّياقَ لِبَيانِ حِكمةِ كَونِ الرِّزقِ بقَدَرٍ، لا لِبَيانِ حِكمةٍ في الفقرِ؛ فالتَّلازُمُ بيْنَ الشَّرطِ وجَوابِه في قولِه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟﴾ حاصلٌ بهذه السَّببيَّةِ، بقطْعِ النَّظَرِ عن كَونِ هذا السَّببِ قد يَخلُفُه ضِدُّه أيضًا، على أنَّ بيْنَ بَسْطِ الرِّزقِ وبيْنَ الفقرِ مَراتبَ أُخرى مِن الكَفافِ، وضِيقِ الرِّزقِ، والخَصاصةِ، والفقرِ، وهي مُتفاوتةٌ؛ فلا إشكالَ في التَّعليلِ[٣].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ دَليلٌ على أنْ لا سَبيلَ إلى الازديادِ في الرِّزقِ بالحِيَلِ والمكاسِبِ؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَ الأرزاقَ وضَمِنَها بقَولِه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]؛ فرِزقُ كلِّ عبْدٍ مَجموعٌ عندَه، يُنَزَّلُ عليه بمَقدارِ ما يَصلُحُ له[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ بَيانٌ للواقِعِ وليْس تَقريرًا للقُنوطِ؛ لأنَّ القُنوطَ حُكمُه الشَّرعيُّ أنَّه لا يَجوزُ، بلْ هو مِن كَبائرِ الذُّنوبِ؛ فالإخبارُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٢).

بالواقِعِ أو عن الواقِعِ لا يَعني إقرارَه[١].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ أنَّ الرَّحمةَ صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وتُطلَقُ على نِعَمِه؛ لأنَّها مِن آثارِ رَحمتِه[٢].

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ أنَّ وَلايةَ اللهِ تعالَى مَحمودةٌ على كلِّ حالٍ، ولو قارنْتَ بيْن هذا وبيْن قَولِه: ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [لقمان: ٢٦] تَجِدُ التَّناسُبَ التَّامَّ؛ فالغَنيُّ الحَميدُ: الذي يُحمَدُ على غِناه التامِّ بحيثُ يُغني به ما شاء، والوَليُّ الحَميدُ: الذي يُحمَدُ على وَلايتِه بحيثُ يَختَصُّ بالوَلايةِ الخاصَّةِ مَن شاء ويَمنَعُها عمَّن شاء، وعلى كلِّ حالٍ فوَلايتُه حَميدةٌ، وغِناه حَميدٌ عزَّ وجلَّ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾

- هذا الإخبارُ تَعريضٌ بالتَّحريضِ على مُبادَرةِ التَّوبةِ؛ ولذلك جِيءَ فيه بالفِعلِ المضارعِ الصَّالحِ للاستِقبالِ، وهو أيضًا بِشارةٌ للمُؤمنينَ بأنَّه قَبِلَ تَوبتَهم ممَّا كانوا فيه مِن الشِّركِ والجاهليَّةِ؛ فإنَّ الذي مِن شَأنِه أنْ يَقبَلَ التَّوبةَ في المستقبلِ يكونُ قدْ قَبِل تَوبةَ التَّائبينَ مِن قبْلُ، بدَلالةِ لَحْنِ الخِطابِ أو فَحْواه[٤]، وأنَّ مِن شَأنِه الاستجابةَ للذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِن عِبادِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٤٣).

(٤) ينقسِمُ المفهومُ مِن الكلامِ إلى مَفهومِ موافَقةٍ، ومفهومِ مُخالَفةٍ؛ فمَفهومُ الموافَقةِ هو ما يُوافِقُ حُكْمُه المنطوقَ؛ فإنْ كان أَوْلى سُمِّيَ فَحْوى الخِطابِ، كدَلالةِ: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] على تَحريمِ الضَّربِ؛ لأنَّه أشَدُّ، وإنْ كان مُساوِيًا سُمِّيَ لَحْنَ الخِطابِ، أي: معناه، كدَلالةِ =

وكلُّ ذلك جَرْيٌ على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ وعكْسِه، وهذا كلُّه يَتضمَّنُ وَعْدًا للمُؤمنينَ بقَبولِ إيمانِهم، وللعُصاةِ بقَبولِ تَوبتِهم[١].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١] وما اتَّصَلَ بها ممَّا تَقدَّمَ ذِكرُه، وخاصَّةً جُملةَ ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ [الشورى: ٢٤]. وابتناءُ الإخبارِ بهذه الجُملةِ على أُسلوبِ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ لإفادتِها ثَباتَ حُكمِها، ودَوامَه[٢].

- ومَجيءُ المسنَدِ اسمَ مَوصولٍ ﴿ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ...﴾؛ لإفادةِ اتِّصافِ اللهِ تعالَى بمَضمونِ صِلتِه، وأنَّها شأنٌ مِن شُؤونِ اللهِ تعالَى عُرِف به، ثابتٌ له لا يَتخلَّفُ؛ لأنَّه المُناسِبُ لِحِكمتِه، وعظَمةِ شَأنِه، وغِناهُ عن خلْقِه. وإيثارُ جُملةِ الصِّلةِ بصِيغةِ المضارعِ ﴿يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ مَضمونِه وتَكرُّرِه؛ ليَعلَموا أنَّ ذلك وعْدٌ لا يَتخلَّفُ ولا يَختلِفُ[٣].

- وفِعلُ (قَبِلَ) يَتعدَّى بحَرْفِ (مِن) الابتدائيَّةِ تارةً -كما في قولِه: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَـٰتُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقولِه: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ

---

= ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾ [النساء: ١٠] على تَحريمِ الإحراقِ؛ لأنَّه مُساوٍ للأكْلِ في الإتلافِ. وعُرِّف لَحْنُ الخِطابِ أيضًا بأنَّه دَلالةٌ للاقتِضاءِ، وهو دَلالةُ اللفظِ الْتزامًا على ما لا يَستقِلُّ الحكمُ إلَّا به، وإنْ كان اللفظُ لا يَقتضيه وضْعًا. يُنظر: ((شرح تنقيح الفصول)) للقرافي (ص: ٥٣)، ((الذخيرة)) للقرافي (١/ ٦٢)، ((البحر المحيط في أصول الفقه)) للزركشي (٥/ ١٢٤)، ((الدرر اللوامع في شرح جمع الجوامع)) للكوراني (١/ ٤٣٨ - ٤٤٠)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا﴾ [آل عمران: ٩١]- فيُفيدُ مَعْنى الأخْذِ للشَّيءِ المقبولِ صادرًا مِن المأخوذِ منه. ويُعدَّى بحَرْفِ (عَنْ)، فيُفيدُ معْنى مُجاوَزةِ الشَّيءِ المقبولِ أو انفِصالِه عن مُعطيهِ وباذِلِه، وهو أشدُّ مُبالغةً في معْنى الفعلِ مِن تَعْديتِه بحَرْفِ (مِن)؛ لأنَّ فيه كِنايةً عن احتِباسِ الشَّيءِ المبذولِ عِندَ المبذولِ إليه بحيثُ لا يُرَدُّ على باذِلِه، فحصَلَتْ في هذه الجُملةِ أربعُ مُبالَغاتٍ: بِناءُ الجُملةِ على الاسميَّةِ، وعلى الموصوليَّةِ، وعلى المُضارعيَّةِ، وعلى تَعديةِ فِعلِ الصِّلةِ بحَرْفِ (عَنْ) دونَ (مِنْ)[١].

- وفي ذِكرِ اسمِ (العِبادِ) دونَ نحْوِ (النَّاسِ)، أو (التَّائبينَ)، أو غيرِ ذلك: إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ رَفيقٌ بعِبادِه لمَقامِ العُبوديَّةِ؛ فإنَّ الخالقَ والصَّانعَ يُحِبُّ صَلاحَ مَصنوعِه[٢].

- والتَّعريفُ في (السَّيِّئاتِ) تَعريفُ الجِنسِ المرادُ به الاستِغراقُ، وهو عامٌّ مَخصوصٌ بغيرِ الشِّركِ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ويجوزُ أنْ يكونَ عِوَضًا عن المُضافِ إليه، أي: عن سَيِّئاتِ عِبادِه؛ فيَعُمَّ جَميعَ العِبادِ عُمومًا مَخصوصًا بالأدلَّةِ لهذا الحُكمِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ مُعترِضةٌ بيْن المُتعاطِفاتِ، أو في مَوضعِ الحالِ، والمقصودُ: أنَّه لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِ عِبادِه خيْرِها وشَرِّها[٤].

- وعُبِّرَ بقولِه: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ بتاءِ الخِطابِ على طَريقةِ الالْتفاتِ[٥]، والالتفاتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٩، ٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن الغَيبةِ إلى المخاطَبِ فيه نوعٌ مِن تَنشيطِ ذِهنِ السَّامِعِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الخِطابَ لكمْ أنتُمْ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الاستجابةُ: مُبالَغةٌ في الإجابةِ، وخُصَّتِ الاستجابةُ في الاستِعمالِ بامْتثالِ الدَّعوةِ أو الأمرِ(٢).

- ولَمَّا كانتِ الاستجابةُ والزِّيادةُ كَرامةً للمؤمنينَ، أُظهِرَ اسمُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وجِيءَ به مَوصولًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإيمانَ هو وَجْهُ الاستجابةِ لهم، والزِّيادةِ لهم(٣).

- وجُملةُ ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ اعتِراضٌ عائدٌ إلى ما سبَقَ مِن قولِه: ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ [الشورى: ٢٢]؛ تَوكيدًا للوعيدِ، وتَحذيرًا مِن الدَّوامِ على الكُفْرِ بعْدَ فتْحِ بابِ التَّوبةِ لهم(٤).

- وفي هذه الآيةِ احتِباكٌ(٥)؛ فقدْ ذَكَر الاستجابةَ أوَّلًا؛ دَليلًا على ضِدِّها ثانيًا، والعذابَ ثانيًا؛ دَليلًا على ضِدِّه أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذَكَر الحامِلَ على الطَّاعةِ والصَّادَّ عن المعصيةِ(٦).

٣- قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا

---

(١) يُنظر: ((لمسات بيانية لسور القرآن الكريم)) لفاضل السامرائي (١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ١٩٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٠٧).

يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٌ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ أنَّ بَسْطَ الرِّزقِ مَفسَدةٌ للخَلْقِ[1]. أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٦]، أو على المجموعِ مِن جُملةِ ﴿وَيَسۡتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الشورى: ٢٦] ومِن جُملةِ ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦ﴾، ومَوقعُ معناها مَوقعُ الاستِدراكِ والاحتراسِ؛ فإنَّها تُشيرُ إلى جَوابٍ عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ في نفْسِ السَّامعِ إذا سَمِعَ أنَّ اللهَ يَستجيبُ للذين آمَنوا، وأنَّه يَزيدُهم مِن فضْلِه؛ أنْ يَتساءَلَ في نفْسِه: إنَّ ممَّا يَسألُ المؤمنونَ سَعةَ الرِّزقِ والبَسطةَ فيه؛ فقدْ كان المؤمنونَ أيَّامَ صَدْرِ الإسلامِ في حاجةٍ وضِيقِ رِزقٍ؛ إذ منَعَهم المشرِكونَ أرزاقَهم، وقاطَعوا مُعاملتَهم، فيُجابُ بأنَّ اللهَ لو بسَطَ الرِّزقَ للنَّاسِ كلِّهم، لكان بسْطُه مُفسِدًا لهم؛ لأنَّ الَّذي يَستغني يَتطرَّقُه نِسيانُ الالْتجاءِ إلى اللهِ، ويَحمِلُه على الاعتداءِ على النَّاسِ، فكان مِن خَيرِ المؤمنينَ الآجِلِ لهم ألَّا يُبسَطَ لهم في الرِّزقِ، وكان ذلك مَنوطًا بحِكمةٍ أرادَها اللهُ مِن تَدبيرِ هذا العالَمِ تَطَّرِدُ في النَّاسِ مُؤمنِهم وكافرِهم، وقدْ كان في ذلك للمُؤمنِ فائدةٌ أُخرى؛ وهي ألَّا يَشغَلَه غِناهُ عن العَملِ الذي به يَفوزُ في الآخِرةِ، فلا تَشغَلَه أمْوالُه عنه.

وقد ورَدتْ هذه الآيةُ مَوردًا كُلِّيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِعِبَادِهِۦ﴾ يَعُمُّ جميعَ العبادِ، ومِن هذه الكُلِّيَّةِ تَحصُلُ فائدةُ المسؤولِ عليه الجُزئيِّ الخاصِّ بالمؤمنينَ، مع إفادةِ الحِكمةِ العامَّةِ مِن هذا النِّظامِ التَّكوينيِّ؛ فكانتْ هذه الجُملةُ بهذا الاعتبارِ بمَنزلةِ التَّذييلِ؛ لِما فيها مِن العُمومِ، أي: إنَّ اللهَ أسَّسَ نِظامَ هذا العالَمِ على قَوانينَ عامَّةٍ، وليْس مِن حِكمتِه أنْ يخُصَّ أولياءَه وحِزبَه بنِظامٍ تَكوينيٍّ دُنيويٍّ،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٤).

ولكنَّه خَصَّهم بمَعاني القُربِ والرِّضا والفوْزِ في الحياةِ الأبديَّةِ، وربَّما خَصَّهم بما أرادَ تَخصيصَهم به ممَّا يَرجِعُ إلى إقامةِ الحقِّ(١).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ واقعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ للتي قبْلَها. وافتُتِحتْ بحَرْفِ (إنَّ) التي لم يُرَدْ منها تأْكيدُ الخبرِ، ولكنَّها لِمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبرِ، والإيذانِ بالتَّعليلِ؛ لأنَّ (إنَّ) في مِثلِ هذا المَقامِ تَقومُ مَقامَ فاءِ التَّفريعِ، وتُفيدُ التَّعليلَ والرَّبطَ؛ فالجُملةُ في تَقديرِ المعطوفةِ بالفاءِ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: مُحيطٌ بخَفيَّاتِ أُمورِهم وجَلاياها، فيُقدِّرُ لكلِّ واحدٍ منْهم في كلِّ وقْتٍ مِن أوقاتِهم ما يَليقُ بشأْنِه؛ فيُفقِرُ ويُغْني، ويَمنَعُ ويُعْطي، ويَقبِضُ ويَبسُطُ حسْبما تَقتضيهِ الحِكمةُ الرَّبَّانيَّةُ(٣). وقيل: جمَع بيْن وَصفَيْ ﴿خَبِيرٌۢ﴾ و﴿بَصِيرٌ﴾؛ لأنَّ وَصْفَ (خَبير) دالٌّ على العِلمِ بمَصالحِ العبادِ وأحوالِهم قبْلَ تَقديرِها، وتَقديرِ أسبابِها، أي: العِلمِ بما سيَكونُ، ووَصْفَ (بَصير) دالٌّ على العِلمِ المتعلِّقِ بأحوالِهم التي حصَلتْ، وفرْقٌ بيْن التَّعلُّقينِ للعِلمِ الإلهيِّ(٤).

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّهُۥ﴾ بالضَّميرِ و﴿خَبِيرٌۢ﴾، وقال في سُورةِ (فاطر): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ [فاطر: ٣١] بلَفظِ الجَلالةِ الصَّريحِ ﴿ٱللَّهَ﴾، وبزِيادةِ اللَّامِ في ﴿لَخَبِيرٌۢ﴾؛ لِأنَّ الآيةَ المُتقدِّمةَ في هذه السُّورةِ لم يَكُنْ فيها ذِكرُ اللهِ، فصَرَّحَ باسمِه سُبحانَه. وبزِيادةِ اللَّامِ؛ مُوافَقةً لِقولِه بعْدُ: ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٣٤]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٢، ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٤).

وقالَه هنا بالضَّميرِ؛ لِتقَدُّمِ لَفظِ (الله)، وبحَذفِ اللَّامِ؛ لِعَدَمِ ما يَقتَضي ذِكرَها؛ فهو مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ ﴾، فخُصَّ بالكِنايةِ -أي: الضَّميرِ[1].

٤- قولُه تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

- قولُه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ٢٧]؛ فإنَّ الغيثَ سَببُ رِزقٍ عَظيمٍ، وهو ما يُنزِّلُه اللهُ بقَدَرٍ هو أعلَمُ به، وفيه تَذكيرٌ بهذه النِّعمةِ العَظيمةِ على النَّاسِ، الَّتي منها مُعظَمُ رِزقِهم الحقيقيِّ لهم ولأنْعامِهم. وخَصَّها بالذِّكرِ دونَ غيرِها مِن النِّعمِ الدُّنيويَّةِ؛ لأنَّها نِعمةٌ لا يَختلِفُ النَّاسُ فيها؛ لأنَّها أصلُ دَوامِ الحياةِ بإيجادِ الغذاءِ الصَّالحِ للنَّاسِ والدَّوابِّ؛ وبهذا يَظهَرُ وَقْعُ قَولِه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [الشورى: ٢٩] عقِبَ قولِه هنا: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾[2].

- واختيارُ التَّعبيرِ بصِيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿ يُنَزِّلُ ﴾؛ لإفادةِ تَكرُّرِ التَّنزيلِ وتَجديدِه[3].

- والتَّعبيرُ بالماضي في قولِه: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾؛ للإشارةِ إلى حُصولِ القُنوطِ وتَقرُّرِه بمُضيِّ زمانٍ عليه[4].

- وتَقييدُ تَنزيلِ الغيثِ بقولِه: ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ مع تَحقُّقِه بدونِه أيضًا؛

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢١٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لِتَذكُّرِ كَمالِ النِّعمةِ[١].

- وصِيغةُ القَصْرِ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ -المستفادِ من تَعريفِ جُزأي الجُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى﴾- تُفيدُ قَصْرَ القَلْبِ؛ لأنَّ في السَّامعينَ مُشرِكينَ يَظُنُّونَ نُزولَ الغَيثِ مِن تَصرُّفِ الكواكبِ، وفيهم المسلمونَ الغافِلونَ، نُزِّلوا مَنزلةَ مَن يَظُنُّ نُزولَ الغيثِ مَنوطًا بالأسبابِ المعتادةِ لِنُزولِ الغَيثِ؛ لأنَّهم كانوا في الجاهليَّةِ يَعتقِدونَ أنَّ المطرَ مِن تَصرُّفِ أَنْواءِ[٢] الكواكبِ؛ فهذا القَصْرُ بالنِّسبةِ للمُشرِكينَ قصْرُ قلْبٍ أصلِيٌّ[٣]، وهو بالنِّسبةِ للمُسلِمينَ قصْرُ قلْبٍ تَنزيلِيٌّ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ...﴾ الآيَةَ: ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بِصِحَّةِ التَّفسيرِ؛ وهو أنْ يأتيَ المتكلِّمُ في أوَّلِ كلامِه بمعنًى لا يَستقِلُّ الفَهمُ بمَعرفةِ فَحْواهُ؛ إمَّا أنْ يكونَ مُجمَلًا يَحتاجُ إلى تَفصيلٍ، أو مُوجَّهًا يَفتقِرُ إلى تَوجيهٍ، أو مُحتمِلًا يَحتاجُ المرادُ منه إلى تَرجيحٍ لا يَحصُلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٢).

(٢) الأنواءُ: مَنازِلُ القَمَرِ، وكانت العَرَبُ تَزعُمُ أنَّ عندَ كُلِّ نَوءٍ مَطَرًا، ويَنسُبونَه إليه، فيقولون: مُطِرْنا بنَوءِ كذا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٨٩٥).

(٣) قصرُ القلْب الأصليُّ: المقصودُ به قصرُ القلْب الحقيقيُّ، وهو تخصيصُ أمرٍ بأمْرٍ مكانَ آخَر، ويُخاطَب به مَن يَعتقدُ العكسَ، كقولك: جاءني زيدٌ لا عمرٌو، مخاطبًا مَن يَعتقِد أنَّ عمرًا هو الذي جاءَك دون زيدٍ؛ فأنت تَعكِس وتَقلِب ما يَعتقِدُه؛ ولذا سُمي قصْرَ قلْبٍ، ومنه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]؛ لأنَّ المنافقين يَعتقدون أنَّ المؤمنين هم السفهاءُ دونهم؛ فقَلَب اللهُ عزَّ وجلَّ اعتقادَهم وبيَّن أنَّ المنافقين هم السفهاءُ ولكنْ لا يَعلَمون. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٥)، ((بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح)) لعبد المتعال الصعيدي (٢/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٥، ٩٦).

إلَّا بتَفسيرِه وتَبْيينِه، ووُقوعُ التَّفسيرِ يَأتي في الكلامِ على أنحاءٍ؛ منها أنْ يأتيَ بعْدَ الجارِّ والمجرورِ، كما في هذه الآيةِ، وقد جاءتْ صِحَّةُ التَّفسيرِ فيها مُؤْذِنةً بمَجيءِ الرَّجاءِ بعْدَ اليأسِ، والفرَجِ بعْدَ الشِّدَّةِ، والمَسرَّةِ بعدَ الحُزنِ؛ لِيَكونَ ذلك أَحْلى مَوقعًا في القلوبِ[1].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ ذكَرَ صِفتَيِ الوليِّ الحَميدِ دونَ غيرِهما؛ لمُناسَبتِهما للإغاثةِ؛ لأنَّ الوليَّ يُحسِنُ إلى مَوالِيهِ، والحَميدَ يُعطِي ما يُحمَدُ عليه، ووَصْفُ حَميدٍ: فَعيلٌ بمعْنى مَفعولٍ، أي: هو مَحمودٌ[2].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٦).

## الآيات (٢٩-٣٥)

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَثَّ﴾: فرَّق ونشَرَ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على تَفريقِ الشَّيءِ وإظهارِه[1].

﴿ٱلْجَوَارِ﴾: جمعُ جاريةٍ، وهي السُّفُنُ الجارِيةُ في البَحرِ، وأصلُ (جري): يدُلُّ على انسياحِ شَيءٍ[2].

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: أي: كالجِبالِ، واحِدُها عَلَمٌ، وأصلُ (علم): يدُلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ يَتميَّزُ به عن غَيرِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣، ٤٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣، ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

﴿رَوَاكِدَ﴾: أي: سَواكِنَ وثَوابِتَ، وأصلُ (ركد): يدُلُّ على سُكونٍ[١].

﴿يُوبِقْهُنَّ﴾: أي: يُهلِكْهنَّ ويُغرِقْهنَّ، وأصلُ (وبق) هنا: يدُلُّ على هَلاكٍ[٢].

﴿مَّحِيصٍ﴾: أي: مَهرَبٍ، وأصلُ (حيص): يدُلُّ على المَيلِ في جَورٍ[٣].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ * وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾

- قَولُه تعالى: ﴿يُسْكِنِ﴾ جَوابُ الشَّرطِ مَجزومٌ، و﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ مَعطوفٌ على جَوابِ الشَّرطِ مَبنيٌّ في مَحلِّ جَزمٍ لاتِّصالِه بنُونِ النِّسوةِ، وكذلك ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾ ﴿وَيَعْفُ﴾ مَجزومانِ عَطفًا على جوابِ الشَّرطِ أيضًا. وجُملةُ ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ مُعتَرِضةٌ بيْنَ المتعاطِفَينِ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٥٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

- وأمَّا قولُه: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ -بالنَّصب- ففيه أوجُهٌ؛ الأوَّلُ: أنَّه مَنصوبٌ على إضمارِ (أنْ) بعْدَ (واوِ المَعيَّةِ)؛ لأنَّ قَبْلَه شَرطًا وجَزاءً، وكلُّ واحدٍ منهما غيرُ مُثبَتٍ؛ فصَحَّ النَّصبُ في جَوابِه؛ تقولُ: ما تَصنَعْ أصنَعْ مِثلَه وأُكْرِمَكَ. وهذه الواوُ عاطِفةٌ مَصدرًا مُقَدَّرًا على مَصدَرٍ مُتصَيِّدٍ مِنَ الكَلامِ السَّابِقِ. والثاني: أنَّ الفِعلَ مَنصوبٌ على الصَّرفِ[1]، والواوُ في ﴿وَيَعْلَمَ﴾ سَمَّاها الكوفيُّونَ (واوَ الصَّرفِ)، وهذه الواوُ ناصِبةٌ بنَفسِها عِندَهم، ومعناها: أنَّ الفِعلَ (يَعلَم) كان يَستَحِقُّ وَجهًا مِن الإعرابِ غيرَ النَّصبِ -وهو الجَزمُ عَطفًا على ما قَبْلَه- فصُرِفَ بدُخولِ هذه الواوِ عليه عن ذلك الإعرابِ إلى النَّصبِ. والثَّالِثُ: أنَّ الفعلَ (يَعلَمَ) منصوبٌ عَطفًا على تَعليلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: لِينتقِمَ منهم ويَعلَمَ الذين.

وعلَى قِراءةِ ﴿وَيَعْلَمُ﴾ بالرَّفعِ على الاستِئنافِ[2]، ولا يكونُ داخِلًا في جَوابِ الشَّرْطِ[3].

---

(١) الصَّرْفُ هنا: هو الإتيانُ بالواوِ مَعطوفًا على كَلامٍ في أوَّلِه حادثةٌ لا تَستقيمُ إعادتُها على ما عُطِفَ عليها، ويُنصَبُ على الصَّرفِ عندَ الكوفيِّين في الأفعالِ حين يَفسُدُ معْنى العطْفِ. ويكونُ في الأسماءِ عندما تُعْطَفُ الأسماءُ الظَّاهرةُ على ضَميرِ رفْعٍ مُتَّصلٍ دونَ تَوكيدِه أو فصْلِه، كقولِهم: (لو تُرِكْتَ والأسدَ لَأَكَلَك)؛ فمُقْتضى العطفِ أنْ يُرفَعَ (الأسد)، لكنِ انصَرَفَت العربُ عن الرَّفعِ إلى النَّصبِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٣٣- ٣٤)، و(١/ ١١٥)، ((الأصول في النحو)) لابن السراج (٢/ ١٨٩).

(٢) قرَأ ابنُ عامرٍ والمَدَنِيان -نافعٌ وأبو جعفرٍ- برفْعِ الميم، وقرَأ الباقون بنصْبِها. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٥٧)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ٢٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجَّاج (٤/ ٣٩٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ٢٢٥)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ١٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٧)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٤٠).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا كَمالَ قُدرتِه وعظَمتِه: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ تعالَى وقُدرتِه: خَلقُ السَّمَواتِ والأرضِ، وما نَشَر اللهُ فيهما مِن مَخلوقاتٍ، واللهُ تعالَى قَديرٌ على جَمعِ مَخلوقاتِه إذا شاء أنْ يَجمَعَها.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالَى جانبًا مِن عدْلِه وفَضلِه، فيقولُ: وما أصابَكم -أيُّها النَّاسُ- مِن مُصيبةٍ فبِما عَمِلتُموه مِن سَيِّئاتٍ، ويَعفو اللهُ عن كَثيرٍ مِن ذُنوبِكم، فلا يُعاقِبُكم عليها.

ثمَّ يقولُ مُحذِّرًا مِن عُقوبتِه: وما أنتُم بمُعجِزينَ اللهَ في الأرضِ، وليْس لكم مِن دُونِه سُبحانَه وَليٌّ ولا نَصيرٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُبيِّنًا جانبًا آخَرَ مِن قُدرتِه: ومِن العَلاماتِ الدَّالَّةِ على كَمالِ قُدرتِه سُبحانَه: السُّفُنُ الجاريةُ في البَحرِ كالجِبالِ، إنْ يَشَأِ اللهُ ألَّا تَجريَ تلك السُّفُنُ في البَحرِ يُسكِنِ الرِّيحَ التي تُسَيِّرُ تلك السُّفُنَ، فيَثْبُتْنَ في مَواضِعِهنَّ على سَطحِ الماءِ -إنَّ في ذلك لعَلاماتٍ يَستَدِلُّ بها كُلُّ صَبَّارٍ شَكورٍ- أو يُغرِقِ اللهُ تلك السُّفُنَ بذُنوبِ أهلِها، ويَتجاوَزْ عن كَثيرٍ مِن الذُّنوبِ، فلا يُعاقِبْ عليها.

ثمَّ يقولُ سُبحانَه: ويَعلَمَ الذينَ يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ تعالَى أنَّه لا مَهْرَبَ لهم مِن عِقابِ اللهِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان إنزالُ الغيثِ جامعًا بيْنَ كَونِه نِعمةً، وكونِه آيةً دالَّةً على بَديعِ صُنعِ اللهِ تعالَى، وعَظيمِ قُدرتِه المُقتضيةِ انفرادَه بالإلهيَّةِ؛ انتُقِلَ مِن ذِكرِه إلى ذِكرِ آياتٍ دالَّةٍ على انفِرادِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ، وهي آيةُ خلْقِ العوالِمِ العَظيمةِ، وما فيها ممَّا هو مُشاهَدٌ للنَّاسِ دونَ قصْدِ الامتنانِ[1].

وأيضًا أنَّه لَمَّا كان ما مضَى مِن بَسطِ الرِّزقِ وقَبْضِه، وإنزالِ الغَيثِ وحَبْسِه: مِن الآياتِ العَظميةِ؛ عَمَّم بذِكرِ ما ذلك بَعضٌ منه، وهو دالٌّ على جَميعِ ما خُتِمَ به الآيةُ السَّالِفةُ مِن الحَمدِ الذي هو الاتِّصافُ بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ، فقال[2]:

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الباهِرةِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ تعالى، وعَظيمِ مُلكِه وقُدرتِه، وغيرِ ذلك مِن صِفاتِ كمالِه: أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ، وفرَّقَ ونَشَرَ فيهما مَخلوقاتٍ مُتَنوِّعةً[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

قال ابنُ كَثير: (هذا يَشمَلُ الملائكةَ والجِنَّ والإنسَ وسائرَ الحيواناتِ، على اختِلافِ أشكالِهم وألوانِهم ولُغاتِهم، وطِباعِهم وأجناسِهم، وأنواعِهم، وقد فرَّقَهم في أرجاءِ أقطارِ الأرضِ والسَّمَواتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧).

قال البِقاعيُّ: (لَمَّا كانت الأرضُ بناءً، والسَّماءُ سقْفَه، فمَن كان في أحدِهما صحَّ نِسبتُه إلى أنَّه في كلٍّ منهما: الأسفل بالإقلالِ، والأعلى بالإظلالِ؛ قال تعالى: ﴿فِيهِمَا﴾ أي: السَّمَواتِ والأرضِ، ولا سيَّما وقد جعَل لكلٍّ منهما تَسبُّبًا في ذلك بما أودَعَهما مِن الجواهرِ، وأنشَأ عنهما مِن العناصرِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣١٢-٣١٣). =

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ﴾.

أي: واللهُ على جَمعِ مَخلوقاتِه التي بَثَّها في السَّمَواتِ والأرضِ -إذا شاء أن يَجمَعَها- ذو قُدرةٍ بالغةٍ عَظيمةٍ؛ فلا يُعجِزُه إحياؤُهم بعدَ مَوتِهم، وجَمعُهم يومَ القِيامةِ[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ [التكوير: ٥].

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَّرَهم سُبحانَه بنِعَمِه، وكان السِّياقُ لِتَعدادِ ما ناسَبَ مَقصودَ هذه السُّورةِ منها؛ كان الفِكرُ جَديرًا بأنْ يَخطُرَ له ما في الدُّنيا مِن الأمراضِ والأنكادِ،

---

= وقال ابنُ عاشور: (قد يكونُ المرادُ مِن الظَّرفيَّةِ في قَولِه: ﴿فِيهِمَا﴾ ظَرفيَّةَ المَجموعِ لا الجَميعِ، أي: ما بَثَّ في مجموعِ الأرضِ والسَّماءِ مِن دابَّةٍ؛ فالدَّابَّةُ إنَّما هي على الأرضِ، ولَمَّا ذُكِرَت الأرضُ والسَّماءُ مُقترِنتَينِ، وجاء ذِكرُ الدَّوابِّ؛ جُعِلَت الدَّوابُّ مَظروفةً فيهما؛ لأنَّ الأرضَ مَحوطةٌ بالسَّمَواتِ ومُتَخَيَّلةٌ منها كالمظروفِ في ظَرفِه، والمظروفُ في ظَرفٍ مَظروفٌ في ظَرفِ مَظروفِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧).

وقال ابنُ عُثَيمين: (ظاهِرُ الآيةِ الكَريمةِ أنَّ السَّمَواتِ فيها دوابُّ كالأرضِ، وإذا سألَنَا السَّائِلُ: ما هذه الدوابُّ؟ قُلْنا: إمَّا الملائِكةُ أو غَيرُها. اللهُ أعلمُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٦٩-٣٧٠)، ((تفسير المنار)) محمد رشيد رضا (٧/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٦٠-٢٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٣-٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

والهُمومِ والغُمومِ بالإشقاءِ فيها والإسعادِ؛ قال شافيًا لِعِيٍّ[١] سُؤالِه عن ذلك، ببَيانِ ما فيه مِن نِعمتِه على وَجهٍ دالٍّ على تَمامِ قُدرتِه، عاطِفًا على ما هو مَضمونُ ما مضَى بما تَقديرُه: فهو الذي خلَقَكم ورَزَقكم، وهو المتصَرِّفُ فيكم بعْدَ بَثِّكم بالعافيةِ والبلاءِ تَمامَ التَّصَرُّفِ؛ فلا نِعمةَ عندَكم ولا نِقمةَ إلَّا منه، ولا يَقدِرُ أصحابُها على رَدِّها ولا رَدِّ شَيءٍ منها؛ فهو وَليُّكم وَحْدَه[٢].

وأيضًا لَمَّا تَضمَّنَتِ المِنَّةُ بإنزالِ الغَيثِ بعْدَ القُنوطِ أنَّ القومَ أصابَهم جَهدٌ مِن القَحطِ بلَغَ بهم مَبلَغَ القُنوطِ مِن الغَيثِ؛ أُعقِبَ ذلك بتَنبيهِهم إلى أنَّ ما أصابَهم مِن ذلك البُؤسِ هو جَزاءٌ على ما اقتَرَفوه مِن الشِّركِ؛ تَنبيهًا يَبعَثُهم ويَبعَثُ الأُمَّةَ على أنْ يُلاحِظوا أحوالَهم نحْوَ امتِثالِ رِضا خالِقِهم، ومُحاسَبةِ أنفُسِهم؛ حتَّى لا يَحسَبوا أنَّ الجزاءَ الذي أُوعِدوا به مَقصورٌ على الجزاءِ في الآخِرةِ، بلْ يَعلَموا أنَّه قدْ يُصيبُهم اللهُ بما هو جَزاءٌ لهم في الدُّنيا[٣].

﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ ﴾.

أي: وما أصابَكُم -أيُّها النَّاسُ- مِن مَصائِبَ ومِحَنٍ، فهو بسَبَبِ ما عَمِلتُموه مِن سَيِّئاتٍ[٤].

كما قال تعالَى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا

---

(١) العِيُّ: الجَهْلُ، وخِلافُ البيانِ. والعيُّ بالأمْرِ: عدمُ الاهتداءِ لوجهِه. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٤٤٢)، ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (٣/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٤-٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٥٠-٢٥١).

نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١].

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَر سُبحانَه عدْلَه؛ أتْبَعَه فضْلَه، فقال[١]:

﴿وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾.

أي: ويَعفو اللهُ عن كثيرٍ مِن ذُنوبِكم؛ فلا يُعاقِبُكم عليها بالمَصائِبِ والشَّدائِدِ في الدُّنيا[٢].

كما قال تعالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [فاطر: ٤٥].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ، وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما يُصيبُ المُسلِمَ مِن نَصَبٍ ولا وَصَبٍ[٣]، ولا هَمٍّ ولا حَزَنٍ، ولا أذًى ولا غَمٍّ، حتَّى الشَّوكةُ يُشاكُها؛ إلَّا كفَّرَ اللهُ بها مِن خَطاياه))[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

(٣) النَّصَبُ: التَّعَب. والوَصَبُ: المرَضُ الدَّائِمُ المُلازِمُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٨/ ٣٤٠).

(٤) رواه البخاري (٥٦٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٧٣).

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١﴾.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ولَستُم تُعجِزونَ اللهَ في الأرضِ؛ فلا يُمكِنُكم الفِرارُ فيها مِن المصائِبِ والعُقوباتِ إنْ أرادَ إنزالَها بكم[1].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أفادَ قولُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ نَفْيَ أنْ يكونَ لهم مَنجًى مِن سُلطةِ اللهِ؛ أُتْبِعَ بنَفْيِ أنْ يكونَ لهم مَلجأٌ يَلجَؤونَ إليه لِيَنصُرَهم ويَقِيَهم مِن عَذابِ اللهِ[2].

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾.

أي: وليْس لكم مِمَّا سِوى اللهِ أيُّ وَليٍّ يَتولَّاكم، ولا أيُّ نَصيرٍ يَنصُرُكم مِن دُونِ اللهِ؛ فاتَّقُوا مَعصيتَه، واحذَروا عِقابَه[3].

﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

قال ابنُ عاشور: (أي: يَعفو عن قُدرةٍ؛ فإنَّكم لا تُعجِزونَه ولا تَغلِبونَه، ولكِنْ يَعفو تفضُّلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٢).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَر تعالَى مِن دَلائِلِ وَحدانيَّتِه أنواعًا، ذكَرَ بَعْدَها العالَمَ الأكبَرَ، وهو السَّمَواتُ والأرضُ، ثمَّ العالَمَ الأصغَرَ، وهو الحيوانُ، ثمَّ أتْبَعَه بذِكرِ المَعادِ؛ أتبَعَه بذِكرِ السُّفُنِ الجاريةِ في البَحرِ؛ لِما فيها مِن عَظيمِ دَلائِلِ القُدرةِ[1].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ سُبحانَه على تَمامِ قُدرتِه واختيارِه، وخَتَم بنَفيِ الشَّريكِ اللَّازِمِ للوَحدانيَّةِ التي اعتِقادُها أساسُ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ دَلَّ عليها بأعظَمِ الآياتِ عِندَهم، وأوضَحِها في أنفُسِهم، وأقرَبِها إلى أفهامِهم؛ لِما لهم مِن الإخلاصِ عندَها، فقال تعالَى[2]:

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾.

أي: ومِن العَلاماتِ الباهِرةِ الدَّالَّةِ على عَظيمِ سُلطانِ اللهِ ومُلكِه، وكَمالِ قُدرتِه وغَيرِ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه: السُّفُنُ الجاريةُ في البَحرِ، التي هي كالجِبالِ[3].

قال تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤].

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٥، ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٧-٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٣).

قال الرازي: (اتَّفقوا على أنَّ المرادَ بالأعلامِ الجِبالُ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٦).

والرِّوايةُ الثانيةُ عن مجاهدٍ أنَّ الأعلامَ هنا بمعنى: القُصورِ. ذكَره الثَّعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢١).

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾.

أي: إنْ يَشَأِ اللهُ تعالَى ألَّا تَجريَ تلك السُّفُنُ في البَحرِ يَمنَعْ هُبوبَ الرِّيحِ التي تُسَيِّرُها، فَيثبُتْنَ في مَواضِعِهنَّ على سَطحِ الماءِ، فلا يَتقَدَّمْنَ ولا يَتأخَّرْنَ[1].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

أي: إنَّ في ذلك[2] لَدَلالاتٍ وعَلاماتٍ يَستَدِلُّ بها ويَعتَبِرُ كُلُّ مَن كان كَثيرَ الصَّبرِ، كثيرَ الشُّكرِ للهِ تعالَى[3].

كما قال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان: ٣١].

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾.

أي: أو إنْ يَشَأِ اللهُ يُغرِقْ تِلك السُّفُنَ بسَببِ ذُنوبِ أهلِها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٦).

(٢) قيل: المشارُ إليه بقَولِه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ جرْيُ هذه الجواري في البَحرِ بقُدرةِ اللهِ، حيثُ سَخَّر لها البحرَ، وأجرَى لها الهواءَ. ومِمَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملة: ابنُ جَرير، وابن كَثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٧١).

وقِيلَ: المُرادُ: ما ذُكِرَ مِن حالِ السُّفُنِ في سَيرِها ورُكودِها. ومِمَّن ذهَب إلى هذا المعنى في الجُملة: مقاتلُ بنُ سليمان، والبقاعيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾.

أي: ويَتجاوَزِ اللهُ عن كَثيرٍ مِن الذُّنوبِ، فلا يُعاقِبْ عليها[١].

﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالَى: ﴿وَيَعْلَمَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ الرَّفعِ: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ على الاستئنافِ إمَّا بجُملةٍ فِعليَّةٍ، ويكونُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾

---

= (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٦).

قال ابنُ كَثير: (قال بعضُ عُلَماءِ التَّفسيرِ: معنى قَولِه: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ أي: لو شاء لَأرسَلَ الرِّيحَ قويَّةً عاتيةً، فأخَذَت السُّفُنَ وأحالَتْها عن سَيرِها المُستقيمِ، فصَرَفَتْها ذاتَ اليمينِ أو ذاتَ الشِّمالِ آبِقةً لا تَسيرُ على طَريقٍ ولا إلى جِهةِ مَقصِدٍ. وهذا القَولُ يتضَمَّنُ هَلاكَها، وهو مُناسِبٌ للأوَّلِ؛ وهو أنَّه تعالى لو شاء لسَكَّن الرِّيحَ فوقَفَت، أو لقَوَّاه فشَرَدَت وأَبَقَت وهَلَكَت). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩، ٢١٠).

ومِمَّن ذهَب إلى هذا المعنى: القُرطبي، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٥، ٢٦٨).

قال أبو حيَّانَ: (لا يتعيَّنُ أنْ يكونَ التقديرُ: أو يَعصِفْها فيَغرَقْنَ؛ لأنَّ إهلاكَ السُّفنِ لا يَتعيَّنُ أنْ يكونَ بعصْفِ الرِّيحِ، بل قدْ يُهلِكُها تعالى بسَببٍ غيرِ الرِّيحِ، كنُزولِ سطْحِها بكَثرةِ الثِّقَلِ، أو انكسارِ اللَّوحِ يكونُ سَببًا لإهلاكِها، أو يَعرِضُ عدوٌّ يُهلِكُ أهْلَها). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩).

قال الزمخشريُّ: (أو إنْ يَشَأْ يُهلِكْ ناسًا، ويُنجِ ناسًا على طَريقِ العَفوِ عنهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٧).

وقال ابنُ عُثَيمين: (يعني: حتَّى مع إغراقِ السُّفُنِ يَعفو اللهُ تبارَك وتعالَى عن كثيرٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٨).

فاعِلًا، قِيل: مَعناها: وسيَعلَمُ الذين يُجادِلون في آياتِنا...، وإمَّا بجُملةٍ اسميَّةٍ، أي: وهو يَعلَمُ الذين... ويكونُ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مَفعولًا[1].

٢- قِراءةُ النَّصبِ: ﴿وَيَعۡلَمَ﴾ على العَطفِ على تَعليلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: لِيَنتقِمَ منْهم ويَعلَمَ الذين يُجادِلون... وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥﴾.

أي: ويَعلَمَ الذين يُجادِلونَ في آياتِ اللهِ تعالَى لِدَفعِها وإبطالِها أنَّه لا مَفَرَّ لهم ولا مَهرَبَ يَحيدونَ إليه مِن عِقابِ اللهِ تعالَى[3].

---

(١) قرَأ بها ابنُ عامرٍ ونافعٌ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٥٨).

(٢) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

قال ابنُ الجَوْزيُّ: (للمُفَسِّرين في معنى الآيةِ قولانِ: أحَدُهما: ويَعلَمَ الذين يُخاصِمونَ في آياتِ اللهِ حينَ يُؤخَذونَ بالغَرَقِ أنَّه لا مَلجأَ لهم. والثَّاني: أنَّهم يَعلَمونَ بعْد البَعثِ أنَّه لا مَهرَبَ لهم مِنَ العَذابِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٧).

ومِمَّن ذهَب إلى نحْوِ القَولِ الأوَّلِ: الرَّسْعني، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣).

وقال ابنُ تَيميةَ: (ومَعنى آيةِ الشُّورى: أنَّه سُبحانَه إنْ شاء أسكَنَ فيَظْلَلْنَ رواكِدَ على ظَهْرِه، وإنْ شاء أوبَقَهنَّ بما كَسَبوا، ويَعفو عن كَثيرٍ، ويَعلَمَ الذين يجادِلونَ في آياتِنا، وهذا كُلُّه في جَوابِ: ﴿إِن يَشَأۡ﴾ أي: وإن يشأْ يُهلِكْهنَّ بذُنوبِهم ويَعْفُ أيضًا عن كثيرٍ منها، ويجتَمِعَ مع ذلك عِلمُ المجادِلينَ في آياتِنا بأنَّهم ما لهم مِن محيصٍ؛ فهو إنْ شاء جَمَع بيْنَ أنْ يُهلِكَ بَعضًا، ويَعفوَ =

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ أنَّ هذه المخلوقاتِ هي مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ العَظيمةِ، ولكِنْ لا يُتبيَّنُ أنَّها مِن آياتِ اللهِ إلَّا بالتَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ؛ لأنَّنا اعتَدْنا هذه المخلوقاتِ؛ اعتَدْنا طُلوعَ الشَّمسِ وغُروبَها، وطُلوعَ القَمَرِ وغُروبَه، فلم يَكُنْ ذلك مُحَرِّكًا لقُلوبِنا؛ لأنَّه شَيءٌ مُعتادٌ، ولكِنْ لو أنَّنا تَدبَّرْنا هذه المخلوقاتِ لَتبيَّنَ لنا أنَّها مِن آياتِ اللهِ العَظيمةِ[١]!

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ داعٍ لكُلِّ أحَدٍ إلى المبادَرةِ عندَ وُقوعِ المُصيبةِ إلى مُحاسَبةِ النَّفسِ؛ لِيَعرِفَ مِن أينَ جاء تَقصيرُه، فيُبادِرَ إلى التَّوبةِ عنه، والإقبالِ على اللهِ تعالَى؛ لِيُنقِذَ نَفْسَه مِنَ الهَلَكةِ[٢]. قيل لأبي سُلَيمانَ الدَّارانيِّ: (ما بالُ العُقلاءِ أزالوا اللَّومَ عمَّن أساءَ لهم؟! قال: إنَّهم عَلِموا أنَّ اللهَ إنَّما ابْتَلاهم بذُنوبِهم، وقرَأ هذه الآيةَ)[٣]، وفي هذا تَبشيرٌ وتَحذيرٌ؛ إذ أعلَمَنا أنَّ مَصائِبَ الدُّنيا عُقوباتٌ لِذُنوبِنا، وهو أرحَمُ أنْ يُثَنِّيَ العُقوبةَ على عَبدِه بذَنْبٍ قدْ عاقَبَه به في الدُّنيا[٤]!

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أنَّه لا مَلجَأَ

---

= عن بعضٍ، وبيْنَ عِلمِ المجادِلينَ في آياتِه حينئذٍ أنَّه ما لهم مِن مَحيصٍ). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٤/ ٥٢٩).

ومِمَّن ذهَب إلى القَولِ الثاني: الواحديُّ، والبَغوي، والخازن. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٥-٣١٦).

(٣) يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٢/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٥٥).

للبَشَرِ في جَلبِ المنافعِ ودَفعِ المَضارِّ إلَّا إلى اللهِ تعالَى، وأنَّهم مهْما استغاثوا بغَيرِه فإنَّهم خائِبونَ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّ المؤمِنَ يَجِبُ ألَّا يَكونَ غافِلًا عن دَلائِلِ مَعرفةِ اللهِ البتَّةَ؛ لأنَّه لا بدَّ أن يكونَ إمَّا في البَلاءِ، وإمَّا في الآلاءِ؛ فإنْ كان في البَلاءِ كان مِن الصَّابِرينَ، وإنْ كان في النَّعماءِ كان مِن الشَّاكِرينَ، وعلى هذا التَّقديرِ فإنَّه لا يكونُ البتَّةَ مِن الغافِلينَ(٢).

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ فيه التَّحذيرُ مِن المعاصي، وأنَّها سَببٌ للعُقوباتِ(٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَجوزُ إطلاقُ لَفظِ (الدَّابَّةِ) على الملائِكةِ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّه قدْ يُضافُ الفِعلُ إلى جماعةٍ وإنْ كان فاعِلُه واحِدًا منهم؛ يقالُ: (بَنو فُلانٍ فعَلوا كذا)، وإنَّما فعَلَه واحِدٌ منهم، ومنه قَولُه تعالَى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] على قولٍ في تَفسيرِها.

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّ الدَّبيبَ هو الحَركةُ، والملائِكةُ لهم حَركةٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٨).

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: لا يَبعُدُ أن يُقالَ: إنَّه تعالَى خَلَق في السَّمَواتِ أنواعًا مِن الحيواناتِ يَمشُونَ مَشْيَ الأناسيِّ على الأرضِ(١).

**الوَجهُ الرَّابعُ**: أنَّ الدَّابَّةَ: ما يَدِبُّ على الأرضِ، أي: يَمْشي، فيَشمَلُ الطَّيرَ؛ لأنَّ الطَّيرَ يَمشي إذا نَزَل، وهو مِمَّا أُريدَ في قَولِه هنا: ﴿فِيهِمَا﴾ أي: في الأرضِ وفي السَّماءِ، أي: بَعضِ ما يُسَمَّى بالسَّماءِ، وهو الجَوُّ، وهو ما يَلوحُ للنَّاظِرِ مِثلَ قُبَّةٍ زَرقاءَ على الأرضِ في النَّهارِ؛ قال تعالَى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ [النحل: ٧٩]؛ فإطلاقُ الدَّابَّةِ على الطَّيرِ باعتِبارِ أنَّ الطَّيرَ يَدِبُّ على الأرضِ كَثيرًا؛ لالتِقاطِ الحَبِّ وغَيرِ ذلك. وأمَّا الموجوداتُ الَّتي في السَّمَوات العُلا مِن الملائِكةِ والأرواحِ فلا يُطلَقُ عليها اسمُ دابَّةٍ(٢).

**الوَجهُ الخامسُ**: أنْ يكونَ على حذْفِ مُضافٍ، أي: وما بَثَّ في أحَدِهما(٣).

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أنَّ البهائمَ جميعَها يَحْشُرُها اللهُ سُبحانَه، فحَرْفُ (إذَا) إنَّما يكونُ لِمَا يَأتي لا مَحالةَ، وقالَ تعالَى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقالَ تعالَى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، والأحاديثُ في ذلك مَشهورةٌ؛ فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يومَ القِيامةِ يَحْشُرُ البهائمَ ويَقْتَصُّ لبعضِها مِن بعضٍ، ثُمَّ يقولُ لها: كُوني تُرابًا، فتَصيرُ تُرابًا(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٤٨).

ويُنظر ما أخرَجه ابنُ جَرير في ((التفسير)) (٢٤/ ١٨٠)، وابنُ أبي حاتم في ((التفسير)) (٧٢٦٢)، والحاكم (٣٢٣١) موقوفًا على أبي هُرَيرةَ رَضي اللهُ عنه. =

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ أنَّ أفعالَ اللهِ سُبحانَه وتعالَى اختياريةٌ؛ فالمعنى: إذا شاء جمْعَهم، فهو قَديرٌ عليه(١).

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ إثباتُ الأسبابِ؛ وَجهُ ذلك: أنَّ الباءَ هنا للسَّبَبيَّةِ؛ ففيه إثباتُ الأسبابِ، وإثباتُ الأسبابِ ثابِتٌ شَرعًا وعَقلًا وحِسًّا، وإنكارُه ضَلالٌ في الدِّينِ، وسَفَهٌ في العَقلِ(٢).

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أنَّ المعاصيَ سَببُ المصائبِ؛ فسَيِّئاتُ المصائبِ والجزاءُ هو مِن سَيِّئاتِ الأعمالِ(٣)، وكُلُّ نَكَدٍ لاحِقٍ إنَّما هو بسَبَبِ ذَنبٍ سابِقٍ، أقلُّه التَّقصيرُ(٤).

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى إذا عاقبَ المؤمِنَ في الدُّنيا لم يُعاقِبْه في الآخِرةِ؛ فلنْ يَجمَعَ اللهُ له بين عُقوبتَينِ(٥)؛ فالمصائبُ كفَّاراتٌ للذُّنوبِ بالنِّسبةِ للمُؤمنِ، فإنَّه إذا كان ذلك بما كسَبتْ أيدِينا دلَّ هذا على أنَّها مُكَفِّرَةٌ لِمَا عَمِلْناه منها وما كَسَبْناه(٦).

---

= صَحَّحه الحاكِمُ على شرْط مُسلم، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٧٢).

وأخرَجه من طريقٍ آخَرَ: ابنُ جرير في ((التفسير)) (٢٤/ ١٨٠)، والحاكم (٨٧١٦) موقوفًا على عبدِ الله بن عمرٍو رَضي اللهُ عنهما.

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٧٤).

(٦) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٦١٧).

٧- قولُه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ دلَّ على أنَّ مِن المصائبِ التي تُصيبُ النَّاسَ في الدُّنيا ما سلَّطَه اللهُ عليهم جَزاءً على سُوءِ أعمالِهم، وإذا كان ذلك ثابتًا بالنِّسبةِ لأُناسٍ مُعيَّنينَ، كان فيه نِذارةٌ وتَحذيرٌ لِغَيرِهم ممَّن يَفعَلُ مِن جِنسِ أفعالِهم أنْ تَحُلَّ بهم مَصائبُ في الدُّنيا جَزاءً على أعمالِهم زِيادةً في التَّنكيلِ بهم، إلَّا أنَّ هذا الجزاءَ لا يَطَّرِدُ؛ فقدْ يُجازي اللهُ قومًا على أعمالِهم جَزاءً في الدُّنيا مع جَزاءِ الآخرةِ، وقدْ يَترُكُ قومًا إلى جَزاءِ الآخرةِ، فجَزاءُ الآخرةِ في الخيرِ والشرِّ هو المطَّرِدُ الموعودُ به، والجزاءُ في الدُّنيا قدْ يَحصُلُ وقدْ لا يَحصُلُ، كما قال تعالَى: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾[1].

٨- قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ﴾، أي: ليْس لكم وليٌّ يَتولَّاكُم فيَمنَعَكم مِن سُلطانِ اللهِ، ولا نَصيرَ يَنصُرُكم على اللهِ إنْ أرادَ إصابتَكم فتَغلِبوه؛ فجمَعَتِ الآيةُ نفْيَ ما هو مُعتادٌ بيْنَهم مِن وُجوهِ الوِقايةِ[2].

٩- قولُه تعالى: ﴿إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ قُرِئ ﴿الرِّيَاحَ﴾ بلَفظِ الجمْعِ، وقُرِئ ﴿ٱلرِّيحَ﴾ بلَفْظِ المفْردِ[3]، وفي القِراءةِ بلَفظِ المفرَدِ ما يدُلُّ على أنَّ الرِّيحَ قدْ تُطلَقُ بصِيغةِ الإفرادِ على رِيحِ الخيرِ، وما قيل: إنَّ (الرِّياحَ) للخيرِ و(الرِّيحَ) للعذابِ في القُرآنِ، هو غالبٌ لا مُطَّرِدٌ، وقدْ قُرِئ في آياتٍ أُخرى (الرِّياحُ) و(الرِّيحُ) في سِياقِ الخيرِ دونَ العذابِ[4].

١٠- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ أنَّ ذِكرَ النِّعَمِ يَدعو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٠٤).

(٣) قرَأها أبو جعفرٍ ونافعٌ: ﴿الرِّيَاحَ﴾ بالجمعِ، والباقونَ بالإفرادِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٥).

إلى الشُّكرِ، وذِكرَ النِّقَمِ يَقْتضي الصَّبرَ على فِعلِ المأمورِ وإنْ كَرِهَته النَّفْسُ، وعنِ المحظورِ وإنْ أَحَبَّته النَّفسُ؛ لئلَّا يُصيبَه ما أصاب غيْرَه مِن النِّقمةِ(١).

١١- الإيمانُ نِصفانِ: نِصفٌ صَبرٌ، ونِصفٌ شُكرٌ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٢)، وفيه فَضيلةُ الصَّبرِ والشُّكرِ، فالصَّبرُ على الضَّرَّاءِ، والشُّكرُ على الرَّخاءِ، والإنسانُ دائمًا مُصابٌ بهاتَينِ الآفتَينِ؛ إمَّا ضَرَّاءَ وإمَّا سَرَّاءَ(٣)، وإنَّما يَنْتَفِعُ بآياتِ اللهِ المشهودةِ العِيانيَّةِ أهلُ الصَّبرِ والشُّكرِ(٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ انتقالٌ مِن ذِكرِ إنزالِ الغيثِ الجامعِ بيْنَ كَونِه نِعمةً، وكونِه آيةً، إلى ذِكرِ آياتٍ دالَّةٍ على انفرادِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ، وهذا الانتقالُ استِطرادٌ واعتراضٌ بيْن الأغراضِ التي سِياقُ الآياتِ فيها(٥).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ مُعترِضةٌ في جُملةِ الاعتراضِ؛ لإدماجِ إمكانِ البَعثِ في عُرْضِ الاستِدلالِ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وعلى تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ، والمعنى: أنَّ القادرَ على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما مِن عدَمٍ قادرٌ على إعادةِ خلْقِ بعضِ ما فيهما للبَعثِ والجزاءِ؛ لأنَّ ذلك كلَّه سَواءٌ في جَوازِ تَعلُّقِ القُدرةِ به، فكيْف تعُدُّونَه مُحالًا(٦)؟!

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٩٨).

- وقال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ ولم يَقُلْ: (على جَمعِها)؛ لأجْلِ أنَّ المَقصودَ مِن هذا الجَمعِ المحاسَبةُ، فكأنَّه تعالى قال: وهو على جَمعِ العُقَلاءِ إذا يَشاءُ قَديرٌ[1].

- و(إذا) ظَرْفٌ للمُستقبَلِ، وهو هنا مُجرَّدٌ عن تَضمُّنِ الشَّرْطيَّةِ؛ فالتَّقديرُ: حِينَ يَشاءُ في مُستقبَلِ الزَّمانِ، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿جَمْعِهِمْ﴾، وهذا الظَّرْفُ إدْماجٌ[2] ثانٍ؛ لإبطالِ استِدلالِهم بتَأخُّرِ يوْمِ البعْثِ على أنَّه لا يَقَعُ، كما حُكِي عنهم في قولِه تعالَى: ﴿مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ [الإسراء: ٥١]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾[3] [سبأ: ٢٩، ٣٠].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ لَمَّا كان ما أصابَ قُريشًا مِن القَحْطِ والجُوعِ استِجابةً لِدَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم، وكانتْ تلك الدَّعوةُ ناشئةً على ما لاقَوْه به مِن الأذَى؛ لا جَرَمَ كان ما أصابَهم مُسبَّبًا على ما كَسَبتْ أيدِيهم؛ فالجُمْلةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾[4] [الشورى: ٢٨].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ للمُشرِكينَ ابتداءً؛ لأنَّهم المقصودُ مِن سِياقِ الآياتِ كلِّها، وهمْ أَوْلى بهذه الموْعظةِ؛ لأنَّهم كانوا غيْرَ مُؤمنينَ بوَعيدِ الآخرةِ، ويَشمَلُ المؤمنينَ بطَريقِ القِياسِ، وبما دَلَّ على شُمولِ هذا الحُكمِ لهم مِن الأخبارِ الصَّحيحةِ ومِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٠).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٩٨، ٩٩).

آياتٍ أُخرَى[١].

- والباءُ في ﴿فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: سَببُ ما أصابَكم مِن مُصيبةٍ هو أعمالُكم السيِّئةُ[٢].

- قولُه: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾، وضَميرُ (يَعْفُو) عائدٌ إلى ما عادَ إليه ضَميرُ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الشورى: ٢٩]، وهذا يُشيرُ إلى ما يَتراءَى لنا مِن تَخلُّفِ إصابةِ المُصيبةِ عن بعضِ الَّذين كسَبتْ أيديهم جَرائمَ، ومِن ضِدِّ ذلك ممَّا تُصيبُ المصائبُ بعضَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، وهو إجمالٌ يُبيِّنُه على الجُملةِ: أنَّ ما يَعلَمُه اللهُ مِن أحوالِ عِبادِه، وما تَغلَّبَ مِن حَسناتِهم على سيِّئاتِهم، وما تَقتضيهِ حِكمةُ اللهِ مِن إمْهالِ بَعضِ عِبادِه، أو مِن ابتلاءِ بعضِ المُقرَّبينَ، وتلك مَراتبُ كثيرةٌ، وأحوالٌ مُختلفةٌ، تَتعارَضُ وتَتساقَطُ، والموفَّقُ يَبحَثُ عن الأسبابِ، فإنْ أَعجَزتْه فوَّضَ العِلمَ إلى اللهِ[٣].

- وقولُه: ﴿كَثِيرٖ﴾ صِفةٌ لِمَحذوفٍ، أي: عن خلْقٍ أو ناسٍ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، وهو احتِراسٌ، أي: يَعْفو عن قُدرةٍ؛ فإنَّكم لا تُعجِزونَه ولا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَغلِبونَه، ولكنْ يَعْفو تَفضُّلًا[١].

- وتَقْييدُ النَّفْيِ بقولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ لإرادةِ التَّعميمِ، أي: في أيِّ مَكانٍ مِن الأرضِ؛ لئلَّا يَحسَبوا أنَّهم في مَنَعةٍ بحُلولِهم في مكَّةَ التي أمَّنَها اللهُ تعالَى؛ وذلك أنَّ العرَبَ كانوا إذا خافوا سَطوةَ مِلكٍ أو عَظيمٍ سكَنوا الجِهاتِ الصَّعبةَ[٢].

- وجِيءَ بالخَبرِ جُملةً اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ الخَبرِ ودوامِه، أي: نفْيُ إعجازِهم ثابتٌ لا يَتخلَّفُ، فهمْ في مُكْنةِ خالِقِهم[٣].

- و﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ظَرفٌ مُستقَرٌّ[٤]، هو خبرٌ ثانٍ عن (وَليٍّ ونَصيرٍ)، والخبرُ الأوَّلُ هو (لكم)، وتَقديمُ الخبرَينِ للاهتِمامِ بالخبرِ، ولِتَعجيلِ يأْسِهم مِن ذلك[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فقطْ ولم يَذكُرِ (في السَّماء)، وقال في سُورةِ (العنكبوتِ): ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢] بزِيادةِ ﴿وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ وذلك لأنَّه لَمَّا تقدَّمَ في سُورةِ (العنكبوتِ) قولُه تعالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]، وهذا مِن أشدِّ الوَعيدِ؛ إذ حاصِلُه أنَّه لا يَفوتُه سُبحانه أحدٌ، ولا مَهرَبَ منه تعالَى إلَّا إليه؛ ناسَبَ هذا قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، كما قال: ﴿أَيْنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٤).

مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ١٤٨]، وذلك تَناسُبٌ بيِّنٌ، ولَمَّا لم يَرِدْ هنا في سُورةِ الشُّورى مِن أوَّلِها إلى الآيةِ مِثْلُ هذا الوَعيدِ الشَّديدِ، ولا كان فيها ما يَسْتدعي هذا التَّعميمَ والاستيفاءَ الوَعيديَّ؛ ورَدَتِ الآيةُ مُناسِبةً لذلك، فقال تعالَى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يكُنِ التَّعميمُ هنا لِيُناسِبَ؛ فورَدَ كلٌّ على ما يجِبُ[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ * إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ﴾ لَمَّا جَرَى تَذكيرُهم بأنَّ ما أصابَهم مِن مُصيبةٍ هو مُسبَّبٌ عن اقترافِ أعْمالِهم، وتَذكيرُهم بحُلولِ المصائبِ تارةً، وكشْفِها تارةً أُخرى بقولِه: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠]، وأَعقَبَ بأنَّهم في الحالتَينِ غيْرُ خارجينَ عن قَبْضةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ؛ سِيقَ لهم ذِكرُ هذه الآيةِ جامعةً مِثالًا لإصابةِ المصائبِ، وظُهورِ مَخايِلِها المُخيفةِ المُذكِّرةِ بما يَغفُلونَ عنه مِن قُدرةِ اللهِ، والَّتي قدْ تَأْتي بما أُنذِروا به، وقدْ تَنكشِفُ عن غَيرِ ضُرٍّ، ودَليلًا على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، وأنَّه لا مَحيصَ عن إصابةِ ما أرادَه، وإدماجًا للتَّذكيرِ بنِعمةِ السَّيرِ في البحرِ، وتَسخيرِ البحرِ للنَّاسِ؛ فإنَّ ذلك نِعمةٌ؛ قال تعالَى: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، فكانتْ هذه الجُملةُ اعتِراضًا مِثلَ جُملةِ ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[3] [الشورى: ٢٩].

- قولُه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ الجَواري: جمْعُ جاريةٍ، صِفةٌ لِمَحذوفٍ

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص ١٠٠٥-١٠٠٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص١٩٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٦١-٣٦٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٥).

دلَّ عليه ذِكرُ البَحرِ، أي: السُّفنُ الجَواري في البَحرِ. وعُدِلَ عن (الفُلكِ) إلى ﴿ٱلْجَوَارِ﴾؛ إيماءً إلى مَحلِّ العِبرةِ؛ لأنَّ العِبرةَ في تَسخيرِ البحرِ لِجَرْيِها، وتَفكيرِ الإنسانِ في صُنعِها. والمرادُ بالجَواري: السُّفنُ العظيمةُ التي تسَعُ ناسًا كثيرينَ، والعِبرةُ بها أظهَرُ، والنِّعمةُ بها أكثَرُ[١].

- قولُه: ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾، أي: فتَسبَّبَ عن ذلك أنَّهنَّ يَظلَلْنَ -أي: يُقِمْنَ- ليلًا كان أو نهارًا، ولعلَّه عبَّرَ بـ (يَظْلَلْنَ) مع أنَّ أصلَه الإقامةُ نهارًا؛ لأنَّ النَّهارَ مَوضعُ الاقتدارِ على الأشياءِ، وهو المُنتظَرُ عِندَ كلِّ مُتعسِّرٍ للسَّعيِ في إزالةِ عُسرِه، وتَيسُّرِ أمْرِه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ جُعِلتْ أحوالُ الفُلكِ في البحرِ آياتٍ لكلِّ صبَّارٍ شُكورٍ؛ لأنَّ في الحالتَينِ خَوفًا ونَجاةً، والخوفُ يَدْعو إلى الصَّبرِ، والنَّجاةُ تَدْعو إلى الشُّكرِ، والمرادُ: أنَّ في ذلك آياتٍ لكلِّ مُؤمنٍ مُتخلِّقٍ بخُلُقِ الصَّبرِ على الضَّرَّاءِ والشُّكرِ للسَّرَّاءِ؛ فهو يَعتبِرُ بأحوالِ الفُلكِ في البحرِ اعتبارًا يُقارِنُه الصَّبرُ أو الشُّكرُ. وإنَّما جُعِل ذلك آيةً للمؤمنينَ؛ لأنَّهم الَّذين يَنتفِعونَ بتِلك الآيةِ، فيَعلَمونَ أنَّ اللهَ مُنفرِدٌ بالإلهيَّةِ، بخِلافِ المشرِكينَ؛ فإنَّها تمُرُّ بأعيُنِهم فلا يَعتبِرونَ بها[٣]؛ فوَجهُ الجَمعِ بيْنَ الصَّبرِ والشُّكرِ: أنَّ هذه السُّفُنَ إنْ جَرَت على ما يَنْبغي فوَظيفةُ الإنسانِ الشُّكرُ، وإنْ جَرَت على ما لا يَنْبغي فوَظيفتُه الصَّبرُ[٤].

- وقولُه: ﴿صَبَّارٍ﴾، أي: على بَلاءِ اللهِ، ﴿شَكُورٍ﴾، أي: لِنَعمائِه، وهما صِفتا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٦٥).

المؤمِنِ المُخلِصِ؛ فجعَلَهما كِنايةً عنه، وهو الذي وكَّلَ هِمَّتَه بالنَّظرِ في آياتِ اللهِ، فهو يَسْتملي منها العِبَرَ. وحسَّنَ مَوقعَ هذه الكِنايةِ في هذا المقامِ: أنَّ مَواجِبَ الصَّبرِ والشُّكرِ لم تَتبيَّنْ في سائرِ الحالاتِ ظُهورَها في حالَتَي الرُّكوبِ في البحرِ والخُروجِ منه(١).

٥- قولُه تعالى: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ فيه إيقاعُ الإيباقِ على السُّفنِ الجَواري مع أنَّه حالُ أهلِهنَّ؛ للمُبالَغةِ والتَّهويلِ(٢).

- قولُه: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ عطْفٌ على ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾؛ فهو في معْنى جَزاءٍ للشَّرطِ المقدَّرِ، أي: وإنْ يَشَأْ يَعْفُ عن كَثيرٍ فلا يُوبِقْهُم مع استِحقاقِهم أنْ يُوبَقُوا. وهذا العطْفُ اعتراضٌ(٣).

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ على قِراءةِ الرَّفعِ ﴿وَيَعْلَمُ﴾(٤)؛ فهو استئنافٌ فيه تَهديدٌ للمشرِكينَ بأنَّهم لا مَحيصَ لهم مِن عَذابِ اللهِ تعالَى؛ لأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الشورى: ٣٢]، صار المعنَى: ومِن آياتِ انفرادِه بالإلهيَّةِ الجَواري في البحرِ، والمشرِكونَ يُجادِلونَ في دَلائلِ الوحدانيَّةِ بالإعراضِ والانصرافِ عن سَماعِها، فهدَّدَهم اللهُ بأنْ أَعلَمَهم أنَّهم لا مَحيصَ لهم، أي: مِن عَذابِه؛ وحُذِف مُتعلَّقُ المحيصِ إبهامًا له تَهويلًا للتَّهديدِ؛ لِتَذهَبَ النَّفْسُ كُلَّ مَذهبٍ مُمكنٍ، فيَكونُ قولُه: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ﴾ خَبرًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٧).

(٤) تقدمت الإشارة إلى هذه القراءة في مشكل الإعراب (ص: ٥١٨).

مُرادًا به الإنشاءُ والطَّلبُ، فهو في قوَّةِ: ولْيَعلَمِ الَّذين يُجادِلونَ، أو اعلَموا يا مَن يُجادِلونَ، وليْس خبرًا عنهم؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بذلك حتى يَعلَموه. وأمَّا قِراءةُ النَّصبِ فهي على العَطْفِ على فِعلٍ مَدخولٍ لِلَامِ التَّعليلِ، وتُضمَّنُ (أنْ) بعْدَه، والتَّقديرُ: لِيَنتقِمَ منْهم ويَعلَمَ الذين يُجادِلون... إلخ. أو الواوُ واوُ المعيَّةِ التي يُنصَبُ الفِعلُ المضارِعُ بعْدَها بـ (أنْ) مُضمَرةً. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ الخبرُ مُستعمَلًا في مُقارَبةِ المُخبَرِ به؛ كقولِهم: قدْ قامَتِ الصَّلاةُ، فلمَّا كان عِلمُهم بذلك يُوشِكُ أنْ يَحصُلَ، نُزِّلَ مَنزلةَ الحاصلِ، فأَخبَرَ عنهم به، وعلى هذا الوجْهِ يَكونُ إنذارًا بعِقابٍ يَحصُلُ لهم قَريبٍ، وهو عَذابُ السَّيفِ والأَسْرِ يومَ بَدْرٍ، وذُكِر فِعلُ (يَعلَم)؛ للتَّنويهِ والاعتِناءِ بالخبرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٧، ١٠٨).

## الآيات (٣٦-٤٢)

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَمَتَٰعُ﴾: أي: تمتُّعُ وانتِفاعُ، وأصْلُ (متع): يدُلُّ على المنفعةِ[1].

﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾: الإثمُ والأثامُ: اسمٌ للأفعالِ المُبَطِّئةِ عن الثَّوابِ، أو الذَّنْبُ الَّذي يَستحِقُّ العقوبةَ عليه، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخيرِ، متأخِّرٌ عنه[2].

﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: جمعُ فاحِشةٍ، والفُحْشُ والفَحْشاءُ والفاحِشَةُ: ما عظُم قُبحُه مِن الأفعالِ والأقوالِ، وأصلُ (فحش): يَدُلُّ على قُبحٍ وشَناعةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٢٦).

﴿شُورَىٰ﴾: الشُّورَى: مَصدرٌ بمعنى التَّشاوُرِ، والتَّشاوُرُ والمُشاوَرةُ والمَشورَةُ: استخراجُ الرَّأيِ بمُراجعةِ البعضِ إلى البعضِ، مِن قولِهم: شِرْتُ العَسلَ: إذا اتَّخذتَه مِن مَوضعِه، واستَخْرجتَه منه، فكأنَّ المستشيرَ يَأخذُ الرَّأيَ مِن غيرِه، وأصلُ (شور) هنا: أخذُ شَيءٍ(١).

﴿ٱلْبَغْىُ﴾: أي: الظُّلمُ والعُدوانُ، وأصلُ البَغْيِ: مُجاوَزةُ الحدِّ؛ يُقالُ: بَغَى الجرحُ: تجاوَز الحدَّ في فَسادِه، وأصلُ (بغي) هنا: جِنْسٌ مِن الفسادِ(٢).

﴿عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾: أي: حَقِّها وحَزْمِها وما أمَرَ اللهُ به مِنها، وأصلُ (عزم): يدُلُّ على عَقدِ القَلبِ على إمضاءِ الأمرِ(٣).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مُبيِّنًا حَقيقةَ الدُّنيا ومَتاعِها بالنِّسبةِ للآخِرةِ: فما أُوتيتُم مِن شَيءٍ في الدُّنيا فإنَّما هو مَتاعٌ زائِلٌ تتمَتَّعونَ به في حَياتِكم الدُّنيا، وما عِندَ اللهِ في الآخِرةِ خَيرٌ مِن مَتاعِ الدُّنيا وأبقَى للَّذين آمَنوا وعلى رَبِّهم يَعتَمِدونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى صِفاتِ عِبادِه المؤمنينَ، فيقولُ: والَّذين يَجتَنِبونَ كَبائِرَ الإثمِ والفواحِشَ، وإذا غَضِبوا يَصفَحونَ، والَّذين استَجابوا لرَبِّهم وانْقادوا لطاعتِه، وأقاموا الصَّلاةَ، وأمرُهم شُورى بيْنهم، ومِمَّا رزَقَهم اللهُ يُنفِقونَ، والَّذين إذا اعتدَى عليهم أحَدٌ يَنتَصِرونَ منه.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٦، ٢٢٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٣٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

ثمَّ يقولُ تعالَى مُرغِّبًا في العَفوِ والصَّفحِ: وجَزاءُ سَيِّئةِ المُسيءِ عُقوبتُه بمِثلِ جِنايتِه، فمَن عفا عمَّن أساء إليه وأصلَحَ فأجرُه على اللهِ، إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الظَّالِمينَ، ومَن انتَصَر مِمَّن ظَلَمه فلا عُقوبةَ ولا إثمَ عليه، إنَّما العُقوبةُ والإثمُ على الَّذين يَعتدُونَ على النَّاسِ ظُلمًا، ويُفسِدونَ في الأرضِ بغَيرِ الحَقِّ، أولئك لهم عَذابٌ مُؤلِمٌ.

ومَن صَبَر على أذَى النَّاسِ وصَفَح عن إساءتِهم، فإنَّ ذلك مِن الأمورِ التي نَدَب اللهُ إليها عِبادَه، وعَزَم عليهم العَمَلَ بها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا ذكَرَ دَلائِلَ التَّوحيدِ؛ أردَفَها بالتَّنفيرِ عن الدُّنيا، وتَحقيرِ شَأنِها؛ لأنَّ الذي يَمنَعُ مِن قَبولِ الدَّليلِ إنَّما هو الرَّغبةُ في الدُّنيا؛ بسَبَبِ الرِّياسةِ، وطَلَبِ الجاهِ، فإذا صَغُرَت الدُّنيا في عيْنِ الرَّجُلِ لم يَلتَفِتْ إليها، فحينئذٍ ينتَفِعُ بذِكرِ الدَّلائِلِ[1].

﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾.

أي: فالَّذي أُوتيتُموه[2] مِن نِعَمٍ دُنيويَّةٍ، فإنَّما هي أُمورٌ زائِلةٌ فانيةٌ تتمَتَّعونَ بها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٣).

(٢) قيل: الخِطابُ للنَّاسِ مُطلقًا. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والبقاعي، واستَظْهَره الألوسيُّ، واختاره ابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٢). =

في حياتِكم الدُّنيا[١].

كما قال تعالَى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖ﴾ [النحل: ٩٦].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ﴾ [الرعد: ٢٦].

وعن المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقولُ: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يَجعَلُ أحَدُكم إصبَعَه هذه في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!))[٢].

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: وما عِندَ اللهِ مِن الثَّوابِ والجَزاءِ في الآخِرةِ للَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به: خَيرٌ مِن مَتاعِ الدُّنيا وأدوَمُ؛ فهو باقٍ لا يَنفَدُ[٣].

---

= وقيل: الخِطابُ للمُشرِكينَ. ومِمَّن ذهَب إلى هذا: ابنُ أبي زَمنين، والقرطبيُّ، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٩).

قال ابن عاشور: (والخطابُ في قولِه: ﴿أُوتِيتُم﴾ للمشركينَ جرْيًا على نَسَقِ الخِطابِ السَّابِقِ... ويَنسَحِبُ الحُكمُ على المؤمِنينَ بلَحنِ الخِطابِ، ويجوزُ أن يكونَ الخِطابُ لجَميعِ الأمَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٤/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٨].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

أي: ويَعتَمِدونَ على رَبِّهم وَحْدَه، ويُفَوِّضونَ إليه جَميعَ أُمورِهم[١].

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان كُلٌّ مِن الإيمانِ والتَّوكُّلِ أمرًا باطِنًا، فكان لا بُدَّ مِن دَلائِلِه مِن ظواهِرِ الأعمالِ، وكانتْ تَخْلياتٍ مِن الرَّذائلِ، وتَحْلياتٍ بالفَضائلِ، وكانت التَّخْلياتُ -لكوْنِها دَرْءًا للمفاسدِ- مُقدَّمةً على التَّحْلياتِ التي هي جلْبٌ للمَصالحِ؛ قال[٢]:

﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾.

أي: والذين يَجتَنِبونَ كَبائِرَ الذُّنوبِ، ويَجتَنِبونَ الفَواحِشَ كالقتْلِ والزِّنا[٣].

---

= (٧/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٣- ٢٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢٧-٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٤- ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٢٨-٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٩، ٢٨١). =

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ... ﴾ [النجم: ٣١، ٣٢].

﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان كَثيرٌ مِن كَبائرِ الإثمِ والفواحشِ مُتسبِّبًا على القوَّةِ الغضَبيَّةِ؛ مِثلَ: القتلِ والجراحِ، والشَّتْمِ والضَّرْبِ؛ أَعقَبَ الثَّناءَ على الَّذين يَجتنِبونَها، فذكَرَ أنَّ مِن شِيمتِهم المَغفرةَ عِندَ الغضبِ، أي: إمساكَ أنفُسِهم عن الاندفاعِ مع داعيةِ الغضبِ[1].

﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾.

أي: وإذا غَضِبوا على مَن أساءَ إليهم يَصفَحونَ عنه، ويَتغاضَونَ عن إساءتِه، ويَستُرونَها عليه ولا يَنتَقِمونَ لأنفُسِهم[2].

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أتمَّ ما منه التَّخلِّي؛ أتْبَعه ما به التَّحلِّي[3].

---

= قال الشَّوكاني: (والمرادُ بكبائرِ الإثمِ: الكبائِرُ مِن الذُّنوبِ... والفواحشُ هي مِن الكبائرِ، ولكنَّها معَ وصْفِ كونِها فاحشةً كأنَّها فوقَها، وذلك كالقتلِ، والزِّنا، ونحوِ ذلك. وقال مُقاتِلٌ: الفواحشُ مُوجِباتُ الحدودِ. وقال السُّدِّيُّ: هي الزِّنا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٠، ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٣- ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣١).

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ ﴾.

أي: والذين أجابوا رَبَّهم إلى كُلِّ ما دَعاهم إليه، فلَبَّوا دَعوتَه، وانقادُوا لطاعتِه[١].

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

أي: وأدَّوُا الصَّلَواتِ على الوَجهِ التَّامِّ المُستقيمِ الذي أُمِروا به[٢].

﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ ﴾.

أي: وشَأنُهم العامُّ شُورى بيْنهم؛ فهمْ يَتداوَلونَ الرَّأيَ فيما نَزَل بهم، ولا يَستَبِدُّ أحَدٌ منهم برَأيِه دونَ الآخَرينَ في الأُمورِ المُشتَرَكةِ بيْنهم[٣].

كما قال تعالَى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾.

أي: ومِمَّا رزَقَهم ربُّهم يَتصَدَّقونَ ويَبذُلونَ في سَبيلِه[٤].

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩ ﴾.

أي: والذين إذا بَغَى عليهم باغٍ، واعتدَى عليهم مُعْتدٍ؛ فإنَّهم يَنتَصِرونَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠).

قال ابنُ عُثَيمين: («مِنْ» هنا للتَّبعيضِ، ويَحتَمِلُ أن تكونَ للجِنسِ، وهي للجِنسِ أَوْلى؛ لِيَشمَلَ القَليلَ والكَثيرَ والكُلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٧) بتصرف.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالَى: ﴿وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا قال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]؛ أردَفَه بما يدُلُّ على أنَّ ذلك الانتِصارَ يَجِبُ أنْ يكونَ مُقَيَّدًا بالمِثْلِ؛ فإنَّ النُّقصانَ حَيفٌ، والزِّيادةَ ظُلمٌ، والتَّساويَ هو العَدلُ، وبه قامت السَّمَواتُ والأرضُ؛ فلهذا السَّبَبِ قال[1]:

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾.

أي: وجَزاءُ سَيِّئةِ المُسيءِ هو عُقوبتُه بمِثلِ جِنايتِه، بلا زِيادةٍ[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٤].

---

= عاشور)) (٢٥/ ١١٣-١١٤).

قال ابنُ الجَوْزي: (اختَلَفوا في هذا البَغْيِ على ثَلاثةِ أقوالٍ: أحدُها: أنَّه بَغْيُ الكُفَّارِ على المُسلِمينَ... والثَّاني: أنَّه بَغْيُ المُسلِمينَ على المُسلِمينَ خاصَّةً. والثَّالِثُ: أنَّه عامٌّ في جميعِ البُغاةِ، سواءٌ كانوا مُسلِمينَ أو كافِرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٧).

وقولُه: ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ أي: يَنتقِمونَ ويقْتَصُّونَ مِن ظالميهم مِن غيرِ تَعَدٍّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٢).

وقيل: ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ أي: يَتناصَرون، فيَنصُرُ بَعضُهم بعضًا لرفْعِ البَغْيِ، وهو مِن بابِ الحِسبةِ، يَنتصِرونَ بالأمرِ بالمعروفِ. قاله السَّمعاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٤، ٥٢٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٩٣).

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦ﴾ [النحل: ١٢٦].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ يهوديًّا رضَّ[١] رأسَ جاريةٍ بيْنَ حَجَرينِ. قيل: مَن فَعَل هذا بكِ؟ أفُلانٌ؟ أفُلانٌ؟ حتى سُمِّي اليَهوديُّ، فأومَأَتْ برأسِها، فأُخِذَ اليَهوديُّ فاعترَف، فأَمَر به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فرُضَّ رأسُه بيْن حَجَرينِ))[٢].

﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: فمَن عَفا عمَّن أساءَ إليه وأصلَحَ، فثَوابُه على اللهِ لا مَحالةَ، ولنْ يُضِيعَ اللهُ ثَوابَه[٣].

---

(١) الرَّضُّ: الكَسرُ والدَّقُّ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٤/ ١٩٥).

(٢) رواه البخاري (٢٤١٣) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠٢).

قال الماوَرْديُّ: (﴿وَأَصۡلَحَ﴾ فيه وَجهانِ: أحَدُهما: أصلَحَ العَمَلَ. قاله سعيدُ بنُ جُبير. الثاني: أصلَحَ بيْنَه وبيْنَ أخيه. قاله ابنُ زيادٍ. وهذا مَندوبٌ إليه في العَفوِ عن التَّائِبِ دونَ المُصِرِّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٠٧).

ومِمَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: مقاتلُ بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٣).

ومِمَّن قال بالقَولِ الثَّاني -أي: أصْلَح بيْنه وبيْن خَصْمِه الذي ظلَمه بالعفْوِ-: السَّمرقنديُّ، والواحدي، والسمعانيُّ، والبغوي، والرازيُّ، والبيضاوي، والنَّسَفي، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٠).

وظاهِرُ اختيارِ البقاعي الجَمعُ بين القَولَينِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٦).

قال البقاعي: (﴿وَأَصۡلَحَ﴾ أي: أوقَع الإصلاحَ بينَ النَّاسِ بالعفوِ والإصلاحِ لنفْسِه؛ ليُصلِحَ اللهُ ما بيْنَه وبينَ الناسِ، فيكونَ بذلك منتصِرًا مِن نفْسِه لنفْسِه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٣٦). =

كما قال تعالَى: ﴿وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما نَقَصتْ صَدَقةٌ مِن مالٍ، وما زاد اللهُ عَبدًا بعَفوٍ إلَّا عِزًّا، وما تواضَعَ أحَدٌ للهِ إلَّا رَفَعه اللهُ))[1].

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الَّذين يَعتَدونَ على النَّاسِ فيَظلِمونَهم ابتِداءً، أو يُجاوِزونَ الحَدَّ في الاقتِصاصِ مِمَّن ظَلَمَهم[2].

كما قال الله تعالَى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان قولُه سبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ سادًّا لبابِ الانتِصارِ؛ لِما يُشعِرُ

---

= وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ: أصلحَ في عَفوِه، أي: صار عَفوُه مُشتَمِلًا على الإصلاحِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٠). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠).

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٠).

به مِن أنَّه ظُلمٌ على كُلٍّ، قال مُؤكِّدًا نَفيًا لهذا الإشعارِ[١]:

﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: ومَن انتصَرَ مِن ظالمٍ له بعْدَ تَحقُّقِ وُقوعِ ظُلمِه، فأولئك المُنتَصِرونَ لا عُقوبةَ عليهم، ولا لَومَ ولا حَرَجَ إذا أخَذوا حَقَّهم دونَ زيادةٍ[٢].

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: إنَّما العُقوبةُ والإثمُ على الَّذين يَعتَدونَ على النَّاسِ في دِمائِهم أو أموالِهم، أو أعراضِهم أو غيرِ ذلك مِن حُقوقِهم، ويَتجاوَزونَ الحَدَّ بالفَسادِ في الأرضِ بالكُفرِ أو المعاصي، أو التَّكبُّرِ على النَّاسِ، وطَلَبِ الاستِعلاءِ عليهم بغيرِ حَقٍّ[٣].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

أي: الَّذين يَظلِمونَ النَّاسَ، ويَبغُونَ في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ: أولئك لهم مِنَ اللهِ عَذابٌ مُوجِعٌ مُؤلِمٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٦، ٥٢٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٧-٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٤، ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٨-٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٧-٣٠٨).

قال ابنُ عاشور: (حُكمُ هذه الآيةِ يَشمَلُ ظُلمَ المُشرِكينَ للمُسلِمينَ، ويَشمَلُ ظُلمَ المُسلِمينَ بَعضِهم بعضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) =

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

أي: ومَن صبرَ على ما يَنالُه مِن أذى النَّاسِ، وستَرَ ذَنْبَهم، وتَغاضَى عن إساءتِهم وتسامَحَ، فلم يَنتَصِرْ لِنَفسِه مع قُدرتِه على ذلك: فإنَّ صَبْرَه وغُفرانَه هذا مِنَ الأُمورِ المَشكورةِ الحَميدةِ التي حَثَّ اللهُ عليها وأكَّدَها وعَزَم على عِبادِه العمَلَ بها، وجَعَل عليها ثوابًا جَزيلًا وثَناءً جميلًا[1].

كما قال تعالَى: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ۞ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ۞ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ فيها مِن خِصالِ الدِّينِ: التَّوكُّلُ، واجتِنابُ الكبائِرِ والفواحِشِ، والحِلمُ عندَ القُدرةِ، وإقامُ الصَّلاةِ، وإيتاءُ الزَّكاةِ، والمشاوَرةُ، والانتِصارُ مِن الباغي[2]، وفيه فَضيلةُ الجمْعِ بيْنَ هذه الصِّفاتِ المذكورةِ؛ لأنَّ كلَّ صِفةٍ منها صِفةُ مَدْحٍ لا شكَّ؛ لكنَّ اجتماعَها

---

= (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص ٣١٠، ٣١١).

قال ابنُ عُثَيمين: (يعني: لَدليلٌ على أنَّ الرَّجُلَ مِن ذَوِي العَزمِ؛ لأنَّه تحمَّلَ وسَتَر؛ تحمَّلَ فصبَرَ، وعفا فغَفَر). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٠).

يكونُ أكملَ[١]، ولَمَّا حَمِدَهم على هذه الصِّفاتِ كان هذا دَليلًا على أنَّ ضِدَّ هذه الصِّفاتِ ليْس مَحمودًا، بل مَذمومٌ؛ فإنَّ هذه الصِّفاتِ مُستلزِمةٌ لِعَدَمِ ضِدِّها، ولأنَّ حَمْدَها والثَّناءَ عليها طَلَبٌ لها وأمرٌ بها، ولو أنَّه أمرُ استِحبابٍ، والأمرُ بالشَّيءِ نَهيٌ عن ضِدِّه قَصدًا أو لُزومًا[٢].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ﴾ التَّزهيدُ في الدُّنيا، والتَّرغيبُ في الآخِرةِ[٣].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أنَّ التَّوكُّلَ عِبادةٌ يَجِبُ إفرادُ اللهِ بها، وجْهُ الدَّلالةِ: تَقديمُ المعمولِ -الَّذي هو الجارُّ والمجرورُ ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ﴾-؛ هذا دَليلُ وُجوبِ إفرادِ اللهِ به، وأمَّا الدَّليلُ على أنَّه عِبادةٌ؛ فلأنَّ اللهَ تعالَى ذَكَره في مَقامِ الثَّناءِ؛ ولا ثَناءَ إلَّا في عِبادةٍ[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ فيه حَضٌّ على كَسرِ الغَضَبِ[٥].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ أنَّ العَفوَ عن المُسيءِ وغُفرانَ سيِّئاتِه مَمْدوحٌ عندَ اللهِ، مَرضِيٌّ لَدَيه[٦].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ فيه تَرْغيبٌ في العَفوِ والصَّبرِ على الأذى، وذلك بيْن الأمَّةِ الإسلاميَّةِ ظاهِرٌ، وأمَّا مع الكافِرينَ فتَعْتريه أحوالٌ تختَلِفُ بها أحكامُ الغُفرانِ، ومِلاكُها أنْ تَترجَّحَ المصلحةُ في العَفوِ أو في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٣).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٨).

المؤاخَذةِ[١].

٧- إنَّ الغضبَ إذا ملَك ابنَ آدمَ كان الآمرَ والنَّاهيَ له، فإذا لم يمتثِلْ ما يأمرُه به غضبُه، وجاهَد نفسَه على ذلك، اندَفَع عنه شرُّ الغَضبِ، وربَّما سكَن غضبُه، وذهَب عاجِلًا، فكأنَّه حينئذٍ لم يغضَبْ، وإلى هذا المعنى وقعَت الإشارةُ في القرآنِ بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، وبقولِه: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، فعلى الإنسانِ ألَّا يعمَلَ بمقتضَى الغضبِ إذا حصَل له، وأنْ يجاهِدَ نفسَه على تركِ تنفيذِه، والعملِ بما يأمرُ به[٢].

٨- قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ كَفَلت هذه الجُمَلُ بالدُّعاءِ إلى أمَّهاتِ الفَضائلِ الثَّلاثِ: العِلمُ، والعِفَّةُ، والشَّجاعةُ؛ فالمدحُ بالاستِجابةِ والصَّلاةِ دُعاءٌ إلى العِلمِ، وبالنَّفَقةِ إلى العِفَّةِ، وبالانتِصارِ إلى الشَّجاعةِ[٣].

٩- في قَولِه تعالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ التَّشاورَ طاعةٌ للهِ، واقترابٌ إليه؛ إذْ قدْ جَعَلَه جلَّ وتعالَى في جُملةِ ما مَدَحَ به القَومَ[٤]. وعن الحَسَنِ رَضِيَ الله عنه قال: (ما تشاوَرَ قَومٌ قَطُّ إلَّا هُدُوا لأرشَدِ أُمورِهم)[٥]، وقد كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُشاوِرُ أصحابَه في الأُمورِ المُتعَلِّقةِ بمَصالحِ الحُروبِ، وذلك في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٥-٣٣٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٨).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنف)) (٢٦٢٧٥)، وابن جرير في ((تفسيره)) (٦/ ١٩٠)، وابن المنذر في ((تفسيره)) (٢/ ٤٦٧)، وابن أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٥٧).

الآثارِ كَثيرٌ، ولم يُشاوِرْهم في الأحكامِ؛ لأنَّها مُنَزَّلةٌ مِن عندِ اللهِ تعالَى، فأمَّا الصَّحابةُ بعْدَ استِئثارِ اللهِ به علينا -أي: بعدَ موتِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- فكانوا يَتشاوَرونَ في الأحكامِ، ويَستَنبِطونَه مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ فيه أمرٌ بتَرْكِ الاختِلافِ، والتَّوفُّرِ على الائتِلافِ[٢]، فهذا لا يكونُ إلَّا فَرعًا عن اجتِماعِهم وتَوالُفِهم، وتَوادُدِهم وتَحابُبِهم، وكَمالِ عُقولِهم: أنَّهم إذا أرادوا أمرًا مِن الأمورِ التي تَحتاجُ إلى إعمالِ الفِكرِ والرَّأيِ فيها، اجتَمَعوا لها وتَشاوَروا وبَحَثوا فيها، حتى إذا تبيَّنَت لهم المَصلحةُ انتَهَزوها وبادَروها، وذلك كالرَّأيِ في الغَزْوِ والجِهادِ، وتَوليةِ المُوظَّفينَ لإمارةٍ أو قَضاءٍ، أو غيرِه، وكالبَحثِ في المسائِلِ الدِّينيَّةِ عُمومًا؛ فإنَّها مِن الأُمورِ المُشتَرَكةِ، والبَحثُ فيها لبَيانِ الصَّوابِ: مِمَّا يُحِبُّه اللهُ، وهو داخِلٌ في هذه الآيةِ[٣].

١١- قال تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فذَكَر أوصافًا أربعةً هي قَواعِدُ النَّصَفةِ، الفاعِلونَ لها كالجَسَدِ الواحِدِ لا تَأخُذُهم نازِلةٌ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ[٤].

١٢- قال تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾، ذَكَر سُبحانَه هؤلاء المنتَصِرينَ في مَعرِضِ المَدحِ، كما ذكَرَ المَغفِرةَ عندَ الغَضَبِ في مَعرِضِ المدحِ؛ لأنَّ التذَلُّلَ لِمَن بَغى ليْس مِن صِفاتِ مَن جَعَل اللهُ له العِزَّةَ، حيثُ قال: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فالانتِصارُ عندَ البَغيِ فَضيلةٌ، كما أنَّ العَفوَ عندَ

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٩١-٩٢).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٢/ ١٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣١).

الغَضَبِ فَضيلةٌ[١]. فمِن صِفاتِ الَّذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون: أنَّهم لا يَرضَوْنَ بالذُّلِّ والانخناسِ عن الأخْذِ بحقِّهم، وليْس مِن لازمِ الانتصارِ أنْ يَقْتَصَّ؛ لأنَّ مَن عَفا عن قُدرةٍ وعِزَّةٍ فإنَّه لا شكَّ أنَّه مُنتصِرٌ، ومَن أخَذ بحقِّه فهو مُنتصِرٌ[٢].

١٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ فيه وُجوبُ العَدلِ في الجزاءِ، وعَدَمُ الاعتداءِ فيه[٣].

١٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ في جَعْلِ أجْرِ العافي على اللهِ ما يُهيِّجُ على العَفوِ، وأنْ يُعامِلَ العَبدُ الخَلقَ بما يُحِبُّ أنْ يُعامِلَه اللهُ به، فكما يُحِبُّ أنْ يَعفوَ اللهُ عنه فلْيَعفُ عنهم، وكما يُحِبُّ أنْ يُسامِحَه اللهُ فلْيُسامِحْهم؛ فإنَّ الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ[٤]. وكان الحَسَنُ البَصريُّ يَدْعو ذاتَ ليلةٍ: (اللَّهُمَّ اعفُ عمَّن ظلَمَني! فأكثَرَ في ذلك، فقال له رجُلٌ: يا أبا سَعيدٍ، لقد سَمِعتُك اللَّيلةَ تَدْعو لِمَن ظلَمَك حتى تمنَّيتُ أنْ أكونَ فيمَن ظلَمَك! فما دعاكَ إلى ذلِك؟ قال: قولُه تعالى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾)[٥].

١٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ شَمِلَ أُصولَ الإرشادِ إلى ما في الانتِصارِ مِن الظَّالِمِ، وما في العَفوِ عنه: مِن صَلاحِ الأمَّةِ؛ ففي تَخويلِ حَقِّ انتِصارِ المظلومِ مِن ظالِمِه رَدعٌ للظَّالِمينَ عن الإقدامِ على الظُّلمِ؛ خَوفًا مِن أنْ يَأخُذَ المظلومُ بحَقِّه؛ فالمُعتدي يَحسَبُ لذلك حِسابَه حينَ الهَمِّ بالعُدوانِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٦٠).

(٥) يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٦/ ٥٧٥).

وفي التَّرغيبِ في عَفوِ المظلومِ عن ظالِمِه حِفظُ آصِرةِ الأُخُوَّةِ الإسلاميَّةِ بيْنَ المظلومِ وظالِمِه؛ كيْلَا تَنثَلِمَ في آحادِ جُزئيَّاتِها، بل تَزدادُ بالعَفوِ مَتانةً، كما قال تعالَى: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ [فصلت: ٣٤]، على أنَّ اللهَ تعالَى لم يُهمِلْ جانِبَ رَدعِ الظَّالِمِ؛ فأنْبأَ بتحَقيقٍ أنَّه بمَحَلٍّ مِن غَضَبِ اللهِ عليه؛ إذ قال: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولا يَنحَصِرُ ما في طَيِّ هذا مِن هَولِ الوَعيدِ[١].

١٦- قولُه تعالَى: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ﴾ فيه الحَثُّ على العَفوِ إذا كان إصلاحًا[٢].

١٧- قولُه تعالَى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ فيه الحَثُّ على الصَّبرِ[٣]، فهذا إخبارٌ مِن اللهِ تعالَى بأنَّ أهلَ الصَّبرِ هم أهلُ العزائمِ[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ أخبرَ سُبحانَه أنَّ ما عِندَه خيرٌ لِمَن آمَنَ به وتَوَكَّلَ عليه، وهذا هو التَّوحيدُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾؛ فهذا اجتنابُ داعي القُوَّةِ الشَّهوانيَّةِ، ثمَّ قال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾؛ فهذا مُخالفةُ القُوَّةِ الغَضَبيَّةِ؛ فجَمَع بيْنَ التَّوحيدِ والعِفَّةِ والعَدلِ: التي هي جِماعُ الخيرِ كُلِّه[٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ سَمَّاه مَتاعًا؛ تَنبيهًا على قِلَّتِه وحَقارتِه؛ ولأنَّ الحِسَّ شاهِدٌ بأنَّ كُلَّ ما يَتعلَّقُ بالدُّنيا فإنَّه يكونُ سَريعَ الانقِراضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٦-١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣١١).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٥٢).

(٥) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨١).

والانقِضاءِ[١].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ ﴾ أنَّ في الآثامِ صَغيرًا وكبيرًا[٢].

٤- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ أنَّ اجتِنابَ كَبيرِ الإثمِ يُكَفِّرُ الصَّغيرَ، ويُؤيِّدُه قَولُه تعالى: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴾[النساء: ٣١][٣]، وليْس المرادُ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ فتْحَ البابِ لارتكابِ صَغائرِ الآثامِ والذُّنوبِ، بلِ المرادُ بَيانُ فضْلِ اللهِ تعالَى على عِبادِه، ورَحمتِه بهم[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ أنَّ صَغائرَ الذُّنوبِ لا تَنْقُصُ مِن كَمالِ الإيمانِ؛ لأنَّها تَقَعُ مَغفورةً باجتِنابِ الكبائرِ، كما قال اللهُ تَبارَك وتعالَى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾[النجم: ٣٢]، يعني: إلَّا الصَّغائرَ؛ فإنَّها لا تَضُرُّ، وأخبَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ((أنَّ الصَّلواتِ الخَمسَ، والجُمُعةَ إلى الجُمُعةِ، ورمَضانَ إلى رَمَضانَ: مُكَفِّراتٌ لِما بيْنَهنَّ إذا اجتُنِبَتِ الكبائرُ))[٥].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ وقَولِه سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾ أنَّه سُبحانَه حَمِدَهم على أنَّهم يَنتَصِرونَ عندَ البَغيِ عليهم، كما أنَّهم يَعفُونَ عندَ الغَضَبِ؛ فليْسوا مِثْلَ الذي ليْس له قُوَّةُ الانتِصارِ وفِعْلُه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط للقرآن الكريم)) لطنطاوي (١٣/ ٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٨٤).

والحديثُ أخرجه مسلمٌ (٢٣٣) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه.

لِعَجْزِهم أو كَسَلِهم، أو وَهْنِهم أو ذُلِّهم أو حُزْنِهم؛ فإنَّ أكثرَ مَن يَترُكُ الانتِصارَ بالحقِّ إنَّما يَترُكُه لهذه الأمورِ وأشباهِها، وأيضًا هم ليْسوا مِثلَ الذي إذا غَضِبَ لا يَغفِرُ ولا يَعفُو، بلْ يَتعدَّى أو يَنتَقِمُ حتى يُكَفَّ مِن خارجٍ، كما عليه أكثرُ النَّاسِ إذا غَضِبوا أو قَدَروا، فلا يَقِفُون عندَ العَدلِ، فَضلًا عن الإحسانِ! فحَمِدَهم على أنَّهم يَنتَصِرونَ وعلَى أنَّهم يَعفُونَ(١).

٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (بينهم) هذا الظَّرفُ صِفةٌ لـ ﴿شُورَىٰ﴾، والتَّشاوُرُ لا يكونُ إلَّا بيْن المُتشاوِرينَ؛ فالوَجهُ أنْ يكونَ هذا الظَّرفُ إيماءً إلى أنَّ الشُّورى لا يَنْبغي أنْ تَتجاوَزَ مَن يُهِمُّهم الأمرُ مِن أهلِ الرَّأيِ، فلا يَدخُلُ فيها مَن لا يُهِمُّه الأمرُ، وإلى أنَّها سِرٌّ بيْن المُتشاوِرينَ(٢).

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ أنَّ هؤلاء لا يَنتَصِرونَ لأنفُسِهم إلَّا إذا تَحَقَّقوا البَغيَ عليهم، وأمَّا مُجرَّدُ التُّهمةِ فلا يَعتَبِرونَها؛ يُؤخَذُ ذلك مِن قَولِه: ﴿إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ فلو اتَّهموا أحدًا أنَّه ظَلَمَهم فإنَّهم لا يَتحرَّكونَ، لكنْ إذا أصابَهم البَغيُ حينئذٍ يَنتَصِرونَ(٣).

٩- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ مُشكِلةٌ؛ لِوَجهَينِ:

**الأوَّلُ**: أنَّه لَمَّا ذَكَر قَبْلَه ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ فكيْف يَليقُ أنْ يُذكَرَ معه ما يَجْري مَجرَى الضِّدِّ له، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾؟

**الثَّاني**: أنَّ جميعَ الآياتِ دالَّةٌ على أنَّ العَفوَ أحسَنُ؛ قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوا

---

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢٩٢).

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال: ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وقال: ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ [النحل: ١٢٦]، فهذه الآياتُ قدْ يُتوهَّمُ أنَّها تُناقِضُ مَدلولَ هذه الآيةِ؟

**والجوابُ أنَّ العَفوَ على قِسمَينِ:**

**أحدُهما:** أنْ يكونَ العَفوُ سَببًا لِتَسكينِ الفِتنةِ وجِنايةِ الجاني ورُجوعِه عن جِنايتِه.

**والثَّاني:** أنْ يَصيرَ العَفوُ سَبَبًا لِمَزيدِ جَراءةِ الجاني، ولقُوَّةِ غَيظِه وغَضَبِه، والآياتُ في العَفوِ مَحمولةٌ على القِسمِ الأوَّلِ. وهذه الآيةُ مَحمولةٌ على القِسمِ الثَّاني، وحينَئذٍ يَزولُ ما يُتوهَّمُ مِنَ التَّناقُضِ[1].

**وقيل:** إنَّ المقصودَ مِن قَولِه: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ مُعاملةُ المُسلِمينَ بَعضِهم مع بَعضٍ، فلا يُعارِضُه قَولُه: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾؛ لأنَّ ذلك في مُعامَلتِهم معَ أعداءِ دِينِهم؛ إذ هو لِدَفْعِ البَغْيِ اللَّاحقِ بهم لأجْلِ أنَّهم مُؤمِنونَ، فالانتصارُ لأنفُسِهم رادعٌ للباغينَ عن التَّوغُّلِ في البَغْيِ على أمثالِهم، وذلك الرَّدْعُ عَونٌ على انتشارِ الإسلامِ؛ إذ يَقطَعُ ما شَأنُه أنْ يُخالِجَ نُفوسَ الرَّاغبينَ في الإسلامِ مِن هَواجسِ خَوفِهم مِن أنْ يُبغَى عليهم، وبهذا تَعلَمُ أنْ ليْس بيْن قولِه هنا: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ وبيْن قولِه آنفًا: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى: ٣٧] تعارُضٌ؛ لاختلافِ المَقامينِ؛ فهو مِن بابِ التَّكميلِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١١، ١١٣، ١١٤).

١٠- قولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴾ على القولِ بأنَّه ذكَرَ الانتصارَ بلَفظِ الإباحةِ، إنْ قِيل: كيْف ذُكِرَ الانتصارُ في صِفاتِ المدْحِ، والمباحُ لا مدْحَ فيه ولا ذَمَّ؟

**فالجوابُ: مِن أوجُهٍ:**

**منها:** أنَّ المباحَ قدْ يُمدَحُ؛ لأنَّه قِيامٌ بحقٍّ لا بباطلٍ.

**ومنها:** أنَّ مدْحَ الانتصارِ لكَونِه كان بعْدَ الظُّلمِ، تَحرُّزًا ممَّن بدَأ بالظُّلمِ، فكأنَّ المدْحَ إنَّما هو بترْكِ الابتداءِ بالظُّلمِ[1].

١١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ أصلٌ كَبيرٌ في عِلمِ الفِقهِ؛ فإنَّ مُقتَضاها أنْ تُقابَلَ كُلُّ جِنايةٍ بمِثلِها؛ وذلك لأنَّ الإهدارَ يُوجِبُ فَتْحَ بابِ الشَّرِّ والعُدوانِ؛ لأنَّ في طَبعِ كُلِّ أحَدٍ الظُّلمَ والبَغيَ والعُدوانَ، فإذا لم يُزجَرْ عنه أقدَمَ عليه ولم يَترُكْه، وأمَّا الزِّيادةُ على قَدرِ الذَّنْبِ فهو ظُلمٌ، والشَّرعُ مُنَزَّهٌ عنه؛ فلم يَبْقَ إلَّا أنْ يُقابَلَ بالمِثْلِ[2]. فيَجِبُ أنْ تكونَ المُقاصَّةُ على وَجهِ العَدلِ؛ فيكونَ جَزاءُ السَّيِّئةِ سَيِّئةً مِثلَها، فلا يجوزُ أنْ يُعتَدى في القِصاصِ لا القَوليِّ ولا الفِعليِّ؛ فلو أنَّ رجُلًا سَبَّكَ بوَصفَينِ وسَبَبْتَه بثَلاثةِ أوصافٍ، فلا يَجوزُ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾، ولو أنَّ رجُلًا قَطَعَ يَدَ إنسانٍ، وطُلِبَ القِصاصُ، فقال الجاني: أنا أريدُ تَخديرَ يَدي؛ حتَّى لا أُحِسَّ بالألمِ، وقال المجنيُّ عليه: لا؛ فالقَولُ قولُ المجنيِّ عليه؛ لأنَّ الجانيَ أتَى مَفسدتَينِ: الإيلامَ، وفَقْدَ العُضوِ؛ فلا تَتِمُّ المُقاصَّةُ إلَّا إذا حَصَل هذانِ الأمرانِ بالنِّسبةِ للجاني[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠١).

١٢- تَفَضُّلُ اللهِ تَبارَك وتعالَى على عِبادِه، حيثُ أوجَبَ على نَفسِه أجرَ العافي المُصلِحِ؛ يُؤخَذُ ذلك مِن قَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ فقدْ ضَمِنَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهذا العافي المصلِحِ الأجرَ[١].

١٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ شَرَط اللهُ في العَفوِ الإصلاحَ فيه -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِيَدُلَّ ذلك على أنَّه إذا كان الجاني لا يَليقُ العَفوُ عنه، وكانت المَصلحةُ الشَّرعيَّةُ تَقتَضي عُقوبتَه؛ فإنَّه في هذه الحالِ لا يكونُ مأمورًا به[٢]؛ فلو أنَّ الجانيَ مَعروفٌ بالشَّرِّ والفَسادِ، فاعتدَى على شَخصٍ فإنَّه لا يُعفَى عنه؛ لأنَّنا لو عَفَونا عنه في هذه القضيَّةِ المعيَّنةِ؛ فَعَل مِثلَها أو أشدَّ بعْدَ ذلك؛ لاعتِمادِه على العفوِ في كلِّ فِعلٍ. وعلى ذلك فقَولُه تَبارك وتعالَى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] مُقَيَّدٌ بهذه الآيةِ، بل كلُّ نَصٍّ فيه الحثُّ على العَفوِ فإنَّه مُقَيَّدٌ بهذه الآيةِ؛ وهو أنَّه لا بُدَّ أنْ يكونَ العَفوُ إصلاحًا[٣].

١٤- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثُبوتُ صِفةِ المحبَّةِ للهِ عزَّ وجَلَّ؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّه لَمَّا نَفَى مَحبَّتَه للظَّالِمينَ دلَّ ذلك على أنَّه يُحِبُّ العادِلينَ ذَوِي القِسطِ، وهذا الاستِدلالُ يُشابِهُ استِدلالَ الإمامِ الشَّافعيِّ رَحِمه اللهُ على أنَّ المُؤمِنينَ يَرَونَ اللهَ؛ لِقَولِه تعالَى في الفُجَّارِ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فقال: (لو كان مُحتَجِبًا عن الجَميعِ مَثَلًا، فلا فائِدةَ للنَّفيِ)[٤].

١٥- في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ؛ وجْهُه: أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٥)، ويُنظر: ((شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة)) للالكائي (٣/ ٥١٩).

في الظُّلمِ انتفاءَ مَحبَّةِ اللهِ للعَبدِ[١].

١٦- قال تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشورى: ٤٠] لَمَّا كان النَّاسُ عندَ مُقابَلةِ الأذى ثَلاثةَ أقسامٍ: ظالِمٌ يَأخُذُ فوقَ حَقِّه، ومُقتَصِدٌ يَأخُذُ بقَدْرِ حَقِّه، ومُحسِنٌ يَعفو ويَترُكُ حَقَّه؛ ذكَرَ الأقسامَ الثَّلاثةَ في هذه الآيةِ؛ فأوَّلُها للمُقتَصِدينَ، ووَسَطُها للسَّابِقينَ، وآخِرُها للظَّالِمينَ[٢]، فأمَرَ بالعَدلِ، ونَدَب إلى الفَضلِ، ونَهَى عن الظُّلمِ[٣].

١٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يَقتَضي إباحةَ الانتِصارِ[٤]، وأنَّ العَفوَ ليْس بواجِبٍ[٥].

١٨- قَولُه تعالَى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ المظلومُ وإنْ كان مأذونًا له في دَفعِ الظُّلمِ عن نَفسِه، فذلك مَشروطٌ بشَرطينِ؛ أحدُهما: القُدرةُ على ذلك. والثَّاني: ألَّا يَعتدِيَ. فإذا كان عاجِزًا، أو كان الانتِصارُ يُفضي إلى عُدوانٍ زائدٍ: لم يَجُزْ[٦].

١٩- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ أنَّ انتِفاءَ السَّبيلِ عمَّن انتصرَ لِنَفسِه مَشروطٌ بتحَقُّقِ الظُّلمِ، أمَّا الأخذُ بالتُّهَمِ فإنَّه لا يجوزُ؛ فلا بُدَّ أنْ تَتحقَّقَ أنَّك مَظلومٌ حتَّى تَنتصرَ لنَفسِك[٧]؛ ففيه تَنبيهٌ على أنَّ هذا الانتصارَ يكونُ بعْدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((قاعدة في الصبر)) لابن تيمية (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٦٩).

(٦) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٤٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٠٦).

أنْ تَحقَّقَ أنَّهم ظُلِموا، فأمَّا في غيرِ الحروبِ، فمَن يَتوقَّعُ أنَّ أحدًا سيَعتدي عليه ليْس له أنْ يُبادِرَ أحدًا بأذًى قبْلَ أنْ يَشرَعَ في الاعتداءِ عليه، ويقولَ: ظنَنتُ أنَّه يَعتدي عليَّ، فبادَرتُه بالأذى اتِّقاءً لاعتدائِه المتوقَّعِ؛ لأنَّ مِثلَ هذا يُثيرُ التَّهارُجَ والفسادَ، فنبَّهَ اللهُ المسلمينَ على تَجنُّبِه مع عَدوِّهم إنْ لم تكُنْ بيْنهم حرْبٌ[1].

٢٠- قال تعالَى: ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾، وقبْلَه قال: ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى: ٤٠]، وبيانُ الجمْعِ بيْنهما: أنَّ آيةَ العَفوِ واردةٌ في شأْنِ المظلومِ، وإرشادٌ له إلى مَكارمِ الأخلاقِ، وإيثارُ طَريقِ المرسَلينَ، وهذه خِطابٌ للوُلاةِ والحُكَّامِ وتَعليمُ فِعلِ ما يَنْبغي فِعلُه؛ بدَليلِ قولِه: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى: ٤٢]، حيثُ أعادَ (السَّبيلَ) المُنكَّرَ بالتَّعريفِ، وعلَّقَ به ﴿ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾، وفسَّرَه بقولِه: ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[2].

٢١- ذَكَر سُبحانَه الأصنافَ الثَّلاثةَ في بابِ الظُّلمِ الذي يكونُ بغيرِ اختيارِ المظلومِ، وهم: العادِلُ، والظَّالِمُ، والمُحسِنُ؛ فالعادِلُ مَن انتَصَر بعد ظُلْمِه، وهذا جَزاؤُه أنَّه ما عليه مِن سَبيلٍ، فلم يكُنْ بذلك مَمْدوحًا، ولكنْ لم يكُنْ بذلك مَذْمومًا، وذَكَر الظَّالِمَ بقَولِه: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الشورى: ٤٢] فهؤلاء عليهم السَّبيلُ للعُقوبةِ والاقتِصاصِ، وذَكَر المُحسِنينَ، فقال: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾[3] [الشورى: ٤٣].

٢٢- في قَولِه تعالَى: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ أنَّ الأمورَ تَختلِفُ في العَزَماتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٨، ١١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٣٠/ ٣٦٧-٣٦٨).

وما دونَها، ولا شَكَّ أنَّها تختَلِفُ؛ فبَعضُها يكونُ المُقدِمُ عليه ذا عَزيمةٍ صادقةٍ ومُروءةٍ تامَّةٍ، وبَعضُها دونَ هذا(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ﴾ [الشورى: ٢٧] إلى آخِرِها؛ فإنَّها اقتَضَتْ وُجودَ مُنعَمٍ عليه ومَحرومٍ، فذُكِّروا بأنَّ ما أُوتُوهُ مِن رِزقٍ هو عرَضٌ زائلٌ، وأنَّ الخيرَ في الثَّوابِ الذي ادَّخَرَه اللهُ للمؤمنينَ، مع المناسَبةِ لِما سبَقَه مِن قولِه: ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٤] مِن سَلامةِ النَّاسِ مِن كَثيرٍ مِن أهوالِ الأسفارِ البَحْريَّةِ؛ فإنَّ تلك السَّلامةَ نِعمةٌ مِن نِعَمِ الدُّنيا، ففُرِّعتْ عليه الذِّكرى بأنَّ تلك النِّعمةَ الدُّنيويَّةَ نِعمةٌ قَصيرةُ الزَّمانِ، صائرةٌ إلى الزَّوالِ، فلا يَجعَلُها الموفَّقُ غايةَ سَعْيِه، ولْيَسْعَ لِعَملِ الآخِرةِ الَّذي يأْتي بالنَّعيمِ العَظيمِ الدَّائمِ، وهو النَّعيمُ الذي ادَّخَرَه اللهُ عِندَه لِعِبادِه المؤمنينَ الصَّالحينَ(٢).

- قولُه: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أُتْبِعتْ صِلةُ (الذين آمَنوا) بما يَدُلُّ على عَمَلِهم بإيمانِهم في اعتقادِهم، فعُطِف على الصِّلةِ أنَّهم يَتوكَّلونَ على ربِّهم دونَ غيرِه، وهذا التَّوكُّلُ إفرادٌ للهِ بالتَّوَجُّهِ إليه في كلِّ ما تَعجِزُ عنه قُدرةُ العبْدِ؛ فإنَّ التَّوجُّهَ إلى غيرِه في ذلك يُنافي التَّوحيدَ؛ لأنَّ المشرِكينَ يَتوكَّلونَ على آلهتِهم أكثَرَ مِن تَوكُّلِهم على اللهِ، ولكونِ هذا مُتمِّمًا لمعنَى (الذين آمَنوا)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٩).

عُطِف على الصِّلةِ، ولم يُؤتَ معه باسمٍ مَوصولٍ، بخِلافِ ما ورَدَ بعْدَه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ فيه إتْباعُ الموصولِ السَّابقِ (الذين آمنوا) بمَوصولاتٍ مَعطوفٍ بعضُها على بعضٍ كما تُعطَفُ الصِّفاتُ للمَوصوفِ الواحدِ، فكذلك عطْفُ هذه الصِّلاتِ ومَوصولاتِها، أصحابُها مُتَّحِدونَ، وهم الذين آمَنوا باللهِ وَحْدَه، والمقصودُ مِن ذلك: هو الاهتمامُ بالصِّلاتِ، فيُكرَّرُ الاسمُ الموصولُ؛ لِتَكونَ صِلتُه مُعتنًى بها، حتى كأنَّ صاحبَها المتَّحِدَ مُنزَّلٌ مَنزلةَ ذواتٍ مُتعدِّدةٍ، فالمقصودُ: ما عِندَ اللهِ خيرٌ وأبْقَى للمُؤمنينَ الَّذين هذه صِفاتُهم، أي: أتْبَعوا إيمانَهم بها، وهذه صِفاتٌ للمُؤمنينَ باختِلافِ الأحوالِ العارضةِ لهم؛ فهي صِفاتٌ مُتداخِلةٌ قدْ تَجتمِعُ في المؤمنِ الواحدِ إذا وُجِدتْ أسبابُها، وقدْ لا تَجتمِعُ إذا لم تُوجَدْ بعضُ أسبابِها[٢].

- وقولُه: ﴿ كَبَٰٓئِرَ ﴾ بصِيغةِ الجمْعِ، وقُرِئ أيضًا: ﴿ كَبِيرَ ﴾ بالإفرادِ[٣]؛ فكَبائرُ الإثمِ: الفَعَلاتُ الكَبيرةُ مِن جِنسِ الإثمِ، وهي الآثامُ العَظيمةُ التي نَهى الشَّرعُ عنها نَهْيًا جازمًا، وتَوعَّدَ فاعِلَها بعِقابِ الآخِرةِ؛ مِثلُ: القذْفِ والاعتداءِ والبَغيِ. وعلى قِراءةِ ﴿ كَبِيرَ الْإِثْمِ ﴾ مُرادٌ به معنَى ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ ﴾؛ لأنَّ المفردَ لَمَّا أُضيفَ إلى مُعرَّفٍ بلامِ الجِنسِ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، كان له حُكمُ ما أُضيفَ هو إليه[٤].

- وفي قولِه: ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ﴾ جِيءَ بكَلمةِ (إذا) المُضمَّنةِ معنَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٠٩)

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١١٠).

(٣) قرَأها حمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿ كَبِيرَ ﴾، وقرَأ الباقون ﴿ كَبَٰٓئِرَ ﴾ بفتْحِ الباءِ وألِفٍ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٣)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٠).

الشَّرطِ، والدَّالَّةِ على تَحقُّقِ الشَّرْطِ؛ لأنَّ الغضَبَ طَبيعةٌ نفْسيَّةٌ لا تكادُ تَخْلو عنه نفْسُ أحدٍ على تَفاوُتٍ؛ لإفادةِ التَّقَوِّي. وتَقييدُ المسنَدِ بحَرْفِ (إذا) المفيدةِ معْنى الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ الغُفرانِ كلَّما غَضِبوا(١).

- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ قدَّم الغَضَبَ؛ إشارةً إلى الاهتِمامِ بإطفاءِ جَمْرِه، وتَبْريدِ حَرِّه(٢).

- وقُدِّم المسنَدُ إليه على الخَبرِ الفِعليِّ في جُملةِ ﴿هُمْ يَغْفِرُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم الأخِصَّاءُ بالمغفرةِ حالَ الغضبِ(٣).

- وخَصَّ الغَضَبَ بلَفظِ الغُفرانِ؛ لأنَّ الغَضَبَ على طَبعِ النَّارِ، واستِيلاؤُه شَديدٌ، ومُقاومتُه صَعبةٌ؛ فلهذا السَّبَبِ خَصَّه بهذا اللَّفظِ(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ هذا مَوصولٌ آخَرُ وصِلَةٌ أُخرَى، ومَدلولُهما مِن أعمالِ الَّذين آمَنوا التي يدْعوهم إليها إيمانُهم، والمقصودُ منها ابتداءً هم الأنصارُ، ومعنى ذلك أنَّهم مِن المؤمنينَ الَّذين تَأصَّلَ فيهم خُلُقُ الشُّورى(٥).

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ السِّينُ والتَّاءُ في ﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾؛ للمُبالَغةِ في الإجابةِ، أي: هي إجابةٌ لا يُخالِطُها كَراهيةٌ ولا تَردُّدٌ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أثنَى اللهُ عليهم بإقامةِ الصَّلاةِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ ذلك تَنْويهًا بمَكانةِ الصَّلاةِ بأعْمالِ الإيمانِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ إقامةً خاصَّةً[١].

- وجُعِلتْ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ عطفًا على الصِّلةِ، وقدْ عُرِف الأنصارُ بذلك؛ إذ كان التَّشاوُرُ في الأمورِ عادتَهم، فإذا نزَلَ بهم مُهِمٌّ اجتمَعوا وتَشاوَروا، وكان مِن تشاوُرِهم الذي أَثْنى اللهُ عليهم به تَشاوُرُهم حينَ ورَدَ إليهم نُقباؤُهم، وأَخبَروهم بدَعوةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعْدَ أنْ آمَنوا هم به لَيلةَ العقَبةِ، فلمَّا أَبلَغوهم ذلك اجتمَعوا في دارِ أبي أيُّوبَ الأنصاريِّ رَضيَ اللهُ عنه، فأَجمَعَ رأيُهم على الإيمانِ به والنَّصرِ له، وإذ قد كانتِ الشُّورى مُفضِيةً إلى الرُّشدِ والصَّوابِ، وكان مِن أفضَلِ آثارِها أنِ اهتَدى بسَببِها الأنصارُ إلى الإسلامِ؛ أَثْنى اللهُ بها على الإطلاقِ دونَ تَقييدٍ بالشُّورى الخاصَّةِ التي تَشاوَرَ بها الأنصارُ في الإيمانِ، وأيُّ أمرٍ أعظَمُ مِن أمْرِ الإيمانِ[٢]؟!

- قولُه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ جُملةٌ اسميَّةٌ عُطِفتْ على الفِعليَّةِ، وعُطِفتْ عليها الفِعليَّةُ، فآذَنَ بأنَّ مَضمونَها مُستمِرٌّ منهم، وهو دَأْبُهم وعادتُهم قبْلَ استجابتِهم لربِّهم، وقبْلَ إقامةِ الصَّلاةِ والإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ؛ لاستِحداثِهم إيَّاها بعْدَ المشورةِ[٣].

- وأيضًا أفرَدَ هذه الجُملةَ بالذِّكرِ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾؛ لِمَزيدِ الاهتمامِ بالشُّورى، وتَنويهًا بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣).

- و(الأمرُ): اسمٌ مِن أسماءِ الأجناسِ العامَّةِ، مِثلُ شَيءٍ وحادِثٍ، وإضافةُ اسمِ الجِنسِ قدْ تُفيدُ العُمومَ بمَعونةِ المَقامِ، أي: جَميعُ أُمورِهم مُتشاوَرٌ فيها بيْنهم. والإخبارُ عن الأمرِ بأنَّه شُورَى مِن قَبيلِ الإخبارِ بالمصدرِ للمُبالَغةِ[١].

- وقولُه: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ إدْماجٌ[٢] للامتنانِ في خلالِ المدحِ، وإلَّا فليس الإنفاقُ مِن غيرِ ما يُرزَقُه المُنفِقُ[٣].

- مِن الاستِجابةِ لله: إقامةُ الصَّلاةِ وإيتاءُ الزَّكاةِ، وعطفُهما عليها مِن بابِ عطفِ العامِّ على الخاصِّ، الدَّالِّ على شَرفِه وفَضلِه[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ هذا مَوصولٌ رابعٌ، وصِلتُه خُلُقٌ أرادَه اللهُ للمُسلِمينَ، والبغْيُ: الاعتداءُ على الحقِّ؛ فمعنَى إصابتِه إيَّاهم أنَّه سُلِّط عليهم، أي: بَغَى غيرُهم عليهم[٥].

- والبَغيُ بغيرِ الحَقِّ هو نوعٌ مِن أنواعِ الظُّلمِ، خَصَّه بالذِّكرِ؛ تَنبيهًا على شِدَّتِه، وسُوءِ حالِ صاحِبِه[٦].

- وأُدخِلَ ضَميرُ الفَصلِ (هُم) بقولِه: ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ الذي فصَلَ بيْنَ الموصولِ وبيْنَ خَبرِه؛ لإفادةِ تقَوِّي الخبرِ، أي: لا يَنْبَغي أنْ يَترَدَّدوا في الانتِصارِ لِأنفُسِهم[٧].

- ودلَّ هذا التَّركيبُ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ على مَزيدِ اختِصاصِهم بالانتصارِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٢).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٤).

وذلك لِمَجيءِ الضَّميرِ وإيقاعِه مُبتدأً، وإسنادِ ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ إليه[١].

- وأُوثِرَ الخَبرُ الفِعليُّ ﴿يَنتَصِرُونَ﴾ هنا دونَ أن يُقالَ: (مُنتصِرون)؛ لإفادةِ معنى تَجدُّدِ الانتصارِ كلَّما أصابَهم البَغْيُ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثَلاثُ جُملٍ مُعترِضةٌ الواحدةُ تِلْوَ الأُخرى بيْن جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ ...﴾ إلخ [الشورى: ٣٩] وجُملةِ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ﴾ [الشورى: ٤١]، وفائدةُ هذا الاعتراضِ تَحديدُ الانتصارِ والتَّرغيبُ في العفْوِ، ثمَّ ذمُّ الظُّلمِ والاعتداءِ[٣].

- و﴿سَيِّئَةٞ﴾ صِفةٌ لِمَحذوفٍ، أي: فِعلةٌ تَسُوءُ مَن عُومِلَ بها، ووَزْنُ (سيِّئة) فَيْعِلةٌ؛ مُبالَغةً في الوصفِ، أي: إنَّ المُجازيَ يُجازي مَن فعَلَ معه فِعلةً تَسُوؤُه بفِعلةٍ سيِّئةٍ مِثلِ فِعْلتِه في السُّوءِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ جِناسُ المُزاوَجةِ اللَّفظيُّ[٥]؛ فإنَّ السَّيِّئةَ الثَّانيةَ ليْستْ بسَيِّئةٍ؛ وإنَّما هي مُجازاةٌ عن السَّيِّئةِ، سُمِّيتْ باسمِها؛

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٧٥، ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١١٥).

(٥) جِناسُ المُزاوَجةِ -ويُسمَّى المشاكَلةَ-: هو ذِكرُ الشَّيءِ بلَفظِ غَيرِه؛ لوُقوعِه في صُحبتِه، تَحقيقًا أو تَقْديرًا؛ فالتَّحقيقُ مِثلُ قولِه تعالَى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فجعَل سُبحانَه الجزاءَ على السَّيِّئةِ سَيِّئةً، وهو ليْس كذلك، وإنَّما لمناسَبةِ السيِّئةِ الَّتي سبَقَتْه. والتقديرُ مِثلُ قولِه سُبحانه: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٣٨]، ومُقابِلُ الصِّبغةِ مُقدَّرٌ، تَقديرُه: صِبغةَ اللهِ لا صِبْغتكم. يُنظر: ((عروس الأفراح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٣٧ - ٢٣٩)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩/ ٤٥).

لِقَصْدِ المزاوَجةِ[١]، وقيل: كِلتا الفِعلتَينِ -الأُولَى وجَزاؤُها- سيِّئةٌ؛ لأنَّها تَسوءُ مَن تَنزِلُ به[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا ...﴾ الآيةَ: ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّهذيبِ؛ فإنَّها سَلِمَتْ مِن المحذورِ الذي يَقتضي تَهذيبَها، وتَفصيلُ ذلك: أنَّه عِندَما يُسنَدُ الفعلُ إلى اللهِ تعالَى يَنبغي العدولُ عن إسنادِ الإساءةِ إليه، كما في قولِه: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [النجم: ٣١]؛ فإنَّ صحَّةَ المقابَلةِ في هذا النَّظمِ أنْ يُقالَ: لِيَجزيَ الَّذين أساؤوا بالإساءةِ؛ حتَّى تَصِحَّ مُقابَلتُه بقولِه: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾، لكنْ منَعَ مِن ذلك الْتزامُ الأدبِ مع اللهِ سُبحانَه في إسنادِ فِعلِ الإساءةِ إليه. أمَّا الآيةُ التي نحن بصَددِها، فقدْ أُمِنَ فيها ذلك المحذورُ، فأتَى النَّظمُ على مُقتضَى البلاغةِ مِن مَجيءِ تَجنيسِ الازدواجِ فيه على وَجْهِه مِن غيرِ تَغييرٍ؛ إذ لا ضَرورةَ تدْعو إلى تَغييرِه[٣].

- وكذلك في قولِه: ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ تَهذيبٌ؛ فإنَّ الانتصارَ لا يَكادُ يُؤمَنُ فيه تَجاوُزُ السَّيِّئةِ والاعتداءُ، خُصوصًا في حالةِ الفوَرانِ والغلَيانِ والْتهابِ الحَمِيَّةِ، وفي هذا جَوابٌ لمَن يَتساءلُ: ما معنى ذِكرِ الظُّلمِ عَقِبَ العفوِ معَ أنَّ الانتصارَ ليس بظُلمٍ[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥).

قال أبو حيَّانَ: (مَجيءُ الشَّيءِ على سبيلِ المقابلةِ، وإنْ لم يَكُنْ مِن جِنسِ ما قُوبِل به؛ شائعٌ في لِسانِ العربِ، ومنه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثۡلُهَا﴾). ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٤٥، ٤٦).

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ لِكلامٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، فيُقدَّرُ: إنَّه يُحِبُّ العافِينَ، ونصْرُه على ظالمِه مَوكولٌ إلى اللهِ، وهو لا يُحِبُّ الظالمينَ، أي: فيُؤْجِرُ الذين عَفَوْا ويَنتصِرُ لهم على الباغينَ؛ لأنَّه لا يُحِبُّ الظالمينَ؛ فلا يُهمِلُ الظَّالمَ دونَ عِقابٍ، وقد استُفيدَ حُبُّ اللهِ العافينَ مِن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وعلى هذا؛ فمَاصَدَقَ[1] الظَّالمينَ: هم الَّذين أصابُوا المؤمنينَ بالبَغْيِ. ويَجوزُ أيضًا أنْ يكونَ التَّعليلُ مُنْصرِفًا لمفهومِ جُملةِ ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، أي: دونَ تَجاوُزِ المماثَلةِ في الجزاءِ؛ فيكونُ مَاصَدَقَ الظَّالمينَ: الذين يَتجاوَزونَ الحَدَّ في العُقوبةِ مِن المؤمنينَ، على أنْ يكونَ تَحذيرًا مِن مُجاوَزةِ الحدِّ[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على جُملةِ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ [الشورى: ٤٠]؛ فيكونَ عُذرًا للَّذين لم يَعْفُوا. ويَجوزُ أنَّه عطْفٌ على جُملةِ ﴿هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٩]، وما بيْن ذلك اعتراضٌ، فالجُملةُ إمَّا مُرتبِطةٌ بغرَضِ انتصارِ المسلِمِ على ظالمِه مِن المسلِمينَ تَكملةً لِجُملةِ ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]، وإمَّا مُرتبِطةٌ بغرَضِ انتصارِ المؤمنينَ مِن بَغْيِ المشرِكينَ عليهم، وهو الانتصارُ بالدِّفاعِ، سَواءٌ كان دِفاعَ جَماعاتٍ، وهو الحربُ؛ فيَكونُ هذا تَمْهيدًا للإذنِ بالقِتالِ الذي شُرِع مِن بعْدُ، أم دِفاعَ الآحادِ إنْ تَمكَّنوا منه؛ فقدْ صار المسلمونَ بمكَّةَ يَومئذٍ ذَوي قوَّةٍ يَستطيعونَ بها الدَّفْعَ عن أنفُسِهم آحادًا، كما قِيل في عزِّ

---

(١) المَاصَدَق -عِندَ المناطِقة-: الأفرادُ التي يَتحقَّقُ فيها معنى الكُليِّ، ويُقابلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصِّفاتِ والخَصائصِ الموضِّحةِ لمعنًى كُلِّيٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحَبنَّكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٦).

الإسلامِ بإسلامِ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ[١].

- وجِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في صَدْرِ جَوابِ الشَّرْطِ؛ لِتَمْييزِ الفريقِ المذكورِ أتَمَّ تَمْييزٍ، وللتَّنبيهِ على أنَّ سَببَ عَدمِ مُؤاخَذتِهم هو أنَّهم انتَصَروا بعْدَ أنْ ظُلِموا، ولم يَبدؤوا النَّاسَ بالبَغْيِ[٢].

- والمرادُ بالسَّبيلِ مُوجِبُ المؤاخَذةِ باللَّائمةِ بيْن القَبائلِ، واللَّمزِ بالعُدوانِ، والتَّبعةِ في الآخِرةِ على الفَسادِ في الأرضِ بقتْلِ المسالمينَ، سُمِّي ذلك سَبيلًا؛ لأنَّه أشبَهَ الطَّريقَ في إيصالِه إلى المطلوبِ، وكثُرَ إطلاقُ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ رفَعَ سُبحانه كلَّ حرَجٍ وضِيقٍ بتَنكيرِ ﴿سَبِيلٍ﴾؛ لِشُيوعِه، فضْلًا عن الظُّلمِ[٤].

٧- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ فإنَّه لَمَّا جَرَى الكلامُ السَّابقُ كلُّه على الإذنِ للَّذين بُغِيَ عليهم أنْ يَنتصِروا ممَّن بَغَوْا عليهم، ثمَّ عُقِّبَ بأنَّ أولئك ما عليهم مِن سَبيلٍ؛ كان ذلك مَثارَ سُؤالِ سائلٍ عن الجانبِ الذي يَقَعُ عليه السَّبيلُ المنفيُّ عن هؤلاء[٥].

- والقَصرُ المُفادُ بحَرْفِ (إنَّما) تأْكيدٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٠).

سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]؛ لأنَّه كان يَكفِي لإفادةِ مَعنى القصْرِ أنْ يُقابَلَ نفْيُ السَّبيلِ عن الَّذين انتَصَروا بعْدَ ظُلْمِهم بإثْباتِ أنَّ السَّبيلَ على الظَّالمينَ؛ لأنَّ إثباتَ الشَّيءِ لِأحَدٍ ونَفْيَه عمَّن سِواه يُفيدُ معْنى القصْرِ، وهو الأصلُ في إفادةِ القصْرِ بطَريقِ المساواةِ أو الإطنابِ، وأمَّا طُرقُ القَصْرِ المعروفةُ في عِلمِ المعاني فهي مِن الإيجازِ[1]، فلمَّا أُورِدتْ أداةُ القَصرِ هنا حصَلَ نفْيُ السَّبيلِ عن غَيرِهم مرَّةً أُخرى بمُفادِ القصرِ، فتَأكَّدَ حُصولُه الأوَّلُ الذي حصَلَ بالنَّفيِ[2].

- والمرادُ بـ﴿ٱلسَّبِيلُ﴾ عَينُ المرادِ به في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]؛ بقَرينةِ أنَّه أُعيدَ مُعرَّفًا باللَّام بعْدَ أنْ ذُكِر مُنكَّرًا؛ فإنَّ إعادةَ اللَّفظِ النَّكرةِ مُعرَّفًا بلامِ التَّعريفِ يُفيدُ أنَّ المرادَ به ما ذُكِر أوَّلًا، وهذا السَّبيلُ الجزاءُ والتَّبِعةُ في الدُّنيا والآخِرةِ[3].

- وشَمِل عمومُ ﴿ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ﴾ وعُمومُ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ كلَّ ظالمٍ، وبمَقدارِ ظُلمِه يكونُ جَزاؤُه، ويَدخُلُ ابتداءً فيه الظَّالمونَ المُتحدَّثُ عنهم، وهم مُشرِكو أهلِ مكَّةَ، والنَّاسُ المتحدَّثُ عنهم، وهم المسلِمونَ يَومئذٍ[4].

- قولُه: ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ مُتعلِّقٌ بـ (يَبْغُونَ)، وهو لِكَشْفِ حالةِ البَغْيِ؛ لإفادةِ

---

(١) الأصلُ في الكلامِ أنْ يكونَ تأديةً لِلْمَعاني بألْفاظٍ على مِقْدارِها، أي: بأن يكونَ لِكُلِّ معنًى قصَدَه المتكلِّمُ لفظٌ يدُلُّ عليه، ظاهرٌ أو مُقَدَّرٌ، وتُسمَّى دَلالةُ الكلامِ بهاتِه الكَيفيَّةِ: (مُساواةً)؛ لأنَّ الألفاظَ كانت مُساويةً للمَدْلولاتِ. فإذا نقَصَتِ الألفاظُ عن عددِ المعاني مع إيفائِها بجميعِ تلك المعاني، فذلك (الإيجازُ). وإذا زادَتِ الألفاظُ على عددِ المعاني مع عدَمِ زيارةِ المعاني، فذلك (الإطنابُ). يُنظر: ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٠٨، ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَذمَّتِه؛ إذ لا يكونُ البغيُ إلَّا بغيرِ الحقِّ؛ فإنَّ مُسمَّى البغْيِ هو الاعتداءُ على الحقِّ، وأمَّا الاعتداءُ على المُبطِلِ لأجْلِ باطِلِه، فلا يُسمَّى بَغْيًا، ويُسمَّى اعتداءً؛ قال تعالَى: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾[1] [البقرة: ١٩٤].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بيانُ جُملةِ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ﴾ إنْ أُريدَ بـ (السَّبيلِ) في قولِه: ﴿مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١] سَبيلُ العِقابِ في الآخِرةِ. أو بدَلُ اشتمالٍ منها إنْ أُريدَ بالسَّبيلِ هنالك ما يَشمَلُ المَلامَ في الدُّنيا، أي: السَّبيلُ الَّذي عليهم هو أنَّ لهم عَذابًا أليمًا جَزاءَ ظُلمِهم وبَغْيِهم، وحُكمُ هذه الآيةِ يَشمَلُ ظُلمَ المشرِكينَ للمُسلِمينَ، ويَشمَلُ ظُلمَ المسلِمينَ بعضِهم بعضًا؛ لِيَتناسَبَ مَضمونُها مع جَميعِ ما سبَقَ[2].

- وجِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أَحْرياءُ بما يُذكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ لأجْلِ ما ذُكِر قبلَه، مع تَمْييزِهم أكمَلَ تَمْييزٍ بهذا الوعيدِ[3].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، ومَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقعُ الاعتراضِ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [الشورى: ٤٢] وجُملةِ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ [الشورى: ٤٤]، وهذه الجُملةُ تُفيدُ بَيانَ مَزيَّةِ المؤمنينَ الَّذين تَحمَّلوا الأذى مِن المشرِكينَ، وصبَروا عليه، ولم يُؤاخِذوا به مَن آمَنَ ممَّن آذَوْهم، ومَزيَّةِ المؤمنينَ الَّذين يَصبِرونَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ظُلمِ إخوانِهم، ويَغفِرونَ لهم، فلا يَنتصِفونَ منهم، ولا يَسْتَعْدُونَ عليهم[١].

- قولُه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ اشتمَلَ هذا الخبَرُ على أربعةِ مُؤكِّداتٍ، هي: اللَّامُ، و(إنَّ)، ولامُ الابتِداءِ، والوَصْفُ بالمصدرِ في قولِه: ﴿عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾؛ تَنْويهًا بمَضمونِه، وزِيدَ تَنويهًا باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾؛ فصار فيه خَمسةُ اهتماماتٍ[٢].

- والعَزْمُ: عَقْدُ النِّيَّةِ على العمَلِ، والثَّباتُ على ذلك، والوَصفُ بالعَزْمِ مُشعِرٌ بمدْحِ الموصوفِ؛ لأنَّ شأنَ الفضائلِ أنْ يكونَ عمَلُها عَسيرًا على النُّفوسِ؛ لأنَّها تُعاكِسُ الشَّهواتِ، ومِن ثَمَّ وُصِفَ أفضَلُ الرُّسلِ بـ(أُولي العزمِ)[٣].

- وإضافةُ ﴿عَزۡمِ﴾ إلى ﴿ٱلۡأُمُورِ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: مِن الأُمورِ العزْمِ. ووَصْفُ الأمورِ بـ(العزمِ) مِن الوصفِ بالمصدرِ؛ للمُبالَغةِ في تَحقُّقِ المعنى فيها. والإشارةُ بـ(ذلك) إلى الصَّبرِ والغُفرانِ المأخوذَينِ مِن ﴿صَبَرَ وَغَفَرَ﴾، والمُتحمِّلينِ لِضَميرِ (مَن) الموصولةِ؛ فيَكونُ صَوغُ المصدرِ مُناسِبًا لِمَا معه مِن ضَميرٍ، والتَّقديرُ: إنَّ صبْرَه وغَفْرَه لَمِن عَزْمِ الأمورِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال قبلَه في سُورةِ (لُقمانَ): ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧]؛ فأكَّدَ الخبرَ باللَّامِ في سُورةِ (الشُّورى) في قولِه: ﴿لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾، وترَكَه في سُورةِ (لُقمانَ)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٢، ١٢٣).

ووجْهُ هذه المُناسَبةِ: أنَّ الصَّبرَ على مَكروهٍ حدَثَ بظُلمٍ -كقتْلِ ولَدٍ- أشَدُّ مِن الصَّبرِ على مَكروهٍ حدَثَ بلا ظُلمٍ، كمَوتِ ولَدٍ، كما أنَّ العزْمَ على الأوَّلِ أَوكَدُ منه على الثَّاني، وما هنا مِن القَبيلِ الأوَّلِ؛ فكان أنسَبَ بالتَّوكيدِ، وما في (لُقمانَ) مِن القَبيلِ الثَّاني؛ فكان أنسَبَ بعدَمِه. كما أنَّ ما رغَّبَ اللهُ تعالَى فيه عبْدَه مِن الصَّبرِ على ما آلَمَ قلْبَه مِن جِنايةِ جانٍ عليه حتَّى يَغفِرَ لمَن ظلَمَه، ويَهَبَ له مِن القِصاصِ حقَّه؛ تَرغيبٌ فيما يَشُقُّ على الإنسانِ فِعلُه، إلَّا أنَّ اللهَ حسَّنَه بما وعَدَ مَن عَفا عمَّا يَجِبُ له مِن الأجرِ الذي ضَمِنَه؛ ففيهِ مع جَزيلِ الثَّوابِ إصلاحُ ما بيْن عَشيرتِه وعَشيرةِ الجاني عليه بإطفاءِ الثَّائرةِ عنهما، وإذا كان ذا مِن أصعبِ ما يَتحمَّلُه الإنسانُ، وجَبَ مِن تَوكيدِ الكلامِ فيه ما لا يجِبُ في غيرِه، فأُدخِلَتِ اللَّامُ على ﴿لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، على معنى: أنَّه مِن الأمورِ التي يَحتاجُ إلى تَوطينِ النَّفْسِ عليها، وتخيُّرِ أرفَعِها وأَعْلاها، وليْس كذلك ما في سُورةِ (لُقمانَ)، فأمَّا الموضعُ الَّذي أُبيحَ فيه الانتصافُ؛ فالصَّبرُ فيه أشَقُّ، وكَظْمُ الغَيظِ معه أشَدُّ، والكلامُ فيه إلى التَّوكيدِ أحوَجُ[1].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٥٨-١١٦٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٣-٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٩-٤٢٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٩-٥١٠).

## الآيات (٤٤-٤٦)

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَرَدٍّ﴾: أي: رجْعةٍ أو رجوعٍ أو مرجِعٍ، وأصلُ (ردد): رَجْعُ الشَّيءِ[1].

﴿خَٰشِعِينَ﴾: أي: خاضِعينَ مُتذَلِّلينَ، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[2].

﴿طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾: أي: لا يَرفَعونَ أبصارَهم، بل يُسارِقونَ النَّظَرَ استِكانةً وذُلًّا. وطَرْفُ العَينِ: نَظَرُها. والعَرَبُ تَصِفُ الذَّليلَ بغَضِّ الطَّرْفِ، وأصلُ (طرف): يدُلُّ على حَدِّ الشَّيءِ وحَرْفِه، وأصلُ (خفي): يدُلُّ على سَترٍ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يُقرِّرُ اللهُ تعالى أنَّه المنفردُ بالهدايةِ والإضلالِ، فيقولُ: ومَن يُضلِلْه اللهُ فليس

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٦)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٤٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢) و(٣/ ٤٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٧١).

له وَليٌّ يَتولَّاه مِن بَعدِ إضلالِ اللهِ إيَّاه.

ثمَّ يخبرُ عن حالِ الظَّالِمينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: وترَى الظَّالِمينَ -يا مُحمَّدُ- حينَ رُؤيةِ العَذابِ يومَ القيامةِ يَقولونَ: هل لنا وَسيلةٌ للرُّجوعِ إلى الدُّنيا لِنُطيعَ اللهَ؟!

وترَى الظَّالِمينَ يومَ القيامةِ يُعرَضونَ على النَّارِ خاضِعينَ ذَليلينَ، يُسارِقونَ النَّظَرَ إلى النَّارِ مِن شِدَّةِ خَوفِهم وذُلِّهم!

وقال المُؤمِنونَ: إنَّ الخاسِرينَ هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ، ألَا إنَّ الظَّالِمينَ في عذابٍ دائِمٍ، وما كان لهم يومَ القيامةِ أولياءُ يَمنَعونَهم مِن عذابِ اللهِ.

ومَن يُضلِلْه اللهُ فما له مِن طَريقٍ للوُصولِ إلى الحقِّ في الدُّنيا، ولا الجنَّةِ في الآخرةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ٤٤﴾.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾.

أي: ومَن يُضلِلْه اللهُ عن طَريقِ الحَقِّ بسَبَبِ ظُلمِه، فليس له أيُّ وليٍّ يَتوَلَّاه فيَهدِيَه أو يَنصُرَه بعدَ إضلالِ اللهِ إيَّاه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٣).
قال البِقاعي: (﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ أي: مِن بَعدِ مُعامَلةِ اللهِ له مُعامَلةَ البَعيدِ، مِن وَكْلِه إلى نَفْسِه وغَيرِه مِن الخَلقِ في شَيءٍ مِن زَمانِ البُعدِ ولو قَلَّ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٤).

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ﴾.

أي: وترى الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم -يا مُحمَّدُ- يقولونَ حينَ رُؤيةِ العَذابِ يومَ القيامةِ: هل لنا طريقٌ أو وسيلةٌ للرُّجوعِ إلى الدُّنيا؛ لِنَعمَلَ بطاعةِ اللهِ[1]؟

كما قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ ٤٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أثبَتَ رُؤيتَهم العذابَ؛ أثبَتَ دُنُوَّهم مِن مَحَلِّه، وبَيَّنَ حالَهم في ذلك الدُّنُوِّ[2].

﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾.

أي: وترَى الظَّالِمينَ يومَ القيامةِ يُعرَضونَ على النَّارِ قبْلَ دُخولِهم فيها ساكِنينَ خاضِعينَ في غايةِ الضَّعَةِ؛ لِما اعتراهم مِنَ الذُّلِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩، ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٤، ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٣، ٣١٤).

قال ابن عاشور: (الخِطابُ في «تَرَى» لغيرِ مُعَيَّنٍ، أي: تناهتْ حالُهم في الظُّهورُ، فلا يختصُّ به مُخاطَبٌ، أو الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تسليةً له على ما لاقاه منهم مِن التَّكذيبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٢٩).

والمرادُ بالظَّالِمينَ: المشرِكونَ باللهِ. ذكَره ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٩)، ((تفسير الرازي)) =

﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾.

أي: يُسارِقونَ النَّظَرَ إلى النَّارِ حينَ يُعرَضونَ عليها؛ مِن شِدَّةِ ذُلِّهم وخَوفِهم[1].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

أي: وقال المُؤمِنونَ[2]: إنَّ الخاسِرينَ في الحقيقةِ هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم

---

= (٢٧/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٤).

قال السعدي: (أي: ترى أجسامَهم خاشِعةً؛ للذُّلِّ الَّذي في قُلوبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٢، ٥٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٥).

قال ابن الجوزي: (﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ وفيه أربعةُ أقوالٍ:

أحدُها: مِن طَرْفٍ ذليلٍ، رواه العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال مجاهِدٌ. وقال الأخفَشُ: يَنظُرونَ مِن عَينٍ ضعيفةٍ. وقال غيرُه: «مِنْ» بمعنى «الباءِ».

والثَّاني: يُسارِقونَ النَّظرَ، قاله قَتادةُ، والسُّدِّيُّ.

والثَّالثُ: يَنظُرون ببعضِ العَيْنِ، قاله أبو عُبَيدةَ.

والرَّابعُ: أنَّهم يَنظُرونَ إلى النَّارِ بقلوبِهم؛ لأنَّهم قد حُشِروا عُمْيًا، فلم يَرَوها بأعيُنِهم، حكاه الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٦٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥١٢)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٢).

وقال ابنُ عطيَّةَ عن القولِ الرَّابعِ: (وفي هذا التَّأويلِ تكلُّفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣١).

(٢) قال القرطبي: (أي: يقولُ المؤمِنونَ في الجنَّةِ لَمَّا عايَنوا ما حَلَّ بالكُفَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦).

وقال ابن كثير: (أي: يقولونَ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥).

وقال ابن عاشور: (الظَّاهِرُ أنَّ المؤمِنينَ يَقولونَ هذا بمَسمَعٍ مِن الظَّالِمينَ، فيَزيدُ الظَّالِمينَ =

يومَ القيامةِ بحِرْمانِها مِن دُخولِ الجنَّةِ، واستِحقاقِها دُخولَ النَّارِ، وخَسِروا أهليهم بفِقْدانِهم في الآخِرةِ(١).

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾.

أي: ألَا إنَّ الظَّالِمينَ في عَذابٍ مُستَمِرٍّ في النَّارِ، فلا يَنقَطِعُ ولا يُخفَّفُ عنهم أبَدًا(٢).

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ٤٦﴾.

---

= تَلهيبًا لِنَدامتِهم ومَهانتِهم وخِزْيِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

وخَسارةُ الأهلِ: قيل: معناها أنَّهم حُرِموا مِن أهليهم في الجنَّةِ، فصاروا لِغَيرِهم، فلو دَخَلوا الجنَّةَ أصابوا الأهلَ، فلمَّا دخلوا النَّارَ حُرِموا منهم. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤).

وقيل: خَسِروا أهليهم؛ لأنَّ الأهلَ إن كانوا في النَّارِ فلا انتِفاعَ بهم، وإن كانوا في الجنَّةِ فقد حِيلَ بيْنَه وبيْنَهم. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٤).

قال ابن عطية: (خُسرانُ الأهلِينَ: يحتمِلُ أن يُرادَ به أهلوهم الَّذين كانوا في الدُّنيا، ويحتمِلُ أن يُرادَ به أهلوهم الَّذين كانوا يَكونونَ لهم في الجنَّةِ لو دخَلوها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٩).

قيل: القائِلُ هو اللهُ تعالى. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٩).

وقيل: يحتمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ المؤمِنينَ يومَئذٍ، فحكاه اللهُ عنهم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣١٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٥).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها عَطفٌ على جُملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: هم في عَذابٍ دائمٍ، لا يَجِدونَ منه نَصيرًا، وهو ردٌّ لِمَزاعِمِهم أنَّ آلهتَهم تَنفَعُهم عندَ الله[1].

﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وما كان لهم يومَ القيامةِ أيُّ أولياءَ يَنصُرونَهم مِن عَذابِ اللهِ تعالى[2].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾.

أي: ومَن يُضْلِلْه اللهُ عن طَريقِ الحَقِّ فما له مِن طَريقٍ للوُصولِ إلى الحقِّ في الدُّنيا، ولا الجنَّةِ في الآخرةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦).

مِمَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: الثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٥).

ومِمَّن قال بأنَّ المعنى: ما له مِن خلاصٍ ونجاةٍ: النسفي، وابن كثير، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٠).

وقيل: المعنى: ليس له طريقٌ تَحصُلُ به الهدايةُ للحَقِّ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابن جرير، والسمرقندي، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٧٢)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٦١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾، وقولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يُلِحَّ على اللهِ دائمًا أنْ يَهديَه مِن الضَّلالِ؛ فما دام الإضلالُ والهدايةُ بيدِ اللهِ فلْنَرجِعْ إليه، ولْنَلجَأْ إليه، ولْنسأَلْه الهدايةَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ أنَّ العاصيَ قد خَسِرَ نفْسَه، وعلى حسَبِ مَعصيتِه تكونُ الخَسارةُ؛ لأنَّه لم يَستَفِدْ مِن وُجودِه في الدُّنيا شيئًا، ويَتفرَّعُ على هذا أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يُحاسِبَ نفْسَه، ويَنظُرَ ماذا صَنَع، فإنْ رأى أنَّه قد مَلأَ زمَنَه مِن الخَيرِ المقصودِ والوَسيلةِ فلْيَحمَدِ اللهَ، وإنْ رأى أنَّه أضاعَه فلْيَستَعتِبْ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ﴾ أنَّ مَن هداه اللهُ فقد تَوَلَّاه؛ لأنَّه لَمَّا نفَى الوَلايةَ عنِ الظَّالِمينَ دَلَّ على أنَّها تَثبُتُ للمُؤمِنينَ، وبذلك جاء التَّصريحُ في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٣] [البقرة: ٢٥٧].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيّٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ صَريحٌ في جوازِ الإضلالِ مِنَ الله تعالى، وفي أنَّ الهِدايةَ ليست في مَقدورِ أحَدٍ سِوى اللهِ تعالى[٤]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٠، ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٨).

وفيه حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنْكِرينَ أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ حيث أخبَرَ سُبحانَه بالإضلالِ عن نَفْسِه لهم، وأمَرهم على إثْرِ ذلك بالاستِجابةِ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أنَّ المُستَكبِرينَ على الحَقِّ المُعانِدينَ يُجازَونَ بعِقابٍ يُناسِبُ مَعصيتَهم؛ وَجْهُ ذلك: أنَّهم يُعرَضونَ على النَّارِ خاشِعينَ ذَليلينَ، ومَعلومٌ أنَّ العُقوبةَ بالذُّلِّ مُناسِبةٌ للمَعصيةِ بالاستِكبارِ(٢).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ فيه سؤالٌ: أليس قد قال اللهُ تعالى في صِفةِ الكفَّارِ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾، فكيف قال هاهنا: إنَّهم يَنظُرونَ مِن طَرْفٍ خفِيٍّ؟

**والجوابُ عن هذا مِن أوجُهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ:** أنَّ هذا العمَى يكونُ في مبدأِ الأمرِ، ثُمَّ يَرُدُّ اللهُ تعالى إليهم أبصارَهم، فيَرَوْنَ النَّارَ.

**الوجهُ الثَّاني:** أنَّ المرادَ بالعمَى أنَّهم لا يرَوْنَ شيئًا يَسُرُّهم، كما أنَّهم كانوا في الدُّنْيا لا يَسْتَبْصِرونَ، فنُزِّل ما يُبْصِرونَه مَنزِلةَ العَدَمِ؛ لعَدَمِ الانتِفاعِ به.

**الوجهُ الثَّالثُ:** أنَّ هذه الآيةَ في قومٍ، وتلك في قومٍ آخَرينَ(٣).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الكُفَّارَ يومَ القيامةِ يَنظُرونَ بعُيونٍ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٨)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨).

خَفيَّةٍ ضَعيفةِ النَّظَرِ، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يُتوهَّمُ منها خِلافُ ذلك، وهي قَولُه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]!

**الجوابُ مِن وجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّ قَولَه: ﴿فَبَصَرُكَ﴾ أي: عِلمُك ومَعرفتُك بها قَويَّةٌ، مِن قَولِهم (بَصُرَ بكذا) أي: عَلِمَ، وليس المرادُ رؤيةَ العَينِ، ويدُلُّ على ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾[1].

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّ قَولَه: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: تُدرِكُ به ما عَمِيتَ عنه في دارِ الدُّنيا، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا﴾ الآيةَ [السجدة: ١٢]، وقَولُه تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ الآيةَ [الكهف: ٥٣]، وقَولُه: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2] [مريم: ٣٨].

٦- أنَّ الظَّالِمينَ يَلحَقُهم الذُّلُّ ظاهِرًا وباطنًا؛ الباطِنُ في قَولِه تعالى: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾، والظَّاهِرُ في قَولِه تعالى: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ بعْدَ أنْ حَكى أصنافًا مِن كُفرِ المشرِكينَ، وعِنادِهم وتَكذيبِهم، ثمَّ ذكَّرَهم بالآياتِ الدَّالَّةِ على انفِرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ وما في مَطاوِيها مِن النِّعَمِ، وحذَّرَهم مِن الغُرورِ بمَتاعِ الدُّنيا الزائلِ؛ أَعقَبَه بقولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وهو مَعطوفٌ على قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢١).

يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ [الشورى: ٤٢]، والمعنى: أنَّ فيما سمِعْتُم هِدايةً لِمَن أراد اللهُ له أنْ يَهتدِيَ، وأمَّا مَن قدَّرَ اللهُ عليه بالضَّلالِ فما له مِن وَلِيٍّ غيرُ اللهِ يَهْديه أو يُنقِذُه، كقولِه: ﴿مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيّٗا مُّرۡشِدٗا﴾ [الكهف: ١٧]، فالمرادُ نفْيُ الوليِّ الَّذي يُصلِحُه ويُرشِدُه؛ فالمرادُ هنا ابتداءً مَعنًى خاصٌّ مِن الوَلايةِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ نفْيُ الوليِّ كِنايةٌ عن نَفيِ أسبابِ النَّجاةِ عن الضَّلالةِ وعَواقبِ العُقوبةِ عليها؛ لأنَّ الوليَّ مِن خَصائصِه نفْعُ مَوْلاهُ بالإرشادِ والانتشالِ، فنَفْيُ الوليِّ يدُلُّ بالالتزامِ على احتياجٍ إلى نَفْعِه مَوْلاه، وذلك يَستلزِمُ أنَّ مَوْلاه في عَناءٍ وعَذابٍ، فهذه كِنايةٌ تلويحيَّةٌ، وقد جاء صريحُ هذا المعنى في قولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ الآتي في هذه السُّورةِ[٢].

- وفيه تَحقيرٌ لأمْرِ الكفَرةِ[٣].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ صِلةٌ للتَّوكيدِ. و(بَعْد) هنا بمعنى (دونَ) أو (غير)، عُبِّر بلفظِ (بعد) لمعنى (دون)؛ لأنَّ (بعد) مَوضوعٌ لِمَن يَخلُفُ غائبًا في مكانِه أو في عَملِه؛ فشَبَّهَ ترْكَ اللهِ الضَّالَّ في ضلالِه بغَيبةِ الوليِّ الَّذي يَترُكُ مَوْلاه دونَ وصيٍّ ولا وكيلٍ لِمَوْلاه[٤].

- وقولُه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ﴾، وبعدَه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٢٣، ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٤).

سَبِيلٍ﴾[الشورى: ٤٦]، ليس بتَكرارٍ؛ لأنَّ المعنى: ليس له مِن هادٍ ولا مَلْجأٍ[١].

- وكذلِك قولُه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، وهذا تَفصيلٌ وبَيانٌ لِما أُجمِلَ في الآيتَينِ المعطوفِ عليهما، وهما قولُه: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [الشورى: ٣٥]، وقولُه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾، والمعنى: أنَّهم لا يَجِدونَ مَحيصًا ولا وَليًّا، فلا يَجِدونَ إلَّا النَّدامةَ على ما فات، فيقولوا: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾[٢].

- والخِطابُ في ﴿وَتَرَى﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ، أو الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمقصودُ: الإخبارُ بحالِهم أوَّلًا، والتَّعجيبُ منه ثانيًا، فلم يقُلْ: والظالِمونَ لَمَّا رأَوُا العذابَ يقولونَ، وإنَّما قيل: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للاعتبارِ بحالِهم[٣].

- ومَجيءُ فِعلِ ﴿رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ بصِيغةِ الماضي؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه[٤].

- والاستِفهامُ بحَرْفِ ﴿هَلْ﴾ إنكاريٌّ في معنى النَّفيِ[٥].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٥).

- قولُه: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ فيه إعادةُ فِعلِ (تَرى)؛ للاهتمامِ بهذه الرُّؤيةِ وتَهويلِها[١].

- والعَرْضُ: أصلُه إظهارُ الشَّيءِ وإراءَتُه للغَيرِ، وعُبِّرَ بلفظِ (يُعرَضونَ) لمعنى: يُمَرُّ بهم مَرًّا عاقبتُه التَّمكُّنُ منهم، والحُكمُ فيهم، فكأنَّ جهنَّمَ إذا عُرِضوا عليها تَحكُمُ بما أعَدَّ اللهُ لهم مِن حريقِها[٢].

- وبُنِي فِعلُ ﴿يُعْرَضُونَ﴾ للمَجهولِ؛ لأنَّ المقصودَ حُصولُ الفعلِ، لا تَعيينُ فاعلِه[٣].

- قولُه: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ حرْفُ ﴿مِنَ﴾ للتَّعليلِ، أي: خاشعينَ خشوعًا ناشئًا عن الذُّلِّ، أي: ليس خشوعُهم لِتَعظيمِ اللهِ والاعترافِ له بالعُبوديَّةِ؛ لأنَّ ذلك الاعتقادَ لم يكنْ مِن شأنِهم في الدُّنيا[٤].

- وفي قولِه: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ تَجسيدٌ بارعٌ، وتَصويرٌ رائعٌ لحالتِهم الفظيعةِ، لِمَن يقِفُ أمامَ الموتِ الَّذي يَنتظِرُه والسَّيفُ مُصْلَتٌ على رأسِه، يُرَأْرِئُ -أي: يُحرِّكُ الحَدَقَةَ، أو يَقلِبُها ويُحدِّدُ النَّظَرَ- بأجْفانِه ويُحرِّكُها تحريكًا ضعيفًا خَفيًّا يُمكِّنُه مِن مُسارَقةِ النَّظرِ؛ فإنَّ مَن يَنظُرُ إلى أمْرٍ مَكروهٍ يَسْتهوِلُ أمْرَه، ويَزْوي ناظِرَه عنه، بَيْدَ أنَّه لا يَتمالَكُ دونَ أنْ يَرمُقَ ما يَكرَهُه وما يَتوقَّعُ حُدوثَه رَمْقًا سَريعًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٩).

- وحُذِف مَفعولُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ للتَّعميمِ، أي: يَنظُرونَ العذابَ، ويَنظُرونَ أهوالَ الحشرِ، ويَنظُرونَ نَعيمَ المؤمنينَ مِن طَرْفٍ خفيٍّ[١].

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ يَترجَّحُ أنَّ الواوَ للحالِ لا للعطْفِ، والجُملةُ حالٌ مِن ضَميرِ الغَيبةِ في (تَراهم)، أي: تَراهُم في حالِ الفظاعةِ الملتبِسينَ بها، وتراهُم في حالِ سَماعِ الكلامِ الذَّامِّ لهم الصَّادرِ مِن المؤمنينَ إليهم في ذلك المَشهَدِ، وحُذِفتْ (قد) مع الفعلِ الماضي؛ لِظُهورِ قَرينةِ الحالِ[٢].

- وصيغةُ الماضي ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِه[٣].

- وهذا الخبرُ مُستعمَلٌ في إظهارِ المَسَرَّةِ والبَهجةِ بالسَّلامةِ ممَّا لَحِقَ الظَّالِمينَ، أي: قالوه تَحدُّثًا بالنِّعمةِ، واغتباطًا بالسَّلامةِ، يقولُه كلُّ أحدٍ منهم، أو يقولُه بعضُهم لبعضٍ[٤].

-وإنَّما جيءَ بحرْفِ (إنَّ) معَ أنَّ القائلَ لا يَشُكُّ في ذلك، والسَّامعَ لا يشُكُّ فيه؛ للاهتِمامِ بهذا الكلامِ؛ إذ قد تَبيَّنتْ سَعادتُهم في الآخرةِ، وتَوفيقُهم في الدُّنيا، بمُشاهَدةِ ضِدِّ ذلك في مُعانِديهِم[٥].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أي: لا غيرُهم، والمعنى: أنَّهم الأكمَلونَ في الخُسرانِ، وتُسمَّى (أل) هذه دالَّةً على معنى الكَمالِ، وهو مُستفادٌ مِن تَعريفِ الجُزأينِ المُفيدِ للقَصرِ الادِّعائيِّ[٦]؛ حيثُ نُزِّلَ خُسرانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) تقدم تعريفه (ص: ٤٨٩).

غيرِهم مَنزِلةَ عَدمِ الخُسرانِ؛ فالمعنى: لا خُسرانَ يُشبِهُ خُسرانَهم، فليس في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ كما تُوُهِّمَ[١].

- قولُه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿خَسِرُوٓاْ﴾، واختِصاصُ ذِكرِ القِيامةِ للتَّهويلِ، وأنَّ هذا الخَسارَ لا خَسارَ بعدَه[٢].

- وجُملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٖ مُّقِيمٖ﴾ تَذييلٌ للجُمَلِ الَّتي قبْلَها مِن قولِه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [الشورى: ٤٤] الآياتِ؛ لأنَّ حالةَ كَونِهم في عذابٍ مقيمٍ أعَمُّ مِن حالةِ تلهُّفِهم على أنْ يُرَدُّوا إلى الدُّنيا، وذُلِّهم وسماعِهم الذَّمَّ[٣].

- وإعادةُ لفظِ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، اقتَضاهُ أنَّ شأنَ التَّذييلِ أن يكونَ مُستقِلَّ الدَّلالةِ على معناهُ؛ لأنَّه كالمَثَلِ[٤].

- وافتُتحَتِ الجُملةُ بحرفِ التنبيهِ ﴿أَلَآ﴾؛ لكثرةِ ذلك في التَّذييلاتِ لأهَمِّيَّتِها[٥].

- و(المقيم): الَّذي لا يَرتحِلُ، ووُصِف به العذابُ تشبيهًا للمُستمرِّ الدَّائمِ بالَّذي اتَّخَذ دارَ إقامةٍ لا يَبرَحُها[٦].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٨، ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٤٥]، أي: هم في عَذابٍ دائمٍ لا يَجِدونَ منه نصيرًا، وهو ردٌّ لِمَزاعِمِهم أنَّ آلهتَهم تَنفَعُهم عِندَ اللهِ(١).

- وجُملةُ ﴿يَنصُرُونَهُم ﴾ صِفةٌ لـ ﴿أَوْلِيَآءَ ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المرادَ هنا وَلايةٌ خاصَّةٌ، وهي وَلايةُ النَّصرِ(٢).

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ صِلةٌ في النَّفْيِ؛ لِتَأكيدِ نفْيِ الوليِّ لهم(٣).

- وقولُه: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿أَوْلِيَآءَ ﴾، وهي صِفةٌ كاشفةٌ. و﴿مِّن ﴾ أيضًا صِلةٌ لِتأكيدِ تعلُّقِ ظرفِ ﴿دُونِ ﴾ بالفعلِ(٤).

- وقولُه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ تَذييلٌ لِجُملةِ ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم ﴾(٥).

- و﴿سَبِيلٍ﴾ نَكرةٌ في سِياقِ النفيِ؛ فيَعُمُّ كلَّ سَبيلٍ مُخلِّصٍ مِن الضَّلالِ ومِن آثارِه، والمقصودُ هنا ابتِداءً هو سبيلُ الفِرارِ مِن العذابِ المُقيمِ كما يَقتضيهِ السِّياقُ، وبذلك لم يكُنْ ما هنا تَأكيدًا لِما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾(٦) [الشورى: ٤٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٤٧-٥٠)

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾: أي: لا ردَّ له، فلا شَيءَ يَرُدُّ مجيئَه، ولا يَقدِرُ أحدٌ على دَفْعِه، والرَّدُّ: صرفُ الشَّيءِ بذاتِه، أو بحالةٍ مِن أحوالِه، وأصلُ (ردد): رَجْعُ الشَّيءِ[1].

﴿نَّكِيرٍ﴾: أي: مُنكِرٍ يُغَيِّرُ ما بكم، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرفةِ[2].

﴿حَفِيظًا﴾: أي: رَقيبًا عليهم، تَحفَظُ عليهم أعمالَهم، وتُحصيها، وتُحاسِبُهم عليها، وأصلُ (حفظ): يدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ[3].

﴿يُزَوِّجُهُمْ﴾: أي: يَقرِنُهم، فيَجعَلُ بعضَهم بَنينَ وبعضَهم بناتٍ، وأصلُ (زوج):

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٥).

يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ[١].

﴿عَقِيمًا﴾: أي: لا يُولدُ له مِن رَجُلٍ أو امرأةٍ، والعُقْمُ أصلُه القطعُ، ومنه قيل: المُلكُ عقيمٌ؛ لأنَّه يُقطَعُ فيه الأرحامُ بالقتلِ والعقوقِ، وأصلُ (عقم): يدُلُّ على غموضٍ وضيقٍ وشدَّةٍ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى بالاستِجابةِ له قبْلَ مجيءِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: استَجيبوا -أيُّها النَّاسُ- لرَبِّكم فيما يَدْعوكم إليه رُسُلُه مِن قبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الَّذي لا شَيءَ يَمنَعُ مَجيئَه بعدَ أن حكَم اللهُ به، وليس لكم يومَئذٍ مَكانٌ تَلجَؤون إليه، وليس لكم يومَئذٍ مُنكِرٌ يُنكِرُ ما نَزَل بكم، ويَدفَعُه عنكم، وما لكم مِن إنكارٍ لِما جُوزيتُم به.

ثمَّ يُسلِّي الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: فإنْ أعرَضَ المُشرِكونَ فما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- رَقيبًا عليهم؛ فما عليك إلَّا البلاغُ.

ثمَّ يذكرُ سبحانَه حالَ الإنسانِ في النِّعمةِ والبلاءِ، فيقولُ: وإنَّا إذا أصَبْنا الإنسانَ بنِعمةٍ مِنَّا فَرِحَ بها واطمأنَّ، وإنْ تُصِبْهم شِدَّةٌ وبَلاءٌ بسَبَبِ ذُنوبِهم، فإنَّ الإنسانَ جَحودٌ لنِعَمِ اللهِ عليه.

ثمَّ يختمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ بذِكرِ مَظاهِرِ قُدرتِه، ونفاذِ مشيئتِه، وكمالِ حكمتِه، فيقولُ: لله وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، يَخلُقُ اللهُ ما يَشاءُ، ويُعطي

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه إناثًا، ويُعطي لِمَن يَشاءُ ذُكورًا، أو يَقرِنُ لهم بيْنَ الذُّكورِ والإناثِ، ويَجعَلُ اللهُ مَن يَشاءُ منهم عَقيمًا لا يُولَدُ له؛ لأنَّ الله سُبحانَه عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، قَديرٌ على كُلِّ شَيءٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالَى ما يكونُ في يومِ القيامةِ مِن الأهوالِ والأمورِ العِظامِ الهائلةِ؛ حَذَّر مِنه، وأمَر بالاستِعدادِ له[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أطنَبَ في الوَعدِ والوَعيدِ؛ ذكَرَ بَعدَه ما هو المقصودُ، فقال[2]:

﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: أَجيبوا -أيُّها النَّاسُ- ربَّكم، فآمِنوا به وأطيعوه واتَّبِعوا رَسولَه مِن قبْلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الَّذي لا شَيءَ يَرُدُّه ويَمنَعُ مَجيئَه بعدَ أن حكَم اللهُ به[3].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۞ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴾ [الطور: ٧، ٨].

﴿ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣١).

أي: ليس لكم أيُّ مَكانٍ تلجؤونَ إليه هَرَبًا مِن عَذابِ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ١٠ - ١٢].

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾.

أي: وما لكم مِن إنكارٍ لِما جُوزيتُم به، بل تَعترِفونَ بذُنوبِكم، ولا أحدَ يُنكِرُ ما نزَل بكم، ويَدفَعُه عنكم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٦).

قال الرَّسْعَني: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ يحتملُ وجهَينِ:

أحدهما: مِن مُنكِرٍ يُنكِرُ ويُغيِّرُ ما بكم. قاله ابنُ السَّائبِ.

الثَّاني: ما لكم مِن إنكارٍ، أي: لا تَقدِرونَ أن تُنكِروا شيئًا. قاله جماعةٌ، منهم الزَّجَّاجُ. ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٩١).

ممَّن اختار الوجهَ الأوَّلَ: البغويُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرَّازي، واختاره ابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٦).

قال ابن جرير: (﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ يقولُ: ولا أنتم تَقْدِرونَ لِما يَحِلُّ بكم مِن عِقابِه يَومَئذٍ على تغييرِه، ولا على انتِصارٍ منه إذا عاقَبَكم بما عاقَبَكم به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٥).

وممَّن اختار الوجهَ الثَّانيَ: الزَّجَّاجُ، والسمعاني، والزمخشري، والشوكاني، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٢).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: البِقاعي، فقال: (﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: مِن إنكارٍ يمكنُكم به مِن النَّجاةِ؛ لأنَّ الحَفَظةَ يَشهَدون عليكم، فإن صدَّقْتُموهم وإلَّا شَهِدتْ عليكم أعضاؤُكم =

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أنهَى ما قدَّمَه في قَولِه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾ نهايتَه، ودَلَّ عليه وعلى كُلِّ ما قادَتْه الحِكمةُ في حَيِّزِه، حتَّى لم يَبقَ لأحدٍ شُبهةٌ في شَيءٍ مِن الأشياءِ؛ كان ذلك سَبَبًا لِتَهديدِهم على الإعراضِ عنه، وتسليةِ رَسولِهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال مُعرِضًا عن خِطابِهم؛ إيذانًا بشَديدِ الغَضَبِ[1]:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾.

أي: فإنْ أعرَضَ المُشرِكونَ عن الاستِجابةِ لرَبِّهم فما أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- رَقيبًا عليهم تَحفَظُ أعمالَهم، وتُحاسِبُهم عليها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٧].

---

= وجُلودُكم، ولا لكم مِن أحدٍ يُنكِرُ شيئًا ممَّا تُجازونَ به؛ لِيُخلِّصَكم منه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٤٧، ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٦).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: فإنْ أعرَضوا فلَسْتَ مُقصِّرًا في دَعوتِهم، ولا عليك تَبِعةُ صَدِّهم؛ إذ ما أرسَلْناك حفيظًا عليهم... قوله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ دلَّ على نَفيِ التَّبِعةِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن إعراضِهم، وأنَّ الإعراضَ هو الإعراضُ عن دَعوتِه، فاستُفيدَ أنَّه قد بلَّغ الدَّعوةَ، ولولا ذلك ما أثبَتَ لهم الإعراضَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٣).

﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾.

أي: ما عليك -يا مُحمَّدُ- إلَّا أن تُبلِّغَ النَّاسَ ما أمَرَك اللهُ بتَبليغِه مِن الرِّسالةِ، وليس عليك هدايتُهم ولا حِسابُهم(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ فَقَدۡ كَذَّبَ أُمَمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [العنكبوت: ١٨].

﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَا﴾.

أي: وإنَّا إذا أعطَيْنا الإنسانَ نِعمةً مِنَّا -كالغِنَى والصِّحَّةِ وغيرِ ذلك- فَرِح بها واطمأَنَّ، وأعرَض عن اللهِ المُنعِمِ بها، فلم يَشكُرْه عليها(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣١).

قال ابن عاشور: (اختَلَفت مَحامِلُ المفَسِّرين للآيةِ؛ فمِنهم مَن حمَلَها على خُصوصِ الإنسانِ الكافِرِ باللهِ مِثلُ الزمخشريِّ والقرطبيِّ والطِّيبي. ومنهم مَن حمَلَها على ما يَعُمُّ أصنافَ النَّاسِ مِثلُ الطَّبَريِّ والبَغَويِّ والنَّسَفيِّ وابنِ كثير. ومنهم مَن حمَلَها على إرادةِ المعنَيَينِ؛ على أنَّ أوَّلَهما هو المقصودُ، والثَّانيَ مُندَرِجٌ بالتَّبَعِ، وهذه طريقةُ البَيضاويِّ وصاحبِ «الكشف». ومنهم مَن عَكَس، وهي طريقةُ الكَوَاشي في «تلخيصِه»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ [هود: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ﴾ [الروم: ٣٦].

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾.

أي: وإنْ تُصِبِ النَّاسَ شِدَّةٌ وبَلاءٌ بسَبَبِ ذُنوبِهم، فإنَّ الإنسانَ جَحودٌ لِما تقدَّمَ مِن نِعَمِ الله عليه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ [هود: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ [الروم: ٣٦].

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إذاقةَ الإنسانِ الرَّحمةَ، وإصابتَه بضِدِّها؛ أتْبَع ذلك بقَولِه: ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾، والمقصودُ منه ألَّا يَغتَرَّ الإنسانُ بما مَلَكَه مِن المالِ والجاهِ، بل إذا عَلِمَ أنَّ الكُلَّ مِلكُ اللهِ ومُلكُه، وأنَّه إنَّما حَصَل ذلك القَدْرُ تحتَ يَدِه لأنَّ اللهَ تعالى أنعَمَ عليه به؛ فحِينَئِذٍ يَصيرُ ذلك حامِلًا له

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٢).

قال ابن عاشور: (شمِل وَصْفُ ﴿ كَفُورٌ ﴾ ما يَشملُ كُفرانَ النِّعمةِ، وهما [أي: الكفرُ بالله وكفرُ النِّعمةِ] مُتلازِمانِ في الأكثرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٦).

على مَزيدِ الطَّاعةِ والخِدمةِ، وأمَّا إذا اعتَقَد أنَّ تلك النِّعَمَ إنَّما تَحصُلُ بسَبَبِ عَقْلِه وَجِدِّه واجتِهادِه، بَقِيَ مَغرورًا بنَفْسِه، مُعرِضًا عن طاعةِ اللهِ تعالى[1].

وأيضًا لَمَّا قدَّم اللهُ سُبحانَه في هذه السُّورةِ أنَّ له التَّصَرُّفَ التَّامَّ في عالَمِ الخَلقِ، بالأجسامِ المَرئيَّةِ، وفي عالَمِ الأمرِ، بالأرواحِ الحِسِّيَّةِ والمعنويَّةِ القائمةِ بالأبدانِ والمُدَبِّرةِ للأديانِ، وغيرِ ذلك مِن بَديعِ الشَّأنِ؛ فقال في افتِتاحِ السُّورةِ: ﴿ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٣]، وأتْبَعَه أشكالَه، إلى أنْ قال: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ ﴾ [الشورى: ٢٤] الآيةَ، ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗا ﴾ [الشورى: ١١] الآيةَ، ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الزمر: ٦٣]، ﴿ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ ﴾ [الشورى: ١٩]، ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [الشورى: ٢٠]الآيةَ، ﴿ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الشورى: ٢٧]، ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴾ [الشورى: ٣٢] الآيةَ، إلى أنْ ذَكَر أحوالَ الآخِرةِ في قَولِه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ يَقُولُونَ ﴾[الشورى: ٤٤] الآياتِ، وخَتَم بتصَرُّفِه المُطلَقِ في الإنسانِ مِن إنعامٍ وانتقامٍ، وما له مِنَ الطَّبعِ المُعْوَجِّ معَ ما وَهَبه له مِنَ العَقلِ المُقيمِ في أحسَنِ تقويمٍ، فدَلَّ ذلك على أنَّ له التَّصَرُّفَ التَّامَّ مِلكًا ومَلَكوتًا، خَلْقًا وأمرًا- أتْبَعَه الدَّليلَ على أنَّ تصَرُّفَه ذلك على سَبيلِ المِلكِ والقَهرِ إيجادًا وإعدامًا، إهانةً وإكرامًا، فقال[2]:

﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾.

أي: لله وَحْدَه مُلْكُ السَّمَواتِ ومُلكُ الأرضِ، وله وَحْدَه التَّصَرُّفُ في سُلطانِه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥١، ٣٥٢).

الواسِعِ بما يَشاءُ[١].

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: يَخلُقُ اللهُ ما يَشاءُ خَلْقَه[٢].

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾.

أي: يُعطي اللهُ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه إناثًا فقط[٣].

﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾.

أي: ويُعطي اللهُ لِمَن يَشاءُ مِن خَلْقِه ذُكورًا فقط[٤].

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٩).

قال السعدي: (هذه الآيةُ فيها الإخبارُ عن سَعةِ مُلكِه تعالى، ونُفوذِ تصَرُّفِه في المُلكِ في الخَلقِ لِما يشاءُ، والتَّدبيرِ لجَميعِ الأُمورِ، حتَّى إنَّ تدبيرَه -تعالى- مِن عُمومِه أنَّه يَتناوَلُ المخلوقةَ عن الأسبابِ الَّتي يُباشِرُها العِبادُ؛ فإنَّ النِّكاحَ مِن الأسبابِ لِولادةِ الأولادِ، فاللهُ تعالى هو الَّذي يُعطيهم مِنَ الأولادِ ما يَشاءُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٩، ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٨)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

أي: أو يَقرِنُ اللهُ لِمَن يشاءُ مِن خَلقِه بيْنَ الذُّكورِ والإناثِ[١].

﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾.

أي: ويَجعَلُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن الأزواجِ عَقيمًا لا يُولَدُ له[٢].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بالِغُ العِلمِ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه تعالى بما يَخلُقُه، وعِلمُه بمَن يَستحِقُّ كُلَّ قِسمٍ مِن الأقسامِ المتقَدِّمِ ذِكرُها؛ بالِغُ القُدرةِ على كُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك قُدرتُه على خَلْقِ ما يَشاءُ[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ فيه ذَمُّ الأمَلِ، والأمرُ بانتِهازِ الفُرصةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨، ١٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٤٠، ٣٤١).

قال القرطبي: (قال مجاهِدٌ: هو أن تَلِدَ المرأةُ غُلامًا ثمَّ تَلِدَ جاريةً، ثمَّ تَلِدَ غُلامًا ثمَّ تَلِدَ جاريةً. وقال محمَّدُ ابنُ الحَنَفيَّةِ: هو أن تَلِدَ تَوْءَمًا؛ غلامًا وجاريةً). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٨).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: البِقاعي، فقال: (﴿ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ مُجتَمِعَينِ في بَطنٍ ومُنفَرِدَينِ). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٩).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ خَلْقَه ما يشاءُ ليس خَلقًا مُهمَلًا عَرِيًّا عن الحِكمةِ؛ لأنَّه واسِعُ العِلمِ، لا يَفوتُه شَيءٌ مِن المعلوماتِ؛ فخَلْقُه الأشياءَ يجري على وَفقِ عِلمِه وحِكمتِه، وهو قديرٌ نافِذُ القُدرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٩).

في كُلِّ عَمَلٍ يَعرِضُ للعَبدِ؛ فإنَّ للتَّأخيرِ آفاتٍ[١]، فالإنسانُ لا يَدْري متى يُفاجِئُه الموتُ، وإذا فاجَأه الموتُ انقطعَ كلُّ عملٍ، كما قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إذا مات الإنسانُ انقطعَ عمَلُه))[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ تسليةٌ للدُّعاةِ مِن بَعدِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فالدَّاعي عليه البلاغُ، وليس عليه أنْ يَهديَ النَّاسَ -ولا يُمكِنُه ذلك-، لكنَّ بعضَ الدُّعاةِ إذا لم يَجِدْ مُجيبًا لدعوتِه أُصيبَ باليأسِ، واستحسرَ، وتَرَكَ الدَّعوةَ! وهذا غلَطٌ، فعلى الدَّاعي أنْ يَدعوَ إلى الله وإن لم يَستجِبْ له أحدٌ، وألَّا يَيأسَ، وإذا كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أخبَرَنا بأنَّه رأى النَّبيَّ وليسه معه أحدٌ[٣]؛ فإذا كان الأنبياءُ قد لا يُستجابُ لهم؛ فكيفَ بنا نحن[٤]؟!

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ الإنسانَ إذا فاز بهذا القَدرِ الحَقيرِ الَّذي حَصَل في الدُّنيا، فإنَّه يَفرَحُ بها، ويَعظُمُ غُرورُه بسَبَبِها، ويقَعُ في العُجبِ والكِبْرِ، ويَظُنُّ أنَّه فاز بكُلِّ المُنى، ووصَل إلى أقاصي السَّعاداتِ! وهذه طريقةُ مَن يَضعُفُ اعتِقادُه في سَعاداتِ الآخِرةِ، وهذه الطَّريقةُ مُخالِفةٌ لِطَريقةِ المؤمِنِ الَّذي لا يَعُدُّ نِعَمَ الدُّنيا إلَّا كالوُصْلةِ إلى نِعَمِ الآخِرةِ[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ فيه أنَّ الأولادَ هِبةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، والهِبةُ: هي العَطِيَّةُ بلا عِوَضٍ، وأنَّه لا اختيارَ للمرءِ بالنِّسبةِ للأولادِ؛ حيثُ جُعِل الأمرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٦).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩).

راجعًا إلى مشيئتِه تبارَك وتعالَى[١]، فالأولادُ جميعًا مِن الذُّكورِ والإناثِ مواهِبُ اللهِ تعالى وهداياه، فيَجِبُ أن يَقبَلوها منه قَبولَ الهدايا والهِباتِ على الشُّكرِ له والمِنَّةِ[٢]، فما قَدَّره اللهُ بيْنَ الزَّوجينِ مِن الوَلَدِ فقد وهَبَهما إيَّاه، وكفَى بالعَبدِ تعَرُّضًا لِمَقتِه أن يَتسَخَّطَ ما وَهَبه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ رأفةُ اللهِ تبارك وتعالى بعِبادِه؛ حيثُ يُنذِرُهم بعذابِه قبْلَ الوُقوعِ، ولا شَكَّ أنَّ هذا مِن رَحمتِه ورأفتِه بهم، وإلَّا لَتَرَكهم يَفعَلونَ ما يَشاؤُونَ حتَّى يَنزِلَ بهم العَذابُ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس حفيظًا على الأُمَّةِ؛ لا في حياتِه ولا بعدَ مماتِه، وعلى هذا فلا يُستَغاثُ به بعدَ مَوتِه، ولا يُطلَبُ منه الهِدايةُ، وإنَّما الهدايةُ مِن عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٥].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ عبَّرَ سُبحانَه فيهنَّ بلَفظِ (الهِبةِ)؛ لأنَّ الأوهامَ العاديَّةَ قد تكتَنِفُ العَقلَ، فتَحجُبُه عن تأمُّلِ محاسِنِ التَّدبيراتِ الإلهيَّةِ، وتَرمي به في مَهاوي الأسبابِ الدُّنيويَّةِ، فيَقَعُ المُسلِمُ مع إسلامِه في مُضاهاةِ الكُفَّارِ في كراهةِ البَناتِ، وفي وادي الوَأدِ بتَضييعِهنَّ أو التَّقصيرِ في حُقوقِهنَّ، وتنبيهًا على أنَّ الأُنثَى نِعمةٌ، وأنَّ نِعمَتَها لا تَنقُصُ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٣٥).

نِعمةِ الذَّكَرِ، ورُبَّما زادَتْ، وإيقاظًا مِن سِنَةِ الغَفلةِ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال في إعطاءِ الإناثِ وَحْدَهنَّ، وفي إعطاءِ الذُّكورِ وَحْدَهم بلَفظِ (الهِبةِ)، فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، وقال في إعطاءِ الصِّنفَينِ معًا: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًا﴾؟

**الجَوابُ**: أنَّ كُلَّ شَيئَينِ يُقرَنُ أحَدُهما بالآخَرِ فهما زَوجانِ، وكُلُّ واحِدٍ منهما يُقالُ له: (زَوجٌ)، والكِنايةُ في ﴿يُزَوِّجُهُمۡ﴾ عائِدةٌ على الإناثِ والذُّكورِ الَّتي في الآيةِ الأُولى، والمعنى: يَقرِنُ الإناثَ والذُّكورَ، فيَجعَلُهم أزواجًا[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًا﴾ تمامُ قُدرةِ اللهِ تبارك وتعالى؛ حيثُ خَلَقَ مِن هذه النُّطفةِ وهي واحِدةٌ؛ خَلَقَ منها ذُكورًا خُلَّصًا، وإناثًا خُلَّصًا، وأصنافًا ذُكورًا وإناثًا، مع أنَّ الماءَ واحِدٌ، ولكِنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى على كلِّ شيءٍ قَديرٌ[٣]، وأيضًا لَمَّا استوى البشَرُ في الإنسانيَّةِ والنِّكاحِ الَّذي هو سببُ الولادةِ، واختلفتْ أصنافُ أولادِهم؛ كان ذلك أدَلَّ دليلٍ على أنَّه لا اختيارَ لأحَدٍ معه، وأنَّ الأسبابَ لا تؤثِّرُ أصلًا إلَّا به[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا﴾ قيل: عبَّرَ في الذَّكَرِ بما هو أبلَغُ في الكَثرةِ؛ تَرغيبًا في سُؤالِه، والخُضوعِ لديه رجاءَ نَوالِه[٥].

٧- قال تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ٣٥٥).

عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ هذا المقامُ شَبيهٌ بقَولِه تعالى عن عيسى عليه السَّلامُ: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١] أي: دَلالةً لهم على قُدرتِه تعالى وتقَدَّس؛ حيث خَلَق الخَلْقَ على أربعةِ أقسام؛ فآدَمُ عليه السَّلامُ مخلوقٌ مِن تُرابٍ لا مِن ذَكَرٍ ولا أُنثَى، وحوَّاءُ عليها السَّلامُ مخلوقةٌ مِن ذَكَرٍ بلا أُنثى، وسائِرُ الخَلقِ سِوى عيسى عليه السَّلامُ مِن ذَكَرٍ وأنثى، وعيسى عليه السَّلامُ مِن أُنثَى بلا ذَكَرٍ؛ فتَمَّت الدَّلالةُ بخَلقِ عيسى بنِ مَريمَ عليهما السَّلامُ؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾، فهذا المقامُ في الآباءِ، والمقامُ الأوَّلُ في الأبناءِ، وكُلٌّ منهما أربعةُ أقسام؛ فسُبحانَ العليمِ القَديرِ[1]. فهذه القِسمةُ الرُّباعيَّةُ في الأُصولِ كالقِسمةِ الرُّباعيَّةِ في الفُروعِ؛ فتَمَّت الدَّلالةُ على أنَّه ما شاء كان ولا رادَّ له، وما لم يَشأْ لم يكُنْ ولا مُكَوِّنَ له، ولا مانِعَ لِما أعطى، ولا مُعطِيَ لِما مَنَع سبحانَه[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ بعدَ أنْ قطَعَ خِطابَهم عَقِبَ قولِه: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الشورى: ٣٦] بما تَخلَّصَ به إلى الثَّناءِ على فِرَقِ المؤمنينَ، وما استتْبَعَ ذلك مِن التَّسجيلِ على المشرِكينَ بالضَّلالةِ والعذابِ، ووَصْفِ حالِهم الفظيعِ؛ عادَ الكلامُ إلى خِطابِهم بالدَّعوةِ الجامعةِ لِما تَقدَّمَ؛ طَلبًا لِتَدارُكِ أمْرِهم قبْلَ الفَواتِ، فاستُؤنِفَ الكلامُ استئنافًا فيه معنى النَّتيجةِ للمَواعظِ المتقدِّمةِ؛ لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن الزَّواجِرِ يُهيِّئُ بعضَ النُّفوسِ لِقَبولِ دَعوةِ الإسلامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٠، ١٣١).

- قولُه: ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ الاستِجابةُ: إجابةُ الدَّاعي، والسِّينُ والتَّاءُ للتَّوكيدِ. واللَّامُ في ﴿لِرَبِّكُم﴾ لتأكيدِ تعديةِ الفِعلِ إلى المفعولِ؛ مِثلُ: حَمِدتُ له، وشكَرتُ له، وتُسمَّى لامَ التَّبليغِ، ولامَ التَّبيينِ(١).

- وفي قولِه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ * ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٦، ٤٧] مُناسَبةٌ حسَنةٌ، ففي سُورةِ (الرُّوم): ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾ [الروم: ٤٣]؛ فاختَلَفَ ما انقطَعَ إليه قولُه: ﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾، فجاءَ في هذه السُّورةِ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾، وفي (الرُّوم): ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾؛ ووجْهُ هذه المناسَبةِ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ معناهُ: استقِمْ أنت ومَن معك مِن المؤمنينَ على الدِّينِ المستقيمِ مِن قبْلِ أنْ يَجِيءَ يومٌ لا يَنفَعُ فيه الإيمانُ؛ فكأنَّه خاطَبَ النَّاسَ بالاجتماعِ على الإيمانِ، والتَّآلُفِ على الإسلامِ قبْلَ يومِ القيامةِ الَّذي تَتفرَّقُ فيه الجُموعُ؛ ففريقٌ في الجنَّةِ، وفريقٌ في السَّعيرِ، فلمَّا كان قولُه: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ ﴾ أمْرًا للنَّاسِ كلِّهم بالاجتماعِ على الحقِّ ورفضِ الباطلِ، حذَّرَهم التَّفرُّقَ في الآخِرةِ، ومَصيرُ المطيعِ إلى دارِ الثَّوابِ، والعاصي إلى دارِ العقابِ؛ فكان هذا مُلائمًا لِما قبْلَه.

أمَّا الآيةُ الَّتي هنا في سُورةِ (الشُّورى) فجاءتْ بعدَ قولِه: ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ...﴾ إلى: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٥ - ٤٧]، فلمَّا قال: إنَّ الظَّالِمينَ لا وليَّ لهم يَنصُرُهم مِن دونِ اللهِ، قال عِندَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣١).

ذِكرِ اليومِ الَّذي لا مَرَدَّ له مِن اللهِ: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ﴾، فاقتَضى ما تَقدَّمَ مِن ذِكرِ أنَّه لا ناصرَ لهم يَدفَعُ عذابَ اللهِ تعالى عنهم؛ سَدَّ طُرُقِ النَّجاةِ دونَهم بأنَّه لا ملجَأَ لهم، ولا ذابَّ عنهم، ومَن دهَمَه الخَطْبُ العظيمُ الَّذي لا يُطيقُ احتمالَه، فلم يَجِدْ مَهرَبًا ولا ناصرًا، لم يَبقَ له إلَّا الاستِسلامُ(١).

٢- قولُه تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾

- قولُه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ فيه تَلْوينٌ للكلامِ، وصَرْفٌ له عن خِطابِ النَّاسِ بعْدَ أمرِهم بالاستِجابةِ، وتَوجيهٌ له إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: فإنْ لم يَسْتجيبوا وأعرَضوا عمَّا تَدْعوهم إليه، فما أرسَلْناك رقيبًا ومُحاسِبًا عليهم(٢).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا ...﴾ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ الآيةَ [الشورى: ٤٧]، وهو جامعٌ لِما تَقدَّمَ؛ إذ أمَرَ اللهُ نَبيَّه بدَعْوتِهم للإيمانِ مِن قولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، ثمَّ قولِه: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ﴾ [الشورى: ١٥]، وما تَخلَّلَ ذلك واعترَضَه مِن تَضاعيفِ الأمْرِ الصَّريحِ والضِّمْنيِّ إلى قولِه: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم﴾ الآيةَ [الشورى: ٤٧]، ثمَّ فُرِّعَ على ذلك كلِّه إعلامُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بمَقامِه وعمَلِه إنْ أعرَضَ مُعرِضونَ مِن الَّذين

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٦١-١١٦٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤١٥، ٤١٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٠٦، ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦).

يَدْعوهم، وبمَعذِرتِه فيما قام به، وأنَّه غيرُ مُقصِّرٍ، وهو تَعريضٌ بتَسليتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما لاقاهُ مِن المشرِكينَ، والمعنى: فإنْ أعرَضوا بعدَ هذا كلِّه، فما أرسَلْناك حفيظًا عليهم، ومُتكفِّلًا بهم؛ إذ ما عليك إلَّا البلاغُ. وإذ قد كان ما سبَقَ مِن الأمْرِ بالتَّبليغِ والدَّعوةِ مُصَدَّرًا بقولِه أوائلَ السُّورةِ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴾ [الشورى: ٦]، لا جَرَمَ ناسَبَ أنْ يُفرِّعَ على تلك الأوامرِ بعدَ تَمامِها مِثلَ ما قدَّمَ لها، فقال: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾، وهذا الارتباطُ هو نُكتةُ الالْتفاتِ مِن الخِطابِ الَّذي في قولِه: ﴿ ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم ﴾ الآيةَ [الشورى: ٤٧]، إلى الغَيبةِ في قولِه هنا: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ ﴾، وإلَّا لِقيل: فإنْ أعرَضتُم[1].

- قولُه: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا ﴾ ليس هو جَوابَ الشَّرْطِ في المعنى، ولكنَّه دَليلٌ عليه، وقائمٌ مَقامَه؛ إذِ المعنَى: فإنْ أعْرَضوا فلَسْتَ مُقصِّرًا في دَعوتِهم، ولا عليك تَبِعةُ صَدِّهم؛ إذ ما أرْسَلْناك حَفيظًا عليهم، بقَرينةِ قولِه: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾[2].

- وجُملةُ ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًا ﴾؛ باعتبارِ أنَّها دالَّةٌ على جَوابِ الشَّرطِ المقدَّرِ[3].

- وهذه الجُملةُ: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِنَّا رَحۡمَةٗ فَرِحَ بِهَاۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ ﴾ تتَّصِلُ بقولِه: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ﴾؛ لِما تَضمَّنَتْه هذه مِن التَّعريضِ بتَسليةِ الرَّسولِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٢، ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما لاقاهُ مِن قَومِه، ويُؤذِنُ بهذا الاتِّصالِ أنَّ هاتَينِ الجُملتَينِ جُعِلتَا آيةً واحدةً هي ثامنةٌ وأربعونَ في هذه السُّورةِ؛ فالمعنى: لا يَحزُنْك إعراضُهم عن دَعْوتِك؛ فقد أعرَضوا عن نِعمتي وعن إنذاري بزيادةِ الكُفْرِ؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾[1].

- وابتداءُ الكلامِ بضَميرِ الجلالةِ المنفصِلِ ﴿وَإِنَّآ﴾ مُسنَدًا إليه فِعلُ ﴿أَذَقْنَا﴾، دونَ أنْ يُقالَ: (وإذا أذَقْنا الإنسانَ... إلخ)، مع أنَّ المقصودَ وَصْفُ هذا الإنسانِ بالبَطَرِ بالنِّعمةِ، وبالكُفرِ عِندَ الشِّدَّةِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن مَوقعِ هذه الجُملةِ هنا تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن جَفاءِ قَومِه وإعراضِهم؛ فالمعنى: أنَّ مُعامَلتَهم ربَّهم هذه المعاملةَ تُسَلِّيكَ عن مُعاملتِهم إيَّاك؛ ولهذا لا تَجِدُ نَظائرَ هذه الجُملةِ في مَعْناها مُفتتَحًا بمِثلِ هذا الضَّميرِ؛ لأنَّ مَوقعَ تلك النَّظائرِ لا تُماثِلُ مَوقعَ هذه، وإنْ كان مَعناهما مُتماثِلًا، فهذه الخُصوصيَّةُ خاصَّةٌ بهذه الجُملةِ. ولكنْ نَظمُ هذه الآيةِ جاءَ صالحًا لإفادةِ هذا المعنى، ولإفادةِ معنًى آخَرَ مُقارِبٍ له؛ وهو أنْ يكونَ هذا حِكايةَ خُلُقٍ للنَّاسِ كلِّهم مُرتكِزٍ في الجِبِلَّةِ، لكنَّ مَظاهِرَه مُتفاوِتةٌ بتَفاوُتِ أفرادِه في التَّخلُّقِ بالآدابِ الدِّينيَّةِ، فيُحمَلُ (الإنسانُ) في الموضعَينِ على جِنسِ بَني آدمَ، ويُحمَلُ الفرَحُ على مُطلَقِه المَقولِ عليه بالتَّشكيكِ حتَّى يَبلُغَ مَبلَغَ البَطَرِ، وتُحمَلُ السَّيِّئةُ الَّتي قدَّمَتْها أيديهِم على مَراتبِ السَّيِّئاتِ إلى أنْ تَبلُغَ مَبلَغَ الإشراكِ، ويُحمَلُ وَصْفُ ﴿كَفُورٌ﴾ على ما يَشمَلُ اشتِقاقُه مِن الكُفْرِ بتَوحيدِ اللهِ، والكُفرِ بنِعمةِ اللهِ. والمرادُ بـ (الإنسان) في الموضعِ الأوَّلِ والموضعِ الثَّاني معنًى واحدٌ، وهو تَعريفُ الجِنسِ المرادُ به الاستِغراقُ، أي: إذا أذَقْنا النَّاسَ، وأنَّ النَّاسَ كَفُورونَ، ويكونُ استغراقًا عُرْفيًّا أُرِيدَ به أكثَرُ جِنسِ الإنسانِ في ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٣).

الزَّمانِ والمكانِ؛ لأنَّ أكثَرَ نَوعِ الإنسانِ يومَئذٍ مُشرِكون، وهذا هو المناسِبُ لِقَولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾، أي: شَديدُ الكُفرِ قَوِيُّه، ولقولِه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: مِن الكُفرِ. وإنَّما عُدِلَ عن التَّعبيرِ بـ (النَّاسِ) إلى التَّعبيرِ بـ (الإنسانِ)؛ للإيماءِ إلى أنَّ هذا الخُلُقَ المُخبَرَ به عنهم هو مِن أخلاقِ النَّوعِ، لا يُزيلُه إلَّا التَّخلُّقُ بأخلاقِ الإسلامِ، فالَّذين لم يُسلِموا باقُونَ عليه، وذلك أدْخَلُ في التَّسليةِ؛ لأنَّ اسمَ (الإنسانِ) اسمُ جِنسٍ يَتضمَّنُ أوصافَ الجِنسِ المُسمَّى به على تَفاوُتٍ في ذلك؛ وذلك لِغَلَبةِ الهوَى[1].

- قولُه: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ ...﴾ فيه تأْكيدُ الخبرِ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لِمُناسَبةِ التَّسليةِ بأنْ نُزِّلَ السَّامعُ الَّذي لا يَشُكُّ في وُقوعِ هذا الخبرِ مَنزِلةَ المتردِّدِ في ذلك؛ لاستِعظامِه إعراضَهم عن دَعوةِ الخَيرِ[2].

- وتَصديرُ الشَّرطيَّةِ الأُولى ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ بحرفِ (إذا)؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إيصالَ النِّعمةِ مُحقَّقُ الوُجودِ، كثيرُ الوُقوعِ، كما أنَّ تَصديرَ الثَّانيةِ ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ بـ (إنْ)؛ للإيذانِ بنُدرةِ وُقوعِها[3]، وأنَّ ما يَعْفُو اللهُ تعالى عنه أكثرُ[4]، وفي نسبةِ الرَّحمةِ إليه تعالى دونَ السَّيِّئةِ تعليمٌ للعبادِ ألَّا يُضافَ إليه سبحانَه الشَّرُّ[5].

- وأتَى في الرَّحمةِ بالفعلِ الماضي ﴿أَذَقْنَا﴾ الدَّالِّ على تحقيقِ الوُقوعِ؛ وأتَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٣ - ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١١/ ٤٣).

بفعلِ الإذاقةِ الدَّالِّ على مباشرةِ الرَّحمةِ لهم؛ وأنَّها مَذُوقَةٌ لهم -والذَّوقُ هو أخَصُّ أنواعِ الملابَسةِ وأشَدُّها، وأمَّا في حصولِ السَّيِّئةِ فأتَى بالمستقبَلِ ﴿تُصِبْهُمْ﴾ الدَّالِّ على أنَّه غيرُ مُحَقَّقٍ ولا بُدَّ[1].

وقيل: عبَّرَ بالذَّوقِ؛ لأنَّ نِعَمَ اللهِ في الدُّنيا وإنْ كانت عَظيمةً فإنَّها بالنِّسبةِ إلى السَّعاداتِ المُعَدَّةِ في الآخِرةِ كالقَطرةِ بالنِّسبةِ إلى البَحرِ[2]. وقيل: استَعمَلَ في الرَّحمةِ الإذاقةَ، وفي مُقابَلتِها الإصابةَ، فقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ الإنسانَ بأدنى ما يُعطى مِنَ النَّعمةِ يَأشَرُ ويَبطَرُ؛ إشارةً إلى قَولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[3] [العلق: ٦، ٧].

- وأُفرِدَ الضَّميرُ في ﴿فَرِحَ﴾، وجُمِع في ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾، وعَمَّ في (إِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ)، لِمَفهومٍ واحدٍ على التَّرقِّي في معنى: ليس ببِدْعٍ مِن هذا الإنسانِ المعهودِ الإصرارُ؛ لأنَّ هذا الجنسَ مَوسومٌ بكُفرانِ النِّعمِ، فجعَلَ ذمَّ «الإنسانِ» الثَّاني المُطلَقِ دليلًا على ذمِّ هذا المقيَّدِ[4].

- وقولُه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بما قدَّموا مِن المعاصي، وعُبِّرَ بالأيدي؛ لأنَّ أكثَرَ الأفعالِ تُزاوَلُ بها؛ فالأيدي أكثَرُ عمَلًا مِن الأرجُلِ، كما أنَّ حَرَكةَ اليَدِ -وإن كانتْ مِن جِنسٍ واحدٍ هي وحَركةُ الرِّجْلِ- أكثَرُ أنواعًا فضْلًا عن أفرادِها؛ فالأعمالُ حَقيقةً إنَّما تُزاوَلُ باليَدِ؛ لأنَّها أكثَرُ مِن أيِّ عُضْوٍ في البدنِ مُزاولةً للأعمالِ. حتَّى لو قال قائلٌ: اللِّسانُ أكثَرُ حركةً مِن اليَدِ؛ مَن يُحصي كَلماتِ اللِّسانِ؟ فالجوابُ: أنَّها وإنْ كانتْ مِن جِنسٍ واحدٍ أيضًا،

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٣).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٣، ٨٤).

لكنَّ اليَدَ تَبطِشُ، تضْرِبُ، تَكتُبُ، تَمْحو، يعني لا تُحصى أنواعُها؛ فلذلك عُبِّرَ بالأيدي عن النَّفْسِ(١).

- وقولُه: ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ مِن وضْعِ المُضمَرِ مَوضعَ المظْهَرِ، ولم يقُلْ: (فإنَّه كَفورٌ)؛ لِيُسجِّلَ على أنَّ هذا الجنسَ مَوسومٌ بكُفرانِ النِّعمِ، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، والمعنى أنَّه يَذكُرُ البلاءَ، ويَنسى النِّعمَ ويَغمِطُها، وهذا وإنِ اختَصَّ بالمجرمينَ، جازَ إسنادُه إلى الجنسِ؛ لِغَلَبَتِهم واندراجِهم فيه(٢). وأيضًا لم يَقُلْ (فإنَّه كفورٌ)؛ لِيُبيِّنَ أنَّ طَبيعةَ الإنسانِ تقتَضي هذه الحالةَ، إلَّا إذا أدَّبَها الرَّجُلُ بالآدابِ الَّتي أرشدَ اللهُ إليها(٣).

- والحُكمُ الَّذي تَضمَّنتْه جُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ هو المقصودُ مِن جُملةِ الشَّرطِ كلِّها؛ ولذلك أُعِيدَ حَرْفُ التَّأكيدِ فيها بعدَ أنْ صُدِّرتْ به الجُملةُ المُشتمِلةُ على الشَّرْطِ؛ لِيُحيطَ التَّأكيدُ بكِلْتا الجُملتَينِ، فغلَبَ على نَوعِ الإنسانِ الكُفرُ باللهِ على الإيمانِ به؛ ولذلك عقَّبَ هذا الحُكمَ على النَّوعِ بقولِه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٤٩]، ولم يَخرُجْ عن هذا العمومِ إلَّا الصَّالحونَ مِن نوعِ الإنسانِ، على تَفاوُتٍ بيْنَهم في كَمالِ الخُلُقِ(٤).

٣- قولُه تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٦).

إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۞ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴾

- قولُه: ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما سبَقَه مِن عَجيبِ خُلُقِ الإنسانِ الَّذي لم يُهذِّبْه الهدْيُ الإلهيُّ، يُثيرُ في نفْسِ السَّامعِ سُؤالًا عن فَطْرِ الإنسانِ على هذَينِ الخُلُقينِ اللَّذَينِ يَتلقَّى بهما نِعمةَ ربِّه وبَلاءَه، وكيف لم يُفطَرْ على الخُلُقِ الأكملِ؛ لِيَتلقَّى النِّعمةَ بالشُّكرِ، والضُّرَّ بالصَّبرِ والضَّراعةِ؟ وسُؤالًا أيضًا عن سَببِ إذاقةِ الإنسانِ النِّعمةَ مَرَّةً والبؤسَ مرَّةً، فيَبْطَرُ ويَكفُرُ، وكيف لم يُجعَلْ حالُه كَفافًا لا لَذَّاتٍ له ولا بلايا كَحالِ العَجْماواتِ؟ فكان جَوابُه: أنَّ اللهَ المتصرِّفُ في السَّمواتِ والأرضِ يَخلُقُ فيهما ما يَشاءُ مِن الذَّواتِ وأحوالِها، وهو جَوابٌ إجماليٌّ إقناعيٌّ يُناسِبُ حضْرةَ التَّرفُّعِ عن الدُّخولِ في المجادَلةِ عن الشُّؤونِ الإلهيَّةِ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿ لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ واردٌ على نَمَطِ الآياتِ السَّابقةِ، وهي: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ ﴾ [الشورى: ٢٥]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ ﴾ [الشورى: ٢٨]، ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖ ﴾ [الشورى: ٢٩]، ولَمَّا ذكَرَ بَثَّ الحيوانِ، وأراد أنْ يُبيِّنَ كيفيَّةَ البَثِّ قدَّمَ استِبدادَه بالمُلكِ، واستِقلالَه بالملَكوتِ، ثمَّ ثنَّى بأنَّه خالقٌ لِما يشاءُ، فاعلٌ لِما يُريدُ، له التَّصرُّفُ في مُلكِه ما يشاءُ كيف يشاءُ، ثمَّ ثلَّثَ بقولِه: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ﴾؛ فترَقَّى مِن ذلك العامِّ إلى ذِكرِ الإناثِ، ثمَّ إلى إفرادِ الذُّكورِ، ثمَّ إلى جمْعِهما، فلا يَدخُلُ في الكلامِ إرادةُ الإنسانِ وكَراهتُه، وأمَّا قولُه: ﴿ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ فهو كالاستِدراكِ وتَتميمِ معنى الاستِبدادِ بالخلْقِ؛ ولذلك غيَّرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٦، ١٣٧).

العبارةَ إلى ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ﴾[١].

- وفي قولِه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إجمالٌ يَبعَثُ المتأمِّلَ المُنصِفَ على تَطلُّبِ الحِكمةِ في ذلك، فإنْ تَطلَّبَها انقادَتْ له، كما أَومَأَ إلى ذلك تَذييلُ هذه الجُملةِ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾، فكأنَّه يقولُ: عليكم بالنَّظَرِ في الحِكمةِ في مَراتبِ الكائناتِ وتَصرُّفِ مُبدِعِها؛ فكما خلَقَ الملائكةَ على أكمَلِ الأخلاقِ في جميعِ الأحوالِ، وفطَرَ الدَّوابَّ على حدٍّ لا يَقبَلُ كَمالَ الخُلُقِ، كذلك خلَقَ الإنسانَ على أساسِ الخَيرِ والشَّرِّ، وجعَلَه قابلًا للزِّيادةِ منهما، على اختلافِ مَراتبِ عُقولِ أفرادِه وما يُحيطُ بها مِن الاقتِداءِ والتَّقليدِ، وخلَقَه كاملَ التَّمييزِ بيْنَ النِّعمةِ وضِدِّها؛ لِيَرتفعَ دَرَجاتٍ ويَنحَطَّ دركاتٍ ممَّا يَختارُه لِنَفْسِه[٢].

- قولُه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ بَدَلٌ مِن جُملةِ ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ بدَلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّ خلْقَه ما يشاءُ يَشتمِلُ على هِبَتِه لِمَن يَشاءُ ما يشاءُ، وهذا الإبدالُ إدماجُ مَثَلٍ جامعٍ لِصُوَرِ إصابةِ المحبوبِ، وإصابةِ المكروهِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ هو مِن المكروهِ عِندَ غالبِ البشرِ، ويَتضمَّنُ ضَرْبًا مِن ضُروبِ الكُفرانِ، وهو اعتقادُ بعضِ النِّعمةِ سيِّئةً في عادةِ المشرِكينَ مِن تَطيُّرِهم بوِلادةِ البَناتِ لهم[٣].

- وتَنكيرُ ﴿إِنَٰثًا﴾؛ لأنَّ التَّنكيرَ هو الأصلُ في أسماءِ الأجناسِ، وتَعريفُ ﴿ٱلذُّكُورَ﴾ باللَّامِ؛ لأنَّهم الصِّنفُ المعهودُ للمُخاطَبينَ، فاللَّامُ لِتَعريفِ الجنسِ، وإنَّما يُصارُ إلى تَعريفِ الجنسِ لِمَقصَدٍ، أي: يَهَبُ ذلك الصِّنفَ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٥، ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٣٨).

الَّذي تَعهَدونَه، وتَتحدَّثونَ به، وتَرغَبونَ فيه[١]. وقيل: نكَّرهنَّ وعرَّف الذُّكورَ؛ لانحِطاطِ رُتبَتِهنَّ، لئلَّا يُظنَّ أنَّ التَّقديمَ كان لأحقِّيَّتِهنَّ به[٢].

- وفي قولِه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ قدَّمَ الإناثَ مع أنَّ جِهتَهنَّ التَّأخيرُ؛ لأنَّ الآيةَ سِيقَتْ لبيانِ عظَمةِ مُلكِه سُبحانَه ومشيئتِه، وأنَّه فاعلٌ ما يشاءُ، لا ما يشاؤُه عبيدُه، ولَمَّا كان الأبَوانِ لا يُريدانِ إلَّا الذُّكورَ غالبًا قدَّمَهنَّ في الذِّكرِ؛ لبيانِ نفوذِ إرادتِه ومشيئتِه، وانفرادِه بالأمرِ. وقيل: تقديمُ الإناثِ لأنَّهنَّ أكثرُ لتكثيرِ النَّسلِ. وقيل: بُدِئ في هذه الآيةِ بذكرِ الإناثِ؛ تأنيسًا بهنَّ، وتشريفًا لهنَّ؛ لِيُهتمَّ بصَونِهنَّ، والإحسانِ إليهنَّ. وقيل: جبرًا لهنَّ؛ مِن أجْلِ استِثقالِ الوالدينِ لِمَكانِهنَّ.

وقيل: قدَّمَ الإناثَ في الذِّكرِ على الذُّكورِ في قولِه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾، ثمَّ في الآيةِ الثَّانيةِ قدَّمَ الذُّكورَ على الإناثِ، فقال: ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا﴾؛ وذلك لِوُجوهٍ؛ الأوَّلُ: أنَّ الكريمَ يَسعى في أن يقَعَ الخَتْمُ على الخَيرِ والرَّاحةِ والسُّرورِ والبَهجةِ، فإذا وهَبَ الولدَ الأُنثى أوَّلًا، ثمَّ أَعطى الذَّكَرَ بعدَه، فكأنَّه نقَلَه مِن الغمِّ إلى الفرَحِ، وهذا غايةُ الكرمِ، أمَّا إذا أَعطى الولدَ الذَّكَرَ أوَّلًا، ثمَّ أَعطى الأُنثى ثانيًا، فكأنَّه نقَلَه مِن الفرَحِ إلى الغمِّ، فذكَرَ تعالى هِبةَ الولدِ الأُنثى أوَّلًا، وثانيًا هبةَ الولدِ الذَّكَرِ؛ حتَّى يكونَ قد نقَلَه مِن الغمِّ إلى الفرحِ، فيكونَ ذلك أليَقَ بالكرمِ. الثَّاني: أنَّه إذا أَعطى الولدَ الأُنثى أوَّلًا، عَلِم أنَّه لا اعتراضَ له على اللهِ تعالى، فيَرْضى بذلك، فإذا أعطاهُ الولدَ الذَّكَرَ بعدَ ذلك، عَلِم أنَّ هذه الزِّيادةَ فضلٌ مِن اللهِ تعالى وإحسانٌ إليه، فيَزدادُ شُكرُه وطاعتُه، ويَعلَمُ أنَّ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن)) للأنصاري (ص: ٥١٠).

إنَّما حصَلَ بمَحْضِ الفضلِ والكرَمِ. الثَّالثُ: الأُنثى ضَعيفةٌ ناقصةٌ عاجزةٌ، فقدَّمَ ذِكرَها تَنبيهًا على أنَّه كلَّما كان العجزُ والحاجةُ أتَمَّ، كانتْ عِنايةُ اللهِ به أكثَرَ. الرَّابعُ: كأنَّه يُقالُ: أيَّتُها المرأةُ الضَّعيفةُ العاجزةُ، قدَّمتُكِ في الذِّكرِ؛ لِتَعْلَمي أنَّ المُحسِنَ المُكرِمَ هو اللهُ تعالى -فمِنَ الآباءِ والأُمَّهاتِ مَن يَكرَهُ وُجودَها- فإذا عَلِمَتِ المرأةُ ذلك، زادتْ في الطَّاعةِ والخِدمةِ والبُعدِ عن مُوجِباتِ الطَّعْنِ والذَّمِّ.

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه ذكَرَ البلاءَ في آخِرِ الآيةِ الأُولى، وكُفرانَ الإنسانِ بنِسيانِه الرَّحمةَ السَّابقةَ عِندَه، ثمَّ عقَّبَه بذِكرِ مُلكِه ومَشيئتِه، وذِكرِ قِسمةِ الأولادِ، فقدَّمَ الإناثَ؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ أنَّه فاعلٌ ما يَشاؤُه، لا ما يَشاؤُه الإنسانُ، فكان ذِكرُ الإناثِ اللَّاتي مِن جُملةِ ما لا يشاؤُه الإنسانُ أهَمَّ، والأهمُّ واجبُ التَّقديمِ، ولِيَلِيَ الجنسُ الَّذي كانتِ العربُ تَعُدُّه بلاءً ذِكرَ البلاءِ، وأخَّرَ الذُّكورَ، فلمَّا أخَّرَهم لذلك، تَدارَكَ تأْخيرَهم -وهم أَحِقَّاءُ بالتَّقديمِ- بتَعريفِهم؛ فجبَر نقْصَ الأُنوثَة بالتَّقديمِ، وجبَر نقصَ التَّأخيرِ بالتَّعريفِ؛ لأنَّ التَّعريفَ تَنويهٌ وتَشهيرٌ، كأنَّه قال: ويَهَبُ لِمَن يَشاءُ الفُرسانَ الأعلامَ المذكورينَ الَّذين لا يَخْفَوْنَ عليكم، ثمَّ أَعطَى بعدَ ذلك كِلا الجِنْسينِ حقَّه مِن التَّقديمِ والتَّأخيرِ، لِيُعلَمَ أنَّ تقديمَهنَّ لم يكنْ لِتَقدُّمِهنَّ، بل لمُقتضًى، فقال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾، كما قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾[1] [القيامة: ٣٩].

- كما أنَّ تقديمَ الإناثِ فيه تعريضٌ بالمشرِكينَ الَّذين كانوا يَتطيَّرونَ بإنجابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٤٨)، ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

البناتِ، على عكسِ العادةِ في تَقديمِ الذُّكورِ على الإناثِ حيثُما ذُكِرا في القرآنِ، فهذا مِن دَقائقِ هذه الآيةِ[١].

- وتغييرُ العاطفِ في الثَّالثِ، إذ عُطِف بـ﴿ أَوْ ﴾ في قولِه: ﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّه قسيمُ المشترَكِ بيْنَ القِسمينِ، ولم يَحتَجْ إليه الرَّابعُ؛ لإفصاحِه بأنَّه قسيمُ المشترَكِ بيْنَ الأقسامِ المتقدِّمةِ، فلو عُطِف بالواوِ تُوهِّم أنَّه قِسمٌ لكلٍّ مِن القِسمينِ دونَ المشتركِ بيْنَهما[٢].

- وفي قولِه: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بصحَّةِ التَّقسيمِ، وهو استيفاءُ المتكلِّمِ جميعَ أقسامِ المعنى الَّذي هو شارعٌ فيه بحيثُ لا يُغادِرُ منه شيئًا؛ فإنَّه سبحانَه إمَّا أنْ يُفرِدَ العبدَ بهبةِ الإناثِ، أو بهبةِ الذُّكورِ، أو بهما جميعًا، أو لا يَهَبَه شيئًا؛ فقد وقَعتْ صحَّةُ التَّقسيمِ في هذه الآيةِ على التَّرتيبِ الَّذي تَستدعيه البلاغةُ، وهو الانتقالُ في نَظمِ الكلامِ ورَصْفِه مِن الأدْنَى إلى الأعْلَى؛ فقدَّمَ هِبةَ الإناثِ، وانتقَلَ إلى هبةِ الذُّكورِ، ثمَّ إلى هِبةِ المجموعِ، وجاء في كلِّ قِسمٍ مِن أقسامِ العَطيَّةِ بلَفظِ الهبةِ، وأفرَدَ معنى الحِرمانِ بالتَّأخيرِ؛ لأنَّ إنعامَه على عِبادِه أهَمُّ عِندَه، وتَقديمُ الأهمِّ واجبٌ في كلِّ كلامٍ بليغٍ، والآيةُ إنَّما سِيقتْ للاعتِدادِ بالنِّعمِ، وإنَّما أتَى بذِكرِ الحِرمانِ لِيَتكمَّلَ التَّمدُّحُ بالقُدرةِ على المنعِ كما يُمدَحُ بالعطاءِ، فيُعلَمَ أنَّه لا مانعَ لِما أَعطَى، ولا مُعطيَ لِما منَعَ، وعُدِلَ مِن لفظِ الحِرمانِ والمنعِ إلى لفظٍ هو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٧)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٢٧).

رِدْفُه وتابِعُه، وهو لفظُ الجَعْلِ[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ تَذييلٌ وعِلَّةٌ لِما قبْلَه؛ لِيَكونَ ذريعةً إلى ذِكرِ فضْلٍ مِن فَضائلِ هذا النَّوعِ مِن المخلوقِ، ومُنتهَى كَمالِه، وغايةِ دَرجاتِه؛ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾؛ ليُؤذِنَ بأنَّ المقصودَ مِن الخلْقِ: البَثُّ والدَّعوةُ إلى اللهِ، والتَّوجُّهُ إليه، والعِبادةُ له[٢].

- وأيضًا جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ للمُبدَلِ منه، وهو ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. ومَوقعُ (إنَّ) هنا مَوقعُ فاءِ التَّفريعِ، والمعنى: أنَّ خلْقَه ما يَشاءُ ليس خلْقًا مُهمَلًا عَرِيًّا عن الحِكمةِ؛ لأنَّه واسعُ العِلمِ لا يَفُوتُه شَيءٌ مِن المعلوماتِ، فخلْقُه الأشياءَ يَجري على وَفقِ عِلمِه وحِكمتِه، وهو قَديرٌ نافذُ القُدرةِ، فإذا عَلِمَ الحِكمةَ في خلْقِ شَيءٍ أرادَه، فجَرى على قدَرِه، ولَمَّا جمَعَ بيْنَ وصْفَيِ العِلمِ والقُدرةِ تَعيَّنَ أنَّ هنالك صِفةً مَطويَّةً، وهي الإرادةُ؛ لأنَّه إنَّما تَتعلَّقُ قُدرتُه بعدَ تعلُّقِ إرادتِه بالكائنِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٣٩).

## الآيات (٥١-٥٢)

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حِجَابٍ﴾: أي: سِترٍ. وكُلُّ ما يَستُرُ المطلوبَ ويَمنَعُ مِنَ الوُصولِ إليه فهو حِجابٌ، وأصلُ (حجب): يدُلُّ على المَنعِ مِن الوُصولِ(١).

﴿رُوحًا﴾: أي: قُرآنًا، وتُطلَقُ الرُّوحُ كذلك على الوَحيِ، وعلى جِبريلَ عليه السَّلامُ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ وفُسحةٍ(٢).

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

- قَولُه: ﴿لِبَشَرٍ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، خَبَرُ (كان) مُقَدَّمٌ، والمصدَرُ المُؤوَّلُ ﴿أَن يُكَلِّمَهُ﴾: اسمُ كان مُؤَخَّرٌ. ﴿إِلَّا﴾: للحَصرِ، والاستِثناءُ مُفرَّغٌ. ﴿وَحْيًا﴾: مَفعولٌ مُطلَقٌ لفِعلٍ مَحذوفٍ، أو مَصدَرٌ في موضِعِ الحالِ، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩).

إلَّا أن يُوحِيَ إليه وَحيًا، أو إلَّا مُوحِيًا. ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ مَعطوفٍ على (يُوحيَ) العامِلِ في ﴿وَحۡيًا﴾، أي: أوْ أن يُكَلِّمَه مِن وَراءِ حِجابٍ، أو مُتعَلِّقٌ بحالٍ مَحذوفةٍ مَعطوفةٍ على ﴿وَحۡيًا﴾، والتَّقديرُ: إلَّا مُوحِيًا أو مُكَلِّمًا مِن وراءِ حِجابٍ. ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ﴾: في نَصبِه أوجُهٌ؛ الأوَّلُ: أنَّ المُضارِعَ مَنصوبٌ بـ (أن) مُضمَرةٍ جَوازًا بعدَ (أو)، و(أن والفِعلُ) في تأويلِ مَصدَرٍ في محَلِّ نَصبٍ مَعطوفٌ على ﴿وَحۡيًا﴾، أي: إلَّا وَحْيًا أو إرسالًا. الثَّاني: أنَّ المصدرَ (أن يُرسِلَ) مَعطوفٌ على معنى ﴿وَحۡيًا﴾؛ فإنَّه مَصدرٌ مُقَدَّرٌ بـ (أنْ والفعلِ)، والتَّقديرُ: إلَّا بأن يُوحِيَ إليه أو بأن يُرسِلَ. الثَّالثُ: أنَّ ﴿يُرۡسِلَ﴾ مَعطوفٌ على الفِعلِ الَّذي تَعلَّقَ به ﴿مِن وَرَآيِٕ﴾؛ إذ تقديرُه: أو يُكَلِّمَه مِن وراءِ حِجابٍ أو يُرسِلَ. والمعنى: إلَّا بوَحيٍ، أو تكليمٍ مِن وَراءِ حِجابٍ، أو إرسالِ رَسولٍ.

ولا يجوزُ أن يُعطَفَ ﴿يُرۡسِلَ﴾ على ﴿يُكَلِّمَهُ﴾؛ لفَسادِ المعنى؛ إذ يصيرُ التَّقديرُ: وما كان لبَشَرٍ أن يُرسِلَ اللهُ رَسولًا؛ فيَفسُدَ لَفظًا ومَعنًى.

وقُرِئَ ﴿أَوْ يُرْسِلُ﴾ بالرَّفعِ على الاستِئنافِ[1]، أي: أو هو يُرسِلُ. أو بالرَّفعِ عَطفًا على ﴿وَحۡيًا﴾ على تأويلِه بالحالِ، كأنَّه قال: إلَّا مُوحيًا أو مُرسِلًا. أو عَطفًا على ما يتعلَّقُ به ﴿مِن وَرَآيِٕ﴾ على تقديرِه بالحالِ كذلك، والتَّقديرُ: إلَّا مُوحيًا أو مُكَلِّمًا مِن وراءِ حِجابٍ، أو مُرسِلًا[2].

---

(١) قرأها نافعٌ برفعِ اللاَّمِ، وقرأها الباقون بالنَّصبِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٤)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((شرح كتاب سيبويه)) للسيرافي (٣/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٦٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ٦٠)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٤٤).

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالَى طُرُقَ تَكليمِه للمُختارينَ مِن عِبادِه، فيقولُ: ما كان لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَه اللهُ في الدُّنيا إلَّا وَحْيًا، أو يُكَلِّمَه اللهُ جَهرًا مِن وَراءِ حِجابٍ فيَسمَعَ كلامَه ولا يَراه، أو يُكَلِّمَه اللهُ تعالى بواسِطةِ مَلَكٍ يُرسِلُه اللهُ بما يَشاءُ وَحْيَه، إنَّ اللهَ عَلِيٌّ حَكيمٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ بعضَ مظاهرِ فَضلِه على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: ومِثلَ ذلك الإيحاءِ أوحَيْنا إليك القُرآنَ مِن أمْرِنا -يا مُحمَّدُ- ما كُنتَ تَعلمُ مِن قبْلِ ذلك ما القُرآنُ وما الإيمانُ، ولكِنْ جعَلْنا هذا القُرآنَ نُورًا للنَّاسِ نَهدي به مَن نَشاءُ هِدايتَه مِن عِبادِنا.

وإنَّك -يا مُحمَّدُ- لَتُرشِدُ النَّاسَ إلى طريقٍ مُستقيمٍ؛ طَريقِ اللهِ الَّذي له مُلكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، ألَا إلى اللهِ وَحْدَه تَرجِعُ جميعُ الأمورِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن كَمالَ قُدرتِه وعِلمِه وحِكمتِه؛ أتْبَعَه ببَيانِ أنَّه كيف يَخُصُّ أنبياءَه بوَحْيِه وكَلامِه[1].

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾.

أي: وما يَنبغي لبَشَرٍ أن يُكَلِّمَه اللهُ في الدُّنيا إلَّا وَحْيًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢). =

﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾.

أي: أو يُكَلِّمَه اللهُ جهرًا مِن وَراءِ حِجابٍ، بحيثُ يَسمَعُ كَلامَ اللهِ ولا يَراه، كما كلَّمَ اللهُ تعالى موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٣، ١٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ

---

= قال مقاتلُ بنُ سُلَيْمانَ: (يقولُ: ليس لنبيٍّ مِن الأنبياءِ أن يُكَلِّمَه اللهُ ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ فيَسمَعَ الصَّوتَ فيَفْقَه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٥).

وقال ابن جرير: (وما ينبغي لبشَرٍ مِن وَلَدِ آدمَ أن يُكَلِّمَه رَبُّه إلَّا وَحيًا يُوحي اللهُ إليه كيف شاء؛ إمَّا إلهامًا، وإمَّا غيرَه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٠).

وقال البِقاعي: (﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ أي: كَلامًا خَفيًّا يُوجِدُه فيه بغيرِ واسِطةٍ بوَجهٍ خَفيٍّ لا يَطَّلِعُ عليه أحَدٌ إلَّا بخارقِ العادةِ؛ إمَّا بإلهامٍ، أو برؤيا مَنامٍ، أو بغيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٥٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ يتناوَلُ وَحيَ الأنبياءِ وغَيرِهم، كالمُحَدَّثِينَ المُلْهَمِينَ). ((النبوات)) (٢/ ٦٩١).

ومِمَّن قال: المرادُ: الوَحيُ في المنامِ، أو الإلهامُ: الواحدي، والزمخشري، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٤٧).

مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [القصص: ٣٠].

وعن أبي موسى الأشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((حِجابُه النُّورُ، لو كشَفَه لأحرَقَت سُبُحاتُ[١] وَجهِه ما انتهى إليه بَصَرُه مِنْ خَلْقِه))[٢].

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾.

أي: أو يُكَلِّمَه اللهُ تعالى بواسِطةِ مَلَكٍ يُرسِلُه اللهُ، فيُوحِيَ إلى المُرسَلِ إليه ما يَشاءُ اللهُ وَحْيَه، كجِبريلَ الَّذي كان يَنزِلُ بكَلامِ اللهِ تعالى على أنبيائِه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سُبحانَه عَليٌّ بذاتِه فوقَ خَلْقِه، وعَليٌّ بصِفاتِه عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، قد قهَر كلَّ شيءٍ، ودانَتْ له المخلوقاتُ، حَكيمٌ في شَرعِه وصُنعِه، وفي تَدبيرِ خَلْقِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[٤].

---

(١) سُبُحاتُ وَجهِه: نُورُه وجَلالُه وبَهاؤه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٤).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

قال ابن كثير: (كان جِبريلُ يأتي إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في صِفاتٍ مُتعدِّدةٍ؛ فتارةً يأتي في صورةِ دِحْيَةَ بنِ خليفةَ الكَلْبيِّ، وتارةً في صورةِ أعرابيٍّ، وتارةً في صورتِه الَّتي خُلِق عليها له سِتُّمِئةِ جَناحٍ ما بيْنَ كلِّ جَناحَينِ كما بيْنَ المَشرِقِ والمغرِبِ، كما رآه على هذه الصِّفةِ مرَّتَينِ؛ مرَّةً مُنْهَبِطًا مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، وتارةً عندَ سِدرةِ المُنتهَى عندَها جنَّةُ المأْوى). ((البداية والنهاية)) (١/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥١، ٣٥٢).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾.

أي: ومِثلَ ذلك الإيحاءِ[1] أوحَيْنا إليك القُرآنَ[2] مِن أمْرِنا[3] -يا مُحمَّدُ[4].

---

(١) قال أبو حيَّان: (﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ﴾: أي: مِثلَ ذلك الإيحاءِ الفَصلِ أوحينا إليك؛ إذ كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ اجتَمَعت له الطُّرُقُ الثَّلاثُ: النَّفْثُ في الرُّوعِ، والمنامُ، وتكليمُ اللهِ له حقيقةً ليلةَ الإسراءِ، وإرسالُ رَسولٍ إليه، وهو جِبريلُ. وقيل: كما أوحَيْنا إلى الأنبياءِ قَبْلَك أوحَيْنا إليك رُوحًا مِن أمْرِنا). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥١).

ومِمَّن قال بالمعنى الأوَّلِ أيضًا: ابنُ عطية، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٧٦).

ومِمَّن قال بالمعنى الثَّاني: مكِّي، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٩٥).

قال ابن جرير: (وكما كنَّا نُوحي إلى سائرِ رُسُلِنا، كذلك أوحَيْنا إليك يا مُحمَّدُ هذا القرآنَ ﴿رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤١).

وقال الزَّجَّاجُ: (أي: فَعَلْنا في الوحيِ إليك كما فَعَلْنا بالرُّسلِ مِن قَبْلِك). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤٠٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦١).

(٢) قال مكِّي: (قَولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ يعني: القرآنَ، في قَولِ جَميعِ المفَسِّرينَ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٠/ ٦٤١٢).

(٣) قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ أي: واحدٍ مِن أُمورِنا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤).

وقال ابن عثيمين: (قَولُه: ﴿مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ قال المفَسِّر [جلال الدِّين المحلِّي] رحمه الله: «الَّذي نوحيه إليك» يعني: ممَّا نأمُرُ به، ويحتمِلُ أن يكونَ الأمرُ هنا واحِدَ الأمورِ لا واحِدَ الأوامِرِ، أي: مِن شَأنِنا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٤، ٣٥٥).

﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾.

أي: ما كُنتَ تَعلَمُ -يا مُحمَّدُ- مِن قبْلِ نُزولِ الوَحيِ عليك أيَّ شَيءٍ القُرآنُ، وأيَّ شَيءٍ الإيمانُ وشَرائِعُه على وَجهِ التَّفصيلِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٦٢، ٣٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٥).

قال ابنُ عثيمين: (﴿مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ بها ما الكِتابةُ، ويحتمِلُ أن يُرادَ بذلك... القُرآنُ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٥).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ بالكِتابِ هنا القُرآنُ: ابنُ جرير، والسمعاني، والزمخشري، وابن الجوزي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٨).

قال السعدي: (أي: ليس عندَك عِلمٌ بأخبارِ الكُتُبِ السَّابِقةِ، ولا إيمانٌ وعَمَلٌ بالشَّرائعِ الإلهيَّةِ، بل كُنتَ أُمِّيًّا لا تَخُطُّ ولا تَقرَأُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

وقال ابن عاشور: (ومعنى عَدَمِ دِرايةِ الكِتابِ: عدَمُ تعَلُّقِ عِلمِه بقِراءةِ كِتابٍ أو فَهْمِه. ومعنى انتِفاءِ درايةِ الإيمانِ: عدَمُ تعَلُّقِ عِلْمِه بما تحتوي عليه حَقيقةُ الإيمانِ الشَّرعيِّ مِن صِفاتِ اللهِ وأُصولِ الدِّينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٢).

ولا يَقتضي معنى الآيةِ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَكُنْ مؤمِنًا بوجودِ اللهِ ووحدانيَّةِ إلهيَّتِه قبْلَ نُزولِ الوحيِ عليه! قال ابن عاشور: (إذ الأنبياءُ والرُّسلُ معصومونَ مِن الشِّركِ قبْلَ النُّبُوَّةِ، فهم موحِّدونَ للهِ، ونابِذونَ لعبادةِ الأصنامِ، ولكنَّهم لا يَعلَمونَ تفاصيلَ الإيمانِ، وكان نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عهدِ جاهليَّةِ قَومِه يَعلَمُ بُطْلانَ عبادةِ الأصنامِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥١).

وقال سُبحانَه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣].

وقال جَلَّ جَلالُه: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾ [الضحى: ٧].

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾.

أي: ولكِنْ جعَلْنا هذا القُرآنَ نُورًا للنَّاسِ تَزولُ به ظُلُماتُ الكُفرِ والشِّركِ، والشَّكِّ والجَهلِ، والأهواءِ والمعاصي؛ فنَهدي به إلى الحَقِّ مَن نَشاءُ هِدايتَه مِن عِبادِنا(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٢، ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٩، ٨٠).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿جَعَلْنَٰهُ ﴾ عائِدٌ إلى الكتابِ، وهو القُرآنُ المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾، أي: ولكِنْ جعَلْنا الكِتابَ نُورًا. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والزجاج، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٣).

وقيل: عائِدٌ إلى الرُّوحِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾. ومِمَّن ذهب إلى هذا: ابنُ تيميَّة، وابن القيِّم، والشنقيطي. يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢٠٠)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٨٧، ٨٨)، ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٩).

وقيل: عائِدٌ إلى الإيمانِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٦).

وقال أبو حيَّان: (يحتمِلُ أن يعودَ إلى قَولِه: ﴿رُوحًا ﴾، وإلى ﴿ٱلْكِتَٰبُ ﴾، وإلى ﴿ٱلْإِيمَٰنُ ﴾، وهو أقرَبُ مذكورٍ. وقال ابنُ عطية: عائِدٌ على الكتابِ. انتهى. وقيل: يعودُ إلى الكتابِ والإيمانِ معًا؛ لأنَّ مَقصدَهما واحِدٌ، فهو نظيرُ: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ [التوبة: ٦٢]). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ * يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾.

أي: وإنَّك -يا مُحمَّدُ- لَتُرشِدُ النَّاسَ وتَدْعوهم إلى طَريقٍ مُستَقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه[1].

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾.

﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: تَدْعوهم إلى طَريقٍ مُستَقيم؛ طَريقِ اللهِ الموصِلِ إليه وإلى جنَّتِه، الَّذي له مُلكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، المتصَرِّفِ فيهما وَحْدَه لا شَريكَ له[2].

﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

أي: ألا إلى اللهِ وَحْدَه تَرجِعُ جَميعُ الأُمورِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٣، ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٨، ٣٦٣).

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [آل عمران: ١٠٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا﴾ بيانُ أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ رُوحٌ تحيا به القُلوبُ، وعلى هذا فإذا وجدْتَ قلبَك مَيِّتًا، أو وجَدْتَه مَريضًا، أو وجَدْتَه قاسيًا؛ فعليك بالقُرآنِ، اقرأْه عن محبَّةٍ وتَدَبُّرٍ فسيتغيَّرُ القَلبُ مِن مَرَضٍ إلى صِحَّةٍ، ومِن مَوتٍ إلى حَياةٍ، ومِن قَسوةٍ إلى لِينٍ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى جَعَل الكتابَ نورًا يَهدي به مَن يشاءُ، ويَنبني على هذه الفائدةِ: أنَّك إذا أردْتَ أنْ يَستنيرَ قلبُك؛ فعليك بالقُرآنِ، وقراءتِه قراءةَ تَدَبُّرٍ(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ إثباتُ تكليمِ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ استَدَلَّ به مالِكٌ -رحمه الله- على أنَّ مَن حَلَف لا يُكَلِّمُ زَيدًا، فأرسَلَ إليه رَسولًا أو كِتابًا، يحنَثُ؛ لأنَّه تعالى استثناه مِنَ الكلامِ، فدَلَّ على أنَّه منه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣١). ويُنظر أيضًا: ((البيان والتحصيل)) لابن رشد =

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ استدَلَّت به عائِشةُ -رَضِيَ اللهُ عنها- على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَرَ ربَّه[1].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا﴾ دَلَّ على انتِفاءِ أن يكونَ إبلاغُ مُرادِ اللهِ تعالى لأُمَمِ الرُّسُلِ بغَيرِ أحَدِ هذه الأنواعِ الثَّلاثةِ -أعني: خُصوصَ نَوعِ إرسالِ رَسولٍ- بدَلالةِ فَحوى الخِطابِ[2]؛ فإنَّه إذا كان الرُّسُلُ لا يخاطِبُهم اللهُ إلَّا بأحَدِ هذه الأنحاءِ الثَّلاثةِ، فالأُمَمُ أَولى بألَّا يُخاطَبوا بغيرِ ذلك مِن نحوِ ما سأله المُشرِكونَ مِن رُؤيةِ اللهِ يُخاطِبُهم، أو مَجيءِ الملائِكةِ إليهم، بل لا يتوجَّهُ إليهم خِطابُ اللهِ إلَّا بواسِطةِ رَسولٍ مِنهم يَتلقَّى كلامَ اللهِ بنَحوٍ مِن الأنحاءِ الثَّلاثةِ[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا ...﴾ يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ أنَّ النَّبيَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد أُعطِيَ أنواعَ الوحيِ الثَّلاثةَ، وهو أيضًا مُقتضَى الغرَضِ مِن مَساقِ هذه الآياتِ[4].

---

= الجد (٦/ ٩٦). وهو مذهبُ الحنابلةِ، خلافًا للحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٣/ ٧٩٢)، ((المجموع شرح المهذب)) للنووي (١٨/ ٨٩)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣١).

قال ابن القيِّم: (وهي مسألةُ خِلافٍ بيْنَ السَّلفِ والخلَفِ، وإن كان جمهورُ الصَّحابةِ بل كلُّهم مع عائشةَ كما حكاه عثمانُ بنُ سعيدٍ الدَّارِميُّ إجماعًا للصَّحابةِ). ((زاد المعاد)) (١/ ٧٩). ويُنظر: ((النقض على المريسي)) للدارمي (ص: ٢٨٧)، ((الرد على الجهمية)) للدارمي (ص: ١٢٤)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (١/ ٢٢).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٠، ١٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥١). =

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾ إثباتُ الحِكمةِ في شَرعِه وخَلْقِه، وإثباتُ الحُكْمِ الكَونيِّ والشَّرعيِّ؛ لأنَّ كَلِمةَ «حكيم» تعني: الحُكْمَ والحِكمةَ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ سمَّى سُبحانَه الوَحيَ رُوحًا؛ لِمَا يَحصُلُ به مِن حياةِ القُلوبِ والأرواحِ[٢]، ولأنَّه تحيا به مَصالحُ الدُّنيا والدِّينِ؛ لِما فيه مِنَ الخَيرِ الكثيرِ والعِلمِ الغَزيرِ، وهو مَحضُ مِنَّةِ اللهِ سُبحانَه على رَسولِه وعبادِه المؤمِنينَ مِن غَيرِ سَبَبٍ منهم[٣]، وسمَّاه نورًا؛ لِما يَحصُلُ به مِن الهدَى واستِنارةِ القلوبِ والفرقانِ بيْنَ الحقِّ والباطلِ[٤]، ولِما يَحصُلُ به مِنَ الإشراقِ والإضاءةِ، وهما

---

= قال ابن القيِّم: (كمَّل اللهُ له [أي: للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ] مِن مراتبِ الوحيِ مراتبَ عديدةً: إحداها: الرُّؤْيا الصَّادقةُ، وكانت مَبدأَ وحْيِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وكان لا يَرى رؤيا إلَّا جاءتْ مِثلُ فَلَقِ الصُّبحِ.

الثَّانيةُ: ما كان يُلْقِيه المَلَكُ في رُوعِه وقلبِه مِن غيرِ أن يَراه.

الثَّالثةُ: أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَتمثَّلُ له المَلَكُ رجُلًا فيُخاطِبُه حتَّى يَعيَ عنه ما يقولُ له، وفي هذه المرتبةِ كان يَراه الصَّحابةُ أحيانًا.

الرَّابعةُ: أنَّه كان يأتيه في مِثلِ صَلْصَلةِ الجَرَسِ، وكان أشَدَّه عليه، فيَتلبَّسُ به المَلَكُ حتَّى إنَّ جَبينَه لَيَتفَصَّدُ عَرَقًا في اليومِ الشَّديدِ البَرْدِ، وحتَّى إنَّ راحلتَه لَتَبْرُكُ به إلى الأرضِ إذا كان راكِبَها.

الخامسةُ: أنَّه يَرى المَلَكَ في صورتِه الَّتي خُلِق عليها، فيُوحي إليه ما شاء اللهُ أن يُوحيَه، وهذا وقَع له مرَّتَينِ.

السَّادسةُ: ما أوحاه الله وهو فوقَ السَّمواتِ لَيلةَ المِعراجِ مِن فَرضِ الصَّلاةِ وغيرِها.

السَّابعةُ: كلامُ اللهِ له منه إليه بلا واسِطةِ مَلَكٍ، كما كلَّم اللهُ موسى بنَ عِمْرانَ، وهذه المرتبةُ هي ثابتةٌ لموسى قَطعًا بنصِّ القرآنِ، وثُبوتُها لنبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم هو في حديثِ الإسراءِ). ((زاد المعاد)) (١/ ٧٧-٧٩). ويُنظر: ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

(٤) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤١).

متلازِمانِ؛ فحيث وُجِدَت هذه الحياةُ بهذا الرُّوحِ وُجِدَت الإضاءةُ والاستِنارةُ، وحيث وُجِدَت الاستِنارةُ والإضاءةُ وُجِدَت الحياةُ، فمَن لم يَقبَلْ هذا الرُّوحَ فهو مَيِّتٌ مُظلِمٌ[١]؛ فيَجِبُ على كُلِّ مُسلمٍ أن يَستضيءَ بنُوره، فيَعتَقِدَ عقائِدَه، ويُحِلَّ حلالَه، ويُحَرِّمَ حرامَه، ويمتَثِلَ أوامِرَه، ويجتَنِبَ ما نهى عنه، ويعتَبِرَ بقَصَصِه وأمثالِه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ أنَّ القُرآنَ غيرُ مَخلوقٍ؛ فقد جَعَله اللهُ تعالى مُوحًى إلى الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولو كان مخلوقًا ما صحَّ أن يكونَ مُوحًى. فإذا كان وَحْيًا لَزِمَ ألَّا يكونَ مخلوقًا؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي تَكَلَّمَ به[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أنَّ القُرآنَ رُوحٌ تحصُلُ به الحياةُ، ونورٌ تحصُلُ به الهِدايةُ؛ فأتْباعُه لهم الحياةُ والهِدايةُ، ومُخالِفوه لهم الموتُ والضَّلالُ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ أنَّ القُرآنَ هو مِن أمرِ اللهِ تعالى، ويَنبني عليه أنَّه ليس بمخلوقٍ؛ وجْهُ ذلك: قولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ففَصَل الخَلْقَ عن الأمرِ، وجَعَلَه قَسيمًا له؛ فدلَّ ذلك على أنَّ الأمرَ ليس مِن الخَلقِ، وهذا هو المرادُ، فهذه الآيةُ ممَّا يُستَدَلُّ بها على طائِفَتَي المُعتَزِلةِ والأشعريَّةِ الَّذين يقولونَ: إنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٥٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٧٧).

(٥) يُنظر: ((معارج القبول بشرح سلم الوصول)) لحافظ حكمي (١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن =

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يكُنْ متعبِّدًا قبْلَ النُّبوَّةِ بشَرعٍ[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان أُمِّيًّا لا يَقرأُ ولا يَكتبُ، فيَكونُ فيه إبطالٌ لدعوَى أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم كاذِبٌ؛ لأنَّه لا يَستطيعُ أنْ يأتيَ بهذا القُرآنِ مِن عِندِه[2].

١٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يدُلُّ على الصِّراطِ المُستقيمِ؛ فإنْ قال قائلٌ: ما الجَمعُ بيْنَ هذه الآيةِ وقَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ [القصص: ٥٦]؟

**فالجَوابُ**: الهدايةُ في الآيةِ الثَّانيةِ هدايةُ التَّوفيقِ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَملِكُ أنْ يَهديَ أحدًا، وأمَّا الهدايةُ في الآيةِ الَّتي هنا فهي هدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ، كما في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] هَدَيْناهم هِدايةَ دَلالةٍ، يعني: بَيَّنَّا لهم الحَقَّ ودَلَلْناهم عليه، ولكِنَّهم -والعياذُ باللهِ- استحَبُّوا العَمَى على الهُدَى، فلم يَهتَدوا[3]، فالهدَى المنفيُّ عنه

---

= عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٣).

قال السمين الحلبي في الردِّ على مذهبِ مَن يرَى أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكُنْ مُتعبدًا قبْلَ المبعَثِ: (وهو مذهَبٌ ساقِطُ الاعتبارِ؛ لأنَّ الأحاديثَ الصَّحيحةَ ترُدُّه، وهي: أنَّه كان يَتحنَّثُ، كان يتعَبَّدُ، كان يصومُ، كان يطوفُ، كان يَقِفُ، ولم يَقُلْ بخلافِ ذلك إلَّا شذوذٌ مِن النَّاسِ، وفي الجُملةِ فالمسألةُ خِلافيَّةٌ، وإذا كان مُتعبِّدًا فبأيِّ شَرعٍ كان يتعَبَّدُ به؟ ...). ((الدر المصون)) (١١/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦١).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو منحُ التوفيقِ، والهدَى المُثبَتُ له هو إبانةُ الطَّريقِ[١].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ في قَبولِ السُّنَنِ، وزَوالِ الارتيابِ في أنَّ قَولَ الرَّسولِ كُلَّه حَقٌّ مِن عندِ اللهِ، وهادٍ إلى سَبيلِ اللهِ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أنَّ هَدْيَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هَدْيٌ مُستقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه؛ فليس فيه اعوِجاجٌ في الخَبَرِ -والاعوجاجُ في الخَبَرِ هو الكَذِبُ-، وليس فيه اعوِجاجٌ في الشَّرائعِ، بل كلُّها مَبنيَّةٌ على العَدلِ والفَضلِ. والحَمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ هنا أُضيفَ الصِّراطُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وقد أُضيفَ في سورةِ (الفاتحةِ) إلى غيرِ اللهِ، فقال تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]، ولا تَعارُضَ بيْنَ الإضافتَينِ؛ فإنَّ إضافتَه إلى اللهِ تعالى هي باعتبارِ أنَّه هو الَّذي وَضَعَه لعِبادِه، وأنَّه مُوصِلٌ إليه، وإضافتَه إلى النَّاسِ في قَولِه تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ باعتبارِ أنَّهم أهلُه وسالِكوه، فالإضافةُ مختَلِفةٌ؛ فلهذا صَحَّ أنْ تُضافَ إلى هذا تارةً، وإلى هذا تارةً[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ بيانُ أنَّ الأمورَ كلَّها تصيرُ إلى اللهِ؛ أي: تَرجِعُ إليه خَلْقًا ومُلْكًا وتدبيرًا وحُكْمًا، كلُّ شيءٍ يَرجِعُ إلى اللهِ، إذا اختَلَفْنا في حُكْمٍ في مسألةٍ مِن مسائلِ العلمِ نَرجِعُ إلى اللهِ، إذا كان يومُ القيامةِ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((شرح مقدمة التفسير)) لابن عثيمين (ص: ٢٠).

يُبعَثُ الخلائقُ ويَرجِعون إلى اللهِ، فهو سُبحانَه منه المُبتدَأُ، وإليه المنتهَى، تبارك وتعالى(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ عطْفٌ على ما سبَقَ مِن حكايةِ تُرَّهاتِهم عطْفَ القِصَّةِ على القصَّةِ، وهو عَوْدٌ إلى إبطالِ شُبَهِ المشركينَ الَّتي أشارَ إليها قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣]، وقولُه تعالَى: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى:١٣]، ويَزيدُ الأمرَ وضوحًا قولُه عَقِبَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وهذه الآيةُ تُبطِلُ الشُّبهةَ الثَّانيةَ مِن شُبُهاتِهم في كَونِ القرآنِ وحيًا مِن اللهِ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ زعَموا أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لو كان مرسَلًا مِن اللهِ لَكانتْ معه ملائكةٌ تُصدِّقُ قولَه، أو لأُنزِلَ عليه كتابٌ جاهزٌ مِن السَّماءِ يُشاهِدونَ نُزولَه(٢)!

- وإذ قد كان أهمُّ غرَضِ هذه السُّورةِ إثباتَ كَونِ القرآنِ وحيًا مِن اللهِ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كما أُوحِيَ مِن قبْلِه للرُّسلِ، كان العَوْدُ إلى ذلك مِن قبيلِ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ(٣)، فبيَّنَ اللهُ للمكذِّبينَ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في خِطابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٠).

(٣) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، =

رُسلِه لا تَعْدو ثلاثةَ أنحاءٍ مِن الخِطابِ، منها ما جاء به القرآنُ؛ فلمْ يكُنْ ذلك بِدْعًا ممَّا جاءتْ به الرُّسلُ الأوَّلونَ، وما كان اللهُ لِيُخاطِبَ رُسلَه على الأنحاءِ الَّتي اقترَحَها المشرِكونَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فجيءَ بصيغةِ حَصْرٍ مُفتتَحةٍ بصيغةِ الجُحودِ المفيدةِ مُبالَغةَ النَّفيِ، وهي ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾، أي: لم يَتهيَّأْ لأحدٍ مِن الرُّسلِ أن يأتيَه خِطابٌ مِن اللهِ إلَّا بنَوعٍ مِن هذه الثَّلاثةِ(١).

- والاستِثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ استِثناءٌ مِن عمومِ أنواعِ التَّكلُّمِ الَّتي دلَّ عليها الفعلُ الواقعُ في سياقِ النَّفيِ، وهو ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ﴾، فانتِصابُ ﴿وَحْيًا﴾ على الصِّفةِ لمصدرٍ محذوفٍ دلَّ عليه الاستثناءُ، والتَّقديرُ: إلَّا كلامًا وحيًا، أي: مُوحًى به، كما تقولُ: لا أُكلِّمُه إلَّا جهرًا، أو إلَّا إخفاتًا؛ لأنَّ الجهرَ والإخفاتَ صِفَتانِ للكلامِ(٢).

- وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ يُفيدُ التَّعليلَ لِما سبَقَ، أي: ما صحَّ لأحدٍ مِن البشرِ أنْ يُكلِّمَه اللهُ إلَّا على هذه الأَوجُهِ(٣).

---

= أو المُلحقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسام؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]. والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٠، ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

- ومِن لطائفِ نَسْجِ هذه الآيةِ تَرْتيبُ ما دلَّ على تكليمِ اللهِ الرُّسلَ بدَلالاتٍ؛ فجيءَ بالمصدرِ أوَّلًا في قولِه: ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾، وجيءَ بما يُشبِهُ الجملةَ ثانيًا، وهو قولُه: ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾، وجيءَ بالجِملةِ الفعليَّةِ ثالثًا بقولِه: ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾[1].

- وكلُّ هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ يَصْدُقُ عليها أنَّها وحْيٌ، وخُصَّ الأوَّلُ باسمِ الوحيِ هنا؛ لأنَّ ما يَقَعُ في القلبِ على سبيلِ الإلهامِ يقعُ دَفْعةً واحدةً، فكان تخصيصُ لفظِ الوحيِ به أَولى[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾

- قولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ...﴾ الآيةَ [الشورى: ٥١]، وهذا دليلٌ عليهم أنَّ القرآنَ أُنزِلَ مِن عِندِ اللهِ، أعقَبَ به إبطالَ شُبهتِهم الَّتي تَقدَّمَ لإبطالِها قولُه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ الآيةَ، أي: كان وحْيُنا إليك مِثلَ كلامِنا الَّذي كلَّمْنا به مَن قبْلَك، والمقصودُ مِن هذا هو قولُه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾[3].

- والإشارةُ إلى سابقٍ في الكلامِ، وهو المذكورُ آنِفًا في قولِه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٠).

﴿يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا﴾ الآيةَ [الشورى: ٥١]، أي: ومِثلُ الَّذي ذُكِر مِن تكليمِ اللهِ وحْيُنا إليك رُوحًا مِن أمْرِنا. ويَجوزُ أن تكونَ الإشارةُ إلى ما يأتي مِن بعدُ، وهو الإيحاءُ المأخوذُ مِن ﴿أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾، أي: مِثلَ إيحائِنا إليك أَوحَيْنا إليك، أي: لو أُريدَ تشبيهُ إيحائِنا إليك في رِفعةِ القَدرِ والهُدى، ما وُجِد له شبيهٌ إلَّا نفْسُه، على طريقةِ قولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا﴾ [البقرة: ١٤٣]، والمعنى: إنَّ ما أَوحَيْنا إليك هو أعَزُّ وأشرَفُ وحيٍ بحيثُ لا يُماثِلُه غيرُه[١].

- واختِتامُ السُّورةِ بهذه الآيةِ مع افتتاحِها بقولِه: (كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ) الآيةَ؛ فيه مُحسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ[٢].

- وجُملةُ ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿أَوۡحَيۡنَآ﴾، أي: أَوحَيْنا إليك في حالِ انتفاءِ عِلمِك بالكِتابِ والإيمانِ، أي: أفَضْنا عليك مَوهبةَ الوحْيِ في حالِ خُلُوِّك عن عِلمِ الكتابِ وعِلمِ الإيمانِ، وهذا تَحَدٍّ للمُعانِدينَ؛ لِيَتأمَّلوا في حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَعلَموا أنَّ ما أُوتيَه مِن الشَّريعةِ والآدابِ الخُلُقيَّةِ هو مِن مَواهبِ اللهِ تعالى الَّتي لم تَسبِقْ له مُزاوَلتُها، ويَتضمَّنُ امتِنانًا عليه وعلى أُمَّتِه المسلِمينَ[٣].

- وإدخالُ (لا) النَّافيةِ في قولِه: ﴿وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ﴾ تأْكيدٌ لِنَفْيِ دِرايتِه إيَّاه، أي: ما كنتَ تَدري الكتابَ ولا الإيمانَ؛ للتَّنصيصِ على أنَّ المنفيَّ دِرايةُ كلِّ واحدٍ منهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥٣).

- وقولُه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وضَميرُ ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ عائدٌ إلى الكتابِ في قولِه: ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾، والتَّقديرُ: وجعَلْنا الكتابَ نورًا، وأُقحِمَ في الجُملةِ المعطوفةِ حرفُ الاستِدراكِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مضمونَ هذه الجُملةِ عكْسُ مَضمونِ جُملةِ ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾، والاستِدراكُ بـ (لكنْ) ناشئٌ على ما تَضمَّنتْه جُملةُ ﴿مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ لأنَّ ظاهرَ نفْيِ درايةِ الكتابِ أنَّ انتفاءَها مُستمرٌّ، فاستُدْرِكَ بأنَّ اللهَ هَداهُ بالكتابِ، وهَدَى به أُمَّتَه؛ فالاستدراكُ واقعٌ في المَحَزِّ[1]، والتَّقديرُ: ما كنتَ تَدري ما الكتابُ ولا الإيمانُ، ثمَّ هدَيْناك بالكِتابِ ابتِداءً، وعرَّفْناك به الإيمانَ، وهدَيتَ به النَّاسَ ثانيًا، فاهْتَدى به مَن شِئْنا هِدايتَه، أي: وبقِيَ على الضَّلالِ مَن لم نشَأْ له الاهتِداءَ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا﴾ شُبِّهَ الكِتابُ بالنُّورِ؛ لِمُناسَبةِ الهَدْيِ به؛ لأنَّ الإيمانَ والهُدى والعِلمَ تُشبَّهُ بالنُّورِ، والضَّلالَ والجَهلَ والكُفرَ تُشبَّهُ بالظُّلْمةِ، وإذا كان السَّائرُ في الطَّريقِ في ظُلمةٍ ضَلَّ عن الطَّريقِ، فإذا استنارَ له اهْتَدى إلى الطَّريقِ، فالنُّورُ وَسيلةُ الاهتِداءِ، ولكنْ إنَّما يَهتدي به مَن لا يكونُ له حائلٌ دونَ الاهتِداءِ، وإلَّا لم تَنفَعْه وَسيلةُ الاهتِداءِ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾[3].

- قولُه: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تَقريرٌ لِهدايتِه تعالى، وبَيانٌ لكيفيَّتِها، فلمَّا أثبَتَ الهَدْيَ إلى اللهِ، وجعَلَ الكتابَ سببًا لِتَحصيلِ الهِدايةِ، عطَفَ عليه

---

(١) المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ، أي: القَطعِ. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٣، ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥٤).

وساطةَ الرَّسولِ في إيصالِ ذلك الهَدي؛ تَنويهًا بشَأنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- وأيضًا جُملةُ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾، وفي الكلامِ تَعريضٌ بالمشرِكينَ؛ إذ لم يَهتَدوا به، وإذ كبُرَ عليهم ما يَدْعوهم إليه معَ أنَّه يَهديهِم إلى صِراطٍ مُستقيمٍ[٢].

- وحُذِف مَفعولُ ﴿لَتَهۡدِيٓ﴾ للعُمومِ، أي: لَتَهدي جميعَ النَّاسِ، أو هو مَحذوفٌ ثِقةً بغايةِ الظُّهورِ، أي: نَهدي به مَن نَشاءُ بدعْوتِك وواسطتِك[٣].

- وتأْكيدُ الخبرِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به؛ لأنَّ الخبرَ مُستعمَلٌ في تَثْبيتِ قلْبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالشَّهادةِ له بهذا المَقامِ العظيمِ، فالخبَرُ مُستعمَلٌ في لازِمِ معناه، على أنَّه مُستعمَلٌ أيضًا للتَّعريضِ بالمُنكِرينَ لِهَدْيِه، فيَكونُ في التَّأكيدِ مُلاحَظةُ تَحقيقِه، وإبطالُ إنكارِهم[٤].

- وتَنكيرُ ﴿صِرَٰطٖ﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّ التَّنكيرَ أنسَبُ بمَقامِ التَّعريضِ بالَّذين لم يَأبَهوا بهِدايَتِه[٥].

- وعُدِل عن إضافةِ ﴿صِرَٰطٖ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ ابتِداءً؛ لِقَصْدِ الإجمالِ الَّذي يَعقُبُه التَّفصيلُ؛ بأنْ يُبدَلَ منه بعدَ ذلك ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾؛ لِيَتمكَّنَ بهذا الأسلوبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٤، ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المعنى المقصودُ فضْلَ تمكُّنٍ[١].

- وإضافةُ ﴿صِرَٰطِ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ (الله) باسمِ المَوصولِ وصِلتِه، ووَصْفُه بقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ لِتَفْخيمِ شأنِه، وتَقريرِ استقامتِه، وتأْكيدِ وُجوبِ سُلوكِه؛ فإنَّ كَونَ جميعِ ما فيهما مِن الموجوداتِ له تعالى خَلْقًا ومِلْكًا وتصرُّفًا ممَّا يُوجِبُ ذلك أتمَّ إيجابٍ. وللإيماءِ إلى أنَّ سَببَ استقامةِ الصِّراطِ الَّذي يَهْدي إليه النَّبيُّ أنَّه صِراطُ الَّذي يَملِكُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، فلا يَعزُبُ عنه شَيءٌ ممَّا يَليقُ بعِبادِه، فلمَّا أرسَلَ إليهم رسولًا بكِتابٍ لا يُرتابُ في أنَّ ما أَرسَلَ لهم فيه صلاحُهم[٢].

- وقولُه: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ تَذييلٌ وتَنْهيةٌ للسُّورةِ بخِتامِ ما احتوَتْ عليه مِن المجادَلةِ والاحتجاجِ بكلامٍ قاطعٍ جامعٍ، مُنذِرٍ بوَعيدٍ للمُعرِضينَ فاجِعٍ، ومُبشِّرٍ بالوعدِ لكلِّ خاشعٍ، ففيه مِن الوعدِ للمُهتدينَ إلى الصِّراطِ المستقيمِ والوعيدِ للضَّالِّينَ عنه ما لا يَخْفى[٣].

- وافتُتِحَتِ الجُملةُ بحَرْفِ التَّنبيهِ ﴿أَلَآ﴾؛ لاستِرعاءِ أسماعِ النَّاسِ[٤].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: إلى اللهِ، لا إلى غيرِه[٥].

- وأخبَرَ بالمضارعِ ﴿تَصِيرُ﴾، والمرادُ به الدَّيمومةُ؛ كقولِه: زيدٌ يُعطي ويَمنَعُ، أي: مِن شأنِه ذلك، ولا يُرادُ به حقيقةُ المُستقبَلِ، أي: تُرَدُّ جميعُ أمورِ الخلْقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر ان السابقان)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٥٦).

إليه تعالى يومَ القيامةِ فيَقضي بيْنَهم بالعدلِ. وخُصَّ ذلك بيومِ القِيامةِ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ لأحدٍ أنْ يَدَّعيَ فيه لِنَفْسِه شيئًا[1].

- وفي تَنْهيةِ هذِه السُّورةِ الجَليلةِ بهذه الآيةِ العَظيمةِ مُحسِّنُ حُسنِ الخِتامِ[2].

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الحادي والثَّلاثونَ**

**ويليه المجلدُ الثَّاني والثَّلاثونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الزُّخْرُفِ**

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٦).

# الفهرس

# الفهرس

سورةُ فُصِّلَت ..... ١٣
أسماءُ السُّورةِ ..... ١٣
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ..... ١٣
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٤
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ١٤
الآيات (١-٨) ..... ١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٦
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٧
المعنى الإجماليُّ ..... ١٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٦
الآيات (٩-١٢) ..... ٥١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٥٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٤

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٧٣
الآيات (١٣-١٨) ..... ٨١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٨١
المعنى الإجماليُّ ..... ٨٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٨٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٩٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٠٢
الآيات (١٩-٢٤) ..... ١١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١١٥
المعنى الإجماليُّ ..... ١١٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٢٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٣٠
الآيات (٢٥-٢٩) ..... ١٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٤٠
المعنى الإجماليُّ ..... ١٤١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٤٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٥٤

بلاغةُ الآياتِ ..... ١٥٧
الآيات (٣٠-٣٦) ..... ١٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٦٥
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٦٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٨٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٨٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٩٤
الآيات (٣٧-٣٩) ..... ٢١٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢١٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٢١٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢١٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٢١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٢٣
الآيات (٤٠-٤٦) ..... ٢٢٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٢٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٣٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٣١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٤٩

بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٥٦
الآيات (٤٧-٥١) ..... ٢٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٧٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٧٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٩٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٩٢
الآيات (٥٢-٥٤) ..... ٣٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٠٣
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٠٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٠٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٠٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣١١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣١٣
سورة الشُّورى ..... ٣٢٥
أسماءُ السُّورةِ ..... ٣٢٥
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٣٢٥
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣٢٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٣٢٦
الآيات (١-٦) ..... ٣٢٨

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٢٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٢٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٣٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٤١
الآيات (٧-٩) ..... ٣٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٥٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٦١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٦٣
الآيات (١٠-١٢) ..... ٣٧١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٧١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٧٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٨٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٨٨
الآيات (١٣-١٥) ..... ٣٩٦

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٩٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٩٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٩٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤١٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٢٠
الآيات (١٦-١٨) ..... ٤٣٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٣٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٣٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٣٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٤١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤٤
الآيات (١٩-٢٤) ..... ٤٥١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٥١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٥٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٥٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٥٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٧٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٧٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٨٣
الآيات (٢٥-٢٨) ..... ٤٩٧

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٩٧
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٩٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٩٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥١١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥١٣
الآيات (٢٩-٣٥) ..... ٥٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٢٢
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٥٢٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٢٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٣٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٤٠
الآيات (٣٦-٤٣) ..... ٥٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٤٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٦٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٧٢

الآيات (٤٤-٤٦) ..... ٥٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٨٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٨٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٨٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٩١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٩٣
الآيات (٤٧-٥٠) ..... ٦٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٠٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٦٠١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦٠٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦١١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦١٣
الآيات (٥١-٥٣) ..... ٦٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٢٧
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٦٢٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٦٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٣٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٤٢

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة الزخرف وسورة الدخان)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد الثاني والثلاثون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الزخرف وسورة الدخان)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثاني والثلاثون - سورة الزخرف وسورة الدخان/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٤٦٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٩٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- سورة الزخرف- تفسير ٢- القرآن- سورة الدخان - تفسير

أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/١٣٤٦

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٣٤٦

ردمك: ٤-٩٨-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م**

**(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ الزُّخرُفِ

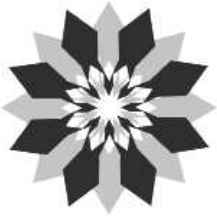

# سورةُ الزُّخرُفِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الزُّخرُفِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الزُّخرُفِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الزُّخرُفِ:**

١- إقامةُ البَراهينِ على وَحدانيَّةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[٤].

٢- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا لَحِقَه مِن أذَى المُشرِكينَ[٥].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ الزُّخرُفِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا﴾ [الزخرف: ٣٤، ٣٥]، فكَلِمةُ (زُخرُف) وقَعَت فيها، ولم تقَعْ في غيرِها مِن سُوَرِ القرآنِ، فعَرَّفوها بهذه الكَلِمةِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٧).

(٢) وقيل: إلَّا قَولَه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥]؛ فإنَّه مدنيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٥).

(٣) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٥٧). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٥٧). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي تَناوَلَتْها سُورةُ الزُّخرُفِ:**

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ.

٢- تسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا لَحِقَه مِن قَومِه.

٣- بيانُ جانبٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وبَعضِ نِعَمِه على خَلْقِه.

٤- عَرضُ بَعضِ افتراءاتِ المُشرِكينَ وأقوالِهم الفاسِدةِ، مع الرَّدِّ عليها وتَفنيدِها، وبيانِ سُوءِ عاقِبتِهم في الدُّنيا والآخرةِ.

٥- ذِكرُ جانبٍ مِن دَعوةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لِقَومِه، وجانِبٍ مِن قِصَّةِ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ، ومَوقِفِ المُشرِكينَ مِن عيسى عليه السَّلامُ.

٦- بِشارةُ المؤمِنينَ بالجنَّةِ والنَّعيمِ المقيمِ، وبَيانُ عِقابِ المُجرِمينَ في جهنمَ وتَمنِّيهم الموتَ.

٧- تَوجيهاتٌ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، مع ذِكرِ بَعضِ أدِلَّةِ وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى.

---

(١/ ٤٢١).

## الآيات (١-٨)

﴿حمٓ ١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ٥ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ٦ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٧ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: أي: أصلِ الكِتابِ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ، وأُمُّ كلِّ شَيءٍ أصلُه[1].

﴿أَفَنَضۡرِبُ﴾: أي: نُمسِكُ ونَترُكُ، يُقالُ: ضَرَبتُ عنه وأضرَبتُ عنه، أي: تَركتُه وأمسكتُ عنه، وأصلُ الضَّرْبِ: إيقاعُ شَيءٍ على شَيءٍ[2].

﴿صَفۡحًا﴾: أي: إعراضًا، يُقالُ: صَفَحتُ عن فُلانٍ: إذا أعرَضتَ عنه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤).

قال الهَرَوي: (والأصلُ في ذلك -ضَرَبتُ عنه الذِّكرَ-: أنَّ الرَّاكِبَ إذا رَكِبَ دابَّةً فأراد أن يَصرِفَه عن جِهتِه ضَرَبه بعصاه؛ لِيَعدِلَه عن جِهتِه إلى الجِهةِ الَّتي يريدُها؛ فوُضِعَ الضَّربُ مَوضِعَ الصَّرفِ والعَدلِ). ((الغريبين في القرآن والحديث)) (٤/ ١١١٩). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٢/ ١٥).

وقال البِقاعي: (الحاصِلُ أنَّ الضَّربَ إيقاعُ شَيءٍ على آخَرَ بقُوَّةٍ، فمُجَرَّدُه مُتعَدٍّ إلى واحدٍ، فإنْ عُدِّيَ إلى آخَرَ بـ «عن» ضُمِّنَ معنى الصَّرفِ، وإذا زِيدَت همزةُ النَّقلِ فقيل: أضرَبْتُ عنه، أفادَت الهَمزةُ قَصْرَ الفِعلِ، وأفهَمَت إزالةَ الضَّربِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٨٣).

والأصلُ في ذلك أنَّك مُوَلِّيه صَفْحةَ عُنُقِك، وأصلُ (صفح): يدُلُّ على عَرضِ الشَّيءِ وجانبِه[١].

﴿بَطْشًا﴾: أي: قُوَّةً، والبَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ[٢].

﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: أي: ذِكرُ حالِهم، ووصْفُ عِقابِهم، وكيفيَّةُ إهلاكِهم، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ[٣].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾

قَولُه: ﴿صَفْحًا﴾: في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ نائبٌ عن المَصدرِ، فهو مُلاقيه في المَعنى؛ فالضَّربُ هنا بمعنى الصَّفحِ، فكأنَّه قال: أنترُكُ تَذكيرَكم إعراضًا عنكم. كما يُقالُ: هو يَدَعُه تَركًا؛ لأنَّ معنى يَدَعُه: يَتركُه. الثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن الفاعِلِ، أي: صافِحِينَ، كما تقولُ: جاء زيدٌ مَشْيًا، أي: ماشِيًا. الثَّالِثُ: أن يكونَ مَفعولًا مِن أجْلِه، أي: أفنَضرِبُ عنكم الذِّكرَ ونَرفَعُه صفحًا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٦/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٤).
قال الشنقيطي: (وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: صِفتُهم الَّتي هي إهلاكُهم المُستأصلُ بسببِ تكذيبِهم الرُّسُلَ. وقولُ مَن قال: ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: عقوبتُهم وسُنَّتُهم- راجعٌ في المعنى إلى ذلك). ((أضواء البيان)) (٧/ ٨٣).

وإعراضًا عنكم. الرَّابعُ: أن يكونَ مَنصوبًا على الظَّرفِ، بمعنى: أفنُنَحِّيه عنكم جانِبًا. والصَّفحُ على ذلك بمعنى الجانِبِ، مِن قَولِهم: نَظَرَ إليه بصَفْحِ وَجهِه، أي: بجانِبِ وَجهِه.

والمصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ في مَحَلِّ نَصبٍ على نَزعِ الخافِضِ (اللَّام)، أو في محَلِّ جرٍّ بحَرفِ جَرٍّ مَحذوفٍ مُتعَلِّقٍ بـ (نَضرِبُ)، أي: أفنَضرِبُ... لِأَنْ كُنتُم[1].

## المعنى الإجماليُّ:

ابتدأَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿حمٓ﴾، وهما مِن الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي تأتي لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ، ثمَّ أقسَمَ اللهُ تعالى بالكِتابِ المُبينِ لِكُلِّ شَيءٍ على أنَّه جَعَل هذا الكِتابَ قُرآنًا عَربيًّا؛ لعَلَّ العِبادَ يَفهَمونَ مَعانيَه ويَتدَبَّرونَه، وأنَّ هذا القُرآنَ في اللَّوحِ المحفوظِ عِندَه تعالى، ذو عُلُوٍّ وذُو حِكمةٍ وإحكامٍ، فلا لَبسَ فيه ولا زَيغَ.

ثمَّ قال تعالى مُنكِرًا على المُشرِكينَ: أفنَترُكُ إنزالَ القُرآنِ إعراضًا عنكم؛ لِأَنْ كنتُم -أيُّها المُشرِكونَ- قَومًا مُسرِفينَ على أنفُسِكم في الكُفرِ والعِصيانِ؟!

ثمَّ يقولُ الله تعالى مسلِّيًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم في تكذيبِ مَن كَذَّبه: وما أكثَرَ الأنبياءَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ تعالى في الأُمَمِ السَّابِقةِ، فما أتاهم نبيٌّ إلَّا استَهزَؤوا به! فأهلَكْناهم وقد كانوا أشَدَّ قُوَّةً مِن كُفَّارِ قَومِك -يا محَمَّدُ-؛ فلن نَعجِزَ كذلك عن إهلاكِهم إنِ استَمَرُّوا على كُفرِهم واستِهزائِهم، وقد مضى مَثَلُ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٧٢)، ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٢/ ٥٧٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ٦٤)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٤٦).

أولئك المكَذِّبينَ فهَلَكوا وصاروا عِبرةً ونَكالًا لِمَن بَعدَهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

هذانِ الحَرفانِ اللَّذانِ افتُتِحَت بهما هذه السُّورةُ وغيرُها مِن الحروف المقطَّعةِ الَّتي تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، معَ أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾.

أي: أُقسِمُ بالكِتابِ المُوَضِّحِ لكُلِّ ما يَحتاجُ إليه العِبادُ[2].

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣﴾.

أي: إنَّا جعَلْنا القُرآنَ بلِسانٍ عَربيٍّ؛ لعلَّكم تَفهَمونَ مَعانيَه وتَتدَبَّرونَه[3].

---

(١) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سُورةِ البَقَرةِ (١/ ٦٤) مِن هذا ((التَّفسير المحرَّر)).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٢).

قال القرطبي: (﴿لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: تَفهَمونَ أحكامَه ومعانيَه، فعلى هذا القَولِ يَكونُ خاصًّا للعَرَبِ دونَ العَجَمِ [أي: في توجيهِ الخِطابِ، وليس المرادُ عُمومَ البَعثةِ كما لا يخفى]. قاله ابنُ عيسى. وقال ابنُ زَيدٍ: المعنى: لعَلَّكم تتفكَّرونَ، فعلى هذا يكونُ خِطابًا عامًّا للعَرَبِ والعَجَمِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦١).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ أي: تكَلَّمْنا به عَرَبيًّا، وأنزَلْناه عربيًّا، وكذلك فسَّره السَّلَفُ، كإسحاقَ بنِ راهَوَيهِ، وذكره عن مُجاهِدٍ، قال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ قُلْناه عربيًّا، =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢].

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ في اللَّوحِ المَحفوظِ عِندَنا ذو عُلُوٍّ في محَلِّه وقَدْرِه وشَرَفِه، وذو حِكمةٍ وإحكامٍ؛ فلا يَعتَريه اختِلافٌ ولا اضطِرابٌ، وليس فيه نَقْصٌ، ولا لَبْسَ فيه ولا زَيْغَ[1].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٨٠].

وقال عز وجل: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ * مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ * بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ * كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١١ - ١٦].

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أوضَحَ اللهُ تعالى عَظيمَ حالِ الكِتابِ، وجَليلَ نِعمتِه به؛ أردَفَ ذلك

---

= ذكره ابنُ أبي حاتم في تفسيرِه عن إسحاقَ بنِ راهَوَيه، قال: ذُكِرَ لنا عن مُجاهِدٍ وغيرِه مِن التَّابعينَ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: إنَّا قُلْناه ووصَفْناه. وذكرَه عن أحمدَ بنِ حنبلٍ عن الأشْجَعيِّ عن سُفْيانَ الثَّوْريِّ، في قَولِه ﴿جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾: بَيَّنَّاه قُرآنًا عَربيًّا). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤٣، ٤٤).

بذِكرِ سَعةِ عَفوِه، وجميلِ إحسانِه إلى عبادِه، ورَحمتِهم بكتابِه، مع إسرافِهم وقَبيحِ مُرتَكَبِهم[١].

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ ﴾.

**القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:**

في قولِه تعالى: ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ قِراءتانِ:

١- قراءةُ ﴿إِن﴾ بكسرِ الهمزةِ، وهي شرطيَّةٌ على معنى الاستِقبالِ، أي: إنْ تَكونوا مُسرِفينَ نَضرِبْ عنكم الذِّكرَ[٢].

٢- قراءةُ ﴿أَن﴾ بفتحِ الهمزةِ، والمعنى: بأنْ أسرَفْتُم. أو: لِأنْ أسرفْتُم[٣].

﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥ ﴾.

أي: أفنَترُكُ إنزالَ القُرآنِ إعراضًا عنكم، ونُهمِلُكم فلا نأمُرَكم ولا نَنهاكم؛ مِن أجْلِ أنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- قَومٌ مُعرِضونَ عن أمرِ اللهِ تعالى، مُجاوِزونَ له[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٢).

(٢) قرأ بها: نافعٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وأبو جعفرٍ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨). ويُنظر لمعاني هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦١)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٢٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٧٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨).
ويُنظر لمعاني هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦١)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٢٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير =

﴿ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ٦ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إسرافَهم في الإعراضِ عن الإصغاءِ لِدَعوةِ القُرآنِ؛ أعقَبَه بكَلامٍ مُوَجَّهٍ إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تَسليةً عَمَّا يُلاقيه منهم في خِلالِ الإعراضِ مِن الأذى والاستِهزاءِ، بتذكيرِه بأنَّ حالَه في ذلك حالُ الرُّسُلِ مِن قَبلِه، وسُنَّةُ اللهِ في الأُمَمِ- ووَعدًا للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالنَّصرِ على

---

= ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤٨، ٤٩).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجُملةِ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بالذِّكْرِ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه ذِكْرُ العَذابِ، فالمعنى: أفنُمْسِكُ عن عذابِكم ونَترُكُكم على كُفرِكم؟! وهذا معنى قَولِ ابنِ عَبَّاسٍ، ومُجاهِدٍ، والسُّدِّيِّ. والثَّاني: أنَّه القُرآنُ، فالمعنى: أفنُمْسِكُ عن إنزالِ القُرآنِ؛ مِن أجْلِ أنَّكم لا تُؤمِنونَ به؟! وهو معنى قَولِ قَتادةَ، وابنِ زَيدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٣).

واختار ابنُ جريرٍ القَولَ الأوَّلَ، فقال: (وأَولى التَّأويلينِ في ذلك بالصَّوابِ تأويلُ من تأوَّلَه: أفنَضربُ عنكم العذابَ فنَترُكَكم ونُعرِضَ عنكم؛ لِأنْ كُنتُم قَومًا مُسرِفينَ لا تُؤمِنونَ برَبِّكم؟! وإنَّما قُلْنا ذلك أَولى التَّأويلَينِ بالآيةِ؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى أتْبَعَ ذلك خبَرَه عن الأُمَمِ السَّالِفةِ قبْلَ الأُمَّةِ الَّتي توَعَّدَها بهذه الآيةِ في تكذيبِها رُسُلَها، وما أحَلَّ بها مِن نِقمتِه؛ ففي ذلك دليلٌ على أنَّ قَولَه: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا ﴾ وَعيدٌ منه للمُخاطَبينَ به مِن أهلِ الشِّركِ؛ إذ سَلَكوا في التَّكذيبِ بما جاءهم عن اللهِ رَسولُهم مَسلَكَ الماضِينَ قَبْلَهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٠). ويُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٢٤).

وقال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿ صَفۡحًا ﴾ ... يحتمِلُ أن يكونَ بمعنى العَفوِ والغَفْرِ للذَّنْبِ، فكأنَّه يقولُ: أفنَترُكُ تَذكيرَكم وتخويفَكم عَفوًا عنكم، وغَفْرًا لإجرامِكم؛ إذ كُنتُم أو مِن أجْلِ أن كُنتُم قومًا مُسرِفينَ؟! أي: هذا لا يَصلُحُ...؛ ويحتمِلُ قَولُه: ﴿ صَفۡحًا ﴾ أن يكونَ بمعنى: مَغفولًا عنه، أي: نَترُكُه يَمُرُّ، لا تُؤخَذونَ بقَبولِه ولا بتدَبُّرِه، ولا تُنَبَّهونَ عليه ...). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١٨).

قَومِه، بتذكيرِه بسُنَّةِ اللهِ في الأُمَمِ المكَذِّبةِ رُسُلَهم[١].

﴿ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ٦ ﴾.

أي: وما أكثَرَ الأنبياءَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ تعالى في الأُمَمِ الماضيةِ لِدَعوةِ أقوامِهم إلى الحَقِّ[٢].

﴿ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٧ ﴾.

أي: وفما يأتي نَبيٌّ إلى قَومٍ إلَّا كانوا يَسخَرونَ منه[٣]!

﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨ ﴾.

﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا ﴾.

أي: فأهلَكْنا أولئك المُستَهزِئينَ بالرُّسُلِ، ولم يَقدِروا على الامتِناعِ مِن عَذابِ اللهِ، وقد كانوا أشَدَّ قُوَّةً مِن كُفَّارِ مَكَّةَ المُكَذِّبينَ بمُحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فلن نَعجِزَ كذلك عن إهلاكِهم إنِ استَمَرُّوا على باطِلِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٦).

قال ابن جرير: (يَستَهزِئونَ سُخريةً منهم به كاستِهزاءِ قَومِك بك -يا مُحمَّدُ. يقولُ: فلا يَعْظُمَنَّ عليك ما يَفعَلُ بك قَومُك، ولا يَشُقَّنَّ عليك؛ فإنَّهم إنَّما سَلَكوا في استهزائِهم بك مَسلَكَ سُلَّافِهم، ومِنهاجَ أئمَّتِهم الماضينَ مِن أهلِ الكُفرِ باللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٢).

قال البقاعي: (﴿أَشَدَّ مِنۡهُم﴾ أي: مِن قُرَيشٍ الَّذين يَستَهزِئونَ بك ﴿بَطۡشٗا﴾ مِن جِهةِ العَدِّ =

كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ [ق: ٣٦].

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: ووقَعَ إهلاكُ اللهِ للأُمَمِ الماضيةِ؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم رُسُلَهم، واستِهزائِهم بهم؛ فصاروا عِبرةً ونَكالًا لِمَن بَعدَهم، ومِثالًا يَرتَدِعُ به غَيرُهم؛ فلْيَحذَرْ كُفَّارُ هذه الأمَّةِ أن يَسيروا سِيرتَهم، ويَسلُكوا في الباطِلِ طَريقتَهم؛ فيُصيبَهم مِثلُ ما أصابَهم[1].

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أنَّ التَّأمُّلَ في القُرآنِ -وهو تَحديقُ ناظرِ القَلبِ إلى معانيه، وجَمعُ الفِكرِ على تَدَبُّرِه وتَعَقُّلِه- هو المقصودُ بإنزالِه، لا مُجرَّدَ تلاوتِه بلا فَهمٍ ولا تَدَبُّرٍ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الرُّسُلُ تُبَيِّنُ

---

= والعُدَدِ والقُوَّةِ والجَلَدِ، فما ظنُّهم بأنفُسِهم وهم أضعَفُ منهم، إن تمادَوا في الاستِهزاءِ برَسولِ اللهِ الأعلى؟!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٩).

للنَّاسِ ما أُنزِلَ إليهم مِن رَبِّهم، وعليهم أن يُبَلِّغوا النَّاسَ البلاغَ المُبينَ، والمطلوبُ مِن النَّاسِ أن يَعقِلوا ما بَلَّغه الرُّسُلُ، والعَقلُ يتضَمَّنُ العِلمَ والعَمَلَ؛ فمَن عَرَف الخيرَ والشَّرَّ فلم يتَّبِعِ الخيرَ ويَحذَرِ الشَّرَّ لم يكُنْ عاقِلًا؛ ولهذا لا يُعَدُّ عاقِلًا إلَّا مَن فَعَل ما يَنفَعُه، واجتَنَب ما يَضُرُّه، فالمجنونُ الَّذي لا يُفَرِّقُ بيْنَ هذا وهذا قد يُلقي نَفْسَه في المهالِكِ، وقد يَفِرُّ مِمَّا يَنفَعُه[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أنَّ القرآنَ عليٌّ، وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن تمسَّكَ بهذا القرآنِ فله العُلُوُّ، كقوله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [محمد: ٣٥]، وشاهدُ هذا الواقعُ: فلَمَّا كانتِ الأُمَّةُ الإسلاميَّةُ متمسِّكةً بالإسلامِ كان لها العُلُوُّ والظُّهورُ، وملَكتْ به مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ إطلاقُ اسمِ الكِتابِ على القُرآنِ، باعتِبارِ أنَّ اللهَ أنزَلَه لِيُكتَبَ، وأنَّ الأُمَّةَ مأمورون بكتابتِه، وإن كان نُزولُه على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لفظًا غيرَ مَكتوبٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّه سيُكتَبُ في المصاحِفِ[3].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ أقسَمَ بالكِتابِ المُبينِ، وأطلَقَ ولم يَذكُرِ المُتعلَّقَ؛ لِيَدُلَّ على أنَّه مُبينٌ لكُلِّ ما يَحتاجُ إليه العِبادُ مِن أُمورِ الدُّنيا والدِّينِ والآخِرةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٢). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ أنَّ كَوْنَ القُرآنِ باللُّغةِ العرَبيَّةِ مَنقَبةٌ كُبرى للعَرَبِ؛ حيثُ نَزَلَ بلُغَتِهم[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ العَقلُ هنا بمعنى الفَهمِ، ففيه أنَّ الحُجَّةَ لا تكونُ إلَّا بالفَهمِ، فمَن بَلَغَه القُرآنُ بغيرِ اللُّغةِ العربيَّةِ ولم يَفْهَمْ منه شَيئًا؛ فلا تَقومُ عليه الحُجَّةُ، ومَن بَلَغَه باللُّغةِ العربيَّةِ وهو لا يَفهَمُها؛ فإنَّها لا تَقومُ عليه الحُجَّةُ، ويدُلُّ لهذا قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، فالحُجَّةُ لا تقومُ على العِبَادِ إلَّا بفَهمِها ومَعرِفةِ معناها[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فيه سُؤالٌ: إن قيل: الجَعلُ هو الخَلقُ، فلِمَ لَمْ يَقُلْ: (قُلْناه) أو (أنزَلْناه)؟

**الجوابُ**: الجَعلُ يأتي بمعنى القَولِ أيضًا، كقَولِه تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ ﴾ [النحل: ٥٧]، وقَولِه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾[٣] [إبراهيم: ٣٠].

وأيضًا فإنَّ (جعَلَ) إذا كان بمعنى (خلَقَ) يَتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام: ١]، وقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٠، ٣١]. وإذا تعدَّى إلى مَفعولَينِ لم يكُنْ بمعنى خلَقَ، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [البقرة:

---

= والقاعدةُ: أنَّ حذفَ المتعلَّقِ يفيدُ العُمومَ النِّسْبيَّ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (ص: ٥٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٩، ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١١، ٥١٢).

٢٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الإسراء: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، ونظائرُه كثيرةٌ. فكذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ دَلالةٌ على وُجوبِ فَهمِ القرآنِ على ما يقتَضيه ظاهِرُه باللِّسانِ العَربيِّ؛ إلَّا أنْ يَمنَعَ منه دَليلٌ شَرعيٌّ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إنعامُ اللهِ على عبادِه؛ لأنَّ اللِّسانَ العَربيَّ أكمَلُ الألسِنةِ، وأحسَنُها بيانًا للمَعاني؛ فنُزولُ الكتابِ به أعظَمُ نعمةً على الخَلقِ مِن نُزولِه بغيرِه، وهو إنَّما خُوطِبَ به أوَّلًا العَرَبُ؛ لِيَفهَموه، ثمَّ مَن يَعلَمُ لُغَتَهم يَفهَمُه كما فَهِمُوه، ثمَّ مَن لم يَعلَمْ لُغتَهم تَرجَمَه له مَن عَرَفَ لُغتَهم، وكان إقامةُ الحُجَّةِ به على العَرَبِ أوَّلًا، والإنعامُ به عليهم أوَّلًا؛ لِمَعرفتِهم بمعانيه قبْلَ أن يَعرِفَه غَيرُهم[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا﴾ عنايةُ اللهِ تبارك وتعالى بهذا القُرآنِ، وهذا يدُلُّ على شَرَفِه؛ حيثُ جَعَله عندَه في أُمِّ الكِتابِ[٤].

٩- سُئِلَ عَطاءُ بنُ أبي رَباحٍ عن القَدَرِ، فتلا قولَ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ

---

(١) يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٩٥). ويُنظر أيضًا: ((الموافقات)) للشاطبي (٢/ ١٠١-١٠٤) و (٤/ ٢٦٦)، ((الاعتصام)) للشاطبي (٢/ ٤٧ - ٥٢).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيميَّة (٢/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤٥).

ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾، وقال: (هو الكِتابُ الَّذي كتَبَه قبْلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وفيه أنَّ فِرعَونَ مِن أهلِ النَّارِ، وفيه: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ [المسد: ١])[١].

١٠- قولُه: ﴿ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا ﴾ فيه إشعارٌ باقتِضاءِ الحِكمةِ تَوَجُّهَ الذِّكرِ إليهم ومُلازَمَتَه لهم كأنَّه يَتَهافَتُ عليهم[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أنَّ اللهَ تعالى أقام الحُجَّةَ على جميعِ الخَلقِ، ويُؤيِّدُ هذا قَولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾[٣] [فاطر: ٢٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ بيانُ شدَّةِ صبرِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيثُ إنَّهم يُستهزَأُ بهم؛ وهم صابِرونَ حتَّى يأتيَ أمْرُ اللهِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

- في قَولِه: ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ في جَعْلِ المُقسَمِ به القُرآنَ بوَصْفِ كَونِه مُبينًا، وجَعْلِ جَوابِ القَسَمِ أنَّ اللهَ جَعَله مُبينًا؛ تَنويهٌ خاصٌّ بالقُرآنِ؛ إذ جَعَل سُبحانَه المُقسَمَ به هو المُقسَمَ

(١) يُنظر: ((سنن الترمذي)) (٢١٥٥)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٢) وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٨).

عليه، وهذا ضَربٌ عَزيزٌ بَديعٌ؛ لأنَّه يُومِئُ إلى أنَّ المُقسَمَ على شَأنِه بَلَغ غايةَ الشَّرفِ؛ فإذا أراد المُقسِمُ أن يُقسِمَ على ثُبوتِ شَرَفٍ له، لم يَجِدْ ما هو أَولَى بالقَسَمِ به؛ للتَّناسُبِ بيْنَ القَسَمِ والمُقسَمِ عليه(١).

- وأقسَمَ سبُحانه بالكِتابِ المُبينِ -وهو القُرآنُ- على أنَّ القُرآنَ جَعَله اللهُ عربيًّا واضِحَ الدَّلالةِ؛ فهو حَقيقٌ بأنْ يُصَدِّقوا به لو كانوا غَيرَ مُكابِرينَ، ولَكِنَّهم بمُكابَرَتِهم كانوا كمَن لا يَعقِلون. وفي القَسَمِ بالقُرآنِ تَنويهٌ بشَأنِه، وهو تَوكيدٌ لِمَا تَضَمَّنه جَوابُ القَسَمِ؛ إذ ليس القَسَمُ هنا برافِعٍ لتَكذيبِ المُنكرِينَ؛ إذ لا يُصَدِّقون بأنَّ المُقسِمَ هو اللهُ تعالى؛ فإنَّ المُخاطَبَ بالقَسَمِ هم المُنكِرونَ؛ بدَليلِ قولِه: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وتَفريعِ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الزخرف: ٥] عليه(٢).

- وتَوكيدُ الجوابِ بـ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ زِيادةُ تَوكيدٍ للخبرِ أنَّ القُرآنَ مِن جَعْلِ اللهِ تعالَى(٣).

- والإخبارُ عن الكِتابِ بأنَّه قُرآنٌ مُبالَغةٌ في كَونِ هذا الكتابِ مَقروءًا، أي: مُيَسَّرًا لأَنْ يُقرَأَ؛ لقَولِه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧]؛ فحَصَل بهذا الوَصفِ أنَّ الكتابَ المُنَزَّلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جامِعٌ لوَصفَينِ: كَونُه كتابًا، وكَونُه مَقروءًا على أَلْسِنةِ الأُمَّةِ، وهذا ممَّا اختُصَّ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦١، ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩).

كِتابُ الإسلامِ[١].

- والمَقصودُ بوَصفِ الكِتابِ بأنَّه عربيٌّ غَرَضانِ؛ أَحَدُهُما: التَّنويهُ بالقُرآنِ، ومَدحُه بأنَّه مَنسوجٌ على مِنوالِ أَفصَحِ لُغَةٍ. وثانيهما: التَّورُّكُ على المعانِدينَ مِن العَرَبِ حينَ لم يَتأثَّروا بمَعانيه؛ بأنَّهم كمَنْ يَسمَعُ كلامًا بلُغَةٍ غيرِ لُغَتِه، وهذا تَأْكيدٌ لِمَا تَضمَّنَه الحَرفانِ المُقَطَّعانِ المُفتَتَحةُ بهما السُّورةُ مِن معنى التَّحَدِّي؛ بأنَّ هذا كِتابٌ بلُغَتِكُم، وقد عَجَزْتُم عن الإتيانِ بمِثلِه[٢].

- وفي ابتداءِ جُملةِ ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ بحَرفِ (لَعلَّ) تَعريضٌ بأنَّهم أهمَلوا التَّدبُّرَ في هذا الكِتابِ، وأنَّ كَمالَه في البيانِ والإفصاحِ يَستَأْهِلُ العِنايةَ به لا الإعراضَ عنه؛ فقولُه: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ مُشعِرٌ بأنَّهم لم يَعقِلوا، والمعنى: أنَّا يَسَّرْنا فَهْمَه عليكم لَعلَّكم تَعقِلون، فأعرَضْتُم ولم تَعقِلوا مَعانِيَه؛ لأنَّه قد نَزَل مِقدارٌ عَظيمٌ لو تَدَبَّروه لَعَقَلوا؛ فهذا الخَبَرُ مُستَعمَلٌ في التَّعريضِ على طَريقةِ الكِنايةِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ هذه الجُملةُ إمَّا عَطْفٌ على جُملَةِ ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] داخِلةٌ في حُكمِها؛ ففي الإقسامِ بالقُرآنِ على عُلُوِّ قَدرِه عِندَهُ تعالَى بَراعةٌ بَديعةٌ، وإيذانٌ بأنَّه مِن عُلُوِّ الشَّأنِ بحيثُ لا يَحتاجُ في بَيانِه إلى الاستِشهادِ عليهِ بالإقسامِ بغَيرِهِ؛ بل هُو بذاتِه كافٍ في الشَّهادةِ على ذلك مِن حَيثُ الإقسامُ به، كَما أنَّه كافٍ فيها مِن حيثُ إعجازُه، ورَمْزٌ إلى أنَّه لا يَخطِرُ بالبالِ عندَ ذِكرِه شَيءٌ آخَرُ أَولى منه بالإقسامِ به. وإمَّا أنْ تكونَ مُستأنَفةً مُقرِّرةً لعُلُوِّ شأنِه الَّذي أَنبأَ عنه الإقسامُ به، على مِنهاجِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٦١، ١٦٢).

الاعتِراضِ في قَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[١] [الواقعة: ٧٦].

- وتَأْكيدُ الكَلامِ بـ (إنَّ) لِرَدِّ إنكارِ المُخاطَبينَ؛ إذ كَذَّبوا أنْ يكونَ القُرآنُ مُوحًى به مِن اللهِ سُبحانه[٢].

- وقولُه: ﴿لَدَيۡنَا﴾ ظرْفٌ مُستقَرٌّ[٣] هو حالٌ مِن ضَميرِ (إنَّه)، أو مِن ﴿أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والمَقصودُ: زِيادةُ تَحقيقِ الخَبَرِ، وتَشريفُ المُخبَرِ عنه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ﴾ لَمَّا استَهزَؤوا بكِتابِ الله، واستَخَفُّوا به لِيَدفَعُوه عن أنفُسِهم عِنادًا؛ فوَصَفَ الكتابَ أوَّلًا بقَولِه: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾، وثانيًا بقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، عقَّب ذلك كلَّه مُنكِرًا عليهم بقَولِه: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ﴾ الآيةَ؛ يعني: أنَّه في عالَمِ الشَّهادةِ عَرَبيٌّ فَصيحٌ بَليغٌ، عَجَزَ عن الإتيانِ بمِثلِه الجِنُّ والإنسُ، مُحتَوٍ على أسرارٍ ومَعانٍ إذا تفكَّر فيها أُولُو الألبابِ حَصَلوا على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٢).

(٣) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لَغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولُك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِفَ الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زَيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٢، ١٦٣).

البَحرِ الخِضَمِّ وكُنوزِ الحِكَمِ، وأنَّه في عالَمِ الغَيبِ لَدى المَلِكِ ذي الجَبَروتِ عَلِيُّ المَرتَبةِ رَفيعُ الشَّأنِ؛ فإذا كان كذلك وجَبَ أنْ يُشَرَّفَ قَدرُه، ويُعَظَّمَ شَأنُه، ويَتغَلغَلَ صِيتُه في كلِّ مَدَرٍ ووَبَرٍ، أفبِسَبَبِكُم نَترُكُه مُهمَلًا ونَضرِبُ عنكم ذِكرَه صَفحًا؟! كلَّا[1].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿ أَفَنَضْرِبُ ﴾ إنكارِيٌّ، أي: لا يَجوزُ أنْ نَضرِبَ عنكمُ الذِّكرَ صَفحًا مِن جرَّاءِ إسرافِكُم[2].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿ أَفَنَضْرِبُ ﴾ للعَطفِ على مَحذوفٍ، تَقديرُه: أَنُهمِلُكم فنَضرِبَ عنكم الذِّكرَ؛ إنكارًا لأَنْ يَكونَ الأمرُ على خِلافِ ما قَدَّم مِن إنزالِه الكِتابَ وجَعْلِه قُرآنًا عربيًّا؛ لِيَعقِلوه ويَعمَلوا بمُوجَبِه[3].

وقيل: الفاءُ لتَفريعِ الاستِفهامِ الإنكارِيِّ على جُملةِ ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣]، أي: أَتَحسَبون أنَّ إعراضَكُم عمَّا نَزَل مِن هذا الكِتابِ يَبعَثُنا على أنْ نَقطَعَ عنكم تَجَدُّدَ التَّذكيرِ بإنزالِ شَيءٍ آخَرَ مِن القُرآنِ؟! فلمَّا أُريدَت إعادةُ تَذكيرِهم -وكانوا قد قُدِّمَ إليهم مِن التَّذكيرِ ما فيه هَدْيُهم لو تَأَمَّلوا وتَدَبَّروا، وكانت إعادةُ التَّذكيرِ لهم مَوسومةً في نَظَرِهم بقِلَّةِ الجَدوَى- بَيَّنَ لهم أنَّ استِمرارَ إعراضِهم لا يكونُ سببًا في قَطعِ الإرشادِ عنهم؛ لأنَّ اللهَ رحيمٌ بهم، مُريدٌ لصَلاحِهم، لا يَصُدُّه إسرافُهم في الإنكارِ عن زِيادةِ التَّقدُّمِ إليهم بالمَواعِظِ والهَدي[4].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٣).

- وقولُه: ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ مُظهَرٌ وُضِعَ مَقامَ المُضمَرِ مِن غَيرِ لَفظِه السَّابِقِ -فقولُه: ﴿قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ في معنَى الذِّكرِ-؛ إشعارًا بالعِلِّيَّةِ[1].

- قَولُه: ﴿أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ﴾ هو في الحَقيقةِ عِلَّةٌ مُقتَضِيةٌ لِتَركِ الإعراضِ عنهم؛ لأنَّهم كانوا مُنهَمِكينَ في الإسرافِ مُصِرِّينَ عليه، والمعنى: إنَّ حالَكُم وإنِ اقتَضَى تَخلِيَتَكُم وشَأنَكُم حتَّى تَموتُوا على الكُفرِ والضَّلالةِ، وتَبقَوا في العَذابِ الخالِدِ، لَكِنَّا -لِسَعةِ رَحمَتِنا- لا نَفعَلُ ذلك، ولا نَترُكُ تَذكيرَكُم بسَبَبِ كَونِكم مُسرِفينَ، بلْ لا نَزالُ نُعيدُ التَّذكيرَ رحمةً بكم، ونَهدِيكُم إلى الحقِّ بإرسالِ الرَّسولِ الأمينِ، وإنزالِ الكِتابِ المُبينِ[2].

- وعلى قِراءةِ: ﴿إِن كُنتُمۡ﴾، إنْ قيل: كيفَ استَقام معنى (إنِ) الشَّرطِيَّةِ المُفيدَةِ للشَّكِّ، وقد كانوا في الحَقيقةِ مُسرِفينَ على البَتِّ. قيل: هو مِن الشَّرطِ الَّذي يَصدُرُ عن المُدِلِّ بصِحَّةِ الأَمرِ، المُتَحَقِّقِ لثُبوتِه، وفي هذا استِجهالٌ لهم في أنَّهم مع مَعرِفَتِهم أنَّ القُرآنَ عربيٌّ مُبينٌ، وقد أبان طُرُقَ الهُدَى مِن طُرُقِ الضَّلالةِ، وأبانَ ما تَحتاجُ إليه الأُمَّةُ في أبوابِ الدِّيانةِ؛ فرَّطوا فيه مِثلَ تَفريطِ مَن لم يَعرِفْ ذلك وشكَّ فيه[3].

وقيل: الإتيانُ بـ (إن) في قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ﴾ لقصدِ تنزيلِ المخاطبينَ المعلومِ إسرافُهم منزلةَ مَن يشكُّ في إسرافِه؛ لأنَّ توفُّرَ الأدلَّةِ على

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٤).

صدقِ القرآنِ مِن شأنِه أنْ يُزيلَ إسرافَهم، وفي هذا ثقةٌ بحقيةِ القرآنِ، وضربٌ مِن التوبيخِ على إمعانِهم في الإعراضِ عنه[١].

- وأيضًا على قِراءةِ ﴿إِن كُنتُمْ﴾ فالجزاءُ -أي: جوابُ الشَّرْطِ- محذوفٌ؛ ثِقةً بدَلالةِ ما قبْلَه عليه[٢].

- وإقحامُ ﴿قَوْمًا﴾ قبْلَ ﴿مُّسْرِفِينَ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ هذا الإسرافَ صارَ طَبعًا لهم، وبه قِوامُ قَومِيَّتِهم[٣].

- والمرادُ بالمُسرِفينَ: المُستهزِئون بآياتِ اللهِ وكِتابِه؛ لقَولِه بعدَه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾؛ فإنَّه تَهديدٌ مُرَتَّبٌ عليه[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ * فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ كلامٌ مُوَجَّهٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَسلِيةً عمَّا يُلاقِيه مِن الأذَى والاستِهزاءِ، ووَعدٌ له بالنَّصرِ على قَومِه، وجَعَل للتَّسليةِ المَقامَ الأوَّلَ مِن هذا الكَلامِ بقَرينةِ العَدلِ عن ضَميرِ الخِطابِ إلى ضَميرِ الغَيبةِ في قَولِه: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم﴾، ويَتضَمَّنُ ذلك تَعريضًا بزَجرِهم عن إسرافِهم في الإعراضِ عن النَّظَرِ في القُرآنِ[٥]. وأيضًا فقولُه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم ...﴾ إلى آخِرِ الآياتِ، تقريرٌ لِمَا قَبْلَه ببَيانِ أنَّ إسرافَ الأُمَمِ السَّالِفةِ لم يَمْنَعْهُ تعالى مِن إرسالِ الأنبياءِ إليهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

- قولُه: ﴿ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا ﴾ (كم) اسمٌ دالٌّ على عَددٍ كَثيرٍ مُبهَمٍ، والدَّاعي إلى اجتِلابِ اسمِ العَدَدِ الكَثيرِ (كم): أنَّ كَثرةَ وُقوعِ هذا الحُكمِ أَدخَلُ في زَجرِهم عن مِثلِه، وأَدخَلُ في تَسلِيةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَحصيلِ صَبرِه؛ لأنَّ كَثرةَ وُقوعِه تُؤذِنُ بأنَّه سُنَّةٌ لا تَتخلَّفُ، وذلك أزجَرُ وأَسلَى[1].

- وجُملةُ ﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا ﴾ تَفريعٌ وتَسَبُّبٌ عن جُملةِ ﴿ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾، وضَميرُ ﴿أَشَدَّ مِنۡهُم﴾ عائِدٌ إلى ﴿قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ﴾ الَّذين تقدَّم خِطابُهم؛ فعَدَل عن استِرسالِ خِطابِهم إلى تَوجيهِه إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ الغَرَضَ الأهَمَّ مِن هذا الكلامِ هو تَسلِيةُ الرَّسولِ ووَعْدُه بالنَّصرِ، ويَستَتبِعُ ذلك التَّعريضَ بالَّذين كذَّبوه؛ فإنَّهُم يَبلُغُهم هذا الكَلامُ، وكان سُبحانه مُقبلًا عليهم بالخِطابِ في قَولِه: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ﴾، فأَعرَضَ عنهُم إلى إخبارِ الغائِبِ في قَولِه: ﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا ﴾، وتَغييرُ أُسلوبِ الإضمارِ تَبعًا لتَغييرِ المُواجَهةِ بالكَلامِ لا يُنافي اعتِبارَ الالْتِفاتِ في الضَّميرِ[2]، ولا تَفوتُ النُّكتةُ الَّتي تَحصُلُ مِن الالْتِفاتِ، وهي تَجديدُ نَشاطِ السَّامِعِ، بل تَزدادُ قوَّةً بازدِيادِ مُقتَضَياتِها[3].

- وفي قَولِه: ﴿ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا ﴾ وصَفَهم بأَشَدِّيَّةِ البَطشِ؛ لإثباتِ حُكمِهم لِهَؤلاءِ بطَريقِ الأولَوِيَّةِ، وانتَصَب ﴿بَطۡشٗا﴾ على التَّمييزِ لنِسبةِ الأَشَدِّيَّةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٥).

(٢) وذلك لأنَّ مَناطَ الالْتِفاتِ هو اتِّحادُ مَرجِعِ الضَّميرَينِ مع تَأَتِّي الاقتِصارِ على طَريقةِ الإضمارِ الأُولى، وهل تَغييرُ تَوجيهِ الكَلامِ إلَّا تَقويةٌ لمُقتَضى نَقلِ الإضمارِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦).

- والَّذين (هم أَشَدُّ بَطْشًا مِن كفَّارِ مكَّةَ): هم الَّذين عُبِّرَ عنهم بالأوَّلِينَ، ووُصِفوا بأنَّهم يَستَهزِئونَ بمَن يَأتيهِم مِن نبيٍّ، وهذا تَرتيبٌ بَديعٌ في الإيجازِ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ يَقتَضي كَلامًا مَطويًّا، تَقديرُه: فلا نَعجِزُ عن إهلاكِ هؤلاءِ المُسرِفينَ، وهم أقَلُّ بطشًا[١].

- قولُه: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سَلَفَ في القُرآنِ في غَيرِ مَوضِعٍ منه ذِكرُ قِصَّتِهم وحالِهم العَجيبةِ الَّتي حقُّها أنْ تَسيرَ مَسيرَ المَثَلِ، وهذا وَعدٌ لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَعيدٌ لهم بمِثلِ ما جَرَى على الأوَّلينَ[٢].

- وقيل: ﴿مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: حالُهُم العَجيبةُ، ومعنى (مَضى): انقَرَض، أي: ذَهَبوا على بَكرةِ أبيهِم، فمُضِيُّ المَثَلِ كِنايةٌ عن استِئصالِهم؛ لأنَّ مُضِيَّ الأحوالِ يكونُ بمُضِيِّ أصحابِها؛ فهو في معنى قَولِه تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾[٣] [الأنعام: ٤٥].

- وذِكرُ ﴿ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِتَقَدُّمِ قَولِه: ﴿فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦]، ووَجْهُ إظهارِه: أن يَكونَ الإخبارُ عنهم صَريحًا وجارِيًا مَجرَى المَثَلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٩ - ١٤)

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَهْدًا﴾: أي: مَكانًا مُمَهَّدًا مُوَطَّأً، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على التَّوطئةِ للشَّيءِ وتَسهيلِه[1].

﴿سُبُلًا﴾: أي: طُرُقًا، والسَّبيلُ: الطَّريقُ الَّذي فيه سُهولةٌ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ[2].

﴿بِقَدَرٍ﴾: أي: بمِقْدارٍ مَعْلومٍ، بِقَدْرِ حاجَتِكم إليه، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه[3].

﴿فَأَنشَرْنَا﴾: أي: أحْيَيْنا، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، =

﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: أي: السُّفُنِ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ الفلكِ: الاستِدارةُ في الشَّيءِ، ولَعلَّ السُّفُنَ سُمِّيتْ فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[١].

﴿لِتَسۡتَوُۥاْ﴾: أي: لِتَسْتَعلوا وتَستَقِرُّوا مُتَمَكِّنينَ، والاستِواءُ: الارتفاعُ والعُلُوُّ على الشَّيءِ، والاستِقرارُ في العلوِّ[٢].

﴿سُبۡحَٰنَ﴾: اسْمٌ وُضِع مَوضِعَ المصدرِ، ومعناه: التَّنزيهُ والتَّقديسُ، والتَّبرئةُ للرَّبِّ -جلَّ ثناؤُه- مِن السُّوءِ والنَّقائصِ، وكلِّ ما لا يَليقُ بجلالِه، وأصلُ (سبح) هنا: جِنسٌ مِن العِبادةِ[٣].

﴿مُقۡرِنِينَ﴾: أي: مُطيقِينَ وضابِطينَ، يُقالُ: فُلانٌ مُقرِنٌ لفُلانٍ، أي: ضابِطٌ له. وأقرَنتُ كذا، أي: أطَقْتُه. وأقرَنَ له، أي: أطاقَه وقَوِيَ عليه، كأنَّه صار له قِرْنًا.

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البر (٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٨، ٧٦٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٣١).

قال الرَّاغب: (السَّبْحُ: المَرُّ السَّريعُ في الماءِ، وفي الهواءِ... والتَّسبيحُ: تنزيهُ الله تعالى. وأصلُه: المَرُّ السَّريعُ في عبادةِ اللهِ تعالى، وجُعِل ذلك في فِعلِ الخَيرِ كما جُعِل الإبعادُ في الشَّرِّ، فقيل: أبعدَه الله، وجُعِل التَّسبيحُ عامًّا في العباداتِ؛ قولًا كان أو فِعلًا أو نِيَّةً). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٣٩٢).

وقال الشنقيطي: (أحسَنُ أوجُهِ الإعرابِ في «سُبْحانَ» أنَّه مفعولٌ مُطلَقٌ، منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ، أي: أسبِّحُ اللهَ سُبحانًا، أي: تسبيحًا). ((أضواء البيان)) (٣/ ٧).

وقيل: مُماثِلينَ في القُوَّةِ، مِن قَولِهم: هو قِرنُ فُلانٍ: إذا كان مِثلَه في القُوَّةِ، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾: أي: راجِعونَ وصائِرونَ، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا تناقُضَ المشركينَ، ومُعدِّدًا نِعَمَه سبحانَه: ولَئِنْ قُلتَ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقهنَّ اللهُ العَزيزُ العَليمُ. وهو سُبحانَه الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُمهَّدةً، وجَعَل لكم فيها طُرُقًا؛ لَعَلَّكم تَهتَدونَ بها، والَّذي نزَّل مِنَ السَّماءِ مَطَرًا بمِقدارٍ مُعَيَّنٍ، فأحيَيْنا به بَلدةً مُجدِبةً، كذلك يُحييكم اللهُ بعدَ مَوتِكم، والَّذي خَلَق الأصنافَ جميعَها، وجَعَل لكم ما تَركَبونَه مِن سُفُنٍ وأنعامٍ؛ لِتَستَقِرُّوا على ظُهورِ الفُلكِ والأنعامِ، ثمَّ تَذْكُروا نِعمةَ رَبِّكم إذا استَويتُم عليها، وتقولوا: تَنزَّهَ اللهُ الَّذي ذَلَّل لنا هذا، وما كنَّا بمُطيقينَ تَذليلَها ورُكوبَها، وإنَّا إلى ربِّنا لَراجِعونَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أن ذَكَر أنَّ المُشرِكينَ مُنهَمِكونَ في كُفرِهم وإعراضِهم عمَّا جاء به القُرآنُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠).

مِن توحيدِ اللهِ، والبَعثِ؛ أبان هنا أنَّ أفعالَهم تُخالِفُ أقوالَهم؛ فلَئِنْ سَألْتَهم عن الخالقِ لهذا الكَونِ مِن سمائِه وأرضِه لَيَقولُنَّ: اللهُ، وهم مع اعترافِهم به يَعبُدونَ الأوثانَ والأصنامَ[١]!

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: ولَئِنْ قُلتَ للمُشرِكينَ -يا محَمَّدُ: مَنِ الَّذي خَلَق السَّمَواتِ السَّبْعَ وخَلَق الأرَضِينَ؟ لَيَقولُنَّ مِن فَورِهم: خلَقَهنَّ اللهُ وَحْدَه، العزيزُ ذو القَدْرِ العَظيمِ، القاهِرُ الغالِبُ لِكُلِّ شَيءٍ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، العليمُ الَّذي لا يخفى عليه شَيءٌ[٢].

ثمَّ دلَّ على نفْسِه بذكرِ مَصنوعاتِه، فقال[٣]:

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا ﴾.

أي: الَّذي جَعَل لكم الأرضَ ثابِتةً مُمهَّدةً، تتمَكَّنونَ فيها ممَّا تُريدونَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٨، ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٠-٦٢).

قال الواحدي: (هذا إخبارٌ عن غايةِ جَهلِهم؛ إذ أقرُّوا بأنَّ اللهَ خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ، ثمَّ عَبَدوا معه غيرَه، وأنكَروا قُدرتَه على البَعثِ!). ((الوسيط)) (٤/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٤).

قال الزمخشري: (فإنْ قُلتَ: قَولُه: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ وما سُرِدَ مِن الأوصافِ =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ: ٦].

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي: وجعَلَ لكم في الأرضِ طُرُقًا يسَّرَ لكم المَشيَ فيها[1]؛ لعَلَّكم تهتَدونَ

---

= عَقِيبَه إن كان مِن قَولِهم، فما تصنَعُ بقَولِه: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾؟ وإن كان مِن قَولِ الله، فما وَجهُه؟

قُلتُ: هو مِن قَولِ اللهِ لا مِن قَولِهم، ومعنى قَولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ الَّذي مِن صِفتِه كَيْتَ وكَيْتَ، لَيَنسُبُنَّ خَلْقَها إلى الَّذي هذه أوصافُه، ولَيُسنِدُنَّه إليه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٨).

وقال ابن تيميَّة: (هذه الصِّفاتُ مِن كَلامِ الله تعالى، ليست مِن تَمامِ جَوابِهم). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٧٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(١) ممَّن قال بأنَّ المرادَ بالسُّبُلِ هنا: الطُّرُقُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والسمعاني، وابن عطية، وابن كثير، والبِقاعي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٧٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٤، ٦٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤).

وقيل: المرادُ: المعايشُ. وممَّن قال بهذا: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٤).

وممّن جوَّز الجمْعَ بينَ المعنيينِ: ابنُ عاشورٍ، فقال: (السُّبُلُ: جَمعُ سَبيلٍ، وهو الطَّريقُ، ويُطلَقُ السَّبيلُ على وسيلةِ الشَّيءِ... ويَصِحُّ إرادةُ المعنيَينِ هنا؛ لأنَّ في الأرضِ طُرُقًا يُمكِنُ سُلوكُها، وهي السُّهولُ وسُفوحُ الجِبالِ وشِعابُها، أي: لم يَجعَلِ الأرضَ كُلَّها جِبالًا فيَعسُرَ على الماشينَ سُلوكُها، بل جعَلَ فيها سُبُلًا سَهلةً، وجَعَلَ جِبالًا لِحِكمةٍ أُخرى، ولأنَّ الأرضَ صالحةٌ لاتِّخاذِ =

بها[١].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾.

---

= طُرُقٍ مَطروقةٍ سابِلةٍ. ومعنى جَعْلِ اللهِ تلك الطُّرُقَ بهذا المعنى: أنَّه جَعَل للنَّاسِ مَعرفةَ السَّيرِ في الأرضِ واتِّباعَ بَعضِهم آثارَ بَعضٍ؛ حتَّى تَتعَبَّدَ الطُّرُقُ لهم وتَتسَهَّلَ، ويَعلَمَ السَّائِرُ أيُّ تِلك السُّبُلِ يُوصِلُه إلى مَقصدِه. وفي تيسيرِ وسائلِ السَّيرِ في الأرضِ لُطفٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ به تيسيرَ التَّجَمُّعِ والتَّعارُفِ، واجتِلابَ المنافِعِ، والاستِعانةَ على دَفعِ الغوائِلِ والأضرارِ. والسَّيرُ في الأرضِ قَريبًا أو بعيدًا مِن أكبرِ مَظاهِرِ المَدَنيَّةِ الإنسانيَّةِ، ولأنَّ اللهَ جَعَل في الأرضِ مَعايِشَ النَّاسِ مِن النَّباتِ والثَّمَرِ...، وهي وسائِلُ العَيشِ؛ فهي سُبُلٌ مَجازيَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٩، ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٤، ٦٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالهدايةِ هنا هدايةُ الطُّرقِ، والاهتِداءُ في السَّيرِ مِن مَوضِعٍ لآخَرَ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكي، والسمعاني، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٤).

وقيل: معنى: ﴿تَهْتَدُونَ﴾: تَستَدِلُّونَ بمَقدوراتِه على قُدرتِه. وممَّن قال بهذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٤).

قال ابن عطية: (﴿تَهْتَدُونَ﴾ معناه: في المَقاصِدِ مِن بلدٍ إلى بلدٍ، ومِن قُطرٍ إلى قُطرٍ. ويحتَمِلُ أن يريدَ: تهتَدونَ بالنَّظَرِ والاعتِبارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧).

وممَّن ذهب إلى الجَمعِ بيْنَ المعنيَينِ: السعدي، فقال: (﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في السَّيرِ في الطُّرقِ ولا تَضيعون، ولَعلَّكم تَهتدونَ أيضًا في الاعتبارِ بذلك والادِّكارِ فيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه تعالى انتَقَل مِنَ الاستِدلالِ والامتِنانِ بخَلقِ الأرضِ، إلى الاستِدلالِ والامتِنانِ بخَلقِ وَسائِلِ العَيشِ فيها، وهو ماءُ المطَرِ الَّذي به تُنبِتُ الأرضُ ما يَصلُحُ لاقتِياتِ النَّاسِ(١).

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾.

أي: والَّذي نزَّل مِن السَّماءِ مَطَرًا بمِقدارِ حاجةِ النَّاسِ والنَّباتِ والأنعامِ؛ لِيَحصُلَ الانتِفاعُ به دونَ زيادةٍ مُهلِكةٍ، أو نُقصانٍ مُضِرٍّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر: ٢١، ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٤، ٥٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣).

وممَّن ذَهَب إلى هذا المعنى المذكورِ لِقَولِه تعالى: ﴿بِقَدَرٍ﴾: ابنُ جرير، والسمعاني، وابن كثير، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: بقَدَرٍ سابِقٍ وقَضاءٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٥).

وممَّن حمَل الآيةَ على كِلا المعنيَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٧).

أي: فأحيَيْنا بالماءِ بَلدةً مُجدِبةً مُقفِرةً[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ [فاطر: ٩].

﴿ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾.

أي: كما أحيَيْنا بالماءِ الأرضَ المَيْتةَ، وأخرَجْنا منها نَباتَها، كذلك يُحييكم اللهُ -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوتِكم، فيُخرِجُكم يومَ القيامةِ مِن قُبورِكم[٢].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما بيْنَ النَّفخَتينِ أربعون. قالوا يا أبا هريرةَ، أربعون يومًا؟ قال: أبَيْتُ[٣]! قالوا: أربعونَ شَهرًا؟ قال: أبَيْتُ! قالوا: أربعون سَنةً؟ قال: أبَيتُ. ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ. قال: وليس مِن الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبْلَى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[٤]، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القيامةِ))[٥].

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٨).

(٣) معناه: أبَيْتُ أن أجزِمَ أنَّ المرادَ أربعون يومًا أو شهرًا أو سَنةً، بل الَّذي أجزِمُ به أنَّها أربعون مُجمَلةً؛ لأنَّه إنَّما سَمِعَ (أربعين) ولم يُعَيَّنْ له. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٤٥٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩١، ٩٢).

(٤) هو العَظْمُ اللَّطيفُ الَّذي في أسفلِ فَقارِ الظَّهرِ، وأعلَى ما بيْنَ الأَليتَينِ، وهو رأسُ العُصعُصِ. يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (١/ ٢٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩٢)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٣٠٧).

(٥) رواه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) واللفظ له.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ والامتِنانِ بخَلقِ وَسائِلِ الحياةِ، إلى الاستِدلالِ بخَلقِ وَسائِلِ الاكتِسابِ لصَلاحِ المعاشِ، وذَكَر منها وسائِلَ الإنتاجِ، وأتْبَعَها بوسائِلِ الاكتِسابِ بالأسفارِ للتِّجارةِ[1].

﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾.

أي: واللهُ تعالى هو الَّذي خَلَق الأصنافَ جميعَها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالأزواجِ الأصنافُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، والسمعاني، والزمخشري، والبيضاوي، والبِقاعي، وأبو السعود، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٥).

قال البقاعي: (﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي: الأصنافَ المُتشاكِلةَ الَّتي لا يَكمُلُ شَيءٌ منها غايةَ الكمالِ إلَّا بالآخَرِ؛ على ما دَبَّره سُبحانَه في نَظمِ هذا الوُجودِ ﴿كُلَّهَا ﴾ مِنَ النَّباتِ والحيوانِ، وغيرِ ذلك مِن سائِرِ الأكوانِ). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٣).

وقال السمعاني: (قوله تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي: الأصنافَ كُلَّها، ويُقالُ لكُلِّ شَيئَينِ قَرينَينِ: زَوجانِ، وكلُّ واحدٍ منهما زَوجُ صاحِبِه، وذلك: السَّماءُ والأرضُ، واللَّيلُ والنَّهارُ، والشَّمسُ والقَمَرُ، والجنَّةُ والنَّارُ، وما أشبَهَ ذلك، وكذلك ما يَعودُ إلى أحوالِ الإنسانِ؛ مِن المَرَضِ والصِّحَّةِ، والفَقرِ والغِنى، والخَيرِ والشَّرِّ، والنَّومِ واليَقَظةِ، وما أشبَهَ ذلك). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٢).

وقال السعدي: (﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ أي: الأصنافَ جميعَها مِمَّا تُنبِتُ الأرضُ ومِن =

كما قال تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴾.

أي: وجَعَل لكم سُفُنًا تَركَبونَها في البَحرِ، وأنعامًا[1] تَركَبونَها في البَرِّ؛ تَنقُلُكم

---

= أنفُسِهم ومِمَّا لا يَعلَمونَ؛ مِن لَيلٍ ونَهارٍ، وحَرٍّ وبَردٍ، وذَكَرٍ وأُنثى، وغيرِ ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣).

وقال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: الأصنافُ كُلُّها. قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ. الثَّاني: أزواجُ الحيَوانِ مِن ذكَرٍ وأُنثى. قاله ابنُ عيسى. الثَّالثُ: أنَّ الأزواجَ الشِّتاءُ والصَّيفُ، واللَّيلُ والنَّهارُ، والسَّمواتُ والأرضُ، والشَّمسُ والقَمَرُ، والجنَّةُ والنَّارُ. قاله الحَسَنُ. ويحتَمِلُ رابعًا: أنَّ الأزواجَ ما يتقَلَّبُ فيه النَّاسُ مِن خيرٍ وشَرٍّ، وإيمانٍ وكُفرٍ، وغِنًى وفَقرٍ، وصِحَّةٍ وسُقمٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢١٧).

وقال القرطبي عن الاحتمالِ الأخيرِ: (وهذا القولُ يَعُمُّ الأقوالَ كلَّها، ويَجمَعُها بعُمومِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: خَلَق كُلَّ شَيءٍ فزَوَّجَه، أي: خَلَق للذُّكورِ مِن الإناثِ أزواجًا، وللإناثِ مِن الذُّكورِ أزواجًا: ابنُ جرير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٨٠).

وقال ابن عاشور: (الأزواجُ: جَمعُ زَوجٍ، وهو كُلُّ ما يصيرُ به الواحِدُ ثانيًا، فيُطلَقُ على كُلٍّ منهما أنَّه زَوجٌ للآخَرِ، مِثلُ الشَّفعِ. وغُلِّبَ الزَّوجُ على الذَّكَرِ وأنثاه مِنَ الحيوانِ... وتُوسِّعَ فيه فأُطلِقَ الزَّوجُ على الصِّنْفِ... وكِلا الإطلاقَينِ يَصِحُّ أن يُرادَ هنا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٢).

واختار ابنُ عثيمين أنَّ المرادَ الأصنافُ، وأنَّه يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ الشَّيئَينِ المُزدَوِجَينِ اللَّذينِ يَتولَّدُ بيْنَهما ثالثٌ؛ كالذَّكَرِ والأُنثى، والسَّالِبِ والمُوجَبُ، وما أشْبَهَ ذلك، وبما أنَّ الآيةَ تحتمِلُ المَعنَيينِ ولا يَتنافَيانِ فتُحمَلُ عليهما جميعًا. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٠، ٧١).

(١) قيل: كالإبِلِ والخَيلِ، والبِغالِ والحَميرِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) =

إلى حيثُ أردتُم[١].

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ [غافر: ٧٩، ٨٠].

﴿ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النِّعمةَ النَّاشِئةَ عن مُطلَقِ الإيجادِ؛ ذكَّرَ بنِعمةِ الرَّاحةِ

---

= (٣/ ٢٥٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧١).

وقيل: يعني بالأنعامِ: الإبلَ والبقرَ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢١٧).

وقيل: هي الإبِلُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: السمعاني، والقرطبي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٢).

قال ابن عطية: (و﴿مِّنَ﴾ في قَولِه: ﴿مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ للتَّبعيضِ؛ وذلك أنَّه لا يُركَبُ مِن الأنعامِ غيرُ الإبِلِ، وتدخُلُ الخَيلُ والبِغالُ والحَميرُ فيما يُركَبُ، بالمعنى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧).

والإبلُ وإن كان ركوبُها والحملُ عليها هو الأغلَبَ، لكنَّ البقرَ في بعضِ البلاد تُركَبُ أيضًا ويَحمِلون عليها الأحمالَ الثَّقيلةَ. يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣).

فيها[١].

﴿ لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾.

أي: لِتَستقِرُّوا مُتمَكِّنينَ مُرتَفِعينَ على ظُهورِ الفُلْكِ والأنعامِ[٢].

﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أتَمَّ اللهُ تعالى النِّعمةَ بخَلقِ كُلِّ ما تدعو إليه الحاجةُ، وجَعَله على وَجهٍ دالٍّ على ما له مِن الصِّفاتِ؛ ذكَرَ ما ينبغي أن يكونَ مِن غايتِها مِن شُكرِ المُنعِمِ، فقال دالًّا على عَظيمِ قَدْرِ النِّعمةِ، وعُلُوِّ غايتِها، وعُلُوِّ أمرِ الذِّكرِ- بحَرفِ التَّراخي[٣]:

﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ ﴾.

أي: ثمَّ تَذكُروا بقُلوبِكم -أيُّها النَّاسُ- نِعمةَ رَبِّكم بتيسيرِه لكم ما تَركبونَه في البَرِّ والبَحرِ، إذا استَقرَرْتُم عليه[٤].

﴿ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا ﴾.

أي: وتَقولوا بألسِنَتِكم: تَنزَّهَ اللهُ عن كُلِّ ما لا يَليقُ بكَمالِه؛ الَّذي ذَلَّل لنا هذا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٢، ٧٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٣).

الَّذي نَركَبُه مِن الفُلْكِ والأنعامِ[١].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية: ١٢].

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

أي: وما كُنَّا لتلك المراكِبِ بمُطيقينَ ولا قادِرينَ على تَذليلِها ورُكوبِها وقِيادِها لولا أنَّ الله سُبحانَه سَخَّرها لنا[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَـٰمًا فَهُمْ لَهَا مَـٰلِكُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٤، ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٣).

قال ابن عاشور: (التَّسخيرُ: التَّذليلُ والتَّطويعُ، وتسخيرُ اللهِ الدَّوابَّ هو خَلْقُه إيَّاها قابلةً للتَّرويضِ، فاهمةً لِمُرادِ الرَّاكبِ؛ وتسخيرُ الفُلكِ حاصِلٌ بمُجموعِ خَلقِ البَحرِ صالِحًا لسَبحِ السُّفُنِ على مائِه، وخَلقِ الرِّياحِ تهُبُّ فتَدفعُ السُّفُنَ على الماءِ، وخَلْقِ حيلةِ الإنسانِ لصُنعِ الفُلكِ، ورَصدِ مَهابِّ الرِّياحِ، ووَضعِ القُلوعِ والمجاذيفِ، ولولا ذلك لَكانت قوَّةُ الإنسانِ دونَ أن تَبلُغَ استِخدامَ هذه الأشياءِ القويَّةِ! ولهذا عقَّب بقَولِه: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾، أي: مُطيقِينَ، أي: بمُجَرَّدِ القُوَّةِ الجَسَديَّةِ، أي: لولا التَّسخيرُ المَذكورُ؛ فجُملَةُ ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَنَا﴾، أي: سخَّرَها لنا في حالِ ضَعفِنا بأنْ كان تَسخيرُه قائمًا مَقامَ القُوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٥٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٥).

* وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٧١، ٧٢].

﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان راكِبُ السَّفينةِ أو الدَّابَّةِ مُتَعَرِّضًا للهلاكِ بما يُخافُ مِن غَرَقِ السَّفينةِ، أو سُقوطِه عن الدَّابَّةِ؛ أُمِرَ بذِكرِ الحَشرِ؛ لِيَكونَ مُستعِدًّا للمَوتِ الَّذي قد يَعرِضُ له[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ السَّيرَ الدُّنْيَويَّ؛ نبَّهَ على السَّيرِ الأُخرويِّ[٢]، فقال:

﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: وإنَّا إلى رَبِّنا لَراجِعونَ بعدَ مَوتِنا للحِسابِ والجَزاءِ[٣].

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا استوى على بَعيرِه خارجًا إلى سَفَرٍ، كبَّرَ ثلاثًا، ثمَّ قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾، اللَّهُمَّ إنَّا نسألُك في سَفَرِنا هذا البِرَّ والتَّقْوى، ومِنَ العَمَلِ ما تَرضى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ علينا سَفَرَنا هذا، واطْوِ عنَّا بُعْدَه، اللَّهُمَّ أنت الصَّاحِبُ في السَّفَرِ، والخليفةُ في الأهلِ، اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك مِن وَعْثاءِ السَّفَرِ[٤]، وكآبةِ المَنظَرِ، وسُوءِ المُنقَلَبِ في المالِ والأهلِ. وإذا رجَعَ قالَهُنَّ، وزاد فيهنَّ: آيِبونَ تائِبونَ عابِدونَ، لِرَبِّنا حامِدونَ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥).

(٤) وَعْثاءِ السَّفَرِ: أي: مَشَقَّتِه وشِدَّتِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦٨٠).

(٥) رواه مسلم (١٣٤٢).

وعن عليِّ بنِ رَبيعةَ، قال: ((شَهِدتُ عَليًّا [أي: ابنَ أبي طالبٍ] رَضِيَ اللهُ عنه وأُتِيَ بدابَّةٍ لِيَركَبَها، فلمَّا وَضَع رِجْلَه في الرِّكابِ قال: باسمِ اللهِ، فلمَّا استوى على ظَهرِها قال: الحَمدُ للهِ، ثمَّ قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، ثمَّ قال: الحَمدُ للهِ -ثلاثَ مرَّاتٍ-، ثمَّ قال: اللهُ أكبَرُ -ثلاثَ مرَّاتٍ-، ثمَّ قال: سُبحانَك إنِّي ظَلَمتُ نَفْسي فاغفِرْ لي؛ فإنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ إلَّا أنت. ثمَّ ضَحِكَ! فقيل: يا أميرَ المؤمِنينَ، مِن أيِّ شَيءٍ ضَحِكتَ؟! قال: رأيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَعَل كما فعَلْتُ ثمَّ ضَحِكَ! فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، مِن أيِّ شَيءٍ ضَحِكتَ؟! قال: إنَّ رَبَّك يَعجَبُ مِن عَبدِه إذا قال: اغفِرْ لي ذُنوبي، يَعلَمُ أنَّه لا يَغفِرُ الذُّنوبَ غيري!))[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ الإشارةُ إلى أنَّه إذا كان المقصودُ الحِسِّيُّ يَحتاجُ إلى طُرُقٍ فكذلك المقصودُ المعنويُّ -وهو الوُصولُ إلى دارِ كرامةِ اللهِ عزَّ وجلَّ- فإنَّه يَحتاجُ إلى طُرُقٍ، فلا بُدَّ أنْ نَسلُكَ هذه الطُّرُقَ حتَّى نَصِلَ إلى المقصودِ، فإنْ لم نَسْلُكْها فلن نَصِلَ إلى المقصودِ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٠٢) واللَّفظُ له، والترمذي (٣٤٤٦)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٨٨٠٠)، وأحمد (٧٥٣).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّح الحديثَ ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٢٦٩٨)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٦٠٢)، وصَحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (٢٨٠)، وابنُ القيِّم في ((صيغ الحمد)) (ص: ٤٣)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٢/ ١١٠)، وحسَّن الحديثَ شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٨).

ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ كم مِن راكِبِ دابَّةٍ عَثَرتْ به أو شَمَسَت[١] أو تقَحَّمت[٢] أو طاحَ مِن ظَهرِها فهَلَك! وكم مِن راكِبينَ في سفينةٍ انكَسَرت بهم فغَرِقوا، فلمَّا كان الرُّكوبُ مُباشَرةَ أمرٍ مُخطِرٍ، واتِّصالًا بسَبَبٍ مِن أسبابِ التَّلَفِ؛ كان مِن حَقِّ الرَّاكِبِ وقد اتَّصَل بسَبَبٍ مِن أسبابِ التَّلَفِ ألَّا يَنسى هلاكَه عندَ اتِّصالِه به يومَه، وأنَّه هالِكٌ لا مَحالةَ فمُنقَلِبٌ إلى اللهِ غيرُ مُنفَلِتٍ مِن قَضائِه؛ وألَّا يَدَعَ ذِكرَ ذلك بقَلْبِه ولِسانِه حتَّى يكونَ مُستَعِدًّا لِلِقاءِ اللهِ بإصلاحِه مِن نَفْسِه، والحَذَرِ مِن أن يكونَ رُكوبُه ذلك مِن أسبابِ مَوتِه في عِلمِ اللهِ، وهو غافِلٌ عنه[٣]، فينبغي للمُتلَبِّسِ بهذه الحالةِ استِذكارُ الآخرةِ، والاستِعدادُ لها، فلْيَجتلِبْ ما يُنجيه؛ مِن طاعةِ الله، ويجتنبْ ما يُرديه مِن معصيتِه[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ * لِتَسۡتَوُاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أي: لَصائِرونَ إليه بعدَ مَماتِنا، وإليه سَيرُنا الأكبَرُ. وهذا مِن بابِ التَّنبيهِ بسَيرِ الدُّنيا على سَيرِ الآخِرةِ[٥]، فتأمَّلْ كيف نبَّهَهم بالسَّفَرِ الحِسِّيِّ على السَّفَرِ إليه، وجمَعَ لهم بيْنَ السَّفَرينِ كما جَمَع لهم الزَّادَينِ في قَولِه تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]،

---

(١) شَمَسَت: أي: شَرَدت وجَمَحت، ومَنَعت ظَهْرَها عن الرُّكوبِ؛ لشِدَّةِ شَغْبِها وحِدَّتِها. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٦/ ١٧٤).

(٢) تقَحَّمت: رَمَت بنَفْسِها فَجأةً بلا رَويَّةٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٣/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٠).

فجَمَع لهم بيْنَ زادِ سَفَرِهم وزادِ مَعادِهم، وكما جمَعَ بيْنَ اللِّباسَينِ في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فذكَرَ سُبحانَه زينةَ ظَواهِرِهم وبواطِنِهم، ونبَّهَهم بالحِسِّيِّ على المَعنويِّ. وفَهْمُ هذا القَدرِ زائِدٌ على فَهمِ مُجَرَّدِ اللَّفظِ ووَضعِه في أصلِ اللِّسانِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ لا يكونُ بإقرارِه ببَعضِ الحَقِّ مُؤمِنًا حتَّى يُقِرَّ بجَميعِه، وأنَّ الكُفرَ ببَعضِ الحَقِّ كُفرٌ بجَميعِه؛ فالقَومُ قالوا حقًّا، ولم يَنفعْهم الإقرارُ به وقد رَدُّوا غيرَه[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ أنَّ مُشرِكي العَرَبِ كانوا مُتَّفِقينَ على أنَّ أربابَهم لم تُشارِكِ اللهَ في خلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ، بل كانوا مُقِرِّينَ بأنَّ اللهَ وحْدَه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما[٣].

٣- قال تعالى: ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا ﴾، ووَجْهُ الامتِنانِ: أنَّه جعَلَ ظاهِرَ الأرضِ مُنبَسِطًا، وذلك الانبِساطُ لنَفْعِ البَشَرِ السَّاكِنينَ عليها، وهذا لا يُنافِي أنَّ جِسمَ الأرضِ كُرَوِيٌّ، كما هو ظاهِرٌ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ فيه إثباتُ حِكمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٩).

فيما يَخلُقُ، وحِكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ فيما يَخلُقُ وفيما يُشَرِّعُ: ثابِتةٌ، لكِنْ مِن الحِكَمِ ما نَعلَمُ، ومِن الحِكَمِ ما لا نَعلَمُ؛ لقُصورِ أفهامِنا، ومِن الحِكَمِ ما يَعلَمُه كثيرٌ مِن النَّاسِ، وتخفَى على كثيرينَ آخَرينَ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وأمثالِه في القُرآنِ: دليلٌ على ثُبوتِ الأسبابِ، وأنَّها غيرُ مُؤثِّرةٍ في توكُّلِ المتوكِّلينَ، ولا في قُدرةِ الخالِقِ؛ فاللهُ جلَّ جلالُه -لا محالةَ- قادِرٌ على إنشارِ الأرضِ بغيرِ مَطَرٍ، فأنشَرَها بالمطَرِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ إثباتُ القياسِ، وأنَّه دَليلٌ، وهو دَليلٌ عَقليٌّ ثابتٌ بالدَّليلِ السَّمعيِّ؛ وذلك أنَّ العَقلَ يَنتَقِلُ مِن المَقيسِ عليه إلى المَقيسِ، فهو دَليلٌ عقليٌّ باعتبارِ كيفيَّةِ الاستِدلالِ به، وهو دَليلٌ سَمعيٌّ؛ لِثُبوتِه شَرعًا[٣]. ففي قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ قاسَ الغائبَ -وهو إحياءُ الموتى- على الحاضرِ الَّذي تُشاهِدونَه، وهذا مِن طُرُقِ التَّعليلِ والتَّفهيمِ[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾، فيه سؤالٌ: يُقالُ: (ركِبوا الأنعامَ)، و(ركِبوا في الفلكِ)، وقد ذكَر الجنسينِ، فكيف قال: ﴿تَرْكَبُونَ﴾؟

**الجوابُ**: غُلِّب المتعدِّي بغيرِ واسِطةٍ؛ لقوَّتِه على المتعدِّي بواسِطةٍ[٥].

٨- قَولُه: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ إنْ قيل: كيف لم يقُلْ: (على ظُهورِها)، وقد تقدَّم لفظُ الجَمعِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢١).

**والجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ قولَه: ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ يَنصَرِفُ إلى كلمةِ ﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾، ومَعْناه: لتَسْتووا على ظُهورِ ما تَركبونَه[1].

**الثَّاني**: أنَّه أضافَ الظَّهرَ إلى واحدٍ فيه معنى الجمْعِ بمَنزلةِ الجِنسِ؛ فلذلك ذكَّرَه، وجمَعَ الظُّهورَ باعتبارِ مَعناها.

**الثَّالثُ**: أنَّ التَّأنيثَ فيها ليس حقيقيًّا؛ فجاز أنْ يَختلِفَ اللَّفظُ فيه، كما يُقالُ: عِندي مِن النِّساءِ مَن يُوافِقُك[2].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ إِذَا ٱسۡتَوَيۡتُمۡ عَلَيۡهِ وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ فيه استِحبابُ هذا الذِّكرِ عندَ رُكوبِ الدَّابَّةِ والسَّفينةِ[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ كان الَّذي يَتبادَرُ أنْ يقولَ الإنسانُ: «الحَمدُ للهِ الَّذي سَخَّرَ لنا هذا»، ولكنَّه أمَرَ أنْ يَقولَ: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ لأنَّ «سُبحانَ» تدُلُّ على التَّنزيهِ -يعني: تنزيهَ اللهِ عزَّ وجلَّ عن الحاجةِ وعن النَّقصِ-، فكأنَّ الإنسانَ يَشعُرُ إذا رَكِبَ على هذه الفُلْكِ والأنعامِ أنَّه مُحتاجٌ إليه، يَستعينُ به على حاجاتِه؛ فيُسَبِّحُ اللهَ عزَّ وجلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٣)

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٢٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٢). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨٤). قال ابن عثيمين: (وهذا الذِّكرُ عامٌّ، كُلَّما رَكِبْتَ السَّيَّارةَ أو البَعيرَ أو الطَّائرةَ تَذْكُرُ هذا: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٥).

الَّذي هو مُستَغنٍ عن كلِّ خَلْقِه؛ فكان التَّسبيحُ في هذا المقامِ أنسَبَ[١]. وأيضًا فإنَّ التَّسبيحَ يَقتضي تنزيهَ الله تعالى عن كلِّ عَيبٍ وسوءٍ، وإثباتَ صِفاتِ الكمالِ له؛ فإنَّ التَّسبيحَ يَقتضي التَّنزيهَ والتَّعظيمَ، والتَّعظيمَ يَستلزِمُ إثباتَ المحامِدِ الَّتي يُحمَدُ عليها[٢].

١١- قولُه تعالى: ﴿هَٰذَا﴾ في قولِه: ﴿سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ راجِعةٌ إلى لَفظِ ﴿مَا﴾ مِن قَولِه: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، وجَمَع الظُّهورَ نَظَرًا إلَى مَعْنَى ﴿مَا﴾؛ لأنَّ مَعْناها عامٌّ شامِلٌ لكُلِّ ما تَشْملُه صِلَتُها، ولَفْظُها مُفْرَدٌ، فالجمعُ في الآيةِ باعتبارِ مَعْناها، والإفرادُ باعتبارِ لَفْظِها[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لَمَّا كان قَولُه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦] مُوَجَّهًا إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للتَّسليَةِ والوَعدِ بالنَّصرِ؛ عَطَف عليه خِطابَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ صريحًا بقَولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآيةَ؛ لِقَصدِ التَّعجيبِ مِن حالِ الَّذين كذَّبوه؛ فإنَّهم إنَّما كذَّبوه لأنَّه دَعاهُم إلى عِبادةِ إلهٍ واحِدٍ، ونَبْذِ عِبادةِ الأصنامِ، ورَأَوْا ذلك عَجَبًا مع أنَّهم يُقِرُّون للهِ تعالى بأنَّه خالِقُ العَوالِمِ وما فيها، وهلْ يَستحِقُّ العِبادةَ غيرُ خالِقِ العابِدِينَ؟! ولأنَّ الأصنامَ مِن جُملةِ ما خلَقَ اللهُ في الأرضِ مِن حِجارةٍ، فلو سأَلَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُحاجَّتِه إيَّاهم عن خالِقِ الخلْقِ لَما استَطاعوا غيرَ الإقرارِ بأنَّه اللهُ تعالى؛ فجُملَةُ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٨٦).

ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الزخرف: ٦] عَطْفَ الغَرَضِ، وهو انتِقالٌ إلى الاحتِجاجِ على بُطلانِ الإشراكِ بإقرارِهم الضِّمنِيِّ: أنَّ أصنامَهم خالِيَةٌ عن صِفةِ استِحقاقِ أن تُعبَدَ(١).

- وتاءُ الخِطابِ في ﴿سَأَلْتَهُم﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو ظاهِرُ سِياقِ التَّسلِيةِ، أو يكونُ الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ؛ لِيَعُمَّ كلَّ مُخاطَبٍ يُتصَوَّرُ منه أنْ يَسألَهم(٢).

- قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم ...﴾ ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فيه تَأْكيدُ الكَلامِ باللَّامِ المُوَطِّئةِ للقَسَمِ، ولامِ الجَوابِ، ونُونِ التَّوكيدِ؛ لتَحقيقِ أنَّهم يُجيبون بذلك، تَنزيلًا لغَيرِ المُتَرَدِّدِ في الخَبَرِ مَنزِلَةَ المُتردِّدِ، وهذا التَّنزيلُ كِنايةٌ عن جَدارةِ حالَتِهم بالتَّعجيبِ مِنِ اختِلالِ تَفكيرِهم، وتَناقُضِ عَقائِدِهم(٣).

- وكرَّرَ الفِعلَ في الجَوابِ في قولِه: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾؛ مُبالَغةً في التَّوكيدِ(٤).

- قيل: حَذَف سُبحانَه المَوصوفَ، وهو اللهُ تعالَى، وأقامَ صِفاتِه مُقامَه؛ لأنَّ الكَلامَ مُجَزَّأٌ؛ فبَعضُه مِن قَولِهم، وبَعضُه مِن قَولِ اللهِ تعالَى؛ فالَّذي هو مِن قَولِهم: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾، وما بَعدَه هو مِن قَولِ اللهِ تعالى، وأصلُ الكلامِ: أنَّهم قالوا: خَلَقَهُنَّ اللهُ؛ بدَلالةِ قَولِه في آيةٍ أُخرى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] و[الزمر: ٣٨]، ثمَّ لَمَّا قالوا: خلَقهُنَّ اللهُ؛ وَصَف اللهُ تعالى ذاتَه بهذه الصِّفاتِ، وأُقيمَت مُقامَ المَوصوفِ كأنَّه كَلامٌ واحِدٌ، ونَظيرُ هذا أنْ تَقولَ للرَّجُلِ: مَنْ أكرَمَك مِنَ القَومِ؟ فيَقولُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦١).

أكرَمَني زَيدٌ، فتَقولُ أنت واصِفًا له: الكَريمُ الجَوَادُ المِفضالُ الَّذي مِن صِفَتِه كذا وكذا[١]. وأيضًا عُدِل عن الاسمِ العَليِّ إلى الصِّفتينِ؛ زِيادةً في إفحامِهم بأنَّ الَّذي انصَرَفوا عن تَوحيدِه بالعِبادةِ عَزيزٌ عليمٌ؛ فهو الَّذي يجِبُ أنْ يَرجُوَه النَّاسُ للشَّدائدِ؛ لعِزَّتِه، وأنْ يُخلِصوا له باطِنَهم؛ لأنَّه لا يَخفَى عليه سِرُّهم، بخِلافِ شُركائِهم؛ فإنَّها أذِلَّةٌ لا تَعلَمُ، وأنَّهم لا يُنازِعون في وَصفِه بالعَزيزِ العليم. وتَخصيصُ هاتَينِ الصِّفَتَينِ بالذِّكرِ مِن بَينِ بَقيَّةِ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ؛ لأنَّها مُضادَّةٌ لِصِفاتِ الأصنامِ؛ فإنَّ الأصنامَ عاجِزةٌ عن دَفعِ الأيدِي[٢].

- وقيل: الظَّاهرُ أنَّ: ﴿خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ نفْسُ المَحْكِيِّ مِن كَلامِهم، ولا يدُلُّ كَونُهم ذَكَروا في مكانٍ: خلَقَهنَّ اللهُ، ألَّا يَقولوا في سُؤالٍ آخَرَ: خلَقَهنَّ العزيزُ العليمُ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ كلامٌ مُوَجَّهٌ مِن اللهِ تعالى، وهو تَخَلُّصٌ مِنَ الاستِدلالِ على تَفَرُّدِه بالإلهيَّةِ بأنَّه المُنفَرِدُ بخَلقِ السَّمواتِ والأرضِ، إلى الاستِدلالِ بأنَّه المُنفَرِدُ بإسْداءِ النِّعَمِ الَّتي بها قِوامُ أَوَدِ حَياةِ النَّاسِ؛ فالجُملةُ استِئنافٌ حُذِفَ منها المُبتَدَأُ، والتَّقديرُ: هو الَّذي جَعَل لكمُ الأرضَ مَهْدًا؛ وهذا الاستِئنافُ مُعتَرَضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الزخرف: ٩] الآيةَ، وجُملةِ ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥] الآيةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٨، ١٦٩).

- واسمُ المَوصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ خَبرٌ لمُبتدَأٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: هو الَّذي جَعَل لكم، وهو مِن حَذفِ المُسنَدِ إليه الوارِدِ على مُتابَعةِ الاستِعمالِ(١)، حيث تَقدَّمَ الحديثُ عن اللهِ تعالى فيما قبْلَ هذه الجُملةِ، واجتِلابُ المَوصولِ؛ للاشتِهارِ بمَضمونِ الصِّلَةِ، فساوَى الاسمَ العَلَمَ في الدَّلالةِ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ذُكِرت صِلَتانِ فيهما دَلالةٌ على الانفرادِ بالقُدرةِ العَظيمةِ وعلى النِّعمةِ عليهم: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ ولذلك جيءَ بلَفظِ ﴿لَكُمْ﴾ في المَوضِعَينِ، ولم يُقَلْ: (الَّذي جَعَل الأرضَ مَهْدًا وجعَلَ فيها سُبُلًا)، كما في قَولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦، ٧]؛ لأنَّ ذلك المَقامَ مَقامُ الاستِدلالِ على مُنكِري البَعثِ، فسِيقَ لهم الاستِدلالُ بإنشاءِ المَخلوقاتِ العَظيمةِ الَّتي لا تُعَدُّ إعادةُ خَلقِ الإنسانِ بالنِّسبَةِ إليها شَيئًا عَجيبًا(٣).

- وأيضًا لم يُكَرِّرِ اسمَ المَوصولِ في قَولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾؛ لأنَّ الصِّلَتَينِ تَجتَمِعانِ في الجامِعِ الخَياليِّ؛ إذ كِلْتاهُما مِن أحوالِ الأرضِ، فجَعْلُهما كجَعْلٍ واحِدٍ(٤).

- وأعاد فِعلَ (جَعَل)؛ تنبيهًا على تمكُّنِه تعالى مِن إقامةِ الأسبابِ لتيسيرِ الأمورِ الصِّعابِ؛ إعلامًا بأنَّه لا يُعجِزُه شَيءٌ(٥).

---

(١) وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٠).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾

- أُعِيدَ اسمُ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِى﴾؛ للاهتِمامِ بهذه الصِّلَةِ اهتِمامًا يَجعَلُها مُستَقِلَّةً؛ فلا يَخطِرُ حُضورُها بالبالِ عندَ حضورِ الصِّلَتينِ اللَّتَينِ قبْلَها؛ فلا جامِعَ بيْنَها وبيْنَهما في الجامِعِ الخَياليِّ، فأُعيدَ اسمُ المَوصولِ؛ لأنَّ مِصداقَه هو فاعِلُ جَميعِها[١].

- قولُه: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ في التَّعبيرِ عن إخراجِ النَّباتِ بالإنشارِ الَّذي هو إحياءُ المَوتَى، وعن إحيائِها بالإخراجِ؛ تَفخيمٌ لشَأنِ الإنباتِ، وتَهوينٌ لأمرِ البَعثِ؛ لتَقويمِ سَنَنِ الاستِدلالِ، وتَوضيحِ مِنهاجِ القِياسِ[٢].

- وضَميرُ ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ الْتِفاتٌ مِن الغَيْبَةِ إلى التَّكَلُّمِ بنُونِ العَظَمةِ؛ لإظهارِ كَمالِ العِنايةِ بأمرِ الإحياءِ، والإشعارِ بعِظَمِ خَطَرِه. وأيضًا لَمَّا وَقَعَ الانتِقالُ مِن كَلامِهم إلى كَلامِ اللهِ عزَّ وجلَّ، جاء أوَّلُه على لَفظِ الغَيبةِ، وآخِرُه على الانتِقالِ منها إلى التَّكَلُّمِ في قَولِه: ﴿فَأَنشَرْنَا﴾؛ افتِنانًا في أَفانينِ البَلاغةِ، ولتَسجيلِ المِنَّةِ على عِبادِه، وقَرْعِ أسماعِهم بها[٣].

- ولعلَّه أنَّثَ البلدَ وذكَّرَ الميتَ في قولِه: ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ بُلوغَها في الضَّعفِ والموتِ بلَغَ الغايةَ؛ بضَعْفِ أرْضِه في نفْسِها، وضعْفِ أهْلِه عن إحيائِه، وقَحْطِ الزَّمانِ، واضمِحلالِ ما كان به مِن النَّباتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٣٩٢).

- وجُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ مُعتَرِضةٌ بيْنَ المُتعاطِفَينِ، وهو استِطرادٌ بالاستِدلالِ على ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن إثباتِ البَعثِ، بُمناسَبةِ الاستِدلالِ على تفرُّدِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ بدَلائلَ في بعضِها دَلالةٌ على إمكانِ البَعثِ، وإبطالِ إحالَتِهم إيَّاه[1].

- والإشارةُ بـ (ذَلِكَ) إلى الانتِشارِ المَأخوذِ مِن ﴿فَأَنشَرۡنَا﴾، أي: مِثلَ ذلك الانتِشارِ الَّذي هو في الحقيقةِ إخراجُ النَّباتِ مِنَ الأرضِ، تُخرَجون مِن الأرضِ بعْدَ فَنائِكم، ووَجْهُ الشَّبَهِ هو إحداثُ الحيِّ بعْدَ مَوتِه، والمَقصودُ مِن التَّشبيهِ إظهارُ إمكانِ المُشَبَّهِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾

- أُعِيدَ اسمُ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِي﴾؛ للاهتِمامِ بهذه الصِّلَةِ اهتِمامًا يَجعَلُها مُستَقِلَّةً؛ فلا يَخطِرُ حُضورُها بالبالِ عندَ حُضورِ الصِّلاتِ الَّتي قبْلَها؛ فلا جامعَ بيْنَها وبيْنَها في الجامِعِ الخَياليِّ، فأُعيدَ اسمُ المَوصولِ؛ لأنَّ مِصداقَه هو فاعِلُ جَميعِها[3].

- ولَمَّا كان المُتبادرُ مِن الأزواجِ بادِئَ النَّظرِ أزواجَ الأنعامِ، وكان مِن أهَمِّها عِندَهم الرَّواحِلُ؛ عَطَف عليها ما هو منها وَسائِلُ للتَّنَقُّلِ بَرًّا، وأدمَجَ معها وَسائِلَ السَّفَرِ بَحرًا؛ فقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا تَرۡكَبُونَ﴾؛ فالمرادُ بـ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾ بالنِّسبةِ إلى الأنعامِ هو الإبِلُ -على قولٍ-؛ لأنَّها وَسيلةُ الأسفارِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٠- ١٧٢).

وقد قالوا: الإبِلُ سَفائِنُ البَرِّ[١].

- وجِيءَ بفِعلِ (جَعَل)؛ مُراعاةً لأنَّ الفُلكَ مَصنوعةٌ، وليستْ مَخلوقةً، والأنعامُ قد عُرِف أنَّها مَخلوقةٌ[٢].

- وقدَّمَ سُبحانه الفُلكَ على الأنعامِ؛ لأنَّها لم يَشملْها لَفظُ الأزواجِ؛ فذِكْرُها ذِكرُ نِعمةٍ أُخرى، ولو ذَكَر الأنعامَ لَكان ذِكرُه عَقِبَ الأزواجِ بمَنزِلةِ الإعادةِ؛ فلمَّا ذَكَر الفُلكَ بعُنوانِ كَونِها مَركوبًا، عَطَف عليها الأنعامَ؛ فصار ذِكرُ الأنعامِ مُتَرَقَّبًا للنَّفْسِ لمُناسَبةٍ جَديدةٍ[٣].

- وقَولُه: ﴿مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾ بَيانٌ لإبهامِ (ما) المَوصولَةِ في قَولِه: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾، وحُذِف عائدُ الصِّلَةِ، وإذ قد كان مَفعولُ ﴿تَرْكَبُونَ﴾ هنا مُبَيَّنًا بالفُلكِ والأنعامِ، كان حقُّ الفِعلِ أنْ يُعَدَّى إلى أحَدِهما بنَفْسِه وإلى الآخَرِ بـ (في)؛ فغُلِّبَت التَّعديةُ المُباشِرةُ على التَّعديةِ بواسِطةِ الحَرفِ؛ لظُهورِ المُرادِ، وحُذِفَ العائدُ بناءً على ذلك التَّغليبِ[٤]. فقَولُه: ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ما تَركبونَه؛ تَغليبًا للأنعامِ على الفُلكِ؛ فإنَّ الرُّكوبَ مُتَعَدٍّ بنَفْسِه، واستِعمالُه في الفُلكِ ونَحوِها بكَلِمةِ (في) للرَّمزِ إلى مَكانِتها، وكَونِ حَرَكَتِها غيرَ إرادِيَّةٍ[٥]. والرُّكوبُ حَقيقَتُه: اعتِلاءُ الدَّابَّةِ للسَّيرِ، وأُطلِقَ هنا على الحُصولِ في الفُلكِ؛ لتَشبيهِهِم الفُلكَ بالدَّابَّةِ بجامِعِ السَّيرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾

- قَولُه: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ تَوطِئَةٌ وتَمهيدٌ للإشارةِ إلى ذِكْرِ نِعمةِ اللهِ في قَولِه: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: حِينَئِذٍ؛ فإنَّ ذِكْرَ النِّعمةِ في حالِ التَّلَبُّسِ بمَنافِعها أوقَعُ في النَّفْسِ، وأَدْعَى للشُّكرِ عليها، وأجدَرُ بعَدَمِ الذُّهولِ عنها[1].

- والاستِواءُ: الاعتِلاءُ. والظُّهورُ: جَمعُ ظَهرٍ، والظَّهرُ مِن علائِقِ الأنعامِ لا مِن عَلائِقِ الفُلكِ؛ فهذا أيضًا مِن التَّغليبِ، والمعنى: على ظُهورِه وفي بُطونِه؛ فضَميرُ ﴿ظُهُورِهِۦ﴾ عائِدٌ إلى (ما) المَوصولَةِ الصَّادِقِ بالفُلكِ والأنعامِ، كما هو قَضِيَّةُ البَيانِ، على أنَّ السَّفائِنَ العَظيمةَ تكونُ لها ظُهورٌ، وهي أعالِيها المَجعولَةُ كالسُّطوحِ؛ لِتَقِيَ الرَّاكِبينَ المَطَرَ وشِدَّةَ الحَرِّ والقَرِّ؛ ولذلك فجَمْعُ الظُّهورِ مِن جَمْعِ المُشتَرَكِ، والتَّعدِيةُ بحَرفِ (على) بُنِيَت على أنَّ للسَّفينةِ ظَهرًا[2].

- قولُه: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: يَحمَدوا عليها بأَلْسِنَتِهم، وفي العُدولِ عن (تَحمَدوا) إلى ﴿تَذْكُرُوا۟﴾ تَصويرُ حالةِ كَونِ المَركوبِ مُذَلَّلًا مُنقادًا، وأنَّه لولا تَمكينُ اللهِ لم يُتَمَكَّنْ منه[3].

- والذِّكرُ هنا هو التَّذَكُّرُ بالفِكرِ لا الذِّكرُ باللِّسانِ؛ وهذا تَعريضٌ بالمُشرِكين؛ إذ تقلَّبوا في نِعَمِ اللهِ وشَكَروا غَيرَه؛ إذ اتَّخَذوا له شُرَكاءَ في الإلهيَّةِ، وهمْ لم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٣، ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٦).

يُشارِكوه في الإنعامِ[١].

- وذُكْرُ النِّعمةِ كِنايةٌ عن شُكرِها؛ لأنَّ شُكرَ المُنعِمِ لازِمٌ للإنعامِ عُرفًا؛ فلا يَصرِفُ عنه إلَّا نِسيانُه، فإذا ذَكَره شَكَر النِّعمةَ[٢].

- وقَولُه: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ مَعطوفٌ على قَولِه: ﴿تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾، أي: لِتَشكُروا اللهَ في نُفوسِكم، وتُعلِنُوا بالشُّكرِ بألسِنَتِكم، فلقَّنَهم صِيغَةَ شُكرٍ عِنايةً به[٣].

- قَولُه: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ كلمةُ تَعجُّبٍ، وفي لَفظِ ﴿هَٰذَا﴾ مَزيدُ تَقريرٍ لمعنى التَّعَجُّبِ[٤].

- وافتُتِح هذا الشُّكرُ اللِّسانيُّ بالتَّسبيحِ؛ لأنَّه جامِعٌ للثَّناءِ؛ إذ التَّسبيحُ تَنزيهُ اللهِ عمَّا لا يَليقُ؛ فهو يدُلُّ على التَّنزيهِ عن النَّقائصِ بالصَّريحِ، ويدُلُّ ضِمنًا على إثباتِ الكَمالاتِ للهِ في المقامِ الخطابيِّ[٥].

- واستِحضارُ الجَلالَةِ بطَريقِ المَوصوليَّةِ: ﴿ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾؛ لِمَا يُؤذِنُ به المَوصولُ مِن عِلَّةِ التَّسبيحِ حتَّى يَصيرَ الحمدُ الَّذي أفادَه التَّسبيحُ شُكرًا لتَعليلِه بأنَّه في مُقابَلةِ التَّسخيرِ لنا[٦].

- قَولُه: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ هذا مِن تَمامِ ذِكْرِ نِعمَتِه تعالى؛ إذ بدونِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اعتِرافِ المُنعَمِ عليه بالعَجزِ عن تَحصيلِ النِّعمةِ لا يَعرِفُ قدْرَها، ولا حقَّ المُنعِمِ بها[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ خُتِم الشُّكرُ والثَّناءُ بالاعتِرافِ بأنَّ المَرجِعَ إلى اللهِ، أي: بعْدَ المَوتِ بالبَعثِ للحِسابِ والجَزاءِ، وهذا إدماجٌ[٢] لتَلقينِهم الإقرارَ بالبَعثِ[٣].

- وفيه تَعريضٌ بسُؤالِ إرجاعِ المُسافِرِ إلى أهلِه؛ فإنَّ الَّذي يَقدِرُ على إرجاعِ الأمواتِ إلى الحياةِ بعْدَ الموتِ يُرجَى لإرجاعِ المُسافِرِ سالِمًا إلى أَهلِه[٤].

- والانقِلابُ: الرُّجوعُ إلى المكانِ الَّذي يُفارِقُه، والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ التَّنزيهِ عَطْفَ الخَبَرِ على الإنشاءِ، وفي هذا تَعريضٌ بتَوبيخِ المُشرِكين على كُفرانِ نِعمةِ الله بالإشراكِ، وبنِسبةِ العَجْزِ عن الإحياءِ بعْدَ المَوتِ؛ لأنَّ المعنى: وجَعَل لكم مِن الفُلكِ والأنعامِ ما تَركبونَ؛ لِتَشكُروا بالقَلبِ واللِّسانِ فلمْ تَفعَلُوا، ولِمُلاحَظةِ هذا المعنى أُكِّد الخبَرُ بـ (إنَّ)، واللَّامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤١).

(٢) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غَرَضًا في غرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرَّحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٥).

والجُملةِ الاسميَّةِ[١].

- وفيه تَعريضٌ بالمُؤمنينَ بأنْ يَقولُوا هذه المَقالةَ كما شَكَروا لِلهِ ما سخَّر لهم مِن الفُلكِ والأنعامِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ * وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، وقال في سُورةِ (الشُّعراءِ): ﴿قَالُواْ لَا ضَيۡرَۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، فأكَّدَ قَولَه هنا: ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾، ولم يُؤكِّدْ في سُورةِ (الشُّعراءِ)، فلمْ تَدخُلِ اللَّامُ على خَبَرِ (إنَّا) دُخولَها في الأوَّلِ؛ وذلك لأنَّ معنى قَولِه: ﴿وَتَقُولُواْ سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ إلى آخِرِ الآيةِ: لِتَذكُروا إنعامَ الله عليكُم وتَشكُروه، وتُخالِفوا الكُفَّارَ بأنْ تُقِرُّوا بما أنكَروه، فتُؤمِنوا بالبَعثِ والحَياةِ بعْدَ المَوتِ، وهذا خِطابٌ لكُلِّ مَن كان في ذلك العَصرِ، ومَن يكونُ بَعدَهم إلى انقِضاءِ الدَّهرِ؛ فالتَّوكيدُ لِمِثلِه لازِمٌ، وفي الكلامِ الَّذي يَأتي للتَّأبيدِ واجِبٌ. والَّذي في سُورةِ (الشُّعَراءِ) إنَّما هو خَبرٌ عن السَّحَرةِ لَمَّا آمَنوا، ووَصَفوا حالَهم واستِهانَتَهم بما خُوِّفوا أنْ يَنالَهم مِن عُقوبةِ فِرعونَ؛ إذ كان مُنقَلَبُهم إلى رَبِّهم، وكانوا مُجازَينَ على إيمانِهم وصِدقِهم وصَبرِهم؛ فلم يَحتَجْ مِن التَّوكيدِ إلى ما احتاجَ إليه ما هو على التَّأبيدِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٧١، ١١٧٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٣).

## الآيات (١٥-١٨)

﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَـٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَصْفَىٰكُم ﴾: أي: أخلَصَكم وخَصَّكم، وأصلُ الصَّفاءِ: يدُلُّ على خُلوصِ الشَّيءِ[١].

﴿ كَظِيمٌ ﴾: أي: مُمتلِئٌ حُزنًا وغَمًّا يُمسِكُ على حزنِه لا يُظهِرُه ولا يَشكوه، وأصلُ (كظم): يدُلُّ على إمساكِ الشَّيءِ وجَمعِه[٢].

﴿ يُنَشَّؤُا۟ ﴾: أي: يُرَبَّى، والنُّشوءُ: التَّربيةُ، يُقالُ: نَشأتُ في بني فُلانٍ نَشْأً ونُشوءًا: إذا شَبَبتَ فيهم، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ[٣].

﴿ٱلْحِلْيَةِ ﴾: الزِّينةِ والحُلِيِّ، وأصلُ (حلو) هنا: تَحْسينُ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤، ٣٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧١).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ﴾

قَولُه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ﴾: يجوزُ في «مَن» وَجهانِ؛ أحدُهما: أن يكونَ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولًا به بفِعلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: أوَيجعَلونَ له مَن يُنَشَّأُ في الحِليةِ؟! والثَّاني: أن يكونَ مُبتدَأً وخبَرُه محذوفٌ، تقديرُه: أومَن يُنَشَّأُ في الحِليةِ جُزءٌ أو ولَدٌ له سُبحانَه[1]؟!

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا افتراءاتِ المشركينَ: وجَعَل المُشرِكونَ لله سُبحانَه وتعالى بَعضًا مِن خَلْقِه، فقالوا: الملائِكةُ بَناتُ اللهِ! إنَّ الإنسانَ لَكَفورٌ لِنِعَمِ اللهِ تعالى، ظاهِرُ الكُفرانِ لها.

ثمَّ يرُدُّ اللهُ تعالى مُنكِرًا عليهم، فيقولُ: أَتَّخَذَ اللهُ تعالى لِنَفْسِه بَناتٍ مِن خَلقِه كما زَعمتُم -أيُّها المُشرِكونَ- واختَصَّكم بالبَنينَ؟!

وإذا بُشِّرَ أحَدُ أولئك المُشرِكينَ بما نَسَبوه لله تعالى مِن البَناتِ، ظلَّ وَجهُه مُسْودًّا وهو مُمتَلِئٌ غَيظًا لا يُظهِرُه!

أوَيجعَلونَ له مَن يُرَبَّى مِن أوَّلِ عَهْدِه في الحُلِيِّ والزِّينةِ -يعني: البَناتِ- وهو في المُخاصَمةِ والمُنازَعةِ ليس عِندَه بيانٌ، ولا يأتي ببُرهانٍ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ١٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٧٨).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩]؛ بيَّنَ أنَّهم معَ إقرارِهم بذلك جَعَلوا له مِن عِبادِه جُزءًا[١].

﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾.

أي: وجَعَل المُشرِكونَ لله بَعضًا مِن خَلْقِه، فقالوا: الملائِكةُ بَناتُ اللهِ[٢]!

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ لَشَديدُ الجُحودِ لِنِعَمِ اللهِ تعالى، ظاهِرُ الكُفرانِ لها[٣].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦].

﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٠، ٥٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٧١)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٧).

قال القرطبي: (فجَعَلوهم جُزءًا له وبَعضًا، كما يكونُ الوَلَدُ بَضْعةً مِن والِدِه وجُزءًا له). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٦٩).

وقال البِقاعي: (﴿جُزْءًا ﴾ أي: وَلَدًا هو -لحَصرِهم إيَّاه في الأنثى- أحَدُ قِسمَيِ الأولادِ، وكُلُّ ولَدٍ فهو جزءٌ مِن والِدِه، ومَن كان له جُزءٌ كان مُحتاجًا؛ فلم يكُن إلهًا). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٨).

قال البيضاوي: (ومِن ذلك نِسبةُ الوَلَدِ إلى اللهِ؛ لأنَّها مِن فَرطِ الجَهلِ به، والتَّحقيرِ لِشَأنِه). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨).

أي: أم اتَّخَذَ اللهُ تعالى لِنَفْسِه بناتٍ مِن خَلقِه كما زَعمتُم -أيُّها المُشرِكونَ- وأنتم لا تَرضَونَهنَّ لأنفُسِكم، واختَصَّكم أنتم بالبَنينَ فجعَلَهم لكم[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ [النحل: ٦٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ * سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٩].

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: وإذا أُخبِرَ أحَدُ أولئك -الَّذين قالوا: الملائِكةُ بَناتُ اللهِ- بوِلادةِ امرأتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٠).

قال الواحدي: (﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ هذا استِفهامُ تَوبيخٍ، يقولُ: أَتَّخذَ رَبُّكم لِنَفْسِه البَناتِ ﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾ واختَصَّكم وأخلَصَكم ﴿بِٱلْبَنِينَ﴾... وهذه الآيةُ كقَولِه: ﴿ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ [الإسراء: ٤٠]، قال أهلُ المعاني: والحُجَّةُ عليهم في هذه الآيةِ أنَّه ليس يَحكُمُ مَنِ اختارَ لِنَفْسِه أدْوَنَ المُبدَلَينِ ولِغَيرِه أعلاها، ولو كان على ما يقولُه المُشرِكونَ مِن اتِّخاذِ الوَلَدِ لم يتَّخِذْ لِنَفْسِه البَناتِ، ويُصْفِهم بالبَنينَ! فغَلِطوا في الأصلِ، وهو: جوازُ اتِّخاذِ الوَلَدِ، وفي البِناءِ على الأصلِ، وهو اتِّخاذُ البَناتِ؛ فنَعوذُ باللهِ مِن الخَطأِ في الدِّينِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٠).

وقال ابنُ القيِّمِ في تفسيرِ ﴿ أَمِ ﴾ المُنقطِعةِ: (الحقُّ أن يُقالَ: إنَّها على بابِها وأصلِها الأوَّلِ مِن المُعادَلةِ والاستِفهامِ حيث وقعتْ وإن لم يكُنْ قبْلَها أداةُ استِفهامٍ في اللَّفظِ، وتقديرُها بـ «بَلْ» والهمزةِ خارجٌ عن أُصولِ اللُّغةِ العربيَّةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٠٦، ٢٠٧). ويُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

لِما نَسَبوه لله تعالى مِن البَناتِ، ظَلَّ وَجهُه أسوَدَ اللَّونِ، وهو مُمتَلِئٌ غَيظًا؛ فهم يأنَفونَ مِن البَناتِ ويَكرهونَهنَّ، ومع ذلك يَنسُبونَهنَّ لله تعالى(١)!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩].

وقال الله سُبحانَه: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢].

﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾.

أي: أوَجَعَلوا ولدًا لله مَن شأنُه أنْ يُرَبَّى في الزِّينةِ، وإذا خُوصِم لا يَقدِرُ على إقامةِ حُجَّتِه، ودفْعِ ما يُجادِلُه به خَصْمُه لِنُقصانِ عقلِه، وضَعفِ رَأْيِه(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٢، ٥٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٨٣، ٨٤).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٢٩).

قال ابنُ عطية: (والمرادُ بـ: «مَنْ»: النِّساءُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩).

وقال ابنُ زَيدٍ: (هذه تماثيلُهم الَّتي يَضرِبونَها مِن فِضَّةٍ وذَهَبٍ يَعبُدونَها، هم الَّذين أنشَؤوها، ضرَبوها مِن تلك الحِلْيةِ ثمَّ عبَدوها! ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف: ١٨] قال: لا يَتكَلَّمُ، وقرأَ ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٤]). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٥).

وقال ابن عاشور: (والخِصامُ ظاهِرُه المُجادَلةُ والمُنازَعةُ بالكلامِ والمُحاجَّةُ... ويجوزُ عندي: أن يُحمَلَ الخِصامُ على التَّقاتُلِ والدِّفاعِ باليَدِ؛ فإنَّ الخَصمَ يُطلَقُ على المحارِبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٠٣).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَال تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ عبَّرَ بقَولِه: ﴿ بِمَا ضَرَبَ ﴾ دونَ أن يَقولَ: (بما جَعَلَ)؛ تعليمًا للأدَبِ في حَقِّه سُبحانَه في هذه السُّورةِ الَّتي مَقصودُها العِلمُ المُوجِبُ للأدَبِ، وزيادةً في تقبيحِ كُفرِهم لا سيَّما إن أرادوا الحقيقةَ، بالإشارةِ إلى أنَّ الوَلَدَ لا يكونُ إلَّا مِثلَ الوالِدِ، لا يُتصَوَّرُ أصلًا أن يكونَ خارِجًا عن شَبَهِه في خاصٍّ أوصافِه[١].

٢- التَّسَخُّطُ بالإناثِ مِن أخلاقِ أهلِ الجاهليَّةِ، الذين ذَمَّهم اللهُ في قولِه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾، وقولِه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨ - ٥٩][٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الرَّجُلَ لا يُناسِبُ له التَّزيُّنُ كالمرأةِ، ويَنبغي أن يكونَ مُخشَوْشِنًا[٣]، فقد جَعَل النَّشْءَ في الزِّينةِ والنُّعومةِ مِن المَعايِبِ والمَذامِّ، وأنَّه مِن صِفَةِ رَبَّاتِ الحِجالِ؛ فعلى الرَّجُلِ أن يَجتَنِبَ ذلك، ويَأنَفَ منه، ويَربَأَ بنَفْسِه عنه، وإنْ أراد أنْ يُزيِّنَ نفْسَه زيَّنَها مِن باطِنٍ بلِباسِ التَّقوى[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ أنَّ الولدَ جزءٌ مِن الوالِدِ؛

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٤).

وجْهُه: قولُهم: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ؛ فدلَّ على أنَّ الولدَ جزءٌ مِن الوالِدِ، وعلى هذا الأصلِ امتَنَعتْ شهادتُه له، وقَطْعُه بالسَّرِقةِ مِن مالِه، وحَدُّه أباه على قَذفِه[١]، ولذلك كان الولدُ في التَّعصيبِ - في بابِ الميراثِ - مُقَدَّمًا على الوالدِ، بمعنى: أنَّه لو مات ميتٌ عن أبيه وابنِه؛ فلأبيه السُّدُسُ فرضًا، والباقي للابنِ تعصيبًا، فسَهْمُ الابنِ الآنَ خمسةٌ مِن ستَّةٍ، وسهمُ الأبِ واحدٌ مِن ستَّةٍ؛ لأنَّ الابنَ جزءٌ مِن أبيه فقُدِّمَ، ولذلك يجوزُ للأبِ أنْ يَتمَلَّكَ مِن مالِ ولدِه -لأنَّ ولَدَه جزؤُه- ما شاء؛ بشرطِ ألَّا يكونَ الولدُ محتاجًا إليه؛ أو تَتعلَّقَ به نَفْسُه[٢].

٢- يُستفادُ مِن قولِه: ﴿مِنْ عِبَادِهِۦ﴾: أنَّ كَونَهم مِن عِبادِ اللهِ يَمنَعُ غايةَ المنْعِ أنْ يَكونوا جُزْءًا مِن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ المعبودَ غيرُ العابدِ، فلا يُمكِنُ أنْ يكونَ العابدُ جُزءًا مِن المعبودِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًاۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ إلى قولِه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ قد جَمَعوا في كُفرِهم أنواعًا مِن الكُفرِ؛ وذلك أنَّهم نَسَبوا إلى اللهِ تعالى الولَدَ، ونَسَبوا إليه ما يَعتبِرونَه أخَسَّ النَّوعَينِ، وجعَلوه مِن الملائِكةِ المُكْرَمينَ، فاستَخَفُّوا بهم[٤]!

٤- قال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ في قَولِه: ﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾ تَنبيهٌ على استِحالَةِ الوَلَدِ، ذَكَرًا كان أو أُنثَى، وإنْ فُرِض اتِّخاذُ الوَلَدِ؛ فكيف يَختارُ له الأدنَى، ويَخُصُّكم بالأعلَى[٥]؟! ومَحلُّ الاستِدلالِ هنا

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٣).

أنَّ الإناثَ مَكروهةٌ عِندَهُم، فكيف يَجعَلون لِلهِ أبناءً إناثًا، وهَلَّا جَعَلوها ذُكورًا! ولَيسَت لهم مَعذِرةٌ عن الفَسادِ المُنجَرِّ إلى مُعتَقَدِهم بالطَّريقَينِ؛ لأنَّ الإبطالَ الأوَّلَ نَظريٌّ يَقينيٌّ، والإبطالَ الثَّانيَ جَدَليٌّ بَديهيٌّ؛ قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]، فهذه حُجَّةٌ ناهِضةٌ عليهم؛ لاشتِهارِها بيْنَهم(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أنَّ طَريقةَ القرآنِ فيما يُثبِتُه للرَّبِّ -تعالى- ويَنفيه عنه: مَبنيَّةٌ على بُرهانِ الأَولى، لا على البُرهانِ الَّذي تَستوي أفرادُه، أو يُماثِلُ فَرعُه أصْلَه(٢).

٦- قولُه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى نقصِ المرأةِ وضَعفِها الخَلْقيَّينِ الطَّبيعيَّينِ؛ لأنَّ نشأتَها في الحِليةِ دليلٌ على نقصِها المُرادِ جَبرُه والتَّغطيةُ عليه بالحلي، ولأنَّ عدَمَ إبانتِها في الخِصامِ إذا ظُلِمتْ دليلٌ على الضَّعفِ الخلْقيِّ، وفيه أيضًا دليلٌ على أنَّ الذُّكورةَ قوَّةٌ وكمالٌ، والأنوثةَ ضَعفٌ خلْقيٌّ جِبلِّيٌّ، ونقصٌ خلقيٌّ جبَلَ اللهُ هذا النَّوعَ مِن الإنسانِ عليه(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أنَّ الآباءَ مَندوبونَ إلى تحليةِ بناتِهم؛ لأنهنَّ لا يَقْدِرنَ على النُّشوءِ فيه صِغارًا إلَّا وقد حُلِّيْنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٢١).
ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٨٨).

بما يُنشَّأْنَ عليه[١].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ يدُلُّ على أنَّ التَّحَلِّيَ مُباحٌ للنِّساءِ، والإجماعُ مُنعَقِدٌ عليه، والأخبارُ في ذلك لا تُحصى[٢]، فالمرأةُ مُحتاجةٌ إلى التَّزَيُّنِ والتَّجَمُّلِ؛ ومِن ذلك ما تَضَعُه في أُذُنِها مِن الخُرُوصِ[٣] ونحوِها، وعلى هذا فلا حَرَجَ أنْ تَثْقُبَ شَحْمةَ أُذُنِها لِتُعَلِّقَ بها الحليَّ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ﴾ أنَّ الرِّجالَ لا يجوزُ لهم التَّحَلِّي بحُلِيِّ النِّساءِ -تشبُّهًا بهنَّ- لأنَّ ذلك أمَارةُ نقصِ المرأةِ[٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٍ﴾ أنَّ المرأةَ إذا كان لها حقٌّ تُطالِبُ به وَكَّلَتْ رجُلًا يُطالِبُ لها؛ إذْ هي غيرُ مُبِينةٍ في خصومتِها[٦].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًا﴾ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الزخرف: ٩]، أي: ولئنْ سأَلْتَهم عن خالِقِ الأشياءِ، لَيَعْترِفُنَّ به، وقد جَعَلوا له مع ذلك الاعترافِ جُزءًا؛ فالواوُ للعطْفِ على

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٤).

(٣) الخروصُ: جمعُ الخُرصِ، وهو الحَلْقَةُ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لأبي عبد الله الرازي (ص: ٨٩).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١١/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جُملةِ ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾. ويَجوزُ كَونُها للحالِ، على معنى: وقد جَعَلوا له مِن عِبادِه جُزءًا، ومعنى الحالِ تُفيدُ تَعجُّبًا مِن المُشرِكين في تَناقُضِ آرائِهم وأَقوالِهم وقَلبِهمُ الحَقائِقَ، وهي غَبارَةٌ في الرَّأيِ تَعرِضُ للمُقَلِّدينَ في العَقائِدِ الضَّالَّةِ؛ لأنَّهم يُلَفِّقون عَقائِدَهم مِن مُختَلِفِ آراءِ الدُّعاةِ؛ فيَجتَمِعُ للمُقَلِّدِ مِن آراءِ المُختَلِفينَ في النَّظرِ ما لو اطَّلَع كلُّ واحِدٍ مِن المُقتَدِينَ بهم على رأيِ غَيرِه منهم لَأَبطَلَه، أو رَجَع عن الرَّأيِ المُضادِّ له؛ فالمُشرِكون مُقِرُّون بأنَّ اللهَ خالِقُ الأشياءِ كلِّها، ومع ذلك جَعَلوا له شُركاءَ في الإلهيَّةِ، وكيف يَستقيمُ أنْ يكونَ المخلوقُ إلهًا؟! وجَعَلوا للهِ بَناتٍ، والبُنوَّةُ تَقْتضي المُماثَلةَ في الماهيَّةِ، وكيف يَستقيمُ أنْ يكونَ لِخالِقِ الأشياءِ كلِّها بَناتٌ؟! فهُنَّ لا مَحالةَ مخلوقاتٌ له، فإنْ لم يكُنَّ مَخلوقاتٍ لَزِمَ أنْ يكُنَّ مَوجوداتٍ بوُجودِه، فكيف تَكُنَّ بَناتِه؟! وإلى هذا التَّناقُضِ الإشارةُ بقولِه: ﴿ مِنْ عِبَادِهِۦ ﴾، أي: مِن مَخلوقاتِه، أو ليستِ العُبوديَّةُ الحقَّةُ إلَّا عُبوديَّةَ المخلوقِ[1].

- قولُه: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ أي: ولَدًا، فقالوا: الملائكةُ بَناتُ اللهِ، ولَعلَّه سمَّاه جُزءًا كما سُمِّيَ بَعضًا؛ لأنَّه بَضعَةٌ مِن الوالِدِ؛ دَلالةً على استِحالَتِه على الواحِدِ الحَقِّ في ذاتِه[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴾ تَذْييلٌ يدُلُّ على استِنكارِ ما زَعَموهُ بأنَّه كُفرٌ شَديدٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٧).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾

- (أم) للإضرابِ، وهو هنا انتِقاليٌّ؛ لانتِقالِ الكلامِ مِن إبْطالِ مُعتَقَدِهُم بُنُوَّةَ المَلائِكةِ للهِ تعالى بما لَزِمَه مِنِ انتِقاصِ حَقيقةِ الإلهيَّةِ، إلى إبطالِه بما يَقتَضِيه مِنِ انتِقاصٍ يُنافي الكَمالَ الَّذي تَقتَضِيه الإلهيَّةُ[1].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ تَجهيلًا لهم، وتَعجُّبًا مِن شَأنِهم، حيثُ لم يَرضَوا بأنْ جَعَلوا للهِ مِن عِبادِه جُزءًا، حتَّى جَعَلوا ذلك الجُزءَ الإناثَ دونَ الذُّكورِ، على أنَّهُم أَنفَرُ خَلقِ اللهِ عن الإناثِ، وأمقَتُهم لَهُنَّ، كما اقتَضاهُ قَولُه: ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾[2].

- و(أمْ) حَيثما وقَعَت تَقتَضِي تَقديرَ استِفهامٍ بَعدَها، وهو هنا استِفهامٌ في معنى الإنكارِ، وتَسَلَّطَ الإنكارُ على اتِّخاذِ البَناتِ مع عَدَمِ تَقدُّمِ ذِكْرِ البَناتِ؛ لِكَونِ المَعلومِ مِن جَعْلِ المُشرِكين للهِ جُزءًا أنَّ المَجعولَ جُزءًا له هو المُلائكةُ، وأنَّهم يَجعَلون الملائكةَ إناثًا، فذلك مَعلومٌ مِن كَلامِهم[3].

- وأُوثِرَ فِعلُ ﴿ٱتَّخَذَ﴾ هنا دونَ غَيرِه؛ لأنَّه يَشمَلُ الاتِّخاذَ بالوِلادةِ، ويَشمَلُ ما هو دونَ ذلك، وهو التَّبَنِّي؛ فعَلى كِلَا الفَرضَينِ يتَوَجَّهُ إنكارُ أنْ يكونَ ما هو للهِ أدوَنَ ممَّا هو لهم، وقد أشارَ إلى هذا قَولُه: ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾؛ فهذا ارتِقاءٌ في إبطالِ مُعتَقَدِهم بإبطالِ فَرْضِ أنْ يَكونَ اللهُ تَبَنَّى الملائكةَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٧، ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٨).

سَدًّا على المُشرِكين بابَ التَّأوُّلِ والتَّنصُّلِ مِن فَسادِ نِسبَتِهم البَناتِ إلى اللهِ تعالى[١].

- وجُملةُ ﴿وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، والنَّفيُ الحاصِلُ مِن الاستِفهامِ الإنكاريِّ مُنصَبٌّ إلى قَيدِ الحالِ، فحَصَل إبطالُ اتِّخاذِ اللهِ البَناتِ بدَليلَينِ؛ لأنَّ إعطاءَهُم البَنينَ واقِعٌ؛ فنَفيُ اقترانِه باتِّخاذِه لنَفْسِه البَناتِ يَقتَضِي انتِفاءَ اتِّخاذِه البَناتِ؛ فالمَقصودُ اقترانُ الإنكارِ بهذا القَيدِ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿بَنَاتٍ﴾؛ لأنَّ التَّنكيرَ هو الأصلُ في أسماءِ الأجناسِ، وأمَّا تَعريفُ ﴿بِٱلۡبَنِينَ﴾ باللَّامِ فهو تَعريفُ الجِنسِ، والمَقصودُ منه هنا الإشارةُ إلى المَعروفِ عِندَهم، المُتنافَسِ في وُجودِه لَدَيهم[٣].

- وتَقديمُ البَناتِ في الذِّكرِ على البَنينَ؛ لأنَّ ذِكْرَهنَّ أهمُّ هنا؛ إذ هو الغَرضُ المَسُوقُ له الكَلامُ، ولِمَا في التَّقديمِ مِن الرَّدِّ على المُشرِكين في تَحقيرِهِم البَناتِ وتَطَيُّرِهم مِنهُنَّ، فجاء ذِكرُ البَنينَ مُستطَردًا؛ لِمَزيدِ الإنكارِ والتَّتميمِ[٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٨، ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٧٩).

(٤) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو: هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو: هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

فيه[١].

- وأيضًا التَّقديمُ والتَّنكيرُ والتَّعريفُ في لَفظَتَيْ ﴿بَنَاتٍ﴾ و﴿بِٱلْبَنِينَ﴾ فيه مُراعاةٌ للفواصِلِ[٢].

- والخِطابُ في ﴿وَأَصْفَىٰكُم﴾ مُوَجَّهٌ إلى الَّذين جَعَلوا له مِن عِبادِه جُزءًا، وفيه الْتِفاتٌ مِن الغَيْبةِ إلى الخِطابِ؛ لِيَكونَ الإنكارُ والتَّوبيخُ أوقَعَ عليهم لِمُواجَهَتِهم به، ولتَأكيدِ الإلزامِ، على مَعنَى: هَبُوا أنَّكُم اجترَأتُم على إضافةِ اتِّخاذِ جِنسِ الوَلَدِ إليه سُبحانَه، مع ظُهورِ استِحالَتِه وامتِناعِه، أمَا كانَ لكم شَيءٌ مِن العَقلِ ونُبَذٌ مِن الحَياءِ حتَّى اجترَأتُم على التَّفَوُّهِ بالعَظيمةِ الخارِقةِ للعُقولِ، مِنِ ادِّعاءِ أنَّه تعالى آثَرَكُم على نَفْسِه بخَيرِ الصِّنفَينِ وأعلاهُما[٣]؟!

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ استِئنافٌ مُقَرِّرٌ لِمَا قبْلَه، وقيل: حالٌ على مَعنَى: أنَّهم نَسَبوا إليه ما ذَكَروا ومِن حالِهم أنَّ أحدَهُم إذَا بُشِّرَ بِهِ اغتَمَّ، وعَدَل عن ضَميرِ الخِطابِ إلى ضَميرِ الغَيبةِ على طَريقِ الالْتِفاتِ؛ للإيذانِ باقتِضاءِ ذِكْرِ قَبائِحِهم أنْ يُعرَضَ عنهم وتُحكَى لغَيرِهم؛ تَعجُّبًا مِن فَسادِ مَقالَتِهم، وتَشنيعًا بها؛ إذ نَسَبوا للهِ بناتٍ دونَ الذُّكورِ، وهو نَقصٌ، وكانوا مِمَّن يَكرَهُ البَناتِ ويُحَقِّرُهُنَّ؛ فنِسبَتُها إلى اللهِ مُفضٍ إلى الاستِخفافِ بجانِبِ الإلهيَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٢).

- قولُه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم ... ﴾ استِعمالُ البِشارةِ هنا تَهَكُّمٌ بهم؛ كقَولِه: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق: ٢٤]؛ لأنَّ البِشارةَ إعلامٌ بحُصولِ أَمرٍ مُفرِحٍ[١]، وذلك بناءً على أنَّ البشارةَ لا تكونُ إلَّا فيما يسرُّ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ عَطْفُ إنكارٍ على إنكارٍ، والواوُ عاطفةُ الجُملةِ على الجملةِ، وهي مُؤخَّرةٌ عن همزةِ الاستِفهامِ؛ لأنَّ للاستِفهامِ الصَّدرَ في الكلامِ، وأصلُ التَّرتيبِ: (وَأَمَن يُنشَّأُ)، وجملةُ الاستِفهامِ مَعطوفةٌ على الإنكارِ المُقَدَّرِ بعْدَ (أم) في قَولِه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ [الزخرف: ١٦]؛ تَكريرًا للإنكارِ، وتَثنِيَةً للتَّوبيخِ على نِسبةِ البَناتِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ. ويجوزُ أنْ يَكونَ ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ ﴾ بدَلًا مِن قَولِه: ﴿ بَنَاتٍ ﴾ بدَلًا مُطابِقًا، وأُبرِزَ العامِلُ في البَدَلِ؛ لتَأكيدِ معنَى الإنكارِ، ولا سِيَّما وهو قد حُذِفَ مِن المُبدَلِ منه؛ وإذ كان الإنكارُ إنَّما يتَسلَّطُ على حُكمِ الخَبَرِ، كان مُوجبُ الإنكارِ الثَّاني مُغايِرًا لمُوجبِ الإنكارِ الأوَّلِ، وإنْ كان المَوصوفُ بالوصفَينِ اللَّذَينِ تَعَلَّق بهما الإنكارُ مَوصوفًا واحِدًا، وهو الأُنثَى[٢].

- قولُه: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ ... ﴾ النَّشءُ في الحِليةِ كِنايةٌ عن الضَّعفِ عن مُزاوَلَةِ الصِّعابِ بحَسَبِ المُلازَمةِ العُرفيَّةِ فيه، والمَعنَى: أنْ لا فائِدةَ في اتِّخاذِ اللهِ بَناتٍ لا غَناءَ لهنَّ؛ فلا يَحصُلُ له باتِّخاذِها زِيادةُ عِزَّةٍ؛ بِناءً على مُتعارَفِهم؛ فهذا احتِجاجٌ إقناعيٌّ خطابيٌّ، والمَقصودُ مِن هذا: فَضحُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٠، ١٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٣).

مُعتَقَدِهم الباطِلِ، وأنَّهم لا يُحسِنون إعمالَ الفِكرِ في مُعتَقَداتِهم، وإلَّا لَكانوا حينَ جَعَلوا للهِ بُنُوَّةً ألَّا يَجعَلوا له بُنُوَّةَ الإناثِ، وهم يَعُدُّون الإناثَ مَكروهاتٍ مُستَضعَفاتٍ[١].

- الحاصلُ أنَّ في ظاهرِ قولِه: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ﴾ إنكارَ نِسبةِ البَناتِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي العُدولِ إلى هذه الألفاظِ مِن التَّصريحِ بذِكْرِ «البَناتِ»: إدماجٌ[٢] لمَعنَى ذمِّ التَّشَبُّهِ بالنِّساءِ، وفي مَفهومِ المُدمَجِ رَمزٌ إلى التَّرغيبِ في التَّزَيُّنِ بلِباسِ التَّقوَى، والاهتِمامِ بعِمارةِ الباطِنِ، ورَفضِ الالْتِفاتِ إلى الظَّاهِرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨١، ١٨٢).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١١٤).

## الآيات (١٩-٢٥)

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخْرُصُونَ﴾: أي: يَكذِبونَ، وأصلُ الخَرْصِ: التَّظَنِّي (إعمالُ الظَّنِّ) فيما لا تَستَيقِنُه، ومنه قيل: خَرَصْتُ النَّخْلَ خَرْصًا: إذا حَزَرْتَه؛ لأنَّ الحَزْرَ فيه ظَنٌّ لا إحاطةٌ، ثمَّ قيلَ للكَذِبِ: خَرْصٌ؛ لِما يَدخُلُه مِن الظُّنونِ الكاذِبةِ(١).

﴿أُمَّةٍ﴾: أي: دِينٍ ومِلَّةٍ، والأصلُ أنَّه يُقالُ للقَومِ يجتمعونَ على دِينٍ واحدٍ: أُمَّةٌ، فتُقامُ الأُمَّةُ مقامَ الدِّينِ، وتُطلَقُ الأُمَّةُ أيضًا على البُرْهةِ مِن الزَّمنِ، والرَّجُلِ المُقتدَى به، والأصلِ، والمرجِعِ، ويُقالُ لِكلِّ ما كان أصلًا لوُجودِ شَيءٍ أو تربيتِه أو إصلاحِه أو مبدئِه: أُمٌّ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٨، ١٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٨، ٢٣١، ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ١٤٤)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تذكرة =

﴿ءَاثَٰرِهِم﴾: أي: خُطاهم، وما استُنَّ به بَعدَهم مِن سُنَنِهم، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي[١].

﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾: أي: أغنياؤُها ورُؤساؤُها المُنَعَّمونَ فيها، الَّذين قد أبطَرَتْهم النِّعمةُ وسَعَةُ العَيشِ، وأصلُ (ترف): يدُلُّ على التَّوسُّعِ في النِّعمةِ[٢].

﴿عَٰقِبَةُ﴾: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقِبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العُقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ وإتيانُه بعدَ غيرِه[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى متوعِّدًا الَّذين افترَوا عليه الكذبَ: وجعَل كُفَّارُ العَرَبِ الملائِكةَ الَّذين هم عِبادٌ لله إناثًا! فهل شَهِدوا خَلْقَ اللهِ للمَلائِكةِ، فعَرَفوا أنَّهم إناثٌ؟! ستُكتَبُ شَهادتُهم، ويُسألونَ عنها يومَ القيامةِ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى شُبهةً مِن شُبَهِهم، ويَرُدُّ عليهم بما يَقطَعُ شُبهتَهم، فيقولُ: وقال أولئك المُشرِكونَ: لو شاء الرَّحمنُ ما عبَدْناهم! ما للمُشرِكينَ عِلمٌ بما قالوه وادَّعَوْه، فما هم إلَّا كاذِبونَ. فهل أعطَيْنا أولئك الكاذِبينَ كِتابًا مِن قَبلِ هذا

---

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣، ٣٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

القُرآنِ يُثبتُ صِحَّةَ دَعواهم، فهم بذلك الكِتابِ مُتمَسِّكونَ؟! ليس الأمرُ كذلك، بل قالوا: إنَّا وجَدْنا آباءَنا على ذلك الدِّينِ والمُعتَقَدِ، ونحن بهم مُقتَدونَ!

ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مبيِّنًا أنَّ هؤلاءِ المشركينَ قد سبَقهم مَن قال مِثلَ مقالتِهم، فيقولُ: وكما فَعَل مُشركو قُرَيشٍ فَعَل كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ، وقالوا مِثلَ قَولِهم؛ فما أرسَلْنا قَبْلَك -يا مُحمَّدُ- رَسولًا إلى أهلِ قَريةٍ لِيُنذِرَهم عَذابَ اللهِ تعالى إلَّا قالَ رؤُساؤُها المُتنَعِّمونَ فيها -على سَبيلِ البَطَرِ والمُفاخَرةِ-: إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على طَريقةٍ مَعهودةٍ مُعَيَّنةٍ لا نَترُكُها.

فقال الرَّسولُ لهم: أتُقَلِّدونَ آباءَكم وتتَّبِعونَهم على الضَّلالِ ولو جِئتُكم بِدينٍ هو أهدى وأنفَعُ لكم في أُولاكم وأُخراكم ممَّا وَجدتُم عليه آباءَكم؟! قال المُشرِكونَ: إنَّا بالَّذي أُرسِلتُم به كافِرونَ، فلمَّا أصَرُّوا على ضَلالِهم وعِنادِهم أخَذْناهم مُهانِينَ صاغِرينَ فعاقَبْناهم؛ فانظُرْ -يا مُحمَّدُ- كيف كان مآلُ أمرِ أولئك المُصِرِّينَ على التَّكذيبِ؛ فسَيؤُولُ أمرُ هؤلاء أيضًا إلى أمثالِه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾.

### القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿عِندَ﴾ أي: وجَعَلوا ملائِكةَ اللهِ الَّذين هم عِندَه يُسَبِّحونَه ويُقَدِّسونَه إناثًا[1].

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ كثير، وابنُ عامر، وأبو جعفرٍ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨). =

٢- قِراءةُ ﴿عِبَٰدُ﴾ جَمعُ عَبدٍ، أي: وجَعَلوا ملائِكةَ اللهِ الَّذين هم عِبادٌ له إناثًا(١).

﴿ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾.

أي: واعتقد كُفَّارُ العَرَبِ الملائِكةَ -الَّذين هم عِبادٌ لله- إناثًا(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا ﴾ [الإسراء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ۞ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴾ [النجم: ٢٧، ٢٨].

﴿ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ ﴾.

---

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٦)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٠).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٨).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٠).

قال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي أنَّهما قِراءتانِ مَعروفتانِ في قَرَأةِ الأمصارِ، صحيحتَا المعنى، فبأيَّتِهما قرأ القارئُ فمُصيبٌ؛ وذلك أنَّ الملائكةَ عِبادُ اللهِ وعِندَه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٣)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٠).

و(جَعَلَ) تَأْتي في القرآنِ لِمَعانٍ، والمرادُ بها هنا اعتقَد. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٦).

قال أبو إسحاقَ الزَّجَّاجُ: (الجَعلُ هاهنا في معنى القَولِ والحُكمِ على الشَّيءِ، تقولُ: قد جعَلْتُ زيدًا أعلَمَ النَّاسِ، أي: قد وصَفْتُه بذلك وحَكَمتُ به). يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤٠٧).

أي: فهل حَضَر أولئك المُشرِكونَ خَلْقَ اللهِ للمَلائِكةِ وشاهَدوه فعرَفوا أنَّهم إناثٌ[١]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ [الصافات: ١٥٠].

﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾.

أي: ستُكتَبُ شَهادةُ أولئك الزَّاعِمينَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ في الدُّنيا، ويُسألونَ في الآخِرةِ عن شَهادتِهم تلك الَّتي ليس لهم عليها بُرهانٌ، ويُعاقَبونَ على افترائِهم هذا[٢].

﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى حكَى نوعًا آخَرَ مِن كُفرِ المُشرِكينَ وشُبُهاتِهم[٣].

﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾.

أي: وقال المُشرِكونَ: لو شاء الرَّحمنُ ما عبَدْناهم[٤]، ولَصَرَفَنا عن ذلك، فتَرْكُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٦).

(٤) قال ابن الجوزي: (في المَكنيِّ عنهم قولان؛ أحدُهما: أنَّهم الملائكةُ. قاله قَتادةُ، ومُقاتِلٌ في آخَرينَ. والثَّاني: الأوثانُ. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٥).

وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ يعودُ إلى الأوثانِ والأصنامِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠). =

إيَّانا دَليلٌ على رِضاه مِنَّا بعِبادتِهم، وأنَّه حقٌّ لا اعتِراضَ عليه[١].

كما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾.

أي: ليس للمُشرِكينَ عِلمٌ بصِحَّةِ ما قالوه واحتَجُّوا به[٢].

﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾.

---

= وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الملائكةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والزمخشري، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

قال ابن عاشور: (ضميرُ الغَيبةِ في ﴿مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾ عائِدٌ إلى معلومٍ مِن المقامِ ومِن ذِكرِ فِعلِ العبادةِ؛ لأنَّهم كانوا يَعبُدونَ الأصنامَ، وهم الغالِبُ، وأقوامٌ منهم يَعبُدونَ الجِنَّ؛ قال تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّ﴾ [سبأ: ٤١]... فضميرُ جمعِ المذَكَّرِ تَغليبٌ، وليس عائدًا إلى الملائكةِ؛ لأنَّهم كانوا يَزعُمونَ الملائكةَ إناثًا، فلو أرادوا الملائكةَ لَقالوا: ما عَبَدْناها، أو ما عبَدْناهُنَّ. وهذا هو الوَجهُ في معنى الآيةِ. ومِن المفَسِّرينَ مَن جَعَل مُعادَ الضَّميرِ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ [الزخرف: ١٩]، ولعَلَّهم حمَلَهم على ذلك وُقوعُ هذا الكلامِ عَقِبَ حِكايةِ قَولِهم في الملائِكةِ: إنَّهم إناثٌ، وليس اقترانُ كلامٍ بكلامٍ بمُوجِبٍ اتِّحادَ مَحمَلَيهما. ... وهو بعيدٌ مِن اللَّفظِ؛ لتذكيرِ الضَّميرِ كما عَلِمْتَ، ومِن الواقِعِ؛ لأنَّ العرَبَ لم يَعبُدْ منهم الملائكةَ إلَّا طوائِفُ قليلةٌ عَبَدوا الجِنَّ والملائِكةَ مع الأصنامِ، وليست هي الدِّيانةَ العامَّةَ للعَرَبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤، ١٨٥).

وقال ابنُ كثير: (أي: لو أراد اللهُ لَحالَ بيْنَنا وبيْنَ عبادةِ هذه الأصنامِ الَّتي هي على صُوَرِ الملائكةِ الَّتي هي بناتُ اللهِ؛ فإنَّه عالِمٌ بذلك، وهو يُقَرِّرُنا عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤، ١٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٣).

أي: إنَّما يَقولونَ ذلك كَذِبًا وظَنًّا منهم بلا دَليلٍ ولا بُرهانٍ[١].

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان الإيمانُ بالملائكةِ -الَّذين هم جُندُ المَلِكِ- مِن دَعائِمِ أُصولِ الدِّينِ، وأخبَرَ سُبحانَه أنَّهم وَصَفوهم بغيرِ ما هم عليه، ففرَّطوا بوَصفِهم بالبَناتِ حتَّى أنزَلوهم إلى الحَضيضِ، وأفرَطوا بالعبادةِ حتَّى أعلَوهم عن قَدْرِهم، فانسَلَخوا في كِلا الأمْرَينِ مِن صَريحِ العَقلِ بما أشار إليه ما مضَى- أتْبَعَ ذلك أنَّهم عَرِيُّونَ أيضًا مِن صَحيحِ النَّقلِ؛ فقال مُعادِلًا لِقَولِه: ﴿ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ﴾ إنكارًا عليهم بعد إنكارٍ: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا ﴾ الآيةَ[٢].

وأيضًا لَمَّا نفَى عنهم عِلْمَ تَرْكِ عِقابِهم على عبادةِ غَيرِ اللهِ، أي: ليس يدُلُّ على ذلك عَقلٌ؛ نفَى أيضًا أن يَدُلَّ على ذلك سَمعٌ، فقال[٣]:

﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: فهل أعطَيْنا أولئك المُتخرِّصينَ كِتابًا يُثبِتُ صِحَّةَ دَعواهم مِن قَبلِ نُزولِ هذا القُرآنِ، فهم بذلك الكِتابِ مُتمَسِّكونَ، وعلى العَمَلِ به ثابِتونَ[٤]؟!

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ [الروم: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٥، ٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٦).

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠].

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن تعالى أنَّه لا دليلَ على صِحَّةِ قَولِهم البتَّةَ لا مِنَ العَقلِ ولا مِنَ النَّقلِ؛ بَيَّنَ أنَّه لا حامِلَ لهم يَحمِلُهم عليه إلَّا التَّقليدُ؛ بِقَولِه تعالى[1]:

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كذلك، فليس لهم مُستَنَدٌ على صِحَّةِ دَعواهم، وإنَّما حُجَّتُهم الباطِلةُ هي تقليدُ آبائِهم، فيقولونَ: إنَّا وجَدْنا آباءَنا على ذلك الدِّينِ والمُعتقَدِ، ونحن لهم مُتَّبِعونَ[2].

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾.

أي: وكما فَعَل مُشرِكو قُرَيشٍ فَعَل كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ، وقالوا مِثلَ قَولِهم؛ فما أرسَلْنا قَبْلَك -يا مُحمَّدُ- رَسولًا إلى أهلِ قَريةٍ لِيُنذِرَهم عذابَ اللهِ على كُفرِهم وشِرْكِهم إلَّا قال رُؤساؤُهم وكُبَراؤُهم المُنعَّمونَ الَّذين أطْغَتْهم الدُّنيا: إنَّا وَجَدْنا آباءَنا على دينٍ غيرِ الَّذي تَدْعونا إليه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٦٩، ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٢، ٥٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((نظم =

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾.

أي: وإنَّا مُتَّبِعونَ لِطَريقتِهم، ولازِمونَ لها، فلا ننحَرِفُ عنها[1].

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾.

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ ﴿قَٰلَ﴾ على الخبَرِ، قيل: المرادُ: قال كُلُّ نَذيرٍ لِقَومِه. وقيل: المرادُ: قال محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِقَومِه[2].

٢- قِراءةُ ﴿قُلْ﴾ على الأمرِ، قيل: المرادُ: قُلْنا للنَّذيرِ: قُلْ لِقَومِك. وقيل: المرادُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِقَومِك[3].

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾.

أي: قال الرَّسولُ لِقَومِه المُشرِكينَ المُتَمَسِّكينَ بتقليدِ آبائِهم: أتَتَّبِعونَ آباءَكم

---

= الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٠، ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

(٢) قرأ بها ابنُ عامر، وحفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٠).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٠).

على الضَّلالِ ولو جِئتُكم بدِينٍ أهدى إلى الحَقِّ مِن الدِّينِ الَّذي وجَدْتُم عليه آباءَكم[١]؟!

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: إنَّا بالَّذي أُرسِلتُم به جاحِدونَ مُنكِرونَ، وعلى دِينِ آبائِنا ثابِتونَ، وله وَحْدَه مُتَّبِعونَ[٢].

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾.

أي: فعاقَبْناهم، فانظُرْ -يا مُحمَّدُ- كيف صار آخِرُ أمرِهم إلى هَلاكٍ وبَوارٍ[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمۡنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۞قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١٠، ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٣، ٥٧٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٥، ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١١٠).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ تقريعٌ للشُّهودِ ألَّا يَشهَدوا على شَيءٍ يُسألُونَ عنه إلَّا بعدَ تَيَقُّنِه والتَّثَبُّتِ فيه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ بيَّنَ تعالى أنَّ الدَّاعيَ إلى القَولِ بالتَّقليدِ والحامِلَ عليه إنَّما هو حُبُّ التَّنَعُّمِ في طيِّباتِ الدُّنيا، وحُبُّ الكَسَلِ والبَطالةِ، وبُغْضُ تحَمُّلِ مَشاقِّ النَّظَرِ والاستِدلالِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾، والمُترَفونَ هم الَّذين أترَفَتْهم النِّعمةُ، أي: أبطَرَتْهم، فلا يُحِبُّونَ إلَّا الشَّهَواتِ والملاهيَ، ويُبغِضونَ تحَمُّلَ المَشاقِّ في طَلَبِ الحَقِّ؛ فرأسُ جميعِ الآفاتِ: حُبُّ الدُّنيا واللَّذَّاتِ الجُسْمانيَّةِ. ورأسُ جميعِ الخَيراتِ: حُبُّ اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ[٢].

٣- مَن بُيِّنَ له أنَّ القَولَ الآخَرَ هو أهدَى مِنَ القَولِ الَّذي نشأَ عليه، فعليه أن يَتَّبِعَه؛ قال تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ﴾[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ وُجوبُ النَّظرِ والاعتبارِ[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ رَدٌّ على

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١١١).

الجَهميَّةِ في بابِ «الجَعْلِ» الَّذي لا يَعُدُّونه إلَّا خَلْقًا؛ لِيَتطَرَّقوا إلى خَلْقِ القُرآنِ، وهم لا يَستطيعونَ أنْ يَجعَلوا «الجَعْلَ» هاهنا خَلْقًا؛ إذ مُحالٌ أنْ يكونَ الكُفَّارُ خَلَقوا الملائِكةَ إناثًا! إنَّما افتَرَوا على اللهِ، وادَّعَوا عليه دَعوى باطلٍ وكُفرٍ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ﴾ احتَجَّ به مَن قال بتَفضيلِ الملائكةِ على البَشَرِ؛ فعلى قراءةِ ﴿عِنْدَ﴾ بالنُّونِ، فهذه العِنديَّةُ لا شَكَّ أنَّها عِنديَّةُ الفَضلِ والقُرْبِ مِن اللهِ تعالى بسَبَبِ الطَّاعةِ، ولَفظةُ ﴿ هُمْ ﴾ تُوجِبُ الحَصرَ، والمعنى: أنَّهم هم المَوصوفونَ بهذه العِنديَّةِ لا غيرُهم؛ فوَجَب كَونُهم أفضَلَ مِن غَيرِهم رعايةً لِلَّفظِ الدَّالِّ على الحَصرِ. وأمَّا مَن قرأَ ﴿عِبَـٰدُ﴾ جمعُ العَبدِ، فإنَّ لَفظَ العبادِ مَخصوصٌ في القُرآنِ بالمؤمِنينَ؛ فقَولُه ﴿ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ يفيدُ حَصرَ العُبوديَّةِ فيهم؛ فإذا كان اللَّفظُ الدَّالُّ على العُبوديَّةِ دالًّا على الفَضلِ والشَّرَفِ كان اللَّفظُ الدَّالُّ على حَصرِ العُبوديَّةِ دالًّا على حَصرِ الفَضلِ والمَنقَبةِ والشَّرَفِ فيهم، وذلك يُوجِبُ كَونَهم أفضَلَ مِن غَيرِهم. واللهُ أعلَمُ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٥).

والمنقولُ عن السَّلَفِ أنَّ صالحي البَشَرِ أفضَلُ مِن الملائكةِ، ونَقَل ابنُ القَيِّم عن ابن تيميَّةَ أنَّ صالحي البَشَرِ أفضَلُ باعتبارِ كَمالِ النِّهايةِ، والملائكةَ أفضَلُ باعتبارِ البدايةِ؛ فإنَّ الملائكةَ الآنَ في الرَّفيقِ الأعلى مُنَزَّهونَ عمَّا يُلابِسُه بنو آدَمَ، مُستَغرِقونَ في عبادةِ الرَّبِّ تعالى، ولا ريبَ أنَّ هذه الأحوالَ الآنَ أكمَلُ مِن أحوالِ البَشَرِ، وأمَّا يومَ القيامةِ بعدَ دُخولِ الجنَّةِ فيصيرُ حالُ صالِحي البَشَرِ أكمَلَ مِن حالِ الملائكةِ. قال ابنُ القَيِّم: (وبهذا التَّفصيلِ يَتبيَّنُ سِرُّ التَّفضيلِ، وتتَّفِقُ أدِلَّةُ الفَريقَينِ، ويُصالَحُ كُلٌّ منهم على حَقِّه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١٦٣). ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٥٢). وهذه المسألةُ مِن فُضولِ المسائلِ، ولا يترتَّبُ عليها عملٌ.

خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ ﴾ أنَّ أقوالَ الإنسانِ تُكْتَبُ عليه كأفعالِه؛ لأنَّ الشَّهادةَ هنا بالقولِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ ﴾ أنَّ مَن أخبرَ غيرَه بشَيءٍ فقد شَهِدَ به، سواءٌ كان بلَفظِ الشَّهادةِ أو لم يَكُنْ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾ أنَّ الحُكْمَ على الغَيبِ مَحظورٌ على كلِّ أحدٍ، بغيرِ عِيانٍ ولا خَبَرِ صادقٍ(٣).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ القَولَ بغَيرِ دَليلٍ مُنكَرٌ(٤).

٧- أنكَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى على مَن جَعَل مَشيئَتَه وقَضاءَه مُستَلزِمَينِ لمَحَبَّتِه ورِضاه. فكيف بمَن جَعَل ذلك شيئًا واحِدًا؟! قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ [النحل: ٣٥]؛ فهم استدَلُّوا على محَبَّتِه لِشِرْكِهم ورِضاه عنه بمَشيئتِه لذلك، وعارَضوا بهذا الدَّليلِ أمْرَه ونَهْيَه، وفيه أبيَنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٥).

الرَّدِّ لِقَولِ مَن جَعَل مَشيئَتَه عَيْنَ مَحبَّتِه ورِضاه؛ فالإشكالُ إنَّما نَشَأ مِن جَعْلِهم المشيئةَ نَفْسَ المحبَّةِ، ثمَّ زادوه بجَعْلِهم الفِعلَ نَفْسَ المفعولِ، والقَضاءَ عَينَ المقضِيِّ؛ فنشأ مِن ذلك إلزامُهم بكَونِه تعالى راضيًا مُحِبًّا لذلك، والتِزامُ رِضاهم به! والَّذي يَكشِفُ هذه الغُمَّةَ، ويُبَصِّرُ مِن هذه العَمايةِ، ويُنَجِّي مِن هذه الوَرطةِ: إنَّما هو التَّفريقُ بيْن ما فَرَّق اللهُ بيْنَه، وهو المشيئةُ والمحَبَّةُ؛ فإنَّهما ليسا واحِدًا، ولا هما مُتلازِمَينِ، بل قد يَشاءُ ما لا يُحِبُّه، ويُحِبُّ ما لا يشاءُ كَوْنَه؛ فالأوَّلُ: كمَشيئتِه لِوُجودِ إبليسَ وجُنودِه، ومَشيئتِه العامَّةِ لجَميعِ ما في الكونِ مع بُغْضِه لِبَعضِه. والثَّاني: كمَحبَّتِه إيمانَ الكُفَّارِ، وطاعاتِ الفُجَّارِ، وعَدْلَ الظَّالِمينَ، وتَوبةَ الفاسِقينَ، ولو شاء ذلك لوُجِدَ كُلُّه وكان جميعُه؛ فإنَّه ما شاء كان، وما لم يَشَأْ لم يكُنْ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ ﴾ أنَّه لم يَنزِلْ على العَرَبِ كِتابٌ سِوى القُرآنِ[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ تحريمُ التَّقليدِ بالباطلِ، وأمَّا التَّقليدُ بالحقِّ فلا بأسَ به؛ فإذا كان رجُلٌ لا يَعرِفُ حُكْمَ مسألةٍ في دينِ اللهِ، وليس عندَه قُدرةٌ على الاجتهادِ، فإنَّ فَرْضَه التَّقليدُ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ ﴾ [النحل: ٤٣]، ولقولِ الله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولقولِه سبحانَه وتعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾[3] [التغابن: ١٦].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٩٣-٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٥).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ ﴾ أنَّ هؤلاءِ القومَ المكذِّبينَ للرُّسُلِ ليس عندَهم حُجَّةٌ إلَّا مُجرَّدُ ما كان عليه الآباءُ، وهذا ليس بحُجَّةٍ، وعلى هذا فلا يجوزُ الاحتِجاجُ بعَمَلِ النَّاسِ -كما يَفعَلُه بعضُ القومِ-، فإذا نهَيْتَه عن شَيءٍ قال: كلُّ النَّاسِ يَفعَلُه! فهذا ليس بحُجَّةٍ[١].

١١- قال تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾، قولُه: ﴿بِأَهْدَىٰ ﴾ اسمُ تفضيلٍ، ومع ذلك فإنَّا نقولُ: ما وجَدوا عليه آباءَهم ليس فيه هدًى، لكِنَّ التَّنَزُّلَ مع الخَصمِ لا بأسَ به، وإنْ لم يَكُنْ في الطَّرَفِ الآخَرِ شَيءٌ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ عَطْفٌ على ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾[الزخرف: ١٥]، أُعِيدَ ذلك مع تَقَدُّمِ ما يُغْني عنه مِن قَولِه: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ ﴾ [الزخرف: ١٦]؛ ليُبنَى عليه الإنكارُ عليهم بقَولِه: ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ ﴾؛ استِقراءً لإبطالِ مَقالِهم؛ إذ أُبطِلَ ابتِداءً بمُخالَفَتِه لدَليلِ العَقلِ، وبمُخالَفَتِه لِمَا يجِبُ لِلَّهِ مِن الكَمالِ، فكَمَّلَ هنا إبطالَه بأنَّه غَيرُ مُستَنِدٍ لدَليلِ الحِسِّ[٣].

- وقَولُه: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ بَيانٌ لتَضمينِ كُفرِهم المَذكورِ لكُفرٍ آخَرَ، وهو تَقريعٌ لهم بذلكَ؛ وهو جَعْلُهم أكمَلَ العِبادِ وأكرَمَهم على اللهِ عزَّ وجلَّ أنقَصَهُم رأْيًا، وأخَسَّهُم صِنفًا[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٣).

- والإضافةُ إلى اسمِ الرَّحمنِ في قولِه: ﴿عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تُفيدُ تَشريفَهم[١].

- قَولُه: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ الهَمزةُ لاستِفهامِ الإنكارِ، دَخَلت على فِعلِ (شَهِد)، أي: ما حَضَروا خَلْقَ الملائِكةِ، وعلى قِراءةِ ﴿أَأُشۡهِدُوا﴾ -بهَمزَتَين: أُولاهُما مَفتوحةٌ، والأُخرَى مَضمومةٌ، وسُكونِ الشِّين مَبنيًّا للنَّائِب[٢]-؛ فالهَمزةُ للاستِفهامِ، وهو للإنكارِ والتَّوبيخِ. وجِيءَ بصِيغَةِ النَّائِبِ عن الفاعِلِ دونَ صِيغةِ الفاعِلِ؛ لأنَّ الفاعِلَ مَعلومٌ أنَّه اللهُ تعالى؛ لأنَّ العالَمَ العُلوِيَّ الَّذي كان فيه خَلقُ المَلائِكةِ لا يَحضُرُه إلَّا مَن أمَرَ اللهُ بحُضورِه[٣].

- قَولُه: ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾ هذا تَهكُّمٌ بهم، وتَجهيلٌ لهم، بمَعنَى أنَّهُم يَقولون ذلك مِن غَيرِ أنْ يَستَنِدَ قَولُهم إلى عِلمٍ؛ فإنَّ اللهَ لم يَضطَرَّهُم إلى عِلمِ ذلك، ولا تَطرَّقوا إليه باستِدلالٍ، ولا أحاطوا به عن خَبَرٍ يُوجِبُ العِلمَ؛ فلم يَبْقَ إلَّا أنْ يُشاهِدُوا خَلْقَهُم فأَخبَروا عن هذه المُشاهَدةِ، أي: هل حَضَروا خَلْقَ اللهِ إيَّاهُم فشَاهَدوهُم إناثًا[٤]؟!

- وجُملَةُ ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ من جُملةِ ﴿أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡ﴾؛ لأنَّ ذلك الإنكارَ يَشتَمِلُ على الوَعيدِ، وهذا خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في التَّوَعُّدِ، وكِتابةُ الشَّهادةِ كِنايةٌ عن تَحَقُّقِ العِقابِ على كَذِبِهم. والسِّينُ في ﴿سَتُكۡتَبُ﴾ لتَأكيدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٢، ١٨٣).

(٢) قرأ بها نافعٌ وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٣).

الوَعيدِ[١]. وقيل: أُوثِرَ التَّعبيرُ بالاستِقبالِ في ﴿سَتُكْتَبُ﴾ فأَتَى بالسِّينِ الدَّالَّةِ عليه؛ ليَتَضَمَّنَ الكَلامُ معنَى انفِساحِ الوَقتِ للتَّوبةِ، وبِناءِ الرَّجاءِ على الاستِعطافِ لقَبولِها قبْلَ كِتابةِ ما قالوا[٢].

-والمُرادُ بِشَهادتِهم: ادِّعاؤُهم أنَّ المَلائكةَ إناثٌ، قيل: أطلَقَ عليها شَهادةً؛ تَهَكُّمًا بهم[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسُوقٌ لبَيانِ نَوعٍ آخَرَ وفَنٍّ آخَرَ مِن أنواعِ كُفرِهم[٤]. أو عَطْفٌ على جُملَةِ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]؛ فإنَّها استِدلالٌ على وَحدانِيَّةِ الله تعالى، وعلى أنَّ مَعبوداتِهم غَيرُ أهلٍ لِأَنْ تُعبَدَ، فحُكِيَ هنا ما استَظْهَروه مِن مَعاذيرِهم عِندَ نُهوضِ الحُجَّةِ عليهم يَرُومون بها إفحامَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمينَ، فيقولونَ: لو شاءَ اللهُ ما عبَدْناهم، أي: لو أنَّ اللهَ لا يحِبُّ أنْ نَعبُدَها، لَكان اللهُ صَرَفَنا عن أنْ نَعبُدَها، وتوهَّموا أنَّ هذا قاطعٌ لِجِدالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم؛ لأنَّهم سَمِعوا مِن دِينِه أنَّ اللهَ هو المتصرِّفُ في الحوادثِ، فتَأوَّلُوه على غيرِ المرادِ منه[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٣، ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٣، ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٤).

بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثِيةِ): ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فقال هنا: ﴿يَخۡرُصُونَ﴾، وقال في سُورةِ (الجاثِيَةِ): ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ ووجهُه: أنَّ قَبْلَ الآيَةِ مِن سُورةِ (الزُّخرُفِ): ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ * وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الزخرف: ١٩، ٢٠]، فأخبَرَ عنهم أنَّهم قالوا: المَلائِكةُ بَناتُ اللهِ، وأنَّ اللهَ أرادَ أنْ يَعبُدوهم! وليس ذلك مِن عِلمٍ، بل هم كاذِبون فيما يَدَّعونَه ويُخبِرون به؛ فأبطَلَ خَبَرَهم بالتَّكذيبِ لهم، وهو الَّذي يَليقُ بالمَوضِعِ. وأمَّا الَّذي في سُورةِ (الجاثِيةِ) فخَبَرٌ عن الكُفَّارِ الَّذين دَعاهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى الإسلامِ بأنَّهم قالوا: لا بَعْثَ لنا، وإنَّما هو أنْ تَمُوتَ الأَسلافُ، وتَحْيَا الأَخلافُ، فكُلَّما هَدَمَ الدَّهرُ قَومًا فأَفناهُم، أنشَأَ فيه آخَرينَ وأحياهُم، وهؤلاء لم يَقولُوا ما قالوا بمَعرِفةٍ، بلْ قالوه على سَبيلِ الظَّنِّ؛ فكان ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ لائِقًا بهذا المَكانِ. أو أنَّ ما في سُورةِ (الجاثِيةِ) مُتَّصِلٌ بخَلطِهِمُ الصِّدقَ بالكَذِبِ؛ فإنَّ قَولَهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ صِدقٌ، وكَذَبوا في إنكارِهِمُ البَعثَ، وقَولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾؛ فنَاسَبَه ﴿يَظُنُّونَ﴾، أي: يَشُكُّون فيما يَقولُون[1]. وقيل غيرُ ذلك[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ إضرابٌ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٧٣، ١١٧٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٣٩، ٤٤٠).

انتِقاليٌّ، عُطِف على جُملةِ ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠]؛ فبَعْدَ أنْ نَفَى أنْ يكونَ قولُهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۡ﴾ [الزخرف: ٢٠] مُستَنِدًا إلى حُجَّةِ العَقلِ؛ انتَقَل إلى نَفيِ أن يكونَ مُستَنِدًا إلى حُجَّةِ النَّقلِ عن إخبارِ العالِمِ بحَقائقِ الأشياءِ الَّتي هي مِن شُؤونِه(١).

- واجتُلِبَ للإضرابِ حرْفُ (أَمْ) دونَ (بلْ)؛ لِما تُؤذِنُ به (أَمْ) مِن استفهامٍ بعْدَها، وهو إنكاريٌّ، والمعنَى: وما آتَيْناهُم كِتابًا مِن قَبلِه(٢).

- و(مِن) صِلةٌ لتَوكيدِ مَعنَى (قَبل)، والضَّميرُ المُضافُ إليه (قبْل) في قوله: ﴿مِّن قَبۡلِهِۦ﴾ عائِدٌ إلى القُرآنِ المَذكورِ في أوَّلِ السُّورةِ، وفي قَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤]، ولم يتقدَّمْ له معادٌ في اللَّفظِ، ولَكِنَّه ظاهِرٌ مِن دَلالةِ قَولِه: ﴿كِتَٰبًا﴾. وفي هذا ثَناءٌ ثالِثٌ على القُرآنِ ضِمنِيٌّ؛ لاقتِضائِه أنَّ القُرآنَ لا يأتي إلَّا بالحَقِّ الَّذي يُستَمسَكُ به، وهذا تَمهيدٌ للتَّخَلُّصِ إلى قَولِه تعالى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾(٣) [الزخرف: ٢٢].

- وكَلِمَةُ ﴿مُّسۡتَمۡسِكُونَ﴾ مُبالَغةٌ في (مُمسِكون)؛ يُقالُ: أمسَكَ بالشَّيءِ، إذا شدَّ عليه يَدَه، وهو مُستَعمَلٌ هنا في مَعنَى الثَّباتِ على الشَّيءِ(٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾

- قَولُه: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ﴾ إضرابُ إبطالٍ عن الكَلامِ السَّابِقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٦، ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٨٧).

مِن قَولِه تعالى: ﴿فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١]؛ فهو إبطالٌ للمَنفيِّ لا للنَّفيِ، أي: ليس لهم عِلمٌ فيما قَالُوه ولا نَقلٌ؛ فكان هذا الكَلامُ مَسُوقًا مَساقَ الذَّمِّ لهم؛ إذ لم يُقارِنوا بيْنَ ما جاءَهم به الرَّسولُ وبيْن ما تَلَقَّوْه مِن آبائِهِم؛ فإنَّ شأنَ العاقِلِ أنْ يُمَيِّزَ ما يُلقَى إليه مِن الاختِلافِ، ويَعرِضَه على مِعيارِ الحَقِّ(١).

- وقَولُه: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يَجوزُ أن يكونَ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ مُتَعَلِّقًا بـ ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ بتَضمينِ ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ معنى سائِرُون، أي: إنَّهُم لا حُجَّةَ لهم في عِبادَتِهم الأصنامَ إلَّا تَقليدُ آبائِهِم، وذلك ما يَقولُونه عِندَ المُحاجَّةِ؛ إذ لا حُجَّةَ لهم غَيرُ ذلك. وجَعَلوا اتِّباعَهُم إيَّاهُم اهتِداءً؛ لشِدَّةِ غُرورِهِم بأحوالِ آبائِهِم؛ بحَيثُ لا يَتَأَمَّلون في مُصادَفةِ أَحوالِهم للحَقِّ(٢).

- وفي قَولِه: ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنَةٌ، حيثُ قال بَعْدَه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾؛ فقَالَ: ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ في فاصِلَةِ الآيةِ الأُولَى، و﴿مُّقۡتَدُونَ﴾ في فاصِلةِ الآيةِ الثَّانيةِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه خصَّ الآيةَ الأُولَى بالاهتداءِ؛ لأنَّه كلامُ العربِ في محاجَّتِهم رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وادِّعائِهم أنَّ آباءَهم كانوا مُهتدينَ، فنحنُ مهتدونَ. ولهذا قال عَقيبَه: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ﴾. وأما الآيةُ الثانيةُ فهي حكايةٌ عمَّنْ كان قَبْلَهم مِن الكفَّارِ، وادَّعَوا الاقتداءَ بالآباءِ دونَ الاهتداءِ، فاقتَضتْ كلُّ آيةٍ ما خُتِمتْ به(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٢، ٤٢٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري =

وقيل: جاء في حِكايةِ قَولِ المُشرِكينَ الحاضِرينَ وَصْفُهم أنفُسَهم بأنَّهم مُهتَدونَ بآثارِ آبائِهم، وجاء في حِكايةِ أقوالِ السَّابِقينَ وَصْفُهم أنفُسَهم بأنَّهم بآبائِهم مُقتَدُون؛ لأنَّ أقوالَ السَّابِقينَ كثيرةٌ مُختَلِفةٌ يَجمَعُ مُختَلِفَها أنَّها اقتِداءٌ بآبائِهم، فحِكايةُ أقوالِهم مِن قَبيلِ حِكايةِ القَولِ بالمَعنَى، وحكايةُ القَولِ بالمَعنَى طَريقةٌ في حِكايةِ الأقوالِ كَثُرَ وُرودُها في القُرآنِ وكلامِ العَرَبِ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ اعتِراضٌ لِتَسلِيةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَمَسُّكِ المُشرِكينَ بدِينِ آبائِهم، والمَقصودُ: أنَّ هذه شِنْشِنَةُ أهلِ الضَّلالِ مِن السَّابِقين واللَّاحِقينَ -أي: عادتُهم المستمِرَّةُ- قد استَوَوْا فيه كما استَوَوْا في مَثارِه؛ وهو النَّظَرُ القاصِرُ المُخطِئُ، ويَتضمَّنُ هذا تَسليةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما لَقِيَه مِن قَومِه؛ بأنَّ الرُّسُلَ مِن قَبْلِه لَقُوا مِثلَ ما لَقِيَ[2].

- وكافُ التَّشبيهِ في ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بقَولِه: ﴿قَالَ مُتۡرَفُوهَآ﴾، وقُدِّم على مُتَعَلَّقِه؛ للاهتِمامِ بهذه المُشابَهةِ، والتَّشويقِ لِمَا يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ[3].

- قولُه: ﴿إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ ...﴾ فيه تَخصيصُ المُترَفينَ بتلكَ المَقالَةِ؛ للإيذانِ بأنَّ التَّنَعُّمَ وَحُبَّ البَطالَةِ هو الَّذي صَرَفَهم عن النَّظَرِ

---

= (ص: ٥١٢، ٥١٣). ويُنظر أيضًا: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٧٥ - ١١٧٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٥)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٨).

إلى التَّقليدِ[١]، والمَعنَى: أنَّهُم مِثلُ قُرَيشٍ في الازدِهاءِ بالنِّعمةِ الَّتي هم فيها، أي: في بَطَرِ نِعمَةِ اللهِ عليهم؛ فالتَّشبيهُ يَقتَضي أنَّهم مِثلُ الأُمَمِ السَّالِفَةِ في سَبَبِ الازدِهاءِ، وهو ما هُمْ فيه مِن نِعمةٍ حتَّى نَسُوا احتِياجَهم إلى اللهِ تعالى[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قدَّمَ ذِكرَ القَبْلِيَّةِ في قولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ﴾؛ اهتِمامًا بالتَّسلِيَةِ، وتَخليصًا لها مِن أنْ يَتَوَهَّمَ أنَّه يَكونُ معه في زَمانِه أو بَعدَه نَذيرٌ، وإفهامًا لأنَّ المُجَدِّدَ لشَريعَتِه إنَّما يَكونُ مُغيثًا لأُمَّتِه، وبَشيرًا لا نَذيرًا لثَباتِهم على الدِّينِ بتَصديقِهم جَميعَ النَّبيِّينَ، وأسقَطَ هذه القَبليَّةَ في سُورَةِ (سبأٍ) في قولِه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤]؛ لأنَّ المُرادَ فيها التَّعميمُ؛ لأنَّه لم يَتَقَدَّمْ لقُرَيشٍ ذِكرٌ حتَّى يُخَصَّ مَن قَبْلَهُم[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾ قَرَأَ الجُمهورُ ﴿قُلۡ﴾، وقَرَأَ ابنُ عامِرٍ وحَفصٌ: ﴿قَٰلَ﴾ بصِيغةِ فِعلِ المُضِيِّ المُسنَدِ إلى المُفرَدِ الغائِبِ؛ فيَكونُ الضَّميرُ عائِدًا إلى نَذيرِ الَّذين قالُوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]؛ فحَصَل مِن القِراءتَينِ أنَّ جَميعَ الرُّسُلِ أجابُوا أقوامَهم بهذا الجَوابِ، وقَرَأَ الجُمهورُ ﴿جِئۡتُكُم﴾ بضَميرِ تاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١١).

المُتكلِّمِ، وقَرَأَ أبو جَعفَرٍ: ﴿جِئْنَاكُمْ﴾[١]، وأبو جَعفَرٍ مِن الَّذين قَرَؤوا ﴿قُلْ﴾ بصِيغةِ الأمرِ؛ فيَكونُ ضَميرُ ﴿جِئْناكُم﴾ عائدًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُخاطَبِ بفِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ لتَعظيمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن جانِبِ ربِّه تعالى الَّذي خاطَبَه بقَولِه: ﴿قُلْ﴾[٢].

وقيل: قُرِئ ﴿قُلْ﴾ على أنَّه حِكايةُ أمرٍ ماضٍ أُوحِيَ حِينَئِذٍ إلى كلِّ نَذيرٍ؛ لا على أنَّه خِطابٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كما قيل؛ لقَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾؛ فإنَّه حِكايةٌ عن الأُمَمِ قَطعًا؛ أي: قال كلُّ أُمَّةٍ لنَذيرِها: إنَّا بما أُرسِلْتَ به... إلخ؛ وقد أُجمِلَ عِندَ الحِكايةِ للإيجازِ[٣].

- قَولُه: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ التَّقريرِيِّ المَشُوبِ بالإنكارِ، و(لو) وَصلِيَّةٌ، تَقتَضي المُبالَغةَ بنِهايةِ مَدلولِ شَرطِها، والمَقصودُ مِن الاستِفهامِ تَقريرُهم على ذلك؛ لاستِدعائِهم إلى النَّظَرِ فيما اتَّبَعوا فيه آباءَهُم؛ لَعَلَّ ما دَعاهُم إليه الرَّسولُ أهْدَى منهم[٤].

- وقَولُه: ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ أي: بدِينٍ أَهدَى ﴿مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾ مِن الضَّلالةِ الَّتي لَيسَت مِن الهِدايةِ في شَيءٍ، وإنَّما عبَّر عنها بذلك مُجاراةً معهم على مَسلَكِ الإنصافِ[٥]، وفيه تَجهيلٌ لهم، حيث يُقَلِّدون ولا يَنظُرون في الدَّلائِلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٧).

- وصَوغُ اسمِ التَّفضيلِ ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ مِن الهدَى إرخاءٌ للعِنانِ لهم ليَتَدَبَّروا؛ نَزَّل ما كان عليه آباؤُهم مَنزِلةَ ما فيه شَيءٌ مِن الهُدَى، استِنزالًا لطائِرِ المُخاطَبينَ؛ ليَتَصَدَّوا للنَّظَرِ[1]، وفيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالإلجاءِ؛ وهو أنْ يُبادِرَ المُتَكَلِّمُ الخَصمَ بما يُلجِئُه إلى الاعترافِ بحَقيقةِ نَفْسِه ودَخِيلَةِ قَلبِه؛ فالتَّعبيرُ في الآيةِ بالتَّفضيلِ المُقتَضِي أنَّ ما عليه آباؤُهم فيه هِدايةٌ، لم يَكُن إلَّا لإلْجائِهِم إلى الاعترافِ بحقيقةِ نِيَّاتِهم الَّتي يُضمِرونَها؛ كأنَّه يَتَنَزَّلُ معهم إلى أبعَدِ الحُدودِ، ويُرخِي لهم العِنانَ إلى أقْصى الآمادِ؛ لِيَعتَرِفوا -مِن ثَمَّ- بمُكابَرَتِهم الَّتي لا تُجدِي معها المُناصَحةُ في القَولِ، ولا يَنفَعُ في تَذليلِها الإتيانُ بالحُجَّةِ[2].

- قَولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾، أي: قالوا: إنَّا ثابِتون على دِينِ آبائِنا، لا نَنفَكُّ عنه، وإنْ جِئْتَنا بما هو أهدَى وأهدَى، ودلَّ على هذه المُبالَغةِ الجُملةُ الاسمِيَّةُ وتَضَمُّنُها معنى الكِنايةِ، انظُرْ كمْ بيْنَ دَعوةِ الأنبياءِ وبيْن مُقابَلةِ الكَفَرةِ مِن التَّبايُنِ؟! فالأنبياءُ تَفادَوْا عن لَفظِ الأمرِ، وعَدَلوا إلى الاستِفهامِ، ومع ذلك ما استَوفَوا تَمامَ الحقِّ، حيث أَتَوا بحَرفِ التَّقريرِ، وضَمُّوا إليه (أفعَلَ) التَّفضيلِ، وكان الجوابُ المُطابِقُ: نَتَّبِعُ دِينَ آبائِنا ولا نَتَّبِعُ دِينَكم؛ فعَدَلوا إلى ما دلَّ على نَفيِ دِينِ الحقِّ، وإثباتِ الباطِلِ بالطَّريقِ البُرهانِيِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٥).
والطَّريقُ البُرهانيُّ: قياسٌ استثنائيٌّ، يُستدَلُّ فيه بنَفْيِ اللَّازمِ البَيِّنِ انتفاؤُه على نَفْيِ الملزومِ، كما يُقالُ: هل زَيدٌ في البلدِ؟ فتقولُ: لا؛ إذ لو كان فيها لَحَضَرَ مَجلِسَنا، فيُستدَلُّ بعدَمِ الحُضورِ على =

- وقَولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ بَدَلٌ مِن جُملَةِ ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]؛ لأنَّ ذلك يَشتَمِلُ على معنى: لا نَتَّبِعُكم ونَترُكُ ما وجَدْنا عليه آباءَنا، وضَميرُ ﴿قَالُوٓاْ﴾ راجِعٌ إلى ﴿مُّتۡرَفُوهَآ﴾ [الزخرف: ٢٣]؛ لأنَّ مَوقِعَ جُملةِ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٢٥] يُعَيِّنُ أنَّ هؤلاءِ القائِلينَ وَقَعَ الانتِقامُ منهم؛ فلا يَكونُ منهم المُشرِكون الَّذين وَقَع تَهديدُهم بأولئك(١).

- وقَولُهم: ﴿بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ﴾ هو حِكايةٌ لقَولِهِم؛ فإطلاقُهم اسمَ الإرسالِ على دَعوَةِ رُسُلِهم تَهَكُّمٌ. ويَجوزُ أن يَكونَ حِكايةً بالمَعنَى، وإنَّما قالُوا: إنَّا بما زَعَمتُم أنَّكُم مُرسَلُون به(٢).

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ تَفريعٌ على جُملَةِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٤]، أي: انتَقَمْنا منهم عَقِبَ تَصريحِهم بتَكذيبِ الرُّسُلِ، وهذا تَهديدٌ بالانتِقامِ مِن الَّذين شابَهوهُم في مَقالِهم، وهم كُفَّارُ قُرَيشٍ(٣).

- والانتِقامُ: افتِعالٌ مِن النَّقْمِ، وصِيغةُ الافتِعالِ للمُبالَغةِ(٤).

---

= عدَمِ كَونِه في البَلدِ. أو: هو ما يَلزَمُ مِن نفْيِ مِثلِ مِثلِه نفْيُ مِثلِه. يُنظر: ((حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع)) (١/ ٤٥٢)، ((التقرير والتحبير)) لابن أمير الحاج (٢/ ٢٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٩٠، ١٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٩١).

## الآيات (٢٦-٣٢)

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَرَآءٌ﴾: أي: بريءٌ، وأصلُ البُرْءِ والبَراءِ والتَبَرِّي: التَّفصِّي مما يُكرهُ مُجاوَرتُه، وأصلُ (برأ) هنا: التَّباعُدُ مِن الشَّيءِ ومُزايَلَتُه[1].

﴿فَطَرَنِى﴾: أي: خَلَقَني، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[2].

﴿عَقِبِهِۦ﴾: العَقِبُ: الذُّرِّيَّةُ ووَلَدُ الوَلَدِ ما امتَدَّ فَرعُهم، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بعدَ غيرِه[3].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٢١)، ((التبيان في تفسير غريب القرآن)) لابن الهائم (ص: ٢٩٠).
والبَراءُ لا يُثنَّى ولا يُجمعُ ولا يؤنَّثُ؛ لأنَّه مَصدَرٌ وُضِع مَوضِعَ النَّعتِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

﴿مَتَّعْتُ﴾: أي: أبقيتُ وعَمَّرْتُ. والمَتاعُ والمُتعةُ: ما يُنتفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، ثمَّ يَنقضي عن قَريبٍ، وأصلُ (متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ[١].

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾: أي: لِيَخدُمَ بعضُهم بعضًا، ويعمَلَ بعضُهم لبعضٍ، مِن التَّسخيرِ، وهو: التَّهيئةُ. وقيل: هو سياقةُ الشَّيءِ إلى الغرضِ المختصِّ به قهرًا، والسُّخْريُّ: هو الَّذى يُقهَرُ فيَتسَخَّرُ بإرادتِه، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- إذ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه: إنَّني بَريءٌ مِمَّا تَعبُدونَه مِن دُونِ اللهِ تعالى، فلا أعبُدُ إلَّا اللهَ الَّذي خلَقَني فهو يُرشِدُني إلى الحَقِّ. وجَعَل إبراهيمُ تلك الكَلِمةَ -كَلِمةَ التَّوحيدِ- كَلِمةً باقيةً مُستَمِرَّةً في ذرِّيَّتِه؛ لعَلَّهم يَرجِعونَ إلى الحَقِّ.

لكِنَّ هؤلاء الكُفَّارَ مِن قَومِك -يا مُحمَّدُ- ليسوا ممَّن بَقِيَت الكَلِمةُ فيهم، بل مَتَّعتُهم وآباءَهم بالمَدِّ في العُمُرِ والنِّعمةِ والمُهلةِ، فاغترُّوا وشُغِلوا عن كَلِمةِ التَّوحيدِ، حتَّى جاءهم القُرآنُ ورسولٌ مُظهِرٌ للحَقِّ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((الغريبين)) للهروي (٦/ ١٧٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المشركينَ مِن القرآنِ: ولَمَّا جاءهم القُرآنُ قالوا: هذا سِحرٌ ولن نُؤمِنَ به، وقالوا اعتِراضًا على إنزالِ القُرآنِ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إن كان هذا القُرآنُ حَقًّا فهلَّا نُزِّلَ على رجُلٍ ذي ثَروةٍ وجاهٍ مِن وُجَهاءِ مكَّةَ أو الطَّائِفِ!

ثمَّ يقولُ الله تعالَى رادًّا عليهم: أهؤلاء المُشرِكونَ مَن يَضَعونَ النُّبُوَّةَ حيث شاؤُوا أمِ اللهُ وَحْدَه هو الَّذي يختصُّ بذلك؟! نحن قَسَمْنا الأرزاقَ بيْنَهم في الحياةِ الدُّنيا، ورَفَعْنا بعضَهم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ -فمِنهم الغنيُّ، ومنهم الفَقيرُ إلى غيرِ ذلك-؛ لِيَستخدِمَ النَّاسُ بَعضُهم بَعضًا في الأعمالِ لحاجتِهم لذلك، ويَرزُقَ اللهُ بعضَهم مِن بَعضٍ؛ فإذا كان أمرُ الدُّنيا لم يُفَوَّضْ إليهم، فكيف بأمرِ النُّبُوَّةِ؟! ورحمةُ رَبِّك -يا محمَّدُ- خيرٌ مِمَّا يَجمَعُه أولئك المُشرِكونَ في الدُّنيا مِن مَتاعِها الزَّائِلِ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى في الآيةِ المتقَدِّمةِ أنَّه ليس لأولئك الكُفَّارِ داعٍ يَدعوهم إلى تلك الأقاويلِ الباطِلةِ إلَّا تقليدُ الآباءِ والأسلافِ، ثمَّ بَيَّن أنَّه طَريقٌ باطِلٌ ومَنهَجٌ فاسِدٌ، وأنَّ الرُّجوعَ إلى الدَّليلِ أَولَى مِن الاعتِمادِ على التَّقليدِ؛ أردَفَه بهذه الآيةِ، والمقصودُ منها ذِكرُ وَجهٍ آخَرَ يدُلُّ على فَسادِ القَولِ بالتَّقليدِ، وتَقريرُه مِن وَجهَينِ:

**الأوَّلُ**: أنَّه تعالى حكَى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه تبَرَّأَ عن دينِ آبائِه بناءً على الدَّليلِ، فنَقولُ: إمَّا أن يكونَ تَقليدُ الآباءِ في الأديانِ مُحَرَّمًا أو جائِزًا، فإن كان

مُحَرَّمًا فقد بطَلَ القَولُ بالتَّقليدِ، وإن كان جائِزًا فمَعلومٌ أنَّ أشرَفَ آباءِ العَرَبِ هو إبراهيمُ عليه السَّلامُ؛ وذلك لأنَّهم ليس لهم فَخرٌ ولا شَرَفٌ إلَّا بأنَّهم مِن أولادِه، وإذا كان كذلك فتقليدُ هذا الأبِ الَّذي هو أشرَفُ الآباءِ أَولى مِن تقليدِ سائِرِ الآباءِ، وإذا ثَبَت أنَّ تقليدَه أَولى مِن تقليدِ غَيرِه فنَقولُ: إنَّه تَرَك دينَ الآباءِ وحَكَم بأنَّ اتِّباعَ الدَّليلِ أَولى مِن مُتابَعةِ الآباءِ، وإذا كان كذلك وَجَب تقليدُه في تَركِ تقليدِ الآباءِ، ووَجَب تقليدُه في ترجيحِ الدَّليلِ على التَّقليدِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: في بيانِ أنَّ تَرْكَ التَّقليدِ والرُّجوعَ إلى مُتابَعةِ الدَّليلِ أَولى في الدُّنيا وفي الدِّينِ: أنَّه تعالى بَيَّنَ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا عَدَل عن طريقةِ أبيه إلى مُتابَعةِ الدَّليلِ لا جَرَمَ جَعَل اللهُ دينَه ومَذهَبَه باقيًا في عَقِبِه إلى يومِ القيامةِ، وأمَّا أديانُ آبائِه فقد اندَرَست وبَطَلَت؛ فثَبَت أنَّ الرُّجوعَ إلى مُتابَعةِ الدَّليلِ يَبقى محمودَ الأثَرِ إلى قيامِ السَّاعةِ، وأنَّ التَّقليدَ والإصرارَ يَنقَطِعُ أثَرُه، ولا يبقَى منه في الدُّنيا خبرٌ ولا أثَرٌ؛ فثَبَت مِن هذينِ الوَجهَينِ أنَّ مُتابعةَ الدَّليلِ وتَرْكَ التَّقليدِ أَولى، فهذا بيانُ المقصودِ الأصليِّ مِن هذه الآيةِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَّرَهم اللهُ بالأُمَمِ الماضِيةِ، وشَبَّه حالَهم بحالِهم؛ ساقَ لهم أمثالًا في ذلك مِن مَواقِفِ الرُّسُلِ مع أُمَمِهِم؛ منها قِصَّةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع قَومِه[2].

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا مُحمَّدُ- حينَ قال إبراهيمُ لأبيه وقَومِه المُشرِكينَ: إنَّني بَريءٌ مِنَ الآلِهةِ الَّتي تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ، فأُبغِضُها ولا أعبُدُها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٨، ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧﴾.

أي: أنا بَريءٌ مِنَ الَّذين تَعبُدونَهم إلَّا الَّذي خلَقَني، فهو المُستَحِقُّ وَحْدَه للعِبادةِ، فأنا أعبُدُه ولا أتبَرَّأُ منه؛ فإنَّه سيُرشِدُني ويُوَفِّقُني للحَقِّ(١).

---

= (ص: ٧٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠١).

قال السمعاني: (قَولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه على حقيقةِ الاستِثناءِ -يعني: أنَّه استِثناءٌ مُتَّصِلٌ- لأنَّهم كانوا يَعبُدونَ اللهَ وما دُونَه، فيَستقيمُ الاستِثناءُ على هذا.

والثَّاني: أنَّه استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، ومعناه: لَكِن الَّذي فَطَرني). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٩٨). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٨٢، ٥٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١١٦).

وممَّن قال بأنَّ الاستثناءَ مُتَّصِلٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الاستِثناءَ مُنقَطِعٌ: الماوَرْديُّ، وجَوَّزه الزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٦).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٨].

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وجَعَل إبراهيمُ كَلِمةَ التَّوحيدِ[1].....

---

(١) قال ابنُ عطية: (قالت فِرقةٌ: ذلك عائِدٌ على كَلِمتِه بالتَّوحيدِ في قَولِه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾، وقال مجاهِدٌ وقَتادةُ والسُّدِّيُّ: ذلك مُرادٌ به: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وعاد الضَّميرُ عليها وإن كانت لم يَجْرِ لها ذِكرٌ؛ لأنَّ اللَّفظَ يَتضَمَّنُها. وقال ابنُ زَيدٍ: المرادُ بذلك: الإسلامُ ولَفْظتُه، وذلك قولُه عليه السَّلامُ: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقَولُه: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا﴾: يَعودُ إلى كَلِمةِ التَّوحيدِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ: ابن جرير، والزجاج، والسمرقندي، وابن أبي زَمَنين، والواحدي، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢١٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومُجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٧٣).

قال الرازي: (وجعَلَ إبراهيمُ كَلِمةَ التَّوحيدِ الَّتي تَكَلَّمَ بها وهي قَولُه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾ جاريًا مَجْرَى لا إلهَ، وقولَه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ جاريًا مَجْرَى قَولِه: إلَّا اللهُ؛ فكان مجموعُ قَولِه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ جاريًا مَجْرَى قَولِه: لا إلهَ إلَّا اللهُ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٩).

وقال الشنقيطي: (الضَّميرُ المنصوبُ في «جَعَلَهَا» على التَّحقيقِ راجِعٌ إلى كَلِمةِ الإيمانِ المُشتَمِلةِ على معنى لا إلهَ إلَّا اللهُ، المذكورةِ في قَولِه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾؛ لأنَّ لا إلهَ إلَّا اللهُ نفْيٌ وإثباتٌ، فمعنى النَّفيِ منها هو البَراءةُ مِن جميعِ المعبوداتِ غيرِ اللهِ في جميعِ =

كَلِمةً باقيةً في ذُرِّيَّتِه[1]؛ .....

= أنواعِ العباداتِ، وهذا المعنى جاء مُوضَّحًا في قَولِه: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾. ومعنى الإثباتِ منها هو إفرادُ اللهِ وَحْدَه بجميعِ أنواعِ العباداتِ على الوَجهِ الَّذي شَرَعه على أَلْسِنةِ رُسُلِه، وهذا المعنى جاء مُوضَّحًا في قَولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾. ((أضواء البيان)) (٧/ ١٠٢). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١١٤).

وممَّن اختار أنَّ ضميرَ الفاعِلِ في (جَعَلَها) يعودُ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والرَّازي، والرَّسْعَني، والخازن، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٢).

وقيلَ: الفاعلُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، أي: وجَعَل اللهُ عزَّ وجلَّ كلمةَ التَّوحيدِ باقيةً في عَقِبِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ. وممَّن اختاره: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٧٧).

(١) وجَعْلُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كَلِمةَ التَّوحيدِ باقيةً في عَقِبه، قيل: المرادُ أنَّه وصَّاهم بها، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾... الآيةَ [البقرة: ١٣٢]. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: أبو السعود، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٤).

وقيل: المرادُ أنَّه دعا اللهَ تعالى -وهو مُجابُ الدَّعوةِ- كما في قَولِه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وفي قَولِه: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٦).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ: الشنقيطي، فقال: (وإنَّما جعَلَها إبراهيمُ باقيةً فيهم؛ لأنَّه تسَبَّب لذلك بأمْرَينِ:

أحدُهما: وصيَّتُه لأولادِه بذلك، وصاروا يَتوارَثون الوَصيَّةَ بذلك عنه، فيُوصي به السَّلَفُ منهم الخَلَفَ، كما أشار تعالى إلى ذلك بقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٠ - ١٣٢]. =

رجاءَ أن يَرجِعوا إلى الحَقِّ[١].

= والأمرُ الثاني: هو سؤالُه ربَّه تعالى لِذُرِّيَّته الإيمانَ والصَّلاحَ، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [البقرة: ١٢٤]... وقَولِه تعالى عنه: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى﴾ [إبراهيم: ٤٠]، وقولِه عنه: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقَولِه عنه هو وإسماعيلَ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] إلى قَولِه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩]). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٠٢، ١٠٣).

وقال ابن كثير: (جعَلَها دائمةً في ذُرِّيَّته يَقتدي به فيها مَن هداه اللهُ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥).

وقال ابنُ عاشور: (فالمعنى: جَعَل إبراهيمُ قَولَه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧] شِعارًا لعَقِبِه، أي: جعَلَها هي وما يُرادِفُها قَولًا باقيًا في عَقِبِه على مَرِّ الزَّمانِ، فلا يخلو عَقِبُ إبراهيمَ مِن مُوَحِّدينَ لله، نابِذينَ للأصنام...، فإنْ أُريدَ بالعَقِبِ مَجموعُ أعقابِه فإنَّ كَلِمةَ التَّوحيدِ لم تَنقَطِعْ مِن اليهودِ، وانقطَعَت مِنَ العَرَبِ بعدَ أن تقَلَّدوا عبادةَ الأصنامِ إلَّا مَن تهَوَّدَ منهم أو تنَصَّرَ. وإن أُريدَ مِن كُلِّ عَقِبٍ فإنَّ العَرَبَ لم يَخلوا مِن قائمٍ بكَلِمةِ التَّوحيدِ؛ مِثلُ المتنَصِّرينَ منهم، كالقبائلِ المتنَصِّرةِ، ووَرَقةَ بنِ نَوفَلٍ، ومِثلُ المتحَنِّفينَ، كزَيدِ بنِ عَمرِو بنِ نُفَيلٍ، وأُمَيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٦، ٥٧٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٦، ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٢- ١٠٤).

قال الألوسي: (﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ تعليلٌ للجَعْلِ، أي: جَعَلَها باقيةً في عَقِبِه؛ كي يَرجِعَ مَن أشرَكَ منهم بدُعاءِ مَن وَحَّد، أو بسَبَبِ بقائِها فيهم). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٧٧).

وقال الشنقيطي: (وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أي: جَعَل الكَلِمةَ باقيةً فيهم؛ لعَلَّ الزَّائغينَ الضَّالِّينَ منهم يَرجِعونَ إلى الحَقِّ بإرشادِ المُؤمِنينَ المُهتَدينَ منهم؛ لأنَّ الحَقَّ ما دام قائمًا في جُملتِهم فرُجوعُ الزَّائغينَ عنه إليه مَرجُوٌّ مأمولٌ، كما دَلَّ عليه قَولُه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، والرَّجاءُ المذكورُ: بالنِّسبةِ إلى بني آدَمَ؛ لأنَّهم لا يَعرِفونَ مَن يَصيرُ إلى الهُدى، ومَن يصيرُ إلى الضَّلالِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٠٤). =

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣١، ١٣٢].

وقال سُبحانَه حكايةً لِقَولِ يُوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨].

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ المُشرِكينَ لَمَّا عَوَّلوا على تقليدِ الآباءِ، ولم يَتفكَّروا في الحُجَّةِ؛ اغتَرُّوا بطُولِ الإمهالِ، وإمتاعِ اللهِ إيَّاهم بنَعيمِ الدُّنيا؛ فأعرَضوا عن الحَقِّ(١).

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: لم يَحصُلْ ما رجاه إبراهيمُ مِن رُجوعِ جَميعِ عَقِبِه إلى كَلِمةِ التَّوحيدِ الَّتي

---

= وقال الشوكاني: (وقيل: الضَّميرُ في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ راجِعٌ إلى أهلِ مكَّةَ، أي: لعَلَّ أهلَ مكَّةَ يَرجِعونَ إلى دينِك الَّذي هو دينُ إبراهيمَ. وقيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والتَّقديرُ: فإنَّه سيَهدينِ لعَلَّهم يَرجِعونَ، وجعَلَها ... إلخ. قال السُّدِّيُّ: لعلَّهم يَتوبونَ فيَرجِعونَ عمَّا هم عليه إلى عبادةِ اللهِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٤).

وقال الشنقيطي: (الضَّميرُ [أي: في قولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾] راجعٌ إلى مَن ضَلَّ مِن عَقِبِه؛ لأنَّ الضَّالِّينَ منهم داخِلونَ في لفظِ العَقِبِ، فرُجوعُ ضميرِهم إلى العقِبِ لا إشكالَ فيه، وهذا القولُ هو ظاهِرُ السِّياقِ، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٠٥).

وتنوَّعت عباراتُ المفسِّرينَ فيما يُرجى رُجوعُهم إليه؛ فمِنهم مَن قال: يَرجِعون إليها، أي: إلى الكلمةِ، ومنهم مَن قال: إلى التَّوحيدِ، ومنهم مَن قال: إلى الإيمانِ، ومنهم مَن قال: إلى الهُدى بعدَ الضَّلالةِ، ومنهم مَن قال: إلى الحقِّ، ومنهم مَن قال: إلى دينِ إبراهيمَ. وهي مُتقارِبةٌ.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٩).

جعَلَها فيهم -ومنهم كُفَّارُ قُريشٍ وآباؤُهم مِن قَبلِهم-؛ فقد مَتَّع اللهُ هؤلاء القَومَ، فأسبَغَ عليهم مِنَ النِّعَمِ، وعافاهم مِن العُقوباتِ والنِّقَمِ؛ فأبطَرَهم ذلك وزهَّدَهم في اتِّباعِ الحَقِّ، وتمادَوا في باطِلِهم حتَّى جاءَهم القُرآنُ المُشتَمِلُ على الحَقِّ، وجاءهم مِنَ الله تعالى رَسولٌ ظاهرٌ أمرُه، ومُبَيِّنٌ لرسالتِه وأحكامِ دينِه، مُظهِرٌ للحَقِّ وحُجَجِه، وهو محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٧، ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٠٣).

قال ابن عطية: (﴿مُّبِينٞ﴾ في هذه الآيةِ يحتملُ التَّعدِّيَ وتَرْكَ التَّعدِّي). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ ﴿مُّبِينٞ﴾ لازِمٌ غيرُ مُتَعَدٍّ، بمعنَى: بَيِّنٍ، أي: واضحٍ وظاهرٍ أمْرُه ورسالتُه ونِذارتُه بما معه مِن الآياتِ البَيِّنةِ والدَّلائلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والزمخشري، والنسفي، وابن كثير، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّه مُتَعَدٍّ، بمعنى أنَّه يُبيِّنُ الحقَّ مِن الباطِلِ، ويُبيِّنُ الدِّينَ والأحكامَ: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والرَّسْعَني، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٢)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٢٣).

وقال البِقاعي: (﴿وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ أي: أمرُه ظاهِرٌ في نَفْسِه...، وهو مع ظُهورِه في نَفْسِه مُظهِرٌ لِكُلِّ مَعنًى يُحتاجُ إليه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤١٨).

أي: ولَمَّا جاء القُرآنُ إلى المُشرِكينَ قالوا: هذا سِحرٌ يَسحَرُ محمَّدٌ به النَّاسَ، ولن نُؤمِنَ به[1]!

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَر عن طعنِ المشركين في القرآنِ؛ أتْبَعه الإخبارَ عن طعنِهم فيمَنْ جاء به؛ تغطيةً لأمرِه عمَلًا بإخبارِهم في ختامِ ما قبْلَها عن أنفُسِهم بالكفرِ، زيادةً وإمعانًا فيما كانت النِّعَمُ أدَّتْهُم إليه مِن البَطَرِ[2].

﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ ﴾.

أي: وقال مُشرِكو قُرَيشٍ أيضًا اعتِراضًا منهم على إنزالِ القُرآنِ على مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنْ كان هذا القُرآنُ حَقًّا فلِمَ لمْ يُنزَّلْ على رَجُلٍ مِن وُجَهاءِ وأغنياءِ مَكَّةَ أو الطَّائِفِ[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٥)، ((اختيار الأَولى)) لابن رجب (ص: ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٠، ١١١).

قال ابنُ عاشور: (كان الرَّجُلانِ اللَّذانِ عَنَوْهما ذَوَيْ مالٍ؛ لأنَّ سَعةَ المالِ كانت مِن مُقَوِّماتِ وَصفِ السُّؤدُدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٠).

وقال الرَّسْعَني: (وعظيمُ مَكَّةَ: الوَليدُ بنُ المُغيرةِ. في قَولِ ابنِ عبَّاسٍ، وقَتادةَ، والأكثَرينَ؛ وعُتبةُ ابنُ رَبيعةَ. في قَولِ مُجاهِدٍ.

وأمَّا عَظيمُ الطَّائِفِ ففيه أربعةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه حبيبُ بنُ عَمرِو بنِ عُمَيرٍ الثَّقَفيُّ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أبو مسعودٍ عُروةُ بنُ مَسعودٍ الثَّقَفيُّ. قاله قَتادةُ... =

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾.

أي: هل هؤلاء المُشرِكونَ المُقترِحونَ إنزالَ القُرآنِ على رَجُلٍ عَظيمٍ مِن القَريتَينِ هم مَن يَضَعونَ النُّبُوَّةَ وإنزالَ الوَحيِ حيث شاؤُوا، أمِ اللهُ وَحْدَه هو الَّذي يختَصُّ بذلك[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُو أَن يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦].

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾.

أي: نحن تولَّيْنا قِسمةَ الأرزاقِ بيْنَهم في الحياةِ الدُّنيا؛ فيَبسُطُ اللهُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ، ويُضَيِّقُه على مَن يشاءُ بحَسَبِ حِكمتِه سُبحانَه وتعالى[2].

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ﴾.

أي: ورفَعْنا في الدُّنيا بَعضَهم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ؛ فمنهم الغَنيُّ والفَقيرُ،

---

= الثَّالِثُ: أنَّه كِنانةُ بنُ عبدِ عَمرٍو الطَّائفيُّ. قاله السُّدِّيُّ.

الرَّابعُ: أنَّه ابنُ عبدِ يالِيلَ. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١١).

قال الواحدي: (﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ لم يختَلِفوا أنَّها بمعنى النُّبُوَّةِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

وغَيرُ ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلرِّزۡقِ ﴾ [النحل: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ ﴾ [الإسراء: ٢١].

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗا﴾.

أي: لِيَستخدِمَ النَّاسُ بَعضُهم بَعضًا في الأعمالِ لحاجتِهم لذلك، ويَرزُقَ اللهُ بَعضَهم مِن بعضٍ، فكما تولَّيْنا قَسْمَ مَعايشِهم، وفضَّلْنا بَعضَهم على بَعضٍ، ولم يكُنْ أمرُ الدُّنيا إليهم؛ فكذلك لم يُفَوِّضِ اللهُ تعالى إليهم أمرَ النُّبُوَّةِ؛ فهو وَحْدَه مَن يَصطفي مَن يَشاءُ لِرسالتِه ونُزولِ الوَحيِ عليه؛ فلا وَجهَ لاعتراضِهم[٢].

﴿وَرَحۡمَتُ رَبِّكَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾.

أي: ورَحمةُ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- خَيرٌ مِمَّا يَجمَعُه المُشرِكونَ في الدُّنيا مِن أموالِها الفانيةِ ومَتاعِها الزَّائلِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

قال البِقاعي: (لَمَّا كان المرادُ هنا الاستِخدامَ دونَ الهُزءِ؛ لأنَّه لا يَليقُ التَّعليلُ به، أجمَع القُرَّاءُ على ضَمِّ هذا الحَرفِ هنا ﴿سُخۡرِيّٗا﴾، أي: أن يَستَعمِلَه فيما يَنوبُه أو يَتعَسَّرُ أو يتعذَّرُ عليه مُباشرتُه، ويأخُذَ للآخَرِ منه مِن المالِ ما هو مُفتَقِرٌ إليه؛ فهذا بماله، وهذا بأعمالِه، وقد يكون الفقيرُ أكمَلَ مِن الغَنيِّ؛ لِيَكمُلَ بذلك نظامُ العالَمِ؛ لأنَّه لو تساوت المقاديرُ لتعَطَّلَت المعايشُ؛ فلم يَقدِرْ أحَدٌ أن ينفَكَّ عما جعَلْناه إليه مِن هذا الأمرِ الدَّنيءِ، فكيف يَطمَعونَ في الاعتراضِ في أمرِ النُّبُوَّةِ، أيَتصوَّرُ عاقِلٌ أن نَتوَلَّى قَسْمَ النَّاقِصِ، ونَكِلَ العاليَ إلى غيرِنا؟!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ * قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ تَقريعٌ شَديدٌ، وغِلظةٌ للحاسدِ ألَّا يَحسُدَ مَن فَضَّلَه اللهُ في المعيشةِ

---

= (١٦/ ٨٤)، ((اختيار الأولى)) لابن رجب (ص: ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٤).

قيل: المرادُ بالرَّحمةِ هنا: النُّبُوَّةُ. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحدي، والسمعاني، وابن جُزَي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٦، ٧٧).

قال ابن رجب: (رَحمتُه بالنُّبُوَّةِ والعِلمِ والإيمانِ خَيرٌ ممَّا يَجمَعونَه مِن الأموالِ الَّتي تفنى، فهو يَخُصُّ بهذه الرَّحمةِ الدِّينيَّةِ مَن يشاءُ، ويَرفَعُه على أهلِ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ). ((اختيار الأَولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) (ص: ١٠٣).

وقيل: المرادُ بالرَّحمةِ: الجنَّةُ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٥٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٧).

ونقل ابنُ عطيَّةَ عن قَتادةَ والسُّدِّيِّ أنَّ المرادَ: الجنَّةُ. ثمَّ قال: (لا شَكَّ أنَّ الجنَّةَ هي الغايةُ، ورحمةَ اللهِ في الدُّنيا بالهدايةِ والإيمانِ خَيرٌ مِن كُلِّ مالٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣).

وممَّن جمَع بيْنَ هذه المعاني: الشنقيطي، فقال: (يعني: أنَّ النُّبُوَّةَ والاهتِداءَ بهُدى الأنبياءِ، وما يَنالُه المُهتَدونَ يومَ القيامةِ: خيرٌ مِمَّا يَجمَعُه النَّاسُ في الدُّنيا مِن حُطامِها). ((أضواء البيان)) (٧/ ١١٤).

عليه؛ لأنَّ في حَسَدِه تَسَخُّطَ قضاءِ ربِّه، والازْدِراءَ بنِعمةِ اللهِ عليه[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ عن قَتادةَ قال: (تَلْقَى الرَّجُلَ ضَعيفَ الحِيلةِ، عَيِيَّ اللِّسانِ، وهو مَبسوطٌ له في الرِّزقِ، وتَلْقاه شَديدَ الحِيلةِ، سَليطَ اللِّسانِ، وهو مَقتورٌ عليه! قال الله جلَّ ثناؤُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ كما قَسَم بيْنَهم صُوَرَهم وأخلاقَهم، تبارك رَبُّنا وتعالى)[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ تَزهيدٌ في الإكبابِ على طَلبِ الدُّنيا، وعونٌ على التَّوكُّلِ على اللهِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ فيه تحقيرٌ للدُّنيا وما جُمِعَ فيها مِن مَتاعِها[٤]، وإشارةٌ إلى خطورةِ جمعِ الأموالِ؛ وأنَّ ذلك قد يُنسي الآخرةَ -إلَّا مَن رَحِم ربِّي-، ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((فواللهِ؛ لا الفقرَ أخشَى عليكم؛ ولكنْ أخشَى عليكم أنْ تُبسَطَ عليكم الدُّنيا، كما بُسِطَتْ على مَن كان قبْلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، وتُهْلِكَكم كما أهلكَتْهم))[٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ نِعمةَ اللهِ الدِّينيَّةَ خَيرٌ مِن النِّعمةِ الدُّنيويَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٤، ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٣٧).

والحديث أخرجه البخاري (٣١٥٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٩٦١) من حديث عَمرِو بنِ عَوفٍ المُزَنيِّ رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ ذكَّرَ العَرَبَ بحالِ جَدِّهم الأعلَى، ونَهْيِه عن عبادةِ غيرِ اللهِ، وإفرادِه بالتَّوحيدِ والعبادةِ؛ هزًّا لهم؛ لِيَكونَ لهم رُجوعٌ إلى دينِ جَدِّهم؛ إذ كان أشرَفَ آبائِهم، والمُجمَعَ على محبَّتِه، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يُقَلِّدْ أباه في عبادةِ الأصنامِ؛ فينبغي أن تَقتَدوا به في تَركِ تَقليدِ آبائِكم الأقرَبينَ، وتَرجِعوا إلى النَّظَرِ واتِّباعِ الحَقِّ[1]!

٢- في قَولِ إبراهيمَ صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾، ولم يَقُلْ (إلَّا اللهَ): فائدتانِ:

**الأولى**: الإشارةُ إلى عِلَّةِ إفرادِ اللهِ تعالى بالعبادةِ؛ لأنَّه كما أنَّه مُنفَرِدٌ بالخَلقِ فيَجِبُ أن يُفرَدَ بالعِبادةِ.

**الثَّانيةُ**: الإشارةُ إلى بُطلانِ عِبادةِ الأصنامِ؛ لأنَّها لم تَفطُرْكم حتَّى تَعبُدوها؛ ففيها تعليلٌ للتَّوحيدِ الجامِعِ بيْنَ النَّفيِ والإثباتِ، وهذه مِن البلاغةِ التَّامَّةِ في تعبيرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[2]. وأيضًا ففي قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَقْرِنَ الحُكمَ بالدَّليلِ؛ لأنَّه أبْلَغُ[3].

٣- قال الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ حكى الله سبحانه عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ في آيةٍ أُخرى أنَّه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وحكى عنه هاهنا أنَّه قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، فاجمَعْ بيْنَهما وقَدِّرْ، كأنَّه قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٢٠).

فهو يَهدينِ وسيَهدينِ؛ فيَدُلَّانِ على استِمرارِ الهدايةِ في الحالِ والاستِقبالِ[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أخَذ منه بعضُهم أنَّ فيه إشعارًا بأنَّ وَحدانِيَّةَ اللهِ كانتْ غيرَ مَجهولةٍ للمُشرِكين؛ فيَتَّجِهُ أنَّ الدَّعوةَ إلى العِلْمِ بوُجودِ اللهِ ووَحدانِيَّتِه كانتْ بالِغةً لِأكثَرِ الأُمَمِ بما تَناقَلوه مِن أقوالِ الرُّسُلِ السَّابِقينَ، ومِن تِلكَ الأُمَمِ العَرَبُ؛ فيَتَّجِهُ مُؤاخَذةُ المُشرِكين على الإشراكِ قبْلَ بَعثةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّهُم أَهمَلوا النَّظَرَ فيما هو شائِعٌ بيْنَهم، أو تَغافَلوا عنه، أو أعرَضوا؛ فيَكونُ أهلُ الفَترةِ مُؤاخَذينَ على نَبذِ التَّوحيدِ في الدُّنيا، ومُعاقَبينَ عليه في الآخرةِ[٢].

٥- قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ الرَّسولُ المُبينُ: مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَصْفُه بـ﴿مُّبِينٞ﴾؛ لأنَّه أوضَحَ الهُدَى، ونَصَب الأدِلَّةَ، وجاء بأفصَحِ كَلامٍ؛ فالإبانةُ راجِعةٌ إلى معانِي دِينِه وألفاظِ كِتابِه، والحِكمةُ في ذلك: أنَّ اللهَ أراد أنْ يُشَرِّفَ هذا الفَريقَ مِن عَقِبِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بالانتِشالِ مِن أوحالِ الشِّركِ والضَّلالِ إلى مَناهِجِ الإيمانِ والإسلامِ، واتِّباعِ أفضَلِ الرُّسُلِ وأفضَلِ الشَّرائِعِ، فيَجبُرُ لأُمَّةٍ مِن عَقِبِ إبراهيمَ ما فَرَّطوا فيه مِن الاقتداءِ بأبيهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٥، ١٩٦).

ووقع الخلافُ في أهلِ الفترةِ: هل يَدخُلونَ النَّارَ بكُفرِهم، أو يُعْذَرونَ بالفترةِ، أو يُمتحَنون يومَ القيامةِ؟

قال ابنُ تيميَّةَ: (ومَن لم تَقُمْ عليه الحُجَّةُ في الدُّنيا بالرِّسالةِ، كالأطفالِ، والمجانينِ، وأهلِ الفَتَراتِ؛ فهؤلاء فيهم أقوالٌ، أظهَرُها ما جاءت به الآثارُ أنَّهم يُمتَحَنونَ يومَ القيامةِ، فيُبعَثُ إليهم مَن يأمُرُهم بطاعتِه؛ فإنْ أطاعوه استحَقُّوا الثَّوابَ، وإنْ عَصَوْه استحَقُّوا العذابَ). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٣١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٥٣- ٥٨)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٣٧).

حتَّى يَكمُلَ لدَعوَتِه شَرَفُ الاستِجابةِ، والمَقصودُ مِن هذا: زِيادةُ الإمهالِ لهم لَعلَّهم يَتذَكَّرون[١].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ إنَّما جَعَلوه بزَعْمِهم سِحرًا؛ مِن حيثُ كان عِندَهم يُفَرِّقُ بيْنَ المرءِ ووَلَدِه وزَوجِه، فجَعَلوه لذلك كالسِّحرِ، ولم يَنظُروا إلى الفَرقِ في أنَّ المُفارِقَ بالقُرآنِ يُفارِقُ عن بَصيرةٍ في الدِّينِ، والمُفارِقَ بالسِّحرِ يُفارِقُ عن خَلَلٍ في ذِهنِه[٢]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ دَليلٌ على أنَّ تَعظيمَ الأغنياءِ والمُتَرَيِّسينَ بالثَّراءِ قديمٌ في أطباعِ مَن لم يَعْصِمْه اللهُ بالإيمانِ ويُبَصِّرْه رُشدَه، ألَا ترَى المساكينَ كيف ظنُّوا أنَّ مَن كان عِندَهم عظيمًا رئيسًا أحقُّ بالنُّبُوَّةِ مِن محمَّدٍ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم؟! فأخبَرَهم اللهُ أنَّ النُّبُوَّةَ رَحمةٌ منه على مَن يُنبيه، ليست هي بأيديهم؛ فيَقسِموها لِمَن أحبُّوا[٣]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أنَّ القريةَ تُطلَقُ على المدنِ الكبيرةِ -بل على أُمِّ المُدُنِ-، ولقولِه تعالى في آيةٍ أُخرَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣]، فقريتُه الَّتي أخرجَتْه هي مكَّةُ، في عُرْفِنا الآنَ تُطلقُ القريةُ على المدينةِ الصَّغيرةِ، ولكنَّ القرآنَ دلَّ على أنَّ القريةَ تُطلَقُ حتَّى على المدينةِ الكبيرةِ؛ لأنَّها مأخوذةٌ مِن القَرْيِ، وهو الاجتِماعُ[٤].

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ هذا مِن كُفْرِيَّاتِ المُشرِكينَ الَّتي حكاها اللهُ تعالى عنهم في هذه السُّورةِ، وهؤلاء

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٣٤).

المساكينُ قالوا: مَنصِبُ رسالةِ اللهِ مَنصِبٌ شَريفٌ فلا يليقُ إلَّا برجُلٍ شَريفٍ، وقد صَدَقوا في ذلك إلَّا أنَّهم ضَمُّوا إليه مُقَدِّمةً فاسِدةً: وهي أنَّ الرَّجُلَ الشَّريفَ هو الَّذي يكونُ كثيرَ المالِ والجاهِ، ومحمَّدٌ ليس كذلك، فلا تليقُ رِسالةُ اللهِ به! وإنَّما يَليقُ هذا المَنصِبُ برَجُلٍ عَظيمِ الجاهِ كثيرِ المالِ في إحدى القريتَينِ، وهي مكَّةُ والطَّائِفُ. ثمَّ أبطَلَ اللهُ تعالى هذه الشُّبهةَ مِن وَجهَينِ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: قَولُه: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وتقريرُ هذا الجَوابِ مِن وُجوهٍ:

**أحدُها**: أنَّا أوقَعْنا التَّفاوُتَ في مَناصِبِ الدُّنيا، ولم يَقدِرْ أحَدٌ مِن الخَلْقِ على تغييرِه؛ فالتَّفاوُتُ الَّذي أوقَعْناه في مناصِبِ الدِّينِ والنُّبُوَّةِ بألَّا يَقدِروا على التَّصريفِ فيه كان أَولى.

**وثانيها**: أن يكونَ المرادُ أنَّ اختِصاصَ ذلك الغَنيِّ بذلك المالِ الكثيرِ إنَّما كان مِن أجْلِ حُكْمِنا وفَضْلِنا وإحسانِنا إليه، فكيف يَليقُ بالعَقلِ أن نجعَلَ إحسانَنا إليه بكَثرةِ المالِ حُجَّةً علينا في أن نُحسِنَ إليه أيضًا بالنُّبُوَّةِ؟

**وثالِثُها**: أنَّا لَمَّا أوقَعْنا التَّفاوُتَ في الإحسانِ بمناصِبِ الدُّنيا لا لسَبَبٍ سابقٍ، فلِمَ لا يجوزُ أيضًا أن نُوقِعَ التَّفاوُتَ في الإحسانِ بمناصِبِ الدِّينِ والنُّبُوَّةِ لا لسَبَبٍ سابقٍ؟ فهذا تقريرُ الجوابِ.

**والوَجهُ الثَّاني في الجوابِ**: ما المرادُ مِن قَولِه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾؟ وتقريرُه: أنَّ اللهَ تعالى إذا خَصَّ بَعضَ عَبيدِه بنَوعِ فَضْلِه ورَحمتِه في الدِّينِ فهذه الرَّحمةُ خَيرٌ مِن الأموالِ الَّتي يَجمَعُها؛ لأنَّ الدُّنيا على شَرَفِ الانقضاءِ والانقراضِ، وفَضْلَ الله ورَحمَتَه تبقَى أبدَ الآبادِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٠).

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ يدُلُّ على أنَّ تَفاوُتَ النَّاسِ في الأرزاقِ والحُظوظِ سُنَّةٌ مِن سُنَنِ اللهِ السَّماويَّةِ الكَونيَّةِ القَدَريَّةِ، لا يستطيعُ أحَدٌ مِن أهلِ الأرضِ البتَّةَ تَبديلَها ولا تحويلَها بوَجهٍ مِن الوُجوهِ؛ فلن تَجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَبديلًا، ولن تجِدَ لسُنَّةِ اللهِ تَحويلًا. وبذلك تَحقَّقَ أنَّ ما يَتذَرَّعُ به الملاحِدةُ المُنكِرونَ لوُجودِ اللهِ ولجَميعِ النُّبُوَّاتِ والرَّسائِلِ السَّماويَّةِ، إلى ابتزازِ ثَرَواتِ النَّاسِ، ونَزْعِ مُلْكِهم الخاصِّ عن أملاكِهم؛ بدعوَى المُساواةِ بيْنَ النَّاسِ في مَعايِشِهم: أمرٌ باطِلٌ لا يُمكِنُ بحالٍ مِن الأحوالِ، مع أنَّهم لا يَقصِدونَ ذلك الَّذي يَزعُمونَ، وإنَّما يَقصِدونَ استِئثارَهم بأملاكِ جَميعِ النَّاسِ؛ لِيَتمتَّعوا بها، ويَتصَرَّفوا فيها كيف شاؤوا تحتَ ستارِ كثيرٍ مِن أنواعِ الكَذِبِ والغُرورِ والخِداعِ، كما يَتحَقَّقُه كُلُّ عاقِلٍ مُطَّلِعٍ على سِيرتِهم وأحوالِهم مع المجتَمَعِ في بلادِهم! فالطُّغمةُ القَليلةُ الحاكِمةُ ومَن يَنضَمُّ إليها هم المتمَتِّعونَ بجَميعِ خَيراتِ البلادِ، وغَيرُهم مِن عامَّةِ الشَّعبِ مَحرومونَ مِن كُلِّ خَيرٍ، مَظلومونَ في كُلِّ شَيءٍ حتَّى ما كَسَبوه بأيديهم، يُعلَفونَ ببِطاقةٍ كما تُعلَفُ البِغالُ والحَميرُ! وقد عَلِمَ اللهُ جلَّ وعلا في سابِقِ عِلمِه أنَّه يأتي ناسٌ يَغتَصِبونَ أموالَ النَّاسِ بدعوى أنَّ هذا فقيرٌ، وهذا غنيٌّ، وقد نهَى جلَّ وعلا عن اتِّباعِ الهَوى بتلك الدَّعوى، وأوعَدَ مَن لم يَنْتَهِ عن ذلك بقَولِه تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥]، وقَولُه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيه وَعيدٌ شَديدٌ لِمَن فَعَل ذلك[1].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يَقتَضي أن تكونَ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٤، ١١٥).

كُلُّ أقسامِ مَعايِشِهم إنَّما تَحصُلُ بحُكمِ اللهِ وتَقديرِه، وهذا يَقتَضي أن يكونَ الرِّزقُ الحرامُ والحَلالُ كُلُّه مِنَ الله تعالى(١).

١٢- قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إنَّ اللهَ عزَّ وعلَا هو الَّذي قَسَم بيْنَهم مَعيشَتَهم وقَدَّرَها، ودبَّر أحوالَهُم تَدبيرَ العالِمِ بها، فلم يُسَوِّ بيْنَهم، ولَكِنْ فاوَتَ بيْنَهم في أسبابِ العَيشِ؛ حتَّى يَتعايَشوا ويَترافَدوا ويَصِلوا إلى مَنافِعِهم، ويَحصُلوا على مَرافِقِهم، ولو وَكَلَهم إلى أنفُسِهم ووَلَّاهُم تَدبيرَ أمرِهِم، لَضاعُوا وهَلَكوا، وإذا كانوا في تَدبيرِ المَعيشةِ الدَّنِيَّةِ في الحَياةِ الدُّنيا على هذه الصِّفَةِ؛ فما ظَنُّكَ بهم في تَدبيرِ أُمورِ الدِّينِ الَّذي هو رَحمةُ اللهِ الكُبرَى، ورَأفَتُه العُظمَى، وهو الطَّريقُ إلى حِيازةِ حُظوظِ الآخِرةِ، والسُّلَّمُ إلى حُلولِ دارِ السَّلامِ(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٠).

قال القرطبي: (خِلافًا للمُعتَزِلةِ في قَولِهم: إنَّ الحرامَ ليس برِزقٍ؛ لأنَّه لا يَصِحُّ تمَلُّكُه، وإنَّ اللهَ لا يَرزُقُ الحرامَ، وإنَّما يَرزُقُ الحلالَ، والرِّزقُ لا يكونُ إلَّا بمعنى المِلْكِ). ((تفسير القرطبي)) (١/ ١٧٧).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (والرِّزقُ يُرادُ به شَيئانِ: أحدُهما ما ينتفِعُ به العبدُ.

والثَّاني: ما يَملِكُه العبدُ. فهذا الثَّاني هو المذكورُ في قَولِه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقولِه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ [المنافقون: ١٠]، وهذا هو الحلالُ الَّذي مَلَّكه اللهُ إيَّاه. وأمَّا الأوَّلُ: فهو المذكورُ في قَولِه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «إنَّ نَفسًا لن تموتَ حتى تَستكمِلَ رِزقَها»، ونحوِ ذلك. والعبدُ قد يأكُلُ الحلالَ والحرامُ فهو رِزقٌ بهذا الاعتبارِ، لا بالاعتِبارِ الثَّاني، وما اكتَسَبه ولم يَنتفِعْ به هو رِزقٌ بالاعتبارِ الثَّاني دونَ الأوَّلِ؛ فإنَّ هذا في الحقيقةِ مالُ وارِثِه لا مالُه. واللهُ أعلَمُ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٦).

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ فيه إباحةُ استِخدامِ الحُرِّ برِضاه واستِئجارِه[١]، واستخدامِ العمالِ[٢].

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ في هذه الآيةِ تَنبيهٌ على حِكمةِ الله تعالى في تَفضيلِ اللهِ بَعضَ العِبادِ على بَعضٍ في الدُّنيا: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، أي: لِيُسَخِّرَ بَعضُهم بعضًا في الأعمالِ والحِرَفِ والصَّنائِعِ، فلو تساوى النَّاسُ في الغِنى، ولم يَحتَجْ بَعضُهم إلى بعضٍ؛ لَتعَطَّلَت كَثيرٌ مِن مَصالِحِهم ومَنافِعِهم[٣]؛ فإنَّ كُلَّ صِناعةٍ دُنيويَّةٍ يُحسِنُها قَومٌ دونَ آخَرينَ، فجُعِل البَعضُ مُحتاجًا إلى البَعضِ؛ لِتَحصُلَ المواساةُ بيْنَهم في مَتاعِ الدُّنيا، ويحتاجَ هذا إلى هذا، ويَصنَعَ هذا لهذا، ويُعطيَ هذا هذا؛ فتَتِمَّ بذلك مَصالِحُهم، ويَنتَظِمَ مَعاشُهم، ويَصِلَ كُلُّ واحدٍ منهم إلى مَطلوبِه[٤].

١٥- قولُه تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ فيه إثباتُ التَّعليلِ والحكمةِ لأفعالِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّ اللَّامَ هنا للتَّعليلِ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ ابتَدَأَ بذِكرِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ وقَومِه إبطالًا لقَولِ المُشرِكين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]؛ بأنَّ أَولى آبائِهم بأنْ يَقتَدوا به هو

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٤). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٣٥).

أبوهُم الَّذي يَفتَخِرون بنِسبَتِه؛ إبراهيمُ عليه السلامُ[١].

- قولُه: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ ... ﴾ (إذ) ظَرفٌ مُتَعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، تَقديرُه: واذكُرْ إذ قال إبراهيمُ، والمعنى: واذكُرْ زَمانَ قَولِ إبراهيمَ لأبيهِ وقَومِه قَولًا صَريحًا في التَّبَرُّؤِ مِن عِبادةِ الأصنامِ[٢].

- وخُصَّ أبو إبراهيمَ بالذِّكرِ قبْلَ ذِكْرِ قَومِه -وما هو إلَّا واحِدٌ منهم- اهتِمامًا بذِكْرِه؛ لأنَّ بَراءةَ إبراهيمَ مِمَّا يَعبُدُ أبوه أدَلُّ على تَجَنُّبِ عِبادةِ الأصنامِ؛ بحيثُ لا يَتسامَحُ فيها، ولو كان الَّذي يَعبُدُها أقرَبَ النَّاسِ إلى مُوَحِّدِ اللهِ بالعِبادةِ مِثلَ الأبِ، ولِتَكُونَ حكايةُ كَلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قُدوَةً لإبطالِ قَولِ المُشرِكينَ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴾[٣] [الزخرف: ٢٢].

- وقولُه: ﴿بَرَآءٌ﴾ مَصدرٌ نُعِتَ به مُبالَغةً[٤]. أو صِفةٌ مُشبَّهةٌ، و(بَريءٌ) اسمُ فاعلٍ، والصِّفةُ المُشبَّهةُ أعظَمُ؛ لأنَّها تدُلُّ على الدَّوامِ والثَّباتِ والاستمرارِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾

- الاستِثناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ استِثناءٌ مِن (ما تَعبُدون)، و(ما) مَوصولةٌ، أي: مِن الَّذين تَعبدونَهُم؛ فإنَّ قومَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كانوا مُشرِكين مِثلَ مُشرِكي العَرَبِ. وفرَّع على هذا قَولَه: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾؛ لأنَّ قَولَه: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ يَتضَمَّن معنى: إنَّني اهتَدَيتُ إلى بُطلانِ عِبادَتِكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١١٥).

الأصنامَ بهَديٍ مِن اللهِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال هنا: ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾، وقال في سُورَةِ (الشُّعراءِ): ﴿فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]؛ فأفاد بالآيةِ المُقترِنةِ بالسِّينِ: هِدايَتَه في الاستِقبالِ، بعْدَ أنْ أفاد بقَولِه المَحكِيِّ في (الشُّعراءِ) الهِدايةَ في الحالِ[٢].

- وتَوكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) مَنظورٌ فيه إلى حالِ أبيهِ وقَومِه؛ لأنَّهم يُنكِرون أنَّه الآنَ على هُدًى، فهُم يُنكِرون أنَّه سيَكونُ على هُدًى في المستقبَلِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ﴾ أشْعَرَ حَرفُ الظَّرفيَّةِ (في) بأنَّ هاتِه الكَلِمةَ -وهي كَلِمةُ التَّوحيدِ- لم تَنقَطِعْ بيْن عَقِبِ إبراهيمَ دُونَ أنْ تَعُمَّ العَقِبَ[٤].

- وقولُه: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ تَعليلٌ لجَعْلِ الكَلِمةِ باقِيةً في عَقِبِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ ليَدعُوَ المُوَحِّدُ المُشرِكَ نَسلًا بعْدَ نَسلٍ إلى المِلَّةِ الحَنيفيَّةِ؛ رَجاءَ أنْ يَرجِعَ إليها مَنْ أشرَكَ منهم بدُعاءِ المُوَحِّدِ[٥].

- وحَرفُ (لَعَلَّ) لإنشاءِ الرَّجاءِ، والرَّجاءُ هنا رَجاءُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لا مَحالةَ؛ فتَعَيَّنَ أنْ يُقَدَّرَ مَعنَى قَولٍ صادِرٍ مِن إبراهيمَ بإنشاءِ رَجائِه، بأنْ يُقَدَّرَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤١٦).

ويُنظر ما تقدم في الفوائد العلمية واللطائف (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٥).

قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، أو: قائلًا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ إضرابٌ عن قَولِه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٢٨]، وهو إضْرابُ إبطالٍ، أي: لم يَحصُلْ ما رَجاهُ إبراهيمُ مِن رُجوعِ بَعضِ عَقِبِه إلى الكَلِمةِ الَّتي أوصاهُم برَعيِها؛ فإنَّ أقدَمَ أُمَّةٍ مِن عَقِبِه لم يَرجِعوا إلى كَلِمَتِه، وهؤلاء همُ العَرَبُ الَّذين أشْرَكوا وعَبَدوا الأصنامَ. وبَعْدَ (بَلْ) كلامٌ مَحذوفٌ دلَّ عليه الإبطالُ وما بعْدَ الإبطالِ، وتَقديرُ المَحذوفِ: بلْ لمْ يَرجِعْ هؤلاء وآباؤُهُم الأوَّلون إلى التَّوحيدِ، ولم يَتَبَرَّؤُوا مِن عِبادةِ الأصنامِ، ولا أخَذوا بوِصايةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ(٢).

- وجُملةُ ﴿مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لسائِلٍ يَسأَلُ عمَّا عامَلَهم اللهُ به جَزاءً على تَفريطِهم في وِصايةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وهلَّا استَأصَلَهم؟ فأُجيبَ: بأنَّ اللهَ مَتَّعَهم بالبَقاءِ إلى أنْ يَجيئَهم رَسولٌ بالحَقِّ، وذلك لحِكمةٍ عَلِمها اللهُ يَرتَبِطُ بها وُجودُ العَرَبِ زَمنًا طويلًا بدُونِ رَسولٍ، وتأخُّرُ مَجيءِ الرَّسولِ إلى الإبَّانِ الَّذي ظَهَر فيه، وبهذا الاستِئنافُ حَصَل التَّخَلُّصُ إلى ما بَدَا مِن المُشرِكين بعْدَ مَجيءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن فَظيعِ تَوَغُّلِهم في الإعراضِ عن التَّوحيدِ الَّذي كان عليه أبوهُم(٣).

- وفي مَجيءِ الإضرابِ بقَولِه: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ ...﴾ الآيةَ، وجَعْلِ الغايةِ للتَّمَتُّعِ مَجيءَ الحَقِّ: نُكتَةٌ بَديعةٌ؛ لأنَّه ليس المَقصودُ مِن الإضرابِ ردَّ الكَلامِ السَّابِقِ، ولكنَّ المَقصودَ هو التَّأكيدُ والاستِمرارُ؛ لِيُبيِّنَ أنَّهم شُغِلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٦، ١٩٧).

عمَّا جاءَهم مِن الحقِّ؛ إذ لا مُناسَبةَ بيْنَ مَجيءِ الحَقِّ والتَّمتيعِ، والمَعنَى: أنَّهم شُغِلوا عن شُكرِ المُنعِمِ؛ فإنَّهم بَدلًا مِن أنْ يَنصاعُوا إلى الحقِّ، ويأخُذوا بأسبابِه، ويَعكُفوا عليه؛ جَاؤُوا بما هو شَرٌّ مِن غَفلَتِهم الَّتي كانوا عليها[1].

- قَولُه: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ المُرادُ بآبائِهم: آباؤُهُم الَّذين سَنُّوا عِبادةَ الأصنامِ، مِثلُ عَمرِو بنِ لُحَيٍّ والَّذين عَبَدوها مِن بَعدِه، وتَمتيعُ آبائِهم تَمهيدٌ لتَمتيعِ هؤلاءِ؛ ولذلك كانت غايةُ التَّمتيعِ مَجيءَ الرَّسولِ؛ فإنَّ مَجيئَه لهؤلاءِ، والتَّمتيعُ هنا التَّمتيعُ بالإمهالِ وعَدَمِ الاستِئصالِ، كما تدُلُّ عليه الغايةُ في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، والمُرادُ بالحَقِّ هنا القُرآنُ، وهذه الآيةُ ثَناءٌ راجِعٌ على القُرآنِ مُتَّصِلٌ بالثَّناءِ عليه الَّذي افتُتِحَت به السُّورَةُ[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ تَعجُّبٌ مِن حالِ تَغافُلِهم، أي: قد كان لهم بَعضُ العُذرِ قبْلَ مَجيءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والقُرآنِ؛ لأنَّ لِلغَفَلاتِ المُتَقادِمةِ غِشاوَةً تُصَيِّرُ الغَفلةَ جَهالةً؛ فكان الشَّأنُ أنْ يَستَيقِظوا لَمَّا جاءَهُم الحَقُّ ورَسولٌ مُبينٌ، فيَتَذَكَّروا كَلِمةَ أبيهِم إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ولَكِنَّهم لَمَّا جاءَهُم الحَقُّ قالوا: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ﴾، أي: قالوا للرَّسولِ: هذا ساحِرٌ، فازْدادوا رَيْنًا على رَيْنٍ؛ فالخَبرُ مُستعمَلٌ في التَّعجُّبِ، لا في إفادةِ صُدورِ هذا القولِ منهم؛ لأنَّ ذلك مَعلومٌ لهم وللمُسلِمينَ[3].

- وجَعَل مَجيءَ الحَقِّ والرَّسولِ غايةَ التَّمتيعِ، ثمَّ أردَفَه بقَولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ﴾، والمَرادُ التَّنبيهُ على غَفلَتِهم، فقال: بلِ اشتَغَلوا عن

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨١، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ١٩٨).

التَّوحيدِ حتَّى جاءَهُم الحَقُّ ورَسولٌ مُبينٌ؛ فخَيَّلَ بهذه الغايةِ أنَّهم تَنَبَّهوا عندَها عن غَفلَتِهم؛ لاقتِضائِها التَّنَبُّهَ، ثمَّ ابتَدَأَ قِصَّتَهم عندَ مَجيءِ الحقِّ فقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ جاؤُوا بما هو شَرٌّ مِن غَفلَتِهم الَّتي كانوا عليها: وهو أنْ ضَمُّوا إلى شِركِهم مُعانَدَةَ الحَقِّ، ومُكابَرَةَ الرَّسولِ، ومُعاداتَه، والاستِخفافَ بكتابِ اللهِ وشَرائِعِه، والإصرارَ على أفعالِ الكَفَرةِ، والاحتِكامَ على حِكمةِ اللهِ في تَخَيُّرِ مُحمَّدٍ مِن أهلِ زَمانِه، ثمَّ قالوا على سَبيلِ التَّنَزُّلِ: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾، وهي الغايَةُ في تَشويهِ صُورَةِ أمرِهم[1].

- وفي تَعقيبِ الغايةِ بهذا الكَلام إيذانٌ بأنَّ تَمتيعَهم أصبَحَ على وَشْكِ الانتِهاءِ؛ فجُملَةُ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ مَعطوفَةٌ على جُملَةِ ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الزخرف: ٢٩]؛ فإنَّ (لَمَّا) تَوقيتِيَّةٌ؛ فهي في قُوَّةِ (حتَّى) الغائيَّةِ؛ كأنَّه قيلَ: مَتَّعتُ هؤلاءِ وآباءَهم، فلمَّا جاءَهُم الحقُّ عَقِبَ ذلك التَّمتيعِ، لم يَستَفيقُوا مِن غَفلَتِهم، وقالوا: هذا سِحرٌ، أي: كانوا قبلَ مَجيءِ الحقِّ مُشرِكين عن غَفلَةٍ وتَساهُلٍ، فلمَّا جاءَهُم الحقُّ صاروا مُشرِكين عن عِنادٍ ومُكابَرةٍ[2].

- وجُملةُ ﴿وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ مَقُولٌ ثانٍ، أي: قالوا: هذا سِحرٌ فلا نَلتَفِتُ إليه، وقالوا: إنَّا به -أي: بالقُرآنِ- كافِرون، أي: سواءٌ كان سِحرًا أم غَيرَه، أي: فَرَضوا أنَّه سِحرٌ، ثمَّ ارتَقَوا فقالوا: إنَّا به كافِرون، أي: كافِرون بأنَّه مِن عندِ اللهِ، سواءٌ كان سِحرًا، أم شِعرًا، أمْ أساطيرَ الأوَّلينَ، ولهذا المَعنَى أكَّدوا الخَبَرَ بحَرفِ التَّأكيدِ؛ ليُؤْيِسوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن إيمانِهم به[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ عَطفٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على جُملةِ ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ [الزخرف: ٣٠]؛ فهو في حيِّزِ جَوابِ (لَمَّا) [الزخرف: ٣٠] التَّوقيتِيَّةِ، واقعٌ مَوقعَ التَّعجيبِ أيضًا، أي: بعْدَ أنْ أخَذوا يَتَعَلَّلون بالعِلَلِ لإنكارِ الحقِّ؛ إذ قالوا للقُرآنِ: هذا سِحرٌ، وإذ كان قَولُهم ذلك يَقْتضي أنَّ الَّذي جاء بالقُرآنِ ساحِرٌ؛ انتَقَل إلى ذِكْرِ طَعنٍ آخَرَ منهم في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنَّه لم يَكُنْ مِن عُظَماءِ أهلِ القَريَتَينِ(١).

- و(لولا) أصْلُه حَرفُ تَحضيضٍ، استُعْمِلَ هنا في معنى إبطالِ كَونِه رسولًا؛ لأنَّ التَّحضيضَ على تَحصيلِ ما هو مَقطوعٌ بانتفاءِ حُصولِه يَستلزِمُ الجزْمَ بانتفائِه(٢).

- ويَحتمِلُ أنَّهم قالوا هذا اللَّفظَ المَحكِيَّ عنهم في القُرآنِ، ولم يُسَمُّوا شَخصَينِ مُعَيَّنَينِ، ويَحتمِلُ أنَّهم سَمَّوا شَخصَينِ ووَصَفوهُما بهَذَينِ الوَصفَينِ، واقتَصَر القُرآنُ على ذِكْرِ هَذَينِ الوَصفَينِ أنَّه رَجلٌ وعَظيمٌ؛ إيجازًا، مع التَّنبيهِ على ما كانوا يُؤَهِّلون به الاختِيارَ للرِّسالةِ؛ تَحميقًا لرَأيِهم(٣).

- وقَولُهم: ﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ ذِكرٌ له على وَجهِ الاستِهانةِ به؛ لأنَّهم لم يقولوا هذه المقالةَ تسليمًا، بل إنكارًا(٤).

- وتعريفُ ﴿ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾ في قولِهم: ﴿عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾ للعَهدِ، جَعَلوا عِمادَ التَّأهُّلِ لسِيادَةِ الأقوامِ أمْرَينِ: عَظَمةَ المُسَوَّدِ، وعَظَمةَ قَريَتِه؛ فهمْ لا يَدينون إلَّا مَن هو مِن أشهَرِ القَبائِلِ في أشهَرِ القُرَى؛ لأنَّ القُرى هي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٧٨).

مَأوَى شُؤونِ القَبائِلِ وتَموينِهم وتِجارَتِهم[١].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ إنكارٌ عليهم قولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ فإنهم لَمَّا نَصَبوا أنفُسَهم مَنصِبَ مَن يَتَخَيَّرُ أصنافَ النَّاسِ للرِّسالةِ عن اللهِ؛ فقد جَعَلوا لأنفُسِهم ذلك لا لِلَّه؛ فكان مِن مُقتَضَى قَولِهم أنَّ الاصطِفاءَ للرِّسالةِ بيَدِهم؛ فلذلك قُدِّم ضَميرُ (هُم) المجعولُ مُسنَدًا إليه، على مُسنَدٍ فِعلِيٍّ؛ ليُفِيدَ معنَى الاختِصاصِ؛ فسَلَّط الإنكارَ على هذا الحَصرِ إبطالًا لقَولِهم، وتَخطِئَةً لهم في تَحَكُّمِهم، ولَمَّا كان الاصطِفاءُ للرِّسالةِ رَحمةً لِمَن يُصطَفَى لها، ورَحمةً للنَّاسِ المُرسَلِ إليهم؛ جَعَل تَحَكُّمَهم في ذلك قِسمَةً منهم لِرَحمةِ اللهِ باختِيارِهِم مَن يُختارُ لها، وتَعيينِ المُتأَهِّلِ لإبلاغِها إلى المَرحُومينَ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ وُجِّهَ الخِطابُ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأُضِيفَ لَفظُ (الرَّبِّ) إلى ضَميرِه؛ إيماءً إلى أنَّ اللهَ مُؤَيِّدُه تَأنيسًا له؛ لأنَّ قَولَهم: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] قَصَدوا منه الاستِخفافَ به؛ فرَفَع اللهُ شَأنَه بإبلاغِ الإنكارِ عليهم؛ بالإقبالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨١).

عليه بالخِطابِ، وبإظهارِ أنَّ اللهَ رَبُّه، أي: مُتَوَلِّي أمرِهِ وتَدبيرِه[١].

- قَولُه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...﴾ تَعليلٌ للإنكارِ والنَّفيِ المُستفادِ منه، واستِدلالٌ عليه، أي: لَمَّا قَسَمْنا بيْنَ النَّاسِ مَعيشتَهم، فكانوا مُسَيَّرينَ في أمُورِهم على نَحوِ ما هَيَّأْنا لهم مِن نِظامِ الحَياةِ، وكان تَدبيرُ ذلك للهِ تعالى ببالِغِ حِكمَتِه، فسَخَّر بَعضَهم لبَعضٍ في أشغالِهم على حِسابِ دَواعِي حاجةِ الحَياةِ؛ فإذا كانوا بهذه المَثابةِ في تَدبيرِ المَعيشةِ الدُّنيا؛ فكذلك الحالُ في إقامةِ بَعضِهم دُونَ بَعضٍ للتَّبليغِ؛ فإنَّ ذلك أعظَمُ شُؤونِ البَشَرِ؛ فهذا وَجهُ الاستِدلالِ[٢].

- وجُملَةُ ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ تَذييلٌ للرَّدِّ عليهم، وفي هذا التَّذييلِ ردٌّ ثانٍ عليهم بأنَّ المالَ الَّذي جَعَلوه عِمادَ الاصِطفاءِ للرِّسالةِ، هو أقَلُّ مِن رَحمةِ الله؛ فهي خَيرٌ ممَّا يَجمَعون مِن المالِ الَّذي جَعَلوه سَببَ التَّفضيلِ حينَ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ فإنَّ المالَ شَيءٌ جَمَعه صاحبُه لِنَفْسِه، فلا يكونُ مِثلَ اصطفاءِ اللهِ العبْدَ لِيُرْسِلَه إلى النَّاسِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٣٣-٣٥)

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَعَارِجَ﴾: أي: مَراقيَ وسَلالِمَ، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على سُمُوٍّ وارتقاءٍ[1].

﴿يَظْهَرُونَ﴾: أي: يَعْلُونَ ويَصعَدونَ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[2].

﴿وَزُخْرُفًا﴾: أي: ذَهَبًا، أو: الزُّخرفُ: الزِّينةُ، قيل: أصلُ معنى الزُّخرفِ: الذَّهبُ، ولَمَّا كان حَسنًا في الأعيُنِ قيل لكلِّ زينةٍ: زخرفةٌ، ثم جعلوا كلَّ مُزيَّنٍ: مزخْرفًا، وقيل: أصلُ الزُّخرفِ: الزِّينةُ المُزَوَّقةُ، ومنه قيل للذَّهبِ: زُخرفٌ؛ لِكَونِ كمالِ الزِّينةِ بالذَّهبِ[3].

﴿مَتَٰعُ﴾: المتاعُ: المنفعةُ، وكلُّ ما حَصَل التَّمتُّعُ والانتِفاعُ به على وجهٍ ما، والمتاعُ والمتعةُ: ما يُنتفَعُ به انتفاعًا قليلًا غيرَ باقٍ، بل يَنقضي عن قَريبٍ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (٤/ ٢٥١) و (١٣/ ٨٠).

(متع): يدُلُّ على مَنفعةٍ، وامتدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ[١].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾

قَولُه: ﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّه مَفعولٌ به لِفعلٍ مَحذوفٍ، أي: وجعَلْنا لهم زُخرُفًا، ويكونُ مِن قَبيلِ عَطفِ الجُمَلِ. الثَّاني: أن يكونَ مَنصوبًا عَطفًا على ﴿سُقُفًا ﴾ مِن قَبيلِ عَطفِ المُفرداتِ. الثَّالِثُ: أن يكونَ مَنصوبًا عَطفًا على محلِّ ﴿مِّن فِضَّةٍ ﴾، كأنَّه قيل: سُقُفًا مِن فِضَّةٍ وزُخرُفٍ، يعنى: بَعضُها مِن فِضَّةٍ وبَعضُها مِن ذَهَبٍ، فنصب عَطفًا على المحَلِّ. وقيلَ: هو منصوبٌ على نَزعِ الخافِضِ عَطفًا على ﴿مِّن فِضَّةٍ ﴾، أي: مِن فِضَّةٍ ومِن زُخرُفٍ -أي: ذَهَبٍ.

قَولُه: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ ﴿وَإِن ﴾ الواوُ: حرفُ استِئنافٍ. إنْ: نافيةٌ. ﴿كُلُّ ﴾ مُبتدأٌ مَرفوعٌ. ﴿ذَٰلِكَ ﴾ مُضافٌ إليه في محَلِّ جَرٍّ. ﴿لَمَّا ﴾ حرفُ حَصرٍ بمعنى «إلَّا». ﴿مَتَٰعُ ﴾ خَبَرُ المبتدأِ ﴿كُلُّ ﴾. والجُملةُ الاسميَّةُ كلُّها مُستأنَفةٌ لا محَلَّ لها[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى محقِّرًا الدُّنيا، مبيِّنًا هوانَها عليه: ولولا أن يَصيرَ النَّاسُ كُلُّهم كُفَّارًا إذا رأَوا ما أُوتِيَه الكُفَّارُ مِن سَعةٍ في الأرزاقِ، لَجَعَل اللهُ لأولئك الكُفَّارِ لِبُيوتِهم سُقُفًا مِن فِضَّةٍ، ومَصاعِدَ يَصعَدونَ ويَرتَفِعونَ بها، ولجَعَل لِبُيوتِهم أبوابًا، وأسِرَّةً

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٨٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٥/ ٨٤).

يتَّكِئُونَ عليها، وجعَلْنا معَ ذلك لهم ذَهَبًا، وما كُلُّ ذلك إلَّا مَتاعٌ وعَرَضٌ زائِلٌ، ونَعيمُ الآخِرةِ عندَ رَبِّك -يا محمَّدُ- للمُتَّقينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَقَرَّر أنَّ مِن خُلُقِهم تَعظيمَ المالِ وأهلِ الثَّراءِ، وحِسبانَهم ذلك أصلَ الفَضائِلِ، ولم يَهتَمُّوا بزَكاءِ النُّفوسِ، وكان اللهُ قد أبطَلَ جَعْلَهم المالَ سَبَبَ الفَضلِ بإبطَالَينِ؛ بقَولِه: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقَولِه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ أعقَبَ ذلك بتَعريفِهم أنَّ المالَ والغِنى لا حَظَّ لهما عِندَ اللهِ تعالى؛ فإنَّ اللهَ أعطى كلَّ شَيءٍ خَلْقَه، وجعَلَ للأشياءِ حَقائقَها ومَقاديرَها، فكثيرًا ما يكونُ المالُ للكافرينَ ومَن لا خَلاقَ لهم مِن الخَيرِ؛ فتعيَّنَ أنَّ المالَ قِسمةٌ مِن اللهِ على النَّاسِ، جعَلَ له أسبابًا نظَمَها في سِلكِ النُّظُمِ الاجتماعيَّةِ، وجعَلَ لها آثارًا مُناسِبةً لها، وشتَّانَ بَيْنَها وبَينَ مَواهبِ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ، والسَّرائرِ الطَّيِّبةِ، ويَحصُلُ مِن هذا التَّحقيرِ للدُّنيا وللمالِ إبطالٌ ثالِثٌ لِمَا أَسَّسوا عليه قَولَهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1] [الزخرف: ٣١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ حَقارةَ الدُّنيا، وعَظَّم شأنَ الآخرةِ، في قَولِه: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ أتْبَعَ ذلك ببَيانِ شِدَّةِ حَقارتِها، وأنَّه جعَلَها مُشتَرِكةً بيْنَ المُؤمِنينَ والكافِرينَ، وجَعَل ما في الآخِرةِ مِن النَّعيمِ خاصًّا بالمؤمِنينَ دونَ الكافِرينَ، وبَيَّن حِكمَتَه في اشتِراكِ المؤمِنِ مع الكافِرِ في نَعيمِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣١).

الدُّنيا، بقَولِه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، أي: لولا كراهَتُنا لِكَونِ جميعِ النَّاسِ أمَّةً واحِدةً مُتَّفِقةً على الكُفرِ لَأَعطَيْنا زَخارِفَ الدُّنيا كُلَّها للكُفَّارِ(١).

﴿وَلَوۡلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ سُقُفٗا مِّن فِضَّةٖ﴾.

أي: ولولا كراهَتُنا أن يَرغَبَ النَّاسُ في الكُفرِ إذا رأَوْا ما أُوتِيَه الكُفَّارُ مِن سَعةٍ وقُدرةٍ، فيَصيروا كُلُّهم كُفَّارًا؛ لَجَعَل اللهُ للَّذين يَكفُرونَ به بُيُوتًا ذاتَ سُقُفٍ مِن فِضَّةٍ(٢).

﴿وَمَعَارِجَ عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾.

أي: ومَصاعِدَ ومَراقيَ يَرتَفِعونَ بها(٣).

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٧، ٥٨٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣، ٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٦، ١١٨).

قال ابن جرير: (السُّقوف جمْعُ سَقْفٍ، ثمَّ تُجمعُ السُّقوفُ سُقُفًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٨٩).

وقال ابن عطية: (معنى الآيةِ: أنَّ اللهَ تعالى أبقَى على عَبيدِه، وأنعَمَ بمُراعاةِ بَقاءِ الخَيرِ والإيمانِ، وشاء حِفْظَه على طائِفةٍ منهم بقيَّةَ الدَّهرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٨).

قال الرازي: (هي المصاعِدُ إلى المساكِنِ العاليةِ، كالدَّرَجِ والسَّلالِمِ، عليها يَظهَرونَ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣١).

قيل: هذه المعارِجُ مِن فِضَّةٍ أيضًا كما أنَّ السُّقُفَ مِن فِضَّةٍ. وممَّن قال بهذا: السمعاني، والزمخشري، وابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥). =

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾.

أي: ولَجَعَل لِبُيوتِهم أبوابًا[1].

﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾.

أي: ولَجَعَل لهم أسِرَّةً يتَّكِئُونَ عليها[2].

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٠).
قال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿يَظْهَرُونَ﴾ أي: يَصعَدونَ ويَرتَفِعونَ حتَّى يَصيروا على ظُهورِ البُيوتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٠).
قيل: الأبوابُ مِن فِضَّةٍ أيضًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحدي، والسمعاني، والزمخشري، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢).
وقال ابن عثيمين: (هذا ليس بُمتعيِّنٍ، بل نقولُ: أبوابًا فَخمةً ليست كالمعتادِ، سواءٌ مِن فِضَّةٍ، أو مِن حديدٍ، أو مِن خَشَبٍ...). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤١).
قيل: السُّرُرُ مِن فِضَّةٍ أيضًا. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والزجاج، وابن أبي زمنين، والواحدي، والسمعاني، والزمخشري، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢).
قال أبو حيَّان: (هذه الأسماءُ مَعاطيفُ على قَولِه: ﴿سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾، فلا يتعَيَّنُ أن تُوصَفَ =

﴿ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿ وَزُخْرُفًا ﴾.

أي: وذَهَبًا[1]؛ فلولا يَعتَقِدُ النَّاسُ أنَّهم يَنالُونَ ذلك بالكُفرِ، فيَكفُرونَ جَميعًا؛

---

= المعاطيفُ بكَونِها مِن فِضَّةٍ. وقال الزمخشري: سقوفًا ومَصاعِدَ وأبوابًا وسُرُرًا كُلُّها مِن فِضَّةٍ. انتهى، كأنَّه يرى اشتراكَ المعاطيفَ في وَصفِ ما عُطِفَت عليه). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩).

وقال البِقاعي: (ودلَّ على هدوءِ بالِهم، وصفاءِ أوقاتِهم وأحوالِهم بقولِه: ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٢٥، ٤٢٦).

وقال ابن عاشور: (وفائدةُ وصْفِها بجُملةِ ﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾ الإشارةُ إلى أنَّهم يُعطَونَ هذه البَهرجةَ مع استِعمالِها في دَعَةِ العَيشِ، والخُلُوِّ عن التَّعبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٤).

قال الماوردي: (﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنَّه الذَّهَبُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ... الثَّاني: الفُرُشُ ومتاعُ البَيتِ. قاله ابنُ زَيدٍ. الثَّالثُ: أنَّه النُّقوشُ. قاله الحَسَنُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٤).

وقال الزَّجَّاجُ: (جاء في التَّفسيرِ أنَّه هاهنا الذَّهَبُ، إلَّا زيدَ بنَ أسلَمَ فإنَّه قال: هو مَتاعُ البَيتِ. والزُّخرُفُ في اللُّغةِ: الزِّينةُ وكَمالُ الشَّيءِ فيها، ودليلُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ [يونس: ٢٤]، أي: كَمالَها وتَمامَها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤١١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالزُّخرُفِ: الذَّهَبُ: ابنُ جرير، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، وأبو حيان، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٢).

قال الواحدي: (﴿ وَزُخْرُفًا ﴾ كلُّهم قالوا: إنَّه الذَّهبُ. والمعنى: ونجعلُ لهم معَ ذلك ذهبًا وغِنًى). ((الوسيط)) (٤/ ٧١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالزُّخرفِ: الزِّينةُ: الزمخشري، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٢). =

رغبةً منهم في الدُّنيا، لَجعَلَه اللهُ تعالى للكافِرينَ به[1].

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾.

---

= وقال القاسمي: (زخرفًا: أي: زينةً مِن ذهَبٍ وجواهرَ فوقَ الفضَّةِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٨٨).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابِقَينِ، فقال: المرادُ بـقولِه: ﴿وَزُخۡرُفًا﴾: أي: ذهبًا وزينةً عامَّةً كاملةً: البِقاعي، والشربيني، وجوَّز ابنُ عاشور استعمالَه في هذَين المعنيَينِ استعمالَ المشترَكِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٦).

وقال ابن جرير: (في نَصبِ الزُّخرُفِ وَجهانِ:

أحَدُهما: أن يكونَ معناه: لَجَعَلْنا لِمَن يَكفُرُ بالرَّحمنِ لِبُيوتِهم سُقُفًا مِن فِضَّةٍ ومِن زُخرُفٍ، فلمَّا لم يُكرِّرْ عليه «مِنْ» نُصِبَ على إعمالِ الفِعلِ فيه ذلك، والمعنى فيه فكأنَّه قيل: وزُخرُفًا يُجعَلُ ذلك لهم منه.

والوجهُ الثاني: أن يكونَ مَعطوفًا على السُّرُرِ، فيَكونَ معناه: لَجَعَلْنا لهم هذه الأشياءَ مِن فِضَّةٍ، وجعَلْنا لهم مع ذلك ذَهَبًا يكونُ لهم غِنًى يَستغنُونَ بها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٣، ٥٩٤).

ممَّن ذهب إلى الوجهِ الأوَّل، وأنَّ المعنى: لجعَلْنا هذا كلَّه مِن فضَّةٍ وذهبٍ: السمرقندي، وهو ظاهرُ اختيارِ السمعاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١).

وممَّن ذهب إلى الوجهِ الثَّاني: ابنُ جرير، والثعلبي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٧).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٤، ٢٠٥).

قال الواحدي: (معنى الآيةِ: لولا أن تميلَ الدُّنيا بالنَّاسِ فيَصيرَ الخَلقُ كُفَّارًا، لَأعطى اللهُ الكافِرَ في الدُّنيا غايةَ ما يَتمنَّى فيها؛ لِقِلَّتِها عندَه، ولكِنَّه عزَّ وجَلَّ لم يفعَلْ ذلك؛ لِعِلْمِه بأنَّ الغالِبَ على الخَلقِ حُبُّ العاجِلةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٧١، ٧٢).

أي: وما كُلُّ تلك الأشياءِ المذكورةِ إلَّا عَرَضٌ دُنيويٌّ زائِلٌ لا يَبقَى[١].

كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص: ٦٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الدُّنيا سِجنُ المؤمِنِ، وجَنَّةُ الكافِرِ))[٢].

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾.

أي: وأمَّا نَعيمُ الآخِرةِ عندَ رَبِّك -يا محمَّدُ- فهو خاصٌّ بالَّذين امتَثَلوا ما أمرَ اللهُ به مِن التَّوحيدِ والطَّاعاتِ، واجتَنَبوا ما نهَى عنه مِنَ الشِّركِ والسَّيِّئاتِ[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فيه أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٩).
قال ابنُ عثيمين: (لأنَّ الدُّنيا مهما طالتْ بالإنسانِ فلا بُدَّ مِن الزَّوالِ؛ إمَّا أن تَزولَ الدُّنيا عنه، وإمَّا أن يَزولَ هو عن الدُّنيا). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٦، ١١٧).

الدُّنيا لا تُساوي عِندَ الله تعالى شَيئًا، وأنَّه لولا لُطفُه ورحمتُه بعِبادِه الَّتي لا يُقَدِّمُ عليها شيئًا، لَوَسَّع الدُّنيا على الَّذين كَفَروا توسيعًا عَظيمًا(١)، فالآيةُ تضَمَّنَت تَهوينَ أمرِ الدُّنيا(٢)، ويَتَفَرَّعُ على هذه الفائدةِ: أنْ لا يَتعلَّقَ الإنسانُ بها؛ وأن لا يَهتمَّ بها؛ فليس له مِن الدُّنيا إلَّا ما أكَل فأفْنَى، أو لَبِسَ فأبْلَى، أو تصدَّق فأمضَى(٣). ودلَّت الآيةُ على أنَّ كُلَّ هذه المذكوراتِ مَتاعُ الحياةِ الدُّنيا، مُنغَّصةٌ مُكَدَّرةٌ فانيةٌ، وأنَّ الآخِرةَ عندَ اللهِ تعالى خَيرٌ للمُتَّقينَ لِرَبِّهم بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه؛ لأنَّ نَعيمَها تامٌّ كامِلٌ مِن كُلِّ وَجهٍ، وفي الجنَّةِ ما تَشتَهيه الأنفُسُ وتَلَذُّ الأعيُنُ، وهم فيها خالِدونَ؛ فما أشَدَّ الفَرقَ بيْنَ الدَّارَينِ(٤)!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ فيه تحريضٌ على التَّقْوى(٥)؛ وذلك لأنَّ ذِكْرَ الجزاءِ والثَّوابِ يَستثيرُ النَّفْسَ حتَّى يَصِلَ الإنسانُ إلى الوصفِ الَّذي يَحصُلُ به على الثَّوابِ(٦).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ...﴾، فيه سؤالٌ: لَمَّا بيَّن تعالى أنَّه لو فتَح على الكافرِ أبوابَ النِّعَمِ، لَصار ذلك سببًا لاجتِماعِ النَّاسِ على الكفرِ، فلِمَ لَمْ يَفعلْ ذلك بالمسلمينَ؛ حتَّى يصيرَ ذلك سببًا لاجتِماعِ النَّاسِ على الإسلامِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤٦).

**الجوابُ**: لأنَّ النَّاسَ -على هذا التَّقديرِ- كانوا يَجتمِعون على الإسلامِ لِطَلبِ الدُّنيا، وهذا الإيمانُ إيمانُ المنافقينَ[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّه تعالى يمنَعُ العِبادَ بَعضَ أُمورِ الدُّنيا مَنعًا عامًّا أو خاصًّا؛ لِمَصالحِهم[٢]، ففي إغناءِ البَعضِ وإحواجِ البَعضِ مَصلحةُ العالَمِ، وإلَّا لَبَسَط على الكافِرِ الرِّزقَ[٣].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى منَعَ أسبابَ تَعميمِ الكُفرِ في الأرضِ؛ لُطفًا منه بالإيمانِ وأهلِه، وإن كان لم يمنَعْ وُقوعَ كُفرٍ جُزئيٍّ قَليلٍ أو كثيرٍ؛ حِفظًا منه تعالى لِناموسِ تَرتيبِ المُسَبَّباتِ على أسبابِها[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ سَمَّاه مَتاعًا؛ لأنَّ الإنسانَ يَستَمتِعُ به قليلًا، ثمَّ يَنقَضي في الحالِ، وأمَّا الآخِرةُ فهي باقيةٌ دائِمةٌ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾ استِئنافٌ مُبَيِّنٌ لحَقارةِ مَتاعِ الدُّنيا، ودَناءَةِ قَدْرِه عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ[٦]. وقيل: هذه الجُملةُ عَطفٌ على جُملةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٥).

(٣) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٦).

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[١] [الزخرف: ٣٢].

- قوله: ﴿لَجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ مِثلُ اللَّامِ في قَولِه: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾، أي: لَجَعَلْنا لبُيوتِ مَن يَكفُرُ بالرَّحمنِ؛ فيَكونُ قَولُه: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدَلَ اشتِمالٍ مِمَّن يَكفُرُ بالرَّحمنِ، وإنَّما صَرَّح بتَكريرِ العامِلِ للتَّوكيدِ، ونُكتةُ هذا الإبدالِ تَعليقُ المَجرورِ ابتِداءً بفِعلِ الجَعلِ، ثمَّ الاهتِمامُ بذِكْرِ مَن يَكفُرُ بالرَّحمَنِ في هذا المَقامِ المَقصودِ منه قَرْنُه مع مَظاهِرِ الغِنَى في قَرَنِ التَّحقيرِ، ثمَّ يَذكُرُ ما يَعِزُّ وُجودُ أمثالِه مِن الفِضَّةِ والذَّهَبِ. وإذ قد كان الخَبرُ كُلُّه مُستَغرَبًا، كان حَقيقًا بأنْ يُنظَمَ في أُسلوبِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ المُرادُ أنَّ المَعارِجَ والأبوابَ والسُّرُرَ مِن فِضَّةٍ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، فحُذِفَ الوَصْفُ مِن المَعطوفاتِ؛ لِدَلالةِ ما وُصِف المَعطوفُ عليه[٣].

- وتكَرَّرَ لَفظُ البُيوتِ في قولِه: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾؛ لزِيادةِ التَّقريرِ[٤].

- قولُه: ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾ هو كنايةٌ عن كَثرةِ الإرفاهِ[٥].

- قولُه: ﴿وَزُخْرُفًا﴾ الزُّخرُفُ: الزِّينةُ، فيَكونُ هنا عَطفًا على ﴿سُقُفًا﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٤١).

جَمعًا لعَديدِ المَحاسِنِ، ويُطلَقُ على الذَّهَبِ؛ لأنَّ الذَّهَبَ يُتَزَيَّنُ به؛ فيَكونُ ﴿وَزُخْرُفًا﴾ عَطفًا على ﴿سُقُفًا﴾ بتأويلِ: لَجَعَلْنا لهم ذَهَبًا، أي: لَكانَت سُقُفُهم ومَعارِجُهم وأبوابُهم مِن فِضَّةٍ وذَهَبٍ مُنَوَّعةً؛ لأنَّ ذلك أَبْهَجُ في تَلوينِها، وابتُدِئَ بالفِضَّةِ؛ لأنَّها أكثَرُ في التَّحلياتِ، وأجمَلُ في اللَّونِ، وأُخِّرَ الذَّهَبُ؛ لأنَّه أندَرُ في الحُلِيِّ، ولأنَّ لَفظَه أسعَدُ بالوَقفِ؛ لِكَونِ آخِرِه تَنوينًا يَنقَلِبُ في الوَقفِ أَلِفًا، فيُناسِبُ امتِدادَ الصَّوتِ، وهو أفصَحُ في الوَقفِ. ويجوزُ أنْ يكونَ لَفظُ (زُخْرُفًا) مُستعمَلًا في مَعْنَيَيه -الزِّينةِ والذَّهبِ- استِعمالَ المشترَكِ، فلا يَرِدُ سُؤالٌ عن تَخصيصِ السُّقُفِ والمَعارِجِ بالفِضَّةِ[1].

- قَولُه: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ تَذييلٌ، أي: كلُّ ما ذُكِرَ مِن السُّقُفِ والمَعارِجِ، والأبوابِ والسُّرُرِ مِن الفِضَّةِ والذَّهَبِ؛ مَتاعُ الدُّنيا لا يَعودُ على مَن أُعطِيَه بالسَّعادةِ الأبَدِيَّةِ، وأمَّا السَّعادةُ الأبَديَّةُ فقد ادَّخَرها اللهُ للمُتَّقينَ، وليستْ كمِثلِ البهارِجِ والزِّينةِ الزَّائدةِ الَّتي تُصادِفُ مُختلِفَ النُّفوسِ، وتَكثُرُ لأهلِ النُّفوسِ الضَّئيلةِ الخسيسةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٠٧).

## الآيات (٢٦-٢٩)

﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَعْشُ﴾: أي: يَعْمَ ويُعْرِضْ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظَلامٍ وقِلَّةِ وُضوحِ الشَّيءِ[1].

﴿نُقَيِّضْ﴾: أي: نُهَيِّئْ ونُسَبِّبْ، يُقالُ: قَيَّض اللهُ فُلانًا لِفُلانٍ، أي: جاءَه به، وأتاحَه له[2].

﴿قَرِينٌ﴾: أي: صاحِبٌ مُلازِمٌ، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[3].

﴿فَبِئْسَ﴾: بئسَ: كلمةٌ موضوعةٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، مُستوفيةٌ لجميعِه[4].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

﴿يَنفَعَكُمُ﴾: فِعلٌ مُضارِعٌ مَنصوبٌ، والكافُ: في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ به مُقَدَّمٌ، والمصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ فاعِلُ (ينفع) مُؤَخَّرٌ، والتَّقديرُ: لن يَنفعَكم اليومَ اشتِراكُكم في العذابِ. أو الفاعِلُ ضَميرٌ مُستَتِرٌ يعودُ على التَّمَنِّي المدلولِ عليه بقَولِه: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ [الزخرف: ٣٨]، أي: لن يَنفَعَكم تَمنِّيكم البُعدَ، وعلى هذا الوَجهِ يكونُ المصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَنَّكُمْ ...﴾ في محَلِّ نَصبٍ أو جَرٍّ على نَزعِ الخافِضِ (لامِ العِلَّة)، أي: لن يَنفَعَكم تَمنِّيكم البُعدَ؛ لاشتِراكِكم في العَذابِ، والجارُّ والمجرورُ مُتعَلِّقانِ بـ﴿يَنفَعَكُمُ﴾، ويُقَوِّي إضمارَ الفاعِلِ قِراءةُ مَن قرأ: (إنَّكُمْ) بالكَسرِ[1]؛ فهي استِئنافٌ مُفيدٌ للتَّعليلِ.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾: ظَرفُ زمانٍ مَنصوبٌ مُتعَلِّقٌ بـ (يَنفَع).

﴿إِذ﴾: ظرفٌ مَبنيٌّ على السُّكونِ في محلِّ نَصبٍ على البَدلِ مِن ﴿ٱلْيَوْمَ﴾، أي: إذْ تبيَّنَ أنَّكم ظلَمْتُم في الدُّنيا، وفُسِّر ذلك بالتَّبيُّنِ لئَلَّا يُشكِلَ جَعلُ ﴿إِذ﴾ -وهو ظَرفٌ ماضٍ- بدَلًا مِن ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ وهو ظَرفٌ مُستقبَلٌ؛ لأنَّ تبَيُّنَ كَونِهم ظالِمينَ عندَ أنفُسِهم إنَّما يكونُ يومَ القيامةِ، فاليومُ وزَمانُ التَّبيُّنِ مُتَّحِدانِ، وإذا كان تَبَيُّنُ الحالِ في الاستِقبالِ اندفَعَ الإشكالُ. ويجوزُ أن يكونَ ﴿إِذ﴾ بدَلًا مِن ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ بالنَّظَرِ إلى أنَّ الدُّنيا والآخِرةَ مُتَّصِلَتانِ، وهما في حُكمِ اللهِ تعالى وعِلمِه سواءٌ. وقيل: ﴿إِذ﴾ هنا ليست ظَرفًا، بل هي حَرفٌ للتَّعليلِ كاللَّامِ[2].

---

(١) قرأ بها ابنُ عامرٍ في روايةِ التَّغْلِبيِّ عن ابنِ ذَكْوانَ، وقرأ الباقون وابنُ عامرٍ في روايةِ الأخفَشِ، وأحمدَ بنِ أنسٍ، وابنِ المُعَلَّى، وابنِ موسى الصُّوري عن ابنِ ذَكْوانَ بفَتحِها. يُنظر: ((جامع البيان في القراءات السبع)) لأبي عمرو الداني (٤/ ١٥٧٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٢)، ((الخصائص)) لابن جني (٢/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٨٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا حالَ الَّذينَ يُعرِضونَ عن ذِكرِه وعقوبتَهم: ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ الَّذي أنزَلَه الرَّحمنُ يُسلِّطِ اللهُ تعالى عليه شَيطانًا يَصِيرُ قَرينًا له لا يُفارِقُه، وإنَّ أولئك الشَّياطينَ لَيَمنعونَهم مِن الطَّريقِ الموصِلِ إلى اللهِ، ويَحسَبُ قُرَناءُ الشَّيطانِ أنَّهم مُهتَدونَ وعلى الحَقِّ! حتَّى إذا جاءنا هذا المُعرِضُ عن ذِكرِ رَبِّه قال لِقَرينِه مِن الشَّياطينِ: يا لَيْتَ بيْني وبيْنَك بُعدَ ما بينَ المَشرِقِ والمَغرِبِ، فبِئسَ الصَّاحِبُ لي أنت! فيُقالُ لهم: ولن يُخَفِّفَ عنكم العَذابَ في هذا اليَومِ اشتِراكُكم فيه؛ مِن أجْلِ ظُلمِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

هذه الآيةُ تتَّصِلُ بقَولِه تعالى أوَّلَ السُّورةِ: ﴿ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا ﴾ [الزخرف: ٥]، أي: نُواصِلُ لكم الذِّكرَ، فمَن يَعْشُ عن ذلك الذِّكرِ بالإعراضِ عنه إلى أقاويلِ المُضِلِّينَ وأباطيلِهم، ﴿نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا﴾، أي: نُسَبِّبْ له شَيطانًا؛ جزاءً له على كُفْرِه[1].

﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا ﴾.

أي: ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ الَّذي أنزَلَه الرَّحمنُ يُسلِّطِ اللهُ تعالى عليه شَيطانًا؛ جزاءَ إعراضِه عنه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).=

= وممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بذِكرِ الرَّحمنِ هنا: القُرآنُ: الواحدي، وابن القيِّم، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٢)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: محمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦١).

قال ابن تيميَّة: (و﴿يَعْشُ﴾ رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ: «يَعمَى»، وكذلك قال عَطاءٌ وابنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ، وكذلك أبو عُبَيدةَ، قال: «تُظلِمْ عينُه»، واختاره ابنُ قُتَيْبَةَ ورجَّحه على قولِ مَن قال: «يُعْرِض». والعَشا: ضَعفٌ في البَصَرِ؛ ولهذا قيل فيه: يَعْشُ. وقالت طائفةٌ: يُعْرِضْ، وهو روايةُ الضَّحَّاكِ عن ابنِ عبَّاسٍ، وقاله قَتادةُ، واختاره الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ، وهذا صَحيحٌ مِن جهةِ المعنى؛ فإنَّ قوله: ﴿يَعْشُ﴾ ضُمِّنَ معنى «يُعْرِض»؛ ولهذا عُدِّيَ بحرف الجرِّ «عن»، كما يقالُ: أنت أعمى عن محاسِنِ فلانٍ: إذا أعرَضْتَ فلم تَنظُرْ إليها. فقَولُه: ﴿يَعْشُ﴾ أي: يكُنْ أعشى عنها، وهو دونَ العمى، فلم ينظُرْ إليها إلَّا نظَرًا ضَعيفًا، وهذا حالُ أهلِ الضَّلالِ الَّذين لم يَنتَفِعوا بالقرآنِ؛ فإنَّهم لا يَنظُرونَ فيه كما يَنظُرونَ في كلامِ سَلَفِهم؛ لأنَّهم يَحسَبونَ أنَّه لا يُحصِّلُ المقصودَ، وهم الَّذين عَشَوا عنه فقُيِّضَت لهم الشَّياطينُ تَقتَرِنُ بهم وتصُدُّهم عن السَّبيلِ، وهم يَحسَبونَ أنَّهم مُهتَدون؛ ولهذا لا تجِدُ في كلامِ مَن لم يتَّبِعِ الكتابَ والسُّنَّةَ بيانَ الحَقِّ عِلمًا وعَمَلًا أبدًا؛ لِكَثرةِ ما في كلامِه مِن وَساوِسِ الشَّياطينِ). ((منهاج السنة النبوية)) (٥/ ٤٣٢، ٤٣٣). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٧، ٣٩٨)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَمَن يَعْشُ﴾: مَن يَنظُرْ نظَرًا غيرَ مُتمَكِّنٍ في القُرآنِ، أي: مَن لا حَظَّ له إلَّا سَماعُ كَلِماتِ القُرآنِ، دونَ تدَبُّرٍ وقَصدٍ للانتِفاعِ بمعانيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).

وقال القاسمي: (﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ جنيًّا؛ فيغويه بالتَّسويلِ والتَّزيينِ لما انهَمَك فيه مِن اللَّذاتِ، وحرَص عليه مِن الزَّخارفِ. أو: بالشُّبهِ والأباطيلِ المغويةِ لما اعتَكف عليه بهواه مِن دينه. أو إنسيًّا يغويه ويشاركُه في أمرِه ويجانِسُه في طريقِه ويُبعِدُه عن الحقِّ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩٠).

وقال ابن عثيمين: (الإنسانُ إذا أعرَض عن ذكرِ الله قيَّض الله له الشَّيطانَ مِن الإنسِ أو مِن الجنِّ فهو له قرينٌ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥٤).

قال تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥].

﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

أي: فيَصيرُ الشَّيطانُ قَرينًا له لا يُفارِقُه(١).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

أي: وإنَّ الشَّياطينَ لَيَمنَعونَهم مِن طَريقِ الحَقِّ الموصِلِ إلى اللهِ تعالى وإلى جنَّتِه، ويَصرِفونَهم عنه(٢).

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٠)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٤).

قال ابن المُنَيِّرِ: (الضَّميرُ في قَولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائدٌ إلى الشَّيطانِ قَولًا واحِدًا). ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنير)) (٤/ ٢٥٠).

وقال الألوسي: (وفي كَونِ ضَميرِ ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ عائِدًا على الشَّيطانِ قَولًا واحِدًا نَظَرٌ؛ فقد قال أبو حيَّان: الظَّاهِرُ أنَّ ضَميرَ النَّصبِ في ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ عائِدٌ على «مَنْ» على المعنى، وهو أَولى مِن عودِ ضَميرِ «إنَّهم» على الشَّيطانِ كما ذهب إليه ابنُ عطيَّةَ؛ لِتَناسُقِ الضَّمائِرِ في ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وما بَعدَه). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٨٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٣). =

أي: ومع ذلك يَحسَبُ قُرَناءُ الشَّيطانِ هؤلاء أنَّهم على الحَقِّ والصَّوابِ[١]!

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ ﴾.

أي: حتَّى إذا جاءَنا يومَ القيامةِ هذا المُعرِضُ عن ذِكرِ الرَّحمنِ، قال لِقَرينِه الشَّيطانِ: وَدِدتُ أنَّ بيْني وبيْنَك بُعدَ ما بيْنَ المَشرِقِ والمَغرِبِ[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ۞ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ۞ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

قال الشوكاني: (﴿وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: يَحْسَبُ الكفَّارُ أنَّ الشَّياطينَ مُهْتَدونَ فيُطِيعونَهم، أوْ يَحْسَبُ الكفَّارُ بسببِ تلك الوَسْوسةِ أنَّهم في أنْفُسِهم مُهْتَدونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٧، ٥٩٨)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥١- ١٥٣).

قال الألوسي: (﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ أي: في الدُّنيا، وقيل: في الآخرةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٨٢). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٤).

قال الماوَرْدي: (وفي المَشرِقَينِ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه المَشرِقُ والمَغرِبُ، فغُلِّبَ أحَدُهما على الآخَرِ، كما قيل: سُنَّةُ العُمَرَينِ [أي: أبي بكرٍ وعُمَرَ رضيَ الله عنهما]... الثَّاني: أنَّه مَشرِقُ الشِّتاءِ ومَشرِقُ الصَّيفِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٦).

وممَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٣).

وممَّن قال بالقَولِ الثَّاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٠).

ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾.

أي: فبِئسَ الصَّاحِبُ لي أنت -أيُّها الشَّيطانُ[١]!

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ٣٩﴾.

أي: يُقالُ لهم: ولن يُخَفِّفَ عنكم العذابَ في هذا اليَومِ -بسببِ ظُلمِكم[٢]- اشتِراكُكُم في هذا العذابِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩١)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٣٤).

(٢) مِن المفسِّرينَ مَن فسَّر الظُّلْمَ بالشِّركِ؛ ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ أي: إذ أشرَكْتُم. ومنهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابن أبي زَمَنين، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٢/ ١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩١)، ((تفسير الجلالين)) (٩/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٩)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤، ٢١٥).

المَقولُ لهم هم الكُفَّارُ الَّذين عَشَوا عن ذِكرِ الرَّحمنِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩١).

وقال ابنُ عاشورٍ: (الخِطابُ موَجَّهٌ لِلَّذين عشَوا عن ذِكرِ الرَّحمنِ ولِشياطينِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ التَّحذيرُ مِن الغَفلةِ عن ذِكْرِ اللهِ تعالى؛ لأنَّك إذا غَفَلْتَ عن ذِكْرِ اللهِ تعالى حَلَّ مَحَلَّ ذِكْرِ اللهِ وَساوِسُ الشَّيطانِ[١]. فترتيبُه قولَه: ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ على قولِه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ترتيبَ الجزاءِ على الشَّرطِ يدُلُّ على أنَّ سببَ تقييضِه له هو غفلتُه عن ذِكْرِ الرَّحمنِ[٢]، ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أي: مَشدودٌ به كما يُشَدُّ الأسيرُ، مُلازِمٌ له، فلا يُمكِنُه التَّخلُّصُ منه ما دام مُتعامِيًا عن ذِكرِ اللهِ؛ فذِكرُ اللهِ حِصنٌ حَصينٌ مِن الشَّيطانِ، متى خرَجَ العبدُ منه أسَرَه العدُوُّ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ أنَّ كلَّ مَن أعرَضَ عن عُبوديَّةِ اللهِ تعالى وطاعتِه ومحبَّتِه، بُلِيَ بعُبوديَّةِ المخلوقِ ومَحبَّتِه وخِدمَتِه[٤].

---

= وقال الشوكاني: (قال المفَسِّرون: لا يُخفَّفُ عنهم -بسَبَبِ الاشتراكِ- شَيءٌ مِن العذابِ؛ لأنَّ لكُلِّ أحدٍ مِن الكُفَّارِ والشَّياطينِ الحَظَّ الأوفَرَ منه. وقيل: إنَّها للتَّعليلِ لِنَفيِ النَّفعِ، أي: لأنَّ حَقَّكم أن تَشترِكوا أنتم وقُرَناؤكم في العذابِ، كما كُنتُم مُشترِكينَ في سَبَبِه في الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٧).

وقال السعدي: (ولا يَنفَعُكم يومَ القيامةِ اشتِراكُكم في العذابِ أنتم وقُرَناؤُكم وأخِلَّاؤُكم؛ وذلك لأنَّكم اشتركتُم في الظُّلمِ، فاشترَكتُم في عِقابِه وعَذابِه، ولن يَنفَعَكم أيضًا رُوحُ التَّسَلِّي في المُصيبةِ؛ فإنَّ المصيبةَ إذا وقَعَت في الدُّنيا، واشتَرَك فيها المُعاقَبونَ؛ هان عليهم بعضَ الهَونِ، وتسَلَّى بعضُهم ببَعضٍ، وأمَّا مُصيبةُ الآخِرةِ فإنَّها جَمَعَت كلَّ عِقابٍ، ما فيه أدنى راحةٍ، حتَّى ولا هذه الرَّاحةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٢٨).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾، المقصودُ مِن حِكايةِ هذا: تَفظيعُ عواقِبِ هذه المُقارَنةِ الَّتي كانت شغَفَ المُتقارِنَيْن، وكذلك شأنُ كُلِّ مُقارَنةٍ على عَمَلٍ سَيِّئِ العاقبةِ. وهذا مِن قَبيلِ قَولِه تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، والمقصودُ تحذيرُ النَّاسِ مِن قَرينِ السُّوءِ، وذَمُّ الشَّياطينِ؛ لِيَعافَهم النَّاسُ[١]. فالشياطينُ ليس اسمًا خاصًّا لشياطينِ الجِنِّ! بل حتَّى الإنسُ لهم شياطينُ، فالَّذي يُلازِمُك ويَبقَى قَرينًا معك هو أشدُّ تأثيرًا مِن العابِرِ، فيَنبغي الحذَرُ مِن قُرَناءِ السوءِ، والبُعدُ عنهم[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾ نُكتةٌ بَديعةٌ، وهي أنَّ النَّكِرةَ الواقِعةَ في سِياقِ الشَّرطِ تُفيدُ العُمومَ؛ ولذلك أعادَ عليه الضَّميرَ مَجموعًا في قَولِه: ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ ﴾[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُعاقِبُ العبدَ بما يَقتضيه الذَّنْبُ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت: ٤٠]؛ فلَمَّا أَخْلَى قلبَه مِن ذِكْرِ اللهِ عُوقِبَ بأنْ يَحُلَّ مَحَلَّه الشَّيطانُ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٢٥٠)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٥٣).

رَدٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنكِرينَ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ حيث قَيَّضَ اللهُ -سُبحانَه- الشَّيطانَ للعاشِي عن ذِكْرِ الرَّحمنِ، وصَيَّرَه قَرينَه[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أنَّ مَن ابتلاه اللهُ بقَرينِه مِن الشَّياطينِ وضَلالِه به فإنَّما كان بسَبَبِ إعراضِه وعَشْوِه عن ذِكرِه الَّذي أنزَلَه على رَسولِه؛ فكان عُقوبةُ هذا الإعراضِ أنْ قَيَّضَ له شَيطانًا يُقارِنُه فيَصُدُّه عن سَبيلِ ربِّه وطريقِ فلاحِه، وهو يَحسَبُ أنَّه مُهتَدٍ! حتَّى إذا وافى ربَّه يومَ القيامةِ مع قرينِه، وعايَنَ هلاكَه وإفلاسَه ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾، وكلُّ مَن أعرَضَ عنِ الاهتداءِ بالوحيِ الَّذي هو ذِكْرُ اللهِ فلا بُدَّ أنْ يقولَ هذا يومَ القيامةِ. فإنْ قيلَ: فهل لهذا عُذرٌ في ضَلالِه إذا كان يَحسَبُ أنَّه على هُدًى، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾؟ قيل: لا عُذرَ لهذا وأمثالِه مِن الضُّلَّالِ الَّذين مَنشَأُ ضَلالِهم الإعراضُ عن الوَحيِ الَّذي جاء به الرَّسولُ، ولو ظَنَّ أنَّه مُهتَدٍ؛ فإنَّه مُفَرِّطٌ بإعراضِه عن اتِّباعِ داعي الهُدى، فإذا ضَلَّ فإنَّما أُتِيَ مِن تَفريطِه وإعراضِه، وهذا بخِلافِ مَن كان ضلالُه لعَدَمِ بُلوغِ الرِّسالةِ، وعَجزِه عن الوُصولِ إليها، فذاك له حُكمٌ آخَرُ، والوَعيدُ في القرآنِ إنَّما يَتناولُ الأوَّلَ، وأمَّا الثَّاني فإنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ إقامةِ الحُجَّةِ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2] [الإسراء: ١٥].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ فيه رَدٌّ على مَن يَقولُ: إنَّه ليس أحَدٌ يُفارِقُ الحَقَّ إلَّا وهو يَعلَمُ أنَّه ضالٌّ، وإن كَفَر

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٤).

فعلى وَجهِ العِنادِ[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ فيه رَدٌّ على مَن يَزعُمُ أنَّ المعارِفَ اضطِراريَّةٌ[٢].

٧- قال الله تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ لَمَّا كان المُصابُ إذا شارَكَه غَيرُه في مُصيبةٍ حَصَل له بالتَّأسِّي نَوعُ تَخفيفٍ وتَسليةٍ، أخبَرَ الله سُبحانَه أنَّ هذا غيرُ مَوجودٍ وغيرُ حاصِلٍ في حَقِّ المُشتَرِكينَ في العَذابِ، وأنَّ القَرينَ لا يَجِدُ راحةً ولا أدنى فَرَحٍ بعَذابِ قَرينِه معه، وإن كانت المصائِبُ في الدُّنيا إذا عَمَّت صارت مَسلاةً، كما قالت الخَنساءُ في أخيها صَخرٍ:

ولولا كَثرةُ الباكينَ حَوْلي ... على إخوانِهم لَقَتَلْتُ نفْسي
وما يَبكُونَ مِثلَ أخي ولكِنْ ... أُعَزِّي النَّفسَ عنه بالتأسِّي[٣]

فمنَع اللهُ سُبحانَه هذا القَدْرَ مِن الرَّاحةِ على أهلِ النَّارِ، فقال: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾[٤].

٨- إذا قُرِنَ أحَدُهم بمن أضَلَّه في العذابِ كان أشَدَّ لعَذابِه؛ فإنَّ المكانَ المُتَّسِعَ يَضيقُ على المُتباغِضَينِ، فكيف باقتِرانِهما في المكانِ الضَّيِّقِ[٥]؟!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((ديوان الخنساء)) (ص: ٦٨)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (١/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٥).

(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٣٤).

- ابتُدِئَت هذه السُّورةُ بالتَّنويهِ بالقُرآنِ، ووَصفِه بأنَّه ذِكرٌ وبيَانٌ للنَّاسِ، ووَصْفِ عِنادِ المُشرِكين في الصَّدِّ عنه والإعراضِ، وأُعلِمُوا بأنَّ اللهَ لا يَترُكُ تَذكيرَهم ومُحاجَّتَهم؛ لأنَّ اللهَ يَدعو بالحَقِّ ويَعِدُ به، وأُطنِبَ في وَصفِ تَناقُضِ عَقائِدِهم؛ لَعَلَّهُم يَستَيقِظون مِن غِشاوَتِهم، وفي تَنبيهِهم إلى دَلائِلِ حَقِّيَّةِ ما يَدعُوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا القُرآنِ، وفُضِحَتْ شُبُهاتُهم بأنَّهم لا تَعويلَ لهم إلَّا على ما كان عليه آباؤُهُم الأوَّلون الضَّالُّون، وأُنذِرُوا باقتِرابِ انتِهاءِ تَمتيعِهم وإمهالِهم، وتَقَضَّى ذلك بمَزيدِ البَيانِ، وأفضَى الكَلامُ إلى ما قالُوه في القُرآنِ ومَن جاء به بقَولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ إلى قولِه: ﴿عَظِيمٖ﴾ [الزخرف: ٣٠، ٣١]، وما أُلحِقَ به مِن التَّكَمُّلاتِ -عاد الكَلامُ هنا إلى عَواقِبِ صَرفِهم عُقولَهم عن التَّدبُّرِ في الدَّعوةِ القُرآنيَّةِ؛ فكان انصِرافُهم سببًا لِأَنْ يُسَخِّرَ اللهُ شَياطينَ لهم تُلازِمُهم؛ فلا تَزالُ تَصرِفُهم عن النَّظرِ في الحقِّ وأدِلَّةِ الرُّشدِ؛ فجُملةُ ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ﴾ [الزخرف: ٣٠] الآيةَ[١]. وقيل: هي كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسُوقٌ لسَردِ مآلِ المُعرِضين عن ذِكْرِ اللهِ[٢].

- وجُملَةُ ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تَمثيلٌ لحالِهم في إظهارِهم عَدَمَ فَهمِ القُرآنِ بحالِ مَن يَعشُو ويَعمَى عن الشَّيءِ الظَّاهِرِ للبَصَرِ؛ فمعنى: ﴿وَمَن يَعۡشُ﴾، أي: مَن لا حَظَّ له إلَّا سَماعُ كَلِماتِ القُرآنِ دُونَ تَدَبُّرٍ وقَصدٍ للانتِفاعِ بمَعانيهِ؛ فشَبَّهَ سَماعَ القُرآنِ مع عَدَمِ الانتِفاعِ به بنَظَرِ النَّاظِرِ دُونَ تَأَمُّلٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٧، ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٨، ٢٠٩).

- وعُدِّيَ ﴿يَعْشُ﴾ بحَرفِ (عن) المُفيدِ للمُجاوَزةِ؛ لأنَّه ضُمِّنَ مَعنَى الإعراضِ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ[١].

- قَولُه: ﴿ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إضافةُ الذِّكْرِ إلى اسمِ الرَّحمنِ إضافةُ تَشريفٍ؛ وهذا ثَناءٌ على القُرآنِ[٢]. وفي إضافَتِه إلى اسمِ الرَّحمنِ أيضًا إيذانٌ بنُزولِه رَحمةً للعالَمينَ[٣].

- وأتَى الضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ مُفرَدًا؛ لأنَّ لِكُلِّ واحِدٍ مِمَّن تَحَقَّقَ فيهم الشَّرطُ شَيطانًا، وليس لجَميعِهم شَيطانٌ واحِدٌ؛ ولذلك سَيجيءُ في قَولِه: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ [الزخرف: ٣٨] بالإفرادِ، أي: قال كلُّ مَن له قَرينٌ لقَرينِه[٤].

- ولم يُذكَرْ مُتَعَلَّقُ فِعلِ ﴿نُقَيِّضْ﴾ اكتِفاءً بدَلالةِ مَفعولِه، وهو ﴿شَيْطَٰنًا﴾؛ فعُلِمَ منه أنَّه مُقَيَّضٌ لإضلالِه، أي: هم أعرَضوا عن القُرآنِ لِوَسْوَسةِ الشَّيطانِ لهم[٥].

- وفُرِّعَ عن ﴿نُقَيِّضْ﴾ قَولُه: ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛ لأنَّ التَّقْييضَ كان مِن أجْلِ مُقارَنَتِه. وجِيءَ بالجُملةِ المُفرَّعةِ ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ جُملةً اسميَّةً؛ للدَّلالةِ على الدَّوامِ، أي: فكان قَرينًا مُقارَنةً ثابِتةً دائمةً؛ ولذلك لم يَقُل: نُقَيِّضْ له شَيطانًا قَرينًا له[٦].

- وقُدِّمَ الجارُّ والمَجرورُ (له) على مُتَعَلَّقِه (قرين) في قَولِه: ﴿لَهُۥ قَرِينٌ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢١٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للاهتِمامِ بضَميرِ (مَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ)، أي: قَرينٌ له مُقارَنةً تامَّةً[١].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالتَّنكيتِ؛ وهو أنْ يَقصِدَ المُتَكَلِّمُ إلى شَيءٍ بالذِّكرِ دُونَ غَيرِه مِمَّا يَسُدُّ مَسَدَّه؛ مِن أجْلِ نُكتَةٍ في المَذكورِ تُرَجِّحُ مَجيئَه على سِواهُ؛ فإنَّ لقائِلٍ أن يَقولَ: لأيِّ نُكتةٍ عُدِلَ عن لَفظِ (يُعرِض) إلى (يَعْشُ)؛ فلم يَقُلْ: ومَن يُعرِضْ عن ذِكْرِ الرَّحمنِ؛ فيُقالُ: النُّكتةُ في ذلك: أنَّ لَفظَ (يَعْشُ) مُوَفٍّ بالمَعنَى المُرادِ بخِلافِ لفظِ (يُعرِض)؛ فإنَّ الإعراضَ إعراضانِ: إعراضٌ يُرجَى بَعْدَه الإقبالُ؛ لأنَّ المُعرِضَ مُتَمَكِّنٌ مِن الإقبالِ؛ وذلك إعراضُ المُؤمِنِ المُعتقِدِ أحسَنَ مُعتَقَدٍ؛ فيَعرِضُ له مِن المَلاذِّ الَّتي تَستَغرِقُ فِكرَه، وتَشغَلُ قَلبَه وعَقلَه شَغْلًا بتلك اللَّذَّةِ أو ضِدِّها، أو غَيرِها مِن أُمورِ الدُّنيا؛ فيُعرِضُ عن الذِّكرِ في تلك الحالةِ؛ فمُصاحَبةُ الشَّيطانِ لذلك غَيرُ دائِمةٍ؛ لأنَّه يُمكِنُ أنْ يَؤُوبَ إلى اللهِ سُبحانَه ويَتُوبَ عن ذلك؛ فيُقبِلَ على ما كان أعرَضَ عنه مِن الذِّكرِ الَّذي عَرَف قديمًا طَريقَه، واهتَدَى إلى سَبيلِه، ورُبِّيَ عليه، أو مِن أجْلِ عِنايةٍ إلهيَّةٍ اقتَضَتْها سابِقةٌ أزَليَّةٌ تَجذِبُه إليه. وإعراضُ ضَلالٍ عن طَريقِ الرُّشدِ وسَبيلِ الخَيرِ، والمُرادُ بالإعراضِ في الآيةِ إعراضُ الضَّلالِ لا إعراضُ الغَفلةِ؛ فلا جَرَمَ أنَّه حَسُنَ التَّعبيرُ بالعَشا فيها، وهذا المُعرِضُ هو الَّذي يُقَيَّضُ له مُقارَنةُ الشَّيطانِ أين كان وحيثُ كان؛ وبذلك يَتَبَيَّنُ مَوضِعُ النُّكتةِ الَّتي رَجَّحَت العُدولَ عن لَفظِ (الإعراض) إلى لَفظِ (العَشا)[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٠، ٢١١).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٧).

- قولُه: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ فيه جَمْعُ الضَّميرِ العائِدِ على (مَنْ) وضَميرِ (الشَّيطانِ) في قَولِه: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ ﴾؛ لأنَّ (مَنْ) مُبهَمٌ في جِنسِ العاشِي، وقد قُيِّضَ له شَيطانٌ مُبهَمٌ في جِنسِه؛ فلمَّا جازَ أنْ يَتناوَلَا -لإبهامِهما- غَيرَ واحِدَين، جاز أنْ يَرجِعَ الضَّميرُ إليهما مَجموعًا[1].

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المُضارِعِ في الأفعالِ الأربَعةِ: ﴿يَعْشُ﴾ و﴿نُقَيِّضْ﴾ و(يَصُدُّونَهُمْ) و﴿وَيَحْسَبُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على الاستِمرارِ والتَّجديدِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾

- إفرادُ الضَّميرِ في (جاءَ) وما بعدَه؛ لِمَا أنَّ المُرادَ حِكايةُ مَقالةِ كُلِّ واحِدٍ واحِدٍ مِن العاشِينَ لِقَرينِه؛ لِتَهويلِ الأمْرِ، وتَفظيعِ الحالِ، والمَعنَى: يَستَمِرُّ العاشُون على ما ذُكِرَ مِن مُقارَنةِ الشَّياطينِ والصَّدِّ والحِسبانِ الباطلِ، حتَّى إذا جاءَنا كلُّ واحدٍ منهُم مع قَرينِه يومَ القيامةِ ﴿قَالَ﴾ مُخاطبًا له: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾[3].

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ ﴾ حَرفُ (يا) أصلُه للنِّداءِ، وهو هنا للدَّلالةِ على التَّلَهُّفِ والتَّنَدُّمِ[4].

- والمَشرِقانِ: المَشرِقُ والمَغرِبُ، غُلِّبَ اسمُ المَشرِقِ؛ لأنَّه أكثَرُ خُطورًا بالأذهانِ؛ لتَشَوُّفِ النُّفوسِ إلى إشراقِ الشَّمسِ بعْدَ الإظلامِ، والمُرادُ بالمشْرِقِ والمغرِبِ: إمَّا مكانُ شُروقِ الشَّمسِ وغُروبِها في الأُفقِ، وإمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٣).

الجِهةُ مِن الأرضِ الَّتي تَبْدو الشَّمسُ منها عِندَ شُروقِها، وتَغيبُ منها عِندَ غُروبِها فيما يَلوحُ لِطائفةٍ مِن سُكَّانِ الأرضِ. وعلى الاحتِمالَينِ فهو مَثَلٌ لشِدَّةِ البُعدِ. وأُضِيفَ ﴿بُعْدَ﴾ إلى ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ بالتَّثنيةِ، بتَقديرِ بُعدٍ لهما، أي: مُختصٍّ بهما، بتَأويلِ البُعدِ بالتَّباعُدِ؛ وهو إيجازٌ بَديعٌ حَصَل مِن صِيغةِ التَّغليبِ ومِن الإضافةِ، ومُساواتُه أنْ يُقالَ: بُعْدَ المَشرِقِ مِن المَغرِبِ، والمَغرِبِ مِن المَشرِقِ؛ فنابَتْ كَلِمةُ ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ عن سِتِّ كَلِماتٍ[1].

- قَولُه: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ بعدَ أنْ تَمَنَّى الكافِرُ مُفارَقةَ شَيطانِه فَرَّع عليه ذمًّا؛ فالكافِرُ يَذُمُّ شَيطانَه الَّذي كان قَرينًا، ويُعَرِّضُ بذلك للتَّفَصِّي -أي: للإفلاتِ- مِن المُؤاخَذةِ، وإلقاءِ التَّبِعةِ على الشَّيطانِ الَّذي أضَلَّه[2].

- وفي قولِه: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ مُبالَغةٌ منه في ذمِّ قَرينِه؛ إذ كان سَببَ إيرادِه النَّارَ. والمَخصوصُ بالذَّمِّ مَحذوفٌ، أي: فبِئسَ القَرينُ أنتَ[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسُوقٌ لِبَسطِ وحِكايةِ ما سيُقالُ لهم حِينَئذٍ في الآخِرةِ مِن جِهةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ تَوبيخًا وتَقريعًا، وهي مَقالةٌ مُوحِشةٌ حَرَمَتْهم رَوحَ التَّأَسِّي؛ لأنَّه وَقَفَهم بها على أنَّه لا يَنفَعُهم التَّأَسِّي؛ لِعِظَمِ المُصيبةِ، وطُولِ العَذابِ، واستِمرارِ مُدَّتِه؛ إذ التَّأَسِّي راحةُ كلِّ مُصابٍ في الدُّنيا في الأغلَبِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٧، ٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٥).

- وقيل: هذه الجُملةَ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ [الزخرف: ٣٨]، وهناك قولٌ محذوفٌ دلَّ عليه فِعلُ ﴿جَآءَنَا﴾ [الزخرف: ٣٨] الدَّالُّ على أنَّ الفَريقَينِ حَضَرَا للحِسابِ، وتلك الحَضرةُ تُؤْذِنُ بالمُقاوَلةِ؛ فإنَّ الفَريقَينِ لَمَّا حَضَرَا وتَبَرَّأَ أحَدُهما مِن الآخَرِ قَصْدًا للتَّفَصِّي- أي: للإفْلَاتِ- مِن المُؤاخَذةِ؛ فيَقولُ اللهُ: ولن يَنفَعَكُم اليَومَ أنَّكُم في العَذابِ مُشتَرِكون، والخِطابُ مُوَجَّهٌ للَّذين عَشَوْا عن ذِكْرِ الرَّحمنِ ولشَياطِينِهم -على قولٍ-، وفي هذا الكَلامِ إشارةٌ إلى كَلامٍ مَطوِيٍّ، والتَّقديرُ: لا تُلْقُوا التَّبِعةَ على القُرَناءِ؛ فأنتُم مُؤاخَذون بطاعَتِهم، وهم مُؤاخَذون بإضلالِكم، وأنتم مُشتَرِكون في العَذابِ، ولن يَنفَعَكُم أنَّكُم في العَذابِ مُشتَرِكُون؛ لأنَّ عَذابَ فَريقٍ لا يُخَفِّفُ عن فَريقٍ، كما قال تعالى: ﴿قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾[1] [الأعراف: ٣٨].

- ووُقوعُ فِعلِ ﴿يَنفَعَكُمُ﴾ في سِياقِ النَّفيِ يدُلُّ على نَفيِ أنْ يَكونَ الاشتِراكُ في العَذابِ نافِعًا بحالٍ؛ لأنَّه لا يُخَفِّفُ عن الشَّريكِ مِن عَذابِه[2].

- وقيل: قَولُه: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ تَعليلٌ لنَفيِ النَّفعِ، أي: لنْ يَنفَعَكُم تَمَنِّيكُم؛ لأنَّ حَقَّكُم أنْ تَشتَرِكوا أنتم وقُرَناؤُكُم في العَذابِ كما كُنتُم مُشتَرِكين في سَبَبِه، وهو الكُفرُ، وتُقَوِّيه قِراءَةُ: (إنَّكُمْ) بالكَسرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٤، ٢١٥). ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ١٤٣).

- قَولُه: ﴿أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، قدَّم ﴿فِي ٱلْعَذَابِ﴾؛ اهتمامًا بالزَّجرِ به، والتَّخويفِ منه[1].

- واجتَمَع في هذه الآيةِ ثَلاثُ كَلِماتٍ، تدُلُّ على ثَلاثةِ أزمِنَةٍ؛ وهي: (لن) لنَفيِ المُستَقبَلِ، و(اليَومَ) اسمٌ لزَمنِ الحالِ، و(إذ) اسمٌ لزَمَنِ المُضِيِّ، وثَلاثَتُها مَنوطةٌ بفِعلِ ﴿يَنفَعَكُمُ﴾، ومُقتضياتُها يُنافي بَعضُها بعضًا؛ فالنَّفيُ في المُستقبَلِ يُنافي التَّقييدَ بـ (اليَوم) الَّذي هو للحالِ، و(إذ) يُنافي نَفْيَ النَّفعِ في المُستقبَلِ، ويُنافي التَّقييدَ بـ (اليَوم)، ويُدفَعُ التَّنافيَ بيْنَ مُقتَضَى (إذ) ومُقتَضَى (اليَوم) بتَأويلِ مَعنى (إذ) بالتَّعليلِ؛ شُبِّهَت عِلَّةُ الشَّيءِ وسَببُه بالظَّرفِ في اللُّزومِ له. ويجوزُ أنْ تكونَ (إذ) بَدلًا مِن (اليوم)، وتأْويلُ الكلامِ على جَعلِ فِعلِ ﴿ظَلَمْتُمْ﴾، بمعنى: تَبيَّنَ أنَّكم ظَلَمْتُم. ولِدَفعِ التَّنافي بيْنَ مُقتَضَى (اليَومِ) الدَّالِّ على زَمَنِ الحالِ وبيْنَ مُقتَضَى (لن) وهو حُصولُ النَّفيِ في الاستِقبالِ: أنْ يَكونَ اليَومُ ظَرفًا للحُكمِ والإخبارِ، أي: تَقَرَّر اليَومَ انتِفاءُ انتِفاعِكُم بالاشتِراكِ في العَذابِ انتِفاءً مُؤَبَّدًا مِنَ الآنَ، وقد حَصَل مِنِ اجتِماعِ هذه الكَلماتِ الثَّلاثِ الدَّالَّةِ على الأزمنةِ في الآيَةِ طِباقٌ[2] عَزيزٌ بيْنَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣١).

(٢) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مُراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْن الضَّحِكِ والبُكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةً، فتَبدو المطابقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو =

ثَلاثةِ مَعانٍ مُتَضادَّةٍ في الجُملةِ[١].

= اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧-٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٥، ٢١٦).

## الآيات (٤٠-٤٥)

﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

## المعنى الإجماليُّ:

يوجِّهُ الله تعالى الخِطابَ لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم مُسلِّيًا له ومثبِّتًا؛ فيقولُ تعالى: أفأنت -يا مُحمَّدُ- تَستطيعُ أن تُسمِعَ الكُفَّارَ سَماعًا يَنتَفِعونَ به منك، أو تَستَطيعُ أن تُرشِدَ إلى طَريقِ الحَقِّ مَن عَمِيَ عنه، وضَلَّ ضَلالًا مُبينًا؟! إنَّما ذلك إلينا، فعليك البَلاغُ، وعلينا الِحسابُ. فإنْ نُخرِجْك -يا مُحمَّدُ- مِن بَينِ أظهُرِ أولئك المُشرِكينَ -بمَوتٍ أو غَيرِه- دونَ أن ترى عَذابَهم، فنحن مُنتَقِمونَ منهم، وإنْ أرَيْناك ما وعَدْناهم مِنَ العذابِ فإنَّا قادِرونَ عليهم؛ فتمَسَّكْ -يا مُحمَّدُ- بالقُرآنِ الَّذي أوحَيْناه إليك؛ إنَّك على طريقٍ مُستقيمٍ.

وإنَّ هذا القُرآنَ لَشَرفٌ لك -يا مُحمَّدُ- ولِقَومِك، وعِظَةٌ وتَذكيرٌ لكم، وسوف يَسألُكم اللهُ عن هذا القُرآنِ والعَمَلِ بما فيه.

ثمَّ يقولُ تعالى: واسأَلْ -يا مُحمَّدُ- الرُّسُلَ الَّذين أرسَلْناهم إلى أقوامِهم مِن قَبْلِك، أجَعَلْنا آلهةً مِن دُونِ الرَّحمنِ سُبحانَه يُعبَدونَ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف المُشرِكينَ في الآيةِ المتقَدِّمةِ بالعَشَا، وصَفَهم في هذه الآيةِ بالصَّمَمِ والعَمى(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى حالَ الكُفَّارِ وما يُقالُ لهم، وكانت قُرَيشٌ تَسمَعُ ذلك فلا تَزدادُ إلَّا عُتُوًّا واعتِراضًا، وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَجتَهِدُ في تحصيلِ الإيمانِ لهم- خاطَبَه تعالى تَسليةً له باستِفهامِ تَعجيبٍ، أي: إنَّ هؤلاء صُمٌّ فلا يُمكِنُك إسماعُهم، عُمْيٌ حَيارَى فلا يُمكِنُك أن تَهدِيَهم، وإنَّما ذلك راجِعٌ إليه تعالى(٢).

﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾.

أي: لا تَستطيعُ -يا مُحمَّدُ- أن تجعَلَ الكُفَّارَ يَنتَفِعونَ بالسَّماعِ منك؛ فليس ذلك إليك(٣).

كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تُسۡمِعُ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَلَا تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوۡاْ مُدۡبِرِينَ ﴾ [النمل: ٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ * إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ * وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرًا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

﴿أَوۡ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

أي: ولا تَستطيعُ -يا مُحمَّدُ- أن تُرشِدَ إلى طَريقِ الحَقِّ مَن أعمَى اللهُ قَلْبَه عن رُؤيةِ هذا الحَقِّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ [النمل: ٨١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: ولا تَستطيعُ أن تَهديَ مَن هو في ضَلالٍ ظاهرٍ عن طَريقِ الهُدى(٢).

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّ دعوةَ نبيِّه لا تؤثِّرُ في قلوبِهم؛ قال(٣):

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾.

أي: فإنْ نُخرِجْك -يا مُحمَّدُ- مِن بَينِ أظهُرِ مُشرِكي قَومِك -بمَوتٍ أو غَيرِه- دونَ أن ترَى عذابَهم، فنحن مُنتَقِمونَ منهم بعدَ فِراقِك لا مَحالةَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

قيل: المرادُ بالإذهابِ هنا: تَوَفِّيه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ =

﴿ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: وإنْ أرَيْناك ما وعَدْناهم مِنَ العَذابِ فإنَّا قادِرونَ عليهم، فلن يُعجِزونا، أو يُفلِتوا مِنَّا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧].

﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ ﴾.

---

= سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٧).

وممَّن قال بهذا المعنى مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأنسُ بنُ مالكٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٣٧٩).

وقيل: المرادُ به: إخراجُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن بيْنِ أظهُرِ مُشرِكي قَومِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠١).

وقال البِقاعي: (﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: مِن بيْنِ أظهُرِهم، بمَوتٍ أو غَيرِه). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٨، ٢١٩).

قال القرطبي: (﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ وهو الانتقامُ منهم في حياتِك، ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: قد أراه الله ذلك يومَ بدرٍ، وهو قولُ أكثرِ المفسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٢).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّنا مُنتَقِمونَ منهم في الدُّنيا، سواءٌ كنتَ حَيًّا أو بعدَ مَوتِك، أي: فالانتِقامُ منهم مِن شأنِنا وليس مِن شأنِك؛ لأنَّه مِن أجْلِ إعراضِهم عن أمْرِنا ودينِنا، ولعَلَّه لِدَفعِ استِبطاءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أو المُسلِمينَ تأخيرَ الانتقامِ مِن المشركينَ، ولأنَّ المُشرِكينَ كانوا يَتربَّصون بالنَّبيِّ الموتَ فيَستريحوا مِن دَعوتِه؛ فأعلَمَه اللهُ أنَّه لا يُفلِتُهم مِن الانتِقامِ على تقديرِ مَوتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا رَدَّد اللهُ تعالى بيْنَ حياتِه ومَوتِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ أمَرَه بأن يَستَمسِكَ بما أَوحاه إليه(١).

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ما يُوجِبُ التَّسليةَ؛ أمَرَه أن يَتمَسَّكَ بما أمَرَه به(٢).

وأيضًا لَمَّا هَوَّن اللهُ على رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم ما يُلاقيه مِن شِدَّةِ الحِرصِ على إيمانِهم، ووَعَدَه النَّصرَ عليهم؛ فَرَّع على ذلك أنْ أمَرَه بالثَّباتِ على دينِه وكِتابِه، وألَّا يَخورَ عَزمُه في الدَّعوةِ؛ ضَجَرًا مِن تصَلُّبِهم في كُفرِهم، ونُفورِهم من الحَقِّ(٣).

وأيضًا قولُه: ﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَ ﴾ مُرتَبِطٌ بقَولِه: ﴿ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ﴾ [الزخرف: ٤٠]، وبَيْنَهما مُناسَبةٌ حَسَنةٌ؛ وذلك لأنَّه تعالى لَمَّا نَبَّهَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ جِدَّه واجتِهادَه في دُعاءِ قَومِه غَيرُ نافِعٍ، وأنَّهم صُمٌّ عُمْيٌ في ضَلالٍ مُبينٍ، لا يَرجِعُون ولا يَرعَوونَ، وبيَّن أنَّه لا بُدَّ مِن الهَلاكِ وقَطْعِ دابِرِهم؛ فقَسَمَ الأمرَ بيْنَ أنْ يَنصُرَه عليهم في الدُّنيا ويَشفِيَ صُدورَ المُؤمِنينَ، وبيْنَ أنْ يَنتقِمَ مِنهم في الآخِرةِ أشَدَّ الانتِقامِ؛ أرشَدَه إلى المُتارَكةِ والمُواعَدةِ، والاشتِغالِ بما يُهِمُّه مِن التَّمسُّكِ بالعُروةِ الوُثقَى، وهو هذا القُرآنُ الكَريمُ الَّذي لا يَأتيه الباطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيه ولا مِن خَلْفِه(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٢٦٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤٨، ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَ ﴾.

أي: فتَمَسَّكْ -يا مُحمَّدُ- بقُوَّةٍ بالقُرآنِ الَّذي أوحَيْناه إليك، واثبُتْ على العَمَلِ به[1].

﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المَقامُ -لِكَثرةِ المُخالِفِ- مُحتاجًا إلى تأكيدٍ يُطَيِّبُ خواطِرَ الأتْباعِ، ويَحمِلُهم على حُسنِ الاتِّباعِ؛ عَلَّل ذلك بقَولِه: ﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ ﴾ أي: طَريقٍ واسِعٍ واضِحٍ جِدًّا ﴿مُّسۡتَقِيمٖ﴾ مُوصِلٍ إلى المقصودِ، لا يَصِحُّ أصلًا أن يَلحَقَه شَيءٌ مِن عِوَجٍ؛ فإذا فَعَلْتَ ذلك لم يَضُرَّك شَيءٌ مِن نِقمَتِهم[2].

﴿ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

أي: إنَّك على طريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصلٍ إلى اللهِ تعالى ورِضوانِه وجَنَّتِه[3].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلۡحَقِّ ٱلۡمُبِينِ ﴾ [النمل: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [يس: ٣، ٤].

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ٤٤ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٠).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى تأثيرَ التَّمَسُّكِ بهذا الدِّينِ في مَنافِعِ الآخرةِ؛ بَيَّن أيضًا تأثيرَه في مَنافِعِ الدُّنيا، فقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾، أي: إنَّه يُوجِبُ الشَّرَفَ العظيمَ لك ولِقَومِك[1]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ لَشَرفٌ لك -يا مُحمَّدُ- ولِقَومِك مِن قُرَيشٍ وسائِرِ العَرَبِ، وهو مَوعِظةٌ وتَذكيرٌ لكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٤٢ - ٤٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٦).

قال ابن عطية: (يَحتمِلُ أن يُريدَ: وإنَّه لَشَرفٌ وحَمدٌ في الدُّنيا، والقَومُ على هذا: قُرَيشٌ ثمَّ العَرَبُ... ويحتمِلُ أن يريدَ: وإنَّه لَتذكِرةٌ ومَوعِظةٌ، فالقَومُ على هذا: أُمَّتُه بأجْمَعِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٧).

وممَّن ذهَب إلى المعنى الأوَّلِ، وهو أنَّ المرادَ بالذِّكرِ هنا: الشَّرفُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والقرطبي، وابن جُزَي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٢٩).

قال البِقاعي: (﴿لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ﴾ قُريشٍ خُصوصًا، والعَرَبِ عُمومًا، وسائِرِ مَنِ اتَّبَعك ولو كان مِن غَيرِهم؛ مِن جِهةِ نُزولِه على واحِدٍ منهم وبلِسانِهم؛ فكان سائِرُ النَّاسِ تَبَعًا لهم، ومِن جِهةِ =

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾.

أي: وسوفَ يَسألُكم اللهُ عن هذا القُرآنِ(١).

---

= إيراثِه الطَّريقةَ الحُسنى، والعُلومَ الزَّاكيةَ الواسِعةَ، وتأثيرِه الظُّهورَ على جميعِ الطوائِفِ، والإمامةَ لقُريشٍ بالخُصوصِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٣٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: ابنُ تيميَّة. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) (١/ ٤٤٢-٤٤٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وقَومُه قُرَيشٌ، ولا يَمنَعُ أنَّه ذِكْرٌ لسائِرِ العَرَبِ، بل لسائِرِ النَّاسِ...، وهذا على أصَحِّ القولَينِ، وأنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أنَّه ذِكرٌ لهم يَذكُرونَه فيَهتَدونَ به. وقيل: إنَّ المرادَ أنَّه شَرَفٌ لهم. وليس بشَيءٍ؛ فإنَّ القُرآنَ هو شَرَفٌ لِمَنْ آمَنَ به مِن قَومِه وغَيرِهم، وليس شَرَفًا لجَميعِ قَومِه، بل مَن كَذَّب به منهم كان أحَقَّ بالذَّمِّ، كما قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦]، بخِلافِ كَونِه تَذكِرةً وذِكرى؛ فإنَّه تَذكِرةٌ لهم ولِغَيرِهم). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٤٤٢).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ -معنَى الشَّرَفِ، ومعنَى التَّذكيرِ والبيانِ والمَوعِظةِ- في الجُملةِ: البِقاعي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

وذكَرَ ابنُ عُثيمينَ أنَّه لا مانِعَ مِن أن يكونَ بمعنى الشَّرَفِ، لكِنَّ الصَّوابَ أنَّ المرادَ بالذِّكرِ هنا التَّذكيرُ، ثمَّ قال: (فإنْ قال قائِلٌ: يَرِدُ على هذا أنَّه تذكيرٌ لكُلِّ النَّاسِ. فالجَوابُ: أنَّ هذا كقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، مع أنَّه بُعِثَ لجَميعِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٦).

وصرَّح بالجمعِ بيْنَ المعنَيَينِ في فوائِدِ الآيةِ، فقال: (الفائِدةُ الخامِسةُ: أنَّ هذا القُرآنَ الكريمَ فيه ذِكرٌ للعَرَبِ، أي: شَرَفٌ لهم، وفيه تذكيرٌ لهم؛ لِقَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦). =

عن أبي مالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((القُرآنُ حُجَّةٌ لك أو عليك))[1].

---

= قيل: المعنى: تُسألون عن العَمَلِ بما فيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).

وقيل: المعنى: تُسأَلونَ عن شُكرِ الله على نِعمةِ القرآنِ. وممَّن قال بهذا المعنى: الفَرَّاءُ، والزجاج، والسمرقندي، ومكِّي، والسمعاني. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٥٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠٥).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: ابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٠).

قال القرطبي: (﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عن الشُّكرِ عليه، قاله مقاتلٌ والفَرَّاءُ. وقال ابنُ جُرَيجٍ: أي: تُسألون أنت ومَن معك على ما أتاك. وقيل: تُسألون عمَّا عَمِلْتُم فيه. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (وقوله: ﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: معناه: عن أوامِرِ القُرآنِ ونَواهيهِ. وقال الحسَنُ بنُ أبي الحسَنِ: معناه: عن شُكرِ النِّعمةِ فيه. واللَّفظُ يحتمِلُ هذا كلَّه ويَعُمُّه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٧).

وقال النَّسَفي: (﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ عنه يومَ القيامةِ، وعن قيامِكم بحَقِّه، وعن تعظيمِكم له، وعن شُكرِكم هذه النِّعمةَ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٤). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٢).

وذهب البِقاعيُّ إلى أعَمَّ مِمَّا سَبَق، فقال: (تَصيرونَ في سائِرِ أنواعِ العِلمِ مَحَطَّ رِحالِ السَّائِلينَ دِينًا ودُنيا، بحيثُ يَسألُكم جميعُ أهلِ الأرضِ مِن أهلِ الكِتابِ ومِن غَيرِهم عمَّا يُهِمُّهم مِن أمرِ دينِهم ودُنياهم؛ لِما يَعتَقِدونَ مِن أنَّه لا يُوازيكم أحدٌ في العِلمِ، بعدَ أنْ كُنتُم عندَهم أحقَرَ الأُمَمِ ضَعفًا وجَهلًا! كما وقَعَ لبني إسرائيلَ حيثُ رَفَعهم اللهُ، وكان ذلك أبعَدَ الأشياءِ عندَ فِرعَونَ وآلِه؛ ولذلك كانوا يَتضاحَكونَ استِهزاءً بتلك الآياتِ، ويَنسُبونَ الآتيَ بها إلى ما لا يَليقُ بمَنصِبِه العالي مِنَ المُحالاتِ؛ وتُسأَلونَ عن حَقِّه وأداءِ شُكرِه، وكيف كُنتُم في العَمَلِ به والاستِجابةِ له). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٣٧).

(١) رواه مسلم (٢٢٣).

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾.

أي: واسألْ -يا مُحمَّدُ- الرُّسُلَ الَّذين أرسَلْناهم إلى أقوامِهم مِن قَبْلِك[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠٥).

قال الماوَرْدي عن قولِه تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾: (فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: يعني: الأنبياءَ الَّذين جُمِعوا له لَيلةَ الإسراءِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. وكانوا سبعينَ نبيًّا؛ منهم: إبراهيمُ، وموسى، وعيسى عليهم السَّلامُ، فلم يَسأَلْهم؛ لأنَّه كان أعلَمَ باللهِ منهم. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: أهلُ الكِتابَينِ؛ التَّوراةِ والإنجيلِ. قاله قَتادةُ والضَّحَّاكُ، ويكونُ تقديرُه: سَلْ أُمَمَ مَن أرسَلْنا مِن قَبلِك مِن رُسُلِنا. الثَّالثُ: جِبريلُ، ويكونُ تقديرُه: واسأَلْ عمَّا أرسَلْنا مِن قَبلِك مِن رُسُلِنا. حكاه النَّقَّاشُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٢٧، ٢٢٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الأنبياءُ الَّذين لَقِيَهم لَيلةَ الإسراءِ: القُشَيْري، والقُرْطُبي، والعُلَيْمي. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٢٣).

قال العُلَيمي: (ومعنى السُّؤالِ: التَّقريرُ لِمُشركي مكَّةَ أنَّه لم يأتِ رسولٌ ولا كتابٌ بعبادةِ غيرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فلمْ يَشُكَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، ولم يَسأَلْهم، وكان أثْبَتَ يقينًا مِن ذلك). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٢٣).

وممَّن قال بأنَّ المراد: سَلْ مُؤمِني أهلِ الكتابِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٥).

قال الشوكاني: (ومعنى الآيةِ على القولَينِ: سؤالُهم هل أَذِنَ اللهُ بعِبادةِ الأوثانِ في مِلَّةٍ مِن المِلَلِ، وهل سَوَّغ ذلك لأحدٍ منهم؟! والمقصودُ تقريعُ مُشرِكي قُرَيشٍ بأنَّ ما هم عليه لم يأتِ في شريعةٍ مِن الشَّرائعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٣٨).

وقال ابن عاشور: (المعنى: استَقْرِ شرائعَ الرُّسُلِ وكُتُبَهم وأخبارَهم، هل تجِدُ فيها عبادةَ آلهةٍ؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٤).

وذَكَرَ الرَّازيُّ أقوالًا في الآيةِ، ومنها: (أنَّ ذِكرَ السُّؤالِ في مَوضِعٍ لا يمكِنُ السُّؤالُ فيه يكونُ المرادُ منه النَّظَرَ والاستدلالَ؛ كقَولِ مَن قال: سَلِ الأرضَ مَن شَقَّ أنهارَكِ، وغَرَس أشجارَكِ، وجنَى ثِمارَكِ؟ فإنَّها إنْ لم تُجِبْك جوابًا، أجابَتْك اعتِبارًا. فهاهنا سؤالُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه =

كما قال تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ فَسۡـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقۡرَءُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكَ ﴾ [يونس: ٩٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾.

أي: اسأَلْهم هل شرَعْنا وأمَرْنا بعبادةِ آلِهةٍ مِن دُونِ الرَّحمنِ[1]؟!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ أي: مُوصِلٍ إلى اللهِ وإلى دارِ كرامتِه، وهذا مِمَّا يُوجِبُ عليك زيادةَ التَّمَسُّكِ به والاهتِداءِ، إذا عَلِمتَ أنَّه حقٌّ وعَدلٌ وصِدقٌ تكونُ بانيًا على أصلٍ أصيلٍ إذا بنى غَيرُك على الشُّكوكِ والأوهامِ، والظُّلمِ والجَورِ[2]. ففي الآيةِ حَثُّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على التَّمَسُّكِ بما أُوحيَ إليه، وإذا كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُحَثُّ على ذلك فنحن مِن بابِ أَولى[3]!

---

= وسلَّم الأنبياءَ الَّذين كانوا قبْلَه مُمتَنِعٌ؛ فكان المرادُ منه: انظُرْ في هذه المسألةِ بعَقلِك، وتدبَّرْ فيها بفَهمِك). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٥).

وقال ابن عثيمين: (المعنى: إنَّك إن تسألْ -على الفَرضِ والتَّخييرِ- فلن تجابَ بـ «نعم»، بل سيكونُ الجوابُ: «لا»؛ فهو مِن بابِ التحَدِّي للمُشرِكين الَّذين يَدَّعونَ أنَّهم على حَقٍّ... يعني: أنَّ السُّؤالَ أُريدَ به إلزامُ قُرَيشٍ بأنَّه لم يأتِ أحَدٌ مِن الرُّسُلِ بإباحةِ عبادةِ غيرِ اللهِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الخرف)) (ص: ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٧٠).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾ يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ يرغَبُ في الثَّناءِ الحسَنِ الجميلِ -وذلك على قولٍ في تفسيرِ الذِّكرِ-، ولو لم يَكُنْ ذلك مرغوبًا فيه ما امتَنَّ به تعالَى على رسولِه فقالَ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَ ﴾، وقال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ [الشعراء: ٨٤]، والذِّكرُ الجَميلُ قائِمٌ مَقامَ الحياةِ، بل هو أفضَلُ مِن الحياةِ؛ لأنَّ أثَرَ الحياةِ لا يحصُلُ إلَّا في الحَيِّ، وأثَرَ الذِّكرِ الجَميلِ يَحصُلُ في كُلِّ مَكانٍ، وفي كُلِّ زَمانٍ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ وصْفُ اللهِ تبارك وتعالى بالانتقامِ كما وُصِفَ به في آياتٍ أخرى، ولكِنْ لا يُوصَفُ به على الإطلاقِ فيقالَ مَثلًا: «المنتَقِمُ»؛ لأنَّ كَلِمةَ «المُنتَقِم» ليست مدحًا في ذاتِها حتَّى تُقابَلَ بما يكونُ سببًا للانتقامِ، ومِن الغَلَطِ عَدُّها ضِمنَ أسماءِ اللهِ الحسنى؛ فإنَّ ذلك ليس مِن أسماءِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ لم يَذكُرْ ذلك مِن أسمائِه، وإنَّما ذَكَره مُقَيَّدًا بحالٍ مِن الأحوالِ، وهنا ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴾ مُقَيَّدٌ بحالٍ مِن الأحوالِ، وهي تكذيبُ هؤلاء، وهو كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴾[٢] [السجدة: ٢٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ ﴾ أنَّ الوَعدَ يأتي في الشَّرِّ والعُقوبةِ، خلافًا لِمَن قال: الوَعدُ في الخيرِ، والإيعادُ في الشَّرِّ، وأنشَدوا على ذلك قولَ الشاعرِ:

وإنِّـــي وإنْ أوعَدْتُـــه أو وَعَدْتُـــه ... لَمُخْلِـفُ إيعادي ومُنْجِـزُ مَوعِدي[٣]

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٣).

(٣) البيتُ لعامرِ بنِ الطُّفَيلِ. يُنظر: ((ديوان عامر بن الطفيل)) (ص: ٥٨)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٤/ ٢٢٣).

فالصَّوابُ أنَّ لفظةَ الوعدِ تُطلَقُ على الخَيرِ والشَّرِّ، فهنا قال: ﴿ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾، وعلى قياسِ قولِ البيتِ يكونُ التَّعبيرُ: «الَّذي أوعَدْناهم»، ولكِنَّ الصَّحيحَ أنَّها جائزةٌ لهذا وهذا[1]، فالوَعدُ هنا بمَعنَى الوَعيدِ؛ بقَرينةِ قَولِه قَبْلَه: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، وأمَّا الوَعيدُ فهو للشَّرِّ دائمًا[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ عبَّرَ عن الشَّرَفِ بالذِّكرِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ قيل: للتَّنبيهِ على أنَّ سَبَبَه الإقبالُ على الذِّكرِ وعلى ما بَيَّنه وشَرَعَه، والاستِمساكُ به، والاعتِناءُ بشَأنه[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ حُجَّةٌ في قَبولِ خبرِ الواحدِ الصَّادقِ؛ فإنَّ أماراتِ النُّبُوَّةِ دليلٌ على صِدْقِهم، والحُجَّةُ واجبةٌ بإخبارِهم؛ لا بأماراتِهم[4].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ -على القولِ بأنَّ المرادَ أمرُه بسؤالِ أهلِ التَّوراةِ والإنجيلِ- استُدِلَّ به على أنَّ خبرَ المَعيوبِ عليه في دِينِه -إذا عُرِفَ بالصِّدْقِ- مقبولٌ وإنْ أُنكِرَ حالُه؛ إذِ المرادُ مِن المُخبِرِ صِدْقُه لا غيرُه، وليس إلْمامُ المُذْنِبينَ -المعروفِين بالصِّدْقِ- بالذُّنوبِ، والمُتأوِّلينَ أمورًا بأكثرَ مِن كُفْرِ الكافِرين[5]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أنَّ أصلَ دينِ النَّصارى ليس فيه شِركٌ؛ فإنَّ الله إنَّما بَعَث رُسُلَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٣٤).

بالتَّوحيدِ، والنَّهيِ عن الشِّركِ، فالمسيحُ صلواتُ اللهِ عليه وسلامُه ومَن قبْلَه مِنَ الرُّسلِ إنَّما دَعَوْا إلى عبادةِ اللهِ وحْدَه لا شريكَ له(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قَولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ...﴾ استِئنافٌ، مَسُوقٌ لتَسلِيَتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: إنَّ هؤلاء صُمٌّ فلا يُمكِنُك إسماعُهم، وعُميٌ فلا يُمكِنُك هِدايَتُهم(٢).

- قَولُه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ [الزخرف: ٣٦]؛ لأنَّ ذلك أفاد تَوَغُّلَهم في الضَّلالةِ، وعُسْرَ انفِكاكِهم عنها؛ لأنَّ مُقارَنةَ الشَّياطينِ لهم تَقتَضِي ذلك؛ فانتَقَل منه إلى التَّهوينِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما يُلاقِيه مِن الكَدِّ والتَّحَرُّقِ عليهم في تَصميمِهم على الكُفرِ والغَيِّ، وفيه إيماءٌ إلى تَأييسٍ مِن اهتِداءِ أكثَرِهم(٣).

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ لإنكارِ أنْ يَكونَ حِرصُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على هُداهم ناجعًا فيهم إذا كان اللهُ قدَّرَ ضَلالَهم فأوجَدَ أسبابَه؛ قال تعالَى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾ [النحل: ٣٧]. ولَمَّا كان حالُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في مُعاوَدةِ دَعوتِهم كحالِ مَن يَظُنُّ أنَّه قادرٌ على إيصالِ

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٦).

التَّذكيرِ إلى قُلوبِهم، نُزِّلَ مَنزِلةَ مَن يَظُنُّ ذلك؛ فخُوطِبَ باستِفهامِ الإنكارِ، وسُلِّطَ الاستِفهامُ على كَلامٍ فيه طَريقُ قَصرٍ بتَقديمِ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعلِيِّ، مع إيلاءِ الضَّميرِ حَرْفَ الإنكارِ، وهو قَصْرٌ مُؤَكَّدٌ وقَصْرُ قَلبٍ[1]، أي: أنت لا تُسمِعُهم ولا تَهدِيهم؛ بل اللهُ يُسمِعُهم ويَهدِيهم إنْ شاءَ[2].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكور مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعِرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩-٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٨٩).

- ومِن بَديعِ مَعنَى قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ...﴾ الآيَة: أنَّ اللهَ وَصَف حالَ إعراضِهِم عن الذِّكرِ بالعَشَا، وهو النَّظَرُ الَّذي لا يَتَبَيَّنُ شَبَحَ الشَّيءِ المَنظورِ إليه، ثمَّ وَصَفهم هنا بالصُّمِّ العُمْيِ؛ إشارَةً إلى أنَّ التَّمَحُّلَ[1] للضَّلالِ ومُحاوَلَةَ تأييدِه، يَنقَلِبُ بصاحِبِه إلى أشدِّ الضَّلالِ؛ لِـ (أنَّ التَّخَلُّقَ يأتي دُونَه الخُلُقُ)[2]، والأحوالُ تَنقَلِبُ مَلَكَاتٍ. وإذ قد كان إعراضُهم انصِرافًا عن استِماعِ القُرآنِ، وعن النَّظَرِ في الآياتِ؛ كان حالُهُم يُشبِهُ حالَ الصُّمِّ العُمْيِ، كما مُهِّد لذلك بقَولِه: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الزخرف: ٣٦]؛ فظَهَرت المُناسَبةُ بيْنَ وَصْفِهم بالعَشَا وبيْن ما في هذا الانتِقالِ لِوَصْفِهم بالصُّمِّ العُمْيِ[3].

- وقَولُه: ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ عَطفٌ على ﴿ٱلۡعُمۡيَ﴾ باعتِبارِ تَغايُرِ الوَصفَينِ، وفيه إشعارٌ بأنَّ المُوجِبَ لذلك تَمَكُّنُهم في ضَلالٍ لا يَخفَى[4].

- وأيضًا عَطْفُ ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ فيه مَعنى التَّذييلِ؛ لأنَّه أعَمُّ مِن كلٍّ مِن الصُّمِّ والعُمْيِ باعتِبارِ انفِرادِهما، وباعتِبارِ أنَّ الصَّمَمَ والعَمَى قد يكونُ تَعَلُّقُهما بالمَسموعِ والمُبصَرِ جُزئِيًّا في حالةٍ خاصَّةٍ؛ فكان الوَصفُ بالكَونِ في الضَّلالِ المُبينِ تَنبيهًا على عُمومِ الأحوالِ[5].

---

(١) التَّمَحُّلُ: أي: الاحتيالُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٨١٧).

(٢) عَجُزُ بيتٍ يُنسَبُ لغيرِ واحدٍ؛ منهم: العَرْجيُّ. يُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (٣/ ٦٦)، ((الشعر والشعراء)) لابن قُتَيْبَةَ (٢/ ٥٦١). ومنهم: سالمُ بنُ وابِصةَ. ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ١٩٧)، ((شرح ديوان الحماسة)) للمرزوقي (ص: ٧١٠). ومنهم: ذو الإصبَعِ العَدْوانيُّ. يُنظر: ((التذكرة الحمدونية)) (٧/ ٩٠)، ((الدر الفريد)) للمستعصمي (٣/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٦، ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٧).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ لَمَّا كَانَت حَواسُّهم لنْ يَنتَفِعوا بها الانتِفاعَ الَّذي يُجرِي خَلاصَهم مِن عَذابِ اللهِ، جُعِلوا صُمًّا عُمْيًا حَيارَى، ويُريدُ بهم قُرَيشًا؛ فهُم جامِعُو الأَوصافِ الثَّلاثةِ؛ ولذلك عادَ الضَّميرُ عليهم في قَولِه: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾، ولم يَجْرِ لهم ذِكْرٌ إلَّا في قَولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ [الزخرف: ٤٠] الآيةَ[١].

- وقولُه: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ...﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ ...﴾ [الزخرف: ٤٠] إلى آخِرِها، المُتضَمِّنةِ إيماءً إلى التَّأييسِ مِنِ اهتِدائِهم، والصَّريحةِ في تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن شِدَّةِ الحِرصِ في دَعوَتِهم؛ فجاء هنا تَحقيقُ وَعدٍ بالانتِقامِ منهم، ومعناه: الوَعدُ بإظهارِ الدِّينِ إنْ كان في حَياةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أو بعْدَ وَفاتِه، ووَعِيدُهم بالعِقابِ في الدُّنيا قبْلَ عِقابِ الآخِرةِ. ومِن أجْلِ الوَفاءِ بهَذَينِ الغَرَضَينِ ذُكِر في هذه الجُملةِ أمْرانِ: الانتِقامُ منهم لا مَحالةَ، وكَوْنُ ذلك واقِعًا في حَياةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أو بعْدَ وَفاتِه، والمُفَرَّعُ هو: ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ وما ذُكِرَ معه؛ فمُرادٌ منه تَحَقُّقُ ذلك على كلِّ تَقديرٍ[٢].

- والذَّهابُ به في قولِه: ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ ...﴾ مُستَعمَلٌ للتَّوَفِّي -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ بقَرينةِ قَولِه: ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾؛ لأنَّ المَوتَ مُفارَقةٌ للأحياءِ؛ فالإماتةُ كالانتِقالِ به، أي: تَغْيِيبُه؛ ولذلك يُعَبَّرُ عن المَوتِ بالانتِقالِ، والمعنى: فإمَّا نَتَوَفَّيَنَّكَ فإنَّا مِنهم مُنتَقِمون بعْدَ وَفاتِكَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٧).

- وفي قولِه: ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ جاءَ جَوابُ الشَّرطِ مُقترِنًا بالفاءِ -وهو جُملةٌ اسميَّةٌ-؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ الانتِقامِ ودَوامِه، وأمَّا جُملةُ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ فهي دَليلُ جَوابِ جُملةِ ﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ المَعطُوفةِ على جُملةِ الشَّرطِ؛ لأنَّ اقتِدارَ الله عليهم لا يُناسِبُ أنْ يَكونَ مُعَلَّقًا على إراءَتِه الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الانتِقامَ منهم؛ فالجَوابُ مَحذوفٌ لا مَحالةَ؛ لقَصدِ التَّهويلِ، وتَقديرُه: أوْ إمَّا نُرِيَنَّكَ الَّذي وعَدْناهُم -وهو الانتِقامُ- تَرَ انتِقامًا لا يُفلِتون منه؛ ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾، أي: مُقتَدِرون الآنَ؛ فاسمُ الفاعِلِ مُستَعمَلٌ في زَمانِ الحالِ وهو حَقيقتُه[1].

- وتَقديمُ المَجرُورَينِ ﴿مِنْهُم﴾ و﴿عَلَيْهِم﴾ على مُتَعَلَّقَيْهما؛ للاهتِمامِ بهم في التَّمَكُّنِ بالانتِقامِ والاقتِدارِ عليهم[2].

- قولُه: ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ الاقتدارُ: شِدَّةُ القُدرةِ، و(اقتَدَرَ) أبلَغُ مِن (قدَرَ)[3].

- وقد اشتَمَل هَذانِ الشَّرطانِ وجَواباهُما ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ على خَمسَةِ مُؤَكِّداتٍ؛ وهي: (ما) الزَّائِدةُ في قولِه ﴿فَإِمَّا﴾، ونُونُ التَّوكيدِ، وحَرفُ (إنَّ) للتَّوكيدِ، والجُملةُ الاسميَّةُ، وتَقديمُ المَعمولِ على ﴿مُّنتَقِمُونَ﴾[4].

- وفائدةُ التَّرديدِ في هذا الشَّرطِ -قَولُه: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ وقولُه: ﴿أَوْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٨).

نُرِيَنَّكَ﴾-: تَعميمُ الحالَينِ: حالِ حَياةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحالِ وَفاتِه -على قولٍ في التَّفسيرِ بأنَّ المرادَ بالإذهابِ: تَوَفِّيه عليه السَّلامُ-، والمَقصودُ: وَقتُ ذَينِكَ الحَالَينِ؛ لأنَّ المَقصودَ تَوقيتُ الانتِقامِ منهم، ففي هذا الوَعيدِ إلْقاءُ الرُّعبِ في قُلوبِهم لِمَا يَسمَعونَه[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ﴾ الاستِمساكُ: شِدَّةُ المَسكِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للتَّأكيدِ، والأمرُ به مُستَعمَلٌ في طَلَبِ الدَّوامِ؛ لأنَّ الأمرَ بفِعلٍ لِمَن هو مُتَلبِّسٌ به لا يَكونُ لطَلَبِ الفِعلِ، بلْ لمَعنًى آخَرَ، وهو هنا: طَلَبُ الثَّباتِ على التَّمَسُّكِ بما أُوحِيَ إليه؛ كما دلَّ عليه قَولُه: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾، وهذا كما يُدْعَى للعَزيزِ المُكرَمِ، فيُقالُ: أعَزَّكَ اللهُ وأكرَمَكَ، أي: أدامَ ذلك، وقَولُه: أَحياكَ اللهُ، أي: أطالَ حَياتَكَ[2].

- قَولُه: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ تأييدٌ لطَلَبِ الاستِمساكِ بالَّذي أُوحِيَ إليه، وتَعليلٌ له، أو تَعليلٌ للأمْرِ به[3].

- والصِّراطُ المُستَقيمُ: هو العَمَلُ بالَّذي أُوحِيَ إليه؛ فكَأنَّه قِيل: إنَّه صِراطٌ مُستَقيمٌ، ولَكِنْ عُدِلَ عن ذلك إلى ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ ليُفيدَ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ راسِخٌ في الاهتِداءِ إلى مُرادِ اللهِ تعالى، كما يَتمَكَّنُ السَّائِرُ مِن طَريقٍ مُستَقيمٍ لا يَشُوبُه في سَيرِه تَرَدُّدٌ في سُلوكِه، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٠).

خَشيةُ الضَّلالِ في بُنَيَّاتِه، وحَرفُ (عَلَى) المُرادُ به التَّمَكُّنُ، وهذا تَثبيتٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وثَناءٌ عليه بأنَّه ما زَاغَ قِيدَ أُنمُلَةٍ عمَّا بَعَثَه اللهُ به، ويَتْبَعُه تَثْبيتُ المُؤمِنينَ على إيمانِهم، وهذا أيضًا ثَناءٌ على القُرآنِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ ذُكِرَ حظُّ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الثَّناءِ والتَّأييدِ في قَولِه: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الزخرف: ٤٣] المَجعُولِ عِلَّةً للأمرِ بالثَّباتِ عليه، ثمَّ عُطِفَ عليه تَعليلٌ آخَرُ اشتَمَل على ذِكْرِ حَظِّ القُرآنِ مِن المَدحِ والنَّفعِ بقَولِه: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ﴾، وتَشريفِه به بقَولِه: ﴿لَّكَ﴾، وأُتْبِعَ بحَظِّ التَّابِعينَ له ولكِتابِه مِنَ الاهتِداءِ والانتِفاعِ بقَولِه: ﴿وَلِقَوۡمِكَ﴾. وهذا أيضًا ثناءٌ على القُرآنِ(٢).

- وعرَّضَ اللهُ سُبحانَه بالمُعرِضينَ عن القُرآنِ وعن الرَّسولِ والمُجافِينَ لهما بقَولِه: ﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾، مع التَّوجيهِ في معنَى كلمةِ (ذِكْرٌ) مِن إرادةِ أنَّ هذا الدِّينَ يَكسِبُه ويَكسِبُ قَومَه حُسْنَ السُّمعةِ في الأُمَمِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فمَنِ اتَّبَعه نالَ حَظَّه مِن ذلك، ومَن أَعرَضَ عنه عُدَّ في عِدادِ الحَمقَى، مع الإشارةِ إلى انتِفاعِ المُتَّبِعينَ به في الآخِرةِ، واستِضرارِ المُعرِضينَ عنه فيها، وتَحقيقُ ذلك بحَرفِ الاستِقبالِ (سوف)(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ ﴾ قيل: المُرادُ بالسُّؤالِ تَمثيلٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٢٠).

لِشُهرةِ الخَبَرِ وتَحَقُّقِه؛ إذ لمْ يكُنِ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في شَكٍّ حتَّى يَسأَلَ، وإلَّا فإنَّ سُؤالَه الرُّسلَ الَّذين مِن قبْلِه مُتعذِّرٌ على الحقيقةِ. والمعنى: استَقْرِ شَرائعَ الرُّسلِ وكُتبَهم وأخْبارَهم؛ هلْ تجِدُ فيها عِبادةَ آلهةٍ؟! فالمُرادُ الاستِشهادُ بإجماعِ الأنبياءِ على التَّوحيدِ، والتَّنبيهُ على أنَّه ليسَ بِبِدْعٍ ابتَدَعه حتَّى يُكَذَّبَ ويُعادَى له؛ فإنَّه كان أَقوَى ما حَمَلَهم على التَّكذيبِ والمُخالَفةِ[1]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قَولُه: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ الهَمزةُ في ﴿أَجَعَلْنَا﴾ للاستِفهامِ، وهو إنكاريٌّ، وهو المَقصودُ مِن الخَبَرِ، وهو رَدٌّ على المُشرِكين في قَولِهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: ليس آباؤُكُم بأَهدَى مِنَ الرُّسُلِ الأَوَّلينَ إنْ كُنتُم تَزعُمون تَكذيبَ رَسولِنا؛ لأنَّه أمَرَكُم بإفرادِ اللهِ بالعِبادةِ. ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ السُّؤالُ عن شُهرةِ الخبَرِ، ومعنى الكلامِ: وإنَّا ما أمَرْنا بعِبادةِ آلهةٍ دُونَنا على لِسانِ أحَدٍ مِن رُسلِنا. وهذا رَدٌّ لِقَولِ المشركينَ: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾[2] [الزخرف: ٢٠].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِن قَبْلِكَ﴾ لتأكيدِ اتِّصالِ الظَّرفِ بعامِلِه، و(مِن) في قولِه: ﴿مِن رُّسُلِنَآ﴾ بيانٌ لـ ﴿قَبْلِكَ﴾؛ فمعنى ﴿أَجَعَلْنَا﴾: ما جَعَلْنا ذلك، أي: جعْلَ التَّشريعِ والأمْرِ، أي: ما أمَرْنا بأنْ تُعبَدَ آلهةٌ دُونَنا؛ فوصْفُ ﴿ءَالِهَةً﴾ بـ﴿يُعْبَدُونَ﴾ لِنَفْيِ أنْ يكونَ اللهُ يَرْضَى بعِبادةِ غَيرِه، فضْلًا عن أنْ يكونَ غيرُه إلهًا مِثلَه؛ وذلك أنَّ المشركينَ كانوا يَعبُدون الأصنامَ، وكانوا في عَقائدِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٢).

أشتاتًا؛ فمِنْهم مَن يَجعَلُ الأصنامَ آلهةً شُركاءَ للهِ، ومِنْهم مَن يَزعُمُ أنَّه يَعبُدُهم لِيُقَرِّبُوه مِن اللهِ زُلْفى، ومنْهم مَن يَزعُمُهم شُفعاءَ لهم عندَ اللهِ. فلمَّا نفَى بهذه الآيةِ أنْ يكونَ جعَلَ آلهةً يُعبَدون، أبطَلَ جميعَ هذه التَّمحُّلاتِ(١).

- وأُجْرِيَ ﴿ءَالِهَةً﴾ مُجْرى العُقلاءِ؛ فوُصِفوا بصِيغةِ جمْعِ العُقلاءِ بقولِه: ﴿يُعْبَدُونَ﴾ -ومِثلُه كَثيرٌ في القُرآنِ- جَرْيًا على ما غلَبَ في لِسانِ العرَبِ؛ إذ اعتَقَدُوهم عُقلاءَ عالِمينَ(٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٤٦-٥٠)

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمَلَإِي۟هِۦ ﴾: الملأُ: أشرافُ النَّاسِ ووُجوهُهم ورُؤَساؤُهم، والجماعةُ يَجتمِعونَ على رأيٍ، فيَملوؤنَ العُيونَ منظرًا، والنُّفوسَ بهاءً وجلالًا، ويُقالُ: فلانٌ مِلْءُ العُيونِ، أي: مُعَظَّمٌ عندَ مَن رآه، وقيل: وُصِفوا بذلك؛ لأنَّهم يَتمالَؤونَ، أي: يَتظاهرونَ عليه، وأصلُ (ملأ): يدُلُّ على الكَمالِ[1].

﴿يَنكُثُونَ ﴾: يَنقُضونَ عَهدَهم، وأصلُ (نكث): يدُلُّ على نَقضِ شَيءٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ موسَى عليه السَّلامُ معَ فِرعونَ؛ مُثَبِّتًا لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنينَ، فيقولُ: ولقد أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا الدَّالَّةِ على صِدْقِه إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه، فقال لهم موسى: إنِّي رَسولٌ إليكم مِن رَبِّ العالَمينَ، فلمَّا جاءهم موسى بمُعجِزاتِنا إذا فِرعَونُ وقَومُه يَضحَكونَ منها

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٤٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٦)، ((تفسير الرازي)) (١٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١).

مُستَهزِئينَ! وما نُري فِرعَونَ وقَومَه مُعجِزةً إلَّا هي أكبَرُ مِن الَّتي قبْلَها، ومع ذلك كذَّبوا فأخَذْناهم بعَذابٍ شَديدٍ مِن قَحطٍ ونَقصٍ في الثَّمَراتِ وغيرِ ذلك؛ لعَلَّهم يَتوبونَ إلى اللهِ فيَرجِعونَ عن كُفرِهم.

وقال فِرعَونُ ومَلَؤُه لِموسى حينَ نَزَل بهم العَذابُ: يا أيُّها السَّاحِرُ ادْعُ لنا رَبَّك بما عَهِدَ عندَك؛ لِيَكشِفَ عنَّا العذابَ، إنَّنا لَمُهتَدونَ ومُتَّبِعوك إنْ كشَفَه عنَّا. فلمَّا رفَعْنا عنهم العذابَ نَقَضوا عَهدَهم، وأصَرُّوا على كُفرِهم!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تقدَّم طَعنُ قُرَيشٍ على الرَّسولِ، واختيارُهم أن يُنَزَّلَ القُرآنُ على رجُلٍ مِن القَريتَينِ عَظيمٍ، أي: في الجاهِ والمالِ؛ ذكَرَ أنَّ مِثلَ ذلك سَبَقَهم إليه فِرعَونُ في قَولِه: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف: ٥١] إلى آخِرِ الآيةِ، افتَخَرَ بالمُلْكِ والمالِ والجاهِ؛ ففِرْعَونُ قُدوتُهم في ذلك، ومع ذلك فصار فِرعَونُ مَقهورًا مع موسى مُنتَقَمًا منه، فكذلك قُرَيشٌ(١).

وأيضًا لَمَّا قال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]؛ بيَّن تعالى حالَ موسى ودعوتِه، الَّتي هي أشهرُ ما يكونُ مِن دعواتِ الرُّسُلِ، ولأنَّ اللهَ تعالى أكثرَ مِن ذِكرِها في كتابِه(٢).

وأيضًا لَمَّا قال الله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا ﴾ [الزخرف: ٤٥] الآيةَ؛ ذكَرَ قصَّةَ موسى وعيسى، وهما أكبَرُ أتْباعًا مِمَّن سَبَقَهم من الأنبياءِ، وكُلٌّ جاء بالدُّعاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٨). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

إلى اللهِ، وإفرادِه بالعِبادةِ، فلم يكُنْ فيما جاءَا به إباحةُ اتِّخاذِ آلهةٍ مِن دونِ اللهِ، كما اتَّخَذَت قُرَيشٌ؛ فناسَبَ ذِكرُ قِصَّتِهما؛ للآيةِ الَّتي قَبْلَها[١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا موسى بمُعجِزاتِنا الدَّالَّةِ على صِدقِه إلى فِرعَونَ وأشرافِ قَومِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: فقال لهم موسى: إنِّي رَسولٌ إليكم مِنَ الخالِقِ المالِكِ، الرَّازِقِ المدَبِّرِ لجَميعِ العالَمينَ[٣].

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: فلمَّا جاءهم موسى بمُعجِزاتِنا إذا فِرعَونُ وقَومُه يَضحَكونَ منها؛ سُخْريةً واستِهزاءً[٤]!

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ﴾.

أي: وما نُري فِرعَونَ وقَومَه مُعجِزةً إلَّا هي أعظَمُ مِن الَّتي قَبْلَها، ومع ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٧، ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

كذَّبوا بجَميعِ الآياتِ واستَخَفُّوا بها؛ استِكبارًا وعِنادًا[١]!

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: وابتَلَيْناهم بنِقَمٍ ومِحَنٍ -كالقَحطِ ونَقصِ الثَّمَراتِ-؛ لعَلَّهم يَتوبونَ إلى الله، فيَرجِعونَ مِن كُفرِهم باللهِ ومَعصيتِه، إلى تَوحيدِه وطاعتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠].

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾.

أي: وقال فِرعَونُ ومَلَؤُه لموسى حينَ نَزَل بهم العَذابُ: يا أيُّها السَّاحِرُ[٣] ادعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٥).

قال ابن جرير: (يقولُ: إلَّا الَّتي نُرِيه مِن ذلك أعظَمُ في الحُجَّةِ عليهم، وأوكَدُ مِن الَّتي مَضَت قَبْلَها مِن الآياتِ، وأدَلُّ على صِحَّةِ ما يأمُرُه به موسى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٨).

وقال ابن عطيَّة: (وَصَف تعالى صورةَ عَرضِ الآياتِ عليهم، وإنَّما كانت شَيئًا بعدَ شَيءٍ. وقَولُه: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ عبارةٌ عن شِدَّةِ مَوقِعِها في نفوسِهم بجِدَّةِ أمْرِها وحُدوثِه؛ وذلك أنَّ أوَّلَ آيةٍ عَرَضَ موسى، هي: العصا واليَدُ، وكانت أكبَرَ آياتِه، ثمَّ كُلُّ آيةٍ بعدَ ذلك كانت تقعُ فتَعظُمُ عندَهم لحِينِها وتَكبُرُ؛ لأنَّهم قد كانوا أُنسُوا الَّتي قَبْلَها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٨).

وقال القرطبي: (أي: كانت آياتُ موسى مِن كِبارِ الآياتِ، وكانت كلُّ واحدةٍ أعظَمَ مِمَّا قَبْلَها. وقيل: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾؛ لأنَّ الأُولى تَقتَضي عِلمًا، والثَّانيةَ تَقتضي عِلمًا، فتُضَمُّ الثَّانيةُ إلى الأُولى فيَزدادُ الوُضوحُ. ومعنى الأُخُوَّةِ: المُشاكَلةُ والمُناسَبةُ، كما يُقالُ: هذه صاحِبةُ هذه، أي: هما قريبتانِ في المعنى). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٦).

(٣) قيل: أرادوا بقَولِهم: يا أيُّها السَّاحِرُ: يا أيُّها العالِمُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، =

لنا رَبَّك بما عَهِدَ عندَك[1]؛ .....

= والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٧٣)، ((تفسير البغوي)) (١/ ١٤٨) و(٤/ ١٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٠).

قال الثعلبي: (وقالوا لَمَّا عايَنوا العَذابَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ يا أيُّها العالِمُ الكامِلُ الحاذِقُ، وإنَّما قالوا هذا؛ توقيرًا وتعظيمًا منهم؛ لأنَّ السِّحرَ كان عِندَهم عِلمًا عَظيمًا، وصِفةً مَمدوحةً). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٨).

وقيل: قالوا ذلك على جِهةِ الاستِهزاءِ والتَّهَكُّمِ. وممَّن جَوَّز هذا المعنى: ابنُ عطية، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

وقيل: خاطَبوه بما تقدَّمَ عندَهم مِن تسميتِه بالسَّاحِرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٧).

(١) في معنى قَولهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أقوالٌ؛ قال الزمخشري: (﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعَهدِه عِندَك: مِن أنَّ دَعوتَك مُستجابةٌ، أو بعَهدِه عِندَك، وهو النُّبُوَّةُ، أو بما عَهِدَ عندَك فوَفَّيتَ به، وهو الإيمانُ والطَّاعةُ، أو بما عَهِدَ عِندَك مِن كَشفِ العذابِ عمَّنِ اهتدى). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: بعَهدِه الَّذي عَهِدَ إليك أنَّا إنْ آمَنَّا بك واتَّبَعْناك كشَفَ عنَّا العذابَ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والنَّحَّاس، والواحدي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٤)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٣٦٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩).

قال النَّحَّاسُ: (ويدُلُّ على صِحَّةِ هذا الجوابِ قَولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾، أي: يَنقُضونَ العَهدَ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٣٦٨).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: بعَهدِه عِندَك: مِن أنَّ دَعوتَك مُستجابةٌ: النَّيْسابوريُّ، والعُلَيمي، واقتصر عليه أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨١). =

لِيَكشِفَ عنَّا العَذابَ[١].

﴿إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ﴾.

أي: إنَّنا لَمُتَّبِعوك -يا موسى- إنْ كَشَفَ رَبُّك عنَّا العذابَ، فنُؤمِنُ به ونُوَحِّدُه[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَهۡمَا تَأۡتِنَا بِهِۦ مِنۡ ءَايَةٖ لِّتَسۡحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ * فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلۡجَرَادَ وَٱلۡقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٖ مُّفَصَّلَٰتٖ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الأعراف: ١٣٢ - ١٣٤].

﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابَ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ ٥٠﴾.

أي: فلمَّا رفَعْنا العذابَ عن فِرعَونَ وقَومِه؛ لِيَهتَدوا إلى الحَقِّ كما وَعَدوا موسى، نَكَثوا فنَقَضوا عَهْدَهم، وأصَرُّوا على كُفرِهم وضَلالِهم[٣]!

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفۡنَا عَنۡهُمُ ٱلرِّجۡزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٥].

---

= وقيل: المعنى: ادعُ رَبَّك بما خَصَّك اللهُ به وفَضَّلك به مِنَ الفَضائِلِ والمَناقِبِ: أن يَكشِفَ عنَّا العذابَ. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

وقيل: أرادوا: بما خَصَّك بعِلمِه دونَ غَيرِك مِمَّا استطَعْتَ به أن تأتيَ بخوارِقِ العادةِ. قاله ابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لَمَّا كان الإحسانُ سببًا للإذعانِ قال: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، أي: مالِكِهم ومُرَبِّيهم ومُدَبِّرِهم[1].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ فيه سؤالٌ: كيف سَمَّوه بالسَّاحِرِ -الصَّريحِ في نسبتِه إلى الباطلِ-، وهو مُنافٍ لِما بَعْدَه مِن طلبِ الدُّعاءِ منه، وقَولِهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾، وفيه إعلامٌ بأنَّه هادٍ مُهتَدٍ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّهم كانوا يقولونَ للعالِمِ الماهِرِ: (ساحِرٌ)؛ لأنَّهم كانوا يَستَعظِمونَ السِّحرَ، وكما يُقالُ في العامِلِ العَجيبِ الكامِلِ: إنَّه أتى بالسِّحرِ.

**الوجهُ الثَّاني:** أنَّ المعنى: يا أيُّها السَّاحِرُ في زَعمِ النَّاسِ ومُتعارَفِ قَومِ فِرعَونَ، كقَولِه: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الحجر: ٦]، أي: نُزِّلَ عليه الذِّكرُ في اعتِقادِه وزَعْمِه!

**الوَجهُ الثَّالِثُ:** أنَّ قَولَهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾ وقد كانوا عازِمينَ على خِلافِه؛ قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾، فتَسميتُهم إيَّاه بالسِّحرِ لا يُنافي قَولَهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾، ثمَّ بيَّنَ تعالى أنَّه لَمَّا كَشَفَ عنهم العذابَ نكَثوا ذلك العَهدَ[2].

**الوجه الرَّابعُ:** أن ذلك جارٍ على مُقتضى ما جُبِلوا عليه مِن الشِّدَّةِ والحِدَّةِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٧).

وعلى نَهجِ ما أَلِفوه مِن تحقيرِه؛ ولذا سَبَقَ لسانُهم له[١].

**الوَجهُ الخامِسُ**: أنَّهم نادَوه بذلك في تلك الحالةِ؛ لشِدَّةِ شَكيمتِهم، وفَرطِ حَماقتِهم[٢].

**الوَجهُ السَّادسُ**: أنَّ هذا مِن بابِ التَّهَكُّمِ به[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- ذكَرَ اللهُ في أوَّلِ السُّورةِ قولَه: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ * وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ * فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٦ - ٨]، وساق بعْدَ ذلك تَذكرةً بإبراهيمَ عليه السَّلامُ مع قَومِه، وما تَفرَّعَ على ذلك مِن أحوالِ أهْلِ الشِّركِ، فلمَّا تَقضَّى، أُتْبِعَ بتَنظيرِ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع طُغاةِ قَومِه واستِهزائِهم، بحالِ مُوسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ ومَلئِه؛ فإنَّ للمُثُلِ والنَّظائرِ شَأنًا في إبرازِ الحَقائقِ وتَصويرِ الحالَينِ تَصويرًا يُفضِي إلى تَرَقُّبِ ما كان لإحدَى الحالَتَينِ مِن عَواقِبَ أن تَلحَقَ أهلَ الحَالةِ الأُخرَى؛ فإنَّ فِرعَونَ ومَلَأَهُ تَلَقَّوا موسى عليه السَّلامُ بالإسرافِ في الكُفرِ، وبالاستِهزاءِ به، وباستِضعافِه؛ إذ لم يَكُن ذا بَذَخَةٍ[٤] ولا مُحَلًّى بحِلْيةِ الثَّراءِ، وكانتْ مُناسَبةُ قَولِه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥] الآيةَ، هيَّأت المَقامَ لضَربِ المَثَلِ بحالِ بَعضِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٧/ ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٨٦-١٨٧).

(٤) بَذَخَةٍ أي: عُلُوٍّ وعَظَمةٍ. يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨).

الرُّسُلِ الَّذِين جاؤُوا بشَريعةٍ عُظمَى قبْلَ الإسلامِ[١].

- والمُرادُ باقتِصاصِ قِصَّةِ موسَى عليه السَّلامُ تَسلِيةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُناقَضةُ قَولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، والاستِشهادُ بدَعوةِ مُوسى عليه السَّلامُ إلى التَّوحيدِ إثرَ ما أُشيرَ إلى إجماعِ جَميعِ الرُّسُلِ -عليهم السَّلامُ- عليه؛ لِيَتأَمَّلوا فيها[٢].

- قَولُه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ لَمَّا كان السِّياقُ لسُؤالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الرُّسُلَ عن أمْرِ التَّوحيدِ؛ كانتِ الآياتُ كافِيَةً؛ فلمْ يَذكُرِ السُّلطانَ؛ لأنَّه للقَهرِ والغَلَبةِ[٣].

- وخصَّ الملأَ بالذِّكرِ -وهم الأشرافُ-؛ لأنَّ غَيرَهم مِن النَّاسِ تَبَعٌ لَهُم[٤].

- وما أجابُوه به عِندَ قَولِه: ﴿إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مَحذوفٌ، دلَّ عليه قَولُه: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ﴾؛ وهو مُطالَبَتُهم إيَّاهُ بإحضارِ البَيِّنَةِ على دَعواهُ، وإبرازِ الآيةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ (إذا) حَرفُ مُفاجَأَةٍ، أي: يدُلُّ على أنَّ ما بَعْدَه حَصَل عن غَيرِ تَرَقُّبٍ؛ فتُفتَتَحُ به الجُملةُ الَّتي يُفادُ منها حُصولُ حادِثٍ على وَجهِ المُفاجَأَةِ[٦].

- والضَّحِكُ: قيل: هو كِنايةٌ عن الاستِخفافِ بالآياتِ والتَّكذيبِ؛ فلا يَتَعَيَّنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٥).

أنْ يَكونَ كلُّ الحاضِرينَ صَدَرَ منهم ضَحِكٌ، ولا أنَّ ذلك وَقَع عندَ رُؤيةِ آيةٍ؛ إذ لعَلَّ بَعضَها لا يَقتَضي الضَّحِكَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ صَوغُ ﴿نُرِيهِم﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لاستِحضارِ الحالَةِ[٢].

- والمُرادُ بقولِه: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أنَّها بالِغةٌ أقصَى دَرَجاتِ الإعجازِ؛ بحيثُ يَحسَبُ النَّاظِرُ فيها أنَّها أكبَرُ مِمَّا يُقاسُ إليها مِن الآياتِ. ووَصْفُ الآياتِ بأنَّ كلَّ واحِدةٍ أكبَرُ من أُختِها كَلامٌ جامِعٌ مانِعٌ؛ يَعني: أنَّهنَّ مَوصوفاتٌ بالكِبَرِ، لا يَكَدْنَ يَتَفاوَتْنَ فيه، وكذلك العادةُ في الأشياءِ الَّتي تَتَلاقَى في الفَضلِ، وتَتَفاوَتُ مَنازِلُها فيه التُّفاوُتَ اليَسيرَ: أن تَختَلِفَ آراءُ النَّاسِ في تَفضيلِها؛ فيُفَضِّلُ بَعضُهم هذا، وبَعضُهم ذاك، فعلى ذلك بَنَى النَّاسُ كَلامَهم، فقالوا: رأيْتُ رِجالًا بَعضُهُم أفضَلُ مِن بَعضٍ، ورُبَّما اختَلَفت آراءُ الرَّجُلِ الواحِدِ فيها؛ فتارَةً يُفَضِّلُ هذا، وتارةً يُفضِّلُ ذاك. ويَحتمِلُ أنْ يُرادَ به: أنَّ كلَّ آيةٍ تأتي تكونُ أعظَمَ مِن الَّتي قَبْلَها؛ فيَكونَ هُنالِكَ صِفةٌ مَحذوفةٌ؛ لِدَلالةِ المَقامِ، أي: مِن أُختِها السَّابِقةِ، وهذا يَستَلزِمُ أن تكونَ الآياتُ مُتَرَتِّبةً في العِظَمِ بحَسَبِ تأخُّرِ أوقاتِ ظُهورِها؛ لأنَّ الإتيانَ بآيةٍ بعْدَ أُخرَى ناشِئٌ عن عَدَمِ الارتِداعِ مِن الآيةِ السَّابِقةِ[٣]. وقيل: هذا عِبارةٌ عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) =

شِدَّةِ مَوقِعِها في نُفوسِهم بجِدَّةِ أمْرِها وحُدوثِه؛ وذلك أنَّ أوَّلَ آيةٍ عَرَضَها موسى هي العصا واليَدُ، وكانت أكبَرَ آياتِه، ثمَّ كُلُّ آيةٍ بعدَ ذلك كانت تقَعُ فيَعظُمُ عِندَهم مجيئُها وتَكبُرُ؛ لأنَّهم كانوا أَنِسُوا الَّتي قَبْلَها، فهذا كما قال الشَّاعِرُ[١]:

علـــى أنَّها تَعفـــو الكُلـــومُ وإنَّما نُوَكَّلُ بالأدنَـى وإنْ جَلَّ ما يَمضي[٢]

وقيل غيرُ ذلك[٣].

- وعَطَف ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ على جُملةِ ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾؛ لأنَّ العَذابَ كان مِن الآياتِ. والأخْذُ بمعنى: الإصابةِ. والباءُ في ﴿بِٱلْعَذَابِ﴾ للاستِعانةِ، كما تقولُ: خُذِ الكِتابَ بقُوَّةٍ، أي: ابتَدَأْناهُم بالعَذابِ قبْلَ الاستِئصالِ؛ لَعَلَّ ذلك يُفِيقُهم مِن غَفلَتِهم، وفي هذا تَعريضٌ بأهلِ مَكَّةَ؛ إذ أُصيبُوا بسِنِي القَحطِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾

- مُخاطَبتُهم مُوسى عليه السَّلامُ بوَصْفِ السَّاحرِ ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ قيل: هي مُخاطَبةُ تَعظيمٍ؛ تَزَلُّفًا إليه. وقيل: بلْ خِطابُ استِهزاءٍ وانتِقاصٍ[٥].

---

= (٨/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٦).

(١) هو أبو خِراشٍ الهُذَليُّ. وقولُه فيه: (تَعفو الكُلُومُ) أي: تَبرأُ وتَستوي. وقولُه: (نُوَكَّلُ بالأدنى) أي: إنَّما نحنُ نَحزَنُ على الأقرَبِ فالأقرَبِ، ومَن مضى نَنْساهُ وإنْ عَظُم. يُنظر: ((ديوان الهذليين)) (٢/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٧٩، ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٧).

- قولُهم: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ العهدُ: هو الائتِمانُ على أمْرٍ مُهِمٍّ، قيل: وليس مُرادُهم به النُّبوَّةَ؛ لأنَّهم لم يُؤمِنوا به، وإذ لم يَعرِفوا كُنْهَ العَهدِ عَبَّروا عنه بالمَوصولِ وصِلَتِه، والباءُ في قَولِه: ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ مُتَعَلِّقةٌ بـ ﴿ٱدْعُ﴾، وهي للاستِعانةِ، ولَمَّا رَأَوُا الآياتِ عَلِموا أنَّ رَبَّ موسى قادِرٌ، وأنَّ بيْنَه وبيْن مُوسَى عَهدًا يَقتَضِي استِجابةَ سُؤلِه[1].

- قَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ لا يُنافي ما في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]؛ لأنَّ الخِطابَ خِطابُ إلحاحٍ، فهو يتَكَرَّرُ ويُعادُ بطُرُقٍ مُختلِفةٍ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ جَوابٌ لِكلامٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، أي: فإنْ دَعَوْتَ لنا وكشفْتَ عنَّا العذابَ لَنُؤمِنَنَّ لك، كما في آيةِ (الأعرافِ) [١٣٤]: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ الآيةَ. فـ(مُهْتَدون) اسمُ فاعلٍ مُستعمَلٌ في معنى الوعْدِ، وهو مُنصرِفٌ للمُستقبَلِ بالقرينةِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿يَنكُثُونَ﴾[3] [الزخرف: ٥٠].

- وسَمَّوا تَصديقَهم إيَّاهُ اهتِداءً؛ لأنَّ مُوسى سمَّى ما دَعاهم إليه هدْيًا، كما في آيةِ (النَّازعاتِ): ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾[4] [النازعات: ١٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٥١-٥٦)

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَهِينٌ﴾: أي: ضَعيفٌ ذَليلٌ، وأصلُ (هون) هنا: يدُلُّ على احتقارٍ[١].

﴿أَسْوِرَةٌ﴾: جَمعُ سِوارٍ، والسِّوارُ: حَلْقةٌ عريضةٌ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ تُحيطُ بالرُّسغِ، وأصلُ (سور): يدُلُّ على عُلُوٍّ وارتِفاعٍ[٢].

﴿مُقْتَرِنِينَ﴾: أي: مُتَتابِعينَ، يُقارِنُ بَعضُهم بَعضًا، يَشهَدونَ له بصِدقِه، ويُعينونَه على أمْرِه، وأصلُ (قرن) هنا: يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٣].

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾: أي: أزعَجَهم، وحَمَلهم على الخِفَّةِ والجَهلِ بكَيدِه وغُرورِه، يقالُ: استخَفَّه عن رأيِه: إذا حمَلَه على الجَهلِ، وأزاله عن الصَّوابِ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٤).

وأصلُ (خفف): يدُلُّ على خِلافِ الثِّقَلِ والرَّزانةِ[١].

﴿ءَاسَفُونَا﴾: أي أغضَبونا، والأَسَفُ يكونُ على وَجهَينِ: الغَضَبِ، والحُزنِ، وأصلُ (أسف): يدُلُّ على الفَوتِ والتَّلَهُّفِ وما أشْبَهَ ذلك[٢].

﴿سَلَفًا﴾: أي: مُتَقَدِّمينَ لِيَتَّعِظَ بهم الآخِرونَ، جَمعُ سالفٍ، مِثْلُ: حارِسٍ وحَرَسٍ، يُقالُ: سَلَف يَسلُفُ: إذا تقَدَّم ومَضى، وأصلُ (سلف): يدُلُّ على تقَدُّمٍ وسَبْقٍ[٣].

﴿وَمَثَلًا﴾: أي: عِبرةً وعِظةً تجري مَجرى المَثَلِ لِمَن بَقِيَ بَعْدَهم، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ * أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥١، ٥٢]

في ﴿أَمۡ﴾ هنا أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّها «أم» المُنقَطِعةُ المقدَّرةُ بـ «بل» للإِضرابِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٤٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢١٨).

الانتِقاليِّ، والهَمزةِ الَّتي للإنكارِ أو للتَّقريرِ، أي: بل أأنا خَيرٌ. الثَّاني: أنَّها بمعنى «بل» فقط، أي: بلْ أنا خيرٌ، فيكونُ قد انتَقَل مِن ذلك الكَلامِ إلى إخبارِه بأنَّه خَيرٌ. الثَّالثُ: أنَّها مُتَّصِلةٌ، والمُعادِلُ محذوفٌ تقديرُه: «أم تُبصِرونَ»؛ لأنَّ المعنى: أفلا تُبصِرونَ أم تُبصِرونَ، إلَّا أنَّه وَضَع قَولَه: ﴿أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ مَوضِعَ «أم تُبصِرونَ»؛ لأنَّهم إذا قالوا له: أنت خيرٌ، فهم عندَه بُصَراءُ، وهذا مِن إنزالِ السَّبَبِ مَنزِلةَ المُسَبَّبِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن طُغيانِ فِرعونَ وغُرورِه وعِنادِه، واستِخفافِه بعقولِ قَومِه، فيقولُ: ونادى فِرعَونُ في قَومِه فقال: يا قَومِ أليس لي مُلكُ مِصرَ، وهذه الأنهارُ تجري بيْنَ يَدَيَّ في بَساتيني وقُصوري، أفلا تُبصِرونَ؟! بل أنا خيرٌ مِن هذا الَّذي هو ضَعيفٌ ذليلٌ، ولا يَكادُ يُفهَمُ كلامُه؛ لقِلَّةِ فَصاحتِه! فهلَّا أُلقِيَت عليه أساوِرُ مِن ذَهَبٍ، أو جاء معه الملائِكةُ مُؤيِّدينَ له!

فحَمَل فِرعَونُ قَومَه على الخِفَّةِ والجَهلِ، فصَدَّقوه وأطاعوه؛ لأنَّهم كانوا قومًا كافِرينَ باللهِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُبيِّنًا سوءَ عاقِبَتِهم: فلمَّا أغضَبونا انتَقَمْنا منهم، فأغرَقْناهم جميعًا في البَحرِ، فجعَلْناهم متقدِّمينَ في الهلاكِ قُدوةً لِمَن عَمِل بعمَلِهم مِن الكفَّارِ في استِحقاقِ العذابِ، وعِبرةً وعِظةً لِمَن يأتي بعدَهم، فمَن عَمِل بمثلِ عمَلِهم جُوزِيَ بجزائِهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٩٧)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٨٩).

تَحۡتِيٓۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كُشِفَ عنهم العَذابُ بدَعوةِ موسى، وأضمَرَ فِرعَونُ ومَلَؤُه نَكْثَ الوَعدِ الَّذي وَعَدوه مُوسى بأنَّهم يَهتَدون؛ خَشِيَ فِرعَونُ أنْ يَتَّبِعَ قَومُه دَعوةَ مُوسَى ويُؤمِنوا برِسالَتِه، فأعلَن في قَومِه تَذكيرَهم بعَظَمةِ نَفْسِه؛ لِيُثَبِّتَهم على طاعتِه، ولِئَلَّا يُنقَلَ إليهم ما سأَله مِن مُوسى، وما حَصَل مِن دَعوتِه بكَشفِ العَذابِ، ولِيَحسَبوا أنَّ ارتِفاعَ العَذابِ أمْرٌ اتِّفاقيٌّ؛ إذ قَومُه لم يَطَّلِعوا على ما دار بيْنَه وبيْنَ مُوسَى مِن سُؤالِ كَشْفِ العَذابِ[1].

﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾.

أي: ونادى فِرعَونُ في قَومِه القِبطِ مُفتَخِرًا مُتبَجِّحًا، فقال: يا قَومِ أليس لي وَحْدي مُلكُ مِصرَ كُلِّها، لا يُنازِعُني أحَدٌ في التَّصَرُّفِ فيها[2]؟!

﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾.

أي: وهذه الأنهارُ المتفَرِّعةُ مِن نَهرِ النِّيلِ تَجري بيْنَ يَدَيَّ في البَساتينِ والقُصورِ وغَيرِها[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

قال ابنُ عطية: (نِداءُ فِرعَونَ يحتمِلُ أن يكونَ بلِسانِه في ناديه، ويحتمِلُ أن يكونَ بأنْ أمَرَ مَن يُنادي في النَّاسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٩).

وقال البقاعي: (﴿قَالَ﴾ أي: خَوفًا مِن إيمانِ القِبطِ لَمَّا رأى مِن أنَّ ما شاهَدوا مِن باهِرِ الآياتِ مِثلُه يُزلزِلُ ويأخُذُ بالقُلوبِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

أي: أفلا تُبصِرونَ -يا قَومِ- ما أنا فيه مِنَ المُلْكِ والعَظَمةِ، والقُوَّةِ والنَّعيمِ[١]؟!

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان المقصودُ تَصغيرَ شَأنِ موسَى في نُفوسِهم بأشياءَ هي عَوارِضُ ليست مُؤثِّرةً؛ انتَقَل فِرعَونُ مِن تَعظيمِ شأنِ نَفْسِه إلى إظهارِ البَونِ بيْنَه وبيْنَ موسى الَّذي جاء يحَقِّرُ دينَه وعِبادةَ قَومِه إيَّاه، فقال[٢]:

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾.

أي: بل أنا خَيرٌ مِن هذا الَّذي هو ضَعيفٌ ذَليلٌ[٣].

---

= (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(قال الخازن: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ يعني أنهارَ النِّيلِ الكبارَ، وكانت تَجْري تحتَ قصرِه، وقيل: معناه: تَجْري بينَ يديْ جِناني وبَساتيني، وقيل: تجري بأمري). ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١١ - ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠، ٢٣١).

ممَّن اختار أنَّ (أمْ) هنا بمعنى (بلْ): ابنُ أبي زَمَنين، والواحدي، والبغوي -ونسَبَه لأكثَرِ المفسِّرينَ-، والرَّسْعَنيُّ، والخازن، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٠). =

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾.

أي: ولا يَكادُ يُعرِبُ عمَّا يُريدُ بوُضوحٍ؛ لِعِيِّ مَنطِقِه، وقِلَّةِ فَصاحتِه[1]!

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا تضَمَّن وصْفُ فِرعَونَ لِموسى بـ﴿مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أنَّه مُكَذِّبٌ له

---

= قال ابن عاشور: (﴿أَمْ﴾ مُنقطِعةٌ بمعنَى «بل» لِلإضرابِ الانتِقاليِّ، والتَّقديرُ: بل أأنا خَيرٌ، والاستِفهامُ اللَّازِمُ تقديرُه بعدَها تقريريٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠).

وقال الرَّسْعَني: (كأنَّه لَمَّا عَدَّد عليهم أسبابَ فَضلِه قال: قد تقَرَّر عِندَكم أنِّي أنا خيرٌ مِن هذا الَّذي هو مَهينٌ... وقيل: هي متَّصِلةٌ؛ لأنَّ المعنى: أفلا تُبصِرونَ أم تُبصِرونَ، إلَّا أنَّه وَضَع قَولَه تعالى: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مَوضِعَ «تُبصِرونَ»؛ لأنَّهم إذا قالوا له: أنت خيرٌ، فهُم عِندَه بُصَراءُ. وهذا الوَجهُ حكاه الزَّجَّاجُ عن الخَليلِ وسِيبَوَيْهِ. وقال الفَرَّاءُ وجماعةٌ مِن أهلِ المعاني: الوَقفُ على قَولِه: ﴿أَمْ﴾، وفيه إضمارٌ مَجازُه: أفلا تُبصِرونَ أمْ تُبصِرونَ؟! ثمَّ ابتدأ فقال: «أنا خَيرٌ مِن هذا الَّذي هو مَهينٌ»). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣٢).

قيل: عنى بقَولِه: ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ مِن هذا الَّذي هو ضَعيفٌ؛ لِقِلَّةِ مالِه، وأنَّه ليس له مِنَ المُلكِ والسُّلطانِ مِثلُ ما له. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٣).

وقيل: أراد أنَّه غَريبٌ ليس مِن أهلِ بُيوتِ الشَّرَفِ في مِصرَ، وليس له أهلٌ يَعتَزُّ بهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١١، ٦١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أشار إلى عُقدةِ لِسانِه الَّتي كانت به ثمَّ أذهَبَها اللهُ عنه، فكأنَّه عيَّرَه بشَيءٍ قد كان وزال، ويدُلُّ على زوالِه قَولُه تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وكان في سؤالِه: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ [طه: ٢٧]). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٠).

وقال ابنُ جُزَي: (وقَولُه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يَقتَضي أنَّه كان يُبِينُ؛ لأنَّ كاد إذا نُفِيَت تَقتضي الإثباتَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦١).

دَعواه الرِّسالةَ عن الله؛ فرَّعَ عليه قَولَه: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾؛ ترَقِّيًا في إحالةِ كَونِه رَسولًا مِن اللهِ، يُخَيِّلُ لِقَومِه -جَهلًا أو تَجاهُلًا- أنَّ للرِّسالةِ شِعارًا كشِعارِ المُلوكِ[1]!

﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ ﴾.

أي: فهَلَّا أُلقِيَت على موسى -إن كان رَسولًا مِن رَبِّ العالَمينَ كما يَزعُمُ- أساوِرُ مِن ذَهَبٍ يَتحَلَّى بلُبسِها في يَدَيه[2]!

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴾.

أي: أو هلَّا جاء الملائِكةُ مُتتابِعينَ قد اقتَرن بعضُهم ببعضٍ، يَشهَدون لموسَى بصِدقِه، ويُعِينونَه على أمرِه[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

قال البقاعي: (لِيَكونَ ذلك أمارةً على صِدقِ صِحَّةِ دَعواه، كما نَفعلُ نحن عندَ إنعامِنا على أحدٍ مِن عَبيدِنا بالإرسالِ إلى ناحيةٍ مِن النَّواحي لِمُهِمٍّ مِن المهِمَّاتِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٤٩).

وقال الثعلبي: (قال مجاهدٌ: كانوا إذا سَوَّدوا رَجُلًا سَوَّروه بسِوارٍ، وطَوَّقوه بطَوقٍ مِن ذَهَبٍ؛ يكونُ ذلك دَلالةً لسيادتِه، وعلامةً لرئاستِه). ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٣٩).

وقال ابن عاشور: (السِّوارُ: حَلْقةٌ عَريضةٌ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ تُحيطُ بالرُّسْغِ، هو عندَ مُعظَمِ الأُمَمِ مِن حِليةِ النِّساءِ الحرائرِ... وكان السِّوارُ مِن شِعارِ الملوكِ بفارِسَ ومِصرَ، يَلبَسُ المَلِكُ سِوارَينِ، وقد كان مِن شِعارِ الفراعنةِ لُبسُ سِوارَينِ أو أَسورةٍ مِن ذَهَبٍ، ورُبَّما جَعَلوا سِوارَينِ على الرُّسغَينِ، وآخَرَينِ على العَضُدَينِ، فلمَّا تخيَّل فِرعَونُ أنَّ رُتبةَ الرِّسالةِ مِثلُ المُلْكِ، حَسِبَ افتقادَها -وهو مِن شِعارِ الملوكِ عِندَهم- أمارةً على انتِفاءِ الرِّسالةِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧). =

﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٥٤ ﴾.

﴿ فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ﴾.

---

= قال الماوَرْدي: (﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: مُتتابِعينَ، قاله قَتادةُ. الثَّاني: يُقارِنُ بعضُهم بعضًا في المَعونةِ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: ﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ أي: يَمشُون معًا، قاله مجاهِدٌ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣١)

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ أي: مُتتابِعينَ يَتْلو بعضُهم بعضًا: الهَرَوي، والسَّمْعاني. يُنظر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٥٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٠٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: مُتتابِعينَ، يُقارِنُ بعضُهم بعضًا، يُعِينوه على أمرِه الَّذي بُعِث له، ويَشْهَدون له بصِدْقِه: ابنُ جرير، والبغوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤١).

وقال الزَّجَّاج: (﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ أي: يَمشون معه فيَدُلُّونَ على صِحَّةِ نُبُوَّتِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤١٥).

قال الواحدي معقِّبًا على قولِ الزَّجاجِ: (وقد جمَع بيْن هذه الأقوالِ كلِّها؛ لأنَّه فسَّر الاقترانَ ومُوجبَه). ((البسيط)) (٢٠/ ٦٠).

وقال البقاعي: (﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ أي: يُقارِنُ بَعضُهم بَعضًا بحيثُ يَملؤونَ الفَضاءَ، ويكونونَ في غايةِ القُربِ منه، بحيث يكونُ مُقارِنًا لهم؛ لِيُجابَ إلى هذا الأمرِ الَّذي جاء يَطلُبُه، كما نفعلُ نحن إذا أرسَلْنا رَسولًا إلى أمرٍ يَحتاجُ إلى دِفاعٍ وخِصامٍ ونِزاعٍ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٤٩، ٤٥٠).

وقال ابن جُزَي: (﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ أي: مُقتَرِنينَ به لا يُفارِقونَه، أو مُتقارِنينَ بعضُهم مع بعضٍ؛ لِيَشهَدوا له، ويُقيموا الحُجَّةَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦١).

وقال القرطبي: (المعنى: هلَّا ضَمَّ إليه الملائِكةَ الَّتي يزعُمُ أنَّها عندَ رَبِّه؛ حتَّى يَتكثَّرَ بهم، ويُصَرِّفَهم على أمرِه ونَهْيِه، فيَكونَ ذلك أهْيَبَ في القُلوبِ!). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٠).

وقال ابن عاشور: (﴿مُقۡتَرِنِينَ﴾ حالٌ مِن الملائكةِ، أي: مُقترِنينَ معه؛ فهذه الحالُ مُؤكِّدةٌ لِمَعنى ﴿مَعَهُۥ﴾؛ لئلَّا يُحمَلَ معنى المعيَّةِ على إرادةِ أنَّ الملائكةَ تُؤيِّدُه بالقولِ، مِن قولِهم: قرَنْتُه به فاقتَرَنَ، أي: مُقترِنينَ بمُوسى، وهو اقترانُ النَّصيرِ لِنَصيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٣).

أي: فاستَخَفَّ فِرعَونُ عُقولَ قَومِه، فصدَّقوا باطِلَه وشُبَهَه، واستَجابوا له[١]!

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾.

أي: لأنَّهم كانوا قَومًا كافِرينَ باللهِ تعالى، خارِجينَ عن طاعتِه، خَذَلهم اللهُ فأطاعوا فِرعَونَ حيثُ زَيَّن لهم الشَّرَّ[٢].

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه عقَّب ما مضَى مِن القِصَّةِ بالمقصودِ، وهو هذه الأمورُ الثَّلاثةُ المترتِّبةُ المتفَرِّعُ بَعضُها على بَعضٍ؛ وهي: الانتِقامُ، فالإغراقُ، فالاعتِبارُ بهم في الأُمَمِ بَعْدَهم[٣].

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

قال ابن عطيَّة: (أخبر تعالى عن فِرعَونَ أنَّه استخفَّ قَومَه بهذه المَقالةِ، أي: طلَب خِفَّتَهم وإجابتَهم إلى غرَضِه، فأجابوه إلى ذلك وأطاعوه في الكفرِ؛ لِفِسْقِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٠).

وقال السعدي: (﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: استَخَفَّ عُقولَهم بما أبدى لهم مِن هذه الشُّبَهِ الَّتي لا تُسمِنُ ولا تُغْني مِن جوعٍ، ولا حقيقةَ تحتَها، وليست دليلًا على حَقٍّ ولا على باطِلٍ، ولا تَرُوجُ إلَّا على ضُعَفاءِ العُقولِ! فأيُّ دَليلٍ يدُلُّ على أنَّ فِرعَونَ مُحِقٌّ لِكَونِ مُلكِ مِصرَ له، وأنهارِه تجري مِن تحتِه؟! وأيُّ دليلٍ يدُلُّ على بُطلانِ ما جاء به موسى لِقِلَّةِ أتْباعِه، وثِقلِ لِسانِه، وعدَمِ تَحليةِ الله له؟! ولكِنَّه لَقِيَ مَلأً لا عُقُولَ عندَهم، فمهما قال اتَّبَعوه؛ مِن حَقٍّ وباطِلٍ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٠، ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٤).

أي: فلمَّا أغضَبَنا فِرعَونُ وقومُه أوقَعْنا بهم عُقوبَتَنا العاجِلةَ في الدُّنيا[١].

﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

أي: فأغرَقْناهم جميعًا في البَحرِ، فلم نُنْجِ منهم أحَدًا[٢].

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان إهلاكُهم بسَبَبِ إغضابِهم لله تعالى، وبالكِبْرِ على رُسُلِه؛ كانوا سَبَبًا لِأنْ يَتَّعِظَ بحالِهم مَن يأتي بَعْدَهم[٣].

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

أي: فجعَلْناهم متقدِّمينَ في الهلاكِ، قُدوةً لِمَن عَمِل بعمَلِهم مِن الكفَّارِ في استِحقاقِ العذابِ، وعِبرةً وعِظَةً لِمَن يأتي بعدَهم، فمَن عَمِل بمِثلِ عمَلِهم جُوزِيَ بجزائِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٧، ٦١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٢).

قال ابن عطية: (﴿ءَاسَفُونَا﴾ معناه: أغضَبونا، بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦١٧، ٦١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٣٧٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٢، ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٥).

قال النَّحَّاسُ: (وقولُه جلَّ وعزَّ: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ قال لاحِقُ بنُ حُمَيْدٍ: أي: جعَلْناهم سَلَفًا لِمَن عَمِل بعمَلِهم، ومَثَلًا لِمَن لم يَعمَلْ بعمَلِهم. وقال مجاهِدٌ: هم قومُ فِرعونَ، =

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تعزَّز فِرعَونُ بمُلكِ مِصرَ، وجَرْيِ النِّيلِ بأمْرِه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وكان في ذلك هَلاكُه؛ لِيُعلَمَ أنَّه قد يَتعزَّزُ المرءُ بشَيءٍ مِن دُونِ اللهِ فيَكونُ حَتْفُه وهلاكُه في ذلك الشَّيءِ[1]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ استصغَرَ فِرعَونُ موسى

---

= سلَفٌ لِكُفَّارِ أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عِبْرةً. وقال قَتادةُ: ﴿سَلَفًا﴾ إلى النَّارِ ﴿وَمَثَلًا﴾ أي: عِظَةً... قال أبو جعفرٍ [النَّحَّاسُ]: هذه الأقوالُ مُتقارِبةٌ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٣٧٣، ٣٧٤).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَمَثَلًا﴾ عِبرةً لهم. وقيل: «مَثَلًا»: حديثًا عجيبَ الشأنِ، يَجري فيهم مَجرَى المثَلِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٣٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ؛ أنَّ (مَثَلًا) أي: عِبرةً وعِظةً: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي، والبغوي، والرازي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٥).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ؛ أي: حديثًا عجيبَ الشَّأنِ، يَجري فيهم مجرَى المثَلِ: الزمخشريُّ، والنسفي، وأبو حيَّان، وهو ظاهرُ اختيارِ البِقاعي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٧٠).

وحديثَه، وعابه بالفَقرِ والعِيِّ؛ فسَلَّطَه الله عليه، وكان هَلاكُه بيَدَيه، فلا يَستصغِرْ أحدٌ أحدًا فيُسَلِّطَه اللهُ عليه(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ فيه سُؤالٌ: أليس أنَّ موسى عليه السَّلامُ سأل اللهَ تعالى أن يُزيلَ الرُّتَّةَ(٢) عن لِسانِه، بقَولِه: ﴿ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ﴾ [طه: ٢٧، ٢٨]، فأعطاه اللهُ تعالى ذلك، بقَولِه: ﴿قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ [طه: ٣٦]، فكيف عابَه فِرعَونُ بتلك الرُّتَّةِ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّ فِرعَونُ أراد بقَولِه: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾: حُجَّتَه الَّتي تدُلُّ على صِدقِه فيما يَدَّعي، ولم يُرِدْ أنَّه لا قُدرةَ له على الكلامِ.

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّه عابَه بما كان عليه أوَّلًا؛ وذلك أنَّ موسى كان عندَ فِرعَونَ زَمانًا طَويلًا، وفي لِسانِه حُبْسةٌ، فنَسَبَه فِرعَونُ إلى ما عَهِدَه عليه مِنَ الرُّتَّةِ؛ لأنَّه لم يَعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى أزال ذلك العَيبَ عنه(٣).

**الوَجهُ الثَّالثُ:** أنَّ فِرعَونَ قد كَذَب في جميعِ قَولِه؛ فقد كان موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أبلَغَ أهلِ زَمانِه قَولًا وفِعلًا، ولكِنَّ الخَبيثَ أسنَدَ هذا إلى ما بَقِيَ في لسانِه مِن الحُبْسةِ؛ تَخييلًا لأتْباعِه؛ لأنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما دعا بإزالةِ حُبْستِه، بل بعُقدةٍ منها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٦٨).

(٢) الرُّتَّةُ: حُبْسةٌ وعُقدةٌ في اللِّسانِ، مع عَجَلةٍ في الكلامِ وقِلَّةِ أناةٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٤/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٤٨).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ فيما يَنفُونَ عن اللهِ تعالى مِن كُلِّ صِفةٍ يُشارِكُه فيها خَلْقُه؛ إذ قد أخبَرَ تعالى عن نَفْسِه أنَّهم قد أغضَبوه(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ دَلالةٌ على بُطلانِ تأويلِ الغَضَبِ بالانتِقامِ؛ فإنَّ معنى ﴿ءَاسَفُونَا ﴾: أغضَبونا، فجَعَلَ الانتِقامَ غيرَ الغَضَبِ، فقال: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا ﴾، جعَلَ الانتِقامَ أثَرًا مُترَتِّبًا على الغَضَبِ؛ فدلَّ هذا على بُطلانِ تفسيرِ الغَضَبِ بالانتِقامِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ إثباتُ الأسبابِ(٣).

٥- المَقصودُ مِن قِصَّةِ مُوسَى عليه السَّلامُ هو قَولُه فيها: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۞فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾[الزخرف: ٥٥، ٥٦]؛ فإنَّ المُرادَ بـ(الآخِرين): المُكَذِّبون صَناديدُ قُرَيشٍ، و(مِن) المَقصودُ منها بالخُصوصِ هنا قَولُه: ﴿وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ [الزخرف: ٤٦]، أي: عُظماءِ قَومِه؛ فإنَّ ذلك شَبيهٌ بحَالِ أبي جَهلٍ وأَضرابِه، وقَولُه: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٧]؛ لأنَّ حالَهُم في ذلك مُشابِهٌ لحالِ قُرَيشٍ، وقَولُه بعْدَ ذلك: ﴿ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ [الزخرف: ٥٢]؛ لأنَّهُم أشبَهُوا بذلك حالَ أبي جَهلٍ ونَحوِه في قَولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ إلَّا أنَّ كَلِمةَ سادَةِ قُرَيشٍ كانتْ أقرَبَ إلى الأدَبِ مِن كَلِمةِ فِرعَونَ؛ لأنَّ هَؤلاءِ كان رَسولُهم مِن قَومِهم، فلم يَترُكوا جانِبَ الحَياءِ بالمَرَّةِ، وفِرعَونُ كان رَسولُه غَريبًا عنهم، وقَولُه: ﴿ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

ذَهَبٍ ﴾ [الزخرف: ٥٣]؛ لأنَّه مُشابِهٌ لِمَا تَضَمَّنَه قَولُ صَناديدِ قُرَيشٍ: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]؛ فإنَّ عَظَمةَ ذَيْنِكَ الرَّجُلَينِ كانتْ بوَفرةِ المالِ؛ ولذلك لم يُذكَرْ مِثلُه في غَيرِ هذه القِصَّةِ مِن قَصَصِ بَعثةِ مُوسَى عليه السَّلامُ، وقَولُهم: ﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾ [الزخرف: ٤٩]، وهو مُضاهٍ لقَولِه في قُرَيشٍ: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٠]، وقَولُه: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥] الدَّالُّ على أنَّ اللهَ أهلَكَهم كُلَّهُم، وذلك إنذارٌ بما حَصَل مِنِ استِئصالِ صَناديدِ قُرَيشٍ يومَ بَدرٍ؛ فحَصَل مِن العِبرةِ في هذه القِصَّةِ أمْرانِ؛ أحَدُهما: أنَّ الكُفَّارَ والجَهَلةَ يَتمسَّكُون بمِثلِ هذه الشُّبهةِ في ردِّ فَضلِ الفُضَلاءِ؛ فيَتمسَّكون بخُيوطِ العَنكَبوتِ مِن الأُمورِ العَرَضيَّةِ الَّتي لا أثَرَ لها في قِيمةِ النُّفوسِ الزَّكيَّةِ. وثانيهما: أنَّ فِرعَونَ صاحِبَ العَظَمةِ الدُّنيَويَّةِ المَحضَةِ صار مَقهورًا مَغلوبًا، انتَصَر عليه الَّذي استَضْعَفَه[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

- قَولُه: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ ﴾ جَعَلهم مَحِلًّا لِندائِه ومَوقِعًا له، والمَعنَى: أنَّه أمَرَ بالنِّداءِ في مَجامِعِهم وأماكِنِهم مَن نَادَى فيها بذلك؛ فأُسنِدَ النِّداءُ إليه؛ كقَولِكَ: قَطَع الأَميرُ اللِّصَّ؛ إذا أمَر بقَطعِه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ عِندَه عُظَماءُ القِبطِ، فيَرفَعُ صَوتَه بذلك فيما بيْنَهم، ثمَّ يُنشَرُ عنه في جُموعِ القِبطِ، فكَأنَّه نُودِيَ به بيْنَهم، فقال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٤، ٩٦).

- قولُه: ﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الإشارةُ إلى جَداولِ النِّيلِ وفُروعِه المشهورةِ بيْنَ أهلِ المدينةِ؛ كأنَّها مُشاهَدةٌ لِعُيونِهم[١].

- ومعنى قَولِه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ يَحتَمِلُ أنَّ الأنهارَ كانت تَجري تَحتَ قَصرِه. ويحتمِلُ أنْ يَكونَ ادَّعَى أنَّ النِّيلَ يَجري بأمْرِه؛ فيَكونَ ﴿مِن تَحْتِىٓ﴾ كِنايةً عن التَّسخيرِ. ويحتمِلُ أنَّه أراد أنَّ النِّيلَ يَجري في مَملَكَتِه مِن بِلادِ أُسوانَ إلى البَحرِ؛ فيَكونَ المرادُ التَّمَكُّنَ مِن تَصاريفِ النِّيلِ، وكان مِثلُ هذا الكَلامِ يَروجُ على الدَّهماءِ؛ لِسَذاجةِ عُقولِهِم. ويَجوزُ أن يَكونَ المُرادُ بالأنهارِ مَصَبَّ المِياهِ الَّتي كانت تَسقِي المَدينةَ والبَساتينَ الَّتي حَوْلَها، وأنَّ تَوزيعَ المِياهِ كان بأمْرِه في سِدَادٍ وخَزَّاناتٍ؛ فهو يُهَوِّلُ عليهم بأنَّه إذا شاء قَطَع عنهم الماءَ، فيَكونَ معنى ﴿مِن تَحْتِىٓ﴾: مِن تَحتِ أَمرِي، أي: لا تَجرِي إلَّا بأَمرِي[٢].

- والاستِفهامُ في ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تَقريرِيٌّ؛ جاء التَّقريرُ على النَّفيِ؛ تَحقيقًا لإقرارِهِم حتَّى أنَّ المُقَرِّرَ يَفرِضُ لهم الإنكارَ؛ فلا يُنكِرون، وهو يُرِيدُ بذلك استِعظامَ مُلكِه[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ قال فِرعونُ ذلك تَعريضًا بمُوسى عليه السَّلامُ، ومُبالَغةً في التَّعييرِ بأنَّه ليس معه مِن العُدَدِ وآلاتِ المُلكِ والسِّياسةِ ما يَعتَضِدُ به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير أبي =

- والإشارَةُ بقَولِه: ﴿هَٰذَا﴾ للتَّحقيرِ[١].

- وجاء بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾؛ لادِّعاءِ أنَّ مَضمونَ الصِّلةِ شَيءٌ عُرِفَ به مُوسَى[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾

- لَمَّا وَصَف نَفْسَه بالعِزَّةِ والمُلكِ، ووازَنَ بيْنَه وبيْنَ موسى عليه السَّلامُ؛ فوَصَفَه بالضَّعفِ وقِلَّةِ الأَعضادِ مِن المَلائكةِ؛ اعتَرَض فقال: هَلَّا إنْ كان صادِقًا مَلَّكَه رَبُّه وسَوَّدَه وسَوَّرَه، وجَعَلَ المَلائكةَ أَعضادَهُ وأنصارَه[٣]!

- و(لَولَا) حَرفُ تَحضيضٍ مُستَعمَلٌ في التَّعجيزِ[٤].

- قَولُه: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ﴾ الإلقاءُ: الرَّميُ، وهو مُستَعمَلٌ هنا في الإنزالِ، أي: هلَّا أُلقِيَ عليه مِن السَّماءِ أَساوِرةٌ مِن ذَهَبٍ، أي: سَوَّرَه الرَّبُّ بها؛ لِيَجعَلَه مَلِكًا على الأُمَّةِ[٥].

- قولُه: ﴿أَوْ جَآءَ﴾ حَرفُ (أو) للتَّرديدِ، أي: إنْ لم تُلْقَ عليه أَساوِرةٌ مِن ذَهَبٍ، فلْتَجِئْ معه طَوائِفُ مِن المَلائكةِ شاهِدِينَ له بالرِّسالةِ، ولَعَلَّ فِرعَونَ ذَكَرَ المَلائكةَ مُجاراةً لمُوسى عليه السَّلامُ؛ إذ لَعَلَّه سَمِعَ منه أنَّ لِلَّهِ مَلائكةً أو نحوَ ذلك في مَقامِ الدَّعوةِ؛ فأراد إفحامَه بأنْ يأتيَ معه بالملائكةِ الَّذين

---

= حيان)) (٩/ ٣٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٠، ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَظهَرون له[١]. ولا مانعَ أن يكونَ ذلك معلومًا عندَهم، كما قال مَن قبْلَهم مِن نساءِ القِبطِ في يوسفَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي: فتَفَرَّعَ عن نِداءِ فِرعَونَ قَومَه أنْ أَثَّرَ بتَمويهِه في نُفوسِ مَلَئِه؛ فعَجَّلوا بطاعَتِه بعْدَ أنْ كانوا مُتَهَيِّئِينَ لاتِّباعِ مُوسَى لَمَّا رَأَوُا الآياتِ؛ فالخِفَّةُ مُعَبَّرٌ بها هنا عن الانتِقالِ مِن حالةِ التَّأمُّلِ في خَلْعِ طاعةِ فِرعَونَ، والتَّثاقُلِ في اتِّباعِه، إلى التَّعجيلِ بالامتِثالِ له، كما يَخِفُّ الشَّيءُ بعدَ التَّثاقُلِ، والمعنَى يَرجِعُ إلى أنَّه استَخَفَّ عُقولَهم، فأسرَعوا إلى التَّصديقِ بما قالَه بعْدَ أنْ صدَّقُوا موسى في نُفوسِهم لَمَّا رَأَوْا آياتِه نُزولًا ورَفْعًا[٢].

- والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ﴾ للمُبالَغةِ في (أخَفَّ)، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾[٣] [آل عمران: ١٥٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ في مَوضِعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾؛ فإنَّ كَونَهم قد كانوا فاسِقينَ أمْرٌ بَيِّنٌ؛ ضَرورةَ أنَّ موسى عليه السَّلامُ جاءَهم فدَعاهُم إلى تَركِ ما كانوا عليه مِن عِبادةِ الأصنامِ، فلا يَقتَضي في المَقامِ تأكيدُ كَونِهم فاسِقينَ، أي: كافِرين. والمعنَى: أنَّهم إنَّما خَفُّوا لِطاعةِ رَأسِ الكُفرِ؛ لِقُربِ عَهدِهم بالكُفرِ؛ لأنَّهم كانوا يُؤَلِّهُون فِرعَونَ، فلمَّا حَصَل لهم تَرَدُّدٌ في شأنِه ببَعثةِ موسى عليه السَّلامُ، لم يَلبَثُوا أنْ رَجَعوا إلى طاعةِ فِرعَونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بأدنَى سَبَبٍ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۞فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾

- في قَولِه: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ﴾ إيجازٌ؛ لأنَّ كَونَهُم مُؤسِفينَ لم يَتقَدَّمْ له ذِكرٌ حتَّى يُبنَى أنَّه كان سببًا للانتِقامِ منهم؛ فدلَّ إناطةُ أداةِ التَّوقيتِ به على أنَّه قد حَصَل، والتَّقديرُ: فآسَفُونا، فلمَّا آسَفُونا انتَقَمْنا منهم[٢].

- وإنَّما عُطِفَ ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ بالفاءِ على ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾، مع أنَّ إغراقَهم هو عَينُ الانتِقامِ منهم؛ إمَّا لأنَّ فِعلَ (انتَقَمْنا) مُؤَوَّلٌ بـ: قدَّرْنا الانتِقامَ منهم؛ فيَكون عَطفُ ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ ﴾ بالفاءِ كالعَطفِ في قَولِه: ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. وإمَّا أن تُجعلَ الفاءُ زائِدةً؛ لتَأكيدِ تَسَبُّبِ ﴿ءَاسَفُونَا ﴾ في الإغراقِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ المَثَلُ: النَّظيرُ والمُشابِهُ، وأُطلِقَ المَثَلُ على لازِمِه على سَبيلِ الكِنايةِ، أي: جَعَلْناهُم عِبرةً للآخِرينَ؛ يَعلَمون أنَّهُم إنْ عَمِلوا مِثلَ عَمَلِهم أصابَهم مِثلُ ما أصابَهُم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المَثَلُ هنا بمَعنَى الحَديثِ العَجيبِ الشَّأنِ الَّذي يَسيرُ بيْنَ النَّاسِ مَسِيرَ الأَمثالِ، أي: جَعَلْناهُم للآخِرينَ حَديثًا يَتَحَدَّثون به، ويَعِظُهُم به مُحَدِّثُهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٥). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٥٤-٦٧).

## الآيات (٥٧-٦٥)

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ٥٨ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ٦٠ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٢ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصِدُّونَ﴾: أي: يَضِجُّونَ، وقيل: يَضْحَكون، يُقالُ: صَدَّ يَصِدُّ، وذلك إذا ضَجَّ[1].

﴿خَصِمُونَ﴾: أي: شَدِيدو الخُصومةِ، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على المُنازَعةِ[2].

﴿يَخْلُفُونَ﴾: أي: يَخلُفُ بَعضُهم بعضًا، ويَعمُرونَ الأرضَ بدَلًا منكم، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شَيءٍ يقومُ مَقامَه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((البسيط)) =

﴿لَعِلْمٌ﴾: أي: لَعَلامةٌ ودَليلٌ، وأصلُ (علم): يدُلُّ على أثَرٍ بالشَّيءِ يتمَيَّزُ به عن غَيرِه[1].

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾: أي: لا تُكَذِّبوا بها، ولا تَشُكُّوا فيها، مِن المِرْيةِ: وهي التَّردُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِنَ الشَّكِّ، وأصلُه مِن: مَرَيْتُ النَّاقةَ: إذا مَسَحْتَ ضَرعَها للحَلبِ[2].

﴿ٱلْأَحْزَابُ﴾: أي: الطَّوائِفُ والفِرَقُ، والحِزبُ: الجماعةُ مِن النَّاسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ مِن كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[3].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُخبِرًا عن تَعَنُّتِ المشركينَ، وتَعَمُّدِهم العِنادَ والجدلَ: ولَمَّا ضَرَبَ المُشرِكونَ عيسى ابنَ مريمَ مَثلًا لآلهتِهم الَّتي يَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ تعالى، وجادَلوا بعبادةِ النَّصارى إيَّاه؛ إذا قَومُك -يا مُحمَّدُ- تَرتَفِعُ لهم جَلَبَةٌ وضَجيجٌ؛ فَرَحًا وضَحِكًا؛ لِظَنِّهم بأنَّهم قد ألزَموك بحُجَّتِهم الواهيةِ! وقالوا: لقد أخبَرْتَنا بأنَّ عيسى بنَ مَريمَ رَسولٌ مِن رُسُلِ اللهِ، وأنَّه خَيرٌ مِن آلهتِنا، فإنْ كان في النَّارِ يومَ القيامةِ؛ لِما تَتْلوه علينا مِن قَولِ رَبِّك: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن

---

= للواحدي (٢٠/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٠، ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٠).

دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]؛ فقد رَضِينا أن نكونَ نحن وآلهتُنا في النَّارِ معه!

فلا تهتَمَّ -يا مُحمَّدُ- بما قالوه؛ فما ضَرَبوا لك هذا المَثَلَ بعيسى إلَّا مِن أجْلِ مُجادَلتِك بالباطِلِ، بل هم قَومٌ شَدِيدو الخُصومةِ والجِدالِ بالباطِلِ، لا يُريدونَ الحَقَّ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حقيقةَ عيسى عليه السَّلامُ، فيقولُ: ما عيسى إلَّا عَبدٌ مِن عِبادِنا أنعَمْنا عليه بنِعمةِ النُّبُوَّةِ، وجعَلْناه آيةً عَجيبةً لبني إسرائيلَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا كمالَ قدرتِه: ولو نشاءُ لَجعَلْنا منكم مَلائِكةً يَخلُفونَ فيها، وإنَّ نُزولَ عيسى ابنِ مَريمَ في آخِرِ الزَّمانِ لَعَلامةٌ على قُربِ مَجيءِ السَّاعةِ؛ فلا تَشُكُّوا -أيُّها النَّاسُ- في مجيءِ القيامةِ، وأطيعوني؛ فهذا الَّذي أدعوكم إليه طَريقٌ مُستقيمٌ مُوصِلٌ إلى الحَقِّ، ولا يَصرِفَنَّكم الشَّيطانُ عن هذا الصِّراطِ المُستَقيمِ؛ إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ.

ثمَّ يَحكي الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ معَ قَومِه، فيقولُ: ولَمَّا جاء عيسى بالدَّلائِلِ على صِدقِه قال: قد جِئتُكم بالحِكمةِ، ولِأُبَيِّنَ لكم بعضَ الَّذي تَختَلِفونَ فيه، فاتَّقوا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه، إنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكم فاعبُدوه وَحْدَه، هذا طَريقٌ مُستَقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى موقفَ أهلِ الكتابِ مِن دعوةِ عيسَى عليه السَّلامُ، فيقولُ: فاختَلَفَت فِرَقُ اليَهودِ والنَّصارى في عيسى؛ فكَفَر به اليَهودُ، وغلا فيه النَّصارى، فوَيلٌ لأولئك الكُفَّارِ المُختَلِفينَ في شأنِ عيسى مِن عَذابِ يَومِ القيامةِ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ أنواعًا كثيرةً مِن كُفْريَّاتِ المُشرِكينَ في هذه السُّورةِ، وأجاب عنها بالوُجوهِ الكَثيرةِ؛ فأوَّلُها: قَولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ [الزخرف: ١٥]، وثانيها: قَولُه تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾ [الزخرف: ١٩]، وثالثُها: قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ﴾ [الزخرف: ٢٠]، ورابِعُها: قَولُه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، وخامِسُها: هذه الآيةُ هنا[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى طَرَفًا مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ذَكَرَ طَرَفًا مِن قِصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ[٢].

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لِقُرَيشٍ: يا مَعشَرَ قُرَيشٍ، إنَّه ليس أحَدٌ يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ فيه خَيرٌ -وقد عَلِمَتْ قُرَيشٌ أنَّ النَّصارى تَعبُدُ عيسى بنَ مَريمَ، وما تَقولُ في مُحمَّدٍ[٣]-، فقالوا: يا محمَّدُ، ألَسْتَ تَزعُمُ أنَّ عيسى كان نبيًّا وعَبدًا مِن عِبادِ اللهِ صالِحًا؟! فلَئِنْ كُنتَ صادِقًا فإنَّ آلهتَهم لَكَما تقولونَ! قال: فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٤).

(٣) أي: وما تقولُ النَّصارى في محمَّدٍ مِن عدَمِ تصديقِهم بنُبوَّتِه. يُنظر: ((الفتح الرباني)) للساعاتي (١٨/ ٢٦٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢٩١٨) واللَّفظُ له، والطحاوي في ((شرح مُشْكِل الآثار)) (٩٨٧)، والطبراني (١٢/ ١٥٤) (١٢٧٤٠). =

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاء عبدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: يا مُحمَّدُ، تَزعُمُ أنَّ اللهَ أنزل عليك هذه الآيةَ: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فقد عُبِدَت الشَّمسُ والقَمَرُ، والملائِكةُ وعُزَيرٌ وعيسى صلواتُ اللهِ عليهم، أوَكُلُّ هؤلاء في النَّارِ مع آلهتِنا؟! فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، ونَزَلت: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾))[1].

---

= صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٣٢٩)، وحَسَّن إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٢٠٨)، وشُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ٨٦).

(١) أخرجه الطحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (٩٨٨) واللَّفظ له، والطبراني (١٢/ ١٥٣) (١٢٧٣٩)، والحاكم (٣٤٤٩).

صَحَّح إسنادَه الحاكمُ، وابنُ القَيِّم في ((شفاء العليل)) (١/ ١٢٣)، وحَسَّن الحديثَ ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (٢/ ١٧٣)، وقوَّى إسنادَه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((شرح مشكل الآثار)) (٩٨٨).

قال ابنُ عاشور: (لا يُناكِدُ هذا الوَجهَ إلَّا ما جرى عليه عَدُّ السُّوَرِ في ترتيبِ النُّزولِ مِن عَدِّ سورةِ الأنبياءِ -الَّتي كانت آيتُها سَبَبَ المُجادَلةِ- مُتأخِّرةً في النُّزولِ عن سُورةِ الزُّخرُفِ، ولعَلَّ تصحيحَ هذا الوَجهِ عِندَهم يَكُرُّ بالإبطالِ على مَن جَعَل سورةَ الأنبياءِ مُتأخِّرةً في النُّزولِ عن سُورةِ الزُّخرُفِ، بل يَجِبُ أن تكونَ سابِقةً؛ حتَّى تكونَ هذه الآيةُ مُذَكِّرةً بالقِصَّةِ الَّتي كانت سَبَبَ نُزولِ سورةِ الأنبياءِ، وليس ترتيبُ النُّزولِ بُمتَّفَقٍ عليه، ولا بمُحَقَّقِ السَّنَدِ، فهو يُقبَلُ منه ما لا مُعارِضَ له، على أنَّه قد تَنزِلُ الآيةُ ثمَّ تُلحَقُ بسُورةٍ نَزَلت قبْلَها، فإذا رُجِّحَ أن تكونَ سورةُ الأنبياءِ نزَلَت قبْلَ سُورةِ الزُّخرفِ كان الجَوابُ القاطِعُ لابنِ الزِّبَعْرَى في قَولِه تعالى فيها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]؛ لأنَّه يعني أنَّ عَدَمَ شُمولِ قَولِه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] لعيسى معلومٌ لِكُلِّ مَن له نظَرٌ وإنصافٌ؛ لأنَّ الحُكمَ فيها إنَّما أُسنِدَ إلى مَعبوداتِ المُشرِكينَ لا إلى معبودِ النَّصارى... ويكونُ الجوابُ المذكورُ هنا في سُورةِ الزُّخرُفِ بقَولِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ جوابًا =

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكَسرِ الصَّادِ، قيل معناها: يَضِجُّونَ ويَصيحونَ فَرَحًا. وقيل: يَضحَكونَ(١).

٢- قِراءةُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ بضَمِّ الصَّادِ، قيل معناها: يُعرِضونَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، وهو: يَضِجُّونَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنى يَضحَكونَ(٢).

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ ٥٧﴾.

أي: ولَمَّا ضَرَبَ المُشرِكونَ عيسى بنَ مَريمَ مَثَلًا للآلهةِ الَّتي تُعبَدُ مِن دُونِ

---

= إجماليًّا، أي: ما أرادوا به إلَّا التَّمويهَ؛ لأنَّهم لا يخفى عليهم أنَّ آيةَ سُورةِ الأنبياءِ تُفيدُ أنَّ عيسى ليس حَصَبَ جَهنَّمَ، والمقامُ هنا مقامُ إجمالٍ؛ لأنَّ هذه الآيةَ إشارةٌ وتذكيرٌ إلى ما سَبَق مِنَ الحادثةِ حينَ نُزولِ آيةِ سُورةِ الأنبياءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٧، ٢٣٨).

(١) قرأ بها ابنُ كثير، وأبو عَمرٍو، وعاصمٌ، وحمزةُ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٢).

قال ابن قتيبة: (﴿إِذَا قَوۡمُكَ مِنۡهُ يَصِدُّونَ﴾ يَضِجُّون، يُقالُ: صَدَدتُ أصِدُّ صَدًّا: إذا ضَجَجْتَ. و«التَّصدِيةُ» منه، وهو: التَّصفيقُ). ((غريب القرآن)) (ص: ٤٠٠).

وقال ابن كثير: (قال غيرُ واحدٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، ومُجاهِد، وعِكْرِمة، والضَّحَّاك، والسُّدِّي: يَضحَكونَ، أي: أُعجِبوا بذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٤/ ٤١٦)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٣).

اللهِ تعالى -حيثُ عَبَده النَّصارى-؛ لِيُحاجُّوا به محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الَّذي أخبَرَهم بأنَّ كُلَّ ما عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ فمآلُه النَّارُ: إذا قَومُك -يا محمَّدُ- قد أحدَثوا جَلَبَةً وضَجيجًا وضَحِكًا؛ فَرَحًا وسُرورًا؛ لِظَنِّهم بأنَّهم قد أفحَموك بتلك الشُّبهةِ الباطِلةِ، وأنَّهم ألزَموك بحُجَّتِهم الواهيةِ[1]!

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ ﴾.

أي: وقال أولئك المُشرِكونَ: أآلهتُنا خيرٌ أمْ عيسَى، فإن كان عيسَى يَدخُلُ النَّارَ فقد رَضِينا أن نكونَ نحن وآلهتُنا معه؛ لأنَّه خيرٌ مِن آلهتِنا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٦-٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٣، ١٢٤).

قال الواحدي: (أكثَرُ المفسِّرينَ على أنَّ هذه الآيةَ نزلَتْ في مُجادَلةِ ابنِ الزِّبَعْرَى مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَمَّا نزَل قولُه تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] الآيةَ). ((الوسيط)) (٤/ ٧٨).

وقال الشنقيطي: (قال جمهورُ المفسِّرينَ: هو عبدُ اللهِ بنُ الزِّبَعْرَى السَّهْميُّ قبْلَ إسلامِه. أي: ولَمَّا ضَرَب ابنُ الزِّبَعْرَى المذكورُ عيسى بنَ مريمَ، فاجأَك قومُك بالضَّجيجِ والصِّياحِ والضَّحِكِ؛ فَرَحًا منهم، وزعمًا منهم أنَّ ابنَ الزِّبَعْرَى خَصَمَك، أو فاجأَك صُدودُهم عن الإيمانِ؛ بسَبَبِ ذلك المَثَلِ. والظَّاهرُ أنَّ لَفظةَ ﴿مِن﴾ هنا سَبَبيَّةٌ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٢٣).

قال السمعاني: (وفي الآيةِ قَولٌ آخَرُ: وهو أنَّ النَّبيَّ لَمَّا ذكَرَ حديثَ عيسى لقُرَيشٍ، وأنَّه خلَقَه اللهُ تعالى من غيرِ أبٍ، كما خلَقَ آدمَ مِن غيرِ أبٍ، وذكَرَ ما أظهَرَ اللهُ على يَدِه مِن الآياتِ- جَعَلَت قُرَيشٌ يَضحَكونَ، وقالوا: ما يُريدُ محمَّدٌ مِن ذِكرِ عيسى إلَّا أن نَعبُدَه كما عبَدَت النَّصارى عيسى! وهذا قَولُ مجاهِدٍ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٧٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٣). =

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾.

أي: ما ذَكَر لك كُفَّارُ قُرَيشٍ -يا مُحمَّدُ- هذا المَثَلَ بعِيسى وتَشبيهَه بآلهتِهم إلَّا مِن بابِ المُغالَطةِ بالباطِلِ؛ لِقَصدِ مُغالَبتِك[1].

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

أي: هم لا يُريدونَ بجِدالِهم مَعرِفةَ الحَقِّ واتِّباعَه، وإنَّما هم قَومٌ شَديدو الخُصومةِ والجِدالِ بالباطِلِ، فيَرُدُّونَ الحَقَّ مع ظُهورِه لهم، ومَعرِفتِهم بأنَّ ما

---

= قال الشنقيطي: (زَعَم ابنُ الزِّبَعْرَى أنَّ كَلامَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا اقتضى مُساواةَ الأصنامِ مع عيسى في دُخولِ النَّارِ، مع أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعترِفُ بأنَّ عيسى رسولُ الله، وأنَّه ليس في النَّارِ؛ دَلَّ ذلك على بُطلانِ كَلامِه عندَه). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٢٣، ١٢٤).

وقال أيضًا: (التَّحقيقُ أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿هُوَ﴾ راجِعٌ إلى عيسى لا إلى محمَّدٍ -عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ. قال بعضُ العلماء: ومُرادُهم بالاستفهامِ تَفضيلُ مَعبوداتِهم على عيسى. قيل: لأنَّهم يتَّخِذونَ الملائِكةَ آلهةً، والملائِكةُ أفضَلُ عِندَهم مِن عيسى، وعلى هذا فمُرادُهم أنَّ عيسى عُبِدَ مِن دونِ الله، ولم يكُنْ ذلك سببًا لِكَونِه في النَّارِ، ومَعبوداتُنا خَيرٌ مِن عيسى، فكيف تَزعُمُ أنَّهم في النَّارِ؟! وقال بعضُ العلماء: أرادوا تفضيلَ عيسى على آلهتِهم. والمعنى على هذا: أنَّهم يقولون: عيسى خيرٌ مِن آلهتِنا -أي: في زَعمِك- وأنت تَزعُمُ أنَّه في النَّارِ بمقتضى عُمومِ ما تَتْلوه مِن قَولِه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وعيسى عَبَدَه النَّصارى مِن دونِ اللهِ؛ فدَلالةُ قَولِك على أنَّ عيسى في النَّارِ مع اعتِرافِك بخِلافِ ذلك يدُلُّ على أنَّ ما تقولُه مِن أنَّا وآلهَتَنا في النَّارِ: ليس بحَقٍّ أيضًا!). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٢٦، ١٢٧).

وقيل -بِناءً على القولِ الثَّاني في الآيةِ السَّابقةِ أنَّ النَّبيَّ لَمَّا ذكر حديثَ عيسى قالوا: ما يُريدُ مُحمَّدٌ مِن ذِكرِ عيسى إلَّا أن نَعبُدَه كما عبَدَتِ النَّصارَى عيسى- قيل: إنَّ معنى ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي: مُحمَّدٌ، فإذا كان مُحمَّدٌ يَطلُبُ أن نَعبُدَه فنحنُ نَعبُدُ آلِهَتنا. فهو سؤالُ تقريرٍ أنَّ آلهتَهم خَيرٌ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٤).

يُظهِرونَه مِن حُجَجٍ مُجَرَّدُ شُبَهٍ باطِلةٍ[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أبغَضَ الرِّجالِ إلى اللهِ الألَدُّ الخَصِمُ[٢]))[٣].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٥٩﴾.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾.

أي: ما عيسى إلَّا عَبدٌ مِن عِبادِنا أنعَمْنا عليه بالإيمانِ، والنُّبُوَّةِ والرِّسالةِ، وتأييدِه بالمُعجِزاتِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٧).

(٢) الألَدُّ الخَصِمُ: أي: الشَّديدُ الخُصومةِ، المُولَعُ بها. الألَدُّ: مأخوذٌ مِن لَدِيدَيِ الوادي، وهما جانباه؛ لأنَّه كلَّما احتُجَّ عليه بحُجَّةٍ أخَذ في جانبٍ آخَرَ. والخَصِمُ: هو الحاذقُ بالخُصومةِ، والمذمومُ هو الخُصومةُ بالباطِلِ، في رفْعِ حقٍّ، أو إثباتِ باطِلٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٢١٩)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤٤٢).

(٣) رواه البخاري (٢٤٥٧)، ومسلم (٢٦٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٧، ١٢٨).

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: ١١٠].

﴿ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾.

أي: وجعَلْنا عيسى آيةً ودَلالةً وحُجَّةً لِبَني إسرائيلَ، يَستَدِلُّونَ بخَلْقِه مِن غَيرِ أبٍ على قُدرةِ اللهِ تعالى على خَلْقِ ما يَشاءُ، وليس هو ابنًا للهِ كما تَزعُمُ النَّصارى[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً ﴾ [المؤمنون: ٥٠].

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أشارت الآيةُ السَّابِقةُ إلى إبطالِ ضَلالةِ الَّذين زَعَموا عيسى -عليه السَّلامُ- ابنًا لله تعالى، مِن قَصْرِه على كَونِه عَبدًا لله أنعَمَ اللهُ عليه بالرِّسالةِ، وأنَّه عِبرةٌ لِبَني إسرائيلَ؛ عُقِّب ذلك بإبطالِ ما يُماثِلُ تلك الضَّلالةَ، وهي ضَلالةُ بَعضِ المُشرِكينَ في ادِّعاءِ بُنُوَّةِ الملائِكةِ لله تعالى، المتقَدِّمُ حِكايتُها في قَولِه تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ﴾ [الزخرف: ١٥] الآياتِ، فأُشيرَ إلى أنَّ الملائِكةَ عِبادٌ لله تعالى، جَعَل مكانَهم العَوالِمَ العُليا، وأنَّه لو شاء لَجعَلَهم مِن سُكَّانِ الأرضِ بَدَلًا عن النَّاسِ[2].

﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: ولو نَشاءُ لجَعَلْنا بدَلًا مِنكم ملائِكةً يَسكُنونَ في الأرضِ، فيَخلُفونَ فيها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦). =

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾.

أي: وإنَّ نُزولَ عيسى بنِ مَريمَ في آخِرِ الزَّمانِ لَعَلامةٌ على قُربِ مَجيءِ السَّاعةِ، فلا تَشُكُّوا -أيُّها النَّاسُ- في مجيءِ القيامةِ؛ فإنَّها آتيةٌ لا مَحالةَ[1].

---

= قال ابن جُزَي: (في معناها قولان؛ أحَدُهما: لو نَشاءُ لجعَلْنا بدَلًا منكم ملائِكةً يَسكُنونَ الأرضَ ويَخلُفونَ فيها بني آدَمَ، فقَولُه: ﴿مِنكُم﴾ يتعَلَّقُ بـ«بَدَل» المحذوفِ، أو بـ﴿يَخۡلُفُونَ﴾. والآخَرُ: لو نشاءُ لجعَلْنا منكم، أي: لوَلَّدْنا منكم أولادًا مَلائِكةً يَخلُفونَكم في الأرضِ، كما يَخلُفُكم أولادُكم؛ فإنَّا قادِرونَ على أن نَخلُقَ مِن أولادِ النَّاسِ مَلائِكةً، فلا تُنكِروا أنْ خَلَقْنا عيسى مِن غيرِ والدٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: لجعَلْنا بدَلًا منكم ملائِكةً: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ ونسَبَه لعامَّةِ المفَسِّرينَ، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: لَجعَلْنا -أيُّها الإنسُ- ملائكةً يتولَّدون منكم: الزمخشري، واستحسنه أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٦).

قال ابنُ كثير: (﴿مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾ قال السُّدِّيُّ: يَخلُفونَك فيها. وقال ابنُ عبَّاسٍ وقَتادةُ: يَخلُفُ بعضُهم بعضًا، كما يَخلُفُ بعضُكم بعضًا. وهذا القَولُ يَستلزِمُ الأوَّلَ. وقال مجاهدٌ: يَعمُرونَ الأرضَ بَدَلَكم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٨، ١٢٩، ١٣٨).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: نُزولُ عيسى عليه السَّلامُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والزمخشري، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو هُرَيرةَ، وابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهِدٌ، والحسَنُ، وأبو مالكٍ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ، وأبو العاليةِ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦). =

= قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ والمفَسِّرون: يعني: نُزولَ عيسى مِن السَّماءِ مِن أشراطِ السَّاعةِ وأهوالِها، ويكونُ التَّقديرُ على هذا: ظُهورَه أو نُزولَه). ((البسيط)) (٢٠/ ٧٠).

وقال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحدُها: أنَّ القُرآنَ عِلْمُ السَّاعةِ؛ لِما فيه مِن البَعثِ والجزاءِ. قاله الحَسَنُ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ. الثَّاني: أنَّ إحياءَ عيسى الموتى دليلٌ على السَّاعةِ وبَعثِ الموتى. قاله ابنُ إسحاقَ. الثَّالثُ: أنَّ خُروجَ عيسى عِلْمُ السَّاعةِ؛ لأنَّه مِن علامةِ القيامةِ وشُروطِ السَّاعةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣٥).

وقال ابن جرير: (وقال آخَرون: الهاءُ الَّتي في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ مِن ذِكرِ القرآنِ، وقالوا: معنَى الكلامِ: وإنَّ هذا القرآنَ لَعلَمٌ للسَّاعةِ؛ يُعلِمُكم بقيامِها، ويُخبِرُكم عنها وعن أهوالِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٣).

وقيل: الإشارةُ لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن ذكر هذا القولَ: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦١).

قال ابنُ جُزَي: (فأمَّا على القَولِ بأنَّه لعيسى أو لمحمَّدٍ فالمعنى أنَّه شَرَطٌ مِن أشراطِ السَّاعةِ يُوجِبُ العِلمَ بها؛ فسُمِّيَ الشَّرَطُ عِلْمًا لحُصولِ العِلمِ به؛ ولذلك قرأ ابنُ عبَّاسٍ: لَعَلَمٌ -بفَتحِ العَينِ واللَّامِ، أي: عَلامةٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٣).

وذكر السعدي احتمالًا قدَّمه في تفسيرِ الآيةِ، وهو أنَّ عيسى عليه السَّلامُ دليلٌ على السَّاعةِ؛ لأنَّ القادرَ على إيجادِه مِن أُمٍّ بلا أبٍ قادِرٌ على بعثِ الموتى مِن قبورِهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

قال الماوَرْدي: (﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: لا تَشُكُّوا فيها، يعني: السَّاعةَ. قاله يحيى بنُ سلَّام. الثَّاني: فلا تُكَذِّبوا بها؛ قاله السُّدِّيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣٦).

ونقَل الواحديُّ عن ابنِ عبَّاسٍ المعنى الثَّانيَ، ثمَّ قال: (وقَولُ ابنِ عبَّاسٍ جَيِّدٌ؛ لأنَّ الامترِاءَ يُوصَلُ بـ «في»، يُقالُ: امترَى فيه، كقَولِه: ﴿ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ [مريم: ٣٤]، وهاهنا وُصِلَ بالباءِ؛ لأنَّه بمعنى التَّكذيبِ، ومَن شَكَّ في شَيءٍ فقد كَذَّب به). ((البسيط)) (٢٠/ ٧٠).

وممَّن قال بأنَّ معنى: ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾: فلا تَشُكُّوا في مجيئِها، فجعَل المِرْيةَ بمعنى الشَّكِّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٨). =

كما قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا * وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا﴾ [النساء: ١٥٨، ١٥٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((والَّذي نفْسي بيَدِه، لَيُوشِكَنَّ أن يَنزِلَ فيكم ابنُ مَريمَ حَكَمًا مُقسِطًا، فيَكسِرَ الصَّليبَ، ويَقتُلَ الخِنزيرَ، ويَضَعَ الجِزْيَةَ، ويَفيضَ المالُ حتَّى لا يَقْبَلَه أحَدٌ))[1].

﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾.

أي: وأطيعُوني فيما آمُرُكم به، وأنهاكم عنه؛ فهذا الَّذي أدعوكم إليه طَريقٌ مُستقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلٌ إلى الحَقِّ في الدُّنيا، والجنَّةِ في الآخِرةِ[2].

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٧).

وقال البِقاعي: (﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ﴾ أي: تَشُكُّوا أدنى شكٍّ، وتَضطَرِبوا أدنى اضطرابٍ، وتَجحَدوا أدنى جحدٍ، وتُجادِلوا أدنى جدَلٍ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٦١).

(١) رواه البخاري (٢٢٢٢) واللفظ له، ومسلم (١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٣).

قال الزمخشري: (﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ واتَّبِعوا هُداي وشَرعي أو رَسولي. وقيل: هذا أمرٌ لرسولِ الله أن يَقولَه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ هذا أمرٌ مِن الله باتِّباعِه، بامتثالِ أمرِه واجتنابِ نهيِه: ابنُ جرير -كما هو ظاهرُ كلامِه- والزمخشريُّ، وأبو حيَّان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّه أمرٌ مِن الله لرسولِه بأن يأمُرَ النَّاسَ باتِّباعِه: الواحديُّ، والقرطبيُّ كما هو ظاهرُ كلامِهما. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٧).

قال الزمخشري: (﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ أي: هذا الَّذي أدعوكم إليه. أو: هذا القرآنُ إن جُعِل الضَّميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للقرآنِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١).

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أُبلِغَت أسماعُهم أفانينَ المَواعِظِ والأوامِرِ والنَّواهِي، وجَرَى في خِلالِ ذلك تَحذيرُهم مِن الإصرارِ على الإعراضِ عن القُرآنِ، وإعلامُهم بأنَّ ذلك يُفضي بهم إلى مُقارَنةِ الشَّيطانِ، وأخَذَ ذلك حَظَّه مِن البَيانِ؛ انتَقَلَ الكَلامُ إلى نَهيِهم عن أن يَحصُلَ صَدُّ الشَّيطانِ إيَّاهم عن هذا الدِّينِ والقُرآنِ الَّذي دُعُوا إلى اتِّباعِه بقَولِه: ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [الزخرف: ٦١]؛ تَنبيهًا على أنَّ الصُّدودَ عن هذا الدِّينِ مِن وَسْوَسةِ الشَّيطانِ، وتَذكيرًا بعَداوةِ الشَّيطانِ للإنسانِ عَداوةً قَويَّةً، لا يُفارِقُها الدَّفعُ بالنَّاسِ إلى مَساوِي الأعمالِ؛ ليُوقِعَهم في العَذابِ تَشَفِّيًا لعَداوَتِه(١).

وأيضًا لَمَّا حَثَّ اللهُ تعالى على السُّلوكِ لصِراطِ الوَليِّ الحَميدِ؛ حذَّرَهم مِنَ العَدُوِّ البَعيدِ المُحتَرِقِ الطَّريدِ، فقال(٢):

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾.

أي: ولا يَصرِفَنَّكم الشَّيطانُ بوَساوِسِه عن هذا الصِّراطِ المُستَقيمِ؛ فتَضِلُّوا عن الحَقِّ(٣).

﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: إنَّ الشَّيطانَ لكم عَدُوٌّ ظاهِرُ العَداوةِ، حَريصٌ على إضلالِكم، وباذِلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٣).

جُهدَه في إهلاكِكم[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ * وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ * وَلَقَدۡ أَضَلَّ مِنكُمۡ جِبِلّٗا كَثِيرًاۖ أَفَلَمۡ تَكُونُواْ تَعۡقِلُونَ﴾ [يس: ٦٠ - ٦٢].

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ٦٣﴾.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾.

أي: ولَمَّا جاء عيسى بالدَّلائِلِ الواضِحاتِ على صِدقِه، قال: قد جِئتُكم بالحِكمةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٧، ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

قال الماوَرْدي: (﴿قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: بالنُّبُوَّةِ. قاله السُّدِّيُّ. الثَّاني: بعِلمِ ما يُؤدِّي إلى الجَميلِ، ويَكُفُّ عن القَبيحِ. قاله ابنُ عيسى. ويحتمِلُ ثالثًا: أنَّ الحِكمةَ الإنجيلُ الَّذي أُنزِلَ عليه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣٦).

ممَّن اختار أنَّ الحِكمةَ هي النُّبُوَّةُ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، والخازن، وابنُ كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٦). =

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾.

أي: وجِئتُكم لِأُبَيِّنَ لكم بَعضَ الَّذي تَختَلِفونَ فيه مِن أُمورِكم، فأُوَضِّحَ لكم الصَّوابَ، وأُجَلِّيَ لكم ما خَفِيَ(١).

---

= قال البِقاعي: (﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي: الأمرِ المُحكَمِ، الَّذي لا يُستطاعُ نَقضُه، ولا يُدفَعُ إلَّا بالمُعانَدةِ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٦٢).

وقيل: الحِكمةُ: هي العِلمُ والعَمَلُ، فلا يُسمَّى الرَّجُلُ حَكيمًا حتَّى يَجمَعَهما. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ قُتيبةَ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢). ويُنظر أيضًا: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (٩/ ٢٢، ٢٣)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٢٤)، ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣٢٥).

وقال السعدي: (﴿قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ النُّبُوَّةِ والعِلمِ، بما يَنبغي، على الوَجهِ الَّذي يَنبغي). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالحِكمةِ: الإنجيلُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجاجُ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٣١).

واختار الزمخشري وتَبِعَه النَّسَفيُّ أنَّ المرادَ ﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾: الإنجيلُ والشَّرائعُ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٧٩).

واختار جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ أنَّ المرادَ: النُّبُوَّةُ وشرائعُ الإنجيلِ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٦، ٦٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٦، ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٧).

قال ابنُ عطية: (المعنى الَّذي ذهبَ إليه الجُمهورُ: أنَّ الاختِلافَ بيْنَ النَّاسِ هو في أمورٍ كَثيرةٍ لا تُحصى عددًا؛ منها أمورٌ أُخرَويَّةٌ ودينيَّةٌ، ومنها ما لا مَدخَلَ له في الدِّينِ؛ فكُلُّ نَبيٍّ فإنَّما يُبعَثُ لِيُبيِّنَ أمرَ الأديانِ والآخِرةِ، فذلك بعضُ ما يُختَلَفُ فيه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٢).

وقال الشوكاني: (﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ مِن أحكامِ التَّوراةِ. وقال قَتادةُ: يعني: اختِلافَ الفِرَقِ الَّذين تحزَّبوا في أمرِ عيسى. قال الزَّجَّاجُ: الَّذي جاء به عيسى في الإنجيلِ إنَّما هو بَعضُ الَّذي اختَلَفوا فيه؛ فبُيِّنَ لهم في غيرِ الإنجيلِ ما احتاجوا إليه. وقيل: إنَّ بني إسرائيلَ =

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾.

أي: فاتَّقوا اللهَ بامتِثالِ ما يأمُرُكم به، واجتِنابِ ما يَنهاكم عنه[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾.

أي: قال عيسى: إنَّ اللهَ الَّذي ينبغي إفرادُه بالعِبادةِ والطَّاعةِ هو رَبِّي ورَبُّكم؛ فاعبُدوه وَحْدَه، ولا تَعبُدوا غَيرَه، وأنا وأنتم مُشتَرِكونَ في وُجوبِ ذلك علينا[٢].

﴿هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾.

أي: عِبادةُ اللهِ وَحْدَه وطاعتُه طَريقٌ مُستقيمٌ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلٌ إلى اللهِ، وإلى رِضوانِه وجَنَّتِه[٣].

﴿فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ٦٥﴾.

---

= اختَلَفوا بعدَ موتِ موسى في أشياءَ مِن أمرِ دينِهم. وقال أبو عُبَيدةَ: إنَّ البَعضَ هنا بمعنى الكُلِّ، كما في قَولِه: ﴿يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ﴾ [غافر: ٢٨]، وقال مُقاتِلٌ: هو كقَولِه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [آل عمران: ٥٠]، يعني: ما أُحِلَّ في الإنجيلِ مِمَّا كان مُحَرَّمًا في التَّوراةِ؛ كلَحمِ الإبِلِ، والشَّحمِ مِن كُلِّ حيوانٍ، وصَيدِ السَّمَكِ يومَ السَّبتِ. واللَّامُ في: ﴿وَلِأُبَيِّنَ﴾ مَعطوفةٌ على مُقَدَّرٍ، كأنَّه قال: قد جِئتُكم بالحِكمةِ لِأُعَلِّمَكم إيَّاها ولِأُبَيِّنَ لكم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٠)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٧، ٤١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ ﴾.

أي: فاختَلَفَت فِرَقُ اليَهودِ والنَّصارى في عيسى؛ فكَفَر به اليَهودُ، وغلا فيه النَّصارى، فزَعَم بَعضُهم أنَّه ابنُ اللهِ تعالى، وزَعَم بَعضُهم أنَّه اللهُ تعالى، وزَعَم آخَرونَ منهم أنَّه ثالِثُ ثلاثةٍ -تعالى اللهُ عمَّا يَقولونَ عُلُوًّا كَبيرًا[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال الله سُبحانَه: ﴿ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

وعن مُعاويةَ بنِ أبي سُفيانَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((ألَا إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قام فينا فقال: ألَا إنَّ مَن قَبْلَكم مِن أهلِ الكِتابِ افتَرَقوا على ثِنْتَينِ وسَبعينَ مِلَّةً، وإنَّ هذه المِلَّةَ ستَفتَرِقُ على ثلاثٍ وسَبعينَ: ثِنتانِ وسَبعونَ في النَّارِ، وواحِدةٌ في الجنَّةِ، وهي الجَماعةُ))[2].

﴿ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٢٠).
قال ابن تيميَّة: (اختَلَف اليهودُ والنَّصارى فيه، ثمَّ اختَلَفَت النَّصارى فيه وصاروا أحزابًا كثيرةً جِدًّا... فإنَّه ليس في الأُمَمِ أكثَرُ اختِلافًا في رَبِّ العالَمينَ منهم!). ((الجواب الصحيح)) (٢/ ١٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧) واللَّفظُ له، وأحمد (١٦٩٣٧).
حَسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (١٩/ ٣٧)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٥٩٧)، وحسَّنه لغيره الوادعيُّ في ((صحيح دلائل النبوة)) (٥٧٧).
وحديثُ الافتِراقِ رُويَ بألفاظٍ مُختلِفةٍ: ذكر الحاكمُ بعضَ طُرُقِه ثمَّ قال: (هذه أسانيدُ تُقامُ بها الحجَّةُ في تصحيحِ هذا الحديثِ). ((المستدرك)) (١/ ٢١٨). وقال العِراقي: (حديث افتِراقِ الأمَّةِ... أسانيدُها جِيادٌ). ((تخريج الإحياء)) (٣/ ٢٣٠).

أي: فوَيلٌ لأولئك الكُفَّارِ المُختَلِفينَ في شأنِ عيسى مِن عَذابِ يومِ القيامةِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ٣٧].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ﴾ فيه ذَمُّ الجَدَلِ والمِراءِ[٢]، والجدَلُ المذمومُ هو الجدلُ الَّذي يُوجِبُ تقريرَ الباطلِ[٣]، أو ردَّ الحقِّ ودفْعَه، أو لِمُجرَّدِ الجدَلِ.

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ﴾ عَبَّرَ بصيغةِ الجَمعِ في قَولِه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا ﴾، مع أنَّ ضارِبَ المَثَلِ واحِدٌ، وهو ابنُ الزِّبَعْرَى؛ لِوُجوهٍ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ مِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ إسنادَ فِعلِ الرَّجُلِ الواحِدِ مِن القبيلةِ إلى جميعِ القَبيلةِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ جميعَ كُفَّارِ قُرَيشٍ صَوَّبوا ضَرْبَ ابنِ الزِّبَعْرَى عيسى مَثَلًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٨).
قال ابن جرير: (يقولُ: مِن عذابِ يومٍ أليمٍ عذابُه، ووَصَفَ اليَومَ بالإيلامِ؛ إذ كان العَذابُ الَّذي يُؤلِمُهم فيه، وذلك يومُ القيامةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٨).
وقال البِقاعي: (وإذا كان اليومُ مُؤلِمًا، فما الظَّنُّ بعَذابِه؟!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٠). ويُنظر أيضًا: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٦٩-١٧٤).

وفَرِحوا بذلك، ووافَقوه عليه؛ فصاروا كالمُتمالِئينَ عليه.

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّ الفاعِلَ المحذوفَ في قَولِه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ هو عامَّةُ قُرَيشٍ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ عيسى لم يُبعَثْ إلَّا إلى بَني إسرائيلَ، وأنَّه لم يَدْعُ غَيرَ بني إسرائيلَ إلى اتِّباعِ دِينِه، ومَنِ اتَّبعُوه مِن غَيرِ بَني إسرائيلَ في عُصورِ الكُفرِ والشِّركِ فإنَّما تَقَلَّدوا دَعوَتَه؛ لأنَّهَا تُنقِذُهم مِن ظُلُماتِ الشِّركِ والوَثَنيَّةِ والتَّعطيلِ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ فيه نزولُ عيسَى عليه السَّلامُ قُرْبَ السَّاعةِ[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ لمْ يُبَيِّنْ لهم كُلَّ الَّذي يَختَلِفونَ فيه؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: لأنَّ النَّاسَ قد يَختَلِفونَ في أشياءَ لا حاجةَ بهم إلى مَعرفتِها؛ فلا يَجِبُ على الرَّسولِ بَيانُها[٤].

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ هذا البَعضَ الظاهرُ -بما يُرشِدُ إليه خِتامُ الآيةِ- أنَّه المُتشابِهُ الَّذي كَفَروا بسَبَبِه، بيَّنَه بيانًا يَرُدُّه إلى المُحكَمِ، ويَحتمِلُ أن يكونَ بَعضَ المُتشابِهِ،

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٢٤، ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤١).

وهو ما يكونُ بَيانُه كافيًا في رَدِّ بقيَّةِ المُتشابِهِ إلى المحكَمِ بالقياسِ عليه؛ فإنَّ الشَّأنَ في كُلِّ كِتابٍ أنْ يَجمَعَ المُحكَمَ والمُتشابِهَ، فالمُحكَمُ ما لا لَبْسَ فيه، والمُتشابِهُ ما يكونُ مُلْبِسًا، وفيه ما يَرُدُّه إلى المحكَمِ لكِنْ على طريقِ الرَّمزِ والإشارةِ الَّتي لا يَذوقُها إلَّا أهلُ البَصائرِ؛ لِيَتبيَّنَ بذلك الصَّادِقُ مِن الكاذِبِ، فالصَّادِقُ الَّذي رَسَخ عِلمًا وإيمانًا يَرُدُّ المُتشابِهَ منه إلى المُحكَمِ، أو يَعجِزُ فيَقولُ: اللهُ أعلَمُ[1].

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّ اللهَ تعالى أعلَمَه بأنَّ المَصلَحةَ لم تتَعَلَّقْ ببَيانِ كلِّ ما اختَلَفوا فيه، بل يُقتَصَرُ على البَعضِ، ثمَّ يُكمَّلُ بَيانُ الباقي على لِسانِ رَسولٍ يأتي مِن بَعدِه يُبَيِّنُ جَميعَ ما يَحتاجُ إلى البَيانِ.

**الوَجهُ الرَّابعُ**: أنَّ ما أُوحِيَ إليه مِن البَيانِ غَيرُ شامِلٍ لجَميعِ ما هم مُختَلِفونَ في حُكمِه، وهو يَنتَظِرُ بَيانَه مِن بعدُ؛ تَدريجًا في التَّشريعِ، كما وَقَع في تَدريجِ تَحريمِ الخَمرِ في الإسلامِ.

**الوَجهُ الخامِسُ**: أنَّ المرادَ بـ ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾: ما كان الاختلافُ فيه راجعًا إلى أحكامِ الدِّينِ، دونَ ما كان مِن الاختلافِ في أُمورِ الدُّنيا[2].

**الوَجهُ السَّادِسُ**: أنَّ المرادَ بالبَعضِ: الكُلُّ[3].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ﴾، يدُلُّ على جوازِ تأخيرِ البيانِ فيما له ظاهرٌ، وفي ما يرجعُ إلى البيانِ بالنَّسخِ[4].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٨).

الإقرارُ بتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ؛ بأنَّ اللهَ هو المُربِّي جَميعَ خَلْقِه بأنواعِ النِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، والإقرارُ بتوحيدِ العُبوديَّةِ بالأمرِ بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له، وإخبارِ عيسى عليه السَّلامُ أنَّه عَبدٌ مِن عِبادِ اللهِ، ليس كما قال فيه النَّصارى: (إنَّه ابنُ اللهِ أو ثالِثُ ثلاثةٍ!)، والإخبارُ بأنَّ هذا المذكورَ: صِراطٌ مُستقيمٌ مُوصِلٌ إلى اللهِ تعالى وإلى جَنَّتِه[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أنَّ الصِّراطَ المُستقيمَ عبادةُ اللهِ، ولا شَكَّ أنَّ أهدى السُّبُلِ وأقْوَمَها عِبادةُ اللهِ، وعِبادةُ اللهِ هي اتِّباعُ شَرْعِه المُرسَلِ منه سُبحانَه وتعالى[2].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ في قِصَّةِ عيسى مع قَومِه تَنبيهٌ على أنَّ الإشراكَ مِن عَوارِضِ أهلِ الضَّلالةِ لا يَلبَثُ أن يُخامِرَ نُفوسَهم، وإن لم يكُنْ عالِقًا بها مِن قَبْلُ؛ فإنَّ عيسى بُعِثَ إلى قَومٍ لم يَكونوا يَدينونَ بالشِّركِ؛ إذ هو قد بُعِثَ لبني إسرائيلَ وكُلُّهم مُوَحِّدونَ، فلمَّا اختَلَف أتْباعُه بيْنَهم، وكَذَّبَت به فِرَقٌ، وصَدَّقه فَريقٌ، ثمَّ لم يتَّبِعوا ما أمَرَهم به- لم يَلبَثوا أنْ حَدَثَت فيهم نِحلةُ الإشراكِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ كَلامٌ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٦).

مُستَأنَفٌ مَسُوقٌ لبَيانِ نَوعٍ آخَرَ مِن لَجاجِهم وإِمعانِهم في المُكابَرةِ[١]. أو عَطفُ قِصَّةٍ مِن أقاصيصِ كُفرِهم وعِنادِهم على ما مَضَى مِن حِكايةِ أقاويلِهم، جَرَت في مُجادَلةٍ منهم مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو تَصديرٌ وتَمهيدٌ بيْنَ يَدَيْ قَولِه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ...﴾ [الزخرف: ٦٣] الآياتِ، الَّذي هو المَقصودُ مِن عَطفِ هذا الكَلامِ على ذِكْرِ رِسالةِ مُوسَى عليه السَّلامُ[٢].

- واقتِرانُ الكَلامِ بـ(لَمَّا) المُفيدةِ وُجودَ جَوابِها عِندَ وُجودِ شَرطِها أو تَوقيتِه، يَقتَضِي أنَّ مَضمونَ شَرطِ (لَمَّا) مَعلومُ الحُصولِ، ومَعلومُ الزَّمانِ؛ فهو إشارةٌ إلى حَديثٍ جَرَى بسَبَبِ مَثَلٍ ضَرَبه ضارِبٌ لِحالٍ مِن أحوالِ عيسى عليه السَّلامُ، على أنَّ قَولَهم: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يَحتمِلُ أنْ يَكُونَ جَرَى في أثناءِ المُجادَلةِ في شَأنِ عيسى، ويَحتمِلُ أنْ يَكُونَ مُجَرَّدَ حِكايةِ شُبهةٍ أُخرَى مِن شُبَهِ عَقائِدِهم؛ ففي هذه الآيةِ إجمالٌ يُبَيِّنُه ما يَعرِفُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُؤمِنونَ مِن جَدَلٍ جَرَى مع المُشرِكين، ويَزيدُه بَيانًا قَولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[٣] [الزخرف: ٥٩].

- قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ الحامِلُ على ضَربِ المَثَلِ: الرَّدُّ على كُفرِيَّاتِهم الثَّلاثِ في قَولِه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ...﴾ [الزخرف: ١٥] الآياتِ، وهو قَولُه: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ [الزخرف: ١٦]، وقَولُه: ﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقَولُه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الزخرف: ٢٠]، والآياتُ المُتَخَلِّلةُ في البَيْنِ مُتَّصِلاتٌ بَعضُها مع بَعضٍ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالأَفانينِ المُتَنَوِّعةِ[١].

- والتَّعبيرُ عن قُرَيشٍ بعُنوانِ ﴿قَوْمُكَ﴾؛ للتَّعجُّبِ منهم كيفَ فَرِحوا مِن تَغَلُّبِ ابنِ الزِّبَعْرَى على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بزَعمِهِم في أمْرِ عيسى عليه السَّلامُ، أي: مع أنَّهم قَومُك، ولَيسُوا قَومَ عيسى ولا أتْباعَ دِينِه؛ فكان فَرَحُهم ظُلمًا من ذَوِي القُربَى[٢].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ مُتعَلِّقَةٌ بـ ﴿يَصِدُّونَ﴾ -على قولٍ- تَعَلُّقًا على مَعنَى الابتِداءِ، أي: يَصِدُّون صَدًّا ناشِئًا منه، أي: مِن المَثَلِ، أي: ضُرِبَ لهم مَثَلٌ، فجَعَلوا ذلك المَثَلَ سَبَبًا للصَّدِّ[٣].

- وعلى قِراءةِ ﴿يَصُدُّونَ﴾ -بضمِّ الصَّادِ- مِن الصُّدودِ؛ فهي إمَّا بمَعنَى الإعراضِ، والمُعرَضُ عنه مَحذوفٌ؛ لظُهورِه مِن المَقامِ، أي: يُعرِضُون عن القُرآنِ؛ لأنَّهم أَوهَمُوا بجَدَلِهم أنَّ في القُرآنِ تَناقُضًا، وإمَّا على أنَّ الضَّمَّ لُغَةٌ في مُضارِعِ (صَدَّ) بمَعنَى ضَجَّ، مِثلُ لُغَةِ كَسرِ الصَّادِ، وعلى قِراءةِ ﴿يَصِدُّونَ﴾ -بكَسرِ الصَّادِ- وهو الصَّدُّ، بمَعنَى الضَّجيجِ والصَّخَبِ، فالمَعنَى: إذا قُرَيشٌ قَومُك يَصخَبون ويَضِجُّون مِن احتِجاجِ ابنِ الزِّبَعْرَى بالمَثَلِ بعِيسى في قَولِه، مُعجَبِين بفَلْجِه[٤] وظُهورِ حُجَّتِه؛ لِضَعفِ إدراكِهم لمَراتِبِ الاحتِجاجِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٣٩).

(٤) الفَلْجُ: الظَّفَرُ والفَوزُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٨).

- قَولُه: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ ﴾ حِكايةٌ لطَرَفٍ مِن المَثَلِ المَضرُوبِ؛ قَالُوه تَمهيدًا لِمَا بَنَوا عليه مِن الباطِلِ المُمَوَّهِ بما يَغتَرُّ به السُّفهاءُ؛ فقد قالوا جَميعًا: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ﴾، وتَلَقَّفوها مِن فَمِ ابنِ الزِّبَعْرَى حينَ قَالَها للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأَعادُوها؛ فهذا حِكايَةٌ لقَولِ ابنِ الزِّبَعرَى: إنَّك تَزعُمُ أنَّ عِيسَى نَبِيٌّ وقد عَبَدَتْه النَّصارَى، فإنْ كان عِيسَى في النَّارِ قد رَضِينَا أنْ نَكُونَ وآلِهَتنا في النَّارِ[1].

- قَولُه: ﴿ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ ﴾ حَكَوا أنَّ آلِهَتَهم خَيرٌ، ثمَّ عَنَّ لهم أنْ يَستَفهِمُوا على سَبيلِ التَّنَزُّلِ مِن الخَبَرِ إلى الاستِفهامِ المَقصودِ به الإفْحامُ، وهذا الاستِفهامُ تَقريرِيٌّ للعِلمِ بأنَّ النَّبيَّ يُفَضِّلُ عِيسَى على آلِهَتِهم، أي: فقد لَزِمَكَ أنَّكَ جَعَلْتَ أَهلًا للنَّارِ مَن كُنتَ تُفَضِّلُه؛ فأمْرُ آلِهَتِنا هَيِّنٌ[2]!

- وقولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴾ إضرابٌ انتِقالِيٌّ إلى وَصْفِهم بحُبِّ الخِصامِ، وإظهارِهِم مِن الحُجَجِ ما لا يَعتَقِدونَه؛ تَمويهًا على عامَّتِهم[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ استِئنافٌ مَسُوقٌ لتَنزيهِه عليه السَّلامُ عن أنْ يُنسَبَ إليه ما نُسِبَ إلى الأصنامِ بطَرِيقِ الرَّمزِ، كما نَطَق به صَريحًا قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الآيةَ، وفيه تَنبيهٌ على بُطلانِ رَأْيِ مَن رَفَعَه عن رُتبَةِ العُبودِيةِ، وتَعريضٌ بفَسادِ رَأْيِ مَنْ يَرَى رَأيَهم في شَأنِ المَلائِكَةِ، وهذا على القَولِ بأنَّ معنَى قولِه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا ﴾ أي: ضرَبَه ابنُ الزِّبَعْرى حين جادَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٠).

رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1] [الأنبياء: ٩٨].

- ولَمَّا ذَكَر ما يُشِيرُ إلى قِصَّةِ جِدالِ ابنِ الزِّبَعرَى في قَولِه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وكان سَبَبُ جِدالِه هو أنَّ عِيسَى قد عُبِدَ مِن دُونِ الله؛ لم يُتْرَكِ الكَلامُ يَنقَضي دُونَ أنْ يُردَفَ بتَقريرِ عُبُودِيَّةِ عيسى لهذِه المُناسَبةِ؛ إظهارًا لخَطَلِ رَأْيِ الذين ادَّعَوا إلَهِيَّتَه وعَبَدوه -وهم النَّصارَى-؛ حِرصًا على الاستِدلالِ للحَقِّ[2].

- وفي قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قُصِرَ عِيسَى على العُبودِيَّةِ على طَريقَةِ قَصْرِ القَلبِ[3]؛ للرَّدِّ على الَّذين زَعَموه إلهًا، أي: ما هو إلَّا عَبدٌ لا إلهٌ؛ لأنَّ الإلهِيَّةَ تُنافي العُبودِيَّةَ، ثمَّ كان قَولُه: ﴿أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ إشارةً إلى أنَّه قد فُضِّلَ بنِعمَةِ الرِّسالةِ، أي: فلَيسَتْ له خُصوصِيَّةُ مَزِيَّةٍ على بَقِيَّةِ الرُّسُلِ، وليس تَكوينُه بدُونِ أبٍ إلَّا إرهاصًا[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾

- في قَولِه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾ جُعِلَ شَرْطُ (لو) فِعلًا مُستَقبَلًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه المَشيئَةَ لم تَزَلْ مُمكِنَةً بأنْ يُعَوِّضَ للمَلائِكَةِ سُكنَى الأرضِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٠).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٠).

والإرهاصُ: ما ظهَر مِن الخَوارِقِ عن النَّبيِّ قبْلَ ظُهورِه. يُنظر: ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمُناوي (ص: ٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٨)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٣٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٢).

- ومعنى (مِن) في قولِه: ﴿مِنكُم﴾ البَدليَّةُ والعِوَضُ، والمجرورُ في قولِه: ﴿مِنكُم﴾ مُتَعَلِّقٌ بـ (جَعَلْنَا)، وقُدِّمَ على مَفعولِ الفِعلِ؛ للاهتِمامِ بمَعنَى هذه البَدَلِيَّةِ لتتَعَمَّقَ أفهامُ السَّامِعين في تَدَبُّرِها[1].

- وجُملَةُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ بَيانٌ لمَضمُونِ شِبهِ الجُملَةِ في قَولِه: ﴿مِنكُم﴾، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَخْلُفُونَ﴾؛ لدَلالَةِ ﴿مِنكُم﴾ عليه، وتَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ للاهتِمامِ بِمَا هو أدَلُّ على كَونِ الجُملَةِ بَيانًا لمَضمُونِ ﴿مِنكُم﴾[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ عَطفٌ على جُملَةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، ويَكونُ ما بيْنَهما مُستَطرَداتٍ، واعتِراضًا اقتَضَتْه المُناسَبةُ؛ لَمَّا أُشبِعَ مَقامُ إبطالِ إلَهيَّةِ غَيرِ اللهِ بدَلائِلِ الوَحدانِيَّةِ، ثُنِيَ العِنانُ إلى إثباتِ أنَّ القُرآنَ حقٌّ، عَودًا على بَدءٍ، وهذا كَلامٌ مُوَجَّهٌ مِن جانِبِ اللهِ تعالى إلى المُنكِرين يومَ البَعثِ، ويَجوزُ أنْ يَكونَ مِن كَلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[3].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾، أي: إنَّ عيسى عليه السلامُ لَعِلمٌ للسَّاعَةِ، أي: شَرطٌ مِن أشراطِها تُعلَمُ به؛ فسُمِّي الشَّرطُ عِلمًا لحُصولِ العِلمِ به[4].

أو ضَميرُ المَذَكَّرِ الغائِبِ في قَولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ مُرادٌ به القُرآنُ؛ فيَكونُ هذا ثَناءً على القُرآنِ، والثَّناءُ على القُرآنِ استَمَرَّ مُتَّصِلًا مِن أوَّلِ السُّورَةِ آخِذًا بَعضُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٩٩).

بحُجَزِ بَعضٍ، مُتَخَلِّلًا بالمُعتَرِضاتِ والمُستطرَداتِ، ومُتَخَلِّصًا إلى هذا الثَّناءِ الأخيرِ بأنَّ القُرآنَ أعلَمَ النَّاسَ بوُقوعِ السَّاعَةِ. وإسنادُ ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ إلى ضَميرِ القُرآنِ؛ لأنَّ القُرآنَ سَبَبُ العِلمِ بوُقوعِ السَّاعَةِ؛ إذ فيه الدَّلائِلُ المُتَنَوِّعَةُ على إمكانِ البَعثِ ووُقوعِه. ويَجوزُ أنْ يكونَ إطلاقُ العِلمِ بمعنى المُعْلِمِ، مِن استعمالِ المصدَرِ بمعنى اسمِ الفاعلِ؛ مُبالَغَةً في كَونِه مُحَصِّلًا للعِلْمِ بالسَّاعَةِ؛ إذ لم يُقارِبْه في ذلك كِتابٌ مِن كُتُبِ الأَنبياءِ، وقد ناسَبَ هذه المُبالَغَةَ التَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾؛ لأنَّ القُرآنَ لم يُبقِ لأَحَدٍ مِريَةً في أنَّ البَعثَ واقِعٌ، ويَجوزُ أن يَكونَ ضَميرُ (إِنَّهُ) ضَميرَ شَأنٍ، أي: أنَّ الأَمرَ المُهِمَّ لَعِلْمُ النَّاسِ بوُقوعِ السَّاعةِ[1].

- وعُدِّي فِعلُ ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ بالباءِ؛ لِتَضْمينِه مَعنَى: لا تُكَذِّبُنَّ بها، أو الباءُ بمَعنَى (في) الظَّرفِيَّةِ[2].

- وحُذِفَت ياءُ المتكلِّمِ في ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ تَخفيفًا، مع بَقاءِ نُونِ الوِقايةِ دَليلًا عليها[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾

- وفي قولِه: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ صِيغَ النَّهيُ عن اتِّباعِ الشَّيطانِ في صَدِّه إيَّاهُم بصِيغَةِ نَهيِ الشَّيطانِ عن أنْ يَصُدَّهم؛ للإشارَةِ إلى أنَّ في مُكنَتِهم الاحتِفاظَ مِن الوُقوعِ في شِباكِ الشَّيطانِ، فكُنِّي بنَهيِ الشَّيطانِ عن صَدِّهم عن نَهيِهم عن الطَّاعَةِ له بأبلَغِ مِن تَوجيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم، على طَريقَةِ قَولِ العَرَبِ: لا أَعرِفَنَّكَ تَفعَلُ كذا، ولا أُلْفِيَنَّكَ في مَوضِعِ كذا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٥).

- وجُملَةُ ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن أنْ يَصُدَّهُم الشَّيطانُ؛ فإنَّ شأنَ العاقِلِ أنْ يَحذَرَ مِن مَكائِدِ عَدُوِّه، وحَرفُ (إنَّ) هنا مَوقِعُه مَوقِعُ فاءِ التَّسَبُّبِ في إفادَةِ التَّعليلِ(١).

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾

- قَولُه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدۡ جِئۡتُكُم بِٱلۡحِكۡمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي تَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ هذا هو المَقصودُ مِن ذِكْرِ عيسى عليه السَّلامُ؛ فهو عَطفٌ على قِصَّةِ إرسالِ مُوسَى(٢). وقيل: هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ تَعَنُّتِ بني إسرائيلَ(٣).

- ولم يُذكَرْ جَوابَ (لَمَّا)؛ فهو مَحذوفٌ لدَلالَةِ بَقِيَّةِ الكَلامِ عَلَيه، ومَوقِعُ حَرفِ (لَمَّا) هنا: أنَّ مَجيءَ عِيسى بالبَيِّناتِ صار مَعلومًا للسَّامِعِ مِمَّا تقَدَّم في قَولِه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩] الآيَةَ، أي: لَمَّا جاءَهُم عِيسَى اختَلَف الأحزابُ فيما جاء به؛ فحُذِف جَوابُ (لَمَّا)؛ لأنَّ المَقصودَ هو قَولُه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]؛ لأنَّه يُفيدُ أنَّ سَنَنَ الأُمَمِ المَبعوثِ إليهم الرُّسُلُ لم يَختَلِفْ؛ فإنَّه لم يَخْلُ رَسولٌ عن قَومٍ آمَنوا به وقَومٍ كَذَّبوه، ثمَّ كانوا سَواءً في نِسبَةِ الشُّرَكاءِ في الإلَهيَّةِ بمَزاعِمِ النَّصارَى أنَّ عِيسَى ابنٌ لِلَّهِ تعالى؛ فتمَّ التَّشابُه بيْن الرُّسُلِ السَّابِقين وبيْن مُحَمَّدٍ صلَّى الله عليهم أجمَعينَ؛ فحَصَل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠١).

في الكَلامِ إيجازٌ تدُلُّ عليه فاءُ التَّفريعِ[١].

- وجُملَةُ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ مُبيِّنَةٌ لجُملَةِ ﴿جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾، ولَيسَتْ جَوابًا لشَرطِ (لَمَّا) الَّذي جُعِلَ التَّفريعُ في قَولِه: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧] دَليلًا عليه. وفي إيقاعِ جُملَةِ ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بَيانًا لجُملَةِ ﴿جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه بادَأَهُم بهذا القَولِ؛ لأنَّ شَأنَ أهلِ الضَّلالَةِ أنْ يُسرِعوا إلى غَاياتِها ولو كانتْ مَبادِئُ الدَّعوَةِ تُنافِي عَقائِدَهُم، أي: لم يَدْعُهم عِيسى إلى أكثَرَ مِن اتِّباعِ الحِكمَةِ وبَيانِ المُختَلَفِ فيه، ولم يَدْعُهم إلى ما يُنافي أُصولَ شَريعَةِ التَّوراةِ؛ ومع ذلك لم يَخْلُ حالُه مِن صُدودٍ مُريعٍ عنه وتَكذيبٍ[٢].

- وابتِداؤُه بإعلامِهِم أنَّه جاءَهم بالحِكمَةِ والبَيانِ -وهو إجمالُ حالِ رِسالَتِه- تَرغيبٌ لهم في وَعْيِ ما سيُلْقِيه إليهم مِن تَفاصيلِ الدَّعوَةِ المُفَرَّعِ بَعضُها على هذه المُقَدِّمَةِ بقَولِه: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾[٣].

- وفي قَولِه: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ تَهيئَةٌ لهم لِقَبولِ ما سَيُبَيِّنُ لهم حِينَئِذٍ أو مِن بَعدُ[٤].

- ولم يُذكَرْ في هذه الآيةِ قَولُه المَحكِيُّ في قولِه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عِمرانَ: ٥٠]؛ لأنَّ ذلك قد قَالَه في مَقامٍ آخَرَ، والمَقصودُ حِكايَةُ ما قَالَه لهم مِمَّا ليس شَأنُه أنْ يُثيرَ عليه قَومَه بالتَّكذيبِ؛ فهمْ كذَّبوه في وَقتٍ لم يَذكُرْ لهم فيه أنَّه جاء بنَسْخِ بَعضِ الأحكامِ مِن التَّوراةِ، أي: كذَّبوه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٥، ٢٤٦)

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٧).

في حالِ ظُهورِ آياتِ صِدقِه بالمُعجِزاتِ، وفي حالِ انتِفاءِ ما مِن شَأنِه أنْ يُثيرَ عليه شَكًّا[١].

- وفرَّع على إجمالِ فاتِحَةِ كَلامِه قَولَه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾، وهذا كَلامٌ جامعٌ لتَفاصيلِ الحِكمَةِ، وبيَانِ ما يَختَلِفون فيه؛ فإنَّ التَّقوَى مَخافَةُ اللهِ[٢].

- ويُمكِنُ أنَ تَكونَ الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ عاطِفَةً؛ فيَكونَ الكَلامُ مَعطوفًا على ما سَبَقه على أنَّه تَتِمَّةُ كَلامِ عِيسَى، ويُمكِنُ أن تَكونَ استِئنافِيَّةً؛ فيكونُ الكَلامُ مُستَأنَفًا من اللهِ؛ للدَّلالَةِ على طَريقِ الطَّاعَةِ ومَحَجَّتِها الواضِحَةِ[٣].

٨- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ بَيانٌ لِما أمرَهم بالطَّاعةِ فيه؛ وهو اعتِقادُ التَّوحيدِ والتَّعبُّدُ بالشَّرائِعِ[٤]. أو تَعليلٌ لجُملَةِ ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣]؛ لأنَّه إذا ثَبَت تَفَرُّدُه بالرُّبوبيَّةِ تَوَجَّهَ الأمرُ بعِبادَتِه؛ إذ لا يَخافُ اللهَ إلَّا مَن اعتَرَفَ برُبوبيَّتِه وانفرادِه بها[٥].

- وضميرُ الفَصلِ (هو) أفاد القَصْرَ، أي: الله ربِّي لا غَيرُه، وهذا إعلانٌ بالوَحدانيَّةِ، وإنْ كان القَومُ الَّذين أُرسِلَ إليهم عيسى مُوَحِّدين، لكنْ قد ظَهَرت بِدعَةٌ وشِركٌ في بَعضِ فِرَقِهِم الَّذين قَالُوا: عُزَيْرٌ ابنُ الله[٦].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ فيه تَأكيدُ الجُملَةِ بحَرفِ (إنَّ)؛ لمَزيدِ الاهتِمامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالخَبَرِ؛ فإنَّ المُخاطَبين غَيرُ مُنكِرين ذلك[١].

- وتَقديمُ نَفسِه على قَومِه في قَولِه: ﴿رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾؛ لقَصدِ سدِّ ذَرائِعِ الغُلُوِّ في تَقديسِ عِيسى، وذلك مِن مُعجِزاتِه؛ لأنَّ اللهَ عَلِمَ أنَّه ستَغلُو فيه فِرَقٌ مِن أتباعِهِ، فيَزعُمون بُنُوَّتَه مِن اللهِ على الحَقيقَةِ[٢].

- وفُرِّعَ على إثباتِ التَّوحيدِ لِلَّهِ الأمْرُ بعِبادَتِه بقَولِه: ﴿فَٱعْبُدُوهُ﴾؛ فإنَّ المُنفَرِدَ بالإلَهيَّةِ حَقيقٌ بأنْ يُعبَدَ[٣].

- وقولُه: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ مِن تَتِمَّةِ كَلامِ عيسى عليه السَّلامُ. أو استِئنافٌ مِن الله تعالى يَدُلُّ على ما هو المُقتَضِي للطَّاعَةِ في ذلك، وهو مُقَرِّرٌ لمقَالةِ عِيسَى عليه السَّلامُ[٤].

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هذا التَّفريعُ هو المَقصودُ مِن سَوْقِ القِصَّةِ مَساقَ التَّنظيرِ بيْن أحوالِ الرُّسُلِ، أي: عَقِبَ دَعوَتَه اختِلافُ الأحزابِ مِن بَينِ الأُمَّةِ الَّذين بُعِثَ إليهم، والَّذين تَقَلَّدوا مِلَّتَه طَلَبًا للاهتِداءِ، وهذا التَّفريعُ دَليلٌ على جَوابِ (لمَّا) المَحذوفِ[٥].

- قَولُه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ فُرِّع على ذِكْرِ الاختِلافِ تَهديدٌ بوَعيدٍ للَّذين ظَلَموا بالعَذابِ يَومِ القِيامَةِ تَفريعَ التَّذييلِ على المُذَيَّلِ؛ فـ (الَّذين ظَلَموا) يَشمَلُ جَميعَ الَّذين أَشرَكوا مع اللهِ غَيرَه في الإلَهيَّةِ؛ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، وهذا إطلاقُ الظُّلمِ غالِبًا في القُرآنِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٤٩).

فعُلِمَ أنَّ الاختِلافَ بيْنَ الأحزابِ أفضَى بِهِم أنْ صارَ أكثَرُهم مُشرِكينَ؛ بقَرينَةِ ما هو مَعروفٌ في الاستِعمالِ مِن لُزومِ مُناسَبةِ التَّذييلِ للمُذَيَّلِ، بأنْ يَكونَ التَّذييلُ يَعُمُّ المُذَيَّلَ وغَيرَه؛ فيَشمَلُ عُمومُ هذا التَّذييلِ مُشرِكي العَرَبِ المَقصُودينَ مِن هذه الأمثالِ والعِبَرِ. وفي سورة (مريم) قال: ﴿ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم: ٣٧]، فجُعِلتِ الصلةُ فِعلَ (كفروا)؛ لأنَّ المقصودَ من آيةِ سُورةِ (مريم) الذين كفروا مِن النَّصارى؛ ولذلك أردفَ بقولِه: ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴾ [مريم: ٣٨]؛ لَمَّا أُريدَ التَّخلُّصُ إلى إنذارِ المشركين بعدَ إنذارِ النَّصارَى[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٠).

## الآيات (٦٦-٧٢)

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فَجأةً، والبَغْتُ: مُفاجأةُ الشَّيءِ مِن حيثُ لا يُحتَسَبُ[1].

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ ﴾: جمعُ خَليلٍ، وهو الصَّديقُ، مِنَ الخُلَّةِ، وهي: الصَّداقةُ والمَودَّةُ؛ لأنَّها تَتخَلَّلُ النَّفْسَ، أي: تَتوسَّطُها، وأصلُ (خلل): يدُلُّ على فُرجةٍ بينَ شَيئَينِ[2].

﴿تُحْبَرُونَ﴾: أي: تُكرَمونَ وتُنَعَّمون وتُسَرُّونَ، والحَبْرةُ: السُّرورُ، وأصلُ (حبر): يدُلُّ على الأثَرِ في حُسنٍ وبَهاءٍ[3].

﴿بِصِحَافٍ﴾: جَمعُ صَحْفةٍ، وهي القَصْعةُ العَريضةُ، وأصلُ (صحف): يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩، ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٧٣).

على انبِساطٍ في شَيءٍ وسَعةٍ[١].

﴿وَأَكْوَابٍ﴾: جَمعُ كُوبٍ، وهو الإناءُ المستديرُ الرَّأسِ، لا عُرْوةَ له (وهي ما يُمسَكُ منها) ولا خُرطومَ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ، وسوءَ عاقبةِ المكذبينَ: هل يَنتَظِرُ هؤلاء إلَّا القيامةَ تأتيهم فَجأةً وهم غافِلونَ؟! الأصدِقاءُ المُتخالُّونَ على معاصي اللهِ في الدُّنيا بَعضُهم أعداءٌ لِبَعضٍ يومَ القيامةِ إلَّا الذين اتَّقَوا رَبَّهم، فيقولُ اللهُ لهم: يا عبادِي لا خَوفٌ عليكم اليَومَ، ولا أنتم تَحزَنونَ على ما مضى، وهؤلاءِ العِبادُ هم الذين آمَنوا بآياتِ اللهِ وعَمِلوا بها، وكانوا مُنقادينَ للهِ تعالى.

يُقالُ لهم: ادخُلوا الجنَّةَ أنتم وأزواجُكم، فتُكرَمونَ فيها وتَسعَدونَ. ويُطافُ عليهم في الجنَّةِ بِقِصاعٍ مِن ذَهَبٍ وأكوابٍ، فيها ما يَشتَهونَه مِن ألوانِ الطَّعامِ والشَّرابِ، وفي الجنَّةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم وتَلْتَذُّ برُؤيتِه أعيُنُهم، وهم في الجنَّةِ خالِدونَ أبدًا.

ويُقال لهم: تلك هي الجنَّةُ التي أورَثَكم اللهُ إيَّاها؛ بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الصَّالحاتِ، لكم فيها فواكِهُ كَثيرةٌ تأكُلونَ منها ما تَشتَهونَه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٧، ١٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ١٨٣) و(٣/ ٤٣٦).

قال ابن عطية: (الأكوابُ: ضربٌ مِن الأواني كالأباريقِ، إلَّا أنَّها لا آذانَ لها ولا مقابضَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٣).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٦٦ ﴾.

أي: ما يَنتَظِرونَ إلَّا يومَ القيامةِ الذي يأتيهم فَجأةً وهم غافِلونَ(١).

كما قال تعالى: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد نشَرَ الرَّجُلانِ ثَوبَهما بينَهما فلا يَتبايَعانِه ولا يَطويانِه! ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد انصرَفَ الرَّجُلُ بلَبَنِ لِقحَتِه(٢) فلا يَطعَمُه! ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وهو يَليطُ حَوضَه(٣) فلا يَسقي فيه! ولَتَقومَنَّ السَّاعةُ وقد رَفَع أحَدُكم أُكلَتَه إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣٩).

قيل: المرادُ بهم: الأحزابُ المُختَلِفونَ في شأنِ عيسى عليه السَّلامُ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابن جرير، ومكي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٦٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٤).

وقيل: المرادُ بهم: كُفَّارُ قريش. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتل بن سليمان، وابن الجوزي، وابن عطية، والعليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٣٩٨).

وممَّن ذهب إلى العُموم: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٥).

قال البقاعي: (لَمَّا عَمَّ الظَّالِمينَ بالوَعيدِ بذلك اليوم، فدَخَل فيه قُرَيشٌ وغَيرُهم؛ أتبَعَه ما هو كالتَّعليلِ مُبْرِزًا له في سياقِ الاستِفهامِ؛ لأنَّه أهوَلُ). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٧٥).

(٢) اللِّقْحَةُ: النَّاقةُ الحَلوبُ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٩٢).

(٣) يَليطُ حَوضَه: أي: يُطَيِّنُه ويُصلِحُه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (٢٣/ ٩٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٠٧).

فيه فلا يَطعَمُها!))[١].

﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ ﴾ [الزخرف: ٦٦]؛ ذَكَر عَقيبَه بَعضَ ما يَتعلَّقُ بأحوالِ القيامةِ[٢].

﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ٦٧ ﴾.

أي: الأصدِقاءُ المتصاحِبونَ على الكُفرِ والمعاصي في الدُّنيا يكونُ بَعضُهم أعداءً لِبَعضٍ يومَ القيامةِ، ويَتبَرَّأُ بَعضُهم مِن بَعضٍ إلَّا الذين اتَّقَوا اللهَ، فتآخَوا في الدُّنيا، وتَصاحَبوا على تَوحيدِ الله وطاعتِه ومَحبَّتِه[٣].

كما قال الله تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وعن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٩٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

وسلَّم يقولُ: ((قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: المتحابُّونَ في جَلالي لهم مَنابِرُ مِن نُورٍ، يَغبِطُهم[١] النَّبيُّونَ والشُّهَداءُ))[٢].

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٦٨ ﴾.

أي: يَقولُ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ لأولئك المتَّقينَ: يا عِبادي لا خَوفٌ عليكم في هذا اليَومِ مِن أمرٍ مُستَقبَلٍ؛ فإنِّي أُؤَمِّنُكم مِن الأهوالِ والعَذابِ، ولا أنتم تَحزَنونَ على ما مضى؛ فأنتم مُقدِمونَ على ما يَسُرُّكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ * لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ * لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١ - ١٠٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١].

---

(١) يَغبِطُهم: مِنَ الغِبْطةِ، وهي تَمنِّي نِعمةٍ على ألَّا تتحَوَّلَ عن صاحِبِها، بخِلافِ الحَسَدِ؛ فإنَّه تَمنِّي زوالِها عن صاحِبِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣١٣٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٠)، وأحمد (٢٢٠٨٠).

قال الترمذي: حسنٌ صحيحٌ. وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٩٠)، وصحَّح إسنادَه شُعَيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٦/ ٣٩٩، ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٦، ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٠).

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾.

أي: الذين آمَنوا بآياتِ اللهِ، وعَمِلوا بما جاءَتْهم به رسلُهم[1].

﴿وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾.

أي: وكانوا دَومًا خاضِعينَ لله، مُنقادينَ لِشَرعِه[2].

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما للمُؤمِنينَ؛ بِشارةً لهم، وترغيبًا لِغَيرِهم في اللَّحاقِ بهم على وَجهٍ فيه إجمالٌ؛ شَرَح ذلك بقَولِه[3]:

﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

قال الواحدي: (قال مُقاتِلٌ: إذا وَقَع الخَوفُ يومَ القيامةِ نادى مُنادٍ: يا عبادي ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ﴾ يعني: مِنَ العذابِ ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ فإذا سُمِعَ النِّداءُ رَفَع الخلائِقُ رُؤوسَهم، فيُقالُ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ﴾، فيُنَكِّسُ أهلُ الأديانِ رُؤوسَهم غيرَ المُسلِمينَ. قال أبو إسحاق [الزَّجَّاج] ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في مَوضِعِ نَصبٍ على النَّعتِ لـ «عِبَادِي» ... وقيل: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ابتِداءٌ وخَبَرُه مُضمَرٌ على تقديرِ: يُقالُ لهم: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾، أو يكونُ الخَبَرُ ﴿ يُطَافُ عَلَيۡهِم ﴾، ويجوزُ أن يكونَ التَّقديرُ: هم الَّذين آمَنوا بآياتِنا). ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٧٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٧).

أي: ادخُلوا الجنَّةَ أنتم وأزواجُكم[١]، فتُكرَمونَ فيها، وتُسَرُّونَ سُرورًا بالِغًا[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ﴾ [الرعد: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ﴾ [الروم: ١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۞ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ

---

(١) قال الماوَرْدي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: هم وأزواجُهم المؤمِناتُ في الدُّنيا. الثَّاني: وَمن يُزَوَّجُونَ مِن الحُورِ في الآخِرةِ. الثَّالثُ: هم وقُرَناؤُهم في الدُّنيا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٣٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: القرطبيُّ، والبيضاوي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٨).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى في هذه الآيةِ: ﴿وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ فيه لعُلماءِ التَّفسيرِ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ المرادَ بأزواجِهم: نُظراؤُهم وأشباهُهم في الطَّاعةِ وتقوى الله. واقتصر على هذا القولِ ابنُ كثير.

والثَّاني: أنَّ المرادَ بأزواجِهم: نساؤُهم في الجنَّةِ؛ لأنَّ هذا الأخيرَ أبلَغُ في التَّنعُّم والتَّلذُّذِ مِن الأوَّلِ؛ ولذا يَكثُرُ في القرآنِ ذِكرُ إكرامِ أهلِ الجنَّةِ بكَونِهم مع نسائِهم، دونَ الامتِنانِ عليهم بكَونِهم مع نُظرائِهم وأشباهِهم في الطَّاعةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

قال السعدي: (أي: مَن كان على مِثْلِ عَمَلِكم مِن كُلِّ مُقارِنٍ لكم؛ مِن زَوجةٍ، ووَلَدٍ، وصاحِبٍ، وغَيرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٢، ١٤٣).

قال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ أقوالُ العُلَماءِ فيه راجِعةٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ، وهو أنَّهم يُكرَمونَ بأعظَمِ أنواعِ الإكرامِ وأتَمِّها). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٤٣).

عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ * لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس: ٥٥ - ٥٧].

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾.

أي: يُطافُ عليهم في الجنَّةِ بقِصاعٍ مِن ذَهَبٍ فيها أنواعٌ مِن الطَّعامِ، وبأوعيةٍ للشُّربِ فيها أنواعٌ مِنَ الشَّرابِ[1].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الواقعة: ١٧ - ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦].

وعن حُذيفةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا تَلبَسوا الحَريرَ ولا الدِّيباجَ[2]، ولا تَشرَبوا في آنيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ، ولا تأكُلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٣ - ٦٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

ذهب بَعضُ المفسِّرين إلى أنَّ الأكوابَ مِن فِضَّةٍ؛ قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦]. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بن سليمان، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

وذهب بَعضُهم إلى أنَّ الأكوابَ مِن ذَهَبٍ، كالصِّحافِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٨).

(٢) الدِّيباجُ: هو نَوعٌ مِن الحريرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٧٤٩).

في صِحافِها؛ فإنَّها لهم في الدُّنيا، ولنا في الآخِرةِ))[١].

وعن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ الله عنهما، قال: سَمِعتُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ يأكُلونُ فيها ويَشرَبونَ، ولا يَتفِلونَ ولا يَبولونَ، ولا يَتغوَّطونَ ولا يَمتَخِطونَ. قالوا: فما بالُ الطَّعامِ؟ قال: جُشَاءٌ ورَشْحٌ كرَشْحِ المِسكِ، يُلهَمونَ التَّسبيحَ والتَّحميدَ كما تُلهَمونَ النَّفَسَ[٢]))[٣].

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾.

أي: وفي الجنَّةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم مِن المأكولاتِ والمَشروباتِ والمَلبوساتِ، والمَسموعاتِ والمَرئيَّاتِ، والمساكِنِ والمناكِحِ، وغيرِ ذلك مِن أنواعِ المَلَذَّاتِ والمَسرَّاتِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قال اللهُ: أعدَدْتُ لِعبادِيَ الصَّالِحينَ ما لا عَينٌ رأَت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قَلبِ بَشَرٍ، فاقرَؤوا إن شِئتُم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧]))[٥].

---

(١) رواه البخاري (٥٤٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢٠٦٧).

(٢) النَّفَسُ: أي: التَّنَفُّسُ، والمعنى: لا يَتعَبونَ مِن التَّسبيحِ والتَّهليلِ كما لا تَتعَبون أنتم مِن النَّفَسِ؛ بحيث يصيرُ الذِّكرُ صِفةً لازِمةً لا ينفكُّونَ عنها كالنَّفَسِ اللَّازِمِ للحيوانِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٥٨٢).

(٣) رواه مسلم (٢٨٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٥)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٥) رواه البخاري (٣٢٤٤) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٤).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَومًا يُحَدِّثُ وعِندَه رجُلٌ مِن أهلِ الباديةِ: أنَّ رَجُلًا مِن أهلِ الجنَّةِ استأذَنَ رَبَّه في الزَّرعِ، فقال له: ألَسْتَ فيما شِئتَ؟! قال: بلى، ولكِنِّي أُحِبُّ أن أزرَعَ! قال: فبَذَرَ فبادَرَ الطَّرْفَ نباتُه[1] واستِواؤُه واستِحصادُه، فكان أمثالَ الجِبالِ! فيَقولُ اللهُ: دُونَك[2] يا ابنَ آدَمَ؛ فإنَّه لا يُشبِعُك شَيءٌ! فقال الأعرابيُّ: واللهِ لا تَجِدُه إلَّا قُرَشيًّا أو أنصاريًّا؛ فإنَّهم أصحابُ زَرعٍ! وأمَّا نحن فلَسْنا بأصحابِ زَرعٍ. فضَحِكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[3].

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الرَّجُلَ مِن أهلِ الجنَّةِ يُعطى قُوَّةَ مِئةِ رجُلٍ في الأكلِ والشُّربِ والشَّهوةِ والجِماعِ! فقال رجُلٌ مِن اليَهودِ: فإنَّ الذي يأكُلُ ويَشرَبُ تكونُ له الحاجةُ. فقال له رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: حاجةُ أحَدِهم عَرَقٌ يَفيضُ مِن جِلدِه، فإذا بَطنُه قد ضَمُرَ[4]))[5].

﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾.

أي: وفي الجنَّةِ ما تَلْتَذُّ برُؤيتِه أعينُهم؛ لحُسنِه وجمالِه[6].

---

(١) فبادَرَ الطَّرفَ نباتُه: أي: فسابَقَه نباتُه وحَصَل في الحالِ. والطَّرْفُ: هو امتِدادُ لَحْظِ الإنسانِ حيث أدرَكَ. وقيل: طَرْفُ العَينِ: حَرَكتُها، أي: تحَرُّكُ أجفانِها. يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (١٥/ ٢٩٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠٠).

(٢) دُونَك يا ابنَ آدَمَ: أي: خُذْ ما تمنَّيتَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠٠).

(٣) رواه البخاري (٢٣٤٨).

(٤) ضَمُرَ: أي: ذَهَب رَهَلُه، واشتَدَّ لَحْمُه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٩٩).

(٥) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٤٧٨)، وأحمد (١٩٣١٤) واللفظ له.

صَحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (١٦٢٧)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (٣٥٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٢/ ٦٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((أضواء البيان)) =

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: وأنتم في الجنَّةِ ماكِثونَ، لا يَنقَطِعُ نَعيمُها عنكم، ولا أنتم منها تُخرَجونَ[1].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أي: يُقالُ لهم: وتلك هي الجنَّةُ العاليةُ المقامِ التي أعطاكم اللهُ إيَّاها؛ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ[2].

---

= للشنقيطي (٧/ ١٤٣).

قال البقاعي: (﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ مِنَ الأشياءِ المُبصَرةِ التي أعلاها النَّظَرُ إلى وَجهِه الكريمِ تعالى!). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٧٩). ويُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٩٤)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧١، ٤٧٢) و (٧/ ١٤٦).

قال الرازي: (﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ فيه قولانِ: القَولُ الأوَّلُ، وهو قولُ أهلِ المعاني: أنَّ معناه: صارت إليكم كما يصيرُ الميراثُ إلى أهلِه، والإرثُ قد يُستعمَلُ في اللُّغةِ ولا يرادُ به زوالُ المُلكِ عن الميِّتِ إلى الحَيِّ، كما يُقالُ: هذا العَمَلُ يُورِثُك الشَّرَفَ، ويُورِثُك العارَ، أي: يُصيِّرُكُ إليه، ومنهم من يقولُ: إنَّهم أُعطُوا تلك المنازِلَ مِن غيرِ تَعَبٍ في الحالِ؛ فصار شبيهًا بالميراثِ. والقولُ الثاني: أنَّ أهلَ الجنَّةِ يُورَثونَ مَنازِلَ أهلِ النَّارِ). ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٤).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ في الجملةِ: الزمخشريُّ، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٧١، ٤٧٢).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((الهداية =

كما قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومَنزِلٌ في النَّارِ، فإذا مات فدَخَل النَّارَ وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]))[1].

﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الطَّعامَ والشَّرابَ فيما تَقَدَّم، ذكَرَ هاهنا حالَ الفاكِهةِ[2].

﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣﴾.

---

= إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٠١).

قال الشنقيطي: (معنى إيراثِهم الجنَّةَ: الإنعامُ عليهم بالخُلودِ فيها في أكمَلِ نَعيمٍ وسُرورٍ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٤٧١، ٤٧٢).

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٤١)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (٣٧٧) واللفظ لهما، والبزار (٩١٥٢) مختَصَرًا.

صَحَّح إسنادَه القرطبيُّ المفَسِّر في ((التذكرة)) (٤٣٥)، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٢٦٦) وقال: (على شرط الشيخينِ)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٤٥١)، وذكر الشوكاني في ((تفسيره)) (٣/ ٦٧٣) أنَّ له شاهِدًا في مسلم. وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٢).

أي: لكم فيها فَواكِهُ كَثيرةٌ مُتنوِّعةٌ تَأكُلونَ منها ما اشتَهيتُم واختَرتُم[١].

كما قال تعالى: ﴿ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴾ [يس: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فيه أنَّ الخُلَّةَ إذا كانت على المَعصيةِ والكُفرِ صارت عَداوةً يومَ القيامةِ، أمَّا المتَّقونَ المُوحِّدونَ الَّذين يُخالِلُ بَعضُهم بعضًا على الإيمانِ والتَّقوى، فإنَّ خُلَّتَهم لا تَصيرُ عَداوةً[٢]، فكُلُّ صَداقةٍ وصَحابةٍ لغيرِ اللهِ فإنَّها تَنقَلِبُ يومَ القيامةِ عَداوةً إلَّا ما كان لله عزَّ وجَلَّ؛ فإنَّه دائِمٌ بدَوامِه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أنَّ المُتَحابِّينَ في الدُّنيا إذا كانوا مِن أهلِ الجنَّةِ ومِن المتَّقينَ، فإنَّهم يَتلاقَونَ في الآخِرةِ، ولا تَزولُ المَوَدَّةُ بيْنَهم[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ فيه أنواعٌ كَثيرةٌ مِمَّا يُوجِبُ الفَرَحَ:

**أوَّلُها:** أنَّ الحَقَّ سُبحانَه وتعالى خاطَبَهم بنَفْسِه مِن غيرِ واسِطةٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٦٩٩).

**وثانيها**: أنَّه تعالى وصَفَهم بالعُبوديَّةِ، وهذا تَشريفٌ عَظيمٌ، بدَليلِ أنَّه لَمَّا أراد أن يُشَرِّفَ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم ليلةَ المعراجِ قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

**وثالثُها**: قَولُه: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ فأزال عنهم الخَوفَ في يومِ القيامةِ بالكُلِّيَّةِ، وهذا مِن أعظَمِ النِّعَمِ.

**ورابِعُها**: قَولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فنفى عنهم الحُزنَ بسَبَبِ فَوتِ الدُّنيا الماضيةِ[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ ظاهِرُه المُغايَرةُ بينَ الإيمانِ والإسلامِ، وقد دَلَّت بعضُ الآياتِ على اتِّحادِهما، كقَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، ولا مُنافاةَ في ذلك؛ فإنَّ الإيمانَ يُطلَقُ تارةً على جميعِ ما يُطلَقُ عليه الإسلامُ مِن الاعتِقادِ والعَمَلِ، كما ثَبَت في الصَّحيحِ في حديثِ وَفدِ عبدِ القَيسِ[٢]، والأحاديثُ بمِثلِ ذلك كثيرةٌ جِدًّا. ومِن أصرَحِها في ذلك قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الإيمانُ بِضعٌ وسَبعونَ))[٣]، وفي بعض الرِّواياتِ الثَّابتةِ في الصَّحيحِ: ((بِضعٌ وسِتُّونَ شُعبةً، فأفضلها قول: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطَّريقِ))[٤]؛ فقد سَمَّى صلَّى الله عليه وسلَّم إماطةَ الأذى عن الطَّريقِ إيمانًا، فالإيمانُ الشَّرعيُّ التَّامُّ والإسلامُ الشَّرعيُّ التَّامُّ: مَعناهما واحِدٌ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٢).

(٢) الحديث أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) من حديث ابن عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٩) مختصرًا، ومسلم (٣٥) واللَّفظُ له من حديث أبي هُريرةَ رضيَ الله عنه.

وقد يُطلَقُ الإيمانُ إطلاقًا آخَرَ على خُصوصِ رُكنِه الأكبَرِ الذي هو الإيمانُ بالقَلبِ، كما في حديثِ جِبريلَ الثَّابتِ في الصَّحيحِ: ((ألا وإنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلَحَت صَلَح الجَسَدُ كُلُّه، وإذا فسَدت فسَد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القَلبُ))[١] فغَيرُه تابعٌ له، وعلى هذا تَحصُلُ المغايَرةُ في الجُملةِ بين الإيمانِ والإسلامِ. فالإيمانُ على هذا الإطلاقِ اعتِقادٌ، والإسلامُ شامِلٌ للعَمَلِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ قد عمَّ كلَّ ما تتَعَلَّقُ الشَّهواتُ النَّفسيَّةُ بنَوالِه وتَحصيلِه، واللهُ يَخلُقُ في أهلِ الجَنَّةِ الشَّهَواتِ اللَّائِقَةَ بعالَمِ الخُلودِ والسُّمُوِّ[٣].

٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ بِشارَةٌ لهم بعَدَمِ انقِطاعِ الحَبرَةِ، وسَعَةِ الرِّزقِ، ونَيلِ الشَّهواتِ، وإتمامٌ للنِّعمَةِ، وإكمالٌ للسُّرورِ؛ فإنَّ كُلَّ نَعيمٍ له زَوالٌ بالآخِرَةِ مُقارِنٌ لخَوفِه لا مَحالَةَ، مُوجِبٌ لِكُلْفَةِ الحِفظِ، وخَوفِ الزَّوالِ، ومُستَعقِبٌ للتَّحَسُّرِ في ثاني الحالِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الأعمالَ سبَبٌ لدُخولِ الجنَّةِ[٥].

٧- قال تعالى: ﴿أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأثبَتَ اللهُ تعالى دُخولَ الجنَّةِ بالأعمالِ في قَولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بيْنَما نفى رَسولُ اللهِ صلَّى الله

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٣٦).

عليه وسلَّم دُخولَها بالأعمالِ، بقَولِه: ((لا يدخلُ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعملِه))[١]، ولا تنافيَ بينهما؛ وذلك لوجوهٍ:

**الأوَّلُ**: أنَّ الباءَ الَّتي نَفَت الدُّخولَ هي باء المُعاوَضةِ الَّتي يكونُ فيها أحَدُ العِوَضَينِ مُقابِلًا للآخَرِ، والباءَ التي أثبَتَت الدُّخولَ هي باءُ السَّبَبيَّةِ التي تَقتَضي سَبَبيَّةَ ما دخَلَت عليه لِغَيرِه، وإنْ لم يكُنْ مُستَقِلًّا بحُصولِه[٢].

**الثَّاني**: ما ذكَرَه سُفيانُ وغَيرُه، قال: كانوا يقولونَ: (النَّجاةُ مِن النَّارِ بعَفوِ اللهِ، ودُخولُ الجنَّةِ برَحمتِه، واقتِسامُ المنازِلِ والدَّرَجاتِ بالأعمالِ).

**الثَّالِثُ**: أنَّ دُخولَ الجنَّةِ بسَبَبِ الأعمالِ، ثمَّ التَّوفيقُ للأعمالِ والهدايةُ للإخلاصِ فيها وقَبولُها: برَحمةِ اللهِ تعالى وفَضلِه؛ فيَصِحُّ أنَّه لم يدخُلْ بمُجَرَّدِ العَمَلِ، وهو مرادُ الأحاديثِ، ويَصِحُّ أنَّه دخَلَ بالأعمالِ، أي: بسَبَبِها، وهي مِنَ الرَّحمةِ[٣].

**الرَّابعُ**: يُحمَلُ الحَديثُ على أنَّ العَمَلَ مِن حيثُ هو عَمَلٌ لا يَستفيدُ به العامِلُ دُخولَ الجنَّةِ ما لم يكُنْ مَقبولًا، وإذا كان كذلك فأمْرُ القَبولِ إلى اللهِ تعالى، وإنَّما يَحصُلُ برَحمةِ اللهِ لِمن يُقبَلُ منه، وعلى هذا فمَعنى قَولِه: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]، أي: تَعمَلونَه مِن العَمَلِ المَقبولِ، ولا يَضُرُّ بعد هذا أن تكونَ الباءُ للمُصاحَبةِ، أو للإلصاقِ، أو المقابَلةِ، ولا يَلزَمُ مِن ذلك أن تكونَ سَببيَّةً[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦)، وأحمد (٧٤٧٣) واللَّفظُ له من حديث أبي هُريرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٨٧).

(٣) يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٢٩٦، ٢٩٧).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ بتَنزيلِ سامِعِ قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٦٥] مَنزِلَةَ مَن يَطلُبُ البَيانَ، فيَسأَلُ: مَتَى يَحُلُّ هذا اليَومُ الأَليمُ؟ وما هو هذا الوَيلُ؟ فوَرَدَت جُملةُ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ جَوابًا عن الشِّقِّ الأوَّلِ مِن السُّؤالِ، وسَيجيءُ الجَوابُ عن الشِّقِّ الثَّاني في قَولِه: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٤] الآياتِ[١].

- وقد جرَى الجَوابُ في قَولِه: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ... ﴾ على طَريقةِ الأُسلوبِ الحَكيمِ[٢]، والمعنى: أنَّ هذا العَذابَ واقِعٌ لا مَحالةَ، سَواءٌ قَرُبَ زَمانُ وُقوعِه أمْ بَعُدَ؛ فلا يَرِيبُكُم عَدَمُ تَعجيلِه، وقد أشعَرَ بهذا المَعنَى تَقييدُ إتيانِ السَّاعَةِ بقَيدِ ﴿بَغْتَةً ﴾؛ فإنَّ الشَّيءَ الَّذي لا تَسبِقُه أمارَةٌ لا يُدرَى وَقتُ حُلولِه[٣].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ إنكارِيٌّ، أي: لا يَنتَظِرون بعْدَ أنْ أَشرَكوا لحُصولِ العَذابِ إلَّا حُلولَ السَّاعةِ، وعبَّر عن اليَومِ بالسَّاعَةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١).

(٢) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١).

تَلميحًا لِسُرعَةِ ما يَحصُلُ فيه[١].

- وفائِدةُ ذِكْرِ جُملةِ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بعْدَ قَولِه: ﴿بَغْتَةً﴾ -أي: فَجأَةً-: أنَّ السَّاعَةَ تَأتِيهِم وهم غافِلُون، مَشغُولُون بأُمورِ دُنياهُم؛ فلَولا قَولُه: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ لَجازَ أنْ تَأتِيَهُم بَغتَةً وهم يَقِظُون حَذِرُون مُستَعِدُّون لها، ولَمَّا كان مَدلولُ ﴿بَغْتَةً﴾ يَقتَضِي عَدَمَ الشُّعورِ بوُقُوعِ السَّاعَةِ حين تَقَعُ عليهم؛ كانت جُملَةُ الحالِ ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ مُؤَكِّدَةً للجُملَةِ التي قَبلَها[٢].

- ويَجوزُ أن يُرادَ بـ﴿لَا يَشْعُرُونَ﴾ الإثباتُ؛ لأنَّ الكلامَ وارِدٌ على الإنكارِ، كأنَّه قيل: هل تَزعُمون أنَّها تَأتيهم بَغتَةً وهم لا يَشعُرون؟ أي: لا يَكونُ ذلك، بلْ تَأتيهِم وهم فَطِنون[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾

- قَولُه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ استِئنافٌ يُفيدُ أمْرَينِ؛ أحدُهُما: بَيانُ بَعضِ الأهوالِ الَّتِي أشارَ إليها إجمالُ التَّهديدِ في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]. وثانيهُما: مَوعِظَةُ المُشرِكِين بما يَحصُلُ يَومَ القِيامَةِ مِن الأهوالِ لأمثالِهِم، والحَبْرَةِ للمُؤمِنين[٤].

- وقدْ أُوثِرَ بالذِّكرِ هنا مِن الأَهوالِ ما له مَزيدُ تَناسُبٍ لحالِ المُشرِكين في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٧١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٢).

تَأَلُّبِهم على مُناوأَةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ودِينِ الإسلامِ؛ فإنَّهم ما ألَّبَهم إلَّا تَناصُرُهم وتَوادُّهم في الكُفرِ والتَّباهِي بذلك بيْنَهم في نَوادِيهم وأسمارِهم؛ قال تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، وتلك شنْشَنةُ أهلِ الشِّركِ مِن قبْلُ، أي: عادتُهم المستمِرَّةُ(١).

- والمُضافُ إليه (إذ) مِن قَولِه: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ هو المُعَوَّضُ عنه التَّنوينُ؛ دلَّ عليه المَذكورُ قَبلَه في قَولِه: ﴿مِنۡ عَذَابٖ يَوۡمٍ أَلِيمٍ﴾(٢) [الزخرف: ٦٥].

- وتَعريفُ (الأخِلَّاءِ) تَعريفُ الجِنسِ، وهو مُفيدٌ استِغراقًا عُرفِيًّا، أي: الأخِلَّاءُ مِن فَريقَيِ المُشرِكين والمُؤمِنين، أو الأخِلَّاءُ مِن قُرَيشٍ المُتَحَدَّثِ عنهم(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ مَقولَةٌ لقَولٍ مَحذوفٍ دلَّت عليه صِيغَةُ الخِطابِ، أي: نَقولُ لهم، أو: يَقولُ اللهُ لَهُم؛ تَشريفًا لهم، وتَطييبًا لقُلوبِهم(٤).

- ومُفاتَحةُ خِطابِهم بنَفيِ الخَوفِ عنهم تَأْنيسٌ لهم، ومِنَّةٌ بإنْجائِهم مِن مِثلِه، وتَذكيرٌ لهم بسَبَبِ مُخالَفَةِ حالِهم لحالِ أهلِ الضَّلالَةِ؛ فإنَّهم يُشاهِدون ما يُعامَلُ به أهلُ الضَّلالَةِ والفَسادِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٣).

- وقولُه: ﴿لَا خَوۡفٌ﴾ مَرفوعٌ مُنَوَّنٌ في جَميعِ القِراءاتِ المَشهورَةِ، وإنَّما لم يُفتَحْ؛ لأنَّ الفَتْحَ على تَضمينِ (مِن) الزَّائِدَةِ المُؤَكِّدَةِ للعُموم، وإذ قد كان التَّأكيدُ مُفيدًا التَّنصيصَ على عَدَمِ إرادَةِ نَفْيِ الواحِدِ، وكان المَقامُ غَيرَ مَقامِ التَّرَدُّدِ في نَفْيِ جِنسِ الخَوفِ عنهم؛ لأنَّه لم يَكُنْ واقِعًا بهم حِينَئِذٍ مع وُقوعِه على غَيرِهم، فأمارَةُ نَجاتِهم منه واضِحَةٌ -لم يُحْتَجْ إلى نَصبِ اسمِ (لا)[1].

- وجِيءَ في قَولِه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ بالمُسنَدِ إليه مُخبَرًا عنه بالمُسنَدِ الفِعلِيِّ؛ لإفادَةِ التَّقَوِّي في نَفيِ الحُزنِ عنهم؛ فالتَّقَوِّي أفاد تَقَوِّيَ النَّفيِ لا نَفْيَ قُوَّةِ الحُزنِ الصَّادِقِ بحُزنٍ غَيرِ قَوِيٍّ، هذا هو طَريقُ الاستِعمالِ في نَفسِ صِيَغِ المُبالَغَةِ؛ تَطمينًا لأنفُسِهم بانتِفاءِ الحُزنِ عنهم في أزمِنَةِ المُستَقبَلِ؛ إذ قد يَهجِسُ بخَواطِرِهم: هل يَدومُ لهم الأمنُ الَّذي هم فيه؟[2]

- وفي قَولِه: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ * ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إيجازٌ؛ وذلك في نِداءِ اللهِ تعالى لعِبادِه؛ فقد اشتَمَل هذا النِّداءُ على أُمورٍ أربَعَةٍ: نَفَى عنهم الخَوفَ، ونَفَى عنهم الحُزنَ، وأمَرَهم بدُخولِ الجَنَّةِ، وبَشَّرَهم باستِحواذِ السُّرورِ على أنفُسِهم[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾

- جُملةُ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ...﴾ نعْتٌ لِلمُنادى مِن قولِه: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، جِيءَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠٥).

فيها بالموصولِ؛ لِدَلالةِ الصِّلةِ على عِلَّةِ انتفاءِ الخَوفِ والحُزْنِ عنهم[١].

- وقَولُه: ﴿وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ حالٌ مِن الواوِ في قولِه: ﴿ءَامَنُوا۟﴾، أي: الَّذين آمَنُوا مُخلِصِين، غَيرَ أنَّ هذه العِبارَةَ آكَدُ وأبلَغُ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ عَطْفُ أزواجِهم عليهم في الإذنِ بدُخولِ الجَنَّةِ مِن تَمامِ نِعمَةِ التَّمَتُّعِ بالخُلَّةِ التي كَانَت بيْنَهم وبيْنَ أزواجِهم في الدُّنيَا[٣]. على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- قولُه تعالَى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ حُذِفَ وَصْفُ الأكوابِ؛ لدَلالَةِ وَصفِ صِحافٍ عليه، أي: وأكوابٍ مِن ذَهَبٍ[٤]، وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- ولَذَّةُ الأَعيُنِ في رُؤيَةِ الأشكالِ الحَسَنَةِ والألوانِ التي تَنشَرِحُ لها النَّفسُ؛ فلَذَّةُ الأَعيُنِ وَسيلَةٌ لِلَذَّةِ النُّفوسِ؛ فعَطْفُ ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ على ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ عَطْفُ ما بيْنه وبيْن المَعطوفِ عليه عُمومٌ وخُصوصٌ، وذلك تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصِ ما يُعَدُّ مِن الزَّوائِدِ في التَّنَعُّمِ والتَّلَذُّذِ؛ فقد تَشتَهي الأنفُسُ ما لا تَراهُ الأَعيُنُ؛ كالمُحادَثَةِ مع الأصحابِ، وسَماعِ الأصواتِ الحَسَنَةِ، وقد تُبصِرُ الأعيُنُ ما لم تَسبِقْ للنَّفسِ شَهوَةُ رُؤيَتِه، أو ما اشتَهَت النَّفسُ طَعْمَه أو سَمْعَه، فيُؤتَى به في صُوَرٍ جَميلَةٍ إكمالًا للنِّعمَةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٥).

- و﴿ٱلْأَعْيُنُ﴾ فاعِلُ (تَلَذُّ)، وحُذِفَ المَفعولُ لظُهورِهِ مِن المَقامِ[١].

- وفي قَولِه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ إيجازٌ؛ فقَد حَصَر أنواعَ النِّعَمِ؛ لأنَّها لا تَعدُو أمْرَين اثنَينِ: إمَّا مُشتَهاةٌ في القُلوبِ، وإمَّا مُستَلَذَّةٌ في العُيونِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ الْتفاتٌ مِن الغائِبِ للمُتَكَلِّمِ، وهو الْتِفاتٌ للتَّشريفِ[٣].

- وجِيءَ بالجُملةِ الاسمِيَّةِ الدَّالَّةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ؛ تَأكيدًا لحَقيقَةِ الخُلودِ؛ لِدَفعِ تَوَهُّمِ أنْ يُرادَ به طُولُ المُدَّةِ فحَسْبُ[٤].

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿فِيهَا﴾؛ للاهتِمامِ[٥].

- وفي الخِطابِ والالْتِفاتِ، وتَقديمِ الظَّرفِ في قَولِه: ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ما لا يَكتَنِهُه الوَصفُ[٦].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ عُطِفَ على بَعضِ ما يُقالُ لهم مَقولٌ آخَرُ قُصِدَ منه التَّنويهُ بالجَنَّةِ وبالمُؤمِنين؛ إذْ أُعطُوها بسَبَبِ أعمالِهِمُ الصَّالِحَةِ، فأُشيرَ إلى الجَنَّةِ باسمِ إشارَةِ البَعيدِ؛ تَعظيمًا لشَأنِها، وإلَّا فإنَّها حاضِرَةٌ نُصبَ أعيُنِهِم؛ وهو تَذييلٌ للقَولِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٧٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

- ودلَّ قَولُه: ﴿كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على أنَّ عَمَلَهُم أمْرٌ كائِنٌ مُتَقَرِّرٌ، وأنَّ عَمَلَهم ذلك مُتَكَرِّرٌ مُتَجَدِّدٌ، أي: غَيرُ مُنقَطِعٍ إلى وَفاتِهِم[١].

٨- قولُه تعالَى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾

- قَولُه: ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (مِن) للتَّبعيضِ، أي: لا تَأكلُون إلَّا بَعضَها؛ لكَثرَتِها ودَوامِ نَوعِها، وأَعقابُها باقِيَةٌ في شَجَرِها؛ فهي مُزَيَّنَةٌ بالثِّمارِ أبدًا مُورِقَةٌ بها، لا تَرَى شَجَرَةً عُريانَةً مِن ثَمَرِها كما في الدُّنيا[٢].

- ووَجْهُ تَكريرِ الامتنانِ بنَعيمِ المأْكلِ والمشْرَبِ في الجنَّةِ: أنَّ ذلك مِن النَّعيمِ الذي لا تَختَلِفُ الطِّباعُ البَشَرِيَّةُ في استِلذاذِهِ؛ ولذلك قال: منها تأكلون[٣]، وقيل غير ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦).

## الآيات (٧٤-٨٠)

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَا يُفَتَّرُ﴾: أي: لا يُخَفَّفُ، والفُتورُ: سكونٌ بعْدَ حدَّةٍ، ولِينٌ بعْدَ شدَّةٍ، وضعْفٌ بعْدَ قوَّةٍ، وأصلُ (فتر): يدُلُّ على ضَعفٍ[١].

﴿مُبْلِسُونَ﴾: أي: آيِسونَ قانِطونَ، وأصْلُ (بلس): يدُلُّ على يَأسٍ[٢].

﴿مَّٰكِثُونَ﴾: أي: لابِثون ثابِتون مُنتظِرون في النَّارِ، مِن المُكثِ: وهو ثَباتٌ مع انتظارٍ[٣].

﴿أَبْرَمُوٓا۟﴾: أي: أحْكَموا، وأصلُ (برم) هنا: يدُلُّ على إحكامِ شَيءٍ، مِن إبرامِ الحَبْلِ، وهو تَرديدُ فتْلِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٠).

﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾: أي: ما يَتَسارُّونَ به بيْنَهم، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مبيِّنًا حالَ الأشقياءِ يومَ القِيامةِ: إنَّ المُجرِمينَ في عَذابِ جَهنَّمَ ماكِثونَ أبدًا، لا يُخفَّفُ عنهم العَذابُ، وهم فيه آيِسونَ مِن كلِّ خَيرٍ، وما ظلَمْناهم ولكِنْ همْ ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ باللهِ والعِصيانِ.

ونادَوا مالِكًا خازِنَ النَّارِ، فقالوا: يا مالِكُ، لِيَقضِ علينا رَبُّك؛ لِنَستريحَ مِمَّا نحنُ فيه مِن العذابِ! فقال لهم مالِكٌ: إنَّكم باقونَ في العَذابِ أبدًا؛ لقدْ أُرسِلَ إليكم الرُّسُلُ بالحَقِّ مِن رَبِّكم، ولكِنَّ أكثَرَكم كانوا كارِهينَ للحَقِّ فلم يُؤمِنوا!

ثمَّ يقولُ اللهُ تعالَى مُوبِّخًا للمشركينَ: أمْ أَحْكَمَ أولئك المُشرِكونَ أمْرًا؛ لِيَكيدوا به الحَقَّ وأهلَه؟! فإنَّ اللهَ تعالَى مُحكِمٌ أمرًا لكَيدِهم به!

أمْ يَحسَبونَ أنَّ اللهَ لا يَسمَعُ ما يُسِرُّونَه في أنفُسِهم، وما يَتناجَونَ به فيما بيْنَهم مِنَ الكلامِ الخَفيِّ، فلا يُؤاخِذُهم به؟! بلَى! لم يَغِبْ عنَّا شَيءٌ مِن شأنِهم، وسنُجازيهم عليه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا ذَكَر الوَعدَ أردَفَه بالوَعيدِ؛ على التَّرتيبِ المُستَمِرِّ في القُرآنِ[٢]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢ - ٧٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٣).

فلمَّا ذَكَر تعالَى حالَ أهلِ الجنَّةِ، وما يُقالُ لهم مِن لَذائِذِ البِشارةِ؛ أَعقَبَ ذلك بذِكرِ حالِ الكَفَرةِ وما يُجاوَبونَ به عند سُؤالِهم[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر ما للقِسمِ الثَّاني مِن الأخِلَّاءِ -وهم المتَّقونَ- تَرغيبًا لهم في التَّقوى؛ أتْبَعَه ما لأضدادِهم -أهلِ القِسمِ الأوَّلِ-؛ تَحذيرًا مِن مِثلِ أعمالِهم[٢].

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾.

أي: إنَّ الذين أجْرَموا في الدُّنيا بالكُفرِ باللهِ، وتَكذيبِ رُسُلِه، وعِصيانِ أمرِه: في عَذابِ جَهنَّمَ ماكِثونَ أبدًا[٣].

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾.

أي: لا يُخفَّفُ عنهم العَذابُ ولو ساعةً واحِدةً[٤].

﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

أي: وهم في عَذابِ جَهنَّمَ آيِسونَ مِن النَّجاةِ، غيرُ راجِينَ للفَرَجِ[٥].

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨١-٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها جُملةٌ مُعتَرِضةٌ في حِكايةِ أحوالِ المُجرِمينَ، قُصِدَ منها نَفيُ استِعظامِ ما جُوزُوا به مِن الخُلودِ في العَذابِ، ونَفيُ الرِّقَّةِ لحالِهم المحكيَّةِ بِقَولِه تعالَى: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[1].

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

أي: وما ظَلَمْناهم ولكِنْ هم ظَلَموا أنفُسَهم في الدُّنيا بالشِّركِ باللهِ، وجُحودِهم آياتِه، وتَكذيبِهم رُسُلَه، وعِصيانِهم لأمْرِه[2].

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

أي: ونادَى المُجرِمونَ -وهُمْ في النَّارِ- مالِكًا خازِنَ النَّارِ، فقالوا: يا مالِكُ، لِيُمِتْنا رَبُّك فيَقبِضْ أرواحَنا؛ لِنَستريحَ مِمَّا نحن فيه مِنَ العَذابِ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال ابنُ الجَوزي: (قال المفسِّرون: يَدْعُون مالكًا خازنَ النَّارِ، فيقولون: ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: لِيُمِتْنا). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٤).

وقال ابنُ تَيميَّةَ: (قال ابنُ زيْدٍ: القَضاءُ هاهنا: الموتُ، وكذلك قال سائِرُ المفَسِّرينَ). ((الرد على من قال بفناء الجنة والنار)) (ص: ٧٣).

وقال ابنُ عاشورٍ: (خاطَبوه لِيَرفَعَ دَعوتَهم إلى اللهِ تعالى شَفاعةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٩).

وقال الشنقيطيُّ: (الظَّاهِرُ أنَّ المعنى: أنَّ مُرادَهم بذلك سؤالُ مالِكٍ خازِنِ النَّارِ أنْ يدْعوَ اللهَ =

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ [فاطر: ٣٦].

وقال سُبحانَه وتعالَى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ - ١٣].

وعن سَمُرةَ بنِ جُندُبٍ رَضيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((رأيتُ اللَّيلةَ رَجُلينِ أتَياني قالَا: الَّذي يُوقِدُ النَّارَ مالِكٌ خازِنُ النَّارِ، وأنا جِبريلُ، وهذا مِيكائيلُ))(١).

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾.

أي: أجابَهم مالِكٌ خازنُ النَّارِ بقَولِه: إنَّكم باقُونَ في عَذابِ جَهنَّمَ، ولا خُروجَ لكم منها أبدًا(٢).

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ

---

= لهم بالموتِ، والدَّليلُ على ذلك أمرانِ: الأوَّلُ: أنَّهم لو أرادوا دُعاءَ اللهِ بأنفُسِهم أنْ يُميتَهم لَمَا نادَوا ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾، ولَمَا خاطَبوه في قولِهم: ﴿رَبُّكَ﴾. والثاني: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ في سُورة «المؤمن» أنَّ أهلَ النَّارِ يَطلُبونَ مِن خَزَنةِ النَّارِ أنْ يَدعوا اللهَ لهم؛ لِيُخَفِّفَ عنهم العذابَ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٩]) ((أضواء البيان)) (٧/ ١٤٦).

(١) رواه البخاري (٣٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٧].

وقال الله تَبارك وتعالَى: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: لقدْ أرسَلْنا إليكم رَسولَنا بالحقِّ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال ابنُ عطيةَ: (قولُه: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم ﴾ الآيةَ، يَحتَمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ مالكٍ لأهلِ النَّارِ، ويكونَ قَولُه: ﴿جِئْنَٰكُم﴾ على حَدِّ ما يُدخِلُ أحَدٌ -حمَّله الرَّئيسُ كِتابَه- نَفْسَه في فِعلِ الرَّئيسِ، فيَقولُ: غلَبْناكم وفعَلْنا بكم.. ونحوَ هذا، ثُمَّ يَنقَطِعُ كلامُ مالكٍ في قَولِه: ﴿ كَٰرِهُونَ ﴾. ويَحتَمِلُ أنْ يكونَ قَولُه: ﴿جِئْنَٰكُم﴾ مِن قَولِ اللهِ تعالى لِقُرَيشٍ بعَقِبِ حِكايةِ أمرِ الكُفَّارِ مع مالكٍ، وفي هذا توعُّدٌ وتَخويفٌ فَصيحٌ، بمعنى: انظُروا كيف تكونُ حالُكم؟! ثمَّ تتَّصِلُ الآيةُ على هذا بما بعْدَها مِن أمرِ قُرَيشٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٥).

وممَّن قال بأنَّ هذا القَولَ مِن كَلامِ اللهِ تعالى، وأنَّه خِطابٌ لأهلِ النَّارِ: الزمخشريُّ، وأبو السعود، واستظْهَره الشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٧).

قال الزمخشريُّ: (لَمَّا سألوا مالِكًا أنْ يَسألَ اللهَ تعالى القَضاءَ عليهم، أجابَهم اللهُ بذلك). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥).

وقال أبو السُّعود: (﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ في الدُّنيا؛ بإرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ، وهو خِطابُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ مِن جِهةِ اللهِ تعالى، مُقَرِّرٌ لجوابِ مالكٍ، ومُبَيِّنٌ لِسَبَبِ مُكثِهم). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥).

وممَّن ذهبَ إلى أنَّه مِن كلامِ مالكٍ خازنِ النَّارِ: مقاتلُ بنُ سُليمان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٠).

قال ابنُ عاشورٍ: (وضَميرُ ﴿جِئْنَٰكُم﴾ للملائِكةِ، والحَقُّ: الوَحيُ الَّذي نزَل به جِبريلُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٠). =

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَكم -أيُّها المُشرِكونَ- كارِهونَ لِما جاءَكم به رسولُنا مِن الحقِّ، فلم تَقْبلوه، ولم تَخضَعوا له وتَنقادوا إليه[1]!

كما قال تعالَى: ﴿بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٨، ٩].

﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ٧٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالَى كَيفيَّةَ عَذابِهم في الآخِرةِ؛ ذكَرَ بعْدَه كَيفيَّةَ مَكرِهم، وفَسادَ

---

= وقال ابنُ القيِّم: (الحَقُّ هاهنا: هو ما بُعِث به المُرسَلونَ. باتِّفاقِ المفَسِّرينَ). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٥١).

وقال الشَّوكانيُّ: (المرادُ بالحقِّ: كلُّ ما أمَر اللهُ به على ألسُنِ رُسلِهِ وأنزَلَه في كُتبِه. وقيل: هو خاصٌّ بالقُرآنِ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٧).

وممَّن خصَّص معنى الحقِّ هنا بالقُرآن: السَّمعانيُّ، والبقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١).

قال ابنُ جريرٍ: (يقولُ: لقدْ أرسَلْنا إليكم -يا مَعشَرَ قُريشٍ- رَسولَنا محمَّدًا بالحقِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١).

وقال البقاعيُّ: (﴿لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم﴾، أي: في هذه السُّورةِ خُصوصًا، وجميعِ القُرآنِ عمومًا). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٤٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

قال الشَّوكانيُّ: (قيل: ومعْنى ﴿أَكۡثَرَكُمۡ﴾: كلَّكم. وقيل: أرادَ الرُّؤساءَ والقادةَ، ومَن عدَاهم أتْباعٌ لهم). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٨).

باطِنِهم في الدُّنيا، فقال[١]:

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ٧٩﴾.

أي: أمْ أحْكَمَ أولئك المُشرِكونَ أمْرًا يَكيدونَ به الحَقَّ وأهْلَه، ولم يَقتَصِروا على كَراهتِه؟! فإنَّ اللهَ تعالَى مُحكِمٌ أمرًا لِكَيدِهم به[٢]!

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ٨٠﴾.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾.

أي: أمْ يظُنُّ أولئك المُشرِكونَ باللهِ أنَّا لا نَسمَعُ ما يُسِرُّونَه في أنفُسِهم، وما يَتناجَونَ به فيما بيْنَهم من الكَلامِ الخَفيِّ، فلا نُؤاخِذُهم بذلك[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦-٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال الألوسيُّ: (إنْ كان ذاك خِطابًا لأهلِ النارِ، فإبرامُ الأمرِ في مُجازاتِهم هو تَخليدُهم في النارِ مُعذَّبين، وإنْ كان خطابًا لقُريشٍ، فهو خِذْلانُهم ونصْرُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليهم، فكأنَّه قيل: فإنَّا مُبْرِمون أمْرًا في مُجازاتِهم وإظهارِ أمْرِك). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٠٣).

وقال الماورديُّ: (قولُه تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ فيه ثَلاثةُ أوجهٍ: أحدُها: أمْ أجْمَعوا على التَّكذيبِ فإنَّا مُجمِعون على الجزاءِ بالبعثِ. قاله قتادةُ. الثاني: أمْ أحْكَموا كيْدًا، فإنَّا مُحكِمون لها كيْدًا. قاله ابنُ زيْدٍ. الثالثُ: قضَوا أمرًا فإنَّا قاضُون عليهم بالعذابِ. قاله الكلْبيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾.

أي: بلَى! نحن نَسمَعُ ما يُسِرُّونَ، وما به يَتناجَونَ، ومَلائِكتُنا الحَفَظةُ عِندَهم يَكتُبونَ جَميعَ أحاديثِهم، وسيُجازَونَ عليها[1]!

كما قال تعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

في قَولِه تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أنَّ اللهَ تعالَى يَسمَعُ كلامَك وإنْ خَفَتَ؛ فإيَّاك أنْ تُسمِعَ اللهَ عزَّ وجلَّ كَلامًا لا يَرضاه منك، واحرِصْ على أنْ تُسمِعَ اللهَ ما يَرْضاه منك[2].

---

= (١٦/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٢).

قال الزَّمخشريُّ: (فإنْ قُلتَ: ما المرادُ بالسِّرِّ والنَّجوى؟ قُلتُ: السِّرُّ ما حَدَّث به الرَّجُلُ نَفسَه أو غيرَه في مكانٍ خالٍ. والنَّجوى: ما تكَلَّموا به فيما بيْنَهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥).

وقال أبو هلالٍ العسْكريُّ: (الفرْقُ بيْن النَّجوى والسِّرِّ: أنَّ النَّجوى اسمٌ للكلامِ الخفيِّ الذي تُناجي به صاحبَك، كأنَّك تَرفَعُه عن غيْرِه؛ وذلك أنَّ أصلَ الكلمةِ الرِّفعةُ، ومنه النَّجْوةُ من الأرضِ...، والسِّرُّ: إخفاءُ الشَّيءِ في النفْسِ، ولو اختَفى بسِترٍ أو وراءَ جدارٍ لم يكُنْ سِرًّا). ((الفروق اللغوية)) (ص: ٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٥٥٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ﴾، بعْدَما وصَفَهم بالإبلاسِ في قولِه: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ والمبْلسُ: اليائِسُ السَّاكِتُ سُكوتَ يائِسٍ مِنْ فَرَجٍ[1]؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: تلك أزمِنةٌ مُتطاوِلةٌ وأحقابٌ مُمتدَّةٌ، فتَختَلِفُ بهم الأحوالُ؛ فيَسكُتونَ أوقاتًا لغَلَبةِ اليأسِ عليهم، ويَستَغيثون أوقاتًا لشِدَّةِ ما بهم[2].

**الوَجهُ الثَّاني**: نِداؤُهم لا يُنافي إبلاسَهم؛ لأنَّه السُّكوتُ عن يأْسٍ، فسُكوتُهم المقَيَّدُ باليأسِ دائِمٌ؛ فلذلك سَألوا الموتَ، والحاصِلُ: أنَّهم لا يَتكَلَّمونَ بما يدُلُّ على رَجاءِ الفَرَجِ، بلْ هم ساكِتونَ أبدًا عن ذلك[3].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّهم لا يُجابونَ إلى الموتِ، بلْ يَمكُثونَ في النَّارِ مُعَذَّبينَ إلى غيرِ نِهايةٍ[4].

٣- القَضاءُ في قولِه تعالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ بمعْنى: الإماتَةِ، وسَأَلوا اللهَ أنْ يُزيلَ عنهم الحَياةَ ليَستَريحُوا مِن إحساسِ العَذابِ، وهم إنَّما سَأَلوا اللهَ أنْ يُميتَهُم، فأُجِيبُوا بأنَّهُم ماكِثُون جَوابًا جامِعًا لنَفيِ الإماتَةِ

---

(١) قال ابن عاشورٍ: (والإبلاسُ: اليأْسُ والذُّلُّ... وزاد الزَّمخشريُّ في معْنى الإبلاسِ قَيْدَ السُّكوتِ ولم يَذكُرْه غيرُه، والحقُّ أنَّ السُّكوتَ مِن لوازِمِ معنى الإبلاسِ وليسَ قيدًا في المعْنى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٦-١٤٧).

ونَفيِ الخُروجِ؛ فهو جَوابٌ قاطِعٌ لِمَا قدْ يَسأَلُونَه مِن بَعدُ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ في هذه الآيةِ الكَريمةِ سُؤالٌ مَعروفٌ؛ وهو أنْ يُقالَ: يُفهَمُ مِن مَفهومِ مُخالَفةِ الآيةِ: أنَّ قَليلًا مِن الكُفَّارِ ليْسوا كارِهِين للحقِّ.

**والجوابُ عن هذا السُّؤالِ**: هو ما أجابَ به بعضُ أهلِ العِلمِ بأنَّ قَليلًا مِن الكُفَّارِ كانوا لا يَكرَهون الحَقَّ، وسَببُ امتناعِهِم عن الإيمانِ باللهِ ورسولِه ليْس هو كَراهيتَهم للحقِّ، ولكنَّ سَببَه الأَنفةُ والاستنكافُ مِن تَوبيخِ قَومِهم، وأنْ يَقولوا: صَبَؤوا وفارَقوا دِينَ آبائِهِم، ومِن أمثلةِ مَن وقَعَ له هذا أبو طالبٍ؛ فإنَّه لا يَكرَهُ الحقَّ الذي جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقدْ كان يشُدُّ عَضُدَه في تَبليغِه رِسالتَه، ولكنَّ السَّببَ المانعَ له مِن اعتناقِ الإسلامِ هو الأَنَفةُ والخوْفُ مِن مَلامةِ قوْمِه أو سَبِّهم له[٢].

وأيضًا فإنَّما نُسِبَتْ كَراهَةُ الحَقِّ إلى أكثَرِهم دُونَ جَميعِهم؛ لأنَّ المُشرِكين فَريقانِ: أحَدُهُما: سادَةٌ كُبَراءُ لِمِلَّةِ الكُفرِ، وهم الَّذين يَصُدُّون النَّاسَ عن الإيمانِ بالإرهابِ والتَّرغيبِ، وثَانِيهُما: دَهماءُ وعامَّةٌ، وهمْ تَبَعٌ لأَئِمَّةِ الكُفرِ[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ عَطفُ ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾؛ لِيَعلَموا أنَّ عِلمَ اللهِ بما يُسِرُّونَ عِلمٌ يَترتَّبُ عليه أثَرٌ فيهم، وهو مُؤاخَذتُهم بما يُسِرُّونَ؛ لأنَّ كِتابةَ الأعمالِ تُؤذِنُ بأنَّها ستُحسَبُ لهم يوْمَ الجَزاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٣).

٦- إنَّ طَريقةَ القُرآنِ: يذكُرُ العِلمَ والقُدرةَ تَهديدًا وتَخويفًا؛ ليُرتِّبَ الجزاءَ عليهما، كما قال تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، وهذا كثيرٌ جِدًّا في القرآنِ، وليس المرادُ به مُجرَّدَ الإخبارِ بالقُدرةِ والعِلمِ، لكِنِ الإخبارُ مع ذلك بما يَترتَّبُ عليهما مِنَ الجَزاءِ وبالعَدلِ؛ فإنَّه إذا كان قادِرًا أمكَنَ مُجازاتُه، وإذا كان عالِمًا أمكَنَ ذلك بالقِسطِ والعَدلِ، ومَن لم يكُنْ قادِرًا لم يُمكِنْ مُجازاتُه، وإذا كان قادِرًا لكِنَّه غيرُ عالمٍ بتَفاصيلِ الأعمالِ ومَقاديرِ جَزائِها، لم يُجازِ بالعَدلِ، والرَّبُّ تعالَى مَوصوفٌ بكَمالِ القُدرةِ وكَمالِ العِلمِ(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ لِهَذه الجُملَةِ مَوقِعَانِ: أحَدُهُما: إتمامُ التَّفصيلِ لِمَا أجْمَلَه الوَعيدُ الَّذي في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥] عَقِبَ تَفصيلِ بَعضِه بقَولِه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ [الزخرف: ٦٦] إلخ، وبقَولِه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، حيث قُطِعَ إتمامُ تَفصيلِه بالاعتِناءِ بذِكْرِ وَعدِ المُؤمِنين المُتَّقين؛ فهي في هذا المَوقِعِ بَيانٌ لجُملَةِ الوَعيدِ، وتَفصيلٌ لإجمالِها. المَوقِعُ الثَّاني: أنَّها كالاستِئنافِ البَيانِيِّ يُثيرُه ما يُسمَعُ مِن وَصْفِ أحوالِ المُؤمِنين المُتَّقين مِن

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٠).

التَّساؤُلِ: كيف يَكونُ حالُ أَضدادِهم المُشرِكين الظَّالِمين[١]؟

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ فيه افتِتاحُ الخَبَرِ بحَرفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به، أو لتَنزيلِ السَّائِلِ المُتَلَهِّفِ للخَبَرِ مَنزِلَةَ المُتَرَدِّدِ في مَضمونِه؛ لشِدَّةِ شَوقِه إليه، أو نَظَرًا إلى ما في الخَبَرِ مِن التَّعريضِ بإسماعِهِ المُشرِكين وهم يُنكِرون مَضمونَه؛ فكَأنَّه قيل: إنَّكُم أيُّها المُجرِمون في عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُون[٢].

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الرَّاسِخين في الإجرامِ، وهُم الكُفَّارُ المُشرِكون المُكَذِّبون للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ السِّياقَ لهم حَسْبَما يُنْبِئُ عنه إيرادُهم في مُقابَلَةِ المُؤمنين بالآياتِ، ولأنَّ الجُملَةَ بَيانٌ لإجمالِ وَعيدِهِم في قولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥]، ولأنَّ جَوابَ الملائكةِ نِداءَهم -على قولٍ في التَّفسيرِ- بقَولِهم: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨] لا يَنطبِقُ على غيرِ المكذِّبين، أي: كارِهونَ للإسلامِ والقرآنِ؛ فذِكْرُ المُجرِمينَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ للتَّنبيهِ على أنَّ شِركَهم إجرامٌ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جُملَةٌ مُعترِضَةٌ في حِكايَةِ أحوالِ المُجرِمين، قُصِدَ منها نَفْيُ استِعظامِ ما جُوزُوا به مِن الخُلودِ في العَذابِ، ونَفيُ الرِّقَّةِ لحالِهِم المَحكِيَّةِ بقَولِه: ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[٤] [الزخرف: ٧٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨).

- وضَميرُ الفَصلِ (هم) في قولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مُجتَلَبٌ لإفادَةِ قَصرِ صِفَةِ الظُّلمِ على اسمِ (كان)، وإذ قدْ كان حَرفُ الاستِدراكِ بعْدَ النَّفيِ كافِيًا في إفادَةِ القَصرِ، كان اجتِلابُ ضَميرِ الفَصلِ تَأكيدًا للقَصرِ بإعادَةِ صِيغَةٍ أُخرَى مِن صِيغَ القَصرِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾

- جُملةُ ﴿وَنَادَوْاْ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾؛ حُكِيَ نِداؤُهم بصِيغَةِ الماضي مع أنَّه مِمَّا سيَقَعُ يومَ القِيامَة؛ إمَّا لأنَّ إبلاسَهم في عَذابِ جَهَنَّم -وهو اليَأسُ- يَكونُ بعْدَ أنْ نَادَوْا: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾، وأجابَهم بما أجابَ به، وذلك إذا جُعِلَت جُملَةُ ﴿وَنَادَوْاْ﴾ حالِيَّةً، وإمَّا لتَنزيلِ الفِعلِ المُستَقبَلِ مَنزِلَةَ الماضي في تَحقيقِ وُقوعِه؛ تَخريجًا للكَلامِ على خِلافِ مُقتَضَى الظَّاهِرِ، وهذا إنْ كانَت جُملَةُ ﴿وَنَادَوْاْ ...﴾ إلخ مَعطوفَةً[2].

- واللَّامُ في ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ لامُ الأَمرِ بمَعنَى الدُّعاءِ. وتَوجيهُ الأمرِ إلى الغائِبِ لا يَكونُ إلَّا على مَعنَى التَّبليغِ كما هنا، أو تَنزيلِ الحاضِرِ مَنزِلَةَ الغائِبِ لاعتِبارٍ ما؛ مثلِ التَّعظيمِ[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ تَتِمَّةُ الجوابِ إنْ كان في (قالَ) ضَميرُ اللهِ، وإلَّا فجَوابٌ منه؛ فكَأنَّه تعالَى تَوَلَّى جَوابَهم بعْدَ جَوابِ مالِكٍ -على قولٍ في التفسيرِ-؛ فهو خِطابُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ مِن جِهَةِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٠).

تعالَى مُقَرِّرٌ لجَوابِ مالِكٍ، ومُبَيِّنٌ لسَبَبِ مُكثِهِم[١].

- وجُملَةُ ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ في مَوضِعِ العِلَّةِ لجُملَةِ ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾؛ باعتِبارِ تَمامِ الجُملَةِ، وهو الاستِدراكُ بقَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾[٢].

- وضَميرُ ﴿جِئْنَٰكُم﴾ للمَلائِكَةِ -على قولٍ-، و(الحقُّ): الوَحيُ الَّذي نَزَل به جِبريلُ -على قولٍ أيضًا-؛ فنَسَب مالِكٌ المَجيءَ بالحَقِّ إلى جَمعِ المَلائِكَةِ على طَريقَةِ اعتِزازِ الفَريقِ والقَبيلَةِ بمَزايَا بَعضِها[٣].

- وتَقديمُ ﴿لِلْحَقِّ﴾ على ﴿كَٰرِهُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالحَقِّ تَنويهًا به، وفيه مُراعاةٌ للفاصِلَةِ أيضًا[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ للإنْحاءِ باللَّائِمَةِ على المُشرِكين لِمَا بَدَرَ منهم، و(أمْ) مُنقَطِعَةٌ بمعنى (بل) للإضرابِ والانتِقالِ مِن تَوبيخِ أهلِ النَّارِ وحِكايَةِ حالِهِم إلى حِكايَةِ جِنايَةِ هَؤلاءِ المُشرِكين[٥].

- والهَمزةُ في قولِه: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ﴾ استِفهامٌ للإنكارِ والتَّقريرِ والتَّهديدِ، فإنْ أُريدَ بالإبرامِ الإحكامُ حَقيقةً، فهيَ لإنكارِ الوُقوعِ واستبعادِه، وإنْ أُريدَ الإحكامُ صُورةً، فهي لإنكارِ الواقِعِ واستِقباحِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦١).

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ للتَّفريعِ على ما اقتَضاهُ الاستِفهامُ مِن تَقديرِ حُصولِ المُستَفهَمِ عنه؛ فيَؤُولُ الكَلامُ إلى مَعنَى الشَّرطِ، أي: إنْ أَبرَموا أمرًا مِن الكَيدِ فإنَّ اللهَ مُبرِمٌ لهم أمرًا مِن نَقضِ الكَيدِ، وإلحاقِ الأذى بِهِم، ونَظيرُه وفي مَعناهُ قَولُه: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾[1] [الطور: ٤٢].

- قَولُه: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ فيه العُدولُ عن الخِطابِ إلى الغَيبَةِ؛ للإشعارِ بأنَّ ذلك أسوَأُ مِن كَراهَتِهم للحقِّ[2].

- وجاء قولُه: ﴿أَبْرَمُوا﴾ فِعلًا و﴿مُبْرِمُونَ﴾ اسمَ فاعلٍ، فخُولِفَ بيْنهما في الصِّيغةِ؛ لأنَّ إبرامَهم واقِعٌ، وأمَّا إبرامُ اللهِ جَزاءٌ لهم؛ فهو تَوَعُّدٌ بأنَّ اللهَ قَدَّرَ نَقْضَ ما أبرَموه؛ فإنَّ اسمَ الفاعِلِ حَقيقَةٌ في زَمَنِ الحالِ، أي: نحْن نُقَدِّرُ لهم الآنَ أمرًا عَظيمًا، قيل: ذلك إيجادُ أسبابِ وَقعَةِ بدَرٍ التي استُؤصِلُوا فيها[3].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿مُبْرِمُونَ﴾؛ لدَلالَةِ ما قَبلَه عليه[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾

- قَولُه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ (أمْ) والاستِفهامُ المُقَدَّرُ بَعدَها استِفهامٌ للإنكارِ والتَّقريرِ والتَّهديدِ. وحَرفُ (بلى) جَوابٌ للنَّفيِ مِن قَولِه: ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ﴾، أي: بَلى نَحنُ نَسمَعُ سِرَّهُم ونَجواهُم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٨١-٨٩)

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ يَخُوضُوا۟ ﴾: الخوضُ: الدُّخولُ في الحَديثِ، ويُطلَقُ على الجِدالِ واللَّجاجِ غيرِ المحمودِ، والرَّديءِ مِن الكلامِ، وأكثرُ ما ورَدَ في القرآنِ ورَد فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، يُقالُ: فلانٌ يَخوضُ، أي: يَتكلَّمُ بما لا يَنْبغي، وأصلُه: الدُّخولُ في الماءِ والشُّروعُ فيه والمرورُ، وأصلُ (خوض): يدُلُّ على تَوسُّطِ شَيءٍ ودُخولٍ[1].

﴿ وَتَبَارَكَ ﴾: أي: تعاظَمَ، وتعالَى، وتقَدَّس، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثَباتُ الشَّيءِ[2].

﴿ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾: الشَّفاعَةُ: الانْضِمامُ إلى آخَرَ نُصْرةً له، وسُؤالًا عنه، وشَفَعَ لِفُلانٍ إذا جاءَ مُلْتَمِسًا مَطْلَبَه، ومُعينًا له؛ فأصلُ الشَّفْعِ: ضَمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه. ومِنه:

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

الشَّفاعةُ في القِيامةِ[١].

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصرَفونَ عن الحَقِّ ويَحيدونَ، وأصلُ (أفك): يَدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[٢].

﴿وَقِيلِهِۦ﴾: أي: وقَولِه، والقَولُ والقيلُ والقالُ بمعنًى واحدٍ، مِن النُّطقِ[٣].

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾: أي: فأَعرِضْ عنهم، واترُكْ عُقوبتَهم على اللهِ تعالَى، يُقالُ: صَفحْتُ عنه: إذا أعرضْتَ عنه، وأصلُ (صفح): يدُلُّ على الإعراضِ؛ لأنَّ مَن أعرَضَ عن صاحِبِه ولَّاه صَفحةَ عُنُقِه، وصَرَف عنه وجْهَه[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾

قَولُه: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ مَجرورٌ على وَجهَينِ؛ أحَدُهما: أنَّه مَعطوفٌ على «السَّاعةِ» في قولِه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزخرف: ٨٥]، أي: وعِندَه عِلمُ السَّاعةِ، وعِلمُ قِيلِه: يَا رَبِّ.... الثاني: أنَّ الواوَ حَرفُ قَسَمٍ. و(قِيلِهِ): مُقسَمٌ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (١/ ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٢/ ١٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ١٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٦/ ٥٣٩).

به مَجرورٌ بواوِ القَسَمِ، وجَوابُ القَسَمِ مَحذوفٌ، تَقديره: لَتُنصَرنَّ، أو لأفْعلَنَّ بهم ما أُريدُ، أو جَوابُ القَسَمِ قَولُه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾. ومَقولُ القَولِ قَولُه: ﴿يَٰرَبِّ﴾.

وقُرِئَ بالنَّصبِ، وفيه أوجهٌ: أحدُها: أنَّه مَنصوبٌ عَطفًا على مَحَلِّ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وعندَه أنْ يَعلَمَ السَّاعةَ وقِيلَه؛ لأنَّ ﴿عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ مَصدَرٌ مُضافٌ إلى مَفعولِه؛ فلَفظُ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ مَجرورٌ لَفظًا بالإضافةِ، مَنصوبٌ محَلًّا على المفعوليَّةِ، وما كان كذلك جاز في تابِعِه النَّصبُ إتْباعًا للمَحَلِّ، والخَفضُ إتْباعًا للَّفظِ. الثاني: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿سِرَّهُمۡ﴾ في قَولِه: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠]، وما بيْنَهما مُعتَرِضٌ، أي: أمْ يَحسَبونَ أنَّا لا نَسمَعُ سِرَّهم ونَجواهم، وقِيلَه: يا رَبِّ. الثَّالِثُ: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ، أي: وقال قِيلَه. الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بإضمارِ فِعلٍ، أي: ويَعلَمُ قِيلَه. وقيل غيرُ ذلك(١).

## المعنى الإجماليُّ:

يُلقِّنُ اللهُ تعالَى نَبيَّه الحُجَّةَ الَّتي يرُدُّ بها على المشركينَ، فيقولُ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: لو فُرِضَ أنَّ للرَّحمنِ تعالَى وَلَدًا ببُرهانٍ صَحيحٍ، فأنا أوَّلُ العابِدينَ لذلك الوَلدِ؛ فلو فُرِضَ كان منِّي هذا، ولكِنْ هذا مُمتَنِعٌ في حَقِّه سُبحانَه تعالَى، تنَزَّه اللهُ ربُّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبُّ العَرشِ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ مِن صِفاتِ النَّقصِ التي لا تَليقُ بكَمالِه وجَلالِه تعالَى!

ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالَى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُهدِّدُ أولئكَ الكافرينَ،

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفَرَّاء (٣/ ٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٤٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٨).

فيقولُ: فاترُكْهم -يا مُحمَّدُ- يَخوضوا في باطِلِهم وجَهلِهم، ويَلعَبوا حتَّى يُلاقُوا اليومَ الذي يَحِلُّ فيه عَذابُهُم!

ثمَّ يقولُ تعالَى مؤكِّدًا على أنَّه الإلهُ الحقُّ: واللهُ وَحْدَه هو المعبودُ في السَّماءِ، وهو المعبودُ وَحْدَه في الأرضِ، وهو الحَكيمُ الذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به، العَليمُ الَّذي لا يَخفى عليه شَيءٌ، وتَبارك اللهُ الَّذي له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، وعِندَه عِلمُ مَجيءِ السَّاعةِ، وإليه وَحْدَه تُرجَعونَ يومَ القيامةِ.

ولا يَملِكُ الَّذين يَعبُدُهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ الشَّفاعةَ لأحدٍ إلَّا مَن أقرَّ منهم بالتَّوحيدِ للهِ -كعِيسى والملائِكةِ-، وهم يَشهَدونَ بذلك على عِلمٍ وبَصيرةٍ، فيَأذَنُ لهم اللهُ تعالَى بالشَّفاعةِ للمُؤمِنينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه ما كان عليه المشركونَ مِن تناقُضٍ، فيقولُ: ولَئِنْ سألْتَ هؤلاء المُشرِكينَ -يا مُحمَّدُ-: مَن الذي خلَقَكم؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقَنا اللهُ وَحْدَه. فكيْف يُصرَفونَ عن عِبادةِ اللهِ تعالَى الذي خَلَقَهم مع اعترافِهم بذلك؟!

واللهُ تعالَى عِندَه عِلمُ قَولِ رسولِه: يا رَبِّ، إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ قَومٌ لا يُؤمِنونَ؛ فاصفَحْ -يا محمَّدُ- عنهم، وقُلْ لهم: سَلامٌ عليكم؛ فسَوفَ يَعلَمونَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا جَرَى ذِكْرُ الَّذين ظَلَموا بادِّعاءِ بُنُوَّةِ المَلائِكَةِ في قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٦٥] عَقِبَ قَولِه: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ

مَثَلًا ﴾[الزخرف: ٥٧]، وعَقِبَ قَولِه قبْلَه: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾[الزخرف: ١٩]، وأُعقِبَ بما يَنتَظِرُهم مِن أَهوالِ القِيامَةِ، وما أُعِدَّ لِلَّذين انخَلَعوا عن الإشراكِ بالإيمانِ -أَمَرَ اللهُ رَسولَه أنْ يَنتَقِلَ مِن مَقامِ التَّحذيرِ والتَّهديدِ إلى مَقامِ الاحتِجاجِ على انتِفاءِ أنْ يَكونَ لِلَّهِ وَلَدٌ؛ جَمعًا بيْنَ الرَّدِّ على بَعضِ المُشرِكينَ الَّذين عَبَدوا المَلائِكةَ، والَّذين زَعَموا أنَّ بعضَ أصنامِهِم بَناتُ اللهِ، مِثلُ اللَّاتِ والعُزَّى، فأمَره بقَولِه[1]:

﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك جَدَلًا: إنْ ثَبَت أنَّ للرَّحمنِ وَلَدًا ببُرهانٍ صحيحٍ، فأنا أوَّلُ العابِدينَ لذلك الولدِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٣، ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥، ٢٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٣، ٢٦٤).

قال ابنُ جُزَيٍّ: (﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ في تأويلِ الآيةِ أربعةُ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّها احتِجاجٌ ورَدٌّ على الكُفَّارِ على تَقديرِ قَولِهم، ومعناها: لو كان للرَّحمنِ وَلَدٌ كما يقولُ الكُفَّارُ لكُنتُ أنا أوَّلَ مَن يَعبُدُ ذلك الولَدَ. كما يُعَظِّمُ خَدَمُ المَلِكِ وَلَدَ المَلِكِ؛ لِتَعظيمِ والِدِه، ولكِنْ ليس للرَّحمنِ وَلَدٌ؛ فلَستُ بعابِدٍ إلَّا اللهَ وَحْدَه. وهذا نوعٌ مِن الأدِلَّةِ يُسَمَّى دَليلَ التَّلازُمِ؛ لأنَّه عَلَّق عِبادةَ الوَلَدِ بوُجودِه، ووجودُه مُحالٌ؛ فعِبادتُه مُحالٌ.

القَولُ الثَّاني: إنْ كان للرَّحمنِ وَلَدٌ [أي: في قولِكم] فأنا أوَّلُ مَن عَبَد اللهَ وَحْدَه، وكَذَّبَكم في قَولِكم: إنَّ له ولَدًا، و﴿ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾ على هذينِ القَولَينِ بمعنى العِبادةِ.

القَولُ الثَّالِثُ: أنَّ العابِدينَ بمعنى المُنكِرينَ؛ يقال: عَبِدَ الرَّجُلُ: إذا أنِفَ وتكَبَّرَ وأنكَرَ الشَّيءَ، والمعنى: إنْ زَعمتُم أنَّ للرَّحمنِ ولَدًا فأنا أوَّلُ المُنكِرينَ لذلك، و﴿ إِن ﴾ على هذه الأقوالِ الثَّلاثةِ شَرطيَّةٌ.

القَولُ الرَّابعُ: قال قتادةُ وابنُ زيدٍ: «إنْ» هنا نافيةٌ، بمعنى: ما كان للرَّحمنِ وَلَدٌ، وتمَّ الكلامُ، ثمَّ ابتدأَ قَولُه: ﴿ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٤). =

= وممَّن اختار القولَ الأولَ: الزمخشريُّ، والرازي، وابن جُزَيٍّ، والشوكانيُّ، والقاسميُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال الشوكانيُّ: (وفيه نَفيٌ للوَلَدِ على أبلَغ وَجهٍ، وأتمِّ عِبارةٍ، وأحسَنِ أُسلوبٍ، وهذا هو الظَّاهِرُ مِنَ النَّظمِ القُرآنيِّ، ومِن هذا القَبيلِ قَولُه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]، ومِثلُ هذا قَولُ الرَّجُلِ لِمن يُناظِرُه: إنْ ثَبَت ما تَقولُه بالدَّليلِ فأنا أوَّلُ مَن يَعتَقِدُ ويَقولُ به). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٨).

وقال ابنُ جرير: (معْنى الكلامِ: قُلْ -يا مُحمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك الزَّاعِمينَ أنَّ الملائِكةَ بناتُ اللهِ: إنْ كان للرَّحمنِ ولَدٌ فأنا أوَّلُ عابِدِيه بذلك مِنكم، ولكِنَّه لا وَلَدَ له، فأنا أعبُدُه بأنَّه لا وَلَدَ له، ولا يَنبغي أن يكونَ له. وإذا وُجِّهَ الكلامُ إلى ما قُلْنا مِن هذا الوَجهِ لم يكُنْ على وَجهِ الشَّكِّ، ولكِنْ على وَجهِ الإلطافِ مِن الكلامِ وحُسنِ الخِطابِ، كما قال جَلَّ ثَناؤُه ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]، وقد عَلِمَ أنَّ الحَقَّ معه، وأنَّ مُخالِفيه في الضَّلالِ المُبينِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٨). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤١).

قال ابنُ عطيةَ: (قال قتادةُ والسُّدِّيُّ والطَّبَريُّ: المعنى: قُلْ لهم: إنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ كما تقولونَ فأنا أوَّلُ مَن يَعبُدُه على ذلك، ولكِنْ ليس به شَيءٌ مِن ذلك، تعالى وجَلَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٥).

وممَّن اختار القولَ الثانيَ: ابنُ قُتَيبةَ، والأزهريُّ، والزجَّاج، والثَّعلبي، والواحدي -ونسَبه لأكثر أهلِ العِلم-، والسَّمعانيُّ والبَغويُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٧)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٢/ ١٣٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٣٨).

وممَّن اختار القولَ الثالثَ: أبو عُبيدةَ، ونُسب هذا القولُ إلى الكلْبيِّ، والكسائيِّ، وسفيانَ الثوريِّ، والمُبَرد. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٢).

قال ابن كثيرٍ: (هذا القولُ فيه نظرٌ؛ لأنَّه كيف يَلتئمُ مع الشَّرطِ فيكون تَقديرُه: إنْ كان هذا فأنا =

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا قال تعالَى: ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ ... ﴾ الآيةَ؛ نزَّه نَفسَه تَنزيهًا تامًّا عمَّا يَصِفونَه به مِن نِسبةِ الوَلَدِ إليه، مُبيِّنًا أنَّ رَبَّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبَّ العَرشِ جَديرٌ بالتَّنزيهِ عن الوَلَدِ، وعن كُلِّ ما لا يَليقُ بكَمالِه وجَلالِه[1].

﴿ سُبۡحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٨٢ ﴾.

أي: تَنزَّهَ اللهُ ربُّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبُّ العَرشِ عمَّا يَصِفُه المُشرِكونَ مِن صِفاتِ النَّقصِ التي لا تَليقُ بكَمالِه تعالَى، ومِن ذلك دَعْواهم أنَّ له وَلَدًا سُبحانَه[2].

كما قال تعالَى: ﴿ لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [الزمر: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢].

---

= مُمتنِعٌ منه؟ هذا فيه نظرٌ، فلْيُتأمَّل. اللهمَّ إلَّا أنْ يقالَ: «إنْ» ليْست شرطًا، وإنَّما هي نافيةٌ)). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٢).

وممَّن اختار القولَ الرابعَ: مقاتلُ بن سُليمان، والأخفشُ، وابنُ أبي زمنين، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٥)، ((معاني القرآن)) للأخفش (١/ ١١٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٦).

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

## الناسخُ والمنسوخُ:

قيل: هذه الآيةُ مَنسوخةٌ[1].

وقيل: لا نسْخَ فيها[2].

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: فاترُكْ -يا مُحمَّدُ- هؤلاء المُشرِكينَ المُفتَرينَ على اللهِ الكَذِبَ يَخوضُوا في باطِلِهم وجَهْلِهم، ويَلعَبوا في دُنياهم إلى أنْ يُلاقوا اليومَ الَّذي يَحِلُّ فيه عَذابُهُم وهَلاكُهُم[3]!

---

(١) ممَّن اختار أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيف -وهي قولُه تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ...﴾ الآيةَ [التوبة: ٢٩]-: محمدُ بن حزم، وابنُ عطية، وابنُ الفرس، والقُرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني، ومرْعي. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لمحمد بن حزم (ص: ١٨، ٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٦)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٣)، ((قلائد المرجان)) لمرعي (ص: ١٨٥).

ونسَب ابنُ الجَوزي والرَّسعنيُّ هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٥)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٥٤).

(٢) ممَّن ذهَب إلى هذا القول: ابنُ الجوزي، والرَّسعني، وعلَمُ الدين السخاوي. يُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (ص: ١٩٢)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٥٤)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (٢/ ٨٢٥).

وعلَّل ذلك ابنُ الجوْزيِّ والرَّسعنيُّ بأنَّها واردةٌ للوعيدِ، وخارجةٌ مَخرجَ التهديدِ؛ فلا نسْخَ إذنْ.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩١) و(٩/ ٣٩٦-٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقوله: ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾: يومُ القِيامةِ: ابنُ جرير، وابنُ كَثيرٍ، والشوكانيُّ، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة. =

كما قال تعالَى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾.

أي: واللهُ تعالَى هو المَعبودُ الحَقُّ في السَّماءِ، وهو المعبودُ الحَقُّ في الأرضِ[1].

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣].

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو البالِغُ الحِكمةِ، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، البالِغُ العِلمِ، فيَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ، ولا يَخفَى عليه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ[2].

﴿ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ

---

= قال ابن عطيةَ: (قال الجمهورُ: اليومُ الذي توعَّدهم به يومُ القِيامةِ. وقال عِكرمةُ وغيرُه: هو يومُ بَدْرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٦).

وقال القرطبيُّ: (إمَّا العذابُ في الدُّنيا، أو في الآخِرةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢١).

وقال ابنُ عاشورٍ: (اليومُ هنا مُحتَمِلٌ لِيَومِ بَدرٍ، ولِيَومِ القيامةِ، وكِلاهما قدْ وُعِدُوه، والوَعدُ هنا بمعنى الوَعيدِ، كما دَلَّ عليه السِّياقُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩١-٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٠).

قال ابنُ القيِّم: (المعنى الصَّحيحُ المُجتَمَعُ عليه... أنَّه في السَّماءِ إلهٌ مَعبودٌ مِن أهلِ السَّماءِ، وفي الأرضِ إلهٌ مَعبودٌ مِن أهلِ الأرضِ، وكذا قال أهلُ العلمِ بالتَّفسيرِ... وأمَّا قَولُه ...: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فالإجماعُ والاتِّفاقُ قد بَيَّن أنَّ المرادَ أنَّه مَعبودٌ مِن أهلِ الأرضِ). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٢-٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا نَزَّه اللهُ تعالَى ذاتَه المُقدَّسةَ، وأثبَتَ لِنَفسِه استِحقاقَ الإلهيَّةِ بالإجماعِ مِن خَلْقِه بما ركَزَه في فِطَرِهم، وهَداهم إليه بعُقولِهم؛ أتْبَعَ ذلك أدِلَّةً أُخرى بإثباتِ كُلِّ كَمالٍ بما تَسَعُه العُقولُ، وبما لا تَسَعُه؛ مُصَرِّحًا بالمُلْكِ، فقال[1]:

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

أي: تعالَى وتَقَدَّس وكَثُر خيرُه وإحسانُه؛ اللهُ الَّذي له مُلكُ جميعِ السَّمَواتِ والأرضِ، وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ، وهو وَحْدَه المتصَرِّفُ فيها[2].

﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

أي: وهو وَحْدَه مَن يَعلَمُ وَقتَ مَجيءِ السَّاعةِ[3].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه تَصيرونَ -أيُّها النَّاسُ- يومَ القِيامةِ، فيَبعَثُكم للحِسابِ، ويُجازي كُلًّا منكم بعَمَلِه[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢١)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

قال السعديُّ: (مِن تمامِ مُلكِه وسَعَتِه أنَّه مالِكُ الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أطنَبَ اللهُ تعالَى في نَفيِ الوَلَدِ؛ أردَفَه ببَيانِ نَفيِ الشُّرَكاءِ[١].

وأيضًا لَمَّا أنبَأهم أنَّ لِلَّهِ مُلْكَ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، وأنَّ عِندَه عِلمَ السَّاعَةِ؛ أَعلَمَهم أنَّ ما يَعبدونَه مِن دونِ اللهِ لا يَقدِرُ على أنْ يَشفَعَ لهم في الدُّنيا؛ إبطالًا لزَعمِهِم أنَّهُم شُفَعاؤُهم عندَ اللهِ، ولَمَّا كان مِن جُمَلةِ مَن عُبِدوا دُونَ اللهِ المَلائِكةُ، استَثناهُم بقَولِه: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: فَهُم يَشفَعونَ[٢].

﴿ وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ ﴾.

أي: ولا يَملِكُ الذين يَعبُدُهم المُشرِكونَ مِن دُونِ اللهِ الشَّفاعةَ لأحَدٍ عندَ اللهِ[٣].

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: إلَّا[٤] مَن أقرَّ منهم بالتَّوحيدِ للهِ -كعِيسى والملائِكةِ-، وهم يَشهَدونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٢-٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

قال السعدي: (ومِن تَمامِ مُلكِه أنَّه لا يَملِكُ أحَدٌ مِن خَلْقِه مِن الأمرِ شَيئًا، ولا يُقدِمُ على الشَّفاعةِ عنده أحَدٌ إلَّا بإذنِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٤) قيل: الاستِثناءُ هنا متَّصِلٌ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ورجَّحه ابنُ عطيةَ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

وقيل: الاستِثناءُ هنا مُنقَطِعٌ، بمعنى: لَكِنْ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ =

بذلك عن عِلم ويَقينٍ وبَصيرةٍ، فاللهُ يَأذَنُ لهم بالشَّفاعةِ للمُؤمِنينَ المُوحِّدينَ، فتَنفَعُ حِينها شَفاعتُهم(١).

كما قال تعالَى: ﴿ وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ * لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ * يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦ - ٢٨].

---

= تَيميةَ، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٨)، ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ٣٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٢-٤٠٥، ٤٠٩-٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣).

قال ابن تيميةَ: (التَّحقيقُ في تفسيرِ الآيةِ: أنَّ الاستِثناءَ مُنقَطِعٌ، ولا يَملِكُ أحَدٌ مِن دونِ اللهِ الشَّفاعةَ مُطلقًا. لا يُستَثنى مِن ذلك أحَدٌ عندَ اللهِ... فلمَّا نفى مُلْكَهم الشَّفاعةَ بَقِيَت الشَّفاعةُ بلا مالِكٍ لها، كأنَّه قد قيل: فإذا لم يَملِكوها هلْ يَشفَعونَ في أحَدٍ؟ فقال: نعمْ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾. وهذا يَتناوَلُ الشَّافعَ والمَشفوعَ له). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٤٠٢، ٤٠٩-٤١١).

وقال ابن جُزَيٍّ: (اختُلِفَ هل يَعني بـ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ الشَّافِعَ أو المشفوعَ فيه؛ فإنْ أراد المشفوعَ فيه فالاستِثناءُ مُنقَطِعٌ، والمعنى: لا يَملِكُ المَعبودونَ شَفاعةً، لكِنْ مَن شَهِدَ بالحَقِّ وهو عالِمٌ به فهو الذي يُشفَعُ فيه، ويحتَمِلُ على هذا أن يكونَ ﴿مَن شَهِدَ ﴾ مَفعولًا بالشَّفاعةِ على إسقاطِ حَرفِ الجَرِّ، تَقديرُه: الشَّفاعة فيمن شَهِدَ بالحَقِّ، وإنْ أراد بـ ﴿مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ الشَّافعَ فيَحتَمِلُ أن يكونَ الاستِثناءُ مُنقَطِعًا، وأن يكونَ مُتَّصِلًا، إلَّا فيمن عَبَد عيسى والملائِكةَ، والمعنى على هذا: لا يَملِكُ المعبودونَ شَفاعةً إلَّا مَن شَهِدَ بالحَقِّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٢، ٦٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٣-٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٠-٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٥-٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى المذكورِ لِقَولِه تعالى: ﴿ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن كثير، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((الوسيط)) (٤/ ٨٣-٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (أي: وهم يَعلَمونَ حالَ مَن يَستَحِقُّ الشَّفاعةَ؛ فقدْ عُلِمَ أنَّهم لا يَشفَعونَ للَّذين خالَف حالُهم حالَ مَن يَشهَدُ لله بالحَقِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعْدَ أنْ أمعَنَ في إبطالِ أنْ يكونَ إلهٌ غيرُ اللهِ بما سِيقَ مِن التَّفصيلاتِ، جاء هنا بكَلِمةٍ جامِعةٍ لإبطالِ زَعمِهم إلهيَّةَ غيرِ اللهِ، بِقَولِه تعالَى[1]:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾.

أي: ولَئِنْ قُلْتَ -يا مُحمَّدُ- للمُشرِكينَ: مَن الذي خَلَقَكم؟ لَيَقولُنَّ: خَلَقَنا اللهُ وَحْدَه[2].

﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾.

أي: فكيفَ ومِن أيِّ جِهةٍ يُصرَفُ المُشرِكونَ -مع اعترافِهم هذا- عن عِبادةِ اللهِ الَّذي خلَقَهم، إلى عِبادةِ غَيرِه[3]؟!

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿ وَقِيلِهِۦ ﴾ بكَسرِ اللَّامِ والهاءِ، قيل: هي مَعطوفةٌ على ﴿ ٱلسَّاعَةِ ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ والمعنى: وعِندَه عِلمُ السَّاعةِ وعِلمُ قِيلِه. وقيل غيرُ ذلك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٤) قرَأ بها عاصمٌ وحمزةُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٠). =

٢- قِراءةُ ﴿وَقِيلَهُۥ﴾ بفتْحِ اللَّام وضَمِّ الهاء، على العَطفِ على ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الزخرف: ٨٠]، أي: أمْ يَحسَبونَ أنَّا لا نَسمَعُ سِرَّهم ونَجْواهم ولا نَسمَعُ قِيلَه: يا رَبِّ. وقيل: مَعطوفٌ على مَوضِعِ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥]، أي: وعِندَه أنْ يَعلَمَ السَّاعةَ وقِيلَه. وقيل غيرُ ذلك[١].

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

أي: وعِندَ اللهِ تعالَى عِلمُ قولِ رَسولِه -شاكيًا إليه تَكذيبَ قَومِه-: يا رَبِّ، إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ قَومٌ لا يُؤمِنونَ بالحَقِّ الذي جِئتُهم به[٢]!

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾.

**الناسخُ والمنسوخُ:**

قيل: الآيةُ منسوخةٌ[٣].

---

= ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦١١).

(١) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٥-٦٥٦). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٩).

(٣) ممَّن اختار أنَّ الآيةَ مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيف: مقاتلُ بن سُليمان، والثَّعلبي، والمَقَّري، ومحمد بن حزم، وابنُ الفرس، والعُلَيمي، ومرْعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٠٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٤٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) للمَقَّري (ص: ١٥٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) لمحمد بن حزم (ص: ٥٥)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٧٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٤١)، ((قلائد المرجان)) لمرعي (ص: ١٨٥). =

وقيل: لا نسْخَ فيها[١].

﴿ فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ ﴾.

أي: فاصفَحْ -يا محمَّدُ- عن أولئك المُشرِكينَ، وأعرِضْ عن مُؤاخَذتِهم وعِتابِهم[٢].

كما قال تعالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴾[الحجر: ٨٥].

﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾.

أي: وقُلْ لهم: سَلِمْتُم منَّا، فلا نُجيبُكم بسُوءٍ[٣].

﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ بالتَّاءِ على الخِطابِ، بمعنى: أنَّ اللهَ تعالَى أمَرَ نَبيَّه

---

= قال الألوسي: (إنْ أُريدَ مِن الآيةِ الكَفُّ عن القتالِ فهي مَنسوخةٌ، وإنْ أُريدَ الكَفُّ عن مُقابَلتِهم بالكلامِ فليست بمنسوخةٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٠٨).

(١) ممَّن اختار أنَّه لا نَسْخَ: الرازيُّ، وعلَمُ الدِّين السخاويُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٠)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: ٤٦٣).

ورجَّح ابنُ باز -تبعًا لابن تيميَّةَ- أنَّه لا نَسْخَ، وأنَّ ذلك يختَلِفُ باختلافِ أحوالِ المسلمينَ قُوَّةً وضَعفًا.

قال ابنُ باز: (وهذا القَولُ أظهَرُ وأَبيَنُ في الدَّليلِ؛ لأنَّ القاعِدةَ الأُصوليَّةَ: أنَّه لا يُصارُ إلى النَّسخِ إلَّا عند تعذُّرِ الجمعِ بين الأدِلَّةِ، والجَمعُ هنا غيرُ مُتعَذِّرٍ). ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣/ ١٩٤). ويُنظر أيضًا: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٠).

قال البقاعي: (﴿سَلَٰمٞ﴾ أي: شأني الآنَ مُتاركتُكم بسَلامتِكم منِّي وسلامَتي منكم). ((نظم الدرر)) (١٧/ ٥٠١).

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يقولَ ذلك للمُشرِكينَ؛ تَهديدًا لهم، مع قَولِه لهم: سَلامٌ[١].

٢- قِراءةُ: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بالياءِ على الغَيبةِ والخَبَرِ، على أنَّه وَعيدٌ مِن اللهِ تعالَى للمُشرِكينَ بما سيَلقَونَه مِنَ العذابِ على كُفرِهم[٢].

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: فسَوفَ يَعلَمُ المُشرِكونَ حَقيقةَ ما سيَلقَونَه؛ جَزاءَ كُفرِهم بالحَقِّ، وشِرْكِهم باللهِ تعالَى[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الشَّرطُ لا يدُلُّ على وُقوعِ المشروطِ؛ بلْ ولا على إمكانِه، كما في قَولِه تعالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ ونَظائرِه[٤].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ فيه وَصفُه برُبوبيَّةِ أقْوَى المَوجوداتِ وأَعَمِّها وأعظَمِها؛ لأنَّه يُفيدُ انتِفاءَ أنْ يَكونَ له وَلَدٌ؛ لانتِفاءِ فائِدَةِ الوِلادَةِ؛ فقدْ تَمَّ خَلْقُ العَوالِمِ ونِظامُ نَمائِها ودَوامِها، وعُلِمَ مِن كَونِه خالِقِها أنَّه غَيرُ مَسبوقٍ بعَدَمٍ؛ وإلَّا لَاحتاجَ إلى خالِقٍ يَخلُقُه، واقتَضَى عَدَمُ السَّبقِ

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جَعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٤).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٠).

ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٩٩).

بعَدَمٍ أنَّه لا يَلحَقُه فَناءٌ؛ فوُجودُ الوَلَدِ له يَكونُ عَبَثًا[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ليْس في ذلك ما يدُلُّ على الحُلولِ بهما، وإنَّما أراد أنَّه إلهُ السَّماءِ ومَن فيها، وإلهُ الأرضِ ومَن فيها، ومِثلُ هذا مِن الكَلامِ قَولُك: هو بخُراسانَ أميرٌ وبمِصرَ أميرٌ؛ فالإمارةُ تَجتَمِعُ له فيهما، وهو حالٌّ بأحَدِهما أو بغَيرِهما. هذا واضِحٌ لا يَخفَى[٢].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدُلُّ على مَعنَيَينِ:

**أحَدُهما**: أنَّ الشَّفاعةَ بالحَقِّ غَيرُ نافِعةٍ إلَّا مع العِلمِ، وأنَّ التَّقليدَ لا يُغني مع عدَمِ العِلمِ بصِحَّةِ المقالةِ.

**والثَّاني**: أنَّ شَرْطَ سائِرِ الشَّهاداتِ في الحُقوقِ وغَيرِها: أنْ يكونَ الشَّاهِدُ عالِمًا بها[٣]؛ فالشَّهادةُ لا تكونُ إلَّا عن عِلمٍ سابِقٍ[٤].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الشَّاهِدَ المَقبولَ عندَ اللهِ هو الذي يَشهَدُ بعِلمٍ وصِدقٍ، فيُخبِرُ بالحَقِّ مُستَنِدًا إلى عِلمِه به[٥].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أنَّ شِركَ العَرَبِ كان شِركًا في الألوهيَّةِ لا في الرُّبوبيَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩٥).

٧- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أنَّ المُقِرَّ بالرُّبوبيَّةِ لا يُعَدُّ مُؤمِنًا حتى يُقِرَّ بالأُلوهيَّةِ[١]؛ فالآيةُ فيها أنَّ الكُفَّارَ كانوا مُعترِفينَ بالصَّانعِ[٢].

٨- في قَولِه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ لا يكونُ بإقرارِه ببعضِ الحقِّ مُؤمِنًا حتى يُقِرَّ بجَميعِه، وأنَّ الكُفرَ ببَعضِ الحقِّ كُفرٌ بجَميعِه؛ فالقَومُ قالوا حقًّا ولم يَنفَعْهم الإقرارُ به؛ حيثُ رَدُّوا غَيرَه[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾

- قَولُه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ ...﴾ وصحَّ ذلك، وثبَتَ ببُرهانٍ صَحيحٍ تُورِدونَه، وحُجَّةٍ واضحةٍ تُدْلُون بها؛ فأنا أَوَّلُ مَن يُعظِّمُ ذلك الوَلدَ، وأسْبقُكم إلى طاعتِه والانقيادِ له، كما يُعظِّمُ الرَّجلُ ولَدَ المَلِكِ لتَعظيمِ أبيه. وهذا كَلامٌ واردٌ على سَبيلِ الفَرضِ والتَّمثيلِ لغَرَضٍ، وهو المُبالَغةُ في نَفيِ الوَلَدِ والإطنابُ فيه، وألَّا يَترُكَ النَّاطِقُ به شُبهَةً إلَّا مُضمَحِلَّةً، مع التَّرجَمَةِ عن نَفسِه بثَباتِ القَدَمِ في بابِ التَّوحيدِ؛ وذلك أنَّه عَلَّق العِبادَةَ بكَينونَةِ الوَلَدِ، وهي مُحالٌ في نَفسِها؛ فكان المُعَلَّقُ بها مُحالًا مِثلَها؛ فهو في صُورةِ إثباتِ الكَينونَةِ والعِبادَةِ، وفي مَعنَى نَفيِهما على أبلَغِ الوُجوهِ وأقْواها[٤].

- قَولُه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ وهذا الاستِدلالُ الذي في الآيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٥، ٢٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٤، ٢٦٥).

على وِزانِ الاستدلالِ في قولِه تعالَى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، إلَّا أنَّ تلك جُعِلَ شَرْطُها بأداةٍ صَريحةٍ في الامتناعِ (لو)، وهذه جُعِلَ شَرْطُها بأداةٍ غيرِ صَريحةٍ في الامتناعِ (إنْ). والنُّكتَةُ في العُدولِ عن الأداةِ الصَّريحةِ في الامتِناعِ هنا: إيهامُهُم في بادِئِ الأمْرِ أنَّ فَرْضَ الوَلَدِ لِلَّهِ مَحَلُّ نَظَرٍ، ولِيَتَأتَّى أنْ يَكونَ نَظمُ الكَلامِ مُوَجَّهًا؛ حتَّى إذا تَأمَّلوه وَجَدوه يَنفِي أنْ يَكونَ لِلَّهِ وَلَدٌ بطَريقِ المَذهَبِ الكَلامِيِّ[1]؛ ففي نَظمِ الآيَةِ إيجازٌ بَديعٌ، وإطماعٌ للخُصومِ بما إنْ تَأمَّلوه استَبانَ وَجهُ الحَقِّ، فإنْ أعرَضُوا بعْدَ ذلك عُدَّ إعراضُهُم نُكوصًا[2].

- وأُسلوبُ الآيَةِ قَريبٌ مِن المُشاكَلَةِ، وإطْباقِ الجَوابِ على السُّؤالِ؛ فإنَّهُم لَمَّا قالوا: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [الأنبياء: ٢٦]، حَسُنَ منه صَلَواتُ اللهِ عليه أنْ يَقولَ: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يَجوزُ أن يكونَ تَكمِلَةً لِمَا أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَقولَه، أي: قلْ: إنْ كان للرَّحمَنِ وَلَدٌ على الفَرضِ والتَّقديرِ؛ مع تَنْزيهِهِ عن تَحَقُّقِ ذلك في نَفْسِ الأمرِ. وليْسَ في ضَميرِ ﴿يَصِفُونَ﴾ الْتفاتٌ؛ لأنَّ تَقديرَ الكلامِ: قُلْ لهم: إنْ كان للرَّحمنِ وَلَدٌ. ويَجوزُ أن يَكونَ كَلامًا مُستَأنَفًا مِن جانِبِ اللهِ تعالَى؛ لإنشاءِ تَنْزيهِه

---

(١) قال أبو حيَّان: (هذا النَّوعُ عند عُلماءِ البيانِ يُسمَّى: الاحتجاجَ النَّظريَّ، وهو: أن يَذكُرَ المُتكلِّمُ معنًى يَستدُلُّ عليه بضُروبٍ من المعقولِ، نحو: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]... وبعضُهم يُسمِّيه: المذهبَ الكلاميَّ). ((تفسير أبي حيان)) (٣/ ٣٩٥- ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨٠).

عمَّا يَقولُون؛ فتكونَ مُعترِضَةً بيْن جُملَةِ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ وجُملَةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ولهذه الجُملَةِ مَعنَى التَّذييلِ؛ لأنَّها نَزَّهَت اللهَ عن جَميعِ ما يَصِفونَه به مِن نِسبَةِ الوَلَدِ وغَيرِ ذلك(١).

- قَولُه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لَمَّا كان المَقامُ للتَّنزيهِ، وجِهَةُ العُلويَّةِ أجدَرَ -لأنَّه أبعَدُ عن النَّقصِ والنَّقيضِ- ولم يَقتَضِ الحالُ إعادَةَ لَفظِ الرَّبِّ، بخِلافِ ما يأتي آخِرَ (الجاثِيَةِ) ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٦]؛ فإنَّه لإثباتِ الكَمالِ، ونَظَرِه إلى جَميعِ الأشياءِ على حَدٍّ سَواءٍ، فقال: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ -أي: ولم يقُلْ: (ورَبِّ الأرضِ)(٢).

- وفي تَكريرِ اسمِ الرَّبِّ في قَولِه: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ تَفخيمٌ لِشَأنِ العَرشِ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ اعتِراضٌ بتَفريعٍ عن تَنْزيهِ اللهِ عمَّا يَنسُبونَه إليه مِن الوَلَدِ والشُّركاءِ، وهذا تَأْييسٌ مِن إجداءِ الحُجَّةِ فيهم، وأنَّ الأَوْلَى به مُتارَكَتُهم في ضَلالِهم إلى أنْ يَحينَ يَومُ يَلقَون فيه العَذابَ المَوعودَ(٤).

- والأَمرُ في قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ مُستَعمَلٌ في التَّهديدِ، مِن قَبيلِ ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾(٥) [فصلت: ٤٠].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٧/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٧).

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ عَطفٌ على جُملَةِ ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]، والجُملَتانِ اللَّتانِ بيْنَهما اعتِراضانِ؛ قُصِد مِن العَطفِ إفادَةُ نَفيِ الشَّريكِ في الإلَهيَّةِ مُطلقًا بعْدَ نَفيِ الشَّريكِ فيها بالبُنُوَّةِ، وقُصِد بذِكْرِ السَّماءِ والأرضِ الإحاطَةُ بعَوالِمِ التَّدبيرِ والخَلْقِ؛ لأنَّ المُشرِكين جَعَلوا لِلَّهِ شُرَكاءَ في الأرضِ، وهم أصنامُهم المَنصُوبةُ، وجَعَلوا له شُرَكاءَ في السَّماءِ، وهم المَلائِكةُ؛ إذ جَعَلوهم بَناتٍ لِلَّهِ تعالَى؛ فكان قَولُه: ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ إبطالًا للفَريقَينِ ممَّا زُعِمت إلَهيَّتُهم[1].

- وكان مُقتَضَى الظَّاهِرِ بهَذِه الجُملَةِ أنْ يَكونَ أوَّلُها ﴿ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ﴾، على أنَّه وَصْفٌ للرَّحمنِ مِن قَولِه: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]؛ فعُدِلَ عن مُقتَضَى الظَّاهِرِ بإيرادِ الجُملَةِ مَعطوفَةً، وبإيرادِ مُبتَدَأٍ فيها؛ لإفادَةِ قَصرِ صِفَةِ الإلَهيَّةِ في السَّماءِ وفي الأَرضِ على اللهِ تعالَى، لا يُشارِكُه في ذلك غَيرُه؛ لأنَّ إيرادَ المُسنَدِ إليه مَعرِفَةً والمُسنَدِ مَعرِفَةً طَريقٌ مِن طُرُقِ القَصرِ؛ فالمَعنَى: وهو -لا غَيرُه- الَّذي في السَّماءِ إِلَهٌ وفي الأَرضِ إِلَهٌ[2].

- وصِلَةُ ﴿ٱلَّذِى﴾ جُملَةٌ اسمِيَّةٌ حُذِفَ صَدرُها، وصَدرُها ضَميرٌ يَعودُ إلى مُعادِ ضَميرِ ﴿وَهُوَ﴾، وحَذفُ صَدرِ الصِّلَةِ استِعمالٌ حَسَنٌ إذا طالَت الصِّلَةُ كما هنا، والتَّقديرُ: الَّذي هو في السَّماءِ إِلَهٌ[3].

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فيه دَلالةٌ على اختِصاصِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩١).

تعالَى باستِحقاقِ الأُلوهيَّةِ؛ فإنَّ التَّقديمَ يدُلُّ على الاختِصاصِ[١].

- وكَرَّرَ لَفْظَ ﴿إِلَٰهٌ﴾ مُنَكَّرًا؛ لأنَّ الإلَهَ هنا بمَعنَى المَعبودِ، وهو تعالَى مَعبودٌ فيهما، والمُغايَرَةُ إنَّما هي بيْن مَعبودِيَّتِه في السَّماءِ ومَعبودِيَّتِه في الأرضِ؛ لأنَّ المَعبودَ به مِن الأُمورِ الإضافِيَّةِ؛ فيَكفِي التَّغايُرُ فيها مِن أَحَدِ الطَّرَفَينِ؛ فإذا كان العابِدُ في السَّماءِ غيرَ العابِدِ في الأرضِ، صَدَق أنَّ مَعبودِيَّتَه في السَّماءِ غَيرُ مَعبودِيَّتِه في الأرضِ، مع أنَّ المَعبودَ واحِدٌ[٢].

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بعْدَ أنْ وُصِفَ اللهُ بالتَّفَرُّدِ بالإلَهيَّةِ، أُتْبِعَ بوَصفِه بالحَكيمِ العَليمِ؛ تَدقيقًا للدَّليلِ الَّذي في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾، حيثُ دلَّ على نَفيِ إلَهيَّةِ غَيرِه في السَّماءِ والأرضِ، واختِصاصِه بالإلَهيَّةِ فِيهِما؛ لِمَا في صِيغَةِ القَصرِ مِن إثباتِ الوَصفِ له، ونَفْيِه عمَّن سِواهُ؛ فكان قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تَتميمًا للدَّليلِ، واستِدلالًا عليه[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

- قَولُه: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ عطْفٌ على ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزخرف: ٨٢]، قُصِدَ منه إتْباعُ إنشاءِ التَّنزيهِ بإنشاءِ الثَّناءِ والتَّمجيدِ. و(تَبارَكَ) خَبَرٌ مُستَعمَلٌ في إنشاءِ المَدحِ؛ لأنَّ مَعنَى (تَبارَكَ): كان مُتَّصِفًا بالبَرَكَةِ اتِّصافًا قَوِيًّا؛ لِمَا يَدُلُّ عليه صِيغَةُ (تَفاعَلَ) مِن قُوَّةِ حُصولِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٨).

المُشتَقِّ منه؛ لأنَّ أصْلَها أنْ تَدُلَّ على صُدورِ فِعلٍ مِن فاعِلِين، مِثلُ: تَقاتَل وتَمارَى، فاستُعْمِلَت في مُجرَّدِ تَكرُّرِ الفِعلِ، وذلك مِثلُ: تَسامَى وتَعالَى[1].

- وقدْ ذُكِرَ مع التَّنْزيهِ أنَّه رَبُّ السَّمواتِ والأرضِ؛ لاقتِضاءِ الرُّبوبيَّةِ التَّنْزيهَ عن الوَلَدِ المَسوقِ الكَلامُ لنَفيِه، وعن الشَّريكِ المَشمولِ بقولِه: ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وذُكِرَ مع التَّبريكِ والتَّعظيمِ أنَّ له مُلْكَ السَّمواتِ والأرضِ؛ لمُناسَبةِ المُلْكِ للعَظَمَةِ وفَيضِ الخَيرِ؛ فلا يَرِيبُكَ أنَّ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُغنٍ عن ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ غَرَضَ القُرآنِ التَّذكيرُ، وأغراضُ التَّذكيرِ تُخالِفُ أغراضَ الاستِدلالِ والجَدَلِ؛ فإنَّ التَّذكيرَ يُلائِمُ التَّنبيهَ على مُختَلَفِ الصِّفاتِ، باختِلافِ الاعتِباراتِ، والتَّعرُّضِ للاستِمدادِ مِن الفَضلِ. ثمَّ إنَّ صِيغَةَ (تَبارَكَ) تدُلُّ على أنَّ البَرَكَةَ ذاتِيَّةٌ لِلَّهِ تعالَى؛ فيَقتَضِي استِغناءَه عن الزِّيادَةِ باتِّخاذِ الوَلَدِ واتِّخاذِ الشَّريكِ؛ فبهذا الاعتِبارِ كانتْ هذه الجُملَةُ استِدلالًا آخَرَ تابِعًا لدَليلِ قَولِه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] [الزخرف: ٨٢].

- وقدْ تَأَكَّدَ انفِرادُه برُبوبيَّةِ أعظَمِ المَوجوداتِ ثَلاثَ مرَّاتٍ بقَولِه: ﴿رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزخرف: ٨٢]، وقَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقَولِه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾[3].

- ولَمَّا كان قَولُه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مُفيدًا التَّصرُّفَ في هذه العَوالِمِ مُدَّةَ وُجودِها ووُجودِ ما بيْنها؛ أردَفَه بقَولِه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٦٩).

وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ لِلَّهِ مع مُلكِ العَوالِمِ الفانِيَةِ مُلْكَ العَوالِمِ الباقِيَةِ، وأنَّه المُتَصَرِّفُ في تِلكَ العَوالِمِ بما فيها بالتَّنعيم والتَّعذيبِ؛ فكان قَولُه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ تَوطِئَةً لقَولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾، وإدماجًا[1] لإثباتِ البَعثِ[2].

- قَولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الغَيبَةِ إلى الخِطابِ؛ للمُباشَرَةِ بالتَّهديدِ[3].

- وتَقديمُ المَجرورِ في ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ لقَصدِ التَّقَوِّي؛ إذ لَيس المُخاطَبون بمُثبِتينَ رُجعَى إلى غَيرِه؛ فإنَّهُم لا يُؤمِنون بالبَعثِ أصلًا. وأمَّا قَولُهُم للأصنامِ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فمُرادُهم أنَّهُم شُفعاءُ لهم في الدُّنيا، أو هو على سَبيلِ الجَدَلِ؛ ولذَلِكَ أُتبِعَ بقَولِه: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾[4] [الزخرف: ٨٦].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ في ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ باعتِبارِ مَعنَى ﴿مَن﴾، كما أنَّ الإفرادَ أوَّلًا في ﴿شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ باعتِبارِ لَفظِها[5].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾

---

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧).

- وفرَّع على هذا التَّقريرِ والإقرارِ الإنكارَ والتَّعجيبَ مِن انصرافِهم مِن عِبادَةِ اللهِ إلى عِبادَةِ آلِهَةٍ أُخرَى بقَولِه: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

- وبُنِي ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ للمَجهولِ؛ إذ لم يَصرِفْهم صارِفٌ، ولَكِنْ صَرَفوا أنفُسَهم عن عِبادَةِ خالِقِهم، كقَولِ العَرَبِ: أين يُذْهَبُ بك، أي: أيْن تَذهَبُ بنَفسِكَ؛ إذ لا يُرِيدون أنَّ ذاهِبًا ذَهَب به يَسأَلونه عنه، ولَكِنَّ المُرادَ أنَّه لم يَذهَبْ به أَحَدٌ، وإنَّما ذَهَب بنَفسِه[2].

- والخِطابُ في قَولِه: ﴿سَأَلْتَهُم﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ لغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: إنْ سَأَلَهم مَن يتَأَتَّى منه أنْ يَسأَلَ، وهذا أعَمُّ[3].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾

- ضَميرُ الغائِبِ في ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ الْتِفاتٌ عن الخِطابِ في قَولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]؛ فإنَّه بعْدَ ما مَضَى مِن المُحاجَّةِ ومِن حِكايَةِ إقرارِهِم بأنَّ اللهَ الَّذي خَلَقهم، ثمَّ إنَّهُم لم يَتَزَحزَحوا عن الكُفرِ قِيدَ أُنْمُلَةٍ؛ حَصَل اليَأسُ للرَّسولِ مِن إيمانِهِم؛ فقال: ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ الْتِجاءً إلى اللهِ فيهم، وتَفويضًا إليه؛ ليُجرِيَ حُكمَه عليهم، وهذا مِن استِعمالِ الخَبَرِ في التَّحَسُّرِ أو الشِّكايَةِ، وهو خَبَرٌ بمَعنَى الإنشاءِ، ويُؤَيِّدُ هذا تَفريعُ: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٨٩]؛ ففي ضَميرِ الغَيبَةِ الْتِفاتٌ؛ فمُقتَضى الظَّاهِرِ: وقَولُك: يا رَبِّ... إلخ، ويُحَسِّنُ هذا الالْتِفاتَ أنَّه حِكايَةٌ لشَيءٍ في نَفْسِ الرَّسولِ؛ فجَعَل الرَّسولَ بمَنزِلَةِ الغائِبِ؛ لإظهارِ أنَّ اللهَ لا يُهمِلُ نِداءَهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وشَكواهُ[١].

- وإضافَةُ القِيلِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ مُشعِرَةٌ بأنَّه تكرَّر منه، وعُرِفَ به عِندَ رَبِّه، أي: عُرِفَ بِهَذا وبما في مَعناهُ[٢].

- ويَجوزُ في جَرِّ قولِه: ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ وَجهانِ: أحدُهما: أنْ يَكونَ مَجرورًا عَطفًا على السَّاعَةِ في قَولِه: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٨٥]، أي: وعِلمُ قِيلِ الرَّسولِ: يا رَبِّ، وهو على هذا وَعدٌ للرَّسولِ بالنَّصرِ وتَهديدٌ لهم بالانتِقام. وثانيهما: أنْ تكونَ الواوُ للقسَمِ، ويكونَ جَوابُ القسَمِ جُملةَ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، على أنَّ اللهَ أقسَمَ بقَولِ الرَّسولِ: يا ربِّ، تَعظيمًا للرَّسولِ ولِقِيلِه الذي هو تَفويضٌ للرَّبِّ وثِقةٌ به. ومَقولُ (قِيلِه) هو ﴿يَٰرَبِّ﴾ فقطْ، أي: أُقْسِمُ بنِداءِ الرَّسولِ ربَّه نِداءَ مُضطَرٍّ. وقدْ حُذِفَ بعْدَ النِّداءِ ما نُودِي لأَجلِه ممَّا دلَّ عليه مَقامُ مَن أَعيَتْه الحِيلَةُ فيهم؛ ففوَّضَ أَمْرَه إلى رَبِّه، فأَقسَمَ اللهُ بتِلكَ الكَلِمَةِ على أنَّهُم لا يُؤمِنون، ولَكِنَّ اللهَ سيَنتَقِمُ مِنهُم؛ فلذلك قال: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾[٣] [الزخرف: ٨٩].

- والإشارَةُ بـ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى المُشرِكين مِن أهلِ مَكَّة، كما هي عادَةُ القُرآنِ غالِبًا. ووَصْفُهم بأنَّهم ﴿قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ أدَلُّ على تَمَكُّنِ عَدَمِ الإيمانِ مِنهُم مِن أنْ يَقولَ: (هَؤُلاءِ لا يُؤمِنون)[٤].

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٣).

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ فَصيحَةٌ؛ لأنَّها أفصَحَت عن مُقَدَّرٍ، أي: إذْ قُلتَ ذلك القِيلَ، وفَوَّضْتَ الأمْرَ إلينا؛ فسَأتَوَلَّى الانتِصافَ مِنهُم، فاصْفَحْ عنهم، أي: أَعرِضْ عنهم، ولا تَحزَنْ لهم[١].

- وأصلُ ﴿سَلَٰمٞ﴾ مَصدرٌ جاء بَدَلًا مِن فِعلِه؛ فأَصلُه النَّصبُ، وعُدِلَ إلى رَفعِه؛ لقَصدِ الدَّلالَةِ على الثَّباتِ[٢].

- قَولُه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، أي: فسَوفَ يَعلَمون حالَهم البتَّةَ وإنْ تأخَّرَ ذلكَ، وهو وَعيدٌ وتَهديدٌ لهم مِن اللهِ، وتَسلِيَةٌ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣]. وعلى قراءةِ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾[٤] ففيه الْتِفاتٌ مِنَ الغَيْبةِ إلى الخِطابِ؛ لِتَهديدِهم وتَقريعِهم وتَوبيخِهم[٥]، ويكونُ مِمَّا أُمِرَ الرَّسولُ بأنْ يَقولَه لهم، أيْ: وقُلْ: سوفَ تَعْلَمونَ[٦].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ للتَّهويلِ؛ لتَذهَبَ نُفوسُهم كلَّ مَذهَبٍ مُمكِنٍ[٧].

- وما في هذه الآيَةِ مِن الأمْرِ بالإعراضِ والتَّسليمِ في الجِدالِ والوَعيدِ، ما يُؤذِنُ بانتِهاءِ الكَلامِ في هذه السُّورَةِ، وهو مِن بَراعَةِ المَقطَعِ[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر ما تقدَّم في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التفسيرِ (ص: ٢٩٩ - ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٩٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

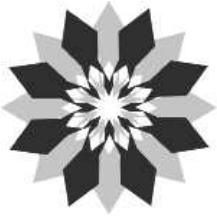

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ الدُّخَانِ

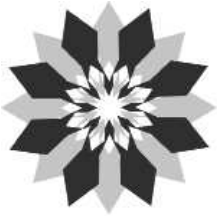

# سُورةُ الدُّخَانِ

## أسماءُ السُّورةِ:

تُسَمَّى هذه السُّورةُ بسُورةِ الدُّخَانِ(١).

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الدُّخَانِ مَكِّيَّةٌ(٢)، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك(٣).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الدُّخَانِ:**

١- إثباتُ الوَحدانيَّةِ للهِ سُبحانَه وتعالَى، وتقريرُ البَعثِ والنُّشورِ(٤).

٢- إثباتُ إنزالِ القُرآنِ مِن اللهِ تعالَى(٥).

---

(١) سُمِّيَت سورةُ الدُّخَانِ بذلك؛ لِقَولِه تعالى فيها: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠]؛ اهتِمامًا بشَأنِه. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٥).

وتُسمَّى أيضًا (حم الدُّخَانِ) قال ابنُ عاشور: (واللَّفظانِ بمَنزلةِ اسمٍ واحِدٍ؛ لأنَّ كَلِمةَ «حم» غيرُ خاصَّةٍ بهذه السُّورةِ، فلا تُعَدُّ عَلَمًا لها؛ ولذلك لم يَعُدَّها صاحِبُ «الإتقان» في عدادِ السُّوَرِ ذواتِ أكثَرَ مِن اسمٍ، وسُمِّيَت في المصاحِفِ وفي كُتُبِ السُّنَّةِ سُورةَ الدُّخَانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٥).

(٢) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًا﴾ [الدخان: ١٥]؛ فإنَّه مدنيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥١).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابنُ الجوزيِّ، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠).

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي تناولَتْها سُورةُ الدُّخَانِ:**

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ، وبيانُ بَدءِ نُزولِه.

٢- تَهديدُ المُشرِكينَ بالعَذابِ؛ جَزاءً على تَماديهم في الإعراضِ والشَّكِّ.

٣- سَوقُ جانِبٍ مِن قِصَّةِ فِرعَونَ مع مُوسى عليه السَّلامُ.

٤- ذِكرُ أقوالِ المُشرِكينَ الباطِلةِ في شأنِ البَعثِ، مع الرَّدِّ عليهم بما يَدحَضُ حُجَّتَهم.

٥- وَصفُ أهوالِ يومِ القِيامةِ، وبَيانُ سُوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ، وحُسنِ عاقِبةِ المُؤمِنينَ.

٦- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن أذًى، مع وَعْدِه بالنَّصرِ على أعدائِه.

## الآيات (١-٨)

﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾: أي: كَثيرةِ الخيْراتِ والبرَكاتِ، والبرَكةُ: كثْرةُ الخيرِ ودَوامُه، ومَن ألْقَى اللهَ عليه برَكتَه فهو المبارَكُ، فالبرَكةُ: ثُبوتُ الخيرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ، وأصلُ (برك): اللُّزومُ والثُّبوتُ[١].

﴿يُفۡرَقُ﴾: أي: يُفصَلُ ويُقضَى، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تَمييزٍ بيْنَ شيئَينِ[٢].

﴿مُّوقِنِينَ﴾: جمْع مُوقِنٍ، واليقينُ من صِفاتِ العِلمِ، يُقال: عِلم يَقِينٍ، وهو سُكونُ الفَهمِ، وثبوتُ الحُكمِ، واليَقينُ: زَوالُ الشَّكِّ، أو الاعتقادُ الجازمُ الثَّابِتُ المطابِق للواقِع[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧، ٣٤٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٨٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٩).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تباركَ وتعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ * أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ * رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الدخان: ٣ - ٦].

- في نَصبِ ﴿أَمۡرٗا﴾ عِدَّةُ أوجُهٍ تَرجِعُ إلى أربعةِ أشياءَ: الحاليَّةِ، والمفعولِ له، والمصْدريَّةِ، والمفعولِ به، وبَيانُها على النَّحوِ التَّالي: أحَدُها: أنَّه حالٌ مِن فاعلِ ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ أو مِن مَفعولِه، أي: آمِرينَ به، أو مَأمورًا به. الثَّاني: أنَّه حالٌ مِن ﴿كُلُّ﴾، أو مِن ﴿أَمۡرٍ﴾؛ لأنَّه وُصِفَ. الثَّالثُ: أنَّه مَفعولٌ لأجْلِه مَنصوبٌ، وناصِبُه إمَّا ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، وإمَّا ﴿مُنذِرِينَ﴾، وإمَّا ﴿يُفۡرَقُ﴾. الرَّابعُ: أنَّه مَصدرٌ مَنصوبٌ مِن مَعنى ﴿يُفۡرَقُ﴾، أي: يُفرَقُ فَرْقًا؛ لأنَّ ﴿أَمۡرٗا﴾ بمعْنى (فَرْقًا)، فوُضِع ﴿أَمۡرٗا﴾ مَوضِعَ (فرْقًا). الخامسُ: أنَّه مَصدَرٌ لـفِعلٍ مَحذوفٍ، أي: أمَرْنا أمرًا. السَّادِسُ: أنَّه مَنصوبٌ على إضمارِ فِعلٍ، أي: أعني أمرًا مِن عندِنا. وقيل غيرُ ذلك.

- وفي نَصبِ ﴿رَحۡمَةٗ﴾ أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّها مَفعولٌ لأجلِه مَنصوبٌ، والعامِلُ فيه ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾، أو ﴿أَمۡرٗا﴾، أو ﴿يُفۡرَقُ﴾، أو ﴿مُنذِرِينَ﴾. الثَّاني: أنَّها مَصدرٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُقدَّرٍ مِن لَفظِه، أي: رَحِمْنا رَحْمةً. الثَّالِثُ: أنَّها مَفعولٌ به لاسمِ الفاعِلِ ﴿مُرۡسِلِينَ﴾. الرَّابِعُ: أنَّها حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿مُرۡسِلِينَ﴾، أي: راحِمينَ أو ذَوِي رَحمةٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٣)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٨٣)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦١٦-٦١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١١٣).

## المعنى الإجماليُّ:

ابتَدأَ اللهُ تعالَى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿حمٓ﴾، وهما مِن الحروفِ المقطَّعةِ التي تَأتي لبَيانِ إعجازِ هذا القرآنِ، ثمَّ أقسَمَ اللهُ تعالَى بالكِتابِ الواضِحِ المُبِينِ لكُلِّ شَيءٍ يُحتاجُ إليه -على أنَّه أنْزَلَ القُرآنَ الكريمَ في ليْلةٍ مُبارَكةٍ هي ليْلةُ القَدْرِ مِن شَهرِ رَمَضانَ، مُخَوِّفًا ومُحَذِّرًا النَّاسَ بهذا القُرآنِ مِن وُقوعِ العَذابِ بهم إنْ لم يُقلِعوا عن الشِّركِ والعِصيانِ.

ثمَّ أخبَرَ سُبحانَه عن هذه اللَّيلةِ المبارَكةِ -ليْلةِ القَدْرِ- بأنَّه يُفرَقُ فيها كُلُّ أمرٍ مُحكَمٍ مُشتَمِلٍ على الحِكمةِ، حالَ كَونِ ذلك الأمرِ أمرًا مِن عندِه تعالَى، إنَّه كان مُرسِلًا رَسولًا يَتْلو آياتِه؛ رَحمةً منه تعالَى بعِبادِه، إنَّه هو السَّميعُ العَليمُ.

ثمَّ وصَفَ اللهُ تعالَى نفْسَه بما يدُلُّ على عظَمتِه وكَمالِ قُدرتِه، فقال: خالِقُ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنهما، إنْ كُنتُم موقِنينَ. لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا هو سُبحانَه، يُحيي ويُميتُ، هو خالِقُكم وخالِقُ آبائِكم الأوَّلينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهَذينِ الحرْفينِ مِن الحُروفِ المقطَّعةِ التي تُستفتَحُ بها كَثيرٌ مِن سُوَرِ القرآنِ؛ لبَيانِ إعجازِه، حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثونَ بها[1].

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ٢﴾.

أي: أُقسمُ بالقُرآنِ الواضِحِ الموضِّحِ لكُلِّ ما يُحتاجُ إلى بَيانِه[2].

---

(١) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ أوَّل سورةِ الزُّخرفِ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٥٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير الخازن)) =

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣ ﴾.

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في ليْلةٍ كَثيرةِ البرَكاتِ والخيْراتِ، وهي ليْلةُ القَدْرِ مِن شَهرِ رَمَضانَ(١).

---

= (٤/ ١١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

قال ابنُ عطية: (﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن الفِعلِ المتعَدِّي، أي: يُبينُ الهُدى والشَّرعَ ونَحوَه، ويحتَمِلُ أن يكونَ مِن غيرِ المتعَدِّي، أي: هو مُبينٌ في نَفسِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٨). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٥) و(٣/ ٤٥٣).

وقال أبو السعود: (أي: البيِّنِ لِمن أُنزِلَ عليهم؛ لِكَونِه بلُغَتِهم وعَلى أساليبِهم، أو ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ لطريقِ الهُدى مِن طَريقِ الضَّلالةِ، المُوَضِّحِ لكُلِّ ما يُحتاجُ إليهِ في أبوابِ الدِّيانةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٣٩).

ممَّن اختار أنَّه بمعنى البَيِّنِ: مقاتلُ بن سليمان، ومكي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧١٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٥٥).

قال الشنقيطي: (ومن إتيانِ «أبان» لازمةً: يَكْثُرُ في القرآنِ اسمُ فاعلِها ﴿كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ و﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ﴾ هو مِنْ «أَبانَ» اللازمةِ). ((العذب النمير)) (١/ ٣٥٥).

وممَّن اختار أنَّه بمعنى المُبينِ لِغَيرِه: الخازن، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٠٤) و(٦/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

وممَّن اختار الجمْعَ بين المعنيَينِ: البقاعي، وذهَب إليه ابنُ عُثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الزُّخرفِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢)، ((تفسير العثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٠).

قال ابنُ عثيمين: (فقَولُنا: ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ مِن أبان الشَّيءَ: إذا أظهَرَه، يعني: أنَّ القُرآنَ أظهَرَ كُلَّ شَيءٍ يَحتاجُ النَّاسُ إليه في دينِهم ودُنياهم. وقيل: المرادُ بـ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ البَيِّنُ. والأعَمُّ أنَّه مُظهِرٌ للحَقِّ؛ لأنَّه لا يُظهِرُ الحَقَّ إلَّا إذا كان هو ظاهِرًا، وعلى هذا ففَسِّرِ ﴿ٱلۡمُبِينِ﴾ بأنَّه الْمُظهِرُ، وإنْ فَسَّرْتَه بهما فلا بأسَ، فقُلتَ: إنَّه بَيِّنٌ مُبينٌ؛ لأنَّ الكَلِمةَ إذا احتَمَلت مَعنَيينِ -وهذه قاعدة- لا يُنافي أحدُهما الآخَرَ، وليس أرجَحَ منه؛ فإنَّها تُحمَلُ عليهما). ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥، ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالَى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١].

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

أي: إنَّا كُنَّا مُخوِّفينَ ومُحَذِّرينَ النَّاسَ بالقُرآنِ مِن أنْ تحُلَّ بهم عُقوبتُنا إنْ لم يَتوبوا مِن شِرْكِهم وكُفرِهم وعِصيانِهم(١).

---

= (ص: ٧٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٢).

قال الرَّسْعني: (اللَّيلةُ المُبارَكةُ: ليلةُ القَدْرِ، في قَولِ ابنِ عبَّاسٍ، وعامَّةِ المُفَسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٥٩). ونَسَبَه ابنُ الجوزي للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٧).

وقال ابنُ القيِّم: (قال تعالى: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾، وهذه هي ليْلةُ القدْرِ قطعًا؛ لقولِه تعالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. ومَن زعَم أنَّها ليْلةُ النِّصفِ مِن شَعبانَ فقدْ غَلِط). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٢). ويُنظر: ((المجموع شرح المهذب)) للنووي (٦/ ٤٤٧، ٤٤٨).

قال السَّمعاني: (وفي معنى هذا الإنزالِ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّه أُنزِلَ جَميعُ القُرآنِ في ليْلةِ القَدْرِ إلى السَّماءِ الدُّنيا...

والقَولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالإنزالِ هاهنا ابتداءُ الإنزالِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢١).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ، وأنَّ المرادَ نُزولُ القُرآنِ إلى السَّماءِ الدُّنيا ليْلةَ القَدْرِ جُملةً واحِدةً، ثمَّ نُزولُه بعْدَ ذلك مُفَرَّقًا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جُزي، والزَّركشي ونسَبَه إلى الأكثرينَ، وابنُ حجر. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٦)، ((البرهان)) للزركشي (١/ ٢٢٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ، وأنَّ ابتداءَ نُزولِ القُرآنِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان في ليلةِ القَدرِ: الزمخشريُّ، وابنُ عطية -ونَسَبَه إلى الجُمهورِ-، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٧).

قال الشنقيطي: (لا شَكَّ أنَّ ليلةً هي خيرٌ مِن ألفِ شَهرٍ، إلى آخِرِ الصِّفاتِ التي وُصِفَت بها في سُورةِ «القَدْرِ»: كثيرةُ البَرَكاتِ والخَيراتِ جِدًّا). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٧). =

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: يُقضَى ويُبيَّنُ ويُكتَبُ في ليْلةِ القَدرِ المباركةِ كُلُّ أمْرٍ مُحكَمٍ مُشتَمِلٍ على الحِكمةِ البالِغةِ[1].

---

= وقَولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ جملةٌ استِئنافيَّةٌ فُسِّرَ بها جَوابُ القَسَم -الَّذي هو قَولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾- كأنَّه قيل: أنزَلْناه؛ لأنَّ مِن شَأنِنا الإنذارَ والتَّحذيرَ مِن العِقابِ. ذكَره الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٩-٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٢-١٧٣).

قال الماوردي: (في ﴿يُفْرَقُ﴾ أربعةُ أوجهٍ: أحدُها: يُقضى. قاله الضَّحَّاك. الثاني: يُكتَبُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثالث: يُنزَلُ. قاله ابنُ زيْدٍ. الرابع: يُخرَجُ. قاله ابنُ سنانٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٥).

وقال البقاعي: (﴿يُفْرَقُ﴾ أي: يُنشَرُ ويُبيَّنُ ويُفَصَّلُ ويُوضَّحُ مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وقولُه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: في ليْلةِ القدْرِ يُفصَلُ مِن اللَّوحِ المحفوظِ إلى الكَتَبةِ أمرُ السَّنةِ، وما يكونُ فيها مِن الآجالِ والأرزاقِ، وما يكونُ فيها إلى آخِرِها. وهكذا رُوِي عن ابنِ عُمرَ، وأبي مالكٍ، ومُجاهدٍ، والضَّحَّاكِ، وغيرِ واحدٍ مِن السَّلفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)

وقال الشنقيطي: (معْنى الآيةِ: أنَّ اللهَ تبارَك وتعالَى في كلِّ ليْلةِ قدْرٍ مِن السَّنةِ يُبيِّنُ للملائكةِ ويَكتُبُ لهم بالتَّفصيلِ والإيضاحِ جميعَ ما يقَعُ في تِلك السَّنةِ إلى ليْلةِ القدْرِ مِن السَّنةِ الجديدةِ، فتُبيَّنُ في ذلك الآجالُ والأرزاقُ، والفقرُ والغِنى، والخِصبُ والجدْبُ، والصِّحَّةُ والمرضُ، والحروبُ والزَّلازلُ، وجميعُ ما يقَعُ في تلك السَّنةِ كائنًا ما كان). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٧٢-١٧٣).

وقال الواحدي: (والأمرُ الحَكيمُ: المُحكَمُ، يعني: أمرَ السَّنةِ إلى مِثلِها مِن العامِ المُقبِلِ، يَقضي اللهُ في تلك اللَّيلةِ ما هو كائِنٌ في السَّنةِ مِن الخَيرِ، والشِّدَّةِ والرَّخاءِ، والأرزاقِ والآجالِ، ومَحوٍ وتَثبيتٍ ما يَشاءُ. وهذا قَولُ عامَّةِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢٠/ ٩٥).

وقال الشنقيطي: (﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، أي: ذي حِكمةٍ بالِغةٍ؛ لأنَّ كُلَّ ما يَفعَلُه اللهُ مُشتَمِلٌ على أنواعِ الحِكَمِ الباهِرةِ. =

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥﴾.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾.

أي: حالَ كَونِ ذلك الأمْرِ أمْرًا مِن عِندِنا[1].

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

أي: إنَّا كنَّا مُرسِلينَ رَسولًا يَتْلو آياتِ اللهِ، ويُبَلِّغُ رِسالتَه[2].

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾.

---

= وقال بَعضُهم: حَكيمٌ، أي: مُحكَمٌ، لا تَغييرَ فيه ولا تَبْديلَ. وكِلا الأمرَينِ حَقٌّ؛ لأنَّ ما سَبَق في عِلمِ اللهِ لا يَتغَيَّرُ ولا يَتبَدَّلُ، ولأنَّ جميعَ أفعالِه في غايةِ الحِكمةِ. ((أضواء البيان)) (٧/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

مِن المفَسِّرين مَن عمَّم بحيثُ يَشمَلُ ذلك جميعَ المُرسَلينَ. ومنهم: السَّمرقنديُّ، وابن أبي زَمنين، والبَغَوي، وابن الجوْزي، والرازي، وأبو حيان، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

ومنهم مَن خَصَّص ذلك بالنبيِّ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، منهم: ابنُ جريرٍ، والثعلبي، والعُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٨).

قال الماوَرديُّ: (﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ فيه ثَلاثةُ أوجُهٍ: أحَدُها: مُرسِلينَ الرُّسُلَ للإنذارِ. الثَّاني: مُنزِلينَ ما قَضَيناه على العِبادِ. الثَّالِثُ: مُرسِلينَ رَحمةً مِن رَبِّك). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٦).

أي: رَحمةً مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- بعِبادِه[١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو السَّميعُ لأقوالِ عِبادِه، العَليمُ بأعمالِهم وأحوالِهم[٢].

﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧﴾.

أي: خالِقِ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ، والمالِكِ والمُدبِّرِ لجميعِ ذلك، إنْ كُنتُم مُتحَقِّقينَ بذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٣).

قيل: معنى ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي: إنْ كُنتُم تَطلُبونَ اليَقينَ وتُريدونَه، فاعرِفوا أنَّ الأمْرَ كما قُلْنا، كقَولِهم: (فلانٌ مُنْجِدٌ مُتْهِمٌ) أي: يُريدُ نَجْدًا وتِهامةَ.

وقيل: معنى الشَّرطِ: أنَّ إرسالَ الرُّسُلِ وإنزالَ الكُتُبِ: رَحمةٌ مِن الرَّبِّ. ثمَّ قيلَ لهم: إنَّ هذا الرَّبَّ هو السَّميعُ العَليمُ الذي أنتم مُقِرُّونَ بأنَّه رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ وما بيْنَهما، أي: إنْ كان إقرارُكم عن إيقانٍ باللهِ تعالَى وإتقانٍ لِمَعرفتِه.

وقيل: هو تقريرٌ وتَثبيتٌ، أي: إنْ كُنتَ مُوقِنًا بهذا يكونُ يَقينُك، كما تقولُ لإنسانٍ تُريدُ إقامةَ نفْسِه -أي: إثارتَها-: العِلمُ غَرَضُك إنْ كُنتَ رَجُلًا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٠٨).

وقال القرطبي: (يحتَمِلُ أن يكونَ هذا الخِطابُ مع المُعتَرِفِ بأنَّ اللهَ خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ، أي: إنْ كُنتُم مُوقِنينَ به، فاعلَموا أنَّ له أن يُرسِلَ الرُّسُلَ، ويُنَزِّلَ الكُتُبَ. ويجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ مع مَن لا يَعتَرِفُ بأنَّه الخالِقُ، أي: يَنْبغي أنْ يَعرِفوا أنَّه الخالِقُ، وأنَّه الذي يُحيي ويُميتُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٩).

كما حَكى تعالَى قَولَ مُوسى لِفرعَونَ ومَلَئِه: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٨﴾.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ حَقٌّ إلَّا اللهُ المُستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه دُونَ ما سِواه[١].

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾.

أي: هو المتصَرِّفُ وَحْدَه بالإحياءِ والإماتةِ؛ فيُحيي ما يَشاءُ، ويُميتُ ما يَشاءُ مِن الأحياءِ[٢].

كما قال تعالَى: ﴿هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾.

أي: هو خالِقُكم ومالِكُكم ورازِقُكم أنتُم وآبائِكم الذين مِن قَبْلِكم[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ خَصَّ اللهُ تعالَى بعضَ الأوقاتِ بمَزيدِ تَشريفٍ؛ حتى يَصيرَ ذلك داعيًا للمُكَلَّفِ إلى الإقدامِ على الطَّاعاتِ في ذلك الوَقتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٣).

٢- قال تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ وَصْفُها بـ ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾ تَنْويهٌ بها وتَشويقٌ لمَعرِفَتِها؛ فهذه اللَّيلةُ هي اللَّيلةُ الَّتي ابتُدِئَ فيها نُزولُ القُرآنِ على مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ في الغارِ مِن جَبَلِ حِراءٍ في رَمَضانَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فبَرَكةُ اللَّيلةِ الَّتي أُنزِلَ فيها القُرآنُ بَرَكةٌ قدَّرَها اللهُ لها قَبْلَ نُزولِ القُرآنِ؛ ليَكونَ القُرآنُ بابتِداءِ نُزولِه فيها مُلابِسًا لوَقتٍ مُبارَكٍ، فيَزدادَ بذلك فَضلًا وشَرَفًا[1].

وقيل: إنَّ وَصْفَها بـ ﴿مُّبَٰرَكَةٍ﴾؛ لِمَا أنَّ نُزولَ القُرآنِ مُستَتبِعٌ للمَنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيَويَّةِ بأَجمَعِها، أو لِمَا فيها مِن تَنَزُّلِ المَلائِكةِ والرَّحمةِ، وإجابةِ الدَّعوةِ، وقَسْمِ النِّعمَةِ، وفَصْلِ الأقضِيَةِ، وفَضيلةِ العِبادَةِ، وإعطاءِ تَمامِ الشَّفاعةِ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ فيه دَليلٌ على التَّقديرِ السَّنويِّ (الحوْليِّ) في ليْلةِ القدْرِ؛ فالتَّقديراتُ أنواعٌ؛ منها: التَّقديرُ الشَّاملُ لجَميعِ المخلوقاتِ وكِتابةُ ذلك قبْلَ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ بخمْسينَ ألْفَ سَنةٍ. ومنها: التَّقديرُ العُمريُّ عندَ تَخليقِ النُّطْفةِ في الرَّحمِ، ومنها: التَّقديرُ اليَوميُّ، وهو تَنفيذُ كلِّ ذلك إلى مَواضعِه[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ * أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ * رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((أعلام السنة المنشورة)) لحافظ الحَكمي (ص: ٨١، ٨٤)، ((مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية)) للسلمان (ص: ١٢٢). ويُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦- ٢٤).

﴿هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ المقصودُ منه تَعظيمُ القُرآنِ بثَلاثةِ أنواعٍ مِن التَّعظيمِ:

**النَّوعُ الأوَّلُ**: تَعظيمُه بحَسَبِ ذاتِه: فأقسَمَ تعالَى به، وذلك يدُلُّ على شَرَفِه، ثمَّ إنَّه تعالَى أقسَمَ به على كَونِه نازِلًا في ليْلةٍ مُبارَكةٍ، والقَسَمُ بالشَّيءِ على حالةٍ مِن أحوالِ نَفسِه يدُلُّ على كَونِه في غايةِ الشَّرَفِ، ثمَّ إنَّه تعالَى وصَفَه بكَونِه مُبينًا، وذلك يدُلُّ أيضًا على شَرَفِه في ذاتِه.

**أمَّا النَّوعُ الثَّاني**: فهو بَيانُ شَرَفِه لأجْلِ شَرَفِ الوَقتِ الذي أُنزِلَ فيه، وهو قَولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، وهذا تَنبيهٌ على أنَّ نُزولَه في ليْلةٍ مُبارَكةٍ يَقتَضي شَرَفَه وجَلالتَه.

**وأمَّا النَّوعُ الثَّالِثُ**: فهو بَيانُ شَرَفِ القُرآنِ لشَرَفِ مُنَزِّلِه، وذلك هو قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾؛ فبَيَّنَ أنَّ ذلك الإنذارَ والإرسالَ إنَّما حَصَل مِنَ اللهِ تعالَى، ثمَّ بيَّنَ أنَّ ذلك الإرسالَ إنَّما كان لأجْلِ تَكميلِ الرَّحمةِ، وهو قَولُه تعالَى: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾[1].

٥- قال تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وَصَفَهم بالأوَّلِين؛ لأنَّهم جَعَلوا أقدَمَ الآباءِ حُجَّةً أعظَمَ مِن الآباءِ الأقرَبينَ، كما قال تعالَى حِكايَةً عنهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2] [المؤمنون: ٢٤].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

- في جَعْلِ المُقسَمِ به القُرآنَ بوَصْفِ كَونِه كِتابًا مُبينًا، وجَعْلِ جَوابِ القَسَمِ أنَّ اللهَ جَعَله مُبينًا: تَنويهٌ خاصٌّ بالقُرآنِ؛ إذ جَعَل المُقسَمَ به هو المُقسَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٤).

عليه، وهذا ضَربٌ عَزيزٌ بَديعٌ؛ لأنَّه يُومِئُ إلى أنَّ المُقسَمَ على شَأنِه بَلَغ غايَةَ الشَّرَفَ، فإذا أَرادَ المُقسِمُ أنْ يُقسِمَ على ثُبوتِ شَرَفٍ له، لم يَجِدْ ما هو أوْلَى بالقَسَمِ به؛ للتَّناسُبِ بيْن القَسَمِ والمُقسَمِ عليه[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ تَنويهٌ بشَأنِ القُرآنِ بطريقَةِ الكِنايَةِ عنه بذِكرِ فَضلِ الوقتِ الَّذي ابتُدِئَ إنزالُه فيه[2].

- وتَنكيرُ ﴿لَيْلَةٍ﴾ للتَّعظيمِ[3].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ مُعتَرِضةٌ، وحَرفُ (إنَّ) يَجوزُ أنْ يَكُونَ للتَّأكيدِ؛ ردًّا لإنكَارِهِم أنْ يَكونَ اللهُ أرسَلَ رُسُلًا للنَّاسِ؛ لأنَّ المُشرِكين أنْكَروا رِسالَةَ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بزَعمِهم أنَّ اللهَ لا يُرسِلُ رَسولًا مِن البَشَرِ؛ فكان ردُّ إنكارِهم ذلك رَدًّا لإنكارِهم رِسالةَ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ؛ فتكونُ جُملَةُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ مُستَأنَفةً. ويَجوزُ أنْ تَكونَ (إنَّ) لِمُجَرَّدِ الاهتِمامِ بالخَبَرِ؛ فتَكونُ مُغنِيَةً غَناءَ فاءِ التَّسَبُّبِ، فتُفيدُ تَعليلًا؛ فتَكونُ جُملَةُ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ تَعليلًا لجُملَةِ ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾؛ كأنَّه قِيلَ: إنَّا أنزَلْناهُ لأنَّ مِن شَأنِنا الإنذارَ والتَّحذيرَ مِن العِقابِ؛ فمَضمونُ الجُملَةِ عِلَّةُ العِلَّةِ، وهو إيجازٌ[4].

- وإنَّما اقتَصَر على وَصْفِ ﴿مُنذِرِينَ﴾ -مع أنَّ القُرآنَ مُنذِرٌ ومُبَشِّرٌ- اهتِمامًا بالإنذارِ؛ لأنَّه مُقتَضَى حالِ جُمهورِ النَّاسِ يَومَئِذٍ، والإنذارُ يَقتَضِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٦١، ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٩).

التَّبشيرَ لِمَن انتَذَرَ[١].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿مُنذِرِينَ﴾؛ لدَلالَةِ قَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ عليه، أي: مُنذِرينَ المُخاطَبينَ بالقُرآنِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ مُستَأنَفٌ استِئنافًا بَيانِيًّا ناشِئًا عن تَنكيرِ ﴿لَيۡلَةٖ﴾، ووَصْفِها بأنَّها مُبارَكَةٌ آنِفًا، فدَلَّ على عِظَمِ شَأنِ هاتِهِ اللَّيلَةِ عِندَ اللهِ تعالَى؛ فإنَّها ظَهَر فيها إنزالُ القُرآنِ، وفيها يُفرَقُ عِندَ اللهِ كلُّ أمرٍ حَكيمٍ[٣].

- قولُه: ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ هذا مُستَمِرٌّ في كلِّ لَيلَةٍ تُوافِقُ عدَّ تِلكَ اللَّيلَةِ مِن كلِّ عامٍ؛ كما يُؤذِنُ به المُضارِعُ في قَولِه: ﴿يُفۡرَقُ﴾، ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ استِعمالُ المُضارِعِ في ﴿يُفۡرَقُ﴾؛ لاستِحضَارِ تِلكَ الحالَةِ العَظيمَةِ[٤].

- قولُه: ﴿حمٓ * وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ * فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾ في هذه الجُمَلِ الأربعِ مُحَسِّنُ اللَّفِّ والنَّشرِ[٥]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٨٠).

(٥) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا، بأن يُؤتَى بلفظٍ يشتملُ على متعدِّدٍ، ثم يذكرُ أشياءَ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يدخلَ الجنةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لفٌّ ونَشْر إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهين؛ الوجه الأوَّل: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِ، ويُسَمَّى (اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ). الوجه الثاني: =

ففي قَولِه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ لَفٌّ بيْن مَعنَيَينِ؛ أَوَّلُهما: تَعْيينُ إنزالِ القُرآنِ، وثانِيهُما: اختِصاصُ تَنزيلِه في لَيلَةٍ مُبارَكَةٍ، ثمَّ علَّل المَعنَى الأَوَّلَ بجُملةِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، وعلَّل المَعنَى الثَّانيَ بجُملَةِ ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ * رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾

- إعادةُ كَلمةِ ﴿أَمۡرٗا﴾ لِتَفْخيمِ شأْنِه؛ وإلَّا فإنَّ المقصودَ الأصليَّ هو قولُه: ﴿مِّنۡ عِندِنَآ﴾؛ فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يقَعَ ﴿مِّنۡ عِندِنَآ﴾ صِفةً لـ ﴿أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾، فخُولِفَ ذلك لهذه النُّكتةِ، أي: أمْرًا عظيمًا فَخْمًا؛ إذ وُصِفَ بـ(حكيم)، ثمَّ بكَونِه مِن عندِ اللهِ؛ تَشْريفًا له بهذه العِنْديَّةِ، ويَنصَرِفُ هذا التَّشريفُ والتَّعظيمُ والتَّفخيمُ ابتِداءً وبالتَّعيينِ إلى القُرآنِ؛ إذ كان بنُزولِه في تلك اللَّيلَةِ تَشريفُها وجَعْلُها وَقتًا لقَضاءِ الأُمورِ الشَّريفَةِ الحَكيمَةِ[2].

- وقولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ * رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ يَجوزُ أن يَكونَ بَدَلًا مِن قَولِه:

---

= أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى (اللَّفَّ والنشرَ غيرَ المُرتَّبِ)، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ(اللَّف والنَّشر المُشَوَّش)، أو (المعكوس). يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((التبيان في البيان)) للطيبي (ص: ٢٣١، ٢٣٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٠).

﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، و﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ مَفعولًا له، على مَعنَى: إنَّا أَنزَلْنا القُرآنَ؛ لأنَّ مِن شَأنِنا إرسالَ الرُّسلِ بالكُتُبِ إلى عِبادِنا لأَجلِ الرَّحمَةِ عليهم، وأنْ يَكُونَ تَعليلًا لـ﴿يُفْرَقُ﴾، أو لقَولِه: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾، وتَكونَ ﴿رَحْمَةً﴾ مَفعولًا به؛ لأنَّ الجُمَلَ كُلَّها حِينَئِذٍ وارِدَةٌ على التَّعليلِ المُتداخِلِ؛ فكَأنَّه لَمَّا قِيلَ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، فقِيلَ: لِمَ؟ فأُجيبَ: لأنَّه مِن شَأنِنا التَّحذيرُ والعِقابُ، فقِيلَ: لِمَ خَصَّص الإنزالَ في هذه اللَّيلَةِ؟ فقيل: لأنَّهُ مِن الأُمورِ المُحكَمَةِ، ومِن شَأنِ هذه اللَّيلَةِ أنْ يُفرَقَ فيها كلُّ أمرٍ حَكيم، فقِيلَ: لِمَ كان مِن الأُمورِ المُحكَمةِ؟ فأُجيبَ: لأنَّ ذا الجَلالِ والإكرامِ أرادَ إرسالَ رَحمةٍ للعالَمين، ومِن حقِّ المُنزَلِ عليه أنْ يَكونَ حَكيمًا؛ لكَونِه للعالَمين نَذيرًا، وداعِيًا إلى اللهِ بإذنِه وسِراجًا مُنِيرًا؛ فقِيلَ: لِمَاذا رَحِمَهم الرَّبُّ عزَّ وجَلَّ بذلك؟ فأُجيبَ: لأنَّه سُبحانَه وتعالَى هو وَحْدَه سَميعٌ عَليمٌ؛ يَعلَمُ جُزئِيَّاتِ أَحوالِ عِبادِه وكُلِّيَّاتِها، ويَعلَمُ ما يَحتاجُون إليه دُنيا وآخِرةً، وهو وَحْدَه ربُّ السَّمواتِ والأَرضِ، يُرَبِّيهم ويَرزُقُهم ويَمنَحُهُم مَرافِقَهم، وهو وَحْدَه يُحْيِيهم ويُميتُهم، ويُثيبُهم ويُعاقِبُهم، وإليه الإشارَةُ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وما بَعْدَه، تَحقيقٌ لرُبوبِيَّتِه، وأنَّها لا تَحِقُّ إلَّا لِمَن هذه أَوصافُه[1].

- ومَفعولُ ﴿مُرْسِلِينَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه مادَّةُ اسمِ الفاعِلِ، أي: مُرْسِلينَ الرُّسُلَ[2].

- قولُه: ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ أصلُ الكلامِ: (إنَّا كُنَّا مُرسِلين رَحمَةً مِنَّا)، ولكنْ قال: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾؛ فوُضِعَ الرَّبُّ مَوْضِعَ الضَّميرِ؛ إيذانًا بأنَّ الرُّبوبِيَّةَ تَقتَضِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

الرَّحمَةَ على المَربوبينَ؛ فإنَّه أعظَمُ أنواعِ التَّربيَةِ، ولِيَكونَ تَمهيدًا يَنْبَني عليه التَّعليلُ المُتَضَمِّنُ للتَّعريضِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

- وإضافَةُ (رَب) إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ صَرفٌ للكَلامِ عن مُواجَهَةِ المُشرِكين إلى مُواجَهَةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بالخِطابِ؛ لأنَّه الَّذي جَرَى خِطابُهم هذا بواسِطَتِه؛ فهُوَ كحاضِرٍ مَعَهم عِندَ تَوجيهِ الخِطابِ إليهم؛ وهذا لِقَصدِ التَّنويهِ بشَأنِه بعْدَ التَّنويهِ بشَأنِ الكِتابِ الَّذي جاءَ به. وأيضًا إضافَةُ الرَّبِّ إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ؛ لِيَتَوَصَّلَ إلى حظٍّ له في خِلالِ هذه التَّشريعاتِ بأنَّ ذلك كُلَّه مِن رَبِّه، أي: بواسِطَتِه؛ فإنَّه إذا كان الإرسالُ رَحمَةً كان الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ رَحمَةً، ويُعلَمُ مِن كَونِه ربَّ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ أنَّه ربُّ النَّاسِ كُلِّهم؛ إذ لا يَكونُ الرَّبُّ رَبَّ بَعضِ النَّاسِ دُونَ بَعضٍ؛ فأَغنَى عن أنْ يَقولَ: رَحمَةً مِن ربِّك ورَبِّهم؛ لأنَّ غَرَضَ إضافَةِ (رَب) إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يَأبَى ذلك، ثمَّ سيُصَرِّحُ بأنَّهُ رَبُّهم في قَولِه: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[2] [الدخان: ٨].

- وجُملَةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تَعليلٌ لجُملَةِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ * رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾، أي: كُنَّا مُرسِلينَ رَحمَةً بالنَّاسِ؛ لأنَّه عَلِمَ عِبادَةَ المُشرِكين للأَصنامِ، وعَلِم إغواءَ أئمَّةِ الكُفرِ للأُمَمِ، وعَلِم ما سِوى ذلك مِن أَقوالِهم؛ فأرسَلَ الرُّسُلَ لتَقويمِهم وإصلاحِهم، وعَلِم أيضًا نَوايا النَّاسِ وأفعالَهم وإفسادَهم في

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١، ٢٨٢)

الأَرضِ؛ فأَرسَل الرُّسُلَ بالشَّرائِعِ لِكَفِّ النَّاسِ عن الفَسادِ وإصلاحِ عَقائِدِهم وأعمالِهم، فأُشيرَ إلى عِلمِ النَّوعِ الأوَّل بوَصْفِ ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾؛ لأنَّ السَّميعَ هو الَّذي يَسمَعُ الأَقوالَ ويَعلَمُها، فلا يَخفَى عليه منها شَيءٌ، وأُشيرَ إلى عِلمِ النَّوعِ الثَّانِي بوَصفِ ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ الشَّامِلِ لجَميعِ المَعلُوماتِ. وقدَّمَ السَّميعَ؛ للاهتِمامِ بالمسْمَوعاتِ؛ لأنَّ أصْلَ الكُفرِ هو دُعاءُ المشركينَ أصْنامَهم. و(السَّميعُ والعَليمُ) تَعليلانِ لجُملَةِ ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ بطَريقِ الكِنايَةِ الرَّمزِيَّةِ؛ لأنَّ عِلَّةَ الإرسالِ في الحَقيقَةِ هي إرادَةُ الصَّلاحِ ورَحمَةِ الخَلْقِ، وأمَّا العِلمُ فهو الصِّفَةُ الَّتي تَجرِي الإرادَةُ على وَفْقِه؛ فالتَّعليلُ بصِفَةِ العِلمِ بِناءً على مُقَدِّمَةٍ أُخرَى؛ وهي: أنَّ اللهَ تعالَى حَكيمٌ لا يُحِبُّ الفَسادَ، فإذا كان لا يُحِبُّ ذلك، وكان عَليمًا بتَصَرُّفاتِ الخَلقِ؛ كان عِلمُه وحِكمَتُه مُقتَضِيَيْنِ أنْ يُرسِلَ للنَّاسِ رُسُلًا رَحمَةً بِهِم[1].

- وأفاد ضَميرُ الفَصلِ ﴿هُوَ﴾ الحَصْرَ، أي: هو السَّميعُ العَليمُ لا أصنامُكُم الَّتي تَدْعونَها، وفي هذا إيماءٌ إلى الحاجَةِ إلى إرسالِ الرَّسولِ إليهم بإبطالِ عِبادَةِ الأصنامِ[2].

- وفي تَخصيصِ ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ إدماجٌ[3] لِمَعنَى التَّهديدِ والوَعيدِ للكُفَّارِ، والوَعدِ للمُؤمِنين الَّذِين تَلَقَّوْا هذه النِّعمَةَ بأَنواعِ الشُّكرِ[4].

- ومُفتَتَحُ هذه السُّورةِ يَجوزُ أنْ يَكونَ كَلامًا مُوَجَّهًا إلى المُشرِكين ابتِداءً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٢).

(٣) تقدَّم تعريفه (ص: ٥٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٢).

لِفَتحِ بَصائِرِهم إلى شَرَفِ القُرآنِ وما فيه مِن النَّفْعِ للنَّاسِ؛ لِيَكُفُّوا عن الصَّدِّ عنه؛ ولهذا وَرَدَت الحُروفُ المُقَطَّعَةُ في أوَّلِها المَقصودُ منها التَّحَدِّي بالإعجازِ، واشتَمَلَت الجُمَلُ الثَّلاثُ في أوَّلِها على حَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)، ويَكونُ إعلامُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بهذه المَزايَا حاصِلًا تَبَعًا؛ إنْ كان لم يَسبِقْ إعلامُه بذلك بما سَبَق مِن آيِ القُرآنِ أو بوَحْيٍ غيرِ القُرآنِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ مُوَجَّهًا إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ أصالَةً، ويَكونَ عِلمُ المُشرِكين بما يَحتَوي عليه حاصِلًا تَبَعًا بطَريقِ التَّعريضِ، ويَكونَ التَّوكيدُ مَنظورًا فيه إلى الغرَضِ التَّعريضيِّ[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ هذا عَودٌ إلى مُواجَهةِ المشركينَ بالتَّذكيرِ على نحْوِ ما ابتدَأَتْ به السُّورةُ. وهو تَخلُّصٌ للاستِدلالِ على تَفرُّدِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ؛ إلْزامًا لهم بما يُقِرُّون به مِن أنَّه ربُّ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنهما، ويُقِرُّون بأنَّ الأصنامَ لا تَخلُقُ شيئًا، غيْرَ أنَّهم مُعرِضونَ عن نَتيجةِ الدَّليلِ ببُطلانِ إلهيَّةِ الأصنامِ؛ فقدْ كرَّرَ القُرآنَ تَذكيرَهم بأمثالِ هذا، كما في قولِه تعالَى: ﴿ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧]، وقولِه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ ۝ أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ ﴾ [النحل: ٢٠، ٢١]، ولأجْلِ ذلك ذَكَر الرُّبوبيَّةَ إجمالًا في قولِه: ﴿ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ ﴾ [الدخان: ٦]، ثمَّ تَفصيلًا بذِكرِ صِفةِ عُمومِ العِلمِ التي هي صِفةُ المعبودِ بحقٍّ بصِيغةِ قصْرِ القلْبِ[2] المشيرِ إلى أنَّ الأصنامَ لا تَسمَعُ ولا تَعلَمُ، وبذِكْرِ صِفةِ التَّكوينِ المختصَّةِ به تعالَى بإقرارِهم؛ ارتقاءً في الاستِدلالِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨١).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ١٧٥).

فلمَّا لم يكُنْ مَجالٌ للرَّيبِ في أنَّه تعالَى هو الإلهُ الحقُّ، أُعقِبَ هذا الاستدلالُ بجُملةِ ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ بطَريقةِ إثارةِ التَّيقُّظِ لِعُقولِهم؛ إذ نزَّلَهم مَنزلةَ المشكوكِ إيقانُهم؛ لِعَدَمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ الإيقانِ للهِ بالخالقيَّةِ حِين عَبَدوا غيْرَه؛ بأنْ أُتِيَ في جانبِ فرْضِ إيقانِهم بطَريقةِ الشَّرطِ، وأُتِيَ بحرْفِ الشَّرطِ (إنْ) الذي أصْلُه عَدَمُ الجزْمِ بوقُوعِ الشَّرطِ على نحوِ قولِه تعالَى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾[1] [الزخرف: ٥].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿مُّوقِنِينَ﴾ للعِلمِ به مِن قولِه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾. وجَوابُ الشَّرْطِ مَحذوفٌ دلَّ عليه المقامُ. والتَّقديرُ: إنْ كُنتُم مُوقنينَ فلا تَعْبُدوا غيْرَه؛ ولذلك أعقَبَه بجُملةِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[2] [الدخان: ٨].

٦- قولُه تعالَى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفَةٌ مُقرِّرَةٌ لِمَا قَبْلَها[3].

- وجُملَةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ نَتيجَةٌ للدَّليلِ المُتَقَدِّمِ؛ لأنَّ انفِرادَه برُبوبيَّةِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنهما دَليلٌ على انفِرادِه بالإلَهيَّةِ، أي: على بُطلانِ إلَهيَّةِ أصنامِهم؛ فكانَتْ هذه الجُملَةُ نَتيجَةً لذلك؛ فلذلك فُصِلَتْ -أي: لم تُعطَفْ على التي قبْلَها- لِشِدَّةِ اقتِضاءِ الجُملَةِ الَّتي قَبْلَها إيَّاها[4].

- قولُه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ إلْزامٌ مِن اللهِ للمُشرِكينَ بكَلِمَةِ التَّقوَى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧١، ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٤).

ثمَّ خَصَّ التَّربيَةَ بهم وبأسلافِهم جاريًا على سَنَنِ الخِطابِ، فقال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، ومُقَرِّرًا لِمَزيدِ تَوخِّي شُكرِ تلك الرَّحمَةِ السَّنِيَّةِ، وهذه النِّعمَةِ الجَليلَةِ(١).

- وجُملَةُ ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ مُستَأنَفَةٌ للاستِدلالِ على أنَّه لا إلهَ إلَّا هو بتَفَرُّدِه بالإحياءِ والإماتَةِ، والمُشرِكون لا يُنازِعون في أنَّ اللهَ هو المُحْيِي والمُميتُ؛ فكما استَدَلَّ عليهم بتَفَرُّدِه بإيجادِ العَوالِمِ وما فيها، استَدَلَّ عليهم بخَلْقِ أعظَمِ أحوالِ المَوجوداتِ، وهي حالَةُ الحَياةِ الَّتي شَرَّفَ بها الإنسانَ عن مَوجوداتِ العالَمِ الأرضِيِّ، وكَرَّم أيضًا بإعطائِها للحَيوانِ لتَسخيرِه لانتِفاعِ الإنسانِ به بسَبَبِها، وبتَفَرُّدِه بالإماتةِ، وهي سَلبُ الحَياةِ عن الحيِّ؛ للدَّلالَةِ على أنَّ الحَياةَ لَيسَتْ ذاتِيَّةً للحَيِّ(٢).

- ولَمَّا كان تَفَرُّدُه بالإحياءِ والإماتَةِ دَليلًا واضِحًا في أحوالِ المُخاطَبينَ وفِيمَا حَولَهُم، مِن ظُهورِ الأَحياءِ بالوِلادَةِ والأمواتِ بالوَفاةِ يَومًا فيَومًا؛ مِن شَأنِه ألَّا يَجهَلُوا دَلالَتَه فَضلًا عن جُحودِهِم إيَّاهَا؛ ومع ذلك قدْ عَبَدوا الأصنامَ الَّتي لا تُحيِي ولا تُميتُ -أعقَبَ بإثباتِ رُبوبِيَّتِه للمُخاطَبين تَسجيلًا عليهم بِجَحْدِ الأدِلَّةِ وبكُفرانِ النِّعمَةِ، وعَطَفَ ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾؛ ليُسَجِّلَ عليهم الإلْزامَ بقَولِهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾(٣) [الزخرف: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٩-١٦)

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ فَارْتَقِبْ ﴾: أي: فانتَظِرْ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[١].

﴿ يَغْشَى ﴾: أي: يُغَطِّي ويَستُرُ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تَغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[٢].

﴿ أَنَّىٰ ﴾: كَلِمةٌ يُسألُ بها عن الحالِ والمكانِ، بمعْنى: كيفَ ومِن أينَ[٣].

﴿نَبْطِشُ ﴾: البَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): أخذُ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ[٤].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مُخبِرًا عن حالِ المشركينَ: ليْس المُشرِكونَ مُوقِنينَ بحَقيقةِ ما أخبَرْناهم به مِنَ الحَقِّ، بلْ هم في شَكٍّ منه، ومُشتَغِلونَ باللَّعِبِ.

ثمَّ يقولُ تعالَى مُتوعِّدًا لهم: فانتَظِرْ -يا محمَّدُ- يومًا تَأتي فيه السَّماءُ بدُخَانٍ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

ظاهِرٍ يُغَطِّي النَّاسَ ويَعُمُّهم، فيقولونَ: هذا عَذابٌ مُوجِعٌ مُؤلِمٌ، رَبَّنا ارفَعْ عنَّا هذا العَذابَ؛ فإنَّا مُؤمِنونَ بك إنْ كشَفْتَه عنَّا! مِن أين لأولئك الكُفَّارِ التَّذَكُّرُ والاتِّعاظُ وقدْ جاءهم رَسولٌ ظاهِرٌ، مُبينٌ لهم الحَقَّ، ثمَّ أعرَضوا عنه وقالوا: هو مُعَلَّمٌ، علَّمَه غَيرُه القُرآنَ، وهو مَجنونٌ؟!

إنَّا كاشِفو ذلك العذابِ عنهم زَمَنًا قليلًا، لكِنَّهم عائِدونَ إلى ما كانوا عليه مِنَ الضَّلالِ.

ثمَّ هَدَّدهم اللهُ تعالَى، فقال: يوْمَ نَأخُذُ المُشرِكينَ أخْذًا شَديدًا عَنيفًا؛ إنَّا مُنتَقِمونَ منهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قَرَّر اللهُ تعالَى رُبوبيَّتَه وأُلوهيَّتَه بما يُوجِبُ العِلمَ التَّامَّ، ويَدفَعُ الشَّكَّ؛ أخبَرَ أنَّ الكافِرينَ معَ هذا البَيانِ مُنغَمِرونَ في الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ، غافِلونَ عَمَّا خُلِقوا له، قدِ اشتَغَلوا باللَّعِبِ الباطِلِ الذي لا يُجْدي عليهم إلَّا الضَّرَرَ[1].

﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: ليْس المُشرِكونَ مُوقِنينَ بحَقيقةِ ما أخبَرْناهم به مِنَ الحَقِّ، وإنَّما هم مُنغمِرونَ في شَكِّهم، ومُشتَغِلونَ باللَّعِبِ بالباطِلِ عن اتِّباعِ الحَقِّ[2].

﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١-١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

أي: فانتَظِرِ -يا محمَّدُ- اليَومَ الَّذي تأتي فيه السَّماءُ بدُخَانٍ ظاهِرٍ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣، ٢٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥-٢٨٧).

قال ابن جُزَي: (﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾ في هذا قولانِ:

أحدُهما: قَولُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ، وابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الدُّخَانَ يكونُ قبْلَ يومِ القِيامةِ... وهو مِن أشراطِ السَّاعةِ...

والثَّاني: قَولُ ابنِ مَسعودٍ: أنَّ الدُّخَانَ عِبارةٌ عمَّا أصاب قُرَيشًا حينَ دعا عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالجَدْبِ، فكان الرَّجُلُ يَرى دُخَانًا بيْنَه وبيْنَ السَّماءِ؛ مِن شِدَّةِ الجُوعِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٦).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: الرازيُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٨٨)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٦).

قال ابنُ عُثَيمين: (والأقرَبُ للصَّواب: أنَّه دُخَانٌ يُرسِلُه اللهُ عزَّ وجَلَّ عندَ قِيامِ السَّاعةِ، فيَغشَى النَّاسَ كُلَّهم، واللهُ أعلَمُ بكَيفيَّةِ هذا الدُّخَانِ، فنحن إنَّما نَعرِفُ أنَّه دُخَانٌ، لكِنْ لا نَعرِفُ كيْف يأتي النَّاسَ ولا مِن أيْن يأتي، فهذا أمْرُه إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (١/ ٤٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وأبو سَعيدٍ الخُدْري، وابنُ عمرَ، وابن عبَّاسٍ، والحسن البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (١٠/ ٣٢٨٧)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٨).

وممَّن اختار القولَ الثاني: مقاتلُ بن سليمان، وابنُ جَريرٍ، والزجَّاجُ، والسمرقنديُّ، ومكِّيٌّ، وجلالُ الدِّين المَحلِّي، وأبو السعود، والشَّوكانيُّ، والألوسيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٦٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٦/ ٤١٠٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٠)، ((تفسير الشوكاني (٤/ ٦٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١١٧))، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٧).=

= ونسَب الواحديُّ هذا القولَ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٩٨).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مَسعود، وأبو العاليةِ، والنَّخعي، ومجاهدٌ، والضحَّاك. يُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦-١٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٩).
وفي الصَّحيحَينِ عن ابنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه: ((أنَّ قُريشًا لَمَّا أبْطؤوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإسلامِ، قال: اللَّهُمَّ اكْفِنِيهم بسَبعٍ كسَبْعِ يُوسفَ. فأصابَتْهم سَنةٌ حصَتْ كُلَّ شَيءٍ حتَّى أكَلوا العِظامَ، حتى جعَلَ الرجُلُ يَنظُرُ إلى السَّماءِ فيَرى بيْنه وبيْنها مِثلَ الدُّخَانِ، قال اللهُ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ [الدخان: ١٠]، قال اللهُ: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]؛ أفيُكشَفُ عنهم العذابُ يوْمَ القِيامةِ وقدْ مَضى الدُّخَانُ، ومَضَت البَطْشةُ؟!)) [البخاري (٤٦٩٣) واللفظ له، ومسلم (٢٧٩٨)].
قال ابنُ كثيرٍ: (وقدْ نقَل البُخاريُّ عن ابنِ مَسعودٍ، أنَّه فسَّر ذلك بما كان يَحصُلُ لقُريشٍ مِن شِدَّةِ الجُوعِ، بسَببِ القحْطِ الَّذي دَعا عليهم به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فكان أحدُهم يَرى فيما بيْنه وبيْن السَّماءِ دُخَانًا مِن شِدَّةِ الجُوعِ، وهذا التَّفسيرُ غَريبٌ جدًّا، ولم يُنقَلْ مِثلُه عن أحدٍ مِن الصَّحابةِ غيْرِه). ((البداية والنهاية)) (١٩/ ٢٦٥).
وقال أيضًا بعْدَ أنْ ذكَرَ أثرًا عن ابنِ عبَّاسٍ فيه تَأييدُ القولِ الأوَّلِ؛ قال: (وهكذا قوْلُ مَن وافَقَه [أي: ابنَ عبَّاسٍ] مِن الصَّحابةِ والتابعينَ أجْمَعين، مع الأحاديثِ المرفوعةِ مِن الصِّحاحِ والحِسانِ وغيْرِهما... ممَّا فيه مَقنَعٌ ودَلالةٌ ظاهرةٌ على أنَّ الدُّخَانَ مِن الآياتِ المنتظَرةِ، مع أنَّه ظاهرُ القرآنِ؛ قال اللهُ تعالَى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ أي: بيِّنٍ واضحٍ يَراه كلُّ أحدٍ. وعلى ما فسَّر به ابنُ مَسعودٍ رَضِي اللهُ عنه: إنَّما هو خَيالٌ رأَوه في أعيُنِهم مِن شِدَّةِ الجُوعِ والجهْدِ. وهكذا قولُه: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَ﴾ أي: يَتغشَّاهم ويعُمُّهم، ولو كان أمرًا خياليًّا يخُصُّ أهْلَ مكَّةَ المشركين لَما قِيل فيه: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٩).
وقال البيضاويُّ: (الدُّخَانُ يحتَمِلُ المَعنَيينِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠). وكذا قال ابنُ عطيةَ، والنوويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٢٧).
وقال النوويُّ: (ويَحتمِلُ أنَّهما دُخَانانِ؛ للجمْعِ بيْنَ هذه الآثارِ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٢٧). =

عن حُذَيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((اطَّلعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ علينا ونحن نَتذاكَرُ، فقال: ما تَذاكرونَ؟ قالوا: نَذكُرُ السَّاعةَ. قال: إنَّها لنْ تقومَ حتَّى تَرَونَ[1] قبْلَها عَشْرَ آياتٍ، فذكَرَ الدُّخَانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطُلوعَ الشَّمسِ مِن مَغرِبِها، ونُزولَ عِيسى بنِ مَريمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويَأجوجَ ومَأجوجَ، وثَلاثةَ خُسوفٍ: خَسفٌ بالمَشرِقِ، وخَسفٌ بالمَغرِبِ، وخَسفٌ بجَزيرةِ العَرَبِ، وآخِرُ ذلك نارٌ تَخرُجُ مِنَ اليَمَنِ تَطرُدُ النَّاسَ إلى مَحشَرِهم))[2].

﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ ﴾.

---

= وقال الشوكانيُّ: (لا مُنافاةَ بيْن كَونِ هذه الآيةِ نازِلةً في الدُّخَانِ الذي كان يَتراءى لقُرَيشٍ مِن الجُوعِ، وبيْن كَونِ الدُّخَانِ مِن آياتِ السَّاعةِ وعلاماتِها وأشراطِها). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٦).

قال السعديُّ: (وفي الآيةِ احتمالُ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ أنَّ هذا كلَّه يكونُ يوْمَ القِيامةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٢).

ممَّن اختارَ أنَّ قَولَه: ﴿مُّبِينٍ﴾ أي: بيِّنٍ ظاهرٍ: الزمخشريُّ، والرازيُّ، والنَّسفيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٦).

قال البقاعي: (﴿بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: واضِحٍ لا لَبْسَ فيه عندَ رائيهِ، ومُبِينٍ لِما سِواه مِن الآياتِ للفَطِنِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٣).

(١) قال العُكبري: (في هذا الحديثِ: «حتَّى تَرَونَ» بالنونِ، ولا وجهَ له؛ لأنَّ «حتى» بمعنى: إلى أنْ). ((إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث)) (ص: ٧٤).

(٢) رواه مسلم (٢٩٠١).

أي: يُغَطِّي ذلك الدُّخَانُ النَّاسَ ويَعُمُّهم[١].

﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: فيَقولون: هذا عَذابٌ مُوجِعٌ شَديدُ الإيلامِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣١-١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٤٩-٢٥٠).

قال القرطبيُّ: (﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ في مَوضعِ الصِّفةِ للدُّخَانِ، فإنْ كان قدْ مَضى -على ما قال ابنُ مَسعودٍ- فهو خاصٌّ بالمشركين مِن أهلِ مكَّةَ، وإنْ كان مِن أشراطِ السَّاعةِ فهو عامٌّ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠).

ممَّن اختار أنَّ هذا مِن كلامِ النَّاسِ، كأنَّ تقديرَ الكلامِ: يَقولون: هذا عَذابٌ أليمٌ: ابنُ جريرٍ، والزَّجاج، ومكيٌّ، والزمخشريُّ، وابنُ عطية، والنَّسفيُّ، وابنُ جزي، وأبو السُّعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٠).

قال ابن جُزَي: (وهذا أظهرُ؛ لأنَّ ما بعْدَه مِن كَلامِهم باتِّفاقٍ، فيكونُ الكلامُ مُتناسقًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٧).

وقيل: قائِلُ هذه العِبارةِ: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو اللهُ تعالَى. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢).

وقال ابنُ كَثير: (يُقال لهم ذلك تَقريعًا وتَوبيخًا، كقَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٣، ١٤]، أو يقولُ بَعضُهم لبعضٍ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠).

وقال القرطبيُّ: (﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ... مَن قال: إنَّ الدُّخَانَ قدْ مَضى، فقولُه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ حِكايةُ حالٍ ماضيةٍ، ومَن جعَله مُستقبَلًا فهو حِكايةُ حالٍ آتيةٍ. وقيل: ﴿هَٰذَا﴾ بمعنى: ذلك. وقيل: أي يقولُ الناسُ لذلك الدُّخَانِ: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقيل: هو إخبارٌ عن دُنوِّ الأمرِ، كما تقولُ: هذا الشِّتاءُ فأعِدَّ له). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢).

كما قال اللهُ تعالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ * وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥ - ١٠٧].

﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: يقولُ الكافِرونَ حينَ يُصيبُهم ذلك: يا رَبَّنا، ارفَعْ عنَّا عَذابَك؛ فإنَّا مُؤمِنونَ بك إنْ كشَفْتَ عنَّا هذا العَذابَ[1]!

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾﴾.

أي: كيْفَ يَتسَنَّى للكُفَّارِ التَّذكُّرُ والاتِّعاظُ عندَ حُلولِ ذلك العَذابِ بهم، والحالُ أنَّه قدْ جاءهم رَسولٌ ظاهِرٌ غايةَ الظُّهورِ أنَّه رَسولٌ مِن اللهِ، مُظهِرٌ لهم الحَقَّ مِن عِندِه تعالَى[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤-١٥).

قال ابنُ عاشور: (جميعُ المفَسِّرين على أنَّها حِكايةُ قَولِ الذين يَغْشاهم العذابُ، بتَقديرِ: يقولونَ: ربَّنا اكشِفْ عنَّا العذابَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥-١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٤).

قال ابنُ عاشور: (﴿أَنَّىٰ﴾ اسمُ استِفهامٍ أصلُه استِفهامٌ عن أمكِنةِ حُصولِ الشَّيءِ، ويَتوسَّعونَ فيها فيَجعَلونَها استِفهامًا عن الأحوالِ بمعنى «كيف»، بتَنزيلِ الأحوالِ مَنزِلةَ ظُروفٍ في مكانٍ، كما هنا، بقَرينةِ قَولِه: ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾. والمعنى: مِن أيْن تَحصُلُ لهم الذِّكرى؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

وقَولُه تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ اسمُ فاعِلٍ؛ إمَّا مِن (أَبانَ) المُتَعَدِّي، أي: مُبِينٌ لَهُم ما به يتَذَكَّرون، أو مِن (أَبانَ) القاصِرِ الَّذي هو بمَعنَى (بان)، أي: بيِّنٌ ظاهِرٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: بيِّنُ الرِّسالةِ، وظاهِرُ الصِّدقِ: البَغويُّ، وابنُ =

﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾.

أي: ثمَّ أعرَضَ الكُفَّارُ عن الرَّسولِ، وقالوا: هو مُعلَّمٌ علَّمه أحدٌ هذا القُرآنَ، ثمَّ هو مجنونٌ وليْس رَسولًا كما يَدَّعي[1]!

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا * وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٤، ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٧٠].

وقال تعالَى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

---

= الجوزي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٠).

وممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ ﴿مُّبِينٌ﴾ بمعنى: أنَّه يُبيِّنُ لهم الحَقَّ وكُلَّ شيءٍ يَحتاجونَ إليه مِن أمرِ الدِّينِ والدُّنيا: القرطبيُّ، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٤).

وممَّن جمَع بيْن المعنيينِ السَّابِقَينِ: البقاعي؛ فقال: (﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهِرٌ غايةَ الظُّهورِ أنَّه رَسولُنا، ومُوضِحٌ غايةَ الإيضاحِ لِما جاء به عنَّا بما أظهَرَ مِن الآياتِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٦)، ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٣).

﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: إنَّا كاشِفو العذابِ عنكم وَقتًا قليلًا، ولكِنَّ عَودتَكم -أيُّها المُشرِكونَ- إلى ما كنتُم عليه مِن الضَّلالِ بعْدَ كَشْفِ العَذابِ عنكم: أمرٌ ثابِتٌ مُؤَكَّدٌ[1]!

﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: يومَ نَأخُذُ المُشرِكينَ بقُوَّةٍ وأخذٍ عَنيفٍ شَديدٍ؛ إنَّا مُنتَقِمونَ منهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٥).

قال ابنُ الجوْزي: (وفي العذابِ قَولانِ: أحَدُهما: الضُّرُّ الذي نَزَل بهم، كُشِفَ بالخِصْبِ. هذا على قَولِ ابنِ مَسعودٍ. قال مُقاتِلٌ: كَشَفَه إلى يومِ بَدرٍ. والثَّاني: أنَّه الدُّخَانُ. قاله قتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٨٩).

قال الشوكانيُّ: (﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ أي: إنَّا نَكشِفُه عنهم كَشْفًا قليلًا، أو زَمانًا قليلًا). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٤).

قال الماورديُّ: (البَطشةُ الكُبرى هي العُقوبةُ الكُبرى، وفيها قولانِ:

أحدُهما: القَتلُ بالسَّيفِ يومَ بَدرٍ. قاله ابنُ مَسعودٍ، وأُبَيُّ بن كعبٍ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاك.

الثاني: عذابُ جَهنَّمَ يومَ القِيامةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ.

ويحتَمِلُ ثالثًا: أنَّها قِيامُ السَّاعةِ؛ لأنَّها خاتِمةُ بَطَشاتِه في الدُّنيا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٨).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ: يومُ بدرٍ: مُقاتلُ بن سليمان، وابنُ جرير، والخازن، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٣).

ونسَبه الثَّعلبيُّ والبغويُّ إلى أكثرِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٦).

ممَّن ذهَب إلى أنَّ ذلك اليومَ هو يومُ القِيامةِ: السمعانيُّ، والرازيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١). =

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ من الحِكمةِ في نُزولِه ليْلًا: أنَّ اللَّيلَ زمانُ المناجاةِ، ومَهْبطُ النَّفحاتِ، ومَشهَدُ التَّنزُّلاتِ، ومظهرُ التَّجليَّاتِ، ومَوردُ الكراماتِ. وفي اللَّيلِ فَراغُ القُلوبِ بذِكرِ حَضرةِ المحبوبِ، فهو أطيَبُ مِن النَّهارِ عندَ المقرَّبين والأبرارِ[١].

٢- قَولُ الله تعالَى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ * يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ * رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ فيه الإشارةُ إلى أنَّ الدُّخانَ مِن أشراطِ السَّاعةِ الكُبْرى[٢]، على أحدِ القولينِ في التفسيرِ.

٣- قوله: ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ هذه هي طَبيعةُ البشَرِ؛ إذا همْ وقَعوا في شِدَّةٍ -أيًّا كانتْ- أنْ يَعِدوا بالتَّوبةِ والإقلاعِ عمَّا هم فيه، ولكنَّ النُّفوسَ الشِّرِّيرةَ لا تتَّجِهُ إلى فِعلِ الخيرِ، ولا تَفعَلُ ما تَتقرَّبُ به إلى ربِّها، انتظارًا لِمَثوبتِه، ورَجاءً في غُفرانِه ورَحمتِه[٣].

٤- قوله: ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ فيه تَنبيهٌ على أنَّهم لا يُوفُون بعَهْدِهم، وأنَّهم في حالِ العجْزِ يَتضرَّعون إلى اللهِ تعالَى، فإذا زال الخَوفُ عادوا إلى الكُفْرِ والتَّقليدِ لمذاهبِ الأسلافِ[٤].

---

= قال ابنُ كثير: (فسَّرَ ذلك ابنُ مسعودٍ بيومِ بَدرٍ، وهذا قولُ جماعةٍ ممَّن وافَق ابنَ مَسعودٍ على تفسيرِه... وهو محتَمِلٌ، والظَّاهِرُ أنَّ ذلك يومُ القِيامةِ، وإنْ كان يومُ بدرٍ يومَ بطشةٍ أيضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((روح البيان)) للخلوتي (٨/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٨).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ حَرفُ ﴿بَلْ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ، وهو ردٌّ لكَونِهم مُوقِنينَ ومُقِرِّينَ بأنَّه رَبُّ السَّمواتِ والأَرضِ وما بيْنهُما؛ فإنَّ إقرارَهم غَيرُ صادِرٍ عن عِلمٍ ويَقينٍ ثابِتٍ، بلْ هو كالعَدَمِ؛ لأنَّهم خَلَطوه بالشَّكِّ واللَّعِبِ، فارتَفَعتْ عنه خاصِّيَّةُ اليَقينِ والإقرارِ الَّتي هي الجَرْيُ على مُوجَبِ العِلمِ؛ فإنَّ العِلمَ إذا لم يَجُرَّ صاحِبَه على العَمَلِ به، وتَجديدِ مُلاحَظَتِه؛ تَطَرَّقَ إليه الذُّهولُ ثُمَّ النِّسيانُ، فضَعُفَ حتَّى صار شَكًّا؛ لانْحِجابِ الأدِلَّةِ الَّتي يَرسُخُ بها في النَّفسِ، أي: هم شَاكُّون في وَحدانِيَّةِ اللهِ تَعالَى. وقِيلَ: إضرابٌ عن مَحذوفٍ؛ كأنَّه قال: فلَيسُوا بمُوقِنين، بلْ هم في شَكٍّ بِحَسَبِ ضَمائِرِهم[1].

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ لِفَرْطِ عِنادِهم وعَدمِ إيقانِهم، الْتَفَت مِن الخِطابِ في قولِه تعالَى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ إلى الغَيبةِ، فبَعَّدَهم وطَرَدهم؛ إيذانًا بأنَّهم مع إيقانِهم ذلك مُنَزَّلُون مَنزِلَةَ الشَّاكِّين، حيثُ لم يَعمَلُوا بمُوجَبِه، وخَلَطوا مع اليَقينِ الهُزْءَ واللَّعِبَ[2].

- قولُه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ فيه الإتيانُ بحَرفِ الظَّرفِيَّةِ (في)؛ للدَّلالَةِ على شِدَّةِ تَمَكُّنِ الشَّكِّ مِن نُفوسِهم حتَّى كأنَّه ظَرفٌ مُحيطٌ بهِم لا يَجِدون عنه مَخرَجًا، أي: لا يُفارِقُهم الشَّكُّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

- وجُملَةُ ﴿يَلْعَبُونَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ ﴿هُمْ﴾، أي: اشتَغَلوا عن النَّظَرِ في الأَدِلَّةِ الَّتي تُزيلُ الشَّكَّ عنهم، وتَجعَلُهم مُهتَدِينَ، بالهُزْءِ واللَّعِبِ في تَلَقِّي دَعوَةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ؛ فكان انغِماسُهم في الشَّكِّ مُقارِنًا لحالِهم مِن اللَّعِبِ. ولهذِه الجُملَةِ الحالِيَّةِ مَوقِعٌ عَظيمٌ؛ إذ بها أُفيدَ أنَّ الشَّكَّ حامِلٌ لهم على الهُزْءِ واللَّعِبِ، وأنَّ الشُّغُلَ باللَّعِبِ يَزيدُ الشَّكَّ فيهم رُسوخًا، بخِلافِ ما لو قِيلَ: بلْ هم في شَكٍّ ولَعِبٍ؛ فتَفَطَّنْ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ تَفريعٌ على جُملَةِ ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، قُصِدَ مِنهُ وَعْدُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بانتِقامِ اللهِ مِن مُكَذِّبيه، ووَعيدُ المُشرِكينَ على جُحودِهم بدَلائلِ الوَحدانِيَّةِ وصِدْقِ الرَّسولِ، وعُكوفِهم على اللَّعِبِ، أي: الاستِهزاءِ بالقُرآنِ والرَّسولِ، وذَكَر له مُخَوِّفاتٍ للمُشرِكين لإعدادِهم للإيمانِ، وبَطْشَةَ انتِقامٍ مِن أَئِمَّتِهم تَستَأصِلُهم؛ فالفَاءُ في قَولِه تَعالَى: ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ لتَرتيبِ الارتِقابِ أو الأمْرِ به على ما قَبْلَها؛ فإنَّ كوْنَهم في شَكٍّ مِمَّا يُوجِبُ ذلكَ حَتْمًا، أي: فانتَظِرْ لَهُم ﴿يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: يوْمَ شِدَّةٍ ومَجاعةٍ؛ فإنَّ الجائعَ يَرَى بيْنَه وبيْنَ السَّماءِ كهَيئَةِ الدُّخَانِ؛ إمَّا لضَعفِ بَصَرِه، أو لأنَّ في عامِ القَحطِ يُظلِمُ الهَواءُ لقِلَّةِ الأَمطارِ وكَثرَةِ الغُبارِ، أو لأنَّ العَرَبَ تُسَمِّي الشَّرَّ الغالِبَ دُخَانًا[2]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ الخِطابُ في ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ للنَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، والأَمرُ مُستَعمَلٌ في التَّثبيتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

- وقدِ الْتَفَتَ إلى حَبيبه صَلَواتُ اللهِ عليه مُسَلِّيًا له، وإقناطًا مِن إيمانِهم بقَولِه: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴾؛ فقابَلَ إنزالَ الكِتابِ بإنزالِ العِقابِ مِن السَّماءِ؛ يعني: إنزالُ الكِتابِ رَحمَةٌ لهم، وحِين أَعرَضُوا عنه انتَظِرْ إنزالَ العَذابِ[١].

- والارتِقابُ: افتِعالٌ مِن رَقَبَه؛ إذا انتَظَره، وإنَّما يَكونُ الانتِظارُ عندَ قُربِ حُصولِ الشَّيءِ المُنتَظَرِ، وفِعلُ (ارتَقِبْ) يَقتَضِي بصَريحِه أنَّ إتيانَ السَّماءِ بدُخانٍ لم يَكُن حاصِلًا في نُزولِ هذه الآيَةِ، ويَقتَضي كِنايَةً عن اقتِرابِ وُقوعِه كما يُرتَقَب الجَائي مِن مَكانٍ قَريبٍ[٢].

- والفعلُ (ارتَقِبْ) مُتعَدٍّ، ولكنَّه قُصِرَ هنا تَهويلًا؛ لذَهابِ الوَهمِ في مَفعولِه كلَّ مَذهَبٍ[٣]. وهذا بناءً على أنَّ ﴿يَوۡمَ﴾ ظرفٌ، وليس مفعولًا به.

- وفي قولِه: ﴿تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ﴾ أَسنَدَ (العَذابَ) إلى (السَّماءِ)، وإنْ كان هو الفاعِلَ حَقيقَةً؛ ليَكُونَ على وِزَانِ قَولِه: ﴿أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((والشَّرُّ ليْس إليكَ))[٤]. وقِيلَ: لأنَّ السَّماءَ مَكانُه حينَ يَتَصاعَدُ في جَوِّ السَّماءِ أو حِينَ يَلوحُ للأَنظارِ منها[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٠).
والحديث أخرجه مسلم (٧٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٦).

- قولُه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَجوزُ أنْ يَكُونَ إخبارًا مِن جانِبِ اللهِ تعالَى تَعجيبًا منه، كما في قَولِه تعالَى في قِصَّةِ الذَّبيحِ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ [الصافات: ١٠٦]. ويَحتَمِلُ أنْ يَكونَ ذلك مِن قَولِ النَّاسِ الَّذين يَغشاهُمُ العَذابُ بتَقديرِ: يَقولُون: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١].

- والإشارَةُ في قَولِه: ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ إلى الدُّخَانِ المَذكُورِ آنِفًا، عُدِلَ عن استِحْضارِه بالإضمارِ وأنْ يُقالَ: هو عَذابٌ أَليمٌ، إلى استِحْضارِهِ بالإشارةِ؛ لتَنْزيلِه مَنزِلَةَ الحاضِرِ المُشاهَدِ؛ تَهويلًا لأمْرِه، كما تَقولُ: هذا الشِّتاءُ قادِمٌ، فأَعِدَّ له[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ هذه جُملَةٌ مُعترِضَةٌ بيْن جُملَةِ ﴿هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١١] وجُملَةِ ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الدخان: ١٣]؛ فهي مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، وهي مَحمولةٌ على أنَّها حِكايةُ قَولِ الَّذين يَغشَاهُم العَذابُ بتَقديرِ: يَقولُون: ربَّنا اكشِفْ عنَّا العَذابَ، أي: هو وَعدٌ صادِرٌ مِن النَّاسِ الَّذين يَغشاهُمُ العَذابُ بأنَّهُم يُؤمِنونَ إنْ كُشِفَ عَنهُم العَذابُ[٣].

- وأُسلوبُ الكَلامِ جارٍ على أنَّ جُملَةَ ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ تَعليلٌ لطَلَبِ كَشْفِ العَذابِ عنهم؛ لِمَا يَقتَضِيه ظاهِرُ استِعمالِ حَرفِ (إنَّ) مِن مَعنَى الإخبارِ دُونَ الوَعدِ، ومِن التَّعليلِ دُونَ التَّأكيدِ، ولِمَا يَقتَضيه اسمُ الفاعِلِ في زَمَنِ الحالِ دُونَ الاستِقبَالِ، ولأنَّ سِياقَه خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَرَقُّبِ إعانَةِ اللهِ إيَّاهُ على المُشرِكين؛ كما كان يَدعُو: ((أَعِنِّي عَلَيهِم بِسَبْعٍ كَسَبعِ يُوسُفَ))[٤]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٨٩، ٢٩٠).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٤٧٧٤) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٧٩٨)، من حديثِ ابنِ مَسعودٍ رَضيَ اللهُ عنه.

فمُقتَضَى المَقامِ تَأْمينُه مِن أنْ يُصيبَ العَذابُ المُسلِمينَ وفيهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ تكذيبٌ لوَعدِهم، ورَدٌّ لكَلامِهم واستِدعائِهمُ الكَشفَ، وتَكذيبٌ لَهُم في الوَعدِ بالإيمانِ المُنبِئِ عن التَّذَكُّرِ والاتِّعاظِ بما اعتراهُم مِن الدَّاهِيَةِ[٢].

ويَجوزُ أن تَكونَ جُملَةً مُستَأنَفَةً ناشِئَةً عن قَولِه: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ [الدخان: ٩]، وهي كالنَّتيجَةِ لها؛ لأنَّهُم إذا كانوا في شكٍّ يَلعَبون، فقدْ صَارُوا بُعَداءَ عن الذِّكرَى. والاستِفهامُ مُستَعمَلٌ في الإنكارِ والإحالَةِ، أي: كيْفَ يَتَذَكَّرون وهم في شكٍّ يَلعَبون ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴾ فتَوَلَّوْا عنه وطَعَنوا فيه؟![٣]

- و﴿مُّبِينٌ ﴾ اسمُ فاعِلٍ؛ إمَّا مِن (أَبانَ) المُتَعَدِّي، وحُذِف مَفعولُه لدَلالَةِ الذِّكرَى عليه، أي: مُبِينٌ لَهُم ما به يتَذَكَّرون. ويَجوزُ أن يَكونَ مِن (أَبانَ) القاصِرِ الَّذي هو بمَعنَى (بان)، أي: رَسولٌ ظاهِرٌ، أي: ظاهِرَةٌ رِسالَتُه عن اللهِ بما تَوَفَّرَ معها مِن دَلائلِ صِدْقِه. وإيثارُ (مُبِينٍ) بتَخفيفِ الياءِ على (مُبَيِّنٍ) بالتَّشديدِ مِن نُكَتِ الإعجازِ؛ ليُفِيدَ المَعنَيَينِ[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾

- حرفُ (ثمَّ) للتَّراخِي الرُّتَبِيِّ، وهو تَرَقٍّ مِن مُفادِ قَولِه: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ [الدخان: ٩] الَّذي اتَّصَلَت به جُملَةٌ كَانَتْ جُملَةُ ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ مِن مُتَعَلَّقَاتِها؛ فالمَعنَى: وقدْ جَاءَهُم رَسولٌ فشَكُّوا في رِسالَتِه، ثُمَّ تَوَلَّوا عنه وطَعَنوا فيه؛ فالتَّوَلِّي والطَّعنُ حَصَلَا عِندَ حُصولِ الشَّكِّ واللَّعِبِ؛ ولذلك كانتْ (ثُمَّ) للتَّراخِي الرُّتَبِيِّ لا لِتَراخِي الزَّمانِ، ومَعنَى التَّراخِي الرُّتَبِيِّ هنا: أنَّ التَّوَلِّيَ والبُهتانَ أفظَعُ مِن الشَّكِّ واللَّعِبِ(١).

- ولَمَّا كانتِ الفِطَرُ الأُولى داعيةً إلى الإقبالِ على الحقِّ، نازعةً إلى الانقطاعِ إلى اللهِ، والعُكوفِ ببابِه، واللَّجاءِ إلى جَنابِه، إلَّا بجهْدٍ مِن النَّفْسِ في النُّفورِ، وعِلاجِ دَواعي الثُّبورِ -أشار إلى ذلك بالتَّعبيرِ بصِيغةِ التَّفعُّلِ، فقال: ﴿تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾(٢).

- قولُه: ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ وَصَفوه مرَّةً بأنَّه يُعَلِّمُه غَيرُه، ووَصَفوه مرَّةً بالجُنونِ، تَنقُّلًا في البُهتانِ، أو وَصَفَه فَريقٌ بِهَذا وفَريقٌ بذلك؛ فالقَولُ مُوَزَّعٌ بيْن أَصحابِ ضَميرِ (قَالُوا) أو بيْنَ أَوقاتِ القائِلِين، ولا يَصِحُّ أن يَكُونَ قَولًا واحِدًا في وَقتٍ واحِدٍ؛ لأنَّ المَجنونَ لا يَكونُ مُعَلَّمًا ولا يَتأَثَّرُ بالتَّعليمِ(٣).

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ جَوابٌ مِن جِهَتِه تعالَى عن قولِهم: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ بطَريقِ الالتِفاتِ إلى الخِطابِ؛ لِمَزيدِ التَّوبيخِ والتَّهديدِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، أي: إنَّا نَكشِفُ العذابَ المَعهودَ عنكم كَشْفًا قَليلًا أو زَمانًا قليلًا؛ إنَّكُم تَعودُون إثْرَ ذلك إلى ما كُنتُم عليه مِن العُتُوِّ والإصرارِ على الكُفرِ، وتَنسَون هذه الحالَةَ. أو هو إعلامٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بأنْ يُكشَفَ العذابُ المتَوَعَّدُ به المُشرِكون مُدَّةً؛ فيَعودُون إلى ما كانوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٢).

فيه[١]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفائدةُ التَّقييدِ بقولِه: ﴿قَلِيلًا﴾ الدَّلالةُ على زِيادةِ خُبثِهم؛ لأنَّهم إذا عادوا قبْلَ تَمامِ الانكشافِ، كانوا بَعْدَه أسْرعَ إلى العوْدِ[٢]. وهذا على قَولٍ في التَّفسيرِ.

- وجُملَةُ ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ مُستَأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ تَطَلَّعوا إلى ما سَيَكونُ بعْدَ كَشفِه، وتَطَلَّعَ المُؤمِنون إلى ما تَصيرُ إليه حالُ المُشرِكينَ بعْدَ كَشفِ العَذابِ: هل يُقلِعُون عن الطَّعنِ؟ فكان قَولُه: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ مُبَيِّنًا لِمَا يَتَسَاءَلونَ عنه[٣]. وهذا على قَولٍ في التَّفسيرِ.

- ولَمَّا كانوا قدْ أكَّدوا الإخبارَ بإيمانِهم -وهو باطِلٌ- أكَّدَ سُبحانَه الإخبارَ بكَذِبِهم، ومَن أصدَقُ منه سُبحانه قِيلًا، فقال تَحقيقًا لقولِه تعالَى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾[٤].

- وصِيغةُ الفاعلِ في ﴿كَاشِفُوا۟﴾، و﴿عَآئِدُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِهما لا مَحالَةَ في المُستَقبَلِ، ولقدْ وَقَعَ كِلاهُما، حيثُ كَشَفَ اللهُ تعالَى العذابَ بدُعاءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عَلَيه وسَلَّمَ؛ فمَا لَبِثُوا أنْ عادُوا إلى ما كانُوا عليه مِن العُتُوِّ والعِنادِ، فعَاودَهَم القَحطُ كَمالَ سَبعِ سِنينَ[٥]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

٨- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ الجُملةُ مُستأنَفةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٣).

استِئنافًا بَيانِيًّا ناشِئًا عن قَولِه: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥]؛ فإنَّ السَّامِعَ يُثارُ في نَفسِه سُؤالٌ عن جَزائِهم حيثُ يَعودُون إلى التَّوَلِّي والطَّعنِ؛ فأُجيبَ بأنَّ الانتِقامَ منهم هو البَطشَةُ الكُبرَى، وهي الانتِقامُ التَّامُّ، ولأجْلِ هذا التَّطَلُّعِ والتَّساؤُلِ أُكِّدَ الخبَرُ بحَرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ) دَفعًا للتَّرَدُّدِ[١].

- وأصلُ تَركيبِ الجُملَةِ: (إنَّا مُنتَقِمون يوْمَ نَبطِشُ البَطشَةَ الكُبرَى)؛ فـ﴿يَوْمَ﴾ مَنصوبٌ على المَفعولِ فيه لاسمِ الفاعِلِ، وهو ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، وتَقَدُّمُه على عامِلِه للاهتِمامِ به؛ لتَهويلِه[٢].

- ودلَّتِ الجُملةُ الاسميَّةُ ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ على أنَّ الانتقامَ صِفَةٌ ثابِتَةٌ لم نَزَلْ نَفعَلُها بأعدائِنا؛ لِنَسُرَّ أضدادَهم مِن أوليائِنا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨).

## الآيات (١٧-٢٤)

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي
وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾
فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَنَّا﴾: أي: ابتَلَيْنا واختبَرْنا، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ[١].

﴿أَدُّوا إِلَيَّ﴾: أي: سَلِّموا إلَيَّ، وأَرسِلوا معي، وأصلُ (أدي): يدُلُّ على إيصالِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ، أو وُصولِه إليه مِن تِلْقاءِ نفْسِه[٢].

﴿بِسُلْطَانٍ﴾: أي: حُجَّةٍ وبُرهانٍ، وأصلُ (سلط): يدُلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ[٣].

﴿عُذْتُ﴾: أي: التجأتُ واعتصَمتُ، وأصلُ العَوذِ: الالتِجاءُ إلى الغَيرِ والتَّعَلُّقُ به[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١، ١٥٢، ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ٩٦، ١٣٩ - ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

﴿تَرۡجُمُونِ﴾: أي: تَقتُلوني رميًا بالحِجارةِ، والرَّجمُ أيضًا: السَّبُّ والشَّتمُ؛ لأنَّه رَميٌ بالقَولِ القَبيحِ، وأصلُ (رجم): يدُلُّ على رَميٍ بالحِجارةِ(١).

﴿فَٱعۡتَزِلُونِ﴾: أي: اترُكوني وفارِقوني، وأصلُ (عزل): يدُلُّ على تَنحيةٍ(٢).

﴿فَأَسۡرِ﴾: أي: سِرْ بهم لَيلًا، مِنَ السُّرَى: وهو سَيرُ اللَّيلِ(٣).

﴿رَهۡوًا﴾: أي: ساكِنًا مُنفَرِجًا، وأصلُ (رهو): يدُلُّ على سُكونٍ(٤).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا جانبًا مِن قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ معَ فِرعونَ: ولقد اختبَرْنا قبْلَ كُفَّارِ قَومِك -يا محمَّدُ- قومَ فِرعَونَ، وجاءهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنْ أطلِقوا بني إسرائيلَ مِن العذابِ، واترُكوهم لي، إنِّي رَسولٌ مِنَ الله إليكم، أمينٌ في رسالتي، وألَّا تَستكبِروا على اللهِ تعالى بالكُفرانِ والعِصيانِ، إنِّي آتيكم بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ، وإنِّي اعتصَمتُ برَبِّي ورَبِّكم مِن أنْ تَصِلوا إلَيَّ بسُوءٍ مِن قولٍ أو فِعلٍ، وإنْ لم تُؤمِنوا لي فاترُكوني وشأني.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

فلمَّا لم يَستَجيبوا له فيما أمَرَهم، وأصَرُّوا على أذاهُ وعدَمِ مُتارَكتِه؛ دعا رَبَّه بأنَّ هؤلاء قَومٌ مُجرِمونَ، فأجاب اللهُ دعاءَه، فقال له: أسْرِ بعِبادي مِن بني إسرائيلَ لَيلًا؛ إنَّ فِرعونَ وجُندَه سيَتَّبِعونَكم، واترُكِ البَحرِ على هيئتِه ساكِنًا بعدَ أنْ ضرَبْتَه بعصاك، إنَّ فِرعَونَ وقَومَه مُغرَقونَ فيه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى تكذيبَ مَن كَذَّب الرَّسولَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ذكَرَ أنَّ لهم سَلَفًا مِنَ المُكَذِّبينَ، فذَكَرَ قِصَّتَهم مع موسى عليه السَّلامُ وما أحَلَّ اللهُ بهم؛ لِيَرتدِعَ هؤلاءِ المكَذِّبونَ عمَّا هم عليه[1].

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: ولقد اختبَرْنا وابتَلَيْنا قبْلَ كُفَّارِ قَومِك -يا محمَّدُ- قَومَ فِرعَونَ مِن القِبطِ[2].

﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: وجاء قومَ فِرعَونَ رسولٌ كريمٌ أرسلَنْاه إليهم، وهو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥).

قال الماوَرْدي: (﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ وهو موسى بنُ عِمْرانَ عليه السَّلامُ. وفيه ثلاثةُ أوجُهٍ: أحدُها: كريمٌ على رَبِّه... الثَّاني: كريمٌ في قَومِه. الثَّالثُ: كريمُ الأخلاقِ بالتَّجاوُزِ والصَّفحِ). =

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٨﴾.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾.

أي: فقال موسى لِفِرعَونَ ومَلَئِه: أطلِقوا بني إسرائيلَ مِن العذابِ، وادفَعوهم إلَيَّ(١).

---

= ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ٤٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٠).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: ابنُ جرير، والسمرقندي، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٥٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٨).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: القرطبي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٤).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابقَينِ: الشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٧).

وممَّن قال بالمعنى الثَّالثِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والماتُريدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٠)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٠٢).

وظاهِرُ اختيارِ البِقاعي الجمعُ بيْنَ هذه المعاني، حيث قال: (أي: يَعلَمونَ شَرَفَه نَسَبًا وأخلاقًا وأفعالًا، ثمَّ زاد بيانُ كَرَمِه بما ظَهَر لله به مِن العِنايةِ بما أيَّده به مِن المُعجِزاتِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (الكريمُ: النَّفيسُ الفائِقُ في صِنْفِه...، أي: رَسولٌ مِن خِيرةِ الرُّسُلِ، أو مِن خِيرةِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٦).

قال الرَّسْعَني: (﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مفعولٌ به، أو مُنادَى. فالأوَّلُ على معنى: أرسِلوا معي بني إسرائيلَ، وسَلِّمْهم إلَيَّ. والثَّاني على معنى: أدُّوا إلَيَّ [يا] عِبادَ الله ما هو واجبٌ عليكم مِن التَّمسُّكِ بما جِئتُ مِن التَّوحيدِ، والتَّنسُّكِ بما أُمِرْتُم به على لساني مِن الحكمِ والأحكامِ. والمعنى الأوَّلُ قولُ ابنِ عبَّاسٍ ومُجاهِدٍ وأكثرِ المفسِّرينَ. والثَّاني ذكره الزَّجَّاجُ وغيرُه. قال الماوَرْديُّ: وهو قولٌ مُحتملٌ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٦٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج =

كما قال تعالى: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ [طه: ٤٧].

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾.

أي: إنِّي مُرسَلٌ مِنَ اللهِ تعالى إليكم، بالِغُ الأمانةِ على الرِّسالةِ الَّتي أمَرَني اللهُ أن أبَلِّغَكم إيَّاها بلا زيادةٍ ولا نُقصانٍ ولا كِتمانٍ(١).

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾﴾.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: ولا تَستَكبِروا عن الإيمانِ بآياتِ اللهِ واتِّباعِها، فتَكفُروا به، وتُخالِفوا أمْرَه(٢).

﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: إنِّي آتيكم بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ تُثبِتُ صِحَّةَ ما أدعوكم إليه وتُظهِرُه(٣).

---

= (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٤٩).

قال ابن عطيَّة: (الظَّاهِرُ مِن شَرعِ موسى عليه السَّلامُ أنَّه بُعِثَ إلى دُعاءِ فِرعَونَ إلى الإيمانِ وأن يُرسِلَ بني إسرائيلَ، فلمَّا أبى أن يُؤمِنَ ثبَتَت المكافَحةُ في أن يُرسِلَ بني إسرائيلَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٠، ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

قال الألوسي: (آتِيكم بحُجَّةٍ واضِحةٍ لا سَبيلَ إلى إنكارِها، أو مُوضِحةٍ صِدقَ دَعوايَ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٢٠). =

﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وإنِّي اعتصَمْتُ برَبِّي ورَبِّكم مِن أنْ تَصِلوا إلَيَّ بسُوءٍ مِن قولٍ أو فِعلٍ(١).

---

= ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ ﴿مُّبِينٍ﴾ بمعني: بَيِّنٍ واضِحٍ ظاهِرٍ: السَّمعانيُّ، والبغوي، والرازي، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

وقال البِقاعي: (﴿مُّبِينٍ﴾ واضِحٍ في نَفْسِه سَلْطَنَتُه، ومُظهِرٍ لِغَيرِه ذلك). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٩).

وقال السعدي: (هو ما أتى به مِن المُعجِزاتِ الباهِراتِ، والأدِلَّةِ القاهِراتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

وقال ابنُ عاشور: (وهذه المُعجِزةُ هي انقِلابُ عصاه ثُعبانًا مُبِينًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢، ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢).

ممن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ استعاذ بالله مِن كُلِّ معاني رَجْمِهم الَّذي يَصِلُ منه إليه أذًى ومَكروهٌ؛ سواءٌ كان بالقَولِ أو بالفِعلِ، شتمًا باللِّسانِ أو رَجمًا بالحِجارةِ-: ابنُ جرير، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((المصدران السابقان)).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالرَّجْمِ هنا: القَتلُ: الفَرَّاءُ، والواحدي، وابن عطية، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢، ٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٥٠).

قال القاسمي: (قُصِدَ بهذه الجُملةِ: إظهارُ مَزيدِ شَجاعتِه وثَباتِه في مَوقِفٍ تَضطرِبُ فيه الأفئِدةُ، وتَزِلُّ الأقدامُ خَوفًا ورُعبًا، وما ذاك إلَّا لإيوائِه إلى عِصمةِ اللهِ وتأييدِه). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٦).

وقال ابن عاشور: (الرَّجمُ: الرَّميُ بالحِجارةِ تِباعًا حتَّى يموتَ المَرْميُّ أو تُثخِنَه الجِراحُ، والقَصدُ منه تحقيرُ المقتولِ؛ لأنَّهم كانوا يَرمُونَ بالحِجارةِ مَن يَطرُدونَه... وإنَّما استعاذ موسى منه؛ لأنَّه عَلِمَ أنَّ عادتَهم عِقابُ مَن يخالفُ دينَهم بالقَتلِ رَميًا بالحِجارةِ... ومعنى ذلك: إنْ لم تؤمِنوا =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ [غافر: ٢٧].

﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وإنْ لم تُؤمِنوا بما أمَرْتُكم وجِئْتُكم به مِن عندِ اللهِ فلا تَرْجموني، واترُكوني وشَأْني، ولا تَتعرَّضوا لي[١].

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: فدعا موسى رَبَّه[٢] بأنَّ هؤلاء الأراذِلَ قَومٌ مُتَّصِفونَ بالإجرامِ وعَريقونَ فيه[٣].

---

= بما جئتُ به فلا تَقتُلوني، كما دلَّ عليه تعقيبُه بقَولِه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى﴾ [الدخان: ٢١]، والمعنى: إنْ لم تُؤمِنوا بالمُعجِزةِ الَّتي آتيكم بها فلا تَرجُموني؛ فإنِّي أعوذُ باللهِ مِن أن تَرجُموني، ولكِنِ اعتَزِلوني). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٨).

قال البقاعي: (ولَمَّا كان التَّقديرُ: فإنْ آمَنْتُم بذلك وسَلَّمْتم لي أفلَحْتُم؛ عَطَف عليه قَولَه: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى﴾... ﴿فَٱعْتَزِلُونِ﴾ أي: وإنْ لم تَعتزِلوني هلَكْتُم، ولا تَقدِرونَ على قَتلي بوَجهٍ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٣).

(٢) قال ابنُ كثير: (فلمَّا طال مُقامُه بيْنَ أظهُرِهم، وأقام حُجَجَ اللهِ عليهم، كُلُّ ذلك وما زادهم ذلك إلَّا كُفرًا وعِنادًا؛ دعا رَبَّه عليهم دعوةً نَفَذَت فيهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

قال ابن عطيَّة: (حَكَم عليهم بالإجرامِ المُتضَمِّنِ للكُفرِ حينَ يَئِسَ منهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٢).

وقال القرطبي: (﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مُشرِكونَ، قد امتَنَعوا مِن إطلاقِ بني إسرائيلَ، ومِن الإيمانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٦). =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾.

أي: فأجاب اللهُ دُعاءَ موسى، فقال له: سِرْ بعبادي مِن بني إسرائيلَ لَيلًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [طه: ٧٧].

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ وجُندَه سيَتَّبِعونَكم ويَطلُبونَكم[2].

كما قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا﴾ [يونس: ٩٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ

---

= وقال القاسمي: (﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مُشركونَ مُفسِدونَ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٦).
وقال السعدي: (أي: قد أجرَموا جُرمًا يُوجِبُ تَعجيلَ العُقوبةِ، فأخبَرَ عليه السَّلامُ بحالِهم، وهذا دعاءٌ بالحالِ الَّتي هي أبلَغُ مِن المقالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۞ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۞ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۞ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢ - ٥٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠].

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾.

أي: قال اللهُ لِموسى: واترُكِ البَحرِ باقيًا على هيئتِه الَّتي هو عليها ساكِنًا مُنفرِجًا مَفتوحًا ذا فَجوةٍ واسعةٍ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤، ٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

قال الشوكاني: (المعنى: اترُكِ البَحرَ ساكِنًا على صِفتِه بعدَ أن ضرَبْتَه بعصاك، ولا تأمُرْه أن يَرجِعَ كما كان؛ لِيَدخُلَه آلُ فِرعَونَ بَعدَك وبعدَ بني إسرائيلَ، فيَنطبِقَ عليهم فيَغرَقوا. وقال أبو عُبَيدةَ: رَهَا بيْنَ رِجْلَيه يَرهو رَهْوًا: أي: فَتَحَ. قال: ومنه قَولُه: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾، والمعنى: اترُكْه مُنفرِجًا كما كان، بعدَ دُخولِكم فيه. وكذا قال أبو عُبيدٍ، وبه قال مجاهِدٌ وغيرُه. قال ابنُ عَرَفةَ: وهما يَرجِعانِ إلى معنًى واحدٍ وإنِ اختلَف لَفْظاهما؛ لأنَّ البَحرَ إذا سكَنَ جَرْيُه انفَرَج)). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (واختلف المفَسِّرونَ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ متى قالها لِموسى؟ فقالت فِرقةٌ: هو كلامٌ مُتَّصِلٌ ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۞ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ﴾ إذا انفَرَقَ لك ﴿رَهْوًا﴾. وقال قَتادةُ وغَيرُه: خُوطِبَ به بعدَما اجتاز البَحرَ وخَشِيَ أن يَدخُلَ فِرعَونُ وقَومُه وراءَه، وأن يَخرُجوا مِن المسالِكِ الَّتي خرَجَ منها بنو إسرائيلَ، فَهَمَّ موسى أن يَضرِبَ البَحرَ؛ عسى أن يَلتَئِمَ ويَرجِعَ إلى حالِه، فقيل له عندَ ذلك: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٢).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ، وأنَّ هذا الكلامَ لِموسى قبْلَ أن يَقطَعَ هو وقَومُه البَحرَ: ابنُ جرير، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ، وهو أنَّ اللهَ أمَرَه بذلك بعدَ خُروجِه مِن البَحرِ: السمرقنديُّ، والزمخشري،

﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ وقَومَه غارِقونَ في البَحرِ لا مَحالةَ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ * وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ [الشعراء: ٦٣ - ٦٦].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾، فيه سؤالٌ: الكُفرُ أعظَمُ حالًا مِنَ الجُرمِ، فما السَّبَبُ في أنْ جَعَل صِفةَ الكُفَّارِ كَونَهم مُجرِمينَ حالَ ما أراد المُبالَغةَ في ذَمِّهم؟

**والجوابُ**: لأنَّ الكافِرَ قد يكونُ عَدلًا في دينِه، وقد يكونُ مُجرِمًا في دينِه، وقد يكونُ فاسِقًا في دينِه، فيكونُ أخَسَّ النَّاسِ[2]!

---

والنسفي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) = = (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

وممَّن قال بذلك مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤).

قال ابنُ عاشور: (ويجوزُ أن تكونَ الجُملةُ الثَّانيةُ [أي: قَولُه: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾] صدَرَت وَقتَ دُخولِ موسى ومَن معه في طرائِقِ البَحرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٠).

وقال ابن عاشور أيضًا: (﴿ٱلْبَحْرَ﴾ هو بحرُ القُلْزُم، المسمَّى اليومَ البَحرَ الأحمرَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٥٩).

٢- قال الله تعالى: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ أُمِرَ موسى عليه السَّلامُ بالخُروجِ ليلًا، وسَيرُ اللَّيلِ في الغالِبِ إنَّما يكونُ عن خَوفٍ، والخَوفُ يكونُ بوَجهَينِ: إمَّا مِن العَدُوِّ، فيُتَّخَذُ اللَّيلُ سِترًا مُسدَلًا، فهو مِن أستارِ اللهِ تعالى، وإمَّا مِن خَوفِ المَشقَّةِ على الدَّوابِّ والأبدانِ بحَرٍّ أو جَدْبٍ، فيُتَّخَذُ السُّرَى مَصلحةً مِن ذلك، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَسري ويَدَّلِجُ[1]، ويَترفَّقُ ويَستعجِلُ؛ بحَسَبِ الحاجةِ، وما تقتضيه المصلحةُ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في ضَربِ الأمثِلَةِ لهم بمَن تقدَّمَهم مِن الأقوامِ[3].

- وقد جَعَل اللهُ سُبحانَه قِصَّةَ قَومِ فِرعَونَ مع مُوسَى عليه السَّلامُ وبَني إسرائِيلَ مَثَلًا لحالِ المُشرِكين مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ والمُؤمِنينَ به، وجَعَل ما حلَّ بهم إنذارًا بما سيَحُلُّ بالمُشرِكين مِن القَحطِ والبَطْشةِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، مع تَقريبِ حُصولِ ذلك وإمكانِه ويُسرِه، وإنْ كانوا في حالةِ قوَّةٍ؛ فإنَّ اللهَ قادِرٌ عليهم، كما قال تعالى: ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ [الزخرف: ٨]؛ فذِكرُها هنا تأييدٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَعدٌ له بالنَّصرِ وحُسنِ العاقِبةِ، وتَهديدٌ للمُشرِكين، وهذا المَثَلُ وإنْ كان تَشبيهًا لِمَجموعِ

---

(١) يَسري: أي: يسيرُ ليلًا، ويدَّلج -بتشديد الدال- أي يسير مِن آخِرِ اللَّيلِ، فإن كان السَّيرُ مِن أوَّلِ اللَّيلِ قيل: أدْلَجَ القَومُ، بالتخفيفِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٣١٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ١٢٩)، ((مختار الصحاح)) لأبي عبد الله الرازي (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٢٤).

الحالَةِ بالحالَةِ، فهو قابلٌ للتَّوزيع؛ بأن يُشَبَّهَ أبو جَهلٍ بفِرعَونَ، ويُشَبَّهَ أتْباعُه بمَلَأِ فِرعَونَ وقَومِه، ويُشَبَّهَ مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ بمُوسَى عليه السَّلامُ، ويُشَبَّهَ المُسلِمون ببَني إسرائِيلَ، وقَبولُ المَثَلِ لتَوزيعِ التَّشبيهِ مِن مَحاسِنِه[1].

- وأشعَرَ قَولُه: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ أنَّ أهلَ مَكَّةَ سيُفتَنُون كما فُتِنَ قَومُ فِرعَون؛ فكان هذا الظَّرفُ مُؤْذِنًا بجُملةٍ مَحذوفةٍ على طَريقةِ الإيجازِ، والتَّقديرُ: إنَّا مُنتَقِمون ففَاتِنُوهم؛ فقد فَتَنَّا قَبْلَهُم قومَ فِرعَونَ، ومُؤْذِنًا بأنَّ المَذكورَ كالدَّليلِ على تَوَقُّعِ ذلك وإمكانِه، وهو إيجازٌ آخَرُ[2].

- والمَقصودُ: تَشبيهُ الحالَةِ بالحالَةِ، ولكِنْ عُدِلَ عن صَوغِ الكَلامِ بصِيغةِ التَّشبيهِ والتَّمثيلِ إلى صَوغِه بصِيغةِ الإخبارِ؛ اهتِمامًا بالقِصَّةِ، وإظهارًا بأنَّها في ذاتِها ممَّا يُهِمُّ العِلمُ به، وأنَّها تَذكيرٌ مُستَقِلٌّ، وأنَّها غَيرُ تابِعةٍ غَيرَها، ولأنَّ جُملةَ ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ عُطِفَت على جُملَةِ ﴿فَتَنَّا﴾ -أي: ولقدْ جاءَهُم رَسولٌ كَريمٌ- عَطْفَ مُفَصَّلٍ على مُجمَلٍ، وإنَّما جاء مَعطوفًا؛ إذ المَذكورُ فيه أكثَرُ مِن مَعنَى الفِتنةِ؛ فلا تَكونُ جُملةُ ﴿وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ بَيانًا لجُملَةِ ﴿فَتَنَّا﴾؛ بلْ هي تَفصيلٌ لِقِصَّةِ بَعثةِ مُوسَى عليه السَّلامُ[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾

- قولُه: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ تَفسيرٌ لِمَا تَضَمَّنه وَصْفُ ﴿رَسُولٌ﴾ وفِعلُ (جَاءَهُمْ) مِن معنَى الرِّسالةِ والتَّبليغِ؛ ففيهما معنَى القَولِ، ومعنَى ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ﴾:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٩٥).

أرْجِعوا إلَيَّ وأَعطُوا؛ جَعَل بَني إسرائيلَ كالأمانةِ عِندَ فِرعَونَ[١].

- وخِطابُ الجَمعِ ﴿أَدُّوٓاْ﴾ لقَومِ فِرعَونَ، والمُرادُ: فِرعَونُ ومَن حَضَر مِن مَلَئِه؛ لَعَلَّهم يُشِيرُون على فِرعَونَ بالحَقِّ، ولَعَلَّه إنَّما خاطَبَ مَجموعَ المَلَأِ لَمَّا رَأَى مِن فِرعَونَ صَلَفًا وتَكَبُّرًا مِن الامتِثالِ؛ فخاطَبَ أهلَ مَشورَتِه لعلَّ فيهم مَن يَتَبَصَّرُ الحَقَّ[٢].

- و﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مفعولُ ﴿أَدُّوٓاْ﴾، أُريدَ به بَنُو إسْرائيلَ، أُجرِيَ وَصْفُهم ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾؛ تَذكيرًا لفِرعَونَ بمُوجِبِ رَفعِ الاستِعبادِ عنهم، وجاء في سُورَةِ (الشُّعراءِ) [الآية: ١٧]: ﴿أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ فحَصَل أنَّه وَصَفَهم بالوَصفَينِ؛ فوَصْفُ عِبادِ اللهِ مُبطِلٌ لِحِسبانِ القِبطِ إيَّاهُم عَبيدًا، كما قال: ﴿وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وإنَّما هُم عِبادُ الله، أي: أحرارٌ؛ فـ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ كِنايةٌ عن الحُرِّيَّةِ. وقيل: يَجوزُ أن يَكُونَ مَفعولُ فِعلِ ﴿أَدُّوٓاْ﴾ مَحذوفًا يدُلُّ عليه المَقامُ، أي: أدُّوا إلَيَّ الطَّاعةَ، ويَكونَ ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مُنادًى بحَذْفِ حَرْفِ النِّداءِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بتَسليمِ بني إسرائيلَ إليه، أو لِوُجوبِ المَأمورِ به في قَولِه: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود))

- وتَقديمُ ﴿لَكُمْ﴾ على ﴿رَسُولٌ﴾؛ للاهتِمام بتَعَلُّقِ الإرسالِ بأنَّه لهم ابتِداءً بأنْ يُعطُوه بني إسرائيلَ؛ لأنَّ ذلك وَسيلةٌ للمَقصودِ مِن إرسالِه لِتَحريرِ أُمَّةِ إسْرائيلَ، والتَّشريعِ لها، وليس قَولُه: ﴿لَكُمْ﴾ خِطابًا لبَني إسرائيلَ؛ فإنَّ مُوسَى عليه السَّلامُ قد أَبلَغ إلى بَني إسرائيلَ رِسالتَه مع التَّبليغِ إلى فِرعَونَ؛ قال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوۡمِهِۦ عَلَىٰ خَوۡفٖ مِّن فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِمۡ أَن يَفۡتِنَهُمۡ﴾ [يونس: ٨٣]، ولِيَكُونَ امتِناعُ فِرعَونَ مِن تَسْريحِ بَني إسرائيلَ مُبَرِّرًا لانسِلاخِ بَني إسرائيلَ عن طاعةِ فِرعَونَ، وفِرارِهِم مِن بِلادِه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾

- قولُه: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ نَهيٌ عن الاستِكبارِ عن إجابةِ أمْرِ اللهِ تعالى، وهو مَعطوفٌ على طلَبِ تَسليمِ بني إسرائيلَ، ومعناه: لا تَعلُوا على أمْرِه أو على رَسولِه، ولَمَّا كان الاعتِلاءُ على أمْرِ الله وأمْرِ رَسولِه تَرفيعًا لأَنفُسِهم على واجِبِ امتِثالِ رَبِّهم، جُعِلوا في ذلك كأنَّهُم يَتَعالَوْن على اللهِ[٢].

- وأُعِيدَ حَرْفُ (أنْ) التَّفسيريَّةِ؛ لزِيادةِ تأكيدِ التَّفسيرِ لِمَدلولِ الرِّسالةِ[٣].

- وقولُه: ﴿إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ عِلَّةٌ للنَّهيِ، وهذا تَوبيخٌ لَهُم، أي: آتِيكُم بحُجَّةٍ واضِحةٍ لا سَبيلَ إلى إنكارِها[٤]. وهذه الجملةُ عِلَّةٌ جَديرةٌ بالعَودِ إلى الجُمَلِ الثَّلاثِ المُتَقَدِّمةِ، وهي: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ

---

(٨/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢).

* ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ المُعجِزةَ تدُلُّ على تَحَقُّقِ مَضامِينِ تِلكَ الجُمَلِ؛ مَعلُولِها وعِلَّتِها[١].

- و﴿ءَاتِيكُمۡ﴾ مُضارِعٌ أو اسمُ فاعِلِ (أتَى)، وعلى الاحتِمالَينِ فهو مُقتَضٍ للإتيانِ بالحُجَّةِ في الحالِ[٢].

- وقولُه: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ السُّلطانُ مِن أسماءِ الحُجَّةِ؛ إذ الحُجَّةُ تُلجِئُ المحجوجَ على الإقرارِ لِمَن يُحاجُّهُ، فهي كالمُتسلِّطِ على نفْسِه. والمُعجِزةُ: حُجَّةٌ عَظيمةٌ؛ ولذلك وُصِف السُّلطانُ بـ﴿مُّبِينٖ﴾، أي: واضِحِ الدَّلالَةِ لا رَيبَ فيه[٣].

- وفي إيرادِ الأداءِ مع الأمينِ -في قولِه: ﴿أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ﴾-، والسُّلطانِ مع العَلاءِ -في قولِه: ﴿وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾-: مِن الجَزالةِ ما لا يَخْفى[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ مَضمونَ هذه الجُملةِ ممَّا شَمِلَه كَلامُه حينَ تَبليغِ رِسالَتِه فكان داخِلًا في مُجمَلِ معنَى ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٧] المُفَسَّرِ بما بعدَ (أنْ) التَّفسيريَّةِ، ومَعناهُ: تَحذيرُهُم مِن أنْ يَرجُموه؛ لأنَّ مَعنَى ﴿عُذۡتُ بِرَبِّي﴾: جَعَلتُ رَبِّي عَوْذًا، أي: مَلجَأً، ومِثلُ هذا التَّركيبِ ممَّا جَرَى مَجرَى المَثَلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٦، ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٧).

- والتَّعبيرُ عن اللهِ تعالى بوَصفِ ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾؛ لأنَّه أدخَلُ في ارعِوائِهِم مِن رَجْمِه حينَ يَتذَكَّرون أنَّه استَعصَمَ باللهِ الَّذي يَشتَرِكون في مَربوبِيَّتِه، وأنَّهم لا يَخرُجون عن قُدرَتِه[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾ جِيءَ بحَرفِ (إنْ) الَّتي شَأنُها أنْ تُستعمَلَ في الشَّرطِ غيرِ المُتَيَقَّنِ؛ لأنَّ عدَمَ الإيمانِ به بعْدَ دَلالةِ المُعجِزَةِ على صِدقِه مِن شأنِه أنْ يَكونَ غيرَ واقِعٍ؛ فيُفرَضَ عَدَمُه كما يُفرَضُ المُحالُ[2].

- وعُدِّيَ ﴿تُؤْمِنُوا﴾ باللَّامِ؛ لأنَّه يُقالُ: آمَنَ به وآمَنَ له، وأصلُ هذه اللَّامِ لامُ العِلَّةِ؛ على تَضمينِ فِعلِ الإيمانِ مَعنَى الرُّكونِ[3].

- وجاء تَرتيبُ فَواصِلِ هذا الخِطابِ على مُراعاةِ ما يَبدُو من فِرعَونَ وقَومِه عِندَ إلْقاءِ مُوسَى دَعوَتَه عليهم؛ إذ ابتَدَأَ بإبلاغِ ما أُرسِلَ به إليهم؛ فآنَسَ منهم التَّعَجُّبَ والتَّرَدُّدَ، فقال: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾؛ فرَأَى مِنهُم الصَّلَفَ والأَنَفَةَ، فقال: ﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾؛ فلم يَرعَوُوا فقال: ﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، فَلاحَت عليهم عَلاماتُ إضْمارِ السُّوءِ له، فقال: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ﴾؛ فكان هذا التَّرتيبُ بيْن الجُمَلِ مُغْنِيًا عن ذِكْرِ ما أجابوا به على أبْدَعِ إيجازٍ[4].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ التَّعقيبُ المُفادُ بالفاءِ تَعقيبٌ على مَحذوفٍ يَقتَضِي هذا الدُّعاءَ؛ إذ ليس في المَذكورِ قبْلَ الفاءِ ما يُناسِبُه التَّعقيبُ

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بهذا الدُّعاءِ؛ إذ المَذكورُ قَبْلَه كَلامٌ مِن مُوسَى إليهم؛ فالتَّقديرُ: فلمْ يَستَجِيبوا له فيما أمَرَهم، أو فأَصَرُّوا على أَذاهُ وعَدَمِ مُتارَكَتِه، فدَعَا ربَّه... وهذا التَّقريرُ الثَّاني أَلْيَقُ بقَولِه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾[1].

- وفي قَولِه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ تَعريضٌ بأنَّهم استَوجَبوا تَسْليطَ العِقابِ الَّذي يَدعُو به الدَّاعي؛ فالإخبارُ عن كَونِهم قَومًا مُجرِمينَ مُستعمَلٌ في طلَبِ المُجازاةِ على الإجرامِ، أو في الشِّكايةِ مِنِ اعتِدائِهم، أو في التَّخَوُّفِ مِن شَرِّهِم إذا استَمَرُّوا على عدَمِ تَسْريحِ بني إسرائيلَ، وكلُّ ذلك يَقتَضي الدُّعاءَ لِكَفِّ شَرِّهِم؛ فلذلك أُطلِقَ على هذا الخَبَرِ فِعلُ (دَعَا)[2].

- ويَجوزُ أن يَكُونَ دُعاؤُه هذا المَذكورَ، وهو قَولُه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ﴾ على تَقديرِ الباءِ، أي: دعا ربَّه بأنْ يا ربِّ هؤلاءِ المُشخَّصُون المُشاهَدُون تَناهَى أمرُهُم في الكُفرِ غايَتَه؛ فافعَلْ بهم ما همْ أهْلُه؛ لأنَّ الكافِرَ إذا وُصِفَ بالإجرامِ كان مُتناهِيًا في الكُفرِ. أو يَكونَ الدُّعاءُ مَحذوفًا، والمَذكورُ تَعليلًا له، أي: عجِّلْ لهم ما يَستَحِقُّونه؛ لأنَّهم قَومٌ مُجرِمون، وإنَّما ذَكَر اللهُ تعالى هنا السَّبَبَ الَّذي استَوجَبُوا به الهَلاكَ، واكتَفَى بالسَّبَبِ عن المُسَبَّبِ؛ لِظُهورِه[3].

- وقولُه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ لَفظُ تَحقيرٍ لهم[4].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠١).

٧- قولُه تعالَى: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ [الدخان: ٢٢]، والمُفَرَّعُ قَولٌ مَحذوفٌ دلَّت عليه صِيغةُ الكَلامِ، وإضمارُ القَولِ إمَّا بعدَ الفاءِ، أي: فقال ربُّه: أَسرِ بعِبادي، وإمَّا قبْلَها على أنَّه جوابُ شرطٍ محذوفٍ، كأنَّه قيلَ: إنْ كان الأمرُ كما تقولُ فأَسرِ بعِبادي، أي: ببَني إسرائِيلَ؛ فقد دبَّر اللهُ تعالى أنْ تتقَدَّمُوا ويَتَّبِعَكم فِرعونُ وجُنودُه، فيُنجِّيَ المُتقدِّمينَ، ويُغرِقَ التَّابِعينَ(١).

- قولُه: ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ قيَّدَ الإسراءَ بزَمانِ اللَّيلِ، والمَقصودُ منه تأْكيدُ مَعنَى الإسراءِ. وفائدةُ تأْكيدِ معنَى الإسراءِ أن يكونَ له مِن سَعةِ الوَقتِ ما يَبلُغون به إلى شاطِئِ البَحرِ قبْلَ أنْ يُدرِكَهُم فِرعَونُ بجُنودِه(٢).

- وجُملَةُ ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ تُفيدُ تَعليلًا للأمْرِ بالإسراءِ لَيلًا؛ لأنَّه ممَّا يُستَغرَبُ، أي: إنَّكُم مُتَّبَعون، فأَرَدْنا أنْ تَقطَعوا مَسافةً يَتعَذَّرُ على فِرعَونَ لَحاقُكُم. وتأْكيدُ الخَبَرِ بـ (إنَّ)؛ لتَنزيلِ غَيرِ السَّائِلِ مَنزِلةَ السَّائلِ إذا قُدِّم إليه ما يُلوِّحُ له بالخَبَرِ، فيَستَشرِفُ له استِشرافَ المُتَرَدِّدِ السَّائِلِ(٣).

- وأُسنِدَ الاتِّباعُ إلى غَيرِ مَذكورٍ؛ لأنَّه مِن المَعلومِ أنَّ الَّذي سيَتَّبِعُهم هو فِرعَونُ وجُنودُه(٤).

٨- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ فَأَسْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٢٩٩، ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٠٠).

بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ [الدخان: ٢٣]؛ فيَجوزُ أن تَكونَ الجُمْلَتانِ صَدَرَتا مُتَّصِلَتَينِ؛ بأنْ أعلَمَ اللهُ مُوسَى حينَ أَمَره بالإسراءِ بأنَّه يَضرِبُ البَحرَ بعَصاهُ، فيَنفَلِقُ عن قَعرِه اليابِسِ حتَّى يَمُرَّ منه بنو إسرائيلَ، كما وَرَد في آياتٍ أُخرَى، مِثلُ آيةِ سُورةِ (الشُّعَراء): ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾ [الشعراء: ٦٣]. ولَمَّا أمَرَه بذلك طَمَّنه بألَّا يَخشَى بَقاءَه مُنفَلِقًا فيَتوقَّعَ أنْ يَلحَقَ به فِرعَونُ، بلْ يَجتازُ البَحرَ ويَترُكُه؛ فإنَّه سيَطغَى على فِرعَونَ وجُندِه فيَغرَقُون؛ ففي الكَلامِ إيجازٌ تَقديرُه: فإذا سَرَيْتَ بعِبادِي فسَنَفتَحُ لكم البَحْرَ فتَسلُكُونه، فإذا سَلَكْتَه فلا تَخْشَ أنْ يَلحَقَكُم فِرعَونُ وجُندُه، واترُكْه؛ فإنَّهُم مُغرَقُون فيه. ويَجوزُ أن تَكونَ الجُملةُ الثَّانيةُ ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ صَدَرتْ وَقْتَ دُخولِ مُوسى ومَن معه في طَرائِقِ البَحرِ؛ فيُقَدَّرَ قَولٌ مَحذوفٌ، أي: وقُلْنا له: اترُكِ البَحْرَ رَهْوًا، أي: سيَدخُلُه فِرعَونُ وجُندُه ولا يَخرُجون منه؛ لأنَّ في بَقائِه مَفروقًا حِكمةً أُخرى؛ وهي دُخولُ فِرعَونَ وجُندِه في طَرائِقِه؛ طَمَعًا منهم أنْ يَلحَقوا مُوسى وقَومَه، حتى إذا تَوَسَّطُوه انضَمَّ عليهم؛ فتَحصُلُ فائدةُ إنْجاءِ بَني إسرائيلَ، وفائدةُ إهلاكِ عَدُوِّهم؛ فتَكونُ الواوُ عاطِفةً قَولًا مَحذوفًا على القَولِ المَحذوفِ قَبْلَه[1].

- والتَّركُ في قولِه: ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ مُستَعمَلٌ في عدَمِ المُبالاةِ بالشَّيءِ، كما يُقالُ: دَعْه يَفعَلْ كذا، وذَرْه[2].

- قولُه: ﴿رَهْوًا﴾ الرَّهْوُ: الفَجْوةُ الواسعةُ. وأصْلُه مَصدرُ (رَها)؛ إذا فتَحَ بيْن رِجْلَيه؛ فسُمِّيَت الفَجوةُ رَهْوًا تَسميةً بالمَصدرِ، وانتَصَب ﴿رَهْوًا﴾ على الحالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن البَحرِ على التَّشبيهِ البَليغِ، أي: مِثلُ رَهوٍ[١].

- وجَملةُ ﴿إِنَّهُم جُندٌ مُّغۡرَقُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابًا عن سُؤالٍ ناشِئٍ عن الأمْرِ بتَركِ البَحرِ مَفتوحًا، وضميرُ ﴿إِنَّهُمۡ﴾ عائدٌ إلى اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ مُّجۡرِمُونَ﴾[٢] [الدخان: ٢٢].

- وإقحامُ لَفظِ ﴿جُندٌ﴾ دونَ الاقتِصارِ على ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾؛ لإفادةِ أنَّ إغراقَهم قد لَزِمَهم حتَّى صارَ كأنَّه مِن مُقَوِّماتِ جُنْديَّتِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٠١).

## الآيات (٢٥-٢٢)

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾: أي: مُتعةٍ ونَعيمٍ وعَيشٍ لَيِّنٍ، والنَّعْمةُ -بفَتحِ النُّونِ: طِيبُ العَيشِ وسَعَتُه ولَذاذةُ الحياةِ، والنِّعْمةُ -بكَسرِ النُّونِ- أعَمُّ مِن هذا؛ لأنَّها بمعنى المِنَّةِ والعَطاءِ، فالنَّعْمةُ -بالفَتحِ- هي مِن جُملةِ النِّعْمةِ -بالكَسرِ-، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيشٍ وصلاحٍ[1].

﴿ فَٰكِهِينَ ﴾: أي: ناعِمينَ مُستَمتِعينَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ[2].

﴿ ٱلْءَايَٰتِ ﴾: أي: العِبَرِ والعِظاتِ، أو: المعجزاتِ، وتُطلَقُ الآيةُ على العلامةِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٦)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٨).
قال الماوَرْدي: (قد يُقالُ: نَعمة ونِعمة بفتحِ النُّونِ وكَسرِها، وفي الفَرقِ بيْنَهما وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها بكسرِ النُّونِ في المُلكِ، وبفَتحِها في البَدَنِ والدِّينِ، قاله النَّضْرُ بنُ شُمَيْلٍ. الثَّاني: أنَّها بالكَسرِ مِن المِنَّةِ، وهو الإفضالُ والعَطيَّةُ، وبالفتحِ مِن التَّنعُّمِ، وهو سَعةُ العَيشِ والرَّاحةُ، قاله ابنُ زيادٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٩).

والدَّليلِ والحُجَّةِ وغيرِ ذلك، وأصلُ (أيي): النَّظرُ[١].

﴿بَلَٰٓؤٌاْ﴾: أي: اختبارٌ، وأصلُ البلاءِ هنا: الاختبارُ، ثمَّ صار يُطلَقُ على المكروهِ والشِّدَّةِ، وقيل: البلاءُ هنا النِّعمةُ[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾: في محلِّها وجْهانِ مِن الإعرابِ؛ أحَدُهما: أنَّها في محَلِّ نَصبٍ نعتٌ لمَصدَرٍ مَحذوفٍ مَفهومٍ مِن التَّرْكِ في قَولِه تعالى: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ﴾ [الدخان: ٢٥]، أي: أخرَجْناهم إخراجًا مِثلَ ذلك الإخراجِ الَّذي وصَفْناه، أو تَرَكوها تَرْكًا كذلك، وقيل: التَّقديرُ: أهلَكْناهم إهلاكًا كذلك، أو كذلك أفعَلُ بمَن عَصاني. الثَّاني: الرَّفعُ على أنَّه خبَرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: الأمرُ كذلك.

﴿وَأَوۡرَثۡنَٰهَا﴾: جُملةٌ مَعطوفةٌ على جُملةِ الفِعلِ المقدَّرِ العامِلِ في المصدَرِ المحذوفِ الَّذي وَقَعَت ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نَعتًا له، على معنى: مِثلَ ذلك الإخراجِ أخرَجْناهم منها، وأورَثْناها قَومًا آخَرينَ. أو هي مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿تَرَكُواْ﴾، أو على جُملةِ (الأمرُ كذلك)[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٦/ ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩-٢٥٠، ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ١٧٨٥)، (الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٢٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٢٢)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٣/ ١١٧٠).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا سوءَ مآلِ فِرعونَ وقَومِه: كم تَرَكَ فِرعَونُ وقَومُه بعدَ هَلاكِهم بالغَرَقِ؛ مِن بَساتينَ، وعُيونِ ماءٍ، وزُروعٍ، وأماكِنَ حَسَنةٍ، ورَغَدِ عَيشٍ ورفاهيةٍ كانوا فيها مُتنَعِّمينَ! كذلك وأورَثْنا تلك النِّعَمَ بني إسرائيلَ، فما بَكَت السَّماءُ والأرضُ على فِرعَونَ وقَومِه بعدَ هَلاكِهم، وما كانوا مُؤَخَّرينَ عن العَذابِ إذ جاءهم!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن نِعَمِه على بني إسرائيلَ، فيقولُ: ولقد نجَّيْنا بني إسرائيلَ مِن عذابِ فِرعَونَ المُذِلِّ لهم؛ إنَّه كان مُستَعليًا مُتكَبِّرًا مُتجاوِزًا للحَدِّ، ولقد اختَرْنا بني إسرائيلَ على عالَمِي زمانِهم حالَ كَونِنا عالِمينَ بهم وبأحوالِهم وما يقتَضي اختيارَهم، وآتَيْنا بني إسرائيلَ مِن الآياتِ ما فيه اختِبارٌ لهم ظاهِرٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أخبرَ اللهُ تعالى عن غَرَقِ آلِ فِرعَونَ؛ أخبرَ عمَّا خَلَّفوه وراءَهم[1]، فقال:

﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: ما أكثَرَ ما ترَكَه فِرعَونُ وقَومُه مِن بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ، مِن بَعدِ إغراقِهم[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٨٥)، ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢).

قال ابن عطيَّة: (أمَّا العُيونُ فيَحتَمِلُ أنَّه أراد الخُلجانَ الخارِجةَ مِن النِّيلِ فشَبَّهها بالعُيونِ، ويحتمِلُ أنَّه كانت ثَمَّ عُيونٌ ونَضَبَت كما يَعتري في كثيرٍ مِن بِقاعِ الأرضِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٢).

﴿وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وما أكثَرَ ما ترَكَوه من زُروعٍ قائمةٍ، ومَواضِعَ أنيقةٍ وأماكِنَ حَسَنةٍ شَريفةٍ[1]!

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿فَكِهِينَ﴾ قيل: بمعنى: فَرِحينَ أشِرينَ بَطِرينَ. وقيل: مُستَخِفِّينَ مُستَهزِئينَ[2].

٢- قِراءةُ: ﴿فَاكِهِينَ﴾ قيل: بمعنى: ناعِمينَ طَيِّبي الأنفُسِ، أو أصحابِ فاكِهةٍ. وقيل: بمعنى: لاهينَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحِدٍ، مِثلُ كَلِمتَيْ: حاذِرينَ وحَذِرينَ[3].

﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير المظهري)) (٨/ ٣٧٢).

قال ابنُ عاشور: (الكريمُ مِن كُلِّ نَوعٍ: أنفَسُه وخَيرُه، والمرادُ به: المساكِنُ والدِّيارُ والأسواقُ ونحوُها ممَّا كان لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٢).

(٢) قرأ بها أبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٢٣).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤، ٣٥٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٢٣).

وقال السمين الحلبي: (وقيل: الفاكِهُ: ذو الفاكهةِ، نحو: لابِنٍ، وتامرٍ. والفَكِهُ: مَن بالَغَ في ذلك). ((عمدة الحفاظ)) (٣/ ٢٤٨).

أي: ورَغَدِ حياةٍ وهَناءِ عَيشٍ ورَفاهيةٍ كانوا يَتنعَّمونَ فيها، ويَتلذَّذونَ بها[١]!

﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ٢٨ ﴾.

أي: كذلك[٢] وأورَثْنا بني إسرائيلَ تلك الجنَّاتِ والعُيونَ، والزُّروعَ، والمَقامَ الكريمَ الَّذي كان لِفِرعَونَ وقَومِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨).

(٢) قال القرطبي: (قال الزَّجَّاجُ: أي: الأمرُ كذلك. فيُوقَفُ على ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾. وقيل: إنَّ الكافَ في مَوضِعِ نَصبٍ، على تقديرِ: نفعَلُ فِعلًا كذلك بمَن نُريدُ إهلاكَه. وقال الكَلْبيُّ: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أفعَلُ بمَن عصاني. وقيل: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ كان أمرُهم فأُهلِكوا). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣).

قال ابنُ عطية: (وسَمَّاها وِراثةً؛ مِن حيثُ كانت أشياءَ أُناسٍ وَصَلَت إلى قَومٍ آخَرينَ مِن بعدِ مَوتِ الأوَّلِينَ، وهذه حقيقةُ الميراثِ في اللُّغةِ، ورَبَطَها الشَّرعُ بالنَّسَبِ وغَيرِه مِن أسبابِ الميراثِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣).

وقال الشربيني: (﴿ءَاخَرِينَ﴾... هم بنو إسرائيلَ. وقيل: غَيرُهم؛ لأنَّهم لم يَعودوا إلى مِصرَ، بل سَكَنوا الأرضَ المقَدَّسةَ). ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٨٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالقَومِ الآخَرِينَ: هم بنو إسرائيلَ: مقاتلٌ، والواحديُّ، والماوَرْدي، والزمخشري، وابنُ الجوزي، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٦).

وممنَّ قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤١١).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٩].

وقيل: القَومُ الآخَرونَ ليسوا بني إسرائيلَ، بل غيرُهم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عطية، =

كما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٧ - ٥٩].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

أي: فما بَكَت السَّماءُ والأرضُ على فِرعَونَ وقَومِه الَّذين أغرَقَهم اللهُ تعالى في البَحرِ[1]!

---

= وهو ظاهِرُ اختيارِ القاسمي، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٠، ١٤٢)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣).

قال الرَّسْعَني: (اختلف العُلَماءُ في هذه الآيةِ على ثلاثةِ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّه على حقيقتِه وظاهِرِه...، وإلى هذا القَولِ ذهب عامَّةُ المفَسِّرينَ المتقَدِّمينَ.

الثَّاني: أنَّه على حَذفِ المُضافِ، تقديرُه: فما بكى عليهم أهلُ السَّماءِ وأهلُ الأرضِ. قاله الحَسَنُ.

الثَّالِثُ: أنَّه على مَذهَبِ العَرَبِ؛ فإنَّهم يقولونَ إذا مات رجُلٌ خَطيرٌ: بَكَت عليه السَّماءُ والأرضُ، وأظلَمَت له الشَّمسُ، وبَكَتْه الرِّيحُ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٧٠).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الأوَّلِ، وأنَّ ذلك على ظاهِرِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، والقُرطبي، والنَّسَفي، وابنُ كثير، وهو ظاهِرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٤٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٠، ١٤٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣)، (( تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣). =

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾.

أي: وما كانوا مُؤَخَّرينَ بالعُقوبةِ حينَ جاء وَقتُ هلاكِهم[١].

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ كَيفيَّةَ إهلاكِ فِرعَونَ وقَومِه؛ بيَّنَ كيفيَّةَ إحسانِه إلى موسى وقَومِه؛ فبدأ تعالى ببَيانِ دَفعِ الضَّرَرِ عنهم، فقال تعالى[٢]:

﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: ولقد نجَّيْنا بني إسرائيلَ مِن عذابِ فِرعَونَ وقَومِه المُذِلِّ لهم؛ كذَبحِ أبنائِهم، واستِحياءِ نِسائِهم، واستِعبادِهم وتَكليفِهم الأعمالَ الشَّاقَّةَ[٣].

---

= قال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: لم تكُنْ لهم أعمالٌ صالحةٌ تَصعَدُ في أبوابِ السَّماءِ، فتَبكيَ على فَقْدِهم، ولا لهم في الأرضِ بِقاعٌ عَبَدوا اللهَ فيها فقَدَتْهم؛ فلهذا استحَقُّوا ألَّا يُنظَروا ولا يُؤَخَّروا؛ لكُفرِهم وإجرامِهم، وعُتُوِّهم وعِنادِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٣).

وممَّن اختار في الجملةِ القولَ الثَّالثَ، وأنَّ ذلك على سَبيلِ التَّمثيلِ، وأنَّ المعنَى أنَّهم هَلَكوا فلم تَعظُمْ مُصيبَتُهم ولم يُوجَدْ لهم فَقْدٌ، وأنَّه عبارةٌ عن تَحقيرِهم: الزمخشريُّ، وابن عطية، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وأبو حيان، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [البقرة: ٤٩، ٥٠].

﴿مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾.

أي: نَجَّيناهم مِن فِرعَونَ[1].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾.

أي: إنَّ فِرعَونَ كان مُتَّصِفًا بالاستِعلاءِ والاستِكبارِ والإسرافِ وتجاوُزِ الحَدِّ[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس: ٨٣].

وقال سبحانه: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦ - ٤٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تَعالَى إهلاكَ فِرعَونَ وقَومِه؛ ذَكَر إحسانَه لبَني إسرائِيلَ[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى كيف دَفَع الضَّرَرَ عن بني إسرائيلَ؛ بيَّنَ كيف أوصَلَ إليهم الخَيراتِ، فقال[٢]:

﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٢ ﴾.

أي: ولقد اختَرْنا بني إسرائيلَ -على عِلمٍ مِنَّا بهم وبأهليَّتِهم لهذا الاختيارِ- على عالَمِي زمانِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

قال ابن القيم: (قولُه تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ لا خِلافَ بيْنَ النَّاسِ أنَّ المعنى: على عِلمٍ مِنَّا بأنَّهم أهلُ الاختيارِ؛ فالجُملةُ في موضِعِ نَصبٍ على الحالِ، أي: اختَرْناهم عالِمينَ بهم وبأحوالِهم وما يَقتضي اختيارَهم، مِن قَبلِ خَلْقِهم. ذَكَر سُبحانَه اختيارَهم، وحِكمتَه في اختيارِه إيَّاهم، وذكَرَ عِلمَه الدَّالَّ على مَواضِعِ حِكمتِه واختيارِه). ((شفاء العليل)) (ص: ٣٢).

قال الماوَرْدي: (وفي قَولِه: ﴿عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ قَولانِ؛ أحدُهما: على عالَمِي زمانِهم؛ لأنَّ لكُلِّ زمانٍ عالَمًا. قاله قَتادةُ. الثَّاني: على كُلِّ العالَمينَ؛ بما جَعَل فيهم مِن الأنبياءِ. وهذا خاصَّةٌ لهم، وليس لِغَيرِهم. حكاه ابنُ عيسى). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٥٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالعالَمينَ: عالَمُو زمانِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزجاج، وابن أبي زَمَنين، ومكِّي، والبغوي، والقرطبي، والنَّسَفي، وابنُ تيميَّة، والخازن، وابن كثير، والشوكاني، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن =

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤُا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: وآتَيْنا بني إسرائيلَ مِن الآياتِ ما فيه اختِبارٌ لهم ظاهِرٌ(١).

---

= تيمية (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

قال الواحدي: (﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على عالَمِي زَمانِهم. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والكَلْبيُّ، ومقاتلٌ، وقَتادةُ، والجميعُ. قال مجاهِدٌ: فَضَّلْناهم على مَن هم بيْنَ ظَهَرانَيْهم. قال أهلُ المعاني: ويدُلُّ على هذا التَّخصيصِ قَولُه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١١٠]، هذا مُقتَضى أنَّه ما اختارهم على مَن هو خيرٌ منهم، وإنَّما اختارهم على مَن في وَقتِهم مِن العالَمينَ). ((البسيط)) (٢٠/ ١١٢).

وقال السعدي: (أي: عالَمِي زمانِهم ومَن قَبْلَهم وبَعدَهم، حتَّى أتى اللهُ بأمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ففَضَلوا العالَمينَ كُلَّهم، وجَعَلهم اللهُ خيرَ أمَّةٍ أُخرِجَت للنَّاسِ، وامتَنَّ عليهم بما لم يمتَنَّ به على غَيرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧، ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٤).

قال الشوكاني: (الآياتُ، أي: مُعجِزاتُ مُوسى ... وقال قَتادةُ: الآياتُ: إنجاؤُهم مِنَ الغَرَقِ، وفَلْقُ البَحرِ لهم، وتَظليلُ الغَمامِ عليهم، وإنزالُ المَنِّ والسَّلْوى لهم. وقال ابنُ زَيدٍ: الآياتُ هي الشَّرُّ الَّذي كَفَّهم عنه، والخَيرُ الَّذي أمَرَهم به. وقال الحَسَنُ وقَتادةُ: البلاءُ المُبينُ: النِّعْمةُ الظَّاهِرةُ). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩).

وقال ابن جرير: (أَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه أخبَرَ أنَّه آتَى بني إسرائيلَ مِن الآياتِ ما فيه ابتلاؤُهم واختِبارُهم، وقد يكونُ الابتِلاءُ والاختِبارُ بالرَّخاءِ، ويكونُ بالشِّدَّةِ، ولم يَضَعْ لنا دليلًا مِن خَبَرٍ ولا عَقلٍ أنَّه عَنى بعضَ ذلك دونَ بَعضٍ، وقد كان اللهُ اختبَرَهم بالمعنيَينِ كِلَيْهما جميعًا، وجائزٌ أن يكونَ عنى اختبارَه إيَّاهم بهما. فإذْ كان الأمرُ على ما وصَفْنا، فالصَّوابُ مِن القَولِ فيه أن نقولَ كما قال جلَّ ثناؤُه: إنَّه اختبَرَهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (الآياتُ لَفظٌ جامعٌ لِمُعجزاتِ موسى، وللعِبَرِ الَّتي ظهَرَت في قَومِ فِرعَونَ؛ مِن الجَرادِ والقُمَّلِ والضَّفادِعِ، وغيرِ ذلك، ولِما أنعَمَ به على بني إسرائيلَ مِن تظليلِ الغَمامِ، والمَنِّ والسَّلْوى، وغيرِ ذلك؛ فإنَّ لَفظَ الآياتِ يَعُمُّ جميعَ هذا. والبلاءُ في هذا الموضِعِ: الامتِحانُ =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ لَمَّا كان الله تعالى يَبلو بالمِحنةِ فقد يَبلو أيضًا بالنِّعمةِ؛ اختبارًا ظاهِرًا؛ لِيَتمَيَّزَ الصِّدِّيقُ عن الزِّنديقِ[1]. وذلك على أنَّ معنى ﴿بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي: نعمةٌ ظاهرةٌ.

---

= والاختِبارُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالبلاءِ هنا: الاختِبارُ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالبلاءِ: النِّعْمةُ: ابنُ أبي زَمَنين، والسمعاني، والرَّسْعَني، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٧٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٨).

قال الواحدي: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ البلاءَ المُبينَ مَعناه: النِّعْمةُ البَيِّنةُ الظَّاهِرةُ). ((البسيط)) (٢٠/ ١١٣).

وقال السعدي: (﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي: إحسانٌ كَثيرٌ ظاهِرٌ مِنَّا عليهم، وحُجَّةٌ عليهم على صِحَّةِ ما جاءهم به نَبيُّهم موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهِرٌ واضِحٌ: ابنُ أبي زَمَنين، والنَّسَفي، وابنُ كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).

قال ابنُ جرير: (أعطَيْناهم مِن العِبَرِ والعِظاتِ ما فيه اختبارٌ يَبينُ لِمَن تأمَّله أنَّه اختِبارٌ اخْتَبَرهم اللهُ تعالى به). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنٌ في نَفْسِه، مُوضِحٌ لِغَيرِه: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ دَليلٌ على أنَّ في النَّاسِ مَن تبكي السَّماءُ والأرضُ عليه؛ إذ لا يُخَصُّ أولئك بذلك ويُجعَلُ عُقوبةً لهم إلَّا وغَيرُهم مُكرَمٌ به[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: (لم تَبْكِ عليهم السَّماءُ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يُرفَعُ لهم فيها عَمَلٌ صالِحٌ، ولم تَبكِ عليهم الأرضُ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يَعمَلونَ فيها بعَمَلٍ صالحٍ)[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ مَسوقٌ للعِبرةِ بعَواقِبِ الظَّالِمينَ المَغرورينَ بما هُم فيه مِن النِّعمةِ والقُوَّةِ، غُرورًا أنساهُم مُراقَبَةَ اللهِ فيما يُرضِيه؛ فمَوقِعُ هذا الاستِئنافِ مَوقِعُ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ، أو البَيانِ مِن الإجمالِ؛ لِمَا في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان: ١٧] مِن التَّنظيرِ الإجماليِّ[٣].

- والفِعلُ ﴿تَرَكُوا۟﴾ مُؤذِنٌ بأنَّهم أُغرِقُوا وأُعدِمُوا، وذلك مُقتَضَى أنَّ ما أمَرَ اللهُ به مُوسَى مِن الإسراءِ ببَني إسرائيلَ وما معَه مِن اتِّباعِ فِرعَونَ إيَّاهُم، وانفِلاقِ البَحرِ، وإزْلافِ بَني إسرائيلَ، واقتِحامِ فِرعونَ بِجُنودِه البَحرَ، وانضِمامِ البَحرِ عليهم قد تمَّ؛ ففي الكَلامِ إيجازُ حَذفِ جُمَلٍ كثيرةٍ يدُلُّ عليها قَولُه تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾. وقيل: الكلامُ مُرتَبِطٌ بمقُدَّرٍ لا بُدَّ منه لِيَلتَئِمَ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٧).

(٢) أخرجه عبدُ بنُ حُمَيدٍ في ((تفسيره)) كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠١).

نِظامُ الكَلامِ، والتَّقديرُ: فاطمَأَنَّ موسى بذلك، فتَمَّ إغراقُهم، كمْ تَرَكوا...[١].

- قولُه: ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ﴾ مِن عَطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لأنَّ النَّعمةَ تَشملُ جميعَ ما تقَدَّمَ وغَيرَه ممَّا لم يُذكَرْ[٢].

- والنَّعمةُ بفَتحِ النُّونِ: اسمٌ للتَّنَعُّمِ مَصوغٌ على زِنَةِ المَرَّةِ، وليس المُرادُ به المَرَّةَ، بل مُطلَقَ المَصدرِ؛ باعِتبارِ أنَّ مَجموعَ أحوالِ النَّعيمِ صارَ كالشَّيءِ الواحِدِ، وهو أبلَغُ وأجمَعُ في تَصويرِ مَعنَى المَصدَرِ، وهذا هو المُناسِبُ لفِعلِ ﴿تَرَكُواْ﴾؛ لأنَّ المَتروكَ هو أشخاصُ الأُمورِ الَّتي يُنَعَّمُ بها[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ﴾

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ راجِعٌ لِفعلِ ﴿تَرَكُواْ﴾، والتَّقديرُ: تَركًا مِثلَ ذلك التَّركِ، والكافُ للتَّشبيهِ، والمُشَبَّهُ به شَيءٌ تضَمَّنَه الكلامُ السَّابِقُ بلَفظِه أو مَعناهُ، والكافُ ومَجرُورُها يَجوزُ أن يَكونُ شِبهَ جُملَةٍ وَقَع صِفةً لمَصدَرٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: تَشبيهًا مُماثِلًا لِمَا سَمِعتَ. واسمُ الإشارةِ يُشيرُ إلى المَحذوفِ؛ لأنَّه كالمَذكورِ؛ لِتَقرُّرِ العِلمِ به، والمَعنَى: مَن أراد تَشبِيهَه لم يُشَبِّهْه بأكثَرَ مِن أنْ يُشَبِّهَه بذاتِه؛ فالإشارةُ إلى مُقَدَّرٍ دلَّ عليه الكَلامُ. ويَجوزُ أن يَكونَ المَجرورُ جُزءَ جُملةٍ أيضًا جُلِبَت للانتِقالِ مِن كَلامٍ إلى كَلامٍ؛ فيَكونَ فَصْلَ خِطابٍ، كما يُقالُ: هذا الأمرُ كذا[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ تَفريعٌ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٢٩) و (٢٥/ ٣٠٢).

قَولِه: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ﴾ إلى قولِه: ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥- ٢٨]؛ فإنَّ ذلك كُلَّه يَتضَمَّنُ أنَّهم هَلَكوا وانقَرَضوا، أي: فما كان مهلَكُهم إلَّا كمهلَكِ غَيرِهم، ولم يَكُن حَدَثًا عَظيمًا كما كانوا يَحسَبون ويَحسَبُ قَومُهم. والكَلامُ مَسوقٌ مَساقَ التَّحقيرِ لهم، والتَّهَكُّمِ بهِم وبحالِهم المُنافِيَةِ لحالِ مَن يَعظُمُ فَقْدُه[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لتَسلِيَةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ عمَّا كان يُكابِدُه مِن قُرَيشٍ، وإثْلاجِ صَدرِه بأنَّ اللهَ قادِرٌ على إنْقاذِه وإنقاذِ أتْباعِه مِن أذاهُم، كما نَجَّى بَني إسرائيلَ مِن القِبطِ، وهو أمْرٌ كان بحَسَبِ الظَّاهِرِ أمْرًا بَعيدَ الوُقوعِ[2].

أو مَعطوفٌ على الكَلامِ المَحذوفِ الَّذي دلَّ عليه قَولُه: ﴿إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ [الدخان: ٢٤] الَّذي تَقديرُه: فأَغرَقْناهُم ونَجَّيْنا بَني إسرائيلَ، والمَعنَى: ونَجَّيْنا بَني إسرائيلَ مِن عَذابِ فِرعَونَ وقَساوَتِه، أي: فكانتْ آيةُ البَحرِ هلاكًا لقَومٍ وإنجاءً لآخَرينَ. والمَقصودُ مِن ذِكْرِ هذا: الإشارةُ إلى أنَّ اللهَ تعالى يُنجِّي الَّذين آمَنوا بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ مِن عَذابِ أهلِ الشِّركِ بمَكَّةَ، كما نَجَّى الَّذين اتَّبَعوا مُوسَى عليه السَّلامُ مِن عَذابِ فِرعَونَ. وجُعِل طُغيانُ فِرعَونَ وإسرافُه في الشَّرِّ مَثَلًا لِطُغيانِ أبي جَهلٍ ومَلَئِه؛ ومِن أجْلِ هذه الإشارةِ أُكِّدَ الخبَرُ باللَّام. وقد يُفيدُ تَحقيقَ إنْجاءِ المُؤمِنينَ مِن العَذابِ المُقَدَّرِ للمُشرِكين إجابةً لِدَعوةِ ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾[3] [الدخان: ١٢]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٤).

- وجُملةُ ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ إمَّا بَدَلٌ مُطابقٌ ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾؛ كأنَّ فِرعَونَ في نَفْسِه كان عذابًا مُهينًا؛ لإفراطِه في تَعذيبِهم وإهانَتِهم، فتكونُ ﴿مِن﴾ مُؤكِّدةً لـ ﴿مِنَ﴾ الأولى المعدِّيةِ لـ ﴿نَجَّيْنَا﴾؛ لأنَّ الحرْفَ الدَّاخِلَ على المُبدَلِ منه يَجوزُ أنْ يَدخُلَ على البدَلِ للتَّأكيدِ، ويَحسُنُ ذلك في نُكَتٍ يَقْتَضيها المقامُ، وحسَّنَه هنا -فأُظْهِرَتْ كَلِمةُ ﴿مِن﴾-؛ لخَفاءِ كَونِ اسمِ فِرعَونَ بدَلًا مِن العَذابِ؛ تَنبيهًا على قَصدِ التَّهويلِ لأمْرِ فِرعونَ في جَعْلِ اسمِه نَفْسَ العَذابِ المُهِين. وإمَّا على حذْفِ المُضافِ، أي: عَذابِ فِرعونَ. أو حالٌ مِن ﴿ٱلْمُهِينِ﴾، أي: كائنًا مِن فِرعونَ[1].

- وجُملَةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لِبَيانِ التَّهويلِ الَّذي أفادَه جَعلُ اسمِ فِرعَونَ بَدَلًا مِن العَذابِ المُهينِ[2].

- وقولُه: ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أشَدُّ مُبالَغةً في اتِّصافِه بالإسرافِ مِن أن يُقالَ: (مُسرِفًا)، أي: كان رفيعَ الطَّبقةِ مِن بيْنِ المسرِفينَ، فائقًا لهم، بَليغًا في الإسرافِ[3].

- وفي إيهامِ أمْرِه أوَّلًا، وتَبْيينِه بقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ثانيًا؛ مِن الإفصاحِ عن كُنْهِ أمْرِه في الشَّرِّ والفَسادِ ما لا مَزيدَ عليهِ[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بَدَأَ بدَفعِ الضَّرَرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣).

عنهم، وهو نَجاتُهم ممَّا كانوا فيه مِن العَذابِ، ثمَّ ذَكَر بعْدَ ذلك إيصالَ النَّفعِ لهم؛ مِنِ اختِيارِهم على العالَمينَ، وإيتائِهم الآياتِ[1]؛ لأنَّ دفْعَ الضَّررِ مُقدَّمٌ على إيصالِ النَّفعِ[2].

- قولُه: ﴿وَلَقَدِ ٱخۡتَرۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ عِلۡمٍ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الله تعالى قد اختارَ الَّذين آمَنوا بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على أُمَمِ عَصرِهم، كما اختارَ الَّذين آمَنوا بمُوسَى عليه السَّلامُ على أُمَمِ عَصرِهم، وأنَّه عالِمٌ بأنَّ أمْثالَهم أهلٌ لأنْ يَختارَهُم اللهُ، والمَقصودُ: التَّنويهُ بالمُؤمِنينَ بالرُّسُلِ، وأنَّ ذلك يَقتَضي أنْ يَنصُرَهم اللهُ على أعدائِهم، ومِن أجْلِ هذه الإشارةِ أُكِّدَ الخبَرُ باللَّامِ و(قد)، كما أُكِّد في قولِه آنِفًا: ﴿وَلَقَدۡ نَجَّيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[3] [الدخان: ٣٠].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَه هنا بذِكْرِ ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍ﴾، أي: مِنَّا، وقال في سورةِ (الجاثِيَةِ): ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦] بحَذفِه؛ جَريًا هنا على الأصلِ في ذِكْرِ ما لا يُغْني عنه غَيرُه، واكتِفاءً هناك بقَولِه بَعدُ: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾[4] [الجاثية: ٢٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم مِّنَ ٱلۡأٓيَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ المُرادُ بالآياتِ: المُعجِزاتُ الَّتي ظَهَرتْ على يَدِ مُوسَى عليه السَّلامُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ أيَّد اللهُ بها بَني إسرائيلَ في مَواقِعِ حُروبِهم بنَصرِ الفِئَةِ القَليلةِ منهم على الجُيوشِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٥، ٢٢٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (١/ ٤٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٦).

الكَثيرةِ مِن عَدُوِّهم، وهذا تَعريضٌ بالإنذارِ للمُشرِكِين بأنَّ المُسلِمينَ سيَغلِبُون جَمْعَهم مع قِلَّتِهم في بَدرٍ وغَيرِها[١].

- وقِصَّةُ فِرعَونَ وقَومِه مَسوقةٌ للدَّلالةِ على أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ مِثلُهم في الإصرارِ على الضَّلالةِ، والتَّحذيرِ والإنذارِ عن حُلولِ مِثلِ ما حلَّ بهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣).

## الآيات (٢٤-٢٩)

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِمُنشَرِينَ﴾: أي: بمَبعوثِينَ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المشركينَ مِن البعثِ والنُّشورِ: إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ مِن قُرَيشٍ لَيَقولونَ مُنكِرينَ للبَعثِ: ما هي إلَّا مَوتتُنا الَّتي نَموتُها في الدُّنيا ولا حياةَ بعدَها، فإذا مِتْنا فما نحن بمَبعوثينَ، فإنْ كنتُم صادِقينَ في أنَّنا نُبعَثُ بعدَ مَوتِنا فأْتُوا بآبائِنا الَّذين ماتوا مِن قَبْلُ!

ثمَّ يقولُ تعالى مهدِّدًا لهم: أهؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ خَيرٌ أمْ قَومُ تُبَّعٍ مَلِكِ اليَمَنِ، والَّذين مِن قَبْلِهم مِنَ الكُفَّارِ؟ أهلَكْناهم؛ لأنَّهم كانوا مُجرِمينَ!

ثمَّ يقولُ تعالى مُدلِّلًا على صِحَّةِ البعثِ: وما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما لَعِبًا، ما خلَقْناهما إلَّا بالحَقِّ والحِكمةِ، ولكِنَّ أكثَرَ المُشرِكينَ لا يَعلَمونَ.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَكَى تعالى عن المُشرِكين إعْراضَهم عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وطَعْنَهم فيه، بقَولِه: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴾ [الدخان: ١٣، ١٤]، وهدَّدَهم بقَولِه: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان: ١٦]، وضَرَب لهم مَثَلَ قَومِ فِرعَونَ، ومَجيءِ رَسولٍ كَريمٍ إليهم، وقَصْدِهم إيَّاه، وتَدميرِ اللهِ وقَطْعِ دابِرِهم؛ اعتِبارًا واتِّعاظًا- أتى بما هو أَطَمُّ مِن الأوَّلِ، وهو تَكذيبُ اللهِ بأنْ لا بَعْثَ ولا حَشْرَ، وأنَّ اللهَ تعالَى ما خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ بالحَقِّ، بلْ خَلَقَهما باطلًا! لأنَّه سَبَق مِرارًا وأطوارًا أنَّه تعالى ما خَلَق السَّمواتِ والأرضَ إلَّا لِيُوَحَّدَ ويُعبَدَ، ثمَّ لا بُدَّ أن يَجزِيَ المُطيعَ والعاصِيَ، وليست هذه دارَ الجَزاءِ[1].

وأيضًا فإنَّها رُجوعٌ إلى ذِكرِ كُفَّارِ مَكَّةَ؛ وذلك لأنَّ الكلامَ فيهم، حيثُ قال: ﴿ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ [الدخان: ٩]، أي: بَلْ هم في شَكٍّ مِن البَعثِ والقيامةِ، ثمَّ بَيَّنَ كيفيَّةَ إصرارِهم على كُفْرِهم، ثمَّ بَيَّنَ أنَّ قَومَ فِرعَونَ كانوا في الإصرارِ على الكُفرِ مثلَهم، ثمَّ بَيَّنَ أنَّه كيف أهلَكَهم، وكيف أنعَمَ على بني إسرائيلَ، ثمَّ رَجَع إلى الحديثِ الأوَّلِ، وهو كَونُ كُفَّارِ مَكَّةَ مُنكِرينَ للبَعثِ؛ فقال[2]:

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

أي: إنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ لَيَقولونَ مُنكِرينَ للبَعثِ[3]:

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦١، ٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤). =

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

أي: ما هي إلَّا مَوتَتُنا الَّتي نَموتُها في الدُّنيا، ولا حياةَ بعدَها[1].

---

= قال ابنُ عاشور: (كَلِمةُ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ حيثُما ذُكِرَ في القُرآنِ غيرَ مَسبوقٍ بما يَصلُحُ أن يُشارَ إليه: مُرادٌ به المُشرِكونَ مِن أهلِ مكَّةَ، كما استَنْبَطْناه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ الجوزي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١١٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠).

قال البيضاوي: (﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ما العاقِبةُ ونِهايةُ الأمرِ إلَّا المَوتةُ الأُولى المُزيلةُ للحَياةِ الدُّنيويَّةِ، ولا قَصْدَ فيه إلى إثباتِ ثانيةٍ، كما في قَولِك: حَجَّ زَيدٌ الحَجَّةَ الأُولى، ومات). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٢٤).

وقال الواحدي: (﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ما المَوتةُ إلَّا مَوتةٌ نَموتُها في الدُّنيا، ثمَّ لا بَعْثَ بَعْدَها). ((الوسيط)) (٤/ ٩٠).

وقال ابنُ عاشور: (وضَميرُ ﴿هِيَ﴾ ضَميرُ الشَّأنِ، ويُقالُ له: ضَميرُ القِصَّةِ؛ لأنَّه يُستعمَلُ بصِيغةِ المؤنَّثِ بتأويلِ القِصَّةِ، أي: لا قِصَّةَ في هذا الغَرَضِ إلَّا المَوتةُ المعروفةُ؛ فهي مَوتةٌ دائمةٌ لا نُشورَ لنا بَعْدَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧).

وقيل: المعنى: أنَّه قيل لهم: إنَّكم تَموتونَ مَوتةً تَعقُبُها حياةٌ، كما تَقدَّمَتْكم مَوتةٌ قد تعَقَّبَتْها حَياةٌ، وذلك قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فقالوا: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾، يُريدونَ: ما المَوتةُ الَّتي مِن شَأْنِها أن يَتعَقَّبَها حياةٌ إلَّا المَوتةُ الأُولى دونَ المَوتةِ الثَّانيةِ، وما هذه الصِّفةُ الَّتي تَصِفونَ بها الموتةَ مِن تعَقُّبِ الحياةِ لها إلَّا لِلْمَوتةِ الأُولى خاصَّةً، فلا فَرْقَ إذَنْ بَيْنَ هذا وبيْنَ قَولِهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ في المعنى. وهذا =

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾.

أي: وما نحن بمَبعوثينَ[١].

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فأْتُوا بآبائِنا الَّذين ماتوا مِن قَبْلُ، فلْيَرجِعوا إلى الدُّنيا أحياءً بعدَ مَوتِهم إنْ كُنتُم حَقًّا صادِقينَ في أنَّ اللهَ يَبعَثُنا بعدَ مَوتِنا[٢]!

---

= القَولُ هو قَولُ الزَّمخشري، وذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: النَّيْسابوري، والبِقاعي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٨).

قال النيسابوري: (ذلك أنَّ النِّزاعَ إنَّما وَقَع في مَوتةٍ تَعقُبُها حياةٌ، فأنكَروا أن تكونَ مَوتةٌ بهذا الوَصفِ إلَّا الموتةَ الأُولى، وهو حالَ كَونِهم نُطَفًا). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٠٥).

وقال البِقاعي: (قالوا: ما ﴿هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا﴾ على حَذْفِ مُضافٍ، أي: ما الحَياةُ إلَّا حياةُ مَوتَتِنا ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: الَّتي كانت قبْلَ نَفخِ الرُّوحِ ... وعَبَّروا عنها بالمَوتةِ؛ إشارةً إلى أنَّ الحياةَ في جَنْبِ الموتِ المؤبَّدِ -على زَعْمِهم- أمرٌ مُتلاشٍ لا نِسبةَ لها منه). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٥).

وقال ابنُ المُنَيِّرِ: (الموتُ السَّابِقُ على الحياةِ الدُّنيا لا يُعَبَّرُ عنه بالمَوتةِ؛ فإنَّ المَوتةَ فَعْلةٌ فيها إشعارٌ بالتَّجَدُّدِ والطَّرَيانِ. والموتُ السَّابِقُ على الحياةِ الدُّنيا أمرٌ مُستصحَبٌ لم تتقَدَّمْه حياةٌ طَرَأَ عليها هذا). ((حاشية ابن المنيِّر على تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨).

قيل: الخِطابُ هنا للنَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وخُوطِبَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو وَحْدَه خِطابَ الجَمعِ على غِرارِ قَولِه تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١] و ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]. وممَّن قال بذلك: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والثعالبي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٢)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢٠٠).

وقيل: هو خِطابٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولأتْباعِه مِن المؤمِنينَ. وممَّن قال بهذا المعنى: مكِّي، =

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٥، ٢٦].

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه بعْدَ أنْ ضَرَب لهمُ المَثَلَ بمَهلِكِ قَومِ فِرعَونَ؛ زادهم مَثَلًا آخَرَ هو أقرَبُ إلى اعتِبارِهم به، وهو مَهلِكُ قَومٍ أقرَبَ إلى بِلادِهم مِن قَومِ فِرعَونَ، وأُولَئِكَ قَومُ تُبَّعٍ؛ فإنَّ العَرَب يَتَسامَعونَ بعَظَمةِ مُلْكِ تُبَّعٍ وقَومِه أهلِ اليَمَنِ، وكَثيرٌ مِن العَرَبِ شَاهَدوا آثارَ قُوَّتِهم وعَظَمَتِهم في مَراحِلِ أسفارِهم[1].

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: أمُشرِكو قُرَيشٍ خَيرٌ[2].....

---

= والزمخشري، والنَّسَفي، وابن جُزَي، وأبو حيَّان، وأبو السعود، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨).

وقال ابنُ عطية: (وقَولُ قُرَيشٍ: ﴿فَأْتُواْ﴾ مُخاطَبةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إلَّا أنَّه مِن حيثُ كان النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُسنِدًا في أقوالِه وأفعالِه إلى اللهِ تعالى وبواسِطةِ مَلَكٍ، خاطَبوه كما تخُاطَبُ الجَماعةُ، وهم يُريدونَه ورَبَّه ومَلائكتَه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٥).

وقال ابن عاشور: (جَعَلوا قَولَهم: ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ حُجَّةً على نَفيِ البَعثِ بأنَّ الأمواتَ السَّابِقينَ لم يَرجِعْ أحدٌ منهم إلى الحَياةِ، وهو سَفْسَطةٌ؛ لأنَّ البَعثَ المَوعودَ به لا يَحصُلُ في الحَياةِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨).

(٢) قال القرطبي: (قيل: المعنى: أهُمْ أظهَرُ نِعمةً وأكثَرُ أموالًا أمْ قَومُ تُبَّعٍ؟! وقيل: أهُمْ أعَزُّ =

أمْ قَومُ تُبَّعٍ مَلِكِ اليَمَنِ[١] والَّذين مِن قَبْلِهم مِن الأُمَمِ الكافِرةِ كعادٍ وثَمودَ[٢]؟!

كما قال الله تعالى: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴾ [القمر: ٤٣].

وعن عائشةَ رَضيَ الله عنها أنَّها قالت: (كان تُبَّعٌ رجُلًا صالحًا، ألَا ترَى أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذمَّ قَومَه، ولم يَذُمَّه؟)[٣].

---

= وأشَدُّ وأمنَعُ أم قَومُ تُبَّعٍ؟!). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤).

(١) ذهب عددٌ مِن المفَسِّرين إلى أنَّ تُبَّعًا لَقَبٌ لملوكِ اليَمَنِ، وقيل لِمَن مَلَك منهم سبأً وحِمْيَرَ وحَضْرَمَوتَ، كما أنَّ كِسْرى لَقَبٌ لِمَن مَلَك فارِسَ، وقَيْصَرَ لَقَبٌ لِمَن مَلَك الرُّومَ، وذهبوا إلى أنَّ المرادَ به هنا مَلِكٌ واحِدٌ بعَيْنِه كان قد آمَنَ باللهِ تعالى؛ فذَمَّ اللهُ تعالى قَومَه ولم يَذُمَّه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩، ٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦-٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٩).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّه كان مُؤمِنًا صالحًا: عائِشةُ، وكعبُ الأحبارِ، وابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ١٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤١٥).

قال أبو عُبَيدةَ: (مُلوكُ اليمَنِ كان كُلُّ واحدٍ مِنهم يُسَمَّى تُبَّعًا؛ لأنَّه يَتْبَعُ صاحِبَه، وكذلك الظِّلُّ؛ لأنَّه يَتْبَعُ الشَّمسَ، ومَوضِعُ تُبَّعٍ في الجاهليَّةِ مَوضِعُ الخليفةِ في الإسلامِ، وهم مُلوكُ العَرَبِ الأعاظِمُ). ((مجاز القرآن)) (٢/ ٢٠٩).

وخصَّ بعضُ المفَسِّرينَ قَومَ تُبَّعٍ هنا بقَومِ سَبَأٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩، ٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١١٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٦-٢٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٩).

(٣) أخرجه عبد الرزاق في ((تفسيره)) (٢٨١٩)، ومن طريقه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٤٨٨) واللَّفظُ له.

قال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشَّيخَينِ)، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥/ ٥٤٩): (وهو كما قالا)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((المسند)) (٣٧/ ٥٢٠): (رجالُه ثقاتٌ رجالُ الشَّيخَينِ).

﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾.

أي: مع أنَّهم خَيرٌ منهم أهلَكْناهم؛ لأنَّهم كانوا مُتَّصِفينَ بالإجرامِ، فلا يمتَنِعُ أن نُهلِكَ كُفَّارَ قُرَيشٍ وهم دُونَهم، كما أُهلِكَ مَنْ قَبْلَهم(١)!

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أنكَرَ اللهُ تعالى على كُفَّارِ مكَّةَ قَولَهم، ووصَفَهم بأنَّهم أضعَفُ مِمَّن كان قَبْلَهم؛ ذكَرَ الدَّليلَ القاطِعَ على صِحَّةِ القَولِ بالبَعثِ والقيامةِ، فقال تعالى(٢):

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨﴾.

أي: وما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ لَعِبًا بلا مَعنًى ولا فائِدةٍ(٣)!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨، ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

قال الرازي: (لو لم يَحصُلِ البَعثُ لَكان هذا الخَلقُ لَعِبًا وعَبَثًا). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٢).

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا نفى اللهُ تعالى أن يكونَ خَلَق ذلك لِلَّعِبِ الَّذي هو باطِلٌ، أثبَتَ ما خلَقَه له[1]، فقال تعالى:

﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: ما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما إلَّا بالعَدلِ والحِكمةِ، ومِن أجْلِ إقامةِ الحَقِّ بعِبادتِه وَحْدَه لا شَريكَ له؛ فيُمتَحَنُ العبادُ بذلك أمرًا ونَهيًا، ثم يُجازَونَ عليه بعد بَعْثِهم ثَوابًا أو عِقابًا[2].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ أكثَرَ المُشرِكينَ باللهِ لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ بالحَقِّ، وأنَّه لا بُدَّ مِن بَعثِ العِبادِ ومُجازاتِهم على أعمالِهم يومَ القيامةِ؛ فهم لا يَخافونَ عُقوبةً على ما يأتونَه مِن سَخَطِ اللهِ، ولا يَرجُونَ ثَوابًا على خَيرٍ فَعَلوه؛

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠، ٣١١).

قال ابن القيِّم: (اتَّفَق المفَسِّرون على أنَّ الحَقَّ الَّذي خُلِقت به السَّمَواتُ والأرضُ هو الأمرُ والنَّهيُ، وما يَترتَّبُ عليهما مِنَ الثَّوابِ والعِقابِ). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٢٠١).

لِتكذيبِهم بالمعادِ إلى اللهِ تعالى[١].

كما قال سُبحانَه: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴾ [الروم: ٨].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى حِكايةً عن المُشرِكينَ: ﴿ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ ﴾، ورُبَّما توهَّمَ جاهِلٌ أنَّهم لم يُجابوا عمَّا سَألوا! وليس كذلك؛ فإنَّ الَّذي سألوا لا يَصلُحُ أن يكونَ دَليلًا على البَعثِ؛ لأنَّهم لو أُجيبوا إلى ما سألوا لم يكُنْ ذلك حُجَّةً على مَن تقَدَّمَ، ولا على مَن تأخَّرَ، ولم يَزِدْ على أن يكونَ لِمَن تقَدَّمَ وَعدًا، ولِمَن تأخَّرَ خَبَرًا، اللَّهُمَّ إلَّا أن يجيءَ لكُلِّ واحِدٍ أبوه، فتَصيرَ هذه الدَّارُ دارَ البَعثِ! ثمَّ لو جاز وُقوعُ مِثلِ هذه كان إحياءُ مَلِكٍ يُضرَبُ به الأمثالُ أَوْلى، كـ(تُبَّعٍ)، لا أنتم يا أهلَ مَكَّةَ؛ فإنَّكم لا تُعرَفونَ في بِقاعِ الأرضِ[٢]!

٢- قال الله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ﴾ تَعليقُ الإهلاكِ بقَومِ تُبَّعٍ دُونَه يَقتَضي أنَّ تُبَّعًا نجا مِن هذا الإهلاكِ، وأنَّ الإهلاكَ سُلِّطَ على قَومِه[٣].

٣- أفعالُ اللهِ تعالى مُحكَمةٌ واقِعةٌ لغَرَضٍ ومَصلحةٍ؛ وإلَّا لَكان -سُبحانَه وتعالى- عابِثًا؛ قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾[٤]!

٤- قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦١).

(٢) هذه فائدةٌ مِن الوزيرِ ابنِ هُبَيْرَةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٢/ ٩٨).

إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ لو لم يَكُن بَعثٌ وجَزاءٌ لَكَان خَلقُ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما عَبَثًا، ونَحنُ خَلَقْنا ذلك كُلَّه بالحَقِّ، أي: بالحِكمةِ؛ كما دلَّ عليه إتقانُ نِظامِ المَوجُوداتِ؛ فلا جَرَمَ اقتَضَى خَلْقُ ذلك أنْ يُجازَى كلُّ فاعِلٍ على فِعلِه، وألَّا يُضاعَ ذلك، ولَمَّا كان المُشاهَدُ أنَّ كَثيرًا مِن النَّاسِ يَقضِي حَياتَه ولا يَرَى لِنَفْسِه جَزاءً على أعمالِه، تَعيَّنَ أنَّ اللهَ أخَّرَ جَزاءَهُم إلى حَياةٍ أُخرى، وإلَّا لَكان خَلْقُهم في بَعضِ أَحوالِه مِن قَبيلِ اللَّعِبِ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ * فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للحَديثِ عن قُرَيشٍ بعْدَ استِطرادِ حَديثِ بَني إسرائيلَ[2]. وقيل: إنَّ الكَلامَ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦] وجُملةِ ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ [الدخان: ٣٧]؛ فإنَّه لَمَّا هَدَّدَهم بعَذابِ الدُّخَانِ ثمَّ بالبَطْشةِ الكُبرَى، وضَرَبَ لهم المَثَلَ بقَومِ فِرعونَ؛ أَعقَبَ ذلك بالإشارةِ إلى أنَّ إنكارَ البَعثِ هو الَّذي صَرَفهم عن تَوَقُّعِ جَزاءِ السُّوءِ على إعراضِهِم.

وافتِتاحُ الكَلامِ بحَرفِ (إنَّ) الَّذي ليس هو للتَّأكيدِ؛ لأنَّ نِسبةَ هذا القَولِ إلى المُشرِكين لا تَرَدُّدَ فيه حتَّى يَحتاجَ إلى التَّأكيدِ، فتَعَيَّنَ كَونُ حَرفِ (إنَّ) لِمُجرَّدِ الاهتِمامِ بالخَبَرِ، وهو إذا وَقَعَ مِثلَ هذا المَوقِعِ أفادَ التَّسَبُّبَ، وأغنَى عن الفاءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٦، ٣٠٧).

- و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كُفَّارَ قُرَيشٍ، وفي اسمِ الإشارةِ تَحقيرٌ لهم، وازدِراءٌ بهم؛ ولِهَذا قال: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾[1] [الدخان: ٣٧].

- قولُه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾ هذا كلامٌ مِن كَلِماتِهم في إنكارِ البَعثِ، وفيه قَصرٌ، وهذا القَصرُ قَصرٌ حَقيقيٌّ[2] في اعتِقادِهم؛ لأنَّهُم لا يُؤمِنون باعتِراءِ أحوالٍ لهم بعْدَ المَوتِ؛ فأَنكَروا أنْ يَكونَ لَهُم مَوتةٌ ثانيةٌ، والمَعنَى: ما آخِرُ أمْرِنا ومُنتَهَى وُجودِنا إلَّا عِندَ مَوتَتِنا[3].

- وأعْقَبوا قصْرَ ما يَنتابُهم بعْدَ الحياةِ على المَوتةِ التي يَموتونَها بقولِهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ تَصريحًا بمَفهومِ القَصرِ، وجيءَ به مَعطوفًا للاهتِمامِ به؛ لأنَّه غَرَضٌ مَقصودٌ مع إفادَتِه تَأكيدَ القَصرِ[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ استِئنافٌ ناشِئٌ عن قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [الدخان: ١٧]؛ فضَميرُ (هم) راجِعٌ إلى اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ۝ إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ﴾[5] [الدخان: ٣٤، ٣٥].

- والهَمزةُ في قولِه: ﴿أَهُمۡ خَيۡرٌ أَمۡ قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾ للاستِفهامِ الإنكارِيِّ[6]. وهو أيضًا استِفهامٌ تَقريريٌّ؛ إذ لا يَسَعُهم إلَّا أنْ يَعتَرِفوا بأنَّ قَومَ تُبَّعٍ والَّذين مِن قَبلِهِم خَيرٌ منهم؛ لأنَّهم كانوا يَضرِبون بهم الأمثالَ في القُوَّةِ والمَنَعةِ. وافتُتِحَ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٥).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣١).

الكَلامُ بالاستِفهامِ التَّقريريِّ؛ لاستِرعاءِ الأسماعِ لِمَضمونِه؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يَعلَمُ أنَّ تُبَّعًا ومَن قَبْلَه مِن المُلوكِ خَيرٌ مِن هَؤُلاءِ المُشرِكين(١).

- وجُملةُ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لِمَا أَثارَه الاستِفهامُ التَّقريريُّ مِن السُّؤالِ عن إبهامِه: ماذا أُرِيدَ به(٢)؟

- وقولُه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ بَيانٌ للجامِعِ المُقتَضِي للإهلاكِ، وتَعليلٌ لِإهلاكِهِم. وفي ذلك وَعيدٌ لِقُريشٍ، وتَهديدٌ أنْ يُفعَلَ بهمْ ما فُعِلَ بقَومِ تُبَّعٍ ومَن قَبْلَهم مِن مُكذِّبي الرُّسلِ لإجْرامِهم(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّدليلِ على صِحَّةِ الحَشرِ ووُقوعِه وتَقريرِه؛ لأنَّا ما خَلَقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما للعَبَثِ -جلَّ جنابُ الجَلالِ عن ذلك- بلْ بالحَقِّ، وهو أنِ اعبُدُوا ووَحِّدوا، ولا بُدَّ لِمَن عَبَدَ ووَحَّدَ ولِمَن أعرَضَ وأشرَكَ مِن الثَّوابِ والعِقابِ؛ فكَيفَ يقال: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾(٤)؟!

أو عَطفٌ على جُملَةِ ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٤، ٣٥]؛ ردًّا عليهم(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٠٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

- وقولُه: ﴿لَٰعِبِينَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿خَلَقْنَا﴾، والنَّفيُ مُتَوَجِّهٌ إلى هذا الحالِ؛ فاقتَضَى نَفْيَ أنْ يَكُونَ شَيءٌ مِن خَلقِ ذلك في حالَةِ عَبَثٍ؛ فمِن ذلك حالةُ إهمالِ الجَزاءِ(١).

- وذِكرُ اللَّعبِ تَوبيخٌ لِلَّذين أحالُوا البَعْثَ والجَزاءَ؛ بأنَّهُم اعتَقَدوا ما يُفضِي بهم إلى جَعْلِ أفعالِ الحَكيمِ لَعِبًا(٢).

- والباءُ في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للمُلابَسةِ، أي: خَلَقْنا ذلك مُلابِسًا ومُقارِنًا للحَقِّ، أو الباءُ للسَّبَبِيَّةِ، أي: بسَبَبِ الحَقِّ، أي: لإيجادِ الحَقِّ مِن خَلْقِهِما(٣).

- وجُملةُ الاستِدراكِ في قَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَذييلٌ وتَجهيلٌ عَظيمٌ لمُنكِرِي الحَشرِ وتَوكيدٌ؛ لأنَّ إنكارَهُم يُؤَدِّي إلى إبطالِ الكائِناتِ بأَسْرِها، والاستِدراكُ ناشئٌ عمَّا أفادَهُ نَفْيُ أنْ يَكونَ خَلقُ المَخلوقاتِ لَعِبًا، وإثباتُ أنَّه للحقِّ لا غَيرُ؛ مِن كَونِ شَأنِ ذلك ألَّا يَخفَى، ولَكِنَّ جَهْلَ المُشرِكين هو الَّذي سَوَّلَ لهم أنْ يَقولوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾(٤) [الدخان: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١١).

## الآيات (٤٠-٥٠)

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾: أي: يومَ القيامةِ، وسُمِّيَ يومَ الفَصلِ؛ لأنَّه يومٌ يُفصَلُ فيه بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، والظَّالمِ والمظلومِ؛ بأن يَحكُمَ اللهُ بيْنَ عِبادِه، فيَفصِلَ بيْنَهم بالعدلِ مِن قَضائِه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[1].

﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾: أي: وَقْتٌ يَجتمِعون فيه، والمِيقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيءِ، والوعدُ الَّذي جُعِل له وَقْتٌ، وأصلُ (وقت): يدُلُّ على حدِّ شَيءٍ وكُنْهِه، في زمانٍ وغيرِه[2].

﴿مَوْلًى﴾: المَوْلى: الوَلِيُّ القَريبُ، والحَليفُ والنَّاصِرُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٨) و(٢١/ ٥١، ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، =

﴿ٱلزَّقُّومِ﴾: هو ثَمَرُ شَجَرةٍ خَبيثةٍ مُرَّةٍ، كَريهةِ الطَّعمِ، يُكرَهُ أهلُ النَّارِ على تَناوُلِه، فهم يتزَقَّمونَه على أشَدِّ كراهيةٍ، ومنه قَولُهم: تَزقَّمَ الطَّعامَ: إذا تَناوَلَه على كُرهٍ ومَشقَّةٍ شَديدةٍ(١).

﴿ٱلْأَثِيمِ﴾: أي: الآثِمِ الفاجِرِ، المُتمادي في الكُفرِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ الآثِمَ بَطيءٌ عن الخَيرِ، مُتأخِّرٌ عنه(٢).

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: المُهلُ: نَوعٌ مِن القَطِرانِ شَبيهٌ بعَكَرِ الزَّيتِ قد انتهى حَرُّه، أو: ما أُذيبَ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ، وأصلُ (مهل) هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِن الذَّائباتِ(٣).

﴿ٱلْحَمِيمِ﴾: أي: الماءِ الشَّديدِ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على الحَرارةِ(٤).

﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾: أي: ادفَعوه، وسُوقوه بشِدَّةٍ، يُقالُ: عَتَله يَعتِلُه عَتْلًا: إذا ساقه بالعُنفِ والدَّفعِ والجَذْبِ، والعَتْلُ: الدَّفعُ، والإرهاقُ بالسَّوقِ العَنيفِ، وأصلُ (عتل): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ(٥).

---

= ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (١٩/ ٦٠))، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٣)، =

﴿سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: وَسَطِ جَهنَّمَ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ، واعتِدالٍ بيْنَ شَيئَينِ[(١)].

﴿تَمْتَرُونَ﴾: أي: تَشُكُّون وتُجادِلونَ، والمِرْيةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهي أخَصُّ مِن الشَّكِّ[(٢)].

## المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللهُ تعالى عن يومِ القيامةِ، فيقولُ: إنَّ يومَ القيامةِ هو الوَقتُ المُحَدَّدُ للفَصلِ بيْنَ الخَلائِقِ أجمَعينَ، يومَ لا يُغْني مَولًى بقَرابةٍ أو غَيرِها عن مَولًى شَيئًا، ولا هم يُمنَعونَ مِن عَذابِ اللهِ إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ تعالى مِن المومنينَ؛ إنَّه هو العزيزُ الرَّحيمُ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه طعامَ أهلِ النَّارِ وحالَهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: إنَّ شَجَرةَ الزَّقُّومِ في النَّارِ هي طَعامُ الكافِرِ الفاجِرِ، كالسَّائلِ المُنتِنِ الغَليظِ الأسوَدِ شديدِ الحرارةِ، يَغلي في بطونهم كغَلْيِ الماءِ البالِغِ نهايةَ الحَرارةِ. ويُقالُ يومَ القيامةِ لملائِكةِ العذابِ: خُذوا هذا الكافِرَ فجُرُّوه بغِلظةٍ وسُوقُوه بشِدَّةٍ إلى وَسَطِ النَّارِ، ثمَّ صُبُّوا على رأسِه مِن الماءِ الشَّديدِ الحرارةِ، ثمَّ يُقالُ له تهكُّمًا به: ذُقْ هذا العَذابَ؛ إنَّك كنتَ في الدُّنيا تَزعُمُ أنَّك أنت العَزيزُ الكريمُ، فإنَّك اليَومَ لَدَيْنا ذليلٌ مَهينٌ!

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٣٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٩/ ٤٢٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

إنَّ هذا العذابَ الَّذي نَزَل بكم -أيُّها الكافِرونَ- هو ما كنتُم بشَأنِه تُجادِلونَ وتُخاصِمونَ في الدُّنيا، وتَشُكُّونَ فيه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ المقصودَ مِن قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨] إثباتُ القَولِ بالبَعثِ والقيامةِ؛ فلا جَرَمَ ذَكَرَ عَقِيبَه قَولَه[1]:

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٠﴾.

أي: إنَّ يومَ القيامةِ هو الوَقتُ المحدَّدُ للخَلقِ أجمعينَ أوَّلِهم وآخِرِهم، فيُفصَلُ فيه بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، ويُفصَلُ فيه بيْنَ الخَلائِقِ؛ فيُعاقَبُ المُسيئونَ، ويُثابُ المحسِنونَ[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النبأ: ١٧].

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى هذا اليومَ الَّذي دلَّ على عَظَمتِه بتلكَ العِبارةِ؛ ذكَرَ مِن وَصْفِه ما يَحمِلُ على الخَوفِ والرَّجاءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١).

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾.

أي: يومَ لا يَنفَعُ قريبٌ قريبَه، ولا صاحِبٌ صاحبَه، ولا يَدفَعُ عنه شيئًا مِن عقوبةِ اللهِ الَّتي حَلَّتْ به[1].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [سبأ: ٤٢].

وقال جلَّ ثناؤُه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ - ١٩].

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

أي: ولا هم يُمنَعونَ مِن عذابِ اللهِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٤٨].

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾.

أي: إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ مِن عِبادِه المُؤمِنينَ؛ فإنَّه يَشفَعُ بَعضُهم لبَعضٍ بإذنِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

قال ابن عطيَّة: (المَولَى في هذه الآيةِ يَعُمُّ جميعَ الموالي: مِنَ القَراباتِ، وموالي العِتقِ، وموالي الصَّداقةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

تعالى[1].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو المتَّصِفُ بالعِزَّةِ البالِغةِ، ومِن ذلك قَهرُه وانتِقامُه مِن الكافِرينَ؛

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٣).

اختُلِف في الاستثناءِ في هذه الآيةِ؛ فقيل: الاستِثناءُ مُتَّصِلٌ. وممَّن اختاره: أبو البقاءِ العُكْبَريُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ جلالِ الدِّينِ المحلِّي، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٤٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٣). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢٢)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ١٠٩).

قال ابن عاشور: (الاستِثناءُ بقَولِه: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ وقَعَ عَقِبَ جُملتَيْ ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ فحُقَّ بأن يَرجِعَ إلى ما يَصلُحُ للاستِثناءِ منه في تَيْنِك الجُملتَينِ؛ لنا في الجملتَينِ ثلاثةُ ألفاظٍ تَصلُحُ لأنْ يُستثنى منها، وهي: ﴿مَوْلًى﴾ الأوَّلُ المرفوعُ بفِعلِ ﴿يُغْنِى﴾، و﴿مَوْلًى﴾ الثَّاني المجرورُ بحَرفِ ﴿عَن﴾، وضَميرُ ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، فالاستِثناءُ بالنِّسبةِ إلى الثَّلاثةِ استِثناءٌ مُتَّصِلٌ، أي: إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ مِن الموالي، أي: فإنَّه يَأذَنُ أن يُشفَعَ فيه، ويأذَنُ للشَّافِعِ بأن يَشفَعَ... والشَّفاعةُ: إغناءٌ عن المشفوعِ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٣).

وقيل: الاستِثناءُ مُنقطِعٌ، بمعنى: لكنْ. وممَّن اختاره: الكِسائيُّ -كما نسبَه إليه النَّحاسُ-، والفَرَّاءُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٨٨). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٢٧).

قال السَّمينُ الحلبيُّ: (قولُه: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ يجوزُ فيه أربعةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها -وهو قولُ الكِسائيِّ-: أنَّه مُنقطِعٌ. الثَّاني: أنَّه مُتَّصِلٌ، تقديرُه: لا يُغْني قريبٌ عن قريبٍ إلَّا المؤمنينَ؛ فإنَّهم يُؤْذَنُ لهم في الشَّفاعةِ، فيشفَعون في بعضِهم. الثَّالثُ: أن يكونَ مرفوعًا على البَدَليَّةِ مِن ﴿مَوْلًى﴾ الأوَّلِ، ويكونَ ﴿يُغْنِى﴾ بمعنى يَنفَعُ، قاله الحَوْفيُّ. الرَّابعُ: أنَّه مرفوعُ المحلِّ أيضًا على البدَلِ مِن واوِ ﴿يُنصَرُونَ﴾، أي: لا يمنعُ مِن العذابِ إلَّا مَن رَحِمَه اللهُ). ((الدر المصون)) (٩/ ٦٢٧).

المتَّصِفُ بالرَّحمةِ البالِغةِ، ومِن ذلك رَحمتُه بالمُؤمِنينَ[١].

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أقام الدَّلالةَ على أنَّ القَولَ بالقيامةِ حَقٌّ، ثمَّ أردَفَه بوَصفِ ذلك اليَومِ؛ ذَكَر عَقِيبَه وَعيدَ الكُفَّارِ، ثمَّ بَعْدَه وَعْدَ الأبرارِ[٢].

وأيضًا لَمَّا كان السِّياقُ للانتِقامِ؛ أخبَرَ عن حالِ الفُجَّارِ على سَبيلِ الاستِئنافِ، فقال مُؤَكِّدًا لِمَا يُكَذِّبونَ به[٣]:

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: إنَّ شَجَرةَ الزَّقُّومِ هي طَعامُ المُبالِغِ في اكتِسابِ الآثامِ مِن الكُفَّارِ والفُجَّارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٥٩).

قال ابن عاشور: (أي: أنَّ اللهَ عزيزٌ لا يُكرِهُه أحَدٌ على العُدولِ عن مُرادِه، فهو يَرحَمُ مَن يَرحَمُه بمَحضِ مَشيئتِه، وهو رَحيمٌ، أي: واسِعُ الرَّحمةِ لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، على وَفْقِ ما جرى به عِلمُه وحِكمتُه ووَعدُه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢، ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٤).

قال السمعاني: (﴿ٱلْأَثِيمِ﴾... هو أبو جَهلٍ في قولِ أكثرِ المفسِّرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٠).

وقال ابن كثير: (و﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ أي: في قولِه وفعلِه، وهو الكافرُ. وذَكَر غيرُ واحدٍ أنَّه أبو جهلٍ، ولا شكَّ في دخولِه في هذه الآيةِ، ولكن ليست خاصَّةً به). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٠).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ - ٥٦].

﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: ذلك الطَّعامُ يكونُ كالسَّائلِ المُنتِنِ الغَليظِ الأسوَدِ الَّذي بلغ الغايةَ في الحَرارةِ، يَغلي في بُطونِ آكِليه(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤، ٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٣١).

قال ابن عطيَّة: (قال ابنُ عبَّاسٍ وابنُ عُمَرَ رضيَ الله عنهما: «المُهلُ»: دُرْدِيُّ الزَّيتِ وعَكَرُه. وقال ابنُ مسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ أيضًا: «المُهلُ» ما ذاب مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ أو حديدٍ أو رَصاصٍ ونَحوِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٦).

وقيل في معنى المُهْلِ أيضًا: إنَّه قَيحٌ ودمٌ أسْوَدُ كعَكَرِ الزَّيتِ. وقيل: إنَّه الَّذي قد انتهى حَرُّه. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٨١).

ممَّن اختار أنَّ المُهْلَ هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ (أي عَكَرُه في قعرِه): مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمْعانيُّ، والبغوي، والزمخشري، والنسفي، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: ما يُمهلُ في النَّارِ حتَّى يَذوبَ مِن الرَّصاصِ أو الفضَّةِ أو الصُّفْرِ (النُّحاسِ الأصفرِ): السمرقندي، ومكِّي، والبيضاوي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣).

قال ابن جرير: (وهذه الأقوالُ وإن اختَلَفَتْ بها ألفاظُ قائليها، فمُتَقارِباتُ المعنَى؛ وذلك أنَّ =

﴿كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: كغَلَيانِ الماءِ الَّذي تناهَت حَرارتُه[١]!

﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: يُقالُ يومَ القيامةِ لملائِكةِ العَذابِ: خُذوا هذا الكافِرَ فسُوقوه واسحَبوه بعُنفٍ وغِلظةٍ ومَهانةٍ إلى وَسَطِ النَّارِ الَّتي في غايةِ الاضطِرامِ والتَّوقُّدِ[٢]!

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: ثمَّ صُبُّوا على رأسِه مِن الماءِ البالِغِ الغايةَ في شِدَّةِ حَرارتِه، فيَعُمُّ العَذابُ جَميعَ بَدَنِه[٣]!

كما قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ * يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾.

---

= كُلَّ ما أُذيبَ مِن رَصاصٍ أو ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ فقد انتهَى حَرُّه، وأنَّ ما أُوقِدَتْ عليه مِن ذلك النَّارُ حتَّى صارَ كدُرْدِيِّ الزَّيتِ، فقد انتهَى أيضًا حَرُّه). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٠).

وقال ابن كثير: (وهذه الأقوالُ ليس شَيءٌ منها يَنْفي الآخَرَ؛ فإنَّ المُهْلَ يجمعُ هذه الأوصافَ الرَّذيلةَ كُلَّها، فهو أسْوَدُ مُنْتِنٌ غليظٌ حارٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٤).

وقال ابن عطيَّة: (والمعنى أنَّ هذه الشَّجرةَ إذا طَعِمَها الكافِرُ في جهنَّمَ صارت في جَوفِه تفعَلُ كما يَفعَلُ المُهْلُ السُّخْنُ، مِن الإحراقِ والإفسادِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٣).

أي يُقالُ له تهكُّمًا به: ذُقْ هذا العَذابَ؛ إنَّك كُنتَ في الدُّنيا العزيزَ في قَومِك، الكريمَ عليهم في زَعمِك، فإنَّك اليَومَ لَدَيْنا ذَليلٌ مَهينٌ(١)!

قال تعالى: ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [سبأ: ٤٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ۝٥٠﴾.

أي: إنَّ هذا هو العَذابُ الَّذي كنتُم في الدُّنيا تَشُكُّونَ فيه، وتُجادِلونَ في وُقوعِه؛ فذُوقوه فقد عَلِمتُم الآنَ حقيقتَه يَقينًا(٢)!

كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ * أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٤، ١٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ يُتوهَّمُ مِن ظاهِرِها ثُبوتُ العِزَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لفظُ الذَّوقِ يُستعمَلُ في كُلِّ ما يُحِسُّ به [الإنسانُ]، ويجِدُ ألَمَه أو لَذَّتَه، فدعوَى المدَّعي اختِصاصَ لَفظِ الذَّوقِ بما يكونُ بالفَمِ تحَكُّمٌ منه، لكِنَّ ذاك مُقَيَّدٌ، فيُقالُ: ذُقتُ الطَّعامَ، وذُقتُ هذا الشَّرابَ؛ فيَكونُ معه مِن القيودِ ما يدُلُّ على أنَّه ذوقٌ بالفَمِ، وإذا كان الذَّوقُ مُستعمَلًا فيما يُحِسُّه الإنسانُ بباطِنِه أو بظاهِرِه حتَّى الماءُ الحَميمُ يُقالُ: ذاقه؛ فالشَّرابُ إذا كان باردًا أو حارًّا يقالُ: ذُقتُ حَرَّه وبَرْدَه). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١١٠). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٥/ ٢٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين (٤/ ٦٧٢).

وقال ابن عاشور: (جملةُ ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ مَقولُ قَولٍ آخَرَ محذوفٍ، تقديرُه: قولوا له، أو يُقالُ له). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

والكَرَم لأهلِ النَّارِ، مع أنَّ الآياتِ القُرآنيَّةَ مُصَرِّحةٌ بخِلافِ ذلك؛ كقَولِه: ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغِرينَ أذِلَّاءَ. وكقَولِه: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وكقَولِه تعالى هنا: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٤٧]؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ قولَه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي: في زَعْمِكَ الكاذبِ، بل أنتَ المُهانُ الخسيسُ الحقيرُ، فهذا التَّقريعُ نوعٌ مِن أنواعِ العذابِ[١].

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّه يُخاطَبُ بذلك على سَبيلِ الاستِهزاءِ، والمرادُ: إنَّك أنت بالضِّدِّ منه.

**الوجهُ الثَّالِثُ**: أنَّ المعنى: أنَّك كنتَ تعتَزُّ لا باللهِ، فانظُرْ ما وقَعْتَ فيه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ حُجَّةٌ في تَسميةِ المَخلوقِ باسمِ الخالِقِ، ورَفعِ الحَرَجِ فيه[٣]، وذلك فيما يَكونُ له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ؛ كالمَلِكِ، والعزيزِ، إلى غيرِ ذلك[٤].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٤).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٨).

(٤) جاء في ((فتاوى اللَّجنةِ الدَّائمةِ)): (ما كان مِن أسماءِ الله تعالى عَلَم شَخص، كلَفظِ «الله»: امتنع تسميةُ غيرِ الله به؛ لأنَّ مُسمَّاه مُعيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّركةَ، وكذا ما كان مِن أسمائِه في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّركةِ، كالخالقِ والبارئِ؛ فإنَّ الخالِقَ: مَن يُوجِدُ الشَّيءَ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، والبارئَ: مَن يوجِدُ الشَّيءَ بريئًا مِن العَيبِ، وذلك لا يكونُ إلَّا مِن الله وحْدَه؛ فلا يُسمَّى به إلَّا اللهُ تعالى. أمَّا ما كان له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالمَلِكِ، والعزيزِ، والجبَّارِ، والمُتكبِّرِ؛ فيَجوزُ تسميةُ غيرِه بها؛ فقد سمَّى اللهُ نفْسَه بهذه الأسماءِ، وسمَّى بعضَ عِبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الثانية)) (٢/ ٣٦٨). ويُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٩، ٥٥٠).

٣- السِّياقُ يُرشِدُ إلى بَيانِ المُجمَلِ، وتعيينِ المُحتَمِلِ، والقَطعِ بعَدَمِ احتِمالِ غيرِ المرادِ، وتخصيصِ العامِّ، وتقييدِ المُطلَقِ، وتنَوُّعِ الدَّلالةِ؛ وهو مِن أعظَمِ القرائِنِ الدَّالَّةِ على مُرادِ المتكَلِّم، فمَنْ أهمَلَه غَلِطَ في نَظَرِه، وغالَطَ في مُناظَرتِه؛ فانظُرْ إلى قَولِه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ كيف تجِدُ سِياقَه يدُلُّ على أنَّه الذَّليلُ الحَقيرُ[1]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ دَليلٌ على أنَّ تقريعَ المُعَذَّبِ بما أدَّاه إلى عَذابِه جائِزٌ؛ لأنَّه زيادةٌ في غَمِّه[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يَتنَزَّلُ ممَّا قَبْلَه مَنزِلةَ النَّتيجةِ مِن الاستِدلالِ؛ ولذلك لم يُعطَفْ، والمَعنَى: فيَومُ الفَصلِ مِيقاتُهُم، إعلامًا لهم بأنَّ يومَ القَضاءِ هو أجَلُ الجَزاءِ؛ فهَذا وعيدٌ لهم. وتأكيدُ الخَبَرِ؛ لرَدِّ إنكارِهِم[3].

- وحُذِفَ مُتَعَلَّقُ المِيقاتِ؛ لظُهورِه مِن المَقامِ، أي: مِيقاتُ جَزائِهم. وأُضيفَ المِيقاتُ إلى ضَميرِ المُخبَرِ عَنهُم ﴿مِيقَٰتُهُمْ﴾؛ لأنَّهم المَقصودُ مِن هذا الوَعيدِ، وإلَّا فإنَّ يومَ الفَصلِ مِيقاتُ جَميعِ الخَلقِ؛ مُؤمِنيهم وكُفَّارِهم[4].

- والتَّأكيدُ بقَولِه: ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ للتَّنصيصِ على الإحاطةِ والشُّمولِ، أي: مِيقاتٌ لجَزائِهم كُلِّهِم، لا يَفلِتُ منه أحَدٌ منهم؛ تَقويةً في الوَعيدِ، وتَأييسًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن الاستِثناءِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ فيه تَنكيرُ ﴿مَوْلًى﴾ في سِياقِ النَّفيِ؛ لإفادَةِ العُمومِ، أي: لا يُغْني أحدٌ مِن المَوالي كائِنًا مَن كان -مِن قَرابةٍ أو غَيرِها- عن أحَدٍ مِن مَواليه كائِنًا مَن كان[٢].

- وتَنكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾؛ للتَّقليلِ، وهو الغالِبُ في تَنكيرِ لَفظِ شَيءٍ، ووُقوعُه في سِياقِ النَّفيِ للعُمومِ، يعني: أيَّ إغناءٍ كان في القِلَّةِ، فضْلًا عن الإغناءِ الكَثيرِ، والمَعنَى: يومَ لا تُغْني عنهُم مَوالِيهم؛ فعَدَل عن ذلك إلى التَّعميمِ لأنَّه أوسَعُ فائدةً؛ إذ هو بمَنزِلةِ التَّذييلِ[٣].

- وفي الكَلامِ تَتميمٌ[٤] ومُبالَغةٌ، أي: ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى﴾ أيَّ مَولًى كان، إغناءً أيَّ إغناءٍ كان[٥].

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ جاء جمْعًا؛ لأنَّه راجِعٌ إلى المَوالي؛ لأنَّ ﴿مَوْلًى﴾ في سِياقِ النَّفيِ فيَعُمُّ؛ فعاد على المَعنَى، لا على اللَّفظِ، ولأنَّهم في المَعنَى كَثيرٌ؛ لِتَناوُلِ اللَّفظِ على الإبهامِ والشِّياعِ كلَّ مَولًى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١١، ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

(٤) تقدَّم تعريفه (ص: ٧١).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير أبي =

- والنَّصرُ: الإعانةُ على العَدُوِّ وعلى الغالِبِ، وهو أشَدُّ الإغناءِ؛ فعَطَف ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ على ﴿لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾ زيادةً في نَفيِ الإغناءِ، فمُحَصَّلُ المَعنَى: أنَّه لا يُغْني مُوَالٍ عن مُواليه بشَيءٍ مِن الإغناءِ حَسَبَ مُستَطاعِه، ولا يَنصُرُهم ناصِرٌ شَديدُ الاستِطاعةِ هو أقوَى مِنهم يَدفَعُ عنهم غَلَبَ القَوِيِّ عليهم؛ فاللهُ هو الغالِبُ لا يَدفَعُه غالِبٌ. وبُنيَ فِعلُ ﴿يُنصَرُونَ﴾ إلى المَجهولِ؛ لِيَعُمَّ نَفْيَ كُلِّ ناصِرٍ، مع إيجازِ العِبارةِ[1].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ هو جَوابٌ مُجمَلٌ عن سُؤالِ سائِلٍ عن تَعيينِ مَن رَحِمَه اللهُ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِي فِي ٱلْبُطُونِ * كَغَلْيِ ٱلْحَمِيمِ﴾ لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى فَريقًا مَرحُومينَ على وَجهِ الإجمالِ، قابَلَه هنا بفَريقٍ مُعَذَّبينَ، وهم المُشرِكون، ووَصَف بَعضَ أصنافِ عَذابِهم، وهو مَأكَلُهم وإهانَتُهم وتَحريقُهم؛ فكان مُقتَضَى الظَّاهِرِ أنْ يُبتدَأَ الكَلامُ بالإخبارِ عنهم بأنَّهم يَأكلُون شَجَرةَ الزَّقُّومِ، كما قال في سُورَةِ (الواقِعَة) [٥١، ٥٢]: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَأٰكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ...﴾ الآياتِ؛ فعُدِلَ عن ذلك إلى الإخبارِ عن شَجَرَةِ الزَّقُّومِ بأنَّها ﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾؛ اهتِمامًا بالإعلامِ بحالِ هذه الشَّجَرةِ، وقد جُعِلَت شَجَرةُ الزَّقُّومِ شَيئًا مَعلومًا للسَّامِعينَ؛ فأُخبِرَ عنها بطَريقِ تَعريفِ الإضافةِ؛ لأنَّها سَبَق ذِكرُها في سُورةِ (الواقِعة) الَّتي نَزَلَتْ قبْلَ سُورةِ (الدُّخَانِ)[3].

---

= حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١٤).

- و﴿ٱلْأَثِيمِ﴾ صِفةُ مُبالَغةٍ، وهو الكَثيرُ الآثامِ، والمُرادُ به: المُشرِكُون المَذكُورون في قَولِه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ [الدخان: ٣٤، ٣٥]؛ فهذا مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِقَصْدِ الإيماءِ إلى أنَّ إثمَهم بالشِّركِ هو سَبَب مُعامَلَتِهم هذه[١].

- قولُه: ﴿كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾ المُهلُ -بضَمِّ الميمِ-: دُرْدِيُّ الزَّيتِ -على قولٍ-، والتَّشبيهُ به في سَوادِ لَونِه، وقِيلَ: في ذَوَبانِه. والحَميمُ: الماءُ الشَّديدُ الحَرارةِ الَّذي انتَهَى غَلَيانُه، ووَجهُ الشَّبَهِ هو هَيئةُ غَلَيانِه[٢]؛ فالمُشبَّهُ واحِدٌ، والمُشبَّهُ به مُتَعَدِّدٌ؛ شُبِّهَت عُصارةُ الشَّجرةِ تارةً بالمُهلِ في غِلَظِها وكُدورَتِها ونَتَنِها، وأُخرى بالماءِ في انفِعالِها بالغَلَيانِ. وقيل: هذا مِن تَداخُلِ التَّشبيهَينِ، أي: كالمُهلِ المُشَبَّهِ غَلَيانُه بغَلْيِ الحَميمِ في البُطونِ؛ شُبِّهَ طَعامُ الشَّجرةِ بدُرْدِيٍّ -وهو ما يَرْكُدُ في أسفَلِ كُلِّ مائعٍ- خارِجٍ عن المُتَعارَفِ؛ في أنَّه إذا قُدِّرَ أن يُصَبَّ في البُطونِ يَغلِي -بغَيرِ نارٍ- غَلَيانَ الماءِ الحارِّ في المَراجِلِ بالنَّارِ، ولا يَبعُدُ هذا التَّأويلُ؛ فإنَّ هذه الشَّجَرةَ على خِلافِ الأشجارِ المُتَعارَفةِ؛ لأنَّها تَنبُتُ في أصلِ الجَحيمِ، طَلْعُها كأنَّه رُؤوسُ الشَّياطِينِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ مَقولٌ لقَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، أي: يُقالُ للزَّبانِيةِ مَلائِكةِ العَذابِ: خُذُوه، والضَّميرُ المُفرَدُ عائِدٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢٤، ٢٢٥).

إلى الأثيمِ باعتِبارِ آحادِ جِنسِه[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾

- حرْفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخِي الرُّتَبيِّ؛ لأنَّ صَبَّ الحَميمِ على رأسِهِ أشَدُّ عليه مِن أَخْذِه وعَتْلِه[٢].

- وقال: ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ كان الأصلُ أنْ يُقالَ: يُصَبُّ مِن فَوقِ رُؤوسِهم الحَميمُ، ولكِنْ قيلَ: يُصَبُّ مِن فَوقِ رُؤوسِهم عَذابٌ هو الحَميمُ؛ للمُبالَغةِ، ثمَّ أُضِيفَ العَذابُ إلى الحَميمِ؛ للتَّخفيفِ، وزِيدَ ﴿مِنْ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المَصبُوبَ بَعضُ هذا النَّوعِ[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ مَقولُ قَولٍ آخَرَ مَحذوفٍ، تَقدِيرُه: قُولُوا له، أو يُقالُ له[٤].

- وصِيغَةُ الأمْرِ ﴿ذُقْ﴾ مُستَعمَلةٌ في الإهانةِ[٥].

- وقولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ خَبرٌ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ بعَلاقةِ الضِّدِّيَّةِ، والمَقصودُ عَكسُ مَدلُولِه، أي: أنت الذَّليلُ المُهانُ، والتَّأكيدُ للمَعنَى التَّهَكُّميِّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٥).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦)، ((إعراب =

٧- قولُه: تَعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ بَقيَّةُ القَولِ المَحذوفِ، أي: ويُقالُ للآثِمِينَ جَميعًا: إنَّ هذا ما كُنتُم به تَمترونَ في الدُّنيا، والخَبَرُ مُستَعمَلٌ في التَّنديمِ والتَّوبيخِ[1].

= القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

## الآيات (٥١-٥٩)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُندُسٍ﴾: أي: رَقيقِ الحَريرِ[1].

﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: أي: غليظِ الحريرِ[2].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾

قَولُه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ في هذا الاستِثناءِ وَجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّ ﴿ٱلْمَوْتَةَ﴾ مَنصوبةٌ على الاستِثناءِ المُنقَطِعِ، أي: لكِنِ المَوتةُ الأولى قد ذاقوها في الدُّنيا، أو سِوى المَوتةِ الأُولى الَّتي قد ذاقوها في الدُّنيا. الثَّاني: أنَّ ﴿ٱلْمَوْتَةَ﴾ مَنصوبةٌ على الاستِثناءِ المتَّصِلِ، وتأوَّلوه: بأنَّ المُؤمِنَ عندَ مَوتِه في الدُّنيا بمَنزِلَتِه في الجنَّةِ؛ لِمُعايَنةِ ما يُعطاه منها، أو لِما يَتيَقَّنُه مِن نَعيمِها. وقيل غيرُ ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٢٨)، =

## المعنى الإجماليُّ:

بعدَ أن ذكَر تعالى الكافرينَ وسوءَ مصيرِهم، يَذكُرُ المتَّقينَ وحُسنَ عاقِبَتِهم، فيقولُ تعالى: إنَّ المتَّقينَ في مَكانٍ يأمَنُ فيه ساكِنُه مِن كُلِّ مَكروهٍ وسُوءٍ؛ في جنَّاتٍ وعُيونِ ماءٍ، يَلبَسونَ مِن حريرٍ رَقيقٍ ناعِمٍ وآخَرَ غَليظٍ، مُتواجِهينَ في الجنَّةِ، يُقابِلُ بَعضُهم بَعضًا بالوُجوهِ، كذلك وزَوَّجْناهم بنِساءٍ نَقِيَّاتِ البَياضِ، شديداتِ بياضِ العَينِ معَ قوَّةِ سَوادِها، واسِعاتِ الأعيُنِ حِسانِها. ويَطلُبونَ في الجنَّةِ كُلَّ الفواكِهِ آمِنينَ مِن نَفادِها، أو أن يَنالَهم مِن أكلِها أذًى.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أنَّ بقاءَهم في تلك الجنَّاتِ بقاءٌ دائمٌ، فيقولُ: لا يَذوقونَ في الجنَّةِ الموتَ إلَّا المَوتةَ الأُولى الَّتي ماتوها مِن قَبْلُ، ووقاهم رَبُّهم عذابَ النَّارِ؛ تفَضُّلًا منه سُبحانَه وإحسانًا، وذلك هو الفَوزُ العَظيمُ!

ثمَّ يقولُ تعالى: فإنَّما يسَّرْنا هذا القُرآنَ على النَّاسِ -يا محمَّدُ- بلِسانِك العَربيِّ الَّذي هو أفصَحُ الألسِنةِ؛ لَعَلَّهم يَفهَمونَ مَعانيَه فيَتَّعِظونَ ويَعمَلونَ. ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ويَعِدُه بالنَّصرِ، ويَتوعَّدُ مَن كذَّبه، فيقولُ: فترَقَّبْ -يا محمَّدُ- ما يَحُلُّ بهم مِن العذابِ؛ إنَّهم مُترَقِّبونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَرَ الوَعيدَ في الآياتِ المُتقَدِّمةِ؛ ذكَرَ الوَعدَ في هذه الآياتِ[1].

---

= ((مشكل إعراب القرآن)) لمكِّي (٢/ ٦٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٢٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٥).

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿مُقَامٍ﴾ بضَمِّ الميمِ. قيل: بمعنى الإقامةِ، فيَكونُ المعنى أنَّ المتَّقينَ في مُقامٍ أمينٍ مِنَ الانتِقالِ والارتحالِ عنه، فهم في إقامةٍ دائمةٍ في الجنَّةِ، أو يكونُ قَولُه تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾ وَصفًا لِمُقَدَّرٍ مَحذوفٍ، أي: في مَوضِعِ إقامةٍ أمينٍ. وقيل: يحتَمِلُ أن يريدَ به المكانَ مِن «أقامَ»، فيَكونَ بمعنى القراءةِ الثَّانيةِ[1].

٢- قِراءةُ: ﴿مَقَامٍ﴾ بفَتحِ الميمِ، أي: في مَوضِعٍ آمِنٍ مِنَ الخُروجِ منه، ومِن الأوصابِ والعِلَلِ والأنصابِ والأحزانِ، وغيرِ ذلك مِن المَخاوِفِ والآفاتِ[2].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نهَى عنه: مُستَقَرُّهم في الجنَّةِ في مَوضِعٍ يأمَنُ فيه ساكِنُه مِنَ الموتِ والخُروجِ، ومِن كُلِّ هَمٍّ وحَزَنٍ ونَكَدٍ، ومِن سائِرِ الآفاتِ والمصائِبِ[3].

كما قال الله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ١٦٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٣)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ١٦٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

وقال سُبحانَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا * خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا﴾ [الفرقان: ٧٥، ٧٦].

﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٥٢﴾.

أي: مَقامُهم في بَساتينَ وعُيونِ ماءٍ[١].

﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣﴾.

﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾.

أي: يَلبَسونَ فيها الحَريرَ الرَّقيقَ النَّاعِمَ، والغَليظَ اللَّامِعَ البَرَّاقَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الكهف: ٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [الحج: ٢٣].

﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

أي: مُتواجِهينَ يُقابِلُ بَعضُهم بعضًا بالوُجوهِ، فلا يَجلِسُ أحَدٌ منهم وظَهرُه إلى غيرِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).
قيل: يَلبَسونَ الحَريرَ النَّاعِمَ على أجسادِهم، ويَلبَسونَ الإستَبْرَقَ فوقَ اللِّباسِ الأوَّلِ، فيُفيدُ السُّندُسُ الْتِذاذَ الجِسمِ به؛ لِرِقَّتِه ونُعومتِه، ويفيدُ الإستَبرَقُ الْتِذاذَ العَينِ به؛ لبَريقِه ولَمَعانِه. يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨). =

﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: كذلك[1]، وزَوَّجْناهم[2] بنِساءٍ نَقِيَّاتِ البَياضِ، شديداتِ بياضِ العَينِ مع

---

= قال السعدي: (﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في قلوبِهم ووُجوهِهم، في كمالِ الرَّاحةِ والطُّمَأنينةِ، والمَحبَّةِ والعِشْرةِ الحَسَنةِ والآدابِ المُستحسَنةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).

(١) قيل: المرادُ: كما فعَلْنا بهم ما ذكَرْنا -مِن إكرامِهم بالجنَّاتِ والعُيونِ واللِّباسِ- كذلك نُزَوِّجُهم بالحُورِ العِينِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والسمعاني، والبغوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٢).

وقيل: المعنى: الأمرُ كما ذكَرْنا ووَصَفْنا لكم. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والبقاعي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٩).

قال الشوكاني: (والكافُ في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ إمَّا نعتُ مَصدرٍ محذوفٍ، أي: نَفعَلُ بالمُتَّقينَ فِعْلًا كذلك. أو: مَرفوعٌ على أنَّه خبَرٌ لمبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: الأمرُ كذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣).

(٢) ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ أي: قَرَنَّاهم بهِنَّ: ابنُ أبي زَمَنين، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، والعُلَيمي، وأبو السعود، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٧).

قال الألوسي: (والمرادُ على ما قال غيرُ واحِدٍ: وقَرَنَّاهم بِحُورٍ عِينٍ، وفُسِّرَ بذلك؛ قيل: لأنَّ الجنَّةَ ليس فيها تكليفٌ، فلا عَقْدَ ولا تزويجَ بالمعنى المشهورِ. وقيل: لِمَكانِ الباءِ، وزَوَّجَه المرأةَ بمعنى أنكَحَه إيَّاها: مُتعَدٍّ بنَفْسِه. وفيه بحثٌ؛ فإنَّ الأخفَشَ جَوَّزَ الباءَ فيه، فيُقالُ: زوَّجْتُه بامرأةٍ فتزَوَّجَ بها، وأزْدُ شَنُوءةَ يُعَدُّونَه بالباءِ أيضًا، وفي القاموسِ: زوَّجْتُه امرأةً وتزوَّجْتُ امرأةً وبِها، أو هي قليلةٌ [أي: التَّعديةُ بالباءِ]...، ويجوزُ أن يُقالَ: إنَّ ذلك التَّفسيرَ؛ لأنَّ الحُورَ العِينَ في الجنَّةِ مِلكُ يَمينٍ كالسَّراريِّ في الدُّنيا، فلا يَحتاجُ الأمرُ إلى العَقْدِ عَليهنَّ، على أنَّه يُمكِنُ =

قوَّةِ سَوادِها[1]، .....

= أن يكونَ في الجنَّةِ عَقدٌ، وإنْ لم يكُنْ فيها تَكليفٌ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٣٣). ويُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ١٩٢).

وقال أبو عُبيدة: (﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾: جعَلْناهم أزواجًا، كما تُزَوَّجُ النَّعْلُ بالنَّعْلِ، جعَلْناهم اثنَينِ اثنَينِ جَميعًا بجَميعٍ). ((مجاز القرآن)) (٢/ ٢٠٩).

قال الواحدي: (وقَولُ أبي عُبَيدةَ حَسَنٌ؛ لأنَّه جَعَل قَولَه: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم﴾ مِنَ التَّزويجِ الَّذي هو بمعنى: جَعْلِ الشَّيءِ زَوجًا، لا بمعنى عَقْدِ النِّكاحِ، ومِن هذا يجوزُ أن يُقالَ: كان فَرْدًا وزَوَّجْتُه بآخَرَ، كما يُقالُ: شَفَعْتُه بآخَرَ، فإنَّما يَمتَنِعُ الباءُ عندَ مَن [يمنَعُها] إذا كان بمعنى التَّزويجِ، ونحوَ هذا قال الأخفَشُ في هذه الآيةِ: جعَلْناهم أزواجًا بالحُورِ). ((البسيط)) (٢٠/ ١٢٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥١٦).

وقال ابن عاشور: (المُرادُ أنَّهُم مَأنُوسُون بصُحبةِ حَبائِبَ مِن النِّساءِ، كما أَنِسوا بصُحبةِ الأصحابِ والأحِبَّةِ مِن الرِّجالِ؛ استِكمالًا لمُتعارَفِ الأُنسِ بيْنَ النَّاسِ، وفي كِلَا الأُنسَينِ نَعيمٌ نَفْسانيٌّ مُنجَرٌّ للنَّفْسِ مِن النَّعيمِ الجُثمانيِّ، وهذا مَعنًى سامٍ مِن مَعاني الانبِساطِ الرُّوحيِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨).

وقال ابنُ القَيِّمِ بعدَ أنْ ذَكَر قَولَ مَن قال: إنَّ المعنى: قَرَنَّاهم، قال: (وعلى هذا فزَوَّجْناهم عندَ هؤلاءِ: مِنَ الاقترانِ والشَّفْعِ، أي: شفَعْناهم وقَرَنَّاهم بهِنَّ. وقالت طائِفةٌ -منهم مُجاهِدٌ-: زَوَّجْناهم بهِنَّ، أي: أنكَحْناهم إياهُنَّ. قُلتُ: وعلى هذا فتَلويحُ فِعلِ التَّزويجِ قد دَلَّ على النِّكاحِ، وتَعديتُه بالباءِ المُتضَمِّنةِ معنَى الاقترانِ والضَّمِّ؛ فالقَولانِ واحِدٌ. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٤).

وقال أيضًا: (ولا يَمتَنِعُ أن يُرادَ الأمْرانِ معًا؛ فلَفظُ التَّزويجِ يدُلُّ على النِّكاحِ، كما قال مجاهِدٌ: أنكَحْناهم الحُورَ، ولَفظُ الباءِ تدُلُّ على الاقترانِ والضَّمِّ، وهذا أبلَغُ مِن حَذْفِها. واللهُ أعلَمُ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٠).

(١) الحورُ جمعُ حوراءَ. قيل: هي المرأةُ البَيضاءُ النَّقِيَّةُ البَياضِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((مقاتل ابن سليمان)) (٣/ ٨٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣).

وقال القرطبي: (والحُورُ: البِيضُ. في قَولِ قَتادةَ والعامَّةِ، جمْعُ حَوراءَ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢). =

واسِعاتِ الأعيُنِ حِسانِها[1].

وقيل: الحَوراءُ: هي الشَّديدةُ سَوادِ العَينِ والشَّديدةُ بَياضِها. وممَّن اختاره: أبو عُبيدةَ، ومكِّي، والنَّسَفي، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢).

قال ابنُ القيِّم: (الصَّحيحُ أنَّ الحُورَ مأخوذٌ مِنَ الحَوَرِ في العَينِ: وهو شِدَّةُ بَياضِها مع قُوَّةِ سَوادِها، فهو يتضَمَّنُ الأمْرَينِ... ولا تُسَمَّى المرأةُ حَوراءَ حتَّى يكونَ مع حَوَرِ عَيْنِها بياضُ لَونِ الجَسَدِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٢٥).

وقيل: سُمِّينَ حُورًا؛ لِأنَّ الطَّرْفَ يَحارُ فيهِنَّ؛ مِن حُسْنِهِنَّ وجَمالِهِنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

وممَّن قال به مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ. وقد ردَّ هذا القولَ ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥).

والعِينُ: جمعُ العَيناءِ. وممَّن اختار أنَّ المرادَ بها: المرأةُ الواسِعةُ العَينِ عَظيمَتُها: ابنُ جرير، ومكِّي، والرازي، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٨) و(٢١/ ٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦٦٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالعِيْنِ: حِسانُ الأعيُنِ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: سَعةُ العَينِ وعِظَمُها معَ حُسْنِها: ابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والعُليمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥١).

قال ابنُ القيِّم: (والعِينُ: جَمعُ عَيناءَ، وهي العَظيمةُ العَينِ مِن النِّساءِ... والصَّحيحُ: أنَّ العِينَ: اللَّاتي جَمَعَت أعيُنُهُنَّ صِفاتِ الحُسنِ والمَلاحةِ، قال مُقاتلٌ: العِينُ: حِسانُ الأعيُنِ. ومِن محاسِنِ المرأةِ اتِّساعُ عَيْنِها في طُولٍ، وضِيقُ العَينِ في المرأةِ مِن العُيوبِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥، ٦٦) و(٢١/ ٥٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢، ١٥٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٨ - ٢٢٠)، =

كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ [الطور: ٢٠].

﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ٥٥﴾.

أي: يَطلُبُ المتَّقونَ في الجنَّةِ كُلَّ ما يَشتَهونَه مِن أنواعِ الفَواكِهِ، فتَأتيهم في كُلِّ حينٍ، آمِنينَ مِن نَفادِها أو انقِطاعِها، وآمِنينَ مِن أن يَنالَهم مِن أكْلِها ضَرَرٌ، أو يَلحَقَهم أذًى[1].

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰۖ وَوَقَىٰهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٥٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا وَصَفَ اللهُ تعالى أنواعَ ما هم فيه مِنَ الخَيراتِ والرَّاحاتِ؛ بَيَّنَ أنَّ حياتَهم دائِمةٌ[2].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر الأمانَ، وكان أخْوَفَ ما يَخافُ أهلُ الدُّنيا الموتُ؛ قال[3]:

﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلۡمَوۡتَ إِلَّا ٱلۡمَوۡتَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

أي: لا يَذوقُ المتَّقونَ في الجنَّةِ الموتَ أبدًا إلَّا المَوتةَ الأُولى الَّتي ماتوها مِن قَبْلُ في الدُّنيا[4].

---

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨، ٣١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٥٠).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٤)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، =

= ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٨).

قيل: المرادُ بـ ﴿إِلَّا﴾ هنا: (بَعْدَ). والمعنى: لا يَذوقونَ فيها الموتَ بعدَ الموتةِ الأُولى الَّتي ماتوها في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، وذكَرَا أنَّها قريبةُ المعنى مِن (بَعْدَ)، لكِنْ ضَعَّفَ هذا القَولَ الجُمهورُ -كما ذكَرَ السَّمينُ الحَلَبي-؛ لعدَمِ ثُبوتِ كَونِ (إلَّا) بمعنى (بَعْدَ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٧، ٦٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٣١).

وقال الشربيني: (واختاره الطَّبَريُّ: لكِنْ نُوزِعَ بأنَّ إلَّا بمعنى «بَعْدَ» لم يَثبُتْ، وقد يُجابُ بأنَّ مَن حَفِظَ حُجَّةٌ على مَن لم يحفَظْ). ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٤٦٧).

وقال أبو الحسَنِ المُجاشِعيُّ: (وإنَّما جاز أن تقعَ «إلَّا» مَوقِعَ «بَعْدَ»؛ لأنَّ «إلَّا» لإخراجِ بَعضٍ مِن كُلٍّ، و «بَعْدَ» لإخراجِ الثَّاني عن الوَقتِ الأوَّلِ). ((النكت في القرآن الكريم)) (ص: ٤٤٤).

وقال ابنُ القيِّم: (هذا مِن الاستثناءِ السَّابقِ زَمانُه زمانَ المُستثنى منه، ولَمَّا كانت المَوتةُ الأُولى مِن جِنسِ الموتِ المنفيِّ زَعَم بَعضُهم أنَّه مُتَّصِلٌ. وقال بَعضُهم: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى «بَعْدَ»، والمعنى: لا يَذوقونَ بَعْدَ الموتةِ الأُولى مَوتًا في الجنَّةِ، وهذا معنًى حَسَنٌ جِدًّا يَفتَقِرُ إلى مُساعدةِ اللَّفظِ عليه، ويُوضِّحُه: أنَّه ليس المرادُ إخراجَ الموتةِ الأُولى مِن الموتِ المنفيِّ، ولا ثَمَّ شَيءٌ مُتوَهَّمٌ يُحتاجُ لأجْلِه إلى الاستثناءِ، وإنَّما المرادُ الإخبارُ بأنَّهم بعدَ مَوتَتِهم الأُولى الَّتي كتَبَها اللهُ عليهم لا يَذوقونَ غَيرَها، وعلى هذا فيُقالُ: لَمَّا كان ما بَعْدَ ﴿إِلَّا﴾ حُكمُه مخالِفٌ لحُكمِ ما قَبْلَها، والحياةُ الدَّائمةُ في الجنَّةِ إنَّما تكونُ بعدَ المَوتةِ الأُولى؛ كانت أداةُ ﴿إِلَّا﴾ مُفهِمةً هذه البَعْديَّةَ، وقد أُمِنَ اللَّبسُ؛ لعَدَمِ دُخولِها في الموتِ المنفيِّ في الجنَّةِ، فتجَرَّدت لهذا المعنى، فهذا مِن أحسَنِ ما يُقالُ في الآيةِ؛ فتأمَّلْه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٧٠).

وقيل: ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى «سِوى»، أي: لا يَذوقونَ في الجنَّةِ مَوتًا سِوى المَوتةِ الَّتي ماتوها مِن قَبْلُ في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٤)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٤/ ٤٢٨).

قال الرَّسْعَني: (وأكثَرُ المفَسِّرينَ يقولُ: سِوى الموتةِ الأُولى الَّتي ذاقوها في الدُّنيا). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٨٣).

وقال ابن عطيَّة: (قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ قدَّر قَومٌ ﴿إِلَّا﴾ بـ «سِوى»، وضَعَّف =

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا صار أهلُ الجنَّةِ إلى الجنَّةِ، وصار أهلُ النَّارِ إلى النَّارِ؛ أُتِيَ بالموتِ حتَّى يُجعَلَ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، ثمَّ يُذبَحُ، ثمَّ يُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ لا مَوتَ، ويا أهلَ النَّارِ لا مَوتَ، فيَزدادُ أهلُ الجنَّةِ فَرَحًا إلى فَرَحِهم، ويَزدادُ أهلُ النَّارِ حُزنًا إلى حُزنِهم))[1].

وعن أبي سَعيدٍ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُجاءُ بالموتِ يومَ القيامةِ كأنَّه كَبشٌ أمْلَحُ[2]، فيُوقَفُ بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيُقالُ: يا أهلَ الجنَّةِ هل تَعرِفونَ هذا؟ فيَشْرَئِبُّونَ[3] ويَنظُرونَ ويَقولونَ: نعَمْ، هذا

---

= ذلك الطَّبريُّ، وقَدَّرَها بـ «بَعْدَ»، وليس تضعيفُه بصَحيحٍ، بل يَصِحُّ المعنى بـ «سِوَى» ويَتَّسِقُ)). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٨).

وقيل: هذا مِن بابِ التَّعليقِ بالمحالِ، أُريدَ أن يُقالَ: لا يَذوقونَ فيها الموتَ البتَّةَ، فوَضَعَ قَولَه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ مَوضِعَ ذلك؛ لأنَّ الموتةَ الماضيةَ مُحالٌ ذَوقُها في المُستقبَلِ، كأنَّه قيل: إنْ كانت الموتةُ الأُولى يَستقيمُ ذَوقُها في المُستَقبَلِ فإنَّهم يَذوقونَها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٩).

وقيل: الاستِثناء مُنقَطِعٌ، أي: لا يَذوقونَ فيها الموتَ البتَّةَ؛ لأنَّهم خالِدونَ فيها، لَكِنِ الموتةُ الأُولى قد ذاقوها في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا القول: القرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦١).

قال ابن القيِّم: (هذا الاستِثناءُ هو لتَحقيقِ دَوامِ الحياةِ، وعدَمِ ذَوقِ الموتِ، وهو يجعَلُ النَّفيَ الأوَّلَ العامَّ بمَنزلةِ النَّصِّ الَّذي لا يَتطَرَّقُ إليه استِثناءُ البتَّةَ؛ إذْ لو تطَرَّق إليه استِثناءُ فَردٍ مِن أفرادِه لَكان أَولى بذِكْرِه مِن العُدولِ عنه إلى الاستِثناءِ المنقَطِعِ؛ فجرى هذا الاستِثناءُ مَجرى التَّأكيدِ والتَّنصيصِ على حِفظِ العُمومِ، وهذا جارٍ في كُلِّ مُنقَطِعٍ؛ فتأمَّلْه فإنَّه مِن أسرارِ العَرَبيَّةِ)). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣٢٦).

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٤٨)، ومسلمٌ (٢٨٥٠) واللَّفظُ له.

(٢) أملَحُ: أي: في صوفِه بَياضٌ وسَوادٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٨٩).

(٣) فيَشْرَئِبُّونَ: أي: يَرفَعونَ رُؤوسَهم إلى المنادي. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٥).

الموتُ! ويُقالُ: يا أهلَ النَّارِ هل تَعرِفونَ هذا؟ فيَشرَئِبُّونَ ويَنظُرونَ ويَقولونَ: نعَمْ، هذا الموتُ! فيُؤمَرُ به فيُذبَحُ، ثمَّ يُقالُ: يا أهلَ الجنَّةِ خُلودٌ فلا مَوتَ، ويا أهلَ النَّارِ خُلودٌ فلا مَوتَ))[١].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((يُنادي مُنادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَحْيَوْا فلا تَموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأَسُوا أبدًا))[٢].

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

أي: ونجَّى اللهُ المُتَّقينَ مِن عَذابِ النَّارِ، فصَرَفَه عنهم[٣].

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾.

أي: وقاهم اللهُ تعالى عذابَ الجَحيمِ تَفَضُّلًا مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- عليهم، وإحسانًا منه إليهم[٤].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((قارِبوا وسَدِّدوا، واعلَموا أنَّه لن يَنجوَ أحَدٌ مِنكم بعَمَلِه! قالوا: يا رَسولَ اللهِ،

---

(١) رواه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) واللَّفظُ له.

(٢) رواه مسلم (٢٨٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

ولا أنتَ؟! قال: ولا أنا إلَّا أن يَتغَمَّدَني اللهُ برَحمةٍ منه وفَضلٍ!))[١].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: النَّجاةُ مِن النَّارِ ودُخولُ الجنَّةِ: هو الرِّبحُ والظَّفَرُ العَظيمُ الَّذي لا فَوزَ غَيرُه[٢].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى الدَّلائِلَ، وشَرَح الوَعدَ والوَعيدَ؛ قال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، والمعنى: أنَّه تعالى وَصَف القُرآنَ في أوَّلِ هذه السُّورةِ بكَونِه كِتابًا مُبينًا، أي: كَثيرَ البَيانِ والفائِدةِ، وذَكَر في خاتمتِها ما يُؤَكِّدُ ذلك، فقال: إنَّ ذلك الكِتابَ المُبينَ الكَثيرَ الفائِدةِ: أنزَلْناه عَربيًّا بِلُغَتِك؛ لَعَلَّهم يَتَذكَّرونَ[٣].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: فإنَّما سَهَّلْنا على النَّاسِ -يا محمَّدُ- هذا القُرآنَ ويَسَّرْنا لهم بيانَه بِلُغَتِك العَربيَّةِ الَّتي هي أفصَحُ اللُّغاتِ؛ لعَلَّهم يَفهَمونَ مَعانيَه، ويَتَّعِظونَ بعِظاتِه، ويَعمَلونَ به[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: فترَقَّبْ -يا محمَّدُ- ما يحُلُّ بهم مِنَ العذابِ والهلاكِ وانتَظِرْه؛ إنَّهم مُنتَظِرونَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٨ - ٣٠].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾، تأمَّلْ كيفَ ذكَرَ سُبحانَه الأمْنَ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾، وفي قَولِه تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾؛ فجَمَع لهم بيْنَ أمْنِ المكانِ، وأمْنِ الطَّعامِ -فلا يَخافونَ انقِطاعَ الفاكِهةِ، ولا سُوءَ عاقِبَتِها ومَضَرَّتَها-، وأمْنِ الخُروجِ منها فلا يَخافونَ

---

= (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

ذلك، وأمْنِ الموتِ فلا يَخافونَ فيها مَوتًا[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ الأمنُ أكبَرُ شُروطِ حُسنِ المكانِ؛ لأنَّ السَّاكِنَ أوَّلُ ما يتطَلَّبُه الأمنُ، وهو السَّلامةُ مِن المَكارِهِ والمَخاوِفِ، فإذا كان آمِنًا في مَنزِلِه كان مُطمَئِنَّ البالِ، شاعِرًا بالنَّعيمِ الَّذي يَنالُه[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ * كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فجَمَع لهم بيْنَ حُسنِ المَنزِلِ، وحُصولِ الأمْنِ فيه مِن كُلِّ مَكروهٍ، واشتِمالِه على الثِّمارِ والأنهارِ، وحُسنِ اللِّباسِ، وكَمالِ العِشْرةِ؛ لِمُقابَلةِ بَعضِهم بعضًا، وتمامِ اللَّذَّةِ بالحُورِ العِينِ، ودُعائِهم بجَميعِ أنواعِ الفاكِهةِ، معَ أمْنِهم مِن انقِطاعِها ومَضَرَّتِها وغائِلتِها، وفي خِتامِ ذلك أعلَمَهم بأنَّهم لا يَذوقونَ فيها هناك مَوتًا[٣].

٤- قَولُه تعالى عن المتَّقينَ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ إنْ قيلَ: أليس أهلُ النَّارِ لا يموتونَ، فلِمَ بَشَّرَ أهلَ الجنَّةِ بهذا مع مُشارَكةِ غَيرِهم في هذا المعنى؟

**والجواب**: أنَّ أهلَ الجنَّةِ في حياةٍ هَنيئةٍ، بِشارتُهم بالخُلودِ تَزيدُهم سُرورًا وقُرَّةَ عَينٍ، وأهلَ النَّارِ يموتونَ مَوتاتٍ كَثيرةً بما يُقاسُونَ مِن الشِّدَّةِ، وانتفاءُ الموتِ عنهم يَزيدُهم حَسرةً وشِدَّةَ وَجْدٍ[٤]. فالآيةُ فيها بِشارةٌ بخُلودِ النِّعمةِ؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٢٦).

الموتَ يَقطَعُ ما كان في الحياةِ مِن النَّعيمِ لأصحابِ النَّعيمِ، كما كان الإعلامُ بأنَّ أهلَ الشِّركِ لا يَموتون نِذارةً بدَوامِ العَذابِ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾، فيه سؤالٌ: كيف وعَدَ الله تَعالَى أهلَ الجَنَّةِ بلُبسِ الإستبرَقِ، وهو غَليظُ الدِّيباجِ، مع أنَّ غَليظَه عندَ السُّعداءِ مِن أهلِ الدُّنيا عَيبٌ ونَقصٌ؟

**الجواب**: أنَّ غَليظَ دِيباجِ الجَنَّةِ لا يُشابِهُ غَليظَ دِيباجِ الدُّنيا حتَّى يُعابَ، كما أنَّ سُندُسَ الجَنَّةِ -وهو رَقيقُ الدِّيباجِ- لا يُشابِهُ سُندُسَ الدُّنيا. وقيل: غيرُ ذلك[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ جُلُوسُهم على صفةِ التَّقابُلِ، والغَرَضُ منه استِئناسُ بعضِهم ببعضٍ في المَجالِسِ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ﴾ مَعلومٌ أنَّ الجنَّةَ لا موتَ فيها -لا أُولى ولا ثانيةَ-، لكنْ لَمَّا كان نعيمُ القَلبِ مُمتَدًّا مِن الدُّنيا إلى دُخولِ الجنَّةِ صار كأنَّ الدُّنيا والآخِرةَ كِلْتَيهما جَنَّةٌ، وليس فيها إلَّا مَوتةٌ واحِدةٌ[٤]!

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ فيه أنَّ حُصولَ النَّعيمِ واندِفاعَ العَذابِ عنهم: مِن فَضلِ اللهِ عليهم وكَرَمِه؛ فإنَّه تعالى هو الَّذي وفَّقَهم للأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي بها نالوا خَيرَ الآخِرةِ، وأعطاهم أيضًا ما لم تَبلُغْه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٨)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ١١٠، ١١١).

ويُنظر ما تقدَّم في حاشية التَّفسير (ص: ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٧).

أعمالُهم[١].

٩- قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ خَتَم السُّورةَ بالحَثِّ على اتِّباعِ القُرآنِ وإنْ لم يكُنْ مَذكورًا، كما قال في مُفتَتَحِ السُّورةِ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[٢] [الدخان: ٣].

١٠- قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وهذا كثيرٌ في القُرآنِ؛ يُخبِرُ أنَّ كِتابَه ورَسولَه مُذَكِّرٌ لهم بما هو مَركوزٌ في فِطَرِهم؛ مِن مَعرِفَتِه تعالى ومَحبَّتِه، وتَعظيمِه وإجلالِه، والخُضوعِ له والإخلاصِ له، ومحبَّةِ شَرعِه الَّذي هو العَدلُ المَحْضُ، وإيثارِه على ما سِواه؛ فالفِطَرُ مَركوزٌ فيها مَعرِفتُه ومَحبَّتُه، والإخلاصُ له والإقرارُ بشَرعِه، وإيثارُه على غَيرِه؛ فهي تَعرِفُ ذلك وتَشعُرُ به مُجمَلًا ومُفَصَّلًا بَعضَ التَّفصيلِ؛ فجاءت الرُّسُلُ تُذَكِّرُها بذلك، وتُنَبِّهُها عليه، وتُفَصِّلُه لها وتُبَيِّنُه، وتُعَرِّفُها الأسبابَ المُعارِضةَ لِمُوجبِ الفِطرةِ، المانِعةَ مِن اقتِفائِها أثَرَها[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ انتَقَل به الكَلامُ مِن وَصفِ عَذابِ الأثيمِ إلى وَصفِ نَعيمِ المُتَّقِينَ؛ لِمُناسَبةِ التَّضادِّ، على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ الوَعيدِ بالوَعدِ، والعَكسِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٠١، ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٦).

- وقولُه: ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدَلٌ مِن ﴿مَقَامٍ﴾؛ جِيءَ به دَلالةً على نَزاهَتِه، واشتِمالِه على طَيِّباتِ المَآكِلِ والمَشارِبِ(١).

- وأُعِيدَ حرْفُ ﴿فِي﴾ مع البدَلِ؛ للتَّأكيدِ(٢).

- قولُه: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ فيه وصْفُ نَعيمِ أجسادِهم بذِكرِ لِباسِهم، وهو لِباسُ التَّرَفِ والنَّعيمِ، وفيه كِنايةٌ عن تَوَفُّرِ أسبابِ نَعيمِ الأجسادِ؛ لأنَّه لا يَلبَسُ هذا اللِّباسَ إلَّا مَنِ استَكمَلَ ما قَبْلَه مِن مُلائِماتِ الجَسَدِ باطِنِه وظاهِرِه(٣).

- قولُه: ﴿مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ حَرفُ (مِنْ) لبَيانِ الجِنسِ، والمُبَيَّنُ مَحذوفٌ دلَّ عليه ﴿يَلْبَسُونَ﴾، والتَّقديرُ: ثِيابًا مِن سُندُسٍ وإستَبْرَقٍ(٤).

- وقدْ وصَفَ نَعيمَ نُفوسِهم بعضِهم مع بَعضٍ في مَجالِسِهم ومُحادثاتِهم بقولِه: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾؛ لأنَّ الحَديثَ مع الأصحابِ والأحِبَّةِ نَعيمٌ للنَّفْسِ؛ فأغْنَى قَولُه: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ عن ذِكْرِ اجتِماعِهم وتَحابِّهم وحَديثِ بَعضِهم مع بَعضٍ، وأنَّ ذلك شَأنُهم أجمَعِينَ؛ بأنْ ذَكَر ما يَستَلزِمُ ذلك، وهو صِيغةُ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ ومادَّتُه؛ على وَجهِ الإيجازِ البَديعِ(٥).

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١٨).

الجُملةُ اعتِراضيَّةٌ بيْنَ المَعطوفِ والمَعطوفِ عليه؛ جِيءَ بها للتَّقريرِ[١].

- قولُه: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ الزَّوجُ هنا كِنايةٌ عن القَرينِ، أي: قَرَنَّا بكُلِّ واحِدٍ نِساءً حُورًا عِينًا[٢]، وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾، أي: همْ يَأمُرون بأنْ تُحضَرَ لهم الفاكِهةُ، أي: فيُجابُونَ؛ ففي الكلامِ حذْفٌ. والدُّعاءُ نَوعٌ مِن الأمرِ، أي: يَأذَنون بكلِّ فاكِهةٍ، أي: بإحضارِ كلِّ فاكِهةٍ، و(كل) هنا إمَّا مُستَعمَلةٌ في الكَثرةِ الشَّديدةِ لكُلِّ واحِدٍ منهم، أو تَكونُ بمَعنَى الإحاطةِ، أي: بكلِّ صِنفٍ مِن أصنافِ الفاكِهةِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾

- قال في صِفةِ أهلِ الجنَّةِ: إنَّهم ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾، مع أنَّهُم لم يَذوقُوا المَوتَ فيها، وهو مِن تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ لِزيادةِ تَحقيقِ انتِفاءِ ذَوقِ المَوتِ عن أَجَلِ الجَنَّةِ، كأنَّه قيل: لا يَذوقُون فيها المَوتَ الْبَتَّةَ؛ للمُبالَغةِ في تَعميمِ النَّفيِ؛ فوُضِعَ قَولُه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ مَوضِعَ ذلك؛ لأنَّ المَوتةَ الماضِيةَ مُحالٌ ذَوقُها في المُستقبَلِ؛ فهو مِن بابِ التَّعليقِ بالمُحالِ، كأنَّه قيل: إنْ كَانَت المَوتةُ الأُولَى يَستَقيمُ ذَوقُها في المُستقبَلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣١٩).

فإنَّهم يَذوقونَها، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. وقيل غيرُ ذلك[١].

- وضَميرُ ﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾ عائِدٌ إلى ضَميرِ المُتكَلِّمِ في ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾ على طَريقةِ الالْتِفاتِ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَ﴾ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ. وذِكرُ الرَّبِّ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، ومُقتَضَى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: فَضلًا مِنه أو مِنَّا، ونُكتَةُ هذا الإظهارِ: تَشريفُ مَقامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ، والإيماءُ إلى أنَّ ذلك إكرامٌ له؛ لإيمانِهم به[٣].

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ تَذييلٌ. والإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لِتَعظيمِ الفَضلِ ببُعدِ المَرتَبةِ. وأُتِيَ بضَميرِ الفَصلِ ﴿هُوَ﴾؛ لِتَخصيصِ الفَوزِ بالفَضلِ المُشارِ إليه، وهو قَصرٌ لإفادَةِ مَعنَى الكَمالِ؛ كأنَّه لا فَوْزَ غَيْرُه[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ * فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ للتَّفريعِ؛ إشارةً إلى أنَّ ما بَعْدَها مُتَفَرِّعٌ عمَّا قَبْلَها؛ حيث كان المَذكورُ بعْدَ الفاءِ فَذْلَكةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٠٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٨). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٢٩-٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للسُّورَةِ[١]، أي: إجمالًا لأغراضِها بعْدَ تَفصيلِها فيما مَضَى؛ إحضارًا لتِلكَ الأغراضِ، وضَبطًا لتَرَتُّبِ عِلَّتِها، أي: إنَّما أنزَلْنا الكِتابَ المُبينَ بِلُغَتِكَ كَيْ يَفْهَمَه قَومُك، ويَتذَكَّروا ويَعمَلُوا بمُوجَبِه، وإذا لم يَفعلُوا ذلكَ ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ ﴾ ما يَحُلُّ بهم ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾ ما يَحُلُّ بكَ[٢].

- وضَميرُ ﴿يَسَّرۡنَٰهُ ﴾ عائدٌ إلى الكتابِ المَفهومِ مِن المَقامِ، والمَذكورِ في قَولِه: ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ ... ﴾ إلخ [الدخان: ٢، ٣]، والَّذي كان جُلُّ غَرَضِ السُّورَةِ في إثباتِ إنزالِه مِن اللهِ تعالى، كما أشار إليه افتِتاحُها بالحُروفِ المُقَطَّعةِ وقَولِه: ﴿ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴾؛ فهذا التَّفريعُ مُرتَبِطٌ بذلك الافتِتاحِ، وهو مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٣]؛ فهذا

(١) الفَذْلَكَةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكَةُ) كلمةٌ مَنحوتةٌ كـ(البَسملةِ) و(الحَوْقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞ ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كُنَّاشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٧).

(٣) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظينِ المُكرَّرينِ، أو المتجانسَينِ، أو المُلحقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾[النساء: ١٦٦]. والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ =

التَّفريعُ تَفريعٌ لِمَعنَى الحَصرِ الَّذي في قَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾؛ لبَيانِ الحِكمةِ في إنزالِ القُرآنِ باللِّسانِ العَرَبيِّ؛ فيَكون تَفريعًا على ما تقدَّم في السُّورةِ، وما تَخَلَّله وتَبِعَه مِن المَواعِظِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ المُفَرَّعُ قَولَه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، وقُدِّم عليه ما هو تَوطِئةٌ له؛ اهتِمامًا بالمُقَدَّمِ، وتَقديرُ النَّظمِ: فلَعَلَّهُم يتَذَكَّرون بهذا؛ لِمَا يَسَّرْناه لهم بلِسانِهم[1].

- والقَصرُ المُستفادُ مِن (إِنَّمَا) قَصرُ قَلبٍ[2]، وهو رَدٌّ على المُشرِكين؛ إذ قد سَهَّل لهم طَريقَ فَهمِه بفَصاحَتِه وبَلاغَتِه؛ فقَابَلوه بالشَّكِّ والهُزْءِ، كما قَصَّه اللهُ في أوَّلِ السُّورَةِ بقَولِه: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ [الدخان: ٩]، أي: ما جَعَلْنا فَهْمَه يَسيرًا بسَبَبِ اللُّغةِ العَرَبيَّةِ الفُصحَى -وهي لُغَتُهم- إلَّا لِيَتذَكَّروا فلم يَتذكَّروا، فمَفعولُ ﴿يَسَّرْنَٰهُ﴾ مُضافٌ مُقَدَّرٌ دلَّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: فَهْمَه[3].

- والباءُ في ﴿بِلِسَانِكَ﴾ للسَّبَبيَّةِ، أي: بسَبَبِ لُغَتِك، أي: العربيَّةِ، وفي إضافةِ اللِّسانِ إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم عِنايةٌ بجانبِه، وتَعظيمٌ له، وإلَّا

---

= أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]. والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص:١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢١).

فاللِّسانُ لِسانُ العَرَبِ[١].

- و(لعَلَّ) مُستَعمَلةٌ في التَّعليلِ، أي: مِن أجْلِ أن يتَذَكَّروا به[٢].

- وفي هذا الكَلامِ المُوجَزِ إخبارٌ بتَيسيرِ القُرآنِ للفَهمِ؛ لأنَّ الغَرَضَ منه التَّذَكُّرُ، وبأنَّ سَبَبَ ذلك التَّيسيرِ كَونُه بأَفصَحِ اللُّغاتِ، وكَونُه على لِسانِ أفضَلِ الرُّسُلِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فلذلك كان تَسَبُّبُه في حُصولِ تَذَكُّرِهم تَسَبُّبًا قَريبًا لو لم يَكُونُوا في شكٍّ يَلعبَون، وباعتبارِ هذه المَعاني المُتَوافِرةِ حَسُنَ أنْ يُفَرَّعَ على هذه الجُملةِ تَأْييدُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَهديدُ مُعانِديه بقَولِه: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾، أي: فارتَقِبِ النَّصْرَ الَّذي سَأَلْتَه بأنْ تُعانَ عليهم بسِنينَ كَسِنِي يوسفَ -وذلك على قولٍ في تفسيرِ الدُّخَانِ-؛ فإنَّهُم مُرتَقِبون ذلك وأَشَدَّ منه، وهو البَطْشةُ الكُبرَى[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾ فصيحةٌ؛ تُفصِحُ عن محذوفٍ، أي: إنْ لم يَتَّعِظوا ولم يُؤمِنوا به فارْتقِبْ[٤].

- ومَفعولُ (ارْتَقِبْ) مَحذوفٌ، تَقديرُه: هَلاكَهم[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُم مُّرۡتَقِبُونَ ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بالانتِظارِ في قَولِه: ﴿ فَٱرۡتَقِبۡ ﴾، أي: ارتَقِبِ النَّصْرَ بأَنَّهُم لَاقُو العذابِ بالقَحطِ -وذلك على قولٍ في تفسيرِ الدُّخَانِ-، وقد أَغنَت (إنَّ) عن التَّسَبُّبِ والتَّعليلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٢٢).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٣٧).

- وفي هذه الخاتِمةِ ردُّ العَجُزِ على الصَّدرِ؛ إذ كان صَدرُ السُّورةِ فيه ذِكرُ إنزالِ الكِتابِ المُبينِ، وأنَّه رَحمةٌ مِن اللهِ بواسِطةِ رِسالةِ مُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكان في صَدرِها الإنذارُ بارْتِقابِ يَوم تأْتي السَّماءُ بدُخَانٍ مُبينٍ، وذِكرُ البَطْشةِ الكُبرَى؛ فكانت خاتِمةُ هذه السُّورةِ خاتِمةً عَزيزةَ المَنالِ؛ اشتَمَلت على حُسْنِ بَراعةِ المَقطَعِ، وبَديعِ الإيجازِ[1].

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّاني والثَّلاثونَ**

**ويليه المجلدُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الجاثيةِ**

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٢).

# الفهرس

# الفهرس

## سورةُ الزُّخرُفِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ١٣
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ١٤
الآيات (١-٨) ..... ١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٥
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٧
الآيات (٩ - ١٤) ..... ٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٥

الآيات (١٥-١٨) ..... ٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٦
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٦٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٧١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٧٤
الآيات (١٩-٢٥) ..... ٨١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٨١
المعنى الإجماليُّ ..... ٨٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٨٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٩١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٩٥
الآيات (٢٦-٣٢) ..... ١٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٠٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٠٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٠٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٢١
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٢٧

الآيات (٣٣-٣٥) ..... ١٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٣٦
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٣٧
المعنى الإجماليُّ ..... ١٣٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٣٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٤٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٤٥
الآيات (٣٦-٣٩) ..... ١٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٤٨
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٤٨
المعنى الإجماليُّ ..... ١٥٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٥٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٥٨
الآيات (٤٠-٤٥) ..... ١٦٧
المعنى الإجماليُّ ..... ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٧٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٨٠

الآيات (٤٦-٥٠) ..... ١٨٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٨٩
المعنى الإجماليُّ ..... ١٨٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٩٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٩٦
الآيات (٥١-٥٦) ..... ٢٠١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٠١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٠٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٠٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٠٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢١٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢١٤
الآيات (٥٧-٦٥) ..... ٢١٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢١٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٢٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٢١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٣٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٤٠
الآيات (٦٦-٧٣) ..... ٢٥٢

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٥٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٥٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٦٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٦٨
الآيات (٧٤-٨٠) ..... ٢٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٧٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٧٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٧٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٨٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٨٦
الآيات (٨١-٨٩) ..... ٢٩١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٩١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٩٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٩٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٠٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٠٨

## سُورةُ الدُّخَانِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٣٢١

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٣٢١
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣٢١
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٣٢٢
الآيات (١-٨) ..... ٣٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٢٣
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٢٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٣١
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٣٣٣
الآيات (٩-١٦) ..... ٣٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٤٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٤٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٤٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٥٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٥٣
الآيات (١٧-٢٤) ..... ٣٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٦١
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٦٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٧٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٧١

الآيات (٢٥-٣٣) ..... ٣٨١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٨١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٨٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٨٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٩٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٩٢
الآيات (٣٤-٣٩) ..... ٣٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٩٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٩٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٩٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٠٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٠٧
الآيات (٤٠-٥٠) ..... ٤١١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤١١
المعنى الإجماليُّ ..... ٤١٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٢٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٢٢
الآيات (٥١-٥٩) ..... ٤٢٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٢٨

مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٢٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٤٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤٣
الفهرس ..... ٤٥١

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة الجاثية وسورة الأحقاف و سورة محمد)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد الثالث والثلاثون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الجاثية وسورة الأحقاف وسورة محمد)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثالث والثلاثون - سورة الجاثية وسورة الأحقاف وسورة محمد/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٦٠٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ١-٩٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- سورة الجاثية - تفسير ٢- القرآن- سورة الأحقاف - تفسير ٣- سورة محمد - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/٢٧٦٣

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٢٧٦٣

ردمك: ١-٩٩-٨١٥٤-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣ هـ - ٢٠٢١ م**

**(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الجاثيةِ

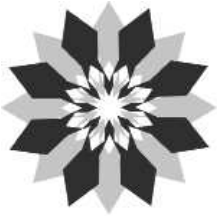

# سُورةُ الجاثيةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

تُسَمَّى هذه السُّورةُ بسُورةِ (الجاثيةِ)[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ (الجاثيةِ) مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ سُورةِ الجاثيةِ:**

١- إثباتُ انفِرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ[٤].

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ في كثيرٍ مِن المصاحِفِ وكُتُبِ التَّفسيرِ بسُورةِ الجاثيةِ؛ وذلك لِوُقوعِ لَفظِ «جاثية» فيها؛ في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجاثية: ٢٨]، ولم يَقَعْ في مَوضِعٍ آخَرَ مِن القُرآنِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٣).

قال ابنُ عاشور: (وتُسَمَّى «حم الجاثية»... وتُسمَّى سورةَ «الشَّريعة»؛ لِوُقوعِ لَفظِ «شريعة» فيها؛ في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية: ١٨]، ولم يَقَعْ في مَوضِعٍ آخَرَ مِن القُرآنِ. وتُسمَّى سورةَ «الدَّهرِ»؛ لِوُقوعِ ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] فيها، ولم يَقَعْ لَفظُ «الدَّهرِ» في ذواتِ «حم» الأُخَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٣) بتصرف يسير. ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٠٨٣).

(٢) وقيلَ: مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]؛ فنَزَل بالمدينةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٤).

(٣) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٦٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٦).

٢- تقريرُ البَعثِ، ووصْفُ بَعضِ أحوالِه، وحِكايةُ بعضِ أقوالِ المُشرِكينَ المتعَلِّقةِ به، والرَّدُّ عليها[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلتْ عليها هذه السُّورةُ الكريمةُ:**

٣- افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالثَّناءِ على القُرآنِ الكريمِ، والإشارةِ إلى آياتِ اللهِ المَبثوثةِ في الكَونِ.

٤- تَوعُّدُ الأفَّاكينَ بأشَدِّ أنواعِ العذابِ؛ لإصرارِهم على كُفرِهم، واتِّخاذِهم آياتِ اللهِ هُزُوًا.

٥- بيانُ جانبٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى على خَلْقِه.

٦- بيانُ مَوقِفِ بنى إسرائيلَ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى، واختِلافِهم وبَغْيِهم.

٧- توجيهُ الأمرِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّمَسُّكِ بدِينِ اللهِ، واتِّباعِ شَريعتِه، ونَهْيُه عن اتِّباعِ أهواءِ الجاهِلينَ.

٨- حكايةُ بَعضِ أقوالِ الكافِرينَ الباطِلةِ، مع الرَّدِّ عليها بما يُبطِلُها، ويُثبِتُ كَذِبَها.

٩- بيانُ بَعضِ أهوالِ يومِ القيامةِ ومَشاهِدِها، وعاقِبةِ الأخيارِ، وعاقِبةِ الأشرارِ.

١٠- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بثَناءِ اللهِ سُبحانَه على ذاتِه بما هو أهلُه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ١٤٠).

## الآيات (١-٦)

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٣ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾: أي: لَحُجَجًا ودَلالاتٍ، وتُطلقُ الآيةُ أيضًا على: الموعظةِ، والعلامةِ، والعجيبةِ، وغيرِ ذلك، وأصلُ (أيي): النَّظرُ[1].

﴿يَبُثُّ﴾: أي: يُفَرِّقُ ويَنشُرُ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على تفريقِ الشَّيءِ[2].

﴿دَآبَّةٍ﴾: الدَّابَّةُ هي كلُّ شَيءٍ دبَّ على وجهِ الأرضِ، ويُستعمَلُ في كلِّ حَيوانٍ، وفي الحشراتِ أكثَر، وأصلُ (دبب): حركةٌ على الأرض أخَفُّ مِن المَشْيِ[3].

﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: يَعلمونَ عِلمًا مُتمَكِّنًا في نُفوسِهم، لا يُمكِنُ أن يَدخُلَه شكٌّ، وأصلُ اليقينِ: زوالُ الشَّكِّ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨، ٩٠).

﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾: أي: تَحويلِها وتَقليبِها تارةً بالرَّحمةِ، وتارةً بالعَذابِ، وتارةً حارَّةً، وتارةً بارِدةً، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

ابتدأَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: ﴿حمٓ﴾، وهما مِن الحروف المقطَّعةِ الَّتي تأتي لبيانِ إعجازِ هذا القرآنِ، ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ هذا الكِتابَ العَظيمَ -وهو القُرآنُ- تنزيلٌ مِن عندِه سُبحانَه وتعالى، وهو سُبحانَه المتَّصِفُ بالأُلوهيَّةِ والعِزَّةِ والحِكمةِ.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ عَلاماتٍ للمُؤمِنينَ على كَمالِ قُدرتِه تعالى، وبَديعِ صُنعِه، وفي خَلقِ اللهِ للنَّاسِ وما يَنشُرُه مِن الدَّوابِّ عَلاماتٌ واضِحةٌ لِقَومٍ يُوقِنونَ بالحَقِّ فيُقِرُّونَ به، وفي اختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وتَعاقُبِهما دَومًا، وفيما أنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ، فأنبَتَ به الأرضَ بعدَ جَدْبِها، وفي تنويعِ الرِّياحِ في الجهاتِ والصِّفاتِ: عَلاماتٌ واضِحةٌ كذلك لِقَومٍ يَعقِلونَ.

ثمَّ خاطب اللهُ تعالى نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائِلًا له: تلك آياتُ اللهِ نَقرَؤُها عليك -يا محمَّدُ- بواسِطةِ جِبريلَ، وهي مُشتَمِلةٌ على الحَقِّ الَّذي لا باطِلَ فيه، فإنْ لم يُؤمِنِ المُشرِكونَ بهذا القُرآنِ فبأيِّ حَديثٍ بعدَ كِتابِ اللهِ وبعدَ حُجَجِه وآياتِه يُؤمِنونَ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٤٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهذَينِ الحَرفَينِ مِن الحروفِ المقطَّعةِ الَّتي تُستفتَحُ بها كثيرٌ مِن سوَرِ القرآنِ لبيانِ إعجازِه؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضَتِه بمِثلِه، مع أنَّه مرَكَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ الَّتي يَتحدَّثونَ بها[١].

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾.

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ المتَّصِفِ بكَمالِ العِزَّةِ؛ فهو الغالِبُ القاهِرُ، العَظيمُ القَدْرِ، المُمتَنعُ عليه كُلُّ نَقصٍ وعَيبٍ؛ والمُتَّصِفِ أيضًا بالحِكمةِ التَّامَّةِ في شَرْعِه وخَلْقِه وقَدَرِه؛ فيضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[٢].

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ تعالى أنَّ هذا الكِتابَ الكريمَ أنزَلَه العَزيزُ الحَكيمُ؛ أعقَبَ ذلك بنتائِجِ العِزَّةِ والحِكمةِ[٣]، فقال تعالى:

﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾.

أي: إنَّ في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ لَعَلاماتٍ باهِرةً، ودلائِلَ واضِحةً على الحَقِّ للمُؤمِنينَ دُونَ غَيرِهم[٤].

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن

---

(١) يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سُورةِ البَقَرةِ (١/ ٦٤) من هذا ((التَّفسير المحرَّر)).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).

فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [ق: ٦ - ٨].

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَّرَ اللهُ سُبحانَه بالنَّظَرِ في آياتِ الآفاقِ، ونبَّه بخلقِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ أتْبَعَ ذلك بذِكرِ آياتِ الأنفُسِ، وما بثَّ في الأرضِ[1].

﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: وفي خَلقِ اللهِ إيَّاكم -أيُّها النَّاسُ-، وخَلْقِه ما يَنشُرُه ويُفَرِّقُه مِن الدَّوابِّ بأنواعِها: دَلالاتٌ واضِحةٌ، وعَلاماتٌ باهِرةٌ لِقَومٍ يُوقِنونَ بالحَقِّ، فيُقِرُّونَ به، ويَعلَمونَ صِحَّتَه[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم: ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [الشورى: ٢٩].

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٢، ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).

أي: وفي تَعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ دائِبَينِ لا يَفتُرانِ، واختِلافِهما في الطُّولِ والقِصَرِ، والنُّورِ والظُّلْمةِ، إلى غيرِ ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: وفيما أنزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِن ماءٍ، فأنبَتَ به الأرضَ بعدَ جَدْبِها، فأخرَجَ منها أرزاقَ العِبادِ وأقواتَهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).
قال السعدي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سُورةِ البَقَرةِ (١٦٤): (﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ وهو تَعاقُبُهما على الدَّوامِ؛ إذا ذهَبَ أحَدُهما خَلَفَه الآخَرُ، وفي اختِلافِهما في الحَرِّ والبَردِ والتَّوسُّطِ، وفي الطُّولِ والقِصَرِ والتَّوسُّطِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالرِّزقِ هنا: المطرُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧).
قال الشنقيطي: (أوضَحَ بقَولِه: ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أنَّ مُرادَه بالرِّزقِ المطَرُ؛ لأنَّ المطَرَ هو الَّذي يُحيي اللهُ به الأرضَ بعدَ مَوتِها، وقد أوضَحَ جَلَّ وعلا أنَّه إنَّما سُمِّيَ المطَرُ رزقًا؛ لأنَّ المطَرَ سَبَبُ الرِّزقِ في آياتٍ كَثيرةٍ مِن كِتابِه، كقَولِه تعالى في سورةِ البَقَرةِ: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٢]، والباءُ في قَولِه ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ﴾ سَبَبِيَّةٌ كما ترى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٧٧) و(٧/ ١٨٣).
وقيل: المرادُ بالرِّزقِ: المطَرُ وغَيرُه مِن الأسبابِ المُهَيِّئةِ لإخراجِ الرِّزقِ. وممَّن قال بهذا القولِ: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٦)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٩٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ﴾.

أي: وفي تنويعِ الرياحِ بإرسالِها مِن جهاتٍ مُختَلِفةٍ -فتارةً تَهُبُّ مِن جهةٍ، وتارَةً مِن أُخرَى- وبصِفاتٍ مُختلِفةٍ؛ فتارَةً تكونُ حارَّةً، وتارةً باردةً، وتارةً تكونُ نافعةً، وتارةً ضارَّةً، وتارةً تكونُ رحمةً، وتارةً عذابًا... إلى غيرِ ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الروم: ٤٦].

﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

أي: في اختلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وإنزالِ المطرِ، وإحياءِ الأرضِ به، وتصريفِ الرِّياحِ- دَلالاتٌ واضِحاتٌ وعلاماتٌ باهِراتٌ على الحَقِّ لِقَومٍ يَعقِلونَ عن اللهِ تعالى حُجَجَه، ويَفهَمونَ ما وعَظَهم به مِنَ الآياتِ والعِبَرِ(٢).

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).

وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: تلك آياتُ اللهِ نُخبِرُك بها -يا مُحمَّدُ- ونَقرَؤُها عليك بواسِطةِ جِبريلَ، مُشتَمِلةً على الحَقِّ والصِّدقِ الخالِصِ، الَّذي لا باطِلَ معه ولا كَذِبَ(١).

كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٢].

﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أي: فإنْ لم يُؤمِنِ المُشرِكونَ بهذا القُرآنِ فبأيِّ حَديثٍ بَعدَه يُؤمِنونَ ويَنتَفِعونَ ويَعتَبِرون؟! إذ لا أحسَنَ مِن القُرآنِ حَديثًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٨)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧١) وَ (٢/ ٧٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٥ - ١٨٧).
قال البقاعي: (﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: الأمرِ الثَّابِتِ الَّذي لا يُستطاعُ تَحويلُه؛ فليس بسِحرٍ ولا كَذِبٍ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٨).
قال الشوكاني: (﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بعدَ حَديثِ اللهِ وبعدَ الآياتِ، فيَكونُ مِن بابِ: أعجَبَني زَيدٌ وكَرَمُه. وقيل: المرادُ: بعدَ حديثِ اللهِ، وهو القُرآنُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهو المرادُ بالآياتِ، والعَطفُ لِمُجرَّدِ التَّغايُرِ العُنوانيِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦).
وقال ابنُ عاشور: (وعَطَف ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ على ﴿حَدِيثٍۭ﴾؛ لأنَّ المرادَ بها الآياتُ غيرُ القُرآنِ؛ مِن =

كما قال تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المرسلات: ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [الزمر: ٢٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ إذا أنعَمَ العَبدُ نَظَرَه في استِواءِ قَدِّه وقامتِه، واستِكمالِ عَقلِه وتمامِ تَمييزِه، وما هو مَخصوصٌ به في جوارِحِه وحوائِجِه، ثمَّ فَكَّر فيما عَداه مِن الدَّوابِّ؛ في أجزائِها وأعضائِها، ثمَّ وَقَف على اختِصاصِ وامتيازِ بني آدَمَ مِن بيْنِ البَرِيَّةِ مِن الحيواناتِ في الفَهمِ والعَقلِ والتَّمييزِ والعِلمِ، ثمَّ في الإيمانِ- عَرَف تَخَصُّصَهم بمناقِبِهم، وانفِرادَهم بفَضائِلِهم؛ فاستَيقَنَ أنَّ اللهَ كَرَّمهم، وعلى كثيرٍ مِن المخلوقاتِ قَدَّمهم[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ابتداءُ تَنزيلِ القُرآنِ مِنَ اللهِ تعالى، لا مِن جِبريلَ ولا غَيرِه؛ قال تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾، فجِبريلُ نزَل به مِن عندِ اللهِ تعالى، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ ﴾[٢] [النحل: ١٠٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ إثباتُ العُلُوِّ للهِ تعالى، ووجْهُ ذلك: الإخبارُ بنُزولِ الأشياءِ منه[٣]، والنُّزولُ إنَّما يكونُ مِن الأعلَى[٤].

---

= دلائِلِ السَّمَواتِ والأرضِ مِمَّا تَقدَّمَ في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٨٤).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ تلك الآياتِ لا أثَرَ لها في نُفوسِ مَن هم بخِلافِ المؤمِنينَ والَّذين يُوقِنونَ[١].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ رَتَّبَها على ثلاثةِ مَقاطِعَ، والغَرَضُ: التَّنبيهُ على أنَّه لا بُدَّ مِن إفرادِ كُلِّ واحدٍ منها بنَظَرٍ تامٍّ شافٍ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ جُعِلَ خَلقُ النَّاسِ والدَّوابِّ آيةً للمَوصوفينَ بالإيقانِ؛ لأنَّ دَلالةَ الخَلقِ كائِنةٌ في نَفْسِ الإنسانِ وما يُحيطُ به مِن الدَّوابِّ[٣]. وقيل: لَمَّا كانت آياتُ الأنفُسِ أدَقَّ وأدَلَّ على القُدرةِ والاختيارِ بما لها مِنَ التَّجَدُّدِ والاختِلافِ، قال: ﴿لِّقَوْمٍ﴾، أي: فيهم أهليَّةُ القيامِ بما يُحاوِلونَه ﴿يُوقِنُونَ﴾ أي: يَتجَدَّدُ لهم العُروجُ في دَرَجاتِ الإيمانِ إلى أن يَصِلوا إلى شَرَفِ الإيقانِ فلا يُخالِطَهم شَكٌّ في وَحدانيَّتِه[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لَمَّا كانت مَنافِعُ السَّماءِ غيرَ مُنحَصِرةٍ في الماءِ قال: ﴿مِن رِّزْقٍ﴾، أي: مَطَرٍ وغَيرِه مِن الأسبابِ المُهَيِّئةِ لإخراجِ الرِّزقِ[٥]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٦٦).

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ لَمَّا كان الماءُ بما يَحدُثُ عنه مِن الإنباتِ أوضَحَ دَلالةً مِن بقيَّةِ الآياتِ على البَعثِ، ومِن أجْلِ شِدَّةِ ظُهورِها ناط الأمرَ فيها بالعَقلِ فقال: ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾[1].

٨- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ۞ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۞ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ فيه سِتَّةُ براهينَ مِن براهينِ التَّوحيدِ الدَّالَّةِ على عَظَمتِه تعالى وجَلالِه، وكَمالِ قُدرتِه، وأنَّه المُستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه.

الأوَّلُ منها: خَلْقُه السَّمَواتِ والأرضَ. الثَّاني: خَلْقُه النَّاسَ. الثَّالِثُ: خَلْقُه الدَّوابَّ. الرَّابعُ: اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ. الخامِسُ: إنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ، وإحياءُ الأرضِ به. السَّادِسُ: تَصريفُ الرِّياحِ.

وهذه البَراهينُ العَظيمةُ ثَلاثةٌ منها مِن براهينِ البَعثِ الَّتي يَكثُرُ في القُرآنِ العَظيمِ الاستِدلالُ بها على البَعثِ كَثرةً مُستَفيضةً.

والأوَّلُ مِن البراهينِ المذكورةِ: هو خَلقُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ لأنَّ خَلْقَه جَلَّ وعلا للسَّمَواتِ والأرضِ: مِن أعظَمِ البَراهينِ على بَعثِ النَّاسِ بعدَ الموتِ؛ لأنَّ مَن خَلَق الأعظَمَ الأكبَرَ لا شَكَّ في قُدرتِه على خَلْقِ الأضعَفِ الأصغَرِ.

وأمَّا الثَّاني مِنَ البَراهينِ المذكورةِ: فهو خَلْقُه تعالى للنَّاسِ المرَّةَ الأُولى؛ لأنَّ مَنِ ابتَدَع خَلْقَهم على غَيرِ مِثالٍ سابِقٍ: لا شَكَّ في قُدرتِه على إعادةِ خَلْقِهم مرَّةً أُخرى، كما لا يَخفَى.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٧).

وأمَّا البُرهانُ الثَّالِثُ منها -وهو إحياءُ الأرضِ بعدَ مَوتِها-: فإنَّه يَكثُرُ الاستِدلالُ به أيضًا على البَعثِ في القُرآنِ العَظيمِ؛ لأنَّ مَن أحيا الأرضَ بعدَ مَوتِها قادِرٌ على إحياءِ النَّاسِ بعدَ مَوتِهم؛ لأنَّ الجَميعَ إحياءٌ بعدَ مَوتٍ(١).

٩- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ...﴾ هذا الكلامُ وإنْ كان مُوجَّهًا إلى قَومٍ لا يُنكِرون وُجودَ الإلهِ، وإنَّما يَزعُمون له شُركاءَ، وكان مَقصودًا منه ابتداءً إثباتُ الوَحدانيَّةِ؛ فهو أيضًا صالِحٌ لِإقامةِ الحُجَّةِ على المُعطِّلينَ الَّذين يَنفُون وُجودَ الصَّانعِ المُختارِ، وفي العرَبِ فَريقٌ منهم؛ فإنَّ أحوالَ السَّمواتِ كلَّها مُتغيِّرةٌ، والتَّغيُّرُ دَليلُ الحُدوثِ، وهو الحاجةُ إلى الفاعِلِ المُختارِ الَّذي يُوجِدُها بعْدَ العدَمِ ثمَّ يُعدِمُها(٢).

١٠- سُمِّيَت آياتُ القُرآنِ آياتٍ، وقيل: إنَّها آياتُ اللهِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢]؛ لأنَّها عَلاماتٌ ودَلالاتٌ على اللهِ، وعلى ما أراد؛ فهي تدُلُّ على ما أخبَر به، وعلى ما أمَر به ونهَى عنه، وتدُلُّ أيضًا على أنَّ الرَّسولَ صادِقٌ؛ إذ كانت مِمَّا لا يَستطيعُ الإنسُ والجِنُّ أن يأتوا بمِثْلِها، وقد تحَدَّاهم بذلك(٣).

١١- مِن أحسَنِ اللَّازِمِ وأبْيَنِه أنْ تُبيِّنَ للسَّامِعِ الحَقَّ، ثمَّ تقولَ له: أَيْشٍ تقولُ خِلافَ هذا؟ وأين تَذهَبُ خِلافَ هذا؟ قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]؛ فالأمرُ مُنحَصِرٌ في الحَقِّ والباطِلِ، والهُدى والضَّلالِ؛ فإذا عدَلْتم عن الهُدى والحَقِّ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٦٧١).

فأينَ العُدولُ وأين المَذهَبُ[١]؟!

١٢- مَن لم يَهتَدِ بما جاءت به الأنبياءُ فهو أبعدُ النَّاسِ عن الهُدى؛ قال الله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ * وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢] [آل عمران: ١٠١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ﴾ افتُتِحتِ السُّورةُ بالحَرفَيْنِ المُقَطَّعَيْنِ مِن حُروفِ الهِجاءِ؛ لأنَّ أوَّلَ أغراضِها أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ ففي حَرفَي الهِجاءِ رَمزٌ إلى عَجزِهم عن مُعارَضَتِه بعْدَ أنْ تَحَدَّاهم؛ لذلك لم يَفعَلوا، وفي ذلك الافتِتاحِ تَشويقٌ إلى تَطَلُّعِ ما يأتي بعْدَه؛ لِلاهتِمامِ به[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

- قولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو جُملةٌ مُركَّبةٌ مِن مُبتدأٍ وخبَرٍ، والكتابُ هو المَعهودُ، وهو ما نَزَل مِن القُرآنِ إلى تلك السَّاعةِ، والمقصودُ: إثباتُ أنَّ القرآنَ مُوحًى به مِن اللهِ تعالى إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُجعَلَ القُرآنُ مُسنَدًا إليه،

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٩٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٤) و(٢٥/ ٣٢٤).

ويُخبَرَ عنه فيُقالَ: القُرآنُ مُنزَّلٌ مِن اللهِ العزيزِ الحَكيمِ؛ لأنَّ كَونَه مُنزَّلًا مِن اللهِ هو مَحَلُّ الجِدالِ، فيَقْتضي أنْ يكونَ هو الخبَرَ، ولو أذْعَنوا لِكَونِه تَنزيلًا لَمَا كان منهم نِزاعٌ في أنَّ تَنزيلَه مِن اللهِ، ولكنْ خُولِفَ مُقْتضى الظَّاهرِ لِغَرضَينِ:

أحدُهما: التَّشويقُ إلى تَلقِّي الخبَرِ؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا الابتداءَ بتَنزيلِ الكِتابِ، اسْتَشْرفوا إلى ما سيُخبَرُ عنه؛ فأمَّا الكافِرونَ فيَترقَّبون أنَّه سيُلْقَى إليهم وَصْفٌ جَديدٌ لِأحْوالِ تَنزيلِ الكتابِ، فيَتهيَّؤون لِخَوضٍ جَديدٍ مِن جِدالِهم وعِنادِهم، والمُؤمِنون يَترقَّبون لِما يَزِيدُهم يَقينًا بهذا التَّنزيلِ.

والغرَضُ الثَّاني: أنْ يُدَّعى أنَّ كَونَ القُرآنِ تَنزيلًا أمْرٌ لا يُختلَفُ فيه؛ فالَّذين خالَفوا فيه كأنَّهم خالَفوا في كَونِه مُنزَّلًا مِن عِندِ اللهِ، وهل يَكونُ التَّنزيلُ إلَّا مِن عِندِ اللهِ؟ فيَؤولُ إلى تأْكيدِ الإخبارِ بأنَّه مُنزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ إذ لا فرْقَ بيْن مَدلولِ كَونِه تَنْزيلًا وكَونِه مِن عِندِ اللهِ إلَّا باختلافِ مَفهومِ المَعنيَينِ دُونَ ماصَدَقَيْهما[1].

- وقيل: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو خَبرٌ بعدَ خبرٍ على أنَّه مصدرٌ أُطلِقَ على المفعولِ مُبالَغةً[2]. وهذا على الوجهِ بأنَّ ﴿حمٓ﴾ خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ.

- قولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ في إضافةِ التَّنزيلِ إليه في هذا الموضِعِ وَجهانِ:

**أحَدُهما**: الافتِتاحُ بأنَّه كِتابٌ منه، كما يَفتَتِحُ الكاتِبُ كِتابَه به.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥).

و(الماصَدَق): اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٧).

**الثَّاني**: أنَّه أضافَه إليه تَعظيمًا لِقَدْرِه، وتَضخيمًا لِشَأنِه عليه في الابتداءِ بإضافتِه إليه[١].

- وإيثارُ وَصْفَي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ بالذِّكرِ هنا دونَ غَيرِهما مِن الأسماءِ الحُسْنى؛ لإشعارِ وَصْفِ العَزيزِ بأنَّ ما نزَلَ منه مُناسِبٌ لِعِزَّتِه؛ فهو كِتابٌ عَزيزٌ، أي: هو غالِبٌ لِمُعانِديه؛ وذلك لأنَّه أعجَزَهم عن مُعارَضتِه، ولإشعارِ وَصْفِ الحَكيمِ بأنَّ ما نزَلَ مِن عِندِه مُناسِبٌ لِحِكمَتِه؛ فهو مُشتمِلٌ على دَلائلِ اليَقينِ والحقيقةِ، ففي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ إعْجازَه مِن جانِبِ بَلاغتِه؛ إذ غلَبَتْ بَلاغةَ بُلغائِهم، ومِن جانِبِ مَعانيه؛ إذ أعْجَزَت حِكمتُه حِكمةَ الحُكماءِ[٢].

- وهذا الابتِداءُ بالتَّحدِّي بإعجازِ القُرآنِ، وأنَّه جاء بالحقِّ: تَوطئةٌ لِمَا سَيُذكَرُ بأنَّه حقٌّ، كما اقتضاهُ قولُه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾[٣] [الجاثية: ٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّنبيهِ على الآياتِ التَّكوينيَّةِ الآفاقيَّةِ والأنْفُسيَّةِ[٤].

- وقولُه: ﴿إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ واقعٌ مَوقِعَ تَفصيلِ المُجمَلِ لِمَا جَمَعَتْه جُملةُ ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ٢]؛ باعتبارِ أنَّ آياتِ السَّمواتِ والأرْضِ وما عُطِفَ عليها إنَّما كانتْ آياتٍ للمُؤمِنينَ المُوقِنينَ، ولِلَّذِين حصَلَ لهم العِلمُ بسَببِ ما ذكَّرَهم به القُرآنُ، وممَّا يُؤيِّدُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٧).

ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾[١] [الجاثية: ٦].

- وأُكِّدَ الكلامُ بحَرْفِ (إنَّ) وإنْ كان المُخاطَبون غيرَ مُنكِريه؛ لِتَنزيلِهم مَنزِلةَ المُنكِرِ لذلك بسَببِ عَدَمِ انتِفاعِهم بما في هذه الكائِناتِ مِن دَلالةٍ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالَى؛ وإلَّا فقدْ قال اللهُ تعالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾[٢] [الزُّخرف: ٩].

- قولُه: ﴿لَّأٓيَٰتٖ﴾ لمْ يَأْتِ بالآياتِ مُفصَّلةً، بلْ أتَى بها مُجمَلةً؛ إحالةً على غَوامضَ يُثيرُها الفِكْرُ، ويُخبِرُ بكَثيرٍ منها الشَّرْعُ[٣].

- والمُرادُ بكَونِ الآياتِ في السَّمواتِ والأرْضِ أنَّ ذاتَ السَّمواتِ والأرضِ وعِدادَ صِفاتِها دَلائلُ على الوَحدانيَّةِ؛ فجُعِلَت السَّمواتُ والأرضُ بمَنزلةِ الظَّرْفِ لِمَا أُودِعَتْه مِن الآياتِ؛ لأنَّها مُلازِمةٌ لها بأدْنى نَظَرٍ. وجُعِلَت الآياتُ للمُؤمِنينَ؛ لأنَّهم الَّذين انْتَفَعوا بدَلالتِها، وعَلِموا منها أنَّ مُوجِدَها ومُقدِّرَ نِظامِها واحدٌ لا شَريكَ له[٤]، ولأنَّ في ضِمْنِ الإيمانِ العَقْلَ والتَّصديقَ[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣] عطْفَ خاصٍّ على عامٍّ؛ لِمَا في هذا الخاصِّ مِن التَّذكيرِ بنِعمةِ إيجادِ النَّوعِ؛ استِدْعاءً للشُّكرِ عليه[٦].

- قولُه: ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ... ﴾ البَثُّ: التَّوزيعُ والإكثارُ، وهو يَقْتضي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧).

الخلْقَ والإيجادَ؛ فكأنَّه قيلَ: وفي خَلْقِ اللهِ ما يَبُثُّ مِن دابَّةٍ. وعُبِّرَ بالمُضارِعِ في ﴿يَبُثُّ﴾؛ لِيُفِيدَ تَجدُّدَ البَثِّ وتَكرُّرَه باعتِبارِ اختلافِ أجناسِ الدَّوابِّ وأنْواعِها وأصْنافِها(١).

- والخِطابُ مُوجَّهٌ إلى المُشرِكينَ؛ ولذلك قال: ﴿لَّآيَٰتٍ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وقال: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾، دُونَ أنْ يُقالَ: لَآياتٍ لكمْ أو آياتٍ لكمْ، أي: هي آياتٌ لِمَن يَعلمونَ دَلالتَها مِن المُؤمِنينَ ومِن الَّذين يُوقِنون؛ إشارةً إلى أنَّ تلك الآياتِ لا أثَرَ لها في نُفوسِ مَن همْ بخِلافِ ذلك(٢).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ ﴿مِن رِّزۡقٖ﴾، أي: مِن مَطَرٍ، وهو سبَبٌ للرِّزْقِ؛ عُبِّرَ عنهُ بذلكَ تَنبيهًا على كَونِه آيةً مِن جِهتَيِ القُدرةِ والرَّحْمةِ(٣).

- وأُخِّرَ قولُه: ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ عن إنْزالِ المطَرِ مع تَقدُّمِه عليهِ في الوُجودِ؛ إمَّا لِلْإيذانِ بأنَّه آيَةٌ مُستقِلَّةٌ، حيثُ لو رُوعيَ التَّرتيبُ الوُجوديُّ لَرُبَّما تُوهِّمَ أنَّ مَجموعَ تَصْريفِ الرِّياحِ وإنْزالِ المطَرِ آيةٌ واحِدةٌ. وإمَّا لأنَّ كَونَ التَّصريفِ آيةً ليس لِمُجَرَّدِ كَونِه مَبدأً لإنشاءِ المَطرِ، بلْ له ولِسائرِ المَنافِعِ الَّتي مِن جُمْلتِها سَوْقُ السُّفنِ في البِحارِ(٤).

- وتَنكيرُ (آيَاتٍ) في المواقعِ الثَّلاثةِ [الجاثية: ٣، ٤، ٥]؛ للتَّفخيمِ كمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وكَيفًا[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ذُكِرَ في آيةِ (البَقَرةِ) ثَمانيةُ دَلائلَ تَدْعو للإيمانِ، في قولِه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وذُكِرَ هاهنا سِتَّةُ أنواعٍ فقط، ولم يُذكَرِ الفُلْكُ والسَّحابُ: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣-٥]؛ والسَّببُ في ذلك: أنَّ مَدارَ الحَرَكةِ للفُلْكِ والسَّحابِ على الرِّياحِ المُختلِفةِ، فذِكْرُ الرِّياحِ -الَّذي هو كالسَّببِ- يُغْني عن ذِكْرِهما[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ اختلَفتِ الفواصلُ الثَّلاثُ لِاخْتلافِ الآياتِ في الدِّقَّةِ والظُّهورِ والجَلاءِ؛ فختَمَ الآيةَ الأُولى بقولِه: ﴿لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، والثَّانيةَ بقولِه: ﴿يُوقِنُونَ﴾، والثَّالثةَ بقولِه: ﴿يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّه تعالى لَمَّا ذكَرَ العالَمَ ضِمْنًا -ولا بُدَّ له مِن صانعٍ مَوصوفٍ بصِفاتِ الكَمالِ، ومِن الإيمانِ بالصَّانعِ-؛ ناسَبَ خَتْمُ الأُولى بالمُؤمِنينَ، فكأنَّه قِيل لهمْ: إنْ كُنْتُم مِن المُؤمِنينَ فافْهَموا هذه الدَّلائلَ. ولَمَّا كان الإنسانُ أقرَبَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٤).

إلى الفَهْمِ مِن غَيرِه، وكان فِكْرُه في خَلْقِه وخلْقِ الدَّوابِّ ممَّا يَزيدُه يَقينًا في إيمانِه؛ ناسَبَ خَتْمُ الثَّانيةِ بقَولِه: ﴿يُوقِنُونَ﴾، أي: وإنْ كُنتم لَسْتُم مِن المُؤمِنينَ، بلْ أنتُم مِن طُلَّابِ الجَزْمِ واليَقينِ، فافْهَموا تلك الدَّلائلَ. ولَمَّا كان جُزئياتُ العالَمِ -مِنِ اخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ وما ذكَرَه مَعَهما- ممَّا لا يُدرَكُ إلَّا بالعقلِ؛ ناسَبَ ختْمُ الثَّالثةِ بقَولِه: ﴿يَعْقِلُونَ﴾، كأنَّه قال: وإنْ كُنتُم لَسْتُم مِن هؤلاءِ ولا مِن هؤلاءِ، فلا أقلَّ مِن أنْ تَكونوا مِن زُمْرةِ العاقلينَ؛ فاجْتَهِدوا في مَعرفةِ الدَّلائلِ، وهذا مِن بابِ التَّنزُّلِ[1].

وقيل: المعنى: أنَّ المُنصِفينَ لَمَّا نَظَروا في السَّمَواتِ والأرضِ؛ وأنَّه لا بُدَّ لهما مِن صانِعٍ؛ آمَنوا، فإذا نَظَروا في خَلقِ أنفُسِهم ونَحوِها ازدادوا إيمانًا فأيْقَنوا، فإذا نَظَروا في سائِرِ الحَوادِثِ عَقَلوا واستحكَمَ عِلمُهم[2]، فهو تَرَقٍّ مِن حالٍ شَريفٍ إلى ما هو أشرَفُ منه وأعلى[3].

- وقيل: المُرادُ بـ(المُؤمِنينَ)، وبـ(قَوْمٍ يُوقِنُونَ)، وبـ(قَوْمٍ يَعْقِلُونَ) واحدٌ، وهمُ المُؤمِنونَ بتَوحيدِ اللهِ؛ فحَصَلَ لهم اليقينُ وكانوا يَعقِلون، أي: يَعلَمون دَلالةَ الآياتِ، والمَعنى: أنَّ المؤمنينَ والَّذين يُوقِنون -أي يَعلَمون ولا يُكابِرون- والَّذين يَعقِلون دَلالةَ الآثارِ على المُؤثِّرِ، ونَظَروا النَّظَرَ الصَّحيحَ في شَواهدِ السَّمواتِ والأرضِ، فعَلِموا أنْ لا بُدَّ لها مِن صانعٍ، وأنَّه واحِدٌ، فأيْقَنَ بذلك العاقِلُ منهم الَّذي كان مُتَرَدِّدًا، وازدادَ إيمانًا مَن كان مُؤمِنًا فصارَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٤).

مُوقِنًا؛ فالمعنى: أنَّ الَّذين انتَفَعوا بالآياتِ همُ المُؤمِنونَ العاقِلونَ، فوُزِّعَتْ هذه الأوصافُ على فَواصلِ هذه الآيِ؛ لأنَّ ذلك أوقَعُ في نَفْسِ السَّامعِ مِن إتْلاءِ بَعضِها لِبَعضٍ، وقُدِّمَ المُتَّصِفونَ بالإيمانِ؛ لِشَرَفِه، وجُعِلَ خلْقُ النَّاسِ والدَّوابِّ آيةً للمَوصوفينَ بالإيقانِ؛ لأنَّ دَلالةَ الخلْقِ كائنةٌ في نفْسِ الإنسانِ وما يُحِيطُ به مِن الدَّوابِّ، وجُعِلَ اخْتِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، واختِلافُ حَوادثِ الجوِّ آيةً لِلَّذِين اتَّصَفوا بالعقْلِ؛ لأنَّ دَلالتَها على الوَحدانيَّةِ بِواسِطةِ لَوازِمَ مُترَتِّبةٍ بإدراكِ العَقلِ، وقدْ أومَأَ ذِكرُ هذه الصِّفاتِ إلى أنَّ الَّذين لم يَهْتَدُوا بهذه الآياتِ لَيسوا مِن أصحابِ هذه الصِّفاتِ؛ ولذلك أعْقَبَه بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦] اسْتِفهامًا إنْكاريًّا بمَعنى النَّفيِ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ وبَيانُها بآياتِ اللهِ إشارةً إلى الآياتِ المذكورةِ في قولِه: ﴿لَّءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، وقولِه: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]، وقولِه: ﴿ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥]. وإضافتُها إلى اسمِ الجَلالةِ؛ لأنَّ خَلْقَها على تلك الصِّفاتِ الَّتي كانتْ لها آياتٌ للمُستبصِرينَ. ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى حاضرٍ في الذِّهنِ غيرِ مَذكورٍ؛ لِما دلَّ عليه قولُه: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الجاثية: ٢]، أي: تلك آياتُ اللهِ المُنزَّلةُ في القُرآنِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٧٨-١١٨٢)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٤١، ٤٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٢/ ٢٣٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٩، ٣٣٠).

- وفي الإبهامِ في اسْمِ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ -وتَفسيرِه بـ ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾-، وقُرْبِ المُشارِ إليه وهو (أي اسمُ الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾) مَوضوعٌ للبَعيدِ، وتَخصيصِ اسمِ (الله) الجامِعِ، وتَكريرِه، وإيثارِ صِيغةِ الجمْعِ ﴿نَتْلُوهَا﴾ للتَّعظيمِ: خطْبٌ خَطيرٌ، وشأْنٌ جَليلٌ في الاستِبعادِ[1].

- قولُه: ﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أسنَدَ جلَّ وعلا تِلاوتَها إلى نفْسِه؛ لأنَّها كلامُه الَّذي أنْزَلَه على رسولِه بواسِطةِ المَلَكِ، وأمَرَ المَلَكَ أنْ يَتلوَه عليه مُبلِّغًا عنه جلَّ وعلَا[2].

- قولُه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: بعْدَ آياتِ اللهِ. وتَقديمُ الاسمِ الجَليلِ (الله)؛ للمُبالَغةِ والتَّعظيمِ، كما في قَولِك: أعْجَبني زيدٌ وكرَمُه[3]، أو أنَّ إضافةَ (بعْدَ) إلى اسمِ الجَلالةِ على تَقديرِ مُضافٍ دلَّ عليه ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ﴾، والتَّقديرُ: بعْدَ حَديثِ اللهِ، وهو كِتابُه وقُرآنُه، أي: بعْدَ سَماعِه[4]، يعني: أنَّ القُرآنَ مِن بيْنِ الكُتُبِ المُنزَّلةِ آيةٌ مُبصِرةٌ، ومُعجِزةٌ باهرةٌ؛ فحِينَ لمْ يُؤمِنوا به فبأيِّ كِتابٍ بعْدَه يُؤمِنون؟! ويَعضُدُ هذا التَّأويلَ عطْفُ ﴿وَءَايَٰتِهِۦ﴾ على ﴿ٱللَّهِ﴾، أي: بعْدَ كِتابِ اللهِ وآياتِه الباهرةِ وبَراهينِه السَّاطِعةِ، وهو مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، وكذا تَرتُّبُ الفاءِ في ﴿فَبِأَيِّ﴾ على ما قبْلَه؛ فعلَى هذا: المُناسِبُ في الوجْهِ الأوَّلِ -وهو أنْ يُرادَ بقَولِه: ﴿بَعْدَ ٱللَّهِ﴾: بعْدَ آياتِ اللهِ- أنْ يكونَ المُشارُ إليه بقولِه: ﴿تِلْكَ﴾: الآياتِ المُتقدِّمةَ، وفي الوجْهِ الثَّاني: الآياتِ التَّاليةَ، على نحْوِ: هذا أخوكَ. وهذا

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٠).

أجمَعُ؛ لأنَّه يَضُمُّ الدَّلائلَ المَنْصوبةَ مِن الآفاقيَّةِ والأنْفُسيَّةِ مع النُّصوصِ القاهرةِ، وحصَلَ منه التَّرقِّي مِن الأدْنَى إلى الأعْلَى في البَيانِ والكشْفِ، وتَبيَّنَ أنَّ بَياناتِ النُّصوصِ هي الَّتي تُزِيلُ مِن ألْبابِ أربابِ العُقولِ الشُّكوكَ، وتُجْلِي الرِّيَبَ[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّأْييسِ والتَّعجيبِ[٢]. وفيه تَقريعٌ وتَوبيخٌ وتَهديدٌ[٣].

- وعلى قراءةِ ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ -بالتَّاءِ الفوقيَّةِ[٤]- فهو الْتِفاتٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٥).

(٤) قال ابن الجزري: (قرَأ المَدَنيَّانِ وابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو ورَوحٌ وحفصٌ بالغَيبِ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وقرأ الباقون بالخِطاب: [﴿تُؤْمِنُونَ﴾]). ((النشر في القراءات العشر)) (٢/ ٣٧١). ويُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

## الآيات (٧-١١)

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَيْلٌ﴾: الوَيلُ: كلمةُ دُعاءٍ بالهلاكِ والعذابِ، وتُستعمَلُ أيضًا في التَّحسُّرِ، وقيل: هي وادٍ في جهنَّمَ، أو ما يَسيلُ مِن صديدٍ في أصلِ جهنَّمَ، وأصْلُ الوَيلِ: الشَّرُّ وحُلولُه(١).

﴿أَفَّاكٍ﴾: أي: كذَّابٍ فاجِرٍ، والأفَّاكُ: كثيرُ الإفْكِ، وهو أسوأُ الكذبِ، وقيل: الإفكُ: صَرْفُ الشَّيءِ عمَّا يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه(٢).

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: كثيرِ الإثمِ، مُتجاوِزٍ في الظُّلمِ، وقيل: هو مرتكبُ الإثمِ بقلبِه وجوارحِه، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، ومنه اشتُقَّ الإثمُ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه(٣).

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٦٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (١/ ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، =

﴿هُزُوًا﴾: الهزوُ: الاستِخْفافُ، والسُّخريةُ. يُقالُ: هَزِئ به واستَهْزَأ، أي: استخفَّ به، وسَخِر منه[١].

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: الأولياءُ: المعبوداتُ الَّتي يُوالونَها بالعبادةِ مِن دونِ الله، وأصْل (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ؛ سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[٢].

﴿رِّجْزٍ﴾: الرِّجزُ: سوءُ العذابِ وأليمُه، وأصلُ (رجز): يدُلُّ على الاضطِرابِ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى أحوالَ المشركينَ معَ القرآنِ، ويُبيِّنُ مصيرَهم في الآخرةِ ويَتوعَّدُهم، فيقولُ: وَيْلٌ لكُلِّ كافرٍ كذَّابٍ مُفترٍ أثيمٍ، يَسمَعُ آياتِ اللهِ تُقرَأُ عليه، ثمَّ يُصِرُّ على كُفرِه مُستَكبِرًا كأنَّه لم يَسمَعْها! فبَشِّرْه -يا محمَّدُ- بعَذابٍ شَديدِ الإيلامِ.

وإذا عَرَف هذا الكذَّابُ الأثيمُ شَيئًا مِن آياتِ القُرآنِ استَهزأَ بها وسَخِرَ منها! فلِأُولَئكَ عَذابٌ يُهينُهم، مِن ورائِهم نارُ جَهنَّمَ هي مَصيرُهم في الآخِرةِ، ولا يَدفَعُ عنهم ما كَسَبوه في الدُّنيا شيئًا مِن عذابِ اللهِ تعالى، ولا تَدفَعُ عنهم آلهتُهم

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠، ٣٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٤/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٢١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٦).

الَّتي عَبَدوها مِن دونِ اللهِ شيئًا مِن عذابِ اللهِ تعالى، ولهم عَذابٌ عَظيمٌ.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى أنَّ هذا القُرآنَ هُدًى للنَّاسِ، وأنَّ الَّذين كَفَروا بآياتِ القُرآنِ لهم عَذابٌ مِن رِجْزٍ شَديدُ الإيلامِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّنَ الآياتِ للكُفَّارِ، وبَيَّنَ أنَّهم بأيِّ حَديثٍ يُؤمِنونَ إذا لم يُؤمِنوا بها مع ظُهورِها؛ أتْبَعَه بوَعيدٍ عَظيمٍ لهم، فقال[1]:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ لكُلِّ كافرٍ كذَّابٍ مُفتَرٍ، مُبالِغٍ في اقتِرافِ الآثامِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

قيل: ﴿وَيْلٌ﴾ وادٍ في جهنَّمَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦).

قال الراغب: (ومَن قال: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ وَيْلًا في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مَقَرًّا من النَّارِ، وثَبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (الوَيلُ في كلامِ العَرَبِ: المصائِبُ والحُزنُ والشِّدَّةُ مِن هذه المعاني، وهي لفظةٌ تُستعمَلُ في الدُّعاءِ على الإنسانِ...، ومقتضى اللُّغةِ أنَّه الدُّعاءُ على أهلِ الإفكِ والإثمِ بالمعاني المتقَدِّمةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ أنَّ لفظةَ ﴿وَيْلٌ﴾ كلمةُ عَذابٍ وهلاكٍ، وأنَّها مَصدرٌ لا فِعلَ له مِن =

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾.

أي: يَسمَعُ آياتِ القُرآنِ تُقرَأُ عليه، ثمَّ يُصِرُّ على كُفرِه وإثمِه مُستَكبِرًا عن الإيمانِ بها وقَبولِها واتِّباعِها، كأنَّه لم يَسمَعْها أصلًا[1]!

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: فبَشِّرْ -يا محمَّدُ- هذا الأفَّاكَ الأثيمَ المُعرِضَ عن آياتِ اللهِ، المُصِرَّ على كُفرِه وباطِلِه: بعَذابٍ مُوجِعٍ شَديدِ الإيلامِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى كُفرَ المُشرِكِ بما يَسمَعُ مِن الآياتِ؛ أتْبَعَه ما هو أعَمُّ منه، فقال[3]:

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾.

---

= لَفظِه، وأنَّ المسَوِّغَ للابتِداءِ بها -مع أنَّها نَكِرةٌ- كَونُها في مَعرِضِ الدُّعاءِ عليهم بالهَلاكِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧١).

أي: وإذا عَرَف شَيئًا -ولو قليلًا- مِن آياتِ القُرآنِ، استَهزأَ بها، وسَخِرَ منها[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

أي: أولئك لهم عَذابٌ يُخزيهم ويُذِلُّهم ويُهينُهم[٢].

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠﴾.

﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾.

أي: لهم نارُ جَهنَّمَ يَصيرونَ إليها في الآخِرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩١، ١٩٢).

قيل: معنى ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ﴾: مِن أمامِهم. وممَّن ذهب لهذا: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وأبو حيان، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢١٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩١، ١٩٢).

قال أبو السعود: (﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي: مِن قُدَّامِهم؛ لأنَّهم مُتوجِّهونَ إلى ما أُعِدَّ لهم، أو مِن خَلفِهم؛ لأنَّهم مُعرِضونَ عن ذلكَ مُقبِلونَ على الدُّنيا؛ فإنَّ الوراءَ اسمٌ للجِهةِ الَّتي يُواريها الشَّخصُ من خَلْفٍ وقُدَّامٍ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩).

قال ابن عطيَّة: (قَولُه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُ﴾ قال فيه بعضُ المفَسِّرينَ: معناه: مِن أمامِهم، ... ولَحَظَ قائِلُ هذه المقالةِ الأمرَ مِن حيثُ تأوَّلَ أنَّ الإنسانَ كأنَّه مِن عُمُرِه يَسيرُ إلى جنَّةٍ أو نارٍ، فهما أمامَه، وليس لَفظُ الوَراءِ في اللُّغةِ كذلك، وإنَّما هو ما يأتي خَلْفَ الإنسانِ، وإذا اعتُبِرَ =

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا﴾.

أي: ولا يَدفَعُ عن الكُفَّارِ عذابَ جَهنَّمَ أيُّ شَيءٍ -ولو قليلًا- ممَّا كَسَبوه في الدُّنيا مِن الأموالِ أو الأولادِ(١)!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ

---

= الأمرُ بالتَّقَدُّمِ أو التَّأخُّرِ في الوُجودِ على أنَّ الزَّمانَ كالطَّريقِ للأشياءِ، استقام الأمرُ؛ فما يأتي بعدَ الشَّيءِ في الزَّمانِ فهو وراءَه، فكأنَّ ... جَهنَّمَ وإحراقَها للكَفَرةِ يأتي بعدَ كُفرِهم وأفعالِهم، وهذا كما تقولُ: افعَلْ كذا وأنا مِن ورائِك عَضُدًا، وكما تقولُ ذلك على التَّهديدِ: أنا مِن وراءِ التقَصِّي عليك، ونحوَ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١).

وقال ابنُ القَيِّم: (وهذا المذهَبُ ضَعيفٌ، ووَراءٌ: لا يكونُ أمامًا، كما لا يكونُ أمامٌ وراءً إلَّا بالنِّسبةِ إلى شَيئَينِ، فيكونُ أمامُ الشَّيءِ وراءً لِغَيرِه، ووراءُ الشَّيءِ أمامًا لِغَيرِه؛ فهذا الَّذي يُعقَلُ فيها، وأمَّا أن يكونَ وراءُ زَيدٍ بمعنى أمامَه فكَلَّا. وأمَّا ما استدَلُّوا به فلا حُجَّةَ فيه؛ فأمَّا قَولُه تعالى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] فالمعنى أنَّه مُلاقٍ جَهنَّمَ بعدَ مَوتِه، فهي مِن بَعْدِه، أي: بَعدَ مُفارَقتِه الدُّنيا، فهي لَمَّا كانت بعدَ حياتِه كانت وراءَه؛ لأنَّ وراء كبَعْد، فكما لا يكونُ بعدُ قَبْلًا فلا يكونُ وراءٌ أمامًا، وأنت لو قُلتَ: جَهنَّمُ بعدَ مَوتِ الكافِرِ لم يكُنْ فيها معنى قَبْلَ بوَجهٍ؛ فوراءٌ هاهنا زمانٌ لا مكانٌ؛ فتَأمَّلْه رَحِمَك اللهُ تعالى؛ فهي خَلفَ زَمانِ حَياتِه وبَعْدَه، وهي أمامَه ومُستَقبِلَتُه؛ فكَونُها خَلْفًا وأمامًا باعتبارَينِ، وإنَّما وقع الاشتِباهُ؛ لأنَّ بَعديَّةَ الزَّمانِ إنَّما تكونُ فيما يُستقبَلُ أمامَك، كقَولِك: بعدَ غَدٍ، ووراءيَّةَ المكانِ فيما تُخَلِّفُ وراءَ ظَهرِك، فـ ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦] ورائيَّةُ زَمانٍ لا مكانٍ، وهي إنَّما تكونُ في المُستقبَلِ الَّذي هو أمامَك، فلمَّا كان معنى الأمامِ لازِمًا لها ظَنَّ مَن ظَنَّ أنَّها مُشتَرِكةٌ، ولا اشتِراكَ فيها، وكذلك قَولُه: ﴿وَمِن وَرَآئِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وكذلك: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦]). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ١٩٥، ١٩٦).

وقال ابن عاشور: (مَنْ فَسَّر وَراءَ بقُدَّامٍ، فما رَعى حَقَّ الكلامِ). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣، ٣٣٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٢، ١٩٣).

شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ١٠].

﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ﴾.

أي: ولا يَدفَعُ عنهم آلهتُهم الَّتي عَبَدوها في الدُّنيا مِن دونِ اللهِ، أو رُؤساؤُهم الَّذين أطاعوهم في الكُفرِ باللهِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [هود: ١٠١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ۞ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

أي: ولهم عَذابٌ كبيرٌ شَديدٌ[2].

﴿هَٰذَا هُدٗىۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ١١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى آياتِه القُرآنيَّةَ والعِيانيَّةَ، وأنَّ النَّاسَ فيها على قِسمَينِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٢، ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٩).

أخبَرَ عن القُرآنِ المُشتَمِلِ على هذه المطالِبِ العاليةِ أنَّه هُدًى[١].

﴿ هَٰذَا هُدًى ﴾.

أي: هذا القُرآنُ هُدًى يُبَيِّنُ الحَقَّ مِن الباطِلِ، ويَدُلُّ مَنِ اتَّبَعه إلى الصِّراطِ المُستَقيمِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

في قَولِه تعالى: ﴿أَلِيمٌ ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿أَلِيمٌ ﴾ بالرَّفعِ وصْفًا للعذابِ، أي: عذابٌ أليمٌ مِن رِجزٍ[٣].

٢- قِراءةُ ﴿أَلِيمٍ﴾ بالجَرِّ وصفًا للرِّجْزِ، أي: عذابٌ مِن رِجزٍ أليمٍ[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٤، ١٩٦).

(٣) قرأ بها ابنُ كثير، ويعقوبُ، وحفصٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٨).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٤٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٢٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٢٨٨).

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ القُرآنِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ، فلم يُؤمِنوا ويَعمَلوا بها: لهم عَذابٌ مِن جنسِ العذابِ المُوجِعِ شَديدِ الإيلامِ[1]!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فتَوعَّدَ الله تعالى مَن تَرَكَ الاستِدلالَ بآياتِه[2]، وذَمَّ الَّذين يُعرِضونَ عن سَماعِ القُرآنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٩، ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥).

قيل: الرِّجزُ هو أشَدُّ العذابِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، وابنُ عطية، والرازي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥).

قال الشنقيطي: (وقَولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ أصحُّ القَولَينِ فيه أنَّ المرادَ بالرِّجزِ: العَذابُ، ولا تَكرارَ في الآيةِ؛ لأنَّ العذابَ أنواعٌ مُتفاوِتةٌ، والمعنى: لهم عَذابٌ مِن جِنسِ العَذابِ الأليمِ، والأليمُ معناه المُؤلِمُ. أي: الموصوفُ بشِدَّةِ الألمِ وفَظاعتِه). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٦).

وقيل: المرادُ بالرِّجزِ: الرِّجسُ الَّذي هو النَّجاسةُ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٠).

وفسَّر البِقاعي الرِّجزَ بأنَّه عِقابٌ قَذِرٌ شَديدٌ جدًّا، عظيمُ القَلقَلةِ والاضطرابِ، مُتتابِعُ الحَرَكاتِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٨/ ٧٤).

قال الرازي: (وقُرِئَ ﴿أَلِيمٌ﴾ بالجَرِّ والرَّفعِ؛ أمَّا الجَرُّ فتَقديرُه: لهم عَذابٌ مِن عذابٍ أليمٍ، وإذا كان عَذابُهم مِن عذابٍ أليمٍ كان عذابُهم أليمًا، ومَن رَفَع كان المعنى: له عَذابٌ أليمٌ، ويكونُ المرادُ مِن الرِّجزِ الرِّجْسَ الَّذي هو النَّجاسةُ، ومعنى النَّجاسةِ فيه قَولُه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦]، وكأنَّ المعنى: لهم عَذابٌ مِن تَجَرُّعِ رِجسٍ أو شُرْبِ رِجسٍ، فتَكونُ ﴿مِن﴾ تَبيينًا للعَذابِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٨).

وتَدَبُّرِه إلى سَماعِ غَيرِه، كما قال اللهُ تعالى أيضًا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ * وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] [لقمان:٦، ٧].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ * يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ عُلِمَ بهذا الوَصفِ أنَّ كُلَّ مَن لم تَرُدَّه آياتُ اللهِ تعالى كان مُبالِغًا في الإثمِ والإفكِ؛ فكان له الوَيلُ[2]!

٢- لم يَجِئْ إعدادُ العذابِ المُهينِ في القُرآنِ إلَّا في حَقِّ الكُفَّارِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [الجاثية: ٩]، وقَولِه عزَّ جلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ٣٧]، وقَولِه: ﴿وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ١٠٢]، وقولِه: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [البقرة: ٩٠]، وقولِه: ﴿إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[3] [الحج: ٥٧].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية- المجموعة الثامنة)) (١/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٢).

قَولُه تعالى في هذه الآيةِ: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: لأنَّ عَذابَ الكُفَّارِ الَّذين كانوا يَستَهزِئونَ بآياتِ اللهِ لا يُرادُ به إلَّا إهانتُهم وخِزيُهم وشِدَّةُ إيلامِهم بأنواعِ العَذابِ، وليس فيه تَطهيرٌ ولا تمحيصٌ لهم، بخِلافِ عُصاةِ المُسلِمينَ؛ فإنَّهم وإن عُذِّبوا فسيَصيرون إلى الجنَّةِ بَعدَ ذلك العَذابِ؛ فليس المقصودُ بعَذابِهم مُجرَّدَ الإهانةِ، بل لِيَؤُولوا بَعدَه إلى الرَّحمةِ ودارِ الكرامةِ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أعقَبَ ذِكرَ المُؤمِنينَ المُوقِنينَ العاقِلينَ المُنتفِعينَ بدَلالةِ آياتِ اللهِ، وما يُفيدُه مَفهومُ تلك الصِّفاتِ الَّتي أُجْرِيَتْ عليهم مِن تَعريضٍ بالَّذين لَمْ يَنتَفِعوا بها؛ بصَريحِ ذِكرِ أولئك الَّذين لَمْ يُؤمِنوا ولم يَعقِلوها، كما وصَفَ لذلك قولَه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[2] [الجاثية: ٦].

- وافتُتِحَ الكَلامُ بالوَيلِ له؛ تَعجيلًا لإنْذارِه وتَهديدِه قبْلَ ذِكرِ حالِه، و(وَيلٌ له) كَلمةُ دُعاءٍ بالشَّرِّ، وأصْلُ الوَيلِ: الشَّرُّ وحُلولُه[3].

- والأثيمُ: صِفةُ مُبالَغةٍ، أو صِفةٌ مُشبَّهةٌ، وهو يدُلُّ على المُبالِغِ في اقتِرافِ الآثامِ، أي: الخَطايا[4].

- وجُعِلَت حالُ الأفَّاكِ الأثيمِ أنَّه ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾؛

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٤).

لأنَّ تلك الحالةَ -وهي حالةُ تَكرُّرِ سَماعِه آياتِ اللهِ، وتَكرُّرِ إصْرارِه مُستكبِرًا عنها- تَحمِلُه على تَكريرِ تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَكريرِ الإثْمِ؛ فلا جَرَمَ أنْ يكونَ أفَّاكًا أثيمًا، بَلْهَ ما تَلبَّسَ به مِن الشِّركِ الَّذي كلُّه كذِبٌ وإثْمٌ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ حرْفُ (ثُمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ ذلك الإصرارَ بعْدَ سَماعِ مِثلِ تلك الآياتِ أعظَمُ وأعجَبُ؛ فهو يُصِرُّ عِندَ سَماعِ آياتِ اللهِ، وليس إصْرارُه مُتأخِّرًا عن سَماعِ الآياتِ[٢].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يُصِرُّ﴾؛ لِدَلالةِ المَقامِ عليه، أي: يُصِرُّون على كُفْرِهم، كما دلَّ على ذلك قولُه: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[٣] [الجاثية: ٦].

- وفي قولِه: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ شَبَّه حالَهم في عَدَمِ انتِفاعِهم بالآياتِ بحالِهم في انتِفاءِ سَماعِ الآياتِ، أي: يَصِيرُ مِثلَ غَيرِ السَّامعِ، وهذا التَّشبيهُ كِنايةٌ عن وُضوحِ دَلالةِ آياتِ القُرآنِ بحيثُ إنَّ مَن يَسمَعُها يُقِرُّ ويؤْمِنُ بما دلَّتْ عليه، فلَولا إصْرارُهم واستِكبارُهم لَانْتَفَعوا بها[٤].

- قولُه: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أُطلِقَ على الإنذارِ اسمُ البِشارةِ -الَّتي هي الإخبارُ بما يَسُرُّ- على طَريقةِ التَّهكُّمِ[٥]، وذلك بناءً على أنَّ البشارةَ لا تكونُ إلا فيما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

يَسرُّ.

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ * يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وقال في سُورةِ (لُقمانَ): ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧]؛ فقال: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، واسْتَغْنى الكلامُ عنه في سُورةِ (الجاثيةِ)، مع أنَّ القِصَّتينِ مُشْتَبِهتانِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ هذا الكافرَ لَمَّا أخبرَ اللهُ تعالى عنه في سُورةِ (لُقمانَ) أنَّه يُعرِضُ عن القُرآنِ إذا سمِعَه، غيرَ مُنتفِعٍ به حتَّى كأنَّه لم يَسمَعْه، وتَستمِرُّ به هذه الحالُ كما تَستمِرُّ لِمَن به صَمَمٌ، وقولُه في (الجاثيةِ): ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ يدُلُّ على ما دلَّ عليه: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾؛ لأنَّ الإصرارَ عزْمٌ لا يُهَمُّ معه بإقلاعٍ، فإذا أصَرَّ على التَّصامِّ، فهو كمَن في أُذُنَيه وَقْرٌ، فصارَ أحدُ اللَّفظَينِ يُغْني عن الآخَرِ، ويقومُ مَقامَه، ويُؤدِّي مِن المعنى أداءَهُ؛ فلذلك لم يُجمَعْ بيْنَهما، وكان الموضعُ الَّذي ذُكِرَ فيه: ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أحقَّ بقولِه: ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾، والموضعُ الَّذي ذُكِر فيه الإصرارُ على تَرْكِ الاستماعِ، أغْنى عن ذِكرِ ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾[1].

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا كان الإصْرارُ معناهُ الدَّوامُ المُتحكِّمُ، لم يَذكُرِ الوَقْرَ الَّذي هو مِن الأمراضِ الثَّابتةِ في سُورةِ (الجاثيةِ)، كما ذكَرَه في سُورةِ (لُقمانَ)[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾، أي: اتَّخَذَ الآياتِ هُزوًا، ولم

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٨٤، ١١٨٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٠).

يَقُلْ: (اتَّخَذه)؛ للإشعارِ بأنَّه إذا أحسَّ بشَيءٍ مِن الكلامِ أنَّه مِن جُملةِ الآياتِ الَّتي أنْزَلَها اللهُ تعالَى على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، خاضَ في الاستِهزاءِ بجَميعِ الآياتِ، ولم يَقتصِرْ على الاستِهزاءِ بما بلَغَه. ويَحتمِلُ: وإذا عَلِمَ مِن آياتِنا شَيئًا يُمكِنُ أنْ يَتشبَّثَ به المُعانِدُ، ويَجِدَ له مَحْملًا يَتسلَّقُ به على الطَّعنِ والغَميزةِ؛ افْتَرَصَه واتَّخَذَ آياتِ اللهِ هُزوًا[1].

- وجِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم أحْرِياءُ بما ذُكِرَ؛ مِن أجْلِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ مِن الأوصافِ، مِن قولِه تعالَى: ﴿لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ إلى قولِه: ﴿هُزُوًا﴾[2].

- وفي قولِه: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وصَفَ العذابَ بالإهانةِ؛ تَوفيةً لِحَقِّ استِكبارِهم واسْتِهزائِهم بآياتِ اللهِ سُبحانه وتعالَى[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وفي قولِه: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ تَحقيقٌ لِحُصولِ العذابِ، وكَونِه قَريبًا منْهم، وأنَّهم غافِلون عن اقْتِرابِه[4].

- وعطَفَ جُملةَ ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾ على جُملةِ ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣).

لأنَّ ذلك مِن جُملةِ العَذابِ المُهِينِ؛ فإنَّ فِقدانَ الفِداءِ، وفِقدانَ الولِيِّ ممَّا يَزِيدُ العذابَ شِدَّةً، ويَكسِبُ المُعاقَبَ إهانةً[١].

- وعُدِّيَ الإغناءُ بحَرْفِ (عن)؛ لِتَضْمينِه معنى (يَدفَعُ)، فكأنَّه عبَّرَ بفِعلَينِ: لا يُغْنِيهم، ولا يَدفَعُ عنْهم[٢].

- وتَنْكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾ للتَّقليلِ، أي: لا يَدفَع عنهم ولو قَليلًا مِن جهنَّمَ، أي: عَذابِها[٣].

- قولُه: ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ﴾ عطْفٌ على ﴿مَّا كَسَبُواْ﴾، وأُعِيدَ حرْفُ النَّفيِ (لا) للتَّأكيدِ[٤].

- وأُردِفَ ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ بعطْفِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾؛ لإفادةِ أنَّ لهم عذابًا غيرَ ذلك، وهو عَذابُ الدُّنيا بالقتْلِ والأسْرِ[٥]، أو: لأنَّ كَونَ العذابِ مُهينًا يدُلُّ على حُصولِ الإهانةِ مع العذابِ، وكَونَه عَظيمًا يدُلُّ على كَونِه بالِغًا إلى أقصى الغاياتِ في كَونِه ضَررًا[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ استِئنافٌ ابْتدائيٌّ، انتُقِلَ به مِن وَصْفِ القُرآنِ في ذاتِه بأنَّه مُنزَّلٌ مِن اللهِ، وأنَّه مِن آياتِ اللهِ؛ إلى وَصْفِه بأفْضلِ صِفاتِه بأنَّه هُدًى[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٢).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٥).

- ولَمَّا عَدَّ تعالَى أنواعَ اسْتِخفافِهم وتَكذيبِهم بالقُرآنِ، ووَصَفهم بالكذِبِ، والإفْكِ، والإثْمِ، والاستِكبارِ، ورتَّبَ عليه البِشارةَ بالعَذابِ، وحَكَى عنِ اسْتِهزائِهم وانْتِهازِ فُرْصَتِهم لِيَستَخِفُّوا به، ورتَّبَ عليه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ عيَّنه تَعْيينًا، ومَيَّزَه تَمْييزًا، وجعَلَه كالعَلَمِ المُشارِ إليه بالحُسنِ. ونكَّرَ المَصْدرَ الواقعَ خبرًا تَنكيرَ تَهويلٍ ومُبالَغةٍ، فقال: ﴿هَٰذَا هُدٗىۖ﴾، أي: هذا المُتميِّزُ المُشخَّصُ كامِلٌ في الهِدايةِ، ليس بخافٍ على كُلِّ ذي بَصيرةٍ أنَّه ليس بمَكانٍ للتَّكذيبِ والاستِهزاءِ، والَّذين كذَّبوا به، واسْتَكْبروا عن قَبولِه، وأعْرَضوا عنه بالاسْتِهزاءِ؛ لهم عَذابٌ بعْدَ عَذابٍ[1].

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿هَٰذَا هُدٗىۖ﴾، قيل: والمُناسَبةُ: أنَّ القرآنَ مِن جُملةِ آياتِ اللهِ، وأنَّه مُذكِّرٌ بها؛ فالَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ كَفَروا بالقُرآنِ في عُمومِ الآياتِ، وهذا واقعٌ مَوقِعَ التَّذييلِ لِمَا تَقدَّمَه ابْتِداءً مِن قَولِه: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ﴾[2] [الجاثية: ٧].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾، أي: بالقُرآنِ، وإنَّما وُضِعَ مَوضعَ ضَميرِه -حيث لم يُقَلْ: (كفروا به)-؛ لِزيادةِ تَشْنيعِ كُفْرِهم به، وتَفْظيعِ حالِهم[3].

- وجِيءَ بالموصولِ وصِلَتِه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾؛ لِما تُشعِرُ به الصِّلةُ مِن أنَّهم حَقِيقونَ بالعِقابِ ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥).

- واستُحْضِروا في هذا المَقامِ بعُنوانِ الكُفرِ دُونَ عُنْوانَيِ الإصرارِ والاستِكبارِ اللَّذَينِ استُحْضِروا بهما في قولِه: ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ [الجاثية: ٨]؛ لأنَّ الغرَضَ هنا النَّعيُ عليهم إهمالَهم الانْتِفاعَ بالقُرآنِ، وهو النِّعمةُ العُظْمى الَّتي جاءتْهم مِن اللهِ، فقابَلوها بالكُفرانِ عِوَضًا عن الشُّكرِ[١].

- وتَنوينُ ﴿عَذَابٌ﴾ للتَّفخيمِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ في اقْتِرانِ ذِكرِ (الرَّبِّ) مع الآياتِ، وذِكرِ (اللهِ) في قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ٦]: إشعارٌ بأنَّ تلك التِّلاوةَ وذلك الإرشادَ لَمْ يكُنْ إلَّا لِمَحْضِ الإنعامِ، والكافِرون عَكَسوا القضيَّةَ، فكَفَروا بَدَلَ الشُّكرِ؛ ولذلك جِيءَ بقولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [الجاثية: ١٢]، وبقولِه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجاثية: ١٣]، وختَمَ الأولى بقولِه: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)، والثَّانيةَ بقولِه: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لِيُنبِّهَ بالشُّكرِ على الإنعامِ، وبالتَّفكُّرِ على أنَّ ذلك الإنعامَ أيضًا دَليلٌ مِن الدَّلائلِ السَّابقةِ، وأُخِّرَت مِن أخَواتِها تَطْرِئةً للتَّنبيهِ. وعُلِمَ مِن ذلك أنَّ التَّفكُّرَ مِلاكُ التَّعقُّلِ والإيقانِ والإيمانِ[٣].

- وأيضًا هذه الآيةُ ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ مِن الاحتِباكِ[٤]، حيثُ ذَكَر الهُدَى أوَّلًا دَليلًا على الضَّلالِ ثانيًا، والكُفرَ والعذابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٤) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا =

ثانيًا دَليلًا على ضِدِّهما أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذَكَر السَّببَ المُسعِدَ ترغيبًا فيه، والمُشقيَ ترهيبًا منه[١].

= اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٤).

## الآيات (١٢-١٥)

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْفُلْكُ﴾: أي: السُّفُنُ، وواحدُه وجمْعُه بلفظٍ واحدٍ، وأصلُ (فلك): يدُلُّ على استِدارةٍ في الشَّيءِ، ولعلَّ السُّفنَ سُمِّيتْ فُلكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[1].

﴿وَسَخَّرَ﴾: أي: ذلَّلَ، والتَّسخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهرًا، وأصلُ (سخر) هنا: يدُلُّ على استِذْلالٍ[2].

﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: أي: وقائِعَ اللهِ بأعدائِه، مِن قَولِهم لوقائِعِ العَرَبِ: أيَّامُ العَرَبِ. أو ثَوابَ اللهِ وعِقابَه[3].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾

﴿يَغْفِرُوا۟﴾: فِعلٌ مُضارِعٌ مَجزومٌ، وفي سَبَبِ جَزْمِه أوجُهٍ؛

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨). ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٣).

**أحَدُها**: أنَّه واقِعٌ في جَوابِ الأمرِ ﴿قُل﴾.

**الثَّاني**: أنَّه واقِعٌ في جوابِ شَرطٍ مُقَدَّرٍ بعدَ ﴿قُل﴾، أي: إنْ تَقُلْ لهم اغْفِروا يَغْفِروا.

**الثَّالِثُ**: أنَّه مجزومٌ بلامِ أمرٍ مَحذوفةٍ، تقديرُه: لِيَغفِروا، فحُذِفَتْ وبَقِيَ عَمَلُها[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن النِّعمِ الَّتي أنعَم بها على خَلقِه، فيقول: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي ذَلَّل لكم -أيُّها النَّاسُ- البَحرَ؛ لِتَسيرَ فيه السُّفُنُ بأمْرِه سُبحانَه، ولِتَطلُبوا مَعايشَكم وأرزاقَكم مِن خِلالِه، ولَعَلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه، وذلَّل اللهُ لكم ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ؛ لِمَنافِعِكم، وكُلُّ ذلك مِنه وَحْدَه سُبحانَه، إنَّ في ذلك لَدَلالاتٍ واضِحاتٍ لِقَومٍ يَتفَكَّرونَ.

ثمَّ يأمُرُ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَحُضَّ المؤمنينَ على التَّجاوُزِ والصَّفحِ عن المشركينَ الَّذين يُؤذونَهم حتَّى يأتيَ اللهُ بأمرِه، فيقولُ تعالى: قُلْ -يا محمَّدُ- لِلَّذِين آمَنوا يَتجاوَزوا عن أذى الكُفَّارِ الَّذين لا يَرجُونَ ثوابَ الله، ولا يَخافونَ وقائِعَه في العاصِينَ، ويَصبِروا على أذاهم؛ لِيَجزيَ اللهُ أعداءَهم بما كَسَبوه مِن آثامٍ، فيُعَذِّبَهم.

ثمَّ يُؤكِّدُ اللهُ تعالى على عدالةِ الجزاءِ، فيقولُ: مَن عَمِلَ في الدُّنيا بطاعةِ اللهِ، فنَفْعُ ذلك له، ومَن عَمِلَ بالكُفرِ والمعاصي فضَرَرُ ذلك على نَفْسِه لا على غَيرِه، ثمَّ إلى رَبِّكم تُرجَعونَ -أيُّها النَّاسُ- فيُجازيكم على أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٥)، ((معاني القرآن)) للأخفش (١/ ٨٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٩٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٧/ ١٠٤-١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٩).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه وتعالى صِفةَ الرُّبوبيَّةِ؛ ذكَرَ بَعضَ آثارِها وما فيها مِن آياتِه[١].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي ذَلَّل لكم البَحرَ -أيُّها النَّاسُ-؛ لِتَسيرَ فيه السُّفُنُ بأمْرِه وإذْنِه وتَيسيرِه[٢].

﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾.

أي: ولِتَطلُبوا مَعايشَكم وأرزاقَكم الَّتي هي مِن فَضلِ الله تعالى عليكم؛ كنَقلِ البَضائِعِ، وصَيدِ الأسماكِ، وغيرِ ذلك[٣].

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: ولعَلَّكم تَشكُرونَ اللهَ على نِعَمِه العَظيمةِ الَّتي تَحصُلُ بتَسخيرِه لكم البَحرَ، فتُوَحِّدونَه، وتُطيعونَه فيما أمرَكَم به ونهاكم عنه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٤، ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

قال ابنُ عطية: (الابتِغاءُ مِن فَضلِ الله: هو بالتِّجارةِ في الأغلَبِ، وكذلك مقاصِدُ البَرِّ مِن حَجٍّ أو جهادٍ هي أيضًا ابتغاءُ فَضلٍ، والتَّصَيُّدُ فيه هو ابتغاءُ فَضلٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٥).

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى آيةَ البَحرِ لِعَظَمتِها؛ عمَّ بمنافِعِ الخافِقَينِ؛ دَلالةً على أنَّه ما خَلَق ذلك كلَّه على عِظَمِه إلَّا لنا؛ تنبيهًا على أنَّ الأمرَ عَظيمٌ[1].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾.

أي: وذلَّل اللهُ لكم -أيُّها النَّاسُ- ما في السَّمَواتِ مِن شَمسٍ وقَمَرٍ، ونُجومٍ وسَحابٍ، ومَطَرٍ وهواءٍ، وغيرِ ذلك، وما في الأرضِ مِن شَجَرٍ وجِبالٍ، ومِياهٍ ودوابَّ ومَعادِنَ... وغَيرِ ذلك؛ لِمَنافِعِكم، وجميعُ ذلك مِنَ اللهِ وَحْدَه[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: إنَّ في ذلك الأمرِ العَظيمِ، وهو تَسخيرُه كُلَّ شَيءٍ في الكَونِ لعِبادِه: لَدَلالاتٍ واضِحاتٍ، وعلاماتٍ باهِراتٍ على الحَقِّ لِقَومٍ يَتفَكَّرونَ فيها[3].

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا علَّمَ عِبادَه دَلائِلَ التَّوحيدِ والقُدرةِ والحِكمةِ؛ أتْبَعَ ذلك بتَعليمِ الأخلاقِ الفاضِلةِ، والأفعالِ الحَميدةِ[١].

وأيضًا فمُناسَبةُ وُقوعِ هذه الآيةِ هنا أنَّ قولَه: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الجاثية: ٧] إلى قولِه: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١]، يُثيرُ غضَبَ المُسلِمينَ على المُسْتهزِئينَ بالقُرآنِ، وقد أخَذَ المُسلِمونَ يَعتزُّون بكَثرتِهم؛ فكان ما ذُكِرَ مِن استِهزاءِ المُشرِكينَ بالقُرآنِ، واستِكبارِهم عن سَماعِه، يُتوقَّعُ منْه أنْ يَبطِشَ بَعضُ المُسلِمينَ ببَعضِ المشركينَ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ بدَرَ مِن بَعضِ المسلمينَ غضَبٌ أو تَوعُّدٌ، وأنَّ اللهَ عَلِمَ ذلك مِن بَعضِهم، فأُمِروا بالعفوِ، وأنْ يَكِلوا أمرَ نَصْرِهم إلى الله تعالى[٢].

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- آمِرًا الَّذين آمَنوا باللهِ واتَّبَعوك أن يَعفُوا ويَتجاوَزوا عن أذى الكُفَّارِ الَّذين لا يَرجُونَ ثوابَ الله، ولا يَخافونَ وقائِعَه في العاصِينَ[٣]، وأنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٨، ٣٣٩).

(٣) قال ابنُ عطية: (وقَولُه: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قالت فِرقةٌ: مَعناه: أيَّامُ إنعامِه ونَصْرِه وتَنعيمِه في الجنَّةِ، وغَيرُ ذلك؛ فـ﴿يَرْجُونَ﴾ على هذا هو مِن بابِه. وقال مجاهِدٌ: أيَّامُ اللهِ تعالى هي أيَّامُ نِقَمِه وعَذابِه، فـ﴿يَرْجُونَ﴾ على هذا هي الَّتي تتنَزَّلُ مَنزِلةَ يَخافونَ، وإنَّما تنَزَّلَت مَنزِلَتَها مِن حيثُ الرَّجاءُ والخَوفُ مُتلازِمانِ، لا تَجِدُ أحَدَهما إلَّا والآخَرُ معه مُقتَرِنٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٣).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: لا يَخشَونَ عُقوباتِ اللهِ ووقائِعَه ونِقَمَه، مِثلَ عَذابِ الأُمَمِ الخاليةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ الجوزي، وأبو حيَّان، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) =

يَصبِروا على أذاهم، ولا يُعاقِبوهم[1].

= (٩/ ٤١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٢٨).

قال ابن القيِّم: (الخوفُ مُستلزِمٌ للرَّجاءِ، والرَّجاءُ مُستلزِمٌ للخَوفِ؛ فكلُّ راجٍ خائفٌ، وكلُّ خائفٍ راجٍ؛ ولأجْلِ هذا حَسُنَ وُقوعُ الرَّجاءِ في مَوضِعٍ يَحسُنُ فيه وُقوعُ الخَوفِ... فكلُّ راجٍ خائفٌ مِن فَواتِ مَرْجُوِّه، والخَوفُ بلا رجاءٍ يأسٌ وقُنوطٌ). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٥١).

وقال الزمخشري: (﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾: لا يَتوَقَّعونَ وقائعَ اللهِ بأعدائِه، مِن قَولِهم لوقائعِ العَرَبِ: أيَّامُ العَرَبِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧).

وقيل: المرادُ: لا يَطمَعونَ في نَصرِ اللهِ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦٢).

وقال ابنُ عاشور: (لِلَّذينَ لا تَترَقَّبُ نُفوسُهم أيَّامَ نَصرِ اللهِ، أي: نَصرِ اللهِ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٠).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ المعنى: لا يَرجُونَ البَعثَ، أي: لا يُؤمِنونَ به. ذكره النَّحَّاسُ احتِمالًا. يُنظر: ((معاني القرآن)) (٦/ ٤٢٤).

وقيل: المعنى: لا يَرجُونَ ثوابَه. ومِمَّن ذهب إلى هذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦١).

وقيل: المعنى: لا يَسألونَ اللهَ نِعَمَه، أي: أنَّهم لا يَعتَرِفونَ بأنَّ النِّعَمَ مِن عندِ الله. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٨).

وذهب السعدي إلى أنَّ المعنى: لا يَرجونَ ثوابَه، ولا يَخافونَ وقائِعَه في العاصِينَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦١، ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٠، ٣٤١).

وقد نقل ابنُ جريرٍ إجماعَ المفَسِّرينَ على أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بأمرِ اللهِ بقِتالِ المُشرِكينَ (على مذهبِه بعدمِ الاعتدادِ بخلافِ الواحدِ والاثنينِ)، ونَسَب ابنُ عطيَّةَ ذلك إلى الجُمهورِ، ونَسَب أيضًا إلى قَومٍ القَولَ بأنَّها مُحكَمةٌ، ولم يُسَمِّهم، وذكَرَه ابنُ الجوزي احتمالًا. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢، ٨٣)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٥٧٤ - ٥٧٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّـٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

وعن أُسامةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه يَعفُونَ عن المُشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ كما أمَرَهم اللهُ، ويَصبِرونَ على الأذى))(١).

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

---

= قال الواحدي: (وأجمَعوا أنَّ هذه الآيةَ نَزَلَت قبل أن يُؤمَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقِتالِ أهلِ مَكَّةَ، وأنَّها مَنسوخةٌ بآيةِ القِتالِ، إلَّا على ما رواه عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ؛ فإنَّ على روايتِه نَزَلت الآيةُ بعدَ الأمرِ بالقِتالِ؛ لأنَّه ذَكَر أنَّ الآيةَ نَزَلَت بعد غَزوةِ بني المُصْطَلِقِ، والصَّحيحُ أنَّها نَزَلت قبْلَ الأمرِ بالقِتالِ. واللهُ أعلَمُ. قال قَتادةُ: نَسَخَتْها ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال أبو صالحٍ: نَسَخَتْها ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الحج: ٣٩] الآيةَ). ((البسيط)) (٢٠/ ١٣٩).

وقال ابنُ عطية: (والآيةُ تتضَمَّنُ الغُفرانَ عُمومًا؛ فيَنبغي أن يقالَ: إنَّ الأمورَ العِظامَ -كالقَتلِ والكُفرِ مُجاهَرةً، ونحوِ ذلك- قد نَسَخ غُفرانَه آيةُ السَّيفِ، والجِزْيةُ وما أحكَمَه الشَّرعُ لا مَحالةَ، وإنَّ الأُمورَ المُحقَّرةَ -كالجَفاءِ في القَولِ ونَحوِ ذلك- يحتَمِلُ أن تبقَى مُحكَمةً، وأن يكونَ العَفوُ عنها أقرَبَ إلى التَّقْوى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢، ٨٣).

وقال ابنُ تيميَّة: (مَن كان مِن المؤمِنينَ بأرضٍ هو فيها مُستضعَفٌ، أو في وَقتٍ هو فيه مُستضعَفٌ: فلْيَعمَلْ بآيةِ الصَّبرِ والصَّفحِ عَمَّن يُؤذي اللهَ ورَسولَه مِن الَّذين أُوتوا الكِتابَ والمُشرِكينَ، وأمَّا أهلُ القُوَّةِ فإنَّما يَعمَلونَ بآيةِ قِتالِ أئمَّةِ الكُفرِ الَّذين يَطعنونَ في الدِّينِ، وبآيةِ قِتالِ الَّذين أُوتوا الكتابَ حتَّى يُعطُوا الجِزيةَ عن يَدٍ وهم صاغِرونَ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٢١).

وقال البِقاعي: (قال ابنُ بَرَّجَان: وهذه الآيةُ وشِبهُها مِنَ النَّسْيِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وليس بنَسخٍ، بل هو حُكمٌ يَجيءُ ويَذهَبُ بحَسَبِ القُدرةِ على الانتِصارِ، وكان يَنزِلُ مِثلُ هذا بمكَّةَ والمسلِمونَ في ضَعفٍ، ونَزَل بعدَ الهِجرةِ آيةُ الجِهادِ والأمرِ بالمعروفِ، وتُرِكَت هذه وأمثالُها مَسطورةً في القرآنِ؛ لِما عسى أن يَدورَ مِن دوائِرِ أيَّامِ اللهِ ومِن أيَّامِه؛ إدالةً لأهلِ الكُفرِ عليهم، وتَنبيهًا للمُسلِمينَ لِيُراجِعوا أمْرَهم، ويُصلِحوا ما بَيْنَهم وبيْنَ رَبِّهم). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٧٩).

(١) رواه البخاري (٦٢٠٧).

أي: إنَّما أُمِرَ المُؤمِنونَ بالمَغفِرةِ لِلَّذِين يُؤذونَهم؛ لِيَجزيَ اللهُ أعداءَهم هؤلاء بما كَسَبوه مِن آثامٍ، فيُعَذِّبَهم[1].

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا رَغَّب اللهُ سُبحانَه ورهَّب، وتقرَّر أنَّه لا بُدَّ مِن الجزاءِ؛ زاد في التَّرغيبِ والتَّرهيبِ بأنَّ النَّفعَ والضُّرَّ لا يَعدوهم، فقال شارِحًا للجَزاءِ[2]:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾.

أي: مَن عَمِلَ في الدُّنيا بطاعةِ اللهِ، فامتَثَل أوامِرَه، واجتَنَب نواهيَه؛ فنَفْعُ ذلك له[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٦، ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٦).

ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحدي، وابن كثير. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الواحدي: (كأنَّه قال: لا تُكافِئوهم أنتم؛ لِنُكافِئَهم نحن). ((الوسيط)) (٤/ ٩٧).

وقيل: المرادُ بالقَومِ هنا: المؤمِنونَ، أُمِروا بالمَغفرةِ لِيَجزيَهم اللهُ يومَ القيامةِ بما كَسَبوه في الدُّنيا؛ كالصَّبرِ على أذيَّةِ الكُفَّارِ، والإغضاءِ عنهم بكَظمِ الغَيظِ، واحتِمالِ المكروهِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨).

وقيل: سيَجزي كُلَّ قَومٍ بما كانوا يَكسِبونَ؛ فأنتم -يا مَعشَرَ المؤمنينَ- يَجزيكم على إيمانِكم وصَفحِكم وصَبرِكم، ويَجزي أولئك المُشرِكينَ إنِ استمَرُّوا على تكذيبِهم وبَغيِهم. وهذا ظاهِرُ اختيارِ البِقاعي، وذهب إليه السعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ * لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٤٤، ٤٥].

﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾.

أي: ومَن عَمِلَ بالكُفرِ والمعاصي فضَرَرُ ذلك ووَبالُه على نَفْسِه، لا على غَيرِه[١].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣].

وقال سُبحانَه: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ [الروم: ٤٤].

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾.

أي: ثمَّ إلى رَبِّكم تَصيرونَ -أيُّها النَّاسُ- بعدَ مَوتِكم أحياءً يومَ القيامةِ، فيُجازيكم على أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ هذه آيةُ عِبرةٍ في جَرَيانِ السَّفينةِ في البَحرِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى سَخَّر هذا المخلوقَ العَظيمَ لهذا المخلوقِ الضَّعيفِ[٣]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ فيه تعليمُ الأخلاقِ الفاضِلةِ، والأفعالِ الحَميدةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣).

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ فيه أعظَمُ تَرغيبٍ في الحَثِّ على الغُفرانِ للمُوافِقِ في الدِّينِ[١] مِن بابِ أولَى.

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَا﴾ فيه أنَّ العَمَلَ الصَّالحَ يَعودُ بالنَّفعِ العَظيمِ على فاعِلِه، والعَمَلَ الرَّديءَ يَعودُ بالضَّرَرِ على فاعِلِه، وأنَّه تعالى أمَرَ بهذا، ونهَى عن ذلك؛ لحَظِّ العَبدِ، لا لِنَفعٍ يَرجِعُ إليه سُبحانَه، وهذا تَرغيبٌ منه في العَمَلِ الصَّالحِ، وزَجرٌ عن العَمَلِ الباطِلِ[٢]، فمتى عَلِمْتَ أنَّ عمَلَك لِنَفْسِك فسوف تجتهدُ في هذا[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أنَّ كُلَّ عَمَلٍ لا إخلاصَ فيه فهو ضَرَرٌ على صاحبِه وليس له؛ لأنَّ العَمَلَ الصَّالحَ هو ما جَمَعَ بيْنَ شَرطَينِ: الإخلاصِ، والمُتابَعةِ[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ ذَكَر سُبحانَه وتعالى الاستِدلالَ بكَيفيَّةِ جَريانِ الفُلكِ على وَجهِ البَحرِ، وذلك لا يَحصُلُ إلَّا بسَبَبِ تَسخيرِ ثلاثةِ أشياءَ:

**أحَدُها**: الرِّياحُ الَّتي تَجري على وَفقِ المرادِ.

**وثانيها**: خَلقُ وَجهِ الماءِ على الملاسةِ الَّتي تجري عليها الفُلكُ.

**وثالثُها**: خَلقُ الخَشَبةِ على وَجهٍ تبقى طافيةً على وجهِ الماءِ، ولا تغوصُ فيه.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذه الأحوالُ الثَّلاثةُ لا يَقدِرُ عليها واحِدٌ مِن البَشَرِ؛ فلا بُدَّ مِن مُوجِدٍ قادِرٍ عليها، وهو اللهُ سُبحانَه وتعالى(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أنَّ الأصلَ في جميعِ الأعيانِ الموجودةِ -على اختِلافِ أصنافِها وتَبايُنِ أوصافِها- أن تكونَ حَلالًا مُطلقًا للآدميِّينَ، وأن تكونَ طاهِرةً لا يَحرُمُ عليهم مُلابَستُها ومُباشَرتُها ومُماسَّتُها. وَجهُ ذلك: أنَّه إذا كان ما في الأرضِ مُسَخَّرًا لنا، جاز استِمتاعُنا به(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أنَّ مَن عمِلَ عمَلًا بِدْعِيًّا فعَمَلُه عليه لا له؛ لأنَّه لا يَدخُلُ في العملِ الصَّالحِ(٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ مَسوقٌ للاعتِبارِ بتسخيرِ البَحرِ على عَظَمتِه والسُّفنِ الجاريةِ فيه لمخلوقٍ هو أضألُ شيءٍ بالنِّسبةِ لهما؛ للانتِقالِ مِن التَّذكيرِ بما خلَقَ اللهُ مِن العوالِمِ وتَصاريفِ أحْوالِها مِن حيثُ إنَّها دَلالاتٌ على الوَحدانيَّةِ، إلى التَّذكيرِ بما سخَّرَ اللهُ للنَّاسِ مِن المَخْلوقاتِ وتَصاريفِها مِن حيثُ كانتْ مَنافعَ للنَّاسِ تَقْتضي أنْ يَشْكُروا مُقدِّرَها، فجَحَدوا بها؛ إذ تَوجَّهوا بالعِبادةِ إلى غَيرِ المُنعِمِ عليهم؛ ولذلك عُلِّقَ بفِعْلَيْ (سخَّر) في المَوضعَينِ مَجرورٌ بلامِ العِلَّةِ بقولِه: ﴿لَكُمُ﴾، على أنَّ هذه التَّصاريفَ آياتٌ أيضًا مِثلُ اخْتِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وما أنْزَلَ اللهُ مِن السَّماءِ مِن ماءٍ، وتَصْريفِ الرِّياحِ، ولكنْ لُوحِظَ هنا ما فيها مِن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٨٢).

النِّعَمِ كما لُوحِظَ هنالك ما فيها مِن الدَّلالةِ، والفَطِنُ يَستخلِصُ مِن المَقامينِ كِلا الأمْرينِ على ما يُشْبِهُ الاحْتِباكَ[١]، ومُناسَبةُ هذا الانتِقالِ واضحةٌ[٢].

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ اسمُ الجَلالةِ مُسنَدٌ إليه، والمَوصولُ مُسنَدٌ، وتَعريفُ الجُزأينِ مُفيدٌ للحصْرِ، وهو قَصْرُ قلْبٍ[٣] بتَنزيلِ المُشركينَ مَنزِلةَ مَن يَحسَبُ أنَّ تَسخيرَ البحْرِ وتَسخيرَ ما في السَّمواتِ والأرضِ إنْعامٌ مِن

---

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٥، ٣٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٧).

(٣) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصفُ الإلهيَّةِ الحقِّ على موصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

شُركائِهم؛ فكان هذا القصْرُ إبْطالًا لهذا الزَّعْمِ الَّذي اقْتضاهُ هذا التَّنزيلُ[١].

- وقولُه: ﴿لِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ﴾ بدَلُ اشْتِمالٍ مِن ﴿لَكُمُ﴾؛ لأنَّ في قَولِه: ﴿لَكُمُ﴾ إجمالًا أُرِيدَ تَفْصيلُه؛ فتَعريفُ الفُلْكِ تَعريفُ الجِنسِ، وليس جَرْيُ الفُلكِ في البَحرِ بنِعمةٍ على النَّاسِ إلَّا باعْتِبارِ أنَّهم يُجْرونَها للسَّفرِ في البَحرِ. وعُطِفَ عليه ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ باعتبارِ ما فيه مِن عُمومِ الاشتِمالِ؛ فحصَلَ مِن مَجموعِ ذلك أنَّ تَسْخيرَ البحْرِ لِجَرْيِ الفُلكِ فيه للسَّفرِ؛ لِقَضاءِ مُختلِفِ الحاجاتِ، حتَّى التَّنزُّهِ وزِيارةِ الأهْلِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ اقْتَضاهُ الاهتِمامُ أوَّلًا، ثمَّ التَّعميمُ ثانيًا، و﴿مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عامٌّ مَخصوصٌ بما تَحصُلُ للنَّاسِ فائدةٌ مِن وُجودِه؛ كالشَّمسِ للضِّياءِ، والمطَرِ للشَّرابِ، أو مِن بَعضِ أحوالِه؛ كالكواكبِ للاهتِداءِ بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبحْرِ، والشَّجرِ لِلاستِظلالِ، والأنعامِ للرَّكوبِ والحرْثِ ونحْوِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ تَنْوينُ (جميعًا) تَنوينُ عِوَضٍ عَن المُضافِ إليه، أي: جَميعَ ذلك. و(مِن) ابتدائيَّةٌ، أي: جميعَ ذلك مِن عندِ اللهِ، ليس لِغَيرِه فيه أدْنَى شَرِكةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: إنَّ في ذلك المذكورِ مِن تَسْخيرِ البَحرِ، وتَسخيرِ ما في السَّمواتِ والأرضِ؛ دَلائلَ على تَفرُّدِ اللهِ بالإلهيَّةِ؛ فهي وإنْ كانتْ مِنَنًا يَحِقُّ أنْ يَشْكُرَها النَّاسُ، فإنَّها أيضًا دَلائلُ إذا تَفكَّرَ فيها المُنعَمُ عَليهم اهْتَدَوا بها، فحصَلَت لهمْ منها مُلائماتٌ جُسمانيَّةٌ ومَعارِفُ نَفْسانيَّةٌ، وبهذا الاعْتِبارِ كانتْ في عِدادِ الآياتِ المذكورةِ قبْلَها مِن قولِه: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، وإنَّما أُخِّرَت عنها؛ لأنَّها ذُكِرَت في مَعرِضِ الامتِنانِ بأنَّها نِعَمٌ، ثمَّ عُقِّبَت بالتَّنبيهِ على أنَّها أيضًا دَلائلُ على تَفرُّدِ اللهِ بالخلْقِ. وأُوثِرَ التَّفكُّرُ بالذِّكرِ في آخِرِ صِفاتِ المُستَدِلِّينَ بالآياتِ؛ لأنَّ الفِكرَ هو مَنبَعُ الإيمانِ والإيقانِ والعِلمِ المُتقدِّمةِ في قولِه: ﴿لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣]، ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٤]، ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1] [الجاثية: ٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَغْفِرُوا﴾ -على أحدِ الأقوالِ- مَجزومٌ في جَوابِ (قُل)[2]، وحُذِفَ المَقولُ؛ لأنَّ الجوابَ دالٌّ عليه، والمعنى: قُلْ لهم: اغْفِروا يَغْفِروا، أي: يَعْفوا ويَصْفَحوا، وهذا ثِقةٌ بالمُؤمِنينَ أنَّهم إذا قال لهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ امْتَثَلوا[3].

- قَولُ الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ الرَّجاءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٢) ويُنظر ما تقدم في مُشكِل الإعرابِ (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣٩).

هنا إمَّا على معناه الحقيقيِّ أو بمعنى الخَوفِ[١]، وعُبِّر في مَوضعِ الخَوفِ بالرَّجاءِ؛ لِما فيه مِن الاستِجلابِ والتَّرغيبِ والتَّأليفِ والاستِعطافِ[٢].

- قولُه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ على الوَجهِ بأنَّ المعنى: لِلَّذِين لا تَترقَّبُ نُفوسُهم أيَّامَ نصْرِ اللهِ، أي: نصْرِ اللهِ لهم، فتَكونُ أُجْرِيَت عليهمْ هنا هذه الصِّلةُ؛ إمَّا لأنَّهم لا يَتوكَّلون على اللهِ ولا يَسْتنصِرونه، بلْ تَوَجُّهُهم إلى الأصنامِ، وإمَّا لأنَّهم لا يَخطُرُ بِبالِهم إلَّا أنَّهم مَنْصورونَ بحَوْلِهم وقُوَّتِهم، فلا يَخطُرُ بِبالِهم سُؤالُ نَصْرِ اللهِ أو رَجاؤُه، وهم مَعْروفون بهذه الصِّلةِ بيْنَ المُسلِمينَ. وأُوثِرَ تَعريفُهم بهذه الصِّلةِ ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾؛ لِيَكونَ في ذلك تَعريضٌ بأنَّ اللهَ يَنصُرُ الَّذين يَرْجُون أيَّامَ نَصْرِه، وهمُ المُؤمِنون، والغرَضُ مِن هذا التَّعريضِ الإيماءُ بالمَوصولِ إلى وَجْهِ أمْرِ المُؤمِنينَ أنْ يَغْفِروا للمُشرِكينَ ويَصْفَحوا عن أذَى المُشرِكين، ولا يَتكلَّفوا الانْتِصارَ لِأنفُسِهم؛ لأنَّ اللهَ ضَمِنَ لهم النَّصرَ. وعلى وجْهِ أنَّه: قد يُطلَقُ أيَّامُ اللهِ في القُرآنِ على الأيَّامِ الَّتي حصَلَ فيها فضْلُه ونِعمتُه على قَومٍ، فمعنى ﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ على هذا التَّأويلِ: أنَّهم في شُغلٍ عن تَرقُّبِ نِعَمِ اللهِ بما همْ فيه مِن إسنادِ فِعلِ الخَيرِ إلى أصْنامِهم بانْكِبابِهم على عِبادةِ الأصنامِ دُونَ عِبادةِ اللهِ، ويأْتي في هذا الوجْهِ مِن التَّعريضِ والتَّحريضِ مِثلُ ما ذُكِرَ في الوجْهِ الأوَّلِ؛ لأنَّ المُؤمِنينَ همُ الَّذين يَرْجُون نِعمةَ اللهِ[٣].

- قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ تَعْليلٌ للأمْرِ بالمَغْفرةِ، أي: لِيَغْفِروا ويَصْفحوا عن أذَى المُشرِكين، فلا يَنتصِروا لِأنفُسِهم؛ لِيَجْزِيَهم اللهُ على

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٠، ٣٤١).

إيمانِهم، وعلى ما أُوذوا في سَبيلِه؛ فإنَّ الانتصارَ للنَّفْسِ تَوفيةٌ للحقِّ، وماذا عَساهم يَبْلُغونَ مِن شِفاءِ أنفُسِهم بالتَّصدِّي للانتقامِ مِن المُشرِكين على قِلَّتِهم، وكَثرةِ أولئك؟! فإذا تَوكَّلوا على نَصْرِ ربِّهم، كان نَصْرُه لهم أتَمَّ، وأقْطَعَ لِشَوكةِ المُشرِكين[1].

- قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ على قراءة ﴿لِنَجْزِيَ﴾ -بِنُونِ العَظَمةِ[2]- فيَكونُ على الالتِفاتِ[3].

- وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (لِيَجْزِيَهم بما كانوا يَكسِبون)؛ فعُدِلَ إلى الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ؛ لِيَكونَ لَفظُ ﴿قَوْمًا﴾ مُشعِرًا بأنَّهم لَيسوا بمَضْيَعةٍ عِندَ اللهِ؛ فإنَّ لَفظَ (قَوم) مُشعِرٌ بفَريقٍ له قِوامُه وعِزَّتُه. وتَنكيرُ ﴿قَوْمًا﴾ للتَّعْظيمِ، وهذا مدحٌ وثَناءٌ عليهم. وقيل: القومُ هم الكافِرون؛ فيكونُ التَّنكيرُ للتحقيرِ. وقيل: الأظهرُ أنَّ ﴿قَوْمًا﴾ مُرادٌ به الإبهامُ، وتَنوينُه للتَّنكيرِ فقط، والمعنى: لِيَجزيَ اللهُ كلَّ قومٍ بما كانوا يَكسِبونَ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ بما يُناسِبُ كسْبَهم؛ فيَكونُ وعيدًا للمُشركينَ المُعْتَدِينَ على المُؤمِنينَ، ووعْدًا للمؤمنِينَ المأمورينَ بالصَّفحِ والتَّجاوُزِ عن أذَى المشركينَ، وهذا وجْهُ عدَمِ تَعليقِ الجزاءِ بضَميرِ الموقنينَ؛ لأنَّه أُريدَ العمومُ؛ فليس ثَمَّةَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ على هذا الوَجهِ، ويُؤيِّدُ هذا قولُه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [الجاثية: ١٥]، وهذا كالتَّفصيلِ للإجمالِ الَّذي في قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٩).

(٢) قرأَها بالنُّونِ: ابنُ عامرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ. وقرأَها الباقونَ بالياءِ. وقرأَها أبو جعفرٍ بضمِّ الياءِ، وفتْحِ الزَّايِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦٠)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٢).

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾؛ ولذلك فُصِلتِ الجُملةُ ولم تُعطَفْ على سابقتِها[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لِبَيانِ كَيفيَّةِ الجزاءِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤١، ٣٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٤٨).

## الآيات (١٦-٢٠)

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿بَغْيًۢا﴾: أي: فَسادًا وطُغيانًا وتَعدِّيًا، وأصلُ البَغيِ: يدُلُّ على الفَسادِ، وتجاوُزِ الحَدِّ؛ يُقالُ: بَغَتِ السَّماءُ: إذا كثُرَ مَطَرُها حتَّى تجاوَزَ الحَدَّ. ويُقالُ أيضًا: بَغَى الجُرحُ: إذا تورَّمَ واشتَدَّ وترامَى بالفَسادِ[1].

﴿شَرِيعَةٍ﴾: أي: مِلَّةٍ ومَذهَبٍ وطَريقةٍ، والشَّرْعُ والشِّرْعةُ والشَّريعةُ: الطَّريقةُ الظَّاهِرةُ، ونَهجُ الطَّريقِ الواضِحِ، وتُسَمَّى مَعالِمُ الدِّينِ شَريعةً؛ لِوُضوحِها، وأصلُها مِنَ الشَّرعِ: وهو البَيانُ والإظهارُ[2].

﴿أَهْوَآءَ﴾: الأهواءُ: المذاهِبُ الَّتي تدعو إليها الشَّهوةُ دونَ الحُجَّةِ، وأصلُه: يدُلُّ على الخُلُوِّ والسُّقُوطِ، وسُمِّيَ الهوى هَوًى؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في النَّارِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٢٨) و (٥/ ٢٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ١٥٠) و (٣/ ٥٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (٧/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، =

﴿أَوْلِيَآءُ﴾: أي: أصدقاءُ ونُصراءُ، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأصْل (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ؛ سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه(١).

﴿بَصَآئِرُ﴾: أي: حُجَجٌ بَيِّنةٌ، ودَلالاتٌ ظاهِرةٌ، واحِدتُها بَصيرةٌ: وهي الدَّلالةُ الَّتي تُوجِبُ إبصارَ النُّفوسِ للشَّيءِ، ومنه يُقالُ للدَّمِ الَّذي يُستَدَلُّ به على القَتيلِ: بَصيرةٌ، أو: هي البُرهانُ القاطِعُ الَّذي لا يَترُكُ في الحقِّ لَبْسًا، وأصلُها يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ وبَيانِه(٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه قد آتَى بني إسرائيلَ الكِتابَ والحُكْمَ، وجعَلَ فيهم كثيرًا مِن الأنبياءِ، ورَزَقهم مِن الرِّزقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ، وفضَّلهم على عالَمِي زمانِهم، فآتاهم ما لم يُؤتِ غيرَهم، وآتاهم آياتٍ واضِحاتٍ، فما تفرَّقوا واختَلَفوا إلَّا مِن بَعدِ ما جاءهم العِلمُ مِن اللهِ؛ ظُلمًا وحسَدًا فيما بيْنَهم!

ثمَّ يُخاطِبُ تعالى نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم قائِلًا له: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- يَحكُمُ بالعَدلِ بيْنَ أولئك المُختَلِفينَ مِن بني إسرائيلَ فيما كانوا يختَلِفونَ فيه.

ثمَّ يأمُرُه الله أنْ يَتمسَّكَ بالدِّينِ الَّذي أوحاه إليه، فيقولُ: ثمَّ جعَلْناك -يا

---

= ((البسيط)) للواحدي (٧/ ٤٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٨/ ٣٣٦) و (٩/ ٥٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠١).

محمَّدُ- على طَريقةٍ مُستقيمةٍ مِن الدِّينِ؛ فاتَّبِعْها، ولا تتَّبِعْ أهواءَ هؤلاء الجاهِلينَ؛ إنَّهم لن يَنفَعوك عندَ اللهِ بشَيءٍ، أو يَدفَعوا عنك شَيئًا مِن عذابِ اللهِ إنِ اتَّبعْتَ أهواءَهم، وإنَّ الظَّالِمينَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ، واللهُ ناصِرُ المُتَّقينَ ومُعينُهم.

ثمَّ يُثْني سبحانَه على القرآنِ الكريمِ، فيقولُ: هذا القُرآنُ دلائِلُ واضِحةٌ للنَّاسِ يُبَصِّرُهم الحَقَّ مِن الباطِلِ، وبه يَرشُدونَ، وهو هُدًى ورَحمةٌ للمُوقِنينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ أنَّه أنعَمَ بنِعَمٍ كَثيرةٍ على بني إسرائيلَ مع أنَّه حَصَل بَيْنَهم الاختِلافُ على سبَيلِ البَغيِ والحَسَدِ، والمقصودُ أن يُبَيِّنَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ طَريقةَ قَومِه كطَريقةِ مَن تقَدَّمَ، ولَمَّا كانت النِّعَمُ على قِسمَينِ: نِعمُ الدِّينِ، ونِعَمُ الدُّنيا؛ ونِعَمُ الدِّينِ أفضَلُ مِن نِعَمِ الدُّنيا؛ فلهذا بدأ اللهُ تعالى بذِكرِ نِعَمِ الدِّينِ، فقال[1]:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ﴾.

أي: ولقد أعْطَيْنا بني إسرائيلَ الكِتابَ[2]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٤).

(٢) قيل: المرادُ به: التَّوراةُ. وممَّن قال بهذا القول: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، والبيضاوي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

وقيل: المرادُ به: التَّوراةُ والإنجيلُ. ومِمَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦). =

والحُكْمَ[١]، وجعَلْنا فيهم كثيرًا مِن الأنبياءِ[٢].

= وقال السمرقندي: (﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: التَّوراةَ، والزَّبورَ، والإنجيلَ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨).

وقال القِنَّوْجي: (ولعلَّ الأولى أن يُحملَ الكتابُ على الجِنسِ؛ حتَّى يَشملَ الإنجيلَ والزَّبورَ أيضًا). ((تفسير القنوجي)) (١٢/ ٤٢٣).

وقيل: الكِتابُ يَعُمُّ التَّوارةَ والإنجيلَ والزَّبورَ وغيرَها مِمَّا أُنزِلَ على أنبيائِهم. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: البِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٤)، ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٩٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨).

(١) قيل: المرادُ بالحُكمِ هنا: الفَهمُ في الكِتابِ، والعِلمُ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي. وأراد ابنُ جَريرٍ بالعِلمِ: العِلمَ بالسُّنَنِ الَّتي لم تَنزِلْ في الكِتابِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٢).

وقيل: المرادُ به: القَضاءُ وفَصلُ الخُصوماتِ بيْنَ النَّاسِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: أبو حيَّان، والسعدي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

قال الشوكاني: (المرادُ بالكِتابِ: التَّوراةُ. وبالحُكمِ: الفَهمُ والفِقهُ الَّذي يكونُ بهما الحُكمُ بيْنَ النَّاسِ، وفَصلُ خُصوماتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩).

وقال ابن عاشور: (ويَصِحُّ أن يكونَ بمعنى السِّيادةِ، أي: أنَّهم يَحكُمونَ أنفُسَهم بأنفُسِهم، ولا تَحكُمُهم أمَّةٌ أخرى، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

وقال الرازي: (أمَّا الحُكمُ ففيه وُجوهٌ؛ يجوزُ أن يكونَ المرادُ: العِلمَ والحِكمةَ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ: العِلمَ بفَصلِ الحُكوماتِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ: مَعرِفةَ أحكامِ الله تعالى، وهو عِلمُ الفِقهِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٤، ٦٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

قال ابن عاشور: (معنى إيتائِهم هذه الأمورَ الثَّلاثةَ: إيجادُها في الأمَّةِ، وإيجادُ القائِمينَ بها؛ لأنَّ نَفْعَ ذلك عائِدٌ على الأمَّةِ جَمعاءَ، فكان كُلُّ فَردٍ مِن الأمَّةِ كمَنْ أُوتيَ تلك الأُمورَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾.

أي: ورَزَقْنا بني إسرائيلَ مِن الرِّزقِ الحَلالِ الطَّيِّبِ(١).

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥٧].

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: وفضَّلْنا بني إسرائيلَ على عالَمِي زمانِهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٢، ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٧، ١٩٨).

ممَّن اختار أنَّه أراد بقولِه: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عالَمي زَمانِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

ونسَبه الرَّازيُّ للمفسِّرينَ، فقال: (قال المفسِّرونَ: المرادُ: وفضَّلْناهم على عالَمِي زمانِهم). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٦).

وقال السعدي: (﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على الخَلقِ بهذه النِّعَم، ويَخرُجُ مِن هذا العُمومِ اللَّفظيِّ هذه الأُمَّةُ؛ فإنَّهم خيرُ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاسِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٨، ١٩٩).

وقال البقاعي: (﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهم الَّذين تحقَّق إيجادُنا لهم في زَمانِهم وما قَبْلَه؛ فإنَّا =

كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ٤٧].

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٧﴾.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾.

أي: وآتَيْنا بَني إسرائيلَ آياتٍ واضِحاتِ الحُجَجِ(١).

---

= آتَيْناهم مِن الآياتِ المَرئيَّةِ والمسموعةِ، وأكثَرْنا فيهم مِن الأنبياءِ ما لم نَفعَلْه لِغَيرِهم ممَّن سَبَق، وكُلُّ ذلك فضيلةٌ ظاهِرةٌ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥، ٣٤٦).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾: الوَحيُ، وتنزيلُ التَّوراةِ الَّتي فيها تَفصيلُ الأمورِ، وبَيانُ الحلالِ والحرامِ. وممَّن اختار هذا القَولَ في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، وابن عطية، والخازن، وأبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٦٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٨).

قال ابنُ عاشور: (علَّمْناهم بواسِطةِ كُتُبِهم وبواسِطةِ عُلَمائِهم حُجَجَ الحَقِّ والهُدى، الَّتي مِن شأنِها ألَّا تَترُكَ للشَّكِّ والخَطَأِ إلى نُفوسِهم سُبُلًا إلَّا سَدَّتْها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٥).

وقيل: المرادُ: الحلالُ والحرامُ، وبيانُ ما كان قَبْلَهم، وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨).

وقيل: المرادُ: دلائلُ ظاهرةٌ في أمرِ الدِّينِ، وآياتٌ ومعجزاتٌ. وممَّن اختاره في الجملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧١).

وقيل: المرادُ: دَلالاتٌ على العِلمِ بمبعثِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: البغوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٦٨).

وقال البِقاعي: (﴿بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾ المُوحى به إلى أنبيائِهم؛ مِنَ الأدِلَّةِ القَطعيَّةِ، والأحكامِ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾.

أي: فما تفرَّقَ بنو إسرائيلَ واختَلَفوا فيما بيْنَهم إلَّا مِن بَعدِ ما جاءهم العِلمُ الَّذي يُبَيِّنُ لهم ما يَتَّقُونَ، ويوجبُ عدَمَ الاختِلافِ، وإنَّما حمَلهم على ذلك الظُّلْمُ واعتداءُ بعضِهم على بعضٍ، والحسدُ وطلبُ الرِّياسةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا محمَّدُ- يَحكُمُ بالعَدلِ بيْنَ أولئك المُختَلِفينَ مِن بني إسرائيلَ

---

= والمواعِظِ المُؤَيَّدةِ بالمُعجِزاتِ، ومِن صِفاتِ الأنبياءِ الآتِينَ بَعْدَهم، وغيرِ ذلك ممَّا هو في غايةِ الوُضوحِ لِمَن قَضَيْنا بسَعادتِه، وذلك أمرٌ يَقتضي الأُلْفةَ والاجتِماعَ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٤، ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٦).
قال الرازي: (هاهنا احتِمالاتٌ: يريدُ أنَّهم عَلِموا ثمَّ عانَدوا، ويجوزُ أن يُريدَ بالعِلمِ الدَّلالةَ الَّتي تُوصِلُ إلى العِلمِ، والمعنى: أنَّه تعالى وَضَع الدَّلائِلَ والبَيِّناتِ الَّتي لو تأمَّلوا فيها لَعَرَفوا الحَقَّ، لكِنَّهم على وَجهِ الحَسَدِ والعِنادِ اختَلَفوا وأظهَروا النِّزاعَ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥).

يومَ القيامةِ فيما كانوا في الدُّنيا يختَلِفونَ فيه، فيُمَيِّزُ المحِقَّ مِن المُبطِلِ، ويُجازي كُلًّا منهم بما يَستحِقُّ[١].

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ أعرَضوا عن الحَقِّ؛ مِن أجْلِ البَغيِ والحَسَدِ؛ أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَعدِلَ عن تلك الطَّريقةِ، وأن يَتمَسَّكَ بالحَقِّ، وألَّا يكونَ له غَرَضٌ سِوى إظهارِ الحَقِّ، وتَقريرِ الصِّدْقِ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنْعامَه على بني إسْرائيلَ واختِلافَهم بعْدَ ذلك؛ ذكَرَ حالَ نَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وما مَنَّ به عليه مِن اصطِفائِه[٣]، فقال:

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾.

أي: ثمَّ جعَلْناك -يا محمَّدُ- مِن بَعدِ أن آتَيْنا بني إسرائيلَ الكِتابَ والحُكمَ والنُّبُوَّةَ: على طَريقةٍ مُستقيمةٍ ومِنهاجٍ واضِحٍ مِن الدِّينِ؛ فاتَّبِعْ شَريعةَ اللهِ الَّتي أوحاها إليك[٤].

كما قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٦، ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٧، ٣٤٨).

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولا تتَّبِعْ -يا محمَّدُ- ما يَدعوك إليه المُشرِكونَ الجاهِلونَ باللهِ ودِينِه مِن مُخالَفةٍ لِشَرعِ اللهِ، فلا تَعمَلْ بدِينِهم وآرائِهم، ولا تُوافِقْهم في باطِلِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: إنَّ الجاهِلينَ الَّذين يَدْعونَك -يا محمَّدُ- لاتِّباعِ أهوائِهم: لن يَنفَعوك عندَ اللهِ بشَيءٍ، ولن يَدفَعوا عنك شَيئًا مِن عذابِ اللهِ إنِ اتَّبَعْتَ أهواءَهم، وخالَفْتَ ما شرَعَ اللهُ لك[2].

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾.

أي: وإنَّ الظَّالِمينَ يَتولَّى بَعضُهم بعضًا؛ فهم أنصارٌ وأحبابٌ فيما بيْنَهم، وأعوانٌ على المؤمِنينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٥)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٣].

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

أي: واللهُ ناصِرٌ ومُعِينٌ لِلمُتَّقينَ الَّذين يَتَّقونَ سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتِنابِ ما نهَى[1].

كما قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

---

= (١٦/ ١٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٠).

قال الشنقيطي: (الظُّلمُ في لُغةِ العَرَبِ أصلُه وَضْعُ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه. و... أعظَمُ أنواعِه الشِّركُ باللهِ؛ لأنَّ وَضْعَ العبادةِ في غَيرِ مَن خَلَق ورَزَق هو أشنَعُ أنواعِ وَضْعِ الشَّيءِ في غَيرِ مَوضِعِه؛ ولذا كَثُرَ في القُرآنِ العَظيمِ إطلاقُ الظُّلمِ بمعنى الشِّركِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٠٠).

وقال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: يُريدُ المُنافِقينَ أولياءَ اليَهودِ. وقال الكَلْبيُّ ومُقاتِلٌ: يعني: مُشرِكي مَكَّةَ بَعضُهم أولياءُ بَعضٍ، ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الشِّركَ، وهم أمَّةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وقال عطاءٌ: يُريدُ المُهاجِرينَ والأنصارَ). ((البسيط)) (٢٠/ ١٤٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٨).

وقال الشوكاني: (والمرادُ بالمتَّقينَ: الَّذين اتَّقَوُا الشِّركَ والمعاصيَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠).

وقال ابنُ كثير: (أي: وماذا تُغْني عنهم وَلايتُهم لبَعضِهم بعضًا؛ فإنَّهم لا يَزيدونَهم إلَّا خَسارًا ودَمارًا وهلاكًا؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧).

وقال ابن عاشور: (أي: إنَّهم ظالِمونَ، وأنت لَسْتَ مِن الظَّالِمينَ في شَيءٍ؛ فلا يَجوزُ أن تتَّبِعَهم في شَيءٍ، وإنَّما يَتَّبِعُهم مَن هم أولياؤُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٨٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠١).

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ٢٠﴾.

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾.

أي: هذا القُرآنُ دلائِلُ ساطِعةٌ يُبصِرُ بها النَّاسُ الحَقَّ مِن الباطِلِ، ويَعرِفونَ بها الصَّوابَ في جميعِ أُمورِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

﴿وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾.

أي: وهذا القُرآنُ يَهدي إلى الحَقِّ في الدُّنيا، وإلى الجنَّةِ في الآخِرةِ، ورَحمةٌ في الدُّنيا والآخِرةِ للمُوقِنينَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠١).

قال ابن عاشور: (وإنَّما كان... بَصائرَ؛ لأنَّه يُبيِّنُ للنَّاسِ الخَيرَ والشَّرَّ، ويُحرِّضُهم على الخَيرِ، ويُحذِّرهم مِن الشَّرِّ، ويَعِدُهم على فِعلِ الخَيرِ، ويُوعِدُهم على فِعلِ الشُّرورِ؛ فعمَلُه عَملُ البَصيرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

قال ابن عاشور: (وإنَّما كان هُدًى؛ لأنَّه طَريقُ نَفْعٍ لِمَنِ اتَّبَعَ إرْشادَه، فاتِّباعُه كالاهتِداءِ للطَّريقِ المُوصِلةِ إلى المَقصودِ، وإنَّما كان رَحمةً؛ لأنَّ في اتِّباعِ هَدْيِه نَجاحَ النَّاسِ أفْرادًا وجَماعاتٍ في الدُّنيا؛ لأنَّه نِظامُ مُجتمعِهم ومَناطُ أمْنِهم، وفي الآخرةِ؛ لأنَّه سَببُ نَوالِهم دَرجاتِ النَّعيمِ الأبَديِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٠).

وقال ابن جرير: (﴿... لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ بحَقيقةِ صِحَّةِ هذا القُرآنِ، وأنَّه تَنزيلٌ مِن اللهِ العزيزِ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٥٢].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ المرادُ أنَّه لا يَنبغي أن يَغترَّ المُبطِلُ بنِعَمِ الدُّنيا؛ فإنَّها وإن ساوَتْ نِعَمَ المُحِقِّ أو زادَتْ عليها فإنَّه سيَرَى في الآخِرةِ ما يَسوؤُه[1]!

٢- قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ هذا فيه تحذيرٌ لهذه الأمَّةِ أن تَسلُكَ مَسلَكَهم، وأن تَقصِدَ مَنهَجَهم[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ذكَر جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه فضَّل بني إسرائيلَ على العالمينَ، لَكِنَّ اللهَ جَلَّ وعلا بَيَّنَ أنَّ أمَّةَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَيرٌ مِن بني إسرائيلَ، وأكرَمُ على اللهِ، كما صَرَّحَ بذلك في قَولِه تعالى:

---

= الحكيمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١١٠]؛ فـ (خَيْر) صيغةُ تَفضيلٍ، والآيةُ نَصٌّ صَريحٌ في أنَّهم خَيرٌ مِن جميعِ الأُمَمِ؛ بني إسرائيلَ وغَيرِهم، والتَّفضيلُ الوارِدُ في بني إسرائيلَ ذُكِرَ فيهم حالَ عَدَمِ وُجودِ أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمعدومُ في حالِ عَدَمِه ليس بشَيءٍ حتَّى يُفَضَّلَ أو يُفَضَّلَ عليه[١]. وأيضًا فإنَّ الفضائلَ الَّتي فاق بها بنو إسرائيلَ مِن الكِتابِ والحُكْمِ والنُّبُوَّةِ وغَيرِها مِن النُّعوتِ: قد حَصَلت كُلُّها لهذه الأُمَّةِ، وزادتْ عليهم هذه الأُمَّةُ فضائِلَ كَثيرةً، فهذه الشَّريعةُ شَريعةُ بني إسرائيلَ جُزءٌ منها؛ فإنَّ هذا الكِتابَ مُهيمِنٌ على سائِرِ الكُتُبِ السَّابقةِ، ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُصَدِّقٌ لجَميعِ المُرسَلينَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أنَّ أهلَ الكتابِ تَفرَّقوا واختَلَفوا قبْلَ إرسالِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم إليهم[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ المُتعبِّدَ للهِ إنْ لم يكُنْ مُتابِعًا للرَّسولِ فإنَّه لا تُقبَلُ عبادتُه[٤].

٤- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أمَرَه في هذه الآيةِ باتِّباعِ الشَّريعةِ الَّتي جعَلَه عليها، ونهاه عن اتِّباعِ ما يخالِفُها، وهي أهواءُ الَّذين لا يَعلَمونَ؛ ولهذا كان كُلُّ مَن خرَج عن

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩٧، ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٨٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٤/ ٢٢٠).

الشَّريعةِ والسُّنَّةِ: مِن أهلِ الأهواءِ، كما سَمَّاهم السَّلَفُ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تحريمُ الإفتاءِ في دينِ اللهِ بالرَّأيِ المتضَمِّنِ لِمُخالَفةِ النُّصوصِ، والرَّأيِ الَّذي لم تَشهَدْ له النُّصوصُ بالقَبولِ؛ فقَسَم سُبحانَه الأمرَ بيْنَ الشَّريعةِ الَّتي جَعَله هو سُبحانَه عليها، وأَوحَى إليه العَمَلَ بها، وأَمَر الأُمَّةَ بها؛ وبَيْنَ اتِّباعِ أهواءِ الَّذين لا يَعلَمونَ؛ فأمَر بالأوَّلِ، ونهَى عن الثَّاني[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ جَعَل البَصائِرَ للنَّاسِ؛ لأنَّه بَيانٌ للنَّاسِ عامَّةً، وجَعَل الهُدى والرَّحمةَ لِقَومٍ يُوقِنونَ؛ لأنَّه لا يَهتَدي ببَيانِه إلَّا الموقِنُ بحقيقتِه، ولا يُرحَمُ به إلَّا مَنِ اتَّبَعه؛ المؤمِنُ بحَقِّيَّتِه[٣].

٧- قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ في هذه الآيةِ الكريمةِ سُؤالٌ عربيٌّ معروفٌ، وهو أنَّ المبتدأَ الَّذي هو قَولُه: ﴿هَٰذَا﴾ اسمُ إشارةٍ إلى مُذكَّرٍ مُفرَدٍ، والخبَرُ الَّذي هو ﴿بَصَٰٓئِرُ﴾ جمعٌ مُكَسَّرٌ مُؤنَّثٌ، فيُقالُ: كيف يُسنَدُ الجَمعُ المُؤنَّثُ المُكَسَّرُ إلى المُفرَدِ المُذكَّرِ؟

**والجوابُ**: أنَّ مَجموعَ القُرآنِ كِتابٌ واحِدٌ، تَصِحُّ الإشارةُ إليه بـ ﴿هَٰذَا﴾، وهذا الكِتابُ الواحِدُ يَشتَمِلُ على بَراهينَ كَثيرةٍ، فصَحَّ إسنادُ البَصائِرِ إليه؛ لاشتِمالِه عليها كما لا يخفَى[٤]، ولاشتِمالِه على آياتٍ وسُوَرٍ جُعِلَ كُلٌّ منها بَصيرةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٤٧).

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ﴾ فيه أنَّ القُرآنَ الكَريمَ يَحصُلُ به التَّبصِرةُ في جَميعِ الأُمورِ للنَّاسِ، فيَحصُلُ به الانتِفاعُ للمُؤمِنينَ، والهدَى والرَّحمةُ؛ فيَهتَدونَ به إلى الصِّراطِ المُستَقيمِ في أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، ويَحصُلُ به الخَيرُ والسُّرورُ والسَّعادةُ في الدُّنيا والآخرةِ، وهي الرَّحمةُ؛ فتَزكو به نُفوسُهم، وتَزدادُ به عُقولُهم، ويَزيدُ به إيمانُهم ويَقينُهم، وتقومُ به الحُجَّةُ على مَن أصَرَّ وعانَدَ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَءَاتَيۡنَٰهُم بَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِۖ فَمَا ٱخۡتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإعلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّ السَّبيلَ الَّتي يَسيرُ عليها قَومُه هي السَّبيلُ الَّتي سار عليها مَن تَقدَّمَهم مِن الأُمَمِ[2].

- وسَوقُ خَبَرِ بني إسْرائيلَ هنا في قولِه: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ... ﴾ إلى قولِه: ﴿... فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴾ تَوطئةٌ وتَمهيدٌ لِقَولِه بعْدَه: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا ﴾ [الجاثية: ١٨]؛ أثارَ ذلك ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ * يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٧-٩]، ثمَّ قولِه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٠).

١٤]؛ فكان المَقصدُ قولَه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٨]؛ ولذلك عُطِفَت الجُملةُ بحَرْفِ (ثمَّ) الدَّالِّ على التَّراخي الرُّتبيِّ، أي: على أهمِّيَّةِ ما عُطِفَ بها. وكان مُقْتضى ظاهرِ النَّظْم أنْ يقَعَ قولُه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ...﴾ الآيتَين، بعْدَ قولِه: ﴿جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ [الجاثية: ١٨]، فيَكونَ دَليلًا وحُجَّةً له، فأُخْرِجَ النَّظْمُ على خِلافِ مُقْتَضَى الظَّاهِرِ، فجُعِلَت الحُجَّةُ تَمْهيدًا؛ قَصْدًا للتَّشويقِ لِمَا بعْدَه، ولِيَقَعَ ما بعْدَه مَعطوفًا بـ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ على أهمِّيَّةِ ما بعْدَها[1].

- وأُدمِجَ في خِلالِ الآياتِ ما اختَلَفَ فيه بَنو إسْرائيلَ على ما دعَتْهم إليه شَريعتُهم؛ لِمَا فيه مِن تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على مُخالَفةِ قَومِه دَعوتَه؛ تَنْظيرًا في أصْلِ الاخْتِلافِ دونَ أسْبابِه وعَوارِضِه. ولَمَّا كان في الكلامِ ما القصْدُ منه التَّسليةُ والاعتبارُ بأحْوالِ الأُمَمِ، حَسُنَ تأْكيدُ الخَبرِ بلامِ القسَمِ وحَرْفِ التَّحقيقِ (قدْ)؛ تأْكيدًا للمؤمنينَ بأنَّ اللهَ يَقْضي بيْنَهم وبيْنَ المُشرِكين، كشَأْنِه فيما حدَثَ بيْن بَني إسْرائيلَ[2].

- وقد بُسِطَ في ذِكرِ النَّظيرِ في بَني إسْرائيلَ مِن وَصْفِ حالِهم حِينَما حدَثَ الاخْتِلافُ بيْنَهم، ومِن التَّصريحِ بالدَّاعي لِلاختِلافِ بيْنَهم؛ ما طُوِيَ مِن مِثلِ بَعْضِه مِن حالِ المُشركينَ حِينَ جاءَهُم الإسلامُ، فاخْتَلَفوا مع أهْلِه؛ إيجازًا في الكلامِ؛ لِلاعتِمادِ على ما يَفْهَمُه السَّامِعونَ بطَريقِ المُقايَسةِ، على أنَّ أكْثَرَه قد وقَعَ تَفصيلُه في الآياتِ السَّابقةِ، مِثلُ قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٦]، وقولِه: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ [الجاثية: ١١]؛ فإنَّ ذلك يُقابِلُ قولَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤٤).

هنا: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾، ومِثلُ قولِه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ١٣]؛ فإنَّه يُقابِلُ قولَه هنا: ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾، ومِثلُ قولِه: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ إلى قولِه: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الجاثية: ٨، ٩]؛ فإنَّه يُقابِلُ قولَه هنا: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا﴾، ومِثلُ قولِه: ﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤]؛ فإنَّه مُقابِلٌ قولَه هنا: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلْأَمْرِ﴾ للتَّعظيمِ، أي: مِن شُؤونٍ عَظيمةٍ، أي: شأْنُ الأُمَّةِ وما به قِوامُ نِظامِها؛ إذ لَمْ يَترُكْ مُوسى والأنبياءُ مِن بَعْدِه شَيئًا مُهِمًّا مِن مَصالحِهم إلَّا وقدْ وضَّحوه وبيَّنوه، وحذَّروا مِن الالْتِباسِ فيه[2].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ تَفريعَ إدْماجٍ[3]؛ لِمُناسَبتِه للحالةِ الَّتي أُرِيدَ تَنْظيرُها، وتَقديرُ الكلامِ: فاخْتَلفوا، وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٣) الإدماجُ: هو أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المُبالَغةُ في المُطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

اخْتَلفوا إلَّا مِن بَعْدِ ما جاءَهم العِلمُ؛ فحُذِفَ المُفرَّعُ لِدَلالةِ ما بعْدَه عليه على طَريقةِ الإيجازِ؛ إذ المَقصودُ هو التَّعجُّبُ مِن حالِهم كيفَ اختَلَفوا حِينَ لا مَظِنَّةَ لِلاختِلافِ؛ إذ كان الاختِلافُ بيْنَهم بعْدَ ما جاءَهم العِلمُ المَعهودُ بالذِّكرِ آنِفًا مِن الكتابِ والحُكْمِ والنُّبوَّةِ والبيِّناتِ مِن الأمْرِ، ولو اخْتَلَفوا قبْلَ ذلك لَكان لهم عُذْرٌ في الاختِلافِ، وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ﴾ [الجاثية: ٢٣]. وهذا الكَلامُ كِنايةٌ عن عَدَمِ التَّعجُّبِ مِن اخْتِلافِ المُشرِكين معَ المُؤمِنينَ؛ حيثُ إنَّ المُشرِكينَ لَيسوا على عِلمٍ ولا هُدًى؛ لِيَعلَمَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه مَلطوفٌ به في رِسالتِه(١).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ خَبَرَهم العَجيبَ يُثيرُ سُؤالًا في نفْسِ سامِعِه عن جَزاءِ اللهِ إيَّاهم على فِعلِهم، وهذا جَوابٌ فيه إجْمالٌ؛ لِتَهويلِ ما سيُقْضَى به بيْنَهم في الخَيرِ والشَّرِّ؛ لأنَّ الخِلافَ يَقْتضي مُحِقًّا ومُبطِلًا(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا﴾ حَرْفُ (ثُم) للتَّراخي الرُّتبيِّ كما هو شأْنُها في عطْفِ الجُمَلِ، ولولا إرادةُ التَّراخي الرُّتبيِّ لَكانتِ الجُملةُ مَعطوفةً بالواوِ، وهذا التَّراخي يُفيدُ أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المعطوفةِ بحَرْفِ (ثُمَّ) أهمُّ مِن مَضمونِ الجُملةِ المعطوفِ عليها أهمِّيَّةَ الغرَضِ على المُقدِّمةِ، والنَّتيجةِ على الدَّليلِ. وفي هذا التَّراخي تَنويهٌ بهذا الجَعلِ، وإشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤٧).

إلى أنَّه أفضَلُ مِن إيتاءِ بَني إسرائيلَ الكِتابَ والحُكمَ والنُّبوَّةَ والبيِّناتِ مِن الأمْرِ؛ فنُبُوَّةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وكِتابُه، وحُكْمُه، وبَيِّناتُه؛ أفضَلُ وأهْدى ممَّا أُوتِيَه بَنو إسرائيلَ مِن مِثلِ ذلك(١).

- وحَرْفُ ﴿عَلَىٰ﴾ للاستِعلاءِ الدَّالِّ على التَّمكُّنِ والثَّباتِ(٢).

- وتَنوينُ ﴿شَرِيعَةٍ﴾ للتَّعظيمِ؛ بقَرينةِ حَرْفِ التَّراخي الرُّتبيِّ(٣).

- وقدْ بلَغَتْ هذه الجُملةُ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ مِن الإيجازِ مَبلَغًا عَظيمًا؛ إذ أفادتْ أنَّ شَريعةَ الإسلامِ أفضَلُ مِن شَريعةِ مُوسى، وأنَّها شَريعةٌ عَظيمةٌ، وأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُتمكِّنٌ منها، لا يُزَعْزِعُه شَيءٌ عن الدَّأَبِ في بَيانِها والدَّعوةِ إليها؛ ولذلك فُرِّعَ عليه أمْرُه باتِّباعِها بقولِه: ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾، أي: دُمْ على اتِّباعِها؛ فالأمْرُ لِطَلَبِ الدَّوامِ(٤).

- والخِطابُ في قولِه: ﴿فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمَقصودُ منه: إسْماعُ المشركينَ؛ لِئلَّا يَطمَعوا بمُصانَعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيَّاهم حِينَ يَرَون منه الإغضاءَ عن هَفَواتِهم وأذاهم، وحِينَ يَسْمَعون في القرآنِ بالصَّفْحِ عنهم، كما في الآيةِ السَّالفةِ؛ ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]. وفيه أيضًا تَعريضٌ للمُسلِمينَ بأنْ يَحذَروا مِن أهواءِ الَّذين لا يَعلَمونَ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٤٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن اتِّباعِ أهواءِ الَّذين لا يَعلَمون، ويَتضمَّنُ تَعليلَ الأمْرِ باتِّباعِ شَريعةِ اللهِ؛ فإنَّ كَونَهم لا يُغْنونَ عنه مِن اللهِ شَيئًا، يَستلزِمُ أنَّ في مُخالَفةِ ما أمَرَ اللهُ مِن اتِّباعِ شَريعتِه ما يُوقِعُ في غضَبِ اللهِ وعِقابِه؛ فلا يُغْني عنه اتِّباعُ أهْوائِهم مِن عِقابِه[١].

- والكلامُ في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ على حذْفِ مُضافٍ، أي: لنْ يُغْنوا عنك بَدَلًا مِن عَذابِ اللهِ، أي: قَليلًا مِن الإغناءِ البديلِ مِن عِقابِ اللهِ[٢].

- وعُطِفَ على هذا التَّعليلِ ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ تَعليلٌ آخَرُ؛ وهو ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾، أي: إنَّهم ظالِمون، وأنت لَسْتَ مِن الظَّالِمينَ في شَيءٍ؛ فلا يَجوزُ أنْ تَتَّبِعَهم في شَيءٍ، وإنَّما يَتَّبِعُهم مَن همْ أَولياؤُهم[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ تَذْييلٌ، وهو يُفيدُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ اللهُ وَليُّه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أوَّلُ المُتَّقينَ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ إنْ كانتِ الإشارةُ إلى الكلامِ المُتقدِّمِ وما فيه مِن ضَرْبِ المَثلِ بمُوسى وقَومِه، ومِن تَفضيلِ شَريعةِ محمَّدٍ على شَريعةِ مُوسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، والأمْرِ بمُلازَمةِ اتِّباعِها،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والتَّحذيرِ مِن اتِّباعِ رَغائبِ الَّذين لا يَعلَمون؛ فهذه الجُملةُ بمَنزِلةِ التَّذييلِ لِمَا قبْلَه والتَّهيئةِ لأغْراضِه؛ تَنْبيهًا لِما في طَيِّها مِن عواصِمَ عن الشَّكِّ والباطلِ. وإنْ كانت الإشارةُ إلى القُرآنِ -إذ هو حاضرٌ في الأذهانِ- كانت الجُملةُ استئنافًا أُعيدَ بها التَّنويهُ بشَأْنِ القُرآنِ ومُتَّبِعيه، والتَّعريضُ بتَحْميقِ الَّذين أعْرَضوا عنه، وتكونُ مُفيدةً تأْكيدَ قولِه آنفًا: ﴿هَٰذَا هُدًى ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ [الجاثية: ١١]، وتكونُ الجُملةُ المُتقدِّمةُ صَريحةً في وَعيدِ الَّذين كَفَروا بآياتِه، وهذه تَعريضًا بأنَّهم لم يَحْظَوا بهذه البصائرِ، وكِلا الاحْتِمالَينِ رَشيقٌ، وكلٌّ بأنْ يكونَ مَقصودًا حَقيقٌ[١].

- قولُه: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ فيه جمْعُ البَصائرِ -إنْ كانتِ الإشارةُ إلى القُرآنِ باعتبارِ المُتبصِّرينَ بسَببِه، كما اقْتَضاهُ قولُه: ﴿لِلنَّاسِ﴾-؛ لأنَّ لكلِّ أحدٍ بَصيرتَه الخاصَّةَ؛ فهي أمْرٌ جُزئيٌّ بالتَّبَعِ؛ لِكَونِ صاحبِ كلِّ بَصيرةٍ جُزئيًّا مُشخَّصًا، فناسَبَ أنْ تُورَدَ جمْعًا، وهذا بخِلافِ إفرادِ (هُدًى) و(رَحْمَةٌ)؛ لأنَّ الهُدى والرَّحمةَ مَعنَيانِ كُلِّيَّانِ يَصلُحانِ للعدَدِ الكثيرِ[٢].

- وذُكِرَ لَفظُ (قَوم)؛ للإيماءِ إلى أنَّ الإيقانَ مُتمكِّنٌ مِن نُفوسِهم، كأنَّه مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم الَّتي تُميِّزُهم عن أقوامٍ آخَرينَ[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ الإيقانِ؛ لأنَّه مَعلومٌ بما جاءتْ بهِ آياتُ اللهِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢١-٢٢)

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱجْتَرَحُوا۟﴾: أي: اكتَسَبوا وعَمِلوا، ومِنه الجارِحةُ للأعضاءِ الَّتي يُكتَسَبُ بها كالأيدي، وأصلُ (جرح): يدُلُّ على كَسْبٍ[1].

﴿وَخَتَمَ﴾: أي: طبَعَ وربَطَ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على التَّغطيةِ على الشَّيءِ، والاستيثاقِ منه، بألَّا يَدخُلَه شَيءٌ، ولا يَخرُجَ منه شَيءٌ[2].

﴿غِشَٰوَةً﴾: أي: غِطاءً وساترًا، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على التَّغطيةِ[3].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥، ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٩).

ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴾

﴿ أَمۡ ﴾ مُنقَطِعةٌ بمعنى: «بلْ» وهمزةِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: بل أَحَسِبَ...، أو تُقَدَّرُ بـ «بل» وَحْدَها، أي: بل حَسِبَ...، أو تُقَدَّرُ بالهَمزةِ وَحْدَها، أي: أَحَسِبَ الَّذين...[1].

قَولُه: ﴿ نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ الجَعلُ هنا بمعنى التَّصييرِ، و(هم) مَفعولُه الأوَّلُ. ﴿ كَٱلَّذِينَ ﴾: جارٌّ ومَجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولٌ به ثانٍ لـ (نَجعَل)، أي: أَحَسِبوا أَنْ نجعلَهم كائِنينَ كالَّذين آمَنوا. والمصدَرُ المؤوَّلُ ﴿أَن نَّجۡعَلَهُمۡ ...﴾ سَدَّ مَسَدَّ مَفعولَي ﴿حَسِبَ ﴾.

قولُه: ﴿سَوَآءً مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ ﴾: قُرِئَ ﴿سَوَآءً ﴾ بالنَّصبِ والرَّفعِ[2]؛ فأمَّا النَّصبُ ففيه أوجُهٌ:

**الأوَّلُ**: أنَّه حالٌ مِن الضَّميرِ المُستَتِرِ في مُتعَلَّقِ الجارِّ والمجرورِ ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾، أو مِن الضَّميرِ المنصوبِ في ﴿نَّجۡعَلَهُمۡ ﴾، والتَّقديرُ: أَحَسِبوا أن نجعَلَهم مِثلَهم في حالِ استِواءِ محياهم ومماتِهم؟ ليس الأمرُ كذلك. ويكونُ المفعولُ الثَّاني للجَعْلِ ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ كما تقَدَّمَ.

**الثَّاني**: أن يكونَ ﴿سَوَآءً ﴾ هو المفعولَ الثَّانيَ للجَعْلِ، و﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ في محَلِّ نَصبٍ على الحالِ، أي: أن نجعَلَهم حالَ كَونِهم مِثلَهم سواءً.

**الثَّالثُ**: أن يكونَ ﴿سَوَآءً ﴾ مَفعولًا بعدَ مَفعولِ الجَعْلِ، فيَكونَ ﴿كَٱلَّذِينَ﴾،

---

(١) قال ابنُ القيِّم في تفسيرِ ﴿أَمۡ ﴾ المُنقطِعةِ: (الحقُّ أن يُقالَ: إنَّها على بابِها وأصلِها الأوَّلِ مِن المُعادَلةِ والاستِفهامِ حيث وقعتْ، وإن لم يكُنْ قبْلَها أداةُ استِفهامٍ في اللَّفظِ، وتقديرُها بـ «بَلْ» والهمزةِ خارجٌ عن أُصولِ اللُّغةِ العربيَّةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٠٦، ٢٠٧). ويُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) يُنظر ما سيأتي في القراءات ذاتِ الأثر في التَّفسير (ص: ٩٠).

و﴿سَوَآءً﴾ كِلاهما في حَيِّزِ المَفعولِ الثَّاني للجَعْلِ وفي دَرَجةٍ واحدةٍ باعتِبارِ المفعوليَّةِ الثَّانيةِ، كما تقولُ: جعَلْتُ زيدًا عالِمًا كريمًا، فـ(عالِمًا كريمًا) وشِبهُه ولو تعَدَّدَت آلافًا: مَفعولٌ ثانٍ؛ لأنَّ الجَميعَ في معنًى واحِدٍ باعتِبارِ تعَلُّقِ الجَعلِ به، وهي كأخبارِ المبتدَأِ إذا تعَدَّدَت، فيَكونَ التَّقديرُ: أَحَسِبَ المُجترِحونَ أن نجعَلَهم مُماثِلينَ مُستَوِينَ في الحياةِ والمَماتِ؟! أي: هذا ليس بكائِنٍ.

**الرَّابِعُ**: أن يكونَ ﴿سَوَآءً﴾ بدَلًا مِن الكافِ في ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، بِناءً على أنَّها اسمٌ بمعنى (مِثْل).

﴿مَّحۡيَاهُمۡ﴾: فاعِلٌ بـ﴿سَوَآءً﴾؛ لأنَّه مَصدَرٌ وُصِفَ به، فهو في قُوَّةِ اسمِ الفاعِلِ المُشتَقِّ (مُسْتَوٍ)، ﴿وَمَمَاتُهُمۡ﴾: معطوفٌ على ﴿مَّحۡيَاهُمۡ﴾ مَرفوعٌ مِثلُه.

وأمَّا الرَّفعُ فعلى أنَّ ﴿سَوَاءٌ﴾ خبَرٌ مُقَدَّمٌ. و﴿مَّحۡيَاهُمۡ﴾ مُبتدَأٌ مُؤخَّرٌ، وفي محَلِّ هذه الجُملةِ الاسميَّةِ أوجُهٌ من الإعرابِ؛ أحدُها: أنَّها استِئنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. الثَّاني: أنَّها في محَلِّ نَصبٍ حالٌ، والتَّقديرُ: أمْ حَسِبَ الكُفَّارُ أَنْ نُصَيِّرَهم مِثلَ المؤمِنينَ في حالِ استواءِ محياهم ومماتِهم؟! لَيْسوا كذلك، بل هم مُفْتَرِقونَ. الثَّالثُ: أنَّها بدَلٌ مِن الكافِ في ﴿كَٱلَّذِينَ﴾ عندَ مَن جَوَّز إبدالَ الجُملةِ مِن المُفرَدِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفرِّقًا بيْنَ حالِ الَّذين يَكتَسِبونَ السَّيِّئاتِ، وحالِ المؤمنينَ الَّذين يَعمَلونَ الصَّالحاتِ: أمْ ظَنَّ الَّذين اكتَسَبوا السَّيِّئاتِ أن نجعَلَ حياتَهم

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٥)، ((أمالي ابن الحاجب)) (١/ ١٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٤٧).

ومَوتَهم كحياةِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ ومَوتِهم؟! كلَّا، لا يَستوي الفَريقانِ حياةً ولا مَوتًا، بِئسَ حُكمًا هذا الحُكمُ!

ثمَّ يؤكِّدُ سبحانَه على عدَمِ المُساواةِ بيْنَ الفريقَينِ، فيقولُ: وخَلَق اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ، ولِيُجزَى كُلُّ عامِلٍ بعَمَلِه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وهم لا يُظلَمونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مسلِّيًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: أفرَأَيْتَ -يا محمَّدُ- مَنِ اتَّخَذ ما يَهواه مَعبودًا له مِن دونِ اللهِ تعالى، وأضلَّه اللهُ على عِلمٍ منه سُبحانَه بأنَّه مِن أهلِ الضَّلالِ، وطَبَع على سَمْعِه وقَلبِه؛ فليس له طريقٌ إلى الهُدى بحالٍ، وجَعَل اللهُ على بَصَرِه غِطاءً يَمنَعُه مِن رُؤيةِ الحَقِّ، فمَن يَهدي هذا الضَّالَّ إلى طريقِ الحَقِّ واتِّباعِه بعدَ أنْ أضَلَّه اللهُ؟! أفلا تَتذَكَّرونَ -أيُّها النَّاسُ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى الفَرْقَ بيْنَ الظَّالِمينَ وبيْنَ المتَّقينَ مِن الوَجهِ الَّذي تقَدَّمَ في قَولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الجاثية: ١٩]؛ بيَّنَ الفَرقَ بيْنَهما مِن وَجهٍ آخَرَ[١].

### القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: ﴿سَوَآءً﴾ قِراءتانِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٥، ٦٧٦).

١- قِراءةُ: ﴿سَوَآءً﴾ بالنَّصبِ، على معنى: أمْ حَسِبَ الَّذين اجترَحوا السَّيِّئاتِ أن نجعَلَ حياتَهم وموتَهم كحياةِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ ومَوتِهم؟! كلَّا، لا يَستوي الفَريقانِ حياةً ولا مَوتًا(١).

٢- قِراءةُ: ﴿سَوَآءٌ﴾ بالرَّفعِ. قيل: هي جُملةٌ استِئنافيَّةٌ معناها: أنَّ مَحْيا المؤمِنِ ومَماتَه سواءٌ؛ فيَحيا مؤمِنًا، ويموتُ كذلك على الإيمانِ، ويُبعَثُ عليه، ومَحْيا الكافِرِ ومَماتَه سواءٌ؛ فيَحيا كافِرًا، ويموتُ كذلك على الكُفرِ، ويُبعَثُ عليه. وقيل: هي داخِلةٌ في حيِّزِ الجُملةِ الاستِفهاميَّةِ السَّابِقةِ، ومعناها يَرجِعُ للقِراءةِ الأُولى(٢).

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾.

أي: أمْ ظَنَّ الَّذين عَمِلوا السَّيِّئاتِ في الدُّنيا واكتَسَبوها أن نُساوِيَهم في حياتِهم ومَوتِهم بالَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ؟! كلَّا؛ فليس المُؤمِنونَ سَواءً مع الكفَّارِ، لا في المحْيا ولا في المماتِ(٣).

---

(١) قرأ بها حفصٌ عن عاصمٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦١)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٦٤٨).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٧٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٨)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٦٤٩، ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٣، ٣٥٥).
قال الشوكاني: (﴿أَمْ﴾ هي المُنقَطِعةُ المُقَدَّرةُ بـ«بلْ والهمزةِ»، وما فيها مِن معنى «بل» للانتِقالِ مِن البَيانِ الأوَّلِ إلى الثَّاني، والهَمزةُ لإنكارِ الحِسْبانِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠). =

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ

---

= وقال الرازي: (﴿أَمْ﴾ كَلِمةٌ وُضِعَت للاستِفهامِ عن شَيءٍ حالَ كَونِه مَعطوفًا على شَيءٍ آخَرَ، سواءٌ كان ذلك المعطوفُ مذكورًا أو مُضمَرًا، والتَّقديرُ هاهنا: أفيَعلَمُ المُشرِكونَ هذا، أم يَحسَبونَ أنَّا نَتولَّاهم كما نَتولَّى المُتَّقينَ؟). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٦).

وقال ابنُ القَيِّم: (﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ﴾ أي: أَحَسِبوا هذا فهُم مُغتَرُّونَ، أم لم يَحسَبوه فما لهم مقيمون على السَّيِّئاتِ؟ وعلى هذا سائِرُ ما يَرِدُ عليك مِن هذا البابِ، وتأمَّلْ كيف يَذكُرُ سُبحانَه القِسْمَ الَّذي يَظُنُّونَه ويَزعُمونَه فيُنكِرُه عليهم، وأنَّه مِمَّا لا يَنبغي أن يكونَ، وَيترُكُ ذِكرَ القِسمِ الآخَرِ الَّذي لا يَذهَبونَ إليه، فتَرَدَّدَ الكَلامُ بيْنَ قِسمَينِ، فيُصَرِّحُ بإنكارِ أحَدِهما، وهو الَّذي سِيقَ الكلامُ لإنكارِه، ويكتفي منه بذِكرِ الآخَرِ، وهذه طريقةٌ بَديعةٌ عَجيبةٌ في القُرآنِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٠٨).

وقال ابن جُزَي: (المرادُ بالَّذين اجتَرَحوا السَّيِّئاتِ: الكُفَّارُ؛ لِمُقابَلتِه بالَّذين آمَنوا، ولأنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ، وقد يَتناوَلُ لَفظُها المُذنِبينَ مِن المؤمِنينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧١).

وقال ابن عاشور: (واعْلَمْ أنَّ هذه الآيةَ وإنْ كان مَورِدُها في تَخالُفِ حالَي المُشرِكينَ والمُؤمِنينَ، فإنَّ نَوْطَ الحُكمِ فيها بصِلةِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ يَجعَلُ منها إيماءً إلى تَفاوُتِ حالَيِ المُسيئينَ والمُحسِنينَ مِن أهلِ الإيمانِ وإنْ لم يَحسَبْ أحدٌ مِن المُؤمِنينَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٥).

وقال ابنُ جُزَي في تفسيرِ الآيةِ: (ومعناها: إنكارُ ما حَسِبَه الكُفَّارُ مِن أن يَكونوا هم والمؤمِنونَ سَواءً في المحيا والمماتِ، وفي تأويلِها مع ذلك قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّ المرادَ: ليس المؤمنونَ سَواءً مع الكُفَّارِ، لا في المحيا ولا في المماتِ؛ فإنَّ المؤمِنينَ عاشوا على التَّقوى والطَّاعةِ، والكُفَّارَ عاشوا على الكُفرِ والمعصيةِ، وكذلك مماتُهم ليس سَواءً.

والقَولُ الآخَرُ: أنَّهم استَوَوا في المحيا في أمورِ الدُّنيا مِن الصِّحَّةِ والرِّزقِ، فلا يَستَوونَ في المماتِ، بل يَسعَدُ المُؤمِنونَ ويَشقى الكافِرونَ، فالمرادُ بها إثباتُ الجَزاءِ في الآخرةِ، وتَفضيلُ المؤمِنينَ على الكافِرينَ في الآخرةِ، وهذا المعنى هو الأظهَرُ والأرجَحُ، فيكونُ معنى الآيةِ كقَولِه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، وكقَولِه: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧١).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ: الإعلامُ بنَفيِ المُساواةِ بيْنَهما في المحيا والمماتِ، والدُّنيا والآخرةِ: البَغَويُّ، والرَّسْعَنيُّ، وابنُ كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير =

نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((يُبعَثُ كُلُّ عَبدٍ على ما مات عليه))[1].

﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾.

أي: بِئسَ هذا الحُكمُ الَّذي حَسِبَه المُشرِكونَ؛ أنَّ اللهَ يُساوِي بيْنَ الَّذين عَمِلوا السَّيِّئاتِ والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ في مَحياهم ومماتِهم[2]!

---

= البغوي)) (٤/ ١٨٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

قال الزمخشري: (المعنى: إنكارُ أن يَستويَ المُسيئُونَ والمُحسِنونَ مَحْيًا، وأن يَستوُوا مَماتًا؛ لافتِراقِ أحوالِهم أحياءً؛ حيثُ عاش هؤلاء على القيامِ بالطَّاعاتِ، وأولئك على رُكوبِ المعاصي، ومماتًا؛ حيث مات هؤلاءِ على البُشرى بالرَّحمةِ، والوُصولِ إلى ثوابِ اللهِ ورِضوانِه، وأولئك على اليأسِ مِن رَحمةِ اللهِ، والوُصولِ إلى هَولِ ما أُعِدَّ لهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٠).

وقال القاسمي: (عاش هؤلاءِ على الهدى، والعِلمِ باللهِ، وسَنَنِ الرَّشادِ، وطُمأنينةِ القَلبِ، وأولئك على الضَّلالِ والجَهلِ، والعَبَثِ والفَسادِ، واضطِرابِ القَلبِ، وضِيقِ الصَّدرِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٠).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: أمْ ظَنَّ الَّذين اجترَحوا السَّيِّئاتِ مِن الأعمالِ في الدُّنيا، وكَذَّبوا رُسُلَ اللهِ، وخالَفوا أمْرَ رَبِّهم، وعَبَدوا غَيْرَه: أنْ نَجعَلَهم في الآخرةِ كالَّذينَ آمَنوا باللهِ وصَدَّقوا رُسُلَه وعَمِلوا الصَّالحاتِ، فأطاعوا اللهَ، وأخلَصوا له العبادةَ دونَ ما سِواه مِن الأندادِ والآلهةِ؟! كَلَّا. ما كان اللهُ لِيَفعَلَ ذلك، لقد مَيَّزَ بيْنَ الفَريقَينِ، فجَعَل حِزبَ الإيمانِ في الجنَّةِ، وحِزبَ الكُفرِ في السَّعيرِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٨٧، ٨٨).

(١) رواه مسلم (٢٨٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧). =

= قال السعدي: (فإنَّه حُكمٌ يُخالِفُ حِكمةَ أحكَمِ الحاكِمينَ، وخَيرِ العادِلينَ، ويُناقِضُ العُقولَ

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أنكَرَ اللهُ تعالى التَّسويةَ بيْنَ المؤمِنِ والكافِرِ، وذَمَّهم على الحُكمِ بها؛ أتْبَعَ ذلك الدَّليلَ القَطعيَّ على أنَّ الفَريقَينِ لا يَستويانِ، وإلَّا لَمَا كان الخالِقُ لهذا الوُجودِ عَزيزًا ولا حَكيمًا[1].

﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: وخَلَق اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

﴿وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ﴾.

أي: ولِيُثيبَ اللهُ كُلَّ عامِلٍ بما عَمِلَه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وبما يَستَحِقُّه مِن ثوابٍ أو عِقابٍ[3].

---

السَّليمةَ، والفِطَرَ المُستقيمةَ، ويُضادُّ ما نَزَلت به الكُتُبُ، وأخبَرَت به الرُّسُلُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٨٦)، = = ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

كما قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٧].

﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾.

أي: ولا يَظلِمُ اللهُ النَّاسَ شَيئًا مِن جزاءِ أعمالِهم؛ بنَقصِ ثَوابِهم، أو زيادةِ عِقابِهم(١).

﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٢٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى عاد إلى شَرحِ أحوالِ الكُفَّارِ وقبائِحِ طَوائِفِهم(٢).

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى غايةَ البَيانِ أنَّه الإلهُ وَحْدَه، بما له مِنَ الإحاطةِ بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ، وأنَّه لا بُدَّ مِن جَمْعِه الخلائِقَ لِيَومِ الفَصلِ؛ للحُكمِ بيْنَهم بما له مِنَ الحِكمةِ والقُدرةِ؛ وحَقَّرَ الهوى ونهَى عن اتِّباعِه، وكان المُشرِكونَ قد عَظَّموه بحيثُ جَعَلوه مَعبودًا، فلَزِمَ مِن ذلك تحقيرُهم الإلهَ، ولم يَرجِعوا عن ضَلالِهم- تَسَبَّبَ عن ذلك التَّعجيبُ مِمَّن يَظُنُّ أنَّه يَقدِرُ على رَدِّ أحَدٍ مِنهم عن غَيِّه بشَيءٍ مِن الأشياءِ(٣).

﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

---

قال البِقاعي: (لَمَّا كان التَّقديرُ: لِيَكونَ كُلُّ مُسَبَّبٍ مُطابِقًا لأسبابِه، عَطَفَ عليه قَولَه: ﴿وَلِتُجۡزَىٰ﴾). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٣، ٩٤).

أي: أفرأَيتَ -يا محمَّدُ- الَّذي جَعَل مَعبودَه ما يَهواه، فيَعبُدُ ويُطيعُ ما هَوِيَه دونَ اللهِ المُستَحِقِّ للعِبادةِ وَحْدَه(١)؟!

كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

أي: وأضلَّ اللهُ ذلك المُتَّبِعَ هواه عن طَريقِ الحَقِّ، على عِلمٍ مِن الله سبَق أنَّه يَضِلُّ ولا يَهتَدي(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٧، ٣٥٨).

قال ابنُ عاشور: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمقصودُ مَنْ مَعه مِنَ المُسلِمينَ، أو الخِطابُ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: تناهَت حالُهم في الظُّهورِ، فلا يختَصُّ بها مُخاطَبٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٧).

وقال ابن عطيَّة: (هذه الآيةُ وإن كانت نزَلَت في هوى الكُفرِ، فهي مُتناوِلةٌ جميعَ هوى النَّفْسِ الأمَّارةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

ممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والسمعاني، وابنُ القيِّم -ونَسَبه إلى جُمهورِ المُفَسِّرينَ-، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤٢٦).

قال ابنُ القيِّم: (فالمعنى: أضلَّه اللهُ عالِمًا به وبأقوالِه، وما يُناسِبُه ويَليقُ به ولا يَصلُحُ له غَيرُه قبْلَ خَلْقِه وبَعْدَه، وأنَّه أهلٌ للضَّلالِ، وليس أهلًا أن يُهدى، وأنَّه لو هُدِيَ لَكان قد وَضَع الهُدى =

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾.

أي: وطَبَع اللهُ على سَمْعِه، فلا يَنتَفِعُ بسَماعِ الحَقِّ، وطَبَع على قَلبِه فلا يَعقِلُ به الحَقَّ؛ فليس له طريقٌ إلى الهُدى بسَمعِه ولا قَلبِه(١).

كما قال تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ

---

= في غيرِ مَحَلِّه وعندَ مَن لا يَستَحِقُّه، والرَّبُّ تعالى حكيمٌ إنَّما يَضَعُ الأشياءَ في مَحالِّها اللَّائِقةِ بها؛ فانتَظَمَت الآيةُ على هذا القَولِ في إثباتِ القَدَرِ والحِكمةِ الَّتي لأجْلِها قُدِّرَ عليه الضَّلالُ، وذُكِرَ العِلمُ؛ إذ هو الكاشِفُ المُبِينُ لحقائقِ الأمورِ، ووَضْعِ الشَّيءِ في مَواضِعِه، وإعطاءِ الخَيرِ مَن يَستَحِقُّه، ومَنْعِه مَن لا يَستَحِقُّه؛ فإنَّ هذا لا يَحصُلُ بدونِ العِلمِ؛ فهو سبحانَه أضَلَّه على عِلْمِه بأحوالِه الَّتي تُناسِبُ ضَلالَه وتَقتَضيه وتَستَدعيه. ((شفاء العليل)) (ص: ٣٠).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على عِلمٍ قد عَلِمَه منه. وقيل: أضلَّه عن الثَّوابِ على عِلمٍ منه بأنَّه لا يَستَحِقُّه. وقال ابنُ عبَّاسٍ: أي: على عِلمٍ قد سَبَق عِندَه أنَّه سيَضِلُّ. مِقاتلٌ: على عِلمٍ منه أنَّه ضالٌّ. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٣٩).

وقال ابنُ عطية: (وقالت فِرقةٌ: أي: على عِلمٍ مِن هذا الضَّلالِ؛ فإنَّ الحَقَّ هو الَّذي يُترَكُ ويُعرَضُ عنه، فتكونُ الآيةُ على هذا مِن آياتِ العِنادِ، نَحو قَولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٦).

وقال ابن عاشور: (ومعنى ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أنَّهم أحاطت بهم أسبابُ الضَّلالةِ مع أنَّهم أهلُ عِلمٍ، أي: عُقولٍ سَليمةٍ، أو مع أنَّهم بَلَغَهم العِلمُ بما يَهديهم، وذلك بالقُرآنِ ودَعوةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الإسلامِ... والمعنى: أنَّه ضالٌّ مع ما له مِن صِفةِ العِلمِ، فالعِلمُ هنا مِنْ وَصفِ مَن اتَّخَذ إلهَه هواه، وهو مُتمَكِّنٌ مِن العِلمِ لو خَلَع عن نَفْسِه المُكابَرةَ، والمَيلَ إلى الهَوى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٨).

وقال ابنُ كثير: (وقولُه: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يَحتَمِلُ قَولَين؛ أحَدُها: وأضَلَّه اللهُ؛ لعِلْمِه أنَّه يَستَحِقُّ ذلك. والآخَرُ: وأضَلَّه اللهُ بعدَ بُلوغِ العِلمِ إليه، وقيامِ الحُجَّةِ عليه. والثَّاني يَستلزِمُ الأوَّلَ، ولا يَنعَكِسُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة: ٧].

﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً ﴾.

أي: وجَعَل اللهُ على بَصَرِه غِطاءً يَمنَعُه مِن رُؤيةِ الحَقِّ، فهو لا يَنتَفِعُ ببَصَرِه لِمَعرفةِ الحَقِّ واتِّباعِه[1].

﴿فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: لا أحَدَ يَهديه إلى طريقِ الحَقِّ واتِّباعِه بعدَ أن أضَلَّه اللهُ[2]!

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾.

أي: أفلا تَتذَكَّرونَ -أيُّها النَّاسُ- فتَعلَموا أنَّ مَن كان هذا حالَه فلنْ يَهتديَ أبدًا، ولا سبيلَ لأحدٍ إلى هِدايتِه[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٧، ٩٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: المصدران السابقان.

وقال السَّمرقندي: (﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ أنَّ مَن لا يُقبِلُ إلى دينِ اللهِ، ولا يَرغَبُ في طاعتِه: لا يُكرِمُه بالهُدى والتَّوحيدِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٠).

وقال الشوكاني: (﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ تذَكُّرَ اعتِبارٍ، حتَّى تَعلَموا حَقيقةَ الحالِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿أَفَلَا ﴾ يعني: أفهلَّا ﴿تَذَكَّرُونَ ﴾ فتَعتَبِروا في صُنعِ الله، فتُوحِّدوه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٤٠).

وقيل: المعنى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فتَعرِفوا قُدْرتَه على ما يَشاءُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والقرطبي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٩). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يُستنبَطُ مِن هذه الآيةِ تَبايُنُ حالِ المؤمِنِ العاصي مِن حالِ الطَّائِعِ، وإن كانت في الكُفَّارِ[١].

٢- قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ عن مَسروقٍ قال: (قال لي رَجُلٌ مِن أهلِ مَكَّةَ: هذا مَقامُ أخيك تميمٍ الدَّاريِّ، لقد رأيتُه ذاتَ لَيلةٍ حتَّى أصبَحَ، أو كَرَبَ[٢] أن يُصبِحَ يَقرَأُ آيةً مِن كِتابِ اللهِ، يَركَعُ ويَسجُدُ ويَبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾ الآيةَ)[٣].

وقال بَشيرٌ: (بِتُّ عندَ الرَّبيعِ بنِ خُثَيمٍ ذاتَ لَيلةٍ، فقام يُصَلِّي، فمَرَّ بهذه الآيةِ فمَكَث ليلَه حتَّى أصبَحَ لم يَعْدُها، ببكاءٍ شَديدٍ)!

وقال إبراهيمُ بنُ الأشعَثِ: (كثيرًا ما رأيتُ الفُضَيلَ بنَ عِياضٍ يُرَدِّدُ مِن أوَّلِ اللَّيلِ إلى آخِرِه هذه الآيةَ ونَظيرَها، ثمَّ يقولُ: لَيْتَ شِعْري مِن أيِّ الفريقَينِ أنتَ؟!)، وكانت هذه الآيةُ تُسَمَّى مَبكاةَ العابِدينَ[٤]!

---

= وقيل: المعنى: أفلا تَذَكَّرونَ ما يَنفَعُكم فتَسلُكوه، وما يَضُرُّكم فتَجتَنِبوه. قاله السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢١).

(٢) كَرَب: أي: كادَ وأوشَكَ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لأبي عبد الله الرازي (ص: ٢٦٧).

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٨٣٣).

قال العَيْني في ((نخب الافكار)) (٥/ ٤٥٧): (رجالُه ثقاتٌ)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سير أعلام النبلاء)) (٢/ ٤٤٥): (رجالُه ثقاتٌ).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٦).

٣- قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ إذا تأمَّلْتَ حالَ عُشَّاقِ الصُّوَرِ المُتيَّمينَ فيها، وجَدْتَ هذه الآيةَ مُنطَبِقةً عليهم، مُخبِرةً عن حالِهم[1].

٤- مُخالَفةُ ما تهوى الأنفُسُ شاقٌّ عليها، وصَعبٌ خُروجُها عنه؛ ولذلك بلَغَ أهلُ الهوى في مُساعدتِه مَبالغَ لا يَبلُغُها غَيرُهم، وكفى شاهِدًا على ذلك حالُ المحِبِّينَ، وحالُ مَن بُعِثَ إليهم رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن المُشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ وغَيرِهم، ممَّن صَمَّم على ما هو عليه، حتَّى رَضُوا بإهلاكِ النُّفوسِ والأموالِ، ولم يَرضَوا بمُخالَفةِ الهوى! حتَّى قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وقال: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤][2]؛ فأصلُ الشَّرِّ مُتابَعةُ الهَوى، والخَيرُ كُلُّه في مُخالَفتِه؛ فنِعْمَ ما قال الشاعِرُ:

إذا طالَبَتْكَ النَّفْسُ يومًا بشَهوةٍ ... وكان إليها للخِلافِ طَريقُ
فدَعْها وخالِفْ ما هَوِيتَ فإنَّما ... هواكَ عَدُوٌّ والخِلافُ صَديقُ[3]

٥- قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآيةُ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ العِلمَ مع الخِذلانِ غيرُ نافِعٍ، وبَعثٌ على الاستِهداءِ مِن عندِ اللهِ، وطَرحِ الكَيفِ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٢/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٠٣).

والبيتان منسوبانِ لأبي الفتحِ البُسْتي. يُنظر: ((مجاني الأدب في حدائق العرب)) لرزق الله بن يوسف (٢/ ٥٢)، والقسم الرابع من مجلة المورد العراقية (٣٤/ ١٠٢). ونسبهما القرطبيُّ لابنِ دُرَيدٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٦٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ٣٦٣)، ((ذم الهوى)) لابن الجوزي (ص: ٥٢، ٥٣).

بيْنَ يَدَيه، والتَّبَرُّؤِ مِن الحَولِ والقُوَّةِ إليه[١]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ هذه الآيةُ أصلٌ في التَّحذيرِ مِن أن يكونَ الهوى هو الباعِثَ للمُؤمِنينَ على أعمالِهم، ويَترُكوا اتِّباعَ أدِلَّةِ الحَقِّ، فإذا كان الحَقُّ مَحبوبًا لأحدٍ فذلك مِن التَّخَلُّقِ بمَحبَّةِ الحَقِّ تَبَعًا للدَّليلِ، مِثلُ ما يهوى المؤمِنُ الصَّلاةَ والجَماعةَ، وقيامَ رَمَضانَ وتِلاوةَ القُرآنِ؛ وأمَّا اتِّباعُ الأمرِ المحبوبِ لإرضاءِ النَّفْسِ دونَ نَظَرٍ في صَلاحِه أو فَسادِه فذلك سَبَبُ الضَّلالِ وسُوءِ السِّيرةِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- المذنبُ إنْ عُفِي عنه بغيرِ سببٍ مِن الأسبابِ المكفِّرةِ ونحوِها، فإنَّه لابدَّ أن تلحقَه عقوباتٌ كثيرةٌ، منها ما فاتَه مِن ثوابِ المحسنين؛ فإنَّ اللهَ تعالى وإنْ عَفَا عنِ المُذنِبِ فلا يَجعلُه كالَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٣].

٢- اللهُ تعالى قائِمٌ بالقِسطِ، ولا يَظلِمُ النَّاسَ شيئًا؛ فلا يَضَعُ شَيئًا في غيرِ مَوضِعِه، ولا يُسَوِّي بيْنَ مُختَلِفَينِ، ولا يُفَرِّقُ بيْنَ مُتماثِلَينِ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[٤].

٣- مَن أحَبَّ شَيئًا وأطاعه، وأحَبَّ عليه وأبغَضَ عليه: فهو إلهُه؛ فمَن كان لا يُحِبُّ ولا يُبغِضُ إلَّا لله، ولا يُوالي ولا يُعادي إلَّا له: فاللهُ إلهُه حَقًّا، ومَن أحَبَّ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٩، ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٧٩٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٩٢).

لِهَواه وأبغَضَ له، ووالى عليه وعادى عليه: فإلهُه هَواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[١].

٤- إذا أمَرَ اللهُ على ألسِنةِ رُسُلِه بشَيءٍ، فعدَلَ عنه العبدُ إلى ما يُحِبُّه هو؛ كان عابدًا لِهَواه لا عابِدًا لله؛ قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[٢]!

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ليس يَبقى للقَدَريَّةِ مع هذه الآيةِ عُذرٌ ولا حِيلةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَّح بمَنعِه إيَّاهم عن الهدَى حينَ أخبَرَ أنَّه خَتَم على قَلبِ هذا الكافِرِ وسَمعِه[٣].

٦- قَولُه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ عن الحَسَنِ قال: (هو المنافِقُ لا يَهوى شَيئًا إلَّا رَكِبَه)[٤]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ إطلاقُ الإلهِ على الهوى المتَّبَعِ[٥].

٨- تحقيقُ التَّوحيدِ يستلزِمُ اجتِنابَ المعاصي؛ لأنَّ المعاصيَ صادِرةٌ عن الهوَى، وهذا نوعٌ مِن الشِّركِ، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، فالمعاصي مِن

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٤٩).

(٤) أخرجه أبو بكرٍ الفِرْيابي في ((صفة النفاق وذم المنافقين)) (٤٣)، ومن طريقه ابن الجوزي في ((ذم الهوى)) (ص: ١٧). وقد ورد معناه عن غير واحد من السلف. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ١٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٥٦).

حيثُ المعنى العامُّ، أو الجِنسُ العامُّ يُمكِنُ أنْ نَعتبِرَها مِن الشِّركِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾

- الآيةُ انتِقالٌ مِن وَصْفِ تَكذيبِهم بالآياتِ واسْتِهزائِهم بها، ثمَّ مِن أمْرِ المُؤمِنينَ بالصَّفْحِ عنهم، وإيكالِ جَزاءِ صَنائعِهم إلى اللهِ، ثمَّ مِن التَّثبيتِ على مُلازَمةِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ إلى وَصْفِ صِنفٍ آخَرَ مِن ضَلالِهم واسْتِهزائِهم بالوعْدِ والوعيدِ، وإحالَتِهم الحياةَ بعْدَ الموتِ، والجَزاءَ على الأعمالِ، وتَخْييلِهم للنَّاسِ أنَّهم يَصيرُون في الآخرةِ على الحالِ الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا؛ عَظيمُهم في الدُّنيا عَظيمُهم في الآخرةِ، وضَعيفُهم في الدُّنيا ضَعيفُهم في الآخرةِ، وهذا الانتِقالُ رُجوعٌ إلى بَيانِ قولِه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[٢] [الجاثية: ١٥].

-قولُه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ تَغايُرِ حالَيِ المُسيئينَ والمُحسِنينَ، إثْرَ بَيانِ تَبايُنِ حالَيِ الظَّالِمينَ والمُتَّقينَ[٣].

- وحَرْفُ (أَمْ) في قولِه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ للإضرابِ الانتِقاليِّ، والاستِفهامُ لإنكارِ حِسبانِ أنْ يَسْتويَ المُسيئون والمُحسِنون مَحيًا، وأنْ يَسْتوُوا مَماتًا؛ لافتراقِ أحْوالِهم أحياءً، ومَماتًا. فعلَى هذا يكون قولُه: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مِن الحِسبانِ

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٤٨، ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٢).

المنكورِ. وقيلَ: ﴿سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ على معنَى: أنَّ محيَا المسيئين ومماتَهم سواءٌ، وكذلك محيا المحسنين ومماتُهم: كلٌّ يموتُ على حسَبِ ما عاشَ عليه. أو ذلك أنَّه حِينَ أنْكَر حِسبانَ أنْ يَستوِيَ الكافرُ والمُؤمِنُ، قِيل: فإذَنْ كيف الحالُ؟ فأُجِيبَ: أنَّ المُؤمِنَ يَعيشُ حَميدًا ويَموتُ سَعيدًا؛ يَعيشُ في طاعةِ الرَّحمنِ، ثمَّ المَرجِعُ إلى الرِّضوانِ، والكافرُ يَعيشُ في طاعةِ الشَّيطانِ، والمآبُ إلى النِّيرانِ، فأنَّى يَستويانِ[1]؟!

- ونِسبةُ حِسبانِ التَّساوي إلى الَّذين اجْتَرَحوا السَّيِّئاتِ في خِضَمِّ الإنكارِ التَّوبيخيِّ، مع أنَّهم بمَعْزِلٍ منه جازِمونَ بفَضْلِهم على المُؤمِنينَ؛ للمُبالَغةِ في الإنكارِ، والتَّشديدِ في التَّوبيخِ؛ فإنَّ إنْكارَ حِسْبانِ التَّساوي والتَّوبيخَ عليه إنْكارٌ لِحِسبانِ الجزْمِ بالفضْلِ وتَوبيخٌ عليهِ على أبلَغِ وَجْهٍ وآكَدِه[2].

- والاجترِاحُ: الاكْتِسابُ، وصِيغةُ الافتِعالِ للمُبالَغةِ، وهو مُشتَقٌّ مِن الجُرْحِ[3].

- و﴿ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ همُ المُشرِكون، وإنَّما عُبِّرَ عنهم بهذا العُنوانِ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن تَعليلِ إنكارِ المُشابَهةِ والمُساواةِ بيْنَهم وبيْنَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ عِندَ اللهِ في عالَمِ الخُلْدِ، ولأنَّ اكتِسابَ السَّيِّئاتِ مِن شِعارِ أهْلِ الشِّركِ؛ إذ لَيس لهم دِينٌ وازِعٌ يَزَعُهم عن السَّيِّئاتِ، ولا همْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥١- ٣٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٢).
قال ابن عاشور: (ومِن خِلافِ ظاهِرِ التَّركيبِ ما قيلَ: إنَّ مَدلولَ ﴿سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ﴾ ليس مِن حِسبانِ المُشرِكينَ المنكورِ، ولكِنَّه كلامٌ مُستأنَفٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٢).

مُؤمِنونَ بالبَعثِ والجزاءِ فيَكونَ إيمانُهم به مُرغِّبًا في الجَزاءِ[١].

- ومَوقِعُ التَّشبيهِ في قولِه: ﴿أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡ﴾ الإيماءُ إلى أنَّ اللهَ قدَّرَ للمُؤمِنينَ حُسنَ الحالِ بعْدَ المماتِ، حتَّى صار ذلك المُقدَّرُ مَضرِبَ الأمثالِ ومَناطَ التَّشبيهِ، وإلى أنَّ حِسبانَ المُشرِكين أنفُسَهم في الآخِرةِ على حالةٍ حَسنةٍ باطلٌ، فعُبِّرَ عن حِسبانِهم الباطِلِ بأنَّهم أثْبَتوا لِأنفُسِهم في الآخِرةِ الحالَ الَّتي هي حالُ المُؤمِنينَ، أي: حسِبَ المُشرِكون بزَعْمِهم أنْ يَكونوا بعْدَ الموتِ في حالةٍ إذا أراد الواصفُ أنْ يَصِفَها وَصَفَها بمُشابَهةِ حالِ المُؤمِنينَ عندَ اللهِ وفي نفْسِ الأمْرِ. فقُصِد هنا التَّنويهُ بالمُؤمِنينَ، والعِنايةُ بزُلْفاهم عِندَ اللهِ، فكأنَّه قيل: أحَسِبوا أنْ نَجعَلَهم في حالةٍ حَسَنةٍ؟ ولكنَّ هذا المأمولَ في حِسبانِهم هو في نَفْسِ الأمْرِ حالُ المُؤمِنينَ لا حالُهم، فأُوجِزَ الكلامُ، وفَهْمُ السَّامعِ يَبسُطُه. والمُواجَهُ بهذا الكلامِ همُ النَّبيُّ والمُؤمِنونَ؛ تَكمِلةً للغرَضِ المُبتدَأِ به في قولِه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجۡزِيَ قَوۡمَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[٢] [الجاثية: ١٤].

- وقولُه: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مُعترِضًا بيْنَ مَفعولَيْ (نَجعَلُ)، وهُما ضَميرَا الغائبينَ، وجُملةُ ﴿سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ﴾، أو ولَفْظُ ﴿سَوَآءٗ﴾ -في قِراءةِ نَصْبِه[٣]- فلا يكونَ مُرادًا إدْخالُه في حِسبانِ المُشرِكينَ؛ فيكونَ قولُه: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تَهكُّمًا على المُشرِكينَ في حِسبانِهم؛ تأْكيدًا للإنكارِ عليهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥١، ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥٣، ٣٥٤).

(٣) يُنظر ما تقدَّم في القراءات ذاتِ الأثرِ في التَّفسير (ص: ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٤).

- وجُملةُ ﴿سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ تَذييلٌ لِمَا قبْلَها مِن إنكارِ حِسبانِهم وما اتَّصَلَ بذلك الإنكارِ مِن المعاني[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ يُمكِنُ أنْ يكونَ الكلامُ مَعطوفًا على ما تَقدَّمَ؛ لِيَكونَ كالدَّليلِ على نفْيِ الاستِواءِ بيْنَ الفريقَينِ. ويُمكِنُ أنْ يكونَ استِئنافًا مُقرِّرًا لِمَا سبَقَ مِن الحُكْمِ؛ فإنَّ خلْقَ اللهِ تعالى لَهُما ولِما فيهما بالحقِّ المُقتضِي للعَدْلِ، يَسْتدعِي -لا مَحالةَ- تَفضيلَ المُحْسنِ على المُسيءِ في المَحْيا والمَماتِ، وانْتِصارَ المظلومِ مِن الظَّالمِ، وإذا لم يَطَّرِدْ ذلك في المَحيا فهُو بعْدَ المماتِ حَتْمًا[٢].

أو الجُملة مُعترِضةٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وهو اعتِراضٌ بيْنَ الكلامِ المُتقدِّمِ وبيْنَ ما فُرِّعَ عليه مِن قولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، هو كالدَّليلِ على انتِفاءِ أنْ يكونَ الَّذين اجْتَرَحوا السَّيِّئاتِ الَّذين همْ في بُحْبوحةِ عَيشٍ مُدَّةَ حَياتِهم؛ أنْ يَكونوا في نَعيمٍ بعْدَ مَماتِهم كالَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مُدَّةَ حَياتِهم؛ فكان جَزاؤُهم النَّعيمَ بعْدَ مَماتِهم -أي: بعْدَ حَياتِهم الثَّانيةِ- بأنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ بالعدْلِ يَسْتدعي التَّفاوُتَ بيْنَ المُسيءِ والمُحسِنِ، والانتِصافَ للمُعْتدَى عليه مِن المُعْتدِي[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٥، ٣٥٦).

قال ابن عاشور: (ووَجهُ الاسْتِدلالِ في الآيةِ: أنَّ خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ تَبيَّنَ كَونُه في تَمامِ =

- والحقُّ: اسمٌ جامعٌ لِما شأْنُه أنْ يُحَقَّ ويُثْبَتَ، ومِن شأْنِ الحِكمةِ والحكيمِ أنْ يُقِيمَه، ولذلك أُشِيرَ بقَولِه: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّ اسمَ الجَلالةِ جامعٌ لِصِفاتِ الكَمالِ، وتَصرُّفاتِ الحِكمةِ(١).

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ على ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّ المعطوفَ عليه المَجرورَ بالباءِ فيه مَعنى التَّعليلِ، وهذا تَفصيلٌ بعْدَ إجمالٍ؛ فإنَّ الجَزاءَ على الفِعلِ بما يُناسِبُه هو مِن الحقِّ، ولأنَّ تَعليلَ الخلْقِ بعِلَّةِ الجزاءِ مِن تَفصيلِ معنى الحقِّ، وآثارِ كَونِ الحقِّ سَببًا لِخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، أو مُلابِسًا لِأحوالِ خلْقِهما؛ فظَهَرَت المُناسَبةُ بيْنَ الباءِ في المعطوفِ عليه واللَّامِ في المعطوفِ. أو هو مَعطوفٌ على مُعلَّلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: لِيَدُلَّ بها على قُدْرتِه، ولِتُجْزَى كلُّ نفْسٍ(٢).

- والباءُ في ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ للتَّعويضِ، وما كسَبَتْه النَّفْسُ لا تُجْزى به، بلْ تُجازى بمِثْلِه وما يُناسِبُه؛ فالكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ، أي: بمِثلِ ما كسَبَتْه، وهذه المُماثَلةُ مُماثَلةٌ في النَّوعِ، وأمَّا تَقديرُ تلك المُماثَلةِ فذلك مَوكولٌ إلى اللهِ تَعالى، ومُراعًى فيه عَظَمةُ عالَمِ الجزاءِ في الخَيرِ والشَّرِّ، ومِقدارُ تَمرُّدِ

---

= الإتقانِ والنِّظام، بحيث إنَّ دَلائلَ إرادةِ العدْلِ في تَصاريفِها قائمةٌ، وما أودَعه الخالِقُ في المَخلوقاتِ مِن القُوى مُناسِبٌ لِتَحصيلِ ذلك النِّظامِ الَّذي فيه صَلاحُهم، فإذا استَعْمَلوها في الإفسادِ والإساءةِ، كان مِن إتْمامِ إقامةِ النِّظامِ أنْ يُعاقَبوا على تلك الإساءةِ، والمُشاهَدُ أنَّ المُسِيءَ كثيرًا ما عكَفَ على إساءتِه حتَّى المَماتِ، فلو لم يكُنِ الجَزاءُ بعْدَ الموتِ، حصَلَ اخْتِلالٌ في نِظامِ خلْقِ المَخلوقاتِ، وخلْقِ القُوى الصَّادرِ عنها الإحسانُ والإساءةُ، وهذا المعنى تَكرَّرَ في آياتٍ كَثيرةٍ، وكُلَّما ذُكِرَ شَيءٌ منه أُتْبِعَ بذِكْرِ الجَزاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٦).

المُسيءِ وامْتثالِ المُحسِنِ، بخِلافِ الحُدودِ والزَّواجِرِ؛ فإنَّها مُقدَّرةٌ بما يُناسِبُ عالَمَ الدُّنيا مِن الضَّعفِ؛ ولهذا أعقَبَه بقولِه: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ فضَميرُ ﴿وَهُمْ﴾ عائدٌ إلى كلِّ نفْسٍ؛ فإنَّ ذلك الجَزاءَ ممَّا اقْتَضاهُ العدْلُ الَّذي جُعِلَ سَببًا أو مُلابِسًا لِخلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهما، فهو عدْلٌ، فليس مِن الظُّلمِ في شَيءٍ؛ فالمُجازى غيرُ مَظلومٍ، وبالجزاءِ أيضًا يَنْتفي أثَرُ ظُلْمِ الظَّالمِ عن المَظلومِ؛ إذْ لو تُرِكَ الجَزاءُ لَاستمَرَّ المَظلومُ مَظلومًا[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

- قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ لَمَّا كان الَّذين حَسِبوا أنْ يَكونوا في الآخِرةِ في نِعمةٍ وعِزَّةٍ كما كانوا في الدُّنيا، قالوا ذلك عن غَيرِ دَليلٍ ولا نَظَرٍ، ولكنْ عن اتِّباعِ ما يَشْتَهونَ لِأنفُسِهم مِن دَوامِ الحالِ الحَسَنِ؛ تَفرَّعَ على حِسبانِهم التَّعْجيبُ مِن حالِهم؛ فعُطِفَ بالفاءِ الاستِفهامُ المُستعمَلُ في التَّعجيبِ، وجُعِلَ استِفهامًا عن رُؤيةِ حالِهم؛ للإشارةِ إلى بُلوغِ حالِهم مِن الظُّهورِ إلى حدِّ أنْ تَكونَ مَرْئيَّةً[2].

وقيل: الهمزةُ للاستِفهامِ المَقصودِ به الأمْرُ، أي: أخْبِرْني، وهو للتَّعجيبِ مِن حالِ مَنْ تَرَكَ مُتابَعةَ الهُدى إلى مُطاوَعةِ الهوَى، فكأنَّه عَبَدَه، والمعنى -على قَولٍ في التَّفسيرِ-: أضلَّه اللهُ وهو عالِمٌ بالحقِّ؛ لأنَّ المُبالَغةَ فيه أشدُّ، والتَّشنيعَ والتَّنديدَ به أكثَرُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٤).

- وقولُه: ﴿ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ أُطلِقَ على ما يُلازِمُ طاعتَه حتَّى كأنَّه مَعبودٌ؛ فيَكونَ هذا الإطلاقُ بطَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: اتَّخَذَ هواهُ كإلهٍ له لا يُخالِفُ له أمْرًا. ويَجوزُ أنْ يَبْقى ﴿إِلَٰهَهُۥ﴾ على الحَقيقةِ، ويَكونَ ﴿هَوَىٰهُ﴾ بمَعنى مَهْوِيِّه، أي: عبَدَ إلَهًا؛ لأنَّه يُحِبُّ أنْ يَعبُدَه، يعني الَّذين اتَّخَذوا الأصنامَ آلهةً لا يُقلِعون عن عِبادتِها؛ لأنَّهم أحَبُّوها[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾، وقال في سُورةِ (البَقرةِ): ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]؛ فهنا قدَّمَ ذِكرَ السَّمْعِ على القَلْبِ، وفي سُورةِ (البقرةِ) قَدَّمَ القلْبَ على السَّمعِ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ المُخبَرَ عنهم هنا لَمَّا أخبَرَ عنهم بأنَّهم اتَّخَذوا إلَهَهم هَواهم، فقدْ تَقرَّرَ أنَّهم عَقَدوا قُلوبَهم على الهَوى؛ فكان ذلك العَقدُ صارِفًا السَّمْعَ عن تَلقِّي الآياتِ؛ فقُدِّمَ لإفادةِ أنَّهم كالمَخْتومِ على سَمْعِهم، ثمَّ عُطِفَ عليه ﴿وَقَلْبِهِۦ﴾ تَكميلًا وتَذْكيرًا بذلك العَقْدِ الصَّارفِ للسَّمْعِ، ثمَّ ذَكَرَ ما على بَصَرِه مِن شِبْهِ الغِشاوةِ؛ لأنَّ ما عَقَدَ عليه قَلْبَه صَرَفه عن النَّظرِ في أدلَّةِ الكائناتِ. وأمَّا آيةُ سُورةِ (البقرةِ)؛ فإنَّ المُتحدَّثَ عنْهم همْ هؤلاء أنفُسُهم، ولكنَّ الحديثَ عنهم ابتُدِئَ بتَساوي الإنذارِ وعَدَمِه في جانِبِهم بقَولِه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]؛ فلمَّا أُرِيدَ تَفصيلُه قُدِّمَ الخَتْمُ على قُلوبِهم؛ لأنَّه الأصْلُ، كما كان اتِّخاذُ الهَوى كالإلهِ أصْلًا في وَصْفِ حالِهم في آيةِ سُورةِ (الجاثيةِ)، فحالةُ القُلوبِ هي الأصْلُ في الانْصِرافِ عن التَّلقِّي والنَّظرِ في الآيتَينِ، ولكنَّ نَظْمَ هذه الآيةِ كان على حسَبِ ما يَقْتضيهِ الذِّكرُ مِن التَّرتيبِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٨).

ونَظْمَ آيةِ (البقرةِ) كان على حَسَبِ ما يَقْتضيهِ الطَّبْعُ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ أنْ يكونَ غيرُ اللهِ يَسْتطيعُ أنْ يَهْديَهم، والمُرادُ به تَسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِشِدَّةِ أسَفِه لِإعْراضِهم وبَقائِهم في الضَّلالةِ[٣].

- وقولُه: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ مُفرَّعٌ على الاستِفهامِ الَّذي قبْلَه، وهو هنا استِفهامٌ عن عَدَمِ تَذكُّرِ المُخاطَبينَ لهذه الحقيقةِ، أي: كيف نَسُوها حتَّى ألَحُّوا في الطَّمَعِ بهِدايةِ أولئك الضَّالِّينَ، وأَسِفوا لِعَدمِ جَدْوى الحُجَّةِ لَدَيهم؟! وهو اسْتِفهامٌ إنكاريٌّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٤-٢٦)

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ٢٤ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥ قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلدَّهۡرُ﴾: أي: مَرُّ الزَّمانِ، وطُولُ العُمُرِ، واختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ، وأصلُ (دهر): يدُلُّ على الغَلَبةِ والقَهرِ، وسُمِّيَ الدَّهرُ دَهرًا؛ لأنَّه يأتي على كُلِّ شَيءٍ ويَغلِبُه[1].

﴿رَيۡبَ﴾: الرَّيبُ: الشَّكُّ، أو هو الشَّكُّ معَ الخَوفِ، ومعَ تُهمَةِ المشكوكِ فيه، وتوهُّم أمْرٍ ما بالشَّيءِ، والرَّيبُ مصدرُ: رابَني الشَّيءُ: إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وهي قلَقُ النَّفْسِ واضْطِرابُها[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله سبحانَه جانبًا مِن أقوالِ المشركينَ الباطِلةِ، فيقولُ: وقال الكُفَّارُ تَكذيبًا للبَعثِ بعدَ المَوتِ: ما لَنا إلَّا حياتُنا هذه الَّتي نَحياها الآنَ، يَموتُ مِنَّا أُناسٌ، ويُولَدُ آخَرونَ، ولا حياةَ بعدَ المماتِ، وما يُفنِينا إلَّا مَرُّ الزَّمانِ، وطُولُ الأعمارِ، واختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ! وما لهؤلاء الكُفَّارِ مِن عِلمٍ بما يَقولونَ مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧).

إنكارِهم البَعثَ، ما هم إلَّا يَظُنُّونَ!

وإذا تُتْلى عليهم آياتُ القُرآنِ واضحاتٍ في وُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ، ما كان لهم مِن حُجَّةٍ إلَّا قَولُهم: أحيُوا آباءَنا إنْ كُنتُم صادِقينَ في أنَّ بعدَ الموتِ بَعثًا! قُلْ لهم -يا محمَّدُ: اللهُ يُحييكم ثُمَّ يُميتُكم ثمَّ يَجمَعُكم إلى يومِ القيامةِ لا شَكَّ في وُقوعِ ذلك، ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أن ذَكَر سُبحانَه أنَّ المُشرِكينَ قد اتَّخَذوا إلهَهم هواهم، وأنَّ اللهَ قد أضَلَّهم على عِلمٍ بحالِهم، وأنَّه خَتَم على سَمْعِهم وقَلْبِهم، وجَعَل على بَصَرِهم غِشاوةً- ذكَرَ هنا جِنايةً أُخرى مِن جِناياتِهم، وحماقةً مِن حماقاتِهم: تلك أنَّهم أنكَروا البَعثَ[1].

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وقال الكُفَّارُ تَكذيبًا للبَعثِ بعدَ المَوتِ: ما ثَمَّ حياةٌ غَيرُ حياتِنا هذه الَّتي نَحياها الآنَ[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩].

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١).

أي: يموتُ أناسٌ، ويَحيا آخَرونَ في هذه الحياةِ، وليس ثَمَّةَ حياةٌ أُخرَى[١].

﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾.

أي: وما يُفنِينا إلَّا الزَّمانُ، فنَبلُغُ فيه بمُرورِ أيَّامِه ولياليه سِنَّ الهَرَمِ والشَّيخوخةِ، فنَموتُ، أو تُصيبُنا فيه أسبابٌ تُفضي بنا إلى الهَلاكِ والموتِ[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١، ٣٦٢).

قال ابن جُزَي: (﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ فيه أربَعةُ تأويلاتٍ:

أحَدُها: أنَّهم أرادوا: يموتُ قَومٌ، ويحيا قومٌ.

والآخَرُ: نموتُ نحن، ويحيا أولادُنا.

الثَّالِثُ: نموتُ حين كُنَّا عَدَمًا أو نُطَفًا، ونحيا في الدُّنيا.

والرَّابعُ: نموتُ الموتَ المعروفَ، ونحيا قَبْلَه في الدُّنيا؛ فوقَعَ في اللَّفظِ تَقديمٌ وتأخيرٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: يحيى بنُ سلام، وابنُ أبي زَمَنين، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٧٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٥).

قال ابن جرير: (وقَولُه: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ نموتُ نحن وتحيا أبناؤُنا بَعْدَنا، فجَعَلوا حياةَ أبنائِهم بَعْدَهم حياةً لهم؛ لأنَّهم مِنهم وبَعضُهم، فكأنَّهم بحياتِهم أحياءٌ، وذلك نظيرُ قَولِ النَّاسِ: ما مات مَن خَلَّفَ ابنًا مِثلَ فلانٍ؛ لأنَّه بحياةِ ذِكْرِه به كأنَّه حَيٌّ غيرُ مَيِّتٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٢). =

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾.

أي: وما للمُشرِكينَ أيُّ قَدْرٍ مِنَ العِلمِ بصِحَّةِ ما يقولونَ مِن إنكارِ البَعثِ، ولا بُرهانَ لديهم يُثبِتُ أنَّ الدَّهرَ هو الَّذي يُهلِكُهم كما يَزعُمونَ[1]!

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾.

أي: ما يَقولونَ ذلك إلَّا بمُجَرَّدِ الظَّنِّ، وليسوا على يَقينٍ مِمَّا يَدَّعُونَ[2].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وإذا تُتْلى عليهم آياتُ القُرآنِ الواضِحاتُ الدَّلالةِ على وُقوعِ البَعثِ بعدَ الموتِ، لم يكُنْ لهم ما يَحتَجُّونَ به على المؤمنينَ سِوى قَولِهم: أحيُوا آباءَنا الموتى إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعواكم أنَّ اللهَ يَبعَثُنا بعدَ مَوتِنا؛ حتَّى نُصَدِّقَ بحَقيقةِ

---

= قال ابنُ كثير: (وهذا يَقولُه مُشرِكو العَرَبِ المُنكِرونَ للمَعادِ، ويَقولُه الفلاسِفةُ الإلهيُّونَ منهم، وهم يُنكِرونَ البُداءَةَ والرَّجعةَ، ويقولُه الفلاسِفةُ الدَّهْرِيَّةُ الدوريةُ المُنكِرونَ للصَّانِعِ، المُعتَقِدونَ أنَّ في كُلِّ سِتَّةٍ وثلاثينَ ألْفَ سَنةٍ يعودُ كُلُّ شَيءٍ إلى ما كان عليه، وزَعَموا أنَّ هذا قد تكَرَّر مرَّاتٍ لا تَتناهى، فكابَروا المعقولَ، وكَذَّبوا المنقولَ!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣).

قال القرطبي: (كان المُشرِكونَ أصنافًا؛ منهم هؤلاء، ومنهم مَن كان يُثبِتُ الصَّانِعَ ويُنكِرُ البَعثَ، ومنهم مَن كان يَشُكُّ في البَعثِ ولا يَقطَعُ بإنكارِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٢).

وقال ابن القيِّم: (الظَّنُّ الَّذي أثبَتَه سُبحانَه للمُعارِضينَ نُصوصَ الوَحيِ بعُقولِهم: ليس هو الاعتِقادَ الرَّاجِحَ، بل هو أكذَبُ الحَديثِ). ((الصواعق المرسلة)) (٣/ ٨٧٨).

وقال ابنُ عثيمين: (الظنُّ هنا بمعنى الوهمِ؛ فليس ظَنُّهم مبنيًّا على دليلٍ يجعلُ الشَّيءَ مظنونًا، بل هو مُجرَّدُ وهمٍ لا حقيقةَ له؛ فلا حجَّةَ لهم إطلاقًا). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (٢/ ٢٤٢).

ما تَزعُمونَ[١]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ * إِنۡ هِيَ إِلَّا مَوۡتَتُنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُنشَرِينَ * فَأۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الدخان: ٣٤ - ٣٦].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا اعْتَرفوا بأنَّهم ما يُهْلِكُهم إلَّا الدَّهرُ، وأنَّهم اسْتَدلُّوا على إنكارِ البَعثِ بما لا دَليلَ لهم فيه مِن سُؤالِ إحياءِ آبائِهم؛ رَدَّ اللهُ تعالى عليهم بأنَّه تعالى هو المُحْيي، وهو المُميتُ لا الدَّهرُ، وضَمَّ إلى ذلك آيةً جامعةً لِلْحسابِ يومَ البَعثِ، وهذا واجبٌ الاعترافُ بهِ إنْ أنْصَفوا، ومَن قدَرَ على هذا قدَرَ على الإتيانِ بآبائِهم[٢].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُكَذِّبينَ بالبَعثِ: اللهُ هو الَّذي يُحييكم في الدُّنيا ما شاءَ، ثُمَّ يُميتُكم متى شاء عندَ انقِضاءِ آجالِكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٠، ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣، ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٩)، ((الهداية)) لمكي (١٠/ ٦٧٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٣).

قال القاسمي: (أي: قُلْ لهم في جوابِ قَولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾: قُلِ: اللهُ يُحييكم ثمَّ يُميتُكم لا الدَّهرُ؛ لِما عُرِفَ مِن وُجوبِ رُجوعِ العالَمِ إلى واجِبِ الوُجودِ، هو سَبَبُ الأسبابِ، ومَصدَرُ الكائناتِ، أو قُلْ لهم في جوابِ إنكارِهم البَعثَ: إنَّ مَن قَدَر على الإبداءِ قادِرٌ على الإعادةِ، والحِكمةُ اقتَضَت الجَمعَ للمُجازاةِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٣).

ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨].

﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾.

أي: ثمَّ يَجمَعُكم اللهُ جميعًا ليومِ القيامةِ أحياءً، لا شَكَّ في وُقوعِ ذلك، وإحيائِكم بعدَ موتِكم[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يَعلَمونَ الحقَّ، فمِنْ جَهلِهم يُنكِرونَ المَعادَ، وبَعْثَ العِبادِ[٢]!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- كان أهلُ الجاهِليَّةِ يُضيفونَ المصائبَ والنَّوائِبَ إلى الدَّهرِ، وهُم في ذلك فِرقتانِ: فِرقةٌ لا تُؤمِنُ باللهِ، لا تَعرِفُ إلَّا الدَّهرَ، فتَنْسُبُ المكارِهَ إليه على أنَّها مِن فِعْلِه، ولا ترَى أنَّ له مُدَبِّرًا ومُصَرِّفًا، وهؤلاء الدَّهْرِيَّةُ الَّذين حكى اللهُ عنهم في كتابِه: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾، وفِرقةٌ تَعرِفُ الخالِقَ فتُنَزِّهُه أنْ تَنسُبَ إليه المكارِهَ، فتُضيفُها إلى الدَّهرِ والزَّمانِ، وعلى هذين الوَجهَينِ كانوا يَسُبُّونَ الدَّهرَ ويَذُمُّونَه، فيَقولُ القائِلُ منهم: يا خَيبةَ الدَّهْرِ، ويا بُؤسَ الدَّهرِ، إلى ما أشْبَهَ هذا مِن قَولِهم[٣]، فإذا أضافوا إلى الدَّهرِ ما نالهم مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((غريب الحديث)) للخَطَّابي (١/ ٤٨٩).

الشَّدائِدِ وسَبُّوا فاعِلَها، كان مَرجِعَ سَبِّهم إلى اللهِ تعالى؛ إذ هو الفاعِلُ في الحقيقةِ للأُمورِ الَّتي يُضيفونَها إلى الدَّهرِ لا الدَّهرُ؛ فنُهُوا عن سَبِّ الدَّهرِ؛ فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: يُؤذيني ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ[1]، وأنا الدَّهرُ[2]، .....

(١) قال ابنُ القَيِّم: (في هذا ثلاثُ مَفاسِدَ عَظيمةٌ:
إحداها: سَبُّه مَن ليس بأهلٍ أن يُسَبَّ؛ فإنَّ الدَّهرَ خَلقٌ مُسَخَّرٌ مِن خَلقِ اللهِ، مُنقادٌ لأمْرِه، مُذَلَّلٌ لِتَسخيرِه؛ فسَابُّه أَولى بالذَّمِّ والسَّبِّ منه.
الثَّانيةُ: أنَّ سَبَّه مُتضَمِّنٌ للشِّركِ؛ فإنَّه إنَّما سَبَّه لِظَنِّه أنَّه يَضُرُّ ويَنفَعُ، وأنَّه مع ذلك ظالمٌ قد ضَرَّ مَن لا يَستَحِقُّ الضَّرَرَ، وأعطى مَن لا يَستَحِقُّ العَطاءَ، ورفَعَ مَن لا يَستَحِقُّ الرِّفعةَ، وحَرَم مَن لا يَستَحِقُّ الحِرمانَ، وهو عندَ شاتِميه مِن أظلَمِ الظَّلَمةِ! وأشعارُ هؤلاء الظَّلَمةِ الخَوَنةِ في سَبِّه كثيرةٌ جِدًّا، وكثيرٌ مِن الجُهَّالِ يُصَرِّحُ بلَعْنِه وتَقبيحِه!
الثَّالثةُ: أنَّ السَّبَّ منهم إنَّما يقَعُ على مَن فَعَل هذه الأفعالَ الَّتي لو اتَّبَع الحَقُّ فيها أهواءَهم لَفَسَدَت السَّمَواتُ والأرضُ! وإذا وقَعَت أهواؤُهم حَمِدوا الدَّهرَ وأثْنَوا عليه. وفي حقيقةِ الأمرِ فرَبُّ الدَّهرِ تعالى هو المُعطي المانِعُ، الخافِضُ الرَّافعُ، المُعِزُّ المُذِلُّ، والدَّهرُ ليس له مِنَ الأمرِ شَيءٌ، فمَسَبَّتُهم للدَّهرِ مَسَبَّةٌ لله عزَّ وجَلَّ؛ ولهذا كانت مُؤذِيةً للرَّبِّ تعالى، كما في الصَّحيحَينِ مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «قال الله تعالى: يُؤذيني ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ». فسابُّ الدَّهرِ دائرٌ بيْنَ أمْرَينِ لا بُدَّ له مِن أحَدِهما: إمَّا سَبُّه لله، أو الشِّركُ به؛ فإنَّه إذا اعتَقَد أنَّ الدَّهرَ فاعِلٌ مع اللهِ، فهو مُشرِكٌ، وإنِ اعتَقَد أنَّ اللهَ وَحْدَه هو الَّذي فَعَل ذلك، وهو يَسُبُّ مَن فَعَلَه؛ فقد سَبَّ اللهَ!). ((زاد المعاد)) (٢/ ٣٢٣).

(٢) قال ابنُ عثيمين: (الدَّهرُ: ليس مِن أسماءِ الله تعالى؛ لأنَّه اسمٌ جامِدٌ لا يَتضَمَّنُ مَعنًى يُلحِقُه بالأسماءِ الحُسنى، ولأنَّه اسمٌ للوَقتِ والزَّمَنِ... فأمَّا قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: يُؤذِيني ابنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ، بيدي الأمرُ، أقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ» فلا يدُلُّ على أنَّ الدَّهرَ مِن أسماءِ اللهِ تعالى؛ وذلك أنَّ الَّذين يَسُبُّونَ الدَّهرَ إنمَّا يُريدونَ الزَّمانَ الَّذي هو مَحَلُّ الحوادِثِ، لا يُريدونَ اللهَ تعالى، فيَكونُ معنى قَولِه: «وأنا الدَّهرُ» ما فَسَّره بقَولِه: «بيدَي الأمرُ، أقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ»، فهو سُبحانَه خالِقُ الدَّهرِ وما فيه، وقد بَيَّنَ أنَّه يُقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ، وهما الدَّهرُ، ولا يُمكِنُ أن يكونَ المُقلِّبُ -بكَسرِ اللَّامِ- هو المُقَلَّبَ -بفَتحِها- وبهذا تَبَيَّنَ أنَّه يَمتَنِعُ أن يكونَ الدَّهرُ في هذا الحديثِ مُرادًا به اللهُ تعالى). ((القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه =

بيدي الأمرُ، أقلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ))[١]، وفي روايةٍ: ((يُؤذيني ابنُ آدَمَ؛ يقولُ: يا خَيبةَ الدَّهرِ، فلا يَقولَنَّ أحَدُكم: يا خَيبةَ الدَّهرِ؛ فإنِّي أنا الدَّهرُ، أقَلِّبُ لَيلَه ونَهارَه، فإذا شِئتُ قَبَضْتُهما))[٢]، وفي روايةٍ: ((يَسُبُّ ابنُ آدَمَ الدَّهرَ، وأنا الدَّهرُ، بيَدِي اللَّيلُ والنَّهارُ))[٣]، وفي روايةٍ[٤]: ((لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ))[٥]، وقد بَقِيَ هذا شائِعًا في ألسِنةِ النَّاسِ مِن المُسلِمينَ، وفي أشعارِهم، وهي سُنَّةٌ جاهِليَّةٌ[٦]، فكثيرٌ مِن الفُسَّاقِ والمُجَّانِ والحَمقَى إذا جَرَت تصاريفُ الدَّهرِ على خِلافِ مُرادِهم جَعَلوا يَسُبُّونَ الدَّهرَ والوَقتَ، ورُبَّما لَعَنوه! وهذا ناشِئٌ مِن ضَعفِ الدِّينِ، ومِن الحُمقِ والجَهلِ العَظيمِ؛ فإنَّ الدَّهرَ ليس عِندَه مِن الأمرِ شَيءٌ؛ فإنَّه مُدَبَّرٌ مُصَرَّفٌ، والتَّصاريفُ الواقِعةُ فيه تدبيرُ العزيزِ الحَكيمِ، ففي الحقيقةِ يَقَعُ العَيبُ والسَّبُّ على مُدَبِّرِه! وكما أنَّه نَقصٌ في الدِّينِ فهو نَقصٌ في العَقلِ؛ فبه تَزدادُ المصائِبُ ويَعظُمُ وَقعُها، ويُغلَقُ بابُ الصَّبرِ الواجِبِ، وهذا مُنافٍ للتَّوحيدِ. أمَّا المؤمِنُ فإنَّه يَعلَمُ أنَّ التَّصاريفَ واقِعةٌ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه وحِكمتِه، فلا يَتعَرَّضُ لِعَيبِ ما لم يَعِبْه اللهُ ولا رَسولُه، بل يَرضى بتدبيرِ اللهِ، ويُسَلِّمُ لأمْرِه، وبذلك يَتِمُّ تَوحيدُه وطُمأنينتُه[٧].

---

= الحسنى)) (ص: ٩).

قال ابن كثير: (وقد غَلِطَ ابنُ حزمٍ ومَن نحا نحوَه مِن الظَّاهِريَّةِ في عَدِّهِم الدَّهرَ مِن الأسماءِ الحسنَى، أخْذًا مِن هذا الحديثِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٢٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) (٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) (١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٢٤٦) (٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٥). ويُنظر: أيضًا: ((مناقب الشافعي)) للبيهقي (١/ ٣٣٦).

(٦) يُنظر: ((التنوير شرح الجامع الصغير)) للصَّنْعاني (١١/ ١٠٤).

(٧) يُنظر: ((القول السديد شرح كتاب التوحيد)) للسعدي (ص: ١٤٨).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ هذه الآيةُ مِن أقوى الدَّلائِلِ على أنَّ القَولَ بغيرِ حُجَّةٍ وبَيِّنةٍ قَولٌ باطِلٌ فاسِدٌ، وأنَّ مُتابَعةَ الظَّنِّ والحُسبانِ مُنكَرٌ عندَ اللهِ تعالى[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ فيه سُؤالٌ: الحياةُ مُقَدَّمةٌ على الموتِ في الدُّنيا، فمُنكِرو القيامةِ كان يجِبُ أن يَقولوا: (نحيا ونَموتُ)، فما السَّبَبُ في تقديمِ ذِكرِ الموتِ على الحياةِ[٢]؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّ المعنى: يحيا البَعضُ، ويموتُ البَعضُ[٣]، فهو حُكمٌ على النَّوعِ بجُملتِه مِن غيرِ اعتبارِ تَقديمٍ وتأخيرٍ[٤].

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّه كلامُ مَن يقولُ بالتَّناسُخِ[٥].

**الوَجهُ الثَّالثُ:** أنَّ اللهَ تعالى قدَّمَ ذِكرَ الحياةِ فقال؛ حكايةً عنهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾، ثمَّ قال بَعْدَه: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، يعني: أنَّ تلك الحياةَ مِنها ما يَطرَأُ عليها الموتُ، وذلك في حَقِّ الَّذين ماتوا، ومِنها ما لم يَطرَأِ الموتُ عليها، وذلك في حَقِّ الأحياءِ الَّذين لم يموتوا بَعْدُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٧٨).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٣).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٦).

قال الشِّربيني في بيانِ مَعنى التَّناسُخِ: (هو أنَّ رُوحَ الشَّخصِ إذا خرَجَت تَنتَقِلُ إلى شَخصٍ آخَرَ، فيَحيا بعدَ أنْ لم يكُنْ؛ فإنَّه عقيدةُ أكثَرِ عَبَدةِ الأصنامِ). ((تفسير الشربيني)) (٣/ ٥٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٧٨).

**الوَجهُ الرَّابعُ**: أنَّ المعنى نحيا ونموتُ، على وَجهِ تقديمِ الحياةِ قبْلَ المماتِ[١]؛ فالعَطفُ بالواوِ لا يَقتَضي ترتيبًا بيْنَ المتعاطِفَينِ في الحُصولِ[٢].

٢- قَولُهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هذا يَرُدُّه المنقولُ والمَعقولُ:

أمَّا المنقولُ: فالكِتابُ والسُّنَّةُ يدُلَّانِ على ثُبوتِ الآخِرةِ، ووُجوبِ الإيمانِ باليَومِ الآخِرِ، وأنَّ للعِبادِ حياةً أُخرى سِوى هذه الحياةِ الدُّنيا، والكُتُبُ السَّماويَّةُ الأُخرى تُقَرِّرُ ذلك وتُؤَكِّدُه.

وأمَّا المعقولُ: فإنَّ اللهَ فَرَض على النَّاسِ الإسلامَ والدَّعوةَ إليه، والجِهادَ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، مع ما في ذلك مِن استِباحةِ الدِّماءِ والأموالِ والنِّساءِ والذُّرِّيَّةِ، فمِن غيرِ المَعقولِ أن يكونَ النَّاسُ بعدَ ذلك تُرابًا؛ لا بَعْثَ ولا حياةَ، ولا ثَوابَ ولا عِقابَ، وحِكمةُ اللهِ تأبى هذا.

وأمَّا قَولُهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، أي: إلَّا مُرورُ الزَّمَنِ، فهذا يَرُدُّه المنقولُ والمحسوسُ:

فأمَّا المنقولُ: فالكِتابُ والسُّنَّةُ يَدُلَّانِ على أنَّ الإحياءَ والإماتةَ بيَدِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦]، وقال عن عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وأمَّا المحسوسُ: فإنَّنا نَعلَمُ مَن يَبقى سِنينَ طَويلةً على قَيدِ الحياةِ، كنُوحٍ عليه السَّلامُ وغَيرِه، ولم يُهلِكْه الدَّهرُ، ونُشاهِدُ أطفالًا يموتونَ في الشَّهرِ الأوَّلِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٢).

ومِن الأجوبةِ أيضًا: أنَّ المرادَ: نموتُ نحن، ويحيا أولادُنا. أو: نموتُ حينَ كُنَّا عَدَمًا أو نُطَفًا، ونحيا في الدُّنيا. وقد تقدَّم ذكرُ هذه الأقوالِ (ص: ١١٢).

وِلادتِهم، وشَبابًا يموتونَ في قُوَّةِ شَبابِهم؛ فليس الدَّهرُ هو الَّذي يُميتُهم[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الظَّنَّ يُستعملُ بمعنى الوَهم، كما يُستعمَلُ أيضًا بمعنى العِلمِ واليقينِ؛ كقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾[٢] [البقرة: ٤٦].

٤- إنْ قيل: كيفَ وقَع قَولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ﴾ جَوابًا لِقَولِهم: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؟

**والجوابُ**: أنَّهم لَمَّا أنكَروا البَعثَ، وكَذَّبوا الرُّسُلَ، وحَسِبوا أنَّ ما قالوه قَولٌ مُبَكِّتٌ؛ أُلزِموا ما هم مُقِرُّونَ به مِن أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ هو الَّذي يُحييهم ثمَّ يُميتُهم، وضُمَّ إلى إلزامِ ذلك إلزامُ ما هو واجِبُ الإقرارِ به إن أنصَفوا وأصغَوا إلى داعي الحَقِّ، وهو جَمْعُهم إلى يومِ القيامةِ، ومَن كان قادِرًا على ذلك كان قادِرًا على الإتيانِ بآبائِهم، وكان أهْوَنَ شَيءٍ عليه[٣].

ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّهم لَمَّا قالوا: ﴿ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ عِنادًا وتَمرُّدًا، قِيل لهم: دَعُوا آباءَكُم؛ فإنَّ القاهرَ القادرَ العالِمَ بكلِّ شَيءٍ، يَفعَلُ كَيْتَ وكَيْتَ، فضْلًا عمَّا اقْتَرَحْتُموه، ولكنْ أنتُمْ جُهلاءُ لا تَعلَمون ذلك، كما قال: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾[٤] [الجاثية: ٢٤].

٥- في قولِه تعالى: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ تَسجيلٌ عليهم بالتَّلجْلُجِ عن الحُجَّةِ البيِّنةِ، والمَصيرِ إلى سِلاحِ العاجزِ؛ مِن المُكابَرةِ والخُروجِ عن دائرةِ

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٠).

البَحثِ[١].

٦- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو إشارةٌ إلى ما تَقدَّمَ ذِكرُه في الآيةِ المتقَدِّمةِ، وهو أنَّ كَونَه تعالى عادِلًا خالِقًا بالحَقِّ، مُنَزَّهًا عن الجَورِ والظُّلمِ: يَقتَضي صِحَّةَ البَعثِ والقيامةِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ...﴾ الواوُ استِئنافيَّةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِتَفْنيدِ مَزاعِمِ المُشرِكينَ؛ إذ كانوا يَزْعُمون أنَّ هَلاكَ الأنفُسِ مَنوطٌ بِمُرورِ الأيَّامِ واللَّيالي[٣].

- أو عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، أي: بعْدَ أنْ جادَلوا المُسلِمينَ بأنَّه إنْ كان بَعثٌ بعْدَ الموتِ، فسَتكونُ عُقْباهم خَيرًا مِن عُقْبى المُسلِمينَ، وهمْ لا يُوقِنون بالبَعثِ والجزاءِ، بلْ ضَرَبوه جَدلًا، وإنَّما يَقينُهم قولُهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾[٤].

- وضَميرُ (هِيَ) ضَميرُ القِصَّةِ والشَّأنِ، أي: قِصَّةُ الخَوضِ في البَعثِ تَنحصِرُ في أنْ لا حَياةَ بعْدَ المَماتِ، أي: القصَّةُ هي انْتِفاءُ البَعثِ، كما أفادَه حَصْرُ الأمْرِ في الحياةِ الدُّنيا، أي: الحاضرةِ القَريبةِ مِنَّا، أي: فلا تُطِيلوا الجِدالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٠).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١).

معنا في إثباتِ البَعثِ. ويجوزُ أنْ يكونَ (هي) ضَميرَ الحياةِ باعتبارِ دَلالةِ الاستثناءِ، على تَقديرِ لَفظِ الحياةِ؛ فيَكونَ حَصْرًا لجنسِ الحياةِ في الحَياةِ الدُّنيا[1].

- وجُملةُ ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ مُبيِّنةٌ لِجُملةِ ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، أي: ليس بعْدَ هذا العالَم عالَمٌ آخَرُ؛ فالحَياةُ هي حَياةُ هذا العالَم لا غَيرُ، فإذا مات مَن كان حيًّا خلَفَه مَن يُوجَدُ بعْدَه، فمعنى ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾: يَموتُ بعضُنا ويَحْيا بَعضٌ، أي: يَبْقى حيًّا إلى أمَدٍ، أو يُولَدُ بعْدَ مَن ماتوا، وللدَّلالةِ على هذا التَّطوُّرِ عُبِّرَ بالفِعلِ المُضارِعِ ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾، أي: تَتجدَّدُ فِينا الحياةُ والموتُ؛ فالمَعنى: نَموتُ ونَحْيا في هذه الحياةِ الدُّنيا، وليس ثَمَّةَ حَياةٌ أُخرى. ثمَّ إنْ كانت هذه الجُملةُ مَحْكيَّةً بلَفظِ كَلامِهم، فلَعلَّها ممَّا جَرَى مَجْرى المَثلِ بيْنَهم، وإنْ كانتْ حِكايةً لِمَعنى كَلامِهم، فهي مِن إيجازِ القُرآنِ؛ وهمْ إنَّما قالوا: يَموتُ بعضُنا، ويَحْيا بعضُنا ثمَّ يَموتُ؛ فصار كالمَثلِ[2].

- قولُه: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ لا يَخطُرُ بالْبالِ أنَّ حِكايةَ قَولِهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ تَقْتضي إرادةَ نَحْيا بعْدَ أنْ نَموتَ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ يَصرِفُ عن خُطورِ هذا بالبالِ. والعطْفُ بالواوِ لا يَقْتضي تَرْتيبًا بيْن المُتعاطِفَينِ في الحُصولِ. وإنَّما قُدِّمَ ﴿نَمُوتُ﴾ في الذِّكرِ على ﴿وَنَحۡيَا﴾ في البَيانِ، مع أنَّ المُبيَّنَ قولُهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ فكان الظَّاهرُ أنْ يَبدَأَ في البَيانِ بذِكرِ اللَّفظِ المُبيَّنِ، فيُقالَ: نَحْيا ونموتُ؛ فقِيل: قُدِّمَ ﴿نَمُوتُ﴾ لتَتأتَّى الفاصلةُ بلَفظِ (نَحيا) مع لَفظِ الدُّنيا. والأوجَهُ أنْ يكونَ تَقديمُ فِعلِ ﴿نَمُوتُ﴾ على ﴿وَنَحۡيَا﴾؛ للاهتِمامِ بالموتِ في هذا المَقامِ؛ لأنَّهم بصَدَدِ تَقريرِ أنَّ المَوتَ لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حَياةَ بعْدَه، ويَتبَعُ ذلك الاهتِمامَ تَأَتِّي طِباقَينِ بيْنَ ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ و﴿نَمُوتُ﴾، ثمَّ بيْن ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾، وحصَلَت الفاصِلةُ تَبَعًا، وذلك أدْخَلُ في بَلاغةِ الإعجازِ؛ ولذلك أعْقَبَه بقولِه: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾، فالإشارةُ بذلك إلى قَولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾، أي: لا عِلمَ لهمْ بأنَّ الدَّهرَ هو المُميتُ؛ إذ لا دَليلَ. وأمَّا زِيادةُ ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ فقَصَدوا تأْكيدَ مَعنى انْحِصارِ الحَياةِ والموتِ في هذا العالَمِ المُعبَّرِ عنه عِندَهم بالدَّهرِ؛ فالحياةُ بتَكوينِ الخِلْقةِ، والمماتُ بفِعلِ الدَّهرِ، فكيف يُرْجَى لِمَن أهْلَكَه الدَّهرُ أنْ يعودَ حَيًّا؟! فالدَّهْرُ هو الزَّمانُ المُستمِرُّ المُتعاقِبُ لَيلُه ونَهارُه(١).

- وهذه الكلماتُ ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ كَلماتٌ كانتْ تَجْري على ألْسِنَتِهم؛ لِقِلَّةِ التَّدبُّرِ في الأُمورِ، وإنْ كانوا يَعلَمون أنَّ اللهَ هو الخالِقُ لِلعوالِمِ، وأمَّا ما يَجْري في العالَمِ مِن التَّصرُّفاتِ، فلمْ يكُنْ لهمْ فيه رأْيٌ، وكيف وحالَتُهم الأُمِّيَّةُ لا تُساعِدُ على ذلك؟! وكانوا يُخطِئونَ في التَّفاصيلِ حتَّى يأْتُوا بما يُناقِضُ ما يَعتقِدونَه؛ ولذلك أعقَبَه بقولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍ﴾؛ فإشارةُ ﴿بِذَٰلِكَ﴾ إلى قولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾، أي: لا عِلمَ لهمْ بأنَّ الدَّهْرَ هو المُميتُ؛ إذ لا دَليلَ على ذلك؛ فإنَّ الدَّليلَ النَّظريَّ بيِّنٌ أنَّ الدَّهرَ -وهو الزَّمانُ- ليس بمُميتٍ مُباشَرةً، وهو ظاهرٌ، ولا بواسِطةٍ في الإماتةِ؛ إذ الزَّمانُ أمْرٌ اعْتِباريٌّ لا يَفعَلُ ولا يُؤثِّرُ، وإنَّما هو مَقاديرُ يُقدِّرُ بها النَّاسُ الأبعادَ بيْنَ الحوادثِ، مَرجِعُه إلى تَقديرِ حِصَّةِ النَّهارِ واللَّيلِ، وحِصَصِ الفُصولِ الأربعةِ، وإنَّما تَوهَّمَ عامَّةُ النَّاسِ أنَّ الزَّمانَ مُتصرِّفٌ، وهي تَوهُّماتٌ شاعَتْ حتَّى استَقرَّتْ في الأذهانِ السَّاذَجةِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٦٢، ٣٦٣).

- وجُملةُ ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ مُبيِّنةٌ لِجُملةِ ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، أو اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ؛ كأنَّ سائلًا حينَ سَمِعَ قولَه: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾، سأَلَ عن مُستنَدِهم في قولِهم ذلك، فأُجِيبَ بأنَّه الظَّنُّ المَبْنيُّ على التَّخيُّلِ(١).

- وجِيءَ بالمُضارِعِ في ﴿يَظُنُّونَ﴾؛ لأنَّهم يُجَدِّدون هذا الظَّنَّ، ويَتلقَّاهُ صَغيرُهم عن كَبيرِهم في أجْيالِهم، وما هُمْ بمُقْلِعينَ عنه(٢).

- ولَمَّا ذكَرَ تعالَى خلْقَ السَّمواتِ والأرضِ وقيَّدَه بالحقِّ، قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾، يعني: ألَا تَتعجَّبونَ مِن هذا الَّذي اتَّبَعَ هَواهُ، وأضَلَّه اللهُ، وختَمَ على سَمْعِه وقَلْبِه؛ كيف ضَلَّ عن سَبيلِ المَعرفةِ، ورفَضَ العمَلَ، وطعَنَ في تلك الحِكمةِ البالِغةِ، وادَّعى الحِكمةَ لِنَفْسِه، وقال: لا عَمَلَ ولا جَزاءَ، و﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾؟! بخِلافِ المُؤمنِ الَّذي جعَلَ هَواهُ تَبَعًا لِدينِه؛ فدَلَّ بعطْفِ قَولِه: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ﴾ على ﴿ٱتَّخَذَ﴾؛ على أنَّهم إنَّما اتَّبَعوا أهْواءَهم الباطِلةَ، ولمْ يُجِيلُوا فِكْرَهم في تلك الآياتِ الباهرةِ الدَّالَّةِ على تلك الحِكمةِ البالِغةِ؛ لِسَبْقِ عِلْمِه الأزَليِّ والقَضاءِ المُقدَّرِ، وذلك الَّذي جَسَّرَهم أنْ يُبطِلوا حِكمةَ اللهِ بقَولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾. ثمَّ نَفى العِلمَ عنْهم على الاسْتِغراقِ بقَولِه: (مَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْم)، وذيَّلَ الآياتِ بقَولِه: ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، ورتَّبَ فيه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تَقْريرًا وتأْكيدًا؛ فعُلِمَ قطْعًا أنَّ مَن اقْتَنى شَيئًا مِن الهَذَيانِ، وسمَّاهُ حِكمةً، واتَّبَعَ الهَوى، ورفَضَ العمَلَ، وأنْكَرَ الهُدى الَّذي هو القولُ بالحَشرِ؛ هو ممَّنْ أضَلَّه اللهُ على عِلْمٍ وختَمَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

سَمْعِه وقَلْبِه، وجعَلَ على بَصرِه غِشاوةً، وما لَه بما يقولُ مِن عِلمٍ، وهو أجهَلُ خلْقِ اللهِ وإنْ جمَعَ أسفارًا مِن الهَذَياناتِ، نَعوذُ باللهِ مِن سَخَطِ اللهِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤]، أي: عَقَدوا على عَقيدةِ أنْ لا حَياةَ بعْدَ المَماتِ؛ اسْتِنادًا لِلْأوهامِ والأقيسةِ الخياليَّةِ، وإذا تُلِيَت عليهم آياتُ القُرآنِ الواضحةِ الدَّلالةِ على إمْكانِ البَعثِ وعلى لُزومِه، لم يُعارِضوها بما يُبْطِلُها، بلْ يُهْرَعون إلى المُباهَتةِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ استِثناءٌ من ﴿حُجَّتَهُمْ﴾، وهو يَقتضي تَسمِيةَ كلامِهم هذا حُجَّةً، وهو ليس بحُجَّةٍ؛ إذ هو بالبُهتانِ أشْبَهُ؛ فسَمَّى قولَهم حُجَّةً وليس بحُجَّةٍ؛ لأنَّهم أدْلَوا به كما يُدْلي المُحتَجُّ بحُجَّتِه، وساقُوه مَساقَها، فيكونُ إطلاقُ اسمِ الحُجَّةِ عليه على سَبيلِ التَّهكُّمِ بهم. أو لأنَّه في حِسبانِهم وتَقديرِهم حُجَّةٌ، فيكونُ إطلاقُ اسمِ الحُجَّةِ على كلامِهم جرَى على اعتِقادِهم وتَقديرِهم دون قَصْدِ تَهكُّمٍ بهم، أي: أْتُوا بما تَوهَّمْتُموه حُجَّةً. أو كأنَّه قِيل: ما كان حُجَّتُهم إلَّا ما ليس بحُجَّةٍ، والمُرادُ: نَفْيُ أنْ تكونَ لهم حُجَّةٌ ألْبَتَّةَ، وأنَّ هذه ليستْ بحُجَّةٍ، بل هي عِنادٌ؛ فيَحصُلُ أنْ لا حُجَّةَ لهم بطَريقِ التَّمليحِ والكِنايةِ[٣]. أو أنَّ الحُجَّةَ اسمٌ لِمَا يُحتَجُّ به مِن حَقٍّ وباطلٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٤٥). =

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ تَلقينٌ لإبطالِ قَولِهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] يَتضمَّنُ إبطالَ قَولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، والمَقصودُ منه قَولُه: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾؛ وإنَّما قُدِّمَ عليه ﴿يُحۡيِيكُمۡ﴾ تَوطئةً له، أي: كما هو أوجَدَكم هو يُميتُكم لا الدَّهرُ؛ فتَقديمُ اسمِ ﴿ٱللَّهُ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ -وهو ﴿يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾- يُفيدُ تَخصيصَ الإحياءِ والإماتةِ به؛ لإبْطالِ قَولِهم: إنَّ الدَّهرَ هو الَّذي يُميتُهم[1].

- وقولُه: ﴿ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ إبطالٌ لِقَولِهم: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، وليس هو إبطالًا بطَريقِ الاسْتِدلالِ؛ لأنَّ أدِلَّةَ هذا تَكرَّرتْ فيما نزَلَ مِن القُرآنِ؛ فاسْتُغنِيَ عن تَفصيلِها، ولكنَّه إبطالٌ بطَريقِ الإجمالِ والمُعارَضةِ[2].

---

= قال ابنُ تيميَّةَ: (الحُجَّةُ هي ما يَحتَجُّ به الخَصمُ وإن كان باطِلًا؛ فليس مِن شَرطِ لَفظِ الحُجَّةِ أن تكونَ حَقًّا، بل إذا كانت حَقًّا سُمِّيَت بَيِّنةً وبُرهانًا ودَليلًا). ((الصفدية)) (٢/ ٣١٦).

وقال ابن القيِّم: (الحُجَّةُ في كتابِ اللهِ يُرادُ بها نَوعانِ:

أحدُهما: الحُجَّةُ الحَقُّ الصَّحيحةُ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

ويُرادُ بها: مُطلَقُ الاحتِجاجِ بحَقٍّ أو بباطِلٍ؛ كقَولِه: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقَولِه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وقَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: ١٦]). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ اسْتِدراكٌ مِن قولِه تعالَى: ﴿لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾، وهو إمَّا مِن تَمامِ الكَلامِ المأْمورِ به، أو كَلامٌ مَسوقٌ مِن جِهَتِه تعالى؛ تَحقيقًا للحقِّ، وتَنبيهًا على أنَّ ارتيابَهم لِجَهْلِهم وقُصورِهم في النَّظرِ والتَّفكُّرِ، لا لأنَّ فيه شائبةَ رَيْبٍ ما[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤).

## الآيات (٢٧-٢٠)

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلسَّاعَةُ﴾: أي: يومُ القِيامةِ، والسَّاعةُ هي الوقتُ القَليلُ والجُزءُ مِن أجزاءِ الزَّمانِ، ويُعبَّرُ بها عن القِيامةِ؛ تَشبيهًا بذلك لسُرعةِ الحسابِ فيها، وأصْلُ (سوع): يدُلُّ على استِمرارِ الشَّيءِ ومُضِيِّه[1].

﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾: أي: المكَذِّبون الكافِرونَ أصحابُ الأباطيلِ، وأصلُ (بطل): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ، وقِلَّةِ مُكثِه[2].

﴿جَاثِيَةً﴾: أي: باركةً على الرُّكَبِ، وهي جِلسةُ المخاصَمِ بيْنَ يَدَيِ الحاكِمِ يَنتَظِرُ القضاءَ[3].

﴿نَسْتَنسِخُ﴾: أي: نَكتُبُ ونُثبِتُ، والنَّسخُ: إزالةُ شَيءٍ بشَيءٍ يتَعَقَّبُه، وتارةً يُفهَمُ منه الإزالةُ، وتارةً يُفهَمُ منه الإثباتُ، وتارةً يُفهَمُ منه الأمرانِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (١٨/ ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩- ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧)، =

## المعنى الإجماليُّ:

يَقولُ اللهُ تعالَى مُذكِّرًا بأهوالِ يومِ القِيامةِ: ولله وَحْدَه مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، ويَومَ تقومُ القِيامةُ يَخسَرُ الكافِرونَ أصحابُ الأباطيلِ، فيَصيرونَ إلى النَّار! وتَرى -يا محمَّدُ- كُلَّ أهلِ مِلَّةٍ في ذلك اليَومِ جالِسينَ على رُكَبِهم، مُنتَظِرينَ فَصْلَ اللهِ تعالَى بيْنَهم، كلُّ مِلَّةٍ تُدعَى إلى كتابِ أعمالِها، ويُقالُ لهم: اليومَ تَنالُونَ جَزاءَ أعمالِكم، هذا كِتابُنا يَشهَدُ عليكم بما عَمِلتُموه دونَ زيادةٍ أو نُقصانٍ، إنَّا كُنَّا نَأمُرُ الملائِكةَ أنْ تَكتُبَ أعمالَكم، فأمَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ فيُدخِلُهم رَبُّهم في جَنَّتِه، وذلك هو الفَوزُ الظَّاهِرُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا احتَجَّ بكَونِه قادِرًا على الإحياءِ في المرَّةِ الأُولَى، وعلى كَونِه قادِرًا على الإحياءِ في المرَّةِ الثَّانيةِ في الآياتِ المتقَدِّمةِ؛ عَمَّمَ الدَّليلَ فقال: ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾، أي: للهِ القُدرةُ على جَميعِ المُمكِناتِ، سَواءٌ كانتْ مِنَ السَّمواتِ أو مِنَ الأرضِ، وإذا ثَبَت كَونُه تعالَى قادِرًا على كُلِّ المُمكِناتِ، وثَبَت أنَّ حُصولَ الحياةِ في هذه الذَّاتِ مُمكِنٌ؛ إذ لو لم يكُنْ مُمكِنًا لَمَا حَصَل في المرَّةِ الأُولى، فيَلزَمُ مِن هاتَينِ المقَدِّمَتينِ كَونُه تعالَى قادِرًا على الإحياءِ في المرَّةِ الثَّانيةِ[1].

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٠).

وأيضًا لَمَّا دَلَّ اللهُ تعالَى على قُدرتِه على الإعادةِ بهذا الدَّليلِ الخاصِّ الذي تَقديرُه: فاللهُ الَّذي ابتَدأَ خَلْقَكم مِنَ الأرضِ على هذا الوَجهِ قادِرٌ على إعادتِكم؛ عَطَف عليه دَليلًا آخَرَ جامِعًا، فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ومَن تَصَرَّفَ في مُلكِه بشَيءٍ مِن الأشياءِ كان قادِرًا على مِثْلِه ما دامَ مَلِكًا[١].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولِلهِ وَحْدَه مُلكُ جَميعِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فهو خالِقُهما والمتصَرِّفُ فيهما دونَ الدَّهرِ وغيرِه مِمَّا يَزعُمُ المُشرِكونَ أنَّ له تصَرُّفًا في الكَونِ[٢]!

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالَى إمكانَ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ؛ ذكَرَ تفاصيلَ أحوالِ القِيامةِ؛ فأوَّلُها: قَولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[٣]، ولَمَّا جَرَى ذِكرُ يَومِ القِيامةِ أُعقِبَ بإنذارِ الذين أنكَروه مِن سُوءِ عاقِبتِهم فيه[٤]، فقال:

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

أي: ويَومَ تَجيءُ القِيامةُ يَخسَرُ الكافِرونَ أصحابُ الأباطيلِ، فيَصيرونَ إلى النَّارِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير =

كما قال تعالَى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [يونس: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨].

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾.

أي: وتَرى في ذلك اليَوم -يا محمَّدُ- أهلَ كُلِّ مِلَّةٍ جالِسينَ على رُكَبِهم، مُنتَظِرينَ قَضاءَ اللهِ تعالَى وحُكمَه عليهم[1].

---

= ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٩٥).

ممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المُبطِلينَ هم: الآتونَ بالباطِلِ في مُعتقداتِهم وأقوالِهم وأعمالِهم: ابنُ جرير، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦).

قال الواحديُّ: (قوله تعالى: ﴿يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ قال مقاتلٌ والكلْبيُّ: يعني: المكذِّبينَ الكافرينَ، والمبْطِلونَ أصحابُ الأباطيلِ). ((البسيط)) (٢٠/ ١٥١). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٨٤١).

وقال البقاعي: (﴿ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي: الداخلونَ في الباطلِ، العريقونَ في الاتِّصافِ به). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٠٤).

وقال السعديُّ: (يحصُلُ الخَسارُ على المُبطِلين الذين أتَوا بالباطِلِ لِيُدحِضوا به الحَقَّ، وكانت أعمالُهم باطلةً؛ لأنَّها مُتعَلِّقةٌ بالباطِلِ، فبَطَلت في يومِ القيامةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

قال الشَّوكاني: (﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ الخِطابُ لِكُلِّ مَن يَصْلُحُ له، أو للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢).

وقال أيضًا: (ومعنى ﴿جَاثِيَةً﴾: مُستَوفِزةً، والمُستَوفِزُ: الذي لا يُصيبُ الأرضَ منه إلَّا رُكبَتاه وأطرافُ أنامِلِه، وذلك عند الحِسابِ. وقيل: معْنى ﴿جَاثِيَةً﴾: مُجتَمِعةً، قال الفَرَّاءُ: المعنى: =

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

أي: كلُّ أهلِ مِلَّةٍ تُدعَى يومَ القِيامةِ إلى صَحائِفِ أعمالِها التي كتبَتْها الملائِكةُ[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا

---

= وتَرى أهلَ كُلِّ ذِي دِينٍ مُجتَمِعينَ. وقال عِكرمةُ: مُتمَيِّزةٌ عن غَيرِها. وقال مُؤرِّجٌ: معناه بلُغةِ قُرَيشٍ: خاضِعةٌ. وقال الحَسَنُ: بارِكةٌ على الرُّكَبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (الجاثي: هو البارِكُ المُستَوفِزُ، وهو هَيئةُ الخُضوعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

وقال الشَّوكاني: (وظاهِرُ الآيةِ أنَّ هذه الصِّفةَ تكونُ لكُلِّ أمَّةٍ مِن الأُمَمِ مِن غَيرِ فَرقٍ بيْنَ أهلِ الأديانِ المتَّبِعينَ للرُّسُلِ، وغَيرِهم مِن أهلِ الشِّركِ. وقال يَحيى بنُ سلامٍ: هو خاصٌّ بالكُفَّارِ. والأوَّلُ أَولى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ معنى ﴿كِتَٰبِهَا﴾: كتابُ أعمالِها: ابنُ جرير، والواحديُّ، والزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والعُليميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٧٤).

وقيل: المعنى: إلى الكتابِ المنزَّلِ عليها، كالقُرآنِ والتَّوراةِ والإنجيلِ. وممَّن رجَّح هذا المعنى: الشَّوكاني، واستظْهَره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

قال ابن عاشور: (فمعنى ﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾: تُدعَى لِتُعرَضَ أعمالُها على ما أُمِرَتْ به في كِتابِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

وممَّن جمَع بيْن القولينِ: البقاعيُّ، فقال: (﴿تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: الذي أُنزِلَ إليها وتعَبَّدَها اللهُ به، والذي نسَخَتْه الحفَظةُ مِن أعمالِها؛ لِيُطابَقَ أحدُهما بالآخَرِ، فمَن وافَق كِتابُه ما أُمِرَ به من كتابِ رَبِّه نجا، ومَن خالَفَه هَلَك). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٠٥)، ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (٧٧٨).

يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۞ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧١].

﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

أي: يُقالُ للأُمَمِ يومَ القِيامةِ: اليومَ تَنالُونَ جَزاءَ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[1].

﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: يُقالُ للأُمَمِ يومَ القِيامةِ: هذا كِتابُنا يَشهَدُ عليكم بجَميعِ أعمالِكم التي كتَبَتْها الملائِكةُ، فيُبَيِّنُها بما هو مُوافِقٌ للحَقيقةِ والواقِعِ دونَ زِيادةٍ أو نُقصانٍ[2].

كما قال تعالَى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١).

قال ابنُ القيِّم: (قولُه: ﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾ والمرادُ: جميعُ الكُتُبِ التي أُحصِيَت فيها أعمالُهم). ((بدائع الفوائد)) (٤/ ٢).

أي: إنَّا كُنَّا نَأمُرُ الملائِكةَ أنْ تَكتُبَ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٦).

قال السَّمعاني: (وقَولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه أقوالٌ:

أحَدُها: نَستَكتِبُ ما كُنتُم تَعمَلونَ، أي: نأمُرُ الكَتَبَةَ أن يَكتُبوا ويَحفَظوا أعمالَكم.

والقَولُ الثَّاني: ﴿نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأخُذُ نُسخةً مِمَّا كَتَبَت الملائِكةُ عليكم.

والقَولُ الثَّالِثُ: وهو المعروفُ، وهو مرويٌّ عن ابنِ عَبَّاسٍ، قال: يأمُرُ اللهُ تعالَى الملائكةَ بأنْ يأخُذوا نُسخةً مِن اللَّوحِ المحفوظِ على ما يَعمَلُه العَبدُ في يومِه ولَيلتِه، ثمَّ يَكتُبونَ ما عَمِلَه العَبدُ، ثمَّ يُقابِلونَ ما كَتَبوا على العَبدِ بما نَسَخوا مِنَ اللَّوحِ المحفوظِ، فيكونانِ سَواءً لا زِيادةَ ولا نُقصانَ فيه، قال ابنُ عباسٍ: انظُروا هل يكونُ الاستِنساخُ إلَّا مِن أصلٍ؟!). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٥).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المعنى: إنَّا كنَّا نَستكتِبُ الحفظةَ أعمالَكم، ونَأمرُ الملائكةَ بنسْخِها، أي: بكَتْبِها، وإثْباتِها عليكم: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ الجوْزي، والرازيُّ، وابنُ جُزَي، والخازنُ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣).

قال ابنُ القيِّم: (أكثَرُ المُفَسِّرين على أنَّ هذا الاستِنساخَ من اللَّوحِ المحفوظِ، فتَستنسِخُ الملائكةُ ما يكونُ مِن أعمالِ بَني آدمَ قبْل أن يَعمَلوها، فيَجِدونَ ذلك مُوافِقًا لِما يَعمَلونَه، فيُثبِتُ اللهُ تعالى منه ما فيه ثَوابٌ أو عقابٌ، ويَطرَحُ منه اللَّغوَ). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٤٥).

وقال ابنُ القيِّم أيضًا: (قال عطاءٌ عن ابنِ عَبَّاسٍ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال: كَتَبَ اللهُ أعمالَ بني آدمَ وما هم عامِلون إلى يومِ القيامةِ. قال: والملائِكةُ تَستنسِخُ ما يَعمَلُ بنو آدَمَ يومًا بيومٍ، فذلك قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. وفي الآيةِ قولٌ آخَرُ: أنَّ استِنساخَ الملائكةِ هو كِتابتُهم لِما يَعمَلُ بنو آدمَ بعْدَ أنْ يَعمَلوه، وقد يُقالُ -وهو الأظهَرُ-: إنَّ الآيةَ تَعُمُّ الأمرينِ؛ فيَأمُرُ اللهُ ملائكتَه فتَستنسِخُ مِن أُمِّ الكتابِ أعمالَ بني آدمَ، ثمَّ يَكتُبونَها =

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ٣٠ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ ذَكَر الله تعالى أهوالَ العَرضِ والحِسابِ، وأنَّ أعمالَ كُلِّ أُمَّةٍ تُعرَضُ عليها؛ فصَّلَ سُبحانَه حالَيِ السُّعَداءِ والأشقياءِ، وبدَأ بالسُّعَداءِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، وأنَّه يُدخِلُهم جنَّاتِ النَّعيمِ[1]، فقال:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ﴾.

أي: فأمَّا الَّذين آمَنوا باللهِ تعالى وبكلِّ بما يجِبُ عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ الخالِصةَ الموافِقةَ لِشَرعِه: فيُدخِلُهم رَبُّهم في جَنَّتِه[2].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((تحاجَّتِ الجنَّةُ والنَّارُ؛ فقالت النَّارُ: أُوثِرتُ بالمتكَبِّرينَ والمتجَبِّرينَ! وقالت الجنَّةُ: ما لي لا يَدخُلُني إلَّا ضُعَفاءُ النَّاسِ وسَقَطُهم[3]؟! قال اللهُ تَبارك وتعالَى للجنَّةِ: أنتِ

---

= عليهم إذا عَمِلوها، فلا تَزيدُ على ما نَسَخوه مِن أمِّ الكتابِ ذَرَّةً ولا تُنقَصُها)). ((طريق الهجرتين)) (ص: ٦٦).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ السِّين والتَّاء في ﴿نَسۡتَنسِخُ﴾ للمُبالغةِ في الفِعلِ، مثلُ استجابَ. ويجوزُ أن يكونَ السِّين والتَّاء للطَّلبِ والتَّكليفِ، أي: نُكَلِّفُ الملائكةَ نَسْخَ أعمالِكم، وعلى هذا المحمَلِ حَمَل المُفَسِّرون السينَ والتاءَ هنا، أي: للطَّلَبِ، ثمَّ يجوزُ أن يكونَ النَّسخُ على معنى نَقلِ كِتابةٍ عن كتابةٍ سابقةٍ... ويجوزُ أن يكونَ النَّسخُ بمعنى كتابةِ ما تعمَلُه النَّاسُ دونَ نَقلٍ عن أصلٍ، والمعنى: إنَّا كنَّا نَكتُبُ أعمالَكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٦٤، ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٣) وسَقَطُهم: أي: أردَؤُهم وأكثَرُهم خُمولًا، وأقلُّهم اعتِبارًا، المُحقَّرونَ فيما بيْنهم، السَّاقِطونَ =

رَحْمتي أرحَمُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادي. وقال للنَّارِ: إنَّما أنتِ عَذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ مِن عِبادي، ولكُلِّ واحِدةٍ منهما مِلؤُها؛ فأمَّا النَّارُ فلا تَمتلِئُ حتى يَضَعَ رِجْلَه، فتقولُ: قَطْ قَطْ[١]، فهنالك تَمتَلِئُ ويُزوَى[٢] بعضُها إلى بعضٍ، ولا يَظلِمُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مِن خَلْقِه أحدًا، وأمَّا الجنَّةُ فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يُنشِئُ لها خَلْقًا))[٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((لنْ يُدخلَ أحدًا منكم عَمَلُه الجَنَّةَ. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا أنا إلَّا أنْ يَتغَمَّدَني اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ))[٤].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾.

أي: دُخولُ المُؤمِنينَ الجنَّةَ يومَ القِيامةِ هو الفَوزُ البَيِّنُ الظَّاهِرُ[٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ قال ابنُ أبي حاتم: (قَدِمَ سُفيانُ الثَّوريُّ المدينةَ، فسَمِعَ المَعافِريَّ يَتكَلَّمُ ببَعضِ ما يُضحِكُ به النَّاسَ! فقال له: يا شَيخُ، أمَا عَلِمتَ أنَّ للهِ يومًا يَخسَرُ فيه المُبطِلونَ؟! قال: فما زالت تُعرَفُ في المعافِريِّ حتى لحِقَ باللهِ عزَّ وجَلَّ)[٦]!

---

= عن أعيُنِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٢٨).

(١) قَطْ: حَسْبي، أي: يَكْفيني هذا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٢).

(٢) ويُزْوَى: أي: يُضمُّ بعضُها إلى بعضٍ فتجتمِعُ وتَلْتقي على مَن فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٢).

(٣) رواه البخاري (٤٨٥٠) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٦).

(٤) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) واللفظ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٠).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وَصَف تعالَى شِدَّةَ يومِ القِيامةِ وهَوْلَه؛ لِيَحذَرَه العِبادُ، ويَستَعِدُّوا له[١]، حيث يَصيرُ النَّاسُ على الرُّكَبِ جُثاةً، في هيْئةِ المذنْبِ الخائفِ المُعَظِّمِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تكونُ وَحْدَها يوْمَ القِيامةِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: الجُثُوُّ على الرُّكبةِ إنَّما يَليقُ بالخائِفِ، والمُؤمِنونَ لا خَوفٌ عليهم يومَ القِيامةِ؟

**الجَوابُ**: أنَّ المُحِقَّ الآمِنَ قد يُشارِكُ المُبطِلَ في مِثلِ هذه الحالةِ إلى أنْ يَظهَرَ كَونُه مُحِقًّا[٤].

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَرِيَّةِ -المُنكِرينَ للكِتابةِ السَّابقةِ لأعمالِ العِبادِ-؛ إذِ النَّسخُ لا يكونُ إلَّا ممَّا قدْ فُرِغ منه مَرَّةً، ولو كانتْ كِتابةَ ابتداءٍ: كان -واللهُ أعلمُ- (إنَّا كُنَّا نَكتُبُ ما كنتُم تعملونَ)[٥]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قَولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخِرِ القِصَّةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٠).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٢).

فيه حُجَّةٌ على المُعتزلةِ والقَدَريَّةِ في بابِ الوَعيدِ، حيثُ زعَموا أنَّ اللهَ -في القُرآنِ كلِّه- لم يُوجِبِ الرَّحمةَ والفوزَ والجنَّةَ إلَّا لِمَن لم يَعْصِه طَرْفةَ عَينٍ، أو عصاهُ فمات تائبًا. ووَجْهُ ذلك: أنَّه قال في أوَّلِ القِصَّةِ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، ثمَّ أخبَرَ بمَثْوَى كلِّ فريقٍ ومُجازاتِه، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يَقُلْ: «ولم يُذنِبوا». والمؤمنُ إذا صلَّى وصامَ وتَوضَّأَ واغتَسلَ مِن الجَنابةِ؛ فقدْ عَمِلَ الصَّالحاتِ، ولا تَرى مُؤمِنًا -وإنْ أذنَبَ- إلَّا وقدْ فَعَلَ كُلَّ هذا وزِيادةً، وقال في الفِرقةِ الأُخرى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [الجاثية: ٣١]، فحَقَّ الوَعيدُ عليهم بتَعريتِهم مِن الإيمانِ، فمَن أوجَبَ اللهُ له الفَوزَ، ووعَدَه الإدخالَ في رَحمتِه؛ فقدْ أمِنَ مَثوَى الآخَرينَ وجَزاءَهم(١).

- قال تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ فذكَر الله تعالى حالَ الطَّائفتينِ مِن المؤمنينَ والكافِرينَ، وقرَن بينَهم في الذِّكرِ؛ ليَبينَ الأمرُ في نفسِ السَّامعِ؛ فإنَّ الأشياءَ تتبيَّنُ بذكرِ أضدادِها(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِتَعميمِ القُدْرةِ بعْدَ تَخصيصِها بالإحياءِ والإماتةِ والجمْعِ؛ لأنَّ معنى المالِكِ: أنْ يَتصرَّفَ بما يَملِكُ كما يَشاءُ(٣). أو هو اعْتِراضُ تَذييلٍ لِقَولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الجاثية:

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٥٨).

٢٦]، أي: للهِ لا لِغَيرِه مُلْكُ السَّمواتِ والأرْضِ، أي: فهو المُتصرِّفُ في أحوالِ ما حَوَتْه السَّمواتُ والأرضُ؛ مِن إحياءٍ وإماتةٍ، وغيرِ ذلك بما أوجَدَ مِن أُصولِها وما قدَّرَ مِن أسْبابِها ووَسائلِها؛ فليْس للدَّهرِ تَصرُّفٌ، ولا لِمَا سِوى اللهِ تعالَى[١].

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿وَلِلَّهِ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لإفادةِ التَّخصيصِ؛ لِرَدِّ مُعتقَدِ الكافرينَ مِن خُروجِ تَصرُّفِ غَيرِه في بَعضِ ما في السَّمواتِ والأرضِ، كقولِهم في الدَّهرِ[٢].

- وقولُه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ ظَرفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَخْسَرُ﴾، وقُدِّمَ عليه للاهتِمامِ به، واسْتِرعاءِ الأسماعِ لِمَا يَرِدُ مِن وَصْفِ أحوالِه[٣].

- وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ تَوكيدٌ لـ(يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ)، وتَنوينُه عِوَضٌ عن المُضافِ إليه المَحذوفِ؛ لِدَلالةِ ما أُضِيفَ إليه (يَوم) عليه، أي: يَومَ إذ تَقومُ السَّاعةُ يَخسَرُ المُبطِلون؛ فالتَّأكيدُ لِتَحقيقِ مَضمونِ الخبَرِ، ولِتَهويلِ ذلك اليومِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ جُثُوَّ الأُمَّةِ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عمَّا بعْدَ ذلك الجُثُوِّ[٥].

- قولُه: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾، أي: إلى قِراءةِ كِتابِ أعْمالِها، وأضافَ الكِتابَ إلى الأُمَّةِ، ثمَّ أضافَه إليه تعالَى في قولِه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ [الجاثية: ٢٩]؛ لأنَّ الإضافةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٦٨).

تَحصُلُ بأدَقِّ مُلابَسةٍ، فأضافَه إلى الأُمَّةِ لِكَونِ أعمالِهم مُثبَتةً فيه، وأضافَه إليه تعالَى لِكَونِه مالِكَه، وآمِرَ مَلائكتِه بكِتابتِه، وللإشارةِ إلى أنَّ كُلَّ ما ثبَتَ فيه صِدْقٌ وحَقٌّ وعدْلٌ، وأنَّه تعالَى يُجازِيها على القَليلِ والكَثيرِ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾، وذُيِّلَ بالجمْعِ، ثمَّ قُسِّمَ بقولِه: ﴿فَأَمَّا﴾ ﴿وَأَمَّا﴾[1].

- وعلى القَولِ بأنَّ المرادَ بـ ﴿كِتَٰبِهَا﴾ كِتابُ تَسجيلِ الأعمالِ لكلِّ واحدٍ، أو المرادُ به الجِنسُ، فتكونُ إضافتُه إلى ضَميرِ الأُمَّةِ على إرادةِ التَّوزيعِ على الأفرادِ؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ مِن كُلِّ أُمَّةٍ صَحيفةَ عمَلِه خاصَّةً به، كما قال تعالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا﴾ [الإسراء: ١٤]، وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩]، أي: كلُّ مُجرمٍ يُشفِقُ ممَّا في كِتابِه، إلَّا أنَّ هذه الآيةَ الأخيرةَ وقَعَ فيها (الكتاب) مُعرَّفًا باللَّامِ فقَبِلَ العمومَ. وأمَّا آيةُ (الجاثيةِ) فعُمومُها بَدَليٌّ بالقَرينةِ؛ فالمرادُ: خُصوصُ الأُممِ التي أُرسِلتْ إليها الرُّسُلُ، ولها كتُبٌ وشَرائعُ؛ لقولِه تعالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾[2] [الإسراء: ١٥].

- وفي قَولِه: ﴿كُلُّ أُمَّةٖ تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أُعيدَت كَلمةُ ﴿كُلُّ أُمَّةٖ﴾ -دونَ اكْتِفاءٍ بقولِه: ﴿تُدۡعَىٰٓ﴾ أو (يُدْعون)-؛ للتَّهويلِ، ولو قِيل: وتَرَى كلَّ أُمَّةٍ جاثيةً تُدْعَى إلى كِتابِها، لَأوهَمَ أنَّ الجُثُوَّ والدُّعاءَ إلى الكِتابِ يَحْصُلانِ مَعًا، معَ ما في إعادةِ الخَبَرِ مَرَّةً ثانيةً مِن التَّهويلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٨).

- وجُملةُ ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿تُدۡعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ بتَقديرِ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: يُقالُ لهم: اليومَ تُجْزَون، أي: يكونُ جَزاؤُكم على وَفْقِ أعْمالِكم، وجَرْيُها على وَفْقِ ما يُوافِقُ كِتابَ دِينِكم مِن أفْعالِكم في الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، وهذا البدَلُ وقَعَ اعتِراضًا بيْن جُملةِ ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ وجُملةِ ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الجاثية: ٣٠] الآياتِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ مِن مَقولِ القولِ المُقدَّرِ، وهي مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا لتَوقُّعِ سُؤالِ مَن يقولُ منهم: ما هو طَريقُ ثُبوتِ أعْمالِها[٢]؟

- وأُضِيفَ الكِتابُ إلى نُونِ العَظَمةِ ﴿كِتَٰبُنَا﴾؛ تَفخيمًا لِشَأْنِه وتَهْويلًا لِأمْرِه[٣].

- ولِتَضمُّنِ فِعلِ ﴿يَنطِقُ﴾ معنى (يَشهَدُ) عُدِّيَ بحَرْفِ (على). ولَمَّا كان المَقامُ للتَّهديدِ، اقتُصِرَ فيه على تَعديةِ ﴿يَنطِقُ﴾ بحَرْفِ (على) دُونَ زِيادةِ: (ولكمْ)؛ إيثارًا لِجانبِ التَّهديدِ[٤].

- وقولُه: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ خطَرَ ببالِهم السُّؤالُ: كيف شَهِدَ عليهمُ الكِتابُ اليومَ وهمْ قدْ عَمِلوا الأعمالَ في الدُّنيا؟ فأُجيبُوا بأنَّ اللهَ كان يَأمُرُ بنَسْخِ ما يَعمَلونَه في الصُّحفِ في وَقْتِ عَمَلِه. وإنْ حُمِلَ (الكِتابُ) على كُتبِ الشَّريعةِ كانتْ جُملةُ ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تَعليلًا للجُملةِ قبْلَها، باعْتِبارِ تَقْييدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٩).

النُّطقِ بأنَّه بالحقِّ، أي: لأنَّ أعْمالَكم كانتْ مُحصاةً، مُبيَّنٌ ما هو مِنْها مُخالِفٌ لِمَا أمَرَ به كِتابُهم[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ الفاءُ في ﴿فَأَمَّا﴾ لِعَطْفِ المُفصَّلِ على المُجمَلِ، وهو تَفصيلٌ لِمَا أُجمِلَ في قولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾ [الجاثية: ٢٨]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ؛ فالكلامُ هنا هو مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٖ جَاثِيَةٗ﴾، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾[٢] [الجاثية: ٣١].

- وابتُدِئَ في التَّفصيلِ بوَصْفِ حالِ المُؤمِنينَ، معَ أنَّ المَقامَ للحَديثِ عن المُبطِلينَ في قولِه: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٧]؛ تَنْويهًا بالمُؤمِنينَ، وتَعجيلًا لِمَسرَّتِهم، وتَعجيلًا لِمَساءةِ المُبطِلينَ؛ لأنَّ وَصْفَ حالِ المُؤمِنينَ يُؤذِنُ بمُخالَفةِ حالِ الآخَرينَ لِحالِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

## الآيات (٣١-٣٥)

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴾: أي: بمُتحَقِّقينَ. مِنَ اليَقينِ: وهو عِلمٌ حاصِلٌ بالاستِدلالِ، وهو فَوقَ المَعرفةِ والدِّرايةِ، وأصلُ (يقن): يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ[1].

﴿ وَبَدَا ﴾: أي: ظهَرَ ظُهورًا بيِّنًا، وأصلُ (بدو): ظُهورُ الشَّيءِ[2].

﴿ وَحَاقَ ﴾: أي: أحاطَ ونَزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[3].

﴿ وَمَأۡوَىٰكُمُ ﴾: أي: مَصيرُكم ومقامُكم ومَثواكم، أو: مَرجعُكم الذي تَعودونَ إليه، والمأوَى: مكانُ كلِّ شَيءٍ ومَرجعُه الَّذي يَعودُ إليه ليْلًا أو نَهارًا؛ يُقالُ: أوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصلُه: التَّجمُّعُ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨، ٩٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٢)، ((المفردات)) (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣١٢).

﴿هُزُوًا﴾: أي: استهزاءً وسُخريةً ولَعِبًا، وهو مِن الهُزءِ الذي هو المزْحُ في خُفيةٍ(١).

﴿وَغَرَّتْكُمُ﴾: أي: خَدَعَتْكم، يُقالُ: غَررْتُ فلانًا: أصبْتُ غِرَّتَه، ونِلْتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غَفْلةٌ في اليقظةِ، وأصلُ ذلك مِن الغَرِّ، وهو الأثرُ الظَّاهرُ مِن الشَّيءِ(٢).

﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾: أي: يُطلَبُ منهم أنْ يُزيلُوا غَضَبَ رَبِّهم، ويَرجِعوا إلى ما يُرضِيه؛ مِن الاستِعتابِ: وهو الرُّجوعُ عَن الإساءَةِ، والتَّعَرُّضُ لطَلَبِ الرِّضا، وأصلُ الكَلِمةِ مِن (العَتْبِ): وهو الغَضَب والمَلامةُ، يُقالُ: عتَبَ عليه يَعتِبُ: إذا غَضِبَ عليه ولامَه، وأعتَبَه: إذا أزالَ عنه عَتْبَه، واستَعْتَبه: إذا طلَبَ منه الإعتابَ، أي: الرِّضا(٣).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾

قولُه: ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فيه أوجُهٌ:

**أحَدُها**: أنَّ (السَّاعة) مُبتدأٌ مَرفوعٌ، وجُملةُ ﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ في مَحلِّ رَفعٍ خَبَرٌ، وجُملةُ ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الطبري)) (٢/ ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٢)، ((المفردات)) (ص: ٨٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣- ٦٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٨).

**الثَّاني**: أنَّ (السَّاعة) مَعطوفٌ على محلِّ اسمِ (إنَّ)؛ لأنَّه قبْلَ دُخولِها كان مُبتدأً.

**الثَّالِثُ**: أنَّ (السَّاعة) مَعطوفٌ على محَلِّ (إنَّ واسمِها) معًا؛ فمَوضِعُهما الرَّفعُ على الابتداءِ. وقُرِئَ ﴿وَالسَّاعَةَ﴾ بالنَّصبِ[1] عَطفًا على ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾.

قولُه: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ فيه إشكالٌ مِن جِهةِ استِثناءِ الظَّنِّ مِن نَفسِه؛ فليْس مَصدَرُ ﴿نَّظُنُّ﴾ محتَمِلًا مع الظَّنِّ غَيرَه حتى يُخرَجَ الظَّنُّ منه؛ فإنَّ الاستِثناءَ المُفرَّغَ -النَّاقِصَ المنفيَّ- لا يَصِحُّ أنْ يكونَ مُفرَّغًا للمَفعولِ المُطلَقِ المؤكِّدِ؛ لانتِفاءِ فائدةِ التَّفريغِ، فلا يجوزُ (ما ضرَبْتُ إلَّا ضَرْبًا). وقد اختُلِفَ في تَأويلِه على أوجهٍ:

**أحدُها**: أنَّ المُستثنى هو الظَّنُّ الموصوفُ بما دَلَّ عليه تَنكيرُه مِن التَّحقيرِ المُشعِرِ به التَّنوينُ، فتُقَدَّرُ له صِفةٌ مَحذوفةٌ؛ لِفَهمِ المعنَى، والتَّقديرُ: إلَّا ظَنًّا ضَعيفًا؛ فيكونُ مَصدرًا مُختَصًّا لا مُؤَكِّدًا.

**الثَّاني**: أنَّه على القَلبِ والتَّقديمِ والتَّأخيرِ، والتَّقديرُ: (إنْ نحْن إلَّا نظُنُّ ظنًّا).

**الثَّالثُ**: أنْ يُضَمَّنَ ﴿نَّظُنُّ﴾ معنى (نَعْتقِد)، فيَنتصِبَ ﴿ظَنًّا﴾ مَفعولًا به لا مَصدرًا، والتَّقديرُ: ما نَعتَقِدُ إلَّا ظَنًّا.

**الرَّابعُ**: أنَّ الظَّنَّ يكونُ بمعنى العِلْمِ والشَّكِّ، فاستَثْنى الشَّكَّ، كأنَّه قيل: ما لنا اعتِقادٌ إلَّا الشَّكُّ[2].

---

(١) قرَأها بالنَّصبِ حمزةُ، وقرأها الباقونَ بالرَّفعِ. يُنظر: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦٢)، ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٣٥)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٦٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٥٦)، ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٣٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٣).

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى ما يُقالُ للكافرينَ يومَ القِيامةِ تَقريعًا لهم وتَوبيخًا، فيقولُ: وأمَّا الذين كَفَروا باللهِ فيَقولُ اللهُ تعالَى لهم يومَ القِيامةِ تَوبيخًا: ألَمْ تكُنْ آياتُ القرآنِ تُتلَى عليكم في الدُّنيا، فاستكبَرْتُم عن الإيمانِ بها، وكنتُم قَومًا مُجرِمين؟!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى حالَهم في الدُّنيا، وإنكارَهم للبعثِ، فيَقولُ: وإذا قيلَ لكمْ: إنَّ وَعْدَ اللهِ -مِن البَعثِ أو غيرِه- حَقٌّ، وإنَّ القِيامةَ آتيةٌ لا شَكَّ فيها؛ قُلتُم مُكَذِّبينَ: لا نَعرِفُ ما القيامةُ، إنْ نَظُنُّ إلَّا ظَنًّا، وما نحن بمُتَحقِّقينَ مِن قِيامِها!

ثمَّ يقولُ تعالَى: وظَهَر لأولئك المُجرِمينَ سَيِّئاتُ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والعِصيانِ، ونَزَل بهم عَذابُ اللهِ الذي كانوا يَسخَرونَ منه! ويُقالُ لهم: اليومَ نَترُكُكم في العَذابِ كما تَركْتُم في الدُّنيا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ، ومَقَرُّكم النَّارُ، وما لكم ناصِرٌ يَنصُرُكم، ويَدفَعُ عنكم عَذابَ اللهِ!

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى الأسبابَ التي أدَّت بهم إلى هذا المصيرِ السَّيِّئِ، فيقولُ: ذلك العذابُ حاصِلٌ بسَبَبِ أنَّكم اتَّخذْتُم آياتِ اللهِ سُخريةً، وغرَّتْكم الحياةُ الدُّنيا؛ فاليومَ لا يُخرَجُ أولئك الكافِرونَ المجرِمونَ مِنَ النَّارِ، ولا يُطلَبُ منهم فِعلُ ما يُرضِي اللهَ تعالَى.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾.

أي: وأمَّا الذين كَفَروا باللهِ فيَقولُ اللهُ تعالَى لهم تَقْريعًا وتَوبيخًا: ألَمْ تكُنْ آياتُ القرآنِ تُتلَى عليكم في الدُّنيا، فاستكبَرْتُم عن الإيمانِ بها واتِّباعِها، وأعرَضتُم عن سَماعِها وقَبولِها، وكنتُم قَومًا مُتَّصِفينَ بالإجرامِ في أفعالِكم، فتَكتَسِبونَ الآثامَ،

معَ ما اشتَمَلت عليه قلوبُكم مِن التَّكذيبِ[١]؟!

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾.

أي: وإذا قيلَ لكم: إنَّ ما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ أو غيرِه أمرٌ كائِنٌ لا مَحالةَ، وإنَّ القِيامةَ التي يَجمَعُ اللهُ فيها النَّاسَ للحِسابِ والجَزاءِ لا شكَّ في مجيئِها؛ قُلتُم تَكذيبًا وإنكارًا: لا نَعرِفُ ما القِيامةُ[٢]!

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾.

أي: وقُلتُم: ما نَعلَمُ وُقوعَ السَّاعةِ إلَّا على وَجهِ الظَّنِّ والتَّوَهُّمِ[٣]!

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٦-١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢).

قال الشَّوكانيُّ: (﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي: نَحدِسُ حَدْسًا، نَتوهَّمُ توَهُّمًا... وقيل: ﴿إِن نَّظُنُّ﴾ مضمَّنٌ معنى نَعتقدُ، أي: ما نَعتقدُ إلَّا ظنًّا لا عِلمًا... وقيل: إنَّ الظنَّ يكونُ بمعنى العِلمِ والشكِّ، فكأنَّهم قالوا: ما لنا اعتقادٌ إلَّا الشَّكُّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤).

وقال البقاعي: (ولَمَّا كان أمْرُها مَركوزًا في الفِطَرِ لا يَحتاجُ إلى كَبيرِ نَظَرٍ، بما يَعلَمُ كُلُّ أحدٍ مِن تمامِ قُدرةِ الله تعالى، فمتى نُبِّهَ عليها نوعَ تَنبيهٍ سَبَق إلى القَلبِ عِلمُها -سَمَّوا ذلك ظنًّا؛ عِنادًا واستِكبارًا، فقالوا مُستأنِفينَ في جوابِ مَن كأنَّه يقولُ: أفلمْ تُفِدْكم تِلاوةُ هذه الآياتِ البيِّناتِ عِلمًا بها؟ ﴿إِن﴾ أي: ما ﴿نَّظُنُّ﴾ أي: نَعتَقِدُ ما تُخبِرونَنا به عنها ﴿إِلَّا ظَنًّا﴾ وأمَّا وُصولُه إلى دَرَجةِ العِلمِ فلا). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١١٠).

أي: وما نحن بمُتَحقِّقينَ أنَّ القِيامةَ كائِنةٌ[١]!

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾.

أي: وظهَر للمُشرِكينَ في الآخِرةِ ظهورًا بيِّنًا سَيِّئاتُ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي[٢].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

أي: ونَزَل وأحاطَ بهم عَذابُ اللهِ الَّذي كانوا في الدُّنيا يَسخَرونَ منه، ويَستَهزِئونَ به[٣].

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

قال القاسمي: (﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: قبائِحُ أعمالِهم، أو عُقُوباتُ أعمالِهم السَّيِّئاتِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جَريرٍ، وابنُ أبي زَمنين، والرازي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢).

وممَّن اختار القولَ الثاني: مكِّيٌّ، والبَغوي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٨٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٣).

قال البقاعي: (فتَمثَّلَتْ لهم وعَرَفوا مِقدارَ جَزائِها، واطَّلَعوا على جميعِ ما يَلزَمُ على ذلك). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أُودِعَ الكافِرونَ جَهنَّمَ، وأحاطَتْ بهم؛ نُودُوا ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾ إلى آخِرِه؛ تَأييسًا لهم مِنَ العَفوِ عنهم(١).

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

أي: ويُقالُ لهم: اليومَ نَتْرُكُكم في العَذابِ كما تَرَكتُم في الدُّنيا الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالِحَ لِلِقاءِ هذا اليَومِ(٢).

كما قال تعالَى: ﴿فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يَلقَى اللهُ العَبدَ فيقولُ: أيْ فُلُ(٣)، ألَمْ أُكرِمْك وأُسَوِّدْك(٤) وأُزَوِّجْك، وأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبِلَ، وأذَرْك ترأَسُ وتَربَعُ(٥)؟ فيقولُ: بلى. فيقولُ: أفظَنَنْتَ أنَّك مُلاقِيَّ؟ فيقولُ: لا. فيقولُ: فإنِّي أنْساك كما نَسيتَني. ثمَّ يَلْقَى الثَّانيَ فيَقولُ: أيْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٢-١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٣) أي فُلُ: أي: يا فُلانُ، و(فُلُ) هو تَرخيمُ فُلانٍ. وقيل: لغةٌ في فُلانٍ، وصِيغةٌ ارتُجِلَت في بابِ النِّداءِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٩٢٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٣).

(٤) أُسَوِّدْك: أي: أجعَلْك سَيِّدًا في قومِك. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٢٨).

(٥) ترأَسُ: أي: تكونُ رئيسًا على قَومِك. وتَربَعُ: أي: تأخُذُ المِرباعَ، وهو رُبُعُ الغَنيمةِ، وقيل: معناه: تَرَكْتُك مُستريحًا لا تحتاجُ إلى مَشقَّةٍ وتَعَبٍ؛ من قَولِهم: ارْبَعْ على نَفْسِك، أي: ارْفُقْ بها. والمعنى: ألَمْ أجعَلْك رئيسًا مُطاعًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٤).

فُلُ، ألمْ أُكرِمْك وأُسَوِّدْك وأُزَوِّجْك، وأُسخِّرْ لك الخيلَ والإبِلَ، وأذَرْك تَرأَسُ وتَربَعُ؟ فيقولُ: بلى أيْ رَبِّ. فيقولُ: أفظَنَنْتَ أنَّك مُلاقِيَّ؟ فيقولُ: لا. فيقولُ: فإنِّي أنساك كما نَسيتَني))[١].

﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: ومَقَرُّكم ومَسكَنُكم النَّارُ، تَستَقِرُّونَ فيها أبدًا[٢].

﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

أي: وما لكم -أيُّها المُشرِكونَ- أيُّ أحدٍ يَنصُرُكم فيُنقِذُكم مِن عَذابِ اللهِ تعالَى[٣].

كما قال تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٦].

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالَى جَزاءَ الكافِرينَ؛ عَلَّله بما لَزِمَ على أعمالِهم، فقال[٤]:

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٣).

أي: ذلك يَحُلُّ بكم؛ بسَبَبِ أنَّكم اتَّخذْتُم آياتِ اللهِ سُخريةً، تَسخَرونَ منها، وتَستَهزِئونَ بها[١].

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

أي: وبسَبَبِ انخداعِكم بالحياةِ الدُّنيا، فعَمِلتُم لها وآثَرْتُموها، وأعرَضتُم عن العَمَلِ للآخِرةِ وأنكَرْتُموها[٢]!

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾.

أي: فاليومَ لا يُخرَجُ أولئك الكافِرونَ مِنَ النَّارِ[٣].

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

أي: ولا يُطلَبُ منهم يومَ القِيامةِ فِعلُ ما يُرضِي اللهَ، بالتَّوبةِ إليه وطاعتِه؛ حتى تُزالَ عنهم المُعاتَبةُ والمُؤاخَذةُ بذُنوبِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٥-٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠١)، ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٦).
قيل: المرادُ: أنَّهم لا يُرَدُّونَ إلى الدُّنيا لِيَعمَلوا صالحًا.
وممَّن نَصَّ على أنَّ المرادَ العودةُ إلى الدُّنيا: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٠/ ٦٨٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨). =

كما قال تعالَى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

## الفوائدُ التربويةُ:

في قوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ وقَف الله تعالى الكفَّارَ على الاستكبارِ؛ لأنَّه مِن شرِّ الخِلالِ(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾ [الجاثية: ٣٠]، وقولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ...﴾ ذكَرَ اللهُ المؤمِنينَ والكافِرينَ، ولم يَذكُرْ قِسمًا ثالثًا، وهذا يدُلُّ على أنَّ مَذهَبَ المُعتَزِلةِ في إثباتِ المَنزِلتَينِ: باطِلٌ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عَلَّل استِحقاقَ العُقوبةِ بأنَّ آياتِه تُلِيَتْ عليهم فاستَكبَروا عن قَبولِها، وهذا يدُلُّ على أنَّ استِحقاقَ العُقوبةِ لا يَحصُلُ إلَّا بعْدَ مَجيءِ الشَّرعِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ الواجِباتِ لا تَجِبُ إلَّا بالشَّرعِ، خِلافًا لِما يقولُه المُعتَزِلةُ مِن أنَّ بَعضَ الواجباتِ قدْ يَجِبُ بالعَقلِ(٣).

---

= وقيل: المرادُ: لا يُطلَبُ منهم أنْ يُعتِبوا ربَّهم، أي: يُرضوه بالرُّجوعِ إلى طاعتِه والإيمانِ به؛ لأنَّه يومٌ لا تُقبَلُ فيه توبةٌ ولا تَنفَعُ فيه مَعذِرةٌ.

وممَّن قال بذلك في الجُملةِ: الزمخشريُّ، وابنُ الجوْزي، والخازنُ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يَحسُنُ وَصفُ الكافِرِ بكَونِه مُجرِمًا في مَعرِضِ الطَّعنِ فيه والذَّمِّ له، معَ أنَّ الكفرَ أعظمُ حالًا مِن الجُرْمِ؟

**الجوابُ**: قيل: إنَّ معناه أنَّهم مع كَونِهم كُفَّارًا ما كانوا عُدولًا في أديانِ أنفُسِهم، بلْ كانوا فُسَّاقًا في ذلك الدِّينِ(١).

٤- قال اللهُ تعالَى: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ﴾، لَمَّا كانت هذه الآياتُ تُوجِبُ الإيمانَ، لِما لها مِن العظَمةِ بمُجرَّدِ تلاوتِها، بُني قولُه: ﴿تُتۡلَىٰ﴾ للمَفعولِ(٢).

٥- إنْ قِيلَ: قولُهم: ﴿إِن نَّظُنُّ﴾ دَليلٌ على أنَّ الكُفَّارَ قدْ أخبَروا بأنَّهم ظَنُّوا البَعثَ واقِعًا، ودلَّ قَولُهم قبلُ: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الجاثية: ٢٤] على أنَّهم مُنكِرونَ البَعثَ.

**فالجوابُ**: أنَّ قَولَ اللهِ تعالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴾ لا يُنافي قَولَهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ وذلك لِوُجوهٍ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ القَومَ كانوا في هذه المسألةِ على قَولَينِ: مِنهم مَن كان قاطِعًا بنَفيِ البَعثِ والقيامةِ، وهم الَّذين ذكَرَهم اللهُ في الآيةِ المتقَدِّمةِ بقَولِه: ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، ومِنهم مَن كان شاكًّا مُتحَيِّرًا فيه؛ لأنَّهم لِكَثرةِ ما سَمِعوه مِنَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولِكَثرةِ ما سَمِعوه مِن دَلائِلِ القَولِ بصِحَّتِه -صاروا شاكِّينَ فيه، وهم الَّذين أرادهم اللهُ بهذه الآيةِ، والذي يدُلُّ عليه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٨).

أنَّه تعالَى حَكى مَذهَبَ أولئك القاطِعينَ ثمَّ أتبَعَه بحِكايةِ قَولِ هؤلاء؛ فوَجَب كَونُ هؤلاء مُغايِرينَ للفَريقِ الأوَّلِ(١).

**الوَجهُ الثَّاني**: كأنَّهم كانوا تارةً يَقوَى عِندَهم ما في جِبِلَّاتِهم وفِطَرِهم الأُولى مِن أَمْرِها، فيَظُنُّونَها، وتارةً تَقْوَى عليهم الحُظوظُ معَ ما يَقتَرِنُ بها مِنَ الشُّبهةِ المَبنيَّةِ على الجَهلِ، فيَظُنُّونَ عَدَمَها، فيَقطَعونَ به؛ لِما للنَّفسِ إليه مِنَ المَيلِ(٢)، فهم اضْطرَبوا؛ فتارةً أنكَروا، وتارةً ظَنُّوا(٣).

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنْ يكونَ هذا حِكايةً لاستِهزائِهم بخَبَرِ البَعثِ، فإذا قيل لهم: السَّاعةُ لا رَيبَ فيها قالوا استِهزاءً: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾، ويدُلُّ عليه قَولُه عَقِبَه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(٤) [الجاثية: ٣٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ فيه أنَّ الكافِرينَ استَحَقُّوا العذابَ الشَّديدَ؛ لأجْلِ الإصرارِ على إنكارِ الدِّينِ الحَقِّ، والاستِهزاءِ به والسُّخريةِ منه -وهذان الوَجهانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢).

قال ابنُ عاشور: (وأقولُ: هذا لا يَستقيمُ؛ لأنَّه لو سُلِّمَ أنَّ فَريقًا مِن المُشرِكينَ كانوا يَشُكُّونَ في وُقوعِ السَّاعةِ ولا يَجزِمونَ بانتِفائِه، فإنَّ جَمهرةَ المُشرِكينَ نافُونَ لِوُقوعِها؛ فلا يُناسِبُ مَقامَ التَّوبيخِ تَخصيصُه بالَّذين كانوا مُتَرَدِّدينَ في ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٢٦- ٤٢٧).

قال الألوسيُّ: (ويَحتمِلُ اتِّحاد قائلِ ذاك وقائلِ هذا، إلَّا أنَّ كلَّ قولٍ في وقتٍ وحالٍ، فهو مُضطرِبٌ مختلِفُ الحالاتِ؛ تارةً يَجزِمُ بالنَّفيِ فيقولُ: إنْ هي إلَّا حَياتُنا الدُّنيا، وأُخرى يَظُنُّ فيقولُ: إنْ نظُنُّ إلا ظَنًّا. وقيل: الجزمُ هناك بنَفْيِ وُقوعِها، والظنُّ مِن غيرِ إيقانٍ هنا بمُجرَّدِ إمكانِها؛ فهم مُتردِّدون بإمكانِها الذاتيِّ، جازِمون بعدَمِ وُقوعِها بالفعلِ، فتأمَّلْ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٢).

داخِلانِ تحْتَ قَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾-، والاستِغراقِ في حُبِّ الدُّنيا، والإعراضِ بالكُلِّيَّةِ عن الآخِرةِ، وهو المرادُ مِن قَولِه تعالَى: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾[1].

٧- يَذكُرُ الشَّارِعُ العِلَلَ والأوصافَ المُؤثِّرةَ والمعانيَ المُعتَبَرةَ في الأحكامِ القَدَريَّةِ والشَّرْعيَّةِ والجَزائيَّةِ؛ لِيَدُلَّ بذلك على تعَلُّقِ الحُكمِ بها أينَ وُجِدَتْ، واقتِضائِها لأحكامِها، وعَدَمِ تَخَلُّفِها عنها إلَّا لمانعٍ يُعارِضُ اقتِضاءَها، ويُوجِبُ تخَلُّفَ أثَرِها عنها؛ كقَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا﴾، وقَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [الأنفال: ١٣]، وقَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡۖ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْ﴾ [غافر: ١٢]، إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ استِفهامُ تَوبيخٍ وتَقريعٍ للكافرينَ[3].

- وقولُه: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحْذوفٍ، أي: يُقالُ لهُم: ألَمْ يكُنْ تأْتِيكم رُسلي، أفلَمْ تكُن آياتِي تُتلى عليكم؟! فحُذِفَ المَعطوفُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٢).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

اكْتِفاءً بالمقصودِ، وثِقةً بدَلالةِ القَرينةِ عليه[١].

- قولُه: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾، قال: ﴿قَوۡمٗا﴾ دونَ الاقْتِصارِ على (وكُنتُم مُجرِمينَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإجرامَ صارَ خُلُقًا لهم، وخالَطَ نُفوسَهم حتَّى صار مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[٢].

- قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ﴾ مِن الاحتِباكِ[٣]، حيثُ ذَكَر الإدخالَ في الرَّحمةِ أوَّلًا في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ دَليلًا على الإدخالِ في اللَّعنةِ ثانيًا، وذَكَر التَّبكيتَ ثانيًا دَليلًا على التَّشريفِ أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّ ما ذَكَره أدَلُّ على شَرفِ الوليِّ، وحَقارةِ العَدوِّ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾

- جُملةُ ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ ...﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾، والتَّقديرُ: وقُلْتُم: ما نَدْري ما السَّاعةُ، إذا قِيل لكمْ: إنَّ السَّاعةَ لا رَيبَ فِيها، وهذانِ القولانِ ممَّا تَكرَّرَ في القُرآنِ بلَفْظِه وبمَعناهُ؛ فهو تَخصيصٌ لِبَعضِ آياتِ القُرآنِ بالذِّكرِ بعْدَ التَّعميمِ في قولِه: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾[٥] [الجاثية: ٣١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

(٣) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧١).

- ومَعنى ﴿مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ ما نَعلَمُ حَقيقةَ السَّاعةِ، ونَفْيُ العِلمِ بحَقيقتِها كِنايةٌ عن جَحْدِ وُقوعِ السَّاعةِ، أي: عَلِمْنا أنَّها لا وُقوعَ لها؛ اسْتِنادًا للتَّخيُّلاتِ التي ظَنُّوها أدلَّةً[١].

- قولُه: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا﴾ التَّنكيرُ في ﴿ظَنّٗا﴾ للتَّحقيرِ، ومَفعولَا ﴿نَّظُنُّ﴾ مَحذوفانِ؛ لِدَليلِ الكَلامِ عليهما، والتَّقديرُ: إنْ نظُنُّ السَّاعةَ واقعةً[٢].

- وقولُهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾ يُفيدُ تأْكيدَ قَولِهم: ﴿مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا﴾، وعطْفُه عطْفُ مُرادِفٍ، أي: للتَّشريكِ في اللَّفظِ. والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾؛ للمُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الجاثية: ٣١]، باعتبارِ تَقديرِ: فيُقالُ لهم ذلك: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾، أي: جُمِعَ لهم بيْنَ التَّوبيخِ والإزعاجِ؛ فوُبِّخوا بقولِه: ﴿أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ﴾ إلى آخِرِه، وأُزعِجوا بظُهورِ سيِّئاتِ أعْمالِهم، أي: ظُهورِ جَزاءِ سيِّئاتِهم -على قولٍ في التَّفسيرِ- حِينَ رَأَوا دارَ العذابِ وآلاتِه رُؤيةَ مَن يُوقِنُ بأنَّها مُعَدَّةٌ له، وذلك بعِلمٍ يَحصُلُ لهمْ عِندَ رُؤيةِ الأهوالِ[٤].

- وعُبِّر بالسَّيِّئاتِ عن جَزائِها -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ إشارةً إلى تَمامِ المُعادَلةِ بيْن العَمَلِ وجَزائِه، حتى جُعِلَ الجَزاءُ نَفْسَ العَمَلِ، على حَدِّ قَولِه تعالَى: ﴿فَذُوقُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾[١] [التوبة: ٣٥].

- قولُه: ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ يَعُمُّ كلَّ ما كان طَريقَ اسْتِهزاءٍ بالإسلامِ مِن أقْوالِهم الصَّادرةِ عن اسْتِهزاءٍ، مِثلَ قولِهم: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية: ٣٢]، ومِن الأشياءِ التي جعَلوها هُزؤًا، مِثلَ عَذابِ جَهنَّمَ وشَجرةِ الزَّقُّومِ، وهو ما عُبِّرَ عنه آنِفًا بـ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ﴾. وإنَّما عُدِلَ عن الإضمارِ إلى المَوصوليَّةِ؛ لأنَّ في الصِّلةِ تَغليطًا لهمْ، وتَنْديمًا على ما فَرَّطوا مِن أخْذِ العُدَّةِ لِيَومِ الجزاءِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿وَقِيلَ ﴾ للنَّائبِ؛ حَطًّا لهمْ عن رُتبةِ أنْ يُصرَّحَ باسْمِ اللهِ في حِكايةِ الكلامِ الذي واجَهَهم به، بِناءً على أنَّ ضَميرَ ﴿نَنسَىٰكُمْ ﴾ ضَميرُ الجَلالةِ، وليْس مِن قَولِ الملائكةِ، فإنْ كان مِن قَولِ خَزَنةِ جهنَّمَ، فبِناءُ فِعلِ ﴿وَقِيلَ ﴾ للنَّائبِ؛ للعِلْمِ بالفاعلِ. والكافُ في ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ ﴾ للتَّعليلِ، أي: جَزاءَ نِسيانِكم هذا اليومَ، أي: إعْراضِكم عن الإيمانِ به[٣].

- وعُبِّرَ في فِعلِه تعالَى بالمضارِعِ ﴿نَنسَىٰكُمْ ﴾؛ ليَدُلَّ على الاستِمرارِ. وفي فِعلِهم بالماضي ﴿نَسِيتُمْ ﴾؛ ليَدُلَّ على أنَّ مَن وقَعَ منه ذلك وقْتًا ما وإنْ قلَّ، كان على خَطرٍ عَظيمٍ بتَعريضِ نفْسِه لاستمرارِ الإعراضِ عنه[٤].

- وإضافةُ (يوم) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ في ﴿يَوْمِكُمْ ﴾ باعتِبارِ أنَّ ذلك اليومَ ظَرْفٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٣).

لِأحوالٍ تَتعلَّقُ بهم؛ فإنَّ الإضافةَ تكونُ لِأَدْنَى مُلابَسةٍ. ووُصِف اليومُ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ لِتَمْييزِه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَكْميلًا لِتَعريفِه بالإضافةِ؛ لِئلَّا يَلتبِسَ عليهم بيَومٍ آخَرَ[١].

- وعُطِفَ ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ على ﴿ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ﴾؛ لِيَعْلَموا أنَّ تَرْكَهم في النَّارِ تَرْكٌ مُؤبَّدٌ؛ فإنَّ المَأْوى هو مَسكنُ الشَّخصِ الذي يَأْوي إليه بعْدَ أعْمالِه؛ فالمعنى: أنَّكم قدْ أَويْتُم إلى النَّارِ، فأنتمْ باقونَ فيها[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أُسنِدَ التَّغريرُ إلى الحَياةِ؛ لأنَّ ذلك أجمَعُ لِأسبابِ الغُرورِ[٣].

- وفُرِّعَ ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ بالفاءِ، وهذا مِن تَمامِ الكَلامِ الذي قِيلَ لهم؛ لأنَّ وُقوعَ كَلمةِ (اليوم) في أثْنائِه يُعيِّنُ أنَّه مِن القِيلِ الذي يُقالُ لهم يَومئذٍ[٤].

- قولُه: ﴿يُخْرَجُونَ﴾ كان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (لا تُخرَجون)، بأُسلوبِ الخِطابِ مِثلِ سابِقِه، ولكنْ عُدِلَ عن طَريقةِ الخِطابِ إلى الغَيبةِ على وَجهِ الالْتفاتِ، ويُحسِّنُه هنا أنَّه تَخييلٌ لِلإعراضِ عنْهم بعْدَ تَوبيخِهم وتأْييسِهم، وصَرْفُ بَقيَّةِ الإخبارِ عنْهم إلى مُخاطَبٍ آخَرَ يُنبَّأُ ببَقيَّةِ أمْرِهم؛ تَحقيرًا لهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٣).

- والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ للمُبالَغةِ، كما يُقال: أجاب واسْتَجابَ[١].

- وتَقديمُ ﴿هُمْ﴾ على ﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وهو مُسنَدٌ فِعليٌّ بعْدَ حَرْفِ النَّفيِ هنا: تَعريضٌ بأنَّ اللهَ يُعتِبُ غَيرَهم، أي: يُرْضي المُؤمِنينَ، أي: يَغفِرُ لهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٥/ ٣٧٧).

## الآيتان (٢٦-٢٧)

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾: أي العَظَمةُ والسُّلطانُ والمُلْكُ، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يَختِمُ اللهُ تعالَى هذه السُّورةَ بالثَّناءِ على نفْسِه، فيقولُ: فلِلَّهِ وَحْدَه الثَّناءُ الكامِلُ، خالِقِ السَّمَواتِ والأرضِ ومالِكِهما؛ رَبِّ جميعِ الخلائِقِ ومالِكِهم، وله وَحْدَه العَظَمةُ والسُّلطانُ في السَّمَواتِ والأرضِ، وهو سُبحانَه القاهِرُ الغالِبُ، الحَكيمُ الذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

### تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعْدَ أنْ ذَكَر ما حَوَتْه السُّورةُ مِن آلائِه تعالَى وإحسانِه، وما اشتَمَلَت عليه مِنَ الدَّلائِلِ التي في الآفاقِ والأنفُسِ، وما انطَوَت عليه مِنَ البَراهينِ السَّاطِعةِ على المَبدَأِ والمَعادِ -أثنَى تعالَى على نَفسِه بما هو له أهلٌ، فقال[2]:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٥/ ١٦٧).

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: فلِلَّهِ وَحْدَه الثَّناءُ الكامِلُ على ما يتَّصِفُ به مِن صِفاتِ الكَمالِ؛ مَحبَّةً له وتعظيمًا؛ خالِقِ السَّمَواتِ والأرضِ، ومالِكِهما، ومُدَبِّرِ أَمْرِهما[١].

﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

أي: خالِقِ جميعِ الخلائِقِ، ومالِكِهم ورازِقِهم، ومُدَبِّرِ شُؤونِهم[٢].

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أفاد ما سَبَق غِناه تعالَى الغِنَى المُطلَقَ وسِيادتَه، وأنَّه لا كُفُؤَ له؛ عَطَف عليه بَعضَ اللَّوازِمِ لذلك؛ تَنبيهًا على مَزيدِ الاعتناءِ به، لِدَفعِ ما يَتوهَّمونَه مِن ادِّعاءِ الشَّرِكةِ التي لا يَرضَونَها لأنفُسِهم، فقال[٣]:

﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولِلهِ وَحْدَه العَظَمةُ والجَلالُ والسُّلطانُ في السَّمَواتِ والأرضِ، الذي يَجِبُ على جميعِ خَلْقِه تَكبيرُه وتَعظيمُه، والخُضوعُ والذُّلُّ له[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٠٩، ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

قال السعدي: (أي: له الحَمدُ على رُبوبيَّتِه لسائِرِ الخلائِقِ، حيثُ خَلَقَهم ورَبَّاهم، وأنعَمَ عليهم بالنِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٥).

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((العِزُّ إزارُه، والكِبرياءُ رِداؤُه، فمَن يُنازِعُني عَذَّبتُه))[١].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو القاهِرُ الغالِبُ الَّذي لا يَغلِبُه ولا يَقهَرُه شَيءٌ سُبحانَه، وهو الحَكيمُ فيما خَلَق وشَرَع وقَدَّر؛ فلا يَضَعُ شَيئًا إلَّا في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ التَّكبيرَ لا بدَّ أنْ يكونَ بعْدَ التَّحميدِ، وأنَّ الحامِدينَ إذا حَمِدوه وَجَب أنْ يَعرِفوا أنَّه -جَلَّ وعلا- أعلَى وأكبَرُ مِن أنْ يكونَ الحَمدُ الَّذي ذكَروه لائِقًا بإنعامِه، بلْ هو أكبَرُ مِن حَمدِ الحامِدينَ، وأيادِيه أعلَى وأجَلُّ مِن شُكرِ الشَّاكِرينَ[٣]!

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فالحَمدُ: فيه الثَّناءُ على اللهِ بصِفاتِ الكَمالِ، ومَحبَّتُه تعالَى وإكرامُه، والكِبرياءُ: فيها عَظَمتُه وجَلالُه، والعِبادةُ مَبنيَّةٌ على رُكنَينِ: مَحبَّةِ اللهِ، والذُّلِّ له، وهما ناشِئانِ عن العِلمِ بمَحامِدِ اللهِ وجَلالِه وكِبريائِه[٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٦٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٨-٧٧٩).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ أعاد ذِكْرَ الرَّبِّ؛ تَأكيدًا وإعلامًا أنَّ له في كلِّ واحِدٍ مِنَ الخافِقَينِ أسرارًا غيرَ ما له في الآخَرِ؛ فالتَّربيةُ مُتفاوِتةٌ بحَسَبِ ذلك[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أعاد ذِكرَ الرَّبِّ؛ تَنْبيهًا على أنَّ حِفظَه للخَلقِ وتَربيتَه لهم ذُو ألوانٍ بحَسَبِ شُؤونِ الخَلقِ؛ فحِفظُه لهذا الجُزءِ على وَجهٍ يُغايِرُ حِفظَه لجُزءٍ آخَرَ، وحِفظُه للكُلِّ -مِن حيث هو كُلٌّ- على وَجهٍ يُغايِرُ حِفظَه لكُلِّ جُزءٍ على حِدَتِه، مع أنَّ الكُلَّ بالنِّسبةِ إلى تَمامِ القُدرةِ على حَدٍّ سَواءٍ[٢]!

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أتْبَعَ اللهُ -جَلَّ وعلا- في هذه الآيةِ الكَريمةِ حَمْدَه بوَصفِه بأنَّه رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبُّ العالَمينَ، وفي ذلك دَلالةٌ على أنَّ رَبَّ السَّمَواتِ والأرضِ ورَبَّ العالَمينَ: مُستَحِقٌّ لكُلِّ حَمدٍ، ولكُلِّ ثَناءٍ جَميلٍ[٣].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ الفاءُ لِتَفريعِ التَّحميدِ والثَّناءِ على اللهِ تَفريعًا على ما احْتَوَت عليه السُّورةُ مِن أَلْطافِ اللهِ فيما خلَقَ وأرْشَدَ، وسخَّرَ وأقامَ مِن نُظُمِ العَدالةِ، والإنعامِ على المُسلمينَ في الدُّنيا والآخِرةِ، ومِن وَعيدٍ للمُعرِضينَ واحتجاجٍ عليهم، فلمَّا كان ذلك كلُّه مِن اللهِ، كان دالًّا على اتِّصافِه بصِفاتِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٤-٢٠٥).

العَظَمةِ والجَلالِ، وعلى إفْضالِه على النَّاسِ بدِينِ الإسلامِ؛ كان حَقيقًا بإنْشاءِ قَصْرِ الحمْدِ عليه؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ مُرادًا منه ظاهرُ الإخبارِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ معَ ذلك مُستعمَلًا في مَعناهُ الكِنائيِّ؛ وهو أمْرُ النَّاسِ بأنْ يَقصُروا الحمْدَ عليه. ويجوزُ أنْ يكونَ إنشاءَ حمْدٍ للهِ تعالى، وثَناءٍ عليه[١].

- وتَقديمُ (للهِ) لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: الحمْدُ مُختَصٌّ به اللهُ تَعالى، يعني: الحمْدُ الحقُّ الكاملُ مُختَصٌّ به تعالَى[٢].

- ويُسْتَفادُ مِن تَرتُّبِ قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾ على قَولِه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وتَكريرِ الوَصْفِ، وتَعانُقِه بكلٍّ مِن المَذْكوراتِ: عُمومُ الحمْدِ، وعُمومُ الوَصْفِ، وعُمومُ الحامِدِ[٣].

- وإجراءُ وَصْفِ ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على اسْمِه تعالَى: إيماءٌ إلى عِلَّةِ قَصْرِ الحَمْدِ على اللهِ، إخبارًا وإنشاءً؛ تَأْكيدًا لِما اقْتَضَتْه الفاءُ في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾[٤].

- وعُطِفَ ﴿وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ﴾ بتَكريرِ لَفظِ (ربِّ)؛ لِلتَّنويهِ بشَأْنِ الرُّبوبيَّةِ؛ لأنَّ ربَّ السَّمواتِ والأرضِ يَحِقُّ حَمدُه على أهلِ السَّماءِ والأرضِ؛ فأمَّا أهلُ السَّماءِ فقدْ حَمِدوه كما أخبَرَ اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٥]، وأمَّا أهْلُ الأرضِ فمَن حَمِدَه منْهم فقدْ أدَّى حَقَّ الرُّبوبيَّةِ، ومَن حَمِدَ غَيرَه وأعْرَضَ عنه، فقدْ سجَّلَ على نفْسِه سِمةَ الإباقِ، وكان بمَأْوى النَّارِ مَحلَّ استِحقاقٍ، ثمَّ أُتْبِعَ بوَصفِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهمْ سُكَّانُ السَّمواتِ والأرضِ؛ تَأْكيدًا لِكَونِهم مَحقوقينَ بأنْ يَحمَدوهُ؛ لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧).

خالِقُ العوالِمِ التي هم مُنْتَفِعونَ بها، وخالِقُ ذَواتِهم فيها كذلك[١].

وقيل: تَكريرُ الرَّبِّ للتَّأْكيدِ، والإيذانِ بأنَّ رُبوبيَّتَه تعالَى لكلٍّ منها بطَريقِ الأصالةِ[٢].

وقيل: أثبَتَ العاطِفَ؛ إعلامًا بأنَّ كَمالَ قُدرتِه في رُبوبيَّتِه للأعلى والأسفَلِ على حَدٍّ سَواءٍ، دَفعًا لتَوَهُّمِ أنَّ حُكمَه في الأعلى أمكَنُ؛ لِتَوَهُّمِ الاحتياجِ إلى مَسافةٍ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ جاء عقِبَ الآيةِ التي قبْلَه؛ للإشارةِ إلى أنَّ اسْتِدعاءَه خلْقَه لِحَمْدِه إنَّما هو لِنَفْعِهم، وتَزكيةِ نُفوسِهم؛ فإنَّه غَنِيٌّ عنهم[٤].

- وتَقديمُ المَجرورِ في ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾؛ لِتَخْصيصِه سُبحانَه بالكِبْرياءِ، أي: الكِبْرياءُ الكاملُ مُختصٌّ به تعالَى[٥].

- وإظهارُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وَ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ -حيثُ لم يُقَلْ: (فيهما)-؛ لِتَفْخيمِ شأْنِ الكِبْرياءِ[٦].

- وإذا ضُمَّ معَ مَعنى الزُّبدةِ والخُلاصةِ مِن قولِه: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ -وهو تَصويرُ عَظَمةِ اللهِ- مَعنى قولِه: ﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٦).

وَٱلْأَرْضِ ﴾، وأُخِذَتْ فائدةُ تَقديمِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه فيهما؛ لُمِحَتْ مَسحةٌ مِن مَعنى الحديثِ: ((العِزُّ إزارُه، والكِبرياءُ رِداؤُه، فمَن يُنازِعُني عَذَّبتُه))[1]. وإذا تُؤمِّلَ مَعنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ﴾، وتَرتُّبُه على مَعاني السُّورةِ المَحتويةِ على آلاءِ اللهِ وأفْضالِه، المُشتملةِ على الدَّلائلِ الآفاقيَّةِ والأنفُسيَّةِ، المُنطويةِ على البَراهينِ السَّاطعةِ، والنُّصوصِ القاهرةِ في المَبدَأِ والمَعادِ -عُثِرَ على أُمورٍ غَريبةٍ وأسرارٍ عَجيبةٍ[2].

- وأتْبَعَ ما سبَقَ بقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾؛ لأنَّ العِزَّةَ تَشمَلُ مَعانيَ القُدْرةِ والاختيارِ، والحِكمةَ تَجمَعُ مَعانيَ تَمامِ العِلْمِ وعُمومِه. وبهذه الخاتمةِ آذَنَ الكلامُ بانتهاءِ السُّورةِ؛ فهو مِن بَراعةِ خَواتمِ السُّوَرِ[3].

---

(١) تقدم تخريجه (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٧٨).

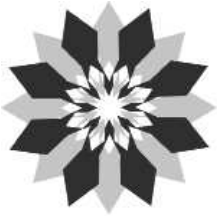

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الأحقافِ

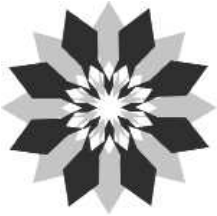

# سُورةُ الأحقافِ

## أسماءُ السُّورةِ:

**سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الأحقافِ)[١]، يدُلُّ على ذلك:**

ما ورد عنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أقرَأَني رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم سُورةَ الأحقافِ ...))[٢]. وفي روايةٍ قال: ((أقرَأَني رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم سورةً مِن الثَّلاثينَ مِن آلِ حم، قال: يعني الأحقافَ. قال: وكانت السُّورةُ إذا كانت أكثَرَ مِن ثلاثينَ آيةً سُمِّيَت الثَّلاثينَ))[٣].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ (الأحقافِ) مَكِّيَّةٌ[٤]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن

---

(١) سُمِّيَت سُورةَ الأحقافِ؛ لِقَولِه تعالى فيها: ﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، ووُرودِ لَفظِ (الأحقافِ) فيها، ولم يَرِدْ في غَيرِها مِن سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥).

(٢) أخرجه مِن طُرُقٍ: أحمدُ (٤٣٢٢) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٣٤١٨)، والحاكمُ (٢٨٨٥) كلاهما بلفظ: ﴿حمٓ﴾ بدلًا من ((الأحقاف)).

صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ١٥٥)، وصحَّح الحديثَ شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٧/ ٣٤٥).

والحديث أخرجه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٧٤٧) بلفظ: ((سورة الرَّحمن)) بدلًا من ((سورة الأحقاف))، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٣/ ٢٣).

(٣) أخرجه أحمدُ (٣٩٨١) مطوَّلًا.

ذكر الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٠٨) أنَّه رُويَ بإسنادَينِ رِجالُ أحَدِهما ثِقاتٌ، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ٣٥)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٧/ ٨٨).

(٤) وقيلَ: هي مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقَولَه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]؛ فمَدَنيَّانِ. =

المُفَسِّرينَ[١].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ مَقاصِدِ سُورةِ (الأحقافِ):**

١- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ قُدرتِه[٢].

٢- تقريرُ أنَّ هذا القُرآنَ مِن عندِ اللهِ تعالى، وأنَّ يومَ القيامةِ حَقٌّ[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلت عليها هذه السُّورةُ الكريمةُ:**

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ.

٢- بَيانُ جانِبٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى.

٣- الرَّدُّ على المُشرِكينَ، وإبطالُ استِحقاقِ مَعبوداتِهم لأيِّ لَونٍ مِن ألوانِ العِبادةِ.

٤- الحديثُ عن حُسنِ عاقِبةِ الَّذين قالوا رَبُّنا اللهُ ثمَّ استقاموا.

٥- الحديثُ عن الوصايا الحكيمةِ الَّتي أوصى اللهُ بها الأبناءَ نحوَ آبائِهم، وعن حُسنِ عاقِبةِ الَّذين يَعمَلونَ بتلك الوَصايا.

٦- بَيانُ سُوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ الَّذين أعرَضوا عن دَعوةِ الحَقِّ.

---

= يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨٠).

(١) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْدي، والقرطبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٨)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٢/ ٤٨٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ١٧٤).

٧- تحذيرُ المُشرِكينَ مِن الإصرارِ على شِرْكِهم، وتذكيرُهم بما حَلَّ بالمُشرِكينَ مِن قَبْلِهم؛ كقَومِ عادٍ وثَمودَ.

٨- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بتذكيرِه بحُضورِ نَفَرٍ مِن الجِنِّ إليه للاستِماعِ إلى القُرآنِ الكريمِ، وإنصاتِهم له، ودَعوتِهم قَومَهم إلى الإيمانِ بالحَقِّ الَّذي استَمَعوا إليه، وبالنَّبيِّ الَّذي جاء به.

٩- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بأمرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على أذَى قَومِه، وعَدَمِ الاستِعجالِ لهم بالعَذابِ.

## الآيات (١-٢)

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ۝٣﴾.

### غريبُ الكلماتِ:

﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾: أي: وقتٍ مُعَيَّنٍ محدَّدٍ، وأصلُ الأجَلِ: غايةُ الوَقتِ، والمُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ، والمُسَمَّى: المُثبَتُ المُعَيَّنُ[1].

### المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى بعدَ أنِ افتتَح السُّورةَ بحرفَيْ ﴿حمٓ﴾: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ القاهِرِ الغالِبِ، الحَكيمِ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ يقولُ تعالى منزِّهًا نفْسَه عن العبثِ: ما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما إلَّا بالعَدلِ والحِكمةِ، وإلى مُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ تَنتَهي إليه، وتَفنَى فيه، وهو يومُ القيامةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ حالَ المشركينَ، فيقولُ: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ لم يَتَّعِظوا بما خُوِّفوا به في القُرآنِ.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿حمٓ ۝١﴾.

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ في تفسيرِ أوَّلِ سُورةِ الجاثيةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩، ٨٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١١).

﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ ﴾.

أي: تَنزيلُ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ القاهِرِ الغالِبِ، المُمتَنِعِ عن كُلِّ عَيبٍ ونَقصٍ، الحَكيمِ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[1].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ * لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

﴿ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ٣ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى إنزالَ كِتابِه المتضَمِّنِ للأمرِ والنَّهيِ؛ ذكَرَ خَلْقَه السَّمَواتِ والأرضَ؛ فجَمَع بيْنَ الخَلقِ والأمرِ[2].

﴿ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾.

أي: ما خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ إلَّا بالعَدلِ والحِكمةِ، وبمُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ مَضروبةٍ بلا زيادةٍ ولا نَقصٍ، فتَنتَهي إليه وتَفنَى فيه، وهو يومُ القيامةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١١٩، ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٠٧).

قال ابن جرير: (﴿إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ يَعني: إلَّا لإقامةِ الحَقِّ والعَدلِ في الخَلقِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١١).

=

كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

وقال جلَّ ثناؤُه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ [الروم: ٨].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ مُعرِضونَ عَمَّا خُوِّفوا به في القُرآنِ وحُذِّروا[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١-٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ هذا ثَناءٌ منه تعالى على كِتابِه العزيزِ، وتَعظيمٌ له، وفي ضِمنِ ذلك إرشادُ العِبادِ إلى الاهتِداءِ بنُورِه، والإقبالِ على تدبُّرِ آياتِه، واستِخراجِ كُنوزِه[2].

---

= وقال البِقاعي: (﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لِبَعثِ النَّاسِ إلى دارِ القَرارِ؛ لِفَصلِ أهلِ الجنَّةِ مِن أهلِ النَّارِ، وفَناءِ الخافِقَينِ [أي: أُفُقَي المَشرِقِ والمغربِ] وما نشأ عنهما مِن اللَّيلِ والنَّهارِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- القُرآنُ والسُّنَنُ المُستَفيضةُ المُتواتِرةُ وغيرُ المتواتِرةِ، وكَلامُ السَّابِقينَ والتَّابِعينَ وسائِرِ القُرونِ الثَّلاثةِ: مملوءٌ بما فيه إثباتُ العُلُوِّ لله تعالى على عَرْشِه بأنواعٍ مِنَ الدَّلالاتِ، ووُجوهٍ مِنَ الصِّفاتِ، وأصنافٍ مِن العباراتِ، ومِن ذلك إخبارُ اللهِ تعالى بنُزولِ الأشياءِ منه أو مِن عِنْدِه، كما في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ فيه مِن الدَّلالةِ على وُجودِ الصَّانعِ تعالَى، وصِفاتِ كَمالِه، وابْتِناءِ أفْعالِه على حِكَمٍ بالِغةٍ، وانتِهائِها إلى غاياتٍ جَليلةٍ؛ ما لا يَخْفَى[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾

- افتُتِحتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ بالحَرفَينِ المُقَطَّعَينِ ﴿حمٓ﴾ مِن حُروفِ الهِجاءِ؛ لأنَّ أوَّلَ أغراضِها أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ ففي حَرفَي الهِجاءِ رَمْزٌ إلى عَجْزِهم عن مُعارَضَتِه بَعدَ أنْ تَحَدَّاهم؛ لذلك لم يَفعَلوا، وفي ذلك الافتِتاحِ تَشويقٌ إلى تَطَلُّعِ ما يأتي بَعدَه؛ لِلاهتِمامِ به[3].

- قولُه: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ اسْتِئنافٌ ابتدائيٌّ، وهو جُملةٌ مُركَّبةٌ مِن مُبتدأٍ وخبَرٍ، والمَقصودُ: إثْباتُ أنَّ القُرآنَ مُوحًى به مِن اللهِ تعالى إلى رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُجعَلَ القُرآنُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٢٤، ٢٥/ ٣٢٤).

مُسنَدًا إليه، ويُخبَرَ عنه فيُقالَ: (القُرآنُ مُنزَّلٌ مِن اللهِ العزيزِ الحَكيم)؛ لأنَّ كَونَه مُنزَّلًا مِن اللهِ هو مَحَلُّ الجِدالِ، فيَقْتضي أنْ يكونَ هو الخبَرَ، ولو أذْعَنوا لِكَونِه تَنزيلًا، لَمَا كان مِنْهم نِزاعٌ في أنَّ تَنزيلَه مِن اللهِ، ولكنْ خُولِفَ مُقْتضى الظَّاهرِ لِغَرضَينِ؛ أحدُهما: التَّشويقُ إلى تَلقِّي الخبَرِ؛ لأنَّهم إذا سَمِعوا الابتِداءَ بتَنزيلِ الكِتابِ، اسْتَشْرَفوا إلى ما سيُخبَرُ عنه؛ فأمَّا الكافِرونَ فيَترَقَّبون أنَّه سيُلْقَى إليهم وَصْفٌ جَديدٌ لِأحْوالِ تَنزيلِ الكتابِ، فيَتهيَّؤون لِخَوضٍ جَديدٍ مِن جِدالِهم وعِنادِهم، والمُؤمِنون يَترَقَّبون لِما يَزيدُهم يَقينًا بهذا التَّنزيلِ. والغرَضُ الثَّاني: أنْ يُدَّعى أنَّ كَونَ القُرآنِ تَنزيلًا أمْرٌ لا يُختلَفُ فيه؛ فالَّذين خالَفوا فيه كأنَّهم خالَفوا في كَونِه مُنزَّلًا مِن عِندِ اللهِ، وهلْ يَكونُ التَّنزيلُ إلَّا مِن عِندِ اللهِ؟! فيَؤولُ إلى تأْكيدِ الإخبارِ بأنَّه مُنزَّلٌ مِن عِندِ اللهِ؛ إذ لا فرْقَ بيْنَ مَدلولِ كَونِه تَنْزيلًا، وكَونِه مِن عِندِ اللهِ إلَّا باختلافِ مَفهومِ المَعنيَينِ دُونَ ماصَدَقَيْهما[1].

- وإيثارُ وَصْفَي ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ بالذِّكرِ دُونَ غَيرِهما مِن الأسماءِ الحُسْنى؛ لِإشعارِ وَصْفِ العَزيزِ بأنَّ ما نزَلَ منه مُناسِبٌ لِعِزَّتِه؛ فهو كِتابٌ عَزيزٌ، أي: هو غالِبٌ لِمُعانِديهِ؛ وذلك لأنَّه أعْجَزَهم عن مُعارَضتِه، ولِإشعارِ وَصْفِ الحكيمِ بأنَّ ما نزَلَ مِن عِندِه مُناسِبٌ لِحِكمَتِه؛ فهو مُشتمِلٌ على دَلائلِ اليَقينِ والحقيقةِ، ففي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ إعْجازَه مِن جانِبِ بَلاغتِه؛ إذ غلَبَت بَلاغةَ بُلغائِهم، ومِن جانِبِ مَعانِيه؛ إذ أعْجَزَت حِكمتُه حِكمةَ الحُكماءِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥).

وتقدم تعريف (الماصَدَق) (ص: ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٢٥، ٣٢٦).

كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾ لَمَّا كان مِن أهَمِّ ما جاء به القُرآنُ إثباتُ وَحْدانيَّةِ اللهِ تعالَى، وإثْباتُ البَعثِ والجَزاءِ؛ لِتوقُّفِ حُصولِ فائدةِ الإنْذارِ على إثْباتِهما؛ جُعِلَ قولُه: ﴿ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾ [الأحقاف: ٢] تَمْهيدًا لِلاسْتِدلالِ على إثْباتِ الوَحْدانيَّةِ والبَعثِ والجَزاءِ، فجُعِلَ خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ مَحلَّ اتِّفاقٍ، ورُتِّبَ عليه أنَّه ما كان ذلك الخلْقُ إلَّا مُلابِسًا للحقِّ، وتَقْتضي مُلابسَتُه للحقِّ أنَّه لا يكونُ خلْقًا عَبَثًا، بلْ هو دالٌّ على أنَّه يَعقُبُه جَزاءٌ على ما يَفعَلُه المَخلوقونَ[١].

- وعطْفُ ﴿وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ ﴾ على ﴿بِٱلۡحَقِّ ﴾ مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ لِلاهتمامِ بهِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن الضَّميرِ المُقدَّرِ في مُتعلَّقِ الجارِّ والمَجْرورِ مِن قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ ﴾؛ فيَكونُ المَقصودُ مِن الحالِ التَّعجُّبَ منهم، وليس ذلك عطْفًا؛ لأنَّ الإخبارَ عن الَّذين كَفَروا بالإعراضِ مُسْتغنًى عنه؛ إذ هو مَعلومٌ. والتَّقديرُ: إلَّا خلْقًا كائنًا بمُلابَسةِ الحقِّ في حالِ إعراضِ الَّذين كَفَروا عمَّا أُنْذِروا به ممَّا دلَّ عليه الخلْقُ بالحقِّ[٣].

- وتَقديمُ ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ ﴾ على مُتعلَّقِه -وهو ﴿مُعۡرِضُونَ ﴾-؛ لِلاهتِمامِ بما أُنْذِروا، ويَتْبَعُ ذلك رِعايةُ الفاصلةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧، ٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨).

## الآيات (٤-٦)

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شِرْكٌ﴾: أي: نَصيبٌ وشَرِكةٌ، وأصلُ (شرك): يدُلُّ على مُقارَنةٍ[1].

﴿أَثَٰرَةٍ﴾: أي: بقيَّةٍ أو عَلامةٍ أو شَيءٍ مأثورٍ مِن كُتُبِ الأوَّلينَ، واشتِقاقُه مِن: أثَرْتُ الشَّيءَ أُثِيرُه إثارةً، كأنَّها بَقيَّةٌ تُستخرَجُ فتُثارُ، أو مِن الأثَرِ الَّذي هو الرِّوايةُ أو العَلامةُ[2].

### المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُوبِّخَ المشركينَ، ويُقيمَ عليهم الحُجَّةَ، ويُبيِّنَ بُطلانَ ما هم عليه، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُشركينَ مِن قَومِك: أرَأَيْتُم الَّذين تَدْعونَهم مِن دونِ اللهِ، أَرُوني ماذا خَلَقوا مِن الأرضِ لِتَعبدوهم مِن دونِ اللهِ تعالى؟! أمْ لهم نَصيبٌ مع اللهِ تعالى في السَّمَواتِ خَلقًا أو مِلكًا أو تدبيرًا؟! أَحْضِروا لي كتابًا مِن قَبلِ هذا القُرآنِ أو دَليلًا وبقيَّةً مِن عِلمٍ مأثورٍ يدُلُّ على صِحَّةِ دعواكم إنْ كنتُم صادِقينَ!

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣، ٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٢).

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى شِدَّةَ ضلالِ المشركينَ وجهلِهم، فيقولُ: ومَن أشَدُّ ضَلالًا مِمَّن يدعو مِنْ دونِ اللهِ آلِهةً لا تُجيبُ دُعاءَه إلى يومِ القيامةِ، وهم في غَفلةٍ عن دُعائِهم؟! وإذا جَمَع اللهُ النَّاسَ يومَ القيامةِ للحِسابِ كانت هذه الآلهةُ الَّتي يَدْعوها المُشرِكونَ أعداءً لهم، وكانت جاحِدةً مُنكِرةً لِعِبادتِهم لها في الدُّنيا!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّر الأصلَ الدَّالَّ على إثباتِ الإلهِ، وعلى إثباتِ كَونِه عادِلًا رَحيمًا، وعلى إثباتِ البَعثِ والقيامةِ؛ بنى عليه تفاريعَ؛ فالفَرعُ الأوَّلُ: الرَّدُّ على عَبَدةِ الأصنامِ، فقال[1]:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ مِن قَومِك: أرأيتُمُ الَّذين تَدْعونَهم مِن دونِ اللهِ مِن مَعبوداتِكم، أَروني ماذا خَلَقوا مِن الأرضِ فاستَحَقُّوا بذلك عِبادتَكم لهم[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٣).

قال الشنقيطي: (على أنَّ «ما» استِفهاميَّةٌ، و«ذا» مَوصولةٌ، فالمعنى: أروني ما الَّذي خَلَقوه مِنَ الأرضِ. وعلى أنَّ «ما» و«ذا» بمَنزلةِ كَلِمةٍ واحِدةٍ يُرادُ بها الاستِفهامُ، فالمعنى: أروني أيَّ شَيءٍ خَلَقوه مِنَ الأرضِ؟). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢١٣).

قيل: ﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ للتَّبعيضِ؛ لأنَّ كلَّ ما على وجهِ الأرضِ مِن حيوانٍ =

كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال الله سُبحانَه: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان: ١١].

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾.

أي: أمْ لتلك الآلهةِ المَزعومةِ نَصيبٌ مع اللهِ تعالى في السَّمَواتِ؛ خَلقًا أو مِلكًا أو تدبيرًا؛ فيَكونَ لكم بذلك حُجَّةٌ على عبادتِكم لها[1]؟!

كما قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ [سبأ: ٢٢].

﴿ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ ﴾.

أي: أَحْضِروا لي كتابًا ممَّا أنزَلَه اللهُ على الأنبياءِ مِن قَبلِ هذا القُرآنِ، يُخبِرُ بأنَّ

---

= ونحوِه فهو مِن الأرضِ. وممَّن اختاره: ابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩١).

وقال الواحدي: (وقال مقاتلٌ: ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ كما خلَقَ اللهُ آدَمَ، إن كانوا آلهةً. قال الفَرَّاءُ: أي أنَّهم لم يَخلُقوا شيئًا. فعلى هذا «مِن» بمعنى «في»). ((البسيط)) (١٨/ ٤٣٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٢/ ٣٧٠). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٥٣٣).

وقال ابن عاشور في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ فاطرٍ، الآية (٤٠): (و﴿مِنَ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: شيئًا ناشِئًا مِن الأرضِ، أو تبعيضِيَّةٌ على أنَّ المرادَ بالأرضِ ما عليها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٣).

آلهتَكم مُستحِقَّةٌ للعبادةِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ [الزخرف: ٢١].

﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: أو هاتوا دَليلًا مِن بقيَّةِ عِلمٍ مأثورٍ عن السَّابِقينَ[٢] يدُلُّ على صِحَّةِ عِبادتِكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠، ١١).

قال الرَّازي: (عُلِم بالتَّواتُرِ الضَّروريِّ إطباقُ جميعِ الكتبِ الإلهيَّةِ على المنعِ مِن عبادةِ الأصنامِ، وهذا هو المرادُ مِن قولِه تعالَى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: بكتابٍ جاء مِن عندِ الله مِن قبْلِ هذا القرآنِ الَّذي أُنزِل علَيَّ، بأنَّ ما تَعبُدونَ مِن الآلهةِ والأوثانِ خلَقوا مِن الأرضِ شيئًا، أو أنَّ لهم معَ الله شِرْكًا في السَّمواتِ، فيَكونَ ذلك حُجَّةً لكم على عبادتِكم إيَّاها). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٢).

(٢) قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ ... اختَلَف أهلُ التَّأويلِ في تأويلِها؛ فقال بعضُهم: معناه: أو ائْتوني بِعِلْمٍ بأنَّ آلِهَتَكم خَلَقَتْ مِن الأرضِ شيئًا، وأنَّ لها شِرْكًا في السَّمواتِ مِن قِبَلِ الخَطِّ الَّذي تَخُطُّونَه في الأرضِ؛ فإنَّكم مَعْشَرَ العرَبِ أهلُ عِيافةٍ وزَجرٍ وكهانةٍ... وقال آخَرونَ: بل معنَى ذلك: أو خَاصَّةً مِن عِلْمٍ... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: أو عِلْمٍ تُثيرُونَه فتَسْتَخْرِجونَه... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: أو تَأْثُرونَ ذلك عِلْمًا عن أحدٍ مِمَّنْ قَبْلَكم... وقال آخرونَ: بل معنَى ذلك: أو بِبَيِّنَةٍ مِن الأمْرِ... وقال آخرونَ: بلْ معنَى ذلك: بِبَقِيَّةٍ مِن عِلْمٍ... وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قولُ مَن قالَ: الأثارَةُ: البَقِيَّةُ مِن عِلْمٍ؛ لأنَّ ذلك هو المعروفُ مِن كلامِ العربِ... وإذا وُجِّه ذلك إلى ما قُلْنا فيه مِن أنَّه بَقِيَّةٌ مِن عِلْمٍ، جازَ أنْ تكونَ تلك البَقيَّةُ مِن عِلمِ الخطِّ، ومِن عِلْمٍ اسْتُثِير مِن كُتُبِ الأوَّلينَ، ومِن خاصَّةِ عِلْمٍ كانوا أُوثِروا به). ((تفسير ابن جرير)) =

آلهتَكم، إنْ كنتُم صادِقينَ في دعواكم أنَّ لله تعالى شَريكًا[١]!

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ فيما سَبَق أنَّ القَولَ بعِبادةِ الأصنامِ قَولٌ باطِلٌ؛ مِن حيثُ إنَّها لا قُدرةَ لها البتَّةَ على الخَلقِ والفِعلِ، والإيجادِ والإعدامِ، والنَّفعِ والضُّرِّ؛ فأردَفَه بدَليلٍ آخَرَ يدُلُّ على بُطلانِ ذلك المذهَبِ، وهي أنَّها جماداتٌ؛ فلا تَسمَعُ دُعاءَ الدَّاعِينَ، ولا تَعْلمُ حاجاتِ المحتاجِينَ[٢].

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾.

أي: لا أحَدَ أشَدُّ ضَلالًا مِن عَبدٍ يدعو مِنْ دونِ اللهِ آلِهةً لا تُجيبُ دُعاءَه أبدًا

---

= (٢١/ ١١٣-١١٦).

وقال ابن كثير: (﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ أي: دليلٍ بَيِّنٍ على هذا المسلكِ الَّذي سَلَكْتُموه)، ثمَّ ذكَر ما قيل في الآيةِ، وقال: (وكلُّ هذه الأقوالِ مُتقارِبةٌ، وهي راجعةٌ إلى ما قُلْناه، وهو اختيارُ ابنِ جَريرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤).

وقال الرازي: (العلم الضَّروري حاصلٌ بأنَّ أحدًا مِن الأنبياءِ ما دعا إلى عبادةِ الأصنامِ، وهذا هو المرادُ مِن قولِه: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧).

وممَّن خصَّ قولَه: ﴿أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ بما يُروَى مِن عِلمٍ مأثورٍ عن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ: الواحدي، والسعدي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٤، ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧).

إلى يومِ القيامةِ[١].

﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾.

أي: وآلهتُهم في غَفلةٍ عن دُعائِهم، فلا يَعلَمونَ مَن يَدْعونَهم، ولا يَسمَعونَهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أن أبانَ اللهُ تعالى أنَّ آلِهَتَهم المزعومةَ لا يَنفَعونَهم في الدُّنيا، ولا يَستَجيبونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

قال الرَّسْعَني: (يجوزُ أن يُرادَ على قراءةِ العامَّةِ: كُلُّ مَن عُبِدَ مِن دُونِ اللهِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ والأصنام، فغُلِّبَ ما يَعقِلُ. وقيل: ويجوزُ أن يُرادَ الأصنامُ وَحْدَها، فأُجرِيَت مجرى مَن يَعقِلُ؛ لِوَصفِهم إيَّاها بذلك. والجائِزُ الثَّاني أظهَرُ وأشهَرُ في التَّفسيرِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٩).

قال البِقاعي: (فهو يدعو ما لا قُدرةَ له ولا عِلمَ، وما انتَفَت قُدرتُه وعِلمُه لم تَصِحَّ عِبادتُه ببَديهةِ العَقلِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٢٦).

وقال الشنقيطي: (إنَّما كانوا غافِلينَ عنها؛ لأنَّهم جَمادٌ لا يَعقِلونَ، وإطلاقُ اللَّفظِ المُختَصِّ بالعُقَلاءِ عليهم؛ نَظرًا إلى أنَّ المُشرِكينَ نزَّلوهم مَنزِلةَ العُقَلاءِ... فقد دَلَّ قَولُه تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ على أنَّهم لا يَعقِلونَ، ومعَ ذلك قال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]، وكقَولِه تعالى في العَنكبوتِ: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]، فصَرَّح بأنَّهم أوثانٌ، ثمَّ ذَكَر أنَّهم هم وعَبَدَتُهم يَلعَنُ بَعضُهم بعضًا، وكقَولِه تعالى: ﴿كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]... إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٣٤).

لهم دُعاءً- أبانَ حالَهم فى الآخِرةِ[١]، فقال:

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾.

أي: وإذا جَمَع اللهُ النَّاسَ يومَ القيامةِ للحِسابِ، كانت هذه الآلِهةُ الَّتي يَدْعوها المُشرِكونَ أعداءً لهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾.

أي: وكانت آلِهتُهم في الآخِرةِ جاحِدةً مُنكِرةً لِعبادةِ المُشرِكينَ لها في الدُّنيا[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧).

قال القرطبي: (فالملائِكةُ أعداءُ الكُفَّارِ، والجِنُّ والشَّياطينُ يَتبَرَّؤون غدًا مِن عَبَدتِهم، ويَلعَنُ بعضُهم بعضًا. ويجوزُ أن تكونَ الأصنامُ للكُفَّارِ الَّذين عَبَدوها أعداءً، على تقديرِ خَلْقِ الحياةِ لها؛ دليلُه قولُه تعالى حكايةً عنهم: ﴿تَبَرَّأۡنَآ إِلَيۡكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعۡبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]. وقيل: عادَوا مَعبوداتِهم؛ لأنَّهم كانوا سَبَبَ هلاكِهم، وجَحَد المَعبودونَ عبادَتَهم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ أي: الأصنامُ تكونُ أعداءً للذين عبَدوها: السَّمْعاني، وابنُ جُزَي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره العُلَيمي، والشوكاني، وهو ظاهرُ اختيارِ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨). =

كما قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَاۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَۖ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ [القصص: ٦٣، ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨ - ٣٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ قَطعُ جميعِ تَعلُّقاتِه إلَّا باللهِ؛ عِبادةً وخَوفًا ورَجاءً، واستِعانةً ومحبَّةً وتعظيمًا؛ حتَّى يكونَ عبدًا للهِ حقيقةً، فيَكونَ هواه وإرادتُه، وحُبُّه وبُغْضُه،

---

= قال ابن جرير: (﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: وكانت آلهتُهم الَّتي يَعبُدونَها في الدُّنيا بعِبادتِهم جاحِدينَ؛ لأنَّهم يقولونَ يومَ القيامةِ: ما أمَرْناهم بعِبادتِنا، ولا شعَرْنا بعِبادتِهم إيَّانا، تبرَّأْنا إليك منهم يا رَبَّنا). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٧).

وقال أبو السعود: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أي: مُكذِّبِينَ بلِسانِ الحالِ أو المقالِ على ما يُروَى أنَّه تعالى يُحيي الأصنامَ فتَتبرَّأُ عن عبادتِهم، وقد جُوِّز أن يُرادَ بهم كلُّ ما يُعبَدُ مِن دُونِ الله مِن الملائكةِ والجنِّ والإنسِ وغيرِهم، ويُبنَى إرجاعُ الضَّمائرِ وإسنادُ العداوةِ والكفرِ إليهم على التَّغليبِ، ويُرادُ بذلك تبرُّؤُهم عنهم وعن عبادتِهم. وقيلَ: ضميرُ «كانُوا» للعَبَدةِ، وذلك قولُهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨).

ووَلاؤُه ومُعاداتُه: للهِ وفي اللهِ؛ لأنَّه مَخلوقٌ للعِبادةِ فقط[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه بيانُ مَسالِكِ الأدِلَّةِ بأسْرِها؛ فأوَّلُها المعقولُ، وهو قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهو احتِجاجٌ بدَليلِ العَقلِ أنَّ الجمادَ لا يجوزُ أن يُدْعَى مِن دونِ اللهِ، وأنَّه لا يضُرُّ ولا ينفَعُ، ثمَّ قال: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾؛ ففيه بيانُ أدِلَّةِ السَّمعِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ إلى آخرِ الآيةِ: بيانُ أنَّ المُشرِكينَ ليس معهم على الشِّركِ لا دليلٌ عَقليٌّ ولا سَمْعيٌّ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إيرادٌ، وهو: أنَّ اللهَ تعالى أَثبَتَ أنَّ هناك خالِقينَ في قَولِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وفي قَولِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((يُقالُ لهم -أي: المصوِّرينَ-: أَحْيُوا ما خَلَقْتُم))[٤].

**فالجوابُ**: أنَّ الخَلْقَ الَّذي نَنسُبُه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ هو الإيجادُ مِن عَدَمٍ، وتبديلُ

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيميَّة (١/ ١٧٨).

(٤) الحديثُ أخرجه البخاري (٥٩٥١)، ومسلمٌ (٢١٠٨) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما.

الأعيانِ مِن عَينٍ لِأُخرى؛ فلا أحَدَ يُوجِدُ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، ولا أحَدَ يُبَدِّلُ عَينًا إلى عَينٍ إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ، أمَّا الخَلقُ الَّذي يُنسَبُ للمَخلوقِ فهو عِبارةٌ عن تحويلِ شَيءٍ مِن صِفةٍ إلى صِفةٍ، ومِن صُورةٍ إلى صُورةٍ؛ فالمُصوِّرُ مثلًا الَّذي أخَذَ الطِّينَ وجَعَلَه على صُورةِ إنسانٍ أو غيرِ ذلك: ما خَلَقَ هذا الشَّيءَ، لكِنْ حوَّلَه مِن كَونِه كُتلةً مِن الطِّينِ إلى كَونِه صُورةً، والنَّجَّارُ إذا أتَى على الخَشَبِ ونَجَرَه على صُورةٍ مُعَيَّنةٍ، لا نَقولُ: إنَّه خَلَقَه؛ لأنَّه لم يُوجِدْه، لكِنْ حوَّلَه مِن صورةٍ إلى أُخرى، فهذا التَّحويلُ يُسَمَّى خَلقًا، لكِنَّه ليس الخَلقَ الَّذي يختَصُّ به الخالِقُ، وهو الإيجادُ مِن العَدَمِ، أو تبديلُ العَينِ مِن عَينٍ إلى أُخرى(١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جاء هذا الاستِدلالُ بأُسلوبِ المُناظَرةِ؛ فجُعِل النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُواجِهًا لهم بالاحتِجاجِ؛ لِيَكونَ إلجاءً لهم إلى الاعتِرافِ بالعَجزِ عن مُعارَضةِ حُجَّتِه، وكذلك جَرى الاحتِجاجُ بعْدَه ثلاثَ مرَّاتٍ بطَريقةِ أمْرِ التَّعجيزِ بقولِه: ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ﴾ الآيةَ(٢).

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ كالتَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ، وهذا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّها كُلَّها شاهِدةٌ بالوحدانيَّةِ، لو أتى بها آتٍ لَشَهِدَت عليه(٣).

٦- إنَّما يَفصِلُ بيْنَ النَّاسِ فيما تَنازَعوا فيه الكِتابُ المُنزَّلُ مِن السَّماءِ، والرَّسولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٨٤)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٥).

المؤَيَّدُ بالأنباءِ، كما قال الله تعالى: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾[1].

٧- قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ هذا مِن رُؤوسِ مَسائلِ المُناظَرةِ، وهو مُطالَبةُ المُدَّعي بالدَّليلِ على إثْباتِ دَعواهُ[2].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ فيه سؤالٌ: ما المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾؟ وكيف يُعقَلُ وَصْفُ الأصنامِ -وهي جماداتٌ- بالغَفلةِ؟ وأيضًا كيف جاز وَصفُ الأصنامِ بما لا يَليقُ إلَّا بالعُقَلاءِ، وهي لفظةُ (مَن)، وقَولُه ﴿وَهُمۡ﴾ و﴿غَٰفِلُونَ﴾؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّهم لَمَّا عَبَدوها ونَزَّلوها مَنزِلةَ مَن يَضُرُّ ويَنفَعُ، صَحَّ أن يُقالَ فيها: إنَّها بمَنزلةِ الغافِلِ الَّذي لا يَسمَعُ ولا يُجيبُ، وهذا هو الجوابُ أيضًا عن قَولِه: إنَّ لَفظةَ (مَن) ولفظةَ (هم) كيف يَليقُ بها.

**الوَجهُ الثَّاني:** يجوزُ أنْ يُريدَ كُلَّ مَعبودٍ مِن دونِ اللهِ مِن الملائكةِ وعِيسى وعُزَيرٍ والأصنامِ، إلَّا أنَّه غَلَّب غيرَ الأوثانِ على الأوثانِ[3].

**الوَجهُ الثَّالِثُ:** عبَّرَ بالغَفلةِ -الَّتي هي مِن أوصافِ العُقلاءِ- للجَمادِ؛ تهكُّمًا، كأنَّه قيل: هم عُلَماءُ، فإنَّكم أجَلُّ مَقامًا مِن أن تَعبُدوا ما لا يَعقِلُ، وإنَّما عدَمُ استجابتِهم لكم دائمًا غَفلةٌ دائِمةٌ، كما تقولُ لِمَن كتب كتابًا كُلُّه فاسِدٌ: (أنت

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨).

عالمٌ لَكِنَّك كنتَ ناعِسًا)، ونحوَ هذا[١].

**الوجهُ الرَّابعُ**: أنَّه عبَّرَ عن الأصنامِ باسمِ الموصولِ المُختَصِّ بالعُقلاءِ؛ مُعامَلةً للجَمادِ مُعاملةَ العُقلاءِ؛ لأنَّه شاع في كلامِ العَرَبِ إجراؤُها مجرى العُقلاءِ، فكَثُرت في القُرآنِ مُجاراةُ استِعمالِهم في ذلك، ومِثلُ هذا جَعلُ ضمائِرِ جَمعِ العُقلاءِ في قَولِه: ﴿وَهُمْ﴾، وقَولِه: ﴿غَٰفِلُونَ﴾[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ أنَّ تلك الدَّعوةَ سَبَبٌ لبُغضِ المَدعوِّ للدَّاعي، وعَداوتِه له[٣].

١٠- قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ فيه تَسميةُ تلك الدَّعوةِ عِبادةً للمَدعوِّ؛ تُؤخَذُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾[٤].

١١- قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾، قولُه: ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ فيه كُفرُ المَدعوِّ بتلك العبادةِ، ومعنى كُفرِ المَدعوِّ: ردُّه وإنكارُه، فإذا كان يومُ القيامةِ تَبَرَّأَ منه وأنكرَه[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ انتِقالٌ إلى الاسْتِدلالِ على بُطلانِ نَفْيِ صِفَةِ الإلهيَّةِ عن أصْنامِ المُشرِكينَ؛ فجُملةُ ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ ﴾ أمْرٌ بإلْقاءِ الدَّليلِ على إبْطالِ الإشراكِ، وهو أصْلُ ضَلالِهم[1].

- والاسْتِفهامُ في ﴿أَرَءَيْتُم﴾ للتَّقريرِ؛ فهو كِنايةٌ عن مَعنى: أخْبِروني[2]، أو للتَّوبيخِ[3].

- وقولُه: ﴿أَرُونِي﴾ تَصْريحٌ بما كنَّى عنه طَريقُ التَّقريرِ لِقَولِه: ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾[4].

- والأمْرُ في ﴿أَرُونِي﴾ مُسْتعمَلٌ في التَّسخيرِ والتَّعجيزِ؛ كِنايةً عن النَّفيِ إنْ لم يَخْلُقوا مِن الأرضِ شَيئًا، فلا تَسْتَطيعوا أنْ تُرُوني شَيئًا خَلَقوه في الأرضِ[5].

- وقولُه: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ استِفهامُ تَوبيخٍ وإنْكارٍ[6].

- وقولُه: ﴿مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بَيانٌ للإبهامِ في ﴿مَاذَا خَلَقُواْ﴾، والظَّاهرُ أنَّه يُريدُ مِن أجْزاءِ الأرضِ، أي: خلْقُ ذلك إنَّما هو للهِ، أو يكونُ على حَذْفِ مُضافٍ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٧).

مِن العالي على الأرضِ، أي: على وَجْهِها؛ مِن حَيوانٍ أو غَيرِه[١].

- الاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أمْ) المُنقطِعةِ في قولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ استِفهامٌ إنْكاريٌّ، أي: ليس لهمْ شِركٌ مع اللهِ في السَّمواتِ[٢].

- وتَخصيصُ الشِّركِ بالسَّمواتِ في ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ احْترازٌ عمَّا يُتوهَّمُ أنَّ لِلْوسائطِ شَرِكةً في إيجادِ الحَوادثِ السُّفليَّةِ[٣].

- وإنَّما أُوثِرَ انْتِفاءُ الشَّرِكةِ بالنِّسبةِ لِلشَّرِكةِ في السَّمواتِ دُونَ انتِفاءِ الخَلْقِ، كما أُوثِرَ انتِفاءُ الخلْقِ بالنِّسبةِ إلى الأرضِ؛ لأنَّ مَخلوقاتِ الأرضِ مُشاهَدةٌ للنَّاسِ، ظاهرٌ تَطوُّرُها وحُدوثُها، وأنْ ليس لِمَا يَدْعُونَهم دُونَ اللهِ أدْنَى عمَلٍ في إيجادِها، وأمَّا المَوجوداتُ السَّماويَّةُ، فهي مَحجوبةٌ عن العُيونِ، لا عَهْدَ للنَّاسِ بظُهورِ وُجودِها ولا تَطوُّرِها؛ فلا يَحسُنُ الاستِدلالُ بعَدَمِ تأْثيرِ الأصنامِ في إيجادِ شَيءٍ منها، ولكنْ لَمَّا لم يَدَّعِ المُشرِكون تَصرُّفًا لِلأصنامِ إلَّا في أحوالِ النَّاسِ في الأرْضِ؛ مِن جلْبِ نفْعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ؛ اقتُصِرَ في نَفْيِ تَصرُّفِهم في السَّمواتِ على الاسْتِدلالِ بنَفْيِ أنْ يكونَ لِلْأصنامِ شَرِكةٌ في أُمورِ السَّمواتِ؛ لأنَّ انتِفاءَ ذلك لا يُنازِعون فيه[٤].

- قولُه: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ بالمُشاهَدةِ وبالإقرارِ إلى الاسْتِدلالِ بالأخبارِ الصَّادِقةِ، وهو اسْتِدلالٌ على إبْطالِ دَعوى المُدَّعي بانْعِدامِ الحُجَّةِ على دَعْواهُ، ويُسَمَّى الإفحامَ[٥]. وفيه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠).

تَبكيتٌ للمُشرِكين بتَعجيزِهم عن الإتيانِ بسَندٍ نَقْليٍّ، بعْدَ تَبْكيتِهم بالتَّعجيزِ عن الإتيانِ بسَندٍ عَقْليٍّ(١).

- والإشارةُ في قَولِه: ﴿مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ إلى القُرآنِ؛ لأنَّه حاضرٌ في أذْهانِ أصحابِ المُحاجَّةِ؛ فإنَّه يُقرَأُ عليهم مُعاوَدةً(٢). ووَجْهُ تَخصيصِ الكِتابِ بوَصْفِ أنْ يكونَ مِن قبْلِ القُرآنِ؛ لِيُسَدَّ عليهم بابُ المُعارَضةِ بأنْ يأْتوا بكِتابٍ يُصنَعُ لهم، كما قالوا: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾(٣) [الأنفال: ٣١].

- ومعنى قولِه: ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾: أو بَقيَّةٍ بَقِيَت عِندَكم تَرْوُونها عن أهْلِ العِلمِ السَّابِقينَ غيرِ مَسطورةٍ في الكُتبِ، وهذا تَوسيعٌ عليهم في أنواعِ الحُجَّةِ؛ لِيَكونَ عَجْزُهم عن الإتيانِ بشَيءٍ مِن ذلك أقطَعَ لِدَعْواهُم(٤). وقيل: المُرادُ بالأثارةِ: الخَطُّ في التُّرابِ، وذلك شَيءٌ كانت العرَبُ تَفعَلُه وتَتكهَّنُ به وتَزْجُرُ؛ فيَكونُ مِن بابِ التَّهكُّمِ بهمْ وبأقْوالِهم ودَلائلِهم(٥).

- وفي قولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ إلْهابٌ وإفحامٌ لهم بأنَّهم غيرُ آتِينَ بحُجَّةٍ؛ لا مِن جانِبِ العقْلِ، ولا مِن جانِبِ النَّقْلِ المَسْطورِ أو المأْثورِ، وقدْ قال تعالَى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾(٦) [القصص: ٥٠].

٢- قولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ اعتِراضٌ في أثْناءِ تَلْقينِ الاحْتِجاجِ؛ فلمَّا أمَرَ اللهُ تعالَى رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يُحاجَّهم بالدَّليلِ، وَجَّهَ الخِطابَ إليه؛ تَعجيبًا مِن حالِهِم وضَلالِهِم؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ إلخ [الأحقاف: ٦]، لا يُناسِبُ إلَّا أنْ يكونَ مِن جانِبِ اللهِ تعالى(١).

- والاستِفهامُ ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ ... ﴾ إنكارٌ وتَعجُّبٌ ونفْيٌ لأنْ يَكونَ أحدٌ يُساوي المُشركينَ في الضَّلالِ، وإنْ كانَ سَبْكُ التَّركيبِ لِنَفْيِ الأضلِّ منْهم مِن غَيرِ تَعرُّضٍ لِنَفْيِ المُساوِي، والمعنى: لا أحَدَ أشدُّ ضَلالًا وأعجَبُ حالًا ممَّن يَدْعونَ مِن دُونِ اللهِ مَن لا يَسْتجيبُ له دُعاءَه؛ فهو أقْصَى حَدٍّ مِن الضَّلالةِ. ووَجْهُ ذلك: أنَّهم ضَلُّوا عن دَلائلِ الوَحدانيَّةِ، وادَّعَوا للهِ شُركاءَ بلا دَليلٍ، واخْتاروا الشُّركاءَ مِن حِجارةٍ -وهي أبعَدُ المَوجوداتِ عن قَبولِ صِفاتِ الخلْقِ والتَّكوينِ والتَّصرُّفِ- ثمَّ يَدْعُونها في نَوائبِهم، وهم يُشاهِدون أنَّها لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ ولا تُجيبُ، ثمَّ سَمِعوا آياتِ القُرآنِ تُوضِّحُ لهم الذِّكرى بنَقائصِ آلِهَتِهم، فلمْ يَعتَبِروا بها، وزَعَموا أنَّها سِحرٌ ظاهرٌ؛ فكان ضَلالُهم أقْصَى حدٍّ في الضَّلالِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴾ وَصْفُ الأصنامِ بتَرْكِ الاستِجابةِ والغفْلةِ مع ظُهورِ حالِها؛ لِلتَّهكُّمِ بها وبعَبَدَتِها(٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨).

ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ نُكتةٌ بَلاغيَّةٌ رائعةٌ؛ وذلك أنَّه جُعِلَ يومُ القِيامةِ غايةً لِعَدَمِ الاستِجابةِ، ومِن شأْنِ الغايةِ انتِهاءُ المُغَيَّا عِندَها، لكنَّ عَدَمَ الاستجابةِ مُستمِرٌّ بعْدَ هذه الغايةِ؛ لأنَّهم في القِيامةِ أيضًا لا يَسْتجيبونَ لهم؛ فالوَجْهُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّها مِن الغاياتِ المُشعِرةِ بأنَّ ما بعْدَها وإنْ وافَقَ ما قبْلَها، إلَّا أنَّه أزْيَدُ منه زِيادةً بَيِّنةً تُلحِقُه بالثَّاني، حتَّى كأنَّ الحالتَينِ -وإنْ كانَتَا نوعًا واحدًا؛ لِتَفاوُتِ ما بيْنَهما- كالشَّيءِ وضِدِّه؛ وذلك أنَّ الحالةَ الأُولى الَّتي جُعِلَتْ غايَتُها القِيامةَ لا تَزِيدُ على عَدَمِ الاستِجابةِ، والحالةَ الثَّانيةَ الَّتي في القِيامةِ زادَتْ على عَدَمِ الاستِجابةِ بالعَداوةِ وبالكُفْرِ بعِبادتِهم إيَّاهم[1].

- وكذلك: جَعْلُ يَومِ القِيامةِ غايةً لِانتِفاءِ الاستجابةِ كِنايةٌ عن اسْتِغراقِ مُدَّةِ بَقاءِ الدُّنيا[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ عطْفٌ على ما قبْلَها؛ لِمُناسَبةِ ذِكرِ يَومِ القِيامةِ[3].

- ضَميرا (كانُوا) في الموضعَينِ يجوزُ أنْ يَعودا إلى ﴿مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ المشركينَ يُعادُونَ أصنامَهم يومَ القيامةِ إذْ يَجِدونَها مِن أسبابِ شقائِهم. ويجوزُ أنْ يَعودا إلى ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾؛ فإنَّ الأصنامَ يجوزُ أنْ تُعطَى حياةً يَومَئذٍ فتَنطِقَ بالتَّبرِّي عن عُبَّادِها ومِن عبادتِهم إيَّاها. ويجوزُ أنْ يكونَ قَولُه: ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾ جاريًا على التَّشبيهِ البليغِ؛ لِمُشابَهتِها لِلْأعداءِ والمُنكِرينَ لِلعِبادةِ في دَلالتِها على ما يُفْضي إلى شَقائِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٢٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

وكَذِبهم[١].

- ويَجوزُ أنْ يُرادَ بقولِه: ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ كلُّ ما يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ؛ مِن الملائكةِ، والجنِّ والإنسِ، وغَيرِهم، ويُبْنى إرجاعُ الضَّمائرِ وإسْنادُ العَداوةِ والكُفرِ إليهم على التَّغليبِ[٢].

- ومِن بَديعِ تَفنُّنِ القُرآنِ: تَوزيعُ مَعادِ الضَّمائرِ في هذه الآيةِ ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ مع تَماثُلِها في اللَّفظِ، وهذا يَندرِجُ فيما يُعرَفُ بمُحسِّنِ الجَمْعِ مع التَّفريقِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) ٨/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣).

والجمعُ والتَّفريقُ: هو أنْ يجمعَ المتكلِّمُ بيْنَ شيئَينِ في حُكمٍ واحدٍ، ثمَّ يُفرِّقَ بيْنَ جِهتَيْ إدخالِهما، كأنْ يُشبِّهَ شَيئينِ بشيءٍ واحدٍ، ثمَّ يُفرِّقَ بيْنَهما في وجهِ الشَّبهِ، وبيْنَ جِهتَي الإدخالِ، كقولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]؛ فالجمعُ قولُه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ﴾؛ لأنَّها متعدِّدةٌ معنًى؛ لأنَّ النَّكِرةَ في سِياقِ النَّفيِ تَعُمُّ، والتَّفريقُ قولُه: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (ص: ٣٣٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣١٢)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٣).

## الآيتان (٧-٨)

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾: أي: اختَلَقَه وافتَعَلَه، وجاء به مِن عندِ نَفْسِه. والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه: مِنْ فَرْيِ الأديمِ، وهو: قَطْعُه، فقيل للكَذِبِ: افتِراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يَقطَعُ به على التَّقديرِ مِن غيرِ تحقيقٍ[1].

﴿تُفِيضُونَ﴾: أي: تَقولونَ وتَخوضونَ، والإفاضةُ في الحَديثِ: الخَوضُ فيه والإكثارُ منه، وهي منقولةٌ مِن: فاضَ الماءُ: إذا سالَ، ومنه: حديثٌ مُستَفيضٌ: مُشتَهِرٌ شائِعٌ، وأصلُ (فيض): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ بسُهولةٍ[2].

### المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى موقفَ المشركينَ إذا قُرِئ عليهم القرآنُ، فيقولُ: وإذا تُتلَى على أولئك المُشرِكينَ آياتُ القُرآنِ الواضِحاتُ قالوا للحَقِّ حينَ جاءَهم مِن عندِ اللهِ تعالى: هذا القُرآنُ سِحرٌ ظاهِرٌ!

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالى عن جانبٍ مِن أباطيلِهم، فيقولُ: أمْ يَقولُ المُشرِكونَ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠، ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥).

اختَلَق مُحمَّدٌ القُرآنَ، وقالَه مِن تِلْقاءِ نَفْسِه؟!

ثمَّ يُلقِّنُ الله تعالى نبيَّه الرَّدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: إنِ اختلَقْتُ هذا القُرآنَ -كما تَزعُمونَ- فلا تَدفَعون عنِّي مِن عذابِ اللهِ شيئًا! هو سُبحانَه أعلَمُ بما تَخوضونَ فيه مِن طَعنٍ أو تَكذيبٍ بالقُرآنِ، كفى به سُبحانَه شَهيدًا بيْني وبيْنَكم، وهو الغَفورُ الرَّحيمُ.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا تكَلَّم في تقريرِ التَّوحيدِ ونَفْيِ الأضْدادِ والأندادِ؛ تكَلَّم في النُّبُوَّةِ، وبَيَّنَ أنَّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم كلَّما عَرَض عليهم نَوعًا مِن أنواعِ المُعجِزاتِ زَعَموا أنَّه سِحرٌ[1]!

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ في غايةِ السَّفَهِ في عبادةِ ما لا دليلَ بوَجهٍ على عبادتِه؛ أتْبَعَه بَيانَ أنَّهم في غايةِ الغَباوةِ بإنكارِ ما لا شَيءَ أبيَنُ منه! فقال عاطِفًا على: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣][2]:

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾.

أي: وإذا تُتلَى على المُشرِكينَ آياتُ القُرآنِ الواضِحاتُ، قال هؤلاء الَّذين كَفَروا بوَحدانيَّةِ الله للحَقِّ حينَ جاءَهم مِن عندِ اللهِ تعالى: هذا القُرآنُ سِحرٌ واضِحٌ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) =

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ: ٤٣].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّ المُشرِكينَ يُسَمُّونَ المُعجِزةَ بالسِّحرِ؛ بَيَّنَ أنَّهم متى سَمِعوا القُرآنَ قالوا: إنَّ مُحمَّدًا افتراه واختَلَقَه مِن عندِ نَفْسِه[1]! فانتَقَلوا مِن قَولِهم: هذا سِحرٌ، إلى هذه المقالةِ الأُخرى[2].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾.

أي: أم يَقولُ المُشرِكونَ: اختَلَق مُحمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبه إلى اللهِ كَذِبًا[3]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [هود: ١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨].

---

= للبقاعي (١٨/ ١٢٩، ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٤).

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشركي قَومِك: إنِ اختلَقْتُ القُرآنَ -كما تَزعُمونَ- فلا تَستطيعونَ أن تَدفَعوا عنِّي شيئًا مِن عذابِ اللهِ إن عاقَبَني؛ جزاءَ كَذِبي عليه[1]!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿نَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٣ - ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۞ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

أي: اللهُ أعلَمُ مِن كُلِّ أحَدٍ سِواه بما تَقولونَه في القُرآنِ؛ مِن طَعنٍ فيه، أو تَكذيبٍ به، أو وَصفِه بما لا يَليقُ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤).

قال ابن عاشور: (قولُه: ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ دليلٌ على الجوابِ المقدَّرِ في الكلامِ بطريقِ الالْتِزامِ؛ لأنَّ معنى ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِى﴾ لا تَقْدِرونَ على دفْعِ ضُرِّ اللهِ عنِّي، فاقتضَى أنَّ المعنَى: إن افترَيْتُه عاقَبَني اللهُ، ولا تَستطيعونَ دفْعَ عِقابِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥).

قال الواحدي: (أي: بما تقولونَ في القُرآنِ وتَخوضون فيه مِن التَّكذيبِ به، والقَولِ فيه أنَّه سِحرٌ وكَهانةٌ. قاله المفَسِّرون). ((البسيط)) (٢٠/ ١٦٤).

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ﴾.

أي: كفى باللهِ العالِمِ بحالي وحالِكم شاهِدًا يَحكُمُ بشَهادتِه بيْني وبيْنَكم، ويُجازي كُلًّا بما يَستحِقُّه[1].

﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الَّذي مِن شأنِه أن يَستُرَ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزَ عن مُؤاخَذتِهم بها، ويَرحَمَهم[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَرجيةٌ واستِدعاءٌ إلى التَّوبةِ؛ لأنَّه في خلالِ تهديدِه إيَّاهم باللهِ تعالى جاءت هاتان الصِّفتانِ[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ أنَّ ما جاء

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال ابن كثير: (أي: ومع هذا كُلِّه إن رَجعتُم وتُبتُم تاب عليكم وعفا عنكم، وغفَرَ لكم ورَحِمَكم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦).

وقال السعدي: (دعاهم إلى التَّوبةِ مع ما صدَرَ منهم مِن مُعانَدةِ الحَقِّ ومُخاصَمتِه، فقال: ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: فتُوبوا إليه، وأقلِعوا عمَّا أنتم فيه؛ يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم، ويَرحَمْكم، فيُوفِّقْكم للخَيرِ، ويُثِبْكم جزيلَ الأجرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٣).

به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الآياتِ هو مِن أفصَحِ الكلامِ وأبلَغِه وأبْيَنِه؛ فهُم لم يَصِفوه بالسِّحرِ إلَّا لأنَّه يأخُذُ بالقُلوبِ، ويَجُرُّ النَّاسَ إليه جَرًّا، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ مِن البيانِ لَسِحْرًا))[١].

٢- قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ إنَّما جَعَلوه بزَعْمِهم سِحرًا؛ مِن حَيثُ كان عِندَهم يُفَرِّقُ بيْنَ المرءِ ووَلَدِه وزَوجِه، فجَعَلوه لذلك كالسِّحرِ، ولم يَنظُروا إلى الفَرقِ في أنَّ المُفارِقَ بالقُرآنِ يُفارِقُ عن بَصيرةٍ في الدِّينِ، والمفارِقَ بالسِّحرِ يُفارِقُ عن خَلَلٍ في ذِهْنِه[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّهم لم يَتأمَّلوا ما يُتْلى عليهم، بل بادَروا أوَّلَ سَماعِه إلى نِسبتِه إلى السِّحرِ؛ عِنادًا وظُلمًا[٣].

٤- قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ وَجْهُ المُلازَمةِ بيْنَ الشَّرْطِ وجَوابِه أنَّ اللهَ لا يُقِرُّ أحَدًا على أنْ يُبلِّغَ إلى النَّاسِ شيئًا عن اللهِ لم يَأْمُرْه بتَبْليغِه، وقد دلَّ القُرآنُ على هذا في قولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ * لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٧]. ولعلَّ حِكمةَ ذلك: أنَّ التَّقوُّلَ على اللهِ يُفْضِي إلى فَسادٍ عَظيمٍ يَختَلُّ به نِظامُ الخلْقِ، واللهُ يَغارُ على مَخلوقاتِه، وليس ذلك كغَيرِه مِن المَعاصي الَّتي تَجْلِبُها المَظالِمُ والعبَثُ في الأرضِ؛ لأنَّ ذلك إقدامٌ على ما هو مَعلومُ الفَسادِ لا يَخْفى على النَّاسِ؛ فهمْ يَدْفَعونه بما يَسْتطيعونَ مِن حَولٍ وقُوَّةٍ، أو حِيلةٍ ومُصانَعةٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٦٩).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٧٦٧) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٣).

وأمَّا التَّقوُّلُ على اللهِ فيُوقِعُ النَّاسَ في حَيرةٍ: بماذا يَتلقَّوْنَه؟ فلذلك لا يُقِرُّه اللهُ ويُزِيلُه(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ ذَكَر سُبحانَه أنَّه شَهيدٌ بيْنَه وبيْنَهم، ولم يَقُلْ: «شاهدٌ علينا»، ولا «شاهدٌ لي»؛ لأنَّه ضَمَّنَ الشَّهادةَ الحُكْمَ، فهو شَهيدٌ يَحكُمُ بشَهادتِه بيني وبيْنَكم، والحُكمُ قَدْرٌ زائِدٌ على مُجرَّدِ الشَّهادةِ؛ فإنَّ الشَّاهِدَ قد يؤدِّي الشَّهادةَ، وأمَّا الحاكِمُ فإنَّه يَحكُمُ بالحَقِّ للمُحِقِّ على المُبطِلِ، ويأخُذُ حَقَّه منه، ويُعامِلُ المُحِقَّ بما يَستحِقُّه، والمُبطِلَ بما يَستحِقُّه(٢).

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ مَسوقٌ مَساقَ العَدِّ لِوُجوهِ فَرْطِ ضَلالِهم؛ فإنَّ آياتِ القُرآنِ تُتْلَى عليهم صَباحَ مَساءَ، تُبيِّنُ لهم دَلائلَ خُلوِّ الأصنامِ عن مُقوِّماتِ الإلهيَّةِ، فلا يَتدبَّرونَها، وتَحْدُو بهمْ إلى الحقِّ، فيُغالِطون أنفُسَهم؛ بأنَّ ما فَهِموه منها تأثُّرٌ سِحْريٌّ، وأنَّها سِحرٌ، ولم يَكْتَفُوا بذلك، بلْ زادُوا بُهتانًا فزَعَموا أنَّه مُبينٌ، أي: واضِحٌ كَونُه سِحْرًا. وهذا انتِقالٌ إلى إبْطالِ ضَلالٍ آخَرَ مِن ضَلالِهم، وهو ضَلالُ التَّكذيبِ بالقُرآنِ؛ فهو مَرتبِطٌ بقولِه: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾(٣) [الأحقاف: ١، ٢].

- قولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّسجيلِ عليهم بالكُفْرِ، وبأنَّه سَببُ قَولِهم ذلك. و(الحقُّ) هنا: هو الآياتُ؛ فعُدِلَ عن ضَميرِ الآياتِ إلى إظْهارِ لَفظِ (الحقِّ)؛ لِلتَّنبيهِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣).

أنَّها حقٌّ، ووُجوبِ الإيمانِ بها، وأنَّ رَمْيَها بالسِّحرِ بُهتانٌ عَظيمٌ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضْرابُ انتِقالٍ إلى نَوعٍ آخَرَ مِن ضَلالِ أقْوالِهم، وسُلِكَ في الانتِقالِ مَسلَكُ الإضرابِ دُونَ أنْ يكونَ بالعطْفِ بالواوِ؛ لأنَّ الإضرابَ يُفيدُ أنَّ الغرَضَ الَّذي سيُنتقَلُ إليه له مَزيدُ اتِّصالٍ بما قبْلَه، وأنَّ المَعنى: دَعْ قَولَهم: ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٧]، واسْتَمِعْ لِمَا هو أعجَبُ؛ وهو قَولُهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾، أي: افْتَرى نِسبتَه إلى اللهِ، ولم يُرِدْ به السِّحرَ[٢].

- وما في (أمْ) مِن الهمزةِ لِلْإنكارِ التَّوبيخيِّ المُتضمِّنِ لِلتَّعجُّبِ، أي: بلْ أيَقُولونَ: افْتَرى القُرآنَ؟! والنَّفيُ الَّذي يَقْتضيهِ الاستِفهامُ الإنْكاريُّ يَتسلَّطُ على سَببِ الإنكارِ، أي: كَونِ القُرآنِ مُفْترًى، وليس مُتسلِّطًا على نِسبةِ القولِ إليهم؛ لأنَّه صادِرٌ منهم، وإنَّما المَنْفيُّ الافتِراءُ المَزْعومُ[٣].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بجَوابِ مَقالَتِهم بما يَقلَعُها مِن جِذْرِها؛ فكان قَولُه تعالى: ﴿قُلْ﴾ جُملةً جاريةً مَجْرى جَوابِ المُقاوَلةِ؛ لِوُقوعِها في مُقابَلةِ حِكايةِ قَولِهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣، ١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤).

- وجُعِلَ الافتراءُ مَفْروضًا بحَرْفِ (إنْ) الَّذي شأْنُه أنْ يكونَ شَرْطُه نادِرَ الوُقوعِ؛ إشارةً إلى أنَّه مَفروضٌ في مَقامٍ مُشتمِلٍ على دَلائلَ تَقلَعُ الشَّرْطَ مِن أصْلِه(١).

- وإسنادُ ﴿تَمْلِكُونَ﴾ إليهم تَنبيهٌ بالشَّيءِ على مُقابِلِه بالمفهومِ، أي: إنْ كُنتُ مُفترِيًا وأنتم المُحِقُّونَ فالعُقوبةُ واقعةٌ لا بُدَّ منها، ولا تَقدِرون على دَفْعِها عنِّي، وإنْ كُنتُ مُحِقًّا وأنتم المُفتَرونَ فالعُقوبةُ تَقَعُ بكم، ولا أقْدِرُ على دَفْعِها عنكم(٢).

- وجُملةُ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي﴾ تَشتمِلُ على معنَى: أنَّ اللهَ لا يَرضَى أنْ يَفترِيَ عليه أحدٌ، وذلك يَقْتضي أنَّه أعلَمُ منهم بحالِ مَن يُخبِرُ عن اللهِ بأنَّه أرسَلَه وما يُبلِّغُه عن اللهِ، وذلك هو ما يَخوضونَ فيه؛ مِن الطَّعْنِ، والقَدْحِ، والوصْفِ بالسِّحرِ، أو بالافتراءِ، أو بالجُنونِ(٣).

- وجُملةُ ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ لأنَّ الإخبارَ بكَونِه أعلَمَ منهم بكُنْهِ ما يُفيضون فيه يَشتمِلُ على مَعنى تَفويضِ الحُكْمِ بيْنَه وبيْنَهم إلى اللهِ تعالى. وهذا تَهديدٌ لهم وتَحذيرٌ مِن الخَوضِ الباطلِ ووَعيدٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٢٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦).

- وإجْراءُ وَصْفَي ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عليه تعالَى اقْتَضاهُ ما تَضمَّنَه قَولُه: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ مِن التَّهديدِ والوعيدِ، وهو تَعريضٌ بطَلَبِ الإقلاعِ عمَّا همْ فيه مِن الخَوضِ بالباطِلِ، ومَوعِدةٌ بالغُفْرانِ والرَّحمةِ إنْ رَجَعوا عن الكُفْرِ وتابوا وآمَنوا، وإشعارٌ بحِلْمِ اللهِ عنهم مع عِظَمِ ما ارْتَكَبوا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦).

## الآيتان (٩-١٠)

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾: أي: أوَّلَ رُسُلِ اللهِ، والبِدْعُ مِن كُلِّ شَيءٍ: الأوَّلُ والمُبتَدأُ، والبِدعةُ: ما اختُرِعَ ممَّا لم تَجْرِ به سُنَّةٌ، وأصلُ (بدع): يدُلُّ على ابتداءِ الشَّيءِ، وصُنعِه لا عن مِثالٍ(١).

﴿نَذِيرٌ﴾: أي: مُنْذِرٌ ومُحذِّرٌ ومُخوِّفٌ، والإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ. وقيل: أصلُ الإنذارِ: الإعلامُ؛ يُقالُ: أنذَرْتُه: إذا أعلَمْتَه. وقيل: ولا يكونُ إلَّا معَ الحَذَرِ(٢).

### المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُبيِّنَ لِقَومِه أنَّ ما جاءهم به قد سبَقَتْه به الرُّسُلُ إلى أقوامِهم، وأنَّه وافَقتْ دعوتُه دعوتَهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: ما كُنتُ أوَّلَ رَسُولٍ إلى البَشَرِ؛ فقد أرسَلَ اللهُ مِنْ قَبْلي

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٢٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

كثيرًا مِنَ الرُّسُلِ، ولا أعلَمُ ما يَفعَلُه اللهُ بي ولا بكم. ما أتَّبِعُ إلَّا ما يُوحيه اللهُ إلَيَّ، وما أنا إلَّا نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، وأُظهِرُ لكم الإنذارَ مِن عذابِ اللهِ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يقولَ للمشركينَ أيضًا: أرأيتُم إن كان هذا القُرآنُ نازِلًا إلَيَّ مِن عندِ اللهِ، وكفَرْتُم به، وقد شَهِد شاهِدٌ مِنْ بني إسرائيلَ على مِثلِ القُرآنِ أنَّه مِن عندِ الله، فآمَنَ به واستَكبرتُم أنتم -أيُّها المُشرِكونَ- عن الإيمانِ به؛ فمَنْ أضَلُّ مِنكم؟! إنَّ اللهَ لا يَهدي القَومَ الظَّالِمينَ!

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن أعظَمِ الضَّلالِ أنْ يُنسَبَ الإنسانُ إلى الكَذِبِ مِن غيرِ دَليلٍ في شَيءٍ لم يَبتَدِعْه، بل تقَدَّمَه بمِثْلِه ناسٌ قد ثَبَت صِدْقُهم في مِثلِ ذلك، ومَضَت عليه الأزمانُ، وتقرَّرَ غايةَ التَّقَرُّرِ في القُلوبِ والأذهانِ- قال تعالى: ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن المُشرِكينَ طَعْنَهم في كَونِ القُرآنِ مُعْجِزًا بأنْ قالوا: إنَّه يختَلِقُه مِن عندِ نَفْسِه، ثمَّ يَنسُبُه إلى أنَّه كَلامُ اللهِ على سَبيلِ الفِرْيةِ؛ حكى عنهم نوعًا آخَرَ مِنَ الشُّبُهاتِ، وهو أنَّهم كانوا يَقتَرِحونَ عليه مُعجِزاتٍ عَجيبةً قاهِرةً، ويُطالِبونَه بأنْ يُخبِرَهم عن المُغَيَّباتِ؛ فأجاب اللهُ تعالى عنه بأنْ قال[2]:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩).

﴿ قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: ما كنتُ أوَّلَ رُسُلِ اللهِ إلى البَشَرِ؛ فقد أرسَلَ اللهُ مِنْ قَبْلي كثيرًا مِنَ الرُّسُلِ إلى أُمَمِهم، وبمِثْلِ ما أرسَلَني به، فلِمَ تَستَنكِرونَ رِسالتي[1]؟!

قال تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا * وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء: ١٦٣، ١٦٤].

﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾.

أي: لَسْتُ إلَّا بشَرًا، وليس بيَدي مِنَ الأمرِ شَيءٌ؛ فلا أعلَمُ ما يَفعَلُه اللهُ بي، ولا ما يَفعَلُه بكم[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦، ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٧).

قال الرَّسْعَني: (اختَلَفوا هل المرادُ نَفْيُ عِلْمِه بما يُفعَلُ به في الآخِرةِ أم في الدُّنيا؟ على قَولَين:

أحَدُهما: في الآخِرةِ، قال: ثمَّ نزَل بَعْدَها: ﴿ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ٢]، وقال: ﴿ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ ﴾ [الفتح: ٥]؛ فأعلَمَه ما يُفعَلُ به وبالمُؤمِنينَ.

الثَّاني: في الدُّنيا،... قال الحَسَنُ: ما أدري أُخرَجُ كما أُخرِجَ الأنبياءُ قَبْلي؟ أو أُقتَلُ كما قُتِلوا؟ وما أدري ما يُفعَلُ بكم: أتُعَذَّبونَ أم تُؤَخَّرونَ؟ أتُصَدِّقون أم تُكَذِّبون؟ وقال عطيَّة: ما أدري =

= هل يَترُكني بمكَّةَ أو يُخرِجُني منها؟ وقيل: المعنى: وما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكم فيما يُستَقبَلُ مِنَ الزَّمانِ، ويُقدَّرُ لي ولكم في قَضاياه. وقيل: هو نَفيٌ للدِّرايةِ المُفَصَّلةِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٠٦، ٢٠٧).

ممَّن يُروى عنه القَولُ الأوَّلُ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وأنسٌ، وعِكْرِمةُ، والحسَنُ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢١)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: في الدُّنيا: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، وابنُ الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٢)، ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٦٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨، ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧).

وممَّن قال بمعنى هذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، وعطيَّةُ العَوْفيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٨٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤٣٥).

قال ابن كثير: (وهذا القولُ هو الَّذي عوَّل عليه ابنُ جرير، وأنَّه لا يجوزُ غيرُه، ولا شكَّ أنَّ هذا هو اللَّائقُ به صلَواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ فإنَّه بالنِّسبةِ إلى الآخرةِ جازِمٌ أنَّه يَصيرُ إلى الجنَّةِ هو ومَنِ اتَّبَعه، وأمَّا في الدُّنيا فلم يَدْرِ ما كان يَؤولُ إليه أمرُه وأمرُ مُشرِكي قُرَيشٍ؛ إلى ماذا: أيُؤْمِنون، أمْ يَكفُرون فيُعَذَّبون...). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٦).

وقال الشنقيطي: (التَّحقيقُ إن شاء اللهُ: أنَّ معنى الآيةِ الكريمةِ: ما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكم في دارِ الدُّنيا؛ فما أدري أأُخرَجُ مِن مَسقَطِ رأسي، أو أُقتَلُ كما فُعِلَ ببَعضِ الأنبياءِ، وما أدري ما يَنالُني مِن الحوادِثِ والأُمورِ في تحمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ، وما أدري ما يُفعَلُ بكم: أيُخسَفُ بكم، أو تَنزِلُ عليكم حِجارةٌ مِن السَّماءِ، ونحوَ ذلك.

وهذا هو اختِيارُ ابنِ جَريرٍ وغيرِ واحِدٍ مِن المحَقِّقينَ، وهذا المعنى في هذه الآيةِ دَلَّت عليه آياتٌ مِن كِتابِ اللهِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ الآيةَ [الأعراف: ١٨٨]، وقَولِه تعالى آمِرًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ الآيةَ [الأنعام: ٥٠].

وبهذا تَعلَمُ أنَّ ما يُروَى عن ابنِ عبَّاسٍ وأنَسٍ وغَيرِهما مِن أنَّ المرادَ: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا = 

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وعن أمِّ العَلاءِ رضيَ الله عنها، قالت: ((دخَلَ علينا رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم حينَ تُوُفِّيَ عُثمانُ بنُ مَظْعُونٍ، فقُلتُ: رَحمةُ اللهِ عليك أبا السَّائِبِ، فشَهادتي عليك لقد أكرَمَك اللهُ! فقال لي النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: وما يُدريكِ أنَّ اللهَ أكرَمَه؟! فقُلتُ: لا أدري، بأبي أنتَ وأمِّي يا رَسولَ اللهِ! فقال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أمَّا عُثمانُ فقد جاءه -واللهِ- اليَقينُ، وإنِّي لأرجو له الخَيرَ، واللهِ ما أدري وأنا رَسولُ اللهِ ما يُفعَلُ به[1]! قالت: فواللهِ لا أُزكِّي أحدًا بعدَه أبدًا، وأحزَنَني ذلك. قالت: فنِمتُ، فأُريتُ لِعُثمانَ عَينًا تَجري، فجِئتُ إلى رَسولِ الله

---

= بِكُمۡ﴾ أي: في الآخِرةِ- فهو خِلافُ التَّحقيقِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢١٧). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧).

وممَّن جمَع بيْن القولَينِ: البيضاويُّ، فقال: (﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡ﴾ في الدَّارَينِ على التَّفصيلِ؛ إذ لا عِلمَ لي بالغَيبِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٧).

وقال الألوسي: (والَّذي أختاره أنَّ المعنى على نفْيِ الدِّرايةِ مِن غيرِ جهةِ الوحيِ، سواءٌ كانت الدِّرايةُ تَفصيليَّةً أو إجماليَّةً، وسواءٌ كان ذلك في الأمورِ الدُّنيويَّةِ أو الأُخرويَّةِ. وأعتقِدُ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لم يَنتقِلْ مِن الدُّنيا حتَّى أُوتيَ مِن العِلمِ بالله تعالى وصِفاتِه وشُؤونِه، والعِلمِ بأشياءَ يُعَدُّ العِلمُ بها كمالًا- ما لم يُؤْتَهُ أحدٌ غيرُه مِن العالَمينَ، ولا أعتقِدُ فواتَ كمالٍ بعدَمِ العِلمِ بحوادثَ دُنيويَّةٍ جُزئيَّةٍ؛ كعدَمِ العِلمِ بما يَصنَعُ زَيدٌ مثَلًا في بيتِه، وما يَجري عليه في يَومِه أو غَدِه). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٦٨).

(١) قال ابن كثير: (وفي هذا وأمثالِه دَلالةٌ على أنَّه لا يُقْطَعُ لِمُعَيَّنٍ بالجنَّةِ إلَّا الَّذي نصَّ الشَّارِعُ على تَعْيينِهم؛ كالعَشَرةِ، وابنِ سلَامٍ، والغُمَيْصاءِ، وبِلالٍ، وسُراقَةَ، وعبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ حَرامٍ والدِ جابرٍ، والقُرَّاءِ السَّبعينَ الَّذينَ قُتِلوا ببِئْرِ مَعُونةَ، وزَيدِ بنِ حارثةَ، وجَعْفَرٍ، وابنِ رَواحةَ، وما أشْبهَ هؤُلاءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧).

صلَّى الله عليه وسلَّم، فأخبَرْتُه، فقال: ذاك عَمَلُه))[١].

وفي روايةٍ: ((واللهِ ما أدري -وأنا رَسولُ اللهِ- ما يُفْعَلُ بي ولا بكم))[٢].

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

أي: ما أتَّبِعُ إلَّا ما يُنزِلُه اللهُ عليَّ مِنَ الوَحيِ[٣].

﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: وما أنا لكم إلَّا نَذيرٌ أُبِينُ وأُظهِرُ لكم الإنذارَ مِن عذابِ اللهِ، وأمري بائنٌ ظاهِرٌ لكُلِّ ذي عَقلٍ[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠١٨).

قال ابن حجر: (إنَّما قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ ذلك موافَقةً لِقَولِه تعالى في سورةِ الأحقافِ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، وكان ذلك قبْلَ نُزولِ قَولِه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]؛ لأنَّ الأحقافَ مكِّيَّةٌ، وسورةَ الفتحِ مدنيَّةٌ بلا خِلافٍ فيهما، وقد ثبت أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: «أنا أوَّلُ مَن يَدخُلُ الجنَّةَ»، وغير ذلك مِن الأخبارِ الصَّريحةِ في معناه، فيحتملُ أن يُحمَلَ الإثباتُ في ذلك على العِلمِ المُجمَلِ، والنَّفيُ على الإحاطةِ مِن حيثُ التَّفصيلُ). ((فتح الباري)) (٣/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧).

قال البِقاعي: (لا يطَّلِعُ عليه حقَّ اطِّلاعِه غيري، ومنه ما أُخبِرُ فيه عن المُغَيَّباتِ فيَكونُ كما قُلتُ، فلا يُرتابُ في أنِّي لا أقدِرُ على ذلك بنفْسي؛ فعُلِمَ أنَّه مِن اللهِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٦، ١٣٧).

قال ابنُ جرير: (﴿مُّبِينٌ﴾: يقولُ: قد أبان لكم إنذارَه، وأظهَرَ لكم دُعاءَه إلى ما فيه نَصيحتُكم). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٤).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بَيِّنُ النِّذارةِ، وأمري ظاهِرٌ لكُلِّ ذي لُبٍّ وعَقلٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧). =

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أثبَتَ أنَّه مِن عندِ اللهِ بشَهادةِ اللهِ نَفْسِه بعَجْزِهم عن المُعارَضةِ؛ قبَّحَ عليهم إصرارَهم على التَّكذيبِ، على تقديرِ شَهادةِ أحَدٍ مِمَّن يَثِقونَ بهم، يَسألونَهم عنه مِن أهلِ الكِتابِ[1].

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِمُشرِكي قَومِك: أرأيتُم إن كان هذا القُرآنُ نازِلًا إلَيَّ مِن عندِ اللهِ، ومع ذلك كفَرْتُم به، ألَا تَكونونَ بذلك ظالِمينَ وضالِّينَ عن الحَقِّ[2]؟

---

= وقد جمَع البِقاعي بيْنَ مَعنَيَيْ ﴿مُّبِينٌ﴾، فقال: (﴿نَذِيرٌ﴾ أي: لكم ولكُلِّ مَن بَلَغه القُرآنُ ﴿مُّبِينٌ﴾ أي: ظاهِرٌ أنِّي كذلك في نَفْسِه، مُظهِرٌ له -أي: كَوني نذيرًا- ولجَميعِ الجُزئيَّاتِ الَّتي أنذَرَ منها بالأدِلَّةِ القَطعيَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٣٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٨).

قال الواحدي: (جوابُ قوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ محذوفٌ على تقديرِ: أليس قد ظلَمْتُم؟ ويدُلُّ على هذا المحذوفِ قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقال الحسَنُ [أي: البصريُّ]: جوابُه: فمَنْ أضَلُّ منكم؟ كما قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢]. وقال أبو عليٍّ الفارِسيُّ: تقديرُه: أتأمَنون عُقوبةَ اللهِ؟). ((الوسيط)) (٤/ ١٠٤، ١٠٥).

وقال ابن كثير: (أي: ما ظنُّكم أنَّ اللهَ صانعٌ بكم إن كان هذا الكِتابُ الَّذي جِئتُكم به قد أنزله علَيَّ لِأُبَلِّغَكموه، وقد كفرتُم به وكذَّبْتُموه؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٧، ٢٧٨). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٥٢].

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ﴾.

أي: وقد شَهِد مَنْ شَهِدَ مِنْ بني إسرائيلَ على مِثلِ القُرآنِ أنَّه مِن عندِ الله؛ فآمَنَ هو بالقُرآنِ، واستَكبرتُم أنتم -أيُّها المُشرِكونَ- عن الإيمانِ به[1]!

= الماوردي)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠).

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٧، ١٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال ابنُ جُزَي: (هذه الجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُملةِ الَّتي قبْلَها، فالمعنى: أرأيتُم إنِ اجتمَعَ كَونُ القُرآنِ مِن عندِ الله، مع شَهادةِ شاهِدٍ مِن بني إسرائيلَ على مِثلِه، ثمَّ آمَنَ به هذا الشَّاهِدُ وكَفرتُم أنتم، ألَسْتُم أضَلَّ النَّاسِ وأظلَمَ النَّاسِ؟!). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥).

اختَلف المفسرونَ في المرادِ بقولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ على أقوالٍ؛ منها:

أنَّ المرادَ بالشَّاهِدِ عبدُ الله بنُ سلَامٍ، ونسَبه ابنُ جريرٍ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ، ونسَبه الرَّسْعَنيُّ إلى عامَّتِهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣١، ١٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٠٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: سعدُ بنُ أبي وقَّاصٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ١٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٦)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٧٣).

قال ابنُ جرير بعدَ أنْ ذكَر أنَّ الأخبارَ قد ورَدت عن جماعةٍ مِن الصحابةِ بأنَّ ذلك عُني به عبدُ الله ابنُ سلامٍ، قال: (وهم كانوا أعلمَ بمعاني القرآنِ، والسببِ الذي فيه نزَل). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣١).

وقال ابن جُزَي: (قيل على هذا: إنَّ الآيةَ مدنيَّةٌ؛ لأنَّه إنَّما أسلَمَ بالمدينةِ. وقيل: إنَّها مكِّيَّةٌ، وأخبَر بشَهادتِه قبْلَ وُقوعِها، ثمَّ وقَعَتْ على حسَبِ ما أخبَر). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥). ويُنظر ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٩). =

= وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن تكونَ الآيةُ نزلتْ بالمدينةِ، وأُمِرَ بوَضعِها في سورةِ «الأحقافِ»، وعلى هذا يكونُ الخِطابُ لأهلِ الكِتابِ بالمدينةِ وما حَوْلَها. وعندي أنَّه يجوزُ أن يكونَ هذا إخبارًا مِن الله لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما سيَقَعُ مِن إيمانِ عبدِ اللهِ بنِ سَلامٍ، فيَكونُ هو المرادَ بـ ﴿شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، وإن كانت الآيةُ مَكِّيَّةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١).

ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ١٣٠).

وقال ابن حجر: (ولا مانعَ أن تكونَ جميعُها مكِّيَّةً، وتقَعَ الإشارةُ فيها إلى ما سيَقَعُ بعدَ الهِجرةِ مِن شَهادةِ عبدِ الله بنِ سَلَامٍ). ((فتح الباري)) (٧/ ١٣٠).

وقيل: المرادُ به: موسَى بنُ عِمْرانَ عليه السَّلامُ. وممَّن اختاره: مكِّي، وذكَر ابنُ جريرٍ أنَّه أشبهُ بظاهرِ التَّنزيلِ، ونسَبه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٤).

وممَّن قال به مِن السَّلفِ: الشَّعبيُّ، ومسروقٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٥).

وقيل: ليس المقصودُ شاهِدًا واحِدًا بعَينِه، ولكِنَّ المقصودَ جِنسُ الشَّاهِدِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الرَّازيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ١٧٧، ١٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨).

قال ابنُ كثير: (هذا الشَّاهِدُ: اسمُ جِنسٍ يَعُمُّ عبدَ اللهِ بنَ سَلَامٍ وغَيرَه؛ فإنَّ هذه الآيةَ مَكِّيَّةٌ نزلت قبْلَ إسلامِ عبدِ الله بنِ سَلامٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨).

وقال ابن تيميَّة: (وقَولُه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ ليس المقصودُ شاهِدًا واحِدًا مُعَيَّنًا، بل ولا يَحتَمِلُ كَونُه واحِدًا. وقَولُ من قال: [إنَّه] عبدُ اللهِ بنُ سَلامٍ- ليس بشَيءٍ؛ فإنَّ هذه نزَلَت بمكَّةَ قبْلَ أن يُعرَفَ ابنُ سَلامٍ، ولكِنَّ المقصودَ جِنسُ الشَّاهِدِ، كما تقولُ: قام الدَّليلُ. وهو الشَّاهِدُ الَّذي يجِبُ تَصديقُه؛ سواءٌ كان واحِدًا قد يَقتَرِنُ بخَبَرِه ما يدُلُّ على صِدقِه، أو كان عَدَدًا يَحصُلُ بخَبَرِهم العِلمُ [بما] تقولُ؛ فإنَّ خَبَرَك بهذا صادِقٌ). ((النبوات)) (١/ ١٧٧).

وقيل: إنَّ قولَه ﴿مِثۡلِهِۦ﴾ صِلةٌ، وإنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ أي: عليه، والمعنى: على أنَّه مِن عندِ اللهِ. وممَّن اختاره: أبو عليٍّ الجُرْجانيُّ -كما في ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٦٩)- والواحدي، والبغوي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١٩).

قال الشنقيطي: (التَّحقيقُ -إن شاء اللهُ- أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ جاريةٌ على أُسلوبٍ عَربيٍّ =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٦، ١٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [هود: ١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ

---

= معروفٍ، وهو إطلاقُ المِثْلِ على الذَّاتِ نَفْسِها، كقَولِهم: مِثلُك لا يَفعَلُ هذا، يَعْنُونَ: لا يَنبغي لك أنت أن تفعَلَه. وعلى هذا فالمعنى: وشَهِدَ شاهِدٌ مِن بني إسرائيلَ على أنَّ هذا القرآنَ وَحْيٌ مُنَزَّلٌ حَقًّا مِن عندِ اللهِ، لا أنَّه شَهِدَ على شَيءٍ آخَرَ مُماثِلٍ له؛ ولذا قال تعالى: ﴿فَءَامَنتُمْ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢١٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: مِثلِ القرآنِ: ابنُ أبي زَمَنين، وابنُ تيميَّة، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٢٣)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ١٧٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠).

قال الشوكاني: (﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: القُرآنِ، مِن المعاني الموجودةِ في التَّوراةِ المُطابِقةِ له؛ مِن إثباتِ التَّوحيدِ والبَعثِ والنُّشورِ، وغَيرِ ذلك، وهذه المِثْليَّةُ هي باعتِبارِ تَطابُقِ المعاني، وإن اختَلَفَت الألفاظُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠).

وقال ابن تيميَّة: (قال: ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ وأراد شَهادةَ أهلِ الكِتابِ على مِثْلِ القُرآنِ، وهو شَهادتُهم بما تواتَرَ عنهم مِن أنَّ الرُّسُلَ كانوا رِجالًا، وأنَّهم دَعَوا إلى التَّوحيدِ، وأخبَروا بالمَعادِ). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٨/ ٣٦١).

وقال أيضًا: (إنَّ الشَّاهِدَ مِن بني إسرائيلَ على مِثْلِ القُرآنِ، وهو أنَّ اللهَ بَعَث بَشَرًا، وأنزل عليه كِتابًا أمَرَ فيه بعبادةِ اللهِ وَحْدَه لا شَريكَ له، ونهى فيه عن عِبادةِ ما سِواه، وأخبَرَ فيه أنَّه خَلَق هذا العالَمَ وَحْدَه، وأمثالُ ذلك). ((النبوات)) (١/ ١٧٧).

وقيل: شَهادَتُه أنَّ محمَّدًا مكتوبٌ في التَّوراةِ أنَّه نَبيٌّ، تَجِدُه اليهودُ مكتوبًا عندَهم في التَّوراةِ، كما هو مكتوبٌ في القرآنِ أنَّه نَبيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣١، ١٣٢).

وقيل: المرادُ: على مِثلِ شَهادةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢).

يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوَفِّقُ لإصابةِ الحَقِّ القومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ باللهِ، والتَّكَبُّرِ عن قَبولِ الحَقِّ مع وُضوحِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

لَمَّا كان المَقامُ مَقامَ تَخويفٍ وإنذارٍ قال: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّه يُخاطِبُ المُكذِّبينَ، وهذا أسلوبٌ مَعروفٌ في عِلمِ البَلاغةِ: أن يَستَعمِلَ الإنسانُ ما يُوافِقُ مُقتَضَى الحالِ، لكِنْ عندَ وَصفِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ الوَصفَ المُطلَقَ يقولُ سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]؛ فبَدَأ بالبِشارةِ قبْلَ الإنْذارِ، وهذا مِن حيثُ حالُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم المُطلَقةُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ للكلامِ المحذوفِ الدَّالِّ عليه ما قَبْلَه، أي: ضلَلْتُم ضلالًا لا يُرجَى له زَوالٌ؛ لأنَّكم ظالِمونَ، واللهُ لا يَهدي القومَ الظَّالِمينَ. وهذا تسجيلٌ عليهم بظُلمِهم أنفُسَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٨٤).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ هذه الآيةُ صالِحةٌ للرَّدِّ على نصارَى زَمانِنا الَّذين طَعَنوا في نُبُوَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بمَطاعِنَ لا مَنشأَ لها إلَّا تَضليلٌ وتَمويهٌ على عامَّتِهم؛ لأنَّ الطَّاعِنينَ ليسوا مِن الغباوةِ بالَّذين يخفَى عليهم بُهتانُهم، كقَولِهم: إنَّه تزَوَّج النِّساءَ، أو أنَّه قاتَلَ الَّذين كَفَروا، أو أنَّه أحَبَّ زَينبَ بنتَ جَحشٍ[1]!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَعلَمُ مَصيرَ أمْرِه -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وقد جاءت آيةٌ أخرى تدُلُّ على أنَّه عالِمٌ بأنَّ مَصيرَه إلى الخَيرِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ تَنصيصٌ على حُسنِ العاقِبةِ والخاتِمةِ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ الله تعالى علَّمَه ذلك بعدَ أن كان لا يَعلَمُه، ويُستأنَسُ له بقَولِه تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ الآيةَ [النساء: ١١٣]، وقَولِه: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ الآيةَ [الشورى: ٥٢]، وقَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، وقَولِه: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ الآيةَ [القصص: ٨٦]، وهذا الجوابُ هو معنى قَولِ ابنِ عبَّاسٍ، وهو مرادُ عِكْرِمةَ والحَسَنِ وقَتادةَ بأنَّها مَنسوخةٌ (أي: مُبَيَّنةٌ) بقَولِه تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ الآيةَ [الفتح: ٢]. ويدُلُّ له أنَّ سورةَ (الأحقافِ) مَكِّيَّةٌ، وسورةَ (الفَتحِ) نزلَتْ عامَ سِتَّةٍ في رُجوعِه صلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ الحُدَيبيَةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧).

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ المرادَ: ما أدري ما يُفعَلُ بي ولا بكم في الدُّنيا مِنَ الحوادِثِ والوقائِعِ؛ وعليه فلا إشكالَ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ فيه كمالُ عُبوديَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم للهِ عزَّ وجلَّ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أنَّ الشَّرائعَ توقيفيَّةٌ؛ فلا يجوزُ لأحدٍ أنْ يَبتدِعَ منها شَيئًا؛ ولهذا قَرَّرَ أهلُ العلمِ أنَّ الأصلَ في العباداتِ المنعُ والحَظرُ، وأنَّه لا يجوزُ للإنسانِ أنْ يَتعبَّدَ للهِ تعالى بشَيءٍ إلَّا ما أَذِنَ اللهُ فيه شَرعًا، وهذا حَقٌّ مُستنِدٌ إلى آياتٍ مُتعَدِّدةٍ، وإلى قَولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن أحدَثَ في أمْرِنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ))[٣].

٥- ما كان مِن العِلمِ المَوروثِ عن نَبيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فلَنا أنْ نَستَشهِدَ عليه بما عندَ أهلِ الكتابِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد ٤٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٤] [يونس ٩٤، ٩٥].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٣).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٢٦٩٧)، ومسلمٌ (١٧١٨) واللَّفظُ له مِن حديثِ عائشةَ رضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٤٢٢).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾ فيه ردٌّ على مَن قال: لا يَنبغي للشَّاهِدِ أن يقولَ: أشهَدُ على إقرارِ زَيدٍ، بل يقولُ: أشهَدُ به، فالصَّوابُ قَبولُ الشَّهادةِ بهذه الصِّيغةِ[1].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾

- في قولِه: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أُعِيدَ الأمْرُ بأنْ يَقولَ ما هو حُجَّةٌ عليهم، وهذا جَوابٌ عمَّا تَضمَّنَه قَولُهم: ﴿ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [الأحقاف: ٨]؛ مِن إحالَتِهم صِدْقَه فيما جاء به مِن الرِّسالةِ عن اللهِ إحالةً دَعَتْهم إلى نِسبةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى الافتراءِ على اللهِ. وإنَّما لم يُعطَفْ على جُملةِ ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ [الأحقاف: ٨]؛ لأنَّ المَقصودَ الارتِقاءُ في الرَّدِّ عليهم مِن رَدٍّ إلى أقْوى منه؛ فكان هذا كالتَّعدُّدِ والتَّكريرِ[2].

- ودلَّ قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣] بالإدماجِ[3] وإشارةِ النَّصِّ على أنَّه تعالَى ضَمَّن فيه ما به أعْرَضوا عن التَّوحيدِ والبَعثِ، والطَّعنَ في الرَّسولِ المُنذِرِ، فقِيل: قُلْ لهم: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ الآيةَ؛ فدلَّ على أنَّ ذلك الطَّعنَ هو أنَّهم اقْتَرَحُوا عليه الآياتِ، وكانوا يَسْألونَه عمَّا لم يُوحَ إليه مِن الغُيوبِ، ويُؤيِّدُ هذا أنْ فُصِلَتْ الآيةُ بقَولِه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ

---

(١) ردَّ بهذه الآيةِ تقيُّ الدِّينِ السُّبْكيُّ على ابنِ أبي الدَّم. يُنظر: ((قضاء الأرب في أسئلة حلب)) للسبكي (ص: ٤٧٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٨١).

مُّبِينٌ﴾؛ لأنَّه مُطابِقٌ لِقَولِه: ﴿عَمَّآ أُنذِرُواْ﴾[١].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ تَتْميمٌ لقَولِه: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾، وهو بمَنزِلةِ الاعْتِراضِ؛ فإنَّ المُشرِكين كانوا يَسْألونَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن مُغيَّباتٍ؛ اسْتِهزاءً؛ فأمَرَ اللهُ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يُعلِمَهم بأنَّه لا يَدْري ما يُفعَلُ به ولا بهم، أي: في الدُّنيا -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ ولذلك كان قولُه: ﴿إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ اسْتِئنافًا بَيانيًّا، وإتْمامًا لِمَا في قَولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾؛ بأنَّ قُصارَى ما يَدْرِيه هو اتِّباعُ ما يُعلِمُه اللهُ به؛ فهو تَخصيصٌ لِعُمومِه، ومِثْلُ عِلْمِه بأنَّه رَسولٌ مِن اللهِ، وأنَّ المُشرِكين في النَّارِ، وأنَّ وَراءَ الموتِ بَعْثًا[٢].

- ووَجْهُ عَطْفِ ﴿وَلَا بِكُمۡۖ﴾ على ﴿بِي﴾ بإقحامِ (لا) النَّافيةِ، معَ أنَّهما مُتعلِّقانِ بفِعلِ صِلةِ (ما) المَوصولةِ، وليس في الصِّلةِ نَفْيٌ، فلماذا لَمْ يُقَلْ: ما يُفعَلُ بي وبِكُم؛ لأنَّ المَوصولَ وصِلَتَه لَمَّا وقَعَا مَفعولًا لِلْمنفيِّ في قَولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرِي﴾، تَناوَلَ النَّفيُ ما هو في حَيِّزِ ذلك الفِعلِ المَنْفيِّ، فصار النَّفيُ شاملًا لِلْجميعِ؛ فحسُنَ إدْخالُ حَرْفِ النَّفيِ على المَعطوفِ، كما حسُنَ دُخولُ الباءِ الَّتي شأْنُها أنْ تُزادَ فيُجَرَّ بها الاسمُ المَنْفيُّ المعطوفُ على اسمِ (إنَّ)، وهو مُثبَتٌ في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ﴾ [الأحقاف: ٣٣]؛ لِوُقوعِ (أنَّ) العامِلةِ فيه في خَبرِ النَّفيِ، وهو ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾[٣]. وقيل: لأنَّ التَّقديرَ: ما أدري ما يُفعَلُ بي،

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٧، ١٨).

وما أدري ما يُفعَلُ بكم[١].

- قولُه: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ أيْ: ما أفْعَلُ إلَّا اتِّباعَ ما يُوحَى إلَيَّ، على مَعْنى قَصْرِ أفْعالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على اتِّباعِ الوَحْيِ، لا قَصْرِ اتِّباعِه على الوحْيِ، كما هو المُتسارِعُ إلى الأفْهامِ[٢].

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ على جُملةِ ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ لأنَّه الغرَضُ المَسوقُ له الكلامُ، بخِلافِ قَولِه: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾، والمعنى: وما أنا إلَّا نِذيرٌ مُبِينٌ لا مُفتَرٍ؛ فالقصْرُ قَصرٌ إضافيٌّ، وهو قصْرُ قَلْبٍ[٣]؛ لِرَدِّ قَولِهم: ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ ...﴾ أُعِيدَ الأمْرُ بأنْ يَقولَ لهم حُجَّةً أُخرى؛ لعلَّها تَرُدُّهم إلى الحقِّ بعْدَ ما تَقدَّمَ مِن قَولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٤] الآيةَ، وقولِه: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الأحقاف: ٨] وقولِه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩] الآيةَ. وهذا اسْتِدراجٌ لهم لِلْوصولِ إلى الحقِّ في دَرَجاتِ النَّظرِ؛ فقدْ بادَأَهُم بأنَّ ما أحالُوه مِن أنْ يكونَ رَسولًا مِن عِندِ اللهِ ليس بمُحالٍ؛ إذ لمْ يكُنْ أوَّلَ النَّاسِ جاء برِسالةٍ مِن اللهِ، ثمَّ أعْقَبَه بأنَّ القُرآنَ إذا فَرَضْنا أنَّه مِن عِندِ اللهِ، وقدْ كَفَرْتُم بذلك؛ كيف يكونُ حالُكم عِندَ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٠).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨).

تعالَى؟ وأُقحِمَ في هذا أنَّه لو شَهِدَ شاهدٌ مِن أهْلِ الكِتابِ بوُقوعِ الرِّسالاتِ، ونُزولِ الكُتبِ على الرُّسلِ، وآمَنَ برِسالتي -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-؛ كيف يكونُ انْحِطاطُكم عن دَرَجتِه وقدْ جاءَكم كِتابٌ فأعرَضْتُم عنه؟ فهذا كقولِه: ﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وهذا تَحْريكٌ لِلهِمَمِ[١].

- والاسْتِفهامُ في ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ تَقريريٌّ للتَّوبيخِ، ومَفعولَا ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ مَحذوفانِ، والتَّقديرُ: أرأَيْتُم أنفُسَكم ظالِمينَ[٢].

- وجِيءَ في الشَّرطِ ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ بحَرْفِ (إنْ) الَّذي شأْنُه أنْ يكونَ في الشَّرطِ غَيرِ المَجزومِ بوُقوعِه؛ مُجاراةً لِحالِ المُخاطَبينَ؛ اسْتِنزالًا لِطائرِ جِماحِهم؛ لِيَنزِلوا لِلتَّأمُّلِ والمُحاوَرةِ[٣]. وفيه مَعنى الاسْتِدراجِ والكلامِ المُنصِفِ؛ لأنَّ كَونَ القُرآنِ مِن عِندِ اللهِ مُتيقَّنٌ مُحقَّقٌ[٤].

- وأيضًا جَوابُ هذا الشَّرْطِ ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مَحذوفٌ؛ دلَّ عليه سِياقُ الجَدَلِ، تَقديرُه: أفتَرَونَ أنفُسَكم في ضَلالٍ؟ أو مَنْ أضَلُّ منكم؟ أو أَلَسْتُم ظالِمينَ؟ ويدُلُّ على هذا المَحذوفِ قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٥٢]، وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فإنَّ عَدَمَ الهِدايةِ ممَّا يُنبِئُ عن الضَّلالِ قَطْعًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير أبي =

- وقولُه: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ حالٌ بإضْمارِ (قَدْ) مِن الضَّميرِ في الخبرِ، وُسِّطتْ بيْنَ أجْزاءِ الشَّرْطِ؛ مُسارَعةً إلى التَّسجيلِ عليهم بالكُفْرِ. أو عطْفٌ على (كانَ)، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [فصلت: ٥٢]، لكنْ لا على أنَّ نَظْمَه في سلْكِ الشَّرْطِ المُتردِّدِ بيْنَ الوُقوعِ وعَدَمِه عِندَهُم باعْتِبارِ حالِه في نفْسِه، بلْ باعتِبارِ حالِ المَعطوفِ عليه عندَهم؛ فإنَّ كُفْرَهم به أمْرٌ مُحقَّقٌ عِندَهم أيضًا، وإنَّما تَردُّدُهم في أنَّ ذلكَ كُفْرٌ بَما مِن عِندِ اللهِ تعالى أمْ لا، وكذا الحالُ في قولِه تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وما بعدَه مِن الفِعْلَينِ؛ فإنَّ الكُلَّ أُمورٌ مُحقَّقةٌ عندَهُم، وإنَّما تَردُّدُهم في أنَّها شَهادةٌ وإيمانٌ بما مِن عِندِ اللهِ تعالى واسْتِكبارٌ عنه أوْ لا، والمعنى: أخْبِروني إنْ كان ذلك في الحقيقةِ مِن عِندِ اللهِ وكَفَرْتُم به، وشَهِدَ شاهِدٌ عَظيمُ الشَّأنِ مِنْ بني إسْرائيلَ الواقِفينَ على شُؤونِ اللهِ تعالى، وأسْرارِ الوحْيِ بما أُوتُوا مِن التَّوراةِ[1].

- قولُه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ يَجوزُ أنْ يُحمَلَ المِثْلُ على أنَّه كِنايةٌ عمَّا أُضِيفَ إليه لَفظُ (مِثل)؛ فيَكونَ لَفظُ (مِثْل) بمَنزِلةِ المُقحَمِ على طَريقةِ قَولِ العرَبِ: (مِثلُك لا يَبخَلُ)؛ فالمعنَى: وشَهِدَ شاهدٌ على صِدْقِ القُرآنِ فيما حواهُ[2].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَـَٔامَنَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه سارَعَ إلى الإيمانِ بالقُرآنِ لَمَّا

---

= السعود)) (٨/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠).

عَلِمَ أنَّه مِن جِنْسِ الوحْيِ النَّاطقِ بالحقِّ[١].

- وجُعِل الإيمانُ في قَولِه: ﴿فَـَٔامَنَ﴾ مُسبَّبًا عن الشَّهادةِ على مِثْلِه؛ لأنَّه لَمَّا عَلِمَ أنَّ مِثلَه أُنزِلَ على مُوسَى صَلواتُ اللهِ عليه، وأنَّه مِن جِنسِ الوحْيِ، وليس مِن كَلامِ البشَرِ، وأنصَفَ مِن نفْسِه، فشَهِدَ عليه واعْترَفَ؛ كان الإيمانُ نتيجةَ ذلك[٢].

- وقد حَسُنَ عطْفُ قَولِه: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾ على (آمَنَ)، وتَرْتيبُهما بالفاءِ معًا على المَذكورِ؛ لِيَكونَ إيمانُه واسْتِكبارُهم صادِرَينِ عن أمْرٍ واحدٍ؛ وهو عِرْفانُهم أنَّ القُرآنَ حقٌّ وصِدْقٌ وصَوابٌ، وأنَّه مُعجِزةٌ مِن اللهِ، وأنَّ عبْدَ اللهِ بنَ سلَامٍ أنصَفَ فآمَنَ -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-، وأنَّ المُشرِكين عانَدوا فكَفَروا[٣].

- والآيةُ مِن الاحتِباكِ[٤]: ذَكَر الإيمانَ أوَّلًا؛ دَليلًا على ضِدِّه ثانيًا، والاستِكبارَ والظُّلْمَ وعَدَمَ الهِدايةِ ثانيًا؛ دَليلًا على أضْدادِها أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذَكَرَ سَبَبَيِ السَّعادةِ؛ تَرغيبًا وتَرهيبًا[٥].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذْييلٌ لِجُملةِ جَوابِ الشَّرْطِ المُقدَّرةِ، وهي تَعليلٌ أيضًا، والمعنى: أتظُنُّونَ إنْ تَبيَّنَ أنَّ القُرآنَ وَحْيٌ مِن اللهِ، وقد كَفَرْتُم بذلك، فشَهِدَ شاهِدٌ على حقِّيَّةِ ذلك؛ تُوقِنوا أنَّ اللهَ لم يَهْدِكم؛ لأنَّكم ظالِمون، وإنَّ اللهَ لا يَهْدي الظَّالِمينَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٨).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٤٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩).

- وقدْ وقَعَ قَولُه: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في مَحَزِّه -أي: مَوضِعِه المُناسِبِ-؛ لأنَّه مِن وضْعِ العامِّ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ لِلإيذانِ بأنَّهم وَضَعوا الاسْتِكبارَ مَوضِعَ الإذعانِ للحقِّ بعْدَ وُضوحِ البيِّناتِ[1].

- وفي قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ ...﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ (فُصِّلت): ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [فُصِّلت: ٥٢]؛ فزادَ هنا فيها قَولَه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ فإنَّ المُشرِكينَ كانتْ لهم مُخالَطةٌ مع بَعضِ اليَهودِ في مكَّةَ، ولهمْ صِلةٌ بكَثيرٍ منهم في التِّجارةِ بالمدينةِ وخَيبَرَ، فلمَّا ظَهَرتْ دَعوةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم كانوا يَسْألون مَن لَقُوه مِن اليهودِ عن أمْرِ الأدْيانِ والرُّسلِ، فكان اليهودُ لا مَحالةَ يُخبِرون المُشرِكين ببَعضِ الأخبارِ عن رِسالةِ مُوسى وكِتابِه، وكيف أظْهَرَه اللهُ على فِرعونَ؛ فاليَهودُ وإنْ كانوا لا يُقِرُّون برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فهمْ يَتحدَّثون عن رِسالةِ مُوسى عليه السَّلامُ بما هو مُماثِلٌ لِحالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مع قَومِه، وفيه ما يَكْفي لِدَفْعِ إنْكارِهم رِسالتَه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩).

## الآيتان (١١-١٢)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿إِفۡكٞ﴾: أي: كَذِبٌ وبُهتانٌ، وقيل: الإفْكُ أسوأُ الكذبِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[1].

﴿إِمَامٗا﴾: أي: يأتَمُّون به ويَقتَدون ويَهتَدُون، والإمامُ: كلُّ ما ائْتَمَمْتَ به؛ إنسانًا أو كتابًا أو غيرَ ذلك، مُحِقًّا كان أو مُبطِلًا، وجمْعُه: أئِمَّةٌ، وأصلُ (أمم): الأصلُ، والمرجِعُ، والجماعةُ، والدِّينُ[2].

﴿وَبُشۡرَىٰ﴾: البُشرَى والبِشارةُ: الإخبارُ بما يَسُرُّ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ معَ حُسنٍ وجمالٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣، ٩٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٨، ٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩١، ٩٣).

وقيل: البِشارةُ: اسمٌ لِخَبَرٍ يُغيِّرُ بَشَرةِ الوجهِ مُطْلَقًا، سارًّا كان أو مُحزِنًا، إلَّا أنَّه غلَب استِعمالُها في الأوَّلِ. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٩).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾

(هَذَا): اسمُ إشارةٍ، في محَلِّ رَفعٍ مُبتدَأٌ. والمشارُ إليه: القرآنُ. ﴿كِتَٰبٌ﴾: خبَرُ المبتدأِ مَرفوعٌ. ﴿مُّصَدِّقٌ﴾: نَعتٌ مَرفوعٌ، ومُتعَلَّقُه محذوفٌ، يعني: مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ ولِما قبْلَه مِن الكُتُبِ.

﴿لِّسَانًا﴾: في نَصبِه أوجُهٌ:

**أحَدُها**: أنَّه حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أي: مَلفوظًا به على لسانِ العربِ؛ لِكَونِ القَومِ عربًا.

**الثَّاني**: أنَّه حالٌ مِن ﴿كِتَٰبٌ﴾؛ لِتخَصُّصِه بالوَصفِ. و﴿عَرَبِيًّا﴾: صِفةٌ لـ﴿لِّسَانًا﴾، وهو المُسوِّغُ لوُقوعِ الجامِدِ ﴿لِّسَانًا﴾ حالًا.

**الثَّالثُ**: أنَّ ﴿عَرَبِيًّا﴾ هو الحالُ، و ﴿لِّسَانًا﴾ تَوطِئةٌ للحالِ ذُكِرَت توكيدًا. والمعنى: مُصَدِّقٌ لِما بيْنَ يَدَيه عَرَبيًّا.

**الرَّابعُ**: أنَّ ﴿لِّسَانًا﴾ مَفعولٌ به لاسمِ الفاعِلِ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، والمرادُ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، على نيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، أي: مُصَدِّقٌ ذا لسانٍ عَربيٍّ، أي: وهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

قَوْله: ﴿وَبُشْرَىٰ﴾: مَعطوفٌ على ﴿كِتَٰبٌ﴾ أو ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ مَرفوعٌ. بمعنى: وهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ وبُشرى للمُحسِنينَ، أو خبَرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه (هو). ويجوزُ أن يكونَ مَنصوبًا عَطفًا على محَلِّ ﴿لِّيُنذِرَ﴾؛ لأنَّه مَفعولٌ لأجْلِه، تقديرُه: للإنذارِ وللبُشرَى. أو هو مَنصوبٌ على المَصدَرِ، على معنى: لِيُنذِرَ الَّذين ظَلَموا

ويُبَشِّرَ المُحسِنينَ بُشرَى[١].

## المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى بعضَ شبهاتِ المشركينَ وأعذارِهم الواهيةِ في عدَمِ الإيمانِ، فيقولُ: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ عن المُؤمِنينَ: لو كان هذا القُرآنُ خَيرًا ما سَبَقَنا إلى الإيمانِ به واتِّباعِه هؤلاء الفُقَراءُ المُستَضعَفونَ، ولَسَبَقْناهم إليه؛ فنحن أشرَفُ منهم! وإذ لم يَهتدِ المُشرِكونَ بالقُرآنِ فسيَقولونَ: هذا القُرآنُ كَذِبٌ مِن أخبارِ الأقدَمينَ!

ثمَّ يُثْني الله تعالى على القرآنِ، ويُبيِّنُ تصديقَه للتَّوراةِ، فيقولُ: ومِن قَبْلِ هذا القُرآنِ التَّوراةُ الَّتي أُنزِلَت على موسى إمامًا لبني إسرائيلَ يأتَمُّونَ بما فيها، ورحمةً لهم، وهذا القُرآنُ كِتابٌ مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ باللُّغةِ العَربيَّةِ على نحوٍ واضِحٍ فَصيحٍ؛ لِيُخوِّفَ القُرآنُ الَّذين ظَلَموا بشِركِهم أو عِصيانِهم، وهو بُشْرى بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ للمُحسِنينَ.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ ١١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ هذه شُبهةٌ أُخرى لِلقَومِ في إنكارِ نُبوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢]،

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٥١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٦٥)، ((روح البيان)) لإسماعيل حقي (٨/ ٤٧١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢).

وحِكايةُ خَطأٍ آخَرَ مِن أخْطاءِ حُجَجِ المُشرِكين الباطِلةِ، وهو خَطأٌ مَنْشَؤهُ الإعجابُ بأنفُسِهم، وغُرورُهم بدينِهم؛ فاستدَلُّوا على أنْ لا خَيرَ في الإسلامِ بأنَّ الَّذينَ ابتَدَروا الأخذَ به ضُعفاءُ القَومِ، وهم يَعُدُّونَهم مُنحَطِّينَ عنهم، فهمُ الَّذين قالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣]! ومُناسَبتُه لِمَا قبْلَه: أنَّه مِن آثارِ اسْتِكبارِهم؛ فناسَبَ قَولَه: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ﴾[1] [الأحقاف: ١٠].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ على أنَّ تَرْكَهم للإيمانِ إنَّما هو تَعمُّدٌ للظُّلمِ؛ استِكبارًا، عَطَفَ على قَولِهم: إنَّه سِحْرٌ. ما دَلَّ على الاستِكبارِ، فقال تعالى[2]:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِ﴾.

أي: وقال كُفَّارُ قُرَيشٍ عن المُؤمِنينَ بالقُرآنِ: لو كان هذا القُرآنُ خَيرًا ما سبَقَنا إلى الإيمانِ به واتِّباعِه هؤلاء المُستَضعَفونَ الفُقَراءُ الأذِلَّاءُ، ولَبَادَرْنا إليه قَبْلَهم؛ فنحن أشرَفُ منهم وأعَزُّ، وأكثَرُ أموالًا وأولادًا[3]!

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآ﴾ [الأنعام: ٥٣].

﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾.

أي: وحينَ لا يَهتدي المُشرِكونَ بالقُرآنِ فإنَّهم سيَقولونَ: هذا القُرآنُ الَّذي جاء به محمَّدٌ كَذِبٌ مِن أخبارِ الأقدَمينَ[4]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٣٩، ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١، ٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ [الفرقان: ٥].

﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ لِّسَانًا عَرَبِيّٗا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ ١٢ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ القَومَ طَعَنوا في صِحَّةِ القُرآنِ، وقالوا: لو كان خَيرًا ما سبَقَنا إليه هؤلاء! وكأنَّه تعالى قال: الَّذي يدُلُّ على صِحَّةِ القُرآنِ أنَّكم لا تُنازِعونَ في أنَّ اللهَ تعالى أنزَلَ التَّوراةَ على موسى عليه السَّلامُ، وجَعَل هذا الكِتابَ إمامًا يُقتدَى به، ثمَّ إنَّ التَّوراةَ مُشتَمِلةٌ على البِشارةِ بمَقْدَمِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فإذا سَلَّمتُم كَونَ التَّوراةِ إمامًا يُقتدَى به، فاقبَلوا حُكْمَه في كَونِ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حَقًّا مِنَ اللهِ تعالى(١).

﴿ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗ ﴾.

أي: ومِن قَبْلِ هذا القُرآنِ التَّوراةُ الَّتي أُنزِلَت على موسى إمامًا لبني إسرائيلَ يأتَمُّونَ بما فيها، ورحمةً لهم في الدُّنيا والآخِرةِ إنِ اتَّبَعوها(٢).

كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥۚ

---

= كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال القرطبي: (في الكلامِ حَذفٌ، أي: فلم تَهتَدوا به؛ وذلك أنَّه كان في التَّوراةِ نَعتُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والإيمانُ به، فتركوا ذلك). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩١).

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٧، ١٨].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا ﴾.

أي: وهذا القُرآنُ مُصَدِّقٌ للتَّوراةِ ولِكُتبِ اللهِ السَّابقةِ، حالَ كَونِه لسانًا عربيًّا فَصيحًا واضحًا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مُصَدِّقٌ﴾ أي: للكُتُبِ الَّتي قَبْلَه: البغويُّ، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

قال السعدي: (﴿كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ للكُتُبِ السَّابِقةِ؛ شَهِدَ بصِدقِها، وصَدَّقَها بمُوافَقتِه لها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ أي: لكِتابِ موسى؛ التَّوراةِ، واقتصر عليها: ابنُ جرير، والسمعاني، وابن عطية، والرازي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٤، ١٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣).

قال ابن عطية: (﴿مُّصَدِّقٌ﴾ معناه: للتَّوراةِ الَّتي تضَمَّنَت خبَرَه وأمْرَ مُحمَّدٍ، فجاء هو مُصَدِّقًا لذلك الإخبارِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٥).

وقال ابنُ جرير: (على قَولِ مَن جَعَل اللِّسانَ نَصبًا على الحالِ، وجعَلَه مِن صِفةِ الكِتابِ: يَنبغي أن يكونَ تأويلُ الكلامِ: وهذا كِتابٌ بلِسانٍ عَربيٍّ مُصَدِّقٌ التَّوراةَ كِتابَ موسى بأنَّ مُحمَّدًا لله رَسولٌ، وأنَّ ما جاء به مِن عندِ اللهِ حَقٌّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٤).

وقال ابنُ جُزَي: (وقيل: ﴿لِّسَانًا﴾ مَفعولٌ بـ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، أي: صَدَّق ذا لِسانٍ عَربيٍّ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. واختار هذا ابنُ عطيَّةَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٦). =

كما قال الله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾.

أي: لِيُخوِّفَ القُرآنُ الظالِمينَ، ويُحذِّرَهم مِن عذابِ اللهِ إنِ استمَرُّوا على ظُلمِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ ﴾ [الكهف: ٢].

﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴾.

أي: وهذا القُرآنُ بُشرَى بالخَيرِ في الدُّنيا والآخِرةِ للَّذين أحسَنوا في إيمانِهم

---

= قال ابن عطية: (فكان القُرآنُ بإعجازِه وأحوالِه البارِعةِ يُصَدِّقُ الَّذي جاء به. وهذا قَولٌ صَحيحُ المعنى جيِّدٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥، ٢٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالَّذين ظَلَموا: المُشرِكونَ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والبغويُّ، وابنُ كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨٦).

قال ابنُ عاشور: (و﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ هم المُشرِكونَ؛ ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، ويَلحَقُ بهم الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم مِنَ المؤمِنينَ؛ ولذلك قُوبِلَ بالمُحسِنينَ، وهم المُؤمِنونَ الأتقياءُ؛ لأنَّ المرادَ ظُلْمُ النَّفْسِ، ويُقابِلُه الإحسانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).

وقال السعدي: (﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ أنفُسَهم بالكُفرِ والفُسُوقِ والعِصيانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

وطاعتِهم لله[١].

كما قال الله تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١] أي: قالوا عن المؤمِنينَ بالقُرآنِ: لو كان القُرآنُ خَيرًا ما سَبَقَنا هؤلاء إليه -يَعْنُونَ: بِلالًا وعَمَّارًا، وصُهَيبًا وخَبَّابًا، وأشباهَهم وأقرانَهم مِنَ المُستَضعَفينَ والعَبيدِ والإماءِ-[٢]؛ فمِن عاداتِ أهلِ الجاهليَّةِ: الاستِدلالُ على بُطلانِ الشَّيءِ بسَبْقِ الضُّعَفاءِ إليه! كما قال اللهُ عن المُشرِكينَ: إنَّهم يقولونَ: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، وهذا مِن أبطَلِ الباطِلِ؛ لأنَّ الحَقَّ ليس اتِّباعُه مَوقوفًا على طَبَقةٍ مِن النَّاسِ، بل اتِّباعُ الحَقِّ مِنَّةٌ يَمُنُّ اللهُ بها على مَن يَشاءُ مِن عِبادِه ويُوَفِّقُه لها، فالاستِدلالُ على الشَّيءِ بأنَّه حَقٌّ باتِّباعِ الأغنياءِ له أو ذَوِي الجاهِ، والاستِدلالُ على أنَّه باطِلٌ باتِّباعِ الضُّعَفاءِ: هذا مِعيارُ أهلِ الجاهِليَّةِ، لا يجوزُ أن يُتَّخَذَ مِيزانًا يُوزَنُ به مَعرِفةُ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ؛ ولهذا يقولُ العُلَماءُ: الحَقُّ لا يُعرَفُ بالرِّجالِ، وإنَّما يُعرَفُ الرِّجالُ بالحَقِّ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾، فيَنبغي للإنسانِ الدَّاعي إلى اللهِ تعالى أن يُعامِلَ النَّاسَ بما تُعامِلُ به الرُّسُلُ أقوامَها؛ فتارةً يُبَشِّرُ، وتارةً يُنذِرُ؛ لأنَّه إنْ سَلَك سبيلَ البِشارةِ دائِمًا أدخَلَ النَّاسَ في الإرجاءِ، وإنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((شرح مسائل الجاهلية)) لصالح الفوزان (ص: ١١١).

سَلَك سبيلَ الإنذارِ دائِمًا أدخَلَ النَّاسَ في القُنوطِ واليَأسِ[١].

٣- قِيل: ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ دُونَ (الَّذين أحْسَنوا)، بعْدَ قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: لِيُنذِرَ الَّذين وُجِدَ منهم الظُّلمُ، ويُبشِّرَ الَّذين ثَبَتوا واسْتَقاموا على الإحسانِ والإخلاصِ، إعلامًا بأنَّ الإنسانَ مُفتقِرٌ إلى ما يُهذِّبُ به نفْسَه ويُقوِّمُ أوَدَه -أي: عِوَجَه- كلَّ الافتقارِ؛ لأنَّ الاستقامةَ على الصِّراطِ السَّويِّ لا تُوجَدُ إلَّا في الأفرادِ؛ ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ومِن ثَمَّ عَلَّلَ بِشارةَ المُحسنينَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾[٢] [الأحقاف: ١٣، ١٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قد نَبَّهَ اللهُ سُبحانَه على أنَّ مَزاعِمَ المشركينَ كلَّها ناشِئةٌ عن كُفْرِهم واسْتِكبارِهم بقَولِه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، وقَولِه: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقَولِه: ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [الأحقاف: ١٠]، وقَولِه: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ الآيةَ. وإذ قد كانتْ مَقالاتُهم راميةً إلى غَرَضٍ واحدٍ -وهو تَكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- كان تَوزيعُ أسْبابِها على مُختلِفِ المَقالاتِ مُشْعِرًا بأنَّ جَميعَها أسبابٌ لِجَميعِها[٣].

٢- قال تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾، وأمَّا أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ فيَقولونَ في كُلِّ فِعلٍ وقَولٍ لم يَثبُت عن الصَّحابةِ: هو بِدعةٌ؛ لأنَّه لو كان خيرًا لَسَبَقونا إليه؛ لأنَّهم لم يَترُكوا خَصلةً مِن خِصالِ الخَيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٤، ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢).

إلَّا وقد بادَروا إليها[١].

٣- في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ تَنْبيهٌ منه سُبحانَه لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَماديهم في العِنادِ، وإقناطٌ له عن إيمانِهم، وتَسْليةٌ عن طَعْنِهم، وأنَّهم حِينَ لم يَهْتَدوا بهذا الكلامِ المُنصِفِ ظَهَرَ عِنادُهم، فأعْلَمَ أنَّهم لا يَهْتَدون بعْدَ ذلك أبدًا، ويَستمِرُّ منْهم حِينًا بعْدَ حِينٍ الطَّعنُ في القُرآنِ؛ فتارةً يقولونَ: أساطيرُ الأوَّلينَ، وأُخرى: إنَّه سِحرٌ مُبينٌ، وإفكٌ قَديمٌ، وأمْثالُ ذلك[٢].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ إبْطالٌ لِإحالتِهم أنْ يُوحِيَ اللهُ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنَّ الوحْيَ سُنَّةٌ إلهيَّةٌ سابقةٌ مَعلومةٌ، أشْهَرُه كِتابُ مُوسى، أي: التَّوراةُ، وهمْ قد بَلَغَتْهم نُبوَّتُه مِن اليَهودِ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ هذا ثَناءٌ عَظيمٌ على القُرآنِ بأنَّه احتوَى على كُلِّ ما في الكُتُبِ السَّماويَّةِ، وجاء مُغْنيًا عنها، ومُبَيِّنًا لِما فيها، والتَّصديقُ يُشعِرُ بأنَّه حاكِمٌ على ما اختُلِفَ فيه منها[٤].

٦- قال تعالى: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ فزادَ اللهُ القُرآنَ ثَناءً بكَونِه لِسانًا عَرَبيًّا، أي: لُغةً عَربيَّةً؛ فإنَّها أفصَحُ اللُّغاتِ، وأنفَذُها في نُفوسِ السَّامِعينَ، وأحَبُّ اللُّغاتِ لِلنَّاسِ؛ فإنَّها أشرَفُ وأبلَغُ وأفصَحُ مِن اللُّغةِ الَّتي جاء بها كِتابُ مُوسى عليه السَّلامُ، ومِن اللُّغةِ الَّتي تَكلَّمَ بها عِيسى عليه السَّلامُ ودَوَّنَها أتْباعُه أصحابُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٥).

الأناجيلِ[١].

٧- قال الله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾، فلَمَّا عبَّرَ عن الكُفَّارِ بالَّذين ظَلَموا عبَّرَ عن المؤمِنينَ بالمُحسِنينَ؛ لِيُقابِلَ بلَفظِ الإحسانِ لَفظَ الظُّلمِ[٢].

٨- قال الله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ فالرِّسالاتُ منحصِرةٌ في شيئينِ، لا ثالثَ لهما؛ وهما: البِشارةُ والإنذارُ؛ لأنَّ النَّاسَ يَنقسِمون بالنِّسبةِ للرِّسالاتِ إلى قِسمَينِ: مطيعٍ فله البِشارةُ، وعاصٍ فله الإنذارُ[٣].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرۡتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ١٠]، على مَعْنى: أخْبِروني إنِ اجْتَمَعَ كَونُ القُرآنِ مِن عِندِ اللهِ مع كُفْرِكُم به، واجتَمَعَ شَهادةُ أعلَمِ بني إسرائيلَ على نُزولِ مِثلِه، وإيمانُه به مع اسْتِكْبارِكم عنه وعن الإيمانِ به؛ أَلَسْتُم ظالِمينَ[٤]؟

- واللَّامُ في قَولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لامُ التَّعليلِ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ، هو حالٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، تَقديرُه: مُخصِّصينَ أو مُريدِين[٥].

- قولُه: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ العامِلُ في (إذ) مَحْذوفٌ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١).

لِدَلالةِ الكلامِ عليه، وتَقديرُه: وإذْ لم يَهْتَدوا به ظهَرَ عِنادُهم، فسَيَقولون: هذا إفكٌ قَديمٌ، وقولُه: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مُسبَّبٌ عن الجوابِ المَحذوفِ[١].

- ولَمَّا كانتْ (إذ) ظَرْفًا للزَّمنِ الماضي، وأُضِيفَت هنا إلى جُملةٍ واقِعةٍ في الزَّمنِ الماضي -كما يَقْتضيهِ النَّفْيُ بحَرْفِ (لمْ)- تَعيَّنَ أنَّ الإخبارَ عنه بأنَّهم سَيَقولون: هذا إفْكٌ، أنَّهم يَقولونَه في المُستقبَلِ، وهو مُؤْذِنٌ بأنَّهم كانوا يَقولون ذلك فيما مضَى أيضًا؛ لأنَّ قَولَهم ذلك مِن تَصاريفِ أقْوالِهم الضَّالَّةِ المَحْكيَّةِ عنهم في سُوَرٍ أُخرى نَزَلَتْ قبْلَ هذه السُّورةِ، فعُبِّرَ عن وُقوعِها ثُمَّ دَوامِها بصِيغةِ الاستِقبالِ ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾[٢].

- وحيثُ قُدِّم الظَّرفُ في الكلامِ على عامِلِه أُشرِبَ معنى الشَّرطِ، وهو إشرابٌ واردٌ في الكلامِ، وكثيرٌ في (إذ)؛ ولذلك دخَلَتِ الفاءُ في جَوابِه هنا في قَولِه: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ (إذ) للتَّعليلِ، وتَتعلَّقُ (إذ) بـ (يَقولون)، وإنَّما انتظَمَتِ الجُملةُ هكذا؛ لإفادةِ هذه الخُصوصيَّاتِ البَلاغيَّةِ؛ فالواوُ للعطْفِ، والمعطوفُ في مَعنى شَرْطٍ، والفاءُ لِجَوابِ الشَّرطِ، وأصْلُ الكَلامِ: وسَيَقولون: هذا إفكٌ قَديمٌ؛ إذْ لمْ يَهْتدُوا به[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أُتْبِعَ إبطالُ تُرُّهاتِهم الطَّاعنةِ في القُرآنِ بهذا الكلامِ المُفيدِ زِيادةَ الإبطالِ لِمَزاعِمِهم بالتَّذكيرِ بنَظيرِ القُرآنِ ومَثيلٍ له مِن كُتُبِ اللهِ تعالَى هو مَشْهورٌ عِندَهم، وهو التَّوراةُ، مع التَّنويهِ بالقُرآنِ ومَزِيَّتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣).

والنَّعْيِ عليهم؛ إذ حَرَموا أنفُسَهم الانتفاعَ بها؛ فعُطِفَت هذه الآيةُ على الَّتي قبْلَها لِارْتباطِها بها في إبْطالِ مَزاعِمِهم، وفي أنَّها ناظِرةٌ إلى قَولِه: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثۡلِهِۦ﴾[1] [الأحقاف: ١٠].

- وتَقديمُ ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ﴾ لِلاهتِمامِ بهذا الخبَرِ؛ لأنَّه مَحلُّ القصْدِ مِن الجُملةِ[2].

- وعُبِّرَ عن التَّوراةِ بأنَّها ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ بطَريقِ الإضافةِ دُونَ الاسمِ العَلَمِ -وهو التَّوراةُ-؛ لِمَا تُؤذِنُ به الإضافةُ إلى اسمِ مُوسى مِن التَّذكيرِ بأنَّه كِتابٌ أُنزِلَ على بَشَرٍ، كما أُنزِلَ القُرآنُ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تَلْميحًا إلى مَثارِ نَتيجةِ قِياسِ القُرآنِ على كِتابِ مُوسى بالمُشابَهةِ في جَميعِ الأحوالِ[3].

- قولُه: ﴿إِمَامٗا وَرَحۡمَةٗ﴾ الإمامُ: هو الشَّيءُ الَّذي يجعلُه العاملُ مِقياسًا لعَملِ شَيءٍ آخَرَ، ويُطلَقُ إطلاقًا شائعًا على القُدوةِ، وعُبِّرَ بالإمامِ عن كِتابِ مُوسى؛ لأنَّه يُرشِدُ إلى ما يجِبُ عَمَلُه؛ فهو كمَن يُرشِدُ ويَعِظُ، ومُوسى إمامٌ أيضًا بمَعنى القُدْوةِ[4].

- والرَّحمةُ: اسْمُ مَصدرٍ لِصِفةِ الرَّاحِمِ، ووَصْفُ الكِتابِ بالرَّحمةِ؛ لِكَونِه سَببًا في نفْعِ المُتَّبِعينَ؛ لِمَا تَضمَّنَه مِن أسبابِ الخَيرِ في الدُّنيا والآخرةِ. ووَصْفُ الكِتابِ بالمَصدرِ (رَحْمة) مُبالَغةٌ في التَّعبيرِ، ومُوسى أيضًا رَحمةٌ لرسالتِه، كما وُصِفَ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه رَحمةٌ لِلعالَمينَ[5].

- وقولُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٞ مُّصَدِّقٞ ...﴾ إلخ هو المَقيسُ على كِتابِ مُوسَى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٤، ٢٥).

والإشارةُ إلى القُرآنِ؛ لأنَّه حاضِرٌ بالذِّكرِ، فهو كالحاضِرِ بالذَّاتِ[١].

- وأُطلِقَ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾، ولم يَقُلْ: (مُصدِّقٌ له)، أي: لِكِتابِ مُوسَى، وحُذِفَ مَفعولُه؛ تَعْميمًا؛ لِيَشملَ جَميعَ الكُتبِ السَّماويَّةِ، وإيذانًا بأنَّه مُصدِّقٌ لها كلِّها، ولا سيَّما نفْسِه؛ لِكَونِه مُعجِزًا نازِلًا بلِسانٍ عَربيٍّ مُبينٍ، تُحُدِّيَ به العرَبُ العَرْباءُ، فأُفْحِموا، ومع ذلك أنَّه نَذيرٌ لِلَّذِين ظَلَموا، بَشيرٌ لِلمُحسِنينَ[٢].

- قولُه: ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أُدمِجَ لَفظُ ﴿لِّسَانًا﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ المُرادَ بعَربيَّتِه عَربيَّةُ ألْفاظِه لا عَربيَّةُ أخْلاقِه وتَعاليمِه؛ لأنَّ أخْلاقَ العرَبِ يَومَئذٍ مُختلِطةٌ مِن مَحاسِنَ ومَساوِئَ، فلمَّا جاء الإسلامُ نَفى عنها المَساوِئَ[٣].

- وقولُه: ﴿لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بـ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ﴾؛ لأنَّ ما سَبَقه مُشتمِلٌ على الإنذارِ والبِشارةِ، والأحسَنُ أنْ يَتعلَّقَ بما في كِتابٍ مِن مَعنى الإرشادِ المُشتمِلِ على الإنذارِ والبِشارةِ؛ لِيَكونَ ﴿لِّيُنذِرَ﴾ عِلَّةً لِلْكتابِ باعتبارِ صِفتِه وحالِه[٤].

- وعلى قِراءةِ ﴿لِتُنذِرَ﴾ بالمُثنَّاةِ الفوقيَّةِ[٥]، على أنَّه خطابٌ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيَحصُلُ وَصْفُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه مُنذِرٌ، ووَصْفُ كِتابِه بأنَّه بُشْرَى، وفيه احْتِباكٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٥، ٢٦).

(٥) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).
وقد تقدَّم تعريفُ الاحتباكِ (ص: ٤٦).

- وفي قولِه: ﴿وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ قيل: ﴿لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ ولمْ يُقَلْ: (لِلْعادلينَ) بعْدَ قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ لِيَكونَ ذَرِيعةً إلى البِشارةِ بقولِه: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [الأحقاف: ١٣] لِمَن قال: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُحۡسِنِينَ﴾ هذا النَّظمُ يَجعَلُ الجُملةَ بمَنزِلةِ الاحْتِراسِ[2] والتَّتْميمِ[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٤).

(٢) الاحتراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ، والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفَعُ ذلك الاحتمالَ. أو: الإتيانُ في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم التَّكميلَ. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ١٩٥)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).

والتَّتميمُ: هو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِح مِن الكلامِ نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) للعصام (٢/ ٩٤)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ١٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٤٤)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٨).

## الآيتان (١٢-١٤)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

### المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعدَّه لِمَنِ استقام مِنَ المؤمنينَ: إنَّ الَّذين قالوا: ربُّنا اللهُ، ثمَّ استقاموا بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه؛ فلا خَوفٌ عليهم ممَّا يَستَقبِلونَ، ولا هم يَحزَنونَ على ما مضى. أولئك هم أهلُ الجنَّةِ خالِدينَ فيها أبدًا؛ ثَوابًا مِنَ اللهِ لهم بما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا مِن الصَّالِحاتِ.

### تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ الله تعالى لَمَّا قرَّر دلائِلَ التَّوحيدِ والنُّبُوَّةِ، وذكَرَ شُبُهاتِ المُنكِرينَ وأجاب عنها؛ ذكَرَ بعدَ ذلك طَريقةَ المُحِقِّينَ والمُحَقِّقينَ[1].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى حالةَ المُحسِنينَ؛ شرَحَ أمْرَهم، فقال مُستأنِفًا في جوابِ مَن سأل عنهم، وعن بُشراهم[2]:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾.

أي: إنَّ الَّذين قالوا: ربُّنا اللهُ وَحْدَه، ثمَّ استقاموا على توحيدِ اللهِ، وامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه، وداوَموا على طاعتِه مُدَّةَ حَياتِهم بما شَرَع بلا مَيلٍ ولا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٣).

اعوِجاجٍ، ولا إفراطٍ منهم ولا تَفريطٍ[١].

عن سُفْيانَ بنِ عبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، فاستَقِمْ))[٢].

﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: أولئك لا خَوفٌ عليهم مِن أيِّ شَرٍّ ومَكروهٍ في مُستَقبَلِ زَمانِهم[٣].

﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾.

أي: ولا هم يَحزَنونَ على ما مضَى[٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾.

أي: أولئك هم أهلُ الجنَّةِ الملازِمونَ لها، المُختَصُّونَ بها، يَمكُثونَ فيها أبدًا[٥].

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

أي: ثوابًا مِنَ اللهِ لهم؛ بسَبَبِ ما كانوا يَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الصَّالِحاتِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠، ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٤/ ٢٨٢-٢٨٤).

(٢) رواه مسلم (٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ دالٌّ على أنَّ مَنْ آمَنَ باللهِ وعَمِل صالِحًا، فإنَّهم بعدَ الحَشرِ لا يَنالُهم خَوفٌ ولا حُزنٌ[1].

٢- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ تأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ أتى بـ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالَّةِ على التَّرتيبِ بمُهلةٍ، يعني: أنَّ إيمانَهم لم يكنْ إيمانًا خاطِفًا؛ آمَنَ ثمَّ زال، بل إيمانٌ مُستَقِرٌّ؛ لأنَّهم استقاموا على دينِ اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾ أنَّ مُجرَّدَ العقيدةِ لا يُغْني شَيئًا حتَّى يكونَ معه عَمَلٌ[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الأحسَنُ أنْ يُعَبِّرَ النَّاسُ عن الرَّجُلِ المستقيمِ على الدِّينِ بـ«مُستَقيم»، لا بـ«مُلتَزِم»؛ لأنَّ هذا هو الَّذي جاء في القُرآنِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾، لم يَقُلْ: «ثمَّ التَزَموا»؛ فالتَّعبيرُ عن التَّدَيُّنِ بـ«مُستقيم» هو المطابِقُ للقرآنِ، وهو أحسَنُ مِن كلمةِ «المُلتَزِم»، على أنَّ المُلتَزِمَ عندَ الفُقهاءِ

---

= (ص: ٧٨١).

قال البيضاوي: (و﴿جَزَآءَۢ﴾ مصدرٌ لفعلٍ دلَّ عليه الكلامُ، أي: جُوزوا جزاءً). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧١).

له معنًى آخَرُ[١] غيرُ الاستِقامةِ على الدِّينِ، كما هو معروفٌ في أحكامِ أهلِ الذِّمَّةِ وغيرِ ذلك[٢].

٢- قَولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا يَدخُلُ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعمَلِه))[٣] لا يُناقِضُ قَولَه تعالى: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ فإنَّ المَنفيَّ نُفِيَ بباءِ المُقابَلةِ والمُعاوَضةِ، كما يُقالُ: بِعتُ هذا بهذا؛ وما أُثبِتَ أُثبِتَ بباءِ السَّبَبِ؛ فالعَمَلُ لا يُقابِلُ الجزاءَ، وإن كان سَبَبًا للجَزاءِ؛ ولهذا مَن ظَنَّ أنَّه قام بما يجِبُ عليه، وأنَّه لا يحتاجُ إلى مَغفِرةِ الرَّبِّ تعالى وعَفْوِه، فهو ضالٌّ، كما ثَبَت في الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((لن يُدخِلَ أحَدًا منكم عَمَلُه الجنَّةَ. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا أنا إلَّا أن يَتغَمَّدَنيَ اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ))[٤]، وفي روايةٍ: ((بمغفرةٍ ورحمةٍ))[٥]. ومِن هذا أيضًا الحَديثُ الَّذي في السُّنَنِ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((لو أنَّ اللهَ عذَّب أهلَ سَمَواتِه وأهلَ أرضِه لَعَذَّبهم وهو غيرُ ظالمٍ لهم، ولو رَحِمَهم كانت رحمتُه خيرًا لهم مِن أعمالِهم)) الحديثَ[٦].

---

(١) قال الحَطَّابُ في بيانِ معنى الالتزامِ في عُرفِ الفُقهاءِ: (هو إلزامُ الشَّخصِ نفْسَه شيئًا مِن المعروفِ مُطلقًا أو مُعلَّقًا على شيءٍ بمعنى العطيَّةِ، وقد يُطلَقُ في العُرفِ على ما هو أخصُّ مِن ذلك). ((تحرير الكلام في مسائل الالتزام)) (ص: ٦٨).

وفي ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٦/ ١٥٢): (الملتزمُ هو مَنِ التزَم بأمرٍ مِن الأمورِ؛ كتسليمِ شَيءٍ، أو أداءِ دَينٍ، أو القيامِ بعمَلٍ، والالتزاماتُ متنوِّعةٌ على ما هو معروفٌ).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨١٦)، وأحمدُ (٧٤٧٩) واللَّفظُ له، مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢٨١٦) (٧٥) من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم (٢٨١٦) (٧٣).

(٦) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (٧٧)، وأحمدُ (٢١٥٨٩) مِن حديثِ زَيدِ بنِ ثابتٍ رضيَ الله عنه.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٢٧)، وابنُ القيِّم في ((شفاء العليل)) (١/ ٣٤٣)، =

ومَن قال: بل للمَخلوقِ على اللهِ حَقٌّ، فهو صَحيحٌ إذا أراد به الحَقَّ الَّذي أخبَرَ اللهُ بوُقوعِه؛ فإنَّ اللهَ صادِقٌ لا يُخلِفُ الميعادَ، وهو الَّذي أوجَبَه على نَفْسِه، بحِكمتِه وفَضْلِه ورَحمتِه[1]!

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ اسْتِئنافٌ بَيانيٌّ أُوثِرَ بصَريحِه جانبُ المُؤمِنينَ مِن المُستمِعينَ لِلقُرآنِ؛ لأنَّهم لَمَّا سَمِعوا البُشْرى تَطلَّعوا إلى صِفةِ البُشْرى، وتَعْيينِ المُحسنينَ؛ لِيَضَعوا أنفُسَهم في حاقِّ مَواضِعِها، فأُجِيبوا بأنَّ البُشْرى هي نفْيُ الخَوفِ والحُزْنِ عنهم، وأنَّهم أصحابُ الجنَّةِ، وأنَّ المُحسنينَ همُ الَّذين قالوا: رَبُّنا اللهُ، ثمَّ اسْتَقاموا في أعمالِهم. وأُشِيرَ بمَفْهومِه إلى التَّعريضِ بالَّذين ظَلَموا؛ فإنَّ فيه مَفهومَ القَصْرِ مِن قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾[2] [الأحقاف: ١٤].

- وتَعريفُ المُؤمِنينَ بطَريقِ المَوصوليَّةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلِ كَرامتِهم عِندَ اللهِ؛ لأنَّهم جَمَعوا حُسْنَ مُعامَلتِهم لِرَبِّهم بتَوحيدِه وخَوفِه وعِبادتِه -وهو ما دلَّ عليه ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾- إلى حُسْنِ مُعامَلتِهم أنفُسَهم، وهو معنَى ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾[3].

- وجِيءَ في صِلةِ المَوصولِ بفِعلِ ﴿قَالُواْ﴾؛ لإيجازِ المَقولِ وغُنْيتِه عن أنْ يُقالَ: اعْتَرَفوا باللهِ وَحْدَه وأطاعوه، والمُرادُ: أنَّهم قالوا ذلك واعْتَقَدوا مَعناهُ -إذ

---

= والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٦٩٩)، وصحَّح إسنادَه الذَّهبيُّ في ((المهذب)) (٨/ ٤٢١٢)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٦٩٩).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٢١٧، ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الشَّأنُ في الكَلامِ الصِّدقُ- وعَمِلوا به؛ لأنَّ الشَّأْنَ مُطابَقةُ العمَلِ للاعْتِقادِ[١].

- قولُه: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ أي: جَمَعوا بيْنَ التَّوحيدِ -الَّذي هو خُلاصةُ العِلمِ-، والاسْتِقامةِ في الأُمورِ الَّتي هي مُنْتهى العمَلِ، وحَرْفُ (ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على تَراخي رُتبةِ العَملِ، وتَوقُّفِ الاعتِدادِ به على التَّوحيدِ؛ فـ(ثُمَّ) هنا للتَّراخي الرُّتبيِّ، وهو الارتقاءُ والتَّدرُّجُ[٢].

- ودُخولُ الفاءِ على خَبرِ المَوصولِ -وهو ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾- لِمُعامَلةِ المَوصولِ مُعامَلةَ الشَّرْطِ، كأنَّه قِيل: إنْ قالوا ربُّنا اللهُ ثمَّ اسْتَقاموا فلا خَوفٌ عليهم، فأفادَ تَسبُّبَ ذلك في أمْنِهم مِن الخَوفِ والحُزْنِ[٣].

- والمُرادُ بقَولِه: ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ بَيانُ دَوامِ نَفْيِ الحُزْنِ، لا بَيانُ نَفْيِ دَوامِ الحُزْنِ كما يُوهِمُه كَونُ الخَبرِ مُضارِعًا[٤].

- وقولُه: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فيه تَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَلَا هُمۡ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿يَحۡزَنُونَ﴾؛ لِتَخصيصِ المُسنَدِ إليه بالخَبرِ، أي: إنَّ الحُزْنَ مُنْتفٍ عنهم لا عن غَيرِهم، والمُرادُ بالغَيرِ: مَن لم يَتَّصِفْ بالإيمانِ والاسْتِقامةِ في مَراتِبِ الكُفْرِ والعِصيانِ؛ فجِنْسُ الخَوفِ ثابتٌ لِمَن عَدَاهُم على مَراتبِ تَوقُّعِ العِقابِ، حتَّى في حالةِ الوَجَلِ مِن عَدَمِ قَبولِ الشَّفاعةِ فيهم، ومِن تَوقُّعِ حِرْمانِهم مِن نَفَحاتِ اللهِ تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

- اسْتِحضارُ المُؤمِنينَ بطَريقِ اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحْرِياءُ بما يَرِدُ مِن الإخبارِ عنْهم بما بعْدَ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ الأوصافِ المذْكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[1].

- وقولُه: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ أدَلُّ على الاختِصاصِ بالجنَّةِ مِن أنْ يُقالَ: أولئك في الجنَّةِ، أو أولئك لهمُ الجنَّةُ؛ لِمَا في (أصْحاب) مِن مَعنى الاختِصاصِ، وما في الإضافةِ أيضًا[2].

- وقولُه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ تَصريحٌ بما اسْتُفِيدَ مِن تَعليلِ الصِّلةِ في الخبَرِ، ومِن اقْتِضاءِ اسمِ الإشارةِ جَدارةَ المُؤمِنينَ بما بعْدَه، وما أفادَهُ وَصفُ (أصْحاب) وما أفادَتْه الإضافةُ، وهذا مِن تَمامِ العِنايةِ بالتَّنويهِ بهم[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيتان (١٥-١٦)

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كُرْهًا﴾: أي: مَشَقَّةً وتَعَبًا، وأصلُ (كره): يدُلُّ على خِلافِ الرِّضا والمحَبَّةِ[١].

﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾: أي: فِطامُه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِن الشَّيءِ، وإبانتِه عنه؛ لانفِصالِ المولودِ عن الاغتِذاءِ بثَدْيِ أمِّه إلى غيرِه مِن الأقواتِ، ومنه سُمِّيَ الفَصِيلُ -ولَدُ النَّاقةِ- فَصِيلًا؛ لأنَّه مَفصُولٌ عن أمِّه[٢].

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾: أي: بلَغَ غايةَ شَبابِه وشِدَّتِه وقُوَّتِه، والأَشُدُّ قيل: هو جمعُ شَدٍّ، وقيل: جمعُ شِدَّةٍ، وقيل: هو جمْعٌ لا واحدَ له، وأصلُ (بلغ): يدُلُّ على الوُصولِ إلى شَيءٍ، وأصلُ (شدد): يدُلُّ على قُوَّةٍ في شَيءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٧٦)، (المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥، ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١) و(٣/ ١٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣).

﴿أَوۡزِعۡنِيٓ﴾: أي: ألهِمْني، يُقالُ: أوزَعْتُه بكذا، أي: أغرَيْتُه به، وهو مُوزَعٌ بكذا، ومُولَعٌ بكذا، وأصلُ (أوزع): الدَّلالةُ على إزالةِ الوَزْعِ، أي: الانكِفافِ عن عَمَلٍ ما؛ فالهمزةُ فيه للإزالةِ[1].

﴿ذُرِّيَّتِيٓ﴾: الذُرِّيَّةُ: الأولادُ وأولادُ الأولادِ، فهي اسمٌ يَجمعُ نَسلَ الإنسانِ مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، قيل: أصلُها مِن (ذرَأ)، أي: خلَق، وحُذِفت الهمزةُ منها، وقيل: أصلُها مِن (الذَّرِّ)، بمعنَى التَّفريقِ[2].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾

في نَصبِ ﴿إِحۡسَٰنًا﴾ وُجوهٌ مِن الإعرابِ:

**أحَدُها**: أنَّه مَصدَرٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ، أي: وصَّيْناه أن يُحسِنَ إليهما إحسانًا.

**الثَّاني**: أنَّه مَفعولٌ به ثانٍ، على تضمينِ (وَصَّيْنا) معنى (ألزَمْنا).

**الثَّالِثُ**: أنَّه مَنصوبٌ على أنَّه مَفعولٌ لأجْلِه، أي: وصَّيْناه بهما إحسانًا مِنَّا إليهما.

**الرَّابعُ**: أنَّه مَنصوبٌ على المصدريَّةِ؛ لأنَّ معنى (وَصَّيْنَا): (أَحْسَنَّا)، وعلى الوَجهَينِ الثَّالثِ والرَّابعِ فالمفعولُ الثَّاني هو ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٣، ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٥٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢).

**الخامِسُ**: أنَّه حالٌ، على تقديرِ حَذفِ مُضافٍ، أي: ووصَّيْنا الإنسانَ بوالِدَيه ذا إحسانٍ(١).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ مَصدَرٌ مُؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ السَّابقةِ، فهو مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: (وَعَدَ)؛ لأنَّ قَولَه: ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ ﴿وَنَتَجَاوَزُ﴾ وَعدٌ مِن اللهِ لهم بالتَّقَبُّلِ والتَّجاوُزِ، فوعْدُ الصِّدْقِ توكيدٌ لذلك، كأنَّه قال: وَعَدَهم اللهُ بذلك وَعدًا صِدقًا، وهو مِنْ إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه، أي: الوَعدَ الصِّدقَ(٢).

## المَعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ الله تعالى بالإحسانِ إلى الوالدينِ، ويُبيِّنُ ما يَترتَّبُ عليه مِن ثوابٍ، فيقولُ: ووصَّيْنا الإنسانَ أن يُحسِنَ إلى والِدَيه إحسانًا؛ حمَلَتْه أُمُّه كارِهةً، ووضعَتْه كارِهةً؛ لِما تُعانيه في أثناءِ حَمْلِها ووَضْعِها مِن المَشاقِّ والآلامِ والمتاعبِ، ومُدَّةُ حَملِ الجَنينِ مع مُدَّةِ فِطامِه مِن الرَّضاعِ ثلاثونَ شَهرًا. حتَّى إذا بلغَ الوَلَدُ شِدَّةَ قُوَّتِه وكَمالَ عَقلِه، وبلَغ أربعينَ سَنةً؛ قال: رَبِّ ألهِمْني ووفِّقْني لِأن أشكُرَ نِعمَتَك الَّتي أنعَمْتَ بها علَيَّ وعلى والِدَيَّ، وأنْ أعمَلَ عَملًا صالِحًا تَقْبَلُه مِنِّي، وأصلِحْ لي ذُرِّيَّتي، واهْدِهم للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، إنِّي تُبتُ إليك وإنِّي مِن المُسلِمينَ.

أولئك يَتقَبَّلُ اللهُ عنهم أحسَنَ ما عَمِلوه في الدُّنيا، ويَصفَحُ عن سَيِّئاتِ أعمالِهم،

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٦٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٧٠).

وهم في أهلِ الجنَّةِ، وَعَدهم اللهُ بذلك وَعْدًا صِدْقًا لا يَتخلَّفُ.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الله تعالى في الآيةِ السابقةِ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ قالَ: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾؛ إذْ كانَ برُّ الوالدَيْنِ ثانيًا أفْضلَ الأعمالِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى في الآيةِ الأُولى التَّوحيدَ له، وإخلاصَ العِبادةِ، والاستِقامةَ إليه؛ عَطَف بالوَصيَّةِ بالوالِدَينِ، كما هو مَقرونٌ في غيرِ ما آيةٍ مِن القُرآنِ[٢].

وأيضًا بَيَّنَ هنا اختِلافَ حالِ الإنسانِ مع أبَوَيه؛ فقد يُطيعُهما وقد يُخالِفُهما، أي: فلا يَبعُدُ مِثلُ هذا في حَقِّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وقَومِه، حتَّى يستجيبَ له البَعضُ ويَكفُرَ البَعضُ؛ فهذا وجهُ اتِّصالِ الكلامِ بَعْضِه ببَعضٍ[٣].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾.

أي: وأَمَرْنا الإنسانَ وعَهِدْنا إليه عَهدًا أن يُحسِنَ إلى والِدَيه ويَبَرَّهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١). =

كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾.

أي: حمَلَتْه أُمُّه في بَطنِها فقاسَت في ذلك مَشَقَّةً شَديدةً جعَلَتْها كارِهةً لأحوالِ ذلك الحَملِ؛ مِنَ الثِّقلِ، والغَثَيانِ، والضَّعفِ، وغَيرِ ذلك[١].

كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤].

﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾.

أي: وتَضَعُ مَولودَها بآلامٍ شَديدةٍ ومَشَقَّةٍ عَظيمةٍ تَجعَلُها كارِهةً لِوَضعِه[٢].

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.

أي: ومُدَّةُ حَملِ الجَنينِ في بَطنِ أمِّه مع مُدَّةِ فِطامِه مِن الرَّضاعِ تَبلُغُ ثلاثينَ شَهرًا[٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

---

= قال ابنُ عطيَّة: (أي: هكذا مَضَت شرائعي وكُتُبي لأنبيائي؛ فهي وَصيَّةٌ مِن اللهِ في عبادِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠).

قال السمعاني: (معناه: أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَملِ سِتَّةُ أشهُرٍ، ومُدَّةَ الفِصالِ سَنتانِ؛ فذلك ثلاثون شَهرًا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤).

أي: حتَّى إذا بلغَ الوَلَدُ شِدَّةَ قُوَّتِه وكَمالَ عَقلِه، وذلك في سِنِّ الشَّبابِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

وفي معنى بُلوغِ الأشُدِّ أقوالٌ:

قيل: المرادُ: الاحتلامُ. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمَنين. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٢٦).

وقيل: المرادُ: بلوغُ ثمانيَ عَشْرةَ سنةً. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٧٦).

وقيل: المرادُ: بلوغُ سِنِّ الثَّالثةِ والثَّلاثينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والواحدي، ونَسَبه الرَّازيُّ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٣٩).

وقيل: المرادُ: بلوغُ سِتٍّ وثلاثينَ. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ عطيَّة، والثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢١٦).

وقال الزمخشري: (بُلوغُ الأشُدِّ: أن يَكتَهِلَ ويَستوفيَ السِّنَّ الَّتي تَستحكِمُ فيها قُوَّتُه وعَقلُه وتَمييزُه، وذلك إذا أنافَ على الثَّلاثينَ وناطح الأربَعينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

وقيل: هو ما بيْنَ ثماني عَشْرةَ سنةً إلى أربعين سنةً. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٠).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٧٦، ٢٧٧).

وقال ابن القيِّم: (وقد أحكَمَ الأزهريُّ [تفسيرَ] اللَّفظةِ، فقال: بُلوغُ الأَشُدِّ يكونُ مِن وَقتِ بُلوغِ الإنسانِ مَبلَغَ الرِّجالِ الى أربعينَ سَنةً، قال: فبُلوغُ الأشُدِّ مَحصورُ الأوَّلِ، مَحصورُ النِّهايةِ، غيرُ مَحصورِ ما بيْنَ ذلك، فبُلوغُ الأشُدِّ مَرتَبةٌ بيْنَ البُلوغِ وبينَ الأربَعينَ). ((تحفة المودود)) (ص: ٣٠٠). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ١٨٢- ١٨٣).

وقال الجَصَّاصُ: (جائزٌ أن يكونَ المرادُ ببُلوغِ الأشُدِّ قبْلَ أربعينَ سَنةً وقبْلَ الاستِواءِ، وإذا =

﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾.

أي: وبلَغ أربعينَ سَنةً، فكَمَل حِينَها عَقلُه وقُوَّتُه، وتكامَلَت حُجَّةُ اللهِ عليه[1].

﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

أي: قال: رَبِّ ألهِمْني ووفِّقْني لِأن أشكُرَ ما أنعَمْتَ به علَيَّ، وعلى أبي وأُمِّي[2].

﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾.

أي: وألهِمْني ووَفِّقْني لِأنْ أعمَلَ عَملًا صالِحًا يُرضيك عنِّي، وتَقْبَلُه مِنِّي[3].

﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾.

أي: وأصلِحْ لي نَسْلي وعَقِبي بأنْ تَهديَهم للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وتُصلِحَ

---

= كان كذلك فالأشُدُّ ليس له مِقدارٌ مَعلومٌ في العادةِ لا يزيدُ عليه ولا يَنقُصُ منه، وقد يختَلِفُ أحوالُ النَّاسِ فيه؛ فيبلغُ بَعضُهم الأشُدَّ في مدَّةٍ لا يَبلُغُه غيرُه في مِثلِها؛ لأنَّه إن كان بُلوغُ الأشُدِّ هو اجتِماعَ الرَّأيِ واللُّبِّ بعدَ الحُلُمِ، فذلك مختَلِفٌ في العادةِ، وإن كان بُلوغُه اجتماعَ القُوى وكمالَ الجِسمِ فهو مختلِفٌ أيضًا، وكلُّ ما كان حُكمُه مَبنيًّا على العاداتِ فغيرُ مُمكِنٍ القَطعُ به على وَقتٍ لا يَتجاوَزُه ولا يَقصُرُ عنه، إلَّا بتوقيفٍ أو إجماعٍ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠).

قال البِقاعي: (﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ فاجتَمَع أشُدُّه، وتمَّ حَزمُه وجِدُّه، وزالت عنه شِرَّةُ الشَّبابِ وطَيْشُ الصِّبا ورُعونةُ الجَهلِ؛ ولذلك كان هذا السِّنُّ وقتَ بَعثةِ الأنبياءِ، وهو يُشعِرُ بأنَّ أوقاتَ الصِّبا أخَفُّ في المؤاخَذةِ مِمَّا بَعْدَها، وكذا ما بيْنَ أوَّلِ الأشُدِّ والأربَعينَ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

أحوالَهم[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((ثلاثُ دَعَواتٍ مُستَجاباتٌ لا شَكَّ فيهنَّ: دعوةُ الوالِدِ، ودَعوةُ المُسافِرِ، ودَعوةُ المظلومِ))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إذا مات الإنسانُ انقَطَع عنه عَمَلُه إلَّا مِن ثلاثةٍ: إلَّا مِن صَدَقةٍ جاريةٍ، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به، أو ولَدٍ صالحٍ يَدعو له))[٣].

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

أي: إنِّي تُبتُ إليك مِن ذُنوبي السَّابِقةِ، ورَجعتُ إلى طاعتِك[٤].

﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

أي: وإنِّي مِن المُستَسلِمينَ لك بالتَّوحيدِ، المُنقادينَ لحُكمِك، الخاضِعينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣، ٣٤).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ يقولُ: وأصلِحْ لي أموري في ذُرِّيَّتي الَّذين وُهِبْتُهم، بأنْ تَجعَلَهم هُداةً للإيمانِ بك، واتِّباعِ مَرْضاتِك، والعملِ بطاعتِك. فوصَفَه جلَّ ثناؤُه بالبِرِّ بالآباءِ والأمَّهاتِ، والبَنِينَ والبناتِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١٥٣٦) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (٣٤٤٨)، وابنُ ماجه (٣٨٦٢)، وأحمد (٧٥١٠). حسَّنه الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٣٦)، وصَحَّحه ابن حِبَّان في ((الصحيح)) (٢٦٩٩)، والقرطبيُّ في ((التفسير)) (١٦/ ١٩٤)، والنوويُّ في ((الإيضاح)) (٦٢)، وقوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((الكبائر)) (١٨٤)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٣/ ٢٥٢)، وحَسَّن الحديثَ لغيرِه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريجِ ((سنن أبي داود)) (١٥٣٦).

(٣) رواه مسلم (١٦٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

لك بالطَّاعةِ في أمْرِك ونَهْيِك[١].

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦ ﴾.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ﴾.

أي: أولئك يَتقَبَّلُ اللهُ عنهم أحسَنَ الَّذي عَمِلوه في الدُّنيا؛ فيُثيبُهم عليه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢).

قال السمعاني: (اختَلَف المُفَسِّرون فيمَنْ نزَلَت هذه الآيةُ؟ فقال الكَلْبيُّ، ومُقاتِلٌ، والضَّحَّاكُ: إنَّها نزلتْ في أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنه. وقال الحَسَنُ البَصريُّ: إنَّها عامَّةٌ في جميعِ المؤمِنينَ. ومعنَى الآيةِ: هو الإرشادُ إلى شُكرِ اللهِ ودُعاءِ الوالِدَينِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٤).

وقال الرَّسْعَني: (قال جُمهورُ المُفَسِّرينَ: لَمَّا بلغ أبو بكرٍ أربعينَ سَنةً دعا اللهَ تعالى بما ذكَرَه في هذه الآيةِ، فأجابه اللهُ تعالى؛ فأسلَمَ وأسلَمَ والِداه وأولادُه: ذكورُهم وإناثُهم، ولم يَتَّفِقْ ذلك لأحَدٍ غَيرِه مِنَ الصَّحابةِ، وقال الضَّحَّاكُ والسُّدِّيُّ: نزلتْ في سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢١٧).

وممَّن اختار أنَّ الآيةَ نزلت في أبي بكرٍ وأنَّه المرادُ بها: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والرازي، والرسعني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨، ١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢١٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٦٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٨٩).

وممَّن اختار أنَّ الآيةَ عامَّةٌ: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، والشوكانيِّ، والقاسمي، وابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥). =

﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

أي: ويَصفَحُ الله عن سَيِّئاتِ أعمالِهم؛ فلا يُعاقِبُهم عليها[١].

﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾.

أي: وهم في عِدادِ أهلِ الجنَّةِ، الَّذين يُفعَلُ بهم مِثلُ ذلك[٢].

﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

أي: وَعَد اللهُ أهلَ الإيمانِ أن يَتقَبَّلَ مِن مُحسِنِهم ويَتجاوَزَ عن مُسيئِهم وَعْدَ الصِّدْقِ والحقِّ الَّذي لا يُخلَفُ، فهو موفٍ لهم به ولا شكَّ[٣].

---

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾: الأعمالُ الصَّالحةُ الَّتي عَمِلوها في الدُّنيا، وأنَّ الأحسَنَ هنا بمعنى الحَسَنِ: الواحديُّ، والبغوي، وابنُ الجوزي، والرَّسْعَني، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢١٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الطَّاعاتُ وأعمالُهم الحَسَنةُ الصَّالحةُ؛ لأنَّها أحسَنُ ما عَمِلوا؛ لأنَّهم يَعمَلونَ المُباحاتِ وغيرَها، فاسمُ التَّفضيلِ على معناه: البيضاويُّ، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٦٩).

قال ابنُ عاشور: (أي: الإحسانُ بالوالِدَينِ والدُّعاءُ لهما وللذُّرِّيَّةِ: مِن أفضَلِ الأعمالِ؛ فهو مِن أحسَنِ ما عَمِلوا، وقد تَقبَّلَ منهم كلَّ ما هو أحسَنُ ما عَمِلوا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ هذا مِن لُطفِه تعالى بعِبادِه وشُكرِه للوالِدَينِ: أنْ وصَّى الأولادَ وعَهِدَ إليهم أن يُحسِنوا إلى والِدَيهم بالقَولِ اللَّطيفِ، والكَلامِ اللَّيِّنِ، وبَذْلِ المالِ والنَّفَقةِ، وغيرِ ذلك مِن وُجوهِ الإحسانِ[1]. وبِرُّ الوالدينِ واجبٌ بهذه الآيةِ وغيرِها، وعقوقُهما كبيرةٌ[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾، قولُه جلَّ وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ كالمُحتاجِ إلى مُراعاةِ الوالِدَينِ له إلى قَريبٍ مِن هذه المُدَّةِ؛ وذلك لأنَّ العَقلَ كالنَّاقِصِ، فلا بُدَّ له مِن رعايةِ الأبوَينِ على رعايةِ المصالحِ، ودَفعِ الآفاتِ[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّ نِعَمَ الوالِدَينِ على الوَلَدِ بعدَ دُخولِه في الوُجودِ تمتَدُّ إلى هذه المُدَّةِ الطَّويلةِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ نِعَمَ الوالِدَينِ

---

= قال القرطبي: (﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ وهو مِن بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نَفْسِه؛ لأنَّ الصِّدقَ هو ذلك الوَعدُ الَّذي وَعَدَه اللهُ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وهذا عندَ الكوفيِّينَ، فأمَّا عندَ البَصريِّينَ فتَقديرُه: وَعْدَ الكَلامِ الصِّدقِ، أو الكِتابِ الصِّدقِ، فحُذِف المَوصوفُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨).

كأنَّه يَخرُجُ عن وُسعِ الإنسانِ مُكافأتُهما إلَّا بالدُّعاءِ والذِّكرِ الجَميلِ[١]!

٤- قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ أمَرَ الله بالإحسانِ إلى الوالِدَيْن في المُشاهَدةِ والغَيبةِ، وبجَميعِ وَسائلِ الإحسانِ الَّذي غايَتُه حُصولُ النَّفْعِ لهما، وأنَّ اللهَ لَمَّا أمَرَ بالدُّعاءِ للأَبوَينِ وَعَدَ بإجابتِه على لِسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِقَولِه: ((إذا مات الإنسانُ انقَطَع عنه عَمَلُه إلَّا مِن ثلاثةٍ: إلَّا مِن صَدَقةٍ جاريةٍ، أو عِلمٍ يُنتَفَعُ به، أو ولَدٍ صالحٍ يَدعو له))[٢]، وما شَكَرَ الولَدُ ربَّه على النِّعمةِ الَّتي أنْعَمَها اللهُ على والِدَيْه إلَّا مِن بابِ نِيابَتِه عنْهما في هذا الشُّكرِ، وهو مِن جُملةِ العمَلِ الَّذي يُؤدِّيه الولَدُ عن والِدَيْه[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ هذا فيه إرشادٌ لِمَن بلَغَ الأربعينَ أن يُجَدِّدَ التَّوبةَ والإنابةَ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، ويَعزِمَ عليها[٤].

٦- قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّه ينبغي لِمَن بلغَ عُمُرُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨).

(٢) رواه مسلم (١٦٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨١).

أربعينَ سَنةً أن يَستكثِرَ مِن هذه الدَّعَواتِ[١].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ استِطرادٌ في أثناءِ الوِصايةِ بالدُّعاءِ للوالِدَينِ بألَّا يَغفُلَ الإنسانُ عن التَّفَكُّرِ في مُستَقبَلِه، بأن يَصرِفَ عِنايتَه إلى ذُرِّيَّتِه كما صرَفَها إلى أبَوَيه؛ لِيَكونَ له مِن إحسانِ ذُرِّيَّتِه إليه مِثلُ ما كان منه لأبَوَيه، وإصلاحُ الذُّرِّيَّةِ يَشمَلُ إلهامَهم الدُّعاءَ إلى الوالِدِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗا﴾ يدُلُّ على أنَّ حَقَّ الأُمِّ أعظَمُ؛ لأنَّه قال أوَّلًا: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًا﴾، فذَكَرهما معًا، ثمَّ خَصَّ الأُمَّ بالذِّكرِ، فقال: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗا﴾، وذلك يدُلُّ على أنَّ حَقَّها أعظَمُ، وأنَّ وُصولَ المشاقِّ إليها بسبَبِ الوَلَدِ أكثَرُ[٣]، وأنَّ حَقَّها آكَدُ مِن حَقِّ الأبِ؛ لأنَّها حمَلَتْه بمَشقَّةٍ، ووضَعَتْه بمَشقَّةٍ، وأرضَعَتْه هذه المُدَّةَ بتَعَبٍ ونَصَبٍ، ولم يُشارِكْها الأبُ في شَيءٍ مِن ذلك[٤].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًا﴾ فيه لطيفةٌ: ذكَرَ تعالى الأُمَّ في ثلاثِ مَراتِبَ؛ في قَولِه: ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾ ﴿وَحَمۡلُهُۥ﴾، وفي إرضاعِه المُعَبَّرِ عنه بالفِصالِ، وذكَرَ الوالِدَ في واحدةٍ؛ في قَولِه: ﴿بِوَٰلِدَيۡهِ﴾؛ فناسَبَ ما قال الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن جَعلِ ثلاثةِ أرباعِ البِرِّ للأُمِّ، والرُّبُعِ للأَبِ، عندَما جاء رجُلٌ إليه، فقال: ((يا رسولَ الله، مَنْ أَبَرُّ؟ قال: أُمَّكَ، قال: ثُمَّ مَن؟ قال: أُمَّكَ، قال: ثُمَّ مَن؟ قال: أُمَّكَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢).

قال: ثُمَّ مَن؟ قال: أباكَ))[١].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ يدُلُّ على أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَملِ سِتَّةُ أشهُرٍ؛ لأنَّه لَمَّا كان مجموعُ مُدَّةِ الحَملِ والرَّضاعِ ثلاثينَ شَهرًا، وكان أكثَرُ الرَّضاعِ أربعةً وعِشرينَ شهرًا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، فإذا أسقَطْتَ الحَولَينِ الكامِلَينِ -وهي أربعةٌ وعِشرونَ شَهرًا- مِنَ الثَّلاثينَ؛ بَقِيَ أقَلُّ مُدَّةِ الحَملِ: سِتَّةُ أشهُرٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٧).

والحديث أخرجه أبو داودَ (٥١٣٩)، والترمذيُّ (١٨٩٧)، وأحمد (٢٠٠٢٨) مِن حديثِ مُعاويةَ ابنِ حَيْدةَ رضيَ الله عنه. ولفظُ أبي داودَ: ((قلت: يا رسولَ الله، مَنْ أبَرُّ؟ قال: أمَّك ثمَّ أمَّك ثمَّ أمَّك، ثمَّ أباك، ثمَّ الأقربَ فالأقربَ)).

حسَّنه الترمذي، وابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (٢/ ١٢١٧)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١٣٩): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥١٣٩).

وأخرجه البخاري (٥٩٧١)، ومسلمٌ (٢٥٤٨) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه، ولفظُ البخاريِّ: ((جاء رجُلٌ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فقال: يا رسولَ الله، مَنْ أحَقُّ بحُسْنِ صَحابتي؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: أمُّك. قال: ثمَّ مَن؟ قال: ثمَّ أبوك)).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥).

قال ابن كثير: (وقد استَدَلَّ عليٌّ رَضِيَ الله عنه بهذه الآيةِ مع الَّتي في لُقمانَ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقَولِه: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣]: على أنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الحَملِ سِتَّةُ أشهُرٍ، وهو استِنباطٌ قَويٌّ صَحيحٌ، ووافَقَه عليه عثمانُ وجماعةٌ مِن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٠).

وهذا النَّوعُ مِن الاستِدلالِ يرجِعُ عندَ الأُصوليِّينَ إلى دَلالةِ الإشارةِ -وهي مِن أنواعِ دَلالةِ المنطوقِ-، وهي دَلالةُ اللَّفظِ على معنًى ليس مقصودًا باللَّفظِ في الأصلِ، ولكنَّه لازِمٌ =

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ رُبَّما أشعَرَ بأنَّ أقَلَّ مُدَّةِ الرَّضاعِ سَنةٌ وتِسعةُ أشهُرٍ؛ لأنَّ أغلَبَ الحَملِ تِسعةُ أشهُرٍ[١].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ مِن بَديعِ معنى الآيةِ: جَمعُ مُدَّةِ الحَملِ إلى الفِصالِ في ثلاثينَ شَهرًا؛ لِتُطابِقَ مُختَلِفَ مُدَدِ الحَملِ؛ إذ قد يكونُ الحَملُ سِتَّةَ أشهُرٍ، وسَبعةَ أشهُرٍ، وثمانيةَ أشهُرٍ، وتِسعةً وهو الغالِبُ، قِيل: كانوا إذا كان حمْلُ المرأةِ تِسعةَ أشْهُرٍ -وهو الغالِبُ- أرْضَعَتِ المولودَ أحَدًا وعشْرينَ شَهْرًا، وإذا كان الحمْلُ ثَمانيةَ أشهُرٍ أرْضَعَت اثْنَينِ وعِشرينَ شَهْرًا، وإذا كان الحمْلُ سَبعةَ أشْهُرٍ أرْضَعَتْ ثلاثةً وعِشرينَ شَهْرًا، وإذا كان الحمْلُ سِتَّةَ أشْهُرٍ أرْضَعَت أربعةً وعِشرينَ شَهْرًا، وذلك أقْصى أمَدِ الإرضاعِ، فعوَّضُوا عن نَقْصِ كلِّ شَهرٍ مِن مُدَّةِ الحمْلِ شَهْرًا زائدًا في الإرضاعِ؛ لأنَّ نُقصانَ مُدَّةِ الحمْلِ يُؤثِّرُ في الطِّفلِ هُزالًا[٢].

٦- مِن بَديعِ الطَّيِّ في هذِه الآيةِ ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾: أنَّها صالحةٌ للدَّلالةِ على أنَّ مُدَّةَ الحمْلِ قد تكونُ دُونَ تِسعةِ أشْهُرٍ، ولولا أنَّها تكونُ دُونَ تِسعةِ أشهُرٍ لَحدَّدَتْه بتِسعةِ أشْهُرٍ؛ لأنَّ الغرَضَ إظهارُ حَقِّ الأُمِّ في البِرِّ بما تَحمَّلَتْه مِن مَشقَّةِ الحمْلِ؛ فإنَّ مَشقَّةَ مُدَّةِ الحمْلِ أشَدُّ مِن مَشقَّةِ الإرضاعِ؛ فلولا قصْدُ الإيماءِ إلى هذه الدَّلالةِ لَكان التَّحديدُ بتِسعةِ أشْهُرٍ أجدَرَ بالمَقامِ[٣].

---

= للمَقصودِ، فكأنَّه مقصودٌ بالتَّبَعِ لا بالأصلِ. يُنظر: ((المستصفى)) للغزالي (ص: ٢٦٣، ٢٦٤)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٤) و(٧/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- جميعُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ وأئمَّةِ الدِّينِ لا يَعتَقِدونَ عِصمةَ أحَدٍ مِن الصَّحابةِ ولا القَرابةِ ولا السَّابقينَ ولا غَيرِهم، بل يجوزُ عِندَهم وُقوعُ الذُّنوبِ منهم، واللهُ تعالى يَغفِرُ لهم بالتَّوبةِ، ويَرفَعُ بها دَرَجاتِهم، ويَغفِرُ لهم بحَسَناتٍ ماحيةٍ، أو بغيرِ ذلك مِنَ الأسبابِ؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ * لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥]، ولكِنَّ الأنبياءَ -رِضوانُ اللهِ تعالى عليهم أجمعينَ- هم الَّذين قال العُلَماءُ: إنَّهم مَعصومونَ مِن الإصرارِ على الذُّنوبِ، فأمَّا الصِّدِّيقونَ والشُّهَداءُ والصَّالحونَ فلَيسُوا بمعصومينَ. وهذا في الذُّنوبِ المُحَقَّقةِ، وأمَّا ما اجتَهَدوا فيه فتارةً يُصيبونَ وتارةً يُخطِئون؛ فإذا اجتَهَدوا فأصابوا فلَهم أجْرانِ، وإذا اجتَهَدوا وأخطَؤوا فلهم أجرٌ على اجتِهادِهم، وخَطؤُهم مغفورٌ لهم. وأهلُ الضَّلالِ يَجعَلونَ الخطَأَ والإثمَ مُتلازِمَينِ: فتارةً يَغلُونَ فيهم ويقولون: إنَّهم مَعصومونَ، وتارةً يَجفُونَ عنهم ويقولونَ: إنَّهم باغونَ بالخَطأِ! وأهلُ العِلمِ والإيمانِ لا يُعَصِّمونَ، ولا يُؤَثِّمونَ[1].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ اعلَمْ أنَّه تعالى حكى عن هذا الدَّاعي أنَّه طَلَب مِنَ اللهِ تعالى

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٦٩).

ثلاثةَ أشياءَ؛ أحَدُها: أن يُوَفِّقَه اللهُ للشُّكرِ على نِعَمِه. الثَّاني: أن يُوَفِّقَه للإتيانِ بالطَّاعةِ المَرْضيَّةِ عندَ اللهِ. الثَّالِثُ: أن يُصلِحَ له في ذُرِّيَّتِه. وفي ترتيبِ هذه الأشياءِ الثَّلاثةِ على الوَجهِ المذكورِ وَجهانِ:

**الأوَّلُ**: أنَّ مَراتِبَ السَّعاداتِ ثلاثٌ: أكمَلُها النَّفْسانيَّةُ، وأوسَطُها البَدَنيَّةُ، وأدوَنُها الخارجيَّةُ. والسَّعاداتُ النَّفْسانيَّةُ هي اشتِغالُ القَلبِ بشُكرِ آلاءِ اللهِ ونَعمائِه، والسَّعاداتُ البَدَنيَّةُ هي اشتِغالُ البَدَنِ بالطَّاعةِ والخِدْمةِ، والسَّعاداتُ الخارجيَّةُ هي سَعادةُ الأهلِ والوَلَدِ؛ فلمَّا كانت المراتِبُ مَحصورةً في هذه الثَّلاثةِ لا جَرَمَ رَتَّبَها اللهُ تعالى على هذا الوَجهِ.

**والسَّبَبُ الثَّاني** لِرعايةِ هذا التَّرتيبِ: أنَّه تعالى قَدَّم الشُّكرَ على العَمَلِ؛ لأنَّ الشُّكرَ مِن أعمالِ القُلوبِ، والعَمَلَ مِن أعمالِ الجوارِحِ، وعَمَلَ القَلبِ أشرَفُ مِن عَمَلِ الجارِحةِ، وأيضًا أنَّه قَدَّم طَلَبَ التَّوفيقِ على الشُّكرِ، وطَلَبَ التَّوفيقِ على الطَّاعةِ على طَلَبِ أن يُصلِحَ له ذُرِّيَّتَه؛ وذلك لأنَّ المَطلوبَينِ الأوَّلَينِ اشتِغالٌ بالتَّعظيمِ لأمرِ اللهِ، والمطلوبَ الثَّالِثَ اشتِغالٌ بالشَّفَقةِ على خَلْقِ اللهِ، ومَعلومٌ أنَّ التَّعظيمَ لأمرِ اللهِ يَجِبُ تَقديمُه على الشَّفَقةِ على خَلْقِ اللهِ[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ فيه سُؤالٌ: هَبْ أنَّه يَشكُرُ اللهَ على ما أنعَمَ به عليه، فكيف يَشكُرُه على النِّعَمِ الَّتي أنعَمَ بها على والِدَيه، وإنَّما يجِبُ على الرَّجُلِ أن يَشكُرَ رَبَّه على ما يَصِلُ إليه مِنَ النِّعَمِ؟

**الجوابُ**: أنَّ كُلَّ نِعمةٍ وصَلَتْ مِنَ اللهِ تعالى إلى والِدَيه فقد وَصَل منها أثَرٌ إليه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩).

فالنِّعمةُ عليهما نعمةٌ عليه؛ فلذلك وصَّاه اللهُ تعالى أن يَشكُرَ رَبَّه على الأمْرَينِ[١].

ثمَّ إنَّ هذا مِن تمامِ برِّ الوالِدَينِ؛ كأنَّ هذا الولَدَ خاف أن يكونَ والِداه قَصَّرا في شُكرِ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ، فسألَ اللهَ أن يُلهِمَه الشُّكرَ على ما أنعَمَ به عليه وعليهما؛ لِيَقومَ بما وَجَب عليهما مِن الشُّكرِ إن كانا قَصَّرا[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ ردٌّ على القَدَريَّةِ والمُعتَزِلةِ فيما أخبَرَ عنه مِن إيزاعِ الشُّكرِ والتَّوفيقِ للعَمَلِ الصَّالحِ، ولو كان مُستطيعًا بنَفْسِه لَكان دعاؤُه مُحَالًا، ثم أثْنى عليه ربُّه، وأضاف العملَ -الَّذي هو أعانَه عليه- إليه، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾، فالعَمَلُ حَسَنُه وسَيِّئُه مُضافٌ إلى عامِلِه وإنْ كان مُعانًا على الحَسَنِ، مَقْضِيًّا عليه بالسَّيِّئِ، ولو كانتِ الاستطاعةُ مُستغنيةً بنَفْسِها ما عَمِلَ أحَدٌ عَمَلًا سَيِّئًا أبدًا[٣]!

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ التَّقَبُّلُ: ترتُّبُ آثارِ العَمَلِ، مِن ثوابٍ على العَمَلِ، واستِجابةٍ للدُّعاءِ، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ هذا الدُّعاءَ مَرجوُّ الإجابةِ؛ لأنَّ اللهَ تولَّى تَلقينَه[٤].

١٢- إنْ قيلَ: لِمَ قال تعالى: ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾، واللهُ يَتقَبَّلُ الأحسَنَ وما دونَه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠).

ويُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (١/ ٣١٦-٣٢٣).

(٢) الفائدةُ للوزيرِ ابنِ هُبَيْرَةَ، نقَلها عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس))، كما في ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥).

**فالجوابُ مِن وُجوهٍ؛ منها:**

**الأوَّلُ**: المرادُ بالأحسَنِ: الحَسَنُ، كقولِهم: النَّاقِصُ والأشَجُّ أعْدَلا بني مَرْوانَ، أي: عادِلَا بني مَرْوانَ.

**الثَّاني**: أنَّ الحَسَنَ مِنَ الأعمالِ هو المباحُ الَّذي لا يَتعَلَّقُ به ثوابٌ ولا عِقابٌ، والأحسَنَ ما يُغايِرُ ذلك، وهو كُلُّ ما كان مَندوبًا أو واجِبًا(١).

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾

- الفِصالُ: الفِطامُ، وذُكِرَ الفِصالُ؛ لأنَّه انتهاءُ مُدَّةِ الرَّضاعِ؛ فذُكِرَ مَبدأُ مُدَّةِ الحمْلِ بقَولِه: ﴿وَحَمْلُهُۥ﴾، وانتِهاءُ الرَّضاعِ بقَولِه: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾. ولو قِيل: (وحمْلُه وفِطامُه ثلاثونَ شَهرًا) لم يكُنْ نَصًّا في الرَّضاعِ التَّامِّ المُنْتهي بالفِصالِ، والمعنى: وحمْلُه وفِصالُه بيْنَهما ثَلاثونَ شَهْرًا(٢).

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ (حتَّى) ابتدائيَّةٌ، ومعناها معنَى فاءِ التَّفريعِ على الكلامِ المُتقدِّمِ، وإذ كانت (حتَّى) لا يُفارِقُها معنَى الغايةِ، كانت مُؤْذِنةً هنا بأنَّ الإنسانَ تَدرَّجَ في أطْوارِه مِن وَقتِ فِصالِه إلى أنْ بلَغَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠).

أشُدَّه، أي: هو مُوصًى بِوالِدَيْه حُسْنًا في الأطوارِ المُوالِيةِ لِفِصالِه، أي: يُوصيه وَلِيُّه في أطْوارِ طُفولتِه، ثمَّ عليه مُراعاةُ وَصيَّةِ اللهِ في وَقتِ تَكليفِه. ووُقوعُ (إذا) بعْدَ (حتَّى)؛ لِيُرتَّبَ عليها تَوقيتُ ما بعْدَ الغايةِ مِن الخبَرِ، أي: كانت الغايةُ وَقتَ بُلوغِه الأشُدَّ[1].

- وفي الكلامِ حَذْفٌ تَكونُ (حتَّى) غايةً له، تَقديرُه: فعاشَ بعْدَ ذلك، أو استَمرَّت حَياتُه[2].

- ولَمَّا كان (إذا) ظَرْفًا لِزَمنٍ مُستقبَلٍ كان الفِعلُ الماضي بعْدَها مُنقلِبًا إلى الاستِقبالِ، وإنَّما صِيغَ بصِيغةِ الماضي؛ تَشْبيهًا لِلْمؤكَّدِ تَحصيلُه بالواقِعِ، والمعنى: حتَّى يَبلُغَ أشُدَّه، أي: يَستمِرُّ على الإحسانِ إلى والِدَيْه إلى أنْ يَبلُغَ أشُدَّه، فإذا بَلَغَه ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾، أي: طلَبَ العَونَ مِن اللهِ تعالى على زِيادةِ الإحسانِ إليهما؛ بأنْ يُلهِمَه الشُّكرَ على نِعَمِه عليه وعلى والِدَيْه، ومِن جُملةِ النِّعمِ عليه أنْ أَلْهَمَه الإحسانَ لِوالِدَيْه، ومِن جُملةِ نِعَمِه على والِدَيْه أنْ سخَّرَ لهما هذا الولَدَ لِيُحسِنَ إليهما؛ فهاتانِ النِّعمتانِ أوَّلُ ما يَتبادَرُ عن عُمومِ نِعمةِ اللهِ عليه وعلى والِدَيْه؛ لأنَّ المَقامَ لِلحديثِ عنهما، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ الفِعلَ المُؤقَّتَ بِبُلوغِ الأشُدِّ -وهو فِعلُ ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾- مِن جُملةِ ما وُصِّيَ به الإنسانُ، أي: أنْ يُحسِنَ إلى والِدَيْه في وَقتِ بُلوغِه الأشُدَّ؛ فالمعنَى: ووَصَّيْنا الإنسانَ حُسنًا بوالدَيهِ حتَّى في زَمنِ بُلوغِه الأشُدَّ، أي: ألَّا يَفتُرَ عن الإحسانِ إليهما بكُلِّ وجهٍ حتَّى بالدُّعاءِ لهما[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١، ٣٢).

وإنَّما خُصَّ زَمانُ بُلوغِ الإنسانِ الأشُدَّ؛ لأنَّه زَمَنٌ يَكثُرُ فيه الكَلَفُ بالسَّعْيِ للرِّزقِ؛ إذ يكونُ له فيه زَوجةٌ وأبناءٌ، وتَكثُرُ تَكاليفُ المرأةِ، فيَكونُ لها فيه زَوجٌ وبَيتٌ وأبناءٌ، فيَكونانِ مَظِنَّةَ أنْ تَشغَلَهما التَّكاليفُ عن تَعهُّدِ والِدَيْهما والإحسانِ إليهما؛ فنُبِّها بألَّا يَفتُرَا عن الإحسانِ إلى الوالدينِ(١).

- الأشُدُّ: قيل: وَقْتُه ما بعْدَ الثَّلاثينَ سَنةً، وتَمامُه عِندَ الأربعينَ سَنةً؛ ولذلك عُطِفَ على ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قولُه: ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾، أي: بلَغَ الأشُدَّ ووَصَلَ إلى أكْمَلِه، وليس قَولُه: ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً﴾ تأْكيدًا لِقَولِه: ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ لأنَّ إعادةَ فِعلِ (بلغ) تُبعِدُ احتِمالَ التَّأْكيدِ، وحرْفُ العطْفِ أيضًا يُبعِدُ ذلك الاحتِمالَ(٢).

- ومعنى ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أنَّه دَعا ربَّه بذلك، ومعناهُ: أنَّه مأْمورٌ بالدُّعاءِ إليهما؛ بأنَّه لا يَشغَلُه الدُّعاءُ لِنَفْسِه عن الدُّعاءِ لهما، وبأنَّه يُحسِنُ إليهما بظَهْرِ الغَيبِ منهما حِينَ مُناجاتِه ربَّه؛ فلا جَرَمَ أنَّ إحْسانَه إليهما في المُواجَهةِ حاصِلٌ بفَحْوى الخِطابِ(٣).

- قولُه: ﴿وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾ التَّنكيرُ في قَولِه: ﴿صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ﴾؛ لِلتَّفخيمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢).

وفَحْوى الخِطابِ -ويُسَمَّى تنبيهَ الخِطابِ، ومفهومَ الموافَقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطَريقِ الأَولى، وهو نَوعانِ:

الأوَّلُ: تَنبيهٌ بالأقَلِّ على الأكثَرِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فإنَّه نَبَّه بالنَّهيِ عن قَولِ أُفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك.

الثَّاني: تنبيهٌ بالأكثَرِ على الأقَلِّ، كقَولِه تعالى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

والتَّكثيرِ، أو لأنَّه أرادَ نوعًا مِن الجِنسِ يَستجلِبُ رِضا اللهِ عزَّ وجلَّ[١]. وقيل: في تنكيرِ ﴿صَٰلِحًا﴾ إشارةٌ إلى العَجزِ عن بُلوغِ الغايةِ؛ فإنَّه لن يَقدُرَ اللهَ حَقَّ قَدْرِه أحَدٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ في إدْماجِ[٣] تَلقينِ الدُّعاءِ بإصْلاحِ ذُرِّيَّتِه، مع أنَّ سِياقَ الكلامِ في الإحسانِ إلى الوالدَينِ: إيماءٌ إلى أنَّ المرْءَ يَلْقى مِن إحسانِ أبْنائِه إليه مِثلَ ما لَقِيَ أبواهُ مِن إحْسانِه إليهما، ولأنَّ دَعْوةَ الأبِ لِابْنِه مَرْجوَّةُ الإجابةِ[٤].

- واللَّامُ في ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي﴾ لَامُ العِلَّةِ، أي: أصْلِحْ في ذُرِّيَّتي لِأجْلي ومَنْفعَتي، ونُكتةُ زِيادةِ هذا في الدُّعاءِ: أنَّه بعْدَ أنْ أشارَ إلى نِعَمِ اللهِ عليه وعلى والِدَيْه، تَعرَّضَ إلى نَفَحاتِ اللهِ، فسَأَلَه إصلاحَ ذُرِّيَّتِه، وعَرَّضَ بأنَّ إصْلاحَهم لِفائدتِه، وهذا تَمهيدٌ لِبِساطِ الإجابةِ؛ كأنَّه يقولُ: كما ابْتدَأْتَني بنِعمتِك، وابْتَدَأْتَ والِديَّ بنِعمتِك، ومَتَّعْتَهما بتَوفيقي إلى بِرِّهما؛ كَمِّل إنْعامَك بإصلاحِ ذُرِّيَّتي؛ فإنَّ إصْلاحَهم لي. وهذه تَرْقيَّاتٌ بَديعةٌ في دَرَجاتِ القُرْبِ[٥].

- وكان الظَّاهرُ أنْ يُقالَ: (أصلِحْ لي ذُرِّيَّتي)؛ لأنَّ الإصلاحَ مُتعَدٍّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ولكنْ قال هنا: ﴿وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ فعُدِّيَ بـ (في)؛ لِتَضمُّنِه مَعنى اللُّطفِ، أي: الْطُفْ بي في ذُرِّيَّتي،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٤٩).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٤).

أو نُزِّلَ مَنزِلةَ اللَّازمِ ثُمَّ عُدِّيَ بـ (في)؛ لِيُفِيدَ سَرَيانَ الصَّلاحِ فيهم، وكَوْنَهم كالظَّرْفِ له؛ لِتَمكُّنِه فيهم[١].

- وجُملةُ ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ كالتَّعليلِ لِلْمَطلوبِ بالدُّعاءِ تَعليلَ تَوسُّلٍ بصِلَةِ الإيمانِ، والإقرارِ بالنِّعمةِ والعُبوديَّةِ، وحَرْفُ (إنَّ) لِلْاهتمامِ بالخبَرِ، وقدْ أغْنى غَناءَ الفاءِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ ...﴾ جُملةٌ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ما قبْلَها مِن الوصْفِ والحثِّ يُحدِثُ تَرقُّبَ السَّامعِ لِمَعرفةِ فائدةِ ذلك؛ فكان قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾ إلى آخِرِه جَوابًا لِتَرقُّبِه[٣].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الإنسانِ، والجمْعُ؛ لأنَّ المُرادَ به الجنسُ المُتَّصِفُ بالوَصْفِ المَحكِيِّ عنْه[٤].

- وأيضًا في اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: تَنبيهٌ على أنَّهم أحْرِياءُ بما يَرِدُ مِن الإخبارِ عنهم بما بعْدَ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ الأوصافِ المذْكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٥].

وكذلك ما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعُلُوِّ رُتْبتِه وبُعْدِ مَنزلتِه،

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤، ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧، ٣٥).

أي: أولئكَ المَنْعوتونَ بما ذُكِرَ مِن النُّعوتِ الجليلةِ ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ مِن الطَّاعاتِ[١].

- وعُمومُ ﴿أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ يُكسِبُ الجُملةَ فائدةَ التَّذييلِ[٢].

- وعُدِّيَ فِعلُ ﴿نَتَقَبَّلُ﴾ بحَرْفِ (عن)، وحقُّه أنْ يُعدَّى بحَرْفِ (مِن)؛ تَغْليبًا لِجانِبِ المَدْعوِّ لهم، وهمُ الوالِدانِ والذُّرِّيَّةُ؛ لأنَّ دُعاءَ الولَدِ والوالِدِ لِأولئك بمَنزِلةِ النِّيابةِ عنْهم في عِبادةِ الدُّعاءِ، وإذا كان العمَلُ بالنِّيابةِ مُتقبَّلًا، عُلِمَ أنَّ عَمَلَ المرْءِ لِنَفْسِه مُتقبَّلٌ أيضًا؛ ففي الكلامِ اختِصارٌ، كأنَّه قِيل: أولئك يُتقبَّلُ منْهم، ويُتقبَّلُ عن والِدَيهم وذُرِّيَّتِهم أحسَنُ ما عَمِلوا[٣].

- وقولُه: ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن اسمِ الإشارةِ، أي: كائنينَ في أصحابِ الجنَّةِ حِينَ يُتقبَّلُ أحسَنُ ما عَمِلوا ويُتجاوَزُ عن سَيِّئاتِهم؛ لأنَّ أصْحابَ الجنَّةِ مُتقبَّلٌ أحسَنُ أعْمالِهم، ويُتجاوَزُ عن سَيِّئاتِهم، وذُكِرَ هذا للتَّنويهِ بهم بأنَّهم مِن الفريقِ المُشرَّفينَ[٤].

- وإضافةُ ﴿وَعۡدَ﴾ إلى ﴿ٱلصِّدۡقِ﴾ في قولِه: ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ إضافةٌ على مَعْنى (مِن)، أي: وَعْدٌ مِن الصِّدقِ؛ إذ لا يَتخلَّفُ، والَّذي كانوا يُوعَدون صِفةُ وَعْدِ الصِّدْقِ، أي: ذلك هو الَّذي كانوا يُوعَدونَه في الدُّنيا بالقُرآنِ في الآياتِ الحاثَّةِ على بِرِّ الوالدَينِ، وعلى الشُّكرِ، وعلى إصلاحِ الذُّرِّيَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٦).

## الآيات (١٧-٢٠)

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿أُفٍّ﴾: الأُفُّ: الرَّديءُ مِن الكَلامِ، وكُلُّ ما غَلُظَ مِنه وقَبُحَ، وهو اسمُ فِعلٍ يُنبئُ عن التَّضَجُّرِ والاستِثقالِ، أو صَوتٌ يُنبئُ عن ذلك، وأصلُ (أفف): يدُلُّ على تَكَرُّهِ الشَّيءِ[1].

﴿خَلَتِ﴾: أي: مَضَتْ وذَهبَتْ، مِن خلا الزَّمانُ: إذا مَضَى وذهَبَ[2].

﴿ٱلْقُرُونُ﴾: جمعُ قَرْنٍ، وهو: الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ، أو القَومُ المُقترِنونَ في زَمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك، والاقترانُ هو اجتِماعُ شيئَينِ أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٣٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٢٦٠).

قال الألوسي: (﴿أُفٍّ﴾ صوتٌ يَصدُرُ عن المرءِ عندَ تضَجُّرِه، وفيه قِراءاتٌ ولُغاتٌ نحوَ الأربعينَ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[١].

﴿وَيۡلَكَ﴾: الويلُ: كلمةُ دُعاءٍ بالهلاكِ والعذابِ، وتُستعمَلُ أيضًا في التَّحسُّرِ، وقيل: هي وادٍ في جهنَّمَ، وأصْلُ الوَيلِ: الشَّرُّ وحُلولُه[٢].

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أي: أباطيلُهم وتُرَّهاتُهم، جمعُ أُسطورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطفافِ الشَّيءِ[٣].

﴿ٱلۡهُونِ﴾: أي: الهَوانِ والذُّلِّ والخِزْيِ، وأصلُ (هون): يدُلُّ على ذُلٍّ[٤].

﴿تَفۡسُقُونَ﴾: أي: تَخرُجونَ عن الطَّاعةِ، وذلك مِن قولِهم: فسَقَ الرُّطَبُ، إذا خرجَ عَن قِشرِه، والفُسوقُ: خروجٌ مِن الطَّاعةِ إلى المعصيةِ، وخروجٌ مِن الإيمانِ إلى الكُفرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((العين)) للخليل بن أحمد (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٢٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦ / ٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦، ٨١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

## المَعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى عن حالِ الأشْقياءِ العاقِّينَ للوالدينِ، فيقولُ: والَّذي قال لِوالِدَيه إذْ دَعَواه إلى الإيمانِ باللهِ واليَومِ الآخِرِ: أُفٍّ لَكما، أتَعِدانِني أن أُبعَثَ بعدَ مَوتي وقد مَضَت أُمَمٌ كَثيرةٌ مِن قَبْلي، ولم يَرجِعْ منهم أحَدٌ؟!

ثمَّ يذكرُ اللهُ تعالى ما ردَّ به الأبَوانِ، فيقولُ: ووالِداه يَطلُبانِ مِن اللهِ الغَوثَ بأن يَهديَ ابنَهما إلى الحَقِّ، يَقولانِ له: وَيْلَك آمِنْ بالبَعثِ بعدَ الموتِ، إنَّ ما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ بعدَ الموتِ حقٌّ لا شَكَّ فيه، فيَقولُ هذا المُكَذِّبُ العاقُّ لوالِدَيه: ما هذا الَّذي تَدْعُوانِني إلى الإيمانِ به إلَّا أحاديثُ الأقدَمينَ ممَّا لا حقيقةَ له!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى عقوبةَ هؤلاءِ الأشقياءِ، فيقولُ: أولئك العاقُّونَ المُكَذِّبونَ بالبَعثِ هم الَّذين وَجَب عليهم عذابُ اللهِ في قضائِه السَّابقِ مُندَرِجينَ في جُملةِ مَن يُعَذِّبُهم اللهُ مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ الَّتي مَضَت قَبْلَهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ، إنَّهم كانوا خاسِرينَ؛ لأنَّهم استحَبُّوا الكُفرَ على الإيمانِ.

ويُبيِّنُ سبحانَه أحدَ مظاهرِ عدلِه في حُكمِه بيْنَ عِبادِه، فيقولُ: ولِكُلٍّ مِن هؤلاءِ الفريقَينِ: فَريقِ المؤمِنِ البارِّ بوالِدَيه، وفَريقِ الكافِرِ العاقِّ لِوالِدَيه- مَنازِلُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ بحَسَبِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ولِيُعطيَهم اللهُ جزاءَ أعمالِهم كامِلةً وافيةً، وهم لا يُظلَمونَ.

ثمَّ يذكرُ تعالى ما يُوبَّخُ به الكفَّارُ عندَ عرضِهم على النَّارِ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا على النَّارِ، فيُقالُ لهم تَوبيخًا: ضيَّعتُم وأتلَفْتُم الطَّيِّباتِ الَّتي أنعَمَ اللهُ بها عليكم في حياتِكم الدُّنيا؛ حيثُ استَمتَعْتُم بِها واستَوفيتُموها في دُنياكم؛ فأنتم تُحرَمونَ منها في أُخراكم التي لم تَعمَلوا لأجْلِها

شَيئًا؛ فيَومَ القيامةِ تُجزَونَ عذابَ الهُونِ والخِزْيِ والذُّلِّ؛ بسبَبِ استِكبارِكم في الأرضِ بغيرِ الحَقِّ، وبسَبَبِ خُروجِكم عن طاعةِ اللهِ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه المحسِنَ بادِئًا به؛ لِكَونِ المقامِ للإحسانِ؛ أتْبَعَه المُسيءَ المناسِبَ لمقصودِ السُّورةِ، المذكورَ صَريحًا في مَطلَعِها[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالَى حالَ الدَّاعينَ للوالِدَينِ، البارِّينَ بهما، وما لَهم عندَه مِن الفَوزِ والنَّجاةِ؛ عَطَف بحالِ الأشقياءِ العاقِّينَ للوالدَينِ، فقال[٢]:

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾.

أي: والَّذي قال لِوالِدَيه إذْ دَعَواه إلى الإيمانِ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، مُتَضَجِّرًا منهما: أُفٍّ لَكما[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦، ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٤، ٢٢٥).

قال ابنُ الجوزي: (ورُوِيَ عن ابنِ عَبَّاسٍ أنَّها نزَلتْ في عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي بكرٍ قبْلَ إسلامِه، كان أبَواه يَدْعُوانِه إلى الإسلامِ، وهو يأبَى، وعلى هذا جُمهورُ المُفَسِّرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٠٨).

وقال السمعاني: (وأنكَر كثيرٌ مِن أهلِ التَّفسيرِ هذا القولَ، ورُوِيَ عن عائشَةَ أنَّها كانت تُنكِرُ أنَّ المرادَ بالآيةِ أخوها). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٥). =

= وممَّن رَدَّ هذا القَولَ مِن المُفَسِّرينَ: الزَّجَّاجُ، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابنُ عطية، والرازي، وابن جُزَي، وابن كثير، والبِقاعي، وأبو السعود، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٤).

قال ابن جُزَي: (﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ هي على الإطلاقِ فيمَن كان على هذه الصِّفةِ مِن الكُفرِ والعُقوقِ لِوالِدَيه، ويدُلُّ على أنَّها عامَّةٌ قَولُه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ بصيغةِ الجَمعِ، ولو أراد واحِدًا بعَينِه لَقال: ذلك الَّذي حَقَّ عليه القَولُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٧).

وقال الشِّنقيطي: (والإخبارُ عن لَفظةِ «الَّذي» بقَولِه: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ﴾ بصِيغةِ الجَمعِ: صريحٌ في أنَّ المرادَ بـ«الَّذي» العُمومُ لا الإفرادُ، وخيرُ ما يُفَسَّرُ به القُرآنُ القُرآنُ. وبهذا الدَّليلِ القُرآنيِّ تَعلَمُ أنَّ قَولَ مَن قال في هذه الآيةِ الكريمةِ إنَّها نازِلةٌ في عبدِ الرَّحمنِ بنِ أبي بَكرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ الله عنهما: ليس بصَحيحٍ، كما جَزَمَت عائِشةُ رَضِيَ الله عنها ببُطلانِه [يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٨٢٧)].

وفي نَفْسِ آيةِ «الأحقاف» هذه دَليلٌ آخَرُ واضِحٌ على بُطلانِه، وهو أنَّ اللهَ تعالى صَرَّح بأنَّ الَّذين قالوا تلك المقالةَ حَقَّ عليهم القَولُ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة: ١٣]، ومَعلومٌ أنَّ عبدَ الرَّحمنِ بنَ أبي بكرٍ رَضِيَ الله عنهما أسلَمَ وحَسُنَ إسلامُه، وهو مِن خيارِ المُسلِمينَ وأفاضِلِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٢٤). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٧٧).

وقال الزمخشري في معنى ﴿أُفٍّ ﴾: (هو صوتٌ إذا صوَّت به الإنسانُ عُلِم أنَّه مُتضَجِّرٌ... واللَّامُ للبَيانِ، معناه: هذا التَّأفيفُ لَكما خاصَّةً، ولِأجْلِكما دونَ غَيرِكما). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٤).

وقال ابن جرير: (﴿أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ يقولُ: قَذَرًا لَكُما ونَتْنًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٤).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ يعني: قُبحًا لكما الرَّديءُ مِنَ الكلامِ). ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٢١).

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾.

أي: يَقولُ هذا العاقُّ لِوالِدَيه المؤمِنَينِ: أتَعِدانِني أن أُبعَثَ بعدَ مَوتي، فأُخرَجَ مِن قَبري حيًّا، والحالُ أنَّه قد مَضَت الأُمَمُ الأُولَى قبْلي، ولم يَرجِعْ منهم أحَدٌ بعدَ مَوتِه[1]؟!

﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾.

أي: ووالِداه يَطلُبانِ مِن اللهِ أنْ يُغيثَهما بأن يَهديَ ابنَهما إلى الحَقِّ[2].

﴿وَيۡلَكَ ءَامِنۡ﴾.

أي: يقولانِ لِوَلدِهما الكافِرِ: وَيْلَك آمِنْ بما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ بعدَ الموتِ[3].

﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾.

أي: إنَّ ما وَعَد اللهُ به عِبادَه مِن البَعثِ بعدَ الموتِ للحِسابِ والجزاءِ صِدْقٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).
قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّه أحال أن يَخرُجَ هو مِنَ الأرضِ بعدَ الموتِ، وقد مَضَت أمَمٌ كَثيرةٌ وطال عليها الزَّمَنُ، فلم يخرُجْ منهم أحدٌ، وهذا مِن سوءِ فَهمِه في مَعنى البَعثِ، أو مِن المغالَطةِ في الاحتِجاجِ؛ لأنَّ وعْدَ البَعثِ لم يُوقَّتْ بزمَنٍ مُعَيَّنٍ، ولا أنَّه يقعُ في هذا العالَمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٨، ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).
قال البِقاعي: (إشارةٌ إلى أنَّه لم يَبقَ له إنْ أعرضَ إلَّا الويلُ، وهو الهلاكُ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٥٤).

لا شَكَّ فيه، ووَعدٌ لا خُلْفَ فيه[١].

﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

أي: فيَقولُ هذا المُكَذِّبُ بالبَعثِ لوالِدَيه: ما هذا الَّذي تَدْعُوانِني إلى الإيمانِ به إلَّا أحاديثُ الأقدَمينَ وقِصَصُهم الَّتي سطَّروها في كُتُبِهم، وهي خُرافاتٌ باطِلةٌ لا حقيقةَ لها[٢]!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾.

أي: أولئك العاقُّونَ المُكَذِّبونَ بالبَعثِ القائِلونَ تلك المقالاتِ: هم الَّذين وَجَب عليهم عذابُ اللهِ، وسبَق عليهم القضاءُ بذلك، كائِنينَ في جُملةِ مَن يُعَذَّبُهم مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ الَّتي مَضَت قَبْلَهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ، فسيَدخُلُ أولئك في عِدادِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٩، ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٦، ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٦، ٢٢٧).

أي: إنَّهم كانوا خاسِرينَ ببَيعِهم الهُدى بالضَّلالِ، والجنَّةَ بالنَّارِ، وخَسِروا أنفُسَهم وأهلِيهم يومَ القيامةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا قَسَّم اللهُ تعالى النَّاسَ في الأعمالِ؛ جمَعَهم في العَدلِ والإفضالِ[٢].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾.

أي: ولِكُلٍّ مِن هؤلاءِ الفريقَينِ: فَريقِ المؤمِنِ البارِّ بوالِدَيه، وفَريقِ الكافِرِ العاقِّ لِوالِدَيه- مَنازِلُ عندَ اللهِ يومَ القيامةِ بحَسَبِ ما عَمِلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ[٣].

﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٠، ٤١).

قال الألوسي: (و«مِنْ» بيانيَّةٌ أو ابتدائيَّةٌ، و «ما» مَوصولةٌ، أي: مِنَ الَّذي عَمِلوه مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ، أو مَصدريَّةٌ، أي: مِن عَمَلِهم الخَيرَ والشَّرَّ، ويجوزُ أن تكونَ «مِن» تعليليَّةً بدونِ تقديرِ مُضافٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٧٩).

وقال ابن عاشور: (و«مِنْ» في قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ تبعيضِيَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤١).

أي: ولِيُعطيَهم اللهُ جزاءَ أعمالِهم الَّتي عَمِلوها كامِلًا وافيًا[١].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

أي: وهم لا يُظلَمونَ شَيئًا مِن جزاءِ أعمالِهم؛ فلا يُنقَصُ مِن ثَوابِ المحسنينَ، ولا يُزادُ في عِقابِ المسيئينَ، ولا يُحمَّلونَ ذُنوبَ غَيرِهم، ولا يُعاقَبونَ على ما لم يَعمَلوه[٢].

كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّه يُوصِلُ حَقَّ كُلِّ أحَدٍ إليه؛ بيَّنَ أحوالَ أهلِ العِقابِ أوَّلًا[٣].

وأيضًا لَمَّا كان الظَّاهِرُ في هذه السُّورةِ الإنذارَ، كما يَشهَدُ به مَطلَعُها؛ ذَكَر بَعضَ ما يُبَكَّتُ به المجرِمونَ يومَ البَعثِ الَّذي كانوا به يُكَذِّبونَ، ويكونُ فيه توفيةُ جزاءِ الأعمالِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤١).

قال الزمخشري: (تَعليلٌ مُعَلَّلُه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، كأنَّه قيل: ولِيُوَفِّيَهم أعمالَهم ولا يَظلِمَهم حُقوقَهم قَدَّر جزاءَهم على مقاديرِ أعمالِهم، فجَعَل الثَّوابَ دَرَجاتٍ، والعِقابَ دَرَكاتٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٤، ٣٠٥). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٩).

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا باللهِ على النَّارِ[1].

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾.

أي: يُقالُ لهم تَوبيخًا: استَمتَعْتُم بالملَذَّاتِ والشَّهَواتِ، فاستَوْفَيْتُموها في دُنياكم؛ فأنتم تُحرَمونَ منها في أُخراكم الَّتي لم تَعمَلوا مِن أجْلِها شَيئًا[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٤٩)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٧، ٢٢٨).

قيل: معنى العَرضِ على النَّارِ: مُباشَرةُ عَذابِها. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ أبي زَمَنين، والزمخشري، وابن عطية، والثعالبي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٠)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢٢٠).

قال الشنقيطي: (وقد ذكَرَ تعالى مِثلَ ما ذكر هنا في قولِه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣٤]، وهذا يدُلُّ على أنَّ المرادَ بالعَرضِ مُباشَرةُ العذابِ؛ لقولِه: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٤]، وقولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦]؛ لأنَّه عَرضُ عذابٍ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٢٧).

وقيل: معنى ذلك: كَشفُ الغِطاءِ عن النَّارِ، وتقريبُهم منها، ورؤيتُهم لها. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقندي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٩).

وذلك كما قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ﴾ [الكهف: ٥٣]، وقال: ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر: ٢٣]. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢٧-٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٩٩، ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

قال ابن العربي: (لا خِلافَ أنَّ هذه الآيةَ في الكُفَّارِ بنَصِّ القُرآنِ؛ لِقَولِه تعالى في أوَّلِها: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾، أي: فيُقالُ لهم: أذْهَبتُم طَيِّباتِكم في حياتِكم الدُّنيا، يريدُ: أفْنَيْتُموها في الكُفرِ باللهِ ومَعصيتِه. وإنَّ اللهَ أحَلَّ الطيِّباتِ مِن الحلالِ واللَّذَّاتِ، وأمَرَ باستِعمالِها في الطَّاعاتِ، فصَرَفها الكُفَّارُ إلى الكُفرِ؛ فأوعَدَهم اللهُ بما أخبر به عنهم، وقد يَستعمِلُها المؤمِنُ في المعاصي، =

﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ﴾.

أي: فاليَومَ تُجزَونَ العَذابَ الَّذي يُهينُكم ويُخزيكم ويُذِلُّكم(١).

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: تُجزَونَ عذابَ الهُونِ؛ بسبَبِ استِكبارِكم في الأرضِ ظُلمًا بغيرِ استِحقاقٍ لذلك(٢).

---

= فيَدخُلُ في وعيدٍ آخَرَ، وتَنالُه آيةٌ أخرى برجاءِ المَغفِرةِ، ويَرجِعُ أمرُه إلى المشيئةِ، فيُنفِذُ اللهُ فيه ما عَلِمَه منه، وكتَبَه له). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٢٧).

وقال الشنقيطي: (التَّحقيقُ إن شاء اللهُ في معنى هذه الآيةِ هو أنَّها في الكفَّارِ، وليست في المؤمنينَ الَّذين يتَمتَّعون باللَّذَّاتِ الَّتي أباحها الله لهم؛ لأنَّه تعالى ما أباحها لهم ليُذهِبَ بها حَسَناتِهم. أمَّا كَوْنُ الآيةِ في الكفَّارِ فقد صرَّح اللهُ تعالى به في قولِه: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ﴾ الآيةَ. والقرآنُ والسُّنَّةُ الصَّحيحةُ قد دَلَّا على أنَّ الكافرَ إنْ عَمِلَ عمَلًا صالحًا مُطابِقًا للشَّرعِ، مُخلِصًا فيه لله؛ كالكافرِ الَّذي يَبَرُّ والِدَيه، ويَصِلُ الرَّحِمَ، ويَقْري الضَّيفَ، ويُنَفِّسُ عن المكروبِ، ويُعينُ المظلومَ يَبتغي بذلك وجْهَ اللهِ: يُثابُ بعمَلِه في دارِ الدُّنيا خاصَّةً بالرِّزقِ والعافيةِ ونحوِ ذلك، ولا نصيبَ له في الآخرةِ. وأمَّا المؤمنُ الَّذي يُجزى بحسَناتِه في الدُّنيا والآخرةِ معًا فلم يُذهِبْ طَيِّباتِه في الدُّنيا؛ لأنَّ حسَناتِه مُدَّخَرةٌ له في الآخرةِ، مع أنَّ اللهَ تعالى يُثيبُه بها في الدُّنيا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٢٩) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٢، ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣١).

قال الماوَرْدي: (﴿بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ يحتملُ ثلاثةَ أوجُهٍ:

أحدُها: تَستَعْلُون على أهلِها بغيرِ استِحقاقٍ.

الثَّاني: تَتغلَّبون على أهلِها بغيرِ دِينٍ.

الثَّالثُ: تَعصُون اللهَ فيها بغيرِ طاعةٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨١).

ممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ: استِكبارُهم عن توحيدِ اللهِ وعن الإيمانِ به وطاعتِه: مقاتلُ =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ * ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٥، ٧٦].

﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾.

أي: وتُجزَونَ عَذابَ الهُونِ؛ بسَبَبِ خُروجِكم عن طاعةِ اللهِ، ووُقوعِكم في مَعصيتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ هذه الآيةُ وإنْ كانت في الكُفَّارِ فهي وازعةٌ لِأُولي النُّهَى مِن المؤمِنينَ عن الشَّهَواتِ، واستِكمالِ الطَّيِّباتِ[2]، وقد تورَّع أميرُ المؤمنينَ عمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ الله عنه عن كثيرٍ مِن طَيِّباتِ المآكِلِ والمَشارِبِ، وتَنزَّهَ عنها، وقال: (إنِّي

---

= ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، والواحدي، وابنُ الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: طلبُ العُلوِّ والرِّفعةِ على أهلِ الأرضِ بغيرِ استِحقاقٍ: السمعاني، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣١).

قال الشوكاني: (جَعَل السَّبَبَ في عذابهم أمْرَين: التَّكَبُّرَ عن اتِّباعِ الحقِّ، والعمَلَ بمعاصي اللهِ سُبحانَه وتعالَى، وهذا شأنُ الكَفَرةِ؛ فإنَّهم قد جمَعوا بيْنَهما). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦).

وقال ابن عاشور: (وقد يأخُذُ المسلِمُ بحَظٍّ مِن هذَينِ الجُرمَينِ فيَكونُ له حَظٌّ مِن جزائِهما الَّذي لَقِيَه الكافِرون، وذلك مُبَيَّنٌ في أحكامِ الدِّينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٠، ١٠١).

أخافُ أن أكونَ كالَّذين قال اللهُ تعالى لهم وقرَّعهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[1]. وقال ابنُ عُمَرَ رضيَ الله عنهما: (لا يُصيبُ عبدٌ مِن الدُّنيا شيئًا إلَّا نقَصَ مِن درَجاتِه عندَ اللهِ، وإن كان عليه كريمًا)[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ إنَّ الصَّالِحينَ يُؤثِرونَ التَّقَشُّفَ والزُّهدَ في الدُّنيا؛ رَجاءَ أن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٤).

ويُنظر ما أخرجه مالكٌ في ((الموطَّأ)) (٢/ ٩٣٦)، وابنُ أبي شَيْبَةَ (٢٤٥٢٤)، وابنُ أبي الدُّنيا في ((الجوع)) (٣٦)، وأبو نُعَيمٍ في ((حلية الأولياء)) (١/ ٤٩).

(٢) أخرجه ابنُ أبي الدُّنيا في ((الزهد)) (٢٩٧)، وجوَّد إسنادَه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحِكَم)) (٢/ ١٨٨).

قال الحَليمي: (هذا الوعيدُ مِن الله [أي: المذكورُ في الآيةِ] وإن كان للكفَّارِ والَّذينَ يُقدِمون على الطَّيِّباتِ المحظورةِ، ولذلك قال: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾، فقد يُخشى مِثلُه على المُنهَمِكينَ في الطَّيِّباتِ المباحةِ؛ لأنَّ مَن تعوَّدها مالتْ نفْسُه إلى الدُّنيا، فلم يُؤمَنْ أن يرتبكَ في الشَّهواتِ والمَلاذِّ، كلَّما أجاب إلى واحدةٍ منها دَعَتْه إلى غيرِها، فيَصيرَ إلى ألَّا يُمكِنَه عِصيانُ نفْسِه في هَوًى قطُّ، ويَنسَدَّ بابُ العبادةِ دُونَه، وإذا آلَ به الأمرُ إلى هذا لم يَبعُدْ أن يُقالَ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾. فلا يَنبغي أن تُعوَّدَ النَّفْسُ بما يَميلُ بها إلى الشَّرَهِ، ثمَّ يَصعُبَ تَدارُكُها، ولْتَرْضَ مِن أوَّلِ الأمرِ على السَّدادِ؛ فإنَّ ذلك أهْوَنُ مِن أن يُدرَّبَ على الفسادِ، ثمَّ يَجتهِدَ في إعادتِها إلى الصَّلاحِ، واللهُ أعلَمُ). ((المِنهاج في شُعَب الإيمان)) (٣/ ٦١، ٦٢).

وقال ابن حجر: (الحقُّ أنَّ مُلازَمةَ استِعمالِ الطَّيِّباتِ تُفضي إلى التَّرَفُّهِ والبَطَرِ، ولا يأمنُ مِن الوُقوعِ في الشُّبُهاتِ؛ لأنَّ مَنِ اعتاد ذلك قد لا يَجِدُه أحيانًا، فلا يستطيعُ الانتِقالُ عنه فيَقَعَ في المحظورِ، كما أنَّ مَنْعَ تَناوُلِ ذلك أحيانًا يُفضي الى التَّنطُّعِ المنهيِّ عنه، ويَرِدُ عليه صريحُ قولِه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، كما أنَّ الأخذَ بالتَّشديدِ في العبادةِ يُفضي إلى المَلَلِ القاطعِ لأصْلِها، ومُلازَمةَ الاقتِصارِ على الفرائضِ مثلًا وتَرْكِ التَّنفُّلِ يُفضي إلى إيثارِ البِطالةِ وعدَمِ النَّشاطِ إلى العبادةِ، وخيرُ الأمورِ الوسَطُ). ((فتح الباري)) (٩/ ١٠٦).

يكونَ ثَوابُهم في الآخِرةِ أكمَلَ، إلَّا أنَّ هذه الآيةَ لا تدُلُّ على المَنعِ مِن التَّنَعُّمِ[١]؛ لأنَّ هذه الآيةَ ورَدَتْ في حَقِّ الكافِرِ، وإنَّما وبَّخ اللهُ الكافِرَ؛ لأنَّه يَتمَتَّعُ بالدُّنيا، ولم يُؤَدِّ شُكرَ المُنعِمِ بطاعتِه والإيمانِ به، وأمَّا المؤمِنُ فإنَّه يُؤدِّي بإيمانِه شُكرَ المُنعِمِ، فلا يُوَبَّخُ بتمَتُّعِه، والدَّليلُ عليه قَولُه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، والاحترازُ عن التَّنَعُّمِ أَوْلى؛ لأنَّ النَّفْسَ إذا اعتادت التَّنَعُّمَ صَعُب عليها الاحترازُ والانقِباضُ، وحينَئذٍ فرُبَّما حمَلَه المَيلُ إلى تلك الطَّيِّباتِ على فِعلِ ما لا ينبغي، وذلك ممَّا يَجُرُّ بَعضُه إلى بعضٍ، ويقَعُ في البُعدِ عن اللهِ تعالى بسَبَبِه[٢].

٣- مَن صام اليومَ عن شَهَواتِه أفطَرَ عليها بعدَ مماتِه، ومَن تعَجَّل ما حُرِّم عليه قبْلَ وَفاتِه عُوقِبَ بحِرمانِه في الآخرةِ وفَواتِه، وشاهِدُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ الآيةَ، وقَولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن شَرِبَ الخَمرَ في الدُّنيا لم يَشرَبْها في الآخِرةِ إلَّا أنْ يَتُوبَ))[٣]، و: ((مَن لَبِسَ الحَريرَ في الدُّنيا لم يَلْبَسْهُ في الآخِرةِ))[٤]، فمَن تَرَكَ اللَّذَّةَ المحرَّمةَ للهِ استَوْفاها يومَ القيامةِ أكمَلَ ما تكونُ، ومَنِ استَوفاها هنا حُرِمَها هناك أو نُقِصَ كمالَها؛ فلا يَجعَلُ اللهُ لَذَّةَ مَن أسرَعَ في معاصيه ومَحارِمِه كلَذَّةِ مَن ترَكَ شَهوتَه

---

(١) قال ابنُ عاشور: (ليس في الآيةِ ما يَقتضي مَنْعَ المُسلِمِ مِن تَناوُلِ الطَّيِّباتِ في الدُّنيا إذا تَوخَّى حَلالَها، وعَمِلَ بواجِبِه الدِّينيِّ فيما عدا ذلك، وإنْ كان الزُّهدُ في الاعتِناءِ بذلك أرفَعَ دَرَجةً، وهي دَرَجةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وخاصَّةٍ مِن أصحابِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٨٨).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٠٣) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ١٤٧).

والحديث الأخير أخرجه البخاريُّ (٥٨٣٢)، ومسلمٌ (٢٠٧٣) واللَّفظُ له مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

للهِ أبدًا[١]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ذكَر الله تعالى فريقَ الكافرينَ، ووصَفهم بعقوقِ الوالدَينِ، وبإنكارِهم البعثَ، وفيه أنَّه لا شيءَ أفحشُ مِن عقوقِ الوالدَينِ، وإنكارِ الحشرِ[٢].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ﴾ يَقتَضي أنَّ الجِنَّ يموتونَ كما يموتُ البَشَرُ قَرنًا بعدَ قَرنٍ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴾ أنَّ الجِنَّ مأمورون مَنهيُّونَ مُكَلَّفونَ بالشَّريعةِ الإسلاميَّةِ؛ فقد أخبَرَ اللهُ أنَّ منهم مَن حَقَّ عليه القَولُ -أي: وَجَبَ عليه العَذابُ-، وأنَّه خاسرٌ، ولا يكونُ ذلك إلَّا في أهلِ التَّكليفِ المُستوجِبينَ العِقابَ بأعمالِهم، ثمَّ قال بعدَ ذلك: ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾ أي: في الخَيرِ والشَّرِّ يُوَفَّونَها ولا يُظلَمونَ شَيئًا مِن أعمالِهم، وهذا ظاهِرٌ جِدًّا في ثَوابِهم وعِقابِهم، وأنَّ مُسيئَهم كما يَستحِقُّ العذابَ بإساءتِه فمُحسِنُهم يَستحِقُّ الدَّرَجاتِ بإحسانِه ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ﴾؛ فدلَّ ذلك لا مَحالةَ أنَّهم كانوا مأمورينَ بالشَّرائعِ، مُتَعَبَّدينَ بها في الدُّنيا؛ ولذلك استحَقُّوا الدَّرَجاتِ بأعمالِهم في الآخِرةِ في الخَيرِ والشَّرِّ[٤]،

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٨).

ثمَّ قال: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾، أي: جزاءَها مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وجَنَّةٍ ونارٍ، وهذا ظاهِرٌ أو نَصٌّ في أنَّ الجِنَّ يُثابُونَ بالإحسانِ، كما يُعاقَبونَ بالعِصيانِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ أنَّ تَفاوُتَ أهلِ النَّارِ في العذابِ هو بحَسَبِ تفاوُتِ أعمالِهم الَّتي دخَلوا بها النَّارَ(٢).

٥- أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ الدُّنيا والغِنى والمالَ إنَّما جَعَلَها اللهُ مُتعةً لِمَن لا نصيبَ له في الآخرةِ؛ وأنَّ الآخِرةَ جَعَلَها للمُتَّقِينَ، فقال جلَّ وعلا: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]، وإلى هذا المعنى أشار النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقولِه لِعُمَرَ رضيَ الله عنه: ((أَمَا تَرضَى أنْ تكونَ لهم الدُّنيا ولنا الآخِرةُ؟))(٣).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ احتُجَّ به على أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّرائعِ؛ لأنَّه عَلَّل عَذابَهم بأمْرَينِ؛ أوَّلُهما: الكُفرُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وثانيهما: الفِسقُ. وهذا الفِسقُ لا بدَّ أن يكونَ مُغايِرًا لذلك الكُفرِ؛ لأنَّ العَطفَ يُوجِبُ المغايَرةَ؛ فثَبَت أنَّ فِسقَ الكُفَّارِ يُوجِبُ العِقابَ في حَقِّهم، ولا معنى للفِسقِ إلَّا تَركُ المأموراتِ وفِعلُ المَنهيَّاتِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٢).

والحديث أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٤٩١٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٤٧٩) مِن حديثِ عمرَ بنِ الخطَّاب رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّ عُقوبةَ التَّكَبُّرِ الهَوانُ والذُّلُّ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ ...﴾ هذا الفريقُ المَقصودُ مِن هذه الآياتِ المَبْدوءةِ بقَولِه تعالى: ﴿وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الأحقاف: ١٥]. وهذا الفريقُ الَّذي كَفَرَ بربِّه وأساء إلى والِدَيْه؛ فجُملةُ ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ﴾ الأحسَنُ أنْ تكونَ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ [الأحقاف: ٧] إلخ؛ وهي انتِقالٌ إلى مَقالةٍ أُخْرى مِن أُصولِ شِرْكِهم؛ وهي مَقالةُ إنْكارِ البَعثِ[2].

- والمُرادُ بـ (الَّذِي قَالَ): الجِنسُ القائلُ ذلك القولَ؛ ولذلك وَقَعَ الخبَرُ مَجموعًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾[3] [الأحقاف: ١٨].

- و﴿أُفّٖ﴾: اسْمُ فِعلٍ بمَعنى: أتضَجَّرُ، وهو هنا مُستعمَلٌ كِنايةً عن أقلِّ الأذى؛ فيَكونُ الَّذين يُؤذُون والِدَيْهم بأكثَرَ مِن هذا أوغَلَ في العُقوقِ الشَّنيعِ، وأحْرى بالحُكْمِ؛ بدَلالةِ فَحْوى الخِطابِ[4].

- والاستِفهامُ في ﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ إنكارٌ وتَعجُّبٌ، وجُعِلَت جُملةُ الحالِ

---

(١) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦، ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٨).

وفحوى الخطاب تقدَّم تعريفه (ص: ٢٧٠).

-وهي ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾- قَيدًا لِمُنتهَى الإنكارِ، أي: كيف يكونُ ذلك في حالِ مُضِيِّ القُرونِ[١]؟!

- وقولُهما: ﴿وَيْلَكَ﴾ دُعاءٌ عليه بالثُّبورِ، والمُرادُ به الحثُّ والتَّحريضُ على الإيمانِ، لا حَقيقةُ الهَلاكِ، حيثُ إنَّ فيه إشْعارًا بأنَّ الفِعلَ المُرتَكبَ حَقيقٌ بأنْ يُهلَكَ مُرتكِبُه، وأنْ يُطلَبَ له الهَلاكُ، فإذا سمِعَ ذلك كان باعثًا على تَرْكِه[٢]، فكلمةُ (وَيْلَك) كَلمةُ تَهديدٍ وتَخويفٍ[٣].

- وليستْ جُملةُ ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ بَيانًا لمعنَى اسْتِغاثَتِهما، ولكنَّها مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه مَعنى الجُملةِ[٤].

- وقولُهما: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ تَعليلٌ لِلْأمْرِ بالإيمانِ، وتَعريضٌ له بالتَّهديدِ مِن أنْ يَحِقَّ عليه وَعْدُ اللهِ[٥].

- وقولُهما: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: البعثَ، أضافَا الوعدَ إليه تعالَى؛ تَحقيقًا للحقِّ، وتَنبيهًا على خَطَئِه في إسنادِ الوعْدِ إليهما[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ ...﴾ اسْتِحضارُ هذا الفريقِ بطَريقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤).

اسمِ الإشارةِ؛ لِزيادةِ تَمْييزِ حالِهم العَجيبةِ[١].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ تَعريفُ العهْدِ، وهو قَولٌ مَعهودٌ عِندَ المُسلمينَ؛ لِمَا تَكرَّرَ في القُرآنِ مِن التَّعبيرِ عنه بالقَولِ في نحوِ آيةِ: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]، ونحوِ قولِه: ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ٧] الآيةَ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تَعليلٌ للحُكمِ بطَريقِ الاستِئنافِ التَّحقيقيِّ[٣].

- وتأْكيدُ الكَلامِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّهم يَظُنُّون أنَّ ما حصَلَ لهم في الدُّنيا مِن التَّمتُّعِ بالطَّيِّباتِ فَوزًا ليس بعْدَه نَكَدٌ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون بالبَعثِ والجَزاءِ[٤].

- وإيرادُ فِعلِ الكَونِ ﴿كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (إنهم خاسِرون)؛ لِلْإشارةِ إلى أنَّ خُسْرانَهم مُحقَّقٌ؛ فكُنِّيَ عن ذلك بجَعْلِهم كائنينَ فيه، فـ (كان) تدُلُّ على أنَّ الخَسارةَ مُتمكِّنةٌ منهم[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ تَنوينُ (كُلٍّ) تَنْوينُ عِوَضٍ عمَّا تُضافُ إليه (كُل)، وهو مُقدَّرٌ يُعلَمُ مِن السِّياقِ، أي: ولكلِّ الفَريقَينِ -المؤمِنُ البارُّ بوالِدَيْه، والكافرُ الجامِعُ بيْن الكُفْرِ والعُقوقِ- دَرَجاتٌ، أي: مَراتِبُ مِن التَّفاوُتِ في الخَيرِ بالنِّسبةِ لِأهْلِ جَزاءِ الخيرِ، وهمُ المُؤمِنون، ودَرَكاتٌ في الشَّرِّ لِأهْلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٩، ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الكُفْرِ[١].

- قولُه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ التَّعبيرُ عن مَراتبِ المُؤمِنينَ والكافرينَ بالدَّرَجاتِ تَغليبٌ؛ لأنَّ الدَّرَجةَ مَرْتبةٌ في العُلوِّ، وهو عُلُوٌّ اعتباريٌّ إنَّما يُناسِبُ مَراتبَ الخَيرِ، وأمَّا المَرتبةُ السُّفْلى فهي الدَّرَكةُ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]؛ ووَجْهُ التَّغليبِ التَّنويهُ بشَأْنِ أهْلِ الخَيرِ[٢].

أو عُبِّر بالدَّرَجاتِ؛ لأنَّه تعالَى لَمَّا ذَكَر الفريقَ الأوَّلَ، ووَصَفَهم بثَباتٍ في القَولِ، واستِقامةٍ في الفِعلِ، ورتَّبَ عليه جَزاءَهم، وأوقَعَ قَولَه: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأحقاف: ١٥] اسْتِطْرادًا في البَيْنِ، وعقَّبَ ذلك بذِكْرِ فَريقِ الكافرينَ، ووصَفَهم بعُقوقِ الوالدَينِ، وبإنْكارِهم البَعثَ، وجعَلَ العُقوقَ أصْلًا في الاعتبارِ، وكرَّرَ في القِسمِ الأوَّلِ الجَزاءَ -وهو ذِكْرُ الجنَّةِ- مِرارًا ثلاثًا، وأفرَدَ جَزاءَ الكافِرِ -وهو ذِكرُ النَّارِ- وأخَّرَه بعْدَ ذِكرِ ما يَجمَعُهما مِن قَولِه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾؛ غلَّب الدَّرَجاتِ على الدَّرَكاتِ لذلك[٣].

وقيل: الدَّرَجاتُ هي: الطَّبقاتُ مِن المراتِبِ مُطلَقًا. أو فيه إضمارٌ، تَقديرُه: ولكلِّ فَريقٍ دَرَجاتٌ أو دَرَكاتٌ، لكنْ حُذِفَ الثَّاني اختِصارًا؛ لِدَلالةِ المَذْكورِ عليه[٤].

وقيل: المرادُ بالدَّرَجاتِ المراتِبُ المُتزايدةُ، إلَّا أنَّ زياداتِ أهلِ الجنَّةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٠، ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢١).

الخَيراتِ والطَّاعاتِ، وزياداتِ أهلِ النَّارِ في المعاصي والسَّيِّئاتِ[١].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ تَبْعيضيَّةٌ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والمُرادُ بـ﴿مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ جَزاءُ ما عَمِلوا، فيُقدَّرُ مُضافٌ[٢].

- وقولُه: ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ هو عِلَّةٌ لِمَحذوفٍ دلَّ عليه الكَلامُ، وتَقديرُه: قدَّرْنا جَزاءَهم على مَقاديرِ دَرجاتِهم؛ لِنُوَفِّيَهم جَزاءَ أعْمالِهم، أي: نُجازِيَهم تامًّا وافيًا لا غَبْنَ فيه[٣].

- وجُملةُ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ احتِراسٌ مَنظورٌ فيه إلى تَوفيةِ أحَدِ الفريقَينِ، وهو الفريقُ المُستحِقُّ للعُقوبةِ؛ لِئلَّا يُحسَبَ أنَّ التَّوفيةَ بالنِّسبةِ إليهم أنْ يكونَ الجَزاءُ أشدَّ ممَّا تَقْتضيهِ أعمالُهم[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ انْتِقالٌ إلى وَعيدِ الكافرينَ على الكُفْرِ بحَذافِرِه، وذلك زائدٌ على الوَعيدِ المُتقدِّمِ المُتعلِّقِ بإنْكارِهم البَعثَ مع عُقوقِهم الوالدَينِ المُسلِمينِ؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ [الأحقاف: ١٧] الآياتِ[٥].

- والكلامُ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: ويُقالُ لِلَّذينَ كفَروا يومَ يُعرَضونَ على النَّارِ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ ...﴾ ومُناسَبةُ ذِكْرِه هنا: أنَّه تَقريرٌ لِمَعنى ﴿لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٩]، أي: لا يُظلَمون في جَزاءِ الآخرةِ، مع أنَّنا أنْعَمْنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عليهم في الدُّنيا، ولو شِئْنا لَعَجَّلْنا لهم الجَزاءَ على كُفْرِهم في الحياةِ الدُّنيا، فهو إعذارٌ لهم وتَقريرٌ لِكَونِهم لا يُظلَمونَ، فرُتِّبَ عليه قولُه: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾؛ فالفاءُ فَصيحةٌ، والتَّقديرُ: إنْ كان كذلك فاليَومَ لم يَبْقَ لكمْ إلَّا جَزاءُ سَيِّئِ أعْمالِكم، وليستِ الفاءُ للتَّفريعِ ولا للتَّسبُّبِ[١].

- قولُه: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ بهَمزةٍ واحدةٍ، على أنَّه خَبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ، وقُرِئَ: ﴿أَأَذْهَبْتُمْ﴾ بهَمْزتينِ[٢]، وهذا الاستِفهامُ هو على مَعنى التَّوبيخِ والتَّقريرِ؛ فتَؤولُ القِراءتانِ إلى مَعنًى واحدٍ[٣].

- وفي هذِه الآيةِ كِنايةٌ عن عَدَمِ الإيمانِ، والمعنى: أنَّه كانتْ تَكونُ لكمْ طَيِّباتُ الآخِرةِ لو آمنْتُم، لكنَّكم لم تُؤمِنوا، فاسْتَعْجَلْتم طَيِّباتِكم في الحياةِ الدُّنيا، ثمَّ بيَّنَ تلك الكِنايةَ بقَولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: تَترفَّعون عن الإيمانِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ أي: بمَعاصي الجوارحِ. وقدَّمَ ذَنْبَ القلْبِ -وهو الاستِكبارُ- على ذَنْبِ الجوارِحِ؛ إذ أعمالُ الجوارِحِ ناشئةٌ عن مُرادِ القلْبِ[٤]، ولأنَّ أحوالَ القُلوبِ أعظَمُ وَقعًا مِن أعمالِ الجوارحِ[٥].

- قولُه: ﴿تَسْتَكْبِرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ قَولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ زيادةٌ لِتَشنيعِ الاستِكبارِ بذِكْرِ ما هو صِفةٌ لازِمةٌ له، وهو مُغايَرةُ الحَقِّ، أي: بالباطِلِ، وهي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٢، ٤٣).

(٢) وهي قراءةُ ابنِ كَثيرٍ، وابنِ عامرٍ، وأبي جَعفرٍ، ويَعْقوبَ، وقرأَها الباقونَ بهمزةٍ واحدةٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣).

حالٌ لازِمةٌ للاستِكبارِ، كاشِفةٌ لِوَصفِه؛ إذِ الاستِكبارُ لا يكونُ بحَقٍّ في جانِبِ الخَلْقِ(١).

وقيل: قَولُه: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ صِلةٌ للاستِكبارِ، وقَيدٌ له؛ فإنَّه يُتَصَوَّرُ أن يَتكَلَّفَ الإنسانُ إعلاءَ نَفْسِه على غَيرِه أو إكثارَه مِنَ الاستِعلاءِ عليه بحَقٍّ، كالتَّرفُّعِ عن المُبطِلينَ، وإهانةِ الجبَّارينَ، واحتِقارِ المحارِبينَ، وإن كان الأصلُ الغالِبُ في الاستِكبارِ أن يكونَ بغيرِ الحَقِّ.

أو المعنى: أنَّهم يَستَكبِرونَ حالةَ كَونِهم مُتلَبِّسينَ بغَيرِ الحَقِّ، أي: مُنغَمِسينَ في الباطِلِ؛ فأمثالُ هؤلاءِ لا قيمةَ للحَقِّ في نَفْسِه عِندَهم، فهم لا يَطلُبونَه، ولا يَبحَثونَ عنه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٩/ ١٠٥). والكلام المذكور على قوله تعالى: ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ١٧٠). والكلام المذكور على قوله: ﴿يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

## الآيات (٢١-٢٥)

﴿ ۞ وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾: الأحقافُ: جَمعُ حِقْفٍ، وهو ما استطالَ وانحنَى مِنَ الرَّملِ كهَيئةِ الجَبَلِ، ولم يَبلُغْ أن يكونَ جَبَلًا، وأصلُ (حقف): يدُلُّ على مَيلِ الشَّيءِ وعِوَجِه[1].

﴿خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾: أي مضَتِ الرُّسُلُ، يُقالُ: خلا الزَّمانُ، أي: مضى وذهَبَ، والنُّذُرُ جمْعُ نذيرٍ، بمعنى مُنذِرٍ، أي: محَذِّرٍ، والإنذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يكادُ يكونُ إلَّا في التَّخويفِ، وأصلُ (نذر): تخويفٌ[2].

﴿لِتَأۡفِكَنَا﴾: أي: لِتَصرِفَنا، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ وصَرفِه عن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١١، ٢٣٢).

جِهتِه[١].

﴿عَارِضًا﴾: أي: سَحابًا يَعرِضُ -أي: يبدو- في ناحيةٍ مِن السَّماءِ؛ سُمِّي بذلك لأنَّه يبدو في عَرضِ السَّماءِ، وأصلُ (عرض): يدُلُّ على خِلافِ الطُّولِ[٢].

﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: الجُرمُ بالضَّمِّ: لا يُطلَقُ إلَّا على الذَّنْبِ الغليظِ، وأصلُه مِن الجَرْمِ وهو القطْعُ، وسُمِّي الذَّنْبُ بالجُرْمِ والجريمةِ؛ لأنَّه كسبٌ، والكسبُ اقْتِطاعٌ[٣].

## المَعنى الإجماليُّ:

يُسلِّي الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم في تكذيبِ مَن كذَّبه مِن قَومِه، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- هُودًا أخا عادٍ في النَّسَبِ حينَ خوَّف قَومَه -الَّذين كانت مَنازِلُهم في مَنطِقةِ الأحقافِ- عذابَ اللهِ على كُفْرِهم، وقد مَضَت الرُّسُلُ مِن قَبلِ هُودٍ ومِن بَعدِه بإنذارِ قَومِهم عذابَ اللهِ إنْ عَبَدوا غيرَه، فأنذَرَهم قائلًا لهم: إنِّي أُحَذِّرُكم عِبادةَ أحَدٍ سِوى اللهِ؛ لأنِّي أخافُ عليكم عذابَ يومٍ هائِلٍ عَظيمٍ.

قال قومُ هودٍ له مُستَنكِرينَ: أجِئْتَنا لِتَصرِفَنا وتَصُدَّنا عن عبادةِ آلهتِنا؟! فإنْ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

كان الأمرُ كما تقولُ فأْتِنا بما تَعِدُنا به مِن العَذابِ العَظيمِ إنْ كُنتَ مِن الصَّادقينَ فيما أخبَرْتَنا به!

قال هودٌ لِقَومِه: إنَّما عِلمُ وَقتِ نُزولِ العَذابِ بكم عندَ اللهِ لا عِندي، وإنَّما أنا رَسولٌ مِنَ اللهِ إليكم، أُبَلِّغُكم ما أُرسِلْتُ به إليكم، فرِسالتي محصورةٌ في التَّبليغِ والإنذارِ، ولكِنِّي أراكم قَومًا تَجهَلونَ الحَقَّ، وتُصِرُّونَ على الباطِلِ.

فأتَى العذابُ الَّذي استعجَلَه قَومُ هودٍ إليهم، فلمَّا رأَوْه بأعيُنِهم مُتمَثِّلًا في سَحابٍ يَظهَرُ في أُفُقِ السَّماءِ مُتَّجِهًا نحوَ أوديَتِهم ومَساكِنِهم، ظَنُّوه مَطَرًا سيَنزِلُ عليهم، ففَرِحوا به، وقالوا: هذا سَحابٌ سيُمطِرُنا! قيلَ لهم: ما رأيتُموه ليس سَحابًا مُمطِرًا كما ظَنَنْتُم، وإنَّما هو العذابُ الَّذي استَعجَلْتُم نُزولَه! هو رِيحٌ فيها عَذابٌ مُوجِعٌ، تُهلِكُ كُلَّ شَيءٍ لَدَى قَومِ هودٍ بإذنِ اللهِ، فأصبحَ قَومُ هُودٍ هالكِينَ كُلُّهم؛ فلا يُرى مِن بلادِهم شَيءٌ إلَّا مَنازِلُهم الَّتي كانوا يَسكُنونَها؛ عِبرةً لِغَيرِهم، مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جازَيْنا به عادًا قَومَ هودٍ نَجزي القَومَ الَّذين مِن دَأْبِهم الإجرامُ والطُّغيانُ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان أهلُ مكَّةَ مُستغرِقينَ في لَذَّاتِ الدُّنيا، مُعرِضينَ عن الإيمانِ وما جاء به الرَّسولُ؛ ذكَّرَهم بما جرَى لِلعرَبِ الأُولى، وهم قَومُ عادٍ، وكانوا أكثَرَ أموالًا، وأشَدَّ قُوَّةً، وأعظَمَ جاهًا فيهم، فسُلِّطَ عليهم العَذابُ بسَببِ كُفْرِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٤).

وأيضًا لَمَّا هَدَّد اللهُ سُبحانَه المُشرِكينَ بالأُمورِ الأُخرويَّةِ، وختَمَ بالعَذابِ على الاستِكبارِ المذمومِ والفِسقِ؛ عَطَف عليه تَهديدَهم بالأُمورِ المحسوسةِ[1].

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- هُودًا أخا عادٍ في النَّسَبِ حينَ خوَّف وحذَّرَ قَومَه عذابَ اللهِ على كُفْرِهم بمَنطِقةِ الأحقافِ الَّتي كانت فيها مَنازِلُهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودًاۗ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

أي: وقد مَضَت الرُّسُلُ بإنذارِ قَومِهم عذابَ اللهِ إنْ عَبَدوا غيرَه، مِن قَبْلِ هُودٍ ومِن بَعدِه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٠، ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِفَ أينَ كانت [أي: الأحقافُ]؟ فقيل: بالشَّامِ. وقيل: بيْنَ عُمَانَ ومَهَرَةَ. وقيل: بيْنَ عُمَان وحَضْرَمَوْتَ. والصَّحيحُ أنَّ بلادَ عادٍ كانت باليَمَنِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٧).

وقال الشنقيطي: (الأحقافُ جمعُ الحِقْفِ، والحِقْفُ: هو الجَبَلُ الممتدُّ العالي مِن الرَّملِ، فهم في رمالٍ هناك، كانت مَنازِلُهم في رمالٍ تتخلَّلُها أوديةٌ في نواحِي اليمنِ أو حَضْرَمَوْتَ). ((العذب النمير)) (٣/ ٤٧٦).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٤).

قال الزَّجَّاج: (أي: قد أُنذِروا بالعذابِ إن عَبدوا غيرَ اللهِ فيما تقَدَّم قبْلَ إنذارِ هودٍ، وعلى لسانِ هودٍ عليه السَّلامُ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٤/ ٤٤٥). ويُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٩٧).

=

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [فصلت: ١٣، ١٤].

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: إنِّي أخافُ أن يُصيبَكم عذابُ يومٍ هائلٍ(١).

---

= وقال الزمخشري: (المعنى: أنَّ هُودًا عليه السَّلامُ قد أنذَرَهم، فقال لهم: لا تَعبُدوا إلَّا اللهَ إنِّي أخافُ عليكم العذابَ، وأعلَمَهم أنَّ الرُّسُلَ الَّذين بُعِثوا قَبْلَه والَّذين سيُبعَثون بعدَه كُلُّهم مُنذِرونَ نحوَ إنذارِه... ولك أن تجعَلَ قَولَه تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ اعتِراضًا بيْنَ ﴿أَنذَرَ قَوْمَهُ﴾ وبيْنَ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾، ويكونَ المعنى: واذكُرْ إنذارَ هُودٍ قَومَه عاقِبةَ الشِّركِ والعذابَ العَظيمَ، وقد أنذَرَ مَن تَقدَّمَه مِنَ الرُّسُلِ ومَن تأخَّرَ عنه مِثلَ ذلك؛ فاذْكُرْهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٦).

وممَّن قال بأنَّ المراد بقَولِه تعالى: ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾: مِن قَبْلِ هودٍ، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾: مِن بَعدِ هُودٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحدي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٤).

وقال ابنُ كثير: (قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ يعني: وقد أرسلَ اللهُ إلى مَن حوْلَ بلادِهم مِن القُرى مُرسَلينَ ومُنذِرينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٥).

وقال ابن عاشور (﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ بمعنى: قريبًا مِن زمانِه، وبعيدًا عنه، فـ ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ معناه القُربُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، أي: قبْلَ العذابِ قَريبًا منه... وأمَّا الَّذي مِن خَلْفِه فنوحٌ؛ فقد قال هودٌ لِقَومِه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وهذا مُراعاةٌ للحالةِ المقصودِ تَمثيلُها، فهو ناظِرٌ إلى قَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: قد خَلَت مِن قَبلِه رُسُلٌ مِثلَ ما خَلَت بتلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

قال ابن عاشور: (وعذابُ اليومِ العظيمِ يحتمِلُ الوعيدَ بعذابِ يومِ القيامةِ، وبعذابِ يومِ الاستِئْصالِ في الدُّنيا، وهو الَّذي عُجِّل لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦). =

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٢ ﴾.

﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا ﴾.

أي: قال كُفَّارُ عادٍ لِنَبيِّهم هودٍ: أجِئْتَنا لِتَصرِفَنا وتَصُدَّنا عن عبادةِ آلهتِنا، فنترُكَها إلى عبادةِ اللهِ وَحْدَه[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٠].

﴿ فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾.

أي: فعَجِّلْ لنا -يا هودُ- هذا العذابَ الَّذي تَعِدُنا به إنْ كُنتَ مِن الصَّادقينَ فيما تدَّعِيه[2]!

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ٢٣ ﴾.

﴿ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾.

أي: قال هودٌ لِقَومِه: إنَّما العِلمُ بوَقتِ مَجيءِ العذابِ عندَ اللهِ لا عندي؛ فهو

---

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ: وُقوعُ هذا العذابِ في الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٢٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: عذابُ يومِ القيامةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

قال البِقاعي: (﴿ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴾ لا يَدَعُ جِهةً إلَّا ملأها عذابُه إنْ أصرَرْتُم على ما أنتم فيه مِنَ الشِّركِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٧).

مَنْ يُنزِلُ عليكم عذابَه متى شاء[١].

﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾.

أي: وإنَّما أنا رَسولٌ مِنَ اللهِ إليكم، وما عَلَيَّ إلَّا أن أُبَلِّغَكم عن رَبِّكم ما أمَرَني بدَعوتِكم إليه مِنَ التَّوحيدِ وغَيرِه[٢].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٦١، ٦٢].

﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾.

أي: ولكِنِّي أراكم قَومًا تَجهَلونَ الحَقَّ؛ فصَدَر منكم ما صَدَر مِن جُرأةٍ على الكُفرِ والتَّكذيبِ[٣].

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَا﴾.

أي: فلمَّا جاء كُفَّارَ عادٍ عَذابُ اللهِ، فرأوه سَحابًا أسْوَدَ مُعترِضًا في الأُفُقِ يَسيرُ نحوَ أودِيَتِهم؛ ظَنُّوه مَطَرًا سيَنزِلُ عليهم، ففَرِحوا به، وقالوا: هذا سَحابٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٦، ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦).

سيُمطِرُنا[١]!

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا عصَفَت الرِّيحُ قال: اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك خَيْرَها وخيرَ ما فيها، وخيرَ ما أُرسِلَتْ به، وأعوذُ بك مِن شَرِّها وشَرِّ ما فيها، وشَرِّ ما أُرسِلَت به. قالت: وإذا تخَيَّلَت[٢] السَّماءُ تغَيَّرَ لَونُه، وخرَجَ ودخَلَ، وأقبَلَ وأدبَرَ، فإذا مَطَرَت سُرِّيَ[٣] عنه، فعَرَفْتُ ذلك في وَجهِه، قالت عائِشةُ: فسألْتُه، فقال: لَعَلَّه يا عائِشةُ كما قال قَومُ عادٍ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾))[٤].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((نُصِرْتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٧، ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٩، ٥٠).

قال ابنُ الجوزي: (قال المفَسِّرون: كان المَطَرُ قد حُبِسَ عن عادٍ، فساقَ اللهُ إليهم سَحابةً سوداءَ، فلمَّا رأَوها فَرِحوا وقالُوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٠).

وقال ابنُ جرير: (العربُ تُسَمِّي السَّحابَ الَّذي يُرى في بَعضِ أقطارِ السَّماءِ عَشِيًّا ثمَّ يُصبِحُ مِن الغَدِ قد استوى وحَبَا بَعضُه إلى بَعضٍ: عارِضًا؛ وذلك لِعَرضِه في بعضِ أرجاءِ السَّماءِ حينَ نشَأَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦).

وقال الماوردي: (وفي تسميتِه عارِضًا ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: لأنَّه أخَذَ في عَرضِ السَّماءِ. قاله ابنُ عيسى. الثَّاني: لأنَّه يملأُ آفاقَ السَّماءِ. قاله النَّقَّاشُ. الثَّالِثُ: لأنَّه مارٌّ مِن السَّماءِ، والعارِضُ هو المارُّ الَّذي لا يَلبَثُ. وهذا أشبَهُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨٣).

وقال ابنُ عاشور: (ويُطلَقُ الوادي على مَحلَّةِ القَومِ ونُزُلِهم إطلاقًا أغلبيًّا؛ لأنَّ غالِبَ مَنازِلِهم في السُّهولِ ومَقارِّ المياهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٩).

(٢) تخَيَّلَتْ: أي: تغَيَّمَت وظَهَر فيها أثَرُ المَطَرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١١٥).

(٣) سُرِّيَ عنه: أي: كُشِفَ الخَوفُ، وأُزيلَ عنه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١١٥).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٨٢٩)، ومسلمٌ (٨٩٩) واللَّفظُ له.

بالصَّبا[١]، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ[٢]))[٣].

﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾.

أي: قيلَ لهم: ما رأيْتُموه ليس سَحابًا مُمطِرًا في الواقِعِ كما ظَنَنْتُم، وإنَّما هو العذابُ الَّذي استَعجَلْتُموه[٤].

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: هو رِيحٌ فيها عَذابٌ مُوجِعٌ شَديدُ الإيلامِ[٥]!

---

(١) الصَّبَا: رِيحٌ شَرقيَّةٌ تهُبُّ مِن مَطلَعِ الشَّمسِ، وهي حارَّةٌ يابِسةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١١٤).

(٢) الدَّبُورُ: رِيحٌ غَربيَّةٌ بارِدةٌ رَطْبةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١١٤).

(٣) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦).

قيل: قائِلُ هذا هو هودٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، قاله لِقَومِه حينَ جاءهم العذابُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والواحديُّ، والزمخشري، وابن عطية، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٨٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، وعَمرُو بنُ مَيمونٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦).

وظاهِرُ كلامِ ابنِ كثيرٍ والسَّعديِّ أنَّه مِن قَولِ الله لهم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عَمرُو بنُ مَيمونٍ في روايةٍ عنه، وابنُ إسحاقَ. يُنظر: ((تفسير سفيان الثوري)) (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٦).

وقال القرطبي: (أي: قال اللهُ: قُلْ: بل هو ما استعجَلْتُم به). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٦).

وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ مِن قَولِ هودٍ إن كان هودٌ بيْنَ ظَهرانَيْهم... أو هو مِن قَولِ بَعضِ رِجالِهم رأى مخائِلَ الشَّرِّ في ذلك السَّحابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٧)، ((البسيط)) =

كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾.

أي: تُهلِكُ الرِّيحُ كُلَّ شَيءٍ مَرَّت به مِمَّا أُرْسِلَتْ بهلاكِه بإذْنِ اللهِ لها في ذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾.

أي: فأصبحَ قَومُ هُودٍ هالِكِينَ كُلُّهم؛ فلا يُرَى مِن بلادِهم شَيءٌ إلَّا مَنازِلُهم الَّتي كانوا يَسكُنونَها(٢).

---

= للواحدي (٢٠/ ١٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٠).

قال ابن جُزَي: (﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ عُمومٌ يُرادُ به الخُصوصُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٨).

قال ابنُ القَيِّم: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي: كُلَّ شَيءٍ يَقبَلُ التَّدميرَ، ومِن شَأنِ الرِّيحِ أن تُدَمِّرَه). ((زاد المعاد)) (٤/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾.

أي: مِثلَ هذا الجزاءِ الَّذي جازَيْنا به عادًا قَومَ هودٍ في الدُّنيا نَجزي القَومَ الكافِرينَ الَّذين طَغَوا وعَتَوا؛ فلْيَحذَرِ المُشرِكونَ المُخالِفونَ أمرَ اللهِ أن نُهلِكَهم كما أهلَكْنا مَن قَبْلَهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا ٱلۡقُرُونَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلۡنَٰكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لِنَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٣، ١٤].

---

= (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

قال الماتُريدي: (وقَولُه عَزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ الآيةَ، يحتمِلُ: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ وَجهَينِ:

أحَدُهما: أي: لم تَترُكِ الرِّيحُ مِن عادٍ ومِمَّا لهم إلَّا مساكِنَهم الَّتي ذَكَرَ.

والثَّاني: ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡ﴾ إلَّا آثارُ مَساكِنِهم.

فعلى أحَدِ التَّأويلَينِ تَرَكت لهم المساكِنَ لم تُهلِكْها، وعلى التَّأويلِ الآخَرِ: تَرَكت آثارَ مَساكِنِهم، فأمَّا نَفْسُ مَساكِنِهم فقد أهلَكَتْها... لكِنْ سَمَّاها مساكِنَ باسْمِ ما قد كان، وأنَّه أمرٌ مُستَعمَلٌ في عُرفِ لِسانِ اللُّغةِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٥٣).

القَولُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ أبقَى مساكِنَ عادٍ على حالِها، ولم تُدَمِّرْها الرِّيحُ: هو اختيارُ ابنِ جرير، والواحدي، والبغوي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٠١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٢٦).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّاني: أنَّ المرادَ بالآيةِ: بقاءُ آثارِ مَساكِنِهم وأنقاضِها: الخازنُ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُه تعالى حكايةً عن هودٍ عليه السَّلامُ: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فيه بَيانُ أنَّه يَنبغي للدَّاعيةِ أن يَقرِنَ الدَّعوةَ بالتَّخويفِ، وأن يكونَ غيرَ مُصَرِّحٍ بذلك؛ لِقَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ﴾، ولم يقُلْ: إنَّكم ستُصابونَ بيَومٍ عَظيمٍ؛ لأنَّ المقامَ يَقتَضي ذلك، ولكُلِّ مَقامٍ مَقالٌ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ عبَّرَ بالأُخُوَّةِ؛ تَسليةً لنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ قَطيعةَ القَومِ لِمَن هو منهم، ويَعلَمونَ مَناقِبَه ومَفاخِرَه: أوجَعُ[2].

٢- قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ أرسلَ اللهُ إليهم أخاهم في النَّسَبِ هُودًا؛ لِيتَمَكَّنوا مِن الأخذِ عنه[3]؛ لأنَّهم عنه أفهَمُ، وبحالِه في الثِّقةِ والأمانةِ أعرَفُ[4].

٣- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ﴾ فيه سُؤالٌ: وصَفَ تعالى هُودًا بأنَّه أخوهم، ومعلومٌ أنَّ تلك الأخوَّةَ ما كانت في الدِّينِ، وإنَّما كانت في النَّسَبِ، وقد قال تعالى في ابنِ نوحٍ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، فبَيَّن أنَّ قَرابةَ النَّسَبِ لا تُفيدُ إذا لم تحصُلْ قَرابةُ الدِّينِ، وهاهنا أثبتَ هذه الأُخُوَّةَ مع الاختلافِ في الدِّينِ، فما الفرقُ بيْنَهما؟

**الجوابُ**: أنَّ المرادَ مِن هذا الكلامِ استِمالةُ قَومِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ قَومَه كانوا يَستبعِدونَ في محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم -مع أنَّه واحِدٌ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٣٣).

قَبيلتِهم- أن يكونَ رَسولًا إليهم مِن عندِ الله، فذكرَ الله تعالى أنَّ هودًا عليه السَّلامُ كان واحِدًا مِن عادٍ؛ لإزالةِ هذا الاستِبعادِ[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍۘ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على جوازِ تَسميةِ القَريبِ الكافِرِ أخًا[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ الوَعدَ قد يُوضَعُ مَوضِعَ الوَعيدِ[٣]. وقيل: سَمَّوا الوعيدَ وَعدًا؛ استِهزاءً به[٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ إنَّما صَلَح هذا الكَلامُ جَوابًا لِقَولِهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ لأنَّ قَولَهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ استِعجالٌ منهم لذلك العَذابِ، فقال لهم هودٌ عليه السَّلامُ: لا عِلمَ عندي بالوَقتِ الَّذي يَحصُلُ فيه ذلك العَذابُ، إنَّما عِلمُ ذلك عندَ اللهِ تعالى ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾ هو التَّحذيرُ عن العذابِ، وأمَّا العِلمُ بوَقتِه فما أوحاه اللهُ إلَيَّ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ التَّخصيصُ بالحِسِّ؛ فإنَّ الحِسَّ دَلَّ على أنَّها لم تُدَمِّرِ السَّماءَ والأرضَ، ومِنَ العُلَماءِ مَن يرى أنَّ ما خُصَّ بالحِسِّ والعَقلِ ليس مِنَ العامِّ المخصوصِ، وإنَّما هو مِنَ العامِّ الَّذي أُريدَ به الخُصوصُ؛ إذ المَخصوصُ لم يكُنْ مُرادًا عندَ المتكَلِّمِ ولا المُخاطَبِ مِن أوَّلِ الأمرِ، وهذه حقيقةُ العامِّ الَّذي أُريدَ به الخُصوصُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٨/ ٣٦٢)، ((تفسير الشربيني)) (٢/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٤).

(٦) يُنظر: ((الأصول من علم الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٤١). =

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ [الأنفال: ٣٣]، فكيفَ يَبقَى التَّخويفُ حاصِلًا؟

**الجوابُ**: قَولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡ﴾ إنَّما أُنزِلَ في آخِرِ الأمرِ؛ فكان التَّخويفُ حاصِلًا قبْلَ نُزولِه(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾

- سِيقَت قِصَّةُ هُودٍ وقَومِه مَساقَ المَوعظةِ لِلمُشرِكينَ الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، كما أخبَرَ اللهُ عنهم مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣]، مع ما أُعقِبَت به مِن الحُجَجِ المُتقدِّمةِ مِن قَولِه: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٤]، الَّذي يُقابِلُه قَولُ هُودٍ ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، ثمَّ قَولِه: ﴿قُلۡ مَا كُنتُ بِدۡعٗا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:

---

= وقد قرَّر الشَّاطبيُّ أنَّ لِلعُمومِ صِيَغًا وضعيَّةً، ثمَّ ذكَر أنَّ للعُمومِ الَّذي تدُلُّ عليه الصِّيَغُ بحسَبِ الوضعِ نظَرَينِ؛ أحدُهما: باعتِبارِ ما تدُلُّ عليه الصِّيغةُ في أصلِ وضْعِها على الإطلاقِ. والثَّاني: بحسَبِ المقاصِدِ الاستِعماليَّةِ الَّتي تَقضي العوائدُ بالقصدِ إليها، وإن كان أصلُ الوضعِ على خِلافِ ذلك، إلى أن قال: (فالحاصلُ أنَّ العُمومَ إنَّما يُعتبَرُ بالاستِعمالِ، ووُجوهُ الاستِعمالِ كثيرةٌ، ولكنَّ ضابِطَها مُقتَضَياتُ الأحوالِ الَّتي هي مِلاكُ البيانِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا﴾ لم يُقصَدْ به أنَّها تُدمِّرُ السَّمواتِ والأرضَ والجبالَ، ولا المياهَ ولا غيرَها ممَّا هو في معناها، وإنَّما المقصودُ: تُدمِّرُ كلَّ شَيءٍ مرَّتْ عليه ممَّا شأنُها أن تؤثِّرَ فيه على الجُملةِ؛ ولذلك قال: ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾. وقال في الآيةِ الأخرى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]). ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ١٨-٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥).

٩]، الَّذي يُقابِلُه قَولُه: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾؛ ذلك كُلُّه بالمَوعظةِ بحالِ هُودٍ عليه السَّلامُ معَ قَومِه. وسِيقَتْ أيضًا مَساقَ الحُجَّةِ على رِسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وعلى عِنادِ قَومِه، بذِكرِ مِثالٍ لِحالِهم مع رَسولِهم بحالِ عادٍ معَ رَسولِهم. ولها أيضًا مَوقِعُ التَّسليةِ لِلرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم على ما تَلقَّاهُ به قَومُه مِن العِنادِ والبُهتانِ؛ لِتَكونَ مَوعِظةً وتَسليةً معًا، يأْخُذُ كلٌّ منها ما يَلِيقُ به. ولا تَجِدُ كَلِمةً أجمَعَ لِلْمعنيَينِ مِن كَلمةِ (اذْكُرْ)؛ لأنَّها تَصلُحُ لِمَعنى الذِّكرِ اللِّسانيِّ؛ بأنْ يُرادَ أنْ يَذكُرَ ذلك لِقَومِه، ولمعنَى الذُّكْرِ بالضَّمِّ؛ بأنْ يَتذكَّرَ تلك الحالةَ في نفْسِه، وإنْ كانت تَقدَّمَت له وأمْثالُها؛ لأنَّ في التَّذكُّرِ مَسلاةً وأُسوةً، كقَولِه تعالَى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]. وكِلَا المَعنيَينِ ناظِرٌ إلى قَولِه آنِفًا: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]؛ فإنَّه إذا قال لهمْ ذلك، تَذكَّروا ما يَعرِفون مِن قَصَصِ الرُّسلِ ممَّا قصَّه عليهم القُرآنُ مِن قبْلُ، وتَذكَّرَ هو -لا مَحالةَ- أحْوالَ رُسلٍ كَثيرينَ، ثمَّ جاءتْ قِصَّةُ هُودٍ مِثالًا لذلك. ومُشرِكو مكَّةَ إذا تَذكَّروا في حالِهم وحالِ عادٍ، وَجَدوا الحالَينِ مُتماثِلَينِ؛ فيَجدُرُ بهم أنْ يَخافوا مِن أنْ يُصِيبَهم مِثلُ ما أصابَهَم(١).

- قولُه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ ...﴾ فيه الاقتِصارُ على ذِكرِ عادٍ؛ لأنَّهم أوَّلُ الأُمَمِ العربيَّةِ الَّذين جاءَهُم رَسولٌ بعْدَ رِسالةِ نُوحٍ العامَّةِ، وقد كانتْ رِسالةُ هُودٍ ورِسالةُ صالِحٍ قبْلَ رِسالةِ إبراهيمَ عليهم السَّلامُ، وتأْتي بعْدَ ذِكرِ قصَّتِهم إشارةٌ إجماليَّةٌ إلى أُمَمٍ أُخْرى مِن العرَبِ كذَّبوا الرُّسلَ، في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ [الأحقاف: ٢٧] الآيةَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٤، ٤٥).

- وأخو عادٍ هو هُودٌ، وعُبِّرَ عنْه هنا بوَصْفِه دُونَ اسْمِه العَلَم؛ لأنَّ المُرادَ بالذِّكْرِ هنا ذِكرُ التَّمثيلِ والمَوعظةِ لِقُريشٍ بأنَّهم أمثالُ عادٍ في الإعراضِ عن دَعوةِ رَسولٍ مِن أُمَّتِهم(١).

- وذُكِرَ الإنذارُ هنا دُونَ الدَّعوةِ أو الإرسالِ؛ لِمُناسَبةِ تَمْثيلِ حالِ قَومِ هُودٍ بحالِ قَومِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فهو ناظِرٌ إلى قَولِه تعالى في أوَّلَ السُّورةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾(٢) [الأحقاف: ٣].

- وجُملةُ ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ اعْتِراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، مُؤكِّدٌ لِوُجوبِ العَملِ بمُوجبِ الإنْذارِ، وُسِّط بيْنَ ﴿أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ﴾ وبيْنَ قَولِه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾؛ مُسارَعةً إلى ما ذُكِرَ مِن التَّقريرِ والتَّأْكيدِ، وإيذانًا باشْتِراكِهم في العِبارةِ المَحكيَّةِ(٣)، على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وأيضًا قولُه: ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ أي: مِن بَعْدِه، وجاء لَفْظُ ﴿خَلَتِ﴾ بالماضي -والمُرادُ: الَّذين سيُبْعَثون- على سَنَنِ الإخبارِ عن المُستقبَلِ بالماضي؛ تَحْقيقًا له(٤). وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وجُملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ تَعليلٌ لِلنَّهيِ في قَولِه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، أي: إنِّي أخافُ عليكم عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ بسَببِ شِرْكِكم، ووُصِفَ اليومُ بالعِظَمِ باعْتِبارِ ما يَحدُثُ فيه مِن الأحداثِ العَظيمةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٩).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٢٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾

- قولُه: ﴿ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا ﴾ جوابٌ عن قَولِه: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [الأحقاف: ٢١]؛ ولذلك جاء فِعلُ ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ مَفْصولًا على طَريقِ المُحاوَرةِ[١].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا ﴾ استِفهامُ تَقريرٍ، وتَوبيخٍ، وإنكارٍ، وتَعجيزٍ لِنَبيِّهم فيما أنْذَرَه إيَّاهم مِن العَذابِ العظيمِ على تَرْكِ إفرادِ اللهِ بالعِبادةِ[٢].

- وهذا الإنكارُ تَعريضٌ بالتَّكذيبِ؛ فلذلك فُرِّعَ عليه ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾، فصَرَّحوا بتَكذيبِه بطَريقِ المَفهومِ، والمعنى: ائْتِنا بالعَذابِ الَّذي تَعِدُنا به، أي: عَذابِ اليومِ العَظيمِ، وإنَّما صَرَفوا مُرادَ هُودٍ بالعَذابِ إلى خُصوصِ عَذابِ الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون بالبَعثِ، وبهذا يُؤذِنُ قَولُه بعْدَه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، وقولُه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ ﴾[٣] [الأحقاف: ٢٤].

- وقولُهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ اسْتِعجالٌ منهم بحُلولِ ما وَعَدَهم به مِن العذابِ؛ ألَا تَرى إلى قَولِه: ﴿بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦ ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؟ وطلَبُ الاستِعجالِ لِيَدلَّ على صِدْقِه؛ إذ الشَّأنُ ألَّا يَتأخَّرَ عن إظْهارِ صِدْقِه لهم[٤].

- وجَعَلوا العَذابَ في مُكْنَتِه يأْتي به متى أرادَ؛ تَهكُّمًا به، إذ قال لهم: إنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٦، ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٥).

مُرسَلٌ مِن اللهِ، فجَعَلوا ذلك مُقْتضيًا أنَّ بيْنَه وبيْنَ اللهِ تَعاوُنًا وتَطاوُعًا، أي: فلا تَتأخَّرْ عن الإتيانِ به، وقدْ دلَّ على هذا الاقْتِضاءِ قَولُه لهم حِينَ نُزولِ العَذابِ: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤]؛ فلذلك كان جَوابُه أنْ قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٢٣]، أي: عِلْمُ وَقتِ إتيانِ العَذابِ مَحْفوظٌ عِندَ اللهِ، لا يطَّلِعُ عليه أحدٌ[١].

وقيل: أسنَدوا الفِعلَ إلى ضَميرِه؛ تَعريضًا بأنَّ ما تَوَعَّدَهم به هو شَيءٌ مِن مُختَلَقاتِه، وليس مِن قِبَلِ اللهِ تعالى[٢]!

- وقولُهم: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أبلَغُ في الوصْفِ بالصِّدْقِ مِن أنْ يُقالَ: (إنْ كُنتَ صادِقًا)، أي: إنْ كُنتَ في قَولِك هذا مِن الَّذين صَدَقوا، أي: فإنْ لم تأْتِ به فما أنْتَ بصادِقٍ فيه[٣].

- وعَقَّبوا كلامَهم بالشَّرطِ فقالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ استِقصاءً لِمَقدِرتِه؛ قَصدًا منهم لإظهارِ عَجزِه عن الإتيانِ بالعَذابِ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دَلَّ عليه ما قَبْلَه، تقديرُه: أتَيْتَ به وإلَّا فلَسْتَ بصادقٍ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لَمَّا جَعَلوا قَولَهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢] فَصْلًا بيْنَهم وبيْنَه فيما أنْذَرَهم، مِن كَونِ عِبادةِ غَيرِ اللهِ تُوجِبُ عَذابَ يَومٍ عَظيمٍ؛ كان الأمْرُ في قَولِهم: ﴿فَأْتِنَا﴾ مُقتضِيًا الفَورَ -أي: طلَبَ تَعجيلِه-؛ لِيَدُلَّ على صِدْقِه؛ إذ الشَّأنُ ألَّا يَتأخَّرَ عن إظْهارِ صِدْقِه؛ فجاء قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨-ب/ ٢٠٩).

جَوابًا لِقَولِهم[١].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلۡعِلۡمُ﴾ لِلاستِغراقِ العُرْفيِّ، أي: عِلْمُ المُغيَّباتِ، أو التَّعريفُ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: وَقتُ العذابِ. وهذا الجَوابُ يَجْري على جَميعِ الاحْتِمالاتِ في مَعنى قَولِهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾؛ لأنَّ جَميعَها يَقْتضي أنَّه عالِمٌ بوَقْتِه[٢].

- والحصْرُ هنا في قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ حَقيقيٌّ، والمَقصودُ مِن هذا الحصْرِ شُمولُه نَفْيَ العِلمِ بوَقتِ العذابِ عن المُتكلِّمِ؛ ردًّا على قَولِهم: ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾[٣].

- ومَوقِعُ الاسْتِدراكِ بقَولِه: ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾ أنَّه عن قَولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾، أي: ولكنَّكم تَجهَلون صِفاتِ الله، وحِكمةَ إرْسالِه الرُّسلَ، فتَحسَبونَ أنَّ الرُّسلَ وَسائطُ لإنْهاءِ اقْتِراحِ الخلْقِ على اللهِ أنْ يُرِيَهم العَجائبَ، ويُساجِلَهم في الرَّغائبِ؛ فمَناطُ الاسْتِدراكِ هو مَعمولُ خَبَرِ (لكنَّ)، وهو ﴿قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ﴾، والتَّقديرُ: ولكنَّكم قَومٌ تَجهَلون؛ فإدْخالُ حَرْفِ الاسْتِدراكِ على ضَميرِ المُتكلِّمِ عُدولٌ عن الظَّاهِرِ؛ لِئلَّا يُبادِرَهم بالتَّجهيلِ؛ اسْتِنزالًا لِطائِرِهم، فجعَلَ جَهْلَهم مَظنونًا له؛ لِيَنظُروا في صِحَّةِ ما ظَنَّه مِن عَدَمِها[٤].

- وإنَّما زِيدَ ﴿قَوۡمٗا﴾ ولم يُقتصَرْ على ﴿تَجۡهَلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ الجَهالةِ منهم، حتَّى صارَتْ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، وللدَّلالةِ على أنَّها عَمَّت

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٧، ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٨).

جَميعَ القَبيلةِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ لِتَفْريعِ بَقيَّةِ القِصَّةِ على ما ذُكِرَ منها، أي: فلمَّا أرادَ اللهُ إصابَتَهم بالعَذابِ، ورَأَوه عارِضًا ﴿قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ﴾ إلى آخِرِه؛ ففي الكلامِ تَقْديرٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، ويُسمَّى التَّفريعُ فيه فَصيحةً، وقدْ طُوِيَ ذِكْرُ ما حَدَثَ بيْنَ تَكْذيبِهم هُودًا وبيْنَ نُزولِ العَذابِ بهم[٢].

- وضَميرُ ﴿رَأَوْهُ﴾ عائدٌ إلى (مَا تَعِدُنَا) [الأحقاف: ٢٢]، وهو العَذابُ. وأُطلِقَ على المَرْئيِّ ضَميرُ العَذابِ؛ لأنَّ المَرْئيَّ سَببُ العذابِ، وهو ما حَمَلَتْه الرِّيحُ[٣].

- قولُه: ﴿أَوْدِيَتِهِمْ﴾ جَمَع الأوديةَ؛ باعتِبارِ كَثرةِ مَنازِلِهم وانتِشارِها[٤].

- وقولُه: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ﴾ مَقولٌ لِقَولٍ مَحذوفٍ، يَجوزُ أنْ يكونَ مِن قَولِ هُودٍ -إنْ كان هُودٌ بيْنَ ظَهْرانَيْهم، ولم يكُنْ خرَجَ قبْلَ ذلك-، أو هو مِن قَولِ بَعضِ رِجالِهم رَأى مَخائلَ الشَّرِّ في ذلك السَّحابِ، وإنَّما حُذِفَ فِعلُ القولِ؛ لِتَمثيلِ قائلِ القولِ كالحاضِرِ وقْتَ نُزولِ هذه الآيةِ، وقد سَمِعَ كَلامَهم، وعَلِمَ غُرورَهم، فنطَقَ بهذا الكلامِ تَرْويعًا لهم، وهذا مِن اسْتِحضارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الحالةِ العَجيبةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ جُعِلَ العَذابُ مَظْروفًا في الرِّيحِ مُبالَغةً في التَّسبُّبِ؛ لأنَّ الظَّرفيَّةَ أشدُّ مُلابَسةً بيْنَ الظَّرْفِ والمَظروفِ مِن مُلابَسةِ السَّببِ والمُسبَّبِ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

- ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ مُستعمَلٌ في كَثرةِ الأشياءِ، والمعنَى: تُدمِّرُ ما مِن شأْنِه أنْ تُدمِّرَه الرِّيحُ مِن الإنسانِ والحَيوانِ والدِّيارِ[٣].

- وفي إضافةِ الرَّبِّ إلى الرِّيحِ في قَولِه: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ دَلالةٌ على عِظَمِ شأْنِها، وأنَّها مِن جُنودِ اللهِ، وممَّا يَسْتقيمُ أنْ يُنسَبَ إلى الرَّبِّ سُبحانه وتَعالَى، ثمَّ دلَّ ذلك على عَظَمةِ بارِئِها، وأنَّ مِثلَ هذا الشَّيءِ العَظيمِ مَمْلوكٌ له، مُنْقادٌ لِتَصرُّفِه، ثمَّ أكَّدَ هذا المعنَى باقْترانِ الأمْرِ معه؛ تَتْميمًا لِتَعظيمِ مَن أُضِيفَ إليها؛ لأنَّ المُرادَ بالأمْرِ واحدُ الأوامِرِ التَّكوينيَّةِ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿تُدَمِّرُ﴾، وفائدةُ هذه الحالِ تَقريبُ كَيفيَّةِ تَدْميرِها كلَّ شَيءٍ، أي: تَدْميرًا عَجيبًا بسَببِ أمْرِ ربِّها، أي: تَسخيرِه الأشياءَ لها؛ فالباءُ للسَّببيَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٠).

- والتَّعقيبُ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ إشارةٌ إلى سُرْعةِ اسْتِئصالِهم، وحُصولِ دَمارِهم مِن غَيرِ رَيبٍ[1].

- وعلَى قِراءةِ ﴿لَا تَرَىٰٓ﴾ بتاءٍ مَفتوحةٍ لِلْخِطابِ[2]، والخِطابُ فيه لِمَن تَتأتَّى منه الرُّؤيةُ حِينَئذٍ؛ فيكونُ إتْمامًا لاستِحضارِ حالةِ دَمارِهم العَجيبةِ، حتَّى كأنَّ الآيةَ نازِلةٌ في وَقتِ حُدوثِ هذه الحادثةِ، وتَنْبيهًا على أنَّ حالَهُم بحيثُ لو حَضَرَ كلُّ أحدٍ بِلادَهم لا يَرَى فيها إلَّا مَساكنَهم[3].

- وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مِثلَ ذلكَ الجزاءِ الفظيعِ نَجْزي القومَ المُجرمينَ، وهو تَهديدٌ لِمُشْرِكي قُرَيشٍ، وإنْذارٌ لهم، وتَوطئةٌ لِقَولِه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾[4] [الأحقاف: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٠١).

(٢) قال ابن الجزري: (قَرَأ يعقوبُ وحمزةُ وعاصِمٌ وَخَلَفٌ، ﴿يُرَىٰٓ﴾ بياءٍ مضمومةٍ على الغيبِ ﴿مَسَٰكِنُهُمْ﴾ بالرَّفعِ، وقرَأ الباقونَ بالتَّاءِ وفتحِها على الخطابِ، وَنَصْبِ ﴿مَسَاكِنَهُمْ﴾). ((النشر في القراءات العشر)) (٢/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥١).

## الآيات (٢٦-٢٨)

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَكَّنَّٰهُمْ﴾: أي: ثبَّتْناهم، وملَّكْناهم، وأقدَرْناهم على ما يُريدونَ برَفعِ الموانِعِ، والتَّمكينُ مِن الشَّيءِ: إعطاءُ ما يَصِحُّ به الفِعلُ مِن الآلاتِ والعُدَدِ والقُوى، وأصلُه مُشتَقٌّ مِن المكانِ، يقالُ: مَكَّن له في الأرضِ: جَعَل له مكانًا فيها[1].

﴿وَأَفْـِٔدَةً﴾: جمعُ فُؤادٍ وهو: القلبُ؛ سُمِّي بذلك لحرارتِه أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشدَّةِ حرارةٍ[2].

﴿يَجْحَدُونَ﴾: أي: يَكْفرونَ، أو يُنكِرونَ بألسنتِهم وهم مُستيقِنونَ، والجُحودُ: نفْيُ ما في القلبِ إثباتُه، وإثباتُ ما في القلبِ نَفْيُه، وأصلُ (جحد): يدُلُّ على قلَّةِ الخَيرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٨/ ١٩) و(١٢/ ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢)، ((تفسير المنار)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧، ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨).

﴿وَحَاقَ﴾: أي: أحاطَ ونَزَل، وأصلُ (حيق): يدُلُّ على نُزُولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[١].

﴿وَصَرَّفْنَا﴾: أي: نَوَّعْنا وبَيَّنَّا، والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، وأصلُه: يدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ[٢].

﴿قُرْبَانًا﴾: القُربانُ: اسمٌ لِما يُتقَرَّبُ به إلى اللهِ مِن ذَبحٍ أو غَيرِه، وأصلُه مَصدَرٌ كالرُّجْحانِ والعُدوانِ والكُفرانِ، ثمَّ سُمِّيَ به نَفْسُ المُتقَرَّبِ به، وأصلُ (قرب): يدُلُّ على خِلافِ البُعْدِ[٣].

﴿إِفْكُهُمْ﴾: أي: كَذِبُهم، وقيل: الإفكُ: أشدُّ الكذبِ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه، فالكذبُ: صرفٌ للكلامِ عمَّا يَنبغي أن يكونَ عليه[٤].

﴿يَفْتَرُونَ﴾: أي: يَختَلِقونَ ويَكْذِبونَ، والافتِراءُ: الاختِلاقُ، وهو ما عَظُمَ مِن الكَذبِ، ومنه قيل: افْترَى فُلانٌ على فُلانٍ، إذا قذَفه بما ليسَ فيه، وأصلُ (فري): قَطْعُ الشَّيءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥ / ٨٠)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٦/ ٢٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٣، ٩٩٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١، ١٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ [الأحقاف: ٢٨]

(لولا): حرفُ توبيخٍ وتنديمٍ بمنزلةِ (هلَّا). ﴿نَصَرَهُمُ﴾: فعلٌ ماضٍ، و (هم): في محَلِّ نَصبٍ، مَفعولٌ به مقدَّمٌ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمٌ مَوصولٌ في محلِّ رَفعٍ، فاعِلٌ مؤخَّرٌ. ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: فعلٌ ماضٍ. والواوُ: ضميرٌ في محلِّ رَفعٍ فاعِلٌ. والمفعولُ الأوَّلُ لـ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ محذوفٌ على كُلِّ تَقديرٍ، وهو عائدُ الموصولِ، أي: اتَّخَذوهم.

﴿قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾ في نَصبِهما عِدَّةُ أوجُهٍ:

**أحَدُها**: أنَّ ﴿ءَالِهَةَۢ﴾: هو المفعولُ الثَّاني للفِعلِ (اتَّخَذ). و﴿قُرْبَانًا﴾: حالٌ مِن (آلِهَةً)، فهو نعتٌ مُقدَّمٌ على النَّكرةِ؛ فانتصَبَ حالًا. والتَّقديرُ: فهلَّا نصَرَهم الَّذين اتَّخَذوهم آلهةً مِن دونِ اللهِ حالَ كَونِها مُتقرَّبًا بها إلى اللهِ عزَّ وجلَّ!

**الثاني**: أنَّ ﴿ءَالِهَةَۢ﴾ مَفعولٌ به ثانٍ. و﴿قُرْبَانًا﴾: مَفعولٌ مِن أجْلِه.

**الثَّالِثُ**: قيل: إنَّ ﴿قُرْبَانًا﴾: مَفعولٌ به ثانٍ. و ﴿ءَالِهَةَۢ﴾: بَدَلٌ منه منصوبٌ مِثلُه. وأفسَده الزَّمخشريُّ مِن جِهةِ المعنى[1].

## المَعنى الإجماليُّ:

يُذكِّرُ اللهُ تعالى كُفَّارَ قُرَيشٍ بما يحمِلُهم على العِظَةِ والعِبرةِ، محذِّرًا لهم، فيقولُ: ولقد مكَّنَّا عادًا قومَ هُودٍ فيما لم نُمكِّنْ لكم فيه؛ مِن كَثرةِ الأموالِ، وقوَّةِ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٦٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٧٧)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٦٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

الأبدانِ، وغيرِ ذلك، وأعطَيْناهم مِن فَضْلِنا أسماعًا وأبصارًا وأفئدةً، ولكِنَّهم لَمَّا لم يَشكُرونا على نِعَمِنا، ولم يَستَعمِلوها في طاعتِنا؛ أخَذْناهم أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ دونَ أن تنفَعَهم أسماعُهم ولا أبصارُهم ولا أفئِدتُهم شيئًا حينَ نزَل بهم عذابُنا؛ لأنَّهم كانوا يُكذِّبونَ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِه، وكَمالِ قُدرتِه، ونَزَل وأحاطَ بهم عذابُ اللهِ، الَّذي كانوا يَسخَرونَ منه، ويُكذِّبونَ بوُقوعِه؛ فاحذَروا -أيُّها المُشرِكونَ- أن يُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم!

ثمَّ يُضيفُ سبحانَه إلى التَّذكيرِ السَّابقِ تذكيرًا آخَرَ، فيقولُ: ولقد أهلَكْنا ما حوْلَكم -يا أهلَ مكَّةَ- مِن القُرى الظَّالِمةِ، كبلادِ عادٍ، وسَبَأٍ، وثَمودَ، ومَدْيَنَ، وغَيرِها، وكرَّرْنا الآياتِ ونوَّعْناها بأساليبَ مُختَلِفةٍ؛ لِيَرجِعوا عن كُفرِهم باللهِ، وتَكذيبِهم بالحَقِّ، فلم يَفعَلوا؛ فأهلَكْناهم!

فهَلَّا نصَرَهم ومنَعَهم مِن عذابِ اللهِ هؤلاء الآلهةُ الَّذين اتَّخَذوهم مِن دونِ اللهِ قُربانًا يَتقَرَّبونَ بهم إليه سُبحانَه! بل غابوا عنهم وتَرَكوهم وَحْدَهم، ولم يَحضُروا إليهم أو يَنصُروهم، واتِّخاذُهم الآلهةَ مِن دونِ اللهِ هو كَذِبُهم وافتِراؤُهم حينَ ادَّعَوا أنَّها آلِهةٌ تَنصُرُهم وتَنفَعُهم، فخذَلَتْهم ولم يَنتَفِعوا بها!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى بهَلاكِ قَومِ عادٍ؛ خاطَبَ قُرَيشًا على سَبيلِ المَوعِظةِ[1]،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٧).

وخَوَّفهم؛ فذَكَر فَضْلَ عادٍ بالقُوَّةِ والجِسمِ عليهم، فقال[١]:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾.

أي: قال اللهُ لكُفَّارِ قُرَيشٍ: ولقد مكَّنَّا عادًا في الَّذي لم نُمكِّنْ لكم فيه؛ مِن كَثرةِ الأموالِ، وقوَّةِ الأبدانِ، وغيرِ ذلك، فأهلَكْناهم بسَبَبِ كُفرِهم، معَ أنَّهم أعظَمُ منكم تمكينًا؛ فلا تَظنُّوا أنَّ ما مُكِّنتُم فيه سيَدفَعُ عنكم شيئًا مِن عذابِ اللهِ إن استَمرَرتُم على كُفرِكم وتَكذيبِكم[٢]!

كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: ٨٢].

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾.

أي: وجعَلْنا لكُفَّارِ عادٍ سَمعًا لِيَسمَعوا به الحَقَّ، وأبصارًا لِيُبصِروه بها، وقُلوبًا لِيَعقِلوه بها، فلم يَنقُصْهم شَيءٌ مِن شأنِه أن يُخِلَّ بإدراكِهم للحَقِّ[٣].

﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٣)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧١، ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٣).

أي: فما نفَعَهم ما أُوتُوه مِنَ السَّمعِ والأبصارِ والعُقولِ شَيئًا؛ إذْ لم يَستَعمِلوها في مَعرِفةِ الصَّوابِ، ولم يُعمِلوها لِدَفعِ العذابِ[1].

﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾.

أي: لم يَنتَفِعْ كُفَّارُ عادٍ بسَمعِهم وأبصارِهم وقُلوبِهم؛ لأنَّهم كانوا يُكذِّبونَ بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ لهم على الحَقِّ[2].

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

أي: ونَزَل وأحاطَ بهم عذابُ اللهِ، الَّذي كانوا يَسخَرونَ منه، ويُكذِّبونَ بوُقوعِه؛ فاحذَروا -أيُّها المُشرِكونَ- أن يُصيبَكم مِثلُ ما أصابَهم[3].

﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا تَمَّ المرادُ مِن الإخبارِ بهَلاكِ عادٍ على ما لهم مِنَ المَكِنَةِ العَظيمةِ؛ لِيَتَّعِظَ بهم مَن سَمِعَ أمْرَهم- أتْبَعَهم مَن كان مُشارِكًا لهم في التَّكذيبِ، فشارَكَهم في الهَلاكِ؛ كأهلِ الحِجْرِ (ثمودَ) وسَبأٍ، ومَدْيَنَ والأَيْكةِ، وقَومِ لُوطٍ وفِرعونَ، وأصحابِ الرَّسِّ، وغَيرِهم ممَّن فيهم مُعتَبَرٌ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٤).

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ ﴾.

أي: ولقد أهلَكْنا ما حوْلَكم -يا أهلَ مكَّةَ- مِن القُرى؛ كبلادِ عادٍ، وسَبَأٍ، وثمودَ، ومَدْيَنَ، وغَيرِها[1].

﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

أي: ونوَّعْنا أصنافَ الآياتِ وبَيَّنَّاها؛ لِيَرجِعوا عن كُفرِهم باللهِ، وتَكذيبِهم بالحَقِّ، فلم يَفعَلوا؛ فأهلَكْناهم[2].

﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان المُشرِكونَ قد جَعَلوا مَحَطَّ حالِهم في الشُّرَكاءِ أنَّهم سَبَبُ التَّواصُلِ بيْنَهم والتَّفاوُتِ، وادَّعَوا أنَّهم يَشفَعونَ فيهم، فيُقَرِّبونَهم إلى اللهِ زُلْفى، ويَمنَعونَهم مِنَ العذابِ في الآخِرةِ، وكان أدنى الأُمورِ التَّسويةَ بيْنَه وبيْنَ عذابِ الدُّنيا- سَبَّب

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

قال القرطبي: (﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ يعني: الحُجَجَ والدَّلالاتِ، وأنواعَ البَيِّناتِ والعِظاتِ، أي: بَيَّنَّاها لأهلِ تلك القُرى... وقيل: أي: صَرَّفْنا آياتِ القُرآنِ في الوَعدِ والوعيدِ، والقَصَصِ والإعجازِ؛ لعَلَّ هؤلاء المُشرِكينَ يَرجِعونَ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩).

وقال الرازي: (﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾: بَيَّنَّاها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: لعلَّ أهلَ القرَى ﴿يَرْجِعُونَ﴾، فالمرادُ بالتَّصريفِ الأحوالُ الهائِلةُ الَّتي وُجِدَتْ قبْلَ الإهلاكِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦).

عن إخبارِه عن إهلاكِ الأُمَمِ الماضيةِ قَولَه[١]:

﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ ﴾.

أي: فهَلَّا نصَرَهم مِن عذابِ اللهِ مَنِ اتَّخَذوهم آلهةً مِن دونِ اللهِ يتقرَّبونَ بعبادتِهم إلى اللهِ؛ لِيَشفَعوا لهم عِندَه[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الجاثية: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨].

﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡ ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما ظنَّ المُشرِكونَ، فلمْ تَنصُرْهم مَعبوداتُهم مِن دونِ اللهِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٥، ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦١، ١٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

قال ابن جرير: (وهذا احتِجاجٌ مِنَ اللهِ لِنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم على مُشرِكي قَومِه، يقولُ لهم: لو كانت آلهتُكم الَّتي تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ تُغْني عنكم شيئًا، أو تَنفَعُكم عندَ الله كما تَزعُمونَ أنَّكم إنَّما تَعبُدونَها لِتُقرِّبَكم إلى اللهِ زُلْفى؛ لَأغْنَتْ عمَّن كان قَبْلَكم مِن الأُمَمِ الَّتي أهلَكْتُها بعبادتِهم إيَّاها، فدَفَعَتْ عنها العذابَ إذا نزَل، أو لَشَفَعَت لهم عندَ ربِّهم؛ فقد كانوا مِن عبادتِها على مِثلِ الَّذي عليه أنتم، ولكِنَّها ضَرَّتْهم ولم تَنفَعْهم!). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٢).

وقال السعدي: (أي: يَتقرَّبونَ إليهم ويتألَّهونَهم؛ لِرَجاءِ نَفعِهم!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

وغابَتْ عنهم عندَ نُزولِ العذابِ بهم، فلم تَنفَعْهم[١]!

﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

أي: اتِّخاذُهم الآلهةَ مِن دونِ اللهِ هو كَذِبُهم وافتِراؤُهم حينَ ادَّعَوا أنَّها آلِهةٌ تَنصُرُهم وتَنفَعُهم، فخذَلَتْهم ولم ينتَفِعوا بها[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾، أي: لا قُصورَ في أسماعِهم ولا أبصارِهم ولا أذهانِهم حتَّى يُقالَ إنَّهم تَرَكوا الحَقَّ جَهلًا منهم، وعدَمَ تَمكُّنٍ مِن العِلمِ به، ولا خَلَلَ في عُقولِهم، ولكِنَّ التَّوفيقَ بيَدِ اللهِ[٣].

٢- يُعَدِّدُ اللهُ سُبحانَه على عِبادِه مِن نِعَمِه عليهم أنْ أعطاهم آلاتِ العِلمِ، فيَذكُرُ الفُؤادَ والسَّمعَ والأبصارَ؛ فهي أشرَفُ الأعضاءِ ومُلوكُها، والمُتصَرِّفةُ فيها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦، ٥٧).

قال البقاعي: (﴿وَذَٰلِكَ﴾ أي: الضَّلالُ البعيدُ مِن السَّدادِ الَّذي تَحصَّلَ مِن هذه القِصَّةِ مِن إخلافِ ما كانوا يقولونَ: إنَّ أوثانَهم آلِهةٌ، وإنَّها تَضُرُّ وتَنفَعُ وتُقَرِّبُهم إلى اللهِ وتَشفَعُ لهم عندَه ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي: صَرْفُهم الأمورَ عن وَجهِها إلى أقفائِها، ويجوزُ أن تكونَ الإشارةُ إلى العذابِ، أي: وهذا العذابُ جزاؤُهم في مُقابَلةِ إفْكِهم). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٧٦، ١٧٧).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: وذلك الاتِّخاذُ إفْكُهم؛ كَذِبُهم وافتِراؤُهم. وقيل: الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إلى امتِناعِ نُصرةِ آلهتِهم لهم، وضَلالِهم عنهم، أي: وذلك أثَرُ إفْكِهم وافتِرائِهم الكَذِبَ على اللهِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٢).

والحاكِمةُ عليها، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾؛ فسَعادةُ الإنسانِ بصِحَّةِ هذه الأعضاءِ الثَّلاثةِ، وشَقاوتُه بفَسادِها[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أنَّ الحُجَجَ السَّمعيَّةَ مُطابِقةٌ للمَعقولِ، والسَّمعَ الصَّحيحَ لا يَنفَكُّ عن العَقلِ الصَّريحِ، بل هما أخَوانِ نَصيرانِ وصَلَ اللهُ بيْنَهما، وقَرَنَ أحدَهما بصاحِبِه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، فذكَرَ ما يُنالُ به العُلومُ، وهي السَّمعُ والبَصَرُ، والفُؤادُ الَّذي هو مَحَلُّ العَقلِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ السَّمعَ والأبصارَ والأفئِدةَ لا تَنفَعُ صاحِبَها مع جَحْدِه بآياتِ اللهِ؛ فتَبيَّنَ أنَّ العَقلَ الَّذي هو مَناطُ التَّكليفِ لا يَحصُلُ بمُجَرَّدِه الإيمانُ النَّافعُ، والمَعرِفةُ المُنْجيةُ مِن عذابِ اللهِ، وهذا العَقلُ شَرطٌ في العِلمِ والتَّكليفِ، لا مُوجِبٌ له[3].

٣- أنَّ الشَّيءَ قد يَنتَفي لِنَفيِ ثَمرتِه والمرادِ منه؛ ولهذا نفَى سُبحانَه عن الكُفَّارِ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ١٩).

الأسماعَ والأبصارَ والعُقولَ لَمَّا لم يَنتَفِعوا بها؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾[1] [الأعراف: ١٧٩].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أنَّ الاستِهزاءَ باللهِ تعالى وآياتِه سَبَبٌ للعَذابِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا اسْتِخلاصٌ لِمَوعظةِ المُشرِكينَ بمِثلِ عادٍ؛ لِيَعْلَموا أنَّ الَّذي قدَرَ على إهْلاكِ عادٍ قادرٌ على إهْلاكِ مَن همْ دُونَهم في القُوَّةِ والعَدَدِ، ولِيَعْلَموا أنَّ القومَ كانوا مِثْلَهم مُسْتجمِعينَ قُوى العقْلِ والحِسِّ، وأنَّهم أهْمَلوا الانتفاعَ بقُواهُم، فجَحَدوا بآياتِ اللهِ، واسْتَهزؤوا بها وبوَعيدِه، فحاقَ بهمْ ما كانوا يَسْتَهزِئون به، وقُريشٌ يَعلَمونَ أنَّ حالَهم مِثلُ الحالِ المَحْكيَّةِ عن أولئكَ، فلْيَتهيَّؤوا لِمَا سيَحُلُّ بهم. ولإفادةِ هذا الاستخلاصِ غُيِّرَ أُسلوبُ الكَلامِ إلى خِطابِ المُشرِكين مِن أهْلِ مكَّةَ؛ فالجُملةُ في مَوضِعِ الحالِ مِن واوِ الجَماعةِ في ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢]، والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن عَدَمِ انْتِفاعِهم بمَواهِبِ عُقولِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن =

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ فيه تأْكيدُ هذا الخبَرِ بلامِ القَسَمِ -مع أنَّ مُفادَه لا شكَّ فيه-، وهو مَصروفٌ إلى المُبالَغةِ في التَّعجيبِ[١].

- ومِن بَديعِ النَّظْمِ أنْ جاءَ النَّفْيُ هنا في قولِه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ بحَرْفِ (إنْ) النَّافيةِ، مع أنَّ النَّفيَ بها أقلُّ اسْتِعمالًا مِن النَّفيِ بـ (ما) النَّافيةِ؛ قَصْدًا هنا لِدَفْعِ الكراهةِ مِن تَوالي مِثْلينِ في النُّطقِ؛ وهُما (ما) الموصولةُ، و(ما) النَّافيةُ، وإنْ كان مَعْناهُما مُختلِفًا[٢].

- وفائدةُ قَولِه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ أنَّهم لم يَنْقُصْهم شَيءٌ مِن شأْنِه أنْ يُخِلَّ بإدْراكِهم الحقَّ لَولا العِنادُ، وهذا تَعْريضٌ بمُشْركي قُريشٍ، أي: أنَّكم حَرَمْتُم أنفُسَكم الانتفاعَ بسَمْعِكم وأبْصارِكم وعُقولِكم كما حُرِمُوه، والحالةُ مُتَّحِدةٌ، والسَّببُ مُتَّحِدٌ، فيُوشِكُ أنْ يكونَ الجَزاءُ كذلك[٣].

- والسَّمْعُ مَصدرٌ دالٌّ على الجِنسِ؛ فكان في قُوَّةِ الجمْعِ، ولا حاجةَ إلى جمْعِه. والأبصارُ جمْعُ بَصَرٍ، وهو في اللُّغةِ العَينُ، وقيل: يُطلَقُ البصرُ على حاسَّةِ الإبصارِ؛ ولذلك جُمِعَ. ولعلَّ إفرادَ السَّمْعِ وجمْعَ الأبصارِ جَرَى على ما يَقْتضيهِ تَمامُ الفَصاحةِ مِن خِفَّةِ أحَدِ اللَّفظينِ مُفْردًا والآخَرِ مَجْموعًا عِندَ اقْترانِهما؛ فإنَّ في انتِظامِ الحُروفِ والحَرَكاتِ والسَّكناتِ في تَنقُّلِ اللِّسانِ سِرًّا عَجيبًا مِن فَصاحةِ كَلامِ القُرآنِ المُعبَّرِ عنها بالنَّظْمِ[٤].

---

= عاشور)) (٢٦/ ٥١، ٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٣٤) و (٢٦/ ٥٣).

- وبدأ بالسَّمعِ؛ لأنَّ المقامَ للإنذارِ المُنبِّهِ بحاسَّةِ السَّمعِ على ما في الآياتِ المَرئيَّاتِ مِن المواعِظِ، فهو أنفَعُ؛ لأنَّه أوضَحُ. وخَتَم بالأفئِدةِ؛ لأنَّها الغايةُ الَّتي ليس بعدَ الإدراكِ بها مُنتهًى، ولا وراءَها مَرمًى[١].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿مِّن شَيۡءٍ﴾؛ لِلتَّنصيصِ على انْتِفاءِ الجِنسِ؛ فلذلك يكونُ ﴿شَيۡءٍ﴾ المَجرورُ بـ(مِن) الزَّائدةِ نائبًا عن المَفعولِ المُطلَقِ؛ لأنَّ المُرادَ: بشَيءٍ مِن الإغناءِ، وحَقُّ (شَيءٍ) النَّصبُ، وإنَّما جُرَّ بدُخولِ حَرْفِ الجرِّ الزَّائدِ[٢].

- قولُه: ﴿إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ (إذ) ظَرْفٌ، أي: مُدَّةَ جُحودِهم، وهو مُستعمَلٌ في التَّعليلِ؛ لاستِواءِ مُؤدَّى الظَّرْفِ ومُؤدَّى التَّعليلِ؛ لأنَّه لَمَّا جُعِلَ الشَّيءُ مِن الإغناءِ مُعلَّقًا نَفْيُه بزَمانِ جَحْدِهم بآياتِ اللهِ -كما يُستفادُ مِن إضافةِ (إذ) إلى الجُملةِ بعْدَها- عُلِمَ أنَّ لِذلك الزَّمانِ تأْثيرًا في نفْيِ الإغناءِ[٣].

- قولُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، أي: أحاطَ بهمُ العذابُ، وعُدِلَ عن اسْمِه الصَّريحِ (العذاب) إلى المَوصولِ ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على ضَلالِهم، وسُوءِ نَظَرِهم[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لخِطابِ أهْلِ مكَّةَ على جِهَةِ التَّمثيلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٢، ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٩٠).

- وأُتبِعَ ضَرْبُ المَثَلِ بحالِ عادٍ مع رَسولِهم بأنَّ ذلك المَثَلَ ليس وَحيدًا في بابِه؛ فقدْ أهْلَكَ اللهُ أقوامًا آخَرينَ مِن مُجاوريهم، تُماثِلُ أحْوالُهم أحْوالَ المُشرِكينَ، وذكَّرَهم بأنَّ قُراهُم قَريبةٌ منْهم يَعرِفُها مَن يَعْرِفونَها، ويسْمَعُ عنها الَّذين لمْ يَرَوها، والجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ ...﴾ [الأحقاف: ٢١] إلخ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ﴾ كُنِّيَ عن إهلاكِ الأقوامِ بإهلاكِ قُراهم؛ مُبالَغةً في اسْتِئصالِهم؛ لأنَّه إذا أُهلِكَت القَريةُ لمْ يَبْقَ أحدٌ مِن أهْلِها[٢].

- قولُه: ﴿وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ تَصريفُ الآياتِ: تَنويعُها باعتِبارِ ما تدُلُّ عليه مِن الغرَضِ المَقصودِ منها، وهو الإقلاعُ عن الشِّرْكِ وتَكذيبِ الرُّسلِ، وأصْلُ مَعنى التَّصريفِ: التَّغييرُ والتَّبديلُ؛ لأنَّه مُشتَقٌّ مِن الصَّرْفِ، وهو الإبعادُ. وكُنِّيَ به هنا عن التَّبْيينِ والتَّوضيحِ؛ لأنَّ تَعدُّدَ أنواعِ الأدِلَّةِ يَزيدُ المَقصودَ وُضوحًا[٣].

- وجُملةُ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ مُستأنَفةٌ لِإنشاءِ التَّرجِّي، ومَوقِعُها مَوقِعُ المَفعولِ لأجْلِه، أي: رَجاءَ رُجوعِهم[٤].

- قوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ تَعريضٌ بمُشْركي أهْلِ مكَّةَ؛ فهمْ سَواءٌ في تَكوينِ ضُروبِ تَصْريفِ الآياتِ زِيادةً على ما صُرِّفَ لهمْ مِن آياتِ إعْجازِ القُرآنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٤، ٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ ﴾ تَفْريعٌ على ما تَقدَّمَ مِن المَوعظةِ بعَذابِ عادٍ المُفصَّلِ، وبعَذابِ أهْلِ القُرى المُجمَلِ؛ فُرِّعَ عليه تَوبيخٌ مُوجَّهٌ إلى آلِهتِهم؛ إذ قَعَدوا عن نَصْرِهم وتَخليصِهم مِنْ قُدْرةِ اللهِ عليهم، والمَقصودُ تَوجيهُ التَّوبيخِ إلى الأُمَمِ المُهلَكةِ على طَريقةِ تَوجيهِ النَّهيِ ونَحْوِه لِغَيرِ المَنْهيِّ؛ لِيَجتَنِبَ المَنْهيُّ أسبابَ المَنْهيِّ عنه، كَقولِهم: لا أعْرِفَنَّك تَفعَلُ كذا، ولا أَرَينَّك هنا[1].

- والمَقصودُ بهذا التَّوبيخِ تَخطئةُ الأُمَمِ الَّذين اتَّخَذوا الأصنامَ للنَّصْرِ والدَّفْعِ، وذلك مُستعمَلٌ تَعريضًا بالسَّامِعينَ المُماثِلينَ لهم في عِبادةِ آلِهةٍ مِن دُونِ اللهِ؛ استِتْمامًا للمَوعظةِ والتَّوبيخِ بطَريقِ التَّنظيرِ وقِياسِ التَّمثيلِ[2]؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾؛ لأنَّ التَّوبيخَ آلَ إلى مَعنى نَفْيِ النَّصرِ[3].

- وحَرْفُ (لَولا) إذا دخَلَ على جُملةٍ فِعليَّةٍ كما هنا في قولِه: ﴿ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةَۢ ﴾، كان أصْلُه الدَّلالةَ على التَّحضيضِ، أي: تَحضيضِ فاعِلِ الفِعلِ الَّذي بعْدَ (لولا) على تَحصيلِ ذلك الفِعلِ، فإذا كان الفاعلُ غَيرَ المُخاطَبِ بالكلامِ، كانتْ (لَولا) دالَّةً على التَّوبيخِ ونَحْوِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٥).

(٢) قياس التَّمثيلِ: هو: حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتراكِهما في عِلَّة الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المشتركَ الكُلِّيَّ، أو: إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما، مِثْلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ هو القياسُ الأصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٥).

إذ لا طائلَ في تَحضيضِ المُخاطَبِ على فِعلِ غَيرِه[١].

- والإتيانُ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢ﴾؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن التَّنبيهِ على الخَطأِ والغَلَطِ في عِبادتِهم الأصنامَ، فلمْ تُغْنِ عنهم شَيئًا. وعُومِلَت الأصْنامُ مُعامَلةَ العُقلاءِ بإطْلاقِ جَمْعِ العُقلاءِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ عليهم؛ جَرْيًا على الغالِبِ في اسْتِعمالِ العرَبِ[٢].

- وقولُه: ﴿قُرۡبَانًا﴾ مصدرٌ بوزنِ (غُفران)، منصوبٌ على المفعولِ لأجْلِه؛ حِكايةً لِزَعْمِهم المَعروفِ المَحْكيِّ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وهذا المَصدرُ مُعترِضٌ بيْنَ ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ ومَفعولِه، و(مِن دُونِ اللهِ) يتعلَّقُ بـ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾، و(دون) بمعنَى المُباعَدةِ، أي: مُتجاوِزينَ اللهَ في اتِّخاذِ الأصنامِ آلِهةً، وهو حِكايةٌ لحالِهم؛ لِزيادةِ تَشْويهِها وتَشنيعِها[٣]. وفيه تَهكُّمٌ بهم[٤].

- قولُه: ﴿بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡ﴾ (بلْ) بمعنى (لكن) إضْرابًا واسْتِدراكًا بعْدَ التَّوبيخِ؛ لأنَّه في معنَى النَّفيِ، أي: ما نَصَرَهم الَّذين اتَّخَذوهم آلِهةً ولا قَرَّبُوهم إلى اللهِ لِيُدفَعَ عنهم العذابُ، بلْ ضَلُّوا عنهم، أي: بلْ غابُوا عنهم وَقتَ حُلولِ العذابِ بهم[٥]؛ فـ (بل) حَرْفُ إضرابٍ وعطْفٍ؛ للانتقالِ عن نَفْيِ النُّصرةِ لِمَا هو أخصُّ منه؛ إذ نَفْيُها يَصدُقُ بحُضورِها عِندَهم بدُونِ النُّصرةِ، فأفاد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٥، ٥٦).

ويُنظر الكلام عن (لولا) في: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٤٥٨)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٩٩-٢٠٠، ٢٤٩-٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

بالإضرابِ أنَّهم لم يَحضُروا بالكُلِّيَّةِ، فضْلًا عن أنْ يَنْصُرُوهم[١].

- وقولُه: ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ فَذْلَكةٌ[٢] لِجُملةِ ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ...﴾ إلخ[٣].

- والافتِراءُ: نَوعٌ مِن الكذِبِ، وهو ابْتِكارُ الأخبارِ الكاذبةِ، ويُرادِفُ الاختِلاقَ؛ فعَطْفُ (مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) على ﴿إِفْكُهُمْ﴾ عطْفُ الأخصِّ على الأعمِّ؛ فإنَّ زَعْمَهم الأصنامَ شُرَكاءَ للهِ كَذِبٌ مَرْويٌّ مِن قبْلُ؛ فهو إفْكٌ، وأمَّا زَعْمُهم أنَّها تُقرِّبُهم إلى اللهِ فذلك افْتِراءٌ اخْتَرَعوهُ[٤].

- وقولُه: ﴿كَانُوا۟﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ افْتِراءَهم راسخٌ فيهم[٥].

- ومَجِيءُ ﴿يَفْتَرُونَ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ افْتِراءَهم مُتكرِّرٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٩١).

(٢) الفَذْلَكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحولقة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذا وكذا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٦، ٥٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٩-٣٢)

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَرَفْنَآ﴾: أي: وَجَّهْنا وبَعَثْنا، وأصلُ (صرف): يدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ[١].

﴿نَفَرًا﴾: النَّفَرُ: ما بيْنَ الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ، ومنه النَّفَرُ؛ لأنَّهم يَنْفِرونَ للنُّصرةِ[٢].

﴿أَنصِتُوا۟﴾: أي: اسْكُتوا سُكوتَ المسْتَمِعينَ، والإنصاتُ: هو الاستِماعُ معَ تركِ الكلامِ، وأصلُ (نصت): يدُلُّ على السُّكوتِ[٣].

﴿وَيُجِرْكُم﴾: أي: يُنقِذْكم ويَمنَعْكم، يُقالُ: أجَرْتُ فُلانًا: إذا استغاثَ بك فحَمَيْتَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٨٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٣).

﴿بِمُعۡجِزٖ﴾: أي: فائِتٍ وسابقٍ، وأصلُ (عجز): يدُلُّ على تأخُّرٍ عن الشَّيءِ[١].

﴿أَوۡلِيَآءُ﴾: أي: أنصارٌ، والوِلايةُ النُّصرةُ، وأصْل (ولي): يدُلُّ على قُرْبٍ؛ سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[٢].

## المَعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا ممَّا أكرم به نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن سماعِ نفَرٍ مِن الجنِّ للقرآنِ، وإيمانِهم به، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ أرسَلْنا إليك طائِفةً مِن الجِنِّ يَستَمِعونَ منك القُرآنَ، فلمَّا حَضَروه قال بَعضُهم لِبَعضٍ: أنصِتوا لِنَستَمِعَ إليه، فلمَّا أنهَى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم قراءتَه انصَرَف أولئك النَّفَرُ إلى قَومِهم مِنَ الجِنِّ مُحَذِّرينَ إيَّاهم مِن عذابِ اللهِ إنْ لم يُؤمِنوا به؛ قالوا لِقَومِهم: يا قَوْمَنا إنَّا سَمِعْنا كِتابًا -وهو القُرآنُ- أُنزِلَ مِن بَعدِ التَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت على موسى مُوافِقًا لِما قَبْلَه مِن كُتُبِ اللهِ، يُرشِدُ إلى الحَقِّ وإلى طَريقٍ مُستَقيمٍ.

يا قَومَنا أجيبوا مُحمَّدًا الدَّاعيَ إلى اللهِ وَحْدَه، وآمِنوا باللهِ يَغفِرْ لكم مِن ذُنوبِكم، ويُنقِذْكم مِن عَذابٍ مُوجِعٍ مُؤلِمٍ، ومَن لا يُجِبْ مُحمَّدًا إلى ما يدعو إليه فلن يُعجِزَ اللهَ بالهَرَبِ منه إذا أراد عُقوبتَه، وليس له مِن دُونِ اللهِ أنصارٌ يَمنَعونَه مِن عذابِ اللهِ، أولئك في ضَلالٍ واضِحٍ عن الحَقِّ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّنَ الله تعالى أنَّ الإنسَ مُؤمِنٌ وكافرٌ؛ ذكَر أنَّ الجِنَّ فيهم مُؤمِنٌ وكافرٌ، وكان ذلك بإثْرِ قِصَّةِ هُودٍ وقَومِه؛ لِمَا كان عليه قَومُه مِن الشِّدَّةِ والقُوَّةِ، والجِنُّ تُوصَفُ أيضًا بذلك، وأنَّ ما أُهلِكَ به قَومُ هُودٍ هو الرِّيحُ، وهو مِن العالَمِ الَّذي لا يُشاهَدُ، وإنَّما يُحَسُّ بِهُبوبِه، والجِنُّ أيضًا مِن العالَمِ الَّذي لا يُشاهَدُ، وأنَّ هُودًا عليه السَّلامُ كان مِن العرَبِ، ورسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن العرَبِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان ما ذُكِرَ مِن البُعدِ مِن الإيمانِ مع تَصريفِ العِظاتِ والعِبَرِ والآياتِ يَكادُ أن يُؤْيِسَ السَّامِعَ مِن إيمانِ هؤلاء المَدْعُوِّينَ؛ قَرَّبَه دَلالةً على عِزَّتِه وحِكمتِه بالتَّذكيرِ بإيمانِ مَن هم أعلَى منهم عُتُوًّا، وأشَدُّ نفرةً، وأبْعَدُ إجابةً، وأخفَى شَخصًا[2].

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ بعَثْنا إليك طائِفةً مِن الجِنِّ يَستَمِعونَ منك القُرآنَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٧، ٥٨).

قال ابنُ عطية: (التَّحريرُ في هذا أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم جاءه جِنٌّ دونَ أن يَعرِفَ بهم، وهم المتفرِّقونَ مِن أجْلِ الرَّجْم، وهذا هو قَولُه تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الجن: ١]، ثمَّ بعدَ ذلك وَفَد عليه وَفدٌ، وهو المذكورُ صَرْفُه في هذه الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٤).

وقال ابنُ كثير -بعد أن ذكر عددًا مِن الأحاديثِ وطُرقِها-: (هذه الطُّرُقُ كُلُّها تدُلُّ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ذهَبَ إلى الجِنِّ قَصدًا، فتلا عليهم القُرآنَ، ودعاهم إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، =

﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾.

أي: فلمَّا حَضَروه قال بَعضُهم لِبَعضٍ: اسكُتوا لِنَستَمِعَ إليه[1].

---

= وشَرَع اللهُ لهم على لِسانِه ما هم محتاجون إليه في ذلك الوَقتِ، وقد يحتَمِلُ أنَّ أوَّلَ مَرَّةٍ سَمِعوه يقرأُ القُرآنَ ولم يَشعُرْ بهم، كما قاله ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما، ثمَّ بعد ذلك وَفَدوا إليه كما رواه ابنُ مَسعودٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٢٩٦).

وقال ابن حجر: (أنكر ابنُ عبَّاسٍ أنَّهم اجتمَعوا بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ... قال: ما قرَأ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ على الجنِّ ولا رآهم. الحديثَ ... فيُجمَعُ بيْنَ ما نفاه وما أثبَتَه غيرُه بتعدُّدِ وُفودِ الجنِّ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فأمَّا ما وقَع في مكَّةَ فكان لاستِماعِ القرآنِ والرُّجوعِ إلى قَومِهم مُنذِرينَ كما وقع في القرآنِ، وأمَّا في المدينةِ فلِلسُّؤالِ عن الأحكامِ ... ويحتملُ أن يكونَ القُدومُ الثَّاني كان أيضًا بمكَّةَ ... ويحتملُ تعدُّدُ القُدومِ بمكَّةَ مرَّتينِ وبالمدينةِ). ((فتح الباري)) (٧/ ١٧١).

وقال البيهقيُّ: (وهذا الَّذي حكاه عبدُ الله بنُ عبَّاسٍ إنَّما هو في أوَّلِ ما سَمِعَتِ الجِنُّ قِراءةَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّمَ، وعَلِمَتْ بحالِه، وفي ذلك الوقتِ لم يَقرَأْ عليهم ولم يَرَهُم، كما حكاه، ثمَّ أتاه داعي الجنِّ مرَّةً أخرى فذهب معه وقرأ عليهم القُرآنَ -كما حكاه عبدُ الله بنُ مسعودٍ- ورأى آثارَهم، وآثارَ نيرانِهم، واللهُ أعلَمُ. وعبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ حَفِظَ القِصَّتَينِ جميعًا فرواهما). ((دلائل النبوة)) (٢/ ٢٢٧).

قال السُّبْكيُّ: (فالأَولى أن يُجعَلَ كلامُ ابنِ عبَّاسٍ غيرَ مُعارِضٍ لكلامِ ابنِ مسعودٍ، وأن يَكونا مرَّتَينِ:

إحداهما: الَّتي ذكرها ابنُ عبَّاسٍ، وهي الَّتي أشار إليها القرآنُ في سورةِ الأحقافِ وفي سورةِ الجنِّ؛ لم يكُنِ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قصَدَهم، ولا شعَرَ بهم، ولا رآهم، ولا قرَأ عليهم قصْدًا، بل سمِعوا قراءتَه وآمَنوا به كما نطَق به الكتابُ العزيزُ. وثُبوتُها مِن حيثُ الجُملةُ قطعيٌّ). ((فتاوى السبكي)) (٢/ ٥٩٩).

وقال الشنقيطي: (وقد دلَّ القرآنُ العظيمُ أنَّ استماعَ هؤلاء النَّفَرِ مِن الجنِّ، وقولَهم ما قالوا عن القرآنِ كلِّه: وقَع ولم يَعلَمْ به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم حتَّى أوحى اللهُ ذلك إليه، كما قال تعالى في القصَّةِ بعَيْنِها، مع بَيانِها وبَسطِها، بتفصيلِ الأقوالِ الَّتي قالَتْها الجنُّ بعدَ استِماعِهم القرآنَ العظيمَ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢] إلى آخرِ الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٦٥، ١٧٠)، =

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾.

أي: فلمَّا فَرَغ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن قراءةِ القُرآنِ انصَرَف أولئك النَّفَرُ إلى قَومِهم مِن الجِنِّ مُخَوِّفينَ لهم، ومُحَذِّرينَ مِن عَذابِ اللهِ إنْ لم يُؤمِنوا به[1].

﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

أي: قالوا لِقَومِهم: يا قَومَنا إنَّا سَمِعْنا كِتابًا -وهو القُرآنُ- أُنزِلَ مِن بَعدِ التَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت على موسى، مُوافِقًا لِما قَبْلَه مِن كُتُبِ اللهِ[2].

﴿يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

أي: يُرشِدُ هذا القُرآنُ إلى الحَقِّ، وإلى طَريقٍ لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلٍ إلى اللهِ

---

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٥).

والضَّميرُ في ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ قيل: يعودُ إلى القُرآنِ. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، والزمخشري، والرَّسْعَني، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠).

وقيل: يعودُ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٠، ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٥).

قال ابن عاشور: (فأبلَغوهم ما سَمِعوا مِن القُرآنِ مِمَّا فيه التَّخويفُ مِن بأسِ الله تعالى لِمَن لا يؤمِنُ بالقُرآنِ، والتَّبشيرُ لِمَن عَمِل بما جاء به القُرآنُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١).

تعالى وإلى جَنَّتِه[١].

﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا مَدَحوا القُرآنَ، وبَيَّنوا مَحلَّه ومَرتَبَتَه؛ دَعَوا قَومَهم إلى الإيمانِ به[٢].

﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾.

أي: يا قَومَنا أجيبُوا مُحمَّدًا رَسولَ اللهِ الَّذي يَدعو إلى اللهِ وَحْدَه وطاعتِه، وآمِنوا باللهِ[٣].

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ بالإيمانِ به؛ ذكَرَ فائِدةَ ذلك الإيمانِ، وهي قَولُه تعالى[٤]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٥).

وقال ابنُ كثير: (قَولُهم: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ أي: في الاعتِقادِ والإخبارِ، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ في الأعمالِ؛ فإنَّ القُرآنَ يَشتَمِلُ على شَيئَينِ: خَبَرٍ وطَلَبٍ؛ فخَبَرُه صِدقٌ، وطَلَبُه عَدلٌ، كما قال: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهُدى هو: العِلمُ النَّافِعُ، ودينُ الحَقِّ: هو العَمَلُ الصَّالحُ. وهكذا قالت الجِنُّ: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ في الاعتِقاداتِ، ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي: في العَمَليَّاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠، ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩).

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾.

أي: فإنْ أجَبْتُم داعيَ اللهِ وآمَنْتُم باللهِ فإنَّ اللهَ يَغفِرُ لكم مِن ذُنوبِكم، فيَستُرُها عليكم ولا يُؤاخِذُكم بها(١).

﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: ويُؤمِّنْكم مِن عَذابٍ مُوجِعٍ شَديدِ الإيلامِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٠٦).

قيل: ﴿مِّن﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ صِلةٌ في الكلامِ، يعني: يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم. وممَّن ذهب إلى هذا: السمرقندي، والبغوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٠٣).

وقيل: هي للتَّبعيضِ، أي: يَغفِرْ لكم بعضَ ذُنوبِكم. وممَّن ذهب إلى أنَّها للتَّبعيضِ: البيضاوي، وابنُ جُزي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦١).

قال ابنُ جُزَي: (﴿مِّن﴾ هنا للتَّبعيضِ على الأصَحِّ، أي: يَغفِرْ لكم الذُّنوبَ الَّتي فعَلْتُم قبْلَ الإسلامِ، وأمَّا الَّتي بعدَ الإسلامِ فهي في مَشيئةِ اللهِ. وقيل: معنى التَّبعيضِ: أنَّ المَظالِمَ لا تُغفَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: أنَّ الَّذي يُغفَرُ هو ما كان في خالِصِ حَقِّ اللهِ، دونَ مَظالِمِ العِبادِ: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

قال ابنُ عاشور: (﴿مِّن﴾ في قَولِه: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ الأظهَرُ أنَّها للتَّعليلِ، فتتعَلَّقُ بفِعلِ ﴿أَجِيبُواْ﴾ باعتبارِ أنَّه مجابٌ بفِعلِ ﴿يَغْفِرْ﴾. ويجوزُ أن تكونَ تبعيضيَّةً، أي: يَغفِرْ لكم بعضَ ذُنوبِكم، فيكونَ ذلك احترازًا في الوَعدِ؛ لأنَّهم لم يَتحَقَّقوا تفصيلَ ما يُغفَرُ مِن الذُّنوبِ وما لا يُغفَرُ؛ إذ كانوا قد سَمِعوا بعضَ القُرآنِ ولم يُحيطوا بما فيه. ويجوزُ أن تكونَ زائدةً للتَّوكيدِ، على رأيِ جماعةٍ مِمَّن يَرَونَ زيادةَ «مِنْ» في الإثباتِ كما تُزادُ في النَّفيِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١).

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّهم حذَّروا قومَهم وتوَعَّدوهم، وأوجَبوا إجابتَهم داعيَ اللهِ بطريقِ التَّرهيبِ، إثْرَ إيجابِها بطريقِ التَّرغيبِ، فقالوا[1]:

﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ومَن لا يُجِبْ مُحمَّدًا رَسولَ اللهِ إلى ما يدعو إليه مِنَ الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، فلن يُعجِزَ اللهَ بالهَرَبِ منه إذا أراد عُقوبتَه؛ فهو في قَبضتِه وسُلْطانِه[2].

كما قال الله تعالى حِكايةً عن قَولِ الجِنِّ: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴾ [الجن: ١٢].

﴿ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾.

أي: وليس له مِن دُونِ اللهِ أنصارٌ يَمنَعونَه ويَحمُونَه مِن عذابِ اللهِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

قال ابن جُزَي: (﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ الآيةَ: يحتملُ أنْ يكونَ مِن كلامِ الجنِّ، أو مِن كلامِ الله تعالى). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ هذا القَولَ مِن كَلامِ الجِنِّ المُنذِرينَ: ابنُ جرير، والرازي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾.

أي: أولئك في انصرافٍ وذَهابٍ واضِحٍ عن الحَقِّ[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾، أي: اسْكُتوا لِلاستِماعِ، ففيه تأدُّبٌ مع العِلمِ، وتعليمُ كيف يُتعَلَّمُ[٢]، وأيضًا فيه تأدُّبٌ مع مُعلِّمِ العلمِ[٣]. وذلك على القولِ بأنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ أنَّ مَن دعا إلى اللهِ على بصيرةٍ وَجَبَ اتِّباعُه[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ المَقصودُ مِن نُزولِ القُرآنِ بخَبَرِ الجِنِّ تَوبيخُ المُشرِكين بأنَّ الجِنَّ -وهم مِن عالَمٍ آخَرَ- عَلِموا القُرآنَ وأيْقَنوا بأنَّه مِن عِندِ اللهِ، والمُشرِكون -وهم مِن عَالَمِ الإنسِ، ومِن جِنسِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم المَبْعوثِ بالقُرآنِ، وممَّن يَتكلَّمُ بِلُغةِ القُرآنِ- لم يَزالُوا في رَيبٍ منه، وتَكذيبٍ وإصرارٍ؛ فهذا مَوعظةٌ لِلمُشرِكين بطَريقِ المُضادَّةِ لِأحوالِهم، بعْدَ أنْ جَرَت مَوعظتُهم بحالِ مُماثِليهم في الكُفْرِ مِن جِنْسِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٧، ٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٤٩).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ هذا للمُشرِكينَ، وإن كانوا لا يُصَدِّقونَه؛ لِتَسجيلِ بُلوغِ ذلك إليهم؛ لِيَنتَفِعَ به مَن يَهتَدي، ولِتُكتَبَ تَبِعَتُه على الَّذين لا يَهتَدونَ[1].

٣- قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ احتُجَّ بقوله: ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ على أنَّ في الجِنِّ الرُّسُلَ والأنبياءَ، فقد قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥].

**والجوابُ عن ذلك**: أن الإنذارَ أعَمُّ مِن الرِّسالةِ، والأعَمُّ لا يَستلزِمُ الأخَصَّ، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]، فهؤلاء نُذُرٌ وليسوا برُسُلٍ. قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: (الرُّسُلُ مِن الإنسِ، وأمَّا الجِنُّ ففيهم النُّذُرُ). فالقولُ بأنَّ في الجِنِّ الرُّسُلَ والأنبياءَ قَولٌ شاذٌّ لا يُلتَفتُ إليه، ولا يُعرَفُ به سَلَفٌ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ وأئمَّةِ الإسلامِ، فلا شَكَّ أنَّ الجِنَّ لم يَبعَثِ اللهُ منهم رَسولًا؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال عن إبراهيمَ الخَليلِ عليه السَّلامُ: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]، فكُلُّ نَبيٍّ بَعَثه اللهُ بعدَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ فمِن ذُرِّيَّتِه وسُلالتِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٢).
قال السيوطي: (جمهورُ العلماءِ سلَفًا وخلَفًا على أنَّه لم يكُنْ مِن الجِنِّ قَطُّ رسولٌ ولا نبيٌّ. كذا رُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهِدٍ، والكَلْبيِّ، وأبي عُبَيدٍ). ((لقط المرجان)) (ص: ٤١).

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قالوا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** قال الحَسَنُ: إنَّهم كانوا على اليَهوديَّةِ.

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّهم قالوا: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾؛ تنبيهًا لِقَومِهم على اتِّباعِ الرَّسولِ؛ إذ كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد بشَّرَ به موسى، فقالوا ذلك مِن حيثُ إنَّ هذا الأمرَ مَذكورٌ في التَّوراةِ(١).

**الوَجهُ الثَّالِثُ:** أنَّ كِتابَ موسى أصلٌ للإنجيلِ، وعُمدةٌ لِبَني إسرائيلَ في أحكامِ الشَّرعِ، وإنَّما الإنجيلُ مُتَمِّمٌ ومُكَمِّلٌ ومُغَيِّرٌ لِبَعضِ الأحكامِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

قال ابن كثير: (كثيرًا ما يَقرِنُ اللهُ بيْنَ التَّوراةِ والقرآنِ، كما في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ٩١] إلى أن قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ﴾ [الأنعام: ٩٢]، وقال في آخرِ السُّورةِ: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]، إلى أن قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥]. وقالت الجِنُّ: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾. وقال وَرَقةُ بنُ نَوْفَلٍ: «هذا النَّاموسُ الَّذي أنزَلَ اللهُ على موسى» [البخاري (٣٣٩٢) ومسلم (١٦٠)]. وقد عُلِم بالضَّرورةِ لِذَوي الألبابِ أنَّ اللهَ لم يُنزِلْ كتابًا مِن السَّماءِ فيما أنزَلَ مِن الكُتبِ المُتعَدِّدةِ على أنبيائِه أكمَلَ ولا أشمَلَ ولا أفصَحَ ولا أعظَمَ ولا أشرَفَ مِن الكتابِ الَّذي أنزَلَ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ، وهو القرآنُ، وبَعْدَه في الشَّرفِ والعَظَمةِ الكِتابُ الَّذي أنزَله على موسى بنِ عِمْرانَ عليه السَّلامُ، وهو التَّوراةُ الَّتي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤]. والإنجيلُ إنَّما نزَل مُتمِّمًا لِلتَّوراةِ، ومُحِلًّا لبعضِ ما حُرِّم على بني إسرائيلَ). ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٢٤٢، ٢٤٣).

**الوَجهُ الرَّابعُ**: أنَّه يحتمِلُ أنَّهم لم يَكونوا سمِعوا بذِكرِ عيسَى عليه السَّلامُ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أنَّ الجِنَّ فيهم الصُّلَحاءُ والعُبَّادُ، والزُّهَّادُ والعلماءُ؛ لأنَّ المُنذِرَ لا بُدَّ أنْ يكونَ عالِمًا بما يُنذِرُ، عابِدًا مُطيعًا للهِ سُبحانَه في الإنذارِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ تَعبيرُهم عنه هاهنا بالطَّريقِ فيه نُكتةٌ بَديعةٌ، وهي أنَّهم قَدَّموا قَبْلَه ذِكرَ موسى، وأنَّ الكِتابَ الَّذي سَمِعوه مُصَدِّقٌ لِمَا بيْنَ يديه مِن كتابِ موسى وغيرِه؛ فكان فيه كالنَّبأِ عن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في قَولِه لِقَومِه: ﴿مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي: لم أكُنْ أوَّلَ رَسولٍ بُعِثَ إلى أهلِ الأرضِ، بل قد تقَدَّمتْ رُسُلٌ مِن اللهِ إلى الأُمَمِ، وإنَّما بُعِثتُ مُصَدِّقًا لهم بمِثلِ ما بُعِثوا به مِن التَّوحيدِ والإيمانِ؛ فقال مُؤمِنو الجنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: إلى سَبيلٍ مَطروقٍ قد مَرَّتْ عليه الرُّسُلُ قبْلَه، وأنَّه ليس بِدْعًا كما قال في أوَّلِ السُّورةِ نَفْسِها؛ فاقتَضَتِ البلاغةُ والإعجازُ لفظَ الطَّريقِ؛ لأنَّه «فعيلٌ» بمعنى «مفعول»، أي: مَطروقٌ مَشَتْ عليه الرُّسُلُ والأنبياءُ قَبْلُ؛ فحَقيقٌ على مَن صَدَّقَ رُسُلَ اللهِ وآمَنَ بهم أنْ يُؤمِنَ به ويُصَدِّقَه؛ فذِكْرُ الطَّريقِ هاهنا إذَنْ أَولى؛ لأنَّه أدخَلُ في بابِ الدَّعوةِ، والتَّنبيهِ على تَعَيُّنِ اتِّباعِه. واللهُ أعلَمُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٦).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أنَّ مُجرَّدَ تلاوةِ القرآنِ على شَخصٍ يكونُ مُلزِمًا له بالاتِّباعِ، فإذا تُلِيَ القرآنُ على إنسانٍ فقد قامتْ عليه الحُجَّةُ؛ ولهذا فالجِنُّ وَلَّوْا إلى قَومِهم مُنذِرينَ بمُجَرَّدِ سَماعِهم القُرآنَ؛ فقِراءةُ القُرآنِ مُلزِمةٌ، لكنْ إذا كان لا يَفهمُ لُغةَ القرآنِ فلا تكونُ مُلزِمةً؛ لِقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤]، ولا يَحصُلُ البيانُ وهو لا يَعرِفُ لُغةَ القُرآنِ(١).

٨- قولُه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ ظاهِرُه أنَّ الجِنَّ كانوا يَتعبَّدونَ بشَريعةِ موسى(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجِنَّ كانوا مُؤمِنينَ بالرُّسُلِ السَّابِقينَ، وأنَّهم يَعلَمونَ كُتُبَهم(٣).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ إلى قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ دَلالةٌ على تكليفِ الجِنِّ مِن وُجوهٍ مُتعَدِّدةٍ:

**أحدُها**: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى صَرَفَهم إلى رَسولِه يَستَمِعونَ القُرآنَ؛ لِيُؤمِنوا به، ويأتَمِروا بأوامِرِه، ويَنتَهوا عن نَواهيه.

**الثَّاني**: أنَّهم وَلَّوا إلى قَومِهم مُنذِرينَ، والإنذارُ هو الإعلامُ بالمَخوفِ بعدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٧/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٠١).

انعقادِ أسبابِه؛ فعُلِمَ أنَّهم مُنذِرونَ لهم بالنَّارِ إنْ عَصَوُا الرَّسولَ.

**الثَّالثُ**: أنَّهم أخبَروا أنَّهم سَمِعوا القُرآنَ وعَقَلوه وفَهِموه، وأنَّه يَهدي إلى الحَقِّ، وهذا القَولُ منهم يدُلُّ على أنَّهم عالِمونَ بموسى وبالكِتابِ المنَزَّلِ عليه، وأنَّ القُرآنَ مُصَدِّقٌ له، وأنَّه هادٍ إلى صراطٍ مُستقيمٍ، وهذا يدُلُّ على تمكينِهم مِن العِلمِ الَّذي تقومُ به الحُجَّةُ، وهم قادِرونَ على امتثالِ ما فيه، والتَّكليفُ إنَّما يَستلزِمُ العَقلَ والقُدرةَ.

**الرَّابعُ**: أنَّهم قالوا لِقَومِهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾، وهذا صَريحٌ في أنَّهم مُكَلَّفون مأمورونَ بإجابةِ الرَّسولِ، وهي تَصديقُه فيما أخبَرَ، وطاعتُه فيما أمَرَ.

**الخامسُ**: أنَّهم قالوا: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾، والمَغفِرةُ لا تكونُ إلَّا عن ذَنبٍ، وهو مُخالَفةُ الأمرِ.

**السَّادسُ**: أنَّهم قالوا: ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾، والذَّنْبُ مُخالَفةُ الأمرِ.

**السَّابعُ**: أنَّهم قالوا: ﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ وهذا يدُلُّ على أنَّ مَن لم يَستجِبْ منهم لِداعي اللهِ لم يُجِرْه مِن العذابِ الأليمِ، وهذا صَريحٌ في تَعَلُّقِ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ بهم.

**الثَّامنُ**: أنَّهم قالوا: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُ﴾ وهذا تهديدٌ لِمَن تَخَلَّفَ عن إجابةِ داعي اللهِ منهم[1].

١١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ يدُلُّ على أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان مَبعوثًا إلى الجِنِّ كما كان مَبعوثًا إلى الإنسِ[2]، فأمْرُ بعضِهم

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الرازي)) =

بعضًا بإجابتِه دليلٌ على أنَّه داعٍ لهم، وهو معنَى بَعثِه إليهم(١).

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ يُفهَمُ مِن ظاهِرِها أنَّ جَزاءَ المُطيعِ مِن الجِنِّ غُفرانُ ذُنوبِه، وإجارتُه مِن عذابٍ أليمٍ، لا دُخولُه الجنَّةَ. وقد تمسَّكَ جماعةٌ مِن العُلَماءِ بظاهِرِ هذه الآيةِ، فقالوا: إنَّ المُؤمِنينَ المُطيعينَ مِن الجِنِّ لا يَدخُلونَ الجنَّةَ، مع أنَّه جاء في آيةٍ أُخرى ما يدُلُّ على أنَّ مُؤمِنيهم في الجنَّةِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]؛ لأنَّه تعالى بَيَّن شُمولَه للجِنِّ والإنسِ بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٧]، ويُستَأنَسُ لهذا بقَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٥٦]؛ لأنَّه يُشيرُ إلى أنَّ في الجنَّةِ جِنًّا يَطمِثونَ النِّساءَ كالإنسِ؟

**الجوابُ**: أنَّ آيةَ (الأحقافِ) نُصَّ فيها على الغُفرانِ والإجارةِ مِن العَذابِ، ولم يُتعَرَّضْ فيها لدُخولِ الجنَّةِ بنَفيٍ ولا إثباتٍ، وآيةَ (الرَّحمن) نُصَّ فيها على

---

= (٢٨/ ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٧).

(١) يُنظر: ((فتاوى السبكي)) (٢/ ٥٩٥).

واستدلَّ السُّبْكيُّ أيضًا على ذلك بمواضعَ أخرى مِن هذه الآياتِ:

ومنها قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ﴾، قال: (والمُنذِرون هم المُخَوِّفون ممَّا يَلحَقُ بمُخالَفتِه لَوْمٌ، فلو لم يكُنْ مَبعوثًا إليهم لَما كان القرآنُ الَّذي أتى به لازمًا لهم، ولا خُوِّفوا به).

ومنها قولُهم: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم﴾، قال: (وذلك يَقتَضي ترتيبَ المغفرةِ على الإيمانِ به، وأنَّ الإيمانَ به شرطٌ فيها، وإنَّما يكونُ كذلك إذا تعلَّقَ حُكمُ رسالتِه بهم، وهو معنَى كَونِه مبعوثًا إليهم).

ومنها قولُهم: ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، قال: (فعدَمُ إعجازِهم وأوليائِهم وكَوْنُهم في ضلالٍ مُرَتَّبٌ على عدَمِ إجابتِه، وذلك أدَلُّ دليلٍ على بَعثتِه إليهم).

دُخولِهم الجنَّةَ؛ لأنَّه تعالى قال فيها: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقد تقرَّر في الأصولِ أنَّ المَوصولاتِ مِن صِيَغِ العُمومِ؛ فقَولُه: (لِمَنْ خَافَ) يَعُمُّ كُلَّ خائفٍ مَقامَ رَبِّه، ثمَّ صَرَّح بشُمولِ ذلك للجِنِّ والإنسِ معًا بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ٤٧]، فبيَّن أنَّ الوَعدَ بالجنَّتَينِ لِمَن خاف مَقامَ رَبِّه: مِن آلائِه، أي: نِعَمِه على الإنسِ والجِنِّ؛ فلا تَعارُضَ بيْنَ الآيتَينِ؛ لأنَّ إحداهما بيَّنَت ما لم تَتعَرَّضْ له الأُخرى[1]، فمُحسِنُ الجِنِّ في الجنَّةِ، كما أنَّ مُسيئَهم في النَّارِ؛ فقد أخبَرَنا سُبحانَه عن نَذيرِهم إخبارَ مُقِرٍّ له أنَّ مَن أجاب داعيَه غُفِرَ له، وأجارَه مِن العَذابِ، ولو كانتِ المغفرةُ لهم إنَّما يَنالونَ بها مُجرَّدَ النَّجاةِ مِن العذابِ كان ذلك حاصِلًا بقَولِه: ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، بل تمامُ المَغفرةِ دُخولُ الجنَّةِ، والنَّجاةُ مِن النَّارِ، فكلُّ مَن غَفَرَ اللهُ له فلا بُدَّ مِن دُخولِه الجنَّةَ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾

- مُناسَبةُ ذِكرِ إيمانِ الجنِّ ما تَقدَّمَ مِن قَولِه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٨]؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ [الأحقاف: ٢١] عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، ويَتعلَّقُ قَولُه هنا: (إذْ صَرَفْنَا) بفِعلٍ يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾، والتَّقديرُ: واذْكُرْ إذ صَرَفْنا إليك نَفَرًا مِن الجِنِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٥١٠-٥١٤).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٧، ٥٨).

- وقولُه: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ قيل: حَضَروا الرَّسولَ، وعليه فهو الْتِفاتٌ مِن ﴿إِلَيْكَ﴾ إلى ضَميرِ الغَيبةِ(١).

- و﴿أَنصِتُواْ﴾ أمْرٌ بتَوجيهِ الأسماعِ إلى الكَلامِ اهتِمامًا به؛ لِئلَّا يَفوتَ منه شَيءٌ، أي: قالُوا كلُّهم: أنْصِتوا، كلُّ واحدٍ يَقولُها لِلْبقيَّةِ؛ حِرْصًا على الوعْيِ، فنَطَقَ بها جَميعُهم(٢).

- والضَّميرُ في قولِه: ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ لِلقُرآنِ بتَقديرِ مُضافٍ، أي: قُضِيَت قِراءتُه، أي: انْتَهى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن القِراءةِ حِينَ حَضَروا(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

- جُملةُ ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ ...﴾ إلى آخِرِها مُبيِّنةٌ لِقَولِه: ﴿مُّنذِرِينَ﴾(٤).

- وابتَدَأَ الجِنُّ إفادةَ قَومِهم بأنَّهم سَمِعوا كِتابًا؛ تَمْهيدًا لِلغرَضِ مِن المَوعِظةِ بذِكرِ الكِتابِ ووَصْفِه؛ لِيَستشرِفَ المُخاطَبون لِمَا بعْدَ ذلك(٥).

- وقَولُ الجِنِّ: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ تَنبيهٌ لِقَومِهم على اتِّباعِ الرَّسولِ؛ إذ كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قد بشَّرَ به مُوسى، فقالوا ذلك مِن حيثُ إنَّ هذا الأمْرَ مَذْكورٌ في التَّوراةِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٥٨، ٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠).

- ووَصْفُ الكِتابِ بأنَّه ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ دُونَ (أُنزِلَ على محمَّدٍ) صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ التَّوراةَ آخِرُ كِتابٍ مِن كُتبِ الشَّرائعِ نَزَلَ قبْلَ القُرآنِ، وأمَّا ما جاء بعْدَه فكُتُبٌ مُكمِّلةٌ لِلتَّوراةِ، ومُبيِّنةٌ لها، مِثْلُ زَبورِ داودَ، وإنجيلِ عيسى، فكأنَّه لم يَنزِلْ شَيءٌ جَديدٌ بعْدَ التَّوراةِ، فلمَّا نَزَلَ القُرآنُ جاء بهَدْيٍ مُستقِلٍّ غَيرِ مَقصودٍ منه بَيانُ التَّوراةِ، ولكنَّه مُصدِّقٌ لِلتَّوراةِ، وهادٍ إلى أزْيَدَ ممَّا هَدَتْ إليه التَّوراةُ[1].

- ووَصَفوه بأنَّه ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾، أي: إلى ما هو حقٌّ في نفْسِه صِدْقٌ، يُعلَمُ ذلك بصَريحِ العقْلِ. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ غايَروا بيْنَ اللَّفظينِ والمعنَى مُتقارِبٌ، ورُبَّما اسْتُعمِلَ أحدُهما في مَوضعٍ لا يُستعمَلُ الآخَرُ فيه؛ فجُمِعَ هنا بيْنَهما، وحَسُنَ التَّكرارُ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾

- في قولِهم: ﴿يَٰقَوۡمَنَآ﴾ إعادةُ الجِنِّ نِداءَ قَومِهم؛ لِلاهتِمامِ بما بعْدَ النِّداءِ، وهو ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخِرِه؛ لأنَّه المَقصودُ مِن تَوجيهِ الخِطابِ إلى قَومِهم، وليس المَقصودُ إعلامَ قَومِهم بما لَقُوا مِن عَجيبِ الحوادِثِ، وإنَّما كان ذلك تَوطئةً لهذا، ولأنَّ اختِلافَ الأغراضِ وتَجدُّدَ الغَرَضِ ممَّا يَقْتضي إعادةَ مِثلِ هذا النِّداءِ، كما يُعِيدُ الخَطيبُ قَولَه: أيُّها النَّاسُ[3].

- و﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ القُرآنَ؛ لأنَّه سَبَقَ في قَولِهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠).

كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾، وأُطلِقَ على القُرآنِ داعِي اللهِ؛ لأنَّه يَشتمِلُ على طَلَبِ الاهتداءِ بهَدْيِ اللهِ، فشُبِّهَ ذلك بدُعاءٍ إلى اللهِ، واشْتُقَّ منه وَصفٌ لِلقُرآنِ بأنَّه داعي اللهِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ داعي اللهِ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّه يَدْعو إلى اللهِ بالقُرآنِ(١).

- وقولُه: ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ أمْرٌ بإجابتِه في كُلِّ ما أَمَر به، فيَدخُلُ فيه الأمرُ بالإيمانِ، إلَّا أنَّه أعاد ذِكْرَ الإيمانِ على التَّعيينِ؛ مِن أجْلِ أنَّه أهَمُّ الأقسامِ وأشرَفُها(٢). فعَطْفُ ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ على ﴿أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ(٣).

- وفي قولِه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّنكيتِ(٤)؛ فقدْ عُبِّرَ بـ(مِن) التَّبعيضيَّةِ إشارةً إلى أنَّ الغُفْرانَ يقَعُ على الذُّنوبِ الخاصَّةِ بيْنَ العبْدِ وربِّه، أمَّا حُقوقُ العِبادِ فلا يُمكِنُ غُفْرانُها إلَّا بعْدَ أنْ يَرْضَى أصحابُها. وكذا فمِن الذُّنوبِ ما يُجازَى به صاحبُه في الدُّنيا بالعقوباتِ والنَّكباتِ والهمومِ ونحوِها، أو يَكونُ ذلك احترازًا في الوعْدِ؛ لأنَّهم لم يَتحقَّقوا تَفصيلَ ما يُغفَرُ مِن الذُّنوبِ وما لا يُغفَرُ؛ إذ كانوا قدْ سَمِعوا بَعضَ القُرآنِ، ولم يُحيطوا بما فيه. وقيل: الأظْهَرُ أنَّها للتَّعليلِ، فتَتعلَّقُ بفِعلِ ﴿أَجِيبُواْ﴾ باعتبارِ أنَّه مُجابٌ بفِعلِ ﴿يَغۡفِرۡ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ صِلَةً للتَّوكيدِ؛ لأنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما قبْلَه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٠، ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦١).

(٤) التَّنكيتُ: هو أن يَقصِدَ المتكلِّمُ إلى شيءٍ بالذِّكر دونَ غيرِه ممَّا يَسُدُّ مسَدَّه مِن أجْلِ نُكتةٍ في المذكورِ تُرجِّحُ مجيئَه على سِواه. وإذا وقَع في التَّشبيهِ فقد بلَغ الغايةَ. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٢/ ٥٥).

فلا يَبْقى معه تَبِعةٌ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إيجابٌ لِلإجابةِ بطَريقِ التَّرهيبِ، إثْرَ إيجابِها بطَريقِ التَّرغيبِ، وتَحقيقٌ لِكَونِهم مُنْذَرينَ[٢].

- وإظهارُ ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ مِن غيرِ اكْتِفاءٍ بأحَدِ الضَّميرَينِ؛ لِلمُبالَغةِ في الإيجابِ بزِيادةِ التَّقريرِ، وتَربيةِ المَهابةِ، وإدْخالِ الرَّوعةِ[٣].

- ومعنَى ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أنَّه لا يَنْجو مِن عِقابِ اللهِ على عَدَمِ إجابتِه داعِيَه؛ فمَفعولُ ﴿بِمُعْجِزٍ﴾ مُقدَّرٌ دلَّ عليه المُضافُ إليه في قَولِه: ﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾، أي: فليس بمُعجزٍ اللهَ، والكَلامُ كِنايةٌ عن المُؤاخَذةِ بالعِقابِ[٤].

- وتَقْييدُ الإعجازِ بكَونِه في الأرضِ؛ لِتَوسيعِ الدَّائرةِ، أي: فليسَ بمُعجِزٍ له تعالَى بالهَرَبِ، وإنْ هَرَب كلَّ مَهْرَبٍ مِن أقْطارِها، أو دخَلَ في أعْماقِها[٥]، فالمَقصودُ مِن قَولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ تَعميمُ الجِهاتِ؛ فجَرى على أُسلوبِ اسْتِعمالِ الكلامِ العربيِّ؛ وإلَّا فإنَّ مَكانَ الجنِّ غَيرُ مُعيَّنٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

- قولُه: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾، أي: لا نَصيرَ يَنصُرُه على اللهِ، ويَحْمِيه منه؛ فهو نفْيٌ لِأنْ يكونَ له سَبيلٌ إلى النَّجاةِ بالاسْتِعصامِ بمَكانٍ لا تَبلُغُ إليه قُدْرةُ اللهِ، ولا بالاحتِماءِ بمَن يَستطيعُ حِمايتَه مِن عِقابِ اللهِ. وذِكرُ هذا تَعريضٌ لِلمُشرِكين(١).

- وجمْعُ الأولياءِ باعتِبارِ مَعْنى (مَنْ)؛ فيَكونُ مِن بابِ مُقابَلةِ الجَمْعِ بالجمْعِ؛ لِانقِسامِ الآحادِ إلى الآحادِ(٢).

- واسمُ الإشارةِ في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ لِلتَّنبيهِ على أنَّ مَن هذه حالُهم جَديرونَ بما يَرِدُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحُكْمِ؛ لِتَسبُّبِ ما قبْلَ اسمِ الإشارةِ فيه(٣).

- والظَّرفيَّةُ المُستفادةُ مِن قولِه: ﴿فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ لِإفادةِ قُوَّةِ تَلبُّسِهم بالضَّلالِ حتَّى كأنَّهم في وِعاءٍ هو الضَّلالُ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٣٣-٣٥)

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭۚ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَعْىَ﴾: أي: يَعجزْ، والعِيُّ: عَدَمُ الاهتِداءِ إلى جهةٍ، ومنه العِيُّ في الكلامِ؛ مِنْ عَيِيَ بالأمرِ: إذا لم يَهتَدِ لِوَجهِ عمَلِه. يُقالُ: عَيِيتَ بالأمرِ: إذا لم تَعرِفْ وَجْهَه. وأصلُ (عيى): يدُلُّ على العَجزِ[1].

﴿ٱلْعَزْمِ﴾: أي: الحَزمِ والصَّبرِ، وأصلُ (عزم): يدُلُّ على القَطعِ[2].

﴿بَلَٰغٌ﴾: أي: تبليغٌ وعِظةٌ، وأصلُ (بلغ): وُصولٌ إلى الشَّيءِ[3].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٨) و (١٧/ ٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٩/ ٣٨٥).

قَولُه: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ﴾: يَعْيَ: مُضارِعُ (عَيِيَ) بالكَسرِ (يَعْيَا) بالفَتحِ، فلمَّا دَخَلَ الجازمُ (لَمْ) حُذِفَت الألِفُ فصار ﴿يَعۡيَ﴾؛ فهو فِعلٌ مُضارعٌ مَجزومٌ، وعلامةُ جَزمِه حَذفُ حَرفِ العلَّةِ، وهو الألِفُ.

قَولُه: ﴿بِقَٰدِرٍ﴾: خبَرُ ﴿أَنَّ﴾ مَرفوعٌ محَلًّا، مجرورٌ لَفظًا، والباءُ: زائِدةٌ مُؤكِّدةٌ، وحَسَّن زيادتَها هنا كَوْنُ ما قَبْلَها -أنَّ مع ما في حَيِّزِها- في حيِّزِ النَّفيِ (لَمْ)، فكأنَّه قيل: أوَلَيسَ اللهُ بقادِرٍ على أن يُحييَ المَوتى؟ ولذلك أُجيبَ عنه بقَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾، ولولاه ما زِيدَت الباءُ في الخبَرِ؛ لو قُلتَ: ظَننتُ أنَّ زيدًا بقائمٍ، لم يَجُزْ. ولو قُلتَ: ما ظَننتُ أنَّ زيدًا بقائمٍ، جاز؛ لدُخولِ (ما) النَّافيةِ[1].

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موبِّخًا المشركينَ، ومُستَدِلًّا على الإعادةِ بعدَ الموتِ: أوَلَمْ يَرَ المُنكِرونَ للبَعثِ يومَ القيامةِ أنَّ اللهَ الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ ولم يَعجِزْ عن خَلْقِهنَّ بقادرٍ على إحياءِ الموتى؟! بلى قادِرٌ سُبحانَه على ذلك؛ إنَّه على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ يخبِرُ تعالى عن حالِ المشركينَ عندَ عَرْضِهم على النَّارِ، متوعِّدًا لهم، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا باللهِ على النَّارِ، ويُقالُ لهم تَوبيخًا: أليس هذا العذابُ حقًّا واقِعًا؟! قالوا: بلى هو حَقٌّ ورَبِّنا! قال اللهُ لهم: فذُوقُوا العذابَ؛ بسَبَبِ كُفرِكم بالحَقِّ في الدُّنيا.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يَصبِرَ على أذَى المكذِّبينَ،

---

(١) يُنظر: ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (١/ ١٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٠).

فيقولُ: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يُصيبُك كما صبَرَ على ذلك أصحابُ العَزمِ والجِدِّ مِن الرُّسُلِ السَّابِقينَ، ولا تَستعجِلْ وُقوعَ العذابِ على المُشرِكينَ؛ فهم مُعَذَّبونَ لا مَحالةَ! كأنَّهم يومَ يَرَونَ عذابَ اللهِ لم يَلبَثوا في الدُّنيا إلَّا ساعةً واحِدةً مِن ساعاتِ النَّهارِ!

هذا القُرآنُ بَلاغٌ مِن اللهِ لِعِبادِه، وما يُهلَكُ بعدَ هذا البَلاغِ إلَّا القَومُ الفاسِقونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا تَمَّ الكَلامُ في التَّوحيدِ وفي النُّبُوَّةِ؛ ذكَرَ عَقِيبَهما تقريرَ مَسألةِ المَعادِ[1].

وأيضًا لَمَّا أتَمَّ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما اقتَضاه مَقصودُ هذه السُّورةِ مِن أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، والتَّحذيرِ مِن سَطَواتِه بذِكرِ بَعضِ مَثُلاتِه، وخَتَم بضَلالِ مَن لم يُجِبِ الدَّاعيَ- نبَّه على أنَّ أوضَحَ الأدِلَّةِ على إحاطتِه بالجَلالِ والجَمالِ، وقُدرتِه على الأجَلِ المُسَمَّى الَّذي خَلَق الخَلْقَ مِن أجْلِه: ما جَلَّى به مَطلَعَ السُّورةِ مِن إبداعِ الخافِقَينِ، وما فيهما مِن الآياتِ الظَّاهِرةِ للأُذُنِ والعَينِ[2].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ﴾.

أي: أوَلَمْ يَرَ المُنكِرونَ للبَعثِ، المُستَبعِدونَ لقِيامِ الأجسادِ يومَ القيامةِ: أنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٥).

الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، ولم يَعجزْ عن خَلْقِهنَّ -على عَظَمتِهنَّ وسَعَتِهنَّ وإتقانِ خَلْقِهنَّ- أنَّه لا يُعجِزُه إعادةُ النَّاسِ أحياءً بعدَ مَوتِهم، وأنَّه قادِرٌ على ذلك قُدرةً عَظيمةً تامَّةً[1]؟!

كما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: قد رأى المُنكِرونَ للبَعثِ وعَلِموا أنَّه قادِرٌ على ذلك؛ إنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قَديرٌ، لا يُعجِزُه سُبحانَه شَيءٌ[2].

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أقامَ اللهُ تعالى الدَّلالةَ على صِحَّةِ القَولِ بالحَشرِ والنَّشرِ؛ ذكَرَ بَعضَ أحوالِ الكُفَّارِ[3]، وذكَّرَ ببَعضِ ما يَحصُلُ في يومِ القيامةِ مِن الأهوالِ؛ تحذيرًا منه[4]، فقال:

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٥-١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٧).

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- يومَ يُعرَضُ الَّذين كَفَروا باللهِ وكَذَّبوا بالبَعثِ على النَّارِ، ويُقالُ لهم تَوبيخًا: أليس هذا العذابُ -الَّذي تَحضُرونَه وتُشاهِدونَه الآنَ، وقد كُنتُم تُكَذِّبونَ به في الدُّنيا- أمرًا ثابتًا واقِعًا[1]؟!

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾.

أي: قال الكُفَّارُ المُكَذِّبونَ بالبَعثِ: بلى، هذا العَذابُ حَقٌّ ثابتٌ وواقعٌ، ونُقسِمُ على ذلك برَبِّنا[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٠].

﴿قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

أي: قال اللهُ لهم: فذُوقُوا هذا العذابَ؛ بسَبَبِ كُفرِكم بالحَقِّ في الدُّنيا[3].

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّرَ المطالِبَ الثَّلاثةَ، وهي: التَّوحيدُ، والنُّبُوَّةُ، والمَعادُ، وأجاب عن الشُّبُهاتِ؛ أردَفَه بما يَجري مَجرَى الوَعظِ والنَّصيحةِ للرَّسولِ صلَّى الله عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢).

وسلَّم؛ وذلك لأنَّ الكُفَّارِ كانوا يُؤذُونَه[١].

﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يُصيبُك في اللهِ مِن الأذى والشَّدائِدِ كما صبَرَ على ذلك أصحابُ العَزمِ والجِدِّ والهِمَّةِ العاليةِ مِن الرُّسُلِ السَّابِقينَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

قال ابنُ عاشور: (﴿أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ﴾: أصحابُ العَزمِ، أي: المتَّصِفونَ به، والعَزمُ: نيَّةٌ مُحقَّقةٌ على عَمَلٍ أو قَولٍ دونَ تردُّدٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٧).

وقال شِهابُ الدِّين الخفاجي: (وأولُو العَزمِ: إمَّا الرُّسُلُ مُطلَقًا، فـ «مِن» بيانيَّةٌ، وهذا أحَدُ الأقوالِ فيه، أو طائِفةٌ مَخصوصةٌ منهم، فـ «مِن» تَبعيضيَّةٌ، وفي تَعيينِهم أقوالٌ). ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٣٧).

وقال ابنُ كثير: (وأشهَرُها [أي: هذه الأقوالِ] أنَّهم: نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى، وخاتمُ الأنبياءِ كُلِّهم محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، قد نصَّ اللهُ على أسمائِهم مِن بيْنِ الأنبياءِ في آيَتَينِ مِن سُورتَيِ الأحزابِ والشُّورى). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٠، ٣١).

وقال ابن تيميَّة: (أُولو العزمِ الَّذين خصَّهم اللهُ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١٣]، وهم يومَ القيامةِ الَّذين تَطلُبُ منهم الأُمَمُ الشَّفاعةَ، وبهم أُمِر خاتمُ الرُّسلِ أن يَقتديَ في الصَّبرِ، فقيل له: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٢).

وقال الشنقيطي: (فالرُّسُلُ الَّذين أُمِرَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَصبِرَ كما صَبَروا: أربَعةٌ، فصار هو صلَّى الله عليه وسلَّم خامِسَهم. واعلَمْ أنَّ القَولَ بأنَّ المرادَ بأُولي العَزمِ جَميعُ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ لَفظةَ «مِن» في قَولِه: ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بَيانيَّةٌ: يَظهَرُ أنَّه خِلافُ التَّحقيقِ، كما دَلَّ على ذلك بَعضُ الآياتِ القُرآنيَّةِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: ٧].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَه بالصَّبرِ الَّذي هو مِن أعلى الفَضائِلِ؛ نهاه عن العَجَلةِ الَّتي هي مِن أُمَّاتِ الرَّذائِلِ؛ لِيَصِحَّ التَّحَلِّي بفَضيلةِ الصَّبرِ، الضَّامِنةِ للفَوزِ والنَّصرِ[1]، فقال:

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾.

---

= [القلم: ٤٨]، فأمَرَ اللهُ جَلَّ وعلا نَبيَّه في آيةِ «القلم» هذه بالصَّبرِ، ونهاه عن أن يكونَ مِثلَ يُونُسَ؛ لأنَّه هو صاحِبُ الحُوتِ، وكقَولِه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]؛ فآيةُ «القلم» وآيةُ «طه» المذكورتانِ: كِلْتاهما تدُلُّ على أنَّ أُولي العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ الَّذين أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يَصبِرَ كصَبْرِهم لَيسوا جميعَ الرُّسُلِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٤١).

ونَسَب السَّمْعانيُّ هذا القَولَ -أي أنَّهم أربعةٌ- إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٧)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٠٤).

وممَّن اختارَ أنَّ «مِنْ» بيانيَّةٌ: ابنُ الأنباري -كما نسَبَه ابنُ الجوزي إليه- والبيضاويُّ، وجلال الدين المحلي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩١).

أي: ولا تَطلُبْ -يا محمَّدُ- تَعجيلَ وُقوعِ العذابِ على المُشرِكينَ؛ فهم مُعَذَّبونَ لا مَحالةَ في الوَقتِ الَّذي قدَّره اللهُ لهلاكِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١٠، ١١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾.

أي: كأنَّهم يومَ يَرَونَ عذابَ اللهِ لم يَلبَثوا في الدُّنيا إلَّا ساعةً واحِدةً مِن ساعاتِ النَّهارِ، ويَنسَونَ طُولَ لُبثِهم في الدُّنيا(٢)!

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٧، ١٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤١، ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣).

قال البقاعي: (﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ﴾ أي: في الدُّنيا عندَ الموتِ مَثلًا، أو في الآخرةِ وقتَ العَرضِ والحِسابِ والهَولِ الأعظَمِ الأكبَرِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٩١).

وقال الرازي: (أُخْبِر [النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم] أنَّ ذلك العذابَ منهم قريبٌ، وأنَّه نازِلٌ بهم لا مَحالةَ وإنْ تأخَّر، وعندَ نزولِ ذلك العذابِ بهم يَسْتَقْصِرونَ مُدَّةَ لُبْثِهم في الدُّنيا، حتَّى يَحْسِبونَها ساعةً مِن نهارٍ، والمعنَى أنَّهم إذا عايَنوا العذابَ صار طولُ لُبْثِهم في الدُّنيا والبَرزخِ كأنَّه ساعةٌ مِن النَّهارِ، أو كأنْ لم يَكُنْ؛ لِهَوْلِ ما عايَنوا، أو لأنَّ الشَّيءَ إذا مضَى صارَ كأنَّه لم يَكُنْ، وإنْ كانَ طويلًا). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣١).

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ۞ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٥، ٥٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

﴿بَلَٰغٞ﴾.

أي: هذا القُرآنُ بَلاغٌ مِن اللهِ لِعِبادِه(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ أنَّ القُرآنَ بلاغٌ: الثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٢).

قال ابن الجوزي: (وفي معنى وَصفِ القرآنِ بالبَلاغِ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّ البلاغَ بمعنى التَّبليغِ.

والثَّاني: أنَّ معناه الكِفايةُ، فيكونُ المعنى: ما أخبَرْناهم به لهم فيه كفايةٌ وغِنًى). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٤).

وذكر ابنُ جريرٍ وَجهًا آخَرَ، وهو أنَّ المعنى: لم يَلبَثوا إلَّا ساعةً مِن نهارٍ، ذلك لُبْثُ بَلاغٍ، أي: ذلك بلاغٌ لهم في الدُّنيا إلى آجالِهم، ثمَّ حُذِفَت «ذلك لُبْثُ»؛ اكتِفاءً بدَلالةِ ما ذُكِرَ في الكلامِ عليها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٨).

وقال السعدي: (أي: هذه الدُّنيا مَتاعُها وشَهوتُها ولَذَّاتُها بُلغةٌ مُنغَّصةٌ، ودَفعُ وَقتٍ حاضرٍ قَليلٍ. أو: هذا القرآنُ العَظيمُ الَّذي بيَّنَّا لكم فيه البيانَ التَّامَّ بلاغٌ لكم، وزادٌ إلى الدَّارِ الآخرةِ، ونِعْمَ الزَّادُ والبُلغةُ زادٌ يُوصِلُ إلى دارِ النَّعيمِ، ويَعصِمُ مِن العذابِ الأليمِ؛ فهو أفضَلُ زادٍ يتزَوَّدُه الخلائِقُ، =

كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

﴿فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾.

أي: فهل يُهلَكُ بالعذابِ بعدَ هذا البَلاغِ إلَّا القَومُ الَّذين خَرَجوا عن طاعةِ اللهِ تعالى، وكَفَروا به، وخالَفوا أوامِرَه؛ فاستحَقُّوا عَذابَه[1]؟

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في القُرآنِ مِن قصصِ المُرسَلينَ الَّتي فيها تَسليةٌ وتَثبيتٌ؛ لِيُتأسَّى بهم في الصَّبرِ على ما كُذِّبوا وأُوذُوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١]، وقال: ﴿ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ ﴾ [فصلت: ٤٣]، وقال: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ ﴾[2].

٢- مَن قَوِيَت عَزيمتُه، وكَمَلَ عِلمُه، وقَوِيَ إيمانُه؛ لم يَطمَعْ فيه عَدُوُّه، وكان أفضَلَ، ومَن ضَعُفَ عِلمُه وضَعُفَت عَزيمتُه، طَمِعَ فيه عَدُوُّه؛ قال اللهُ تعالى في حَقِّ آدَمَ: ﴿وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ﴾ [طه: ١١٥]، وقال في حَقِّ غَيرِه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ

---

= وأجَلُّ نِعمةٍ أنعَمَ اللهُ بها عليهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٧، ١٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٧٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٥).

قال ابن عاشور: (والمرادُ بالفِسْقِ هنا: الفِسقُ عن الإيمانِ، وهو فِسقُ الإشراكِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٧٩).

أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾[١].

٣- قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ فأمَرَ بالصَّبرِ، ونَهى عَمَّا يُضادُّه، فقال: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [القلم: ٤٨]، وبالجُملةِ فكُلُّ ما نهَى عنه فإنَّه يُضادُّ الصَّبرَ المأمورَ به[٢].

٤- على قَدْرِ رَغبةِ العَبدِ في الدُّنيا ورِضاه بها يكونُ تَثاقُلُه عن طاعةِ اللهِ، وطَلَبِ الآخِرةِ، ويَكفي في الزُّهدِ في الدُّنيا قَولُه تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۢ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾، وقَولُه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥- ٢٠٧]، وقَولُه تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ﴾ [يونس: ٤٥]، وقَولُه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ * إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا * كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٦]، وقَولُه تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾ [الروم: ٥٥]، وقَولُه تعالى: ﴿ قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٤]، وقَولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا * يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا * نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴾[٣] [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٦).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا استِدلالٌ منه تعالى على الإعادةِ بعدَ الموتِ بما هو أبلَغُ منها، وهو: أنَّه الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ على عِظَمِهما وسَعتِهما، وإتقانِ خَلْقِهما، مِن دونِ أن يكتَرِثَ بذلك، ولم يَعْيَ بخَلقِهنَّ، فكيف تُعجِزُه إعادتُكم بعدَ مَوتِكم وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ[1]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ تَنبيهٌ على ثُبوتِ الأُمورِ الَّتي تُوجِبُ وَصْفَ خالِقِ السَّمواتِ والأرضِ بصِفاتِ الكَمالِ، وبإحداثِ الأفعالِ، وذلك هو الَّذي يَستلزِمُ قُدرتَه عزَّ وجلَّ على إحياءِ الموتى[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اختِيرَ فِعلُ ﴿يَرَوْا﴾ مِن بيْنِ أفعالِ العِلمِ هنا؛ لأنَّ هذا العِلمَ عليه حُجَّةٌ بَيِّنةٌ مُشاهَدةٌ، وهي دَلالةُ خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ مِن عَدَمٍ، وذلك مِن شأنِه أن يَفرِضَ بالعَقلِ إلى أنَّ اللهَ كامِلُ القُدرةِ على ما هو دونَ ذلك مِن إحياءِ الأمواتِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أنَّ (الذَّوقَ) لا يَختَصُّ بحاسَّةِ الفَمِ في لغةِ القُرآنِ، بل ولا في لُغةِ العرَبِ[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إثباتُ الأسبابِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٣).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٥٥).

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ يَقتَضي أنَّ مُحمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مِن أُولي العَزمِ؛ لأنَّ تَشبيهَ الصَّبرِ الَّذي أُمِرَ به بصَبرِ أُولي العَزمِ مِن الرُّسُلِ يَقتَضي أنَّه مِثلُهم؛ لأنَّه مُمتَثِلٌ أمْرَ رَبِّه، فصَبرُه مَثيلٌ لصَبرِهم، ومَن صبَرَ صَبْرَهم كان منهم لا مَحالةَ[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارِۭ﴾ أنَّ الزَّمَنَ قصيرٌ؛ مهما طالَ بالإنسانِ العُمُرُ فهو قَليلٌ[2]!

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ قيل: ما في الرَّجاءِ لرَحمةِ اللهِ شَيءٌ أقوى مِن هذه الآيةِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ عَودٌ إلى الاسْتِدلالِ على إمكانِ البَعثِ؛ فهو مُتَّصلٌ بقَولِه: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ إلى قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧، ١٨]، وهو انتِقالٌ مِن المَوعظةِ بمَصيرِ أمْثالِهم مِن الأُمَمِ إلى الاستِدلالِ على إبطالِ ضَلالِهم في شِرْكِهم؛ وهو الضَّلالُ الَّذي جَرَّأَهم على إحالةِ البَعثِ، بعْدَ أنْ أُطِيلَ في إبطالِ تَعدُّدِ الآلهةِ، وفي إبطالِ تَكذيبِهم بالقُرآنِ، وتَكذيبِهم النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا عَودٌ على بَدْءٌ؛ فقدِ ابْتُدِئَت السُّورةُ بالاحتِجاجِ على البَعثِ بقَولِه تعالَى: ﴿مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣]، ويتَّصِلُ بقَولِه: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٤/ ٤٤٨).

أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ ﴾ إلى قَولِه: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴾[1] [الأحقاف: ١٧].

- والهمزةُ في قَولِه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، والرُّؤيةُ هنا عِلْميَّةٌ[2].

- وقولُه: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ ﴾ العِيُّ هو العجْزُ عن العمَلِ أو عن الكلامِ، ومنه العِيِّ في الكلامِ، أي: عُسرُ الإبانةِ. وتَعديةُ الفِعلِ ﴿يَعۡيَ ﴾ بالباءِ بلاغةٌ؛ لِيُفِيدَ انتِفاءَ عَجْزِه عن صُنْعِها، وانتفاءَ عجْزِه في تَدْبيرِ مَقاديرِها ومُناسباتِها؛ فكانت باءُ المُلابَسةِ صالحةً لِتَعليقِ الخلْقِ بالعِيِّ بمَعْنيَيْه[3].

- وأيضًا العِيُّ يُطلَقُ على التَّعَبِ وعلى عجْزِ الرَّأيِ وعَجْزِ الحِيلةِ. وقيل: العِيُّ خاصٌّ بالعجْزِ في الحِيلةِ والرَّأيِ، وأمَّا الإعياءُ فهو التَّعَبُ مِن المشْيِ ونَحْوِه، وفِعلُه: أعْيا، وقيل: إنَّ (أعْيا) لا يكونُ إلَّا مُتعدِّيًا، أي: هَمْزتُه هَمْزةُ تَعديةٍ، وزُعِمَ أنَّ مِثلَه مَقصورٌ على السَّماعِ، وهو راجعٌ إلى تَنازُعِ العاملينِ، وعلى هذا الرَّأيِ يكونُ قَولُه تعالى هنا: ﴿وَلَمۡ يَعۡيَ ﴾ دَالًّا على سَعةِ عِلْمِه تعالى بدَقائقِ ما يَقْتضيهِ نِظامُ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِيُوجِدَهما وافيَينِ به، وتكونُ دَلالتُه على أنَّه قَديرٌ على إيجادِهما بدَلالةِ الفَحْوى[4]، أو يكونُ إيكالُ أمْرِ قُدْرتِه على خَلْقِهما إلى عِلْمِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّهم لم يُنكِروا ذلك، وقُصِدَ تَنْبيهُهم إلى ما في نِظامِ خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ مِن الدَّقائقِ والحِكَمِ، ومِن جُمْلتِها لُزومُ الجزاءِ على عَمَلِ الصَّالحاتِ والسَّيِّئاتِ[5].

- قولُه: ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴾ الباءُ صِلةٌ لِتَأكيدِ النَّفيِ؛ فإنَّه مُشتمِلٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٤).

(٤) تقدَّم تعريفها (ص: ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٤، ٦٥).

على (أَنَّ) وما في حَيِّزِها؛ ولذلك أجابَ عنه بقَولِه: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ تَقْريرًا لِلقُدْرةِ على وَجْهٍ عامٍّ يَكونُ كالبُرهانِ على المَقصودِ، كأنَّه لَمَّا صَدَّرَ السُّورةَ بتَحقيقِ المَبْدأِ، أرادَ ختْمَها بإثباتِ المَعادِ[1].

- قولُه: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ مَوقعُ الجوابِ بحَرْفِ (بلى) هو جَوابٌ لِمَحذوفٍ دلَّ عليه التَّعجيبُ مِن ظَنِّهم أنَّ اللهَ غيرُ قادرٍ على أنْ يُحيِيَ الموتَى؛ فإنَّ ذلك يَتضمَّنُ حِكايةً عنهم أنَّ اللهَ لا يُحْيي المَوتَى، فأُجِيبَ بقَولِه: ﴿بَلَىٰٓ﴾؛ تَعليمًا لِلمسلمينَ، وتَلقينًا لِمَا يُجيبونَهم به، وحَرْفُ (بلى) لَمَّا كان جَوابًا، كان قائمًا مَقامَ جُملةٍ، تَقديرُها: هو قادرٌ على أنْ يُحيِيَ المَوتى[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تَذْييلٌ لِجُملةِ ﴿بَلَىٰٓ﴾؛ لأنَّ هذه تُفِيدُ القُدْرةَ على خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، وإحياءِ المَوتَى، وغيرِ ذلك مِن المَوجوداتِ الخارجةِ عن السَّمواتِ والأرضِ[3].

- وتَأْكيدُ الكَلامِ بحرْفِ (إنَّ)؛ لِرَدِّ إنْكارِهم أنْ يُمكِنَ إحياءُ اللهِ المَوتى؛ لأنَّهم لَمَّا أحالُوا ذلك فقد أنْكَروا عُمومَ قُدْرتِه تعالَى على كلِّ شَيءٍ، ولهذه النُّكتةِ جِيءَ في القُدْرةِ على إحياءِ المَوتَى بوَصفِ (بِقَادِرٍ)، وفي القُدْرةِ على كلِّ شَيءٍ بوَصفِ (قَدِيرٍ) الَّذي هو أكثَرُ دَلالةً على القُدْرةِ مِن وَصْفِ (قادِرٍ)[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ مَوقِعُ هذا الكلامِ: أنَّ عَرْضَ المُشرِكين على النَّارِ مِن آثارِ الجَزاءِ الواقِعِ بعْدَ البَعثِ؛ فلمَّا ذُكِرَ في الآيةِ الَّتي قبْلَها الاسْتِدلالُ على إمكانِ البَعثِ، أُعقِبَ بما يَحصُلُ لهم يَومَ البَعثِ، جمْعًا بيْنَ الاسْتِدلالِ والإنذارِ، وذُكِرَ مِن ذلك ما يُقالُ لهم ممَّا لا مَنْدوحةَ لهم عن الاعترافِ بخَطئِهم، جمْعًا بيْن ما رُدَّ به في الدُّنيا مِن قَولِه: ﴿بَلَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وما يردُّون في عِلْمِ أنفُسِهم يَومَ الجَزاءِ بقَولِهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾. والجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ...﴾ [الأحقاف: ٣٣] إلخ. وأوَّلُ الجُملةِ المَعطوفةِ قَولُه: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّه مَقولُ فِعلِ قَولٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: ويُقال لِلَّذين كَفَروا يومَ يُعرَضون على النَّارِ[1].

- قولُه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ فيه تَقديمُ الظَّرْفِ ﴿وَيَوْمَ﴾ على عامِلِه ﴿يُعْرَضُ﴾؛ لِلاهتمامِ بذِكرِ ذلك اليومِ؛ لِزيادةِ تَقريرِه في الأذهانِ[2].

- وذِكرُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للإيماءِ بالمَوصولِ إلى عِلَّةِ بِناءِ الخبَرِ، أي: يُقالُ لهم ذلك؛ لأنَّهم كَفَروا[3].

- والاسْتِفهامُ ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ تَقْريريٌّ، وتَنْديمٌ على ما كانوا يَزْعُمون أنَّ الجزاءَ باطلٌ وكذِبٌ. وفيه تهكُّمٌ بهم، وتوبيخٌ لهم على اسْتِهزائِهم بوَعْدِ اللهِ ووَعيدِه، حيثُ قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[4] [الصافات: ٥٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩/ ١٩٤).

- والإشارةُ في قولِه: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ إلى ما يُشاهِدونَه حينَ العَرضِ مِن حيثُ هو، مِن غَيرِ أنْ يَخطُرَ بالبالِ لَفظٌ يدُلُّ عليهِ، فضْلًا عن تَذكيرِه وتأْنيثِه؛ إذ هُو اللَّائقُ بتَهْويلِهِ وتَفْخيمِه. وقيل: الإشارةُ إلى العذابِ، بقرينةِ التَّصريحِ به بعدُ[1].

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ إنَّما أقْسَموا على كَلامِهم بقَسمِ ﴿وَرَبِّنَا﴾ قَسَمًا مُستعمَلًا في النَّدامةِ، والتَّغليطِ لِأنفُسِهم، وجَعَلوا المُقسَمَ به بعُنوانِ الرَّبِّ؛ تَحنُّنًا وتَخضُّعًا[2].

- وأُكِّدَ جَوابُهم بالقسَمِ كأنَّهم يَطْمَعونَ في الخَلاصِ بالاعتِرافِ بحقيَّةِ ذلك، كما في الدُّنيا، وأنَّى لهُم ذلكَ[3]؟!

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فيه مَعنى الإهانةِ بهم، والتَّوبيخِ لهم[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ تَفريعٌ على ما سبَقَ في هذه السُّورةِ مِن تَكذيبِ المُشرِكين رِسالةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم بجَعْلِهم القُرآنَ مُفْترًى، واسْتِهزائِهم به وبما جاء به مِن البَعثِ، ابتِداءً مِن قَولِه: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٦).

[الأحقاف: ٧]، وما اتَّصَلَ به مِن ضَرْبِ المَثَلِ لهم بعادٍ؛ فأُمِرَ الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على ما لَقِيَه منْهم مِن أذًى، وضُرِب له المَثَلُ بالرُّسلِ أُولي العزْمِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ فَصيحةً، والتَّقديرُ: فإذا عَلِمْتَ ما كان مِن الأُمَمِ السَّابقةِ، وعَلِمْتَ كيف انْتَقَمْنا منهم، وانتَصَرْنا لِرُسُلِنا؛ فاصْبِرْ كما صَبَروا[١].

- قولُه: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ أُعقِبَ أمْرُه بالصَّبرِ بنَهْيِه عن الاسْتِعجالِ لِلمُشرِكين، أي: الاسْتِعجالِ لهم بالعَذابِ، أي: لا تَطلُبْ منَّا تَعجيلَه لهم؛ وذلك لأنَّ الاستِعجالَ يُنافي العزْمَ، ولأنَّ في تأْخيرِ العَذابِ تَطْويلًا لِمُدَّةِ صَبْرِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بكَسْبِ عَزْمِه قُوَّةً[٢].

- ومَفعولُ ﴿تَسْتَعْجِل﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه المَقامُ، تَقديرُه: العذاب أو الهلاك. واللَّامُ في ﴿لَّهُمْ﴾ لامُ تَعديةِ فِعلِ الاسْتِعجالِ إلى المَفعولِ لِأجْلِه، أي: لا تَستعجِلْ لِأجْلِهم، والكلامُ على حَذْفِ مُضافٍ؛ إذِ التَّقديرُ: لا تَستعجِلْ لِهلاكِهم[٣].

- وجُملةُ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ تَعليلٌ لِلنَّهيِ عن الاستِعجالِ لهم بالعَذابِ؛ بأنَّ العَذابَ واقِعٌ بهم، فلا يُؤثِّرُ في وُقوعِه تَطويلُ أجَلِه ولا تَعجيلُه، وهمْ عِندَ حُلولِه مُنذُ طُولِ المُدَّةِ يُشْبِهُ حالُهم حالَ عَدَمِ المُهلةِ إلَّا ساعةً قَليلةً[٤].

- قولُه: ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ وَصْفُ السَّاعةِ وتَخصيصُها بهذا الوَصْفِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٦، ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٦٧، ٦٨).

﴿مِّن نَّهَارٍ﴾؛ لأنَّ ساعةَ النَّهارِ تَبْدو للنَّاسِ قَصيرةً؛ لِما للنَّاسِ في النَّهارِ مِن الشَّواغِلِ، بخِلافِ ساعةِ اللَّيلِ تَطولُ؛ إذ لا يَجِدُ السَّاهرُ شَيئًا يَشغَلُه؛ فالتَّنكيرُ للتَّقليلِ[١].

- وقولُه: ﴿بَلَٰغٌ﴾ فَذْلَكةٌ[٢] لِمَا تَقدَّمَ بأنَّه بَلاغٌ للنَّاسِ؛ مُؤمِنِهم وكافِرِهم؛ لِيَعلَمَ كلٌّ حَظَّه مِن ذلك؛ فقولُه: ﴿بَلَٰغٌ﴾ خَبرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: هذا بلاغٌ، على طَريقةِ العُنوانِ والطَّالِعِ. والجُملةُ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا على طَريقةِ الفَذْلكةِ والتَّحصيلِ[٣].

وقيل: ﴿بَلَٰغٌ﴾ مُبتدأٌ، والخبَرُ: ﴿لَّهُمْ﴾، وما بيْنَهما اعتِراضٌ، أي: لهم وقْتٌ يَبلُغون إليه، كأنَّهم إذا بَلَغوه ورَأَوا ما فيه، اسْتَقْصَروا مُدَّةَ عُمرِه[٤].

- وفُرِّعَ على جُملةِ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ إلى ﴿مِّن نَّهَارٍ﴾، قولُه: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾، أي: فلا يُصِيبُ العذابُ إلَّا المُشرِكين أمْثالَهم. والاسْتِفهامُ مُستعمَلٌ في النَّفْيِ، ومَعنى التَّفريعِ أنَّه قدِ اتَّضَحَ ممَّا سمِعْتَ أنَّه لا يُهلَكُ إلَّا القومُ الفاسِقون[٥].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْقَوْمُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وهو مُفِيدٌ العُمومَ، أي: كلُّ القَومِ الفاسِقينَ؛ فيَعُمُّ مُشْرِكي مكَّةَ الَّذين عَناهم القُرآنُ، فكان لهذا التَّفريعِ مَعنى التَّذييلِ. والتَّعبيرُ بالمُضارِعِ في قَولِه: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ﴾ على هذا الوجْهِ؛ لِتَغليبِ إهْلاكِ المُشرِكين الَّذي لَمَّا يقَعْ على إهلاكِ الأُمَمِ الَّذين قبْلَهم. ويجوزُ جعْلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٨).

(٢) تقدم تعريفها (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٩).

التَّعريفِ تَعريفَ العهْدِ، أي: القومُ المُتحدَّثُ عنهم في قَولِه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ الآيةَ؛ فيَكونُ إظْهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ لِلْإيماءِ إلى سَببِ إهْلاكِهم أنَّه الإشراكُ[1].

- وهذه الآيةُ كالخاتمةِ للسُّورةِ، والفَذْلَكةِ لِمَا اشْتَمَلَت عليه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣١٨).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ مُحمَّدٍ

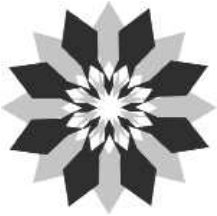

# سورةُ مُحمَّدٍ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (مُحمَّدٍ)[١].

## بيانُ المكِّيِّ والمدنيِّ:

سُورةُ محمَّدٍ مَدَنيَّةٌ[٢]، وحُكِي الإجماعُ على ذلك[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورَةِ:**

١- التَّرغيبُ في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، وقِتالِ المُشرِكين، وكَسرِ شَوكَتِهم، وبيانِ سُوءِ عاقِبَتِهم[٤].

٢- الكشْفُ عن أحوالِ المُنافِقين وأوصافِهم، والتَّحذيرُ مِنهم[٥].

---

(١) سُمِّيت بذلك؛ لذِكرِ اسمِ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم فيها في قَولِه: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، فعُرِفَت به قبْلَ سُورةِ (آل عمران) التي فيها: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧١).

قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ في كُتُبِ السُّنَّةِ سُورةَ مُحَمَّدٍ... وكذلك في التَّفاسيرِ قالوا: وتُسَمَّى سُورَةَ القِتالِ... وأمَّا تَسميَتُها سُورةَ القتالِ فلأنَّها ذُكِرَتْ فيها مَشروعِيَّةُ القِتالِ، ولأنَّها ذُكِر فيها لفظُه في قولِه تعالَى: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧١).

(٢) وقيل: السُّورُة مَدنيةٌ إلا آيةَ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ فهي مكِّيةٌ، وقيل: السُّورةُ مكِّيةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٥).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٨٦) و(٢٦/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٢)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢١٥).

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:**

٣- بَيانُ سُوءِ عاقِبَةِ الكافِرين، وحُسنِ عاقِبَةِ المُؤمِنين.

٤- حضُّ المُؤمنينَ على الإغلاظِ في قِتالِ الكافِرين، وفي أخْذِهم أُسارَى.

٥- وَعدُ المُؤمنين بالنَّصرِ متَى نَصَروا اللهَ تعالَى ورسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَبشيرُهم بالجنَّةِ وما فيها من نَعيمٍ، وتَوَعُّدُ الكافِرين بالتَّعاسَةِ والخَيبَةِ، وتَوبيخُهم على عَدَمِ اعتِبارِهم واتِّعاظِهم.

٦- ذِكرُ جانِبٍ مِن مَواقِفِ المُنافقينَ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ومِن دَعوتِه، وذِكرُ بعضِ أوْصافِهمُ الذَّميمَةِ، كخِداعِهم وسُوءِ أدَبِهم، وجُبنِهم إذا دُعوا إلى القِتالِ.

٧- بَيانُ أنَّ نِفاقَ المُنافقينَ كان بسَبَبِ استِحواذِ الشَّيطانِ عليهم، وتَوعُّدُهم بسُوءِ المصيرِ في حَياتِهم وبعْدَ مَماتِهم.

٨- تَوَعُّدُ الكافِرين بحُبوطِ أعمالِهم.

٩- أمْرُ المُؤمِنين بطاعَةِ اللهِ ورَسولِه، ونَهيهُم عنِ اليأسِ والقُنوطِ، وتَبشيرُهم بالنَّصرِ والظَّفَرِ، وتَحذيرُهم مِن البُخلِ، ودَعوَتُهم إلى الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تعالَى.

## الآيات (١-٢)

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ٣﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾: أي: أبْطَلَ أعمالَهم وأحبَطَها وأتْلَفَها، فلا يَنتفِعون بها في الآخِرةِ، وأصلُ الضَّلالِ: الغَيْبوبةُ؛ يُقالُ: ضَلَّ الماءُ في اللَّبَنِ؛ إذا غاب وغُلِب عليه فلم يُتبيَّنْ. ويُسمَّى الهالِكُ التَّالِفُ: ضالًّا[1].

﴿كَفَّرَ﴾: أي: سَتَرَ ومَحا، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ[2].

﴿بَالَهُمۡ﴾: أي: شأْنَهم وحالَهم، وقيل: أمْرَ مَعاشِهم في الدُّنيا، والبالُ: الحالُ التي يُكتَرَثُ بها، يُقالُ: ما باليتُ بكذا بالةً، أي: ما اكْتَرَثْتُ به[3].

﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾: أي: يُمثِّلُ اللهُ للنَّاسِ الأمثالَ، ويُشبِّهُ لهم الأشباهَ، فيُلحِقُ بكُلِّ قومٍ مِن الأمثالِ أشكالًا؛ لِيَعتبِروا بهم. أو: يُبيِّن لهم مآلَ أعمالِهم،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١/ ١٦٨) و(١١/ ٦٨٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

وما يَصِيرون إليه في مَعادِهم، وضَرْبُ الأمْثالِ: اعْتِبارُ الشَّيْءِ بغَيْرِه. أو: إيرادُه لِيُتَمَثَّلَ به ويُتَصوَّرَ ما أراد المُتَكَلِّمُ بَيانَه لِلمُخاطَبِ. يُقالُ: ضَرَب الشَّيءَ مَثَلًا، وضَرَب به، وتَمثَّلَه، وتَمثَّل به[1].

## المَعنى الإجماليُّ:

يَفتتِحُ اللهُ تعالَى هذه السُّورةَ بذَمِّ الكافرينَ، وذِكرِ عُقوبتِهم، فيقولُ: الذين كَفَروا بالحَقِّ وصَدُّوا أنفُسَهم والنَّاسَ عن سَبيلِ اللهِ تعالَى، أحبَطَ اللهُ أعمالَهم.

ثمَّ يُثني اللهُ تعالَى على المؤمنينَ، مُبيِّنًا جَزاءَهم، فيقولُ: والذين آمَنوا بالحَقِّ وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ بإخلاصٍ للهِ تعالَى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه، وآمَنوا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ على نَبيِّه محمَّدٍ -وهذا القُرآنُ هو الحَقُّ مِن رَبِّهم-، تجاوَزَ اللهُ عن سَيِّئاتِهم، وأصلَحَ حالَهم وشأْنَهم.

ثُمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى سَببَ جَزاءِ الفَريقينِ بما جازاهم به، فيقولُ: ذلك الإحباطُ لأعمالِ الكافِرينَ بسَبَبِ اتِّباعِهم الباطِلَ، وذلك التَّكفيرُ لسَيِّئاتِ المؤمِنينَ وإصلاحُ بالِهم بسَبَبِ اتِّباعِهم الحَقَّ مِن رَبِّهم؛ مِثْلَ ذلك البَيانِ لِمآلِ الكافِرينَ والمؤمِنينَ يُمثِّلُ اللهُ للنَّاسِ أصنافَهم وأحوالَهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ١﴾.

أي: الَّذين كَفَروا بالحَقِّ وصَدُّوا أنفُسَهم وغيْرَهم عن طَريقِه واتِّباعِه، جَعَل اللهُ أعمالَهم سُدًى لا نَفْعَ فيها[2].

---

(١) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) =

= للبقاعي (١٨/ ١٩٥-١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٣-٧٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٤-٢٤٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالَّذينَ كفَروا: أهلُ مكَّةَ، وهم مُشرِكو قُرَيشٍ: مُقاتلُ بن سُليمانَ، والواحديُّ، وابن عطيةَ، وابنُ الجوْزي، وأبو حيَّان، وجلال الدِّين المحلِّي، والشَّوكانيُّ، ونسَبه الماتُريديُّ إلى عامَّةِ أهلِ التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٦٢).

قال الشوكانيُّ: (قَولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هم كُفَّارُ قُريشٍ؛ كَفَروا باللهِ وصَدُّوا أنفُسَهم وغيرَهم عن سَبيلِ الله، وهو دِينُ الإسلامِ، بنَهيِهم عن الدُّخولِ فيه، كذا قال مُجاهدٌ والسُّدِّيُّ. وقال الضَّحَّاكُ: معنى ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: عن بَيتِ اللهِ بمَنعِ قاصِديه. وقيل: هم أهلُ الكتابِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥).

وقال الزمَخْشريُّ: (قال ابنُ عباسٍ رَضِي اللهُ عنه: هم المطْعِمون يوْمَ بدْرٍ. وعن مُقاتلٍ: كانوا اثْنَي عشَرَ رجُلًا مِن أهلِ الشِّركِ يصُدُّون الناسَ عن الإسلامِ ويَأمُرونهم بالكفْرِ. وقيل: هُمْ أهلُ الكتابِ الَّذين كفَروا وصدُّوا مَن أراد منهم ومِن غيْرِهم أنْ يَدخُلَ في الإسلامِ. وقيل: هو عامٌّ في كلِّ مَن كفَرَ وصدَّ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣).

وممَّن ذهَبَ إلى العُمومِ: الرَّسعنيُّ، وابنُ جُزَي، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٤).

قال ابن جُزَي: (﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني كُفَّارَ قُريشٍ، وعمومُ اللفظِ يعُمُّ كلَّ كافرٍ). يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٠).

وقال الزمخشريُّ: (﴿وَصَدُّواْ﴾: وأعْرَضوا وامتَنَعوا عن الدُّخولِ في الإسلامِ، أو صدُّوا غيْرَهم عنه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٤).

قال الطِّيبيُّ: (والتَّفسيرُ الثاني أشدُّ الْتئامًا للقرينةِ السابقةِ باللَّاحقةِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إذا فُسِّر بـ «صدُّوا غيْرَهم» يكونُ مِن بابِ العطْفِ للخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ إضلالَ الغيْرِ أشدُّ توغُّلًا في الضَّلالِ مِن ضَلالِ الشَّخصِ... فالمعنى: فالَّذين كفَروا وما آمَنوا بما نُزِّلَ على محمَّدٍ، وصدُّوا غيْرَهم عن الإيمانِ به، واغتَرُّوا بما كانوا عليه مِن مَكارمِ الأخلاقِ: أبطَلَ اللهُ =

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ٢﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى لمَّا بيَّن حالَ الكُفَّارِ؛ بيَّن حالَ المؤمنينَ[1]، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ بإخلاصٍ للهِ تعالَى ومُتابَعةٍ لِشَرعِه، وآمَنوا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلَه اللهُ على نَبيِّه محمَّدٍ -وهذا القُرآنُ هو الحَقُّ

---

= أعمالَهم). ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢٠، ٣٢١).

وممَّن اختار التَّفسيرَ الثَّانيَ: مقاتلُ بن سُليمان، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٤٤)

قال الشنقيطيُّ: (قولُه تعالَى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، قال بعضُهم: هو مِن الصُّدودِ؛ لأنَّ «صَدَّ» في الآيةِ لازمةٌ. وقال بعضُهم: هو مِن الصَّدِّ؛ لأنَّ «صَدَّ» في الآيةِ مُتعدِّيةٌ. وعليه فالمفعولُ مَحذوفٌ، أي: صدُّوا غيْرَهم عن سَبيلِ اللهِ، أي عن الدُّخولِ في الإسلامِ. وهذا القولُ الأخيرُ هو الصَّوابُ؛ لأنَّه على القولِ بأنَّ «صَدَّ» لازمةٌ، فإنَّ ذلك يكونُ تَكرارًا مع قولِه: ﴿كَفَرُواْ﴾؛ لأنَّ الكُفرَ هو أعظَمُ أنواعِ الصُّدودِ عن سَبيلِ اللهِ.

وأمَّا على القولِ بأنَّ «صَدَّ» مُتعدِّيةٌ فلا تَكرارَ؛ لأنَّ المعنى أنَّهم ضالُّون في أنفُسِهم، مُضِلُّون لغيْرِهم بصَدِّهم إيَّاهم عن سَبيلِ اللهِ، و... اللَّفظ إذا دار بيْن التَّأكيدِ والتَّأسيسِ وجَب حمْلُه على التَّأسيسِ، إلَّا بدَليلٍ يَجِبُ الرُّجوعُ إليه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٤٤).

وقال الرازيُّ: (في الصَّدِّ وَجهانِ:

أحدُهما: صَدُّوا أنفُسَهم، معناه أنَّهم صَدُّوا أنفُسَهم عن السَّبيلِ، ومَنَعوا عُقولَهم مِن اتِّباعِ الدَّليلِ.

وثانيهما: صَدُّوا غيْرَهم ومَنَعوهم). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٢).

وممَّن اختار أنَّ المعنى صدُّوا أنفُسَهم وصدُّوا غيْرَهم: العُليميُّ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٣).

الكامِلُ، والصِّدقُ الثَّابِتُ مِن عندِ رَبِّهم-، تَجاوَزَ اللهُ عن مُؤاخَذتِهم بسَيِّئاتِ أعمالِهم، فلا يُعاقِبُهم عليها؛ لأجْلِ إيمانِهم، وعَمَلِهم الصَّالحاتِ[1].

كما قال الله تعالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ ﴾ [النساء: ١٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَحۡسَنَ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ [التغابن: ٩].

﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾.

أي: وأصْلحَ اللهُ شأْنَهم وحالَهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩٧-١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٤-٧٥).
قال ابنُ القيِّم: (الذُّنوبُ: المرادُ بها الكبائرُ، والمرادُ بالسَّيِّئاتِ: الصَّغائرُ، والدَّليلُ على أنَّ السَّيِّئاتِ هي الصَّغائرُ، والتَّكفيرَ لها: قَولُه تعالى: ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾ [النساء: ٣١]، وفي «صحيح مُسلم» [٢٣٣] مِن حَديثِ أبي هُريرةَ: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان يقولُ: «الصَّلَواتُ الخَمسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورَمَضانُ إلى رَمَضانَ: مُكَفِّراتٌ لِما بيْنَهنَّ إذا اجتُنِبَت الكبائرُ». وعندَ الإفرادِ يَدخُلُ كُلٌّ منهما في الآخَرِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ ﴾ [محمد: ٢] يَتناولُ صَغائرَها وكبائرَها، وإذا فُهِمَ هذا فُهِمَ السِّرُّ في الوَعدِ على المصائبِ والهُمومِ والغُمومِ، والنَّصَبِ والوَصَبِ بالتَّكفيرِ دونَ المَغفرةِ، كقَولِه في الحَديثِ الصَّحيحِ: «ما يُصيبُ المؤمِنَ مِن هَمٍّ ولا غَمٍّ ولا أذًى، حتى الشَّوكةُ يُشاكُها إلَّا كفَّرَ اللهُ بها مِن خَطاياه»؛ فإنَّ المصائبَ لا تَستَقِلُّ بمَغفرةِ الذُّنوبِ، ولا تُغفَرُ الذُّنوبُ جميعُها إلَّا بالتَّوبةِ، أو بحَسَناتٍ تَتضاءَلُ وتَتلاشَى فيها الذُّنوبُ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٨-٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤). =

كما قال تعالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الجَزاءُ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ علَّل ما تَقدَّم مِن فِعْلِه بالفريقَينِ[1].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾.

---

= قال القرطبي: (﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: شأنَهم، عن مجاهدٍ وغيرِه. وقال قتادةُ: حالَهم. ابن عبَّاس: أمورَهم. والثلاثةُ متقاربةٌ، وهي متأوَّلةٌ على إصلاحِ ما تعلَّق بدُنياهم. وحكَى النَّقاشُ أنَّ المعنَى أصلَح نيَّاتِهم ... وهو على هذا التأوُّلِ محمولٌ على صلاحِ دينِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٤).

وقال ابنُ عطيةَ في قولِه تعالَى: ﴿بَالَهُمْ﴾: (تَحريرُ التَّفسيرِ في اللَّفظةِ أنَّها بمَعنى الفِكرِ والموضِعِ الذي فيه نَظَرُ الإنسانِ، وهو القَلبُ، فإذا صَلَح ذلك صَلَحتْ حالُه، فكأنَّ اللَّفظةَ مُشيرةٌ إلى صَلاحِ عَقيدتِهم، وغيرُ ذلك من الحالِ تابعٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٠٩).

وقال البقاعيُّ: (﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: مَوضِعَ سِرِّهم وفِكرِهم؛ بالأمْنِ والتَّوفيقِ والسَّدادِ، وقُوَّةِ الفَهمِ والرَّشادِ لِما يُوفِّقُهم له مِن مَحاسِنِ الأعمالِ، ويُطيبُ به اسمَهم في الدَّارَينِ. قال ابنُ بَرَّجانَ: وإذا أصلحَ ذلك من العبدِ صلَحَ ما يَدخُلُ إليه، وما يَخرُجُ عنه، وما يَثبُت فيه، وإذا فَسَد فبالضِّدِّ من ذلك). ((نظم الدرر)) (١٨/ ١٩٩).

وقال ابنُ عاشور: (إصلاحُ البالِ يَجمَعُ إصلاحَ الأُمورِ كُلِّها؛ لأنَّ تصَرُّفاتِ الإنسانِ تأتي على حَسَبِ رأيِه؛ فالتَّوحيدُ أصلُ صلاحِ بالِ المؤمِنِ، ومنه تَنبعِثُ القُوى المقاوِمةُ للأخطاءِ والأوهامِ الَّتي تَلبَّس بها أهلُ الشِّركِ، وحَكاها عنهم القُرآنُ في مَواضِعَ كثيرةٍ، والمعنى: أقام أنظارَهم وعُقولَهم، فلا يُفَكِّرونَ إلا صالحًا، ولا يَتدبَّرون إلَّا ناجِحًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٥-٧٦).

وقال ابن جرير: (﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ يقولُ: وأصلَح شأنَهم وحالَهم في الدنيا عندَ أوليائِه، وفي الآخرةِ بأنْ أورَثهم نعيمَ الأبدِ والخلودَ الدَّائمَ في جِنانِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩٩).

أي: ذلك الإضلالُ لأعمالِ الكافِرينَ بسَبَبِ اتِّباعِهم الباطِلَ، وإيثارِهم له على الحَقِّ[١].

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾.

أي: وذلك التَّكفيرُ لسَيِّئاتِ المؤمِنينَ وإصلاحُ بالِهم بسَبَبِ اتِّباعِهم الحَقَّ الَّذي جاءهم مِن رَبِّهم[٢].

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾.

أي: مِثْلَ ذلك البَيانِ لحالِ أو مآلِ الكافِرينَ والمؤمِنينَ يُمثِّلُ اللهُ للنَّاسِ أصنافَهم وأحوالَهم، بحيثُ لا تخفَى ولا تَلتَبِسُ عليهم؛ فيَتبَيَّنُ لهم الخَبيثُ مِن الطَّيِّبِ، والحَقُّ مِن الباطِلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٠-٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٧).

قال الشنقيطيُّ: (أصلُ ضَرْبِ الأمثالِ يُرادُ منه بَيانُ الشَّيءِ بذِكرِ نَظيرِه الذي هو مِثلٌ له). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٤٧).

وقال الزمخشريُّ: (فإنْ قُلتَ: أيْن ضَرْبُ الأمثالِ؟ قُلتُ: في أنْ جَعَل اتِّباعَ الباطِلِ مَثَلًا لعَمَلِ الكُفَّارِ، واتِّباعَ الحَقِّ مَثَلًا لعَمَلِ المؤمِنينَ، أو في أنْ جَعَل الإضلالَ مَثَلًا لخَيبةِ الكُفَّارِ، وتَكفيرَ السَّيِّئاتِ مَثَلًا لفَوزِ المؤمِنينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٦). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١١٩).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أنَّ السَّيِّئَةَ الثَّانيةَ قدْ تكونُ مِن عُقوبةِ الأُولى، فتكونُ مِن سيِّئاتِ الجزاءِ، معَ أنَّها مِن سيِّئاتِ العمَلِ(١).

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا كان في مَقامِ الإخبارِ عنه، فلنا أنْ نُخبِرَ عنه باسمِه، كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه لَمَّا أخبَرَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأمَّا إذا خاطَبْناه فعليْنا أنْ نَتأدَّبَ بآدابِ اللهِ تعالَى، حيثُ قال: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ [النور: ٦٣]، فلا نقولُ: يا محمَّدُ، يا أحمدُ، كما يَدْعو بَعضُنا بَعضًا، بل نقولُ: يا رَسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ(٢).

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ عُلِمَ مِن هذا المثَلِ أنَّ مَنِ اتَّبَع الباطِلَ أضَلَّ اللهُ عمَلَه، ووفَّرَ سَيِّئاتِه، وأفسَدَ بالَه، ومَنِ اتَّبَع الحَقَّ عُمِلَ به ضِدُّ ذلك كائنًا مَن كان؛ فهو غايةُ الحَثِّ على طَلَبِ العِلمِ في كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والعَمَلِ بهما(٣).

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾ المعنى: كهذا التَّبيينِ يُبيِّنُ اللهُ للنَّاسِ أحوالَهم، فلا يَبْقُوا في غَفلةٍ عن شُؤونِ أنفُسِهم، مَحجوبينَ عن تحقُّقِ كُنْهِهم بحِجابِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٣٩، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠١).

التَّعوُّدِ؛ لئلَّا يختلطَ الخبيثُ بالطَّيِّبِ، ولكي يكونوا على بَصيرةٍ في شُؤونِهم، وفي هذا إيماءٌ إلى وُجوبِ التَّوَسُّمِ لِتَمييزِ المنافِقينَ عن المُسلِمينَ حَقًّا؛ فإنَّ مِن مَقاصِدِ السُّورةِ التَّحذيرَ مِن المنافِقينَ[١].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ أنَّ سَبَبَ إضلالِ أعمالِ هؤلاء الَّذين كفَروا حتَّى لم تَنفَعْهم، وأنَّ أعمالَ هؤلاء الَّذين آمَنوا نفَعَتْهم، فكُفِّرَتْ سَيِّئاتُهم، وأصلحَ اللهُ بالَهم: أنَّ هؤلاء اتَّبَعوا الباطِلَ قَولًا وعَمَلًا، اعتِقادًا واقتِصادًا، خبَرًا وأمرًا؛ وهؤلاء اتَّبَعوا الحقَّ مِن ربِّهم، ولم يَتَّبِعوا ما هو مِن غيرِ ربِّهم، وإنْ كان حقًّا مِن وجْهٍ؛ فإنَّ الخبَرَ والعمَلَ تابعٌ للمُخبَرِ عنه وللمَقصودِ بالعَمَلِ، فإذا كان ذلك باطِلًا لا حَقيقَةَ له كان التَّابعُ كذلك، وإنْ كان مَوجودًا[٢]. فمَنِ اتَّبعَ الباطِلَ فعَمَلُه باطِلٌ، ومَنِ اتَّبعَ الحَقَّ فأعمالُهُ حقٌّ؛ فهي ثابِتةٌ باقِيةٌ، لا زائلةٌ مُضمَحِلَّةٌ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أعلَمَ اللهُ المؤمِنينَ بأنَّه لا يُسَدِّدُ المُشرِكينَ في أعمالِهم، وأنَّه مُصلِحُ المؤمِنينَ؛ فكان ذلك كَفالةً للمُؤمِنينَ بالنَّصرِ على أعدائِهم[٤].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أنَّ الكُفرَ إذا قارنَه عمَلٌ لم يُقبَلْ ذلك العَمَلُ، والعملُ يُحبَطُ بالكُفرِ؛ قال اللهُ سُبحانه: ﴿وَمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٢).

يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٧]، وقال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٩]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٨]؛ فلا يُحبِطُ الأعمالَ غيرُ الكُفرِ؛ لأنَّ مَن مات على الإيمانِ فإنَّه لا بُدَّ مِن أنْ يَدخُلَ الجنَّةَ، ويَخرُجَ مِن النَّارِ إنْ دخَلَها، ولو حَبِطَ عَمَلُه كُلُّه لم يَدخُلِ الجنَّةَ قطُّ، ولأنَّ الأعمالَ إنَّما يُحبِطُها ما يُنافيها، ولا يُنافي الأعمالَ مُطلقًا إلَّا الكُفرُ، وهذا مَعروفٌ مِن أُصولِ أهلِ السُّنَّةِ، نَعمْ قدْ يَبطُلُ بَعضُ الأعمالِ بوُجودِ ما يُفسِدُه، كما قال تعالَى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]؛ ولهذا لم يُحبِطِ اللهُ الأعمالَ في كِتابِه إلَّا بالكُفرِ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ فيه بَحثٌ: أنَّ إضلالَ الأعمالِ مُرَتَّبٌ على الكُفرِ والصَّدِّ، والكفَّارُ المُستَضعَفونَ لم يَصُدُّوا، فلا يُضِلُّ أعمالَهم.

**والجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: التَّخصيصُ بالذِّكرِ لا يدُلُّ على نَفيِ ما عَداه، ولا سيَّما إذا كان المذكورُ أَولى بالذِّكرِ مِن غَيرِه، وهاهنا الكافِرُ الصادُّ أدخَلُ في الفَسادِ؛ فصار هو أَوْلى بالذِّكرِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ كُلَّ مَن كَفَر صار صادًّا لِغَيرِه؛ أمَّا المُستكبِرُ فظاهِرٌ، وأمَّا المُستضعَفُ فلأنَّه بمُتابَعتِه أثبَتَ للمُستكبِرِ ما يَمنَعُه مِن اتِّباعِ الرَّسولِ؛ فإنَّه بعْدَما يكونُ مَتبوعًا يشُقُّ عليه أنْ يَصيرَ تابِعًا، ولأنَّ كُلَّ مَن كفَرَ صار صادًّا لِمَن بعْدَه؛

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٤، ٥٥).

لأنَّ عادةَ الكُفَّارِ اتِّباعُ المتقدِّم، كما قال عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: مُقتدَونَ؛ فإنْ قيل: إنَّ كُلَّ كافرٍ صادٌّ؛ فما الفائِدةُ في ذِكرِ الصَّدِّ بعْدَ الكُفرِ؟ فالجوابُ: أنَّ هذا مِن بابِ ذِكرِ السَّبَبِ، وعَطفِ المُسَبَّبِ عليه؛ تقولُ: (أكلتُ كَثيرًا وشَبِعتُ)، والكُفرُ على هذا سبَبُ الصَّدِّ[١].

٤- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ فقَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، وقَولُه تعالَى: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أفادَ نفْسَ المعنى؛ فما الحِكمةُ فيه، وكيف وَجهُه؟

**الجوابُ: أمَّا وَجهُ ذلك فبَيانُه مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّه عَطفُ خاصٍّ على عامٍّ[٢]، وتَخصيصُه مِن بيْنِ ما يَجِبُ الإيمانُ به إعلامٌ بأنَّه لا يَصِحُّ الإيمانُ ولا يَتِمُّ إلَّا به[٣]، أو لأنَّه لَمَّا كان هذا الوَصفُ ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ لا يخُصُّ أتْباعَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، خَصَّهم بقَولِه تعالَى: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، أي: مع ذلك[٤].

**الوَجهُ الثَّاني:** قَولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: باللهِ ورَسولِه واليَومِ الآخِرِ، وقَولُه: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ﴾ أي: بجَميعِ الأشياءِ الواردةِ في كَلامِ اللهِ ورَسولِه؛ تَعميمٌ بعدَ أُمورٍ خاصَّةٍ، وهو حَسَنٌ؛ تقولُ: خَلَق اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ وكُلَّ شَيءٍ؛ إمَّا على معنى: وكُلَّ شَيءٍ غيرَ ما ذَكَرْنا، وإمَّا على العُمومِ بعْدَ ذِكرِ الخُصوصِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ١٩٧).

**الوَجهُ الثَّالثُ**: أنْ يكونَ المعنى: آمَنوا وآمَنوا مِن قَبلُ بما نُزِّلَ على محمَّدٍ، وهو الحَقُّ المُعجِزُ الفارِقُ بيْن الكاذِبِ والصَّادِقِ. يعني: آمَنوا أوَّلًا بالمُعجِزِ، وأيْقَنوا بأنَّ القُرآنَ لا يَأتي به غيرُ اللهِ، فآمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، والواوُ للجَمعِ المُطلَقِ، ويجوزُ أنْ يكونَ المتأخِّرُ ذِكرًا مُتقَدِّمًا وُقوعًا، وهذا كقَولِ القائِلِ: آمَنَ به، وكان الإيمانُ به واجِبًا، أو يكونَ بيانًا لإيمانِهم، كأنَّ ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾، أي: آمَنوا وآمَنوا بالحَقِّ، كما يقولُ القائِلُ: خرَجْتُ وخرَجْتُ مُصيبًا، أي: وكان خُروجي جيِّدًا، حيثُ نَجَوتُ مِن كذا، ورَبِحتُ كذا؛ فكذلك لَمَّا قال: ﴿ءَامَنُواْ﴾ بيَّنَ أنَّ إيمانَهم كان بما أَمَر اللهُ وأنزَلَ اللهُ، لا بما كان باطِلًا مِن عندِ غيرِ اللهِ[1].

٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ عطْفُ قولِه: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ على قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، وهو دَليلٌ على أنَّ الإيمانَ بالقُرآنِ -الَّذي نُزِّلَ على نبيِّنا مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- شَرطٌ في صِحَّةِ الإيمانِ بعْدَ بَعثتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فيه إشْعارٌ بأنَّ أعمالَ الكُفَّارِ -وإنْ كانتْ حَسَناتٍ- يُضِلُّها اللهُ تعالَى في غَمَراتِ كُفْرِهم، وحِرْمانِ مُتابَعةِ الحقِّ المُنزَّلِ مِن عِندِ اللهِ، وأنَّ سَيِّئاتِ المُؤمِنين يَستُرُها اللهُ في كَنَفِ إيمانِهم ومُتابَعتِهم الحقَّ، وإليه وَقَعَت الإشارةُ بقَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ صَدَر التَّحريضُ على القِتالِ بتَوطئةٍ؛ لِبَيانِ غَضَبِ اللهِ على الكافِرينَ؛ لِكُفْرِهم وصَدِّهم النَّاسَ عن دِينِ اللهِ، وتَحقيرِ أمْرِهم عِندَ اللهِ؛ لِيَكونَ ذلك مُثيرًا في نُفوسِ المُسلِمينَ حَنَقًا عليهم، وكَراهيةً، فتَثورُ فيهمْ هِمَّةُ الإقدامِ على قِتالِ الكافِرين، وعَدَمِ الاكتِراثِ بما همْ فيه مِن قُوَّةٍ، حِين يَعلَمون اللهَ يَخذُلُ المُشرِكين ويَنصُرُ المُؤمِنين؛ فهذا تَمهيدٌ لِقَولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1] [محمد: ٤].

- وفي الابتِداءِ بالمَوصولِ والصِّلةِ المُتضمِّنةِ كُفْرَ الَّذين كَفَروا، ومُناوأَتَهم لِدِينِ اللهِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾: تَشويقٌ لِمَا يَرِدُ بعْدَه مِن الحُكْمِ المُناسِبِ للصِّلةِ، وإيماءٌ بالمَوصولِ وصِلَتِه إلى عِلَّةِ الحُكْمِ عليه بالخَبَرِ، أي: لِأجْلِ كُفْرِهم وصَدِّهم. وفيه أيضًا بَراعةُ استِهلالٍ للغرَضِ المَقصودِ[2].

- قولُه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: صَدُّوا غَيرَهم؛ فيكونُ مِن بابِ العطْفِ لِلخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ إضلالَ الغَيرِ أشدُّ تَوغُّلًا في الضَّلالِ مِن ضَلالِ الشَّخصِ[3]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وأُضِيفَ السَّبيلُ إلى اللهِ؛ لأنَّه الدِّينُ الذي ارْتَضاهُ اللهُ لِعِبادِه، وعُبِّرَ بالسَّبيلِ عن الدِّينِ؛ لأنَّ الدِّينَ يُوصِلُ إلى رِضَا اللهِ، كما يُوصِلُ السَّبيلُ السَّائرَ فيه إلى بُغْيَتِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٣).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ مُقابلُ فَريقِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[1]، وقدْ جاء في مُقابَلةِ الأوصافِ الثَّلاثةِ التي أُثبِتَتْ لِلَّذين كَفَروا بثَلاثةِ أوصافٍ ضِدِّها للمُسلمين؛ وهي: الإيمانُ مُقابِلُ الكُفْرِ، والإيمانُ بما نُزِّلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُقابِلُ الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ، وعَمَلُ الصَّالحاتِ مُقابِلُ بَعضِ ما تَضمَّنَه ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ١]، و﴿كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ﴾ مُقابِلُ بَعضٍ آخَرَ ممَّا تَضمَّنَه ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، ﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ مُقابِلُ بَقيَّةِ ما تَضمَّنَه ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وزِيدَ في جانِبِ المُؤمِنين التَّنويهُ بشَأْنِ القُرآنِ بالجُملةِ المُعترِضةِ ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾، وهو نَظيرٌ لِوَصْفِه بسَبيلِ اللهِ في قَولِه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2] [محمد: ١].

- وإيرادُ المَوصولِ وصِلَتِه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾؛ لِلْإيماءِ إلى وَجْهِ بِناءِ الخَبَرِ وعِلَّتِه، أي: لِأَجْلِ إيمانِهم... إلخ[3].

- قولُه: ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ فيه اخْتِصاصُ الإيمانِ بالمُنزَّلِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بيْنِ ما يَجِبُ به الإيمانُ؛ تَعظيمًا لِشَأْنِ المنزَّلِ عليه، وإشعارًا بأنَّ الإيمانَ لا يَتِمُّ دونَه، وأكَّدَ ذلك بالجُملةِ الاعتراضيَّةِ التي هي قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٤، ٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩١).

- وفي قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ واعتِراضِه بيْن الكلامِ: إيذانٌ بأنَّ أعمالَ أولئك السَّادةِ المؤمنينَ ثابتةٌ غيرُ زائلةٍ؛ لأنَّ الحقَّ في مُقابَلةِ الباطلِ(١).

- وعُبِّرَ عن الجَلالةِ في قولِه: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ بوَصْفِ الرَّبِّ؛ زِيادةً في التَّنويهِ بشَأْنِ المُسلِمين، على نَحْوِ قَولِه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١١]؛ فلذلك لم يَقُلْ: وصدُّوا عن سَبيلِ ربِّهم(٢).

٣- قَولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لِتَمْييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَنْويهًا به. و﴿ذَٰلِكَ﴾ مُبتَدأٌ، وقولُه: ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ﴾ إلخ خَبَرُه، والباءُ للسَّببيَّةِ، أيْ: ذلكَ كائنٌ بسَببِ أنَّ الأوَّلينَ اتَّبَعوا الشَّيطانَ ففَعَلوا ما فَعَلوا مِن الكُفْرِ والصَّدِّ؛ فبَيانُ سَببيَّةِ اتِّباعِه لِلْإضلالِ المَذكورِ مُتضمِّنٌ لِبَيانِ سَببيَّتِهما له؛ لِكَونِه أصلًا مُسْتتبِعًا لهما قطْعًا، وبسَببِ أنَّ الآخَرينَ اتَّبَعُوا الحقَّ الذي لا مَحيدَ عنه كائنًا مِن ربِّهم، ففَعَلوا ما فَعَلوا مِن الإيمانِ به وبكِتابِه ومِن الأعمالِ الصَّالحةِ؛ فبَيانُ سَببيَّةِ اتِّباعِه لِمَا ذُكرَ مِن التَّكفيرِ والإصلاحِ بعْدَ الإشعارِ بسَببيَّةِ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ له؛ مُتضمِّنٌ لِبَيانِ سَببيَّتِهما له؛ لِكَونِه مَبدأً ومَنشَأً لهما حتْمًا، فلا تَدافُعَ بيْن الإشعارِ والتَّصريحِ في شَيءٍ مِن المَوضعَينِ. ويَجوزُ أنْ يُحمَلَ الباطلُ على ما يُقابِلُ الحقَّ -وهو الزَّائلُ الذَّاهبُ الذي لا أصْلَ له أصلًا-؛ فالتَّصريحُ بسَببيَّةِ اتِّباعِهِ لإضلالِ أعْمالِهم وإبطالِها؛ لِبَيانِ أنَّ إبطالَها لِبُطلانِ مَبْناها

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٥).

وزَوالِه. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالباطلِ نفْسُ الكُفْرِ والصَّدِّ، وبالحقِّ نفْسُ الإيمانِ والأعمالِ الصالحةِ؛ فيكون التَّنصيصُ على سَببيَّتِهما لِمَا ذُكَرَ مِن الإضلالِ ومِن التَّكفيرِ والإصْلاحِ تَصْريحًا بالسَّببيَّةِ المُشعرِ بَها في المَوقعينِ. وفي هذا مُحسِّنُ الجمْعِ بعْدَ التَّفريقِ(١) ويُسمُّونَه -كَعَكْسِه- التَّفسيرَ؛ لأنَّ في الجمْعِ تَفسيرًا لِلْمعنى الذي تَشترِكُ فيه الأشياءُ المُتفرِّقةُ، تقدَّمَ أو تَأخَّرَ(٢).

- ووَصْفُ الحقِّ بأنَّه ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ تَنْويهٌ به، وتَشريفٌ لهم(٣).

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ تَذْييلٌ لِمَا قبْلَه، أي: مِثلَ ذلك التَّبْيينِ لِلحالينِ يُبيِّنُ اللهُ الأحوالَ للنَّاسِ بَيانًا واضِحًا(٤).

---

(١) الجمْعُ: أنْ يَجمَعَ مُتعدِّدًا في حُكمٍ واحدٍ. والتَّفريقُ: إيقاعُ تَبايُنٍ بيْنَ أمْرَينِ مِن نوعٍ واحدٍ. والجمعُ مع التَّفريقِ: أنْ تُدخِلَ شَيئين في معنًى واحدٍ، ثمَّ تُفرِّقَ بيْنَ جِهتَيِ الإدخالِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]؛ فقدْ جمَع النَّفْسَينِ في حُكمِ التَّوفِّي، ثمَّ فرَّق بيْنَ جِهتَيِ التَّوفِّي بالحُكمِ بالإمساكِ والإرسالِ، أي: اللهُ يَتوفَّى الأنفُسَ: النَّفْسَ الَّتي تُقبَضُ، والنَّفْسَ الَّتي لم تُقبَضْ، فيُمسِكُ الأُولى، ويُرسِلُ الأُخرى. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٣٢-٢٣٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٤-٣١٥)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٤١٧-٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٤-٦)

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴿٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾: أي: اقتْلوهم؛ يُقالُ: ضَرَبَ الأميرُ رَقَبةَ فُلانٍ: إذا قتَلَه؛ وذلك أنَّ قتْلَ الإنسانِ أكثَرُ ما يكونُ بضَرْبِ رَقَبتِه، والضَّربُ: إيقاعُ شَيءٍ على شَيءٍ، كَضَرْبِ الشَّيءِ باليدِ، والعَصا، والسَّيفِ ونحْوِها[1].

﴿أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾: أي: أكثَرتُم القَتلَ فيهم، والإثخانُ: بُلوغُ الغايةِ فِي النِّكايةِ، والاستِكثارُ مِن القتْلِ، والإثخانُ: الغَلَبةُ؛ لأنَّها تَترُكُ المغلوبَ كالشَّيءِ المُثخَنِ -وهو الثَّقيلُ الصُّلبُ- الَّذي لا يخِفُّ للحَرَكةِ، وأصلُ (ثخن): يَدُلُّ على رَزانَةِ الشَّيءِ في ثِقَلٍ؛ وذلك أنَّ القَتيلَ قدْ أُثْقِل حتَّى لا حَراكَ به[2].

﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾: عِبارةٌ عن الأسْرِ، والشَّدُّ: العَقدُ القويُّ، يُقالُ: شَدَدْتُ الشَّيءَ: قوَّيْتُ عقْدَه، والوَثاقُ -بفَتحِ الواوِ وكَسرِها-: اسمانِ لِما يُوثَقُ به الشَّيءُ؛ كالقَيدِ والحَبلِ ونَحوِهما، وقيل: الوَثاقُ اسمٌ مِن الإيثاقِ، وقدْ يُوضَعُ مَوضِعَ المصدرِ، وأصلُ (شدد): يَدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ، وأصلُ (وثق): يدُلُّ على عَقدٍ وإحكامٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٨، ٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٥/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٩) و(٦/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي =

﴿مَنًّا﴾: أي: تفَضُّلًا وإنعامًا بإطلاقِهم بلا عِوَضٍ، والمِنَّةُ: النِّعمةُ الثَّقيلةُ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على اصْطِناعِ خيرٍ، وقيل: أصلُ المنِّ القطعُ، وسُمِّيت النِّعمةُ مِنَّةً؛ لأنَّها مَقطوعةٌ عن المِحَنِ والشَّدائدِ، أو: لأنَّه إنَّما يُسْديها الإنسانُ إلى غيرِه؛ ليَقطَعَ بها حاجتَه لا غيرُ، مِن غيْرِ أنْ يَعمِدَ لطَلبِ مَثوبةٍ[1].

﴿فِدَآءً﴾: أي: عِوَضًا مُقابِلَ إطلاقِهم، والفِداءُ: حِفظُ الإنسانِ نفْسَه عن النَّائِبةِ بما يَبذُلُه، وأصلُ (فدي): أنْ يُجعَلَ شَيءٌ مَكانَ شَيءٍ حِمًى له[2].

﴿أَوْزَارَهَا﴾: أي: آلاتِها وأثقالَها التي لا تَقومُ إلَّا بها مِن سِلاحٍ ونَحوِه، وقيل: آثامَها، وأصلُ الوِزرِ: الثِّقلُ، وما يَحتَمِلُه الإنسانُ؛ فسُمِّيَت الأسلحةُ أوزارًا لأنَّها تُحمَلُ، ولِثِقَلِ حِمْلِها[3].

﴿لِّيَبْلُوَاْ﴾: أي: لِيَختَبِرَ ويَمتَحِنَ، وأصلُ البَلاءِ: التَّكليفُ بالأمْرِ الشَّاقِّ، ويكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ معًا[4].

---

= (٢٠/ ٢١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٧، ٨٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٠)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧- ٧٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (٢/ ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧، ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾: أي: ولنْ يُحبِطَها ويُبْطِلَها، وأصل (ضلل): يدُلُّ على ضَياعِ الشَّيءِ وذَهابِه في غيرِ حَقِّه[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾

قَولُه تعالَى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مَنصوبٌ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ بِفعلٍ مَحذوفٍ وُجوبًا على أنَّه بدَلٌ مِن اللَّفظِ بفِعلِه، ثمَّ أُضيفَ إلى مَفعولِه، والتَّقديرُ: فاضرِبوا الرِّقابَ ضَرْبًا، فحُذِفَ الفِعلُ اختِصارًا، ثمَّ قُدِّمَ المفعولُ المُطلَقُ، فأُنيبَ مَنابَ الفِعلِ في العَملِ في ذلك المَفعولِ، وأُضِيفَ إلى المفعولِ ﴿ٱلرِّقَابِ﴾ إضافةَ الأسماءِ إلى الأسماءِ؛ لأنَّ المصْدرَ راجِحٌ في الاسميَّةِ، مع إعطاءِ مَعنى التَّوكيدِ. وقيل: هو مَنصوبٌ على الإغراءِ. وجُملةُ ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لا مَحلَّ لها مِنَ الإعرابِ، جَوابُ (إذا).

﴿مَنًّۢا﴾ و﴿فِدَآءً﴾ مَنصوبانِ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ بِفعلٍ مُقَدَّرٍ مِن لَفْظِهما واجِبِ الحَذفِ[2]، والتَّقديرُ: فإمَّا تَمُنُّونَ مَنًّا، وإمَّا تُفْدُونَ فِداءً، وجُملةُ (فَإِمَّا تَمنُّونَ مَنًّا) مَعطوفةٌ على جَوابِ الشَّرطِ ﴿فَشُدُّواْ﴾، فلا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وجُملةُ (تُفدونُ فِداءً) مَعطوفةٌ على جُملةِ (تَمنُّون مَنًّا)، فلا محَلَّ لها أيضًا مِنَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٤).

(٢) وذلك لأنَّ المَصدَرَ متى سِيقَ تَفصيلًا لعاقِبةِ جُملةٍ، وَجَب نَصبُه بإضمارِ فِعلٍ لا يَجوزُ إظهارُه، والكلامُ هنا تَفصيلٌ لعاقِبةِ مَضمونِ ما قَبْلَه مِن شَدِّ الوَثاقِ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٥).

الإعرابِ[١].

﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾

﴿ذَٰلِكَ﴾ في مَوضِعِ رَفعٍ، خبرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك الذي ذكَرْتُ وبَيَّنْتُ. وقيل: هو مَنصوبٌ على مَعنى: افعَلوا ذلك.

ويَجوزُ أنْ يكونَ مُبتدأً خبرُه محذوفٌ، والمعنى: ذلك حُكمُ الكُفَّارِ، وهي كَلِمةٌ يَستعمِلُها الفَصيحُ عندَ الخُروجِ مِن كَلامٍ إلى كَلامٍ، وهو كما قال تعالَى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٥٥]، أي: هذا حَقٌّ، وأنا أُعَرِّفُكم أنَّ للظَّالِمينَ كذا[٢].

## المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ اللهُ تعالَى ما يَجِبُ على المؤمنينَ فِعلُه عندَ لِقائِهم أعداءَهم، وبعْدَ انتصارِهم عليهم، فيقولُ: إذا لَقِيتُم -أيُّها المُؤمِنونَ- المحارِبينَ مِن الكُفَّارِ فاضْرِبوا رِقابَهم، حتَّى إذا قَهَرْتُموهم وأكثَرتُم القَتلَ فيهم، فأحْكِموا قيْدَ مَن أسَرْتُموه منهم، فإمَّا تمُنُّونَ عليهم بعْدَ الأَسْرِ مَنًّا بأنْ تُطلِقوا سَراحَهم مجَّانًا، وإمَّا أنْ تُفدُوا فِداءً بأنْ تَأخُذوا منهم فِديةً في مُقابِلِ إطلاقِ سَراحِهم.

افعَلوا بهم ما أمَرْناكم بفِعلِه، واستَمِرُّوا على ذلك حتَّى تَنتهيَ الحَربُ التي بيْنَكم وبيْنَ أعدائِكم.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٦)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١١٨)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٦-٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٨٦).

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالَى الحِكمةَ مِن مَشروعيةِ قِتالِ الأعداءِ، فيقولُ: أمَرَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- بما سَبَق ذِكرُه، ولو يَشاءُ اللهُ الانتِصارَ مِن هؤلاءِ الكافِرينَ والانتِقامَ منهم لفَعَلَ، ولكِنَّه سُبحانَه أمَرَكم بمُحاربتِهم؛ لِيَختبِرَ بعضَكم ببَعضٍ، فيَتمَيَّزَ قَويُّ الإيمانِ مِن ضَعيفِه.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه ما أعدَّه للمُجاهدينَ مِن ثَوابٍ عَظيمٍ، فيقولُ: والَّذين استُشهِدوا وهم يُقاتِلونَ مِن أجْلِ إعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، فلنْ يُضِيعَ أعمالَهم ولنْ يُبطِلَها. سيَهْديهم اللهُ ويُصلِحُ شَأنَهم وحالَهم، ويُدخِلُهم الجنَّةَ يومَ القِيامةِ، ويَهْديهم إلى بُيوتِهم ومَساكِنِهم فيها بحيثُ لا يُخطِئونَها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن سبحانَه حالَ الفريقيْنِ -مَن يَتَّبعُ الباطِلَ، وهو حِزبُ الشَّيطانِ، ومَن يَتَّبعُ الحَقَّ، وهو حِزبُ الرَّحمنِ-؛ أمَر بجهادِ الكفَّارِ[1]، فقال:

﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ ﴾.

أي: فإذا واجَهتُم -أيُّها المُؤمِنونَ- المحارِبينَ المُقاتِلينَ مِن الكُفَّارِ فاقْتُلوهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠١-٢٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٧). =

كما قال الله تبارك وتعالَى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢، ١٣].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾.

أي: حتَّى إذا أكثَرتُم القَتلَ فغَلبتُم الكُفَّارَ وقَهرْتُموهم، فقَيِّدوا مَن أسَرْتُموهم منهم تَقييدًا شَديدًا، وارْبِطوهم رَبطًا قَويًّا[1].

﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

## الناسخُ والمنسوخُ:

الآيةُ مُحكَمةٌ ولا نسْخَ فيها[2].

---

= قال العُليميُّ: (﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ مَصدرٌ بمَعنى الفِعلِ؛ أي: فاضرِبوا الرِّقابَ ضَرْبًا، المعنى: إذا لَقيتُموهم، فاقتُلوهم، وعَيَّنَ مِن أنواعِ القَتلِ أشهَرَه وأعرَفَه، فذَكَره). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٢-٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٩-٨٠).

قال ابنُ عاشور: (الإثْخانُ: الغَلَبةُ... فإذا فُسِّر بالغَلَبةِ كان المعنى: حتَّى إذا غَلَبتم منهم مَن وَقَعوا في قَبضتِكم أسْرى، فشُدُّوا وَثاقَهم؛ وعليه فجَوازُ المَنِّ والفِداءِ غيرُ مُقيَّدٍ. وإذا فُسِّر الإثخانُ بكَثرةِ القَتلِ فيهم، كان المعنى: حتَّى إذا لم يَبْقَ مِن الجيشِ إلَّا القليلُ، فأْسِروا حينئذٍ، أي: أَبقُوا الأسرى، وكِلا الاحتِمالَين لا يَخْلو مِن تَأويلٍ في نَظمِ الآيَةِ إلَّا أنَّ الاحتِمالَ الأوَّلَ أظهَرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٩).

(٢) ممَّن صرَّح بأنَّ الآيةَ مُحكَمةٌ أو ليْستْ بمَنسوخةٍ: ابنُ جرير، والقُرطبيُّ، وابنُ تيميَّة، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧).

ونَسَب هذا القولَ إلى أكثَرِ أهلِ العِلمِ: الخازنُ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٨). =

وقيل: الآيةُ مَنسوخةٌ[١].

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾.

أي: فإمَّا أنْ تَمنُّوا على أسرَى الكُفَّارِ بإطلاقِهم مِنَ الأسْرِ مجَّانًا بلا عِوَضٍ، وإمَّا أنْ تَأخُذوا منهم عِوَضًا؛ كدَفْعِهم مالًا، أو إخلائِهم أُسارَى مُسلِمينَ لَدَيهم؛

---

= قال علَمُ الدِّين السَّخاويُّ: (قال عامَّةُ العُلماءِ بأنْ لا نسْخَ، والنبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُخيَّرٌ بيْن الفِداءِ والمنِّ والقتْلِ والاسترقاقِ. وقد رُوِي مِثلُ هذا عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِي اللهُ عنهما). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٣٦).

وقال الشوكانيُّ: (وقال كثيرٌ من العُلماء: إنَّ الآيةَ مُحكَمةٌ، والإمامُ مخيَّرٌ بيْن القتلِ والأسْرِ، وبعْدَ الأسْرِ مخيَّرٌ بيْن المَنِّ والفداءِ. وبه قال مالكٌ، والشافعيُّ، والثَّوريُّ، والأوزاعيُّ، وأبو عُبيدٍ، وغيرهُم. وهذا هو الرَّاجحُ؛ لأنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم والخلفاءَ الرَّاشدين مِن بعدِه فَعَلوا ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧).

(١) ممَّن اختار أنها مَنسوخةٌ: ابنُ أبي زَمنين، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٢).

قال الشوكاني: (قيل: إنَّها مَنسوخَةٌ في أهلِ الأوثانِ، وأنَّه لا يجوزُ أن يُفادَوا ولا يُمَنَّ عليهم، وَالنَّاسخُ لها قولُه: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾، وقَولُه: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾، وبهذا قال قَتادةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ، وابن جُرَيجٍ، وكثيرٌ من الكوفيِّين: قالوا: والمائدةُ آخِرُ ما نزَل، فوجَب أنْ يُقتَلَ كلُّ مُشركٍ إلَّا مَن قامَت الدَّلالةُ على تَركِه مِن النِّساءِ والصِّبيانِ ومَن تُؤخَذ منه الجِزيةُ، وهذا هو المشهورُ مِن مَذهبِ أبي حَنيفةَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧).

وقال عَلَم الدِّين السخاويُّ: (قال ابنُ جُريجٍ والسُّدِّيُّ وغيرُهما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ...﴾ إلى قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾: نُسِخَ جَميعُ ذلك بآيةِ السَّيفِ، فلا يجوزُ المنُّ على المشرِكِ ولا الفداءُ، إلَّا على مَن لا يَجوزُ قتْلُه كالصَّبيِّ والمرأةِ.

وقال الضَّحَّاك وعَطاءٌ: هذه الآيةُ ناسخةٌ لقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾، فلا يُقتَلُ مُشرِكٌ صَبْرًا، لكنْ يُمَنُّ عليه، ويُفادى به إذا أيْسَرَ. وهذا يدُلُّك على أنَّهم تَكلَّموا في النَّسخِ بالظَّنِّ والاجتهادِ. فمِن ثَمَّ قال قوْمٌ: هو مَنسوخٌ، وقال قوْمٌ: بلْ هو ناسخٌ). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٣٦).

فأنتُم مُخَيَّرونَ -أيُّها المُسلِمونَ- فيهمْ بعدَ انقِضاءِ الحَربِ[١].

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾.

أي: استَمِرُّوا على فِعلِ هذا الذي أُمِرْتُم به مِن قَتلِ الكُفَّارِ المُحارِبينَ وأسْرِهم إلى أنْ تَنْتهيَ الحربُ، ويضَعَ المحاربونَ السِّلاحَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٤٨-٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٧-٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥١).

قال الرازيُّ: (وفي الأوزارِ وَجهانِ: أحدُهما: السِّلاحُ، والثَّاني: الآثامُ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٩).

ممَّن اختارَ في الجُملةِ أنَّ المرادَ ما لا تَقومُ الحربُ إلَّا به كالسِّلاحِ وغيرِه: ابنُ قُتيبةَ، والواحديُّ، والبغَويُّ، والزمخشريُّ، وابنُ الجوْزي، والرَّسعنيُّ، والبيضاويُّ، والعُليميُّ، والشوكانيُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥١).

قال الشِّنقيطيُّ: (وأظهَرُ الأقوالِ في معنى وَضعِ الحَربِ أوزارَها: أنَّه وضْعُ السِّلاحِ، والعَرَبُ تُسمِّي السِّلاحَ وَزَرًا، وتُطلِقُ العَربُ الأوزارَ على آلاتِ الحَربِ وما يُساعِدُ فيها كالخَيلِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥١).

وممَّن اختار أن المعنى: حتَّى يُؤمنوا بالله وبرسولِه، ويُسْلِموا، ويَتوبوا إلى الله مِن شركِهم: ابنُ جرير، والزجَّاجُ، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٨٥).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِف في الغايَةِ المُرادَةِ هنا؛ فقيل: حتَّى يُسلِموا جميعًا، فحينئذٍ تضَعُ =

عن عِمرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا تَزالُ طائِفةٌ مِن أُمَّتي يُقاتِلونَ على الحَقِّ ظاهِرينَ على مَن ناوَأَهُم[1]، حتى يُقاتِلَ آخِرُهم المسيحَ الدَّجَّالَ))[2].

وعن سَلَمةَ بنِ نُفَيلٍ الكِنديِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كُنتُ جالِسًا عند رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أذالَ النَّاسُ الخيلَ[3] ووَضَعوا

---

= الحربُ أوزارَها. وقيل: حتَّى تَقتُلوهم وتَغلِبوهم. وقيل: حتَّى يَنزِلَ عِيسى ابنُ مَريمَ. قال ابنُ عَطيةَ: ظاهِرُ اللَّفظِ أنَّها استِعارةٌ يُرادُ بها الْتِزامُ الأمرِ أبدًا، كما تقولُ: أنا فاعِلٌ ذلك إلى يَومِ القِيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨١).

وقال السَّمعانيُّ: (وفي الجُملةِ لا تضَعُ الحربُ أوزارَها ما بَقِيَ في العالَمِ كافِرٌ حَربيٌّ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٩).

وقال البيضاويُّ: (أي: تَنقضي الحربُ ولم يَبْقَ إلَّا مُسلمٌ أو مُسالِمٌ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠).

وقال البقاعيُّ: (﴿تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ وهي أثقالُها، أي: الآلاتُ التي تُثقِلُ القائِمينَ بها؛ من النَّفَقاتِ والسِّلاحِ والكُراعِ ونحوِه، وذلك لا يكونُ وفي الأرضِ كافِرٌ، وذلك على زمَنِ عِيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ تُخرِجُ الأرضُ برَكاتِها، وتكونُ المِلَّةُ واحِدةً، وهي الإسلامُ للهِ رَبِّ العالَمينَ، فيتَّخِذُ النَّاسُ حَديدَ السِّلاحِ سِكَكًا ومَناجِلَ وفُؤوسًا ينتَفِعونَ بها في مَعاشِهم). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠٤-٢٠٥).

وقال السعديُّ: (﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾، أي: حتَّى لا يَبقى حَربٌ، وتَبقَون في المُسالَمةِ والمُهادَنةِ؛ فإنَّ لكلِّ مَقامٍ مَقالًا، ولكلِّ حالٍ حُكمًا؛ فالحالُ المُتقدِّمةُ إنَّما هي إذا كان قِتالٌ وحرْبٌ؛ فإذا كان في بعضِ الأوقاتِ لا حَرْبَ فيه لسَببٍ مِن الأسبابِ؛ فلا قَتْلَ ولا أسْرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(١) ناوَأَهم: أي: عاداهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ٦٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٨٤)، وأحمد (١٩٩٢٠).

صحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((مسند عمر)) (٢/ ٨٢٤)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٤٨٤)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٤٨٤).

(٣) أذالَ النَّاسُ الخَيلَ: أي: أهانوها واستخَفُّوا بها بقِلَّةِ الرَّغبةِ فيها. وقيل: أراد أنَّهم وَضَعوا =

السِّلاحَ، وقالوا: لا جِهادَ؛ قدْ وضَعَت الحَربُ أوزارَها[١]! فأقبَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوَجهِه، وقال: كَذَبوا! الآنَ الآنَ جاء القِتالُ، ولا يَزالُ مِن أُمَّتي أُمَّةٌ يُقاتِلونَ على الحَقِّ، ويُزِيغُ اللهُ لهم قُلوبَ أقوامٍ ويَرزُقُهم منهم حتَّى تَقومَ السَّاعةُ، وحتَّى يَأتيَ وَعدُ اللهِ، والخَيلُ مَعقودٌ في نَواصِيها الخَيرُ[٢] إلى يومِ القِيامةِ، وهو يُوحَى إليَّ أنِّي مَقبوضٌ غيرُ مُلَبَّثٍ[٣]، وأنتم تَتَّبِعوني أفْنادًا[٤] يَضرِبُ بَعضُكم رِقابَ بَعضٍ، وعُقرُ[٥] دارِ المؤمِنينَ الشَّامُ))[٦].

﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾.

أي: أمَرَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- بما سَبَق ذِكرُه مِن جِهادِ الكُفَّارِ المحارِبينَ، والحالُ أنَّه لو شاء اللهُ سُبحانَه لانتقم من الكُفَّارِ بعقوبةٍ مِنه لهم عاجلةٍ، دونَ أنْ يُكَلِّفَكم بقِتالِهم[٧].

---

= أداةَ الحَربِ عنها وأرسَلوها. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٤).

(١) وضَعَت الحَربُ أوزارَها: أي: انقضَى أمرُها، وخَفَّت أثقالُها فلمْ يَبْقَ قِتالٌ. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٤).

(٢) مَعقودٌ في نَواصيها الخيرُ: أي: مُلازِمٌ لها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥٨).

(٣) مُلَبَّثٍ: اسمُ مَفعولٍ مِن ألْبَثَه غَيرُه أو لَبَّثَه بالتَّشديدِ، أي: غيرُ مُؤخَّرٍ في الدُّنيا، بل أنتَقِلُ للدَّارِ الآخِرةِ. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٥).

(٤) أفنادًا: أي: جَماعاتٍ مُتفَرِّقينَ. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٥).

(٥) عُقرُ دارِ المُؤمِنينَ: أي: أصلُها ومَوضِعُها. يُنظر: ((حاشية السندي على سنن النسائي)) (٦/ ٢١٥).

(٦) أخرجه النَّسائيُّ (٣٥٦١) واللفظ له، وأحمد (١٦٩٦٥).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٥٦١)، وحسَّنه الوادعي في ((الصحيح المسند)) (٤٥١)، وحسَّن إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦٩٦٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٣).

قال ابنُ جَرير: (قوله: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾، يقولُ تعالَى ذِكرُه: هذا الذي أمرْتُكم =

﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾.

أي: ولكِنْ شَرَعَ اللهُ الجِهادَ لِيَختبِرَكم -أيُّها المُؤمِنونَ- بالكافِرينَ؛ فيَتبيَّنَ المجاهِدونَ مِنكم والصابِرونَ، ويُثيبَهم، ويَختارَ منكم الشُّهَداءَ، ويَختَبِرَ الكافِرينَ بكم؛ فيُعاقِبَ بأيدِيكم مَن يَشاءُ مِنهم، ويُخْزيهم، ويُوفِّقَ للتَّوبةِ منهم مَن يَشاءُ، ويَتبيَّنَ أهلُ الصِّدقِ والنِّفاقِ[1].

كما قال تعالَى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيۡنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ * أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠ - ١٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ * وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٤، ١٥].

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

**مُناسبتُها لِما قبْلَها:**

لَمَّا أمَرَهم بقِتالِ المُشرِكين؛ أعقَبَ الأمْرَ بوَعْدِ الجَزاءِ على فِعْلِه[2].

---

= به -أيُّها المؤمِنونَ- مِن قَتلِ المُشرِكينَ إذا لَقِيتُموهم في حَربٍ، وشَدِّهم وَثاقًا بعْدَ قَهرِهم، وأسْرِهم، والمَنِّ والفِداءِ ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ -هو الحَقُّ الَّذي ألزَمَكم ربُّكم، ولو يَشاءُ رَبُّكم ويُريدُ لانتصَرَ مِن هؤلاء المُشرِكينَ الَّذين بَيَّنَ هذا الحُكمَ فيهم بعُقوبةٍ منه لهم عاجِلةٍ، وكَفاكم ذلك كُلَّه). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٣).

وأيضًا لَمَّا كانَ مِن شأْنِ القِتالِ أنْ يُقتَلَ كثيرٌ مِن المؤمنينَ، قالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾[1].

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿قُتِلُواْ﴾ على مَعنى: والَّذين جاهَدوا الكُفَّارَ فاستُشْهِدوا في سَبيلِ اللهِ؛ لنْ يُحبِطَ اللهُ أعمالَهم[2].

٢- قِراءةُ ﴿قَاتَلُوا﴾ على مَعنى: والَّذين جاهَدوا الكُفَّارَ سواءٌ قُتِلوا أوْ لم يُقتَلوا؛ لن يُحبِطَ اللهُ أعمالَهم[3].

﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

أي: والَّذين جاهَدوا الكُفَّارَ فقُتِلوا واستُشْهِدوا في سَبيلِ اللهِ؛ لنْ يُحبِطَ اللهُ أعمالَهم، بلْ يتقَبَّلُها منهم، ويُثيبُهم عليها[4].

﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥﴾.

أي: سيَهديهم اللهُ ويُصلِحُ شَأنَهم وحالَهم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩).

(٢) قرَأ بها أبو عَمرٍو، ويعقوبُ، وحَفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦٦).

(٣) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءة: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٦٦-٦٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩١)، ((تفسير ابن =

= عطية)) (٥/ ١١١)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٨٤-٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩-٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: سيَهْدِيهم إلى جَنَّتِه: مكِّيٌّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩).

وقال ابن عَطية: (﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ أي: إلى طَريقِ الجنَّة). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١)

وقال السعدي: (﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ إلى سُلوكِ الطَّريقِ الموصلةِ إلى الجنَّة). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

وقال القُرْطبي: (قال أبو المَعَالي: وقَدْ تَرِدُ الهِدايةُ والمُرادُ بها إرْشادُ المُؤمِنينَ إلى مَسالِكِ الجِنَانِ والطُّرقِ المُفْضِيةِ إليها، ومِن ذلك قوْلُه تعالَى في صِفةِ المُجاهِدينَ: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ ﴾، ومنْه قوْلُه تعالَى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٢٣]، مَعناه: فاسْلُكوا بهمْ إليها). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٠).

وقيل: المعنى: أنَّه تعالَى يَهديهم إلى التَّوحيدِ في قُبورِهم، يَعني عِند سُؤالِ مُنكَرٍ ونَكيرٍ. وممَّن ذهَب إليه: مقاتلُ بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٠).

وقال السَّمرقندي: (يُجنِّبُهم مِن أهوالِ الآخِرةِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: سيَهْديهم أيَّامَ حَياتِهم في الدُّنيا إلى أرشَدِ الأمورِ، وفي الآخِرةِ إلى الدَّرجاتِ: البَغويُّ، والخازنُ، وابنُ عادل، والعُليميُّ، والشِّربينيُّ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٤٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨).

وقال جَلالُ الدِّين المحلِّيُّ: (﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ في الدُّنيا والآخِرةِ إلى ما يَنفَعُهم، ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ حالَهم فيهما، وما في الدُّنيا لمَن لم يُقتَلْ، وأُدرِجوا في ﴿قُتِلُوا۟ ﴾ تَغليبًا). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٣).

وقال مكِّيٌّ: (يجوزُ أنْ يكون المعنى: سيَهْدي مَن بَقِي منهم حيًّا). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٦٨٨٧).

وذهَب ابنُ القيِّم إلى احتِمالِ أنْ يكونَ قَولُه تعالى: ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ إخبارًا مِن اللهِ تعالَى عمَّا يَفعَلُه بالمجاهِدينَ قبْل أن يُقتَلوا، وأتَى به بصِيغةِ المُستقبَلِ إعلامًا منه بأنَّه يُجدِّدُ لهم كلَّ وَقتٍ نَوعًا مِن أنواعِ الهدايةِ وإصلاحِ البالِ شَيئًا بعْد شَيءٍ، فجعَلَ لهم جَزاءً في الدُّنيا بالهدايةِ =

كما قال تعالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * دَعۡوَىٰهُمۡ فِيهَا سُبۡحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٞۚ وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٩، ١٠].

وقال سُبحانَه وتعالَى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال تعالَى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ

---

= على الجِهادِ، وجَزاءً في الآخِرةِ بدُخولِ الجنَّةِ، فيَرُدُّ السَّامِعُ كُلَّ جُملةٍ إلى وَقتِها؛ لظُهورِ المعنى، وعدَمِ الْتباسِه. يُنظر: ((شفاء العليل)) (ص: ١٦١).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ معنى ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ أي: حالَهم، وأمْرَهم، وشأْنَهم: ابنُ أبي زَمنين، والسَّمعانيُّ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨).

وقيل: معناه: يُصلِحُ حالَهم في الآخِرةِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بن سليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ أي: يُرْضي خُصماءَهم، ويَقبَلُ أعمالَهم: الثَّعلبيُّ، والبغَويُّ، والنَّسفيُّ، وابنُ عادل، والعُليميُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٤٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٢).

وقيل: المعنى: يُصلِحُ شأْنَهم في الجنَّةِ بالنَّعيمِ المقيم، وغُفرانِ الذُّنوبِ، ويُدخِلُهم إيَّاها. قاله مكِّيٌّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٨٧).

وقال ابنُ جريرٍ بناءً على قِراءةِ ﴿قَاتَلُوا﴾: (يقولُ تعالى ذِكرُه: سيُوفِّقُ اللهُ تعالَى ذِكرُه للعمَلِ بما يَرْضى ويُحِبُّ، هؤلاء الذين قاتَلوا في سَبيلِه، ﴿وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ ويُصلِحُ أمْرَهم وحالَهم في الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩١). ويُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٨٧).

وقال الزجَّاج بِناءً على قِراءةِ ﴿قَاتَلُوا﴾ أيضًا: (وقولُه: ﴿سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ﴾ يُصلِحُ لهم أمْرَ مَعاشِهم في الدُّنيا مع ما يُجازيهم به في الآخِرةِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٧).

يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان ثَوابُ مَن قُتِلَ في سَبيلِ اللهِ ثَوابًا عَظيمًا، ونَوالًا جَسيمًا؛ أَتْبَعَه ثَوابًا أعظَمَ منه، فقال تعالَى[1]:

﴿وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾.

أي: ويُدخِلُهم اللهُ الجنَّةَ، ويُبَيِّنُ يومَ القِيامةِ لكُلِّ واحدٍ مِن أهلِها طَريقَه إلى مَوضِعِه منها، فيَهتدي إليه بِلا استِدلالٍ، ويَعرِفُ مَنزلَه بلا إشكالٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩١)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيِّم (ص: ١٤٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٠).

وممَّن ذهَب إلى المعنَى المذكورِ في الجُملةِ: مقاتلُ بن سُليمان، وابنُ جَرير، والواحديُّ، والزمخشريُّ، والقرطبيُّ، ونسَبه هو وابنُ القَيِّم إلى جُمهورِ المفَسِّرين. يُنظر: المصادر السابقة.

ممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في رِوايةٍ عنه، وقتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧).

قال الواحديُّ: (قال مجاهدٌ: يَهتدي أهلُها إلى بُيوتِهم ومَساكِنِهم لا يُخطِئون، كأنَّهم ساكِنوها منذ خُلِقوا لا يَستدِلُّون عليها أحدًا. هذا قولُ عامَّةِ المُفسِّرين وأهلِ المعاني). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٢٣).

وقيل: معنى: ﴿عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾ طيَّبَها لهم. نسَبَه ابنُ قُتيبةَ إلى أصحابِ اللُّغةِ، وممَّن اختاره منهم: الراغبُ الأصفهانيُّ، وابنُ الجوْزي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥).

وممَّن قال بهذا القول مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧).

وقيل: المعنى: بيَّنها لهم في كَثيرٍ مِن آياتِه تَعريفًا يُشوِّقُ كُلَّ مُؤمِنٍ أنْ يَسعى لها. =

كما قال تعالَى: ﴿... فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن رَسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إذا خَلَص المؤمِنونَ مِن النَّارِ حُبِسوا بقَنطرةٍ[١] بيْنَ الجنَّةِ والنَّارِ، فيَتقاصُّونَ[٢] مَظالمَ كانتْ بيْنَهم في الدُّنيا، حتَّى إذا نُقُّوا وهُذِّبوا أُذِنَ لهم بدُخولِ الجنَّةِ، فوالَّذي نَفْسُ مُحمَّدٍ بيَدِه، لأَحَدُهم بمَسكَنِه في الجنَّةِ أدَلُّ بمَنزِله كان في الدُّنيا!))[٣].

---

= وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ في الجُملة: القاسميُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

وقيل: المرادُ: طَيَّبَها بأنواعِ الملاذِّ. أو: شرَّفها لهم ورَفَعها وأعْلاها. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١١-١١٢).

وممَّن ذهَب إلى العُمومِ: البقاعي، فقال: (﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: بتَعريفِ الأعمالِ المُوصلةِ إليها، والتَّوفيقِ لهم إليها في الدُّنيا، وأيضًا بالتَّبصيرِ بالمنازِلِ في الآخرةِ، حتى إنَّ أحَدَهم يَصيرُ أعرَفَ بمَنزِلِه فيها منه بمَنزِلِه في الدُّنيا؛ وطِيبِ رائحتِها، وجَعْلِ مَوضِعِها عاليًا، وجُدرانِها عاليةً، وهي ذاتُ أعرافٍ وشُرُفٍ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠٧-٢٠٨).

وقال السعدي: (﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: عرَّفَها أوَّلًا بأنْ شَوَّقَهم إليها، ونعَتَها لهم، وذكَرَ لهم الأعمالَ المُوصلةَ إليها، التي من جُملتِها القَتلُ في سَبيلِه، ووفَّقَهم للقيامِ بما أمَرَهم به ورغَّبَهم فيه، ثمَّ إذا دخَلوا الجنَّةَ عَرَّفهم منازِلَهم وما احتَوت عليه مِن النَّعيمِ المقيمِ، والعَيشِ السَّليمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(١) القَنطرةُ: الجسرُ، وهي عبارةٌ عن الصِّراطِ الممدودِ بيْنَ الجنَّةِ والنارِ. قيل: إنَّها طرَفُ الصِّراطِ ممَّا يَلي الجنَّةَ، ويَحتمِلُ أن تكونَ مِن غيرِه بينَ الصِّراطِ والجنَّةِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٥/ ٥٢٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٩٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٦٢).

(٢) فيَتقاصُّون: بتَشديدِ الصَّادِ المُهْمَلةِ: يَتفاعَلون؛ مِن القِصاصِ، والمرادُ به تتبُّعُ ما بيْنَهم مِن المظالمِ، وإسقاطُ بعضِها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٩٦).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٤٤٠).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- النَّفْسُ كالعَدوِّ، إنْ عرَفَتْ صَولةَ الجِدِّ منكَ اسْتَأسَرَتْ لك، وإنْ أنِسَت عنك المهانةَ أَسَرَتْك، امنَعْها مَلذوذَ مُباحاتِها؛ ليَقَعَ الصُّلْحُ على تَرْكِ الحَرامِ، فإذا ضَجَّت لطَلَبِ المُباح ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[١].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ لِيَقومَ سُوقُ الجِهادِ، ويَتبيَّنَ بذلك أحوالُ العِبادِ؛ الصَّادِقِ مِنَ الكاذِبِ، ولِيُؤمِنَ مَن آمَن إيمانًا صَحيحًا عن بَصيرةٍ، لا إيمانًا مَبْنيًّا على مُتابَعةِ أهلِ الغَلَبةِ؛ فإنَّه إيمانٌ ضَعيفٌ جِدًّا لا يَكادُ يَستَمِرُّ لصاحبِه عندَ المِحَنِ والبَلايا[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ على قِراءةِ ﴿قَاتَلُوا﴾ فيه بُشرى عَظيمةٌ لِمَن جاهَدَ ساعةً ما، بأنَّ اللهَ يُميتُه على الإسلامِ المُستلزِمِ لئَلَّا يَضيعَ له عَمَلٌ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالَى: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أنَّ مِن صِيَغِ الأمْرِ المصدرَ النَّائِبَ عن فِعلِ الأمْرِ[٤].

٢- في قَولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ﴾ أنَّ رَبْطَ الأسيرِ إنْ كان مِن الكُفَّارِ هو مِن مصالحِ الدِّينِ، وقدْ أمَرَ اللهُ تعالَى به[٥].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٢٤).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٥٣٨).

٣- في قَولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ دَليلٌ على أنَّ المُفاداةَ والمَنَّ لا يجوزُ قبْلَ النِّكايةِ والإثخانِ[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ فيه بيانُ كَيفيَّةِ الجِهادِ: فعندَ اللِّقاءِ بضَربِ الرِّقابِ، وعِندَ الإثخانِ وإزالةِ الامتِناعِ بشَدِّ الوَثاقِ بالأَسْرِ، ثمَّ يَتخَيَّرُ فيهم الإمامُ مَنًّا، أو فِداءً بمالٍ أو أَسرى مِنَ المُسلِمينَ[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ فيه سُؤالٌ: (إمَّا) (وإمَّا) للحَصرِ، وحالُهم بعْدَ الأَسْرِ غيرُ مُنحَصِرٍ في الأمْرَينِ، بلْ يجوزُ القَتلُ والاسترِقاقُ، والمَنُّ والفِداءُ؟

**الجوابُ**: هذا إرشادٌ؛ فذَكَرَ الأمرَ العامَّ الجائِزَ في سائِرِ الأجناسِ[3]، ولَمَّا كان الإمامُ مُخيَّرًا في أَسْراهم بيْن أربعةِ أشياءَ: القَتلِ، والإطلاقِ مجَّانًا، والإطلاقِ بالفِديةِ -وهي شَيءٌ يأخُذُه عِوَضًا عن رِقابِهم-، والاسترِقاقِ؛ عبَّرَ عن ذلك بقَولِه مُفَصِّلًا: ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا﴾، أي: أنْ يُنعِموا عليهم إنعامًا ﴿بَعۡدُ﴾، أي: في جميعِ أزمانِ ما بعْدَ الأَسْرِ باستِبقائِهم، ثمَّ بعْدَ الإنعامِ باستِبقائِهم إمَّا أنْ يكونَ ذلك مع الاسترِقاقِ أو مع الإطلاقِ، ثمَّ الإطلاقُ إمَّا مجَّانًا ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾ بمالٍ أو بأَسرى مِنَ المُسلِمين ونحوِ ذلك؛ فأفْهَمَ التَّعبيرُ بالمَنِّ -الذي مَعناه الإنعامُ- أنَّ الإبقاءَ غيرُ واجبٍ، بل جائِزٌ، ودخَلَ في الإبقاءِ ثَلاثُ صُوَرٍ: الاسترقاقُ، والإطلاقُ مجَّانًا، وبالفِداءِ، فصَرَّح سُبحانَه وتعالَى بالفِداءِ -الَّذي معناه الأخْذُ- على وجْهِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٨-٣٩).

أنَّه قَسيمٌ للمَنِّ؛ فعُلِمَ أنَّ المرادَ به الإبقاءُ مع عدَمِ الأخْذِ، فدخَلَ فيه الإطلاقُ مجَّانًا، وهو واضِحٌ، والاسترِقاقُ؛ لأنَّه إنعامٌ بالنِّسبةِ إلى القَتلِ، وأفْهَمَ التَّعبيرُ بالمَنِّ -الذي معناه الإنعامُ مِن المنَّانِ الذي هو اسمُه تعالَى، ومعناه المُعطي ابتداءً- جَوازَ القَتلِ؛ لأنَّ الإنعامَ مُخَيَّرٌ فيه لا واجِبٌ؛ لأنَّه لو كان واجبًا كان حقًّا لا نِعمةً؛ فقدْ دخَلَت الصُّوَرُ الأربَعُ في التَّعبيرِ بهاتينِ الكَلِمَتَينِ. وكُلُّ هذا على ما يَراه الإمامُ أو نائِبُه مَصلحةً[١].

٦- في قَولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ دَليلٌ على جَوازِ المُفاداةِ ورَدِّ مَن قدْ أُخرِجَ إلى دارِ الإسلامِ مِن الكُفَّارِ إلى دارِ الكُفرِ، والمَنِّ عليه قبْلَ الإسلامِ؛ لأنَّه إذا أسلَمَ استغنَى عن المَنِّ عليه، وحَرُمَت المفاداةُ به[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٍ﴾، فيه سُؤالٌ: لا يُبتَلَى الشَّيءُ النَّفيسُ بما يُخافُ منه هَلاكُه؛ فإنَّ السَّيفَ المُهنَّدَ القاطِعَ الكبيرَ القِيمَةِ، لا يُجرَّبُ بالشَّيءِ الصُّلبِ الَّذي يُخافُ عليه منه الانكِسارُ، ولكِنَّ الآدَمِيَّ مُكرَّمٌ، كرَّمَه اللهُ وشرَّفَه وعظَّمَه، فلماذا ابتَلاهُ بالقِتالِ، وهو يُفضِي إلى القَتلِ والهَلاكِ إفضاءً غيرَ نادِرٍ، فكيف يَحسُنُ هذا الابتِلاءُ؟

**الجَوابُ**: القتلُ ليْس بإهلاكٍ بالنِّسبةِ إلى المُؤمِنِ؛ فإنَّه يُورِّثُ الحياةَ الأبدِيَّةَ، فإذا ابتَلاهُ بالقِتالِ فهو على تَقديرِ أنْ يُقتَلَ مُكرَّمٌ، وعلى تَقديرِ ألَّا يُقتَلَ مُكرَّمٌ؛ هذا إنْ قاتَلَ، وإنْ لم يُقاتِلْ فالموتُ لا بدَّ منه، وقدْ فوَّتَ على نفْسِهِ الأجرَ الكبيرَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٣-٢٠٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١).

## بلاغةُ الآياتِ:

قَولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ * سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ * وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ﴾

- الفاءُ في قَولِه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ لِتَفْريعِ هذا الكَلامِ على ما قبْلَه؛ مِن إثارةِ نُفوسِ المُسلِمين بتَشنيعِ حالِ المُشرِكين وظُهورِ خَيبةِ أعْمالِهم، وتَنويهِ حالِ المُسلِمين وتَوفيقِ آرائِهم، والمَقصودُ: تَهوينُ شأْنِهم في قُلوبِ المُسلِمين، وإغْراؤُهم بقَطْعِ دابِرِهم؛ لِيَكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ؛ لأنَّ ذلك أعظَمُ مِن مَنافِعِ فِداءِ أسْراهم بالمالِ؛ لِيَعبُدَ المُسلِمون ربَّهم آمنِينَ. وذلك ناظِرٌ إلى آيةِ سُورةِ (الأنفالِ) وإلى ما يُفِيدُه التَّعليلُ مِن قَولِه: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾[1].

- وضَرْبُ الرِّقابِ كِنايةٌ عن القتْلِ؛ لا أنَّ الواجِبَ أنْ تُضرَبَ الرِّقابَ خاصَّةً دُونَ غَيرِها مِن الأعضاءِ؛ وذلك أنَّهم كانوا يقولونَ: ضَرَبَ الأميرُ رَقَبةَ فُلانٍ، وضرَبَ عُنقَه، وضرَب ما فيه عَيْناه: إذا قتَلَه؛ وذلك أنَّ قتْلَ الإنسانِ أكثَرُ ما يكونُ بضَرْبِ رَقَبتِه، فوقَعَ (ضَرْبَ الرِّقَابِ) كِنايةً عن القتْلِ، وإنْ ضُرِبَ بغَيرِ رَقَبتِه. على أنَّ في هذه العِبارةِ مِن الغِلْظةِ والشِّدَّةِ ما ليْس في لَفْظِ القتْلِ؛ لِمَا فيه مِن تَصويرِ القتْلِ بأشنَعِ صُورةٍ، وهو حَزُّ العُنُقِ، وإطارةُ العُضْوِ الَّذي هو رأْسُ البَدَنِ، وعُلْوُه، وأوجَهُ أعْضائِه، ولقدْ زاد في هذه الغِلْظةِ في قَولِه تعالَى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾[2] [الأنفال: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٨، ٧٩).

- قولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ الوَثاقُ: الشَّيءُ الذي يُوثَقُ به. وهو هنا كِنايةٌ عن الأسْرِ؛ لأنَّ الأسْرَ يَستلزِمُ الوضْعَ في القَيدِ يُشَدُّ به الأسيرُ، والمعنى: فاقْتُلوهم، فإنْ أثْخَنْتُم منهم فأْسِروا منهم[1].

- وتَعريفُ الرِّقابِ والوَثاقِ يَجوزُ أنْ يكونَ لِلعهْدِ الذِّهنيِّ، ويَجوزُ أنْ يكونَ عِوَضًا عن المُضافِ إليه، أي: فضَرْبَ رِقابِهم، وشُدُّوا وَثاقَهم[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هاهنا: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ فعُبِّرَ بالمصدرِ، وقال في (الأنفالِ): ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ [الأنفال: ١٢] فعُبِّر بالفعلِ، وفائدةُ ذلك: أنَّ المقصودَ أوَّلًا في بعضِ السُّورِ قدْ يكونُ صُدورَ الفِعلِ مِن فاعلٍ ويَتبَعُه المصدَرُ (الحدثُ) ضِمنًا؛ إذ لا يُمكِنُ أنْ يَفعَلَ فاعلٌ إلَّا ويقَعُ منه المصدرُ (الحدَثُ) في الوجودِ، وقدْ يكونُ المقصودُ أوَّلًا المصدرَ (الحدَثَ)، ولكنَّه لا يُوجَدُ إلَّا مِن فاعلٍ، فيُطلَبُ منه أنْ يَفعَلَ، إذا عُرِف هذا، فما في (الأنفالِ) حِكايةٌ عن الحربِ الكائنةِ، وهمْ كانوا فيها، والملائكةُ أُنزِلوا لنُصرةِ مَن حضَر في صَفِّ القتالِ؛ فصُدورُ الفعلِ منه مَطلوبٌ، وهاهنا الأمرُ واردٌ في غيْرِ وقْتِ القتالِ؛ بدَليلِ قولِه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾، والمقصودُ بيانُ كونِ المصدرِ (الحدثِ) مَطلوبًا؛ لتَقدُّمِ المأمورِ على الفعلِ، قال: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾. وفيما ذُكِر تَبيِّنُ فائدةٌ أُخرى؛ وهي أنَّ اللهَ تعالَى قال هناك: ﴿وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]؛ وذلك لأنَّ الوقتَ وقْتُ القتالِ، فأرشَدَهم إلى المقْتلِ، وغيرِه إنْ لم يُصِيبوا المقْتَلَ، وهاهنا ليْس وقْتَ القتالِ، فبيَّن أنَّ المقصودَ القتلُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وغرَضُ المسلِمِ ذلك[١].

- وقُدِّمَ المَنُّ على الفِداءِ تَرْجيحًا له؛ لأنَّه أعوَنُ على امتِلاكِ ضَميرِ المَمْنونِ عليه[٢]. أو: لأنَّه مِن مكارِمِ الأخلاقِ؛ ولهذا كانت العربُ تَفْتَخِرُ به[٣]. وقيل: إنَّ في ذلك إشارةً إلى تَرجيحِ حُرمةِ النَّفسِ على طَلَبِ المالِ[٤].

- والغايةُ المُستفادَةُ مِن (حتَّى) في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَا﴾ قيل: لِلتَّعليلِ لا لِلتَّقييدِ، أي: لِأجْلِ أنْ تَضَعَ الحرْبُ أوزارَها، أي: لِيَكُفَّ المُشرِكون عنها، فتَأمَنوا مِن الحرْبِ عليكم، وليستْ غايةً لِحُكْمِ القِتالِ، والمعنى: يَستمِرُّ هذا الحُكمُ بهذا لِيَهِنَ العَدُوُّ، فيَتْرُكوا حَرْبَكم؛ فلا مَفهومَ لِهذه الغايةِ؛ فالتَّعليلُ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾، وما بيْنَهما اعْتِراضٌ، والتَّقديرُ: ﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾، أي: لا تَتْرُكوا القتْلَ لِأجْلِ أنْ تَضَعَ الحرْبُ أوزارَها؛ فيَكونُ وارِدًا مَورِدَ التَّعليمِ والمَوعظةِ، أي: فلا تَشتَغِلوا عِندَ اللِّقاءِ إلَّا بقَتْلِ الذين كَفَروا؛ لِتَضَعَ الحرْبُ أوزارَها، فإذا غَلَبْتُموهم فاشْتَغِلوا بالإبقاءِ على مَن تَغلِبونَه بالأسْرِ؛ لِيَكونَ المَنُّ بعْدَ ذلك أو الفِداءُ[٥]. وذلك بناءً على تَفسيرِ الإثخانِ بالغَلَبةِ.

- والأوزارُ: الأثقالُ، ووَضْعُ الأوزارِ تَمثيلٌ لِانتهاءِ العَمَلِ؛ فشُبِّهَت حالةُ انتهاءِ القِتالِ بحالةِ وَضْعِ الحَمَّالِ أو المُسافِرِ أثْقالَه، وهذا مِن مُبتَكراتِ القُرآنِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٢).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لِتَمْييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَنْويهًا به. ويُفِيدُ اسمُ الإشارةِ تَقريرَ الحُكْمِ، ورُسوخَه في النُّفوسِ[1].

- وتَعديةُ (انتَصَرَ) بحَرْفِ (مِن) -مع أنَّ حقَّه أنْ يُعدَّى بحَرْفِ (على)-؛ لِتَضْمينِه معنى: (انتقَمَ)[2].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ هذا مِن مَظاهِرِ بَلْوى بَعضِهم ببَعضٍ، وهو مُقابِلُ ما في قَولِه: ﴿فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾؛ فإنَّ ذلك مِن مَظاهِرِ إهانةِ الَّذين كَفَروا؛ فذَكَرَ هنا ما هو مِن رِفعةِ الذين قاتَلوا في سَبيلِ اللهِ مِن المُؤمِنين بعِنايةِ اللهِ بهم[3].

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ إلخ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ الآيةَ؛ فإنَّه لَمَّا أمَرَهم بقِتالِ المشركينَ، أعْقَبَ الأمْرَ بوَعدِ الجَزاءِ على فِعلِه[4].

- وذِكرُ (الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ) إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ إذ كان مُقْتَضَى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: فلنْ يُضِلَّ اللهُ أعْمالَكم، وهكذا بأُسلوبِ الخِطابِ؛ فعُدِلَ عن مُقْتضى الظَّاهِرِ مِن الإضمارِ إلى الإظهارِ؛ لِيَكونَ في تَقديمِ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ إفادةُ تَقوِّي الخَبرِ، ولِيَكونَ ذَريعةً إلى الإتيانِ بالمَوصولِ؛ للتَّنويهِ بصِلَتِه، ولِلْإيماءِ إلى وَجْهِ بِناءِ الخَبرِ على الصِّلةِ بأنَّ تلك الصِّلةَ هي عِلَّةُ ما وَرَدَ بعْدَها مِن الخبَرِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٧٦، ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ خبرٌ عن المَوصولِ، وقُرِنَتْ بالفاءِ لإفادةِ السَّببيَّةِ في تَرتُّبِ ما بعْدَ الفاءِ على صِلةِ المَوصولِ؛ لأنَّ المَوصولَ كثيرًا ما يُشْرَبُ مَعنى الشَّرْطِ، فيُقرَنُ خَبَرُه بالفاءِ، وبذلك تكونُ صِيغةُ الماضي في فِعلِ ﴿قُتِلُواْ﴾ مُنْصرِفةً إلى الاستِقبالِ؛ لأنَّ ذلك مُقْتضَى الشَّرْطِ(١).

- وقال في حَقِّ الكافِرِ: ﴿أَضَلَّ﴾ [محمد: ١]، بصِيغةِ الماضي، ولم يَقُلْ: (يُضِلُّ)؛ إشارَةً إلى أنَّ عَمَلَه حيث وُجِدَ عَدَمٌ، وكأنَّه لم يُوجَدْ مِن أصلِه، وقال في حقِّ المؤمِنِ: ﴿فَلَن يُضِلَّ﴾، ولم يَقُلْ: (ما أضلَّ)؛ إشارَةً إلى أنَّ عَمَلَه كلَّما ثبَتَ عليه أُثبِتَ له، وبيْنَهما غايةُ الخِلافِ، كما أنَّ بيْنَ الدَّاعي والصَّادِّ غايةَ التَّبايُنِ والتَّضادِّ(٢).

- وجُملةُ ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾ وما عُطِفَ عليها بَيانٌ لِجُملةِ ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾(٣).

- في قولِه تعالَى: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾ مُناسبةٌ حسنةٌ؛ فقد قال تعالَى هنا (يُصْلِحُ)، وفي أوَّلِ السُّورةِ قال: (أَصْلَحَ بَالَهُمْ) [محمد: ٢]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ الماضيَ والمستقبلَ راجِعٌ إلى أنَّ هناكَ وَعَدَهم ما وَعَدَهم بسَببِ الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، وذلك كان واقعًا منهم، فأخْبَر عن الجزاءِ بصِيغةٍ تدُلُّ على الوقوعِ، وهاهنا وَعَدَهم بسَببِ القتالِ والقتلِ، فكان في اللَّفظِ ما يَدُلُّ على الاستقبالِ؛ لأنَّ قولَه تعالَى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ﴾ [محمد: ٤] يدُلُّ على الاستقبالِ، فقال: ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤١).

## الآيات (٧-١١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩ ۞ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَعۡسٗا﴾: أي: عِثارًا وسُقوطًا وهَلاكًا، يُقالُ للعاثِرِ: تَعْسًا: إذا لم يُريدوا قيامَه، وأصلُ (تعس): يدُلُّ على الكَبِّ[1].

﴿فَأَحۡبَطَ﴾: أي: فأبطَلَ وأذهَبَ الأجرَ، وأصلُ (حبط): يدُلُّ على بُطْلانٍ[2].

﴿عَٰقِبَةُ﴾: أي: خاتمةُ. وعاقبةُ كلِّ شَيءٍ: آخرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقِبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شَيءٍ، وإتيانُه بعدَ غَيرِه[3].

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾: أي: أهلَكَهم. وأصلُ التَّدميرِ: إدخالُ الهلاكِ على المُهلَكِ، وأصلُ (دمر): يدُلُّ على الدُّخولِ في البَيتِ وغيرِه[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٥) و(٢١/ ٢٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٩/ ٥٨١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧) و(٢٠/ ٣٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، =

﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أي: وَلِيُّهم وناصِرُهم، والمَوْلَى: الوَلِيُّ القَريبُ، والحَليفُ، والنَّاصِرُ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ(١).

## المَعنى الإجماليُّ:

يُبشِّرُ الله تعالى المؤمنينَ بنَصرِه إذا نصَروا دينَه، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إن تَنصُروا دينَ الله ورسولَه يَنصُرْكم اللهُ، ويُثبِّتْ أقدامَكم عندَ قِتالِ أعدائِكم.

ثمَّ يَتوعَّدُ اللهُ تعالَى الكافِرينَ بالخَيبةِ والخُسْرانِ، فيقولُ: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ فخِزْيًا لهم وهلاكًا، وسُقوطًا لا قيامَ بَعْدَه، وجَعَل اللهُ أعمالَهم باطِلةً.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ بهم إلى الخُسرانِ، فيقولُ: ذلك الإتْعاسُ للكافِرينَ بسَبَبِ أنَّهم كَرِهوا القُرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ، فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم.

ثمَّ يُوبِّخُ الكافِرينَ على عدمِ الاعتبارِ بمصيرِ الَّذين مِن قَبْلِهم، فيقولُ: أفلَمْ يَسِرِ المُشرِكونَ في الأرضِ فيَنظُروا كيف كانت نهايةُ الكُفَّارِ الَّذين مِن قبْلِهم، أهلَكَهم اللهُ واستأصَلَهم، ولِغَيرِهم مِنَ الكُفَّارِ أمثالُ تلك العاقِبةِ مِن الهلاكِ والدَّمارِ إن لم يُؤمِنوا.

ذلك النَّصرُ للمُؤمِنينَ والهَلاكُ للكافِرينَ بسَبَبِ أنَّ اللهَ يَتولَّى المؤمنينَ ويَنصُرُهم، وأنَّ الكافِرينَ لا وَلِيَّ لهم يَتولَّاهم ويَنصُرُهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾.

---

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٢٢، ٢٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٣١٢).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكرَ اللهُ تعالى القِتالَ، تشَوَّفَ السَّامعُ إلى حالِ المُقاتِلِ مِنَ النَّصرِ والخِذلانِ؛ فأجابَ بما يُعرِّفُ بشَرطِ النَّصرِ(١).

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ أنَّه لو شاءَ اللهُ لَانتصَرَ منهم، عُلِمَ منْه أنَّ ما أمَرَ به المُسلِمينَ مِن قِتالِ الكُفَّارِ إنَّما أرادَ منه نَصْرَ الدِّينِ بقَطْعِ شَوكةِ أعْدائِه الَّذين يَصُدُّونَ النَّاسَ عنه؛ أتْبَعَهُ بالتَّرغيبِ في نَصْرِ اللهِ، والوعْدِ بتَكفُّلِ اللهِ لهم بالنَّصرِ إنْ نَصَروه، وبأنَّه خاذِلٌ الَّذين كَفَروا بسَبَبِ كَراهيتِهم ما شَرَعَه مِن الدِّينِ(٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إن تَنصُروا دينَ الله ورسولَه يَنصُرْكم اللهُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: إن تَنصُروا دينَ اللهِ ورسولَه يَنصُرْكم على عدوِّكم: البغويُّ، والزمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤١).

وقال بعضُ المفسِّرينَ: المعنى: إن تَنصُروا دينَ اللهِ يَنصُرْكم على أعدائِكم. وممَّن قال ذلك واقتصَر عليه: السَّمَرْقَنْديُّ، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨).

قال الواحدي: (قال أهل المعاني: إن تَنصُروا دينَ اللهِ ورسولَه بالجهادِ، إلَّا أنَّه أُضيفَ النَّصرُ إلى اللهِ تفخيمًا لِشأنِه وتعظيمًا، وتلَطُّفًا في الاستِدعاءِ إليه، كالتَّلطُّفِ في ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة: ٢٤٥]). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٢٦). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠].

﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾.

أي: ويُثبِّتْ أقدامَكم عندَ قِتالِ الكُفَّارِ؛ فلا تخافونَ منهم، ولا تَفِرُّونَ مهما كَثُرَ عَددُهم وقَوِيَتْ عُدَّتُهم(١).

---

= وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ فيه حذْفُ مُضافٍ، أي: دينَ اللهِ ورسولَه، والمعنى: تَنصُروه بجِدِّكم واتِّباعِكم وإيمانِكم ﴿يَنصُرۡكُمۡ﴾ بخلْقِ القوَّةِ لكم، والجرأةِ، وغيرِ ذلك مِن المعارِفِ). وفسَّر السعديُّ نصْرَ اللهِ بالقيامِ بدينِه، والدَّعوةِ إليه، وجهادِ أعدائِه، والقَصدِ بذلك وجْهَ الله تعالى. وفسَّر نصْرَ اللهِ لهم وتثبيتَ أقدامِهم بالرَّبطِ على قُلوبِهم بالصَّبرِ والطُّمأنينةِ والثَّباتِ، وأن يُصبِّرَ أجسامَهم على ذلك، ويُعينَهم على أعدائِهم. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

وقال البِقاعي: (﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: يَتجدَّدْ لكم نيَّةٌ مُستمِرَّةٌ وفِعلٌ دائمٌ على نُصرةِ دِينِ الملِكِ الأعظَمِ، بإيضاحِ أدلَّتِه وتَبيينِها، وتَوهيةِ شُبَهِ أهلِ الباطلِ وقتالِهم، ويكونُ ذلك خالصًا له). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠٩).

قال السمعاني: (والنَّصرُ مِن الله: هو الحِفظُ والهِدايةُ. وعن قَتادةَ قال: مَن يَنصُرِ اللهَ يَنصُرْه، ومَن يَسألْه يُعطِه. ويُقالُ: يَنصُرْكم بتَغليبِكم على عدوِّكم، وإعلائِكم عليهم). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥١).

قال الواحدي: (قال الكَلْبيُّ ومُقاتِلٌ: يعني: عندَ القِتالِ. وقيل: علي الإسلامِ. ورُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ: على الصِّراطِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٢٦).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: أنَّ التَّثبيتَ عندَ القتالِ (أي: بالنَّصرِ والمَعونةِ والعِصمةِ مِن الفِرارِ): السمرقنديُّ، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥١).

وقال البقاعي: (﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ أي: تثبيتًا عظيمًا، بأن يَمْلأَ قُلوبَكم سكينةً واطمئنانًا، =

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، جاز أنْ يُتوهَّمَ أنَّ الكافِرَ أيضًا يَصبِرُ ويَثبُتُ للقِتالِ؛ فيَدومُ القِتالُ والحِرابُ والطِّعانُ والضِّرابُ، وفيه المَشقَّةُ العَظيمةُ، فقال تعالى: لكمُ الثَّباتُ، ولهمُ الزَّوالُ والتَّغيُّرُ والهَلاكُ؛ فلا يكونُ الثَّباتُ؛ ففي الآيةِ زِيادةٌ في تَقويةِ قُلوبِ المُؤمِنين[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكرَ أهلَ الإيمانِ؛ بيَّن ما لأهلِ الكُفرانِ[٢]، فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ فخِزيًا لهم وشَقاءً وهَلاكًا، وعِثارًا وسُقوطًا لا قيامَ بَعدَه[٣].

﴿وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾.

أي: وجَعَل اللهُ أعمالَهم باطِلةً لا نَفْعَ فيها[٤].

---

= وأبدانَكم قوَّةً وشجاعةً في حالِ القتلِ، ووقْتَ البحثِ والجدالِ، وعندَ مُباشرةِ جميعِ الأعمالِ، فتَكونوا عالينَ قاهِرينَ في غايةِ ما يكونُ مِن طِيبِ النُّفوسِ، وانشِراحِ الصُّدورِ؛ ثقةً باللهِ، واعتِزازًا به وإن تَمالَأَ عليكم أهلُ الأرضِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٥، ٨٦).

قال البِقاعي: (﴿فَتَعۡسٗا﴾ أي: فقد عَثَروا، فيُقالُ لهم ما يُقالُ للعاثِرِ الَّذي يُرادُ أنَّه لا يقومُ: تَعْسًا لا قيامَ معه، كما يُقالُ لِمن عَثَر وأُريدَ قيامُه: لَعًا [أي: ارتفاعًا] لك). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن =

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى ما صنَعَ بالمُشرِكينَ؛ لِيَجتَرِئَ به حِزبُه عليهم- بيَّنَ سَبَبه؛ لِيُجتَنَبَ[1].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٩﴾.

أي: ذلك الإتْعاسُ للكافِرينَ وإضلالُ أعمالِهم بسَبَبِ أنَّهم كَرِهوا القُرآنَ الَّذي أنزَلَه اللهُ، فأبغَضُوه ولم يَقبَلوه ولم يَتَّبِعوه؛ فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم، فلا يَنتَفِعونَ منها في الدُّنيا، ولا في الآخِرةِ[2]!

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا ١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان لا يَستَهينُ بهذه القَضايا، ويَجترِئُ مِثلَ هذه البَلايا إلَّا مَن أمِنَ العُقوبةَ، ولا يأمَنُ العُقوبةَ إلَّا مَن أعرَضَ عنِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وكان يَكْفي في الصَّدِّ عنِ الأمْرَيْنِ وقائِعُه تعالى بالأُمَمِ الخالِيَةِ مِن أجْلِ تَكْذيبِ رُسُلِه، ومُناصَبةِ أولِيائِه، والاعتِداءِ على حُدودِه؛ قال تعالى[3]:

﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾.

---

= كثير)) (٧/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٦، ٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١١).

أي: أفلم يُسافِرِ المُشرِكونَ في الأرضِ فيَنظُروا كيف كانت نهايةُ الكُفَّارِ الَّذين مِن قَبْلِهم بسَبَبِ كُفرِهم[١]؟

﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: أهلَكَ اللهُ مَنازِلَهم وأموالَهم، وأبادَهم واستأصَلَهم[٢].

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾.

أي: ولِغَيرِهم مِنَ الكُفَّارِ أمثالُ تلك العاقِبةِ مِن الهلاكِ والدَّمارِ إن لم يُؤمِنوا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٧، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٢، ٢١٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: كفَّارُ مكَّةَ: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والبغوي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

ومِن المفسِّرين مَن قال: المرادُ: كفَّارُ هذه الأمَّةِ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والرَّسْعَني، والنسفي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٤).

وقال ابن أبي زَمَنين: (﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ يعني: عاقِبةَ الَّذين تقومُ عليهم السَّاعةُ؛ كفَّارِ آخِرِ هذه الأمَّةِ: يهْلكُونَ بالنَّفخةِ الأولى). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٨).

ويحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ: لهم أمثالُها في الآخرةِ، كأنَّه يقولُ: دَمَّر اللَّهُ عليهم في الدُّنيا، ولهم في الآخرةِ أمثالُها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٣). =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾.

---

= وقال السعديُّ: (وللكافِرين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ أمثالُ هذه العواقِبِ الوَخيمةِ، والعُقوباتِ الذَّميمةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

وفي قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ قال أبو حيَّان: (أي: أمثالُ تلك العاقِبةِ والتَّدميرةِ الَّتي يدُلُّ عليها ﴿دَمَّرَ﴾، أو: الهَلَكةِ؛ لأنَّ التَّدميرَ يدُلُّ عليها، أو السُّنَّة، لقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ [الأحزاب: ٣٨، ٦٢]. والوجهُ الأوَّلُ هو الرَّاجحُ؛ لأنَّ العاقبةَ مَنطوقٌ بها، فعاد الضَّميرُ على المَلْفوظِ به، وما بَعْدَه مَقولُ القَولِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أمثالُ تلك العاقِبةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

قال الشوكاني: (وإنَّما جُمِعَ [أي: لفظُ ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾]؛ لأنَّ العواقِبَ مُتَعدِّدةٌ بِحَسَبِ تَعَدُّدِ الأُمَمِ المُعذَّبةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩).

وقال القرطبي: (﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أي: أمثالُ هذه الفَعلةِ، يعني: التَّدميرَ). يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤).

وقال النسفي: (﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أمثالُ تلك الهَلكةِ؛ لأنَّ التَّدميرَ يدُلُّ عليها). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٤).

وقال مُقاتِلٌ والسَّمَرْقَنْديُّ: ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أي: مِن العذابِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩).

وقال الشنقيطي: (قاسَ الموجودينَ في زمَنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم على الأُممِ الماضيةِ، وقال لهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، ثم بيَّن إلحاقَ النَّظيرِ بالنَّظيرِ فقال: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾، فكأنَّ المَوجودينَ في زمنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فرعٌ، والكفَّارُ المتقدِّمون أصلٌ، والحُكمُ الَّذي عمَّهم المُهدَّدُ به: العذابُ والهلاكُ، والعِلَّةُ الجامعةُ: تكذيبُ الرُّسلِ، والتَّمرُّدُ على ربِّ العالَمينَ. وأمثالُ هذا في القرآنِ كثيرةٌ). ((العذب النمير)) (٣/ ١٤٠).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّه يُعْلي أولياءَه، ويُذِلُّ أعداءَه؛ بيَّنَ عِلَّتَه، فقال[1]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: ذلك النَّصرُ للمُؤمِنينَ والإهلاكُ للكافِرينَ بسَبَبِ أنَّ اللهَ يَتولَّى الَّذين آمَنوا فيَنصُرُهم[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ...﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ * سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠، ١٥١].

﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٣).

ممَّن اختار أنَّ اسمَ الإشارةِ يعودُ إلى الفِعلِ الَّذي فعَله اللهُ تعالى مِن نصْرِ المؤمنينَ وإهلاكِ الكافرين: ابنُ جرير، والواحديُّ، والرَّسْعَني، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٣).

وقيل: اسمُ الإشارةِ يعودُ إلى ما ذُكِر مِن أنَّ للكافرين أمثالَها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: أبو السعود، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

قال ابن عاشور: (اسمُ الإشارةِ مُنصَرِفٌ إلى مَضمونِ قَولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، بتأويلِ: ذلك المذكورُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

أي: وبسَبَبِ أنَّ الكافِرينَ لا وَلِيَّ لهم يَتولَّاهم فيَنصُرهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا مَّوَدَّةَ بَيۡنِكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُ بَعۡضُكُم بِبَعۡضٖ وَيَلۡعَنُ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنۡ أَوۡلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٦].

وعن البراءِ رَضِيَ اللهُ عنه في حديثِ غَزوةِ أُحُدٍ: ((... قال أبو سُفْيانَ: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: أجيبُوه. قالوا: ما نقولُ؟ قال: قولوا: اللهُ مَوْلانا ولا مَوْلَى لكم))[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ هذا أمرٌ منه تعالى للمُؤمِنينَ أن يَنصُروا اللهَ بالقيامِ بدينِه، والدَّعوةِ إليه، وجِهادِ أعدائِه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، والقَصدِ بذلك وَجْهَ اللهِ؛ فإنَّهم إذا فعَلوا ذلك نصَرَهم اللهُ وثبَّت أقدامَهم، فهذا وعدٌ مِن كريمٍ صادقِ الوَعدِ أنَّ الَّذي يَنصُرُه بالأقوالِ والأفعالِ سيَنصُرُه مَولاه، ويُيَسِّرُ له أسبابَ النَّصرِ مِن الثَّباتِ وغَيرِه[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ مَنِ استَشعَرَ التَّقوى في مَقاصِدِه، وأخلَصَ النِّيَّةَ لله في أعمالِه؛ لم يُسْلِمْه اللهُ إلى عَدُوِّه، ولم يُعْلِه عليه، وكان الظَّفَرُ له على مَن ناوَأَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٩).

(٢) رواه البخاري (٤٠٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٥).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٠).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ فيه وَعيدٌ للأُمَّةِ بأنَّها إن تخلَّت عن نَصرِ اللهِ، والجهادِ في سَبيلِه، والأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ؛ وكَلَها سُبحانَه إلى نَفْسِها، وتخلَّى عن نَصرِها، وسلَّط عليها عَدُوَّها، ولقد وُجِدَ بعضُ ذلك مِن تسَلُّطِ الفَسَقةِ لَمَّا وُجِدَ التَّهاوُنُ في بعضِ ذلك، والتَّواكُلُ فيه[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ فيه أنَّ الَّذين يَرتَكِبونَ جميعَ المعاصي ممَّن يتَسَمَّونَ باسمِ المُسلِمينَ، ثمَّ يقولونَ: إنَّ اللهَ سيَنصُرُنا- مَغررونَ؛ لأنَّهم لَيسُوا مِن حِزبِ اللهِ المَوعودينَ بنَصرِه[٢]!

٥- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فيه الحَثُّ على السَّيرِ في الأرضِ، والنَّظرِ في أحوالِ الأممِ السَّابقةِ والاعتبارِ؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ وَبَّخَهم على عدَمِ السَّيرِ والنَّظرِ والاعتبارِ[٣].

٦- قيلَ في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: يَصِحُّ أن يُقالَ: إنَّ هذه أرْجى آيةٍ في القُرآنِ الكريمِ؛ ذلك بأنَّه سُبحانَه يقولُ: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ولم يَقُلْ: مَوْلى الزُّهَّادِ والعُبَّادِ وأصْحابِ الأوْرادِ والاجتِهادِ؛ فالمُؤمِنُ -وإنْ كان عاصِيًا- مِن جُملةِ الَّذين آمَنوا[٤].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٥٤٥، ٥٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٠٦).

العَهدَ الموَثَّقَ بيْنَ اللهِ وبيْنَ عِبادِه بالنَّصرِ هو أنْ يكونَ النَّصرُ مُتبادَلًا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ[٢].

٣- تَركُ امتِثالِ الطَّاعةِ إنْ كان سَبَبُه كراهةَ ما جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فهذا كفرٌ مُخرِجٌ عن المِلَّةِ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، وإنْ كان تكاسُلًا وكراهةً لهذا العَمَلِ نَفْسِه، لا لأنَّ الرَّسولَ جاء به؛ فهذا لا يُخرِجُ مِن الملَّةِ، وهذه مَسألةٌ يجِبُ التَّفَطُّنُ لها[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ ثبوتُ الأسبابِ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في الخَلقِ واحِدةٌ؛ فالَّذي أهلكَ الأممَ السَّابقةَ بذُنوبِهم يُهلِكُ بعضَ هذه الأُمَّةِ أيضًا بذُنوبِهم[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۖ وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ إنذارُ المكذِّبينَ لِرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ ذَكَر كيف كان عاقِبةُ الَّذين مِن قَبْلِهم، وكان عاقِبتَهم الدَّمارُ والهلاكُ. والمعنى: لا تَظُنُّوا أنَّ الدَّمارَ الَّذي لَحِقَ المكذِّبينَ السَّابِقينَ أنَّه خاصٌّ بهم، بل إذا كَذَّبتُم أصابَكم ما أصابَهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب الحنبلي (١/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٦٠٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٨٦).

٧- أخبَر اللهُ تعالى في كتابِه أنَّه وليُّ المُؤمِنينَ، وأنَّه يَتولَّى الصَّالِحينَ، وذلك يَتضَمَّنُ أنَّه يَتولَّى مَصالِحَهم في الدُّنيا والآخِرةِ، ولا يَكِلُهم إلى غَيرِه، ومِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، وقولُه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[1] [البقرة: ٢٥٧].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: كيفَ الجَمعُ بيْنَ قَولِه تعالى: ﴿لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، وبينَ قَولِه: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٣٠]؟

**الجوابُ**: أنَّ (المولى) ورد بمعنى: السَّيِّدِ والرَّبِّ والنَّاصِرِ؛ فحيث قال: ﴿لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أراد: لا ناصِرَ لهم، وحيثُ قال: ﴿مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: ربِّهم ومالِكِهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [النساء: ١]، وقال: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦][2]. فالمرادُ بالمَولَى في هذا الموضعِ مِن سورةِ (محمَّدٍ): الوليُّ والنَّاصرُ، والمعنى: أنَّ اللهَ يَنصُرُ الَّذين يَنصُرون دِينَه، وهمُ الَّذين آمَنوا، ولا يَنصُرُ الَّذين كَفَروا به فأشْرَكوا معه في إلهيَّتِه، وإذا كان لا يَنصُرُهم فلا يَجِدونَ نَصيرًا؛ لأنَّه لا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يَنصُرَهم على اللهِ؛ فنفْيُ جِنسِ المَولى لهم بهذا المعنَى مِن مَعاني المَولى؛ فقولُه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ أفادَ شَيئينِ: أنَّ اللهَ لا يَنصُرُهم، وأنَّه إذا لم يَنصُرْهم فلا ناصِرَ لهم. وأمَّا إثْباتُ المَولى لِلمُشرِكين في قَولِه تَعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ مَكَانَكُمۡ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۖ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠]، فذلك المَولى بمَعنًى آخَرَ، وهو معنَى: المالِكِ والرَّبِّ؛ فلا تَعارُضَ بيْنَهما[3].

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٩).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾

- افتُتِحَ التَّرغيبُ بنِدائِهم بصِلةِ الإيمانِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ اهتِمامًا بالكلامِ، وإيماءً إلى أنَّ الإيمان يَقْتضي منْهم ذلك، والمَقصودُ تَحْريضُهم على الجِهادِ في المُستقبَلِ بعْدَ أنِ اجْتَنَوا فائدتَه مُشاهَدةً يومَ بَدْرٍ[١].

- وفي قَولِه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ جِيءَ في الشَّرْطِ بحَرْفِ (إنْ) الَّذي الأصلُ فيه عَدَمُ الجَزْمِ بوُقوعِ الشَّرطِ؛ للإشارةِ إلى مَشقَّةِ الشَّرْطِ وشِدَّتِه؛ لِيُجعَلَ المَطلوبُ به كالَّذي يُشَكُّ في وَفائِه به[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ هذا مُقابِلُ قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٤]؛ فإنَّ المُقاتِلينَ في سَبيلِ اللهِ همُ المُؤمِنون، فهذا عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ٤] الآيةَ[٣].

- والتَّعْسُ: الشَّقاءُ، ومِن بَدائعِ القُرآنِ وُقوعُ ﴿فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ﴾ في جانِبِ الكُفَّارِ في مُقابَلةِ قَولِه للمُؤمنينَ: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد: ٧][٤]. وانتصَبَ ﴿فَتَعۡسٗا﴾ على المَفعولِ المُطلَقِ بَدَلًا مِن فِعلِه، والتَّقديرُ: فتَعِسوا تَعْسَهم، وهو مِن إضافةِ المَصدرِ إلى فاعِلِه، وقُصِدَ مِن الإضافةِ اختِصاصُ التَّعْسِ بهم. ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿فَتَعۡسٗا﴾ لهم مُستعمَلًا في الدُّعاءِ عليهم؛ لِقَصْدِ التَّحقيرِ والتَّفظيعِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وذلك مِن استِعمالاتِ هذا المُركَّبِ، وحينَئذٍ يَتعيَّنُ في الآيةِ فِعلُ قَولٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: فقال اللهُ: تَعْسًا لهم، أو فيُقالُ: تَعْسًا لهم[1].

- قولُه: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ المُرادُ بأعمالِهم: الأعمالُ الَّتي يَرْجُون منها النَّفْعَ في الدُّنيا؛ لأنَّهم لمْ يَكونوا يَرْجُون نَفْعَها في الآخِرةِ؛ إذْ هم لا يُؤمِنون بالبَعثِ، وإنَّما كانوا يَرْجُون مِن الأعمالِ الصَّالحةِ رِضا اللهِ ورِضا الأصنامِ؛ لِيَعيشوا في سَعةِ رِزْقٍ، وسَلامةٍ، وعافيةٍ، وتَسلَمَ أولادُهم وأنْعامُهم؛ فالأعْمالُ المُحبَطةُ بَعضُ الأعمالِ المُضلَّلةِ، وإحْباطُها هو عَدَمُ تَحقُّقِ ما رَجَوه منْها؛ فهو أخَصُّ مِن إضْلالِ أعْمالِهم في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١] أوَّلَ السُّورةِ. والمَقصودُ مِن ذِكرِ هذا الخاصِّ بعْدَ العامِّ التَّنبيهُ على أنَّهم لم يَنتَفِعوا بها؛ لِئلَّا يَظُنَّ المُؤمِنون أنَّها قدْ تُخفِّفُ عنْهم مِن العَذابِ؛ فقدْ كانوا يَتساءَلون عن ذلك، والمَعنى: أنَّهم لو آمَنوا بما أنزَلَ اللهُ، لَانتَفَعوا بأعْمالِهم الصَّالحةِ في الآخِرةِ -وهي المَقصودُ الأهَمُّ- وفي الدُّنيا على الجُملةِ. وقد حصَلَ مِن ذِكرِ هذا الخاصِّ بعْدَ العامِّ تأْكيدُ الخبرِ المَذكورِ[2].

- والإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾؛ لِتَمْييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَنْويهًا به[3].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ أي: كَرِهوا القُرآنَ؛ لِمَا فيه مِن التَّوحيدِ والتَّكاليفِ المُخالِفةِ لِما أَلِفُوه واشْتَهَتْه أنفُسُهم، وهو تَخصيصٌ وتَصريحٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٦، ٨٦).

بسَببيَّةِ الكُفْرِ بالقُرآنِ لِلتَّعْسِ والإضلالِ[١].

- وذكَرَ الإحباطَ معَ ذِكرِ الإضلالِ المرادِ هو منه، فقال: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ إشْعارًا بأنَّه يَلزَمُ الكُفرَ بالقُرآنِ، ولا يَنفَكُّ عنه بحالٍ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٨] الآيةَ[٣].

- والاسْتِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تَقريريٌّ، والمعنى: أليس تَعْسُ الَّذين كَفَروا مَشهودًا عليه بآثارِه مِن سُوءِ عاقِبةِ أمْثالِهم الَّذين كانوا قبْلَهم يَدِينونَ بمِثلِ دِينِهم[٤]؟

- وجُملةُ ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، وهذا تَعريضٌ بالتَّهديدِ[٥].

- وفِعلُ ﴿دَمَّرَ﴾ مُتعَدٍّ إلى المُدمَّرِ بنَفْسِه، يُقالُ: دمَّرَهم اللهُ، وإنَّما عُدِّيَ في الآيةِ بحَرْفِ الاستِعلاءِ؛ لِلْمبالَغةِ في قُوَّةِ التَّدميرِ، فحُذِفَ مَفعولُ ﴿دَمَّرَ﴾ لِقَصْدِ العُمومِ، ثمَّ جُعِلَ التَّدميرُ واقعًا عليهم، فأفادَ مَعنى: دمَّرَ كلَّ ما يَختَصُّ بهم، وهو المَفعولُ المَحذوفُ، وأنَّ التَّدميرَ واقعٌ عليهم؛ فهُمْ مِن مَشمولِه[٦].

- وجُملةُ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [محمد: ١١]، والمُرادُ بالكافرينَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٨).

كُفَّارُ مكَّةَ، والمعنى: ولِكُفَّارِكم أمثالُ عاقِبةِ الَّذين مِن قبْلِهم مِن الدَّمارِ، وهذا تَصريحٌ بما وقَعَ به التَّعريضُ في قَولِه: ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لِلتَّأْكيدِ بالتَّعميمِ ثمَّ الخُصوصِ[١].

- وعلى أنَّ المُرادَ بالكافرينَ المُتقدِّمونَ؛ فيكونُ قولُه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾ بطَريقِ وَضْعِ الظَّاهِرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، كأنَّه قِيلَ: دمَّرَ اللهُ عليهم في الدُّنيا، ولهُمْ في الآخِرةِ أمْثالُها، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ[٢]. أو يَكونُ عَدَلَ عن أنْ يقولَ: (ولهؤلاء)، إلى قَولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ تَعميمًا، وتَعليقًا للحُكمِ بالوَصفِ، وهو: العَراقةُ في الكُفرِ؛ فكان فيه بِشارةٌ بأنَّ بَعضَهم سيُنْجيهِ اللهُ تعالى مِن أسْبابِ الهَلاكِ؛ لكَونِه ليس عَريقًا في الكُفرِ؛ لأنَّه لم يُطبَعْ عليه[٣].

- وقولُه: ﴿أَمۡثَٰلُهَا﴾ أي: أمْثالُ عَواقبِهم أو عُقوباتِهم، لكنْ لا على أنَّ لهؤلاءِ أمْثالَ ما لأولئك وأضْعافَه، بلْ مِثْلَه، وإنَّما جُمِعَ باعْتِبارِ مُماثَلتِه لِعَواقِبَ مُتعدِّدةٍ حَسَبَ تَعدُّدِ الأُمَمِ المُعذَّبةِ[٤]. فاللهُ تعالى اسْتأصَلَ الكافرينَ مَرَّاتٍ حتَّى استَقرَّ الإسلامُ؛ فاسْتأْصَلَ صَناديدَهم يَومَ بَدْرٍ بالسَّيفِ، ويومَ حُنَينٍ بالسَّيفِ أيضًا، وسلَّطَ عليهم الرِّيحَ يومَ الخَنْدقِ فهَزَمَهم، وسلَّطَ عليهم الرُّعبَ والمَذلَّةَ يومَ فتْحِ مكَّةَ، وكُلُّ ذلك مُماثِلٌ لِما سَلَّطه على الأُمَمِ في الغايةِ منه، وهو نَصرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ودينِه، وقد جعَلَ اللهُ ما نصَرَ به رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم أعلى قيمةً؛ بكَونِه بيَدِه وأيْدي المؤمِنينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٢، ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٤).

مُباشَرةً بسُيوفِهم، وذلك أنْكى للعَدُوِّ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه الإتيانُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لِتَمْييزِ المُشارِ إليه أكمَلَ تَمْييزٍ؛ تَنْويهًا به[٢]. واسمُ الإشارةِ هذا مُنصَرِفٌ إلى مَضمونِ قَولِه: ﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ أَمۡثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، بتَأْويلِ: ذلك المذكورُ -على قولٍ-؛ لأنَّه يَتضمَّنُ وَعيدًا لِلمُشرِكين بالتَّدميرِ، وفي تَدْميرِهم انتِصارٌ لِلمُؤمِنينَ على ما لَقُوا منهم مِن الأضرارِ؛ فأُفِيدَ أنَّ ما تَوعَّدَهم اللهُ به مُسبَّبٌ على أنَّ اللهَ نَصيرُ الَّذين آمَنوا، وهو المَقصودُ مِن التَّعليلِ، وما بعْدَه تَتْميمٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٧٦، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٨).

والتَّتميمُ: هو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِح مِن الكلامِ نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) للعصام (٢/ ٩٤)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ١٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٤٤)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٨).

## الآيات (١٢-١٥)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَثۡوٗى﴾: أي: مَنزِلٌ ومقامٌ ومَأوًى، وأصلُ (ثوي): يدُلُّ على الإقامةِ مع الاستِقرارِ[1].

﴿بَيِّنَةٖ﴾: أي: بُرهانٍ وحُجَّةٍ وبَيانٍ، والبَيِّنةُ: الدَّلالةُ الواضحةُ، عقليَّةً كانت أو محسوسةً، وأصلُ (بين): انكِشافُ الشَّيءِ، يُقالُ: بانَ الشَّيءُ وأبانَ، إذا اتَّضَح وانكشَف[2].

﴿أَهۡوَآءَهُم﴾: الأهواءُ: المذاهِبُ الَّتي تدعو إليها الشَّهوةُ دونَ الحُجَّةِ، وأصلُه: يدُلُّ على الخُلُوِّ والسُّقُوطِ، وسُمِّيَ الهوى هَوًى؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في النَّارِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧، ٣٢٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (٥/ ٣٤٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٧/ ٤٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾: أي: صِفَتُها أو شَبَهُها، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ(١).

﴿ءَاسِنٍ﴾: أي: مُنتِنٍ، مُتغيِّرِ اللَّونِ والرِّيحِ والطَّعمِ، وأصلُ (أسن): يدُلُّ على تغَيُّرِ الشَّيءِ(٢).

﴿حَمِيمًا﴾: أي: شَديدَ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: الحَرارةُ(٣).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾

﴿مَّثَلُ﴾ مبتدأٌ. والخبَرُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فيما يُتلى عليكم مَثَلُ الجنَّةِ، أو: مَثَلُ الجنَّةِ ما تسمَعونَ، وجملةُ ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ مُفَسِّرةٌ لذلك المَثَلِ، فلا محلَّ لها مِن الإعرابِ، أو مُستأنَفةٌ شارِحةٌ لِمعنى المَثَلِ. وقيلَ: الخبَرُ مَذكورٌ، وهو جُملةُ ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾، فهي خبَرٌ عن ﴿مَّثَلُ﴾، وتقديرُه: أَمَثَلُ الجنَّةِ كمَثَلِ جَزاءِ مَن هو خالِدٌ في النَّارِ؟! فحذَفَ المُضافَينِ: (الجزاءَ)؛ بقَرينةِ مُقابَلةِ الجنَّةِ، و(مَثَل)

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ١٥٥). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٣٦٤-٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٤)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

بقرينةِ تقَدُّمِه. أو التَّقديرُ: أَمَثلُ أهلِ الجنَّةِ كمَن هو خالِدٌ في النَّارِ؟! فحذَفَ هَمزةَ الإنكارِ، وقدَّر مُضافًا محذوفًا، وهو «أهْل»، فصار تقديرُ الكلامِ كأنَّه قال: أَمَثَلُ أهلِ الجنَّةِ، وهي بهذه الأوصافِ ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾؛ وعليه فجُملةُ ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ حالٌ مِنَ الجنَّةِ.

قَولُه تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾

(لَهُمْ): شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، خَبَرٌ مُقَدَّمٌ. والمبتدَأُ المُؤخَّرُ مَحذوفٌ تَقديرُه: «زَوجانِ»، أو «أنواعٌ»، أو «صِنفٌ». و﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، نَعتٌ لهذا المبتدأِ المحذوفِ، والتَّقديرُ: لهم فيها زَوجانِ، أو: أنواعٌ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ. وقيل: ﴿مِن﴾ زائِدةٌ على مَذهَبِ الأخفَشِ، و﴿كُلِّ﴾ مُبتدَأٌ مَجرورٌ لَفظًا، مَرفوعٌ مَحلًّا بضمَّةٍ مُقَدَّرةٍ مَنَع مِن ظُهورِها اشتِغالُ المحَلِّ بحَركةِ حَرفِ الجرِّ الزَّائِدِ، والتَّقديرُ: ولهم فيها كُلُّ الثَّمَراتِ. ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾: الواوُ: حَرفُ عَطفٍ. (مَغْفِرَةٌ) مَعطوفٌ على المُبتدَأِ المحذوفِ في الجُملةِ السَّابِقةِ، أي: لهم فيها زَوجانِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ ومَغفِرةٌ. أو (مَغْفِرَةٌ) مُبتدَأٌ خبَرُه محذوفٌ، تقديرُه: ولهم مَغفِرةٌ. والجُملةُ عَطفٌ على الجُملةِ السَّابِقةِ، أو استِئنافيَّةٌ لا محلَّ لها مِن الإعرابِ.

قَولُه تعالى: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ تقدَّم في إعرابِ «مَثَلُ الْجَنَّةِ» أنَّه يجوزُ أن يكونَ خبَرُه ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ بالتَّأويلَينِ المذكورَينِ. ويجوزُ أيضًا أن يكونَ ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾ كلامًا مُستأنَفًا، و﴿كَمَنْ﴾ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، خبَرٌ لمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: أحالُ هؤلاء المتَّقينَ كحالِ مَن هو خالِدٌ في النَّارِ؟! أو: أَمَنْ هو خالِدٌ في هذه الجنَّةِ -حسَبَما جرَى به الوَعدُ- كَمَن هو خالِدٌ في النَّارِ؟! أو هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مُقَدَّرٌ فيه استِفهامٌ إنكاريٌّ، والتَّقديرُ: أكَمَنْ هو خالِدٌ في النَّارِ؟!

قَولُه تعالى: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمًا﴾ الواوُ: حرفُ عَطفٍ. سُقُوا: فِعلٌ ماضٍ مَبنيٌّ للمَفعولِ. وواوُ الجماعةِ: ضميرٌ مَبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ نائبٌ عن الفاعِلِ. ماءً: مَفعولٌ به ثانٍ مَنصوبٌ. ﴿حَمِيمًا﴾: نعتٌ لـ «مَاءً» مَنصوبٌ. والجملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ الصِّلةِ ﴿هُوَ خَٰلِدٌ فِي ٱلنَّارِ﴾، مِن قَبيلِ عَطفِ الفِعليَّةِ على الاسميَّةِ. وراعَى لَفظَ «مَنْ» في الأوَّلِ ﴿هُوَ خَٰلِدٌ﴾ فأفرَدَه، وراعَى مَعنى «مَنْ» في الثَّاني ﴿وَسُقُواْ﴾ فجَمَعَه[1].

## المَعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله سبحانَه ما أعدَّه للمؤمنينَ مِن نعيمٍ، وما أعدَّه للكافِرينَ مِن عذابٍ أليمٍ، فيقولُ: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ جَنَّاتٍ تَجري مِن تحتِ أشجارِها الأنهارُ. والَّذين كَفَروا يَتمتَّعونَ بشَهَواتِ الدُّنيا ولَذَّاتِها، ويأكُلونَ فيها كما تأكُلُ الأنعامُ، والنَّارُ مَأوًى لهم، يَصيرونَ إليها.

ثمَّ يُسلِّي اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا أصابَه مِن أذًى، فيقولُ: وكثيرٌ مِن القُرَى كان أهلُها -يا مُحمَّدُ- أشَدَّ قُوَّةً مِن أهلِ مكَّةَ الَّذين أخرَجوك منها: أهلَكَهم اللهُ وأبادَهم، فلا ناصِرَ لهم يَنصُرُهم مِن عذابَ اللهِ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى الفرْقَ بيْنَ حالِ المؤمنينَ وحالِ الكافِرينَ، فيقولُ: أفمَن كان على بَصيرةٍ بالحَقِّ مِن رَبِّه كمَن حسَّنَ له الشَّيطانُ قَبيحَ عمَلِه، فاتَّبَعَ ما دعَتْه إليه نَفْسُه مِن الضَّلالاتِ بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ؟!

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن مصيرِ كلٍّ مِن المؤمنينَ والكافرينَ، فيقولُ: صِفةُ الجنَّةِ الَّتي وَعَد اللهُ بها المتَّقينَ أنَّ فيها أنهارًا مِن ماءٍ عَذبٍ غيرِ مُتغَيِّرِ الرِّيحِ أو الطَّعمِ

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٧٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٤).

أو اللَّونِ، وأنهارًا مِن لَبَنٍ لم يَتغَيَّرْ طَعمُه، وأنهارًا مِن خَمرٍ طَيِّبةٍ لَذَّةٍ للشَّارِبينَ، وأنهارًا مِن عَسَلٍ مُصفًّى خالٍ مِن كلِّ الشَّوائِبِ، وللمُتَّقينَ في الجنَّةِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ، ومَغفِرةٌ مِن اللهِ لِذُنوبِهم. أفمَنْ كان في الجنَّةِ الَّتي ذلك وَصفُها كمَن هو ماكِثٌ في النَّارِ أبدًا، وسُقِيَ فيها ماءً شَديدَ الحَرارةِ فقَطَّعَ أمعاءَه؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُؤمِنينَ والكافِرينَ في الدُّنيا؛ بيَّنَ حالَهم في الآخِرةِ[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكرَ اللهُ تعالى أنَّه وَليُّ المُؤمِنينَ؛ ذَكرَ ما يَفعَلُ بهم في الآخِرةِ. ولَمَّا ذَكرَ أنَّ الكافِرينَ لا مَوْلَى لهم؛ ذَكرَ أنَّهم وُكِلوا إلى أنفُسِهم؛ فلم يَتَّصِفوا بصِفاتِ المُروءةِ، ولا الصِّفاتِ الإنسانيَّةِ، بل نَزَلوا عنها دَرَكاتٍ، وصاروا كالأنْعامِ الَّتي لا عَقْلَ لها ولا فَضْلَ، بل جُلُّ هَمِّهم ومَقصدِهمُ التَّمتُّعُ بلَذَّاتِ الدُّنيا وشَهواتِها[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تحتِ أشجارِها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦). =

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بالحَقِّ يَتمتَّعونَ في الدُّنيا بشَهَواتِها وملَذَّاتِها، ويأكُلونَ فيها كما تأكُلُ الأنعامُ الَّتي لا هَمَّ لها سِوى ذلك[1].

---

= قال الرازي: (﴿مِن﴾ في قَولِه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ صِلةً معناه: تجري تحتَها الأنهارُ، ويحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ: أنَّ ماءَها منها، لا يجري إليها مِن مَوضِعٍ آخَرَ فيُقالُ: هذا النَّهرُ مَنبَعُه مِن أينَ؟ يُقالُ: مِن عَينِ كذا، مِن تحتِ جبَلِ كذا). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).

وقال الشوكاني: (إنْ أُريدَ بها [أي: بالجنَّاتِ] الأشجارُ المتكاثِفةُ السَّاترةُ لِما تحتَها، فجَرَيانُ الأنهارِ مِن تحتِها ظاهِرٌ، وإنْ أُريدَ بها الأرضُ فلا بدَّ مِن تقديرِ مُضافٍ، أي: مِن تحتِ أشجارِها). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

وعباراتُ المفسِّرينَ في معنى تَشبيهِهم بالأنعامِ هنا مُتقارِبةٌ؛ فقيل: معنى تَشبيهِهم بالأنعامِ هنا: أنَّه ليس لهم هِمَّةٌ سِوى الأكلِ. وممَّن ذهبَ إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١).

وقيل: المعنى: ليس لهم همَّةٌ إلَّا بُطونهم وفُروجهم، وهم لاهُون ساهُون عمَّا في غَدِهم. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩).

قال ابن الجوزي: (إنَّ الأنعامَ تأكُلُ وتَشرَبُ، ولا تَدري ما في غَدٍ، فكذلك الكفَّارُ لا يَلتَفِتونَ إلى الآخرةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٧).

وقيل: المعنى: أنَّهم لا يَخافونَ عِقابًا، ولا يَرجُونَ ثوابًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٢).

وقيل: المعنى: غافِلينَ عن العاقِبةِ، غيرَ مُفكِّرينَ فيها. وممَّن اختاره: الزمخشري، والبيضاوي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠٢).

قال الزَّمخشري: (﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ يَنتَفِعونَ بمَتاعِ الحياةِ الدُّنيا أيامًا قلائِلَ ﴿وَيَأۡكُلُونَ﴾ غافِلينَ غيرَ مُفَكِّرينَ في العاقِبةِ ﴿كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ في مَسارِحِها ومَعالِفِها غافِلةً عمَّا هي بصَدَدِه مِنَ =

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((المؤمِنُ يأكُلُ في مِعًى واحدٍ، والكافِرُ يأكُلُ في سَبعةِ أمعاءٍ))[١].

﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾.

أي: وستَكونُ النَّارُ مَسكنًا لهم يَصيرونَ إليه، ويَستَقِرُّونَ فيه؛ فتُنسِيهم كُلَّ نعيمٍ كانوا فيه[٢]!

كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ * مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ضَربَ اللهُ تعالى مَثَلًا للكافِرينَ بقَولِه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [محمد: ١٠]، ولم يَنفَعْهم مع ما تَقدَّمَ مِنَ الدَّلائلِ؛ ضَرَب للنَّبيِّ عليه السَّلامُ مَثلًا تَسليةً له، فقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، وكانوا أشَدَّ مِن أهلِ مكَّةَ، كذلك نَفعَلُ بهم؛ فاصبِرْ كما صبَرَ رُسُلُهم[٣].

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾.

---

= النَّحرِ والذَّبحِ!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠).

وقال البِقاعي: (﴿كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾ أكْلَ الْتِذاذٍ ومَرَحٍ، مِن أيِّ مَوضعٍ كان، وكيف كان الأكلُ؛ في سبعةِ أمعاءٍ، أي: في جميعِ بُطونِهم مِن غيرِ تمييزٍ للحَرامِ مِن غَيرِه). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢١٥).

(١) رواه البخاري (٥٣٩٣) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٠٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٥).

أي: وما أكثَرَ القُرى الَّتي كان أهلُها -يا مُحمَّدُ- أكثَرَ قُوَّةً وعَدَدًا ومالًا مِن أهلِ مكَّةَ الَّذين أخرَجوكَ منها؛ فأهلَكَهم اللهُ بالعَذابِ، وأبادَهم حينَ كذَّبوا رُسُلَهم(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقال الله تبارَكَ وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَدِيِّ ابنِ حَمْراءَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((رأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم واقِفًا على الحَزْوَرةِ(٢)، فقال: واللهِ إنَّكِ لَخَيْرُ أرضِ اللهِ، وأحَبُّ أرضِ اللهِ إلى اللهِ، ولولا أنِّي أُخرِجْتُ مِنكِ ما خرَجْتُ))(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١١، ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).
قال ابنُ عطيَّة: (يقالُ: إنَّ هذه الآيةَ نَزَلت إثرَ خُروجِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن مكَّةَ في طَريقِ المدينةِ. وقيل: نزلَت بالمدينةِ. وقيل: نزلَت بمكَّةَ عامَ دخلَها رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ الحُدَيْبيَةِ. وقيل: نزَلَت عامَ الفتحِ وهو مُقبِلٌ إليها. وهذا كُلُّه حُكمُه حُكمُ المَدَنيِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٣).

(٢) الحَزْوَرة: موضعٌ بمكةَ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (٦/ ٢٠٤٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ١٨٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥) واللَّفظُ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٤٢٥٢)، وابن ماجه (٣١٠٨)، وأحمد (١٨٧١٥).
قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ صحيحٌ). وصحَّحه ابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٢/ ٤٥١)، وابنُ حزم في ((المحلى)) (٧/ ٢٨٩)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٣/ ٨١)، وابن باز في ((الفوائد العلمية من الدروس البازية)) (٥/ ١٢٣)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٩٢٥).

﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

أي: فلم يكُنْ لهم ناصِرٌ يَنصُرُهم، فيَمنَعَ عنهم عذابَ اللهِ حينَ أهلَكَهم اللهُ[١].

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ دليلًا شُهودِيًّا بعدَ الأدِلَّةِ العَقليَّةِ على ما تقدَّمَ الوعدُ به - أنَّه ينصُرُ مَن ينصُرُه، ويخذُلُ مَن يعاندُه-؛ سبَّبَ عنه الإنكارَ عليهم، فقال[٢]:

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾.

أي: أفمَن كان على بصيرةٍ مِن رَبِّه وعِلمٍ ومَعرفةٍ بالحَقِّ، فهو يُؤمِنُ به ويَتَّبِعُه، ويَعرِفُ سُوءَ عَمَلِه وهواه ويجتَنِبُه؛ كالَّذي حُسِّن له قبيحُ أعمالِه مِن شِركٍ أو معصيةٍ، فاتَّبعَ ما دعَتْه إليه نَفْسُه مِن الضَّلالاتِ بلا حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ؟ لا يَستويانِ[٣]!

كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٦، ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٦، ٢١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).
قال الزَّمخشري: («مَن زُيِّنَ له» هم أهلُ مكَّةَ الَّذين زيَّن لهم الشَّيطانُ شِرْكَهم وعداوتَهم لله ورَسولِه، و«مَن كان على بيِّنةٍ مِن رَبِّه» -أي: على حُجَّةٍ مِن عندِه وبُرهانٍ، وهو القُرآنُ المُعجِزُ، وسائِرُ المُعجِزاتِ- هو رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠).
وقال القُرطبي: (هذا التَّزيينُ مِن جِهةِ اللهِ خَلْقًا، ويجوزُ أن يكونَ مِن الشَّيطانِ دُعاءً ووَسْوَسةً، ويجوزُ أن يكونَ مِن الكافِرِ، أي: زَيَّن لِنَفْسِه سُوءَ عَمَلِه، وأصَرَّ على الكُفرِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٦).

مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحۡمَةً ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ مِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ فَٱلنَّارُ مَوۡعِدُهُۥ ﴾ [هود: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ﴿١٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى الفرقَ بيْنَ الفَريقَينِ في الاهتِداءِ والضَّلالِ؛ بيَّن الفرقَ بيْنَهما في مَرجِعِهما ومآلِهما، وكما قدَّمَ مَن على البَيِّنةِ في الذِّكرِ على مَنِ اتَّبعَ هواه؛ قدَّمَ حالَه في مآلِه على حالِ مَن هو بخِلافِ حالِه[1].

وأيضًا لَمَّا تكرَّر ذِكرُ الجنَّةِ والنَّارِ في هذه السُّورةِ، إلى أنْ خَتَمَ بهذه الآيةِ الَّتي قسَّمَ النَّاسَ فيها إلى أولياءَ مُهتَدينَ، وأعداءَ ضالِّينَ مُعتَدينَ، فهَدَى سِياقُها إلى أنَّ التَّقديرَ: أفمَن كان على بيِّنةٍ مِن ربِّه أحْياه الحياةَ الطَّيِّبةَ في الدَّارَينِ، ومَن تَبِعَ هَواه أرْداه فيهما؛ أتْبَعَه وَصْفَ الجنَّةِ الَّتي هي دارُ أولِيائِه، قادَهم إليها الهُدى، والنَّارِ الَّتي هي دارُ أعدائِه، ساقَهم إليها الضَّلالُ المُحتَّمُ للرَّدى[2].

﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ ﴾.

أي: صِفةُ الجنَّةِ الَّتي وَعَدَ اللهُ بها المتَّقينَ أنَّ فيها أنهارًا مِن ماءٍ عَذبٍ صافٍ، غيرِ مُتغَيِّرِ الرِّيحِ أو الطَّعمِ أو اللَّونِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا عُرِجَ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى السَّماءِ قال: أَتَيْتُ على نَهرٍ حافَتاهُ قِبابُ اللُّؤلُؤِ مُجَوَّفًا، فقلتُ: ما هذا يا جِبريلُ؟ قال: هذا الكَوثَرُ!))[1].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَنْ آمَنَ باللهِ ورَسولِه، وأقام الصَّلاةَ، وصام رَمَضانَ؛ كان حقًّا على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ؛ هاجَرَ في سَبيلِ اللهِ، أو جَلَس في أرضِه الَّتي وُلِدَ فيها. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نُنَبِّئُ النَّاسَ بذلك؟ قال: إنَّ في الجنَّةِ مِئةَ دَرَجةٍ أعدَّها اللهُ للمُجاهِدينَ في سَبيلِه، كُلُّ دَرَجتَينِ ما بيْنَهما كما بينَ السَّماءِ والأرضِ، فإذا سألْتُمُ اللهَ فسَلُوه الفِرْدَوسَ؛ فإنَّه أوسَطُ الجنَّةِ، وأعلى الجنَّةِ، وفوقَه عَرشُ الرَّحمنِ، ومِنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنَّةِ!))[2].

وعن مُعاويةَ بنِ حَيْدةَ القُشَيْريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ بَحرَ الماءِ، وبَحرَ العَسَلِ، وبَحرَ اللَّبَنِ، وبَحرَ الخَمرِ، ثمَّ تَشَقَّقُ الأنهارُ بَعْدُ))[3].

---

= كثير)) (٧/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢١٨-٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

(١) رواه البخاري (٤٩٦٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٢٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٧١) واللَّفظُ له، وأحمد (٢٠٠٥٢).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٤٠٩)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥٧١)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٣/ ٢٤٦).

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾.

أي: وفي الجنَّةِ أنهارٌ مِن لَبَنٍ لم يَتغَيَّرْ طَعمُه بحُموضةٍ أو غَيرِها[١].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾.

أي: وفيها أنهارٌ مِن خَمرٍ طَيِّبةٍ يَلْتَذُّ بها الشَّارِبونَ، بلا صُداعٍ أو غيرِه مِن الآفاتِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

أي: وفيها أنهارٌ مِن عَسَلٍ خَلَقَه اللهُ في غايةِ الصَّفاءِ، خاليًا مِن سائِرِ الشَّوائِبِ والأوساخِ[٣].

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

أي: وللمُتَّقينَ في الجنَّةِ ثَمَراتٌ مِن جَميعِ الأنواعِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

أي: ولأهلِ الجنَّةِ معَ ذلك النَّعيمِ العَظيمِ مَغفِرةٌ مِن اللهِ لِذُنوبِهم؛ فيَتجاوَزُ عنها، ولا يُعاقِبُهم عليها، ويَستُرُها[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْني المُؤمِنَ فيَضَعُ عليه كَنَفَه[٢] ويَستُرُه، فيقولُ: أتَعرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنْبَ كذا؟ فيَقولُ: نعَمْ، أيْ رَبِّ. حتَّى إذا قرَّرَه بذُنوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هَلَك، قال: سترْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ! فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه))[٣].

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾.

أي: فهل يَكونُ مَنْ في الجنَّةِ -الَّتي تلك صِفَتُها- كمَن هو ماكِثٌ في النَّارِ أبدًا، وسُقِيَ فيها ماءً قد بَلَغ الغايةَ في شِدَّةِ حَرارتِه، فقَطَّع ما في بَطنِه مِن أمعاءٍ[٤]؟!

كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٨٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

(٢) كَنَفَه: أي: حِفْظَه وسِتْرَه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٤/ ٢٥٤).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٤٤١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠١)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٦٨٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٦).

قال القرطبيُّ: (الأمعاءُ: جمعُ مِعًى... وهو جميعُ ما في البَطنِ مِن الحوايا). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٧).

ٱلْحَمِيمُ ۞ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعملُ الصَّالحُ مبنيٌّ على الإيمانِ، فعمَلٌ بلا إيمانٍ لا فائدةَ منه، فالمنافقون يَعمَلونَ، ويَذكُرونَ الله، ويُصَلُّون، ويَتصدَّقونَ، ولكن ليس عندَهم إيمانٌ؛ فلا يَنفعُهم؛ ولهذا يُقدِّمُ اللهُ عزَّ وجلَّ الإيمانَ على العملِ الصَّالحِ[١].

٢- العملُ لا ينفعُ صاحبَه إلَّا إذا كان صالحًا؛ قال تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، والعملُ الصَّالحُ هو: الخالصُ الصوابُ؛ أي: ما ابتُغِيَ به وجهُ الله، وكان على شريعةِ الله[٢].

٣- الإيمانُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن عملٍ، والعملُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن إيمانٍ، فلا يستحقُّ الجنَّةَ إلَّا مَن جمَع بيْنَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾، وإذا ذُكِر ثوابُ الجنَّةِ مقيَّدًا أو مُعلَّقًا بالإيمانِ وحْدَه فالمرادُ بذلك الإيمانُ المتضمِّنُ للعملِ الصَّالحِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كَثرةَ الأكلِ مِن صِفةِ الكُفَّارِ[٤]، وقد ذمَّهم اللهُ تعالى بكثرةِ الأكلِ؛ فإذا كان المؤمنُ يتشبَّهُ بهم، ويتنَعَّمُ بتَنعُّمِهم في كلِّ أحوالِه وأزمانِه؛ فأين حَقيقةُ الإيمانِ، والقِيامُ بوَظائفِ الإسلامِ؟! ومَن كَثُرَ أكلُه وشُربُه كَثُرَ نَهَمُه وحِرصُه، وزاد باللَّيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٥٣٩).

كَسَلُه ونَومُه، فكان نَهارَه هائمًا، ولَيْلَه نائمًا[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾، كثيرًا ما يَقتصِرُ اللهُ على ذِكرِ الأنهارِ في وصفِ الجنَّةِ؛ لأنَّ الأنهارَ يَتبَعُها الأشجارُ، والأشجارُ تَتبَعُها الثِّمارُ، ولأنَّه سببُ حياةِ العالَمِ، والنَّارُ سببُ الإعدامِ، وللمؤمنِ الماءُ؛ يَنظُرُ إليه، ويَنتفِعُ به. وللكافِرِ النَّارُ؛ يتقلَّبُ فيها، ويتضرَّرُ بها[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ﴾، فيه سُؤالٌ: خصَّهم بالذِّكرِ، مع أنَّ المُؤمِنَ أيضًا له التَّمتُّعُ بالدُّنيا وطيِّباتِها؟

**الجَوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: مَن يكونُ له مُلكٌ عَظيمٌ، ويَملِكُ شيئًا يَسيرًا أيضًا، لا يُذكَرُ إلَّا بالمُلكِ العَظيمِ، يُقالُ في حقِّ المَلِكِ العَظيمِ: صاحِبُ الضَّيعةِ الفُلانيَّةِ. ومَن لا يَملِكُ إلَّا شيئًا يسيرًا، فلا يُذكَرُ إلَّا به؛ فالمُؤمِنُ له مُلْكُ الجنَّةِ؛ فمَتاعُ الدُّنيا لا يُلتَفَتُ إليه في حقِّه. والكافِرُ ليس له إلَّا الدُّنيا.

**الوَجهُ الثَّاني**: الدُّنيا للمُؤمِنِ سِجنٌ كيف كان، ومَن يأكُلُ في السِّجنِ لا يُقالُ: إنَّه يَتمتَّعُ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ قال تعالى في حَقِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المؤمِنِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ﴾ بصيغةِ الوَعدِ، وقال في حَقِّ الكافِرِ: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ بصيغةٍ تُنبِئُ عن الاستِحقاقِ؛ وذلك لأنَّ الإحسانَ لا يَستَدعي أن يكونَ عن استِحقاقٍ؛ فالمُحسِنُ إلى مَن لم يُوجَدْ منه ما يُوجِبُ الإحسانَ: كَريمٌ، والمُعَذِّبُ مِن غيرِ استِحقاقٍ ظالِمٌ[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قَولُه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾، مع أنَّ الإهلاكَ ماضٍ، وقَولُه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ للحالِ والاستِقبالِ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ مَجراه مَجرى الحالِ المَحكِيَّةِ، كأنَّه قال: أهلَكْناهم فهم لا يُنصَرونَ[2].

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ المعنى: أهلَكْناهم في الدُّنيا، فلا ناصِرَ لهم يَنصُرُهم، ويُخَلِّصُهم مِن العذابِ الَّذي هم فيه.

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّ قَولَه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ عائِدٌ إلى أهلِ قَريةِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، كأنَّه قال: أهلَكْنا مَن تقَدَّم أهلَ قَريتِك، ولا ناصِرَ لأهلِ قَريتِك يَنصُرُهم، ويُخَلِّصُهم ممَّا جرَى على الأوَّلينَ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ﴾ أنَّ القريةَ لُغةً تُطلَقُ حتَّى على المدينةِ الكبيرةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٧).

٦- قَولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾ فيه إشارةٌ إلى الفَرقِ بيْنَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ والكفَّارِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ إهلاكَ الكفَّارِ ونُصرةَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ في الدُّنيا مُحقَّقٌ، وأنَّ الحالَ يُناسِبُ تعذيبَ الكافِرِ، وإثابةَ المُؤمِنِ[1].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وكَونُ البيِّنةِ مِن عِندِ اللهِ تَزكيةٌ لها، وكشْفٌ لِلتَّردُّدِ فيها، وإتمامٌ لِدَلالتِها[2].

٨- قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فتارةً يُحذفُ فاعلُ التَّزيينِ، كما قال: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [فاطر: ٨]، وتارةً يُضافُ التَّزيينُ إلى الله سبحانَه، كما في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، وتارةً يُنسبُ التَّزيينُ إلى سببِه ومَن أجراه الله على يدِه، كما في قوله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣]. والتَّزيينُ مِن الله سبحانَه خَلقًا ومشيئةً، وهو منه حَسَنٌ؛ إذ هو ابتِلاءٌ واختبارٌ؛ لِيَتميَّزَ المطيعُ منهم مِن العاصي، والمؤمِنُ مِن الكافِرِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[الكهف: ٧]، وهو مِن الشَّيطانِ قَبيحٌ، وأيضًا فتزيينُه سُبحانَه للعَبدِ عَمَلَه السَّيِّئَ: عُقوبةٌ منه له على إعراضِه عن توحيدِه وعبوديَّتِه، وإيثارِ سَيِّئِ العمَلِ على حَسَنِه؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُعَرِّفَه سُبحانَه السَّيِّئَ مِن الحَسَنِ، فإذا آثرَ القبيحَ واختاره وأحَبَّه ورَضِيَه لنَفْسِه، زيَّنه سُبحانَه له وأعماه عن رؤيةِ قُبحِه بعدَ أن رآه قبيحًا.

فتزيينُ الرَّبِّ تعالى عَدلٌ، وعُقوبتُه حِكمةٌ، وتزيينُ الشَّيطانِ إغواءٌ وظُلمٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٣).

وهو السَّبَبُ الخارجُ عن العبدِ، والسَّبَبُ الداخِلُ فيه حُبُّه وبُغضُه وإعراضُه، والرَّبُّ سُبحانَه خالِقُ الجميعِ، والجميعُ واقِعٌ بمشيئتِه وقُدرتِه، ولو شاء لَهدى خَلْقَه أجمعينَ، والمعصومُ مَن عَصَمَه اللهُ، والمَخذولُ مَن خذَلَه اللهُ ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] [الأعراف: ٥٤].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ قال في الخَمرِ: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾، ولم يقُلْ في اللَّبَنِ: (لم يتغيَّرْ طَعمُه للطَّاعِمينَ)، ولا قال في العسَلِ: (مُصفًّى للنَّاظِرينَ)؛ وذلك لأنَّ اللَّذَّةَ تختَلِفُ باختلافِ الأشخاصِ؛ فرُبَّ طَعامٍ يلْتَذُّ به شَخصٌ، ويَعافُه الآخَرُ، فقال: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ بأسْرِهم، ولأنَّ الخَمرَ كَريهةُ الطَّعمِ، فقال: ﴿لَّذَّةٍ﴾، أي: لا يكونُ في خَمرِ الآخِرةِ كَراهةُ الطَّعمِ، وأمَّا الطَّعمُ واللَّونُ فلا يَختَلِفانِ باختِلافِ النَّاسِ؛ فإنَّ الحُلوَ والحامِضَ وغَيرَهما يُدرِكُه كُلُّ أحدٍ كذلك، لكِنَّه قد يَعافُه بَعضُ النَّاسِ، ويَلْتَذُّ به البَعضُ، مع اتِّفاقِهم على أنَّ له طَعمًا واحِدًا، وكذلك اللَّونُ؛ فلم يكُنْ إلى التَّصريحِ بالتَّعميمِ حاجةٌ[2].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على تعَدُّدِ الأنهارِ مع تعَدُّدِ أنواعِها، وقد جاءت آيةٌ أُخرى يُوهِمُ ظاهِرُها أنَّه نَهرٌ واحِدٌ، وهي قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ [القمر: ٥٤]؟

**الجَوابُ**: أنَّ قَولَه: ﴿وَنَهَرٍ﴾ يعني: وأنهارٍ[3]. فمِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّتي

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢١٧).

نزَل بها القرآنُ أنَّ المفردَ إذا كان اسمَ جِنسٍ، يَكثُرُ إطلاقُه مُرادًا به الجَمعُ معَ تنكيرِه، مثل هذه الآيةِ، ومثل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧] أي: أطفالًا، وقولِه تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] أي: أئمَّةً، وقولِه تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤] أي: أنفُسًا، وقولِه تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] أي: رُفَقاءَ، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤] أي: مُظاهِرونَ[١].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أشار بعدَ ذِكرِ المَشروبِ إلى المأكولِ، ولَمَّا كان في الجنَّةِ الأكلُ لِلَّذَّةِ لا للحاجةِ؛ ذكَرَ الثِّمارَ؛ فإنَّها تُؤكَلُ لِلَّذَّةِ، بخِلافِ الخُبزِ واللَّحمِ، وهذا كقَولِه تعالى في سورةِ الرَّعدِ: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]؛ حيث أشار إلى المأكولِ والمَشروبِ[٢].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فيه سُؤالٌ: المُتَّقي لا يَدخُلُ الجنَّةَ إلَّا بعدَ المَغفِرةِ، فكيف يكونُ لهم فيها مَغفِرةٌ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** ليس بلازمٍ أن يكونَ المعنى: لهم مَغفِرةٌ مِن رَبِّهم فيها، بل يكونُ عَطفًا على قَولِه (لهم)، كأنَّه تعالى قال: لهم الثَّمَراتُ فيها، ولهم المَغفِرةُ قبْلَ دُخولِها.

**الوَجهُ الثَّاني:** هو أن يكونَ المعنى: لهم فيها مَغفِرةٌ، أي: رفْعُ التَّكليفِ عنهم،

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٧).

فيأكُلونَ مِن غيرِ حِسابٍ -فمَغفِرةٌ أي: تَجاوُزٌ عنهم، أي: إطلاقٌ في أعمالِهم-، بخِلافِ الدُّنيا؛ فإنَّ الثِّمارَ فيها على حِسابٍ أو عِقابٍ.

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّ الآكِلَ في الدُّنيا لا يخلو عن استِنتاجِ قَبيحٍ أو مَكروهٍ، كمَرَضٍ أو حاجةٍ إلى تبَرُّزٍ، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ﴾، لا قَبيحٌ على الآكِلِ، بل مَستورُ القبائِحِ مَغفورٌ[1].

**الوَجهُ الرَّابعُ**: أن تكونَ المَغفِرةُ كنايةً عن الرِّضوانِ عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2] [التوبة: ٧٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابُ سُؤالٍ عن حالِ المُؤمِنين في الآخِرةِ، وعن رِزْقِ الكافِرين في الدُّنيا؛ فبيَّنَ اللهُ أنَّ مِن وِلايتِه المُؤمِنينَ أنْ يُعطِيَهم النَّعيمَ الخالِدَ بعْدَ النَّصرِ في الدُّنيا، وأنَّ ما أعطاهُ الكافِرينَ في الدُّنيا لا عِبرةَ به؛ لأنَّهم مَسْلوبونَ مِن فَهْمِ الإيمانِ؛ فحَظُّهم مِن الدُّنيا أكْلٌ وتَمتُّعٌ كحَظِّ الأنعامِ، وعاقِبتُهم في عالَمِ الخُلودِ العَذابُ؛ وهذا الاستِئنافُ وقَعَ اعتراضًا بيْنَ جُملةِ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [محمد: ١٠] وجُملةِ ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ [محمد: ١٣] الآيةَ[3].

- وفي الآيةِ تَقابُلٌ بيْنَ قَولِه: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾ وقَولِه: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وفيه إيماءٌ إلى قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((الدُّنيا سِجنُ المؤمنِ، وجنَّةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٨٩).

الكافِرِ))[١].

- وفي قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ أُسنِدَ إدخالُ الجنَّةِ إلى اللهِ، وأُهمِلَ إسنادُ النَّارِ، وخُولِفَ بيْنَ الجُملتينِ فِعليَّةً واسميَّةً؛ لِلْإيذانِ بسَبْقِ الرَّحمةِ، والإعلامِ بتَصْييرِ المُؤمِنينَ، والوعْدِ بأنَّ عاقِبتَهم أنَّ اللهَ يُدخِلُهم جنَّاتٍ، وأنَّ الكافِرين مَثْواهم النَّارُ، وهمُ الآنَ حاضِرون فيها، ولا يَدْرون، وكالبَهائمِ يَأْكُلون[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ عُدِلَ عن الإضافةِ لِتُنَوَّنَ، فقيل: ﴿مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ بالتَّعليقِ باللَّامِ؛ لِيُفادَ بالتَّنوينِ مَعنى التَّمكُّنِ مِن القَرارِ في النَّارِ ﴿مَثۡوٗى﴾، أي: مَثْوًى قَويًّا لهم؛ لأنَّ الإخبارَ عن النَّارِ في هذه الآيةِ حَصَلَ قبْلَ مُشاهَدتِها؛ فلذلك أُضِيفَت في قَولِه: ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٢٨]؛ لأنَّه إخبارٌ عنها وهمْ يُشاهِدونَها في المَحشرِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةٗ مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [محمد: ١٠]، وما بيْنَهما استِطْرادٌ اتَّصَلَ بَعضُه ببَعضٍ[٤].

- والمُرادُ بالقَريةِ: أهْلُها؛ بقَرينةِ قَولِه: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾، وإنَّما أُجرِيَ الإخبارُ على القريةِ وضَميرِها؛ لِإفادةِ الإحاطةِ بجَميعِ أهْلِها، وجَميعِ أحوالِهم،

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣٤).

والحديث أخرجه مسلم (٢٩٥٦) من حديث أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ولِيَكونَ لِإسنادِ إخراجِ الرَّسولِ إلى القرْيةِ كلِّها وَقْعٌ مِن التَّبعةِ على جَميعِ أهْلِها، سَواءٌ منهم مَن تَولَّى أسبابَ الخروجِ، ومَن كان يَنظُرُ ولا يَنْهى[1].

- وهذا إطنابٌ في الوَعيدِ؛ لأنَّ مَقامَ التَّهديدِ والتَّوبيخِ يَقْتضي الإطنابَ؛ فمُفادُ هذه الآيةِ مُؤكِّدٌ لِمُفادِ قَولِه: ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠]، فحصَلَ تَوكيدُ ذلك بما هو مُقارِبٌ له مِن إهلاكِ الأُمَمِ ذَواتِ القُرى والمُدنِ، بعْدَ أنْ شمِلَ قَولُه: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مَن كان مِن أهْلِ القُرى، وزاد هنا التَّصريحُ بأنَّ الَّذين مِن قبْلِهم كانوا أشدَّ قُوَّةً منهم؛ لِيَفْهَموا أنَّ إهلاكَ هؤلاء هيِّنٌ على اللهِ؛ فإنَّه لَمَّا كان التَّهديدُ السَّابقُ تَهديدًا بعَذابِ السَّيفِ مِن قَولِه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤] الآياتِ، قد يُلْقي في نُفوسِهم غُرورًا بِتَعذُّرِ استِئصالِهم بالسَّيفِ، وهمْ ما همْ مِن المَنَعةِ، وأنَّهم تَمنَعُهم قَريتُهم مكَّةُ، وحُرْمتُها بيْنَ العرَبِ، فلا يَقعُدون عن نُصْرتِهم، فرُبَّما اسْتخَفُّوا بهذا الوعيدِ، ولم يَسْتكينوا لهذا التَّهديدِ؛ فأعْلَمَهم اللهُ أنَّ قُرًى كَثيرةً كانتْ أشدَّ قُوَّةً مِن قَريتِهم، أهْلَكَهم اللهُ فلمْ يَجِدوا نَصيرًا، وبهذا يَظْهَرُ الموقعُ البَديعُ لِلتَّفريعِ في قَولِه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾[2].

- وفي قَولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ وَصْفُ القرْيةِ الأُولى بشِدَّةِ القُوَّةِ؛ لِلْإيذانِ بأوْلَويَّةِ الثَّانيةِ منها بالإهلاكِ؛ لِضَعْفِ قُوَّتِها، كما أنَّ وَصْفَ القَريةِ الثَّانيةِ في قَولِه: ﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ بإخْراجِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لِلْإيذانِ بأوْلَويَّتِها به؛ لِقُوَّةِ جِنايتِها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٩٠، ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥).

- زادتْ إضافةُ القرْيةِ إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قَولِه: ﴿قَرْيَتِكَ﴾ ووَصْفُها بـ ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ مِن تَعْييرِ أهْلِها بمَذمَّةِ القَطيعةِ، ولِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن تَعليلِ إهْلاكِهم بسَببِ إخْراجِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قَرْيتِه[١].

- وقولُه: ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ بَيانٌ لِعَدَمِ خَلاصِهم مِن العَذابِ بِواسِطةِ الأعوانِ والأنصارِ، إثْرَ بَيانِ عَدَمِ خَلاصِهم منه بأنفُسِهم[٢].

- وفُرِّعَ على الإخبارِ بإهلاكِ اللهِ إيَّاهم الإخبارُ بانْتِفاءِ جنسِ النَّاصِرِ لهم، أي: المُنقِذِ لهم مِن الإهلاكِ، والمَقصودُ: التَّذكيرُ بأنَّ أمثالَ هؤلاء المُشرِكين لم يَجِدوا دافعًا يَدفَعُ عنْهم الإهلاكَ، وذلك تَعْريضٌ بتَأْييسِ المُشرِكينَ مِن إلْفاءِ ناصرٍ يَنصُرُهم في حَرْبِهم لِلمُسلِمينَ؛ قطْعًا لِما قدْ يُخالِجُ نُفوسَ المُشرِكينَ أنَّهم لا يُغلَبونَ لِتَظاهُرِ قَبائلِ العرَبِ معَهم؛ ولذلك حزَّبوا الأحزابَ في وَقْعةِ الخَنْدقِ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في بَيانِ حالِ الفريقَينِ المُؤمِنينَ والكافِرينَ. وتَقريرٌ لِتَبايُنِ حَالَيْ فَريقَيِ المُؤمِنينَ والكافِرين، وكَونِ المؤمنينَ في أعْلَى عِلِّيِّينَ، والكافِرينَ في أسفَلِ سافِلينَ، وبَيانٌ لِعِلَّةِ ما لِكلٍّ منهما مِن الحالِ[٤].

- أو هو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ﴾ [محمد: ١٣]؛ لِتَحقيقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٠٧).

أنَّهم لا ناصِرَ لهم تَحقيقًا يَرجِعُ إلى ما في الكلامِ مِن المَعنى التَّعريضيِّ؛ فهو شَبيهٌ بالاستِئنافِ البَيانيِّ جاء بأُسلوبِ التَّفريعِ. ويَجوزُ مع ذلك أنْ يَكونَ مُفرَّعًا على ما سَبَقَ مِن قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [محمد: ١٢] الآيةَ، فيَكونَ له حُكْمُ الاعتِراضِ؛ لأنَّه تَفريعٌ على اعتِراضٍ، وهذا تَفنُّنٌ في تَلْوينِ الكلامِ؛ لِتَجْديدِ نَشاطِ السَّامِعينَ، وهو مِن الأساليبِ الَّتي ابتَكَرَها القُرآنُ في كَلامِ العرَبِ(١).

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم﴾ مُستعمَلٌ في إنكارِ المُماثَلةِ الَّتي يَقْتضيها حَرْفُ التَّشبيهِ، والمَقصودُ مِن إنكارِ المُشابَهةِ بيْنَ هؤلاءِ وهؤلاءِ هو تَفضيلُ الفَريقِ الأوَّلِ، وإنكارُ زَعْمِ المُشرِكينَ أنَّهم خَيرٌ مِن المُؤمِنينَ(٢).

أو هو استِفهامُ تَوقيفٍ وتَقريرٍ؛ لأنَّ الجوابَ مَعلومٌ، كما أنَّك إذا قلْتَ: مَن يَفعَلِ السَّيِّئاتِ يَشْقَ، ومَن يَفعَلِ الحَسَناتِ يَسعَدْ، ثمَّ قلْتَ: الشَّقاءُ أحَبُّ إليك أم السَّعادةُ؟ فقد عُلِمَ أنَّ الجوابَ: السَّعادةُ؛ فهذا مَجرى هَمْزةِ التَّوقيفِ والتَّقريرِ(٣).

- والمُرادُ بانتِفاءِ المُماثَلةِ الكِنايةُ عن التَّفاضُلِ، والمَقصودُ بالفضْلِ ظاهرٌ، وهو الفريقُ الَّذي وقَعَ الثَّناءُ عليه(٤).

- وفي التَّعبيرِ بوَصْفِ الرَّبِّ وإضافتِه إلى ضَميرِ الفريقِ في قَولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٤).

عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ تَنبيهٌ على زُلْفَى الفريقِ الَّذي تَمسَّكَ بحُجَّةِ اللهِ(١).

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿زُيِّنَ﴾ لِلمَجهولِ؛ لِيَشملَ المُزيِّنينَ لهمْ مِن أئمَّةِ كُفْرِهم، وما سوَّلَتْه لهم أيضًا عُقولُهم الآفِنةُ مِن أفْعالِهم السَّيِّئةِ اغْتِرارًا بالإلْفِ، أو اتِّباعًا لِلَّذَّاتِ العاجلةِ، أو لِجَلْبِ الرِّئاسةِ، أي: زَيَّنَ له مُزَيِّنٌ سُوءَ عَمَلِه، وفي هذا البِناءِ إلى المَجهولِ تَنبيهٌ لهم أيضًا لِيَرْجِعوا إلى أنفُسِهم، فيَتأمَّلوا فيمَن زيَّنَ لهم سُوءَ أعْمالِهم(٢).

- ولَمَّا كان تَزْيينُ أعمالِهم لهم يَبعَثُهم على الدَّأْبِ عليها، وكان يَتولَّدُ مِن ذلك إلْفُهم بها ووَلَعُهم بها، فتَصيرُ لهم أهواءً لا يَسْتطيعون مُفارَقَتَها؛ أُعقِبَ بقَولِه: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم﴾(٣).

٤- قَولُه تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾

- قولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ...﴾ الآيةَ، استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما جَرَى مِن ذِكرِ الجنَّةِ في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [محمد: ١٢]، ممَّا يَستشرِفُ السَّامعُ إلى تَفصيلِ بَعضِ صِفاتِها، وإذ قد ذُكِرَ أنَّها تَجْري مِن تَحتِها الأنهارُ مُوهِمٌ السَّامعَ أنَّها أنْهارُ المِياهِ؛ لأنَّ جَرْيَ الأنهارِ أكمَلُ مَحاسِنِ الجنَّاتِ المَرْغوبِ فيها، فلمَّا فُرِغَ مِن تَوصِيفِ حالِ فَريقَيِ الإيمانِ والكُفْرِ، وممَّا أُعِدَّ لِكِلَيْهِما، ومِن إعلانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٩٣، ٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٩٤).

تَبايُنِ حالَيْهِما؛ ثُنِيَ العِنانُ إلى بَيانِ ما في الجنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقون، وخُصَّ مِن ذلك بَيانُ أنواعِ الأنهارِ. ولَمَّا كان ذلك مَوقِعَ الجُملةِ، كان قَولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مُبتدأً مَحذوفَ الخبَرِ، والتَّقديرُ: ما سَيُوصَفُ، أو ما سَيُتْلى عليكم، أو ممَّا يُتْلى عليكم. وقَولُه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مُقدَّرٌ فيه استِفهامٌ إنكاريٌّ، دلَّ عليه ما سبَقَ مِن قَولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [محمد: ١٤]، والتَّقديرُ: أكمَنْ هو خالدٌ في النَّارِ؟! والإنكارُ مُتسلِّطٌ على التَّشبيهِ الَّذي هو بمَعنى التَّسويةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ بدَلًا مِن جُملةِ ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [محمد: ١٤]؛ فهي داخِلةٌ في حيِّزِ الاسْتِفهامِ الإنكاريِّ، والخبَرُ قَولُه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾، أي: كحالِ مَن هو خالدٌ في النَّارِ؟! وذلك يَستلزِمُ اختِلافَ حالِ النَّارِ عن حالِ الجنَّةِ، فحصَلَ نحْوُ الاحتِباكِ[1]؛ إذ دلَّ (مَثَلُ الجنَّةِ) على (مَثَلِ أصْحابِها)، ودلَّ (مَثَلُ مَن هو خالدٌ في النَّارِ) على (مَثَلِ النَّارِ). والمَقصودُ: بَيانُ البَونِ بيْنَ حالَيِ المُسلِمينَ والمُشرِكينَ بذِكْرِ التَّفاوُتِ بيْنَ حالَيْ مَصيرِهما المُقرَّرِ في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ إلى آخِرِه؛ ولذلك لَمْ يُترَكْ ذِكْرُ أصحابِ الجنَّةِ وأصحابِ النَّارِ في خِلالِ ذِكْرِ الجنَّةِ والنَّارِ، فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾، وقال بعْدَه: ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾، ولِقَصْدِ زِيادةِ تَصويرِ مُكابَرةِ مَن يُسوِّي بيْنَ المُتمسِّكِ ببَيِّنةِ ربِّه وبيْن التَّابِعِ لِهَواهُ، أي: هو أيضًا كالَّذي يُسوِّي بيْنَ الجنَّةِ ذاتِ تلك الصِّفاتِ وبيْنَ النَّارِ ذاتِ صِفاتٍ ضِدِّها[2].

---

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٤، ٩٥).

- قولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الآيةَ، افْتُتِحَت السُّورةُ الكَريمةُ ووُسِمَت بَراعةُ اسْتِهلالِها بصِيغةِ التَّقابُلِ في الَّذين كَفَروا، وثُنِّيَ في أنَّ اللهَ يُدخِلُ الَّذين آمَنوا سُلوكَ تلك الطَّريقةِ، وثُلِّثَ في قَولِه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾ ذلك، وجُعِلَتْ هذه الآيةُ مُتفرِّعةً على هذه القَرينةِ بدَلالةِ أداةِ التَّشبيهِ، وجُعِلَ المُشبَّهُ والمُشبَّهُ به بتَمامِه مُمثَّلًا به، وإنَّما فُصِلَ بيْنَ الكَلامَينِ؛ لِيَقَعَ قَولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ اسْتِئنافًا؛ وذلك أنَّ الكافِرَ لَمَّا أُلقِيَ إليه نَفْيُ المُساواةِ بيْنَ مَن هو على بُرْهانٍ مِن ربِّه -وهو القُرآنُ المُعجِزُ-، وبيْنَ مَن رَكِبَ مَتْنَ الهَوى واتَّبَعَ الشَّهواتِ، كما قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾، وقُدِّرَ أنَّه -لِعَدَمِ الْتِفاتِه إلى هذا الإنكارِ- بمَنزِلةِ مَن يُصِرُّ على إنْكارِه، ويَقولُ بالتَّسويةِ، فأوقَعَ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ إلى ساقتِه جَوابًا إلى هذا الإنكارِ المُتجدِّدِ، يَعني: إنْكارُكم هذا يَستلزِمُ التَّسويةَ بيْنَ حالتَيْ أهْلِ الجنَّةِ والنَّارِ، والنُّكتةُ في إيرادِ هذا الاسْتِئنافِ: هي أنَّ هذا مِن الأُمورِ المُقرَّرةِ الَّتي تَثبُتُ به الدَّعاوى؛ لِظُهورِ أدِلَّتِه، وأُدمِجَ فيه مَعنى التَّعريضِ أنَّهم في هذا الإصرارِ ممَّن هو خالِدٌ في النَّارِ، وبأنَّ الَّذي هو على بَيِّنةٍ مِن ربِّه في جنَّاتٍ تَجْري مِن تَحتِها الأنهارُ[1].

- وعُبِّرَ عن المَوعودينَ الجنَّةَ بالمُتَّقينَ؛ إيذانًا بأنَّ الإيمانَ والعَمَلَ الصَّالحَ مِن بابِ التَّقْوى الَّذي هُو عبارةٌ عن فِعلِ الواجباتِ بأسْرِها، وتَرْكِ السَّيِّئاتِ عن آخِرِها[2].

- وجُملةُ ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ وما عُطِفَ عليها تَفصيلٌ للإجْمالِ الَّذي في جُملةِ ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٥).

- قولُه: ﴿فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى﴾ إطلاقُ الأنهارِ على ما هو مِن لَبَنٍ وخمْرٍ وعسَلٍ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: مُماثِلةً لِلْأنهارِ؛ فيَجوزُ أنْ تَكونَ المُماثَلةُ تامَّةً في أنَّها كالأنْهارِ مُستبحرةً في أخاديدَ مِن أرْضِ الجنَّةِ؛ فإنَّ أحوالَ الآخِرةِ خارقةٌ لِلْعادةِ المَعروفةِ في الدُّنيا، فإنَّ مَرأَى أنهارٍ مِن هذه الأصنافِ مَرأًى مُبهِجٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ مُماثَلةُ هذه الأصنافِ لِلْأنهارِ في بَعضِ صِفاتِ الأنهارِ، وهي الاستِبْحارُ[1].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿أَنۡهَٰرٞ﴾ تَمثيلٌ لِمَا يَقومُ مَقامَ الأشربةِ في الجنَّةِ بأنواعِ ما يُستَلَذُّ منها في الدُّنيا بالتَّجريدِ عمَّا يَنقُصُها ويُنَغِّصُها، والتَّوصيفِ بما يُوجِبُ غَزارتَها واسْتِمرارَها[2].

- قولُه: ﴿ءَاسِنٖ﴾ قُرِئَ ﴿أَسِنٖ﴾[3] لِلمُبالَغةِ[4].

- وفي قَولِه: ﴿لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ تَعريضٌ بخُمورِ الدُّنيا، كقَولِه تعالَى: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ وَلَا هُمۡ عَنۡهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، أي: هي لذيذةٌ لهم، ليس فيها كراهةُ طَعمٍ وريحٍ، ولا غائلةُ سُكرٍ وخُمارٍ كخُمورِ الدُّنيا؛ فإنَّها لا لَذَّةَ في نفْسِ شُربِها، وفيها من المكارِهِ والغوائِلِ ما فيها[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٤١).

(٣) وهي قراءةُ ابنِ كثيرٍ، وقرأ الباقون بالمدِّ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٦).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧).

- وفي قَولِه: ﴿لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وُصِفَتْ الخَمرُ بالمصدرِ (لذَّة)؛ للمُبالغةِ بجَعْلِها نفْسَ اللَّذَّةِ[١].

- وبُدِئَ مِن هذه الأنهارِ بالماءِ، وهو الَّذي لا يُستغنَى عنه في المَشروباتِ، ثمَّ باللَّبَنِ؛ إذ كان يَجري مَجرى الطُّعومِ في كثيرٍ مِن أقواتِ العَرَبِ وغَيرِهم، ثمَّ بالخَمرِ؛ لأنَّه إذا حصَلَ الرِّيُّ والمطعومُ تشَوَّقَت النَّفْسُ إلى ما تَلْتَذُّ به، ثمَّ بالعَسَلِ؛ لأنَّ فيه الشِّفاءَ في الدُّنيا مِمَّا يَعرِضُ مِن المشروبِ والمطعومِ؛ فهو مُتأخِّرٌ في الهيئةِ[٢].

وفيه وَجهٌ آخَرُ: لَمَّا كان أكثَرُ شَرابِهم بعدَ الماءِ اللَّبَنَ ثَنَّى به، ولَمَّا كان أكثَرُ ما بعد اللَّبَنِ الخَمرَ قال: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾، ولَمَّا كان العَسَلُ أعَزَّها وأقَلَّها أخَّرَه وإن كان أجَلَّها[٣]. وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا كان السِّياقُ للتَّعَجُّبِ في ضَربِ المَثَلِ -لأنَّه قَولٌ لا يَنْفَكُّ عن غَرابةٍ- بدأ بأنهارِ الماءِ؛ لِغَرابتِها في بلادِهم، وشِدَّةِ حاجتِهم إليها، ولَمَّا كان خُلُوُّها عن تغيُّرٍ أغرَبَ نفاه، ولَمَّا كان اللَّبَنُ أقَلَّ، فكان جَرْيُه أنهارًا أغرَبَ، ثَنَّى به، ولَمَّا كان الخَمرُ أعَزَّ ثلَّثَ به، ولَمَّا كان العَسَلُ أشرَفَها وأقَلَّها خَتَم به[٤].

- وقولُه: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ جِيءَ به لِمُقابَلةِ ما وُصِفَ مِن حالِ أهْلِ الجنَّةِ الَّذي في قَولِه: ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، أي: أنَّ أهْلَ النَّارِ مَحرُومون مِن جَميعِ ما ذُكِرَ مِن المَشروباتِ، ولَيسوا بِذائقينَ إلَّا الماءَ الحميمَ الَّذي يُقطِّعُ أمْعاءَهُم بفَورِ سَقْيِه؛ ولذلك لم يُعرَّجْ هنا على

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٢/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢٠، ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٨/ ٢٢٢، ٢٢٣).

طَعامِ أَهْلِ النَّارِ الَّذي ذُكِرَ في قَولِه تعالَى: ﴿لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٢- ٥٤]، وقَولِه: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ [الصافات: ٦٢] إلى قَولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾[1] [الصافات: ٦٦، ٦٧].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٧، ٩٨).

## الآيات (١٦-١٩)

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ءَانِفًا﴾: أي: مُنْذُ قَريبٍ، أو السَّاعةَ في أوَّلِ وقتٍ يَقرُبُ منها؛ مِن قَولِك: استأنَفْتُ الشَّيءَ: إذا ابتدَأْتَه، ورَجعْتَ إلى أوَّلِه، وأصلُ (أنف) هنا: يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ مِن أوَّلِه[1].

﴿طَبَعَ﴾: أي: خَتَمَ وربَطَ، يُقالُ: طَبَعَ اللهُ على قَلبِ الكافِرِ، أي: ختَمَ عليه فلا يَعي وَعظًا ولا يُوَفَّقُ لِخَيرٍ، وأصلُه يدُلُّ على التَّغطيةِ على الشَّيءِ، والاستيثاقِ منه، بألَّا يَدخُلَه شَيءٌ، ولا يَخرُجَ منه شَيءٌ[2].

﴿يَنظُرُونَ﴾: أي: يَنْتظِرونَ؛ فالنَّظَرُ هنا بمعنى الانتظارِ، وأصْلُ (نظر): تأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، ومنه: نَظَرْتُه، أي: انتَظَرْتُه، كأنَّه يَنْظُرُ إلى الوَقْتِ الذي يأتي فيه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ١١٢) و(٧/ ١٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٨).

﴿بَغۡتَةً﴾: أي: فَجأةً، وأصلُ (بغت): يدُلُّ على مُفاجأةِ الشَّيءِ[١].

﴿أَشۡرَاطُهَا﴾: أي: عَلاماتُها، واحدُها: شَرَطٌ، ومنه الاشتِراطُ الَّذي يَشتَرِطُ النَّاسُ بَعضُهم على بعضٍ، إنَّما هي علاماتٌ يَجعَلونَها بيْنَهم، وأصلُ (شرط): يدُلُّ على عَلَمٍ وعَلامةٍ[٢].

﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾: أي: مُتصَرَّفَكم وانتِشارَكم في أعمالِكم، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على رَدِّ شَيءٍ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[٣].

﴿وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾: أي: مَقامَكم ومُستَقَرَّكم، وأصلُ (ثوي): يدُلُّ على إقامةٍ[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

- قَولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾

قَولُه: ﴿ءَانِفًا﴾: فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ، أي: مُؤتَنِفًا أو مُبتَدِئًا. والثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على الظَّرفِ، أي: ماذا قال السَّاعةَ[٥]؟

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٥).

- قَولُه تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾

المصدَرُ المؤوَّلُ ﴿أَن تَأْتِيَهُم ﴾ في محَلِّ نَصبٍ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن ﴿ٱلسَّاعَةَ ﴾، أي: يَنظُرونَ إتيانَ السَّاعةِ. (أنَّى) اسمُ استِفهامٍ مَبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ، خَبَرٌ مُقدَّمٌ، على معنى: كيف لهم التَّذَكُّرُ؟! أو هو في محِلِّ نَصبٍ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ، خَبَرٌ مُقَدَّمٌ على معنى: مِن أينَ لهم التَّذكُّرُ؟! ﴿ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ مُبتدَأٌ مُؤخَّرٌ. وفاعِلُ ﴿جَآءَتْهُمْ ﴾ ضَميرٌ مُستَتِرٌ جوازًا يعودُ على السَّاعةِ، وجملةُ الشَّرطِ ﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ المبتدأِ والخَبَرِ، وجوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قَبْلَه، أي: إذا جاءَتْهم السَّاعةُ فمِن أين لهم التَّذكُّرُ، أو فكيفَ لهم التَّذَكُّرُ؟!

ويجوزُ أن يكونَ ﴿ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ فاعِلًا لـ﴿جَآءَتْهُمْ ﴾، والمُبتدأُ المؤخَّرُ مَحذوفًا، أي: فأنَّى لهم الخَلاصُ إذا جاءَتْهم ذِكْراهم[1]؟!

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا موقفَ المنافِقينَ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ومِن هؤلاء الَّذين يَتمَتَّعونَ ويَأكُلونَ كما تأكُلُ الأنعامُ، وزُيِّنَ لهم سُوءُ عَمَلِهم: قَومٌ يَستَمِعونَ إليك -وهم المُنافِقونَ- فإذا خرَجوا مِن عِندِك -يا محمَّدُ- قالوا لِمَن حَضَر مَجلِسَك مِن أهلِ العِلمِ مِن الصَّحابةِ: ماذا قال مُحمَّدٌ مُنذُ وَقتٍ قَريبٍ؟!

أولئك هم الَّذين خَتَم اللهُ على قُلوبِهم فلم يُؤمِنوا، واتَّبَعوا أهواءَهم في الكُفرِ والتَّكذيبِ.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦١)، ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٢٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٦/ ٢٢٣).

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حالَ المؤمنينَ الصَّادقينَ، فيقولُ: والَّذين آمَنوا بالحَقِّ واتَّبَعوه زادَهم ما سَمِعوا مِنَ القُرآنِ وكلامِ النَّبيِّ إيمانًا وثَباتًا، وأعطاهم اللهُ التَّقْوى.

ثمَّ يوبِّخُ المنافقينَ، فيقولُ: فهل يَنتَظِرُ أولئك المنافِقونَ إلَّا القيامةَ تأتيهم فَجأةً، فقد جاءَتهم أماراتُها وعَلاماتُها، فمِن أينَ لهم الانتِفاعُ بالتَّذَكُّرِ إذا جاءَتْهم القيامةُ؟!

ثمَّ يقولُ تعالى: فاعلَمْ -يا محمَّدُ- أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ، واستَغفِرْ لِذَنْبِك، ولِذُنوبِ المؤمِنينَ والمؤمِناتِ، واللهُ يَعلَمُ تصَرُّفَكم وانتِشارَكم، ويَعلَمُ مَوضِعَ سُكونِكم وقَرارِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى حالَ الكافِرِ؛ ذكَرَ حالَ المنافِقِ بأنَّه مِن الكُفَّارِ[1].

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾.

أي: ومِن الكُفَّارِ قَومٌ يَستَمِعونَ إلى تِلاوتِك القُرآنَ -يا محمَّدُ-، أو إلى حديثِك في خُطَبِ الجُمُعةِ أو غيرِها، وهم المنافِقونَ[2].

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾.

أي: فإذا خرَجَ أولئك المنافِقونَ مِن عِندِك -يا محمَّدُ- قالوا لِمَن حَضَر

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٨).

مَجلِسَك مِن أهلِ العِلمِ مِن الصَّحابةِ: ماذا قال مُحمَّدٌ مُنذُ وَقتٍ قَريبٍ[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥].

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال وهو على المِنبَرِ: ((وَيْلٌ لِأَقْماعِ القَولِ[٢]، ويْلٌ لِلمُصِرِّينَ الَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢).

قال ابن الجوزي: (وفي استفهامِهم قَولانِ؛ أحدُهما: لأنَّهم لم يَعْقِلوا ما يقولُ، ويدُلُّ عليه باقي الآيةِ. والثَّاني: أنَّهم قالوه استِهزاءً). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١١٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥).

قال الواحدي: (لم يَعقِلوا ما قاله النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِمَنعِ اللهِ تعالى إيَّاهم عن ذلك). ((الوسيط)) (٤/ ١٢٤).

وقال أيضًا: (وعلى هذا دلَّ كلامُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عِكْرِمةَ، قال: «كان المنافِقونَ إذا جلَسوا عندَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَخرُجونَ فيَقولونَ: ماذا قال آنِفًا. ليس معهم قلوبٌ»، وعلى هذا دلَّ سياقُ الآيةِ، وهو قولُه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٤٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: السمعانيُّ، والبغوي، ابنُ عطية، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٧١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٩).

(٢) أقماع القولِ: الأقماعُ: جَمعُ قِمَعٍ، وهو الإناءُ الَّذي يُترَكُ في رُؤوسِ الظُّروفِ لِتُملَأ بالمائعاتِ مِن الأشربةِ والأدهانِ، والمرادُ: الَّذين آذانُهم كالقِمَعِ يَدخُلُ فيه سماعُ الحقِّ مِن جانبٍ، ويَخرُجُ مِن جانبٍ آخَرَ، لا يَستقِرُّ فيه. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث)) لابن الأثير (٤/ ١٠٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٩٧).

يُصِرُّونَ على ما فَعَلوا وهم يَعلَمونَ))[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾.

أي: أولئك هم الَّذين خَتَم اللهُ على قُلوبِهم، فهم لا يَعقِلونَ الحَقَّ، ولا يَفهَمونَه فَهْمًا يَنتَفِعونَ به[٢].

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾.

أي: تَرَكوا الحَقَّ، واتَّبَعوا ما دعَتْهم إليه أنفُسُهم مِنَ الباطِلِ والضَّلالاتِ[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّ المنافِقَ يَستَمِعُ ولا ينتَفِعُ، ويَستعيدُ ولا يَستفيدُ؛ بَيَّن أنَّ حالَ المؤمِنِ المُهتدي بخِلافِه؛ فإنَّه يَستَمِعُ فيَفهَمُ، ويَعمَلُ بما يَعلَمُ، والمنافِقُ يَستعيدُ، والمُهتدي يُفَسِّرُ ويُعيدُ[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾.

---

(١) أخرجه مُطوَّلًا أحمدُ (٦٥٤١)، والبخاريُّ في ((الأدب المفرد)) (٣٨٠)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (١١٠٥٢)، وأخرجه الطبراني (١٣/ ٦٥١) (١٤٥٧٩) باختلافٍ يسيرٍ.
جوَّد إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٣/ ٢١١)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١/ ١٣٧)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ٩٩)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ١٢)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٨٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٠).

أي: والَّذين آمَنوا بالحَقِّ واتَّبَعوه زادهم ما سَمِعوا مِنَ القُرآنِ وكلامِ النَّبيِّ إيمانًا وعِلمًا، وعَمَلًا بالحَقِّ وثَباتًا عليه[١].

كما قال الله سبحانه وتعالى عن أصحابِ الكَهفِ: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦].

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾.

أي: وأعطى اللهُ المُهتَدينَ في الدُّنيا تَقواهم إيَّاه، بتوفيقِهم للعَمَلِ بما أُمِروا به، والانتِهاءِ عمَّا نُهوا عنه[٢].

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾.

أي: فهل يَنتَظِرُ المنافِقونَ إلَّا مَجيءَ القيامةِ فَجأةً مِن غيرِ شُعورٍ بها، ولا استِعدادٍ لها[٣]؟!

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الزخرف: ٦٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٣٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾.

أي: فقد جاءَتهم مُقَدِّماتُ القيامةِ، وعَلاماتُ قُربِها[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ مِن أشراطِ السَّاعةِ: أن يُرفَعَ العِلمُ، ويَثبُتَ الجَهلُ، ويُشرَبَ الخَمرُ، ويَظهَرَ الزِّنا))[٢].

وعن أبي هُريرةَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا بارِزًا للنَّاسِ، فأتاه رجُلٌ، فقال: ... يا رسولَ اللهِ، متى السَّاعةُ؟ قال: ما المَسؤولُ عنها بأعْلَمَ مِنَ السَّائلِ، ولكنْ سأُحَدِّثُكَ عن أشْراطِها: إذا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّها[٣]، فذاك مِن أشْراطِها، وإذا كانتِ العُراةُ الحُفاةُ رُؤوسَ النَّاسِ، فذاك مِن أشْراطِها، وإذا تَطاوَلَ رِعاءُ البَهْمِ[٤] في البُنْيانِ، فذاك من أشْراطِها))[٥].

وعن عَمرِو بن تَغلِبَ رَضيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥).

(٢) رواه البخاري (٨٠)، ومسلم (٢٦٧١).

(٣) رَبَّها: أي: سيِّدَها، والمرادُ أن تَكثُرَ فُتوحُ بلادِ الكفرِ، فيَكثُرَ السَّراريُّ، فتَلِدُ الإماءُ الأولادَ مِن سادَتِهنَّ، وولدُ السَّيِّدِ بمَنزِلةِ السَّيِّدِ، فتَصيرَ الأمَةُ ولدَتْ ربَّها بهذا الاعتبارِ. وقيل: المرادُ: أن يَكثُرَ العُقوقُ مِن الأولادِ حتَّى يعامِلَ الولدُ أُمَّه مُعامَلةَ أَمَتِه بالسَّبِّ والإهانةِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٢١٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٢٢).

(٤) البَهْم: بفتحِ الباءِ وإسكانِ الهاءِ، هي الصِّغارُ مِن أولادِ الغنمِ؛ الضَّأْنِ والمَعْزِ جميعًا، وقيل: أولادُ الضَّأنِ خاصَّةً، والمعنى: أنَّ أهلَ الفقرِ والحاجةِ تصيرُ لهم الدُّنيا حتَّى يَتباهَوا في البُنيانِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١/ ١٦٣)، ((عمدة القاري)) للعيني (١/ ٢٨٦).

(٥) أخرجه البخاري (٤٧٧٧)، ومسلم (٩) واللفظ له.

((إنَّ مِن أشْراطِ السَّاعةِ: أن يَفيضَ المالُ، ويَكثُرَ الجَهلُ، وتَظهَرَ الفِتنُ، وتَفشُوَ التِّجارةُ))(١).

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾.

أي: فمِن أين لهم الانتِفاعُ بالتَّذَكُّرِ والنَّدَمِ والتَّوبةِ إذا جاءَتْهم القيامةُ، وقد فات وَقتُ الإيمانِ، وأُغلِقَ بابُ التَّوبةِ والعَمَلِ بالقُرآنِ(٢)؟!

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

**لبَيانِ المُناسَبةِ وُجوهٌ:**

**الأوَّلُ**: هو أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨] قال: فاعلَمْ أنَّه لا إلهَ إلا اللهُ يأتي بالسَّاعةِ، كما قال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ

---

(١) أخرجه النَّسائي (٤٤٥٦)، وأحمد (٢٤٠٠٩/ ٧٨) بنحوه، والحاكِمُ (٢١٤٧) واللَّفظُ له.
صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٩/ ٥٢٠)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٤٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٥).
قال القرطبي: (التَّقديرُ: فمِن أين لهمُ التَّذكُّرُ إذا جاءَتْهمُ السَّاعةُ؟! قال معناه قَتادةُ وغيرُه. وقيل: فكيف لهم بالنَّجاةِ إذا جاءتْهم الذِّكرى عندَ مَجيءِ السَّاعةِ؟ قاله ابنُ زَيدٍ. وفي الذِّكرى وجْهان؛ أحدُهما: تذكيرُهم بما عَمِلوه مِن خَيرٍ أو شرٍّ. الثَّاني: هو دعاؤُهم بأسمائِهم تبشيرًا وتخويفًا). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٦).

كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٧، ٥٨].

**الثَّاني**: أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾، وهي آتِيَةٌ، فكأنَّ قائلًا قال: متى هذا؟ فقال: فاعلَمْ أنَّه لا إلهَ إلا اللهُ، واشتَغِلْ بما عليك مِن الاستِغفارِ، وكُنْ في أيِّ وقتٍ مَستعِدًّا لِلِقائِها، ويُناسِبُه قولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

**الثَّالِثُ**: فاعلَمْ أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ يَنفَعكَ[1].

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

أي: فاعلَمْ -يا محمَّدُ- أنَّه لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ الَّذي لا تجوزُ العِبادةُ إلَّا له وَحْدَه دونَ ما سِواه[2].

عن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن مات وهو يَعلَمُ أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ دخَلَ الجنَّةَ))[3].

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

أي: واطلُبْ -يا محمَّدُ- مِن رَبِّكَ مَغفِرةَ ذُنوبِكَ، وذُنوبِ المؤمِنينَ مِن أُمَّتِكَ ذُكورًا وإناثًا؛ فيَستُرُها عليكم، ولا يُؤاخِذُكم بها[4].

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ نَبيِّه نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٤٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٣١٧).

دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [نوح: ٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ حاكيًا دُعاءَ نبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١].

وقال سُبحانَه آمرًا نَبيَّه مُحمَّدًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه كان يدعو بهذا الدُّعاءِ: ((اللَّهُمَّ اغفِرْ لي خَطيئتي وجَهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلَمُ به مِنِّي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي جِدِّي وهَزْلي، وخَطَئي وعَمْدي، وكُلُّ ذلك عندي، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسرَرتُ وما أعلَنتُ، وما أنت أعلَمُ به منِّي، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ))[1].

وعن عاصم بن سُلَيمانَ الأحوَلِ، عن عبدِ اللهِ بنِ سَرْجِسَ رَضِيَ الله عنه قال: ((رأيتُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأكلتُ معه خُبزًا ولَحمًا -أو قال: ثَريدًا- قال: فقُلتُ له: أستَغفَرَ لك النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ قال: نعَمْ، ولك، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾))[2].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((لَمَّا رأيتُ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم طِيبَ نَفْسٍ قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، ادْعُ اللهَ لي، فقال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لعائِشةَ ما تقَدَّمَ مِن

(١) رواه البخاري (٦٣٩٩)، ومسلم (٢٧١٩) واللَّفظُ له.

(٢) رواه مسلم (٢٣٤٦).

ذَنْبِها وما تأخَّرَ، ما أسَرَّتْ وما أعلَنَتْ. فضَحِكَت عائِشةُ حتَّى سَقَط رأسُها في حِجْرِها مِنَ الضَّحِكِ! قال لها رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: أيَسُرُّكِ دُعائي؟ فقالت: وما لي لا يَسُرُّني دُعاؤُك؟! فقال صلَّى الله عليه وسلَّم: واللهِ إنَّها لَدُعائي لِأُمَّتي في كُلِّ صَلاةٍ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا صلَّى على جِنازةٍ يقولُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لِحَيِّنا ومَيِّتِنا، وشاهِدِنا وغائِبِنا، وصَغيرِنا وكَبيرِنا، وذَكَرِنا وأُنثانا، اللَّهُمَّ مَن أحيَيْتَه مِنَّا فأحْيِه على الإسلامِ، ومَن تَوَفَّيْتَه مِنَّا فتَوَفَّه على الإيمانِ، اللَّهُمَّ لا تَحرِمْنا أجْرَه، ولا تُضِلَّنا بَعْدَه))(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ تصَرُّفَكم وحَرَكاتِكم، ويَعلَمُ مَوضِعَ سُكونِكم وقَرارِكم للرَّاحةِ(٣).

---

(١) أخرجه البزَّارُ كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (٩/ ٢٤٦)، وابن حِبَّان (٧١١١) واللَّفظُ له. صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وقال الهيثمي: (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ غيرَ أحمدَ بنِ منصورٍ الرَّماديِّ، وهو ثقةٌ). وحَسَّن إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥/ ٣٢٤)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٧١١١).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٣٢٠١)، والترمذيُّ بعد حديث (١٠٢٤)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٩١٩)، وابنُ ماجه (١٤٩٨) واللفظ له، وأحمدُ (٨٨٠٩).
صَحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (٩٧)، وابن الملَقِّن في ((البدر المنير)) (٥/ ٢٧١)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٤٩٨)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣٢٠١)، وقال ابن باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٣٥٦): (له شاهِدانِ وسَنَدُهما جيِّدٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٦).
قيل: المرادُ بـ ﴿مُتَقَلَّبَكُمۡ﴾: تصَرُّفُكم وحَركتُكم وانتِشارُكم في النَّهارِ، والمرادُ بـ (مَثْوَاكُمْ): مأواكم باللَّيلِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ كثير. =

كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَن عَمِلَ بما عَلِمَ أورَثَه اللهُ عِلمَ ما لم يَعلَمْ، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا

---

= يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧).

وقيل: المرادُ بـ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾: مُتصَرَّفُكم في أعمالِكم وأشغالِكم. والمرادُ بـ(مَثْوَاكُمْ): مَرجِعُكم في الدُّنيا والآخرةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣).

وذهب القُرطبيُّ إلى العُمومِ، فقال: (﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ فيه خَمسةُ أقوالٍ:

أحدُها: يَعلَمُ أعمالَكم في تصَرُّفِكم وإقامتِكم.

الثَّاني: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في أعمالِكم نهارًا. ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ في لَيلِكم نِيامًا.

وقيل: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في الدُّنيا. ﴿وَمَثْوَاكُمْ﴾ في الدُّنيا والآخِرةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ.

وقال عِكْرِمةُ: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في أصلابِ الآباءِ إلى أرحامِ الأُمَّهاتِ. ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ مُقامَكم في الأرضِ.

وقال ابنُ كَيْسانَ: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ مِن ظَهرٍ إلى بَطنٍ إلى الدُّنيا. ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ في القُبورِ.

قُلتُ: والعُمومُ يأتي على هذا كُلِّه، فلا يخفى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن حَرَكاتِ بني آدَمَ وسَكَناتِهم، وكذا جميعُ خَلْقِه. فهو عالِمٌ بجَميعِ ذلك قبْلَ كَونِه جُملةً وتَفصيلًا، أُولى وأُخرى، سُبحانَه! لا إلهَ إلَّا هو). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٢، ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[1] [النساء: ٦٦- ٦٨].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ ﴾ فيه الحَثُّ على الاستِعدادِ قبْلَ مُفاجأةِ الموتِ؛ فإنَّ مَوتَ الإنسانِ قيامُ ساعتِه[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ العِلمُ لا بُدَّ فيه مِن إقرارِ القَلبِ ومَعرفتِه بمعنى ما طُلِبَ منه عِلمُه، وتمامُه أن يَعمَلَ بمُقتَضاه. وهذا العِلمُ الَّذي أمَرَ اللهُ به -وهو العِلمُ بتوحيدِ اللهِ- فَرضُ عَينٍ على كُلِّ إنسانٍ، لا يَسقُطُ عن أحدٍ كائِنًا مَن كان، بل كُلٌّ مُضطَرٌّ إلى ذلك، والطَّريقُ إلى العِلمِ بأنَّه لا إلهَ إلَّا هو- أمورٌ:

**أحدُها بل أعظَمُها**: تدبُّرُ أسمائِه وصِفاتِه وأفعالِه الدَّالَّةِ على كَمالِه وعَظَمتِه وجلالتِه؛ فإنَّها توجِبُ بَذْلَ الجُهدِ في التَّألُّهِ له، والتَّعَبُّدَ للرَّبِّ الكامِلِ الَّذي له كُلُّ حَمدٍ ومَجدٍ وجَلالٍ وجَمالٍ.

**الثَّاني**: العِلمُ بأنَّه تعالى المنفَرِدُ بالخَلقِ والتَّدبيرِ، فيُعلَمُ بذلك أنَّه المنفَرِدُ بالأُلوهيَّةِ.

**الثَّالثُ**: العِلمُ بأنَّه المُنفَرِدُ بالنِّعَمِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ؛ فإنَّ ذلك يُوجِبُ تَعَلُّقَ القَلبِ به ومحبَّتَه، والتَّألُّهَ له وَحْدَه لا شريكَ له.

**الرَّابعُ**: ما نَراه ونَسمَعُه مِن الثَّوابِ لأوليائِه القائِمينَ بتَوحيدِه مِن النَّصرِ والنِّعَمِ العاجِلةِ، ومِن عُقوبتِه لأعدائِه المُشرِكينَ به؛ فإنَّ هذا داعٍ إلى العِلمِ بأنَّه تعالى وَحْدَه المُستَحِقُّ للعبادةِ كُلِّها.

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

**الخامِسُ**: مَعرِفةُ أوصافِ الأوثانِ والأندادِ الَّتي عُبِدَتْ مع الله، واتُّخِذَتْ آلهةً، وأنَّها ناقِصةٌ مِن جميعِ الوُجوهِ، فقيرةٌ بالذَّاتِ، لا تَملِكُ لِنَفْسِها ولا لِعابِدِيها نفعًا ولا ضرًّا، ولا مَوتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، ولا يَنصُرونَ مَن عَبَدَهم، ولا يَنفعونَهم بمِثقالِ ذَرَّةٍ؛ مِن جَلْبِ خَيرٍ، أو دَفعِ شَرٍّ؛ فإنَّ العِلمَ بذلك يُوجِبُ العِلمَ بأنَّه لا إلهَ إلَّا هو، وبُطلانَ إلهيَّةِ ما سِواه.

**السَّادِسُ**: اتِّفاقُ كُتُبِ الله على ذلك، وتواطُؤُها عليه.

**السَّابعُ**: أنَّ خواصَّ الخَلقِ الَّذين هم أكمَلُ الخليقةِ أخلاقًا وعُقولًا، ورأيًا وصوابًا وعِلمًا -وهم الرُّسُلُ والأنبياءُ والعُلَماءُ الرَّبَّانيُّونَ-: قد شَهِدوا لله بذلك.

**الثَّامنُ**: ما أقامه اللهُ مِن الأدِلَّةِ الأُفُقيَّةِ والنَّفْسيَّةِ الَّتي تدُلُّ على التَّوحيدِ أعظَمَ دَلالةٍ، وتُنادي عليه بلِسانِ حالِها بما أودَعَها مِن لطائِفِ صَنعتِه، وبَديعِ حِكمتِه، وغرائِبِ خَلْقِه.

فهذه الطُّرُقُ الَّتي أكثَرَ اللهُ مِن دَعوةِ الخَلقِ بها إلى أنَّه لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأبداها في كتابِه وأعادَها: عندَ تأمُّلِ العَبدِ في بَعضِها لا بُدَّ أن يكونَ عِندَه يقينٌ وعِلمٌ بذلك، فكيف إذا اجتَمَعت وتواطَأت واتَّفَقَت، وقامَتْ أدِلَّةُ التَّوحيدِ مِن كُلِّ جانبٍ؟ فهناك يَرسَخُ الإيمانُ والعِلمُ بذلك في قَلبِ العبدِ، بحيث يكونُ كالجِبالِ الرَّواسي، لا تُزَلزِلُه الشُّبَهُ والخَيالاتُ، ولا يَزدادُ -على تكَرُّرِ الباطِلِ والشُّبَهِ- إلَّا نُمُوًّا وكَمالًا.

هذا، وإنْ نظَرْتَ إلى الدَّليلِ العَظيمِ، والأمرِ الكبيرِ -وهو تدَبُّرُ هذا القُرآنِ العظيمِ، والتَّأمُّلُ في آياتِه- فإنَّه البابُ الأعظَمُ إلى العِلمِ بالتَّوحيدِ، ويَحصُلُ به مِن تفاصيلِه وجُمَلِه ما لا يَحصُلُ في غَيرِه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٧).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ مِن اللَّطائِفِ القُرآنيَّةِ أنْ أمَرَ هنا بالعِلمِ قبْلَ الأمرِ بالعَمَلِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾، قال ابنُ عُيَيْنَةَ لَمَّا سُئِلَ عن فَضلِ العِلمِ: (ألم تَسمَعْ قَولَه حينَ بدَأَ به: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، ثمَّ أمَره بالعمَلِ، فقال: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾)[1]. وترجَمَ البُخاريُّ في كتابِ العِلمِ مِن «صَحيحِه»[2]: بابُ العِلمِ قبْلَ القَولِ والعَمَلِ؛ لِقَولِ الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فبدأَ بالعِلمِ[3].

٥- الاستِغفارُ والتَّوحيدُ بهما يَكمُلُ الدِّينُ، كما قال تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ * أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ * وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾[4] [هود: ١-٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ فيه إعلامٌ بأنَّه يَجِبُ على الإنسانِ بعدَ تَكميلِ نَفْسِه السَّعيُ في تَكميلِ غَيرِه؛ لِيَحصُلَ التَّعاوُنُ على ما خُلِقَ العِبادُ له[5].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾، أي: هو عالِمٌ بجَميعِ أحوالِكم، لا يَخفى عليه شَيءٌ منها؛ فاحْذَروه[6]، والمَقصودُ: الحَثُّ على الخَوفِ وطَلَبِ المَغفرةِ مِن اللهِ الَّذي لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أحوالِ الخَلقِ[7].

---

(١) أخرجه أبو نُعَيم في ((حلية الأولياء)) (٧/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((صحيح البخاري)) (١/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل لابن تيمية)) (٢/ ٢٨٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٠).

(٧) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٦٤).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- السَّمعُ بلا عَقلٍ لا يَنفَعُ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾[١]، وذلك بناءً على أنَّهم لم يَعْقِلوا ما يقولُ.

٢- قَولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ مِن الأدِلَّةِ الدَّالَّةِ على وُجوبِ اتِّباعِ الصَّحابةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى شَهِدَ لهم بأنَّهم أُوتوا العِلمَ، وإذا كانوا أُوتوا هذا العِلمَ كان اتِّباعُهم واجِبًا[٢].

٣- يُطبَعُ على قَلبِ العَبدِ باتِّباعِ الهَوى؛ قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ؛ حيثُ أخبَرَ سُبحانَه بالطَّابَعِ عنه، وباتِّباعِ الهوى عنهم[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ؛ حيثُ أخبَرَ سُبحانَه عن إعطائِهم التَّقْوى[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ حُجَّةٌ على المُرجِئةِ -المُنكِرينَ زيادةَ الإيمانِ ونُقصانَه- في زيادةِ الهُدى[٦]. وكذلك قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ الآيةَ، وقَولُه: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ الآيةَ؛ ففي هذه الآياتِ وغَيرِها التَّصريحُ بزيادةِ الإيمانِ، وتدُلُّ هذه الآياتُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ١٥١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بدَلالةِ الالتِزامِ على أنَّه يَنقُصُ أيضًا؛ لأنَّ كلَّ ما يَزيدُ يَنقُصُ، وجاء مُصرَّحًا به في أحاديثِ الشَّفاعةِ الصَّحيحةِ[١]، وهذا مِن أعظَمِ أُصولِ أهلِ السُّنَّةِ الَّذي فارَقوا به الجَهميَّةَ والمُرجِئةَ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ أنَّ المعاصيَ سَبَبٌ لِنسيانِ العِلمِ؛ وَجْهُه: أنَّه إذا كانتِ الهدايةُ سَببًا لزيادةِ العِلمِ، فالمَعصيةُ سَبَبٌ لِنُقصانِها[٣]، فمَن أراد سَعةَ العِلمِ وثُبوتَ العِلمِ فعليه بطاعةِ اللهِ؛ لأنَّه كُلَّما اهْتَدى الإنسانُ بهدايةِ اللهِ ازداد هُدًى، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾[٤].

٨- اللهُ سُبحانَه وتعالى هو الهادي وهو المُضِلُّ لِمَن يشاءُ، لكِنَّ سبَبَ الهدايةِ وسبَبَ الإضلالِ يكونُ مِن العبدِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾، فإذا علِمَ اللهُ مِن العَبدِ أنَّ نِيَّتَه الهُدى وطلَبَه الهُدى هَداه، وإذا زاغَ القَلبُ أزاغَه اللهُ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[٥] [الصف: ٥].

٩- إنَّ كُلَّ مَنِ استقرأَ أحوالَ العالَمِ وَجَدَ المسلمينَ أحَدَّ وأسَدَّ عَقلًا، وأنَّهم يَنالونَ في المدَّةِ اليسيرةِ مِن حقائقِ العُلومِ والأعمالِ أضعافَ ما يَنالُه غَيرُهم في قُرونٍ وأجيالٍ، وكذلك أهلُ السُّنَّةِ والحَديثِ، تَجِدُهم كذلك مُتمَتِّعينَ؛ وذلك لأنَّ اعتِقادَ الحقِّ الثَّابتِ يُقَوِّي الإدراكَ ويُصَحِّحُه؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) (٣/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٤٩٥).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٢).

هُدًى ﴾[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ثَوابَ الحَسَنةِ الحَسَنةُ بَعدَها[٢].

١١- قال الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴾ في هذه الآيةِ لَطيفةٌ، وهي: أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم له أحوالٌ ثلاثةٌ: حالٌ مع اللهِ، وحالٌ مع نَفْسِه، وحالٌ مع غيرِه؛ فأمَّا مع اللهِ فوَحِّدْه، وأمَّا مع نَفْسِك فاستَغفِرْ لِذَنْبِك، واطلُبِ العِصمةَ مِن اللهِ، وأمَّا معَ المُؤمِنينَ فاستَغفِرْ لهم، واطلُبِ الغُفرانَ لهم مِنَ اللهِ تعالى[٣].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ فيه سؤالٌ: النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان عالِمًا بذلك، فما معنى الأمرِ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّ المعنى: فاثبُتْ على ما أنت عليه مِنَ العِلمِ، كقَولِ القائِلِ لجالِسٍ يُريدُ القِيامَ: اجلِسْ، أي: لا تَقُمْ.

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّ الخِطابَ مع النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمرادُ قَومُه[٤].

١٣- ينبغي للإنسانِ إذا أراد أنْ يُؤدِّيَ عِبادةً أن يَفهَمَ أحكامَها أوَّلًا قبْلَ أن يَتلبَّسَ بها؛ لئَلَّا يَقعَ في محظورٍ منها، أو في تَركِ واجِبٍ؛ لأنَّ هذا هو الَّذي أمَرَ اللهُ به، فقال تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ فبَدَأ بالعِلمِ قبْلَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

العمَلِ: (اعلَمْ) و(استَغفِرْ)[١].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ استدَلَّ به مَن أجاز الصَّغائِرَ على الأنبياءِ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ أنَّ المَدعُوَّ له يَنتَفِعُ بدُعاءِ الغَيرِ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ قيلَ: أرْجى آيةٍ للمُؤمِنينَ هذه الآيةُ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ أمَرَ رسولَه عليه السَّلامُ أن يَستغفِرَ لهم، فلا يُحتمَلُ ألَّا يَستغفِرَ وقد أمَرَه مَوْلاه بالاستِغفارِ، ثمَّ لا يُحتمَلُ أيضًا أنَّه إذا استغفَرَ لهم على ما أمَرَه به فلا يُجيبَ له[٤]، ولا نَشُكُّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فعَلَ ما أمَرَه اللهُ به مِن الاستِغفارِ للمُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ؛ فهذا دُعاءٌ لا نَشُكُّ -إنْ شاء اللهُ- أنَّ اللهَ قد أجابَه لِنُوحٍ وإبراهيمَ ومُحمَّدٍ والملائكةِ؛ فمَن مات على الإيمانِ فهو داخِلٌ تحتَ الدَّعَواتِ المَذكوراتِ -إنْ شاء اللهُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢١/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٨).

قال ابن تيميَّة: (تنازَعوا: هل يقَعُ مِن الأنبياءِ بعضُ الصَّغائِرِ مع التَّوبةِ منها، أو لا يقعُ بحالٍ؟ فقال بعضُ مُتكلِّمي الحديثِ وكثيرٌ مِن المتكلِّمينَ مِن الشِّيعةِ والمُعتزِلةِ: لا تقعُ منهمُ الصَّغيرةُ بحالٍ، وزاد الشِّيعةُ حتَّى قالوا: لا يقعُ منهم لا خطأٌ ولا غيرُ خطأٍ. وأمَّا السَّلفُ وجمهورُ أهلِ الفقهِ والحديثِ والتَّفسيرِ وجمهورُ متكلِّمي أهلِ الحديثِ مِن الأشعريَّةِ وغيرِهم فلم يَمنعوا وُقوعَ الصَّغيرةِ إذا كان مع التَّوبةِ؛ كما دلَّت عليه النُّصوصُ مِن الكتابِ والسُّنَّةِ؛ فإنَّ الله يُحِبُّ التَّوَّابينَ. وإذا ابتُلِيَ بعضُ الأكابرِ بما يَتوبُ منه فذاك لِكَمالِ النِّهايةِ، لا لِنَقصِ البِدايةِ). ((المُستدرَك على مجموع الفتاوى)) (١/ ٢٠٨). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٧/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٢٧٥)، ((روح البيان)) للخَلْوتي (٨/ ٥١١).

(٥) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٥١).

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ ذِكرُ المؤمِناتِ بعدَ المُؤمِنينَ اهتِمامٌ بهِنَّ في هذا المَقامِ، وإلَّا فإنَّ الغالِبَ اكتِفاءُ القُرآنِ بذِكرِ المؤمِنينَ، وشُمولُه للمُؤمِناتِ على طريقةِ التَّغليبِ؛ للعِلمِ بعُمومِ تكاليفِ الشَّريعةِ للرِّجالِ والنِّساءِ، إلَّا ما استُثنيَ مِن التَّكاليفِ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لِبَيانِ جانِبٍ آخَرَ مِنِ اسْتِهزائِهم وتَعنُّتِهم -على قولٍ-؛ فقدْ كانوا يَحضُرون مَجلِسَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيَسْمَعون كَلامَه ولا يَعُونَه، ولا يُلْقُون إليه بالًا، فإذا خَرَجوا مِن المَجلِسِ سأَلوا أهْلَ العِلمِ مِن الصَّحابةِ: ماذا قال السَّاعةَ؟ على جِهةِ الاسْتِهزاءِ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وما كان يَقولُه، أو اسْتِعلامًا -على قولٍ آخَرَ-؛ إذ لم يُلْقوا له آذانَهم تَهاوُنًا به[2]، فما كانوا يُبالونَ بما يَتلو عليهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الآياتِ والهدَى، وأيضًا لِبَلادَتِهم وقِلَّةِ فَهمِهم، فلا يَعقِلون ما يُقالُ[3].

- والاستِماعُ: أشدُّ السَّمْعِ وأقواهُ، أي: يَستمِعون باهتِمامٍ يُظهِرون أنَّهم حَرِيصونَ على وَعْيِ ما يَقولُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّهم يُلقُون إليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨٩).

بالَهُم، وهذا مِن استِعمالِ الفِعلِ في مَعنى إظْهارِه، لا في مَعنى حُصولِه[١].

- قولُه: ﴿ وَمِنْهُم يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾، أي: يَستمِعون إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن القُرآنِ وما يَقولُه مِن الإرشادِ، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَسْتَمِعُ﴾؛ لِيَشملَ ذلك[٢].

- قولُه: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُوْلَٰٓئِكَ﴾ سِياقُ الكَلامِ يدُلُّ على ذَمِّ هذا السُّؤالِ؛ لِقَولِه عَقِبَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ فهو سُؤالٌ يُنبِئُ عن مَذمَّةِ سائِلِيه، فإنْ كان سُؤالُهم حَقيقةً، أنْبَأَ عن قِلَّةِ وَعْيِهم لِمَا يَسْمَعونَه مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فهمْ يَسْتعيدونَه مِن الَّذين عَلِمُوه؛ فلَعلَّ اسْتِعادتَهم إيَّاهُ لِقَصْدِ أنْ يَتدارَسُوه إذا خَلَوا معَ إخْوانِهم؛ لِيَختَلِقوا مَغامِزَ يُهيِّئونَها بيْنَهم، أو أنْ يُجيبوا مَن يَسألُهم مِن إخْوانِهم عمَّا سَمِعوه في المجلِسِ الَّذي كانوا فيه. ويَجوزُ أنْ يكونَ السُّؤالُ على غَيرِ حَقيقتِه ناوينَ به الاسْتِهزاءَ، يُظهِرون لِلْمؤمنينَ اهْتمامَهم باسْتِعادةِ ما سَمِعوه ويَقولونَ لإخوانِهم: إنَّما نحنُ مُستهزِئون، أو أنْ يكونَ سُؤالُهم تَعريضًا بأنَّهم سَمِعوا كَلامًا لا يَستبِينُ المُرادُ منه؛ لإدْخالِ الشَّكِّ في نُفوسِ مَن يُحِسُّون منْهم الرَّغبةَ في حُضورِ مَجالِسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَعريضًا بقِلَّةِ جَدْوى حُضورِها. ويَجوزُ أنْ تكونَ الآيةُ أشارَتْ إلى حادثةٍ خاصَّةٍ ذكَرَ فيها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُنافِقينَ وأحوالَهم، وعَلِمَ الَّذين كانوا حاضِرين منهم أنَّهم المَعنيُّون بذلك، فأرادوا أنْ يَسألُوا سُؤالَ اسْتِطلاعٍ: هل شَعَرَ أهْلُ العِلمِ بأنَّ أولئك همُ المَعنيُّون؟ فيَكونَ مَفعولُ ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ مَحْذوفًا؛ لِلعِلمِ به عِندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٠٠، ١٠١).

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَهم: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ سُؤالٌ غَريبٌ مِن شَأْنِه إثارةُ سُؤالِ مَن يَسأَلُ عن سَببِ حُصولِه[١].

- وفي قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ جِيءَ باسْمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بعْدَ ذِكرِ صِفاتِهم؛ تَشْهيرًا بهم[٢]. وكذلك جِيءَ بالمَوصولِ وصِلَتَيْه خَبرًا عن اسمِ الإشارةِ؛ لإفادةِ أنَّ هؤلاء المُتميِّزينَ بهذه الصِّفاتِ همْ أشخاصُ الفَريقِ المُتقرِّرِ بيْن النَّاسِ أنَّهم فَريقٌ مَطبوعٌ على قُلوبِهم؛ لأنَّه قدْ تَقرَّرَ عِندَ المُسلِمينَ أنَّ الَّذين صَمَّموا على الكُفْرِ همْ قد طبَعَ اللهُ على قُلوبِهم، وأنَّهم مُتَّبِعون لأهوائِهم؛ فأفادَتْ أنَّ هؤلاء المُستمِعين زُمرةٌ مِن ذلك الفَريقِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ وما فُرِّعَ عنْها مِن قَولِه: ﴿فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾، والواوُ اعتِراضيَّةٌ، والمَقصودُ مِن هذا الاعتِراضِ مُقابَلةُ فَريقِ الضَّلالةِ بفَريقِ الهِدايةِ على الأُسلوبِ الَّذي أُقِيمَتْ عليه هذه السُّورةُ، كما تَقدَّمَ في أوَّلِها؛ فهذا أُسلوبٌ مُستمِرٌّ وإنِ اختَلَفَت مَواقِعُ جُمَلِه[٤].

- وإضافةُ التَّقْوى إلى ضَميرِ (الَّذِينَ اهْتَدَوْا) إيماءٌ إلى أنَّهم عُرِفوا بها، واختُصَّتْ بهم[٥].

- وفي إسنادِ ﴿وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ إلى اللهِ تعالى، وإسنادِ مُتابَعةِ الهَوى إليهم؛ إيماءٌ إلى مَعنى قَولِ إبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٨٠]، وتَلويحٌ إلى أنَّ مُتابَعةَ الهَوى مَرَضٌ رُوحانيٌّ، ومُلازَمةَ التَّقوى دَواءٌ إلَهيٌّ؛ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾[1] [الإسراء: ٨٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ تفريعٌ على ما مَضَى مِن وَصْفِ أحوالِ الكافِرينَ -من قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴾- الشَّامِلةِ لِأحوالِ الفَريقينِ، ففُرِّعَ عليها أنَّ كِلا الفَريقَينِ يَنتظِرون حُلولَ السَّاعةِ؛ لِيَنالوا جَزاءَهُم على سُوءِ كُفْرِهم؛ فضميرُ ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ مرادٌ به الكافِرونَ، فالكلامُ تَهديدٌ ووَعيدٌ، ولأنَّ المُؤمِنينَ يَنتظِرون أُمورًا أُخَرَ؛ مِثلَ النَّصرِ والشَّهادةِ، قال تَعالى: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ الآيةَ[2] [التوبة: ٥٢].

- قولُه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ الاستِفهامُ إنكارٌ مَشوبٌ بتَهكُّمٍ، وهو إنْكارٌ وتَهكُّمٌ على غائبينَ، مُوجَّهٌ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: لا تَحسَبْ تَأخيرَ مُؤاخَذتِهم إفلاتًا مِن العِقابِ؛ فإنَّهم مُرْجَوْنَ إلى السَّاعةِ[3].

- والقَصْرُ الذي أفادَهُ الاستِثناءُ ﴿ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ في قَولِه: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ قَصْرٌ ادِّعائيٌّ[4]؛ نُزِّلَ انتِظارُهم ما يَأْملونَه مِن المَرْغوباتِ في الدُّنيا مَنزِلةَ العَدَمِ؛ لِضآلَةِ أمْرِه، بعْدَ أنْ نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَنتظِرون -فيما يَنتظِرون- السَّاعةَ؛ لأنَّهم -لِتَحقُّقِ حُلولِه عليهم- جَديرون بأنْ يَكونوا مِن

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٠٢، ١٠٣).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٥٩).

مُنتظِريها[١].

- وقولُه: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾ تَعليلٌ لِمُفاجأةِ السَّاعةِ، لا لإتيانِها مُطلقًا، على مَعنى أنَّه لمْ يَبْقَ مِن الأُمورِ المُوجِبةِ لِلتَّذكُّرِ أمْرٌ مُترقَّبٌ يَنتظِرونَه سِوى إتيانِ نفْسِ السَّاعةِ؛ إذْ قد جاءَ أشْراطُها، فلمْ يَرفَعُوا لها رأسًا، ولم يَعُدُّوها مِن مَبادئِ إتْيانِها؛ فيكونُ إتيانُها بطَريقِ المُفاجأةِ لا مَحالةَ[٢].

- قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ (أنَّى) استِفهامٌ إنكاريٌّ، أي: كيف يَحصُلُ لهم الذِّكرى إذا جاءَتْهم السَّاعةُ؟! والمَقصودُ: إنكارُ الانتِفاعِ بالذِّكرى حِينَئذٍ[٣].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ حُكْمٌ بخَطئِهم وفَسادِ رأْيِهم في تَأْخيرِ التَّذكُّرِ إلى إتيانِها ببَيانِ اسْتِحالةِ نفْعِ التَّذكُّرِ حِينَئذٍ، أي: وكيفَ لهم ذِكْراهُم إذا جاءتْهُم؟! على أنَّ (أنَّى) خَبَرٌ مُقدَّمٌ، و﴿ذِكْرَىٰهُمْ﴾ مُبتدَأٌ، و﴿إِذَا جَآءَتْهُمْ﴾ اعتِراضٌ وُسِّطَ بيْنَهما رمْزًا إلى غايةِ سُرْعةِ مَجيئِها، وإطلاقُ المَجيءِ عن قَيدِ البَغتةِ؛ لِمَا أنَّ مَدارَ اسْتِحالةِ نفْعِ التَّذكُّرِ كَونُه عِندَ مَجيئِه مُطلقًا، لا مُقيَّدًا بقَيدِ البَغتةِ[٤].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ تَفريعٌ على جَميعِ ما ذُكِرَ مِن حالِ المُؤمِنينَ وحالِ الكافِرين؛ لَمَّا ذكَرَ حالَ المُؤمِنينَ وحالَ الكافِرين، وفُصِلَ بيْن وصْفَيْهما مِن السَّعادةِ والشَّقاوةِ، مِن مُفتتَحِ السُّورةِ مرَّةً بعْدَ أُخرى؛ قال: إذا عَلِمْتَ أنَّ الأمْرَ كما ذُكِرَ مِن سَعادةِ هؤلاءِ وشَقاوةِ هؤلاءِ، فاثْبُتْ على ما أنتَ عليه مِن العِلْمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧).

بوَحدانيَّةِ اللهِ، وعلى التَّواضُعِ وهضْمِ النَّفْسِ باستِغْفارِ ذَنْبِك وذُنوبِ مَن على دِينِك، والتَّفريعُ هذا مَزيدُ مُناسَبةٍ لِقَولِه آنِفًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[1] [محمد: ١١].

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿فَٱعْلَمْ﴾ كِنايةٌ عن طَلَبِ العِلْمِ، وهو العمَلُ بالمَعلومِ، وذلك مُستعمَلٌ في طَلَبِ الدَّوامِ عليه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قد عَلِمَ ذلك وعَلِمَه المُؤمِنون، وإذا حصَلَ العِلمُ بذلك مرَّةً واحدةً تَقرَّرَ في النَّفْسِ؛ لأنَّ العِلمَ لا يَحتمِلُ النَّقيضَ، فليس الأمْرُ به بعْدَ حُصولِه لِطَلَبِ تَحصيلِه، بلْ لِطَلَبِ الثَّباتِ[2].

- والأمْرُ في قَولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ لِطَلَبِ تَجديدِ ذلك إنْ كان قد عَلِمَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن قبْلُ وعَمِلَه، أو هو لِطَلَبِ تَحصيلِه إنْ لم يكُنْ فَعَله مِن قبْلُ[3].

- قولُه: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، أي: لِذُنوبِهم، وفي إعادةِ الجارِّ تَنْبيهٌ على اختِلافِ مُتَعلَّقَيه جِنْسًا، وفي حَذْفِ المُضافِ وإقامةِ المُضافِ إليه مُقامَهُ إشْعارٌ بعَراقتِهم في الذَّنْبِ -فكأنَّ ذَواتَهم عَينُ الذُّنوبِ- وفَرْطِ افتِقارِهم إلى الاستغفارِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٤، ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢١١).

- واللَّامُ في قَولِه: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ لامُ العِلَّةِ، أو بمَعْنى (عن)، والمَفعولُ مَحذوفٌ، أي: اسْتغْفِرِ الذُّنوبَ مِن أجْلِ المُؤمِنينَ، وفي الكَلامِ حَذْفٌ، تَقديرُه: ولِلْمؤمِنينَ لِذُنوبِهم[1].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ تَذْييلٌ جامِعٌ لِأحوالِ ما تَقدَّمَ؛ فالمُتقلَّبُ: مَصدرٌ بمَعنى التَّقلُّبِ؛ أُوثِرَ جَلْبُه هنا لِمُزاوَجةِ قَولِه: ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٠-٢٤)

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾: أي: لا نَسْخَ فيها، أو مُحكَمةٌ بالبَيانِ والفرائِضِ، والمُحْكَمُ: ما لا يَعرِضُ فيه شُبهةٌ مِن حيثُ اللَّفظُ، ولا مِن حيثُ المعنى، وأصلُ (حكم): يدُلُّ على المَنعِ[1].

﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾: قيل: هو أفعَلُ، مِنَ الوَلْيِ: وهو القُربُ، ومَعناه التَّوَعُّدُ والتَّهَدُّدُ، أي: وَلِيَهم المكروهُ، وقارَبهم ما يُهلِكُهم. وقيل: وَعيدٌ بمعنى: فوَيلٌ لهم، وأصلُ أَوْلى: أَوْيَلُ، مأخوذٌ مِنَ الوَيلِ، أي: أشَدُّ وَيلًا، فوقَعَ فيه قَلبٌ، وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾: أي: جَدَّ الأمرُ وفُرِض القِتالُ، والعزمُ والعزيمةُ: عقْدُ القلبِ على إمضاءِ الأمرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٥٠)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (١٠/ ٤٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤١١)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٤٠/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٨)، ((الهداية =

﴿ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ ﴾: أي: لَعلَّكم، يُقالُ: عسَى زَيدٌ أنْ يخرُجَ، أي: لَعَلَّه يَخرُجُ، وعسَى كلمةُ تَرَجٍّ، تقولُ: عسَى يكونُ كذا. وهي تدُلُّ على قُربٍ وإمكانٍ، فهي لِمُقارَبةِ الأمرِ على سبيلِ الرَّجاءِ والطَّمعِ، أي: لِتَوقُّعِ حُصولِ ما لم يَحصُلْ، سواءٌ يُرْجَى حُصولُه عن قريبٍ أو بعدَ مُدَّةٍ مديدةٍ(١).

﴿أَرۡحَامَكُمۡ ﴾: أي: ذَوِي قراباتِكم، والرَّحِمُ هو النَّسَبُ والاتِّصالُ الَّذي يَجمَعُه رحِمُ والِدَةٍ فسُمِّيَ باسمِه، وأصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأفةِ؛ سُمِّيَ به رَحِمُ المرأةِ؛ لأنَّ منه يكونُ ما يُرحَمُ ويُرَقُّ له مِن وَلَدٍ(٢).

﴿لَعَنَهُمۡ ﴾: أي: أخْزاهم وأبْعَدَهم وطَرَدَهم مِن رَحمتِه، وأصلُ اللَّعْنِ: يدُلُّ

---

= إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٧١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٣٥).

قال ابنُ المُظَفَّرِ الرَّازيُّ: (لقائلٍ أن يقولَ: كيف دخلَتْ «هلْ» وهي مِن حروفِ الاستِفهامِ على «عسى» وهي مِن أفعالِ التَّرجِّي، وهو مُفَسَّرٌ بـ«لَعَلَّ»؟ وهل يُقالُ: هل لَعلَّك تَزورُني؟! ثمَّ كيف قال: إنْ أعرَضْتُم أن تُفسِدوا؟ وهل يقالُ: إن زُرْتَني أن أُكرِمَك؟

والجواب: أنَّ «هلْ» مِن حروفِ الاستِفهامِ، ولكنَّه هاهنا استِفهامُ التَّقريرِ؛ لأنَّه مِن الله تعالى. و«عسى» و«لَعلَّ» مِن اللهِ تعالى واجِبانِ، وأمَّا «إن أعرَضْتُم أن تُفسِدوا» فعلى الإضمارِ، يعني: إن أعرَضْتُم يكونُ حالُكم أن تُفسِدوا، وإن وليتُم أمرَ النَّاسِ يكونُ حالُكم أن تَقطَعوا أرحامَكم.

ويجوزُ أن يكونَ على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، تقديرُه: فهل عسَيْتُم أن تُفسِدوا في الأرضِ إن تَوَلَّيْتُم.

ويجوزُ أن يُقالَ: عسى أن تَسُرَّني إن زُرْتَني.

وإذا كانت «هلْ» استِفهامَ تقريرٍ هاهنا، و«عسى» مِن الله واجبًا؛ يكونُ المعنى -واللهُ أعلَمُ: إنَّكم إن تَولَّيْتُم عن القرآنِ والعمَلِ به تُفسِدوا في الأرضِ، أو إنَّكم إن وليتُم أمْرَ النَّاسِ تُفسِدوا في الأرضِ وتُقَطِّعوا أرحامَكم). ((مباحث التفسير)) (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٨)، ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (١/ ٢٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦١).

على الطَّردِ والإبعادِ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾

(**أَولَى**): فيه عِدَّةُ أوجُهٍ:

**أحَدُها**: أنَّه مُبتدَأٌ مَرفوعٌ. و﴿لَهُمْ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ خبَرٌ، وهي كَلِمةُ تهديدٍ ووعيدٍ، أي: فوَيلٌ لهم، أو الهلاكُ لهم، وسَوَّغ الابتِداءَ بالنَّكرةِ كَوْنُه دُعاءً.

**الثَّاني**: أنَّ (أَولَى) خبرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: فالعِقابُ أو الهلاكُ أَولى لهم، أي: أقرَبُ وأَدنى.

**الثَّالِثُ**: أنَّ (أَولَى): مُبتدأٌ. و﴿لَهُمْ﴾ مُتعَلِّقٌ به، واللَّامُ بمعنى الباءِ. و﴿طَاعَةٌ﴾ في الآيةِ التَّاليةِ خبَرٌ عنه، والتَّقديرُ: أَولَى بهم طاعةٌ دونَ غَيرِها.

**الرَّابعُ**: أنَّ (أَولَى): فِعلٌ ماضٍ، وفاعِلُه مُضمَرٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: قارَبَهم ووَلِيَهم ما يُهلِكُهم، واللَّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ زائِدةٌ في المفعولِ.

**الخامِسُ**: أنَّه فِعلٌ ماضٍ، وفاعِلُه ضَميرُ اللهِ عزَّ وجلَّ، واللَّامُ مَزيدةٌ في المفعولِ الأوَّلِ، والمفعولُ الثَّاني محذوفٌ، والتَّقديرُ: أَوْلاهم اللهُ تعالى ما يَكرَهونَ. أو اللَّامُ غيرُ مَزيدةٍ، والمفعولُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: أدنَى اللهُ عزَّ وجلَّ الهلاكَ لهم، وجملةُ ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ استِئنافيَّةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤١).

في رَفعِ ﴿طَاعَةٌ﴾ عِدَّةُ أوجُهٍ:

**أحَدُها**: أنَّها خَبَرُ المُبتَدَأِ (أَولَى) على ما تَقدَّمَ، وعلى هذا الوَجهِ فهي مِن تمامِ ما قَبْلَها؛ فلا يُوقَفُ على ﴿لَهُمْ﴾.

**الثَّاني**: أنَّها مُبتَدَأٌ. ﴿وَقَوْلٌ﴾: مَعطوفٌ مَرفوعٌ مِثلُه، والخبَرُ مَحذوفٌ، أي: طاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ أمثَلُ لكم مِن غَيرِهما.

**الثَّالِثُ**: أنَّها خبَرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، أي: أمْرُنا طاعةٌ. وعلى هذينِ الوَجهَينِ فهو كلامٌ مُستَقِلٌّ مُستأنَفٌ محذوفٌ منه أحَدُ الجُزأَينِ؛ فيُوقَفُ على ﴿لَهُمْ﴾، وهو قَولُ الأكثَرِينَ[1].

## المَعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ الله سبحانَه عن تمنِّي المؤمنينَ نزولَ سورةٍ، وحالِ المنافِقينَ إذا دُعُوا للقتالِ والجهادِ في سبيلِ الله، فيقولُ: ويقولُ الَّذين آمَنوا: هلَّا أنزَلَ اللهُ على رَسولِه سُورةً؛ اشتياقًا منهم لِنُزولِ الوَحيِ، فإذا أَنزَلَ اللهُ سُورةً مُحكَمةً، وأوجَبَ فيها قِتالَ الكُفَّارِ؛ رأيتَ -يا محمَّدُ- المُنافِقينَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ يَنظُرونَ إليك نَظَرَ الَّذي غُشِيَ عليه مِن الموتِ؛ لِجُبْنِهم وكَراهِيَتِهم للجِهادِ.

ثمَّ يَتوعَّدُهم الله تعالى ويُهدِّدُهم، فيقولُ: فأَوْلَى لهم. لو أطاعونا، وقالوا قولًا معروفًا، كان أمْثَلَ وأحسَنَ، فإذا وَجَب القِتالُ فلو أنَّ المُنافِقينَ صَدَقوا اللهَ في الإيمانِ والجهادِ لَكان صِدقُهم خَيرًا لهم.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٢٣)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٨-٧٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٨).

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه حالَ المتولِّي عن طاعةِ ربِّه، وما يُتوقَّعُ منه، فيقولُ: فهل يُتوقَّعُ منكم إن أعرَضْتُم عن الحَقِّ وترَكْتُم الجِهادَ إلَّا أن تَرجِعوا إلى ما كُنتُم عليه في الجاهِليَّةِ مِن الإفسادِ في الأرضِ، وقَطعِ الأرحامِ؟ أُولئِك المُفسِدونَ في الأرضِ المُقَطِّعونَ لأرحامِهم هم الَّذين طرَدَهم اللهُ مِن رَحمتِه، فأصَمَّهم فلا يَسمَعونَ سَماعًا يَنتَفِعونَ به، وأعماهم عن رُؤيةِ الحَقِّ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى بتدبُّرِ القرآنِ وتفهُّمِه، ويَنهَى عن الإعراضِ عنه، فيقولُ: أفلا يَتدَبَّرُ هؤلاءِ المُنافِقونَ القُرآنَ، أم أقفَلَ اللهُ قُلوبَهم؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى حالَ المُنافِقِ والكافِرِ والمُهتَدي المُؤمِنِ عندَ استِماعِ الآياتِ العِلميَّةِ مِن التَّوحيدِ والحَشرِ وغيرِهما بقَولِه: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ﴾ [محمد: ١٦]، وقَولِه ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى﴾ [محمد: ١٧]؛ بيَّن حالَهم في الآياتِ العمَليَّةِ(١).

وأيضًا لَمَّا جَرى في هذه السُّورةِ وَصفُ حالِ المُنافِقين؛ أُعقِبَ ذلك بوَصفٍ أجْلَى مَظاهِرَ نِفاقِهم، وذلك حينَ يُدْعَى المُسلِمونَ إلى الجهادِ(٢).

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾.

أي: ويقولُ الَّذين آمَنوا: هلَّا أنزَل اللهُ على رَسولِه سُورةً؛ اشتياقًا منهم لِنُزولِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٦).

الوَحيِ، وحِرصًا مِنهم على العَمَلِ بما فيه[١].

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾.

أي: فإذا أَنزَلَ اللهُ سُورةً مُحكَمةً[٢]، وأوجَبَ فيها قِتالَ الكُفَّارِ؛ رأيتَ المُنافِقينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧).

(٢) قيل: المرادُ: مُحكَمةٌ بالبَيانِ والفرائِضِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٠٦).

وقيل: مُحكَمةٌ: غيرُ مَنسوخةٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ عطية، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥).

قال ابنُ عطية: (أمَّا الإحكامُ الَّذي هو بمعنى الإتقانِ، فالقُرآنُ فيه كُلُّه سَواءٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٧).

وقيل: مُحكَمةٌ: مُبيَّنةٌ لا تَشابُهَ فيها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البَيْضاويُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٢٧).

قال ابنُ عاشور: (وَصْفُ السُّورةِ بـ ﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ باعتبارِ وَصفِ آياتِها بالإحكامِ، أي: عَدَمِ التَّشابُهِ، وانتفاءِ الاحتِمالِ، كما دَلَّت عليه مُقابَلةُ المُحكَماتِ بالمُتشابِهاتِ في قَولِه تعالى: ﴿مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾ [آل عمران: ٧]، أي: لا تَحتمِلُ آياتُ تلك السُّورةِ المُتعلِّقةُ بالقِتالِ إلَّا وُجوبَ القِتالِ، وعَدَمَ الهَوادةِ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤).

وقيل: المرادُ: السُّورةُ الَّتي يُذكَرُ فيها الحَلالُ والحرامُ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٠٠).

وقال القاسمي: (﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ أي: مُبيَّنةٌ، لا تَقْبَلُ نَسخًا ولا تأويلًا). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٧٣).

ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٦). =

الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ -يا محمَّدُ- يَنظُرونَ إليك بتحديقٍ شديدٍ، كنَظَرِ المحتضَرِ الَّذي شخَص بصَرُه عندَ الموتِ فلا يَطرِفُ[1]؛ وذلك لِجُبْنِهم وخَوفِهم وكَراهِيَتِهم للجِهادِ[2].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

---

= وقال الشنقيطي: (أي: مُتقَنةُ الألفاظِ والمعاني، واضِحةُ الدَّلالةِ، لا نَسْخَ فيها). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥٥).

وقال السعدي: (﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ أي: مُلزَمٌ العمَلُ بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

(١) ممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والسمرقنديُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٨).

وقال ابن جرير: (﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ﴾ الَّذي قد صُرِع، وإنَّما عَنَى بقولِه: ﴿مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾: مِن خَوْفِ الموتِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧، ١٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٥، ٢٥٦).

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: يقولُ اللهُ تعالى لأولئك المُنافِقينَ مُحَذِّرًا ومُهَدِّدًا لهم: فأوْلَى لهم[1].

---

(١) ممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بها وعيدٌ وتهديدٌ: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والزمخشري، وابن تيميَّة، والبِقاعي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٥٤) وَ (٢٨/ ٤٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٧، ٢٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٤٩٦).

وقيل: الكَلامُ تمَّ عندَ قولِه: ﴿فَأَوْلَىٰ﴾، وهو تهديدٌ...، ثمَّ ابتَدَأ فقال: ﴿لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، قال الواحِديُّ عن هذا القولِ: (هو القَولُ الحَسَنُ الَّذي يُعرَفُ حُسنُه وصِحَّتُه، ويجوزُ على هذا القولِ أن يكونَ المعنى: لِلمُنافِقينَ طاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ باللِّسانِ، فإذا جَدَّ الأمرُ تبيَّن كَذِبُهم فيما قالوا، بقُعودِهم عن نُصرةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، يدُلُّ على صحَّةِ هذا سياقُ الآيةِ فيما بَعْدُ). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٥١).

وقال ابنُ سِيْدَه: (قولُه تعالى ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤] معناه: التَّوَعُّدُ والتَّهَدُّدُ، أي: الشَّرُّ أقرَبُ إليك. وقال ثعلبٌ: معناه: دَنَوتَ مِن الهَلَكةِ. وكذلك قَولُه: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾، أي: وَلِيَهم المكروهُ، وهو اسمٌ لِدَنَوتَ أو قارَبْتَ). ((المحكم)) (١٠/ ٤٥٨).

وقال الزمخشري: (﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ وعيدٌ بمعنى: فوَيلٌ لهم، وهو أفعَلُ: مِنَ الوَلْيِ، وهو القُربُ، ومعناه: الدُّعاءُ عليهم بأنْ يَلِيَهم المكروهُ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤).

وقال الواحدي: (قال الأصمعيُّ: معنى قولِهم في التَّهديد: أَوْلى لك: وَلِيَك وقارَبَك ما تَكرَهُ... قال ثعلبٌ: ولم يَقُلْ أحدٌ في ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ أحسَنَ ممَّا قال الأصمعيُّ. وأبو إسحاقَ -يعني: الزَّجَّاجَ- يختارُ هذا القولَ، ويقولُ: المعنى: وَلِيَهم المكروهُ). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٤٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢).

وقال ابن تيميَّة: (﴿... فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: فبُعْدًا لهم). ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٣٨).

وقال البِقاعي: (﴿فَأَوْلَىٰ﴾ أي: أَشَدُّ مَيلٍ ووَيلٍ وانتِكاسٍ وعِثارٍ مُوقِعٍ لهم في الهَلَكةِ: كائِنٌ ﴿لَهُمْ﴾، أي: خاصٌّ بهم). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٣٨).

وقيل: المرادُ: كان الأَوْلى بهم أن يَسمَعوا ويُطيعوا ويَمتَثِلوا ما أوجَبَه اللهُ عليهم مِنَ الطَّاعاتِ =

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾.

﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾.

أي: لو أطاعونا، وقالوا قولًا معروفًا؛ كان أمْثَلَ وأحسَنَ(١).

---

= في الوَقتِ الرَّاهِنِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

قال السعدي: (أي: فأَوْلى لهم أن يَمتَثِلوا الأمرَ الحاضِرَ المحتَّمَ عليهم، ويُجمِعوا عليه هِمَمَهم، ولا يَطلُبوا أن يُشْرَعَ لهم ما هو شاقٌّ عليهم، ولْيَفرَحوا بعافيةِ الله تعالى وعَفْوِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

وعلى هذا القولِ فهذه الجملةُ ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ متَّصِلةٌ بما بعدَها، واللَّامُ في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾ بمعنَى الباءِ، أي: الطَّاعةُ أولَى وألْيقُ بهم، وأحقُّ لهم مِنْ تركِ امتثالِ أمرِ اللهِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٤).

(١) قال الرَّسْعَنيُّ: (قال تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ قال الخليلُ وسِيبَويهِ: المعنى: طاعةٌ وقولٌ معروفٌ أمْثَلُ. وقيل: هذا حكايةُ قولِهم، أي: قالوا طاعةٌ، أي: أمْرُنا طاعةٌ وقولٌ معروفٌ...، وذكَر بعضُ المفسِّرينَ أنَّه متَّصِلٌ بما قبْلَه. والمعنى: فأولَى لهم أن يُطيعوا، وأنْ يَقولوا معروفًا). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٦٦).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: أي: أنَّ اللهَ تعالى قال: لو أطاعونا وقالوا قَولًا معروفًا، كان أمْثَلَ وأحسَنَ: الواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣١٩).

ويُنظر أيضًا: ((الكتاب)) لسيبويه (٢/ ١٣٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ؛ أنَّ هذا حكايةُ قولِهم: ابنُ جرير، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١١)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٥).

قال ابن جرير: (قَولُه: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ وهذا خبرٌ مِن الله -تَعالى ذِكرُه- عن قِيلِ هؤلاء المنافِقينَ مِن قبْلِ أنْ تَنزِلَ سورةٌ مُحكَمةٌ ويُذكَرَ فيها القتالُ، وأنَّهم إذا قيل لهم: إنَّ الله مُفتَرِضٌ عليكم الجهادَ، قالوا: سمْعٌ وطاعةٌ. فقال اللهُ عزَّ وجلَّ لهم: فإذا أُنزِلَتْ سورةٌ، وفُرِضَ القتالُ فيها عليهم، فشَقَّ ذلك عليهم وكَرِهوه- ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، قبْلَ وُجوبِ الفرْض عليكم، =

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

أي: فلو أنَّ المُنافِقينَ إذا وَجَب القِتالُ وحَضَر وَقتُه، صَدَقوا اللهَ في إيمانِهم وجهادِهم؛ لَكان صِدقُهم خَيرًا لهم في دُنياهم وأُخراهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٥٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٩].

ثمَّ ذَكر تعالى حالَ المُتوَلِّي عن طاعةِ ربِّه، وأنَّه لا يَتولَّى إلى خَيرٍ، بل إلى شرٍّ، فقال[2]:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾.

---

= فإذا عَزَم الأمرُ كَرِهْتُموه وشَقَّ عليكم). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١١).

والقولُ الثَّالثُ -وهو أنَّ المعنى: أولَى لهم أن يُطيعوا، وأنْ يَقولوا معروفًا- تقدَّمتِ الإشارةُ إليه في الآيةِ السَّابقةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

قال الواحدي: (يجوزُ أن يكونَ هذا متَّصِلًا بما قبْلَه، على معنى: فأَوْلى لهم طاعةُ الله ورسولِه، وقولٌ معروفٌ بالإجابةِ، أي: لو أطاعوا كانت الطَّاعةُ والإجابةُ أَوْلى لهم. وهذا معنى قولِ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ، واختيارُ الكِسائيِّ). ((الوسيط)) (٤/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٠، ١١١).

قال ابن جُزَي: (﴿صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يحتملُ أن يُريدَ صِدقَ اللِّسانِ، أو صِدقَ العَزمِ والنِّيَّةِ وهو أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

## القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿تُوُلِّيتُمْ﴾ بضَمِّ التَّاءِ والواوِ، وكَسرِ اللَّامِ المشَدَّدةِ، مبنيًّا للمَفعولِ، مِنَ الوِلايةِ، قيل: معناها: إنْ توَلَّاكم وُلاةُ جَورٍ تحَرَّكتُم معهم في الفِتنةِ، وعاوَنتُموهم على ظُلمِهم. وقيل: معناها: إنْ وَلَّيتُكم أُمورَ النَّاسِ(١).

٢- قِراءةُ ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ قيل: معناها: مِنَ الإعراضِ، أي: إن أعرَضتُم عن الحَقِّ. وقيل: معناها: مِنَ الوِلايةِ، أي: إنْ توَلَّيتُم أمورَ النَّاسِ، ووَلِيتُم أعمالَهم(٢).

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾.

أي: فهل يُتوقَّعُ منكم ويُنتَظَرُ -إن أعرَضْتُم عن الحَقِّ، وترَكتُم الجِهادَ- إلا الإفسادُ في الأرضِ -بالكفرِ والمعاصي وسفْكِ الدِّماءِ-، وقطيعةُ الأرحامِ، والعودةُ إلى ما كنتُم فيه مِن الجاهليَّةِ(٣)؟!

---

(١) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤)، ((البدور الزاهرة)) لعبد الفتاح القاضي (ص: ٢٩٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٨)، ((المحتسب)) لابن جِنِّي (٢/ ٢٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٧٠١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٨)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٧٠١)، ((إتحاف فضلاء البشر)) للبناء (ص: ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٢)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧، ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٠-٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٢).

قال السمعانيُّ: (قَولُه تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ فيه قولانِ:

أحدُهما: إن تولَّيتُم ولايةً، أي: كانت لكم ولايةٌ.

والثَّاني: إن تولَّيتُم عن الإيمانِ بالرَّسولِ وبالقُرآنِ؛ أي: أعرَضْتُم، فهل يكونُ منكم سِوى أن تُفسِدوا في الأرضِ، وتقطِّعوا أرحامَكم؟ =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((خَلَق اللهُ الخَلْقَ، فلمَّا فَرَغ منه قامَت الرَّحِمُ فأخَذَت بحَقْوِ[١] الرَّحمنِ، فقال له: مَهْ[٢]، قالت: هذا مَقامُ العائِذِ[٣] بكَ مِن القَطيعةِ، قال: ألَا تَرضَينَ أن أصِلَ مَن وَصَلَكِ، وأقطَعَ مَن قَطَعَكِ؟ قالت: بلى يا رَبِّ، قال: فذَاكِ. قال أبو هُرَيرةَ: اقرَؤوا إنْ شِئتُم: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾))[٤].

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن لهم ما يكونُ ممَّن تَثاقَلَ عن أمرِ اللهِ؛ بيَّن حالَهمُ الَّذي أنتجَ لهم ذلك،

---

= وقيل على القولِ الأوَّلِ: إنَّه قد كان هذا في صدرِ الإسلام؛ فإنَّ قُرَيْشًا لَمَّا تولَّوُا الأمرَ أفسَدوا في الأرضِ وقَطَّعوا الأرحامَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨١).

ممَّن اختار أنَّ التَّولِّيَ بمعنى الإعراضِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابن عطية، وابن القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٨)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ١٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٢).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: صِرتُم وُلاةً: ابنُ جُزَي، والعُلَيْمي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٢٠).

(١) الحَقْوُ: مَعقِدُ الإزارِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٠).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذا الحديثُ في الجملةِ مِن أحاديثِ الصِّفاتِ الَّتي نصَّ الأئمَّةُ على أنَّه يُمَرُّ كما جاء، ورَدُّوا على مَن نفَى مُوجَبَه). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٦/ ٢٢٢).

(٢) مَهْ: اسمُ فِعلٍ معناه الزَّجرُ، أي: اكفُفْ وانزَجِرْ. وقيل: هي هنا ما الاستِفهاميَّةُ، حُذِفَت ألِفُها، ووُقِفَ عليها بهاءِ السَّكْتِ، والشَّائِعُ ألَّا يُفعَلَ ذلك إلَّا وهي مجرورةٌ، لكِنْ قد سُمِعَ مِثلُ ذلك. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٠).

(٣) العائِذ: أي: المُستَجيرِ. يُنظر: ((شرح القَسْطَلَّاني)) (٧/ ٣٤٣).

(٤) رواه البخاري (٤٨٣٠) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٥٤).

فقال[١]:

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾.

أي: أُولئِك المُفسِدونَ في الأرضِ المُقَطِّعونَ لأرحامِهم هم الَّذين طرَدَهم اللهُ، وأبْعَدَهم مِن رَحمتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ [هود: ١٨، ١٩].

وعن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لا يَدخُلُ الجَنَّةَ قاطِعُ رَحِمٍ))[٣].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن ذَنْبٍ أجدَرُ أن يُعَجِّلَ اللهُ لِصاحِبِه العُقوبةَ في الدُّنيا مع ما يَدَّخِرُ له في الآخِرةِ: مِنَ البَغيِ وقَطيعةِ الرَّحِمِ))[٤].

وعن عَليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((لَعَنَ اللهُ مَن لَعَن والِدَه، ولَعَن اللهُ مَن ذَبَح لِغَيرِ اللهِ، ولَعَن اللهُ مَن آوَى مُحْدِثًا[٥]،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

(٣) رواه البخاري (٥٩٨٤)، ومسلم (٢٥٥٦) واللَّفظُ له.

(٤) أخرجه أبو داودَ (٤٩٠٢)، وأحمدُ (٢٠٣٩٨) باختلافٍ يسيرٍ، والترمذيُّ (٢٥١١)، وابنُ ماجه (٤٢١١) واللَّفظُ لهما.

قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صَحيحٌ). وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢١١)، وصحَّح إسنادَه الحاكِمُ في ((المستدرك)) (٣٣٥٩)، وشُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٤/ ٤٠).

(٥) آوى مُحْدِثًا: وهو الَّذي جنَى على غيرِه جنايةً، وإيواؤُه إجارتُه مِن خصمِه، والحيلولةُ بيْنَه =

ولَعَن اللهُ مَن غَيَّرَ مَنارَ الأرضِ[١]))[٢].

﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾.

أي: فسَلَبَهم اللهُ القُدرةَ على سَماعِ الحَقِّ سَماعًا يَنتَفِعونَ به، وسَلَبَهم اللهُ القُدرةَ على رُؤيةِ الحَقِّ على وَجهٍ يَنتَفِعونَ به[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢١ - ٢٣].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أنْ ذَكر أنَّ أولئك المُنافِقين أبْعَدَهم اللهُ عن الخَيرِ، فأصَمَّهم فلم يَنتفِعوا بما سَمِعوا، وأعْمى أبْصارَهم فلم يَستَفيدوا بما أبصَروا - بيَّنَ أنَّ حالَهم دائرةٌ بيْنَ أمْرَينِ: إمَّا أنَّهم لا يَتدبَّرونَ القُرآنَ إذا وَصَل إلى قُلوبِهم، أو أنَّهم يَتدبَّرون

---

= وبيْنَ ما يحِقُّ استيفاؤُه. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٩/ ٢٨٠٥).

(١) غَيَّر مَنارَ الأرضِ: المَنارُ: العَلَمُ والحدُّ بيْنَ الأرْضَينِ، وذلك بأن يُسوِّيَه أو يُغيِّرَه؛ لِيَستبيحَ بذلك ما ليس له بحقٍّ مِن ملكٍ أو طريقٍ. يُنظر: ((كشف المُشْكِل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٢٠٤)، ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٩/ ٢٨٠٥).

(٢) رواه مسلم (١٩٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

ولكنْ لا تَدخُلُ مَعانيه فى قُلوبِهم لِكَونِها مُقفَلةً[١].

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: أفلا يَتدبَّرُ القرآنَ هؤلاءِ المعرِضونَ، ويَتفهَّمونَه، ويَتأمَّلونَه حقَّ التَّأمُّلِ، بل أقفَلَ اللهُ قُلوبَهم، فلا قُدرةَ لهم على أن يَعقِلوا بها، فهي مُطْبَقةٌ لا يَخلُصُ إليها شَيءٌ مِن معانيه[٢]؟

كما قال الله سبحانهُ وتعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۞ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ۞ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة: ٨٦، ٨٧].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- الشَّوقُ إلى الله تعالى، وإلى رسالاتِه مِن آثارِ محبَّتِه؛ فقد سألَ موسَى عليه السَّلامُ الرؤيةَ شوقًا وتعطُّشًا للجمالِ، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٦، ٢٤٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥، ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

قال الشنقيطيُّ: (الهمزةُ في قولِه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ للإنكارِ، والفاءُ عاطفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ، على أصحِّ القولَينِ، والتَّقديرُ: أيُعْرِضونَ عن كتابِ اللهِ فلا يَتَدَبَّرونَ القرآنَ؟!). ((أضواء البيان)) (٧/ ٢٥٦).

[الأعراف: ١٤٣]، وسألَ المؤمنونَ نُزولَ السُّورةِ تشوُّقًا إلى سماعِ كلامِ ذي العزِّ والجلالِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: جاءهم أمْرُ جدٍّ، وأمرٌ مُحتَّمٌ؛ ففي هذه الحالِ لو صَدَقوا اللهَ بالاستِعانةِ به، وبَذْلِ الجُهدِ في امتِثالِه ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ مِن حالِهمُ الأُولى، وذلك من وُجوهٍ:

منها: أنَّ العبدَ ناقصٌ مِن كلِّ وجهٍ، لا قُدرةَ له إلَّا إنْ أعانَه اللهُ، فلا يَطلُبُ زِيادةً على ما هو قائمٌ بصدَدِه.

ومنها: أنَّه إذا تعلَّقَت نفْسُه بالمُستقبَلِ، ضَعُفَ عنِ العملِ بوظيفةِ وقتِه وبوظيفةِ المُستقبَلِ، أمَّا الحالُ: فلأنَّ الهِمَّةَ انتقَلَت عنه إلى غَيرِه، والعملُ تَبَعٌ للهِمَّةِ، وأمَّا المستقبَلُ: فإنَّه لا يَجيءُ حتَّى تَفتُرَ الهِمَّةُ عن نشاطِها، فلا يُعانُ عليه.

ومنها: أنَّ العبدَ المؤمِّلَ للآمالِ المُستقبَلةِ، مع كَسَلِه عن عمَلِ الوقتِ الحاضِرِ شَبيهٌ بالمُتألِّي الَّذي يَجزِمُ بقُدرتِه على ما يَستقبِلُ من أُمورِه، فأحرَى به أن يُخذَلَ ولا يقومَ بما هَمَّ به، ووطَّن نفْسَه عليه؛ فالَّذي يَنبغي أنْ يَجمَعَ العبدُ هَمَّه وفِكرَتَه ونَشاطَه على وَقتِه الحاضِرِ، ويُؤدِّيَ وَظيفَتَه بحَسَبِ قدرتِه، ثمَّ كلَّما جاء وَقتٌ استَقبَلَه بنشاطٍ وهِمَّةٍ عاليةٍ مُجتمِعةٍ غيرِ مُتفرِّقةٍ، مُستعينًا بربِّه في ذلك؛ فهذا حَرِيٌّ بالتَّوفيقِ والتَّسديدِ في جميعِ أُمورِه[2].

٣- قال الله تعالى: ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ * فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ فإذَنْ هما أمْرانِ: إمَّا التِزامٌ بطاعةِ اللهِ، وامتِثالٌ لأوامِرِه، فثَمَّ الخَيرُ والرُّشدُ والفَلاحُ، وإمَّا

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

إعراضٌ عن ذلك وتَوَلٍّ عن طاعةِ اللهِ، فما ثَمَّ إلَّا الفَسادُ في الأرضِ بالعَمَلِ بالمعاصي، وقَطيعةِ الأرحامِ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ * فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ عُلِمَ منه أنَّ مَن أمَرَ بالمعروفِ، وجاهَدَ أهلَ المُنكَرِ؛ أمِنَ الإفسادَ في الأرضِ، وقَطيعةَ الرَّحِمِ، ومَن ترَكَه وقَعَ فيهما(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّ الفَسادَ في الأرضِ وقَطيعةَ الأرحامِ مِن شِعارِ أهلِ الكُفرِ؛ فهما جُرْمانِ كَبيرانِ يَجِبُ على المُؤمِنينَ اجتِنابُهما(٣).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ في هذه الآيةِ أعظَمُ حاثٍّ على قَبولِ أوامِرِ اللهِ، ولا سِيَّما الجِهادِ في سَبيلِه، وأشَدُّ زاجرٍ عن الإعراضِ عنه؛ لأنَّ حاصِلَها أنَّه لَعَن مَن أعرَضَ عنه؛ لِكَونِه لا يَتدَبَّرُ القُرآنَ معَ وُضوحِه ويُسْرِه؛ لِيعلَمَ فوائِدَ الجِهادِ الدَّاعيةَ إليه المحَبِّبةَ فيه؛ فكان كأنَّ قَلْبَه مُقفَلٌ(٤).

٧- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ (قرَأَ قارِئٌ عندَ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ بها وعِندَه شابٌّ، فقال: اللَّهُمَّ عليها أقفالُها، ومَفاتيحُها بيَدِك لا يَفتَحُها سِواك. فعَرَفَها له عُمَرُ، وزادَتْه عندَه خَيرًا)(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٠).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ يدُلُّ على أنَّ تدَبُّرَ القُرآنِ وتفَهُّمَه وتَعلُّمَه والعَمَلَ به: أمرٌ لا بُدَّ منه للمُسلِمينَ، وقد بَيَّن النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ المُشتَغِلينَ بذلك هم خَيرُ النَّاسِ، كما ثَبَت عنه صلَّى الله عليه وسلَّم في الصَّحيحِ مِن حَديثِ عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ الله عنه أنَّه قال: ((خَيْرُكم مَن تَعلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَه))[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾[2] [آل عمران: ٧٩].

٩- قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ الحَقُّ الَّذي لا شَكَّ فيه أنَّ كُلَّ مَن له قُدرةٌ مِن المُسلِمينَ على التَّعَلُّمِ والتَّفَهُّمِ وإدراكِ معاني الكِتابِ والسُّنَّةِ: يَجِبُ عليه تَعَلُّمُهما والعَمَلُ بما عَلِمَ منهما، أمَّا العَمَلُ بهما مع الجَهلِ بما يَعمَلُ به منهما فمَمنوعٌ إجماعًا، وأمَّا ما عَلِمَه مِنهما عِلمًا صَحيحًا ناشِئًا عن تعَلُّمٍ صَحيحٍ فله أن يَعمَلَ به، ولو آيةً واحِدةً أو حديثًا واحِدًا، ومَعلومٌ أنَّ هذا الذَّمَّ والإنكارَ على مَن لم يَتدَبَّرْ كِتابَ اللهِ عامٌّ لجَميعِ النَّاسِ، ومِمَّا يُوَضِّحُ ذلك أنَّ المُخاطَبينَ الأَوَّلينَ به الَّذين نَزَل فيهم هم المُنافِقونَ والكُفَّارُ، وليس أحَدٌ منهم مُستَكمِلًا لِشُروطِ الاجتِهادِ المُقَرَّرةِ عندَ أهلِ الأُصولِ، بل ليس عندَهم شَيءٌ منها أصلًا، فلو كان القُرآنُ لا يَجوزُ أن يَنتَفِعَ بالعَمَلِ به والاهتِداءِ بهَدْيِه إلَّا المجتَهِدونَ بالاصطلاحِ الأُصوليِّ، لَمَا وَبَّخ اللهُ الكُفَّارَ وأنكر عليهم عدَمَ الاهتِداءِ بهُداه، ولَمَا أقام عليهم الحُجَّةَ به حتَّى يُحَصِّلوا شُروطَ الاجتِهادِ المُقَرَّرةَ عندَ مُتأخِّري الأُصوليِّينَ، كما ترى[3].

١٠- في قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾، وقوله

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٧) من حديث عثمانَ بنِ عفَّانَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٢٥٨).

تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] أنَّ الله سبحانَه إنَّما أنزَل كتابَه ليتأدَّبَ عبادُه بآدابِه، ويتخلَّقوا بأخلاقِه، ويتأمَّلوا ما فيه مِن الثَّناءِ على الله تعالى، وما لم يُتدبَّرْ ذلك حتى يُفهمَ لا يُمكِن العملُ به؛ فإنَّه رسائلُ أرسلَها الله إلى عبادِه ليُنفِّذوها، لا لتقرأَ عليهم فلا يَفْهموها ولا يُقيموها[1]! أما غالبُ مسلمةِ اليومَ فقد اكتَفوا مِن القرآنِ بألفاظٍ يُردِّدونَها وأنغام يُلحِّنونها في المآتمِ والمقابرِ والدُّورِ، وبمصاحفَ يَحمِلونَها أو يُودِعونَها تَرِكةً في البيوتِ، ونسوا أنَّ بركةَ القرآنِ العُظمَى إنَّما هي في تدبُّرِه وتفهُّمِه، وفي الجلوسِ إليه، والاستفادةِ من هديِه وآدابِه، ثمَّ في الوقوفِ عندَ أوامرِه ومراضيه، والبعدِ عن مساخطِه ونواهيه.

ألَا إنَّ آخرَ هذه الأمةِ لا يصلحُ إلَّا بما صلَح به أوَّلُها، وهو أنْ يَعودوا إلى كتابِ الله يَستلهِمونَه الرُّشدَ، ويَستمنِحونَه الهدَى، ويُحكِّمونَه في نفوسِهم وفي كلِّ ما يتَّصِلُ بهم، كما كان آباؤنا الأوَّلونَ يَتلونَه حقَّ تلاوتِه، بتدبُّرٍ وتفكُّرٍ في مجالسِهم ومساجدِهم وأنديتِهم وبيوتِهم وفي صلواتِهم المفروضةِ والنَّافلةِ[2].

١١- التَّأمُّلُ في القُرآنِ هو تحديقُ نَظَرِ القَلبِ إلى مَعانيه، وجَمعُ الفِكرِ على تدَبُّرِه وتَعقُّلِه، وهو المقصودُ بإنزالِه، لا مُجَرَّدُ تلاوتِه بلا فَهمٍ ولا تدَبُّرٍ؛ قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال الحَسَنُ: (نَزَل القُرآنُ لِيُتَدَبَّرَ ويُعمَلَ به، فاتَّخَذوا

---

(١) يُنظر: ((شجرة المعارف والأحوال)) للعز بن عبد السلام (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((مناهل العرفان في علوم القرآن)) الزرقاني (٢/ ٨).

تِلاوتَه عَمَلًا!)، فليس شَيءٌ أنفعَ للعَبدِ في مَعاشِه ومَعادِه، وأقرَبَ إلى نجاتِه: مِن تدَبُّرِ القُرآنِ، وإطالةِ التَّأمُّلِ فيه، وجَمعِ الفِكرِ على معاني آياتِه؛ فإنَّها تُطلعُ العَبدَ على معالِمِ الخَيرِ والشَّرِّ بحَذافيرِهما، وعلى طُرُقاتِهما وأسبابِهما، وغاياتِهما وثَمَراتِهما، ومآلِ أهلِهما، وتُلْقِي في يَدِه مَفاتيحَ كُنوزِ السَّعادةِ والعُلومِ النَّافِعةِ، وتُثَبِّتُ قواعِدَ الإيمانِ في قَلبِه، وتُشيدُ بُنيانَه، وتُوَطِّدُ أركانَه، وتُريه صورةَ الدُّنيا والآخرةِ، والجنَّةِ والنَّارِ في قَلْبِه، وتُحضِرُه بيْنَ الأُمَمِ، وتُرِيه أيَّامَ اللهِ فيهم، وتُبَصِّرُه مواقِعَ العِبَرِ، وتُشهِدُه عَدلَ اللهِ وفَضْلَه، وتُعَرِّفُه ذاتَه وأسماءَه، وصِفاتِه وأفعالَه، وما يُحِبُّه وما يُبغِضُه، وصِراطَه المُوصِلَ إليه، وما لِسالكِيه بعدَ الوُصولِ والقُدومِ عليه، وقَواطِعَ الطَّريقِ وآفاتِها، وتُعَرِّفُه النَّفْسَ وصِفاتِها، ومُفسداتِ الأعمالِ ومُصَحِّحاتِها، وتُعَرِّفُه طَريقَ أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ، وأعمالَهم وأحوالَهم وسِيماهم، ومراتِبَ أهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاوةِ، وأقسامَ الخَلقِ واجتِماعَهم فيما يَجتَمِعونَ فيه، وافتِراقَهم فيما يَفتَرِقونَ فيه. وبالجُملةِ تُعَرِّفُه الرَّبَّ المَدْعُوَّ إليه، وطريقَ الوُصولِ إليه، وما له مِنَ الكَرامةِ إذا قَدِمَ عليه، وتُعَرِّفُه في مقابِلِ ذلك ثلاثةً أُخرى: ما يدعو إليه الشَّيطانُ، والطَّريقَ المُوصِلةَ إليه، وما للمُستَجيبِ لِدَعوتِه مِن الإهانةِ والعَذابِ بعدَ الوُصولِ إليه؛ فهذه سِتَّةُ أُمورٍ ضَروريٌّ للعَبدِ مَعرِفتُها ومُشاهَدتُها ومُطالَعتُها؛ فتُشْهِدُه الآخِرةَ حتَّى كأنَّه فيها، وتُغَيِّبُه عن الدُّنيا حتَّى كأنَّه ليس فيها، وتُمَيِّزُ له بيْنَ الحَقِّ والباطلِ في كُلِّ ما اختَلَف فيه العالَمُ، فتُريه الحَقَّ حَقًّا، والباطِلَ باطِلًا، وتُعْطيه فُرقانًا ونُورًا يُفَرِّقُ به بيْنَ الهُدى والضَّلالِ، والغَيِّ والرَّشادِ، وتُعطيه قُوَّةً في قَلْبِه، وحياةً وسَعةً وانشِراحًا، وبَهجةً وسُرورًا، فيَصيرُ في شأنٍ والنَّاسُ في شأنٍ آخَرَ؛ فإنَّ معانيَ القُرآنِ دائِرةٌ على التَّوحيدِ وبَراهينِه، والعِلمِ باللهِ وما له مِن أوصافِ الكَمالِ، وما يُنَزَّهُ عنه مِن سِماتِ النَّقصِ، وعلى الإيمانِ بالرُّسُلِ، وذِكرِ بَراهينِ

صِدقِهم، وأدِلَّةِ صِحَّةِ نبُوَّتِهم، والتَّعريفِ بحُقوقِهم وحُقوقِ مُرسِلِهم، وعلى الإيمانِ بمَلائِكتِه، وهم رُسُلُه في خَلْقِه وأمْرِه، وتدبيرِهم الأمورَ بإذْنِه ومَشيئتِه، وما جُعِلوا عليه مِن أمرِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفْليِّ، وما يَختَصُّ بالنَّوعِ الإنسانيِّ منهم، مِن حينِ يَستَقِرُّ في رَحِمِ أمِّه إلى يَومِ يُوافي رَبَّه ويَقْدَمُ عليه، وعلى الإيمانِ باليومِ الآخِرِ وما أعَدَّ اللهُ فيه لأوليائِه مِن دارِ النَّعيمِ المُطلَقِ الَّتي لا يَشعُرونَ فيها بألمٍ ولا نَكَدٍ وتَنغيصٍ، وما أعَدَّ لأعدائِه مِن دارِ العِقابِ الوَبيلِ الَّتي لا يُخالِطُها سُرورٌ ولا رَخاءٌ ولا راحةٌ ولا فَرَحٌ، وتفاصيلِ ذلك أتَمَّ تفصيلٍ وأبْيَنَه، وعلى تفاصيلِ الأمرِ والنَّهيِ، والشَّرعِ والقَدَرِ، والحَلالِ والحَرامِ، والمواعِظِ والعِبَرِ، والقَصَصِ والأمثالِ، والأسبابِ والحِكَمِ، والمبادئِ والغاياتِ في خَلْقِه وأمْرِه؛ فلا تَزالُ مَعانيه تُنهِضُ العَبدَ إلى رَبِّه بالوَعدِ الجَميلِ، وتُحَذِّرُه وتُخَوِّفُه بوَعيدِه مِنَ العذابِ الوَبيلِ، وتَحُثُّه على التَّضَمُّرِ والتَّخَفُّفِ لِلِقاءِ اليَومِ الثَّقيلِ، وتَهْدِيه في ظُلَمِ الآراءِ والمذاهِبِ إلى سَواءِ السَّبيلِ، وتَصُدُّه عن اقتِحامِ طُرُقِ البِدَعِ والأضاليلِ، وتَبعَثُه على الازديادِ مِنَ النِّعَمِ بشُكرِ رَبِّه الجليلِ، وتُبَصِّرُه بحُدودِ الحَلالِ والحَرامِ، وتَقِفُه عليها لئلَّا يَتعَدَّاها فيَقَعَ في العَناءِ الطَّويلِ، وتُثَبِّتُ قَلْبَه عن الزَّيغِ والمَيلِ عن الحَقِّ والتَّحويلِ، وتُسَهِّلُ عليه الأمورَ الصِّعابَ والعَقَباتِ الشَّاقَّةَ غايةَ التَّسهيلِ، وتُناديه كُلَّما فَتَرَت عَزَماتُه ووَنَى في سَيرِه: تَقَدَّمَ الرَّكْبُ وفَاتَك الدَّليلُ؛ فاللَّحاقَ اللَّحاقَ والرَّحيلَ الرَّحيلَ! وتَحدو به وتَسيرُ أمامَه سَيرَ الدَّليلِ، وكُلَّما خرَجَ عليه كَمينٌ مِن كَمائِنِ العَدُوِّ، أو قاطِعٌ مِن قُطَّاعِ الطَّريقِ نادَتْه: الحَذَرَ الحَذَرَ؛ فاعتَصِمْ باللهِ، واستَعِنْ به، وقُلْ: حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيلُ! وفي تأمُّلِ القُرآنِ وتدَبُّرِه وتَفَهُّمِه أضعافُ أضعافِ ما ذكَرْنا مِنَ الحِكَمِ والفوائِدِ. وبالجُملةِ فهو أعظَمُ الكُنوزِ[1].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٩-٤٥١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ إنَّما قال: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾؛ لأنَّ السُّورةَ ليست كُلُّها مُتَمَحِّضةً لذِكرِ القِتالِ؛ فإنَّ سُوَرَ القُرآنِ ذواتُ أغراضٍ شَتَّى[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ هذه الآيةُ إنباءٌ مِمَّا سيَكونُ مِن المُنافِقينَ حينَ يَجِدُّ الجِدُّ، ويَجيءُ أوانُ القِتالِ، وهي مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ في الإخبارِ بالغَيبِ؛ فقد عَزَم أمرُ القِتالِ يومَ أُحُدٍ، وخَرَج المنافِقونَ معَ جَيشِ المُسلِمينَ في صُورةِ المجاهِدينَ، فلَمَّا بلَغَ الجَيشُ إلى الشَّوطِ[٢] بيْنَ المدينةِ وأُحُدٍ، قال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ رأسُ المُنافِقينَ: ما نَدري عَلامَ نَقتُلُ أنفُسَنا هاهنا أيُّها النَّاسُ؟ ورجع هو وأتْباعُه، وكانوا ثُلُثَ الجَيشِ، وذلك سَنَةَ ثَلاثٍ مِنَ الهِجرةِ[٣]، أي: بعدَ نُزولِ هذه الآيةِ بنَحوِ ثلاثِ سِنينَ[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: (عسى) للتَّوقُّعِ، واللهُ تعالى عالِمٌ بكُلِّ شَيءٍ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّ المعنى: يَفعَلُ بكم فِعلَ المتَوَقِّعِ.

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّ كُلَّ مَن يَنظُرُ إليهم يَتوقَّعُ منهم ذلك.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧).

(٢) الشَّوط: اسمُ بستانٍ بالمدينةِ. يُنظر: ((معجم البلدان)) للحموي (٣/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٤/ ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١١).

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّه محمولٌ على الحَقيقةِ؛ وذلك لأنَّ الفِعلَ إذا كان مُمكِنًا في نَفْسِه فالنَّظَرُ إليه غيرُ مُستَلزِمٍ لأمرٍ، وإنَّما الأمرُ يجوزُ أن يَحصُلَ منه تارةً، ولا يَحصُلَ منه أُخرى؛ فيكونُ الفِعلُ لذلك الأمرِ المطلوبِ على سَبيلِ التَّرَجِّي سواءٌ كان الفاعِلُ يَعلَمُ حُصولَ الأمرِ منه، وسواءٌ أَنْ لم يكُنْ يَعلَمُ، مِثالُه: مَن نَصَب شَبكةً لاصطيادِ الصَّيدِ يُقالُ: هو مُتوَقِّعٌ لذلك، فإنْ حَصَل له العِلمُ بوُقوعِه فيه بإخبارِ صادِقٍ أنَّه سيَقَعُ فيه، أو بطَريقٍ أُخرى: لا يَخرُجُ عن التَّوَقُّعِ. غايةُ ما في البابِ أنَّ في الشَّاهِدِ لم يَحصُلْ لنا العِلمُ فيما نَتوَقَّعُه، فيُظَنُّ أنَّ عَدَمَ العِلمِ لازِمٌ للمُتوَقِّعِ، وليس كذلك، بل المتوَقِّعُ هو المُنتَظِرُ لأمرٍ ليس بواجِبِ الوُقوعِ؛ نَظَرًا لذلك الأمرِ فحَسْبُ، سواءٌ كان له به عِلمٌ أو لم يَكُنْ[1].

**الوَجهُ الرَّابعُ**: هذا التوقُّعُ الَّذي في (عسى) ليس مَنسوبًا إليه تعالى؛ لأنَّه عالِمٌ بما كان وما يكونُ، وإنَّما هو بالنِّسبةِ لِمَن عَرَف المنافِقينَ، كأنَّه يقولُ لهم: هل يُتَوقَّعُ منكم إذا أعرَضْتُم عن القِتالِ أن يكونَ كذا وكذا[2]؟

**الوجهُ الخامسُ**: أنَّ (عسى) مِن الله واجبةٌ، أي: مُتحقِّقةُ الوُقوعِ[3].

**الوجهُ السَّادسُ**: أنَّ فِعلَ (عسى) يدُلُّ على التَّرجِّي، وقد دخل عليه هنا حرفُ الاستِفهامِ (هل)، فأفاد تقريرَ ما هو مُتوقَّعٌ، وأشعَرَ بما هو كائنٌ[4].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ فيه إشارةٌ إلى فَسادِ قَولٍ قاله المُنافِقونَ، وهو أنَّهم كانوا يقولونَ: كيفَ نُقاتِلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٥٤٤).

والقَتلُ إفسادٌ، والعَرَبُ مِن ذوي أرحامِنا وقبائلِنا؟! فقال تعالى: إنْ تولَّيْتُم لا يَقعُ منكم إلَّا الفَسادُ في الأرضِ؛ فإنَّكم تَقتُلونَ مَن تَقدرونَ عليه، وتَنهَبونَه، والقِتالُ واقِعٌ بيْنَكم، أليس قَتْلُكمُ البَناتِ إفسادًا وقطعًا للرَّحِمِ؟! فلا يَصِحُّ تَعلُّلُكم بذلك معَ أنَّه خِلافُ ما أمَرَ اللهُ، وهذا طاعةٌ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ أنَّ صِلةَ الأرحامِ واجِبةٌ، وقَطْعَها سَبَبٌ لِلَّعنةِ والحِرمانِ مِن دُخولِ الجنَّةِ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ استَدَلَّ به عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضيَ الله عنه على مَنْعِ بَيعِ أمِّ الوَلَدِ[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾، فيه تَرتيبٌ حَسَنٌ؛ قيل: وذلك مِن حيث إنَّهم استَمَعوا الكلامَ العِلمِيَّ، ولم يَفهَموه، فهُم بالنِّسبةِ إليه صُمٌّ أصمَّهمُ اللهُ، وعندَ الأمرِ بالعَمَلِ تَرَكوه، وعلَّلوا بكَونِه إفسادًا وقطعًا للرَّحِمِ، وهم كانوا يَتعاطَوْنه عندَ النَّهيِ عنه، فلم يَرَوْا حالَهم عليه، وتَرَكوا اتِّباعَ النَّبيِّ الَّذي يأمُرُهم بالإصلاحِ وصِلَةِ الأرحامِ، ولو دعاهم مَن يأمُرُ بالإفسادِ وقَطيعةِ الرَّحِمِ لَاتَّبَعوه؛ فهم عُمْيٌ أعماهمُ اللهُ[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ * أَفَلَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٨).

وأخرج أثرَ عُمَرَ: الحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٧٠٨) وصحَّح إسنادَه، ومِن طريقِه البيهقيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠/ ٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٥).

يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ فيه سُؤالٌ: لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ كيف يُمكِنُهم التَّدَبُّرُ في القُرآنِ؛ قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾، وهو كقَولِ القائِلِ للأعْمى: (أبصِرْ)، وللأصَمِّ: (اسْمَعْ)؟!

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ قَولَه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ﴾ المرادُ منه النَّاسُ.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ هذه الآيةَ ورَدَت مُحَقِّقةً لِمَعنى الآيةِ المتقَدِّمةِ؛ فإنَّه تعالى قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ [محمد:٢٣]، أي: أبعَدَهم عنه، أو عن الصِّدقِ أو عن الخَيرِ، أو غيرِ ذلك مِن الأُمورِ الحَسَنةِ، فأصَمَّهم لا يَسمَعونَ حَقيقةَ الكلامِ، وأعماهم لا يَتَّبِعونَ طَريقَ الإسلامِ، فإذَنْ هُم بيْنَ أمرَينِ؛ إمَّا لا يَتدَبَّرونَ القُرآنَ فيَبعُدونَ منه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لعَنَهم وأبعَدَهم عن الخَيرِ والصِّدقِ، والقُرآنُ منهما الصِّنفُ الأعلَى، بل النَّوعُ الأشرَفُ، وإمَّا يَتدَبَّرونَ لكِنْ لا تَدخُلُ مَعانيه في قُلوبِهم؛ لِكَونِها مُقفَلةً، تقديرُه: أفلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ لِكَونِهم مَلعونينَ مَبعودينَ، أم على قُلوبٍ أقفالٌ، فيَتدَبَّرونَ ولا يَفهَمونَ[1]؟

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قال: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ فكان قولُه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ كالتَّهييجِ لهم على تركِ ما هم فيه مِن الكفرِ الَّذي استحَقُّوا بسببِه اللَّعنةِ، أو كالتَّبكيتِ لهم على إصرارِهم على الكفرِ[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ أنَّ مَعرِفةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٤٨).

تفسيرِ كتابِ اللهِ فَرضٌ؛ إمَّا فَرضُ كِفايةٍ، وإمَّا فَرضُ عَينٍ[١]؛ وجْهُ الدَّلالةِ: أنَّ اللهَ تعالى وَبَّخَ أولئك الَّذين لا يَتدبَّرون القُرآنَ، وأشار إلى أنَّ ذلك مِن الإقفالِ على قُلوبِهم، وعَدَمِ وُصولِ الخَيرِ إليها، والتَّدبُّرُ هو التَّأمُّلُ في الألفاظِ للوُصولِ إلى مَعانيها؛ فإذا لم يَكُنْ ذلك فاتتِ الحِكمةُ مِن إنزالِ القُرآنِ، وصار مُجرَّدَ ألفاظٍ لا تأثيرَ لها، ولأنَّه لا يُمكِنُ الاتِّعاظُ بما في القُرآنِ بدونِ فَهْمِ مَعانيه؛ فإنَّ اللهَ تعالى لم يُنزِلْ علينا القُرآنَ لِمُجرَّدِ أن نتعبَّدَ بلَفظِه، بل لنَعرِفَ معناه، ونُطبِّقَه عَمَلًا وعِلمًا، وقد كان الصَّحابةُ رَضيَ اللهُ عنهم لا يَتجاوَزون عَشْرَ آياتٍ حتَّى يَتعلَّموها وما فيها مِن العِلمِ والعَمَلِ[٢].

١٠- قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ إذا كان قد حضَّ الكُفَّارَ والمُنافِقينَ على تدَبُّرِه، عُلِمَ أنَّ مَعانيَه مِمَّا يُمكِنُ الكُفَّارَ والمُنافِقينَ فَهمُها ومَعرِفتُها، فكيف لا يكونُ ذلك مُمكِنًا للمُؤمِنينَ؟! وهذا يُبَيِّنُ أنَّ مَعانيَه كانت مَعروفةً بَيِّنةً لهم[٣].

---

(١) قال ابن عثيمين: (لو قال قائلٌ: هل معرفةُ تفسيرِ القُرآنِ واجبةٌ؟

الجوابُ: تفسيرُ ما لا يقومُ دينُ المرءِ إلَّا به فهو واجبٌ، مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] يجبُ أن نعرِفَ ما معنى إقامةِ الصَّلاةِ، ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣] كذلك، وما زاد على ذلك فهو فَرضُ كِفايةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨٠)، ((أصول في التفسير)) لابن عثيمين (ص: ٢٣).

ويُنظر فيما ورد عن الصَّحابةِ: ما أخرجه الإمامُ أحمدُ في ((مسنده)) (٢٣٤٨٢)، وابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنَّف)) (٢٩٩٢٩) مِن حديثِ رجُلٍ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وما أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (١/ ٧٤)، والطَّحاويُّ في ((مُشْكِل الآثار)) (١٤٥٠) مِن قولِ ابنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ١٥٧، ١٥٨).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ * طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ مَعلومٌ أنَّ قولَ المُؤمنينَ هذا وقَعَ قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ؛ فالتَّعبيرُ عنه بالفِعلِ المُضارعِ إمَّا لِقَصْدِ استِحضارِ الحالةِ، وإمَّا لِلدَّلالةِ على أنَّهم مُستمِرُّون على هذا القَولِ[1].

- وحُذِفَ وَصْفُ كِلمةِ (سورة) في حِكايةِ قَولِهم: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾؛ لِدَلالةِ ما بعْدَه عليه مِن قَولِه: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾؛ لأنَّ قَولَه: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ﴾ -أي: كما تَمنَّوا- اقْتَضى أنَّ المَسؤولَ سُورةٌ يُشرَعُ فيها قِتالُ المُشرِكين؛ فالمعنى: لولا نُزِّلَت سُورةٌ يُذكَرُ فيها القِتالُ وفَرْضُه[2].

- والمَقصودُ مِن هذه الآيةِ هو قَولُه: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾، وما قبْلَه تَوطئةٌ له بذِكْرِ سَببِه، وأفاد تَقديمُه أيضًا تَنْويهًا بشَأْنِ الَّذين آمَنوا، وأفاد ذِكْرُه مُقابَلةً بيْنَ حالَيِ الفريقينِ جَرْيًا على سَنَنِ هذه السُّورةِ[3].

- قولُه: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ انتَصَبَ ﴿نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ؛ لِبَيانِ صِفةِ النَّظَرِ مِن قَولِه: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾؛ فهو على مَعنى التَّشبيهِ البليغِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: ثَباتُ الحَدَقةِ وعَدَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٠٦، ١٠٧).

التَّحريكِ، أي: يَنظُرون إليك نظَرَ المُتحيِّرِ بحيثُ يَتَّجِهُ إلى صَوبٍ واحدٍ، ولا يَشتغِلُ بالمَرئيَّاتِ؛ لأنَّه في شاغلٍ عن النَّظَرِ، وإنَّما يُوجِّهون أنْظارَهم إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ كانوا بمَجلِسِه حِينَ نُزولِ السُّورةِ، وكانوا يَتظاهَرون بالإقبالِ على تَلقِّي ما يَنطِقُ به مِن الوحْيِ، فلمَّا سَمِعوا ذِكرَ القِتالِ بُهِتوا؛ فالمَقصودُ المُشابَهةُ في هذه الصُّورةِ[1].

- و(مِنْ) هنا تَعليليَّةٌ، أي: المَغْشِيِّ عليه مِن أجْلِ المَوتِ، أي: حُضورِ الموتِ[2].

- وفُرِّعَ قَولُه: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ * طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾، وهذا التَّفريعُ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ﴾[3].

- ولَفظُ (أَوْلى) هنا يَجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا استِعمالَ التَّفضيلِ على شَيءٍ غَيرِ مَذْكورٍ يدُلُّ عليه ما قبْلَه، أي: أَوْلى لهم مِن ذلك الخَوفِ الَّذي دلَّ عليه نَظَرُهم كالمَغْشيِّ عليه مِن المَوتِ؛ أنْ يُطيعوا أمْرَ اللهِ، ويَقولوا قَولًا مَعروفًا، وعلى هذا الوَجْهِ فتَعديةُ (أَوْلى) باللَّامِ دُونَ الباءِ؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ ذلك أَوْلى وأنفَعُ؛ فكان اجتِلابُ اللَّامِ لِلدَّلالةِ على معنى النَّفْعِ، وهو يَرتبِطُ بقَولِه بعْدَه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ مُستعمَلًا في التَّهديدِ والوَعيدِ، ومَعناهُ: أنَّ اللهَ أخبَرَ عن تَوعُّدِه إيَّاهُم. واللَّامُ على هذا الوَجْهِ إمَّا مَزيدةٌ، أي: أَولاهُم اللهُ ما يَكرَهونَ، وإمَّا مُتعلِّقةٌ بـ(أَوْلى) على أنَّه فِعلُ مُضِيٍّ، وعلى هذا الاستِعمالِ يَكونُ قَولُه: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كَلامًا مُستأْنَفًا، وهو مُبتدَأٌ خَبَرُه مَحذوفٌ، أي: طاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ خَيرٌ لهم، أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خبَرٌ لِمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: الأمْرُ طاعةٌ وقَولٌ مَعروفٌ، أي: أمَرَ اللهُ أنْ يُطِيعوا[١].

- ونكَّر الاسمَينِ: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ﴾؛ لِيَكونَا صالِحَينِ للتَّعظيمِ وما دونَه[٢].

- وقولُه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ تَفريعٌ على وَصْفِ حالِ المُنافِقين مِن الهَلَعِ عِندَ سَماعِ ذِكْرِ القِتالِ؛ فإنَّه إذا جَدَّ أمْرُ القِتالِ -أي: حانَ أنْ يُندَبَ المُسلِمون إلى القِتالِ- سيَضْطَرِبُ أمْرُ المُنافِقينَ، ويَتسلَّلون لِواذًا مِن حُضورِ الجِهادِ، وأنَّ الأَوْلَى لهم حِينَئِذٍ أنْ يُخلِصوا الإيمانَ، ويُجاهِدوا كما يُجاهِدُ المُسلِمون الخُلَّصُ؛ وإلَّا فإنَّهم لا مَحيصَ لهم مِن أحَدِ أمْرَينِ: إمَّا حُضورُ القِتالِ بدُونِ نِيَّةٍ؛ فتَكونُ عليهمُ الهَزيمةُ، ويَخْسَروا أنفُسَهم باطِلًا، وإمَّا أنْ يَنخَزِلوا عن القِتالِ[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَمْرُ﴾ تَعريفُ العَهدِ، أو اللَّامُ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: أمْرُ القِتالِ المُتقدِّمِ آنِفًا في قَولِه: ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾[٤].

- وقولُه: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ دَليلُ جَوابِ ﴿فَإِذَا﴾؛ لأنَّ (إذا) ضُمِّنت هنا مَعنى الشَّرْطِ، أي: كَذَبوا اللهَ وأخْلَفوا، فلو صَدَقوا اللهَ لَكان خَيرًا لهم، واقتِرانُ جُملةِ الجَوابِ بالفاءِ؛ لِلدَّلالةِ على تَضمينِ (إذا) مَعنى الشَّرْطِ، وذلك أحسَنُ مِن تَجْريدِه عن الفاءِ إذا كانت جُملةُ الجَوابِ شَرطيَّةً أيضًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٨، ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ومعنَى ﴿صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ قالُوا له الصِّدْقَ -على قولٍ في التفسيرِ-، وهو مُطابَقةُ الكلامِ لِمَا في نفْسِ الأمْرِ، أي: لو صَدَقوا في قَولِهم: نحْن مُؤمِنون، وهم إنَّما كَذَبوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ أظْهَروا له خِلافَ ما في نُفوسِهم؛ فجُعِل الكذِبُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَذِبًا على اللهِ؛ تَفْظيعًا له، وتَهويلًا لِمَغَبَّتِه[١].

- وفي الكَلامِ إيجازٌ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿لَكَانَ خَيْرًا﴾ يُؤذِنُ بأنَّه إذا عَزَم الأمْرُ حصَلَ لهمْ ما لا خَيرَ فيه[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ﴾ مُقْتضى تَناسُقِ النَّظْمِ أنَّ هذا مُفرَّعٌ على قَولِه: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]؛ لأنَّه يُفهَمُ منه أنَّه إذا عَزَم الأمْرُ تَولَّوا عن القِتالِ، وانْكشَفَ نِفاقُهم، فتَكونُ إتْمامًا لِمَا في الآيةِ السَّابقةِ مِن الإنْباءِ بما سَيَكونُ مِن المُنافِقين يَومَ أُحُدٍ[٣].

- وفي قَولِه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ الآيةَ، الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، والخِطابُ مُوجَّهٌ إلى الَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ، والسِّرُّ فيه هنا: أنَّه جاء لِتَأكيدِ التَّوبيخِ، وتَشْديدِ التَّقريعِ، وتَسجيلِ ذلك عليهم مُشافَهةً وخِطابًا[٤].

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّكذيبِ لِمَا سَيَعْتذِرون به لِانْخِزالِهم؛ ولذلك جِيءَ فيه بـ (هل) الدَّالَّةِ على التَّحقيقِ؛ لأنَّها في الاستِفهامِ بمَنزِلةِ (قدْ) في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢١).

الخبَرِ؛ فالمَعنى: أفيَتحقَّقُ إنْ تَولَّيْتم أنَّكم تُفسِدون في الأرْضِ، وتُقطِّعون أرْحامَكم، وأنتُم تَزْعُمون أنَّكم تَولَّيْتم إبقاءً على أنفُسِكم وعلى ذَوي قَرابةِ أنْسابِكم؟! وهذا تَوبيخٌ[1].

- وعبَّرَ بـ﴿وَتُقَطِّعُوٓاْ﴾ بالتَّشديدِ على التَّكثيرِ[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾

- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المُخاطَبينَ بطَريقِ الالْتِفاتِ؛ إيذانًا بأنَّ ذِكْرَ هَنَاتِهم[3] أوجَبَ إسْقاطَهم عن رُتْبةِ الخِطابِ، وحِكايةَ أحْوالِهم الفَظيعةِ لِغَيرِهم[4].

- وفيه لَطيفةٌ: وهي أنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾، ولم يَقُلْ: أصَمَّ آذانَهم، وقال: ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾، ولم يقُلْ: أعْماهُم؛ وذلك لأنَّ العَينَ آلةُ الرُّؤيةِ، ولو أصابَها آفةٌ لا يَحصُلُ الإبصارُ، والأُذُنُ لو أصابَها آفةٌ مِن قطْعٍ أو قلْعٍ، تَسمَعُ الكلامَ؛ لأنَّ الأُذُنَ خُلِقَت وخُلِقَ فيها تَعاريجُ؛ لِيَكثُرَ فيها الهَواءُ المُتموِّجُ، ولا يَقرَعَ الصِّماخَ بعُنْفٍ فيُؤذِيَ كما يُؤذِي الصَّوتُ القويُّ، فقال: ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾ مِن غَيرِ ذِكْرِ الأُذُنِ، وقال: ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ مع ذِكْرِ العَينِ؛ لأنَّ البصَرَ هاهنا بمَعنى العَينِ، ولهذا جمَعَه بالأبصارِ، ولو كان مَصدَرًا لَمَا جُمِعَ، فلمْ يَذكُرِ الأُذُنَ؛ إذ لا مَدخَلَ لها في الإصمامِ، والعينُ لها مَدخَلٌ في الرُّؤيةِ، بلْ هي الكلُّ، ويدُلُّ عليه أنَّ الآفةَ في غَيرِ هذه المواضعِ لَمَّا أضافَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٢).

(٣) الهَنَات هنا معناها: خِصالُ الشَّرِّ، ولا يُقالُ ذلك في الخَيرِ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٥٣٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٩).

إلى الأُذنِ سمَّاها وَقْرًا، كما قال تعالَى: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ [فصلت: ٥]، وقال: ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗا﴾ [لقمان: ٧]، والوَقْرُ دُونَ الصَّمِّ، وكذلك الطَّرَشُ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- وعُبِّرَ بالصَّمَمِ عن عَدَمِ الانتِفاعِ بالمَسموعاتِ مِن آياتِ القُرآنِ ومَواعِظِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما عُبِّرَ بالعَمَى هنا عن عَدَمِ الفَهمِ؛ لأنَّ حالَ الأعْمى أنْ يكونَ مُضطَرِبًا فيما يُحِيطُ به، لا يَدْري نافِعَه مِن ضارِّه إلَّا بمَعونةِ مَن يُرشِدُه[٣].

٤- قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾

- الاستِفهامُ في قَولِه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ تَوبيخيٌّ وتَوقيفيٌّ على مَخازِيهم. وهو إنْكارٌ وتَعْجيبٌ مِن سُوءِ عِلْمِهم بالقُرآنِ، ومِن إعْراضِهم عن سَماعِه[٤].

- قولُه: ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ (أمْ) مُنقطِعةٌ، وما فيها مِن مَعنى (بلْ)؛ لِلانتقالِ مِن التَّوبيخِ بعَدَمِ التَّدبُّرِ إلى التَّوبيخِ بكَوْنِ قُلوبِهم مُقْفلَةً لا تَقبَلُ التَّدبُّرَ والتَّفكُّرَ، والهَمْزةُ لِلتَّقريرِ[٥].

- وتَنْكيرُ القُلوبِ؛ إمَّا لِتَهويلِ حالِها، وتَفْظيعِ شَأْنِها بإيهامِ أمْرِها في القَساوةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢٠).

والجَهالةِ، كأنَّه قِيلَ: على قُلوبٍ مُنكَرةٍ، لا يُعرَفُ حالُها، ولا يُقادَرُ قَدْرُها في القَساوةِ. وإمَّا لأنَّ المُرادَ بها قُلوبُ بَعضٍ منهم، وهمُ المُنافِقونَ، والمعنى: بلْ بَعضُ القُلوبِ عليها أقفالٌ، وهذا مِن التَّعريضِ بأنَّ قُلوبَهم مِن هذا النَّوعِ؛ لأنَّ إثْباتَ هذا النَّوعِ مِن القُلوبِ في أثْناءِ التَّعجيبِ مِن عَدَمِ تَدبُّرِ هؤلاء القُرآنَ يدُلُّ -بدَلالةِ الالتِزامِ- أنَّ قُلوبَ هؤلاءِ مِن هذا النَّوعِ مِن القُلوبِ ذَواتِ الأقْفالِ؛ فكَونُ قُلوبِهم مِن هذا النَّوعِ مُستَفادٌ مِن الإضْرابِ الانتقاليِّ في حِكايةِ أحوالِهم[1]، أو أنَّه لم يحتَجْ إلى تعريفِ القلوبِ؛ لأنَّه معلومٌ أنَّها قلوبُ مَن ذكرَ[2].

وقيل: قال: ﴿عَلَىٰ قُلُوبٍ﴾ لأنَّه لو قال: (على قُلوبِهم) لم يَدخُلْ قَلبُ غَيرِهم في هذه الجُملةِ. والمُرادُ: أمْ على قُلوبِ هؤلاء وقُلوبِ مَن كانوا بهذه الصِّفةِ أقفالُها[3].

- وإضافةُ (أقْفالٍ) إلى ضَميرِ ﴿قُلُوبٍ﴾ نظْمٌ بَديعٌ أشارَ إلى اخْتِصاصِ الأقفالِ بتلك القُلوبِ، أي: مُلازَمتِها لها؛ فدلَّ على أنَّها قاسيةٌ، وأنَّها أقفالٌ مُناسِبةٌ لها، غَيرُ مُجانِسةٍ لِسائرِ الأقْفالِ المَعهودةِ[4].

وقيل: قال: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالإضافةِ، ولم يَقُلْ: (أقفالٌ)، كما قال: ﴿قُلُوبٍ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٤٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٥، ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٢١).

لأنَّ الأقفالَ كانت مِن شَأنِها، فأضافَها إليها كأنَّها ليستْ إلَّا لها، وفي الجُملةِ لم يُضِفِ القُلوبَ إليهم؛ لعَدَمِ نَفعِها إيَّاهم[١].

وقيل: في قَولِه: ﴿أَقْفَالُهَآ﴾ بالتَّعريفِ نَوعُ تأكيدٍ؛ فإنَّه لو قال (أقفالٌ) لَذَهَبَ الوَهمُ إلى ما يُعرَفُ بهذا الاسمِ؛ فلمَّا أضافَها إلى القُلوبِ عُلِمَ أنَّ المرادَ بها ما هو للقَلبِ بمَنزلةِ القُفلِ للبابِ؛ فكأنَّه أراد أقفالَها المُختصَّةَ بها، الَّتي لا تكونُ لِغَيرِها، واللهُ أعلمُ[٢].

- والآيةُ مِن الاحتِباكِ[٣]: ذَكرَ التَّدبُّرَ أوَّلًا دليلًا على ضِدِّه ثانيًا، والأقفالَ ثانيًا دليلًا على ضِدِّها أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذَكرَ نَتيجةَ الخَيرِ الكافِلةَ بالسَّعادةِ أوَّلًا، وسببَ الشَّرِّ الجامِعَ للشَّقاوةِ ثانيًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٤، ٢٤٥).

## الآيات (٢٥-٢٨)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَوَّلَ﴾: أي: زيَّن وسَهَّل، والتَّسويلُ: تَزيينُ النَّفْسِ لِمَا تَحرِصُ عليه، وتصويرُ القَبيحِ منه بصُورةِ الحَسَنِ، وأصلُ التَّسويلِ: تَفعيلٌ مِن سُولِ الإنسانِ، وهو أُمنِيَّتُه الَّتي يَتمَنَّاها فتُزَيِّنُ لطالِبِها الباطِلَ والغُرورَ، قيل: مِن السَّوْلِ وهو الاسترخاءُ، وقيل: أصلُ السُّولِ (السُّؤْلُ) مَهموزًا[1].

﴿وَأَمۡلَىٰ﴾: أي: أمْهَلهم بالمدِّ لهم في العُمُرِ، على أنَّ الإملاءَ راجِعٌ إلى الله، أو: مَدَّ لهم في الآمالِ والأمانيِّ على أنَّ الإملاءَ مِن فِعلِ الشيطانِ، وأصلُ الإملاءِ: يدُلُّ على امتِدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غَيرِه[2].

### المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا الأسبابَ الَّتي حمَلَتِ المنافِقينَ على النِّفاقِ: إنَّ المُنافِقينَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

الَّذين فارَقوا الإيمانَ، ورَجَعوا إلى الكُفرِ مِن بَعدِ ما عَرَفوا الحَقَّ: الشَّيطانُ زيَّنَ لهم الارتِدادَ عن الإسلامِ، واللهُ مَدَّ لهم في آجالِهم، وأمهَلَهم، ولم يُعَجِّلْ عُقوبَتَهم، فاغتَرُّوا ووَقَع منهم ذلك.

ذلك التَّسويلُ والإملاءُ وَقَع عليهم؛ بسَبَبِ قَولِهم للكُفَّارِ الَّذين كَرِهوا ما أنزَلَ اللهُ تعالى مِنَ القُرآنِ: سنُطيعُكم ونَتَّبعُ أهواءَكم في بَعضِ ما كَرِهتُموه مِن الوَحيِ المُنَزَّلِ. واللهُ يَعلَمُ ما يُخفيه المُنافِقونَ والكافِرونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى أحوالَ المنافِقينَ السَّيِّئةَ عندَما تتَوفَّاهم الملائكةُ، فيقولُ: فكيف يكونُ حالُ أولئك المنافِقينَ إذا جاءتْهم الملائِكةُ لِقَبضِ أرواحِهم، فأخَذوا يَضرِبونَ وُجوهَهم وأعجازَهم؟ ذلك الضَّربُ للمُنافِقينَ عندَ مَوتِهم بسَبَبِ اتِّباعِهم ما أسخَطَ اللهَ، وكَراهيتِهم رِضوانَه تعالى؛ فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم وأذهَبَها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ٢٥ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ -سُبحانَه وتعالى- بأقفالِ قلوبِ المنافقينَ؛ بيَّن منشأَ ذلك، فقال[1]:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ ﴾.

أي: إنَّ المُنافِقينَ الَّذين فارَقوا الإيمانَ، ورَجَعوا إلى الكُفرِ مِن بَعدِ ما عَرَفوا الحَقَّ، فآثَروا الضَّلالَ على الهُدى بلا بُرهانٍ: إنَّما وَقَع منهم ذلك؛ بسَبَبِ تَزيينِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٥).

الشَّيطانِ لهم الارتِدادَ عن الإسلامِ[١].

كما قال الله تعالى ذِكرُه: ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا * وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١١٨ - ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٨].

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَأُمْلِيَ﴾ بضَمِّ الهَمزةِ، وكَسرِ اللَّامِ، وفَتحِ الياءِ، على صيغةِ ما لم يُسمَّ فاعِلُه[٢].

٢- قِراءةُ ﴿وَأُمْلِيْ﴾ بضَمِّ الهَمزةِ، وكَسرِ اللَّامِ، وسُكونِ الياءِ، على أنَّه مُسنَدٌ إلى المُتكَلِّمِ، بنِسْبةِ الإملاءِ إلى اللهِ تعالى، أي: وأنا أُملِي لهم، كما قال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٧٩، ٣٨٠).

قال ابنُ عاشور: (لعلَّ المرادَ: الجَماعةُ الَّذين انخَزَلوا يومَ أُحُدٍ مع عبدِ اللهِ بنِ أُبيٍّ ابنِ سَلولَ، والارتِدادُ على الأدبارِ على هذا الوَجهِ حَقيقةٌ؛ لأنَّهم رَجَعوا عن مَوقِعِ القِتالِ بعدَ أن نَزَلوا به فرَجَعوا إلى المدينةِ، وكانت المدينةُ خَلْفَهم. وهذا عندي أظهَرُ الوَجهَينِ، وأَلْيَقُ بقولِه بعدُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٦] إلى قولِه: ﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧]، و(الهُدى) على هذا الوَجهِ هو الحَقُّ، أي: مِن بَعدِ ما عَلِموا أنَّ الحَقَّ قِتالُ المُشرِكينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٥).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٦).

﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْـمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨]. وقيل: هي كالقِراءةِ السَّابِقةِ، وسُكِّنَت الياءُ تَخفيفًا(١).

٣- قِراءةُ ﴿وَأَمْلَىٰ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ واللَّامِ، بنِسبةِ الإملاءِ إلى الشَّيطانِ، أي: وأَملى الشَّيطانُ لهم. أو: هي بمعنى القِراءةِ السَّابِقةِ، أي: واللهُ أَملَى لهم(٢).

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾.

أي: ووَقَع منهم ذلك؛ لأنَّ اللهَ مَدَّ للمُنافِقينَ في آجالِهم، وأمهَلَهم، ولم يُعَجِّلْ عُقوبَتَهم، فاغتَرُّوا(٣).

---

(١) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٧٠٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٨، ٣٢٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٩).
وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي -وعزاه لأكثَرِ المفسِّرينَ-، والسمعانيُّ، وابنُ عطية، والرَّسْعَني، وأبو حيَّان.
يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢١٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٣).
وقيل: المعنى: ومَدَّ الشَّيطانُ للمُنافِقينَ في الأمَلِ، ووعَدَهم طُولَ العُمُرِ، وغَرَّهم وخَدَعَهم.
وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البغويُّ، والزمخشري، وابن جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلِّي، والعُلَيمي، والشوكاني، والألوسي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٧)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ * وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال عز وجل: ﴿ وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [الرعد: ٣٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج: ٤٤].

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى تَسليطَه الشَّيطانَ عليهم؛ بَيَّنَ سَبَبَه، فقال[1]:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ ﴾.

---

= الزمخشري)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٧٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٠).

كما قال تعالى: ﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وذكر ابنُ جُزَي أنَّ ذلك أظهَرُ؛ لِتَناسُبِ الضَّميرِ بيْن الفاعِلَين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٧).

أي: ذلك التَّسويلُ والإملاءُ المُفضي بهم إلى الكُفرِ قد وَقَع؛ بسَبَبِ قَولِ المُنافِقينَ للكُفَّارِ الَّذين كَرِهوا ما أنزَلَ اللهُ تعالى مِنَ القُرآنِ: سنُطيعُكم ونَتَّبعُ أهواءَكم في بَعضِ ما كَرِهتُموه مِن الوَحيِ المُنَزَّلِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨١).

قال الرَّازي: (قال بعضُ المفسِّرينَ: ذلك إشارةٌ إلى الإملاءِ، أي: ذلك الإملاءُ بسببِ أنَّهم قالوا لِلَّذينَ كَرِهوا. وهو اختيارُ الواحديِّ. وقال بعضُهم: ذلك إشارةٌ إلى التَّسويلِ. ويحتملُ أن يُقالَ: ذلك الارتدادُ بسبَبِ أنَّهم قالوا سَنُطِيعُكم). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الإشارةَ في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعودُ إلى التَّسويلِ والإملاءِ: ابنُ جرير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨١).

وذهب القاسمي إلى أنَّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِر مِن ارتِدادِهم. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٧٦).

قال ابن جرير: (﴿قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ مِنَ الأمرِ بقِتالِ أهلِ الشِّركِ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٠).

وقال القرطبي: (﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في مُخالَفةِ مُحمَّدٍ، والتَّظاهُرِ على عداوتِه، والقُعودِ عن الجِهادِ معه، وتَوهينِ أمْرِه في السِّرِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٠).

وقال البِقاعي: (﴿فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ وهو القِتالُ في سَبيلِ اللهِ، الَّذي تقدَّمَ أنَّهم عندَ نُزولِ سُورةٍ يُذكَرُ بها يَصيرونَ كالَّذي يُغشَى عليه مِنَ الموتِ، فأنتم في أمانٍ مِن أن نُقاتِلَكم أبدًا؛ فإنَّا إنَّما أسلَمْنا للأمانِ على دمائِنا وأموالِنا، والَّذي نُحِبُّه مِمَّا يُنَزَّلُ هو التَّأمينُ لِمَن أقَرَّ بكَلِمةِ الإسلامِ، والقَناعةُ منه بالظَّاهِرِ، والوَعدُ العامُّ بالتَّبَسُّطِ في البلادِ، والتَّوسِعةِ في الأرزاقِ، ونحوِ ذلك؛ فكانوا بذلك كَفَرةً؛ فإنَّ الدِّينَ لا يتجَزَّأُ، فمَنْ أضاع مِن أصولِه شَيئًا فقد أضاعه كُلَّه، والتَّقييدُ بالبَعضِ يُفهِمُ أنَّهم لا يُطيعونَهم في البَعضِ الآخَرِ، وهو إظهارُ الإسلامِ، والتَّصَوُّرُ بصُورةِ المُسالَمةِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٤٨).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ ﴿إِسۡرَارَهُمۡ﴾ بكَسرِ الهَمزةِ، مَصدَرُ: أَسَرَّ يُسِرُّ، أي: واللهُ يَعلَمُ إخفاءَهم(١).

٢- قِراءةُ ﴿أَسْرَارَهُمْ﴾ بفَتحِ الهَمزةِ، جَمعُ سِرٍّ، أي: يَعلَمُ الأشياءَ الَّتي يُسِرُّونَها(٢).

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ ما يُخفيه المُنافِقونَ والكافِرونَ، ويُسِرُّونَه بيْنَهم مِنَ الكُفرِ به، ومَعصيةِ رَسولِه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [هود: ٥].

---

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، وحفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٤).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٢٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).
واستظهر الرَّازيُّ أنَّ المعنى: أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في قُلوبِهم مِمَّا يُسِرُّونَ مِن العِلمِ بصِدقِ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّهم كانوا مُكابِرينَ مُعانِدينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٧).

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المجادلة: ٧، ٨].

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى إحاطةَ عِلمِه بهم؛ أتْبَعه إحاطةَ قُدرتِه[1]، فقال تعالى:

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: فكيف يكونُ حالُ أولئك المنافِقينَ إذا جاءتْهم الملائِكةُ لِقَبضِ أرواحِهم، فأخَذوا يَضرِبونَ وُجوهَهم وأعجازَهم[2]؟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٢).

وقد ذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ هذه الآيةَ تتعَلَّقُ بما قَبْلَها، أي: واللهُ يَعلَمُ إسرارَ هؤلاء المنافِقينَ، فكيف لا يَعلَمُ حالَهم إذا توفَّتْهم الملائِكةُ وهم يَضرِبونَ وُجوهَهم وأدبارَهم؟! فحالُهم أيضًا لا يخفَى عليه في ذلك الوَقتِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١).

وقال ابن عطيَّة: (يَحتَمِلُ أن يُتوَعَّدوا به على مَعنَيين؛ أحَدُهما: هذا هَلَعُهم وجَزَعُهم لِفَرضِ القِتالِ وقِراعِ الأعداءِ، فكيف فَزَعُهم وجَزَعُهم إذا توفَّتْهم الملائِكةُ؟! والثَّاني: أن يُريدَ: هذه مَعاصيهم وعِنادُهم وكُفرُهم، فكيف تكونُ حالُهم مع اللهِ إذا توفَّتْهم الملائِكةُ؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠).

وقال القرطبي: (معنى الكلامِ التَّخويفُ والتَّهديدُ، أي: إنْ تأخَّرَ عنهم العذابُ فإلى انقِضاءِ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾.

أي: ذلك الضَّربُ للمُنافِقينَ عندَ مَوتِهم إنَّما هو بسَبَبِ اتِّباعِهم ما أسخَطَ اللهَ؛ بالكُفرِ أو العِصيانِ، ومِن ذلك طاعتُهم الشَّيطانَ، ومُوالاةُ الكُفَّارِ الَّذين كَرِهوا ما أنزَلَ الرَّحمنُ(١).

﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾.

أي: وبسَبَبِ أنَّ المُنافِقينَ كَرِهوا ما يُرضي اللهَ عنهم، كالقِتالِ في سَبيلِه، ولم يكُنْ لهم رغبةٌ فيما يُقرِّبُهم إليه(٢).

---

= العُمُر). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٠).

وقال أيضًا في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الأنفالِ (الآية ٥٠): (﴿وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ أي: أسْتاهَهم، كنَى عنها بالأدبارِ، قالَه مجاهدٌ وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. الحسَنُ: ظهورَهم... وقيلَ: هذا الضَّرْبُ يكونُ عندَ الموتِ. وقد يكونُ يومَ القيامةِ حينَ يَصيرونَ بهم إلى النَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٢).

قال الواحدي: (﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: يُريدُ ما كتَموا مِن التَّوراةِ. وقال مقاتلٌ: يعني الكفرَ بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وقال الزَّجَّاجُ: اتَّبَعوا مَن خالَفَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٥٩). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤).

وقال الشوكاني: (﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ أي: بِسَبَبِ اتِّباعِهم ما يُسْخِطُ اللهَ مِن الكفرِ والمعاصي. وقِيل: كِتْمانُهم ما في التَّوراةِ مِن نَعْتِ نَبِيِّنا صلَّى الله عليه وسَلَّم. والأوَّلُ أولَى؛ لِمَا في الصِّيغةِ مِن العُمومِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩). =

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

أي: فأبطَلَ اللهُ أعمالَهم وأذهَبَها؛ فلا نَفْعَ فيها[١].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾، بيَّن -جلَّ وعَلا- في هذه الآيةِ الكَريمةِ: أنَّ سببَ ارتِدادِ هؤلاءِ القَومِ مِن بَعدِ ما تبيَّنَ لهمُ الهُدى، هو إغواءُ الشَّيطانِ لهم، كما قال تعالى مُشيرًا إلى عِلَّةِ ذلك: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي: زيَّن لهمُ الكُفرَ والارتِدادَ عن الدِّينِ، ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾؛ أي: مدَّ لهم في الأملِ، ووَعَدَهم طولَ العُمُرِ، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. وإيضاحُ هذا: أنَّ هؤلاءِ المُرتدِّينَ على أدبارِهم مِن بَعدِ ما تبيَّنَ لهمُ الهُدى وَقَع لهم ذلك بسَببِ أنَّ الشَّيطانَ سوَّلَ لهم ذلك، وسهَّلَه لهم وزيَّنَه لهم وحسَّنَه لهم، ومنَّاهم بطولِ الأعمارِ؛ لأنَّ طولَ الأملِ مِن أعظَمِ أسبابِ ارتِكابِ الكُفرِ والمعاصي[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ

---

= قال الشنقيطي بعدَ أن ذكر قولَ مَن قال: إنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في المنافِقينَ، وقولَ مَن قال: إنَّها نزلت في اليهودِ، قال: (التَّحقيقُ الَّذي لا شكَّ فيه أنَّ هذه الآياتِ عامَّةٌ في كلِّ ما يَتناوَلُه لَفْظُها، وأنَّ كل ما فيها مِن الوعيدِ عامٌّ لِمَن أطاع مَن كَرِهَ ما نزَّل اللهُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٩، ١٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٠).

فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۞ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ يَجِبُ على كُلِّ مُسلِمٍ في هذا الزَّمانِ تأمُّلُ هذه الآياتِ وتدَبُّرُها، والحَذَرُ التَّامُّ مِمَّا تَضَمَّنتْه مِنَ الوعيدِ الشَّديدِ، فاحذَرْ كُلَّ الحَذَرِ مِن الدُّخولِ في الَّذين قالوا: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾[1].

٣- إنَّ قولَ: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» يَقْتَضي ألَّا يُحَبَّ سِواه؛ فإنَّ الإلهَ هو الَّذي يُطاعُ، مَحبَّةً وخَوفًا ورَجاءً، ومِن تمامِ مَحبَّتِه مَحبَّةُ ما يُحِبُّه، وكَراهِيَةُ ما يَكرَهُه؛ فمَن أَحَبَّ شيئًا ممَّا يَكرَهُ اللهُ، أو كَرِه شيئًا ممَّا يُحِبُّه اللهُ لم يَكمُلْ تَوحيدُه ولا صِدقُه في قولِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وكان فيه مِن الشِّركِ الخَفيِّ بحَسَبِ ما كَرِهَه ممَّا يُحِبُّه اللهُ، وما أَحَبَّه ممَّا يَكرَهُه اللهُ. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[2]. وقال أيضًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، فذَمَّ سُبحانَه مَن كَرِهَ ما أَحَبَّه اللهُ، أو أَحَبَّ ما كَرِهَه اللهُ؛ فالواجِبُ على كُلِّ مُؤمِنٍ أن يحِبَّ ما أَحَبَّه اللهُ مَحبَّةً تُوجِبُ له الإتيانَ بما وَجَب عليه منه، فإنْ زادت المحبَّةُ حتَّى أتَى بما نُدِبَ إليه منه كان ذلك فَضلًا؛ وأن يَكرَهَ ما كَرِهَه اللهُ تعالى كراهةً تُوجِبُ له الكَفَّ عمَّا حَرَّم عليه منه، فإن زادت الكراهةُ حتَّى أوجَبَت الكَفَّ عمَّا كَرِهَه تَنزيهًا كان ذلك فَضلًا. وقد ثَبَت في الصَّحيحَينِ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى أكونَ أحَبَّ إليه مِن والدِه ووَلَدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))[3]؛ فلا يكونُ المؤمِنُ مُؤمِنًا حتَّى يُقَدِّمَ مَحبَّةَ الرَّسولِ على محبَّةِ جَميعِ الخَلقِ، ومحبَّةُ الرَّسولِ تابِعةٌ لِمَحبَّةِ مُرسِلِه، والمحبَّةُ الصَّحيحةُ تَقتضي المُتابَعةَ والمُوافَقةَ في حُبِّ المحبوباتِ،

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٣، ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٥٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ (١٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٤) مِن حديثِ أنسٍ رضيَ الله عنه.

وبُغضِ المكروهاتِ؛ قال عزَّ وجلَّ: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[1] [آل عمران: ٣١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾، ولم يقلْ: (ما أرضى اللهَ)؛ وذلك لأنَّ رَحمةَ اللهِ سابِقةٌ، فله رحمةٌ ثابِتةٌ، وهي مَنشَأُ الرِّضوانِ، وغَضَبَ اللهِ مُتأخِّرٌ، فهو يكونُ على ذنْبٍ؛ فقال: ﴿ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾؛ لأنَّه وَصفٌ ثابِتٌ للهِ سابِقٌ، ولم يقلْ: (سَخَطَ اللهِ)، بل: ﴿ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ السَّخَطَ ليس ثُبوتُه كثُبوتِ الرِّضوانِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ أنَّ الماضيَ مِن العَمَلِ قد يَحبَطُ بالسَّيِّئاتِ[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾، فيه سُؤالٌ: المُشرِكون ما كانوا يَكرَهون رِضوانَ اللهِ، بل كانوا يَقولونَ: إنَّ ما نحن عليه فيه رِضوانُ اللهِ، ولا نَطلُبُ إلَّا رِضاءَ اللهِ، فكانوا يَقولونَ: إنَّا نَطلُبُ رِضاءَ اللهِ. كما قالوا: ﴿ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر:٣]، وقالوا: ﴿ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ ﴾ [الأعراف:٥٣]؟

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٩٥، ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٢٨٥).

**الجَوابُ**: أنَّ مَعْناه: كَرِهوا ما فيه رِضاءُ اللهِ تعالى[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾ جِيءَ بحَرْفِ (على)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الارْتِدادَ مُتمكِّنٌ مِن جِهةِ الأدْبارِ، كما يُقال: على صِراطٍ مُستقيمٍ[٢].

- وأُوثِرَ أنْ يكونَ خَبَرُ (إنَّ) جُملةً؛ لِيَتأتَّى بالجُملةِ اشْتِمالُها على خَصائصِ الابتداءِ باسْمِ الشَّيطانِ؛ للاهتِمامِ به في غَرَضِ ذَمِّهم، وأنْ يُسنَدَ إلى اسْمِه مُسنَدٌ فِعلِيٌّ؛ لِيُفِيدَ تَقوِّيَ الحُكْمِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ إذِ التَّقديرُ أنْ يَسأَلَ سَائلٌ عن مَظهَرِ تَسويلِ الشَّيطانِ لهم الارتدادَ بعْدَ أنْ تَبيَّنَ لهم الهُدى، فأُجيبَ بأنَّ الشَّيطانَ اسْتَدْرَجَهم إلى الضَّلالِ عِندَما تَبيَّن لهم الهُدى فسَوَّلَ لهم أنْ يُوافِقوا أهْلَ الشِّركِ والكُفرِ في بَعضِ الأُمورِ، مُسوِّلًا أنَّ تلك المُوافَقةَ في بَعضِ الأمْرِ لا تَنقُضُ اهْتِداءَهم، فلمَّا وافَقُوهم وَجَدوا حَلاوةَ ما أَلِفوه مِن الكُفرِ فيما وافَقوا فيه أهْلَ الكُفرِ، فأخَذوا يَعودونَ إلى الكُفرِ المأْلوفِ حتَّى ارْتَدُّوا على أدْبارِهم، وهذا شأْنُ النَّفْسِ في مُعاوَدةِ ما تُحِبُّه بعْدَ الانقطاعِ عنْه إنْ كان الانقطاعُ قَريبَ العَهدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١١٦).

- وقالوا: ﴿فِي بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾؛ احترازًا لأنفُسِهم إذا لم يُطيعوا في بَعضٍ[١].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، مُتضمِّنٌ لِلْإفشاءِ في الدُّنيا، والتَّعذيبِ في الآخِرةِ[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ في ﴿فَكَيْفَ﴾ لِلتَّفريعِ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ [محمد: ٢٥] الآيةَ، وما بيْنَهما مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥] بِناءً على أنَّ الارتِدادَ ارتِدادٌ عن الدِّينِ؛ فيَكونَ التَّفريعُ لِبَيانِ ما سَيَلْحَقُهم مِن العَذابِ عِندَ المَوتِ، وهو استِهلالٌ لِمَا يَتواصَلُ مِن عَذابِهم عندَ مَبدَأِ المَوتِ إلى اسْتِقرارِهم في العَذابِ الخالِدِ. ويَجوزُ إذا كان المُرادُ بالارتِدادِ الارتِدادَ عن القِتالِ، أنْ تَكونَ الفاءُ فَصيحةً، فيُفيدُ: إذا كانوا فَرُّوا مِن القِتالِ هلَعًا وخَوفًا، فكيفَ إذا تَوفَّتْهم الملائكةُ؟! أي: كيف هَلَعُهم ووَجَلُهم الَّذي ارْتَدُّوا بِهما عن القِتالِ؟! وهذا يَقْتضي شَيئينِ؛ أوَّلُهما: أنَّهم مَيِّتُون لا مَحالةَ، وثانِيهما: أنَّ مَوتَتَهم يَصحَبُها تَعذيبٌ؛ فالأوَّلُ مأْخوذٌ بدَلالةِ الالْتزامِ، والثَّاني هو صَريحُ الكلامِ، وهو وَعيدٌ لِتَعذيبٍ في الدُّنيا عِندَ الموتِ، والمَقصودُ: وَعيدُهم بأنَّهم سيُعَجَّلُ لهم العَذابُ مِن أوَّلِ مَنازِلِ الآخِرةِ، وهو حالةُ الموتِ[٣].

- قولُه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ...﴾ (إذا) مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ دلَّ عليه اسمُ الاستِفهامِ، تَقْديرُه: كَيف حالُهم أو عَمَلُهم حِينَ تَتوفَّاهم الملائكةُ[٤]؟!

- ولَمَّا جُعِلَ هذا العَذابُ مُحقَّقًا وُقوعُه، رُتِّبَ عليه الاسْتِفهامُ عن حالِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ... ﴾ اسْتِفهامًا مُستعمَلًا في مَعنى تَعجيبِ المُخاطَبِ مِن حالِهم عِندَ الوَفاةِ، وهذا التَّعجيبُ مُؤذِنٌ بأنَّها حالةٌ فَظيعةٌ غَيرُ مُعتادةٍ؛ إذ لا يتعجَّبُ إلَّا مِن أمْرٍ غَيرِ مَعهودٍ، والسِّياقُ يدُلُّ على الفَظاعةِ[1].

- قولُه: ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ تَصْويرٌ لِتَوفِّيهم على أهْولِ الوُجوهِ وأفظَعِها بما يَخافون منه، ويَجْبُنون عن القِتالِ مِن أجْلِه[2].

- وأيضًا جُملةُ ﴿ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾ حالٌ مِن الملائكةِ، والمَقصودُ مِن هذه الحالِ: وَعيدُهم بهذه المِيتةِ الفَظيعةِ الَّتي قدَّرَها اللهُ لهم، وجَعَل المَلائكةَ تَضرِبُ وُجوهَهم وأدْبارَهم، أي: يَضرِبون وُجوهَهم الَّتي وَقَوْهَا مِن ضَرْبِ السَّيفِ حِينَ فَرُّوا مِن الجِهادِ؛ فإنَّ الوُجوهَ ممَّا يُقصَدُ بالضَّرْبِ بالسُّيوفِ عِندَ القِتالِ، ويَضرِبونَ أدْبارَهم الَّتي كانتْ مَحَلَّ الضَّرْبِ لو قاتَلوا، وهذا تَعريضٌ بأنَّهم لو قاتَلوا لَفَرُّوا، فلا يَقَعُ الضَّرْبُ إلَّا في أدْبارِهم[3].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ في ذِكرِ اتِّباعِ ما أسخَطَ اللهِ وكَراهةِ رِضوانِه مُحسِّنُ الطِّباقِ[4]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٨، ١١٩).

(٤) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مُراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بيْنَ الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكون الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ مُتوهَّمةً، فتَبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا ﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ =

مرَّتينِ؛ لِلمُضادَّةِ بيْن السَّخَطِ والرِّضوانِ، والاتِّباعِ والكَراهيةِ. والجمْعُ بيْن الإخبارِ عنْهم باتِّباعِهم ما أسْخَطَ اللهَ وكَراهَتِهم رِضوانَه، مع إمكانِ الاجْتِزاءِ بأحَدِهما عن الآخَرِ؛ لِلْإيماءِ إلى أنَّ ضَرْبَ الملائكةِ وُجوهَ هؤلاء مُناسِبٌ لِإقبالِهم على ما أسْخَطَ اللهَ، وأنَّ ضَرْبَهم أدْبارَهم مُناسِبٌ لِكَراهَتِهم رِضوانَه؛ لأنَّ الكَراهةَ تَستلزِمُ الإعراضَ والإدبارَ؛ ففي الكلامِ أيضًا مُحسِّنُ اللَّفِّ والنَّشْرِ المُرتَّبِ(١)، فكان ذلك التَّعذيبُ مُناسبًا لِحالَيْ تَوقِّيهم في الفِرارِ مِن القِتالِ، ولِلسَّببينِ الباعثينِ على ذلك التَّوقِّي(٢).

---

= الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري)) للآمدي (١/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٢٥-٢٣٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧-٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٩).

- وفُرِّعَ على اتِّباعِهم ما أسْخَطَ اللهَ وكَراهَتِهم رِضوانَه قَولُه: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾؛ فكان اتِّباعُهم ما أسْخَطَ اللهَ وكَراهَتُهم رِضوانَه سَببًا في الأمْرَينِ: ضَرْبُ الملائكةِ وُجوهَهم وأدْبارَهم عِندَ الوفاةِ، وإحباطُ أعْمالِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١١٩).

## الآيات (٢٩-٣١)

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾: أي: أحقادَهم، واحِدُها ضِغْنٌ: وهو ما في القَلبِ مُستَكِنٌّ مِن العَداوةِ، وأصلُ (ضغن): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ في مَيْلٍ واعْوِجاجٍ[1].

﴿بِسِيمَٰهُمْ﴾: أي: بعَلاماتِهم وآثارِهم، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ[2].

﴿لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾: أي: مَعاريضِ الكَلامِ ومَعناه وفَحواه، يُقالُ: لَحَنتُ له ألحَنُ: إذا قُلتَ له قَولًا يَفقَهُه عنك، ويَخفَى على غَيرِه، وأصلُ (لحن): يدُلُّ على إمالةِ شَيءٍ عن جِهتِه[3].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾: أي: لَنَختَبِرَنَّكم ولَنَمتَحِنَنَّكم، والبَلاءُ يكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، وأصلُ (بلو): يدُلُّ على الامتحانِ والاختِبارِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مهدِّدًا المنافِقينَ بكشفِ أستارِهم، وفضحِ أسرارِهم: بل أَحَسِبَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ أنْ لنْ يُظهِرَ اللهُ ما في قُلوبِهم مِن أحقادٍ وعَداوةٍ للإسلامِ وأهلِه؟

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى قُدرتَه على ذلك، فيقولُ: ولو نَشاءُ لَأَرَيْناك المُنافِقينَ -يا مُحمَّدُ-، فتَعرِفُهم بعَلاماتِهم الظَّاهِرةِ في وُجوهِهم، ولَتَعرِفَنَّهم -يا محمَّدُ- بفَحْوى أقوالِهم الَّتي تدُلُّ على سُوءِ طَوِيَّتِهم، واللهُ يَعلَمُ أعمالَكم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سُنَّةً مِن سُننِه في خلقِه، فيقولُ: ولَنَختَبِرَنَّ إيمانَكم وصَبرَكم، فنَأمُرُكم بالجِهادِ حتَّى نَعلَمَ المجاهِدينَ مِنكم والصَّابِرينَ، ونختبِرَكم اختبارًا يَكشِفُ أحوالَكم وضمائرَكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

هذا انتِقالٌ مِن التَّهديدِ والوَعيدِ إلى الإنذارِ بأنَّ اللهَ مُطلِعٌ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما يُضمِرُه المُنافِقونَ مِن الكُفرِ والمَكرِ والكَيدِ؛ لِيَعلَموا أنَّ أسْرارَهم غَيرُ خافيةٍ، فيُوقِنوا أنَّهم يَكُدُّون عُقولَهم في تَرتيبِ المَكايِدِ بلا طائلٍ، وذلك خَيبةٌ لِآمالِهم(١).

وأيضًا لَمَّا صوَّرَ اللهُ -سُبحانَه- ما أثَّرَتْه خِيانةُ المُنافِقين بأقبَحِ صُوَرِه، فبانَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٠).

به أنَّه ما حَمَلهم على ما فَعَلوه إلَّا جَهلُهم وسَفاهَتُهم؛ فأنتَجَ إهانَتَهم بالتَّبْكيتِ، فقال[١]:

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: بل[٢] أحَسِبَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ أنَّ اللهَ لن يُظهِرَ ما في قُلوبِهم مِن أحقادٍ وعَداوةٍ للإسلامِ وأهلِه[٣]؟

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان مَفهومُ قَولِه: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٩] أنَّ اللهَ يُظهِرُ ضَمائرَهم، ويُبرِزُ سَرائرَهم، كأنَّ قائلًا قال: فلِمَ لَمْ يُظهِرْ؟ فقال: أخَّرْناه لِمَحضِ المَشيئةِ، لا لِخَوفٍ منهم كما لا تُفشَى أسرارُ الأكابِرِ خَوفًا منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥١).

(٢) قال الرَّازي: (المفسِّرونَ على أنَّها [أي: أم] مُنقَطِعةٌ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨).
وممَّن اختار أنَّها مُنقطِعةٌ بمعنى «بلْ»: ابنُ عطيَّة، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٠).
وذكر الرَّازيُّ أنَّه يحتمِلُ أنْ يُقالَ: إنَّها استِفهاميَّةٌ، و (أمْ) إذا كانت مُتَّصِلةً استِفهاميَّةً تَسْتدْعي سَبْقَ جملةٍ أخرَى استِفهامِيَّةٍ، والسَّابقُ مفهومٌ مِن قولِه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٦]، فكأنَّه تعالَى قال: أحَسِبَ الَّذينَ كفروا أنْ لن يَعلَمَ اللهُ إسرارَهم، أمْ حَسِبَ المنافقونَ أنْ لنْ يُظْهِرَها؟! والكلُّ فاسدٌ، وإنَّما يَعلَمُها ويُظهِرُها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٤٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٥٩).

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾.

أي: ولو نَشاءُ لأَرَيْناكَ المُنافِقينَ -يا مُحمَّدُ- بأشْخاصِهم وأعْيانِهم، فتَعرِفُهم بعَلاماتِهم الظَّاهِرةِ في وُجوهِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ * وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠١، ١٠٢].

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾.

أي: وأُقسِمُ -يا محمَّدُ- لَتَعرِفَنَّ المنافِقينَ في فَحْوى كلامِهم، وما يَصدُرُ منهم مِن أقوالٍ تدُلُّ على مَقاصِدِهم السَّيِّئةِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١).

قال ابنُ عطيَّة: (قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ مُقارَبةٌ في شُهرتِهم، ولكِنَّه تعالى لم يُعَيِّنْهم قَطُّ بالأسماءِ والتَّعريفِ التَّامِّ؛ إبقاءً عليهم وعلى قرابتِهم، وإن كانوا قد عُرِفوا بلَحنِ القَولِ، وكانوا في الاشتِهارِ على مراتِبَ، كعبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ، والجَدِّ بنِ قَيسٍ، وغَيرِهم مِمَّن دونَهم في الشُّهرةِ. والسِّيما: العَلامةُ الَّتي كان تعالى يَجعَلُ لهم لو أراد التَّعريفَ التَّامَّ بهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٠).

وقال ابن عاشور: (يَحتَمِلُ أنَّ اللهَ شاء ذلك وأراهم للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم... ويحتمِلُ أنَّ اللهَ قال هذا إكرامًا لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، ولم يُطْلِعْه عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٢)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٥٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٣-٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

قال ابن عاشور: (المعنى: فإنْ لم نُرِكَ إيَّاهم بسِيماهم فلَتَقَعَنَّ مَعرِفتُك بهم مِن لَحنِ كَلامِهم، =

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾.

أي: واللهُ يَعلَمُ أعمالَكم، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها[١].

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ٣١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أخبرَ اللهُ -سُبحانَه- أنه يُعرِّفُ المُنافِقينَ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أتْبَعَه الإخبارَ بأنَّه يُعرِّفُهم للمؤمنينَ كافَّةً أيضًا[٢]، بامتِحانِهم بالجِهادِ في سبيلِ اللهِ.

﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي: وأُقسِمُ لَنَختَبِرَنَّ إيمانَكم وصَبْرَكم، فنَأمُرُكم بالجِهادِ حتَّى نَعلَمَ المجاهِدينَ مِنكم والصَّابِرينَ على أداءِ ما فرَضَ اللهُ تعالى، وتَحَمُّلِ البَلاءِ- عِلْمَ شَهادةٍ ووُجودٍ يَترَتَّبُ عليه الجَزاءُ[٣].

---

= بإلهامٍ يَجعَلُه اللهُ في عِلمِ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فلا يَخفى عليه شَيءٌ مِن لَحنِ كَلامِهم، فيَحصُلُ له العِلمُ بكُلِّ واحدٍ منهم إذا لحَنَ في قَولِه، وهم لا يخلو واحِدٌ منهم مِنَ اللَّحنِ في قَولِه؛ فمَعرفةُ الرَّسولِ بكُلِّ واحدٍ منهم حاصِلةٌ... ولَحنُ القَولِ: الكَلامُ المحالُ به إلى غَيرِ ظاهِرِه؛ لِيَفطَنَ له مَن يُرادُ أن يَفهَمَه دونَ أن يَفهَمَه غَيرُه، بأن يكونَ في الكلامِ تَعريضٌ أو توريةٌ أو ألفاظٌ مُصطَلَحٌ عليها بيْنَ شَخصَينِ أو فِرقةٍ، كالألفاظِ العِلميَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢١، ١٢٢).

وقال ابن تيميَّة: (فمَعرِفةُ المُنافِقِ في لَحنِ القَولِ لا بدَّ منها، وأمَّا مَعرِفتُه بالسِّيما فمَوقوفةٌ على المشيئةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ١١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٦)، =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٦].

﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾

أي: ونختبِرَكم اختبارًا يَكشِفُ أحوالَكم وضمائرَكم، ويُظهِرُ حَسَنَها وقبيحَها[1].

---

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٤، ٣٨٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المرادَ: ولَنَبْلُونَّكم بالجهادِ؛ حتَّى يَعلَمَ المؤمِنونَ المجاهِدينَ والصَّابِرينَ، ويَتبَيَّنَ لهم أهلُ الإيمانِ مِن أهلِ النِّفاقِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٣).

قال الشنقيطي: (ما ذكَرَه [أي: ابنُ جريرٍ] مِن أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ الآيَةَ: حتَّى يَعلَمَ حِزبُنا وأولياؤُنا المجاهِدينَ منكم والصَّابِرينَ- له وَجهٌ، وقد يُرشِدُ له قَولُه تعالى: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نُظهِرَها ونُبرِزَها للنَّاسِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٨٦).

وقال الألوسي: (﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمرِ بالجهادِ ونحوِه مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٦). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مِن شُبهةٍ أو شَهوةٍ، بحيثُ تُخرِجُ القَلبَ عن حالِ صِحَّتِه واعتدالِه، ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أنَّ اللهَ لا يُخرِجُ ما في قُلوبِهم مِن الأضغانِ والعَداوةِ للإسلامِ وأهلِه؟! هذا ظَنٌّ لا يليقُ بحِكمةِ اللهِ تعالى؛ فإنَّه لا بُدَّ أن يُمَيِّزَ الصَّادِقَ مِن الكاذِبِ، وذلك بالابتِلاءِ بالمِحَنِ الَّتي مَن ثَبَت عليها ودام إيمانُه فيها، فهو المؤمِنُ حَقيقةً، ومَن رَدَّتْه على عَقِبَيه فلم يَصبِرْ عليها، وحينَ أتاه الامتِحانُ جَزِعَ وضَعُفَ إيمانُه وخَرَجَ ما في قَلْبِه مِن الضِّغْنِ- تَبَيَّنَ نِفاقُه، هذا مُقتضى الحِكمةِ الإلهيَّةِ[1].

٢- قال الله تعالى عن المُنافِقينَ: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ فلا بدَّ أن يظهَرَ ما في قلوبِهم، ويتبيَّنَ بفَلَتاتِ ألسنتِهم؛ فإنَّ الألسُنَ مَغارِفُ القلوبِ، يَظهَرُ منها ما في القلوبِ مِن الخَيرِ والشَّرِّ[2]، قال عُثمانُ بنُ عفَّانَ رضيَ الله عنه: (ما أسَرَّ أحَدٌ سَريرةً إلَّا أظهَرَها اللهُ على صَفَحاتِ وَجْهِه، وفَلَتاتِ لِسانِه)[3].

٣- يَبتلي اللهُ تعالى المؤمِنينَ بالمصائِبِ العَظيمةِ؛ امتِحانًا حتَّى يَتبيَّنَ الصَّادِقُ مِن غَيرِه، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾؛ فلا يُعرَفُ زَيفُ الذَّهَبِ إلَّا إذا أذَبْناه بالنَّارِ، ولا يُعرَفُ طِيبُ العُودِ إلَّا إذا أحرَقْناه بالنَّارِ، أيضًا لا يُعرَفُ المؤمِنُ إلَّا بالابتلاءِ والامتحانِ؛ فعليك أيُّها المسلمُ بالصَّبرِ، قد تُؤذَى على دينِك، قد يُستهزَأُ بك، ورُبَّما تُلاحَظُ، ورُبَّما

---

= قال الواحدي: (﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ أي: نظهرَها، ونكشفَها، بإباءِ مَن يأبى القتالَ، ولا يَصبِرُ على الجهادِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١١٠).

تُراقَبُ، ولكنِ اصبِرْ واصْدُقْ[١]، فالمؤمِنُ إذا امتُحِنَ صبَرَ واتَّعَظ واستَغفَرَ، ولم يَتشاغَلْ بذَمِّ مَنِ انتَقَم منه؛ فاللهُ حَكَمٌ مُقسِطٌ، ثمَّ يَحمَدُ اللهَ على سَلامةِ دينِه، ويَعلَمُ أنَّ عُقوبةَ الدُّنيا أهوَنُ وخَيرٌ له[٢].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ فذَكَرَ أعظَمَ امتِحانٍ يَمتَحِنُ به عِبادَه، وهو الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ، فقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾، أي: نَختَبِرُ إيمانَكم وصَبْرَكم ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾، فمَنِ امتَثَل أمْرَ اللهِ وجاهَدَ في سَبيلِ اللهِ لِنَصرِ دِينِه، وإعلاءِ كَلِمتِه، فهو المؤمِنُ حَقًّا، ومَن تكاسَلَ عن ذلك كان ذلك نَقصًا في إيمانِه[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ كان مُجاهِدٌ رحِمَه اللهُ إذا بلَغ إلى هذه الآيةِ قال: (اللَّهُمَّ إنَّا نسألُكَ أن لا تَبلُوَ أخبارَنا؛ فإنَّا نَفتضِحُ)[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أنَّ الرُّسُلَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَعلَمونَ ما في قُلوبِ الَّذين يُظهِرونَ اتِّباعَهم، والمَعرِفةُ في لَحنِ القَولِ مَبنيَّةٌ على قَرينةٍ لا على شَيءٍ مَحسوسٍ مَقطوعٍ به[٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٨/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩٥).

ٱلْقَوْلِ﴾ استَدَلَّ به مَن جَعَل التَّعريضَ بالقَذفِ مُوجِبًا للحَدِّ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ جَعَلَ سُبحانَه الإرادةَ والتَّعريفَ بالسِّيما -الَّذي يُدرَكُ بالبَصرِ- مُعَلَّقًا على المَشيئةِ، وأقسَمَ على التَّعريفِ في لَحْنِ القَولِ -وهو الصَّوتُ الَّذي يُدرَكُ بالسَّمعِ-؛ فدلَّ على أنَّ المُنافِقينَ لا بُدَّ أنْ يُعرَفوا في أصواتِهم وكَلامِهم الَّذي يَظْهَرُ فيه لَحنُ قَولِهم، وهذا ظاهِرٌ بَيِّنٌ لِمَن تأمَّلَه في النَّاسِ مِن أهلِ الفِراسةِ في الأقوالِ وغيرِها مِمَّا يَظهَرُ فيها مِن النَّواقِضِ والفُحْشِ وغيرِ ذلك[٢].

٤- قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أخبَرَ سُبحانَه أنَّه لو شاء لَعَرَّفَهم رسولَه بالسِّيماءِ في وُجوهِهم، ثمَّ قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ فأقسَمَ أنَّه لا بُدَّ أن يعرفَهم في لَحنِ القَولِ، ومنهم مَن كان يَقولُ القَولَ أو يَعمَلُ العمَلَ فيَنزِلُ القُرآنُ يُخبِرُ أنَّ صاحِبَ ذلك القَولِ والعمَلِ منهم؛ كما في سورةِ (بَراءةٌ)، ومنهم مَن كان المُسلِمون أيضًا يَعلَمونَ كَثيرًا منهم بالشَّواهِدِ والدَّلالاتِ والقَرائنِ والأماراتِ، ومنهم مَن لم يَكُنْ يُعرَفُ، كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[٣] [التوبة: ١٠١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ دليلٌ على أنَّ للأشرارِ ظواهِرَ نَكيرٍ تدُلُّ على ما يُخَبِّئونَ مِن الشَّرِّ، لا تَخْفى على ذَوي الأبْصارِ، والمتوسِّمين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢١)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٤٨٢)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٥٦).

مِن الأخيارِ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ظاهِرُ هذه الآيةِ قد يَتوَهَّمُ منه الجاهِلُ أنَّه تعالى يَستفيدُ بالاختِبارِ عِلمًا لم يَكُنْ يَعلَمُه -سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كَبيرًا-، بل هو تعالى عالِمٌ بكُلِّ ما سيَكونُ قبْلَ أن يكونَ، وقد بيَّنَ أنَّه لا يستفيدُ بالاختِبارِ عِلمًا لم يَكُنْ يَعلَمُه، بقَولِه جَلَّ وعلا: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ فقَولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بعدَ قَولِه: (لِيَبتليَ) دليلٌ قاطِعٌ على أنَّه لم يَستَفِدْ بالاختِبارِ شَيئًا لم يكُنْ عالِمًا به -سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كَبيرًا-؛ لأنَّ العَليمَ بذاتِ الصُّدورِ غَنيٌّ عن الاختِبارِ، وفي هذه الآيةِ بَيانٌ عَظيمٌ لجَميعِ الآياتِ الَّتي يَذكُرُ اللهُ فيها اختِبارَه لِخَلْقِه. فمعنى ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أي: عِلمًا يَترَتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ؛ فلا يُنافي أنَّه كان عالِمًا به قبْلَ ذلك، وفائِدةُ الاختِبارِ: ظُهورُ الأمرِ للنَّاسِ، أمَّا عالِمُ السِّرِّ والنَّجوى فهو عالِمٌ بكُلِّ ما سيَكونُ، كما لا يَخفى[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ﴾

- (أم) مُنقَطِعةٌ في مَعْنى (بل) لِلْإضرابِ الانْتِقاليِّ، والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) لِلْإنكارِ، والمعنى: لا يَحسَبونَ انتِفاءَ إظْهارِ أضْغانِهم في المُستقبَلِ،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٥).

والقاعدةُ في ذلك: أنَّ اللهَ تعالى متى علَّق عِلمَه بالأمورِ بعدَ وُجودِها، كان المرادُ بذلك: العِلمَ الَّذي يترتَّبُ عليه الجزاءُ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٧٥٥، ٧٥٦).

كما انْتَفى ذلك فيما مَضَى؛ فلَعلَّ اللهَ أنْ يَفضَحَ نِفاقَهم[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ الالتِفاتُ إلى نُونِ العَظَمةِ؛ لِإبرازِ العِنايةِ بالإراءةِ[٢].

- واللَّامُ في ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ تأْكيدٌ لِلامِ ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾؛ لِزِيادةِ تَحقيقِ تَفرُّعِ المَعرفةِ على الإراءةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ في مَعنَى الاحتِراسِ ممَّا يَقْتضيهِ مَفهومُ (لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ) مِن عَدَمِ وُقوعِ المَشيئةِ لِإراءتِه إيَّاهم بِنُعوتِهم، والمعنَى: فإنْ لم نُرِكَ إيَّاهم بسِيماهُم، فلَتَقَعَنَّ مَعرِفتُك بهم مِن لَحْنِ كَلامِهم بإلْهامٍ يَجعَلُه اللهُ في عِلْمِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فلا يَخْفى عليه شَيءٌ مِن لَحنِ كَلامِهم، فيَحصُلُ له العِلْمُ بكلِّ واحدٍ منْهم إذا لَحَنَ في قَولِه، وهمْ لا يَخْلو واحدٌ منْهم مِن اللَّحْنِ في قَولِه؛ فمَعرفةُ الرَّسولِ بكلِّ واحدٍ منهم حاصِلةٌ، وإنَّما ترَكَ اللهُ تَعريفَه إيَّاهم بسِيماهُم، ووَكَلَه إلى مَعرِفتِهم بلَحْنِ قَولِهم إبقاءً على سُنَّةِ اللهِ تعالَى في نِظامِ الخَلْقِ بقَدْرِ الإمكانِ؛ لأنَّها سُنَّةٌ ناشِئةٌ عن الحِكمةِ، فلمَّا أُرِيدَ تَكريمُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بإطْلاعِه على دَخائلِ المُنافِقين، سَلَكَ اللهُ في ذلك مَسلَكَ الرَّمْزِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢١، ١٢٢).

- واللَّامُ في ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ﴾ لامُ القَسَمِ المَحذوفِ[١].

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ تَذْييلٌ؛ فهو -لِعُمومِه- خِطابٌ لِجَميعِ الأُمَّةِ المَقصودُ منه التَّعليمُ، وهو مع ذلك كِنايةٌ عن لازِمِه، وهو الوَعيدُ لِأَهْلِ الأعمالِ السَّيِّئةِ على أعْمالِهم، والوعْدُ لِأَهْلِ الأعمالِ الصَّالحةِ على أعْمالِهم، وتَنبيهٌ لِأَهْلِ النِّفاقِ بأنَّ اللهَ يُوشِكُ أنْ يَفضَحَ نِفاقَهم[٢].

- واجتِلابُ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿يَعْلَمُ﴾؛ لِلدَّلالةِ على أنَّ عِلْمَه بذلك مُستمِرٌّ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ﴾ عطْفٌ على قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٠]، ومَعناهُ الاحْتِراسُ ممَّا قدْ يَتوهَّمُ السَّامِعونَ مِن قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ مِن الاسْتِغناءِ عن التَّكليفِ، ووَجْهُ هذا الاحتِراسِ: أنَّ عِلْمَ اللهِ يَتعلَّقُ بأعْمالِ النَّاسِ بعْدَ أنْ تَقَعَ، ويَتعلَّقُ بها قبْلَ وُقوعِها بأنَّها سَتَقعُ، ويَتعلَّقُ بعَزْمِ النَّاسِ على الاستِجابةِ لِدَعوةِ التَّكاليفِ قُوَّةً وضَعْفًا، ومِن عَدَمِ الاستِجابةِ كُفْرًا وعِنادًا؛ فبَيَّنَ بهذه الآيةِ أنَّ مِن حِكْمةِ التَّكاليفِ أنْ يَظهَرَ أثَرُ عِلْمِ اللهِ بأحْوالِ النَّاسِ، وتَقومَ الحُجَّةُ عليهم[٤].

- وقولُه: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ مُستعمَلٌ في معنَى: حتَّى نُظهِرَ للنَّاسِ الدَّعاويَ الحقَّ مِن الباطِلةِ؛ فالعِلمُ كِنايةٌ عن إظْهارِ الشَّيءِ المَعلومِ، بقَطْعِ النَّظَرِ عن كَونِ إظْهارِه لِلْغيرِ أو لِلمُتكلِّمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٤).

- قولُه: ﴿وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ بَلْوُ الإخبارِ: كِنايةٌ عن أحوالِ أعْمالِهم مِن خَيرٍ وشَرٍّ؛ لأنَّ الأخبارَ إنَّما هي أخبارٌ عن أعْمالِهم، وهذه عِلَّةٌ ثانيةٌ عُطِفَتْ على قَولِه: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وأُعِيدَ عطْفُ فِعلِ (نَبْلُوَ) على فِعلِ ﴿نَعْلَمَ﴾، وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُعطَفَ ﴿أَخْبَارَكُمْ﴾ بالواوِ على ضَميرِ المُخاطَبينَ في (لَنَبْلُوَنَّكُمْ)، ولا يُعادَ (نَبْلُوَ)؛ فالعُدولُ عن مُقْتضَى ظاهِرِ النَّظْمِ إلى هذا التَّركيبِ؛ لِلمُبالَغةِ في بَلْوِ الأخبارِ؛ لأنَّه كِنايةٌ عن بَلْوِ أعْمالِهم، وهي المَقصودُ مِن بَلْوِ ذَواتِهم، فذِكْرُه كذِكْرِ العامِّ بعْدَ الخاصِّ؛ إذ تَعلَّقَ البَلْوُ الأوَّلُ بالجِهادِ والصَّبْرِ، وتَعلَّقَ البَلْوُ الثَّاني بالأعمالِ كلِّها، وحصَلَ مع ذلك تأْكيدُ البَلْوِ تأْكيدًا لَفظيًّا[1].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٤، ١٢٥).

## الآيات (٢٢-٢٥)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَشَآقُّواْ﴾: أي: عادَوْا، وخالَفوا، وجانَبوا، والمُشاقَّةُ عِبارةٌ عن كَونِ كلِّ واحدٍ مِن الخَصمينِ في شقٍّ غيرِ شقِّ صاحبِه، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصِداعٍ في شَيءٍ[1].

﴿تَهِنُواْ﴾: أي: تَضعُفوا، وأصلُ (وهن): يدُلُّ على ضَعْفٍ[2].

﴿ٱلسَّلۡمِ﴾: أي: الصُّلْحِ والمُهادَنةِ والمُسالَمةِ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على صِحَّةٍ وعافيةٍ[3].

﴿يَتِرَكُمۡ﴾: أي: يَنقُصَكم أو يَظلِمَكم، يُقالُ: وَتَرَه يَتِرُه وَتْرًا وتِرَةً: إذا نَقَصَه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٢، ١٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨١، ٢٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٥٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١، ٤٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣).

وأصلُه مِنَ الوَتْرِ: وهو الفَردُ؛ فلن يُفرِدَهم ويُجَرِّدَهم مِن أعمالِهم، بل يُوَفِّيهم إيَّاها[١].

## المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُهدِّدًا الكافرينَ: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، وخالَفوا رَسولَه مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لهم الحَقُّ: لن يَضُرُّوا اللهَ شَيئًا بذلك، وسيُبطِلُ اللهُ أعمالَهم.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى المؤمنينَ بالمُداوَمةِ على طاعتِه وطاعةِ رسولِه، ويَنهَى عن إبطالِ العمل، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، ولا تُبطِلوا أعمالَكم الصَّالِحةَ، وتُذهِبوها بالشِّركِ أو بغَيرِه مِمَّا يُحبِطُ الأعمالَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه سوءَ مصيرِ مَنِ استمَرَّ على كفرِه حتَّى مات عليه، فيقولُ: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ثمَّ ماتوا على كُفرِهم مِن غيرِ تَوبةٍ: فلن يَغفِرَ اللهُ لهم. ثمَّ يقولُ الله تعالى للمُؤمنينَ: فلا تَضعُفوا عن قِتالِ الكافِرينَ، وتَبدَؤوهم بالصُّلحِ والمُسالَمةِ، والحالُ أنَّكم الأعلَونَ الغالِبونَ لهم، واللهُ معكم، فيَحفَظُكم ويَنصُرُكم عليهم، ولن يَنقُصَكم اللهُ شيئًا مِن ثوابِ أعمالِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٣٢﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ لَن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

﴿يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، وخالَفوا رَسولَه مُحمَّدًا؛ عِنادًا منهم مِن بَعدِ ما تَبَيَّنَ لهم أنَّه رَسولُ اللهِ حَقًّا، وأنَّ الإسلامَ هو دِينُه صِدقًا: لن يَضُرُّوا اللهَ شَيئًا بذلك؛ فهو غَنيٌّ عنهم، وإنَّما يَضُرُّونَ أنفُسَهم، وسيَنصُرُ اللهُ رَسولَه، ويُظهِرُ دِينَه، ويُعلِي كَلِمتَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٦، ٣٨٧).

قال الرازي: (﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ ...﴾ وفيه وجْهانِ؛ أحدُهما: هم أهلُ الكِتابِ؛ قُرَيْظةُ والنَّضيرُ. والثَّاني: كفَّارُ قُرَيشٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٠).

وقال القرطبي: (يَرجِعُ إلى المنافقينَ أو إلى اليهودِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: هم المطعمونَ يومَ بَدْرٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤).

وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ هذه الآيةَ في المُرتدِّينَ عن الإيمانِ، وأنَّهم لن يَضُرُّوا إلَّا أنفُسَهم، ولا يُثيبُهم اللهُ على ما عَمِلوه مِنَ الصَّالحاتِ قبْلَ رِدَّتِهم. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٢).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ لقولِه: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٦).

قال الشنقيطي: (﴿وَصَدُّواْ﴾ هنا إن قُدِّرَتْ لازِمةً فمعنَى الصُّدودِ: الكفرُ، فتكونُ كالتَّوكيدِ لقولِه: ﴿كَفَرُواْ﴾. وإن قُدِّرَتْ مُتعَدِّيةً كان ذلك تأسيسًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿كَفَرُواْ﴾ يدُلُّ على كفرِهم في أنفُسِهم، وقوله: ﴿وَصَدُّواْ﴾ على أنَّه مُتعَدٍّ يدُلُّ على أنَّهم حمَلوا غيرَهم على الكفرِ، وصَدُّوه عن الحقِّ، وهذا أرجَحُ ممَّا قبْلَه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٨٦).

وقال ابن عثيمين في فعلِ «صَدَّ»: (الأَولى أن نقولَ: إنَّه مُتعَدٍّ؛ لأنَّ مَن صدَّ غيرَه فهو عن الحقِّ أصَدُّ، لكنْ مَن صدَّ بنفْسِه فقد لا يَصُدُّ غيرَه. فالأَولى أن نحمِلَ ما جاء في القرآنِ مِن ذِكرِ الصَّدِّ على الشَّيءِ المُتعدِّي، لا على اللَّازِمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٨).

ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف: ٨، ٩].

﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾.

أي: وسيُبطِلُ اللهُ أعمالَهم؛ فلا يَنالونَ منها نَفعًا، ولا يَحصُلونَ منها على طائِلٍ[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا أطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، بامتثالِ الأوامرِ، واجتنابِ النَّواهي، بإخلاصٍ للهِ تعالى، ومُتابَعةٍ لِشَرعِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

أي: ولا تُبطِلوا -أيُّها المُؤمِنونَ- أعمالَكم الصَّالِحةَ، وتُذهِبوها بالشِّركِ، أو الرِّدَّةِ عن الإسلامِ، أو بغَيرِ ذلك مِمَّا يُحبِطُ الأعمالَ، ويُذهِبُ نَفْعَها وثَوابَها[1].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣).

قال ابن تيميَّة: (﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لا تَجعَلوها باطِلةً؛ لا مَنفعةَ فيها ولا ثوابَ ولا فائِدةَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٤١٧).

وقال ابن القيِّم: (إبطالُها: تَركُ الصَّبرِ على إتمامِها). ((مدارج السالكين)) (٢/ ١٥١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى النَّهيِ عن إبطالِهم الأعمالَ: النَّهيُ عن أسبابِ إبطالِها... وتَسمَحُ محامِلُه بأن يَشملَ النَّهيَ والتَّحذيرَ عن كُلِّ ما بيَّنَ الدِّينُ أنَّه مُبطِلٌ للعَمَلِ كُلًّا أو بَعضًا، مِثلُ: الرِّدَّةِ، ومِثلُ الرِّياءِ في العَمَلِ الصَّالحِ؛ فإنَّه يُبطِلُ ثَوابَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٧).

وقال ابن جُزَي: (﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يَحتمِلُ أربعةَ مَعانٍ؛ أحدُها: لا تُبطِلوا أعمالَكم بالكُفرِ بعدَ الإيمانِ. والثَّاني: لا تُبطِلوا حَسَناتِكم بفِعلِ السَّيِّئاتِ. ذَكَره الزَّمخشريُّ، وهذا على مذهبِ المعتزِلةِ، خِلافًا للأشعريَّةِ؛ فإنَّ مَذهَبهم أنَّ السَّيِّئاتِ لا تُبطِلُ الحسَناتِ. والثَّالثُ: لا تُبطِلوا أعمالَكم بالرِّياءِ والعُجبِ. والرَّابعُ: لا تُبطِلوا أعمالَكم بأن تَقتَطِعوها قبْلَ تَمامِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٤).

وقد دلَّت النُّصوصُ على أنَّ حُبوطَ الحَسناتِ كلِّها لا يكونُ إلَّا بالرِّدَّةِ، وهو حبوطٌ عامٌّ، ودلَّت النُّصوصُ أيضًا على أنَّ بعضَ الحَسناتِ يحبطُ ببَعضِ السَّيِّئاتِ، وهو حُبوطٌ جُزئيٌّ. يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٦٦). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٣٧-٦٤٠).

وقال السعدي: (قوله: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يَشملُ النَّهيَ عن إبطالِها بعدَ عَمَلِها، بما يُفسِدُها؛ مِنْ مَنٍّ بها وإعجابٍ، وفَخرٍ وسُمعةٍ، ومِن عَمَلٍ بالمعاصي الَّتي تَضمَحِلُّ معها الأعمالُ، ويُحبَطُ أجرُها، ويَشملُ النَّهيَ عن إفسادِها حالَ وُقوعِها؛ بقَطْعِها، أو الإتيانَ بمُفسِدٍ مِن مُفسِداتِها، فمُبطِلاتُ الصَّلاةِ والصِّيامِ والحَجِّ ونَحوِها كُلُّها داخِلةٌ في هذا، ومَنهيٌّ عنها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((أَتَدرُونَ ما المُفلِسُ؟ قالوا: المُفلِسُ فينا مَن لا دِرهمَ له ولا مَتاعَ، فقال: إنَّ المُفلِسَ مِن أُمَّتي يأتي يومَ القيامةِ بصَلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شَتَم هذا، وقَذَف هذا، وأكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَب هذا؛ فيُعطَى هذا مِن حَسَناتِه، وهذا مِن حَسَناتِه، فإنْ فَنِيَت حَسَناتُه قبْلَ أن يَقضِيَ ما عليه أُخِذَ مِن خطاياهم، فطُرِحَت عليه، ثمَّ طُرِحَ في النَّارِ!))[1].

ثمَّ بيَّن سبحانَه أنَّه لا يغفِرُ للمُصِرِّينَ على الكُفرِ، والصدِّ عن سبيلِ الله[2]، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ٣٤﴾.

أي: إنَّ الَّذين كَفَروا وصَدُّوا النَّاسَ عن دينِ اللهِ، ثمَّ ماتوا على كُفرِهم مِن غيرِ تَوبةٍ: فلن يَغفِرَ اللهُ ذُنوبَهم؛ فلا يَستُرُها عليهم، ولا يَتجاوَزُ عن مُؤاخَذَتِهم بها[3].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

قال الألوسي في قولِه تعالى: ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: (امتنعَوا عن الدُّخولِ في الإسلامِ وسلوكِ طريقِه، أو صَدُّوا النَّاسَ عنه ثُمَّ ماتُوا). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٤). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٥٦٢). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ * خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ﴾ [البقرة: ١٦١، ١٦٢].

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا بيَّن أنَّ عَمَلَ الكافِرِ الَّذي له صورةُ الحَسناتِ مُحبَطٌ، وذَنْبَه الَّذي هو أقبَحُ السَّيِّئاتِ غيرُ مَغفورٍ؛ بيَّنَ أنْ لا حُرمةَ له في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ، وقد أمَرَ اللهُ تعالى بطاعةِ الرَّسولِ بقَولِه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد: ٣٣]، وأمَرَ بالقِتالِ بقَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾، أي: لا تَضعُفوا بعدَما وُجِدَ السَّببُ في الجِدِّ في الأمرِ، والاجتِهادِ في الجِهادِ(١).

وأيضًا لَمَّا قدَّمَ اللهُ سُبحانَه ذمَّ الكَفَرةِ، وأنَّه يُبطِلُ أعمالَهم في الدُّنيا في الحَربِ وغيرِها، وختَمَ بأنَّ عَداوَتَه لهم مُتحتِّمةٌ، لا انفِكاكَ لها، وكان ذلك موجِبًا للاجتِراءِ عليهم- سبَّبَ عنه قَولَه مُرغِّبًا لهم في لُزومِ الجِهادِ، مُحذِّرًا مِن تَركِه(٢):

﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾.

أي: فلا تَضعُفوا -أيُّها المُؤمِنونَ- عن قِتالِ الكافِرينَ، وتَبدَؤوا بدَعوتِهم إلى

---

= وقال الشوكاني: (قيَّد سبحانه عدَمَ المغفرةِ بالموتِ على الكُفرِ؛ لأنَّ بابَ التَّوبةِ وطريقَ المغفرةِ لا يُغلَقانِ على مَن كان حيًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩).

وقال ابن عطية: (وظاهرُ الآيةِ العمومُ في كلِّ ما تناولَتْه الصِّفةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٣، ٢٦٤).

الصُّلحِ والمُسالَمةِ، والحالُ أنَّكم العالُون عليهم، القاهِرونَ الغالِبونَ لهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾.

أي: واللهُ معكم، فيَحفَظُكم ويُعينُكم، ويَنصُرُكم على الكافِرينَ[٢].

كما قال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾.

أي: ولن يَنقُصَكم اللهُ شيئًا مِن ثوابِ أعمالِكم، أو يُحبِطَها ويُبطِلَها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٦-٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٠-١٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٨٩، ٣٩٠).

قال القرطبي: (﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم أعلَمُ بالله منهم. وقيل: وأنتمُ الأعلَوْن في الحُجَّةِ. وقيل: المعنى: وأنتمُ الغالِبون؛ لأنَّكم مؤمنونَ، وإنْ غَلَبوكم في الظَّاهِرِ في بعضِ الأحوالِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦).

وقال الشنقيطي: (﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: الأقهَرُون والأغلَبُون لأعدائِكم، ولأنَّكم تَرجُون مِن الله مِن النَّصرِ والثَّوابِ ما لا يَرجُون. وهذا التَّفسيرُ في قَولِه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ هو الصَّوابُ. وتدُلُّ عليه آياتٌ مِن كتابِ الله). ((أضواء البيان)) (٧/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٢، ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد: ٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يأمُرُ تعالى المُؤمِنينَ بأمرٍ به تَتِمُّ أمورُهم، وتَحصُلُ سَعادتُهم الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ، وهو: طاعتُه وطاعةُ رَسولِه في أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه، والطَّاعةُ هي امتِثالُ الأمرِ، واجتِنابُ النَّهيِ على الوَجهِ المأمورِ به، بالإخلاصِ وتمامِ المُتابَعةِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أي: بمعصيةِ الله ورسولِه؛ فإنَّ الأعمالَ الصَّالِحةَ إذا نُويَ بها ما لا يُرضي اللهَ ورسولَه بَطَلَت، وإن كانت في الذِّروةِ مِن حُسنِ الصُّورةِ؛ فكانت صورةً بلا مَعنًى، فهي ممَّا يكونُ هَباءً مَنثورًا، مِثلُ ما فعل أولئك المُظهِرونَ للإيمانِ، المُبطِنونَ للمُشاقَقةِ، بالنِّفاقِ والرِّياءِ، والعُجبِ، والأذى ونحوِ ذلك مِنَ المعاصي، ولكِنَّ السِّياقَ بسِياقِه ولَحاقِه يدُلُّ على أنَّ الكُفرَ هو المرادُ الأعظَمُ بذلك(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾

---

= كثير)) (٧/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٠، ٣٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٠).

تفسيرُ الإبطالِ هاهنا بالرِّدَّةِ لأنَّها أعظَمُ المُبطِلاتِ، لا لأنَّ المُبطِلَ يَنحصِرُ فيها، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، فهذانِ سَببانِ عَرَضَا بعدُ للصَّدقةِ فأبْطَلاها، شبَّهَ سُبحانَه بُطلانَها بالمَنِّ والأذَى بحالِ المُتصدِّقِ رِياءً في بُطلانِ صَدقةِ كلِّ واحِدٍ منهما، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]، وفي الصَّحيحِ[١] عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((مَن تَرَكَ صَلاةَ العَصرِ فقد حَبِطَ عَمَلُه))[٢]، والحُبوطُ نَوعانِ: عامٌّ وخاصٌّ، فالعامُّ: حُبوطُ الحَسناتِ كلِّها بالرِّدَّةِ والسَّيِّئاتِ كلِّها بالتَّوبةِ، والخاصُّ: حُبوطُ السَّيِّئاتِ والحَسناتِ بَعضِها ببَعضٍ، وهذا حُبوطٌ مُقيَّدٌ جُزئيٌّ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ هذه الأمورُ الثَّلاثةُ كُلٌّ منها مُقتَضٍ للصَّبرِ وعَدَمِ الوَهْنِ؛ الأوَّلُ: كَونُهم الأعلَيْنَ. الثَّاني: أنَّ اللهَ معهم. الثَّالِثُ: أنَّ اللهَ لا يَنقُصُهم مِن أعمالِهم شَيئًا، بل سيُوَفِّيهم أُجورَهم، ويَزيدُهم مِن فَضْلِه، خُصوصًا عِبادةَ الِجهادِ، فإذا عَرَفَ الإنسانُ أنَّ اللهَ تعالى لا يُضيعُ عَمَلَه وجِهادَه، أوجَبَ له ذلك النَّشاطَ وبَذْلَ الجُهدِ فيما يَترتَّبُ عليه الأجرُ والثَّوابُ، فكيف إذا اجتمَعَت هذه الأمورُ الثَّلاثةُ؟ فإنَّ ذلك يُوجِبُ النَّشاطَ التَّامَّ؛ فهذا مِن تَرغيبِ اللهِ لِعبادِه وتَنشيطِهم، وتَقويةِ أنفُسِهم على ما فيه صَلاحُهم وفَلاحُهم[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣) من حديث بُرَيْدةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ فيه إرشادٌ بمَنْعِ المُكَلَّفِ مِن الإعجابِ بنَفْسِه؛ وذلك لأنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ كان ذلك سبَبَ الافتِخارِ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾، يعني: ليس ذلك مِن أنفُسِكم، بل مِنَ اللهِ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَسَيُحۡبِطُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: قد تقَدَّمَ في أوَّلِ السُّورةِ أنَّ اللهَ تعالى أحبَطَ أعمالَهم، فكيف يُحبِطُ في المُستَقبَلِ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ المرادَ مِن قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [محمد: ١] في أوَّلِ السُّورةِ: المُشرِكونَ، ومِن أوَّلِ الأمرِ كانوا مُبطِلينَ، وأعمالُهم كانت على غَيرِ شَريعةٍ، والمرادُ مِن الَّذين كَفَروا هاهنا: أهلُ الكِتابِ، وكانت لهم أعمالٌ قبْلَ الرَّسولِ، فأحبَطَها اللهُ تعالى؛ بسَبَبِ تَكذيبِهم الرَّسولَ، ولا يَنفَعُهم إيمانُهم بالحَشرِ والرُّسُلِ والتَّوحيدِ، والكافِرُ المُشرِكُ أحبطَ عمَلَه؛ حيثُ لم يكُنْ على شَرعٍ أصلًا، ولا كان مُعتَرِفًا بالحَشرِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ المرادَ بالأعمالِ هاهنا مَكايِدُهم في القِتالِ، واللهُ سيُبطِلُه؛ حيث يكونُ النَّصرُ للمُؤمِنينَ، والمرادُ بالأعمالِ في أوَّلِ السُّورةِ هو ما ظَنُّوه حَسَنةً[2].

**الوجه الثَّالثُ**: أنَّ حصولَ الإحباطِ في المستقبَلِ يدُلُّ على أنَّ اللهَ مُحبِطٌ أعْمالَهم مِنَ الآنَ؛ إذ لا يُعجِزُه ذلك حتَّى يَترصَّدَ به المُستقبَلَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٦).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ * فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾، في الآياتِ تَرتيبٌ في غايَةِ الحُسنِ؛ وذلك لأنَّ قَولَه: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ يَقْتَضي السَّعيَ في القِتالِ؛ لأنَّ أمْرَ اللهِ وأمْرَ الرَّسولِ ورَدَ بالجهادِ، وقد أُمِروا بالطَّاعةِ؛ فذلك يَقْتَضي ألَّا يَضعُفَ المُكلَّفُ ولا يَكسَلَ ولا يَهِنَ ولا يَتهاوَنَ، ثم إنَّ بعدَ المُقتَضى قد يتحقَّقُ مانعٌ، ولا يتحقَّقُ المُسبَّبُ، والمانعُ مِن القتالِ إمَّا أُخرَويٌّ وإمَّا دُنيويٌّ، فذَكرَ الأُخروِيَّ، وهو: أنَّ الكافِرَ لا حُرمةَ له في الدُّنيا والآخِرةِ؛ لأنَّه لا عَمَلَ له في الدُّنيا، ولا مَغفِرةَ له في الآخِرةِ؛ فإذا وُجِد السَّببُ ولم يوجَدِ المانعُ يَنبَغي أن يتحقَّقَ المُسبَّبُ، ولم يُقَدِّمِ المانِعَ الدُّنيَويَّ على قَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ الأُمورَ الدُّنيَويَّةَ لا يَنبَغي أن تكونَ مانِعةً مِنَ القِتالِ، فلا تَهِنوا فإنَّ لكمُ النَّصرَ، ثمَّ قال تعالى بعدَ ذلك: المانِعُ الدُّنيوِيُّ مع أنَّه لا يَنبَغي أن يكونَ مانعًا ليس بموجودٍ أيضًا؛ حيث أنتمُ الأعلَوْنَ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ أنَّ ما جاءَت به السُّنَّةُ جاء في القُرآنِ؛ لأنَّ اللهَ أَمَرَنا أنْ نُطيعَ اللهَ ورَسولَه[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ هذه الآيةُ والَّتي في (البَقَرةِ) في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [البقرة: ٢١٧] مُقَيِّدَتانِ لِكُلِّ نَصٍّ مُطلَقٍ فيه إحباطُ العَمَلِ بالكُفرِ؛ فإنَّه مُقَيَّدٌ بالموتِ عليه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٦٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ يُبيِّنُ أنَّ اللهَ لا يَغفِرُ الشِّركَ، وما دونَ ذلك يَغفِرُه إن شاءَ[1].

٦- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبۡطِلُوٓاْ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يَستَدِلُّ الفُقَهاءُ بهذه الآيةِ على تحريمِ قَطْعِ الفَرْضِ، وكراهةِ قَطْعِ النَّفلِ، مِن غيرِ مُوجِبٍ لذلك، وإذا كان اللهُ قد نهى عن إبطالِ الأعمالِ فهو أمرٌ بإصلاحِها وإكمالِها وإتمامِها، والإتيانِ بها على الوَجهِ الَّذي تَصلُحُ به عِلمًا وعَمَلًا[2].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الهُدْنَةَ لا تَجوزُ مع قُوَّةِ الإسلامِ وكَثرةِ أهلِه، واستِعلائِهم على أعدائِهم، ولا يُضرَبُ لها مُدَّةٌ صَغيرةٌ ولا كَبيرةٌ[3].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ لا يُنافي السَّلْمَ المأذونَ فيه بقَولِه تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١]؛ فإنَّه سَلْمٌ طَلَبَه العَدُوُّ، فليست هذه الآيةُ ناسِخةً لآيةِ الأنفالِ، ولا العَكسُ، ولِكُلٍّ حالةٌ خاصَّةٌ؛ ومُقَيَّدٌ بكَونِ المُسلِمينَ في حالةِ قُوَّةٍ ومَنَعةٍ وعِدَّةٍ وعُدَّةٍ، بحيثُ يَدْعونَ إلى السَّلمِ رَغبةً في الدَّعَةِ، فإذا كان للمُسلِمينَ مَصلحةٌ في السَّلْمِ، أو كان أخَفَّ ضُرًّا عليهم؛ فلَهم أن يَبتَدِئوا إذا احتاجوا إليه، وأن يُجيبوا إليه إذا دُعُوا إليه، وقد صالَحَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم المُشرِكينَ يومَ الحُدَيبيَةِ؛ لِمَصلحةٍ ظَهَرت فيما بَعدُ، وصالَحَ المُسلِمونَ في غَزْوِهم إفريقيَّةَ أهلَها، وانكفَؤوا راجِعينَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٨٩). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٣). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٣).

مِصرَ[١].

٩- المؤمِنُ عزيزٌ غالِبٌ، مُؤَيَّدٌ مَنصورٌ، مَكفِيٌّ مَدفوعٌ عنه بالذَّاتِ أين كانَ، ولو اجتَمعَ عليه مَن بأقطارِها؛ إذا قام بحقيقةِ الإيمانِ وواجباتِه ظاهِرًا وباطِنًا، وقد قال اللهُ تعالى للمُؤمِنينَ: ﴿ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴾، فهذا الضَّمانُ إنَّما هو بإيمانِهم وأعمالِهم الَّتي هي جُندٌ مِن جُنودِ اللهِ يَحفظُهم بها، ولا يُفرِدُها عنهم ويَقتَطِعُها عنهم فيُبطِلَها عليهم، كما يَترُ الكافِرينَ والمُنافِقينَ أعمالَهم؛ إذْ كانت لِغَيرِه، ولم تكُنْ مُوافِقةً لأمْرِه[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ على أنَّ المَعنِيَّ بالَّذين كَفَروا هنا الَّذين كَفَروا المَذْكورون في أوَّلِ هذه السُّورةِ وفيما بعْدُ مِن الآياتِ الَّتي جَرى فيها ذِكرُ الكافِرينَ، أي: الكُفَّارِ الصُّرحاءِ؛ عاد الكلامُ إليهم بعْدَ الفَراغِ مِن ذِكرِ المُنافِقينَ الَّذين يُخْفُون الكُفْرَ عَوْدًا على بَدْءٍ؛ لِتَهوينِ حالِهم في نُفوسِ المُسلِمينَ؛ فبَعْدَ أنْ أخبَرَ اللهُ أنَّه أضَلَّ أعْمالَهم، وأنَّهم اتَّبَعوا الباطلَ، وأمَرَ بضَرْبِ رِقابِهم، وأنَّ التَّعْسَ لهم، وحقَّرَهم بأنَّهم يَتمتَّعون ويأْكُلون كما تَأكُلُ الأنعامُ، وأنَّ اللهَ أهلَكَ قُرًى هي أشدُّ منهم قُوَّةً، ثمَّ جَرى ذِكرُ المُنافِقين بعْدَ ذلك؛ ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلى الَّذين كَفَروا أيضًا؛ لِيُعرِّفَ اللهُ المُسلِمينَ بأنَّهم في هذه المآزِقِ الَّتي بيْنَهم وبيْنَ المُشرِكين لا يَلحَقُهم منْهم أدْنى ضُرٍّ، ولِيَزيدَ وَصْفَ الَّذين كَفَروا بأنَّهم شاقُّوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فالجُملةُ استِئنافٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣١). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٢).

ابتِدائيٌّ، وهي تَوطئةٌ لِقَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾[1] [محمد: ٣٥].

- قولُه: ﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ المُشاقَّةُ: المُخالَفةُ، كُنِّيَ بالمُشاقَّةِ عن المُخالَفةِ؛ لأنَّ المُستقِرَّ بشِقٍّ مُخالِفٌ لِلْمستقِرِّ بشِقٍّ آخَرَ، فكِلاهما مُخالِفٌ؛ فلذلك صِيغَتْ منه صِيغةُ المُفاعَلةِ[2].

- قولُه: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ انتصَبَ ﴿شَيْـًٔا﴾ على المَفعولِ المُطلَقِ لـ ﴿يَضُرُّوا۟﴾، والتَّنوينُ لِلتَّقْليلِ، أي: لا يَضُرُّون في المُستقبَلِ اللهَ أقلَّ ضُرٍّ[3].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [محمد: ٣٢]، وبيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [محمد: ٣٤]، وُجِّهَ به الخِطابُ إلى المُؤمِنينَ بالأمْرِ بِطاعةِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَجنُّبِ ما يُبطِلُ الأعمالَ الصَّالحةَ؛ اعتِبارًا بما حُكِيَ مِن حالِ المُشرِكين في الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ، ومُشاقَّةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[4].

- والآيةُ مِن الاحتِباكِ[5]: ذَكرَ الطَّاعةَ أوَّلًا دليلًا على المَعصيةِ ثانيًا، والإبطالَ ثانيًا دليلًا على الصِّحَّةِ أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه أمَرَ بمَبدأِ السَّعادةِ، ونَهى عن نِهايةِ الفَسادِ ثانيًا؛ لأنَّه أعظَمُ في النَّهيِ عن الفسادِ؛ لِمَا فيه من تَقبيحِ صورتِه، وهَتكِ سَريرتِه[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٦، ١٢٧).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٤٦).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٠، ٢٦١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ هذه الآيةُ تَكمِلةٌ لِآيةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ إلخ [محمد: ٣٢]؛ لأنَّ تلك مَسوقةٌ لِعَدَمِ الاكتِراثِ بمَشاقِّهم، ولِبَيانِ أنَّ اللهَ مُبطِلٌ صَنائعَهم، وهذه مَسوقةٌ لِبَيانِ عَدَمِ انتِفاعِهم بمَغفرةِ اللهِ إذا ماتوا على ما هم عليه مِن الكُفْرِ؛ فهي مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا[١].

- واقتِرانُ خَبرِ المَوصولِ بالفاءِ في قَولِه: ﴿فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ إيماءٌ إلى أنَّه أُشرِبَ مَعنى الشَّرطِ؛ فلا يُرادُ به ذو صِلةٍ مُعيَّنٌ، بلِ المُرادُ كلُّ مَن تَحقَّقتْ فيه ماهيَّةُ الصِّلةِ، وهي الكُفْرُ والمَوتُ على الكُفْرِ[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلۡمِ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ الفاءُ في ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ لِلتَّفريعِ على ما تَقرَّرَ في نُفوسِ المُؤمِنينَ مِن خَذْلِ اللهِ تعالَى المُشرِكين بما أخبَرَ به مِن أنَّه أضَلَّ أعْمالَهم، وقدَّرَ لهم التَّعْسَ، وبما ضَرَب لهم مِن مَصائرِ أمْثالِهم مِن الَّذين مِن قبْلِهم؛ دَمَّرَهم اللهُ وأهْلَكَهم ولم يَجِدوا ناصِرًا، وما وَعَدَ به المُؤمِنينَ مِن النَّصْرِ عليهم، وما أمَرَهم به مِن قِتالِهم، وبتَكلُّفِه للمؤمنينَ بالولايةِ، وما وَعَدَهم مِن الجَزاءِ في دارِ الخُلْدِ، وبما أتْبَعَ ذلك مِن وَصْفِ كَيدِ فَريقِ المُنافِقين للمؤمنينَ وتَعهُّدِهم بإعانةِ المُشرِكين، وذلك ممَّا يُوجِسُ منه المؤمِنون خِيفةً؛ إذ يَعلَمون أنَّ أعْداءً لهم مُنْبَثُّونَ بيْنَ ظَهْرانَيْهم؛ فعلَى ذلك كلِّه فُرِّعَ نَهْيُهم عن الوَهنِ وعن المَيلِ إلى الدَّعةِ، ووعَدَهم بأنَّهم المُنتصِرونَ، وأنَّ اللهَ مُؤيِّدُهم. ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ التَّفريعُ على أقرَبِ الأخبارِ المُتقدِّمةِ، وهو قَولُه: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٣] [محمد: ٣١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٢٩، ١٣٠).

- وعُطِفَ ﴿وَتَدْعُوٓاْ﴾ على ﴿تَهِنُواْ﴾؛ فهو مَعمولٌ لِحَرْفِ النَّهيِ، والمعنى: ولا تَدْعوا إلى السَّلْمِ، وهو عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ مِن وَجْهٍ؛ لأنَّ الدُّعاءَ إلى السَّلْمِ مع المَقْدِرةِ مِن طَلَبِ الدَّعةِ لِغَيرِ مَصلحةٍ. وإنَّما خُصَّ بالذِّكْرِ؛ لِئلَّا يُظَنَّ أنَّ فيه مَصلحةَ استِبْقاءِ النُّفوسِ؛ فإنَّ المُشرِكين يَومَئذٍ كانوا مُتكالِبينَ على المُسلِمينَ، فرُبَّما ظَنَّ المُسلِمون أنَّهم إنْ تَداعَوا معهم لِلسَّلْمِ أَمِنوا منهم، فعَرَّفَهم اللهُ أنَّ ذلك يَعودُ عليهم بالمَضرَّةِ؛ لأنَّه يَحُطُّ مِن شَوكَتِهم في نَظَرِ المُشرِكين، فيَحسَبونهم طَلَبوا السَّلْمَ عن ضَعفٍ، فيَزِيدُهم ذلك ضَراوةً عليهم، وتَستخِفُّ بهمْ قَبائلُ العَرَبِ بعْدَ أنْ أخَذوا مِن قُلوبِهم مَكانَ الحُرْمةِ، وتَوقُّعِ البأْسِ، ولهذا المَقصدِ الدَّقيقِ جمَعَ بيْن النَّهْيِ عن الوَهنِ، والدُّعاءِ إلى السَّلْمِ، وأتْبَعَ بقَولِه: ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾، وهي حالٌ مُقرِّرةٌ لِمَعنى النَّهيِ، مَرْدوفةٌ بما يَزِيدُها تَقْريرًا وتَبْيينًا، أي: لا يَنْبغي أنْ تَتضرَّعوا إلى الصُّلْحِ، والحالُ أنتمْ قاهِرون عليهم، وأنَّ اللهَ ناصِرُكم عليهم في الدُّنيا، وخاذِلُهم، وهو مُوفِّي أُجورِكم في العُقْبى. والخبَرُ مُستعمَلٌ في الوعْدِ[1].

- و﴿ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ مُبالَغةٌ في العُلُوِّ، وهو هنا بمَعْنى الغَلَبةِ والنَّصرِ[2].

- وصِيغَ كلٌّ مِن جُملتَيْ ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمۡ﴾ جُملةً اسميَّةً؛ لِلدَّلالةِ على ثَباتِ الغَلَبِ لهم، وثَباتِ عِنايةِ اللهِ بهم[3].

- وقَولُه: ﴿وَلَن يَتِرَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ وَعْدٌ بتَسديدِ الأعمالِ ونَجاحِها، وهو عكْسُ قَولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [محمد:

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣١، ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١]، فكُنِّيَ عن تَوفيقِ الأعمالِ ونَجاحِها بعَدَمِ وَتْرِها، أي: نَقْصِها؛ للعِلْمِ بأنَّه إذا كان لا يَنقُصُها فبِالحَرِيِّ ألَّا يُبطِلَها، أي: ألَّا يُخيِّبَها. ويَجوزُ أيضًا أنْ يُرادَ منه صَريحُه، أي: لن يَنقُصَكم ثَوابَكم على أعْمالِكم، أي: الجِهادِ المُستفادِ مِن قَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾، فيُفِيدَ التَّحريضَ على الجِهادِ بالوعْدِ بأجْرِه كامِلًا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢).

## الآيات (٢٦-٢٨)

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَيُحْفِكُمْ﴾: أي: يُجهِدْكم بمَسألةِ أموالِكم، والإحفاءُ في السُّؤالِ: الإلحاحُ في المُطالَبةِ، وهو مِثلُ الإلحافِ سَواءً؛ فإنَّ الإحفاءَ والإلحافَ: المُبالَغةُ وبُلوغُ الغايةِ في كُلِّ شَيءٍ، وأصلُه يدُلُّ على الاستِقصاءِ[1].

﴿تَتَوَلَّوْا﴾: أي: تُعرِضوا؛ فالفِعلُ (ولَّى) إذا عُدِّي بـ(عن) لَفظًا أو تقديرًا -كما هنا- اقتَضى معنى الإعراضِ والتَّركِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتَضَى مَعنى الوِلايةِ والقُرْبِ[2].

### المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا حقيقةَ الدُّنيا، ومُزهِّدًا فيها: إنَّما حَقيقةُ الحياةِ الدُّنيا أنَّها لَعِبٌ لا فائِدةَ فيه، ولَهوٌ يَتلهَّى النَّاسُ به؛ فلا تَضعُفوا عن الجِهادِ بسَبَبِها، وإنْ تُؤمِنوا وتَتَّقوا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه، يُعْطِكم ثوابَ إيمانِكم، ولا يَسْألْكم أموالَكم؛ إنْ يَسألْكم اللهُ أموالَكم، ويُجهِدْكم بمَسألةِ أموالِكم في سَبيلِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٣)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥١).

تعالى؛ تَمتَنِعوا مِن إخراجِها بُخلًا بها، ويُظهِرِ اللهُ ما في بواطِنِكم مِن أحقادٍ!

ثمَّ يَدعو اللهُ تعالى إلى الإنفاقِ في سبيلِه، فيقولُ: ها أنتم هؤلاء تُدْعَونَ لِتُنفِقوا أموالَكم في جِهادِ أعداءِ اللهِ، ونُصرةِ دينِه؛ فمِنكم مَن يَبخَلُ بمالِه، ومَن يَبخَلْ بمالِه فإنَّما يُمسِكُ عن نَفْسِه الثَّوابَ والخَيرَ الجَزيلَ، واللهُ الغنيُّ عن كُلِّ ما سِواه، وأنتم الفُقَراءُ إليه، وإنْ تُعرِضوا -أيُّها النَّاسُ- عمَّا أمَرَكم اللهُ تعالى به، يَستبدِلْ بكم قَومًا غَيرَكم، ثمَّ لا يَكونوا أمثالَكم في الإعراضِ عن دينِ اللهِ، والبُخلِ بالأموالِ، بل يَكونونَ أطْوَعَ للهِ منكم!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ وَلَا يَسۡـَٔلۡكُمۡ أَمۡوَٰلَكُمۡ ٣٦﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ أمَرَ المُؤمِنينَ بتَركِ المعاصي لأنَّها مُحبِطةٌ لثَوابِ الأعمالِ الصَّالِحةِ، وأمَرَهم بالتَّشميرِ عن ساعِدِ الجِدِّ للجِهادِ ومُقاتَلةِ الأعداءِ نُصرةً لدِينِه، ووعَدَهم بأنَّ اللهَ ناصِرُهم وهم الأعلَوْنَ، فلا يَنْبَغي لهم أن يَطلُبوا المُهادَنةَ مِن العُدُوِّ خَوَرًا وجُبنًا خَوفًا على الحياةِ ولَذَّاتِها - أكَّدَ هذا المعنى فأبانَ أنَّه لا يَنبَغي لكم -أيُّها المُؤمِنون- الحِرصُ على الدُّنيا؛ فإنَّها ظِلٌّ زائلٌ، وعَرَضٌ غيرُ باقٍ[1].

وأيضًا لَمَّا أتمَّ العِلَّةَ الأُولى الصَّادَّةَ عن الطَّاعةِ، أقْبَلَ على الثَّانيةِ القائدةِ إلى المعصيةِ، المُلائمةِ للشَّهوةِ، المُبطِلةِ للأعمالِ، المُوجِبةِ للتَّهاوُنِ المُؤدِّي إلى عَدَمِ المَغفِرةِ؛ فقال[2]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٣).

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾.

أي: إنَّما حَقيقةُ الحياةِ الدُّنيا أنَّها لَعِبٌ لا فائدةَ منه، ولَهوٌ يَتلهَّى النَّاسُ به؛ فلا تَضعُفوا عن الجِهادِ بسَبَبِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

قال الرازيُّ: (اللَّعِبُ: ما تَشتَغِلُ به ولا يكونُ فيه ضَرورةٌ في الحالِ، ولا مَنفعةٌ في المآلِ، ثمَّ إنِ استَعمَلَه الإنسانُ، ولم يَشغَلْه عن غيرِه، ولم يَثْنِه عن أشغالِه المُهِمَّةِ؛ فهو لَعِبٌ، وإن شَغَلَه ودَهَشَه عن مُهِمَّاتِه فهو لَهوٌ، ولهذا يُقالُ: مَلاهٍ لآلاتِ الملاهي؛ لأنَّها مَشْغلةٌ عن الغيرِ، ويقالُ لِما دونَه لَعِبٌ، كاللَّعِبِ بالشِّطْرَنجِ والحَمامِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٢).

وقال أبو هلالٍ العسكريُّ: (الفرقُ بيْنَ اللَّهْوِ واللَّعِبِ: أنَّه لا لَهْوَ إلَّا لَعِبٌ، وقد يكونُ لَعِبٌ ليس بِلَهْوٍ...، وإنَّما اللَّهوُ لَعِبٌ لا يُعقِبُ نفعًا. وسُمِّيَ لَهْوًا؛ لأنَّه يَشغَلُ عما يَعني، مِن قولِهم: ألْهاني الشَّيءُ، أي: شغَلَني، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١]). ((الفروق اللغوية)) (ص: ٢٥٤).

وقال السعديُّ: (لَعِبٌ في الأبدانِ، ولهوٌ في القُلوبِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

وقال ابنُ عاشور: (اللَّعِبُ: الفِعلُ الَّذي يريدُ به فاعِلُه الهَزْلَ دونَ اجتِناءِ فائدةٍ، كأفعالِ الصِّبيانِ في مَرَحِهم. واللَّهوُ: العمَلُ الَّذي يُعمَلُ لِصَرفِ العَقلِ عن تَعَبِ الجِدِّ في الأُمورِ، فيَلهو عمَّا يَهتَمُّ له، ويَكِدُّ عَقْلَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٣).

وقيل: اللَّهوُ واللَّعبُ يَشترِكانِ في أنَّهما اشتِغالٌ بما لا يَعني، مِن هوًى أو طرَبٍ، حرامًا أو لا. قيل: واللَّهوُ أعَمُّ مُطلَقًا، فاستِماعُ الملاهي لَهْوٌ لا لَعِبٌ. وقيل: اللَّعِبُ ما قُصِد به تعجيلُ المسَرَّةِ والاستِرواحُ به، واللَّهوُ ما شغَل مِن هوًى وطرَبٍ وإن لم يُقصَدْ به ذلك. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٩٩)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ٤٩٧).

وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾.

أي: وإنْ تُؤمِنوا وتَتَّقوا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه، ومِن ذلك القيامُ بجِهادِ أعدائِه؛ يُعْطِكم ثوابَ إيمانِكم وتَقواكم بما هو خيرٌ لكم مِن لَعِبِ الدُّنيا ولَهْوِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴾.

أي: وإنْ تُؤمِنوا وتَتَّقوا فإنَّ اللهَ لا يَسْألُكم أموالَكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٣).

قال البقاعيُّ: (﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ ﴾ أي: تَخافوا فتَجعَلوا بيْنَكم وبيْنَ غَضَبِه سُبحانَه وقايةً؛ مِن جهادِ أعدائِه، ومُقاساةِ لَفحِ إيقادِ الحُروبِ، وحَرِّ الأمرِ بالمعروفِ، وإنفاقِ الأموالِ في ذلك؛ فتَكونوا جادِّينَ فتَترُكوا اللَّهْوَ واللَّعِبَ القائِدَينِ إلى الكُفرِ ﴿يُؤْتِكُمْ ﴾ أي: اللهُ الَّذي فعَلْتُم ذلك مِن أجْلِه في الدَّارِ الآخرةِ ﴿أُجُورَكُمْ ﴾). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣، ٣٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤، ١٣٥).

قيل: المرادُ: لا يَسألكم رَبُّكم أموالَكم، ولكِنَّه يُكَلِّفُكم توحيدَه، ويَطلُبُ منكم الإيمانَ به، وجهادَ عدوِّه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٦٩٢١). =

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: إنْ يَسأَلْكم اللهُ أموالَكم، ويُجهِدْكم بمسألتِها، ويُلِحَّ عليكم؛ تَمتَنِعوا مِن إخراجِها بُخلًا بها، ويُظهِرِ اللهُ حينَئذٍ ما في بواطِنِكم مِن أحقادٍ[1].

---

= وقيل: المعنى: لا يَسألكم مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أموالَكم أجرًا على تبليغِ الرِّسالةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٤٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٥).

وقيل: المعنى: لا يأمُركم بإخراجِ جميعِ أموالِكم، بل يأمُرُ ببَعضِها. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: القرطبيُّ، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

وقيل: المعنى: أنَّ اللهَ تعالى غَنيٌّ عنكم، لا يَطلُبُ منكم شيئًا، وإنَّما فرَضَ عليكم الصَّدَقاتِ مِن الأموالِ مُواساةً لإخوانِكم الفُقَراءِ؛ لِيَعودَ نَفعُ ذلك عليكم، ويَرجِعَ ثَوابُه إليكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٣، ٣٢٤).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَينِ الأخيرَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٦).

وقيل: المعنى: لا يسألكم أموالَكم، وإنَّما يَسألُكم أموالَه؛ لأنَّه أَملَكُ لها، وهو المُنعِمُ بإعطائِها. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٠٧).

وقال ابنُ عاشور: (عَطفُ ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ لِمُناسَبةِ قَولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، أي: إنَّ اللهَ يتفَضَّلُ عليكم بالخَيراتِ، ولا يحتاجُ إلى أموالِكم... فقَولُه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ يفيدُ بعُمومِه وسِياقِه معنى: لا يَسألْكم جميعَ أموالِكم، أي: إنَّما يَسألُكم ما لا يُجحِفُ بكم... ويجوزُ أن يُفيدَ أيضًا معنى: أنَّه لا يُطالِبُكم بإعطاءِ مالٍ لِذَاتِه؛ فإنَّه غنيٌّ عنكم، وإنَّما يأمُرُكم بإنفاقِ المالِ لِصالِحِكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤، ١٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

قال ابنُ عاشور: (الإحفاءُ... عَبَّرَ به هنا عن الجَزمِ في الطَّلَبِ، وهو الإيجابُ، أي: فيُوجِبْ عليكم بَذْلَ المالِ، ويَجعَلْ على مَنْعِه عُقوبةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٥).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾: يُظهِرْ بُغضَكم وعَداوتَكم لله تعالى، ولِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمؤمنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: السمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، وابنُ الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٧)، =

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ٣٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أخبرَ تعالى ببُخْلِهم لو سُئِلوا أموالَهم، دَلَّ عليه بمَن يَبخَلُ منهم عَمَّا سألَه منهم، وهو جزءٌ يَسيرٌ جِدًّا مِن أموالِهم[1]!

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ﴾.

أي: إنَّكم تُدْعَونَ لِتُنفِقوا أموالَكم في جِهادِ أعداءِ اللهِ، ونُصرةِ دينِه؛ فمِنكم مَن يَبخَلُ بمالِه فلا يُنفِقُه في سَبيلِ اللهِ، كما أمَرَه اللهُ تعالى[2].

---

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥١).

وقيل: المرادُ: يُظهِرِ الإحفاءُ ما في بواطِنِكم مِن البُخلِ والإمساكِ، والنِّفاقِ والشَّكِّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤).

قال الرازي: (﴿وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ يعني: بسَبَبِه؛ فإنَّ الطَّالِبَ -وهو النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم- وأصحابَه يَطلُبونَكم، وأنتم لِمَحبَّةِ المالِ وشُحِّ الأنفُسِ تَمتَنِعونَ، فيُفضي إلى القِتالِ، وتَظهَرُ به الضَّغائِنُ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

قال الرازي: (يعني: قد طلبتُ منكم اليسيرَ فبَخِلْتُم، فكيف لو طلَبْتُ منكم الكُلَّ؟!). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٣).

وقال السعدي: (والدَّليلُ على أنَّ اللهَ لو طلَبَ منكم أموالَكم وأحفاكم بسُؤالِها أنَّكم تَمتَنِعونَ منها: أنَّكم ﴿تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على هذا الوَجهِ الَّذي فيه مَصلحتُكم الدِّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠].

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾.

أي: ومَن يَبخَلْ بمالِه فلا يُنفِقْه في سَبيلِ اللهِ، فإنَّما يَحرِمُ نَفْسَه مِنَ الثَّوابِ والخَيرِ الجَزيلِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿عَن نَّفْسِهِۦ﴾ يَحتَمِلُ مَعنَيينِ:

أحدُهما: فإنَّما يَبخَلُ عن شُحِّ نَفْسِه.

والآخَرُ: أن يكونَ بمنزلةِ «على»؛ لأنَّك تقولُ: بَخِلتُ عليك وبَخِلتُ عنك، بمعنى: أمسَكْتُ عنك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣).

وقال الألوسي: (يُقالُ: بَخِلتُ عليه وبَخِلتُ عنه؛ لأنَّ البُخلَ فيه معنى المَنعِ، ومعنى التَّضييقِ على مَن مُنِعَ عنه المعروفُ، والإضرارِ؛ فناسَبَ أن يُعَدَّى بـ «عن» للأوَّلِ، وبـ «على»: للثَّاني، وظاهِرٌ أنَّ مَن مَنَع المعروفَ عن نَفْسِه فإضرارُه عليها؛ فلا فَرْقَ بيْنَ اللَّفظَينِ في الحاصِلِ). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ٧].

﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾.

أي: واللهُ الغنيُّ عن كُلِّ ما سِواه، وأنتم الفُقَراءُ إليه دائِمًا في جميعِ أحوالِكم؛ فلا حاجةَ له إلى أموالِكم، وإنَّما أمَرَكم بالنَّفَقةِ في سَبيلِه؛ لِيَعودَ نَفعُ ذلك إليكم[1].

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾.

أي: وإنْ تُعرِضوا -أيُّها النَّاسُ- عمَّا أمَرَكم اللهُ تعالى به، يَجئْ بقَومٍ غَيرِكم[2].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

---

= ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٦).

وممَّن ذهب إلى الاحتمالِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٩).

وممَّن ذهب إلى الاحتمالِ الثَّاني: الزمخشريُّ، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٩).

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨، ٣٩].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم﴾.

أي: ثمَّ لا يَكُنِ الَّذينَ نأتي بهم أمثالَكم في الإعراضِ عن دينِ اللهِ، والبُخلِ بالأموالِ، بل يَكونونَ أطوَعَ للهِ منكم[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ يُؤۡتِكُمۡ أُجُورَكُمۡ﴾ هذا تزهيدٌ منه تعالى لعِبادِه في الحياةِ الدُّنيا، بإخبارِهم عن حقيقةِ أمْرِها بأنَّها لَعِبٌ ولَهوٌ، فلا يزالُ العَبدُ لاهِيًا في مالِه وأولادِه وزِينتِه، ولَذَّاتِه مِنَ النِّساءِ والمآكِلِ والمَشارِبِ، والمساكِنِ والمجالِسِ، والمناظِرِ والرِّياساتِ، لاعِبًا في كُلِّ عمَلٍ لا فائِدةَ فيه، بل هو دائِرٌ بيْنَ البَطالةِ والغَفلةِ والمعاصي، حتَّى يَستكمِلَ دُنياه، ويَحضُرَه أجَلُه، فإذا هذه الأمورُ قد وَلَّت وفارَقَت، ولم يَحصُلِ العَبدُ منها على طائِلٍ! بل قد تَبَيَّنَ له خُسرانُه وحِرمانُه، وحضَرَ عذابُه، فهذا مُوجِبٌ للعاقِلِ الزُّهْدَ فيها، وعَدَمَ الرَّغبةِ فيها والاهتِمامِ بشَأنِها، وإنَّما الذي ينبغي أن يَهتَمَّ به ما ذَكَرَه بقَولِه تعالى: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ بأنْ تُؤمِنوا باللهِ وملائِكتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، وتَقوموا بتَقواه الَّتي هي مِن لوازِمِ الإيمانِ ومُقتَضَياتِه، وهي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

العَمَلُ بمَرْضاتِه على الدَّوامِ، مع تَرْكِ مَعاصيه؛ فهذا الَّذي يَنفَعُ العبدَ، وهو الَّذي يَنبغي أن يُتنافَسَ فيه، وتُبذَلَ الهِمَمُ والأعمالُ في طلَبِه، وهو مقصودُ اللهِ تعالى مِن عِبادِه؛ رَحمةً بهم ولُطفًا؛ لِيُثيبَهم الثَّوابَ الجَزيلَ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ ذلك البُخلَ ضَرَرُه عائِدٌ إليه؛ فلا تَظُنُّوا أنَّهم لا يُنفِقونَه على غَيرِهم، بل لا يُنفِقونَه على أنفُسِهم! فإنَّ مَن يَبخَلُ بأُجرةِ الطَّبيبِ وثَمَنِ الدَّواءِ وهو مريضٌ، لا يَبخَلُ إلَّا على نَفْسِه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ تَحذيرٌ مِن أنْ يَحمِلَهم حُبُّ لَذائذِ العَيشِ على الزَّهادةِ في مُقابَلةِ العَدُوِّ، والدَّعوةِ إلى مُسالَمتِه؛ فإنَّ ذلك يُغْري العَدُوَّ بهم[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ وَصْفُها باللَّعِبِ واللَّهوِ هو على أنَّها وما فيها مِمَّا يَختَصُّ بها: لَعِبٌ، وإلَّا ففي الدُّنيا ما ليس بلَعِبٍ ولا لَهوٍ، وهو الطَّاعةُ، وأمرُ الآخِرةِ وما جرى مَجراه[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِن يَسۡـَٔلۡكُمُوهَا فَيُحۡفِكُمۡ تَبۡخَلُواْ وَيُخۡرِجۡ أَضۡغَٰنَكُمۡ﴾ دَلَّت إضافةُ الأضغانِ إلى ضَميرِهم على أنَّ كُلَّ إنسانٍ يَنطوي بما له مِنَ النُّقصانِ على ما جُبِلَ عليه مِن الأضغانِ، إلَّا مَن عَصَم الرَّحيمُ الرَّحمنُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٧).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ هذا دليلٌ على أنَّ العَبدَ إذا مَنَع في مواسِمِ الخَيراتِ سِوى الزَّكاةِ: لم يَخرُجْ مِن البُخلِ؛ فحَدُّ البُخلِ: مَنعُ ما يَرتَضيه الشَّرعُ والمروءةُ؛ فلا بُدَّ مِن مُراعاةِ المُروءةِ، ورَفعِ قُبحِ الأُحدُوثةِ[1]، وذلك يختَلِفُ باختِلافِ الأشخاصِ[2].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾، وهذا مُراعاةٌ لحالِ كثيرٍ يومَئذٍ بالمدينةِ كانوا حَديثي عَهدٍ بالإسلامِ، وكانوا قد بَذَلوا مِن أموالِهم للمُهاجِرين فيسَّرَ اللهُ عليهم بأنْ لم يَسألْهم زِيادةً على ذلك، وكان بيْنَهم كثيرٌ مِن أهلِ النِّفاقِ يَترصَّدونَ الفُرَصَ لفِتنَتِهم... وهذا يُشيرُ إليه عَطفُ قَولِه: ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾؛ أي: تَحدُثُ فيكم أضغانٌ؛ فيكونُ سُؤالُه أموالَكم سببًا في ظُهورِها، فكأنَّه أظهَرَها، وهذه الآيةُ أصلٌ في سَدِّ ذَريعةِ الفَسادِ[3].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾ قَولُه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ﴾ إلخ. كيف مَوقِعُه بعدَ قَولِه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾؛ فإنَّ الدَّعوةَ للإنفاقِ عَينُ سُؤالِ الأموالِ؟ فكيف يُجمَعُ بيْنَ ما هنا وبيْنَ قَولِه آنِفًا: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾؟

**الجوابُ**: يجوزُ أن يكونَ المعنى: تُدْعَونَ لِتُنفِقوا في سَبيلِ اللهِ؛ لِتَدفَعوا أعداءَكم عنكم، وليس ذلك لِيَنتفِعَ به اللهُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، ونَظمُ الكَلامِ يَقتَضي أنَّ هذه دَعوةٌ للإنفاقِ في الحالِ،

---

(١) الأُحْدُوثة: ما يُتحدَّثُ به. ويُقالُ: صار فُلانٌ أُحْدوثةً، أي: أكثَروا فيه الأحاديثَ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٤/ ٢٣٤)، ((الصحاح)) للجوهري (١/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٥).

وليس إعلامًا لهم بأنَّهم سيُدْعَونَ للإنفاقِ، فهو طَلَبٌ حاصِلٌ، ويُحمَلُ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ على معنى: تُؤمَرونَ، أي: أمْرَ إيجابٍ.

ويجوزُ أن يُحمَلَ ﴿تُدْعَوْنَ﴾ على دَعوةِ التَّرغيبِ، فتَكونَ الآيةُ تَمهيدًا للآياتِ المُقتَضيةِ إيجابَ الإنفاقِ في المُستقبَلِ، مِثلُ آيةِ: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١] ونحوِها.

ويجوزُ أن يكونَ إعلامًا بأنَّهم سيُدعَونَ إلى الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ فيما بعدَ هذا الوَقتِ، فيكونَ المضارِعُ مُستَعمَلًا في زَمَنِ الاستِقبالِ، والمضارِعُ يحتَمِلُه في أصلِ وَضْعِه[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ أنَّ اللهَ غنيٌّ عن العِبادِ، فلو ارتدَّ قَومٌ جاء اللهُ بقَومٍ آخَرينَ[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ تهديدٌ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يُخالِفَ أوامِرَه أحَدٌ[3].

٩- قد وقَعَ الإخبارُ مِن اللهِ تعالى عن قُدرَتِه سُبحانَه على تَبديلِهم بخَيرٍ منهم، وفي بعضِها تبديلُ أمثالِهم، وفي بعضِها استِبدالُه قومًا غيرَهم، ثمَّ لا يَكونوا أمثالَهم؛ فهذه ثلاثةُ أُمورٍ يجِبُ مَعرِفةُ ما بيْنَها مِن الجَمعِ والفَرقِ.

فحيث وقَعَ التَّبديلُ بخَيرٍ منهم فهو إخبارٌ عن قُدرَتِه على أن يَذهَبَ بهم ويأتِيَ بأطوَعَ وأتْقى له منهم في الدُّنيا، وذلك قَولُه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾؛ يعني: بل يَكونوا خيرًا منكم. قال مُجاهِدٌ: (يَستبدِلُ بهم مَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣١٥).

شاء مِن عِبادِه فيَجعَلُهم خَيرًا من هؤلاءِ، فلم يَتولَّوْا بحمدِ اللهِ ولم يَستبدِلْ بهم).

وأمَّا ذِكرُه تَبديلَ أمثالِهم ففي سورةِ (الواقِعةِ) وسورةِ (الإنسانِ)؛ فقال في (الواقِعةِ): ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، وقال في سورةِ (الإنسانِ): ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨]؛ قال كثيرٌ مِن المُفسِّرينَ: المعنى: أنَّا إذا أرَدْنا أن نَخلُقَ خَلقًا غَيرَكم لم يَسبِقْنا سابِقٌ، ولم يَفُتْنا ذلك، وفي قَولِه: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ إذا شِئْنا أهْلَكْناهم وأتَيْنا بأشْباهِهم فجَعلْناهُم بَدلًا منهم، قيلَ: قَومًا مُوافِقينَ لهم في الخَلقِ مُخالِفين لهم في العَمَلِ؛ وعلى هذا فتَكونُ هذه الآياتُ نظيرَ قولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، فيكونُ استِدلالًا بقُدرتِه على إذهابِهم والإتيانِ بأمثالِهم على إتْيانِه بهم أنفُسِهم إذا ماتوا[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تَعليلٌ لِمَضمونِ قَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ...﴾ [محمد: ٣٥] الآيةَ. وافْتِتاحُها بـ (إنَّ) مُغْنٍ عن افتِتاحِها بِفاءِ التَّسبُّبِ[٢].

- والمُرادُ بـ ﴿الْحَيَاةُ﴾ أحوالُ مُدَّةِ الحَياةِ؛ فهو على حَذْفِ مُضافَينِ[٣].

- والإخبارُ عن الحياةِ بأنَّها ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ على مَعنَى التَّشبيهِ البَليغِ؛ شُبِّهَت

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٦-١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٣٣).

أحْوالُ الحياةِ الدُّنيا باللَّعِبِ واللَّهوِ في عَدَمِ تَرتُّبِ الفائدةِ عليها؛ لأنَّها فانيةٌ مُنْقضيةٌ، والآخِرةَ هي دارُ القَرارِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ عطف على قَولِه: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ [محمد: ٣٥]؛ تَذْكيرًا بأنَّ امتِثالَ هذا النَّهيِ هو التَّقْوى المَحمودةُ، ولأنَّ الدُّعاءَ إلى السَّلْمِ قدْ يكونُ الباعثُ عليه حُبَّ إبقاءِ المالِ الَّذي يُنفَقُ في الغَزْوِ، فذُكِّروا هنا بالإيمانِ والتَّقوى؛ لِيَخْلَعوا عن أنفُسِهم الوَهنَ؛ لأنَّهم نُهُوا عنْه وعن الدُّعاءِ إلى السَّلْمِ؛ فكان الكفُّ عن ذلك مِن التَّقوى، وعُطِفَ عليه أنَّ اللهَ لا يَسْأَلُهم أمْوالَهم إلَّا لِفائدتِهم وإصلاحِ أُمورِهم؛ ولذلك وقَعَ بعْدَه قَولُه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾[٢] [محمد: ٣٨].

- والمَقصودُ مِن الجُملةِ قَولُه: ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾، وأمَّا ذِكْرُ ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾؛ فلِلاهتِمامِ بأمْرِ الإيمانِ. ووُقوعُ ﴿تُؤْمِنُوا۟﴾ في حيِّزِ الشَّرْطِ مع كَونِ إيمانِهم حاصِلًا يُعَيِّنُ صَرْفَ مَعنى التَّعليقِ بالشَّرْطِ فيه إلى إرادةِ الدَّوامِ على الإيمانِ؛ إذ لا تَتقوَّمُ حَقيقةُ التَّقْوى إلَّا مع سَبْقِ الإيمانِ[٣].

- والظَّاهرُ أنَّ جُملةَ ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ إدْماجٌ[٤]، وأنَّ المَقصودَ مِن جَوابِ الشَّرْطِ هو جُملةُ ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾، وعُطِفَ ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ لِمُناسَبةِ قَولِه: ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾، أي: إنَّ اللهَ يَتفضَّلُ عليكم بالخَيراتِ، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٨١).

يَحتاجُ إلى أمْوالِكم، وكانتْ هذه المُناسباتُ أحسَنَ رَوابطَ لِنَظْمِ المَقصودِ مِن هذه المَواعِظِ؛ لأنَّ البُخْلَ بالمالِ مِن بَواعِثِ الدُّعاءِ إلى السَّلْمِ(١).

- وقولُه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ يُفِيدُ بِعُمومِه وسِياقِه معنَى: لا يَسْأَلْكم جَميعَ أمْوالِكم -على قولٍ-، أي: إنَّما يَسأَلُكم ما لا يُجحِفُ بكم؛ فإضافةُ (أمْوالٍ) -وهو جمْعٌ- إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ تُفِيدُ العُمومَ؛ فالمَنفِيُّ سُؤالُ إنفاقِ جَميعِ الأمْوالِ، فالكَلامُ مِن نَفْيِ العُمومِ لا مِن عُمومِ النَّفْيِ(٢) بقَرينةِ السِّياقِ، وما يَأْتي بعْدَه مِن قَولِه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ. ويَجوزُ أنْ يُفيدَ أيضًا معنَى: أنَّه لا يُطالِبُكم بإعْطاءِ مالٍ لِذاتِه؛ فإنَّه غَنِيٌّ عنكم، وإنَّما يَأمُرُكم بإنفاقِ المالِ لِصالِحِكم، كما قال: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]. وهذا تَوطِئةٌ لِقَولِه بعْدَه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [محمد: ٣٨]، أي: ما يكونُ طَلَبُ بَذْلِ المالِ إلَّا لِمَصْلحةِ الأُمَّةِ، وأيَّةُ مَصلحةٍ أعظَمُ مِن دَفْعِها العَدُوَّ عن نفْسِها؛ لئلَّا يُفسِدَ فيها ويَستعبِدَها(٣)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤).

(٢) نفيُ العُمومِ: هو نفْيُ الشُّمولِ والعُمومِ، أي: الكُلِّيَّة، وهو يَصدُقُ بنفيِ واحدٍ، وقد يكونُ بالثُّبوتِ في البعضِ، تقولُ: لم أفعَلْ كلَّ ذلك؛ فتُفيدُ أنَّك نفَيْتَ عن نفْسِك فِعلَ الجميعِ، وهذا لا يَلزَمُ منه نفْيُ البعض. بخِلافِ عُمومِ النَّفيِ؛ فإنَّ النَّفيَ فيه يَلزَمُ منه نفْيُ الكلِّ والبعضِ، كقولِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ فإنَّها نفْيٌ لجميعِ الآلِهةِ سِوى اللهِ تعالَى؛ فعُمومُ النَّفيِ إنَّما يَصدُقُ بنَفْيِ الجميعِ. يُنظر: ((المحصول)) للرازي (٢/ ٣٤٣)، ((تلقيح المفهوم في تنقيح صيغ العموم)) للعلائيِّ (ص: ٦٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٢٤)، ((خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني)) لمحمد محمد أبو موسى (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٤، ١٣٥).

- والآيةُ مِن الاحتِباكِ[١]: ذِكرُ الحَياةِ الدُّنيا واللَّهوِ واللَّعِبِ أوَّلًا دالٌّ على ذِكرِ الآخِرةِ والجِدِّ ثانيًا، وذِكرُ الإيمانِ والتَّقْوى ثانيًا دالٌّ على حَذفِ ضِدِّهما: الكُفرانِ والجُرأةِ أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّ تَصويرَ الشَّيءِ بحالِ الصَّبيِّ والسَّفيهِ أشدُّ في الزَّجرِ عنه عندَ ذَوي الهِمَمِ العالِيةِ، وذِكرُ الأجرِ المُرتَّبِ على الخَوفِ -الَّذي هو فِعلُ الحَزَمةِ- أعْوَنُ على تَركِه[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ﴾ تَعْليلٌ لِنَفْيِ سُؤالِه إيَّاهم أمْوالَهم[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَـٰلَكُم﴾

- قولُه: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ مُركَّبٌ مِن كَلمةِ (ها)؛ تَنبيهٌ في ابتِداءِ الجُملةِ، ومِن ضَميرِ الخِطابِ، ثُمَّ مِن (ها) التَّنبيهِ الدَّاخلةِ على اسْمِ الإشارةِ المُفيدةِ تَأْكيدَ مَدلولِ الضَّميرِ. وكَرَّرَ هاءَ التَّنبيهِ للتأكيدِ[٤].

- وقولُه: ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ...﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ ومُؤكِّدٌ لِمَا سبَقَ؛ لاتِّحادِ مُحصِّلِ مَعناهما؛ فإنَّ دعوتَهم للإنفاقِ هو سُؤلُ الأموالِ منهم، وبُخْلَ ناسٍ منهم هو معنَى عدمِ الإعطاءِ المذكورِ مُجمَلًا أوَّلًا. أو صِلةٌ لـ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ على أنَّه بمعنَى (الذين)[٥].

---

(١) تقدَّم تعريفه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٦).

- وقولُه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ إمَّا مَسوقٌ مَساقَ التَّوبيخِ، أو مَساقَ التَّنبيهِ على الخطَأِ في الشُّحِّ ببَذْلِ المالِ في الجِهادِ الَّذي هو مَحَلُّ السِّياقِ؛ لأنَّ المرْءَ قد يَبخَلُ بُخلًا ليس عائدًا بُخْلُه عن نفْسِه[١].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن (إِنَّمَا) قَصْرُ قَلْبٍ[٢] باعتبارِ لازِمِ بُخْلِه؛ لأنَّ الباخلَ اعتقَدَ أنَّه مَنَع مَن دَعاهُ إلى الإنفاقِ، ولكنَّ لازِمَ بُخْلِه عاد عليه بحِرْمانِ نَفْسِه مِن مَنافِعِ ذلك الإنفاقِ[٣].

- قَولُه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ هو كالدَّليلِ على الآيةِ المُتقدِّمةِ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُ﴾ حَذَف القِسمَ الآخَرَ وهو (وَمِنْكُمْ مَنْ يَجودُ)؛ لأنَّ المُرادَ الاستِدلالُ على ما قبْلَه مِن البُخلِ[٥].

- ولإرادةِ التَّوكيدِ ذَيَّلَ الكلامَ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾، وجعَلَه كالاعتِراضِ بيْنَ المتقابِلَينِ، وهُما قولُه: ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ وقولُه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ﴾[٦].

- والتَّعريفُ باللَّامِ في ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ و﴿ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ تَعريفُ الجِنْسِ، وهو فيهما مُؤذِنٌ بِكَمالِ الغِنى ونِهايةِ الفقْرِ، ولَمَّا وقعَا خبَرَينِ وهما مَعرِفتانِ أفادَا الحصرَ، أي: قَصْرَ الصِّفةِ على المَوصوفِ، أي: قَصْرَ جِنسِ الغنيِّ على اللهِ، وقصْرَ جِنسِ الفُقراءِ على المُخاطَبين بـ (أَنْتُمْ) وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ[٧] فيهما،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٦، ١٣٧).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٣٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٦٩).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٨).

(٧) تقدَّم تعريفه (ص: ٩٥).

مُرتَّبٌ على دَلالةِ (أل) على معنَى كمال الجِنسِ؛ فإنَّ كمالَ الغِنَى للهِ لا محالةَ لعُمومِه ودوامِه، وإنْ كان يَثبُتُ بعضُ جِنسِ الغِنَى لغيرِه. وأمَّا كمالُ الفَقرِ للنَّاسِ فبِالنِّسبةِ إلى غِنَى اللهِ تعالَى وإنْ كانوا قد يَغنُونَ في بعضِ الأحوالِ، لكن ذلك غِنًى قليلٌ وغيرُ دائمٍ[1].

- والاسْتِبْدالُ: التَّبديلُ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمبالَغةِ. ومَفعولُ الاستِبْدالِ ﴿قَوْمًا﴾، أو المُستبدَلُ به مَحذوفٌ، دلَّ على تَقديرِه قَولُه: ﴿غَيْرَكُمْ﴾؛ فعُلِمَ أنَّ المُستبدَلَ به هو ما أُضِيفَ إليه (غَير)؛ لِتَعيُّنِ انْحصارِ الاستِبدالِ في شَيئينِ، فإذا ذُكِرَ أحدُهما عُلِمَ الآخَرُ، والتَّقديرُ: يَستبدِلْ قومًا بكم؛ لأنَّ المُستعمَلَ في فِعلِ الاستِبدالِ والتَّبديلِ أنْ يكونَ المَفعولُ هو المُعوَّضَ، ومَجرورُ الباءِ هو العِوَضَ، وعُدِلَ في هذه الآيةِ عن ذِكرِ المَجرورِ بالباءِ مع مَفعولِ الاستِبْدالِ؛ لِلإيجازِ، والمعنى: يَتَّخِذ قَومًا غَيرَكم لِلإيمانِ والتَّقْوى، وهذا لا يَقْتضي أنَّ اللهَ لا يُوجِدُ قَومًا آخَرينَ إلَّا عِندَ ارتدادِ المُخاطَبينَ، بلِ المُرادُ: أنَّكم إنِ ارْتَددْتُم عن الدِّينِ كان للهِ قَومٌ مِن المؤمنينَ لا يَرْتَدُّون، وكان للهِ قَومٌ يَدْخُلون في الإيمانِ ولا يَرتَدُّون[2].

- وحَرْفُ (ثُمَّ) في قَولِه: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ لِلتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ لإفادةِ الاهتِمامِ بصِفةِ الثَّباتِ على الإيمانِ وعُلُوِّها على مُجرَّدِ الإيمانِ، أي: ولا يَكونوا أمْثالَكم في التَّولِّي[3].

- وهذه الجُملةُ ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ مَعطوفةٌ بـ(ثُمَّ) على جُملةِ ﴿يَسْتَبْدِلْ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٨، ١٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٣٩).

قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ فهي في حَيِّزِ جَوابِ الشَّرطِ، والمَعطوفُ على جَوابِ الشَّرطِ بحَرْفٍ مِن حُروفِ التَّشريكِ يَجوزُ جَزْمُه على العطْفِ، ويَجوزُ رَفْعُه على الاسْتِئنافِ. وقد جاء في هذه الآيةِ على الجزْمِ، وجاء في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١] على الرَّفْعِ. وإيثارُ الجَزْمِ هنا وإيثارُ الاستِئنافِ هنالك لِمُناسَبةٍ حَسَنةٍ؛ وهي أنَّ هاهنا لا يَكونُ مُتعلِّقًا بالتَّولِّي؛ لأنَّهم إنْ لم يَتولَّوا يَكونونَ ممَّن يأْتِي اللهُ بهم على الطَّاعةِ، وإنْ تَولَّوا لا يَكونونَ مِثلَهم؛ لِكَونِهم عاصِينَ، وكَونِ مَن يَأْتي اللهُ بهم مُطِيعينَ، وأمَّا هنالك فسواءٌ قاتَلوا أو لمْ يُقاتِلوا لا يُنصَرون؛ فلمْ يكُنْ لِلتَّعليقِ -أي: بالشَّرْطِ- هُنالك وَجْهٌ، فرُفِعَ بالابتِداءِ، وهاهنا جُزِمَ لِلتَّعليقِ. ويُزادُ أنَّ الفِعلَ المَعطوفَ على الجزاءِ في آيةِ (آل عِمْرانَ) وقَعَ في آخِرِ الفاصِلةِ الَّتي جَرَتْ أخَواتُها على حَرْفِ الواوِ والنُّونِ، فلو أُوثِرَ جَزْمُ الفِعلِ لَأُزِيلَت النُّونُ، فاختَلَّت الفاصِلةُ[1].

**تمَّ بحمدِ الله المجلدُ الثَّالثُ والثَّلاثونَ**

**ويليه المجلدُ الرَّابعُ والثَّلاثونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الفَتْحِ**

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٣٩، ١٤٠).

# الفهرس

# الفهرس

## سُورةُ الجاثيةِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ١٣
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ١٤
الآيات (١-٦) ..... ١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٥
المعنى الإجماليُّ ..... ١٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٦
الآيات (٧-١١) ..... ٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٨
الآيات (١٢-١٥) ..... ٤٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٤
الآيات (١٦-٢٠) ..... ٧١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٧١

المعنى الإجماليُّ ..... ٧٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٧٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٨٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٨٥
الآيات (٢١-٢٣) ..... ٩٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩٢
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٩٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٩٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٠٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٠٨
الآيات (٢٤-٢٦) ..... ١١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١١٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١١٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٢٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٢٧
الآيات (٢٧-٣٠) ..... ١٣٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٣٤

المعنى الإجماليُّ ..... ١٣٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٣٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٤٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٤٤
الآيات (٣١-٣٥) ..... ١٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٤٩
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٥٠
المعنى الإجماليُّ ..... ١٥٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٥٢
الفوائدُ التربويةُ ..... ١٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٥٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٦١
الآيتان (٣٦-٣٧) ..... ١٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٦٧
المعنى الإجماليُّ ..... ١٦٧
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ١٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٧٠
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ١٧٠

## سُورةُ الأحقافِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ١٧٧

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ١٧٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٧٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ١٧٨
الآيات (١-٣) ..... ١٨٠
غريبُ الكلماتِ ..... ١٨٠
المَعنى الإجماليُّ ..... ١٨٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٨٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٨٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٨٣
الآيات (٤-٦) ..... ١٨٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٨٦
المَعنى الإجماليُّ ..... ١٨٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٨٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٩٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٩٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٩٧
الآيتان (٧-٨) ..... ٢٠٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٠٤
المَعنى الإجماليُّ ..... ٢٠٤
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٢٠٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٠٨

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٠٨
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٢١٠
الآيتان (٩-١٠) ..... ٢١٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢١٤
المَعنى الإجماليُّ ..... ٢١٤
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٢١٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٢٥
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٢٢٧
الآيتان (١١-١٢) ..... ٢٣٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٣٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٣٥
المَعنى الإجماليُّ ..... ٢٣٦
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٢٣٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٤٢
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٢٤٤
الآيتان (١٣-١٤) ..... ٢٤٩
المَعنى الإجماليُّ ..... ٢٤٩
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٢٤٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٥١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٥١

بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٢٥٣
الآيتان (١٥-١٦) ..... ٢٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٥٦
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٥٧
المَعنى الإجماليُّ ..... ٢٥٨
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٢٥٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٦٨
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٢٧٤
الآيات (١٧-٢٠) ..... ٢٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٨٠
المَعنى الإجماليُّ ..... ٢٨٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٨٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٩٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٩٦
الآيات (٢١-٢٥) ..... ٣٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٠٣
المَعنى الإجماليُّ ..... ٣٠٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٠٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣١٤

بلاغةُ الآياتِ ..... ٣١٦
الآيات (٢٦-٢٨) ..... ٣٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٢٥
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٢٧
المَعنى الإجماليُّ ..... ٣٢٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٢٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٣٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٣٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٣٥
الآيات (٢٩-٣٢) ..... ٣٤٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٤٢
المَعنى الإجماليُّ ..... ٣٤٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٤٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٥٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٥٧
الآيات (٣٣-٣٥) ..... ٣٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٦٣
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٦٣
المَعنى الإجماليُّ ..... ٣٦٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٧٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٧٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٧٥

## سورةُ مُحمَّدٍ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٣٨٥
بيانُ المكِّيِّ والمدنيِّ ..... ٣٨٥
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣٨٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٣٨٦
الآيات (١-٣) ..... ٣٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٨٧
المَعنى الإجماليُّ ..... ٣٨٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٨٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٩٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٩٩
الآيات (٤-٦) ..... ٤٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٠٣
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٠٥
المَعنى الإجماليُّ ..... ٤٠٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤١٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤١٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٢٢

الآيات (٧-١١) ..... ٤٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٢٧
المَعنى الإجماليُّ ..... ٤٢٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٢٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٣٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤٠
الآيات (١٢-١٥) ..... ٤٤٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٤٥
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٤٦
المَعنى الإجماليُّ ..... ٤٤٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٤٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٥٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٥٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٦٤
الآيات (١٦-١٩) ..... ٤٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٧٥
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٧٦
المَعنى الإجماليُّ ..... ٤٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٧٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٩١

بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٩٥
الآيات (٢٠-٢٤) ..... ٥٠٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٠٢
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٥٠٤
المَعنى الإجماليُّ ..... ٥٠٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٠٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٢٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٢٨
الآيات (٢٥-٢٨) ..... ٥٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٣٦
المَعنى الإجماليُّ ..... ٥٣٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٣٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٤٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٤٨
الآيات (٢٩-٣١) ..... ٥٥٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٥٣
المَعنى الإجماليُّ ..... ٥٥٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٥٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٦٠

بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٦٢
الآيات (٣٢-٣٥) ..... ٥٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٦٦
المَعنى الإجماليُّ ..... ٥٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٧٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٧٩
الآيات (٣٦-٣٨) ..... ٥٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٨٤
المَعنى الإجماليُّ ..... ٥٨٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٨٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٩٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٩٦
الفهرس ..... ٦٠٣

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة الفتح وسورة الحجرات و سورة ق)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد الرابع والثلاثون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الفتح وسورة الحجرات وسورة ق)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الرابع والثلاثون - سورة الفتح وسورة الحجرات وسورة ق/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٤٤ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩-٠٠-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٣/٢٩٢٠

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٢٩٢٠

ردمك: ٩-٠٠-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م**

**(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣

dorartv dorarrnet dorarnet dorarnet

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الفَتْحِ

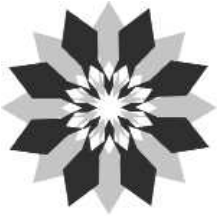

# سُورةُ الفَتْحِ

## أسماءُ السُّورةِ:

**سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفتح)[١]، وممَّا يدُلُّ على ذلك:**

١- عن عبْدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((قرَأَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -عامَ الفَتحِ في مَسيرٍ له- سُورةَ الفَتحِ على راحِلَتِه، فرَجَّعَ في قِراءَتِه[٢]))[٣].

٢- عن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أيُّها النَّاسُ اتَّهِموا أنفُسَكم؛ فإنَّا كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ الحُدَيبيَةِ، ولوْ نَرى قِتالًا لقاتَلْنا ...)) إلى أنْ قال: ((فنَزَلتْ سُورةُ الفَتحِ، فقَرَأَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عُمَرَ إلى آخِرِها))[٤].

## فَضائلُ السُّورةِ وخَصائصُها:

عن أَسْلَمَ العَدويِّ مَولَى عمرَ[٥]: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَسيرُ في بعضِ أسْفارِه، وعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسيرُ معه لَيْلًا، فسَأله عُمَرُ بنُ الخطَّابِ عن شَيءٍ، فلَمْ يُجِبْه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ سَأله فلَمْ يُجِبْه، ثمَّ سَأله

---

( ) وسُمِّيَتْ سورةَ الفتْح؛ لقَولِه تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٢).

(٢) التَّرجيعُ: تَرديدُ الصَّوتِ في الحَلْقِ، والجَهرُ بالقَولِ مُكَرَّرًا بعْدَ خَفائِه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٤) و(١٣/ ٥١٥). ويُنظر أيضًا: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢٠٢).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٢٨١)، ومسلمٌ (٧٩٤) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاريُّ (٣١٨٢) واللفظ له، ومسلمٌ (١٧٨٥).

(٥) قال ابن حجر: (هذا السِّياقُ صورتُه الإرسالُ؛ لأنَّ أسلم لم يُدرِكْ زمانَ هذه القصَّةِ، لكنَّه محمولٌ على أنَّه سمِعه مِن عمرَ بدليلِ قولِه في أثنائِه: قال عمرُ: فحرَّكتُ بَعيري... إلخ). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٨٣).

فلَمْ يُجِبْه، وقال عُمَرُ: ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ[١] يا عُمرُ! نَزَرْتَ رسولَ اللهِ[٢] صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَلاثَ مرَّاتٍ، كلُّ ذلك لا يُجيبُكَ! قال عُمرُ: فحرَّكْتُ بَعيري، ثمَّ تقدَّمْتُ أمامَ المسلمينَ، وخَشيتُ أنْ يَنزِلَ فيَّ قُرآنٌ، فما نَشِبْتُ[٣] أنْ سَمِعتُ صارخًا يَصرُخُ بي، قال: فقلْتُ: لقدْ خَشيتُ أنْ يَكونَ نزَلَ فيَّ قرآنٌ! وجِئتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فسَلَّمْتُ عليه، فقال: لقدْ أُنزِلَتْ علَيَّ اللَّيلةَ سُورةٌ لَهِيَ أَحَبُّ إليَّ ممَّا طلَعَتْ عليه الشَّمْسُ[٤]، ثمَّ قرَأَ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾))[٥].

## بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الفتْحِ مَدَنيَّةٌ[٦]، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٧].

---

(١) الثَّكَل والثُّكْل: فِقدانُ المرأةِ ولَدَها. وقدْ دعا عُمَرُ على نفْسِه بسَببِ ما وقَع منه مِن الإلحاحِ. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ لمْ يُرِدِ الدُّعاءَ على نفْسِه حقيقةً، وإنَّما هي مِن الألفاظِ الَّتي تُقالُ عندَ الغضبِ مِن غيرِ قَصدِ معناها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٣).

(٢) نَزَرتُ رسولَ اللهِ: أي: ألحَحْتُ عليه في المسألةِ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (٣/ ١٧٣٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٩٤).

(٣) فما نشِبْتُ: أي: لم أتعلَّقْ بشَيءٍ غيرَ ما ذكرْتُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٣).

(٤) أي: لِما فيها من البِشارةِ بالمغفرةِ والفتْحِ المبينِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٣).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٤١٧٧) و(٤٨٣٣) و(٥٠١٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١١٠).

قال ابنُ كثير: (نزَلَتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ لَمَّا رجَعَ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِنَ الحُدَيْبِيَةِ في ذي القَعدةِ مِن سَنةِ سِتٍّ مِنَ الهِجرةِ، حينَ صَدَّهُ المشركونَ عن الوُصولِ إلى المسجدِ الحرامِ لِيَقْضيَ عُمْرتَه فيه، وحالُوا بيْنَه وبيْن ذلك، ثمَّ مالُوا إلى المصالَحةِ والمُهادَنةِ، وأنْ يَرجِعَ عامَه هذا، ثمَّ يأتيَ مِن قابِلٍ، فأجابَهُم إلى ذلك على تَكَرُّهٍ مِن جماعةٍ مِنَ الصَّحابةِ؛ منهم عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضيَ اللهُ عنه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٥).

(٧) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوْزي، والقُرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقَاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٥٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) =

## مقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

١- تَبشيرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه بألْوانٍ مِنَ البِشاراتِ[١].

٢- التَّعريفُ بالمُنافِقينَ والكافِرينَ، وبَيانُ حَقيقتِهم[٢].

٣- بيانُ كثيرٍ مِن مَظاهِرِ فضْلِ اللهِ ورَحمتِه بعِبادِه المؤمِنينَ[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ التي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- بِشارةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالفَتحِ المُبينِ، ووَعْدُه بالمغفرةِ وإتمامِ النِّعمةِ عليه، وهِدايتِه ونَصْرِه.

٢- وَعْدُ المؤمِنينَ، ووَعيدُ الكافِرينَ والمُنافِقينَ.

٣- بيانُ وَظيفةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَوجيهُ المؤمِنينَ إلى واجِبِهم بعدَ تَبليغِهمُ الرِّسالةَ.

٤- الثَّناءُ على الَّذينَ بايَعوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَعْدُهم بالنَّصرِ في الدُّنيا، والأجرِ العظيمِ في الآخِرةِ.

٥- ذِكْرُ بَيعةِ الحُدَيْبِيَةِ، وبيانُ أحوالِ المُنافِقينَ المُتخَلِّفينَ عنها، وصِفاتِهمُ السَّيِّئةِ، وما حصَلَ مِن مَنْعِهم مِنَ المشارَكةِ في غَزوةِ خَيْبَرَ، وإنبائِهم بأنَّهم سيُدْعَوْنَ

---

= للفيروزابادي (١/ ٤٣٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٢/ ٤٩٢).

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٢)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلى جِهادٍ آخَرَ.

٦- بَيانُ الَّذينَ يُباحُ لهمُ التَّخلُّفُ عن الجِهادِ مِن أصحابِ الأعذارِ.

٧- الحديثُ عن بَيعةِ الرِّضوانِ، والتَّنويهُ بشَأنِ مَن حضَرَها، وتَبشيرُ اللهِ بما أعَدَّ لهم مِنَ مَغانمَ كَثيرةٍ وفُتوحٍ.

٨- بَيانُ الأسبابِ الَّتي دعتِ الكُفَّارَ إلى صَدِّ المؤمِنينَ عن البَيتِ الحَرامِ.

٩- تَصديقُ رُؤْيا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، بدُخولِه وأصحابِه المَسجِدَ الحرامَ آمِنِينَ.

١٠- بيانُ مَنزِلةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابِه، وصِفاتِهِمُ الحسَنةِ في التَّوراةِ والإنجيلِ، وما أعَدَّه اللهُ لِلَّذينَ آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِنَ المَغفرةِ والأجرِ العظيمِ.

## الآيات (١-٢)

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يُخاطِبُ اللهُ تعالَى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قائِلًا له: إنَّا فتَحْنا لك -يا محمَّدُ- بصُلحِ الحُدَيبِيَةِ فَتحًا بَيِّنًا ظاهِرًا.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه مَظاهرَ فضْلِه على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فيقولُ: لنَغفِرَ لك جَميعَ ذُنوبِك، وَلِنُتِمَّ نِعمَتَنا عليك في الدُّنيا والآخِرةِ، ونَهْديَك إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، ونَنصُرَك على أعدائِك نَصرًا قَويًّا.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾.

أي: إنَّا فتَحْنا لك -يا محمَّدُ- بصُلحِ الحُدَيبِيَةِ فَتحًا بَيِّنًا ظاهِرًا، وحَكَمْنا وقَضَينا لك به قَضاءً مُحكَمًا عَظيمًا يَحصُلُ بسَبَبِه الخَيرُ الجَزيلُ، ويَظهَرُ به الحَقُّ المُبينُ[1].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٦، ٢٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

قال الزَّجَّاج: (أكثَرُ ما جاء في التَّفسيرِ أنَّه فَتحُ الحُدَيبيَةِ، وكان في فَتحِ الحُدَيبيَةِ آيةٌ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٩)، ونسَب البغَويُّ وابنُ الجوزي للأكثرينَ أنَّه صُلح الحديبيةِ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٥).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالفَتحِ هنا: صُلحُ الحُدَيبيَةِ: الفرَّاءُ، وابنُ جَرير، والواحديُّ، وابنُ كثير، والبقاعيُّ، والسعديُّ، والشِّنقيطيُّ، ونسَبه إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء =

عن عبْدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، في قِصَّةِ الحُدَيبيَةِ قال: ((... كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا نزَل عليه الوَحيُ اشتَدَّ ذلك عليه، وعرَفْنا ذاك فيه، فتنَحَّى مُنتَبِذًا[1] خَلْفَنا، فجَعَل يُغَطِّي رأسَه بثَوبِه، ويَشتَدُّ ذلك عليه، حتَّى عرَفْنا

---

= (٣/ ٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٣).

قال الواحديُّ: (يعني: صُلحَ الحُدَيبيَةِ، كان فَتحًا بغيرِ قِتالٍ. قال الفَرَّاء: الفَتحُ قد يكونُ صُلحًا، ومعنى الفَتحِ في اللُّغةِ: فتَحُ المُنغَلِقِ، والصُّلحُ الذي حصَل معَ المُشرِكينَ بالحُدَيبيَةِ كان مَسدودًا مُتعَذِّرًا حتى فتَحَه اللهُ؛ قال جابرٌ: ما كُنَّا نَعُدُّ فَتحَ مكَّةَ إلَّا يومَ الحُدَيبيَةِ! وقال الزُّهْري: لم يكُنْ فَتحٌ أعظَمَ مِن صُلحِ الحُدَيبيَةِ؛ وذلك أنَّ المُشرِكينَ اختَلَطوا بالمُسلِمينَ، فسَمِعوا كلامَهم، فتمَكَّنَ الإسلامُ في قُلوبِهم، وأسلَمَ في ثلاثِ سِنينَ خَلقٌ كَثيرٌ). ((الوسيط)) (٤/ ١٣٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٤).

وعن أنسٍ رَضِيَ الله عنه قال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: (الحُدَيبيَة). رواه البخاري (٤٨٣٤). وممَّن قال بنحْو هذا القولِ من السَّلف أيضًا: جابرٌ، والبَراء، ومجاهد، والضحَّاك، والشَّعبي، والزهري. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٣).

وقيل: المرادُ بهذا الفَتحِ: فَتحُ مَكَّةَ. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: الجَصَّاصُ، والزمخشريُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرَّازي، واختاره أبو حيَّان. يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصَّاص (٣/ ٥٢٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣١-٣٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٢).

وممَّن قال بهذا القول من السَّلف: أنسٌ في رِوايةٍ عنه، وعائشةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٧).

وقال ابنُ عاشور: (قال جَمعٌ مِن المُفَسِّرينَ: المرادُ بالفَتحِ هنا فَتحُ مَكَّةَ، وإنَّ مَحمَلَه على الوَعدِ بالفَتحِ. والمعنى: سنَفتَحُ، وإنَّما جِيءَ في الأخبارِ بلَفظِ الماضي لتَحَقُّقِه وتيَقُّنِه... وممَّا يَندرِجُ في هذا التَّفسيرِ أن يكونَ المرادُ بالفَتحِ صُلحَ الحُدَيبيَةِ تَشبيهًا له بفَتحِ مَكَّةَ؛ لأنَّه تَوطِئةٌ له). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٤).

(١) مُنتبِذًا: أي: منفرِدًا، يقال: انْتَبَذَ فلانٌ، أي: انتحَى ناحيةً. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري

أنَّه قد أُنزِلَ عليه، فأتانا فأخبَرَنا أنَّه قدْ أُنزِل عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾))[١].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نزَلَت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ إلى قَولِه: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١- ٥] مَرْجِعَه مِنَ الحُدَيبِيَةِ، وهم يُخالِطُهم الحُزنُ والكآبةُ، وقدْ نَحَر الهَدْيَ بالحُدَيبيَةِ، فقال: لقدْ أُنزِلتْ علَيَّ آيةٌ هي أحَبُّ إليَّ مِن الدُّنيا جميعًا!))[٢].

وعن سَهلِ بنِ حُنَيفٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أيُّها النَّاسُ اتَّهِموا أنفُسَكم؛ فإنَّا كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومَ الحُدَيبيَةِ، ولو نَرى قِتالًا لقاتَلْنا، فجاء عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فقال: يا رَسولَ اللهِ، ألَسْنا على الحَقِّ وهمْ على الباطِلِ؟! فقال: بلَى! فقال: أليْس قَتْلانا في الجنَّةِ وقَتْلاهم في النَّارِ؟! قال: بلى! قال: فعَلامَ نُعطي الدَّنِيَّةَ[٣] في دِينِنا؟! أنَرجِعُ ولَمَّا يَحكُمِ اللهُ بيْنَنا وبيْنَهم؟! فقال: يا ابنَ الخَطَّابِ، إنِّي رَسولُ اللهِ، ولنْ يُضَيِّعَني اللهُ أبدًا! فانطلَقَ عُمَرُ إلى أبي بَكرٍ فقال له مِثلَ ما قال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: إنَّه رَسولُ اللهِ، ولنْ يُضَيِّعَه اللهُ أبدًا! فنَزَلت سورةُ الفَتحِ، فقَرَأَها رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على عُمَرَ إلى

---

(١٤/ ٣١٧)، ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٧١).

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٧) مختصرًا، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٧٧٥٣) باختلافٍ يسيرٍ، وأحمدُ (٤٤٢١) واللَّفظُ له.

قال البَزَّار في ((البحر الزخار)) (٥/ ٣٩٧): (محفوظٌ). ووَثَّق رجالَ إسنادِه البُوصِيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ٢٣٦)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ١٩٤)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٤٢١). وصَحَّح الحديثَ مُختصَرًا الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٤٧).

(٢) رواه مسلمٌ (١٧٨٦).

(٣) الدَّنِيَّةُ: الحالةُ الخسيسةُ، والخصلةُ الناقصةُ، ويعني به: الصُّلحَ على ما شرَطوا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٣٧)، ((المفهم)) للقرطبي (٣/ ٦٤٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٤١).

آخِرِها. فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، أوَفَتحٌ هو؟! قال: نعمْ))[١].

وعن أسلَمَ مَولى عُمَرَ: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَسيرُ في بَعضِ أسفارِه، وعُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسيرُ معه ليلًا، فسَأله عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ عن شَيءٍ فلم يُجِبْه رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ سَأله فلم يُجِبْه، ثمَّ سَأله فلم يُجِبْه، فقال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: ثَكِلَتْ أمُّ عُمَرَ! نزَرْتَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، كُلَّ ذلك لا يُجيبُك! قال عُمَرُ: فحَرَّكتُ بَعيري ثمَّ تقَدَّمتُ أمامَ النَّاسِ، وخَشِيتُ أنْ يُنزَلَ فِيَّ قُرآنٌ، فما نَشِبتُ أنْ سَمِعتُ صارِخًا يَصرُخُ بي، فقُلتُ: لقدْ خَشِيتُ أنْ يكونَ نزَلَ فِيَّ قُرآنٌ! فجِئتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فسَلَّمتُ عليه، فقال: لقدْ أُنزِلتْ علَيَّ اللَّيلةَ سُورةٌ لَهِيَ أحَبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَت عليه الشَّمسُ، ثمَّ قرَأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾))[٢].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ الله عنهما قال: ((تَعُدُّونَ أنتُم الفَتحَ فَتحَ مَكَّةَ، وقدْ كان فَتحُ مَكَّةَ فَتحًا، ونحْن نَعُدُّ الفَتحَ بَيعةَ الرِّضوانِ يومَ الحُدَيبيَةِ؛ كُنَّا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أربَعَ عَشْرةَ مِائةً، والحُدَيبيَةُ بِئرٌ، فنَزَحْناها فلمْ نَترُكْ فيها قَطْرةً! فبلَغَ ذلك النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأتاها فجلَسَ على شَفيرِها[٣]، ثمَّ دعا بإناءٍ مِن ماءٍ فتوَضَّأَ، ثمَّ مَضمَضَ ودَعا، ثمَّ صَبَّه فيها، فتَرَكْناها غيرَ بَعيدٍ، ثمَّ إنَّها أصدَرَتْنا[٤] ما شِئْنا نحن ورِكابَنا!))[٥].

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا

(١) رواه البخاريُّ (٣١٨٢) واللفظ له، ومسلمٌ (١٧٨٥).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٣).

(٣) شَفيرِها: أي: حرفِها. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ٣٤٦).

(٤) أصدَرَتْنا: أي: أرجَعتْنا وقدْ رَوِينا. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلَّاني (٦/ ٣٤٦).

(٥) رواه البخاريُّ (٤١٥٠).

مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾.

## مُناسبةُ الآيةِ لِما قبلَها:

أنَّ اللهَ تعالَى رتَّب على هذا الفَتحِ عِدَّةَ أُمورٍ، فقال[1]:

﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

أي: إنَّا فتَحْنا لك -يا مُحمَّدُ- فَتحًا مُبينًا؛ كي نَغفِرَ لك جَميعَ ذُنوبِك[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٢، ٣].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦).

قال الماوَرديُّ: (﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾... فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: ما تقدَّمَ قَبلَ الفَتحِ، وما تأخَّرَ بعْدَ الفَتحِ.

الثَّاني: ما تَقدَّمَ قَبلَ النبُوَّةِ، وما تأخَّرَ بعدَ النبُوَّةِ.

الثَّالِثُ: ما وقَعَ وما لم يقَعْ، على طريقِ الوَعدِ بأنَّه مَغفورٌ إذا كان.

ويحتَمِلُ رابعًا: ما تَقدَّمَ قَبلَ نُزولِ هذه الآيةِ، وما تأخَّرَ بعدَها). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٠).

وممَّن ذهَب إلى القَولِ الأوَّلِ: ابن جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٣٧).

وممَّن ذهَب إلى القَولِ الثَّاني: مُقاتِلُ بن سُلَيمان، والسمعانيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٦٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ من السلفِ: عامرٌ الشَّعبي، وأبو جعفر الباقرُ؛ قالا: ما تقدَّم في الجاهليَّة وما تأخَّر في الإسلام. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥١٢).

قال الشَّوكاني: (﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ ﴿فَتَحْنَا﴾، وهي لامُ العِلَّةِ. قال ابنُ الأنباريِّ: سألْتُ أبا العبَّاسِ -يعني المبرِّدَ- عن اللَّامِ في قولِه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾، فقال: هي لامُ كيْ، مَعناها: إنَّا فتَحْنا لك فتْحًا مُبينًا لكيْ يَجتمِعَ لكَ مع المغفرةِ تَمامُ النِّعمةِ في الفتْحِ، فلمَّا انضَمَّ إلى المغفرةِ شَيءٌ حادثٌ واقعٌ، حسُنَ معْنى «كيْ»، وغلِطَ مَن قال: ليْس الفتحُ سَببَ المغفرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣).

صلَّى قام حتَّى تَفطَّرَ رِجلاه! قالتْ عائِشةُ: يا رَسولَ اللهِ، أتصنَعُ هذا وقدْ غُفِرَ لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنبِك وما تأخَّرَ؟! فقال: يا عائِشةُ، أفلا أكونُ عَبدًا شَكورًا؟!))[1].

﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾.

أي: وليُكْمِلَ اللهُ سُبحانَه نِعمَتَه عليك -يا محمَّدُ- في الدُّنيا والآخِرةِ[2].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧)، ومسلم (٢٨٢٠) واللفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

قيل: قَولُه تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ يعني: إتمامَها بإظهارِه على عَدُوِّه، ورَفْعِ ذِكْرِه في الدُّنيا، وغُفرانِ ذُنوبِه في الآخِرةِ، ورِضاه عنك. وممَّن قال بهذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، وأبو حيَّان، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٨٤).

وقيل: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بالنبُوَّةِ والحِكمةِ. وممَّن ذهَب إلى هذا القَولِ: الواحدي، والبغوي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٣).

وقيل: بالنُّبوةِ وإظهارِ الدِّينِ والفتْحِ والنَّصرِ والتَّمكينِ، وممَّن اختار هذا القولَ في الجُملةِ السَّمرقنديُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٠٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٣).

ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٦).

قال أبو السُّعود: (﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ بإعلاءِ الدِّينِ، وضمِّ المُلْكِ إلى النُّبوَّةِ، وغَيرِهما مِمَّا أفاضَه عليه مِنَ النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ أي: في الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨).

قال الرازي: (قَولُه تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ يحتَمِلُ وُجوهًا:

أحدُها: هو أنَّ التَّكاليفَ عندَ الفَتحِ تَمَّت حيثُ وَجَب الحَجُّ، وهو آخِرُ التَّكاليفِ، والتَّكاليفُ نِعَمٌ.

ثانيها: يُتِمَّ نِعمَتَه عليك بإخلاءِ الأرضِ لك عن مُعانديك؛ فإنَّ يومَ الفَتحِ لم يَبْقَ للنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عَدُوٌّ ذو اعتبارٍ؛ فإنَّ بَعضَهم كانوا أُهلِكوا يومَ بَدرٍ، والباقون آمَنوا واستأمَنوا يومَ الفَتْحِ. =

كما قال تعالَى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾.

أي: ولِيُرشِدَكَ اللهُ إلى طَريقٍ مُستقيمٍ لا اعوِجاجَ فيه، بما يَشرَعُ لك مِنَ الإسلامِ المُوصِلِ إلى رِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه(١).

كما قال تعالَى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ

---

= ثالِثُها: ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ في الدُّنيا، باستِجابةِ دُعائِك في طَلَبِ الفَتحِ، وفي الآخِرةِ، بقَبولِ شَفاعتِك في الذُّنوبِ ولو كانت في غايةِ القُبحِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٦). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٨).

وقال ابنُ عاشور: (وإتمامُ النِّعمةِ: إعطاءُ ما لم يَكُنْ أعطاه إيَّاه مِن أنواعِ النِّعْمةِ، مِثلُ إسلامِ قُرَيشٍ، وخَلاصِ بلادِ الحِجازِ كُلِّها للدُّخولِ تحتَ حُكمِه، وخُضوعِ مَن عاندَهَ وحارَبَه، وهذا يَنظُرُ إلى قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي﴾ [المائدة: ٣]؛ فذلك ما وُعِدَ به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ، وحَصَل بعْدَ سِنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (هذه الهِدايةُ الخاصَّةُ التي أعطاه إيَّاها بعْدَ فَتحِ الحُدَيبيَةِ أخَصُّ مِمَّا تقَدَّمَ؛ فإنَّ السَّالِكَ إلى اللهِ لا يَزالُ يَتقَرَّبُ إليه بشَيءٍ بعْدَ شَيءٍ، ويَزيدُه اللهُ هدًى بعْدَ هُدًى). ((الجواب الصحيح)) (٣/ ١٨١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى: ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾: يَزيدَك هَدْيًا لم يُسْبَقْ، وذلك بالتَّوسيعِ في بيانِ الشَّريعةِ، والتَّعريفِ بما لم يَسبِقْ تَعريفُه به منها؛ فالهِدايةُ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ ثابتةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن وَقتِ بَعثتِه، ولكِنَّها تَزدادُ بزِيادةِ بيانِ الشَّريعةِ، وبسَعةِ بلادِ الإسلامِ، وكَثرةِ المُسلِمينَ؛ مِمَّا يَدْعو إلى سُلوكِ طرائِقَ كَثيرةٍ في إرشادِهم وسِياستِهم، وحمايةِ أوطانِهم، ودَفْعِ أعدائِهم؛ فهذه الهِدايةُ مُتجَمِّعةٌ من الثَّباتِ على ما سَبَق هَدْيُه إليه، ومِنَ الهدايةِ إلى ما لم يُسبَقْ إليه، وكُلُّ ذلك مِنَ الهدايةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦١].

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾.

أي: ولِيَنصُرَكَ اللهُ على أعدائِك نَصرًا قَويًّا قاهِرًا تامًّا مَنيعًا، بلا ذُلٍّ ولا ضَعفٍ(١).

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((نُصِرْتُ بالرُّعبِ(٢) على العَدُوِّ))(٣).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- الإنسانُ خُلِق ظَلومًا جَهولًا، فالأصْلُ فيه عدَمُ العِلمِ ومَيْلُه إلى ما يَهواهُ مِن الشَّرِّ، فيَحتاجُ دائمًا إلى عِلمٍ مُفصَّلٍ يَزولُ به جَهْلُه، وعَدْلٍ في مَحبَّتِه وبُغضِه، ورِضاهُ وغضَبِه، وفِعلِه وتَرْكِه، وإعطائِه ومَنعِه، وكلُّ ما يَقولُه ويَعمَلُه يَحتاجُ فيه إلى عَدْلٍ يُنافي ظُلْمَه، فإنْ لم يَمُنَّ اللهُ عليه بالعِلمِ المفصَّلِ والعدْلِ المفصَّلِ، كان فيه مِن الجهْلِ والظُّلمِ ما يَخرُجُ به عن الصِّراطِ المستقيمِ، وقدْ قال اللهُ تعالَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

قال ابنُ عاشور: (النَّصرُ العَزيزُ: غَيرُ نَصرِ الفَتحِ المذكورِ؛ لأنَّه جُعِلَ عِلَّةَ الفَتحِ، فهو ما كان مِن فَتحِ مكَّةَ، وما عَقِبَه مِن دُخولِ قبائِلِ العَرَبِ في الإسلامِ بدونِ قِتالٍ، وبَعْثِهم الوُفودَ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِيَتلَقَّوا أحكامَ الإسلامِ، ويُعلِموا أقوامَهم إذا رَجَعوا إليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

(٢) نُصِرتُ بالرُّعبِ: يعني: الخوفَ الَّذي وضَعَه اللهُ تعالَى منه في القلوبِ؛ فإنَّه نصَره به، فكفاهُ كثيرًا مِن القِتالِ. يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هُبَيْرةَ (٦/ ١١٣).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٩٧٧)، ومسلمٌ (٥٢٣) واللفظ له.

لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعْدَ صُلحِ الحُدَيبيَةِ وبَيعةِ الرِّضوانِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾، فأخبرَ أنَّه فعَل هذا؛ لِيَهديَه صِراطًا مُستَقيمًا، فإذا كان هذا حالَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فكيْف بحالِ غَيرِه[1]؟!

٢- قال تعالَى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ جَمَع سُبحانَه لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ الهُدَى والنَّصرِ؛ لأنَّ هذينِ الأصلَينِ بهما كَمالُ السَّعادةِ والفَلاحِ؛ فإنَّ الهدَى هو العِلمُ باللهِ تعالَى ودِينِه، والعَمَلُ بمَرضاتِه وطاعتِه، فهو العِلمُ النَّافِعُ والعَمَلُ الصَّالحُ، والنَّصرُ: هو القُدرةُ التَّامَّةُ على تَنفيذِ دِينِه بالحُجَّةِ والبَيانِ، والسَّيفِ والسِّنانِ؛ فهو النَّصرُ بالحُجَّةِ واليَدِ؛ قَهرُ قُلوبِ المخالِفينَ له بالحُجَّةِ، وقَهرُ أبدانِهم باليَدِ، وهو سُبحانَه كثيرًا ما يَجمَعُ بيْنَ هذينِ الأصلَينِ؛ إذْ بهما تَمامُ الدَّعوةِ، وظُهورُ دِينِه على الدِّينِ كُلِّه؛ كقَولِه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[2] [التوبة: ٣٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ تأمَّلْ ما جَمَع اللهُ سُبحانَه لِرَسولِه في آيةِ الفَتحِ مِن أنواعِ العَطايا، وذلك خمَسةُ أشياءَ؛ أحَدُها: الفَتحُ المُبينُ. والثَّاني: مَغفِرةُ ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِه وما تأخَّرَ. والثَّالِثُ: هِدايتُه الصِّراطَ المُستقيمَ. والرَّابعُ: إتمامُ نِعمتِه عليه. والخامِسُ: إعطاءُ النَّصرِ العَزيزِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٢/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٢- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ لَفظُ الماضي في قَولِه: ﴿فَتَحْنَا﴾ يَدُلُّ على أنَّ ذلك الفَتحَ قدْ مضَى؛ فدَعْوى أنَّه فَتْحُ مَكَّةَ -ولم يقَعْ إلَّا بعْدَ ذلك بقُربِ سَنَتينِ- خِلافُ الظَّاهِرِ[1].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾، فيه سُؤالٌ: ما وجْهُ الارتباطِ بيْنَ هذه العِلَّةِ ومَعلولِها؛ لأنَّ فَتْحَ اللهِ لِنَبيِّه لا يَظهَرُ كَوْنُه عِلَّةً لِغُفرانِه له؟

**الجوابُ عنه مِن وُجوهٍ؛ منها:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ اللهَ جعَلَ هذه المَغفِرةَ جَزاءً لنَبيِّه على إتمامِ أعمالِه التي أُرسِلَ لأجْلِها مِنَ التَّبليغِ والجِهادِ، والنَّصَبِ والرَّغبةِ إلى اللهِ، فلمَّا كان الفَتحُ حاصِلًا بسَعْيِه وتَسَبُّبِه بتَيسيرِ اللهِ له ذلك، جَعَل اللهُ جَزاءَه غُفرانَ ذُنوبِه بعِظَمِ أثَرِ ذلك الفَتحِ؛ بإزاحةِ الشِّركِ، وعُلُوِّ كَلِمةِ اللهِ تعالَى، وتَكميلِ النُّفوسِ وتَزكيتِها بالإيمانِ وصالحِ الأعمالِ؛ حتى ينتَشِرَ الخيرُ بانتشارِ الدِّينِ، ويَصيرَ الصَّلاحُ خُلُقًا للنَّاسِ يَقتَدي فيه بَعضُهم ببَعضٍ[2].

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ المَعنى: فَتْحُ اللهِ لِنَبيِّه يدُلُّ بدَلالةِ الالتِزامِ على شُكرِ النَّبيِّ لنِعمةِ الفتحِ، فيَغفِرُ اللهُ له ما تقدَّمَ وما تأخَّرَ بسَببِ شُكرِه بأنواعِ العِبادةِ على تلك النِّعمةِ، فكأنَّ شُكرَ النَّبيِّ لازِمٌ لنِعمةِ الفتحِ، والغُفرانَ مُرَتَّبٌ على ذلك اللَّازِمِ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ قَولَه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾ يُفهَمُ منه بدَلالةِ الالتِزامِ: الجِهادُ في سبيلِ اللهِ؛ لأنَّه السَّببُ الأعظَمُ في الفتحِ، والجِهادُ سَببٌ لِغُفرانِ الذُّنوبِ؛ فيَكونُ المَعنى: لِيَغفِرَ لك اللهُ بسبَبِ جِهادِك المَفهومِ مِن ذِكرِ الفتحِ[3].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦، ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص:٢١٧-٢١٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن =

**الوجهُ الرَّابعُ**: ليْس الفتحُ كان لِيَغفِرَ له، بل لِيَنصُرَه نَصرًا عزيزًا، ولكنَّه لَمَّا عَدَّ عليه هذه النِّعمةَ، وصَلَه بما هو أعظَمُ النِّعَمِ(١).

**الوجهُ الخامسُ**: أنَّ المُرادَ منه التَّعريفُ، تقديرُه: إنَّا فَتَحْنا لك؛ لِيُعرَفَ أنَّك مَغفورٌ لك، مَعصومٌ؛ فإنَّ النَّاسَ كانوا عَلِموا بعْدَ عامِ الفيلِ أنَّ مكَّةَ لا يأخُذُها عدُوُّ اللهِ المَسخوطُ عليه، وإنَّما يَدخُلُها ويَأخُذُها حَبيبُ اللهِ المغفورُ له(٢).

**الوجهُ السَّادسُ**: أنَّ المُرادَ هنا: أنَّ اللهَ فتَحَ لك؛ لِكَيْ يَجعَلَ ذلك أمَارةً وعلامةً لِغُفرانِه لك، فكأنَّها لامُ صَيرورةٍ(٣).

**الوجهُ السَّابعُ**: جُعِلَتْ مَغفرةُ اللهِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِلَّةً للفتحِ؛ لأنَّها مِن جُملةِ ما أراد اللهُ حُصولَه بسَببِ الفتحِ، وليْستْ لامُ التَّعليلِ مُقتَضيةً حَصْرَ الغرَضِ مِنَ الفِعلِ المُعَلَّلِ في تلك العِلَّةِ؛ فإنَّ كثيرًا مِنَ الأشياءِ تَكونُ لها أسبابٌ كثيرةٌ، فيُذْكَرُ بعضُها ممَّا يَقتَضيهِ المَقامُ، وإذْ قدْ كان الفتحُ لكَرامةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ربِّه تعالَى، كان مِن عِلَّتِه أنْ يَغفِرَ اللهُ لِنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَغفِرةً عامَّةً؛ إتمامًا للكرامةِ، فهذه مَغفِرةٌ خاصَّةٌ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، هي غيرُ المغفرةِ الحاصِلةِ للمُجاهِدينَ بسَببِ الجهادِ والفتحِ(٤). وقيل غيرُ ذلك(٥).

٤- قولُه تعالَى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هذا مِن خَصائصِه صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه التي لا يُشارِكُه فيها غيْرُه. وليْس في حَديثٍ صَحيحٍ

---

= جرير)) (٢١/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٥-٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٦).

في ثَوابِ الأعمالِ لغَيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: (غُفِرَ له ما تَقدَّمَ مِن ذنْبِه وما تأخَّرَ). وهذا فيه تَشريفٌ عَظيمٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو صَلواتُ اللهِ وسَلامُه عليه في جَميعِ أُمورِه على الطَّاعةِ والبرِّ والاستقامةِ التي لم يَنَلْها بشَرٌ سِواه؛ لا مِن الأوَّلينَ ولا مِن الآخِرين، وهو أكمَلُ البشَرِ على الإطلاقِ، وسيِّدُهم في الدُّنيا والآخِرةِ[1].

٥- في قَولِه تعالَى: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أنَّ هِدايةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعدَ النُّبوَّةِ إلى الصِّراطِ المُستقيمِ: لا يكونُ إلَّا زِيادةً في إيمانِه، وهو ردٌّ على المُرجِئةِ المُنكِرينَ زِيادةَ الإيمانِ ونُقصانَه[2].

٦- القَولُ بأنَّ الأنبياءَ لا ذُنوبَ لهم مُطلقًا هو قَولٌ يُخالِفُ الكِتابَ والسُّنَّةَ؛ فإنَّ اللهَ تعالَى قال في كتابِه لأشرَفِ الرُّسُلِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾، وقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾[3] [محمد: ١٩].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٣٠٨).

وقولُ أكثرِ علماءِ الإسلامِ وأكثرِ أهلِ التَّفسيرِ والحديثِ والفقهاءِ، وقولُ أكثرِ أهلِ الكلامِ: أنَّ الأنبياءَ معصومونَ عن الكبائرِ، وتقعُ منهم بعضُ الصغائرِ معَ العصمةِ من الإقرارِ عليها، ومسارعتِهم إلى التَّوبةِ منها، التي يَرفعُهم الله بها إلى أعظمَ مِمَّا كانوا عليه، ولم يُنقَلْ عن السَّلفِ والأئمَّةِ والصحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهم إلَّا ما يُوافِقُ هذا القولَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣١٩) و(١٥/ ٥١)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ٢٠٨)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٨).

- افتِتاحُ الكلامِ بحرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ) ناشئٌ على ما أحلَّ بالمُسلِمينَ مِن الكآبةِ على أنْ أُجِيبَ المُشرِكون إلى سُؤالِهم الهُدْنةَ؛ فالتَّأكيدُ مَصْروفٌ للسَّامعينَ على طَريقةِ التَّعريضِ، وأمَّا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقدْ كان واثقًا بذلك[1].

- والفتحُ: إزالةُ غلْقِ البابِ أو الخِزانةِ، ويُطلَقُ على النَّصرِ، وعلى دُخولِ الغازي بِلادَ عَدُوِّه؛ لأنَّ أرضَ كلِّ قومٍ وبِلادَهم مَوانعُ عنها؛ فاقتحامُ الغازي إيَّاها بعْدَ الحربِ يُشبِهُ إزالةَ الغَلقِ عن البَيتِ أو الخِزانةِ؛ ولذلك كثُرَ إطلاقُ الفتْحِ على النَّصرِ المقترِنِ بدُخولِ أرضِ المغلوبِ أو بَلدِه، ولم يُطلَقْ على انتصارٍ كانتْ نِهايتُه غَنيمةً وأسْرًا دونَ اقتحامِ أرضٍ؛ فيُقال: فتْحُ خَيْبرَ، وفتْحُ مَكَّةَ، ولا يُقالُ: فتْحُ بدْرٍ، وفتْحُ أُحُدٍ. ولمُراعاةِ هذا المعنى قال جمْعٌ مِن المُفسِّرين: المُرادُ بالفتْحِ هنا فتْحُ مكَّةَ؛ وإنَّ مَحْمَلَه على الوَعدِ بالفتْحِ، والمعنى: سَنفتَحُ، وإنَّما جِيءَ في الأخبارِ بلَفظِ الماضي؛ لِتَحقُّقِه وتَيقُّنِه، شُبِّهَ الزَّمنُ المُستقبَلُ بالزَّمنِ الماضي، فاسْتُعمِلَت له الصِّيغةُ المَوضوعةُ لِلمُضِيِّ. أو يُقالُ: استُعمِلَ ﴿فَتَحْنَا﴾ بمَعنى: قدَّرنا لك الفتْحَ، ويكونُ هذا الاستِعمالُ مِن مُصطَلحاتِ القُرآنِ؛ لأنَّه كَلامُ مَن له التَّصرُّفُ في الأشياءِ، لا يَحجُزُه عن التَّصرُّفِ فيها مانعٌ، وقدْ جَرَى على عادةِ إخبارِ اللهِ تعالَى؛ لأنَّه لا خِلافَ في إخبارِه، وذلك أيضًا كِنايةٌ عن عُلوِّ شَأْنِ المُخبِرِ جلَّ جَلالُه وعزَّ سُلطانُه. أو المُرادُ صُلْحُ الحُديبيةِ، وإطلاقُ اسمِ الفَتحِ عليه باعتِبارِ أنَّه آلَ إلى فتْحِ خَيبرَ وفتْحِ مكَّةَ، أو كان سَببًا فيهما؛ وعلى هذا فإطلاقُ مادَّةِ الفتْحِ على سَبَبِه ومآلِه لا في صُورةِ الفِعلِ، أي: التَّعبيرُ عن المُستقبَلِ بلَفظِ الماضي؛ لأنَّه بهذا الاعتبارِ قدْ وقَعَ فيما مَضَى؛ فيكونُ اسمُ الفتْحِ استُعمِلَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٣).

استِعمالَ المُشترَكِ في مَعنيَيْه، وصِيغةُ الماضي استُعْمِلَت في مَعنيَيْها؛ فَيَظهَرُ وَجْهُ الإعجازِ في إيثارِ هذا التَّركيبِ(١).

- وأضافَ عزَّ وجلَّ الفتْحَ إلى نفْسِه؛ إشعارًا بأنَّه مِن عِندِ اللهِ، لا بكَثرةِ عَدَدٍ ولا عُدَدٍ، وأكَّدَه بالمصْدرِ، ووصْفُه بأنَّه مُبينٌ مُظهِرٌ لِما تَضمَّنَه مِن النَّصرِ والتَّأييدِ(٢).

- وحُذِف مَفعولُ ﴿فَتَحْنَا﴾؛ للقَصْدِ إلى نفْسِ الفِعلِ، والإيذانِ بأنَّ مَناطَ التَّبشيرِ نفْسُ الفتْحِ الصَّادرِ عنه سُبحانَه، لا خُصوصيَّةُ المَفتوحِ؛ فالمقصودُ الإعلامُ بجِنسِ الفتحِ لا بالمفتوحِ الخاصِّ(٣).

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿لَكَ﴾ قبْلَ المَفعولِ المُطلَقِ ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾ -خلافًا لِلأصلِ في تَرتيبِ مُتعلَّقاتِ الفِعلِ-؛ لِقَصدِ الاهتِمامِ والاعتِناءِ بهذه العِلَّةِ(٤).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۞ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾

- قولُه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ بَدلُ اشتِمالٍ مِن ضَميرِ ﴿لَكَ﴾ [الفتح: ١]، والتَّقديرُ: إنَّا فتَحْنا فتْحًا مُبينًا لِأجْلِك؛ لِغُفرانِ اللهِ لك، وإتمامِ نِعمتِه عليك، وهِدايتِك صِراطًا مُستقيمًا، ونصْرِك نصْرًا عزيزًا(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٣-١٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والالْتِفاتُ إلى اسمِ الذاتِ (الله) المُستتبِعِ لِجَميعِ الصِّفاتِ في قَولِه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾؛ لِلْإشعارِ بأنَّ كلَّ واحدٍ ممَّا انتظَمَ في سِلْكِ الغايةِ مِن أفعالِه تعالَى، صادرٌ عنه تعالَى مِن حَيثيةٍ غَيرِ حَيثيةِ الآخَرِ، مُترتِّبةٍ على صِفةٍ مِن صِفاتِه تعالَى[١]. وإنَّما أُسنِدَ فِعلُ ﴿لِّيَغْفِرَ﴾ إلى اسمِ الجَلالةِ العَلَمِ، وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُسنَدَ إلى الضَّميرِ المُستترِ؛ قَصْدًا للتَّنويهِ بهذه المَغفرةِ؛ لأنَّ الاسمَ الظاهرَ أنفَذُ في السَّمعِ، وأجلَبُ للتَّنبيهِ؛ وذلك للاهتِمامِ بالمُسنَدِ وبمُتعلَّقِه؛ لأنَّ هذا الخبَرَ أُنُفٌ لم يكُنْ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عِلْمٌ به؛ ولذلك لم يَبرُزِ الفاعلُ في ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ﴾؛ لأنَّ إنعامَ اللهِ عليه مَعلومٌ، وهِدايتَه مَعلومةٌ، وإنَّما أُخبِرَ بازْديادِهما[٢].

- وتَنوينُ ﴿صِرَٰطًا﴾ لِلتَّعظيمِ[٣].

- وانتَصَبَ ﴿صِرَٰطًا﴾ على أنَّه مَفعولٌ ثانٍ لـ (يَهْدي) بتَضمينِ معنى الإعطاءِ، أو بنَزْعِ الخافِضِ[٤].

- وإنَّما أُظهِرَ اسمُ الجَلالةِ في قَولِه: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ ولم يُكتَفَ بالضَّميرِ؛ اهتمامًا بهذا النَّصرِ، وتَشريعًا له بإسنادِه إلى الاسمِ الظَّاهرِ؛ لِصَراحةِ الظَّاهرِ، والصَّراحةُ أدْعى إلى السَّمعِ، والكلامُ مع الإظهارِ أعلَقُ بالذِّهنِ[٥]. وقيل: أُعِيدَ لَفظُ (الله) في ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ لَمَّا بعُدَ عمَّا عُطِفَ عليه؛ إذ في الجُملتَينِ قبْلَه ضَميرٌ يَعودُ على اللهِ، ولِيَكونَ المَبدَأُ مُسنَدًا إلى الاسمِ الظاهرِ والمُنْتهى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٧، ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨، ١٤٩).

كذلك. ولَمَّا كان الغُفرانُ، وإتمامُ النِّعمةِ، والهِدايةُ، والنَّصرُ؛ يَشترِكُ في إطلاقِها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وغيرُه بقَولِه تعالَى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقَولِه: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢]، وكان الفتْحُ لم يَبْقَ لِأحدٍ إلَّا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -أسنَدَه تَعالى إلى نُونِ العَظَمةِ؛ تَفخيمًا لِشأْنِه، وأُسنِدَ تلك الأشياءُ الأربعةُ إلى الاسمِ الظَّاهرِ، واشتَرَكَت الخُمسةُ -الفتْحُ، والغُفرانُ، وإتمامُ النِّعمةِ، والهِدايةُ، والنَّصرُ- في الخِطابِ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تأْنيسًا له وتَعظيمًا لشأْنِه، ولم يأْتِ بالاسمِ الظَّاهرِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ في الإقبالِ على المُخاطَبِ ما لا يكونُ في الاسمِ الظاهرِ[1].

- قَولُه: ﴿نَصْرًا عَزِيزًا﴾، أي: نصْرًا فيه عِزٌّ ومَنَعةٌ، أو قَويًّا مَنيعًا، على وَصْفِ المَصدرِ بوَصْفِ صاحبِه للمُبالَغةِ، أو عَزيزًا صاحبُه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٨).

## الآيات (٤-٧)

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾: أي: السُّكونَ والطُّمَأنينةَ؛ مِنَ السُّكونِ الَّذي هو الوَقارُ، وزوالُ الرُّعبِ، وأصلُ (سكن): يدُلُّ على خِلافِ الاضطِرابِ[1].

﴿وَيُكَفِّرَ﴾: أي: يَستُرَ، ويَمحُوَ، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على سَترٍ وتَغطيةٍ[2].

﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾: أي: دائِرةُ الهَزيمةِ والشَّرِّ والعَذابِ، والدَّائِرةُ تكونُ في المكروهِ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ، وأصلُ (سوء): القُبحُ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢، ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، و(٣/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٨).

## المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ سُبحانَه وتعالَى عن جانبٍ مِن مَظاهرِ فضْلِه على المؤمنينَ، فيقولُ: هو الَّذي أنزَلَ الطُّمَأْنينةَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ مِن أصحابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -وذلك حينَ منَعَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ-؛ لِيَزدادوا بذلك إيمانًا فَوقَ إيمانِهم.

ثمَّ يُبيِّن اللهُ تعالَى عَظيمَ مُلْكِه وقُدرتِه، فيقولُ: ولِلهِ جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِن الملائِكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، وكان اللهُ عَليمًا حَكيمًا سُبحانَه.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالَى عاقبةَ المؤمنينَ وغيرِهم مِن المنافقينَ والمشركينَ، فيقولُ: لِيُدخِلَ اللهُ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ ماكِثينَ فيها أبَدًا، ولِيَمحوَ عنهم ذُنوبَهم، وكان ذلك الوَعدُ فَوزًا عَظيمًا، ولِيُعَذِّبَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ، والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ؛ في الدُّنيا، الَّذين يَظُنُّونَ أنَّ اللهَ لنْ يَنصُرَ رَسولَه والمُؤمِنينَ، وأنَّه لن يُظهِرَ دِينهَ وكَلِمتَه على الكُفرِ وأهلِه، عليهم دائِرةُ الشُّرورِ والمَساوِئِ والمصائِبِ تَدورُ عليهم، وتُحيطُ بهم في الدُّنيا، وغَضِبَ اللهُ عليهم، وأبعَدَهم مِن رَحمتِه، وهَيَّأَ لهم جَهنَّمَ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، وساءَت جَهنَّمُ مَنزِلًا يَصيرونَ إليه يومَ القِيامةِ!

ثمَّ يقولُ تعالَى مؤكِّدًا على عَظيمِ مُلْكِه وقُدرتِه: ولِلهِ جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِنَ الملائِكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، وكان اللهُ عَزيزًا لا يَغلِبُه أحَدٌ، حَكيمًا يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبْلَها:

أنَّه لَمَّا قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح:٣]؛ بيَّن وجْهَ النَّصرِ[١]، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي أنزَلَ الطُّمَأْنينةَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ مِن أصحابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فسَكَنَت قُلوبُهم إلى الحَقِّ حينَ منَعَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ؛ فلم تَضطَرِبْ نُفوسُهم[٢].

عن البَراءِ بن عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((بيْنَما رجُلٌ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقرَأُ، وفَرَسٌ له مَربوطٌ في الدَّارِ، فجَعَل يَنفِرُ، فخَرَج الرَّجُلُ فنَظَر فلمْ يَرَ شَيئًا، وجعَلَ [أي: الفَرَسُ] يَنفِرُ، فلمَّا أصبَحَ ذَكَر ذلك للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: السَّكينةُ تَنزَّلَت بالقُرآنِ!))[٣].

﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

أي: أنزَلَ اللهُ السَّكينةَ في قُلوبِ المُؤمِنينَ؛ لِيَزدادوا بذلك إيمانًا فَوقَ إيمانِهم السَّابِقِ مِن قَبلِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٥)، ((الإيمان)) لابن تيميَّة (ص: ١٨١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٧١)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٥٤-١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).
قال ابنُ تيمية: (السَّكينةُ طُمأنينةٌ في القلبِ غيرُ علمِ القلبِ وتصديقِه). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٢٩).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٨٣٩) واللفظ له، ومسلمٌ (٧٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولله جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِن الملائِكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، يَنتَقِمُ بهم ممَّن يَشاءُ مِن أعدائِه(١).

كما قال تعالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالَى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلمِ التَّامِّ؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ، وبالحِكمةِ التَّامَّةِ؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به(٢).

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: لِيُدخِلَ اللهُ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ غُرَفِها وأشجارِها، وهم ماكِثونَ فيها أبَدًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧-١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٠-١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١).

قال السعديُّ: (ولكِنَّه تعالَى عليمٌ حَكيمٌ، فتَقتَضي حِكمتُه المداوَلةَ بيْنَ النَّاسِ في الأيَّامِ، وتأخيرَ نَصْرِ المُؤمِنينَ إلى وَقتٍ آخَرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٦-٢٤٧)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٦٩٤٠)، ((تفسير =

= القرطبي)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير القنوجي)) (١٣/ ٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٤-٣٩٥).

قال السَّمين الحلبيُّ: (قوله: ﴿لِّيُدْخِلَ﴾: في مُتعلَّقِ هذه اللَّام أربعةُ أوجهٍ:

أحدُها: مَحذوفٌ، تقديرُه: يَبْتَلي بتلك الجنودِ مَنْ شاء، فيَقبلُ الخيرَ مِمَّن أهَّله له، والشرَّ مِمَّن قَضى له به؛ ليُدْخِلَ ويُعَذِّبَ.

الثاني: أنها مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا﴾.

الثالث: أنَّها مُتعلِّقةٌ بـ «يَنْصُرَكَ».

الرابع: أنها مُتعلِّقة بـ «يَزْدَادُوا». ((الدر المصون)) (٩/ ٧١٠). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٩).

ممَّن اختار القولَ الأولَ: أبو حيَّان، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤).

وممَّن اختار القولَ الثانيَ -أي أنَّها مُتعَلِّقةٌ بقَولِه تعالى: ﴿فَتَحْنَا لَكَ﴾ أي: إنَّا فتَحْنا لك فَتحًا مُبينًا؛ لِيَغفِرَ اللهُ لك، ولِيُدخِلَ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ جَنَّاتٍ-: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٧).

وممَّن اختار القولَ الرَّابعَ: أنها مُتعَلِّقةٌ بـ (يَزْدَادُوا) في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، أي: فبِسَبَبِ زيادةِ إيمانِهم نُدخِلُهم جَنَّاتٍ. ممَّن اختارَ هذا المعنى في الجُملةِ: القُرطبيُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٤).

قال السَّمين الحلَبيُّ: (واسْتُشْكِل هذا: بأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ عطفٌ عليه، وازديادُهم الإيمانَ ليس مُسَبَّبًا عن تعذيبِ اللهِ الكُفَّارَ. وأُجيبَ: بأنَّ اعتقادَهم أنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الكفَّارَ يَزيدُ في إيمانِهم لا مَحالةَ). ((الدر المصون)) (٩/ ٧١٠).

وقال الرازيُّ: (فإنْ قيل: فقولُه: ﴿وَيُعَذِّبَ﴾ عطْفٌ على قولِه ﴿لِّيُدْخِلَ﴾، وازديادُ إيمانِهم [أي: المؤمنين] لا يَصلُحُ سَببًا لتَعذيبِهم [أي: المنافِقين والكافِرين]، نَقولُ: بلَى، وذلك مِن وَجهينِ:

أحدُهما: أنَّ التَّعذيبَ مَذكورٌ لكونِه مَقصودًا للمؤمنين، كأنَّه تعالَى يقولُ: بسَببِ ازديادِكم في الإيمانِ يُدخِلُكم في الآخرةِ جنَّاتٍ، ويُعذِّبُ بأيْدِيكم في الدُّنيا الكفَّارَ والمنافقينَ.

الثَّاني: تَقديرُه: ويُعَذِّبَ بسَببِ ما لكمْ مِن الازديادِ، يُقال: فعَلْتُه لأُجَرِّبَ به العدُوَّ والصَّديقَ، =

﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾.

أي: وليَمحوَ اللهُ عن المُؤمنينَ والمُؤمِناتِ ذُنوبَهم، فلا يُؤاخِذَهم بها[1].

كما قال تعالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التغابن: ٩].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

أي: ذلك الوَعدُ بإدخالِ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ الجَنَّةَ، وتَكفيرِ سَيِّئاتِهم: فَوزٌ عَظيمٌ، فيَظفَرونَ بكُلِّ خَيرٍ، ويَنجُونَ مِن كُلِّ شَرٍّ[2].

كما قال تعالَى: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾.

---

= أي: لأعْرِفَ بوُجودِه الصَّديقَ، وبعَدَمِه العدُوَّ، فكذلك لِيَزدادَ المؤمنُ إيمانًا فيُدخِلَه الجنَّةَ، ويَزدادَ الكافرُ كفْرًا فيُعذِّبَه به.

ووجْهٌ آخَرُ ثالثٌ: وهو أنَّ سَببَ زِيادةِ إيمانِ المؤمنينَ بكثْرةِ صَبْرِهم وثَباتِهم، فيَعيى المنافقُ والكافرُ معه ويَتعذَّبُ، وهو قَريبٌ ممَّا ذكَرْنا). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٩).

وقال ابنُ عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ معناه: فازْدادوا وتلَقَّوا ذلك، فتمَكَّنَ بعْدَ ذلك قَولُه: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بتكَسُّبِهم القَبولَ لِما أنزَلَ اللهُ عليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

أي: ولِيُعَذِّبَ اللهُ المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ، والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ؛ في الدُّنيا[١].

كما قال تعالَى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

**مُناسبتُها لِما قبلَها:**

لَمَّا أخبَرَ بعَذابِهم؛ أتْبَعَه وَصْفَهم بما سَبَّبَ لهمْ ذلك، فقال تعالَى[٢]:

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾.

أي: الَّذين يَظُنُّونَ أنَّ اللهَ لنْ يَنصُرَ رَسولَه والمُؤمِنينَ على أعدائِهم، وأنَّه سيُسْلِمُهم للقَتلِ، وأنَّه لنْ يُظهِرَ دِينَه وكَلِمتَه على الكُفرِ وأهلِه؛ فيَنسُبونَ إلى اللهِ ما لا يَليقُ بحِكمتِه وقَضائِه[٣].

كما قال تعالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤).

قال البقاعيُّ: (قال تعالَى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ﴾ أي: المحيطِ بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ مِن أنَّه لا يَفي بوَعدِه في أنَّه يَنصُرُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتْباعَه المُؤمِنينَ، أو أنَّه لا يَبعَثُهم، أو أنَّه لا يُعَذِّبُهم لِمُخالفةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومُشاقَقةِ أتباعِه). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٢٨٩).

وقال سُبحانَه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿السُّوءِ﴾ بضَمِّ السِّينِ، بمعنى: الهزيمةِ والشَّرِّ والبَلاءِ، أي: عليهم دائِرةُ الشَّرِّ والهَزيمةِ والبَلاءِ والضَّرَرِ[١].

٢- قِراءةُ: ﴿ٱلسَّوْءِ﴾ بفَتحِ السِّينِ، بمعنى: الرَّداءةِ والفَسادِ، أي: عليهم دائِرةُ الفَسادِ. وقيل: المعنى: عليهم الدَّائِرةُ التي تَسوءُهم سَوءًا. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، كالضُّعْفِ والضَّعْفِ[٢].

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾.

أي: على المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ، الَّذين يَظُنُّونَ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ: دائِرةُ العَذابِ والشُّرورِ والمَساوِئِ والمصائِبِ، تَدورُ عليهم وتُحيطُ بهم في الدُّنيا[٣].

---

(١) قرَأ بها ابنُ كثير، وأبو عمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((الحُجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦١)، ((الحُجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٠٦-٢٠٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٥٠٥).

(٢) قرَأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (ص: ٢٨٣).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٣٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٧٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (١/ ٤٦١)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٤/ ٢٠٦-٢٠٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٣٢٢)، ((الكشف)) لمكي (١/ ٥٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن =

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: وغَضِبَ اللهُ على المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ والمُشرِكينَ والمُشرِكاتِ[١].

﴿وَلَعَنَهُمۡ﴾.

أي: وأبعَدَهم اللهُ وطرَدَهم مِن رَحمتِه[٢].

﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَ﴾.

أي: وهَيَّأَ لهم جَهنَّمَ يَدخُلونَها في الآخِرةِ[٣].

﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾.

أي: وساءَت جَهنَّمُ مَنزِلًا يَصيرونَ إليه يومَ القِيامةِ[٤].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ٧﴾.

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: ولِلهِ جُنودُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ مِنَ الملائِكةِ والجِنِّ والإنسِ وغَيرِهم، يَنتَقِمُ بهم ممَّن يَشاءُ مِن أعدائِه[٥].

---

= عطية)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير مكي)) (١١/ ٦٩٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٢)، ((تفسير ابن =

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالَى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِزَّةِ الكامِلةِ؛ فهو القاهِرُ الغالِبُ لكُلِّ شَيءٍ، لا يَغلِبُه أحَدٌ، ولا يَمنَعُه مِمَّا أراده أحَدٌ، وهو المتَّصِفُ بالحِكمةِ التَّامَّةِ؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[1].

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠، ٢١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، وإنَّما كان هذا ظَنَّ السَّوءِ، وظَنَّ الجاهِليَّةِ المَنسوبَ إلى أهلِ الجهلِ، وظَنَّ غَيرِ الحقِّ؛ لأنَّه ظَنُّ غَيرِ ما يَليقُ بأسمائِه الحُسنى، وصِفاتِه العُلْيا، وذاتِه المُبَرَّأةِ مِن كلِّ عَيبٍ وسُوءٍ، بخِلافِ ما يَليقُ بحِكمتِه وحَمدِه، وتَفرُّدِه بالرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ، وما يَليقُ بوَعدِه الصَّادِقِ الَّذي لا يُخْلِفُه، وبِكَلِمتِه الَّتي سبَقَتْ لِرُسلِه أنَّه يَنصُرُهم ولا يَخذُلُهم، ولِجُندِه بأنَّهم هُمُ الغالِبونَ، فمَن ظَنَّ بأنَّه لا يَنصُرُ رَسولَه، ولا يُتِمُّ أمْرَه، ولا يُؤيِّدُه ويُؤيِّدُ حِزبَه، ويُعْلِيهم ويُظْفِرُهم بأعدائِه، ويُظهِرُهم عليهم، وأنَّه لا يَنصُرُ دِينَه وكِتابَه، وأنَّه يُدِيلُ الشِّركَ على التَّوحيدِ، والباطِلَ على الحقِّ إدالَةً مُستقِرَّةً يَضْمَحِلُّ معها التَّوحيدُ والحقُّ اضْمِحْلالًا لا يَقومُ بعدَه أبدًا -فقدْ ظَنَّ باللهِ ظَنَّ السَّوءِ، ونسَبَه إلى خِلافِ ما يَليقُ

---

= عطية)) (٥/ ١٢٧-١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩١).

بكَمالِه وجَلالِه وصِفاتِه ونُعوتِه؛ فإنَّ حَمْدَه وعِزَّتَه وحِكمتَه وإلَهِيَّتَه تأبَى ذلك، وتأبَى أنْ يَذِلَّ حِزبُه وجُندُه، وأنْ تَكونَ النُّصرةُ المُستقِرَّةُ والظَّفَرُ الدَّائمُ لأعدائِه المُشركينَ به، العادِلينَ به، فمَن ظَنَّ به ذلك فما عرَفه، ولا عرَفَ أسماءَه، ولا عرَف صِفاتِه وكمالَه. وكذلك مَن أنكَرَ أنْ يَكونَ ذلك بقَضائِه وقَدَرِه، فما عرَفه ولا عرَفَ رُبوبيَّتَه ومُلْكَه وعَظَمتَه. وكذلك مَن أنكَرَ أن يَكونَ قَدَّر ما قدَّرَه مِن ذلك وغَيرِه لحِكمةٍ بالِغةٍ وغايةٍ مَحمودةٍ يَستحِقُّ الحَمدَ عليها، وأنَّ ذلك إنَّما صدَرَ عن مَشيئةٍ مُجَرَّدةٍ عن حِكمةٍ وغايةٍ مَطلوبةٍ هي أحَبُّ إليه مِن فَوْتِها، وأنَّ تلك الأسبابَ المكروهةَ المُفْضيةَ إليها لا يَخرُجُ تَقديرُها عن الحِكمةِ لإفضائِها إلى ما يُحِبُّ، وإنْ كانتْ مَكروهةً له، فما قدَّرها سُدًى، ولا أنشأها عَبَثًا، ولا خَلَقها باطلًا، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]. وأكثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ باللهِ غَيْرَ الحقِّ ظَنَّ السَّوءِ فيما يَختَصُّ بهم، وفيما يَفعَلُه بغَيرِهم، ولا يَسلَمُ عن ذلك إلَّا مَن عرَفَ اللهَ، وعرَفَ أسماءَه وصِفاتِه، وعرَفَ مُوجَبَ حَمدِه وحِكمتِه، فمَنْ قَنَطَ مِن رَحمتِه، وأيِسَ مِن رَوحِه؛ فقدْ ظَنَّ به ظَنَّ السَّوءِ. وأكثَرُ الخَلقِ يَظُنُّونَ باللهِ غيرَ الحقِّ ظَنَّ السَّوءِ؛ فإنَّ غالِبَ بَني آدمَ يَعتقِدُ أنَّه مَبخوسُ الحقِّ، ناقِصُ الحظِّ، وأنَّه يَستحِقُّ فوقَ ما أعطاهُ اللهُ، ولسانُ حالِه يقولُ: ظَلَمَني ربِّي، ومَنَعَني ما أستحِقُّه! ونفْسُه تَشهَدُ عليه بذلك، وهو بِلِسانِه يُنكِرُه، ولا يَتجاسَرُ على التَّصريحِ به، ومَن فتَّشَ نفْسَه وتَغلغَلَ في مَعرفةِ دَفائنِها وطَواياها، رأى ذلك فيها كامنًا كُمونَ النَّارِ في الزِّنادِ، فاقدَحْ زِنادَ مَن شِئتَ، يُنبِئْكَ شَرَارُه عمَّا في زِنادِه، ولو فَتَّشْتَ مَن فتَّشْتَه لَرَأيتَ عِندَه تَعَتُّبًا على القَدَرِ، ومَلامةً له، واقتِراحًا عليه خِلافَ ما جرَى به، وأنَّه كان يَنبغي أنْ يَكونَ كذا وكذا! فمُستقِلٌّ ومُستكثِرٌ، وفَتِّشْ نفْسَك: هل أنت سالمٌ مِن ذلك؟

فإنْ تَنْجُ منها تَنْـــجُ مِن ذي عَظيمةٍ وإلَّا فإنِّـــي لا إخالُـــكَ ناجِيَـــا[١]

فلْيَعتَنِ اللَّبيبُ النَّاصحُ لنفْسِه بهذا المَوضعِ، ولْيَتُبْ إلى اللهِ تعالَى، ولْيَستغفِرْهُ كلَّ وقتٍ مِن ظنِّه بربِّه ظَنَّ السَّوءِ، ولْيَظُنَّ السُّوءَ بنفْسِه الَّتي هي مأوَى كلِّ سُوءٍ، ومَنبَعُ كلِّ شرٍّ، المُرَكَّبةِ على الجهلِ والظُّلمِ؛ فهي أَوْلى بظَنِّ السَّوءِ مِن أحكَمِ الحاكِمينَ، وأعدَلِ العادِلينَ، وأرحَمِ الرَّاحمينَ، الغنيِّ الحميدِ، الَّذي له الغِنى التَّامُّ، والحمدُ التَّامُّ، والحِكمةُ التَّامَّةُ، المُنَزَّهُ عن كلِّ سُوءٍ في ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه وأسمائِه؛ فَذاتُه لها الكمالُ المُطْلَقُ مِن كلِّ وجهٍ، وصِفاتُه كذلك، وأفعالُه كذلك؛ كلُّها حِكمةٌ ومَصلحةٌ ورَحمةٌ وعدْلٌ، وأسماؤُه كلُّها حُسنى.

فـــلا تَظْنُـــنْ بِرَبِّـــكَ ظَنَّ سَـــوْءٍ فـــإنَّ اللـــهَ أَوْلـــى بالجَميـــلِ[٢]

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى تَسكينِ النُّفوسِ، وأنْ تكونَ مُسلِّمةً؛ لأنَّه يَنصُرُ متى شاء، وعلى أيِّ صُورةٍ شاء ممَّا لا يُدبِّرُه البشَرُ، ومِن جُندِه: السَّكينةُ التي أنْزَلَها في قُلوبِ أصحابِ محمَّدٍ، فثبَّتَ بَصائرَهم[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذكَرَ اللهُ سُبحانَه السَّكينةَ في كِتابِه في سِتَّةِ مَواضِعَ:

**الأوَّلُ:** قَولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

---

(١) البيتُ مَنسوبٌ للأسودِ بنِ سَريعٍ رَضِي الله عنه. يُنظر: ((البيان والتبين)) للجاحظ (١/ ٢٩٣). ومَنسوبٌ للفرزدق. يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٣/ ٧٥). ومَنسوبٌ لِذِي الرُّمة. يُنظر: ((ديوان ذي الرمة شرح الباهلي)) (٣/ ١٩٢٤).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٥-٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧).

**الثَّاني**: قَولُه تبارك وتعالَى: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: ٢٦].

**الثَّالِثُ**: قَولُه تعالَى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠].

**الرَّابعُ**: قَولُه تعالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ٤].

**الخامِسُ**: قَولُه تعالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨].

**السَّادِسُ**: قَولُه تعالَى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: ٢٦].

وكان شَيخُ الإسلامِ ابنُ تَيميَّةَ -رَحِمَه اللهُ- إذا اشتَدَّت عليه الأُمورُ قَرَأَ آياتِ السَّكينةِ، وقال في واقِعةٍ عَظيمةٍ جَرَتْ له في مَرَضِه، تَعجِزُ العُقولُ عن حَمْلِها؛ مِن مُحاربةِ أرواحٍ شَيطانيَّةٍ ظَهَرتْ له إذ ذاك في حالِ ضَعفِ القُوَّةِ -قال: (فلمَّا اشتَدَّ علَيَّ الأمرُ قُلتُ لِأقاربي ومَن حَولي: اقرَؤوا آياتِ السَّكينةِ، قال: ثمَّ أقلَعَ عنِّي ذلك الحالُ، وجَلستُ وما بي قَلَبَةٌ[1])[2].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، فكُلُّ مَن رَسَخ

---

(١) ما بي قَلَبَةٌ: أي: ما بي شَيءٌ، مأخوذٌ مِن القُلابِ: وهو داءٌ يَأخُذُ الإبلَ في رُؤوسِها، فيَقلِبُها إلى فَوقٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٧٠-٤٧١).

قال ابنُ القيمِ: (وقد جرَّبتُ أنا أيضًا قِراءةَ هذه الآياتِ عندَ اضطِرابِ القَلبِ بما يَرِدُ عليه، فرأيْتُ لها تأثيرًا عَظيمًا في سُكونِه وطُمَأنينتِه). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٤٧١).

في الإيمانِ له في هذه الآيةِ نَصيبٌ جَناه - أي: قطْفُه وثمرتُه- دانٍ[١].

٣- قال اللهُ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وقال في حَقِّ الكافِرينَ: ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦] بلَفظِ (القَذفِ) المُزعِجِ، أمَّا في حَقِّ المُؤمِنينَ فبِلَفظِ الإنزالِ المُثَبِّتِ؛ وذلك لأنَّ مَن عَلِمَ شَيئًا مِن قَبلُ وتذَكَّرَه، واستَدامَ تذَكُّرَه، فإذا وقَعَ لا يتغيَّرُ، ومَن كان غافِلًا عن شَيءٍ، فيَقَعُ دَفعةً؛ يَرجُفُ فُؤادُه؛ ألَا تَرى أنَّ مَن أُخبِرَ بوُقوعِ صَيحةٍ، وقِيلَ له: لا تَنزَعِجْ منها، فوقَعَت الصَّيحةُ؛ لا يَرجُفُ، ومَن لم يُخبَرْ به أو أُخبِرَ وغَفَلَ عنه يَرتَجِفُ إذا وقَعَت، فكذلك الكافِرُ؛ أتاهُ اللهُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، وقذَفَ في قَلْبِه؛ فارتجَفَ، والمؤمِنُ أتاهُ مِن حيثُ كان يَذكُرُه؛ فسَكَن[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ فيه أنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ، كما عليه أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ، وقدْ دَلَّ عليه الوَحيُ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ[٣].

٥- السَّكينةُ هي طمأنينةُ القلبِ واستقرارُه، وأصلُها في القلبِ، ويظهَرُ أثرُها على الجوارحِ، وهي عامَّةٌ وخاصَّةٌ. فسَكينةُ الأنبياءِ صلواتُ اللَّه وسلامُه عليهم أخصُّ مراتبِها وأعلَى أقسامِها، كالسَّكينةِ التي حصَلت لإبراهيمَ الخليلِ حينَما أُلقِي في النَّارِ، وكذلك السَّكينةُ التي حصَلت لموسَى وقد غشِيَه فرعونُ وجنودُه مِن ورائِهم، والبحرُ أمامَهم، إلى غيرِ ذلك مِن المواقفِ التي حصَلت له فيها السَّكينةُ، وكذلك السَّكينةُ التي حصَلت لنبيِّنا صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، وقد أشرَف عليه وعلى صاحبِه عدوُّهما وهما في الغارِ، فلو نظَر أحدُهم تحتَ قدميه

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٤).

لرآهما، وكذلك السكينةُ التي نزَلت عليه في مواقفِه العظيمةِ، وأعداءُ اللَّه قد أحاطوا به كيومِ بدرٍ ويومِ حُنينٍ ويومِ الخندقِ وغيرِه، فهذه السكينةُ أمرٌ فوقَ عقولِ البشرِ، وهي مِن أعظمِ معجزاتِه عندَ أَربابِ البصائرِ، فإنَّ الكذبَ، -ولا سيَّما على اللَّه تعالى- أقلَقُ ما يكونُ وأخوفُ ما يكونُ وأشدُّه اضطرابًا في مثلِ هذه المواطنِ، فلو لم يكُنْ للرُّسلِ صلواتُ اللَّه وسلامُه عليهم مِن الآياتِ إلَّا هذه وحدَها لكفَتْهم.

وتكونُ السَّكينةُ لأتباعِ الرُّسلِ بحسبِ متابعتِهم، وهي سكينةُ الإيمانِ، وهي سكينةٌ تُسكنُ القلوبَ عن الرَّيبِ والشكِّ، ولهذا أنزَلها اللَّه تعالى على المؤمنينَ في أَصعبِ المواطنِ أحوجَ ما كانوا إليها ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤] فذكَر نعمتَه عليهم بالجنودِ الخارجةِ عنهم، والجنودِ الداخلةِ فيهم، وهي السكينةُ عندَ القلقِ والاضطرابِ الذي لم يَصبرْ عليه مثلُ عمرَ بنِ الخطَّابِ رضِي اللَّه عنه، وذلك يومَ الحديبيةِ قال اللَّه سبحانه وتعالى يذكُرُ نعمتَه عليهم بإنزالِها أحوجَ ما كانوا إليها: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: ١٨] لمَّا علِم اللَّه سبحانه وتعالى ما في قلوبِهم مِن القلقِ والاضطرابِ لمَّا منَعهم كفَّارُ قريشٍ مِن دخولِ بيتِ اللَّه، وحبَسوا الهديَ عن محلِّه، واشتَرطوا عليهم تلك الشُّروطَ الجائرةَ الظالمةَ، فاضْطَربتْ قلوبُهم وقلقَتْ، ولم تُطِق الصَّبرَ، فعلِم تعالى ما فيها فثبَّتها بالسكينةِ رحمةً منه ورأفةً ولطفًا، وهو اللطيفُ الخبيرُ[1].

٦- قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ لمَّا

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٤/ ١٥٤).

أنزَل الله تعالى السَّكينةَ في قلوبِهم مرجعَهم مِن الحُديبيةِ؛ ليزدادوا إيمانًا معَ إيمانِهم دلَّ على أنَّ الإيمانَ المزيدَ حالٌ للقلبِ وصفةٌ له وعملٌ مثلُ طمأنينتِه وسكونِه ويقينِه(١).

٧- قال اللهُ تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، قال: ﴿حَكِيمًا﴾ بعْدَ قولِه: ﴿عَلِيمًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّه يَفعَلُ على وَفقِ العِلمِ؛ فإنَّ الحَكيمَ مَن يَعمَلُ شيئًا مُتْقَنًا ويَعلَمُه، فإنَّ مَن يقَعُ منه صُنْعٌ عَجيبٌ اتِّفاقًا لا يُقالُ له: حكيمٌ، ومَن يَعلَمُ ويَعمَلُ على خِلافِ العلمِ لا يقالُ له: حكيمٌ(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ فيه سُؤالٌ: قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ بعْدَ ذِكرِ الإدخالِ، مع أنَّ تَكفيرَ السَّيِّئاتِ قبْلَ الإدخالِ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** تَكفيرُ السَّيِّئاتِ والمَغفِرةُ وغَيرُهما: مِن تَوابِعِ كَونِ المُكَلَّفِ مِن أهلِ الجنَّةِ؛ فقُدِّمَ الإدخالُ في الذِّكْرِ، بمعنى: أنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّ الواوَ لا تَقتَضي التَّرتيبَ(٣)، والتَّرتيبُ المذكورُ هو تَرتيبٌ في الذِّكْرِ لا تَرتيبٌ في الوقوعِ. وكان التَّبشيرُ بدُخولِ الجنةِ أهمَّ، فبُدِئ به(٤).

**الوَجهُ الثَّالثُ:** أنَّ المرادَ بإدْخالِهم الجنَّةَ إدخالٌ خاصٌّ، وهو إدْخالُهم مَنازِلَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧).

المُجاهِدينَ، وليْس هو الإدخالَ الذي استَحَقُّوه بالإيمانِ وصالحِ الأعمالِ الأُخرى؛ ولذلك عَطَف عليه: ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾[1].

**الوجهُ الرَّابعُ**: أنَّه قدَّمَ الإدخالَ على التَّكفيرِ مع أنَّ الأمرَ بالعكسِ؛ لِلمُسارَعةِ إلى بيانِ ما هو المَطلَبُ الأعْلى، والمَقصَدُ الأَسْنى[2].

**الوجْهُ الخامسُ**: أنَّ المعنى: يُدخِلُهم الجنَّةَ ويُغطِّي سيِّئاتِهم ويَستُرُها عنهم، فلا تَمُرُّ لهم ببالٍ، ولا يَذكُرونها أصلًا؛ لئلَّا يَخجَلوا فيَتكدَّرَ صَفْوُ عَيشِهم[3].

٩- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، ثمَّ قال تعالَى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ زِيادةً في الإفادةِ؛ لأنَّ مَن كان به بَلاءٌ فقدْ يكونُ مُبتلًى به على وَجهِ الامتِحانِ، فيَكونُ مُصابًا لكي يَصيرَ مُثابًا، وقدْ يكونُ مُصابًا على وَجهِ التَّعذيبِ؛ فقَولُه: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الَّذي حاق بهم على وَجهِ التَّعذيبِ، وقَولُه: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ زِيادةُ إفادةٍ؛ لأنَّ المغضوبَ عليه قدْ يكونُ بحيثُ يَقنَعُ الغاضِبُ بالعَتْبِ والشَّتمِ أو الضَّربِ، ولا يُفضي غَضَبُه إلى إبْعادِ المغضوبِ عليه مِن جَنابِه، وطَردِه مِن بابِه، وقدْ يكونُ بحيثُ يُفضي إلى الطَّردِ والإبعادِ[4].

١٠- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ لم يَجمَعْ على أحَدٍ مِنَ الوَعيدِ والعُقوبةِ ما جمَعَ على أهلِ الإشراكِ؛ فإنَّهم ظَنُّوا به ظَنَّ السَّوءِ، حتَّى أشرَكوا به، ولوْ أحسَنوا به الظَّنَّ لَوَحَّدوه حَقَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧١).

تَوحيدِه[١].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ بَيانٌ لِمَا أفاضَ اللهُ عليهم مِن مَبادِئِ الفتْحِ مِن الثَّباتِ والطُّمأنينةِ، وفي التعبيرِ عن ذلِك بالإنزالِ إيماءٌ إلى عُلوِّ شأنِها[٢].

- وهذه الجُملةُ بَدلُ اشتِمالٍ مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ٣]، وحصَلَ منها الانتِقالُ إلى ذِكرِ حظِّ المُسلمين مِن هذا الفتْحِ؛ فإنَّ المُؤمِنين هم جُنودُ اللهِ الَّذين قدْ نصَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهمْ، فكان في ذِكْرِ عِنايةِ اللهِ بإصلاحِ نُفوسِهم، وإذهابِ خَواطِرِ الشَّيطانِ عنهم، وإلْهامِهم إلى الحقِّ في ثَباتِ عَزْمِهم، وقُرارةِ إيمانِهم؛ تَكوينٌ لِأسبابِ نصْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والفتْحِ المَوعودِ به؛ لِيَندَفِعوا حينَ يَستنفِرُهم إلى العدُوِّ بقُلوبٍ ثابتةٍ، ألَا تَرى أنَّ المُؤمِنين تَبلبَلتْ نُفوسُهم مِن صُلْحِ الحُديبيةِ؛ إذ انصَرَفوا عَقِبَه عن دُخولِ مكَّةَ بعْدَ أنْ جاؤوا لِلعُمرةِ بعَددٍ عَديدٍ حسِبُوه لا يُغلَبُ، وأنَّهم إنْ أرادَهم العدوُّ بسُوءٍ، أو صَدَّهم عن قصْدِهم؛ قابَلوه فانْتَصروا عليه، وأنَّهم يَدخُلون مكَّةَ قسْرًا[٣].

- وفي قَولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ جُعِلَ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٥)، ((تفسير الألوسي)) (٢٦/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٤٩)

ذلك الازديادُ كالعِلَّةِ لِإنزالِ السَّكينة في قُلوبِهم؛ لأنَّ اللهَ عَلِمَ أنَّ السَّكينةَ إذا حصَلَتْ في قُلوبِهم رسَخَ إيمانُهم، فعُومِلَ المَعلومُ حُصولُه مِن الفِعلِ مُعامَلةَ العِلَّةِ، وجُعِلَت قُوَّةُ الإيمانِ بمَنزلةِ إيمانٍ آخَرَ دخَلَ على الإيمانِ الأسبقِ؛ لأنَّ الواحدَ مِن أفرادِ الجِنسِ إذا انضَمَّ إلى أفرادٍ أُخَرَ، زادها قُوَّةً؛ فلذلك عُلِّقَ بالإيمانِ ظَرْفُ (مع) في قَولِه: ﴿مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾، فكان في ذلك الحادثِ خَيرٌ عَظيمٌ لهم، كما كان فيه خَيرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بأنْ كان سَببًا لِتَشريفِه بالمَغفرةِ العامَّةِ، ولإتمامِ النِّعمةِ عليه، ولِهدايتِه صِراطًا مُستقيمًا، ولِنَصرِه نصْرًا عزيزًا، فأعظِمْ به حَدَثًا أعقَبَ هذا الخيرَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ولِأصحابِه[1]!

- قَولُه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تَذْييلٌ لِلْكلامِ السَّابقِ؛ لأنَّه أفادَ أنْ لا عجَبَ في أنْ يَفتَحَ اللهُ لك فتْحًا عَظيمًا، ويَنصُرَك على أقوامٍ كَثيرينَ أشِدَّاءَ نصْرًا صَحِبَه إنزالُ السَّكينةِ في قُلوبِ المُؤمِنين بعْدَ أنْ خامَرَهم الفشَلُ، وانكسارُ الخواطِرِ؛ فاللهُ مَن يَملِكُ جَميعَ وَسائلِ النَّصرِ، وله القُوَّةُ القاهرةُ في السَّمواتِ والأرضِ، وما هذا النَّصْرُ إلَّا بعضٌ ممَّا للهِ مِن القُوَّةِ والقَهْرِ. والواوُ اعتِراضيَّةٌ، وجُملةُ التَّذييلِ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ وبيْنَ مُتعلَّقِها، وهو ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾ [الفتح: ٥] الآيةَ[2].

- وفي تَعقيبِ جُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ...﴾ بجُملةِ التَّذييلِ: إشارةٌ إلى أنَّ المُؤمِنين مِن جُنودِ اللهِ، وأنَّ إنزالَ السَّكينةِ في قُلوبِهم تَشديدٌ لِعَزائمِهم؛ فتَخْصيصُهم بالذِّكْرِ قبْلَ هذا العُمومِ وبعْدَه تَنويهٌ بشَأْنِهم،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُومِئُ إلى ذلك قَولُه بعْدُ: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ الآيةَ[١].

- وتَقديمُ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه في قَولِه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لإفادةِ الحصْرِ، وهو حَصْرٌ ادِّعائيٌّ[٢]؛ إذ لا اعتِدادَ بما يَجمَعُه المُلوكُ والفاتِحون مِن الجُنودِ لِغَلَبةِ العدُوِّ بالنِّسبةِ لِمَا للهِ مِن الغَلَبةِ لِأعدائِه والنَّصرِ لِأوليائِه[٣].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تَذْييلٌ لِما قبْلَه مِن الفتْحِ والنَّصرِ وإنزالِ السَّكينةِ في قُلوبِ المُؤمِنين، والمَعْنى: أنَّه عَليمٌ بأسبابِ الفتْحِ والنَّصْرِ، وعَليمٌ بما تَطمِئنُّ به قُلوبُ المُؤمِنين بعْدَ البَلبَلةِ، وأنَّه حَكيمٌ يضَعُ مُقتضياتِ عِلْمِه في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١).

(٢) الحَصرُ أو القَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثاني: مقصورًا عليه، مثل: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أنْ يَختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثل: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصْرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتَنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتَقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٧- ١٧)، ((الإتقان)) للسيوطي (٢/ ١٣٤- ١٣٥)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٨٧ - ٩٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (١/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١).

مَواضِعِها المُناسِبةِ، وأوقاتِها المُلائمةِ[١].

- وأيضًا أثْبَت العِلمَ هنا إشارةً إلى أنَّه لا يَعْزُبُ عنه مِثْقالُ ذَرَّةٍ في السَّمواتِ ولا في الأرضِ[٢].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ذِكْرُ المؤمناتِ مع المؤمنينَ هنا؛ لدَفْعِ تَوهُّمِ أنْ يكونَ الوعدُ بهذا الإدخالِ مُختَصًّا بالرِّجالِ؛ إذ كانتْ صِيغةُ الجمْعِ صِيغةَ المُذكَّرِ، مع ما قدْ يُؤكِّدُ هذا التَّوهُّمَ مِن وُقوعِه عِلَّةً أو عِلَّةَ عِلَّةٍ للفتْحِ وللنَّصرِ وللجُنودِ، وكلُّها مِن مُلابَساتِ الذُّكورِ، وإنَّما كان للمُؤمناتِ حظٌّ في ذلك؛ لأنَّهنَّ لا يَخلُونَ مِن مُشارَكةٍ في تلك الشَّدائدِ ممَّن يَقُمْنَ منهنَّ على المَرْضى والجَرحَى وسقْيِ الجيشِ وقتَ القِتالِ، ومِن صَبْرِ بَعضِهنَّ على الثُّكْلِ أو التَّأيُّمِ، ومِن صَبْرِهنَّ على غَيبةِ الأزواجِ والأبناءِ وذَوي القَرابةِ[٣]، وكذا في كلِّ مَوضعٍ يُوهِمُ الاختصاصَ يُصرَّحُ بذِكرِ النِّساءِ[٤].

- قَولُه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿فَوْزًا﴾، أي: فازوا عِندَ اللهِ، وتَقديمُه على مُتعلَّقِه؛ لِلاهتِمامِ[٥].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٢).

بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾

- قَولُه: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ الحديثُ عن جُنودِ اللهِ في مَعرِضِ ذِكرِ نَصْرِ اللهِ، يَقْتَضي لا مَحالةَ فَريقًا مَهزومًا بتلك الجُنودِ، وهم العدُوُّ، فإذا كان النَّصرُ الذي قدَّرَه اللهُ مَعلولًا بما بشَّرَ به المُؤمِنين؛ فلا جَرَمَ اقْتَضى أنَّه مَعلولٌ بما يَسوءُ العدُوَّ وحِزْبَه، فذكَرَ اللهُ مِن عِلَّةِ ذلك النَّصرِ أنَّه يُعذِّبُ بسَببِه المُنافِقينَ حِزبَ العدُوِّ، والمُشركينَ صَميمَ العدُوِّ؛ فكان قولُه: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ مَعطوفًا على ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ﴾[1] [الفتح: ٥].

- وفي تَقديمِ المُنافِقينَ على المُشرِكين ما لا يَخفَى مِن الدَّلالةِ على أنَّهم أحقُّ منْهُم بالعَذابِ، وأنَّهم أشَدُّ منهم عَذابًا، ولِتَنْبيهِ المُسلِمينَ بأنَّ كُفْرَ المنافِقينَ خَفِيٌّ، فرُبَّما غفَلَ المُسلِمون عن هذا الفريقِ أو نَسُوه[2].

ولأنَّه لَمَّا كان المُنافِقونَ أكثَرَ ضَررًا على المُسلِمينَ مِن المُشرِكينَ، بُدِئَ بذِكرِهم في التَّعذيبِ[3]. ولأنَّه لَمَّا كان مِن أعظَمِ الفَوزِ إقرارُ العَينِ بالانتِقامِ مِن العَدُوِّ، وكان العَدُوُّ المُكاتِمُ أشَدَّ مِن العَدُوِّ المجاهِرِ المُراغِمِ؛ قال تعالَى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ...﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٨٩).

- وعُطِفَ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ﴾ على ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾؛ لِدَفْعِ تَوهُّمِ أنْ يكونَ الوَعيدُ بهذا العَذابِ مُختصًّا بالرِّجالِ؛ لأنَّ نِساءَ المُنافِقين يُشارِكْنَهم في أسْرارِهم، ويَحُضُّون على ما يُبيِّتونَه مِن الكَيدِ، ويُهيِّئونَ لهم إيواءَ المُشرِكينَ إذا زارُوهم[1].

- وجُملةُ ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ دُعاءٌ أو وَعيدٌ؛ ولذلك جاءتِ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لِصُلوحيَّتِها لذلك، بخِلافِ جُملةِ ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾؛ فإنَّها إخبارٌ عمَّا جَنَوه مِن سُوءِ فِعلِهم؛ فالتَّعبيرُ بالماضي منه أظهَرُ[2].

- قَولُه: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ عطْفٌ لِمَا استَحقُّوه في الآخِرةِ على ما اسْتَوجَبوه في الدُّنيا، والواوُ وُضِعَتْ مَوضِعَ الفاءِ؛ إذ اللَّعنُ سَببٌ للإعدادِ، والغضَبُ سَببٌ له؛ لاستِقلالِ الكلِّ في الوَعيدِ بلا اعتبارِ السَّببيَّةِ[3].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ في الآيةِ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّكريرِ؛ فقدْ قال تعالَى أوَّلًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤] وقال ثانيًا: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ لأنَّه ذكَرَ قبْلَ الآيةِ الأُولى ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ٤]، ولَمَّا كان فيهم مَن هو أهلٌ لِلرَّحمةِ، ومَن هو أهلٌ للعَذابِ؛ ناسَبَ أنْ يكونَ خاتمةُ الأُولى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، ولَمَّا بالَغَ تعالَى في تَعذيبِ المُنافِقِ والكافِرِ وشِدَّتِه، ناسَبَ أنْ يكونَ خاتمةُ الثَّانيةِ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾؛ فالأُولى دلَّتْ على أنَّه المُدبِّرُ لأمْرِ المَخلوقاتِ بمُقْتضَى حِكمتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٧).

والثَّانيةُ دلَّتْ على التَّهديدِ والوَعيدِ، وأنَّهم في قَبْضةِ المُنتقِمِ[١].

وقيل: كرَّر الإخبارَ بأنَّ له مُلكَ السَّمَواتِ والأرضِ وما فيهما مِن الجُنودِ؛ لِيَعلَمَ العِبادُ أنَّه تعالَى هو المعِزُّ المُذِلُّ، وأنَّه سيَنصُرُ جُنودَه المنسوبةَ إليه، كما قال تعالَى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾[٢] [الصافات: ١٧٣].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٧٩١).

## الآيات (٨-١٠)

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٠﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَنَذِيرًا﴾: أي: مُنذِرًا ومُحَذِّرًا ومُخَوِّفًا، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ[١].

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾: أي: تُعَظِّموه وتُقَوُّوه، وأصلُ التَّعزيرِ: النُّصرةُ معَ التَّعظيمِ[٢].

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾: أي: تُسَوِّدوه وتُعَظِّموه؛ مِنَ التَّوقيرِ: وهو الاحتِرامُ والإجلالُ والإعظامُ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلٍ في الشَّيءِ[٣].

﴿بُكۡرَةٗ﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدْئِه[٤].

﴿وَأَصِيلًا﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ، وأصلُه: يدُلُّ على ما كان مِنَ النَّهارِ بعدَ العَشيِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

﴿نَّكَثَ﴾: أي: نَقَض، وأصلُ (نكث): يدُلُّ على نَقضِ شَيءٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا وظيفةَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ المكلَّفَ بها، والحكمةَ مِن إرسالِه: إنَّا أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- شاهِدًا، ومُبَشِّرًا لِمَن أطاعك، ومُنذِرًا لِمَن عصاك، أرسَلْناه؛ لِتُؤمِنوا -أيُّها النَّاسُ- باللهِ ورَسولِه، ولِتُؤَيِّدوه وتَنصُروه، وتُعَظِّموه وتُجِلُّوه، ولِتُسَبِّحوا اللهَ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه.

ثمَّ يَمدَحُ الله سبحانَه الَّذينَ عاهَدوا الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم، ووَفَّوْا بعُهودِهم، فيقولُ: إنَّ الَّذين يُبايِعونَك -يا مُحمَّدُ- بالحُدَيبيَةِ على ألَّا يَفِرُّوا عندَ لِقاءِ الكُفَّارِ: إنَّما يُبايِعونَ اللهَ تعالى، يدُ اللهِ فَوقَ أيدي أولئك المُبايِعينَ.

ثمَّ يقولُ تَعالى مُحذِّرًا من نقضِ البيعةِ، ومُرغِّبًا في الوفاءِ بها: فمَنْ نَقَض بَيعَتَه فإنَّما يَضُرُّ نَفْسَه بذلك؛ لاستِحقاقِه العِقابَ، ومَن أَوفَى بما عاهَدَ اللهَ عليه في البَيعةِ فسيُؤتيه اللهُ ثَوابًا جَزيلًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨﴾.

أي: إنَّا أرسَلْناك -يا مُحمَّدُ- شاهِدًا[٢]، ومُبَشِّرًا بالخَيرِ والثَّوابِ لِمَن أطاعك،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٢، ٥٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٢).

(٢) قيل: المرادُ: شاهِدًا على أُمَّتِك يومَ القيامةِ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والسمعانيُّ، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٥). =

ومُنذِرًا بالشَّرِّ والعَذابِ لِمَن خالَفَك[١].

كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النحل: ٨٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾ [مريم: ٩٧].

---

= وقال ابنُ جريرٍ، والقاسميُّ: المرادُ: شاهِدًا على أمَّتِك بما أجابوك فيما دَعَوْتَهم إليه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٨٦).

وقال الواحدي، والشوكاني: المرادُ: شاهِدًا على أمَّتِك بإبلاغِ الرِّسالةِ إليهم. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥١٦).

قال ابنُ عطيَّة: (شاهِدًا على النَّاسِ بأعمالِهم وأقوالِهم حينَ بَلَّغْتَ إليهم الشَّرعَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٢).

وقال ابنُ عاشور: (أرسَلْناك في حالِ أنَّك تَشهَدُ على الأُمَّةِ بالتَّبليغِ، بحيثُ لا يُعذَرُ المخالِفونَ عن شَريعتِك فيما خالَفوا فيه، وتَشهَدُ على الأُمَمِ، وهذه الشَّهادةُ حاصِلةٌ في الدُّنيا وفي يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٥).

وقيل: المرادُ: شاهِدًا لله بالوَحدانيَّةِ، وأنَّه لا إلهَ غَيْرُه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرازي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٢).

وقال السعدي: (أي: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ ﴾ أيُّها الرَّسولُ الكريمُ ﴿ شَٰهِدًا ﴾ لأمَّتِك بما فَعَلوه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وشاهِدًا على المقالاتِ والمسائِلِ؛ حَقِّها وباطِلِها، وشاهِدًا لله تعالى بالوَحدانيَّةِ والانفِرادِ بالكَمالِ مِن كُلِّ وَجهٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكَر الله تعالى حالَ الرِّسالةِ؛ ذكَر عِلَّتَها[1]، وبيَّنَ فائدةَ الإرسالِ على الوجهِ الَّذي ذكَره[2].

وأيضًا فإنَّ مِن تمامِ البِشارةِ والنِّذارةِ: بيانَ الأعمالِ والأخلاقِ الَّتي يُبَشِّرُ بها ويُنْذِرُ؛ فهو المبَيِّنُ للخَيرِ والشَّرِّ، والسَّعادةِ والشَّقاوةِ، والحقِّ مِنَ الباطلِ؛ ولهذا رتَّبَ على ذلك قَولَه[3]:

﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: أرسَلْنا مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شاهِدًا ومُبَشِّرًا ونَذيرًا؛ لِتُؤمِنوا -أنتم أيُّها النَّاسُ- باللهِ ورَسولِه، وتَقومُوا بما يَستَلزِمُ ذلك مِن طاعتِهما في جميعِ الأُمورِ[4].

﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال الزَّجَّاج: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وخِطابٌ للنَّاسِ ولأُمَّتِه... وجائِزٌ أن يكونَ ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ خِطابًا للمُومِنينَ وللنَّبيِّ جميعًا؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد آمَنَ باللهِ وبآياتِه وكُتُبِه ورُسُلِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢١).

وقيل: قَولُه تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: قُلْ. أي: قُلْ لهم: إنَّا أرسَلْناك لِتُؤمِنوا باللهِ ورَسولِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وابنُ عطية. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٩).

أي: ولِتُؤَيِّدوه وتَنصُروه، وتُعَظِّموه وتُجِلُّوه[١].

﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٠-٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٦، ٢٦٧)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال ابن تيميَّة: (التَّعزيرُ: اسمٌ جامِعٌ لِنَصرِه وتأييدِه، ومَنْعِه مِن كُلِّ ما يُؤذيه. والتَّوقيرُ: اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ ما فيه سَكينةٌ وطُمَأنينةٌ مِن الإجلالِ والإكرام، وأن يُعامَلَ مِنَ التَّشريفِ والتَّكريمِ والتَّعظيمِ بما يَصونُه عن كُلِّ ما يُخرِجُه عن حَدِّ الوَقارِ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٤٢٢). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٢/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦).

وقال الماوَرْدي: (مِنهم مَن قال: إنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُعَزِّروا اللهَ وتُوَقِّروه؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ راجِعٌ إلى اللهِ، وكذلك ما تَقدَّمَه؛ فعلى هذا يكونُ تأويلُ قَولِه: ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تُثبِتوا له صِحَّةَ الرُّبوبيَّةِ، وتَنفُوا عنه أن يكونَ له وَلَدٌ أو شَريكٌ. ومنهم مَن قال: المرادُ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ أن يُعَزِّروه ويُوَقِّروه؛ لأنَّه قد تقَدَّمَ ذِكرُه، فجاز أنْ يكونَ بَعضُ الكلامِ راجِعًا إلى اللهِ، وبَعضُه راجِعًا إلى رَسولِه. قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٣).

وقال ابن عطيَّة: (قال بعضُ المتأوِّلينَ: الضَّمائرُ في قولِه: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هي كلُّها لله تعالى. وقال الجمهور: «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» هما للنَّبيِّ عليه السَّلامُ، ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ هي لله). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ؛ أنَّ الضَّمائرَ الثَّلاثةَ ترجِعُ إلى الله عزَّ وجلَّ: الزمخشريُّ، والرازي، والنسفي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٨٦).

قال النسفي: (﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتُقَوُّوه بالنَّصر... والمرادُ بتعزيرِ الله: تعزيرُ دينِه ورسولِه). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٥).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَينِ الأوَّلَينِ يَرجِعانِ إلى الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، والثَّالثَ يَرجِعُ إلى اللهِ تعالى: القُشَيْريُّ، والكرماني، والبغوي، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

أي: ولِتُسَبِّحوا اللهَ أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه[1].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧)، ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦).

قال السَّمعاني: (قَولُه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ تَنصَرِفُ إلى اللهِ قَولًا واحِدًا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٤).

قال القرطبي: (وفي «تُسَبِّحُوهُ» وجْهانِ؛ أحدُهما: تسبيحُه بالتَّنزيهِ له سُبحانَه مِن كُلِّ قبيحٍ. والثَّاني: هو فِعلُ الصَّلاةِ الَّتي فيها التَّسبيحُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تُنَزِّهوه عن السُّوءِ والنَّقائصِ: القُشَيريُّ، والجاوي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٢١)، ((مراح لبيد)) للجاوي (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تُصَلُّوا له -أي: لله-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٣٧).

قال السَّمعاني: (والتَّسبيحُ بالبُكرةِ وهو صلاةُ الصُّبحِ، وبالأَصيلِ صلاةُ الظُّهرِ والعصرِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٤).

وقال النَّسَفي: (﴿بُكۡرَةٗ﴾ صلاةَ الفَجرِ ﴿وَأَصِيلًا﴾ الصَّلَواتِ الأربَعَ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٥).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ: التَّنزيهِ والصَّلاةِ: الثعلبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال السعدي عن التَّسبيحِ وهو الحقُّ المختصُّ بالله في هذه الآيةِ: (هو التَّسبيحُ له والتَّقديسُ بصَلاةٍ أو غيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا بَيَّنَ أنَّه مُرسَلٌ؛ ذَكَر أنَّ مَن بايَعَه فقد بايَعَ اللهَ تعالى[1].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾.

أي: إنَّ أصحابَك -يا مُحمَّدُ- الَّذين يُبايِعونَك بالحُدَيبيَةِ على ألَّا يَفِرُّوا عندَ لِقاءِ الكُفَّارِ: إنَّما يُبايِعونَ اللهَ في حقيقةِ الأمرِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ قال المفسِّرونَ: يعني بَيعةَ الرِّضوانِ، وكانت بالحُدَيبيَةِ تحتَ الشَّجَرةِ، وكان المسلِمونَ يَومَئذٍ ألفًا وأربَعَمئةِ رجُلٍ، بايَعوا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم على أن يُقاتِلوا ولا يَفِرُّوا). ((البسيط)) (٢٠/ ٢٩٠).

وقال ابنُ الجوزي: (وعلى ماذا بايَعوه؟ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّهم بايَعوه على الموتِ، قاله عُبادةُ بنُ الصَّامِتِ.

والثَّاني: على ألَّا يَفِرُّوا، قاله جابرُ بنُ عبدِ الله. ومعناهما مُتقارِبٌ؛ لأنَّه أراد: على ألَّا تَفِرُّوا ولو مُتُّمْ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٢٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لم يُرِدْ به: إنَّك أنت اللهُ! وإنَّما أراد: إنَّك أنت رسولُ الله، ومُبَلِّغُ أمْرِه ونَهيِه، فمَنْ بايَعَك فقد بايَعَ اللهَ، كما أنَّ مَن أطاعك فقد أطاع اللهَ، ولم يُرِدْ بذلك أنَّ الرَّسولَ هو اللهُ، ولكنَّ الرَّسولَ أمَر بما أمَر اللهُ به، فمَنْ أطاعه فقد أطاع اللهَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٣٣٣).

وقال ابنُ عثيمين: (إنَّما جَعَل اللهُ تعالى مُبايَعةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُبايعةً له؛ لأنَّه رَسولُه، وقد بايَعَ الصَّحابةُ على الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تعالى، ومُبايَعةُ الرَّسولِ على الجِهادِ في سَبيلِ مَن أرسَلَه مُبايَعةٌ لِمَن أرسَلَه؛ لأنَّه رَسولُه المبلِّغُ عنه، كما أنَّ طاعةَ الرَّسولِ طاعةٌ لِمَن أرسَلَه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وفي إضافةِ مُبايَعتِهم =

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((قال لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَومَ الحُدَيبيَةِ: أنتم خَيرُ أهلِ الأرضِ. وكُنَّا ألْفًا وأرْبَعَمِئَةٍ))(١).

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾.

أي: يدُ اللهِ فَوقَ أيدي أولئك المُبايِعينَ مِن أصحابِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَقتَ بَيعتِه(٢).

---

= الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى اللهِ تعالى مِن تَشريفِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتأييدِه، وتوكيدِ هذه المُبايَعةِ وعِظَمِها، ورَفْعِ شَأنِ المُبايِعينَ: ما هو ظاهِرٌ لا يَخفى على أحَدٍ). ((القواعد المثلى)) (ص: ٧٤).

(١) رواه البخاريُّ (٤١٥٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٨٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٢٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٨٧)، ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٧٤، ٧٥).

قال ابن القيِّم: (لَمَّا كانوا يُبايِعونَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأيديهم، ويَضرِبُ بيَدِه على أيديهم، وكان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو السَّفيرَ بيْنَه وبَيْنَهم؛ كانت مُبايَعتُهم له مُبايَعةً لله تعالى، ولَمَّا كان سُبحانَه فَوقَ سَمَواتِه وعلى عَرشِه فَوقَ الخلائِقِ كُلِّهم، كانت يَدُه فَوقَ أيديهم، كما أنَّه سُبحانَه فَوقَهم). ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للمَوْصِلي (ص: ٤٠٦).

وقال ابنُ عثيمين: (يَدُ اللهِ تعالى فوقَ أيدي المُبايِعينَ؛ لأنَّ يَدَه مِن صِفاتِه، وهو سُبحانَه فَوقَهم على عَرشِه، فكانت يَدُه فَوقَ أيديهم، وهذا ظاهِرُ اللَّفظِ وحَقيقتُه، وهو لتوكيدِ كَونِ مُبايَعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُبايَعةً لله عزَّ وجَلَّ، ولا يَلزَمُ منها أن تكونَ يدُ اللهِ جلَّ وعلا مُباشِرةً لأيديهم، ألَا تَرى أنَّه يُقالُ: السَّماءُ فَوقَنا، مع أنَّها مُباينةٌ لنا، بعيدةٌ عنا؟! فيَدُ اللهِ عزَّ وجَلَّ فوقَ أيدي المبايِعينَ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع مُبايَنتِه تعالى لِخَلْقِه، وعُلُوِّه عليهم. ولا يمكِنُ لأحدٍ أن يَفهَمَ أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ يدُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! ولا أن يَدَّعيَ أنَّ ذلك ظاهِرُ اللَّفظِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أضاف اليَدَ إلى نَفْسِه، ووَصَفَها بأنَّها فوقَ أيديهم، ويَدُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ مُبايَعةِ الصَّحابةِ لم تكُنْ فوقَ أيديهم، بل كان يَبسُطُها إليهم، فيُمسِكُ بأيديهم كالمُصافِحِ لهم؛ فيَدُه مع أيديهم، لا فَوقَ أيديهم). ((القواعد المثلى)) (ص: ٧٤، ٧٥). ويُنظر: ((الإبانة عن أصول الديانة)) للأشعري (ص: ١٢٥-١٢٨)، ((شرح =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾.

أي: فمَن نَقَض بَيعَتَه فإنَّما يَضُرُّ نَفْسَه بذلك؛ لاستِحقاقِه العِقابَ، وحِرمانِ نَفْسِه مِن الثَّوابِ[١].

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أتَمَّ التَّرهيبَ؛ لأنَّه مَقامُه للحَثِّ على الوَفاءِ الَّذي به قيامُ الدِّينِ، على أبلَغِ وَجهٍ- أتْبَعَه التَّرغيبَ؛ إتمامًا للحَثِّ، فقال تعالى[٢]:

﴿وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيۡهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾.

أي: ومَن أَوفَى بما عاهَدَ اللهَ عليه في البَيعةِ؛ مِن الصَّبرِ عندَ قِتالِ الكُفَّارِ، ونُصرةِ الرَّسولِ: فسيُؤتيه اللهُ ثَوابًا جَزيلًا على وَفائِه، بوَعدٍ لا خُلْفَ فيه[٣].

---

= الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٢٦٤)، ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) لعَلَوي السَّقَّاف (ص: ٣٧٦-٣٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٠)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٧، ٢٩٨).=

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ذَكَر اللهُ في هذه الآيةِ الحَقَّ المُشتَرَكَ بيْنَ اللهِ وبيْنَ رَسولِه، وهو: الإيمانُ بهما، والمُختَصَّ بالرَّسولِ، وهو: التَّعزيرُ والتَّوقيرُ، والمُختَصَّ باللهِ، وهو: التَّسبيحُ له والتَّقديسُ بصَلاةٍ أو غَيرِها[1]. على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أنَّ حَقَّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو أوجَبُ الحُقوقِ البَشَريَّةِ، وحَقُّه التَّعظيمُ والإجلالُ والتَّوقيرُ، حتَّى إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ جَعَلَ مِن أسبابِ الرِّسالةِ ومِن حِكمةِ الرِّسالةِ أنْ نُؤمِنَ باللهِ ورَسولِه، ونُعَزِّرَه ونُوَقِّرَه؛ فهذا رُكنٌ وأساسٌ وحِكمةٌ مِن حِكَمِ إرسالِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[2]. وذلك بناء على قولٍ في التَّفسيرِ.

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ سُمِّيَت مُبايَعةً؛ لأنَّهم باعوا أنفُسَهم فيها مِنَ اللهِ بالجنَّةِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هذا الكلامُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ،

---

= قال ابن عاشور: (الظَّاهِرُ عندي: أنَّ سَبَبَ المُبايَعةِ قد انعدَمَ بالصُّلحِ الواقِعِ بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيْنَ أهلِ مكَّةَ، وأنَّ هذه الآيةَ نَزَلت فيما بيْنَ ساعةِ البَيعةِ وبيْنَ انعِقادِ الهُدْنةِ، وحَصَل أجرُ الإيفاءِ بالنِّيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٤/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٢).

وتأْكيدُه بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمام. ولَمَّا أُريدَ الانتِقالُ مِن الوعْدِ بالفتْحِ والنَّصرِ وما اقتَضاهُ ذلك ممَّا اتَّصلَ به ذِكْرُه، إلى تَبْيينِ ما جَرَى في حادِثةِ الحُديبيَةِ، وإبلاغِ كلِّ ذي حظٍّ مِن تلك القَضيَّةِ نَصيبَه المُستحَقَّ ثَناءً أو غَيرَه؛ صُدِّرَ ذلك بذِكْرِ مُرادِ اللهِ مِن إرسالِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِيَكونَ ذلك كالمُقدِّمةِ للقِصَّةِ، وذُكِر مِن حِكمةِ اللهِ تعالَى في إرسالِه ما له مَزيدُ اختِصاصٍ بالواقعةِ المُتحدَّثِ عنها، فذُكِرَتْ أوصافٌ ثلاثةٌ؛ هي: شاهِدٌ، ومُبشِّرٌ، ونَذيرٌ. وقُدِّم منها وَصفُ الشَّاهِدِ؛ لأنَّه يَتفرَّعُ عنه الوَصفانِ بعْدَه[1].

- قَولُه: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ في ﴿لِّتُؤْمِنُواْ﴾ لامَ (كي) مُفيدةً للتَّعليلِ، ومُتعلِّقةً بفِعلِ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾. والخِطابُ يَجوزَ أنْ يكونَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع أُمَّةِ الدَّعوةِ، أي: لتُؤمِنَ أنتَ والَّذين أُرسِلْتَ إليهم شاهِدًا ومُبشِّرًا ونَذيرًا، والمقصودُ الإيمانُ باللهِ، وأُقحِمَ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾؛ لأنَّ الخِطابَ شاملٌ للأُمَّةِ، وهم مَأْمورون بالإيمانِ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مأْمورٌ بأنْ يُؤمِنَ بأنَّه رسولُ اللهِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الخِطابُ للنَّاسِ خاصَّةً، ولا إشكالَ في عطْفِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾. ويَجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ قد انْتَهى عندَ قَولِه: ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الفتح: ٨]، وتكونَ جُملةُ ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ...﴾ إلخ جُملةً مُعترِضةً، ويكونَ اللَّامُ في قَولِه: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ﴾ لامَ الأمْرِ، وتكونَ الجُملةُ استِئنافًا للأمْرِ[2].

- وضَمائرُ الغَيبةِ المنْصوبةِ الثَّلاثةُ عائِدةٌ إلى اسمِ الجَلالةِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّ إفرادَ الضَّمائرِ مع كَونِ المذكورِ قبْلَها اسمَينِ، دَليلٌ على أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٥٥، ١٥٦).

المُرادَ أحَدُهما، والقرينةُ على تَعيينِ المرادِ ذِكْرُ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾، ولأنَّ عطْفَ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على لَفظِ الجَلالةِ اعتدادٌ بأنَّ الإيمانَ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيمانٌ باللهِ؛ فالمَقصودُ هو الإيمانُ باللهِ[1].

- قَولُه: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ البُكرةُ: أوَّلُ النَّهارِ. والأصيلُ: آخِرُه، وهما كِنايةٌ عن استِيعابِ الأوقاتِ بالتَّسبيحِ والإكثارِ منه، كما يُقال: شرْقًا وغرْبًا؛ لاستِيعابِ الجِهاتِ وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. وقيل: التَّسبيحُ هنا: كِنايةٌ عن الصَّلَواتِ الواجبةِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ وقَعَ في سُورةِ (الأحزابِ) نَظيرُ هذه الآيةِ، وهو قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا * وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]؛ فزِيدَ في صِفاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هنالك ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾، ولم يُذكَرْ مِثلُه في الآيةِ هذه الَّتي في سُورةِ (الفتْحِ)؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ هذه الآيةَ الَّتي في سُورةِ (الفتْحِ) وَرَدتْ في سِياقِ إبطالِ شَكِّ الَّذين شَكُّوا في أمْرِ الصُّلحِ، والَّذين كذَّبوا بوعْدِ الفتْحِ والنَّصرِ، والثَّناءِ على الَّذين اطْمَأنُّوا لذلك؛ فاقتُصِرَ مِن أوصافِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الوَصْفِ الأصليِّ؛ وهو أنَّه شاهِدٌ على الفريقَينِ، وكَونُه مُبشِّرًا لأحَدِ الفريقَينِ، ونَذيرًا للآخَرِ، بخِلافِ آيةِ (الأحزابِ)؛ فإنَّها ورَدَتْ في سِياقِ تَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن مَطاعنِ المُنافِقين والكافرينَ في تَزوُّجِه زينبَ بنتَ جَحشٍ بعْدَ أنْ طلَّقَها زَيدُ بنُ حارثةَ بزَعْمِهم أنَّها زَوجةُ ابنِه؛ فناسَبَ أنْ يُزادَ في صِفاتِه ما فيه إشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلى التَّمحيصِ بيْنَ ما هو مِن صِفاتِ الكَمالِ، وما هو مِن الأوهامِ النَّاشئةِ عن مَزاعمَ كاذبةٍ، مِثلُ التَّبنِّي؛ فزيدَ كَونُه داعيًا إلى اللهِ بإذْنِه، أي: لا يتَّبِعُ مَزاعِمَ النَّاسِ ورَغَباتِهم، وأنَّه سِراجٌ مُنيرٌ يَهتدي به مَن هِمَّتُه في الاهتداءِ دونَ التَّقعيرِ[١].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ شُروعٌ في الغرَضِ الأصليِّ مِن هذه السُّورةِ، وهو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ أنَّ مَن بايَعَ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ صُورةً فقد بايَعَ اللهَ حقيقةً[٢].

- وأُكِّدتِ الجُملةُ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ[٣].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في قَولِه: ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ لاستِحضارِ حالةِ المُبايَعةِ الجليلةِ؛ لِتَكونَ كأنَّها حاصِلةٌ في زمَنِ نُزولِ هذه الآيةِ مع أنَّها قد انقَضَت؛ لأنَّها جَديرةٌ بالتَّجْسيدِ؛ لتَكونَ عِبرةَ الأجدادِ للأحفادِ[٤].

- والحصْرُ المُفادُ مِن (إنَّما) حصْرُ الفِعلِ في مَفعولِه، أي: لا يُبايِعون إلَّا اللهَ، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٥]؛ بادِّعاءِ أنَّ غايةَ البَيعةِ وغرَضَها هو النَّصْرُ لدِينِ اللهِ ورَسولِه، فنُزِّلَ الغرَضُ مَنزِلةَ الوَسيلةِ، فادُّعِيَ أنَّهم بايَعوا اللهَ لا الرَّسولَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٥).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٧).

- جُملةُ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مُقرِّرةٌ لِمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ المُفيدةِ أنَّ بَيعتَهم النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الظَّاهِرِ، هي بَيعةٌ منهم للهِ في الواقعِ، فقرَّرَتْه جُملةُ ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ وأكَّدَتْه؛ ولذلك جُرِّدَت عن حرْفِ العطْفِ[1].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾ على جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ فإنَّه لَمَّا كشَفَ كُنْهَ هذه البَيعةِ بأنَّها مُبايَعةٌ للهِ ضَرورةَ أنَّها مُبايَعةٌ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ باعتِبارِ رِسالتِه عن اللهِ؛ صارَ أمْرُ هذه البَيعةِ عظيمًا خَطيرًا في الوفاءِ بما وقَعَ عليه التَّبايُعُ وفي نَكْثِ ذلك، والكلامُ تَحذيرٌ مِن نَكْثِ هذه البَيعةِ، وتَفظيعٌ له؛ لأنَّ الشَّرطَ يَتعلَّقُ بالمُستقبَلِ[2].

- و(إنَّما) للقصْرِ، وهو لِقصْرِ النَّكثِ على مَدلولِ ﴿عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾؛ لِيُرادَ: لا يضُرُّ بنَكْثِه إلَّا نفْسَه، ولا يضُرُّ اللهَ شيئًا؛ فإنَّ نَكْثَ العهدِ لا يَخْلو مِن قصْدِ إضرارٍ بالمَنكوثِ؛ فجِيءَ بقصْرِ القَلْبِ لِقلْبِ قصْدِ النَّاكثِ على نفْسِه دونَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[3].

- وعَبَّر بالمُضارِعِ في ﴿يَنكُثُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ مَن فَعَل النَّكْثَ فهو في كُلِّ لَحظةٍ ناكِثٌ نَكْثًا جَديدًا[4].

- قُرِئَ ﴿فَسَنُؤۡتِيهِ﴾ بنُونِ العَظَمةِ على الالْتِفاتِ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ، وقُرِئَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٥٩، ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٧).

بياءِ الغَيبةِ ﴿فَسَيُؤْتِيهِ﴾ عائدًا ضَميرُه على اسمِ الجَلالةِ[١].

- والآيةُ مِنَ الاحتِباكِ[٢]: ذكَرَ أوَّلًا أنَّ النَّكْثَ عليه، دليلًا على أنَّ الوفاءَ له ثانيًا، وإيتاءَ الأجرِ ثانيًا، دليلًا على إحلالِ العِقابِ أوَّلًا. وسِرُّه أنَّه بيَّنَ أنَّ ما يُريدُه النَّاكِثُ مِنَ الأذى لغَيرِه إنَّما هو واقِعٌ به؛ لأنَّ ذلك أعظَمُ في التَّرهيبِ عن النَّكْثِ؛ لِمَا جُبِل الإنسانُ عليه مِنَ النَّفرةِ عن ضرِّ نفْسِه، وبُعدِه عنه. وذكَرَ الأجرَ للمُوفِي؛ لأنَّه أعظَمُ في التَّرغيبِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠).

قال ابن الجزري: (واختلَفوا في: ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا﴾؛ فقرأ أبو عَمرٍو، والكوفيُّون ورُوَيْسٌ بالياءِ. وانفرد بذلك ابنُ مِهْرانَ عن رَوحٍ أيضًا. وقرأ الباقونَ بالنُّونِ). ((النشر في القراءات العشر)) (٢/ ٣٧٥).

(٢) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٨).

## الآيات (١١-١٤)

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُورًا﴾: أي: هَلْكى، وأصلُ (بور): يدُلُّ على هَلاكِ الشَّيءِ وتَعَطُّلِه وخُلُوِّه[1].

﴿سَعِيرًا﴾: أي: نارًا شَديدةَ التَّلَهُّبِ والاتِّقادِ، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يخبِرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بما يَعتذِرُ به المتخلِّفونَ الَّذينَ لم يَخرُجوا معَه عامَ الحُدَيبيَةِ، فيقولُ سبحانَه: سيَقولُ لك -يا مُحمَّدُ- أهلُ البَوادي السَّاكِنونَ حوْلَ المدينةِ، الَّذين خَلَّفهم اللهُ عن الخُروجِ معك عامَ الحُدَيبيَةِ، إذا عاتَبْتَهم على تخَلُّفِهم: شغَلَتْنا أموالُنا وأهلُونا عن الخُروجِ معك؛ فادْعُ اللهَ أن يَغفِرَ لنا تخَلُّفَنا عنك! يَقولون ذلك بألسِنَتِهم، ولا يَعتَقِدونَه بقُلوبِهم!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الأعرابِ: مَن يَملِكُ دَفْعَ الضَّرِّ عنكم إنْ أراده اللهُ بكم؟! أوْ مَن يَملِكُ مَنْعَ النَّفعِ عنكم إن أرادَه اللهُ بكم؟! ليس الأمرُ كما يَظُنُّ أولئك الأعرابُ مِن أنَّ اللهَ لا يَعلَمُ ما تَنطوي عليه قُلوبُهم؛ فهو تعالى عالِمٌ ببَواطِنِ أُمورِهم، لا يَخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم.

ثمَّ يؤكِّدُ الله تعالى كذِبَهم، فيقولُ: لم تَتخَلَّفوا -أيُّها الأعرابُ- عن الخُروجِ لِشَغْلِكم بأموالِكم وأهليكم كما زعَمْتُم، بل لِظَنِّكم أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ سيَستأصِلونَ الرَّسولَ وأصحابَه بالقَتلِ، فلا يَرجِعونَ إلى أهليهم أبَدًا، وحَسَّن الشَّيطانُ ذلك الظَّنَّ في قُلوبِكم، وظَنَنْتُم ذلك الظَّنَّ السَّيِّئَ، وكُنتُم قَومًا هَلْكَى لا خَيرَ فيكم.

ثمَّ يقولُ تعالى متوعِّدًا مَن كفَر: ومَنْ لم يُؤمِنْ باللهِ ورَسولِه فإنَّه كافِرٌ مُستَحِقٌّ للعِقابِ، وقد أعدَدْنا وهَيَّأْنا للكافِرينَ نارًا شديدةَ الاتِّقادِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سَعةَ مُلكِه، ونُفوذَ مشيئتِه، وأنَّه الحاكمُ المتصرِّفُ في أهلِ السَّمواتِ والأرضِ، فيقولُ: ولله سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، يتصَرَّفُ فيهما كيف يَشاءُ؛ يَغفِرُ بفَضلِه لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُعَذِّبُ بعَدْلِه مَن يَشاءُ منهم، وكان اللهُ غَفورًا رَحيمًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حَذَّر مِنَ النَّكْثِ، ورغَّبَ في الوفاءِ؛ أتْبَعَ ذلك بذِكرِ التَّخلُّفِ عن الانضِمامِ

إلى جيشِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ الخروجِ إلى عُمرةِ الحُدَيبيَةِ، وهو ما فعَلَه الأعرابُ الَّذينَ كانوا نازِلينَ حوْلَ المدينةِ، بعدَ أن بايَعوه على الخروجِ معه[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه وتعالى أهْلَ بَيعةِ الرِّضوانِ، تَشَوَّفَ السَّامعُ إلى الخبرِ عمَّن غاب عن ذلك الجَنابِ؛ فاستُؤنِفَ الإخبارُ عمَّا يُنافِقونَ به، بقَولِه تعالى[2]:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾.

أي: سيَقولُ لك -يا مُحمَّدُ- أهلُ البَوادي السَّاكِنونَ حوْلَ المدينةِ، الَّذين خَلَّفهم اللهُ في أهالِيهم عن السَّفَرِ معك إلى مَكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، إذا عاتَبْتَهم على تخَلُّفِهم، وقد أمَرْتَهم بالخُروجِ معك: شغَلَتْنا أموالُنا مِنَ الإبلِ أو غَيرِها، وأهلونا مِنَ النِّساءِ والذَّراريِّ عن الخُروجِ معك؛ فادعُ اللهَ أن يَغفِرَ لنا تخَلُّفَنا عنك[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠، ١٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦١).

قال ابنُ عاشور: (هو ما فعَلَه الأعرابُ الَّذين كانوا نازِلينَ حوْلَ المدينةِ، وهم سِتُّ قبائِلَ: غِفارٌ، ومُزَينةُ، وجُهَينةُ، وأشجَعُ، وأسلَمُ، والدِّيْلُ، بعدَ أنْ بايَعوه على الخُروجِ معه؛ فإنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا أراد المَسيرَ إلى العُمرةِ استَنفَرَ مَن حَوْلَ المدينةِ منهم؛ لِيَخرُجوا معه، فيَرهَبَه أهلُ مكَّةَ فلا يَصُدُّوه عن عُمرتِه، فتثاقَلَ أكثَرُهم عن الخُروجِ معه... وتخلَّف عن الخُروجِ معه مُعظَمُهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠، ١٦١).

وقد اختلف في هؤلاء الأعرابِ فقيل: كانوا مِن المنافقينَ، وقيل: كانوا مِن ضعافِ الإيمانِ، ولم يكونوا منافقينَ.

ممن اختار القولَ الأولَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاج، والزَّمَخْشري، والرَّسعني، وابنُ كثير، والشَّوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣)، =

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: يَقولُ لك أولئك المُخَلَّفونَ بألسِنَتِهم قَولًا مُجرَّدًا لا يَعتَقِدونَه بقُلوبِهم، فهم كاذِبونَ في اعتذارِهم، وفي طلبِهم للاستِغفارِ[1]!

= ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧).

وممن اختار القولَ الثَّاني: الغرناطي، وابن عاشور. يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (١/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦١).

وقال ابنُ عطيةَ، وابنُ جزي: لم يكنْ إيمانُهم متمكِّنًا. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٣).

قال الرازي في قولِه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: (هذا يحتَمِلُ أمْرَينِ؛ أحَدُهما: أن يكونَ التَّكذيبُ راجِعًا إلى قَولِهم: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾، وتحقيقُه هو أنَّهم أظهَروا أنَّهم يَعتَقِدونَ أنَّهم مُسيئونَ بالتَّخَلُّفِ حتَّى استَغفَروا، ولم يكُنْ في اعتِقادِهم ذلك، بل كانوا يَعتَقِدونَ أنَّهم بالتَّخَلُّفِ مُحسِنونَ. ثانيهما: قالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ امتِناعَنا لهذا لا غَيرُ، ولم يكُنْ ذلك في اعتِقادِهم، بل كانوا يَعتَقِدونَ امتِناعَهم لاعتقادِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمِنينَ يُقهَرونَ ويُغلَبونَ، كما قال بَعْدَه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ أنَّهم في طلَبِ الاستِغفارِ عن التَّخَلُّفِ كاذِبون؛ لأنَّهم لا يُبالون أَسْتَغفَرَ لهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمْ لا: ابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، والخازن، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

وممَّن قال: إنَّ المرادَ تكذيبُهم في الاعتِذارِ والاستِغفارِ: الثعلبيُّ، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو حيَّان، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) =

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان فِعْلُهم هذا مِن تخَلُّفِهم واعتِلالِهم وسُؤالِهم الاستِغفارَ: ظَنَّا منهم أنَّهم يَدفَعونَ عن أنفُسِهم بذلك المكروهَ، ويُحَصِّلونَ لها المحبوبَ، وكان كأنَّه قيل: قد عُلِمَ كَذِبُهم، فماذا يُقالُ لهم؟ استأنَفَ سُبحانَه الجوابَ بقَولِه[1]:

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾.

**القراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:**

١- قراءةُ ﴿ضُرًّا﴾ بضمِّ الضَّادِ، بمعنى البؤسِ والسُّقمِ وسوءِ الحالِ[2].

٢- قراءةُ ﴿ضَرًّا﴾ بفتحِ الضَّادِ، ضدُّ النَّفعِ، وقيل: هما بمعنًى واحدٍ، مِثلُ:

---

= (٩/ ٤٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٣).

قال القاسمي: (قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيبٌ لهم في اعتِذارِهم، وأنَّ الَّذي خلَّفَهم ليس بما يَقولون، وإنَّما هو الشَّكُّ في الله، والنِّفاقُ. وكذا طلَبُهم للاستِغفارِ أيضًا ليس بصادرٍ عن حقيقةٍ؛ لأنَّه بغيرِ تَوبةٍ منهم، ولا ندَمٍ على ما سلَف منهم مِن معصيةِ التَّخلُّفِ). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٣).

وقال أبو حيَّان: (ولَمَّا عَلِموا أنَّ ذلك التَّخلُّفَ عن الرَّسولِ كان معصيةً، سألوا أن يَستغفِرَ لهم. ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾: الظَّاهرُ أنَّه راجِعٌ إلى الجُملتَينِ المَقولتَينِ مِن الشُّغلِ وطلَبِ الاستِغفارِ، لأنَّ قولَهم: ﴿شَغَلَتْنَآ﴾ كَذِبٌ، وطلَبَ الاستِغفارِ خُبثٌ منهم، وإظهارُ أنَّهم مؤمِنون عاصون). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠١).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٢٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٠٢).

الضُّعفِ والضَّعفِ[١].

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئكَ الأعرابِ: لا أحَدَ يَملِكُ دَفْعَ الضَّرِّ الَّذي أراده اللهُ بكم مِن أيِّ نَوعٍ كان؛ عَظيمًا أو حَقيرًا؛ فهو قادِرٌ على إهلاكِ أموالِكم وأهليكم مهما فعَلْتُم وشُغِلْتُم بها، ولا أحَدَ يَملِكُ مَنْعَ النَّفعِ الَّذي أرادَه اللهُ لكم مِن أيِّ نَوعٍ كان؛ قليلًا أو كثيرًا؛ فهو قادِرٌ على حِفظِ أموالِكم وأهليكم مع تَغَيُّبِكم، فلا يَضُرُّها بُعدُكم عنها[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ أولئك الأعرابُ مِن أنَّ الله لا يَعلَمُ ما تَنطوي عليه قُلوبُهم؛ فاللهُ تعالى عالِمٌ ببَواطِنِ أُمورِهم، لا يَخفَى عليه تخَلُّفُهم أو غَيرُه مِن أعمالِهم[٣].

﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٢٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٢).

﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدٗا﴾.

أي: لم تَتخَلَّفوا -أيُّها الأعرابُ- عن الخُروجِ مع الرَّسولِ والمُؤمِنينَ لِشَغْلِكم بأموالِكم وأهليكم كما زعَمْتُم، كلَّا! وإنَّما تخَلَّفتُم عنهم لظَنِّكم أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ سيَستأصِلونَهم بالقَتلِ، فلا يَرجِعونَ إلى أهليهم في المدينةِ أبَدًا[1].

﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾.

أي: وحَسَّن الشَّيطانُ ذلك الظَّنَّ في قُلوبِكم، فحسَّن لكم التَّخَلُّفَ عن الخُروجِ مع المؤمِنينَ[2].

﴿وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ﴾.

أي: وظَنَنْتُم أنَّ اللهَ لن يَنصُرَ رَسولَه والمؤمِنينَ، ولن يَرْجِعَهم سالِمينَ، ولن يُظهِرَ الحَقَّ المُبينَ[3].

﴿وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورٗا﴾.

أي: وكُنتُم -أيُّها المُخلَّفونَ- قَومًا في غايةِ الهَلاكِ والكَسادِ، لا خَيرَ فيكم، ولا نَفْعَ يُرجَى منكم[4]!

﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا ١٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أخبَرَ تعالى أنَّهم قَومٌ بُورٌ؛ ذكَرَ ما يدُلُّ على أنَّهم ليسوا بمؤمِنينَ، فقال[1]:

﴿ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: ومَنْ لم يُؤمِنْ باللهِ ورَسولِه فإنَّه كافِرٌ مُستَحِقٌّ للعِقابِ، وقد أعدَدْنا وهَيَّأْنا للكافِرينَ نارًا شديدةَ التلَهُّبِ والاتِّقادِ[2]!

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه بَعدَ ما ذكَرَ اللهُ تعالى مَن له أجرٌ عَظيمٌ مِن المُبايِعينَ، ومَن له عذابٌ أليمٌ مِن الظَّانِّينَ الضَّالِّينَ؛ أشار إلى أنَّه يَغفِرُ للأوَّلِينَ بمَشيئتِه، ويُعَذِّبُ الآخَرينَ بمَشيئتِه، وغُفرانُه ورَحمتُه أعَمُّ وأشمَلُ، وأتَمُّ وأكمَلُ[3].

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ولله سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، فيَتصَرَّفُ وَحْدَه فيهما كما يَشاءُ، ويَحكمُ بما يَشاءُ[4].

﴿ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

أي: يَغفِرُ اللهُ بفَضلِه لِمَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ويُعَذِّبُ بعَدْلِه مَن يَشاءُ منهم[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ بالمَغفِرةِ والرَّحمةِ أزَلًا وأبَدًا، فهو الغَفورُ لِذُنوبِ عِبادِه؛ فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، وهو الرَّحيمُ بهِم؛ فيُكرِمُهم، ويُنعِمُ عليهم بنِعَمِه[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَنِ اتَّخَذَ أهلًا ومالًا يَشغَلُه عنِ اللهِ -تعالى- فهو خاسِرٌ، كما قالت الأعرابُ: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾، وقال تعالى: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾[٣] [سبأ: ٣٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

قال ابن جرير: (هذا مِنَ اللهِ جَلَّ ثناؤه حَثٌّ لهؤلاء الأعرابِ المتخَلِّفينَ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على التَّوبةِ والمُراجَعةِ إلى أمرِ اللهِ في طاعةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يقولُ لهم: بادِروا بالتَّوبةِ مِن تخَلُّفِكم عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ اللهَ يَغفِرُ للتَّائِبينَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠، ٢٦١).

وقال ابنُ عطيَّة: (القَومُ لم يَكونوا مُجاهِرينَ بالكُفرِ؛ فلذلك جاءَ وَعيدُهم وتَوبيخُهم ممزوجًا فيه بَعضُ الإمهالِ والتَّرجيةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد كان عَلِمَ منهم أنَّهم سيُؤمِنونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٤٢٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ إنَّما جُعِلَ ذلك الظَّنُّ مُزَيَّنًا في اعتِقادِهم؛ لأنَّهم لم يَفرِضوا غيرَه مِن الاحتِمالِ، وهو أن يَرجِعَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سالِمًا، وهكذا شأنُ العُقولِ الواهيةِ والنُّفوسِ الهاويةِ؛ ألَّا تأخُذَ مِنَ الصُّوَرِ الَّتي تُتصَوَّرُ بها الحوادِثُ إلَّا الصُّورةَ الَّتي تَلوحُ لها في بادِئِ الرَّأيِ، وإنَّما تَلوحُ لها أوَّلَ شَيءٍ؛ لأنَّها الصُّورةُ المحبوبةُ، ثمَّ يَعتَريها التَّزيينُ في العَقلِ، فتَلهو عن فَرضِ غَيرِها، فلا تَستَعِدُّ لحِدْثانِه؛ ولذلك قيل: «حُبُّك الشَّيءَ يُعمِي ويُصِمُّ»[١]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾ لم يَقولوا: (شغَلَتْنا الأموالُ)؛ وذلك لأنَّ جَمْعَ المالِ لا يَصلُحُ عُذرًا؛ لأنَّه لا نهايةَ له، وأمَّا حِفظُ ما جُمِعَ مِن الشَّتاتِ، ومَنْعُ الحاصِلِ مِن الفَواتِ: يَصلُحُ عُذرًا، فقالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾، أي: ما صار مالًا لنا، لا مُطلَقُ الأموالِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أخبَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما بيَّتوه في قُلوبِهم، وفَضَح أمْرَهم مِن قَبلِ أن يَعتَذِروا، وهذه مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ، بالإخبارِ عن ذلك قبْلَ وُقوعِه[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم﴾، وقَولُه تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]، حيثُ ذَكَر اللهُ سُبحانَه «يقولونَ بألسِنَتِهم» و«يقولونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦١).

بأفواهِهم»، فالمرادُ به أنَّه قولٌ باللِّسانِ مُجَرَّدٌ لا معنى تَحتَه، فإنَّه باطِلٌ، والباطِلُ لا حقيقةَ تَحتَه، وإنَّما غايتُه وقُصاراه أنَّه حركةُ لسانٍ مجرَّدةٌ عن مَعنًى، فليس وراءَ حَرَكةِ اللِّسانِ به شَيءٌ[١]!

٤- قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ قد عُلِمَ مِن تَصنيفِه سُبحانَه حالَهم إلى صِنفَينِ مع الإبهامِ: أنَّه يكونُ لِبَعضِهم الضَّرُّ؛ لأنَّ مِنهم مَن ارتَدَّ في زَمَنِ الرِّدَّةِ، ولِبَعضِهم النَّفعُ؛ لأنَّه ثَبَت على الإسلامِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ الجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا لِمُناسَبةِ ذِكرِ الإيفاءِ والنَّكثِ؛ فكَمُل بذِكرِ مَن تَخلَّفوا عن الدَّاعي للعهْدِ[٣].

- وبدَؤُوا بذِكرِ الأموالِ ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ لأنَّ بها قِوامَ العَيشِ[٤]، ولأنَّ الانشِغالَ بها أكثَرُ، والعملَ على تنميتِها يَستَدْعي وقتًا طويلًا، وقد يَنشغِلُ المرءُ بها عن أهْلِه[٥].

- ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: إنَّ كلامَهم مِن طرَفِ اللِّسانِ غيرُ مُطابِقٍ لِما في الجَنانِ، وهو كِنايةٌ عن كَذِبِهم؛ فالجملةُ استِئنافٌ لتكذيبِهم.

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل- المجموعة الثامنة)) لابن تيمية (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٠، ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٨٨).

(٥) يُنظر: ((لمسات بيانية)) للسامرائي (ص: ١٨١، ١٨٢).

وقيل: جُملةُ ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ في موضعِ الحالِ. وقيل: يجوزُ أنْ تكونَ بَدَلَ اشْتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾. والكذبُ راجِعٌ لِما تضَمَّنه الكلامُ مِن الخبَرِ عن تخلُّفِهم بأنَّه لِضَرورةٍ داعيةٍ له، وهي القيامُ بمَصالِحِهم الَّتي لا بُدَّ منها، وعدمُ مَن يَقومُ بها لو ذهَبوا معه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكذا راجِعٌ لِما تضَمَّنه (استَغفِرْ)، وهو وإنْ كان أمرًا وإنشاءً لا يحتمِلُ الصِّدقَ ولا الكَذِبَ، بَيْدَ أنَّ تكذيبَهم في الاستِغفارِ باعتِبارِ ما تضَمَّنه مِنِ اعتِرافِهم بأنَّهم مُذْنِبون، وأنَّ دُعاءَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ لهم يُفيدُهم فائدةً لازِمةً لهم معَ أنَّ اعتِقادَهم يُخالِفُه[1].

- وفي قَولِه: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أُمِر الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ لهمْ ما فيه ردُّ أمْرِهم إلى اللهِ؛ لِيُعلِمَهم أنَّ استِغفارَه اللهَ لهم لا يُكرِهُ اللهَ على المغفرةِ؛ بلِ اللهُ يَفعَلُ ما يَشاءُ إذا أرادَه، فإنْ كان أراد بهم نفعًا نَفَعهم، وإنْ كان أرادَ بهم ضَرًّا ضَرَّهم، فما كان مِن النُّصحِ لأنفُسِهم أنْ يَتورَّطوا فيما لا يُرضِي اللهَ، ثمَّ يَستغْفِروه، فلعلَّه لا يَغفِرُ لهم؛ فالغرَضُ مِن هذا تَخويفُهم مِن عِقابِ ذَنْبِهم؛ إذ تَخلَّفوا عن نَفيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكَذَبوا في الاعتذارِ؛ لِيُكثِروا مِن التَّوبةِ، وتَدارُكِ المُمكِنِ[2].

- ومعنى المُلكِ هنا: القُدْرةُ والاستِطاعةُ، أي: لا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يُغيِّرَ ما أرادهُ اللهُ، والغالِبُ في مِثلِ هذا التَّركيبِ أنْ يكونَ لنَفْيِ القُدرةِ على تَحويلِ الشَّرِّ خَيرًا؛ فكان الجرْيُ على ظاهرِ الاستِعمالِ مُقتضيًا الاقتِصارَ على نفْيِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٢).

أنْ يَملِكَ أحدٌ لهم شيئًا إذا أرادَ اللهُ ضَرَّهم دُونَ زِيادةِ ﴿أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعًا﴾، فتُوجَّهُ هذه الزِّيادةُ أنَّها لقَصْدِ التَّتميمِ والاستِيعابِ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعًاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لا يَخلو مِن الفنِّ المعروفِ عندَ علماءِ البيانِ باللَّفِّ(٢)؛ فقد كان الأصْلُ: (فمَن يَملِكُ لكم مِن اللهِ شيئًا إنْ أراد بكم ضَرًّا، ومَن يَحرِمُكم النَّفعَ إنْ أرادَ بكم نفْعًا)؛ لأنَّ مِثلَ هذا النَّظمِ يُستعمَلُ في الضَّرِّ، وسِرُّ اختِصاصِه بدَفْعِ المَضرَّةِ: أنَّ المُلْكَ مُضافٌ في هذه المواضعِ باللَّامِ، ودفْعُ المَضرَّةِ نفْعٌ يُضافُ للمَدْفوعِ عنه، وليس كذلك حِرمانُ المَنفعةِ؛ فإنَّه ضَرَرٌ عائدٌ عليه لا له، فإذا ظهَرَ ذلك فإنَّما انتظَمَت الآيةُ على هذا الوجْهِ؛ لأنَّ القِسمينِ يَشتركانِ في أنَّ كلَّ واحدٍ منهما نفْيٌ لدَفْعِ المُقدَّرِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فلمَّا تَقارَبا أدْرَجَهما في عِبارةٍ واحدةٍ، وخصَّ عِبارةَ دفْعِ الضَّرِّ؛ لأنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٣).

(٢) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

هو المُتوقَّعُ لهؤلاء؛ إذ الآيةُ في سِياقِ التَّهديدِ أو الوعيدِ الشَّديدِ[١].

- وهذا الجوابُ ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا﴾ لا عِدَةَ فيه مِن اللهِ بأنْ يَغفِرَ لهم؛ إذ المقصودُ تَرْكُهم في حالةِ وجَلٍ؛ لِيَستكثِروا مِن فِعلِ الحَسَناتِ؛ وقُصِدَت مُفاتَحتُهم بالإبهامِ؛ لإلْقاءِ الوجَلِ في قُلوبِهم أنْ يَغفِرَ لهم، ثمَّ سيُتبِعُه بقَولِه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الفتح: ١٤] الآيةَ، الَّذي هو أقرَبُ إلى الإطماعِ[٢].

- و(بلْ) في قَولِه: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ إضرابٌ لإبطالِ قَولِهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾، وبه يَزدادُ مَضمونُ قَولِه: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ تَقريرًا؛ لأنَّه يَتضمَّنُ إبطالًا لعُذْرِهم، ومِن معنى الإبطالِ يَحصُلُ بيانُ الإجمالِ الَّذي في قَولِه: ﴿كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾؛ إذ يُفيدُ أنَّه خَبيرٌ بكَذِبِهم في الاعتِذارِ؛ فلذلك أبطَلَ اعتِذارَهم بحرْفِ الإبطالِ[٣].

- وتَقديمُ ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ على مُتعلَّقِه؛ لقَصْدِ الاهتِمامِ بذِكرِ عَمَلِهم هذا[٤].

- وفي قَولِه: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ تَهديدٌ ووَعيدٌ[٥].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هذه الجُملةُ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا﴾ [الفتح: ١١]، أي: خَبيرًا بما عَمِلْتُم، ومنه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٣٣٦)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٤/ ٣٨٧، ٣٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٣، ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ظنُّكم أنْ لنْ يَنقلِبَ الرَّسولُ والمؤمِنون. وأُعِيدَ حرْفُ الإبطالِ؛ زِيادةً لتَحقيقِ معنى البَدَليَّةِ(١).

- قَولُه: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ جِيءَ بحرْفِ (لن) المُفيدِ استِمرارَ النَّفيِ، وأُكِّدَ بقَولِه: ﴿أَبَدًا﴾؛ لأنَّ ظنَّهم كان قَويًّا(٢).

- والتَّزيينُ: التَّحسينُ، وهو كِنايةٌ عن قَبولِ ذلك(٣).

- والمُرادُ بقولِه: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ إمَّا الظَّنُّ الأوَّلُ، والتَّكريرُ لتَشديدِ التَّوبيخِ والتَّسجيلِ عليه بالسَّوْءِ. أو هو وسائرُ ما يَظُنُّون باللهِ ورَسولِه مِن الأمورِ الزَّائغةِ الفاسِدةِ، الَّتي مِن جُمْلتِها الظَّنُّ بعدَمِ صِحَّةِ رِسالتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فإنَّ الجازِمَ بصِحَّتِها لا يَحومُ حوْلَ فِكْرِه ما ذُكِرَ مِن الاستِئصالِ(٤).

- وإقحامُ كَلِمةِ ﴿قَوْمًۢا﴾ بيْن (كُنْتُمْ) و﴿بُورًا﴾؛ لإفادةِ أنَّ البَوارَ صارَ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم؛ لشِدَّةِ تَلبُّسِه بجَميعِ أفرادِهم(٥).

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾

- قَولُه: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ كَلامٌ مُبتَدأٌ مِن جِهتِه تعالَى، غيرُ داخلٍ في الكَلامِ المُلقَّنِ، مُقرِّرٌ لبَوارِهم، ومُبيِّنٌ لكَيفيَّتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٥).

أي: ومَنْ لم يُؤمِنْ بهما كدَأْبِ هؤلاءِ المُخلَّفينَ؛ ﴿فَإِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَعِيرٗا﴾[1].

وقيل: هو جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن أجزاءِ القَولِ المأمورِ به في قَولِه: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [الفتح: ١١] الآياتِ، وقولِه: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الفتح: ١٤]، وهذا الاعتِراضُ للتَّحذيرِ مِن استِدراجِهم أنفُسَهم في مَدارجِ الشَّكِّ في إصابةِ أعمالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُفضِيَ بهم إلى دَرَكاتِ الكُفْرِ بعدَ الإيمانِ؛ إذ كان تَخلُّفُهم عن الخُروجِ معه وما عَلَّلوا به تَثاقُلَهم في نُفوسِهم، وإظهارُ عُذْرٍ مَكذوبٍ أضْمَروا خِلافَه، كلُّ ذلك حَومًا حوْلَ حِمى الشَّكِّ يُوشِكونَ أنْ يَقَعوا فيه[2]. وذلك على القولِ بأنَّهم لم يكونوا مِن المنافِقينَ.

- وإظْهارُ لَفظِ (الكافرين) في مَقامِ أنْ يُقالَ: (أعتَدْنا لهم سَعيرًا)؛ لِزيادةِ تَقريرِ معنى ﴿وَمَن لَّمۡ يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ إيذانًا بأنَّ مَنْ لم يجمَعْ بيْنَ الإيمانِ بالله وبرسولِه فهو كافرٌ، وأنَّه مستوجِبٌ للسَّعيرِ بكُفرِه[3].

- ونُكِّرَ ﴿سَعِيرٗا﴾ للتَّهويلِ، أو لأنَّها نارٌ مَخصوصةٌ[4].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [الفتح: ١١]؛ فهو مِن أجزاءِ القَولِ، وهذا انتقالٌ مِن التَّخويفِ الَّذي أشعَرَ به ﴿فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ إلى إطْماعِهم بالمَغفرةِ الَّتي سَألوها؛ ولذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨).

قُدِّمَ الضَّرُّ على النَّفعِ في الآيةِ الأُولى، فقِيل: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح: ١١]؛ لِيَكونَ احتمالُ إرادةِ الضَّرِّ بهم أسبَقَ في نُفوسِهم، وقُدِّمَتِ المَغفرةُ هنا؛ ليَتقرَّرَ معنى الإطْماعِ في نُفوسِهم، فيَبتدِروا إلى استِدراكِ ما فاتَهم. وهذا تَمهيدٌ لوَعْدِهم الآتي في قَولِه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ إلى قولِه: ﴿فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾[1] [الفتح: ١٦].

- وقولُه: ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ صِيغَتا مُبالَغةٍ في المَغفرةِ والرَّحمةِ[2].

- وزادَ رَجاءَ المَغفرةِ تأْكيدًا بقَولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، أي: الرَّحمةُ والمغفرةُ أقرَبُ مِن العِقابِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٦).

## الآيات (١٥-١٧)

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَأْسٍ﴾: أي: قُوَّةٍ وبَطشٍ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضاهاها[1].

﴿حَرَجٌ﴾: أي: إثمٌ ومُؤاخَذةٌ، وأصلُ (حرج): يدُلُّ على ضِيقٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يحكي اللهُ تعالى جانبًا مِن أقوالِ الَّذين تخلَّفوا عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في عامِ الحُدَيبيَةِ، ويرُدُّ عليها، فيقولُ: سيَقولُ الأعرابُ الَّذين خُلِّفوا في أهلِيهم عامَ الحُدَيبِيَةِ، إذا انطَلَقْتَ -أيُّها الرَّسولُ- وأصحابُك إلى خَيبَرَ؛ لِتَأْخُذوا المغانِمَ الَّتي وعَدَكم اللهُ بأخْذِها: دَعُونا نَتَّبِعْكم إلى خَيبَرَ!

يُريدُون أن يُغَيِّروا بذَهابِهم معكم وَعْدَ اللهِ الَّذي وَعَدَه أهلَ الحُدَيبيَةِ بأنْ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٠، ١٥٤، ١٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٤٧٠) و(١٨/ ٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٧).

يَجعَلَ غنائِمَ خَيبَرَ لهم خاصَّةً.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: لن تَسيروا مَعَنا إلى قِتالِ أهلِ خَيبَرَ، هكذا قال اللهُ لنا مِن قَبلِ أن نَرجِعَ إليكم مِنَ الحُدَيبِيَةِ. فسيَقولُ أولئك المُخَلَّفونَ مِن الأعرابِ حينَ تَمنَعونَهم مِنَ الخُروجِ معكم إلى خَيبَرَ: إنَّما مَنعْتُمونا مِنَ الخُروجِ معكم؛ لِكَونِكم تَحسُدونَنا على مُشارَكتِكم في الغنائِمِ! فإنَّما هم قَومٌ لا يَفهَمونَ ولا يَعقِلونَ إلَّا قَليلًا!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يَدعوَ هؤلاء المخلَّفينَ إلى الجهادِ، فاتحًا لهم بابَ التَّوبةِ إنِ استَجابوا، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- للأعرابِ الَّذين خُلِّفوا عن الخُروجِ معك إلى الحُدَيبِيَةِ: ستُدْعَونَ إلى قِتالِ قَومٍ ذَوي قُوَّةٍ شَديدةٍ في الحَربِ، تُقاتِلونَهم أو يَدخُلونَ في الإسلامِ مِن غَيرِ قِتالٍ، فإنْ تُطيعوا اللهَ بإجابةِ الدَّعوةِ إلى قِتالِ أولئك الكُفَّارِ، يُؤْتِكم اللهُ على الجِهادِ ثَوابًا حَسَنًا، وإنْ تَعصُوا اللهَ كما تَخَلَّفتُم مِن قَبلُ عن الخُروجِ إلى الحُدَيبِيَةِ، يُعَذِّبْكم عَذابًا مُؤلِمًا.

ثمَّ يختِمُ الله سبحانَه هذه الآياتِ بذِكرِ الأعذارِ في تركِ الجهادِ، فيقولُ: ليس على الأعمَى ولا على الأعرَجِ ولا على المَريضِ إثمٌ في تَخَلُّفِهم عن الجِهادِ مع المُؤمِنينَ؛ لِعُذرِهم المانِعِ لهم مِن القِتالِ.

ثمَّ يُبشِّرُ الله تعالى المؤمنينَ الصَّادِقينَ، فيقولُ: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه يُدخِلْه اللهُ جَنَّاتٍ تجري مِن تَحتِها الأنهارُ، ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ ورَسولِه يُعَذِّبْه اللهُ عَذابًا مُؤلِمًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ

أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿١٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ -تعالى- المُخَلَّفينَ وذَمَّهم؛ ذكَرَ أنَّ مِن عقوبتِهمُ الدُّنيويَّةِ حِرمانَهم مِنَ الغنائمِ، واختِصاصَ الصَّحابةِ المؤمِنينَ بها[1].

﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ﴾.

أي: سيَقولُ الأعرابُ الَّذين خُلِّفوا في أهلِيهم، ولم يَخرُجوا مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى مكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، إذا انطَلَقْتَ -أيُّها الرَّسولُ- وأصحابُك إلى خَيبَرَ؛ لِتَأخُذوا المغانِمَ الَّتي وعَدَكم اللهُ بأخْذِها: دَعُونا نَتَّبِعْكم إلى خَيبَرَ[2]!

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾.

أي: يُريدُ الأعرابُ المُخَلَّفونَ عن الحُدَيبيَةِ أن يُغَيِّروا بذَهابِهم معكم وَعْدَ اللهِ الَّذي وَعَدَه أهلَ الحُدَيبيَةِ بأنْ يَجعَلَ غنائِمَ خَيبَرَ لهم خاصَّةً؛ عِوَضًا عن غنائِمِ قُرَيشٍ بعدَ انصِرافِهم عن مَكَّةَ على صُلحِ الحُدَيبيَةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧).

قال ابن عاشور: (إعلامٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما سيَقولُه المُخلَّفون عن الحُدَيبيَةِ يَتعلَّقُ بتَخلُّفِهم عن الحُدَيبيَةِ وعُذْرِهم الكاذبِ، وأنَّهم سيَندَمون على تخلُّفِهم حينَ يَرَوْنَ اجتناءَ أهلِ الحُدَيبيَةِ ثَمرةَ غزوِهم، ويَتضمَّنُ تأكيدَ تَكذيبِهم في اعتِذارِهم عن التَّخلُّفِ بأنَّهم حينَ يَعلَمونَ أنَّ هُنالِكَ مغانمَ مِن قِتالٍ غيرِ شَديدٍ يَحرِصونَ على الخُروجِ، ولا تَشْغَلُهم أموالُهم ولا أهالِيهم؛ فلو كان عذرُهم حقًّا لَمَا حَرَصُوا على الخروجِ إذا توقَّعوا المغانمَ، ولَأقْبَلوا على الاشتِغالِ بأموالِهم وأهلِيهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٦، ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((نظم الدرر)) =

= للبقاعي (١٨/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٨).

قال ابنُ كثير: (أمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ألَّا يأذَنَ لهم في ذلك؛ مُعاقَبةً لهم مِن جِنسِ ذَنْبِهم؛ فإنَّ الله تعالى قد وَعَد أهلَ الحُدَيبيَةِ بمغانِمِ خَيبَرَ وَحْدَهم، لا يَشرَكُهم فيها غَيرُهم مِنَ الأعرابِ المُتخَلِّفينَ، فلا يَقَعُ غيرُ ذلك شَرعًا وقَدَرًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٧).

وقال ابن جزي: (﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أي: يُريدونَ أن يُبدِّلوا وعدَ الله لأهلِ الحديبيةِ، وذلك أنَّ الله وعَدهم أنْ يُعوِّضَهم مِن غنيمةِ مكةَ غنيمةَ خيبرَ وفتحَها، وأنْ يكونَ ذلك مختصًّا بهم دونَ غيرِهم، وأراد المخلَّفونَ أن يُشاركوهم في ذلك، فهذا هو ما أرادوا مِن التَّبديلِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٨).

وقال ابنُ عاشورٍ: (تبديلُ كلامِ الله: مخالفةُ وحيِه مِن الأمرِ والنَّهيِ والوعْدِ كرامةً للمُجاهدينَ، وتأديبًا للمخلَّفينَ عن الخروجِ إلى الحديبيةِ. فالمرادُ بكلامِ الله: ما أوحاه إلى رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن وعدِ أهلِ الحُديبيةِ بمغانمِ خيبرَ خاصَّةً لهم، وليس المرادُ بكلامِ الله هنا القرآنَ؛ إذ لم ينزِلْ في ذلك قرآنٌ يومئذٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٨).

وقال محمد رشيد رضا: (قولُه في المُخلَّفينَ مِن الأعرابِ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ يعني وَعْدَه في القرآنِ فيما سَبَق في السُّورةِ). ((تفسير المنار)) (٩/ ١٥٥).

وقال مكي: (قولُه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ والذي أرادوا أنْ يُبدِّلوا هو قولُه: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]، فتقدَّم في علمِ الله أنَّهم لا يتَّبعونَ النبيَّ، فأرادوا أنْ يُبدلِّوا ذلك، فقالوا للنبي: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، وقد تقدَّم مِن الله أنَّهم لا يتَّبعونَهم فأرادوا أنْ يُغيِّروا ما تقدَّم في علمِ الله، وقد كان أخبَره الله في كتابِه بقولِه: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾ إلى ﴿ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]، فكلامُ الله هنا: ما أخبَر أنَّهم لن يتَّبعوا، فأرادوا أنْ يُبدِّلوا خبرَ الله ويتَّبعوه). ((الهداية الى بلوغ النهاية)) (٣/ ٢١٦٢).

وقال الزجاج: (يعني بقولِه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٤]، فأرادُوا أنْ يَأْتوا بما ينقُضُ هذا، فأعلَم الله عزَّ وجلَّ أنَّهم لا يعقِلونَ، ولا يقدِرونَ على ذلك). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٣).

وقال ابنُ جزي: (وقيل: كلامُ الله قولُه: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٤] وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ هذه الآيةَ نزَلت بعدَ رجوعِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مِن تَبوكَ بعدَ الحُديبيةِ بمدةٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٨).

﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾.

أي: قُلْ لهم -يا مُحمَّدُ-: لن تَسيروا مَعَنا إلى خَيبَرَ[١].

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾.

أي: هكذا قال اللهُ لنا مِن قَبلِ أن نَرجِعَ إليكم مِنَ الحُدَيبِيَةِ، وتَسألونا الخُروجَ مَعَنا إلى خَيبَرَ: إنَّ غَنيمةَ خَيبَرَ خاصَّةٌ بمَن شَهِدَ الحُدَيبِيَةَ، وأنتم تخَلَّفتُم عن الخُروجِ في ذلك الوَقتِ؛ فليس لكم إذَنْ حَقٌّ في غنائِمِ خَيبَرَ[٢].

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾.

أي: فسيَقولُ أولئك المُخَلَّفونَ مِن الأعرابِ حينَ تَمنَعونَهم مِنَ الخُروجِ معكم إلى خَيبَرَ: ليس الأمرُ كما زَعَمْتُم أنَّه قَولُ اللهِ وأمْرُه، وإنَّما مَنَعْتُمونا مِنَ الخُروجِ معكم؛ لِكَونِكم تَحسُدونَنا على مُشارَكتِكم في الغنائِمِ[٣]!

﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

أي: ليس الأمرُ كما زعَمَ الأعرابُ أنَّكم مَنعتُموهم مِنَ الخُروجِ معكم إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

قال ابن عاشور: (أخبَرَ اللهُ عنهم بما سيَقولونَه... وقد قالوا ذلك بعدَ نحوِ شَهرٍ ونِصفٍ! فلمَّا سَمِعَ المسلِمونَ المتأهِّبونَ للخُروجِ إلى خَيبَرَ مَقالتَهم قالوا: قد أخبَرَنا اللهُ في الحُدَيبِيَةِ بأنَّهم سيَقولونَ هذا)! ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩).

خَيبَرَ حَسَدًا لهم، وإنَّما هم قَومٌ لا يَفهَمونَ ولا يَعقِلونَ إلَّا قَليلًا[1]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩، ١٧٠).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا يَعلَمونَ إلَّا أمرَ الدُّنيا، فليس لهم فِكرٌ إلَّا فيها، ويَفطُنون لأمورِها دونَ أمورِ الدِّينِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والقرطبي، والبيضاوي، وأبو حيان، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩).

وقيل: لا يَعلَمون عن اللهِ ما لَهم وعليهم مِن الدِّينِ، إلَّا قليلًا منهم، وهو مَن صدقَ اللهَ والرَّسولَ. وممَّن اختاره: ابنُ أبي زَمَنين، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٨).

وقيل: لا يَفقَهونَ مِن أمرِ الدِّينِ إلَّا قَليلًا. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٠).

وقال ابنُ كثير: (﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: ليس الأمرُ كما زَعَموا، ولكِنْ لا فَهْمَ لهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨).

وقال ابن عاشور: (أفادَ قولُه: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ انتِفاءَ الفَهمِ عنهم؛ لأنَّ الفِعلَ في سِياقِ النَّفْيِ كالنَّكرةِ في سِياقِ النَّفيِ يَعُمُّ؛ فلذلك استَثْنى منه بقَولِه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: إلَّا فَهمًا قليلًا، وإنَّما قلَّلَه لِكَونِ فَهمِهم مُقتصِرًا على الأُمورِ الواضحةِ مِن العاديَّاتِ، لا يَنفُذُ إلى المُهمَّاتِ ودَقائقِ المعاني، ومِن ذلك ظَنُّهم حِرمانَهم مِنَ الالتِحاقِ بجَيشِ غَزوةِ خَيبَرَ مُنبعِثًا على الحسَدِ، وقد جَرَوا في ظَنِّهم هذا على المعروفِ مِن أهلِ الأنظارِ القاصِرةِ، والنُّفوسِ الضَّئيلةِ مِن التَّوَسُّمِ في أعمالِ أهلِ الكَمالِ بمِنظارِ ما يَجِدونَ مِن دواعي أعمالِهم وأعمالِ خُلَطائِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٠).

وقال ابن عاشور أيضًا: (نَفَى اللهُ عنهم الفَهمَ دونَ الإيمانِ؛ لأنَّهم كانوا مُؤمِنينَ، ولكنَّهم كانوا جاهِلينَ بشَرائعِ الإسلامِ ونُظُمِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٠).

وذلك على قولِه بأنَّهم لم يَكونوا مُنافقينَ، وقد تقدَّم ذكرُ الخلافِ في ذلك، يُنظر ما تقدَّم (ص: ٦٨).

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّ المُخَلَّفينَ مِنَ الأعرابِ يَتخلَّفونَ عن الجهادِ في سبيلِه، ويَعتذِرونَ بغَيرِ عُذرٍ، وأنَّهم يَطلُبونَ الخروجَ معهم إذا لم يكنْ شَوكةٌ ولا قِتالٌ، بل لِمُجَرَّدِ الغَنيمةِ؛ قال تعالى مُمتحِنًا لهم[1]:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للأعرابِ الَّذين خُلِّفوا عن المَسيرِ معَك إلى الحُدَيبِيَةِ: ستُدْعَونَ إلى قِتالِ قَومٍ ذَوي قُوَّةٍ شَديدةٍ في الحَربِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٥-٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٢)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٥١٠، ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

قال ابن جُزَي: (﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ اختُلِف في هؤلاء القَوم على أربعةِ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّهم هَوازِنُ ومَن حارَبَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في غزوةِ خَيبَرَ.

والثَّاني: أنَّهم الرُّومُ؛ إذ دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى قتالِهم في غزوةِ تَبوكَ.

والثَّالثُ: أنَّهم أهلُ الرِّدَّةِ مِن بَني حَنيفةَ وغيرِهم الَّذين قاتَلَهم أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ.

والرَّابعُ: أنَّهم الفُرْسُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٨).

ممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بهم: هَوازِنُ وغَطَفانُ، وذلك يومَ حُنَينٍ: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٢).

قال الخازن: (وأقوى هذه الأقوالِ قولُ مَن قال: إنَّهم هَوازِنُ وثَقيفٌ؛ لأنَّ الدَّاعيَ هو رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٨). واستحسَنَ ابنُ عطيَّةَ هذا القولَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٢).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المُرادَ بهم الرُّومُ: كعبٌ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، =

= ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٢).

واستحسَنَ هذا القولَ أيضًا ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٢).

قال ابن جُزَي: (ويَتقوَّى الأوَّلُ والثَّاني [أي أنَّ المرادَ هَوازِنُ والرُّومُ] بأنَّ ذلك ظَهَرَ في حياةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بَنو حَنيفةَ (أتْباعُ مُسَيْلِمةَ الكذَّابِ): مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، ونسَبَه الواحديُّ لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٨).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بهم بَنو حَنيفةَ، يومَ اليَمامةِ: الزُّهْريُّ، وابنُ السَّائبِ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٢).

وقال ابن عاشور: (والقَومُ أُولو البأسِ الشَّديدِ يتعيَّنُ أنَّهم قومٌ مِن العربِ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ يُشعِرُ بأنَّ القِتالَ لا يُرفَعُ عنهم إلَّا إذا أسلَموا، وإنَّما يكونُ هذا حُكمًا في قتالِ مُشرِكي العربِ؛ إذ لا تُقبَلُ منهم الجِزيةُ. فيَجوزُ أن يكونَ المرادُ: هَوازِنَ وثَقيفَ، وهذا مَرْويٌّ عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ وعِكْرِمةَ وقَتادةَ، وذلك غزوةُ حُنَينٍ، وهي بعدَ غزوةِ خَيبرَ، وأمَّا فتحُ مكَّةَ فلم يكُنْ فيه قِتالٌ. وعن الزُّهْريِّ ومُقاتِلٍ: أنَّهم أهلُ الرِّدَّةِ؛ لأنَّهم مِن قبائلِ العربِ المعروفةِ بالبأسِ، وكان ذلك صدرَ خلافةِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بهم فارِسُ: ابنُ عبَّاسٍ، وعَطاءُ بنُ أبي رباحٍ، وعَطاءٌ الخُراسانيُّ، وابنُ أبي ليلى، وابنُ جُرَيْجٍ في آخَرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣١، ١٣٢).

وقال السعدي: (وهؤلاء القَومُ فارِسُ والرُّومُ، ومَن نحا نحوَهم وأشْبَهَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

وقال ابن كثير: (وعن مجاهِدٍ: هم رجالٌ أُولو بأسٍ شديدٍ. ولم يُعَيِّنْ فِرقةً، وبه يقولُ ابنُ جُرَيجٍ، وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٨).

قال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه أخبَرَ عن هؤلاء المُخَلَّفينَ مِن الأعرابِ أنَّهم سيُدْعَونَ إلى قتالِ قَومٍ أُولي بأسٍ في القتالِ، ونَجدةٍ في الحروبِ، ولم يُوضَعْ لنا الدَّليلُ مِن خبَرٍ ولا عقلٍ على أنَّ المَعْنيَّ بذلك هَوازِنُ، ولا بَنو حَنيفةَ، ولا فارِسُ، ولا الرُّومُ، ولا أعْيانٌ بأعْيانِهم، وجائزٌ أن يكونَ عُنِيَ بذلك بعضُ هذه الأجناسِ، وجائزٌ أن يكونَ عُنِيَ بهم غيرُهم، ولا قولَ فيه أصَحُّ مِن أن يُقالَ كما قال اللهُ جلَّ ثناؤُه: إنَّهم سيُدْعَونَ إلى قَومٍ =

﴿نُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾.

أي: تُقاتِلونَ هؤلاءِ الَّذين تُدْعَوْنَ إلى قتالِهم، فلا يَزالُ القتالُ مُستمِرًّا عليهم، أو يَدْخُلونَ في دينِكم مِن غَيرِ حربٍ ولا قِتالٍ، فيكونُ أحدُ الأمْرَينِ: إمَّا المُقاتَلةُ، وإمَّا الإسلامُ، لا ثالثَ لهما[1].

﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنًا﴾.

أي: فإنْ تُطيعوا اللهَ -أيُّها الأعرابُ- بإجابةِ الدَّعوةِ إلى قِتالِ الكُفَّارِ الأشِدَّاءِ،

---

= أُولي بأسٍ شديدٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٩).

وقال أبو حيَّان: (إنَّ هذه الأقوالَ تمثيلاتٌ مِن قائليها، لا أنَّ المَعْنيَّ بذلك ما ذكَروا، بل أخبر بذلك مُبهَمًا دَلالةً على قوَّةِ الإسلامِ وانتِشارِ دعوتِه، وكذا وقَعَ حُسْنُ إسلامِ تلك الطَّوائفِ، وقاتَلوا أهلَ الرِّدَّةِ زمانَ أبي بكرٍ، وكانوا في فتوحِ البلادِ أيَّامَ عُمَرَ وأيَّامَ غيرِه مِن الخُلَفاءِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٠).

وقال ابن كثير: (وسواءٌ كان هؤلاء هم هَوازِنَ، أو أصحابَ مُسَيْلِمةَ، أو الرُّومَ، فقد وقَع ذلك). ((البداية والنهاية)) (٩/ ١١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٦).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿نُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ هذا حُكمُ مَن لا تُؤخَذُ منهم الجِزيةُ... أي: يكونُ أحَدُ الأمْرَينِ؛ إمَّا المقاتَلةُ، وإمَّا الإسلامُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٣٥).

وقال السعدي: (﴿نُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ أي: إمَّا هذا وإمَّا هذا، وهذا هو الأمرُ الواقِعُ؛ فإنَّهم في حالِ قِتالِهم ومُقاتَلتِهم لأولئك الأقوامِ، إذْ كانت شِدَّتُهم وبأسُهم معهم، فإنَّهم في تلك الحالِ لا يَقبَلونَ أن يَبذُلوا الجِزيةَ، بل إمَّا أن يَدخُلوا في الإسلامِ، وإمَّا أن يُقاتِلوا على ما هم عليه، فلمَّا أثخَنَهم المُسلِمونَ وضَعُفوا وذَلُّوا، ذهَب بأسُهم؛ فصاروا إمَّا أن يُسلِموا، وإمَّا أن يَبذُلوا الجِزْيةَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣). ويُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٣٢١).

وقال البيضاوي: (معنى ﴿يُسۡلِمُونَ﴾ يَنقادُونَ؛ لِيَتناوَلَ تقَبُّلَهم الجِزْيةَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٩).

يُؤْتِكم اللهُ على الجِهادِ ثَوابًا حَسَنًا: الغَنيمةَ في الدُّنيا، والجنَّةَ في الآخِرةِ[١].

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

أي: وإنْ تَعصُوا اللهَ فتُعْرِضوا عن القِتالِ كما تخَلَّفتُم مِن قَبلُ عن الخُروجِ إلى الحُدَيبيَةِ، يُعَذِّبْكم اللهُ عَذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا[٢].

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تَوعَّدَ اللهُ تعالى المُتخلِّفينَ[٣]؛ بيَّنَ مَن يَجوزُ له التَّخلُّفُ وتَركُ الجِهادِ، وما بِسَببِه يَجوزُ تَركُ الجِهادِ[٤].

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالأجرِ الحَسَنِ: الجنَّةُ: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٦٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٩).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الغَنيمةُ والنَّصرُ في الدُّنيا، والجنَّةُ في الآخِرةِ: القرطبيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٨).

أي: ليس على الأعمى إثمٌ في تخَلُّفِه عن الجِهادِ مع المُؤمِنينَ؛ لِعُذرِه بالعَمى المانعِ له مِن القِتالِ[١].

﴿وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ﴾.

أي: وليس على الأعرَجِ إثمٌ في تخَلُّفِه عن الجِهادِ معَ المُؤمِنينَ؛ لِعُذرِه بالعَرَجِ المانِعِ له مِن القِتالِ[٢].

﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾.

أي: وليس على المَريضِ بأمراضٍ أُخرى إثمٌ في تخَلُّفِه عن الجِهادِ معَ المُؤمِنينَ؛ لِعُذرِه بالمَرَضِ المانِعِ له مِن القِتالِ[٣].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: ومَن يُطِعِ اللهَ ورَسولَه يُدخِلْه اللهُ في الآخِرةِ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها[٤].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

قال ابن كثير: (ذَكَر الأعذارَ في تَرْكِ الجِهادِ؛ فمِنها لازِمٌ، كالعَمَى والعَرَجِ المُستَمِرِّ، وعارِضٌ، كالمَرَضِ الَّذي يَطرَأُ أيَّامًا ثمَّ يَزولُ، فهو في حالِ مَرَضِه مُلحَقٌ بذَوي الأعذارِ اللَّازمةِ حتَّى يَبرَأَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

أي: ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ ورَسولِه يُعَذِّبْه اللهُ عَذابًا مُوجِعًا مُؤلِمًا[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ هذا منتهَى عِلمِهم في هذا الموضِعِ، ولو فَهِموا رُشْدَهم لَعَلِموا أنَّ حِرمانَهم بسَبَبِ عِصيانِهم، وأنَّ المعاصِيَ لها عُقوباتٌ دُنيويَّةٌ ودِينيَّةٌ؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢].

٢- لفظُ «التَّولِّي» بمعنَى التَّولِّي عن الطَّاعةِ مذكورٌ في مواضِعَ مِن القرآنِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، وذمُّ مَن تولَّى في غيرِ موضعٍ مِن القرآنِ دَليلٌ على وُجوبِ طاعةِ اللهِ ورَسولِه، وأنَّ الأمرَ المُطلَقَ يَقتَضي وُجوبَ الطَّاعةِ، وذمَّ المتوَلِّي عن الطَّاعةِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾، فالسَّعادةُ كُلُّها في طاعةِ اللهِ، والشَّقاوةُ في مَعصِيتِه ومُخالفتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

قيل: المرادُ بالعذابِ الأليمِ: عَذابُ جَهنَّمَ يومَ القيامةِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٥٩).

وقيل: هو في الدُّنيا بالمذَلَّةِ، وفي الآخِرةِ بالنَّارِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٣) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ قولُه: ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ حِكايةٌ لِمَقالَتِهم، وهو يَقْتضي أنَّهم قالوا هذه الكَلِمةَ استِنزالًا لإجابةِ طَلَبِهم، بأنْ أظهَروا أنَّهم يَخرُجون إلى غزْوِ خَيبَرَ كالأتْباعِ، أي: أنَّهم راضُونَ بأن يَكونوا في مُؤَخَّرةِ الجَيشِ، فيَكونَ حَظُّهم في مَغانِمِه ضَعيفًا[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ إثباتُ أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ إثباتُ القَولِ للهِ تعالى[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ على صيغةِ النَّفيِ بدَلًا عن قَولِه: (لا تتَّبِعونا) على صيغةِ النَّهيِ، وفيه مَعنًى لَطيفٌ، وهو: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنَى على إخبارِ اللهِ تعالى عنهم النَّفيَ؛ لِوُثوقِه وقَطْعِه بصِدْقِه، فجَزَم وقال: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، يعني: لو أَذِنتُكم ولو أردتُم واختَرتُم، لا يَتِمُّ لكم ذلك؛ لِما أخبَرَ اللهُ تعالى[٤].

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه ساقَه مَساقَ النَّفيِ، وإن كان المرادُ به النَّهيَ؛ لأنَّه مع كَونِه آكَدَ يكونُ عَلَمًا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ، وهو أزجَرُ وأدَلُّ على الاستِهانةِ[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٠٨).

أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدُلُّ على فَضيلةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ الدَّاعِينَ لجِهادِ أهلِ البَأسِ مِن النَّاسِ، وأنَّه تَجِبُ طاعتُهم في ذلك(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في هذه البِشارةِ فُرصةٌ لهم لِيَستَدرِكوا ما جَنَوه مِن التَّخَلُّفِ عن الحُدَيبِيَةِ، وكُلُّ ذلك دالٌّ على أنَّهم لم يَنسَلِخوا عن الإيمانِ(٢). وذلك على القولِ بأنَّهم لم يكونوا مِن المنافِقينَ.

٧- قَولُه تعالى: ﴿قُل لِّلۡمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ سَتُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ قَوۡمٍ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَۖ فَإِن تُطِيعُواْ يُؤۡتِكُمُ ٱللَّهُ أَجۡرًا حَسَنًاۖ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ استدَلَّ جماعةٌ مِنَ العلماءِ على صِحَّةِ إمامة أبي بكرٍ وعُمرَ بهذه الآيةِ؛ لأنَّه إن أُريدَ بها بنو حنيفةَ، فأبو بكرٍ دعا إلى قِتالِهم، وإن أُريدَ بها فارِسُ والرُّومُ، فعُمَرُ دعا إلى قِتالِهم، والآيةُ تُلزِمُهمُ اتِّباعَ طاعةِ مَن يَدْعوهم، وتَتَوعَّدُهم على التَّخلُّفِ بالعِقابِ(٣). وذلك على بعضِ الأقوالِ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٢).

وممَّن استدلَّ بالآيةِ على خلافةِ أبي بكرٍ ووجوبِ طاعتِه: الشَّافِعيُّ، والأشعريُّ، وابنُ حزمٍ، وغيرُهم. يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٥٠٥).

وقال أيضًا: (ولا ريْبَ أنَّ أبا بكرٍ دعاهم إلى قتالِ المرتدِّينَ، ثمَّ قتالِ فارِسَ والرُّومِ، وكذلك عُمَرُ دعاهم إلى قتالِ فارِسَ والرُّومِ، وعُثمانُ دعاهم إلى قتالِ البَرْبَرِ ونحوِهم، والآيةُ تَتناوَلُ هذا الدُّعاءَ كلَّه. أمَّا تخصيصُها بمَن دعاهم بعدَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم -كما قاله طائفةٌ مِن المُحتجِّينَ بها على خِلافةِ أبي بكرٍ- فخطأٌ، بل إذا قيل: تَتناوَلُ هذا وهذا كان هذا ممَّا يَسوغُ، =

٨- قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ هذا حُكمُ هؤلاءِ المعاذيرِ في كُلِّ جِهادٍ إلى يومِ القيامةِ، إلَّا أن يَحزُبَ حازِبٌ في حَضرةٍ ما، فالفَرضُ مُتوَجِّهٌ بحَسَبِ الوُسعِ، ومعَ ارتِفاعِ الحَرَجِ فجائِزٌ لهم الغَزوُ، وأجْرُهم فيه مُضاعَفٌ(١).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ فيه عَدَمُ وُجوبِ الجِهادِ على مَن له عُذرٌ؛ كالأعمى، والأعرَجِ، والمَريضِ(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أنَّ الأحكامَ تدورُ مع عِلَلِها؛ فإذا وُجِدَتِ العِلَّةُ في الحُكمِ ثَبَتَ، وإنِ انتَفَتِ العِلَّةُ انتفَى الحُكمُ؛ لأنَّ نَفيَ الحَرَجِ عن هؤلاء إنَّما كان لهذه العِلَّةِ الَّتي فيهم، فإذا بَرِئَ المريضُ واستقامَ، ومشَى الأعرَجُ، ورَدَّ اللهُ البَصَرَ على الأعمَى؛ انتفَى هذا الحُكمُ في حقِّهم، وثَبَتَ في حقِّهِم ما يَثبُتُ في حقِّ السَّالِمينَ(٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

- قَولُه: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ هذا استِئنافٌ ثانٍ بعدَ قَولِه: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا

---

= ويمكِنُ أن يُرادَ بالآيةِ، ويُستدَلُّ عليه بها؛ ولهذا وجَب قتالُ الكفَّارِ مع كلِّ أميرٍ دعا إلى قتالِهم، وهذا أظهَرُ الأقوالِ في الآيةِ). ((منهاج السنة النبوية)) (٨/ ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٤١٩).

وَأَهْلُونَا ﴾[١] [الفتح: ١١].

- وفي قَولِه: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ استُغْنِيَ عن وصْفِهم بأنَّهم مِن الأعرابِ؛ لأنَّ تَعريفَ ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ تعريفُ العَهدِ، أي: المُخلَّفونَ المَذكورونَ[٢].

- وأشعَرَ قَولُه: ﴿ذَرُونَا﴾ بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سيَمنَعُهم مِن الخُروجِ معه إلى غَزْوِ خَيبرَ[٣].

- قَولُه: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أي: لا تَتَّبِعونَا؛ فإنَّه نفْيٌ في مَعْنى النَّهيِ للمُبالَغةِ[٤].

- وجِيءَ بـ (لَن) المُفيدةِ تأكيدَ النَّفيِ؛ لقَطْعِ أطماعِهم في الإذْنِ لهم باتِّباعِ الجَيشِ الخارجِ إلى خَيبرَ؛ ولذلك حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿تَتَّبِعُونَا﴾؛ للعِلْمِ به[٥].

- في قَولِه: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالمُبالَغةِ؛ فالإضرابُ الأوَّلُ مَعروفٌ، وهو دَيْدَنُهم، ودَليلُ لَجاجِهم وتَمادِيهم في التَّعنُّتِ والإصرارِ على السَّفَهِ، أمَّا الإضرابُ الثَّاني فهو الَّذي تَتجسَّدُ فيه بَلادَتُهم وغَباؤُهم؛ لأنَّ الإضرابَ الأوَّلَ فيه نِسبةٌ إلى جَهلٍ في شَيءٍ مَخصوصٍ، وهو نِسبتُهم الحسَدَ إلى المُؤمِنينَ، والثَّانيَ فيه نِسبةٌ إلى جَهلٍ عامٍّ على الإطلاقِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٢).

٢- قَولُه تعالَى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ انتِقالٌ إلى طَمْأنةِ المُخلَّفينَ بأنَّهم سيَنالون مَغانِمَ في غَزواتٍ آتيةٍ؛ لِيَعلَموا أنَّ حِرمانَهم مِن الخُروجِ إلى خَيبرَ مع جَيشِ الإسلامِ ليس لانسِلاخِ الإسلامِ عنهم، ولكنَّه لحِكمةِ نَوطِ المُسبَّباتِ بأسبابِها على طَريقةِ حِكمةِ الشَّريعةِ؛ فهو حِرمانٌ خاصٌّ بوَقعةٍ مُعيَّنةٍ، وأنَّهم سيُدْعون بعدَ ذلك إلى قِتالِ قَومٍ كافرينَ كما تُدْعَى طَوائفُ المُسلِمينَ، فذِكْرُ هذا في هذا المَقامِ إدخالٌ للمَسرَّةِ بعدَ الحُزنِ؛ لِيُزيلَ عنهم انكسارَ خَواطِرِهم مِن جرَّاءِ الحِرْمانِ[١]. وذلك على القولِ بأنَّهم لم يكونوا مِن المنافِقينَ.

- قَولُه: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ﴾ كرَّرَ ذِكْرَهم بهذا الاسمِ؛ مُبالَغةً في الذَّمِّ، وإشعارًا بشَناعةِ التَّخلُّفِ، كأنَّ الذَّمَّ يَتوالَى عليهم كلَّما تَكرَّرَ ذِكْرُهم به، ووَسْمُهم بمِيسَمِه[٢].

- وكرَّرَ وَصْفَ ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هنا؛ لِيَظهَرَ أنَّ هذه المَقالةَ قُصِدَ بها الَّذين نزَلَ فيهم قَولُه: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ [الفتح: ١١]؛ فلا يَتوهَّمَ السَّامِعونَ أنَّ المَعنيَّ بالمُخلَّفينَ كلُّ مَن يقَعُ منه التَّخلُّفُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

- وأُسنِدَ ﴿سَتُدۡعَوۡنَ﴾ إلى المَجهولِ؛ لأنَّ الغرَضَ الأمْرُ بامتِثالِ الدَّاعي، وهو وَليُّ أمْرِ المسلِمينَ؛ بقَرينةِ قَولِه بعْدُ في تَذييلِه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الفتح: ١٧]، ودَعوةُ خُلفاءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن بَعْدِه تَرجِعُ إلى دَعوةِ اللهِ ورسولِه؛ لقولِه: ((ومَن أطاعَ أميري فقد أطاعَني))[١].

- وعُدِّيَ فِعلُ ﴿سَتُدۡعَوۡنَ﴾ بحرْفِ (إلى)؛ لإفادةِ أنَّها مُضمَّنةٌ معنَى المشْيِ. وهذا فرْقٌ دَقيقٌ بيْنَ تَعديةِ فِعلِ الدَّعوةِ بحرْفِ (إلى) وبيْنَ تَعديتِه باللَّامِ، نحوُ قَولِك: دعَوْتُ فلانًا لِما نابَني[٢].

- و(أوْ) في قَولِه: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمۡ أَوۡ يُسۡلِمُونَ﴾ للتَّرديدِ بيْنَ الأمْرَينِ، والتَّنويعِ في حالةِ (تُدْعَون)، أي: تُدْعَونَ إلى قِتالِهم وإسلامِهم، وذلك يَستلزِمُ الإمعانَ في مُقاتَلتِهم، والاستِمرارَ فيها ما لم يُسلِموا[٣].

- وقولُه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تَعييرٌ بالتَّولِّي الَّذي مَضَى، وتَحذيرٌ مِن ارْتكابِ مِثلِه في مِثلِ هذه الدَّعوةِ بأنَّه تَوَلٍّ يُوقِعُ في الإثمِ؛ لأنَّه تَوَلٍّ عن دَعوةٍ إلى واجبٍ، وهو القِتالُ للجِهادِ؛ فالتَّشبيهُ في قَولِه: ﴿كَمَا تَوَلَّيۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ تَشبيهٌ في مُطلَقِ التَّولِّي؛ لقصْدِ التَّشويهِ، وليس تَشبيهًا فيما يَترتَّبُ على ذلك التَّولِّي[٤].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبۡهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٧١٣٧)، ومسلمٌ (١٨٣٥) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قَولُه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦] وبيْنَ جُملةِ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآيةَ، قُصِدَ منها نفْيُ الوَعيدِ عن أصحابِ الأعذارِ، تَنْصيصًا على العُذْرِ؛ للعِنايةِ بحُكْمِ التَّولِّي، والتَّحذيرِ منه[١].

- وفي نفْيِ الحرَجِ عن كلٍّ مِن الطَّوائفِ المَعدودةِ مَزيدُ اعتناءٍ بأمْرِهم، وتَوسيعٌ لِدائرةِ الرُّخصةِ[٢].

- واقتصَرَ على الأصنافِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ العُذرَ إمَّا أن يَكونَ بإخلالٍ في عضوٍ، أو باختِلالٍ في القوَّةِ، والَّذي يُسبِّبُ إخلالَ العضوِ فإمَّا أن يَكونَ بسَببِ اختِلالٍ في العضوِ الَّذي به الوُصولُ إلى العدُوِّ، والانتِقالِ في مَواضعِ القِتالِ، أو في العضوِ الَّذي تَتِمُّ به فائدةُ الحصولِ في المعركةِ والوُصولِ، والأوَّلُ: هو الرِّجْلُ، والثَّاني: هو العَينُ[٣].

- وقُدِّم الأعمى على الأعرَجِ؛ لأنَّ عُذْرَ الأعمى يَستَمِرُّ ولو حَضَر القِتالَ، والأعرَجُ إنْ حضَرَ راكِبًا أو بطَريقٍ آخَرَ يَقدِرُ على القِتالِ بالرَّميِ وغَيرِه[٤].

- وقدَّمَ الآفَةَ في الآلةِ على الآفَةِ في القُوَّةِ؛ لأنَّ الآفَةَ في القُوَّةِ تَزولُ وتَطرَأُ، والآفَةَ في الآلةِ إذا طرَأَت لا تَزولُ؛ فإنَّ الأعمى لا يَعودُ بَصيرًا، فالعُذرُ في مَحَلِّ الآلةِ أتَمُّ[٥].

- وقولُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦] الآيةَ؛ لِمَا تَضمَّنَتْه مِن إيتاءِ الأجْرِ لِكُلِّ مُطيعٍ مِن المخاطَبينَ وغيرِهم، والتَّعذيبِ لكلِّ مُتَولٍّ كذلك، معَ ما في جُملةِ ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ مِن بَيانِ أنَّ الأجْرَ هو إدخالُ الجنَّاتِ، وهو يُفيدُ بطَريقِ المُقابَلةِ أنَّ التَّعذيبَ الأليمَ بإدخالِهم جهنَّمَ[١].

- قَولُه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ فصَّلَ الوعْدَ، وأجمَلَ الوَعيدَ؛ مُبالَغةً في الوَعْدِ؛ لسَبْقِ رَحمتِه، ثمَّ جبَرَ ذلك بالتَّكريرِ على سَبيلِ التَّعميمِ، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ إذ التَّرهيبُ هاهنا أنفَعُ مِن التَّرغيبِ[٢].

- قُرِئَ ﴿نُدْخِلْهُ﴾ و﴿نُعَذِّبْهُ﴾ بنُونِ العظَمةِ على الالتِفاتِ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ، وقُرِئَ ﴿يُدْخِلْهُ﴾ ﴿يُعَذِّبْهُ﴾ بالياءِ التَّحتيةِ جرْيًا على أُسلوبِ الغَيبةِ بعَودِ الضَّميرِ إلى اسمِ الجَلالةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٢).

قرأ نافعٌ، وأبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ بالنُّونِ فيهما، وقرأهما الباقون بالياءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

## الآيات (١٨-٢٢)

﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾: أي: فَرُّوا وانفَضُّوا وغُلِبوا؛ يُقالُ: وَلَّاه دُبُرَه: إذا انهزَمَ، والتَّوَلِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ، وأصلُ الدُّبُرِ: آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه[1].

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾: السُّنَّةُ: هي الطَّريقةُ المَسلوكةُ والمِنهاجُ المتَّبَعُ، وأصلُ (سنن): يدُلُّ على جَرَيانِ الشَّيءِ، واطِّرادِه في سُهولةٍ[2].

﴿خَلَتْ﴾: أي: مَضَت وذَهَبت، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (١/ ٢٨).

(٢) يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٤٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٣١/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٦٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبشِّرًا المؤمنينَ الَّذين بايَعوا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ الحُدَيبِيَةِ: لقد رَضِيَ اللهُ عن المُؤمِنينَ حينَ بايَعوا رَسولَه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- تحتَ الشَّجَرةِ في الحُدَيبِيَةِ، على أن يُقاتِلوا كُفَّارَ قُرَيشٍ ولا يَفِرُّوا، فعَلِمَ اللهُ ما في قُلوبِهم مِن الصِّدْقِ والوَفاءِ، والطَّاعةِ للهِ ورَسولِه؛ فأنزل اللهُ الطُّمَأنينةَ على قُلوبِهم، وجَزاهم اللهُ فَتْحًا يَحصُلُ لهم قَريبًا، وغنائِمَ كَثيرةً يَأخُذونَها مِن أموالِ يَهودِ خَيبَرَ جعَلَها خاصَّةً لهم دُونَ غَيرِهم، وكان اللهُ عَزيزًا غالِبًا لكُلِّ شَيءٍ، حَكيمًا يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

وعَدَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- مَغانِمَ أُخرى كَثيرةً تأخُذونَها، فعجَّل اللهُ لكم -أيُّها المُؤمِنونَ المُبايِعونَ- غنائِمَ خَيبَرَ تأخُذونَها في وَقتٍ قَريبٍ بعدَ رُجوعِكم مِنَ الحُدَيبِيَةِ، وكفَّ اللهُ أيدِيَ الكُفَّارِ عنكم؛ فلم يَنَلْكم سوءٌ منهم، ولِيَكونَ ذلك آيةً للمُؤمِنينَ وعِبرةً لهم، ولِيَهدِيَكم اللهُ طَريقًا في الدِّينِ مُستَقيمًا لا اعوِجاجَ فيه.

ووعَدَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- فَتْحَ بلادٍ أُخرى لم تَقدِروا على فَتْحِها الآنَ، قد حَفِظَها اللهُ لكم، ويُيسِّرُ لكم فَتْحَها بعدَ حينٍ، وكان اللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرًا.

ولو قاتَلَكم الَّذين كَفَروا لَفَرُّوا وانهَزَموا عنكم، ثمَّ لا يَجِدونَ وَلِيًّا يَتولَّى أمْرَهم، ولا نَصيرًا يَنصُرُهم عليكم، لو قاتَلُوكم لَخَذَلَهم اللهُ خِذْلانَه أمثالَهم مِن أهلِ الكُفرِ به، الَّذين مَضَوا في الأُمَمِ السَّابِقةِ، سَنَّ الله فيهم الهَزيمةَ والخِذلانَ سُنَّةً مُؤكَّدةً لا تتغَيَّرُ، ولن تَجِدَ -يا مُحمَّدُ- لِعادةِ اللهِ الَّتي سنَّها في خَلْقِه تَغييرًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ

ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴿١٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ حالَ مَن تخَلَّف عن السَّفَرِ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ذكَرَ حالَ المُؤمِنينَ الخُلَّصِ الَّذين سافَروا معَه[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى حالَ المُخَلَّفينَ بعدَ قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]؛ عاد إلى بَيانِ حالِ المُبايِعينَ[٢].

﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾.

أي: لقد رَضِيَ اللهُ عن المُؤمِنينَ حينَ بايَعوا رَسولَه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- تحتَ الشَّجَرةِ الكائِنةِ في أرضِ الحُدَيبِيَةِ، على أن يُقاتِلوا كُفَّارَ قُرَيشٍ ولا يَفِرُّوا[٣].

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كُنَّا يوم الحُدَيبيَةِ ألفًا وأربَعَمِئَةٍ، فبايَعْناه وعُمَرُ آخِذٌ بيَدِه تحتَ الشَّجَرةِ، وهي سَمُرةٌ[٤]، وقال: بايَعْناه على ألَّا نَفِرَّ، ولم نبايِعْه على المَوتِ))[٥].

وعن مَعْقِلِ بنِ يَسارٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لقد رأيتُني يومَ الشَّجَرةِ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُبايِعُ النَّاسَ، وأنا رافِعٌ غُصْنًا مِن أغصانِها عن رأسِه، ونحنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٤) السَّمُرة: شجرة الطَّلْحِ. يُنظر: ((الإفصاح)) لابن هُبَيْرة (٤/ ١٦٢)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٩٩).

(٥) رواه مسلم (١٨٥٦).

أربَعَ عَشْرةَ مِئةً. قال: لمْ نُبايِعْه على الموتِ، ولكِنْ بايَعْناه على ألَّا نَفِرَّ))[١].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: أخبَرَتْني أمُّ مُبَشِّرٍ أنَّها سَمِعَت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ عندَ حَفصةَ: ((لا يَدخُلُ النَّارَ -إن شاءَ اللهُ- مِن أصحابِ الشَّجَرةِ أحَدٌ الَّذين بايَعوا تَحْتَها. قالت: بلى، يا رَسولَ اللهِ! فانتَهَرَها. فقالت حَفصةُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧٢]))[٢].

﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: فعَلِمَ اللهُ ما في قُلوبِ الصَّحابةِ الَّذين بايَعوا النَّبيَّ تحتَ الشَّجَرةِ، مِن الصِّدْقِ والوَفاءِ، والطَّاعةِ للهِ ورَسولِه[٣].

---

(١) رواه مسلم (١٨٥٨).

(٢) رواه مسلم (٢٤٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).
وممَّن اختار هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جرير، وابن القيم، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٠).
وقال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ قال قَومٌ: معناه: مِن كراهةِ البَيعةِ على المَوتِ ونَحوِه. وهذا ضعيفٌ؛ فيه مَذمَّةٌ للصَّحابةِ. وقال الطَّبَريُّ ومُنذِرُ بنُ سعيدٍ: معناه: مِنَ الإيمانِ وصِحَّتِه، والحُبِّ في الدِّينِ، والحِرصِ عليه. وهذا قولٌ حسَنٌ، لكنَّه مَن كانت هذه حالُه فلا يَحتاجُ إلى نُزولِ ما يُسكِّنُه، [إلَّا] أنَّه يَحتمِلُ أنْ يُجازَى بالسَّكينةِ والفتحِ القريبِ والمغانمِ. وقال آخَرونَ: معناه: مِنَ الهَمِّ بالانصِرافِ عن المشركينَ، والأَنَفةِ في ذلك، على نحوِ ما خاطَبَ فيه عُمَرُ وغَيرُه. وهذا تأويلٌ حسَنٌ، يَترتَّبُ معه نُزولُ السَّكينةِ، والتَّعريضُ بالفتحِ القريبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٦).

﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: فأنزل اللهُ الطُّمَأنينةَ على قُلوبِهم، فثَبَتوا على الدِّينِ، وازدادوا يَقينًا بالحَقِّ المُبِينِ(١).

﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحًا قَرِيبًا﴾.

أي: وجَزاهم اللهُ فَتْحًا يَحصُلُ لهم قَريبًا؛ جزاءً لهم على قِيامِهم بأمرِ اللهِ، ورِضاهم بحُكْمِه(٢).

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

قيل: المرادُ بالفَتحِ هنا: فَتحُ خَيبَرَ. وممَّن قال بهذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحدي، والشوكاني، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ أبي ليلى، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، والشَّعْبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٢٤).

وقيل: المرادُ به: فَتحُ مَكَّةَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٧).

قال ابنُ القَيِّم: (كان أوَّلَ الفَتحِ والمغانِمِ فَتحُ خَيبَرَ ومَغانِمُها، ثمَّ استمَرَّت الفُتوحُ والمغانِمُ إلى انقِضاءِ الدَّهرِ). ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨).

وقال ابنُ كثيرٍ: (هو ما أجرى اللهُ على أيديهم مِنَ الصُّلحِ بَيْنَهم وبيْنَ أعدائِهم، وما حَصَل بذلك مِنَ الخَيرِ العامِّ المُستَمِرِّ المتَّصِلِ بفَتحِ خَيبَرَ وفَتحِ مَكَّةَ، ثمَّ فَتحِ سائِرِ البلادِ والأقاليمِ عليهم، وما حَصَل لهم مِنَ العِزِّ والنَّصرِ والرِّفعةِ في الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٠).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الفَتحَ؛ ذكَرَ بَعضَ ثَمَرتِه[١].

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾.

أي: وأثابَهم غنائِمَ كَثيرةً يَأخُذونَها مِن أموالِ يَهودِ خَيبَرَ، وجعَلَها خاصَّةً لهم دُونَ غَيرِهم[٢].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِزَّةِ الكامِلةِ؛ فهو القاهِرُ الغالِبُ لكُلِّ شَيءٍ، ومُتَّصِفٌ بالحِكمةِ التَّامَّةِ؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[٣].

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٨)، ((سبل الهدى)) للصالحي (٥/ ٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠).

قال ابنُ عاشور: (المغانِمُ الكثيرةُ المذكورةُ هنا هي مغانِمُ أرضِ خَيبَرَ، والأنعامُ والمتاعُ والحوائِطُ، فوُصِفَت بـ﴿ كَثِيرَةً ﴾؛ لتعَدُّدِ أنواعِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٧)، ((سبل الهدى)) للصالحي (٥/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابنُ جرير: (وكان اللهُ ذا عِزَّةٍ في انتِقامِه مِمَّن انتَقَم مِن أعدائِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٩).

وقال الواحدي: (حكيمًا في أمْرِه؛ حَكَم لكم بالغَنيمةِ، ولأهلِ خَيبَرَ بالسَّبْيِ والهَزيمةِ). ((التفسير الوسيط)) (٤/ ١٤٠).

وقال السعدي: (﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ أي: له العِزَّةُ والقُدرةُ الَّتي قهَرَ بها الأشياءَ، فلو شاء لانتصَرَ مِن الكُفَّارِ في كُلِّ وَقعةٍ تكونُ بَيْنَهم وبيْنَ المُؤمِنينَ، ولكِنَّه حَكيمٌ يَبتلي بَعضَهم ببَعضٍ، ويمتَحِنُ المؤمِنَ بالكافِرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ وعَدهم فيما سلَف بمغانم خَيْبَرَ- أردَف ذلك بِبَيانِ أنَّ ما آتاهم مِن الفتحِ والمَغانمِ ليس هو الثَّوابَ وحْدَه[١].

﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا ﴾.

أي: وعَدَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- مَغانِمَ أُخرى كَثيرةً، وذلك مِن سائرِ المغانِمِ الَّتي يأخُذُها المُسلِمونَ بعدَ خَيبَرَ في الأوقاتِ الَّتي قدَّر اللهُ لهم أخْذَها فيها[٢].

﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ ﴾.

أي: فعجَّل اللهُ لكم -أيُّها المُؤمِنونَ المُبايِعونَ رَسولَه تحتَ الشَّجَرةِ- غنائِمَ خَيبَرَ تأخُذونَها في وَقتٍ قَريبٍ بعدَ رُجوعِكم مِنَ الحُدَيبيَةِ، وستَحصُلُ لكم غنائِمُ كَثيرةٌ بَعدَها[٣].

﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾.

أي: وكفَّ اللهُ أيدِيَ الكُفَّارِ عنكم؛ فلم يَنَلْكم سوءٌ منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٧٩، ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).
قال ابن الجوزي: (أمَّا قولُه...: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا ﴾ فقال المفسِّرونَ: هي الفُتوحُ الَّتي تُفتَحُ على المُسلمينَ إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٣).
وقال أبو حيَّان: (وهذه المغانمُ المَوعودُ بها هي المغانمُ الَّتي كانت بعدَ هذه، وتكونُ إلى يومِ القيامةِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ ومُجاهِدٌ وجمهورُ المفسِّرينَ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).
قال ابن عاشور: (كان قريبًا مِن يَومِ البَيعةِ بنَحوِ شَهرٍ ونِصفٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٠)، ((تفسير =

= ابن عطية)) (٥/ ١٣٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((سبل الهدى)) للصالحي (٥/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

قال الماوَرْدي: (﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحدُها: اليهودُ؛ كفَّ أيديَهم عن المدينةِ عندَ خُروجِهم إلى الحُدَيبيَةِ.

الثَّاني: قُرَيشٌ؛ كفَّ أيديَهم عن المدينةِ عندَ خُروجِهم إلى الحُدَيبيَةِ.

الثَّالثُ: أَسَدٌ وغَطَفانُ الحَليفانِ عليهم عُيَيْنةُ بنُ حِصْنٍ ومالكُ بنُ عَوفٍ؛ جاؤُوا لِيَنصُروا أهلَ خَيبَرَ، فألقى اللهُ في قُلوبِهم الرُّعبَ فانهزَموا). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣١٧).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٣).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالب، وابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (١/ ٣٩٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٢٥).

وممَّن اختار القولَ الثَّالثَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، والبغويُّ، والزمخشري، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٦١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٢٥).

قال ابن القيِّم في قولِه: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾: (قيل: أيديَ أهلِ مَكَّةَ أن يُقاتِلوهم. وقيل: أيدِيَ اليَهودِ حينَ هَمُّوا بأن يَغتالوا مَن بالمدينةِ بعدَ خُروجِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمَن معه مِنَ الصَّحابةِ منها. وقيل: هم أهلُ خَيبَرَ وحُلفاؤُهم الَّذين أرادوا نَصْرَهم مِن أَسَدٍ =

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: ولِيَكونَ ذلك آيةً للمُؤمِنينَ وعِبرةً لهم[1].

---

= وغَطَفانَ. والصَّحيحُ تَناوُلُ الآيةِ للجَميعِ). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٧٨). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابنُ عاشور: (امتِنانٌ عليهم بنِعمةٍ غفَلوا عنها حينَ حَزِنوا لوُقوعِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ، وهي نِعمةُ السِّلمِ، أي: كَفَّ أيديَ المُشرِكينَ عنهم؛ فإنَّهم لو واجَهوهم يومَ الحُدَيبيَةِ بالقِتالِ دونَ المراجَعةِ في سَبَبِ قُدومِهم لَرَجَع المُسلِمونَ بعدَ القِتالِ مُتعَبينَ، ولَمَا تهَيَّأَ لهم فَتحُ خَيبَرَ، وأنَّهم لو اقتَتَلوا مع أهلِ مكَّةَ لَدُحِضَ في ذلك مُؤمِنونَ ومُؤمِناتٌ كانوا في مكَّةَ، كما أشار إليه قَولُه تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ ...﴾ [الفتح: ٢٥] الآيةَ. فالمرادُ بـ﴿ٱلنَّاسِ﴾: أهلُ مَكَّةَ؛ جَرْيًا على مُصطَلَحِ القُرآنِ في إطلاقِ هذا اللَّفظِ غالِبًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال الشوكاني: (﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ اللَّامُ يجوزُ أن تتعَلَّق بفِعلٍ مَحذوفٍ يُقَدَّرُ بَعْدَه، أي: فَعَل ما فَعَل مِنَ التَّعجيلِ والكَفِّ؛ لِتَكونَ آيةً، أو على عِلَّةٍ مَحذوفةٍ تَقديرُها: وَعَد فعَجَّلَ وكَفَّ؛ لِتَنتَفِعوا بذلك، ولِتَكونَ آيةً. وقيل: إنَّ الواوَ مَزيدةٌ، واللَّامَ لِتَعليلِ ما قَبْلَه، أي: وكَفَّ لِتَكونَ، والمعنى: ذلك الكَفُّ آيةٌ يُعلَمُ بها صِدقُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في جميعِ ما يَعِدُكم به). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤١).

قيل: المرادُ: ولِيَكونَ كَفُّهم عن المؤمِنينَ آيةً لهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والنسفي، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٩). ويُنظر أيضًا: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٣).

قال ابنُ كثير: (أي: يَعتَبِرونَ بذلك؛ فإنَّ اللهَ حافِظُهم وناصِرُهم على سائِرِ الأعداءِ مع قِلَّةِ عَدَدِهم، ولِيَعلَموا بصَنيعِ اللهِ هذا بهم أنَّه العَليمُ بعواقِبِ الأُمورِ، وأنَّ الخِيَرَةَ فيما يَختارُه لِعِبادِه المُؤمِنينَ وإنْ كَرِهوه في الظَّاهِرِ، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١).

وقيل: المعنى: ولِتَكونَ الغَنيمةُ آيةً للمُؤمِنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مكِّي، والواحدي، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٥٩)، ((الوسيط)) =

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾.

أي: ولِيَهدِيَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- طَريقًا في الدِّينِ مُستَقيمًا لا اعوِجاجَ فيه؛ بسَبَبِ انقِيادِكم لأمْرِه، وقيامِكم بطاعتِه، ومُوافَقتِكم لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا سَرَّهم سُبحانَه بما بَشَّرَهم به مِن كَونِ القَضيَّةِ فَتحًا، ومِن غنائِمِ خَيبَرَ؛ أتْبَعَ ذلك البِشارةَ، دالًّا على أنَّه لا مَطمَعَ لهم في حَوْزِه ولا عِلاجِه لولا مَعونتُه[2].

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾.

أي: ووعَدَكم اللهُ -أيُّها المُؤمِنونَ- فَتْحَ بلادٍ أُخرى لم تَقدِروا على فَتْحِها

---

= للواحدي (٤/ ١٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال السعدي: (﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الغَنيمةُ ﴿آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَستَدِلُّونَ بها على خَبَرِ اللهِ الصَّادِقِ، ووعَدِه الحَقِّ، وثوابِه للمُؤمِنينَ، وأنَّ الَّذي قَدَّرَها سيُقَدِّرُ غَيرَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

وقيل المعنى: ولِتَكونَ هزيمتُهم وسلامتُكم آيةً للمؤمنينَ. وممَّن اختاره: الثعلبي، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ عَطْفٌ على ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو حِكمةٌ أُخرى، أي: لِيَزولَ بذلك ما خامَرَكم مِن الكآبةِ والحُزنِ؛ فتَتجرَّدَ نُفوسُكم لإدراكِ الخَيرِ المَحضِ الَّذي في أمْرِ الصُّلحِ، وإحالتِكم على الوَعدِ؛ فتُوقِنوا أنَّ ذلك هو الحقُّ، فتَزدادوا يَقينًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٩، ٣٢٠).

الآنَ، قد حَفِظَها اللهُ لكم، وأعَدَّها لكم، ومَنَعَها عن غَيرِكم، فيُيَسِّرُ لكم فَتْحَها بعدَ حينٍ[١].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

ممَّن قال بأنَّ المرادَ بقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾: فَتحُ مَكَّةَ: ابنُ جريرٍ، والسمرقنديُّ، وابنُ عطيَّةَ، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٨٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: فارِسُ والرُّومُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ -في روايةٍ-، وابنُ أبي ليلى، والحسَنُ البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١).

وقيل: هي مغانمُ هَوازِنَ في غزوةِ حُنَينٍ. وممَّن اختاره: الزمخشري، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٠).

وقال ابنُ كثير: (قال مجاهِدٌ: هي كلُّ فتحٍ وغنيمةٍ إلى يومِ القيامةِ. وقال أبو داودَ الطَّيالسيُّ: حدَّثَنا شُعْبةُ، عن سِمَاكٍ الحَنَفيِّ، عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ قال: هذه الفُتوحُ الَّتي تُفتَحُ إلى اليَومِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١).

وقال ابن عاشور: (الآيةُ أشارت إلى ثلاثةِ أنواعٍ مِن المغانمِ: نوعٌ مِن مَغانمَ مَوعودةٍ لهم قريبةِ الحُصولِ، وهي مَغانمُ خَيبَرَ؛ ونوعٌ هو مَغانمُ مَرجوَّةٌ كثيرةٌ غيرُ مُعيَّنٍ وَقتُ حُصولِها، ومنها مَغانمُ يومِ حُنَينٍ وما بعْدَه مِن الغزَواتِ؛ ونوعٌ هو مَغانمُ عظيمةٌ لا يَخطُرُ ببالِهم نَوالُها قد أعدَّها اللهُ للمُسلِمينَ، ولعلَّها مغانمُ بلادِ الرُّومِ وبلادِ الفُرسِ وبلادِ البَربرِ، وفي الآيةِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا النَّوعَ الأخيرَ لا يَنالُه جَميعُ المخاطَبينَ؛ لأنَّه لم يأْتِ في ذِكرِه بضَميرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨١).

قال الواحديُّ: (أحاطَ اللهُ لكم بها، وجعَلَها لكم، وحَوَاها لكم. قال الفَرَّاءُ: أحاط اللهُ بها لكم حتَّى يَفتَحَها عليكم. ومعنَى الإحاطةِ على هذا القولِ: الحِفظُ، كأنَّه قال: حَفِظَها لكم، ومَنَعَها =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالقُدرةِ التَّامَّةِ على كُلِّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ أرادَه(١).

﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا قَدَّم سُبحانَه أنَّه كَفَّ أيديَ النَّاسِ عنكم أجمَعينَ؛ ذَكَر حُكْمَهم لو وقَعَ

---

= عن غَيرِكم حتَّى تَفتَحوها فتأخُذوها. وقال ابنُ عبَّاسٍ: عَلِمَ أنَّها ستَكونُ لكم. وهو قولُ مُقاتِلٍ، واختيارُ الزَّجَّاجِ، قال: ﴿أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ قد عَلِمَها اللهُ، وقال: وهو ما يَغْنَمُ المسلمونَ إلى أن لا يقاتلَهم أحدٌ. وهذا معنَى قولِ مُجاهِدٍ في تفسيرِ ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾؛ لأنَّه قال: هي ما فتَحوا حتَّى اليَومِ. ومعنَى الإحاطةِ في هذا القَولِ: العِلمُ). ((البسيط)) (٢٠/ ٣٠٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإحاطةِ العِلمُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإحاطةِ: حِفظُها وإعدادُها لكم: البغويُّ، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٧٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١).

قِتالٌ[١].

﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ﴾.

أي: ولو قاتَلَكم الَّذين كَفَروا باللهِ لَانهَزَموا عنكم، وفَرُّوا منكم[٢].

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾.

أي: ثمَّ لا يَجِدونَ وَلِيًّا يَتولَّى أمْرَهم ويَحفَظُهم ويَرعاهم، ولا نَصيرًا يَنصُرُهم ويُعينُهم عليكم؛ فهم مَخذولونَ مَغلوبون[٣].

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾.

أي: طريقةَ الله وعادتَه المعهودةَ الَّتي أجراها في السَّابِقينَ، بنصْرِ المؤمنينَ -مِن الرُّسلِ وأتْباعِهم- وهزيمةِ الكافرينَ، وإزهاقِ الباطلِ، وإظهارِ الحقِّ المبينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابن القيِّم: (فإنْ قيلَ: فقد قاتَلوهم يومَ أُحُدٍ وانتَصَروا عليهم ولم يُوَلُّوا الأدبارَ؟!

قيل: هذا وَعدٌ مُعَلَّقٌ بشَرطٍ مَذكورٍ في غيرِ هذا الموضِعِ، وهو الصَّبرُ والتَّقْوى، وفات هذا الشَّرطُ يومَ أُحُدٍ بفَشَلِهم المُنافي للصَّبرِ، وتَنازُعِهم وعِصيانِهم المُنافي للتَّقوى؛ فصَرفَهم عن عَدُوِّهم، ولم يَحصُلِ الوَعدُ؛ لانتِفاءِ شَرْطِه). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢١).

قال الرَّسْعَني: (﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾ منصوبٌ على المصدرِ، أي: سَنَّ اللهُ غَلَبَةَ رسولِه والمؤمِنينَ سُنَّةً). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٠). =

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾.

أي: ولن تَجِدَ -يا مُحمَّدُ- لِعادةِ اللهِ الَّتي سنَّها في خَلْقِه تَغييرًا[1].

كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ هذه بِشارةٌ مِن اللهِ لِعبادِه المُؤمِنينَ بنَصرِهم على أعدائِهم الكافِرينَ، وأنَّهم لو قابَلوهم وقاتَلوهم فهم مَخذولونَ مَغلوبونَ، وهذه سُنَّةُ اللهِ في الأُمَمِ السَّابِقةِ؛ أنَّ جُندَ اللهِ هم الغالِبونَ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ فيه أنَّ عادةَ اللهِ تعالى أنَّه يَنصُرُ المؤمِنينَ على الكافِرينَ إذا كانتْ نِيَّةُ المؤمنينَ نصْرَ دِينِ اللهِ، أي: إنَّ اللهَ ضمِنَ النَّصرَ للمؤمنينَ بأنْ تكونَ عاقبةُ حُروبِهم نَصرًا، وإنْ كانوا قد يُغْلَبون في بَعضِ المواقعِ، وإنَّما يكونُ كَمالُ النَّصرِ على حسَبِ ضَرورةِ

---

= وقال الشوكاني: (وانتِصابُ ﴿سُنَّةَ﴾ على المَصدريَّةِ بفِعلٍ مَحذُوفٍ، أيْ: بَيَّنَ اللهُ سُنَّةَ اللهِ. أو هو مَصدرٌ مؤكِّدٌ لِمَضمونِ الجُملةِ المُتقدِّمةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٨)، ((سبل الهدى)) للصالحي (٥/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

المؤمنينَ، وعلى حسَبِ الإيمانِ والتَّقْوى؛ ولذلك كان هذا الوعدُ غالبًا للرَّسولِ ومَن معَه، فيكونُ النَّصرُ تامًّا في حالةِ الخطرِ، كما كان يومَ بدْرٍ، ويكونُ سِجالًا في حالةِ السَّعةِ، كما في وَقعةِ أُحُدٍ، ويكونُ لِمَن بعْدَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن جُيوشِ المسلِمينَ على حسَبِ تَمسُّكِهم بوَصايا الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ أنَّ القُرآنَ الكريمَ يَشهَدُ برِضا اللهِ عنِ الصَّحابةِ، وثَنائِه عليهم[2].

٢- عدالةُ الصَّحابةِ ثابِتةٌ مَعلومةٌ بتعديلِ اللهِ لهم، وإخبارِه عن طَهارتِهم، واختيارِه لهم في نَصِّ القرآنِ؛ فمِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقَولُه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقَولُه: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾، وقَولُه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وقَولُه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩]، في آياتٍ يَكْثُرُ إيرادُها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٢، ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٤٠٤).

ويطولُ تَعْدادُها، وجميعُ ذلك يَقتَضي القَطعَ بتَعديلِهم، ولا يَحتاجُ أَحَدٌ منهم مع تعديلِ اللهِ له إلى تعديلِ أحَدٍ مِنَ الخَلْقِ! على أنَّه لو لم يَرِدْ مِنَ اللهِ ورَسولِه فيهم شَيءٌ مِمَّا ذكَرْناه لَأوجَبَت الحالُ الَّتي كانوا عليها مِنَ الهِجْرةِ والجِهادِ، ونُصرةِ الإسلامِ، وبَذْلِ المُهَجِ والأموالِ، والمُناصَحةِ في الدِّينِ، وقُوَّةِ الإيمانِ واليَقينِ- القَطْعَ على عدالتِهم، والاعتِقادَ لِنَزاهتِهم، وأنَّهم أفضَلُ مِن جَميعِ المُعَدَّلِينَ والمُزَكَّيْنَ الَّذين يَجيئونَ مِن بَعْدِهم، هذا مَذهَبُ كافَّةِ العُلَماءِ، ومَن يُعْتَدُّ بقولِه مِن الفقهاءِ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ما أتاهم مِنَ الفَتحِ والمغانِمِ ليس هو كُلَّ الثَّوابِ، بل الجَزاءُ قُدَّامَهم، وإنَّما هي لعاجِلةٍ عَجَّلَ بها[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ جَلالُه قد يُثيبُ المؤمِنَ رِزقًا في الدُّنيا على العَمَلِ الصَّالحِ، ولا يَحُطُّ ذلك مِن دَرَجةِ فَضلِه، ويَجعَلُ ذلك مِن أطيَبِ وُجوهِه! ألَا ترى أنَّ الغنائِمَ أطيَبُ وُجوهِ الكَسْبِ[3]؟!

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا﴾ هذا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّه لم يَزِغْ أَحَدٌ مِن المُخاطَبينَ بهذه الآيةِ، وهم أهلُ الحُدَيبيَةِ، وكأنَّه -واللهُ أعلَمُ-

---

(١) يُنظر: ((الكفاية في علم الرواية)) للخطيب البغدادي (ص: ٤٦).

قال ابنُ حَجَرٍ: (اتَّفَق أهلُ السُّنَّةِ على أنَّ الجَميعَ عُدولٌ، ولم يُخالِفْ في ذلك إلَّا شُذوذٌ مِنَ المُبتَدِعةِ). ((الإصابة في تمييز الصحابة)) (١/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٦١).

لذلك لم يَقُلْ: «ويَهدِيَهم» بالغَيبِ، على ما اقتَضاه السِّياقُ؛ لئَلَّا يَعُمَّ غَيْرَهم ممَّن يُظهِرُ صِدقَه في الإيمانِ ثمَّ يَزيغُ، ولذا أكثَرُ تفاصيلِ هذه السُّورةِ مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّه وقَعَ الإخبارُ به قبْلَ وُقوعِه(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أخبَرَ تعالى أنَّ سُنَّةَ اللهِ الَّتي لا تَبديلَ لها نَصرُ المُؤمِنينَ على الكافِرين، والإيمانُ المُستَلزِمُ لذلك يَتضَمَّنُ طاعةَ اللهِ ورَسولِه، فإذا نَقَصَ الإيمانُ بالمعاصي كان الأمرُ بحَسَبِه، كما جرى يومَ أُحُدٍ، وحيثُ ظهَر الكفَّارُ فإنَّما ذاك لِذُنوبِ المسلمينَ الَّتي أوجَبتْ نقْصَ إيمانِهم، ثمَّ إذا تابوا بتكميلِ إيمانِهم نصَرهم الله(٢)!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ دَليلٌ على أنَّ هذا مِن مُقتَضى حِكمتِه تعالى؛ وأنَّه يَقضي في الأُمورِ المُتماثِلةِ بقَضاءٍ مُتماثِلٍ، لا بقَضاءٍ مُخالِفٍ، فإذا كان قد نَصَرَ المؤمِنينَ لأنَّهم مُؤمِنونَ كان هذا مُوجِبًا لنَصْرِهم حيثُ وُجِدَ هذا الوَصفُ، بخِلافِ ما إذا عَصَوا ونَقَصوا إيمانَهم كيومِ أُحُدٍ؛ فإنَّ الذَّنْبَ كان لهم؛ ولهذا قال: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، فعَمَّ كلَّ سُنَّةٍ له، وهو يَعُمُّ سُنَّتَه في خَلْقِه وأمْرِه في الطَّبيعيَّاتِ والدِّينيَّاتِ(٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤١٩، ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥٤).

ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ هو عَودٌ إلى تَفصيلِ ما جازَى اللهُ به أصحابَ بَيعةِ الرِّضوانِ المُتقدِّمِ إجمالُه في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾[1] [الفتح: ١٠].

- قَولُه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ في قَولِه: ﴿عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ إيذانٌ بأنَّ مَن لم يُبايِعْ ممَّن خرَجَ مع النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس حينَئذٍ بمُؤمنٍ، وهو تَعريضٌ بالجَدِّ بنِ قَيسٍ؛ إذ كان يومَئذٍ مُنافِقًا، ثمَّ حسُنَ إسلامُه[2].

- و﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿رَضِىَ ﴾، وفي تعليقِ هذا الظَّرْفِ بفِعلِ الرِّضا ما يُفهِمُ أنَّ الرِّضا مُسبَّبٌ عن مَفادِ ذلك الظَّرفِ الخاصِّ بما أُضيفَ هو إليه، مع ما يُعطيه تَوقيتُ الرِّضا بالظَّرْفِ المذكورِ مِن تَعجيلِ حُصولِ الرِّضا بحِدْثانِ ذلك الوقتِ. ومع ما في جَعْلِ الجُملةِ المُضافِ إليها الظَّرْفُ فِعليَّةً مُضارعيَّةً ﴿يُبَايِعُونَكَ ﴾ من حُصولِ الرِّضا قبْلَ انقِضاءِ الفِعلِ، بلْ في حالِ تَجدُّدِه؛ فالمُضارعُ في قَولِه: ﴿يُبَايِعُونَكَ ﴾ مُستعمَلٌ في الزَّمانِ الماضي لاستِحضارِ صُورةِ حالةِ المُبايَعةِ الجليلةِ[3].

- وذكَرَ ﴿تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ لاستِحضارِ تلك الصُّورةِ تنْويهًا بالمكانِ؛ فإنَّ لِذِكرِ مَواضِعِ الحوادثِ وأزمانِها مَعانيَ تَزيدُ السَّامعَ تَصوُّرًا، ولِمَا في تلك الحَوادثِ مِن ذِكرَى، مِثلُ مَواقعِ الحُروبِ والحَوادثِ، ومَواقِعِ المَصائِبِ وأيَّامِها[4].

- قَولُه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ مُتعلِّقٌ بقَولِه: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾، كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٣). ويُنظر أيضًا: ((صحيح مسلم)) (١٨٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٣، ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٧٥).

يقولُ القائلُ: فَرِحتُ أمسِ إذْ كَلَّمتُ زَيدًا فقام إلَيَّ، أو إذْ دخلْتُ عليه فأَكرَمَني؛ فيَكونُ الفرحُ بعدَ الإكرامِ ترتيبًا. كذلك هاهنا، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ مِنَ الصِّدقِ؛ إشارةً إلى أنَّ الرِّضا لم يكنْ عندَ المُبايَعةِ فحسْبُ، بل عندَ المُبايَعةِ الَّتي كان معها عِلمُ اللهِ بصِدقِهم[1].

وقيل: الفاءُ في قَولِه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ ليستْ للتَّعقيبِ؛ لأنَّ عِلْمَ اللهِ بما في قُلوبِهم ليس عقِبَ رِضاهُ عنهم، ولا عقِبَ وُقوعِ بَيعتِهم؛ فتَعيَّنَ أنْ تكونَ فاءً فَصيحةً تُفصِحُ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ بعْدَها، والتَّقديرُ: فلمَّا بايَعُوك عَلِمَ ما في قُلوبِهم مِن الكآبةِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-. ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ لتَفريعِ الإخبارِ بأنَّ اللهَ علِمَ ما في قُلوبِهم بعدَ الإخبارِ برِضا اللهِ عنهم؛ لِمَا في الإخبارِ بعِلمِه ما في قُلوبِهم مِن إظهارِ عِنايتِه بهم.

ويجوزُ أنْ يكونَ المقصودُ مِن التَّفريعِ قولَه: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾، ويكونَ قَولُه: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ تَوطئةً له على وَجْهِ الاعتراضِ[2].

- قَولُه: ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾، أي: فتَرتَّبَ على عِلْمِه ما في قُلوبِهم إنزالُه السَّكينةَ عليهم، أي: على قُلوبِهم؛ فعُبِّرَ بضَميرِهم عِوَضًا عن ضَميرِ قُلوبِهم؛ لأنَّ قُلوبَهم هي نُفوسُهم[3].

- وفي قَولِه: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ وُصِفَت المَغانمُ بأنَّها كثيرةٌ؛ لتَعدُّدِ أنواعِها[4]. وفائدةُ وَصْفِ المَغانمِ بجُملةِ ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾: تَحقيقُ حُصولِ فائدةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذا الوَعدِ لجَميعِ أهلِ البَيعةِ قبْلَ أنْ يقَعَ بالفِعلِ؛ ففيهِ زِيادةُ تَحقيقٍ لِكَونِ الفتحِ قريبًا، وبشارةٌ لهم بأنَّهم لا يَهلِكُ منهم أحدٌ قبْلَ رُؤيةِ هذا الفتحِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ مُعترِضةٌ، وهي مُفيدةٌ تذييلًا لجُملةِ ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾؛ لأنَّ تَيسيرَ الفتْحِ لهم وما حصَلَ لهم فيه مِن المغانمِ الكثيرةِ مِن أثَرِ عِزَّةِ اللهِ الَّتي لا يَتعاصَى عليها شيءٌ صَعبٌ، ومِن أثَرِ حِكمتِه في تَرتيبِ المُسبَّباتِ على أسبابِها في حالةٍ لَيظُنُّ الرَّائي أنَّها لا تُيَسَّرُ فيها أمثالُها[٢].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ على طَريقِ الالْتِفاتِ، وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ نشَأَ عن قولِه: ﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ١٨، ١٩]؛ إذ عُلِمَ أنَّه فتْحُ خَيبَرَ، فحُقَّ لهم ولِغَيرِهم أنْ يَخطُرَ ببالِهم أنْ يَترقَّبوا مَغانِمَ أخرى؛ فكان هذا الكَلامُ جوابًا لهم، أي: لَكم مَغانمُ أُخرى لا يُحرَمُ منها مَن تخلَّفوا عن الحُدَيْبيَةِ، وهي المَغانمُ الَّتي حصَلَتْ في الفتوحِ المُستقبَلةِ[٣].

- ووَصْفُ (مَغَانِمَ) بجُملةِ (تَأْخُذُونَهَا)؛ لتَحقيقِ الوعْدِ[٤].

- وقولُه: ﴿فَعَجَّلَ﴾ مُستعمَلٌ في الزَّمنِ المُستقبَلِ؛ تَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه، أي: سيُعجِّلُ لكم هذه، وإنَّما جعَلَ نَوالَهم غنائِمَ خَيبرَ تَعجيلًا؛ لقُربِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٦، ١٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

حُصولِه مِن وقتِ الوعدِ به[١].

- قَولُه: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ الظَّاهرُ أنَّ الواوَ عاطفةٌ، وأنَّ ما بعدَ الواوِ عِلَّةٌ كما تَقْتضي لامُ (كيْ)؛ فتعيَّنَ أنَّه تَعليلٌ لشَيءٍ ممَّا ذُكِرَ قَبْلَه في اللَّفظِ، أو عَطْفٌ على تَعليلٍ سبَقَه؛ فيجوزُ أنْ يكونَ مَعطوفًا على بَعضِ التَّعليلاتِ المُتقدِّمةِ مِن قولِه: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، أو مِن قولِه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الفتح: ٥]، وما بيْنَهما اعتراضًا، وهو وإنْ طالَ فقَدِ اقتضَتْه التَّنقُّلاتُ المُتناسِباتُ، والمعنى: أنَّ اللهَ أنزَلَ السَّكينةَ في قلوبِ المؤمنينَ لِمَصالحَ لهم؛ منها: ازديادُ إيمانِهم، واستِحقاقُهم الجنَّةَ، وتَكفيرُ سيِّئاتِهم، واستِحقاقُ المنافِقينَ والمشرِكينَ العَذابَ، ولِتَكونَ السَّكينةُ آيةً للمؤمنين، أي: عِبرةً لهم واستِدلالًا على لُطفِ اللهِ بهم، وعلى أنَّ وعْدَه لا تأْويلَ فيه.

ويجوزُ أنْ يكونَ مَعطوفًا على تَعليلٍ مَحذوفٍ يُثارُ مِن الكلامِ السَّابقِ؛ حُذِفَ لِتذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهَبٍ مُمكنٍ في تَقديرِه؛ تَوفيرًا للمعنى، والتَّقديرُ: فعجَّلَ لكم هذه لِغاياتٍ وحِكَمٍ، ولِتَكونَ آيةً؛ فهو مِن ذِكرِ الخاصِّ بعْدَ العامِّ المُقدَّرِ. فالتَّقديرُ مَثَلًا: لِيَحصُلَ التَّعجيلُ لكم بنفْعٍ عِوَضًا عمَّا تَرقَّبْتُموه مِن مَنافعِ قِتالِ المشركينَ، ولِتَكونَ هذه المغانمُ آيةً للمؤمنينَ منكم ومَن يَعرِفون بها أنَّهم مِن اللهِ بمَكانِ عِنايتِه، وأنَّه مُوفٍ لهم ما وَعَدَهم، وضامنٌ لهم نصْرَهم الموعودَ، كما ضمِنَ لهم المغانمَ القريبةَ والنَّصْرَ القريبَ. وتلك الآيةُ تَزيدُ المؤمنينَ قُوَّةَ إيمانٍ. وضَميرُ ﴿وَلِتَكُونَ﴾ على هذه راجِعٌ إلى قَولِه: ﴿هَٰذِهِۦ﴾، على أنَّها المُعلَّلةُ. ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ للخِصالِ الَّتي دلَّ عليها مَجموعُ قَولِه: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٧).

هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾؛ فيَكونَ مَعنى قولِه: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ لِغاياتٍ جَمَّةٍ؛ منها: ما ذُكِرَ آنِفًا، ومنها: سلامةُ المسلمينَ في وقْتٍ هم أحوَجُ فيه إلى استِبقاءِ قُوَّتِهم منهم إلى قِتالِ المشركينَ ادِّخارًا للمُستقبَلِ، أو تكونَ جُملةُ ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ مُعترِضةً، والواوُ اعتراضيَّةً غيرَ عاطفةٍ، وضَميرُ (لِتَكُونَ) عائدًا إلى المرَّةِ مِن فِعلِ (كفَّ)، أي: الكَفَّةِ[1].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا ﴾ هذا مِن عطْفِ الجُملةِ على الجُملةِ؛ فقولُه: (أُخْرَى) مَبتدأٌ مَوصوفٌ بجُملةِ ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا ﴾، والخبرُ قولُه: ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾، ومَجموعُ الجُملةِ عَطفٌ على جُملةِ ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً ﴾ [الفتح: ٢٠]؛ فلفظُ (أُخرى) صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿مَغَانِمَ ﴾ الَّذي في الجُملةِ قبْلَها، أي: هي نَوعٌ آخَرُ مِن المغانمِ صَعبةُ المَنالِ، ومعنى المغانمِ يَقتضي غانِمِينَ؛ فَعُلِمَ أنَّها لهم، أي: غيرَ الَّتي وعَدَهم اللهُ بها، أي: هذه لم يَعِدْهم اللهُ بها، وليستْ ﴿وَأُخۡرَىٰ ﴾ عطْفًا على قَولِه: ﴿هَٰذِهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٠] عطفَ المُفردِ على المفْردِ؛ إذ ليس المرادُ غَنيمةً واحدةً، بل غنائمَ كثيرةً[2].

- قَولُه: ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ معنَى الإحاطةِ فيها إيماءٌ إلى أنَّها كالشَّيءِ المُحاطِ به مِن جَوانبِه، فلا يَفوتُهم مكانُه، جُعِلَت كالمَخبوءِ لهم؛ ولذلك ذُيِّلَ بقولِه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرًا ﴾؛ إذ هو أمْرٌ مُقرَّرٌ في عِلمِهم[3].

٤- قَولُه تعالَى: ﴿ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ﴾ هذا عطْفٌ على قَولِه: ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ ﴾ [الفتح: ٢٠]، على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٧٨، ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بَعضَه مُتعلِّقٌ بالمَعطوفِ عليه، وبعضَه مَعطوفٌ على المعطوفِ عليه، فما بيْنَهما ليس مِن الاعتِراضِ، والمَقصودُ مِن هذا العَطْفِ التَّنبيهُ على أنَّ كَفَّ أيدَي النَّاسِ عنهم نِعمةٌ على المُسلِمينَ، باستِبْقاءِ قُوَّتِهم وعُدَّتِهم ونَشاطِهم، وليس الكفُّ لدَفعِ غَلَبَةِ المشركينَ إيَّاهم؛ لأنَّ اللهَ قدَّرَ للمُسلِمينَ عاقِبةَ النَّصرِ، فلو قاتَلَهم الَّذين كَفَروا لَهزَمَهم المُسلِمونَ ولم يَجِدوا نصيرًا، أي: لم يَنتصِروا بجَمْعِهم ولا بمَن يُعينُهم[1].

- والمُرادُ بالَّذين كَفَروا في قَولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ ما أُريدَ بالنَّاسِ في قَولِه: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾، وكان مُقْتضَى الظَّاهرِ الإتيانَ بضَميرِ النَّاسِ بأنْ يُقالَ: (وَلَو قَاتَلُوكُم)؛ فعُدِلَ عنه إلى الاسمِ الظَّاهرِ؛ لِمَا في الصِّلةِ مِن الإيماءِ إلى وجْهِ بِناءِ الخبَرِ، وهو أنَّ الكُفرَ هو سببُ تَوليةِ الأدبارِ في قِتالِهم للمُسلِمينَ؛ تمْهيدًا لقَولِه: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾[2].

- و(الأَدبارَ) منْصوبٌ على أنَّه مفعولٌ ثانٍ لِـ(ولَّوْا)، ومَفعولُه الأولُ مَحذوفٌ؛ لِدَلالةِ ضَميرِ ﴿قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عليه، والتَّقديرُ: لَوَلَّوكُم الأدبارَ[3].

- قَولُه: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ حرْفُ (ثمَّ) هنا للتَّراخي الرُّتَبيِّ؛ فإنَّ عدَمَ وِجْدانِ الوليِّ والنَّصيرِ أشَدُّ على المنْهزِمِ مِن انهزامِه؛ لأنَّه حِينَ يَنهزِمُ قد يكونُ له أملٌ بأنْ يَستنصِرَ مَن يُنجِدُه، فيَكُرُّ به على الَّذين هزَموه، فإذا لم يَجِدْ وَليًّا ولا نَصيرًا تحقَّقَ أنَّه غيرُ مُنتصِرٍ، وأصلُ الكلامِ: لَولَّوُا الأدبارَ وما وجَدوا وليًّا ولا نَصيرًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- قَولُه تعالَى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾

- قَولُه: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ ﴾ انتصَبَ ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ﴾ نِيابةً عن المفعولِ المُطلَقِ الآتي بدَلًا مِن فِعلِه؛ لإفادةِ مَعنى تأْكيدِ الفِعلِ المَحذوفِ، والمعنى: سنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً[1].

- وفائدةُ هذا الوصْفِ ﴿ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُ﴾ الدَّلالةُ على اطِّرادِ سُنَّةِ اللهِ وثَباتِها[2].

- ولَمَّا وصَفَ تلك السُّنَّةَ بأنَّها راسِخةٌ فيما مَضَى؛ أعقَبَ ذلك بوَصْفِها بالتَّحقُّقِ في المُستقبَلِ؛ تعْميمًا للأزمِنةِ بقولِه: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٢، ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٤-٢٦)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَظْفَرَكُمْ﴾: أي: أظْهرَكم ونَصَرَكم، وأصلُ (ظفر): يدُلُّ على القَهرِ والفَوزِ والغَلَبةِ[1].

﴿وَٱلْهَدْىَ﴾: أي: ما يُهدَى إلى البَيتِ مِن الأنعامِ؛ وسُمِّيَ هَدْيًا لأنَّ مُهْدِيَه تقرَّبَ به إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ[2].

﴿مَعْكُوفًا﴾: أي: مَحبوسًا، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على حَبسٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٣/ ٣٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

﴿تَطَـُٔوهُمۡ﴾: أي: تَقتُلوهم وتُوقِعوا بهم، وأصلُه يدُلُّ على وَطءٍ بالقَدَم، واستُعمِلَ في معنى القَتلِ؛ لأنَّ مَن وَطِئَ الشَّيءَ برِجْلِه فقد استَقصى في إهلاكِه وإهانتِه[١].

﴿مَّعَرَّةُۢ﴾: أي: غُرمُ الكَفَّارةِ ومَسَبَّةُ الكُفَّارِ، وهي مَصدَرٌ مِيميٌّ مِن عَرَّه: إذا دهاه، وأصابَه بما يَكرَهُه ويَشُقُّ عليه؛ مِن ضُرٍّ أو غُرمٍ أو سُوءِ قالةٍ[٢].

﴿تَـزَيَّلُواْ﴾: أي: تمَيَّزوا وتفرَّقوا، وأصلُ (زيل): يدُلُّ على التَّبايُنِ والمُفارَقةِ[٣].

﴿ٱلۡحَمِيَّةَ﴾: أي: الأَنَفةَ والغَضَبَ، وأكثَرُ إطلاقِ ذلك على استِكبارٍ لا مُوجِبَ له، وأصلُها يدُلُّ على حَرارةٍ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يمتنُّ الله تعالى على المؤمنينَ بنعمةٍ مِن نِعَمِه الَّتي أنعَمَ بها عليهم عامَ الحُدَيبيَةِ، فيقولُ: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي كَفَّ أيدِيَ المُشرِكينَ عَنْكم -أيُّها المُؤمِنونَ- وأيديَكم عنهم، وأنتم في الحُدَيبيَةِ مِن بَعدِ أن أظْهَرَكم ونَصَرَكم عليهم، وكان اللهُ بما تَعمَلونَ جميعًا بَصيرًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٣).

ثمَّ يقولُ تعالى مخبرًا عن المشركينَ: هؤلاء المُشركونَ مِن قُرَيشٍ هم الَّذين كَفَروا بالحَقِّ، وصَدُّوكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ، ومَنَعوا الأنعامَ الَّتي أهدَيْتُموها عن الوُصولِ إلى مَحَلِّ ذَبْحِها في مَكَّةَ!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن حِكمتِه في منعِ قتالِ المشركينَ، فيقولُ: ولَولا رِجالٌ ونِساءٌ مِنَ المُستَضعَفينَ الَّذين يَكتُمونَ إيمانَهم في مَكَّةَ مِمَّن لا تَعلَمونَ حالَهم؛ أن تَقتُلوهم إذا دخَلْتُم مكَّةَ فاتِحينَ، فيَنالَكم بسَبَبِ قَتْلِهم سوءٌ مِن إثمٍ أو مَغْرَمٍ أو غَمٍّ- لَأَذِنَ اللهُ لكم في فَتحِ مَكَّةَ.

مَنَعَكم اللهُ مِن قِتالِ كُفَّارِ قُرَيشٍ عامَ الحُدَيبيَةِ؛ لِيُدخِلَ في الإسلامِ مِن أهلِ مَكَّةَ مَن يَشاءُ منهم قبْلَ أن تَدخُلوها فاتِحينَ، ولو تَمَيَّزَ مَنْ آمَنَ في مكَّةَ عن الكُفَّارِ وتفرَّقوا عنهم، لَعَذَّبْنا أولئك الكُفَّارَ بـأيديكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عَذابًا مُؤلِمًا، حينَ وَضَع كُفَّارُ قُرَيشٍ في قُلوبِهم أنَفَةَ الجاهِليَّةِ واستِكبارَها في شُروطِ الصُّلحِ يومَ الحُدَيبيَةِ، فأنزَلَ اللهُ الطُّمَأنينةَ والصَّبرَ والثَّباتَ على رَسولِه وعلى أصحابِه المُؤمِنينَ، وألزَمَهم اللهُ كَلِمةَ التَّوحيدِ، ووفَّقَهم لالتِزامِها قَولًا وعَمَلًا، وكانوا أحقَّ بتلك الكَلِمةِ مِنَ الكُفَّارِ، وأهلًا لها دُونَهم، وكان اللهُ بكُلِّ شَيءٍ عَليمًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها تَبيينٌ لِما تَقدَّمَ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ [الفتح: ٢٢]، أي: هو بتَقديرِ اللهِ؛ لأنَّه كَفَّ أيديَهم عنكم بالفِرارِ، وأيديَكم عنهم

بالرُّجوعِ عنهم وتَرْكِهم[١].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾

**سَبَبُ النُّزولِ**[٢]:

١- عن سَلَمةَ بنِ الأكوَعِ -رَضِيَ اللهُ عنه- في قِصَّةِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ، قال: ((قَدِمْنا الحُدَيبيَةَ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونحنُ أربَعَ عَشْرةَ مِئةً... ثمَّ إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دَعانا للبَيعةِ في أصلِ الشَّجَرةِ... ثمَّ إنَّ المُشرِكينَ راسَلونا الصُّلحَ حتَّى مشى بَعضُنا في بَعضٍ، واصطَلَحْنا... فلمَّا اصطَلَحْنا نحنُ وأهلُ مكَّةَ، واختَلَط بَعضُنا ببَعضٍ؛ أتيتُ شَجَرةً فكَسَحْتُ شَوكَها[٣] فاضطجَعْتُ في أصلِها، قال: فأتاني أربعةٌ مِن المُشرِكينَ مِن أهلِ مَكَّةَ، فجَعَلوا يَقَعونَ في رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأبغَضْتُهم، فتحَوَّلتُ إلى شَجَرةٍ أُخرى، وعَلَّقوا سِلاحَهم واضْطَجَعوا، فبَيْنَما هم كذلك إذْ نادى مُنادٍ مِن أسفَلِ الوادي: يا لَلْمُهاجِرينَ! قُتِلَ ابنُ زُنَيْمٍ! قال: فاختَرَطتُ سَيفي[٤]، ثمَّ شَدَدْتُ على أولئك الأربَعةِ وهم رُقودٌ، فأخَذْتُ سِلاحَهم، فجعَلْتُه ضِغْثًا[٥] في يَدي. قال: ثمَّ قُلتُ: والَّذي كرَّمَ وَجْهَ مُحمَّدٍ لا يَرفَعُ أحَدٌ مِنكم رأسَه إلَّا ضَربتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨١).

(٢) قال ابنُ حجر: (المشهورُ في سببِ نُزولِها ما أخرجه مسلمٌ مِن حديثِ سَلَمةَ بنِ الأكْوَعِ، ومِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ أيضًا، وأخرجه أحمدُ والنَّسائيُّ مِن حديثِ عبدِ الله بنِ مغفلٍ). ((فتح الباري)) (٥/ ٣٥١).

(٣) كَسَحْتُ شَوْكَها: أي قطعتُه، وكنستُ ما تحتَها منه. يُنظر: ((كشف المُشْكِل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٦)، ((المفهم)) للقرطبي (٣/ ٦٧١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٧٦).

(٤) اخترطتُ سيفي: أي: سللتُه مِن غِمْدِه. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧).

(٥) فجعلْتُه ضِغْثًا في يدي: الضِّغْثُ: الحُزمةُ والباقةُ مِن الشَّيءِ؛ كالبَقْلِ وما أشْبَهَه. والمعنى: جعلتُ سلاحَهم في يدي مِثلَ الضِّغْثِ. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧).

الَّذي فيه عَيْناه! قال: ثمَّ جِئتُ بهم أسوقُهم إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قال: وجاء عَمِّي عامِرٌ برَجُلٍ مِنَ العَبَلاتِ[١] يُقالُ له: مِكْرَزٌ، يَقودُه إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على فَرَسٍ مُجَفَّفٍ[٢] في سَبعينَ مِنَ المُشرِكينَ، فنظَرَ إليهم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: دَعوهم يَكُنْ لهم بَدءُ الفُجورِ وثِناه[٣]! فعفا عنهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنزل اللهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ الآيةَ كُلَّها))[٤].

٢- عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّ ثمانينَ رَجُلًا مِن أهلِ مَكَّةَ هَبَطوا على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن جَبَلِ التَّنعيمِ مُتَسَلِّحينَ، يُريدونَ غِرَّةَ[٥] النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، فأخَذَهم سَلَمًا[٦] فاستَحْياهم[٧]،

---

(١) العَبَلات: بطنٌ مِن بَني عبدِ شِمسٍ، نُسبوا إلى أُمٍّ لهم تُسَمَّى: عبلةَ بنتَ عبيدٍ. يُنظر: ((المفهم)) للقرطبي (٣/ ٦٧١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٧٦، ١٧٧).

(٢) المجفَّف مِن الخَيلِ: هو الَّذي عليه التَّجافيفُ، وهي كلُّ ما يَمنعُ وُصولَ الأذى إليه، فهو مِثلُ المُدَجَّجِ مِن الرِّجالِ، وهو الَّذي عليه السِّلاحُ التَّامُّ. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧).

(٣) بَدؤه: ابتِداؤه، وثِنَاهُ: عودُه ثانيةً؛ فبَدءُ الفجورِ وثِنَاهُ، أي: أوَّلُه وآخِرُه. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٢/ ٣٠٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٢٥)، ((المفهم)) للقرطبي (٣/ ٦٧١)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٧٧).

(٤) رواه مسلم (١٨٠٧).

(٥) أي: يَلتمِسونَ غفلتَهم؛ لِيَتمكَّنوا منهم، والغِرَّةُ: الغفلةُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٧٦٨).

(٦) فأخذهم سَلَمًا: بفتح السِّينِ واللَّام، أي: أسرى، والسَّلَمُ بالفتح: الأسيرُ؛ لأنَّه أسلَمَ وترَك. وضُبِط أيضًا بإسكانِ اللَّام مع كسرِ السِّينِ وفَتحِها، ومعناه: الصُّلحُ. يُنظر: ((مشارق الأنوار)) للقاضي عياض (٢/ ٢١٧). ويُنظر: أيضًا: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٩٤)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ١٨٧).

(٧) استَحْياهم: استَبْقاهم ولم يَقتُلْهم. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٣/ ٣٠٨)، ((جامع الأصول)) لابن الأثير (٢/ ٣٥٩).

فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾))[1].

٣- عن عبدِ اللهِ بنِ مُغَفَّلٍ المُزَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالحُدَيبيَةِ في أصلِ الشَّجَرةِ الَّتي قال اللهُ تعالى في القُرآنِ، وكان يقَعُ مِن أغصانِ تلك الشَّجَرةِ على ظَهرِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعليُّ بنُ أبي طالِبٍ وسُهَيلُ بنُ عَمرٍو بيْنَ يَدَيه. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِعَليٍّ رَضِيَ اللهُ تعالى عنه: اكتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. فأخَذَ سُهَيلُ ابنُ عَمرٍو بيَدِه، فقال: ما نَعرِفُ بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ! اكتُبْ في قَضِيَّتِنا ما نَعرِفُ. قال: اكتُبْ باسْمِك اللَّهُمَّ. فكَتَب: هذا ما صالَحَ عليه محمَّدٌ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أهلَ مَكَّةَ. فأمسَكَ سُهَيلُ بنُ عَمرٍو بيَدِه، وقال: لقد ظلَمْناك إنْ كُنتَ رَسولَه! اكتُبْ في قَضِيَّتِنا ما نَعرِفُ. فقال: اكتُبْ هذا ما صالَحَ عليه محمَّدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ. وأنا رَسولُ اللهِ! فكَتَب، فبَيْنا نحنُ كذلك إذ خرَجَ علينا ثلاثونَ شابًّا عليهم السِّلاحُ، فثاروا في وُجوهِنا، فدعا عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخَذَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بأبصارِهم، فقَدِمْنا إليهم فأخَذْناهم، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هل جِئتُم في عَهدِ أَحَدٍ، أو هل جَعَل لكم أَحَدٌ أمانًا؟ فقالوا: لا. فخلَّى سَبيلَهم، فأنزلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٤]))[2].

---

(١) رواه مسلم (١٨٠٨).

(٢) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٥١١)، وأحمدُ (١٦٨٠٠) واللفظُ له.

قال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٤٨): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٥/ ٣٥١)، وصَحَّحه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٧/ ٣٥٥).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي كَفَّ أيديَ المُشرِكينَ عنكم -أيُّها المُؤمِنونَ- وأيديَكم عنهم، وأنتم في الحُدَيبيَةِ مِن بَعدِ أن أظْهَرَكم ونَصَرَكم عليهم(١).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ١١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ على مَعنى الغَيْبةِ، أي: كانَ الله بما عمِل الكفَّارُ مِن كفرِهم وصدِّهم عن المسجدِ بصيرًا(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال الواحدي: (المعنى: أنَّ اللهَ تعالى يَذكُرُ مِنَّتَه بحَجْزِه بيْنَ الفريقَينِ حتَّى لم يَقتَتِلا، وحتَّى اتَّفَق بيْنَهم الصُّلحُ الَّذي كان أعظَمَ مِن الفَتحِ، وسَلِمَ للرَّجُلِ مَن بَيْنَه وبيْنَه قَرابةٌ، ومَن هو مُؤمِنٌ مِن أهلِ مكَّةَ؛ أن يُصابَ. وهذا قَولُ عامَّةِ المُفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢٠/ ٣١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٢).

قال السَّمْعاني: (قَولُه: ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ يعني: الحُدَيبيَةَ، وإنَّما سَمَّاها بَطْنَ مكَّةَ؛ لِقُربِها مِن مكَّةَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠٤).

وقال ابنُ عاشور: (الحُدَيبيَةُ قَريبةٌ مِن مكَّةَ، وهي مِنَ الحِلِّ، وبَعضُ أرضِها مِنَ الحَرَمِ، وهي على الطَّريقِ بيْنَ مكَّةَ وجُدَّةَ، وهي إلى مكَّةَ أقرَبُ، وتُعرَفُ اليومَ باسمِ الشُّمَيسِي). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٥).

وقال القرطبي: (﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: يريدُ به مكَّةَ. الثَّاني: الحُدَيبيَة؛ لأنَّ بعضَها مُضافٌ إلى الحَرَمِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٢).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجوزي (٢/ ٣٧٥).

ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٧٤).

٢- قِراءةُ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾ على معنى الخِطابِ، أي: أنتم وهم[١].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

أي: وكان اللهُ بما تَعمَلونَ -أيُّها المُؤمِنونَ والمُشرِكونَ- بَصيرًا؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم[٢].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ٢٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى ذَكَر الأُمورَ المُهَيِّجةَ على قِتالِ المُشرِكينَ، وهي كُفرُهم باللهِ ورَسولِه، وصَدُّهم رَسولَ اللهِ ومَن معَه مِنَ المُؤمِنينَ أن يأتُوا للبَيتِ الحَرامِ زائِرينَ مُعَظِّمينَ له بالحَجِّ والعُمرةِ[٣].

وأيضًا لَمَّا كان ما مضَى مِن وَصْفِ الكُفَّارِ على وَجهٍ يَشمَلُ غَيرَهم مِن جَميعِ الكُفَّارِ؛ عَيَّنَهم مُبَيِّنًا لِسَبَبِ كَفِّهم عنهم، مع استِحقاقِهم في ذلك الوَقتِ للبَوارِ والنَّكالِ والدَّمارِ، فقال[٤]:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجوزي (٢/ ٣٧٥).

ويُنظر لمعنَى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٦).

أي: هؤلاء المُشرِكونَ مِن قُرَيشٍ هم الَّذين كَفَروا بالحَقِّ، وصَدُّوكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ عامَ الحُدَيبيَةِ[١].

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خرَجْنا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُعتَمِرينَ، فحالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ دونَ البَيتِ، فنَحَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بُدْنَه، وحَلَق رَأْسَه))[٢].

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾.

أي: وهم مَن مَنَع الهدْيَ عن الوُصولِ إلى مَحَلِّ ذَبْحِها في مَكَّةَ[٣].

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

أي: ولَولا رِجالٌ ونِساءٌ مِنَ المُستَضعَفينَ الَّذين يَكتُمونَ إيمانَهم في مَكَّةَ، مِمَّن لا تَعلَمونَ بشَأنِهم؛ أن تَقتُلوهم إذا دخَلْتُم مكَّةَ فاتِحينَ، فيَنالَكم بسَبَبِ قَتْلِهم سوءٌ مِن إثمٍ أو مَغْرَمٍ أو غَمٍّ أو مَلامةٍ- لَأَذِنَ اللهُ لكم في فَتحِ مكَّةَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٢) رواه البخاريُّ (١٨١٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٣، ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

قال ابن عاشور: (الهَدْيُ: ما يُهدَى إلى الكَعبةِ مِنَ الأنعامِ... ومعنى صَدِّهم الهَدْيَ: أنَّهم صَدُّوا أهلَ الهَدْيِ عن الوُصولِ إلى المَنحَرِ...، وليس المرادُ: أنَّهم صَدُّوا الهدايا مُباشَرةً؛ لأنَّه لم يُنقَلْ أنَّ المُسلِمينَ عَرَضوا على المُشرِكينَ تَخليةَ مَن يَذهَبُ بهَداياهم إلى مكَّةَ لِتُنحَرَ بها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٧، ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٥، ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٤)، =

﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: مَنَعَكم اللهُ مِن قِتالِ كُفَّارِ قُرَيشٍ عامَ الحُدَيبيَةِ؛ لِيُدخِلَ اللهُ في الإسلامِ مِن أهلِ مكَّةَ مَن يَشاءُ منهم قبْلَ أنْ تَدخُلوها فاتِحينَ[1].

﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: لو تَمَيَّزَ مَنْ آمَنَ في مكَّةَ عن كُفَّارِها وتفرَّقوا عنهم، لَعَذَّبْنا أولئك الكُفَّارَ بأيديكم -أيُّها المُؤمِنونَ- عَذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا في الدُّنيا بالقَتلِ أو غَيرِه، فلا يَلحَقُ أولئك المؤمِنينَ في مكَّةَ ضَرَرٌ أو مَكروهٌ مِن قِبَلِكم[2].

﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَلۡزَمَهُمۡ كَلِمَةَ ٱلتَّقۡوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ٢٦﴾.

﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾.

أي: إذ[3] وَضَع كُفَّارُ قُرَيشٍ في قُلوبِهم أَنَفَةَ الجاهِلِيَّةِ واستِكبارَها وأخلاقَها

---

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٩-١٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٢).

(٣) قال الشوكاني: (والظَّرفُ في قولِه: ﴿إِذۡ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ منصوبٌ بفعلٍ مُقدَّرٍ، أي: اذكُرْ وَقْتَ جَعْلِ الَّذينَ كفروا في قلوبِهم الحميَّةَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤).

وقيل: العامِلُ في ﴿إِذۡ﴾ قَولُه تعالى: ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾، أي: لَعَذَّبْناهم إذْ جَعَلوا هذا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٦)، =

الشَّنيعةَ، فأبَوا أن يُكتَبَ في كِتابِ الصُّلحِ يومَ الحُدَيبيَةِ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وأن يُكتَبَ فيه: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ، ومَنَعوا المؤمِنينَ القادِمينَ للعُمرةِ مِن دُخولِ مَكَّةَ(١).

عن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ قُرَيشًا صالَحوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيهم سُهَيلُ بنُ عَمرٍو، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِعَليٍّ: اكتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ. قال سُهَيلٌ: أمَّا باسمِ اللهِ فما نَدري ما بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ! ولكِنِ اكتُبْ ما نَعرِفُ: باسْمِك اللَّهُمَّ. فقال: اكتُبْ مِن مُحمَّدٍ رَسولِ اللهِ. قالوا: لو عَلِمْنا أنَّك رَسولُ اللهِ لَاتَّبَعْناك، ولكِنِ اكتُبِ اسْمَك واسْمَ أبيك. فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اكتُبْ: مِن مُحمَّدِ بنِ عبدِاللهِ. فاشتَرَطوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ مَن جاءَ مِنْكم لم نَرُدَّه عليكم، ومَن جاءَكم مِنَّا ردَدْتُموه علينا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، أنكتُبُ هذا؟! قال: نَعَمْ؛ إنَّه مَن ذَهَب مِنَّا إليهم فأبعَدَه اللهُ! ومَن جاءنا منهم سيَجعَلُ اللهُ له فَرَجًا ومَخْرَجًا))(٢).

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: فلمَّا فَعَل المُشرِكونَ ما فَعَلوا مِن ذلك، أنزَلَ اللهُ الطُّمَأنينةَ والرِّضا والصَّبرَ والثَّباتَ على رَسولِه، وعلى أصحابِه المُؤمِنينَ(٣).

---

= ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٩).

وقال ابن عاشور: (ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بفِعلِ «صَدُّوكُمْ» [الفتح: ٢٥]، أي: صَدُّوكم صدًّا لا عُذْرَ لهم فيه، ولا داعيَ إليه إلَّا حَمِيَّةُ الجاهليَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٧، ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٣).

(٢) رواه مسلم (١٧٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾.

أي: وألزَم اللهُ رَسولَه وأصحابَه المُؤمِنينَ كَلِمةَ لا إلهَ إلَّا اللهُ، الَّتي يَتَّقونَ بها سَخَطَه وعَذابَه، فَوفَّقَهم لالتِزامِها قَولًا وعَمَلًا، والقيامِ بأداءِ حُقوقِها، فلا يَنفَكُّونَ عنها أبَدًا[1].

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾.

أي: وكانوا أحقَّ بتلك الكَلِمةِ مِنَ الَّذين كَفَروا، وهم أهلُها مِن دُونِهم[2].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى متَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلمِ التَّامِّ بكُلِّ شَيءٍ؛ فلا يَخفَى عليه

---

= (ص: ٧٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٤).

قال ابن عاشور: (وتفريعُ ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يُؤذِنُ بأنَّ المؤمنينَ وَدُّوا أنْ يُقاتِلوا المشرِكينَ، وأنْ يَدخُلوا مكَّةَ للعُمرةِ عَنوةً؛ غَضَبًا مِن صَدِّهم عنها، ولكنَّ اللهَ أنزَلَ عليهم السَّكينةَ... فعصَمَهم مِن مُقابَلةِ الحَمِيَّةِ بالغضَبِ والانتقامِ، فقابَلوا الحَمِيَّةَ بالتَّعقُّلِ والتَّثبُّتِ؛ فكان في ذلك خَيرٌ كثيرٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٠٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٥، ١٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٧).

قال ابن جُزَي: (﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال الجمهورُ: هي: لا إلهَ إلَّا اللهُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩١). وعزاه الواحديُّ لجماعةِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٢٠).

وقال الرَّسْعَني: (وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٍ، وعِكْرِمةَ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وقَتادةَ، والضَّحَّاكِ، والسُّدِّيِّ في آخَرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٧).

شَيءٌ سُبحانَه، ومِن ذلك عِلْمُه بمَن يَستَحِقُّ فَضْلَه وإنعامَه[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الإشارةِ إلى بَيانِ سِرٍّ مِن أسرارِ مَنْعِ اللهِ تعالى لهم مِنَ التَّسليطِ عليهم: حَثٌّ للعَبدِ على ألَّا يَتَّهِمَ اللهَ في قَضائِه؛ فرُبَّما عَسَّر عليه أمرًا يَظهَرُ له أنَّ السَّعادةَ كانت فيه، وفي باطِنِه سُمٌّ قاتِلٌ! فيَكونُ منْعُ اللهِ له منه رَحمةً في الباطِنِ، وإن كان نِقمةً في الظَّاهِرِ! فالزَمِ التَّسليمَ مع الاجتِهادِ في الخَيرِ، والحِرصِ عليه، والنَّدَمِ على فَواتِه، وإيَّاكَ والاعتِراضَ[٢]!

٢- قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ الغَضَبُ والحَميَّةُ تحمِلُ المَرءَ على فِعلِ ما يَضُرُّه، وتَرْكِ ما يَنفَعُه، وهذا مِن الجَهلِ الَّذي هو عَمَلٌ بخِلافِ العِلمِ حتَّى يُقدِمَ المَرءُ على فِعلِ ما يَعلَمُ أنَّه يَضُرُّه، وتَرْكِ ما يَعلَمُ أنَّه يَنفَعُه؛ لِما في نَفْسِه مِن البُغضِ والمُعاداةِ لأشخاصٍ وأفعالٍ، وهو في هذه الحالِ ليس عديمَ العِلمِ والتَّصديقِ بالكُلِّيَّةِ، لكِنَّه لِما في نَفْسِه مِن بُغضٍ وحَسَدٍ غَلَب مُوجبُ ذلك لِمُوجبِ العِلمِ؛ فدَلَّ على ضَعفِ العِلمِ لِعَدَمِ مُوجبِه ومُقتَضاه، ولكِنَّ ذلك المُوجبَ والنَّتيجةَ لا تُوجَدُ عنه وَحْدَه، بل عنه وعمَّا في النَّفْسِ مِن حُبِّ ما يَنفَعُها، وبُغضِ ما يَضُرُّها، فإذا حَصَل لها مَرَضٌ ففَسَدت به أحبَّت ما يَضُرُّها، وأبغَضَت ما يَنفَعُها، فتَصيرُ النَّفْسُ كالمريضِ الَّذي يَتناوَلُ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٩).

يَضُرُّه لِشَهوةِ نَفْسِه له، مع عِلْمِه أنَّه يَضُرُّه[١]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ مَحَلَّ ذَبْحِ الهَدْيِ: الحَرَمُ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ أنَّ الإنسانَ يَنتَفِعُ بعَمَلِ غَيرِه؛ فقد رَفَعَ اللهُ تعالى العَذابَ عن بَعضِ النَّاسِ بسَبَبِ بَعضٍ، وذلك انتِفاعٌ بعَمَلِ الغَيرِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى قد يَدفَعُ عن الكافِرِ مِن أجْلِ المُؤمِنِ[٤].

٤- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قَولُه تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تفضيلٌ للصَّحابةِ، وإخبارٌ عن صِفتِهم الكريمةِ مِنَ العِفَّةِ عن المَعصيةِ، والعِصمةِ عن التَّعَدِّي، حتَّى إنَّهم لو أصابوا مِن أولئك أحدًا لَكان من غيرِ قَصدٍ، وهذا كما وَصَفَت النَّملةُ جُندَ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ في قَولِها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٥] [النمل: ١٨].

٥- قال الله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في هذه الآيةِ تنبيهٌ على مُراعاةِ الكافِرِ في حُرمةِ المؤمنِ إذا لم تُمكِنْ إذايةُ الكافِرِ إلَّا

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل لابن تيمية- المجموعة الخامسة)) (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٢٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٣٨).

بإذايةِ المؤمِنِ[١]، وفيها دَلالةٌ على ما قاله الشَّافِعيُّ ومالِكٌ: إنَّه لا تُحرَقُ سَفينةُ الكُفَّارِ إذا كان فيها أُسارى المُسلِمينَ، وكذلك في إحراقِ الحُصونِ إذا كان فيها أُسارى المُسلِمينَ[٢]. وكذلك لو تَتَرَّسَ كافِرٌ بمُسلِمٍ لم يَجُزْ رَمْيُه، وإنْ فَعَل ذلك فاعِلٌ فأتلَفَ أحَدًا مِنَ المُسلِمينَ فعَليه الدِّيَةُ والكَفَّارةُ، فإنْ لم يَعلَموا فلا دِيَةَ ولا كَفَّارةَ؛ وذلك أنَّهم إذا عَلِموا فليس لهم أن يَرمُوا، فإذا فَعَلوه صاروا قَتَلةً خَطأً، والدِّيةُ على عواقِلِهم، فإن لم يَعلَموا فلَهم أن يَرمُوا، وإذا أُبيحوا الفِعلَ لم يَجُزْ أن يَبقى عليهم فيها تَبِعَةٌ ومَسئوليةٌ[٣].

٦- قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ لَمَّا كانت حَمِيَّةُ الجاهِليَّةِ تُوجِبُ مِن الأقوالِ والأعمالِ ما يُناسِبُها، جَعَل اللهُ في قُلوبِ أوليائِه سَكينةً تُقابِلُ حَمِيَّةَ الجاهِليَّةِ، وفي ألسِنَتِهم كَلِمةَ التَّقْوى مُقابَلةً لِما تُوجِبُه حَمِيَّةُ الجاهِليَّةِ مِن كَلِمةِ الفُجورِ؛ فكان حَظُّ المؤمِنينَ السَّكينةَ في قُلوبِهم، وكَلِمةَ التَّقْوى على ألسِنَتِهم، وحَظُّ أعدائِهم حَمِيَّةَ الجاهِليَّةِ في قُلوبِهم، وكَلِمةَ الفُجورِ والعُدوانِ على ألسِنَتِهم؛ فكانت هذه السَّكينةُ وهذه الكَلِمةُ جُندًا مِن جُندِ اللهِ أيَّدَ بها اللهُ رَسولَه والمُؤمِنينَ في مُقابَلةِ جُندِ الشَّيطانِ الَّذي في قُلوبِ أوليائِه وألسِنَتِهم[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أُضيفَت (الكَلِمةُ) إلى (التَّقوى)؛

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٥٥).

لأنَّها سَبَبُ التَّقْوى وأساسُها[١]؛ فإنَّهم يتَّقونَ بها غضَبَ الله وعذابَه[٢].

٨- لَفظُ «كلمة» حيثُ وُجِد في الكتابِ والسُّنَّةِ؛ بل وفي كلامِ العربِ -نَظْمِه ونَثْرِه- إنَّما يُرادُ به المفيدُ الَّتي تُسمِّيها النُّحاةُ: «جملةً تامَّةً»، وذلك كقولِه تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٣]، وهي لا إلهَ إلَّا اللهُ.

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ هذا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّ أهلَ الحُدَيبيَةِ الَّذين أُلزِموا هذه الكَلِمةَ ماتوا كُلُّهم على الإسلامِ[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ فيه سُؤالٌ: ما فائِدةُ قَولِه: ﴿وَأَهْلَهَا﴾ بعدَ قَولِه: ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾؟

**الجوابُ**: الضَّميرُ في ﴿بِهَا﴾ لِكَلِمةِ التوحيد، وفي (أَهْلَهَا) للتَّقْوى؛ فلا تَكرارَ[٥].

١١- إنْ قيل: ما مِن أحدٍ إلَّا وهو حَقيقٌ بقَولِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فما معنَى قَولِه تعالى: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾؟

**الجوابُ**: هو إشعارٌ بأنَّ اللهَ تعالى اصْطَفاهم لدِينِه، وأخلَصَهم لمعرفتِه، وأهَّلَهم لتَوحيدِه؛ فكانوا أحَقَّ بها لِمَوضِعِ اصْطِفاءِ اللهِ تعالى إيَّاهم، حيث جعَلَهم مِن أهلِ السَّعادةِ[٦].

١٢- قال تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٨٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٦).

ﭐللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ في الآيةِ لَطائفُ مَعنويَّةٌ؛ وهو أنَّه تعالَى أبانَ غايةَ البَونِ بيْنَ الكافرِ والمؤمنِ، بايَنَ بيْنَ الفاعِلَينِ؛ إذ فاعلُ ﴿جَعَلَ﴾ هو الكُفارُ، وفاعلُ (أَنْزَلَ) هو اللهُ تعالى، وبيْنَ المفعولَينِ؛ إذ تلك حَمِيَّةٌ، وهذه سَكينةٌ، وبيْنَ الإضافتَينِ؛ أضافَ الحَمِيَّةَ إلى الجاهليَّةِ، وأضافَ السَّكينةَ إلى اللهِ تعالَى، وبيْنَ الفِعلِ (جعَلَ وأنزَلَ)؛ فالحَمِيَّةُ مَجعولةٌ في الحالِ في العرَضِ الَّذي لا يَبْقَى، والسَّكينةُ كالمحفوظةِ في خِزانةِ الرَّحمةِ فأنزَلَها. والحميَّةُ قبيحةٌ مذمومةٌ في نفسِها، وازدادَتْ قُبحًا بالإضافةِ إلى الجاهليَّةِ، والسَّكينةُ حسنةٌ في نفسِها، وازدادَتْ حُسنًا بإضافتِها إلى الله تعالى. والعَطفُ في ﴿فَأَنزَلَ﴾ بالفاءِ لا بالواوِ يدُلُّ على المُقابَلةِ، تقولُ: أكرَمَني زَيدٌ فأكرَمْتُه، فدلَّتْ على المُجازاةِ للمُقابَلةِ، وكذلك ﴿جَعَلَ﴾ ﴿فَأَنزَلَ﴾. ولَمَّا كان الرَّسولُ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الَّذي أجابَ أوَّلًا إلى الصُّلحِ، وكان المؤمِنونَ عازِمينَ على القِتالِ وألَّا يَرجِعوا إلى أهلِهم إلَّا بعْدَ فتْحِ مكَّةَ أو النَّحْرِ في المَنحَرِ، وأبَوْا إلَّا أنْ يَكتُبوا: محمَّدٌ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وباسمِ اللهِ؛ قال تعالَى: ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾. ولَمَّا سكَنَ هو صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ للصُّلْحِ سكَنَ المؤمِنونَ، فقال: ﴿وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. ولَمَّا كان المؤمِنونَ عندَ اللهِ تعالى أُلزِموا تلك الكلِمةَ قال تعالَى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾[1] [الحجرات: ١٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٥٠).

- قَولُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠]، وهذا كفٌّ غيرُ الكَفِّ المُرادِ مِن قَولِه: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾. وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: القَصرِ، أي: لم يَكُفَّهم عنكم، ولا كَفَّكم عنهم إلَّا اللهُ تعالى، لا أنتُم ولا هم[١].

- وضَمائرُ الغَيبةِ في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ راجِعةٌ لِلَّذِينَ كَفَروا في قَولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الفتح: ٢٢]، ووَجْهُ عَودِه إليه مع أنَّ الَّذين كفَّ اللهُ أيدِيَهم فريقٌ غيرُ الفريقِ الَّذي في قَولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ هو أنَّ عُرْفَ كَلامِ العرَبِ جارٍ على أنَّ ما يَصدُرُ مِن بَعضِ القومِ يُنسَبُ إلى القومِ بدونِ تَمْييزٍ[٢].

- وقيل: ﴿أَظْفَرَكُمْ﴾ مُظهِرًا لكم عليهم؛ فتعديةُ الفعلِ بـ (على) لِتضَمُّنِه ما يتعدَّى به، وهو الإظهارُ والاعلاءُ، أي: جعلَكم ذَوي غلَبةٍ تامَّةٍ. وقيل: عُدِّي بـ (على)؛ لِتَضْمينِه معنَى أيَّدَكم[٣]. وقيل: فِعلُ (ظَفِرَ) يَتعَّدى بالباءِ، كما يَتعدَّى بـ (على)، يقال: ظَفِرْتُ بفُلانٍ، وظَفِرْتُ عليه[٤].

- وقولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ تَذييلٌ لِما قبْلَه[٥].

- قَولُه: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ قُرِئَ بتاءِ الخِطابِ، وقُرِئَ بياءِ الغَيبةِ[٦]، أي: عليمًا بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٣، ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٦). ويُنظر أيضًا: ((أمالي ابن الشجري)) (١/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٥). ويُنظر أيضًا: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٧٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٦).

(٦) يُنظر ما تقدَّم في القِراءات ذات الأثَرِ في التَّفسيرِ (ص: ١٣٣).

يَعمَلونَ مِنِ انحدارِهم على غِرَّةٍ منكم، طامِعينَ أنْ يَتمكَّنوا مِن أنْ يَغلِبوكم، وفي كِلْتا القِراءتَينِ اكتِفاءٌ[١]، أي: كان اللهُ بما تَعمَلون ويَعمَلون بصيرًا، أو بما يَعمَلون وتَعمَلون بَصيرًا؛ لأنَّ قولَه: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ يُفيدُ عمَلًا لِكُلِّ فريقٍ، أي: عَلِمَ نِيَّاتِكم، فكَفَّها لحِكمةِ استِبقاءِ قُوَّتِكم، وحُسْنِ سُمعَتِكم بيْنَ قَبائلِ العَربِ، وألَّا يجِدَ المشركون ذَريعةً إلى التَّظلُّمِ منكم بالباطلِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ على قِراءةِ ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياءِ؛ ففيه تَهديدٌ للكُفَّارِ[٣].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ استِئنافٌ انتقلَ به مِن مَقامِ الثَّناءِ على المؤمنينَ الَّذين بايَعوا

---

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٥).

رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما اكتَسَبوا بتلك البَيعةِ مِن رِضا اللهِ تعالَى، وجَزائِه ثَوابَ الآخِرةِ، وخَيرَ الدُّنيا عاجِلَه وآجِلَه، وضَمانِ النَّصْرِ لهم في قِتالِ المشرِكين، وما هيَّأَ لهم مِن أسبابِ النَّصْرِ؛ إلى تَعييرِ المشرِكين بهذه المَذمَّةِ الَّتي أتَوْا بها بالصَّدِّ عن المسجِدِ الحرامِ، وصَدِّ الهَدْيِ عن أنْ يُبلَغَ به إلى أهلِه؛ فإنَّها سُبَّةٌ لهم بيْنَ العرَبِ، وهم أَوْلى النَّاسِ بالحَفاوةِ بمَن يَعتَمِرونَ، وضميرُ الغَيبةِ ﴿هُمُ﴾ المُفتتَحُ به عائدٌ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مِن قولِه: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ [الفتح: ٢٢] الآيةَ. والمقصودُ بالافتتاحِ بضَميرِهم هنا: استِرعاءُ السَّمْعِ لِمَا يَرِدُ بعدَه مِن الخَبرِ[١].

- وذِكرُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إدماجٌ[٢] للنِّداءِ عليهم بوصْفِ الكُفرِ، ولهذا الإدماجِ نُكتةٌ أيضًا، وهي أنَّ وصْفَ الَّذين كفَروا بمَنْزلةِ الجِنسِ فصارَ الموصولُ في قُوَّةِ المُعرَّفِ بلامِ الجِنسِ؛ فتُفيدُ جُملةُ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قصْرَ جِنسِ الكُفرِ على هذا الضَّميرِ؛ لِقَصْدِ المُبالَغةِ؛ لكَمالِهم في الكُفرِ بصَدِّهم المُعتمِرينَ عن المَسجدِ الحرامِ، وصَدِّ الهَديِ عن أنْ يَبلُغَ مَحِلَّه[٣].

- وفائدةُ ذِكرِ هذا الحالِ ﴿وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ التَّشنيعُ على الَّذين

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٧).

(٢) الإدماجُ: أن يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضَينِ أو أحدُ البَديعَينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمَعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجَتِ المُبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ تعالى بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٧).

كفَروا في صَدِّهم المُسلِمينَ عن البَيتِ بأنَّهم صَدُّوا الهَدايا أنْ تَبلُغَ مَحِلَّها؛ إذ اضْطُرَّ المسلمونَ أنْ يَنحَروا هَداياهم في الحُدَيْبيَةِ؛ فقد عطَّلوا بفِعلِهم ذلك شَعيرةً مِن شَعائرِ اللهِ؛ ففي ذِكرِ الحالِ تَصويرٌ لهيئةِ الهَدايا وهي مَحبوسةٌ[1].

- قولُه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أتْبَعَ النَّعيَ على المشركينَ سُوءَ فِعلِهم مِن الكُفْرِ، والصَّدِّ عن المَسجدِ الحرامِ، وتَعطيلِ شعائرِ اللهِ؛ وَعْدَه المسلمينَ بفتْحٍ قريبٍ ومَغانِمَ كثيرةٍ، بما يَدفَعُ غُرورَ المشركين بقوَّتِهم، ويُسَكِّنُ تَطلُّعَ المسلِمينَ لتَعْجيلِ الفتْحِ؛ فبيَّنَ أنَّ اللهَ كفَّ أيديَ المسلِمينَ عن المشركين معَ ما قرَّره آنِفًا مِن قولِه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح: ٢٢] أنَّه إنَّما لم يأمُرِ المسلِمينَ بقِتالِ عَدوِّهم لَمَّا صَدُّوهم عن البيتِ؛ لأنَّه أرادَ رحمةَ جَمْعٍ مِن المؤمنينَ والمؤمناتِ كانوا في خِلالِ أهلِ الشِّركِ لا يَعلَمونَهم، وعصَمَ المسلِمينَ مِن الوُقوعِ في مَصائبَ مِن جرَّاءِ إتلافِ إخوانِهم؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، أو على جُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ [الفتح: ٢٤]، وأيًّا ما كان فهي كَلامٌ مُعترِضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ إلخ، وبيْنَ جُملةِ ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦]، ونَظْمُ هذه الآيةِ بَديعٌ في أُسلوبَيِ الإطنابِ والإيجازِ، والتَّفنُّنِ في الانتقالِ ورَشاقةِ كَلِماتِه[2].

- وإجْراءُ الوصْفِ على رِجالٍ ونِساءٍ بالإيمانِ في قَولِه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٨٨، ١٨٩).

وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ ﴾ مُشيرٌ إلى أنَّ وُجودَهم المانعَ مِن حُصولِ مَضمونِ الجَوابِ، هو الوجودُ الموصوفُ بإيمانِ أصحابِه، ولكنَّ الامتِناعَ ليس مُعلَّقًا على وُجودِ الإيمانِ، بل على وُجودِ ذَواتِ المؤمنينَ والمؤمناتِ بيْنَهم[١].

- ووَجْهُ عَطْفِ ﴿وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ ﴾ -مع أنَّ وُجودَ ﴿رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ ﴾ كافٍ في ربْطِ امتِناعِ الجوابِ بالشَّرطِ، ومع التَّمكُّنِ مِن أنْ يقولَ: ولولا المؤمِنونَ؛ فإنَّ جَمْعَ المذكَّرِ في اصطلاحِ القرآنِ يَتناولُ النِّساءَ غالبًا- أنَّ تَخصيصَ النِّساءِ بالذِّكرِ أنسَبُ بمعنَى انتفاءِ المَعرَّةِ بقَتْلِهنَّ، وبمعنى تَعلُّقِ رَحمةِ اللهِ بهنَّ[٢]. ولأنَّ الموضِعَ مَوضِعُ وَهْمِ اختِصاصِ الرِّجالِ بالحُكمِ، فقال: والنِّساءُ المُؤمِناتُ أيضًا؛ لأنَّ تَخريبَ بُيُوتِهنَّ، ويُتْمَ أولادِهنَّ بسَبَبِ رِجالِهنَّ: وَطأةٌ شَديدةٌ، ولأنَّ في مَحَلِّ الشَّفَقةِ تُعَدُّ المواضِعُ لِتَرقيقِ القَلبِ، يُقالُ لِمَن يُعَذِّبُ شَخصًا: لا تُعَذِّبْه وارحَمْ ذُلَّه وفَقْرَه وضَعْفَه، وأولادَه وصِغارَه وأهلَه الضُّعَفاءَ العاجِزينَ! فكذلك هاهنا قال: ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ ﴾؛ لِتَرقيقِ قُلوبِ المُؤمِناتِ، ورِضاهم بما جَرى مِنَ الكَفِّ بعدَ الظَّفَرِ[٣].

- والباءُ في ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ ﴾ للمُلابَسةِ، أي: مُلابِسينَ لانتِفاءِ العِلمِ[٤].

- قَولُه: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ ﴿لِّيُدۡخِلَ ﴾ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ دلَّ عليه المعنى، أي: كان انتِفاءُ التَّسليطِ على أهلِ مكَّةَ، وانتفاءُ العذابِ ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾، وهذا المَحذوفُ هو مَفهومٌ مِن جَوابِ (لو)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٣، ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٤٩٧).

- وقولُه: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ تَعليلٌ للكَفِّ عن قِتالِ المؤمنينَ غَيرِ المعروفينَ المُقيمين وسَطَ الكفَّارِ[١].

- و﴿مَن يَشَآءُ﴾ يعُمُّ كلَّ مَن أرادَ اللهَ مِن هذه الحالةِ رَحمتَه في الدُّنيا والآخِرةِ، أو فيهما معًا، وعبَّرَ بقولِه: ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ لِمَا فيه مِن شُمولِ أصنافٍ كثيرةٍ، ولِمَا فيه مِن الإيجازِ، ولِمَا فيه مِن الإشارةِ إلى الحِكمةِ الَّتي اقتَضَتْ مَشيئةُ اللهِ رحمةَ أولئك[٢].

- قَولُه: ﴿لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ﴾ إلى آخِرِها، أي: لولا وُجودُ رجالٍ مؤمنينَ... إلخ، مُندمِجينَ في جَماعةِ المشركينَ غيرِ مُفترِقينَ؛ لو افترَقوا لَعذَّبْنا الكافرينَ منهم[٣].

- والتَّزيُّلُ: مُطاوِعُ زيَّلَه؛ إذا أبعَدَه عن مكانٍ، وزيَّلَهم، أي: أبْعَدَ بَعضَهم عن بعضٍ، أي: فرَّقَهم، وهو هنا بمَعنى التَّفرُّقِ والتَّميُّزِ مِن غَيرِ مُراعاةِ مُطاوَعةٍ لفِعلِ فاعلٍ؛ لأنَّ أفعالَ المُطاوَعةِ كثيرًا ما تُطلَقُ لإرادةِ المُبالَغةِ؛ لدَلالةِ زِيادةِ المَبْنى على زِيادةِ المَعنى، والمعنى: لو تفرَّقَ المؤمنونَ والمؤمناتُ عن أهلِ الشِّرْكِ لَسَلَّطْنا المسلمينَ على المُشركين فعذَّبوا الَّذين كفَروا عَذابَ السَّيفِ؛ فإسنادُ التَّعذيبِ إلى اللهِ تعالى لأنَّه يَأمُرُ به، ويُقدِّرُ النَّصرَ للمُسلِمينَ[٤].

- وعُدِلَ عن ضَميرِ الغَيبةِ إلى ضَميرِ المُتكلِّمِ في قَولِه: ﴿لَعَذَّبۡنَا﴾ على طَريقةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الالتِفاتِ[١].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ﴾ للتَّبعيضِ، أي: لَعذَّبْنا الَّذين كَفَروا مِن ذلك الجَمْعِ المُتفرِّقِ المتميِّزِ مُؤمِنُهم عن كافرِهم، أي: حينَ يَصيرُ الجمْعُ مُشركين خُلَّصًا وحْدَهم[٢].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

- قَولُه: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ...﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بفِعلِ (صَدُّوكُمْ) [الفتح: ٢٥] -وذلك على قولٍ-؛ فكان تَعليقُ هذا الظَّرْفِ بفِعلِ ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾ مُشعِرًا بتَعليلِ الصَّدِّ، بكَونِه حَمِيَّةَ الجاهليَّةِ؛ ليُفيدَ أنَّ الحَمِيَّةَ مُتمكِّنةٌ منهم، تَظهَرُ منها آثارُها، فمنها الصَّدُّ عن المسجِدِ الحرامِ[٣].

- وجُملةُ ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ عطْفُ بَيانٍ للحَميَّةِ، قُصِدَ مِن إجمالِه ثمَّ تَفصيلِه تَقريرُ مَدْلولِه وتأْكيدُه ما يَحصُلُ لو قال: إذ جعَلَ الَّذين كَفَروا في قُلوبِهم حَميَّةَ الجاهليَّةِ[٤].

- وإضافةُ الحَميَّةِ إلى الجاهليَّةِ؛ لقَصْدِ تَحقيرِها وتَشنيعِها؛ فإنَّها مِن خُلُقِ أهلِ الجاهليَّةِ؛ فإنَّ ذلك انتِسابُ ذمٍّ في اصطلاحِ القُرآنِ[٥]، والحَميَّةُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نفْسِها صِفةٌ مَذمومةٌ، وبالإضافةِ إلى الجاهليَّةِ تَزدادُ قُبحًا[١].

- وإضافةُ السَّكينةِ إلى ضَميرِ اللهِ تعالَى إضافةُ تَشريفٍ؛ لأنَّ السَّكينةَ مِن الأخلاقِ الفاضلةِ[٢]، فهي في نفْسِها وإنْ كانت حسَنةً، لكنَّ الإضافةَ إلى اللهِ فيها مِنَ الحُسنِ ما لا يَبقى معه لِحُسْنٍ اعتِبارٌ[٣].

- والآيةُ مِنَ الاحتِباكِ[٤]: ذكَرَ حَمِيَّةَ الجاهليَّةِ أوَّلًا دليلًا على ضِدِّها ثانيًا، وكَلِمةَ التَّقْوى ثانيًا دليلًا على ضِدِّها أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذكَرَ مَجْمَعَ الشَّرِّ أوَّلًا؛ تَرهيبًا منه، ومَجمَعَ الخَيرِ ثانيًا؛ تَرغيبًا فيه[٥].

- قَولُه: ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ جِيءَ بفِعلِ (كانوا)؛ لدَلالتِها على أنَّ هذه الأحقِّيَّةَ راسخةٌ فيهم، حاصِلةٌ في الزَّمنِ الماضي، أي: في قَدَرِ اللهِ تعالَى، والمعنى: أنَّ نُفوسَ المؤمنينَ كانتْ مُتهيِّئةً لِقَبولِ كَلمةِ التَّقوى والتزامِها بما أرشَدَها اللهُ إليه. والمُفضَّلُ عليه مُقدَّرٌ دلَّ عليه ما تقدَّمَ، أي: أحَقَّ بها مِن الَّذين كفَروا؛ لأنَّ اللهَ قدَّرَ لهم الاستِعدادَ للإيمانِ دونَ الَّذين أصَرُّوا على الكُفرِ[٦].

- وقولُه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ تَذْييلٌ، وسَبَق في عِلْمِ اللهِ ذلك في عُمومِ ما أحاطَ به عِلْمُ اللهِ مِن الأشياءِ مَجرَى تَكوِينِه على نَحوِ عِلْمِه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٤).

(٤) تقدَّم تعريفه (ص: ٦٥).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٧).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيتان (٢٧-٢٨)

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلرُّءْيَا﴾: ما يُرى في المنامِ، وأصلُ (رأى): يدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُؤكِّدًا صِدقَ ما شاهَده النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في رُؤياه: لَقد صَدَقَ اللهُ رَسولَه مُحمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الرُّؤيا الَّتي رآها في مَنامِه؛ أنَّه يَدخُلُ هو وأصحابُه المَسجِدَ الحَرامَ آمِنينَ، فلَتَدخُلَنَّ -يا مُحمَّدُ- وأصحابُك المَسجِدَ الحَرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ، مُحَلِّقينَ رُؤوسَكم ومُقَصِّرينَ، لا تَخافونَ.

فعَلِمَ اللهُ ما لم تَعلَموه مِنَ المصالحِ والمَنافِعِ في مَنْعِكم مِن دُخولِ مَكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، وتأخيرِ دُخولِكم إلى العامِ الَّذي يَليه، فجعَل اللهُ لكم فَتحًا قَريبًا، وهو صُلحُ الحُدَيبيَةِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا الحِكمةَ مِن إرسالِه نبيَّه محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم: واللهُ هو الَّذي بَعَث رَسولَه مُحمَّدًا بالعِلمِ النَّافِعِ، وبَعَثه بدينِ الإسلامِ الحَقِّ؛ لِيُعلِيَ اللهُ الإسلامَ على جَميعِ الأديانِ الأُخرى، وكفَى باللهِ شَهيدًا.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٥).

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قَرَّر اللهُ سُبحانَه وتعالى عِلْمَه بالعواقِبِ؛ لإحاطةِ عِلْمِه، ووَجَّهَ أسبابَ كَفِّه أيديَ الفَريقَينِ، وبَيَّنَ ما فيه مِنَ المصالِحِ، وما في التَّسليطِ مِن المفاسِدِ؛ مِن قَتلِ مَن حَكَم بإيمانِه مِن المُشرِكينَ، وإصابةِ مَن لا يُعلَمُ مِن المُؤمِنينَ، وغيرِ ذلك، إلى أنْ خَتَم بإحاطةِ عِلْمِه المُستَلزِمِ لِشُمولِ قُدرتِه- أنتَجَ ذلك قَولَه لِمَن توقَّعَ الإخبارَ عن الرُّؤيا الَّتي أقلَقَهم أمْرُها، وكاد بَعضُهم أن يُزلزِلَه ذِكْرُها، على سَبيلِ التَّأكيدِ[1]:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: لقد حقَّق اللهُ رُؤيا رَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الَّتي رآها في مَنامِه؛ أنَّه يَدخُلُ هو وأصحابُه المَسجِدَ الحَرامَ آمِنينَ[2].

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ، ومَرْوانِ بنِ الحَكَمِ في قِصَّةِ صُلحِ الحُدَيبِيَةِ، قالا:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٢، ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابن عاشور: (معنى ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾: أنَّه أراهُ رُؤيا صادقةً؛ لأنَّ رُؤيا الأنبياءِ وحْيٌ، فآلَت إلى مَعنى الخبَرِ؛ فوُصِفَت بالصِّدقِ لذلك، وهذا تَطمينٌ لهم بأنَّ ذلك سيَكونُ لا مَحالةَ، وهو في حينِ نُزولِ الآيةِ لَمَّا يَحصُلْ؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٩، ١٤٠).

((... قال عُمَرُ بنُ الخطَّابِ: فأتَيتُ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقُلتُ: ألَسْتَ نبيَّ اللهِ حَقًّا؟ قال: بلى. قلتُ: ألَسْنا على الحَقِّ، وعَدُوُّنا على الباطِلِ؟ قال: بلى. قلتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنِيَّةَ في دِينِنا إذًا؟! قال: إنِّي رَسولُ اللهِ، ولَستُ أعصِيه، وهو ناصِري. قلتُ: أوَلَيس كنتَ تُحَدِّثُنا أنَّا سنَأتي البَيتَ فنَطُوفُ به؟! قال: بلى. فأخبَرْتُك أنَّا نأتيه العامَ؟ قال: قُلتُ: لا. قال: فإنَّك آتِيهِ ومُطَّوِّفٌ به. قال: فأتَيتُ أبا بَكرٍ، فقُلتُ: يا أبا بَكرٍ، أليسَ هذا نَبيَّ اللهِ حَقًّا؟ قال: بلى. قُلتُ: ألَسْنا على الحَقِّ وعَدُوُّنا على الباطِلِ؟ قال: بلى. قُلتُ: فلِمَ نُعطي الدَّنِيَّةَ في دينِنا إذًا؟! قال: أيُّها الرَّجُلُ، إنَّه لَرَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وليس يَعصي رَبَّه، وهو ناصِرُه. فاستَمْسِكْ بغَرْزِه[1]؛ فواللهِ إنَّه على الحَقِّ. قلتُ: أليس كان يُحَدِّثُنا أنَّا سنأتي البَيتَ ونَطُوفُ به؟! قال: بلى. أفأخبَرَك أنَّك تأتيه العامَ؟! قُلتُ: لا. قال: فإنَّك آتِيه ومُطَّوِّفٌ به))[2].

﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾.

أي: أُقسِمُ لَتَدخُلُنَّ[3] المَسجِدَ الحَرامَ إنْ شاءَ اللهُ وأنتم آمِنونَ مِن كُفَّارِ قُرَيشٍ[4].

---

(١) المعنى: تمسَّكْ بأمْرِه ولا تُخالِفْه، كما يتمسَّكُ المرءُ بالغَرْزِ أي: بِركابِ الرَّاكِبِ (وهو ما يضعُ فيه قدمَه)، فلا يُفارِقُه، بلْ يَسيرُ بسَيرِه. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ٥٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٥٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٣٤٦)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطلَّاني (٤/ ٤٥٠).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٣) قال الرازي: (وقولُه: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾، جازَ أنْ يَكونَ تفسيرًا لِلرُّؤْيا، يعني الرُّؤْيا هي: واللهِ لَتُدْخُلُنَّ، وعلى هذا تَبَيَّن أنَّ قولَه: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ كان في الكلامِ؛ لأنَّ الرُّؤْيا كانت كلامًا. ويحتملُ أنْ يكونَ تَحْقيقًا لقولِه تعالَى: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾ يعني: واللَّهِ لَيَقَعَنَّ الدُّخولُ، ولَيَظهرَنَّ الصِّدقُ؛ فـ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ ابتِداءُ كلامٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥). =

عن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خرَجَ مُعتَمِرًا، فحالَ كُفَّارُ قُرَيشٍ بَيْنَه وبيْنَ البَيتِ، فنَحَر هَدْيَه، وحَلَقَ رَأسَه بالحُدَيبِيَةِ، وقاضاهم[1] على أن يَعتَمِرَ العامَ المُقبِلَ، ولا يَحمِلَ سِلاحًا عليهم إلَّا سُيوفًا، ولا يُقيمَ بها إلَّا ما أحَبُّوا، فاعتَمَر مِنَ العامِ المُقبِلِ، فدخَلَها كما كان صالَحَهم، فلمَّا أقام بها ثلاثًا أمَرُوه أن يَخرُجَ، فخَرَج))[2].

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾.

أي: وبَعضُكم سيَحلِقُ شَعرَ رأسِه، وبَعضُكم سيُقَصِّرُه[3].

---

= قال السمعاني: (هذا التَّحقيقُ [أي: للرؤيا] حَصَل في العامِ الثَّاني حينَ اعتَمَروا عُمرةَ القَضاءِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠٧).

وقال ابن كثير: (﴿... لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هذا لِتَحقيقِ الخبَرِ وتَوكيدِه، وليس هذا مِنَ الاستِثناءِ في شَيءٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦).

وقال ابن تيميَّة: (قولُه: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لا يُتَصَوَّرُ فيه شَكٌّ مِن اللهِ؛ بل ولا مِن رَسولِه المخاطَبِ والمؤمنينَ... فقولُه سبحانَه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تحقيقُ أنَّ ما وَعَدْتُكم به يكونُ لا مَحالةَ بمَشيئَتي وإرادَتي؛ فإنَّ ما شِئْتُ كانَ، وما لم أشأْ لم يَكُنْ؛ فكانَ الاستثناءُ هنا لِقَصدِ التَّحقيقِ؛ لِكَونِهم لم يَحْصُلْ لهم مَطْلوبُهم الَّذي وُعِدوا به ذلك العامَ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٤٥٤، ٤٥٧).

وفي قولِه تعالى: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أقوالٌ أخرى، سيأتي ذِكرُها في الفوائدِ العلميَّةِ واللَّطائفِ (ص: ١٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٧).

(١) قاضاهم: أي: صالَحهم. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلَّاني (٦/ ٣٨١).

(٢) رواه البخاري (٢٧٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال القرطبي: (التَّحليقُ والتَّقصيرُ جَميعًا للرِّجالِ؛ ولذلك غَلَّب المذكَّرَ على المُؤَنَّثِ، والحَلقُ أفضَلُ، وليس للنِّساءِ إلَّا التَّقصيرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ حالٌ مُقَدَّرةٌ؛ لأنَّهم في حالِ دُخولِهم لم =

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((حَلَق رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحَلَق طائِفةٌ مِن أصحابِه، وقصَّرَ بَعْضُهم. قال عبدُ اللهِ: إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: رَحِمَ اللهُ المحَلِّقينَ -مرَّةً أو مرَّتَينِ- ثمَّ قال: والمُقَصِّرينَ))[1].

﴿لَا تَخَافُونَ﴾.

أي: ولا يَحصُلُ لكم خَوفٌ[2].

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾.

أي: فعَلِمَ اللهُ ما لم تَعلَموه أنتم -أيُّها المُؤمِنونَ- مِنَ المصالحِ والمَنافِعِ في مَنْعِكم مِن دُخولِ مَكَّةَ عامَ الحُدَيبيَةِ، وتأخيرِ دُخولِكم إلى العامِ الَّذي يَليه[3].

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾.

أي: فقدَّر اللهُ لكم قبْلَ دُخولِكم المَسجِدَ الحَرامَ في العامِ التَّالي فَتحًا قَريبًا،

---

= يَكونوا مُحَلِّقينَ ومُقَصِّرينَ، وإنَّما كان هذا في ثاني الحالِ، كان مِنهم مَن حَلَق رأسَه، ومِنهم مَن قَصَّرَه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦).

(١) رواه البخاريُّ (١٧٢٧)، ومسلمٌ (١٣٠١) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾: حالٌ مُؤَكِّدةٌ في المعنى، فأثبَتَ لهم الأمْنَ حالَ الدُّخولِ، ونفَى عنهم الخَوفَ حالَ استِقرارِهم في البَلَدِ؛ لا يَخافونَ مِن أحَدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابن عطية: (قَولُه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يُريدُ ما قدَّره مِن ظُهورِ الإسلامِ في تلك المُدَّةِ، ودُخولِ النَّاسِ فيه، وما كان أيضًا بمكَّةَ مِن المؤمِنينَ؛ دَفَع اللهُ بهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠).

وهو صُلحُ الحُدَيبيَةِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠، ٢٠١).

قال القرطبي: (﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: مِن دُونِ رُؤيا النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَتحَ خَيبَرَ. قاله ابنُ زَيدٍ، والضَّحَّاكُ. وقيل: فَتحُ مَكَّةَ. وقال مجاهِدٌ: هو صُلحُ الحُدَيبيَةِ. وقاله أكثَرُ المفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١).

وممَّن قال بأنَّه فَتحُ خَيبَرَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والسمعاني، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٧٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٣).

ومِمَّن قال بأنَّه صُلحُ الحُدَيبيَةِ: الواحديُّ، وابنُ جُزَي، وابن القيِّم، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩٢)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٣٩٠) و (٩/ ١٣٧).

ونسَبَه البغويُّ، والخازنُ، والشوكانيُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥).

وقيل: المرادُ: فتحُ خَيبَرَ، وصُلحُ الحُدَيبيَةِ. ومِمَّن ذهب إلى الجَمعِ بيْنَهما: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٥).

وذهبَ ابنُ عَطيَّةَ إلى العُموم، فقال: (يَحسُنُ أن يكونَ الفَتحُ هنا اسمَ جِنسٍ يَعُمُّ كُلَّ ما وَقَع مِمَّا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيه ظهورٌ وفَتحٌ عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠).

وقال ابنُ عاشور: (هذا الفَتحُ أوَّلُه هو فَتحُ خَيبَرَ الَّذي وَقَع قبْلَ عُمرةِ القَضيَّةِ، وهذا القَريبُ مِن وَقتِ الصُّلحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠١).

وقال ابن القيِّم: (﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو صُلحُ الحُدَيبيَةِ، وهو أوَّلُ الفَتحِ المذكورِ في قَولِه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١]؛ فإنَّ بسَبَبِه حَصَل مِن مَصالحِ الدِّينِ =

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ فيها تأكيدًا لِصِدقِ رُؤْيا النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَبشيرًا بفَتحِ مكَّةَ[١].

وأيضًا لَمَّا كانت هذه الواقعةُ -أي: رُجوعُهم يَومَ الحُدَيْبِيَةِ مِن غَيرِ دُخولٍ لِمَكَّةَ- ممَّا تَشَوَّشَتْ بها قلوبُ بعضِ المؤمِنينَ، وخَفِيَتْ عليهم حِكمتُها، فبيَّن اللهُ تعالى حِكمتَها ومَنفعتَها، وهكذا سائرُ أحكامِه الشَّرعيَّةِ؛ فإنَّها كلَّها هُدًى ورحمةٌ- أَخبَرَ بحُكمٍ عامٍّ، فقال[٢]:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي بَعَث رَسولَه مُحمَّدًا بالعِلمِ النَّافِعِ المُشتَمِلِ على بَيانِ الحَقِّ، وبَعَثه بدِينِ الإسلامِ المُشتَمِلِ على الأعمالِ الصَّالحةِ، وشرائِعِ الدِّينِ الكامِلةِ[٣].

---

= والدُّنيا، والنَّصرِ، وظُهورِ الإسلامِ وبُطلانِ الكُفرِ- ما لم يَكونوا يَرجُونَه قبْلَ ذلك، ودخَلَ النَّاسُ بَعضُهم في بَعضٍ، وتكَلَّم المسلمونَ بكَلِمةِ الإسلامِ وبراهينِه وأدِلَّتِه جَهرةً لا يخافون، ودخَلَ في ذلك الوَقتِ في الإسلامِ قَريبٌ مِمَّن دخل فيه إلى ذلك الوَقتِ، وظهر لكُلِّ أحدٍ بَغيُ المُشرِكينَ وعَداوتُهم وعِنادُهم، وعَلِمَ الخاصُّ والعامُّ أنَّ مُحمَّدًا وأصحابَه أَولى بالحَقِّ والهدى، وأنَّ أعداءَهم ليس بأيديهم إلَّا العُدوانُ والعِنادُ؛ فإنَّ البَيتَ الحرامَ لم يُصَدَّ عنه حاجٌّ ولا مُعتَمِرٌ مِن زَمَنِ إبراهيمَ؛ فتحَقَّقَت العرَبُ عِنادَ قُرَيشٍ وعَداوتَهم، وكان ذلك داعِيةً لِبَشَرٍ كَثيرٍ إلى الإسلامِ، وزاد عِنادُ القَومِ وطُغيانُهم، وذلك مِن أكبرِ العَونِ على نُفوسِهم، وزاد صَبرُ المُؤمِنين واحتِمالُهم والتِزامُهم لحُكمِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه، وذلك مِن أعظَمِ أسبابِ نَصْرِهم، إلى غيرِ ذلك مِن الأُمورِ الَّتي عَلِمَها اللهُ ولم يَعْلَمْها الصَّحابةُ). ((شفاء العليل)) (ص: ٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٣٤)، ((الجواب =

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

أي: أرسَلَ اللهُ رَسولَه بالهُدى ودِينِ الحَقِّ؛ لِيُعلِيَ اللهُ الإسلامَ على جَميعِ الأديانِ الأُخرى(١).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَذهَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ حتَّى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى! فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنْ كُنتُ لَأَظُنُّ حينَ أنزَلَ اللهُ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

= الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩١)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢٣٩) و(٦/ ٣٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٢).

قال ابنُ عطيَّة: (إعلامٌ بأنَّه يُظهِرُه على جميعِ الأديانِ، ورأى بَعضُ النَّاسِ لَفظةَ: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ تَقتَضي مَحْوَ غَيرِه به؛ فلذلك قالوا: إنَّ هذا الخبَرَ يَظهَرُ للوُجودِ عندَ نُزولِ عيسى ابنِ مَريمَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه لا يَبقى في وَقتِه غيرُ دينِ الإسلامِ، وهو قَولُ الطَّبَريِّ والثَّعلبيِّ. ورأى قَومٌ أنَّ الإظهارَ هو الإعلاءُ وإنْ بَقِيَ مِن الدِّينِ الآخَرِ أجزاءٌ، وهذا موجودٌ الآنَ في دينِ الإسلامِ؛ فإنَّه قد عمَّ أكثَرَ الأرضِ، وظهَرَ على كُلِّ دينٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٠).

وقال ابن جرير: (هذا إعلامٌ مِنَ اللهِ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والَّذين كَرِهوا الصُّلحَ يومَ الحُدَيبيَةِ مِن أصحابِه: أنَّ اللهَ فاتِحٌ عليهم مكَّةَ وغَيرَها مِن البُلدانِ، مُسَلِّيَهم بذلك عمَّا نالَهم مِن الكآبةِ والحُزنِ بانصِرافِهم عن مكَّةَ قبْلَ دُخولِهمُوها، وقبْلَ طَوافِهم بالبَيتِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠، ٣٢١).

وقال ابنُ القيِّم: (أخبَرَهم بأنَّه هو الَّذي أرسَلَ رَسولَه بالهُدى ودينِ الحَقِّ؛ لِيُظهِرَه على الدِّينِ كُلِّه؛ فقد تكَفَّل اللهُ لهذا الأمرِ بالتَّمامِ والإظهارِ على جميعِ أديانِ أهلِ الأرضِ؛ ففي هذا تقويةٌ لِقُلوبِهم، وبِشارةٌ لهم وتَثبيتٌ، وأن يَكونوا على ثِقةٍ مِن هذا الوَعدِ الَّذي لا بُدَّ أن يُنجِزَه؛ فلا تَظُنُّوا ما وقع مِنَ الإغماضِ والقَهرِ يومَ الحُدَيبيَةِ نُصرةً لِعَدُوِّه، ولا تخَلِّيًا عن رَسولِه ودِينِه، كيف وقد أرسَلَه بدِينِه الحَقِّ، ووَعَده أن يُظهِرَه على كُلِّ دينٍ سِواه؟!). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٨٠).

لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣] أنَّ ذلك تامًّا! قال: إنَّه سيَكونُ مِن ذلك ما شاء اللهُ!))[١].

وعن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زَوَى[٢] ليَ الأرضَ، فرأيْتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيَبلُغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي منها))[٣].

وعن تَميم الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيَبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[٤] إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ))[٥].

وعن خبَّابِ بنِ الأرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدةً[٦] له في ظِلِّ الكَعبةِ، قُلْنا له: ألَا تَستَنصِرُ لنا،

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠٧).

(٢) أي: قبَضَها وجمَعَها لي. يُنظر: ((معالم السنن)) للخَطَّابي (٤/ ٣٣٩)، ((المفهم)) للقرطبي (٧/ ٢١٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) المَدَر: البيتُ المبنيُّ مِن الطِّينِ، والوَبَر: مِن الشَّعرِ، والعربُ تُعَبِّرُ عن أهل الحضرِ بأهلِ المَدَرِ، وعن أهلِ الباديةِ بأهلِ الوَبَرِ؛ لأنَّهم يَتَّخِذون بُيوتَهم مِن الوَبَرِ. يُنظر: ((المفهم)) للقرطبي (٧/ ٢٨٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٥٢).

(٥) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) واللَّفظُ له، والحاكم (٨٣٢٦)، والبيهقي (١٩٠٩٠).
صحَّحه الحاكِمُ على شَرطِ الشَّيخَينِ، وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وقال الألباني في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): (على شَرطِ مُسلِمٍ). وصَحَّح إسنادَه على شرطِ مُسلِمٍ: شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ١٥٥).

(٦) أي: جعَلها وِسادةً (أي: مِخَدَّةً) له تحتَ رأسِه، والبُرْدةُ: كِساءٌ أسْوَدُ مربَّعٌ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٤٤٧) و (٢/ ٥٥٠)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١٠/ ٩٦).

أَلَا تَدْعو اللهَ لنا؟! قال: كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دِينِه! ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه! واللهِ لَيُتِمَّنَّ هذا الأمرَ، حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ، لا يخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكِنَّكم تَستَعجِلونَ!))[1].

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾.

أي: ويَكفي أن يَكونَ اللهُ شاهِدًا على أنَّه مُظهِرٌ دِينَه، وعلى أنَّ مُحمَّدًا رَسولُه، صلَّى الله عليه وسلَّم[2].

---

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، (( تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥).

مِمَّن ذهب إلى أنَّ المعنى أنَّه شهيدٌ على أنَّه مُظهِرٌ دِينَه: ابنُ جرير، والرَّسْعَني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣١٩).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ البصريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٠).

وقال الزمخشريُّ والنَّسَفيُّ وأبو حيَّان: وكفى بالله شهيدًا على أنَّ ما وعَدَه كائنٌ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٠).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: أنَّه شهيدٌ بأنَّ محمَّدًا رسولُ الله، وأنَّه صادقٌ فيما يُخبِرُ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنديُّ، والواحدي، والبغوي، والرازي، والقرطبي، والخازنُ، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٣).

قال البِقاعي: (وهو يَشهَدُ بكُلِّ ما أخبَر به رسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في هذه السُّورةِ خصوصًا، وفي غيرِها عمومًا). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٣٧).

وقال الشوكاني: (كَفَى اللهُ شَهيدًا على هذا الإظْهارِ الَّذي وَعَدَ المُسلِمينَ به، وعلى صحَّةِ نُبُوَّةِ =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّ رِسالةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تتضَمَّنُ شَيئَينِ؛ هما: العِلمُ النَّافِعُ، والعَمَلُ الصَّالِحُ؛ فالهُدى هو: العِلمُ النَّافِعُ، ودِينُ الحَقِّ هو: العَمَلُ الصَّالِحُ الَّذي اشتمَلَ على الإخلاصِ للهِ، والمُتابَعةِ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾ لَمَّا كان للنَّظَرِ إلى الرُّؤيا اعتِبارانِ: أحَدُهما مِن جِهةِ الواقِعِ، وهو غَيبٌ عن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم أجمَعينَ، والآخَرُ مِن جِهةِ الإخبارِ، وهو مع الرُّؤيا شَهادةٌ بالنِّسبةِ إليه سُبحانَه وتعالى- عَبَّرَ بالصِّدقِ والحَقِّ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، فيه سؤالٌ: ما وجْهُ التَّعليقُ بمَشيئةِ اللهِ -تعالى- في إخبارِه؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ:** أنَّه ذكَرَه تعليمًا للعِبادِ الأدَبَ، وتأكيدًا لقَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٣) [الكهف: ٢٣، ٢٤].

---

= نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٦).

قال الشنقيطي: (قال علماءُ البصرةِ: المرادُ بالتَّقييدِ بالمشيئةِ في هذا الأمرِ المُحَقَّقِ: هو تعليمُ الخَلْقِ ألَّا يَتكلَّموا عن أمرٍ مُستقبَلٍ إلَّا مُعَلِّقينَ بمشيئةِ اللهِ، وإنَّما جِيءَ بالأمرِ المُحَقَّقِ لِتوكيدِ ذلك، وأنَّه لا يَنبغي للإنسانِ أن يَتحدَّثَ عن مُستقبَلٍ أنَّه سيَقَعُ أو سيَفعَلُ إلَّا إذا قُيِّدَ بمشيئةِ اللهِ، =

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ الاستِثناءَ في دُخولِ جميعِهم؛ إذْ عُلِم أنَّ بعضَهم يَموتُ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ مِن قَولِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لأصحابِه، حكايةً عن رُؤْياهُ؛ فيَكونُ الاستِثناءُ في الرُّؤْيا، لا في خبرِ اللهِ.

**الوجهُ الرَّابعُ**: أنَّ (إنْ) بمعنى (إذْ)؛ أي: إذْ شاء اللهُ[1].

**الوجهُ الخامسُ**: أنَّ الدُّخولَ لَمَّا لم يقَعْ عامَ الحُدَيبيَةِ، وكان المؤمِنونَ يُريدونَ الدُّخولَ، ويأبَوْنَ الصُّلحَ، قال: ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾، ولكنْ لا بجَلادتِكم، ولا بإرادتِكم، إنَّما تَدْخُلون بمَشيئةِ اللهِ تعالى.

**الوجهُ السَّادسُ**: أنَّ ذلك تحقيقًا للدُّخولِ؛ وذلك لأنَّ أهلَ مكَّةَ قالوا: لا تَدْخُلوها إلَّا بإرادتِنا، ولا نُريدُ دُخولَكم في هذه السَّنةِ، ونَختارُ دُخولَكم في السَّنةِ القابِلةِ، والمؤمِنونَ أرادوا الدُّخولَ في عامِهم، ولم يَقَعْ؛ فكان لِقائلٍ أن يَقولَ: بقيَ الأمرُ موقوفًا على مَشيئةِ أهلِ مكَّةَ: إنْ أرادوا في السَّنةِ الآتيةِ يَتْرُكونَنا نَدخُلُها، وإنْ كَرِهوا لا نَدخُلُها، فقال: لا تُشترَطُ إرادتُهم ومشيئتُهم، بل تمامُ الشَّرطِ بمَشيئةِ اللهِ[2].

**الوجهُ السَّابعُ**: أنَّها للتَّبرُّكِ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ أنَّ الشَّيءَ

---

= كما قال اللهُ لنبيِّه: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا * إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤]). ((العذب النمير)) (٢/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٣٣٢، ١٣٣٣).

قال ابنُ عطيَّةَ: (وهذا حسَنٌ في معناه، ولكنْ كَوْنُ «إنْ» بمعنَى «إذْ» غيرُ موجودٍ في لسانِ العربِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٥).

المُحَقَّقَ قد يُربَطُ بالمشيئةِ؛ إشارةً إلى أنَّه واقِعٌ بمشيئةِ اللهِ[١].

٤- جوازُ الاستِثناءِ في الإيمانِ إذا كان للتَّعليلِ، بمعنى: أنا مُؤمِنٌ بمشيئةِ اللهِ؛ لأنَّ هذه هي الحقيقةُ، والدَّليلُ على ذلك قَولُه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾؛ فالتَّعليقُ هنا ليس للتَّرَدُّدِ؛ لأنَّ اللهَ غيرُ متردِّدٍ، وإنَّما هو لبيانِ العِلَّةِ، وهي أنَّ دُخولَكم بمَشيئةِ اللهِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أنَّ الحَلْقَ والتَّقصيرَ نُسُكٌ في الحجِّ والعُمرةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وصَفَهم به، بقَولِه سُبحانَه: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾، ولو لم يكُنْ مِنَ المَناسِكِ لَمَا وصَفَهم به[٣]، فجَعَل الحلقَ والتَّقصيرَ شِعارَ النُّسُكِ وعلامَتَه، وعَبَّر عن النُّسُكِ بالحلقِ والتَّقصيرِ، وذلك يَقْتَضي كونَه جزءًا منه وبعضًا له[٤]، قال العُلماءُ: إذا عُبِّرَ بجُزءٍ مِن العبادةِ عن العبادةِ كان دَليلًا على وُجوبِه فيها[٥].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤١٣).

وأهلُ السُّنَّةِ يَستَثنونَ في الإيمانِ أيضًا؛ لأنَّ الإيمانَ المطْلَقَ يتَضَمَّنُ فِعْلَ كلِّ ما أمَر اللهُ به، وتَرْكَ كلِّ ما نَهى عنه، فإذا قال الرَّجُلُ: أنا مُؤْمِنٌ، بهذا الاعتبارِ: فقَدْ شَهِد لنفْسِه أنَّه مِن الأبرارِ المتَّقينَ، القائِمينَ بجميعِ ما أُمِروا به، وترْكِ كلِّ ما نُهُوا عنه! وهذا مِن تزكيةِ الإنسانِ لنفْسِه، ولو كانت هذه الشَّهادةُ صحيحةً، لَكانَ يَنْبَغي أنْ يَشْهَدَ لنفْسِه بالجنَّةِ إنْ ماتَ على هذه الحالِ، وهذا مَأْخَذُ عامَّةِ السَّلَفِ الَّذينَ كانوا يَسْتَثْنونَ. أمَّا إنْ أراد المُسْتَثني الشَّكَّ في أصلِ إيمانِه فإنَّه يُمنَعُ مِن الاستثناءِ، وهذا مِمَّا لا خِلافَ فيه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٤٦)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٤٩٤- ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٣/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الحج)) لابن تيمية (٢/ ٥٤٢).

(٥) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٧/ ٣٩٦).

وَمُقَصِّرِينَ ﴾ فيه أنَّ الحَلْقَ غيرُ مُتعَيِّنٍ في النُّسُكِ، بل يُجْزِئُ عنه التَّقصيرُ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ أنَّه يَجِبُ أنْ يكونَ الحَلْقُ أو التَّقصيرُ شامِلًا لجَميعِ الرَّأسِ؛ فالفِعلُ المضافُ إلى الرَّأسِ يَشمَلُ جَميعَه. وفيه بيانُ خَطَأِ بعضِ النَّاسِ إذا أراد أنْ يَتحَلَّلَ مِن العُمرةِ فإنَّه يُقَصِّرُ شَعَراتٍ قليلةً مِن رأسِه ومِن جِهةٍ واحدةٍ! وهذا خِلافُ ظاهرِ الآيةِ الكريمةِ؛ فلا بُدَّ أنْ يكونَ للتَّقصيرِ أثَرٌ بَيِّنٌ على الرَّأسِ، ومِن المعلومِ أنَّ قَصَّ شَعرةٍ أو شَعرَتينِ أو ثَلاثِ شَعَراتٍ: لا يُؤَثِّرُ، ولا يَظهَرُ على المُعتَمِرِ أنَّه قَصَّرَ، فيَكونُ مخالِفًا لظاهرِ الآيةِ الكَريمةِ[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ فيه اختِصاصُ الحَلقِ والتَّقصيرِ بالرَّأسِ دُونَ اللِّحْيةِ وسائِرِ شَعرِ البَدَنِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أنَّ مَنِ اتَّبَعَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّه غالِبٌ، ومعنى «يُظْهِرَه» يُعْلِيَه؛ لأنَّ الظَّهْرَ والظُّهُورَ كِلَاهما يدُلُّ على الغَلَبةِ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ أنَّ الإسلامَ سيَعْلو على جميعِ الأديانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٢/ ٤٥٤) و (٢٤/ ٣٠٢).

ووُجوبُ حلْقِ أو تقصيرِ جميعِ الرَّأسِ هو مذهبُ المالكيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((حاشية العدوي)) (١/ ٦٨٣، ٦٨٩)، ((كشاف القناع)) للبهوتي (٢/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٤٩).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ حُجَّةٌ لأهلِ السُّنَّةِ على كُلِّ مَن أَسَرَّ دِينًا مِن أهلِ البِدْعةِ، وكلِّ مَن كان على شَيءٍ يَزعمُ أنَّه مِن الدِّينِ وهو يَستُرُه ولا يُظْهِرُه خَشيةَ إنكارِه! فقد عُرِفَ بُطلانُه قبْلَ أنْ يُسألَ بُرهانَه، واستَوى في مَعرفةِ تزييفِه العالِمُ والجاهِلُ؛ إذْ مِن شَرْطِ الآيةِ أنْ يكونَ بعدَ نُزولِها دينُ الحقِّ ظاهرًا؛ فإنْ كُتِمَ عَدِمَ شَرْطَه المشروطَ فيه، وفي عَدَمِ شَرْطِه دُخولُ الخَلَلِ عليه، وزَوالُ الحقِّ عنه[1].

١٢- كثيرًا ما يَجمَعُ سُبحانَه بيْنَ هَذينِ الأصلَينِ: (الْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ)؛ لأنَّ بهما تَمامَ الدَّعوةِ، وظُهورَ دِينِه على الدِّينِ كُلِّه[2].

١٣- قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ عطَفَ دينَ الحَقِّ على الهُدى؛ لِيَشملَ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الأحكامِ؛ أُصولِها وفُروعِها، مِمَّا أُوحِيَ به إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سِوى القُرآنِ مِن كُلِّ وَحيٍ بكَلامٍ لم يُقصَدْ به الإعجازُ، أو كان مِن سُنَّةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أن يكونَ المرادُ بالهُدى أصولَ الدِّينِ مِن اعتِقادِ الإيمانِ، وفَضائِلِ الأخلاقِ الَّتي بها تَزكيةُ النَّفْسِ، ودينُ الحَقِّ: شَرائِعُ الإسلامِ وفُروعُه[3].

١٤- قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ فيه تَوطينٌ لنُفوسِ المؤمنينَ على أنَّ اللهَ تعالى سيَفتحُ لهم مِن البلادِ،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٥٢١، ٥٢٢).

وأخرج اللالكائي في ((شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة)) (٢٥١) قولَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ: (إذا رأيْتَ قومًا يَتناجَوْنَ في دينِهم بشيءٍ دونَ العامَّةِ، فاعلَمْ أنَّهم على تأسيسِ ضلالةٍ).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠١).

ويُقيِّضُ لهم مِن الغلَبةِ على الأقاليمِ ما يَستقِلُّون إليه فتحَ مكةَ[١].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ فيه إثباتُ الشَّهادةِ للهِ[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أنَّ شَهادةَ اللهِ كافيةٌ عن كُلِّ شَهادةٍ[٣].

## بلاغةُ الآيتَين:

١- قَولُه تعالَى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾

- قَولُه: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عن قولِه: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٦]، ودَحْضُ ما خامَرَ نُفوسَ فريقٍ مِن الفشَلِ، أو الشَّكِّ، أو التَّحيُّرِ، وتَبْيينُ ما أنعَمَ اللهُ به على أهلِ بَيعةِ الرِّضوانِ مِن ثَوابِ الدُّنيا والآخِرةِ إلى كشْفِ شُبهةٍ عرَضَت للقَومِ في رُؤيا رآها رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ذلك أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رأى رُؤيا قبْلَ خُروجِه إلى الحُدَيْبِيَةِ -أو وهو في الحُدَيبيَةِ-: كأنَّه وأصحابَه قد دخَلوا مكَّةَ آمِنينَ، وحلَقوا وقصَّروا، هكذا كانتِ الرُّؤْيا مُجْمَلةً، ليس فيها وُقوعُ حَجٍّ ولا عُمرةٍ، والحَلْقُ والتَّقصيرُ مُناسِبٌ لِكِلَيهِما[٤].

- وتَوكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (قد)؛ لإبطالِ شُبْهةِ المنافِقينَ الَّذين قالوا: فأينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٤٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٧).

الرُّؤيا[١]؟!

- قَولُه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: مُلتَبِسًا به؛ فإنَّ ما رآهُ كائنٌ لا مَحالةَ في وقْتِه المُقدَّرِ له، وهو العامُ القابِلُ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ صِفةَ مَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: صِدقًا مُلتبِسًا بالحَقِّ، وهو القَصدُ إلى التَّمييزِ بيْنَ الثَّابتِ على الإيمانِ والمُتزلزِلِ فيه، أو حالٌ مِن الرُّؤيا، أي: مُلتبِسةً بالحقِّ ليستْ مِن قَبيلِ أضغاثِ الأحلامِ، وأنْ يكونَ قَسَمًا إمَّا باسمِ اللهِ تعالَى، أو بنَقيضِ الباطلِ[٢].

- قَولُه: ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ إلى آخِرِها، يجوزُ أنْ يكونَ بَيانًا لجُملةِ ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ معنى ﴿لَتَدۡخُلُنَّ﴾ تَحقيقُ دُخولِ المسجِدِ الحرامِ في المُستقبَلِ، فيُعلَمُ منه أنَّ الرُّؤيا إخبارٌ بدُخولٍ لم يُعيَّنْ زَمنُه؛ فهي صادِقةٌ فيما يَتحقَّقُ في المُستقبَلِ، وهذا تَنْبيهٌ لِلَّذين لم يَتفطَّنوا لذلك، فجَزَموا بأنَّ رُؤيا دُخولِ المسجِدِ تَقْتضي دُخولَهم إليه أيَّامَئذٍ، وما ذلك بمَفهومٍ مِن الرُّؤيا، وكان حَقُّهم أنْ يَعلَموا أنَّها وعْدٌ لم يُعَيَّنْ إبَّانَ مَوعودِه. وقيل: الأحسَنُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ﴾ استِئنافًا بَيانيًّا عن جُملةِ ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ﴾، أي: سيَكُون ذلك في المُستقبَلِ لا مَحالةَ؛ فيَنْبغي الوقفُ عندَ قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لِيَظهَرَ معنى الاستِئنافِ. وقولُه: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مِن شأْنِه أنْ يُذيَّلَ به الخبَرُ المُستقبَلُ إذا كان حُصولُه مُتراخيًا[٣].

- قَولُه: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ التَّحليقُ والتَّقصيرُ كِنايةٌ عن التَّمكُّنِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٩٩).

إتمامِ الحَجِّ والعُمرةِ، وذلك مِن استِمرارِ الأمْنِ، على أنَّ هذه الحالةَ حكَتْ ما رآهُ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في رُؤياهُ، أي: يَحلِقُ مَن رامَ الحَلْقَ، ويُقصِّرُ مَن رامَ التَّقصيرَ، أي: لا يُعجِّلُهم الخَوفُ عن الحَلقِ، فيَقتَصِرون على التَّقصيرِ[١].

- وذَكَر الحِلاقَ والتَّقصيرَ دونَ الطَّوافِ والسَّعْيِ؛ لأنَّهما صِفَتانِ لبدنِ الإنسانِ ينتقلانِ بانْتِقالِه[٢].

- وجُملةُ ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ في مَوضعِ الحالِ؛ فيجوزُ أنْ تكونَ مُؤكِّدةً لقولِه: ﴿ءَامِنِينَ﴾ تأْكيدًا بالمُرادفِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأمنَ كاملٌ مُحقَّقٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ حالًا مُؤسِّسةً على أنَّ ﴿ءَامِنِينَ﴾ أي: لا تَخافونَ غَدْرًا، وذلك إيماءٌ إلى أنَّهم يكونونَ أشدَّ قُوَّةً مِن عدوِّهم الَّذي أمَّنَهم، وهذا يُومِئُ إلى حِكمةِ تأْخيرِ دُخولِهم مكَّةَ إلى عامٍ قابلٍ، حيثُ يَزْدادون قُوَّةً واستِعدادًا، وهو أظهَرُ في دُخولِهم عامَ حَجَّةِ الوداعِ[٣]. وقيل: قال: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿ءَامِنِينَ﴾ والمعنَى: آمِنينَ في حالِ الدُّخولِ، لا تَخافُونَ عَدُوَّكم أن يُخرِجَكم منه في المُستَقبَلِ[٤].

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ لتَفريعِ الأخبارِ، لا لتَفريعِ المُخبَرِ به؛ لأنَّ عِلمَ اللهِ سابِقٌ على دُخولِهم، وعلى الرُّؤيا المُؤذِنةِ بدُخولِهم[٥].

- قَولُه: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ في إيثارِ فِعلِ (جَعَلَ) في هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الحج)) لابن تيمية (٢/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠).

التَّركيبِ دونَ أنْ يقولَ: (فتَحَ لكم مِن دونِ ذلك فتْحًا قريبًا)، أو نحوَه؛ لإفادةِ أنَّ هذا الفتْحَ أمْرُه عجيبٌ، ما كان لِيَحصُلَ مِثلُه لولا أنَّ اللهَ كوَّنَه. وصِيغةُ الماضي في (جَعَلَ)؛ لِتَنزيلِ المُستقبَلِ المحقَّقِ مَنزِلةَ الماضي، أو لأنَّ (جَعَلَ) بمعنى (قَدَّرَ)[1].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ زِيادةُ تَحقيقٍ لِصِدقِ الرُّؤيا؛ بأنَّ الَّذي أرسَلَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا الدِّينِ ما كان لِيُرِيَه إلَّا رُؤيا صادقةً؛ فهذه الجُملةُ تأكيدٌ للتَّحقيقِ المُستفادِ مِن حرْفِ (قد) ولامِ القَسَمِ في قَولِه: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]، وبهذا يَظهرُ حُسنُ مَوقعِ الضَّميرِ والمَوصولِ في قَولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ﴾؛ لأنَّ المَوصولَ يُفيدُ العِلمَ بمَضمونِ الصِّلةِ غالبًا[2].

- والضَّميرُ عائِدٌ إلى اسمِ الجلالةِ في قَولِه: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا﴾، وهم يَعلَمون أنَّ رُؤيا الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحْيٌ مِن اللهِ؛ فهو يُذكِّرُهم بهاتَينِ الحقيقتَينِ المَعلومتَينِ عندَهم حِين لم يَجْرُوا على مُوجَبِ العِلمِ بهما، فخَامَرَتهم ظُنونٌ لا تَليقُ بمَن يَعلَمُ أنَّ رُؤيا الرَّسولِ وحْيٌ، وأنَّ الموحِيَ له هو الَّذي أرسَلَه؛ فكيف يُرِيه رُؤيا غيرَ صادِقةٍ؟! وفي هذا تَذكيرٌ ولَومٌ للمؤمنينَ الَّذين غفَلوا عن هذا، وتَعريضٌ بالمنافِقين الَّذين أدخَلوا التَّردُّدَ في قُلوبِ المؤمنينَ[3].

- والباءُ في ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ للمُصاحَبةِ، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿أَرۡسَلَ﴾، والهُدَى أُطلِقَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على ما به الهُدى[١].

- واللَّامُ في ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ لتَعليلِ فِعلِ ﴿أَرْسَلَ﴾ ومُتعلَّقاتِه، أي: أرسَلَه بذلك؛ لِيُظهِرَ هذا الدِّينَ على جَميعِ الأديانِ الإلهيَّةِ السَّالفةِ، ولذلك أكَّدَ بـ ﴿كُلِّهِۦ﴾؛ لأنَّه في معنى الجمْعِ[٢].

- والإظهارُ: أصلُه مُشتقٌّ مِن (ظَهَر) بمعنى بَدَا؛ فاستُعمِلَ كنايةً عن الارتفاعِ الحقيقيِّ، ثمَّ أُطلِقَ على الشَّرَفِ، فصار (أظهرَه) بمعنى أعلاهُ، أي: لِيُشَرِّفَه على الأديانِ كلِّها[٣].

- ولَمَّا كان المَقصودُ مِن قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ الشَّهادةَ بأنَّ الرُّؤيا صِدقٌ؛ ذيَّلَ الجُملةَ بقولِه: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، أي: أجزَأَتْكم شَهادةُ اللهِ بصِدْقِ الرُّؤيا إلى أنْ ترَوا ما صَدَقَها[٤] في الإبَّانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو المَوصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٢).

## الآية (٢٩)

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِيمَاهُمۡ﴾: أي: عَلاماتُهم وآثارُهم، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على الأثَرِ والمَعْلَمِ[١].

﴿شَطۡـَٔهُۥ﴾: أي: فِراخَه وصِغارَه، وشَطءُ الزَّرعِ: فُروخُ الزَّرعِ، وهو ما خرَجَ منه وتفرَّع في شاطِئَيه وجانِبَيه، وشَطءُ النَّباتِ: ما خرَجَ مِن حَولِ الأصلِ[٢].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾: أي: أعانَه وقَوَّاه، وأصلُ (أزر): يدُلُّ على القُوَّةِ والشِّدَّةِ[٣].

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾: أي: غَلُظَ وبلَغَ غايةَ قُوَّتِه، والغِلْظةُ ضِدُّ الرِّقَّةِ[٤].

﴿سُوقِهِۦ﴾: أي: أُصولِه، جمعُ ساقٍ: وهو العُودُ والحامِلُ، وأصلُ (سوق):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

يدُلُّ على حَدْوِ الشَّيء، وسُمِّيَت السَّاقُ بذلك؛ لأنَّ الماشيَ يَنساقُ عليها[١].

﴿لِيَغِيظَ﴾: الغَيظُ: أشدُّ الغَضَبِ، وهو الحرارةُ الَّتي يجِدُها الإنسانُ مِن فوَرانِ دَمِ قَلبِه، وأصلُه يدُلُّ على كَربٍ يَلحَقُ الإنسانَ مِن غَيرِه[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يختِمُ الله تعالى السُّورةَ بالثَّناءِ على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم وعلى أصحابِه، فيقولُ: مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ، وأصحابُه الَّذين معه يُظهِرونَ لِمَن خالَفَ دِينَهم الشِّدَّةَ، ولِمَن وافَقَه الرَّحمةَ والرَّأفةَ، تَراهم -أيُّها الرَّائي- راكِعينَ وساجِدينَ، يَطلُبونَ أن يَتفَضَّلَ اللهُ عليهم برَحمتِه، فيُدخِلَهم جَنَّتَه، وأن يَرضى عنهم، عَلامتُهم في وُجوهِهم؛ مِن أثَرِ سُجُودِهم في صَلاتِهم.

هذا الَّذي وُصِفوا به هو وَصْفُهم في التَّوراةِ، وصِفَتُهم في الإنجيلِ أنَّهم كزَرعٍ أخرَجَ فِراخَه، فقوَّى الزَّرعَ فَرْخُهُ، فغَلُظَ الزَّرعُ، وبَلَغ غايةَ قُوَّتِه، وقام على أُصولِه، يُعجِبُ هذا الزَّرعُ الزُّرَّاعَ؛ لِيَغِيظَ بهم الكُفَّارَ حينَ يَرَونَ كَثرتَهم وقُوَّتَهم.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى ما وعَدهم به، فيقولُ: وَعَد اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ مِن أصحابِ نَبيِّه مَغفِرةً لِذُنوبِهم وأجرًا عَظيمًا.

## تَفسيرُ الآيةِ:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٩).

فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن صِدقَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في رُؤياه، واطمَأَنَّت نُفوسُ المُؤمِنينَ؛ أعقَبَ ذلك بتَنويهِ شَأنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والثَّناءِ على المُؤمِنينَ الَّذين معه[1].

وأيضًا لَمَّا ختَمَ اللهُ سُبحانَه بإحاطةِ العِلمِ بالخَفايا والظَّواهرِ في الإخبارِ بالرِّسالةِ؛ عَيَّنَها في قَولِه -جوابًا لِمَن يَقولُ: مَنِ الرَّسولُ المُنَوَّهُ باسمِه؟-[2]:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾.

محمَّدٌ رسولُ الله حقًّا بلا رَيْبٍ[3].

﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠).

قال ابن عطية: (قَولُه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ قال جُمهورُ النَّاسِ: هو ابتِداءٌ وخَبَرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٠).

وممَّن ذهب إلى هذا: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٥).

وقيل: هذه الجُملةُ مُتعَلِّقةٌ بما بَعْدَها، أي: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ وأصحابُه أشدَّاءُ على الكفَّارِ، رُحماءُ بيْنَهم. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥). ويُنظر أيضًا: ((الهداية)) لمكي (١١/ ٦٩٧٤).

أي: وأصحابُ مُحمَّدٍ الَّذين معه يُظهِرونَ لِمَن خالَفَ دِينَهم الشِّدَّةَ والصَّلابةَ، ولِمَن وافَقَه الرَّحمةَ والرَّأفةَ واللِّينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ المُؤمِنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم مَثَلُ الجَسَدِ؛ إذا اشتَكى منه عُضوٌ تَداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))(٢).

وعن أبي موسى الأَشْعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُؤمِنُ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ؛ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا. وشَبَّك بيْنَ أصابِعِه))(٣).

﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٤).

قال السعدي: (﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ أي: جادُّونَ ومُجتهِدونَ في عَداوَتِهم، وساعُون في ذلك بغايةِ جُهدِهم، فلمْ يَرَوا منهم إلَّا الغِلظةَ والشِّدَّةَ؛ فلذلك ذلَّ أعداؤُهم لهم، وانكسَروا، وقهَرَهم المُسلِمونَ، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: مُتحابُّونَ مُتراحِمونَ مُتعاطِفونَ، كالجسَدِ الواحدِ، يحِبُّ أحدُهم لأخيه ما يحِبُّ لنفْسِه، هذه مُعامَلتُهم مع الخَلقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابن عاشور: (المقصودُ الثَّناءُ على أصحابِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم... والمرادُ: أصحابُه كُلُّهم، لا خُصوصُ أهلِ الحُدَيبيَةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٣).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلمٌ (٢٥٨٦) واللَّفظُ له.

(٣) رواه البخاريُّ (٢٤٤٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٨٥).

أي: تَرى[١] أصحابَ مُحمَّدٍ مُداوِمينَ على صَلاتِهم، مُكثِرينَ منها؛ فتَراهم راكِعينَ وساجِدينَ[٢].

عن المُخارِقِ، قال: ((خَرَجْنا حُجَّاجًا، فلمَّا بَلَغْنا الرَّبَذَةَ[٣] قُلتُ لأصحابي: تقَدَّموا، وتخَلَّفْتُ، فأتيتُ أبا ذَرٍّ وهو يُصَلِّي، فرأيتُه يُطيلُ القِيامَ، ويُكثِرُ الرُّكوعَ والسُّجودَ، فذكَرتُ ذلك له، فقال: ما أَلَوتُ أن أُحسِنَ؛ إنِّي سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: مَن رَكَع رَكعةً أو سَجَد سَجدةً، رُفِعَ بها دَرَجةً، وحُطَّت عنه بها خَطيئةٌ))[٤].

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

أي: يَطلُبونَ أن يَتفَضَّلَ اللهُ عليهم برَحمتِه، فيُدخِلَهم جَنَّتَه، وأن يَرضى عنهم؛ فهذا مقصودُهم[٥].

---

(١) قال ابن عاشور: (الخِطابُ في ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ، بل لِكُلِّ مَن تتأتَّى رُؤيتُه إيَّاهم، أي: يَراهم الرَّائي). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

(٣) الرَّبَذة: قَريةٌ كانت عامرةً في صَدْرِ الإسلامِ، وبها قبرُ أبي ذَرٍّ الغِفارِيِّ وجماعةٍ مِن الصَّحابةِ، تقعُ شرقَ المدينةِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٣٠٨) واللَّفظُ له، والطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (٢٧٣٠)، والبيهقي (٤٨٨٣).

قال المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ١٩٤): (هو بمجموعِ طُرُقِه حَسَنٌ أو صحيحٌ). وذكر الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٥١) أنَّه رُوِيَ بنحوِه بأسانيدَ بَعضُها رجالُه رجالُ الصَّحيحِ. وصحَّحه لغيرِه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٩٢)، وصحَّحه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٥/ ٢٣٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ٧١، ٧٢].

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾.

أي: عَلامةُ أصحابِ مُحمَّدٍ كائِنةٌ في وُجوهِهم؛ مِن أثَرِ سُجُودِهم في صَلاتِهم(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢١، ٣٢٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابنُ الجوزي: (هل هذه العَلامةُ في الدُّنيا، أم في الآخِرةِ؟ فيه قولانِ:

أحَدُهما: في الدُّنيا. ثمَّ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّها السَّمتُ الحَسَنُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ ابنِ أبي طَلْحةَ. وقال في روايةِ مُجاهِدٍ: أمَا إنَّه ليس بالَّذي تَرَونَ، ولكِنَّه سِيما الإسلامِ وسَمْتُه وخُشوعُه. وكذلك قال مجاهِدٌ: ليس بِنَدَبِ التُّرابِ في الوَجهِ، ولكِنَّه الخُشوعُ والوَقارُ والتَّواضُعُ.

والثَّاني: أنَّه نَدَى الطَّهورِ، وثَرى الأرضِ. قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ. وقال أبو العاليةِ: لأنَّهم يَسجُدونَ على التُّرابِ لا على الأثوابِ. وقال الأَوْزاعيُّ: بلَغَني أنَّه ما حمَلَتْ جِباهُهم مِنَ الأرضِ.

والثَّالثُ: أنَّه السُّهومُ، فإذا سَهَم وَجهُ الرجُلِ مِنَ اللَّيلِ أصبَحَ مُصْفارًّا. قال الحَسَنُ البصري: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾: الصُّفرةُ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: أثَرُ السَّهَرِ. وقال شِمْرُ بنُ عطيَّةَ: هو تهيُّجٌ في الوَجهِ مِن سَهَرِ اللَّيلِ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّها في الآخِرةِ. ثمَّ فيه قولانِ:

أحَدُهما: أنَّ مَواضِعَ السُّجودِ مِن وُجوهِهم تكونُ أشدَّ وُجوهِهم بَياضًا يومَ القيامةِ. قاله عطيَّةُ العَوفيُّ، وإلى نحوِ هذا ذهب الحسَنُ، والزُّهْريُّ. وروَى العَوفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ قال: صَلاتُهم تَبدو في وُجوهِهم يومَ القيامةِ.

والثَّاني: أنَّهم يُبعَثونَ غُرًّا مُحَجَّلينَ؛ مِن أثرِ الطُّهورِ. ذكره الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٣٨، ١٣٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩). =

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾.

أي: هذا الَّذي وُصِفوا به هو وَصْفُهم في التَّوراةِ[1].

﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾.

أي: وصِفَتُهم في الإنجيلِ أنَّهم كزَرعٍ أخرَجَ فِراخَه، فنَبَتَتْ في جَوانِبِه[2].

---

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الهَدْيُ والسَّمتُ الحَسَنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: علاماتُ التَّهجُّدِ باللَّيلِ وأماراتُ السَّهرِ: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٣).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: السَّمْتُ الحَسَنُ، وهيئةُ الخُشوعِ والخُضوعِ الباديةُ في وُجوهِهم في الدُّنيا، والبَياضُ في وُجوهِهم في الآخِرةِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٤٠).

وقيل: المرادُ: ما يَلُوحُ في وُجوهِهم مِن نُورِ العبادةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعدي. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

وقيل: المرادُ: العَلامةُ الَّتي تَحدُثُ في جَبهةِ السُّجَّدِ؛ مِن كَثرةِ السُّجودِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩٢، ٢٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٨).

قال البِقاعي: (﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ أي: فِراخَه ووَرَقَه وما خَرَج حَوْلَ أُصولِه؛ فكان ذلك كُلُّه مَثَلَه). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٤٣).

وقال ابن جرير: (وإنَّما مثَّلَهم بالزَّرعِ المُشطِئِ؛ لأنَّهم ابتَدَؤوا في الدُّخولِ في الإسلامِ وهم =

﴿فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾.

أي: فقوَّى الزَّرعَ فَرْخُه، فغَلُظَ الزَّرعُ، وتَناهَى طُولُه، وبَلَغ غايةَ قُوَّتِه، وقام على أُصولِه[1].

---

= عَدَدٌ قَليلونَ، ثمَّ جَعَلوا يَتزايَدون، ويَدخُلُ فيه الجَماعةُ بَعْدَهم، ثمَّ الجماعةُ بعدَ الجَماعةِ، حتَّى كَثُر عَدَدُهم، كما يَحدُثُ في أصلِ الزَّرعِ الفَرخُ منه، ثمَّ الفَرخُ بَعْدَه، حتَّى يَكثُرَ ويَنْمِيَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٧).

وقد ذهب مجاهِدٌ والفَرَّاءُ والزمخشريُّ إلى أنَّ مَثَلَ الصَّحابةِ في التَّوراةِ وفي الإنجيلِ: واحِدٌ، فالمعنى عندَهم: ذلك مَثَلُهم في التَّوراةِ ومَثَلُهم في الإنجيلِ أيضًا. وضَعَّفَ هذا القَولَ ابنُ جرير، ورجَّح أنَّ مَثَلَهم في التَّوراةِ غَيرُ مَثَلِهم في الإنجيلِ، كما هو ظاهِرُ الآيةِ. يُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٦٠٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٣، ٤١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٩٨).

قال ابن قُتَيْبَةَ: (هذا مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ خَرَج وَحْدَه، فأيَّده بأصحابِه، كما قَوَّى الطَّاقةَ مِن الزَّرعِ بما نَبَت منها، حتَّى كَثُرَت وغَلُظَت واستَحكَمَت). ((غريب القرآن)) (ص: ٤١٤).

وقال القرطبي: (هذا مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ تعالى لأصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يعني: أنَّهم يَكونونَ قَليلًا، ثمَّ يَزدادونَ ويَكثُرونَ؛ فكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ بدأ بالدُّعاءِ إلى دينه ضَعيفًا، فأجابه الواحِدُ بعدَ الواحِدِ حتَّى قَوِيَ أمرُه، كالزَّرعِ يَبدو بعدَ البَذرِ ضَعيفًا، فيَقْوى حالًا بعدَ حالٍ، حتَّى يَغلُظَ نَباتُه وأفراخُه؛ فكان هذا مِن أصَحِّ مَثَلٍ وأقوى بَيانٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥).

وقال الزمخشري: (هذا مَثَلٌ ضربه اللهُ لِبَدْءِ أمرِ الإسلام وتَرَقِّيه في الزِّيادةِ إلى أن قَوِيَ واستَحْكَم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ قام وحْدَه، ثمَّ قوَّاه اللهُ بمَنْ آمَنَ معه كما يُقَوِّي الطَّاقةَ الأولى مِن الزَّرعِ ما يحتَفُّ بها ممَّا يتولَّدُ منها حتَّى يُعجِبَ الزُّرَّاعَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٨).

وقال ابن عاشور: (هذا يتضَمَّنُ نَماءَ الإيمانِ في قُلوبِهم، وأنَّهم يَدْعُونَ النَّاسَ إلى الدِّينِ حتَّى =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣].

﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾.

أي: يُثيرُ هذا الزَّرعُ الَّذي استَغلَظَ واستَوَى على سُوقِه إعجابَ الَّذين زَرَعوه[١].

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

أي: إنَّما جَعَل اللهُ تعالى أصحابَ نَبيِّه بتلك الصِّفةِ، فكَثَّرهم وقوَّاهم؛ لِيَغِيظَ بهم الكُفَّارَ حينَ يَرَونَ كَثرتَهم وقُوَّتَهم[٢].

---

= يَكثُرَ المؤمِنونَ، كما تُنبِتُ الحَبَّةُ مِئةَ سُنْبُلةٍ، وكما تَنبُتُ مِن النَّواةِ الشَّجَرةُ العَظيمةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥).

قال ابنُ عطية: (إذا أعجَبَ الزُّرَّاعَ فهو أَحْرى أن يُعجِبَ غَيرَهم؛ لأنَّه لا عَيبَ فيه؛ إذ قد أعجَبَ العارِفينَ بالعُيوبِ، ولو كان مَعيبًا لم يُعجِبْهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٢، ١٤٣).

وقال الزَّجَّاج: (﴿ٱلزُّرَّاعَ﴾ محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والدُّعاةُ إلى الإسلامِ، وهم أصحابُه). ((معاني القرآن)) (٥/ ٢٩).

وقال ابنُ كثير: (الصَّحابةُ رَضِيَ الله عنهم خَلَصَت نيَّاتُهم، وحَسُنَت أعمالُهم؛ فكُلُّ مَن نَظَر إليهم أعجَبوه في سَمْتِهم وهَدْيِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٢).

وقال السعدي: (الصَّحابةُ رَضيَ الله عنهم هم كالزَّرعِ في نَفْعِهم للخَلْقِ، واحتياجِ النَّاسِ إليهم؛ فقُوَّةُ إيمانِهم وأعمالِهم بمَنزِلةِ قُوَّةِ عُروقِ الزَّرعِ وسُوقِه، وكَونُ الصَّغيرِ والمتأخِّرِ إسلامُه قد لَحِقَ الكَبيرَ السَّابقَ، ووازَرَه وعاوَنَه على ما هو عليه مِن إقامةِ دينِ اللهِ والدَّعوةِ إليه: كالزَّرعِ الَّذي أخرَجَ شَطْأَه، فآزَرَه فاستَغلَظَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٥، ٧٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ﴾ [آل عمران: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٥١ - ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ [التوبة: ١٢٠].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

وقال عزَّ شأنُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾

أي: وَعَد اللهُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحةَ مِن أصحابِ نَبيِّه أن يَنالوا مَغفِرةً لِذُنوبِهم، فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، ووَعَدَهم أن يَنالوا أجرًا عَظيمًا[1].

---

= قال السعدي: (﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ حينَ يَرَونَ اجتِماعَهم وشِدَّتَهم على دِينِهم، وحينَ يَتصادَمونَ هم وهم في مَعارِكِ النِّزالِ، ومعامِعِ القِتالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٦).

قال النَّحَّاسُ: (يجوزُ أن تكونَ «مِنْ» هاهنا لبَيانِ الجِنسِ، كما قال تعالى: ﴿ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، ويجوزُ أن تكونَ للتَّبعيضِ، أي: وَعَد اللهُ الَّذين ثَبَتوا على الإيمانِ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [المائدة: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تَسُبُّوا أصحابي؛ فلو أنَّ أحَدَكم أنفقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا ما بلَغَ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصِيفَه[1]!))[2].

---

= منهم مَغفِرةً وأجرًا عَظيمًا). ((معاني القرآن)) (٦/ ٥١٨). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩، ٣٠).

وقال ابنُ عاشور: (وقولُه: ﴿مِنۡهُم﴾ يجوزُ أنْ تكونَ «مِن» للبَيانِ...، ويَجوزُ إبقاؤُه على ظاهِرِ المعنى مِن التَّبعيضِ؛ لأنَّه وَعدٌ لكلِّ مَن يكونُ مع النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الحاضرِ والمستقبَلِ؛ فيَكونُ ذِكرُ «مِن» تَحذيرًا، وهو لا يُنافي المغفِرةَ لِجَميعِهم؛ لأنَّ جَميعَهم آمَنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ، وأصحابُ الرَّسولِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هم خِيرةُ المُؤمنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٠، ٢١١).

وممَّن قال بأنَّها لبيانِ الجِنسِ: القرطبيُّ، وابن القيِّم، والسمين الحلبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ١٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٧٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٣).

قال القونوي: («مِنْ» للبيانِ لا للتَّبعيضِ، فلا يكونُ حُجَّةً للطَّاعِنينَ في الأصحابِ بجَعْلِ «مِنْ» تبعيضيَّةً، ولا نَذكُرُ الصَّحابةَ إلَّا بخَيرٍ، ونُجِلُّهم أجمَعينَ). ((حاشية القونوي على تفسير البيضاوي)) (١٨/ ١٠١).

(١) المُدُّ: رُبعُ الصَّاعِ. والنَّصِيفُ: نِصْفُه. والمعنى: أنَّ جُهْدَ المُقِلِّ منهم واليَسيرَ مِن النَّفَقةِ الَّذي أنفَقوه في سبيلِ الله مع شِدَّةِ العَيشِ والضِّيقِ الَّذي كانوا فيه، أَوْفى عندَ الله وأزكى مِن الكثيرِ الَّذي يُنفِقُه مَن بَعْدَهم. يُنظر: ((غريب الحديث)) لأبي عُبَيْدٍ القاسمِ بنِ سلَّام (١/ ٣٧٩)، ((معالم السنن)) للخَطَّابي (٤/ ٣٠٨)، ((كشف المُشْكِل)) لابن الجوزي (٣/ ١٥٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٠٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٦٧٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٤١).

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ مِن حَقِّ المُسلِمينَ في كُلِّ زَمانٍ أن يُراعُوا هذا التَّذَلُّلَ وهذا التَّعَطُّفَ، فيُشَدِّدوا على مَن ليس مِن دينِهم ويَتحامَوه، ويُعاشِروا إخوانَهم المُؤمِنينَ في الإسلامِ مُتعَطِّفينَ بالبِرِّ والصِّلةِ والمعَونةِ، وكَفِّ الأذى، والاحتِمالِ منهم[1].

٢- قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ في بابِ العِبارةِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم علينا أن نُفَرِّقَ بيْنَ مُخاطَبتِه وبيْنَ الإخبارِ عنه؛ فإذا خاطَبْناه كان علينا أن نتأدَّبَ بآدابِ اللهِ تعالى؛ حيثُ قال: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ [النور: ٦٣]، فلا نقولُ: يا محمَّدُ، يا أحمَدُ، كما يَدعو بَعضُنا بعضًا، بل نقولُ: يا رَسولَ اللهِ، يا نبيَّ اللهِ. واللهُ سُبحانَه وتعالى خاطَبَ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأسمائِهم، فقال: ﴿يَٰٓءَادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۞ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١، ١٢]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ولَمَّا خاطَبَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]؛ فنَحن أحَقُّ أن نتأدَّبَ في دُعائِه وخِطابِه، وأمَّا إذا كان في مَقامِ الإخبارِ عنه قُلْنا: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ، وقُلْنا: مُحمَّدٌ رَسولُ اللهِ وخاتَمُ النَّبيِّينَ؛ فنُخبِرُ عنه باسمِه كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه لَمَّا أخبَرَ عنه صلَّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧).

اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ [محمد: ٢]؛ فالفَرقُ بيْنَ مَقامِ المُخاطَبةِ ومَقامِ الإخبارِ فَرقٌ ثابتٌ بالشَّرعِ والعَقلِ(١).

ومِنَ النَّاسِ مَنِ احتَجَّ على تَفضيلِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على غَيرِه مِنَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ بهذه الآيةِ وبغَيرِها مِن الآياتِ؛ يقولُ: ما خاطَبَ اللهُ تعالى محُمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في القُرآنِ إلَّا باسْمِ الرِّسالةِ والنُّبُوَّةِ، وخاطَبَ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأسمائِهم؛ وذلك لِفَضلٍ جُعِل له دونَ غَيرِه(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ كلُّ مَنِ اقتَفَى أثَرَ الصَّحابةِ فهو في حُكْمِهم، ولهم الفَضلُ والسَّبقُ والكَمالُ الَّذي لا يَلحَقُهم فيه أحَدٌ مِن هذه الأُمَّةِ، رَضِيَ الله عنهم وأرضاهم، وجَعَل جَنَّاتِ الفِردَوسِ مَأواهم، وقد فَعَل(٣).

٤- قال الله تعالى: ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ فمُغايَظةُ الكُفَّارِ غايةٌ مَحبوبةٌ للرَّبِّ، مَطلوبةٌ له؛ فمُوافَقتُه فيها مِن كَمالِ العُبوديَّةِ، وشَرَعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للمُصَلِّي إذا سَها في صَلاتِه سَجدَتَينِ، وقال: ((إذا شكَّ أحدُكم في صَلاتِه

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٣).

فَلْيُلْقِ الشَّكَّ، ولْيَبْنِ على اليَقينِ، فإنِ استَيْقَنَ التَّمامَ سجَد سجدتَينِ، فإن كانت صَلاتُه تامَّةً كانت الرَّكعةُ نافِلةً والسَّجْدَتانِ، وإن كانت ناقِصةً كانت الرَّكعةُ تمامًا لِصَلاتِه، والسَّجْدَتانِ تُرغِمانِ[١] أنْفَ الشَّيطانِ))[٢]، وفي روايةٍ ((تَرغيمًا[٣] للشَّيطانِ))[٤]؛ فمَن تَعَبَّدَ للهِ بمُراغَمةِ عَدُوِّه فقد أخَذَ مِن الصِّدِّيقيَّةِ بسَهمٍ وافِرٍ، وعلى قَدْرِ مَحبَّةِ العَبدِ لِرَبِّه ومُوالاتِه ومُعاداتِه لِعَدُوِّه يكونُ نَصيبُه مِن هذه المُراغَمةِ[٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- يَشْهَدُ القرآنُ برِضا اللهِ عنِ الصَّحابةِ، وثنائِه عليهم، كقَولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

---

(١) أرْغَمَ أنْفَه: أي: ألصَقَه بالرَّغام، وهو التُّرابُ. هذا هو الأصلُ، ثمَّ استُعمِل في الذُّلِّ والعجزِ عن الانتِصافِ، والانقيادِ على كُرهٍ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) أخرجه ابن خزيمة (١٠٢٣)، وابن حبان (٢٦٦٤)، والدارقطني (١٣٩٩)، والبيهقي في ((معرفة السنن والآثار)) (٤٥١٢) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.
صحَّحه النَّوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ١٠٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٦٣٣)، وقال شعيبٌ في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٦٦٧): (إسنادُه قويٌّ على شرطِ مسلمٍ).
وهو في ((صحيح مسلم)) (٥٧١) بمعناه.

(٣) أي: إغاظةً له وإذلالًا. والمعنى: أنَّ الشَّيطانَ لبَّس عليه صلاتَه وتعرَّض لإفسادِها ونقصِها، فجعَلَ اللهُ تعالى للمصلِّي طريقًا إلى جبرِ صَلاتِه، وتَدارُكِ ما لبَسَه عليه، وإرغامِ الشَّيطانِ ورَدِّه خاسئًا مُبعَدًا عن مُرادِه، وكمَلَتْ صلاةُ ابنِ آدَمَ، وامتثَل أمْرَ اللهِ تعالى الَّذي عصى به إبليسُ مِن امتِناعِه مِن السُّجودِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ٦٠، ٦١).

(٤) أخرجه مسلم (٥٧١).

(٥) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٤١).

بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[1] [الحديد: ١٠].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ في الجمْعِ لأصحابِ النَّبيِّ بيْنَ هاتَينِ الخَلَّتَينِ المُتضادَّتَينِ؛ الشِّدَّةِ والرَّحمةِ: إيماءٌ إلى أصالةِ آرائِهم، وحِكمةِ عُقولِهم، وأنَّهم يَتصرَّفونَ في أخلاقِهم وأعمالِهم تَصرُّفَ الحِكمةِ والرُّشدِ، فلا تَغلِبُ على نُفوسِهم مَحمَدةٌ دُونَ أُخرَى، ولا يَندَفِعونَ إلى العَملِ بالجِبِلَّةِ وعدَمِ الرَّوِيَّةِ[2].

٣- المُبهَمُ[3] لا يُقبَلُ حَديثُه حتَّى يُعلَمَ مَن هو؛ وذلك لِجَهالَتِنا بحالِه، إلَّا المُبهَمَ مِنَ الصَّحابةِ؛ فإنَّ إبهامَه لا يَضُرُّ؛ لأنَّ الصَّحابةَ كُلَّهم عُدولٌ ثِقاتٌ بشَهادةِ اللهِ تعالى لهم في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: ١٠]، وتَزكيتِه إيَّاهم في قَولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾، وقَولِه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[4] [التوبة: ١٠٠]، فلا تضُرُّ الجهالةُ بعَينِ الصَّحابيِّ بعدَ ثُبوتِ صُحبتِه[5].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٥).

(٣) المُبهَمُ: هو الرَّاوي الَّذي لم يُسَمَّ، أو مَن سُمِّيَ ولا تُعرَفُ عَيْنُه. يُنظر: ((اختصار علوم الحديث)) لابن كثير (ص: ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((شرح المنظومة البيقونية)) لابن عثيمين (ص: ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تحقيق مُنيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة)) للعلائي (ص: ٥٧).

إلى آخِرِ السُّورةِ: رَدٌّ على الرَّافِضةِ ومَن يَنتَقِصُ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤُه وَصَفَهم بهذه الصِّفةِ وَصفًا عامًّا؛ فكُلُّ مَن صَحِبَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وكان معه بعدَ الإسلامِ فقدِ استحَقَّها، وصار مِن أهلِها، ووَجَبَ على النَّاسِ إعظامُهم وتبجيلُهم والرَّحمةُ عليهم، وتَركُ التَّنَقُّصِ لِجَميعِهم، وإنْ فُضِّلَ بعضُهم على بَعضٍ بما فَضَّلَهم اللهُ ورَسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورحِمَهم أجمعينَ[1].

٥- قَولُه تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ ثَناءٌ عليهم بهما، وإنْ كان ذِكرُهما مُنتظِمًا لِبَقيَّةِ أفعالِ الصَّلاةِ؛ كما في القِراءةِ والقيامِ والتَّسبيحِ والسُّجودِ المُجَرَّدِ، وهو مِن بابِ التَّعبيرِ بالبَعضِ عن الجَميعِ، وهو دَليلٌ على وُجوبِه فيه[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه لَطيفةٌ، وهو أنَّه تعالى قال في حَقِّ الرَّاكِعينَ والسَّاجِدينَ: إنَّهم يَبتَغونَ فَضلًا مِنَ اللهِ، وقال: لهم أجرٌ، في قَولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾، ولم يَقُلْ: لهم ما يَطلُبونَه مِن ذلك الفَضلِ؛ وذلك لأنَّ المُؤمِنَ عندَ العَمَلِ لم يلتَفِتْ إلى عَمَلِه، ولم يَجعَلْ له أجرًا يَعتَدُّ به، فقال: لا أبتَغي إلَّا فَضْلَك. واللهُ تعالى آتاه ما آتاه مِنَ الفَضلِ، وسَمَّاه أجرًا؛ إشارةً إلى قَبولِ عَمَلِه، ووُقوعِه الموقِعَ، وعَدَمِ كَونِه عندَ اللهِ نَزْرًا لا يَستَحِقُّ عليه المُؤمِنُ أجرًا[3]!

٧- أنَّ مَقولةَ بَعضِهم: «إنَّ الإخلاصَ حَقيقةً أنْ تَعبُدَ اللهَ للهِ، لا لِثَوابِ اللهِ!»: خَطَأٌ؛ لأنَّه مخالِفٌ لهَدْيِ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٧٠، ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٣/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٠).

رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾، فهم يَبتَغونَ الفَضلَ والرِّضوانَ، لكِنَّ ذلك القَولَ المشارَ إليه هو قَولُ بَعضِ الصُّوفيَّةِ؛ يَقولونَ: إنَّك إذا لاحَظْتَ الثَّوابَ فقد أشرَكْتَ في العبادةِ! نسألُ اللهَ العافيةَ. واللهُ عزَّ وجَلَّ يُرشِدُنا إلى هذا، ويُبَيِّنُ أنَّ هذا هو طريقُ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وأصحابِه[1].

٨- عن أبي عُروةَ الزُّبَيْريِّ، قال: (كنَّا عندَ مالكٍ فذكروا رجُلًا يَنتقِصُ أصحابَ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقرأ مالكٌ هذه الآيةَ: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾، فقال مالكٌ: مَن أصبَحَ وفي قلبِه غَيظٌ على أحدٍ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد أصابَتْهُ الآيةُ)[2].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ لِبَيانِ ترَتُّبِ المَغفِرةِ على الإيمانِ -فإنَّ كُلَّ مُؤمِنٍ يُغفَرُ له، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]- وترتُّبِ الأجرِ العَظيمِ على العَمَلِ الصَّالِحِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((السنة)) لأبي بكرٍ الخلَّال (٧٦٠)، ((حلية الأولياء)) لأبي نُعَيم (٦/ ٣٢٧).

قال القرطبي: (لقد أحسَنَ مالكٌ في مَقالَتِه، وأصاب في تأويلِه، فمَنْ نقَصَ واحدًا منهم أو طعَنَ عليه في روايتِه فقد رَدَّ على اللهِ ربِّ العالَمينَ، وأبطَلَ شرائعَ المسلمينَ؛ فالصَّحابةُ كلُّهم عُدولٌ، أولياءُ اللهِ تعالى وأصفياؤُه، وخِيرتُه مِن خَلقِه بعدَ أنبيائِه ورُسلِه، هذا مَذهبُ أهلِ السُّنَّةِ، والَّذي عليه الجماعةُ مِن أئمَّةِ هذه الأُمَّةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩٧، ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٠).

١٠- قد اجتمَع حُروفُ المُعجَم التِّسعةُ والعِشرونَ في هذه الآيةِ الكريمةِ، وهي: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ...﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ، أوَّلُ حُروفِ المُعجمِ فيها (ميم) مِن ﴿مُّحَمَّدٌ﴾، وآخِرُها (صاد) مِن ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فبِهِ تَكتمِلُ حُروفُ المُعجمِ فيها. وتقدَّم نظيرُ ذلك في سورةِ آلِ عِمْرانَ، في قوله: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا ...﴾ [آل عمران: ١٥٤]. وليس في القرآنِ آيتانِ كلُّ آيةٍ حَوَتْ حُروفَ المُعجَمِ غيرهما[١].

## بلاغةُ الآيةِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾

- قَولُه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ...﴾ ليس المقصودُ إفادةَ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وإنَّما المَقصودُ بَيانُ رسولِ اللهِ مَن هو؟ بعْدَ أنْ أجْرى عليه مِن الأخبارِ مِن قولِه: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧] إلى قولِه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨]، فيُعَدُّ السَّامعُ كالمُشتاقِ إلى بَيانِ مَن هذا المُتحدَّثُ عنه بهذه الأخبارِ، فيُقالُ له: محمَّدٌ رسولُ اللهِ، أي: هو محمَّدٌ رسولُ اللهِ، وهذا مِن العِنايةِ والاهتِمامِ بذِكْرِ مَناقبِه صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فتُعَدُّ الجُملةُ المَحذوفُ مُبتَدؤُها مُستأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا[٢].

وفي هذا أيضًا نِداءٌ على إبطالِ جُحودِ المشركينَ رِسالتَه حِينَ امتَنَعوا مِن أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٣).

يَكتُبَ في صَحيفةِ الصُّلحِ: ((هذا ما قاضَى عليه مُحمَّدٌ رسولُ اللهِ، وقالوا: لو كنَّا نعلَمُ أنَّكَ رسولُ اللهِ ما صَدَدْناك عن البَيتِ))[١].

- والمقصودُ مِن قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ الثَّناءُ على أصحابِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تَشريفًا لهم وكَرامةً، ومعنى ﴿مَعَهُۥٓ﴾ المُصاحَبةُ الكامِلةُ بالطَّاعةِ والتَّأييدِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ مِن أُسلوبِ التَّكميلِ؛ فإنَّه لو اكْتَفَى به لَأوْهَمَ الفَظاظةَ والغِلْظةَ، فكمَّلَ بقولِه: ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾، يعني أنَّهم معَ كونِهم أشِدَّاءَ على الأعداءِ رُحَماءُ فيما بيْنَهم، أربابُ وَقارٍ وتراحُمٍ[٣].

- وفي تَعليقِ ﴿رُحَمَآءُ﴾ مع ظرْفِ (بيْن) المُفيدِ للمَكانِ الدَّاخلِ وسَطَ ما يُضافُ هو إليه؛ تَنْبيهٌ على انبثاثِ التَّراحُمِ فيهم جميعًا[٤].

- قَولُه: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ فيه إيثارُ صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ ذلك، أي: تَراهم كُلَّما شِئتَ أنْ تَراهم رُكَّعًا سُجَّدًا، وهذا ثَناءٌ عليهم بشِدَّةِ إقبالِهم على أفضَلِ الأعمالِ المُزَكِّيةِ للنَّفْسِ، وهي الصَّلَواتُ مَفروضُها ونافِلتُها، وأنَّهم يَتطلَّبون بذلك رِضا اللهِ ورِضوانَه. وفي سَوقِ هذا في مَساقِ الثَّناءِ إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ حقَّقَ لهم ما يَبتَغونه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٣).
والحديث أخرجه البخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإشارةُ في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ إلى ما سبَقَ مِن نُعوتِهم الجَليلةِ، وما في الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن مَعنى البُعدِ، معَ قُرْبِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلوِّ شأْنِه، وبُعدِ مَنزلتِه في الفَضلِ[1].

- وقولُه: ﴿فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿مَثَلُهُمْ﴾، أو حالٌ منه؛ فيَحتمِلُ أنَّ في التَّوراةِ وصْفَ قَومٍ سيأْتونَ، ووُصِفوا بهذه الصِّفاتِ، فبيَّنَ اللهُ بهذه الآيةِ أنَّ الَّذين معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هم المَقصودُونَ بتِلك الصِّفةِ العَجيبةِ الَّتي في التَّوراةِ، أي: إنَّ التَّوراةَ قد جاءتْ فيها بِشارةٌ بمَجيءِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ووَصْفُ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[2].

- قَولُه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ هذا مثَلٌ ضرَبَه اللهُ لبَدْءِ أمْرِ الإسلامِ، وتَرقِّيه في الزِّيادةِ إلى أنْ قوِيَ واستَحْكَمَ، ومعنى هذا التَّمثيلِ تَشبيهُ حالِ بَدءِ المُسلِمينَ ونَمائِهم حتَّى كَثُروا، وذلك يَتضمَّنُ تَشبيهَ بَدْءِ دِينِ الإسلامِ ضَعيفًا، وتَقوِّيه يومًا فيومًا حتَّى استَحكَمَ أمْرُه، وتغلَّبَ على أعدائِه. وهذا التَّمثيلُ قابِلٌ لاعتِبارِ تَجزئةِ التَّشبيهِ في أجزائِه؛ بأنْ يُشبَّهَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالزَّارِعِ، ويُشبَّهَ المؤمِنونَ الأوَّلونَ بحَبَّاتِ الزَّرعِ الَّتي يَبذُرُها في الأرضِ، مِثلُ أبي بكرٍ وخديجةَ، وعليٍّ وبِلالٍ وعَمَّارٍ، والشَّطْءُ: مَن أيَّدوا المُسلِمينَ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ دعا إلى اللهِ وحْدَه، وانضمَّ إليه نفَرٌ قليلٌ، ثمَّ قَوَّاه اللهُ بمَنْ آمَنَ معَه، كما يُقوِّي الطَّاقةَ الأُولى مِن الزَّرعِ ما يَحتَفُّ بها ممَّا يَتولَّدُ منها حتَّى يُعجِبَ الزُّرَّاعَ، وقولُه: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ تَحسينٌ للمُشَبَّهِ به؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٧).

لِيُفيدَ تحسينَ المُشَبَّهِ[١].

- ومعنَى ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ غلُظَ غِلَظًا شَديدًا في نَوعِه؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، مِثل استجابَ[٢].

- قَولُه: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ تَعليلٌ لِمَا دلَّ عليه تَشبيهُهم بالزَّرعِ في زَكائِه واستِحكامِه، ومِن نَمائهم وقُوَّتِهم، كأنَّه قيلَ: إنَّما قوَّاهم وكثَّرَهم؛ ليَغيظَ بهم الكفَّارَ. ويجوزُ أنْ يُعلَّلَ به ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ الكُفَّارَ إذا سمِعوا بما أُعِدَّ لهم في الآخِرةِ معَ ما يُعِزُّهم به في الدُّنيا، غاظَهم ذلك[٣].

- وفي قَولِه في خِتامِ هذه السُّورةِ العَظيمةِ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ أعقَبَ تَنويهَ شأْنِهم والثَّناءَ عليهم بوَعْدِهم بالجَزاءِ على ما اتَّصَفوا به مِن الصِّفاتِ الَّتي لها الأثرُ المَتينُ في نَشْرِ هذا الدِّينِ ونصْرِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٠).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الحُجُراتِ

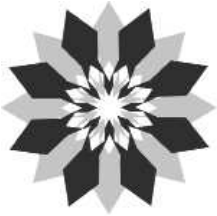

# سُورةُ الحُجُراتِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحُجُراتِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الحُجُراتِ مَدَنيَّةٌ[٢]، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ الكريمةِ:**

إرشادُ المُؤمِنينَ إلى مَكارِمِ الأخلاقِ مع اللهِ تعالى، ومع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومع المؤمِنينَ[٤].

---

(١) سُمِّيت سورةَ (الحُجُراتِ)؛ لأنَّه ذُكِرَ فيها لَفظُ (الحُجُراتِ)، في قَولِ الله تعالى: ﴿يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ [الحجرات: ٤]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٣).

قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَت في جميعِ المصاحِفِ وكُتُبِ السُّنَّةِ والتَّفسيرِ سُورةَ الحُجُراتِ، وليس لها اسمٌ غَيرُه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٩).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٣/ ٢٩٦).

قال الرازي: (هذه السُّورةُ فيها إرشادُ المؤمنينَ إلى مَكارِمِ الأخلاقِ، وهي إمَّا مع اللهِ تعالى، أو مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو مع غَيرِهم مِن أبناءِ الجِنسِ، وهم على صِنْفَينِ؛ لأنَّهم إمَّا أنْ يَكونوا على طَريقةِ المؤمِنينَ وداخِلينَ في رُتبةِ الطَّاعةِ، أو خارِجًا عنها وهو الفاسقُ، والدَّاخِلُ في طائفتِهم السَّالكُ لطَريقتِهم إمَّا أنْ يكونَ حاضرًا عندَهم، أو غائبًا عنهم، فهذه خمْسةُ =

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلتْ عليها السُّورةُ:**

١- تعليمُ المُؤمِنينَ ما يجِبُ عليهم نحوَ خالِقِهم، ونحوَ نَبيِّهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن أدَبٍ.

٢- أمْرُ المُؤمِنينَ بالتَّثبُّتِ مِن صِحَّةِ الأخبارِ الَّتي تَصِلُ إلى مَسامِعِهم.

٣- بيانُ جانبٍ مِن مَظاهِرِ فَضلِ اللهِ على المؤمِنينَ.

٤- بيانُ ما يجِبُ على المؤمِنينَ نحوَ إخوانِهم عندَ حُدوثِ قِتالٍ بيْنَهم؛ مِنَ الإصلاحِ بيْنَهم، ومُقاتَلةِ الفِئةِ الباغيةِ إذا ما أصَرَّتْ على بَغْيِها وأَبَت الصُّلحَ، إلى أن تَفيءَ إلى أمرِ اللهِ تعالى.

٥- نَهيُ المُؤمِنينَ عن السُّخْريَةِ، والأمرُ باجتِنابِ الظَّنِّ السَّيِّئِ بالغَيرِ، والنَّهيُ

---

= أقسام؛ أحدُها: يَتعلَّقُ بجانبِ اللهِ، وثانيها: بجانبِ الرَّسولِ، وثالثُها: بجانبِ الفُسَّاقِ، ورابعُها: بالمؤمنِ الحاضرِ، وخامسُها: بالمؤمنِ الغائبِ، فذكَرَهم اللهُ تعالى في هذه السُّورةِ خمْسَ مرَّاتٍ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأرشَدَهم في كلِّ مرَّةٍ إلى مَكرُمةٍ مع قِسمٍ مِن الأقسامِ الخمْسةِ؛ فقال أوَّلًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، وذِكرُ الرَّسولِ كان لبَيانِ طاعةِ اللهِ؛ لأنَّها لا تُعلَمُ إلَّا بقَولِ رسولِ اللهِ، وقال ثانيًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ٢]؛ لبَيانِ وُجوبِ احترامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال ثالثًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾؛ لبَيانِ وُجوبِ الاحترازِ عن الاعتِمادِ على أقوالِهم؛ فإنَّهم يُريدون إلقاءَ الفِتنةِ بيْنَكم، وقال رابعًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ [الحجرات: ١١]، وقال: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ﴾ [الحجرات: ١١]؛ لبَيانِ وُجوبِ ترْكِ إيذاءِ المؤمنينَ في حُضورِهم والازدِراءِ بحالِهم ومَنصِبِهم، وقال خامسًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾؛ لبَيانِ وُجوبِ الاحترازِ عن إهانةِ جانبِ المؤمنِ حالَ غَيبتِه وذِكرِ ما لو كان حاضرًا لَتأذَّى، وهو في غايةِ الحُسْنِ مِن التَّرتيبِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٧، ٩٨) بتصرف.

عن التَّجَسُّسِ والغِيبةِ.

٦- تَوجيهُ نِداءٍ إلى النَّاسِ يُبيِّنُ لهم فيه أنَّهم جميعًا قد خُلِقوا مِن ذَكَرٍ وأُنثَى، وأنَّ أكرَمَهم عندَ اللهِ هو أتقاهم له.

٧- الرَّدُّ على الأعرابِ الَّذين قالوا: آمَنَّا، دونَ أن يَستَقِرَّ الإيمانُ في قُلوبِهم، وتوضيحُ صِفاتِ المُؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

٨- ذمُّ المَنِّ على اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإيمانِ، وأنَّ المِنَّةَ لله تعالى والفَضلَ في الهدايةِ للإيمانِ.

٩- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بإحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى بغَيبِ السَّمَواتِ والأرضِ، وكَونِه بَصيرًا بالأعمالِ.

## الآيات (١-٥)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ٤ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخۡرُجَ إِلَيۡهِمۡ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَحۡبَطَ﴾: أي: تَبطُلَ؛ فالحَبْطُ: البُطلانُ، وأصلُه مِن الحَبَطِ، وهو: أنْ تُكثِرَ الدَّابَّةُ أكْلًا حتَّى يَنتفِخَ بطْنُها فتَمُوتَ[1].

﴿يَغُضُّونَ﴾: أي: يَخفِضُون ويَكُفُّون، والغضُّ: الكَفُّ في لِينٍ، ومنه: غضُّ البصَرِ، وهو كَفُّه عن النَّظرِ، وأصلُ (غضض): يدُلُّ على كَفٍّ ونقْصٍ[2].

﴿ٱمۡتَحَنَ﴾: أي: اختَبَر أو أخْلَصَ، والمَحْنُ: الاختبارُ[3].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٦)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٣٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥).

قولُه تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ فيه وَجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه مُتعَدٍّ، وحُذِفَ مَفعولُه: إمَّا اقتِصارًا، كقولِهم: هو يُعْطي ويَمنَعُ، ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وإمَّا اختِصارًا؛ لِلدَّلالةِ عليه، أي: لا تُقَدِّموا ما لا يَصلُحُ. والثَّاني: أنَّه لازِمٌ، نحْوُ وَجَّه وتَوَجَّه[١].

٢- قوله: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾

قَولُه تَعالى: ﴿كَجَهْرِ﴾ شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ في مَوضِعِ نصْبٍ نَعتٌ لِمَصدرٍ مَحْذوفٍ، تَقديرُه: جَهرًا كجَهْرِ...[٢].

وقولُه: ﴿أَن تَحْبَطَ﴾ مَفعولٌ مِن أجْلِه، وهو تَعليلٌ لِما قَبْلَه مِنَ النَّهيَينِ ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ﴾ و(لَا تَجْهَرُوا) على طريقِ التَّنازُعِ، بتقديرِ مُضافٍ، أي: مَخافةَ أنْ تَحبَطَ[٣].

٣- قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾

قولُه: ﴿أَنَّهُمْ صَبَرُواْ﴾ فاعلٌ بفِعلٍ مُقدَّرٍ، أي: ولو ثبَتَ صبْرُهم، واسمُ (كان) ضَميرٌ عائدٌ على هذا الفاعلِ. أو في مَحلِّ رفْعٍ بالابتداءِ، وخبَرُه مَحذوفٌ، ويكونُ اسمُ (كان) ضَميرًا عائدًا على (صَبْرِهم) المفهومِ مِن الفعلِ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يَنهى اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ أنْ يَتقدَّموا بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورسولِه بقولٍ أو فِعلٍ، ويَأمُرُهم أنْ يَتَّقُوه بفِعلِ أوامرِه، واجتِنابِ نَواهِيه، فإنَّ اللهَ سبحانَه سَميعٌ لِكلِّ

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٥).

(٢) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٠).

(٣) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٥، ٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٧).

شَيءٍ، ومِن ذلك أقوالُهم، عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك أعمالُهم ونِيَّاتُهم.

ويَنهاهم كذلك عن أنْ يُعْلوا أصْواتَهم فوقَ صَوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعن أنْ تكونَ مُناداتُهم له باسمِه كما يكونُ النِّداءُ بيْنَهم بَعضِهم لبعضٍ؛ وذلك مَخافةَ أنْ تَبطُلَ أعمالُهم الصَّالِحةُ وهم لا يَشعُرون بذلك.

ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ الَّذين يَخفِضونَ أصواتَهم عندَ رسولِ اللهِ أولئك الَّذين اختبَر اللهُ قُلوبَهم فأخلَصَها وطهَّرها؛ لِيَكونوا أتْقياءَ، وأنَّ لهم مَغفرةً مِن اللهِ وثَوابًا عَظيمًا.

ثمَّ قال لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ الَّذين يُنادونَك يا محمَّدُ مِن وَراءِ بُيوتِ نِسائِك، أكثرُهم جاهِلون بدِينِ اللهِ، وما يجبُ تُجاهَك، ولو أنَّهم انتَظَروا حتَّى تَخرُجَ مِنْ بَيتِك مِن تِلْقاءِ نفْسِك، لَكان هذا خيرًا لهم، واللهُ غفورٌ رَحيمٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ رضِيَ اللهُ عنهما: (أنَّه قَدِمَ رَكْبٌ[1] مِن بني تَميمٍ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال أبو بكرٍ: أمِّرِ القَعْقاعَ بنَ مَعبَدِ بنِ زُرارةَ، قال عُمَرُ: بلْ أمِّرِ الأقرعَ بنَ حابِسٍ، قال أبو بكرٍ: ما أرَدْتَ إلَّا خِلافي! قال عمَرُ: ما أردْتُ خِلافَك، فتَمارَيَا[2] حتَّى ارتفَعَت أصواتُهما، فنزَلَ في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) الرَّكْبُ: أصحابُ الإبِلِ في السَّفَرِ، وهم العَشَرةُ فما فَوقَها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٢٧).

(٢) فتَماريَا: أي: تجادَلَا وتخاصَمَا. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٩/ ١٨٤).

ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ حتَّى انقَضَت)[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَعجَلوا بقَولٍ أو فِعلٍ قبْلَ أنْ يَأمُرَ به اللهُ ورسولُه، فكونوا تَبَعًا لِما يَأْمُرانِ به[٢].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧ - ٩).

قال الشوكاني: (... ﴿لَا تُقَدِّمُواْ﴾ ... فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه مُتعَدٍّ وحُذِفَ مَفعولُه لِقَصدِ التَّعميمِ، أو تُرِكَ المفعولُ للقَصدِ إلى نفْسِ الفِعلِ، كقَولِهم: هو يُعطي ويمنَعُ. والثَّاني: أنَّه لازِمٌ، نحوُ: وَجَّه وتَوَجَّه، ويُعَضِّدُه قِراءةُ ابنِ عبَّاسٍ والضَّحَّاكِ ويَعقوبَ: ﴿تَقَدَّمُوا﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٩).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: لا تَتكَلَّموا بأمرٍ قبْلَ أن يَتكلَّمَ هو به، ولا تَقطَعوا في أمرٍ إلَّا بنَظَرِه. والثَّاني: لا تُقَدِّموا الوُلاةَ بمَحضَرِه؛ فإنَّه يُقدِّمُ مَن شاء. والثَّالِثُ: لا تَتَقَدَّموا بيْنَ يديه إذا مشَى، وهذا إنَّما يجري على قراءةِ يَعقوبَ: ﴿لَا تَقَدَّمُوا﴾ بفَتحِ التَّاءِ والقافِ والدَّالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٢٩٤).

وقال القرطبي: (أي: لا تُقَدِّموا قَولًا ولا فِعلًا بيْنَ يَدَيِ اللهِ وقَولِ رَسولِه وفِعْلِه فيما سَبيلُه أن تأخُذوه عنه مِن أمرِ الدِّينِ والدُّنيا، ومَن قدَّم قَولَه أو فِعْلَه على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد قدَّمه على الله تعالى؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما يأمُرُ عن أمْرِ اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٠).

وقال ابن القيِّم: (أي: لا تَقولوا حتَّى يقولَ، ولا تأمُروا حتَّى يأمُرَ، ولا تُفْتُوا حتَّى يُفْتيَ، ولا تَقطَعوا أمرًا حتَّى يَكونَ هو الَّذي يَحكُمُ فيه ويُمْضيه... والقَولُ الجامعُ في معنى الآيةِ: لا تَعْجَلوا بقَولٍ ولا فِعْلٍ قبْلَ أن يَقولَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو يَفعَلَ). ((إعلام الموقعين)) (١/ ٤١).

ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٧).

وقال ابن عُثيمين: (أي: لا تَتقدَّموا بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِه، والمرادُ: لا تَسبقوا اللهَ ورَسولَه بقَولٍ أو بفِعلٍ. وقيل: المعنى: لا تُقدِّموا شيئًا بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِه. وكِلاهما يَصُبَّانِ في مَصَبٍّ =

كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن رغِبَ عن سُنَّتي فليس مِنِّي))[١].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نَهَى، أمَرَ بالتَّقْوى؛ لأنَّ مِن التَّقوى اجتِنابَ المنْهيِّ عنه[٢].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾.

أي: واتَّخِذوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً وحاجزًا بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نَواهِيهِ، واحْذَروا أنْ تَقولوا أو تَفعَلوا شيئًا لم يَأذَنْ لكم به اللهُ ولا

---

= واحدٍ، والمعنى: لا تَسبِقوا اللهَ ورَسولَه بقَولٍ ولا فِعلٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧).

وقال الشنقيطي: (هذه الآيةُ الكريمةُ فيها التَّصريحُ بالنَّهيِ عن التَّقديمِ بيْنَ يَدَيِ اللهِ ورَسولِه، ويَدخُلُ في ذلك دُخولًا أوَّليًّا تشريعُ ما لم يأذَنْ به اللهُ، وتحريمُ ما لم يُحرِّمْه، وتحليلُ ما لم يُحلِّلْه؛ لأنَّه لا حرامَ إلَّا ما حرَّمه اللهُ، ولا حلالَ إلَّا ما أحلَّه اللهُ، ولا دِينَ إلَّا ما شرَعه اللهُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٠١).

وقال ابن الجوزي: (﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ... عبارةٌ عن الأمامِ؛ لأنَّ ما بيْنَ يَدَيِ الإنسانِ أمامَه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤٣).

(١) رواه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧).

رسولُه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ سَميعٌ لِكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك أقوالُ عِبادِه، عليمٌ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك أعمالُ عِبادِه وقُلوبُهم ونِيَّاتُهم، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أُمورِهم[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ هذا شُروعٌ في النَّهيِ عنِ التَّجاوُزِ في كَيفيَّةِ القَولِ عندَ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بعْدَ النَّهيِ عنِ التَّجاوُزِ في نفْسِ القولِ والفِعلِ[٣].

**سَبَبُ النُّزولِ:**

عن ابنِ أبي مُلَيكةَ، قال: (كادَ الخَيِّرانِ أنْ يَهلِكَا: أبو بكرٍ وعمَرُ رضِيَ اللهُ عنهما! رفَعَا أصواتَهما عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ قَدِمَ عليه ركْبُ بني تَميمٍ، فأشار أحَدُهما بالأقرَعِ بنِ حابسٍ أخي بَني مُجاشِعٍ، وأشار الآخَرُ برَجُلٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦).

آخَرَ، فقال أبو بكرٍ لعُمَرَ: ما أردْتَ إلَّا خِلافي، قال: ما أردْتُ خِلافَك، فارتفَعَتْ أصواتُهما في ذلك، فأنزَلَ اللهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾)[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَرْفَعوا أصواتَكم فوقَ صَوتِ نبيِّ اللهِ محمَّدٍ؛ فاخْفِضوا أصواتَكم، وخاطِبوه بأدَبٍ ولِينٍ وتَعظيمٍ واحترامٍ[2].

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم افتقَدَ ثابتَ ابنَ قَيسٍ، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنا أعلَمُ لكَ عِلْمَه، فأتاهُ فوجَدَه جالسًا في بَيتِه مُنكِّسًا رأْسَه[3]، فقال: ما شأْنُك؟ فقال: شرٌّ، كان يَرفَعُ صَوتَه فوقَ صَوتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقد حبِطَ عمَلُه، وهو مِن أهلِ النَّارِ، فأتى الرَّجُلُ فأخبَرَه أنَّه قال كذا وكذا، فقال مُوسى بنُ أنسٍ: فرجَعَ المرَّةَ الآخِرةَ ببِشارةٍ عَظيمةٍ، فقال: اذهَبْ إليه فقُلْ له: إنَّك لسْتَ مِن أهْلِ النَّارِ، ولكنْ مِن أهْلِ الجنَّةِ))[4].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٥-٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١).

قال الشنقيطي: (ما تَضمَّنَته هذه الآيةُ الكريمةُ مِن لُزومِ تَوقيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعظيمِه واحترامِه؛ جاء مُبيَّنًا في مَواضِعَ أُخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ [الفتح: ٩]، على القولِ بأنَّ الضَّميرَ في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وقولِه تعالى: ﴿ لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًا ﴾ [النور: ٦٣]...، وقولِه تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ ﴾ [الأعراف: ١٥٧]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٠٢).

(٣) نكَّسَ رأسَه: أي: طأطَأَ وأطرَقَ ونظَرَ إلى الأرضِ كالمُتفكِّرِ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ١٦٦).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٣) واللفظ له، ومسلم (١١٩).

﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾.

أي: ولا تُنادوا النَّبيَّ باسْمِه حينَ تُخاطِبونه كما يُنادي بعضُكم بعضًا، ولكنْ قُولوا: يا نبيَّ اللهِ، أو: يا رسولَ اللهِ، بصَوتٍ مُنخفِضٍ، مع تَعظيمٍ وإجلالٍ يَليقُ به[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١، ٤٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦).

قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّ الجهرَ بالصَّوتِ في المُخاطَبةِ، قاله الأكثَرونَ.

والثَّاني: لا تَدْعوه باسمِه: يا محمَّدُ، كما يَدعو بعضُكم بعضًا، ولكنْ قولوا: يا رسولَ الله، ويا نبيَّ الله. وهو معنى قولِ سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، والضَّحَّاكِ، ومُقاتِلٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤٣).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: السَّمْعانيُّ، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ كثير، والبِقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، ومكِّي، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠١٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤٣).

وممَّن جمَع بيْنَ القَولَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦).

كما قال الله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣].

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

أي: لا تَفعَلوا ذلك؛ لئلَّا تَبطُلَ أعمالُكم الصَّالِحةُ وأنتم لا تَعلَمون بذلك(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبْدَ لَيَتكلَّمُ بالكَلمةِ ما يَتبيَّنُ ما فيها، يَهْوي بها في النَّارِ أبْعَدَ ما بيْنَ المَشرِقِ والمغرِبِ!))(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يَخفِضونَ أصواتَهم عندَ رسولِ الله؛ أدَبًا معه وتَعظيمًا له: هم الَّذين اختبَرَ اللهُ قُلوبَهم بالأوامرِ والنَّواهي والبَلاءِ، فأخلَصَها وطهَّرها مِن كلِّ شرٍّ؛ لِيَكونوا أتْقياءَ يَمتثِلونَ الأوامرَ، ويَجتنِبونَ النَّواهيَ؛ حذَرًا مِن سَخَطِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧).

قال ابن تَيميَّةَ: (﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي: حذَرَ أن تحبَطَ أعمالُكم، أو خشيةَ أن تَحبَطَ أعمالُكم، أو كَراهةَ أن تَحبَطَ، أو مَنْعَ أن تَحبَطَ، هذا تقديرُ البَصريِّينَ، وتقديرُ الكوفيِّينَ: لئلَّا تَحبَطَ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٥٤).

(٢) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) واللَّفظُ له.

وعَذابِه[١].

كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ، ومَرْوانَ بنِ الحَكَمِ في حديثِ صُلْحِ الحُدَيبيَةِ: ((... قال عُروةُ بنُ مَسعودٍ الثَّقَفيُّ لِقُريشٍ حِينَ رجَعَ مِن عندِ رسولِ الله: أيْ قَومِ، واللهِ لقد وفَدْتُ على الملوكِ، ووفَدْتُ على قَيصرَ، وكِسرى، والنَّجاشيِّ، واللهِ إنْ رأيتُ مَلِكًا قَطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- محمَّدًا، واللهِ إنْ تَنخَّمَ نُخامةً إلَّا وقَعَت في كفِّ رجُلٍ منهم، فدلَكَ بها وجْهَه وجِلْدَه، وإذا أمَرَهم ابتَدَروا[٢] أمْرَه، وإذا تَوضَّأَ كادُوا يَقتَتِلون على وَضوئِه[٣]، وإذا تكلَّمَ خَفَضوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّون[٤] إليه النَّظرَ؛ تَعظيمًا له))[٥].

وعن حُذيفةَ بنِ اليَمانِ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتنُ على القُلوبِ كالحصيرِ عُودًا عُودًا[٦]، فأيُّ قلْبٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٣).
قال ابن الأنباري: (قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ معناه: اختارها وأخلَصها). ((الزاهر في معاني كلمات الناس)) (١/ ٤٠٦).

(٢) ابتَدَروا أمْرَه: أي: أسرَعوا إلى فِعْلِه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٤٤٧).

(٣) وَضُوئِه، بفتحِ الواوِ: أي: فَضلةِ الماءِ الَّذي توضَّأَ به صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٤٤٧).

(٤) ما يُحِدُّونَ إليه النَّظَرَ: أي: لا يَتأمَّلونَه ولا يُديمونَ النَّظَرَ إليه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٤٤٧).

(٥) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٦) أي: تَظهَرُ بها فِتنةٌ بعدَ أخرى، كما يُنسَجُ الحَصيرُ عُودًا عُودًا. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) لعلي القاري (٨/ ٣٣٧٨).

أُشرِبَها، نُكِت[١] فيه نُكْتةٌ سَوداءُ، وأيُّ قلْبٍ أنكَرَها، نُكِت فيه نُكْتةٌ بَيضاءُ، حتَّى تَصيرَ على قَلبَينِ؛ على أبيضَ مِثلِ الصَّفا[٢]، فلا تضُرُّه فِتْنةٌ ما دامَتِ السَّمواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسودُ مُرْبَادًّا[٣]، كالكُوزُ مُجَخِّيًا[٤]، لا يَعرِفُ مَعروفًا، ولا يُنكِرُ مُنكَرًا، إلَّا ما أُشرِبَ مِن هَواهُ))[٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان عمَرُ بعْدُ [أي: بعدَ نزولِ قولِه تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ ...﴾] إذا حدَّثَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحديثٍ حدَّثَه كأخِي السِّرارِ[٦]، لم يُسْمِعْه حتَّى يَستفهِمَه))[٧].

وعن عمْرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((ما كان أحدٌ أحَبَّ إلَيَّ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولا أجَلَّ في عَينيَّ منه، وما كنتُ أُطِيقُ أنْ أملأَ عَينيَّ منه؛ إجلالًا له، ولو سُئِلتُ أنْ أصِفَه ما أطقْتُ؛ لأنِّي لم أكُنْ أملأُ عَيْنيَّ منه!))[٨].

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: لهم مِن اللهِ مَغفرةٌ لذُنوبِهم فيَستُرُها عليهم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها،

---

(١) نُكِتَ: أي: نُقِطَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٢) الصَّفا: أي: الحَجَرِ الأملَسِ الَّذي لا يَعلَقُ به شَيءٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٢).

(٣) مُرْبادًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ، مِنَ الرُّبْدةِ: لَونٌ بيْنَ السَّوادِ والغَبَرةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٤) مُجَخِّيًا: أي: مائِلًا مَنكوسًا. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٧٣).

(٥) رواه مسلم (١٤٤).

(٦) أي: كصاحِبِ السِّرارِ لا يرفَعُ صَوتَه إذا حدَّثَه، بل يكَلِّمُه كلامًا مِثلَ المُسارَّةِ وشِبْهِها؛ لِخَفضِ صَوتِه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١٠/ ٣١٦).

(٧) رواه البخاري (٧٣٠٢).

(٨) رواه مسلم (١٢١).

ولهم ثوابٌ منه جَزيلٌ[١].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

المُناسَبةُ أنَّ المُناداةَ مِن وَراءِ الحُجراتِ فيها رفْعُ الصَّوتِ وإساءةُ الأدَبِ، واللهُ قد أمَرَ بتَوقيرِ رَسولِه وتَعظيمِه[٢].

وأيضًا لَمَّا نَهى اللهُ سُبحانه عن الإخلالِ بالأدَبِ، وأمَرَ بالمُحافَظةِ على التَّعظيمِ، وذكَرَ وصْفَ المُطيعِ؛ أتْبَعَ ذلك -على سَبيلِ النَّتيجةِ- وصْفَ مَن أخَلَّ به[٣].

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُنادونَك مِن وَراءِ بُيوتِ نِسائِك -يا محمَّدُ- أكثَرُهم جاهِلون بدِينِ الله وما يجِبُ عليهم مِن تَعظيمِك، والتَّأدُّبِ معك[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٥).

قال النَّيْسابوري: (أمَّا إخبارُ اللهِ تعالى عنهم بأنَّ أكثَرَهم لا يَعقِلون؛ فإمَّا لأنَّ الأكثَرَ أُقيمَ مُقامَ الكلِّ على عادةِ الفُصحاءِ كَيْلَا يكونَ الكلامُ بصَددِ المنعِ، وإمَّا لأنَّ الحُكمَ بقِلَّةِ العُقلاءِ فيهم عِبارةٌ عن العدَمِ؛ فإنَّ القِلَّةَ تقَعُ مَوقعَ النَّفْيِ في كلامِهم، وإمَّا لأنَّ فيهم مَن رجَع ونَدِم على صَنيعِه، فاستَثْناه اللهُ تعالى). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٥٩).

وقال الألوسي: (الحُكمُ على الأكثَرِ دُونَ الكلِّ بذلك؛ لأنَّ منهم مَن لم يَقصِدْ ترْكَ الأدبِ، بل نادى لأمرٍ ما على ما قيل. وجُوِّز أن يكونَ المرادُ بالقِلَّةِ الَّتي يدُلُّ عليها نفْيُ الكَثرةِ العدَمَ؛ =

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضيَ الله عنهما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، قال: ((فقام رجُلٌ فقال: يا رسولَ اللهِ، إنَّ حمْدي زَينٌ، وإنَّ ذمِّي شَينٌ! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ذاك اللهُ))(١).

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾.

---

= فإنَّه يُكْنى بها عنه، وتعقَّبه أبو حيَّان بأنَّ ذلك في صريحِ القِلَّةِ، لا في المفهومِ مِن نفْيِ الكَثرةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٢٩٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١١).

وقال القاسمي: (ونسَب إلى الأكثَرِ؛ لأنَّه قد يَتبعُ عاقِلٌ جماعةَ الجهَّالِ، مُوافَقةً لهم). ((تفسير القاسمي)) (٨/ ٥١٩).

وقال ابن عثيمين: (وقَولُه: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يُفهَمُ منه أنَّ بَعضَهم يَعقِلُ، وأنَّه لم يَحصُلْ منه رفْعُ صَوتٍ، بل هو متأدِّبٌ مع رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١).

قال البِقاعي: (﴿لَا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّهم لم يَصبِروا، بل فعَلوا معه صلَّى الله عليه وسلَّم كما يَفعَلُ بعضُهم مع مَن يُماثِلُه! والعَقلُ يَمنعُ مِن مِثلِ ذلك لِمَن اتَّصَف بالرِّئاسةِ، فكيف إذا كانت رِئاسةَ النُّبوَّةِ والرِّسالةِ عن المَلِكِ الجَبَّارِ، الواحِدِ القَهَّارِ؟!). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٦١).

وقال ابن عُثيمين: (المرادُ بالعَقلِ هنا عَقْلُ الرُّشدِ؛ لأنَّ العَقلَ عَقلانِ: عَقْلُ رُشدٍ، وعَقْلُ تَكليفٍ؛ فأمَّا عَقْلُ الرُّشدِ فضِدُّه السَّفَهُ، وأمَّا عَقلُ التَّكليفِ فضِدُّه الجُنونُ... فالمرادُ بقَولِه هنا: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: عَقْلَ رُشْدٍ؛ لأنَّهم لو كانوا لا يَعقِلونَ عَقْلَ تكليفٍ لم يكُنْ عليهم لَومٌ ولا ذَمٌّ؛ لأنَّ المجنونَ فاقِدُ العَقلِ، لا يَلحَقُه لَومٌ ولا ذمٌّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١).

وقال ابن عاشور: (ونَفيُ العقلِ عنهم مُرادٌ به عقلُ التَّأدُّبِ الواجبِ في مُعامَلةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو عقلُ التَّأدُّبِ المغفولِ عنه في عادَتِهم الَّتي اعتادوها في الجاهِليَّةِ مِن الجفاءِ والغلظةِ والعُنْجُهيَّةِ، وليس فيها تحريمٌ ولا تَرتُّبُ ذَنْبٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٥).

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٦٧) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٥١٥).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ). وجوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٥/ ٤٢)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٦٧).

أي: ولو أنَّهم انتَظَروا خُروجَك مِن بَيتِك -يا محمَّدُ- مِن تِلْقاءِ نفْسِك، ولم يُنادوك مِن وَراءِ حُجُراتِك تَعظيمًا لك؛ لَكان خَيرًا وأصلَحَ لهم في دِينِهم ودُنياهم وآخِرتِهم[١].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ بالِغُ المغفرةِ لِذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها، بالِغُ الرَّحمةِ بهم[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- عن ابنِ مسعودٍ رَضيَ الله عنه، قال: (إذا سمِعتَ اللهَ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأرْعِها سمعَك؛ فإنَّه خَيرٌ يَأمُر به، أو شرٌّ يَنهَى عنه)[٣].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، مُتضمِّنٌ للأدَبِ مع اللهِ تعالى، ومع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّعظيمِ له، واحترامِه، وإكرامِه، فأمَرَ اللهُ عِبادَه المؤمنينَ بما يَقتضيهِ الإيمانُ باللهِ وبرسولِه؛ مِنِ امتِثالِ أوامرِ اللهِ تعالى، واجتنابِ نَواهيهِ، وأنْ يَكونوا ماشينَ خلْفَ أوامرِ اللهِ، مُتَّبِعينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٦٨، ٣٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١).

قال ابن عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ﴾ يعني: في الثَّوابِ عندَ اللهِ، وفي انبساطِ نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَضائِه لحوائجِهم، ووُدِّه لهم، وذلك كُلُّه خيرٌ، لا مَحالةَ أنَّ بَعضَه انْزَوى بسَبَبِ جَفائِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٣) رواه ابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (١/ ١٩٦)، وأبو نُعَيم في ((حلية الأولياء)) (١/ ١٣٠)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٦١٩).

لسُنَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في جميعِ أُمورِهم، وألَّا يَتقدَّموا بيْنَ يدَيِ اللهِ ورسولِه، ولا يَقولوا حتَّى يقولَ، ولا يَأمُروا حتَّى يَأمُرَ؛ فإنَّ هذا حقيقةُ الأدبِ الواجبِ مع اللهِ ورسولِه، وهو عُنوانُ سَعادةِ العبْدِ وفَلاحِه، وبِفَواتِه تَفوتُه السَّعادةُ الأبَديَّةُ، والنَّعيمُ السَّرْمَديُّ، وفي هذا النَّهيُ الشَّديدُ عن تَقديمِ قولِ غيرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على قولِه؛ فإنَّه متى استبانَتْ سُنَّةُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وجَبَ اتِّباعُها، وتَقديمُها على غَيرِها، كائنًا ما كان[1]، والتَّقدُّمُ بيْنَ يدَيْ سُنَّتِه بعْدَ وَفاتِه كالتَّقدُّمِ بيْن يَدَيْه في حَياتِه، ولا فَرْقَ بيْنَهما عندَ ذي عقْلٍ سليمٍ[2].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾، في ذِكرِ الاسمَينِ الكريمَينِ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ -بعْدَ النَّهيِ عن التَّقدُّمِ بيْن يَدَيِ اللهِ ورسولِه، والأمرِ بتَقْواهُ- حثٌّ على امتثالِ تلك الأوامرِ الحَسَنةِ، والآدابِ المُستحسَنةِ، وتَرهيبٌ عن عدَمِ الامتثالِ[3].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ استَدلَّ به العُلماءُ على المنْعِ مِن رفْعِ الصَّوتِ بحَضْرةِ قَبرِه الشَّريفِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعندَ قِراءةِ حَديثِه؛ لأنَّ حُرمَتَه ميِّتًا كحُرْمتِه حيًّا[4]، وكلامُه المأثورُ بعدَ مَوتِه في الرِّفْعةِ مِثلُ كَلامِه المَسموعِ مِن لَفظِه؛ فإذا قُرِئَ كَلامُه وَجَب على كُلِّ حاضِرٍ ألَّا يَرفَعَ صَوتَه عليه، ولا يُعرِضَ عنه، كما كان يَلزَمُه ذلك في مَجلِسِه عندَ تلَفُّظِه به[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٤٦).

٥- في قولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ دَليلٌ أنَّ على النَّاسِ -وإنْ تواضَعَ لهم إمامُهم، وغَضَّ لهم جَناحَه- أنْ يُوَقِّروه، ولا يُنْزِلوه مِن أنْفُسِهم مَنزِلةَ بَعضِهم مِن بَعضٍ، وأنْ يَنتظِروه لحَوائجِهم -وإنْ رَفَعَ حِجابَه- حتَّى يَخرُجَ إليهم[١].

٦- قولُ اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ تأْديبٌ لهم، وتَعليمُهم مَحاسِنَ الأخلاقِ، وإزالةٌ لِعَوائدِ الجاهليَّةِ الذَّميمةِ[٢]، فأدَبُ العبدِ عُنوانُ عقْلِه، وأنَّ اللهَ مُريدٌ به الخيرَ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾، أي: الَّذي يَتلقَّى عن اللهِ، وتلَقِّيه عنه مُتوقَّعٌ في كلِّ وقتٍ، وهذا يدُلُّ على أنَّ أذى العُلماءِ -الَّذين هيَّأَهم اللهُ لتَلقِّي فَهْمِ دِينِه عنه- شديدٌ جدًّا؛ فإنَّ تَكديرَ أوقاتِهم يَمنَعُهم عن كثيرٍ مِن ذلك[٤].

٨- قال ابنُ عَقيلٍ: ما أخْوَفَني أن أُساكِنَ مَعصيةً فتَكونَ سَببًا في سُقوطِ عَمَلي، وسُقوطِ مَنزِلةٍ -إن كانت- عندَ اللهِ تعالى، بَعدَما سَمِعتُ قَولَه تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ في بَعضِ التَّسَبُّبِ وسُوءِ الأدَبِ على الشَّريعةِ ما يُحبِطُ الأعمالَ، ولا يَشعُرُ العامِلُ أنَّه عِصيانٌ يَنتهي إلى رُتبةِ الإحباطِ، وهذا يَترُكُ الفَطِنَ خائِفًا وَجِلًا مِنَ الإقدامِ على المآثِمِ، ثمَّ خَوفًا أن يكونَ تَحتَها مِنَ العُقوبةِ ما يُشاكِلُ هذه[٥]!

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٢/ ٣١٧).

٩- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾، فحذَّرَ المؤمِنينَ مِن حُبوطِ أعمالِهم بالجَهْرِ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما يَجهَرُ بعضُهم لبعضٍ، وإنَّ مَعرفةَ ما يُفسِدُ الأعمالَ في حالِ وُقوعِها ويُبطِلُها ويُحبِطُها بعْدَ وُقوعِها؛ مِن أهمِّ ما يَنْبغي أنْ يُفتِّشَ عليه العبدُ، ويَحرِصَ على عمَلِه ويَحذَرَه، فمُحبِطاتُ الأعمالِ ومُفسِداتُها أكثرُ مِن أنْ تُحصَرَ، وليس الشَّأنُ في العمَلِ، إنَّما الشَّأنُ في حِفظِ العمَلِ ممَّا يُفسِدُه ويُحبِطُه؛ فالرِّياءُ وإنْ دقَّ مُحبِطٌ للعمَلِ، وهو أبوابٌ كثيرةٌ لا تُحصَرُ، وكونُ العملِ غيرَ مُقيَّدٍ باتِّباعِ السُّنةِ أيضًا مُوجِبٌ لكَونِه باطلًا، والمَنُّ به على اللهِ تعالى بقلْبِه مُفسِدٌ له، وكذلك المَنُّ بالصَّدقةِ والمعروفِ والبرِّ والإحسانِ والصِّلةِ؛ مُفسِدٌ لها، كما قال سُبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن ترَكَ صلاةَ العصْرِ فقد حَبِطَ عمَلُه))[1]، وأكثَرُ النَّاسِ ما عِندَهم خبَرٌ مِن السَّيِّئاتِ الَّتي تُحبِطُ الحسَناتِ[2].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ ﴾، فيه دليلٌ على أنَّ اللهَ يَمتحِنُ القلوبَ، بالأمْرِ والنَّهيِ والمِحَنِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٣) مِن حديث بُرَيدةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((الوابل الصيب من الكلم الطيب)) لابن القيم (ص: ١١).

قال ابن القيم: (والحُبوطُ نَوعانِ: عامٌّ وخاصٌّ، فالعامُّ: حُبوطُ الحَسناتِ كلِّها بالرِّدَّةِ، والسَّيِّئاتِ كلِّها بالتَّوبةِ، والخاصُّ: حُبوطُ السَّيِّئاتِ والحَسناتِ بَعضِها ببَعضٍ، وهذا حُبوطٌ مُقيَّدٌ جُزئيٌّ). ((الصلاة وأحكام تاركها)) (ص: ٦٦).

وقال ابن تيميَّةَ: (أمَّا الصَّحابةُ وأهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ فعلى أنَّ ... الكبيرةَ الواحدةَ لا تُحبِطُ جميعَ الحسَناتِ، ولكنْ قد يُحبَطُ ما يُقابِلُها عندَ أكثَرِ أهلِ السُّنَّةِ، ولا يُحبِطُ جميعَ الحسَناتِ إلَّا الكفرُ، كما لا يُحبِطُ جميعَ السَّيِّئاتِ إلَّا التَّوبةُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٢١، ٣٢٢).

فمَنْ لازَمَ أمْرَ اللهِ، واتَّبَع رِضاهُ، وسارَعَ إلى ذلك، وقدَّمَه على هواهُ؛ تَمحَّضَ وتَمحَّصَ للتَّقْوى، وصار قلْبُه صالحًا لها، ومَن لم يكُنْ كذلك، عُلِمَ أنَّه لا يَصلُحُ للتَّقوى[١]، فالآيةُ فيها أنَّ التَّقوى لا تَظهَرُ إلَّا عندَ المِحَنِ والشَّدائدِ بالتَّكليفِ وغيرِها، ولا تَثبُتُ إلَّا بمُلازَمةِ الطَّاعةِ في المَنشَطِ والمَكرَهِ[٢].

## الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، يُحتَجُّ به في اتِّباعِ الشَّرعِ في كلِّ شَيءٍ[٣]، وهو حُجَّةٌ على مَن يَبْتغي معَ القرآنِ والسُّنَّةِ سِواهما، ويَلْتَمِسُ الحُجَّةَ في غيرِهما[٤]!

٢- تَصديرُ اللهِ الخِطابَ بقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ التِزامَ ما خُوطِبَ به: مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ، وأنَّ مخالَفَتَه نَقْصٌ في الإيمانِ[٥].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يُحتجُّ به في تَقديمِ النَّصِّ على القِياسِ[٦].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ يُؤيِّدُ قولَ الفُقهاءِ: إنَّ المكلَّفَ لا يُقدِمُ على فِعلٍ حتَّى يَعلَمَ حُكْمَ اللهِ فيه[٧].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، ذُكِرَ الرَّسولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٨١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٦).

مع الله؛ للإشارةِ إلى أنَّ طاعةَ اللهِ لا تُعلَمُ إلَّا بقولِ الرَّسولِ، فهذه طاعةٌ للرَّسولِ تابِعةٌ لِطاعةِ اللهِ(١).

٦- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، السَّمعُ الَّذي اتَّصَف به ربُّنا عزَّ وجلَّ يَنقسِمُ إلى قِسمَينِ: سمْعِ إدراكٍ، وسمْعِ إجابةٍ، فسَمْعُ الإدراكِ معْناهُ أنَّ اللهَ يَسمَعُ كلَّ صَوتٍ خَفِيَ أو ظهَرَ. أمَّا سمْعُ الإجابةِ فمعْناه: أنَّ اللهَ يَستجِيبُ لِمَن دعاهُ، ومنه قولُ إبراهيمَ: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، أي: مُجيبُ الدُّعاءِ، ومنه قولُ المصَلِّي: (سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه)، يعني: استجابَ لِمَن حَمِدَه فأثابَه(٢).

٧- قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾، أي: لا تُنادُوه باسْمِه، كـ: يا محمَّدُ -على قولٍ-. وقد دلَّت آياتٌ مِن كِتابِ اللهِ على أنَّ اللهَ تعالى لا يُخاطِبُه في كِتابِه باسْمِه، وإنَّما يُخاطِبُه بما يدُلُّ على التَّعظيمِ والتَّوقيرِ؛ كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، مع أنَّه يُنادي غيرَه مِن الأنبياءِ بأسْمائِهم؛ كقولِه: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقولِه: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٤]، وقولِه: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨]، وقولِه: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقولِه: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وقولِه: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً﴾(٣) [ص: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣، ١٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٢).

ويُنظر الفرقُ بينَ مقامِ الإخبارِ ومقامِ المخاطبةِ (ص: ١٨٢).

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ إذا ثبتَ أنَّ رفْعَ الصَّوتِ فوقَ صَوتِ النَّبيِّ، والجهرَ له بالقَولِ يُخافُ منه أن يَكفُرَ صاحِبُه وهو لا يَشعُرُ، ويَحبَطَ عمَلُه بذلك، وأنَّه مَظِنَّةٌ لذلك، وسببٌ فيه؛ فمِنَ المعلومِ أنَّ ذلك لِما يَنبغي له مِن التَّعزيرِ والتَّوقيرِ، والتَّشريفِ والتَّعظيمِ، والإكرامِ والإجلالِ، ولِما أنَّ رفْعَ الصَّوتِ قد يَشتمِلُ على أذًى له، أو استِخفافٍ به، وإن لم يَقصِدِ الرَّافِعُ ذلك[1].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾، فإذا كان رفْعُ أصواتِهم فوقَ صَوتِه سببًا لِحُبوطِ أعمالِهم؛ فكيف تَقديمُ آرائِهم وعُقولِهم، وأذواقِهم وسِياساتِهم ومَعارِفِهم على ما جاء به، ورفْعُها عليه؟! أليس هذا أَولى أنْ يكونَ مُحبِطًا لأعمالِهم[2]؟!

١٠- قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ احتجَّ به المعتزِلةُ على أهلِ السُّنَّةِ على أنَّ الكبائرَ بمَنزِلةِ الشِّركِ في الإحباطِ، وأنَّ ذلك مُستلزِمٌ الخُلودَ في النَّارِ.

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص: ٥٥).

وقال ابن تيميَّة: (وقولُه تعالى: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾؛ لأنَّ ذلك قد يَتضمَّنُ الكفرَ فيَقتضي الحُبوطَ وصاحِبُه لا يدري...، فنهاهم عن ذلك لأنَّه يُفضي إلى الكفرِ المُقتضِي لِلحُبوطِ. ولا ريبَ أنَّ المعصيةَ قد تكونُ سببًا للكفرِ، كما قال بعضُ السَّلفِ: المعاصي بريدُ الكفرِ؛ فيُنهى عنها خشيةَ أن تُفضي إلى الكفرِ المُحبِطِ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٤١).

**والجوابُ أنَّ ذلك مَردودٌ؛ لِوُجوهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّه يجوزُ أن يكونَ الإحباطُ بسببِ تجويزِ الوُقوعِ في الكفرِ بسببِ الاستِهانةِ برسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومِن أجْلِ أنَّ ذلك قد يؤدِّي إليها على جهةِ التَّجويزِ جاء بأنِ المَصدريَّةِ الَّتي للتَّخويفِ، أي: مخافةَ أن تحبَطَ أعمالُكم، ولو كان ذلك استِهانةً مَحْضةً أو كانت الاستِهانةُ لازِمةً له ولا بُدَّ، لَما جاء بهذه الصِّيغةِ.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّه فرقٌ واضحٌ بيْن أن يقولَ: «تَحبَط» مِن غيرِ إدخالِ «أنِ» المَصدريَّةِ، ويكونَ مجزومًا في إعرابِه، تقديرُه: إن تَفعَلوا ذلك تَحْبَطْ أعمالُكم؛ وبيْنَ إدخالِ «أنِ» المَصدريَّةِ، ولا شكَّ أنَّ الصُّورةَ الأُولى تدُلُّ على الإحباطِ، وأنَّ دُخولَ «أنْ» قد غيَّرَ معناها إلى معنَى التَّخويفِ الَّذي قد يقَعُ وقد لا يقَعُ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّا لو سَلَّمْنا دَلالةَ ذلك على أنَّ في ذُنوبِ المُسلِمينَ ما يُحْبِطُ العملَ، لم يَستَلزِمْ أنَّ الإحباطَ يَستلزِمُ الخُلودَ؛ لأنَّه لا مانعَ مِن أن يَحبَطَ عمَلُ العبدِ ويَدخُلَ الجنَّةَ برَحمةِ الله تعالى؛ فقد دخلَها الصِّبيانُ بغيرِ عمَلٍ، ويَخلُقُ اللهُ لِفُضولِ الجنَّةِ خَلْقًا لم يَعمَلوا، ولم يُكَلَّفوا، كما ثبَت في البُخاريِّ[1] وغيرِه[2].

---

(١) يُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٤٨٥٠)، ومسلمٌ (٢٨٤٦) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رَضي الله عنه، وما أخرجه البخاريُّ (٧٣٨٤)، ومسلمٌ (٢٨٤٨) مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم)) لابن الوزير (٩/ ٧٥، ٧٦).

وقال ابنُ المُنَيِّرِ في مَعرِضِ ردِّه على الزمخشريِّ: (المرادُ في الآيةِ النَّهيُ عن رفعِ الصَّوتِ على الإطلاقِ، ومعلومٌ أنَّ حُكمَ النَّهيِ الحذَرُ ممَّا يُتوقَّعُ في ذلك مِن إيذاءِ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، والقاعدةُ المُختارةُ أنَّ إيذاءَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يَبلُغُ مَبلَغَ الكفرِ المُحبِطِ للعمَلِ باتِّفاقٍ، فورَدَ النَّهيُ عمَّا هو مَظِنَّةٌ لأذى النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، سواءٌ وُجِد هذا المعنى أوْ لا؛ حمايةً لِلذَّريعةِ، وحَسْمًا للمادَّةِ، ثمَّ لَمَّا كان هذا المنهيُّ عنه -وهو رفعُ الصَّوتِ- مُنقسِمًا إلى ما يَبلُغُ ذلك المَبلَغَ أو لا، ولا دليلَ يميِّزُ أحدَ القِسمَينِ عن الآخَرِ؛ لَزِمَ المُكلَّفَ أن يَكُفَّ عن ذلك مُطلَقًا، وخوفَ =

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، فيه مِن خَصائصِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: تَحريمُ رفْعِ الصَّوتِ عليه، والجَهْرِ له بالقولِ[١].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾، هذا النَّهيُ مَخصوصٌ بغَيرِ المواضعِ الَّتي يُؤمَرُ بالجَهرِ فيها؛ كالأذانِ، وتَكبيرِ يومِ العيدِ، وبغيرِ ما أذِنَ فيه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْنًا خاصًّا؛ كقولِه للعبَّاسِ حِينَ انهزَمَ المسلِمونَ يومَ حُنَينٍ: ((أيْ عبَّاسُ، نادِ أصحابَ السَّمُرةِ))[٢]، وكان العبَّاسُ جَهيرَ الصَّوتِ[٣].

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ﴾، فيه سُؤالٌ: ما الفائدةُ مِن قولِه: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾، مع أنَّ الجَهرَ مُستفادٌ مِن قولِه: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ:** أنَّ المنْعَ مِن رفْعِ الصَّوتِ هو: ألَّا يَجعَلَ كلامَه أو صَوتَه أعْلى مِن كلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو صَوتِه، والنَّهيُ عن الجَهرِ منْعٌ مِن المُساواةِ، أي: لا تَجهَروا له بالقولِ كما تَجهَرون لنُظرائِكم، بل اجْعَلوا كَلمتَه عُلْيا[٤].

---

= أن يقَعَ فيما هو مُحبِطٌ للعمَلِ، وهو البالغُ حدَّ الإيذاءِ؛ إذ لا دليلَ ظاهرٌ يُمَيِّزُه، وإن كان فلا يَتَّفِقُ تمييزُه في كثيرٍ مِن الأحيانِ، وإلى الْتِباسِ أحدِ القِسمَينِ بالآخَرِ وقعَتِ الإشارةُ بقولِه: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾. ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧٥) من حديثِ العبَّاسِ بنِ عبدِ المُطَّلِبِ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٥٢٥).

**الوجْهُ الثَّاني**: أنَّ فائدةَ ذِكرِ ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾: النَّهيُ عن الجَهرِ في مُخاطَبتِه، وإنْ لم يَتضمَّنْ رفْعَ أصواتِهم على صَوتِه.

**الوجْهُ الثَّالثُ**: أنَّ المرادَ النَّهيُ عن مُخاطَبتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باسمِه[1].

١٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، ظاهرُ هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّ الإنسانَ قد يَحبَطُ عمَلُه وهو لا يَشعُرُ، وقد قيل: (إنَّه لا يَحبَطُ عمَلُه بغيرِ شُعورِه)، وظاهرُ الآيةِ يرُدُّ على ذلك[2].

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لم يَصِفْهم بكُفْرٍ ولا نِفاقٍ؛ لكنَّ هؤلاء يُخْشى عليهم الكفْرُ والنِّفاقُ؛ ولهذا ارتَدَّ بَعضُهم؛ لأنَّهم لم يُخالِطِ الإيمانُ بَشاشةَ قُلوبِهم[3].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ حُرمةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ وَفاتِه كحُرمتِه في أيَّامِ حَياتِه، وبه تَعلَمُ أنَّ ما جَرَت به العادةُ اليَومَ مِنِ اجتِماعِ النَّاسِ قُرْبَ قبْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهمْ في صَخَبٍ ولَغَطٍ، وأصواتُهم مُرتفِعةٌ ارتِفاعًا مُزعِجًا؛ كلُّه لا يَجوزُ، ولا يَليقُ، وإقرارُهم عليه مِن المنكَرِ. وقد شدَّدَ عمَرُ رضِيَ اللهُ عنه النَّكيرِ على رجُلينِ رفَعَا أصواتَهما في مَسجدِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال: (لو كُنتُما مِن أهلِ البلدِ لَأوجَعْتُكما، تَرْفَعانِ أصواتَكما في مسجدِ رسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم)[4].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٧، ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٠٣). =

١٧- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ في هذه الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ الصَّلاحَ صَلاحُ القلْبِ؛ لقولِه: ﴿ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾، وكما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الحديثِ الصَّحيحِ[١]: ((التَّقوى هاهنا. ويُشيرُ إلى صَدْرِه))[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ تَوطئةٌ للنَّهيِ عن رفْعِ الأصواتِ عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والجَهْرِ له بالقولِ، ونِدائِه مِن وَراءِ الحُجراتِ[٣].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه تَصْديرُ الخِطابِ بالنِّداءِ؛ لتَنبيهِ المخاطَبينَ على أنَّ ما في حَيِّزِه أمْرٌ خَطيرٌ يَسْتدعِي مَزيدَ اعتِنائِهم بشَأْنِه، وفرْطِ اهتِمامِهم بتَلقِّيه ومُراعاتِه. ووَصْفُهم بالإيمانِ؛ لتَنشيطِهمْ، والإيذانِ بأنَّه داعٍ إلى المُحافَظةِ عليهِ، ووازِعٌ عن الإخلالِ به[٤].

- وفي تَكريرِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ خمْسَ مرَّاتٍ في هذه السُّورةِ فائدةٌ بلاغيَّةٌ لَطيفةٌ؛ وهي إظهارُ الشَّفقةِ على المُسترشِدِ، وإبداءُ المُناصَحةِ له على آكَدِ وجهٍ؛ لِيُقبِلَ على استِماعِ الكلامِ ويُعيرَه بالَه، ولتَحديدِ المُخاطَبينَ بالذَّاتِ، وأنَّهم هم المَعنيُّونَ بالمُناصَحةِ، وفيه أيضًا استدعاءٌ لتَجديدِ الاستِبصارِ، والتَّيقُّظِ والتَّنبُّهِ عندَ كلِّ خِطابٍ[٥].

---

= وأثرُ عمرَ أخرجه البخاري (٤٧٠).

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٤) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦١).

- وفي قولِه تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مِن غَيرِ ذِكرِ مَفعولٍ وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ يُحذَفَ لِيَتناوَلَ كلَّ ما يقَعُ في النَّفْسِ ممَّا يُقدَّمُ[1]، وفي الحذْفِ مِن البلاغةِ ما ليس في الذِّكرِ؛ لأنَّ الخَيالَ يَذهَبُ فيه كلَّ مَذهبٍ. والثَّاني: ألَّا يُقصَدَ مَفْعولٌ ولا حذْفُه، ويُتوجَّهُ بالنَّهيِ إلى نفْسِ التَّقدِمةِ، كأنَّه قِيل: لا تُقْدِموا على التَّلبُّسِ بهذا الفِعلِ، ولا تَجْعلوه منكم بسَبيلٍ[2].

- والنَّهيُ هنا للتَّحذيرِ؛ إذ لم يَسبِقْ صُدورُ فِعلٍ مِن أحدٍ افتياتًا على الشَّرعِ. ويجوزُ أنْ يُجرى مُجرَى قَولِك: سرَّني زَيدٌ وحُسْنُ حالِه، وأُعجِبْتُ بعَمْرٍو وكَرَمِه، فأصلُ الكلامِ: لا تُقدِّموا بيْن يدَيْ رَسولِ اللهِ، وفائدةُ هذا الأسلوبِ: الدَّلالةُ على قُوَّةِ الاختِصاصِ، ولَمَّا كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن اللهِ بالمكانِ الَّذي لا يَخْفى، سُلِكَ به ذلك المَسلكُ؛ فالمقصودُ مِن الآيةِ النَّهيُ عن إبرامِ شَيءٍ دونَ إذْنٍ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذُكِرَ قبْلَه اسمُ اللهِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مُرادَ اللهِ إنَّما يُعرَفُ مِن قِبَلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولتَعظيمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والإيذانِ بجَلالةِ مَحلِّه عندَه عزَّ وجَلَّ[3].

---

(١) ومِن قواعدِ التَّفسيرِ: أنَّ حذفَ المتعلَّقِ يُفيدُ العمومَ النِّسْبيَّ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (ص: ٥٩٧-٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٦).

- وعطْفُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تكملةٌ للنَّهي عن التَّقدُّمِ بيْنَ يدَي الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَدُلَّ على أنَّ تَرْكَ إبرامِ شَيءٍ دونَ إذْنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تَقوى اللهِ وَحْدَه، أي: ضِدُّه ليس مِن التَّقْوى[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ في مَوضعِ العلَّةِ للنَّهيِ عن التَّقدُّمِ بيْنَ يدَيِ اللهِ ورسولِه، وللأمْرِ بتَقوى اللهِ[٢].

- وذِكرُ هاتَينِ الصِّفتَينِ كِنايةٌ عن التَّحذيرِ مِن المخالَفةِ؛ ففي ذلك تأْكيدٌ للنَّهيِ والأمرِ[٣].

- وجُعِلَت هذه الآيةُ في صَدْرِ السُّورةِ مُقدِّمةً على تَوبيخِ وَفْدِ بني تميمٍ حينَ نادَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن وَراءِ الحُجُراتِ؛ لأنَّ ما صدَرَ مِن بني تَميمٍ هو مِن قَبيلِ رفْعِ الصَّوتِ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولأنَّ مُماراةَ أبي بكرٍ وعُمرَ، وارتِفاعَ أصواتِهما كانت في قَضيَّةِ بني تَميمٍ، فكانت هذه الآيةُ تمْهيدًا لقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ مَن خصَّه اللهُ بهذه الحُظْوةِ -أي: جعَلَ إبرامَ العملِ بدُونِ أمْرِه كإبرامِه بدُونِ أمْرِ اللهِ- حَقيقٌ بالتَّهيُّبِ والإجلالِ أنْ يُخفَضَ الصَّوتُ لدَيْه. وإنَّما قُدِّمَ هذا على تَوبيخِ الَّذين نادَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ هذا أَوْلى بالاعتِناءِ؛ إذ هو تأْديبُ مَن هو أَولى بالتَّهذيبِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٧، ٢١٨).

لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ توطئةٌ لقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[1] [الحجرات: ٤].

- وإعادةُ النِّداءِ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ ثانيًا معَ قُربِ العَهْدِ به؛ لاستِدعاءِ مَزيدِ الاستِبصارِ، والمُبالَغةِ في الاتِّعاظِ[2]، والتَّنبيهِ والإيقاظِ، ولِيَكونَ في ذلك بَيانُ زِيادةِ الشَّفقةِ على المُسترشِدِ؛ لأنَّ النِّداءَ لتَنبيهِ المنادَى ليُقبِلَ على استِماعِ الكلامِ، ويَجعَلَ بالَهُ منه، فإعادتُه تُفيدُ ذلك، ولئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ المخاطَبَ ثانيًا غيرُ المخاطَبِ أوَّلًا، ولِيُعلَمَ أنَّ كلَّ واحدٍ مِن الكلامَينِ مَقصودٌ، وليس الثَّاني تأكيدًا للأوَّلِ، ففيه إباستِقلالِ كُلٍّ مِن الكَلامَينِ باستِدعاءِ الاعتِناءِ بشأنِه، وأنَّه غرَضٌ جَديرٌ بالتَّنبيهِ عليه بخُصوصِه؛ حتَّى لا يَنغمِرَ في الغرَضِ الأوَّلِ؛ فإنَّ هذا مِن آدابِ سُلوكِ المؤمنينَ في مُعامَلةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومُقْتضَى التَّأدُّبِ بما هو آكَدُ مِن المُعامَلاتِ[3].

- واللَّامُ في ﴿لَهُۥ﴾ لتَعديةِ ﴿تَجۡهَرُواْ﴾؛ لأنَّ ﴿تَجۡهَرُواْ﴾ في معْنى: تَقولوا؛ فدلَّتِ اللَّامُ على أنَّ هذا الجَهرَ يَتعلَّقُ بمُخاطبَتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وزادَه وُضوحًا التَّشبيهُ في قولِه: ﴿ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ ﴾[4].

- وقولُه: ﴿أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ﴾ مَنصوبٌ على أنَّه مَفعولٌ له، والعاملُ فيه ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ﴾ أو ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ﴾، ومعَ ذلِك فمِن حيثُ المعْنى: حُبوطُ العَملِ عِلَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢١).

في كُلٍّ مِن الرَّفعِ والجَهرِ. وفي مُتعلَّقِه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ يَتعلَّقَ بمَعْنى النَّهيِ، فيَكونَ المَعْنى: انتَهُوا عمَّا نُهيتُم عنه؛ لِحُبوطِ أعمالِكم، أي: لِخَشيةِ حُبوطِها، على تَقْديرِ حذْفِ المُضافِ. والثَّاني: أنْ يَتعلَّقَ بنفْسِ الفِعلِ، ويَكونَ المعْنى: أنَّهم نُهُوا عن الفِعلِ الَّذي فَعَلوه مِن أجْلِ الحُبوطِ؛ لأنَّه لَمَّا كان بصَدَدِ الأداءِ إلى الحُبوطِ، جُعِل كأنَّه فُعِلَ مِن أجْلِه، وكأنَّه العِلَّةُ والسَّببُ في إيجادِه على طَريقةِ التَّمثيلِ، أي: تَشبيهِ الحالِ بالحالِ؛ فإنَّ فِعلَهم لَمَّا أدَّى إلى الحُبوطِ، فكأنَّهم قصَدوا مِن أجْلِه، كقولِه تعالَى: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1] [القصص: ٨].

- وفي هذا النَّهيِ ما يَشملُ صَنيعَ الَّذين نادَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن وراءِ الحُجُراتِ؛ فيَكونُ تَخلُّصًا مِن المقدِّمةِ إلى الغرَضِ المقصودِ، ويَظهَرُ حُسْنُ مَوقِعِ قولِه بعدَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2] [الحجرات: ٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ التَّحذيرَ الَّذي في قولِه: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الحجرات: ٢] يُثيرُ في النَّفْسِ أنْ يَسألَ سائلٌ عن ضِدِّ حالِ الَّذي يرفَعُ صَوتَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٢٢).

وهو تَرْغيبٌ في الانتِهاءِ عمَّا نُهُوا عنه، بعدَ التَّرهيبِ عن الإخلالِ به[١].

- وافتِتاحُ الكلامِ بحرفِ التأْكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بمَضمونِه مِن الثَّناءِ عليهم، وجَزاءِ عمَلِهم، وتُفيدُ الجُملةُ تَعليلَ النَّهيَينِ بذِكرِ الجزاءِ عن ضِدِّ المنْهيِّ عنهما، وأكَّدَ هذا الاهتِمامَ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾، مع ما في اسمِ الإشارةِ مِن التَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم جَديرون بالخبَرِ المذكورِ بعْدَه؛ مِن أجْلِ ما ذُكِرَ مِن الوصْفِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٢].

- ومُحصِّلُ معنَى قولِه: ﴿لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ﴾ وقولِه: ﴿وَلَا تَجۡهَرُواْ﴾ [الحجرات: ٢]: الأمْرُ بخفْضِ الصَّوتِ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبه يتَّضحُ وَجْهُ العُدولِ عن نَوطِ الثَّناءِ هنا بعَدَمِ رفْعِ الصَّوتِ وعدَمِ الجَهرِ عندَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى نَوطِه بَغضِّ الصَّوتِ عندَه[٣].

- وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ الامتحانُ: الاختِبارُ والتَّجرِبةُ، وهو افتِعالٌ مِن مَحَنَه؛ إذا اختبَرَه، وصِيغةُ الافتِعالِ فيه للمُبالَغةِ. واللَّامُ في قَولِه: ﴿لِلتَّقۡوَىٰ﴾ لامُ العِلَّةِ، والتَّقديرُ: امتحَنَ قُلوبَهم مِن أجْلِ التَّقْوى، أي: لِتكونَ فيها التَّقوى، أي: لِيَكونوا أتْقياءَ؛ فيَجوزُ أنْ يُجعَلَ الامتحانُ كِنايةً على تَمكُّنِ التَّقْوى مِن قُلوبِهم وثَباتِهم عليها، بحيثُ لا يُوجَدون في حالٍ ما غيرَ مُتَّقينَ، وهي كِنايةٌ تَلويحيَّةٌ[٤] لِكَونِ الانتقالِ بعِدَّةِ لَوازِمَ؛ فالامتِحانُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٤) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتِبارِ الوسائطِ (اللَّوازِمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريضٍ، وتلويحٍ، ورمْزٍ، وإيماءٍ؛ فالتَّعريضُ: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ؛ نحو =

والتَّجرِبةُ يُوجِبانِ مُزاوَلةَ الأمرِ ومُعالَجتَه مرَّةً بعْدَ أُخرَى، وذلك يُوجِبُ التَّمرُّنَ فيه، والمُتمَرِّنُ مُضطلِعٌ فيه. ويجوزُ أنْ يكونَ الامتحانُ مِن إطلاقِ السَّببِ على المُسبَّبِ؛ فإنَّ الامتحانَ سَببُ المعرفةِ[1].

- فإنْ قيل: اختِصاصُ (النَّبيِّ) بالذِّكرِ في الآيةِ الثَّانيةِ كان لتَبْجيلِ جانبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذِكْرُ (رَسولِه) في الأُولى كان مِن أجْلِ الاحتِذاءِ على أمثلةِ الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ فلِمَ خُولِفَ ورجَعَ في هذه الآيةِ إلى ما بُدِئَ به؟

**فالجوابُ**: ليُؤذِنَ بأفضالِ اللهِ في حقِّ أولئك الكَمَلةِ، وتأْديبِه إيَّاهم، وأنَّهم إنَّما غضُّوا أصواتَهم عندَ رسولِ اللهِ، ولم يَرفَعوا بها مِثلَ أولئك؛ لأنَّ اللهَ زيَّنَ باطنَهم باكتِساءِ لِباسِ التَّقْوى، حتَّى سَرى إلى ظاهرِهم بالتَّأدُّبِ بيْنَ يدَيِ المولى، ومَن أرسلَه إليهم وأكْرَمَهم به، ومِن ثَمَّ نُسِبَ ﴿ٱمۡتَحَنَ﴾ إلى اللهِ تعالى، وجِيءَ به ماضيًا، وأُسْنِدَ ﴿يَغُضُّونَ﴾ إليهم، وأُتِيَ به بمُضارِعِه دالًّا به على الاستِمرارِ، كأنَّه قيلَ: إنَّ الَّذين دَأْبُهم وعادتُهم التَّأدُّبُ في حضْرةِ

---

= قولِك للمؤْذِي: «المُسلِمُ مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لِسانِه ويَدِه»؛ تعريضًا بنَفيِ صِفةِ الإسلامِ عن المؤذِي. والتَّلويحُ: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي تدلُّ على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الأكَلةِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي تدلُّ على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقل الفكرُ إلى جملةِ وسائطَ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥-١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦- ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٣).

الرِّسالةِ إنَّما اختُصُّوا به؛ لأنَّه تعالى هو الَّذي أدَّبَهم بإرسالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنزالِ الكتابِ والحِكمةِ، حتَّى هُذِّبوا هذا التَّهذيبَ(١).

- وجُملةُ ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ خبَرُ (إنَّ)، وهو المَقصودُ مِن هذه الجُملةِ المستأنَفةِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ؛ للتَّنويهِ بشأْنِه. أو خبَرٌ آخَرُ لحرفِ (إنَّ)، أو استِئنافٌ لبيانِ جزائِهم(٢).

- وهذه الآيةُ بنظْمِها الَّذي رُتِّبت عليه؛ مِن إيقاعِ الغاضِّين أصواتَهم اسمًا لـ (إنَّ) المؤكِّدةِ، وتَصييرِ خبَرِها جُملةً مِن مُبتَدأٍ وخبَرٍ مَعْرِفتَينِ مَعًا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾، واستِئنافِ الجُملةِ المُستودَعةِ ما هو جَزاؤُهم على عمَلِهم، وإيرادِ الجَزاءِ نَكِرةً مُبهَمًا أمْرُه -ناظرةٌ في الدَّلالةِ على غايةِ الاعتِدادِ والارتِضاءِ لِمَا فعَلَ الَّذين وقَّروا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خَفضِ أصواتِهم، وفيها الإعلامُ بمَبلَغِ عِزَّةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَدْرِ شَرَفِ مَنزِلَتِه، وفيها تَعريضٌ بعظيمِ ما ارتكَبَ الرَّافِعون أصواتَهم، واستِيجابِهم ضدَّ ما استوجَبَ هؤلاء(٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ بَيانٌ لِجُملةِ ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ [الحجرات: ٢] بَيانًا بالمثالِ، وهو سَببُ النُّزولِ؛ فهذا شُروعٌ في الغرَضِ، والَّذي نشَأَ عنه ما أوجَبَ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٥٣، ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣، ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٣، ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٣).

نُزولَ صدْرِ السُّورةِ فافتُتِحَ به؛ لأنَّ التَّحذيرَ والوعدَ -اللَّذَينِ جُعِلَا مِن أجْلِه- صالِحانِ لأنْ يَكونَا مُقدِّمةً للمقصودِ؛ فحصَلَ بذلك نسْجٌ بَديعٌ، وإيجازٌ جليلٌ، وإنْ خالَفَ تَرتيبُ ذِكرِه تَرتيبَ حُصولِه في الخارجِ، وقد صادَفَ هذا التَّرتيبُ المَحَزَّ أيضًا؛ إذْ كان نداؤُهم مِن وَراءِ الحُجُراتِ مِن قَبيلِ الجَهرِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقَولِ كجَهْرِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان النَّهيُ عن الجَهْرِ له بالقولِ تخلُّصًا لِذِكرِ نِدائِه مِن وراءِ الحُجُراتِ[١].

- والمرادُ بـ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ رِجالُ وفْدِ بني تميمٍ، وإسنادُ فِعلِ النِّداءِ إلى ضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لأنَّ جميعَهم نادَوْه، أو ناداهُ بعضُهم وكان الباقون راضِينَ، فكأنَّهم تَولَّوه جميعًا[٢].

- والتَّعبيرُ بصِيغةِ المضارعِ في ﴿يُنَادُونَكَ﴾؛ لاستِحضارِ حالةِ ندائِهم[٣].

- قولُه: ﴿مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ كِنايةٌ عن مَوضِعِ خَلوتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَقيلِه مع بعضِ نِسائِه، وقد ازدادَتِ الكِنايةُ بإيقاعِ الحُجُراتِ مُعرَّفةً بالألِفِ واللَّامِ دونَ الإضافةِ إليه، وفي ذلك مِن حُسنِ الأدبِ ما لا يَخفى[٤]. وكذلك فتَعريفُ ﴿ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ باللَّامِ تَعريفُ العهْدِ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿يُنَادُونَكَ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ الحُجراتِ حُجراتُه؛ فلذلك لم تُعرَّفْ بالإضافةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

- قولُه: ﴿مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ مُناداةُ مَن نادَوْه مِن وَرائِها يَحتمِلُ أنَّهم قد تَفرَّقوا على الحُجراتِ مُتطلِّبينَ له، فناداهُ بعضٌ مِن وَراءِ هذه، وبعضٌ مِن وَراءِ تلك؛ فأُسنِدَ فِعلُ الأبعاضِ إلى الكلِّ. أو أنَّهم قد أَتَوها حُجرةً حُجرةً، فنادَوه مِن وَرائها. أو أنَّهم نادَوه مِن وَراءِ الحُجْرةِ الَّتي كان فيها، ولكنَّها جُمِعَت ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ إجلالًا لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولِمَكانِ حُرمَتِه، كأنَّ الجمْعَ يُبطِلُ خُصوصيَّةَ حُجرةٍ دونَ حُجرةٍ[1].

- وإنَّما ذُكِرَ ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ دونَ البُيوتِ؛ لأنَّ البَيتَ كان بيتًا واحدًا مُقسَّمًا إلى حُجُراتٍ تسْعٍ[2].

- وفي وُرودِ الآيةِ على النَّمَطِ الَّذي وردَتْ عليه: ما لا يَخفى على النَّاظرِ مِن بيِّناتِ إكبارِ مَحَلِّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وإجلالِه؛ منها: مَجيئُها على النَّظمِ المُسجَّلِ على الصَّائحِينَ به بالسَّفَهِ والجهلِ؛ لِمَا أقدَموا عليه. ومنها: المرورُ على لَفظِ الحُجُراتِ بالاقتِصارِ على القَدْرِ الَّذي تبيَّنَ به ما استَنكَرَ عليهم، فقال: ﴿ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾، وما زادَ عليه، فلم يَقُلْ: حُجُراتِ نسائِكَ، بلِ اكتَفى بالقدْرِ مِن الكِنايةِ لئلَّا تُوحِشَه؛ لأنَّها تَكفي لِمَن يَقِفُ على الرَّمزِ والإشارةِ الخَفيَّةِ في أنَّ النِّداءَ في هذه الآيةِ أمْرٌ مُنكَرٌ. ومنها: التَّعريفُ باللَّام دونَ الإضافةِ. ومنها: أنْ شفَعَ ذَمَّهم في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ﴾ باستِجفائِهم، واستِركاكِ عُقولِهم، وقلَّةِ ضَبطِهم لِمَواضعِ التَّمييزِ في المُخاطَباتِ، فقَرَنَ ذمَّهم ذلك بقولِه: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، الواقعِ خبَرًا لـ (إنَّ)، واسمُها المَوصولةُ المُشتمِلةُ على الصِّلةِ المشعِرةِ بأنَّ خبَرَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

ممَّا يُستهجَنُ منه، وأنَّ مَن صدَرَ منه النِّداءُ مِن وَراءِ الحُجُراتِ مَوصوفٌ بالجافي الغليظِ، وقِلَّةِ العَقلِ، وإنَّما فعَلَ ذلك تَهوينًا للخَطْبِ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتسليةً له، وإماطةً لِما تَداخَلَه مِن إيحاشِ تَعجرُفِهم، وسُوءِ أدَبِهم، فقيلَ له: هوِّنْ عليك، واعفُ عنهم؛ فإنَّ أكثَرَهم لا يَعقِلون؛ إذ العقلُ يَقتَضي حُسنَ الأدبِ، ومراعاةَ الحِشمةِ، لا سِيَّما لِمَن كان بهذا المَنصِبِ[1].

- وأيضًا في هذه الآياتِ بلاغةٌ ظاهرةٌ؛ فتأمَّلْ كيف ابتُدِئَت بإيجابِ أنْ تكونَ الأمورُ الَّتي تَنتمي إلى اللهِ ورسولِه مُتقدِّمةً على الأمورِ كُلِّها مِن غيرِ حَصرٍ ولا تقييدٍ، ثمَّ أرْدَفَ ذلك النَّهيَ عمَّا هو مِن جِنسِ التَّقديمِ مِن رفْعِ الصَّوتِ والجهْرِ، كأنَّ الأوَّلَ بِساطٌ للثَّاني ووِطاءٌ لِذِكْرِه ما هو ثناءٌ على الَّذين تحامَوا ذلك فغَضُّوا أصواتَهم؛ دَلالةً على عظيمِ مَوقعِه عندَ اللهِ، ثم جِيءَ على عقِبِ ذلك بما هو أطَمُّ، وهُجنَتُه أتَمُّ مِن الصِّياحِ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حالِ خَلوتِه ببَعضِ حُرُماتِه مِن وَراءِ الجُدُرِ، كما يُصاحُ بأهونِ النَّاسِ قَدْرًا؛ ليُنبِّهَ على فَظاعةِ ما سبَقوا إليه، وجَسَرُوا عليه؛ لأنَّ مَن رفَعَ اللهُ قَدْرَه عن أنْ يُجهَرَ له بالقولِ حتَّى خاطَبَه جِلَّةُ المهاجرينَ والأنصارِ بأخِي السِّرارِ[2]، كان صَنيعُ هؤلاء مِن المُنكَرِ الَّذي بلَغَ مِن التَّفاحُشِ مَبلَغًا[3]!

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ﴾، ولم يقُلْ: (إلى أنْ تَخرُجَ)؛ لأنَّ (حتَّى) أفادتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٦٠، ٤٦١).

(٢) يُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٢).

بوَضْعِها أنَّ خُروجَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم غايةٌ قد ضُرِبَت لصَبرِهم، فما كان لهم أنْ يَقطَعوا أمرًا دونَ الانتهاءِ إليه، فـ (حتَّى) نَصٌّ في بَيانِ الغايةِ، وبَتٌّ للحُكْمِ، وأنْ لا رُخصةَ لهم دونَ هذه الغايةِ، بخلافِ (إلى)؛ فإنَّها مُطلَقةٌ تَحتمِلُ أُمورًا؛ فقد يَدخُلُ ما بعْدَها في حُكْمِ ما قبْلَها، وقد لا يَدخُلُ[1].

أو يكونُ إيثارُ حرْفِ (حتَّى) دونَ حرْفِ (إلى) مِن أجْلِ الإيجازِ بحذْفِ حرفِ (أنْ)؛ فإنَّه مُلتزَمٌ حَذفُه بعدَ (حتَّى)، بخلافِه بعدَ (إلى)؛ فلا يجوزُ حَذفُه[2].

- وفي قولِه: ﴿إِلَيۡهِمۡ﴾ إشعارٌ بأنَّه لو خرَجَ ولم يكُنْ خُروجُه إليهم ومِن أجْلِهم، لَلَزِمَهم أنْ يَصبِروا إلى أنْ يَعلَموا أنَّ خروجَه إليهم، فيُفاتِحَهم بالكلامِ، أوْ يَتوجَّهَ إليهِم[3].

- وفي تَعقيبِ هذا اللَّومِ بقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى لم يُحْصِ عليهم ذَنْبًا فيما فعَلوا، ولا عرَّضَ لهم بتَوبةٍ، والمعْنى: واللهُ شأنُه التَّجاوُزُ عن مِثلِ ذلك رَحمةً بالنَّاسِ؛ لأنَّ القَومَ كانوا جاهِلينَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٧).

قال ابن عُثَيمين: (في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ غفَر لهم ورحِمَهم، وهذا مِن كرَمِه جلَّ وعلا؛ أنَّه يَغفِرُ ويَرحَمُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١).

## الآيات (٦-٨)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَاسِقٌ﴾ ﴿وَٱلۡفُسُوقَ﴾: الفِسقُ: الخروجُ عن طاعةِ الله، وقد يكونُ بأعظَمِ أنواعِ الخروجِ، وهو الكفرُ، أو بما هو دونَ ذلك مِن المعاصي، وأصلُ الفِسقِ: الخروجُ عن الشَّيءِ، يُقالُ منه: فَسَقتِ الرُّطَبةُ، إذا خَرَجتْ مِن قِشْرِها[1].

﴿بِنَبَإٖ﴾: النَّبأُ: خبرٌ فيه خطَرٌ، أو: خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يَحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والخبرُ يَأْتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ[2].

﴿لَعَنِتُّمۡ﴾: أي: لَوقَعْتُم في ضَررٍ وفسادٍ، ولَنالَكُم مَشقَّةٌ وشِدَّةٌ وإثمٌ، وأصْلُ (عنت): يدُلُّ على مَشقَّةٍ[3].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٦، ٨١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٣)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٤).

قَولُه: ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ مَفعولٌ مِن أجْلِه، أي: مَخافةَ أنْ تُصِيبوا، أو لئلَّا تُصِيبوا[1].

٢- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۞ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾

قولُه: ﴿فَضۡلٗا﴾ يَجوزُ أنْ يَنتصِبَ على المفعولِ مِن أجْلِه، وناصبُه قولُه: ﴿حَبَّبَ﴾، وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ اعتِراضٌ بيْنَهما. ويَجوزُ أنْ يَنتصِبَ بفِعلٍ مُقدَّرٍ، أي: جَرى ذلك. ويَجوزُ أنْ يَنتصِبَ على المصدَرِ المؤكِّدِ لمَضمونِ الجُملةِ السَّابِقةِ؛ لأنَّها فضْلٌ أيضًا، أي: تَفضَّلَ فضْلًا[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يَأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ أنْ يَتبيَّنوا إنْ جاءهم فاسقٌ بأيِّ خبَرٍ؛ لئلَّا يُصِيبوا قومًا جهْلًا منهم وخطَأً بسَببِ تَصديقِهم لِخبَرِه بدونِ تَثبُّتٍ، فيَندَموا على ذلك.

ويأمُرُ اللهُ عزَّ وجلَّ أصحابَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَعلَموا أنَّ فيهم رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لو يُطِيعهم ويَعمَلُ بآرائِهم في كثيرٍ مِن الأمورِ، لَوقَعوا في شِدَّةٍ ومَشقَّةٍ، ولكنَّ اللهَ حبَّبَ إليهمُ الإيمانَ، وحسَّنَه في قُلوبِهم، وبغَّضَ إليهم الكفْرَ والفُسوقَ وارتكابَ المعاصي، فلْيَشكروا اللهَ على ذلك، ولا يَتقدَّموا اللهَ ورسولَه بأمرٍ؛ إذ يَكفيهم الاتِّباعُ والالتِزامُ، وأولئك هم أُولو الرُّشدِ والاستِقامةِ. فعَلَ اللهُ ذلك بهم تَفضُّلًا منه عليهم ونِعمةً منه، واللهُ عليمٌ حكيمٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٧٠)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٧).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٧١)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) للخراط (٧/ ١٢١٨).

فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إنْ جاءكم أيُّ فاسِقٍ كان بأيِّ خبَرٍ، فتَمهَّلوا وتوَقَّفوا عن قَبولِ خَبرِه، حتَّى تَتيقَّنوا منه، فتَتبيَّنوا صِدقَه أو كَذِبَه، وتَظهَرَ لكم الحقيقةُ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١١).

قال ابنُ عطيَّة: (الفِسقُ: الخُروجُ عن نهْجِ الحَقِّ، وهو مراتِبُ مُتباينةٌ، كُلُّها مَظِنَّةٌ للكَذِبِ، ومَوضِعُ تَثَبُّتٍ وتبَيُّنٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٧).

وقال ابنُ عاشور: (الفاسِقُ: المتَّصِفُ بالفُسوقِ، وهو فِعْلُ ما يُحرِّمُه الشَّرعُ مِنَ الكبائرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٩).

قال ابنُ عبدِ البَرِّ: (ولا خِلافَ بيْنَ أهلِ العِلمِ بتأويلِ القُرآنِ فيما عَلِمتُ أنَّ قولَه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ نزَلت في الوليدِ بنِ عُقْبةَ، وذلك أنَّه بعَثه رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى بني الْمُصْطَلِق مصدِّقًا [أي: عاملًا على الزكاةِ]، فأخبَر عنهم أنَّهم ارتدوا، وأبَوْا مِن أداءِ الصَّدقةِ، وذلك أنَّهم خرَجوا إليه فهابهم، ولم يعرِفْ مَا عندَهم، فانصَرَف عنهم، وأخبَر بما ذكَرْنا). ((الاستيعاب في معرفة الأصحاب)) (٤/ ١٥٥٣). ويُنظر: ((الإصابة)) لابن حجر (٦/ ٤٨١، ٤٨٢).

وقال النيسابوري: (وقد أجمَع المفسِّرونَ على أنَّها نزَلتْ في الوليدِ بنِ عُقبةَ). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٦٠).

قال البِقاعي: (الفاسِقُ المذكورُ في الآيةِ المرادُ به الجِنسُ، والَّذي نزَل ذلك بسَبَبِه هو الوليدُ بنُ عُقْبةَ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٦٥، ٣٦٦).

وقال الألوسي: (ليس مُرادُنا مِن كَونِ الصَّحابةِ -رضيَ الله تعالى عنهم- جميعِهم عُدولًا أنَّهم لم يَصدُرْ عن أحدٍ منهم مُفَسِّقٌ أصلًا، ولا ارتكَب ذنْبًا قَطُّ؛ فإنَّ دُونَ إثباتِ ذلك خَرْطَ القَتادِ، فقد كانت تَصدُرُ منهم الهَفَواتُ، ويَرتَكِبونَ ما يُحَدُّون عليه، وإنكارُ ذلك مُكابَرةٌ صِرفةٌ، وعِنادٌ مَحْضٌ، وجهلٌ بمَوارِدِ الآياتِ والأحاديثِ؛ بل مُرادُنا أنَّهم لم يَنتَقِلوا مِن هذه الدَّارِ إلى دارِ القَرارِ إلَّا وهم طاهِرونَ مُطَهَّرونَ، تائِبونَ آيِبونَ بِبَرَكةِ صُحبتِهم لِلنَّبيِّ صلَّى الله تعالى عليه =

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾.

أي: إنْ جاءكم فاسقٌ بنَبأٍ فتبيَّنوا؛ لئلَّا تُصِيبوا -خطَأً وجهْلًا منكم- قومًا بُرآءَ ممَّا قُذِفوا به بسَببِ تَصديقِكم الفاسِقَ في خبَرِه الكاذِبِ(١).

= وسلَّم، ونُصرتِهم إيَّاه، وبَذْلِ أنفُسِهم وأموالِهم في محَبَّتِه، وتعظيمِهم له أشدَّ التَّعظيمِ سرًّا وعلانيةً، كما يدُلُّ على ذلك الكِتابُ، وتَشهَدُ له الآثارُ). ((الأجوبة العراقية على الأسئلة اللاهورية)) (ص: ٢٢).

وقال ابن عاشور: (اعلَمْ أنْ ليس في الآيةِ ما يَقتَضي وصْفَ الوَليدِ بالفاسِقِ تصريحًا ولا تلويحًا. وقد اتَّفَق المفسِّرون على أنَّ الوليدَ ظنَّ ذلك، كما في «الإصابة» عن ابنِ عبدِ البَرِّ، وليس في الرِّواياتِ ما يَقتضي أنَّه تعمَّد الكذِبَ. قال الفخرُ: «إنَّ إطلاقَ لَفظِ «الفاسق» على الوليدِ شَيءٌ بعيدٌ؛ لأنَّه توهَّمَ وظنَّ فأخطأَ، والمُخطِئُ لا يُسمَّى فاسِقًا». قلتُ: ولو كان الوليدُ فاسقًا لَما ترَكَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعنيفَه واستتابتَه... وقد اتَّفَق مَن ترجموا للوليدِ بنِ عُقْبةَ على أنَّه كان شُجاعًا جَوَادًا، وكان ذا خُلُقٍ ومُروءةٍ. واعلَمْ أنَّ جُمهورَ أهلِ السُّنَّةِ على اعتبارِ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عُدولًا، وأنَّ كلَّ مَن رأى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وآمَنَ به فهو مِن أصحابِه... وعلى تَسليمِ أن تكون الآيةُ إشارةً إلى فاسِقٍ مُعَيَّنٍ فلماذا لا يُحمَلُ على إرادةِ الَّذي أعلَمَ الوليدَ بأنَّ القَومَ خرَجوا له لِيَصُدُّوه عن الوُصولِ إلى دِيارِهم؛ قصْدًا لإرجاعِه؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٩، ٢٣٠). وينظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٨).

وذكر ابنُ العربي أنَّ القصَّةَ فيها اختلافٌ، ثمَّ قال: (وبهذا الاختلافِ يُسقِطُ العُلماءُ الأحاديثَ القَويَّةَ. وكيف يُفسَّقُ رجُلٌ بمِثلِ هذا الكلامِ؟ فكيف برَجُلٍ مِن أصحابِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؟!). ((العواصم من القواصم)) (ص: ٩٢).

وقال محبُّ الدِّينِ الخطيب بعدَ أن سرَد الرِّواياتِ الواردةَ في نُزولِ الآيةِ في الوليدِ بنِ عُقْبةَ، قال: (كلُّ هذه الأخبارِ مِن أوَّلِها إلى آخِرِها لا يجوزُ أن يؤاخَذَ بها مُجاهِدٌ كان مَوضِعَ ثِقةِ أبي بكرٍ وعُمَرَ، وقام بخِدْماتٍ للإسلامِ يُرجى له بها أعظَمُ المَثوبةِ إن شاء الله. أضِفْ إلى كلِّ ما تقدَّم أنَّه في الوقتِ الَّذي حدثَتْ فيه لِبَني المُصْطَلِقِ الحادِثةُ الَّتي نزلَتْ فيها الآيةُ كان الوليدُ صغيرَ السِّنِّ). مِن تعليقِه على ((العواصم من القواصم)) لابن العربي (ص: ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١١). =

﴿فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ﴾.

أي: فتَنْدَموا -أيُّها المؤمنونَ- على إصابتِكم القَومَ البُرآءَ بأذًى وضَررٍ؛ بسَببِ تَعجُّلِكم في قَبولِ خبَرِ الفاسِقِ، وتَرْكِكم التَّبيُّنَ والتَّثبُّتَ[1].

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

أي: واعْلَموا -يا أصحابَ النَّبيِّ- أنَّ رسولَ اللهِ بيْنَ أظْهُرِكم[2].

---

= قال الشنقيطي: (قولُه: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا﴾، أي: لئلَّا تُصيبوا قومًا، أو كراهةَ أن تُصيبوا قومًا بجهالةٍ، أي: لِظَنِّكم النَّبأَ الَّذي جاء به الفاسِقُ حقًّا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

قيل: المقصودُ: اتَّقُوا أن تَكذِبوا أو تقولوا باطلًا؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُخبِرُه بأنبائِكم، ويُعرِّفُه أحوالَكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والخازن، وأبو حيَّان، وجلال الدين المحلِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٦٩٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٦).

وقيل: إنَّ الله تعالى لَمَّا قال: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ قال بَعْدَه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾، أي: الكشْفُ سهْلٌ عليكم بالرُّجوعِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه فيكم مُبيِّنٌ مُرشِدٌ. قاله الرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠١). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٦).

وقيل: المعنى: اعلَموا أنَّ بيْنَ أظهُرِكم رسولَ الله؛ فعظِّموه ووقِّروه، وتأدَّبوا معه، وانقادوا =

﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾.

أي: لو أنَّ رسولَ اللهِ يَعمَلُ بآرائِكم -أيُّها المؤمنونَ- في كثيرٍ مِن الأمورِ، لَوقَعْتُم في مَشقَّةٍ وشِدَّةٍ(١).

عن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خطَبَنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: أيُّها النَّاسُ، قد فرَضَ اللهُ عليكم الحجَّ، فحُجُّوا، فقال رجُلٌ: أكُلَّ عامٍ يا رسولَ اللهِ؟ فسَكَتَ حتَّى قالَها ثلاثًا، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو قلْتُ: نعمْ، لَوجَبَتْ، ولَما استطَعْتُم، ثمَّ قال: ذَرُوني ما ترَكْتُكم؛ فإنَّما هلَكَ مَن كان قبْلَكم بكَثرةِ سُؤالِهم، واختِلافِهم على أنْبيائِهم، فإذا أمَرْتُكم بشَيءٍ فأْتُوا منه ما استطَعْتُم، وإذا نهَيْتُكم عن شَيءٍ فدَعُوه))(٢).

---

= لأمْرِه؛ فإنَّه أعلَمُ بمَصالِحِكم، وأشفَقُ عليكم منكم، ورأيُه فيكم أتَمُّ مِن رأيِكم لأنفُسِكم. قاله ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢).

قال ابنُ عاشور: (فالمقصودُ تعليمُ المُسلِمينَ باتِّباعِ ما شرَعَ لهم رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الأحكام، ولو كانت غيرَ مُوافِقةٍ لرَغَباتِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤).

وقال ابنُ عُثيمين: (سَبَبُ ما سبَق أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بلَغَه عن قَومٍ ما ليس فيهم، فأمَر اللهُ تعالى بالتَّأكُّدِ مِن الأخبارِ إذا جاء بها مَن لا تُعرَفُ عدالتُه، وكأنَّ بعضَ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم أرادوا مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُعاقِبَ هؤلاء الَّذين بلَغه عنهم ما بلَغه، ولكِنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَفعَلْ بعدَ أن نزَلَت عليه الآيةُ: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٥).

قال ابن جرير: (كما لو قَبِلَ مِنَ الوَليدِ بنِ عُقْبةَ قَولَه في بَني المُصْطَلِقِ: إنَّهم قد ارتَدُّوا، ومَنَعوا الصَّدَقةَ، وجَمَعوا الجُموعَ لغزْوِ المُسلِمينَ، فغزاهم فقتَلَ منهم، وأصاب مِن دمائِهم وأموالِهم؛ كان قد قتَلَ وقتَلْتُم مَن لا يحِلُّ له ولكم قتْلُه، وأخَذَ وأخَذْتُم مِن المالِ ما لا يَحِلُّ له ولكم أخْذُه مِن أموالِ قَومٍ مُسلِمينَ، فنالَكُم مِنَ اللهِ بذلك عَنَتٌ!). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٤).

(٢) رواه مسلم (١٣٣٧).

وعن أبي ذَرٍّ رضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صُمْنا معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رمضانَ، فلم يَقُمْ بنا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى بقِيَ سبْعٌ مِن الشَّهرِ، فقام بنا حتَّى ذهَبَ نحْوٌ مِن ثُلُثِ اللَّيلِ، ثمَّ كانت سادسةٌ فلم يَقُمْ بنا، فلمَّا كانت الخامسةُ قام بنا حتَّى ذهَبَ نحْوٌ مِن شَطرِ اللَّيلِ، قُلْنا: يا رسولَ الله، لو نفَّلْتَنا[1] قِيامَ هذه اللَّيلةِ، قال: إنَّ الرَّجُلَ إذا صلَّى مع الإمامِ حتَّى يَنصرِفَ حُسِب له قِيامُ لَيلةٍ))[2].

وعن عائشةَ رضي الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، خَرَج مِن جوفِ اللَّيلِ فصلَّى في المسجدِ، فصلَّى رجالٌ بصلاتِه، فأصْبَح النَّاسُ يتحَدَّثونَ بذلك، فاجْتَمَع أكثرُ منهم، فخَرَج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في اللَّيلةِ الثَّانيةِ، فصَلَّوْا بصلاتِه، فأصْبَح النَّاسُ يَذْكُرونَ ذلك، فكَثُر أهلُ المسجدِ مِن اللَّيلةِ الثَّالثةِ، فخَرَج فصَلَّوْا بصلاتِه، فلمَّا كانت اللَّيلةُ الرَّابعةُ عَجَز المسجدُ عن أهلِه، فلم يَخْرُجْ إليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فطَفِق رِجالٌ منهم يقولونَ: الصَّلاةَ، فلم يخرُجْ إليهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم حَتَّى خَرَج لصلاةِ الفجرِ، فلمَّا قضَى الفجرَ أقْبَل على النَّاسِ، ثُمَّ تَشَهَّد، فقال: أمَّا بعدُ، فإنَّه لم يَخْفَ عليَّ شَأْنُكم اللَّيلةَ، ولكنِّي خَشيتُ أنْ تُفْرَضَ عليكم صلاةُ اللَّيلِ فتَعْجِزوا عنها))[3].

---

(١) نَفَّلْتَنا: أي: زِدْتَنا مِن صَلاةِ النَّافِلةِ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطيبي (٤/ ١٢٣٤).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١٣٧٥)، والترمذيُّ (٨٠٦)، والنسائيُّ (١٣٦٤) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (١٣٢٧)، وأحمد (٢١٤٤٧).

قال الترمذي: (حَسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه الطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (١/ ٣٤٩)، وابنُ حِبَّان في ((الصحيح)) (٢٥٤٧)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٥/ ١٧٨)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٣٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٩٢٤)، مسلم (٧٦١) واللفظ له.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾.

أي: ولكنَّ اللهَ هو الَّذي حبَّب إليكم -يا أصحابَ النَّبيِّ- الإيمانَ، فآثَرْتُموه ورَضِيتُموه، فأنتم تُطِيعون اللهَ ورسولَه، ولا تُقدِّمونَ بيْنَ يدَيِ اللهِ ورَسولِه وإنْ خالَفَ رأْيَكم، فيَقيكم الله بذلك مِن الشِّدَّةِ والمَشقَّةِ[1].

﴿وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾.

أي: وحسَّن اللهُ في قُلوبِكم الإيمانَ؛ فهو وحْدَه مَن وفَّقَكم إليه، وحبَّبه إلى نُفوسِكم[2].

﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾.

أي: وبغَّض اللهُ إليكم الكفْرَ به وبرَسولِه، والخُروجَ عن طاعتِهما، وارتِكابَ المعاصي[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (٩/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩، ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

قال ابنُ القيِّم: (تَحبيبُه سُبحانَه الإيمانَ إلى عبادِه المؤمنينَ هو إلقاءُ محبَّتِه في قُلوبِهم، وهذا لا يَقدِرُ عليه سِواه، وأمَّا تَحبيبُ العبدِ الشَّيءَ إلى غيرِه فإنَّما هو بتَزْيينِه، وذِكْرِ أوصافِه، وما يَدعو إلى محبَّتِه؛ فأخبَرَ سُبحانَه أنَّه جعَل في قُلوبِ عبادِه المؤمِنينَ الأمْرَينِ: حُبَّه، وحُسْنَه الدَّاعيَ إلى حُبِّه). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٧).

وقال أيضًا: (ولا تَظُنُّوا أنَّ نُفوسَكم تُريدُ لكم الرُّشدَ والصَّلاحَ كلَّما أرَدْتُم الإيمانَ؛ فلولا أنِّي حبَّبْتُه إليكم وزيَّنْتُه في قُلوبِكم، وكرَّهتُ إليكم ضِدَّه؛ لَما وقَعَ منكم، ولا سمَحَتْ به أنفُسُكم). ((مدارج السالكين)) (١/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٢، ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - =

عن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن سَرَّتْه حسَنَتُه وساءَتْه سَيِّئتُه، فهو مُؤمِنٌ))[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾.

أي: الَّذين حبَّبَ اللهُ إليهم الإيمانَ، وزيَّنَه في قُلوبِهم، وكَرَّه إليهم الكفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ؛ أولئك هم السَّالِكون طَريقَ الحقِّ، المستَقِيمون عليه، الموفَّقونَ للصَّوابِ[2].

﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذكَرَ التَّحبيبَ والتَّزيينَ والتَّكريهَ، وما أنتَجَه مِن الرَّشادِ- ذكَرَ عِلَّتَه؛

---

= الحديد)) (ص: ٣٠).

قال ابن عثيمين: (الكفرُ أعظَمُ مِن الفِسقِ، والفِسقُ أعظَمُ مِن العِصيانِ؛ فالكفرُ هو الخروجُ مِن الإسلامِ بالكُلِّيَّةِ...، وأمَّا الفِسقُ فهو دونَ الكفرِ، لكنَّه فِعلُ كبيرةٍ، ... ولم يَثْبُ منها؛ كالزِّنا، وشُربِ الخَمرِ، والسَّرِقةِ، والقَذفِ، وما أشْبَهَ ذلك، والعِصيانُ: هو الصَّغائرُ الَّتي تُكَفَّرُ بالأعمالِ الصَّالِحةِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠).

وقال الشوكاني: (أصلُ الفِسقِ الخروجُ على الطَّاعةِ، والعِصيانُ جِنْسُ ما يُعصَى اللهُ به. وقيلَ: أراد بذلك الكذِبَ خاصَّةً. والأوَّلُ أوْلَى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧١).

(١) أخرجه الترمذيُّ (٢١٦٥)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٩٢٢٥)، وأحمدُ (١١٤) مطَوَّلًا. قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ). وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٢٥٤)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٤/ ٩٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢١٦٥)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((العواصم والقواصم)) (٩/ ٤٧)، وقال ابن كثير في ((مسند الفاروق)) (٢/ ٥٥٤): (رُوِيت هذه الخُطبةُ عن عُمَرَ مِن وُجوهٍ عديدةٍ إذا تُتُبِّعَت بلَغَت حَدَّ التَّواتُرِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

إعلامًا بأنَّه تعالى لا يَجِبُ عليه شَيءٌ؛ حثًّا على الشُّكرِ[١].

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾.

أي: فعَلَ اللهُ بهم ذلك تفَضُّلًا منه عليهم، ونِعمةً أنعَمَ بها عليهم؛ حيثُ حبَّبَ إليهم الإيمانَ، وزيَّنَه في قُلوبِهم، وكرَّه إليهم الكفْرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، فلمْ يَكِلْهم إلى أنفُسِهم، بلْ تولَّى سُبحانَه ذلك مِن غيرِ حَولٍ منهم ولا قوَّةٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

ختْمُ الآيةِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيه مُناسَباتٌ عِدَّةٌ:

**منها:** أنَّه تعالى لَمَّا ذكَرَ نَبأَ الفاسِقِ، قال: إنْ يَشتبِهْ على المؤمِنِ كذِبُ الفاسِقِ، فلا تَعتمِدوا على تَرويجِه عليكم الزُّورَ؛ فإنَّ اللهَ عليمٌ، ولا تَقولوا -كما كان عادةُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٧، ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١، ٣٢).

قال الرازي: (فَضْلُ اللهِ إشارةٌ إلى ما عِندَه مِنَ الخَيرِ وهو مُستَغنٍ عنه، والنِّعمةُ إشارةٌ إلى ما يَصِلُ إلى العبدِ وهو محتاجٌ إليه؛ لأنَّ الفَضلَ في الأصلِ يُنبِئُ عن الزِّيادةِ، وعندَه خزائنُ مِنَ الرَّحمةِ لا لِحاجةٍ إليها، ويُرسِلُ منها على عبادِه ما لا يَبْقَونَ معه في ورْطةِ الحاجةِ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ، والنِّعمةُ تُنبِئُ عن الرَّأفةِ والرَّحمةِ، وهو مِن جانبِ العبدِ، وفيه معنًى لطيفٌ، وهو تأكيدُ الإعطاءِ...، فإذَنْ قَولُه: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ما هو مِن جانبِ اللهِ الغَنيِّ، والنِّعمةُ إشارةٌ إلى ما هو مِن جانبِ العبدِ مِنِ اندِفاعِ الحاجةِ، وهذا ممَّا يؤكِّدُ قَولَنا: ﴿فَضْلًا﴾ مَنصوبٌ بفِعْلٍ مُضمَرٍ، وهو الابتِغاءُ والطَّلَبُ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٣، ١٠٤).

المنافِقِ-: لولا يُعذِّبُنا اللهُ بما نقولُ؛ فإنَّ اللهَ حكيمٌ لا يَفعَلُ إلَّا على وَفْقِ حِكمتِه.

**وثانيها**: لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧]، بمعْنى: لا يُطِيعكم، بل يتَّبِعُ الوحْيَ، قال: فإنَّ اللهَ مِن كَونِه عَليمًا يُعلِّمُه، ومِن كَونِه حَكيمًا يَأمُرُه بما تَقتضِيه الحِكمةُ؛ فاتَّبِعوه.

**ثالثُها**: المُناسَبةُ الَّتي بيْنَ قولِه تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ وبيْنَ قولِه: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾، أي: حبَّبَ بعِلمِه الإيمانَ لأهلِ الإيمانِ، واختارَ له مَن يَشاءُ بحِكمتِه.

**رابعُها**: أنَّه سُبحانه وتعالى قال: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾، ولَمَّا كان الفضْلُ هو ما عندَ الله مِن الخَيرِ المسْتَغنَى عنه، قال تعالى: هو عليمٌ بما في خَزائنِ رحْمتِه مِن الخَيرِ، وكانت النِّعمةُ هو ما يُدفَعُ به حاجةُ العبْدِ، قال: هو حَكيمٌ يُنزِلُ الخَيرَ بقَدَرٍ ما يَشاءُ على وَفْقِ الحِكمةِ[1].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ بالغُ العِلمِ بكلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلْمُه التَّامُّ بالمحْسِنينَ مِن المسيئينَ، ومَن همْ أهلٌ لفضْلِ اللهِ ونِعمتِه ممَّن لا يَصلُحُ لذلك، وهو بالغُ الحِكمةِ؛ فيَضَعُ كلَّ شَيءٍ في مَوضعِه اللَّائقِ به، ومِن ذلك إيتاؤُه فضْلَه لِمَن يَصلُحُ له[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢، ٣٣).

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾، هذا مِن الآدابِ الَّتي على أُولي الألبابِ التَّأدُّبُ بها واستِعمالُها؛ وهو أنَّه إذا أخبَرَهم فاسقٌ بخبَرٍ أنْ يَتثبَّتوا في خبَرِه، ولا يأْخُذوه مُجرَّدًا؛ فإنَّ في ذلك خطَرًا كبيرًا، ووُقوعًا في الإثمِ؛ فإنَّ خبَرَه إذا جُعِلَ بمَنزِلةِ خبَرِ الصَّادِقِ العدْلِ، حُكِمَ بمُوجَبِ ذلك ومُقتضاهُ، فحصَلَ مِن تلَفِ النُّفوسِ والأموالِ بغيرِ حقٍّ بسَببِ ذلك الخبَرِ ما يكونُ سَببًا للنَّدامةِ، بلْ الواجبُ عندَ خبَرِ الفاسِقِ التَّثبُّتُ والتَّبيُّنُ، فإنْ دلَّت الدَّلائلُ والقرائنُ على صِدقِه عُمِلَ به وصُدِّقَ، وإنْ دلَّت على كذِبِه كُذِّبَ ولم يُعمَلْ به[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾، فيه تَحذيرٌ مِن الوُقوعِ فيما يُوجِبُ النَّدَمَ شرْعًا[2].

٣- ليس حُسنُ النِّيَّةِ بالرَّعيَّةِ والإحسانُ إليهم: أنْ يَفعَلَ ما يَهْوَوْنه، ويَترُكَ ما يَكرَهونَه؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال تعالى للصَّحابةِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾، وإنَّما الإحسانُ إليهم فِعْلُ ما يَنفَعُهم في الدِّينِ والدُّنيا ولو كَرِهَه مَن كَرِهَه؛ لكنْ يَنْبغي له أنْ يَرفُقَ بهم فيما يَكرَهونه؛ ففي الصَّحيحِ[3] عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّ الرِّفقَ لا يكونُ في شيءٍ إلَّا زانَه، ولا يُنزَعُ مِن شيءٍ إلَّا شانَه))[4].

## الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) من حديثِ عائشةَ رَضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٨/ ٣٦٤).

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾، فيه إشارةٌ إلى لَطيفةٍ؛ وهي أنَّ المؤمنَ كان مَوصوفًا بأنَّه شَديدٌ على الكافرِ، غليظٌ عليه، فلا يَتمكَّنُ الفاسِقُ مِن أنْ يُخبِرَه بنَبأٍ، فإنْ تَمكَّنَ منه يكونُ نادرًا، فقال: ﴿إِن جَآءَكُمۡ﴾ بحرْفِ الشَّرطِ الَّذي لا يُذكَرُ إلَّا مع التَّوقُّعِ؛ إذ لا يَحسُنُ أنْ يُقالَ: (إنِ احمَرَّ البُسرُ)، و(إنْ طلَعَتِ الشَّمسُ)[1].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على قَبولِ خبَرِ الواحدِ إذا كان عدْلًا؛ لأنَّه إنَّما أمَرَ فيها بالتَّثبُّتِ عندَ نقْلِ خبَرِ الفاسِقِ[2]، فقولُه تعالَى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يدُلُّ بدَليلِ خِطابِه -أي: مفهومِ مخالَفَتِه- أنَّ الجائِيَ بنَبأٍ إنْ كان غيرَ فاسِقٍ بل عدلًا لا يَلزَمُ التَّبيُّنُ في نَبَئِه[3]، والسِّياقُ مُرشِدٌ إلى أنَّ خبَرَ العدْلِ لا وَقفةَ فيه، وإلَّا لَاسْتوى مع الفاسِقِ، فالتَّثبُّتُ مُعلَّلٌ بالفِسقِ، فإذا انْتَفَى ولم تُوجَدْ عِلَّةٌ أُخرى تُوجِبُ التَّثبُّتَ؛ وجَبَ القَبولُ[4].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، فيه أنَّ شَهادةَ الفاسِقِ لا تُقبَلُ؛ فإنَّ اللهَ تعالَى أمَر بالتَّبيُّنِ في الخَبرِ والنَّبأِ، وبابُ الشَّهادةِ أضيَقُ مِن بابِ الخَبرِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٢٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٩).

وقال ابن القيِّم: (مَدارُ قَبولِ الشَّهادةِ ورَدِّها على غَلَبةِ ظنِّ الصِّدقِ وعدَمِه. والصَّوابُ المقطوعُ به أنَّ العدالةَ تَتبعَّضُ؛ فيكونُ الرَّجُلُ عدْلًا في شَيءٍ، فاسِقًا في شَيءٍ، فإذا تبيَّنَ للحاكمِ أنَّه عدْلٌ فيما شهِدَ به، قَبِلَ شَهادتَه، ولم يَضُرَّه فِسقُه في غَيرِه). ((الطرق الحكمية)) (ص: ١٤٨).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، فيه دَليلٌ على أنَّ خبرَ الصَّادقِ مَقبولٌ، وخبرَ الكاذبِ مَردودٌ، وخبرَ الفاسِقِ مُتوقَّفٌ فيه؛ ولهذا كان السَّلفُ يَقبَلون رِواياتِ كثيرٍ مِن الخَوارِجِ المعْروفينَ بالصِّدقِ، ولو كانوا فُسَّاقًا[١]. فنَبأُ الفاسِقِ ليس بمَردودٍ، بل هو مُوجِبٌ للتَّبيُّنِ والتَّثبُّتِ، كما قال تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾، وفي القِراءةِ الأُخرى: ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾[٢]، فعلَينا التَّبيُّنُ والتَّثبُّتُ عندَ خبَرِ الفاسِقِ الواحدِ، ولم نُؤمَرْ به عندَ خبَرِ الفاسِقينَ؛ وذلك أنَّ خبَرَ الاثنَينِ يُوجِبُ مِن الاعتقادِ ما لا يُوجِبُه خبَرُ الواحدُ، أمَّا إذا عُلِمَ أنَّهما لم يَتواطَآ فهذا قد يَحصُلُ به العِلمُ[٣]، وقولُه تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يَتناوَلُ خبَرَ كلِّ فاسقٍ وإنْ كان كافرًا لا يَجوزُ تَكذيبُه إلَّا ببيِّنةٍ، كما لا يَجوزُ تَصديقُه إلَّا ببيِّنةٍ[٤].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ فيه وُجوبُ البَحثِ عن عَدالةِ مَن كان مَجهولَ الحالِ في قَبولِ الشَّهادةِ، أو الرِّوايةِ عندَ القاضي وعندَ الرُّواةِ[٥]، وفي الآيةِ دَليلٌ على فَسادِ قَولِ مَن قال: إنَّ المسلِمينَ كلَّهم عُدولٌ حتَّى تَثبُتَ الجرْحةُ[٦]؛ فالمجهولُ الحالِ يحتَمِلُ أن يكونَ فاسِقًا، فالاحتياطُ لازِمٌ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٩٩).

(٢) قَرَأها حَمْزَةُ وَالكِسائِيُّ وخَلَفٌ ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ مِن التَّثَبُّتِ، وقَرَأها الباقونَ ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ مِن التَّبَيُّنِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٥/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٣).

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ هاهنا فائدةٌ لَطيفةٌ؛ وهي أنَّه سُبحانه لم يَأمُرْ برَدِّ خبَرِ الفاسِقِ وتَكذيبِه ورَدِّ شَهادتِه جُملةً، وإنَّما أمَرَ بالتَّبيُّنِ، فإنْ قامت قَرائنُ وأدِلَّةٌ مِن خارجٍ تدُلُّ على صِدقِه، عُمِلَ بدَليلِ الصِّدقِ، ولو أخبَرَ به مَن أخبَرَ، فهكذا يَنْبغي الاعتِمادُ في رِوايةِ الفاسِقِ وشَهادتِه، وكثيرٌ مِن الفاسِقينَ يَصدُقون في أخبارِهم ورِواياتِهم وشَهاداتِهم، بل كثيرٌ منهم يَتحرَّى الصِّدقَ غايةَ التَّحرِّي، وفِسقُه مِن جِهاتٍ أُخَرَ، فمِثلُ هذا لا يُرَدُّ خبَرُه ولا شَهادتُه، ولو رُدَّتْ شَهادةُ مِثلِ هذا ورِوايتُه، لَتَعطَّلَت أكثرُ الحُقوقِ، وبطَلَ كثيرٌ مِن الأخبارِ الصَّحيحةِ، ولا سيَّما مَن فِسقُه مِن جِهةِ الاعتِقادِ والرَّأيِ، وهو مُتحَرٍّ للصِّدقِ، فهذا لا يُرَدُّ خبَرُه ولا شَهادتُه. وأمَّا مَن فِسقُه مِن جِهةِ الكذِبِ؛ فإنْ كثُرَ منه وتَكرَّرَ، بحيث يَغلِبُ كذِبُه على صِدقِه، فهذا لا يُقبَلُ خَبرُه ولا شَهادتُه، وإنْ نَدَرَ منه مرَّةً ومرَّتَينِ، ففي رَدِّ شَهادتِه وخبَرِه بذلك قَولانِ للعُلماءِ(١).

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ يَأمُرُ تعالى بالتَّثبُّتِ في خبَرِ الفاسِقِ ليُحتاطَ له؛ لئلَّا يُحكَمَ بقولِه فيَكون -في نفْسِ الأمرِ- كاذبًا أو مُخطئًا، فيَكونَ الحاكمُ بقولِه قد اقتَفى وَراءَه، وقدْ نَهَى اللهُ عن اتِّباعِ سَبيلِ المفسِدين، ومِن هاهنا امتنَعَ طوائفُ مِن العُلماءِ مِن قَبولِ رِوايةِ مَجهولِ الحالِ؛ لاحتِمالِ فِسقِه في نفْسِ الأمْرِ، وقَبلَها آخَرونَ؛ لأنَّا إنَّما أُمِرْنا بالتَّثبُّتِ عندَ خبَرِ الفاسِقِ، وهذا ليس بمُحقَّقِ الفِسقِ؛ لأنَّه مَجهولُ الحالِ(٢).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، أصْلٌ عَظيمٌ في تَصرُّفاتِ وُلاةِ الأُمورِ، وفي تَعامُلِ النَّاسِ بَعضِهم مع

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٠).

بَعضٍ؛ مِن عدَمِ الإصغاءِ إلى كلِّ ما يُرْوَى ويُخبَرُ به[١].

٩- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الأمْرُ بالتَّبيُّنِ أصلٌ عَظيمٌ في وُجوبِ التَّثبُّتِ في القضاءِ، وألَّا يَتتبَّعَ الحاكمُ القِيلَ والقالَ، ولا يَنصاعَ إلى الجَوَلانِ في الخَواطِرِ مِن الظُّنونِ والأوهامِ[٢].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾، فيه لَطيفةٌ؛ وهي أنَّ الإصابةَ تُستعمَلُ في السَّيِّئةِ والحَسَنةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[٣] [النساء: ٧٩].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾، أي: فتَصيروا، ولكنَّه عبَّرَ بذلك؛ لأنَّ أشنَعَ النَّدَمِ ما استقبَلَ الإنسانَ صباحًا، وقْتَ انتباهِه وفَراغِه، وإقبالِه على لَذَّاتِه[٤].

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾، عبَّرَ بـ﴿كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّه قدْ يُوافِقُهم، ويَفعَلُ بمُقْتضَى مَصلحتِهم؛ تَحقيقًا لفائدةِ قولِه تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾[٥] [آل عمران: ١٥٩].

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾، استدلَّ به عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ في الرَّدِّ على القدَريَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٢).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

والأثرُ الواردُ عن عُمرَ بنِ عبدِ العزيزِ في ذلك أخرجه أبو نُعَيمٍ في ((الحلية)) (٥/ ٣٤٦).

١٤- يَجِبُ على المسلمِ أنْ يَتبرَّأَ مِن كلِّ عمَلٍ لا يُرْضي اللهَ ورسولَه وإنْ لم يكُنْ كُفْرًا، كالفُسوقِ والعِصيانِ، كما قال سُبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[1].

١٥- قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ إلى قولِه سُبحانه: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾، يُبيِّنُ أنَّ ما يَحْصُلُ في القلوبِ مِن الإيمانِ هو مِن اللهِ تعالى بفضْلِه ورَحمتِه[2].

١٦- الفُسوقُ في عُرْفِ الشَّرْعِ أشدُّ مِن العِصيانِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾[3].

١٧- قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ فيه معنًى لَطيفٌ؛ وهو أنَّ اللهَ تعالى في أوَّلِ الأمْرِ قال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾، أي: هو مُرشِدٌ لكم، فخِطابُ المؤمنينَ للتَّنبيهِ على شَفَقتِه بالمؤمنينَ، فقال في الأوَّلِ: كفَى النَّبيُّ مُرشِدًا لكم ما تَستَرشِدونَه، فأشفَقَ عليهم وأرشَدَهم، وعلى هذا قولُه: ﴿ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي: الموافِقونَ للرُّشدِ؛ يأْخُذونَ ما يأْتِيهم، ويَنتهونَ عمَّا يَنهاهُم[4].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ هذا نِداءٌ ثالثٌ ابتُدِئَ به غرَضٌ آخَرُ، وهو آدابُ جماعاتِ المؤمنينَ بَعضِهم معَ بعضٍ، وإعادةُ الخِطابِ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١١).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٣).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وفَصْلُه بدونِ عاطفٍ؛ لتَخْصيصِ هذا الغرَضِ بالاهتِمامِ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا(١).

- وأفاد حرْفُ التَّنبيهِ (يا)، وإيقاعُ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ صِلةً للمَوصولِ، وجَعْلُها سببًا لِمَا بعْدَه مِن الحرْفِ الموضوعِ لنِداءِ البعيدِ، وقد نُوديَ به القريبُ المُقاطِنُ- أنَّ على المؤمنينَ أنْ يَكونوا على تثبُّتٍ مِن الأمرِ؛ لئلَّا يطمَعَ فاسقٌ في مخاطبَتِهم بكلمةِ زُورٍ(٢).

- قولُه: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ أُوثرَ في الشَّرطِ حرْفُ (إنْ) الَّذي الأصلُ فيه أنْ يكونَ للشَّرطِ المشكوكِ في وُقوعِه؛ للتَّنبيهِ على أنَّ شأنَ فِعلِ الشَّرطِ أنْ يكونَ نادرَ الوُقوعِ، لا يُقدِمُ عليه المسلِمونَ(٣).

- وتَنكيرُ (فاسقٍ) و(نَبأٍ) في سِياقِ الشَّرطِ يُفيدُ العُمومَ في الفُسَّاقِ بأيِّ فِسقٍ اتَّصَفوا، وفي الأنباءِ كيف كانتْ، كأنَّه قِيل: أيُّ فاسقٍ جاءَكم بأيِّ نبأٍ، فتَوقَّفوا فيه، وتَطَلَّبوا بَيانَ الأمْرِ وانكشافَه(٤). والتَّبيُّنُ: قُوَّةُ الإبانةِ، وهو مُتعدٍّ إلى مَفعولٍ بمعْنى أبانَ، أي: تأمَّلوا وأبِينوا. والمَفعولُ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿بِنَبَإٖ﴾، أي: تَبيَّنوا ما جاء به(٥).

- والجَهالةُ: تُطلَقُ بمعنى ضِدِّ العِلمِ، وتُطلَقُ بمعنى ضِدِّ الحِلمِ، مِثلُ قولِهم: جَهْلٌ كجَهلِ السَّيفِ؛ فعلَى الأوَّلِ -أنَّ الجهالةَ ضِدُّ العِلمِ- فالباءُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٢٩). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣١).

﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ للمُلابَسةِ، وهو ظَرفٌ مُستقَرٌّ[١] في مَوضعِ الحالِ، أي: مُتلبِّسينَ أنتُم بعدَمِ العِلمِ بالواقعِ؛ لتَصديقِكم الكاذِبَ، ومُتعلَّقُ ﴿تُصِيبُواْ﴾ على هذا الوجْهِ مَحذوفٌ دلَّ عليه السِّياقُ سابِقًا ولاحِقًا، أي: أنْ تُصيبوهم بضُرٍّ، وأكثرُ إطلاقِ الإصابةِ على إيصالِ الضُّرِّ. وعلى الإطلاقِ الثَّاني -أنَّ الجهالةَ ضِدُّ الحِلْمِ- فالباءُ للتَّعديةِ، أي: أنْ تُصيبوا قومًا بفِعلٍ مِن أثَرِ الجَهالةِ، أي: بفِعلٍ مِن الشِّدَّةِ والإضرارِ[٢].

- ودلَّ قولُه: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ أنَّه تَحذيرٌ مِن الوُقوعِ فيما يُوجِبُ التَّوبةَ مِن تلك الإصابةِ؛ فكان هذا كِنايةً عن الإثمِ في تلك الإصابةِ[٣].

- وتَقديمُ المَجرورِ على مُتعلَّقِه في قَولِه: ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾؛ للاهتِمامِ بذلك الفِعلِ -وهو الإصابةُ بدُونِ تثبُّتٍ-، والتَّنبيهِ على خطَرِ أمْرِه[٤].

- وقدَّمَ اللهُ في هذه السُّورةِ الكريمةِ ما هو الأهمُّ على ما دُونَه؛ فذكَرَ جانبَ

---

(١) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ «استقرَّ»، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبَرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لَغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولُك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زَيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زَيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهِ، ثمَّ ذكَرَ جانبَ الرَّسولِ، ثمَّ ذكَرَ ما يُفْضي إلى الاقتِتالِ بيْنَ طوائفِ المسلِمينَ بسَببِ الإصغاءِ إلى كَلامِ الفاسِقِ والاعتِمادِ عليه؛ فإنَّه يَذكُرُ كلَّ ما كان أشدَّ نِفارًا للصُّدورِ. وأمَّا المؤمنُ الحاضرُ أو الغائبُ، فلا يُؤذِي المؤمنَ إلى حدٍّ يُفْضي إلى القتْلِ، ولذا لمْ يَذكُرِ المؤمنَ قبْلَ الفاسِقِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ﴾ [الحجرات: ٦] عطْفَ تَشريعٍ على تَشريعٍ، وليس مَضمونُها تَكملةً لِمَضمونِ ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ ...﴾ إلخ، بلْ هي جُملةٌ مُستقِلَّةٌ. وابتداءُ الجُملةِ بقولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾؛ للاهتِمامِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ تَوبيخٌ لِمَن يُكذِّبُ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ووعيدٌ بالفضيحةِ، ولا يَصدُرُ ذلك إلَّا ممَّن هو شاكٌّ في الرِّسالةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يَترُكُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعتمِدُ على خبَرِ الفاسِقِ، بل بيَّنَ له ذلك. وقولُه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ قيل: هو كلامٌ تامٌّ، أمَرَهم بأنْ يَعلَموا أنَّ الَّذي هو بيْنَ ظَهرانَيْكم هو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا تُخبِروه بما لا يَصِحُّ؛ فإنَّه رسولُ اللهِ يُطلِعُه على ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في الإيقاظِ والتَّحذيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٣).

على وجْهِ الكِنايةِ؛ فإنَّ كَونَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيْنَ ظَهرانَيْهم أمْرٌ مَعلومٌ لا يُخبَرُ عنه، فالمَقصودُ تَعليمُ المسلمينَ اتِّباعَ ما شَرَعَ لهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الأحكامِ، ولو كانت غيرَ مُوافِقةٍ لرغَباتِهم[١].

- وتَقديمُ خبَرِ (إنَّ) على اسمِها في قولِه: ﴿أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾؛ للاهتِمامِ بهذا الكَونِ فيهم، وتنْبيهًا على أنَّ واجِبَهم الاغتِباطُ به، والإخلاصُ له؛ لأنَّ كَونَه فيهم شرَفٌ عظيمٌ لِجَماعتِهم، وصَلاحٌ لهم. وأيضًا القصدُ مِن تَقديمِ الخبَرِ على الاسمِ: التَّوبيخُ والتَّشدُّدُ على بعضِ المؤمنينَ؛ لِتَحاشِي ما استهجَنَه اللهُ مِن مُحاوَلتِهم استِتْباعَ رأيِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لآرائِهم؛ فوجَبَ تَقديمُه لانصِبابِ الغرَضِ إليه[٢].

- وجُملةُ ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا؛ فضَميرَا الجمْعِ في قولِه: ﴿يُطِيعُكُمْ﴾ وقولِه: ﴿لَعَنِتُّمْ﴾ عائدانِ إلى الَّذين آمَنوا على تَوزيعِ الفعلِ على الأفرادِ؛ فالمُطاعُ بعضُ الَّذين آمنوا، وهم الَّذين يَبتَغون أنْ يَعمَلَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما يَطلُبونَ منه، والعانتُ بعضٌ آخَرُ، وهم جُمهورُ المؤمنينَ الَّذين يَجري عليهم قَضاءُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحسَبِ رَغبةِ غَيرِهم. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿فِيكُمْ﴾؛ لأنَّ مَضمونَ الجُملةِ يَتعلَّقُ بأحوالِ المخاطَبينَ، مِن جِهةِ أنَّ مَضمونَ جوابِ (لو) عَنَتٌ يَحصُلُ للمُخاطَبينَ. ومآلُ الاعتِبارَينِ في مَوقعِ الجُملةِ واحدٌ، والكلامُ على كِلَا التَّقديرَينِ مُنتظِمٌ أحسَنَ انتِظامٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٤، ٢٣٥).

- وصِيغةُ المُضارِعِ في قولِه: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ مُستعمَلةٌ في الماضي؛ لأنَّ حرْفَ (لو) يُفيدُ تَعليقَ الشَّرطِ في الماضي، وإنَّما عُدِلَ إلى صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على أنَّه كان في إرادتِهم استِمرارُ عمَلِه على ما يَستَصوبونَه، وأنَّه كلَّما عَنَّ لهم رأيٌ في أمْرٍ كان مَعمولًا عليه؛ بدليلِ قولِه: ﴿فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾، كقولِك: فلانٌ يَقْري الضَّيفَ، ويَحمي الحريمَ، تُريدُ أنَّه ممَّا اعتادَه ووُجِدَ منه مُستمِرًّا، والمعْنى: لو أطاعَكم في قَضيَّةٍ مُعيَّنةٍ، ولو أطاعكم كُلَّما رَغِبتُم منه أو أشَرْتُم عليه، لَعَنِتُّم؛ لأنَّ بعضَ ما يَطلُبونه مُضِرٌّ بالغَيرِ أو بالرَّاغبِ نفْسِه؛ فإنَّه قد يُحِبُّ عاجِلَ النَّفعِ العائدَ عليه بالضُّرِّ[1].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾ تَعريفُ الجنسِ شامِلٌ لجميعِ الأمورِ؛ ولذلك جِيءَ معه بلفظِ ﴿كَثِيرٖ مِّنَ﴾، أي: في أحداثٍ كثيرةٍ ممَّا لكم رَغبةٌ في تَحصيلِ شَيءٍ منها فيه مُخالَفةٌ لِما شرَعَه، وهذا احترازٌ عن طاعتِه إيَّاهم في بَعضِ الأمْرِ ممَّا هو غيرُ شُؤونِ التَّشريعِ، كما أطاعَهم في نُزولِ الجيشِ يومَ بَدْرٍ على جِهةٍ يَستأثِرونَ فيها بماءِ بدْرٍ[2].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ الاستِدراكُ المُستفادُ من حرْفِ (لكنَّ) ناشئٌ عن قولِه: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾؛ لأنَّه اقتَضَى أنَّ لِبَعضِهم رغبةً في أنْ يُطيعَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يَرغَبونَ أنْ يَفعلَه ممَّا يَبتَغون ممَّا يَخالونَه صالحًا بهم في أشياءَ كثيرةٍ تَعرِضُ لهم. وفي هذا تَحريضٌ على التَّسليمِ لِمَا يأمُرُ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦١، ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٥).

به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولذا فكَونُه حبَّبَ إليهم الإيمانَ إدماجٌ[١] وإيجازٌ، والتَّقديرُ: ولكنَّ اللهَ شرَعَ لكم الإسلامَ، وحبَّبَه إليكم، أي: دَعاكم إلى حُبِّه والرِّضا به فامْتَثَلْتُم[٢].

- وذِكرُ اسمِ اللهِ في صَدْرِ جُملةِ الاستِدراكِ ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ﴾ دونَ ضَميرِ المتكلِّمِ (وَلَكِنِّي)؛ لِمَا يُشعِرُ به اسمُ الجَلالةِ مِن المَهابةِ والرَّوعةِ، وما يَقتضيهِ مِن واجبِ اقتِبالِ ما حَبَّبَ إليه، ونبْذِ ما كَرَّهَ إليه[٣].

- في قولِه: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ تَعريضٌ بأنَّ الَّذين لا يُطيعون الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم بَقيَّةٌ مِن الكُفرِ والفُسوقِ، والمقصودُ مِن هذا أنْ يَترُكوا ما ليس مِن أحكامِ الإيمانِ؛ تَحذيرًا لهم مِن الحِيادِ عن طريقِ الإيمانِ، وتجْنيبًا لهم عمَّا هو مِن شأنِ أهلِ الكُفرِ؛ فالخبَرُ في قولِه: ﴿حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ مُستعمَلٌ في الإلهابِ، وتَحريكِ الهِمَمِ لمُراعاةِ مَحبَّةِ الإيمانِ، وكراهةِ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ الانْدِفاعَ إلى تَحصيلِ المَرغوبِ مِن الهوى دونَ تَمييزٍ بيْنَ ما يُرضي اللهَ وما لا يُرضيه؛ أثَرٌ مِن آثارِ الجاهليَّةِ مِن آثارِ الكُفرِ والفُسوقِ والعِصيانِ[٤].

- وعُدِّي فِعلَا ﴿حَبَّبَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ﴾ بحرْفِ (إلى)؛ لتَضْمينِهما معْنى (بلَّغَ)، أي: بلَّغَ إليكم حُبَّ الإيمانِ وكُرْهَ الكُفرِ، ولم يُعَدَّ فِعلُ ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ بحرْفِ (إلى) مِثلَ فِعلَيْ ﴿حَبَّبَ﴾ ﴿وَكَرَّهَ﴾؛ للإيماءِ إلى أنَّه لَمَّا رغَّبَهم في الإيمانِ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((الصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((الصدر السابق)) (٢٦/ ٢٣٦، ٢٣٧).

وكرَّهَهم الكُفرَ، امتَثَلوا فأحَبُّوا الإيمانَ وزانَ في قُلوبِهم[١].

- وجمَعَ بيْنَ الفِسقِ والعِصيانِ في قولِه: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾؛ قيل: لأنَّ الفِسقَ هو الكذِبُ، والعِصيانَ بقيَّةُ المَعاصي، وإنَّما أفرَدَ الكَذِبَ بالذِّكرِ؛ لأنَّه سَببُ نُزولِ الآيةِ. وقيلَ: الفُسوقُ الكبيرةُ، والعِصيانُ: الصَّغيرةُ[٢].

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ مُعترِضةٌ للمَدحِ[٣].

- وأفادَ ضَميرُ الفَصلِ (هُم) القَصرَ، وهو قصْرُ إفرادٍ؛ إشارةً إلى أنَّ بيْنَهم فَريقًا ليسوا براشِدينَ، وهم الَّذين تَلبَّسوا بالفِسقِ حينَ تلبُّسِهم به، فإنْ أقْلَعوا عنه الْتَحَقوا بالرَّاشِدينَ[٤].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ فيه الْتِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وفي تَغييرِ النَّظمِ الكريمِ والالتِفاتِ مِن الجَزالةِ ما لا يَخفَى[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾

- انتصَبَ قولُه: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ على المفعولِ المُطلَقِ المبيِّنِ للنَّوعِ مِن أفعالِ (حبَّبَ) و(زَيَّنَ) و(كرَّهَ)؛ لأنَّ ذلك التَّحبيبَ والتَّزيينَ والتَّكريهَ مِن نَوعِ الفَضلِ والنِّعمةِ[٦]. وقيلَ: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾، أيْ: وإنعامًا، تَعليلٌ لـ (حبَّبَ) أو (كرَّه)، وما بيْنَهما اعتِراضٌ. وقيل: نَصبُهما بفِعلٍ مُضمَرٍ، أيْ:

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٧/ ٦٢، ٨/ ١٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٨).

جَرَى ذلكَ فضْلًا. وقيل: يَبتغونَ فضْلًا[١].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِ...﴾ إلى آخِرِها؛ إشارةً إلى أنَّ ما ذُكِرَ فيها مِن آثارِ عِلْمِ اللهِ وحِكمتِه، والواوُ اعتِراضيَّةٌ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠).

ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٨).

## الآيتان (٩-١٠)

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَغَتْ﴾: أي: تعَدَّتْ، أو لم تَرْضَ بحُكْمِ رسولِ الله؛ فالبَغْيُ: التَّطاوُلُ والفسادُ، وأصلُ (بغي) هنا: جِنْسٌ مِن الفسادِ[1].

﴿تَفِىٓءَ﴾: أي: تَرجِعَ، والفَيءُ والفَيئةُ: الرُّجوعُ إلى حالةٍ مَحمودةٍ، وأصْلُ (فيأ): يدُلُّ على رُجوعٍ[2].

﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾: أي: اعْدِلوا، و﴿ٱلْمُقْسِطِينَ﴾: العادِلينَ، وأصْلُ القِسطِ يدُلُّ على مَعنيَينِ مُتضادَّينِ: العدْلُ، والجَوْرُ؛ يُقال: أقسَطَ: إذا عدَلَ. وقَسَطَ: إذا جارَ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يَأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ بأنْ يُصلِحوا بيْنَ أيِّ طائفتَينِ مِن المؤمنينَ اقتَتَلوا، فإنْ رَفَضَت إحْدى الطَّائفتَينِ الصُّلحَ وأجابَتِ الأُخرى، فلْيُقاتِلوا الطَّائفةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٧، ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦).

الَّتي رفَضَت الصُّلحَ وبغَتْ واعتدَتْ، حتَّى تَعودَ إلى شرْعِ اللهِ، فإنْ عادت فلْيُصلِحوا بيْنَهما بالعدْلِ، ولْيَحْكُموا بيْنَهما بالحقِّ والإنصافِ؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ مَن يَحكُمُ بذلك.

ثمَّ يُخبِرُ تعالى أنَّ المؤمنينَ إخوةٌ في الدِّينِ، فلْيُصلِحوا بيْنَ كِلْتا الطَّائفتَينِ المؤْمِنتَينِ إذا اقْتَتَلَتا، ولْيَتَّقوا اللهَ؛ لَعلَّهم تَنالُهم رَحمتُه.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا حذَّرَ اللهُ المؤمنينَ مِن النَّبأِ الصَّادِرِ مِن الفاسِقِ، أشار إلى ما يَلزَمُ منه؛ استِدراكًا لِما يَفوتُ، فقال: فإنِ اتَّفَق أنَّكم تَبْنون على قولِ مَن يُوقِعُ بيْنَكم، وآلَ الأمْرُ إلى اقتِتالِ طائفتَينِ مِن المؤمنينَ، فأَزيلوا ما أثبَتَه ذلك الفاسِقُ، وأصْلِحوا بيْنَهما[1].

﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كانت النَّميمةُ ونقْلُ الأخبارِ الباطلةِ الذَّميمةِ، رُبَّما جرَّت فِتَنًا وأوصَلَت إلى القِتالِ، وكان العليمُ الحكيمُ لا يَنصِبُ سببًا إلَّا ذكَرَ مُسبَّبَه وأشار إلى دَوائِه، وكان لا يَنْهى عن الشَّيءِ إلَّا مَن كان مُتهيِّئًا له لِما في جِبِلَّتِه مِن الدَّاعي إليه، فكان قد يُواقِعُه ولو في وقْتٍ؛ قال تعالى معلمًا لنا طَريقَ الحكمةِ في دفْعِ ما جرَّتْ إليه الأخبارُ الباطلةُ مِن القِتالِ...: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ ﴾ ...). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٣٧٠).

أي: وإنْ طائفتانِ مِن أهلِ الإيمانِ تَقاتَلوا فيما بيْنَهم، فاسْعَوا -أيُّها المؤمنونَ- إلى الإصلاحِ بيْنَهما[1].

كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قِيل للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو أتَيتَ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ، فانطلَقَ إليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وركِبَ حِمارًا، فانطلَقَ المسلِمون يَمْشُون معه، وهي أرضٌ سَبِخةٌ[2]، فلمَّا أتاهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: إليكَ عنِّي، واللهِ لقد آذاني نَتْنُ حِمارِك، فقال رجُلٌ مِن الأنصارِ منهم: واللهِ لَحِمارُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أطيَبُ رِيحًا منك، فغضِبَ لعبدِ اللهِ رجُلٌ مِن قَومِه، فشَتَمَه، فغضِبَ لِكُلِّ واحدٍ منهما أصحابُه، فكان بيْنَهما ضرْبٌ بالجريدِ والأيدي والنِّعالِ، فبَلَغنا أنَّها أُنزِلَت: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤).

قال البخاري: (يُسمَّى الرَّجُلُ طائفةً؛ لقَولِه تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾، فلو اقتتَل رجُلانِ دخَل في معنى الآيةِ). ((صحيح البخاري)) (٩/ ٨٦).

(٢) سَبِخةٌ: أي: ذاتُ سِباخٍ، وهي الأرضُ الَّتي تَعْلوها المُلوحةُ، ولا تكادُ تُنبِتُ إلَّا بعضَ الشَّجَرِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعَيني (١٣/ ٢٦٧).

ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾))[١].

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((رأيْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على المِنْبَرِ والحسَنُ بنُ عليٍّ إلى جنْبِه، وهو يُقبِلُ على النَّاسِ مرَّةً، وعليه أُخرى، ويقولُ: إنَّ ابْني هذا سيِّدٌ، ولَعلَّ اللهَ أنْ يُصلِحَ به بيْنَ فِئتَينِ عَظيمتَينِ مِن المسلِمينَ))[٢].

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: فإنْ أبَتْ إحْدى الطَّائفتَينِ المقْتَتِلتَينِ الإجابةَ إلى الصُّلحِ وأجابَت الأُخرى، فقاتِلوا -أيُّها المؤمنونَ- الطَّائفةَ المعْتدِيةَ المُقاتِلةَ حتَّى تَرجِعَ إلى شرْعِ اللهِ، وتَسمَعَ للحقِّ وتُطيعَه[٣].

---

(١) رواه البخاري (٢٦٩١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧٩٩).

قال ابنُ عاشور: (يُناكِدُ هذا [أي: كَوْنَ الآيةِ نزلَت في هذه الحادثةِ] أنَّ تلك الوَقعةَ كانت في أوَّلِ أيَّامِ قُدومِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينةَ. وهذه السُّورةُ نزَلت سنةَ تِسعٍ مِن الهِجرةِ، وأنَّ أنَسَ بنَ مالكٍ لم يَجزِمْ بنُزولِها في ذلك؛ لِقَولِه: فبَلَغَنا أنْ نزَلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، اللَّهُمَّ [إلَّا] أن تَكونَ هذه الآيةُ أُلحِقَت بهذه السُّورةِ بعدَ نُزولِ الآيةِ بمدَّةٍ طويلةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٨). ويُنظر: ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) لخالد المزيني (٢/ ٩٢٤).

(٢) رواه البخاري (٢٧٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦، ٣١٧)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٣٢-٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤).

قال ابن عطية: (ومدافعةُ الفئةِ الباغيةِ مُتَوجِّهٌ في كلِّ حالٍ، وأمَّا التَّهيُّؤُ لِقِتالِها فمَعَ الوُلاةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٨).

وقال ابن عاشور: (لا يَجوزُ أنْ يَلِيَ قِتالَ البُغاةِ إلَّا الأئمَّةُ والخُلفاءُ، فإذا اختلَّ أمْرُ الإمامةِ فلْيَتولَّ قِتالَ البُغاةِ السَّوادُ الأعظمُ مِن الأُمَّةِ وعُلماؤُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤١).

عن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((انصُرْ أخاك ظالِمًا أو مَظلومًا، فقال رجُلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنْصُرُه إذا كان مَظلومًا، أفرَأَيتَ إذا كان ظالِمًا؛ كيف أنصُرُه؟! قال: تَحجُزُه -أو: تَمنَعُه- مِن الظُّلْمِ؛ فإنَّ ذلك نَصْرُه))(١).

﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾.

أي: فإنْ رجَعَت الطَّائفةُ الباغيةُ إلى الرِّضا بحُكْمِ اللهِ، فأصْلِحوا -أيُّها المؤمنونَ- بيْنَها وبيْنَ الطَّائفةِ الأُخرى بالعدْلِ(٢).

﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾.

أي: واحْكُموا -أيُّها المؤمنونَ- بيْنَ الطَّائفتَينِ المُتقاتِلَتَينِ بالحقِّ والإنصافِ بلا جَورٍ(٣).

---

(١) رواه البخاري (٦٩٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

قال ابنُ عاشور: (العدْلُ: هو ما يقَعُ التَّصالحُ عليه بالتَّراضي والإنصافِ، وألَّا يُضَرَّ بإحدى الطَّائفَتينِ؛ فإنَّ المَتالِفَ الَّتي تَلحَقُ كِلْتا الطائفتَينِ قد تَتفاوَتُ تَفاوُتًا شديدًا، فتَجِبُ مُراعاةُ التَّعديلِ... يجِبُ العَدلُ في صورةِ الإصلاحِ، فلا يُضيِّعوا بصُورةِ الصُّلحِ مَنافِعَ عن كِلا الفريقَينِ إلَّا بقَدْرِ ما تَقتَضيه حقيقةُ الصُّلحِ مِن نُزولٍ عن بَعضِ الحَقِّ بالمعروفِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٨٥-٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢).

قال ابنُ عثيمين: (هذا غيرُ الإصلاحِ الأوَّلِ؛ الإصلاحُ الأوَّلُ لوقْفِ القِتالِ، وهذا الإصلاحُ بالتَّقديرِ، فنَنظُرُ ماذا تَلِفَ على كلِّ طائفةٍ، ثمَّ نسوِّي بيْنَهما، فمَثلًا: إذا كانت إحدى الطَّائفتَينِ أتلَفَتْ على الأخرى ما قِيمتُه مليون ريال، والثَّانيةُ أتلَفَت على الأخرى ما قِيمته مليون ريال، فحينَئذٍ تَعادَل الطَّائفَتانِ، فإن كانت إحداهما أتلَفَت على الأخرى ما قِيمتُه ثمانمئةِ ألْفِ ريال، =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ الحاكِمينَ بالحقِّ والإنصافِ[١].

كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمْرِو بنِ العاصِ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ المُقسِطينَ عندَ اللهِ على مَنابرَ مِن نُورٍ، عن يَمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، وكِلْتا يَدَيْه يَمينٌ؛ الَّذين يَعدِلون في حُكْمِهم وأهْلِيهم وما وَلُوا[٢]))[٣].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٠﴾.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

أي: إنَّما المؤمِنون إخوةٌ في الدِّينِ، يَجِبُ عليهم التَّوادُدُ والتَّناصُرُ فيما بيْنَهم[٤].

---

= والأخرى أتلفَت ما قيمتُه مليون، فالفرْقُ مِئتا ألْفِ ريال تحمِلُها على الأخرى الَّتي أتلفَت ما قِيمتُه مليون). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥).

وقال ابن عاشور: (﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ هذا إصلاحٌ ثانٍ بعْدَ الإصلاحِ المأمورِ به ابتِداءً، ومعْناه: أنَّ الفئةَ الَّتي خضَعَت للقوَّةِ، وألْقَتِ السِّلاحَ؛ تكونُ مَكسورةَ الخاطِرِ، شاعِرةً بانتصارِ الفئةِ الأُخرى عليها، فأوجَبَ على المسلمينَ أنْ يُصلِحوا بيْنَهما، بتَرغيبِهما في إزالةِ الإحَنِ، والرُّجوعِ إلى أُخوَّةِ الإسلامِ؛ لئلَّا يَعودَ التَّنكُّرُ بيْنَهما). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٢) وَلُوا -بفَتحِ الواوِ وضَمِّ اللَّامِ المُخَفَّفةِ- أي: مَن كانت لهم عليه وِلايةٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٢١١).

(٣) رواه مسلم (١٨٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٥)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠، ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٣).

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال سُبحانه: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تَباغَضوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَدابَروا، وكُونوا -عِبادَ اللهِ- إخوانًا، ولا يَحِلُّ لِمُسلِمٍ أنْ يَهجُرَ أخاهُ فوقَ ثلاثِ لَيالٍ))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمَرَ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((المُسلِمُ أخو المسلمِ، لا يَظلِمُه، ولا يُسلِمُه، ومَن كان في حاجةِ أخِيه كان اللهُ في حاجتِه، ومَن فرَّجَ عن مُسلمٍ كُرْبةً فرَّجَ اللهُ عنه كُربةً مِن كُرُباتِ يومِ القيامةِ، ومَن ستَرَ مُسلِمًا ستَرَه اللهُ يومَ القيامةِ))(٢).

وعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ المؤمنينَ في تَوادِّهم، وتَراحُمِهم، وتَعاطُفِهم؛ مَثَلُ الجسَدِ إذا اشْتَكى منه عُضْوٌ تَداعى له سائرُ الجسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))(٣).

وعن أبي مُوسى رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ المؤمنَ للمؤمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا. وشبَّكَ أصابعَه))(٤).

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٧٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٥٨).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٨٠).

(٣) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللَّفظُ له.

(٤) رواه البخاري (٤٨١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٥).

وعن أنسٍ رضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى يُحِبَّ لأخيهِ ما يُحِبُّ لنفْسِه))[١].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَنْ نَفَّسَ عن مُؤمنٍ كُرْبةً مِن كُرَبِ الدُّنيا نفَّسَ اللهُ عنه كُربةً مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَن يسَّر على مُعسِرٍ يسَّر اللهُ عليه في الدُّنيا والآخرةِ، ومَن ستَرَ مُسلمًا ستَرَه اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، واللهُ في عَونِ العبْدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيهِ))[٢].

وعن أمِّ الدَّرْداءِ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: ((دَعوةُ المرْءِ المسلمِ لأخيهِ بظَهْرِ الغيبِ مُستجابةٌ، عندَ رأْسِه مَلَكٌ مُوكَّلٌ كلَّما دعا لأخيهِ بخَيرٍ، قال المَلَكُ الموكَّلُ به: آمِينَ، ولك بمِثْلٍ))[٣].

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾.

أي: فأصْلِحوا بيْنَ كِلْتا الطَّائفتَينِ المؤمِنَتَينِ إذا اقتَتَلَتا، بحَمْلِهما على حكْمِ اللهِ ورسولِه[٤].

عن سَهلِ بنِ سعدٍ رضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ أهلَ قُباءٍ اقتَتَلوا حتَّى تَرامَوا بالحجارةِ، فأُخبِرَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك، فقال: اذْهَبوا بنا نُصلِحْ بيْنَهم))[٥].

---

(١) رواه البخاري (١٣) واللفظ له، ومسلم (٤٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦).

قال الشوكاني: (يعني كلَّ مُسلِمَينِ تَخاصَما وتقاتَلا، وتخصيصُ الاثنَينِ بالذِّكرِ لإثباتِ وُجوبِ الإصلاحِ فيما فوقَهما بطريقِ الأَولى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٨).

(٥) رواه البخاري (٢٦٩٣) واللفظ له، ومسلم (٤٢١).

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾.

أي: واجْعَلوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً وحاجزًا -أيُّها المؤمنونَ- بامتِثالِ ما أمَرَ اللهُ تعالى به، واجتِنابِ ما نَهى عنه؛ لعلَّكم تَنالُون رحمةَ اللهِ تعالى[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال سُبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ [الطلاق: ٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- المؤمِنُ عليه أنْ يُعاديَ في اللهِ، ويُواليَ في اللهِ، فإنْ كان هناك مؤمنٌ فعلَيه أنْ يُوالِيَه وإنْ ظلَمَه؛ فإنَّ الظُّلمَ لا يَقطَعُ المُوالاةَ الإيمانيَّةَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ * إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ﴾، فجعَلَهم إخوةً معَ وُجودِ القتالِ والبغْيِ والأمْرِ بالإصلاحِ بيْنَهم. فلْيَتدبَّرِ المؤمنُ الفرْقَ بيْنَ هذَينِ النَّوعَينِ، فما أكثَرَ ما يَلتبِسُ أحدُهما بالآخَرِ! ولِيَعلَمَ أنَّ المؤمنَ تجِبُ مُوالاتُه وإنْ ظلَمَك واعْتَدى عليك، والكافرَ تجِبُ مُعاداتُه وإنْ أعْطاكَ وأحسَنَ إليك؛ فإنَّ اللهَ سُبحانه بعَثَ الرُّسلَ وأنزَلَ الكُتبَ لِيَكونَ الدِّينُ كلُّه للهِ، فيَكونَ الحُبُّ لأوليائِه، والبُغضُ لأعدائِه، والإكرامُ لأوليائِه، والإهانةُ لأعدائِه، والثَّوابُ لأوليائِه، والعِقابُ لأعدائِه. وإذا اجتمَعَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦).

الرَّجُلِ الواحدِ خيرٌ وشَرٌّ وفُجورٌ، وطاعةٌ ومَعصيةٌ، وسُنَّةٌ وبِدْعةٌ؛ استحَقَّ مِن الموالاةِ والثَّوابِ بقدْرِ ما فيه مِن الخَيرِ، واستحقَّ مِن المُعاداةِ والعِقابِ بحسَبِ ما فيه مِن الشَّرِّ، فيَجتمِعُ في الشَّخصِ الواحدِ مُوجِباتُ الإكرامِ والإهانةِ، فيَجتمِعُ له مِن هذا وهذا، كاللِّصِّ الفقيرِ؛ تُقطَعُ يَدُه لسَرِقَتِه، ويُعطَى مِن بَيتِ المالِ ما يَكْفيه لحاجتِه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ رَتَّب على القيامِ بحُقوقِ المُؤمِنينَ وبتَقْوى اللهِ الرَّحمةَ، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، وإذا حصَلَت الرَّحمةُ حَصَل خيرُ الدُّنيا والآخِرةِ، ودَلَّ ذلك على أنَّ عدَمَ القيامِ بحُقوقِ المُؤمِنينَ مِن أعظَمِ حواجِبِ الرَّحمةِ[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ يدُلُّ على وُجوبِ الإصلاحِ بيْنَ المؤمِنينَ بالعدْلِ[٣].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، أي: العادِلينَ في حُكْمِهم بيْنَ النَّاسِ وفي جَميعِ الولاياتِ الَّتي تَولَّوها، حتَّى إنَّه قد يَدخُلُ في ذلك عدْلُ الرَّجُلِ في أهْلِه وعِيالِه في أدائِه حُقوقَهم، وفي الحديثِ الصَّحيحِ: ((إنَّ المُقسِطينَ عندَ اللهِ على مَنابرَ مِن نُورٍ، عن يَمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجلَّ، وكِلْتا يَدَيْه يَمينٌ؛ الَّذين يَعدِلون في حُكْمِهم وأهْلِيهم وما وَلُوا))[٤].

٥- مَن كان قائمًا بواجبِ الإيمانِ كان أخًا لِكلِّ مؤمنٍ، ووَجَبَ على كلِّ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٠٨، ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث تقدَّم تخريجُه.

مؤمنٍ أنْ يقومَ بحُقوقِه -وإنْ لم يَجْرِ بيْنَهما عقدٌ خاصٌّ-؛ فإنَّ اللهَ تعالى قد عَقَد الأُخُوَّةَ بيْنَهما بقولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]. فإذا وُجِد مِن أيِّ شَخصٍ كان في مَشرِقِ الأرضِ ومَغرِبِها الإيمانُ باللهِ، ومَلائكتِه، وكُتبِه، ورُسلِه، واليَومِ الآخِرِ؛ فإنَّه أخٌ للمؤمنينَ أُخَوَّةً تُوجِبُ أنْ يُحِبَّ له المؤمنونَ ما يُحِبُّون لأنفُسِهم، ويَكرَهوا له ما يَكرَهون لأنفُسِهم[2].

٦- الواجبُ على المسلمِ نحْوَ أخيهِ أنْ يُزِيلَ ما بيْنَه وبيْنَ أخيه مِن الأحقادِ، وأنْ يَجعَلَ بدَلَ هذه الأحقادِ أُلْفَةً ومَحبَّةً؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، والأُخُوَّةُ يُنافيها الحِقْدُ والعَداوةُ والبَغضاءُ[3].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فيه أنَّ الاقتِتالَ بيْنَ المؤمنينَ مُنافٍ للأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ؛ ولهذا كان مِن أكبَرِ الكبائرِ[4].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، أمَّا شرْطُ الأُخُوَّةِ: فمِن حقِّ الأُخُوَّةِ في الدِّينِ ألَّا تُحوِجَ أخاك إلى الاستِعانةِ بكَ، أو الْتِماسِ النُّصرةِ منك، وألَّا تُقصِّرَ في تَفقُّدِ أحوالِه بحيث يُشكِلُ عليك مَوضِعُ حاجتِه، فيَحتاجُ إلى مُساءلَتِك.

ومِن حقِّهِ ألَّا تُلجِئَه إلى الاعتِذارِ لك، بل تَبسُطُ عُذْرَه، فإنْ أشكَلَ عليك وجْهُه، عُدْتَ باللَّائمةِ على نفْسِك في خَفاءِ عُذْرِه عليك.

ومِن حقِّه أنْ تستغفِرَ له إذا أذنَبَ، وتَعودَه إذا مرِضَ، وإذا أشار عليك بشَيءٍ فلا تُطالِبْه بالدَّليلِ عليه، وإبرازِ الحُجَّةِ، كما قالوا[5]:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٥/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٥) البيت لِوَدَّاك بنِ ثُمَيْل المازِني. يُنظر: ((حماسة الخالديين)) لمحمد بن هاشم وسعيد بن =

إذا استُنْجِدوا لم يَسْألوا مَن دَعاهم لِأيَّـةِ حَـرْبٍ أمْ لأيِّ مَـكانِ

ومِن حقِّه أنْ تَحفَظَ عهْدَه القديمَ، وأنْ تُراعِيَ حقَّه في أهْلِه المتَّصِلينَ به في المَشهَدِ والمَغيبِ، وفي حالِ الحَياةِ وبعْدَ المماتِ[١].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الإصلاحَ مِن أعظَمِ الطَّاعاتِ[٢]، ومِن أوكَدِ عَزائمِ الدِّينِ، وإذا كان ذلك واجبًا فإنَّه يدُلُّ على عِظَمِ وِزرِ الواشي والنَّمَّامِ في إفسادِ ذاتِ البَينِ[٣].

## الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ فيه أنَّ الإيمانَ والأُخُوَّةَ الإيمانيَّةَ لا تَزولُ معَ وُجودِ القِتالِ، كغَيرِه مِن الذُّنوبِ الكِبارِ الَّتي دونَ الشِّركِ، وعلى ذلك مَذهبُ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ[٤]، ففيه دَليلٌ لقولِهم: إنَّ فاعلَ الكبيرةِ لا يَخرُجُ مِن الإيمانِ؛ فهاتانِ الطَّائفتانِ مِن المؤمنينَ اقتَتَلوا، وحمَلَ السِّلاحَ بعْضُهم على بَعضٍ، ومع هذا قال اللهُ تعالى بعْدَ أنْ أمَرَ بالصُّلحِ بيْنَهما للطَّائفةِ الثَّالثةِ الَّتي لم تَدخُلِ القِتالَ: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ فجعَلَ اللهُ تعالى الطَّائفةَ المُصلِحةَ إخْوةً للطَّائفتَينِ المُقتتِلَتَينِ.

---

= هاشم الخالديين (ص: ٤٦)، ((التنبيه على أوهام أبي عليٍّ في أماليه)) للبكري (ص: ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

وعلى هذا؛ ففي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الكبائرَ لا تُخرِجُ مِن الإيمانِ(١).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، فالواجبُ الإصلاحُ بيْنَهما، وإنْ لم تكُنْ واحدةٌ منهما مأمورةً بالقتالِ، فإذا بغَتِ الواحدةُ بعْدَ ذلك قُوتِلت؛ لأنَّها لم تَترُكِ القتالَ، ولم تُجِبْ إلى الصُّلحِ؛ فلم يَندفِعْ شَرُّها إلَّا بالقتالِ، فصار قِتالُها بمَنزِلةِ قِتالِ الصَّائلِ الَّذي لا يَندفِعُ ظُلْمُه عن غَيرِه إلَّا بالقتالِ(٢).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، لم يقُلْ: (وإنْ فِرقتانِ)؛ تَحقيقًا لمعْنى التَّقليلِ؛ لأنَّ الطَّائفةَ دونَ الفِرقةِ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾(٣) [التوبة: ١٢٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، فيه سُؤالٌ: (إنْ) إشارةٌ إلى نُدرةِ وُقوعِ القتالِ بيْن طَوائفِ المسلمينَ، ونحن نَرى أكثَرَ الاقتِتالِ بيْن طَوائفِهم؟

**والجوابُ**: أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَإِن﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يَنْبغي ألَّا يقَعَ إلَّا نادرًا، غايةُ ما في البابِ أنَّ الأمْرَ على خِلافِ ما يَنْبغي(٤).

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٧٨).

واصطلحَ الفقهاءُ على تسميةِ الدِّفاعِ الشَّرعيِّ بدفعِ الصَّائلِ، وعلى تسميةِ المُعتدي بالصَّائلِ، والصَّائلُ هو الظَّالمُ بلا تأويلٍ ولا وِلايةٍ، وتتعلَّقُ به أحكامٌ متعدِّدةٌ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣١٩)، ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) للهرري (١٨/ ٣٥٣)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٨/ ١٠٣- ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ هذا في التَّقاتُلِ بيْنَ الجماعاتِ والقبائلِ، فأمَّا خُروجُ فِئةٍ عن جَماعةِ المسلمينَ فهو أشدُّ، وليس هو مَوردَ هذه الآيةِ، ولكنَّها أصلٌ له في التَّشريعِ[١].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ مُتضَمِّنٌ لِنَهيِ المُؤمِنينَ عن أن يَبغيَ بَعضُهم على بَعضٍ، ويُقاتِلَ بَعضُهم بَعضًا، وأنَّه إذا اقتَتَلت طائِفتانِ مِن المؤمِنينَ فإنَّ على غَيرِهم مِن المُؤمِنينَ أنْ يَتلافَوا هذا الشَّرَّ الكبيرَ بالإصلاحِ بيْنَهم، والتَّوسُّطِ بذلك على أكمَلِ وجْهٍ يَقَعُ به الصُّلحُ، ويَسلُكوا الطَّريقَ الموصِلةَ إلى ذلك[٢].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ لم يَأمُرْ بقتالِ الباغيةِ ابتداءً؛ فالاقتِتالُ ابتداءً ليس مأمورًا به، ولكنْ إذا اقتَتَلوا أُمِرَ بالإصلاحِ بيْنَهم، ثمَّ إنْ بَغَت الواحدةُ قُوتِلَت؛ ولهذا قال مَن قال مِن الفُقهاءِ: إنَّ البُغاةَ لا يُبتَدؤون بقِتالِهم حتَّى يُقاتِلوا. وأمَّا الخوارِجُ فقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم: ((فإذا لَقِيتُموهم فاقْتُلوهم؛ فإنَّ في قتْلِهم أجْرًا لِمَن قتَلَهم عندَ اللهِ يومَ القيامةِ))[٣]، وقال: ((لَئِنْ أدْرَكْتُهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١١)، ومسلم (١٠٦٦) واللَّفظُ له مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

لَأقتُلَنَّهم قتْلَ عادٍ))[١]. وكذلك مانِعو الزَّكاةِ؛ فإنَّ الصِّدِّيقَ والصَّحابةَ رَضيَ الله عنهم ابتَدؤوا قِتالَهم، قال الصِّدِّيقُ: (واللهِ لو مَنَعوني عَناقًا[٢] كانوا يُؤدُّونَها إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَقاتَلْتُهم على مَنعِها)[٣]. وهم يُقاتَلون إذا امتَنَعوا مِن أداءِ الواجباتِ، وإنْ أقَرُّوا بالوُجوبِ[٤].

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾، لم يقُلْ: (منْكم)، معَ أنَّ الخطابَ معَ المؤمنينَ؛ لسَبْقِ قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦]؛ تنْبيهًا على قُبْحِ ذلك، وتَبعيدًا لهم عنهم، كما يقولُ السَّيِّدُ لعبْدِه: إنْ رأيتَ أحدًا مِن غِلماني يَفعَلُ كذا فامْنَعْه، فيَصيرُ بذلك مانعًا للمُخاطَبِ عن ذلك الفِعلِ بالطَّريقِ الحسَنِ، كأنَّه يقولُ: أنت حاشاكَ أنْ تَفعَلَ ذلك، فإنْ فعَلَ غَيرُك فامْنَعْه، كذلك هاهنا[٥].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، جعَلَ حكْمَ قِتالِ الباغيةِ أنْ تكونَ طائفةً؛ لأنَّ الجَماعةَ يَعسُرُ الأخذُ على أيْدي ظُلْمِهم بأفرادٍ مِن النَّاسِ وأعوانِ الشُّرطةِ، فَتعيَّنَ أنْ يكونَ كَفُّهم عن البَغْيِ بالجَيشِ والسِّلاحِ[٦].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ يَتحقَّقُ وصْفُ البَغْيِ بإخبارِ أهلِ العِلمِ أنَّ الفئةَ بَغَت على الأُخرى،

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٢)، ومسلم (١٠٦٤) مطوَّلًا مِن حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.

(٢) العَناقُ: الأُنثَى مِن أولادِ المَعْزِ ما لم يَتِمَّ له سَنَةٌ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣١١).

(٣) أخرجه البخاري (١٤٠٠) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٠) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٠).

أو بحكْمِ الخليفةِ العالمِ العدْلِ، وبالخُروجِ عن طاعةِ الخليفةِ وعن الجماعةِ بالسَّيفِ إذا أمَرَ بغَيرِ ظُلمٍ ولا جَورٍ ولم تُخْشَ مِن عِصيانِه فِتنةٌ؛ لأنَّ ضُرَّ الفِتنةِ أشدُّ مِن ضُرِّ الجَورِ في غيرِ إضاعةِ المصالحِ العامَّةِ مِن مَصالحِ المسلمينَ؛ وذلك لأنَّ الخُروجَ عن طاعةِ الخليفةِ بَغْيٌ على الجماعةِ الَّذين معَ الخَليفةِ[1].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف يصِحُّ في هذا الموضعِ كلمةُ (إنْ)، مع أنَّها تُستعمَلُ في الشَّرطِ الَّذي لا يُتوقَّعُ وُقوعُه، وبَغْيُ أحدِهما عندَ الاقتِتالِ لا بُدَّ منه؛ إذ كلُّ واحدٍ منهما لا يكونُ مُحسِنًا، فقولُه: (إنْ) تكونُ مَن قَبيلِ قولِ القائلِ: (إنْ طلَعَت الشَّمسُ)؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوجْهُ الأوَّلُ**: فيه معْنًى لطيفٌ؛ وهو أنَّ اللهَ تعالى يقولُ: الاقتِتالُ بيْنَ طائفتَينِ لا يكونُ إلَّا نادرَ الوُقوعِ، وهو كما تظُنُّ كلُّ طائفةٍ أنَّ الأُخرَى فيها الكفْرُ والفسادُ، فالقتالُ واجبٌ، أو يقَعُ لِكلِّ واحدٍ أنَّ القتالَ جائزٌ بالاجتِهادِ، وهو خطَأٌ، فقال تعالى: الاقتِتالُ لا يقَعُ إلَّا كذا، فإنْ بانَ لهما أو لأحَدِهما الخطأُ واستمَرَّ عليه، فهو نادرٌ، وعندَ ذلك يكونُ قدْ بَغى، فقال: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾، يعني: بعْدَ استِبانةِ الأمْرِ، وحينَئذٍ فقولُه: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ﴾ في غايةِ الحُسنِ؛ لأنَّه يُفيدُ النُّدرةَ، وقِلَّةَ الوُقوعِ[2].

**الوجْهُ الثَّاني**: أنَّه لَمَّا كان البَغْيُ مِن أشنَعِ الأمورِ، فكان يَنْبغي ألَّا يُلِمَّ به أحدٌ؛ عُبِّرَ بأداةِ الشَّكِّ إرشادًا إلى ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧١).

١٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، يَتضمَّنُ نهْيَ المؤمنينَ عن أنْ يَبْغيَ بعضُهم على بعضٍ، ويُقاتِلَ بعضُهم بعضًا[١].

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ فيه وُجوبُ قِتالِ البُغاةِ[٢] حتَّى يَرجِعوا إلى أمرِ اللهِ[٣].

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، يدُلُّ على وُجوبِ نصْرِ المظلومِ؛ لأنَّ القتالَ لا يُباحُ بدُونِ الوُجوبِ[٤].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، يدُلُّ على جَوازِ قتالِ الصَّائلِ؛ لأنَّ القتالَ لَمَّا كان للفَيئةِ، فإذا حصَلَت لم يُوجَدِ المعْنى الَّذي مِن أجْلِه القتالُ[٥].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، لَمَّا كان القتالُ لا يَجوزُ إلَّا بالاستِمرارِ على البغْيِ، عُبِّرَ بالمُضارِعِ، فقال: ﴿تَبۡغِي﴾؛ إفهامًا لأنَّه متى زال البغْيُ، ولو بالتَّوبةِ مِن غَيرِ شَوكةٍ، حَرُمَ القِتالُ[٦].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٧/ ٥٤١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧١).

﴿إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ يدُلُّ على أنَّ أموالَ البُغاةِ مَعصومةٌ؛ لأنَّ اللهَ أباح دِماءَهم وقْتَ استِمرارِهم على بَغْيِهم خاصَّةً، دونَ أموالِهم(١).

١٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، فيه أنَّ مَن رجَعَ وأدبَرَ، لا يُقاتَلُ؛ لقولِه: ﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾(٢).

١٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾، فيه إشارةٌ إلى أنَّ القتالَ ليس جَزاءً للباغي، كحدِّ الشُّربِ الَّذي يُقامُ وإنْ ترَكَ الشُّربَ، بلِ القتالُ إلى حدِّ الفَيئةِ، فإنْ فاءتِ الفئةُ الباغيةُ حَرُمَ قِتالُهم(٣).

٢٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، يدُلُّ على أنَّهم لو رَجَعوا لغيرِ أمْرِ اللهِ -بأنْ رَجَعوا على وجْهٍ لا يجوزُ الإقرارُ عليه والْتِزامُه- أنَّه لا يَجوزُ ذلك(٤).

٢١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾، فيه وُجوبُ الصُّلحِ بيْن أهلِ العدْلِ والبَغْيِ(٥).

٢٢- أنَّه ليس كلَّما جازتِ المقاتَلةُ جاز القتْلُ؛ فالقتلُ أضيَقُ، ولا يَجوزُ إلَّا بشُروطٍ معروفةٍ، والمقاتَلةُ أوسعُ؛ قال اللهُ تَبارك وتَعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾، فأَمَر بقِتالِها، وهي مُؤمنةٌ؛ لا يَحِلُّ قَتْلُها، ولا يُبَاحُ دمُها، لكنْ مِن أجْلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤١).

الإصلاحِ[١].

٢٣- في قولِه تعالى: ﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ أنَّ لَفظَ البَغْيِ إذا أُطْلِقَ فهو الظُّلمُ[٢].

٢٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ هذا أمْرٌ بالصُّلحِ، وبالعدْلِ في الصُّلحِ؛ فإنَّ الصُّلحَ قد يُوجَدُ ولكنْ لا يكونُ بالعدْلِ، بل بالظُّلمِ والحَيفِ على أحَدِ الخَصمَينِ! فهذا ليس هو الصُّلحَ المأمورَ به، فيجبُ ألَّا يُراعى أحدُهما لِقَرابةٍ أو وطَنٍ، أو غيرِ ذلك مِن المقاصدِ والأغراضِ الَّتي تُوجِبُ العُدولَ عن العدْلِ[٣].

٢٥- قال الله تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾، لَمَّا كان الخِصامُ يَجُرُّ -في الغالبِ- مِن القولِ والفعلِ ما يُورِثُ للمُصلِحينَ إحْنةً[٤] على بعْضِ المُتخاصِمينَ، فيَحمِلُ ذلك على المَيلِ مع بعْضٍ على بعْضٍ، قال: ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾، ولا يَحمِلْكم القتالُ على الحقْدِ على المُتقاتِلينَ فتَحِيفوا[٥].

٢٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾، فيه سُؤالٌ: قال: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾، فأيَّةُ فائدةٌ في قولِه: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾؟

**الجوابُ مِن وَجهينِ:**

**الوجْهُ الأوَّلُ:** قولُه: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ كان فيه تَخصيصٌ بحالٍ دونَ حالٍ، فعُمِّمَ الأمْرُ بقولِه: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْ﴾، أي: في كلِّ أمْرٍ مُفضٍ إلى أشرَفِ دَرجةٍ

---

(١) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٠).

(٤) الإِحْنة: الحِقْد، وجمعُها: إِحَنٌ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) لزين الدِّين الرازي (ص: ١٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٢).

وأرفَعِ مَنزِلةٍ، وهي مَحبَّةُ اللهِ[١].

**الوجْهُ الثَّاني**: لَمَّا كان العدْلُ في مِثلِ ذلك شَديدًا على النُّفوسِ؛ لِما تَحمَّلَت مِن الضَّغائنِ، قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾، أي: افْعَلوا العدْلَ العظيمَ الَّذي لا جَورَ فيه، في ذلك وفي جَميعِ أُمورِكم[٢].

٢٧- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أُخُوَّةُ الدِّينِ أثبَتُ مِن أُخُوَّةِ النَّسَبِ؛ فإنَّ أُخُوَّةَ النَّسبِ تَنقطِعُ بمُخالَفةِ الدِّينِ، وأُخُوَّةَ الدِّينِ لا تَنقطِعُ بمُخالَفةِ النَّسبِ[٣].

٢٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾، (إنَّما) للحصْرِ، أي: لا أُخُوَّةَ إلَّا بيْنَ المؤمنينَ، وأمَّا بيْنَ المؤمنِ والكافرِ فلا؛ لأنَّ الإسلامَ هو الجامعُ[٤].

٢٩- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ ردٌّ على الرَّافِضةِ -خانِقٌ لهم- فيما يُكفِّرون مُقاتِلي عليٍّ رضِيَ اللهُ عنه وعنهم، وردٌّ على الشُّرَاةِ[٥] فيما يَعُدُّون الذُّنوبَ كُفرًا، وقد سَمَّى اللهُ كُلًّا مُؤمنًا، كما تَرى[٦]، ففيه دَليلٌ على أنَّ البَغْيَ لا يُزيلُ اسمَ الإيمانِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى سمَّاهم إخْوةً مؤمنينَ مع كَونِهم باغِينَ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٧).

(٥) الشُّراةُ: الخوارجُ، الواحدُ: شَارٍ، سُمُّوا بذلك لِقَولِهم: إنَّا شَرَيْنا أنفُسَنا في طاعةِ اللهِ، أي: بِعْناها بالجنَّةِ حينَ فارَقْنا الأئمَّةَ الجائِرةَ! يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٣٩٢).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٧٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٣).

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ...﴾ لَمَّا جَرَى قولُه: ﴿أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات: ٦] الآيةَ، كان ممَّا يَصدُقُ عليه إصابةُ قَومٍ أنْ تقَعَ الإصابةُ بيْنَ طائفتَينِ مِن المؤمنينَ؛ لأنَّ مِن الأخبارِ الكاذبةِ أخبارَ النَّميمةِ بيْنَ القَبائلِ، وخطَرُها أكبرُ ممَّا يَجري بيْنَ الأفرادِ، والتَّبيُّنُ فيها أعسَرُ، وقد لا يَحصُلُ التَّبيُّنُ إلَّا بعدَ أنْ تَستَعِرَ نارُ الفِتنةِ، ولا تُجدي النَّدامةُ[1].

- قولُه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ لم يقُلْ: (وإنِ اقتَتَل طائفتانِ مِن المؤْمِنينَ)، معَ أنَّ كَلمةَ (إنْ) اتِّصالُها بالفِعلِ أَولى؛ وذلك لِيَكونَ الابتِداءُ بما يَمنَعُ مِن القِتالِ، فيَتأكَّدَ معْنى النَّكرةِ المدلولِ عليها بكَلمةِ (إنْ)؛ وذلك لأنَّ كَونَهما طائفتَينِ مُؤمنتَينِ يَقْتضي ألَّا يقَعَ القِتالُ منهما[2].

- و(إنْ) حرْفُ شَرطٍ يُخلِّصُ الماضيَ ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ للاستِقبالِ؛ فيَكونُ في قوَّةِ المُضارِعِ، ولكنْ عُدِلَ عن المُضارِعِ (يَقتتلون) معَ كَونِه الأَلْيَقَ بالشَّرطِ؛ لأنَّه لَمَّا أُريدَ تقديمُ الفاعِلِ ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ على فِعلِه ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ -للاهتِمامِ بالمُسنَدِ إليه-، جُعِلَ الفِعلُ ماضيًا على طَريقةِ الكلامِ الفَصيحِ في مِثلِه ممَّا أُولِيَت فيه (إنْ) الشَّرطيَّةُ الاسمَ[3]. وقيل: لم يقُلْ: (يَقتَتِلوا)؛ لأنَّ صِيغةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٤، ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٩).

الاستِقبالِ تُنبِئُ عن الدَّوامِ والاستِمرارِ، فيُفهَمُ منه أنَّ طائفتَينِ مِن المؤمنينَ إنْ تَمادى الاقتِتالُ بيْنَهما فأصْلِحوا؛ وهذا لأنَّ صِيغةَ المستقبَلِ تُنبِئُ عن ذلك، يُقال: فلانٌ يَتهجَّدُ ويَصومُ[١].

- وإنَّما قال: ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ ولم يقُلْ: (اقتتَلَتا)، حَمْلًا على المعنى؛ لأنَّ الطَّائفتَينِ في مَعنى القَومِ والنَّاسِ، ثمَّ حمَلَ على اللَّفظِ فقال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾؛ فضَميرُ ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ يعودُ على ﴿طَآئِفَتَانِ﴾ باعتِبارِ المعْنى؛ لأنَّ طائفةً ذاتُ جمْعٍ، والوجْهُ أنْ يكونَ فِعلُ ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ مُستعمَلًا في إرادةِ الوُقوعِ، أي: يُريدون العَودَ؛ لأنَّ الأمرَ بالإصلاحِ بيْنهما واجبٌ قبْلَ الشُّروعِ في الاقتِتالِ، وذلك عند ظُهورِ بَوادِرِه، وهو أَولى مِن انتِظارِ وُقوعِ الاقتِتالِ؛ لِيُمكِنَ تَدارُكُ الخَطبِ قبْلَ وُقوعِه، وبذلك يَظهَرُ وجْهُ تَفريعِ قولِه: ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾ على جُملةِ ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾، أي: فإنِ ابتدأَتْ إحدى الطَّائفتَينِ قِتالَ الأُخرى، ولم تَنْصَعْ إلى الإصلاحِ؛ فقاتِلوا الباغيةَ[٢]. ولأنَّه عندَ الاقتِتالِ تكونُ الفِتنةُ قائمةً، وكلُّ أحدٍ برأْسِه يكونُ فاعِلًا فِعْلًا، فقال: ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾، وعندَ العَودِ إلى الصُّلحِ تَتَّفِقُ كلمةُ كلِّ طائفةٍ، وإلَّا لم يكُنْ يَتحقَّقُ الصُّلحُ، فقال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾؛ لِكَونِ الطَّائفتَينِ حينَئذٍ كنَفْسَينِ[٣]. وأيضًا لأنَّه لَمَّا كانت الشَّناعةُ والفسادُ في قِتالِ الجماعةِ أكثَرَ، عُبِّرَ بضَميرِ الجمْعِ دونَ التَّثنيةِ؛ تَصويرًا لذلك بأقبَحِ صُورةٍ، فقال: ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾، ولَمَّا كانت العِبرةُ في الصُّلحِ إذا وقَعَ بيْنَ الطَّائفتَينِ ما يُسكَنُ به الشَّرُّ، وإنْ تَخلَّفَ شُذَّانٌ[٤] مِن الجانبَينِ لا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٥).

(٤) شُذَّانُ القَومِ: مَن شَذَّ منهم، وخرَج عن جَماعتِهم. يُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (٢/ ٦٠٦).

يُعبَأُ بهم -عُبِّرَ بالتَّثنيةِ دونَ الجمْعِ، فقال: ﴿بَيْنَهُمَا﴾[١].

- قولُه: ﴿فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ قرَنَ بالإصلاحِ الثَّاني العدْلَ دونَ الأوَّلِ؛ لأنَّ المُرادَ بالاقتِتالِ في أوَّلِ الآيةِ: أنْ تَقتتِلَا باغيتَينِ معًا، أو راكبتَيْ شُبهةٍ، وأيَّتُهما كانتْ فالَّذي يجِبُ على المسلمينَ أنْ يأْخُذوا به في شأْنِهما: إصلاحُ ذاتِ البَينِ، وتَسكينُ الدَّهماءِ[٢] بإراءةِ الحقِّ والمَواعظِ الشَّافيةِ، ونفْيِ الشُّبهةِ، إلَّا إذا أصَرَّتا، فحينَئذٍ تجِبُ المُقاتَلةُ[٣].

أو يكونُ تَقْييدُ الإصلاحِ بالعدْلِ هاهنا؛ لأنَّه مَظِنَّةُ الحَيفِ مِن حيثُ إنَّه بعدَ المُقاتَلةِ، وقدْ أكَّد ذلكَ حيثُ قيلَ: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾، أيْ: واعدِلُوا في كلِّ ما تأْتونَ وما تَذَرونَ[٤].

أو قُيِّدَ الإصلاحُ المأمورُ به ثانيًا بعدَ أنْ تَفيءَ الباغيةُ بقَيدِ العدْلِ، وهذا القيدُ يُقيَّدُ به أيضًا الإصلاحُ المأمورُ به أوَّلًا؛ لأنَّ القَيدَ مِن شأْنِه أنْ يَعودَ إليه؛ لاتِّحادِ سَببِ المُطلَقِ والمُقيَّدِ، أي: يجِبُ العدْلُ في صُورةِ الإصلاحِ، فلا يُضيِّعوا بصُورةِ الصُّلحِ مَنافعَ عن كِلَا الفَريقينِ إلَّا بقْدرِ ما تَقتضيهِ حَقيقةُ الصُّلحِ مِن نُزولٍ عن بَعضِ الحقِّ بالمعروفِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾ أمَرَ المسلمينَ بالعدْلِ أمرًا عامًّا، تَذْييلًا للأمرِ بالعدْلِ الخاصِّ في الصُّلحِ بيْنَ الفريقَينِ، فشَمِلَ هذا الأمرُ العامُّ أنْ يَعدِلوا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) الدَّهْماءُ: الفِتْنةُ المُظلِمةُ، ودَهْماءُ النَّاسِ: جَماعتُهم. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٩٢٤)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢).

في صُورةِ ما إذا قاتَلوا الَّتي تَبْغي. أو هو مِن عطْفِ العامِّ على الخاصِّ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ تَعليلٌ وتَقريرٌ لإقامةِ الإصلاحِ بيْنَ المؤمنينَ إذا استَشْرى الحالُ بيْنَهم؛ فالجُملةُ مَوقِعُها مَوقعُ العِلَّةِ، وقد بُنِيَ هذا التَّعليلُ على اعتِبارِ حالِ المسلِمينَ بَعضِهم مع بَعضٍ كحالِ الإخوةِ[٢].

- وجِيءَ بصِيغةِ القَصرِ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ المفيدةِ لِحَصرِ حالِهم في حالِ الأُخوَّةِ؛ مُبالَغةً في تَقْريرِ هذا الحُكمِ بيْنَ المُسلِمينَ، فهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ، أو هو قَصرٌ إضافيٌّ[٣]؛ للرَّدِّ على أصحابِ الحالةِ المفروضةِ الَّذين يَبْغون على غَيرِهم مِن المؤمنينَ[٤].

- وهذه الآيةُ فيها دَلالةٌ قويَّةٌ على تَقرُّرِ وُجوبِ الأخوَّةِ بيْنَ المسلِمينَ؛ لأنَّ شأنَ (إنَّما) أنْ تَجيءَ لخبَرٍ لا يَجهَلُه المخاطَبُ، ولا يَدفَعُ صِحَّتَه، أو لِمَا يُنزَّلُ مَنزِلةَ ذلك[٥].

- والفاءُ في قولِه تعالَى: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ للإيذانِ بأنَّ الأُخوَّةَ الدِّينيَّةَ مُوجِبةٌ للإصلاحِ[٦]؛ فقولُه: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ فيه تَفريعُ الأمرِ بالإصلاحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٣).

(٣) تقدَّم تعريفُ القصر الادعائي والإضافي (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠).

بيْنَ الأخَوَينِ، على تَحقيقِ كَونِ المؤمنينَ إخوةً؛ تأكيدًا لِما دلَّت عليه (إنَّما) مِن التَّعليلِ، فصار الأمرُ بالإصلاحِ الواقعِ ابتِداءً دونَ تعليلٍ في قولِه: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾، وقولِه: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ [الحجرات: ٩]، قد أُردِفَ بالتَّعليلِ، فحصَلَ تقريرُه، ثمَّ عُقِّبَ بالتَّفريعِ فَزادَه تَقْريرًا، وقد حصَلَ مِن هذا النَّظمِ ما يُشبِهُ الدَّعوى، وهي كمَطلوبِ القياسِ، ثمَّ ما يُشبِهُ الاستِدلالَ بالقياسِ، ثمَّ ما يُشبِهُ النَّتيجةَ[١].

- وخَصَّ الاثنَينِ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ دونَ الجمْعِ؛ لأنَّ أقَلَّ مَن يقَعُ منهم الشِّقاقُ اثنانِ، فإذا التُزِمتِ المُصالَحةُ بيْنَ الأقَلِّ كانتْ بيْنَ الأكثَرِ ألزَمَ؛ لأنَّ الفَسادَ والشَّرَّ المُترتِّبَينِ على شِقاقِ الجمْعِ أكثرُ منهما في شِقاقِ الاثنَينِ[٢]. أوْ أُوثِرَت صِيغةُ التَّثنيةِ في قولِه: ﴿أَخَوَيْكُمْ﴾؛ مُراعاةً لِكَونِ الكَلامِ جاريًا على طائفتَينِ مِن المؤمنينَ، فجُعِلَت كلُّ طائفةٍ كالأخِ للأُخرَى[٣].

- قولُه: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ على القِراءةِ بلَفظِ تَثْنيةِ (الأخِ)، أي: بيْنَ الطَّائفةِ والأُخرى؛ مُراعاةً لِجَريانِ الحَديثِ على اقتِتالِ طائفتَينِ، وعلى قِراءةِ ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ﴾ -بتاءٍ فوقيَّةٍ بعدَ الواوِ، على أنَّهُ جمْعُ أخٍ[٤]-؛ فيَكونُ باعتِبارِ كُلِّ فَردٍ مِن الطَّائفتَينِ كالأخِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٤، ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٥).

(٤) قرأ بها يعقوبُ، وقرأ الباقونَ: ﴿أَخَوَيْكُمْ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٥).

- وفي قولِه: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المضمَرِ مُضافًا إلى المأمورينَ بالإصلاحِ؛ للمُبالَغةِ في التَّقريرِ في تأْكيدِ وُجوبِ الإصلاحِ والتَّحضيضِ عليه[1]. أو لَمَّا تقرَّرَ معْنى الأُخوَّةِ بيْنَ المؤمنينَ كَمالَ التَّقرُّرِ، عُدِلَ عن أنْ يقولَ: (فَأَصْلِحُوا بينَ الطَّائفتَينِ)، إلى قولِه: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فهو وصْفٌ جَديدٌ نشَأَ عن قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾؛ فتعيَّنَ إطلاقُه على الطَّائفتَينِ، فليس هذا مِن وَضْعِ الظَّاهرِ مَوضِعَ الضَّميرِ[2].

- والمُخاطَبُ بقولِه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ جميعُ المؤمنينَ؛ فيَشملُ الطَّائفتَينِ: الباغيةَ والمَبْغيَّ عليها، ويَشملُ غيرَهما ممَّن أُمِروا بالإصلاحِ بيْنَهما ومُقاتَلةِ الباغيةِ؛ فتَقْوَى كُلٍّ بالوُقوفِ عندَ ما أمَرَ اللهُ به كُلًّا ممَّا يَخُصُّه، وهذا يُشبِهُ التَّذييلَ[3].

- وإنَّما اختيرتِ الرَّحمةُ في قولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾؛ لأنَّ الأمْرَ بالتَّقْوى واقعٌ إثرَ تَقريرِ حَقيقةِ الأُخوَّةِ بيْنَ المؤمنينَ، وشأنَ تَعامُلِ الإخوةِ الرَّحمةُ؛ فيَكونُ الجَزاءُ عليها مِن جِنسِها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١١-١٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَلۡمِزُوٓاْ﴾: أي: تَعيبوا، واللَّمْزُ: العيبُ[1].

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾: أي: لا تَتَداعَوْا بالألقابِ الَّتي يَسوءُ الشَّخصَ سَماعُها، تَقولُ: نَبَزَه يَنْبِزُه نَبْزًا، أي: لَقَّبَه، والألقابُ جمعُ لَقَبٍ: وهو اسمٌ يُسمَّى به الإنسانُ سِوى اسمِه الأوَّلِ، ويُراعَى فيه المعنى[2].

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾: أي: لا تَتَبَّعُوا عَوْراتِ المسلِمينَ، أو: لا تَبْحثوا عن الأخبارِ، والتَّجسُّسُ: البحثُ، أو: التَّفْتيشُ عن بواطنِ الأُمورِ، وأكثرُ ما يُقالُ ذلك في الشَّرِّ، والجسُّ أصلُه: مَسُّ العِرقِ، وتَعَرُّفُ نبْضِه للحُكمِ به على الصِّحةِ والسَّقَمِ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٤، ٧٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٦).

(جسس): تَعرُّفُ الشَّيءِ بمَسٍّ لطيفٍ[١].

﴿وَلَا يَغْتَب﴾: الغِيبةُ: أنْ يُذكَرَ الإنْسانُ في غَيْبَتِه بسُوءٍ وإنْ كانَ فيه، وأصْلُ (غيب): يدُلُّ على تَستُّرِ الشَّيءِ عن العُيونِ، والغِيبةُ مِن هذا؛ لأنَّها لا تُقالُ إلَّا في غَيْبَةٍ[٢].

﴿شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾: الشُّعُوبُ: جَمعُ شَعْبٍ، وهو الحَيُّ العَظيمُ، أو: رُؤوسُ القبائِلِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّ القبائِلَ تتشعَّبُ منها، أو سُمِّيَ الشَّعبُ بذلك؛ للاجتِماعِ والائتِلافِ. ولـ (شعب) أصْلانِ مختَلِفانِ: أحَدُهما يدُلُّ على الافتِراقِ، والآخَرُ على الاجتِماعِ.

والقبائِلُ: جَمعُ قَبيلةٍ، وهي دونَ الشَّعبِ، والقَبيلةُ: بنو أبٍ واحِدٍ، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ شَيءٍ لشَيءٍ؛ وسُمِّيت القبائِلُ بذلك لإقبالِ كُلِّ واحِدةٍ منها على الأُخرى[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يَنْهى اللهُ عِبادَه المؤمنينَ أنْ يَسخَرَ قومٌ منهم مِن قومٍ آخَرينَ مؤمنينَ؛ عَسى أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤١٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٠) و(٥/ ٥١، ٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٦٥).

يكونوا خَيرًا منهم، وأعظَمَ قدْرًا، ولا يَسخَرْ كذلك نِساءٌ مِن نِساءٍ؛ عَسى أنْ يكُنَّ خيرًا منهنَّ، وأعظَمَ قدْرًا، ويَنْهاهم أنْ يَطعُنَ بعضُهم بعضًا ويَعيبَه، ويَنهاهم أنْ يَتنادَوا بالألقابِ القَبيحةِ الَّتي يَكرَهُها المُنادَى بها، بِئسَ الاسمُ الَّذي تَنالونَه اسمُ الفسوقِ بعْدَ اتِّصافِكم بالإيمانِ، ومَن لم يَتُبْ مِن ذلك فأولئك هم الظَّالِمون.

ويأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المؤمنينَ أنْ يَجتنِبوا كثيرًا مِن الظَّنِّ؛ وذلك لأنَّ بعضَ الظَّنِّ ذنْبٌ وإثْمٌ، ويَنهاهم عن التَّجسُّسِ، وعن غِيبةِ بعضِهم بعضًا، ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى تشبيهًا يُنفِّرُ مِن الغِيبةِ أكمَلَ تنفيرٍ، فيقولُ: أيُحِبُّ أحدُكم أنْ يَأكُلَ لَحْمَ أخيهِ بعْدَ مَوتِه؟! فإذا كَرِهْتُم ذلك فعلَيكم أنْ تَكرَهوا غِيبةَ المسلمِ كذلك، ثمَّ يأمُرُهم أنْ يتَّقُوا اللهَ؛ إنَّ اللهَ توَّابٌ رَحيمٌ.

ثمَّ يوجِّهُ تعالى الخِطابَ إلى النَّاسِ كافَّةً، ويخبِرُهم أنَّه بدَأَ خلْقَهم مِن ذكَرٍ -هو آدَمُ- وأُنثَى -هي حوَّاءُ-، وجعَلَهم شُعوبًا وقَبائلَ مِن أجْلِ أنْ يَحصُلَ بيْنَهم التَّعارُفُ، وأخبَرَهم أنَّ أكْرَمَهم عِندَه الأتْقَى، إنَّه عليمٌ خَبيرٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا اقتَضَت الأُخُوَّةُ أنْ تَحسُنَ المعامَلةُ بيْنَ الأخَوينِ، كان ما تقرَّرَ مِن إيجابِ مُعامَلةِ الأخوةِ بيْنَ المسلمينَ يَقْتضي حُسْنَ المعامَلةِ بيْنَ آحادِهم، فجاءتْ هذه الآياتُ مُنبِّهةً على أُمورٍ مِن حُسْنِ المعامَلةِ قد تقَعُ الغَفلةُ عن مُراعاتِها لكَثرةِ

تَفشِّيها في الجاهليَّةِ لهذه المُناسَبةِ[١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا يَستهزِئْ قَومٌ مؤمِنونَ مِن قَومٍ آخَرينَ مُؤمنينَ، ويَستخِفُّوا بهم؛ عَسى أنْ يكونَ المُستهزَأُ بهم خَيرًا مِن الهازِئينَ، وأعظَمَ قدْرًا منهم[٢].

قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وعن أبي هُريرةَ رضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((المسلِمُ أخو المسلِمِ، لا يَظلِمُه، ولا يَخذُلُه، ولا يَحقِرُه))[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٤، ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٢).

قال ابن جرير: (واختَلَف أهلُ التَّأويلِ في السُّخْريةِ الَّتي نَهَى اللهُ المؤمنينَ عنها في هذه الآيةِ؛ فقال بعضُهم: هي سُخريةُ الغنيِّ مِن الفقيرِ، نُهِيَ أن يُسخَرَ مِن الفقيرِ لِفَقْرِه... وقال آخَرونَ: بل ذلك نَهْيٌ مِن اللهِ مَن سَتَر عليه مِنْ أهلِ الإيمانِ أنْ يَسْخَرَ مِمَّنْ كُشِف في الدُّنيا سِترُه منهم... والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك عندي أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ عَمَّ بنَهْيِه المؤمنينَ أنْ يَسْخَرَ بعضُهم مِن بعضٍ جميعَ معاني السُّخريةِ، فلا يَحِلُّ لمؤمنٍ أنْ يَسخَرَ مِن مؤمِنٍ؛ لا لِفَقْرِه، ولا لِذَنْبٍ رَكِبه، ولا لغيرِ ذلِكَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٤-٣٦٦).

وقال ابنُ عثيمين: (والسُّخريةُ قد تكونُ في هَيئتِه، وقد يكونُ كذلك في خِلْقَتِه؛ قِصَرًا أو طولًا، أو ضخامةً أو نَحافةً، أو ما أشْبَهَ ذلك، ويكونُ كذلك سخريةً بكلامِه، وتقليدًا له استِهزاءً وسُخريةً، ويكونُ كذلك في المُعامَلةِ، يَسخَرُ به في مُعامَلتِه النَّاسَ، وكذلك بالمِشْيَةِ، وكلُّ ما كان فيه سُخريةٌ مِن أخيك فإنَّه داخلٌ في هذه الآيةِ). ((شرح رياض الصالحين)) (٦/ ٢٥٧) بتصرف.

وقال الغزالي: (ومعنَى السُّخريةِ الاستهانةُ والتَّحقيرُ، والتَّنبيهُ على العيوبِ والنَّقائصِ على وَجْهٍ يُضْحَكُ منه، وقد يَكونُ ذلك بالمُحاكاةِ في الفعلِ والقولِ، وقد يكونُ بالإشارةِ والإيماءِ، وإذا كان بحضرةِ المُستهزَأِ به لم يُسَمَّ ذلك غِيبةً، وفيه معنى الغِيبةِ). ((إحياء علوم الدين)) (٣/ ١٣١).

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤).

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾.

أي: ولا يَستهزِئْ نِساءٌ مُؤمناتٌ مِن نِساءٍ أُخْرياتٍ مُؤمناتٍ، ويَسْتخفِفْنَ بهنَّ؛ عَسى أنْ يكونَ المسْتهزَأُ بهنَّ خَيرًا مِن المُسْتهزِئاتِ، وأعظَمَ قدْرًا منهنَّ[1].

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: ولا يَطعُنْ بعضُكم على بعضٍ، فيَعِيبَه ويَقدَحَ فيه[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٨).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾... قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرونَ كلُّهم: لا يَطْعنْ بعضُكم على بعضٍ. والمعنى: لا تَلمِزوا إخوانَكم الَّذين هم كأنفُسِكم). ((البسيط)) (٢٠/ ٣٥٦).

وقال الرازي: (قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّ عيبَ الأخِ عائدٌ إلى الأخِ، فإذا عاب عائبٌ نفْسًا فكأنَّما عاب نفْسَه. وثانيهما: هو أنَّه إذا عابه وهو لا يَخلو مِن عَيبٍ يُحارِبُه المَعيبُ، فيَعيبُه؛ فيَكونُ هو بعَيبِه حاملًا للغَيرِ على عَيبِه، وكأنَّه هو العائبُ نفْسُه ... ويحتمِلُ وجهًا آخَرَ ثالثًا، وهو أن تقولَ: لا تَعيبوا أنفُسَكم، أي: كلَّ واحدٍ منكم، فإنَّكم إن فَعَلْتُم فقد عِبْتُم أنفُسَكم، أي: كلُّ واحدٍ عاب كلَّ واحدٍ، فصِرتُم عائبينَ مِن وجْهٍ، مَعِيبينَ مِن وجهٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٩).

وقال ابن عاشور: (﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾. اللَّمزُ: ذِكرُ ما يَعُدُّه الذَّاكرُ عَيبًا لأحدٍ مُواجَهةً، فهو المباشَرةُ بالمكروهِ؛ فإن كان بحقٍّ فهو وقاحةٌ واعتِداءٌ، وإن كان باطلًا فهو وقاحةٌ وكَذِبٌ، ... ويكونُ بحالةٍ بيْنَ الإشارةِ والكلامِ بتحريكِ الشَّفَتَينِ بكلامٍ خَفيٍّ يَعرِفُ منه المواجَهُ به أنَّه يُذَمُّ أو يُتَوَعَّدُ، أو يُتنقَّصُ باحتِمالاتٍ كثيرةٍ، وهو غيرُ النَّبْزِ، وغيرُ الغِيبةِ. وللمُفَسِّرينَ وكُتبِ اللُّغةِ اضْطِرابٌ في شرحِ معنَى اللَّمزِ، وهذا الَّذي ذكَرْتُه هو المَنخولُ مِن ذلك. ومعنَى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ لا يَلمِزْ بعضُكم بعضًا، فنُزِّل البعضُ المَلْمُوزُ نفْسًا لِلَامِزِه؛ لِتَقَرُّرِ معنَى الأُخُوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٨).

فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقال سُبحانه: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة: ١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((مَن قال في مُؤمنٍ ما ليس فيه أسكَنَه اللهُ رَدْغةَ الخَبالِ[1] حتَّى يَخرُجَ ممَّا قال))[2].

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ ﴾.

أي: ولا يُنادِ بعضُكم بعضًا -أيُّها المؤمنونَ- بالأسماءِ والصِّفاتِ القَبيحةِ الَّتي يَكرَهُها المنادَى بها[3].

**سَببُ النُّزولِ:**

عن أبي جَبِيرةَ بنِ الضَّحَّاكِ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((فِينا نزَلَت هذه

---

(١) رَدْغةُ الخَبالِ: أي: عُصارةُ أهلِ النَّارِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٢١٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٩٧)، وأحمد (٥٣٨٥) مطوَّلًا.

صحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٧/ ٢٠٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٩/ ٢٨٣)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٦٧، ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٨-٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٨، ٢٤٩).

قال النووي: (اتَّفَقَ العُلَماءُ على تحريم تلقيبِ الإنسانِ بما يَكرهُ، سواءٌ كان صِفةً له؛ كالأعمَش، والأجلَح، والأعمى، والأعرَج، والأحوَل، والأبرَص، والأشَجِّ، والأصفر، والأحدَب، والأصَمِّ، والأزرَق، والأفطَس، والأشتَر، والأثرَم، والأقطَع، والزَّمِن، والمُقعَد، والأشَلِّ؛ أو كان صِفةً لأبيه أو لأُمِّه، أو غيرَ ذلك ممَّا يكرَهُ، واتَّفَقوا على جوازِ ذِكْره بذلك على جِهةِ التَّعريفِ لِمَن لا يَعرِفُه إلَّا بذلك). ((الأذكار)) (ص: ٤٧٥). ويُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ١٣٦).

الآيةُ في بني سَلِمةَ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾؛ قال: قدِمَ علينا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وليس مِنَّا رجُلٌ إلَّا وله اسمانِ أو ثلاثةٌ، فجعَلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: يا فُلانُ، فيقولونَ: مَهْ يا رسولَ اللهِ؛ إنَّه يَغضَبُ مِن هذا الاسمِ! فأُنزِلَت هذه الآيةُ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾))[1].

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾.

أي: بِئسَ الاسمُ الَّذي تَنالونَه اسمُ الفسوقِ بعْدَ اتِّصافِكم بالإيمانِ[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٦٢) واللفظ له، والترمذي (٣٢٦٨)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٥١٦)، وابن ماجه (٣٧٤١)، وأحمد (١٨٢٨٨).

قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٥٧٠٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٧٢٤) وقال: (على شرطِ مُسلمٍ)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٦٢)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٩٦٢): (إسنادُه صحيحٌ إنْ صحَّت صُحبةُ أبي جَبيرةَ بنِ الضَّحَّاكِ، وإلَّا فمُرسَلٌ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٢)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١).

قيل: المرادُ: أنَّ مَن فعَل ما نهَيْتُ عنه مِن السُّخريةِ، واللَّمزِ والنَّبزِ، فهو فاسقٌ؛ فلا تَفعلوا ذلك فتَستَحِقُّوا إنْ فَعَلْتُموه أن تُسَمَّوا فُسَّاقًا، وبِئسَ ذلك بعدَ الإيمانِ. وممَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، والثعلبي، ومكِّي، والنسفي، وابن تيميَّة، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٨٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٠٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٥٤)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤١).

وقيل: المرادُ: بِئسَ الاسمُ هذا، أن يُسَمِّيَه باسمِ الكُفرِ بعدَ الإيمانِ، يقولُ له: يا يهوديُّ، ويا نصرانيُّ! وممَّن اختار هذا القولَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧٥).

وزاد الخازنُ أن يُقالَ له أيضًا: يا فاسِقُ بعدَ ما تاب، وزاد القرطبيُّ أن يُسَمَّى زانيًا بعدَ توبتِه. =

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: ومَن لم يَتُبْ مِن السُّخريةِ بإخوانِه المؤمنينَ، أو لَمْزِهم، أو مُنابزتِهم بالألقابِ؛ فإنَّهم هم الظَّالِمونَ لأنفُسِهم بتَعريضِها لِعِقابِ اللهِ، والظَّالِمونَ لغيرِهم بالاعتداءِ عليهم(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ في الجملةِ: الحسَنُ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٥٦٤).

قال الزَّجَّاجُ: (ويحتملُ أن يكونَ في كلِّ لقَبٍ يَكرَهُه الإنسانُ؛ لأنَّه إنَّما يجبُ أن يُخاطِبَ المؤمنُ أخاه بأحَبِّ الأسماءِ إليه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٦).

وقال ابن كثير: (بئسَ الصِّفةُ والاسمُ الفُسُوقُ، وهو التَّنابُزُ بالألقابِ، كما كان أهلُ الجاهِليَّةِ يَتناعَتونَ، بَعْدَما دخَلْتُم في الإسلامِ وعَقَلْتُموه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ومَن لم يَتُبْ مِن نَبْزِه أخاه بما نهى اللهُ عنه؛ مِن نَبزِه بالألقابِ، أو لَمْزِه إيَّاه، أو بسخريتِه منه- فأولئك هم الَّذين ظلَموا أنفُسَهم بما كَسَّبوها عِقابَ الله، بِرُكوبِهم ما نَهاهم عنه). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٣).

وقال العُلَيمي: (﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ بوَضعِ العِصيانِ مَوضِعَ الطَّاعةِ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٧٠).

وقال الشوكاني: (﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لارتكابِهم ما نَهَى اللهُ عنه، وامْتِناعِهم مِن التَّوبةِ، فظَلَموا مَن لَقَّبوه، وظُلْمِهم أنفسَهم بما لزِمها مِن الإثْمِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٧٦).

وقال ابن عاشور: (فمَن لم يَتُبْ فهو ظالمٌ: لأنَّه ظلَمَ النَّاسَ بالاعتِداءِ عليهم، وظلَمَ نفْسَه بأنْ رَضيَ لها عِقابَ الآخرةِ معَ التَّمكُّنِ مِن الإقلاعِ عن ذلك؛ فكان ظُلْمُه شديدًا جدًّا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٠).

تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا كان الإنسانُ رُبَّما دعا صاحِبَه بلقَبٍ له سيِّئٍ، غيرَ قاصدٍ به عَيْبَه، أو فعَلَ فِعلًا يَتنزَّلُ على الهُزْءِ، غيرَ قاصدٍ به الهُزْءَ- نَهَى تعالى عن المُبادَرةِ إلى الظَّنِّ مِن غيرِ تَثبُّتٍ؛ لأنَّ ذلك مِن وضْعِ الأشياءِ في غيرِ مَواضِعِها، الَّذي هو معْنى الظُّلمِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان الظَّنُّ هو السَّببَ فيما تقدَّم وعليه تُبنَى القبائحُ، ومنه يظهرُ العدوُّ المُكاشِحُ، والقائلُ إذا أوقف أمورَه على اليقينِ فقلَّما يتيقَّنُ في أحدٍ عَيبًا فيَلمِزُه به؛ فإنَّ الفعلَ في الصُّورةِ قد يكونُ قبيحًا وفي نفْسِ الأمرِ لا يكونُ كذلك؛ لِجَوازِ أن يكونَ فاعلُه ساهيًا، أو يكونَ الرَّائي مخطئًا[2]، لذا قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَقرَبوا كثيرًا مِن الظَّنِّ، فتتَّهِموا النَّاسَ بالسُّوءِ ظنًّا منكم بلا بُرهانٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٧).

قال ابن جرير في معنَى الآيةِ: (لا تَقرَبوا كثيرًا مِن الظَّنِّ بالمؤمنينَ، وذلك أن تَظُنُّوا بهم سوءًا؛ فإنَّ الظَّانَّ غيرُ مُحِقٍّ.

وقال جلَّ ثَناؤُه: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ولم يقلْ: اجتَنِبوا الظَّنَّ كلَّه؛ إذ كان قد أَذِنَ للمؤمنينَ أن يظُنَّ بعضُهم ببعضٍ الخَيرَ، فقال: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ [النور: ١٢]، فأَذِنَ اللهُ جلَّ ثَناؤُه للمؤمنينَ أن يظُنَّ بعضُهم ببعضٍ الخَيرَ، وأن يَقولوه، وإن لم يَكونوا مِن قِيلِه فيهم على يقينٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٣، ٣٧٤). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحديثِ، ولا تَحَسَّسوا، ولا تَجسَّسوا[١]، ولا تَنافَسوا، ولا تَحاسَدوا، ولا تَباغَضوا، ولا تَدابَروا، وكُونوا -عِبادَ اللهِ- إخوانًا))[٢].

﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾.

أي: إنَّ ظنَّ المؤمنِ بغَيرِه السُّوءَ مِن غيرِ دليلٍ ذنْبٌ[٣].

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾.

---

= وقال ابن عطية: (حكَم على بعضِه بأنه إثْمٌ؛ إذ بعضُه ليس بإثم، ولا يَلزَمُ اجتِنابُه، وهو ظنُّ الخَيرِ بالنَّاسِ، وحُسْنُه بالله تعالى، والمَظنونُ مِن شَهاداتِ الشُّهودِ، والمظنونُ به مِن أهلِ الشَّرِّ؛ فإنَّ سقوطَ عدالتِه وغير ذلك هو مِن حُكمِ الظَّنِّ به. وظنُّ الخَيرِ بالمؤمنِ محمودٌ. والظَّنُّ المَنهيُّ عنه: هو أنَّ يظُنَّ سوءًا برجُلٍ ظاهِرُه الصَّلاحُ، بل الواجبُ أنْ يُزيلَ الظَّنَّ وحُكمَه، ويَتأوَّلَ الخيرَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥١).

وقال ابن عطيَّةَ أيضًا: (هذه الآياتُ والَّتي بعْدَها نزلتْ في خُلقِ أهلِ الجاهليَّةِ؛ وذلك لأنَّهم كانوا يجرونَ مع شهَواتِ نُفوسِهم، لم يُقَوِّمْهم أمْرٌ مِن الله ولا نهْيٌ، فكان الرَّجُلُ يَسْطو ويَهمِزُ ويَلمِزُ ويَنبِزُ بالألقابِ، ويَظُنُّ الظُّنونَ فيَتكلَّمُ بها، ويَغتابُ، ويَفتخِرُ بنسَبِه، إلى غيرِ ذلك مِن أخلاقِ النُّفوسِ البطَّالةِ؛ فنزلتْ هذه الآيةُ تأديبًا لأمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وذكَر بعضُ النَّاسِ لهذه الآياتِ أسبابًا... والقويُّ عندي أنَّ هذه الآياتِ نزلتْ تقويمًا [لسائرِ الخَلقِ] كسائرِ أمرِ الشَّرعِ، ولو تُتبِّعَتِ الأسبابُ لَكانت أكثرَ مِن أن تُحصى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٩).

(١) قال النَّوَوي: (قال بعضُ العلماءِ: التَّحسُّسُ بالحاءِ: الاستِماعُ لِحَديثِ القَومِ، وبالجيمِ: البحثُ عن العَوْراتِ. وقيل: بالجيمِ: التَّفتيشُ عن بَواطِنِ الأمورِ، وأكثَرُ ما يُقالُ في الشَّرِّ، والجاسوسُ: صاحِبُ سِرِّ الشَّرِّ، والنَّاموسُ: صاحبُ سرِّ الخَيرِ. وقيل: بالجيم: أن تَطلُبَه لِغَيرِك، وبالحاءِ: أن تَطلُبَه لِنَفْسِك. قاله ثعلبٌ. وقيل: هما بمعنًى، وهو طلَبُ معرفةِ الأخبارِ الغائبةِ والأحوالِ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١١٩).

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلمٌ (٢٥٦٣) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١، ٢٥٢).

**مُناسَبتُها لِمَا قبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بصَونِ عِرضِ المسلِمِ غايةَ الصِّيانةِ؛ فنهى عن الخَوضِ فيه بالظَّنِّ؛ فإنْ قال الظَّانُّ: أبحَثُ لِأتحقَّقَ، قيل له[1]:

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾.

أي: ولا تتَّبِعوا -أيُّها المؤمنونَ- عُيوبَ النَّاسِ وتُنَقِّبوا عنها، بلِ اتْرُكوهم، وعامِلوهم بحسَبِ ظَواهِرِهم[2].

عن ابنِ عُمرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((صَعِدَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المِنبرَ، فنادَى بصَوتٍ رفيعٍ، فقال: يا مَعْشَرَ مَنْ أسلَمَ بلِسانِه، ولم يُفْضِ الإيمانُ إلى قلْبِه، لا تُؤذوا المسلمينَ، ولا تُعَيِّروهم، ولا تتَّبِعوا عَوْراتِهم؛ فإنَّه مَن تَتبَّعَ عَورةَ أخيه المسلِمِ تَتبَّعَ اللهُ عَوْرتَه، ومَن تَتبَّعَ اللهُ عَورتَه يَفضَحْه ولو في جَوفِ رَحْلِه))[3].

وعن مُعاويةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّك إنِ اتَّبَعْت عَوْراتِ النَّاسِ أفسَدْتَهم، أو كِدْتَ أنْ تُفسِدَهم))، فقال أبو الدَّرْداءِ: (كلمةٌ سمِعَها مُعاويةُ مِن رسولِ اللهِ نفَعَه اللهُ تعالى بها)[4].

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٥٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٣٢) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٥٧٦٣).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ). وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وصحَّح إسنادَه الزَّيْلَعيُّ في ((تخريج الكشاف)) (٣/ ٣٤٤)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠٣٢): (حسَنٌ صحيحٌ). وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٥٧٦٣).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٨٨) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٥٧٦٠)، والطَّبَرانيُّ (١٩/ ٣٧٩) (٨٩٠). =

﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾.

**مُناسَبتُها لِمَا قبْلَها:**

لَمَّا قال الله تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾؛ فإنْ قال الظَّانُّ: تحقَّقْتُ مِن غيرِ تجسُّسٍ، قيل له[1]:

﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾.

أي: ولا يَذكُرْ -أيُّها المؤمنونَ- بعضُكم بعضًا في حالِ غَيبتِه بما يَكرَهُ سَماعَه مِن عَيبٍ وقدْحٍ فيه[2].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أتَدْرون ما الغِيبةُ؟ قالوا: اللهُ ورسولُه أعلَمُ، قال: ذِكرُك أخاكَ بما يَكرَهُ. قِيل: أفَرأَيْتَ إنْ كان في أخي ما أقولُ؟ قال: إنْ كان فيه ما تقولُ فقدِ اغتَبْتَه، وإنْ لم يكُنْ فيه فقدْ بَهَتَّه))[3].

---

= صحَّحه ابنُ حِبان، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٨٨)، وصحَّح إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٢/ ٢٥٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٨٨٨).

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٤، ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٥٠).

قال النووي: (الغِيبةُ: ذِكْرُك الإنسانَ بما يَكرَهُ؛ سواءٌ ذكَرْتَه بلَفظِك، أو في كِتابِك، أو رمزتَ أو أشرتَ إليه بعَينِك أو يدِك أو رأسِك. وضابِطُه: كلُّ ما أفهَمْتَ به غيرَك نُقْصانَ مُسلِمٍ فهو غِيبةٌ مُحرَّمةٌ). ((الأذكار)) (ص: ٣٣٨).

وقال ابنُ عثيمين: (سواءٌ كان ذلك في خِلْقتِه، أو خُلُقِه، أو في أحوالِه، أو في عَقلِه، أو في ذَكائِه، أو في غيرِ ذلك). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٥٢).

(٣) رواه مسلم (٢٥٨٩).

وعن أبي بَكْرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ دِماءَكم وأموالَكم وأعراضَكم عليكم حَرامٌ، كحُرمةِ يَومِكم هذا، في شَهرِكم هذا، ألَا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ منكم الغائبَ))(١).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بحَسْبِ امْرِئٍ مِن الشَّرِّ أنْ يَحقِرَ أخاه المُسلِمَ، كلُّ المسلمِ على المسلمِ حَرامٌ: دَمُه، ومالُه، وعِرضُه))(٢).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((قلْتُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: حَسْبُكَ مِن صَفيَّةَ كذا وكذا -تَعني: قصيرةً-، فقال: لَقد قلْتِ كلمةً لو مُزِجَت بماءِ البحْرِ لَمَزجَتْه!))(٣).

وعن أبي بَرْزةَ الأسْلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يا مَعشرَ مَن آمَنَ بلِسانِه، ولم يَدخُلِ الإيمانُ قلْبَه، لا تَغتابُوا المسلمين، ولا تتَّبِعوا عَوْراتِهم؛ فإنَّه مَنِ اتَّبَعَ عَوْراتِهم يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرتَه، ومَن يتَّبِعِ اللهُ عَورتَه يَفضَحْه في بَيتِه))(٤).

---

(١) رواه البخاري (١٠٥) واللفظ له، ومسلم (١٦٧٩).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٤٨٧٥) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (٢٥٠٢)، وأحمدُ (٢٥٥٦٠).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١١٨)، والشوكاني في ((الفتح الرباني)) (١١/ ٥٥٩٣)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٧٥)، وصحَّح إسنادَه على شرط مسلمٍ شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٢/ ٣٦١).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٨٠) واللَّفظُ له، وأحمد (١٩٧٧٦).

جوَّد إسنادَه العراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (٢/ ٢٥٠)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٨٠): (حسَنٌ صحيحٌ). وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٤٨٨٠).

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾.

أي: أيُحِبُّ أحدُكم -أيُّها المؤمنونَ- أنْ يَأكُلَ لَحمَ أخيهِ بعْدَ مَماتِه؟ فإنْ كَرِهْتُم ذلك واشْمَأْزَزتُم منه -لِحُرْمتِه وبَشاعتِه- فاكْرَهوا كذلك غِيبةَ المسلمِ، وتَقذَّروا منها[1].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: واجْعَلوا بيْنَكم -أيُّها المؤمنونَ- وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِهِ وِقايةً بامتِثالِ أوامرِه، واجتنابِ نَواهِيه، ومِن ذلك تَجنُّبُ ظَنِّ السُّوءِ بالمؤمنِ، وتَتبُّعِ عَوْراتِه، والتَّجسُّسِ عمَّا خَفِيَ مِن أمْرِه، واغتيابِه بما يَكرَهُه[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُوفِّقُ عِبادَه للتَّوبةِ ويَقبَلُها منهم، رَحيمٌ بهم فيَدْعوهم إلى ما يَنفَعُهم، ويُغدِقُ عليهم نِعَمَه، ولا يُؤاخِذُهم بذُنوبِهم بعْدَ تَوبتِهم منها[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٥).

قال القرطبي: (مثَّل اللهُ الغِيبةَ بأكلِ المَيتةِ؛ لأنَّ المَيِّتَ لا يَعلَمُ بأكْلِ لحْمِه، كما أنَّ الحيَّ لا يَعلَمُ بغِيبةِ مَن اغتابَه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ سُبحانه الأُخُوَّةَ الدِّينيَّةَ؛ تَذكيرًا بالعاطِفِ الموجِبِ للإكرامِ، المانِعِ مِن الانتِقامِ، ونَهَى عن أُمورٍ يَجُرُّ إليها الإعجابُ بالنَّفْسِ مِن جِهةِ التَّعظيمِ بالآباءِ، والعَراقةِ في النَّسبِ العالي- أسقَطَ ذلك مُبيِّنًا أنْ لا نسَبَ إلَّا ما يُثمِرُه الإيمانُ الَّذي بدَأَ به مِن التَّقْوى[1].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى المؤمنينَ بأنْ يكونوا إخْوةً، وأنْ يُصلِحوا بيْنَ الطَّوائفِ المُتقاتِلةِ، ونَهاهم عمَّا يَثْلِمُ الأُخوَّةَ وما يُغَطِّي على نُورِها في نُفوسِهم؛ مِن السُّخريةِ، واللَّمْزِ، والتَّنابُزِ، والظَّنِّ السُّوءِ، والتَّجسُّسِ، والغِيبةِ -ذكَّرَهم بأصْلِ الأُخوَّةِ في الأنسابِ الَّتي أكَّدَتْها أُخوَّةُ الإسلامِ ووَحدةُ الاعتِقادِ؛ لِيَكونَ ذلك التَّذكيرُ عَونًا على تَبصُّرِهم في حالِهم[2].

وأيضًا فهو انتقالٌ مِن واجباتِ المعامَلاتِ، إلى ما يجِبُ أنْ يُراعِيَه المرْءُ في نفْسِه[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾.

أي: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّا بدَأْنا خلْقَكم مِن أبيكم آدَمَ وأُمِّكم حوَّاءَ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

قال ابنُ عطيَّة: (يَحتَمِلُ أن يُريدَ آدمَ وحوَّاءَ، فكأنَّه قال: إنَّا خلَقْنا جميعَكم مِن آدمَ وحوَّاءَ، ويَحتمِلُ أن يُريدَ بالذَّكَرِ والأُنثَى اسمَ الجنسِ، فكأنَّه قال: إنَّا خلَقْنا كلَّ واحدٍ منكم مِن ماءِ ذكَرٍ وماءِ أُنثى، وقصْدُ هذه الآيةِ التَّسويةُ بيْنَ النَّاسِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٢). =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾.

أي: وجعَلْناكم -أيُّها النَّاسُ- راجِعينَ في أنسابِكم إلى شُعوبٍ وقَبائلَ؛ مِن أجْلِ أنْ يَحصُلَ التَّعارُفُ بيْنَكم بالانتِسابِ إليها، لا مِن أجْلِ أنْ يَفخَرَ بها بعضُكم على بعضٍ[1].

---

= وممَّن ذهَب إلى الاحتمالِ الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

وممَّن قال بالاحتمالِ الثَّاني: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٢).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢١/ ٣٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٣، ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

قال السعدي: (لو استقلَّ كلُّ واحدٍ منهم بنفْسِه لم يحصُلْ بذلك التَّعارُفُ الَّذي يترتَّبُ عليه التَّناصُرُ والتَّعاوُنُ، والتَّوارُثُ، والقيامُ بحُقوقِ الأقارِبِ، ولكِنَّ اللهَ جعَلهم شُعوبًا وقبائلَ؛ لأجْلِ أن تَحصُلَ هذه الأمورُ وغَيرُها مِمَّا يتوقَّفُ على التَّعارُفِ، ولُحوقِ الأنسابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

وقال القَلْقَشَنْدي: (قد عدَّ أهلُ اللُّغةِ طبَقاتِ الأنسابِ ستَّ طبَقاتٍ:

الطَّبقةُ الأولى: الشَّعبُ، بفتحِ العَينِ، وهو النَّسبُ الأبعَدُ؛ كعَدْنانَ مثلًا...

الطَّبقةُ الثَّانيةُ: القَبيلةُ، وهي ما انقسَمَ فيه الشَّعبُ؛ كرَبيعةَ ومُضَرَ...

الطَّبقةُ الثَّالثةُ: العِمارةُ، بكسرِ العَينِ المُهمَلةِ، وهي ما انقسَم فيه أنسابُ القَبيلةِ؛ كقُرَيشٍ وكِنانةَ. وتُجمَعُ على عِماراتٍ، وعَمائرَ. =

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

أي: إنَّ أفضَلَكم وأشرَفَكم -أيُّها النَّاسُ- عندَ اللهِ تعالى أكثَرُكم تَقْوى له بامتِثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيهِ، لا أشرَفُكم نَسَبًا، ولا أعظَمُكم عَشيرةً[1].

عن أبي هريرةَ رضِي الله عنه قال: ((سُئِل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أيُّ النَّاسِ أكْرَمُ؟ قال: أكرمُهم عندَ الله أتْقاهم))[2].

وعن أبي هريرةَ أيضًا، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله لا يَنظرُ إلى صُورِكم وأموالِكم، ولكنْ ينظرُ إلى قلوبِكم وأعمالِكم))[3].

وعن أبي هُرَيرةَ أيضًا، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَيَدَعَنَّ رِجالٌ

---

= الطَّبقةُ الرَّابعةُ: البَطنُ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ العِمارةِ؛ كبَني عبدِ مَنافٍ، وبَني مَخزومٍ. ويُجمعُ: على بُطونٍ، وأبْطُنٍ.

الطَّبقةُ الخامِسةُ: الفَخِذُ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ البَطنِ؛ كبَني هاشمٍ، وبني أُمَيَّةَ. وتُجمعُ على: أفخاذٍ.

الطَّبقةُ السَّادسةُ: الفَصيلةُ، بالصَّادِ المُهمَلةِ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ الفَخِذِ؛ كبَني العبَّاسِ... وبالجُملةِ فالفَخِذُ يَجمَعُ الفصائلَ، والبطنُ يجمعُ الأفخاذَ، والعِمارةُ يجمعُ البُطونَ، والقبيلةُ تَجمعُ العَمائرَ، والشَّعبُ يجمعُ القبائلَ... وزاد بعضُهم العَشيرةَ قبْلَ الفَصيلةِ. ((قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان)) (ص: ١٤). ويُنظر: ((الأحكام السلطانية)) للماوَرْدي (ص: ٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٤).

وقال الشنقيطي: (ولم يُذكَرْ مِن هذه السِّتِّ في القرآنِ إلَّا ثلاثٌ: الشُّعوبُ والقَبائلُ كما في هذه الآيةِ، والفَصيلةُ في المَعارِجِ، في قولِه: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ﴾ [المعارج: ١٣]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

فَخْرَهم بأقوامٍ؛ إنَّما هم فَحْمٌ مِن فحْم جهنَّمَ، أو لَيَكونُنَّ أهْوَنَ على اللهِ مِن الجِعْلانِ[١] الَّتي تَدفَعُ بأنْفِها النَّتْنَ))، وقال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ[٢] الجاهليَّةِ وفَخْرَها بالآباءِ؛ مُؤمنٌ تقِيٌّ، وفاجرٌ شقِيٌّ، النَّاسُ بنو آدَمَ، وآدَمُ مِن تُرابٍ))[٣].

وعن سَهلِ بنِ سعدٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((مَرَّ رجُلٌ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما تَقولون في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خطَبَ أنْ يُنكَحَ، وإنْ شَفَع أنْ يُشَفَّعَ، وإنْ قال أنْ يُستمَعَ. قال: ثمَّ سكَتَ، فمرَّ رجُلٌ مِن فُقراءِ المسلمينَ، فقال: ما تَقولونَ في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خطَبَ ألَّا يُنكَحَ، وإنْ شفَعَ ألَّا يُشَفَّعَ، وإنْ قال ألَّا يُستمَعَ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا خَيرٌ مِن مِلْءِ الأرضِ مِثلَ هذا))[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو عِلمٍ تامٍّ بعِبادِه، ذو خِبرةٍ كاملةٍ ببَواطِنِهم وسَرائِرِهم، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ مِن أُمورِهم الظَّاهرةِ والباطِنةِ[٥].

---

(١) الجِعْلانُ: واحِدُه جُعَلٌ، وهي دُوَيْبَّةٌ سَوداءُ تكونُ في المواضِعِ النَّدِيَّة يُقالُ لها: الخُنفُساءُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٣٠٧٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٨/ ٢١٠).

(٢) عُبِّيَّةَ الجاهِليَّةِ: أي: نَخْوَتَها وكِبْرَها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٣٠٧٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، وأحمد (١٠٧٨١) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ)، وصحَّح الحديثَ ابنُ تيميَّةَ في ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٢٤٧)، وحسَّنَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١١٦)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥١١٦)، وحسَّن إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٦٢).

(٤) رواه البخاري (٥٠٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٥٩).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ وتَوجيهُ الخِطابِ للمؤمنِ يدُلُّ على أنَّ ما يُتلى عليه فهو مِن مُقْتضياتِ الإيمانِ، وأنَّ فَقْدَه ومُخالَفتَه نقْصٌ في الإيمانِ[1].

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ هذا مِن حُقوقِ المؤمنينَ بَعضِهم على بعضٍ؛ ألَّا يَسخَرَ قومٌ مِن قومٍ بكلِّ كلامٍ، وقولٍ، وفِعلٍ دالٍّ على تَحقيرِ الأخِ المسلمِ؛ فإنَّ ذلك حَرامٌ لا يَجوزُ، وهو دالٌّ على إعجابِ السَّاخرِ بنفْسِه، وعَسَى أنْ يكونَ المسخورُ به خَيرًا مِن السَّاخِرِ، كما هو الغالِبُ والواقعُ؛ فإنَّ السُّخريةَ لا تقَعُ إلَّا مِن قلْبٍ مُمتلِئٍ مِن مَساوي الأخلاقِ، مُتحَلٍّ بكلِّ خُلقٍ ذَميمٍ؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بحَسْبِ امْرِئٍ مِن الشَّرِّ أنْ يَحقِرَ أخاهُ المسلمَ))[2]، ومِنْ أقبَحِ القبيحِ استِخفافُ الدَّنيءِ الأرذَلِ بالأكرَمِ الأفضَلِ، واسْتِهْزاؤُه به[3].

٣- قولُه تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ فيه وُجوبُ أنْ يَعتقِدَ كلُّ أحدٍ أنَّ المسخورَ منه رُبَّما كان عندَ اللهِ خَيرًا مِن السَّاخرِ؛ لأنَّ النَّاسَ لا يَطَّلِعونَ إلَّا على ظَواهرِ الأحوالِ، ولا عِلمَ لهم بالخَفيَّاتِ، وإنَّما الَّذي يَزِنُ عندَ اللهِ: خُلوصُ الضَّمائرِ، وتَقْوى القلوبِ، وعِلمُهم مِن ذلك بمَعزِلٍ؛ فيَنْبغي ألَّا يَجترِئَ أحدٌ على الاستِهزاءِ بمَن تَقتَحِمُه عَينُه إذا رآهُ رثَّ الحالِ، أو ذا عاهةٍ في بَدَنِه، أو غيرَ

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

والحديث تقدَّم تخريجُه.

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٣).

لَبِقٍ في مُحادثَتِه؛ فلَعلَّه أخلَصُ ضَميرًا، وأتْقى قلبًا ممَّن هو على ضِدِّ صِفتِه، فيَظلِمُ نفْسَه بتَحقيرِ مَن وقَّرَه اللهُ، والاستِهانةِ بمَن عظَّمَه اللهُ[١].

٤- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ تَحريمُ عَيبِ المؤمنينَ بَعضِهم بَعضًا[٢]، وفيه تنبيهٌ على أنَّ العاقلَ لا يعيبُ نفْسَه، فلا ينبغي أن يعيبَ غيرَه؛ لأنَّه كنَفْسِه[٣].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ فيه تَحريمُ المُنابَزةِ بالألقابِ، وهي الوصْفُ بلقَبٍ يَكرَهُه الشَّخصُ[٤].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ فيه أنَّ التَّوبةَ فرْضٌ على العِبادِ[٥]، فالواجبُ على العبْدِ أنْ يَتوبَ إلى اللهِ تعالى، ويَخرُجَ مِن حقِّ أخيهِ المسلمِ؛ باستِحلالِه، والاستِغفارِ، والمدْحِ له، مُقابَلةً على ذَمِّه[٦].

٧- قال بَعضُ السَّلَفِ: (أصبِحُوا تائِبينَ، وأمْسُوا تائِبينَ). يُشيرُ إلى أنَّ المُؤمِنَ لا يَنبغي أن يُصبِحَ ويُمسيَ إلَّا على تَوبةٍ؛ فإنَّه لا يدري متى يُفاجِئُه الموتُ صَباحًا أو مَساءً؛ فمَن أصبَحَ أو أمسى على غيرِ توبةٍ فهو على خَطَرٍ؛ لأنَّه يَخشى أن يَلقَى اللهَ غيرَ تائبٍ، فيُحشَرَ في زُمرةِ الظَّالِمينَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٧) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٤٤).

٨- في قولِه تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ تَحضيضٌ على الظَّنِّ الحَسَنِ[١]، وتَحريمُ ظَنِّ السُّوءِ بأهْلِ الخَيرِ، وإباحتُه بأهْلِ الشَّرِّ؛ لأنَّه لم يُنْهَ عن كلِّ الظَّنِّ[٢].

٩- في قولِه تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: اجتَنِبوا الظَّنَّ كلَّه؛ لأنَّ الظَّنَّ يَنقسِمُ إلى قِسمينِ:

القِسمِ الأولِ: ظَنٌّ خَيرٍ بالإنسانِ، وهذا مَطلوبٌ أنْ تَظُنَّ بإخوانِك خيرًا ما داموا أهْلًا لذلك، وهو المسلمُ الَّذي ظاهِرُه العدالةُ؛ فإنَّ هذا يُظَنُّ به خيرًا، ويُثْنى عليه بما ظَهَرَ لنا مِن إسلامِه وأعمالِه.

القِسمِ الثاني: ظَنِّ السُّوءِ، وهذا يَحرُمُ بالنِّسبةِ لِمُسلمٍ ظاهِرُه العدالةُ؛ فإنَّه لا يَحِلُّ أنْ يُظَنَّ به ظَنُّ السُّوءِ، كما صَرَّحَ بذلك العُلماءُ، أمَّا ظنُّ السُّوءِ بمَن قامتِ القرينةُ على أنَّه أهلٌ لذلك؛ فهذا لا حَرَجَ على الإنسانِ أنْ يَظُنَّ السُّوءَ به[٣].

١٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، فيه تَحريمُ التَّجسُّسِ، قال ابنُ عبَّاسٍ: (وهو تَتبُّعُ عَوْراتِ النَّاسِ)، وقال الأوزاعيُّ: (منه الاستِماعُ إلى حَديثِ القومِ وهم له كارِهون)[٤].

١١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾، فيه وُجوبُ حِفظِ عِرضِ المؤمنِ في غَيبتِه[٥]، وتَحريمُ الغِيبةِ، وهي ذِكرُ الشَّخصِ بما يَكرَهُه ممَّا هو فيه[٦]، ودلَّ قولُه تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُ﴾ على التَّحذيرِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

الشَّديدِ مِن الغِيبةِ، وأنَّ الغِيبةَ مِن الكبائرِ؛ لأنَّ اللهَ شبَّهَها بأكْلِ لحْمِ الميِّتِ، وذلك مِن الكبائرِ[١].

١٢- قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾، قولُه: ﴿خَلَقْنَٰكُم﴾ و﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ﴾ فيه إشارةٌ إلى عدَمِ جَوازِ الافتخارِ؛ لأنَّ ذلك ليس بسَعْيِكم، ولا قُدْرةَ لكم على شَيءٍ مِن ذلك، فكيفَ تَفتخِرونَ بما لا مَدخَلَ لكم فيه[٢]؟!

١٣- تَعليقُ الشَّرفِ في الدِّينِ بمُجرَّدِ النَّسبِ هو حكْمٌ مِن أحكامِ الجاهليَّةِ الَّذين اتَّبَعَتْهم عليه الرَّافضةُ وأشباهُهُم مِن أهلِ الجهْلِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، ولهذا ليس في كِتابِ اللهِ آيةٌ واحدةٌ يَمدَحُ فيها أحدًا بنَسَبِه، ولا يَذُمُّ أحَدًا بنَسَبِه؛ وإنَّما يَمدَحُ بالإيمانِ والتَّقوى، ويَذُمُّ بالكفْرِ والفُسوقِ والعِصيانِ[٣].

١٤- أنَّ ثَوابَ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يَنْبني على حَسَبٍ ولا نَسَبٍ، وإنَّما يَنْبني على الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٤].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ فيه إثباتُ كَونِ التَّقوى مُتقدِّمةً على كلِّ فَضيلةٍ[٥].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ يدُلُّ على أنَّ الفضْلَ والكرَمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٤).

إنَّما هو بتَقْوى اللهِ، لا بغيرِه مِن الانتِسابِ إلى القَبائلِ[١]، وأنَّ كلَّ مَن كان أتْقى فهو أكرَمُ عندَ اللهِ، وأرفَعُ مَنزِلةً[٢].

١٧- رُبَّ مَن يَحقِرُه النَّاسُ لضَعْفِه، وقِلَّةِ حظِّه مِن الدُّنيا، وهو أعظَمُ قدْرًا عندَ اللهِ تعالى ممَّن له قدْرٌ في الدُّنيا؛ فإنَّما النَّاسُ يَتفاوَتون بحسَبِ التَّقْوى، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣] [الحجرات: ١٣].

## الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾، ولم يقُلْ: (نفْسٌ مِن نفْسٍ)؛ لأنَّ هذا فيه إشارةٌ إلى منْعِ التَّكبُّرِ، والمتكبِّرُ في أكثَرِ الأمْرِ يُري جَبروتَه على رُؤوسِ الأشهادِ، وإذا اجتمَعَ في الخَلَواتِ مع مَن لا يَلتفِتُ إليه في الجامعِ، يَجعَلُ نفْسَه مُتواضِعًا، فذكَرَهم بلَفظِ القومِ؛ منْعًا لهم عمَّا يَفعَلونه[٤].

٢- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ هذه الآيةُ تَقْتضي اختِصاصَ القَومِ بالذُّكْرانِ، وقد يكونُ مع الذُّكْرانِ نِساءٌ فيُقالُ لهم: قومٌ، على تَغليبِ حالِ الذُّكورِ[٥].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ سُمِّيَ الأخُ المؤمنُ نفْسًا لأخيهِ؛ لأنَّ المؤمنينَ يَنْبغي أنْ يكونَ هكذا حالُهم كالجسَدِ الواحدِ، ولأنَّه إذا همَزَ غيرَه أوجَبَ للغَيرِ أنْ يَهمِزَه، فيكونُ هو المتسبِّبَ لذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٨، ١٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٤٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠١).

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، لم يقُلْ: (لا تَنْبزوا)؛ وذلك لأنَّ اللَّمَّازَ إذا لمَزَ، فالملْموزُ قد لا يَجِدُ فيه في الحالِ عَيبًا يَلمِزُه به، وإنَّما يَبحَثُ ويَتتبَّعُه؛ لِيَطَّلِعَ منه على عَيبٍ، فيُوجَدُ اللَّمزُ مِن جانبٍ. وأمَّا (النَّبزُ) فلا يَعجِزُ كلُّ واحدٍ عن الإتيانِ به؛ فإنَّ مَن نبَزَ غيرَه بالحِمارِ، وهو يَنبِزُه بالثَّورِ وغيرِه، فالظَّاهرُ أنَّ النَّبْزَ يُفْضي في الحالِ إلى التَّنابُزِ، ولا كذلك اللَّمزُ[١].

٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، اللَّقبُ إنْ دلَّ على ما يَكرَهُه المدْعوُّ به كان مَنهيًّا عنه، وأمَّا إذا كان حَسنًا فلا يُنْهَى عنه. وما زالت الألقابُ الحَسَنةُ في الأُمَمِ كلِّها مِن العرَبِ والعجَمِ، تَجْري في مُخاطَباتِهم ومُكاتَباتِهم مِن غيرِ نَكيرٍ[٢].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾، خُصِّصَ النَّهيُ في الآيةِ بالألقابِ الَّتي لم يَتقادَمْ عَهْدُها حتَّى صارتْ كالأسماءِ لأصحابِها، وتُنوسِيَ منها قصْدُ الذَّمِّ والسَّبِّ، كما وقَعَ في كثيرٍ مِن الأحاديثِ؛ كقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أصدَقَ ذُو اليدَينِ؟))[٣]، وقولِه لأبي هُريرةَ: ((يا أبا هِرٍّ))[٤]. وكقولِ المحدِّثينَ: (الأعرَجُ) لعبْدِ الرَّحمنِ بنِ هُرْمُزَ، و(الأعمشُ) لِسُلَيمانَ بنِ مِهْرانَ[٥].

٧- قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ قولُ اللهِ تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا﴾، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ إشارةٌ إلى الأخْذِ بالأحوطِ، كما أنَّ الطَّريقَ المَخُوفةَ لا يَتَّفِقُ كلَّ مرَّةٍ فيها قاطعُ طَريقٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧١٤)، ومسلم (٥٧٣) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٨٥) و (٥٣٧٥) و(٦٤٥٢) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٩).

لكنَّك لا تَسلُكُ لاتِّفاقِ ذلك فيها مرَّةً ومرَّتينِ، إلَّا إذا تعيَّن فتَسلُكُها مع رُفقةٍ، كذلك الظَّنُّ يَنْبغي بعْدَ اجتهادٍ تامٍّ، ووُثوقٍ بالغٍ(١).

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ إخراجٌ للظُّنونِ الَّتي عليها تُبْنى الخَيراتُ، وبالجُملةِ كلُّ أمْرٍ لا يكونُ بِناؤُه على اليقينِ فالظَّنُّ فيه غيرُ مُجتنَبٍ، مِثالُه: حكْمُ الحاكمِ على قَولِ الشُّهودِ، وبَراءةُ الذِّمَّةِ عندَ عدَمِ الشُّهودِ، إلى غيرِ ذلك(٢).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، أفاد قولُه: ﴿كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، وتَبْيينُه بأنَّ ﴿بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾؛ أنَّ بَعضًا مِن الظَّنِّ ليس إثمًا، وأنَّا لم نُؤمَرْ باجتنابِ الظَّنِّ الَّذي ليس بإثمٍ؛ لأنَّ ﴿كَثِيرٗا﴾ وصْفٌ، فمَفهومُ المُخالَفةِ منه يدُلُّ على أنَّ كَثيرًا مِن الظَّنِّ لم نُؤمَرْ باجتنابِه، وهو الَّذي يُبيِّنُه ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، أي: إنَّ بَعضَ الظَّنِّ ليس إثمًا، فعلى المسلمِ أنْ يكونَ مِعيارُه في تَمْييزِ أحدِ الظَّنَّينِ مِن الآخَرِ أنْ يَعرِضَه على ما بيَّنَتْه الشَّريعةُ في تَضاعيفِ أحكامِها مِن الكتابِ والسُّنَّةِ، وما أجمَعَت عليه عُلماءُ الأُمَّةِ، وما أفادهُ الاجتهادُ الصَّحيحُ، وتَتَبُّعُ مَقاصِدِ الشَّريعةِ، فمنْه ظنٌّ يجِبُ اتِّباعُه؛ كالحَذَرِ مِن مَكايدِ العدُوِّ في الحرْبِ، وكالظَّنِّ المستنِدِ إلى الدَّليلِ الحاصلِ مِن دَلالةِ الأدِلَّةِ الشَّرعيَّةِ؛ فإنَّ أكثَرَ التَّفريعاتِ الشَّرعيَّةِ حاصِلةٌ مِن الظَّنِّ المستنِدِ إلى الأدِلَّةِ(٣).

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ الظَّنُّ على أربعةِ أضرُبٍ: مَحظورٍ، ومأْمورٍ به، ومُباحٍ، ومَندوبٍ إليه؛ فأمَّا المحظورُ فهو سُوءُ الظَّنِّ باللهِ تعالى، والواجبُ حُسْنُ الظَّنِّ باللهِ، وكذلك سُوءُ الظَّنِّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٣).

بالمسلمينَ الَّذين ظاهِرُهم العدالةُ مَحظورٌ، وأمَّا الظَّنُّ المأمورُ به فهو ما لم يُنصَبْ عليه دليلٌ يُوصِلُ إلى العِلمِ به، وقد تُعُبِّدْنا بتَنفيذِ الحكْمِ فيه، والاقتِصارِ على غالبِ الظَّنِّ، وإجراءُ الحكْمِ عليه واجبٌ، وذلك نحْوُ ما تُعبِّدْنا به مِن قَبولِ شَهادةِ العُدولِ، وتَحرِّي القِبلةِ، وتَقويمِ المستهَلكاتِ، وأُروشِ الجِناياتِ الَّتي لم يَرِدْ بمَقاديرِها تَوقيفٌ، فهذا وما كان مِن نَظائرِه قد تُعبِّدْنا فيه بأحكامِ غالبِ الظُّنونِ. فأمَّا الظَّنُّ المباحُ فكالشَّاكِّ في الصَّلاةِ إذا كان إمامًا، أمَرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّحرِّي والعمَلِ على ما يَغلِبُ في ظَنِّه، وإنْ فَعَلَه كان مُباحًا، وإنْ عدَلَ عنه إلى البِناءِ على اليقينِ كان جائزًا[1].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ أنكَرَت جماعةٌ مِن المبتدِعةِ التَّعبُّدَ لله تعالى بالظَّنِّ، وجوازَ العمَلِ به؛ تَحكُّمًا في الدِّينِ، ودَعوى في المعقولِ! وليس في ذلك أصلٌ يُعوَّلُ عليه؛ فإنَّ البارئَ تعالى لم يَذُمَّ جَميعَه، وإنَّما أورَدَ الذَّمَّ في بَعضِه. ورُبَّما تَعلَّقوا بحديثِ أبي هُريرةَ: ((إيَّاكم والظَّنَّ))[2]، فإنَّ هذا لا حُجَّةَ فيه؛ لأنَّ الظَّنَّ في الشَّريعةِ قِسمانِ: مَحمودٌ، ومَذمومٌ؛ فالمحمودُ منه ما سَلِمَ معه دِينُ الظَّانِّ والمظنونِ به عندَ بُلوغِه. والمذمومُ ضِدُّه؛ بدَلالةِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾[3].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، للظَّنِّ حالتانِ: حالةٌ تُعرَفُ وتَقْوَى بوجْهٍ مِن وُجوهِ الأدِلَّةِ، فيَجوزُ الحكْمُ بها، وأكثَرُ أحكامِ الشَّريعةِ مَبْنيَّةٌ على غَلَبةِ الظَّنِّ؛ كالقِياسِ، وخبَرِ الواحِدِ، وغيرِ ذلك مِن قِيَمِ المتْلَفاتِ، وأُروشِ الجِناياتِ. والحالةُ الثَّانيةُ: أنْ يقَعَ في النَّفْسِ شَيءٌ

(١) هذه الفائدةُ مِن كلامِ أبي يَعلى نسَبَها إليه ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٥١).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣) مطوَّلًا.

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٢).

مِن غيرِ دَلالةٍ، فلا يكونُ ذلك أَولى مِن ضِدِّه، فهذا هو الشَّكُّ، فلا يَجوزُ الحكْمُ به، وهو المنْهيُّ عنه(١).

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ ما نجَمَت العقائدُ الضَّالَّةُ والمذاهبُ الباطلةُ إلَّا مِن الظُّنونِ الكاذبةِ(٢).

١٤- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ الَّذي يُميِّزُ الظُّنونَ الَّتي يجِبُ اجتِنابُها عمَّا سِواها: أنَّ كلَّ ما لم تُعرَفْ له أَمارةٌ صَحيحةٌ وسبَبٌ ظاهرٌ؛ كان حَرامًا واجبَ الاجتنابِ؛ وذلك إذا كان المظنونُ به ممَّن شُوهِدَ منه السَّترُ والصَّلاحُ، وأُونِسَت منه الأمانةُ في الظَّاهرِ، فظَنُّ الفسادِ والخيانةِ به مُحرَّمٌ، بخِلافِ مَن اشتهرَ بيْنَ النَّاسِ بتَعاطي الرِّيَبِ والمُجاهَرةِ بالخَبائثِ(٣)، كمَنْ يَدخُلُ ويَخرُجُ إلى حاناتِ الخمْرِ، فمِثلُ هذا يَقْوى الظَّنُّ فيه أنَّه ليس مِن أهلِ الصَّلاحِ -ولا إثمَ في هذا الظَّنِّ- وإنْ كنَّا لا نَراه يَشرَبُ الخمْرَ، بخِلافِ مَن ظاهِرُه الصَّلاحُ، فلا يُظَنُّ به السُّوءُ فهذا هو المنْهيُّ عنه، ويجِبُ أنْ يُزيلَه(٤).

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، لم يقُلْ: (اجتَنِبوا تَقولوا أمرًا على خِلافِ ما تَعلَمونه)، ولا قال: (اجتَنِبوا الشَّكَّ)، بلْ أوَّلُ ما نَهى عنه هو القولُ بالظَّنِّ؛ وذلك لأنَّ القولَ على خِلافِ العِلمِ كذِبٌ وافتراءٌ، والقولَ بالشَّكِّ والرَّجمَ بالغَيبِ سَفَهٌ وهُزْءٌ، وهما في غايةِ القبْحِ، فلمْ يَنْهَ عنه اكتِفاءً بقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّ وصْفَهم بالإيمانِ يَمنَعُهم مِن الافتراءِ والارتيابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٩).

الَّذي هو دأْبُ الكافرِ، وإنَّما منَعَهم عمَّا يَكثُرُ وُجودُه في المسلمينَ؛ لذلك قال في الآيةِ: ﴿لَا يَسۡخَرۡ﴾[1].

١٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، أمَرَ تعالى باجتنابِ الظَّنِّ؛ لئلَّا يَجترِئَ أحدٌ على ظنٍّ إلَّا بعْدَ نظَرٍ وتأمُّلٍ وتَمييزٍ بيْن حقِّه وباطِلِه[2].

١٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾، لَمَّا جاء الأمْرُ في هذه الآيةِ باجتنابِ كثيرٍ مِن الظَّنِّ، عُلِمَ أنَّ الظُّنونَ الآثمةَ غيرُ قليلةٍ، فوجَبَ التَّمحيصُ والفحْصُ؛ لتَمييزِ الظَّنِّ الباطلِ مِن الظَّنِّ الصَّادقِ[3].

١٨- مَنَع اللهُ تعالى مِنَ الظَّنِّ في ثلاثةِ مواضِعَ، وفي جميعِ تلك المواضِعِ كان المَنعُ عَقيبَ التَّسميةِ والدُّعاءِ باسمٍ؛ مَوضِعانِ منها في سورةِ (النَّجمِ)، أحَدُهما: قَولُه تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣]، والثَّاني: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ۞ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: ٢٧، ٢٨]، والثَّالِثُ: في (الحُجُراتِ)، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ عَقيبَ الدُّعاءِ باللَّقَبِ، وكُلُّ ذلك دليلٌ على أنَّ حِفظَ اللِّسانِ أَولى مِن حِفظِ غَيرِه مِنَ الأركانِ، وأنَّ الكَذِبَ أقبَحُ مِنَ السَّيِّئاتِ الظَّاهِرةِ مِن الأيدي والأرجُلِ، وهذه المواضِعُ الثَّلاثةُ أحَدُها: مَدحُ مَن لا يَستَحِقُّ المدحَ، كاللَّاتِ والعُزَّى مِنَ العِزِّ. وثانيها:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١).

ذَمُّ مَن لا يَستَحِقُّ الذَّمَّ، وهم الملائِكةُ الَّذين هم عِبادُ الرَّحمنِ، يُسَمُّونَهم تَسميةَ الأُنثى. وثالِثُها: ذَمُّ مَن لم يُعلَمْ حالُه، وأمَّا مَدحُ مَن حالُه لا يُعلَمُ فلم يَقُلْ فيه: لا يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ، بل الظَّنُّ فيه مُعتَبَرٌ، والأخذُ بظاهِرِ حالِ العاقِلِ واجِبٌ[١].

١٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ التَّجسُّسُ غالبًا يُطلَقُ في الشَّرِّ، ومنه الجاسوسُ. وأمَّا التَّحسُّسُ فيكونُ غالبًا في الخيرِ، كما قال تعالى إخبارًا عن يَعقوبَ عليه السَّلامُ أنَّه قال: ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، وقد يُستعمَلُ كلٌّ منهما في الشَّرِّ، كما ثبَتَ في الصَّحيحِ[٢] أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا تجسَّسوا، ولا تحسَّسوا))[٣].

٢٠- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ النَّهيُ عن التَّجسُّسِ مِن فُروعِ النَّهيِ عن الظَّنِّ، فهو مُقيَّدٌ بالتَّجسُّسِ الَّذي هو إثمٌ، أو يُفْضي إلى الإثمِ، فالمنهيُّ عنه هو التَّجسُّسُ الَّذي لا يَنجَرُّ منه نفْعٌ للمُسلمينَ، أو دفْعُ ضُرٍّ عنهم، فلا يَشملُ التَّجسُّسَ على الأعداءِ، ولا تَجسُّسَ الشُّرَطِ على الجُناةِ واللُّصوصِ[٤].

٢١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًا﴾ الغِيبةُ مُحرَّمةٌ بالإجماعِ[٥]، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، ومسلمٌ (٢٥٦٣) مطوَّلًا من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٤).

(٥) قال النووي: (اعلَمْ أنَّ الغِيبةَ كما يَحرُمُ على المُغتابِ ذِكرُها، يَحرُمُ على السَّامعِ استِماعُها وإقرارُها، فيَجِبُ على مَن سمِع إنسانًا يَبتدئُ بغِيبةٍ مُحرَّمةٍ أن يَنهاهُ إن لم يَخَفْ ضررًا ظاهرًا، فإنْ خافَه وجَب عليه الإنكارُ بقلبِه ومُفارَقةُ ذلك المَجلِسِ إن تمكَّنَ مِن مُفارَقتِه، فإنْ قدَر على الإنكار بلِسانِه، أو على قطْعِ الغِيبةِ بكلامٍ آخَرَ؛ لَزِمَه ذلك، إن لم يَفعَلْ عصَى). ((الأذكار)) (ص: ٣٣٩).

يُسْتثنَى مِن ذلك إلَّا ما رجَحَت مَصلحَتُه، كما في الجرحِ والتَّعديلِ والنَّصيحةِ[١].

٢٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فيه دليلٌ على أنَّ الاغتيابَ الممنوعَ اغتيابُ المؤمنِ، لا ذِكرُ الكافرِ؛ وذلك لأنَّه شبَّهَه بأكْلِ لَحمِ الأخِ، وقال مِن قبْلُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، فلا أُخُوَّةَ إلَّا بيْنَ المؤمنينَ، ولا منعَ إلَّا مِن شَيءٍ يُشبِهُ أكْلَ لَحمِ الأخِ، ففي هذه الآيةِ نهْيٌ عن اغتيابِ المؤمنِ دونَ الكافرِ[٢].

٢٣- في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ قِياسٌ مِن أحسَنِ القياسِ التَّمثيليِّ؛ فإنَّه شَبَّهَ تَمزيقَ عِرْضِ الأخِ بتَمزيقِ لحْمِه، ولَمَّا كان المغتابُ يُمَزِّقُ عِرْضَ أخيهِ في غَيبتِه كان بمَنزِلةِ مَن يَقْطَعُ لحْمَه في حالِ غَيبةِ رُوحِه عنه بالموتِ، ولَمَّا كان المُغتابُ عاجزًا عن دَفْعِه عن نفْسِه بكَونِه غائبًا عن ذَمِّه، كان بمَنزلةِ الميِّتِ الَّذي يُقطَعُ لَحْمُه ولا يَستطيعُ أنْ يَدفَعَ عن نفْسِه، ولَمَّا كان مُقْتضى الأُخُوَّةِ: التَّراحُمُ والتَّواصُلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٠).

قال النووي: (اعلَمْ أنَّ الغِيبةَ تُباحُ لِغَرَضٍ صَحيحٍ شَرعيٍّ لا يُمْكِنُ الوُصولُ إليه إلَّا بها، وهو سِتَّةُ أسْبَابٍ) فذكرها، وهي: التَّظَلُّمُ - الاسْتِعانةُ على تَغييرِ المنكَرِ، ورَدِّ العاصي إلى الصَّوابِ - الاسْتِفْتاءُ - تَحذيرُ المسلمينَ مِن الشَّرِّ ونَصيحَتُهم (كجَرْحِ المجروحينَ مِن الرُّواةِ والشُّهودِ- والمُشاوَرةُ في مُصاهَرةِ إنْسانٍ، أو مُشارَكتِه، أو مُعامَلتِه، أو مُجاوَرتِه، وغيرِ ذلك) - أنْ يَكونَ مُجاهِرًا بفِسْقِه أو بِدْعَتِه - التَّعريفُ.

ثمَّ قال: (فهذه ستَّةُ أسبابٍ ذَكَرها العُلماءُ، وأكثرُها مُجْمَعٌ عليه، ودَلائِلُها مِن الأحاديثِ الصَّحيحةِ مشهورةٌ). ((رياض الصالحين)) (ص: ٤٣٢، ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

أمَّا الحربيُّ فلا تحرمُ غِيبتُه، لكنْ تُكرَهُ إذا اشتملَتْ على تنقيصِ خِلقتِه، وأمَّا الذِّمِّيُّ فكالمسلِمِ فيما يرجعُ إلى المنعِ مِن الإيذاءِ؛ لأنَّ الشَّرعَ عصَم عِرضَه ودمَه ومالَه. يُنظر: ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهَيْتَمي (٢/ ٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣١١).

والتَّناصُرُ، فعَلَّقَ عليها المُغتابُ ضِدَّ مُقتضاها مِن الذَّمِّ والعَيبِ والطَّعْنِ، وكان ذلك نَظيرَ تَقطيعِ لحْمِ أخيهِ، والأُخُوَّةُ تَقْتضي حِفْظَه وصِيانتَه والذَّبَّ عنه، ولَمَّا كان المُغتابُ مُتمتِّعًا بعِرْضِ أخيهِ، مُتَفَكِّهًا بغِيبتِه وذَمِّه، مُتحلِّيًا بذلك؛ شُبِّهَ بآكِلِ لحْمِ أخيهِ بعْدَ تَقطيعِه، ولَمَّا كان المغتابُ مُحِبًّا لذلك مُعجَبًا به؛ شُبِّهَ بمَن يُحِبُّ أكْلَ لحْمِ أخيه مَيْتًا، ومَحبَّتُه لذلك قَدْرٌ زائدٌ على مُجرَّدِ أكْلِه، كما أنَّ أَكْلَه قدْرٌ زائدٌ على تَمزيقِه، فتَأمَّلْ هذا التَّشبيهَ والتَّمثيلَ، وحُسْنَ مَوقعِه، ومُطابَقةَ المعقولِ فيه المحسوسَ، وتأمَّلْ إخبارَه عنهم بكَراهةِ أكْلِ لحْمِ الأخِ مَيتًا، ووَصْفَهم بذلك في آخِرِ الآيةِ، والإنكارَ عليهم في أوَّلِها أنْ يُحِبَّ أحَدُهم ذلك، فكما أنَّ هذا مَكروهٌ في طِباعِهم؛ فكيفَ يُحِبُّونَ ما هو مِثْلُه ونَظيرُه؟! فاحتجَّ عليهم بما كَرِهوه على ما أحَبُّوه، وشَبَّه لهم ما يُحِبُّونَه بما هو أكْرَهُ شَيءٍ إليهم، وهم أشدُّ شَيءٍ نفْرةً عنه؛ فلهذا يُوجِبُ العقلُ والفِطرةُ والحكمةُ أنْ يكونوا أشَدَّ شَيءٍ نفْرةً عمَّا هو نَظيرُه ومُشْبِهُه[1].

٢٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فيه سُؤالٌ: ما الحكمةُ في هذا التَّشبيهِ؟

**الجوابُ**: هو إشارةٌ إلى أنَّ عِرضَ الإنسانِ كدَمِه ولَحْمِه، وهذا مِن بابِ القِياسِ الظَّاهِرِ؛ وذلك لأنَّ عِرضَ المرْءِ أشرَفُ مِن لَحْمِه، فإذا لم يَحسُنْ مِن العاقلِ أكْلُ لُحومِ النَّاسِ، لم يَحسُنْ منه قرْضُ عِرْضِهم بالطَّريقِ الأَولى؛ لأنَّ ذلك آلَمُ[2].

٢٥- في قولِه تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ جَعَلَ سُبحانه جِهةَ التَّحريمِ كونَه أخًا أُخُوَّةَ الإيمانِ؛ ولذلك تَغَلَّظَتِ الغِيبةُ بحسَبِ حالِ المؤمنِ،

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠).

فكلَّما كان أعظَمَ إيمانًا كان اغتيابُه أشدَّ[١].

٢٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّه لا يَجوزُ أكْلُ لحْمِ ابنِ آدَمَ مَيتًا لِمَن اضْطُرَّ إليه؛ لأنَّه تعالى ضرَبَ به المثَلَ في تَحريمِ الغِيبةِ، ولم يَضرِبْ بمَيتةِ سائرِ الحَيوانِ؛ فدلَّ ذلك على أنَّه في التَّحريمِ فَوقَها[٢].

٢٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، كَلمةُ (مَيتًا) إشارةٌ إلى دفْعِ وهْمٍ؛ وهو أنْ يُقالَ: القولُ في الوجْهِ يُؤلِمُ فيَحرُمُ، وأمَّا الاغتيابُ فلا اطلِّاعَ عليه للمُغتابِ، فلا يُؤلِمُ، فقال: أكْلُ لحْمِ الأخِ وهو مَيتٌ أيضًا لا يُؤلِمُ، ومع هذا هو في غايةِ القبْحِ؛ لِما أنَّه لو اطَّلَعَ عليه لَتألَّمَ، كما أنَّ الميتَ لو أحسَّ بأكْلِ لَحمِه لَآلَمَه[٣].

٢٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، فيه معْنًى لَطيفٌ؛ وهو أنَّ الاغتيابَ كأكْلِ لحْمِ الآدميِّ مَيتًا، ولا يَحِلُّ أكْلُه إلَّا للمُضطَرِّ بقدْرِ الحاجةِ -على قولِ مَن أجاز ذلك للضَّرورةِ-، والمضطَرُّ إذا وَجَدَ لحْمَ الشَّاةِ الميتةِ ولحْمَ الآدميِّ الميتِ فلا يَأكُلُ لحْمَ الآدميِّ، فكذلك المغتابُ: إنْ وجَدَ لِحاجَتِه مَدْفعًا غيرَ الغِيبةِ، فلا يُباحُ له الاغتيابُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٠٠).

وتحريمُ أكْلِ الآدميِّ المَيتِ على المُضطَرِّ هو مذهبُ الجمهورِ: الحَنَفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والحنابلةِ، وهو مذهبُ الظَّاهريَّةِ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٦/ ٣٣٨)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٢/ ٢٥٤)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١٠/ ٢٨٣)، ((المحلى)) لابن حزم (٦/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٠، ١١١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١١).

٢٩- قال اللهُ تعالى لَمَّا نَهى عن الغِيبةِ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾، فعُلِمَ أنَّ المُغْتابَ له سَبيلٌ إلى التَّوبةِ بكلِّ حالٍ، وإنْ كان الَّذي اغْتِيبَ مَيتًا أو غائبًا[1].

٣٠- قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، فقسَّمَ العِبادَ إلى تائبٍ وظالمٍ، وما ثَمَّ قِسمٌ ثالثٌ البَتَّةَ، وأوقَعَ اسمَ الظَّالمِ على مَن لم يَتُبْ، ولا أظلَمَ منه؛ لِجَهْلِه بربِّه وبحقِّه، وبعَيبِ نفْسِه وآفاتِ أعمالِه[2].

٣١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾، هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ خلْقَ النَّاسِ ابتِداؤُه مِن ذكَرٍ وأُنثى. وقد دلَّت آياتٌ أُخَرُ على خلْقِهم مِن غيرِ ذلك؛ كقولِه تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [غافر: ٦٧]، وقولِه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج: ٥]؟

**والجوابُ**: هو أنَّ التُّرابَ هو الطَّورُ الأوَّلُ، وقد قال تَعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]، وقد بيَّنَ اللهُ أطوارَ خلْقِ الإنسانِ مِن مَبدئِه إلى مُنتهاهُ بقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٤٩٣).

ويجبُ على مَن وقَع في الغِيبةِ: التَّوبةُ بالإقلاعِ عن الغِيبةِ، والنَّدمِ على فِعلِها، والعزمِ ألَّا يَعودَ إليها، وأن يَستحِلَّ مَن اغتابه ويَطلُبَ عفوَه عنها، والإبراءَ منها. ومِن أهلِ العِلمِ مَن فصَّل؛ فقال: إن كان مَن اغتابه قد عَلِم بذلك فلا بُدَّ مِن أن يَستحِلَّه، أمَّا إذا لم يَعلَمْ فيَكفي أن يَستغفِرَ له، وأن يُثنيَ عليه في المجالِسِ الَّتي كان يَغتابُه فيها.

فإن كان صاحبُ الغِيبةِ مَيتًا أو غائبًا فقد تعذَّر تحصيلُ البراءةِ منها، لكنْ قال العلماءُ: يَنبغي أن يُكثِرَ مِن الاستِغفارِ له والدُّعاءِ، ويُكثِرَ مِن الحسَناتِ. يُنظر: ((الأذكار)) للنووي (ص: ٣٤٦)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٣/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٩٦).

[المؤمنون: ١٢-١٣]، إلى آخِرِه[١].

٣٢- مَقولةُ: «إنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خُلِقَ مِن نُورٍ، وإنَّ آدَمَ عليه السَّلامُ خُلِقَ مِن نُورِ محمَّدٍ» مِن أبطَلِ الباطلِ، وهو كذِبٌ مُخالِفٌ للقرآنِ؛ كقولِه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾[٢] [المؤمنون:١٢، ١٣].

٣٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، فيه سُؤالٌ: هذا مَبنيٌّ على عدَمِ اعتبارِ النَّسَبِ، وليس كذلك؛ فإنَّ للنَّسبِ اعتبارًا عُرفًا وشرْعًا.

**الجوابُ**: إذا جاء الأمرُ العظيمُ، لا يَبْقى الأمرُ الحقيرُ مُعتَبَرًا؛ وذلك في الحسِّ والشَّرعِ والعُرفِ؛ أمَّا الحسُّ: فلأنَّ الكواكبَ لا تُرى عندَ طُلوعِ الشَّمسِ، ولِجَناحِ الذُّبابِ دَوِيٌّ، ولا يُسمَعُ عندَما يكونُ رعْدٌ قوِيٌّ. وأمَّا في العُرفِ: فلأنَّ مَن جاء معَ الملِكِ لا يَبقى له اعتبارٌ، ولا إليه التِفاتٌ. إذا عُلِمَ هذا فيهما ففي الشَّرعِ كذلك، إذا جاء الشَّرفُ الدِّينيُّ الإلهيُّ لا يَبْقَى هناك اعتِبارٌ؛ لا لنَسَبٍ ولا لنَشَبٍ[٣]، فالكافرُ وإنْ كان مِن أعلَى النَّاسِ نَسبًا، والمؤمنُ وإنْ كان مِن أدْونِهم نَسبًا؛ لا يُقاسُ أحَدُهما بالآخَرِ، وكذلك ما هو مِن الدِّينِ معَ غيرِه؛ ولهذا يَصلُحُ للمَناصبِ الدِّينيَّةِ -كالقضاءِ والشَّهادةِ- كلُّ شَريفٍ ووَضيعٍ إذا كان دَيِّنًا عالِمًا صالحًا، ولا يَصلُحُ لشَيءٍ منها فاسقٌ وإنْ كان قُرَشيَّ النَّسَبِ، وقارُونيَّ النَّشَبِ، ولكنْ إذا اجتمَعَ في اثنَينِ الدِّينُ المتينُ، وأحَدُهما نَسيبٌ، ترجَّحَ بالنَّسبِ عندَ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٢١١).

(٣) النَّشَب: المالُ والعَقارُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣١٠).

النَّاسِ لا عندَ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]، وشرَفُ النَّسبِ ليس مُكتسَبًا، ولا يَحصُلُ بسَعْيٍ(١).

٣٤- قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ النَّسَبَ لا اعتبارَ به في كَفاءةِ النِّكاحِ(٢).

٣٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾، فيه سُؤالٌ: ما الحكمةُ في اختيارِ النَّسَبِ مِن جُملةِ أسبابِ التَّفاخُرِ، ولم يُذكَرِ المالُ؟

**الجوابُ**: الأمورُ الَّتي يُفتخَرُ بها في الدُّنيا وإنْ كانت كثيرةً، لكنَّ النَّسبَ أعْلاها؛ لأنَّ المالَ قد يَحصُلُ للفقيرِ، فيَبطُلُ افتخارُ المفتخِرِ به، والحُسْنَ والسِّنَّ وغيرَ ذلك غيرُ ثابتٍ دائمٍ، والنَّسَبُ ثابتٌ مُستمِرٌّ، غيرُ مَقدورِ التَّحصيلِ لِمَن ليس له، فاختارَهُ اللهُ للذِّكْرِ، وأبطَلَ اعتبارَه بالنِّسبةِ إلى التَّقْوى؛ ليُعلَمَ منه بُطلانُ غيرِه بالطَّريقِ الأَولى(٣).

٣٦- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ أنَّ مَن زَعَمَ أنَّ أحدًا يَنفَعُه قَرابتُه مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بغيرِ طاعةِ اللهِ؛ فقد خالَفَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٢، ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٤/ ١٥٨).

وعدَمُ اشتراطِ الكَفاءةِ في النَّسَبِ هو مذهَبُ المالِكيَّةِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٢٤٩).

واختاره ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القَيِّمِ، والشَّوكانيُّ، وابنُ باز، وابنُ عثيمينَ، وبه أفتَتِ اللَّجنةُ الدَّائمةُ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ١٤٥)، ((السيل الجرار)) للشوكاني (ص: ٣٧٧)، ((الحلل الإبريزية)) لابن باز (٣/ ٦٨)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٢/ ١٠١)، ((فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى)) (١٨/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٣).

الكِتابَ والسُّنَّةَ[١].

٣٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، فيه سُؤالٌ: الْخِطَابُ معَ النَّاسِ، والأكْرَمُ يَقْتضي اشتِراكَ الكلِّ في الكرامةِ، ولا كَرامةَ للكافرِ؛ فإنَّه أضَلُّ مِن الأنعامِ، وأذَلُّ مِن الهَوامِّ؟

**الجوابُ**: ذلك غيرُ لازمٍ، معَ أنَّه حاصلٌ؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ لأنَّ كلَّ مَن خُلِقَ فقدِ اعترَفَ بربِّه، كأنَّه تعالى قال: مَنِ استمَرَّ عليه لو زاد، زِيدَ في كَرامتِه، ومَن رجَعَ عنه، أُزِيلَ عنه أثَرُ الكرامةِ[٢].

٣٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، فيه ذَمُّ التَّفاخُرِ بالأنسابِ[٣].

٣٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾، فيه أنَّ التَّقيَّ غيرَ النَّسيبِ يُقدَّمُ على النَّسيبِ غيرِ التَّقيِّ، فيُقدَّمُ العدْلُ والأورَعُ في الإمامةِ على النَّسيبِ غيرِهما[٤].

٤٠- ليس لأحدٍ أنْ يُعلِّقَ الحمْدَ والذَّمَّ، والحُبَّ والبُغضَ، والمُوالاةَ والمُعاداةَ، والصَّلاةَ واللَّعنَ؛ بغيرِ الأسماءِ الَّتي علَّقَ اللهُ بها ذلك، مثلُ أسماءِ القبائلِ، والمدائنِ، والمذاهبِ، والطَّرائقِ المُضافةِ إلى الأئمَّةِ والمشايخِ، ونحْوِ ذلك ممَّا يُراد به التَّعريفُ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٤، ١١٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، وقال: ﴿ تِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِي نُورِثُ مِنۡ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّٗا ﴾ [مريم: ٦٣]، وقد قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألَا إنَّ آلَ أبي -يعني فُلانًا- لَيسوا لي بأولياءَ؛ إنَّما وَلِيِّيَ اللهُ وصالِحُ المؤمنينَ))[١]، وقال: ((إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد أذهَبَ عنكم عُبِّيَّةَ الجاهليَّةِ وفخْرَها بالآباءِ؛ مؤمنٌ تقِيٌّ، وفاجرٌ شقِيٌّ، أنتم بنو آدَمَ، وآدَمُ مِن تُرابٍ))[٢]، وقال: ((ألَا لا فضْلَ لعَربيٍّ على عَجَميٍّ، ولا لعَجَميٍّ على عربيٍّ، ولا أحمرَ على أسْوَدَ، ولا أسودَ على أحمرَ؛ إلَّا بالتَّقْوى))[٣]، فالحمْدُ والذَّمُّ، والحُبُّ والبُغضُ، والموالاةُ والمعاداةُ؛ إنَّما تكونُ بالأشياءِ الَّتي أنزَلَ اللهُ بها سُلطانَه، وسُلطانُه كِتابُه، فمَن كان مؤمنًا وجَبَت مُوالاتُه مِن أيِّ صِنفٍ كان، ومِن كان كافرًا وجَبَت مُعاداتُه مِن أيِّ صِنفٍ كان؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦]، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖ ﴾[٤] [التوبة: ٧١].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٩٩٠)، ومسلمٌ (٢١٥) واللَّفظُ له مِن حديثِ عَمرِو بنِ العاصِ رضيَ الله عنه.

(٢) تقدَّم تخريجه (ص: ٣٠١).

(٣) أخرجه -مِن طُرقٍ- أحمدُ (٢٣٤٨٩) واللَّفظُ له، وعبدُالله بنُ المبارَكِ في ((المسند)) (٢٣٩)، والحارث كما في ((بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث)) للهيثمي (٥١) مِن حديثِ رجُلٍ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

صحَّح إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٤١٢)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ١٩٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٨/ ٤٧٤)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٣/ ٢٦٨): (رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٢٧، ٢٢٨).

٤١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾، يدُلُّ على أنَّ دِينَ الإسلامِ سَماويٌّ صَحيحٌ، لا نظَرَ فيه إلى الألوانِ، ولا إلى العناصرِ، ولا إلى الجِهاتِ، وإنَّما المُعتبَرُ فيه تَقْوى اللهِ جلَّ وعلا وطاعتُه، فأكرَمُ النَّاسِ وأفضَلُهم أتْقاهُم للهِ، ولا كرَمَ ولا فضْلَ لغيرِ المتَّقي، ولو كان رَفيعَ النَّسبِ(١).

٤٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾، فيه دَليلٌ على أنَّ مَعرفةَ الأنسابِ مَطلوبةٌ مَشروعةٌ؛ لأنَّ اللهَ جَعَلهم شُعوبًا وقَبائلَ مِن أجْلِ ذلك(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذا نِداءٌ رابعٌ أُرِيدَ بما بعْدَه أمْرُ المسلِمينَ بواجِبِ بَعضِ المُجامَلةِ بيْن أفرادِهم(٣).

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ﴾ افتُتِحَتْ هذه الآيةُ بإعادةِ النِّداءِ؛ للاهتِمامِ بالغرَضِ، فيَكونُ مُستقلًّا غيرَ تابعٍ(٤).

- وإنَّما عبَّرَ بالجَمْعِ في قولِه: ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ﴾، ولم يقُلْ: (رجُلٌ مِن رجُلٍ، ولا امرأةٌ مِن امرأةٍ)؛ إيذانًا بإقدامِ غيرِ واحدٍ مِن رجالِهم وغيرِ واحدةٍ مِن نِسائِهم على السُّخريةِ، واستِفظاعًا

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للشَّأْنِ الَّذي كانوا عليه، ولأنَّ مَشهَدَ السَّاخرِ لا يَكادُ يَخلو ممَّن يَتلهَّى ويَستضْحِكُ على قولِه، ولا يأْتي ما عليه مِن النَّهيِ والإنكارِ؛ فيكونُ شَريكَ السَّاخرِ وتِلْوَه في تحمُّلِ الوِزرِ، وكذلك كلُّ مَن يُطرِقُ سمْعَه فيَستطْيِبُه ويَضحَكُ منه، فيُؤدِّي ذلك -وإنْ أوجَدَه واحدٌ- إلى تَكثيرِ السُّخريةِ وانقلابِ الواحدِ جَماعةً[1]. أو لأنَّ السُّخريةَ تَغلِبُ في المجامعِ[2]. أو إنَّما أُسنِدَ ﴿يَسْخَرْ﴾ إلى ﴿قَوْمٌ﴾ دونَ أنْ يَقولَ: لا يَسخَرْ بعضُكم مِن بعضٍ، كما قال: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات: ١٢]؛ للنَّهيِ عمَّا كان شائعًا بيْنَ العرَبِ مِن سُخريةِ القبائلِ بعضِها مِن بعضٍ؛ فوُجِّهَ النَّهيُ إلى الأقوامِ، ويُفهَمُ منه النَّهيُ عن أنْ يَسخَرَ أحدٌ مِن أحَدٍ بطَريقِ لَحنِ الخِطابِ[3].

- وتَنكيرُ (قومٍ) و(نِساءٍ) في الموضعَينِ يَحتَمِلُ مَعنيَينِ؛ أنْ يُرادَ: لا يَسْخَرْ بعضُ المؤمنينَ والمؤمناتِ مِن بعضٍ، أو يُقصَدُ إفادةُ العُمومِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ نهْيُ قَومٍ مُعيَّنينَ سَخِروا مِن قومٍ مُعيَّنينَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٧).

ولحنُ الخِطابِ: هو أنْ يكونَ المَسْكوتُ عَنه مُوافقًا للمَنطوقِ في الحُكمِ، ويُسمَّى أيضًا فحوى الخطابِ. وقيل: إنْ كان أَوْلى بالحُكمِ مِن المنطوقِ به فيُسَمَّى فَحْوى الخِطابِ، وإن كان مساويًا فيُسَمَّى لحنَ الخطابِ. وقيل: هو مفهومُ المُخالَفةِ. وقيل: هو دَلالةُ الاقتِضاءِ. يُنظر: ((نفائس الأصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((المختصر في أصول الفقه)) لابن اللحام (ص: ١٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٦، ٣٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٠).

- وخَصَّ النِّساءَ بالذِّكرِ مع أنَّ القومَ يَشملُهم بطَريقِ التَّغليبِ العُرْفيِّ في الكلامِ؛ دفْعًا لتَوهُّمِ تَخصيصِ النَّهيِ بسُخريةِ الرِّجالِ؛ إذ كان الاستِسخارُ مُتأصِّلًا في النِّساءِ[١].

- وجُملةُ ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ، وهي مُستأنَفةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ، تُفيدُ المُبالَغةَ في النَّهيِ عن السُّخريةِ بذِكْرِ حالةٍ يَكثُرُ وُجودُها في المَسخورِ به؛ فتكونُ سُخريةُ السَّاخرِ أفظَعَ، ولأنَّه يُثيرُ انفعالَ الحياءِ في نفْسِ السَّاخرِ بيْنَه وبيْنَ نفْسِه[٢].

- قولُه: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تَذْييلٌ للمَنْهيَّاتِ المتقدِّمةِ، وهو تَعريضٌ قويٌّ بأنَّ ما نُهوا عنه فُسوقٌ وظُلْمٌ؛ إذ لا مُناسَبةَ بيْن مَدلولِ هذه الجُملةِ وبيْن الجُمَلِ الَّتي قبْلَها لولا مَعْنى التَّعريضِ بأنَّ ذلك فُسوقٌ، وذلك مَذمومٌ ومُعاقَبٌ عليه؛ فدلَّ قولُه: ﴿بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِ﴾ على أنَّ ما نُهوا عنه مَذْمومٌ؛ لأنَّه فُسوقٌ يُعاقَبُ عليه، ولا تُزيلُه إلَّا التَّوبةُ، فوقَعَ إيجازٌ بحذْفِ جُملتَينِ في الكلامِ؛ اكتِفاءً بما دلَّ عليه التَّذييلُ، وهذا دالٌّ على أنَّ اللَّمزَ والتَّنابُزَ مَعصيتانِ؛ لأنَّهما فُسوقٌ[٣].

- وإيثارُ لفْظِ ﴿ٱلِٱسۡمُ﴾ هنا مِن الرَّشاقةِ بمكانٍ؛ لأنَّ السِّياقَ تَحذيرٌ مِن ذِكرِ النَّاسِ بالأسماءِ الذَّميمةِ؛ إذ الألقابُ أسماءٌ؛ فكان اختيارُ لفظِ الاسمِ للفُسوقِ مُشاكَلةً مَعنويَّةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٥٠).

- قولُه: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لَمَّا كان كلٌّ مِن السُّخريةِ واللَّمْزِ والتَّنابُزِ مَعاصيَ، فقد وجَبَت التَّوبةُ منها، فمَن لم يَتُبْ فهو ظالمٌ؛ لأنَّه ظلَمَ النَّاسَ بالاعتداءِ عليهم، وظلَمَ نفْسَه بأنْ رضِيَ لها عِقابَ الآخِرةِ مع التَّمكُّنِ مِن الإقلاعِ عن ذلك، فكان ظُلمُه شديدًا جدًّا؛ فلذلك جِيءَ له بصِيغةِ قصْرِ الظالِمينَ عليهم، كأنَّه لا ظالمَ غيرُهم؛ لعَدَمِ الاعتدادِ بالظالِمينَ الآخَرينَ في مُقابَلةِ هؤلاء على سَبيلِ المُبالَغةِ؛ لِيَزدَجِروا(١).

- وتَوسيطُ اسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ) لزِيادةِ تَمْييزِهم؛ تَفظيعًا لحالِهم، وللتَّنبيهِ على أنَّهم استحقُّوا قَصْرَ الظُّلمِ عليهم مِن أجْلِ ما ذُكِرَ مِن الأوصافِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أُعيدَ النِّداءُ خامسَ مرَّةٍ؛ لاختِلافِ الغرَضِ والاهتِمامِ به؛ وذلك أنَّ المَنهيَّاتِ المذكورةَ بعدَ هذا النِّداءِ مِن جِنسِ المُعامَلاتِ السَّيِّئةِ الخفيَّةِ الَّتي لا يَتفطَّنُ لها مَن عُومِلَ بها، فلا يَدْفَعُها، فما يُزيلُها مِن نفْسِ مَن عامَلَه بها؛ ففي قولِه تعالى: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ تأْديبٌ عظيمٌ يُبطِلُ ما كان فاشيًا في الجاهليَّةِ مِن الظُّنونِ السَّيِّئةِ والتُّهَمِ الباطلةِ، وأنَّ الظُّنونَ السَّيِّئةَ تَنشَأُ عنها الغَيرةُ المُفرِطةُ والمكايدُ والاغتيالاتُ، والطَّعنُ في الأنسابِ، والمُبادَأةُ بالقِتالِ؛ حذَرًا مِن اعتِداءٍ مَظنونٍ ظنًّا باطلًا، كما قالوا:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خُذِ اللِّصَّ قبْلَ أنْ يَأخُذَك[١].

- والسِّرُّ في تَنكيرِ قَولِه: ﴿كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ وإبهامِه: إفادةُ مَعنى البَعضيَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّ في الظُّنونِ ما يجِبُ أنْ يُجتنَبَ مِن غيرِ تَبْيينٍ لذلك ولا تَعْيينٍ؛ لئلَّا يَجترِئَ أحدٌ على ظنٍّ إلَّا بعدَ تأمُّلٍ، وبُعدِ نَظرٍ، وتَمحيصٍ، واستِشعارٍ للتَّقْوى، والحذَرِ مِن أنْ يكونَ الظَّنُّ طائشَ السَّهمِ، بعيدًا عن الإصابةِ، وما أكثَرَ الَّذين تُسَوِّلُ لهم ظُنونُهم ما ليس واقعًا، ولا يَستنِدُ إلى شَيءٍ مِن اليَقينِ[٢]!

- والمُرادُ بالظَّنِّ هنا: الظَّنُّ المُتعلِّقُ بأحوالِ النَّاسِ، وحُذِفَ المُتَعلَّقُ؛ لتَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ إلى كلِّ ظنٍّ مُمكنٍ هو إثمٌ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ يَستوقِفُ السَّامعَ ليَتطلَّبَ البيانَ، فأُعلِموا أنَّ بَعضَ الظَّنِّ جُرمٌ، وهذا كِنايةٌ عن وُجوبِ التَّأمُّلِ في آثارِ الظُّنونِ؛ لِيَعرِضوا ما تُفضي إليه الظُّنونُ على ما يَعلَمونَه مِن أحكامِ الشَّريعةِ، وليس هذا البيانُ تَوضيحًا لأنواعِ الكثيرِ مِن الظَّنِّ المأمورِ باجتِنابِه؛ لأنَّها أنواعٌ كثيرةٌ، فنبَّهَ على عاقِبَتِها وترَكَ التَّفصيلَ؛ لأنَّ في إبهامِه بَعثًا على مَزيدِ الاحتِياطِ[٤].

- وإنَّما قالَ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ دونَ أنْ يقولَ: (اجتنِبوا الغِيبةَ)؛ لقَصْدِ التَّوطئةِ للتَّمثيلِ الواردِ في قولِه: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٠، ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥١).

لأنَّه لَمَّا كان ذلك التَّمثيلُ مُشتمِلًا على جانبِ فاعلِ الاغتيابِ ومَفعولِه، مهَّدَ له بما يدُلُّ على ذاتَينِ؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ التَّمثيلَ وُضوحًا[1].

- ومُثِّلَتِ الغِيبةُ بأكْلِ لَحمِ الأخِ المَيتِ، وهو يَستلزِمُ تَمثيلَ المَولوعِ بها بمَحبَّةِ أكْلِ لحمِ الأخِ المَيتِ، والتَّمثيلُ مَقصودٌ منه استِفظاعُ المُمثَّلِ وتَشويهُه؛ لإفادةِ الإغلاظِ على المُغتابِينَ؛ لأنَّ الغِيبةَ مُتفشِّيةٌ في النَّاسِ، وخاصَّةً في أيَّامِ الجاهليَّةِ، فشُبِّهَت حالةُ اغتيابِ المسلمِ مَن هو أَخوه في الإسلامِ وهو غائبٌ، بحالةِ أكْلِ لَحمِ أخيه وهو مَيتٌ، لا يُدافِعُ عن نفْسِه، وهذا التَّمثيلُ للْهيئةِ قابِلٌ للتَّفريقِ؛ بأنْ يُشبَّهَ الَّذي اغتابَ بآكِلِ لَحمٍ، ويُشبَّهَ الَّذي اغتِيبَ بأخٍ، وتُشبَّهَ غِيبتُه بالموتِ[2].

وفي هذا التَّمثيلِ مُبالَغاتٌ شتَّى؛ منها: الاستِفهامُ التَّقريريُّ الَّذي لا يقَعُ إلَّا على أمْرٍ مُسلَّمٍ عندَ المُخاطَبِ، فجَعْلُك الشَّيءَ في حيِّزِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ يَقْتضي أنَّك تدَّعي أنَّه لا يُنكِرُه المُخاطَبُ، وإنَّما لم يَرِدِ الاستِفهامُ على نفْيِ مَحبَّةِ ذلك بأنْ يُقالَ: ألَا يُحِبُّ أحدُكُم -كما هو غالبُ الاستِفهامِ التَّقريريِّ- إشارةً إلى تَحقُّقِ الإقرارِ المُقرَّرِ عليه؛ بحيثُ يُترَكُ للمُقرَّرِ مَجالًا لعدَمِ الإقرارِ، ومع ذلك لا يَسَعُه إلَّا الإقرارُ.

ومنها: جَعْلُ ما هو شَديدُ الكراهةِ للنَّفْسِ مَفعولًا لفِعْلِ المحبَّةِ؛ للإشعارِ بتَفْظيعِ حالةِ ما شُبِّهَ به وحالةِ مَنِ ارْتضاهُ لنفْسِه؛ فلذلك لم يقلْ: أيَتحمَّلُ أحَدُكم أنْ يأكُلَ لَحمَ أخيه مَيتًا؟ بل قالَ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٥).

ومنها: إسنادُ الفِعلِ إلى (أَحَد)؛ للإشعارِ بأنَّ أحَدًا مِن الأحَدِينَ لا يُحِبُّ ذلك.

ومنها: أنَّه لم يَقتصِرْ على تَمثيلِ الاغتِيابِ بأكْلِ لحمِ الإنسانِ حتَّى جعَلَ الإنسانَ أخًا.

ومنها: أنَّه لم يَقتصِرْ على كَونِ المأكولِ لحمَ الأخِ حتَّى جعَلَ الأخَ مَيْتًا.

ومنها: إخراجُ تَماثُلِها مُخرَجَ أمْرٍ بَيِّنٍ غنِيٍّ عنِ الإخبارِ به[1].

- ولَمَّا قرَّرَهم عزَّ وجلَّ بأنَّ أحدًا منهم لا يُحِبُّ أكْلَ جيفةِ أخيه؛ عقَّبَ ذلك بقولِه تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، والفاءُ في قَولِه: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فاءُ الفَصيحةِ. وفاءُ الفصيحةِ تُفيدُ الإلزامَ بما بعْدَها، أي: تدُلُّ على أنْ لا مَناصَ للمُواجَهِ بها مِن الْتزامِ مَدلولِ جَوابِ شرْطِها المَحذوفِ. والمعْنى: فتَعيَّنَ إقرارُكم بما سُئِلْتم عنه مِن المُمثَّلِ به -إذ لا يُستطاعُ جَحْدُه- وتَحقَّقتْ كَراهتُكم له وتَقذُّرُكم منه، فلْيَتحقَّقْ أنْ تَكرَهوا نَظيرَه المُمثَّلَ، وهو الغِيبةُ، فكأنَّه قِيل: فاكْرَهوا المُمثَّلَ كما كَرِهْتُم المُمثَّلَ به[2].

- قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾ عطْفٌ على جُمَلِ الطَّلبِ السَّابقةِ، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾، وهذا كالتَّذييلِ لها؛ إذ أمَرَ بالتَّقْوى، وهي جِماعُ الاجتِنابِ والامتثالِ، فمَن كان سالِمًا مِن التَّلبُّسِ بتلك المَنهيَّاتِ، فالأمْرُ بالتَّقْوى يُجنِّبُه التَّلبُّسَ بشَيءٍ منها في المُستقبَلِ، ومَن كان مُتلبِّسًا بها أو ببعضِها، فالأمْرُ بالتَّقْوى يَجمَعُ الأمْرَ بالكفِّ عمَّا هو مُتلبِّسٌ به منها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٤ - ٢٥٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٧).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ تَذْييلٌ للتَّذييلِ؛ لأنَّ التَّقْوى تكونُ بالتَّوبةِ بعدَ التَّلبُّسِ بالإثمِ، فقيلَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ﴾، وتكونُ التَّقوى ابتِداءً، فيَرحَمُ اللهُ المُتَّقيَ، فالرَّحيمُ شاملٌ للجميعِ(١).

- والمُبالَغةُ في (التوَّاب)؛ للدَّلالةِ على كَثرةِ مَن يَتوبُ عليه مِن عِبادِه، أو لأنَّه ما مِن ذنْبٍ يَقترِفُه المُقترِفُ إلَّا كان مَعفوًّا عنه بالتَّوبةِ، أو لأنَّه بَليغٌ في قَبولِ التَّوبةِ، مُنزِّلٌ صاحبَها مَنزِلةَ مَن لم يُذنِبْ قطُّ؛ لِسَعةِ كَرَمِه(٢).

- وما أحسَنَ ما جاء التَّرتيبُ في الآيةِ! حيثُ جاء الأمْرُ أوَّلًا باجتِنابِ الطَّريقِ الَّتي لا تؤدِّي إلى العِلمِ -وهو الظَّنُّ-، ثمَّ نهَى -ثانيًا- عن طلَبِ تَحقُّقِ ذلك الظَّنِّ، فيَصيرُ عِلْمًا بقولِه: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾، ثمَّ نهَى -ثالثًا- عن ذِكْرِ ذلك إذا عَلِم، فهذه أُمورٌ ثلاثةٌ مُترتِّبةٌ: ظنٌّ، فعِلمٌ بالتَّجسُّسِ، فاغتِيابٌ(٣)؛ لأنَّه إنْ ظَنَّ الإنسانُ بأخيه شَيئًا تجَسَّسَ عليه، فإذا تجَسَّس صار يَغتابُه(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ أُعِيدَ النِّداءُ للاهتمامِ بهذا الغرَضِ؛ إذ كان إعجابُ كلِّ قَبيلةٍ بفَضائلِها، وتَفضيلُ قَومِها على غيرِهم؛ فاشيًا في الجاهليَّةِ، فجاءتْ هذه الآيةُ لتَأديبِ المؤمنينَ على اجتِنابِ ما كان في الجاهليَّةِ؛ لاقتِلاعِ جُذورِه الباقيةِ في النُّفوسِ بسَببِ اختلاطِ طَبَقاتِ المؤمنينَ بعْدَ سَنةِ الوُفودِ؛ إذ كثُرَ الدَّاخِلون في الإسلامِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ١٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨).

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نُودُوا بعُنْوانِ النَّاسِ دونَ (المُؤمِنين)؛ رَعْيًا للمُناسَبةِ بيْنَ هذا العُنوانِ وبيْن ما صُدِّرَ به الغرَضُ مِن التَّذكيرِ بأنَّ أصلَهم واحدٌ، أي: إنَّهم في الخِلقةِ سَواءٌ؛ لِيُتوصَّلَ بذلك إلى أنَّ التَّفاضُلَ والتَّفاخُرَ إنَّما يكونُ بالفضائلِ، وإلى أنَّ التَّفاضلَ في الإسلامِ بزِيادةِ التَّقْوى، فقيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ اقتُصِرَ على ذِكْرِ الشُّعوبِ والقَبائلِ؛ لأنَّ ما تحتَها داخلٌ بطَريقِ لَحْنِ الخِطابِ[2]. وتجاوَزَ القرآنُ عن ذِكرِ الأُمَمِ جرْيًا على المُتداوَلِ في كَلامِ العرَبِ في تَقسيمِ طبَقاتِ الأنسابِ؛ إذ لا يُدرِكون إلَّا أنسابَهم[3]، وأيضًا لأنَّهما أقْصى ما يَسهُلُ على الآدميِّ مَعرِفتُه، فما دُونَه أَولى[4].

- والخبَرُ في قولِه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ مُستعمَلٌ كِنايةً عن المُساواةِ في أصلِ النَّوعِ الإنسانيِّ؛ لِيُتَوصَّلَ مِن ذلك إلى إرادةِ اكتِسابِ الفضائلِ والمَزايا الَّتي تَرفَعُ بعضَ النَّاسِ على بَعضٍ كِنايةً بمَرْتبتَينِ. والمعْنى المَقصودُ مِن ذلك هو مَضمونُ جُملةِ ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾؛ فتلك الجُملةُ تَتنزَّلُ مِن جُملةِ ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ﴾ مَنزِلةَ المَقصدِ مِن المقدِّمةِ، والنَّتيجةِ مِن القياسِ؛ ولذلك فُصِّلَت؛ لأنَّها بمَنزِلةِ البيانِ. وأمَّا جُملةُ ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ فهي مُعترِضةٌ بيْن الجُملتَينِ الأُخْرَيَينِ، والمقصودُ مِن اعتِراضِها: إدماجُ تأْديبٍ آخَرَ مِن واجبِ بثِّ التَّعارُفِ والتَّواصُلِ بيْنَ القبائلِ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٨).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٢).

والأمَمِ، وأنَّ ذلك مُرادُ اللهِ منهم[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا، وإنَّما أُخِّرتْ في النَّظمِ عن جُملةِ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾؛ لتَكونَ تلك الجُملةُ السَّابِقةُ كالتَّوطئةِ لهذه، وتَتنزَّلَ منها مَنزِلةَ المُقدِّمةِ؛ لأنَّهم لَمَّا تَساوَوْا في أصْلِ الخِلقةِ مِن أبٍ واحدٍ وأمٍّ واحدةٍ، كان الشَّأنُ ألَّا يَفضُلَ بعضُهم بعضًا إلَّا بالكَمالِ النَّفسيِّ، وهو الكمالُ الَّذي يَرْضاه اللهُ لهم، والَّذي جعَلَ التَّقوى وسِيلتَه؛ ولذلك ناطَ التَّفاضُلَ في الكرَمِ بـ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ إذْ لا اعتِدادَ بكرَمٍ لا يَعبَأُ اللهُ به[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ تَعليلٌ للنَّهْيِ عنِ التَّفاخُرِ بالأنسابِ المُستفادِ مِن الكلامِ بطَريقِ الاستِئنافِ التَّحقيقيِّ، كأنَّه قيلَ: إنَّ الأكرمَ عندَه تعالَى هو الأتْقَى، فإنْ فاخَرْتُم ففاخِروا بالتَّقْوى[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ تَعليلٌ لِمَضمونِ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، أي: إنَّما كان أكرَمُكم أتْقاكم؛ لأنَّ اللهَ عليمٌ بالكرامةِ الحقِّ الَّتي هي التَّقوى؛ خَبيرٌ بمِقدارِ حُظوظِ النَّاسِ مِن التَّقْوى، فهي عِندَه حُظوظُ الكرامةِ؛ فلذلك الأكرمُ هو الأتقَى. وهي تَذْييلٌ، وهو كِنايةٌ عن الأمْرِ بتَزْكيةِ نِيَّاتِهم في مُعامَلاتِهم وما يُريدون مِن التَّقوى بأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في نُفوسِهم، ويُحاسِبُهم عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٢، ٢٦٣).

## الآيات (١٤-١٨)

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَلِتۡكُم﴾: أي: يَنقُصْكم، ويَظلِمْكم، مِن: لاتَ يَلِيتُ، واللَّيتُ: النَّقصُ، وفيه لُغةٌ أخرَى: ألَتَ يألُتُ[1].

﴿يَرۡتَابُواْ﴾: أي: يَشُكُّوا؛ وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شكٍّ، أو شكٍّ وخَوْفٍ[2].

﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ﴾: أي: يَعدُّونَ إسلامَهم مِنَّةً عليك، والمِنَّةُ تُطلَقُ على العَطيَّةِ، وعلى قَدْرِ العطيَّةِ عندَ مُعطيها، واعتِدادِه بها، والمَنُّ: تَعدادُ المُعطِي على المعطَى ما أعطاه، أو الاعتِدادُ بالصَّنيعةِ، وذِكرُها الَّذي يُكَدِّرُها. والمَنُّ: النَّقصُ مِن الحقِّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

والبَخسُ له، ومِن هذا: المِنَّةُ المذمومةُ؛ لأنها تَنقُصُ النِّعمةَ وتُكَدِّرُها[١].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه: ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾ يَجوزُ فيه وَجهانِ:

**أحدُهما**: أنَّه مَفعولٌ به؛ لأنَّه ضُمِّنَ (يَمُنُّون) معْنى يَعتَدُّون، كأنَّه قِيل: يَعتَدُّون عليك إسلامَهم مانِّينَ به عليك؛ ولهذا صُرِّحَ بالمفعولِ به في قولِه: ﴿لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم﴾، أي: لا تَعْتدُّوا علَيَّ إسلامَكم.

**الوجْهُ الثَّاني**: أنَّه مَفعولٌ مِن أجْلِه، أي: يَمُنُّون عليك مِن أجْلِ أنْ أسْلَموا[٢].

وقولُه: ﴿أَنْ هَدَاكُمْ﴾ كقولِه: ﴿أَنْ أَسْلَمُوا﴾[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ سُكَّانَ الباديةِ مِن العرَبِ الَّذين لم يَتمكَّنِ الإيمانُ مِن قلوبِهم قالوا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: آمَنَّا بما جِئتَ به، فأمَرَ اللهُ نَبيَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يقولَ لهم: إنَّكم لم تُؤمِنوا الإيمانَ الكاملَ، ولكنْ قُولوا: أسْلَمْنا، والسَّببُ في ذلك أنَّه لم يَدخُلِ الإيمانُ الكاملُ في قُلوبِكم بعدُ.

ثمَّ يُرشِدُهم الله سبحانَه إلى ما يُكمِلُ إيمانَهم، فيقولُ: وإنْ تُطِيعوا اللهَ ورسولَه لا يَنقُصْكم اللهُ تعالى مِن ثَوابِ عمَلِكم الصَّالِحِ شيئًا، إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى صِفاتِ المؤمنينَ الصَّادِقينَ، فيقولُ: إنَّما المؤمنونَ حقًّا هم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ١٨٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٨٠)، ((البسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧، ٧٧٨)، ((تفسير الراغب)) (١/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّذين آمَنوا باللهِ ورسولِه، ثمَّ لمْ يَشُكُّوا في ذلك، وجاهَدوا بأمْوالِهم وأنفُسِهم في سَبيلِ اللهِ تعالى، أولئك هم الصَّادِقون في إيمانِهم حقًّا.

ثمَّ يَأمُرُ اللهُ تعالى نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يقولَ للأعرابِ: أتُخْبِرونَ اللهَ بما تَدينونَ به، والحالُ أنَّ اللهَ يَعلَمُ جَميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ؟! فهو لا يَخْفَى عليه حالُكم، فلا داعِيَ لِأنْ تُخبِروه بما في قُلوبِكم، واللهُ بكلِّ شَيءٍ عليمٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى لنَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: يَمُنُّ عليك هؤلاء الأعرابُ أنْ أسْلَموا، فقُلْ لهم: لا تَمُنُّوا علَيَّ بذلك، بلِ المِنَّةُ للهِ أنْ هَداكم للإيمانِ إنْ كُنتم صادِقينَ في ادِّعائِكم الإيمانَ.

ثمَّ يختِمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ سَعةِ علمِه سبحانَه، وبصَرِه بجميعِ الأعمالِ، فيقولُ: إنَّ اللهَ يَعلَمُ كلَّ ما غابَ في السَّمواتِ والأرضِ، واللهُ بَصيرٌ بجَميعِ أعْمالِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ اللهُ سُبحانه بإجلالِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وإعظامِه، ونَهَى عن أذاهُ في نفْسِه، أو في أُمَّتِه، ونَهَى عن التَّفاخُرِ الَّذي هو سَببُ التَّقاطُعِ والتَّداحُرِ، وختَمَ بصِفتِه (الخَبير) -دلَّ عليها بقولِه[1]:

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾.

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٥).

أي: قال الأعرابُ -وهم سُكَّانُ الباديةِ مِن العرَبِ- للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: آمَنَّا بما وجَبَ علينا الإيمانُ به[1].

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾.

أي: قلْ -يا محمَّدُ- لأولئك الأعرابِ الَّذين ادَّعَوُا الإيمانَ: لم تُؤمِنوا بعْدُ إيمانًا كاملًا، فلا تَدَّعوا لأنفُسِكم هذا المقامَ، ولكنْ قُولوا: دخَلْنا في الإسلامِ، واقتَصِرُوا على هذا القولِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٨، ٣٩٢)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (٧/ ٤٣٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٠٩، ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٠).

قال الشنقيطي: (وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ المرادُ به بعضُ الأعرابِ... وإنَّما قُلْنا: إنَّ المرادَ بعضُ الأعرابِ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ اللهَ بيَّنَ في موضعٍ آخَرَ أنَّ مِنهم مَن ليس كذلك، وذلك في قولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٢٠).

قيل: إنَّ هؤلاء الأعرابَ لم يَكونوا منافِقينَ، استظهَر ذلك ابنُ تيميَّةَ، ونسَبه للأكثَرينَ، وذهَب إليه ابنُ القيِّم، وابنُ كثير، وابنُ رجب. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٤٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٣٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ١٠٩، ١١٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والزُّهْريُّ، وابنُ زَيدٍ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٨٩)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩).

قال ابنُ القيِّم: (هؤلاء مُسلِمونَ، وليسوا بمؤمِنينَ؛ لأنَّهم لَيسوا ممَّن باشَر الإيمانُ قلْبَه، فذاق =

عن سَعدِ بن أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قسَمَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَسْمًا، فقلتُ: يا رسولَ اللهِ، أعْطِ فُلانًا؛ فإنَّه مُؤمنٌ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أوْ مُسلِمٌ. أقولُها ثلاثًا، ويُرَدِّدُها علَيَّ ثلاثًا: أوْ مُسلمٌ، ثمَّ قال: إنِّي لَأُعْطي الرَّجُلَ وغيرُه أحَبُّ إلَيَّ منه؛ مَخافةَ أنْ يَكُبَّه اللهُ في النَّارِ))[1].

---

= حلاوتَه وطَعْمَه، وهذا حالُ أكثَرِ المُنتَسِبينَ إلى الإسلامِ، وليس هؤلاء كُفَّارًا؛ فإنَّه سبحانه أثبَت لهم الإسلامَ بقَولِه: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، ولم يُرِدْ: قُولُوا بألسِنَتِكم من غيرِ مُواطأةِ القَلبِ؛ فإنَّه فرَّق بيْنَ قَولِهم: آمَنَّا، وقَولِهم: أسْلَمْنا، ولكِنْ لَمَّا لمْ يَذوقوا طعْمَ الإيمانِ قال: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾، ووعَدَهم سُبحانَه وتعالى -مع ذلك- على طاعتِهم ألَّا يَنقُصَهم مِن أُجورِ أعمالِهم شَيئًا). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٩١). ويُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٢٩٥).

وقيل: إنَّ هؤلاء الأعرابَ كانوا مُنافِقينَ. وممَّن ذهب إلى ذلك: البُخاريُّ، ومحمَّدُ بنُ نصرٍ المروزيُّ، والقرطبي، والشنقيطي. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (١/ ١٤)، ((تعظيم قدر الصلاة)) للمروزي (٢/ ٥٥٤- ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤١٩، ٤٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩).

قال القرطبي: (معنى ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾، أي: استَسْلَمْنا خَوفَ القَتلِ والسَّبْيِ، وهذه صِفةُ المنافِقينَ؛ لأنَّهم أسْلَموا في ظاهِرِ إيمانِهم، ولم تُؤمِنْ قُلوبُهم). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٤٨).

وقال الشِّنقيطي: (اللهُ نفى عنهم الإيمانَ دونَ الإسلامِ، ولذلك وَجهانِ مَعروفانِ عند العُلَماءِ؛ أظهَرُهما عندي: أنَّ الإيمانَ المنفيَّ عنهم في هذه الآيةِ هو مُسَمَّاه الشَّرعيُّ الصَّحيحُ، والإسلامَ المُثبَتَ لهم فيها هو الإسلامُ اللُّغَويُّ الَّذي هو الاستِسلامُ والانقيادُ بالجَوارحِ دونَ القَلبِ... وإذا حُمِلَ الإسلامُ في قَولِه: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ انقَدْنا واستَسْلَمْنا بالألسِنةِ والجوارحِ، فلا إشكالَ في الآيةِ، وعلى هذا القَولِ فالأعرابُ المذكورونَ مُنافِقونَ؛ لأنَّهم مُسلِمونَ في الظَّاهِرِ، وهم كُفَّارٌ في الباطِنِ.

الوَجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بنَفْيِ الإيمانِ في قَولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ نفْيُ كَمالِ الإيمانِ، لا نَفْيُه مِن أصلِه، وعليه فلا إشكالَ أيضًا؛ لأنَّهم مُسلِمونَ مع أنَّ إيمانَهم غيرُ تامٍّ، وهذا لا إشكالَ فيه عندَ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ القائلينَ بأنَّ الإيمانَ يَزيدُ ويَنقُصُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤١٩).

(١) رواه البخاريُّ (٢٧)، ومسلمٌ (١٥٠) واللَّفظُ له.

﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾.

أي: ولمْ يَدخُلِ الإيمانُ الكاملُ وحَقائقُ مَعانِيه بعْدُ في قُلوبِكم، أيُّها المُدَّعونَ بُلوغَ مَنزِلةِ الإيمانِ[1].

﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾.

أي: وإنْ تُطِيعوا اللهَ ورسولَه لا يَنقُصْكم اللهُ مِن ثَوابِ أعمالِكم الصَّالِحةِ أيَّ شَيءٍ منها[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ غَفورٌ لِذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرَها عليهم، ويَتجاوَزَ عن مُؤاخَذتِهم بها، رَحيمٌ بهم، ومِن رَحمتِه قَبولُه تَوبتَهم، وإكرامُهم بنِعَمِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٠٥، ٣٧٧، ٣٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩).

قال ابنُ عاشور: («لَمَّا» هذه أختُ «لَمْ»، وتدُلُّ على أنَّ النَّفيَ بها متَّصِلٌ بزمانِ التَّكلُّمِ، وذلك الفارِقُ بيْنَها وبيْنَ «لَمْ» أختِها، وهذه الدَّلالةُ على استِمرارِ النَّفيِ إلى زمَنِ التَّكَلُّمِ تُؤذِنُ غالبًا بأنَّ المنفيَّ بها مُتوقَّعُ الوُقوعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٥).

وقال السعدي: (في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ أي: وَقْتَ هذا الكلامِ الَّذي صدَر منكم، فكان فيه إشارةٌ إلى أحوالِهم بعدَ ذلك؛ فإنَّ كثيرًا منهم مَنَّ اللهُ عليهم بالإيمانِ الحقيقيِّ، والجهادِ في سَبيلِ اللهِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٦).

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:**

أنَّها إرشادٌ للأعرابِ الَّذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ إلى حَقيقةِ الإيمانِ[1].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾.

أي: إنَّما المؤمِنون حقًّا همُ الَّذين آمَنوا باللهِ ورسولِه، ثمَّ لمْ يشُكُّوا في وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وصِدقِ نُبوَّةِ نَبيِّه، ووُجوبِ طاعتِهما، وثَبَتوا على ذلك، ولم يَتزلْزَلوا[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢ - ٤].

وقال سُبحانه: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

﴿وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وهمْ أيضًا مَنْ جاهَدُوا أعداءَ اللهِ بإنفاقِ أموالِهم، وبَذْلِ أرواحِهم في قِتالِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٣٤٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٣).

مُخلِصينَ للهِ تعالى؛ لِتكونَ كَلمتُه هي العُلْيا[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾.

أي: أولئك الَّذين يُؤمِنونَ باللهِ ورسولِه بلا ارتيابٍ، ويُجاهِدونَ في سَبيلِ الله بأمْوالِهم وأنفُسِهم؛ همُ الصَّادِقونَ في إيمانِهم حقًّا، لا الَّذين يَدَّعونَ الإيمانَ مِن غَيرِ تَحقيقٍ[٢].

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِمَا قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا قال هؤلاءِ الأعرابُ: ﴿ءَامَنَّا﴾، وأمَرَ اللهُ نَبيَّه أنْ يُكذِّبَهم في قولِه: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أمَرَ نَبيَّهم أنْ يقولَ لهم بصِيغةِ الإنكارِ: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾؟! وذلك بادِّعائِكم أنَّكم مُؤمِنونَ، واللهُ لا يَخْفَى عليه شَيءٌ مِن حالِكم، وهو عالِمٌ بأنَّكم لم تُؤمِنوا، وعالِمٌ بكلِّ ما في السَّمواتِ والأرضِ، وعالِمٌ بكلِّ شَيءٍ[٣].

﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٦، ٦٧).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢١).

أي: قُل -يا محمَّدُ- للأعرابِ الَّذين ادَّعَوُا الإيمانَ: أتُخْبِرونَ اللهَ بما في قُلوبِكم مِن الإيمانِ حِينَ قُلْتُم: آمَنَّا، والحالُ أنَّه يَعلَمُ جميعَ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن الأشياءِ الظَّاهرةِ والباطنةِ؟! فاللهُ لا يَخْفَى عليه حالُكم، وليس بحاجةٍ لإخبارِه بما في قُلوبِكم[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ بكلِّ شيءٍ، فاحْذَروا أنْ تَقولوا خِلافَ ما في قُلوبِكم؛ فاللهُ يَعلَمُ ما فيها مِن الإيمانِ أو غَيرِه[2].

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٧ ﴾.

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْ ﴾.

أي: يَمُنُّ هؤلاءِ الأعرابُ عليك -يا محمَّدُ- إسلامَهم، فيَذْكُرونه لك ذِكْرَ مَن قدَّم لك مَعروفًا، وأسْدى إليك خَيرًا[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦١)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٨).

﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

أي: قُل لهم -يا محمَّدُ-: لا تَمُنُّوا علَيَّ إسلامَكم؛ فليس لكم مِنَّةٌ علَيَّ في ذلك، ونفْعُ إسلامِكم يَعودُ عليكم، وإنَّما للهِ المِنَّةُ عليكم بالتَّوفيقِ للإيمانِ إنْ كُنتم صادِقينَ في ادِّعائِكمُ الإيمانَ[1].

عن عبدِ اللهِ بنِ زَيدٍ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا فتَحَ حُنَيْنًا قسَمَ الغنائمَ، فأعْطى المؤلَّفةَ قُلوبُهم، فبلَغَه أنَّ الأنصارَ يُحِبُّون أنْ يُصِيبوا ما أصاب النَّاسُ، فقام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فخطَبَهم؛ فحمِدَ اللهَ وأثْنَى عليه، ثمَّ قال: يا مَعشرَ الأنصارِ، ألَمْ أجِدْكم ضُلَّالًا فهَداكُم اللهُ بي؟ وعالةً فأغْناكم اللهُ بي؟ ومُتفرِّقينَ فجمَعَكُم اللهُ بي؟ ويَقولون: اللهُ ورسولُه أمَنُّ[2]))[3].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلمُ كلَّ ما غاب في السَّمواتِ وفي الأرضِ، ومِن ذلك عِلْمُه بالصَّادقِ مِن الكاذبِ، وعِلْمُه بما تُخفِيه السَّرائرُ والضَّمائرُ، فلا يَخْفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٧)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٨).

(٢) أمَنُّ: أفعَلُ تفضيلٍ مِنَ المَنِّ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٣٣٠)، ومسلمٌ (١٠٦١) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٩). =

كما قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

أي: واللهُ ذو بَصرٍ بأعمالِكم كلِّها؛ خَيرِها وشَرِّها، ظاهِرِها وباطِنِها، ويُجازيكم عليها بما تَستحِقُّونه مِن ثَوابٍ أو عِقابٍ(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ فيه تَحريضٌ على الإيمانِ الصَّادقِ؛ لأنَّ مَن أتَى بفِعلٍ مِن غَيرِ صِدقِ نِيَّةٍ يَضيعُ عمَلُه، ولا يُعْطَى عليه أجْرًا(٢).

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾، شرَطَ تعالى في الإيمانِ عدَمَ الرَّيبِ -وهو الشَّكُّ-؛ لأنَّ الإيمانَ النَّافعَ هو الجزْمُ اليَقينيُّ بما أمَرَ اللهُ بالإيمانِ به، الَّذي لا يَعْتريه شَكٌّ بوجْهٍ مِن الوُجوهِ(٣).

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ

---

= قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: إنَّ اللهَ -أيُّها الأعرابُ- لا يَخفَى عليه الصَّادِقُ منكم مِنَ الكاذِبِ، ومَنِ الدَّاخِلُ منكم في مِلَّةِ الإسلامِ رَغبةً فيه، ومَن الدَّاخِلُ فيه رَهبةً مِن رَسولِنا محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وجُندِه؛ فلا تُعلِّمونا دِينَكم وضَمائرَ صُدورِكم؛ فإنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تُكِنُّه ضَمائرُ صُدورِكم، وتحَدِّثونَ به أنفُسَكم، ويَعلَمُ ما غاب عنكم فاستَسَرَّ في خَبايا السَّمواتِ والأرضِ، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾، فيه أنَّ مَن جاهَدَ الكُفَّارَ، دلَّ ذلك على الإيمانِ التَّامِّ في القلْبِ؛ لأنَّ مَن جاهَدَ غيرَه على الإسلامِ، والقيامِ بشَرائعِه، فجِهادُه لنفْسِه على ذلك مِن بابِ أَولَى وأَحرَى، ولأنَّ مَن لم يَقْوَ على الجهادِ فإنَّ ذلك دليلٌ على ضعفِ إيمانِه[1].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ ذكَرَ أهلَ الإيمانِ الَّذين ذاقُوا طَعْمَه، وهم الَّذين آمَنوا به وبرسولِه، ثمَّ لم يَرتابُوا في إيمانِهم، وإنَّما انْتَفَى عنهم الرَّيبُ؛ لأنَّ الإيمانَ قد باشَرَ قُلوبَهم، وخالطَتْها بَشاشتُه، فلمْ يَبْقَ للرَّيبِ فيه مَوضعٌ، وصدَّقَ ذلك الذَّوقَ بَذْلُهم أحَبَّ شَيءٍ إليهم في رِضا ربِّهم تعالى، وهو أموالُهم وأنفُسُهم! ومِن الممتنِعِ حُصولُ هذا البذْلِ مِن غيرِ ذَوقِ طَعْمِ الإيمانِ، ووُجودِ حَلاوتِه؛ فإنَّ ذلك إنَّما يَحصُلُ بصِدْقِ الذَّوقِ والوجْدِ، كما قال الحسَنُ: (ليس الإيمانُ بالتَّمنِّي ولا بالتَّحلِّي، ولكِنْ ما وقَرَ في القلْبِ، وصدَّقَه العمَلُ)، فالذَّوقُ والوجْدُ أمْرٌ باطنٌ، والعمَلُ دَليلٌ عليه، ومُصدِّقٌ له، كما أنَّ الرَّيبَ والشَّكَّ والنِّفاقَ أمْرٌ باطنٌ، والعمَلُ دليلٌ عليه، ومُصدِّقٌ له؛ فالأعمالُ ثَمراتُ العلومِ والعقائدِ، فاليقينُ يُثمِرُ الجِهادَ، ومَقاماتِ الإحسانِ، فعلى حسَبِ قُوَّتِه تكونُ ثَمَرتُه ونَتيجتُه، والرَّيبُ والشَّكُّ يُثمِرُ الأعمالَ المناسِبةَ له[2].

٥- قولُه تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾، فيه إشارةٌ إلى أنَّ الدِّينَ يَنْبغي أنْ يكونَ للهِ، والأعرابُ قد أظْهَروا الإيمانَ للمسلمينَ لا لله، فلا يُقبَلُ منهم ذلك[3].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٧).

فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، تَضمَّنتْ هذه الآيةُ الكريمةُ تَقبيحَ تَزكيةِ النَّفْسِ بالكذِبِ(١).

٧- العبْدُ بيْنَ مِنَّةٍ مِن اللهُ عليه، وحُجَّةٍ منْه عليه، ولا يَنفَكُّ عنهما، فالحكْمُ الدِّينيُّ مُتضمِّنٌ لِمِنَّتِه وحُجَّتِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، وقال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. والحكْمُ الكونيُّ أيضًا مُتضمِّنٌ لِمِنَّتِه وحُجَّتِه، فإذا حكَمَ له -كَونًا- حكْمًا مَصحوبًا باتِّصالِ الحكْمِ الدِّينيِّ به، فهو مِنَّةٌ عليه، وإنْ لم يَصحَبْه الدِّينيُّ فهو حُجَّةٌ منْه عليه. وكذلك حكْمُه الدِّينيُّ إذا اتَّصَل به حكْمُه الكونيُّ، فتَوفيقُه للقيامِ به مِنَّةٌ منْه عليه، وإنْ تَجرَّدَ عن حكْمِه الكونيِّ صار حُجَّةً منْه عليه، فالمِنَّةُ باقترانِ أحَدِ الحُكْمينِ بصاحِبِه، والحُجَّةُ في تَجرُّدِ أحدِهما عن الآخَرِ، فكلُّ عِلمٍ صَحِبَه عَمَلٌ يُرْضي اللهَ سُبحانه فهو مِنَّةٌ، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ قُوَّةٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ صَحِبَها تَنفيذٌ لِمَرْضاتِه وأوامِرِه؛ فهي مِنَّةٌ، وإلَّا فهي حُجَّةٌ، وكلُّ حالٍ صَحِبَه تأثيرٌ في نُصرةِ دِينِه، والدَّعوةِ إليه؛ فهو مِنَّةٌ منْه، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ مالٍ اقترَنَ به إنفاقٌ في سَبيلِ اللهِ وطاعتُه، لا لطلَبِ الجزاءِ ولا الشُّكورِ؛ فهو مِنَّةٌ مِن اللهِ عليه، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ فراغٍ اقترَنَ به اشتِغالٌ بما يُرِيدُ الرَّبُّ مِن عبْدِه، فهو مِنَّةٌ عليه، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ قَبولٍ في النَّاسِ، وتَعظيمٍ ومَحبَّةٍ له، اتَّصَل به خُضوعٌ للرَّبِّ، وذُلٌّ وانكسارٌ، ومَعرفةٌ بعَيبِ النَّفْسِ والعمَلِ، وبذْلُ النَّصيحةِ للخلْقِ؛ فهو مِنَّةٌ، وإلَّا فهو حُجَّةٌ، وكلُّ بَصيرةٍ ومَوعظةٍ، وتَذكيرٍ وتَعريفٍ مِن تَعريفاتِ الحقِّ سُبحانه إلى العبْدِ، اتَّصَل به عِبرةٌ ومَزيدٌ في العقْلِ، ومَعرفةٌ في الإيمانِ؛ فهي مِنَّةٌ، وإلَّا فهي حُجَّةٌ، وكلُّ حالٍ مع اللهِ تعالى، أو مَقامٍ اتَّصل به السَّيرُ إلى اللهِ، وإيثارُ مُرادِه على مُرادِ العبْدِ؛ فهو مِنَّةٌ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢١).

مِن اللهِ، وإنْ صَحِبَه الوُقوفُ عِندَه والرِّضا به، وإيثارُ مُقتضاهُ؛ مِن لذَّةِ النَّفْسِ به، وطُمأنينَتِها إليه، ورُكونِها إليه، فهو حُجَّةٌ مِن اللهِ عليه. فلْيتأمَّلِ العبْدُ هذا الموضعَ العظيمَ الخطَرِ، ويُميِّزْ بيْنَ مَواقعِ المِنَنِ والمِحَنِ، والحُجَجِ والنِّعَمِ، فما أكثَرَ ما يَلتبِسُ ذلك على خواصِّ النَّاسِ وأربابِ السُّلوكِ! واللهُ يَهْدي مَن يَشاءُ إلى صِراطٍ مُستقيمٍ[1].

٨- في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مَسألةٌ عظيمةٌ في سُلوكِ الإنسانِ وعمَلِه؛ وهي أنْ يَعلَمَ بأنَّ اللهَ تعالى بَصيرٌ بعمَلِه، مُحيطٌ به، فيَخْشَى اللهَ ويَتَّقِيه، وفيها التَّرغيبُ في الأعمالِ الصَّالِحةِ؛ فإنَّها لنْ تَضيعَ، وفيها التَّرهيبُ مِن العملِ السَّيِّئِ؛ لأنَّ العبدَ سيُجازَى عليه؛ لأنَّ الكلَّ مَعلومٌ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ[2].

## الفوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ هذه الآيةُ ممَّا احتَجَّ بها أحمدُ بنُ حَنبلٍ وغيرُه، على أنَّه يُسْتثنى في الإيمانِ دونَ الإسلامِ، وأنَّ أصحابَ الكبائرِ يَخرُجون مِن الإيمانِ إلى الإسلامِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٨٩، ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٩).

(٣) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٩٨).

أمَّا الاستِثناءُ في الإيمانِ فإنَّه (يجوزُ الاستِثناءُ باعتِبارٍ وتَرْكُه باعتِبارٍ؛ فإذا كان مقصودُه أنِّي لا أعلَمُ أنِّي قائمٌ بكلِّ ما أوجَب اللهُ علَيَّ، وأنَّه يَقبَلُ أعمالي، ليس مقصودُه الشَّكَّ فيما في قلبِه؛ فهذا استِثْناؤُه حسَنٌ، وقصْدُه ألَّا يُزكِّيَ نفْسَه، وألَّا يَقطَعَ بأنَّه عَمِل عمَلًا كما أُمِر فقُبِل منه، والذُّنوبُ كثيرةٌ، والنِّفاقُ مَخوفٌ على عامَّةِ النَّاسِ). ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٤٠).

أمَّا الاستِثناءُ في الإسلامِ فهو كالاستثناءِ في الإيمانِ، فيُستثنى فيه إذا أُريدَ به فِعلُ الواجباتِ الظَّاهرةِ كلِّها، أمَّا إذا أُريدَ بالإسلامِ الشَّهادتانِ باللِّسانِ فقطْ فلا استِثناءَ فيه، فلمَّا كان كلُّ مَن أتى بالشَّهادتَينِ صار مُسلِمًا مُتميِّزًا عن اليهودِ والنَّصارى، تجري عليه أحكامُ الإسلامِ الَّتي =

٢- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾، فيه سُؤالٌ: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]، وقال هاهنا: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾، مع أنَّهم ألْقَوا إليهم السَّلامَ؟

**الجوابُ**: أنَّ هذا إشارةٌ إلى أنَّ عمَلَ القلبِ غيرُ مَعلوم، واجتنابَ الظَّنِّ واجبٌ، وإنَّما يُحكَمُ بالظَّاهرِ، فلا يُقالُ لِمَن يَفعَلُ فِعلًا: هو مُراءٍ، ولا لِمَن أسلَمَ: هو مُنافِقٌ، ولكنَّ اللهَ خَبيرٌ بما في الصُّدورِ، إذا قال: فُلانٌ ليس بمُؤمنٍ، حصَلَ الجزْمُ، وقولُه تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ فهو الَّذي جوَّزَ لنا ذلك القولَ، وكان مُعجزةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث أطْلَعَه اللهُ على الغَيبِ وضَميرِ قُلوبِهم، فقال لنا: أنتُم لا تَقولوا لِمَن ألْقَى إليكم السَّلامَ: لَستَ مُؤمنًا؛ لعدَمِ عِلمِكم بما في قلْبِه[1].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾، فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يَجُزْ أنْ يُصدَّقوا في إسلامِهم، والإسلامُ هو الانقيادُ، وقد وُجِدَ منهم قولًا وفِعلًا، وإنْ لم يُوجَدْ اعتقادًا وعِلمًا، وذلك القدْرُ كافٍ في صِدْقِهم؟

**الجوابُ**: التَّكذيبُ يقَعُ على وَجهينِ:

**أحدُهما**: ألَّا يُوجَدَ نفْسُ المُخبَرِ عنه.

**وثانيهما**: ألَّا يُوجَدَ كما أخبَرَ في نفْسِه؛ فقد يقولُ: ما جِئتَنا، بلْ جاءَتْ بك الحاجةُ، فاللهُ تعالى كذَّبَهم في قولِهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ على الوجْهِ الأوَّلِ، أي: ما آمنْتُم أصْلًا، ولم يُصدَّقوا في الإسلامِ على الوجْهِ الثَّاني؛ فإنَّهم انقادوا للحاجةِ، وأخْذِ

---

= تجري على المسلمينَ؛ كان هذا ممَّا يُجزَمُ به بلا استِثناءٍ فيه، فلا زيادةَ فيهما ولا نُقصانَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٥٩، ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٥).

الصَّدقةِ[١]. وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ استُفيدَ مِن هذه الآيةِ الكريمةِ: أنَّ الإيمانَ أخصُّ مِن الإسلامِ، كما هو مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ[٢]، وأنَّه أكمَلُ مِن الإسلامِ[٣]، فكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ، وليس كلُّ مُسلمٍ مؤمنًا؛ فالمؤمنُ أفضَلُ مِن المسلمِ[٤].

٥- في قولِه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ دَلالةٌ على الفرْقِ بيْنَ الإسلامِ والإيمانِ؛ فالإيمانُ يكونُ في القلْبِ، ويَلزَمُ مِن وُجودِه في القلْبِ صَلاحُ الجَوارحِ؛ لقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أَلَا وإنَّ في الجسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه؛ أَلَا وهِيَ القلبُ))[٥]، بخِلافِ الإسلامِ؛ فإنَّه يكونُ في الجَوارحِ، وقد يَصدُرُ مِن المؤمنِ حقًّا، وقد يكونُ مِن ناقصِ الإيمانِ، هذا هو الفرْقُ بيْنَهما، ولا يُفَرَّقُ بيْنَهما إلَّا إذا اجتَمَعا في سِياقٍ واحدٍ، وأمَّا إذا انفرَدَ أحَدُهما في سِياقٍ فإنَّه يَشملُ الآخَرَ[٦].

٦- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾، فيه سُؤالٌ: قولُه: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾، بعْدَ قولِه تعالى: ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾، يُشبِهُ التَّكريرَ مِن غيرِ استقلالٍ بفائدةٍ مُتجدِّدةٍ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ١٢٨).

(٥) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديثِ النُّعمانِ بنِ بَشِيرٍ رضيَ الله عنهما.

(٦) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٥٠).

**الجوابُ**: ليس كذلك؛ فإنَّ فائدةَ قولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ هو تكذيبُ دَعواهم، وقولِ: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ توقيتٌ لِما أُمِروا به أنْ يَقولوه، كأنَّه قِيل لهم: (ولكنْ قُولوا أسْلَمْنا حِينَ لم تَثبُتْ مُواطأةُ قُلوبِكم لِألسِنَتِكم) -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّه كلامٌ واقعٌ مَوقِعَ الحالِ مِن الضَّميرِ في ﴿قُولُوٓاْ﴾، و(ما) في (لَمَّا) مِن معْنى التَّوقُّعِ، دالٌّ على أنَّ هؤلاء قدْ آمَنوا فيما بعْدُ[١].

٧- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾، فيه الرَّدُّ على الكَرَّاميَّةِ[٢] في قولِهم: إنَّ الإيمانَ هو الإقرارُ باللِّسانِ دونَ عقْدِ القلْبِ[٣]!

٨- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔا﴾، لم يقُلْ: (لا يَلِتَاكم) بضَميرِ التَّثنيةِ؛ لأنَّ اللهَ هو مُتولِّي الجزاءِ، دونَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤].

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فيه دَليلٌ على أنَّ الأعمالَ مِن الإيمانِ[٥]، وفيه حُجَّةٌ واضحةٌ على المُرْجِئةِ -المنكِرينَ أنَّ العمَلَ مِن الإيمانِ-؛ إذْ هم مُقِرُّون بأنَّ مَن لم يكُنْ له صِدْقُ الإيمانِ فليس بمُؤمنٍ، وقد جَعَلَ اللهُ الجهادَ مِن صِدْقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ١٣).

(٢) الكَرَّامِيَّةُ: هم أصحابُ محمَّدِ بنِ كَرَّام، يَزعُمونَ أنَّ الإيمانَ هو الإقرارُ والتَّصديقُ باللِّسانِ دونَ القَلبِ، وأنكَروا أن تكونَ مَعرِفةُ القَلبِ أو شَيءٌ غيرُ التَّصديقِ باللِّسانِ إيمانًا. يُنظر: ((الإيمان الأوسط)) لابن تيمية (ص: ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٣).

الإيمانِ، كما تَرى[١].

١٠- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أخبَرَ تعالى أنَّ هؤلاء هم الصَّادِقونَ في قولِهم: آمَنَّا، ودلَّ ذلك على أنَّ النَّاسَ في قولِهم: (آمَنَّا) صادقٌ وكاذبٌ، والكاذبُ فيه نِفاقٌ بحسَبِ كذِبِه[٢].

١١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ يُبيِّنُ أنَّ الجِهادَ واجبٌ، وترْكَ الارتيابِ واجبٌ[٣].

١٢- أنَّ النِّيَّةَ مَحْضُ عَمَلِ القلبِ، فلمْ يُشْرَعْ إظهارُها باللِّسانِ؛ لقولِه سُبحانه: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وفاعِلُ ذلك يُعَلِّمُ اللهَ بدِيْنِه الَّذي في قلْبِه[٤]! فالآيةُ فيها إشارةٌ إلى أنَّ النُّطقَ بالنِّيَّةِ في العِباداتِ ليس مشروعًا؛ لأنَّ الإنسانَ الَّذي يقولُ: «أُريدُ أنْ أُصلِّيَ» كأنَّه يُعَلِّمُ اللهَ سُبحانه وتعالى بما يُريدُ مِن العملِ! واللهُ يَعلَمُ، والَّذي يقولُ: «أُريدُ أنْ أَصومَ» كذلك، والَّذي يقولُ: «نَويتُ أنْ أتصَدَّقَ» كذلك، والَّذي يقولُ: «نوَيتُ أنْ أَحُجَّ» كذلك أيضًا، ولهذا لا يُسَنُّ النُّطقُ بالنِّيَّةِ في العِباداتِ كلِّها؛ لا في الحجِّ، ولا في الصَّدَقةِ، ولا في الصَّومِ، ولا في الوُضوءِ، ولا الصَّلاةِ، ولا في غيرِ ذلك؛ لأنَّ النِّيَّةَ مَحلُّها القلبُ، واللهُ عالمٌ بذلك، ولا حاجةَ إلى أنْ تُخبِرَ اللهَ بها[٥]!

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ١٥).

(٤) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية - كتاب الصلاة)) (ص: ٥٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٦٧).

١٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، لم يقلْ: (يمُنُّ عليكم أنْ أسلَمْتُم)؛ لأنَّ إسلامَهم كان ضَلالًا، حيث كان نِفاقًا، فما مَنَّ به عليهم[1]، وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف مَنَّ عليهم بالهدايةِ إلى الإيمانِ، مع أنَّه بيَّنَ أنَّهم لم يُؤمِنوا؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجْهُ الأوَّلُ**: أنَّه تعالى لم يقُلْ: (بلِ اللهُ يمُنُّ عليكم أنْ رزَقَكم الإيمانَ)، بلْ قال: ﴿أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، وإرسالُ الرُّسلِ بالآياتِ البيِّناتِ هِدايةٌ.

**الوجْهُ الثَّاني**: أنَّه تعالى يَمُنُّ عليهم بما زَعَموا، فكأنَّه قال: أنتُم قُلْتُم: آمَنَّا، فذلك نِعمةٌ في حقِّكم، حيثُ تخلَّصْتُم مِن النَّارِ، فقال: هَداكم في زَعْمِكم.

**الوجْهُ الثَّالثُ**: أنَّ اللهَ تعالى بيَّنَ بعْدَ ذلك شَرْطًا، فقال: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[2].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾، فيه رَدٌّ على القَدَريَّةِ والمُعتزلةِ القائلين: إنَّ العبْدَ يَهْدي نفْسَه[3]!

١٦- في قولِه تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ أنَّ أعْظَمَ نِعمةٍ هي نِعمةُ الإسلامِ[4].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٩).

ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

- إنَّما قال: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾؛ تَعليمًا لهم بالفرْقِ بيْنَ الإيمانِ والإسلامِ، وكان مُقْتضَى ظاهرِ نظْمِ الكلامِ أنْ يُقالَ: (قُل لم تُؤمِنوا ولكنْ أسْلَمْتم)، أو أنْ يُقالَ: (قُل لا تَقولوا: آمنَّا، ولكنْ قُولوا: أسْلَمْنا)؛ ليَتوافَقَ المُستدرَكُ عنه والاستِدراكُ بحسَبِ النَّظْمِ المُتعارَفِ في المُجادَلاتِ، فعُدِلَ عن الظَّاهرِ إلى هذا النَّظْمِ؛ لأنَّ فيه صراحةً بنفْيِ الإيمانِ عنهم، فلا يَحسَبوا أنَّهم غالَطوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. واستُغنِيَ بقولِه: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ عن أنْ يُقالَ: (لا تَقولوا: آمنَّا)؛ لاستِهجانِ أنْ يُخاطَبوا بلفظٍ مُؤدَّاه النَّهيُ عن الإعلانِ بالإيمانِ؛ لأنَّهم مُطالَبونَ بأنْ يُؤمنوا ويَقولوا: آمنَّا، قَولًا صادقًا لا كاذبًا، فقيل لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾؛ تَكذيبًا لهم، معَ عدمِ التَّصريحِ بلفظِ التَّكذيبِ، ولكنْ وقَعَ التَّعريضُ لهم بذلك بعْدُ في قولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ [الحجرات: ١٥] إلى قَولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]، أي: لا أنتُم؛ ولذلك جِيءَ بالاستدراكِ مَحمولًا على المعنى، وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (ولكنْ أسلَمْتُم) إلى ﴿قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾؛ تَعريضًا بوُجوبِ الصِّدقِ في القولِ ليُطابِقَ الواقعَ، فهم يَشعُرونَ بأنَّ كذِبَهم قد ظهَرَ، وذلك ممَّا يُتعيَّرُ به، أي: الشَّأنُ أنْ تقولوا قولًا صادقًا(١).

- وقولُه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ واقعٌ مَوقِعَ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، وهو مُبيِّنٌ لمَعنى نفْيِ الإيمانِ عنهم في قَولِه: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ بأنَّه ليس انتِفاءَ وُجودِ تَصديقٍ باللِّسانِ، ولكنِ انتفاءُ رُسوخِه وعقْدِ القلْبِ عليه؛ إذ كان فيهم بَقيَّةٌ مِن ارتيابٍ، كما أشعَرَ به مُقابَلتُه بقَولِه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٥٥، ٢٦٥).

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ ﴾[١] [الحجرات: ١٥].

- قولُه: ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ ليس تَكريرًا مع قَولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾؛ وذلك لِمَا في (لَمَّا) مِن مَعنى التَّوقُّعِ الدَّالِّ على أنَّ هؤلاء قدْ آمَنوا فيما بعدُ[٢].

- وفي الآيةِ احتِباكٌ[٣]: ذكَرَ عدَمَ الإيمانِ أوَّلًا، دَليلًا على إثباتِه ثانيًا، وذكَرَ تَوفيرَ الأعمالِ ثانيًا، دَليلًا على بَخْسِها أو إحباطِها أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه نَفى أساسَ الخَيرِ أوَّلًا، ورغَّبَ في الطَّاعةِ بحِفظِ ما تَعِبوا عليه مِن الأعمالِ ثانيًا[٤].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ استِئنافُ تَعليمٍ لهم بأنَّ اللهَ يَتجاوَزُ عن كذِبِهم إذا تابوا، وترْغيبٌ في إخلاصِ الإيمانِ؛ لأنَّ الغَفورَ كثيرُ المغفرةِ شَديدُها، ومِن فَرْطِ مَغفرتِه أنَّه يُجازي على الأعمالِ الصَّالِحةِ الواقِعةِ في حالةِ الكُفرِ غيرَ مُعتدٍّ بها، فإذا آمَنَ عامِلُها جُوزيَ عليها بمُجرَّدِ إيمانِه، وذلك مِن فَرْطِ رَحمتِه بعِبادِه[٥].

- وترْتيبُ ﴿رَّحِيمٌ﴾ بعدَ ﴿غَفُورٞ﴾؛ لأنَّ الرَّحمةَ أصلٌ للمَغفرةِ، وشأنُ العلَّةِ أنْ تُورَدَ بعدَ المُعلَّلِ بها[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ قيل: هذا تَعليلٌ لقولِه: ﴿لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ﴾ إلى قولِه: ﴿فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، وهو مِن جُملةِ ما أُمِرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٦٥، ٢٦٦).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٦٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَه للأعرابِ، أي: ليس المؤمِنونَ إلَّا الَّذين آمَنوا، ولم يُخالِطْ إيمانَهم ارتيابٌ أو تَشكُّكٌ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ...﴾ (إنَّما) للحصْرِ، و(إنَّ) الَّتي هي جُزْءٌ منها مُفيدةٌ أيضًا للتَّعليلِ، وقائمةٌ مَقامَ فاءِ التَّفريعِ، أي: إنَّما لم تَكونوا مُؤمنينَ؛ لأنَّ الإيمانَ يُنافيه الارتيابُ، والقصْرُ إضافيٌّ(٢)، أي: المؤمنونَ الَّذين هذه صِفاتُهم غيرُ هؤلاء الأعرابِ؛ فأفادَ أنَّ هؤلاء الأعرابَ انْتَفى عنهم الإيمانُ؛ لأنَّهم انتَفَى عنهم مَجموعُ هذه الصِّفاتِ. وإذ قد كان القصرُ إضافيًّا لم يكُنِ الغرَضُ منه إلَّا إثباتَ الوصْفِ لغير المَقصورِ؛ لإخراجِ المُتحدَّثِ عنهم عن أنْ يكونوا مُؤمِنينَ، وليس بمُقْتضٍ أنَّ حقيقةَ الإيمانِ لا تَتقوَّمُ إلَّا بمَجموعِ تلك الصِّفاتِ؛ لأنَّ عَدَّ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ مع صِفتَي الإيمانِ وانتِفاءِ الرَّيبِ فيه يَمْنعُ مِن ذلك؛ لأنَّ الَّذي يَقعُدُ عن الجِهادِ لا يَنتفي عنه وصْفُ الإيمانِ؛ إذ لا يَكفُرُ المسلمُ بارتكابِ الكبائرِ عندَ أهلِ الحقِّ، وما عداهُ خطأٌ واضحٌ(٣).

- وجِيءَ بـ (ثُم) الَّتي تُفيدُ التَّراخيَ في قولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾، مع أنَّ عدَمَ الارتيابِ يجِبُ أنْ يكونَ مُقارِنًا للإيمانِ؛ لأنَّ مَن وُجِد منه الإيمانُ رُبَّما اعتَرَضَه الشَّيطانُ أو بعضُ المُضلِّين بعْدَ ثَلجِ الصَّدْرِ، فشَكَّكه، وقذَفَ في قلْبِه ما يَثلِمُ يَقينَه، أو نظَرَ هو نظَرًا غيرَ سَديدٍ يَسقُطُ به على الشَّكِّ، ثمَّ يَستمِرُّ على ذلك راكبًا رأْسَه لا يَطلُبُ له مَخرجًا، فوُصِفَ المؤمنونَ حقًّا بالبُعدِ عن هذه المُوبِقاتِ. أو أنَّ الإيقانَ وزَوالَ الرَّيبِ لَمَّا كان مِلاكَ الإيمانِ، وكان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٧).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٧).

هذا عظيمًا، والثَّباتُ عليه أعظَمَ -وهو عَينُ الحِكمةِ-؛ أشارَ إلى عظيمِ مَزيَّةِ الثَّباتِ بقولِه: ﴿ثُمَّ﴾، أي: بعدَ امتِطاءِ هذه الرُّتبةِ العظيمةِ ﴿لَمْ يَرْتَابُوا﴾، أي: يُنازِعوا الفِطرةَ الأُولى في تعمُّدِ التَّسبُّبِ إلى الشَّكِّ، ولم يُوقِعوا الشَّكَّ في وقتٍ مِن الأوقاتِ الكائنةِ بعدَ الإيمانِ؛ فأُفرِدَ بالذِّكْرِ بعدَ تَقدُّمِ الإيمانِ؛ تَنبيهًا على مَكانِه، وعُطِفَ على الإيمانِ بكلمةِ التَّراخي؛ إشعارًا باستِقرارِه في الأزمنةِ المتراخيةِ المتطاوِلةِ غضًّا جديدًا. أو هو مِن تَرتيبِ الكلامِ لا مِن تَرتيبِ الزَّمانِ، أي: ثُمَّ أقولُ: لم يَرْتابوا[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ إيماءٌ إلى بَيانِ قولِه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، أي: مِن أجْلِ ما يُخالِجُكم ارتيابٌ في بَعضِ ما آمَنْتُم به ممَّا اطَّلَع اللهُ عليه[2]، وهذا بِناءً على كونِهم منافِقين.

- قولُه: ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ المقصودُ مِن إدْماجِ ذِكْرِ الجِهادِ التَّنويهُ بفضْلِ المؤمنينَ المجاهِدينَ، وتَحريضُ الَّذين دخَلوا في الإيمانِ على الاستعدادِ إلى الجِهادِ[3].

- وفي قولِه: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ قصْرٌ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ أيضًا[4]، أي: هم الصَّادقونَ لا أنتُم في قَولِكم: ﴿آمَنَّا﴾[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) ١٤/ ٥١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٦٧).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أُعيدَ فِعلُ ﴿ قُلْ ﴾؛ لِيَدُلَّ على أنَّ المَقولَ لهم هذا همُ الأعرابُ الَّذين أُمِرَ أنْ يقولَ لهم: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ إلى آخِرِه، فأُعِيدَ لَمَّا طالَ الفصْلُ بيْنَ القولَينِ بالجُمَلِ المُتتابِعةِ؛ فهذا مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤] اتِّصالَ البيانِ بالمُبيَّنِ؛ ولذلك لم تُعطَفْ جُملةُ الاستِفهامِ. وجُملةُ (قُلْ) مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتينِ المُبيَّنةِ والمُبيِّنةِ[١].

- قولُه: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ قولُه: ﴿ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ ﴾، أيْ: أتُخبِرونَه بذلكَ بقولِكم: ﴿ءَامَنَّا﴾؟! والتَّعبيرُ عَنْه بالتَّعليمِ؛ لغايةِ تَشنيعِهم[٢]، والتَّعليمُ مُبالَغةٌ في إيصالِ العِلمِ إلى المُعلَّمِ؛ لأنَّ صِيغةَ التَّفعيلِ تَقتضي قوَّةً في حُصولِ الفِعلِ، وهذا يُفيدُ أنَّهم تَكلَّفوا وتَعسَّفوا في الاستِدلالِ على خُلوصِ إيمانِهم؛ ليُقنِعوا به الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي أبلَغَهم أنَّ اللهَ نَفَى عنْهم رُسوخَ الإيمانِ، فمُحاوَلةُ إقناعِه تَدَلٍّ إلى مُحاوَلةِ إقناعِ اللهِ بما يَعلَمُ خِلافَه[٣]!

- والاستِفهامُ في ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والإنكارِ، وقد أيَّدَ التَّوبيخَ والإنكارَ بجُملةِ الحالِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾، أي: أتُخبِرونَه به بقولِكم: آمَنَّا، واللهُ يعلمُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لا يَخفَى عليه خافيةٌ؟! وفي هذا تَجْهيلٌ لهم وتَوبيخٌ؛ إذ حاوَلوا إخفاءَ باطِنِهم عن المُطَّلِعِ على كلِّ شيءٍ[٤]! وذلك على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور))

قولٍ في التَّفسيرِ.

- وباءُ ﴿بِدِينِكُمْ﴾ صِلةٌ؛ لتأكيدِ لُصوقِ الفِعلِ بمَفعولِه[١].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذْييلٌ مُقرِّرٌ لِمَا قبْلَه، أيْ: مبالِغٌ في العِلمِ بجميعِ الأشياءِ الَّتي مِن جُملتِها ما أخفَوهُ مِن الكُفرِ عندَ إظهارِهم الإيمانَ، وفيه مَزيدُ تَجْهيلٍ وتوبيخٍ لهم[٢]. وذلك على القولِ بأنَّهم كانوا منافِقينَ.

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ[٣].

- وجِيءَ بالمُضارعِ في ﴿يَمُنُّونَ﴾، معَ أنَّ مَنَّهم بذلك حصَلَ فيما مَضَى؛ لاستِحضارِ حالةِ مَنِّهم؛ كيف يَمُنُّون بما لم يَفعَلوا؟! وجِيءَ بالمُضارعِ في قولِه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾؛ لأنَّه مَنٌّ مَفروضٌ؛ لأنَّ المَمْنونَ به لَمَّا يَقَعْ، وفيه مِن الإيذانِ بأنَّه سيَمُنُّ عليهم بالإيمانِ ما في قولِه: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، وهذا مِن التَّفنُّنِ البَديعِ في الكلامِ؛ ليَضَعَ السَّامعُ كلَّ فنٍّ منه في قَرارِه[٤].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قولِه: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾؛ لإفادةِ التَّقويةِ[٥].

- وقد أُضِيفَ الإسلامُ إلى ضَميرِهم ﴿أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾؛ لأنَّهم أتَوا بما يُسمَّى

---

(٢٦/ ٢٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إسلامًا؛ لقولِه: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤]. وأُتِي بالإيمانِ مُعرَّفًا بلامِ الجنسِ ﴿هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾؛ لأنَّه حقيقةٌ في حدِّ ذاتِه، وأنَّهم مُلابِسوها[١].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ جَوابُ الشَّرطِ محذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، تَقديرُه: إنْ كنتُم صادِقينَ في ادِّعائِكم الإيمانَ، فلِلَّهِ المِنَّةُ عليكم[٢].

- وفي سِياقِ الآيةِ لُطفٌ ورَشاقةٌ؛ وهو أنَّهم لَمَّا قالوا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ءَامَنَّا﴾ كما حكاهُ اللهُ آنِفًا، سمَّاهُ هُنا إسلامًا؛ لقولِه: ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، أي: إنَّ الَّذي مَنُّوا به عليك إسلامٌ لا إيمانٌ. وأثبَتَ بحرْفِ (بل) أنَّ ما مَنُّوا به إنْ كان إسلامًا حقًّا مُوافِقًا للإيمانِ؛ فالمِنَّةُ للهِ لأنْ هَداهُم إليه، فأسْلَموا عن طَواعيةٍ. وسمَّاهُ إيمانًا مُجاراةً لزَعْمِهم؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ كَونِ المِنَّةِ للهِ؛ فمُناسَبةُ مُسايَرةِ زَعْمِهم أنَّهم آمَنوا، أي: لو فُرِضَ أنَّكم آمنْتُم كما تَزْعمون، فإنَّ إيمانَكم نِعمةٌ أنعَمَ اللهُ بها عَليكم؛ ولذلك ذيَّلَه بقَولِه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾؛ فنَفى أوَّلًا أنْ يكونَ ما يَمُنُّون به حقًّا، ثمَّ أفادَ ثانيًا أنْ يكونَ الفضْلُ فيما ادَّعَوه لهم لو كانوا صادِقينَ، بل هو فضْلُ اللهِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَذييلٌ؛ ذُيِّلَ تَقويمُهم على الحقِّ بهذا التَّذييلِ ليَعلَموا أنَّ اللهَ لا يُكتَمُ، وأنَّه لا يُكذَبُ؛ لأنَّه يَعلَمُ كلَّ غائبةٍ في السَّماءِ والأرضِ؛ فإنَّهم كانوا في الجاهليَّةِ لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٠).

تَخطُرُ ببالِ كثيرٍ منهم أُصولُ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ، ورُبَّما عَلِمَها بعضُهم[١]. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: ما غابَ فيهما، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ في سرِّكم وعلانيتِكم، فكيفَ يخفَى عليه ما في ضَمائرِكم[٢]؟!

- وتأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إِنَّ)؛ لأنَّهم بحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ يَعلَمُ الغَيبَ، فكذَبوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع عِلمِهم أنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ، فكان كَذِبُهم عليه مِثلَ الكذِبِ على اللهِ[٣]. وذلك بِناءً على أنَّهم كانوا مُنافقينَ.

- وقد أفادتْ هذه الجُملةُ تأْكيدَ مَضمونِ جُملَتَي ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٦]، ولكنَّ هذه زادَتْ بالتَّصريحِ بأنَّه يَعلَمُ الأمورَ الغائبةَ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ العُمومَينِ في الجُملتَينِ قَبْلَها عُمومانِ عُرفيَّانِ قياسًا على عِلمِ البشرِ[٤].

- وخِتامُ سُورةِ الحُجراتِ بهذِه الآية الجليلةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ مع الْتِئامِه بما قبْلَه: فيه تَقريرُ ما في أوَّلِ السُّورةِ، وهو قولُه تعالَى: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الحجرات: ١]؛ فإنَّه لا يخفَى عليه سِرٌّ؛ فلا تَتْرُكوا خَوفَه في السِّرِّ، ولا يَخفَى عليه علَنٌ؛ فلا تأْمَنوه في العَلانيةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٨).

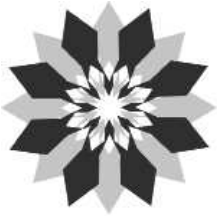

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ ق

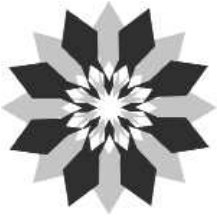

# سُورةُ ق

## أسماءُ السُّورة:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ ﴿قٓ﴾، و﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾[1]، وممَّا يدُلُّ على ذلك:

١- أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ سَألَ أبا واقِدٍ اللَّيثيَّ: ((ما كان يَقرَأُ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الأَضحَى والفِطرِ، فقال: كان يَقرَأُ فيهما بـ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]))[2].

٢- عن أمِّ هِشامٍ بِنتِ حارِثةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالتْ: ((لقدْ كان تَنُّورُنا[3] وتَنُّورُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ واحِدًا سَنَتينِ أو سَنةً وبَعضَ سَنةٍ، وما أَخذْتُ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلَّا عن لِسانِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ يَقرَؤُها كُلَّ يومِ جُمُعةٍ[4] على المِنبَرِ إذا خَطَبَ النَّاسَ))[5].

---

(١) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بـ ﴿قٓ﴾، أو: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾؛ لافتِتاحِها بهما. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٧).

قال ابنُ عاشور: (وهي مِنَ السُّوَرِ التي سُمِّيَت بأسماءِ الحُروفِ الواقِعةِ في ابتدائِها، مِثلُ: ﴿طه﴾، و﴿صٓ﴾، و﴿قٓ﴾، و﴿يسٓ﴾؛ لانفِرادِ كُلِّ سُورةٍ منها بعدَدِ الحُروفِ الواقِعةِ في أوائِلِها، بحيثُ إذا دُعِيَت بها لا تلتَبِسُ بسُورةٍ أُخرى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨٩١).

(٣) التَّنُّور: الَّذي يُخْبَزُ فيه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٩٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٤/ ٩٥).

(٤) قيل: المرادُ يَقرأُ أولَ السُّورةِ لا جميعَها. وقيل: كان يَقرأُ في كُلِّ جُمعةٍ بعضَها، فحَفِظَت الكلَّ. وقيل: لعلَّ المرادَ جُمُعاتٌ حضَرَت أمُّ هشامٍ فيها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١٠٤٤)، ((لمعات التنقيح في شرح مشكاة المصابيح)) للدهلوي (٣/ ٥٢٣).

(٥) أخرجه مسلم (٨٧٣).

وفي رِوايةٍ: ((مَا حَفِظْتُ ﴿قٓ﴾ إلَّا مِنْ فِي رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ...))[١].

٣- عن جابِرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كان يَقرَأُ في الفَجرِ بـ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾، وكانتْ صلاتُه بَعْدُ تخفيفًا))[٢].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- يُستَحَبُّ قِراءتُها على المِنبَرِ يَومَ الجُمُعةِ:

عن أمِّ هِشامٍ بنتِ حارِثةَ رَضِيَ اللهُ عنها قالت: ((ما أَخذْتُ ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلَّا عن لِسانِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ يَقرَؤُها كُلَّ يومِ جُمُعةٍ على المِنبَرِ إذا خَطَبَ النَّاسَ))[٣].

٢- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن صَلاةِ العِيدِ:

عن أبي واقِدٍ اللَّيثيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: كان يَقرَأُ في الفِطرِ والأضْحَى بـ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١]، و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]))[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤٥٨).

(٣) تقَدَّم تخريجُه قريبًا.

قال النَّووي: (قال العُلَماءُ: سَبَبُ اختيارِ ﴿قٓ﴾ أنَّها مُشتَمِلةٌ على البَعثِ والمَوتِ، والمواعِظِ الشَّديدةِ، والزَّواجِرِ الأكيدةِ...، وفيه استِحبابُ قِراءةِ ﴿قٓ﴾ أو بَعضِها في كُلِّ خُطبةٍ). ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٦١).

(٤) تقَدَّم تخريجُه قريبًا.

وقال ابنُ كثير: (والقَصدُ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ بهذه السُّورةِ في المجامِعِ الكِبارِ، كالعِيدِ والجُمَعِ؛ لاشتِمالِها على ابتِداءِ الخَلقِ، والبَعثِ والنُّشورِ، والمَعادِ والقِيامِ، =

٣- أنَّ سُورةَ (ق) هي أوَّلُ المُفَصَّلِ[١]، على ما رَجَّحه بَعضُ أهلِ العِلمِ[٢].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ ﴿قٓ﴾ مَكِّيَّةٌ[٣]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٤].

---

= والحِسابِ، والجنَّةِ والنَّارِ، والثَّوابِ والعِقابِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٣).

(١) قال السُّيوطي: (والمُفَصَّلُ ... سُمِّيَ بذلك لكَثرةِ الفُصولِ التي بيْنَ السُّوَرِ بالبَسملةِ. وقيلَ: لقِلَّةِ المنسوخِ منه؛ ولهذا يُسَمَّى بالمُحْكَمِ أيضًا، كما روَى البُخاريُّ [٥٠٣٥] عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ قال: «إنَّ الذي تَدْعونَه المُفَصَّلَ هو المُحكَمُ»، وآخِرُه سورةُ النَّاسِ بلا نِزاعٍ. واختُلِفَ في أوَّلِه على اثنَي عَشَرَ قَولًا). ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ٢٢١).

(٢) وممَّن اختار أنَّ المُفَصَّلَ يَبدأُ مِن سُورةِ ﴿قٓ﴾ إلى آخِرِ القُرآنِ: أبو الوَليدِ ابنُ رُشدٍ الجَدُّ، وابنُ كثيرٍ، والبقاعيُّ، وابن حَجرٍ، ومَرعي الكرميُّ، والشَّوكاني. يُنظر: ((البيان والتحصيل)) لابن رشد الجد (١/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ١٩٥)، ((قلائد المرجان)) لمرعي (ص: ١٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٣).

وقال الزَّرْكشيُّ: (والصَّحيحُ عندَ أهلِ الأثَرِ أنَّ أوَّلَه ﴿قٓ﴾). ((البرهان في علوم القرآن)) (١/ ٢٤٦). ويُنظر: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٢/ ٥٥).

وقال ابنُ حجر: (واختُلِفَ في أوَّلِ المُفَصَّلِ مع الاتِّفاقِ على أنَّه آخِرُ جُزءٍ مِنَ القُرآنِ). ((فتح الباري)) (٩/ ٨٤).

وقال السُّيوطيُّ: (فائِدةٌ: للمُفَصَّلِ طِوالٌ وأوساطٌ وقِصارٌ؛ قال ابنُ مَعْنٍ: فطِوالُه إلى ﴿عَمَّ﴾، وأوساطُه منها إلى «الضُّحَى»، ومنها إلى آخِرِ القُرآنِ قِصارُه. هذا أقرَبُ ما قيلَ فيه). ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ٢٢٢).

(٣) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا قَولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨]، فمَدَنيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٩).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٣٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٧).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

تقريرُ أُصولِ الإيمانِ: البَعثُ والنُّشورُ، والنبُوَّةُ[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أبرزِ الموضوعاتِ التي اشتَمَلت عليها هذه السُّورةُ:**

١- الثَّناءُ على القُرآنِ الكريمِ، والتَّنويهُ بشَأنِه.

٢- ذِكرُ دَعاوَى المُشرِكينَ وإنكارِهم للنبُوَّةِ والبَعثِ، والرَّدُّ عليهم.

٣- الحَثُّ على النَّظَرِ في خَلقِ السَّمَواتِ وما فيها، وخَلقِ الأرضِ وما عليها، ونَشأةِ النَّباتِ والثِّمارِ، وأنَّ ذلك مَثَلٌ للإحياءِ بعدَ الموتِ.

٤- التَّذكيرُ بسُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ السَّابِقينَ، وما استحَقُّوا مِن وَعيدٍ وعَذابٍ.

٥- التَّذكيرُ بعِلمِ اللهِ تعالَى الشَّامِلِ لكُلِّ شَيءٍ.

٦- ذِكرُ سكراتِ الموتِ ومشاهدَ مِن يومِ القيامةِ وأهوالِها، وما يَجري فيها.

٧- وَعْدُ المُؤمِنينَ بالجَنَّةِ في الآخِرةِ، مع ذِكرِ أهَمِّ صِفاتِهم.

٨- تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عمَّا أصابه مِن قَومِه، وإرشادُه إلى ما يُعينُه على مُداوَمةِ الصَّبرِ؛ مِنَ التَّسبيحِ آناءَ اللَّيلِ، وأطرافَ النَّهارِ، وأدبارَ السُّجُودِ.

٩- أمرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالتذكيرِ بالقرآنِ مَن يخافُ وعيدَ الله ويخشَى عقابَه.

١٠- أمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالتَّذكيرِ بالقُرآنِ مَن يَخافُ وَعيدَ اللهِ تعالى، ويَخشَى عِقابَه.

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٥).

## الآيات (١-٥)

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾: أي: الكَريمِ، الشَّريفِ، والمَجْدُ: بُلوغُ النِّهايةِ في الكرَمِ، ووُصِف القرآنُ بذلك لكثرةِ ما يَتضمَّنُ مِن المكارمِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، والمجدُ أيضًا: الشَّرفُ الواسِعُ، وأصلُ (مجد): يدُلُّ على بُلوغِ النِّهايةِ، ولا يكونُ إلَّا في محمودٍ[1].

﴿مُّنذِرٞ﴾: أي: مُحَذِّرٌ ومُخَوِّفٌ، وأصْلُ الإنذارِ: إخبارٌ فيه تخويفٌ[2].

﴿رَجۡعُۢ﴾: أي: إعادةٌ، يُريدون البَعثَ بعدَ الموتِ، وأصْلُ (رجع): يدُلُّ على ردٍّ وتَكرارٍ[3].

﴿مَّرِيجٍ﴾: أي: مُختَلِطٍ، وأصْلُ (مرج): يدُلُّ على الخَلطِ[4].

### المعنى الإجماليُّ:

يَبتدئُ اللهُ تعالَى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأحَدِ الحُروفِ المُقَطَّعةِ، التي تأتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٧٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧١)، ((غريب القرآن)) للسِّجستاني (ص: ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧).

لبَيانِ إعجازِ هذا القُرآنِ. ثمَّ يُقسِمُ تعالَى بالقُرآنِ الكريمِ الواسِعِ المعاني، ذي الصِّفاتِ العَظيمةِ.

ثمَّ يقولُ سُبحانَه: بلْ تَعَجَّب المشركون واستَنكَروا مَجيءَ رَسولٍ مِنَ البَشَرِ يُحَذِّرُهم مِن عَذابِ اللهِ تعالَى، فقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنَّه لشَيءٌ عَجيبٌ أنْ يأتيَنا رَسولٌ مِنَ البَشَرِ، أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا نُبعَثُ أحياءً بعدَ ذلك؟! إنَّ ذلك الرُّجوعَ إلى الحياةِ مرَّةً أخرَى بَعيدٌ وقوعُه!

ثمَّ يرُدُّ اللهُ تعالَى عليهم، فيقولُ: قدْ عَلِمْنا ما تَأكُلُ الأرضُ مِن أجسادِهم بعدَ مَوتِهم، وعِندنا كِتابٌ حافِظٌ لكلِّ شَيءٍ، مَحفوظٌ مِن الشَّياطينِ ومِن التَّغيُّرِ.

ثمَّ يَكشِفُ اللهُ تعالَى عن حَقيقةِ أمْرِهم، فيقولُ: بلْ كَذَّبوا بالقُرآنِ حينَ جاءَهم؛ فهُم في أمْرٍ مُختلِطٍ مُلتبِسٍ عليهم!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١﴾.

﴿قٓ﴾.

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهذا الحرفِ مِن الحُروفِ المقطَّعةِ التي تُستفتَحُ بها كثيرٌ مِن سُوَرِ القرآنِ لبيانِ إعجازِه؛ حيثُ تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، معَ أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثونَ بها[1].

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾.

أي: أُقْسِم بالقُرآنِ الكريمِ، الواسِعِ المعاني، الشَّريفِ، ذي الصِّفاتِ العظيمةِ الكامِلةِ[2].

---

(١) يُنظر ما تَقدَّم في تفسيرِ سُورةِ البَقَرةِ (١/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

أي: بلْ[1] تَعَجَّبوا واستَنكَروا مَجيءَ رَسولٍ مِنَ البَشَرِ يُحَذِّرُهم مِن عَذابِ اللهِ

---

= (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣).

قال السَّمين الحلَبيُّ: (قولُه: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ﴾: قَسَمٌ. وفي جَوابِه أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه قولُه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾. الثاني: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ﴾. الثالثُ: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾. الرابعُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾. الخامسُ: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾. وهو قولٌ كوفيٌّ؛ قالوا: لأنَّه بمعنى «قدْ عَجِبوا». السادس: أنَّه مَحذوفٌ، فقدَّره الزجَّاج والأخفشُ والمبرِّدُ «لَتُبْعَثُنَّ»). ((الدر المصون)) (١٠/ ١٧).

ويُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٢٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤١).

وقال ابنُ كَثير: (الجَوَابُ هو مَضْمونُ الكلامِ بعْدَ القَسَمِ، وهو إثْباتُ النُّبوَّةِ، وإثباتُ المَعادِ، وتَقْرِيرُه وتَحقيقُه وإنْ لمْ يَكُنِ القَسَمُ مُتلقًّى لفظًا، وهذا كثيرٌ في أقْسامِ القُرآنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٢، ٤٢٧).

وقيل: الجوابُ هو الَّذي وقَعَ عنه الإضرابُ بـ﴿بَلْ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢]، يعني كأنَّه قال: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ ما رَدُّوا أمْرَك بحُجةٍ، أو ما كذَّبوك ببُرهانٍ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٥).

وقال ابنُ القَيِّم: (هاهنا قد اتَّحَد المُقسَمُ به والمُقسَمُ عليه، وهو القُرآنُ؛ فأقسَمَ بالقُرآنِ على ثُبوتِه وصِدقِه، وأنَّه حَقٌّ مِن عِندِه؛ ولذلك حُذِفَ الجُوابُ ولم يُصَرَّحْ به؛ لِما في القَسَمِ مِن الدَّلالةِ عليه، أو لأنَّ المقصودَ نَفسُ المُقسَمِ به). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٤٢٥).

وقال ابنُ عُثَيمين: (وأظهَرُ ما يكونُ أنْ نقولَ: إنَّ مِثلَ هذا التركيبِ لا يَحتاجُ إلى جَوابِ القَسَمِ؛ لأنَّه معروفٌ مِن عَظَمةِ المُقسَمِ عليه، فكأنَّه أقسَمَ بالقُرآنِ على صِحَّةِ القُرآنِ؛ فالقُرآنُ المَجيدُ لِكَونِه مجَيدًا كان دَليلًا على الحَقِّ، وأنَّه مُنَزَّلٌ مِن عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وحينَئذٍ لا يَحتاجُ القَسَمُ إلى جوابٍ؛ لأنَّ الجَوابَ في ضِمنِ القَسَمِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٢).

(١) قال الشَّوكاني: (﴿بَلْ﴾ لِلإضْرابِ عن الجوابِ على اختِلافِ الأقوالِ، و﴿أَن﴾ في مَوضِعِ =

تعالى[1].

= نَصْبٍ على تقديرِ: لِأَنْ جاءَهم. والمعنى: بلْ عَجِبَ الكفَّارُ لِأَنْ جاءهُم مُنذِرٌ منهم، وهو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولم يَكْتَفوا بمُجَرَّدِ الشَّكِّ والرَّدِّ، بلْ جَعَلوا ذلك مِن الأمورِ العجيبةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٤).

وقال القاسميُّ: (وقيل: هو إضرابٌ عمَّا يُفهَمُ مِن وَصفِ القُرآنِ بالمَجيدِ، كأنَّه قيل: ليس سَبَبُ امتِناعِهم من الإيمانِ بالقُرآنِ أنَّه لا مَجْدَ له، ولكِنْ لجَهْلِهم). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٦).

وقال ابنُ عادلٍ: (إذا ترَكَ المتكلِّمُ المُضْرَبَ عنه صريحًا وأتى بحرفِ الإضرابِ، اسْتُفِيدَ منه أمرانِ:

أحدُهما: الإشارةُ إلى أمْرٍ آخَرَ قبْلَه مُضرَبٌ عنه.

والثاني: عِظَمُ التَّفاوتِ بيْنهما، وهاهنا كذلك؛ لأنَّ الشَّكَّ بعْد قيامِ البُرهانِ بعيدٌ، لكنَّ القطعَ بخلافِه في غايةِ ما يكون مِن البُعدِ، فالعجَبُ منه أبعَدُ). ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٩)، ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨-٢٧٩).

قال ابنُ عطيةَ: (واختَلَف النَّاسُ في الضَّميرِ في ﴿عَجِبُوٓاْ﴾ لِمَن هو؟ فقال جمهورُ المتأوِّلينَ: هو لجَميعِ النَّاسِ مُؤمِنِهم وكافِرِهم... لكِنِ المُؤمِنونَ نَظَروا واهتَدَوا، والكافِرونَ بَقُوا في عَمايتِهم وصَمُّوا وحاجُّوا بذلك العَجَبِ؛ ولذلك قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ﴾. وقال آخَرونَ: بل الضَّميرُ في ﴿عَجِبُوٓاْ﴾ للكافِرينَ، وكَرَّر الكلامَ تأكيدًا ومُبالَغةً). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٦).

قيلَ المرادُ بالآيةِ: تعجُّبُهم من مَجيءِ رَسولٍ بَشَريٍّ إليهم. وممَّن اختارَه: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨-٢٧٩).

قال السَّعدي: (مِن جِنسِهم، يُمكِنُهم التلقِّي عنه، ومعرفةُ أحوالِه وصِدقِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣).

وقيل: المرادُ بـ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: مِن قَومِهم، قد عرَفوا نسَبَه وصِدقَه وأمانتَه. وممَّن اختارَه في الجُملةِ: السَّمرقنديُّ، والثَّعلبيُّ، والبَغويُّ، والزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، والخازنُ، وهو ظاهِرُ اختيار البقاعيِّ، وابن عُثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦١)، ((تفسير =

كما قال الله تعالَى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾

أي: فقال كُفَّارُ قُرَيشٍ: إنَّه لشَيءٌ مُستغرَبٌ ومُستبعَدٌ أنْ يَأتيَنا رَسولٌ مِنَ البَشَرِ يُنذِرُ بعَذابٍ بعدَ الموتِ[1]!

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أظهَرَ الكافِرونَ العَجَبَ مِن رِسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أظهَروا استِبعادَ ما أخبَرَهم به[2].

وأيضًا لَمَّا كان المتعَجَّبُ منه مُجمَلًا، أوضَحَه بقَولِه[3]:

---

= الخازن)) (٤/ ١٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٣-٤٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨-٢٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٥).

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: أئِذا مِتْنا وصِرْنا تُرابًا نُبعَثُ أحياءً بعْدَ ذلك، ونَرى ما وُعِدْنا مِن العَذابِ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ * قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٨١ - ٨٣].

﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾.

أي: قال المُشرِكونَ: رَدُّنا أحياءً بعدَ مَوتِنا وصَيْرورتِنا تُرابًا وعِظامًا، بَعيدٌ وقوعُه، ومحالٌ حُدوثُه[2]!

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قبْلَها:**

لَمَّا كان السِّياقُ لإحاطةِ العِلمِ بما نَعلَمُ وما لا نَعلَمُ، توقَّع السَّامعُ الجوابَ عن هذا الجَهلِ؛ فقال مُزيلًا لسَببِه[3]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٢، ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٤).

قال ابنُ عُثَيمين: (يَحسُنُ عندَ التِّلاوةِ أن تَقِفَ على قَولِه: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾؛ لأنَّ قَولَه: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ جملةٌ استِئنافيَّةٌ لا عَلاقةَ لها مِن حيثُ الإعرابُ بما قَبْلَها). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٤). ويُنظر: ((القطع والائتناف)) للنحَّاس (ص: ٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٥).

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾.

أي: قدْ عَلِمْنا ما تَأْكُلُ الأرضُ مِن أجسادِهم بعدَ مَوتِهم، ولا يَخْفى علَيْنا شَيءٌ مِن أجزاءِ أجسامِهم المتفرِّقةِ؛ فلا يظُنَّ الكافِرونَ أنَّنا غيرُ قادِرينَ على إحيائِهم إذا ماتوا وصاروا تُرابًا[١].

عن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((ليْس مِنَ الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلَى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ[٢]، ومنه يُركَّبُ الخَلْقُ يومَ القِيامةِ))[٣].

وعن أَوسِ بنِ أَوسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((إنَّ مِن أفضَلِ أيَّامِكم يومَ الجُمُعةِ؛ فيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه النَّفخةُ، وفيه الصَّعقةُ، فأكثِروا علَيَّ مِن الصَّلاةِ فيه؛ فإنَّ صَلاتَكم مَعروضةٌ عليَّ. فقال رجلٌ: يا رَسولَ اللهِ، كيف تُعرَضُ صَلاتُنا عليك وقد أَرَمْتَ؟! -يعني: بَلِيتَ- فقال: إنَّ اللهَ حَرَّم على الأرضِ أنْ تَأْكُلَ أجسادَ الأنبياءِ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠-٢٨١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٤).

(٢) عَجْبُ الذَّنَبِ: هو العَظْمُ اللَّطيفُ الَّذي في أسفلِ فَقارِ الظَّهرِ، وأعْلَى ما بينَ الأَلْيَتَينِ، وهو رأسُ العُصعُصِ. يُنظر: ((التعليق على الموطأ)) للوقشي (١/ ٢٦٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ٩٢)، ((طرح التثريب)) للعراقي (٣/ ٣٠٧).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٩٣٥)، ومسلمٌ (٢٩٥٥).

(٤) أخرجه أبو داود (١٠٤٧)، والنَّسائيُّ (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٦٣٦) واللفظ له، وأحمد (١٦١٦٢). صَحَّحه على شرْط الشَّيخينِ: الحاكمُ في ((المستدرك)) (٥/ ٧٧٦)، ومحمد بن عبد الهادي في ((الصارم المُنْكي)) (٣٣٦)، وابن باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (٢/ ٢٠٦)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٦٣٦)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ٥٤٨)، وذكَرَ ثُبوتَه ابنُ تيميَّة في ((حقوق آل البيت)) (٦٠)، وصحَّحه لغيره شُعيبٌ الأرناؤوط في =

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾.

أي: وعِندنا كِتابٌ يَحوي كلَّ شَيءٍ، وحافِظٌ لكلِّ شَيءٍ، وهو مَحفوظٌ مِن الشَّياطينِ ومِن التغيُّرِ(١).

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾.

---

= تخريج ((سنن أبي داود)) (١٠٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥).

قال الرازيُّ: (الحَفيظُ: يحتَمِلُ أنْ يكونَ بمعنى المحفوظِ، أي: مَحفوظٌ مِن التغييرِ والتبديلِ، ويحتَمِلُ أنْ يكونَ بمعنى الحافِظِ، أي: حافِظٌ أجزاءَهم وأعمالَهم، بحيث لا يَنسى شيئًا منها). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٥).

وقيل: هو محفوظٌ من الشَّياطينِ. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: مُقاتلُ بنُ سُليمان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: مَحفوظٌ مِن الشَّياطينِ، ومِن أنْ يُدرَسَ ويُبعثَرَ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ: الثَّعلبيُّ، والبَغويُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٠).

وممَّن اختار أنَّ ﴿حَفِيظٌۢ﴾ بمعنى حافظٍ: القُرطبيُّ، والشَّوكاني، وابن عُثَيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠١).

قال البقاعيُّ: (أي: بالِغٌ في الحِفظِ لا يَشِذُّ عنه شَيءٌ مِن الأشياءِ دَقَّ أو جَلَّ، فكيف يَستبعِدونَ على عظَمَتِنا أنْ نَقدِرَ على تَمييزِ تُرابِهم مِن تُرابِ الأرضِ، ولم يَختلِطْ في عِلْمِنا شيءٌ مِن جُزءٍ منه بشَيءٍ مِن جُزءٍ آخَرَ، فَضلًا عن أنْ يختَلِطَ شَيءٌ منه بشَيءٍ آخَرَ مِن تُرابِ الأرضِ أو غيرِها). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٠٦).

وقال العُلَيمي: (﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ مَحفوظٌ مِن الشياطينِ، جامعٌ لم يَفُتْه شيءٌ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨٠).

أي: بلْ[١] سارَعوا إلى التَّكذيبِ بالقُرآنِ حينَ جاءَهم[٢].

﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٖ مَّرِيجٍ﴾.

أي: فهُم في أمْرٍ مُختلِطٍ مُضطَرِبٍ مُلتبِسٍ عليهم[٣].

---

(١) قال الشَّوكاني: (أضْرَب سُبحانَه عن كَلامِهم الأوَّلِ، وانْتَقَل إلى ما هو أشنعُ منه فقالَ: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ﴾؛ فإنَّه تصريحٌ منهم بالتكذيبِ بعدَ ما تقدَّم عنهم مِن الاستبعادِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٥). يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٤).

وقال ابنُ عُثَيمين: (﴿بَلْ﴾ هنا للإضرابِ الانتقاليِّ، ولَيستْ للإضرابِ الإبطاليِّ؛ لأنَّ الأوَّلَ ثابِتٌ، والثَّانيَ زائِدٌ عليه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥).

وقال ابنُ عطيةَ: (وقبْلَ قَولِه: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ﴾ مُضمَرٌ، عنه وقَع الإضرابُ، تقديرُه: ما أجادوا النَّظَرَ، أو نحوُ هذا، والَّذي يَقَعُ عنه الإضرابُ بـ﴿بَلْ﴾ الأغلَبُ فيه أنَّه مَنفيٌّ تَقضي «بَلْ» بفَسادِه، وقدْ يكونُ أمرًا موجَبًا تَقضي «بَلْ» بتَركِ القَولِ فيه لا بفَسادِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٧).

وقيل: المضروبُ عنه تقديرُه: لم يَكذِبِ المُنذِرُ، بلْ هم الَّذين كَذَّبوا؛ فإنَّه تعالَى لَمَّا قال عنهم: إنَّهم قالوا: هذا شيءٌ عَجيبٌ، كان في معنى قولِهم: إنَّ المُنذِرَ كاذِبٌ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥).

قال الماوردي: («الحقُّ» يعني القرآنَ في قَولِ الجميعِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٥، ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٥).

قال ابنُ القيِّم: (لَمَّا تَرَكوا الحَقَّ وعَدَلوا عنه مَرَج عليهم أمرُهم والتَبَس، فلا يَدرونَ ما يقولونَ وما يَفعلونَ، بلْ لا يقولونَ شيئًا إلَّا كان باطِلًا، ولا يَفعلونَ شَيئًا إلَّا كان ضائِعًا غيرَ نافعٍ لهم، وهذا شأنُ كُلِّ مَن خرَج عن الطَّريقِ الموصِلِ إلى المقصودِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٢٧-١٢٨).

وقال السِّعديُّ: (فتارةً يقولونَ عنك: إنَّك ساحِرٌ، وتارةً مجنونٌ، وتارةً شاعِرٌ، وكذلك جعَلوا القُرآنَ عِضِينَ؛ كُلٌّ قال فيه ما اقتضاهُ رأيُه الفاسِدُ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٣).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ * يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ فهو وَسيعُ المعاني عَظيمُها، كَثيرُ الوُجوهِ، كَثيرُ البَرَكاتِ، جَزيلُ المبَرَّاتِ، والمجدُ: سَعةُ الأوصافِ وعَظَمتُها، وأحَقُّ كَلامٍ يُوصَفُ بهذا: هذا القُرآنُ الذي قدِ احتوى على عُلومِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، الذي حَوى مِنَ الفَصاحةِ أكمَلَها، ومِنَ الألفاظِ أجزَلَها، ومِنَ المعاني أعَمَّها وأحسَنَها، وهذا مُوجِبٌ لكَمالِ اتِّباعِه، وسُرعةِ الانقيادِ له، وشُكرِ اللهِ على المِنَّةِ به[١]. وقيل: المجْدُ صِفةُ العَظَمةِ والسُّلطانِ، فالقُرآنُ مَجيدٌ ذو غَلَبةٍ وذو سُلطانٍ، يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، مَن تمسَّك به فله العِزَّةُ وله الغَلَبةُ، والمجدُ هو العِزَّةُ والسُّلطانُ والقُوَّةُ، فالقُرآنُ مَجيدٌ، ومَن تمسَّك بالمَجيدِ كان مَجيدًا عَظيمًا[٢].

٢- مَن رَدَّ الحَقَّ مَرَجَ عليه أمرُه، واختَلَطَ عليه، والْتبَسَ عليه وَجهُ الصَّوابِ؛ فلم يَدْرِ أين يذهَبُ، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[٣]، فكلُّ إنسانٍ يَرُدُّ الحقَّ أوَّلَ مرَّةٍ فلْيَعلَمْ أنَّه سيُبتلَى بالشَّكِّ والرَّيبِ في قَبولِ الحقِّ في المُستَقبَلِ؛ فهؤلاء لَمَّا كَذَّبوا صاروا في أمْرٍ مَريجٍ، الْتبَسَ عليهم الأمرُ وتَرَدَّدُوا فيه. وبَعضُ النَّاسِ حينَ يُقالُ له: أَمَرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بهذا، يَقولُ: الأمرُ للوُجوبِ أمْ للاستِحبابِ؟! ويَقصِدُ: إذا كان للاستِحبابِ فأنا في حِلٍّ منه، وإذا كان للوُجوبِ فعَلْتُه! وهذا خَطأٌ، ولكِنْ قُلْ: سَمِعْنا وأطَعْنا، وافعَلْ ما أُمِرْتَ به سواءً على الوُجوبِ أو على الاستِحبابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٨٠٣).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٥).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٥).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ عَجَّب منهم هذا العَجَبَ بقَولِه: ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ لأنَّ العادةَ عِندَهم وعِندَ جميعِ النَّاسِ أنَّه إذا كان النَّذيرُ منهم لم يُداخِلْهم في إنذارِه شَكٌّ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ، وهؤلاء خالَفوا عادةَ النَّاسِ في تَعجُّبِهم مِن كَونِ النَّذيرِ -وهو أحَدُهم- خُصَّ بالرِّسالةِ دُونَهم، ولم يُدرِكوا وَجهَ الخُصوصيَّةِ لكونَه مِثْلَهم، فكذلك أنكَروا رِسالتَه وفَضْلَ كِتابِه بألسِنَتِهم نَفاسةً وحَسَدًا؛ لأنَّهم كانوا مُعترِفينَ بخَصائِصِه التي رفَعه اللهُ تعالَى عليهم بها قبْلَ الرِّسالةِ، فحَطَّهم عَجَبُهم ذلك إلى الحَضيضِ مِن دَرَكاتِ السَّفَهِ وخِفَّةِ الأحلامِ؛ لأنَّهم عَجِبوا أنْ كان الرَّسولُ بَشَرًا، وأوجَبوا أنْ يكونَ الإلهُ حَجَرًا! وعَجِبوا مِن أنْ يُعادوا مِن تُرابٍ وتَثبُتَ له الحياةُ، ولم يَعجَبوا أنْ يُبتَدَؤوا مِن تُرابٍ، ولم يكُنْ له أصلٌ في الحياةِ[1]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ يدُلُّ على البَعثِ، وقُدرتِه تعالَى عليه؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالَى عالمٌ بأجزاءِ كُلِّ واحدٍ مِن الموتَى، لا يَشتَبِهُ عليه جُزءُ واحِدٍ بجُزءِ الآخَرِ، وقادِرٌ على الجَمعِ والتَّأليفِ؛ فليس الرَّجعُ منه ببَعيدٍ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه يُعيدُ هذا الجَسَدَ بعَينِه، الَّذي أطاع وعَصى، فيُنَعِّمُه ويُعَذِّبُه، كما يُنَعِّمُ الرُّوحَ التي آمَنَتْ بعَينِها، ويُعَذِّبُ التي كَفَرَتْ بعَينِها، لا أنَّه سُبحانَه يَخلُقُ رُوحًا أُخرى غيرَ هذه فيُنَعِّمُها ويُعَذِّبُها، كما قاله مَن لم يَعرِفِ المعادَ الذي أَخبرَتْ به الرُّسُلُ؛ حيثُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٥).

زَعَمَ أنَّ اللهَ سُبحانَه يَخلُقُ بَدَنًا غيرَ هذا البَدَنِ مِن كلِّ وَجهٍ، عليه يَقَعُ النَّعيمُ والعَذابُ! فإنَّه سُبحانَه جَعَلَ هذا جَوابًا لسؤالٍ مُقَدَّرٍ؛ وهو أنَّه يُمَيِّزُ تلك الأجزاءَ التي اختَلَطَتْ بالأرضِ واستَحالتْ إلى العناصرِ بحيثُ لا تَتميَّزُ؛ فأخبَرَ سُبحانَه أنَّه قدْ عَلِمَ ما تَنقُصُه الأرضُ مِن لُحومِهم وعِظامِهم وأشعارِهم، وأنَّه كما هو عالِمٌ بتلك الأجزاءِ فهو قادِرٌ على تَحصيلِها وجَمعِها بعدَ تَفَرُّقِها، وتأليفِها خَلْقًا جديدًا[1].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: بناءً على هذا التَّكذيبِ صاروا في أمْرٍ مَريجٍ مُضطَرِبٍ، ليْس لهم قَرارٌ، وليْس لهم سُكونٌ؛ ولذلك تَجِدُ الإنسانَ كُلَّما كان أشَدَّ يَقينًا في دِينِ اللهِ كان أثبَتَ وأنظَمَ لعَمَلِه، وكُلَّما كان أشَدَّ تَكذيبًا كان دائِمًا في قَلَقٍ؛ ولذلك قال: ﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾[2].

٥- قال اللهُ تعالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ يُستفادُ مِن هذه الآيةِ: أنَّ مِمَّا يَفتَحُ اللهُ به على العَبدِ في مَعرفةِ الأحكامِ الشَّرعيَّةِ أنْ يكونَ مُصَدِّقًا مُوقِنًا؛ فكُلَّما كان مُصَدِّقًا مُوقِنًا فَتَحَ اللهُ له ما لا يَفتحُه لِغَيرِه، أمَّا مَن كان مُكَذِّبًا فإنَّ أبوابَ الهدايةِ تُغلَقُ دُونَه؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، والعِياذُ باللهِ![3]

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۞ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٥)، ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٦-١٥٧).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ قسَمٌ بالقُرآنِ، والقسَمُ به كِنايةٌ عن التَّنويهِ بشأْنِه؛ لأنَّ القسَمَ لا يكونُ إلَّا بعَظيمٍ عندَ المُقسِمِ؛ فكان التَّعظيمُ مِن لَوازمِ القَسَمِ، وأتْبَعَ هذا التَّنويهَ الكِنائيَّ بتَنويهٍ صَريحٍ بوصْفِ القرآنِ بـ﴿ٱلۡمَجِيدِ﴾؛ فالمَجيدُ المتَّصِفُ بقوَّةِ المجْدِ، والمجْدُ: الشَّرَفُ الكاملُ وكَرَمُ النَّوعِ، ودلَّت صِيغةُ المُبالَغةِ (مَجيد) على كَمالِ مَجْدِه[1].

- وجَوابُ القَسمِ مَحذوفٌ؛ لِتَذهَبَ نفْسُ السامعِ في تَقديرِه كلَّ طريقٍ مُمكنٍ في المَقامِ، ويدُلُّ عليه ابتداءُ السُّورةِ بحرْفِ (ق) المُشعِرِ بالنِّداءِ على عَجزِهم عن مُعارَضةِ القرآنِ بعدَ تَحدِّيهم بذلك، أو يَدلُّ عليه الإضرابُ في قَولِه: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾، والتَّقديرُ: والقُرآنِ المَجيدِ، إنَّك لَرسولُ اللهِ بالحقِّ، أو يُقدَّرُ الجوابُ: إنَّه لَتنزيلٌ مِن ربِّ العَالَمين، أو نحوُ ذلك[2]. وقيلَ غيرُ ذلك.

- وفي قَولِه: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ؛ أضرَبَ عن جَوابِ القسَمِ المحذوفِ لبيانِ حالتِهم الزَّائدةِ في الشَّناعةِ والقُبحِ، وهذا الإضرابُ يَقْتضي كَلامًا مُنتقَلًا منه، فتَعيَّنَ أنْ يُقدِّرَ السَّامعُ جَوابًا تَتمُّ به الفائدةُ يدُلُّ عليه الكلامُ، وهذا مِن إيجازِ الحذْفِ[3]، وحسَّنَه أنَّ الانتقالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨١).

وينظر ما تقدم (ص: ٣٦٧).

(٣) الإيجازُ: هو الاختِصارُ والجمْعُ للمعاني الكَثيرةِ بالألْفاظِ القليلةِ، وأداءُ المقصودِ مِن الكلامِ بأقلَّ مِن عباراتِ مُتعارَفِ الأوساطِ. ويكونُ الإيجازُ مَحمودًا إذا لم يُخِلَّ بالمقصودِ. وقيل: الإيجازُ حذْفُ الفُضولِ، وتقريبُ البعيدِ. وقيل عن البلاغة كُلِّها: هي إصابةُ المعنى، وحُسنُ الإيجازِ.

والإيجازُ نوعانِ: =

مُشعِرٌ بأهمَّيَّةِ المُنتقَلِ إليه، أي: عُدْ عمَّا تُريدُ تَقديرَه مِن جَوابٍ، وانتَقِلْ إلى بَيانِ سَببِ إنكارِهم الذي حَدَا بنا إلى القَسَمِ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في الإنكارِ إنكارًا لعجَبِهم البالِغِ حَدَّ الإحالةِ؛ فهو إنكارٌ لتَعجُّبِهم ممَّا ليس بعجَبٍ -وهو أنْ يُنذِرَهم بالمَخُوفِ رجُلٌ منهم قدْ عرَفوا وَساطتَه فيهم وعَدالتَه وأمانتَه، ومَن كان على صِفتِه لم يكُنْ إلَّا ناصحًا لقومِه، خائفًا أنْ يَنالَهم سُوءٌ، ويَحُلَّ بهم مَكروهٌ، وإذا عَلِمَ أنَّ مَخُوفًا أظلَّهم، لَزِمَه أنْ يُنذِرَهم ويُحذِّرَهم؛ فكيْف بما هو غايةُ المخاوفِ ونِهايةُ المحاذيرِ؟!- وإنكارٌ لتعجُّبِهم ممَّا أنذَرَهم به مِن البَعثِ مع عِلمِهم بقُدْرةِ اللهِ تعالَى على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنهما، وعلى اختراعِ كُلِّ شَيءٍ وإبداعِه، وإقرارِهم بالنَّشأةِ الأُولَى، ومعَ شَهادةِ العقلِ بأنَّه لا بُدَّ مِن الجزاءِ(٢).

---

= الأولُ: إيجازُ القِصَرِ (ويُسمَّى إيجازَ البَلاغةِ)، وهو ما ليس بحَذْفٍ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ فإنَّه لا حذْفَ فيه معَ أنَّ معناه كثيرٌ يَزيدُ على لفْظِه؛ لأنَّ المرادَ به أنَّ الإنسانَ إذا علِم أنَّه متَى قَتَل قُتِل، كان ذلك داعيًا له قويًّا إلى ألَّا يُقدِمَ على القِتالِ؛ فارتفَع بالقتْلِ -الذي هو قِصاصٌ- كثيرٌ مِن قتْلِ الناسِ بعضِهم لبعضٍ؛ فكان ارتفاعُ القتلِ حياةً لهم.

الثاني: إيجازُ الحَذْف، والإيجازُ بالحذْفِ: هو حذفُ ما يُعلَمُ ويُفهَمُ مِن سِياقِ الكلامِ بشرطِ وُجودُ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه؛ فقدْ يكونُ الإيجازُ بالحذفِ وغيرِه. والفرقُ بينَ الحذفِ والإيجازِ أن يكون في الحذفِ مقدَّرٌ، بخِلافِ الإيجازِ؛ فإنَّه عبارةٌ عن اللفظِ القليلِ الجامعِ للمعاني الجمَّةِ بنفْسِه. يُنظر: ((البيان والتبيُّن)) للجاحظ (١/ ٩٩)، ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (١/ ٢٤٢)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ١٨١ وما بعدها)، ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٧٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١٠٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٩، ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير =

- وضَميرُ ﴿عَجِبُوٓاْ﴾ عائدٌ إلى غَيرِ مذْكورٍ؛ فمَعادُه مَعلومٌ مِن السِّياقِ، وهو افتتاحُ السُّورةِ بحرْفِ التَّهجِّي الذي قُصِدَ منه تَعجيزُهم عن الإتيانِ بمِثلِ القرآنِ؛ لأنَّ عجْزَهم عن الإتيانِ بمِثْلِه في حالِ أنَّه مُركَّبٌ مِن حُروفِ لُغتِهم، يدُلُّهم على أنَّه ليْس بكلامِ بَشرٍ، بلْ هو كلامُ اللهِ أبلَغَه إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على لِسانِ المَلَكِ؛ فإنَّ المُتحَدَّينَ بالإعجازِ مَشهورون يَعلَمُهم المسلِمونَ، وهم أيضًا يَعلَمونَ أنَّهم المَعْنيُّونَ بالتَّحدِّي بالإعجازِ[١]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- و﴿أَن جَآءَهُم﴾ مَجرورٌ بـ (مِن) المَحذوفةِ، أي: عَجِبوا مِن مَجيءِ مُنذرٍ منهم، أو عَجِبوا مِن ادِّعاءِ أنْ جاءهُم مُنذِرٌ منهم[٢].

- وعُبِّرَ عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوَصْفِ ﴿مُّنذِرٌ﴾ -وهو المخبِرُ بشَرٍّ سيَكونُ-؛ للإيماءِ إلى أنَّ عجَبَهم كان ناشئًا عن صِفتَينِ في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إحداهما: أنَّه مُخبِرٌ بعذابٍ يكونُ بعدَ الموتِ، أي: مُخبِرٌ بما لا يُصدِّقون بوُقوعِه، وإنَّما أنذَرَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعَذابِ الآخِرةِ بعدَ البعثِ، والثانيةُ: كونُه مِن نَوعِ البشَرِ[٣].

- واقتُصِرَ على النِّذارةِ؛ لأنَّه لَمَّا لم يَتعيَّنْ للبِشارةِ مَوضِعٌ كان في حَقِّهم مُنذِرًا لا غيرُ[٤]، أو لِتَخويفِ مَن أنكَرَ البَعثَ؛ اقتُصِرَ على النِّذارةِ[٥]، أو أنَّه

---

= أبي حيان)) (٩/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٢٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٣).

عُبِّرَ بما دَلَّ على النِّذارةِ؛ لأنَّها المقصودُ الأعظَمُ مِن هذه السُّورةِ[١].

- قولُه: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ حِكايةٌ لتعجُّبِهم، وتفسيرٌ له، وبيانٌ لكَونِه مُقارنًا لغايةِ الإنكارِ، مع زِيادةِ تَفصيلٍ لمحَلِّ التَّعجُّبِ[٢].

- وفُرِّعَ على التَّكذيبِ الحاصِلِ في نُفوسِهم ذِكْرُ مَقالتِهم التي تُفصِحُ عنه وعن شُبهتِهم الباطلةِ بقولِه: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾، وخُصَّ هذا بالعِنايةِ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه أدخَلُ عِندَهم في الاستبعادِ، وأحَقُّ بالإنكارِ؛ فهو الذي غَرَّهم، فأحالوا أنْ يُرسِلَ اللهُ إليهم أحدًا مِن نَوعِهم؛ ولذلك وُصِفَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابتداءً بصِفةِ ﴿مُّنذِرٌ﴾ قبْلَ وَصفِه بأنَّه منهم؛ ليدُلَّ على أنَّ ما أنذَرَهم به هو الباعِثُ الأصليُّ لتكذيبِهم إيَّاه، وأنَّ كونَه منْهم إنَّما قوَّى الاستِبعادَ والتَّعجُّبَ. ثم إنَّ ذلك يُتخَلَّصُ منه إلى إبطالِ حُجَّتِهم وإثباتِ البَعثِ، وهو المقصودُ بقولِه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾[٣] [ق: ٤- ١١].

- قولُه: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ ...﴾ وقولُه: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ إضْمارُهم أوَّلًا في قَولِه: ﴿عَجِبُوٓاْ﴾؛ للإشعارِ بتَعيُّنِهم بما أُسنِدَ إليهم، وإظهارُهم ثانيًا ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ ...﴾ للتَّسجيلِ عليهم بالكُفْرِ بمُوجِبِه. أوْ عطْفٌ لتَعجُّبِهم مِن البَعثةِ، على أنَّ ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى مُبْهمٍ يُفسِّرُه ما بعْدَه مِن الجُملةِ الإنكاريَّةِ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، ووضْعُ المُظهَرِ مَوضعَ المُضمرِ؛ إمَّا لسَبْقِ اتِّصافِهم بَما يُوجِبُ كُفْرَهم، وإمَّا للإيذانِ بأنَّ تَعجُّبَهم مِن البَعثِ -لدَلالتِه على

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٩).

استِقصارِهم لقُدْرةِ اللهِ سُبحانَه عنْه، معَ مُعايَنتِهم لقُدْرتِه تعالَى على ما هُو أشقُّ منْه في قِياسِ العَقلِ مِن مَصنوعاتِه البَديعةِ- أشنَعُ مِن الأوَّلِ، وأعرَقُ في كَونِه كُفْرًا[1]، وقيل غيرُ ذلك[2].

- وحصَلَ في ضمْنِ هاتَينِ الفاصلتينِ ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ خُصوصيَّاتٌ كثيرةٌ مِن البلاغةِ؛ منها إيجازُ الحذْفِ[3]، ومنها: ما أفادَه الإضرابُ مِن الاهتِمامِ بأمرِ البَعثِ، ومنها: الإيجازُ البَديعُ الحاصِلُ مِن التَّعبيرِ بوصْفِ ﴿مُّنذِرٌ﴾، ومنها: إقحامُ وصْفِه بأنَّه ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ لأنَّ لذلك مَدخلًا في تَعجبُّهم، ومنها: الإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ على خِلافِ مُقْتضى الظاهرِ؛ فوُضِع ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ؛ للشَّهادةِ على أنَّهم في قَولِهم هذا مُقدِمونَ على الكُفرِ العظيمِ، ومنها: الإجمالُ المُعْقَبُ بالتَّفصيلِ في قَولِه: ﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ * أَءِذَا مِتْنَا﴾[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإبطالِ، والجُملةُ تَقريرٌ للتَّعجيبِ وتأْكيدٌ للإنكارِ، يُريدون تَعجيبَ السَّامعين مِن ذلك تَعجيبَ إحالةٍ؛ لئلَّا يُؤمِنوا به، وجعَلوا مَناطَ التَّعجيبِ الزَّمانَ الذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٤).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٧٩).

أفادَتْه (إذا) وما أُضِيفَ إليه، أي: زَمنَ مَوتِنا، وكَونِنا تُرابًا. والمُستفهَمُ عنه مَحذوفٌ دلَّ عليه ظرْفُ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾، وحُذِفَ لأنَّه غَنيٌّ عنِ البَيانِ؛ لغايةِ شُهْرتِه معَ دَلالةِ ما بعْدَه عليه، والتَّقديرُ: أنرْجِعُ إلى الحياةِ في حِينِ انعِدامِ الحياةِ منَّا بالموتِ، وحِينِ تَفتُّتِ الجَسَدِ وصَيرورتِه تُرابًا[1]؟!

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ بطَريقِ الحَقيقةِ والذِّكْرِ؛ لأنَّ شأنَ التَّأكيدِ أنْ يكونَ أجْلَى دَلالةً[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لرَدِّ قَولِهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]؛ فإنَّ إحالتَهم البَعثَ ناشئةٌ عن عِدَّةِ شُبَهٍ؛ منها: أنَّ تفرُّقَ أجزاءِ الأجسادِ في مَناحي الأرضِ ومَهابِّ الرِّياحِ، لا يُبقي أمَلًا في إمكانِ جَمعِها؛ إذْ لا يُحيطُ بها مُحيطٌ، وأنَّها لو عُلِمَت مَواقِعُها لَتعذَّرَ الْتقاطُها وجَمعُها، ولوْ جُمِعَت كيف تَعودُ إلى صُوَرِها التي كانتْ مُشكَّلةً بها، وأنَّها لو عادتْ كيف تَعودُ إليها؟! فاقتُصِرَ في إقْلاعِ شُبَهِهم على إقلاعِ أصْلِها، وهو عَدَمُ العِلمِ بمَواقعِ تلك الأجزاءِ وذرَّاتِها. وفُصِلَت الجُملةُ بدونِ عطْفٍ؛ لأنَّها ابتداءُ كَلامٍ لردِّ كَلامِهم، وهذا هو الأليَقُ بنَظْمِ الكلامِ. وقيل: هي جَوابُ القسَمِ، وأيًّا ما كان فهو رَدٌّ لقولِهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾[3].

- وأيضًا هذا الكَلامُ بَيانٌ للإمكانِ؛ رَعيًا لِمَا تَضمَّنه كَلامُهم مِن الإحالةِ؛ لأنَّ ثُبوتَ الإمكانِ يُقلِعُ اعتِقادَ الاستِحالةِ مِن نُفوسِهم، وهو كافٍ لإبطالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٠، ٢٨١).

تَكذيبِهم ولاستِدعائِهم للنَّظَرِ في الدَّعوةِ، ثم يَبْقى النَّظَرُ في كيفيَّةِ الإعادةِ، وهي أمْرٌ لم نُكلَّفْ بالبحثِ عنه[١].

- وعُبِّرَ بلفظِ ﴿نَنقُصُ ٱلْأَرْضُ﴾ دونَ التَّعبيرِ بالإعدامِ؛ لأنَّ للأجسادِ درَجاتٍ مِن الاضمحلالِ تَدخُلُ تحْتَ حقيقةِ النَّقصِ؛ فقدْ يَفنى بعضُ أجزاءِ الجسَدِ ويَبْقى بعضُه، وقدْ يَأتي الفَناءُ على جميعِ أجزائِه، إلا أنَّه قدْ صحَّ أنَّ عَجْبَ الذَّنَبِ لا يَفنَى[٢]، فيكون فَناءُ الأجسادِ نَقصًا لا انعدامًا[٣].

- قولُه: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ عُطِفَ على قولِه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ عَطْفَ الأعمِّ على الأخصِّ، وهو بمَعنى تَذييلٍ لجُملةِ ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، أي: وعِندَنا عِلمٌ بكلِّ شَيءٍ عِلمًا ثابتًا؛ فتَنكيرُ ﴿كِتَٰبٌ﴾ للتَّعظيمِ، وهو تَعظيمُ التَّعميمِ، أي: عِندنا كِتابُ كلِّ شَيءٍ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ إضرابٌ ثانٍ تابعٌ للإضرابِ الذي في قَولِه: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢] على طَريقةِ تَكريرِ الجُملةِ في مَقامِ التَّنديدِ والإبطالِ، أو بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ لأنَّ ذلك العجَبَ مُشتمِلٌ على التَّكذيبِ، وكِلا الاعتبارَينِ يَقْتضيانِ فصْلَ هذه الجُملةِ بدونِ عاطفٍ، والمَقصِدُ مِن هذه الجُملةِ: أنَّهم أتَوا بأفظَعَ وأشنَعَ وأقبَحَ مِن إحالتِهم البَعثَ؛ وذلك هو التَّكذيبُ بالحقِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨١).

(٢) تقدم تخريجه (ص: ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي =

- و﴿لَمَّا﴾ حرْفُ تَوقيتٍ؛ فهي دالَّةٌ على ربْطِ حُصولِ جَوابِها بوقْتِ حُصولِ شَرْطِها، فهي مُؤذِنةٌ بمُبادَرةِ حُصولِ الجوابِ عندَ حُصولِ الشَّرطِ، والمعنى: أنَّهم بادَروا بالتَّكذيبِ دونَ تأمُّلٍ ولا نظَرٍ فيما حَواهُ مِن الحَقِّ، بلْ كذَّبوا به مِن أوَّلِ وَهْلةٍ، فكذَّبوا بتَوحيدِ اللهِ، وهو أوَّلُ حقٍّ جاء به القُرآنُ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ إلى قولِه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ [ق: ٦- ١١]؛ فالتَّكذيبُ بما جاء به القُرآنُ يعُمُّ التَّكذيبَ بالبَعثِ وغيرِه[١].

- قولُه: ﴿فَهُمْ فِيٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ فُرِّعَ على الخَبرِ المُنتقَلِ إليه بالإضرابِ وَصْفُ حالِهم النَّاشئةِ عن المُبادَرةِ بالتَّكذيبِ قبْلَ التَّأمُّلِ بأنَّها أمْرٌ مَريجٌ أحاط بهمْ، وتَجلْجَلوا فيه، كما دلَّ عليه حَرفُ الظَّرفيَّةِ (في). والمُريجُ: المُضطرِبُ المُختلِطُ، أي: لا قَرارَ في أنفُسِهم في هذا التَّكذيبِ. وهذا تَحميقٌ لهم بأنَّهم طاشَتْ عُقولُهم، فلم يُتْقنوا التَّكذيبَ، ولم يَرْسُوا على وَصْفِ الكلامِ الذي كذَّبوا به[٢].

---

= السعود)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨٤، ٢٨٥).

## الآيات (٦-١١)

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فُرُوجٍ﴾: أي: صُدوعٍ وفُتوقٍ وشُقوقٍ، وأصلُ (فرج): يدُلُّ على تَفتُّحٍ في الشَّيءِ[1].

﴿رَوَٰسِيَ﴾: أي: جِبالًا ثوابِتَ، وأصلُه: يدُلُّ على ثَباتٍ[2].

﴿بَهِيجٍ﴾: أي: حَسَنٍ عَجيبٍ، وأصلُ (بهج): يدُلُّ على السُّرورِ والنُّضْرةِ[3].

﴿تَبْصِرَةً﴾: أي: تَبْصيرًا وتِبيانًا، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على عِلمٍ بالشَّيءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٤٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٨).

﴿وَذِكۡرَىٰ﴾: أي: مَوعِظةً وتَذكِرةً، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[١].

﴿مُّنِيبٖ﴾: أي: رَجَّاعٍ تائبٍ، ومُتذَلِّلٍ خاشِعٍ، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على اعتيادٍ ورُجوعٍ[٢].

﴿ٱلۡحَصِيدِ﴾: أي: الزَّرعِ المحصودِ مِن البُرِّ والشَّعيرِ وسائِرِ أنواعِ الحُبوبِ، وأصلُ (حصد): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيءِ[٣].

﴿بَاسِقَٰتٖ﴾: أي: طَويلاتٍ، وأصلُ (بسق): يدُلُّ على ارتفاعِ الشَّيءِ وعُلُوِّه[٤].

﴿طَلۡعٞ﴾: الطَّلعُ: أوَّلُ ما يَخرُجُ مِن ثَمَرِ النَّخلِ، وأصلُ (طلع): يدُلُّ على ظُهورٍ وبُروزٍ[٥].

﴿نَّضِيدٞ﴾: أي: مُصَفَّفٌ بَعضُه فَوقَ بَعضٍ، وأصلُ (نضد): يدُلُّ على ضَمٍّ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٠، ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

قال ابنُ القيِّم: (وفي اللَّفظةِ معنى الإسراعِ والرُّجوعِ والتقَدُّم، والمُنيبُ إلى اللهِ: المُسرِعُ إلى مَرضاتِه، الرَّاجِعُ إليه كُلَّ وَقتٍ، المتقَدِّمُ إلى مَحابِّه). ((مدارج السالكين)) (١/ ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧).

شَيءٍ إلى شَيءٍ في اتِّساقٍ وجَمْعٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالَى مبيِّنًا الأدلَّةَ على قُدرتِه، وعلى أنَّ البعثَ حقٌّ: أفلمْ يَنظُرْ هؤلاء المكَذِّبونَ بالبعثِ إلى السَّماءِ فَوقَهم، فيَتأمَّلوا كيفيَّةَ بِنائِها وتَزيينِها بالنُّجومِ، وأنَّها مُحكَمةُ البِناءِ ليس بها صُدوعٌ ولا تَشقُّقاتٌ؟! والأرضَ بَسَطَ اللهُ تعالَى سَطْحَها، وجعَلَ فيها جِبالًا راسيةً تُثبِّتُها لكيْلا تَضطرِبَ، وأنبَتَ فيها مِن كُلِّ نوعٍ مِن أنواعِ الزُّروعِ التي تَسُرُّ النَّاظِرينَ؛ لحُسْنِها، قدْ جعَل اللهُ هذه الأشياءَ كُلَّها تَبصِرةً وتَذكيرًا لكُلِّ عَبدٍ رجَّاعٍ إلى اللهِ تعالَى.

ونزَّلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً كثيرَ الخَيرِ، فأنبَتَ بسَبَبِه بَساتينَ وأنواعَ الحُبوبِ التي تُحصَدُ -كالقَمحِ والذُّرَةِ وغَيرِهما-، والنَّخلَ طَويلاتٍ لها ثِمارٌ مَصفوفٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ؛ رِزقًا للنَّاسِ، وأحيَا اللهُ بماءِ المطَرِ بَلدةً مُجدِبةً لا زَرْعَ فيها، فكما أحيَا اللهُ الأرضَ بعْدَ مَوتِها كذلك يُخرِجُكم -أيُّها النَّاسُ- يومَ القِيامةِ أحياءً بعدَ مَوتِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالَى حالةَ المكَذِّبينَ وما ذَمَّهم به، دعاهم إلى النَّظَرِ في آياتِه الأُفُقيَّةِ؛ كي يَعتَبِروا ويَستَدِلُّوا بها على ما جُعِلَت أدِلَّةً عليه[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٨٠٤).

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: أفلمْ يَنظُرْ هؤلاء المكَذِّبونَ بقُدرةِ اللهِ على إحياءِ الموتَى إلى السَّماءِ الَّتي رفَعَها اللهُ فوقَهم، فيَتأمَّلوا كيفيَّةَ بُنيانِنا العَظيمِ لها وتَزيينِنا لها بالنُّجومِ، وأنَّه ليس بها صُدوعٌ ولا تَشقُّقاتٌ، بل هي مَبنيَّةٌ بإحكامٍ بلا عُيوبٍ؟! فالَّذي قدَر على فِعلِ ذلك لا يُعجِزُه شَيءٌ سُبحانَه[1]!

كما قال تعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك: ٣].

وقال تعالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾.

أي: والأرضَ بَسَطْنا سَطْحَها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرعد: ٣].

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾.

أي: وجعَلْنا فيها جِبالًا راسيةً تُثبِّتُها، فلا تَضطرِبُ الأرضُ ولا تَميدُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٧-٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال تعالَى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ﴾ [الرعد: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ مِن كُلِّ نوعٍ مِن أنواعِ الزُّروعِ والنَّباتِ والثِّمارِ التي تَسُرُّ النَّاظِرينَ؛ مِن حُسْنِها[1].

قال تعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [الرعد: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٖ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨﴾.

---

= (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٨).

قيل: ﴿رَوَٰسِيَ﴾ بمعْنى أنَّها راسيةٌ في الأرضِ وثابتةٌ عليها. وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى: ابن جَرير، والسَّمرقندي، والماورْدي، والواحدي، والبَغوي، والبيضاوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨٧).

وقيل: المعنى أنَّها تُرسي الأرضَ وتُثبِّتها. وهذا ظاهرُ اختيارِ ابنِ أبي زَمَنين، ومكِّي، وجَلال الدِّين المحلِّي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٦٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٣١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٨٩).

وقال ابنُ عُثَيمين جامعًا بين المعنيينِ: (﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ثابتاتٍ لا تُزعزِعُها الرِّياحُ فهي قاسيةٌ، وكذلك أيضًا تُرسي الأرضَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٨).

وقال أبو السُّعودِ: (﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ جبالًا ثَوابتَ، مِنْ رسَا الشَّيءُ: إذَا ثبتَ، والتعبيرُ عنْها بهذا الوصفِ للإيذانِ بأنَّ إلقاءَها لإرساءِ الأرضِ بهَا). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٨).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالَى هذه الصَّنائِعَ الباهِرةَ؛ عَلَّلها بقَولِه[1]:

﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ ﴾.

أي: فعَلْنا ذلك مِن أجْلِ أنْ يُبصِرَ ويَتذَكَّرَ كُلُّ عَبدٍ رجَّاعٍ إلى اللهِ تعالَى، مُقبِلٍ على طاعتِه، فيَستَدِلَّ بالنَّظَرِ إليها والتَّفكُّرِ فيها على كَمالِ قُدرتِه على البَعثِ وغَيرِه، وإحاطتِه بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ[2].

﴿ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ ﴾.

أي: ونزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً كثيرَ الخَيرِ والنَّفعِ، فأنبَتْنا بسَبَبِه بَساتينَ كَثيرةَ الأشجارِ، وأنبَتْنا به أنواعَ الحُبوبِ التي تُحصَدُ؛ كالبُرِّ والذُّرَةِ، والشَّعيرِ والأَرُزِّ[3].

﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ ﴾.

﴿ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ ﴾.

أي: وأنبَتْنا بماءِ المطَرِ النَّخلَ طَويلاتٍ عالياتٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٠-٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٠-٢٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٤).

قال الشَّوكاني: (هُما عِلَّتانِ لِما تَقدَّمَ مُنْتصِبانِ بالفِعلِ الأخيرِ منْها، أوْ بمُقدَّرٍ، أي: فعَلْنا ما فعَلْنا للتَّبصيرِ والتَّذكيرِ، قالهُ الزَّجَّاجُ. وقال أبو حاتِمٍ: انتَصَبا على المصْدريةِ، أيْ: جَعَلْنا ذلك تَبصِرةً وذِكْرى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٥)، ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١١-٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) =

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾.

أي: للنَّخلِ الطِّوالِ طَلعٌ -وهو أوَّلُ ما يَظهَرُ مِن ثَمَرِه، وهو في غِلافِ العُنقودِ- مُتراكِبٌ مَصفوفٌ بَعضُه فوقَ بَعضٍ[١].

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه بَعضَ ما له في الماءِ مِنَ العَظَمةِ؛ ذكَرَ له عِلَّةً هي غايةٌ في المِنَّةِ على الخَلقِ، فقال[٢]:

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

أي: أنزَلْنا المطَرَ، وأنبَتْنا به الجنَّاتِ والحُبوبَ والنَّخيلَ؛ رِزقًا للنَّاسِ مُؤمِنِهم وكافِرِهم[٣].

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾.

أي: وأحيَيْنا بماءِ المطَرِ بَلدةً مُجدِبةً لا زَرْعَ فيها ولا نَبْتَ[٤].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾.

---

= (٥/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨١).

أي: كما أحْيَينا الأرضَ بعدَ مَوتِها كذلك نُخرِجُكم يومَ القِيامةِ أحياءً بعدَ مَوتِكم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((يُنْزِلُ اللهُ مِنَ السَّماءِ ماءً فيَنبُتونَ كما يَنبُتُ البَقْلُ[٢]، ليس مِنَ الإنسانِ شَيءٌ إلَّا يَبلى، إلَّا عَظمًا واحِدًا، وهو عَجْبُ الذَّنَبِ، ومنه يُركَّبُ الخَلقُ يومَ القِيامةِ))[٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((يَصْعَقُ النَّاسُ، ثمَّ يُنزِلُ اللهُ مَطرًا كأنَّه الطَّلُّ -أو الظِّلُّ- فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى فإذا هم قِيامٌ يَنظرونَ))[٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالَى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ المُنيبُ إلى رَبِّه يَتذكَّرُ بذلك، فإذا تذَكَّر تبَصَّرَ به، فالتَّذَكُّرُ قبْلَ التَّبَصُّرِ وإنْ قُدِّمَ عليه في اللَّفظِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، والتَّذكُّرُ: تفَعُّلٌ مِنَ الذِّكرِ، وهو حُضورُ صُورةٍ مِنَ المذكورِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٤).

قال ابنُ جَرير: (كما أنبَتْنا بهذا الماءِ هذه الأرضَ المَيْتةَ فأحيَيناها به، فأخرَجْنا نَباتَها وزَرْعَها، كذلك نُخرِجُكم يومَ القِيامةِ أحياءً مِن قُبورِكم من بعْدِ بَلائِكم فيها، بما يَنزِلُ عليها من الماءِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٤).

(٢) البَقْل: هو كلُّ نباتٍ اخضرَّتْ به الأرضُ. ينظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ٤٨).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٩٣٥) واللفظ له، ومسلمٌ (٢٩٥٥).

(٤) رواه مسلم (٢٩٤٠).

في القَلبِ، فإذا استَحضَره القَلبُ وشاهَدَه على وَجهِه أوجَبَ له البَصيرةَ، فأبصَرَ ما جُعِلَ دليلًا عليه، فكان في حَقِّه تَبصرةً وذِكرى، والهُدى مَدارُه على هذَينِ الأصلَينِ: التَّذَكُّرِ، والتبَصُّرِ[١].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ الآياتُ المخلوقةُ والمَتْلوَّةُ فيها تَبصِرةٌ، وفيها تَذكِرةٌ: تَبصِرةٌ مِنَ العَمَى، وتَذكِرةٌ مِنَ الغَفلةِ؛ فيُبصِرُ مَن لم يكُنْ عَرَف حتَّى يَعرِفَ، ويَذكُرُ مَن عَرَف ونَسِيَ[٢]؛ فإنَّ المضادَّ للعِلمِ إمَّا عَمى القلبِ؛ وزوالُه بالتَّبصُّرِ، وإمَّا غفلتُه؛ وزَوالُه بالتَّذكُّرِ. والمقصودُ تَنبيهُ القَلبِ مِن رَقدتِه بالإشارةِ إلى شَيءٍ مِن بَعضِ آياتِ اللهِ[٣].

٣- الإنابةُ إنابتانِ: إنابةٌ لرُبوبيَّتِه، وهي إنابةُ المَخلوقاتِ كُلِّها، يَشتَرِكُ فيها المؤمِنُ والكافِرُ، والبَرُّ والفاجِرُ؛ قال اللهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرّٞ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم: ٣٣]، فهذا عامٌّ في حَقِّ كُلِّ داعٍ أصابه ضُرٌّ، كما هو الواقِعُ، وهذه الإنابةُ لا تَستلزِمُ الإسلامَ، بلْ تجامِعُ الشِّركَ والكُفرَ؛ كما قال تعالَى في حَقِّ هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ * لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾ [الروم: ٣٣، ٣٤]؛ فهذا حالُهم بعدَ إنابتِهم.

والإنابةُ الثَّانيةُ: إنابةُ أَوليائِه، وهي إنابةٌ لإلهيَّتِه، إنابةُ عُبوديَّةٍ ومَحبَّةٍ. وهي تَتضَمَّنُ أربعةَ أُمورٍ: محبَّتَه، والخُضوعَ له، والإقبالَ عليه، والإعراضَ عمَّا سِواه؛ فلا يَستَحِقُّ اسمَ المُنيبِ إلَّا مَن اجتمَعَت فيه هذه الأربَعُ، وتَفسيرُ السَّلَفِ لهذه اللَّفظةِ يَدورُ على ذلك[٤]، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٣٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ إلى قولِه: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ حُجَّةٌ بالاستِدلالِ بالشَّاهدِ على الغائِبِ مِن قُدرةِ الرَّبِّ، وبالخَلْقِ على الخالِقِ مِن صُنعِه[1].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ ذَكَر تعالَى في السَّماءِ ثَلاثةً: البِناءَ، والتَّزيينَ، ونَفْيَ الفُروجِ، وفي الأرضِ ثَلاثةً: المَدَّ، وإلقاءَ الرَّواسي، والإنباتَ. قابَلَ المَدَّ بالبناءِ؛ لأنَّ المَدَّ وَضعٌ، والبِناءَ رَفعٌ، وإلقاءَ الرَّواسي بالتَّزيينِ بالكواكِبِ؛ لارتكازِ كُلِّ واحدٍ منهما، والإنباتَ المترَتِّبَ على الشَّقِّ بانتِفاءِ الفُروجِ؛ فلا شَقَّ فيها[2].

٣- العِلمُ يَحصُلُ بالعِلمِ بالدَّليلِ لِمَن لم يكُنْ عالِمًا به قَطُّ، ولِمَن يَذكُرُه بعْدَ النِّسيانِ إذا كان قدْ عَلِمَه ثمَّ نَسِيَه؛ ولهذا قال سُبحانَه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾؛ فبَيَّن سُبحانَه أنَّ آياتِه تَبصِرةٌ وتَذكِرةٌ؛ فالتَّبصِرةُ بعْدَ العَمَى، وهو الجَهلُ، والتَّذكِرةُ بعدَ النِّسيانِ، وهو ضِدُّ العِلمِ[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴾ احتَجَّ به بَعضُهم على استِدارةِ السَّماءِ، وإحاطتِها بالأرضِ مِن جميعِ جِهاتِها؛ لأنَّه سُبحانَه قال: لا فُروجَ فيها ولا فُطورَ، ولو كانتْ مَبسوطةً غيرَ

---

(١) يُنظر: ((النُّكت الدالة على البيان)) للقصَّاب (٤/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٤١).

مُتَّصِلةِ الأطرافِ، لم تكُنْ كذلك[١]، فنَفيُ الفُروجِ فيها على هذا الوَجهِ المؤَكَّدِ يدُلُّ دَلالةً ظاهِرةً على أنَّ السَّماءَ كُرةٌ مُجَوَّفةُ الوَسَطِ، مُقَبَّبةٌ كالبَيضةِ[٢].

٥- قَولُه تعالَى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ الفَرقُ بيْنَ التَّبصِرةِ والذِّكرى: أنَّ التَّبصِرةَ مُستَمِرَّةٌ، والذِّكرى عندَ النِّسيانِ؛ فهذه الآياتُ لأجْلِ التَّبصِرةِ والذِّكرى، والفَرقُ بيْنهما: أنَّ التَّبصِرةَ تُوجِبُ العِلمَ والمَعرِفةَ، والذِّكرى تُوجِبُ الإنابةَ والانقيادَ، وبهما تَتِمُّ الهِدايةُ[٣].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ مِن الحِكمِ في إنزالِ الماءِ مِنَ العُلوِّ لِيَشمَلَ قِمَمَ الجِبالِ ومَراتِعَ الإبِلِ، والسَّهْلَ والأوديةَ؛ لأنَّه لو جاء يَمْشي سَيحًا (جاريًا) مِنَ الأرضِ ما وصَلَ إلى قِمَمِ الجِبالِ[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ فيه إضافةُ الشَّيءِ إلى نَفْسِه -لأنَّ الحَبَّ هو الحَصيدُ- وهي مُمتَنِعةٌ؛ لأنَّ الإضافةَ تَقتَضي المغايرةَ بيْن المُضافِ والمضافِ إليه؟

**الجوابُ**: أنَّ هذه الإضافةَ ليْستْ مُمتَنِعةً مُطلَقًا، بل هي جائِزةٌ عند اختِلافِ اللَّفظَينِ، كما في قَولِه: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، و﴿حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، و(لَدَارُ الْآخِرَةِ) [يوسف: ١٠٩]، وبتَقديرِ امتِناعِها مُطلَقًا؛ فالتَّقديرُ: حَبُّ الزَّرعِ أو النَّباتِ الحَصيدِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٠).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص:٥٣١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ﴾ إثباتُ الأسبابِ[١]، وكذا في قَولِه سُبحانَه: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا﴾[٢].

٩- قولُه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ...﴾ الآياتِ، نبَّهَ فيما تعلَّقَ به الإنباتُ على ما يُقطَفُ كُلَّ سَنةٍ، ويَبقَى أصْلُه، وما يُزرَعُ كُلَّ سَنةٍ أو سَنتَينِ، ويُقطَفُ كُلَّ سَنةٍ، وعلى ما اختلَطَ مِن جِنسَينِ، فبَعضُ الثِّمارِ فاكِهةٌ لا قُوتٌ، وأكثَرُ الزَّرعِ قُوتٌ، والثَّمرُ فاكهةٌ وقوتٌ[٣].

١٠- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ۝ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ لم يُقَيِّدْ هنا العِبادَ بالإنابةِ، وقَيَّدَه في قَولِه تعالى: ﴿تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ [ق: ٨]؛ لأنَّ التَّذكِرةَ لا تكونُ إلَّا للمُنيبِ، والرِّزقَ يَعُمُّ كُلَّ أحدٍ، غيرَ أنَّ المُنيبَ يَأكُلُ ذاكِرًا أو شاكِرًا للإنعامِ، وغَيرَه يَأكُلُ كما تَأكُلُ الأنعامُ؛ فلم يُخَصَّصْ بقَيدٍ[٤].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ﴾ [ق: ٢] إلى قولِه: ﴿مَّرِيجٖ﴾ [ق: ٥]؛ لأنَّ أهمَّ ما ذُكِرَ مِن تَكذيبِهم أنَّهم كذَّبوا بالبعثِ، وخَلْقُ السَّمواتِ والنُّجومِ والأرضِ دالٌّ على أنَّ إعادةَ الإنسانِ بعدَ العدَمِ في حيِّزِ الإمكانِ؛ فتلكَ العوالِمُ وُجِدَت عن عدَمٍ[٥].

- قولُه: ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ ...﴾ الاستِفهامُ يَجوزُ أنْ يكونَ إنكاريًّا،

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٨٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٥).

ويكونَ النَّظرُ نظرَ الفِكرِ، ومَحلُّ الإنكارِ هو الحالَ التي دلَّ عليها ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾، أي: ألمْ يَتدبَّروا في شَواهدِ الخَليقةِ؛ فتَكونَ الآيةُ في معنى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الروم: ٨].

ويَجوزُ أنْ يكونَ الاستِفهامُ تَقريريًّا، ويكونَ النَّظرُ المُشاهدةَ، ومَحلُّ التَّقريرِ هو فِعلَ ﴿يَنظُرُوٓا۟﴾، أو يكونَ (كيف) مُرادًا به الحالُ المُشاهَدةُ، والتَّقريرُ على نفْيِ الشَّيءِ المُرادِ الإقرارُ بإثباتِه طَريقةٌ قُرآنيَّةٌ، والغرَضُ منه إفساحُ المَجالِ للمُقرَّرِ إنْ كان يَرومُ إنكارَ ما قُرِّرَ عليه؛ ثِقةً مِن المُقرِّرِ بأنَّ المُقرَّرَ لا يُقدِمُ على الجُحودِ بما قُرِّرَ عليه؛ لظُهورِه. وهذا الوجْهُ أشدُّ في النَّعْيِ عليهم؛ لاقتِضائِه أنَّ دَلالةَ المخلوقاتِ المذكورةِ على إمكانِ البَعثِ يَكفي فيها مُجرَّدُ النَّظَرِ بالعينِ[١].

- وأيضًا لَمَّا أخبَرَهم أنَّهم قالوا عن غيرِ تأمُّلٍ، أنْكَرَ عليهم ذلك مُوبِّخًا لهم دالًّا على صِحَّةِ ما أنْكَروه وفَسادِ إنكارِهم بقولِه -مُسبَّبًا عن عَجَلتِهم إلى الباطلِ-: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾[٢]؛ فالاستفهامُ هنا للتَّوبيخِ؛ يُوبِّخُهم عزَّ وجلَّ لِماذا لم يَنظُروا إلى هذا؟! لِماذا لم يَنظُروا إلى السَّماءِ وما فيها مِن عَجائِبَ[٣].

- والفاءُ عاطفةٌ على مَحذوفٍ يُطيحُ بكُلِّ ما قالوه افتِئاتًا على الحقِّ، وإنكارًا له، أي: أغَفَلُوا وعَمُوا فلم يَنظُروا[٤]؟!

- قولُه: ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ أفْرَدَ السَّماءَ ولم يَجمَعْ؛ لأنَّ بِناءَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٧٦).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٢).

على ما ذُكِرَ -وإنْ كانتْ واحدةً- يدُلُّ على كَمالِ القُدرةِ؛ فإنَّ البِناءَ المجوَّفَ لا يُمكِنُ إكْمالُ بِنائِه مِن غيرِ أنْ يكونَ له فُروجٌ، وإنِ اختلَّ ذلك كان مَوضعُ الوصلِ ظاهرًا للرَّائِينَ ما فيه مِن فُتورٍ وشُقوقٍ وقُصورٍ وما يُشبِهُ ذاك(١).

- وقولُه: ﴿فَوْقَهُمْ﴾ حالٌ مِن السَّماءِ، والتَّقييدُ بالحالِ تنْديدٌ عليهم؛ لإهمالِهم التَّأمُّلَ مع المُكنةِ منه؛ إذ السَّماءُ قَريبةٌ فوقَهم، لا يُكلِّفُهم النَّظرُ فيها إلَّا رفعَ رُؤوسِهم(٢).

- واقتُصِرَ على آيةِ تَزيينِ السَّماءِ دونَ تَفْصيلِ ما في الكواكبِ المُزيَّنةِ بها مِن الآياتِ؛ لأنَّ التَّزيينَ يَشترِكُ في إدراكِه جَميعُ الذين يُشاهدونَه، وللجمْعِ بيْن الاستِدلالِ والامتِنانِ بنِعمةِ التَّمكينِ مِن مُشاهَدةِ المَرائي الحَسنةِ، ثمَّ يَتفاوتُ النَّاسُ في إدْراكِ ما في خَلْقِ الكواكبِ والشَّمسِ والقَمَرِ ونِظامِها مِن دَلائلَ على مِقدارِ تَفاوتِ عُلومِهم وعُقولِهم. والآيةُ صالحةٌ لإفهامِ جَميعِ الطَّبَقاتِ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ﴾ [ق: ٦] عطْفَ الخبَرِ على الاستِفهامِ الإنكاريِّ، وهو في مَعنى الإخبارِ، والتَّقديرُ: ومدَدْنا الأرضَ. ولَمَّا كانتْ أحوالُ الأرضِ نُصبَ أعيُنِ الناسِ، وهي أقرَبُ إليهم مِن أحوالِ السَّماءِ؛ لأنَّها تَلوحُ للأنظارِ دونَ تكلُّفٍ؛ لم يُؤتَ في لَفْتِ أنظارِهم إلى دَلالتِها باستِفهامٍ إنكاريٍّ؛ تَنْزيلًا لهم مَنزِلةَ مَن نظَرَ في أحوالِ الأرضِ، فلمْ يَكونوا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٨٦، ٢٨٧).

بحاجةٍ إلى إعادةِ الإخبارِ بأحوالِ الأرضِ تذكيرًا لهم[١].

- وفائِدةُ هذا الوصْفِ ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ زِيادةُ التَّنبيهِ إلى بَديعِ خلْقِ اللهِ؛ إذ جعَلَ الجِبالَ مُتداخلةً مع الأرضِ، ولم تكُنْ مَوضوعةً عليها وضْعًا كما تُوضَعُ الخَيمةُ؛ لأنَّها لو كانتْ كذلك لَتزلزَلَتْ وسقَطَتْ وأهلكَتْ ما حوالَيْها[٢].

- وحرْفُ (مِن) في قَولِه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ مَزيدٌ للتَّوكيدِ؛ فالمقصودُ مِن التَّوكيدِ بحرْفِ (مِن) تَنزيلُهم مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ أنبَتَ ما على الأرضِ مِن أنواعٍ حين ادَّعَوا استحالةَ إخراجِ الناسِ مِن الأرضِ؛ ولذلك جِيءَ بالتَّوكيدِ في هذه الآيةِ؛ لأنَّ الكلامَ فيها على المشرِكين[٣].

- وكلمةُ ﴿كُلِّ﴾ مُستعمَلةٌ في معْنى الكَثرةِ، وفائدةُ التَّكثيرِ هنا التَّعريضُ بهم؛ لقلَّةِ تَدْبيرِهم؛ إذ عَمُوا عن دَلائلَ كثيرةٍ واضحةٍ بيْنَ أيديهم[٤].

- والوصْفُ ﴿بَهِيجٍ﴾ يُفيدُ ذِكْرُه تَقويةَ الاستدلالِ على دِقَّةِ صُنعِ اللهِ تعالى، وإدْماجَ الامتنانِ عليهم بذلك؛ لِيَشْكُروا النِّعمةَ ولا يَكفُروها بعِبادةِ غيرِه[٥]. و(البَهيج) يَجوزُ أنْ يكونَ صِفةً مُشبَّهةً، يُقال: بهُجَ؛ إذا حسُنَ في أعينِ النَّاظرينَ؛ فالبهيجُ بمعنى الفاعِلِ، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]. ويجوزُ أنْ يكونَ فَعيلًا بمَعنى مَفعولٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: مُنبهَجٌ به، على الحذْفِ والإيصالِ[١]، أي: يُسَرُّ به النَّاظرُ، يُقال: بهَجَه؛ إذا سرَّه، ومنه الابتهاجُ: المَسرَّةُ[٢].

- قولُه: ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ عِلَّتانِ للأفعالِ المذْكورةِ، وإنَّما كانتِ التَّبصرةُ والذِّكْرى علَّةً للأفعالِ المذكورةِ؛ لأنَّ التَّبصرةَ والذِّكرى مِن جُملةِ الحِكَمِ التي أوجَدَ اللهُ تلك المخلوقاتِ لأجْلِها، وليْس ذلك بمُقتضٍ انحصارَ حِكمةِ خَلْقِها في التَّبصرةِ والذِّكرى؛ لأنَّ أفعالَ اللهِ تعالَى لها حِكَمٌ كثيرةٌ عَلِمْنا بَعضَها، وخَفِيَ علينا بعضٌ[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ ﴾؛ ليعُمَّ كلَّ ما يَصلُحُ أنْ يُتبصَّرَ في شأنِه بدَلائلِ خلْقِ الأرضِ وما عليها، وأهمُّ ذلك فيهمْ هو التَّوحيدُ والبَعثُ، كما هو السِّياقُ تصْريحًا وتلويحًا[٤].

- وفي قَولِه: ﴿ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴾ خُصَّ العبدُ المُنيبُ بالتَّبصرةِ والذِّكْرى، وإنْ كان فيما ذُكِرَ مِن أحوالِ الأرضِ إفادةُ التَّبصرةِ والذِّكْرى لكلِّ أحدٍ؛ لأنَّ العبدَ المُنيبَ هو الذي يَنتفِعُ بذلك، فكأنَّه هو المقصودُ مِن حِكمةِ تلك الأفعالِ، وهذا تَشريفٌ للمؤمنينَ، وتَعريضٌ بإهمالِ الكافرين التَّبصُّرَ

---

(١) الحذْفُ والإيصالُ: هو ما يُعرَفُ بنزعِ الخافِض؛ فقدْ يُحذَف حرفُ الجَرِّ سَماعًا، فيَنتصبُ المجرورُ بعدَ حذْفِهِ تشبيهًا له بالمفعول به، ويُسمَّى المنصوبَ على نزعِ الخافض، أي: الاسم الذي نُصبَ بسَببِ حذْفِ حرفِ الجرِّ، كقولِهِ تعالى: ﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: مِن قومِه. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٢/ ١٩٠)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٠).

والتَّذكُّرَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ * وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ بعْدَ التَّنظُّرِ والتَّذكيرِ والتَّبصيرِ في صُنعِ السَّمواتِ وصُنعِ الأرضِ، نُقِلَ الكلامُ إلى التَّذكيرِ بإيجادِ آثارٍ مِن آثارِ تلك المَصنوعاتِ تَتجدَّدُ على مُرورِ الدَّهرِ حيَّةً، ثمَّ تَموتُ ثمَّ تَحْيا دأبًا، وقدْ غُيِّرَ أسلوبُ الكلامِ لهذا الانتقالِ مِن أُسلوبِ الاستِفهامِ في قَولِه: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [ق: ٦]، إلى أُسلوبِ الإخبارِ بقولِه: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا ﴾؛ إيذانًا بتَبْديلِ المرادِ؛ ليكونَ منه تخلُّصٌ إلى الدَّلالةِ على إمكانِ البعثِ في قَولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ [ق: ١١]؛ فجُملةُ ﴿ وَنَزَّلْنَا ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا ﴾ [الحجر: ١٩]، وقدْ ذُكِرَت آثارٌ مِن آثارِ السَّماءِ وآثارِ الأرضِ على طَريقةِ النَّشْرِ المُرتَّبِ على وَفقِ اللَّفِّ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّب، وإمَّا غيرُ مُرتَّب؛ فاللَّفُّ والنشرُ المُرتَّب، هو أنْ يأتي النَّشرُ على وَفقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ، ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على الترتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيثُ جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾، وجاء النَّشرُ وَفقَ توزيعِ مُرتَّبٍ؛ فقوله: ﴿ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ ﴾ يتعلَّقُ باللَّيل، وقوله: ﴿ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ. وغيرُ المرتَّب: هو أن يأتيَ النشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَل لَفٌّ مُفَصَّل، وجاء بعدَها نَشْرٌ غَيرُ مُرَتَّب؛ فجُملةُ ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ ملائمةٌ للجُملة الأُولى ومتعلِّقةٌ بها. وجُملةُ ﴿ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ ملائمةٌ للجُملةِ الثَّالثةِ ومُتعلِّقةٌ بها. وجُملةُ ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثانيةِ ومتعلِّقةٌ بها. يُنظر: ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠- ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

- وهو أيضًا شُروعٌ في بَيانِ كيفيَّةِ إنباتِ ما ذُكِرَ منْ كُلِّ زَوجٍ بَهيجٍ، وهو عَطفٌ على (أَنْبَتْنَا)، وما بيْنهما -على أنَّ ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ عِلَّتان لفِعلٍ مُقدَّرٍ بطَريقِ الاستِئنافِ، أيْ: فعَلْنا ما فعَلْنا تَبصيرًا وتذْكيرًا- اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِمَا قَبلَه ومُنبِّهٌ على ما بعْدَه[1].

- وفي هذا استِدلالٌ بتَفصيلِ الإنباتِ الَّذي سبَقَ إجمالُه في قَولِه: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ [ق: ٧]؛ لِمَا فيه مِن سَوقِ العُقولِ إلى التَّأمُّلِ في دَقيقِ الصُّنعِ لذلك الإنباتِ، وأنَّ حُصولَه بهذا السَّببِ، وعلى ذلك التَّطوُّرِ؛ أعظَمُ دَلالةً على حِكمةِ اللهِ وسَعةِ عِلمِه ممَّا لو كان إنباتُ الأزواجِ بالطَّفرةِ؛ إذ تَكونُ حينَئذٍ أسبابُ تكوينِها خفيَّةً، فإذا كان خَلْقُ السَّمواتِ وما فيها، ومَدُّ الأرضِ، وإلقاءُ الجِبالِ فيها؛ دَلائلَ على عَظيمِ القُدرةِ الرَّبانيَّةِ لخَفاءِ كَيفيَّاتِ تَكوينِها؛ فإنَّ ظُهورَ كيفيَّاتِ التَّكوينِ في إنزالِ الماءِ، وحُصولِ الإنباتِ والإثمارِ دَلالةٌ على عَظيمِ عِلمِ اللهِ تعالَى[2].

- قولُه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ فيه تَخصيصُ إنباتِ الحَبِّ بالذِّكْرِ؛ لأنَّه المقصودُ بالذَّاتِ[3].

- والحَصيدُ: الزَّرعُ المحصودُ، وفائدةُ ذِكْرِ هذا الوَصْفِ في قولِه: ﴿وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ الإشارةُ إلى اختِلافِ أحوالِ استِحصالِ ما يَنفَعُ النَّاسَ مِن أنواعِ النَّباتِ؛ فإنَّ الجنَّاتِ تُستَثمَرُ، وأُصولَها باقيةٌ، والحُبوبَ تُستَثمَرُ بعْدَ حَصْدِ أُصولِها، على أنَّ في ذلك الحَصيدِ مَنافعَ للأنعامِ تَأكُلُه بعْدَ أخْذِ حَبِّه، كما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧).

قال تعالَى: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾[١] [النازعات: ٣٣].

- وفي قَولِه: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ﴾ خَصَّ النَّخلَ بالذِّكْرِ مع تَناوُلِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ له؛ لأنَّه أهَمُّ الأشجارِ عِندَهم، وثَمَرَه أكثَرُ أقواتِهم، ولإتْباعِه بالأوصافِ له ولطَلعِه؛ ممَّا يُثيرُ تَذكُّرَ بَديعِ قَوامِه، وأنيقِ جَمالِه[٢]. وقيلَ: إنَّ تَخصيصَ النَّخلِ بالذِّكرِ معَ اندراجِها في الجَنَّاتِ؛ لبيانِ فضْلِها على سائرِ الأشجارِ، وتَوسيطَ الحَبِّ بيْنهما؛ لتأْكيدِ استقلالِها وامتيازِها عنِ البقيَّةِ، مع ما فيها مِن مُراعاةِ الفواصلِ[٣].

- والباسِقاتُ: الطَّويلاتُ في ارتفاعٍ، والمقصودُ مِن ذلك: الإيماءُ إلى بَديعِ خِلقتِه، وجَمالِ طَلْعتِه؛ استِدلالًا وامتنانًا. والنَّضيدُ: المنْضودُ، أي: المُصفَّفُ بَعضُه فوقَ بعضٍ ما دامَ في الأغطيةِ، وزِيادةُ الحالِ؛ للازديادِ مِن الصِّفاتِ النَّاشئةِ عن بَديعِ الصَّنعةِ، ومِن المِنَّةِ بمَحاسنِ مَنظرِ ما أُوتُوه[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾

- قولُه: ﴿رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ عِلَّةٌ لقولِه تعالَى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾. وفي تَعليلِه بذلك بعدَ تَعليلِ (أنْبَتنَا) الأوَّلِ بالتَّبصرةِ والتَّذكيرِ؛ تَنبيهٌ على أنَّ الواجبَ على العبدِ أنْ يكونَ انتفاعُه بذلكَ مِن حيثُ التَّذكُّرُ والاستبصارُ أهَمَّ وأقدَمَ مِن تَمتُّعِه به مِن حيثُ الرِّزقُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٣).

- قولُه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ في التَّعبيرِ عن إخراجِ النَّباتِ مِن الأرضِ بالإحياءِ، وعن حَياةِ المَوْتى بالخُروجِ: تَفخيمٌ لشأْنِ الإنباتِ، وتَهوينٌ لأمرِ البعثِ، وتَحقيقٌ للمُماثَلةِ بيْنَ إخراجِ النَّباتِ وإحياءِ المَوْتى؛ لتَوضيحِ مِنهاجِ القياسِ، وتَقريبِه إلى أفهامِ الناسِ(١).

- وفي قَولِه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ شبَّهَ الجَدْبَ بالمَوتِ في انعدامِ ظُهورِ الآثارِ؛ ولذلك سُمِّي ضِدُّه -وهو إنباتُ الأرضِ- حياةً(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ فلمْ يُثبِت التَّاءَ في ﴿مَّيْتًا﴾، وقال في سُورةِ (يس): ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا﴾ [يس: ٣٣]، فأثبَتَ التَّاءَ هناك فقال: ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ وذلك أنَّ الأرضَ أرادَ بها الوصْفَ، فقال: ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾؛ لأنَّ معْنى الفاعليَّةِ ظاهرٌ هناك. والبَلدةُ الأصلُ فيها الحَياةُ؛ لأنَّ الأرضَ إذا صارتْ حيَّةً صارتْ آهِلةً، وأقام بها النَّاسُ وعَمَرُوها، فصارتْ بلْدةً، فأسقَطَ التَّاءَ؛ لأنَّ معْنى الفاعليَّةِ ثبَتَ فيها، والَّذي بمعْنى الفاعِلِ لا يَثبُتُ فيه التَّاءُ، وتَحقيقُ هذا قولُه: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ [سبأ: ١٥]، حيثُ أثبَتَ التاءَ حيث ظَهَرَ بمعْنى الفاعلِ، ولم يَثبُتْ حيث لم يَظهَرْ(٣)، واللهُ أعلمُ.

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ بعْدَ ظُهورِ الدَّلائلِ بصُنعِ اللهِ على إمكانِ البَعثِ؛ لأنَّ خَلقَ تلك المخلوقاتِ مِن عَدمٍ يدُلُّ على أنَّ إعادةَ بعضِ الموجوداتِ الضَّعيفةِ أمكَنُ وأهوَنُ- جِيءَ بما يُفيدُ تَقريبَ البَعثِ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣١-١٣٢).

فهذه الجُملةُ فَذْلَكَةٌ[١] للاستِدلالِ على إمكانِ البعثِ الذي تَضمَّنَتْه الجُمَلُ السَّابقةُ؛ فوجَبَ انفصالُ هذه الجُملةِ -أي: لا تُعطَفُ على ما قَبْلَها-، فتَكونُ استِئنافًا، أو اعتراضًا في آخِرِ الكلامُ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ جُملةٌ قُدِّمَ فيهَا الخَبَرُ للقَصْدِ إلى القَصرِ[٣]. أو تَقديمُ المجرورِ على المبتدأِ؛ للاهتِمامِ بالخبَرِ؛ لِمَا في الخبَرِ مِن دَفعِ الاستحالةِ، وإظهارِ التَّقريبِ، وفيه تَشويقٌ لِتَلقِّي المُسنَدِ إليه[٤].

- والإشارةُ بـ (ذلك) -في قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾- إلى ما ذُكِرَ آنفًا مِن إحياءِ الأرضِ بعد مَوتِها؛ فهو إشارةٌ إلى الإحياءِ والبَعثِ، أي: كما أحْيَينا الأرضَ بعْدَ مَوتِها، كذلك نُحيي الناسَ بعدَ مَوتِهم وبِلاهُم، مع إفادتِها تَعظيمَ شأنِ المُشارِ إليه؛ لِما فيها مِن مَعنى البُعدِ، أي: مِثلَ البَعثِ العظيمِ الإبداعِ[٥].

---

(١) الفَذْلَكَةُ: مِن فذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكَةُ) كلِمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوْقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٤).

## الآيات (١٢-١٥)

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلرَّسِّ﴾: الرَّسُّ: كُلُّ مَحفورٍ؛ مِثلُ البِئرِ، والقَبرِ، ونَحوِ ذلك. قيل: هي بِئرٌ كانوا عليها نُزولًا، وقيل: قريةٌ مِن قرَى اليَمامةِ، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (رسس): يدُلُّ على ثَباتٍ[١].

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾: أي: قَومُ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ، والأيْكَةُ: الشَّجَرُ المُلتَفُّ المُجتَمِعُ، وأصلُ (أيك): يدُلُّ على اجتِماعِ شَجَرٍ[٢].

﴿أَفَعَيِينَا﴾: أي: أفعَجَزْنا، يُقالُ لكُلِّ مَن عَجَز عن شَيءٍ: عَيِيَ به: إذا لم يَهتَدِ لِوَجهِه، ولم يَقدِرْ على مَعرِفتِه وتَحصيلِه[٣].

﴿لَبْسٍ﴾: أي: شَكٍّ وحَيرةٍ، وأصلُ (لبس): يدُلُّ على مُخالَطةٍ ومُداخَلةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٦/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨، ٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن أحوالِ المكذِّبينَ للرُّسلِ مِن الأُممِ السَّابقةِ تسليةً لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: كذَّبتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ قَومُ نوحٍ، وأصحابُ الرَّسِّ، وثمودُ قَومُ صالِحٍ، وعادٌ قَومُ هُودٍ، وفِرعَونُ الَّذي كذَّب موسى، وقَومُ لُوطٍ، وأصحابُ الشَّجَرِ المُلتَفِّ قَومُ شُعَيبٍ، وقَومُ تُبَّعٍ. كُلُّ أولئك كذَّبوا الرُّسُلَ، فوَجَب عليهم عَذابُ الله.

ثمَّ يقرِّرُ الله تعالى أنَّ البعثَ حقٌّ، فيقولُ: أفعَجَزْنا عن ابتِداءِ الخَلقِ أوَّلَ مَرَّةٍ؟! بل أولئك الكُفَّارُ في حَيرةٍ وشَكٍّ مِن قُدرةِ اللهِ على البَعثِ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى قَولَه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [ق: ٥]؛ ذكَرَ مَن كَذَّب الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ تَسليةً لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١]، فقال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾﴾.

أي: كذَّبتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ -الَّذين كذَّبوا مُحمَّدًا- قَومُ نوحٍ الَّذين كَذَّبوا نُوحًا، وأصحابُ الرَّسِّ[٢]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٢).

(٢) قال الماوَرْدي: (في الرَّسِّ وجهانِ:

أحدُهما: أنَّه كلُّ حفرةٍ في الأرضِ مِن بئرٍ وقبرٍ. =

وثمودُ الَّذين كذَّبوا رَسولَهم صالِحًا[١].

﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وكذَّبتْ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ عادٌ الَّذين كذَّبوا هُودًا، وفِرعَونُ الَّذي كذَّب موسَى، وقَومُ لُوطٍ الَّذين كذَّبوا لُوطًا[٢].

---

= الثَّاني: أنَّها البئرُ الَّتي لم تُطْوَ بحجرٍ ولا غيرِه.

وأمَّا أصحابُ الرَّسِّ ففيهم أربعةُ أقاويلَ:

أحدُها: أنَّها بئرٌ قُتِل فيها صاحِبُ ياسينَ ورَسُّوه، قاله الضَّحَّاكُ.

الثَّاني: أنَّهم أهلُ بِئرٍ بأَذْرَبِيجانَ، قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّالثُ: أنَّهم قومٌ باليَمامةِ كان لهم آبارٌ، قاله قَتادةُ...

الرَّابعُ: أنَّهم أصحابُ الأُخدودِ. ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٤). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٣٢١).

قال ابن جرير: (واختلَف أهلُ التَّأويلِ في أصحابِ الرَّسِّ؛ فقال بعضُهم: أصحابُ الرَّسِّ مِن ثَمودَ... وقال آخَرونَ: هم قَومٌ رَسُّوا نبيَّهم في بئرٍ... وقال آخَرونَ: هي بئرٌ كانت تُسَمَّى الرَّسَّ... والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك قولُ مَن قال: هم قَومٌ كانوا على بئرٍ). ثمَّ ذكَر احتِمالَينِ: إمَّا أن يَكونوا أصحابَ الأُخدودِ، وإمَّا أنَّهم قَومٌ رَسُّوا نبيَّهم في حُفرةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٥١-٤٥٣).

وقال ابن عاشور: (الرَّسُّ: يُطلَقُ اسمًا للبئرِ غيرِ المَطْويَّةِ، ويُطلَقُ مصدرًا لِلدَّفنِ والدَّسِّ. واختلَف المفسِّرون في المرادِ به هنا. وأصحابُ الرَّسِّ قومٌ عُرِفوا بالإضافةِ إلى الرَّسِّ، فيحتملُ أنَّ إضافتَهم إلى الرَّسِّ مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى مَوطِنِه؛ مِثلُ «أصحابِ الأَيْكَةِ»، و«أصحابِ الحِجْرِ»، و«أصحابِ القريةِ». ويجوزُ أن تكونَ إضافةً إلى حَدَثٍ حلَّ بهم، مِثلُ «أصحابِ الأخدودِ». وفي تعيينِ أصحابِ الرَّسِّ أقوالٌ ثمانيةٌ أو تسعةٌ، وبعضُها مُتداخِلٌ... والأظهَرُ أنَّ إضافةَ «أصحاب» إلى ﴿ٱلرَّسِّ﴾ مِن إضافةِ اسمٍ إلى حدَثٍ حدَثَ فيه؛ فقد قيل: إنَّ أصحابَ الرَّسِّ عُوقِبوا بخَسْفٍ في الأرضِ، فوقَعوا في مِثلِ البئرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٣، ٨٦).

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾.

أي: وكذَّبَ قبْلَ مُشرِكي قُرَيشٍ أصحابُ الشَّجَرِ المُلتَفِّ المُجتَمِعِ، فكذَّبوا رَسولَهم شُعَيبًا، وكذَّب قَومُ المَلِكِ تُبَّعٍ(١).

قال الله تعالى: ﴿ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٧].

وعن عائشةَ رَضيَ الله عنها أنَّها قالت: (كان تُبَّعٌ رجُلًا صالحًا، ألَا ترَى أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذمَّ قَومَه، ولم يَذُمَّه؟)(٢).

﴿ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾.

أي: كُلُّ أولئك الأُمَمِ الماضيةِ كذَّبوا الرُّسُلَ الَّذين أرسَلَهم اللهُ تعالى إليهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧)،

قال ابن عطية: (﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هم حِمْيَرُ، وتُبَّعٌ اسمُ المَلِكِ فيهم، يذهَبُ تُبَّعٌ ويَجيءُ تُبَّعٌ، كَكِسْرى في الفُرسِ، وقَيصَرَ في الرُّومِ، وكان أسعدُ أبو كَرِبٍ أحَدُ التَّبابِعةِ رَجُلًا صالِحًا، صَحِبَ حَبرَينِ فتعلَّم منهما دينَ موسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٨).

وقال السعدي: (تُبَّعٌ: كُلُّ مَلِكٍ ملَكَ اليَمَنَ في الزَّمانِ السَّابِقِ قبْلَ الإسلامِ، فقَومُ تُبَّعٍ كذَّبوا الرَّسولَ الَّذي أرسَلَه اللهُ إليهم، ولم يُخبِرْنا اللهُ مَن هو ذلك الرَّسولُ، وأيُّ تُبَّعٍ مِنَ التَّبابِعةِ؛ لأنَّه -واللهُ أعلَمُ- كان مشهورًا عندَ العرَبِ؛ لِكَونِهم مِنَ العَرَبِ العَرْباءِ الَّذين لا تخفَى ماجَرَياتُهم على العَرَبِ، خُصوصًا مِثلَ هذه الحادثةِ العظيمةِ). ((تفسير السعدي)) ص: ٨٠٤).

(٢) أخرجه عبد الرزَّاق في ((تفسيره)) (٢٨١٩)، ومن طريقه الحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٤٨٨) واللَّفظُ له.

قال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشَّيخينِ). ووافقه الذهبي، وقال الألباني: في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥/ ٥٤٩): (وهو كما قالا)، وقال شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((المسند)) (٣٧/ ٥٢٠): (رجالُه ثقاتٌ رجالُ الشَّيخينِ).

فوَجَب وثَبَت عليهم عَذابُ اللهِ، الَّذي توعَّدَهم به على كُفرِهم به، وتَكذيبِهم رُسُلَه(١).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا * وَعَادًا وَثَمُودَا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٣٧ - ٣٩].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ ۚ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴾ [ص: ١٢ - ١٤].

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾.

أي: أفعَجَزْنا عن ابتِداءِ الخَلقِ أوَّلَ مَرَّةٍ، فلم نكُنْ عالِمينَ بما نَصنَعُ فيه، ولا قادِرينَ عليه(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧).

قال ابن تيميَّة: (لم يُرِدِ الإعياءَ الَّذي هو التَّعَبُ، وإنَّما أراد العِيَّ، كما تقولُ العَرَبُ: عَيِيَ بأمْرِه: إذا لم يَهتَدِ لِوَجهِه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٧/ ٣٨٣). ويُنظر: ((الفصيح)) لثعلب =

كما قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ: كذَّبَني ابنُ آدَمَ، ولم يكُنْ له ذلك، يقولُ: لن يُعيدَني كما بدأني! وليس أوَّلُ الخَلقِ بأهْوَنَ عليَّ مِن إعادتِه!))[1].

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

أي: ليس الأمرُ كذلك، فلم نَعْيَ بالخَلقِ الأوَّلِ، ولا هم يَشُكُّون في ذلك، وإنَّما هم في شَكٍّ وتردُّدٍ وحَيرةٍ مِن قُدرةِ اللهِ على البَعثِ؛ فالتَبَس عليهم إعادةُ اللهِ

---

= (ص: ٢٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٤٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٨، ٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٢٨).

وقال ابن القيِّم: (قوله ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ يقالُ لكلِّ مَن عجَز عن شَيءٍ: عَيِيَ به، وعَيِيَ فُلانٌ بهذا الأمرِ ... -ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]- قال ابنُ عبَّاسٍ: يريدُ: أفعَجَزْنا؟! وكذلك قال مُقاتِلٌ. قلتُ: هذا تفسيرٌ بلازِمِ اللَّفظةِ، وحقيقتُها أعَمُّ مِن ذلك؛ فإنَّ العرَبَ تقولُ: أعْياني أن أعرِفَ كذا، وعَيِيتُ به؛ إذا لم تَهتَدِ لوجْهِه، ولم تَقدِرْ على مَعرفتِه وتحصيلِه، فتقولُ: أعْياني دواؤُك؛ إذا لم تَهتَدِ ولم تَقِفْ عليه. ولازِمُ هذا المعنَى: العجزُ عنه). ((الفوائد)) (ص: ٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٢).

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

الأمواتَ خَلقًا جَديدًا، مع أنَّه لا محلَّ للَّبسِ فيه؛ فالإعادةُ أهوَنُ مِنَ الابتداءِ[(١)]!

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدِۭۚ بَلۡ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمۡ كَٰفِرُونَ * قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾ [السجدة: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٧].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ * وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أخبرَ سُبحانَه أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن هؤلاء المذكورينَ: فِرعَونَ وغَيرَه، كَذَّب الرُّسُلَ كُلَّهم؛ إذ لم يُؤمِنوا ببَعضٍ ويَكفُروا ببَعضٍ، كاليَهودِ والنَّصارى، بل كَذَّبوا الجَميعَ، وهذا أعظَمُ أنواعِ الكُفرِ؛ فكُلُّ مَن كَذَّب رَسولًا فقد كَفَر، ومَن لم يُصَدِّقْه ولم يُكَذِّبْه فقد كَفَر؛ فكُلُّ مُكَذِّبٍ للرَّسولِ كافِرٌ به، وليس كُلُّ كافرٍ مُكَذِّبًا به؛ إذ قد يكونُ شاكًّا في رسالتِه، أو عالِمًا بصِدقِه لكِنَّه يَحمِلُه الحَسَدُ أو الكِبرُ على ألَّا يُصَدِّقَه، وقد يكونُ مُشتَغِلًا بهَواه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٨، ٨٩).
قال الزمخشري: (قد لَبَّس عليهم الشَّيطانُ وحَيَّرَهم... ولَبْسُ الشَّيطانِ عليهم: تَسويلُه إليهم أنَّ إحياءَ الموتى أمرٌ خارِجٌ عن العادةِ، فتَرَكوا لذلك القياسَ الصَّحيحَ: أنَّ مَن قَدَر على الإنشاءِ كان على الإعادةِ أقدَرَ!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢).

عن استِماعِ رِسالتِه والإصغاءِ إليه[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾، ولم يقُلْ: (قومُ فِرعَونَ) لأنَّه ليس في قادةِ هذه الفِرَقِ كافِرٌ غيرُه، والنَّصُّ عليه يُفهِمُ عَظَمتَه، وأنَّه استخَفَّ قَومَه فأطاعوه[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كُلٌّ مِن هذه الأُمَمِ وهؤلاء القُرونِ كَذَّب رَسولَه، ومَن كَذَّب رَسولًا فكأنَّما كَذَّب جميعَ الرُّسُلِ، كقَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، وإنَّما جاءهم رَسولٌ واحِدٌ، فهم في نفْسِ الأمرِ لو جاءهم جميعُ الرُّسُلِ كَذَّبوهم[٣].

٤- التَّحذيرُ لِمُكَذِّبي الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولهذا قال في آخِرِ ما ذَكَرَ: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، فحَقَّ عليهم وعيدُ اللهِ بالعَذابِ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَن كَذَّب الرُّسُلَ يَحِقُّ عليه العَذابُ، أي: يتحَتَّمُ ويَثبُتُ في حَقِّه ثُبوتًا لا يَصِحُّ معه تخَلُّفُه عنه، وهو دليلٌ واضِحٌ على أنَّ ما قاله بَعضُ أهلِ العِلمِ مِن أنَّ اللهَ يَصِحُّ أن يُخلِفَ وَعيدَه -لأنَّه قال: إنَّه لا يُخلِفُ وَعْدَه، ولم يَقُلْ: إنَّه لا يُخلِفُ وَعيدَه، وأنَّ إخلافَ الوَعيدِ حَسَنٌ لا قبيحٌ، وإنَّما القَبيحُ هو إخلافُ الوَعدِ- لا يَصِحُّ بحالٍ؛ لأنَّ وَعيدَه تعالى للكُفَّارِ حَقٌّ، ووجَب عليهم بتَكذيبِهم للرُّسُلِ، كما دَلَّ عليه قَولُه هنا: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾، وقد تقَرَّر في الأُصولِ أنَّ الفاءَ مِن حُروفِ العِلَّةِ، كقَولِه: (سها فسَجَد)، أي: لِعِلَّةِ سَهوِه، و(سَرَق فقُطِعَت يَدُه)، أي: لِعِلَّةِ

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٨٣، ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٢).

سَرِقتِه، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]؛ فتَكذيبُهم الرُّسُلَ عِلَّةٌ صَحيحةٌ لِكَونِ الوَعيدِ بالعَذابِ حَقًّا ووَجَب عليهم، فدعوى جَوازِ تخلُّفِه باطِلةٌ بلا شَكٍّ، أمَّا الوعيدُ الَّذي لا يمتنِعُ إخلافُه فهو وعيدُ عصاةِ المسلمينَ بتعذيبِهم على كبائرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ الله تعالى أوضَح ذلك في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وهذا في الحقيقةِ تجاوُزٌ مِن الله عن ذُنوبِ عبادِه المؤمنينَ العاصينَ، ولا إشكالَ في ذلك(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ مِن براهينِ البَعثِ؛ لأنَّ مَن لم يَعْيَ بخَلقِ النَّاسِ، ولم يَعجِزْ عن إيجادِهم الأوَّلِ: لا شَكَّ في قُدرتِه على إعادتِهم، وخَلْقِهم مرَّةً أُخرى؛ لأنَّ الإعادةَ لا يُمكِنُ أن تكونَ أصعَبَ مِن البَدءِ(٢).

٧- قَولُه تعالى: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ فهذا الخَلقُ الجَديدُ قد سمَّاه الله سُبحانَه وتعالى إعادةً، والمَعادُ مِثلُ المَبدَأِ، وسَمَّاه نَشأةً أُخرى، وهي مِثلُ الأُولى، وسَمَّاه خَلقًا جَديدًا، وهو مِثلُ الخَلقِ الأوَّلِ، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾، وسَمَّاه أمثالًا، وهم هم؛ فتَطابَقَت ألفاظُ القُرآنِ، وصَدَّق بَعضُها بَعضًا، وبَيَّن بَعضُها بَعضًا؛ ولهذا تزولُ إشكالاتٌ أورَدَها مَن لم يَفهَمِ المَعادَ الَّذي أخبَرَت به الرُّسُلُ عن اللهِ تعالى؛ ولا يُفهَمُ مِن هذا القَولِ ما قاله بَعضُ المتأخِّرينَ: إنَّهم غَيرُهم مِن كُلِّ وَجهٍ؛ فهذا خَطأٌ قَطعًا، مَعاذَ اللهِ مِن اعتِقادِه! بل هم أمثالُهم وهم أعيانُهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٨).

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ لبَيانِ حَقيقةٍ راهنةٍ عن البعثِ، واتِّفاقِ جميعِ الرُّسُلِ عليه، وتعذيبِ مُنكريه، وهو ناشئٌ عن قولِه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [ق: ٥]، فعُقِّبَ بأنَّهم لَيسوا ببِدْعٍ في الضَّلالِ؛ فقد كذَّبَت قبْلَهم أُمَمٌ(١).

- وذَكَر مِن الرُّسلِ أشهَرَهم في العالَمِ وأشْهَرَهم بيْنَ العرَبِ؛ فقومُ نُوحٍ أوَّلُ قَومٍ كذَّبوا رَسولَهم، وفِرعونُ كذَّبَ موسى، وقومُ لُوطٍ كذَّبوه، وهؤلاء مَعروفونَ عندَ أهلِ الكِتابِ، وأمَّا أصحابُ الرَّسِّ وعادٌ وثَمودُ وأصحابُ الأَيْكةِ وقَومُ تُبَّعٍ، فهُمْ من العرَبِ، وذُكِروا هنا عقِبَ قومِ نوحٍ؛ للجامعِ الخَياليِّ بيْن القومَينِ، وهو جامعُ التَّضادِّ؛ لأنَّ عَذابَهم كان ضِدَّ عذابِ قَومِ نوحٍ؛ إذ كان عَذابُهم بالخَسفِ، وعذابُ قومِ نوحٍ بالغَرَقِ، ثمَّ ذكَرَ ثَمودَ؛ لشَبَهِ عَذابِهم بعذابِ أصحابِ الرَّسِّ؛ إذْ كانَ عَذابُهم برَجفةِ الأرضِ وصَواعقِ السَّماءِ، ولأنَّ أصحابَ الرَّسِّ مِن بَقايا ثَمودَ -على أحدِ الأقوالِ-، ثمَّ ذُكِرَت عادٌ؛ لأنَّ عذابَها كان بحادثٍ في الجوِّ، وهو الرِّيحُ، ثم ذُكِرَ فِرعونُ وقومُه؛ لأنَّهم كذَّبوا أشهَرَ الرُّسُلِ قبْلَ الإسلامِ، وأصحابُ الأيْكةِ هم قومُ شُعَيبٍ، وهم مِن خُلَطاءِ بني إسرائيلَ(٢).

- قَولُه: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ عبَّرَ بالأُخوَّةِ؛ مع أنه لم يكُنْ مِن نسَبِهم، وإنَّما كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٥).

نزيلًا فيهم؛ لاستِوطانِه بلادَهم، واختيارِه لِمُجاوَرتِهم، ومُصاهَرتِهم، وإقامتِه بيْنَهم في مدينتِهم مُدَّةً مَديدةً، وسِنينَ عديدةً، فالمرادُ بـ (إِخْوَانُ) هنا أنَّهم مُلازِمونَ، وهذا مِن إطلاقِ الأُخُوَّةِ على مُلازَمةِ الشَّيءِ ومُمارَستِه[1].

- والمقصودُ بذِكرِ هذِه الأُمَمِ الَّتي أصابَها عذابٌ شَديدٌ في الدُّنيا عِقابًا على تَكذيبِهم الرُّسلَ: تسليةُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّعريضُ بالتَّهديدِ لقَومِه المكذِّبينَ أنْ يحُلَّ بهم ما حلَّ بأولئك[2].

- وجُملةُ ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ إلى آخرِها؛ فلذلك فُصِلَتْ ولم تُعطَفْ، وليُبْنَى عليه قولُه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾؛ فيَكونَ تَهديدًا بأنْ يحِقَّ عليهم الوعيدُ كما حَقَّ على أولئك مُرتَّبًا بالفاءِ على تَكذيبِهم الرُّسلَ؛ فيكونَ في ذلك تَشْريفٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللرُّسلِ السَّابقينَ[3].

- قولُه: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ تنْوينُ ﴿كُلٌّ﴾ تَنوينُ عِوَضٍ عن المُضافِ إليه، أي: كلُّ أولئك[4]. وإفرادُ الضَّميرِ في قَولِه: ﴿كَذَّبَ﴾ باعتِبارِ لَفظِ الكُلِّ، أوْ كُلُّ واحدٍ منهم كذَّبَ جمْعَ الرُّسلِ؛ لاتِّفاقِهم على الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ والإنذارِ بالبعثِ والحَشْرِ؛ فتَكذيبُ واحدٍ منهم تكذيبٌ للكلِّ، وهذا على تقْديرِ رِسالةِ تُبَّعٍ ظاهرٌ، وأمَّا على تَقديرِ عدَمِها -وهُو الأظهرُ- فمعنى تَكذيبِ قَومِه الرُّسلَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٤/ ٨٠) و(١٨/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٧٨) و(٢٦/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٢٩٧).

تكذيبُهم بمنْ قَبْلَهم مِن الرُّسلِ المُجمِعينِ على التَّوحيدِ والبعثِ، وإلى ذلكَ كان يَدْعُوهم تُبَّعٌ(١).

- قولُه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ الوعيدُ: الإنذارُ بالعُقوبةِ، واقتَضى الإخبارُ عنه بـ (حَقَّ) أنَّ اللهَ تَوعَّدَهم به، فلمْ يَعبؤوا وكذَّبوا وُقوعَه؛ فحَقَّ وصدَقَ. وحُذِفَت ياءُ المتكلِّمِ الَّتي أُضيفَ إليها ﴿وَعِيدِ﴾؛ للرَّعْيِ على الفاصلةِ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ استِئنافٌ مقرِّرٌ لصحَّةِ البَعثِ الَّذي حُكِيَت أحوالُ المنكِرينَ له مِن الأممِ المُهلَكةِ. والفاءُ في ﴿أَفَعَيِينَا﴾ عاطفةٌ على مَحذوفٍ، تقديرُه: أقصَدْنا الخلْقَ فعَجَزْنا عنه حتَّى يتوهَّمَ أحَدٌ عَجْزَنا عن إعادتِه(٣)؟!

- وأيضًا تُشيرُ فاءُ التَّفريعِ إلى أنَّ هذا الكلامَ مُفرَّعٌ على ما قبْلَه، وهو جُملةُ ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ [ق: ٦]، وقولُه: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ﴾ [ق: ٨] المُعرِّضُ بأنَّهم لم يَتبصَّروا به ولم يَتذكَّروا. وقولُه: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ [ق: ٩]، وقولُه: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ تَفريعًا على قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾(٤).

- والهَمزةُ في ﴿أَفَعَيِينَا﴾ استِفهامُ إنكارٍ وتَغليطٍ؛ لأنَّهم لا يَسَعُهم إلَّا الاعترافُ بأنَّ اللهَ لم يَعْيَ بالخَلقِ الأوَّلِ؛ إذ لا يُنكِرُ عاقلٌ كَمالَ قُدرةِ الخالِقِ، وعدمَ عَجزِه(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي =

- وفي قَولِه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ عُرِّفَ الخلْقُ الأوَّلُ، ونُكِّرَ اللَّبْسُ والخلْقُ الجديدُ؛ وذلك لأنَّه عُرِّفَ الخلْقُ الأوَّلُ لتَفخيمِه وتَعظيمِه؛ لأنَّ الغرَضَ جَعْلُه دَليلًا على إمكانِ الخلْقِ الثَّاني بطَريقِ الأَولى، أي: إذا لم يَعْيَ تعالى بالخلْقِ الأوَّلِ -على عَظَمتِه- فالخلْقُ الآخرُ أَولى ألَّا يَعيا به. وأمَّا تَنكيرُ اللَّبْسِ فللتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، كأنَّه قال: في لَبْسٍ أيَّ لَبْسٍ، وتَنكيرُ الخلْقِ الجديدِ للتَّقليلِ منه، والتَّهوينِ لأمْرِه بالنِّسبةِ إلى الخلْقِ الأوَّلِ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ للتَّفخيمِ، كأنَّه أمْرٌ أعظَمُ مِن أنْ يَرضى الإنسانُ بكَونِه مُلتبسًا عليه، مع أنَّه أوَّلُ ما تُبصَرُ فيه صِحَّتُه[1]، أو نكَّره لتعظيمِ شأنِه، والإشعارِ بأنَّه على وجهٍ غيرِ مُتعارَفٍ ولا مُعتادٍ[2]. أو تَنكيرُ ﴿لَبۡسٖ﴾ للنَّوعيةِ، وتَنكيرُ ﴿خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ كذلك، أي: ما هو إلَّا خلْقٌ مِن جُملةِ ما يقَعُ مِن خلْقِ اللهِ الأشياءَ ممَّا وُجِّهَ إحالتُه، ولتَنكيرِه أُجْرِيَت عليه الصِّفةُ بـ﴿جَدِيدٖ﴾[3]. وقيل: نَكَّر الخَلقَ الجَديدَ؛ لأنَّه كان غيرَ مَعروفٍ عندَ الكُفَّارِ المُخاطَبينَ، وعَرَّف الخَلْقَ الأوَّلَ؛ لأنَّه مَعروفٌ مَعهودٌ[4].

- قولُه: ﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ حرْفُ (بل) أفادَ الإضرابَ الإبطاليَّ عن المُستفهَم عنه، أي: بلْ ما عَيِينا بالخلْقِ الأوَّلِ، أي: وهم يَعلَمون ذلك، ويَعلَمون أنَّ الخلْقَ الأوَّلَ للأشياءِ أَعظَمُ مِن إعادةِ خلْقِ الأمواتِ، ولكنَّهم

---

= حيان)) (٩/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠١).

تَمكَّنَ منهم اللَّبسُ الشَّديدُ، فأغْشَى إدراكَهم عن دَلائلِ الإمكانِ فأحالُوه؛ فالإضرابُ على أصلِه مِن الإبطالِ[١].

- وأيضًا (بل) عطفٌ على مُقدَّرٍ مُستأنَفٍ مَسوقٍ لبيانِ شُبهتِهم وفضْحِ سَفْسطتِهم، والتَّقديرُ: هم غيرُ مُنكِرين لقدرتِنا، بلْ هم في خَلطٍ وشُبهةٍ[٢].

- وجيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ مِن قولِه: ﴿هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ هذا الحُكمِ لهم، وأنَّه مُتمكِّنٌ مِن نُفوسِهم، لا يُفارِقُهم البتَّةَ، ولِيَتأتَّى اجتِلابُ حرْفِ الظَّرفيَّةِ في الخبَرِ؛ فيَدُلَّ على انغِماسِهم في هذا اللَّبْسِ، وإحاطتِه بهم إحاطةَ الظَّرفِ بالمَظروفِ[٣].

- قولُه: ﴿جَدِيدٍ﴾ في هذا الوصفِ تَحميقٌ لهم مِن إحالتِهم البَعثَ، أي: اجْعَلوه خلْقًا جديدًا كالخَلقِ الأوَّلِ، وأيُّ فارقٍ بيْنَهما[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٦-٢٢)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُوَسْوِسُ﴾: أي: تُلْقي وتُحَدِّثُ، والوَسْوَسةُ: الخَطرةُ الرَّديئةُ وحديثُ النَّفْسِ، والصَّوتُ الخفيُّ، وبه سُمِّيَ صَوتُ الحلْيِ وَسْواسًا، وأصلُ (وسوس): يدُلُّ على صَوتٍ غَيرِ رَفيعٍ[١].

﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: الحَبلُ هو الوَريدُ؛ فهو مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى نَفْسِه لاختِلافِ اللَّفظَينِ، وهو عِرقٌ في باطِنِ العُنُقِ مُعَلَّقٌ بالقَلبِ[٢].

﴿قَعِيدٌ﴾: أي: قاعِدٌ رَاصِدٌ مُلازِمٌ لا يَبرَحُ[٣].

﴿رَقِيبٌ﴾: أي: مُراقِبٌ لأعمالِه، حافِظٌ لها، شاهِدٌ عليها، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٩)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، =

﴿عَتِيدٌ﴾: أي: حاضِرٌ لا يَغيبُ، مُعَدٌّ للحِفظِ والشَّهادةِ، وأصلُ (عتد): يدُلُّ على حُضورٍ وقُربٍ[١].

﴿سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ﴾: أي: غَمْرَتُه وشِدَّتُه الَّتي تَغشَى الإنسانَ، وتَغلِبُ على عَقلِه، وأصلُ (سكر): يدُلُّ على حَيرةٍ[٢].

﴿تَحِيدُ﴾: أي: تَفِرُّ منه، وتَميلُ عنه، وأصلُ (حيد): يدُلُّ على مَيلٍ وعُدولٍ عن طَريقِ الاستِواءِ[٣].

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرنِ يَنفُخُ فيه إسرافيلُ[٤].

﴿حَدِيدٌ﴾: أي: نافِذٌ حادٌّ قويٌّ، وحِدَّةُ البَصَرِ: قُوَّةُ نَفاذِه في المَرئيِّ، وأصلُ (حدد): يدُلُّ على مَنعٍ، وسُمِّيَ الحديدُ حَديدًا؛ لامتناعِه وصلابَتِه وشِدَّتِه[٥].

---

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٥٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣) و(٢/ ٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا شمولَ عِلمِه لكلِّ شَيءٍ: ولقد خَلَقْنا كلَّ إنسانٍ ونحنُ نعلَمُ ما تُحدِّثُه به نفْسُه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، ونحن أقرَبُ إليه مِن حَبلِ الوَريدِ الَّذي في عُنُقِه، إذ يَتلَقَّى المَلَكانِ ما يَصدُرُ منه فيُحصيانِه عليه: أحَدُهما عن يمينِه، والآخَرُ عن شِمالِه.

ما يَتلفَّظُ إنسانٌ بقَولٍ إلَّا وعِندَه مَلَكٌ حافِظٌ لكَلامِه، حاضِرٌ لا يُفارِقُه.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه حالةَ الإنسانِ عندَ الاحتضارِ، فيقولُ: وجاءت شِدَّةُ الموتِ بالحَقِّ الَّذي يكونُ بعدَ الموتِ مِن ثَوابٍ أو عِقابٍ، ذلك الموتُ هو ما كُنتَ تَهرُبُ منه أيُّها الإنسانُ!

ثمَّ يَذكُرُ سبحانَه يومَ القيامةِ وحالَ النَّاسِ فيه، فيقولُ: ونَفَخ المَلَكُ في القَرنِ لِبَعثِ النَّاسِ، وذلك يَومُ القيامةِ الَّذي توعَّد اللهُ الكافِرينَ والظَّالِمينَ فيه بالعَذابِ، وجاءتْ كلُّ نَفسٍ معها سائِقٌ مِنَ الملائِكةِ يَسوقُها إلى اللهِ تعالى، وشَهيدٌ مِنَ الملائكةِ يَشهَدُ عليها بما عَمِلَته.

لقد كنتَ -أيُّها الإنسانُ- في غَفلةٍ مِن هذا اليَومِ، فأزَلْنا عنك الغِطاءَ، ورَفَعْنا عنك الحِجابَ يومَ القيامةِ؛ فظَهَرت لك حقائِقُ الآخِرةِ، فبَصَرُك يومَ القيامةِ حادٌّ قَويٌّ نافِذٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى خَلْقَ الخافِقَينِ -السَّماءِ والأرضِ-؛ أتْبَعَه خَلْقَ ما هو

جامعٌ لجميعِ ما هو فيهما[١].

وأيضًا بعد أن استدَلَّ على إمكانِ البعثِ بقولِه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]- أردف ذلك دليلًا آخَرَ على إمكانِه، وهو عِلمُه بما فى صدورِهم، وعدَمُ خَفاءِ شَىءٍ مِن أمرِهم عليه[٢].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

أي: ولقد خَلَقْنا كلَّ إنسانٍ ونحنُ نعلَمُ ما تُحدِّثُه به نفْسُه سِرًّا، فلا يخفَى علينا ما يَختَلِجُ في قَلْبِه[٣].

قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

أي: ونحن أقرَبُ إليه مِن حَبلِ وَريدِه الَّذي في عُنُقِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٩).

قال البقاعي: (فنحن نعلمُ أنَّ قُلوبَهم عالِمةٌ بقُدرتِنا على أكمَلِ ما نريدُ، وبصِحَّةِ القرآنِ وإعجازِه، وصِدقِ الرَّسولِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وامتيازِه، وإنَّما حمَلَهم الحَسَدُ والنَّفاسةُ [أي: الحسدُ] والكِبرُ والرِّئاسةُ على الإنكارِ باللِّسانِ حتَّى صار ذلك لهم خُلُقًا، وتمادَوا فيه حتَّى غطَّى على عُقولِهم، فصاروا في لَبْسٍ مُحيطٍ بهم مِن جميعِ الجوانِبِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤١٩، ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢١، ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٠٥)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للموصلي (ص: ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) =

كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ﴾ [المجادلة: ٧].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا غَزا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خَيبَرَ أشرَفَ النَّاسُ على وادٍ، فرَفَعوا أصواتَهم بالتَّكبيرِ: اللهُ أكبَرُ، اللهُ أكبَرُ، لا إلهَ إلَّا اللهُ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ارْبَعوا[1] على أنفُسِكم؛ إنَّكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ، ولا غائِبًا، إنَّكم تَدْعُونَ سَميعًا قَريبًا، وهو معكم))[2].

---

= (ص: ٨٩، ٩٠).

قيل: المرادُ: قُربُ ملائكتِه منه. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ تيميَّة، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٩).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يعنى: ملَكَ الموتِ وحْدَه، إذا أتاه لِيَقبِضَ رُوحَه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٥).

وقيل: المرادُ: نحن أقرَبُ إليه بالعِلمِ والقُدرةِ والإحاطةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ في الجملةِ: الأخفَشُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، وابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٠).

قال ابن كثير: (مَن تأوَّله على العِلمِ فإنَّما فَرَّ لئَلَّا يَلزَمَ حُلولٌ أو اتِّحادٌ، وهما مَنفيَّانِ بالإجماعِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨).

(١) ارْبَعُوا على أنفُسِكم: أي: ارْفُقوا بها، وأمسِكوا عن الجَهرِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٥٩٧).

(٢) رواه البخاري (٤٢٠٥) واللفظ له، ومسلم (٢٧٠٤).

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا تَمَّ الإخبارُ مِنَ اللهِ تعالى بالخَلقِ والعِلمِ بخَطَراتِ الأنفُسِ، والقُربِ؛ أخبَرَ بذِكرِ الأحوالِ الَّتي تُصَدِّقُ هذا الخبَرَ، وتُعَيِّنُ وُرودَه عندَ السَّامعِ؛ فمِنها: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾، ومنها مجيءُ سَكرةِ الموتِ، ومنها: النَّفخُ في الصُّورِ، ومنها: مجيءُ كُلِّ نفْسٍ معها سائِقٌ وشَهيدٌ[1].

وأيضًا فإنَّه ذكَر سبحانَه أنَّه مع عِلمِه به وكَّل به مَلَكَينِ يَكتُبانِ ويَحفَظانِ عليه عمَلَه؛ إلزامًا للحُجَّةِ، فقال[2]:

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: نحن أقرَبُ إليه مِن حَبلِ الوَريدِ في الوَقتِ الَّذي يَتلَقَّى فيه المَلَكانِ جميعَ ما يَصدُرُ منه مِن أقوالٍ وأعمالٍ، فيُحصيانِها عليه: أحَدُهما ثابِتٌ عن يمينِه، والآخَرُ ثابتٌ عن شِمالِه، لا يُفارِقانِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩-١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٠، ٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٦، ٤٢٧).

قال ابنُ رجب: (أجمَع السَّلَفُ الصَّالِحُ على أنَّ الَّذي عن يمينِه يَكتُبُ الحَسَناتِ، والَّذي عن شِمالِه يَكتُبُ السَّيِّئاتِ). ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٣٣٦).

وقال الشنقيطي: (المرادُ أنَّ الَّذي خلَق الإنسانَ ويَعلَمُ ما تُوسوِسُ به نفْسُه وهو أقرَبُ إليه مِن حَبلِ الوَريدِ في وَقتِ كِتابةِ الحَفَظةِ أعمالَه: لا حاجةَ له لِكَتْبِ الأعمالِ؛ لأنَّه عالِمٌ بها، لا يَخفى عليه منها شَيءٌ، وإنَّما أمَرَ بكِتابةِ الحَفَظةِ للأعمالِ؛ لحِكَمٍ أُخرى، كإقامةِ الحُجَّةِ على العَبدِ =

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ما يَتكلَّمُ الإنسانُ بقَولٍ إلَّا وعِندَه مَلَكٌ حافِظٌ يُراقِبُ كَلامَه لِيَكتُبَه، حاضِرٌ لا يُفارِقُه[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

وعن عَلْقَمةَ بنِ وقَّاصٍ اللَّيثيِّ، عن بلالِ بنِ الحارِثِ المُزَنيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن رِضوانِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ما يظُنُّ أنْ تَبلُغَ ما بَلَغَت، يَكتُبُ اللهُ عزَّ وجَلَّ له بها رِضوانَه إلى يومِ القيامةِ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَتكَلَّمُ بالكَلِمةِ مِن سَخَطِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ما يظُنُّ أن تَبلُغَ ما بلَغَت، يَكتُبُ اللهُ عزَّ وجَلَّ بها عليه سَخَطَه إلى يومِ القيامةِ!))، فكان عَلْقمةُ يقولُ: (كم مِن كَلامٍ قد مَنَعَنيه حديثُ بلالِ بنِ الحارِثِ!)[2].

---

= يومَ القيامةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٢٦، ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٢، ٩٣).

قال الماوردي: (﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه المُتتَبِّعُ للأمورِ. الثَّاني: أنَّه الحافظُ، قاله السُّدِّيُّ. الثَّالثُ: أنَّه الشَّاهدُ، قاله الضَّحَّاكُ.

وفي ﴿عَتِيدٌ﴾ وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه الحاضرُ الَّذي لا يَغيبُ. الثَّاني: أنَّه الحافظُ المُعَدُّ؛ إمَّا لِلحِفظِ، وإمَّا للشَّهادةِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١).

وقال الشنقيطي في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾: (أي: إلَّا والحالُ أنَّ عندَه رقيبًا، أي: مَلَكًا مُراقِبًا لأعمالِه، حافِظًا، لها شاهدًا عليها، لا يَفوتُه منها شَيءٌ. ﴿عَتِيدٌ﴾: أي: حاضرٌ، ليس بغائبٍ، يَكتُبُ عليه ما يقولُ مِن خَيرٍ وشرٍّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٢٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) كما في ((تحفة الأشراف)) للمِزِّي (٢/ ١٠٤)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، وأحمد (١٥٨٥٢) واللَّفظُ له. =

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ إنكارَهم البَعثَ، واحتَجَّ عليهم بوصْفِ قُدرتِه وعِلمِه؛ أعلَمَهم أنَّ ما أنكَروه وجَحَدوه هم لاقوهُ عن قريبٍ عندَ مَوتِهم وعندَ قِيامِ السَّاعةِ[1].

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّ﴾.

أي: وجاءتْ شِدَّةُ الموتِ وغَمْرتُه الَّتي تَغشَى الإنسانَ، بما يكونُ بعدَ الموتِ مِن ثَوابٍ وعِقابٍ، وسَعادةٍ وشَقاوةٍ، فيَظهَرُ عندَ الموتِ صِدقُ ما أخبَرَتْ به الرُّسُلُ مِن ذلك[2].

---

= قال الترمذي، وابن حجر في ((الأمالي المطلقة)) (٢١٠): (حسَنٌ صحيحٌ). وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٢٨٠)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ١٠٦)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٩٦٩)، وصحَّحه لغيرِه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٥/ ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٥).

قال ابنُ الجوزي: (﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّ معناه: جاءت بحقيقةِ الموتِ. والثَّاني: بالحَقِّ مِن أمرِ الآخِرةِ، فأبانت للإنسانِ ما لم يكُنْ بيِّنًا له مِن أمرِ الآخِرةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٠).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (ليس مُرادُه أنَّها جاءت بالحَقِّ الَّذي هو الموتُ؛ فإنَّ هذا مَشهورٌ لم يُنازَعْ فيه، ولم يَقُلْ أحدٌ: إنَّ الموتَ باطِلٌ حتَّى يُقالَ: جاءت بالحَقِّ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٦٥).

ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٥، ٣٨٦).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ حضَرَتْه الوَفاةُ جَعَل يُدخِلُ يَديه في الماءِ، فيَمسَحُ بهما وَجْهَه، يقولُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، إنَّ لِلْمَوتِ سَكَراتٍ))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ إنْ كان مِن أهلِ الجنَّةِ فمِن أهلِ الجَنَّةِ، وإنْ كان مِن أهلِ النَّارِ فمِن أهلِ النَّارِ، يُقال: هذا مَقعَدُك حتَّى يَبعَثَك اللهُ إليه يومَ القيامةِ))(٢).

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾.

أي: ذلك الموتُ الَّذي جاءَتْك سَكْرتُه بالحَقِّ هو ما كُنتَ تَميلُ عنه وتَهرُبُ منه -أيُّها الإنسانُ- وقد أدركَك الآنَ(٣)!

---

(١) رواه البخاري (٤٤٤٩).

(٢) رواه البخاري (١٣٧٩)، ومسلم (٢٨٦٦) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٦).

قال ابنُ كثيرٍ: (في قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّ «ما» هاهنا مَوصولةٌ، أي: الَّذي كنتَ منه تحيدُ -بمعنى: تبتَعِدُ وتَنأى وتَفِرُّ- قد حَلَّ بك، ونزل بساحَتِك.

والقولُ الثَّاني: أنَّ «ما» نافيةٌ، بمعنى: ذلك ما كُنتَ تَقدِرُ على الفِرارِ منه، ولا الحَيدِ عنه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٥، ٩٦).

وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والبِقاعي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٩). =

كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة: ٨].

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ونَفَخ المَلَكُ في القَرنِ لِبَعثِ النَّاسِ يَومَ القيامةِ الَّذي توعَّد اللهُ الكافِرينَ والظَّالِمينَ فيه بالعَذابِ[1].

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرْنٌ يُنفَخُ فيه))[2].

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

---

= وقال ابنُ كثير: (﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: هذا هو الَّذي كنتَ تَفِرُّ منه قد جاءك، فلا مَحيدَ ولا مَناصَ، ولا فَكاكَ ولا خَلاصَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٣، ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٦).

قال ابن عثيمين: (المرادُ بقَولِه: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ النَّفخةُ الثَّانيةُ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾، وهذا يَعني أنَّه بهذه النَّفخةِ صار يومُ القيامةِ الَّذي هو يومُ الوَعيدِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٦).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٧٤٢)، والترمذيُّ (٢٤٣٠)، والنَّسائيُّ (١١٤٥٦) واللَّفظُ لهما، وأحمدُ (٦٥٠٧) باختلافٍ يسيرٍ.

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، ووافقه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٥٥٠)، وذكر ثبوتَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠).

أي: وجاءت كلُّ نفْسٍ يومَ القيامةِ ومعها سائِقٌ مِنَ الملائِكةِ يَسوقُها إلى اللهِ تعالى، وشَهيدٌ مِنَ الملائكةِ يَشهَدُ عليها بما عَمِلَتْه في الدُّنيا(١).

كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥].

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾.

أي: لقد كنتَ -أيُّها الإنسانُ- في الدُّنيا في غَفلةٍ مِن هذا اليَومِ، فلمْ تستَعِدَّ له(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٢٩، ٤٣٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ نُفوسُ جميعِ البَشَرِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٧).

ونسَبَ مكِّيٌّ هذا القولَ إلى أكثَرِ العُلماءِ، ونسَبه الماوَرْديُّ للجُمهورِ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٤٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٤٩).

وقيل: المرادُ بـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾: نفوسُ المُشرِكينَ، لا المؤمِنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٧، ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٨).

وقد ذهب ابنُ جرير، وابنُ عطيَّة، والرَّازيُّ، وابنُ كثير -ونسَبه الشَّوكانيُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ-: إلى أنَّ هذا الخِطابَ لكُلِّ إنسانٍ؛ مُؤمِنٍ وكافِرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠). =

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾.

أي: فأزَلْنا عنك الغِطاءَ، ورَفَعْنا عنك الحِجابَ يومَ القيامةِ؛ فظَهَرت لك حقائِقُ الآخِرةِ[1].

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

أي: فبَصَرُك يومَ القيامةِ في غايةِ الحِدَّةِ والقُوَّةِ والنُّفوذِ، فتَرى به ما كُنتَ غافِلًا عنه في الدُّنيا[2].

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحُسَينُ بنُ عَبدِ الله بنِ عُبَيدِ الله بنِ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٥).

قال الرازي: (الخِطابُ عامٌّ؛ أمَّا الكافِرُ فمَعلومُ الدُّخولِ في هذا الحُكم، وأمَّا المؤمِنُ فإنَّه يَزدادُ عِلمًا، ويظهَرُ له ما كان مَخفيًّا عنه، ويرى عِلمَه يَقينًا، فيكونُ بالنِّسبةِ إلى تلك الأحوالِ وشِدَّةِ الأهوالِ كالغافِلِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٥).

وذهب مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور إلى أنَّ هذا الخِطابَ خاصٌّ بالكافِرِ، وهو ظاهرُ اختيارِ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وسُفْيانُ، والضَّحَّاكُ بنُ مُزاحِمٍ، وصالحُ ابنُ كَيْسانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿فَبَصَرُكَ﴾: بصَرُ العَينِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والماوَرْديُّ، والبغوي، وابنُ جُزَي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير الماوردي)) =

كما قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ في هذا زَجرٌ عن المعاصي الَّتي يَستَخفي الإنسانُ بها[1].

٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ وُجوبُ مُراقبةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ وألَّا نُحَدِّثَ أنفُسَنا بما يُغضِبُه وبما يَكرَهُ؛ فعلينا أنْ يكونَ حديثُ نُفوسِنا كلُّه بما يُرضيه؛ لأنَّه يَعلمُ ذلك، أفَلا يَليقُ بنا أنْ نَستحيَ مِن ربِّنا

---

= (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: العِلمُ والبصيرةُ: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والواحدي، وابنُ عطية، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٢٢).

قال الشنقيطي: (معنَى قولِه: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]، أي: تكامَل عِلْمُهم فيها؛ لِمُبالَغَتِهم في سَمْعِ الحقِّ وإبصارِه في ذلك الوقتِ... وكقولِه تعالَى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أيْ: عِلمُكَ اليومَ بما كنتَ تُنْكِرُه في الدُّنيا مِمَّا جاءَتْكَ به الرُّسُلُ حديدٌ، أي: قَوِيٌّ كامِلٌ، و... أنَّ المرادَ بحدَّةِ البصرِ في ذلك اليَومِ: كمالُ العِلمِ، وقوَّةُ المعرفةِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨).

عزَّ وجلَّ أنْ تُوسوِسَ نُفوسُنا بما لا يَرضاه؟! لكِنَّ الوَساوِسَ الَّتي تَطرَأُ على القَلبِ، ولا يَميلُ الإنسانُ إليها بل يُحارِبُها، ويُحاوِلُ البُعدَ عنها بقَدْرِ إمكانِه: لا تَضُرُّه شَيئًا، بل هي دَليلٌ على إيمانِه؛ لأنَّ الشَّيطانَ إنَّما يأتي إلى القَلبِ، فيُلقي عليه الوَساوِسَ إذا كان قَلبًا سَليمًا(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ فيه هَيبةٌ وفَزَعٌ وخَوفٌ لِقَومٍ، ورَوحٌ وسُكونٌ وأُنسُ قَلبٍ لِقَومٍ(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ هذا ممَّا يدعو الإنسانَ إلى مُراقَبةِ خالِقِه المُطَّلِعِ على ضَميرِه وباطِنِه، القَريبِ منه في جميعِ أحوالِه؛ فيَستَحي منه أن يَراه حيثُ نهاه، أو يَفقِدَه حيثُ أَمَره، وكذلك ينبغي له أن يَجعَلَ الملائِكةَ الكِرامَ الكاتِبينَ منه على بالٍ، فيُجِلَّهم ويُوَقِّرَهم، ويَحذَرَ أن يَفعَلَ أو يقولَ ما يُكتَبُ عنه مِمَّا لا يُرضي رَبَّ العالَمينَ؛ ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يتَلَقَّيانِ عن العَبدِ أعمالَه كُلَّها(٣).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المُكَلَّفَ غَيرُ مَتروكٍ سُدًى(٤).

٦- قَولُه تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ في اللِّسانِ آفَتانِ عَظيمتانِ إنْ خَلَص العبدُ مِن إحداهما لم يَخلُصْ مِنَ الأُخرى: آفةُ الكلامِ، وآفةُ السُّكوتِ، وقد يكونُ كُلٌّ منهما أعظَمَ إثمًا مِنَ الأخرى في وَقتِها؛ فالسَّاكِتُ عن الحَقِّ شَيطانٌ أخرَسُ، عاصٍ للهِ، مُراءٍ مُداهِنٌ، إذا لم يَخَفْ على نَفْسِه، والمتكَلِّمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٨٩، ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٤).

بالباطِلِ شَيطانٌ ناطِقٌ، عاصٍ للهِ، وأكثَرُ الخَلقِ مُنحَرِفٌ في كَلامِه وسُكوتِه، فهُم بيْنَ هذَينِ النَّوعَينِ، وأهلُ الوَسَطِ -وهم أهلُ الصِّراطِ المُستقيمِ- كَفُّوا ألسِنتَهم عن الباطِلِ، وأطلَقوها فيما يَعودُ عليهم نَفْعُه في الآخِرةِ[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ التَّحذيرُ مِن التَّهاوُنِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، والتَّكاسُلِ عن التَّوبةِ؛ وأنَّ الإنسانَ يجبُ أن يُبادِرَ؛ لأنَّه لا يدري متى يأتيه الموتُ[2].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ يدُلُّ على اعتناءِ اللهِ بالعِبادِ، وحِفظِه لأعمالِهم، ومُجازاتِه لهم بالعَدلِ، فهذا الأمرُ مِمَّا يَجِبُ أن يَجعَلَه العبدُ منه على بالٍ، ولكِنَّ أكثَرَ النَّاسِ غافِلونَ[3]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ فائِدةُ الإخبارِ بأنَّ اللهَ يَعلَمُ ما تُوسوِسُ به نفْسُ كُلِّ إنسانٍ: التَّنبيهُ على سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى بأحوالِهم كُلِّها، فإذا كان يَعلَمُ حَديثَ النَّفْسِ فلا عَجَبَ أن يَعلَمَ ما تَنقُصُ الأرضُ منهم[4].

٢- مَن أنكَرَ عِلمَ اللهِ تعالى فهو كافِرٌ، سَواءٌ أنكَرَه فيما يَتعلَّقُ بفِعْلِه، أو فيما يتعلَّقُ بخَلْقِه؛ فلو قال: إنَّ اللهَ تعالى لا يَعلَمُ ما يَفعَلُه العبدُ فهو كافِرٌ، كما لو قال: إنَّ اللهَ لا يَعلَمُ ما يَفعَلُه بنَفْسِه؛ ولهذا كفَّر أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ غُلاةَ القَدَريَّةِ الَّذين قالوا: إنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لا يَعلَمُ أفعالَ العبادِ؛ فالَّذي يُنكِرُ عِلمَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٩).

بأفعالِ العِبادِ لا شَكَّ أنَّه كافِرٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يَقولُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، ويَقولُ سُبحانَه وتعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[1] [الزخرف: ٨٠].

٣- النَّفْسُ لها وَسوَسةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾؛ فهذا تُوسوِسُ به نَفْسُه لِنَفْسِه، فالَّذي يُوسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ نُفوسُهم، وشَياطينُ الجِنِّ وشَياطينُ الإنسِ[2].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ لم يَقُلْ: على اليَمينِ وعلى الشِّمالِ؛ لأنَّهما ليسا على كَتِفَيه، بل هما في مَكانٍ قَريبٍ أقرَبَ مِن حَبلِ الوَريدِ[3].

٥- قولُه تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: يتَلَقَّى المُتلَقِّيانِ جميعَ ما يَصْدُرُ عن الإنسانِ، فيَكْتُبانِه عليه[4]، ويُؤخَذُ منه أنَّ لكُلِّ إنسانٍ ملَكَينِ يُحصِيانِ أعمالَه، وأنَّ أحدَهما يكونُ من جِهةِ يَمينِه، والآخَرَ من جِهةِ شِمالِه[5].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أنَّ الملَكينِ يَكتُبانِ جميعَ أقوالِ العَبدِ؛ فإنَّه قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ نَكِرةٌ في سياقِ النَّفيِ مُؤكَّدةٌ بحَرفِ «مِن»؛ فهذا يَعُمُّ كُلَّ قَولِه[6]، قال بَعضُهم: يُكتَبُ عليه كُلُّ شَيءٍ حتَّى الأنينُ في المَرَضِ، وهذا هو ظاهِرُ قَولِه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩١).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٩).

وهذا هو ظاهِرُ الآيةِ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿مِن قَوْلٍ﴾ نَصٌّ صَريحٌ في العُمومِ[١]، فظاهِرُ الآيةِ الكريمةِ أنَّ القَولَ مهما كان يُكتَبُ، سواءٌ كان خيرًا أم شَرًّا أم لَغوًا يُكتَبُ، لكِنْ يُحاسَبُ على ما كان خَيرًا أو شرًّا، ولا يَلزَمُ مِن الكتابةِ أنْ يُحاسَبَ الإنسانُ عليها[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿رَقِيبٌ﴾ حُجَّةٌ في تَسميةِ المخلوقينَ ووصفِهم باسمِ الخالِقِ ووصفِه[٣]، وذلك فيما كان له معنًى كُلِّيٌّ تتفاوتُ فيه أفرادٌ مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ -كالمَلِكِ، والعَزيزِ، والجَبَّارِ- فيَجوزُ تَسميةُ غَيرِ الله بها؛ فقد سَمَّى اللهُ نَفْسَه بهذه الأسماءِ، وسَمَّى بَعضَ عِبادِه بها، أمَّا ما كان مِن أسمائِه لا يقبل الشَّرِكةَ -كالخالِقِ والبارِئِ- فلا تجوزُ التَّسميةُ به[٤].

٨- الرَّقيبُ هو العَتيدُ وليس غيرَه؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، ولم يَقُلْ سُبحانَه: رَقيبٌ وعَتيدٌ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٢).

قال ابن كثير: (اختلف العُلَماءُ: هل يَكتُبُ المَلَكُ كُلَّ شَيءٍ مِن الكلامِ، وهو قَولُ الحَسَنِ وقَتادةَ، أو إنَّما يكتُبُ ما فيه ثوابٌ وعِقابٌ، كما هو قَولُ ابنِ عبَّاسٍ: على قَولَينِ، وظاهِرُ الآيةِ الأوَّلُ؛ لِعُمومِ قَولِه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٣٩٨). ويُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٤٤)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٠).

(٤) جاء في فتوى اللَّجنةِ الدَّائِمةِ: (ما كان مِن أسماءِ اللهِ تعالى عَلَمَ شَخصٍ -كلَفظِ «اللهِ»- امتَنَع تَسميةُ غَيرِ اللهِ تعالى به؛ لأنَّ مُسَمَّاه مُعَيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّرِكةَ، وكذا ما كان مِن أسمائِه في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّرِكةِ كالخالِقِ والبارِئِ... أمَّا مَا كان له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادٌ مِنَ الأسماءِ والصِّفاتِ -كالمَلِكِ، والعَزيزِ، والجَبَّارِ، والمتكَبِّرِ- فيَجوزُ تَسميةُ غَيرِه بها؛ فقد سَمَّى اللهُ نَفْسَه بهذه الأسماءِ، وسَمَّى بَعضَ عِبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة - ٢)) (٢/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٦). =

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾ أنَّ الموتَ له سَكَراتٌ، وله شِدَّةٌ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ يومَ القيامةِ يومُ الوَعيدِ للكُفَّارِ، ويَومُ الوَعدِ للمُؤمِنينَ؛ فلماذا ذَكَرَ اللهُ تعالى هنا الوَعيدَ دونَ الوَعدِ؟

**الجوابُ**: لأنَّ السُّورةَ كلَّها مَبدوءةٌ بتَكذيبِ المكذِّبينَ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فناسَبَ أنْ يُغَلَّبَ فيها جانبُ الوَعيدِ؛ قال تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۞ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ إلخ؛ فكان مِن الحِكمةِ أنْ يُذْكَرَ الوَعيدُ دونَ الوَعدِ، ومع ذلك فقد ذَكَرَ اللهُ تعالى أصحابَ الجنَّةِ فيما بعدُ؛ لأنَّ القُرآنَ مَثانٍ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ أنَّ النَّفْسَ إذا تَمَّ تَجَرُّدُها بالموتِ مِن تَعَلُّقِها بالبَدَنِ، رأتْ ما لم تكُنْ تَراه[٣]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ هذا تَفصيلٌ لبعضِ الخَلْقِ الأوَّلِ بذِكرِ خَلْقِ الإنسانِ، وهو أهمُّ في هذا المَقامِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه المُرادُ من الخلْقِ الأوَّلِ، ولِيُبنى عليه ﴿وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ الَّذي هو تَتميمٌ لإحاطةِ صِفةِ العِلمِ في قَولِه: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾ [ق: ٤]، ولِيُنتَقَلَ منه إلى الإنذارِ بإحصاءِ أعمالِ النَّاسِ عليها، وهو ما استُرْسِلَ في وَصْفِه مِن قولِه: ﴿إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧] إلخ[٤].

---

= وهما وصفانِ للمَلَكينِ اللذينِ يسجِّلانِ أعمالَ العِبادِ، وليسا اسمينِ لهما. ينظر: ((عالم الملائكة الأبرار)) للأشقر (ص: ١٨).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٦/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٦).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٩).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ تأكيدُ هذا الخبَرِ باللَّامِ و(قدْ) مُراعًى فيه المُتعاطِفاتُ، وهي (نَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ)؛ لأنَّهم وإنْ كانوا يعلَمون أنَّ اللهَ خلَقَ النَّاسَ؛ فإنَّهم لا يَعلَمون أنَّ اللهَ عالمٌ بأحوالِهم[١].

- والإنسانُ يَعُمُّ جميعَ النَّاسِ، ولكنَّ المَقصودَ منهم أوَّلًا المشرِكون؛ لأنَّهم المَسوقُ إليهم هذا الخبَرُ، وهو تَعريضٌ بالإنذارِ، كما يدُلُّ عليه قولُه بعْدَه: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩]، وقولُه: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: ٢٢]، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾[٢] [ق: ٢٠]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ الباءُ في قَولِه: ﴿بِهِۦ﴾ صِلةٌ؛ لتأكيدِ اللُّصوقِ[٣].

- والإخبارُ عن فِعلِ الخَلْقِ بصِيغةِ المُضيِّ ﴿خَلَقْنَا﴾ ظاهرٌ، وأمَّا الإخبارُ عن عِلمِ ما تُوسوِسُ به النَّفْسُ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ فلِلدَّلالةِ على أنَّ تَعلُّقَ عِلمِه تعالى بالوَسوسةِ مُتجدِّدٌ، غيرُ مُنقَضٍ ولا مَحدودٍ؛ لإثباتِ عُمومِ عِلمِ اللهِ تعالى، والكِنايةِ عن التَّحذيرِ مِن إضمارِ ما لا يُرضي اللهَ[٤].

- قولُه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ في مَوضِعِ الحالِ من ضَميرِ ﴿وَنَعْلَمُ﴾، والمَقصودُ منها تأكيدُ عامِلِها، وتحقيقُ استِمرارِ العِلمِ بباطِنِ الإنسانِ، والقُربُ هنا قيل: هو كِنايةٌ على إحاطةِ العِلمِ بالحالِ؛ لأنَّ القُربَ يَستلزِمُ الاطِّلاعَ، ومِن لَطائِفِ هذا التَّمثيلِ أنَّ حبْلَ الوريدِ مع قُربِه لا يَشعُرُ الإنسانُ بقُربِه؛ لِخَفائِه، وكذلك قُرْبُ اللهِ مِن الإنسانِ بعِلمِه -أو قُربُ ملائكتِه- قُربٌ لا يَشعُرُ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) .

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإنسانُ؛ فلذلك اختيرَ تَمثيلُ هذا القُربِ بقُربِ حبْلِ الوريدِ، وبذلك فاقَ هذا التَّشبيهُ لحالةِ القُربِ كُلَّ تَشبيهٍ مِن نَوعِه ورَدَ في كلامِ البُلغاءِ[١].

- وإضافةُ الحَبْلِ إلى الوريدِ: إمَّا للبَيانِ، كقولِهم: بعيرُ سانيةٍ[٢]، وشَجَرُ الأراكِ. وإمَّا أنْ يُرادَ حبلُ العاتِقِ، فيُضافَ إلى الوَريدِ كما يُضافُ إلى العاتقِ؛ لاجتِماعِهما في عضْوٍ واحدٍ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ هذا الكلامُ تَخلُّصٌ للمَوعظةِ والتَّهديدِ بالجزاءِ يومَ البعثِ والجزاءِ مِن إحصاءِ الأعمالِ خَيرِها وشَرِّها المعلومةِ مِن آياتٍ كثيرةٍ في القرآنِ. وهذا التَّخلُّصُ بكلمةِ (إذ) الدَّالَّةِ على الزَّمانِ مِن ألطَفِ التَّخلُّصِ[٤].

- قولُه: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مُقدَّرٌ بـ(اذكُرْ)، أو مُتعلِّقٌ بـ﴿أَقْرَبُ﴾ [ق: ١٦]، أي: هو أعلَمُ بحالِه مِن كلِّ قريبٍ حينَ يَتلقَّى -وذلك على قولٍ- أي: يَتلقَّنُ الحَفيظانِ ما يَتلفَّظُ به، وفيه إيذانٌ بأنَّه سُبحانَه غنيٌّ عن استِحفاظِ الملَكَينِ؛ فإنَّه أعلَمُ مِن الملَكَينِ، ومُطَّلِعٌ على ما يَخفَى عليهما، لكنَّه لِحِكمةٍ اقتَضَتْه، وهي ما فيه مِن تَشديدٍ يُثبِّطُ العَبدَ عن المعصيةِ، وتأكيدٍ في اعتِبارِ الأعمالِ وضَبطِها للجزاءِ، وإلزامٍ للحُجَّةِ يومَ يَقومُ الأَشهادُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٠، ٣٠١).

(٢) السَّانِيَةُ: النَّاضِحةُ، وهي النَّاقةُ الَّتي يُستَقَى عليها. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٤، ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٨، ١٢٩).

- ومفعولُ التَّلَقِّي في الفعلِ الَّذي هو ﴿يَتَلَقَّى﴾، والوصْفُ الَّذي هو ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مَحْذوفٌ، تَقديرُه: إذْ يتَلَقَّى المُتلَقِّيانِ جميعَ ما يَصْدُرُ عن الإنسانِ فيَكْتُبانِه عليه[1]. وقيل: حُذِف مَفعولُ ﴿يَتَلَقَّى﴾؛ لدَلالةِ قَولِه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، والتَّقديرُ: إذ تُحصى أقوالُهم وأعمالُهم[2].

- وتعريفُ ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ تعريفُ العهدِ إذا كانتِ الآيةُ نزَلَت بعدَ آياتٍ ذُكِرَ فيها الحفَظةُ، أو تَعريفُ الجِنسِ، والتَّثنيةُ فيها للإشارةِ إلى أنَّ هذا الجِنسَ مُقسَّمٌ اثنَينِ اثنينِ[3].

- والتَّعريفُ في اليمينِ والشِّمالِ تَعريفُ العهدِ، أو اللَّامُ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: عن يمينِ الإنسانِ وعن شِمالِه[4].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿قَعِيدٌ﴾ بدَلًا مِن ﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ بدَلَ بعضٍ، ويكونَ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿قَعِيدٌ﴾، وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه؛ للاهتِمامِ بما دلَّ عليه مِن الإحاطةِ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ خبَرًا مُقدَّمًا، و﴿قَعِيدٌ﴾ مُبتدأً، وتكونَ الجُملةُ بيانًا لِجُملةِ ﴿يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾[5].

- وقالَ ﴿قَعِيدٌ﴾ ولم يقُلْ: قَعيدانِ -إذ إنَّه وصْفٌ للملَكَينِ المذكورَين-؛ لأنَّ معناه عن اليَمينِ قَعيدٌ، وعن الشِّمالِ قَعيدٌ، لكنَّه حُذِفَ أحدُهما لدَلالةِ المَذكورِ عليه، أو أنَّ (فَعيلًا) يَستوي فيه الواحدُ والاثنانِ والجمعُ، وقيل: معناه: مُقاعِدٌ، كما تقولُ: جليسٌ وخليطٌ، أي: مُجالِسٌ ومُخالِطٌ، فيَكونُ عُدِلَ مِن فاعلٍ إلى

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٠١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فَعيلٍ للمُبالَغةِ، كـ (عليمٍ)[١]، أو أنه قال ذلك رعايةً للفواصِلِ[٢].

- وجُملةُ ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾؛ فلذلك فُصِلَت[٣].

- و(مِن) في قَولِه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ صِلةٌ في مَفعولِ الفعلِ المنْفيِّ؛ للتَّنْصيصِ على الاستِغراقِ[٤].

- قولُه: ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ استِثناءٌ مِن أحوالٍ عامَّةٍ، أي: ما يقولُ قولًا في حالةٍ إلَّا في حالةِ وُجودِ رَقيبٍ عتيدٍ لَدَيه، وإنَّما خُصَّ القولُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ مِن الأقوالِ السَّيِّئةِ ما لَه أثرٌ شديدٌ في الإضلالِ، كالدُّعاءِ إلى عِبادةِ الأصنامِ، ونهْيِ النَّاسِ عن اتِّباعِ الحقِّ، وتَرويجِ الباطلِ بإلقاءِ الشُّبَهِ، وتَغريرِ الأغرارِ، ونحوِ ذلك، على أنَّه مِن المعلومِ بدَلالةِ الاقتِضاءِ[٥] أنَّ المُؤاخَذةَ على الأعمالِ أَوْلى مِن المُؤاخَذةِ على الأقوالِ، وتلك الدَّلالةُ كافيةٌ في تَذْكيرِ المؤمنينَ، وقيل غيرُ ذلك[٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ ما يُلاقونه مِن الموتِ والبَعثِ، وما يَترتَّبُ عليهما مِن الأهوالِ[٧]. أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٤، ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣١، ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٠٣).

(٥) دلالةُ الاقتضاءِ: هي دلالةُ اللَّفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحَّةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٣).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((حاشية الطيبي =

هو عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]؛ لاشتِراكِهما في التَّنبيهِ على الجَزاءِ على الأعمالِ؛ فهذا تَنقُّلٌ في مَراحلِ الأُمورِ العارضةِ للإنسانِ الَّتي تُسلِّمُه مِن حالٍ إلى آخَرَ، حتَّى يقَعَ في الجزاءِ على أعمالِه الَّتي قدْ أحْصاها الحَفيظانِ[١].

- وعُبِّرَ بصِيغةِ الماضي (جاءتْ)؛ إيذانًا بتَحقيقِ ذلك، وغايةِ اقترابِه، وأنَّه لقُربِه صار بمَنزِلةِ ما حصَلَ؛ قَصدًا لإدخالِ الرَّوعِ في نُفوسِ المشركين[٢].

- وفي التَّعبيرِ عن الحُصولِ والاعتراءِ بالمَجيءِ تَهْويلٌ لحالةِ احتِضارِ الإنسانِ، وشُعورِه بأنَّه مُفارِقٌ الحياةَ الَّتي ألِفَها، وتعلَّقَ بها قلبُه[٣].

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ إشارةٌ إلى الموتِ بتَنْزيلِ قُربِ حُصولِه مَنزِلةَ الحاصِلِ المُشاهَدِ، والخِطابُ فيها للإنسانِ المَذكورِ في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ﴾ على طَريقِ الالْتفاتِ، أو إشارةٌ إلى الحقِّ، والخِطابُ للفاجرِ[٤].

- وتَقديمُ ﴿مِنْهُ﴾ على ﴿تَحِيدُ﴾؛ للاهتِمامِ بما منه الحِيادُ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٥].

- و﴿تَحِيدُ﴾ تَفِرُّ وتَهرُبُ، وهو مُعبَّرٌ به عن الكراهيةِ، أو تجنُّبِ أسبابِ الموتِ،

---

= على الكشاف)) (١٤/ ٥٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٧).

والخِطابُ المقصودُ الأوَّلُ منه هم المُشرِكون؛ لأنَّهم أشدُّ كراهيةً للمَوتِ؛ لأنَّ حَياتَهم مادِّيَّةٌ مَحضةٌ، فهم يُريدونَ طُولَ الحياةِ؛ إذ لا أمَلَ لهم في حياةٍ أُخرى، ولا أملَ لهم في تَحصيلِ نَعيمِها، فأمَّا المؤمنون فإنَّ كراهتَهم للمَوتِ المُرتكِزةَ في الجِبِلَّةِ بمِقدارِ الإلْفِ لا تبلُغُ بهم إلى حدِّ الجزَعِ منه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾

- صِيغةُ المُضيِّ ﴿وَنُفِخَ﴾ مُستعمَلةٌ في مَعنى المضارعِ، أي: يُنفَخُ في الصُّورِ؛ وإنَّما صِيغَ له المُضيُّ لتَحقُّقِ وُقوعِه[٢].

- والإخبارُ عن النَّفخِ بأنَّه ﴿يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ بتَقديرِ مُضافٍ، أي: ذلك حُلولُ يومِ الوعيدِ. وإضافةُ ﴿يَوۡمُ﴾ إلى ﴿ٱلۡوَعِيدِ﴾ مِن إضافةِ الشَّيءِ إلى ما يقَعُ فيه، أي: يومَ حُصولِ الوعيدِ الَّذي كانوا تُوُعِّدوا به، والاقتِصارُ على ذِكرِ الوعيدِ؛ لأنَّ المقصودَ الأوَّلَ مِن هذه الآيةِ هم المشرِكون. وفي الكلامِ اكتفاءٌ[٣]، تَقديرُه: ويومُ الوعْدِ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾

مَقولُ قَولٍ محذوفٍ دلَّ عليه تَعيُّنُه مِن الخِطابِ، أي: يُقالُ هذا الكلامُ لكلِّ نفْسٍ مِن نُفوسِ المشركين، فهو خِطابُ التَّهكُّمِ التَّوبيخيِّ للنَّفْسِ الكافرةِ؛ لأنَّ المؤمنَ لم يكُنْ في غَفلةٍ عن الحَشرِ والجَزاءِ. أو الخِطابُ لكُلِّ إنسانٍ، والخِطابُ للكُلِّ بذلك؛ لِمَا أنَّه ما مِن أحدٍ إلَّا وله غَفْلةٌ ما مِن الآخرةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٠٧).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٨)، ((إعراب =

- وعَلاماتُ الخِطابِ في كَلماتِ ﴿كُنتَ﴾ ﴿عَنكَ﴾ ﴿غِطَآءَكَ﴾ ﴿فَبَصَرُكَ﴾ مَفتوحةٌ؛ لتَأويلِ النَّفْسِ بالشَّخصِ أو بالإنسانِ، ثمَّ غُلِّبَ فيه التَّذكيرُ على التَّأنيثِ[١].

- قولُه: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ...﴾ الغَفْلةُ: الذُّهولُ عمَّا شَأنُه أنْ يُعلَمَ، وأُطلِقَت هنا على الإنكارِ والجَحدِ على سَبيلِ التهكُّمِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- ورَشَّحَ ذلك قولُه: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾، بمعنى: بيَّنَّا لك الدَّليلَ بالحِسِّ، فهو أيضًا تهكُّمٌ[٢].

- وأُوثِرَ قولُه: ﴿فِي غَفْلَةٍ﴾ على أنْ يُقالَ: (غافلًا)؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ الغَفْلةِ منه[٣].

- وقال: ﴿فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ ولم يَقُلْ: «عنه» كما قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠]، ولم يَقُلْ: «في شَكٍّ فيه»، وجاء هذا في المصدَرِ وإنْ لم يَجِئْ في الفِعلِ؛ فلا يُقالُ: «غَفَلْتُ منه»، ولا «شَكَكْتُ منه»، كأنَّ غَفلتَه وشَكَّه ابتِداءٌ منه، فهو مَبدَأُ غفلتِه وشَكِّه، وهذا أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: «في غفلةٍ عنه» و «شَكٍّ فيه»؛ فإنَّه جَعَلَ ما يَنبغي أنْ يكونَ مَبدأَ التَّذكِرةِ واليَقينِ ومَنشأَهما مَبدأً للغَفلةِ والشَّكِّ[٤]!

- وكَشفُ الغِطاءِ كِنايةٌ عن الغَفْلةِ، كأنَّها غطَّتْ جميعَه أو عينَيه فهو لا يُبصِرُ، فإذا كانتِ القِيامةُ زالَتْ عنه الغَفْلةُ فتكشَّفَتْ له الحقائقُ، وانجلَى عنه الرَّينُ

---

= القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠).

الَّذي كان مَسدولًا أمامَه، فأبصَرَ ما لم يكُنْ يُبصِرُه في حياتِه[١].

- وأُسنِدَ الكَشفُ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه الَّذي أظهَرَ لها أسبابَ حُصولِ اليَقينِ بشَواهِدِ عَينِ اليقينِ[٢].

- وأُضيفَ (غِطاء) إلى ضَميرِ الإنسانِ المُخاطَبِ؛ للدَّلالةِ على اختِصاصِه به، وأنَّه ممَّا يُعرَفُ به[٣].

- قولُه: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ حِدَّةُ البصَرِ: قُوَّةُ نفاذِه في المَرْئيِّ، وحِدَّةُ كلِّ شيءٍ قُوَّةُ مَفعولِه، ومنه حِدَّةُ الذِّهنِ، والكلامُ يَتضمَّنُ تَشْبيهَ حُصولِ اليقينِ برُؤيةِ المَرئيِّ ببَصَرٍ قويٍّ. وتَقييدُه بقولِه: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ تَعريضٌ بالتَّوبيخِ، أي: ليس حالُك اليَومَ كحالِكَ قبْلَ اليومِ؛ إذْ كنتَ في الدُّنيا مُنكِرًا للبَعثِ[٤]. وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ به الكافرُ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَرِينُهُۥ﴾: أي: المَلَكُ المُصاحِبُ له، وقيل: الشَّيطانُ المقرونُ به، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ(١).

﴿مُّرِيبٍ﴾: أي: واقِعٍ في الرِّيبةِ والشَّكِّ، ومُوقِعٍ غَيرَه كذلك في الشَّكِّ، والرِّيبةُ: التُّهمةُ، وهي ظنُّ السوءِ، فهي قِسمٌ مِن الشكِّ، والرِّيبةُ: قَلَقُ النَّفْسِ، وانتفاءُ الطُّمأْنينةِ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ(٢).

﴿أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾: أي: أَضلَلتُه، وأغوَيتُه، وأوقَعتُه في الطُّغيانِ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ(٣).

﴿تَخۡتَصِمُواْ﴾: أي: تَتنازَعوا، وأصلُ (خصم): يدُلُّ على مُنازَعةٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٧)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٥/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٤٥٤)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٥٧٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٧)، =

## المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله سبحانَه بعضَ مَشاهِدِ يومِ القيامةِ، وما يقولُه قَرينُ الإنسانِ، فيقولُ تعالى: وقال المَلَكُ المَقْرونُ بالإنسانِ في الدُّنيا لِكِتابةِ أعمالِه: هذا هو الَّذي وُكِّلتُ به، وهذا عَمَلُه الَّذي أحصَيْتُه عليه حاضِرٌ، فيقولُ اللهُ تعالى: اطْرَحا في نارِ جَهنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ شديدِ العِنادِ، مَنَّاعٍ للخَيرِ، مُعتَدٍ على حُدودِ اللهِ، ظالِمٍ للنَّاسِ، شاكٍّ في وحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه، ومُشكِّكٌ لِغَيرِه، ذلك الَّذي أشرَكَ باللهِ، فعَبَد معه مَعبودًا آخَرَ، فألْقِياه في عَذابِ النَّارِ الشَّديدِ.

قال الشَّيطانُ مُتَبَرِّئًا مِن ذلك الكافِرِ: رَبَّنا ما أضلَلْتُه ولا أغوَيتُه؛ فلا سُلطانَ لي عليه، ولكِنَّه كان ضالًّا بَعيدًا عن الحَقِّ.

وقال اللهُ تعالى لأولئك المُشرِكينَ وقُرَنائِهم مِنَ الشَّياطينِ: لا تَختَصِموا عندي، وقد سبَق أن أقمْتُ عليكم الحُجَّةَ في الدُّنيا، فلا يُغَيَّرُ قَولي الَّذي قُلْتُه مِن قَبْلُ بأنِّي سأَمْلأُ جَهنَّمَ مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ أجمَعينَ، وما أنا بذِي ظُلمٍ لِعِبادي.

يومَ نَقولُ لِجَهنَّمَ: هل امتَلَأتِ، وتقولُ جَهنَّمُ طالِبةً المَزيدَ: هل مِن زيادةٍ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: وقال المَلَكُ المَقْرونُ بالإنسانِ في الدُّنيا لِكِتابةِ أعمالِه: هذا هو الَّذي وُكِّلتُ به قد أحضَرْتُه، وهذا عَمَلُه الَّذي أحصَيْتُه عليه مُعَدٌّ مُحضَرٌ، بلا زِيادةٍ ولا نُقْصانٍ[1].

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، =

= ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٨، ٩٩).

قال ابنُ كثير: (قال مجاهِدٌ: هذا كلامُ المَلَكِ السَّائِقِ، يقولُ: هذا ابنُ آدَمَ الَّذي وكَّلْتَني به، قد أحضَرْتُه. وقد اختار ابنُ جريرٍ أنْ يَعُمَّ السَّائِقَ والشَّهيدَ، وله اتِّجاهٌ وقُوَّةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٦، ٤٣٧).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: المَلَكُ الموَكَّلُ به: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٨).

قال النسفي: (﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ الجمهورُ على أنَّه المَلَكُ الكاتبُ الشَّهيدُ عليه). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦٥).

وقال ابنُ القيِّم: (يَقولُ لَمَّا يُحضِرُه: هذا الَّذي كُنتَ وَكَّلْتَني به في الدُّنيا قد أحضَرْتُه وأتَيْتُك به. هذا قَولُ مُجاهِدٍ. وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: المعنى: هذا ما كَتبتُه عليه وأحصَيتُه مِن قَولِه وعَمَلِه حاضِرٌ عِندي). ((الفوائد)) (ص: ١٠).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أي: هذا الذي وكَّلتني به قد أتيتُكَ به: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٦).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ قُتَيبةَ، والسمعانيُّ، والقرطبيُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨٧).

وممَّن جمَع بيْن القَولَينِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي، وابنُ القيم، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦١)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

قال ابن القيم: (والتَّحقيقُ: أنَّ الآيةَ تَتضَمَّنُ الأمْرَينِ، أي: هذا الشَّخصُ الَّذي وُكِّلْتُ به، وهذا عَمَلُه الَّذي أحصَيتُه عليه). ((الفوائد)) (ص: ١٠).

وقال السعدي: (فيُحضِرُه يومَ القيامةِ ويُحضِرُ أعمالَه، ويقولُ: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، أي: قد =

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: فيقول اللهُ تعالى: اطْرَحا[1] في نارِ جَهنَّمَ كُلَّ كثيرِ الكُفرِ باللهِ وبدِينِه، وآياتِه

---

= أحضَرْتُ ما جُعِلتُ عليه؛ مِن حِفظِه، وحِفظِ عمَلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

وقال ابن عطيَّة: (قال جماعةٌ مِن المفسِّرينَ: قَرينُه مِن زَبانيةِ جهنَّمَ، أي قال: هذا العذابُ الَّذي لَدَيَّ لهذا الإنسانِ الكافرِ حاضرٌ عَتيدٌ، ففي هذا تحريضٌ على الكافرِ، واستِعجالٌ به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٣).

وقيل: القَرينُ هنا: هو الشَّيطانُ الَّذي سُلِّطَ على إغواءِ الإنسانِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، والبِقاعي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٥، ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢١).

والمعنى على هذا القولِ: هذا الإنسانُ حاضرٌ لدَيَّ، أعتَدْتُه ويَسَّرْتُه لِجَهنَّمَ، وهَيَّأْتُه لها بإغوائي وإضلالي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٠).

(١) قال ابنُ القَيِّم: (هذا إمَّا أن يكونَ خِطابًا للسَّائِقِ والشَّهيدِ، أو خِطابًا للمَلَكِ المُوَكَّلِ بعذابِه وإن كان واحِدًا، وهو مَذهَبٌ مَعروفٌ مِن مَذاهِبِ العَرَبِ في خِطابِها، أو تكونَ الألِفُ مُنقَلِبةً عن نونِ التَّأكيدِ الخَفيفةِ، ثمَّ أُجْرِيَ الوَصلُ مجرى الوَقفِ). ((الفوائد)) (ص: ١٠، ١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٩).

وأيضًا -على أنَّ الخِطابَ للملَكَينِ-: فقولُه: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ مفردٌ مضافٌ -والمعروفُ أنَّ المفردَ المضافَ يكونُ للعُموم-؛ فيَشملُ كلَّ ما ثَبَتَ مِن قرين، وعلى هذا فيكونُ ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: الملَكانِ الموكّلانِ به، وممَّا يدُلُّ على أنَّ المفردَ يكونُ لأكثَرَ مِن واحدٍ -وذلك إذا أُضيفَ- قولُ الله عزَّ وجل: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، فنِعمةُ اللهِ مُفرَدٌ مُضافٌ؛ فتَكونُ شاملةً لكلِّ نعمةٍ. وكذلك إذا كان المفردُ اسمَ جِنسٍ.

أو: أنَّ قولَه: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ هو واحدٌ مِن الملَكَينِ، ولا شكَّ أنَّه يجوزُ أنْ يَتكلَّمَ واحدٌ مِن الاثنَينِ باسمِ الاثنَينِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٩).

وأيضًا: قيل -على أنَّ الخِطابَ لواحدٍ-: إنَّ تَثنيةَ الفاعِلِ أُقيمَت مَقامَ تَكرُّرِ الفِعلِ للتَّأكيدِ، واتِّحادِهما حُكمًا، فكأنَّه قال: ألْقِ ألْقِ، كقَولِ امرئِ القَيسِ: (قِفَا نَبْكِ). وأيضًا فإنَّ العرَبَ =

ونِعَمِه؛ شديدِ العِنادِ للحَقِّ[١].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾.

أي: كَثيرِ المَنعِ لكلِّ خَيرٍ[٢].

---

= أكثَرُ ما يُرافِقُ الرَّجُلَ منهم اثنانِ؛ فكَثُرَ على ألسِنتِهم خِطابُهما، فقالوا: خَليلَيَّ، وصاحِبَيَّ، وقِفَا، ونحوَها. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠، ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠).

قال ابنُ عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ لَفظٌ عامٌّ للمالِ، والكلامِ الحَسَنِ، والمُعاوَنةِ على الأشياءِ. وقال قَتادةُ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ: معناه: الزَّكاةُ المفروضةُ. وهذا التَّخصيصُ ضَعيفٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤).

ممَّن قصَر الخَيرَ هنا على الزَّكاةِ: ابنُ أبي زَمَنِين، والقُشَيريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٥٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الزَّكاةُ، وكلُّ حقٍّ وجَبَ لله، أو لآدَميٍّ في مالِه: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والخازن، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١).

وممَّن اختار العمومَ في كلِّ خَيرٍ دونَ أن يَقصُرَه على المالِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦). =

﴿مُعۡتَدٍ مُّرِيبٍ﴾.

أي: مُعْتَدٍ على حُدودِ اللهِ، ظالِمٍ للنَّاسِ، شاكٍّ في وحدانيَّةِ اللهِ وقُدرتِه، ووَعْدِه ووَعيدِه، ومُشكِّكٌ لِغَيرِه(١).

---

= وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالخَيرِ: الإيمانُ والإسلامُ، وأنَّهم كانوا يَمنَعون أبناءَهم وذَويهم مِن الإسلامِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاكٍّ في الله ووحدانيَّتِه وقدرتِه ودينِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

وممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿مُّرِيبٍ﴾ المرادُ به أنَّه مُشَكِّكٌ: الثعلبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

قال ابن عاشور: (والمريبُ الَّذي أراب غيرَه، أي: جعَلَه مُرتابًا، أي: شاكًّا، أي: بما يُلقُونَه إلى النَّاسِ مِن صُنوفِ المُغالَطةِ؛ لِيُشَكِّكوهم في صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وصحَّةِ الإيمانِ والتَّوحيدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَينِ: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠).

قال ابن عثيمين: (﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: واقِعٍ في الرِّيبةِ والشَّكِّ والقَلَقِ، وكذلك أيضًا يُشَكِّكُ غَيرَه فيُدخِلُ في قَلْبِه الرِّيبةَ. فكَلِمةُ ﴿مُّرِيبٍ﴾ تَقتَضي وَصْفَ الإنسانِ بها، وحَمْلَ هذا الوَصفِ إلى غَيرِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠). =

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

أي: الَّذي أشرَكَ باللهِ، فعَبَد معه مَعبودًا آخَرَ مِن خَلْقِه[1].

كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((تَعِسَ[2] عبدُ الدِّينارِ والدِّرهَمِ، والقَطيفةِ والخَميصةِ[3]؛ إن أُعطِيَ رَضِيَ، وإنْ لم يُعطَ لم يَرْضَ))[4].

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

---

= وقال ابن كثير: (﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: شاكٍّ في أمرِه، مُريبٍ لِمَن نظَر في أمرِه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢).

وقال ابن القيِّم: (ومع هذا فهو آتٍ لكُلِّ رِيبةٍ؛ يقال: فُلانٌ مُريبٌ: إذا كان صاحِبَ رِيبةٍ). ((الفوائد)) (ص: ١١).

وقال ابن عطيَّة: (و: ﴿مُّرِيبٍ﴾ معناه: مُتلَبِّسٌ بما يرتابُ به، أرابَ الرَّجُلُ: إذا أتى بِريبةٍ ودخَل فيها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

قال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ إن كانت وصْفًا خاصًّا بالكَفَّارِ العنيدِ فإنَّها تختصُّ بمَن يَعبُدُ الصَّنَمَ والوَثَنَ، وإن كانت للعُموم فهي تَشمَلُ كُلَّ مَنِ اشتغل بغيرِ اللهِ عن طاعتِه؛ حتى التَّاجِرُ الذي ليس له هَمٌّ إلَّا تجارتُه وتنميتُها فإنَّه عابدٌ لها). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠١، ١٠٢) بتصرف.

(٢) تَعِسَ: أي: خاب وخَسِرَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٢٢٨).

(٣) الخَميصةِ: هي ثَوبُ خَزٍّ أو صُوفٍ مُعَلَّمٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٢٢٨).

(٤) رواه البخاري (٦٤٣٥).

أي: يَقولُ اللهُ يومَ القيامةِ: فألْقِيَا ذلك المتَّصِفَ بتلك الصِّفاتِ في عَذابِ النَّارِ الشَّديدِ(١).

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ٢٧﴾.

أي: قال الشَّيطانُ مُتبَرِّئًا مِن ذلك الكافِرِ الَّذي اقترَن به في الدُّنيا: رَبَّنا ما أوقَعْتُه فيما كان فيه مِن طُغيانٍ، ولا أضلَلْتُه ولا أغوَيتُه؛ فإنَّه لا سُلطانَ لي عليه، ولا حُجَّةَ ولا بُرهانَ، ولكِنْ كان بَعيدًا عن الحَقِّ باختيارِه، مُبادِرًا إلى الضَّلالِ بطَبْعِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١١، ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٠، ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

قال ابنُ عطيَّة: (هو شَيطانُه في الدُّنيا ومُغْويه بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٣).

وقال السمعاني: (قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ القرينُ هاهنا هو الشَّيطانُ باتِّفاقِ المفسِّرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٣). ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ والشَّوكانيُّ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ﴾ اختلَفوا في المرادِ بالقرينِ هاهنا؛ فقال ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ: يعني: قرينَه مِن الشَّياطينِ. وقال مقاتلٌ: ﴿قَرِينُهُۥ﴾ هو شَيطانُه. واختاره ابنُ قُتَيْبةَ... وقال الكَلْبيُّ: يقولُ الملَكُ: ربَّنا ما أطغَيْتُه. وعلى هذا القولِ المرادُ بالقرينِ الملَكُ. وهو قولُ سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: يقولُ الكافرُ: ربِّ إنَّ الملَكَ زاد علَيَّ في الكتابةِ. واختار الفَرَّاءُ هذا القولَ، فقال: إنَّ الكافرَ يقولُ: يا ربِّ إنَّه كان يُعجِلُني عن التَّوبةِ، فيقولُ الملَكُ: ربَّنا ما أطغَيْتُه، أي: ما أعجلتُه عن التَّوبةِ، وما زِدتُ عليه. والمعنى: لم أكُنْ سببَ طُغيانِهِ بالإعجالِ والزِّيادةِ عليه، ولكنْ كان في ضلالٍ بعيدٍ لا يَرجِعُ إلى الحقِّ ولا إلى التَّوبةِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٠٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٣)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٩).

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى لأولئك المُشرِكينَ وقُرَنائِهم مِنَ الشَّياطينِ[1]: لا تَختَصِموا عندي وقد سبَق أن أقمْتُ عليكم الحُجَّةَ في الدُّنيا بإنزالِ الكُتُبِ، وإرسالِ الرُّسُلِ، وبلَغَكم وعيدي لِمَن كفَرَ بي، وعصاني، وكذَّب رُسُلي؛ فلا نجاةَ لكم مِن جَهنَّمَ، ولا فائدةَ في اختِصامِكم[2]!

قال تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ﴾ [الزمر: ٣١].

﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ ﴾.

---

(١) ممَّن اختار أنَّ هذا الخِطابَ للكافرينَ وقرنائِهم مِن الشَّياطينِ: القرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣).

قال ابن عطية: (وجمَعَ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ﴾ يريدُ بذلك مُخاطَبةَ جَميعِ القُرَناءِ؛ إذ هو أمرٌ شائِعٌ لا يَقِفُ على اثنَينِ فقط، وهذا كما يقولُ الحاكِمُ لِخَصْمَينِ: لا تَغلَطوا عليَّ، يريدُ الخَصْمَينِ ومَن هو في حُكْمِهما). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤).

وقال القرطبي: (وقيل: هذا خِطابٌ لكُلِّ مَنِ اختَصَم. وقيل: هو للاثنَينِ وجاء بلَفظِ الجَمعِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧).

وقال الماوَرْدي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّ اختِصامَهم هو اعتِذارُ كلِّ واحدٍ منهم فيما قدَّم مِن مَعاصيه، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: أنَّه تَخاصُمُ كلِّ واحدٍ مع قَرينِه الَّذي أغْواه في الكفرِ، قاله أبو العاليةِ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾.

أي: لا أحدَ يَستطيعُ أن يُغَيِّرَ قَولي الَّذي قُلْتُه مِن قَبْلُ بأنِّي سأَمْلأُ جَهنَّمَ مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ؛ فالكُفَّارُ في النَّارِ، وأهلُ الإيمانِ في الجِنانِ، وما قَضَيتُ به لا بُدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٤)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١١، ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣).

قال ابنُ القيِّم: (أخبرَ سُبحانَه أنَّه لا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيه، فقيلَ: المرادُ بذلك قَولُه: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، ووَعْدُه لأهلِ الإيمانِ بالجنَّةِ، وأنَّ هذا لا يُبَدَّلُ ولا يُخلَفُ. قال ابنُ عبَّاسٍ: يُريدُ: ما لَه عِندي خُلفٌ لأهلِ طاعتي ولا أهلِ مَعصيتي. قال مجاهِدٌ: قد قَضَيتُ ما أنا قاضٍ. وهذا أصَحُّ القَولَينِ في الآيةِ، وفيها قَولٌ آخَرُ: أنَّ المعنى: ما يُغَيَّرُ القَولُ عندي بالكَذِبِ والتَّلبيسِ، كما يُغَيَّرُ عندَ المُلوكِ والحُكَّامِ، فيَكونُ المرادُ بالقَولِ قَولَ المُختَصِمينَ، وهو اختيارُ الفَرَّاءِ وابنِ قُتيبةَ. قال الفرَّاءُ: المعنى: ما يُكذبُ عِندي لِعِلْمي بالغَيبِ. وقال ابنُ قُتَيبةَ: أي: ما يُحَرَّفُ القَولُ عندي ولا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ منه. قال: لأنَّه قال: القَولُ عِندي، ولم يَقُلْ: قَولي. وهذا كما يُقالُ: لا يُكذبُ عِندي، فعلى القَولِ الأوَّلِ يكونُ قَولُه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ مِن تَمامِ قَولِه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ في المعنى، أي: ما قُلتُه ووَعدتُ به لا بُدَّ مِن فِعْلِه، ومع هذا فهو عَدلٌ لا ظُلمَ فيه ولا جَورَ، وعلى الثَّاني: يكونُ قد وَصَف نفْسَه بأمْرَينِ؛ أحَدُهما: أنَّ كَمالَ عِلْمِه واطِّلاعِه يَمنَعُ مِن تَبديلِ القَولِ بيْنَ يَدَيه، وتَرويجِ الباطِلِ عليه، وكَمالَ عَدْلِه وغِناه يَمنَعُ مِن ظُلمِه لعَبيدِه). ((الفوائد)) (ص: ١١). يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٩)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٩).

أي: وما أنا بذِي ظُلمٍ لعِبادي؛ فلا أعاقِبُ أحدًا بغيرِ ذَنْبِه، أو أَزيدُ في سَيِّئاتِه، أو أَنقُصُ مِن حَسَناتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ٣٠﴾.

﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾.

أي: يومَ نَقولُ لِجَهنَّمَ: هل امتَلَأتِ كما وَعدْتُ بذلك(٢)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٠٣، ١٠٤).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: أراها اللهُ تصديقَ قَولِه: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾ [هود: ١١٩]، فلمَّا امتلأَتْ قال لها: هل امتلأتِ؟). ((الوسيط)) (٤/ ١٦٨).

وقال الألوسي: (﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ أي: اذكُرْ، أو أنذِرْ يومَ... إلخ. فـ﴿يَوۡمَ﴾: مَفعولٌ به لِمُقَدَّرٍ. وقيل: هو ظَرفٌ لِـ«ظَلَّام»). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٣٧).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ: العُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣، ١٠٤).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٣). =

﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾.

أي: وتقولُ جَهنَّمُ طالِبةً المزيدَ مِن أهلِ الضَّلالِ: هل مِن زيادةٍ مِنَ الجِنِّ والإنسِ تُزادُ إلَيَّ[1]؟!

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُقالُ لِجَهنَّمَ: هل امتَلأتِ؟ وتقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ فيَضَعُ الرَّبُّ تبارك وتعالى قَدَمَه

---

= وقيل: المعنى: ما يُبَدَّلُ القَولُ لدَيَّ في ذلك اليَومِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٤، ١٠٥).

قال ابن عطية: (الَّذي يترجَّحُ في قَولِ جَهنَّمَ: ﴿هَلۡ مِن مَّزِيدٍ﴾ أنَّها حقيقةٌ، وأنَّها قالت ذلك وهي غيرُ مَلْأَى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٥). ويُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٠).

وممَّن قال بأنَّ الاستِفهامَ هنا مرادٌ به طلبُ الزِّيادةِ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّة، وابنُ جُزَي، وابن القيِّم، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٤).

قال ابن كثير: (هذا هو الظَّاهِرُ مِن سياقِ الآيةِ، وعليه تدُلُّ الأحاديثُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٣).

وذهب مقاتِلٌ، والواحديُّ، والقرطبيُّ: إلى أنَّ المعنى: ما بَقِيَ فيَّ موضِعٌ يحتَمِلُ الزِّيادةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨).

قال ابنُ القيِّم: (وأخْطَأَ مَن قالَ: إنَّ ذلك للنَّفْيِ، أي: ليسَ مِن مزيدٍ. والحديثُ الصَّحيحُ يرُدُّ هذا التَّأْويلَ). ((الفوائد)) (ص: ١٢).

عليها، فتَقولُ: قَطْ قَطْ[١]))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ للجَنَّةِ: إنَّما أنتِ رَحمَتي أرحَمُ بكِ مَن أشاءُ مِن عبادي، وقال للنَّارِ: إنَّما أنتِ عذابي أعَذِّبُ بكِ مَن أشاءُ مِن عبادي، ولكُلِّ واحدةٍ مِنكما مِلْؤُها؛ فأمَّا النَّارُ فلا تمتَلِئُ حتَّى يَضَعَ اللهُ تبارك وتعالى رِجْلَه، تقولُ: قَطْ قَطْ قَطْ، فهُنالك تمتَلِئُ، ويُزوَى[٣] بَعضُها إلى بَعضٍ، ولا يَظلِمُ اللهُ مِن خَلْقِه أحَدًا))[٤].

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تزالُ جَهنَّمُ تقولُ: هل مِن مَزيدٍ؟ حتى يَضَعَ رَبُّ العِزَّةِ فيها قَدَمَه، فتقولُ: قَطْ قَطْ وعِزَّتِك، ويُزوَى بَعضُها إلى بَعضٍ))[٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ وعيدٌ شديدٌ على مانعِ الزَّكاةِ[٦]. وهذا على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا يُوجِبُ أن يكونَ الإلقاءُ خاصًّا بمَنِ اجتَمَع فيه هذه الصِّفاتُ بأَسْرِها، والكُفرُ كافٍ في إيراثِ الإلقاءِ في جَهنَّمَ والأمرِ به؟

**الجوابُ**: قَولُه تعالى: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ليس المرادُ منه الوَصْفَ المُمَيِّزَ،

---

(١) قَطْ قَطْ: أي: كَفَى كَفَى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٢٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٨٤٩).

(٣) ويُزوَى: أي: يُضَمُّ ويُجمَعُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٢٩).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٨٥٠)، ومسلمٌ (٢٨٤٦) واللَّفظُ له.

(٥) رواه البخاري (٦٦٦١) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٨٤٨).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٢).

كما يُقالُ: (أعْطِ العالِمَ الزَّاهِدَ)، بل المرادُ الوَصفُ المُبَيِّنُ لكَونِ المَوصوفِ مَوصوفًا به؛ إمَّا على سَبيلِ المَدحِ، أو على سَبيلِ الذَّمِّ، كما يُقالُ: (هذا حاتِمٌ السَّخِيُّ)، فقَولُه: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ معناه: أنَّ الكَفَّارَ عَنيدٌ ومَنَّاعٌ؛ لأنَّ آياتِ الوَحدانيَّةِ ظاهِرةٌ، ونِعَمَ اللهِ -تعالى- على عَبدِه وافِرةٌ، وهو مع ذلك عَنيدٌ، ومَنَّاعٌ للخَيرِ؛ لأنَّه يَمدَحُ دِينَه، ويَذُمُّ دينَ الحَقِّ -وذلك على قولٍ-، فهو يَمنَعُ، ومُريبٌ؛ لأنَّه شاكٌّ في الحَشرِ؛ فكُلُّ كافرٍ فهو مَوصوفٌ بهذه الصِّفاتِ[1].

٣- إنْ قيلَ: القائِلُ هنا واحِدٌ، وقال: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، ولم يَقُلْ: رَبِّ، وفي كَثيرٍ مِن المواضِعِ القائِلُ واحِدٌ، وقال: رَبِّ، كقَولِه: ﴿رَبِّ أَرِنِي﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وقَولِه: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي﴾ [نوح: ٢٨]، ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [نوح: ٢٦]، ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾، [يوسف: ٣٣]، ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا﴾ [التحريم: ١١]، ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ﴾.

**فالجَوابُ**: أنَّ في جَميعِ تلك المواضِعِ القائِلَ طالِبٌ، وأمَّا هنا فالموضِعُ مَوضِعُ هَيبةٍ وعَظَمةٍ وعَرضِ حالٍ دونَ الطَّلَبِ؛ لذا قال: ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال: ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ مع أنَّه قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص:٨٢]؟

**الجوابُ مِن أوجُهٍ:**

**منها**: أنَّ الشَّيطانَ يقولُ: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ بمعنى: لَأُزَيِّنَنَّ لهم الأمرَ، وما ألجَأَهم؛ فيَصِحُّ القَولانِ مِنَ الشَّيطانِ.

**ومنها**: أن تكونَ الإشارةُ إلى حالَينِ: ففي الحالةِ الأُولى: إنَّما فَعلْتُ بهم ذلك

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٣٨).

الإغواءَ؛ إظهارًا للانتِقامِ مِن بني آدَمَ، ثمَّ إذا رأى العذابَ، وأنَّه معه مُشترِكٌ، وله على الإغواءِ عَذابٌ -كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٤، ٨٥]- فيقولُ: رَبَّنا ما أطغَيتُه، فيَرجِعُ عن مقالتِه عندَ ظُهورِ العذابِ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ ما الوَجهُ في اتِّصافِ الضَّلالِ بالبَعيدِ؟

**الجوابُ**: الضَّالُّ يكونُ أكثَرَ ضَلالًا عن الطَّريقِ، فإذا تمادى في الضَّلالِ وبَقِيَ فيه مُدَّةً يَبعُدُ عن المَقصَدِ كَثيرًا، وإذا عَلِم الضَّلالَ قَصَّرَ في الطَّريقِ مِن قَريبٍ، فلا يَبعُدُ عن المَقصَدِ كثيرًا، فقَولُه: ﴿ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ وَصفٌ للمَصدَرِ بما يُوصَفُ به الفاعِلُ، كما يُقالُ: كلامٌ صادِقٌ، وعِيشةٌ راضيةٌ. أي: ضَلالٌ ذو بُعدٍ، والضَّلالُ إذا بَعُدَ مَداه وامتَدَّ الضَّالُّ فيه يَصيرُ بَيِّنًا، ويَظهَرُ الضَّلالُ؛ لأنَّ مَن حاد عن الطَّريقِ وأبعدَ عنه تتغيَّرُ عليه السِّماتُ والجِهاتُ، ولا يرَى عَينَ المَقصَدِ، ويَتبَيَّنُ له أنَّه ضَلَّ عن الطَّريقِ، وربَّما يَقَعُ في أوديةٍ ومَفاوِزَ، ويَظهَرُ له أماراتُ الضَّلالِ، بخِلافِ مَن حاد قليلًا؛ فالضَّلالُ وصَفَه اللهُ تعالى بالوَصفَينِ في كثيرٍ مِن المواضِعِ، فقال تارةً: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وأُخرَى قال: ﴿فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ فيه رَدٌّ على المُرجِئةِ؛ حيثُ قالوا: ما ورَدَ في القُرآنِ مِن الوَعيدِ فهو تخويفٌ لا يُحَقِّقُ اللهُ شَيئًا منه! وقالوا: الكريمُ إذا وَعَد أنجَزَ ووفَى، وإذا أوعَدَ أخلَفَ وعَفا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤٠).

قال ابنُ عثيمين: (﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ يعني: لا أحَدَ يَستطيعُ أن يُبَدِّلَ قَولي؛ =

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على الظُّلمِ، ولكِنْ لا يَفعَلُه؛ فَضلًا منه وَجُودًا، وكَرَمًا وإحسانًا إلى عبادِه[1]. ولأنَّه لا يحتاجُه سُبحانَه، وإنَّما يَظلِمُ الَّذي يَرى في الظُّلمِ تحقيقَ حاجةٍ أو مصلحةٍ له، واللهُ تعالى غنيٌّ عن هذا كلِّه.

وفيه إبطالُ مَذهَبِ مَن زَعَم: «أنَّ الظُّلمَ الَّذي نَزَّهَ نفْسَه عنه هو الممتَنِعُ المُستحيلُ، لا أنَّ هناك أمرًا مُمكِنًا مَقدورًا لو فَعَله لَكان ظُلمًا»! قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: لا أُؤاخِذُ عبدًا بغيرِ ذنْبٍ، ولا أمنَعُه مِن أجرِ ما عَمِلَه مِن صالحٍ؛ ولهذا قال قَبْلَه: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ المتضمِّنِ لإقامةِ الحُجَّةِ، وبُلوغِ الأمرِ والنَّهيِ، وإذا آخَذْتُكم بعدَ التَّقَدُّمِ فلَسْتُ بظالمٍ، بخِلافِ مَن يُؤاخِذُ العبدَ قبْلَ التَّقَدُّمِ إليه بأمْرِه ونَهْيِه؛ فذلك الظُّلمُ الَّذي تَنَزَّهَ اللهُ سُبحانَه وتعالى عنه[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ دليلٌ على أنَّ القُرآنَ غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ وتعالى كلُّ كلامِه غيرُ مخلوقٍ؛ ما قد تكَلَّمَ به، وما يَتكلَّمُ به يومَ القيامةِ. فكيف يجوزُ أنْ يكونَ ﴿هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ مَخلوقًا الآنَ -لو جاز أنْ يكونَ أيضًا مخلوقًا كلامُه، ومعاذَ اللهِ- وهو لم يَقُلْه بعدُ[3]؟!

٩- قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ۞ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ فإذا كان اللهُ الَّذي خلَقَ العبادَ قد جعَلَ مُؤاخَذةَ مَن لم يَسبِقْ

---

= لأنَّ الحُكمَ للهِ عزَّ وجَلَّ وَحْدَه، فإذا كان اللهُ تعالى قد وَعَد فهو صادِقُ الوَعدِ سُبحانَه وتعالى، وأمَّا الإيعادُ فقد يَغفِرُ ما شاء مِنَ الذُّنوبِ إلَّا الشِّركَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣).

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٥).

له تَشريعٌ ظُلمًا، فما بالُكَ بمؤاخَذةِ النَّاسِ بَعضِهم بعضًا بالتَّبِعاتِ دونَ تقدُّمٍ إليهم بالنَّهيِ مِن قَبلُ؟! ولذلك يُقالُ: لا عُقوبةَ إلَّا على عمَلٍ فيه قانونٌ سابقٌ قبْلَ فِعلِه(١).

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ هذا ليس بالْتِفاتٍ؛ إذ ليس هو تَغييرَ ضَميرٍ، ولكنَّه تَغْييرُ أُسلوبِ الكلامِ، وأُعِيدَ عليه ضَميرُ الغائبِ المفرَدِ باعتبارِ معنى نفْسِ أيِّ شخْصٍ، أو غُلِّبَ التَّذكيرُ على التَّأنيثِ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ * ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ انتِقالٌ مِن خِطابِ النَّفْسِ إلى خِطابِ المَلَكينِ المُوكَّلينِ: السَّائقِ والشَّهيدِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-. والكلامُ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، انتِقالٌ مِن خِطابِ فَريقٍ إلى خِطابِ فَريقٍ آخَرَ(٣).

- وصِيغةُ المُثنَّى في قَولِه: ﴿أَلْقِيَا﴾ قيل: يجوزُ أنْ تكونَ مُستعمَلةً في خِطابِ الواحدِ، وهو المَلَكُ المُوكَّلُ بجهنَّمَ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وخُوطِبَ بصِيغةِ المُثنَّى جرْيًا على طَريقةٍ مُستعمَلةٍ في الخِطابِ جَرَت على ألْسنتِهم؛ لأنَّهم يَكثُرُ فيهم أنْ يُرافِقَ السَّائرَ رَفيقانِ، وهي طَريقةٌ مَشْهورةٌ، أو أنَّ تَثنيةَ الفاعلِ نُزِّلَت مَنزِلةَ تَثنيةِ الفِعلِ؛ لاتِّحادِهما، كأنَّه قِيل: ألْقِ ألْقِ؛ للتَّأكيدِ، وقيل غيرُ ذلك(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢).

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ اسمُ المَوصولِ بدَلًا مِن ﴿كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾؛ فإنَّ المَعرِفةَ تُبدَلُ مِن النَّكرةِ، على أنَّ الموصولَ هنا تَعريفُه لَفظيٌّ مُجرَّدٌ؛ لأنَّ مَعنى الصِّلةِ غيرُ مَخصوصٍ بمُعيَّنٍ، وأنَّ قولَه: ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تَفريعٌ على ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]، ومَصبُّ التَّفريعِ المتعلِّقُ، وهو ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾، أي: في أشدِّ عَذابِ جهنَّمَ، تَفريعًا على الأمْرِ بإلْقائِه في جهنَّمَ تَفريعَ بَيانٍ، وإعادةُ فِعلِ (أَلْقِيا) للتَّأكيدِ، مع تَفريعِ مُتعلَّقِ الفِعلِ المُؤكِّدِ، وهذا مِن بَديعِ النَّظْمِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الموصولِ مُبتدَأً على استِئنافِ الكلامِ، ويُضمَّنُ المَوصولُ مَعنى الشَّرْطِ، فيَكونَ وُجودُ الفاءِ في خبَرِه مِن أجْلِ ما فيه مِن مَعنى الشَّرْطِ، وهذا كثيرٌ، والمقصودُ منه هنا تأْكيدُ العُمومِ الَّذي في قَولِه: ﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ مَفعولًا لمُضمَرٍ يُفسِّرُه ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أُخلِيَت جُملةُ ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ عن الواوِ، وأُدخِلَت على الأولى ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ [ق: ٢٣]؛ لأنَّها استُؤنِفَتْ كما تُستأنَفُ الجُمَلُ الواقعةُ في حِكايةِ التَّقاوُلِ؛ فإنَّه لَمَّا قالَ قَرينُه: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾، وتَبِعَه قَولُه: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾، وتلاهُ ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾؛ عُلِمَ أنَّ ثَمَّ مُقاوَلةً مِن الكافرِ، لكنَّها طُرِحَتْ وحُذِفَتْ لِمَا يدُلُّ عليها، كأنَّه قالَ: رَبِّ هو أطْغاني، فقال قرينُه: رَبَّنا ما أَطغَيتُه، وأمَّا الجُملةُ الأُولَى فواجبٌ عَطفُها؛ للدَّلالةِ على الجمْعِ بيْنَ معناها ومعْنى ما قَبْلَها في الحُصولِ، أي: مَجيءِ كلِّ نَفْسٍ معَ الملَكَينِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٢، ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١١٩٩-١٢٠١)، ((أسرار التكرار في =

- والاستِدراكُ بقولِه: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ ناشئٌ عن شِدَّةِ المُقارَنةِ بيْنَ القَرينِ وبيْنَ قَرينِه، لا سِيَّما إذا كان المُرادُ بالقَرينِ شَيطانَه المُقيَّضَ له؛ فإنَّه قُرِنَ به مِن وقْتِ إدراكِه، فالاستِدراكُ لدَفعِ توَهُّمِ أنَّ المُقارَنةَ بيْنَهما تَقتضي أنْ يكونَ ما به مِن الطُّغيانِ بتَلقينِ القَرينِ، فهو يَنفي ذلك عن نَفْسِه؛ ولذلك أُتبِعَ الاستِدراكُ بجُملةِ ﴿كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾، فأخبَرَ القَرينُ بأنَّ صاحِبَه ضالٌّ مِن قَبْلُ، فلم يَكُنِ اقتِرانُه معه في التَّقييضِ أو في الصُّحبةِ بزائدٍ إيَّاه إضلالًا[1].

- وفِعلُ ﴿كَانَ﴾ لإفادةِ أنَّ الضَّلالَ ثابتٌ له بالأصالةِ، مُلازِمٌ لتَكوينِه[2].

- والبعيدُ: مُعبَّرٌ به عن البالِغِ في قوَّةِ النَّوعِ حدًّا لا يَبلُغُ إليه إدراكُ العاقلِ بسُهولةٍ، كما لا يَبلُغُ سَيرُ السَّائرِ إلى المكانِ البعيدِ إلَّا بمَشقَّةٍ. أو بَعيدُ الزَّمانِ، أي: قديمٌ أصيلٌ؛ فيَكونُ تأكيدًا لمَفادِ فِعلِ (كان)[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ هذا حِكايةُ كلامٍ يَصدُرُ يومَئذٍ مِن جانبِ اللهِ تعالى للفريقَينِ الَّذين اتَّبَعوا والَّذين اتُّبِعوا؛ فالضَّميرُ عائدٌ على غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ [ق: ٢٢]. وعدَمُ عَطفِ فِعلِ ﴿قَالَ﴾ على ما قَبْلَه؛ لِوُقوعِه في مَعرِضِ المُقاوَلةِ[4].

---

= القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وهو استِئنافٌ مبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ ممَّا قَبْلَه، كأنَّه قيلَ: فماذَا قال اللهُ تعالَى؟ فقيلَ: قال: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾، أيْ: في مَوقفِ الحسابِ والجزاءِ[١].

- والتَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿قَالَ﴾؛ لِتَحقُّقِ وُقوعِه[٢].

- والنَّهيُ عن المُخاصَمةِ بيْنَهم يَقتَضي أنَّ النُّفوسَ الكافرةَ ادَّعَتْ أنَّ قُرناءَها أطغَوْها، وأنَّ القُرَناءَ تنصَّلوا مِن ذلك، وأنَّ النُّفوسَ أعادَت رمْيَ قُرنائِها بذلك، فصار خِصامًا؛ فلذلك قالَ اللهُ تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾، وطُوِيَ ذِكرُه لدَلالةِ ﴿لَا تَخْتَصِمُواْ﴾ عليه؛ إيثارًا لحقِّ الإيجازِ في الكَلامِ. والنَّهيُ عن الاختِصامِ بعدَ وُقوعِه بتأويلِ النَّهيِ عن الدَّوامِ عليه، أي: كُفُّوا عن الخِصامِ[٣].

- وهو كِنايةٌ عن أنَّ حُكمَ اللهِ عليهم قد تَقرَّرَ، فلا يُفيدُهم التَّخاصُمُ لإلْقاءِ التَّبِعةِ على أحدِ الفريقَينِ[٤].

- قولُه: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ حالٌ مُعلِّلةٌ للنَّهيِ عن الاختِصامِ[٥].

- وهو كذلك كِنايةٌ عن عدَمِ الانتِفاعِ بالخِصامِ؛ لِكَونِ العِقابِ عَدلًا من اللهِ، وقدْ قدَّمتُ إليكم الوعيدَ قبْلَ اليومِ[٦].

- والباءُ في ﴿بِٱلْوَعِيدِ﴾ صِلةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: وقد قدَّمتُ إليكم الوعيدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٥).

قبْلَ اليومِ. أو مُعدِّيةٌ، على أنَّ (قدَّمَ) مُطاوِعُ (تَقدَّمَ)[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

- قولُه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ بيانٌ للمعنَى الأوَّلِ المُكنَى عنه بقولِه: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾، أي: لَستُ مُبطِلًا ذلك الوعيدَ، وهو القولُ؛ إذ الوعيدُ مِن نوعِ القولِ، والتَّعريفُ للعهدِ، أي: فما أوعدتُكم واقعٌ لا مَحالةَ؛ لأنَّ اللهَ تعهَّدَ ألَّا يَغفِرَ لِمَن يُشرِكُ به ويموتُ على ذلك[٢].

- والمُبالَغةُ الَّتي في وصْفِ ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾ راجِعةٌ إلى تأْكيدِ النَّفيِ، والمرادُ: لا أَظلِمُ شَيئًا مِن الظُّلمِ، وليس المعنى: ما أنا بشديدِ الظُّلمِ. وقيلَ: هي لِرعايةِ جمْعِه العبيدَ مِن قولِهم: فلانٌ ظالمٌ لعبدِه، وظلَّامٌ لعَبيدِه، على أنَّها مُبالَغةٌ كَمًّا لا كَيفًا، فنفى ظُلْمَه للعبيدِ، والعبيدُ في غايةِ الكثرةِ، والظُّلمُ المنفيُّ عنهم تَستلزِمُ كَثرتُهم كَثرتَه؛ فناسَبَ ذلك الإتيانُ بصيغةِ المُبالَغةِ للدَّلالةِ على كثرةِ المَنفيِّ التَّابِعةِ لكثرةِ العَبيدِ المنفيِّ عنهم الظُّلمُ؛ إذ لو وقع على كُلِّ عبدٍ ظُلمٌ -ولو قليلًا- كان مجموعُ ذلك الظُّلمِ في غايةِ الكثرةِ، وبذلك تعلَمُ اتِّجاهَ التَّعبيرِ بصيغةِ المُبالَغةِ، وأنَّ المرادَ بذلك نَفيُ أصلِ الظُّلمِ عن كُلِّ عبدٍ مِن أولئك العبيدِ الَّذين هم في غايةِ الكثرةِ[٣]. وقيل: كلمةُ (ظَلَّام) ليستْ صيغةَ مُبالَغةٍ، بل هي مِن بابِ النِّسبةِ، أي: لَستُ بذي ظُلمٍ، فقد يُستعمَلُ (فعَّال) بمعنى: صاحِبِ كذا، فمعنى قَولِه تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٦، ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٦، ٣١٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣٢).

بذي ظُلمٍ[١].

وقيل: نفْيُ صِيغةِ المُبالَغةِ إذا دلَّتْ أدِلَّةٌ مُنفصِلةٌ على أنَّ المُرادَ به نفْيُ أصْلِ الفِعلِ؛ فلا إشكالَ؛ لِقيامِ الدَّليلِ على المرادِ، والآياتُ الدَّالَّةُ على نفْيِ الظُّلمِ مِن أصلِه عن اللهِ تعالى كثيرةٌ معروفةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ ...﴾ [النساء: ٤٠]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، وغيرِ ذلك مِن الآياتِ. أو يكون المسَوِّغُ لصِيغةِ المُبالَغةِ أنَّ عذابَه تعالَى بالِغٌ مِن العِظَمِ والشِّدَّةِ أنَّه لولا استِحقاقُ المعذَّبينَ لذلك العذابِ بكُفرِهم ومَعاصيهم لَكان مُعذِّبُهم به ظَلَّامًا بليغَ الظُّلمِ مُتفاقِمَه، سُبحانَه وتعالى عن ذلِك عُلوًّا كَبيرًا[٢]. وقيل: صِيغةُ المُبالَغةِ (ظلَّام) تَقْتضي بظاهِرِها نَفْيَ الظُّلمِ الشَّديدِ، والمقصودُ: أنَّ الظُّلمَ مِن حَيثُ هو ظُلْمٌ أمْرٌ شَديدٌ؛ فصِيغَتْ له زِنَةُ المُبالَغةِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

- والتَّعبيرُ بـ (العَبيد) دونَ التَّعبيرِ بالناسِ ونَحوِه؛ لزيادةِ تَقريرِ معنى الظُّلمِ في نُفوسِ الأمَّةِ، أي: لا أَظلِمُ ولو كان المَظلومُ عَبدي[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾

- لفظُ ﴿يَوۡمَ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ [ق: ٢٨]، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((شرح الكافية الشافية)) لابن مالك (٤/ ١٩٦٢). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٣١-٣٣)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ١١٧، ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٢/ ٤٧٠، ٤٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٧).

قال لهم ذلك القولَ يومَ يقولُ قولًا آخَرَ لجهنَّمَ: هلِ امتلَأْتِ؟ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ- ومناسَبةُ تَعليقِه به أنَّ هذا القولَ لجهنَّمَ مَقصودٌ به تَرويعُ المدفوعينَ إلى جهنَّمَ ألَّا يَطمَعوا في أنَّ كَثرتَهم يَضيقُ بها سَعةُ جهنَّمَ، فيَطمَعَ بَعضُهم أنْ يكونَ ممَّن لا يُوجَدُ له مكانٌ فيها، فحكاهُ اللهُ في القرآنِ؛ عِبرةً لِمَن يَسمَعُه مِن المشركين، وتعليمًا لأهلِ القُرآنِ المؤمنينَ؛ ولذلك استوَتْ قِراءةُ ﴿يَقُولُ﴾ بالياءِ[1] جَرْيًا على مُقتضَى ظاهرِ ما سبَقَه مِن قولِه: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾، وقِراءةُ ﴿نَقُولُ﴾ بالنُّونِ على الالْتفاتِ، بلْ هو الْتفاتٌ تابعٌ لتبْديلِ طَريقِ الإخبارِ مِن الحَديثِ عن غائبٍ إلى خِطابِ حاضرٍ[2].

- والاستِفهامُ في ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ تَقريرٌ وتوقيفٌ مُستعمَلٌ في تنْبيهِ أهلِ العذابِ إلى هذا السُّؤالِ على وجْهِ التَّعريضِ[3].

- والاستِفهامُ في قَولِه: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ مُستعمَلٌ للتَّشويقِ والتَّمنِّي، وفيه دَلالةٌ على أنَّ الموجوداتِ مُشوَّقةٌ إلى الإيفاءِ بما خُلِقَتْ له. وفيه دَلالةٌ على إظهارِ الامتِثالِ لِمَا خلقَها اللهُ مِن أجلِه، ولأنَّها لا تَتلكَّأُ، ولا تتعلَّلُ في أدائِه على أكمَلِ حالٍ في بابِه[4].

---

(١) قرأها بالياءِ نافِعٌ وأَبو بَكْرٍ، وقرأها الباقون بالنُّونِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٨).

## الآيات (٢١-٢٥)

﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَأُزْلِفَتِ ﴾: أي: قُرِّبَت وأُدنِيَت، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تقَدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿أَوَّابٍ ﴾: أي: كثيرِ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالَى بالتَّوبةِ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[2].

﴿حَفِيظٍ ﴾: أي: كثيرِ المحافَظةِ على كلِّ ما يُقرِّبُه إلى الله تعالى، أو: حفيظٍ لِذُنوبِه الَّتي سلفَتْ منه حتَّى يَتوبَ منها ويَستغفِرَ، وأصلُ (حفظ): يدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيءِ[3].

﴿مُّنِيبٍ ﴾: أي: رجَّاعٍ تائبٍ، والنَّوْبُ: رُجوعُ الشَّيءِ مرَّةً بعدَ أُخرَى، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩، ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٧، ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٠٥٦، ٧٠٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٧).

(نوب): يدُلُّ على اعتيادٍ ورُجوعٍ[١].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾

قولُه: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾: في نَصبِ ﴿غَيْرَ﴾ أوجُهٌ:

**أحَدُها**: أنَّها مَنصوبةٌ على الحالِ مِنَ ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾، ولم يَقُلْ: غيرَ بَعيدةٍ؛ لتأويلِ الجنَّةِ بالبُستانِ. وقيل: لأنَّ البَعيدَ على زِنةِ المَصدَرِ الَّذي مِن شَأنِه أن يَستويَ فيه المؤنَّثُ والمذَكَّرُ، كالزَّئيرِ والصَّليلِ؛ فعُومِلَ مُعامَلتَه، وأُجريَ مُجراه.

**الثَّاني**: أنَّها مَنصوبةٌ على الظَّرفِ المكانيِّ، أي: مكانًا غيرَ بَعيدٍ.

**الثَّالِثُ**: أنَّها نائِبةٌ عن المصدَرِ؛ لِوُقوعِها نعتًا لِمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: إزلافًا غَيرَ بَعيدٍ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾

قَولُه: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾: هذه الجُملةُ يجوزُ فيها وَجهانِ؛ أحَدُهما: أن تكونَ مُعتَرِضةً بيْنَ البَدلِ والمُبدَلِ منه، وذلك أنَّ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بدَلٌ مِن ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ بإعادةِ اللَّامِ. والثَّاني: أن تكونَ مَنصوبةً بقَولٍ مُضمَرٍ، وذلك القَولُ المُضمَرُ مَنصوبٌ على الحالِ، أي: مَقولًا لهم: هذا ما تُوعدونَ.

قَولُه: ﴿مَّنْ خَشِيَ﴾: ﴿مَّنْ﴾ اسمٌ مَوصولٌ مَبنيٌّ في محَلِّ جَرٍّ بَدَلٌ من (كُلِّ)،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٣٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٦/ ٣١٥).

ويجوزُ أن يكونَ بدلًا من مَوصوفِ ﴿أَوَّابٍ﴾ المحذوفِ، أي: لكُلِّ شَخصٍ أوَّابٍ، فيكونَ ﴿مَّنْ﴾ بدَلًا مِنْ (شَخصٍ) المَحذوفِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ ﴿مَّنْ﴾ مَرفوعَ المحَلِّ، خبَرًا لمبتدَأٍ مَحذوفٍ، أو مَنصوبَ المحَلِّ بفِعلٍ محذوفٍ، وكِلاهما على قَطعِ البَدَلِ لِلمَدحِ، ويجوزُ أن يكونَ مُبتدأً خبَرُه قَولٌ محذوفٌ ناصِبٌ لِقَولِه: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ أي: مَنْ خَشِيَ الرَّحمنَ يُقالُ لهم: ادْخُلوها. وجُمِعَ ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ مُراعاةً لِمَعنى ﴿مَّنْ﴾[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن المتَّقينَ وحُسنِ عاقبتِهم، فيقولُ: وقُرِّبتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للمُتَّقينَ إلى مَوضِعٍ غيرِ بَعيدٍ عنهم، هذا الجَزاءُ وَعدٌ لكُلِّ رجَّاعٍ إلى اللهِ تعالى، كثيرِ المحافَظةِ على حُقوقِ اللهِ؛ الَّذي خاف اللهَ في سِرِّه وخَلْوَتِه، وجاء يومَ القيامة بقَلبٍ عاكِفٍ على حبِّ ربِّه وطاعتِه، غيرِ مُلتَفِتٍ إلى ما سِواه.

فيُقالُ لهم يومَ القيامةِ: ادخُلوا الجنَّةَ بأمانٍ مِن كلِّ سوءٍ ومكروهٍ، ذلك يومُ الخُلودِ في الجنَّةِ أبدًا، لهم في الجنَّةِ ما تَشتَهيه أنفُسُهم، وعِندَ الله لهم ثَوابٌ زائدٌ على ما يُريدونَ ممَّا لم يَخطُرْ لهم على بالٍ، وأعظَمُه النَّظرُ إلى وجهِ الله تعالى!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ حالِ المؤمنينَ بعدَ النَّفخِ في الصُّورِ، ومَجيءِ النُّفوسِ إلى

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٧٩)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٥٣)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٣٩).

مَوقفِ الحسابِ[١].

وأيضًا فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى النَّارَ، وقَدَّمها؛ لأنَّ المقامَ للإنذارِ- أتْبَعَها دارَ الأبرارِ[٢].

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾.

أي: وقُرِّبتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للَّذين اتَّقَوُا اللهَ تعالى بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه، إلى مَوضِعٍ غيرِ بَعيدٍ عنهم، فيَرَوْنَها قبْلَ دُخولِها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: قُرِّبَتْ بحيثُ يُشاهِدونها ويَنظُرون ما فيها مِن النَّعيمِ المُقيمِ قبْلَ أن يَدخُلوها: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرسعني، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعليمي، وأبو السعود، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٣)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٥).

قال الرَّسْعَني: (قُرِّبَتْ لهم حتَّى يَرَوْها قبْلَ أن يَدخُلوها؛ إكرامًا لهم، وتعجيلًا لأسبابِ السُّرورِ والنَّعيمِ لهم). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٣٩٣).

وقال القرطبي: (قيل: هذا قبْلَ الدُّخولِ، في الدُّنيا، أي: قُرِّبتْ مِن قُلوبِهم حينَ قيل لهم: اجتَنِبوا المعاصيَ. وقيل: بعدَ الدُّخولِ، قُرِّبتْ لهم مَواضِعُهم فيها فلا تَبعُدُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩).

وقال ابن عاشور: (أَي: جُعِلَت الجنَّةُ قَريبًا مِن المتَّقينَ، أي: أُدْنُوا منها. والجنَّةُ موجودةٌ مِن قَبلِ وُرودِ المُتَّقينَ إليها، فإزلافُها قد يكونُ بحشرِهم للحسابِ بمَقْرُبَةٍ منها؛ كرامةً لهم عن =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٣].

وعن أبي هُرَيرةَ وحُذَيفةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَجمَعُ اللهُ تبارك وتعالى النَّاسَ، فيَقومُ المُؤمِنونَ حتَّى تُزلَفَ لهم الجنَّةُ، فيَأتونَ آدَمَ، فيقولونَ: يا أبانا، استَفتِحْ لنا الجنَّةَ ...)) وذكَرَ الحديثَ بطُولِه[1].

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: هذا الجَزاءُ الَّذي وُعِدْتُم به هو لكُلِّ كثيرِ الرُّجوعِ إلى اللهِ تعالى، فيَرجِعُ مِن مَعصيتِه إلى طاعتِه، ومِنَ الغَفلةِ عنه إلى ذِكرِه، ويَتوبُ إليه مِن ذُنوبِه؛ كثيرِ المحافَظةِ على حُقوقِ اللهِ تعالى، وعَدَمِ التَّعَدِّي على حُدودِه[2].

---

= كُلفةِ المسيرِ إليها، وقد يكونُ عبارةً عن تيسيرِ وُصولِهم إليها بوسائِلَ غَيرِ معروفةٍ في عادةِ أهلِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٨).

قال ابنُ عطية: (﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ تأكيدٌ وبَيانٌ أنَّ هذا التَّقريبَ هو في المسافةِ؛ لأنَّ قُرِّبَت كان يحتَمِلُ أنَّ معناه: بالوَعدِ والإخبارِ، فرفَعَ الاحتِمالَ بقَولِه: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٦). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٠).

وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ معنى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: يومُ القيامةِ ليس ببعيدٍ؛ لأنَّه واقِعٌ لا مَحالةَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦).

وقد ذكر الرازي عِدَّةَ احتِمالاتٍ؛ منها: أنَّ المعنى: قُرِّبت الجنَّةُ وهي غيرُ بعيدٍ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٥).

(١) رواه مسلم (١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٤٩، ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٩). =

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: كنتُ خَلْفَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومًا، فقال: ((يا غُلامُ، إنِّي أُعَلِّمُك كَلِماتٍ، احفَظِ اللهَ يَحفَظْك، احفَظِ اللهَ تَجِدْه تُجاهَك))(١).

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ﴾.

﴿ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ﴾.

أي: مَن خاف اللهَ وتَرَك مَعصِيتَه في سِرِّه وخَلْوَتِه(٢).

---

= قال مكي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿حَفِيظٍ﴾: أي: حفِظ ذنوبَه حتَّى تاب منها. وقيل: معناه حفيظٌ على فرائضِ الله، أي: محافظٌ عليها. وقال قتادةُ: ﴿حَفِيظٍ﴾: ما استودَعه الله عزَّ وجلَّ مِن حقِّه ونعمتِه). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٧٠٥٦، ٧٠٥٧).

وقال ابن جرير: (وأولَى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أنْ يُقالَ: إنَّ الله تعالى ذكرُه وصَف هذا التَّائبَ الأوَّابَ بأنَّه حفيظٌ، ولم يُحصَرْ به على نوعٍ مِن أنواعِ الطَّاعاتِ دونَ نوعٍ، فالواجبُ أنْ يعمَّ كما عمَّ جلَّ ثناؤُه، فيُقالُ: هو حفيظٌ لكلِّ ما قرَّبه إلى ربِّه مِن الفرائضِ والطاعاتِ، والذُّنوبِ التي سلَفتْ منه للتَّوبةِ منها والاستغفارِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٢).

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٥٤١٧). صحَّحه الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح الترمذي)) (٢٥١٦)، وابنُ باز في ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٦٠/ ١)، وحسَّنه ابنُ رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٥٩)، وابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (١/ ٣٢٧)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مَن خافَ اللهَ في سِرِّه في حالِ مَغيبِه عن أعيُنِ النَّاسِ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٦، ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٣٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٦). =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾.

أي: وجاء يومَ القيامة بقَلبٍ عاكفٍ على محبَّةِ ربِّه، وطاعتِه، والخُضوعِ والإخلاصِ له، غيرِ مُلتَفِتٍ إلى ما سِواه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [الزمر: ١٧].

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ٣٤﴾.

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖ﴾.

---

= وقيل: المرادُ: مَن خافَ اللهَ في الدُّنيا مِن قَبلِ أن يَراه أو يَلْقاه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابن عطية، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٦).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٧).

قال ابنُ القيم: (قَولُه: ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: راجعٍ عن معاصي اللهِ، مُقبلٍ على طاعةِ اللهِ. وحقيقةُ الإنابةِ: عُكوفُ القَلبِ على طاعةِ اللهِ ومَحبَّتِه، والإقبالُ عليه). ((الفوائد)) (ص: ١٣).

قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾: أنَّه حَضَر يومَ الحَشرِ مُصاحِبًا قَلْبَه المُنيبَ إلى الله، أي: مات مَوصوفًا بالإنابةِ، ولم يُبطِلْ عمَلَه الصَّالِحَ في آخِرِ عُمُرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠).

أي: يُقالُ يومَ القيامةِ لِمَن كانت تلك صِفاتُه: ادخُلوا هذه الجنَّةَ بأمانٍ مِن كُلِّ سُوءٍ ومَكروهٍ، وآفةٍ وشَرٍّ(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر: ٤٥، ٤٦].

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾.

أي: ذلك هو اليَومُ الَّذي يَمكُثونَ فيه في الجنَّةِ أبدًا إلى غيرِ نِهايةٍ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزمر: ٧٣].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾.

أي: لهم في الجنَّةِ كُلُّ ما تَشتَهيه أنفُسُهم، فمهما طَلَبوا مِن شَيءٍ أُحضِرَ لهم(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٠، ٧١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠، ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

أي: وعِندَنا لهم ثوابٌ زائدٌ على ما يَشاؤونَ مِمَّا لم يَخطُرْ على قُلوبِهم، وأعظَمُ ذلك وأفضَلُه: النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ الكريمِ(١).

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا دَخَل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ يَقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تُريدونَ شَيئًا أَزيدُكم؟ فيقولونَ: ألم تُبَيِّضْ وُجوهَنا؟! ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟! قال: فيَكشِفُ الحِجابَ! فما أُعطُوا شَيئًا أحَبَّ إليهم مِنَ النَّظَرِ إلى رَبِّهم عزَّ وجَلَّ، ثمَّ تلا هذه الآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾))(٢).

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا جُلوسًا عند رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْ نظَرَ إلى القمَرِ لَيلةَ البَدرِ، فقال: أمَا إنَّكم سترَونَ رَبَّكم كما تَرَونَ هذا القَمَرَ، لا تُضامُّونَ(٣) .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

قال السعدي: (لهم فوقَ ذلك ﴿مَزِيدٌ﴾ أي: ثَوابٌ يَمُدُّهم به الرَّحمنُ الرَّحيمُ، مِمَّا لا عَينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قَلبِ بَشَرٍ، وأعظَمُ ذلك وأجَلُّه وأفضَلُه: النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ -تعالى- الكريمِ، والتَّمَتُّعُ بسَماعِ كَلامِه، والتَّنَعُّمُ بقُربِه، نسألُ اللهَ تعالى أن يَجعَلَنا منهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧). ويُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٧، ١٠٨).

(٢) رواه مسلم (١٨١).

(٣) لا تُضامُّونَ في رُؤيتِه: يُروى بتَشديدِ الميمِ وتخفيفِها؛ فالتَّشديدُ معناه: لا يَنضَمُّ بَعضُكم إلى بَعضٍ وتَزدَحِمونَ وَقتَ النَّظَرِ إليه تعالى؛ مِنَ المُضامَّةِ، وهي المُزاحَمةُ. ومعنى التَّخفيفِ: =

في رُؤيتِه!))[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ لَمَّا كانت النَّفْسُ لها قُوَّتانِ: قُوَّةُ الطَّلَبِ، وقُوَّةُ الإمساكِ، كان الأوَّابُ مُستَعمِلًا لقُوَّةِ الطَّلَبِ في رُجوعِه إلى اللهِ، ومَرضاتِه وطاعتِه، والحَفيظُ مُستَعمِلًا لقُوَّةِ الحِفظِ في الإمساكِ عن مَعاصيه ونواهيه؛ فالحَفيظُ: المُمسِكُ نَفْسَه عَمَّا حُرِّمَ عليه، والأوَّابُ: المُقبِلُ على اللهِ تعالى بِطاعتِه[٢].

٢- خَشيةُ اللهِ في الغَيبِ والشَّهادةِ معناها: أنَّ العَبدَ يَخشى اللهَ سِرًّا وإعلانًا، وظاهِرًا وباطِنًا؛ فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يَرى أنَّه يَخشى اللهَ في العلانيَةِ وفي الشَّهادةِ، ولكِنَّ الشَّأنَ في خَشيتِه اللهَ في الغَيبِ إذا غاب عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد مَدَح اللهُ مَن يَخافُه بالغَيبِ؛ قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[٣] [الملك: ١٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ الإنابةُ جُعِلَتْ مع الخَشيةِ؛ وذلك لأنَّ الَّذي يَخشى اللهَ لا بُدَّ أنْ يَرجوَه ويَطمَعَ في رَحمتِه؛ فيُنيبَ إليه ويُحِبَّه، ويُحِبَّ عبادتَه وطاعتَه؛ فإنَّ ذلك هو الَّذي يُنجيه ممَّا يخشاه، ويَحصُلُ

---

= لا يَنالُكم ضَيمٌ -ظُلمٌ- في رُؤيتِه؛ فيَراه بَعضُكم دونَ بَعضٍ! يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٠١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٠١).

(١) رواه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٢).

به ما يُحِبُّه[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ فيه سُؤالٌ: ما وَجهُ التَّقريبِ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: هو أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على نَقلِ الجنَّةِ، فيُقَرِّبُها للمُؤمِنِ، لذا قال: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ولم يقلْ: (قُرِّبَ المُتَّقونَ مِن الجنَّةِ)؛ بيانًا للإكرامِ؛ حيث جعَلَهم مِمَّن تُنقَلُ إليهم الجِنانُ بما فيها مِنَ الحِسانِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ الجنَّةَ لا تُزالُ ولا تُنقَلُ، ولا المؤمِنُ يُؤمَرُ في ذلك اليَومِ بالانتِقالِ إليها مع بُعْدِها، لكِنَّ اللهَ تعالى يَطوي المسافةَ الَّتي بيْنَ المُؤمِنِ والجنَّةِ، فهو التَّقريبُ إكرامًا للمُؤمِنِ، كأنَّه تعالى أراد بَيانَ شَرَفِ المُؤمِنِ المُتَّقي؛ أنَّه مِمَّن يُمشَى إليه، ويُدنَى منه!

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: قُرِّبَت مِنَ الحُصولِ في الدُّخولِ، لا بمعنى القُربِ المكانيِّ؛ فالجنَّةُ كانت بَعيدةَ الحُصولِ؛ لأنَّه لا قُدرةَ للمُكَلَّفِ على تحصيلِها لولا فَضلُ اللهِ تعالى، وعلى هذا فقَولُه: ﴿غَيْرَ﴾ نَصبٌ على الحالِ، تقديرُه: قُرِّبَت مِن الحُصولِ، ولم تَكُن بَعيدةً في المسافةِ حتَّى يُقالَ: كيف قُرِّبَت[٢]؟

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ فيه سُؤالٌ: إنْ حُمِلَ القُربُ على القُربِ المكانيِّ، فما الفائِدةُ في الاختِصاصِ بالمُتَّقينَ، مع أنَّ المؤمِنَ والكافِرَ في عَرْصةٍ واحِدةٍ؟

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٤، ١٤٨).

ويُنظر ما تقدَّم في حاشيةِ التَّفسيرِ (ص: ٤٧٢).

**الجوابُ**: قد يكونُ شَخصانِ في مَكانٍ واحِدٍ، وهناك مكانٌ آخَرُ هو إلى أحَدِهما في غايةِ القُربِ، وعن الآخَرِ في غايةِ البُعدِ؛ مِثالُه: مَقطوعُ الرِّجلَينِ والسَّليمُ الشَّديدُ العَدْوِ، إذا اجتَمَعا في مَوضِعٍ وبحَضْرتِهما شَيءٌ لا تَصِلُ إليه اليَدُ بالمَدِّ، فذلك بَعيدٌ عن المقطوعِ، وهو في غايةِ القُربِ مِنَ العادي[1]. ويمكنُ أنْ يُقالَ: فائدةُ الاختِصاصِ بالمتَّقينَ لِكَونِهم أهلَها، معَ عِلمِ الكفَّارِ بأنَّ مصيرَهم إلى النَّارِ.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ نَبَّه على كثرةِ خَشيتِه بقَولِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾؛ لأنَّه إذا خاف مع استِحضارِ الرَّحمةِ العامَّةِ للمُطيعِ والعاصي، كان خَوفُه مع استِحضارِ غَيرِها أَولى[2]. أو: لأنَّ الخَشيةَ مِنَ الرَّحمنِ تَكونُ مَقرونةً بالأُنسِ؛ ولذلك لم يقُلْ: مَن خَشِيَ الجبَّارَ، ولا مَن خَشِيَ القَهَّار[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ فيه سؤالٌ: المؤمِنُ قد عَلِمَ أنَّه إذا دخَلَ الجنَّةَ خُلِّدَ فيها، فما الفائِدةُ في التَّذكيرِ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ قَولَه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ قَولٌ قاله اللهُ تعالى في الدُّنيا إعلامًا وإخبارًا، وليس ذلك قَولًا يَقولُه عند قَولِه: ﴿ٱدْخُلُوهَا﴾، فكأنَّه تعالى أخبَرَنا في يَومِنا أنَّ ذلك اليَومَ يَومُ الخُلودِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ اطمِئنانَ القَلبِ بالقَولِ أكثَرُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٨).

٥- قال الله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ الأمرُ هنا أمرُ إكرام؛ أمَّا قَولُه تعالى للمُجرِمينَ: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ [غافر: ٧٦] فهذا أمرُ إهانةٍ(١).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾، أي: زيادةً على ما يَشاؤُونَ مِمَّا لم يَخطُرْ ببالِهم، وفيه دَلالةٌ على أنَّ المفاجأةَ بالإنعامِ ضَربٌ مِن التَّلَطُّفِ والإكرامِ، وأيضًا فإنَّ الإنعامَ يَجيئُهم في صُوَرٍ مُعجِبةٍ(٢).

٧- قال الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾، ففي الجنَّةِ أكثرُ مِمَّا يَتمنَّاه الإنسانُ، وأكثرُ مِمَّا يَتصوَّرُه، وهو النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ النَّظَرَ إلى وَجهِ اللهِ أعظَمُ ما يكونُ مِن النَّعيمِ؛ ولهذا سمَّاه اللهُ زيادةً في قَولِه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞ﴾ [يونس: ٢٦]؛ فقد فَسَّرَ أعلَمُ الخَلقِ باللهِ -وهو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الزِّيادةَ بأنَّها النَّظَرُ إلى وَجهِ اللهِ(٣) سُبحانَه وتعالى(٤).

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ عطفٌ على ﴿وَنُفِخَ﴾ [ق: ٢٠]، أي: قُرِّبَتْ للمتَّقينَ عن الكُفْرِ والمعاصي، بحيثُ يُشاهِدونَها مِن المَوقفِ، ويَقِفُون على ما فيها مِن فُنونِ المحاسِنِ، فيَبتهِجُونَ بأنَّهم مَحشورونَ إليها، فائزُون بها(٥).

أو عطْفٌ على ﴿نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ [ق: ٣٠]؛ فالتَّقديرُ: يومَ أُزْلِفَت الجنَّةُ للمتَّقينَ، وهو رُجوعٌ إلى مُقابِلِ حالةِ الضَّالِّينَ يومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، فهذه الجُملةُ مُتَّصِلةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر ما أخرجه مسلمٌ (١٨١) مِن حديثِ صُهَيبٍ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢).

في المعنى بجُملةِ ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ [ق: ٢١]، ولو اعتُبِرَت مَعطوفةً عليها لَصحَّ ذلك، إلَّا أنَّ عَطفَها على جُملةِ ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ فيه غُنْيةٌ عن ذلك، ولا سِيَّما مع طُولِ الكلامِ[١].

- وخَصَّ المتَّقينَ بذلك؛ لأنَّهم أحَقُّ بها[٢].

- وأيضًا قالَ: ﴿غَيۡرَ بَعِيدٍ﴾ بعدَ قولِه: ﴿وَأُزۡلِفَتِ﴾ الَّتي بمَعنى قُرِّبَت؛ تأْكيدًا للإزلافِ، أي: مكانًا غيرَ بعيدٍ، بحيثُ يُشاهِدونَها، أو حالَ كَونِها غيرَ بعيدٍ، أيْ: شيئًا غيرَ بعيدٍ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ * مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾

- جُملةُ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ مُعترِضةٌ؛ فيَجوزُ جعْلُها وحْدَها مُعترِضةً وما بعْدَها مُتَّصلًا بما قبْلَها، فتَكونُ مُعترِضةً بيْنَ البدَلِ والمُبدَلِ منه، وهُما ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾ و﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾، وتُجعَلُ ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ بَدلًا مِن ﴿لِلۡمُتَّقِينَ﴾، وتَكريرُ الحرْفِ الَّذي جُرَّ به المُبدَلُ منه لقصْدِ التَّأكيدِ[٤].

- واسمُ الإشارةِ المُذكَّرُ (هذا) مُراعًى فيه مَجموعُ ما هو مُشاهَدٌ عِندَهم مِن الخَيراتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٣٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٩).

ويُنظر ما تقدم في مشكل الإعراب (ص: ٤٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣١٩).

- قولُه: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ اقترنَتِ الخَشيةُ باسمِ الرَّحمنِ الدَّالِّ على سَعةِ الرَّحمةِ، وفي ذلك مُبالَغةٌ في الثَّناءِ على الخاشي؛ لأنَّه إذا خَشِيَه وهو عالِمٌ بسَعةِ رَحمتِه، فناهيكَ بخَشيتِه الَّتي ما بَعْدَها خَشيةٌ، كما أثْنى عليه بالخَشيةِ مع أنَّ المَخشيَّ منه غائبٌ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا المُتَّقِيَ يَخشى اللهَ وهو يَعلَمُ أنَّه رَحمنٌ، ولقَصدِ التَّعريضِ بالمُشرِكين الَّذين أنكَروا اسمَه الرَّحمنَ، والمعنى على الَّذين خَشُوا: خَشِيَ صاحبَ هذا الاسمِ، فأنتم لا حَظَّ لكم في الجنَّةِ؛ لأنَّكم تُنكِرون أنَّ اللهَ رَحمنٌ، بَلْهَ أنْ تَخشَوه[1].

- والباءُ في ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ بمَعنى (في) الظَّرفيَّةِ؛ لتنزيلِ الحالِ مَنزِلةَ المَكانِ، أيِ: الحالةِ الغائبةِ، وهي حالةُ عَدَمِ اطِّلاعِ أحَدٍ عليه؛ فإنَّ الخَشيةَ في تلك الحالةِ تدُلُّ على صِدقِ الطَّاعةِ لله؛ بحيثُ لا يَرْجو ثَناءَ أحَدٍ، ولا عِقابَ أحدٍ، فيَتعلَّقُ المَجرورُ بالباءِ بفِعلِ ﴿خَشِيَ﴾. ولك أنْ تُبقِيَ الباءَ على بعضِ مَعانيها الغالبةِ، وهي المُلابَسةُ ونحْوُها، ويكونَ الغَيبُ مَصدرًا، والمجرورُ حالًا مِن ضَميرِ ﴿خَشِيَ﴾[2].

- قولُه: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ فيه وصْفُ القلبِ بالإنابةِ -وهي الرُّجوعُ إلى اللهِ تعالى-؛ لأنَّ الاعتِبارَ بما ثبَتَ منها في القلْبِ[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ بتأويلِ: يُقالُ لهم: ادخُلوها؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣).

فهي مِن تَمامِ مَقولِ القَولِ المَحذوفِ، وهذا الإذْنُ مِن كَمالِ إكرامِ الضَّيفِ أنَّه إنْ دُعِيَ إلى الوليمةِ أو جيءَ به؛ فإنَّه إذا بلَغَ المنزِلَ قيلَ له: ادخُلْ بسَلامٍ[١].

- ومَحِلُّ هذه الجُملةِ مِن الَّتي قبْلَها الاستِئنافُ البَيانيُّ؛ لأنَّ ما قَبْلَها يُثيرُ ترقُّبَ المخاطَبينَ للإذْنِ بإنجازِ ما وُعِدوا به[٢].

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ ممَّا يُقالُ للمُتَّقينَ، على حَدِّ قولِه: ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، والإشارةُ إلى اليَومِ الَّذي هم فيه، وكأنَّ اسمَ الإشارةِ للبعيدِ للتَّعظيم. ويجوزُ أنْ تكونَ الإشارةُ إلى اليَومِ المذكورِ في قَولِه: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ﴾ [ق: ٣٠]؛ فإنَّه بعْدَ أنْ ذكَرَ ما يُلاقيهِ أهلُ جَهنَّمَ وأهلُ الجَنَّةِ، أعْقَبَه بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ ترهيبًا وترغيبًا، وعلى الوجْهِ الثَّاني تكونُ هذه الجُملةُ مُعترِضةً اعتِراضًا مُوجَّهًا إلى المُتَّقينَ يومَ القيامةِ، أو إلى السَّامِعينَ في الدُّنيا[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مِن بقيَّةِ ما يُقالُ للمتَّقينَ، فيَكونَ ضَميرُ الغَيْبةِ الْتِفاتًا، وأصْلُه: لكمْ ما تَشاؤونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ ممَّا خُوطِبَ به الفَريقانِ في الدُّنيا، وعلى الاحتِمالَينِ فهو مُستأنَفٌ استِئنافًا بَيانيًّا[٤].

وقيل: قال: ﴿لَهُم﴾، ولم يقُلْ: (لكم)؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ مُقَدَّرٌ فيه: (يُقالُ لهم)، أي: يُقالُ لهم: ادخُلوها؛ فلا يَكونُ على هذا التِفاتًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٩).

- وجاء تَرْتيبُ الآياتِ في مُنتهَى الدِّقَّةِ؛ فبدَأَتْ بذِكرِ إكرامِهم بقولِه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾، ثمَّ بذِكرِ أنَّ الجَنَّةَ جَزاؤُهم الَّذي وُعِدوا به، فهي حَقٌّ لهم، ثمَّ أومأَتْ إلى أنَّ ذلك مِن أجْلِ أعْمالِهم بقولِه: ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ...﴾، ثمَّ ذُكِرَت المُبالَغةُ في إكرامِهم بعدَ ذلك كلِّه بقولِه: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾، ثمَّ طَمأَنَهم بأنَّ ذلك نعيمٌ خالدٌ، وزِيدَ في إكرامِهم بأنَّ لهم ما يَشَاؤُونَ ما لم يَرَوه حينَ الدُّخولِ، وبأنَّ اللهَ وعَدَهم بالمَزيدِ مِن لَدُنْه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢١، ٣٢٢).

## الآيات (٢٦-٤٠)

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قَرْنٍ﴾: القَرْنُ: القَومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النَّاسِ المُقترِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْر مُقَدَّرٍ بمدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مدَّةُ القرنِ مِئةُ سَنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثونَ، وقيل غيرُ ذلك، وهو مأخوذٌ مِن الاقترانِ، وهو اجتِماعُ شيئَينِ، أو أشياءَ في معنًى مِن المعاني، وأصلُ (قرن): يدُلُّ على جَمعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿بَطْشًا﴾: أي: قُوَّةً، والبَطْشُ: الأخذُ بعُنفٍ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وقُوَّةٍ وغَلَبةٍ[2].

﴿فَنَقَّبُوا۟﴾: أي: طافوا وسارُوا وتوَغَّلوا، وأصلُه مِنَ النَّقْبِ: وهو الطَّريقُ، كأنَّهم سَلَكوا كُلَّ طَريقٍ، أو مِن التَّنقُّبِ عن الأمرِ، بمعنى البحثِ عنه، وأصلُ (نقب): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((معاني القرآن)) للنحاس (٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٦، ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧، ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٤)، ((التبيان)) =

﴿مَّحِيصٍ﴾: أي: مَعدِلٍ ومَهْرَبٍ ومَفَرٍّ، وأصلُ (حيص): يدُلُّ على المَيلِ[١].

﴿شَهِيدٌ﴾: أي: مُتفَهِّمٌ لِما يُخبَرُ به، شاهِدٌ له بقلبِه، غيرُ غافِلٍ عنه ولا ساهٍ، حَاضرٌ بفطنتِه، غيرُ غائبٍ، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلمٍ وإعلامٍ[٢].

﴿لُّغُوبٍ﴾: أي: ضَعفٍ وإعياءٍ، وأصلُ (لغب): يدُلُّ على ضَعفٍ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى عاقِبةَ المكذِّبينَ في الأممِ السَّابِقةِ، فيقولُ: وكثيرًا أهلَكْنا مِن الأُمَمِ الماضيةِ مِن قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ، وقد كانوا أشدَّ منهم قُوَّةً، فساروا في الأرضِ، وطافوا، وتوَغَّلوا فيها، فما صرَفَهم ذلك عن العذابِ! فأنتم أيضًا -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- لن تُغنيَ عنكم قُوَّتُكم شَيئًا مِن عذاب الله، إنَّ في ذلكَ لَتذكيرًا ومَوعِظةً لِمَن كان له عَقلٌ يَعقِلُ به، أو استَمَع لكلامِ اللهِ تعالى غَيرَ غافِلٍ ولا سَاهٍ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى بعضَ مَظاهِرِ قُدرتِه، فيقولُ: ولقد خلَقْنا السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ في سِتَّةِ أيَّامٍ، وما أصابَنا مِن تَعَبٍ أو إعياءٍ؛ فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُ الكُفَّارُ لك مِن أذًى وسُوءٍ، وسبِّحْ بحمدِ ربِّك قبْلَ طُلوعِ

---

= لابن الهائم (ص: ٣٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٦٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧، ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٣٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها، ومِنَ اللَّيلِ فسبِّحْ ربَّك، وعَقِبَ الصَّلَواتِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أنذَرَ اللهُ تعالى الكافِرينَ بما بيْنَ أيديهم مِنَ اليَومِ العَظيمِ والعَذابِ الأليمِ؛ أنذَرَهم بما يُعَجَّلُ لهم مِنَ العذابِ المُهلِكِ والإهلاكِ المُدرِكِ، وبيَّنَ لهم حالَ مَن تقَدَّمَهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أوَّلَ السُّورةِ تَكذيبَ الأُمَمِ السَّابِقةِ؛ ذكَرَ هنا إهلاكَ قُرونٍ ماضيةٍ[2].

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾.

أي: وكثيرًا مِن الأُمَمِ الماضيةِ أهلَكْنا مِن قَبلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ؛ بسَبَبِ كُفرِهم وتَكذيبِهم بالحَقِّ، والحالُ أنَّهم كانوا أقوى وأشدَّ منهم سَطوةً[3]!

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩].

﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٤، ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٨).

أي: فساروا في الأرضِ، وطافوا وتوَغَّلوا فيها، وتَقلَّبوا في أسفارِهم، وسلَكوا كلَّ طريقٍ[1]، فهل صرَفَهم ذلك عن العذابِ، وأنجاهم مِنَ الهَلاكِ؟ فأنتم أيضًا

(١) ممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ جُزَي، والخازن، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩).

وممَّن قيَّد هذا السَّيرَ والتَّطْوافَ والبحثَ في الجملةِ بأنَّه كان طلبًا للمَهربِ، وطمَعًا في النَّجاةِ، وبحثًا عن المفَرِّ والمَلجأِ: ابنُ عطيَّة، والقرطبيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٨).

وفسَّر مقاتلٌ (نَقَّبوا) بـ (هرَبوا). يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٥).

قال ابن كثير: (﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: أثَّروا فيها. وقال مجاهدٌ: ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾: ضرَبوا في الأرضِ. وقال قَتادةُ: فساروا في البلادِ، أي: ساروا فيها يَبتَغون الأرزاقَ والمَتاجِرَ والمَكاسِبَ أكثَرَ ممَّا طُفْتُم أنتم فيها، ويُقالُ لِمَن طَوَّف في البلادِ: نَقَّبَ فيها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٨).

وقيل: المعنى: أنَّهم تَصَرَّفُوا فِي الأرضِ بالحفرِ والغَرْسِ والبناءِ، فبَنَوا الحُصونَ المنيعةَ، والمنازِلَ الرَّفيعةَ، وغرَسوا الأشجارَ، وأجْرَوُا الأنهارَ، وزرَعوا، وعَمَروا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

قال ابن عاشور: (فيَكونُ في معنى قولِه: ﴿وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ﴾ في سورةِ الرُّومِ [٩]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

وقال البِقاعي: (﴿فَنَقَّبُواْ﴾ أي: أوقَعوا النَّقْبَ ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ بأنْ فَتَحوا فيها الأبوابَ الحِسِّيَّةَ والمعنويَّةَ، وخَرَّقوا في أرجائِها ما لم يَقدِرْ غَيرُهم عليه، وبالَغوا في السَّيرِ في النِّقابِ: وهي طُرُقُ الجِبالِ والطُّرُقُ الضَّيِّقةُ فَضلًا عن الواسِعةِ وما في السُّهولِ، بعُقولِهم الواسِعةِ، وآرائِهم النَّافذةِ، وطبائِعِهم القَويَّةِ، وبَحَثوا مع ذلك عن الأخبارِ، وأخبَروا غَيرَهم بما لم يَصِلْ إليهم، وكان كُلٌّ منهم نَقَّابًا في ذلك، أي: علَّامةً فيه؛ فصارت له به مناقِبُ أو مَفاخِرُ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٣٥).

-يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- لا مَفَرَّ لكم ولا مَحِيدَ إذا حَلَّ بكم الهَلاكُ، ولن تُغنيَ عنكم قُوَّتُكم وشِدَّتُكم شَيئًا[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ [مريم: ٩٨].

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾.

أي: إنَّ في ذلكَ[2] لَتذكيرًا ومَوعِظةً وعِبرةً لِمَن كان له عَقلٌ يَعقِلُ به ويَتدبَّرُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٠، ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢، ٢٣)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

(٢) قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن تكونَ الإشارةُ بذلك إلى إهلاكِ القُرونِ الأشَدِّ بَطشًا، ويجوزُ أن تكونَ إلى جميعِ ما تقَدَّم مِن استِدلالٍ وتَهديدٍ وتحذيرٍ مِن يومِ الجَزاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، وابن عطية، وابن الجوزي، والخازن، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني في الجملةِ: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والبيضاوي، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ ﴾ أي: فيما ذَكَرْناه في هذه السُّورةِ تَذكِرةٌ ومَوعِظةٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي: ما سَبَق من الآياتِ العَظيمةِ، ومنها ما قصَّ اللهُ تعالى =

فيَتذكَّرُ ويَخافُ عذابَ اللهِ تعالى[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ * لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٦٩، ٧٠].

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

أي: أو استَمَع لكلامِ اللهِ تعالى وأنصَتَ إلى آياتِه إنصاتًا تامًّا، فلا يَغيبُ عنه شَيءٌ، وهو حاضِرُ القَلبِ غَيرُ غافِلٍ ولا سَاهٍ[٢].

---

= في هذه الآياتِ الكريمةِ مِن إهلاكِ الأُمَمِ السَّابِقةِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

قال ابن جرير: (والقلبُ في هذا الموضعِ: العَقلُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٢).

وقال ابنُ القيِّم: (لم يُرِدْ بالقَلبِ هنا مُضغةَ اللَّحمِ المُشتَرِكةَ بيْنَ الحَيَواناتِ، بل المرادُ ما فيه مِنَ العَقلِ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

قال ابن القيِّم: (لم يُختَلَفْ في أنَّ المرادَ بالقَلبِ: القَلبُ الواعي، وأنَّ المرادَ بإلقاءِ السَّمعِ: إصغاؤُه وإقبالُه على المذكِّرِ، وتفريغُ سَمعِه له). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٧٠).

قال الألوسي: (لِذِكْرى لإحدى طائفتَينِ مَن له قلبٌ يَفْقَهُ عن الله عزَّ وجلَّ، ومَن له سمْعٌ مُصْغٍ مع ذِهنٍ حاضرٍ، أي: لِمَن له استِعدادُ القَبولِ عن الفقيهِ إن لم يكُنْ فقيهًا في نفْسِه، و﴿أَوْ﴾ لِمَنعِ الخُلوِّ مِن حيثُ إنَّه يجوزُ أن يكونَ الشَّخصُ فقيهًا ومُستعِدًّا لِلْقَبولِ مِن الفقيهِ. وذكر بعضُهم أنَّها لِتَقسيمِ المُتذَكِّرِ إلى تالٍ وسامعٍ، أو إلى فقيهٍ ومُتعَلِّمٍ، أو إلى عالِمٍ كامِلِ الاستِعدادِ لا يَحتاجُ لِغَيرِ التَّأمُّلِ فيما عندَه، وقاصِرٍ مُحتاجٍ لِلتَّعلُّمِ، فيَتذَكَّرُ إذا أقْبَلَ بكُلِّيَّتِه وأزالَ الموانِعَ بأسْرِها، فتأمَّل). ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٤١). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠). =

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا دَلَّ اللهُ تعالى على تمامِ عِلمِه وشُمولِ قُدرتِه بخَلقِ الإنسانِ؛ ذكَّرَ بخَلقِ ما هو أكبَرُ منه[1].

وأيضًا فمُناسَبةُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بما قبْلَها أنَّه لَمَّا نزَلَ قولُه تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ [ق: ٦] إلى قولِه: ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾ [ق: ١٠]، وكان ذلك قريبًا ممَّا وُصِفَ في التَّوراةِ مِن ترْتيبِ المخلوقاتِ إجمالًا، ثمَّ

---

= وقال ابن عاشور: (مَوقعُ ﴿أَوْ﴾ للتَّقسيم؛ لأنَّ المُتذكِّرَ إمَّا أنْ يَتذكَّرَ بما دلَّت عليه الدَّلائلُ العقليَّةُ مِن فَهمِ أدلَّةِ القرآنِ، ومِنَ الاعتبارِ بأدلَّةِ الآثارِ على أصحابِها، كآثارِ الأُمَمِ، مِثلُ ديارِ ثمودَ...، وإمَّا أنْ يَتذكَّرَ بما يَبلُغُه مِن الأخبارِ عن الأمَمِ، كأحاديثِ القرونِ الخاليةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٤).

وقال أبو السعود: (كلمةُ ﴿أَوْ﴾ لمنعِ الخلوِّ دونَ الجمعِ؛ فإنَّ إلقاءَ السَّمعِ لا يُجدِي بدونِ سلامةِ القلبِ كما يلوحُ به قولُه تعالَى ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: حاضرٌ بفِطنتِه؛ لأنَّ مَن لا يَحضُرُ ذِهنُه فكأنَّه غائبٌ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٤).

وظاهرُ كلامِ أكثَرِ أهلِ العِلمِ أنَّ هذه الأوصافَ جميعًا لِمَوصوفٍ واحدٍ له قلبٌ حيٌّ، معَ إصغاءِ السَّمعِ، وحُضورِ القلبِ معَ ما يسمَعُ. يُنظر: ((الخلاصة في تدبر القرآن)) لخالد السبت (ص: ٤٠).

وممَّن اختار أنَّ هذَينِ الوصفَينِ لِصِنفَينِ مِن النَّاسِ: النَّيْسابوريُّ، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩).

ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١١) و(١٦/ ١٨٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٩، ١٧١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢١٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٧).

نزَلَ قولُه بعدَ ذلك: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]، كان بعضُ اليهودِ بمكَّةَ يقولونَ: إنَّ اللهَ خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيامٍ، واستراحَ في اليومِ السَّابعِ، والاستِراحةُ تُؤذِنُ بالنَّصَبِ والإعياءِ، فلمَّا فَرَغَت الآيةُ مِن تَكذيبِ المشركينَ في أقوالِهم؛ عطَفَت إلى تَكذيبِ الَّذين كانوا يُحدِّثونَهم بحديثِ الاستِراحةِ، فهذا تأويلُ موقعِ هذه الآيةِ في هذا المحلِّ[1].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: ولقد أوجَدْنا السَّمَواتِ السَّبْعَ والأرضَ وما بيْنَهما مِنَ الخَلقِ في سِتَّةِ أيَّامٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [السجدة: ٤].

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾.

أي: وما أصابَنا مِن جرَّاءِ ذلك أيُّ تَعَبٍ أو إعياءٍ؛ لكَمالِ القُدرةِ، وتَمامِ القُوَّةِ[3].

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٩، ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما بيْنَهما في ستَّةِ أيَّامٍ، ولم يَمَسَّه مِن تَعبٍ ولا إعياءٍ؛ تكذيبًا لأعدائِه مِنَ اليَهودِ؛ حيثُ قالوا: إنَّه استراح في اليَومِ السَّابعِ! أمَرَ نَبيَّه بالتَّأسِّي به سُبحانَه في الصَّبرِ على ما يقولُ أعداؤُه فيه، كما أنَّه سُبحانَه صَبَرَ على قَولِ اليَهودِ: إنَّه استراح! ولا أحَدَ أصبَرُ على أذًى يَسمَعُه منه تعالى(١).

﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُه الكُفَّارُ مِن الأَذَى والسُّوءِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣).

ويُنظر ما أخرجه البُخاريُّ (٦٠٩٩)، ومسلمٌ (٢٨٠٤) من حديثِ أبي موسى الأشعَريِّ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦).

قيل: المعنى: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يقولُ هؤلاء اليهودُ، وما يَفتَرونَ على اللهِ، ويَكذِبونَ عليه [وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ اللهَ خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيامٍ، ثمَّ استراح يومَ السَّابعِ]؛ فإنَّ اللهَ لهم بالمِرْصادِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والبغوي، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الأمرُ بالصَّبرِ على يَقولُه المشرِكون مِن قُرَيشٍ: ابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ، والشوكاني، والقاسمي، وابنُ عاشور، وهو ظاهرُ اختيارِ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣١).

قيل: المرادُ على هذا القول: أي: على ما يَقولونَ له: إنَّه ساحرٌ، وإنَّه شاعرٌ، وإنَّه كاهنٌ، وإنَّه =

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَه اللهُ تعالى بالصَّبرِ؛ أمَرَه بما يَستَعينُ به على الصَّبرِ، وهو التَّسبيحُ بحَمدِ رَبِّه قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها، وباللَّيلِ وأدبارَ السُّجُودِ[1].

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾.

أي: ونَزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها تَنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ؛ محبَّةً له وتعظيمًا، وصَلِّ له[2].

---

= مجنونٌ، وإنَّه كاذبٌ. وقيل: مِن إنكارِ البعثِ والتَّوحيدِ والنُّبوَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١).

وممَّن اختار ما هو أعَمُّ مِن المشركين ومِن اليهودِ: ابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والثعالبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١١).

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦، ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١١).

ذكَرَ ابنُ عطيَّةَ أن (سَبِّحْ) معناه: (صَلِّ) بإجماعٍ مِن المتأوِّلينَ، ونسَبَ ابنُ عاشور هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٧).

وقال ابنُ عثيمين: (سَبِّحْ تَسبيحًا مقرونًا بالحَمدِ في هذَينِ الوَقتينِ: قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ، وقبْلَ الغُروبِ. قال أغلَبُ المفسِّرينَ: المرادُ بذلك: صَلاةُ الفَجرِ، وصلاةُ العَصرِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالتَّسبيحِ هنا: صَلاةُ الصُّبحِ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ، وصلاةُ العَصرِ قبْلَ غُروبِها: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، والبغوي، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٤٩)، ((تفسير الثعلبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠].

وعن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ البَجَليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا عندَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيلةَ -يعني البَدر-، فقال: إنَّكم سترَونَ ربَّكم كما ترَونَ هذا القَمَرَ لا تُضامونَ في رؤيتِه، فإنِ استطعتُم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غروبِها فافعَلوا. ثمَّ قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ

---

= (٩/ ١٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقوله: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾: صلاةُ الفَجرِ، وبقوله: (قَبْلَ الْغُرُوبِ): صلاةُ الظُّهرِ والعَصرِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، وجلال الدين المحلي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٦).

قال البِقاعي: (﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: أوقِعِ التَّنزيهَ عن كلِّ شائبةِ نَقصٍ مُتلبِّسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾... ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ بصَلاةِ الصُّبحِ، وما يَليقُ به مِن التَّسبيحِ غيرها ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ بصَلاةِ العصرِ والظُّهرِ كذلك؛ فالعصرُ أصلٌ لذلك الوقتِ، والظُّهرُ تبَعٌ لها). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٣٨).

وقال السعدي: (واشتغِلْ عنهم بطاعةِ ربِّك وتسبيحِه، أوَّلَ النَّهارِ وآخِرَه، وفي أوقاتِ اللَّيلِ، وأدبارَ الصَّلَواتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

وقال الشنقيطي: (الصَّلاةُ داخِلةٌ في التَّسبيحِ المذكورِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٣٢).

ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴾))[١].

وفي روايةٍ: عن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضيَ الله عنه، قال: ((كُنَّا عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذْ نَظَر إلى القَمَرِ لَيلةَ البَدرِ، فقال: أمَا إنَّكم سترَونَ رَبَّكم كما تَرَونَ هذا، لا تُضامُّونَ -أو لا تُضاهونَ[٢]- في رؤيتِه، فإنِ استطَعْتُم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غُروبِها، فافعَلوا. ثمَّ قال: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]))[٣].

وعن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن صَلَّى البَرْدَيْنِ[٤] دخَلَ الجنَّةَ))[٥].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ٤٠﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾.

أي: ومِنْ بَعضِ أوقاتِ اللَّيلِ فسبِّحِ اللهَ تعالى مُنزِّهًا له عن كُلِّ ما لا يَليقُ به، وصَلِّ له[٦].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٥٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٦٣٣).

(٢) لا تُضاهُونَ: مِنَ المُضاهاةِ، أي: لا يَشتَبِهُ عليكم ولا تَرتابونَ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١/ ٥٠٦).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٧٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٦٣٣).

(٤) البَرْدَين: أي: الفَجْرَ والعَصرَ؛ لِبَردِ الهواءِ فيهما بالنِّسبةِ إلى وَسَطِ النَّهارِ، ولِكَونِهما في طَرَفَي النَّهارِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١/ ٥٠٦)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٥٤٠).

(٥) رواه البخاري (٥٧٤)، ومسلم (٦٣٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

---

= قال ابنُ العربي: (قَولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ:

الأوَّلُ: هو تَسبيحُ اللهِ في اللَّيلِ.

الثَّاني: أنَّها صلاةُ اللَّيلِ.

الثَّالثُ: أنَّها ركْعَتَا الفَجرِ.

الرَّابعُ: أنَّها صلاةُ العِشاءِ الأخيرةِ... قَولُ مَن قال: إنَّه التَّسبيحُ، يُعَضِّدُه الحديثُ الصَّحيحُ: ((مَن تَعارَّ مِنَ اللَّيلِ فقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، له المُلكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ؛ كَفَّر عنه، وغَفَر له)).

وأمَّا من قال: إنَّها صلاةُ اللَّيلِ فإنَّ الصَّلاةَ تُسَمَّى تَسبيحًا؛ لِما فيها مِن تسبيحِ الله، ومنه سُبحةُ الضُّحى.

وأمَّا مَن قال: إنَّها صلاةُ الفَجرِ والعِشاءِ؛ فلأنَّهما مِن صَلاةِ اللَّيلِ، والعِشاءُ أوضَحُه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٦١، ١٦٢).

وقيل: المرادُ بالتَّسبيحِ باللَّيلِ هنا: صَلاتَا المَغرِبِ والعِشاءِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابنُ عطية، والقرطبي، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٦).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أي: سَبِّحِ اللهَ مِنَ اللَّيلِ. و «مِنْ» هنا للتَّبعيضِ، يعني: سَبِّحْه أيَّ جُزءٍ مِنَ اللَّيلِ، ويَدخُلُ في ذلك صلاةُ المغرِبِ وصلاةُ العِشاءِ، ويدخُلُ في ذلك أيضًا التَّهَجُّدُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٩).

((مَن تَعارَّ[١] مِنَ اللَّيلِ فقال: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شريكَ له، له المُلكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، الحَمدُ للهِ، وسُبحانَ اللهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلَّا باللهِ، ثمَّ قال: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي، أو دعا؛ استُجِيبَ له، فإنْ توَضَّأَ وصَلَّى قُبِلَت صَلاتُه))[٢].

﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾.

أي: وسبِّحْ ربَّك -يا مُحمَّدُ- عَقِبَ الصَّلَواتِ[٣].

---

(١) تَعارَّ: أي: انتبَه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٢/ ٣٢٩).

(٢) رواه البخاري (١١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).

قال ابنُ العربي: (فيه قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه النَّوافِلُ. الثَّاني: أنَّه ذِكرُ اللهِ بعدَ الصَّلاةِ، وهو الأقوى في النَّظَرِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٦٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: التَّسبيحُ بعدَ الصَّلَواتِ: البيضاويُّ، والنسفي، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال ابنُ أبي نَجيح، عن مُجاهِدٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ: هو التَّسبيحُ بعدَ الصَّلاةِ. ويؤيِّدُ هذا ما ثبت في الصَّحيحَينِ [البخاري (٦٣٢٩) ومسلم (٥٩٥)] عن أبي هُرَيرةَ أنَّه قال: «جاء فُقراءُ المهاجِرينَ فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، ذهَب أهلُ الدُّثُورِ بالدَّرَجاتِ العُلى والنَّعيمِ المُقيم. فقال: وما ذاك؟! قالوا: يُصَلُّونَ كما نُصَلِّي، ويَصومون كما نَصومُ، ويَتصَدَّقون ولا نتصَدَّقُ، ويُعتِقونَ ولا نُعتِقُ! قال: أفَلَا أُعَلِّمُكم شيئًا إذا فعَلْتُموه سبَقْتُم مَن بَعْدَكم، ولا يكونُ أحدٌ أفضَلَ منكم إلَّا مَن فَعَل مِثلَ ما فعَلْتُم؟ تُسَبِّحون وتَحمَدونَ وتُكَبِّرونَ دُبُرَ كُلِّ صلاةٍ ثلاثًا وثلاثينَ. قال: فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، سَمِعَ إخوانُنا أهلُ الأموالِ بما فعَلْنا، ففَعَلوا مِثلَه! قال: ذلك فَضلُ اللهِ يُؤتيه مَن يَشاءُ!». والقَولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ هما الرَّكعتانِ بعدَ المَغرِبِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ -أي أنَّه التَّسبيحُ بعدَ الصَّلاةِ-: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٧). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن سَبَّح اللهَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وثلاثينَ، وحَمِدَ اللهَ ثلاثًا وثلاثينَ، وكَبَّرَ اللهَ ثلاثًا وثلاثينَ، فتلك تِسعةٌ وتِسعونَ، وقال تمامَ المِئةِ: لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَه لا شَريكَ

---

= قال ابنُ تيميَّة: (﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] قال ابنُ عبَّاسٍ: هو التَّسبيحُ أدبارَ الصَّلاةِ. قلتُ: لَعلَّ هذا تفسيرٌ لِقَولِه: ﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾؛ فإنَّه أنسَبُ، وقد رُوِيَ عن طائفةٍ مِنَ السَّلَفِ أنَّ «أدبارَ السُّجودِ»: الرَّكعتانِ بعدَ المَغرِبِ، و«إدبارَ النُّجومِ»: ركْعَتَا الفَجرِ). ((جامع المسائل - المجموعة الثالثة)) (ص: ٢٩٤).

وقيل: المرادُ: صَلِّ النَّوافِلَ المَسنونةَ عَقِبَ الفرائضِ. وممَّن اختاره: جلالُ الدِّين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: الرَّكعتانِ بعدَ المغربِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، والواحديُّ ونسَبَه لأكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأبو هُرَيرةَ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ بنُ عليٍّ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، والحسَنُ البصريُّ، وعِكْرِمةُ، وأبو أُمامةَ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، وقَتادةُ، والشَّعْبيُّ، والأوزاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٠٧). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٠).

وقال ابنُ عثيمين: (وهل المرادُ بالتَّسبيحِ أدبارَ الصَّلواتِ: النَّوافِلُ الَّتي تُصَلَّى بعد الصَّلواتِ، كراتِبةِ الظُّهرِ بَعْدَها، وراتبةِ المَغرِبِ بَعْدَها، وراتبةِ العِشاءِ بَعْدَها، أو المرادُ التَّسبيحُ الخاصُّ، وهو سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، واللهُ أكبَرُ؟ فيه قَولانِ للمُفَسِّرينَ، ولو قيل بهذا وهذا لَكان له وَجهٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).

وممَّن ذهب إلى العُمومِ: البقاعي قال: (لَمَّا ذكَرَ الفرائِضَ الَّتي لا مَندوحةَ عنها على وَجهٍ يَشمَلُ النَّوافِلَ مِن الصَّلاةِ وغَيرِها، أتْبَعَها النَّوافِلَ المقَيَّدةَ بها فقال: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: الَّذي هو أكمَلُ بابِه، وهو صلاةُ الفَرضِ بما يُصَلَّى بَعْدَها مِنَ الرَّواتِبِ، والتَّسبيحُ بالقَولِ أيضًا). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٣٩).

له، له المُلْكُ وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ- غُفِرَت خَطاياه وإن كانت مِثْلَ زَبَدِ البَحرِ))[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾، أي: قَلبٌ عَظيمٌ حَيٌّ، ذَكِيٌّ زَكِيٌّ، فهذا إذا ورد عليه شَيءٌ مِن آياتِ اللهِ تذَكَّرَ بها وانتَفَع، فارتَفَع[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ جَعَلَ اللهُ سُبحانَه كَلامَه ذِكرَى لا يَنتفِعُ بها إلَّا مَن جَمَع هذه الأُمورَ الثَّلاثةَ:

**أحدُها**: أنْ يكونَ له قَلبٌ حيٌّ واعٍ، فإذا فُقِدَ هذا القَلبُ لم يَنتفِعْ بالذِّكرى.

**الثَّاني**: أنْ يُصغِيَ بسَمعِه كلِّه نحوَ المخاطَبِ، فإنْ لم يَفعَلْ لم يَنتفِعْ بكَلامِه.

**الثَّالثُ**: أنْ يُحضِرَ قَلبَه وذِهنَه عندَ المكَلِّمِ له، وهو الشَّهيدُ، أي: الحاضِرُ غيرُ الغائِبِ، فإنْ غاب قَلبُه وسافرَ في موضعٍ آخَرَ لم يَنتفِعْ بالخِطابِ، وهذا كما أنَّ المُبصِرَ لا يُدرِكُ حقيقةَ المَرئيِّ إلَّا إذا كانت له قوَّةٌ مُبصِرةٌ، وحَدَّقَ بها نحوَ المرئيِّ، ولم يكُنْ قَلبُه مَشغولًا بغيرِ ذلك؛ فإنْ فَقَدَ القوَّةَ المُبصِرةَ، أو لم يُحَدِّقْ نحوَ المرئيِّ، أو حَدَّقَ نحوَه ولكِنَّ قَلبَه كُلَّه في موضعٍ آخَرَ- لم يُدرِكْه؛ فكثيرًا ما يَمُرُّ بك إنسانٌ أو غيرُه، وقَلبُك مَشغولٌ بغَيرِه؛ فلا تَشعُرُ بمُرورِه؛ فهذا الشَّأنُ يَستدعي صِحَّةَ القَلبِ وحُضورَه، وكَمالَ الإصغاءِ[٣]. وذلك على أنَّ هذه الأوصافَ لِمَوصوفٍ واحدٍ.

---

(١) رواه مسلم (٥٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢١٨).

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ مِنَ النَّاسِ مَن يُحرَمُ العِلمَ لِسُوءِ إنصاتِه، فيَكونُ الكلامُ والمُماراةُ آثَرَ عندَه وأحَبَّ إليه مِن الإنصاتِ، وهذه آفةٌ كامِنةٌ في أكثَرِ النُّفوسِ الطَّالبةِ للعِلمِ، وهي تمنَعُهم عِلمًا كَثيرًا، ولو كان حَسَنَ الفَهمِ. ذكَرَ ابنُ عبدِ البَرِّ عن بَعضِ السَّلَفِ أنَّه قال: (مَن كان حَسَنَ الفَهمِ رَديءَ الاستِماعِ، لم يَقُمْ خَيرُه بشَرِّه)[1].

٤- قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ تأمَّلْ ما تحتَ هذه الألفاظِ مِن كُنوزِ العِلمِ، وكيف تَفتَحُ مُراعاتُها للعَبدِ أبوابَ العِلمِ والهُدى، وكيف يَنغلِقُ بابُ العِلمِ عنه مِن إهمالِها وعدَمِ مُراعاتِها؛ فإنَّه سُبحانَه ذَكَر أنَّ آياتِه المَتلوَّةَ المسموعةَ والمرئيَّةَ المشهودةَ إنَّما تكونُ تَذكِرةً لِمَن كان له قَلبٌ؛ فإنَّ مَن عَدِمَ القَلبَ الواعيَ عن اللهِ لم ينتَفِعْ بكُلِّ آيةٍ تمُرُّ عليه، ولو مرَّت به كلُّ آيةٍ، ومُرورُ الآياتِ عليه كطُلوعِ الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ ومُرورِها على مَن لا بصَرَ له! فإذا كان له قَلبٌ كان بمنزلةِ البَصيرِ إذا مرَّت به المرئيَّاتُ فإنَّه يراها، ولكِنَّ صاحِبَ القَلبِ لا ينتفِعُ بقَلبِه إلَّا بأمْرَينِ: أن يُحضِرَه ويُشهِدَه لِما يُلقَى إليه، فإذا كان غائبًا عنه مُسافِرًا في الأمانيِّ والشَّهَواتِ والخَيالاتِ لا ينتَفِعُ به. فإذا أحضَرَه وأشهَدَه لم ينتفِعْ إلَّا بأن يُلقِيَ سَمعَه ويُصغيَ بكُلِّيَّتِه إلى ما يُوعَظُ به ويُرشَدُ إليه.

**وهاهنا ثلاثةُ أمورٍ:**

**أحدُها:** سلامةُ القَلبِ وصِحَّتُه وقَبولُه.

**الثَّاني:** إحضارُه وجَمْعُه ومَنعُه مِن الشُّرودِ والتَّفرُّقِ.

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٩). ويُنظر أيضًا: ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البَرِّ (١/ ٤٤٨).

**الثَّالِثُ**: إلقاءُ السَّمعِ وإصغاؤُه، والإقبالُ على الذِّكرِ.

فذكرَ اللهُ تعالى الأمورَ الثَّلاثةَ في هذه الآيةِ[١].

٥- قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾، في قَولِه: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ مُجرَّدَ الإصغاءِ لا يُفيدُ ما لم يكُنِ المُصغِي حاضِرًا بفِطنتِه وذِهْنِه، وفي الآيةِ ترتيبٌ حَسَنٌ؛ لأنَّه إن كان ذا قَلبٍ ذَكيٍّ يَستخرِجُ المعانيَ بتدَبُّرِه وفِكرِه فذاك، وإلَّا فلا بُدَّ أن يكونَ مُستَمِعًا مُصْغيًا إلى كلامِ المُنذِرِ؛ لِيَحصُلَ له التَّذكيرُ[٢]. وذلك على القولِ بأنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ لِصِنفينِ مِن النَّاسِ.

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ فيه أنَّ مَن ألقَى سَمْعَه إلى آياتِ اللهِ، واستمَعَها استِماعًا يَسترشِدُ به، وقَلبُه شَهيدٌ حاضِرٌ؛ فهذا له ذِكرى ومَوعِظةٌ، وشِفاءٌ وهُدًى[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ لو شاء اللهُ لَكان ذلك في أقَلَّ مِن لَمحِ البَصَرِ، ولكِنَّه سَنَّ لنا التَّأنِّيَ بذلك[٤]، فهو سبحانه يُعَلِّمُ عِبادَه التَّأنِّيَ في الأمورِ؛ وألَّا يأخُذوا الأمورَ بسرعةٍ؛ لأنَّ المهمَّ هو الإتقانُ، وليس الإعجالَ والإسراعَ، وأيضًا فإنَّه سبحانَه يَخْلُقُ الأشياءَ بأسبابٍ ومقدِّماتٍ تَتكاملُ شيئًا فشيئًا حتَّى تتِمَّ، كما لو شاء لَخَلَق الجَنينَ في بطنِ أُمِّه في لحظةٍ، لكنَّه يخْلُقُه أطوارًا حتَّى يَتكاملَ،

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٧).

كذلك السَّمواتُ: لو شاء لَخَلَق السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما في لحظةٍ؛ ولكنَّه عزَّ وجلَّ يَخْلُقُ الأشياءَ تتكاملُ شيئًا فشيئًا(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ فَضيلةُ التَّسبيحِ والذِّكرِ في هذَينِ الوَقتَينِ(٢). فيُشرَعُ الذِّكرُ بعدَ صَلاةِ الفَجرِ إلى أن تَطلُعَ الشَّمسُ، وبعدَ العصرِ حتَّى تَغرُبَ الشَّمسُ، وهذانِ الوقتانِ -أي: وقتُ الفَجرِ ووقتُ العصرِ- هما أفضَلُ أوقاتِ النَّهارِ للذِّكْرِ؛ ولهذا أمَرَ اللهُ تعالى بذِكْرِه فيهما في مَواضِعَ مِن القرآنِ، كقَولِه: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقولِه: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٥]، وقولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقولِه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١]، وقولِه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]، وقولِه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [غافر: ٥٥]، وقولِه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وقولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾(٣) [طه: ١٣٠].

٩- قال الله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾، قولُه: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ مِنَ الذَّمِّ لك، والتَّكذيبِ بما جئتَ به، واشتَغِلْ عنهم بطاعةِ رَبِّك وتَسبيحِه؛ فإنَّ ذِكرَ اللهِ تعالى مُسَلٍّ للنَّفسِ، مُؤْنِسٌ لها، مُهَوِّنٌ للصَّبرِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ أمْرُه له بالتَّسبيحِ بعدَ أمْرِه له بالصَّبرِ على أذى الكُفَّارِ: فيه دليلٌ على أنَّ التَّسبيحَ يُعينُه اللهُ به على الصَّبرِ المأمورِ به، والصَّلاةُ داخِلةٌ في التَّسبيحِ المذكورِ[١]؛ فإنَّ الصَّلاةَ أعظَمُ تِرياقٍ للنَّصرِ، وإزالةِ الهَمِّ؛ ولهذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا حَزَبه[٢] أمرٌ صلَّى[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أمَرَه اللهُ تعالى أن يَصبرَ على ما يَقولونَ، والصَّبرُ على ما يَقولونَ يتضَمَّنُ شَيئَينِ:

**الأوَّلُ**: عَدَمُ التَّضَجُّرِ مِمَّا يقولُ هؤلاء، وأن يتحَمَّلَ ما يقولُه أعداؤُه فيه وفيما جاء به.

**والثَّاني**: أن يَمضِيَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وألَّا يَتقاعَسَ[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ جَمَع سُبحانَه بيْنَ السَّمعِ والعَقلِ، وأقام بهما حُجَّتَه على عِبادِه؛ فلا يَنفَكُّ أحَدُهما عن صاحِبِه أصلًا؛ فالكِتابُ المُنزَّلُ والعَقلُ المُدرِكُ حُجَّةُ اللهِ على خَلْقِه، وكِتابُه هو الحُجَّةُ العُظمى؛ فهو الَّذي عَرَّفَنا ما لم يكُنْ لِعُقولِنا سَبيلٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٢).

(٢) حَزَبه أمرٌ: أي: نَزَل به مُهِمٌّ، أو أصابه غَمٌّ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٠).

والحديث أخرجه أبو داودَ (١٣١٩)، وأحمدُ (٢٣٢٩٩) مِن حديثِ حُذَيْفةَ رضيَ الله عنه.

حسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٣/ ٢٠٥)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ١١٠)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١١).

استِقلالِها بإدراكِه أبدًا، فليس لأحَدٍ عنه مَذهَبٌ، ولا إلى غَيرِه مَفزَعٌ في مَجهولٍ يَعلَمُه، ومُشكِلٍ يَستَبينُه، ومُلتَبِسٍ يُوضِّحُه؛ فمَن ذهَب عنه فإليه يَرجِعُ، ومَن دَفَع حُكمَه فبه يُحاجُّ خَصيمَه؛ إذ كان بالحقيقةِ هو المُرشِدَ إلى الطُّرُقِ العَقليَّةِ والمعارِفِ اليَقينيَّةِ الَّتي بالعبادِ إليها أعظَمُ حاجةٍ، فمَن رَدَّ مِن مُدَّعي البَحثِ والنَّظَرِ حُكومتَه، ودفَعَ قَضيَّتَه؛ فقد كابَرَ وعانَدَ، ولم يكُنْ لأحدٍ سَبيلٌ إلى إفهامِه ولا مُحاجَّتِه، ولا تقريرِ الصَّوابِ عِندَه، وليس لأحَدٍ أن يقولَ: إنِّي غَيرُ راضٍ بحُكمِه بل بحُكمِ العَقلِ؛ فإنَّه متى رَدَّ حُكمَه فقد رَدَّ حُكمَ العَقلِ الصَّريحِ، وعانَدَ الكِتابَ والعَقلَ[1].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ مَن يُؤتَى الحِكمةَ ويَنتَفِعُ بالعِلمِ على مَنزِلتَينِ: إمَّا رجُلٌ رأى الحَقَّ بنَفْسِه، فقَبِلَه واتَّبَعه ولم يحتَجْ إلى مَن يدعوه إليه؛ فذلك صاحِبُ القَلبِ، أو رجُلٌ لم يَعقِلْه بنَفْسِه، بل هو محتاجٌ إلى مَن يُعَلِّمُه ويُبَيِّنُ له ويَعِظُه ويُؤَدِّبُه؛ فهذا أصغَى فألقَى السَّمعَ وهو شَهيدٌ، أي: حاضِرُ القَلبِ ليس بغائِبِه[2]. وذلك على القولِ بأنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ لِصِنفَينِ مِن النَّاسِ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ أنَّ العَقلَ في القَلبِ، وعُبِّرَ عنه بالقَلبِ؛ لأنَّه مَحَلُّ استِقرارِه[3].

٤- يَمتَنِعُ تعارُضُ الأدِلَّةِ القَطعيَّةِ؛ فلا يَجوزُ أن يَتعارَضَ دليلانِ قَطعيَّانِ، سَواءٌ كَانَا عقليَّينِ، أو سَمعيَّينِ، أو كان أحدُهما عَقليًّا والآخَرُ سَمعيًّا، فإنَّها

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٥٨، ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٢٩).

مُتوافِقةٌ مُتناصِرةٌ مُتعاضِدةٌ؛ فالعَقلُ يدُلُّ على صِحَّةِ السَّمْعِ، والسَّمْعُ يُبَيِّنُ صِحَّةَ العَقلِ، وأنَّ مَن سَلَك أحَدَهما أفضَى به إلى الآخَرِ، وأنَّ الَّذين يَستَحِقُّونَ العَذابَ هم الَّذين لا يَسمَعونَ ولا يَعقِلونَ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ * وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ٨ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؛ فقد بَيَّن القُرآنُ أنَّ مَن كان يَعقِلُ أو كان يَسمَعُ فإنَّه يكونُ ناجيًا وسَعيدًا، ويكونُ مُؤمِنًا بما جاءت به الرُّسُلُ(١).

٥- قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أنَّ الَّذي بيْنَ السَّماءِ والأرضِ مخلوقاتٌ عظيمةٌ، يدُلُّ على عِظَمِها أنَّ اللهَ جَعَلَها عديلةً لِخَلْقِ السَّمواتِ وخَلْقِ الأرضِ؛ فهي مخلوقاتٌ عظيمةٌ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ نَفيُ مَسِّ اللُّغوبِ الَّذي هو التَّعَبُ والإعياءُ؛ فدلَّ على كَمالِ القُدرةِ، ونِهايةِ القُوَّةِ، بخلافِ المَخلوقِ الَّذي يَلحَقُه مِن التَّعَبِ والكَلالِ ما يَلحَقُه(٣).

٧- قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٦).

وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ فيه تقريرُ المَعادِ؛ لأنَّ مَن قَدَر على خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ ولم يَعْيَ بخَلْقِهنَّ: قادِرٌ على أن يُحييَ الموتَى بطَريقِ الأَوْلَى والأَحْرَى[1].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾ استُدِلَّ به على وُجوبِ التَّسبيحِ في الصَّلاةِ؛ فإنَّه أمرٌ بالصَّلاةِ كلِّها، كما ثَبَتَ في الصَّحيحَينِ عن جَريرِ بنِ عبدِ اللهِ البَجَليِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا عندَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيلةَ -يعني البَدر-، فقال: إنَّكم سترَونَ ربَّكم كما تَرَونَ هذا القَمَرَ لا تُضامونَ في رؤيتِه، فإنِ استطعتُم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ وقبْلَ غروبِها فافعَلوا. ثمَّ قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴾))[2]، وإذا كان اللهُ عزَّ وجلَّ قد سمَّى الصَّلاةَ تسبيحًا فقد دَلَّ ذلك على وُجوبِ التَّسبيحِ، كما أنَّه لَمَّا سمَّاها قيامًا في قَولِه تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل: ٢] دلَّ على وُجوبِ القيامِ، وكذلك لَمَّا سَمَّاها قُرآنًا في قَولِه تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [الإسراء: ٧٨] دلَّ على وُجوبِ القرآنِ فيها، ولَمَّا سَمَّاها رُكوعًا وسُجودًا في مواضِعَ دلَّ على وُجوبِ الرُّكوعِ والسُّجودِ فيها؛ وذلك أنَّ تَسميتَها بهذه الأفعالِ دَليلٌ على أنَّ هذه الأفعالَ لازِمةٌ لها، فإذا وُجِدَت هذه الأفعالُ فتكونُ مِن الأبعاضِ اللَّازمةِ، كما أنَّهم يُسمُّونَ الإنسانَ بأبعاضِه اللَّازمةِ له، فيُسمُّونَه رَقَبةً، ورَأسًا، ووَجهًا، ونحوَ ذلك، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ [النساء: ٩٢]، ولو جاز وُجودُ الصَّلاةِ بدونِ التَّسبيحِ لَكان الأمرُ بالتَّسبيحِ لا يَصلُحُ أنْ يكونَ أمرًا بالصَّلاةِ؛ فإنَّ اللَّفظَ حينَئذٍ لا يكونُ دالًّا على معناه، ولا على ما يَستلزِمُ معناه[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٠٩).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٥٥٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٦٣٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥٠). =

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ انتِقالٌ مِن الاستِدلالِ إلى التَّهديدِ. وهو معطوفٌ على ما قَبْلَه، وهذا العطفُ انتقالٌ إلى الموعظةِ بما حَلَّ بالأممِ المُكذِّبةِ بعْدَ الاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ بقولِه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤]، وما فُرِّعَ عليه مِن قولِه: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ [ق: ١٥]. وفي هذا العَطفِ الوعيدُ الَّذي أُجمِلَ في قَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ إلى قولِه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق: ١٢، ١٤]؛ فالوعيدُ الَّذي حَقَّ عليهم هو الاستِئصالُ في الدُّنيا، وهو مَضمونُ قَولِه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾[(١)]. أوِ الواوُ استِئنافيةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لذِكرِ إهلاكِ قرونٍ ماضيةٍ[(٢)].

- والخبَرُ الَّذي أفادَهُ قولُه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تَعريضٌ بالتَّهديدِ، وتَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(٣)].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هاهنا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾، وقال في سُورةِ (ص): ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم﴾ [ص: ٣]؛ فحذَفَ الجارَّ هنا؛ وذلك يدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن كان قبْلَ قُريشٍ كانوا أقْوى منهم، وإثباتُه في (ص)

---

= ووُجوبُ التَّسبيحِ في الرُّكوعِ والسُّجودِ هو مذهبُ الحنابلةِ، بيْنَما مذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ أنَّه مستحَبٌّ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (١/ ١٠٧)، ((التاج والإكليل)) للموَّاق (١/ ٥٣٨)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (١/ ٤٩٩)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٢).

يدُلُّ على أنَّ المذكورينَ بالإهلاكِ هناك -مع الاتِّصافِ بالنِّداءِ المذكورِ في قولِه: ﴿فَنَادَوا۟﴾ [ص: ٣]- بَعضُ المُهْلَكينَ، لا كلُّهم[١].

- وضَميرَا ﴿قَبْلَهُم﴾ و﴿مِنْهُم﴾ عائدانِ إلى مَعلومٍ مِن المَقامِ، غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ[٢].

- وفي قَولِه: ﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ دخَلَت الفاءُ للتَّسبيبِ عن قولِه: ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾، أي: شِدَّةُ بَطشِهم أبطَرَتْهم وأقدرَتْهم على التَّنقيبِ وقَوَّتْهم عليه. والجُملةُ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم﴾ إلى آخِرِه، وجُملةِ ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾. وقيلَ: هيَ عاطفةٌ في المَعنى، كأنَّه قيلَ: اشتدَّ بطشُهم فنقَّبُوا. ويجوزُ أنْ يُرادَ: فنقَّبَ أهلُ مكَّةَ في أسفارِهم ومَسايرِهم في بلادِ القرونِ؛ فالفاءُ على هذا للتَّعقيبِ، وفيه الْتِفاتٌ[٣]؟!

- وجُملةُ ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، أي: إهلاكًا لا مَنْجى منه. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُستأنَفةً؛ فالاستِفهامُ إنكاريٌّ بمَعنى النَّفيِ؛ ولذلك دخَلَت (مِن) على الاسمِ الَّذي بعْدَ الاستِفهامِ، كما يُقالُ: ما مِن مَحيصٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ على إضمارِ قَولٍ هو حالٌ مِن واوِ (نقَّبوا)؛ أي: فنقَّبوا في البِلادِ قائلينَ: هلْ مِن مَحيصٍ؟ أو على إجراءِ التَّنقيبِ -لِما فيه من مَعنى التَّتبُّعِ والتَّفتيشِ- مُجْرى القولِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٠، ٣٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ قِيل: المُرادُ: قلْبٌ مَوصوفٌ بالوعْيِ، أي: لِمَن كان له قلْبٌ واعٍ، يُقالُ: لِفُلانٍ مالٌ، أي: كثيرٌ؛ فالتَّنكيرُ يدُلُّ على معنًى في التَّعظيمِ والكَمالِ، والمعنى: لِمَن كان له قلبٌ ذَكيٌّ واعٍ يَستخرِجُ بذَكائِه، أو لِمَن أَلْقَى السَّمْعَ إلى المُنذِرِ فيَتذكَّرُ.

وقيل: هو لبَيانِ وُضوحِ الأمْرِ بعْدَ الذِّكْرِ، وأنْ لا خَفاءَ فيه لِمَن كان له قلْبٌ ما ولو كان غيرَ كاملٍ، كما يُقالُ: أعْطِه شيئًا ولو كان دِرهمًا، ونقولُ: الجنَّةُ لِمَن عمِلَ خَيرًا ولو حَسنةً، فكأنَّه تعالى قال: إنَّ في ذلك لَذِكرى لِمَن يصِحُّ أنْ يُقالَ: له قلْبٌ، وحينَئذٍ فمَن لا يَتذكَّرُ لا قلْبَ له أصلًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨]؛ حيثُ لم تكُنْ آذانُهم وألْسِنَتُهم وأعيُنُهم مُفيدةً لِمَا يُطلَبُ منها، كذلك مَن لا يَتذكَّرُ كأنَّه لا قلْبَ له[١].

- قولُه: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ شَبَّهَ توجيهَ السَّمعِ لتلك الأخبارِ دونَ اشتِغالٍ بغيرِها بإلقاءِ الشَّيءِ لِمَن أخَذَه[٢].

- وإلقاءُ السَّمعِ: مُعبَّرٌ به عن شِدَّةِ الإصغاءِ للقُرآنِ ومواعظِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كأنَّ أسماعَهم طُرِحَتْ في ذلك، فلا يَشغَلُها شَيءٌ آخَرُ تَسمَعُه[٣]. وقيل: إنَّما قال: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾، ولم يقلْ: استمَعَ؛ لأنَّ إلقاءَ السَّمْعِ، أي: يُرسِلُ سَمْعَه، ولا يُمسِكُه وإنْ لم يقصِدِ السَّماعَ، أي: تَحصُلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الذِّكرى لِمَن له سَمْعٌ، وهو تَعريضٌ بتَمثيلِ المشركينَ بمَن ليس له قلبٌ، وبمَن لا يُلقي سَمْعَه[١].

- وقد جِيءَ بهذه الجُملةِ الحاليَّةِ؛ للإشارةِ إلى اقترانِ مَضمونِها بمَضمونِ عامِلِها، بحيثُ يكونُ صاحبُ الحالِ مُلقِيًا سمْعَه وهو شَهيدٌ، وهذه حالةُ المؤمنِ؛ ففي الكلامِ تنْويهٌ بشأنِ المؤمنينَ، وتعريضٌ بالمشركين بأنَّهم بُعَداءُ عن الانتِفاعِ بالذِّكرياتِ والعِبَرِ[٢].

- وقد تَضمَّنتْ هذه الآيةُ تقسيمًا وترديدًا بيْنَ قِسمينِ؛ أحدُهما: مَن كان له قلبٌ. والثَّاني: مَن أَلْقَى السَّمعَ وحضَرَ بقَلبِه ولم يَغِبْ، فهو حاضرُ القلبِ شاهِدُه لا غائبُه، وهذا -واللهُ أعلمُ- سِرُّ الإتيانِ بـ(أو) دونَ الواوِ؛ لأنَّ المنتفِعَ بالآياتِ مِن النَّاسِ نَوعانِ؛ أحدُهما: ذو القلبِ الواعِي الزَّكيِّ الَّذي يَكتفي بهِدايتِه بأدْنَى تنبيهٍ، ولا يَحتاجُ إلى أنْ يَستَجلِبَ قَلبَه ويُحضِرَه ويَجمَعَه مِن مَواضِعِ شَتاتِه، بل قَلبُه واعٍ، ذَكيٌّ، قابِلٌ للهُدَى، غَيرُ مُعرِضٍ عنه؛ فهذا لا يَحتاجُ إلَّا إلى وُصولِ الهُدى إليه فقط؛ لكَمالِ استِعدادِه، وصِحَّةِ فِطرَتِه، فإذا جاءَه الهُدى سارَعَ قَلبُه إلى قَبولِه، كأنَّه كان مَكتوبًا فيه، فهو قد أدرَكَه مُجمَلًا، ثمَّ جاء الهُدَى بتَفصيلِ ما شَهِدَ قَلبُه بصِحَّتِه مُجمَلًا، وهذه حالُ أكمَلِ الخَلقِ استِجابةً لِدَعوةِ الرُّسُلِ، كما هي حالُ الصِّدِّيقِ الأكبَرِ رَضيَ اللهُ عنه. والنَّوعُ الثَّاني: مَن ليس له هذا الاستِعدادُ والقَبولُ، فإذا وَرَدَ عليه الهُدَى أصْغَى إليه بسَمعِه، وأحضَرَ قَلبَه، وجَمَعَ فِكرَتَه عليه، وعَلِمَ صِحَّتَه وحُسنَه بنَظَرِه واستِدلالِه، وهذه طَريقةُ أكثَرِ المُستَجيبينَ، ولهم نُوِّعَ ضَرْبُ الأمثالِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وإقامةُ الحُجَجِ، وذِكْرُ المُعارَضاتِ والأجوِبةِ عنها، والأوَّلونَ همُ الَّذين يُدْعَوْنَ بالحِكمةِ، وهؤلاء يُدعَوْنَ بالمَوعظةِ الحَسَنةِ؛ فهؤلاء نَوْعَا المُستَجيبينَ. وأمَّا المُعارِضونَ المُدَّعونَ لِلحَقِّ فنَوعانِ؛ نَوعٌ يُدْعَوْنَ بالمُجادَلةِ بالَّتي هي أحسَنُ، فإنِ استَجابوا، وإلَّا فبالمُجالَدةِ[1]. وذلك على القَولِ بأنَّ الصِّفاتِ المذكورةَ لِصِنفَينِ مِن النَّاسِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾

- قولُه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ تكملةٌ لِمَا وُصِفَ مِن خلْقِ السَّمواتِ في قَولِه: ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا ﴾ إلى قولِه: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ [ق: ٦، ٧]؛ لِيُتوَصَّلَ به إلى قولِه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ إبطالًا لِمَقالةِ اليهودِ، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُملةِ الَّتي قبْلَها عطْفَ القصَّةِ على القصَّةِ، وقَعَتْ مُعترِضةً بيْنَ الكلامِ السَّابقِ وبيْنَ ما فُرِّعَ عنه مِن قَولِه: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾[2] [ق: ٣٩].

- والواوُ في قَولِه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ واوُ الحالِ؛ لأنَّ لِمَعنى الحالِ هنا مَوقعًا عظيمًا مِن تَقْييدِ ذلك الخَلْقِ العظيمِ في تلك المُدَّةِ القصيرةِ بأنَّه لا يَنصَبُ خالِقُه؛ لأنَّ الغرَضَ مِن مُعظَمِ هذه السُّورةِ بَيانُ إمكانِ البَعثِ؛ إذ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧١).

ثم قال ابن القيِّم: (ومَن تأمَّلَ دعوةَ القرآنِ وجَدَها شاملةً لهؤلاء الأقسام، مُتناولةً لها كلِّها؛ كما قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]؛ فهؤلاء المَدْعُوُّونَ بالكلامِ، وأمَّا أهلُ الجِلَادِ فهم الَّذين أمَرَ اللهُ بقتالِهم حتَّى لا تَكونَ فِتنةٌ ويَكونَ الدِّينُ كلُّه لله).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦).

أحالَه المشركون بما يَرجِعُ إلى ضِيقِ القُدرةِ الإلهيَّةِ عن إيقاعِه؛ فكانتْ هذه الآياتُ كُلُّها مُشتمِلةً على إبرازِ معنى سَعةِ القُدْرةِ الإلهيَّةِ(١).

- وحقيقةُ المَسِّ: اللَّمسُ، أي: وضْعُ اليَدِ على شَيءٍ وَضعًا غيرَ شديدٍ، بخِلافِ الدَّفعِ واللَّطمِ، فعبَّرَ عن نَفْيِ أقلِّ الإصابةِ بنَفيِ المَسِّ؛ لنَفيِ أضعَفِ أحوالِ الإصابةِ؛ فنفْيُ قوَّةِ الإصابةِ وتمَكُّنِها أحْرَى(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ۞ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾

- قولُه: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ تَفْريعٌ على ما تقدَّمَ كُلِّه مِن قولِه: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ﴾ [ق: ٢] الآياتِ، ومُناسَبةُ وُقوعِه هذا المَوقعَ ما تضَمَّنه قولُه: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ﴾ [ق: ٣٦] الآيةَ، مِن التَّعريضِ بتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أي: فاصبِرْ على ما يقولُ المُشرِكون مِن التَّكذيبِ بما أخبَرْتَهم مِن البَعثِ وبالرِّسالةِ، وقد جمَعَ ذلك كُلَّه المَوصولُ، وهو ﴿مَا يَقُولُونَ﴾، أي: الَّذي يَقولون(٣).

- وقال في الأُولى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾؛ فقيل: الأمرُ في المَوضِعَينِ واحِدٌ، على تقديرِ: سَبِّحِ اللهَ مُقترِنًا بحَمدِ رَبِّك؛ وذلك لأنَّ (سَبِّحِ اللهَ) كقَولِ القائِلِ: (فسَبِّحْه)، غيرَ أنَّ المفعولَ لم يُذكَرْ أوَّلًا؛ لدَلالةِ قَولِه تعالى: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ عليه، وثانيًا؛ لِدَلالةِ ما سَبَق عليه لم يَذكُرْ (بحَمدِ رَبِّك).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢٦).

وقيل: على القَولِ بأنَّ (سَبِّحْ) بمعنى: صَلِّ، يكونُ الأوَّلُ أمرًا بالصَّلاةِ، والثَّاني أمرًا بالتَّنزيهِ، أي: وصَلِّ بحَمدِ رَبِّك في الوَقتِ، وباللَّيلِ نَزِّهْه عمَّا لا يَليقُ، وحينَئذٍ يكونُ هذا إشارةً إلى العَمَلِ والذِّكرِ والفِكرِ؛ فقَولُه (سَبِّحْ) إشارةٌ إلى خَيرِ الأعمالِ، وهو الصَّلاةُ، وقَولُه: ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ إشارةٌ إلى الذِّكرِ، وقَولُه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ إشارةٌ إلى الفِكرِ حينَ هُدوءِ الأصواتِ، وصَفاءِ الباطِنِ، أي: نَزِّهْه عن كُلِّ سُوءٍ بفِكْرِك[1].

- قولُه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ عطْفٌ على ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾؛ فهو مِن تَمامِ التَّفريعِ. ولعلَّ وجْهَ هذا العَطفِ أنَّ المشرِكين كانوا يَسْتهزِئونَ بالنَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمؤمنينَ إذا قاموا إلى الصَّلاةِ[2].

- قولُه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، أي: صَلِّ، فنُزِّلَ فِعلُ التَّسبيحِ مَنزِلةَ اللَّازِمِ، وهو الصَّلاةُ[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والفاءُ في قَولِه: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ على أنْ يكونَ الوقتُ في قَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾ تأكيدًا للأمْرِ؛ لإفادةِ الوُجوبِ، فيُجعَلَ التَّفريعُ اعتِراضًا بيْن الظُّروفِ المتعاطِفةِ[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾، وقال في سُورةِ (طه): ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]، فوقَعَ في سُورةِ (طه): ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، وفي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٢٨).

هذه: ﴿وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ﴾؛ وذلك لأنَّ فَواصِلَ أكثرِ الآياتِ في سُورةِ (طه) أواخِرُها ألِفٌ؛ فعُدِلَ إلى ﴿غُرُوبِهَا﴾، وهو الأصلُ؛ لأنَّ الطُّلوعَ مُضافٌ إلى الشَّمسِ، وحقُّ الغُروبِ أنْ يكونَ مُضافًا إلى ضَميرِها، وضَميرُها بعْدَها ألِفٌ. وأمَّا سُورةُ (ق) فإنَّ فَواصِلَها مُردَفةٌ بواوٍ أو ياءٍ؛ كالسُّجودِ، والخُلودِ، والقَعيدِ، والعَتيدِ، والمَريجِ. والغُروبُ متى ذُكِرَ عُلِمَ أنه أُرِيدَ به غُروبُها، فكان ذلك أشبَهَ بالفواصلِ الَّتي تَقدَّمَتْها في المكانَينِ؛ فلذلك اختَلَفا[1]. واللهُ أعلَمُ.

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٠٢، ١٢٠٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٩)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٨).

## الآيات (٤١-٤٥)

﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١ يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ٤٢ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ٤٤ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ٤٥﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِرَاعًا﴾: جَمعُ سَريعٍ، أي: مُسرِعينَ في الخُروجِ إلى محَلِّ الحِسابِ، وأصلُ (سرع): يدُلُّ على خِلافِ البُطءِ[1].

﴿بِجَبَّارٍ﴾: أي: بمُسَلَّطٍ تُجبِرُهم على الإسلامِ؛ مِن: جَبَرَه على الأمرِ، بمعنى: أكرَهَه، وأصلُ (جبر): يدُلُّ على العَظَمةِ والعُلُوِّ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ: واستَمِعْ -يا محمَّدُ- حينَ يُنادي الملَكُ النَّاسَ مِن مَوضِعٍ قَريبٍ؛ يومَ يَسمَعُ الخَلقُ صَيحةَ البَعثِ بالحَقِّ، ذلك اليَومُ هو يَومُ خُروجِ النَّاسِ أحياءً مِن قُبورِهم للحَشرِ والحِسابِ.

ثمَّ يبيِّنُ كمالَ قدرتِه تعالى، فيقولُ: إنَّا نحن نُحيي الموتى، ونُميتُ الأحياءَ بقُدرتِنا، وإلينا مَرجِعُ الخَلائِقِ يومَ القيامةِ؛ يومَ تتصَدَّعُ الأرضُ عن الأمواتِ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

فيَخرُجونَ مِن قُبورِهم أحياءً مُسرِعينَ إلى أرضِ المَحشَرِ، ذلك الحشَرُ سَهلٌ وهَيِّنٌ علينا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُسلِّيًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: نحن أعلَمُ بما يَقولُ الكُفَّارُ، وما أنت بمُسَلَّطٍ عليهم -يا محمَّدُ- فتُجبِرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ، وإنَّما عليك البَلاغُ، فذكِّرْ بالقُرآنِ مَن يخافُ عذابي الَّذي توعَّدْتُ به مَن عَصاني.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١﴾.

أي: واستَمِعْ -يا محمَّدُ- حينَ يُنادي المَلَكُ الموكَّلُ بالصُّوْرِ النَّاسَ مِن مَوضِعٍ قَريبٍ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٠).

ممَّن ذهب إلى أنَّه أمرٌ بالاستِماعِ، وأنَّ المعنى: واستَمِعْ لِما أُخبِرُك به مِن حالِ يومِ القيامةِ وأهوالِها: الزمخشريُّ، وابن الجوزي، والنسفي، والخازن، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٤).

ونسَبَ ابنُ عاشور حمْلَ الاستِماعِ على حقيقتِه إلى الجمهورِ. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى قَولِه: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ﴾ أي: انتَظِرْ: ابنُ عطيَّة، والرَّازيُّ، وابن جُزَي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).

واستبعَدَه السَّمينُ الحلبيُّ، وابنُ عادل. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥١).

قال الماتُريدي: (﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، وانتَظِرْ ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ﴾، ولا تُكافِئْهم، ولا تنتَقِمْ منهم، ولكِنِ اصبِرْ وانتَظِرْ ذلك اليَومَ). ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٣٦٩). =

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ﴾.

أي: وذلك يومَ يَسمَعُ الخَلقُ صَيحةَ البَعثِ بالحَقِّ(١).

---

= وقد ذكر كثيرٌ مِن المفسِّرينَ أنَّ المناديَ: إسرافيلُ، وأنَّ المكانَ القَريبَ: صَخرةُ بَيتِ المقدِسِ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٠).

قال السمعاني: (القَولُ المعروفُ أنَّه إسرافيلُ عليه السَّلامُ يُنادي النَّاسَ على صَخرةِ بيتِ المَقدِسِ، فيقولُ: أيَّتُها العِظامُ الباليةُ، والجُلودُ المُتمَزِّقةُ، والأجسادُ المتفرِّقةُ، والأوصالُ المتقَطِّعةُ، ارجِعي إلى رَبِّك. وقيل بلَفظٍ آخَرَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٨).

وقال ابنُ عطية: (هذا الخبَرُ إن كان بوَحيٍ وإلَّا فلا سَبيلَ للوُقوفِ على صِحَّتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٠).

وقال ابن عاشور: (وعندي أنَّ هذه الآياتِ مِن قولِه: ﴿ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ ﴾ إلى قولِه: ﴿ ٱلْمَصِيرُ ﴾ هي معَ ما تُفيدُه مِن تسليةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم تُبَشِّرُ بطريقةِ التَّوجيهِ البَديعيِّ إلى تهديدِ المشركينَ بعذابٍ يَحلُّ بهم في الدُّنيا عَقِبَ نِداءٍ يُفزِعُهم فيَلْقَوْنَ إثْرَه حَتْفَهم، وهو عذابُ يَومِ بدرٍ، فخُوطِبَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بترَقُّبِ يَومٍ يُناديهم فيه مُنادٍ إلى الخُروجِ، وهو نِداءُ الصَّريخِ الَّذي صرَخ بأبي جهلٍ ومَن معَه بمكَّةَ بأنَّ عِيرَ قُرَيشٍ وفيها أبو سُفْيانَ قد لَقِيَها المسلمونَ بِبَدْرٍ... فالمكانُ القريبُ هو بطنُ الوادي؛ فإنَّه قَريبٌ مِن مَكَّةَ. والخروجُ: خروجُهم لبَدْرٍ، وتكونُ جملةُ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ ﴾ وعيدًا بأنَّ اللهَ يُميتُ سادَتَهم، وأنَّه يُبْقي مَن قَدَّر إسلامَه فيما بعدُ؛ فهو يُحْيِيه إلى يومِ أجَلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

وقَولُه تعالى: ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ قيل: معناه: أنَّها كائنةٌ وواقِعةٌ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٣٩).

وقيل: معنى ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾: بالأمرِ بالإجابةِ لله إلى مَوقِفِ الحِسابِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٦٥).

وقيل: معنى ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾: أي: بالبَعثِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، وابن الجوزي، والبيضاوي، =

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾.

أي: ذلك اليَومُ هو اليَومُ الَّذي يَخرُجُ فيه النَّاسُ أحياءً مِن قُبورِهم للحَشرِ والحِسابِ(١).

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ ٤٣﴾.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾.

أي: إنَّا نحن نُحيي الموتَى، ونُميتُ الأحياءَ بقُدرتِنا(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢].

﴿وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلينا مَرجِعُ جَميعِ الخَلقِ يومَ القيامةِ، فنُحاسِبُهم ونُجازيهم بحَسَبِ أعمالِهم(٣).

---

= والنسفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٧٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٩٤).

وقال ابن عاشور: (﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ بمعنَى: بالصِّدْقِ، وهو هنا الحشرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣١).

وقال البقاعي: (﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: الأمرِ الثَّابتِ الَّذي كانوا يُسَمُّونَه سِحرًا، ويَعُدُّونَه خَيالًا، فيَعلَمونَ حينَئذٍ أنَّ الواقعَ قد يُطابِقُه، فكان حقًّا؛ فإنَّه قد طابَقه الواقِعُ، فكان الإخبارُ به صِدقًا). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٤١). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٣٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨].

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾.

أي: يومَ تتصَدَّعُ الأرضُ عن الأمواتِ، فيَخرُجونَ مِن قُبورِهم أحياءً، وهم مُسرِعونَ إلى أرضِ المَحشَرِ(١).

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((النَّاسُ يَصعَقونَ(٢) .....

---

= عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٣).

قال ابنُ جرير: (يقولُ جَلَّ ثناؤُه: وإلينا مَصيرُهم يومَ تشَقَّقُ الأرضُ؛ فاليَومُ مِن صِلةِ «مَصيرُ»). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٠).

وقال ابنُ كثير: (وذلك أنَّ اللهَ تعالى يُنَزِّلُ مطَرًا مِنَ السَّماءِ تَنبُتُ به أجسادُ الخلائِقِ في قُبورِها كما يَنبُتُ الحَبُّ في الثَّرى بالماءِ، فإذا تكامَلَت الأجسادُ أمَرَ اللهُ إسرافيلَ فيَنفُخُ في الصُّورِ... فإذا نَفَخ إسرافيلُ فيه خرَجَت الأرواحُ تتوهَّجُ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ... فتَرجِعُ كُلُّ رُوحٍ إلى جَسَدِها... وتنشَقُّ الأرضُ عنهم، فيَقومونَ إلى مَوقِفِ الحِسابِ سِراعًا مُبادِرينَ إلى أمرِ اللهِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١١).

(٢) يَصْعَقونَ: مِنْ صَعِقَ الرَّجُلُ: إذا أصابَه فَزَعٌ فأُغمِيَ عليه، ورُبَّما مات منه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٢٣٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٤٤).

يومَ القيامةِ، فأكونُ أوَّلَ مَن تَنشَقُّ عنه الأرضُ))[١].

﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾.

أي: جمْعُ النَّاسِ في أرضِ المَحشَرِ يومَ القيامةِ شَأنٌ سَهلٌ وهَيِّنٌ علينا، لا تَعَبَ فيه ولا مَشقَّةَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣].

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها تَسليةٌ لقَلبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمِنينَ، وتَحريضٌ لهم على ما أُمِرَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الصَّبرِ والتَّسبيحِ، أي: اشتَغِلْ بما قُلْناه، ولا تَشغَلْك الشَّكوى إلينا؛ فإنَّا نَعلَمُ أقوالَهم، ونرَى أعمالَهم[٣].

وأيضًا فهذه الآيةُ تَقريرٌ للحَشرِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّ الحَشرَ عليه يَسيرٌ؛ لكَمالِ قُدرتِه، ونُفوذِ إرادتِه، ولكِنَّ تَمامَ ذلك بالعِلمِ الشَّامِلِ، حتَّى يُمَيَّزَ بينَ جُزءِ بَدَنَينِ: جُزءِ بَدَنِ زَيدٍ، وجُزءِ بَدَنِ عَمرٍو؛ فقال: ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾؛ لكَمالِ قُدرتِنا، ولا يَخفى علينا الأجزاءُ؛ لِمَكانِ عِلْمِنا[٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأيضًا لَمَّا أقام اللهُ سُبحانَه الأدِلَّةَ على تمامِ قُدرتِه وشُمولِ عِلْمِه، وخَتَم بسُهولتِه عليه واختِصاصِه به؛ وَصَل -تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بتَهديدِهم على تَكذيبِهم بالعِلمِ الَّذي هو أعظَمُ التَّهديدِ[1].

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ﴾.

أي: نحن أعلَمُ بما يَقولُه الكُفَّارُ مِنَ الكَذِبِ والافتراءِ على اللهِ، والتَّكذيبِ بآياتِه ورُسُلِه، والإنكارِ لقُدرتِه على بَعثِ عِبادِه[2].

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ﴾.

أي: وما أنت بمُسَلَّطٍ عليهم -يا محمَّدُ- فتُجبِرَهم على اتِّباعِ الحَقِّ، وتَقهَرَهم على الانقيادِ إليه، وإنَّما عليك البَلاغُ[3].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

قال ابن عاشور: (فيه تهديدٌ لهم، وتَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَطْمينٌ له بأنَّه غيرُ مَسؤولٍ عن عدَمِ اهتِدائِهم؛ لأنَّه إنَّما بُعِثَ داعيًا وهاديًا، وليس مَبعوثًا لإرغامِهم على الإيمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

وقال السمعاني: (قال بعضُهم: إنَّ الآيةَ منسوخةٌ، وهي قبْلَ نُزولِ آيةِ السَّيْفِ، نسَخَتْها آيةُ السَّيفِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٤٨). ويُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٦).

تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢].

﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾.

أي: فذكِّرْ -يا محمَّدُ- بهذا القُرآنِ مَن يخافُ عذابي الَّذي توعَّدْتُ به مَن عَصاني[1].

كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ [يس: ١١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴾ [النازعات: ٤٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَدارُ السَّعادةِ وقُطبُ رَحاها على التَّصديقِ بالوَعيدِ، فإذا تعطَّلَ مِن قَلبه التَّصديقُ بالوَعيدِ خَرِبَ خَرابًا لا يُرجَى معه فَلاحُ البتَّةَ، واللهُ تعالى أخبَرَ أنَّه إنَّما تَنفَعُ الآياتُ والنُّذُرُ لِمَن صَدَّق بالوَعيدِ، وخاف عذابَ الآخِرةِ، فهؤلاء هم المقصودونَ بالإنذارِ، والمُنتَفِعونَ بالآياتِ دونَ مَن عَداهم؛ قال اللهُ تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٣).

قال السعدي: (التَّذكيرُ هو: تذكيرُ ما تقرَّرَ في العُقولِ والفِطَرِ مِن محبَّةِ الخَيرِ، وإيثارِه وفِعْلِه، ومِن بُغضِ الشَّرِّ ومُجانَبتِه، وإنَّما يَتذكَّرُ بالتَّذكيرِ مَن يَخافُ وعيدَ اللهِ، وأمَّا مَن لم يخَفِ الوَعيدَ، ولم يُؤمِنْ به، فهذا فائِدةُ تذكيرِه: إقامةُ الحُجَّةِ عليه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾، وأخبرَ تعالى أنَّ أهلَ النَّجاةِ في الدُّنيا والآخرةِ هم المصَدِّقونَ بالوَعيدِ، الخائفونَ منه؛ فقال تعالى: ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾[1] [إبراهيم: ١٤].

٢- تذكُّرُ الوَعدِ والوَعيدِ يُوجِبُ خَشيتَه والحَذَرَ منه، ولا تَنفَعُ الموعِظةُ إلَّا لِمَنْ آمَنَ به وخافَه ورَجاه؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وأصرَحُ مِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾؛ فالإيمانُ بالوَعدِ والوَعيدِ وذِكرُه: شَرطٌ في الانتِفاعِ بالعِظاتِ والآياتِ والعِبَرِ، يَستحيلُ حُصولُه بدُونِه[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ على خُصوصِ التَّذكيرِ بالقُرآنِ بمَن يَخافُ وَعيدَ اللهِ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على عُمومِه، كقَولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقَولِه تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣].

**الجوابُ**: أنَّ التَّذكيرَ بالقُرآنِ عامٌّ، إلَّا أنَّه لَمَّا كان المُنتَفِعُ به هو مَن يَخافُ وَعيدَ اللهِ صار كأنَّه مُختَصٌّ به، كما أشار إليه قَولُه تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٦٤، ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٤٦).

تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[1] [الذاريات: ٥٥].

## بَلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ * يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ [ق: ٣٩]؛ فالأمرُ بالاستِماعِ مُفرَّعٌ بالفاءِ الَّتي فُرِّعَ بها الأمْرُ بالصَّبرِ على ما يقولونَ، فهو لاحِقٌ بتَسليةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فلا يكونُ المَسموعُ إلَّا مِن نَوعِ ما فيه عِنايةٌ به وعقوبةٌ لِمُكذِّبيه[2].

- وابتداءُ الكلامِ بقولِه: ﴿وَٱسۡتَمِعۡ﴾ يُفيدُ توثيقًا إلى ما يَرِدُ بَعْدَه[3].

- يَجوزُ حمْلُ الاستِماعِ على الإنصاتِ والإصغاءِ، وإذ كان المذكورُ عقِبَ فِعلِ السَّمْعِ لا يَصلُحُ لِأنْ يكونَ مَسموعًا -لأنَّ اليَومَ ليس ممَّا يُسمَعُ- تَعيَّنَ تَقديرُ مَفعولٍ لـ (اسْتَمِعْ) يدُلُّ عليه الكلامُ الَّذي بعْدَه، فيُقدَّرُ: استمِعْ نِداءَ المُنادي، أو استمِعْ خبَرَهم، أو استمِعِ الصَّيحةَ يومَ يُنادي المُنادي. ويجوزُ جعْلُ فِعلِ (اسْتَمِعْ) مُنزَّلًا مَنزِلةَ اللَّازِمِ، أي: كُنْ سامِعًا، فيَكونُ مَعنى الأمْرِ بالاستِماعِ تَخييلًا لصَيحةِ ذلك اليومِ في صُورةِ الحاصِلِ، بحيث يُؤمَرُ المخاطَبُ بالإصغاءِ إليها في الحالِ. أو يُحمَلُ (اسْتَمِعْ) على أنَّه بمَعنى: انتظِرْ؛ لأنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يُؤمَرْ بأنْ يَستمِعَ في يومِ النِّداءِ؛ لأنَّ كلَّ مَن فيه يَستمِعُ، وإنَّما الآيةُ في معنى الوعيدِ للكفَّارِ، فقِيل لمحمَّدٍ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: تَحسَّسْ هذا اليومَ وارْتقِبْه؛ فإنَّ فيه تَبيُّنَ صِحَّةِ ما قُلْتُه. أو المعنى: واستمِعْ لِمَا أُخبِرُك به مِن حالِ يومِ القِيامةِ، وفي ذلك تَهويلٌ وتعظيمٌ لشأنِ المُخبَرِ به؛ لِمَا في الإبهامِ والتَّفسيرِ مِن التَّهْويلِ والتَّعظيمِ[١].

- وتعريفُ ﴿ٱلْمُنَادِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أي: يومَ يُنادي المَلَكُ الَّذي يَنفُخُ النَّفْخةَ الثَّانيةَ، فتَتكوَّنُ الأجسادُ، وتحُلُّ فيها أرواحُ النَّاسِ للحَشرِ[٢].

- وتنْوينُ ﴿مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ للنَّوعيَّةِ؛ إذ لا يَتعلَّقُ الغرَضُ بتَعيينِه. ووصْفُه بـ﴿قَرِيبٍ﴾؛ للإشارةِ إلى سُرعةِ حُضورِ المُنادَينَ، وهو الَّذي فسَّرَتْه جُملةُ ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ النِّداءَ مِن مكانٍ قريبٍ لا يَخفَى على السَّامِعينَ، بخِلافِ النِّداءِ مِن مكانٍ بعيدٍ[٣].

- و﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بمعنى: بالصِّدقِ، وهو هنا الحَشرُ -على قولٍ-؛ وُصِفَ بالحقِّ إبطالًا لزعْمِ المشركينَ أنَّه اختِلاقٌ[٤].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ جيءَ به لتَهويلِ المشارِ إليه، وهو ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾؛ فأُريدَ كَمالُ العِنايةِ بتمْييزِه؛ لاختِصاصِه بهذا الخبَرِ العظيمِ، وكان مُقتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (هو يومُ الخُروجِ)[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ تَذييلٌ، أي: هذا الإحياءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٤/ ٥٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعدَ أنْ أَمَتْناهم هو مِن شُؤونِنا؛ بأنَّا نُحييهم، ونُحيي غيرَهم، ونُميتُهم، ونُميتُ غيرَهم، والمقصودُ هو قولُه: ﴿وَنُمِيتُ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿نُحْيِۦ﴾؛ فإنَّه لاستِيفاءِ معنى تَصرُّفِ اللهِ تعالى في الخَلْقِ(١).

- وتَقديمُ ﴿وَإِلَيْنَا﴾ في ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾؛ للاهتِمامِ(٢).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ إمَّا تَعريفُ الجِنسِ، أي: كلُّ شَيءٍ صائرٌ إلى ما قدَّرْناه له، وأكبرُ ذلك هو ناموسُ الفَناءِ المكتوبِ على جَميعِ الأحياءِ، وإمَّا تَعريفُ العَهدِ، أي: المصيرُ المُتحدَّثُ عنه، وهو الموتُ؛ لأنَّ المصيرَ بعْدَ الموتِ إلى حُكمِ اللهِ تعالَى(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ بيانٌ لجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤٢]، أو بدَلُ اشتِمالٍ منها، مع ما في المُعادِ منها مِن تأْكيدٍ لِمُرادِفِه. أو استِئنافٌ يُفيدُ الاستِدلالَ على إمكانِ الحَشرِ، ووَصْفَ حالٍ مِن أحوالِه، وهو تَشقُّقُ الأرضِ عنهم، أي: عن أجسادٍ مَثيلةٍ لأجسادِهم، وعن الأجسادِ الَّتي لم يَلحَقْها الفَناءُ(٤).

- وتقدُّمُ الجارِّ المجرورِ ﴿عَلَيْنَا﴾ على الخَبرِ ﴿يَسِيرٌ﴾ يُفيدُ الاختِصاصَ، أي: هو يَسيرٌ في جانبِ قُدرتِنا، لا كما زَعَمَه نُفاةُ الحشرِ(٥).

٤- قولُه تعالَى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٢).

وَعِيدِ ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ [ق: ٣٩]؛ فهو إيغالٌ في تَسليةِ النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتَعريضٌ بوَعيدِهم وتَهديدِهم[١].

- وفي قَولِه: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ فُرِّع أمْرُه بالتَّذكيرِ على ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٍ ﴾؛ لأنَّه ناشئٌ عن نفْيِ كَونِه جبَّارًا عليهم، وهذا كقولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ * لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، ولكنْ خَصَّ التَّذكيرَ هنا بالمؤمنينَ الَّذين يَخافونَ وعيدَ اللهِ تعالَى؛ لأنَّه أرادَ التَّذكيرَ الَّذي يَنفَعُ المُذَكَّرَ، ولأنَّ مَن لا يَخافُ الوعيدَ -لِكَونِه غيرَ مُصدِّقٍ بوُقوعِه- لا يَذَّكَّرُ؛ إذ لا تَنفَعُ فيه الذِّكرى، كما قال سُبحانَه: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[٢] [الذاريات: ٥٥].

- وما أنسَبَ هذا الاختِتامَ بالافتِتاحِ، حيثُ جاءَ أوَّلُ هذِه السُّورةِ وآخِرُها مُتناسِبَينِ ومُتقارِبَينِ في المعنَى، حيثُ قال في الأوَّلِ: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ [ق: ١]، وقال في آخِرِها: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾؛ فافتَتَحَ بما اختَتَمَ به[٣].

**تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الرَّابِعُ والثَّلاثونَ**

**ويليه المجلدُ الخامِسُ والثَّلاثونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الذَّارياتِ**

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١١٩) و(٢٨/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٣/ ٣٤٤).

# الفهرس

# الفهرس


سُورةُ الفَتْحِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٧

فَضائلُ السُّورةِ وخَصائصُها ..... ٧

بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٨

مقاصِدُ السُّورةِ ..... ٩

مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٩

الآيات (١-٣) ..... ١١

المعنى الإجماليُّ ..... ١١

تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٨

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٩

بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٢

الآيات (٤-٧) ..... ٢٧

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٧

المعنى الإجماليُّ ..... ٢٨

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٨

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٦

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٨

بَلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤

الآيات (٨-١٠) ..... ٥١

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥١

المعنى الإجماليُّ ..... ٥٢

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٢

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٠

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٠

بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٠

الآيات (١١-١٤) ..... ٦٦

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٦

المعنى الإجماليُّ ..... ٦٦

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦٧

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٧٤

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٧٥

بلاغةُ الآياتِ ..... ٧٦

الآيات (١٥-١٧) ..... ٨٣

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٨٣

المعنى الإجماليُّ ..... ٨٣

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٨٤

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٩٤

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٩٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٩٧
الآيات (١٨-٢٣) ..... ١٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٠٣
المعنى الإجماليُّ ..... ١٠٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٠٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١١٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ١١٩
الآيات (٢٤-٢٦) ..... ١٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٢٧
المعنى الإجماليُّ ..... ١٢٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٤٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٤٣
الآيتان (٢٧-٢٨) ..... ١٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٥٢
المعنى الإجماليُّ ..... ١٥٢
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ١٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٦٢
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ١٦٧
الآية (٢٩) ..... ١٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٧٢
المعنى الإجماليُّ ..... ١٧٣
تَفسيرُ الآيةِ ..... ١٧٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٨٥
بلاغةُ الآيةِ ..... ١٨٩

## سُورةُ الحُجُراتِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ١٩٥
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ١٩٥
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٩٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ١٩٦
الآيات (١-٥) ..... ١٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٩٨
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٩٨
المعنى الإجماليُّ ..... ١٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢١١
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٢١٥

بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٢١
الآيات (٦-٨) ..... ٢٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٢٣٣
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٣٣
المعنى الإجماليُّ..... ٢٣٤
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٣٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٤٣
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٤٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٤٩
الآيتان (٩-١٠) ..... ٢٥٨
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٢٥٨
المعنى الإجماليُّ..... ٢٥٨
تَفسيرُ الآيتَينِ..... ٢٥٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٦٦
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٦٩
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٢٧٨
الآيات (١١-١٣) ..... ٢٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٢٨٤
المعنى الإجماليُّ..... ٢٨٥
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٨٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٠٢
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٠٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٢١
الآيات (١٤-١٨) ..... ٣٣١
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٣٣١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٣٢
المعنى الإجماليُّ..... ٣٣٢
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٣٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٤١
الفوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٤٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٤٩

## سُورةُ ق

أسماءُ السُّورة ..... ٣٦١
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها . ٣٦٢
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ..... ٣٦٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣٦٤
مَوضوعاتُ السُّورةِ..... ٣٦٤
الآيات (١-٥) ..... ٣٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٦٥
المعنى الإجماليُّ..... ٣٦٥
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٦٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٧٤

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٧٥
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٣٧٦
الآيات (٦-١١) ..... ٣٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٨٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٨٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٨٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٣٩٤
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٣٩٦
الآيات (١٢-١٥) ..... ٤٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٠٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٠٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٠٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤١٢
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٤١٥
الآيات (١٦-٢٢) ..... ٤٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٢٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٢٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٣٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٣٧
الآيات (٢٣-٣٠) ..... ٤٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٤٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٥٨
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٤٦٢
الآيات (٣١-٣٥) ..... ٤٦٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٦٩
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٧٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٧١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٧١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٤٧٩
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٤٨١
الآيات (٣٦-٤٠) ..... ٤٨٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٨٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٨٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٨٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٠١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥٠٥

بَلاغةُ الآياتِ ..... ٥٠٩
الآيات (٤١-٤٥) ..... ٥١٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥١٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٥١٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥١٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ٥٢٥
بَلاغةُ الآياتِ ..... ٥٢٦
الفهرس ..... ٥٣١

تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة الذاريات وسورة الطور و سورة النجم)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد الخامس والثلاثون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الذاريات وسورة الطور وسورة النجم)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد الخامس والثلاثون – سورة الذاريات وسورة الطور وسورة النجم/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٩٢ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٦-٠١-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- سورة الذاريات – تفسير ٢- القرآن – سورة النجم – تفسير ٣- القرآن – سورة الطور – تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/٣٨٤٦

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٣٨٤٦

ردمك: ٦-٠١-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م**

**(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الذَّارِياتِ

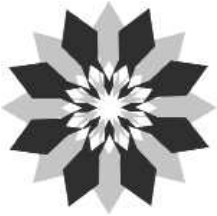

# سورةُ الذَّارِياتِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الذَّارِياتِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ:

سورةُ الذَّارِياتِ مَكِّيَّةٌ[٢]، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ مَقاصدِ هذه السُّورةِ:**

إقامةُ الأدِلَّةِ على أنَّ العِبادةَ لا تكونُ إلَّا لله تعالى وَحْدَه، وعلى أنَّ البَعثَ حَقٌّ[٤].

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أبرزِ المَوضوعاتِ الَّتي تناولَتْها هذه السُّورةُ:**

١- افتُتِحَت هذه السُّورةُ بالقَسَمِ مِنَ اللهِ تعالى ببَعضِ مَخلوقاتِه على أنَّ البَعثَ والجزاءَ كِلاهما حَقٌّ.

---

(١) سُمِّيَت بالذَّارِياتِ؛ لِمُفتَتَحِها في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ [الذاريات: ١]، ووَجهُ التَّسميةِ أنَّ هذه الكَلِمةَ لم تقَعْ بهذه الصِّيغةِ في غَيرِها مِن سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٤).

(٣) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٥)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٧).

٢- إبطالُ مَزاعِمِ المُكَذِّبينَ، ووعيدُهم بعذابِ النَّارِ.

٣- بيانُ ما أعَدَّه اللهُ سُبحانَه لعبادِه المُتَّقينَ.

٤- ذِكرُ طَرَفٍ مِن قَصَصِ الأنبياءِ: إبراهيمَ، ولُوطٍ، وهُودٍ، وصالحٍ، ومُوسى، ونُوحٍ، عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ.

٥- ذِكرُ ما يدُلُّ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وعلى سَعةِ رَحمتِه.

٦- تقريرُ أنَّ اللهَ ما خَلَق الجِنَّ والإنسَ إلَّا لعبادتِه.

٧- توعُّدُ المُشرِكينَ بأنْ يَنالَهم نَصيبٌ مِنَ العَذابِ مِثلُ نَصيبِ نُظَرائِهم مِنَ المكَذِّبينَ، ووَعيدُ الكافِرينَ مِن يَومِهم الَّذي يُوعَدونَ.

## الآيات (١-٦)

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٞ ٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٞ ٦﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾: أي: الرِّياحِ التي تُفَرِّقُ التُّرابَ وهَشيمَ النَّبتِ، وأصلُ (ذرو): يدُلُّ على تَساقُطِ الشَّيءِ مُتفرِّقًا[١].

﴿فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا﴾: أي: السَّحابِ الَّذي يَحمِلُ ثِقلًا مِنَ الماءِ، وأصلُ (حمل): يدُلُّ على إقلالِ الشَّيءِ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾: أي: السُّفُنِ الَّتي تجري في الماءِ مُيَسَّرةً جَريًا سَهلًا، وأصلُ (جري): يدُلُّ على انسياحِ شَيءٍ[٣].

﴿فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾: أي: الملائِكةِ الَّتي تُقَسِّمُ أمرَ اللهِ في خَلْقِه، وأصلُ (قسم): يدُلُّ على تجزئةِ شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٦) و (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((المفردات)) =

﴿ٱلدِّينَ﴾: أي: الجزاءَ بالأعمالِ والقِصاصَ، ومنه يُقالُ: دِنْتُه بما صنَعَ، وأصلُ (دين): جنسٌ مِن الانقيادِ والذُّلِّ[١].

﴿لَوَٰقِعٌ﴾: أي: لَكائنٌ لا مَحالةَ، وأصلُ (وقع): يدُلُّ على سقوطِ شَيءٍ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يُقسِمُ الله تعالى بالرِّياحِ الَّتي تُفَرِّقُ التُّرابَ والنَّباتَ اليابِسَ وغيرَ ذلك، وبالسَّحابِ الَّذي يَحمِلُ ثِقلًا مِن الماءِ، وبالسُّفُنِ الَّتي تجري في البِحارِ بسُهولةٍ ويُسرٍ، وبالملائِكةِ الَّتي تُقَسِّمُ أمْرَ اللهِ تعالى في خَلْقِه؛ على أنَّ وَعْدَه تعالى وَعدٌ صادِقٌ لا كَذِبَ فيه، وأنَّ حِسابَه تعالى لعِبادِه واقِعٌ لا مَحالةَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالرِّياحِ الَّتي تُفَرِّقُ التُّرابَ أو المطَرَ، أو النَّباتَ اليابِسَ، أو غيرَ ذلك مِمَّا تُفَرِّقُه الرِّيحُ وتَنشُرُه[٣].

---

= للراغب (ص: ٧٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩، ٣٢٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٣، ١٣٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٧٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٧٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٥).

وقد نقل الزَّجَّاجُ وابنُ عطيَّةَ إجماعَ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالذَّارياتِ: الرِّياحُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [الروم: ٤٨].

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢﴾.

أي: فالسَّحابِ الَّذي يَحمِلُ ثِقلًا مِن ماءٍ كثيرٍ[1].

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٥).

وممَّن قال بأنَّ الحامِلاتِ هي السَّحابُ: ابنُ جرير، وابن القيِّم، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

ونسَبَ الزَّجَّاجُ هذا القولَ إلى المفسِّرينَ جميعًا، ونسَبه السَّمْعانيُّ والشِّنقيطيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦١٤).

وقيل: هي صِفةٌ للرِّياحِ. وممَّن اختار هذا القَولَ: الرَّازيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٧، ٣٣٨).

وقال ابن عطيَّة: (و«الحامِلاتُ وِقرًا» قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه: هي السَّحابُ المُوقَرةُ بالماءِ. وقال ابنُ عبَّاسٍ وغَيرُه: هي السُّفُنُ المُوقَرةُ بالنَّاسِ وأمتاعِهم. وقال جماعةٌ مِنَ العُلَماءِ: هي أيضًا مع هذا جميعُ الحَيوانِ الحامِلِ. وفي جميعِ ذلك مُعتبَرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧١). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٤، ٤٣٥).

﴿فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ٣﴾.

أي: فالسُّفُنِ الَّتي تجري في البِحارِ بسُهولةٍ ويُسرٍ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦).

وممَّن قال بأنَّ الجارياتِ هي السُّفُنُ: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، والرَّسْعَني، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٣٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٩٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦).

وذكر ابنُ كثيرٍ أنَّه القَولُ المشهورُ عن الجُمهورِ، ونسَبَه الشِّنقيطيُّ إلى أكثَرِ أهلِ العِلمِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦١٤).

قال الشنقيطي: (ويدُلُّ لهذا القولِ كثرةُ إطلاقِ الوصفِ بالجَري على السُّفنِ؛ كقولِه تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الشورى: ٣٢]، وقولِه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]، وقولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡبَحۡرَ لِتَجۡرِيَ ٱلۡفُلۡكُ فِيهِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ [الجاثية: ١٢]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٣٥).

وقيل: المرادُ بالجارياتِ: الكواكِبُ والنُّجومُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

قال ابنُ تيميَّة: (... الأنسَبُ أن تكونَ هي الكواكِبَ المذكورةَ في قَولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ * ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]، فسَمَّاها جَواريَ). ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٢٠٨).

قيل: إنَّه أحسَنُ في التَّرتيبِ؛ ليكونَ ذلك ترقيًا مِن الأدنَى إلى الأعلَى، إلى ما هو أعلَى منه؛ فإنَّه بدَأ بالرِّياح، وفَوقَها السَّحابُ، وفَوقَه النُّجومُ، وفَوقَها الملائكةُ المقَسِّماتُ أمرَ اللهِ الَّذي أُمِرَت به بيْنَ خَلْقِه. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تُقَسِّمُ أمْرَ اللهِ تعالى في خَلْقِه بإذْنِه ووَفْقَ ما أمَرَها به، كالأرزاقِ[1].

---

= لابن القيم (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤).

وقيل: الجارياتُ هي الرِّياحُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السَّمعانيُّ، والرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦١).

وقيل: هي السَّحابُ والسُّفُنُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٤٦، ٤٤٧).

قال ابنُ عطيَّة: («الجارياتُ يُسرًا» قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ وغيرُه: هي السُّفُنُ في البَحرِ، وقال آخَرونَ: هي السَّحابُ بالرِّيحِ، وقال آخَرونَ: هي الجَواري مِنَ الكواكِبِ. واللَّفظُ يَقتضي جميعَ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧١).

وقال القاسمي: (﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾ أي: السُّفُنِ الجاريةِ في البَحرِ سَهلًا، أو الرِّياحِ الجاريةِ في مَهابِّها، أو الكواكِبِ الَّتي تجري في مَنازِلِها... واللَّفظُ مُتَّسِعٌ بجَوهرِه للكُلِّ. واللهُ أعلمُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٤).

وقال الألوسي: (إذا حُمِلَت هذه الصِّفاتُ على أمورٍ مُختَلِفةٍ مُتغايِرةٍ بالذَّاتِ كما في المُعَوَّلِ عليه، فالفاءُ للتَّرتيبِ في الأقسامِ ذِكرًا ورُتبةً، باعتِبارِ تَفاوُتِ مَراتِبِها في الدَّلالةِ على كَمالِ قُدرتِهِ عزَّ وجَلَّ، وهذا التَّفاوُتُ إمَّا على التَّرقِّي أو التَّنَزُّلِ؛ لِما في كُلٍّ منها مِن الصِّفاتِ الَّتي تجعَلُها أعلى مِن وَجهٍ وأدنى مِن آخَرَ إذا نَظَر لها ذو نظَرٍ صَحيحٍ. وقيل: التَّرتيبُ بالنَّظَرِ إلى الأقرَبِ فالأقرَبِ مِنَّا، وإن حُمِلَت على واحدٍ -وهو الرِّياحُ- فهي لترتيبِ الأفعالِ والصِّفاتِ؛ إذ الرِّيحُ تَذْرو الأبخِرةَ إلى الجَوِّ أوَّلًا حتَّى تنعَقِدَ سَحابًا، فتَحمِلُه ثانيًا، وتجري به ثالثًا ناشِرةً وسائِقةً له إلى حيثُ أمَرَها اللهُ تعالى، ثمَّ تُقَسِّمُ أمطارَه). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((أضواء البيان)) =

كما قال الله تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [الدخان: ٤، ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ [المرسلات: ٤، ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المَصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ

---

= للشنقيطي (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦).

نقَل ابنُ تيميَّةَ اتِّفاقَ السَّلَفِ وغَيرِهم مِن عُلماءِ المسلمينَ على أنَّ المُقسِّماتِ أمرًا: هم الملائِكةُ. يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٤٧١).

قال ابن القيِّم: (ما يُشاهَدُ مِن تدبيرِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ وما لا يُشاهَدُ إنَّما هو على أيدي الملائكةِ؛ فالرَّبُّ تعالى يُدبِّرُ بهم أمرَ العالَمِ، وقد وكَّل بكُلِّ عَمَلٍ مِن الأعمالِ طائِفةً منهم؛ فوكَّل بالشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ والأفلاكِ طائِفةً منهم، ووكَّل بالقَطْرِ والسَّحابِ طائِفةً، ووكَّل بالنَّباتِ طائِفةً، ووكَّل بالأجِنَّةِ والحَيوانِ طائِفةً، ووكَّل بالموتِ طائفةً، وبحِفظِ بني آدَمَ طائِفةً، وبإحصاءِ أعمالِهم وكتابتِها طائفةً، وبالوَحيِ طائفةً، وبالجِبالِ طائفةً، وبكُلِّ شأنٍ مِن شُؤونِ العالَمِ طائفةً). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٨٤، ٢٨٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

وقيل: المُقَسِّماتُ: هي الرِّياحُ الَّتي تُفَرِّقُ الأمطارَ على الأقطارِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرَّازيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٧).

قال ابن عاشور: (مِنَ المفَسِّرينَ مَن جَعَل هذه الصِّفاتِ الأربَعَ وَصفًا للرِّياحِ، قاله في «الكشَّاف»، ونَقَل بَعضَه عن الحَسَنِ، واستحسَنه الفَخرُ، وهو الأنسَبُ؛ لعطفِ الصِّفاتِ بالفاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦١).

وقال البِقاعي: (﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ﴾ أي: مِنَ السُّحُبِ بما تُصَرِّفُها فيه الملائكةُ عليهم السَّلامُ، وكذا السُّفُنُ بما يُصَرِّفُها اللهُ به مِن الرِّياحِ اللَّيِّنةِ أو العاصِفةِ مِن سلامةٍ وعَطَبٍ، وسُرعةٍ وإبطاءٍ، وكذا غيرُهما مِن كُلِّ أمرٍ تُصَرِّفُه الملائكةُ بيْنَ العبادِ وتُقَسِّمُه، ولَمَّا كان المحمولُ مُختلِفًا -كما تقدَّمَ- قال جامِعًا لذلك: ﴿أَمْرًا﴾ أي: مِن الرَّحمةِ أو العذابِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٤٧).

أُمِّه أربَعينَ يَومًا، ثمَّ يكونُ في ذلك عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ في ذلك مُضغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يُرسَلُ الملَكُ فيَنفُخُ فيه الرُّوحَ، ويُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ: بكَتْبِ رِزْقِه، وأجَلِه، وعَمَلِه، وشَقيٌّ أو سعيدٌ))[١].

وعن حُذَيْفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا مَرَّ بالنُّطفةِ ثِنتانِ وأربعونَ لَيلةً بَعَث اللهُ إليها مَلَكًا، فصَوَّرها، وخَلَق سَمْعَها وبَصَرَها، وجِلْدَها ولَحْمَها وعِظامَها، ثمَّ قال: يا رَبِّ، أذَكَرٌ أم أُنثى؟ فيَقضي ربُّك ما شاء، ويَكتُبُ الملَكُ، ثمَّ يقولُ: يا رَبِّ، أجَلُه؟ فيقولُ رَبُّك ما شاء، ويَكتُبُ المَلَكُ، ثمَّ يقولُ: يا رَبِّ، رِزقُه؟ فيَقضي رَبُّك ما شاء، ويَكتُبُ المَلَكُ، ثمَّ يَخرُجُ المَلَكُ بالصَّحيفةِ في يَدِه، فلا يَزيدُ على ما أُمِرَ ولا يَنقُصُ))[٢].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قِصَّةِ ذَهابِه إلى الطَّائِفِ: ((قال جِبريلُ: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد سَمِعَ قَولَ قَومِك لك، وما رَدُّوا عليك، وقد بَعَث إليك مَلَكَ الجِبالِ؛ لِتَأمُرَه بما شِئتَ فيهم، فناداني مَلَكُ الجِبالِ وسلَّمَ عليَّ، ثمَّ قال: يا محمَّدُ، إنَّ اللهَ قد سَمِعَ قَولَ قَومِك لك، وأنا ملَكُ الجِبالِ، وقد بَعثَني ربُّك إليك؛ لِتَأمُرَني بأمْرِك))[٣].

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾.

أي: إنَّ الَّذي يَعِدُكم اللهُ به -أيُّها النَّاسُ- وَعدٌ صادِقٌ لا كَذِبَ فيه مُطلَقًا[٤].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٢٠٨)، ومسلمٌ (٢٦٤٣) واللَّفظُ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٤٥).

(٣) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧].

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان أجَلُ وَعيدِهم وما يَتعَلَّقُ بالجَزاءِ: يومَ القيامةِ، وكانوا يُنكِرونَه؛ قال[1]:

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ٦﴾.

أي: وإنَّ حِسابَ اللهِ لعِبادِه ومُجازاتَهم لَشَيءٌ كائِنٌ وواقِعٌ لا مَحالةَ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قيل: في جميعِ السُّوَرِ الَّتي أقسَمَ اللهُ في ابتِدائِها بغيرِ الحُروفِ المُقطَّعةِ، كان القَسَمُ لإثباتِ أحَدِ الأُصولِ الثَّلاثةِ، وهي: الوَحدانيَّةُ، والرِّسالةُ، والحَشرُ[3].

---

= سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦، ١١٧).

قال ابنُ القيِّم في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا﴾: (يجوزُ أن تكونَ «ما» مَوصولةً، والعائِدُ مَحذوفٌ، والمعنى: الَّذي تُوعَدونَه لَصادِقٌ، أي: كائِنٌ وثابِتٌ، وأن تكونَ مَصدريَّةً، أي: إنَّ وَعْدَكم لَحَقٌّ وصِدقٌ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٨٥).

وقال ابنُ عطيَّة: (﴿تُوعَدُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِنَ الإيعادِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ مِنَ الوَعدِ، وأيَّها كان فالوَصفُ له بالصِّدقِ صَحيحٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٠)، ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٧٥).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۞ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۞ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۞ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا﴾ أقسَمَ سُبحانَه بهذه الأُمورِ الأربَعةِ؛ لِمَكانِ العِبرةِ والآيةِ، والدَّلالةِ الباهِرةِ على رُبوبيَّتِه ووَحدانيَّتِه وعِظَمِ قُدرتِه؛ ففي الرِّياحِ مِن العِبَرِ: هُبوبُها وسُكونُها، ولِينُها وشِدَّتُها، واختِلافُ طبائعِها وصِفاتِها ومَهابِّها، وتَصريفُها، وتنَوُّعُ مَنافِعِها، وشِدَّةُ الحاجةِ إليها. فلِلمَطَرِ خَمسةُ رِياحٍ: ريحٌ يَنشُرُ سَحابَه، وريحٌ يُؤَلِّفُ بَيْنَه، وريحٌ تُلَقِّحُه، وريحٌ تَسوقُه حيثُ يُريدُ اللهُ، وريحٌ تَذْرُو ماءَه وتُفَرِّقُه، وللنَّباتِ ريحٌ، وللسُّفُنِ ريحٌ، وللرَّحمةِ ريحٌ، وللعَذابِ ريحٌ، إلى غَيرِ ذلك مِن أنواعِ الرِّياحِ، وذلك يَقضِي بوجودِ خالِقٍ مُصَرِّفٍ لها، مُدَبِّرٍ لها يُصَرِّفُها كيف يَشاءُ، ويَجعَلُها رُخاءً تارَةً، وعاصِفةً تارةً، ورحمةً تارةً، وعذابًا تارةً؛ فتارةً يُحيي بها الزَّرعَ والثِّمارَ، وتارةً يَقطَعُها بها، وتارةً يُنَجِّي بها السُّفُنَ، وتارةً يُهلِكُها بها، وتارةً تُرَطِّبُ الأبدانَ، وتارةً تُذيبُها، وتارةً عَقيمًا، وتارةً لاقِحةً، وتارةً جَنوبًا، وتارةً دَبورًا، وتارةً صَبًا، وتارةً شَمالًا، وتارَةً حارَّةً، وتارةً بارِدةً، وهي مع غايةِ قُوَّتِها ألطَفُ شَيءٍ، وأقبَلُ المخلوقاتِ لكُلِّ كَيفيَّةٍ، سَريعةُ التَّأثُّرِ والتَّأثيرِ، لطيفةُ المسارِبِ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ، إذا قُطِعَ عن الحَيوانِ الَّذي على وَجهِ الأرضِ هَلَك كبَحرِ الماءِ الَّذي إذا فارَقَه حيوانُ الماءِ هَلَك، يَحبِسُها اللهُ سُبحانَه إذا شاء، ويُرسِلُها إذا شاء، تَحمِلُ الأصواتَ إلى الآذانِ، والرَّائِحةَ إلى الأنفِ، والسَّحابَ إلى الأرضِ الجُرُزِ، وهي مِن رَوحِ اللهِ تأتي بالرَّحمةِ، ومِن عُقوبتِه تأتي بالعَذابِ، وهي أقوى خَلْقِ اللهِ. والمقصودُ أنَّ الرِّياحَ مِن أعظَمِ آياتِ الرَّبِّ الدَّالَّةِ على عَظَمتِه ورُبوبيَّتِه وقُدرتِه[1].

٣- سَلِ الجارياتِ يُسْرًا مِنَ السُّفُنِ مَن أمسَكَها على وجهِ الماءِ، وسَخَّر لها

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٩-٢٨١).

البَحرَ؟ ومَن أرسَل لها الرِّياحَ الَّتي تَسوقُها على الماءِ سَوْقَ السَّحابِ على مُتونِ الرِّياحِ؟ ومَن حَفِظَها في مَجْراها ومُرْساها مِن طُغيانِ الماءِ وطُغيانِ الرِّيحِ؟ فمَنِ الَّذي جعَل الرِّيحَ لها بقَدْرٍ لو زاد عليها لأغرَقَها، ولو نَقَص عنه لَعاقَها؟ ومَن الَّذي عَلَّم الخَلقَ الضَّعيفَ صَنعةَ هذا البَيتِ العَظيمِ الَّذي يمشي على الماءِ، فيَقطَعُ المسافةَ البعيدةَ ويعودُ إلى بَلَدِه يَشُقُّ الماءَ ويَمخَرُه مُقبِلًا ومُدبِرًا بريحٍ واحِدةٍ تجري في مَوجٍ كالجبالِ؟

وسَلِ الجارياتِ يُسْرًا مِنَ الكواكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ مَنِ الَّذي خَلَقَها وأحسَنَ خَلْقَها، ورَفَع مَكانَها، وزَيَّن بها قُبَّةَ العالَمِ، وفاوَتَ بيْنَ أشكالِها ومَقاديرِها وألوانِها وحَرَكاتِها وأماكِنِها مِن السَّماءِ؟ وأنت إذا تأمَّلْتَ أحوالَ هذه الكواكِبِ وَجَدْتَها تَدُلُّ على المَعادِ كما تدُلُّ على المبدَأِ، وتدُلُّ على وُجودِ الخالِقِ وصِفاتِ كَمالِه ورُبوبيَّتِه وحِكمتِه ووَحدانيَّتِه أعظَمَ دَلالةٍ، وكُلُّ ما دَلَّ على صِفاتِ جَلالِه ونُعوتِ كَمالِه دَلَّ على صِدقِ رُسُلِه، فكما جَعَل اللهُ النُّجومَ هدايةً في طريقِ البَرِّ والبَحرِ فهي هدايةٌ في طُرُقِ العِلمِ بالخالِقِ سُبحانَه وقُدرتِه، وعِلْمِه وحِكْمَتِه، والمبدأِ والمَعادِ والنُّبُوَّةِ. ودَلالتُها على هذه المطالِبِ لا تَقصُرُ عن دَلالتِها على طُرُقِ البَرِّ والبَحرِ، بل دَلالتُها للعُقولِ على ذلك أظهَرُ مِن دَلالتِها على الطُّرُقِ الحِسِّيَّةِ، فهي هدايةٌ في هذا وهذا[1]. وذلك على أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾: الكواكِبُ.

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾ أقسَمَ بالسَّحابِ وهو مِن أعظَمِ آياتِ اللهِ في الجَوِّ في غايةِ الخِفَّةِ، ثمَّ يَحمِلُ الماءَ والبَرَدَ، فيَصيرُ أثقَلَ شَيءٍ، فيأمُرُ الرِّياحَ فتَحمِلُه على مُتونِها وتسيرُ به حيث أُمِرَت، فهو مُسَخَّرٌ بيْنَ السَّماءِ والأرضِ، حامِلٌ لأرزاقِ العِبادِ والحيوانِ، فإذا أفرَغَه حيثُ أُمِرَ به اضمَحَلَّ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٢-٢٨٤).

وتلاشى بقُدرةِ اللهِ؛ فإنَّه لو بَقِيَ لأضَرَّ النَّباتَ والحيوانَ، فأنشَأَه سُبحانَه في زَمنٍ يَصلُحُ إنشاؤُه فيه، وحَمَّلَه مِنَ الماءِ ما يَحمِلُه، وساقَه إلى بلَدٍ شَديدِ الحاجةِ إليه. فَسَلِ السَّحابَ مَن أنشَأَه بَعدَ عَدَمِه؟ وحمَّله الماءَ والثَّلجَ والبَرَدَ؟ ومَن حمَلَه على ظُهورِ الرِّياحِ؟ ومَن أمسَكَه بيْنَ السَّماءِ والأرضِ بغيرِ عِمادٍ؟ ومَن أغاث بقَطْرِه العِبادَ، وأحيا به البِلادَ، وصَرَّفه بيْن خَلْقِه كما أراد؟ وأخرَج ذلك القَطْرَ بقَدَرٍ مَعلومٍ، وأنزَلَه منه وأفناه بعدَ الاستِغناءِ عنه، ولو شاء لأدامَه عليهم فلم يَستطيعوا إلى دَفْعِه سَبيلًا، ولو شاء لأمسَكَه عنهم فلا يَجِدونَ إليه وُصولًا؟ فإنْ لم يُجِبْك جَوابًا حِوارًا، أجابك اعتِبارًا. وسَلِ الرِّياحَ مَن أنشأَها بقُدرتِه، وصَرَّفَها بحِكْمَتِه، وسَخَّرَها بمَشيئتِه، وأرسَلَها بُشْرًا بيْنَ يَدَي رَحمتِه، جعَلَها سَببًا لتَمامِ نِعمتِه، وسُلطانًا على مَن شاء بعُقوبتِه؟ ومَن جَعَلَها رُخاءً وذاريةً ولاقِحةً ومُثيرةً ومُؤَلِّفةً، ومُغَذِّيةً لأبدانِ الحَيوانِ والشَّجَرِ والنَّباتِ، وجعَلَها قاصِفًا وعاصِفًا ومُهلِكةً وعاتيةً، إلى غيرِ ذلك مِن صِفاتِها؟ فهل ذلك لها مِن نَفْسِها وذاتِها، أم تَدبيرُ مُدَبِّرٍ شَهِدَت الموجوداتُ برُبوبيَّتِه، وأقرَّت المصنوعاتُ بوَحدانيَّتِه، بيَدِه النَّفعُ والضُّرُّ، وله الخَلقُ والأمرُ. تبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ[1].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا * فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا * فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا﴾ الارتباطُ بيْنَ هذه الثَّلاثةِ: أنَّ الرِّياحَ تُثيرُ السَّحابَ، وتُلقِّحُ السَّحابَ بالماءِ، وأنَّ السُّحُبَ تَحمِلُ الأمطارَ، فتَنزِلُ إلى الأرضِ، فيَكونُ الرِّزقُ للمَواشي والآدميِّينَ، والجارياتُ -أي: السُّفُنُ- هي أيضًا تَحمِلُ الأرزاقَ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ، فلا يُمكِنُ أن تَصِلَ الأرزاقُ مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ أُخرى بَيْنَها وبيْنَها بَحرٌ إلَّا عن طريقِ السُّفُنِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا * فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا * فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا * فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨١، ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٦).

أَمْرًا﴾ هذه الأقسامُ جاز أن يُقسِمَ اللهُ تعالى بها، ولا يجوزُ أن يُقسِمَ الخَلقُ إلَّا باللهِ؛ لأنَّ قَسَمَ الخَلقِ استِشهادٌ على صِحَّةِ قَولِهم بمَن يَعلَمُ السِّرَّ والعَلانيةَ، وليس ذلك إلَّا اللهَ؛ وقَسَمَ الخالِقِ إرادةٌ لتأكيدِ الخَبرِ في نُفوسِهم مِمَّا جرت به العادةُ بيْنَهم؛ فيُقسِمُ ببَعضِ خَلْقِه على وَجهٍ يُوجِبُ الاعتِبارَ، وإحضارَ القَلبِ عندَ التَّنبيهِ على عجائِبِ الفِطرةِ، وبدائِعِ القُدرةِ[1]. وقَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ * وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ جوابُ القَسَمِ، كأنَّه استدَلَّ باقتِدارِه على هذه الأشياءِ العَجيبةِ المُخالِفةِ لِمُقتَضى الطَّبيعةِ، على اقتِدارِه على البَعثِ؛ للجَزاءِ المَوعودِ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ هذه الأشياءُ كُلُّها دليلٌ على قُدرةِ اللهِ تعالى على الإعادةِ، فإنْ قيلَ: فلِمَ أخرَجَها مُخرَجَ الأيْمانِ؟

**الجوابُ**: لأنَّ المتكَلِّمَ إذا شَرَع في أوَّلِ كَلامِه يَحلِفُ، يَعلَمُ السَّامِعُ أنَّه يريدُ أن يتكَلَّمَ بكلامٍ عَظيمٍ؛ فإنَّه يُصغي إليه أكثَرَ مِن أن يُصغِيَ إليه حيثُ يَعلَمُ أنَّ الكلامَ ليس بمُعتَبَرٍ؛ فبدأ بالحَلِفِ، وأدرَجَ الدَّليلَ في صُورةِ اليَمينِ، حتَّى أقبَلَ القَومُ على سَماعِه؛ فخَرَج لهم البُرهانُ المُبينُ والتِّبيانُ المَتينُ في صُورةِ اليَمينِ[3].

٨- الملائكةُ هم رُسُلُ اللهِ في تدبيرِ العالَمِ[4]، فكلُّ حَركةٍ في السَّمَواتِ والأرضِ مِن حَرَكاتِ الأفلاكِ والنُّجومِ، والشَّمسِ والقَمَرِ، والرِّياحِ والسَّحابِ، والنَّباتِ والحَيوانِ: فهي ناشِئةٌ عنِ الملائِكةِ الموكَّلِينَ بالسَّمَواتِ والأرضِ، كما

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٢٥).

قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۞ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۞ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۞ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۞ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۞ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۞ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۞ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۞ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ فيه افتِتاحُ هذه السُّورةِ بالقَسَمِ، والقَسَمُ المُفتتَحُ به مُرادٌ منه تَحقيقُ المُقسَمِ عليه، وتأكيدُ وُقوعِه، وقد أقسَمَ اللهُ بعَظيمٍ مِن مَخلوقاتِه، وهو في المَعنى قسَمٌ بقُدْرتِه وحِكمتِه، ومُتضمِّنٌ تَشريفَ تلك المَخلوقاتِ بما في أحوالِها مِن نِعَمٍ ودَلالةٍ على الهُدَى والصَّلاحِ، وفي ضِمنِ ذلك تَذْكيرٌ بنِعمةِ اللهِ فيما أوجَدَ فيها. والمُقسَمُ بها الصِّفاتُ تَقتضي مَوصوفاتِها، فآلَ إلى القسَمِ بالمَوصوفاتِ مِن أجْلِ تلك الصِّفاتِ العظيمةِ، وفي ذلك إيجازٌ دَقيقٌ، على أنَّ في طَيِّ ذِكرِ المَوصوفاتِ تَوفيرًا لِما تُؤذِنُ به الصِّفاتُ مِن مَوصوفاتٍ صالحةٍ بها؛ لِتَذهَبَ أفهامُ السَّامِعينَ في تَقديرِها كلَّ مَذهبٍ مُمكنٍ[٢].

- وفي تَخصيصِ الأُمورِ المذْكورةِ بالإقسامِ بها رمْزٌ إلى شَهادتِها بتَحقُّقِ مَضمونِ الجُملةِ المُقسَمِ عليها، منْ حيثُ إنَّها أُمورٌ بَديعةٌ مُخالِفةٌ لمُقتضَى الطَّبيعةِ، فمَنْ قدَرَ عليها فهُو قادرٌ على البَعثِ المَوعودِ[٣].

- والمُناسَبةُ بيْن المُقسَمِ به والمُقسَمِ عليه: أنَّ أحوالَ الرِّياحِ المذكورةَ هنا -على قولٍ في التَّفسيرِ- مَبْدَؤُها: نفْخٌ، فتَكوينٌ، فإحياءٌ، وكذلك البَعثُ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٦).

مَبْدَؤُه: نفْخٌ في الصُّورِ، فالْتِئامُ أجسادِ النَّاسِ الَّتي كانت مَعدومةً أو مُتفرِّقةً، فبَثُّ الأرْواحِ فيها فإذا هم قِيامٌ يَنظُرون، وقد يكونُ قولُه تعالى: ﴿أَمْرًا﴾ إشارةً إلى ما يُقابِلُه في المثالِ مِن أسبابِ الحياةِ، وهو الرُّوحُ؛ لقولِه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1] [الإسراء: ٨٥].

- وإنْ حُمِلَت الأوصافُ ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا * فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا * فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا * فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ على ذَواتٍ مُختلِفةٍ؛ فالفاءُ لتَرتيبِ الإقسامِ بها باعتِبارِ ما بيْنَها مِن التَّفاوُتِ في الدَّلالةِ على كَمالِ القدْرةِ، أو يُرادُ بالكلِّ الرِّياحُ؛ تَنزيلًا لاختِلافِ الصِّفةِ مَنزِلةَ اختِلافِ الذَّاتِ؛ فالفاءُ لتَرتيبِ الأفعالِ؛ إذ الرِّيحُ -مثلًا- تَذْرو الأبخِرةَ إلى الجوِّ حتَّى تَنعقِدَ سَحابًا، فتَحمِلُه فتَجْري به باسِطةً له إلى حيث أُمِرَت به، فتَقسِمُ المطَرَ[2].

- ونُصِبَ ﴿ذَرْوًا﴾ على المفعولِ المطلَقِ؛ لإرادةِ تَفخيمِه بالتَّنوينِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مَصدرًا بمَعنى المفعولِ، أي: المَذْرُوَّ، ويكونَ نصْبُه على المَفعولِ به[3].

- قولُه: (الْحَامِلَاتِ وِقْرًا) على القولِ بأنَّ المرادَ الرِّياحُ حينَ تَجمَعُ السَّحابَ وقد ثقُلَ بالماءِ؛ شُبِّهَ جمْعُها إيَّاه بالحِمْلِ؛ لأنَّ شأْنَ الشَّيءِ الثَّقيلِ أنْ يَحمِلَه الحامِلُ[4].

- قولُه: ﴿يُسْرًا﴾، أي: جَرْيًا ذا يُسْرٍ، أي: سُهولةٍ، فـ﴿يُسْرًا﴾ مَصدرٌ وُصِفَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

به على تَقديرِ مَحذوفٍ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ الصَّادقُ وصْفٌ للواعِدِ، لا لِما يُوعَدُ؛ فوصَفَ ما يُوعَدُ به بالصِّدقِ مُبالَغةً، والمَعْنَى: (لَصِدْقٌ)؛ فوَضَعَ الاسمَ مكانَ المَصْدَرِ. أو هو بمَعنى مَصدوقٍ، كـ ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، و﴿مَّآءٍ دَافِقٍ﴾[٢] [الطارق: ٦]. وقيل: لَمَّا كان ما تُوُعِّدوا به -لتحَقُّقِ وُقوعِه وقُربِه- كأنَّه موجودٌ يُخاطِبُهم عن نَفْسِه، عَبَّرَ عن المصدَرِ باسمِ الفاعِلِ؛ فقال: ﴿لَصَادِقٌ﴾ أي: مُطابِقٌ الإخبارُ به للواقِعِ[٣].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ الدِّين: الجزاءُ، ومعنَى ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ واقعٌ في المُستقبَلِ، بقرينةِ جعْلِه مُرتَّبًا في الذِّكرِ على ما يُوعَدونَ، وإنَّما يكونُ حُصولُ الموعودِ به في الزَّمنِ المستقبَلِ، وفي ذِكرِ الجزاءِ -زِيادةً على الكِنايةِ به عن إثباتِ البعثِ- تَعريضٌ بالوعيدِ على إنْكارِ البعثِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠).

قال ابن القيِّم: (وَصفُ الوَعدِ بكَونِه صادِقًا أبلَغُ مِن وَصفِه بكَونِه صِدقًا، ولا حاجةَ إلى تَكَلُّفِ جَعلِه بمعنى «مَصدوقٍ فيه»، بل هو صادِقٌ نَفْسُه، كما يُوصَفُ المتكلِّمُ بأنَّه صادِقٌ في كَلامِه، فيُوصَفُ كلامُه بأنَّه صادِقٌ، وهذا مِثْلُ قَولِهم: سِرٌّ كاتمٌ، وليلٌ قاتمٌ، ونهارٌ صائمٌ، وماءٌ دافقٌ، ومنه: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]، وليس ذلك بمَجازٍ ولا مُخالِفٍ لِمُقتضى التَّركيبِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠).

## الآيات (٧-١٤)

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْحُبُكِ﴾: أي: الطَّرائِقِ الحَسَنةِ المُحْكَمةِ البِناءِ، وأصلُ (حبك): يدُلُّ على إحكامِ شَيءٍ في امتدادٍ واطِّرادٍ[1].

﴿يُؤْفَكُ﴾: أي: يُصرَفُ، والإفكُ: كُلُّ ما صُرِفَ عن وَجهِه الَّذي يحِقُّ أن يكونَ عليه، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ شَيءٍ، وصَرفِه عن جِهتِه[2].

﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾: أي: الكَذَّابونَ، وأصلُ الخَرْصِ: التَّظَنِّي فيما لا يَستيقِنُه، يُقالُ: خرَصْتُ النَّخلَ، إذا حزَرْتَ ثمرَه، وكلُّ قولٍ مقولٍ عن ظنٍّ وتخمينٍ يقالُ: خَرْصٌ، سواءٌ كان مطابقًا للشيءِ أو مخالفًا له، وقيلَ للكَذِبِ: خَرصٌ؛ لِما يَدخُلُه مِن الظُّنونِ الكاذِبةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٠).

﴿غَمْرَةٍ﴾: أي: غَفلةٍ وعَمًى وجَهالةٍ، وأصلُ (غمر): يدُلُّ على تَغطيةٍ وسَترٍ[١].

﴿سَاهُونَ﴾: أي: لاهُونَ غافِلونَ، والسَّهوُ: الغَفلةُ عن الشَّيءِ، وذَهابُ القَلبِ عنه، وأصلُ (سهو): يدُلُّ على غَفلةٍ[٢].

﴿أَيَّانَ﴾: أي: متى، وهو عِبارةٌ عن وَقتِ الشَّيءِ. وقيل: أصلُ (أيَّانَ): أيُّ أوانٍ، فخَفَّفوا (الياءَ) مِن (أيٍّ)، وترَكوا همزةَ (أوان)، فالتَقَتْ ياءٌ سَاكِنةٌ بَعْدَها واوٌ، فأُدغِمَت (الواوُ) فِي (الياءِ)؛ فصارَ (أيَّانَ)[٣].

﴿يُفْتَنُونَ﴾: أي: يُعَذَّبون ويُحرَقون، وأصلُ الفَتْنِ: إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه، واستُعمِلَ في إدخالِ الإنسانِ النَّارَ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يُقسِمُ تعالى قَسَمًا آخَرَ بالسَّماءِ ذاتِ الخَلْقِ الحَسَنِ المُتقَنِ المُحكَمِ البِناءِ على أنَّ المُشرِكينَ لَفي أقوالٍ مُختَلِفةٍ مُتناقِضةٍ، كوَصفِهم القُرآنَ بأنَّه سِحرٌ وشِعرٌ وأساطيرُ الأوَّلينَ، ووَصْفِهم النَّبيَّ بأنَّه ساحِرٌ ومَجنونٌ وشاعِرٌ!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ١٢٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩).

يُصرَفُ عن الإيمانِ بسَببِ هذا القولِ المختلِفِ مَن صُرِفَ وحُرِمَ منه؛ بسَبَبِ تلك الأقوالِ المُختَلِفةِ الكاذِبةِ الَّتي يَفتَرونَها لِرَدِّ الحَقِّ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى سوءَ عاقِبةِ المكذِّبينَ، فيقولُ: لُعِنَ أولئك الكذَّابونَ الَّذين يَقولونَ الباطِلَ، والَّذين هم في غَفلةٍ وعَمًى وجَهالةٍ عن الحَقِّ.

ثمَّ يبيِّنُ ما كانوا عليه مِن سوءِ أدبٍ، فيقولُ: يَسألُ أولئك المُكَذِّبونَ بالبَعثِ استِهزاءً: متى يَقَعُ هذا اليَومُ الَّذي نُحاسَبُ فيه؟!

ويرُدُّ الله تعالى عليهم مبيِّنًا سوءَ مصيرِهم، فيقولُ: يَقَعُ الجزاءُ عليهم يومَ يُعرَضونَ على النَّارِ، فيُحرَقونَ بها ويُعَذَّبونَ، ويُقالُ لهم: ذُوقُوا حَريقَكم وعَذابَكم؛ جزاءَ كُفرِكم وتَكذيبِكم، هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَطلُبونَ تَعجيلَه في الدُّنيا؛ استِهزاءً به!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ٧﴾.

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ الخَلْقِ الحَسَنِ المُتقَنِ المُحكَمِ البِناءِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٨٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٤، ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٧).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ فيه للعُلَماءِ أقوالٌ مُتقارِبةٌ لا يُكَذِّبُ بَعضُها بعضًا؛ فذَهَب بَعضُ أهلِ العِلمِ إلى أنَّ الحُبُكَ جَمعُ حَبيكةٍ أو حِباكٍ، وعليه فالمعنى: ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ أي: ذاتِ الطَّرائِقِ، فما يَبدو على سطحِ الماءِ السَّاكنِ أو الرَّملِ مِن الطَّرائقِ إذا ضرَبَتْه الرِّيحُ هو الحُبُكُ، وهو جمعُ حَبيكةٍ أو حِباكٍ، قالوا: ولِبُعْدِ السَّماءِ لا تُرى طرائقُها المُعَبَّرُ عنها بالحُبُكِ... وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ أي: ذاتِ الخَلْقِ الحسَنِ المُحكَمِ، ومِمَّن قال به: ابنُ عَبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ... وقال بعضُ العُلَماءِ: ﴿ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾: أي: الزِّينةِ... وقال بعضُ =

﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾.

أي: إنَّكم -أيُّها المُشرِكونَ- لَفي أقوالٍ مُختَلِفةٍ مُتناقِضةٍ مُضطَرِبةٍ في شَأنِ تَكذيبِكم بالحَقِّ، كوَصفِكم القُرآنَ بأنَّه سِحرٌ وشِعرٌ وأساطيرُ الأوَّلينَ، أو وَصْفِكم النَّبيَّ بأنَّه ساحِرٌ ومَجنونٌ وشاعِرٌ(١)!

كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥].

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾.

أي: يُصرَفُ عن الإيمانِ بسببِ هذا القولِ المُختلِفِ مَن سبَق في عِلمِ الله أنَّه مصروفٌ(٢).

---

= العُلَماءِ: ﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أي: ذاتِ الشِّدَّةِ... والآيةُ تَشمُلُ الجَميعَ، فكُلُّ الأقوالِ حَقٌّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٣٧). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٢).

ونَسَب الواحديُّ القولَ بأنَّها ذاتُ الخَلْقِ الحَسَنِ المُستَوي إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٤).

وقال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذَكَر الأقوالَ في معنى الحُبُكِ: (وكُلُّ هذه الأقوالِ تَرجِعُ إلى شَيءٍ واحِدٍ، وهو الحُسْنُ والبهاءُ، كما قال ابنُ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما؛ فإنَّها مِن حُسْنِها مُرتَفِعةٌ شَفَّافةٌ صَفيقةٌ شديدةُ البناءِ، مُتَّسِعةُ الأرجاءِ، أنيقةُ البَهاءِ، مُكَلَّلةٌ بالنُّجومِ الثَّوابِتِ والسَّيَّاراتِ، مُوشَّحةٌ بالشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ الزَّاهِراتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤١، ٣٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٨).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أظهَرُ الأقوالِ فيه عندي، ولا يَنبغي العُدولُ عنه في نَظَري: أنَّ لفظةَ «عن» في الآيةِ سَبَبِيَّةٌ، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ * كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣، ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ * مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ - ١٦٣].

﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ١٠﴾.

أي: لُعِنَ أولئك الكذَّابونَ الَّذين يَقولونَ الباطِلَ في الدِّينِ، ظنًّا منهم بلا يَقينٍ[1]!

---

= [هود: ٥٣]، أي: بسَبَبِ قَولِك، ومِن أَجْلِه، والضَّميرُ المجرورُ بـ «عن» راجِعٌ إلى القَولِ المُختَلِفِ، والمعنى: ﴿يُؤۡفَكُ﴾ أي: يُصرَفُ عن الإيمانِ باللهِ ورَسولِه. ﴿عَنۡهُ﴾ أي: عن ذلك القَولِ المُختَلِفِ، أي: بَسَبِبِه. ﴿مَنۡ أُفِكَ﴾ أي: مَن سَبَقَت له الشَّقاوةُ في الأَزَلِ، فحُرِمَ الهُدى وأُفِكَ عنه؛ لأنَّ هذا القَولَ المُختَلِفَ يُكَذِّبُ بَعضُه بعضًا ويُناقِضُه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٣٨).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿عَنۡهُ﴾ قيل: إنَّ الضَّميرَ يعودُ على الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أي: يُصرَفُ عن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن صُرِفَ مِنَ النَّاسِ. وقيل: إنَّ الضَّميرَ يعودُ على القَولِ، وعلى هذا القَولِ: تكونُ «عن» بمعنى الباءِ -أي: في إفادَتِها السَّببيَّةَ-، أي: يُؤفَكُ بهذا القَولِ مَن أُفِكَ، يُصْرَفُ بهذا القَولِ عن الحَقِّ مَن صُرِفَ، وهما -أي: المَعنَيانِ- مُتلازِمانِ، والأقرَبُ أنَّ الضَّميرَ في قَولِه ﴿عَنۡهُ﴾ يعودُ على القَولِ؛ لأنَّه أقرَبُ مَذكورٍ، ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ﴾ أي: عن هذا القَولِ، أي: بسَبَبِه ﴿مَنۡ أُفِكَ﴾ أي: مَن صُرِفَ عن الحَقِّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١١٨). ويُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٣، ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢١).
قال السَّمْعاني: (وقولُه: ﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾ أي: لُعِن الكذَّابون، وهذا هو المُتَّفَقُ عليه مِن أهلِ التَّفسير. وعن بعضِهم: أنَّه لا يُعرَفُ «قُتِل» بمعنى «لُعِن» في اللُّغة، ومعناه: أنَّ الخرَّاصينَ قد =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩، ٧٠].

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾.

أي: الَّذين هم في الباطِلِ غارِقونَ، وعن الحَقِّ غافِلونَ، وعن الآخِرةِ لاهُونَ(١).

= أتَوا بما يَستَحِقُّونَ [به] القتلَ، ولَعنةُ الله إيَّاهم إهلاكٌ لهم، فهو قتلهم). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٢).

وممَّن قال إنَّ معنى «قُتِل»: «لُعِن» مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٦١٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٣).

قال الواحدي: (قالوا جميعًا: لُعِنَ الكَذَّابون. قال ابنُ الأَنْباري: والقَتلُ إذا أُخبِرَ عن اللهِ به كان بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لعَنَه الله كان بمنزلةِ المقتولِ الهالكِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٧٤). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٢).

وقال القرطبي: (معنى ﴿قُتِلَ﴾ أي: هؤلاء ممَّن يجِبُ أن يُدعَى عليهم بالقَتلِ على أيدي المؤمِنينَ. وقال الفَرَّاءُ: معنى ﴿قُتِلَ﴾ لُعِنَ، قال: و﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ الكذَّابون الَّذين يتخَرَّصون بما لا يَعلَمونَ، فيقولونَ: إنَّ مُحمَّدًا مجنونٌ كَذَّابٌ ساحِرٌ شاعِرٌ! وهذا دُعاءٌ عليهم؛ لأنَّ مَن لَعَنه اللهُ فهو بمنزلةِ المقتولِ الهالِكِ. قال ابنُ الأنباري: علَّمَنا الدُّعاءَ عليهم، أي: قولوا: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٣).

وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ دعاءٌ عليهم، كما تقولُ: قاتَلَك اللهُ، وقتَلَك اللهُ، وعَقْرَى حَلْقَى، ونحوه. وقال بعضُ المفسِّرينَ: معناه: لُعِن الخَرَّاصونَ. وهذا تفسيرٌ لا تُعطيهِ اللَّفظةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣).

وقال ابن عثيمين: (كثيرٌ مِنَ المُفَسِّرينَ يُفَسِّرُها بلُعِنَ، واللَّعنُ هو الطَّردُ والإبعادُ عن رحمةِ الله، ولكِنَّ الصَّحيحَ أنَّها بمعنى أُهلِكَ؛ لأنَّه لا داعيَ أن نَصرِفَها عن ظاهِرِها، وظاهِرُها صَحيحٌ مُستقيمٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٩٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة =

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤].

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: يَسألُ أولئك المُكَذِّبونَ بالبَعثِ؛ استِهزاءً به، واستِبعادًا لوُقوعِه: متى يَقَعُ هذا اليَومُ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه عِبادَه لِمُحاسَبتِهم ومُجازاتِهم على أعمالِهم[1]؟!

كما قال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الملك: ٢٥، ٢٦].

وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ * ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١ - ٣].

---

= الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

قال ابن كثير: (﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾؛ وإنَّما يقولون هذا تكذيبًا وعِنادًا، وشَكًّا واستِبعادًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢١).

وقال أبو السعود: (﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أيْ: مَتَى وُقوعُ يومِ الجزاءِ، لكنْ لا بطريقِ الاستِعلامِ حقيقةً، بلْ بطريقِ الاستِعجالِ استِهزاءً). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٧).

وقال ابن الجوزي: (أي: يَقولونَ: يا محمَّدُ، متى يَومُ الجزاءِ؟! تكذيبًا منهم واستِهزاءً). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥).

وقال ابنُ عطيَّة: (يَقولونَ: متى يومُ الدِّينِ؟ على معنَى التَّكذيبِ، وجائزٌ أن يَقترِنَ بذلك مِن بعضِهم هُزءٌ وألَّا يَقترِنَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤].

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: يَقَعُ الجزاءُ عليهم يومَ يُعرَضونَ على النَّارِ فيُحرَقونَ بها ويُعَذَّبونَ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ١٠٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ * وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٥، ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٢).

قال ابنُ عطية: (﴿يُفْتَنُونَ﴾ معناه: يُحرَقونَ ويُعَذَّبونَ في النَّارِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والجَميعُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٣). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٣٤).

وقال ابنُ القيِّم: (المشهورُ في تفسيرِ هذا الحَرفِ أنَّه بمعنى: يُحرَقونَ، ولكِنَّ لفظةَ ﴿عَلَى﴾ تُعطي معنًى زائدًا على ما ذَكَروه، ولو كان المرادُ نفْسَ الحَرْقِ لَقيلَ: «يومَ هم في النَّارِ يُفتَنونَ»؛ ولهذا لَمَّا عَلِمَ هؤلاء ذلك قال كثيرٌ منهم: «على» بمعنى «في»، كما تكونُ «في» بمعنى «على». والظَّاهِرُ أنَّ فِتنتَهم على النَّارِ قبْلَ فِتنتِهم فيها! فلَهم عندَ عَرْضِهم عليها ووُقوفِهم عليها فِتنةٌ، وعندَ دُخولِهم والتَّعذيبِ بها فِتنةٌ أشَدُّ منها... وحقيقةُ الأمرِ: أنَّ الفِتنةَ تُطلَقُ على العَذابِ وسَبَبِه؛ ولهذا سَمَّى اللهُ الكُفرَ فِتنةً؛ فهم لَمَّا أتَوْا بالفِتنةِ -الَّتي هي أسبابُ العذابِ- في الدُّنيا سَمَّى جزاءَهم فِتنةً؛ ولهذا قال: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾، وكان وُقوفُهم على النَّارِ وعَرضُهم عليها مِن أعظَمِ فِتنَتِهم، وآخِرُ هذه الفتنةِ دُخولُ النَّارِ والتَّعذيبُ بها، ففُتِنوا أوَّلًا بأسبابِ الدُّنيا وزينتِها، ثمَّ فُتِنوا بإرسالِ الرُّسُلِ إليهم، ثمَّ فُتِنوا بمُخالَفتِهم وتكذيبِهم، ثمَّ فُتِنوا بعذابِ الدُّنيا، ثمَّ فُتِنوا بعذابِ الموتِ، ثمَّ يُفتَنونَ في مَوقِفِ القيامةِ، ثمَّ إذا حُشِروا إلى النَّارِ وَوُقِفوا عليها وعُرِضوا عليها، وذلك مِن أعظَمِ فِتنَتِهم، ثمَّ الفِتنةُ الكُبرى الَّتي أنسَتْهم جميعَ الفِتَنِ قَبْلَها!). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٩٠). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٢).

فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر: ٣٦، ٣٧].

﴿ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ١٤ ﴾.

﴿ ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ ﴾.

أي: يُقالُ لهم وهم يُعَذَّبونَ حينَها في النَّارِ: ذُوقُوا حَريقَكم وعَذابَكم؛ جزاءَ كُفرِكم وتَكذيبِكم[1].

﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴾.

أي: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَطلُبونَ تَعجيلَه في الدُّنيا؛ استِهزاءً به، وتَكذيبًا واستِبعادًا لِوُقوعِه[2]!

كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [ص: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَا ﴾ [الشورى: ١٨].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الكُفَّارُ بالأنبياءِ مِن عاداتِهم أن تقولَ كُلُّ طائفةٍ في النَّبيِّ قَولًا يُناقِضُ قَولَ الطَّائِفةِ الأُخرى، وكذلك قَولُهم في الكِتابِ الَّذي أُنزِلَ عليه، وأقوالُهم كُلُّها أقوالٌ مُختَلِفةٌ باطِلةٌ، وهذا هو الاختِلافُ المذمومُ الَّذي ذكَرَه اللهُ تعالى في قَولِه: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]، وفي قَولِه: ﴿ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ * يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ﴾ [الذَّاريات: ٨، ٩]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥، ٣٤٦).
قال ابن كثير: (يُقالُ لهم ذلك؛ تقريعًا وتوبيخًا، وتحقيرًا وتصغيرًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٦).

ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾[١] [البقرة: ١٧٦].

٢- الحَقُّ لا يَنقُضُ بَعضُه بَعضًا، بل يُصَدِّقُ بَعضُه بَعضًا، بخِلافِ الباطِلِ؛ فإنَّه مُختَلِفٌ مُتناقِضٌ، كما قال تعالى في المُخالِفينَ للرُّسُلِ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۞ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۞ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾، وإنَّ ما عُلِمَ بمَعقولٍ صَريحٍ لا يُخالِفُه قَطُّ لا خَبَرٌ صَحيحٌ، ولا حِسٌّ صَحيحٌ! وكذلك ما عُلِمَ بالسَّمعِ الصَّحيحِ لا يُعارِضُه عَقلٌ ولا حِسٌّ، وكذلك ما عُلِمَ بالحِسِّ الصَّحيحِ لا يُناقِضُه خَبَرٌ ولا مَعقولٌ[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ ۞ إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۞ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾ فاختِلافُ قَولِهم في الرَّسولِ وفي القرآنِ، ووصْفُهما بأوصافٍ مُتناقِضةٍ معَ الواقعِ، ومعَ بعضِهم البعضِ دَليلٌ على فَسادِه وبُطلانِه، كما أنَّ الحَقَّ الَّذي جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتَّفِقٌ يُصَدِّقُ بَعضُه بَعضًا، لا تَناقُضَ فيه ولا اختِلافَ، وذلك دليلٌ على صِحَّتِه وأنَّه مِن عندِ اللهِ ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[٣] [النساء: ٨٢]. وإنَّهم لَمَّا كذَّبوا بالحَقِّ اختَلَفتْ مَذاهِبُهم وآراؤُهم، وطرائِقُهم وأقوالُهم؛ فإنَّ الحَقَّ شَيءٌ واحِدٌ، وطَريقٌ مُستقيمٌ؛ فمَن خالفَه اختلَفَت به الطُّرُقُ والمذاهِبُ، كما قال تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، أي: مُختلِطٍ مُلتَبِسٍ[٤]. وكلُّ مَن خالَفَ الرَّسولَ فلا بُدَّ أنَّه يَتناقَضُ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ ۞ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾، وقال: ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾[٥] [النساء: ٨٢].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((بغية المرتاد)) لابن تيمية (ص: ٣٩٥).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ ۞ يَسۡـَٔلُونَ﴾ أي: حِينًا بعدَ حينٍ على سَبيلِ الاستِمرارِ استِهزاءً، بقَولِهم: ﴿أَيَّانَ﴾ أي: متى وأيَّ حينٍ ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: وُقوعُ الجزاءِ الَّذي يُخبِرُنا به؟ ولولا أنَّهم بهذه الحالةِ لَتذَكَّروا مِن أنفُسِهم أنَّه ليس أحَدٌ منهم يَبُثُّ عَبيدَه أو أُجَراءَه في عَمَلٍ مِنَ الأعمالِ إلَّا وهو يُحاسِبُهم على أعمالِهم، ويَنظُرُ قَطعًا في أحوالِهم، ويَحكُمُ بيْنَهم في أقوالِهم وأفعالِهم، فكيف يُظَنُّ بأحكَمِ الحاكِمينَ أن يَترُكَ عَبيدَه الَّذين خلَقَهم على هذا النِّظامِ المُحكَمِ، وأبدَعَ لهم هذَينِ الخافِقَينِ، وهيَّأ مِن أجْلِهم فيهما ما لا ضَرورةَ لهم في التَّزَوُّدِ للمَعادِ إلى سِواه؛ فيَترُكَهم سُدًى، ويُوجِدَهم عَبَثًا[1]؟!

٥- قَولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ يَحتَمِلُ أن يكونَ جَوابًا عن قَولِهم: «أيَّانَ يقَعُ؟»، وحينَئذٍ كما أنَّهم لم يَسألوا سُؤالَ مُستَفهِمٍ طالِبٍ لحُصولِ العِلمِ، كذلك لم يُجِبْهم جوابَ مُجيبٍ مُعْلِمٍ مُبَيِّنٍ؛ حيثُ قال: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾! وجَهْلُهم بالثَّاني أقوى مِن جَهلِهم بالأوَّلِ، ولا يجوزُ أن يكونَ الجَوابُ بالأخفى، فلو قال قائلٌ: متى يَقْدَمُ زَيْدٌ؟ فلو أُجيبَ بقولِه: «يومَ يَقدَمُ رفيقُه»، ولا يَعلَمُ يومَ قُدومِ الرَّفيقِ؛ لم يَصِحَّ هذا الجوابُ إلَّا إذا كان الكلامُ في صورةِ جوابٍ ولا يكونُ جوابًا، كقولِ القائلِ لِمَن يَعِدُ عِدَاتٍ ويُخلِفُها: «إلى متى هذا الإخلافُ؟»، فيَغضَبُ ويقولُ: «إلى أَشْأَمِ يومٍ عليك»؛ فالكلامانِ في صورةِ سؤالٍ وجوابٍ، ولا يُريدُ الأوَّلُ بكلامِه السُّؤالَ، ولا الثَّاني يريدُ به الجَوابَ؛ فكذلك هاهنا قال: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾؛ مُقابَلةً لاستِهزائِهم بالإيعادِ لا على وَجهِ الإتيانِ. ويحتَمِلُ أن يكونَ ذلك ابتداءَ كَلامٍ، تَمامُه في قَولِه تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٦٥، ٦٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أنَّ مِن إطلاقاتِ الفِتنةِ: الإحراقَ بالنَّارِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ قَسَمٌ لتَحقيقِ اضْطِرابِ أقوالِهم في الطَّعنِ في الدِّينِ، وهو كالتَّذْييلِ للَّذي قبْلَه؛ لأنَّ ما قبْلَه خاصٌّ بإثباتِ الجَزاءِ، وهذا يعُمُّ إبطالَ أقوالِهم الضَّالَّةِ؛ فالقَسَمُ لتأكيدِ المُقسَمِ عليه؛ لأنَّهم غيرُ شاعِرينَ بحالِهم المُقسَمِ على وُقوعِه، ومُتهالِكونَ على الاستِزادةِ منه، فهم مُنكِرون لِما في أقوالِهم مِن اختِلافٍ واضطرابٍ، جاهِلون به جَهلًا مُركَّبًا، والجَهلُ المركَّبُ إنكارٌ للعِلمِ الصَّحيحِ[٢].

- وإجراءُ هذا الوصْفِ ﴿ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ على السَّماءِ: إدماجٌ[٣]؛ أُدمِجَ به الاستِدلالُ على قُدْرةِ اللهِ تعالى معَ الامتِنانِ بحُسْنِ المَرْأى[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٠).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمَعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضَمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحَمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحَمدِ في الآخِرةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمدِ. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢٢٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤١).

- قولُه: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ كِنايةٌ عن لازمِ الاختِلافِ، وهو التَّردُّدُ في الاعتقادِ، ويَلزَمُه بُطلانُ قَولِهم، وذلك مَصَبُّ التَّأكيدِ بالقسَمِ وحرْفِ (إنَّ) واللَّامِ[١].

- وَلفظُ ﴿قَوْلٍ﴾ يَقتضي شيئًا مَقولًا في شأنِه؛ فإذ لم يُذكَرْ بعْدَ ﴿قَوْلٍ﴾ ما يدُلُّ على مَقولٍ صلَحَ لِجَميعِ أقوالِهم الَّتي اختَلَقوها في شأْنِ القرآنِ، ودَعوةِ الإسلامِ[٢].

- وجُملةُ ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ في مَحلِّ صِفةٍ ثانيةٍ لـ ﴿قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾، ويجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذَّاريات: ٦]؛ فتكونَ جُملةُ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ * إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ مُعتَرِضةً بيْنَ الجُملةِ البَيانيَّةِ والجُملةِ المُبيَّنِ عنها[٣].

- والمُرادُ بقَولِه: ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ المشرِكونَ المَصروفونَ عن الإيمانِ، والمُرادُ بالَّذي فعَلَ الإفكَ المجهولَ المشرِكون الصَّارِفون لقَومِهم عن الإيمانِ، وهما الفريقانِ اللَّذانِ تَضمَّنهما قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]. وإنَّما حُذِفَ فاعلُ ﴿يُؤْفَكُ﴾، وأُبهِمَ مفعولُه بالمَوصوليَّةِ؛ للاستِيعابِ، معَ الإيجازِ[٤]، وذلك على قول في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ كِنايةٌ عن مَوصوفٍ، وهو المكذِّبُ الجاحدُ للحقِّ. وفائدةُ الكِنايةِ هنا أنَّه لَمَّا خصَّصَ هذا بأنَّه هو الَّذي صُرِفَ، أفهَمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أنَّ غَيرَه لم يُصْرَفْ، فكأنَّه قال: لا يَثْبُتُ الصَّرفُ في الحَقيقةِ إلَّا لهذا، وكلُّ صَرفٍ دَونَه يُعدُّ كالمَعدومِ بالنِّسبةِ إليه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ * يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾

- قولُه: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ قيل: هو دُعاءٌ بالهلاكِ على أصحابِ ذلك القولِ المُختلِفِ؛ لأنَّ المقصودَ بقَتْلِهم أنَّ اللهَ يُهلِكُهم؛ ولذلك يَكثُرُ أنْ يُقالَ: قاتَلَه اللهُ، ثم أُجرِيَ مُجرى اللَّعنِ والتَّحقيرِ والتَّعجيبِ مِن سُوءِ أحوالِ المدعوِّ عليه بمِثلِ هذا[٢]. وجُملةُ الدُّعاءِ لا تُعطَفُ؛ لأنَّها شَديدةُ الاتِّصالِ بما قبْلَها؛ ممَّا أوجَبَ ذلك الوصفَ لدُخولِهم في هذا الدُّعاءِ، كما كان تَعقيبُ الجُمَلِ الَّتي قبْلَها بها إيماءً إلى أنَّ ما قبْلَها سَببٌ للدُّعاءِ عليهم، وهذا مِن بَديعِ الإيجازِ[٣].

- والخَرْصُ: الظَّنُّ الَّذي لا حُجَّةَ لصاحبِه على ظنِّه، وذلك كِنايةٌ عن الضَّلالِ عَمْدًا أو تَساهُلًا؛ فالخرَّاصونَ هم أصحابُ القولِ المُختلِفِ، فأفاد أنَّ قولَهم المختلِفَ ناشئٌ عن خَواطرَ لا دَليلَ عليها[٤].

- وهذه الجُملةُ ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ حالًا مِن ضَميرِ ﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾، ويَجوزُ أنْ تَكونَ استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن جُملةِ ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾؛ لأنَّ جُملةَ ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ أفادَت تَعجيبًا مِن سُوءِ عُقولِهم وأحوالِهم؛ فهو مَثارُ سُؤالٍ في نفْسِ السامعِ يَتطلَّبُ البيانَ، فأُجيبَ بأنَّهم يَسأَلون عن يومِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الدِّينِ سُؤالَ مُتهكِّمينَ، يَعنون أنَّه لا وُقوعَ ليومِ الدِّينِ[١].

- وجُملةُ ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾؛ لأنَّ في فِعلِ السُّؤالِ معنى القولِ، فتَقديرُ الكلامِ: يقولون: أيَّانَ يَومُ الدِّينِ؟ ويجوزُ جعْلُ جُملةِ ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ بدَلًا من جُملةِ ﴿يَسۡـَٔلُونَ﴾؛ لتفْصيلِ إجمالِه، وهو مِن نَوعِ البدَلِ المُطابقِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ هُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ يُفۡتَنُونَ﴾ جَوابٌ لسُؤالِهم جرَى على الأسلوبِ الحَكيمِ[٣] مِن تَلقِّي السَّائلِ بغَيرِ ما يَتطلَّبُ؛ إذ هم حينَ قالوا: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾، أرادوا التَّهكُّمَ والإحالةَ، فتُلُقِّيَ كَلامُهم بغَيرِ مُرادِهم؛ لأنَّ في الجوابِ ما يَشفي وَقْعَ تَهكُّمِهم، والمعنى: يومُ الدِّينِ يقَعُ يومَ تُصْلَونَ النَّارَ ويُقالُ لكم: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾[٤].

- قولُه: ﴿يُفۡتَنُونَ﴾ الفَتْنُ: التَّعذيبُ والتَّحريقُ، أي: يومَ هم يُعذَّبون في نارِ جهنَّمَ، وأصلُ الفَتْنِ الاختبارُ، وشاع إطلاقُه على مَعانٍ؛ منها إذابةُ الذَّهبِ على النَّارِ في البُوتَقةِ[٥] لاختبارِ ما فيه مِن مَعدِنٍ غَيرِ ذهَبٍ، ولا يُذابُ إلَّا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٤٥).

(٣) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥).

(٥) البُوتَقةُ: الوِعاءُ الَّذي يُذابُ فيه المَعدِنُ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٧٥)، ((معجم اللغة العربية المعاصرة)) (١/ ٢٦٠).

بحَرارةِ نارٍ شديدةٍ؛ فهو هنا كِنايةٌ عن الإحراقِ الشَّديدِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه الخِطابُ، أي: يقالُ لهم حينَئذٍ، أو مَقولًا لهم: ذُوقوا فِتنتَكم، أي: عذابَكم[٢].

- والأمرُ في قولِه: ﴿ذُوقُواْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّنكيلِ[٣].

- والذَّوقُ: مُعبَّرٌ به عن الإحساسِ القويِّ؛ لأنَّ اللِّسانَ أشَدُّ الأعضاءِ إحساسًا[٤].

- وإضافةُ فِتنةٍ إلى ضَميرِ المُخاطَبين مِن إضافةِ المصدرِ إلى مَفعولِه. وفي الإضافةِ دَلالةٌ على اختِصاصِها بهم؛ لأنَّهم استحَقُّوها بكُفْرِهم. ويجوزُ أن تكونَ الإضافةُ مِن إضافةِ المصدرِ إلى فاعِلِه. والمعنى: ذُوقوا جزاءَ فِتنتِكم. ويُجعَلَ الكلامُ مُوجَّهًا بتَذكيرِ المُخاطَبينَ في ذلك اليَومِ بما كانوا يَفتِنون به المؤمنينَ مِن التَّعذيبِ. وجُعِلَ المَذوقُ فِتنتَهم؛ إظهارًا لِكَونِه جَزاءً عن فِتنَتِهم المؤمنينَ؛ لِيَزدادوا نَدامةً[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٤٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لفظُ الذَّوقِ يُستعمَلُ في كُلِّ ما يُحِسُّ به [الإنسانُ]، ويجِدُ ألَمَه أو لَذَّتَه، فدعوَى المدَّعي اختِصاصَ لَفظِ الذَّوقِ بما يكونُ بالفَمِ تحَكُّمٌ منه، لكِنَّ ذاك مُقَيَّدٌ، فيُقالُ: ذُقتُ الطَّعامَ، وذُقتُ هذا الشَّرابَ؛ فيَكونُ معه مِن القيودِ ما يَدُلُّ على أنَّه ذوقٌ بالفَمِ، وإذا كان الذَّوقُ مُستعمَلًا فيما يُحِسُّه الإنسانُ بباطِنِه أو بظاهِرِه حتَّى الماءُ الحَميمُ يُقالُ: ذاقه؛ فالشَّرابُ إذا كان باردًا أو حارًّا يقالُ: ذُقتُ حَرَّه وبَرْدَه). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإشارةُ في قَولِه: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ إلى الشَّيءِ الحاضِرِ نُصبَ أعيُنِهم؛ لاستِحضارِ صُورةِ العذابِ[1].

- وجُملةُ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ استِئنافٌ في مَقامِ التَّوبيخِ وتَعديدِ المَجارِمِ، كما يُقالُ للمُجرِمِ: فعلْتَ كذا، وهي مِن مَقولِ القولِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٥-١٩)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَهْجَعُونَ﴾: أي: يَنامونَ، والهُجوعُ: النَّومُ باللَّيلِ دونَ النَّهارِ، وأصلُ (هجع): يدُلُّ على نَومٍ[1].

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾: جَمعُ سَحَرٍ، وهو آخِرُ اللَّيلِ، وأصلُ (سحر) هنا: يدُلُّ على وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٠٠).

قال السمينُ الحلبي: (واختلَف أهلُ اللُّغةِ في السَّحَرِ: أيُّ وقتٍ هو؟ فقال جماعةٌ منهم الزَّجَّاجُ: إنَّه الوقتُ قبْلَ طُلوعِ الفَجرِ... قال الرَّاغبُ: السَّحَرُ: اختِلاطُ ظلامِ آخِرِ اللَّيلِ بضياءِ النَّهارِ، وجُعِل اسمًا لذلك الوقتِ... وقال بعضُهم: السَّحَرُ مِن ثُلُثِ اللَّيلِ الأخيرِ إلى طُلوعِ الفَجرِ. وقال بعضُهم أيضًا: السَّحَرُ عندَ العرَبِ مِن آخِرِ اللَّيلِ، ثمَّ يَستَمِرُّ حُكمُه إلى الإسفارِ، كلُّه يُقالُ له: سَحَرٌ. قيل: وسُمِّيَ السَّحَرُ سَحَرًا؛ لِخَفائِه، ومنه قيل لِلسِّحْرِ: سِحْرٌ؛ لِلُطْفِه وخَفَائه). ((الدر المصون)) (٣/ ٧٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٣٨٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٠١).

ونقَل ابنُ عطيَّةَ قولَ مَن قال عن السَّحَرِ: هو قبْلَ طُلوعِ الفَجرِ، ثمَّ علَّق عليه فقال: (وهذا صحيحٌ؛ لأنَّ ما بعدَ الفَجرِ هو مِن اليَومِ لا مِن اللَّيلةِ). ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١).

﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾: أي: الفقيرِ المتعفِّفِ الَّذي لا يَسألُ، وأصلُ (حرم): يدُلُّ على مَنعٍ وتَشديدٍ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ فيه أوجُهٌ:

**أحَدُها**: أن تجعَلَ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا يَهۡجَعُونَ﴾ مَزيدةً للتَّأكيدِ، و﴿يَهۡجَعُونَ﴾ خَبَرَ كان. والتَّقديرُ: كانوا يَهجَعونَ مِن اللَّيلِ هُجوعًا أو زَمَنًا قليلًا؛ فـ﴿قَلِيلٗا﴾ نَعتٌ لِمَصدَرٍ مَحذوفٍ، أو لظَرفٍ محذوفٍ.

**الثَّاني**: أن تجعَلَ ﴿مَا﴾ مصدريَّةً، وهي مع مَدخولِها في محَلِّ رَفعٍ فاعِلٌ بـ﴿قَلِيلٗا﴾، ويُنصَبُ ﴿قَلِيلٗا﴾ على أنَّه خبَرُ «كان»، والتَّقديرُ: كانوا قَليلًا هُجوعُهم.

**الثَّالِثُ**: أن تجعَلَ ﴿مَا﴾ مصدريَّةً، وهي مع مَدخُولِها في محَلِّ رَفعٍ بدَلٌ مِن اسمِ كان «واوِ الجَماعةِ» بدَلَ اشتِمالٍ، أي: كان هُجوعُهم قليلًا. وقيلَ غَيرُ ذلك[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقبةِ المتَّقينَ، بعدَ بيانِه سوءَ مصيرِ المكذِّبينَ: إنَّ المتَّقينَ ربَّهم بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه: في بَساتينَ عَظيمةٍ وعُيونٍ جاريةٍ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٣)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٦٠)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩).

آخِذينَ في الجنَّاتِ ما أعطاهم اللهُ تعالى مِنَ النِّعَمِ والخَيراتِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى أعمالَهم الَّتي أوصَلَتْهم إلى ذلك النَّعيم، فيقولُ: إنَّهم كانوا في الدُّنيا مُحسِنينَ؛كانوا يَنامونَ قليلًا مِنَ اللَّيلِ، ويَقومونَ بيْنَ يدَيْ رَبِّهم يَطلُبونَ منه المَغفِرةَ لِذُنوبِهم، وفي أموالِهم حقٌّ ثابِتٌ للسَّائِلِ، وللمَحرومِ مِن المالِ الَّذي لا يَسألُهم منه شَيئًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ الله سبحانَه حالَ الكُفَّارِ؛ ذكَرَ حالَ المُؤمِنينَ[١].

وأيضًا فالله سُبحانَه ذكَرَ جزاءَ مَن خَلَص مِن تلك الفِتَنِ بالتَّقوى، وهو الجنَّاتُ والعُيونُ، فقال[٢]:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ تعالى وعَذابَه بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه: لَمُستقِرُّونَ في الدَّارِ الآخِرةِ في بَساتينَ عَظيمةٍ، وعُيونٍ جاريةٍ[٣].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخَان: ٥١، ٥٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٨، ٨٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٣، ١٢٤).

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ أمَّ الرُّبَيِّعِ بِنتَ البَراءِ -وهي أمُّ حارِثةَ ابنِ سُراقةَ- أتت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالت: يا نبيَّ اللهِ، ألَا تُحَدِّثُني عن حارِثةَ؟ -وكان قُتِلَ يومَ بَدرٍ، أصابه سَهمٌ غَرْبٌ[1]- فإنْ كان في الجنَّةِ صَبرْتُ، وإن كان غيرَ ذلك اجتهَدْتُ عليه في البُكاءِ، قال: يا أُمَّ حارِثةَ، إنَّها جِنانٌ في الجنَّةِ، وإنَّ ابنَك أصابَ الفِردَوسَ الأعلى!))[2].

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ١٦﴾.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾.

أي: آخِذينَ في الجنَّاتِ ما أعطاهم اللهُ تعالى مِنَ النِّعَمِ والخَيراتِ[3].

---

(١) سهمٌ غَرْبٌ: أي: لا يُدرى مَن رماه. يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٩).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٤).

قال السمعاني: (ومعنى الأخْذِ هو دُخولُهم الجنَّةَ، ووُصولُهم إلى ما وُعِدوا مِن الثَّوابِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٣).

وقال ابن عطيَّة: (﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ أي: محصِّلينَ لِنِعَمِ الله الَّتي أعطاهم مِن جَنَّتِه ورِضوانِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٤).

وقال الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والألوسي، وابنُ عاشور: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾: قابِلينَ لِكُلِّ ما أعطاهم، راضينَ به. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧).

قال الزمخشري: (يعني أنَّه ليس فيما آتاهم إلَّا ما هو مُتلَقًّى بالقَبولِ، مَرضيٌّ غيرُ مَسخوطٍ؛ لأنَّ جميعَه حسَنٌ طَيِّبٌ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، أي: يَقْبَلُها ويَرضاها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٨).

وذهَب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ المعنى: عامِلينَ في الدُّنيا بما أمَرَهم به اللهُ مِنَ الفرائِضِ. وتابَعه مكِّيٌّ، =

كما قال تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [الطور: ١٨].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيَقولونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنا وسَعْدَيك[1]، والخَيرُ في يدَيك، فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيَقولونَ: وما لَنا لا نَرضَى يا رَبِّ، وقد أعطَيْتَنا ما لم تُعْطِ أحَدًا مِن خَلْقِك؟! فيَقولُ: ألَا أُعطيكم أفضَلَ مِن ذلك؟! فيقولونَ: يا رَبِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ مِن ذلك؟! فيَقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بَعْدَه أبَدًا))[2].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾.

---

= ورُوِيَ ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ بإسنادٍ ضَعَّفه ابنُ كثيرٍ، وقال: (والَّذي فسَّر به ابنُ جريرٍ فيه نظَرٌ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿ءَاخِذِينَ﴾ حالٌ مِن قَولِه: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٠، ٥٠١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٠٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٦).

قال السعدي: (﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ يحتملُ أنَّ المعنى: أنَّ أهلَ الجنَّةِ قد أعطاهم مَولاهم جميعَ مُناهُم، مِن جميعِ أصنافِ النَّعيمِ، فأخَذوا ذلك راضينَ به، قد قرَّتْ به أعيُنُهم، وفرِحَتْ به نُفوسُهم، ولم يَطلُبوا منه بدَلًا، ولا يَبْغونَ عنه حِوَلًا، وكلٌّ قد ناله مِن النَّعيمِ، ما لا يَطلُبُ عليه المَزيدَ.

ويحتملُ أنَّ هذا وصْفُ المتَّقينَ في الدُّنيا، وأنَّهم آخِذون ما آتاهم اللهُ مِن الأوامِرِ والنَّواهي، أي: قد تلَقَّوْها بالرُّحبِ، وانشِراحِ الصَّدرِ، مُنقادينَ لِما أمَر اللهُ به، بالامتِثالِ على أكمَلِ الوُجوهِ، ولِما نهى عنه، بالانزِجارِ عنه لله، على أكمَلِ وجْهٍ؛ فإنَّ الَّذي أعطاهم الله مِن الأوامِرِ والنَّواهي هو أفضَلُ العَطايا، الَّتي حقُّها أن تُتلَقَّى بالشُّكرِ [لله] عليها، والانقيادِ.

والمعنى الأوَّلُ ألْصَقُ بسياقِ الكلامِ؛ لأنَّه ذكَر وصْفَهم في الدُّنيا، وأعمالَهم بقولِه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ الوقتِ الَّذي وصَلوا به إلى النَّعيمِ ﴿مُحۡسِنِينَ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

(١) لَبَّيك: أي: أدومُ على طاعتِك دَوامًا بعدَ دوامٍ، وأُقيمُ على طاعتِك إقامةً بعدَ إقامةٍ، من: أَلَبَّ بالمكانِ: إذا أقام به. وسَعْدَيْك: أي: ساعَدْتُ طاعتَك يا ربِّ مُساعدةً بعدَ مساعدةٍ، وهي الموافَقةُ والمسارعةُ، أو أسعَدُ بإقامتي على طاعتِك وإجابتي لدعوتِك سعادةً بعدَ سعادةٍ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٦٧٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر جَزاءَهم؛ ذَكَر السَّبَبَ الَّذي أوصَلَهم إلى ذلك[١]، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾.

أي: إنَّ المُتَّقينَ كانوا في الدُّنيا مُحسِنينَ في عبادةِ اللهِ، مُحسِنينَ إلى عبادِ اللهِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وفي حديثِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه في قِصَّةِ سُؤالِ جِبريلَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: أخبِرْني عن الإحسانِ، قال: ((أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تكُنْ تَراه فإنَّه يَراك))[٣].

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَر إحسانَهم؛ فسَّره مُعَبِّرًا عنه بما هو في غايةِ المُبالَغةِ، فقال تعالى[٤]:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٤).

ذكَر ابنُ القيِّم أنَّ إحسانَهم يتضمَّنُ عبادتَه وحْدَه لا شريكَ له، والقيامَ بحقوقِه، وحُقوقِ عبادِه. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ يقولُ: إنَّهم كانوا قبْلَ أن يَفرِضَ عليهم الفرائضَ ﴿مُحْسِنِينَ﴾، يقولُ: كانوا لله قبْلَ ذلك مُطيعينَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠١).

(٣) أخرجه مسلم (٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩٦).

أي: كانوا يَنامونَ قليلًا مِنَ اللَّيلِ، فهم يُكابِدونَ السَّهَرَ في اللَّيلِ؛ لعِبادةِ رَبِّهم[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدٗا وَقِيَٰمٗا ﴾ [الفرقان: ٦٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾ [السجدة: ١٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ [المزمل: ٢ - ٤].

وقال جَلَّ جَلالُه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٤، ٥٠٨، ٥٠٩)، ((فضل قيام الليل)) للآجُرِّي (ص: ٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٥).

قال ابن تيميَّةَ: (هذا على أصَحِّ الأقوالِ معناه: كانوا يَهجَعونَ قليلًا، فـ ﴿قَلِيلٗا﴾ مَنصوبٌ بـ ﴿يَهۡجَعُونَ﴾ و ﴿مَا﴾ مُؤَكِّدةٌ. وهذا مِثلُ قَولِه: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. وقَولُه: ﴿ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ هو مُفَسَّرٌ في سُورةِ المُزَّمِّلِ بقَولِه: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا * أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾ [المزمل: ٢ - ٤]؛ فهذا المُستثنى مِنَ الأمرِ هو القليلُ المذكورُ في تلك السُّورةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٨٥). ويُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١ - ٢٩٣).

وقال الشوكاني: (المعنى: كانوا قليلًا ما يَنامونَ مِنَ اللَّيلِ، و﴿مَا﴾ زائِدةٌ، ويجوزُ أن تكونَ مَصدريَّةً أو مَوصولةً، أي: كانوا قليلًا مِنَ اللَّيلِ هُجوعُهم، أو ما يَهجَعونَ فيه... وقيل: ﴿مَا﴾ نافيةٌ، أي: ما كانوا يَنامون قليلًا مِنَ اللَّيلِ، فكيف بالكثيرِ منه؟! وهذا ضعيفٌ جِدًّا. وهذا قَولُ مَن قال: إنَّ المعنى: كان عَدَدُهم قليلًا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٠، ١٠١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ رَضِيَ الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أيُّها النَّاسُ، أفْشُوا السَّلامَ، وأطعِموا الطَّعامَ، وصَلُّوا والنَّاسُ نِيامٌ؛ تَدخُلوا الجنَّةَ بسَلامٍ))(١).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ في الجنَّةِ غُرفةً يُرى ظاهِرُها مِن باطِنِها، وباطِنُها مِن ظاهِرِها، فقال أبو موسى الأَشْعَريُّ: لِمَن هي يا رَسولَ اللهِ؟ قال: لِمَن ألانَ الكلامَ، وأطعَمَ الطَّعامَ، وبات للهِ قائِمًا والنَّاسُ نِيامٌ))(٢).

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ١٨﴾.

أي: وهم في آخِرِ اللَّيلِ يَطلُبونَ مِنَ اللهِ المَغفِرةَ لِذُنوبِهم، أو لِتَقصيرِهم في عبادةِ رَبِّهم(٣).

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٢٤٨٥)، وابنُ ماجَه (١١٠٥) وأحمدُ (٢٣٧٨٤)، والدَّارِميُّ (١٥٠١).
صحَّحه الترمذيُّ، والذهبيُّ في ((تاريخ الإسلام)) (٢/ ٣٤)، وجَوَّد إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (٣٠٧)، وحَسَّنه ابنُ الملَقِّنِ في ((البدر المنير)) (٩/ ٤٢)، وحَسَّن الحديثَ ابنُ حَجَر كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٢٧٧)، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٨٥).

(٢) أخرجه أحمد (٦٦١٥) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ (١٤/ ٨٠) (١٤٦٨٧)، والحاكمُ (٢٧٠).
صَحَّحه على شَرطِ الشَّيخَينِ الحاكِمُ، وحَسَّن إسنادَه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (١/ ٢٨٩)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٥٧)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٨/ ٢٣٢). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ١١١)، وقال الألباني في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٦١٧): (حَسَنٌ صحيحٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٥).
قال الماوَرْدي: (﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فيه وجْهانِ: =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَنزِلُ رَبُّنا تبارك وتعالى كُلَّ لَيلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا حينَ يَبقى ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ، يَقولُ: مَن يَدْعوني فأستَجيبَ له؟ مَن يَسألُني فأُعطِيَه؟ مَن يَستَغفِرُني فأَغفِرَ له؟))[١].

﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ مُعامَلتَهم للخالِقِ؛ أتْبَعَه المُعامَلةَ للخلائِقِ؛ تَكميلًا لحقيقةِ الإحسانِ[٢]، فلمَّا وَصَفهم بالصَّلاةِ؛ ثنَّى بوَصْفِهم بالزَّكاةِ والبِرِّ والصِّلَةِ[٣]، فقال:

﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ١٩﴾.

أي: وفي أموالِ أولئك المتَّقينَ المُحسِنينَ نَصيبٌ ثابِتٌ للمُحتاجِ الَّذي يَسألُهم، وللمَحرومِ مِن المالِ الَّذي لا يَسألُهم منه شَيئًا[٤].

---

= أحَدُهما: وبالأسحارِ هم يُصَلُّونَ. قاله الضَّحَّاكُ.

الثَّاني: أنَّهم كانوا يُؤخِّرونَ الاستِغفارَ مِن ذُنوبِهم إلى السَّحَرِ لِيَستَغفِروا فيه. قاله الحسَنُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٦).

وقال الواحدي: (قال عَطاءٌ، والكَلْبيُّ، ومُقاتِلٌ، ومجاهِدٌ: يُصَلُّونَ، ففَسَّروا الاستِغفارَ بالصَّلاةِ، على أنَّ صَلاتَهم بالأسحارِ طَلَبٌ منهم مَغفِرةَ اللهِ تعالى. وذهب آخَرونَ إلى ظاهرِ الاستِغفارِ باللِّسانِ، وهو قولُ ابنِ مَسعودٍ، والحسَنِ). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٣٩). ويُنظر: ((تفسير مجاهد)) (ص: ٦١٩)، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ١١٣) و(٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٠٩، ٥١٠).

(١) أخرجه البخاريُّ (١١٤٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١١، ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٨، ٣٩)، ((التبيان =

= في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥١).

قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك عندي: أنَّه الَّذي قد حُرِمَ الرِّزقَ فاحتاج؛ وقد يكونُ ذلك بذَهابِ مالِه وثَمَرِه، فصار مِمَّن حرَمَه اللهُ ذلك، وقد يكونُ بسَبَبِ تعَفُّفِه وتَرْكِه المسألةَ، ويكونُ بأنَّه لا سَهمَ له في الغَنيمةِ؛ لِغَيبتِه عن الوَقعةِ؛ فلا قَولَ في ذلك أَولى بالصَّوابِ مِن أنْ يُعَمَّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١٨).

وقال ابنُ عاشور: (المحرومُ: الفَقيرُ الَّذي لا يُعطَى الصَّدَقةَ؛ لظَنِّ النَّاسِ أنَّه غيرُ مُحتاجٍ؛ مِن تعَفُّفِه عن إظهارِ الفَقرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥١).

وقال الجصَّاصُ: (فَرَّق اللهُ تعالى في الآيةِ بيْنَ السَّائِلِ والمحروم؛ لأنَّ الفَقيرَ قد يَحرِمُ نَفْسَه بتَركِه المسألةَ، وقد يَحرِمُه النَّاسُ بتَركِ إعطائِه، فإذا لم يَسألْ فقد حَرَم نفْسَه بتَركِ المسألةِ؛ فسُمِّيَ مَحرومًا مِن هذا الوَجهِ؛ لأنَّه يَصيرُ مَحرومًا مِن وَجهَينِ: مِن قِبَلِ نفْسِه، ومِن قِبَلِ النَّاسِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٤٨).

وقال ابن عطيَّة: (اختلف النَّاسُ في المحرومِ اختلافًا هو عندي تخليطٌ مِن المتأخِّرينَ؛ إذ المعنى واحدٌ، وإنَّما عبَّر علماءُ السَّلفِ في ذلك بعباراتٍ على جهةِ المثالاتِ، فجعَلها المتأخِّرونَ أقوالًا، وحصَرها مكِّيٌّ ثمانيةً. والمحرومُ هو الَّذي تَبعُدُ عنه مُمكِناتُ الرِّزقِ بعدَ قُربِها منه، فيَنالُه حِرمانٌ وفاقةٌ، وهو معَ ذلك لا يَسألُ؛ فهذا هو الَّذي له حَقٌّ في أموالِ الأغنياءِ كما للسَّائلِ حَقٌّ... والمعنى الجامِعُ لهذه الأقوالِ: أنَّه الَّذي لا مالَ له؛ لِحِرمانٍ أصابه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٥).

وقال ابنُ الفَرَسِ بعدَ أن ذكَرَ الأقوالَ في معنى المحروم: (وهذه الأقوالُ كُلُّها ترجِعُ إلى معنًى واحدٍ من العُدْمِ والاحتياجِ، وبعضُ النَّاسِ يَسوقونَها على أنَّها اختِلافٌ، وليس بصَحيحٍ، وإنَّما ساق العُلَماءُ كُلَّ قولٍ مِن ذلك على جهةِ المثالِ للمعنى العامِّ المرادِ بالآيةِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٠٦).

وقال الشوكاني: (والَّذي يَنبغي التَّعويلُ عليه ما يدُلُّ عليه المعنى اللُّغَويُّ، والمحرومُ في اللُّغةِ: الممنوعُ، مِنَ الحِرمانِ، وهو المنعُ، فيَدخُلُ تحتَه مَن حُرِمَ الرِّزقَ مِنَ الأصلِ، ومَن أُصيبَ مالُه بجائحةٍ أذهَبَتْه، ومَن حُرِمَ العطاءَ، ومَن حُرِمَ الصَّدَقةَ لِتَعفُّفِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠١).

وقال القرطبي: (روى ابنُ وَهبٍ عن مالِكٍ: أنَّه الَّذي يُحرَمُ الرِّزقَ. وهذا قَولٌ حَسَنٌ؛ لأنَّه يَعُمُّ جميعَ الأقوالِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٩). =

= وقال القاسمي: (ويَدخُلُ في «المحروم» كُلُّ مَن لا مالَ له، ومَن هَلَك مالُه بآفةٍ، ومَن حُرِمَ الرِّزقَ واحتاجَ، إلَّا أنَّ أهَمَّ أفرادِه المُتعَفِّفُ؛ ولذا عوَّل عليه الأكثَرُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩).

وقال الجصَّاصُ: (في المالِ حَقٌّ سِوى الزَّكاةِ باتِّفاقِ المُسلِمينَ؛ منه ما يلزَمُ مِن النَّفَقةِ على والِدَيه إذا كانا فقيرَينِ، وعلى ذَوي أرحامِه، وما يلزَمُ مِن طعامِ المُضطَرِّ، وحَمْلِ المُنقَطِعِ به، وما جرى مَجرى ذلك مِنَ الحُقوقِ اللَّازِمةِ عندَ ما يَعرِضُ مِن هذه الأحوالِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٤٧). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (١/ ٨٨) و (٢/ ٤٨٩).

وقال ابن تيميَّةَ: (وأمَّا الزَّكاةُ فإنَّها تجبُ حقًّا لله في مالِه؛ ولهذا يُقالُ: ليس في المالِ حقٌّ سِوى الزَّكاةِ، أي: ليس فيه حقٌّ يجبُ بسببِ المالِ سِوى الزَّكاةِ، وإلَّا ففيه واجباتٌ بغيرِ سببِ المالِ؛ كما تجبُ النَّفَقاتُ للأقاربِ، والزَّوجةِ، والرَّقيقِ، والبهائمِ، ويجبُ حمْلُ العاقِلةِ، ويجبُ قضاءُ الدُّيونِ، ويجبُ الإعطاءُ في النَّائبةِ، ويجبُ إطعامُ الجائعِ، وكِسْوةُ العاري فرضًا على الكفايةِ، إلى غيرِ ذلك مِن الواجباتِ الماليَّةِ، لكنْ بسبَبٍ عارِضٍ، والمالُ شرطُ وُجوبِها، كالاستِطاعةِ في الحجِّ؛ فإنَّ البدَنَ سببُ الوُجوبِ، والاستِطاعةَ شرطٌ، والمالُ في الزَّكاةِ هو السَّببُ والوُجوبُ معه، حتَّى لو لم يكُنْ في بلَدِه مَن يَستحِقُّها حمَلَها إلى بلدٍ أخرى، وهي حقٌّ وجَب لله تعالى). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٣١٦).

وقيل: المرادُ بالحَقِّ هنا: الزَّكاةُ. وممَّن ذهب إلى ذلك: الْكِيَا الهَرَّاسي، وابنُ العربي. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٨٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٦٦).

وقيل: الحَقُّ هنا هو على وَجهِ النَّدبِ، لا على وَجهِ الفَرضِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الفَرَس، وابن جُزَي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٥)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠١).

وقيل: الحَقُّ هنا يَشمَلُ الإنفاقَ الواجِبَ والمُستَحَبَّ. وممَّن ذهب إلى هذا: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٦).

وقال ابن عاشور: (وحقُّ السَّائلِ والمَحرومِ: هو النَّصيبُ الَّذي يُعطُونه إيَّاهما؛ أُطلِقَ عليه لَفظُ الحقِّ؛ إمَّا لأنَّ اللهَ أوجَبَ على المسلمينَ الصَّدقةَ بما تَيسَّرَ قبْلَ أنْ يُفرَضَ عليهم الزَّكاةُ؛ فإنَّ الزَّكاةَ فُرِضَت بعدَ الهجرةِ، فصارتِ الصَّدقةُ حقًّا للسَّائلِ والمحرومِ، أو لأنَّهم ألْزَموا ذلك أنفُسَهم، حتَّى صار كالحقِّ للسَّائلِ والمَحرومِ، وبذلك يُتأوَّلُ قولُ مَن قال: إنَّ هذا الحقَّ هو =

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ وَصْفَ أهلِ الجنَّةِ في هذه السُّورةِ بالأعمالِ الَّتي قَدَّموها يتضَمَّنُ أمْرَ المُكَلَّفينَ بمِثلِ ما جُعِلَ خَبرًا عنهم أنَّهم فَعَلوه[1].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ أحسَنوا في عبادةِ ربِّهم، بأنْ عبَدوه كأنَّهم يَرَوْنَه، فإنْ لم يَكونوا يَرَوْنَه فإنَّه يَراهم، وأحسَنوا إلى عِبادِ اللهِ ببَذْلِ النَّفعِ، والإحسانِ مِن مالٍ أو عِلمٍ، أو جاهٍ أو نصيحةٍ، أو أمْرٍ بمَعروفٍ أو نَهيٍ عن مُنكَرٍ، أو غيرِ ذلك مِن وُجوهِ الإحسانِ وطُرُقِ الخَيراتِ. وأحسَنوا بالقولِ، والكلامِ اللَّيِّنِ، وأحسَنوا إلى المماليكِ، والبَهائمِ المَملوكةِ، وغيرِ المملوكةِ، ومِن أفضَلِ أنواعِ الإحسانِ في عبادةِ الخالِقِ: صَلاةُ اللَّيلِ الدَّالَّةُ على الإخلاصِ، وتَواطُؤِ القَلبِ واللِّسانِ، ولهذا قال: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّه تعالى مدَحَهم بقِلَّةِ الهُجوعِ، ولم يمدَحْهم بكثرةِ السَّهَرِ، فما قال: «كانوا كثيرًا مِنَ اللَّيلِ ما يَسهَرونَ»! فما الحِكمةُ فيه، مع أنَّ السَّهَرَ هو الكُلفةُ والاجتِهادُ لا الهُجوعَ؟!

**الجوابُ**: إشارةً إلى أنَّ نَومَهم عبادةٌ؛ حيثُ مدَحَهم اللهُ تعالى بكَونِهم

---

= الزَّكاةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

هاجِعينَ قَليلًا، وذلك الهُجوعُ أورَثَهم الاشتِغالَ بعِبادةٍ أُخرى، وهي الاستِغفارُ في وُجوهِ الأسحارِ، ومَنْعُهم مِن الإعجابِ بأنفُسِهم والاستِكبارِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ استِحبابُ قيامِ اللَّيلِ، وذَمُّ نَومِه كُلِّه[٢].

٥- قَولُه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ هذا كالمِثالِ لأعظَمِ إحسانِهم؛ فإنَّ ما ذُكِرَ مِن أعمالِهم دالٌّ على شِدَّةِ طاعتِهم لله؛ ابتِغاءَ مَرضاتِه، ببَذْلِ أشَدِّ ما يُبذَلُ على النَّفْسِ، وهو شَيئانِ؛ أوَّلُهما: راحةُ النَّفْسِ في وَقتِ اشتِدادِ حاجتِها إلى الرَّاحةِ، وهو اللَّيلُ كُلُّه، وخاصَّةً آخِرَه؛ إذ يكونُ فيه قائمُ اللَّيلِ قد تَعِبَ، واشتَدَّ طَلَبُه للرَّاحةِ. وثانيهما: المالُ الَّذي تَشِحُّ به النُّفوسُ غالِبًا، وقد تضَمَّنَت هذه الأعمالُ الأربعةُ أصْلَيْ إصلاحِ النَّفْسِ وإصلاحِ النَّاسِ، وذلك جِماعُ ما يَرمي إليه التَّكليفُ مِنَ الأعمالِ؛ فإنَّ صَلاحَ النَّفسِ تزكيةُ الباطِنِ والظَّاهِرِ، ففي قيامِ اللَّيلِ إشارةٌ إلى تزكيةِ النَّفسِ باستِجلابِ رِضا اللهِ تعالى، وفي الاستِغفارِ تَزكيةُ الظَّاهِرِ بالأقوالِ الطَّيِّبةِ الجالِبةِ لِمَرضاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وفي جَعْلِهم الحَقَّ في أموالِهم للسَّائِلينَ نَفعٌ ظاهِرٌ للمُحتاجِ المُظهِرِ لحاجتِه، وفي جَعْلِهم الحَقَّ للمَحرومِ نَفعُ المحتاجِ المتعَفِّفِ عن إظهارِ حاجتِه، الصَّابِرِ على شِدَّةِ الاحتياجِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا يَتهَجَّدونَ ويَجتَهِدونَ، يُريدونَ أن يكونَ عَمَلُهم أكثَرَ مِن ذلك وأخلَصَ منه، ويَستَغفِرونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٨، ٣٤٩).

مِنَ التَّقصيرِ، وهذه سِيرةُ الكريمِ؛ يأتي بأبلَغِ وُجوهِ الكَرَمِ ويَستَقِلُّه، ويَعتَذِرُ مِنَ التَّقصيرِ! واللَّئيمُ يأتي بالقَليلِ ويَستَكثِرُه، ويَمُنُّ به[١]!

٧- أحسَنُ ما خُتِمت به الأعمالُ: التَّوبةُ والاستِغفارُ[٢]، قال تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾، فهذا مِن حُسْنِ عَمَلِهم، وعَدَمِ إعجابِهم بأنفُسِهم، وكَونِهم يَشعُرونَ بأنَّهم وإنِ اجتَهَدوا فهم مُقَصِّرُون، فيَستَغفِرونَ اللهَ بعدَ فِعلِ الطَّاعةِ؛ جَبرًا لِمَا حَصَلَ فيها مِن خَلَلٍ، ويُشرَعُ في نهايةِ العباداتِ أن يَستغفِرَ الإنسانُ ربَّه مِمَّا قد يكونُ فيها مِن خَلَلٍ؛ فبَعْدَ الصَّلاةِ يَستغفِرُ الإنسانُ ربَّه ثلاثًا، وبعدَ الحجِّ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٩]، فهم يَسألونَ المغفرةَ بعدَ تهجُّدِهم وقيامِهم[٣]، فهذا ونحوُه مما يُبيِّنُ حقيقةَ الأمرِ، وأنَّ كلَّ أحدٍ محتاجٌ إلى مغفرةِ الله ورحمتِه، وأنَّه لا سبيلَ إلى النَّجاةِ بدونِ مغفرتِه ورحمتِه أصلًا[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ فيها الدَّلالةُ المعروفةُ عِندَ أهلِ الأُصولِ بدَلالةِ الإيماءِ والتَّنبيهِ[٥] على أنَّ سَبَبَ نَيلِ هذه الجَنَّاتِ والعُيونِ هو تَقْوى اللهِ، والسَّبَبُ الشَّرعيُّ هو العِلَّةُ الشَّرعيَّةُ على الأصَحِّ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٢٨٧).

(٥) دلالةُ الإيماءِ والتَّنبيهِ ضابطُها: أن يُذكرَ وصْفٌ مُقترِنٌ بحُكمٍ في نصٍّ مِن نصوصِ الشَّرعِ على وجهٍ لو لم يكُنْ ذلك الوصفُ علَّةً لذلك الحُكمِ لَكان الكلامُ معيبًا. يُنظر: ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٣٩).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ سُؤالٌ: أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَعُيُونٍ﴾ يَقتَضي أن يكونَ المتَّقي فيها، ولا لذَّةَ في كَونِ الإنسانِ في ماءٍ أو غيرِ ذلك مِنَ المائعاتِ.

**الجوابُ**: أنَّ معناه: في خِلالِ العُيونِ، وذلك بيْنَ الأنهارِ؛ بدَليلِ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ ليس معناه إلَّا بينَ جَنَّاتٍ، وفي خِلالِها؛ لأنَّ الجنَّةَ هي الأشجارُ، وإنَّما يكونُ بَيْنَها، كذلك القَولُ في العُيونِ[1].

٣- أنَّ الصَّلاةَ باللَّيلِ مِن مُوجِباتِ الجنَّةِ، وقد دلَّ عليه قَولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، فوَصَفهم بالتَّيَقُّظِ باللَّيلِ، والاستِغفارِ بالأسحارِ، وبالإنفاقِ مِن أموالِهم[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ دليلٌ على أُمورٍ؛ منها: قَبولُهم له، ومنها: رِضاهم به، ومنها: وُصولُهم إليه بلا مانِعٍ ولا عائِقٍ، ومنها: أنَّ جَزاءَهم مِن جِنسِ أعمالِهم؛ فكما أَخذوا ما أَمَرَهم به في الدُّنيا وقابَلوه بالرِّضا والتَّسليمِ وانشِراحِ الصَّدْرِ، أَخذوا ما آتاهم مِن الجَزاءِ كذلك[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ فَضلُ اختِصاصِ اللَّيلِ، وكذا في قَولِه تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقَولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]، وقَولِه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩١).

ومِنَ السُّنَّةِ قَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا كان ثُلُثُ اللَّيلِ الآخِرُ يَنزِلُ رَبُّنا إلى سَماءِ الدُّنيا)) الحديثَ[١]. وهذا يدُلُّ على أنَّ اللَّيلَ أخَصُّ بالنَّفَحاتِ الإلهيَّةِ، وبتجَلِّياتِ الرَّبِّ سُبحانَه لعبادِه؛ وذلك لِخُلُوِّ القَلبِ، وانقِطاعِ الشَّواغِلِ. وسُكونُ اللَّيلِ ورَهبتُه أقوى على استِحضارِ القَلبِ وصَفائِه[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم لا يُخْلُونَ وَقتًا عن العِبادةِ؛ فإنَّهم باللَّيلِ لا يَهجَعونَ، ومع أوَّلِ جُزءٍ مِنَ السَّحَرِ يَستَغفِرونَ؛ فيَكونُ فيه بيانُ كَونِهم مُستَغفِرينَ مِن غَيرِ أن يَسبِقَ منهم ذَنبٌ[٣]!

٧- الزَّكاةُ واجِبةٌ في عُروضِ التِّجارةِ عندَ أكثرِ أهلِ العِلمِ، وهو القَولُ الصَّحيحُ المُتعيِّنُ، والدَّليلُ على ذلك: دُخولُها في عُمومِ قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ تأمَّلْ حِكمةَ الرَّبِّ تعالى في كَونِه حَرَمه بقَضائِه، وشَرَع لأصحابِ الجِدَةِ إعطاءَه، وهو أغنى الأغنياءِ، وأجودُ الأجوَدِينَ! فلم يَجْمَعْ عليه بيْنَ الحِرمانِ بالقَدَرِ وبالشَّرْعِ،

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٦/ ١٣٨).

تجِبُ الزَّكاةُ في عُروضِ التِّجارةِ باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّة الأربَعةِ: الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشافعيَّة، والحَنابِلَة. يُنظر: ((تبيين الحقائق للزيلعي مع حاشية الشلبي)) (١/ ٢٧٩)، ((الشرح الكبير للدردير مع حاشية الدسوقي)) (١/ ٤٧٢)، ((المجموع)) للنووي (٦/ ٤٧)، ((كشاف القناع)) للبهوتي (٢/ ٢٤٠).

وقد حُكِيَ في ذلك الإجماعُ. يُنظر: ((الأموال)) لأبي عبيد (ص: ٥٢٥)، ((الإشراف)) لابن المنذر (٣/ ٨١).

فشَرَعَ عَطاءَه بأمرِه، وحَرَمه بقَدَرِه، فلم يَجْمَعْ عليه حِرمانَينِ[١]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ...﴾ اعتِراضٌ قابَلَ به حالَ الكافرين في يومِ الدِّينِ، جَرَى على عادةِ القرآنِ في إتْباعِ النِّذارةِ بالبِشارةِ، والتَّرهيبِ بالتَّرغيبِ[٢].

- قَولِه: ﴿جَنَّٰتٍ﴾ جُمِعَتْ باعتبارِ أنواعِها وأصنافِها، وقد جاءتْ في القُرآنِ مُفرَدةً، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢]، فهي مُفردةٌ باعتبارِ الجِنسِ، ومَجموعةٌ باعتِبارِ النَّوعِ[٣]. وقيل: جُمِعَ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ باعتِبارِ جَمْعِ المُتَّقينَ، وهي جَنَّاتٌ كثيرةٌ مُختلِفةٌ، وتنْكيرُها للتَّعظيمِ[٤]. وقيل: لأنَّها بالنِّسبةِ إلى الدُّنيا وبالإضافةِ إلى جِنانِها جَنَّاتٌ لا يَحصُرُها عَددٌ، ووحَّدها لأنَّها لاتِّصالِ المنازلِ والأشجارِ والأنهارِ كجنَّةٍ واحدةٍ، وقد ثنَّاها في قولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]؛ فقيل: يَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ جِنسَينِ مِن الجنَّاتِ، وقد ذُكِرَت الجنَّاتُ في القُرآنِ بصِيغةِ الجمْعِ غيرَ مرَّةٍ، فالمرادُ جِنسانِ مِن الجنَّاتِ. ويجوزُ أنْ تكونَ التَّثنيةُ مُستعمَلةً كِنايةً عن التَّعدُّدِ، وإيثارُ صِيغةِ التَّثنيةِ هنا لِمُراعاةِ الفواصلِ السَّابِقةِ واللَّاحقةِ؛ فقد بُنِيَت قرائنُ السُّورة عليها، والقرينةُ ظاهرةٌ،

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧).

وعلى هذا فجَميعُ ما أُجرِيَ بصِيغةِ التَّثنيةِ في شأْنِ الجنَّتينِ فمُرادٌ به الجمْعُ. وقيل: المرادُ بالجنَّتينِ جنَّةٌ واحدةٌ، وإنَّما ثنَّى مُراعاةً للفواصلِ[١]. وقيل غيرُ ذلك[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ ختَمَ الآيةَ هنا بقولِه: ﴿وَعُيُونٍ﴾، وقال: ﴿ءَاخِذِينَ﴾، وقالَ في سُورةِ (الطُّورِ): ﴿وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ﴾ [الطور: ١٧، ١٨]، وليس ذلك بتَكرارٍ؛ لأنَّ ما هنا مُتَّصِلٌ بما به يصِلُ الإنسانُ إلى الجنَّاتِ، وهو قولُه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذَّاريات: ١٦] الآياتِ، وما في (الطُّورِ) مُتَّصِلٌ بما يَنالُه الإنسانُ فيها، وهو قولُه: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ [الطور: ١٨، ١٩] الآياتِ[٣].

- قولُه: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾، أي: قابِلون ما أعْطاهم، أي: راضُون به؛ فالأخذُ مُستعمَلٌ في صَريحِه وكِنايتِه كِنايةً رَمْزيةً عن كَونِ ما يُؤتَونَه أكمَلَ في جِنسِه؛ لأنَّ مَدارِكَ الجماعاتِ تَختلِفُ في الاستِجادةِ، حتَّى تَبلُغَ نِهايةَ الجَودةِ، فيَستوي النَّاسُ في استِجادتِه، وهي كِنايةٌ تَلْويحيَّةٌ[٤]، أي: رمزيَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٥) و(٢٩/ ٣٧٠، ٣٧١)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٤).

(٤) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّعريضُ اصطِلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ؛ نحو قولِك للمؤْذِي: «المسلِمُ مَن سَلِمَ المسلمون مِن لِسانِه ويَدِه»؛ تعريضًا بنَفيِ صِفةِ الإسلامِ عن المؤذِي. والتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسِطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ =

عن المقصودِ[١].

- وفي إيثارِ التَّعبيرِ عن الجَلالةِ بوَصْفِ (رب) مُضافٍ إلى ضَميرِ المُتَّقينَ ﴿رَبُّهُمْ﴾: مَعنًى مِن اختِصاصِهم بالكرامةِ، والإيماءُ إلى أنَّ سَببَ ما آتاهم هو إيمانُهم برُبوبيَّتِه المُختصَّةِ بهم، وهي المُطابِقةُ لصِفاتِ اللهِ تعالى في نفْسِ الأمرِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، أي: كان ذلك جَزاءً لهم عن إحسانِهم[٣].

- وفائدةُ الظَّرفِ في قولِه: ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ أنْ يُؤتَى بالإشارةِ إلى ما ذُكِرَ مِن الجنَّاتِ والعيونِ، وما آتاهم ربُّهم ممَّا لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلْبِ بشَرٍ؛ فيَحصُلُ بسَببِ تلك الإشارةِ تَعظيمُ شأنِ المُشارِ إليه، ثمَّ يُفادُ بقَولِه: ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ -أي: قبْلَ التَّنعُّم به- أنَّهم كانوا مُحسِنينَ، أي: عامِلينَ الحَسَناتِ، كما فسَّرَه قولُه: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ...﴾ الآياتِ؛ فالمعنى: أنَّهم كانوا في الدُّنيا مُطيعينَ للهِ تعالى، واثِقينَ بوَعْدِه ولم يَرَوْه[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِي أَمْوَالِهِمْ

---

= الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي تدلُّ على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الأكَلةِ، وهي تدلُّ على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي تدلُّ على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَلَ الفِكرُ إلى جملةٍ وسائطَ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥-١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦- ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ بدَلَ بَعضٍ مِن كلٍّ؛ لأنَّ هذه الخِصالَ الثَّلاثَ هي بَعضٌ مِن الإحسانِ في العَملِ(١).

- قَولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ خَصَّه بذلك؛ لأنَّ النَّومَ القَليلَ بالنَّهارِ قد يُوجَدُ مِن كُلِّ أحَدٍ، وأمَّا اللَّيلُ فهو زَمانُ النَّومِ، ولا يَسهَرُه في الطَّاعةِ إلَّا مُتعَبِّدٌ مُقبِلٌ(٢).

- وحرْفُ (ما) في قَولِه: ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ صِلةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: كانوا يَهجَعون قليلًا مِن اللَّيلِ، أو كانُوا يَهجَعونَ في طائفةٍ قليلةٍ منَ اللَّيلِ، أو مَصدريَّةٌ، أو مَوصولةٌ، أي: في قليلٍ مِن اللَّيلِ هُجوعُهم، أو ما يَهجَعون فيه(٣).

- وقد اشتمَلَت جُملةُ ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ على خَصائصَ مِن البلاغةِ:

**أُولاها**: فِعلُ الكَونِ في قولِه: (كانوا) الدَّالُّ على أنَّ خَبرَها سُنَّةٌ مُتقرِّرةٌ.

**الثَّاني**: العُدولُ عن أنْ يُقالَ: كانوا يُقيمونَ اللَّيلَ، أو كانوا يُصَلُّون في جَوفِ اللَّيلِ، إلى قولِه: ﴿قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾؛ لأنَّ في ذِكرِ الهُجوعِ تَذكيرًا بالحالةِ الَّتي تَميلُ إليها النُّفوسُ فتَغلِبُها وتَصرِفُها عن ذِكرِ اللهِ تعالى، فكان في الآيةِ إطنابٌ اقتَضاهُ تَصويرُ تلك الحالةِ، والبليغُ قد يُورِدُ في كَلامِه ما لا تَتوقَّفُ عليه استِفادةُ المَعنى إذا كان يَرْمي بذلك إلى تَحصيلِ صُوَرِ الألفاظِ المَزيدةِ.

**الثَّالثُ**: التَّصريحُ بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾؛ للتَّذكيرِ بأنَّهم ترَكوا النَّومَ في الوقتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٨، ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٩).

الَّذي مِن شَأنِه استِدعاءُ النُّفوسِ للنَّومِ فيه؛ زِيادةً في تَصويرِ جَلالِ قِيامِهم اللَّيلَ، وإلَّا فإنَّ قولَه: (كانوا قليلًا ما يَهجَعون) يُفيدُ أنَّه مِن اللَّيلِ.

**الرَّابعُ**: تَقييدُ الهُجوعِ بالقليلِ؛ للإشارةِ إلى أنَّهم لا يَستكمِلون مُنتهى حَقيقةِ الهُجوعِ، بلْ يأخُذون منه قليلًا.

**الخامسُ**: المُبالَغةُ في تَقليلِ هُجوعِهم؛ لإفادةِ أنَّه أقَلُّ ما يَهْجَعُه الهاجِعُ[1].

- وفي بِناءِ الفعلِ على الضَّميرِ في قولِه: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ إشعارٌ بأنَّهم أحِقَّاءُ بذلك؛ لِوُفورِ عِلْمِهم باللهِ، وخَشْيتِهم منه، فكأنَّهم المُختصُّون به؛ لاستِدامتِهم له، وإطنابِهم فيه[2]. وقيل: صِيغَ استِغفارُهم بأُسلوبِ إظهارِ اسمِ المسنَدِ إليه ﴿هُمۡ﴾، دونَ ضَميرِه -حيثُ لم يقُلْ: (وَبِالْأَسْحَارِ يَستغفِرون)-؛ لقصْدِ إظهارِ الاعتناءِ بهم، ولِيقَعَ الإخبارُ عن المُسنَدِ إليه بالمُسنَدِ الفِعليِّ، فيُفيدَ تَقوِّيَ الخبَرِ؛ لأنَّه مِن النُّدرةِ بحيثُ يَقتضي التَّقويةَ؛ لأنَّ الاستِغفارَ في السَّحَرِ يَشُقُّ على مَن يقومُ اللَّيلَ؛ لأنَّ ذلك وقتُ إعيائِه[3].

- والأسحارُ: جمْعُ سَحَرٍ، وهو آخِرُ اللَّيلِ، وخُصَّ هذا الوقتُ؛ لكَونِه يَكثُرُ فيه أنْ يَغلِبَ النَّومُ على الإنسانِ فيه، فصَلاتُهم واستِغفارُهم فيه أعجَبُ مِن صَلاتِهم في أجزاءِ اللَّيلِ الأُخرى. وجُمِعَ الأسحارُ باعتبارِ تَكرُّرِ قِيامِهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٠، ٣٥١).

كلِّ سَحَرٍ[١].

- وتَقديمُ ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ﴾ على ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾؛ للاهتِمامِ به[٢].

- قولُه: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ في قولِه: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ أضافَ المالَ إليهم، وقال في مَواضِعَ: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [يس: ٤٧]، وقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]؛ فأضافَ الرِّزقَ إليه سُبحانَه؛ وسبَبُ هذا أنَّ في تلك المواضِعِ كان الذِّكرُ للحَثِّ، فذُكِرَ معه ما يَدفَعُ الحثَّ ويَرفَعُ المانعَ؛ فقال: هو رِزقُ اللهِ، واللهُ يَرزُقُكم، فلا تَخافوا الفقْرَ وأعْطُوا، وأمَّا هاهنا فمَدْحٌ على ما فَعَلوه؛ فلم يكُنْ إلى الحِرصِ حاجةٌ[٣].

- قيل: لَمَّا كان مَآلُ أمْرِ مَن لم يَسأَلِ النَّاسَ إلى ما يَؤولُ إليه أمْرُ المحرومِ أُطلِقَ عليه لَفظُ المحرومِ تَشبيهًا به، في أنَّه لا تَصِلُ إليه مُمكِناتُ الرِّزقِ بعدَ قُربِها منه؛ فكأنَّه نالَه حِرمانٌ. والمقصودُ مِن هذا الإطلاقِ تَرقيقُ النُّفوسِ عليه، وحثُّ النَّاسِ على البحثِ عنه ليَضَعوا صَدقاتِهم في مَوضعٍ يُحِبُّ اللهُ وضْعَها فيه[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، وقال في سُورةِ (المعارجِ): ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤، ٢٥]؛ فزِيدَت الصِّفةُ في سُورةِ (المعارجِ) ﴿مَّعْلُومٌ﴾، وسقَطَت مِن (الذَّارياتِ)؛ وذلك لأنَّ آيةَ (المعارجِ) قد تَقدَّمَها مُتَّصِلًا بها قولُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥١).

تعالى: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ٢٢]، والمرادُ بالصَّلاةِ هنا المكتوبةُ، وأيضًا يُقرَنُ بها في آيِ الكتابِ الزَّكاةُ المفروضةُ، وبها فُسِّرَ الحقُّ المعلومُ في آيةِ (المعارِجِ)؛ وهذا لأنَّها مُقدَّرةٌ مَعلومةٌ، وليس في المالِ حقٌّ مُقدَّرٌ مَعلومٌ وقْتًا ونِصابًا ووُجوبًا غيرَها، فلمَّا أُرِيدَ بالحقِّ هنا الزَّكاةُ، أُتبِعَ بوَصْفٍ يُحرِزُ المَقصودَ. ولَمَّا قُصِدَ في آيةِ (الذَّارياتِ) غيرُ هذا المَقصدِ؛ بدَليلِ ما تَقدَّمَها مِن وصَفِ هؤلاء بطُولِ صَلاتِهم وتَهجُّدِهم ومُداومتِهم الاستِغفارَ في الأسحارِ؛ فذُكِروا بزِيادةٍ مِن التَّطوُّعِ والنَّفلِ على ما فُرِضَ عليهم -على أحدِ الأقوالِ-؛ فناسَبَ هذا الإطلاقُ الواردُ في إنفاقِهم ليُفهِمَ الزِّيادةَ على ما فُرِضَ عليهم مِن الزَّكاةِ المُقدَّرةِ، ولم يكُنْ لِيُناسِبَ هنا الإشارةُ إلى قدْرِ المَنْفوقِ كما في سُورةِ (المعارِجِ)، ولم يكُنْ عكْسُ الواردِ لِيُناسِبَ، واللهُ أعلَمُ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٥٠).

## الآيات (٢٠-٢٢)

﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ٢٣﴾.

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ فيه أوجُهٌ:

**أحدُها**: أنَّ ﴿مِّثۡلَ﴾ نَعتٌ لـ (حَقٌّ) مبنيٌّ على الفَتحِ في محَلِّ رَفعٍ، وإنَّما بُنِيَ لإضافتِه إلى مَبنيٍّ وهو ﴿أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾، وعليه فـ ﴿مَآ﴾ زائِدةٌ للتَّأكيدِ.

**الثَّاني**: أنَّ ﴿مِّثۡلَ﴾ نَعتٌ مَنصوبٌ لِمَصدرٍ محذوفٍ، أي: لَحَقٌّ حَقًّا مِثلَ نُطقِكم.

**الثَّالِثُ**: أنَّه حالٌ مَنصوبٌ مِنَ الضَّميرِ المرفوعِ في ﴿لَحَقّٞ﴾ أو مِن نفْسِ (حَقٌّ) وإن كان نَكِرةً، على مَذهَبِ سِيبَويهِ. و﴿مَآ﴾ على هذه الوُجوهِ المتقَدِّمةِ زائِدةٌ أيضًا، والمصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ في محَلِّ جَرٍّ بإضافةِ ﴿مِّثۡلَ﴾ إليه، والتَّقديرُ: إنَّه لحَقٌّ مِثلَ نُطقِكم. وقيل في توجيهِ ﴿مِّثۡلَ﴾ غَيرُ ذلك[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى داعيًا عبادَه إلى التَّفكُّرِ والاعتبارِ: وفي الأرضِ دَلائِلُ وعَلاماتٌ على تَوحيدِ اللهِ وقُدرتِه على بَعثِ عِبادِه، للمُوقِنينَ به، وفي أنفُسِكم دَلائِلُ وعَلاماتٌ على توحيدِ اللهِ وقُدرتِه، أفلا تُبصِرونَ تلك الدَّلائِلَ الَّتي في نُفوسِكم؟!

وفي السَّماءِ رِزقُكم مِن الأمطارِ، وصنوفِ الأقدارِ المكتوبةِ، وفيها ما وُعِدْتُم به.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٤)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٦١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٧).

ثمَّ يقولُ تعالى مُقسِمًا: فوَرَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنَّه لحَقٌّ ثابتٌ لا شَكَّ فيه، كما أنَّكم تَنطِقونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

بعدَ أن ذكَر أوصافَ المتَّقينَ، بيَّن أنَّه قد لاحَتْ لهم الأدِلَّةُ الأرضيَّةُ والسَّماويَّةُ الَّتي بها أخْبَتوا إلى ربِّهم، وأنابوا إليه، فقال[1]:

﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

أي: وفي الأرضِ دَلائِلُ وعَلاماتٌ على تَوحيدِ اللهِ وحِكمتِه، ورَحمتِه وقُدرتِه على بَعثِ عِبادِه، وغَيرِها مِن صِفاتِ كَمالِه، وذلك للمُوقِنينَ باللهِ ولِقائِه وصِدقِ رُسُلِه[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٦/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٩، ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٩٥- ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٦، ١٢٧).

قال الشوكاني: (﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ أي: دلائِلُ واضِحةٌ وعلاماتٌ ظاهِرةٌ مِنَ الجِبالِ، والبَرِّ والبَحرِ، والأشجارِ والأنهارِ والثِّمارِ، وفيها آثارُ الهَلاكِ للأُمَمِ الكافِرةِ المكَذِّبةِ لِما جاءت به رُسُلُ اللهِ، ودَعَتْهم إليه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤١).

وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ [الرعد: ٣، ٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ * وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ * لِيَأۡكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتۡهُ أَيۡدِيهِمۡۖ أَفَلَا يَشۡكُرُونَ * سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يس: ٣٣ - ٣٦].

وقال تقدَّست أسماؤه: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت: ٣٩].

وقال جَلَّ شَأنُه: ﴿ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا * ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا * فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا * وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا * وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا * وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا * وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا * مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أشار إلى آياتِ الآفاقِ؛ أتْبَعَها آياتِ الأنفُسِ، فقال[1]:

﴿ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: وفي أنفُسِكم دَلائِلُ وعَلاماتٌ على توحيدِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه ورَحمتِه وحِكمتِه، وغَيرِ ذلك مِن صِفاتِ كَمالِه، أفلا تُبصِرونَ تلك الدَّلائِلَ الَّتي في نُفوسِكم[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥١٩، ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٠)، ((تفسير =

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾.

أي: وفي السَّماءِ رِزقُكم مِن الأمطارِ، وصُنوفِ الأقدارِ المكتوبةِ[1]، وفي السَّماءِ

= البيضاوي)) (٥/ ١٤٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠٣- ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٨، ١٢٩).

قيل: المعنى: وفي خَلْقِ أنفُسِكم حينَ كانت نُطْفةً ثمَّ عَلَقةً ثمَّ مُضْغةً ثمَّ عَظْمًا ثمَّ لَحْمًا إلى أن نُفِخَ فيها الرُّوحُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٤).

قال السَّمْعاني: (الأَولى أن يُقالَ: هو سائِرُ الآياتِ الَّتي في النَّفْسِ مِمَّا يدُلُّ على أنَّ لها خالِقًا وصانِعًا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٥).

وقال القاسمي: (﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أي: في حالِ ابتِدائِها وتنَقُّلِها مِن حالٍ إلى حالٍ، واختِلافِ ألسِنَتِها وألوانِها، وما جُبِلَت عليه مِنَ القُوى والإراداتِ، وما بيْنَها مِن التَّفاوُتِ في العُقولِ والأفهامِ، وما في تراكيبِ أعضائِها مِنَ الحِكَمِ في وَضعِ كُلِّ عُضوٍ منها في المحَلِّ المُفتَقِرِ إليه، إلى غيرِ ذلك ممَّا لا يُحصيه قَلَمُ كاتبٍ، ولا لِسانُ بَليغٍ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٩).

والخِطابُ قيل: إنَّه مُوَجَّهٌ إلى المُشرِكين. وممَّن اختاره: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٣).

(١) ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ أي: المطَرُ -ومِنهم مَن ذكَر معه الثَّلجَ-: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والنسفي، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٨).

ونَسَب ابنُ الجوزيِّ هذا القَولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٦٩).

قال الثعلبي: (يعني: المطَرَ والثَّلجَ اللَّذينِ بهما تُخرِجُ الأرضُ النَّباتَ الَّذي هو سَبَبُ الأقواتِ.

وقال بعضُ أهلِ المعاني: معناه: وفي المطَرِ والنَّباتِ سَبَبُ رِزقِكم، فسُمِّيَ المطَرُ سَماءً؛ لأنَّه =

ما وُعِدْتُم به كذلك[1].

= عن السَّماءِ يَنزِلُ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٣).

وقال البِقاعي: (قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: جهةِ العُلُوِّ ﴿رِزۡقُكُمۡ﴾ بما يأتي مِن المطَرِ والرِّياحِ والحَرِّ والبَردِ وغيرِ ذلك ممَّا رَتَّبَه سبحانه لِمَنافِعِ العِبادِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٥٨).

وقال السعدي: (وقولُه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ أي: مادَّةُ رزقِكم، مِنَ الأمطارِ، وصُنوفِ الأقدارِ؛ الرِّزقُ الدِّينيُّ والدُّنْيويُّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

وقال ابنُ عثيمين: (إنَّ في السَّماءِ رزقًا مِنَ المطَرِ، وما كتَبَه اللهُ لنا في اللَّوحِ المحفوظِ مِنَ المصالِحِ والمنافِعِ الجَسَديَّةِ مِن أموالٍ وبَنينَ وغَيرِ ذلك، فيكونُ هذا القَولُ أشمَلَ وأعَمَّ، فنأخُذُ بالأعَمِّ؛ لأنَّ الأعَمَّ يَدخُلُ فيه الأخَصُّ، ولا عَكْسَ، فالمرادُ بالرِّزقِ ما هو أعَمُّ مِن المطَرِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣١) بتصرف.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٠، ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢١، ٤٢٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٠-١٣٢).

في معنى قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أقوالٌ؛ منها: أنَّه أمْرُ السَّاعةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الرَّبيعُ، وابنُ سِيرينَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤٣).

ومنها: أنَّ المرادَ: العذابُ السَّماويُّ؛ لأنَّ مؤاخَذاتِ المكذِّبينَ الأوَّلينَ كانت مِن جِهَتِها، والخِطابُ لِمُشركي مكَّةَ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠).

ومنها: أنَّه كُلُّ ما وُعِدَ به العِبادُ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، وثَوابٍ أو عِقابٍ، في الدُّنيا والآخرةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

قال السعدي: (﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مِنَ الجَزاءِ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فإنَّه يَنزِلُ مِن عندِ اللهِ، كسائِرِ الأقدارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ في الجملةِ: مُجاهِدٌ، وعطاءٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤٣).=

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٥].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: ((كتَبَ اللهُ مَقاديرَ الخلائِقِ قبْلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ))(١).

---

= وقيل: المرادُ: الجنَّةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ الجوزي، وابنُ القيِّم، والنَّيسابوريُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٦)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤١٩).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلَفِ: سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤١).

وقال الرَّازي: (﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ إمَّا مِن الجنَّةِ والنَّارِ في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الذاريات: ١٣] وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ﴾ [الذاريات: ١٥]؛ فيَكونُ إيعادًا عامًّا، وإمَّا مِن العذابِ؛ وحينَئذٍ يكونُ الخِطابُ مع الكفَّارِ، فيَكونُ كأنَّه تعالى قال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ كافيةٌ، وأمَّا أنتم أيُّها الكافِرون ففي أنفُسِكم آياتٌ هي أظهَرُ الآياتِ، وتَكفُرون بها لِحُطامِ الدُّنيا، وحُبِّ الرِّياسةِ، وفي السَّماءِ الأرزاقُ، فلو نظَرْتُم وتأمَّلْتُم حقَّ التَّأمُّلِ لَمَا ترَكْتُم الحقَّ لأجْلِ الرِّزقِ؛ فإنَّه واصلٌ بكلِّ طريقٍ، ولَاجْتَنَبْتُم الباطِلَ؛ اتِّقاءً لِما تُوعَدونَ مِن العذابِ النَّازِلِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٢).

قال الشَّوكاني: (والأَولى الحَملُ على ما هو أعَمُّ مِن هذه الأقوالِ؛ فإنَّ جزاءَ الأعمالِ مَكتوبٌ في السَّماءِ، والقَضاءُ والقَدَرُ يَنزِلُ منها، والجنَّةُ... فيها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه الآياتِ، ونَبَّه عليها تنبيهًا يَنتَبِهُ به الذَّكيُّ اللَّبيبُ؛ أقسَمَ تعالى على أنَّ وَعْدَه وجَزاءَه حَقٌّ، وشَبَّه ذلك بأظهَرِ الأشياءِ لنا، وهو النُّطقُ، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، فكما لا تَشُكُّونَ في نُطقِكم فكذلك لا يَنبغي الشَّكُّ في البَعثِ بعدَ المَوتِ[1].

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: أُقسِمُ برَبِّ السَّماءِ والأرضِ إنَّه لحَقٌّ ثابتٌ لا شَكَّ فيه، كما أنَّكم تَنطِقونَ حَقيقةً بلا خيالٍ ولا سِحرٍ، ودونَ أدنى شَكٍّ منكم في ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤١، ٤٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٥، ١٧٦، ٤٢٢، ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٩، ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٢، ١٣٣).

قال الشوكاني: (﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أي: ما أُخبِرُكم به في هذه الآياتِ. قال الزَّجَّاجُ: هو ما ذُكِرَ مِن أمرِ الرِّزقِ والآياتِ. قال الكلبيُّ: يعني: ما قَصَّ في الكتابِ. وقال مقاتلٌ: يعني: مِن أمرِ السَّاعةِ. وقيل: إنَّ «ما» في قولِه: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ مُبتدأٌ، وخَبَرُه ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾؛ فيكونُ الضَّميرُ لـ «ما»). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٢٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٤).

واختار ابنُ جريرٍ أنَّ مَرجِعَ الضَّميرِ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٦).

واختار الرَّازي أن الضَّميرَ راجِعٌ إلى القرآنِ، أي: إنَّ القرآنَ حَقٌّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٢). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ دَعوةٌ منه سُبحانَه لعبادِه إلى التَّفَكُّرِ والاعتِبارِ، فقولُه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ﴾ شامِلٌ لِنَفْسِ الأرضِ وما فيها مِن جِبالٍ وبحارٍ، وأنهارٍ وأشجارٍ، ونباتٍ: تدُلُّ المتفكِّرَ فيها المُتأمِّلَ لِمَعانيها على عَظَمةِ خالِقِها، وسَعةِ سُلطانِه، وعَميمِ إحسانِه، وإحاطةِ عِلْمِه بالظَّواهِرِ والبواطِنِ، وكذلك في نفْسِ العَبدِ مِنَ العِبَرِ والحِكمةِ والرَّحمةِ ما يدُلُّ على أنَّ اللهَ وَحْدَه الأحَدُ الفَردُ الصَّمَدُ، وأنَّه لم يَخلُقِ الخَلْقَ سُدًى[1]! فهي دَعوةٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ لعِبادِه أنْ يَتبَصَّروا في الآياتِ، فمَن لم يَتبَصَّرْ في الآياتِ فلْيَعلَمْ أنَّه مَحرومٌ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ كُلَّما نَظَرَ في الآياتِ الكونيَّةِ الَّتي هي المخلوقاتُ، ازداد عِلمًا بخالِقِه ومَعبودِه[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ تَنبيهٌ منه سُبحانَه لنا على فِعْلِه

---

= قال ابنُ عثيمين: (﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ الفاءُ عاطِفةٌ، والواوُ للقَسَمِ، ورَبُّ السَّماءِ والأرضِ: هو اللهُ عزَّ وجَلَّ، أقسَمَ بنَفْسِه تبارك وتعالى بمُقتَضى ربوبيَّتِه للسَّماءِ والأرضِ أنَّ ما يُوعَدونَ حَقٌّ؛ لأنَّه قال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ * فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾، أي: ما تُوعَدونَ. ويَحتَمِلُ أن يكونَ الضَّميرُ عائدًا للقُرآنِ، ويحتمِلُ أيضًا أنَّه عائدٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعاني الثَّلاثةُ كُلُّها مُتلازِمةٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١٩).

فينا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أنَّه مِن مِعناه: أنَّك لا تَشتَغِلْ برِزقٍ؛ فإنَّه في السَّماءِ، ولا سَبيلَ لك إلى العُروجِ إليها، واشتَغِلْ بما كُلِّفْتَه مِن الخِدمةِ لِمَن عِندَه الرِّزقُ؛ ففي السَّماءِ الرِّزقُ، وإليها يُرفَعُ العَمَلُ، فإنْ أردْتَ أن يَنزِلَ إليك رِزقُك فأَصعِدْ إليها الصَّالِحَ مِن عَمَلِك؛ ولهذا قالوا: «الصَّلاةُ قَرعُ بابِ الرِّزقِ»، ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَ﴾[٢] [طه: ١٣٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ لم يُبَيِّنِ اللهُ هذه الآياتِ، بل جاءتْ مُنَكَّرَةً؛ لِيَشملَ كلَّ آيةٍ في الأرضِ؛ سواءٌ كانتِ الآياتُ فيما يَحدثُ فيها مِن الحوادثِ، أو كانت في نَفْسِ طبيعةِ الأرضِ وتركيبِ الأرضِ؛ فإنَّ فيها آياتٍ عظيمةً مِن حيثُ التَّركيبُ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ﴾ [الرعد: ٤]، فتَجِدُ الحَجَرَ الواحدَ يَشتمِلُ على عدَّةِ مَعادِنَ، وهو حَجَرٌ واحدٌ! وترى أحيانًا كقَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ﴾ [فاطر: ٢٧]! وتَجِدُ فيها الأرضَ اللَّيِّنةَ الرِّخْوةَ، والأرضَ الصُّلبةَ إلى غيرِ ذلك ممَّا يَعرِفُه عُلَماءُ (الجيولوجيا) مِن الآياتِ العظيمةِ، وفيها آياتٌ مِن جهةِ الحوادثِ الَّتي تَحدُثُ فيها مِن الزَّلازلِ والبراكينِ وغيرِها، وفيها آياتٌ أيضًا مِن جهةِ طبيعةِ الجوِّ مِن حَرٍّ وبرْدٍ، ورياحٍ عاصفةٍ، ورياحٍ باردةٍ، ورياحٍ دافئةٍ، وغيرِ ذلك ممَّا إذا تأمَّلَه الإنسانُ عَرَف به قدرةَ اللهِ عزَّ وجلَّ مِن جهةٍ، وعَرَف حِكمتَه ورحمتَه أيضًا مِن جِهةٍ أخرى؛ لأنَّ آياتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى يَتبَصَّرُ بها الإنسانُ

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٥٩).

مِن حيثُ القدرةُ والعَظَمةُ، ومِن حيثُ الحِكمةُ والرَّحمةُ؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ تَجِدُه مُناسِبًا لِمَكانِه وزَمانِه، وكلَّ شيءٍ تَجِدُه مِن آثارِ رحمةِ اللهِ تبارك وتعالى، فكلمةُ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ نَكِرةٌ عامَّةٌ لكلِّ ما يَحدُثُ في الأرضِ مِن آياتٍ، ولكلِّ ما فيها مِن طبيعتِها، وتركيبِها، وغيرِ ذلك[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أنَّ الآياتِ المرموقةَ مِن أحوالِ الأرضِ صالِحةٌ للدَّلالةِ أيضًا على تفرُّدِه تعالى بالإلهيَّةِ في كيفيَّةِ خَلْقِها ودَحْوِها للحَيوانِ والإنسانِ، وكيف قُسِّمَت إلى سَهلٍ وجَبَلٍ وبَحرٍ، ونظامِ إنباتِها الزَّرعَ والشَّجَرَ، وما يَخرُجُ مِن ذلك مِن منافِعَ للنَّاسِ؛ ولهذا حُذِفَ تَقييدُ ﴿ءَايَٰتٌ﴾ بمتعَلَّقٍ؛ لِيَعُمَّ كُلَّ ما تَصلُحُ الآياتُ الَّتي في الأرضِ أن تدُلَّ عليه[٢].

٣- في الآياتِ الثَّلاثِ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ترتيبٌ حَسَنٌ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ له أمورٌ يَحتاجُ إليها لا بُدَّ مِن سَبْقِها حتَّى يُوجَدَ هو في نَفْسِه، وأمورٌ تُقارِنُه في الوُجودِ، وأمورٌ تَلحَقُه وتُوجَدُ بَعْدَه؛ لِيبقَى بها؛ فالأرضُ هي المكانُ، وإليه يحتاجُ الإنسانُ، ولا بُدَّ مِن سَبْقِها؛ فقال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾، ثمَّ في نَفْسِ الإنسانِ أمورٌ مِن الأجسامِ والأعراضِ؛ فقال: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾، ثمَّ بقاؤُه بالرِّزقِ؛ فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾، ولولا السَّماءُ لَمَا كان للنَّاسِ البَقاءُ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ أنَّها لا لكُلِّ إنسانٍ، بل للمُوقِنِ، أمَّا الشَّاكُّ والمتَرَدِّدُ والكافرُ فإنَّه لن يَنتفِعَ بهذه الآياتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٢٧).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ أنَّ هذا التَّكوينَ العَجيبَ كما يدُلُّ على إمكانِ الإيجادِ بعدَ المَوتِ يدُلُّ على تفَرُّدِ مُكَوِّنِه تعالى بالإلهيَّةِ؛ إذ لا يَقدِرُ على إيجادِ مِثلِ الإنسانِ غَيرُ اللهِ تعالى؛ فإنَّ بواطِنَ أحوالِ الإنسانِ وظواهِرَها عجائِبُ مِن الانتِظامِ والتَّناسُبِ، وأعجَبُها خَلقُ العَقلِ وحَرَكاتِه، واستِخراجُ المعاني، وخَلقُ النُّطقِ، والإلهامُ إلى اللُّغةِ، وخَلقُ الحواسِّ، وحَرَكةُ الدَّورةِ الدَّمَويَّةِ، واتِّساقُ الأعضاءِ الرَّئيسةِ وتفاعُلُها، وتسويةُ المفاصِلِ والعَضَلاتِ والأعصابِ والشَّرايينِ، وحالُها بيْنَ الارتخاءِ واليُبسِ؛ فإنَّه إذا غَلَب عليها التَّيبُّسُ جاء العَجزُ، وإذا غَلَب الارتِخاءُ جاء الموتُ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ إشارةٌ إلى عَلامةِ الصَّنعةِ الموجودةِ في الإنسانِ؛ مِن يَدَينِ يَبطِشُ بهما، ورِجلَينِ يَمشي بهما، وعَينٍ مُبْصِرةٍ، وأُذُنٍ يَسمَعُ بها، ولِسانٍ يتكلَّمُ به، وأضراسٍ تَحدُثُ له عندَ غِناه عنِ الرَّضاعِ، وحاجتِه إلى الغِذاءِ، ومَعِدةٍ أُعِدَّتْ لطَبخِ الغِذاءِ، وكبدٍ يَسلُكُ إليها صَفْوُه، وعُروقٍ ومَعابِرَ يَنفُذُ منها إلى الأطرافِ، وأمعاءٍ يَرسُبُ إليها بَقيَّةُ الغِذاءِ، ويَبرُزُ عن أسفَلِ البَدَنِ[2]!

٧- قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ في إيثارِ صِيغةِ ﴿تُوعَدُونَ﴾ خُصوصيَّةٌ مِن خصائصِ إعجازِ القرآنِ؛ فإنَّ هذه الصِّيغةَ صالِحةٌ لأنْ تَكونَ مَصوغةً مِن الوعدِ؛ فيَكونَ وزْنُ (تُوعَدون): (تُفعَلون)، وهو مُضارِعُ (وعَدَ) مَبنيًّا للنَّائبِ، وصالِحةٌ لأنْ تكونَ مِن الإيعادِ، ووزنُه حينَئذٍ: (تُؤَفْعَلون)، مِثلُ تَصريفِ أُكرِمَ يُكرَمُ، وبذلك صار (تُوعَدون) مِثلَ تُكرَمونَ؛ فاحتمَلَت البِشارةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (١/ ٥٠٦، ٥٠٧).

والإنذارَ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فيه إيماءٌ إلى أنَّ ما أُوعِدوه يأْتيهم مِن قِبَلِ السَّماءِ -على قولٍ في التَّفسيرِ في معنى ﴿تُوعَدُونَ﴾-؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ * يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الدخان: ١٠، ١١]؛ فإنَّ ذلك الدُّخَانَ كان في طَبقاتِ الجوِّ[٢]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الدُّخانِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ أنَّه سُبحانَه أقسَمَ مِن قَبْلُ بالأُمورِ الأرضيَّةِ -وهي الرِّياحُ-، وبالسَّماءِ في قَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾ [الذَّارِيات: ٧]، ولم يُقسِمْ برَبِّها، وهاهنا أقسَمَ برَبِّها. ووَجهُ ذلك: أنَّه كذلك التَّرتيبُ؛ يُقسِمُ المتكَلِّمُ أوَّلًا بالأدنى، فإنْ لم يُصَدَّقْ به يرتقي إلى الأعلى[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى ضَمِنَ أرزاقَ عبادِه، وتَكفَّلَ بها، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[٤] [هود: ٦].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ أنَّ الجنَّةَ في السَّماءِ، وليست في الأرضِ؛ لقولِه: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، يعني: وفيه الَّذي تُوعدونَ، والَّذي نُوعدُ: الجنَّةُ، ولهذا قال اللهُ تعالى في قِصَّةِ آدمَ: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا﴾[البقرة: ٣٨]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٨٠).

والهبوطُ يكونُ مِن أعلى إلى أسفَلَ؛ فالجنَّةُ في السَّماءِ[١]. وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ بـ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾: الجنَّةُ.

١٢- يجوزُ للمُفتي والمناظِرِ أنْ يَحلِفَ على ثُبوتِ الحُكمِ عندَه، وإنْ لم يكُنْ حَلِفُه مُوجِبًا لثُبوتِه عندَ السَّائلِ والمُنازِعِ؛ لِيَشعُرَ السَّائلُ والمُنازِعُ له أنَّه على ثِقةٍ ويَقينٍ ممَّا قال له، وأنَّه غيرُ شاكٍّ فيه؛ قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، وقد أمر اللهُ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يَحلِفَ على ثُبوتِ الحَقِّ الَّذي جاء به، في ثلاثةِ مَواضِعَ مِن كِتابِه؛ في سورةِ يُونُسَ الآية (٥٣): ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، وسورةِ سَبَأٍ الآية (٣): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، وسُورةِ التَّغابُنِ الآية (٧): ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾[٢].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ هاهنا أمرٌ يَنبغي التَّفَطُّنُ له، وهو أنَّ الرَّبَّ تعالى شَهِد بصِحَّةِ ما أخبَرَ به، وهو أصدَقُ الصَّادِقينَ، وأقسَمَ عليه، وهو أبَرُّ المُقسِمينَ، وأكَّدَه بتَشبيهِه بالواقِعِ الَّذي لا يَقبَلُ الشَّكَّ بوَجهٍ، وأقام عليه مِنَ الأدِلَّةِ العِيانيَّةِ والبُرهانيَّةِ ما جعله مُعايَنًا مُشاهَدًا بالبصائِرِ، وإنْ لم يُعايَنْ بالأبصارِ، ومع ذلك فأكثَرُ النُّفوسِ في غَفلةٍ عنه، لا تَستَعِدُّ له، ولا تأخُذُ له أُهبَةً، والمُستَعِدُّ له الآخِذُ له أُهبةً لا يُعطيه حَقَّه منهم إلَّا الفَردُ بعدَ الفَردِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٢).

ويُنظر للخِلافِ في الجنَّةِ الَّتي أُسكِنَها آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وأُهبِط منها: ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٢٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ مُتَّصِلٌ بالقَسَمِ وجوابِه مِن قولِه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ﴾ وقولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾، إلى قولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذَّاريات: ١ - ٧]؛ فبعْدَ أنْ حُقِّقَ وُقوعُ البَعثِ بتأكيدِه بالقسَمِ، انتُقِلَ إلى تَقريبِه بالدَّليلِ لإبطالِ إحالتِهم إياه، فيكونُ هذا الاستِدلالُ كقولِه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ [فصلت: ٣٩]، وما بيْنَ هاتَينِ الجُملتَينِ اعتِراضٌ؛ فجُملةُ ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مَعطوفةً على جُملةِ جَوابِ القسَمِ، وهي ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذَّاريات: ٥]، والمعنى: وفيما يُشاهَدُ مِن أحوالِ الأرضِ آياتٌ للمُوقنينَ، وهي الأحوالُ الدَّالَّةُ على إيجادِ مَوجوداتٍ بعدَ إعدامِ أمْثالِها وأُصولِها، مِثْلُ إنباتِ الزَّرعِ الجديدِ بعْدَ أنْ باد الَّذي قبْلَه وصار هَشيمًا. وهذه دَلائلُ واضحةٌ مُتكرِّرةٌ لا تَحتاجُ إلى غَوصِ الفِكرِ؛ فلذلك لم تُقرَنْ هذه الآياتُ بما يَدْعو إلى التَّفكُّرِ كما قُرِنَ قولُه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1] [الذَّاريات: ٢١].

- وتَقديمُ الخبَرِ ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ على المبتدأِ ﴿ءَايَٰتٌ﴾؛ للاهتِمامِ بالأرضِ باعتِبارِها آياتٍ كثيرةً، والتَّشويقِ إلى ذِكرِ المبتَدأِ ﴿ءَايَٰتٌ﴾[2].

- واللَّامُ في ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾ مُعلَّقٌ بقولِه: ﴿ءَايَٰتٌ﴾. وخُصَّتِ الآياتُ بـ ﴿لِّلْمُوقِنِينَ﴾؛ لأنَّهم الَّذين انتَفَعوا بدَلالتِها، فأكسَبَتْهم الإيقانَ بوُقوعِ البعثِ. وأُوثِرَ وصْفُ الموقِنينَ هنا دونَ (الَّذين أَيْقَنوا)؛ لإفادةِ أنَّهم عُرِفوا بالإيقانِ. وهذا الوصفُ يَقْتَضي مَدْحَهم بثُقوبِ الفَهمِ؛ لأنَّ الإيقانَ لا يكونُ إلَّا عن دليلٍ، ودلائلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥٢، ٣٥٣).

هذا الأمرِ نَظريَّةٌ، ومَدْحَهم أيضًا بالإنصافِ وترْكِ المكابَرةِ؛ لأنَّ أكثرَ المنكِرينَ لِلحقِّ تَحمِلُهم المُكابرةُ أو الحسَدُ على إنكارِ حقِّ مَن يَتوجَّسونَ منه أنْ يَقضيَ على مَنافِعِهم(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾، وقال في سُورةِ (يس): ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [يس: ٣٣]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا جعَلَ الآيةَ للمُوقِنينَ جمَعها؛ لأنَّ الموقِنَ لا يَغفُلُ عن اللهِ تعالى في حالٍ، ويَرى في كلِّ شيءٍ آياتٍ دالَّةً، وأمَّا الغافلُ فلا يَتنبَّهُ إلَّا بأُمورٍ كثيرةٍ؛ فيكونُ الكلُّ له كالآيةِ الواحدةِ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الذَّاريات: ٢٠]، فالتَّقديرُ: وفي أنفُسِكم آياتٌ، أفلا تُبْصِرون، تَفريعًا على هذه الجُملةِ المَعطوفةِ، فيُقدَّرُ الوقفُ على ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾، وتَقديمُ ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ على مُتعلِّقِه المَحذوفِ؛ للاهتِمامِ بالنَّظَرِ في خلْقِ أنفُسِهم(٣).

- والخِطابُ قيل: إنه مُوجَّهٌ إلى المُشرِكين. والاستِفهامُ ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ إنكاريٌّ، أنكَرَ عليهم عدَمَ الإبصارِ للآياتِ(٤)، وإنَّما أتَى بصيغةِ الخِطابِ؛ لأنَّها أظهَرُ؛ لِكَونِ عِلمِ الإنسانِ بما في نَفْسِه أتَمَّ(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ بعْدَ أنْ ذكَرَ دلائلَ الأرضِ ودلائلَ الأنفُسِ الَّتي هي مِن عَلائقِ الأرضِ، عطَفَ ذِكرَ السَّماءِ للمُناسَبةِ، وتمْهيدًا للقَسَمِ الَّذي بعْدَه بقولِه: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ [الذَّاريات: ٢٣]، ولِمَا في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٢، ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٢).

السَّماءِ مِن آيةِ المطَرِ الَّذي به تُنبتُ الأرضُ بعدَ الجَفافِ، فالمعْنى: وفي السَّماءِ آيةُ المطَرِ؛ فعُدِلَ عن ذِكرِ المطَرِ إلى الرِّزقِ إدماجًا[١] للامتِنانِ في الاستِدلالِ؛ فإنَّ الدَّليلَ في كَونِه مَطرًا يُحيي الأرضَ بعدَ مَوتِها، وهذا قِياسُ تمْثيلٍ[٢] للنَّبتِ، أي: في السَّماءِ المطَرُ الَّذي تُرزَقون بسَبَبِه[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وتقديمُ المجرورِ ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على مُتعلَّقِه ﴿رِزۡقُكُمۡ﴾؛ للتَّشويقِ، وللاهتمامِ بالمكانِ، وللرَّدِّ على الفاصلةِ[٤].

- وجاءتِ السَّماءُ مُفرَدةً في قولِه: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾؛ فالرِّزقُ المطَرُ -على قولٍ-، وما وُعِدْنا به الجنَّةُ -على قولٍ-، وكِلاهما في هذه الجِهةِ، لا أنَّهما في كلِّ واحدةٍ واحدةٍ مِن السَّمواتِ؛ فكان لَفظُ الإفرادِ أَلْيقَ بها[٥].

- وعطْفُ ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ إدماجٌ بيْنَ أدلَّةِ إثباتِ البَعثِ؛ لقصْدِ المَوعظةِ الشاملةِ للوعيدِ على الإشراكِ، والوعْدِ على الإيمانِ إنْ آمنوا -على قولٍ-، تَعجيلًا بالموعظةِ عندَ سُنوحِ فُرصتِها[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ بعدَ أنْ

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٣٥).

(٢) قياس التَّمثيلِ: هو: حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتراكِهما في عِلَّة الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المشتركَ الكُلِّيَّ، أو: إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما، مِثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ هو القياسُ الأصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٦، ١١٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٤).

أكَّدَ الكلامَ بالقَسَمِ بالذَّارِياتِ وما عُطِفَ عليها؛ فرَّعَ على ذلك زِيادةَ تأْكيدٍ بالقَسَمِ بخالقِ السَّماءِ والأرضِ على أنَّ ما يُوعَدون حقٌّ؛ فهو عطفٌ على الكلامِ السَّابقِ، ومُناسبَتُه قولُه: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾[1] [الذَّارِيات: ٢٢].

- وفيه مِن البَلاغةِ ما يُعرَفُ بالقسَمِ، وهو أنْ يُريدَ المُتكلِّمُ الحلِفَ على شَيءٍ، فيَحلِفَ بما يكونُ فيه فخْرٌ له، أو تَعظيمٌ لشأْنِه، أو تَنويهٌ بقدْرِه، أو ما يكونُ ذمًّا لغَيرِه، أو جاريًا مَجرى الغزَلِ والتَّرقُّقِ، أو خارجًا مَخرَجَ الموعظةِ والزُّهدِ؛ فقد أقسَمَ سبحانَه بقسَمٍ يُوجِبُ الفَخرَ لتضمُّنِه التَّمدُّحَ بأعظَمِ قُدرةٍ، وأجلِّ عَظَمةٍ، فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾[2].

- وإظهارُ اسمِ (السَّماءِ والأرضِ) دونَ ذِكرِ ضَميرِهما؛ لإدخالِ المَهابةِ في نُفوسِ السَّامِعينَ بعَظَمةِ الربِّ سُبحانه[3].

- وضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ عائدٌ إلى (مَا تُوعَدُونَ)، وهذا مِن ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[4]؛ لأنَّه ردٌّ على قولِه أوَّلَ السُّورةِ: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾[الذَّارِيات: ٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٤) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ، أو المُتجانِسَينِ، أو المُلحَقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾[آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة =

وانتَهى الغرَضُ[١].

- وقولُه: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ زِيادةُ تقريرٍ لوُقوعِ ما أُوعِدوه، بأنْ شُبِّهَ بشَيءٍ مَعلومٍ كالضَّرورةِ لا امترِاءَ في وُقوعِه، وهو كَونُ المخاطَبينَ يَنطِقونَ، وهو مِن التَّمثيلِ بالأُمورِ المحسوسةِ[٢].

- قولُه: ﴿مِّثْلَ﴾ بالنَّصبِ على أنَّه صِفةُ حالٍ مَحذوفٍ قُصِدَ منه التَّأكيدُ، والتَّقديرُ: إنَّه لَحَقٌّ حقًّا مِثلَ ما أنَّكم تَنطِقون[٣]. على أحدِ الأقوالِ.

- و(ما) الواقعةُ بعْدَ (مِثلَ) صِلةٌ للتَّوكيدِ، وأُردِفَت بحرْفِ (أنَّ) المُفيدِ للتَّأكيدِ؛ تقويةً لتَحقيقِ حَقِّيَّةِ ما يُوعَدون[٤].

- واجتِلابُ المضارِعِ في ﴿تَنطِقُونَ﴾ دونَ أنْ يقالَ: (نُطقِكم): يُفيدَ التَّشبيهَ بنُطقِهم المُتجدِّدِ، وهو أقوى في الوُقوعِ؛ لأنَّه مَحسوسٌ[٥].

- وخَصَّ النُّطقَ دونَ سائرِ الأعمالِ الضَّروريَّةِ؛ لِكَونِه أبْيَنَ وأظهَرَ، ومِنَ الاحتِمالِ أبْعَدَ، وفيه إيماءٌ إلى استِجلابِ رأسِ الشُّكرِ؛ فذِكْرُ النِّعمةِ باللِّسانِ، والثَّناءُ على مُوليها أشْيَعُ لها مِن الاعتقادِ وآدابِ الجوارحِ؛ لأنَّ النُّطقَ يُفصِحُ عن كلِّ خفِيٍّ، ويُجلي كلَّ مُشتَبِهٍ[٦].

---

= في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٢).

## الآيات (٢٤-٣٠)

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٢٨ فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩ قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٠﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَرَاغَ﴾: أي: مالَ في خُفيةٍ، وأصلُ (روغ): يدُلُّ على مَيلٍ، وقِلَّةِ اسْتِقْرارٍ[1].

﴿فَأَوۡجَسَ﴾: أي: أضمرَ وأحَسَّ، والوَجْسُ: الصَّوتُ الخفيُّ، وأصلُه يدُلُّ على إحساسٍ بِشَيءٍ وتَسَمُّعٍ له[2].

﴿صَرَّةٖ﴾: أي: ضجَّةٍ، وشِدَّةِ صِياحٍ، ومنه أُخِذَ صَريرُ البابِ، وهو صوتُه، وأصلُ (صرر): يدُلُّ على صَوتٍ[3].

﴿فَصَكَّتۡ﴾: أي: لَطَمت وضَربَت، وأصلُ (صكك): يدُلُّ على تلاقي شَيئَينِ بقُوَّةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩١)، =

﴿عَقِيمٌ﴾: أي: لا تَحمِلُ ولا تَلِدُ؛ مِن العُقمِ: وهو القَطعُ والمَنعُ[١].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾

﴿سَلَٰمًا﴾: مَفعولٌ به مَنصوبٌ بـ (قَالُوا)، أي: قالوا هذا اللَّفظَ بعَينِه، وهو التَّحيَّةُ المعهودةُ. أو مَفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: نُسَلِّمُ، وذلك الفِعلُ في محلِّ نصبٍ بالقَولِ، تقديرُه: قالوا: نُسَلِّمُ سلامًا.

﴿سَلَٰمٞ﴾: مُبتدَأٌ، وخبَرُه محذوفٌ، أي: سَلامٌ عليكم. أو خبَرُ مبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: أمري أو قَولي سلامٌ.

﴿قَوۡمٞ﴾: خبَرُ مُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: أنتم قَومٌ، أو: هؤلاءِ قومٌ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾

قَولُه: ﴿كَذَٰلِكِ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ في محَلِّ نَصبٍ على النِّيابةِ عن المَصدَرِ؛ لِوُقوعِه نَعتًا لِمَصدَرٍ مَحذوفٍ بـ ﴿قَالَ﴾ الثَّانيةِ، أي: قال ربُّكِ قَولًا مِثلَ ذلك القَولِ الَّذي أخبَرْناكِ به[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصصِ أنبيائِه، ويَبتدئُ بأبي الأنبياءِ إبراهيمَ عليه

---

= ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٤)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٦٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩/ ٣١٤).

السَّلامُ، فيقولُ: هل أتاك -يا محمَّدُ- خبَرُ ضُيوفِ إبراهيمَ مِن الملائِكةِ المُكْرَمينَ، حينَ دَخَل أولئك الملائِكةُ على إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فقالوا له: سَلامًا، قال إبراهيمُ لهم: سلامٌ عليكم، قَومٌ غيرُ مَعروفينَ! فمالَ إبراهيمُ إلى أهلِ بَيتِه في خُفيةٍ عن ضُيوفِه، فأحضَر لهم عِجلًا سَمينًا، فقرَّبه إليهم، فلم تمتَدَّ أيديهم للطَّعامِ، فقال لهم: ألَا تأكُلونَ!

فشَعَر إبراهيمُ في نَفْسِه بخَوفٍ منهم حينَ امتَنَعوا عن تناوُلِ الطَّعامِ، فقالوا مُطَمْئِنينَ له: لا تخَفْ، وبَشَّروه بغُلامٍ عَليمٍ، وهو إسحاقُ عليه السَّلامُ، فأقبَلَت امرأةُ إبراهيمَ في صَيحةٍ حينَ سَمِعَت تلك البِشارةَ، فضَرَبت وَجْهَها؛ تعَجُّبًا مِمَّا سَمِعَتْه، وقالت: أنا عَجوزٌ عَقيمٌ، فكيف أَلِدُ الآنَ؟! قالت الملائِكةُ لها: هكذا قال ربُّكِ، إنَّه سُبحانَه هو الحَكيمُ العليمُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها انتِقالٌ مِنَ الإنذارِ والمَوعِظةِ والاستِدلالِ، إلى الاعتِبارِ بأحوالِ الأُمَمِ الماضيةِ المُماثِلةِ للمُخاطَبينَ المُشرِكينَ في الكُفرِ وتكذيبِ الرُّسُلِ[1]؛ ففيه تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتبشيرٌ له بالفَرَجِ[2]، والبِشارةُ بإكرامِ المصَدِّقِ، وإهانةِ المكَذِّبِ[3].

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦١).

أي: أَلَمْ يأتِكَ -يا محمَّدُ- خبَرُ ضُيوفِ إبراهيمَ مِن الملائِكةِ المُكْرَمينَ عندَ اللهِ، وعندَ إبراهيمَ وأهلِه بحُسنِ ضيافتِهم[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٤)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

قال الماوَرْدي: (في قَولِه: ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ وجْهانِ:

أحَدُهما: أنَّهم عندَ الله المُعظَّمون.

الثَّاني: مُكْرَمونَ لإكرامِ إبراهيمَ لهم حينَ خدَمَهم بنَفْسِه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٦٩).

ومِمَّن قال بالوَجهِ الأوَّلِ؛ أي: أنَّهم مُكرَمونَ عندَ الله: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ، والنسفي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٨).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ العزيزِ بنُ يحيى الكِنانيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤٩).

ومِمَّن قال بالوَجهِ الثَّاني؛ أي: لإكرامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لهم، وخدمتِه إيَّاهم بنفْسِه: ابنُ جرير، والماتُريدي، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٣٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٦).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٧(، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٤٩).

ومِمَّن جمَع بيْنَ القَولَينِ: ابنُ جُزَي، وابنُ القيِّم، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦١).

قال ابنُ القيِّم: (لا تَنافيَ بيْنَ القولَينِ؛ فالآيةُ تدُلُّ على المعنيَينِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٧١).

وقال السعدي: (﴿مُّكْرَمُونَ﴾: أي: أكرَمَهم إبراهيمُ، ووَصَفَ اللهُ ما صَنَع بهم مِنَ الضِّيافةِ قَولًا وفِعلًا، ومُكْرَمونَ أيضًا عندَ اللهِ تعالى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ الخطابَ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥).

وقال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ ليس للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فحَسْبُ، بل له، ولكلِّ مَن يَتأتَّى =

قال تعالى عن الملائكةِ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾.

أي: وذلك حينَ دَخَل أولئك الملائِكةُ على إبراهيمَ، فقالوا له: نُسَلِّمُ عليك سَلامًا[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ...﴾ [الحجر: ٥١، ٥٢].

﴿قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾.

أي: قال إبراهيمُ لهم: سلامٌ دائمٌ عليكم، قَومٌ غيرُ مَعروفينَ[2]!

---

= خِطابُه ويصِحُّ توجيهُ الخِطابِ إليه، كأنَّه قال: هل أتاك أيُّها المُخاطَبُ ﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٨)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٥، ٥٢٦)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٦)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٤).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المعنى أنَّهم قَومٌ غُرَباءُ لم يَعرِفْهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٤).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٥).

وقيل: إنَّهم قَدِموا عليه في صورةٍ وهَيئةٍ مُختلِفةٍ عمَّا يكونُ عليه النَّاسُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الرَّازيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٠). =

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦﴾.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾.

أي: فانسَلَّ إبراهيمُ ومالَ إلى أهلِ بَيتِه في خُفيةٍ عن ضُيوفِه؛ لِيُبادِرَ بإكرامِهم[1]!

﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾.

أي: فأحضَر لهم عِجلًا مِن البَقَرِ سَمينًا مَشويًّا؛ ليُكرِمَهم به[2]!

---

= وقيل: كان هذا سُؤالًا لهم، كأنَّه قال: أنتم قومٌ مُنكَرونَ فعَرِّفوني: مَن أنتم؟ يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١).

قال الشوكاني: (قيل: إنَّه أنكَرَهم لكَونِهم ابتَدؤوا بالسَّلامِ ولم يكنْ ذلك معهودًا عندَ قَومِه. وقيل: لأنَّه رأى فيهم ما يخالِفُ بعضَ الصُّوَرِ البَشَريَّةِ. وقيل: لأنَّه رآهم على غيرِ صُورةِ الملائكةِ الَّذين يَعرِفُهم. وقيل غيرُ ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (المُنكَرُ: الَّذي يُنكِرُه غَيرُه، أي: لا يَعرِفُه، وأُطلِقَ هنا على مَن يُنكَرُ حالُه، ويُظَنُّ أنَّه حالٌ غيرُ مُعتادٍ، أي: يُخشى أنَّه مُضمِرُ سُوءٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٨). ويُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٢).

قيل: إنَّه قال هذا في نَفْسِه، ولم يُخاطِبْ أضيافَه به؛ لأنَّ ذلك يخالِفُ الإكرامَ. وقيل: إنَّه قال ذلك لِمَن كان معَه مِن أتْباعِه وغِلمانِه بحيثُ لا يَسمعونَ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٥).

من المفسِّرينَ مَن فسَّر الرَّوغانَ بأنَّه الذَّهابُ بسرعةٍ، بالإضافةِ إلى كونِه خُفْيةً؛ ومنهم: الرَّازيُّ، وابنُ القيِّم، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٦)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٥)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٧، ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٥).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود: ٦٩].

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أي: فقرَّب إبراهيمُ العِجْلَ إليهم، فلم تمتَدَّ أيديهم لأَكْلِه! فقال عارِضًا عليهم الطَّعامَ بلُطفٍ: ألَا تأكُلونَ[1]!

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾.

أي: فشَعَر إبراهيمُ في نَفْسِه بخَوفٍ منهم حينَ امتَنَعوا عن تناوُلِ الطَّعامِ[2]!

كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ [هود: ٧٠].

﴿ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ﴾.

أي: فقالوا مُطَمْئِنينَ له: لا تخَفْ منَّا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٨)، ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٦، ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٧).

قال الواحديُّ: (قال عامَّةُ المفَسِّرينَ: لَمَّا رآهم إبراهيمُ شَبابًا أقوياءَ، ولم يتحَرَّموا بطعامِه =

كما قال تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ﴾ [هود: ٧٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ * قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الحجر: ٥٢، ٥٣].

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾.

أي: وبَشَّرَتْه الملائِكةُ بِولادةِ زَوجِه سارةَ غُلامًا يكونُ مِن أهلِ العِلمِ باللهِ وبدِينِه، وهو إسحاقُ عليه السَّلامُ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ * قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ [الحجر: ٥١ - ٥٣].

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ فَصَكَّتۡ وَجۡهَهَا وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٞ ٢٩﴾.

﴿فَأَقۡبَلَتِ ٱمۡرَأَتُهُۥ فِي صَرَّةٖ﴾.

أي: فأقبَلَت امرأةُ إبراهيمَ في صَيحةٍ حينَ سَمِعَت تلك البِشارةَ[2]!

---

= [يُقالُ: تحرَّمتُ بطعامِك، أي: حرُم عليك منِّي بسببِه ما كان لك أخذُه]، لم يأمَنْ أن يكونوا جاؤوا لبلاءٍ؛ وذلك أنَّ سُنَّتَهم كانت في ذلك الدَّهرِ إذا وَرَد عليهم القَومُ فأتَوا بالطَّعامِ فلم يَمَسُّوه ظَنُّوا أنَّهم عَدُوٌّ أو لُصوصٌ، فهنالك أَوجَسَ في نَفْسِه فَزَعًا، ورأوا علامةَ ذلك في وَجْهِه، فقالوا له: لا تَخَفْ). ((البسيط)) (١١/ ٤٧٣).

وقال القُرطبيُّ: (أعلَموه أنَّهم ملائِكةُ اللهِ ورُسُلُه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦٠).

قال السَّمْعانيُّ: (أجمَع المفَسِّرون على أنَّه إسحاقُ عليه السَّلامُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٧).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾.

أي: فضَرَبت وَجْهَها بيَدِها؛ تعَجُّبًا مِمَّا سَمِعَتْه[١]!

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾.

أي: وقالت: أنا عَجوزٌ عَقيمٌ لم أَلِدْ في شبابي، فكيف أَلِدُ الآنَ بعدَ كِبَرِ سِنِّي، وعَدَمِ صَلاحِيَتي للحَملِ[٢]؟!

---

= (٧/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

قال ابنُ عطيَّة: (يحتَمِلُ أن يكونَ قَرُبَت إليهم مِن ناحيةٍ مِن نواحي المنزِلِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ هذا الإقبالَ، كما تقولُ: أقبَلَ فُلانٌ يَشتُمُني، أو يَفعَلُ كذا: إذا جَدَّ في ذلك وتلَبَّس به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

والصَّرَّةُ: الصَّيحةُ، قيل: هي صَيحةُ فَرَحٍ وسُرورٍ بالبِشارةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

قال القرطبي: (أي: في صَيحةٍ وضَجَّةٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه، ومنه أُخِذَ صَريرُ البابِ، وهو صَوتُه. وقال عِكْرِمةُ وقَتادةُ: إنَّها الرَّنَّةُ والتَّأَوُّهُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

قال ابنُ جرير: (قد قيل: إنَّ صَكَّها وَجْهَها: أنْ جَمَعَت أصابِعَها، فضَرَبت بها جَبهتَها). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٠). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

قال السعدي: (أي: أنَّى ليَ الولَدُ وأنا عجوزٌ قد بلغتُ مِنَ السِّنِّ ما لا تَلِدُ معه النِّساءُ، ومع ذلك فأنا عقيمٌ غيرُ صالحٍ رَحمي للوِلادةِ أصلًا؟! فثَمَّ مانِعانِ كُلٌّ منهما مانِعٌ مِن الولَدِ، وقد ذكَرَتِ =

كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢].

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾.

أي: قالت الملائكةُ لها: هكذا قال ربُّكِ إنَّك ستَلِدينَ غُلامًا كما بشَّرْناكِ[١]!

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ هو الحَكيمُ في أفعالِه وخَلْقِه، وشَرْعِه وقَدَرِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، البالِغُ العِلمِ بكُلِّ شَيءٍ؛ فلا يَخفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أنَّ مِنَ الحِكمةِ قَصَّ اللهِ على عبادِه نَبَأَ الأخيارِ والفُجَّارِ؛ لِيَعتَبِروا بحالِهم، وأين وصَلَت بهم الأحوالُ[٣].

---

= المانِعَ الثَّالِثَ في سورةِ هودٍ بقَولِها: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ أنَّ الضَّيفَ يُكرَمُ بأنواعِ الإكرامِ؛ بالقَولِ والفِعلِ؛ لأنَّ اللهَ وَصَف أضيافَ إبراهيمَ بأنَّهم مُكْرَمونَ، وذكَر ما أكرَمهم به إبراهيمُ مِنَ الضِّيافةِ قَولًا وفِعلًا[1].

٣- قَولُه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ * إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ * فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ اشتملَتْ هذه الآياتُ على عددٍ مِن آدابِ الضِّيافةِ:

منها: الإكرامُ أوَّلًا مِمَّن جاءه ضَيفٌ قبْلَ أن يجتَمِعَ به ويُسَلِّمَ أحَدُهما على الآخَرِ؛ أنواعٌ مِن الإكرامِ: وهي اللِّقاءُ الحَسَنُ، والخُروجُ إليه، والتَّهَيُّؤُ له.

ومنها: السَّلامُ مِنَ الضَّيفِ على الوَجهِ الحَسَنِ، فسَلَكوا طريقَ الأدبِ في الابتِداءِ بالسَّلامِ، فردَّ عليهم إبراهيمُ سلامًا أكمَلَ مِن سلامِهم وأتَمَّ، فقولُه لهم: ﴿سَلَٰمٞ﴾ بالرَّفعِ، وهم سَلَّموا عليه بالنَّصبِ، والسَّلامُ بالرَّفعِ أكمَلُ؛ فإنَّه يدُلُّ على الجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثُّبوتِ والتَّجَدُّدِ، والمنصوبُ يدُلُّ على الفِعليَّةِ الدَّالَّةِ على الحُدوثِ والتَّجَدُّدِ؛ فإبراهيمُ حَيَّاهم أحسَنَ مِن تحيَّتِهم؛ فإنَّ قولَهم: ﴿سَلَٰمٗا﴾ يدُلُّ على «سَلَّمْنا سَلامًا»، وقولَه: ﴿سَلَٰمٞ﴾ أي: سَلامٌ عليكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) قال ابن القيِّم: (وعندي فيه جوابٌ أحسَنُ مِن هذا، وهو أنَّه لم يَقصِدْ حكايةَ سلامِ الملائكةِ، فنصَبَ قولَه: ﴿سَلَٰمٗا﴾ انتِصابَ مَفعولِ القولِ المُفرَدِ، كأنَّه قيل: قالوا قولًا سلامًا، وقالوا سَدادًا وصَوابًا، ونحو ذلك؛ فإنَّ القولَ إنَّما تُحكى به الجُمَلُ، وأمَّا المُفرَدُ فلا يكونُ مَحكيًّا به، بل منصوبٌ به انتِصابَ المفعولِ به، ومِن هذا قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ليس المرادُ أنَّهم قالوا هذا اللَّفظَ المُفرَدَ المنصوبَ، وإنَّما معناه: قالوا قولًا سَلامًا، مِثل: سَدادًا وصَوابًا، وسُمِّيَ القولُ سَلامًا؛ لأنَّه يؤدِّي معنى السَّلامِ ويَتضَمَّنُه، مِن رفْعِ الوَحشةِ، وحُصولِ الاستِئناسِ. وحُكيَ عن إبراهيمَ لَفظُ سَلامِه، فأتى به على لَفظِه مَرفوعًا بالابتِداءِ، مَحكيًّا بالقَولِ، ولولا قصْدُ الحكايةِ لَقال: سلامًا، بالنَّصبِ؛ لأنَّ ما بعدَ القولِ إذا =

ومنها: أدبُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ ولُطفُه في الكلامِ؛ فإنَّه حَذَفَ المُبتدَأَ مِن قَولِه: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾؛ فإنَّه لَمَّا أنكَرَهم ولم يَعرِفْهم احتشَمَ مِن مواجهتِهم بلَفظٍ يُنَفِّرُ الضَّيفَ لو قال: أنتم قَومٌ مُنكَرونَ؛ فحَذفُ المبتدأِ هنا مِن ألطفِ الكلامِ.

ومنها: أنَّه بنى الفِعلَ للمَفعولِ وحَذَفَ فاعِلَه، فقال: ﴿مُّنكَرُونَ﴾، ولم يَقُلْ: إنِّي أُنكِرُكم. وهو أحسَنُ في هذا المقامِ، وأبعدُ مِن التَّنفيرِ والمُواجَهةِ بالخُشونةِ.

ومنها: المُبادَرةُ إلى الضِّيافةِ، والإسراعُ بها، وتَعجيلُ القِرَى الَّذي دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ﴾ [هود: ٦٩]، وقَولُه هاهنا ﴿فَرَاغَ﴾؛ فإنَّ الرَّوَغانَ يدُلُّ على السُّرعةِ[1]، وذلك على قولٍ في معنى الرَّوغانِ.

ومنها: أنَّه راغَ إلى أهلِه لِيَجيئَهم بنُزُلِهم، والرَّوَغانُ أيضًا هو الذَّهابُ في اختِفاءٍ، بحيثُ لا يَكادُ يَشعُرُ به الضَّيفُ، وهذا مِن كَرَمِ ربِّ المَنزِلِ المُضيفِ: أنْ يَذهبَ في اختِفاءٍ بحيثُ لا يَشعُرُ به الضَّيفُ فيَشُق عليه ويَستحي[2]؛ فلا يَشعُرُ به إلَّا وقد جاءَه بالطَّعامِ، بخِلافِ مَن يُسمِعُ ضيفَه ويقولُ له أو لِمَن حَضَرَ: مكانَكم حتَّى آتيَكم بالطَّعامِ، ونحوَ ذلك مما يُوجِبُ حياءَ الضَّيفِ واحتِشامَه.

---

= كان مرفوعًا فعَلى الحكايةِ ليس إلَّا، فحصَل مِن الفَرقِ بيْن الكلامَينِ في حكايةِ سَلامِ إبراهيمَ ورفْعِه، ونصْبِ ذلك: إشارةٌ إلى معنًى لطيفٍ جدًّا، وهو أنَّ قولَه: «سَلامٌ عليكم» مِن دينِ الإسلامِ المُتلَقَّى عن إمامِ الحُنفاءِ، وأبِي الأنبياءِ، وأنَّه مِن مِلَّةِ إبراهيمَ الَّتي أمَر الله بها وباتِّباعِها؛ فحكى لنا قولَه لِيَحصُلَ الاقتِداءُ به، والاتِّباعُ له، ولم يَحْكِ قولَ أضيافِه، وإنَّما أخبَر به على الجُملةِ دونَ التَّفصيلِ، والله أعلَمُ. فَزِنْ هذا الجوابَ والَّذي قبْلَه بميزانٍ غيرِ جائرٍ؛ يَظهَرْ لك أقْواهما، وباللهِ التَّوفيقُ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٥٨).

(١) وأيضًا: عَطفُ ﴿فَجَآءَ﴾ على ﴿فَرَاغَ﴾ يدُلُّ على سُرعةِ مجيئِه بالقِرَى. ويُنظر ما سيأتي في بَلاغةِ الآياتِ (ص: ١٠٩).

(٢) قال ابن عاشور: (انتَزَع منه الزَّمخشريُّ أنَّ إخفاءَ إبراهيمَ مَيْلَه إلى أهلِه: مِن حُسنِ الضِّيافةِ؛ كي لا يُوهِمَ الضَّيفَ أنَّه يُريدُ أن يُحضِرَ لهم شيئًا، فلعَلَّ الضَّيفَ أن يَكُفَّه عن ذلك ويَعذِرَه، وهذا مَنزَعٌ لَطيفٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١).

ومنها: غَيبةُ المُضيفِ عن الضَّيفِ؛ لِيَستريحَ، ويأتيَ بما يمنَعُه الحياءُ منه.

ومنها: أنَّه ذَهَبَ إلى أهلِه فجاء بالضِّيافةِ؛ فدَلَّ على أنَّ ذلك كان مُعَدًّا عندَهم مُهَيَّأً للضِّيفانِ، ولم يَحتَجْ أنْ يَذهَبَ إلى غيرِهم مِن جيرانِه أو غَيرِهم، فيَشتريَه أو يَستقرِضَه.

ومنها: خِدمتُه للضَّيفِ بنَفْسِه، كما دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾، ولم يَقُلْ: فأَمَرَ لهم، بل هو الَّذي ذَهَبَ وجاء به بنَفْسِه، ولم يَبعَثْه مع خادِمِه، وهذا أبلَغُ في إكرامِ الضَّيفِ.

ومنها: أنَّه جاء بعِجلٍ كاملٍ ولم يأتِ ببَضْعةٍ منه، لِيَتخيَّروا مِن أطيَبِ لحمِه ما شاؤوا، وهذا مِن تمامِ كَرَمِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

ومنها: اختيارُ الأجوَدِ؛ لقَولِه تعالى: ﴿سَمِينٖ﴾، فهو سَمينٌ لا هَزيلٌ، ومَعلومٌ أنَّ ذلك مِن أفخَرِ أموالِهم، ومِثلُه يُتَّخَذُ للاقتِناءِ والتَّربيةِ، فآثَرَ به ضيفانَه.

ومنها: أنَّه قَرَّبَه إليهم بنَفْسِه، ولم يأمُرْ خادِمَه بذلك.

ومنها: تقديمُ الطَّعامِ إليهم، لا نَقلُهم إلى الطَّعامِ، فقد قَرَّبَه إليهم في المكان الَّذي هم فيه، ولم يُقَرِّبْهم إليه، فهذا أيسَرُ عليهم وأحسَنُ، وأبلَغُ في الكرامةِ: أنْ يُجلِسَ الضَّيفَ ثمَّ يُقَرِّبَ الطَّعامَ إليه، ويَحمِلَه إلى حَضْرتِه، ولا يَضَعَ الطَّعامَ في ناحيةٍ ثمَّ يأمُرَ الضَّيفَ بأن يَتقرَّبَ إليه؛ لأنَّ مَن قَدَّم الطَّعامَ إلى قَومٍ يكونُ كُلُّ واحدٍ مُستَقِرًّا في مَقَرِّه لا يختَلِفُ عليه المكانُ؛ فإنْ نَقَلَهم إلى مكانِ الطَّعامِ رُبَّما يحصُلُ هناك اختِلافُ جُلوسٍ، فيُقَرَّبُ الأدنى، ويُضَيَّقُ على الأعلى[1]!

---

(١) وذكَر ابنُ عثيمين أنَّ الأظهرَ أنَّ تقريبَ الطَّعامِ إلى الضُّيوفِ يختلِفُ باختِلافِ الأحوالِ والعاداتِ، وأنَّه إذا كان مِن الإكرامِ أنْ تأتيَ بالطَّعامِ إلى مَحَلِّ جلوسِهم فأْتِ به، وإذا كان مِن الإكرامِ أنْ تجعلَه في مَحَلٍّ آخَرَ فافعَلْ؛ لأنَّ عُمومَ قولِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَن =

ومنها: حُسنُ ملاطفةِ الضَّيفِ في الكلامِ اللَّيِّنِ، خصوصًا عندَ تقديمِ الطَّعامِ إليه؛ فإنَّ إبراهيمَ عرَض عليهم عرضًا لطيفًا[1]، وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، ولم يقلْ: (كلوا) أو: (مُدُّوا أيديَكم) ونحوَه مِن الألفاظِ الَّتي غيرُها أَولى منها، بل أتَى بأداةِ العَرضِ لا الأمرِ، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فيَنبغي للمُقتدي به أن يَستعمِلَ مِن الألفاظِ الحسَنةِ ما هو المناسِبُ واللَّائقُ بالحالِ، كقولِه لأضيافِه: (ألَا تأكلون) أو: (ألَا تتفضَّلون علينا وتُشرِّفوننا وتُحسِنون إلينا) ونحوِه، وهذا مِمَّا يَعلَمُ النَّاسُ بعُقولِهم حُسنَه ولُطفَه.

ومنها: أنَّه إنَّما عَرَضَ عليهم الأكلَ؛ لأنَّه رآهم لا يأكُلونَ، ولم يكُنْ ضُيوفُه يحتاجونَ معه إلى الإذنِ في الأكلِ، بل كان إذا قُدِّمَ إليهم الطَّعامُ أكَلوا، وهؤلاء الضُّيوفُ لَمَّا امتنَعوا مِن الأكلِ قال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؛ ولهذا أوجَسَ منهم خِيفةً، أي: أَحَسَّها وأضْمَرها في نفْسِه، ولم يُبْدِها لهم.

ومنها: كَونُ المُضيفِ مَسرورًا بأكْلِهم، غيرَ مَسرورٍ بتَركِهم الطَّعامَ، كما يُوجَدُ في بَعضِ البُخَلاءِ المتكَلِّفينَ الَّذين يُحضِرونَ طَعامًا كَثيرًا، ويكونُ نَظَرُه ونَظَرُ أهلِ بَيتِه في الطَّعامِ متى يُمسِكُ الضَّيفُ يَدَه عنه؛ يدُلُّ عليه قَولُه تعالى:

---

= كان يؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ فلْيُكْرِمْ ضَيْفَه)) [البخاري (٦١٣٨)، ومسلم (٤٧) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه] يدُلُّ على إكرامِهم بما جَرَتِ العادةُ بإكرامِهم به. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٦).

(١) قال أبو حيَّان: (إنَّ في ذلك تأنيسًا للآكِلِ، بخِلافِ مَن قَدَّمَ طعامًا ولم يَحُثَّ على أكلِه؛ فإنَّ الحاضِرَ قد يَتوَهَّمُ أنَّه قَدَّمَه على سَبيلِ التَّجَمُّلِ عسى أن يمتَنِعَ الحاضِرُ مِن الأكلِ، وهذا موجودٌ في طِباعِ بَعضِ النَّاسِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٦).

وقال ابنُ عاشور: (والعَرْضُ على الضَّيفِ عَقِبَ وَضعِ الطَّعامِ بيْنَ يَدَيه زيادةٌ في الإكرامِ، بإظهارِ الحِرصِ على ما يَنفَعُ الضَّيفَ، وإن كان وَضْعُ الطَّعامِ بيْنَ يَدَيه كافيًا في تمكينِه منه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩).

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾.

فقد جمَعتْ هذه الآياتُ آدابَ الضِّيافةِ الَّتي هي أشرَفُ الآدابِ، وما عَداها مِن التَّكَلُّفاتِ -الَّتي هي تَخَلُّفٌ وتَكَلُّفٌ- إنَّما هي مِن أوضاعِ النَّاسِ وعوائِدِهم، وكفى بهذه الآدابِ شَرَفًا وفَخرًا! فصَلَّى اللهُ على نبيِّنا وعلى إبراهيمَ وعلى آلِهما وعلى سائِرِ النَّبيِّينَ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ مَشروعيَّةُ تعرُّفِ مَن جاء إلى الإنسانِ، أو صار له فيه نَوعُ اتِّصالٍ؛ لأنَّ في ذلك فوائِدَ كَثيرةً(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ أنَّ الذَّبيحةَ الحاضِرةَ الَّتي قد أُعِدَّت لِغَيرِ الضَّيفِ الحاضِرِ، إذا جُعِلَت له ليس فيها أقَلُّ إهانةٍ، بل ذلك مِنَ الإكرام، كما فَعَل إبراهيمُ عليه السَّلامُ، وأخبَرَ اللهُ أنَّ ضَيفَه مُكْرَمونَ(٣)، ففيه إشعارٌ بأنَّ كرامةَ الضَّيفِ معدَّةٌ حاصِلةٌ عندَ أهلِه، وأنَّه لا يحتاجُ أنْ يستقرِضَ مِن جيرانِه، ولا يذهَبَ إلى غيرِ أهلِه إذ قِرَى الضَّيفِ حاصلٌ عندَهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٦، ١٧٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧١-٢٧٤)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٣-٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٧).

قال أبو حيَّان: (كَوْنُه عَطَفَ ﴿فَجَآءَ﴾ على ﴿فَرَاغَ﴾ يدُلُّ على سرعةِ مجيئه بالقِرَى، وأنَّه كان مُعَدًّا عِندَه لِمَنْ يَرِدُ عليه. وقال في سورةِ هُودٍ: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، وهذا يدُلُّ أيضًا على أنَّه كان العِجلُ سابِقًا شَيُّهُ قبْلَ مَجيئِهم). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥).

وقال الألوسي: (اختُلِف في هذا العِجلِ: هل كان مُهَيَّأً قبْلَ مَجيئِهم، أو أنَّه هُيِّئَ بعدَ أن جاؤوا؟ قَولانِ، اختار أبو حيَّانَ أوَّلَهما؛ لِدَلالةِ السُّرعةِ بالإتيانِ به على ذلك، ويختارُ الفقيرُ ثانيَهما؛ لأنَّه أزْيَدُ في العِنايةِ، وأبلَغُ في الإكرامِ). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٢٩١).

٦- قال تعالى: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ في مجيئِه بالعِجلِ كلِّه معَ أنَّهم -بحسَبِ الظَّاهرِ- يَكفيهم بعضُه؛ دَليلٌ على أنَّه يُحضَرُ للضَّيفِ أكثرُ مِمَّا يأكُلُ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ أنَّ أكْلَ الضَّيفِ أَمَنةٌ، ودليلٌ على انبِساطِ نَفْسِه، وللطَّعامِ حُرمةٌ وذِمامٌ، والامتِناعُ منه وَحْشةٌ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ فيه مِن أدَبِ الضَّيفِ أُمورٌ:

منها: أنَّه إذا أكَلَ حَفِظَ حَقَّ المُؤاكَلةِ؛ يدُلُّ عليه أنَّه خافَهم حيثُ لم يأكُلوا.

ومنها: وُجوبُ إظهارِ العُذرِ عندَ الإمساكِ؛ يدُلُّ عليه قَولُهم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾.

ومنها: تحسينُ العبارةِ في العُذرِ؛ وذلك لأنَّ مَن يكونُ مُحتَمِيًا وأُحضِرَ لديه الطَّعامُ؛ فهناك أمْرانِ، أحَدُهما: أنَّ الطَّعامَ لا يَصلُحُ له؛ لِكَونِه مُضِرًّا به. الثَّاني: كَونُه ضَعيفَ القُوَّةِ عن هَضمِ ذلك الطَّعامِ؛ فيَنبغي ألَّا يَقولَ الضَّيفُ: هذا طَعامٌ غَليظٌ لا يَصلُحُ لي! بل الحَسَنُ أن يأتيَ بالعبارةِ الأُخرى ويقولَ: لي مانِعَ مِن أكلِ الطَّعامِ، وفي بيتي لا آكُلُ أيضًا شَيئًا؛ بل بشَّروه بالولدِ؛ إشعارًا بأنَّهم ملائكةٌ، يدُلُّ عليه قَولُه: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾؛ حيثُ فَهَّموه أنَّهم لَيسُوا مِمَّن يأكُلونَ[٣]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡ﴾ أنَّ مَن خاف مِنَ الإنسانِ لِسَبَبٍ مِنَ الأسبابِ فإنَّ عليه أن يُزيلَ عنه الخَوفَ، ويَذكُرَ له ما يُؤَمِّنُ رَوْعَه، ويُسَكِّنُ جَأشَه، كما قالت الملائِكةُ لإبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا خافَهم: ﴿لَا تَخَفۡ﴾، وأخبَروه بتلك البِشارةِ السَّارَّةِ بعدَ الخَوفِ منهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير الألوسي)) (٦/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أنَّ التَّبشيرَ مطَلوبٌ فيما يَسُرُّ مِن أمرِ الدِّينِ والدُّنيا[١]. فيُستحَبُّ للمُسلِمِ أنْ يُبادِرَ إلى مَسَرَّةِ أخيه، وإعلامِه بما يُفرِحُه، ومِن ذلك استِحبابُ بِشارةِ مَن وُلِدَ له ولدٌ وتَهنِئتِه[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أدَبٌ في البِشارةِ: ألَّا يُخبِرَ الإنسانَ بما يَسُرُّه دَفْعةً؛ فإنَّه يُورِثُ مَرَضًا؛ يدُلُّ عليه أنَّهم جَلَسوا واستأنَسَ بهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ، ثمَّ قالوا: نُبَشِّرُك، ثمَّ ذكَروا أشرَفَ النَّوعَينِ -وهو الذَّكَرُ-، ولم يقتَنِعوا به حتَّى وصَفوه بأحسَنِ الأوصافِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أنَّهم تَرَكوا سائِرَ الأوصافِ؛ مِنَ الحُسنِ والجَمالِ، والقُوَّةِ والسَّلامةِ، واختاروا العِلمَ؛ إشارةً إلى أنَّ العِلمَ رأسُ الأوصافِ، ورَئيسُ النُّعوتِ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَتۡ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ حُسنُ أدبِ المرأةِ عندَ خِطابِ الرِّجالِ، واقتِصارُها مِنَ الكلامِ على ما تتأدَّى به الحاجةُ؛ فإنَّها حَذَفتِ المبتدَأَ ولم تَقُلْ: أنا عَجوزٌ عقيمٌ! واقتَصَرتْ على ذِكْرِ السَّبَبِ الدَّالِّ على عَدَمِ الولادةِ، ولم تذكُرْ غيرَه، وأمَّا في سورةِ (هودٍ) فذكرتِ السَّبَبَ المانِعَ منها ومِن إبراهيمَ، وصَرَّحَتْ بالعَجَبِ[٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ فَضلُ إبراهيمَ

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٩).

الخَليلِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حيث ابتدأ اللهُ تعالى قِصَّتَه بما يدُلُّ على الاهتِمامِ بشَأنِها، والاعتِناءِ بها[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ مَشروعيَّةُ الضِّيافةِ، وأنَّها مِن سُنَنِ إبراهيمَ الخَليلِ الَّذي أمرَ اللهُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأمَّتَه أن يتَّبِعوا مِلَّتَه، وساقها اللهُ في هذا الموضِعِ على وَجهِ المَدحِ له والثَّناءِ[٢].

٣- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ افتتحَ سُبحانَه القصَّةَ بصيغةٍ مَوضوعةٍ للاستِفهامِ؛ وليس المرادُ بها حقيقةَ الاستِفهامِ! ولكنْ في وُرودِ الكلامِ في مِثلِ هذا بصيغةِ الاستِفهامِ سِرٌّ لطيفٌ، ومعنًى بديعٌ؛ فإنَّ المتكلِّمَ إذا أراد أنْ يُخْبِرَ المخاطَبَ بأمرٍ عجيبٍ -يَنبغي الاعتِناءُ به، وإحضارُ الذِّهنِ له- صَدَّرَ له الكلامَ بأداةِ الاستِفهامِ لتنبيه سمْعِه وذِهْنِه للمُخبَرِ به، فتارةً يُصَدِّرُه بـ «أَلَا»، وتارةً يُصَدِّرُه بـ «هل»، فيقولُ: هل عَلِمتَ ما كان مِن كَيْتَ وكَيْتَ؟ إمَّا مذَكِّرًا به، وإمَّا واعظًا له مخوِّفًا، وإمَّا منبِّهًا على عظَمةِ ما يُخبِرُ به، وإمَّا مقرِّرًا له، فقولُه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥]، و﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١]، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ متضمِّنٌ لتعظيم هذه القصصِ، والتَّنبيهِ على تدبُّرِها، ومعرفةِ ما تضَمَّنَتْه، وفيه أمرٌ آخَرُ؛ وهو التَّنبيهُ على أنَّ إتيانَ هذا إليك عَلَمٌ مِن أعلامِ النُّبوَّةِ، فإنَّه مِن الغَيبِ الَّذي لا تَعلَمُه أنت ولا قَومُك؛ فهل أتاك مِن غيرِ إعلامِنا وإرسالِنا وتعريفِنا؟ أمْ لم يأتِك إلَّا مِن قِبَلِنا؟ فانظُرْ ظُهورَ هذا الكلامِ بصيغةِ الاستِفهامِ، وتأمَّلْ عِظَمَ مَوقعِه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جميعِ مَوارِدِه يَشْهَد أنَّه مِن الفصاحةِ في ذُروتِها العُلْيا[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ سؤالٌ: أنَّه إذا كان المرادُ مِن حَديثِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ التَّسليةَ والإنذارَ، فأيُّ فائدةٍ في حِكايةِ الضِّيافةِ؟

**الجوابُ**: لِيَكونَ ذلك إشارةً إلى الفَرَجِ في حَقِّ الأنبياءِ، والبَلاءِ على الجَهَلةِ والأغبياءِ إذا جاءهم مِن حيثُ لا يُحتَسَبُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ [الحشر: ٢]، فلم يكُنْ عندَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ خَبَرٌ مِن إنزالِ العَذابِ معَ ارتِفاعِ مَكانتِه[٢]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ سُؤالٌ: كيف سَمَّاهم سُبحانَه ضَيفًا، ولم يكونوا؟

**الجَوابُ**: لَمَّا حَسِبَهم إبراهيمُ عليه السَّلامُ ضَيفًا لم يُكَذِّبْه اللهُ تعالى في حِسْبانِه؛ إكرامًا له[٣]، أو جعَلَهم ضَيفًا؛ لأنَّهم كانوا في صُورةِ الضَّيفِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ سُؤالٌ: أنَّ الملائِكةَ أُرسِلَت بالعَذابِ، بدَليلِ قَولِهم: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ [الذَّاريات: ٣٢]، فما الحِكمةُ في مَجيئِهم إلى إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ شَيخُ المُرسَلينَ، ولُوطٌ مِن قَومِه،

---

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١).

ومِن عادةِ المَلِكِ إذا أرسَلَ رَسولًا لمَلِكٍ، وفي طَريقِه مَن هو أكبَرُ منه، يقولُ له: اعبُرْ على فُلانٍ المَلِكِ، وأخبِرْه برِسالتِك، وخُذْ فيها رَأيَه.

**الثَّاني**: أنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان شديدَ الشَّفَقةِ حَليمًا، فكان يَشُقُّ عليه إهلاكُ أمَّةٍ عَظيمةٍ، وكان ذلك مِمَّا يَحزُنُ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ شَفَقةً منه على العِبادِ؛ فقال لهم: بَشِّروه بغُلامٍ يَخرُجُ مِن صُلبِه أضعافُ مَن يَهلِكُ، ويكونُ مِن صُلبِه خُروجُ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: أنَّ الملائِكةَ أحياءٌ ناطِقةٌ قائِمةٌ بأنفُسِها، ليست أعراضًا قائِمةً بغَيرِها، وأنَّهم يأتُونَ بأخبارِ الأُمورِ الغائبةِ، وأنَّهم يَفعَلونَ أفعالًا خارِجةً عن قُدرةِ البَشَرِ[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ سُؤالٌ عن وَجهِ التَّنافي في الظَّاهِرِ ما بيْنَ هذا النَّعتِ ومَنعوتِه؛ لأنَّ النَّعتَ ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ صيغةُ جَمعٍ، والمنعوتَ ﴿ضَيۡفِ﴾ لَفظٌ مُفرَدٌ.

**الجَوابُ**: أنَّ لَفظةَ «الضَّيفِ» تُطلَقُ على الواحِدِ والجَمعِ؛ لأنَّ أصلَها مَصدَرُ «ضاف»، فنُقِلَت من المَصدريَّةِ إلى الاسميَّةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢١).

قال ابنُ عاشور: (الضَّيفُ: اسمٌ يُقالُ للواحِدِ وللجَمعِ؛ لأنَّ أصلَه مَصدَرُ ضافَ: إذا مالَ، فأُطلِقَ على الَّذي يَميلُ إلى بَيتِ أحَدٍ لِيَنزِلَ عِندَه، ثمَّ صار اسمًا؛ فإذا لُوحِظَ أصلُه أُطلِقَ على الواحِدِ وغَيرِه ولم يُؤَنِّثوه، ولا يَجمَعونَه، وإذا لُوحِظَ الاسمُ جَمَعوه للجَماعةِ وأنَّثوه للأُنثى، فقالوا أضيافٌ، وضُيوفٌ، وامرأةٌ ضَيفةٌ، وهو هنا اسمُ جَمعٍ؛ ولذلك وُصِفَ بـ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٧).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا﴾ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ قد كان بَيتُه مأوًى للطَّارِقينَ والأضيافِ؛ لأنَّهم دَخَلوا عليه مِن غيرِ استِئذانٍ[١]، فلم يَذكرِ الله استئذانَهم؛ ففي هذا دليلٌ على أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم كان قد عُرِفَ بإكرامِ الضِّيفانِ، واعتيادِ قِراهم؛ فبقيَ مَنزِلُه مَضْيفةً، مَطروقًا لِمَن وَرَدَه، لا يَحتاجُ إلى الاستِئذانِ، بلِ استئذانُ الدَّاخلِ دُخولُه، وهذا غايةُ ما يكونُ مِن الكَرَمِ[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أنَّ السَّلامَ مِن سُنَنِ الرُّسُلِ والملائِكةِ[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أنَّ حذفَ الرَّادِّ «الواوَ»، فيَقولُ: «عليك السَّلامُ» هو ردٌّ صَحيحٌ، كما لو كان بـ «الواوِ»، ولكِنْ حَسُنَ الحَذفُ في الرَّدِّ هنا؛ مِن أجْلِ الحَذفِ في الابتِداءِ[٤].

١٢- إنْ قِيل: قولُه في سُورةِ (هُودٍ): ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠] دلَّ على أنَّ إنكارَه حصَلَ بعْدَ تَقريبِ العِجلِ إليهم، وهاهنا قال: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، ثمَّ قال: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ -بفاءِ التَّعقيبِ-، وذلك يدُلُّ على تَقريبِ الطَّعامِ منهم بعْدَ حُصولِ إنكارِه؛ فما وَجْهُه؟

**فالجوابُ**: أنْ يُقالَ: لعلَّهم كانوا مُخالِفينَ لِصِفةِ النَّاسِ في الشَّكلِ والهَيئةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/ ٣٨٦).

والعلَّةُ البَلاغيَّةُ هنا حيث حسُن الفصلُ ولم يَحسُنِ الوصلُ، أي: العطفُ بالواوِ؛ لأنَّه عبارةٌ عن جوابٍ عن سؤالٍ مُقدَّرٍ، تقديرُه: فماذا قال إبراهيمُ؟ وهو ما يُعرَفُ في البلاغةِ بشِبهِ كمالِ الاتِّصالِ، وهو معنى كلامِ ابنِ القيِّمِ: مِن أجْلِ الحذفِ في الابتداءِ.

ولذلك قال: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، أي: عندَ كلِّ أحدٍ، ثمَّ لَمَّا امتَنَعوا عن الطَّعام تأكَّدَ الإنكارُ؛ لأنَّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ تفرَّدَ بمُشاهَدةِ إمساكِهم؛ فنَكِرَهم فوقَ الإنكارِ الأوَّلِ(١).

١٣- وُصِفَ العِجلُ هنا بـ﴿سَمِينٍ﴾، ووُصِفَ في سُورةِ (هودٍ) بـ﴿حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، أي: مَشويٍّ؛ فهو عِجلٌ سَمينٌ شَواهُ وقرَّبَه إليهم(٢).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ هذا الغُلامُ إسحاقُ لا إسماعيلُ؛ لأنَّ امرأتَه عَجِبَتْ مِن ذلك، فقالت: عَجوزٌ عَقيمٌ لا يُولَدُ لمِثْلي! فأنَّى لي بالوَلَدِ؟! وأمَّا إسماعيلُ فإنَّه مِن سُرِّيَّتِه هاجرَ، وكان بِكْرَه، وأوَّلَ وَلَدِه، وقد بَيَّنَ سُبحانَه هذا في سُورةِ (هودٍ) في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وهذه هي القِصَّةُ نفْسُها(٣).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ فائِدةٌ في تقديمِ البِشارةِ على الإخبارِ عن إهلاكِهم قَومَ لُوطٍ؛ لِيَعلَمَ أنَّ الله تعالى يُهلِكُهم إلى خَلَفٍ، ويأتي ببَدَلِهم خَيرًا منهم(٤).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أنَّه سيَكونُ عَليمًا، وفيه تَبشيرٌ بحَياتِه حتَّى يكونَ مِنَ العُلَماءِ(٥).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ شِدَّةُ فَرَحٍ سارَةَ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٦).

امرأةِ إبراهيمَ، حتَّى جرَى منها ما جرَى؛ مِن صَكِّ وَجْهِها، وصَيحَتِها غيرِ المَعهودةِ[١].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ مُتضَمِّنٌ لإثباتِ صِفةِ القَولِ له تعالى[٢].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ أضاف الرُّبوبيَّةَ هنا إلى هذه المرأةِ العَجوزِ العَقيمِ الكَبيرةِ؛ إشارةً إلى أنَّ هذا مِن عنايةِ اللهِ بها؛ لأنَّ إضافةَ الرُّبوبيَّةِ إلى الشَّخصِ المعيَّنِ تكونُ ربوبيَّةً خاصَّةً، وهي تقتضي عنايةً خاصَّةً، والرُّبوبيَّةُ العامَّةُ تكونُ لكلِّ أحدٍ، فاللهُ ربُّ كلِّ شيءٍ؛ كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨]؛ الرُّبوبيَّةُ العامَّةُ: ﴿بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والرُّبوبيَّةُ الخاصَّةُ: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[٣].

٢٠- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ القُرآنُ إذا جمَعَ اللهُ فيه بيْنَ هذَينِ الاسمَينِ الكريمَينِ: العَليمِ والحَكيمِ؛ يُقَدَّمُ غالِبًا العَليمُ، لكِنْ هنا قُدِّمَ الحَكيمُ؛ لأنَّ المقامَ يَقتَضي هنا تقديمَ الحِكمةِ على العِلمِ. والحِكمةُ هنا في شَيئَينِ:

**أوَّلًا**: تأخيرُ الوِلادةِ بالنِّسبةِ لهذه المرأةِ: أنَّ اللهَ لم يُؤَخِّرْ ولادتَها إلى أنْ تَبلُغَ العَجزَ إلَّا لحِكمةٍ.

**ثانيًا**: كَونُها وَلَدتْ بعدَ أنْ أَيِسَت واعتقَدَت أنَّها عقيمٌ، فهاهنا حِكمتانِ: حِكمةٌ سابِقةٌ، وحِكمةٌ لاحِقةٌ؛ ومِن ثَمَّ قُدِّمَ اسمُ «الحكيمِ» على اسمِ «العليمِ»[٤].

٢١- قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ مُتضَمِّنٌ لإثباتِ صِفةِ الحِكمةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٣٩).

والعِلمِ اللَّذَينِ هما مَصدَرُ الخَلقِ والأمرِ؛ فجَميعُ ما خَلَقَه سُبحانَه صادِرٌ عن عِلمِه وحِكمتِه، وكذلك أمْرُه وشَرعُه مَصدَرُه عن عِلمِه وحِكمتِه، والعِلمُ والحِكمةُ مُتضَمِّنانِ لجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ؛ فالعِلمُ يتضَمَّنُ الحياةَ ولوازِمَ كمالِها مِنَ القَيُّوميَّةِ والقُدرةِ والبَقاءِ، والسَّمعِ والبَصَرِ وسائِرِ الصِّفاتِ الَّتي يَستلزِمُها العِلمُ التَّامُّ، والحِكمةُ تتضَمَّنُ كَمالَ الإرادةِ مِن العَدلِ، والرَّحمةِ، والإحسانِ، والجُودِ والبِرِّ، ووَضْعِ الأشياءِ في مَواضِعِها على أحسَنِ وُجوهِها، وتتضَمَّنُ إرسالَ الرُّسلِ، وإثباتَ الثَّوابِ والعِقابِ. كُلُّ هذا يُعلَمُ مِن اسمِه الحَكيمِ كما هي طريقةُ القُرآنِ في الاستِدلالِ على هذه المطالِبِ العَظيمةِ بصِفةِ الحِكمةِ، والإنكارِ على مَن يَزعُمُ أنَّه خَلَقَ الخَلقَ عَبثًا وسُدًى وباطِلًا؛ فحينَئِذٍ صِفةُ حِكمتِه تتضَمَّنُ الشَّرْعَ والقَدَرَ، والثَّوابَ والعِقابَ[1].

٢٢- قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ اختَصَّت هذه القِصَّةُ بذِكرِ هذَينِ الاسمَينِ؛ لاقتِضائِها لهما؛ لتعَجُّبِ النُّفوسِ مِن توَلُّدِ مولودٍ بيْنَ أبوَينِ لا يُولَدُ لِمثلِهما عادةً، وخَفاءِ العِلمِ بسَبَبِ هذا الإيلادِ، وكَونِ الحِكمةِ اقتَضَت جريانَ هذه الولادةِ على غَيرِ العادةِ المعروفةِ؛ فذَكَر في الآيةِ اسمَ العِلمِ والحِكمةِ المتضَمِّنَ لعِلْمِه سُبحانَه بسَبَبِ هذا الخَلقِ وغايتِه، وحِكمتِه في وَضْعِه مَوضِعَه مِن غيرِ إخلالٍ بموجَبِ الحِكمةِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ الجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا، وغُيِّرَ أُسلوبُ الكلامِ مِن خِطابِ المُنذَرينَ مُواجَهةً إلى أُسلوبِ التَّعريضِ؛ تَفنُّنًا بذِكرِ قصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لِتَكونَ تَوطئةً للمَقصودِ مِن ذِكرِ

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٠).

ما حَلَّ بقَوم لُوطٍ عليه السَّلامُ حينَ كذَّبوا رَسولَهم؛ فالمقصودُ هو ما بعدَ قولِه: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[1] [الذاريات: ٣١].

- وكان في الابتِداءِ بذِكرِ قَومِ لُوطٍ في هذه الآيةِ على خِلافِ التَّرتيبِ الَّذي جَرَى عليه اصطلاحُ القرآنِ في تَرتيبِ قَصَصِ الأُمَمِ المُكذِّبةِ بابتدائِها بقَومِ نُوحٍ، ثمَّ عادٍ، ثمَّ ثَمودَ، ثمَّ قَومِ لوطٍ؛ أنَّ المناسَبةَ للانتِقالِ مِن وَعيدِ المشركينَ إلى العِبرةِ بالأُمَمِ الماضيةِ: أنَّ المشركينَ وُصِفوا آنِفًا بأنَّهم في غَمْرةٍ ساهونَ، فكانوا في تلك الغَمْرةِ أشبَهَ بقَومِ لوطٍ؛ إذ قالَ اللهُ فيهم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، ولأنَّ العذابَ الَّذي عُذِّبَ به قومُ لوطٍ كان حِجارةً أُنزِلَت عليهم مِن السَّماءِ مُشبَّهةً بالمَطرِ، وقد سُمِّيَت مَطَرًا في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]، وقولِه: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]، ولأنَّ في قصَّةِ حُضورِ الملائكةِ عندَ إبراهيمَ وزَوجِه عِبرةً بإمكانِ البَعثِ؛ فقد تَضمَّنَت بِشارَتَها بمَولودٍ يُولَدُ لها بعدَ اليأْسِ مِن الوِلادةِ، وذلك مِثلُ البعثِ بالحياةِ بعدَ المَماتِ[2].

وقيل: بدأ بقِصَّةِ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإن كانت مُتأخِّرةً عن قِصَّةِ عادٍ؛ هزًّا للعَرَبِ؛ إذ كان أباهم الأعلى، ولِكَونِ الرُّسُلِ الَّذين وَفَدوا عليه جاؤوا بإهلاكِ قَومِ لُوطٍ إذ كَذَّبوه؛ ففيه وعيدٌ للعَرَبِ، وتهديدٌ واتِّعاظٌ، وتَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ما يَجري عليه مِن قَومِه[3].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ؛ لتَجتمِعَ نفْسُ المخاطَبِ، كما تَبدأُ المَرءَ إذا أردتَ أنْ تُحدِّثَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٤).

بعجيبٍ، فتُقرِّرَه هلْ سمِعَ ذلك أم لا؟ فكأنَّك تَقْتضي أنْ يقولَ: لا، ويَطلُبَ منك الحديثَ. وفيه تَفخيمٌ للحديثِ، وتَنبيهٌ على أنَّه ليس مِن عِلمِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما عرَفَه بالوحْيِ[١].

- ولَمَّا وُجِّهَ الخِطابُ ﴿هَلْ أَتَىٰكَ ...﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ عُرِفَ أنَّ المقصودَ الأصليَّ تَسليتُه على ما لَقِيَه مِن تَكذيبِ قَومِه، ويَتبَعُ ذلك تَهديدٌ وتَعريضٌ بالسَّامِعينَ حينَ يُقرَأُ عليهم القرآنُ -أو يَبْلُغُهم- بأنَّهم صائِرونَ إلى مِثلِ ذلك العذابِ؛ لاتِّحادِ الأسبابِ[٢].

- ووَصْفُ الضَّيفِ بأنَّهم مُكرَمونَ كَلامٌ مُوجَّهٌ (أي: يصلحُ لاحتِمالِ معنيَينِ)؛ لأنَّه يُوهِمُ أنَّ ذلك لإكرامِ إبراهيمَ إيَّاهم كما جرَتْ عادتُه مع الضَّيفِ، وهو الذي سَنَّ القِرَى[٣]، والمقصودُ: أنَّ اللهَ أكرَمَهم برفْعِ الدَّرجةِ؛ لأنَّ الملائكةَ مُقرَّبون عندَ اللهِ تعالى[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿سَلَـٰمًا﴾ مَصدرٌ سادٌّ مَسدَّ الفِعلِ مُستغنًى به عنه، وأصلُه: نُسلِّمُ عليكم سلامًا، وأمَّا ﴿سَلَـٰمٌ﴾ فمَعدولٌ به إلى الرَّفعِ على الابتِداءِ، وخبَرُه مَحذوفٌ، مَعناهُ: عليكم سلامٌ؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ السَّلامِ، كأنَّه قصَدَ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٧).

(٣) القِرَى: ضِيافةُ الضَّيفِ والإحسانُ إليه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢٥٢)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٨).

يُحيِّيَهم بأحسَنَ ممَّا حَيَّوهُ به؛ فإنَّ تحيتَهم باسمٍ مَنصوبٍ مُتضمِّنٌ لجُملةٍ فِعليَّةٍ، تقديرُه: سلَّمْنا عليك سلامًا. وتَحيةَ إبراهيمَ لهم باسمٍ مرفوعٍ مُتضمِّنٌ لجُملةٍ اسميَّةٍ، تقديرُه: سلامٌ دائمٌ، أو ثابتٌ أو مستقِرٌّ عليكم، ولا ريبَ أنَّ الجُملةَ الاسميَّةَ تَقتضي الثُّبوتَ واللُّزومَ، والفِعليَّةَ تقتضي التَّجدُّدَ والحدوثَ؛ فكانتْ تحيةُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أكملَ وأحسنَ[١].

- وفي قولِه: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، فقيلَ: إنَّ الَّذي يُناسِبُ حالَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ أنَّه لا يُخاطِبُهم بذلك؛ إذ فيه مِن عدَمِ الأُنسِ ما لا يَخفَى، بل يَظهَرُ أنَّه يكونُ التَّقديرُ: هؤلاء قومٌ مُنكَرونَ، وقال ذلك مع نفْسِه أو لِمَن كان معَه مِن أتْباعِه وغِلمانِه، بحيثُ لا يَسمَعُ ذلك الأضيافُ[٢]. فحذَفَ المبتدَأَ، ولم يُواجِهْهم بهذا؛ لِما فيه مِن الاستِيحاشِ. وكان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لا يُواجِهُ أحدًا بما يَكرَهُه، بل يقولُ: وما بالُ أقْوامٍ يَقولون كذا ويَفعَلون كذا[٣]؟! وأيضًا قولُه: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ فيه حذْفُ فاعِلِ الإنكارِ، وهو الَّذي كان أنكَرَهم، كما قال في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿نَكِرَهُمْ﴾ [هود: ٧٠]، ولا ريبَ أنَّ قولَه: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ ألطَفُ مِن أنْ يقولَ: أنكَرْتُكم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((الرسالة التبوكية)) لابن القيِّم (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٣٩، ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣١٥).

(٣) مِن ذلك قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما بالُ أقوامٍ يَشترِطونَ شُروطًا ليست في كتابِ اللهِ)). [البخاري (٢٧٣٥)، ومسلم (١٥٠٤)].

وقولُه: ((ما بالُ أقوامٍ يَرْفَعونَ أبْصارَهُم إلى السَّماءِ في صَلاتِهم)). [البخاري (٧٥٠)].

وقولُه: ((ما بالُ أقوامٍ قالوا كذا وكذا)). [مسلم (١٤٠١)].

(٤) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٦٦، ٦٧)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٧٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ * فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ؛ مُفصِحةٌ عن جُمَلٍ قد حُذِفَت؛ ثِقةً بدَلالةِ الحالِ عليها، وإيذانًا بكَمالِ سُرعةِ المجيءِ بالطَّعامِ، أيْ: فذَبَح عِجلًا فحَنَذَه، فجاءَ به[1].

- ومَجيءُ الفاءِ لعطفِ أفعالِ ﴿فَرَاغَ﴾ ﴿فَجَآءَ﴾ ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه الأفعالَ وقعَتْ في سُرعةٍ، والإسراعُ بالقِرى مِن تَمامِ الكرَمِ[2].

- الهمزةُ في قولِه: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ للعرْضِ والحثِّ على الأكْلِ على طَريقةِ الأدَبِ، إنْ قالَه أوَّلَ ما وضَعَه، أو للاستِفهامِ؛ للإنكارِ إنْ قاله حِينَما رَأى إعْراضَهم، وكأنَّه ثَمَّ مَحذوفٌ تَقديرُه: فامتَنَعوا مِن الأكْلِ، فأنكَرَ عليهم ترْكَ الأكلِ، فقال: ألَا تأكُلون[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ جاء قولُه هنا: ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ بغيرِ فاءٍ، وفي سُورةِ (الصَّافَّاتِ) جاء قولُه: ﴿فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ بالفاءِ؛ وذلك لأنَّ ما في سُورةِ (الصَّافَّاتِ) جُملةٌ اتَّصَلَت بخمْسِ جُمَلٍ كلُّها مَبْدوءةٌ بالفاءِ على التَّوالي، وهي: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ...﴾ الآياتِ إلى قولِه: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الصافات: ٨٧- ٩١]، وفي (الذَّارياتِ) مُتَّصِلٌ بمحذوفٍ -على قولٍ- تَقديرُه: فقَرَّبَه إليْهِم فلمْ يأْكُلوا، فلمَّا رآهُم لا يأْكُلون

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٠).

قال ابن عاشور: («ألَا» كَلمةٌ واحدةٌ، وهي حرْفُ عرْضٍ، أي: رَغْبةٍ في حُصولِ الفِعلِ الَّذي تَدخُلُ عليه. وهي هنا مُتعيِّنةٌ للعَرْضِ؛ لوُقوعِ فِعلِ القولِ بَدلًا مِن فِعلِ ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾، ولا يَحسُنُ جَعْلُها كَلمتينِ مِن همزةِ استِفهامٍ للإنكارِ مع «لا» النَّافيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٥٩، ٣٦٠).

﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾؛ فجاء في كلِّ مَوضِعٍ بما يُلائِمُه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾

- الفاءُ في ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فَصيحةٌ؛ لإفصاحِها عن جُملةٍ مُقدَّرةٍ يَقْتضيها ربْطُ المعنى، أي: فلمْ يَأْكُلوا فأوجَسَ منهم خِيفةً، وقد صُرِّح بذلك في سُورةِ (هودٍ): ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ -أي: إلى العِجلِ- ﴿نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾[٢] [هود: ٧٠].

٥- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾

- الإشارةُ في قولِ الملائكةِ: ﴿كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ إلى الحادثِ، وهو التَّبشيرُ بغُلامٍ، والكافُ للتَّشبيهِ، أي: مِثل قَولِنا قال ربُّكِ، فنحن بلَّغْنا ما أُمِرْنا بتَبليغِه[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ تَعليلٌ لكَلامِ الملائكةِ المُقتضي أنَّ الملائكةَ ما أخبَروا إبراهيمَ إلَّا تَبليغًا مِن اللهِ، وأنَّ اللهَ صادقٌ وَعْدَه، وأنَّه لا مَوقِعَ لتعجُّبِ امرأةِ إبراهيمَ؛ لأنَّ اللهَ حكيمٌ يُدبِّرُ تكوينَ ما يُريدُه، وعليمٌ لا يَخفَى عليه حالُها مِن العَجْزِ والعُقمِ[٤].

- ولم تكُنْ هذه المُفاوَضةُ معَ سارةَ فقطْ، بلْ معَ إبراهيَم عليه السَّلامُ أيضًا حسَبَما جاء في سُورةِ (الحِجْرِ)، وإنَّما لمْ يُذكَرْ هاهُنا اكتِفاءً بما ذُكِرَ هناك، كما أنَّه لم يُذكَرْ هناك سارةُ اكتِفاءً بما ذُكِرَ هاهنا وفي سُورة (هُودٍ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٦/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٦١).

## الآيات (٢١-٢٧)

﴿ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَطْبُكُمْ﴾: أي: أمرُكم وشأنُكم المُهِمُّ، وأصلُ (خطب) هنا: يدُلُّ على الكلامِ بيْنَ اثنَينِ، وسُمِّيَ بذلك لِمَا يَقَعُ فيه مِن التَّخاطُبِ والمُراجَعةِ[1].

﴿مُّسَوَّمَةً﴾: أي: مُعلَّمةً؛ مِن السِّيماءِ: أي: العلَامةِ[2].

﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾: أي: المُتعَدِّينَ حُدودَ اللهِ، والسَّرَفُ: تجاوُزُ الحدِّ في كلِّ فِعلٍ يَفعَلُه الإنسانُ، وأصلُه: يدُلُّ على تعدِّي الحَدِّ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله تعالى أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لَمَّا عرَف حقيقةَ ضيوفِه، وأنَّهم ملائكةٌ؛ أخَذ يسألُهم: قال لهم: فما الشَّأنُ الخَطيرُ الَّذي أرسَلَكم اللهُ مِن أجْلِه؟ قالوا له: إنَّا أُرسِلْنا إلى قَومٍ كافِرينَ -وهم قَومُ لُوطٍ عليه السَّلامُ-؛ لِنُمطِرَ عليهم حِجارةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٢٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ١٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

مِن طينٍ، مُعلَّمةً عندَ ربِّك لِلَّذين تعَدَّوا حُدودَ اللهِ.

ثمَّ يقولُ تعالى: فأخرَجْنا مَن كان في هذه القَريةِ مِنَ المُؤمِنينَ، فما وَجَدْنا في تلك القَريةِ غَيرَ أهلِ بَيتٍ واحِدٍ مِن المُسلِمينَ، وأبقَيْنا في تلك القَريةِ عَلامةً دالَّةً على سُوءِ عاقِبةِ أهلِها، للَّذين يَخافونَ عَذابَ اللهِ؛ لِيَتَّعِظوا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا عَلِمَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ مِن مُحاورَتِهم فيما ذُكِرَ في هذه الآيةِ، وما ورَدَ ذِكْرُه في آياتٍ أُخرى أنَّهم مَلائكةٌ مُرسَلونَ مِن عندِ اللهِ؛ سأَلَهم عن الشَّأنِ الَّذي أُرسِلوا مِن أجْلِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان الخَليلُ عليه السَّلامُ أعلَمَ أهلِ زَمانِه بالأُمورِ الإلهيَّةِ؛ عَلِمَ أنَّ اجتِماعَ الملائِكةِ على تلك الهَيئةِ الَّتي يَراهم فيها ليس لهذه البِشارةِ فقط؛ فلذلك استأنفَ تعالى الجوابَ لِمَن كان كأنَّه قال: ما كان مِن حالِه وحالِهم بعدَ هذا؛ بقَولِه[2]:

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ ﴾.

أي: قال إبراهيمُ للمَلائكةِ بعدَ تَلقِّي بِشارتِهم له بالوَلَدِ: فما الشَّأنُ الخَطيرُ الَّذي أرسَلَكم اللهُ مِن أجْلِه[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢﴾.

أي: قالوا له: إنَّا أرسَلَنا اللهُ إلى قَومٍ كافِرينَ فاسِدينَ، وهم قَومُ لُوطٍ عليه السَّلامُ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ * إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ * وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠ - ٨٤].

﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣﴾.

أي: لنُمطِرَ عليهم مِنَ السَّماءِ حِجارةً أصلُها مِن طينٍ، فنَرجُمَهم بها[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا

---

= (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠).

قال ابنُ عطية: (الخَطبُ: الأمرُ المُهِمُّ، وقَلَّما يُعبَّرُ به إلَّا عن الشَّدائدِ والمكارِهِ، حتَّى قالوا: خُطوبُ الزَّمانِ، ونحوُ هذا، فكأنَّه يقولُ لهم: ما هذه الطَّامَّةُ الَّتي جِئتُم لها؟). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

وقال ابنُ عاشور: (قد عَلِمَ إبراهيمُ أنَّ نُزولَ الملائِكةِ بتلك الصُّورةِ لا يكونُ لمجَرَّدِ بشارتِه بابنٍ يُولَدُ له ولِزَوجِه؛ إذْ كانت البِشارةُ تَحصُلُ له بالوَحيِ؛ فكان مِن عِلمِ النُّبُوَّةِ أنَّ إرسالَ الملائكةِ إلى الأرضِ بتلك الصُّورةِ لا يكونُ إلَّا لخَطبٍ! قال تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٤٩).

كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤].

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤﴾.

أي: حِجارةً مُعلَّمةً عندَ اللهِ تعالى، قد أُعِدَّت لأولئك القَومِ الَّذين تعَدَّوا حُدودَ اللهِ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أراد اللهُ تعالى أن يُهلِكَ المُجرِمينَ، مَيَّزَ المؤمِنينَ بقَولِه تعالى(٢):

﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨، ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨).

قال القرطبي: (﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعَلَّمةً. قيل: كانت مُخطَّطةً بسَوادٍ وبَياضٍ. وقيل: بسَوادٍ وحُمرةٍ. وقيل: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مَعروفةً بأنَّها حِجارةُ العذابِ. وقيل: على كُلِّ حَجَرٍ اسمُ مَن يَهلِكُ به. وقيل: عليها أمثالُ الخواتيمِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨).

وقد ذهب ابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين: إلى أنَّ المعنى أنَّ كلَّ حجرٍ عليه اسمُ صاحِبِه. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٠).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الرَّبيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ٣٩٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (ويحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: أنَّها بجُملتِها مَعلومةٌ عندَ رَبِّك لهذا المعنى، مُعَلَّمةٌ له، لا أنَّ كُلَّ واحدٍ منها له علامةٌ خاصَّةٌ به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٠٢).

أي: فلَمَّا أرَدْنا إهلاكَ قَومِ لُوطٍ أخرَجْنا مَن كان في بَلَدِهم مِنَ المُؤمِنينَ باللهِ تعالى[١].

كما قال تعالى: ﴿ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴾ [الحجر: ٥٩، ٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴾ [الحجر: ٦٥].

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي: فما وَجَدْنا في تلك القَريةِ غَيرَ أهلِ بَيتٍ واحِدٍ مِن أهلِ الإسلامِ[٢].

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان إبقاءُ آثارِ المُهلَكينَ أدَلَّ على قُدرةِ مَن أهلَكَهم؛ قال[٣]:

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

أي: وأبقَيْنا في تلك القَريةِ عَلامةً دالَّةً على سُوءِ عاقِبةِ أهلِها، للَّذين يخافونَ عَذابَ اللهِ المُؤلِمَ المُوجِعَ، فيَستَدِلُّونَ بذلك على قُدرةِ اللهِ تعالى وانتِقامِه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٦).

قال الواحدي: (قال مجاهِدٌ ومُقاتِلٌ والمفَسِّرونَ: يعني: لوطًا وبنتَيه). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٥٣).

ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٧).

المُجرِمينَ، ويَعتَبِرونَ ويتَّعِظونَ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٥ - ٧٧].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ أنَّه إنَّما سألَهم بعدَ أنْ قَراهم؛ جَريًا على سُنَّةِ الضِّيافةِ: ألَّا يُسألَ الضَّيفُ عن الغَرَضِ الَّذي أورَدَه ذلك المَنزِلَ إلَّا بعدَ استِعدادِه للرَّحيلِ؛ كيلا يَتوهَّمَ سآمةَ مُضَيِّفِه مِن نُزولِه به، ولِيُعينَه على أمرِه إن كان مُستطيعًا[٢]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أتَى الملائِكةُ هنا بما هو مِن آدابِ الصَّديقِ الَّذي لا يُسِرُّ عن الصَّديقِ شيئًا، لا سيَّما وكان ذلك بإذنِ اللهِ تعالى لهم في إطلاعِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ على إهلاكِهم، وجَبْرِ قَلْبِه بتَقديمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥١).

قال ابن كثير: (أي: جعَلْناها عِبرةً لِمَا أنزَلْنا بهم مِنَ العَذابِ والنَّكالِ، وحِجارةِ السِّجِّيلِ، وجعَلْنا مَحَلَّتَهم بُحيرةً مُنتِنةً خَبيثةً؛ ففي ذلك عِبرةٌ للمُؤمِنينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢).

وقال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾: أنَّ القَريةَ بَقِيَتْ خرابًا لم تَعمُرْ، فكان ما فيها مِن آثارِ الخَرابِ آيةً للَّذين يخافونَ عَذابَ اللهِ؛ قال تعالى في سورةِ «الحِجْرِ»: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥).

البِشارةِ بأبي الأنبياءِ إسحاقَ عليه السَّلامُ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أنَّه ينبغي للدَّاعيةِ ألَّا يَجزَعَ إذا دَعَا فلم يَستجِبْ لدعوتِه إلَّا القليلُ؛ فالرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ قد يَبقَونَ في أُمَمِهم دُهورًا كثيرةً ولا يَتَّبِعُهم إلَّا القَليلُ، هذا لوطٌ عليه السَّلامُ ظلَّ يدعو قَريةً كامِلةً إلى توحيدِ اللهِ وإلى تَركِ الفاحشةِ فما اتَّبَعَه مِن القَريةِ أحَدٌ، وتَخَلَّفَ عن دَعوتِه مَن تَخَلَّفَ، حتَّى أهلُ بيتِه لم يخلصوا؛ فيهم مَن لم يؤمِنْ به عليه السَّلامُ! قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أنَّ الغَيبَ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى؛ فهذا نبيُّ اللهِ إبراهيمُ -وهو مَن هو- ذبَحَ عِجْلَه، وتَعِبَ هو وامرأتُه بإنضاجِ العِجلِ وحَمْلِه -وذلك على أنَّه هُيِّئ بعدَ مجيئِهم-، كما قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود: ٦٩]، ولم يَدْرِ أنَّ الَّذين يُنضِجُ لهم عِجْلَه مَلائِكةٌ كِرامٌ لا يأكُلونَ! ومِن أجْلِ عَدَمِ عِلمِه بذلك لَمَّا لم يأكُلوا خاف منهم ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]، وما هذا إلَّا لأنَّه لا يَعلَمُ بحَقيقتِهم، وما درَى عن الأمرِ حتَّى أخبَروه، فسألَهم: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إذا كانت الحِجارةُ مُسَوَّمةً للمُسرِفينَ، فكيف قالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ ...﴾ مع أنَّ المُسرِفَ غيرُ المُجرِمِ في اللُّغةِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣٨٨).

**الجوابُ**: المُجرِمُ هو الآتي بالذَّنْبِ العَظيمِ؛ لأنَّ الجُرمَ فيه دَلالةٌ على العِظَمِ، ومنه: جِرْمُ الشَّيءِ؛ لعَظَمةِ مِقدارِه، والمُسرِفُ هو الآتي بالكَبيرةِ، ومَن أسرف ولو في الصَّغائِرِ يَصيرُ مُجرِمًا؛ لأنَّ الصَّغيرَ إلى الصَّغيرِ إذا انضَمَّ صار كبيرًا، ومَن أجرَمَ فقد أسرَفَ؛ لأنَّه أتى بالكَبيرةِ ولو دَفعةً واحِدةً؛ فالوَصفانِ اجتَمَعا فيهم[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ سُؤالٌ: أيُّ حاجةٍ إلى قَومٍ مِن الملائِكةِ، وواحِدٌ منهم كان يَقلِبُ المدائِنَ بِريشةٍ مِن جَناحِه؟!

**الجوابُ مِن جِهتَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ المَلِكَ القادِرَ قد يأمُرُ الحَقيرَ بإهلاكِ الرَّجُلِ الخَطيرِ، ويأمُرُ الرَّجُلَ الخَطيرَ بخِدمةِ الشَّخصِ الحَقيرِ؛ إظهارًا لِنَفاذِ أمْرِه، فحيث أهلَكَ الخَلقَ الكَثيرَ بالقُمَّلِ والجَرادِ والبَعوضِ، بل بالرِّيحِ الَّتي بها الحياةُ؛ كان أظهَرَ في القُدرةِ، وحيث أمَرَ آلافًا مِنَ الملائكةِ بإهلاكِ أهلِ بَدرٍ مع قِلَّتِهم، كان أظهَرَ في نفاذِ الأمرِ.

**الثَّاني**: أنَّ مَن يكونُ تحتَ طاعةِ مَلِكٍ عَظيمٍ، ويَظهَرُ له عَدُوٌّ، ويَستعينُ بالمَلِكِ فيُعينُه بأكابِرِ عَسكَرِه؛ يكونُ ذلك تعظيمًا منه له، وكُلَّما كان العَدُوُّ أكثَرَ، والمَدَدُ أوفَرَ؛ كان التَّعظيمُ أتَمَّ[2].

٤- قَولُه تعالى: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ استُدِلَّ به على رَجْمِ اللَّائِطِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٨٨).

قال الشنقيطي: (وحجَّةُ مَن قال: إنَّ قتلَه بالرَّجمِ هو ... روايةُ سعيدِ بنِ جُبيرٍ، ومجاهدٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّه يُرجَمُ، وما ذكَره البَيْهَقيُّ وغيرُه عن عليٍّ أنَّه رجَم لوطيًّا، ويُستأنَسُ لذلك بأنَّ الله رمَى أهلَ تلك الفاحشةِ بحجارةِ السِّجِّيلِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ١٩٥). ويُنظر: ((السنن الكبرى)) =

٥- قَولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ متى اتَّصَلت «أَرسَلَ» بـ «على» فهي بمعنى المُبالَغةِ في المُباشَرةِ والعَذابِ، ومتى اتَّصَلت بـ «إلى» فهي أخَفُّ، وانظُرْ ذلك تَجِدْه مُطَّرِدًا[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مِّن طِينٖ﴾ سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في تأكيدِ الحِجارةِ بكَونِها مِن طِينٍ؟

**الجوابُ**: لأنَّ بَعضَ النَّاسِ يُسَمِّي البَرَدَ حِجارةً؛ فقَولُه: ﴿مِّن طِينٖ﴾ يَدفَعُ ذلك التَّوهُّمَ[٢].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ لَمَّا كانوا قد رأَوُا اهتِمامَه عليه السَّلامُ بالعِلمِ بخَبَرِهم؛ خَشيةً مِن أن يَكونوا أُرسِلوا لِعَذابِ أحَدٍ يَعِزُّ عليه أمْرُه؛ أمَّنوا خَوفَه بوَصفِ الإحسانِ، فقالوا: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾، أي: المُحسِنِ إليك بهذه البِشارةِ وغَيرِها[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بيانُ أنَّه ببَركةِ المُحسِنِ ينجو المُسيءُ؛ فإنَّ القَريةَ ما دام فيها المؤمِنُ لم تَهلِكْ[٤].

---

= للبيهقي (٨/ ٤٠٤).

وقال ابن كثير: (وقد ذهَب الإمامُ أبو حنيفةَ رحمه الله إلى أنَّ اللَّائطَ يُلْقى مِن شاهِقٍ، ويُتبَعُ بالحجارةِ، كما فُعِل بقَومِ لوطٍ. وذهب آخَرون مِن العلماءِ إلى أنَّه يُرجَمُ، سواءٌ كان مُحصَنًا أو غيرَ مُحصَنٍ. وهو أحدُ قَولَيِ الشَّافِعيِّ رحمه الله... وقال آخَرون: هو كالزَّاني؛ فإن كان مُحصَنًا رُجِم، وإن لم يكُنْ مُحصَنًا جُلِد مِئةَ جَلْدةٍ. وهو القولُ الآخَرُ للشَّافِعيِّ). ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عَبَّرَ عنهم بـ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ إيمانَهم هو سَبَبُ نَجاتِهم[1].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فُرِّقَ بيْنَ الإسلامِ والإيمانِ هنا لِسِرٍّ اقتضاه الكلامُ؛ فإنَّ الإخراجَ هنا عبارةٌ عن النَّجاةِ، فهو إخراجُ نجاةٍ مِن العذابِ، ولا ريبَ أنَّ هذا مختَصٌّ بالمؤمِنينَ المتَّبِعينَ للرُّسُلِ ظاهِرًا وباطنًا، وقولُه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لَمَّا كان الموجودونَ مِن المخرَجِينَ أوقَعَ اسمَ الإسلامِ عليهم؛ لأنَّ امرأةَ لوطٍ كانت مِن أهلِ هذا البيتِ، وهي مُسلِمةٌ في الظَّاهِرِ؛ فكانت في البيتِ بينَ الموجودينَ، لا في القَومِ النَّاجِينَ، وقد أخبَر سُبحانَه عن خيانةِ امرأةِ لوطٍ، وخيانتُها أنَّها كانت تدُلُّ قومَها على أضيافِه وقلْبُها معهم، وليست خيانةَ فاحشةٍ؛ فكانت مِن أهلِ البيتِ المُسلِمينَ ظاهرًا، وليست مِن المؤمِنينَ النَّاجِينَ، وبهذا خَرَج الجوابُ عن السُّؤالِ المشهورِ وهو: أنَّ الإسلامَ أعمُّ مِن الإيمانِ، فكيفَ استثنَى الأعمَّ مِن الأخصِّ، وقاعدةُ الاستثناءِ تقتضي العَكسَ[2]؟ والمقصودُ أنَّ امرأةَ لوطٍ لم تكُنْ مؤمنةً، ولم تكُنْ مِن النَّاجينَ المخرَجينَ، فلم تدخُلْ في قولِه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وكانت مِن أهلِ البيتِ المسلمينَ، وممَّن وُجِد فيه، ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾. وبهذا تظهَرُ حِكمةُ القرآنِ حيثُ ذكَر الإيمانَ لَمَّا أخبَر بالإخراجِ، وذكَر الإسلامَ لما أخبَر بالوجودِ[3].

١١- الإسلامُ والإيمانُ: تارةً يُرادُ بالإسلامِ كُلُّ الدِّينِ فيَدخُلُ فيه الإيمانُ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]؛ فهذا يَشمَلُ الإسلامَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٧٤).

الَّذي هو الشَّرائِعُ الظَّاهِرةَ، والإيمانَ الَّذي هو أعمالُ القُلوبِ وأقوالُ القُلوبِ، وكذلك إذا أُطلِقَ الإيمانُ، مِثلُ قَولِه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٢٣] يَشمَلُ حتَّى المُسلِمينَ، أمَّا إذا قيل: مُؤمِنٌ ومُسلِمٌ؛ فالإيمانُ في القَلبِ، والإسلامُ في الجوارحِ، والإيمانُ أكمَلُ مِن الإسلام، والدَّليلُ على ذلك قَولُه تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤]، ويدُلُّ عليه أيضًا قَولُ الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾؛ لأنَّ اللهَ أنجى لوطًا وأهلَه إلَّا امرأتَه، وكانت امرأتُه معه في البَيتِ مُسلِمةً، ظاهِرُها أنَّها مُؤمِنةٌ باللهِ ورَسولِه، لكِنَّها تُبطِنُ الكُفرَ؛ فسَمَّى اللهَ البَيتَ بَيتَ إسلام، سَمَّى اللهُ أهلَه مُسلِمينَ كُلَّهم، ولكِنَّه لم يَنجُ منه إلَّا المُؤمِنُ؛ لأنَّ امرأةَ لُوطٍ -كما ذكَرَ اللهُ في القُرآنِ- قد خانَتْه، فكَفَرَت كُفرًا لم يَعلَمْ به؛ فصارتْ بذلك مِنَ المُنافِقينَ.

وعلى هذا فنَقولُ: كُلُّ مُؤمِنٍ مُسلِمٌ دونَ عَكسٍ، وليس كُلُّ مُسلِمٍ مُؤمِنًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾[1] [الحجرات:١٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الكُفرَ إذا غَلَب، والفِسقَ إذا فشا؛ لا تَنفَعُ معه عِبادةُ المُؤمِنينَ، بخِلافِ ما لو كان أكثَرُ الخَلقِ على الطَّريقةِ المُستَقيمةِ، وفيهم شِرْذِمةٌ يَسيرةٌ يَسرِقونَ ويَزنُونَ[2].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى أبقَى آياتٍ -وهي: العَلاماتُ والدَّلالاتُ- فدَلَّ ذلك على أنَّ ما يَخُصُّه مِن أخبارِ المؤمِنينَ، وحُسْنِ عاقبتِهم في الدُّنيا، وأخبارِ الكُفَّارِ، وسُوءِ عاقبتِهم في

---

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨١).

الدُّنيا: هو مِن بابِ الآياتِ والدَّلالاتِ الَّتي يُستدَلُّ بها ويُعتبَرُ بها عِلمًا ووَعظًا؛ فيُفيدُ مَعرِفةَ صِحَّةِ ما أخبَرَتْ به الرُّسُلُ، ويُفيدُ التَّرغيبَ والتَّرهيبَ، ويدُلُّ ذلك على أنَّ اللهَ تعالى يرضَى عن أهلِ طاعتِه ويُكرِمُهم، ويَغضَبُ على أهلِ مَعصيتِه ويُعاقِبُهم(١).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ دَليلٌ على أنَّ آياتِ اللهِ سُبحانَه، وعَجائِبَه الَّتي فَعَلَها في هذا العالَمِ، وأبقَى آثارَها دالَّةً عليه وعلى صِدْقِ رُسُلِه: إنَّما يَنتفِعُ بها مَن يُؤمِنُ بالمَعادِ، ويخشَى عذابَ اللهِ تعالى(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾

- حُكِيَ فِعلُ القولِ ﴿قَالَ﴾ بدُونِ عاطفٍ؛ لأنَّه في مُقاوَلةٍ مُحاوَرةٍ بيْنَه وبيْنَ ضَيفِه(٣).

- الفاءُ فيما حُكِيَ مِن كَلامِ إبراهيمَ في قولِه: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ فَصيحةٌ مُؤْذِنةٌ بكلامٍ مَحذوفٍ ناشئٍ عن المُحاوَرةِ الواقعةِ بيْنَه وبيْنَ ضَيفِه، وهو مِن عطْفِ كَلامٍ على كَلامِ مُتكلِّمٍ آخَرَ؛ فإبراهيمُ خاطَبَ الملائكةَ بلُغتِه ما يُؤدَّى مِثلُه بفَصيحِ الكلامِ العربيِّ بعِبارةِ ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، وتَقديرُ المَحذوفِ: إذ كُنتُم مُرسَلينَ مِن جانبِ اللهِ تعالى، فما خطْبُكم الَّذي أُرسِلْتُم مِن أجْلِه(٤)؟

- وخاطَبَهم بقولِه: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ لأنَّه لا يَعرِفُ ما يُسمِّيهم به إلَّا وصْفَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣١٤).

أنَّهم المُرسَلون، والمُرسَلون مِن صِفاتِ الملائكةِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ * لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾

- الإرسالُ الَّذي في قَولِه: ﴿لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ﴾ مُستعمَلٌ في الرَّمْيِ، كما يُقال: أرسَلَ سَهمَه على الصَّيدِ[٢].

- قولُه: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ عبَّرَ بالرَّبِّ إشارةً إلى كثرةِ إحسانِه إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه إنَّما أمَرَه بالإنذارِ رحمةً لأمَّتِه التي جعَلَها خيرَ الأُمَمِ، وسيجعَلُها أكثَرَ الأمَمِ، ولا يُهلِكُها كما أهلَكَهم[٣].

- قولُه: ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ المسرِفون: المُفرِطون في العِصيانِ، وذلك بكُفْرِهم وشُيوعِ الفاحشةِ فيهم؛ فالمُسرِفون القومُ المُجرِمون، وعُدِلَ عن ضَميرِهم إلى الوصْفِ الظَّاهِرِ ﴿لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾؛ لتَسجيلِ إفراطِهم في الإجرامِ[٤].

- وسمَّاهم مُسرِفينَ، كما سمَّاهم عادِينَ في قولِه: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ﴾[الشعراء: ١٦٦]؛ لإسْرافِهم وعُدوانِهم في عَمَلِهم، حيثُ لم يَقنَعوا بما أُبِيحَ لهم[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ * وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ هذه الجُملةُ ليستْ مِن حِكايةِ كَلامِ الملائكةِ، بلْ هي تَذييلٌ لقصَّةِ مُحاوَرةِ الملائكةِ مع إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٩/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

- والفاءُ في ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ فَصيحةٌ؛ لأنَّها تُفصِحُ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ هو ما ذُكِرَ في سُورةِ (هُودٍ) مِن مَجيءِ الملائكةِ إلى لُوطٍ عليه السَّلامُ وما حدَثَ بيْنه وبيْن قَومِه، فالتَّقديرُ: فحَلُّوا بقَرْيةِ لُوطٍ، فأمَرْناهم بإخراجِ مَن كان فيها مِن المؤمنينَ، فأخْرَجوهم[١].

- وضَميرُ ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ ضَميرُ عظَمةِ الجَلالةِ. وإسنادُ الإخراجِ إلى اللهِ؛ لأنَّه أمَرَ به الملائكةَ أنْ يُبلِّغوه لُوطًا عليه السَّلامُ، ولأنَّ اللهَ يسَّرَ إخراجَ المؤمنينَ ونَجاتَهم؛ إذ أخَّرَ نُزولَ الحجارةِ إلى أنْ خرَجَ المؤمنون[٢].

- قولُه: ﴿مَنْ كَانَ فِيهَا﴾ أيْ: في قُرى قَومِ لُوطٍ عليه السَّلامُ، وأضْمَرَها بغَيرِ ذِكرٍ؛ لشُهْرتِها، ولكَونِها مَعلومةً مِن آياتٍ أُخرى، كقولِه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾[٣] [الفرقان: ٤٠].

- و(مِن) في ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ صِلةٌ؛ لتأْكيدِ النَّفيِ[٤].

- قولُه: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ التَّرْكُ: مُفارَقةُ شَخصٍ شيئًا حصَلَ معه في مكانٍ، ففارَقَ ذلك المكانَ، وأبْقَى منه ما كان معه، والتَّرْكُ في الآيةِ كِنايةٌ عن إبقاءِ الشَّيءِ في مَوضعٍ دونَ مُفارَقةِ التَّارِكِ[٥].

- وقال: ﴿لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ هم المؤمِنونَ بالبَعثِ والجزاءِ مِن أهلِ الإسلامِ وأهلِ الكتابِ دونَ المُشرِكين؛ فإنَّهم لَمَّا لمْ يَنتفِعوا بدَلالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨، ٩).

مَواقعِ الاستِئصالِ على أسبابِ ذلك الاستئصالِ، نُزِّلَت دَلالةُ آيتِه بالنِّسبةِ إليهم مَنزِلةَ ما ليس بآيةٍ، والمعنى: أنَّ الَّذين يَخافون اتَّعَظوا بآيةِ قَومِ لوطٍ، فاجتَنَبوا مِثلَ أسبابِ إهلاكِهم، وأنَّ الَّذين أشْرَكوا لا يتَّعِظون فيُوشِكُ أنْ يَنزِلَ عليهم عذابٌ أليمٌ(١).

- وفيه مُناسبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾، وقال في سُورةِ (العَنكبوتِ): ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]، وبيْنَهما في اللَّفظِ فرْقٌ؛ قال هاهنا: ﴿ءَايَةً﴾، وقال هناك: ﴿ءَايَةَۢ بَيِّنَةً﴾، وقال هناك: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، وقال هاهنا: ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ آيةَ سُورةِ (العنكبوتِ) مَذْكورةٌ بأبلَغِ وَجْهٍ، يدُلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿ءَايَةَۢ بَيِّنَةً﴾ حيثُ وصَفَها بالظُّهورِ، وكذلك ﴿مِنْهَآ﴾ و﴿فِيهَآ﴾؛ فإنَّ (مِن) للتَّبعيضِ؛ فكأنَّه تعالى قال: مِن نفْسِها لكمْ آيةً باقيةً، وكذلك قال: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾؛ فإنَّ العاقلَ أعمُّ مِن الخائفِ؛ فكانت الآيةُ هناك أظهَرَ، وسَببُه: أنَّ القصْدَ هناك تَخويفُ القَومِ، وهاهنا تَسليةُ القلْبِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨١).

## الآيات (٣٨-٤٦)

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ٣٩ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠ وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢ وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ٤٣ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٤٤ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ٤٥ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ٤٦ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾: أي: حُجَّةٍ، وأصلُ السُّلطانِ: يدُلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ والتَّسلُّطِ[١].

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾: أي: فأدبَرَ وأعرَضَ؛ فـ(التَّولِّي) إذا عُدِّيَ بـ(عن) لَفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتَضى معنى الإعراضِ[٢].

﴿بِرُكۡنِهِۦ﴾: أي: بجانِبِه، وبما يَركَنُ إليه مِنَ القُوَّةِ في نَفْسِه وأعوانِه وجُنودِه، وأصلُ (ركن): يدُلُّ على قُوَّةٍ[٣].

﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ﴾: أي: طرَحْناهم وألقَيْناهم، والنَّبذُ: إلقاءُ الشَّيءِ وطَرحُه؛ لِقلَّةِ الاعتِدادِ به[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧، ٤٢٠، ٧٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥، ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، =

﴿ٱلۡيَمِّ﴾: أي: البَحرِ[١].

﴿مُلِيمٞ﴾: أي: مُسيءٌ، مُذنِبٌ، آتٍ بما يُلامُ عليه، وأصلُ (لوم): يدُلُّ على عَتْبٍ[٢].

﴿ٱلۡعَقِيمَ﴾: أي: الَّتي لا خَيرَ فيها؛ فلا تأتي بمطرٍ ولا سحابٍ، ولا تُلقِحُ شجرًا، إنَّما هي للإهلاكِ، وأصلُ (عقم): يدُلُّ على غُمُوضٍ وضِيقٍ وشِدَّةٍ[٣].

﴿تَذَرُ﴾: أي: تَترُكُ وتَدَعُ، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه؛ لِقِلَّةِ اعتِدادِه به[٤].

﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾: أي: كالشَّيءِ الهالِكِ البالي. والرَّميمُ: ما يَبِسَ مِن نَباتِ الأرضِ وتفَتَّتَ ودِيسَ، وأصلُ (رمم) هنا: يدُلُّ على بَلاءِ الشَّيءِ[٥].

﴿فَعَتَوۡاْ﴾: أي: تكَبَّروا وتجَبَّروا، والعُتُوُّ: الخُروجُ عن الطَّاعةِ، وأصلُه يدُلُّ

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٤٧٤-٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٠).

على استِكبارٍ[١].

﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: أي: الصَّيحةُ الَّتي يموتُ مَن يَسمعُها، أو يُغشَى عليه. وقيل: كُلُّ عَذابٍ مُهلِكٍ. وقيل: الصَّاعِقةُ: الصَّوتُ الشَّديدُ مِنَ الرَّعدِ، يَسقُطُ معها قِطعةُ نارٍ، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شِدَّة الصَّوتِ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصصِ موسى وهودٍ وصالحٍ ونوحٍ -عليهم السَّلامُ- معَ أقوامِهم، فيقولُ: وفي قِصَّةِ مُوسى آيةٌ وعِبرةٌ حينَ أرسَلْناه إلى فِرعَونَ بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ، فأعرَضَ فِرعَونُ مُستَقْوِيًا بجُنْدِه، وقال لموسى: أنت ساحِرٌ أو مَجنونٌ!

فأخَذَ اللهُ فِرعَونَ وجُنودَه، فطَرَحَهم في البَحرِ، فغَرِقوا والحالُ أنَّ فِرعَونَ قد أتَى بما يُلامُ عليه مِنَ الكُفرِ والظُّلمِ.

وفي قِصَّةِ عادٍ آيةٌ وعِبرةٌ حينَ أرسَلْنا عليهم الرِّيحَ العقيمَ الَّتي لا خَيرَ فيها، فما تَركَت تلك الرِّيحُ شَيئًا ممَّا مَرَّت عليه إلَّا صَيَّرَتْه باليًا مُفتَّتًا!

وفي قِصَّةِ ثَمودَ آيةٌ وعِبرةٌ حينَ قال لهم نَبيُّهم صالحٌ: تَمتَّعوا في الدُّنيا إلى وَقتِ انتِهاءِ آجالِكم، فأعرَضوا عن أمرِ اللهِ وتكَبَّروا، فأخَذَتْهم صاعِقةُ العَذابِ، وهم يَنظُرونَ إلى عُقوبةِ اللهِ النَّازِلةِ بهم، فما استَطاعوا أن يَفِرُّوا مِن عَذابِ اللهِ، ولا أنْ يَدفَعوه عن أنفُسِهم، وما كانوا مُنتَصِرينَ!

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير البغوي)) (١/ ٩١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

وأهلَكْنا قَومَ نُوحٍ مِن قَبلِ تلك الأُمَمِ؛ إنَّهم كانوا قَومًا كافِرينَ، خارِجينَ عن طاعةِ اللهِ تعالى.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨ ﴾.

أي: وفي قِصَّةِ مُوسى آيةٌ وعِبرةٌ حينَ أرسَلْناه إلى فِرعَونَ بحُجَّةٍ واضِحةٍ ظاهِرةٍ دالَّةٍ على صِدقِه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٧، ٥٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩، ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (أي: في قِصَّةِ موسى آيةٌ أيضًا. هذا قَولُ الأكثَرينَ، ومنهم مَن لم يذكُرْ غَيرَه، كأبي الفَرَجِ [ابن الجوزي]. وقيل: هو عَطفٌ على قَولِه: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٢٠] ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾، وهو ضَعيفٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧١).

وقال الشَّوكاني: (قوله: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ ﴾ مَعطوفٌ على «فيها» مِن قَولِه ﴿ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ ﴾ [الذاريات: ٣٧] بإعادةِ الخافِضِ، والتَّقديرُ: وترَكْنا في قِصَّةِ موسى آيةً، أو معطوفٌ على ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [الذاريات: ٢٠] والتَّقديرُ: وفي الأرضِ وفي موسى آياتٌ. قاله الفرَّاءُ وابنُ عطيَّةَ والزمخشريُّ. قال أبو حيَّانَ: وهو بَعيدٌ جِدًّا، يُنَزَّهُ القرآنُ عن مِثْلِه... والوَجهُ الأوَّلُ هو الأَوْلى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابنُ عطيَّةَ)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٧، ٥٥٨).

وقال السَّمينُ الحلبي تعليقًا على كلامِ أبي حيان: (ووَجْهُ استِبعادِه له: بُعْدُ ما بَيْنَهما). ((الدر المصون)) (١٠/ ٥٣).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ في قِصَّةِ موسى وفِرعونَ آيةً للَّذين يَخافونَ العذابَ الأليمَ، فيَجتَنِبونَ مِثلَ أسبابِ ما حَلَّ بفِرعَونَ وقَومِه مِن العذابِ، وهي الأسبابُ الَّتي ظهرَت في مُكابَرةِ فِرعَونَ عن تصديقِ الرَّسولِ الَّذي أُرسِلَ إليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[الأعراف: ١٠٦ - ١٠٨].

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾.

أي: فأعرَضَ فِرعَونُ بجانبِه عن الحقِّ واتِّباعِه، مُستَقْوِيًا بجُنْدِه الَّذين يَعتمِدُ عليهم، ويَركَنُ إليهم في شَدائِدِه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤، ٥٣٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٣).

قال ابن عثيمين: (﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أي: بقوَّتِه وسُلطانِه وجُندِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٥٣).

وقال البِقاعي: (﴿ بِرُكْنِهِۦ ﴾ أي: بسَبَبِ ما يَركَنُ إليه مِنَ القُوَّةِ في نَفْسِه، وبأعوانِه وجُنودِه، أو بجَميعِ جُنودِه؛ كنايةً عن المبالَغةِ في الإعراضِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٦٩).

وقيل: المعنى: أعرَض بجانبِه عن الحَقِّ رَفضًا له وعِنادًا وكِبرًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٢، ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠).

قال الواحدي: (وقولُه: ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ ومقاتِلٌ: أي: بجَمْعِه وجُنْدِه ورَهْطِه. وعلى هذا سَمَّى جَمْعَه رُكنًا له؛ لأنَّه يَتقَوَّى بهم، كالبُنْيانِ يتقَوَّى برُكنِه. والباءُ يكونُ في ﴿ بِرُكْنِهِۦ ﴾ للتَّعْديةِ، أي: جعَلَهم يَتولَّونَ. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: تولَّى هو بسَبَبِ جُنْدِه، أي: بقُوَّتِهم وشَوكَتِهم، كما تقولُ: فعَلتُ هذا بقُوَّةِ فُلانٍ. وقال الفَرَّاءُ: أعرَضَ بقُوَّتِه في نَفْسِه، وعلى هذا رُكْنُه: قُوَّتُه. وهذا راجِعٌ إلى الأوَّلِ؛ لأنَّ قُوَّتَه بجُنْدِه. وقال أبو عُبَيدةَ: ﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ وبجانِبِه: سَواءٌ، إنَّما هي ناحيتُه. وهو اختيارُ ابنِ قُتَيْبَةَ، قال: فتَوَلَّى برُكْنِه، ونأَى بجانِبِه: سَواءٌ. وعلى هذا رُكْنُه: نَفْسُه. وهو قَولُ المؤَرِّجُ، قال: برُكْنِه: بجانِبِه). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٥٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٧)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٢٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢).

قال الألوسي: (﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ ﴾ فأعرَضَ عن الإيمانِ بموسى عليه السَّلامُ، على أنَّ رُكنَه جانِبُ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ [النازعات: ٢٠ - ٢٢].

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾.

أي: وقال فِرعَونُ: إمَّا أنَّ موسى ساحِرٌ يَسحَرُ النَّاسَ، أو هو مَجنونٌ لا عَقْلَ له[١]!

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠﴾.

أي: فأخَذْنا فِرعَونَ وجُنودَه، فطَرَحْناهم في البَحرِ، فغَرِقوا والحالُ أنَّ فِرعَونَ قد أتَى بما يُلامُ عليه مِنَ الكُفرِ والظُّلمِ، فاستحقَّ عذابَ اللهِ تعالى[٢].

﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

انتِقالٌ إلى العِبرةِ بأُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ العَربيَّةِ -وهم عادٌ-، وهم أشهَرُ العَرَبِ البائِدةِ[٣]؛ .....

---

= بدَنِه وعِطْفه... والباءُ للتَّعديةِ؛ لأنَّ معناه: ثَنى عِطْفَه، أو للمُلابَسةِ. وقال قَتادةُ: تَولَّى بقَومِه، على أنَّ الرُّكنَ بمعنَى القَومِ؛ لأنَّه يَركَنُ إليهم، ويَتقوَّى بهم، والباءُ للمُصاحَبةِ أو المُلابَسةِ، وكَوْنُها للسَّببيَّةِ غيرُ وجيهٍ. وقيل: تولَّى بقوَّتِه وسُلطانِه). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٦). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠).

قال ابن عثيمين: (البَحرُ الَّذي هَلَك فيه فِرعَونُ هو البَحرُ الأحمرُ، الَّذي بيْنَ آسيا وأفريقيا). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١).

تَسليةً لِنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: وفي قِصَّةِ عادٍ آيةٌ وعِبرةٌ حينَ أرسَلْنا عليهم الرِّيحَ الشَّديدةَ الَّتي لا خَيرَ ولا بَرَكةَ فيها؛ فلا تُلقِحُ شَجَرًا، ولا تَسوقُ مَطَرًا[٢].

كما قال تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٦].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نُصِرْتُ بالصَّبَا[٣]، وأُهلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ[٤]))[٥].

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: ما تَترُكُ تلك الرِّيحُ العَقيمُ شَيئًا ممَّا تمُرُّ عليه إلَّا صَيَّرَتْه كالشَّيءِ البالي اليابِسِ المُفتَّتِ[٦]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٥).

(٣) الصَّبا: هي الرِّيحُ الشَّرقيَّةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٩٨).

(٤) الدَّبُور: هي الرِّيحُ الغَربيَّةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٩٨).

(٥) أخرجه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢).

قال ابنُ عاشور: (هذا العُمومُ مُخَصَّصٌ بدليلِ العَقلِ؛ لأنَّ الرِّيحَ إنَّما تُبلِي الأشياءَ الَّتي تمُرُّ =

كما قال الله سبحانَه وتعالَى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: وفي قِصَّةِ ثَمودَ آيةٌ وعِبرةٌ حينَ قال لهم نَبيُّهم صالحٌ: تَمتَّعوا في الدُّنيا إلى وَقتِ انتِهاءِ آجالِكم(١)!

---

= عليها إذا كان شأنُها أن يتطرَّقَ إليها البِلَى؛ فإنَّ الرِّيحَ لا تُبلي الجبالَ ولا البِحارَ ولا الأوديةَ وهي تمُرُّ عليها، وإنَّما تُبلي الدِّيارَ والأشجارَ والنَّاسَ والبَهائِمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١).

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: (ومعروفٌ مِن كلامِ العرَبِ الإتيانُ بلَفظِ العُمومِ والمرادُ به الخُصوصُ، ألَا ترى إلى قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وهذه الإشارةُ في النَّاسِ إنَّما هي إلى رجُلٍ واحدٍ أخبَر أصحابَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّ قُرَيْشًا جمعَتْ لهم، وجاء اللَّفظُ كما ترى على العُمومِ. ومِثلُه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، ﴿مَا نَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾، ومِثلُ هذا كثيرٌ لا يَجهَلُه إلَّا مَن لا عنايةَ له بالعِلمِ). ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) (٢١/ ٢٦٥).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورة الأحقاف الآية (٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ لقولِه تعالى: ﴿تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٨).

قال السمرقندي: (قال لهم نبيُّهم صالحٌ عليه السَّلامُ: عِيشوا إلى مُنتهى آجالِكم، ولا تَعصوا أمْرَ اللهِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٦).

وقال ابنُ أبي زَمَنين: (إلى آجالِكم بغيرِ عذابٍ إن آمَنْتُم، وإن عصَيْتُم عُذِّبْتُم). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٩).

وقد ذهب الفرَّاءُ، والواحديُّ، والقرطبي، والشوكاني، وابنُ عثيمين: إلى أنَّ المرادَ بالتَّمَتُّعِ المذكورِ هنا: التَّمتُّعُ في ديارِهم ثلاثةَ أيَّامٍ بعدَ أنْ عَقَروا النَّاقةَ، كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا =

﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾.

أي: فتَرَك كُفَّارُ ثَمودَ أمْرَ اللهِ، وأعرَضوا عن امتِثالِه؛ تكَبُّرًا منهم[1].

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ * إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾ [الشمس: ١١ - ١٤].

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾.

أي: فأخَذَتْهم صاعِقةُ العَذابِ والحالُ أنَّهم يَنظُرونَ إلى عُقوبةِ اللهِ النَّازِلةِ

---

= فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود: ٦٥]. وضعَّف هذا القَولَ: الرَّازيُّ وأبو حيَّانَ وابنُ عاشور؛ لأنَّ قَولَه تعالى بَعْدَها: ﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ [الذاريات: ٤٤] بحَرفِ (الفاء) يدُلُّ على أنَّ العُتُوَّ كان بعدَ قَولِه: ﴿تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٧).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ﴿حِينٍ ﴾ زَمَنٌ مُبهَمٌ، جُعِلَ نِهايةً لِما مُتِّعوا به مِنَ النِّعَمِ؛ فإنَّ نِعَمَ الدُّنيا زائلةٌ، وذلك الأجَلُ: إمَّا أنْ يُرادَ به أجَلُ كُلِّ واحدٍ منهم الَّذي تَنتهي إليه حياتُه، وإمَّا أن يُرادَ به أجَلُ الأُمَّةِ الَّذي يَنتهي إليه بقاؤُها، وهذا نحوُ قَولِه تعالى: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [هود: ٣]، فكما قاله اللهُ للنَّاسِ على لسانِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لعَلَّه قاله لِثَمودَ على لسانِ صالحٍ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣).

قال ابن جُزَي: (﴿حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ الحِينَ هي الثَّلاثةُ الأيَّامُ بعدَ عَقْرِهم النَّاقةَ. والآخَرُ. أنَّ الحينَ مِن بَعدِ ما بُعِث صالحٌ عليه السَّلامُ إلى حينِ هَلاكِهم، وعلى هذا يكونُ ﴿ فَعَتَوْا۟ ﴾ مُترتِّبًا بعدَ تمتُّعِهم، وأمَّا على الأوَّلِ فيَكونُ إخبارًا عن حالِهم، غيرَ مرتَّبٍ على ما قبْلَه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣).

بهم[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ﴾.

أي: فما استَطاعوا أن يَفِرُّوا مِن عَذابِ اللهِ، ولا أن يَدفَعوه عن أنفُسِهم[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣، ١٤).

قال ابن عطيَّة: (قَولُه: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ: فَجأةً وهم يُبصِرونَ بعُيونِهم حالَهم...، ويحتَمِلُ أن يريدَ: وهم يَنتظِرونَ ذلك في تلك الأيَّامِ الثَّلاثةِ الَّتي أُعلِموا به فيها، ورَأَوا علاماتِه في تلَوُّنِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٠).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: يَرَوْنَ ذلك ويُبصِرونَه ويُعاينونَه: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابن جُزَي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يَنتظِرون: مكِّي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٤٢).

وقال البِقاعي: (﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ بسَبَبِ عُتُوِّهم أخْذَ قَهرٍ وعَذابٍ ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: الصَّيحةُ العَظيمةُ الَّتي حمَلَتْها الرِّيحُ، فأوصَلَتْها إلى مَسامِعِهم بغايةِ العَظَمةِ، ورَجَّت ديارَهم رَجَّةً أزالت أرواحَهم بالصَّعْقِ، وقَولُه: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ دالٌّ على أنَّها كانت في غَمامٍ، وكان فيها نارٌ، ويجوزُ -مع كَونِه مِنَ النَّظَرِ- أنْ يكونَ أيضًا مِنَ الانتِظارِ؛ فإنَّهم وُعِدوا نُزولَ العذابِ بعدَ ثلاثةِ أيَّامٍ، وجُعِلَ لهم في كُلِّ يومٍ عَلامةٌ وَقَعت بهم، فتحَقَّقوا وُقوعَه اليومَ الرَّابعَ!). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير ابن =

= كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤).

قال الرازي: (قَولُه تعالى: ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ ﴾ يحتَمِلُ وَجهَينِ؛ أَحَدُهما: أنَّه لِبَيانِ عَجْزِهم عن الهَربِ والفِرارِ على سَبيلِ المُبالَغةِ؛ فإنَّ مَن لا يَقدِرُ على قيامٍ كيف يَمشي فضلًا عن أن يَهرُبَ... الوجهُ الثَّاني: هو أنَّ المرادَ ﴿مِن قِيَامٖ ﴾ القيامُ بالأمرِ، أي: ما استطاعوا مِن قيامٍ به). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٥).

وقال القرطبي: (﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ ﴾ قيل: معناه: مِن نُهوضٍ. وقيل: ما أطاقوا أن يَستَقِلُّوا بعذابِ اللهِ، وأنْ يتحَمَّلوه ويَقوموا به، ويَدفَعوه عن أنفُسِهم، تقولُ: لا أقومُ لهذا الأمرِ، أي: لا أُطيقُه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥١).

ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ ﴾ عِبارةٌ عن جُثومِهم، وأنَّه كقولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾: الزمخشريُّ، والبيضاوي، وأبو حيَّان، والنيسابوري، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٧).

وقال جلال الدين المحلي: (ما قَدَروا على النُّهوضِ حِينَ نُزولِ العذابِ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٥)، وذكر نحوَه: الرَّسْعَني، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٢٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٠٩).

وقال السمعاني: (وَقَعوا وُقوعًا لم يَستطيعوا بعدَه القيامَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦١).

وقال الشوكاني: (﴿ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ ﴾ أي: لم يَقدِروا على القيامِ. قال قَتادةُ: مِن نُهوضٍ، يعني: لم يَنهَضوا مِن تلك الصَّرْعةِ، والمعنى: أنَّهم عَجَزوا عن القيامِ، فضْلًا عن الهَرَبِ، ومِثلُه قَولُه: ﴿فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٩).

وقال ابنُ جرير: (فما استَطاعوا مِن دِفاعٍ لِما نزَل بهم مِن عذابِ الله، ولا قدَروا على نُهوضٍ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: ما استَطاعوا أن يَقوموا لعذابِ الله: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسَّمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٧).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: فما قاموا بعدَ نُزولِ العذابِ بهم، ولا قدَروا على نُهوضٍ به ولا دفاعٍ: الثعلبيُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٧).

﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الإنسانُ قد لا يَتمَكَّنُ مِن القِيامِ؛ لعارِضٍ في رِجْلَيه، ويَنتَصِفُ مِن عَدُوِّه بما يُرَتِّبُه مِن عَقْلِه، ويُدَبِّرُه برَأيه- قال[1]:

﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾.

أي: وما كان كُفَّارُ ثَمودَ قادِرينَ على الانتِصارِ بأيِّ وَسيلةٍ كانت[2]!

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أتَمَّ قِصَّةَ مَن أُهلِكوا بما مِن شَأنِه الإهلاكُ -وهو الصَّاعِقةُ-؛ أتْبَعَهم قِصَّةَ مَن أُهلِكوا بما مِن شأنِه الإحياءُ، وهو الماءُ[3].

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ٤٦﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

في قَولِه تعالى: ﴿وَقَوْمَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿وَقَوْمِ﴾ بكَسرِ الميمِ، على معنى: وفي قَومِ نُوحٍ آيةٌ وعِبرةٌ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٢).

(٤) قرأ بها أبو عَمرٍو، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٠، ٦٨١).

٢- قِراءةُ ﴿ وَقَوْمَ ﴾ بفَتحِ الميمِ، على معنى: أهلَكْنا قَومَ نُوحٍ، أو أغرَقْناهم، أو اذكُرْ قَومَ نوحٍ(١).

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ﴾.

أي: وأهلَكْنا قَومَ نُوحٍ مِن قَبلِ تلك الأُمَمِ؛ فهم أوَّلُ مَن كذَّبوا بالحَقِّ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفرقان: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾.

أي: إنَّهم كانوا قومًا كافِرينَ عُصاةً، خارِجينَ عن طاعةِ اللهِ تعالى(٣).

كما قال تعالى: ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ [النجم: ٥٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ بِشارةُ المُؤمِنينَ. وَجهُه: أنَّ مَن التقَمَه الحوتُ وهو مُليمٌ، نجَّاه اللهُ

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠).

تعالى بتَسبيحِه[١]، ومَن أهلَكَه اللهُ بتَعذيبِه لم ينفَعْه إيمانُه حينَ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[٢] [يونس: ٩٠].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِى ٱلۡيَمِّ﴾ فيه دَلالةٌ على غايةِ عِظَمِ شأنِ القُدرةِ الرَّبَّانيَّةِ، ونِهايةِ ذِلَّةِ فِرعونَ وقَومِه[٣].

٢- أنَّ الشَّيءَ الواحِدَ قد يكونُ خيرًا وقد يكونُ شَرًّا بحَسَبِ آثارِه ونتائِجِه؛ فالرِّياحُ في موضعٍ هي: ﴿بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [النمل: ٦٣]، وعلى عادٍ ونَحوِهم عذابٌ ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾، والكلُّ مِن فِعلِه تبارك وتعالى[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ دَليلٌ على أنَّ سائِرَ الرِّياحِ تُلَقِّحُ الأشجارَ، وتُودِعُها الثِّمارَ بإذنِ الجبَّارِ؛ فكانت تلك وَحْدَها عَقيمًا أُثيرَتْ للعَذابِ لا لمنافِعِ العِبادِ في أشجارِهم وزُروعِهم[٥].

٤- ذُكرتِ الرِّياحُ في القُرآنِ جَمعًا ومُفرَدةً؛ فحيث كانت في سياقِ الرَّحمةِ أتتْ مجموعةً، وحيثُ وقَعَتْ في سياقِ العَذابِ أتتْ مُفرَدةً؛ وسِرُّ ذلك أنَّ رياحَ الرَّحمةِ مُختَلِفةُ الصِّفاتِ والمهابِّ والمَنافِعِ، وأمَّا في العذابِ فإنَّها تأتي مِن وجهٍ واحدٍ وصِمَامٍ واحدٍ لا يقومُ لها شَيءٌ، ولا يعارِضُها غيرُها حتَّى تنتهيَ

---

(١) كما في قولِه تعالى عن يونسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ * فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٣٩ - ١٤٤].

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة النمل)) (ص: ٣٧٦).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٧).

إلى حيث أُمِرَتْ؛ ولهذا وَصَفَ سُبحانَه الرِّيحَ الَّتي أَرسلَها على عادٍ بأنَّها عقيمٌ، فقال سُبحانَه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، وهي الَّتي لا تُلقِحُ[1]، ولا خيرَ فيها[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ سؤالٌ: هل في هذا تخصيصٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]؟

**الجوابُ**: أنَّ المرادَ به المُبالَغةُ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿أَتَتْ عَلَيْهِ﴾ وصْفٌ لِقَولِه: ﴿شَيْءٍ﴾، كأنَّه قال: كُلَّ شَيءٍ أتت عليه، أو كُلَّ شَيءٍ تأتي عليه. ولا يدخُلُ فيه السَّمَواتُ؛ لأنَّها ما أتت عليه، وإنَّما يَدخُلُ فيه الأجسامُ الَّتي تَهَبُّ عليها الرِّياحُ[3].

---

(١) أي: لا تُلقِحُ شَجرًا، ولا تُنشِئُ سَحابًا، ولا تَحمِلُ مطرًا، إنَّما هي ريحُ الإهلاكِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ١٨٩)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٨).

قال ابن عطية: (الرِّياحُ جَمعُ رِيحٍ، وجاءت في القُرآنِ مَجموعةً مع الرَّحمةِ، مُفرَدةً مع العذابِ، إلَّا في «يُونُسَ» في قَولِه تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ٢٢]، وهذا أغلَبُ وُقوعِها في الكَلامِ). ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢٣٣).

وقال ابنُ القيِّمِ في توجيهِ إفرادِ الرَّحمةِ في سورةِ «يونس»: (ذكَرَ ريحَ الرَّحمةِ الطَّيِّبةَ بلفظِ الإفرادِ؛ لأنَّ تمامَ الرَّحمةِ هناك إنَّما تَحصُلُ بوَحدةِ الرِّيحِ، لا باختِلافِها؛ فإنَّ السَّفينةَ لا تَسيرُ إلَّا بريحٍ واحدةٍ مِن وجهٍ واحدٍ تُسَيِّرُها، فإذا اختلفَتْ عليها الرِّياحُ وتصادمَتْ وتقابلَتْ فهو سببُ الهلاكِ، فالمطلوبُ هناك ريحٌ واحدةٌ لا رياحٌ، وأُكِّد هذا المعنى بوصفِها بالطِّيبِ؛ دفْعًا لِتَوهُّمِ أن تكونَ ريحًا عاصفةً، بل هي ممَّا يُفرَحُ بها؛ لِطِيبِها). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١١٩).

وقال ابنُ عاشور: (الرِّياحُ حيثُما وقَعَت في القُرآنِ فهي مُقتَرِنةٌ بالرَّحمةِ، كقَولِه: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢].

وأكثَرُ ذِكرِ الرِّيحِ المُفرَدةِ أن تكونَ مُقتَرِنةً بالعَذابِ، كقَولِه: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، ونحوِ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٩٧).

فإن قيل أنَّ الجِبالَ والصُّخورَ أتتْ عليه وما جعَلَتْه كالرَّميمِ.

**فالجوابُ**: أنَّ المرادَ: أتتْ عليه قاصِدةً له، وهو عادٌ وأبنِيتُهم وعُروشُهم؛ لأنَّها كانت مأمورةً بأمرٍ مِن عندِ اللهِ، فكأنَّها كانت قاصِدةً لهم، فما ترَكَت شَيئًا مِن تلك الأشياءِ إلَّا جعَلَتْه كالرَّميمِ(١).

٦- قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ تأمَّلِ الآيةَ؛ كيف أنَّ قَومَ عادٍ قَومٌ أقوياءُ أشِدَّاءُ، حتى إنَّهم قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]! فقال اللهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فهَلَكوا بهذه الرِّيحِ اللَّطيفةِ الَّتي لا تَرى لها جِسمًا، وإنَّما تُحِسُّ بها بدون أنْ ترى شيئًا! ومع ذلك قَضَتْ عليهم بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾، فهذا فيه آياتٌ مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ، أَرسلَ اللهُ عليهم هذه الرِّيحَ فأهلكَتْهم عن آخِرِهم(٢)!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ لطيفةٌ لَفظيةٌ؛ فإنَّ الاستِطاعةَ دونَ القُدرةِ؛ لأنَّ في الاستِطاعةِ دَلالةَ الطَّلَبِ، وهو يُنبِئُ عن عَدَمِ القُدرةِ والاستِقلالِ، فمَنِ استَطاع شيئًا كان دونَ مَن يَقدِرُ عليه(٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ عطْفٌ على ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ﴾ [الذَّاريات: ٢٠] -على قولٍ-؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا ذمَّ الخَرَّاصينَ الأفَّاكينَ، ووصَفَهم بما به أوقَعوا أنفُسَهم في تلك الوَرَطاتِ، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٥).

أنَّهم في غَمَراتِ الجَهلِ، وسَكراتِ السَّهوِ، يَتورَّطون فيما لا يَعنِيهم مِن السُّؤالِ عن أيَّانِ السَّاعةِ، مع إنْكارِ مَجيئِها، والامتناعِ مِن الاستعدادِ لها، وأوعَدَهم على ذلك بقولِه: ﴿ذُوقُواْ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذَّاريات: ١٤]، وجعَلَه مُخلِّصًا إلى ذِكرِ أضْدادِهم، وذِكرِ ما به فازَوا إلى النَّعيمِ المُقيمِ؛ مِن أخْذِ التَّأهُّبِ للمَعادِ، والتَّهيُّؤِ لاستعدادِ زاد يومِ التَّنادِ -أتَى بعْدَ ذلك بدَليلٍ للآفاقِ والأنفُسِ؛ تنْبيهًا لهم، وإيقاظًا مِن سِنةِ الغفْلةِ، وعُطِفَ عليه قصَّةُ مُوسى وفِرعونَ اتِّعاظًا وتَخويفًا، وأمَّا قصَّةُ إبراهيمَ ولوطٍ عليهما السَّلامُ، فمُعترِضَتانِ بيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ تَسليةً لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تَكذيبِهم، ووعْدًا له بإهلاكِ أعدائِه الأفَّاكينَ كما أُهلِكَ قومُ لُوطٍ[1].

أو قولُه: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ ...﴾ عطْفٌ على قَولِه: ﴿فِيهَآ ءَايَةً﴾ [الذَّاريات: ٣٧]، والتَّقديرُ: وترَكْنا في مُوسى آيةً؛ فهذا العطْفُ مِن عطْفِ جُملةٍ على جُملةٍ، لتَقديرِ فِعْلِ: (ترَكْنا) بعدَ واوِ العطْفِ، والكلامُ على حذْفِ مُضافٍ، أي: في قصَّةِ مُوسى حينَ أرسَلْناهُ إلى فِرعونَ بسُلطانٍ مُبينٍ فتَولَّى... إلخ، فيكونُ التَّرْكُ المُقدَّرُ في حرْفِ العطْفِ مُرادًا به جَعْلُ الدَّلالةِ باقيةً، فكأنَّها مَتروكةٌ في الموضعِ لا تُنقَلُ منه[2].

- قيل: أُعقِبَتْ قصَّةُ قَومِ لوطٍ بقصَّةِ مُوسى وفِرعونَ؛ لشُهرةِ أمْرِ مُوسى وشَريعتِه، ولِما بيْنَهما مِن تَناسُبٍ في أنَّ العذابَ الَّذي عُذِّبَ به الأُمَّتانِ عَذابٌ أرضيٌّ؛ إذ عُذِّبَ قومُ لوطٍ بالحِجارةِ الَّتي هي مِن طِينٍ، وعُذِّبَ قومُ فِرعونَ بالغرَقِ في البحْرِ، ثمَّ ذُكِرَ عادٌ وثمودُ، وكان عذابُهما سَماويًّا؛ إذ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٧، ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩).

عُذِّبَت عادٌ بالرِّيحُ، وثمودُ بالصَّاعقةِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ تَمثيلٌ لهَيئةِ رفْضِ فِرعونَ دَعوةَ مُوسى بهَيئةِ المُنصرِفِ عن شخْصٍ، وبإيرادِ قولِه: ﴿بِرُكْنِهِۦ﴾ تمَّ التَّمثيلُ، والمعنى: أنَّ في قصَّةِ مُوسى وفِرعونَ آيةً للَّذين يَخافونَ العذابَ الأليمَ، فيَجتنِبونَ مِثلَ أسبابِ ما حلَّ بفِرعونَ وقَومِه مِن العَذابِ، وهي الأسبابُ الَّتي ظهَرَتْ في مُكابَرةِ فِرعونَ عن تَصديقِ الرَّسولِ الَّذي أُرسِلَ إليه، وأنَّ الَّذين لا يَخافون العذابَ ولا يُؤمنون بالبَعثِ والجَزاءِ لا يتَّعِظون بذلك؛ لأنَّهم لا يُصدِّقون بالنَّواميسِ الإلهيَّةِ، ولا يَتدبَّرون في دَعوةِ أهلِ الحقِّ، فهمْ لا يَزالون مُعرِضينَ ساخِرينَ عن دَعوةِ رَسولِهم، مُتكبِّرين عليه، مُكابِرينَ في دَلائلِ صِدْقِه، فيُوشِكُ أنْ يَحُلَّ بهم مِن مِثلِ ما حلَّ بفِرعونَ وقَومِه؛ لأنَّ ما جاز على المِثلِ يَجوزُ على المُماثِلِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ عطْفٌ على قَولِه: ﴿فِيهَآ ءَايَةً﴾ [الذَّاريات: ٣٧]، والتَّقديرُ: وترَكْنا في عادٍ آيةً، فهذا العطْفُ مِن عطْفِ جُملةٍ على جُملةٍ؛ لتَقديرِ فِعْلِ: (ترَكْنا) بعدَ واوِ العطْفِ، والكلامُ على حذْفِ مُضافٍ، أي: في قصَّةِ عادٍ حِينَ أرسَلْنا عليهمُ الرِّيحَ العقيمَ... إلخ؛ فيكونُ التَّرْكُ المُقدَّرُ في حرْفِ العطْفِ مُرادًا به جَعلُ الدَّلالةِ باقيةً، فكأنَّها مَتْروكةٌ في الموضعِ لا تُنقَلُ منه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩، ١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٠، ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١١).

- قولُه: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ وُصِفتْ الرِّيحُ بالعُقْمِ؛ لأنَّها أهلكَتْهم، وقطَعَتْ دابرَهم، أوْ لأنَّها لم تَتضمَّنْ خيرًا ما؛ مِنْ إنشاءِ مطَرٍ، أو إلْقاحِ شجَرٍ. والعرَبُ يَكرَهونَ العُقْمَ في مَواشِيهم، فالرِّيحُ كالنَّاقةِ العَقيمِ لا تُثمِرُ نسْلًا ولا دَرًّا؛ فوصْفُ الرِّيحِ بالعَقيمِ تَشبيهٌ بَليغٌ في الشُّؤمِ(١).

- وجُملةُ ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ، أو حالٌ، فهو ارتقاءٌ في مَضرَّةِ هذه الرِّيحِ؛ فإنَّها لا تَنفَعُ، وأنَّها تضُرُّ أضرارًا عظيمةً(٢).

- وصِيغَ ﴿تَذَرُ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ لاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ، و﴿شَيْءٍ﴾ في مَعنى المفعولِ لـ ﴿تَذَرُ﴾؛ فإنَّ (مِن) لتأْكيدِ النَّفيِ، والنَّكرةُ المجرورةُ بـ (مِن) هذه نصٌّ في نفْيِ الجِنسِ، ولذلك كانت عامَّةً، إلَّا أنَّ هذا العُمومَ مُخصَّصٌ بدَليلِ العقْلِ(٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أُتبِعَتْ قصَّةُ عادٍ بقصَّةِ ثَمودَ؛ لتَقارُنِهما غالبًا في القرآنِ؛ مِن أجْلِ أنَّ ثَمودَ عاصَرَت عادًا وخلَفَتْها في عَظَمةِ الأُمَمِ؛ قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤]، ولاشتِهارِهما بيْنَ العرَبِ، ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ عطْفٌ على (فِي عَادٍ) [الذَّاريات: ٤١]، أو على (تَرَكْنَا فِيهَا آيَةً) [الذَّاريات: ٣٧]، والمعنى: وترَكْنا آيةً للمؤمنينَ في ثَمودَ في حالِ قدْ أخذَتْهم الصَّاعقةُ، أي: في دَلالةِ أخْذِ الصَّاعقةِ إيَّاهم، على أنَّ سَبَبَه هو إشراكُهم وتَكذيبُهم وعُتوُّهم عن أمْرِ ربِّهم، فالمؤمِنونَ اعتبَروا بتلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٣٢) و(ص: ١٤٠).

فسَلَكوا مَسلكَ النَّجاةِ مِن عَواقِبِها، وأمَّا المُشرِكون فإصْرارُهم على كُفرِهم سيُوقِعُهم في عَذابٍ مِن جِنسِ ما وقَعَت فيه ثَمودُ(١).

- وهذا القولُ الَّذي ذُكِر هنا ﴿تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو كَلامٌ جامعٌ لِمَا أنذَرَهم به صالحٌ رسولُهم، وذكَّرَهم به، مِن نحْوِ قَولِه: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقولِه: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ * فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦ - ١٤٨]، وقولِه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّهم أُعْطُوا ما هو مَتاعٌ، أي: نفْعٌ في الدُّنيا؛ فإنَّ مَنافعَ الدُّنيا زائلةٌ، فكانتْ الأقوالُ الَّتي قالَها رسولُهم -تَذكيرًا بنِعمةِ اللهِ عليهم- يَجمَعُها ﴿تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، على أنَّه يَجوزُ أنْ يكونَ رَسولُهم قال لهم هذه الكلمةَ الجامعةَ، ولم تُحْكَ في القرآنِ إلَّا في هذا الموضعِ؛ فإنَّ أخبارَ الأُمَمِ تأْتي مُوزَّعةً على قصَصِهم في القرآنِ؛ فقولُه: ﴿تَمَتَّعُوا۟﴾ أمْرٌ مُستعمَلٌ في إباحةِ المَتاعِ(٢).

- والمُرادُ بلفظِ ﴿حِينٍ﴾ زمَنٌ مُبْهمٌ، جُعِلَ نِهايةً لِما مُتِّعوا به مِن النِّعَمِ؛ فإنَّ نِعَمَ الدُّنيا زائلةٌ(٣).

- وليس قولُه: ﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ بمُشيرٍ إلى قولِه في الآيةِ الأخرى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥] ونحوِه؛ لأنَّ ذلك الأمْرَ مُستعمَلٌ في الإنذارِ والتَّأييسِ مِن النَّجاةِ بعْدَ ثَلاثةِ أيَّامٍ؛ فلا يكونُ لقولِه بعْدَه: ﴿فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ مُناسَبةٌ لتَعقيبِه به بالفاءِ؛ لأنَّ التَّرتيبَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢، ١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٣).

الَّذي تُفيدُه الفاءُ يَقْتضي أنَّ ما بعْدَها مُرتَّبٌ في الوُجودِ على ما قبْلَها[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ جاء العطْفُ بالفاءِ المُقتضيةِ تأخُّرَ العُتوِّ عمَّا أُمِروا به، فهو مُطابِقٌ لفْظًا ووُجودًا[٢].

- وضُمِّنَ (عَتَوا) معنى (أعرَضُوا)، فعُدِّيَ بـ (عن)، أي: فأعْرَضوا عمَّا أمَرَهم اللهُ على لِسانِ رَسولِه صالحٍ عليه السَّلامُ[٣]. وقيل: عُدِّيَ فِعلُ «عتا» بـ «عن»؛ لأنَّ فيه معنى الاستِكبارِ، كقَولِه: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ ﴾[٤] [الأنبياء: ١٩].

- قولُه: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ النَّصبِ في ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ﴾، أي: أخذَتْهم في حالِ نَظَرِهم إلى نُزولِها -على قولٍ-؛ لأنَّهم لَمَّا رَأَوا بَوارِقَها الشَّديدةَ، عَلِموا أنَّها غيرُ مُعتادةٍ، فاستَشْرَفوا يَنظُرون إلى السَّحابِ، فنزَلَت عليهم الصَّاعقةُ وهم يَنظُرون، وذلك هولٌ عظيمٌ عندَ الصَّاعقةِ زِيادةً في العذابِ؛ فإنَّ النَّظرَ إلى النِّقمةِ يَزيدُ صاحبَها ألَمًا، كما أنَّ النَّظرَ إلى النِّعمةِ يَزيدُ المُنعَّمَ مَسرَّةً[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴾

- عبَّر بقولِه: ﴿ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ ﴾ ولم يقُلْ: (فما قَدَروا)؛ لأنَّ نفْيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣، ١٤).

الاستطاعةِ أبلَغُ مِن نفْيِ القُدْرةِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾ أبلَغُ مِن نفْيِ الانتِصارِ، أي: فما قَدَروا على الهرَبِ، ولا كانوا ممَّن يَنتصِرُ لنفْسِه، فيَدفَعَ ما حلَّ به[٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَسِقِينَ﴾ (قومَ) مَنصوبٌ بتَقديرِ (اذكُرْ)، أو بفِعلٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه ما ذُكِرَ مِن القصصِ قبْلَه، تَقديرُه: وأهلَكْنا قومَ نُوحٍ، وهذا مِن عطْفِ الجُمَلِ، وليس مِن عطْفِ المُفرَداتِ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَسِقِينَ﴾ تَعليلٌ لِما تَضمَّنَه قولُه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾، وتَقدير كَونِهم آيةً للَّذين يَخافون العذابَ مِن كَونِهم عُوقِبوا، وأنَّ عِقابَهم لأنَّهم كانوا قومًا فاسقينَ[٤].

- وأُخِّر الكلامُ على قَومِ نُوحٍ لِمَا عَرَضَ مِن تَجاذُبِ المُناسَباتِ فيما أُورِدَ مِن آياتِ العذابِ للأُمَمِ المذكورةِ آنفًا؛ ولذلك كان قولُه: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ تنْبيهًا على وجْهِ مُخالَفةِ عادةِ القُرآنِ في تَرتيبِ حِكايةِ أحوالِ الأُمَمِ على حسَبِ تَرتيبِهم في الوجودِ، وقد أومَأَ قولُه: ﴿مِّن قَبْلُ﴾ إلى هذا[٥].

- قيل: ذكَرَ الأُمَمَ الأربعَ؛ للإشارةِ إلى أنَّ اللهَ عذَّبَهم بما هو مِن أسبابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥).

وُجودِهم، وهو التُّرابُ والماءُ والهواءُ والنَّارُ، وهي عناصرُ الوُجودِ، فأهلَكَ قَومَ لُوطٍ بالحِجارةِ، وهي مِن طِينٍ، وأهلَكَ قومَ فِرعونَ بالماءِ، وأهلَكَ عادًا بالرِّيحِ، وهو هواءٌ، وأهلَكَ ثمودَ بالنَّارِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦).

## الآيات (٤٧-٥١)

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِأَيۡيْدٖ﴾: أي: بقُوَّةٍ وَقُدرةٍ، وأصلُ (أيد): يدُلُّ على القُوَّةِ والحِفظِ[1].

﴿لَمُوسِعُونَ﴾: أي: قادِرونَ، مُطيقونَ، ذَوُو سَعةٍ، يقال: أوسَعَ الرَّجُلُ، أي: صار ذا سَعةٍ وغِنًى، وأصلُ (وسع): يدُلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسرِ[2].

﴿ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾: المُهَيِّئُونَ المُوَطِّئُونَ، يقالُ: مَهَدْتُ الفِراشَ مَهْدًا: أي: بَسطْتُه ووطَّأْتُه، وتمهيدُ الأمورِ: تَسويتُها وإصلاحُها، ومنه المِهادُ: أي: الفِراشُ والمكانُ الممهَّدُ المُوطَّأُ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا مظاهرَ قدرتِه، وسَعةَ رحمتِه، ومُنَبِّهًا على خَلقِ العالَمِ العُلْوِيِّ والسُّفليِّ: وبَنَيْنا السَّماءَ بقوَّةٍ وقُدرةٍ عَظيمةٍ، وإنَّا لَموسِعونَ لأرجاءِ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٧، ٣٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦).

السَّماءِ، موسِعونَ على خَلقِنا بالرِّزقِ، قادِرونَ على خَلقِ ما نشاءُ خَلْقَه، وبَسَطْنا الأرضَ وجعَلْناها كالفِراشِ؛ لِيَسهُلَ على الخَلْقِ الانتِفاعُ بها، فنِعْمَ الماهِدونَ نحنُ؛ حيثُ سَوَّيْنا الأرضَ وأصلَحْناها! وخَلَقْنا مِن كُلِّ شَيءٍ صِنفَينِ؛ لعَلَّكم تَتذَكَّرونَ.

ثمَّ يقولُ الله تعالى: فقُلْ لِقَومِك -يا محمَّدُ- اهرُبوا إلى اللهِ تعالى؛ بالإيمانِ به، والعَمَلِ بطاعتِه، والتَّوبةِ إليه؛ إنِّي لكم مِنَ اللهِ نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، ولا تَجعَلوا مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ، بل أخْلِصوا العِبادةَ له؛ إنِّي لكم مِنَ اللهِ نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت شُبهةُ نُفاةِ البَعثِ قائمةً على توَهُّمِ استِحالةِ إعادةِ الأجسامِ بعدَ فَنائِها؛ أُعقِبَ تَهديدُهم بما يُقَوِّضُ توَهُّمَهم، فوُجِّهَ إليهم الخِطابُ يُذَكِّرُهم بأنَّ اللهَ خَلَق أعظَمَ المخلوقاتِ، ولم تكُنْ شَيئًا، فلا تُعَدُّ إعادةُ الأشياءِ الفانيةِ بالنِّسبةِ إليها إلَّا شَيئًا يَسيرًا، كما قال تعالى: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1] [غافر: ٥٧].

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ ﴾.

أي: وبَنَيْنا السَّماءَ بقوَّةٍ وقُدرةٍ عَظيمةٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٥٩). =

كما قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾.

أي: وإنَّا لَموسِعونَ لأرجاءِ السَّماءِ، موسِعونَ على خَلقِنا بالرِّزقِ، قادِرونَ على خَلقِ ما نشاءُ خَلْقَه(١).

---

= قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾ ليس مِن آياتِ الصِّفاتِ المعروفةِ بهذا الاسم؛ لأنَّ قَولَه: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ ليس جَمعَ يَدٍ، وإنَّما الأيْدُ: القُوَّةُ، فوَزْنُ قَولِه هنا ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ فَعْلٌ، ووَزْنُ الأيدي: أَفْعُلٌ؛ فالهمزةُ في قَولِه: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ في مكانِ الفاءِ، والياءُ في مكانِ العَينِ، والدَّالُ في مكانِ اللَّام، ولو كان قَولُه تعالى: ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ جمعَ يَدٍ، لَكان وزنُه أَفْعُلًا، فتكونُ الهمزةُ زائدةً، والياءُ في مكانِ الفاءِ، والدَّالُ في مكانِ العَينِ، والياءُ المحذوفةُ -لِكَونِه مَنقوصًا- هي اللَّامَ. والأيْدُ والآدُ في لغةِ العرَبِ، بمعنى: القُوَّة، ورَجُلٌ أَيِّدٌ: قَوِيٌّ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، أي: قَوَّيْناه به، فمَن ظَنَّ أنَّها جَمعُ يدٍ في هذه الآيةِ فقد غَلِطَ غَلَطًا فاحِشًا). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٤٢). ويُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٣/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٠).

قال ابن القيِّم: (قال تعالى: ﴿... وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: ذَوو سَعةٍ وقدرةٍ وملكٍ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٣٨٣).

وقال الرازي: (قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فيه وُجوهٌ؛ أحَدُها: أنَّه مِنَ السَّعَةِ، أي: أوسَعْناها بحيثُ صارت الأرضُ وما يُحيطُ بها مِنَ الماءِ والهواءِ بالنِّسبةِ إلى السَّماءِ وسَعَتِها كحَلْقةٍ في فَلاةٍ، والبِناءُ الواسِعُ الفَضاءِ عَجيبٌ؛ فإنَّ القُبَّةَ الواسِعةَ لا يَقدِرُ عليها البَنَّاؤونَ؛ لأنَّهم يَحتاجونَ إلى إقامةِ آلةٍ يَصِحُّ بها استدارتُها، ويُثبَّتُ بها تماسُكُ أجزائِها إلى أن يتَّصِلَ بَعضُها ببعضٍ.

ثانيها: قَولُه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: لَقادِرونَ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] أي: قُدْرَتَها، والمُناسَبةُ حينَئذٍ ظاهِرةٌ، ويحتَمِلُ أن يُقالَ بأنَّ ذلك حينَئذٍ إشارةٌ إلى المقصودِ الآخَرِ، وهو الحَشرُ، كأنَّه يقولُ: بَنَيْنا السَّماءَ وإنَّا لَقادِرونَ على أن نَخلُقَ أمثالَها، =

= كما في قَولِه تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١].
ثالِثُها: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الرِّزقَ على الخَلْق). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٨).
ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: أنَّها مِنَ السَّعةِ، أي: أنَّه جَعَل بيْنَ السَّماءِ والأرضِ سَعَةً، ووَسَّعَ أرجاءَها: الزَّجَّاجُ، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٠).
قال أبو حيان: (﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾: أي: بِناءَها، فالجُملةُ حاليَّةٌ، أي: بَنَيْناها مُوسِعِيها، كقَولِه: جاء زَيدٌ وإنَّه لَمُسرِعٌ، أي: مُسرِعًا، فهي بحيثُ إنَّ الأرضَ وما يحيطُ مِنَ الماءِ والهواءِ كالنُّقطةِ وسَطَ الدَّائِرةِ. وقال ابنُ زَيدٍ قريبًا مِن هذا، وهو: أنَّ الوُسعَ راجِعٌ إلى السَّماءِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٠).
ومِمَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المعنى: لَذُو سَعَةٍ لِخَلْقِنا، أي: قادِرونَ على رزْقِهم: الفَرَّاءُ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٨٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠).
ومِمَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابِقَينِ: السعديُّ، فقال: (﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائِها وأنحائِها، وإنَّا لَمُوسِعونَ أيضًا على عبادِنا، بالرِّزقِ الَّذي ما تَرَكَ اللهُ دابَّةً في مَهامِهِ القِفارِ، ولُجَجِ البِحارِ، وأقطارِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ، إلَّا وأوصَلَ إليها من الرِّزقِ ما يَكفيها، وساق إليها من الإحسانِ ما يُغنِيها. فسُبْحانَ مَن عَمَّ بجُودِه جميعَ المخلوقاتِ، وتبارَكَ الَّذي وَسِعَت رَحمتُه جميعَ البَرِيَّاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).
ومِمَّن اختار أنَّ المعنى: لَذو سَعَةٍ بخَلْقِها وخَلْقِ ما شاء أن يَخْلُقَه، وقُدرةٍ عليه: ابنُ جرير، ومكِّي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٠٩).
ومِمَّن اختار أنَّ المعنى: نحن قادِرونَ على أن نُوسِعَها كما نُريدُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٧).
ومِمَّن اختار العُمومَ: البِقاعي، فقال: (﴿لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أغنياءُ وقادِرونَ ذَوو سَعةٍ لا تَتناهى، أي: قُدرةٍ، مِنَ الوُسعِ، وهو اللَّطافةُ، وكذلك أوسَعْنا مِقدارَ جِرْمِها وما فيها مِنَ الرِّزقِ على أهلِها، فالأرضُ كُلُّها على اتِّساعِها كالنُّقطةِ في وَسَطِ دائرةِ السَّماءِ بما اقتضَتْه صِفةُ الإلهيَّةِ الَّتي لا يَصِحُّ فيها الشَّرِكةُ أصلًا، ومُطيقون لِما لا يُحصى من أمثالِ ذلك، ومِمَّا هو أعظَمُ منه مِمَّا لا يتناهى، =

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾.

أي: وبَسَطْنا الأرضَ وجعَلْناها كالفِراشِ؛ لِيَسهُلَ على الخَلْقِ الانتِفاعُ بها[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ٢٠].

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الفِراشُ قد يكونُ صالِحًا للانتِفاعِ مِن كُلِّ وَجهٍ، وقد يكونُ مِن وَجهٍ دونَ وَجهٍ؛ أخبَرَ تعالى أنَّه مَهَّدَها أحسَنَ مِهادٍ، على أكمَلِ الوُجوهِ وأحسَنِها، وأثنَى على نَفْسِه بذلك؛ تذكيرًا بعَظَمتِه ونِعمتِه[2].

﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾

أي: فنِعْمَ الماهِدونَ نحنُ؛ حيث جعَلْنا الأرضَ مَهْدًا لأهْلِها، بتَسويتِها وإصلاحِها[3]!

---

= ومحيطون بكُلِّ شَيءٍ قُدرةً وعِلمًا، وجَديرون وحَقيقون بأن يكونَ ذلك مِن أوصافِنا، فنُوصَفُ به لِما يُشاهَدُ لنا مِن القُوَّةِ على كُلِّ ما نريدُ؛ فلَسْنا كمَنْ يُعرَفون مِن الملوكِ؛ لأنَّهم إذا فَعَلوا لا يَقدِرونَ على أعظَمَ منه، وإن قَدَروا كان ذلك منهم بكُلفةٍ ومشَقَّةٍ، ... ومِن اتِّساعِنا جَعْلُها بلا عَمَدٍ، معَ ما هي عليه مِن العَظَمةِ، إلى غيرِ ذلك مِن الأُمورِ الخارقةِ للعوائِدِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أشعَرَ قولُه: ﴿فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذَّاريات: ٤٨] بأنَّ في ذلك نِعمةً على الموجوداتِ الَّتي على الأرضِ؛ أُتبِعَ ذلك بصِفةِ خلْقِ تلك الموجوداتِ؛ لِمَا فيه مِن دَلالةٍ على تَفرُّدِ اللهِ تعالى بالخلْقِ المُستلزِمِ لتَفرُّدِه بالإلهيَّةِ، فقال[1]:

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: وخَلَقْنا مِن كُلِّ شَيءٍ صِنفَينِ؛ لعَلَّكم تَتذَكَّرونَ بذلك وَحدانيَّةَ اللهِ تعالى، وكَمالَ قُدرتِه على بَعثِ عِبادِه، أو غيرِ ذلك[2].

---

= (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٧- ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٥، ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧-١٨).

قيل: المرادُ بالزَّوجَينِ هنا: الشَّيئانِ المُتقابِلانِ؛ كالذَّكَرِ والأُنثى، والشَّمسِ والقَمَرِ، والحَرِّ والبَرْدِ، والحُلوِ والحامِضِ، والسَّعادةِ والشَّقاوةِ، وغيرِ ذلك. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن عطية، والقرطبي، وابن تيميَّة، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٥، ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٠، ١٦١).

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٧).

وقيل: المرادُ: الذَّكَرُ والأُنثى. وممَّن قال بهذا القولِ: الزَّجَّاجُ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧، ١٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [الرعد: ٣].

وقال سُبحانَه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥].

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٥٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا دعا العِبادَ إلى النَّظَرِ لآياتِه المُوجِبةِ لخَشيتِه، والإنابةِ إليه؛ أمَرَ بما هو المقصودُ مِن ذلك، وهو الفِرارُ إليه، فقال[1]:

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لِقَومِك: فاهرُبوا إلى اللهِ تعالى؛ بالإيمانِ به، والعَمَلِ بطاعتِه، والتَّوبةِ إليه، والتَّوكُّلِ عليه[2].

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال له: ((إذا أخَذْتَ مَضجَعَك فتَوَضَّأْ وُضوءَك للصَّلاةِ، ثمَّ اضطَجِعْ على شِقِّك الأيمنِ، ثمَّ قُلْ: اللَّهمَّ إنِّي أسلَمتُ وَجهي إليكَ، وفوَّضتُ أمري إليكَ، وألجأتُ ظَهري إليكَ؛ رَغبةً ورَهبةً إليك، لا مَلْجأَ ولا مَنجَى مِنكَ إلَّا إليكَ، آمَنْتُ بكِتابِك الَّذي

---

= ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦١، ١٦٢).

أنزَلْتَ، وبنَبِيِّكَ الَّذي أرسَلْتَ، واجعَلْهُنَّ مِن آخِرِ كَلامِك؛ فإنْ مِتَّ مِن لَيلتِكَ مِتَّ وأنت على الفِطرةِ))[١].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنِّي لكم مِنَ اللهِ نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، فأُحَذِّرُكم وأخَوِّفُكم عِقابَه على الكُفرِ به ومَعصيتِه[٢]!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩].

ثمَّ ذَكَر اللهُ تعالى أعظَمَ ما يَجِبُ أن يَفِرَّ المرءُ منه، وهو الشِّرْكُ، فقال تعالى[٣]:

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

أي: ولا تَجعَلوا مع اللهِ مَعبودًا آخَرَ، بل أخْلِصوا له العِبادةَ، ولا تُشرِكوا به شَيئًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: إنِّي لكم مِنَ اللهِ نَذيرٌ واضِحُ النِّذارةِ، فأُحَذِّرُكم وأُخَوِّفُكم مِن عِبادتِكم

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٤٧)، ومسلمٌ (٢٧١٠) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

غَيرَه[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كُلُّ ما يُصيبُ الإنسانَ مِن مِحَنِ الدُّنيا ومَصائِبِها، وأمراضِها وخُصوماتِها، ومِن جَميعِ بَلائِها: لا يُنْجيه مِن شَيءٍ منه إلَّا فِرارُه إلى اللهِ؛ ففي العَدالةِ الشَّرعيَّةِ ما يَقطَعُ كُلَّ نِزاعٍ، وفي المواعِظِ الدِّينيَّةِ ما يُهَوِّنُ كُلَّ مُصابٍ، وفي الهِدايةِ القُرآنيَّةِ والسِّيرةِ النَّبَويَّةِ ما يُنيرُ كُلَّ سَبيلٍ مِن سُبُلِ النَّجاةِ والسَّعادةِ في الحياةِ، يَعرِفُ ذلك الفُقَهاءُ القُرآنيُّونَ السُّنِّيُّونَ، واسألوا أهلَ الذِّكرِ إنْ كُنتُم لا تَعلَمونَ[٢].

٢- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليس الفِرارُ مِن الأمراضِ بمُعالجتِها، ومِن المصائِبِ بمقاوَمتِها فِرارًا مِنَ اللهِ؛ لأنَّ الأمراضَ هو قَدَّرَها، والأدويةَ هو وَضَعَها، ودعا إلى استِعمالِها والتَّعالُجِ بها، وكذلك المصائِبُ وما شُرِعَ مِن أسبابِ مُقاومتِها، فكُلُّها منه بقَدَرِه، والإنسانُ مأمورٌ منه بأن يُعالِجَ ويُقاوِمَ، فما فَرَّ مِن قَدَرِه إلَّا إلى قَدَرِه؛ ولهذا لَمَّا قال أبو عُبَيدةَ لِعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما -في قِصَّةِ الوَباءِ: (أفِرارًا مِن قَدَرِ اللهِ يا عُمَرُ؟! قال عُمَرُ: نَعَمْ، نَفِرُّ مِن قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ اللهِ!)[٣]، وفي الحقيقةِ كان الفِرارُ مِن شَرٍّ في مخلوقٍ إلى اللهِ يرجو منه الخَيرَ في غَيرِه[٤].

٣- أنَّ العبدَ لا يَعصِمُه مِن اللهِ أحدٌ إنْ أراد به سُوءًا أو أراد به رَحمةً، وليس

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٢٩)، ومسلم (٢٢١٩) مطوَّلًا.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٢).

له مِن دونِ اللهِ وليٌّ ولا نَصيرٌ، فأين نَفِرُّ مِن أمْرِه وحُكْمِه ولا مَلْجأَ منه إلَّا إليه؟! قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾، وهذا أمرٌ يَعرفُه النَّاسُ مِن أهلِ طاعةِ اللهِ وأهلِ مَعصيتِه[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ الفِرارُ إليه سُبحانَه، أي: الفِرارُ مِمَّا يَكرَهُه اللهُ ظاهِرًا وباطِنًا إلى ما يُحِبُّه ظاهِرًا وباطِنًا؛ فِرارٌ مِنَ الجَهلِ إلى العِلمِ، ومِنَ الكُفرِ إلى الإيمانِ، ومِنَ المَعصيةِ إلى الطَّاعةِ، ومِنَ الغَفلةِ إلى ذِكرِ اللهِ؛ فمَنِ استكمَلَ هذه الأُمورَ فقد استكمَلَ الدِّينَ كُلَّه، وقد زال عنه المرهوبُ، وحصَلَ له نِهايةُ المرادِ والمَطلوبِ[٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ليس المقصودُ بالفِرارِ مِنَ الدُّنيا تَرْكَ السَّعيِ والعَمَلِ وتعاطي الأسبابِ المشروعةِ لِتَحصيلِ القُوتِ، ورَغَدِ العَيشِ، وتَوسيعِ العُمرانِ، وتَشييدِ المَدَنيَّةِ!

بل المقصودُ: الفِرارُ مِن شُرورِها وفِتنتِها. وتناوُلُ ذلك كُلِّه على الوَجهِ المَشروعِ هو مِنَ الفِرارِ إليه، والدُّخولِ تحتَ شَرعِه، وقد ضَلَّ قَومٌ فزَعَموا ذلك طاعةً وعِبادةً؛ فعَطَّلوا الأسبابَ، وخالَفوا الشَّريعةَ، وحادوا عمَّا ثَبَت مِنَ السُّنَّةِ! وفيهم سُئِلَ إمامُ الحديثِ والسُّنَّةِ أحمدُ بنُ حَنبلٍ رَحِمه اللهُ؛ سُئِلَ عن القائلِ: أجلِسُ لا أعمَلُ شَيئًا حتَّى يأتيَني رِزقي! فقال: «هذا رجُلٌ جَهِلَ العِلمَ؛ أمَا سَمِعَ قَولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم...: ((تَغدو خِماصًا، وتَروحُ بِطانًا[٣]))[٤]، وكان

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

(٣) أي: تَغْدو بُكرةً وهي جِياعٌ، وتَروحُ عِشاءً وهي مُمتَلِئةُ الأجوافِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٠).

(٤) أخرجه مِن طُرقٍ مطوَّلًا: الترمذيُّ (٢٣٤٤)، وابنُ ماجه (٤١٦٤)، وأحمدُ (٣٧٠) مِن حديثِ =

الصَّحابةُ يَتَّجِرونَ في البَرِّ والبَحرِ، ويَعمَلونَ في نَخيلِهم، وبهم القُدوةُ[١].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ حَقيقةُ الفِرارِ: الهَرَبُ مِن شَيءٍ إلى شَيءٍ، وهو نَوعانِ: فِرارُ السُّعَداءِ، وفِرارُ الأشقياءِ؛ ففِرارُ السُّعَداءِ: الفِرارُ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وفِرارُ الأشقياءِ: الفِرارُ منه لا إليه[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ سَمَّى اللهُ تعالى الرُّجوعَ إليه فِرارًا؛ لأنَّ في الرُّجوعِ لِغَيرِه أنواعَ المَخاوِفِ والمَكارِهِ، وفي الرُّجوعِ إليه أنواعَ المحابِّ، والأمنَ والسُّرورَ، والسَّعادةَ والفَوزَ؛ فيَفِرُّ العَبدُ مِن قَضائِه وقَدَرِه إلى قَضائِه وقَدَرِه، وكُلُّ مَن خِفْتَ منه فرَرْتَ منه إلَّا الله تعالى؛ فإنَّه بحَسَبِ الخَوفِ منه يكونُ الفِرارُ إليه[٣]!

٨- قال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ * وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ هذا مِنَ الفِرارِ إلى اللهِ تعالى، بل هذا أصلُ الفِرارِ إليه؛ أن يَفِرَّ العَبدُ مِن اتِّخاذِ آلِهةٍ غَيرِ اللهِ؛ مِنَ الأوثانِ والأندادِ والقُبورِ، وغَيرِها مِمَّا عُبِدَ مِن دونِ اللهِ، ويُخلِصَ العَبدُ لرَبِّه العِبادةَ، والخَوفَ والرَّجاءَ، والدُّعاءَ والإنابةَ[٤].

---

= عمَرَ بنِ الخطَّابِ رضيَ الله عنه.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ لا نَعرِفُه إلَّا مِن هذا الوجهِ)، وصحَّح الحديثَ ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٣٠)، وابنُ العربي في ((أحكام القرآن)) (٢/ ٤٧١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٦٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١/ ٤٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٦٦، ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ فيه أنَّ السَّماءَ مَبْنِيَّةٌ، إذًا هي أجرامٌ، ولا شكَّ في هذا[١]. وفيه دَلالةٌ واضِحةٌ على أنَّ ما يَزعُمُه مَلاحِدةُ الكَفَرةِ، ومَن قَلَّدَهم مِن مَطموسي البَصائِرِ مِمَّن يَدَّعونَ الإسلامَ: أنَّ السَّماءَ فَضاءٌ لا جِرْمٌ مَبنيٌّ- أنَّه كُفرٌ وإلحادٌ وزَندَقةٌ، وتكذيبٌ لِنُصوصِ القُرآنِ العَظيمِ[٢]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ كَرَّر عزَّ وجلَّ ذِكرَ البِناءِ في السَّمَواتِ، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥]، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾ [غافر: ٦٤]، فما الحِكمةُ فيه؟

**الجَوابُ مِن وُجوهٍ:**

منها: أنَّ البِناءَ باقٍ إلى قيامِ القيامةِ لم يَسقُطْ منه شَيءٌ، ولم يَعدَمْ منه جزءٌ، وأمَّا الأرضُ فهي في التَّبَدُّلِ والتَّغَيُّرِ، فهي كالفَرشِ الَّذي يُبسَطُ ويُطوى ويُنقَلُ، والسَّماءُ كالبِناءِ المبنيِّ الثَّابِتِ، وإليه الإشارةُ بقَولِه تعالى: ﴿سَبۡعٗا شِدَادٗا﴾ [النبأ: ١٢]، وأمَّا الأراضي فكَمْ منها ما صار بحرًا وعاد أرضًا مِن وَقتِ حُدوثِها.

ومنها: أنَّ السَّماءَ تُرى كالقُبَّةِ المَبنيَّةِ فوقَ الرُّؤوسِ، والأرضُ مَبسوطةٌ مَدْحُوَّةٌ، والبِناءُ بالمَرفوعِ أليَقُ، كما قال تعالى: ﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا﴾[٣] [النازعات: ٢٨].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ إذا كان المقصودُ إثباتَ التَّوحيدِ، فكيف قال: ﴿بَنَيۡنَٰهَا﴾، ولم يَقُلْ: «بَنَيتُها» أو «بَناها اللهُ»؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة غافر)) (ص: ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٧).

**والجوابُ**: أنَّ قَولَه: «بَنَيْنا» أدَلُّ على عَدَمِ الشَّريكِ في التَّصَرُّفِ والتَّدبيرِ، وقَولُه: «بَنَيتُها» يُمكِنُ أن يكونَ فيه تشريكٌ، وتمامُ التَّقريرِ: هو أنَّ قَولَه تعالى: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ لا يُورِثُ إيهامًا بأنَّ الآلهةَ الَّتي كانوا يَعبُدونَها هي الَّتي يَرجِعُ إليها الضَّميرُ في ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾؛ لأنَّ تلك إمَّا أصنامٌ مَنحوتةٌ، وإمَّا كواكِبُ جَعَلوا الأصنامَ على صُوَرِها وطبائِعِها؛ فأمَّا الأصنامُ المنحوتةُ فلا يَشُكُّونَ أنَّها ما بَنَت مِنَ السَّماءِ شَيئًا، وأمَّا الكواكِبُ فهي في السَّماءِ مُحتاجةٌ إليها؛ فلا تكونُ هي بانِيَتَها، وإنَّما يمكِنُ أن يُقالَ: إنَّما بُنِيَت لها، وجُعِلَت أماكِنَها، فلمَّا لم يُتوَهَّمْ ما قالوا، قال: بَنَيْنا نحنُ، ونحن غيرُ ما يقولونَ ويَدَّعونَه، فلا يَصلُحونَ لنا شُرَكاءَ؛ لأنَّ كُلَّ ما هو غيرُ السَّماءِ ودونَ السَّماءِ في المَرتبةِ: لا يكونُ خالِقَ السَّماءِ وبانيَها؛ فإذَنْ عُلِمَ أنَّ المرادَ جَمعُ التَّعظيمِ، وأفاد النَّصُّ عَظَمَتَه، فالعَظَمةُ أنفى للشَّريكِ؛ فثَبَت أنَّ قَولَه: ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾ أدَلُّ على نَفيِ الشَّريكِ مِن «بَنَيتُها» و«بناها اللهُ»[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ﴾، وقَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾، وقَولِه: ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ مُناسَباتٌ في كُلٍّ منها؛ فإنَّه لَمَّا كانت السَّماءُ مُتلاحِمةَ الأجزاءِ في العَلاءِ، ثابتةً على حالةٍ مُستَمِرَّةٍ في هذه الدُّنيا على البَقاءِ؛ ناسبَها لفظُ البِناءِ، ولَمَّا كانت مَظهَرَ العَظَمةِ والجَلالِ ناسبها لَفظُ القُوَّةِ، ولَمَّا كانت الأرضُ يَطرَأُ عليها التَّبديلُ والتَّغييرُ بما يَنقُصُ البَحرُ مِن أطرافِها، وبما قد يتحَوَّلُ مِن سُهولِها وجِبالِها، وبما يَتعاقَبُ عليها مِن حَرثٍ وغِراسةٍ، وخِصْبٍ وجَدْبٍ؛ ناسَبَها لَفظُ الفِراشِ الَّذي يُبسَطُ ويُطوَى، ويُبدَّلُ ويُغَيَّرُ، ولَمَّا كانت أسبابُ الانتِفاعِ بها المُيَسَّرةُ ضَروريَّةً للحياةِ عليها، وكُلُّها مُهَيَّأةٌ، وكَثيرٌ منها مُشاهَدٌ، وغَيرُه مُعَدٌّ يُتوصَّلُ إليه بالبَحثِ والاستِنباطِ؛ ناسَبَ ذِكرُ التَّمهيدِ، ولَمَّا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٧).

كانت الأزواجُ مُكَوَّنًا بَعضُها مِن بَعضٍ ناسَبَها لَفظُ الخَلقِ، ولَمَّا كان النَّظَرُ في الزَّوجَينِ هو نَظَرٌ في أساسِ التَّكوينِ لتلك المذكوراتِ السَّابِقةِ، وهو مُحَصِّلٌ للعِلمِ الَّذي يَحصُلُ مِنَ النَّظَرِ فيها- قُرِنَ بلَفظِ التَّذَكُّرِ[١].

٥- قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ * وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ * فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ * وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ المقصودُ الأساسيُّ مِن الآياتِ هو تحذيرُ الخَلقِ مِن الهَلاكِ، وتَرغيبُهم في النَّجاةِ، ولا سَبيلَ إلى ذلك إلَّا بالفِرارِ إلى اللهِ تعالى؛ فمَهَّد لذلك بالآياتِ الثَّلاثِ الأُوَلِ؛ للتَّرغيبِ فيه، وخَتَم بالخامِسةِ؛ لبيانِ الفِرارِ الصَّحيحِ المُنَجِّي عندَ اللهِ[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ السَّماءَ كُرةٌ لا سَطحيَّةٌ؛ وَجهُ الدَّلالةِ: أنَّ قَولَه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ يقتضي المُبالَغةَ في الاتِّساعِ؛ لأنَّه في مَقامِ الفَخرِ والامتِنانِ؛ والشَّكلُ الكُرويُّ أوسَعُ مِنَ المُسَطَّحِ[٣]، فالسَّمَواتُ طِباقٌ؛ واحِدةٌ فَوقَ الأُخرى، وإذا كانت واحِدةٌ فَوقَ الأُخرى لَزِمَ أن تكونَ السَّماءُ الثَّانيةُ أوسَعَ مِنَ الأُولى؛ لأنَّها دائِرةٌ، والثَّالِثةُ أوسَعَ مِنَ الثَّانيةِ... وهَلُمَّ جَرًّا؛ ولهذا قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، كُلَّما ارتفَعْتَ في السَّمَواتِ اتَّسَعَت السَّمَواتُ[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ هذا استِدلالٌ بأثَرِ الخلْقِ الَّذي عايَنوا أثَرَه ولم يَشْهَدوا كَيفيَّتَه؛ لأنَّ أثَرَه يُنبِئُ عن عَظيمِ كَيفيَّتِه، وأنَّها أعظَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزخرف)) (ص: ٦٣).

ممَّا يُتصوَّرُ في كَيفيَّةِ إعادةِ الأجسامِ الباليةِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ إلى آخرِ السِّياقِ لَطيفةٌ: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّن عَظَمتَه بقَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا﴾ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾، وهَيْبتَه بقَولِه: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [الذَّاريات: ٤٠]، وقَولِه تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذَّاريات: ٤١]، وقَولِه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[٢] [الذَّاريات: ٤٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا﴾ دَقيقةٌ كَونيَّةٌ؛ فإنَّ شأنَ الفِراشِ أن يكونَ ما تحتَه لا يَصلُحُ للجُلوسِ والنَّومِ عليه، وما تحتَ وَجهِ الأرضِ هو كذلك لا يَصلُحُ للحَياةِ فيه؛ فإنَّ تحتَ القِشرةِ العُليا مِنَ الأرضِ الموادَّ المصهورةَ، والمياهَ المَعدنيَّةَ، والأبخِرةَ الحارَّةَ؛ مِمَّا تَنطِقُ به البَراكينُ المُنتَشِرةُ على وَجهِ الأرضِ في أماكِنَ عَديدةٍ؛ فكانت القِشرةُ العُليا مِنَ الأرضِ مِثلَ الفِراشِ تمامًا[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ دَليلٌ على أنَّ دَحْوَ الأرضِ هو بعدَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّ بِناءَ البَيتِ يكونُ في العادةِ قبْلَ الفَرشِ[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ دَلالةٌ على قُدرةِ اللهِ تعالى وحِكمتِه؛ إذ جَعَل الأرضَ مَبسوطةً -فيما يبدو للنَّاسِ مِن سطحِها، دونَ تعرُّضٍ إلى تكويرِها- لَمَّا أراد أن يَجعَلَ على سَطحِها أنواعَ الحَيوانِ يمشي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٨).

وآيةُ سورةِ (النَّازعَاتِ) تدُلُّ على أنَّ دَحْوَ الأرضِ بعدَ خَلْقِ السَّماءِ؛ لأنَّ الله تعالى قال فيها: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، ثُمَّ قال: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠]، لكنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلْقِ السَّماءِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٤).

عليها ويَتوسَّدُها ويَضطَجِعُ عليها، ولو لم تكُنْ كذلك لَكانت مُحدَودِبةً تُؤلِمُ الماشيَ بَلْهَ المتوَسِّدَ والمُضطَجِعَ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ رَدٌّ على الفلاسِفةِ في قَولِهم: «لا يَنشَأُ عن الواحِدِ إلَّا واحِدٌ»(٢)!

١٣- تكوينُ هذه الخليقةِ هو مِن زَوجَينِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾؛ فكلُّ شيءٍ مِن الخليقةِ فلا بُدَّ لِتَركيبِه مِن زَوجَينِ، حتَّى المياهُ، وحتَّى الهواءُ، وكلُّ شَيءٍ(٣).

١٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الزَّوجُ يُرادُ به النَّظيرُ المُماثِلُ، والضِّدُّ المخالِفُ، وهو النِّدُّ؛ فما مِن مخلوقٍ إلَّا له شَريكٌ ونِدٌّ، والرَّبُّ سُبحانَه وَحْدَه هو الَّذي لا شَريكَ له ولا نِدَّ، بل ما شاء كان، وما لم يَشَأْ لم يكُنْ(٤).

١٥- قَولُه تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ فيه إنباءٌ عن سُرعةِ الإهلاكِ، كأنَّه يقولُ: الإهلاكُ والعَذابُ أسرَعُ وأقرَبُ مِن أن يَحتَمِلَ الحالُ الإبطاءَ في الرُّجوعِ؛ فافزَعوا إلى اللهِ سَريعًا وفِرُّوا(٥)!

١٦- قَولُه تعالى: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ﴾ في الرِّسالةِ أُمورٌ ثلاثةٌ: المُرسِلُ، والرَّسولُ، والمُرسَلُ إليه، وهاهنا ذَكَر الكُلَّ؛ فقَولُه: ﴿لَكُم﴾ إشارةٌ إلى المُرسَلِ إليهم، وقَولُه: ﴿مِّنْهُ﴾ إشارةٌ إلى المُرسِلِ، وقَولُه: ﴿نَذِيرٌ﴾ بيانٌ للرَّسولِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين - سورة الزمر)) (ص: ٦٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٨٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٧- قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ في أمْرِه تعالَى للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يَأمُرَهم بالهرَبِ إليهِ تعالَى مِنْ عِقابِه، وتَعليلِه بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يُنذِرُهم مِنْ جهتِه تعالَى لا مِنْ تِلْقاءِ نفْسِه: وعْدٌ كَريمٌ بنَجاتِهم مِن المَهروبِ، وفَوزِهم بالمطلوبِ[١].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ التَّحذيرُ مِن دُعاءِ إلهٍ مع اللهِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾

- هذه الجُملةُ والجُمَلُ المعطوفةُ عليها إلى قَولِه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [الذَّارِيات: ٥١] مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿ وَقَوْمَ نُوحٖ مِّن قَبْلُ ... ﴾ [الذَّارِيات: ٤٦] إلخ، وجُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ ... ﴾ [الذَّارِيات: ٥٢] الآيةَ. وابتُدِئَ بخلْقِ السَّماءِ؛ لأنَّ السَّماءَ أعظَمُ مَخلوقٍ يُشاهِدُه النَّاسُ، وعُطِفَ عليه خلْقُ الأرضِ عطْفَ الشَّيءِ على مُخالِفِه؛ لاقترانِ المُتخالفَينِ في الجامعِ الخياليِّ، وعُطِفَ عليها خلْقُ أجناسِ الحيوانِ؛ لأنَّها قريبةٌ للأنظارِ، لا يُكلِّفُ النَّظرُ فيها والتَّدبُّرُ في أحوالِها ما يُرهِقُ الأذهانَ[٣].

- وتَقديمُ (السَّمَاءَ) على عامِلِه ﴿بَنَيْنَٰهَا﴾؛ للاهتِمامِ به، ثمَّ بسُلوكِ طَريقةِ الاشتِغالِ[٤] زادَه تَقويةً؛ ليَتعلَّقَ المَفعولُ بفِعلِه مرَّتينِ: مرَّةً بنفْسِه، ومرَّةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥).

(٤) الاشتغالُ في مصطلَحِ النُّحاةِ معناه: إذا تَقدَّم اسمٌ على فِعلٍ صالحٍ لأنْ يَنصِبَه لفظًا أو محلًّا، وشُغِلَ الفِعلُ عن عمِلِه فيه بعمَلِه في ضميرِه، صحَّ في الاسمِ أنْ يُنصَب بفِعلٍ لا يَظهَرُ، مماثلٍ =

بضَميرِه؛ فإنَّ الاشتِغالَ في قُوَّةِ تَكرُّرِ الجُملةِ، وزِيدَ تأْكيدُه بالتَّذييلِ بقَولِه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾[1].

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أُكِّدَ الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ)؛ لتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ سَعةَ قُدْرةِ اللهِ تعالى؛ إذ أحالوا إعادةَ المَخلوقاتِ بعْدَ بِلاها[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾

- فيه تَقديمُ المفعولِ به ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ على عامِلِه ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾؛ للاهتِمامِ به، ثمَّ بسُلوكِ طَريقةِ الاشتغالِ زادَه تَقويةً؛ ليَتعلَّقَ المَفعولُ بفِعلِه مرَّتينِ: مرَّةً بنفْسِه، ومرَّةً بضَميرِه؛ فإنَّ الاشتغالَ في قُوَّةِ تَكرُّرِ الجُملةِ، وزِيدَ تأْكيدُه بالتَّذييلِ بقَولِه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾[3].

- واستُغْنيَ هنا عن إعادةِ ﴿بِأَيْيْدٍ﴾ [الذَّاريات: ٤٧]؛ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه[4].

- قولُه: ﴿فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ لَمَّا كان في فرْشِها إرادةُ جَعلِها مَهدًا لِمَن عليها مِن الإنسانِ، أُتبِعَ ﴿فَرَشْنَٰهَا﴾ بتَفريعِ ثَناءِ اللهِ على نفْسِه على إجادةِ تَمْهيدِها فقال: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾؛ تذْكيرًا بعَظَمتِه ونِعمتِه، أي: فنِعمَ الماهِدون نحنُ. وصِيغةُ الجمْعِ ﴿ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ للتَّعظيمِ[5].

- وكذلِك رُوعِيَ في وصْفِ خلْقِ الأرضِ ما يَبْدو للنَّاسِ مِن سطْحِها؛ لأنَّه

---

= للظاهِرِ أو مُقَارِبِه. وله أحوالٌ في إعرابِه. يُنظر: ((شرح ألفية ابن مالك)) لابن الناظم (ص: ١٧٢)، ((شرح التصريح على التوضيح)) لخالد الأزهري (١/ ٤٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّذي يَهُمُّ النَّاسَ في الاستِدلالِ على قُدْرةِ اللهِ تعالى، وفي الامتِنانِ عليهم بما فيه لُطْفُهم والرِّفقُ بهم، دونَ تَعرُّضٍ إلى تَكويرِها؛ إذ لا يَبلُغون إلى إدراكِه، كما رُوعِيَ في ذِكرِ السَّماءِ ما يَبْدو مِن قُبَّةِ أجْوائِها دونَ بحْثٍ عن تَرامي أطْرافِها، وتَعدُّدِ عَوالِمِها لِمثلِ ذلك؛ ولذلك أُتبِعَ الاعتِراضُ بالتَّذييلِ بقَولِه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ المُرادِ منه تَلقينُ النَّاسِ الثَّناءَ على اللهِ فيما صنَعَ لهم فيها مِن مِنَّةٍ؛ ليَشكُروه بذلك الثَّناءِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

- هذا استِدلالٌ عليهم بخلْقٍ يُشاهِدونَ كَيفيَّاتِه وأطوارَه كلَّما لَفَتوا أبصارَهم، وقَدَحوا أفكارَهم، وهو خلْقُ الذَّكَرِ والأُنثى -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لِيَكونَ منهما إنشاءُ خلْقٍ جديدٍ يَخلُفُ ما سلَفَه، وذلك أقرَبُ تَمثيلٍ لإنشاءِ الخلْقِ بعْدَ الفَناءِ، وهو البَعثُ الَّذي أنْكَروه؛ لأنَّ الأشياءَ تُقرَّبُ بما هو واضحٌ مِن أحوالِ أمْثالِها، ولذلك أتْبَعَه بقولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تَتفكَّرون في الفُروقِ بيْنَ المُمكناتِ والمُستحيلاتِ، وتَتفكَّرون في مَراتبِ الإمكانِ؛ فلا يَختلِطُ عليكم الاستبعادُ وقِلَّةُ الاعتيادِ بالاستِحالةِ، فتَتوهَّموا الغريبَ مُحالًا؛ فالتَّذكُّرُ مُستعمَلٌ في إعادةِ التَّفكُّرِ في الأشياءِ ومُراجَعةِ أنفُسِهم فيما أحالوه؛ ليَعلَموا بعدَ إعادةِ النَّظرِ أنَّ ما أحالُوه مُمكِنٌ، ولكنَّهم لم يأْلَفوه، فاشتَبَه عليهم الغريبُ بالمُحالِ فأحالُوه، فلمَّا كان تَجديدُ التَّفكُّرِ المَغفولِ عنه شَبيهًا بتَذكُّرِ الشَّيءِ المَنْسيِّ، أُطلِق عليه ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وهذا في معنى قَولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠-٦٢]؛ فقد ذُيِّلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧).

هنالك بالحثِّ على التَّذكُّرِ، كما ذُيِّلَ هنا برَجاءِ التَّذكُّرِ، فأفادَ أنَّ خلْقَ الذَّكَرِ والأُنثى مِن نُطفةٍ هو النَّشأةُ الأُولى، وأنَّها الدَّالَّةُ على النَّشأةِ الآخرةِ(١).

- وجُملةُ ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾، أي: رَجاءَ أنْ يكونَ في الزَّوجَينِ تذَكُّرٌ لكم، أي: دَلالةٌ مَغفولٌ عنها(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ لَمَّا فرَغَ مِن التَّعريضِ بالمكذِّبينَ الخرَّاصينَ في قولِه: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٞ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ﴾ [الذَّاريات: ٢٠، ٢١]، ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ [الذَّاريات: ٣٨]، والتَّذكيرِ بشِدَّةِ سَطوتِه وكَمالِ قُدْرتِه في قَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٖ﴾ [الذَّاريات: ٤٧]؛ أمَرَ رسولَه صَلواتُ اللهِ عليه وسَلامُه بأنْ يقولَ لقَومِه: إذا ظهَرَ لكم شِدَّةُ قَهرِه وكَمالُ سَطوتِه، وما فعَلَ بالأُمَمِ المكذِّبةِ، وعرَفْتم كلَّ ذلك، وأنَّه إذا أخَذَ لا يُبْقي ولا يذَرُ؛ ففِرُّوا إلى اللهِ مِن اللهِ، واتْرُكوا العِنادَ، وخافُوا سُوءَ مَغبَّةِ تَكذيبِكم؛ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾ وتكريرُه إظهارًا للنَّصيحةِ، وأنَّه النَّذيرُ العُريانُ(٣)، وقولُه بعْدَ ذلك: ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾.

ويجوزُ تعليقُ الفاءِ في ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ بقولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) هذا مَثَلٌ يُضرَبُ مبالغةً في صِدقِ النِّذارةِ؛ لأنَّه إذا كان عريانًا كان أبينَ، وأصلُه أنَّ الرَّجلَ إذا أراد إنذارَ قومِه وإعلامَهم بما يُوجِبُ المخافةَ نزَعَ ثوبَه، وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم؛ ليخبرَهم بما دهَمهم، وأكثرُ ما يفعَلُ هذا طليعةُ القومِ ورقيبُهم، قالوا: وإنَّما يفعلُ ذلك؛ لأنَّه أبينُ للنَّاظرِ وأغربُ وأشنعُ منظرًا، فهو أبلغُ في استحثاثِهم في التأهُّبِ للعدوِّ. وقيل: معناه النَّذيرُ الذي أدرَكه جيشُ العدوِّ، فأخَذ ثيابَه، فهو يُنذِرُهم عريانًا. يُنظر: (( مطالع الأنوار على صحاح الآثار)) لابن قرقول (٤/ ٤١٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٨).

وتقريرُ ذلك: أنَّه تعالى لَمَّا أظْهَرَ القَهَّاريَّةَ بإهلاكِ الأُمَمِ الماضيةِ، وبيَّن الفَرْدانيَّةَ بقَولِه: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذَّاريات: ٤٩]، ونبَّه على ذلك بقولِه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾، ورَتَّبَ عليه: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾، ووضَعَ الاسمَ الجامعَ مَوضعَ الضَّميرِ، يعني: إذا تَفكَّرْتُم واعتبَرْتُم وتذكَّرْتُم، وتَبيَّن لكم أنَّه هو القهَّارُ الصَّمَدُ، وإليه المَرجِعُ والملْجأُ؛ فلُوذوا إليه، وتَوكَّلوا عليه، ولا تُشرِكوا به شيئًا، والعبادةُ مِن لَوازِمِ ذلك؛ ولذلك عقَّبَه بقَولِه: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذَّاريات: ٥٦]، وحينَ لم يكُنْ يَنجَعُ في المشركين تلك المواعظُ والتَّخويفُ والتَّذكيرُ، رجَعَ عَودًا إلى بَدْءٍ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ [الذَّاريات: ٥٢] إلى آخِرِه، مُسلِّيًا رسولَه صَلواتُ اللهِ عليه، وجُعِلَ التَّخلُّصُ إلى المَقصودِ مِن الخلْقِ قولُه: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] [الذَّاريات: ٥٥].

فبعْدَ أنْ بُيِّنَ ضَلالُ هؤلاء في تَكذيبِهم بالبَعثِ بَيانًا بالبُرهانِ السَّاطعِ، ومُثِّلَ حالُهم بحالِ الأُمَمِ الَّذين سَلَفوهم في التَّكذيبِ بالرُّسلِ وما جاؤوا به، جمْعًا بيْنَ الموعظةِ للضَّالِّينَ وتَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ، وكانتْ فيما مَضى مِن الاستدلالِ دَلالةٌ على أنَّ اللهَ مُتفرِّدٌ بخلْقِ العالَمِ، وفي ذلك إبطالُ إشراكِهم مع اللهِ آلهةً أُخرى -أقبَلَ اللهُ على تَلقينِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يَستخلِصُه لهم عقِبَ ذلك؛ بأنْ يَدعُوهم إلى الرُّجوعِ إلى الحقِّ بقَولِه: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾؛ فالجُملةُ المُفرَّعةُ بالفاءِ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: فقُلْ: فِرُّوا، دلَّ عليه قولُه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾؛ فإنَّه كلامٌ لا يَصدُرُ إلَّا مِن قائلٍ، ولا يَستقيمُ أنْ يكونَ كَلامَ مُبلِّغٍ. وحذْفُ القولِ كَثيرُ الوُرودِ في القرآنِ، وهو مِن ضُروبِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨، ١٩).

إيجازِه، فالفاءُ مِن الكلامِ الَّذي يَقولُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومُفادُها التَّفريعُ، وليست مُفرِّعةً فِعلَ الأمْرِ المحذوفَ؛ لأنَّ المُفرَّعَ بالفاءِ هو ما يُذكَرُ بعْدَها، فقولُه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مقدرٌ لقولٍ خُوطِبَ بهِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بطريقِ التَّلوينِ، والفاءُ إمَّا لترتيبِ الأمرِ على ما حُكِيَ من آثارِ غضَبِه الموجِبةِ للفرارِ منها، ومِن أحكامِ رحمتِه المستدعيةِ للفرارِ إليها، كأنَّه قيلَ: قُلْ لهم: إذا كانَ الأمرُ كذلكَ فاهرُبوا إلى اللهِ الَّذي هذه شُؤونُه بالإيمانِ والطَّاعةِ؛ كيْ تَنجوا من عِقابِه، وتَفوزُوا بثَوابِه، وإمَّا للعَطفِ على جملةٍ مقدَّرةٍ مترتِّبةٍ على قولِه تعالَى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾، كأنَّه قيلَ: قُلْ لهم: فتَذكَّروا، ففِرُّوا إلى اللهِ... إلخ[1].

- وقد غُيِّر أُسلوبُ الموعظةِ إلى تَوجيهِ الخِطابِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَ لهم هذه الموعظةَ؛ لأنَّ لتَعدُّدِ الواعظينَ تأثيرًا على نُفوسِ المُخاطَبينَ بالمَوعظةِ[2]، فجاءت هذه الآيةُ كما يكونُ قَولُها مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ تنويعًا للخِطابِ وتفَنُّنًا؛ فإنَّه لَمَّا كان في هذه الآيةِ هو المقصودَ حوَّل أُسلوبَ الكلامِ مِنَ الإخبارِ إلى الأمرِ؛ تَجديدًا لنَشاطِ السَّامِعِ، وبَعْثًا لاهتِمامِ المُخاطَبينَ، وحَثًّا لهم، وتوكيدًا عليهم. وفيه تنبيهٌ على أنَّ ما يَقولُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم مِثلُ ما يَقولُه اللهُ، في وُجوبِ الإيمانِ والامتثالِ[3].

- وقولُه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أمْرٌ بالدُّخولِ في الإيمانِ وطاعةِ اللهِ، وجُعِلَ الأمْرُ بذلك بلَفظِ الفِرارِ؛ ليُنبِّهَ على أنَّ وَراءَ الناسِ عِقابًا وعذابًا، وأمْرًا حقُّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨، ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦١).

أنْ يُفَرَّ منه، فجمَعَت لَفظةُ ﴿فَفِرُّوٓاْ﴾ بيْنَ التَّحذيرِ والاستِدعاءِ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ بـ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ باعتبارِ أنَّ الغايةَ مِن الإنذارِ قصْدُ السَّلامةِ مِن العِقابِ؛ فصار الإنذارُ بهذا الاعتبارِ تَعليلًا للأمْرِ بالفِرارِ إلى اللهِ، أي: التَّوجُّهِ إليه وحْدَه. أو تَعليلٌ لوُجوبِ الامتثالِ بِالفرارِ؛ فإنَّ كَونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُنذِرًا منهُ تعالَى مُوجِبٌ عليهِ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- أنْ يأمُرَهُم بالفرارِ إليهِ، وعليهم أنْ يَمتثِلُوا به[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ عطْفُ قولِه: ﴿وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ على ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ نهْيٌ عن نِسبةِ الإلهيَّةِ إلى أحدٍ غَيرِ اللهِ؛ فجُمِعَ بيْنَ الأمْرِ والنَّهيِ مُبالَغةً في التَّأكيدِ بنفْيِ الضِّدِّ لإثباتِ ضِدِّه[٣].

- وكُرِّرَ قولُه: ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ للتَّأكيدِ، أو الأوَّلُ مُرتَّبٌ على ترْكِ الإيمانِ والطَّاعةِ، والثَّاني على الإشراكِ. وقِيل: فائدةُ التَّكرارِ: التَّنبيهُ على أنَّه لا تَنفَعُ العِبادةُ مع الإشراكِ؛ إذ حُكْمُ المشرِكِ حكْمُ الجاحِدِ المُعطِّلِ، أو المأمورُ به في الأوَّلِ الطَّاعةُ المُوظَّفةُ بعْدَ الإيمانِ، فتُوُعِّدَ تارِكُها بالوعيدِ المعروفِ دونَ الخُلودِ، فيكونُ وَعيدًا مُختلِفًا لا تَكرارًا[٤].

أو فيه تأكيدٌ لِما قبْلَه مِنَ الأمْرِ بالفِرارِ مِن العِقابِ إليه تعالَى، لكنْ لا بطَريقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٢٩)، ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣).

التَّكريرِ كما قِيل، بل بالنَّهيِ عن سَببِه، وإيجابِ الفرارِ منه[١].

وقيل: أعادها هنا؛ لِيُبيِّنَ لهم أنَّ عِبادةَ اللهِ مع الإشراكِ به كتَعطيلِ عِبادتِه؛ فهَلاكُ المُشرِكِ كهَلاكِ الجاحِدِ، والنَّجاةُ أن تَعبُدوا اللهَ ولا تُشرِكوا به شَيئًا لا في رُبوبيَّتِه ولا في أُلوهيَّتِه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٦٣).

## الآيات (٥٢-٥٥)

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾: أي: أَأَوصى بَعضُهم بعضًا بهذه المقالةِ، وتواطَؤوا عليها، وأصلُ (وصي): يدُلُّ على وَصْلِ شَيءٍ بشَيءٍ، ومنه الوصِيَّةُ، كأنَّه كلامٌ يُوصَى، أيْ: يُوصَلُ[1].

﴿طَاغُونَ﴾: أي: مُتَجاوِزونَ حُدودَ اللهِ بالعِصيانِ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ[2].

﴿فَتَوَلَّ﴾: أي: فأعرِضْ؛ فالتَّولِّي إذا عُدِّيَ بـ (عن) لَفظًا أو تقديرًا اقتَضى معنى الإعراضِ[3].

﴿ٱلذِّكۡرَىٰ﴾: أي: التَّذكيرَ، وأصلُ (ذكر) هنا: يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[4].

### المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى مواقفَ الكفَّارِ -في الأممِ السَّابقةِ- مِن رُسلِهم، مسلِّيًا رسولَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)،((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥، ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٣١٦) و(٢١/ ٥٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩).

صلَّى الله عليه وسلَّم عمَّا ناله مِن تكذيبٍ مِن المشركين، فيقولُ: كَذَّبَ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ رُسُلَهم مِثلَ تَكذيبِ قُرَيشٍ نَبيَّها، فقالت كُلُّ أُمَّةٍ منهم لِرَسولِهم: هو ساحِرٌ أو مَجنونٌ! فهل أوصى الكُفَّارُ بَعضُهم بَعضًا بذلك القَولِ، فاتَّفَقت كَلِمتُهم على تَكذيبِ رُسُلِهم ووَصْفِهم بهذا الوَصفِ؟! بَلِ اتَّفَقَت أقوالُهم في هذا الشَّأنِ؛ لأنَّهم قَومٌ مُتعَدُّونَ أمْرَ اللهِ، مُتجاوِزونَ لحُدودِه.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى رسولَه بالإعراضِ عنهم، فيقولُ: فأَعرِضْ -يا محمَّدُ- عنهم؛ فلَسْتَ بمَلُومٍ مِنَ اللهِ؛ فقد بلَّغْتَ رِسالةَ رَبِّك، وذَكِّرْ؛ فإنَّ الذِّكْرى تنفَعُ المؤمِنينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالى قَولَهم المُختَلِفَ الَّذي منه تَكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونِسبتُه إلى السِّحرِ والجُنونِ وغَيرِ ذلك مِنَ الفُنونِ، ومنه الإشراكُ مع اعترافِهم بأنَّه لا خالِقَ إلَّا اللهُ، ولا كاشِفَ ضُرٍّ غَيرُه، إلى غَيرِ ذلك مِن أنواعِ الاضطِرابِ، وأخبَرَ بهلاكِهم على ذلك، وحَذَّرهم منه، ودَلَّ عليه إلى أنْ خَتَم بإنذارِ مَنِ اتَّخَذ إلهًا غَيرَه- قال مُسَلِّيًا[1]:

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ٥٢﴾.

أي: مِثْلَ ما كذَّبَتْ قُرَيشٌ نَبيَّها ووصَفَتْه بأوصافٍ باطِلةٍ كَذَّبَ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ مِن قبْلِ قُرَيشٍ رُسُلَهم، فقالت كُلُّ أُمَّةٍ منهم لِرَسولِهم: هو ساحِرٌ أو

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٨).

مَجنونٌ[١]!

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾.

أي: هل أوصَى الكُفَّارُ بَعضُهم بَعضًا بذلك القَولِ، فاتَّفَقت كَلِمتُهم على تَكذيبِ رُسُلِهم، ووَصْفِهم بالسِّحرِ أو الجُنونِ[٢]؟!

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

أي: لم يُوصِ الكُفَّارُ بَعضُهم بَعضًا بذلك، وإنَّما اتَّفَقَت أقوالُهم في هذا الشَّأنِ؛ لاشتِراكِهم في صِفةِ الطُّغيانِ، فجَميعُهم مُتعَدُّونَ أمْرَ اللهِ، مُتجاوِزونَ لحُدودِه، لا يأتَمِرونَ بأَمْرِه، ولا يَنتَهُونَ عن نَهْيِه[٣].

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

هذه تَسليةٌ أُخرى؛ وذلك لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مِن كَرَمِ الأخلاقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٣، ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢، ٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٢، ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٥).

يَنسُبُ نَفْسَه إلى تَقصيرٍ، ويقولُ: إنَّ عَدَمَ إيمانِهم لِتَقصيري في التَّبليغِ! فيَجتَهِدُ في الإنذارِ والتَّبليغِ، فلَمَّا كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يكادُ يُتلِفُ نفْسَه الشَّريفةَ؛ غَمًّا عليهم، وأسَفًا لتخَلُّفِهم عن الإسلامِ، وخَوفًا ألَّا يكونَ وَفَى بما عليه مِنَ التَّنبيهِ والإعلامِ- سَبَّب تعالى عن حالِهم قَولَه[1]:

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾.

أي: فأعرِضْ -يا محمَّدُ- عن هؤلاء المكَذِّبينَ المُعانِدينَ للحَقِّ رَغْمَ ظُهورِه، وقيامِ الحُجَّةِ عليهم[2].

كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [الصافات: ١٧٤].

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾.

أي: فلَسْتَ بمَلُومٍ مِنَ اللهِ؛ فقد بلَّغْتَهم رِسالةَ رَبِّهم، ونصَحْتَ لهم، ولم يقَعْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (كُلُّ مَن لم يُصْغِ إليه [أي: النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم] ولم يَستَمِعْ لِقَولِه فإنَّه يُعرِضُ عنه، كما قال: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴾، ثمَّ قال: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾؛ فهو إذا بلَّغ قَومًا الرِّسالةَ فقامت الحُجَّةُ عليهم، ثمَّ امتَنَعوا مِن سَماعِ كَلامِه، أعرَضَ عنهم؛ فإنَّ الذِّكرى حينَئِذٍ لا تَنفَعُ أحَدًا، وكذلك مَن أظهَرَ أنَّ الحُجَّةَ قامت عليه، وأنَّه لا يَهتَدي، فإنَّه لا يُكَرَّرُ التَّبليغُ عليه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (أي: أعرِضْ عن الإلحاحِ في جِدالِهم؛ فقد كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم شَديدَ الحِرصِ على إيمانِهم، ويَغتَمُّ مِن أجْلِ عِنادِهم في كُفرِهم، فكان اللهُ يُعاوِدُ تَسليتَه الفَينةَ بعدَ الفَينةِ، كما قال تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣]، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣).

مِنك تَفريطٌ في دَعوتِهم[١].

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

أي: وذكِّرْ -يا محمَّدُ- فإنَّ التَّذكيرَ يَنفَعُ حَقًّا أهلَ الإيمانِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ * سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى: ٩، ١٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أنَّ الدَّاعيةَ لا بُدَّ أنْ يكونَ صابرًا على ما يَعتَرِضُه مِن الأذى؛ لأنَّ الدَّاعيةَ لا بُدَّ أنْ يُؤذَى إمَّا بالقَولِ وإمَّا بالفِعلِ، وهاهُم الرُّسُلُ -صلواتُ اللهِ وسَلامُه عليهم- أُوذُوا بالقَولِ، وأُوذوا بالفِعلِ، اقرأْ قولَ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾، ومع هذا فالرُّسُلُ صَبَروا على ما أُوذوا[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذه الآيةُ الكَريمةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٥).

قال السعدي: (التَّذكيرُ نَوعانِ: تَذكيرٌ بما لم يُعرَفْ تَفصيلُه مِمَّا عُرِف مُجمَلُه بالفِطَرِ والعُقولِ؛ فإنَّ اللهَ فَطَرَ العُقولَ على محبَّةِ الخَيرِ وإيثارِه، وكراهةِ الشَّرِّ والزُّهدِ فيه، وشَرْعُه مُوافِقٌ لذلك، فكُلُّ أمرٍ ونَهيٍ مِنَ الشَّرعِ فإنَّه مِنَ التَّذكيرِ، وتمامُ التَّذكيرِ أن يُذكَّرَ بما في المأمورِ به مِنَ الخَيرِ والحُسنِ والمصالِحِ، وما في المنهيِّ عنه مِنَ المَضارِّ.

والنَّوعُ الثَّاني مِنَ التَّذكيرِ: تذكيرٌ بما هو معلومٌ للمُؤمِنينَ، ولكِنِ انسحَبَت عليه الغَفلةُ والذُّهولُ، فيُذَكَّرونَ بذلك، ويُكَرَّرُ عليهم؛ لِيَرسَخَ في أذهانِهم، ويَنتَبِهوا ويَعمَلوا بما تذَكَّروه مِن ذلك، ولِيُحدِثَ لهم نشاطًا وهِمَّةً تُوجِبُ لهم الانتِفاعَ والارتِفاعَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٢).

(٣) يُنظر: ((زاد الداعية إلى الله)) لابن عثيمين (ص: ١٤).

تضَمَّنَتْ واحِدةً مِن حِكَمِ التَّذكيرِ، وهي رَجاءُ انتِفاعِ المذَكَّرِ به؛ لأنَّه تعالى قال هنا: ﴿ وَذَكِّرْ ﴾، ورَتَّب عليه قَولَه: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ومِن حِكَمِ التَّذكيرِ أيضًا: خُروجُ المُذَكِّرِ مِن عُهدةِ التَّكليفِ بالأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، وقد جمَعَ اللهُ هاتينِ الحِكمَتينِ في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٤].

ومن حِكَمِ ذلك أيضًا النِّيابةُ عن الرُّسُلِ في إقامةِ حُجَّةِ اللهِ على خَلْقِه في أرضِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى يَقولُ: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقد بَيَّنَ هذه الحُجَّةَ في آخرِ سُورةِ (طه) في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ ﴾ [طه: ١٣٤]، وأشار لها في (القَصَص) في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] [القصص: ٤٧].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ دَليلٌ على أنَّه كُلَّما كان الإيمانُ أقوى كان الانتِفاعُ بالذِّكرى أعظَمَ وأشَدَّ، وذلك مِن قاعدةٍ مَعروفةٍ عندَ العُلَماءِ، وهي: «أنَّ الحُكمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ ازداد بزيادتِه، ونَقَصَ بنُقصانِه»[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنَّ التَّذكيرَ واجبٌ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أنَّ الذِّكرى لا ينتَفِعُ بها

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٢٤).

كُلُّ النَّاسِ؛ فغَيرُ المؤمنِ الذِّكرى تُقيمُ عليه الحُجَّةَ لكِنْ لا تَنفَعُه؛ لا تنفَعُ الذِّكرى إلَّا المؤمنَ[١]، فهذه آيةٌ غَليظةٌ على مَن لا يَنتفِعُ بالموعِظةِ؛ لِمَا يُخشَى عليه مِنَ النِّفاقِ إذا زالت عنه مَنافِعُ المواعِظِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ دَليلٌ على أنَّ المُكَذِّبينَ للرُّسُلِ طريقتُهم واحِدةٌ ولو تباعدَتْ أزمانُهم، ولو تباعدَتْ أقطارُهم؛ لأنَّ المُجرِمَ أخو المُجرِمِ؛ فالطَّريقةُ واحِدةٌ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ سُؤالٌ: أنَّ مِن الأنبياءِ مَن قَرَّر دينَ النَّبيِّ الَّذي كان قَبْلَه، وبَقِيَ القَومُ على ما كانوا عليه، كأنبياءِ بني إسرائيلَ، وكيف وآدَمُ لَمَّا أُرسِلَ لم يُكَذَّبْ؟!

**الجوابُ**: أنَّا لا نُسَلِّمُ أنَّ المُقَرِّرَ رَسولٌ، بل هو نَبيٌّ على دينِ رَسولٍ، ومَن كَذَّب رَسولَه فهو يُكَذِّبُه أيضًا ضَرورةً[٤]. وأمَّا آدمُ فنبيٌّ، وليس برسولٍ، والدليلُ قولُه تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وفي حديثِ الشَّفاعةِ[٥]: ((فيَأْتونَ نُوحًا، فيَقولونَ: يا نوحُ، أنت أوَّلُ الرُّسُلِ إلى أهلِ الأرضِ))[٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ١٨١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٤).

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٤٠) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٣١٦).

كُلَّهم قالوا: «ساحِرٌ»، والأمرُ ليس كذلك؛ لأنَّه ما مِن رَسولٍ إلَّا وآمنَ به قَومٌ، وهم ما قالوا ذلك!

**الجوابُ**: أنَّ ذلك ليس بعامٍّ؛ فإنَّه لم يَقُلْ: «إلَّا قال كُلُّهم»، وإنَّما قال: ﴿إِلَّا قَالُواْ﴾[1]؛ فهو إسنادٌ باعتِبارِ أنَّه قَولُ أكثَرِهم؛ فإنَّ الأُمورَ الَّتي تُنسَبُ إلى الأقوامِ والقبائِلِ تجري على اعتِبارِ الغالِبِ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يَذكُرِ المصَدِّقِينَ كما ذَكَر المُكَذِّبينَ، وقال: إلَّا بَعضُهم صَدَّق، وبَعضُهم كَذَّب؟

**الجوابُ**: لأنَّ المقصودَ التَّسليةُ، وهي على التَّكذيبِ؛ فكأنَّه تعالى قال: لا تَأْسَ على تَكذيبِ قَومِك؛ فإنَّ أقوامًا قَبْلَك كَذَّبوا، ورُسُلًا كُذِّبوا[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ أنَّ الهوَى هو الَّذي أوجبَ لهم هذا التَّناقُضَ الظَّاهِرَ، سواءٌ كانت «أو» للتَّفصيلِ بأنَّ بَعضَهم قال واحِدًا، وبَعْضَهم قال آخَرَ، أو كانت للشَّكِّ؛ لأنَّ السَّاحِرَ يكونُ لَبيبًا فَطِنًا آتيًا بما يَعجِزُ عنه كثيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ والمَجنونُ بالضِّدِّ مِن ذلك[4]! فتارةً يَصِفونه بغايةِ الحِذْقِ، والخِبرةِ، والمعرفةِ؛ فيَقولون: ساحرٌ، وتارةً بغايةِ الجهلِ، والغَباوةِ، والحُمقِ؛ فيَقولون: مجنونٌ[5]!

٦- ما جاء رسولٌ صادِقٌ قَطُّ إلَّا قيل فيه: إنَّه ساحِرٌ أو مجنونٌ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۞ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٧٩).

(٥) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٣٤).

هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ وذلك أنَّ الرَّسولَ يأتي بما يخالِفُ عاداتِهم، ويَفعَلُ ما يَرَونَه غَيرَ نافِعٍ، ويَترُكُ ما يَرَونَه نافِعًا. وهذا فِعلُ المجنونِ؛ فإنَّ المجنونَ فاسِدُ العِلمِ والقَصدِ. ومَن كان مَبلَغُه مِنَ العِلمِ إرادةَ الحياةِ الدُّنيا، كان عندَه مَن تَرَك ذلك وطَلَب ما لا يَعلَمُه: مجنونًا!

ثمَّ الرَّسولُ مع هذا يأتي بأمورٍ خارجةٍ عن قُدرةِ النَّاسِ؛ مِن إعلامٍ بالغُيوبِ، وأمورٍ خارقةٍ لعاداتِهم، فيقولونَ: هو ساحِرٌ، وأيضًا فالسَّاحرُ لَمَّا كان يَتصرَّفُ في العقولِ والنُّفوسِ بما يُغَيِّرُها، وكان مَن سَمِع القُرآنَ وكلامَ الرَّسولِ خضَع له عقلُه ولُبُّه، وانقادتْ له نفْسُه وقلبُه؛ صاروا يقولون: ساحرٌ، وشَتَّانَ[1]. فقالوا: ﴿سَاحِرٌ﴾ باعتِبارِ تأثيرِه وبيانِه وبلاغتِه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا))[2]، ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ باعتبارِ تصَرُّفاتِه؛ لأنَّ هذا التَّصَرُّفَ في نظَرِ هؤلاء المكَذِّبينَ جُنونٌ. نسألُ اللهَ العافيةَ[3].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أنَّ قُلوبَ الكُفَّارِ مُتشابِهةٌ؛ فكانت أعمالُهم مُتشابِهةً، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[4] [البقرة: ١١٨].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ نَفْيُه جلَّ وعلا في هذه الآيةِ الكَريمةِ لِلَّومِ عن نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يدُلُّ على أنَّه أدَّى الأمانةَ، ونَصَح للأمَّةِ، وقد أوضَحَ تعالى هذا المعنى في غيرِ هذا الموضِعِ؛ كقَولِه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]،

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٣٤، ١٠٤٢).

(٢) رواه البخاري (٥٧٦٧) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عمَرَ رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٣).

وقَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[١] [الرعد: ٤٠].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ النَّفعُ الحاصِلُ مِنَ الذِّكرى هو رُسوخُ العِلمِ بإعادةِ التَّذكيرِ لِمَا سَمِعوه، واستِفادةُ عِلمٍ جَديدٍ فيما لم يَسمَعوه أو غَفَلوا عنه، وظُهورُ حُجَّةِ المُؤمِنينَ على الكافِرينَ يَومًا فيَومًا، وتكَرُّرُ عَجزِ المُشرِكينَ عن المعارَضةِ، ووَفرةُ الكلامِ المُعجِزِ[٢].

١٠- أنَّ اللهَ تعالى نَصَبَ مِن الأدِلَّةِ على وُجودِه ووَحدانيَّتِه وصِفاتِ كَمالِه الأدِلَّةَ على اختِلافِ أنواعِها، ولا يُطيقُ حَصْرَها إلَّا اللهُ، ثمَّ رَكَز ذلك في الفِطرةِ، ووَضَعَه في العَقلِ جُملةً، ثمَّ بَعَثَ الرُّسُلَ مُذَكِّرينَ به؛ ولهذا يقولُ تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾

- كلمةُ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصْلُ خِطابٍ تدُلُّ على انتهاءِ حديثٍ والشُّروعِ في غَيرِه، أو الرُّجوعِ إلى حَديثٍ قبْلَه أتَى عليه الحديثُ الأخيرُ، والتَّقديرُ: الأمْرُ كذلك، والإشارةُ إلى ما مَضى مِن الحديثِ، ثمَّ يُورَدُ بعْدَه حديثٌ آخَرُ، والسَّامعُ يَرُدُّ كُلًّا إلى ما يُناسِبُه، فيكونُ ما بعْدَ اسمِ الإشارةِ مُتَّصلًا بأخبارِ الأُمَمِ الَّتي تَقدَّمَ ذِكرُها مِن قَومِ لوطٍ ومَن عُطِفَ عليهم؛ أُعقِبَ تَهديدُ المشرِكين بأنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بالأُمَمِ المُكذِّبين لرُسلِ اللهِ مِن قبْلِهم بتَنظيرِهم بهم في مَقالِهم، فقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصْلٌ، وجُملةُ ﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ ...﴾ الآيةَ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٨٠).

مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا. ويُمكِنُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مَبدأَ استِئنافٍ، عَودًا إلى الإنحاءِ على المشركين في قَولِهم المُختلِفِ بأنواعِ التَّكذيبِ في التَّوحيدِ والبَعثِ وما يَتفرَّعُ على ذلك[١].

- وفي قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا ...﴾ أُوثِرَ استخدامُ حرْفِ (مَا) على (لَمْ)؛ ليُؤذِنَ بانفصالِ ما صدَرَ بها على ما قبْلَه، واتِّصالِه بقَولِه: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ﴾ إلى آخِرِ القصصِ، فلمَّا وُسِّطَ بيْنَهما الحديثُ في بَيانِ الآياتِ الدَّالَّةِ على التَّوحيدِ، ونفْيِ الشِّركِ والفِرارِ إلى اللهِ تعالى عمَّا سِواه؛ جِيءَ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ فصْلًا للخِطابِ؛ ليُتخلَّصَ منه إلى ما سِيقَ له الكلامُ، ولو أُتِيَ بحرفِ (لَمْ) لَاختلَّ النَّظْمُ[٢].

- وزِيادةُ (مِنْ) في قَولِه: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ للتَّنصيصِ على إرادةِ العُمومِ، أي: أنَّ كلَّ رسولٍ قال فيه فريقٌ مِن قَومِه: هو ساحرٌ، أو مَجنونٌ، أي قال بعضُهم: ساحرٌ، وقال بعضُهم: مَجنونٌ، وهذا العُمومُ يُفيدُ أنَّه لم يَخْلُ قَومٌ مِن الأقوامِ المذكورينَ إلَّا قالوا لرَسولِهم أحَدَ القولَينِ، أو جمَعوا القولَينِ لهم[٣].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ﴾ القصْرُ المُستفادُ مِن الاستِثناءِ بـ(ما .. إلَّا) قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٤]؛ لأنَّ للأُمَمِ أقوالًا غيرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٥، ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١).

(٤) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه =

ذلك وأحوالًا أُخرى، وإنَّما قُصِروا على هذا اهتِمامًا بذِكرِ هذه الحالةِ العجيبةِ مِن البُهتانِ؛ إذ يَرْمُون أعقَلَ النَّاسِ بالجُنونِ، وأقوَمَهم بالسِّحرِ[١]!

- وإسنادُ القولِ إلى ضَميرِ الَّذين مِن قبْلِ مُشْركي العرَبِ الحاضرينَ إسنادٌ باعتبارِ أنَّه قولُ أكثَرِهم؛ فإنَّ الأمورَ الَّتي تُنسَبُ إلى الأقوامِ والقبائلِ تَجْري على اعتبارِ الغالِبِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن تَواطُئِهم على

---

= بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ(إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذا القولِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: كأنَّهم أَوصَى بعضُهم بعضًا بأنْ يَقولوهُ؛ فالاستِفهامُ هنا كِنايةٌ عن لازِمِه، وهو التَّعجيبُ؛ لأنَّ شأْنَ الأمْرِ العجيبِ أنْ يُسأَلَ عنه، والجُملةُ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ تَماثُلَ هؤلاء الأُمَم في مَقالةِ التَّكذيبِ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن مَنشَأِ هذا التَّشابُهِ. أو الاستِفهامُ لإنكارِ إجماعِهم على تلكَ الكلمةِ الشَّنيعةِ الَّتي لا تَكادُ تَخطُرُ ببالِ أحدٍ مِن العُقلاءِ، فضْلًا عن التَّفوُّهِ بها[1].

- وقولُه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضرابٌ عن مُفادِ الاستفهامِ مِن التَّشبيهِ، أو عن التَّواصي به، ببَيانِ سَببِ التَّواطؤِ على هذا القولِ؛ فإنَّه إذا ظهَرَ السَّببُ بطَلَ العجَبُ، أي: ما هو بتَواصٍ، ولكنَّه تَماثُلٌ في مَنشَأِ ذلك القولِ، أي سبَبُ تَماثُلِ المَقالةِ تَماثُلُ التَّفكيرِ والدَّواعي للمَقالةِ؛ إذ جَميعُهم قومٌ طاغونَ، فالجامعُ لهم على هذا القولِ مُشارَكتُهم في الطُّغيانِ الحاملِ عليه، وأنَّ طُغيانَهم وكِبرياءَهم يَصُدُّهم عن اتِّباعِ رسولٍ يَحسَبون أنفُسَهم أعظَمَ منه، وإذ لا يَجِدون وَصمةً يَصِمونه بها اختَلَقوا لتَنقيصِه عِلَلًا لا تَدخُلُ تحت الضَّبْطِ، وهي ادِّعاءُ أنَّه مَجنونٌ، أو أنَّه ساحرٌ، فاستَوَوا في ذلك بعِلَّةِ استوائِهم في أسبابِه ومَعاذيرِه[2].

- وفي إقحامِ كَلمةِ ﴿قَوْمٌ﴾ في قولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إيذانٌ بأنَّ الطُّغيانَ راسخٌ في نُفوسِهم، بحيثُ يكونُ مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢، ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ تَفريعٌ على قَولِه: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ إلى قولِه: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذَّارِيات: ٥٢، ٥٣]، وهو مُشعِرٌ بأنَّهم بُعَداءُ عن أنْ تُقنِعَهم الآياتُ والنُّذُرُ، أي: أعرِضْ عن الإلحاحِ في جِدالِهم؛ فقد كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شَديدَ الحرْصِ على إيمانِهم، ويَغتَمُّ مِن أجْلِ عِنادِهم في كُفْرِهم، فكان اللهُ يُعاوِدُ تَسليتَه الفَينةَ بعْدَ الفَينةِ(١).

- وفي قولِه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ فُرِّعَ على أمْرِه بالتَّولِّي عنهم إخبارُه بأنَّه لا لَومَ عليه في إعراضِهم عنه. وصِيغَ الكَلامُ في صِيغةِ الجُملةِ الاسميَّةِ دونَ (لا نَلومُك)؛ للدَّلالةِ على ثَباتِ مَضمونِ الجُملةِ في النَّفيِ(٢).

- وجِيءَ بضَميرِ المُخاطَبِ مُسنَدًا إليه، فقال: ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (فلا ملامَ عليك) أو نَحوَه؛ للاهتِمامِ بالتَّنويهِ بشأْنِ المُخاطَبِ وتَعظيمِه(٣).

- وزِيدَت الباءُ في الخبَرِ المَنفيِّ ﴿بِمَلُومٍ﴾؛ لتَوكيدِ نفْيِ أنْ يكونَ مَلومًا(٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- عطْفُ ﴿وَذَكِّرْ﴾ على ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ احتراسٌ؛ كيْ لا يَتوهَّمَ أحدٌ أنَّ الإعراضَ إبطالٌ للتَّذكيرِ، بل التَّذكيرُ باقٍ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذكَّرَ النَّاسَ بعْدَ أمْثالِ هذه الآياتِ، فآمَنَ بعضُ مَن لم يكُنْ آمَنَ مِن قبْلُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣، ٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٤).

ولِيَكونَ الاستِمرارُ على التَّذكيرِ زِيادةً في إقامةِ الحُجَّةِ على المُعرِضين، ولئلَّا يَزدادوا طُغيانًا فيَقولوا: ها نحن أُولاءِ قد أفحَمْناهُ، فكفَّ عمَّا يَقولُه[١].

- والأمْرُ في ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ مُرادٌ به الدَّوامُ على التَّذكيرِ وتَجديدُه[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ اقتُصِرَ في تَعليلِ الأمْرِ بالتَّذكيرِ على علَّةٍ واحدةٍ، وهي انتفاعُ المؤمنينَ بالتَّذكيرِ؛ لأنَّ فائدةَ ذلك مُحقَّقةٌ، ولإظهارِ العِنايةِ بالمؤمنينَ في المَقامِ الَّذي أُظهِرَت فيه قِلَّةُ الاكتِراثِ بالكافرين، ولذلك فوَصْفُ المؤمنينَ يُرادُ به المتَّصِفون بالإيمانِ في الحالِ كما هو شأْنُ اسمِ الفاعِلِ، وأمَّا مَن سيُؤمِنُ فعلَّتُه مَطويَّةٌ[٣].

- وخَصَّ المُؤمِنينَ؛ لأنَّهم المُنتَفِعونَ بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٥).

## الآيات (٥٦-٦٠)

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمَتِينُ﴾: أي: الشَّديدُ القَوِيُّ، وأصلُ (متن): يدُلُّ على صَلابةٍ[1].

﴿ذَنُوبًا﴾: أي: نَصيبًا وحَظًّا مِنَ العَذابِ، مَأخوذٌ مِن مُقاسَمةِ السُّقاةِ الماءَ بالذَّنُوبِ، والذَّنُوبُ في كَلامِ العَرَبِ: الدَّلْوُ العَظيمةُ، ولا تُسَمَّى ذَنُوبًا إلَّا إذا كانت مَلْأَى، وأصلُ (ذنب) هنا: يدُلُّ على الحَظِّ والنَّصيبِ[2].

﴿فَوَيْلٌ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُبيِّنًا الغايةَ الَّتي خلَق الجنَّ والإنسَ مِن أجْلِها: وما خَلَقْتُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨).

قال الراغب: (ومَن قال: «ويْلٌ»: وادٍ في جهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ «ويْلًا» في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد مَن قال الله تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مقرًّا مِن النَّارِ، وثبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

الجِنَّ والإنسَ إلَّا مِن أجْلِ عِبادتي وَحْدي، ما أُريدُ مِنهم مِنْ رِزقٍ؛ لا لي، ولا لأنفُسِهم، ولا لغيرِهم، وما أريدُ منهم أن يُطعِموني، ولا أن يُطعموا أنفُسَهم ولا غيرَهم، إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الرَّزَّاقُ لجَميعِ خَلْقِه، صاحِبُ القُوَّةِ التَّامَّةِ، الشَّديدُ القُوَّةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سوءَ عاقِبةِ الظَّالِمينَ، فيقولُ: فإنَّ للَّذينَ ظَلَموا أنفُسَهم بالشِّركِ نَصيبًا وافِرًا مِن عذابِ اللهِ تعالى مِثلَ نَصيبِ أمثالِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ؛ فلا يَستعجِلوني بالعَذابِ.

فعَذابٌ وهَلاكٌ للَّذينَ كَفَروا مِنَ اليَومِ الَّذي يُوعَدونَ بنُزولِ العَذابِ عليهم فيه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

في تعَلُّقِ الآيةِ بما قَبْلَها وُجوهٌ:

منها: أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ [الذَّاريات: ٥٥] يعني: أقصى غايةِ التَّذكيرِ، وهو أنَّ الخَلْقَ ليس إلَّا للعبادةِ، فالمقصودُ مِن إيجادِ الإنسانِ العبادةُ، فذَكِّرْهم به، وأعلِمْهم أنَّ كُلَّ ما عَدَاه تضييعٌ للزَّمانِ.

ومنها: أنَّه لَمَّا بَيَّنَ حالَ مَن قَبْلَه مِنَ التَّكذيبِ؛ ذكَرَ هذه الآيةَ؛ لِيُبَيِّنَ سُوءَ صَنيعِهم حيثُ تَرَكوا عبادةَ اللهِ، فما كان خَلْقُهم إلَّا للعِبادةِ[1].

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

أي: وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلَّا مِن أجْلِ عِبادتي وَحْدي؛ لِيَتذلَّلوا ويَخضَعوا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥).

لي بطاعتي[١].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ * وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٧].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حَصَر سُبحانَه خَلْقَهم في إرادةِ العِبادةِ؛ صَرَّح بهذا المفهومِ بقَولِه[٢]:

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: ما أُريدُ مِن الجِنِّ والإنسِ أيَّ رِزقٍ؛ لا لي، ولا لأنفُسِهم، ولا لغيرِهم، ولا أريدُ منهم أن يُطعِموني؛ لأنِّي مُنزَّهٌ عن الأكلِ، ولا أن يُطعِموا أنفُسَهم ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٦)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٦٨، ٤٧٣، ٤٨١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤١، ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥، ٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨١).

غيرَهم، فلْيَشتَغِلوا بعبادتي[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٥٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥، ٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٧).

قيل: معنى ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾: ما أُريدُ منهم أن يَرزُقوا خَلْقي. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦٤).

وقيل: المعنى: ما أُريدُ أن يَرزُقوا أنفُسَهم. ومِمَّن اختاره: يحيى بنُ سلام، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٣).

وقيل: المعنى: ما أُريدُ منهم أن يَرزُقوا أنفُسَهم ولا غَيرَهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والبغوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، والخازن، وأبو حيَّان. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٢).

وقيل: المعنى: ما أُريدُ منكم مِن رزقٍ لي؛ فلَستُ بحاجةٍ إلى ذلك، فاللهُ تعالى غنيٌّ عن خَلْقِه، فهذه الجملةُ فيها بيانُ استغنائِه سُبحانَه عن عبادِه. وهو في الجملةِ اختيارُ الزمخشريِّ، والرازيِّ، والبيضاوي، وابنِ تيميَّةَ، والبِقاعي، والشوكاني، والألوسي، وابنِ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٥٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (الرِّزقُ يَعُمُّ كُلَّ ما يَنتَفِعُ به المُرتَزِقُ؛ فالإنسانُ يُرزَقُ الطَّعامَ والشَّرابَ واللِّباسَ، وما يَنتَفِعُ بسَمْعِه وبَصَرِه وشَمِّه، ويُرزَقُ ما يَنتَفِعُ به باطِنُه مِن عِلمٍ وإيمانٍ، وفَرَحٍ وسُرورٍ، وقُوَّةٍ ونورٍ، وتأييدٍ، وغير ذلك. واللهُ سُبحانَه ما يريدُ مِنَ الخَلقِ مِن رِزقٍ؛ فإنَّهم لن يَبلُغوا ضُرَّه فيَضُرُّوه، ولن يَبلُغوا نَفْعَه فيَنفَعوه، بل هو الغَنيُّ، وهم الفُقَراءُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٥٥).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي: لا أريدُ أن يُطعِموني؛ لأنِّي مُنَزَّهٌ عن الأكلِ وعن =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((دعا رجُلٌ مِنَ الأنصارِ مِن أهلِ قُباءٍ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فانطلَقْنا معه، فلمَّا طَعِمَ وغَسَل يَدَه أو يَدَيه قال: الحَمدُ للهِ الَّذي يُطعِمُ ولا يُطعَمُ، مَنَّ علينا فهَدانا، وأطعَمَنا وسَقانا، وكُلَّ بلاءٍ حَسَنٍ أبلانا، الحَمدُ لله غيرَ مُودَّعٍ ولا مُكافَأٍ، ولا مَكفورٍ ولا مُستَغنًى عنه، الحَمدُ لله الَّذي أطعَمَ مِنَ الطَّعامِ، وسَقى مِنَ الشَّرابِ، وكسَا مِنَ العُرْيِ، وهَدى مِنَ الضَّلالةِ، وبصَّرَ مِنَ العَمَى، وفضَّلَ على كثيرٍ مِنْ خَلْقِه تَفضيلًا، الحَمدُ للهِ

---

= صِفاتِ البَشَرِ، وأنا غنيٌّ عن العالَمينَ. وقيل: المعنى: ما أُريدُ أن يُطعِموا عَبيدي، فحُذِفَ المُضافُ تجَوُّزًا... والأوَّلُ أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠).

ومِمَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الرازيُّ، وابنُ جُزَي، والبِقاعي، والشوكاني، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨).

ومِمَّن اختار أنَّ المعنى: وما أُريدُ أن يُطعِموا أحدًا مِن خَلْقِي: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والبغويُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٥٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٣).

قال ابن الجوزي: (وإنَّما أَسنَدَ الإطعامَ إلى نَفْسِه؛ لأنَّ الخَلْقَ عِيالُ اللهِ، ومَن أطعمَ عِيالَ أحَدٍ فقد أطعمَه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٣).

ومِمَّن جمَعَ بيْنَ الأقوالِ في الرِّزقِ والإطعامِ: جلالُ الدين المحلي، فقال: (﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ لي ولأنفُسِهم وغَيرِهم، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ ولا أنفُسَهم ولا غَيرَهم). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٦).

رَبِّ العالَمينَ))[١].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه هو الرَّزَّاقُ لجَميعِ خَلْقِه؛ فهم المحتاجُونَ إليه في جميعِ أحوالِهم[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا﴾ [هود: ٦].

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾.

أي: وهو صاحِبُ القُوَّةِ التَّامَّةِ، الشَّديدُ القُوَّةِ[٣].

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾.

---

(١) أخرجه النَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠١٣٣) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّان (٥٢١٩)، والحاكِمُ (٢٠٠٣).

صَحَّحه ابنُ حبَّانَ، والحاكمُ وقال: (على شرطِ مسلمٍ). وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٧٦٥)، وصَحَّح إسنادَه على شرطِ مسلمٍ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٥٢١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٩).

قال ابن عاشور: (المعنى: أنَّه المسْتَغْني غِنًى مُطلَقًا، فلا يَحتاجُ إلى شَيءٍ، فلا يكونُ خلْقُه الخلْقَ لتَحصيلِ نفْعٍ له، ولكنْ لعُمْرانِ الكَونِ، وإجراءِ نِظامِ العُمْرانِ باتِّباعِ الشَّريعةِ الَّتي يَجمَعُها معنى العِبادةِ في قولِه: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه تعالى بَيَّنَ أنَّ مَن يَضَعُ نَفْسَه في مَوضِعِ عِبادةِ غَيرِ اللهِ يكونُ وَضَع الشَّيءَ في غَيرِ مَوضِعِه، فيَكونُ ظالِمًا؛ فقال: إذا ثَبَت أنَّ الإنسَ مَخلوقونَ للعِبادةِ فإنَّ الَّذين ظَلَموا بعِبادةِ غيرِ الله لهم هلاكٌ مِثلُ هَلاكِ مَن تَقدَّمَ[1].

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ ﴾.

أي: فإنَّ للَّذينَ ظَلَموا فأشرَكوا باللهِ مِن قُرَيشٍ أو غَيرِهم نَصيبًا وافِرًا مِن عذابِ اللهِ تعالى مِثلَ نَصيبِ أمثالِهم مِن كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ؛ فلا يَستعجِلوني بالعَذابِ؛ فإنَّه نازِلٌ بهم في وَقتِه المُقَدَّرِ له لا مَحالةَ[2].

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: فعَذابٌ وهَلاكٌ[3] للَّذينَ كَفَروا بالحَقِّ مِنَ اليَومِ الَّذي وعَدَهم اللهُ بنُزولِ العَذابِ فيه[4]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠، ٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٩، ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧٠).

ومالَ الرَّازيُّ إلى أنَّ الذُّنوبَ ليس بعذابٍ ولا هلاكٍ، وإنَّما هو رغَدُ العَيشِ، والمعنى: فإنَّ للَّذين ظَلَموا مِن الدُّنيا وطَيِّباتِها ذَنوبًا، ولا يكونُ لهم في الآخرةِ مِن نصيبٍ، قال الرَّازيُّ: (وهو أَلْيَقُ بالعربيَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٧).

(٣) قال الشنقيطي: (كلمة «ويلٌ»، قال فيها بعضُ أهلِ العِلمِ: إنَّها مَصدَرٌ لا فِعلَ له مِن لَفظِه، ومعناه: الهلاكُ الشَّديدُ. وقيل: هو وادٍ في جهنَّمَ تَستعيذُ مِن حَرِّه، والَّذي سَوَّغ الابتِداءَ بهذه النَّكِرةِ أنَّ فيها معنى الدُّعاءِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٤ - ٢٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤].

---

= كثير)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧١).

قال ابن جُزَي: (﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ يومَ القيامةِ، أو يومَ هَلاكِهم ببَدرٍ، والأوَّلُ أرجَحُ؛ لِقَولِه في «المعارجِ»: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٤] يعني: يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠).

وقال الألوسي: (المرادُ بذلك اليَومِ: قيل: يومُ بَدرٍ، ورُجِّح بأنَّه الأوفَقُ لِما قَبْلَه مِن حيثُ إنَّه ذَنوبٌ مِن العذابِ الدُّنيويِّ. وقيل: يومُ القيامةِ، ورُجِّح بأنَّه الأنسَبُ لِما في صَدرِ السُّورةِ الكريمةِ الآتيةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٥). ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٥).

وممَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: إنَّه يومُ القيامةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابنُ جُزَي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧١).

ونسَبه ابنُ عطيَّةَ لجمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٤).

ومِمَّن قال به مِن السَّلفِ: عَطاءٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧١).

وممَّن ذهب إلى أنَّه يومُ بَدرٍ: الثعلبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢).

وقال البِقاعي: (﴿ مِن يَوْمِهِمُ ﴾ أضافه إليهم؛ لأنَّه خاصٌّ بهم دونَ المُؤمِنينَ ﴿ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ في الدُّنيا والآخِرةِ). ((نظم الدرر)) (١٨/ ٤٨٣).

وقال تبارَك وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧]

وقال عزَّ شأنُه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ١٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فالحِكمةُ مِن خَلقِ الجِنِّ والإنسِ العِبادةُ؛ فلم يُخلَقوا مِن أجْلِ أن يَعمُروا الأرضَ، ولا مِن أجْلِ أن يأكُلوا، ولا مِن أجْلِ أن يَشرَبوا، ولا أن يَتمَتَّعوا كما تتمَتَّعُ الأنعامُ، وإنَّما خُلِقوا لعبادةِ اللهِ، وخَلَق لهم ما في الأرضِ، فنحن مخلوقونَ للعبادةِ، وكُلُّ ما في الأرضِ مَخلوقٌ لنا ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، والعَجَبُ أنَّ قَومَنا الآنَ اشتَغَلوا فيما خُلِقَ لهم عمَّا خُلِقوا له! وهذا مِنَ السَّفَهِ؛ أن يَشتَغِلوا بشَيءٍ خُلِقَ لهم عن شَيءٍ خُلِقوا مِن أجْلِه[1]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أنَّ الإنسَ والجِنَّ مُكَلَّفونَ بعبادةِ اللهِ تعالى[2]، فمَن لم يَعْبُدِ اللهَ، أو عَبَد مع اللهِ غيرَه، أو لم يَعبُدْ أحدًا؛ فإنَّه أضاع دِينَه ودُنياه؛ لأنَّه أضاع ما خُلِقَ مِن أجْلِه[3].

٢- خَلَق اللهُ الخَلْقَ وأوجَدَهم لعبادتِه الجامِعةِ لخَشيتِه ورَجائِه ومحَبَّتِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وإنَّما يُعبَدُ اللهُ سُبحانَه بعدَ العِلْمِ به ومعرفتِه، فبذلك خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما فيهما للاستِدلالِ بهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٧، ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٣٩٨).

على تَوحيدِه وعَظَمتِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق: ١٢]، وقد عُلِمَ أنَّ العِبادةَ إنَّما تُبنى على ثلاثةِ أُصولٍ: الخَوفِ، والرَّجاءِ، والمحَبَّةِ. وكلٌّ منها فَرضٌ لازِمٌ، والجَمعُ بيْنَ الثَّلاثةِ حَتمٌ واجِبٌ؛ فلهذا كان السَّلَفُ يَذُمُّونَ مَن تعَبَّد بواحِدٍ منها، وأهمَلَ الآخَرَينِ؛ فإنَّ بِدَعَ الخوارِجِ ومَن أشبَهَهم إنَّما حَدَثَت مِنَ التَّشديدِ في الخَوفِ، والإعراضِ عن المحبَّةِ والرَّجاءِ؛ وبِدَعَ المُرجِئةِ نَشَأت مِن التَّعلُّقِ بالرَّجاءِ وَحْدَه، والإعراضِ عن الخَوفِ؛ وبِدَعَ كَثيرٍ مِن أهلِ الإباحةِ والحُلولِ مِمَّن يُنسَبُ إلى التَّعَبُّدِ نشَأَت مِن إفرادِ المحبَّةِ، والإعراضِ عن الخَوفِ والرَّجاءِ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ذمٌّ وتوبيخٌ لِمَن لم يَعبُدِ اللهَ منهم؛ لأنَّ اللهَ خَلَقَه لشَيءٍ فلم يَفعلْ ما خُلِقَ له؛ ولهذا عَقَّبَها بقَولِه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾، فإثباتُ العبادةِ ونفْيُ هذا يُبيِّنُ أنَّه خَلَقَهم للعبادةِ، ولم يُرِدْ منهم ما يُريدُه السَّادةُ مِن عبيدِهم مِن الإعانةِ لهم بالرزقِ والإطعامِ[2].

٤- عِبادةُ اللهِ وَحْدَه حقٌّ استحَقَّه على الخَلقِ لِذَاتِه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾، فأخبرَ سُبحانَه أنَّه إنَّما خَلَق الخلْقَ لعبادتِه، وأخبرَ أنَّ الَّذي خَلَقه لهم، وأمَرَهم به، ورَضِيَه وأَحبَّه وأرادَه بأَمْرِه منهم: هو عبادتُه، لم يُرِدْ منهم رزقًا ولا أنْ يُطعِموه[3].

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٦/ ٢٣٦).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ أنَّه لا يَصِحُّ التَّوكيلُ في عبادةٍ مَحضةٍ، كالصَّلاةِ والصَّومِ ونَحوِهما؛ لأنَّ ذلك مَطلوبٌ مِن كُلِّ أحَدٍ بعَينِه؛ فلا يَنوبُ فيه أحَدٌ عن أحَدٍ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لا يُنافي ذلك عَدَمُ عِبادةِ الكافِرينَ؛ لأنَّ الغايةَ لا يَلزَمُ وُجودُها، كما في قَولِك: بَرَيتُ القَلَمَ لأكتُبَ به؛ فإنَّك قد لا تكتُبُ به، أو لأنَّ ذلك عامٌّ أريدَ به الخُصوصُ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ومَن خُلِقَ لجَهنَّمَ لا يكونُ مَخلوقًا للعبادةِ(٢)! وأيضًا فالتَّعليلُ هنا ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ تعليلٌ شرعيٌّ، أي: مِن أجْلِ أنْ يَعبُدونِ، حيثُ آمُرُهم فيَمتَثِلونَ أمْري، وليستِ اللَّامُ هنا تَعليلًا قَدَريًّا؛ لأنَّه لو كان تَعليلًا قَدَريًّا لَلَزِمَ أنْ يَعبُدَه جميعُ الجِنِّ والإنسِ، لكِنَّ اللَّامَ هنا لبيانِ الحِكمةِ الشَّرعيَّةِ في خَلقِ الجِنِّ والإنسِ(٣). وقيل غيرُ ذلك(٤).

٧- أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ دعا جميعَ النَّاسِ على ألسِنةِ رُسُلِه إلى الإيمانِ به وعبادتِه وَحْدَه، وأمَرَهم بذلك، وأمْرُه بذلك مُستلزِمٌ للإرادةِ الدِّينيَّةِ الشَّرعيَّةِ، ثمَّ إنَّ اللهَ جَلَّ وعلا يَهدي مَن يشاءُ منهم، ويُضِلُّ مَن يشاءُ بإرادتِه الكَونيَّةِ القَدَريَّةِ، فيَصيرونَ إلى ما سَبَق به العِلمُ مِن شَقاوةٍ وسَعادةٍ، وبهذا تَعلَمُ وجْهَ الجَمعِ بيْنَ قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]،

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٣٠).

ثمَّ قال: (أمَّا الحَجُّ عن الميِّتِ والمعضوبِ [أي: العاجزِ عجزًا لا يُرجى زوالُه]، والصومُ عن الميِّتِ: فقد دلَّت أدلَّةٌ أُخرُ على النِّيابةِ في ذلك، وإنْ خالَف كثيرٌ مِن العلماءِ في الصَّومِ عن الميِّتِ). ((المصدر السابق)). ويُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٩/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٠٧).

وقَولِه تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡ﴾ [هود: ١١٩]، وبيْنَ قَولِه تعالى هنا: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، وإنَّما ذكَرْنا أنَّ الإرادةَ قد تكونُ دِينيَّةً شَرعيَّةً، وهي مُلازِمةٌ للأمرِ والرِّضا، وقد تكونُ كَونيَّةً قَدَريَّةً وليست مُلازِمةً لهما؛ لأنَّ اللهَ يأمُرُ الجَميعَ بالأفعالِ المرادةِ منهم دينًا، ويريدُ ذلك كَونًا وقَدَرًا مِن بَعضِهم دونَ بَعضٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فقَولُه: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أي: فيما جاء به مِن عِندِنا؛ لأنَّه مَطلوبٌ مُرادٌ مِن المُكَلَّفينَ شَرعًا ودِينًا، وقَولُه: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ يدُلُّ على أنَّه لا يقَعُ مِن ذلك إلَّا ما أراده اللهُ كَونًا وقَدَرًا، واللهُ جَلَّ وعلا يقولُ: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [يونس: ٢٥]، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له))[١]. والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ تنبيهٌ للمُشرِكينَ بأنَّ الجِنَّ غيرُ خارِجينَ عن العُبوديَّةِ لله تعالى، وقد حكى اللهُ عن الجَنِّ في سورةِ (الجِنِّ) قَولَ قائِلِهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا﴾[٣] [الجن: ٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ سؤالٌ عن الحِكمةِ في أنَّه لم يَذكُرِ الملائِكةَ مع أنَّهم مِن أصنافِ المكَلَّفينَ، وعبادتُهم أكثَرُ مِن عِبادةِ غَيرِهم مِنَ المكَلَّفينَ! قال تعالى: ﴿بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧) مطوَّلًا مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٨، ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨).

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**أحَدُها**: أنَّ الآيةَ سِيقَت لبَيانِ قُبحِ ما يَفعَلُه الكَفَرةُ مِن تَرْكِ ما خُلِقوا له، وهذا مُختَصٌّ بالجِنِّ والإنسِ؛ لأنَّ الكُفرَ موجودٌ في الجِنِّ والإنسِ، بخِلافِ الملائِكةِ.

**الثَّاني**: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مَبعوثًا إلى الجِنِّ والإنسِ، فلَمَّا قال: ﴿ وَذَكِّرْ ﴾ [الذَّارِيات: ٥٥] بَيَّنَ ما يُذكِّرُ به -وهو كَونُ الخَلقِ للعبادةِ-، وخَصَّصَ أُمَّتَه بالذِّكْرِ، أي: ذَكِّرِ الإنسَ والجِنَّ.

**الثَّالِثُ**: أنَّ عُبَّادَ الأصنامِ كانوا يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى عظيمُ الشَّأنِ، خَلَق الملائِكةَ وجَعَلَهم مُقرَّبينَ، فهم يَعبُدونَ اللهَ، وخَلَقَهم لعبادتِه، ونحن لِنُزولِ درَجَتِنا لا نَصلُحُ لعِبادةِ اللهِ، فنَعبُدُ الملائِكةَ وهم يَعبُدونَ اللهَ! كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، فقال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾، ولم يَذكُرِ الملائِكةَ؛ لأنَّ الأمرَ فيهم كان مُسَلَّمًا مِنَ القَومِ، فذَكَرَ المُتنازَعَ فيه.

**الرَّابعُ**: أنَّ فِعلَ الجَنِّ يَتناوَلُ الملائِكةَ؛ لأنَّ أصلَ الجِنِّ مِن الاستِتارِ، وهم مُستَتِرونَ عن الخَلْقِ، فذَكَر الجِنَّ لدُخولِ الملائكةِ فيهم[1].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ اعلَمْ أنَّ الآياتِ الدَّالَّةَ على حِكمةِ خَلْقِ اللهِ للسَّمَواتِ والأرضِ وأهلِهما وما بَيْنَهما قد يَظُنُّ غَيرُ المتأمِّلِ أنَّ بَيْنَها اختِلافًا، والواقِعُ خِلافُ ذلك؛ لأنَّ كَلامَ اللهِ تعالى لا يُخالِفُ بَعضُه بَعضًا، وإيضاحُ ذلك أنَّ اللهَ تبارك وتعالى ذكَرَ في بعضِ الآياتِ أنَّ حِكمةَ خَلْقِه للسَّمَواتِ والأرضِ هي إعلامُ خَلْقِه بأنَّه قادِرٌ على كُلِّ شَيءٍ، وأنَّه مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ عِلْمًا، وذلك في قَولِه تعالى في آخِرِ الطَّلاقِ: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٦).

وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق: ١٢]، وذكَرَ في مواضِعَ كثيرةٍ مِن كِتابِه أنَّه خَلَق الخَلْقَ لِيُبَيِّنَ للنَّاسِ كَونَه هو المعبودَ وَحْدَه، كقَولِه تعالى: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثمَّ أقام البُرهانَ على أنَّه إلهٌ واحِدٌ، بقَولِه بَعْدَه: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [البقرة: ١٦٤] إلى قَولِه: ﴿لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤]، ولَمَّا قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ [البقرة: ٢١]، بَيَّنَ أنَّ خَلْقَهم بُرهانٌ على أنَّه المعبودُ وَحْدَه، بقَولِه بَعْدَه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١]، والاستِدلالُ على أنَّ المعبودَ واحِدٌ بكَونِه هو الخالِقَ- كثيرٌ جِدًّا في القُرآنِ؛ قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۞ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا ﴾ [الفرقان: ٢، ٣]، وقال تعالى أيضًا: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد: ١٦]، وذكَرَ في بعضِ الآياتِ أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ لِيَبتلِيَ النَّاسَ، وذلك في قَولِه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧]، وذَكَر في بعضِ الآياتِ أنَّه خَلَقَهم لِيَجزيَهم بأعمالِهم، وذلك في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [يونس: ٤]، وذَكَر في آيةِ (الذَّارِياتِ) هذه أنَّه ما خَلَق الجِنَّ والإنسَ إلَّا لِيَعبُدوه، فقد يَظُنُّ غيرُ العالِمِ أنَّ بيْنَ هذه الآياتِ اختِلافًا، مع أنَّها لا اختِلافَ بَينَها؛ لأنَّ الحُكمَ المذكورَ فيها كُلِّها راجِعٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ، وهو مَعرفةُ اللهِ وطاعتُه، ومَعرِفةُ وَعْدِه ووَعيدِه، فقَولُه تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الطلاق: ١٢]، وقَولُه: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١] راجِعٌ إلى شَيءٍ واحِدٍ هو العِلمُ باللهِ؛ لأنَّ مَن عَرَف اللهَ أطاعه ووَحَّده. وهذا العِلمُ يُعَلِّمُهم اللهُ إيَّاه، ويُرسِلُ لهم الرُّسُلَ بمُقتَضاه؛

لِيَهلِكَ مَن هَلَك عن بَيِّنةٍ، ويحيَا مَن حَيَّ عن بَيِّنةٍ، فالتَّكليفُ بعْدَ العِلمِ، والجزاءُ بعدَ التَّكليفِ، فظَهَر بهذا اتِّفاقُ الآياتِ؛ لأنَّ الجزاءَ لا بُدَّ له مِن تَكليفٍ، وهو الابتلاءُ المذكورُ في الآياتِ، والتَّكليفُ لا بُدَّ له مِن عِلمٍ؛ ولذا دَلَّ بعضُ الآياتِ على أنَّ حِكمةَ الخَلقِ للمَخلوقاتِ هي العِلمُ بالخالِقِ، ودَلَّ بَعضُها على أنَّها الابتِلاءُ، ودَلَّ بَعضُها على أنَّها الجزاءُ، وكُلُّ ذلك حَقٌّ لا اختِلافَ فيه، وبَعضُه مُرَتَّبٌ على بَعضٍ[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ المَطالِبَ لا تَنحَصِرُ فيما ذَكَرَه تعالى؛ فإنَّ السَّيِّدَ قد يَشتري العَبدَ لا لطلَبِ عَمَلٍ منه، ولا لطَلَبِ رِزقٍ، ولا للتَّعظيمِ، بل يَشتريه للتِّجارةِ!

**الجوابُ**: أنَّ عُمومَ قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ يتناوَلُ ذلك؛ فإنَّ مَنِ اشترى عبدًا لِيَتَّجِرَ فيه فقد طلَب منه رزقًا[2].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ دليلٌ على أنَّ الرِّزقَ أعمُّ مِن الأكلِ[3].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ أنَّ «الرَّزَّاقَ» مِن أسماءِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأتتِ «الرَّزَّاقُ» بصيغةِ المبالغةِ؛ لكَثرةِ رِزقِه، وكَثرةِ مَن يَرزُقُه عزَّ وجلَّ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، فما أكثَرَ الَّذين يَرزُقُهم اللهُ! ثمَّ المرزوقُ مِن عبادِ اللهِ رِزقُهُ كثيرٌ أيضًا؛ لو أحصَيتَ ما يَرزُقُك اللهُ عزَّ وجلَّ ما استطعتَ أنْ تحصِيَ له عَدَدًا[4]!

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((شرح الكافية الشافية)) لابن عثيمين (٣/ ١٩٧).

١٤- أسماءُ الرَّبِّ تبارك وتعالى دالَّةٌ على صفاتِ كمالِه، فهي أسماءٌ، وهي أوصافٌ، وبذلك كانت حُسنَى؛ لأنَّها لو لم تَدُلَّ على مَعانٍ وأوصافٍ لم يَجُزْ أنْ يُخبَرَ عنها بمَصادرِها، ويُوصَفَ بها، لكِنَّ اللهَ أَخبرَ عن نفْسِه بمَصادرِها، وأَثبتَها لنفْسِه، وأَثبتَها له رَسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾؛ فعُلِمَ أنَّ القَويَّ مِن أسمائِه، ومعناه: الموصوفُ بالقُوَّةِ[1].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ لم يَقُل: القَويُّ، بل قال: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾؛ لأنَّ المقصودَ تقريرُ ما تقدَّمَ مِن عَدَمِ إرادةِ الرِّزقِ وعَدَمِ الاستِعانةِ بالغَيرِ، وقُيِّد بـ ﴿ٱلْمَتِينُ﴾؛ لأنَّ ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ لا يدُلُّ إلَّا على أنَّ له قُوَّةً ما؛ فزاد في الوَصفِ المتانةَ -وهو الَّذي له ثباتٌ لا يتزلزَلُ[2]. وأيضًا فمِن خصائِصِ «ذو» أن تُضافَ إلى أمرٍ مُهِمٍّ؛ فعُلِمَ أنَّ القُوَّةَ هنا قُوَّةٌ خَلِيَّةٌ مِنَ النَّقائِصِ[3].

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا﴾ وَجهُ مُناسَبةِ الذُّنُوبِ أنَّ العَذابَ مُنصَبٌّ عليهم كما يُصَبُّ الذُّنُوبُ؛ قال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨]، والذَّنُوبُ كذلك؛ فكأنَّه قال: نَصُبُّ فَوقَ رُؤوسِهم ذَنوبًا مِنَ العَذابِ كذَنُوبٍ صُبَّ فوقَ رُؤوسِ أولئك.

ووَجهٌ آخَرُ: وهو أنَّ العَرَبَ يَستَقُونَ مِنَ الآبارِ على النَّوْبةِ ذَنوبًا فذَنوبًا، وذلك وَقتَ عَيشِهم الطَّيِّبِ، فكأنَّه تعالى قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مِنَ الدُّنيا وطَيِّباتِها ﴿ذَنُوبًا﴾ إذا مَلؤوه، ولا يكونُ لهم في الآخِرةِ مِن نَصيبٍ، كما كان عليه حالُ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩).

أصحابِهم؛ استَقَوا ذَنوبًا وتَرَكوها، وعلى هذا فالذَّنُوبُ ليس بعَذابٍ ولا هَلاكٍ، وإنَّما هو رَغَدُ العَيشِ(١).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ سمَّى اللهُ تعالى السَّابِقِينَ بأزمانٍ بعيدةٍ أصحابًا لهؤلاء؛ وذلك لاتِّفاقِهم في التَّكذيبِ، ورَمْيِ الرُّسُلِ بما لا يَستَحِقُّونَ، فهم أصحابٌ في الواقِعِ وإنْ تباعَدَتِ الأزمانُ والأماكِنُ(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ [الذَّاريات: ٥٢] الآيةَ، الَّتي هي ناشئةٌ عن قَولِه: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذَّاريات: ٥٠، ٥١]، عطْفَ الغرَضِ على الغرَضِ لوُجودِ المُناسَبةِ؛ فبَعْدَ أنْ نظَّرَ حالَهم بحالِ الأُمَمِ الَّتي صمَّمَت على التَّكذيبِ مِن قبْلِهم؛ أعقَبَه بذِكرِ شَنيعِ حالِهم مِن الانحرافِ عمَّا خُلِقوا مِن أجْلِه وغُرِزَ فيهم؛ فقولُه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بالمشرِكين الَّذين انحَرَفوا عن الفِطرةِ الَّتي خُلِقوا عليها، فخالَفوا سُنَّتَها اتِّباعًا لتَضليلِ المُضِلِّين(٣).

وقيل: هو استئنافٌ مُؤكِّدٌ للأمرِ، مُقرِّرٌ لِمَضمونِ تَعليلِه؛ فإنَّ كَونَ خَلْقِهم مُغيًّا بعِبادتِه تعالَى ممَّا يَدعُوه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى تَذكيرِهم، ويُوجِبُ عليهم التَّذكُّرَ والاتِّعاظَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤، ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٤).

- والحصْرُ المُستفادُ مِن قولِه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قصْرُ عِلَّةِ خلْقِ اللهِ الإنسَ والجنَّ على إرادتِه أنْ يَعبُدوه، قيل: إنَّه قصْرٌ إضافيٌّ، وإنَّه مِن قَبيلِ قصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، وإنَّه قصْرُ قلْبٍ باعتبارِ مَفعولِ ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، أي: إلَّا ليَعْبُدوني وَحْدي، أي: لا ليُشرِكوا غَيري في العِبادةِ، فهو رَدٌّ للإشراكِ، وليس هو قصْرًا حَقيقيًّا[١]؛ فإنَّا وإنْ لم نَطَّلِعْ على مَقاديرِ حِكَمِ اللهِ تعالى مِن خلْقِ الخلائقِ، لكنَّا نَعلَمُ أنَّ الحِكمةَ مِن خلْقِهم ليست مُجرَّدَ أنْ يَعبُدوه؛ لأنَّ حِكَمَ اللهِ تعالى مِن أفعالِه كَثيرةٌ لا نُحِيطُ بها، وذِكرُ بعضِها -كما هنا- لا يَقْتضي عَدَمَ وُجودِ حِكمةٍ أُخرى[٢].

- قيل: المقصودُ مِن هذا الإخبارِ هو الإنسُ، وإنَّما ذُكِرَ الجنُّ إدماجًا[٣]؛ فما ذكَرَ اللهُ الجنَّ هنا إلَّا لتَنبيهِ المشركينَ بأنَّ الجنَّ غيرُ خارجينَ عن العُبوديَّةِ للهِ تَعالى[٤].

- وتَقديمُ الجنِّ في الذِّكرِ؛ للاهتِمام بهذا الخبرِ الغريبِ عندَ المشرِكين الَّذين كانوا يَعبُدون الجنَّ؛ ليَعلَموا أنَّ الجنَّ عُبَّادٌ للهِ تعالى[٥]. أو لعلَّ تقديمَ خلْقِ الجَنِّ في الذِّكرِ؛ لتَقدُّمِه على خَلْقِ الإنسِ في الوُجودِ[٦].

وقيل: لأنَّ الكُفرَ في الجِنِّ أكثَرُ، والكافِرُ منهم أكثَرُ مِن المؤمِنِ. وقيل: الجِنُّ يتناوَلُ الملائِكةَ؛ لأنَّ الجِنَّ أصلُه مِنَ الاستِتارِ، وهم مُستَترونَ عن الخَلقِ، وعلى

---

(١) يُنظر ما تقدَّم في تعريفِ القصرِ وأنواعِه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦، ٢٧).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥، ٢٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٤).

هذا فتَقديمُ الجِنِّ؛ لدُخولِ الملائكةِ فيهم، وكَونِهم أكثَرَ عِبادةً وأخلَصَها. وقيل غيرُ ذلك[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ تَقريرٌ لمَعنى ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، بإبطالِ بَعضِ العِلَلِ والغاياتِ الَّتي يَقصِدُها الصَّانِعون شيئًا يَصنَعونَه أو يَتَّخِذونَه؛ فإنَّ المعروفَ في العُرْفِ أنَّ مَن يَتَّخِذُ شيئًا إنَّما يتَّخِذُه لنفْعِ نفْسِه، وليست الجُملةُ لإفادةِ الجانبِ المقصورِ دونَه بصِيغةِ القصْرِ؛ لأنَّ صِيغةَ القصْرِ لا تَحتاجُ إلى ذِكرِ الضِّدِّ، ولا يَحسُنُ ذِكرُ الضِّدِّ في الكلامِ البليغِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ الاحتِياجِ إليهم؛ لأنَّ أشدَّ الحاجاتِ في العُرْفِ حاجةُ النَّاسِ إلى الطَّعامِ واللِّباسِ والسَّكنِ، وإنَّما تَحصُلُ بالرِّزقِ، وهو المالُ؛ فلذلك ابتُدِئَ به، ثمَّ عُطِفَ عليه الإطعامُ، أي: إعطاءُ الطَّعامِ؛ لأنَّه أشدُّ ما يَحتاجُ إليه البشَرُ، وقد لا يجِدُه صاحبُ المالِ إذا قحَطَ الناسُ، فيَحتاجُ إلى مَن يُسلِفُه الطَّعامَ أو يُطعِمُه إيَّاه، وفي هذا تَعريضٌ بأهْلِ الشِّركِ؛ إذ يُهْدون إلى الأصنامِ الأموالَ والطَّعامَ تَتلقَّاه منهم سَدَنةُ الأصنامِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ فيه تَعريضٌ بأصنامِهم؛ فإنَّهم كانوا يَعمَلون معها ما يَنفَعُها، ويُحضِرون لها الأكلَ، فرُبَّما أكلَتْها الكِلابُ ثمَّ بالَتْ على الأصنامِ، ثمَّ لا يَصُدُّهم ذلك[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٨/ ٤٨١، ٤٨٢).

- وفائدةُ تَكرارِ لَفظِ ﴿مَآ أُرِيدُ﴾ إفادةُ حُكْمٍ زائدٍ على ما قبْلَه؛ إذ المعنى: ما أُرِيدُ منهم أنْ يُطعِموا أنفُسَهم، وما أُرِيدُ منهم أنْ يُطعِموا عَبيدي -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وإنَّما أضافَ تعالى الإطعامَ إلى نفْسِه؛ لأنَّ الخلْقَ عِيالُه وعَبيدُه، ومَن أطعَمَ عِيالَ غيرِه فكأنَّه أطعَمَه، ويُؤيِّدُه خبَرُ: ((إنَّ اللهَ تعالى يقولُ يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدَمَ، استطْعَمْتُك فلمْ تُطعِمْني))[1]، أي: استطعَمَك عَبْدي فلمْ تُطعِمْه[2]. وقيل: لأنَّ السَّيِّدَ قد يَطلُبُ مِنَ العَبدِ الكَسْبَ له -وهو طَلَبُ الرِّزقِ منه-، وقد يكونُ للسَّيِّدِ مالٌ وافِرٌ يَستَغْني عن الكَسبِ، لكِنَّه يَطلُبُ منه قَضاءَ حوائِجِه بما له مِن المالِ، وإحضارَ الطَّعامِ بيْنَ يَدَيه مِن مالِه، فالسَّيِّدُ قال: لا أريدُ ذلك ولا هذا[3].

- وفائِدةُ تَخصيصِه الإطعامَ بالذِّكرِ -مع أنَّ المقصودَ عَدَمُ طَلَبِ فِعلٍ منهم غيرِ التَّعظيمِ-، هو أنه لَمَّا عَمَّم في المَطلَبِ الأوَّلِ اكتفى بقَولِه: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾؛ فإنَّه يُفيدُ العُمومَ، وأشار إلى التَّعميمِ، فذكَرَ الإطعامَ؛ وذلك لأنَّ أدنَى دَرَجاتِ الأفعالِ أن يَستعِينَ السَّيِّدُ بعَبدِه أو جاريتِه في تهيئةِ أمرِ الطَّعامِ، ونَفْيُ الأدنَى يَستَتبِعُه نَفيُ الأعلَى بطَريقِ الأَوْلى؛ فصار كأنَّه تعالى قال: ما أُرِيدُ منهم مِن عَينٍ ولا عَمَلٍ[4].

- وتقديمُ طَلَبِ الرِّزقِ على طَلَبِ الإطعامِ مِن بابِ الارتقاءِ، كقَولِ القائِلِ: لا أطلُبُ منك الإعانةَ ولا ممَّن هو أقوى، ولا يَعكِسُ. ويقولُ: فُلانٌ يُكرِمُه الأمراءُ بل السَّلاطينُ، ولا يَعكِسُ؛ فقال هاهنا: لا أطلُبُ منكم رِزقًا ولا ما

(١) أخرجه مسلم (٢٥٦٩) مطوَّلًا مِن حديثِ أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هو دون ذلك، وهو تقديمُ طَعام بيْنَ يَدَيِ السَّيِّدِ؛ فإنَّ ذلك أمرٌ كثيرُ الطَّلَبِ مِنَ العبادِ، وإن كان الكَسبُ لا يُطلَبُ منهم[١].

- وحُذِفَت ياءُ المُتكلِّم مِن ﴿لِيَعۡبُدُونِ﴾ و﴿يُطۡعِمُونِ﴾ للتَّخفيفِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ تَعليلٌ لِجُملتَيْ ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾[٣] [الذَّاريات: ٥٧].

- وإظهارُ اسمِ الجَلالةِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ إخراجٌ للكلامِ على خِلافِ مُقْتضى الظاهِرِ؛ لأنَّ مُقتضاهُ: إنِّي أنا الرَّزَّاقُ، فعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ؛ لتَكونَ هذه الجُملةُ مُستقِلَّةً بالدَّلالةِ؛ لأنَّها سُيِّرَتْ مَسيرَ الكلامِ الجامعِ والأمثالِ[٤].

- وكَلمةُ (الرَّزَّاق) أبلَغُ مِن كَلمةِ (الرَّازق)؛ لأنَّ (الرَّزَّاق) صِيغةُ مُبالَغةٍ تدُلُّ على كَثرةِ الرِّزقِ، وعلى كثرةِ المرزوقِ، فرِزْقُ اللهِ تعالى كثيرٌ باعتبارِ كَثرةِ المرزوقينَ، فكلُّ دابَّةٍ في الأرضِ على اللهِ رِزقُها؛ مِن إنسانٍ وحيوانٍ، ومِن طائرٍ وزاحِفٍ، ومِن صَغيرٍ وكبيرٍ، ولا يُمكِنُ أنْ نُحصِيَ أنواعَ المخلوقاتِ على الأرضِ[٥].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ قصْرٌ؛ لوُجودِ ضَميرِ الفصْلِ، أي: لا رزَّاقَ، ولا ذا قُوَّةٍ، ولا مَتينَ إلَّا اللهُ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[٦]، أي: دونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٦٨).

(٦) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

الأصنامِ الَّتي يَعبُدونها، فالقصْرُ قصْرُ إفرادٍ[١] بتَنزيلِ المشرِكين في إشراكِهم أصنامَهم باللهِ مَنزِلةَ مَن يَدَّعِي أنَّ الأصنامَ شُركاءُ للهِ في صِفاتِه الَّتي منها: الإرزاقُ، والقوَّةُ، والشِّدَّةُ، فأبطَلَ ذلك بهذا القصْرِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّاريات: ٥٦] باعتبارِ أنَّ المقصودَ مِن سِياقِه إبطالُ عِبادتِهم غيرَ اللهِ، أي: فإذا لم يُفرِدْني المُشرِكون بالعِبادةِ، فإنَّ لهم ذَنوبًا مِثلَ ذَنوبِ أصحابِهم، وهو يُلمِحُ إلى ما تَقدَّمَ مِن ذِكرِ ما عُوقِبَتْ به الأُمَمُ السَّالفةُ مِن قولِه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [الذَّاريات: ٣٢- ٤٦]، والمعنى: فإذ ماثَلَهم الَّذين ظَلَموا فإنَّ لهم نَصيبًا عَظيمًا مِن العذابِ مِثلَ نَصيبِ أولئك[٣].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسام: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّرِكةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتِراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحيي المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْران، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩، ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٠).

- والكلامُ تَمثيلٌ لهَيئةِ تَساوي حَظِّ الَّذين ظَلَموا مِن العرَبِ بحُظوظِ الَّذين ظَلَموا مِن الأُمَمِ السَّالفةِ بهَيئةِ الَّذين يَسْتَقُون مِن قَليبٍ واحدٍ؛ إذ يَتساوونَ في أنصبائِهم مِن الماءِ، وهو مِن تَشبيهِ المَعقولِ بالمحسوسِ، وأُطلِقَ على الأُمَمِ الماضيةِ اسمُ وصْفِ أصحابِ الَّذين ظَلَموا باعتبارِ الهيئةِ المُشبَّهِ بها؛ إذ هي هيئةُ جماعاتِ الوِرْدِ يكونونَ مُتصاحِبينَ، وهذا التَّمثيلُ قابِلٌ للتَّوزيعِ؛ بأنْ يُشَبَّهَ المشرِكونَ بجماعةٍ ورَدَت على الماءِ، وتُشبَّهَ الأُمَمُ الماضيةُ بجَماعةٍ سبَقَتْهم للماءِ، ويُشبَّهَ نَصيبُ كلِّ جَماعةٍ بالدَّلْوِ الَّتي يأْخُذونَها مِن الماءِ[1].

- وفي الآيةِ مِن اللَّطائفِ تَمثيلُ ما سيُصِيبُ الَّذين كَفَروا بالذَّنوبِ، والذَّنوبُ يُناسِبُ القَليبَ، وقد كان مَثواهم يومَ بدْرٍ قَليبَ بدْرٍ الَّذي رُمِيَت فيه أشلاءُ سادتِهم[2].

- وهذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمقصودُ: أنْ يَسمَعَه المشرِكون، فهو تَعريضٌ. وبهذا الاعتِبارِ أُكِّدَ الخبَرُ ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا﴾ بحرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّهم كانوا مُكذِّبينَ بالوعيدِ، ولذلك فُرِّعَ على التأْكيدِ: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾؛ لأنَّهم كانوا يَستعجِلون بالعذابِ استِهزاءً، وإشعارًا بأنَّه وعْدٌ مَكذوبٌ، فهُم في الواقعِ يَستعجِلون اللهَ تعالى بوَعيدِه[3].

- وفي قولِه: ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ عُدِّيَ الاستِعجالُ إلى ضَميرِ الجلالةِ، وهم إنَّما استَعْجلوه النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لإظهارِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠، ٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣١).

وسلَّم مُخبِرٌ عن اللهِ تعالى؛ تَوبيخًا لهم، وإنذارًا بالوعيدِ[١].

- وأيضًا هذا النَّهيُ ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ إظهارًا لغضَبِ اللهِ عليهم[٢].

- وحُذِفَت ياءُ المُتكلِّمِ في ﴿يَسْتَعْجِلُونِ﴾ للتَّخفيفِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ فُرِّعَ على وَعيدِهم إنذارٌ آخَرُ بالويلِ، أو إنشاءُ زَجرٍ[٤].

- وتَنكيرُ (ويل) للتَّعظيمِ[٥].

- والكلامُ يَحتمِلُ الإخبارَ بحُصولِ وَيلٍ، أي: عذابٌ وسُوءُ حالٍ لهم يومَ أُوعِدوا به، ويَحتمِلُ إنشاءَ الزَّجْرِ والتَّعجيبِ مِن سُوءِ حالِهم في يومٍ أُوعِدوه[٦].

- و(الذين كَفَروا) في قولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ همُ (الذين ظَلَموا) في قولِه: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا﴾ [الذاريات: ٥٩]؛ وعُدِلَ عن ضَميرِهم إلى الاسمِ الظَّاهرِ -حيثُ لم يقُلْ: (فإنَّ لهم)-؛ لِما فيه مِن تأْكيدِ الاسمِ السَّابقِ تأْكيدًا بالمُرادِفِ، مع ما في صِفةِ الكفْرِ مِن الإيماءِ إلى أنَّهم لم يَشكُروا نِعمةَ خالِقِهم، وتَسجيلًا عليهم بما في حيِّزِ الصِّلةِ مِنَ الكُفرِ، وإشعارًا بعِلَّةِ الحُكمِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢).

- وإضافةُ (يوم) إلى ضَميرِ الَّذين كَفَروا في قولِه: ﴿مِن يَوۡمِهِمُ﴾؛ للدَّلالةِ على اختِصاصِه بهم، أي: هو مُعيَّنٌ لجَزائِهم[١].

- وأوَّلُ هذه السُّورةِ وآخِرُها مُتناسِبانِ؛ حيث قال تعالى في أوَّلِها: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ [الذاريات: ٥]، وقال تعالى في آخِرِها: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾[٢]، وفيه ردُّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٣]؛ ففيه إيذانٌ بانتِهاءِ السُّورةِ، وذلك مِن بَراعةِ المَقطَعِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٥٩).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣).

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ الطُّورِ

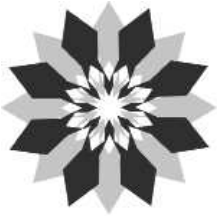

# سورةُ الطُّورِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الطُّورِ)[١]، وممَّا يدُلُّ على ذلك:

١- عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرَأَ في المَغرِبِ بـ «الطُّورِ»))[٢].

٢- عن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((شَكَوتُ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنِّي أشتكي، فقال: طوفي مِن وراءِ النَّاسِ وأنتِ راكِبةٌ، فطُفتُ ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصَلِّي إلى جَنبِ البَيتِ يَقرَأُ بـ «الطُّورِ وكتابٍ مَسطورٍ»))[٣].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الطُّورِ مَكِّيَّةٌ[٤]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٥].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

١- تقريرُ البَعثِ، وبَيانُ سُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ، وحُسنِ عاقِبةِ المُؤمِنينَ[٦].

---

(١) سُمِّيَتْ سورةَ الطُّورِ؛ لِمُفتَتَحِها بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ [الطور: ١]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤١).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٦٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٦٣).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٨٥٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٨).

(٥) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٧).

(٦) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ =

٢- الرَّدُّ على مُفتَرَياتِ المُشرِكينَ وأكاذيبِهم[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

١- قَسَمُ اللهِ تعالى ببَعضِ مخلوقاتِه الدَّالَّةِ على كَمالِ قُدرتِه، وبَديعِ صُنعِه، وبكتابِه؛ على أنَّ البَعثَ حَقٌّ، وعلى أنَّ الجزاءَ حَقٌّ وكائِنٌ يومَ القيامةِ.

٢- الحديثُ عن سُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ، وما أعَدَّه اللهُ للمُتَّقينَ، وصِفةِ نَعيمِهم، وثنائِهم على اللهِ بما مَنَّ عليهم.

٣- الرَّدُّ على شُبَهِ المُشرِكينَ وأكاذيبِهم.

٤- الإخبارُ بأنَّ الظَّالِمينَ يُعَذَّبونَ في الدُّنيا قبْلَ عذابِهم في الآخِرةِ.

٥- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَعْدُه بالتَّأييدِ، وأمْرُه بالصَّبرِ وأن يُسَبِّحَ بحَمدِ اللهِ.

---

= ٣٦، ٦٧).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٣٥).

## الآيات (١-٨)

﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ ۝٨﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلطُّورِ﴾: أي: الجَبَلِ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ. وقيل: هو اسمٌ لكُلِّ جَبَلٍ، وأصلُ (طور): يدُلُّ على الامتِدادِ في شَيءٍ مِن مكانٍ أو زمانٍ[١].

﴿مَّسۡطُورٖ﴾: أي: مَكتوبٍ مَحفوظٍ، وأصْلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ[٢].

﴿رَقّٖ﴾: الرَّقُّ: الَّذي يُكتَبُ فيه، قيل: هو الوَرقُ، وقيل: هو ما كان مِن الجِلدِ، وقيل: كلُّ ما يُكتَبُ فيه مِن صحيفةٍ وغيرِها. والرِّقَّةُ متى كانت في جِسمٍ تُضادُّها الصَّفاقةُ، نحو: ثوبٌ رَقِيقٌ وصفيقٌ، ومتى كانت في نفْسٍ تُضادُّها الجَفوةُ والقسوةُ[٣].

﴿مَّنشُورٖ﴾: أي: مَبْسوطٍ، ونَشَرَ الثَّوبَ، والصَّحِيفةَ، والسَّحَابَ، والنِّعْمَةَ، والحَدِيثَ: بَسَطَهَا، وأصْلُ (نشر): يدُلُّ على فتْحِ شَيءٍ وتَشعُّبِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٦، ٣٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١٠٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٢).

﴿ٱلۡمَسۡجُورِ﴾: أي: المَملوءِ؛ يُقالُ: سَجَرَ الإناءَ: إذا مَلأَه. وقيل: المُوقَدُ المُحمَى، بمَنزلةِ التَّنُّورِ المسجورِ، وأصلُ (سجر): يدُلُّ على المَلْءِ والإيقادِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يُقسِمُ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ الكَريمةِ بجَبَلِ طُورِ سَيناءَ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ، وبالكِتابِ المُسطَّرِ المَكتوبِ الكائِنِ في وَرَقٍ مَبسوطٍ غيرِ مَطْويٍّ، وبالبَيتِ المَعمورِ بالملائِكةِ في السَّماءِ، وبالسَّماءِ الَّتي رفَع اللهُ بُنيانَها وجعَلَها سَقفًا للأرضِ، وبالبَحرِ المسجورِ؛ على أنَّ عذابَه تعالى واقِعٌ ونازِلٌ بمَن يَستحِقُّه، ما لَه مِن دافعٍ يَدفَعُه عن أهلِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلطُّورِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بجَبَلِ طُورِ سَيناءَ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات-الحديد)) (ص: ١٧٣).

قال الواحدي: (قال عامَّةُ المفَسِّرينَ: أقسَمَ اللهُ بالجَبَلِ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى بنَ عِمْرانَ عليه السَّلامُ). ((البسيط)) (٢٠/ ٤٧٥).

وقال ابنُ القَيِّم: (الطُّورُ: هو الجَبَلُ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه نَبيَّه وكليمَه موسى بنَ عِمرانَ، عندَ جُمهورِ المفَسِّرينَ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٦٤).

وقال ابنُ كثير: (الطُّورُ هو: الجَبَلُ الَّذي يكون فيه أشجارٌ، مِثلُ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى، وأرسَل منه عيسى، وما لم يكُنْ فيه شَجَرٌ لا يُسَمَّى طُورًا، إنَّما يُقالُ له: جَبَلٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٥).

كما قال الله تعالى عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ [مريم: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا﴾ [القصص: ٤٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢].

﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بكِتابٍ مُسطَّرٍ مَكتوبٍ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٧).

قال ابنُ عطية: (الكِتابُ المسطورُ: معناه بإجماعٍ: المكتوبُ أَسطارًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٥).

وقال البِقاعي: (﴿مَّسۡطُورٖ﴾ أي: مُتَّفِقِ الكتابةِ بسُطورٍ مَصفوفةٍ مِن حُروفٍ مُرَتَّبةٍ جامعةٍ لِكَلِماتٍ مُتَّفِقةٍ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣).

وذكر ابنُ الجوزي في المرادِ بالكتابِ المسطورِ أربعةَ أقوالٍ: (أحَدُها: أنَّه اللَّوحُ المحفوظُ. قاله أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثَّاني: كُتُبُ أعمالِ بني آدمَ. قاله مُقاتِلٌ والزَّجَّاجُ.

والثَّالثُ: التَّوراةُ. والرَّابعُ: القُرآنُ. حكاهما الماوَرْديُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٥).

ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ ما أُثبِتَ على بني آدَمَ مِن أعمالِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، ونَسَبه إلى أكثرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٥، ٤٧٦).

وممَّن رجَّح أنَّ المرادَ: القرآنُ الكريمُ: ابنُ القَيِّم، واختاره الشَّوكاني، واستظهَره الشنقيطي. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٤).

قال ابنُ القَيِّم: (اختُلِفَ في هذا الكتابِ [أي: الكِتابِ المسطورِ]؛ فقيل: هو اللَّوحُ المحفوظُ، =

﴿ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ ﴾.

أي: والكِتابِ المَسطورِ في وَرَقٍ مَبسوطٍ غيرِ مَطْويٍّ(١).

= وهذا غَلَطٌ؛ فإنَّه ليس برَقٍّ. وقيل: هو الكِتابُ الَّذي تضَمَّن أعمالَ بني آدمَ، وقال مقاتِلٌ: تُخرَجُ إليهم أعمالُهم يومَ القيامةِ في رَقٍّ مَنشورٍ، وهذا وإنْ كان أقوى وأصَحَّ مِنَ القَولِ الأوَّلِ واختاره جماعةٌ مِنَ المفَسِّرين، ومنهم مَن لم يَذكُرْ غَيرَه؛ فالظَّاهِرُ أنَّ المرادَ به الكتابُ المُنَزَّلُ مِن عندِ اللهِ، وأقسَمَ اللهُ به لعَظَمتِه وجلالتِه، وما تضَمَّنه مِن آياتِ رُبوبيَّتِه وأدِلَّةِ توحيدِه، وهدايةِ خَلْقِه. ثمَّ قيل: هو التَّوراةُ الَّتي أنزل اللهُ على موسى، وكأنَّ صاحِبَ هذا القَولِ رأى اقترانَ الكِتابِ بالطُّورِ، فقال: هو التَّوراةُ. ولكِنَّ التَّوراةَ إنَّما أُنزِلَت في ألواحٍ لا في رَقٍّ إلَّا أن يقالَ: هي في رَقٍّ في السَّماءِ، وأنزِلَت في ألواحٍ. وقيل: هو القرآنُ، ولعَلَّ هذا أرجَحُ الأقوالِ؛ لأنَّه سبحانه وَصَف القرآنَ بأنَّه في صُحُفٍ مُطهَّرةٍ، بأيدي سَفَرةٍ، كرامٍ بَرَرةٍ؛ فالصُّحُفُ هي الرَّقُّ، وكَونُه بأيدي سَفَرةٍ هو كَونُه مَنشورًا، وعلى هذا فيكونُ قد أقسَمَ بسَيِّدِ الجبالِ وسَيِّدِ الكُتُبِ، ويكونُ ذلك مُتضَمِّنًا للنُّبوَّتينِ المُعظَّمتينِ: نُبُوَّةِ موسى، ونبُوَّةِ محمَّدٍ، وكثيرًا ما يُقرَنُ بيْنَهما وبيْنَ محَلِّهما، كما في سورةِ التِّينِ والزَّيتونِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٦٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣).

وممَّن رجَّح أنَّ المرادَ به التَّوراةُ خاصَّةً: النَّيسابوريُّ، والعُلَيمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ١٩٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧).

قال ابنُ عاشور: (كان اليَهودُ يَكتُبونَ التَّوراةَ في رُقوقٍ مُلصَقٍ بَعضُها ببعضٍ، أو مخيطٍ بَعضُها ببَعضٍ، فتَصيرُ قِطعةً واحِدةً، ويَطوونَها طَيًّا أُسطوانيًّا؛ لِتُحفَظَ، فإذا أرادوا قراءتَها نَشَروا مَطويَّها، وليس المرادُ بـ«كتابٍ مَسطورٍ» القُرآنَ؛ لأنَّ القُرآنَ لم يكُنْ يَومَئذٍ مكتوبًا سُطورًا، ولا هو مكتوبًا في رَقٍّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به: اللَّوحُ المحفوظُ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٥).

وذهب السعديُّ إلى احتمالِ أنْ يكونَ المرادُ به اللَّوحَ المحفوظَ، وإلى احتِمالِ أن يكونَ المرادُ به القُرآنَ الكريمَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣).

وقال أبو حيَّان بعدَ أن ذكر الخلافَ والأقوالَ: (ولا يَنْبَغي أنْ يُحْمَلَ شيءٌ منها على التَّعيينِ، إنَّما تُورَدُ على الاحتِمالِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) =

= (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧، ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١).
ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالرَّقِّ: الورَقُ: أبو عُبَيدَة، وابنُ جرير، والسعديُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣).
قال ابن عطيَّة: (الرَّقُّ: الورَقُ المُعدَّةُ للكتبِ، وهي مُرقَّقةٌ؛ فلذلك سُمِّيتْ رَقًّا، وقد غلَب الاستِعمالُ على هذا الَّذي هو مِن جُلودِ الحيَوانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: أديمُ (جِلدُ) الصُّحفِ الَّذي يُكتَبُ فيه الشَّيءُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٨٩(، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٣٦). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧).
وقال السمرقنديُّ والزمخشريُّ: المرادُ: الصَّحيفةُ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٨).
وقال الشنقيطي: (الرَّقُّ بفتحِ الرَّاءِ: كلُّ ما يُكتَبُ فيه مِن صحيفةٍ وغيرِها). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥١).
وقال ابن عثيمين: (الكتابُ المسطورُ في الرَّقِّ اختلَف فيه العلماءُ، وهذا الخلافُ يَنبني على كلمةِ ﴿رَقٍّ﴾: هل الرَّقُّ كلُّ ما يُكتَبُ فيه مِن جِلدٍ وورَقٍ وعَظمٍ وحجَرٍ وغيرِ ذلك؟ أو هو خاصٌّ بما يُكتَبُ فيه مِن جُلودٍ ونحوِها؟ إن قُلْنا بالأوَّلِ صار المرادُ بالكِتابِ عدَّةَ أشياءَ؛ منها اللَّوحُ المحفوظُ، ومنها الكُتبُ الَّتي بأيدي الملائكةِ، ومنها القرآنُ الكريمُ، ومنها التَّوراةُ، فيَشملُ عدَّةَ كُتبٍ، وإذا قُلْنا: إنَّ الرَّقَّ هو الورَقُ وشِبهُه ممَّا يُكتَبُ فيه عادةً، فاللَّوحُ المحفوظُ لا يدخُلُ في هذا، وإنَّما المرادُ به إمَّا التَّوراةُ، وإمَّا القرآنُ؛ فالَّذين قالوا: إنَّه التَّوراةُ رجَّحوا قولَهم بأنَّه قُرِن بالطُّورِ، والطُّورُ هو الَّذي كلَّم منه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فكان الكتابُ المسطورُ هو التَّوراةَ الَّتي جاء بها موسى، ومَن قال: إنَّ المرادَ به القرآنُ الكريمُ رجَّح ذلك بأنَّ اللهَ ذكر الطُّورَ الَّذي أُوحيَ منه إلى موسى، وذكَر الكتابَ الَّذي هو القرآنُ أوحيَ إلى محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيكونُ الله تبارك وتعالى ذكَرَ أشرَفَ الرِّسالاتِ في بني إسرائيلَ إيماءً بذِكرِ الطُّورِ، وذكَرَ أشرفَ الرِّسالاتِ الَّتي بُعِث بها من بني إسماعيلَ محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٣).
وممَّن قال بأنَّ معنى ﴿مَنشُورٍ﴾: مبسوطٌ غيرُ مَطْويٍّ: الواحديُّ، وابنُ عطية، والقرطبي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦)، =

﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤﴾.

أي: وأُقسِمُ بالبيتِ المعمورِ بالملائِكةِ في السَّماءِ[1].

---

= ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١).

قال البِقاعي: (أي: مُهيَّأٌ للقِراءةِ والاتِّعاظِ بما فيه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣).

وقال الرازي: (ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿فِي رَقٖ مَّنشُورٖ﴾ وعَظَمةُ الكتابِ بلَفظِه ومعناه، لا بخَطِّه ووَرقِه؟

نقولُ: هو إشارةٌ إلى الوُضوحِ؛ وذلك لأنَّ الكِتابَ المَطْويَّ لا يُعلَمُ ما فيه، فقال: هو في رَقٍّ مَنشورٍ، وليس كالكُتُبِ المَطويَّةِ، وعلى هذا المرادُ اللَّوحُ المحفوظُ، فمعناه: هو منشورٌ لكم لا يَمنعُكُم أحدٌ مِن مُطالَعتِه، وإنْ قُلْنا بأنَّ المرادَ كتابُ أعمالِ كلِّ أحدٍ، فالتَّنكيرُ لعدَمِ المعرفةِ بعَينِه، و﴿فِي رَقٖ مَّنشُورٖ﴾ لبيانِ وصْفِه، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورٗا﴾ [الإسراء: ١٣]). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ١٩٩).

وقال ابن عثيمين: (وهذا يَصدُقُ تمامًا على القُرآنِ الكريمِ؛ فإنَّه -ولله الحَمدُ- بيْنَ يَدَي كُلِّ قارئٍ، حتَّى الصِّغارُ مِن المُسلِمينَ يَقرؤونَه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١).

قال السَّمْعاني: (القَولُ المعروفُ: أنَّه بيتٌ في السَّماءِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وعامَّةُ المفَسِّرينَ، وهو مرويٌّ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ الله عنه أيضًا. واختلفوا في موضِعِه، فروى أنسٌ عن مالِكِ بنِ صَعصَعةَ، عن النَّبيِّ -في قِصَّةِ المعراجِ- أنَّه قال: «رُفِعَ لِيَ البَيتُ المعمورُ في السَّماءِ السَّابعةِ»). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٦٧). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٧).

وقيل: البَيتُ المعمورُ: هو الكَعبةُ. ورجَّحه القاسمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨، ٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٧).

قال القاسمي: (﴿وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ﴾، أي: الَّذي يَعمُرُ بكثرةِ غاشيتِه، وهو الكعبةُ المعمورةُ بالحُجَّاجِ والعُمَّارِ، والطَّائِفينَ والعاكِفين والمجاوِرينَ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٩). ويُنظر: ((تفسير =

عن مالكِ بنِ صَعْصَعةَ رَضِيَ اللهُ عنه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال في حديثِ الإسراءِ: ((... ثمَّ رُفِعَ ليَ البَيتُ المعمورُ، فقُلتُ: يا جِبريلُ، ما هذا؟ قال: هذا البَيتُ المعمورُ يَدخُلُه كُلَّ يَومٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ، إذا خَرَجوا منه لم يَعودوا فيه آخِرَ ما عليهم!))[1].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال في حديثِ الإسراءِ: ((... ففُتِحَ لنا فإذا أنا بإبراهيمَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُسنِدًا ظَهْرَه إلى البَيتِ المَعمورِ، وإذا هو يَدخُلُه كُلَّ يومٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ لا يعودونَ إليه!))[2].

﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥ ﴾.

أي: وأُقسِمُ بالسَّماءِ الَّتي رفَع اللهُ بُنْيانَها، وجعَلَها سَقفًا للأرضِ مِن جميعِ

---

= ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٢).

وقال ابنُ عاشور: (﴿ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ﴾: عن الحَسَنِ: أنَّه الكعبةُ، وهذا الأنسَبُ بعَطفِه على الطُّورِ، ووَصفُه بالمعمورِ لأنَّه لا يخلو مِن طائفٍ به، وعُمرانُ الكعبةِ هو عُمرانُها بالطَّائفينَ... وثمَّةَ أخبارٌ كثيرةٌ مُتفاوتةٌ في أنَّ في السَّماءِ مَوضِعًا يُقالُ له: البيتُ المعمورُ، لكِنَّ الرِّواياتِ في كَونِه المرادَ مِن هذه الآيةِ ليست صريحةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨، ٣٩).

وقال ابنُ القَيِّم: (المشهورُ أنَّه الضُّراحُ الَّذي في السَّماءِ الَّذي رُفِعَ للنَّبيِّ لَيلةَ الإسراءِ، يَدخُلُه كُلَّ يوم سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ، ثمَّ لا يَعودون إليه آخِرَ ما عليهم، وهو بحِيالِ البيتِ المعمورِ في الأرضِ. وقيل: هو البيتُ الحرامُ، ولا ريبَ أنَّ كُلًّا منهما معمورٌ؛ فهذا معمورٌ بالملائكةِ وعبادتِهم، وهذا معمورٌ بالطَّائفينَ والقائِمينَ والرُّكَّعِ والسُّجودِ، وعلى كِلا القولَينِ فكُلٌّ منهما سَيِّدُ البُيوتِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٦٦).

وممَّن ذهب إلى حملِ الآيةِ على كِلا القولينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٤، ١٧٥).

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٢٠٧)، ومسلمٌ (١٦٤) واللَّفظُ له.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٢).

جَوانِبِها[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧].

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾.

أي: وأُقسِمُ بالبَحرِ المسجورِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ«السَّقفِ المرفوعِ»: السَّماءُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن القيم، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

ونسَب ابنُ الجوزي هذا القولَ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٦). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٦).

وقال ابنُ كثير: (قال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: هو العَرشُ، يعني: أنَّه سَقفٌ لجميعِ المخلوقاتِ، وله اتِّجاهٌ، وهو يُرادُ مع غيرِه كما قاله الجُمهورُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ أيضًا: ابنُ عبَّاسٍ، وزاد أنَّه سقفُ الجنَّةِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٧-٥٦٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٦-٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩، ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٦، ١٧٧).

اختلف المفسِّرون في موضِعِ هذا البَحرِ؛ فقيل: هو بحرٌ تحت عَرشِ الرَّحمنِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥١). =

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وعبدُ الله بنُ عَمرٍو، وأبو صالحٍ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩).

وقيل: هو بحرُ الدُّنيا، الموجودُ في الأرضِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، واستظهَره الماوَرْديُّ، وذهب إليه ابنُ جُزَي، والألوسي، وابنُ عثيمين، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ وابنُ كثيرٍ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّه بحرٌ مخصوصٌ، وهو البحرُ الأحمرُ. قال: (ومُناسَبةُ القَسَمِ به أنَّه به أُهلِكَ فِرعَونُ وقَومُه حينَ دخَلَه موسى وبنو إسرائيلَ، فلَحِقَ بهم فِرعَونُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩).

واختَلفوا في معنى ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾؛ فقيل: المرادُ به: المملوءُ ماءً. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٩).

قال ابنُ جريرٍ: (وأَولى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ قَولُ مَن قال: معناه: والبَحرِ المملوءِ المجموعِ ماؤُه بَعضُه في بعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٩).

وقيل: المسجورُ بمعنى: المُوقَدِ، مِن السَّجرِ: وهو إيقادُ النَّارِ في التَّنُّورِ. واختاره: الخازنُ، والشوكانيُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٤، ١٢٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، وعبدُ الله بنُ عُبَيدِ بنِ عُمَيرٍ، والضَّحَّاكُ، وشِمْرُ ابنُ عطيَّةَ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٤).

وذكر ابنُ الجوزي الأقوالَ في معنى المسجورِ، ومنها: أنَّه اليابِسُ الذي قد ذهَب ماؤُه ونَضَب، قاله أبو العاليةِ. وأنَّه قد رُوي عن الحَسَنِ أنَّه قال: تُسجَرُ -يعني البِحارَ- حتى يذهَبَ ماؤُها، فلا يبقَى فيها قَطرةٌ. ثمَّ قال: (وقَولُ هذين يرجِعُ إلى معنى قولِ مجاهدٍ [أي: أنَّه المُوقَدُ]). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٦). =

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

أي: أُقسِمُ بتلك الأشياءِ على أنَّ عذابَ ربِّك -يا محمَّدُ- لَواقِعٌ ونازِلٌ حَتمًا بمَن يَستحِقُّه(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥، ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧].

---

= وقيل: هو بمعنى المحبوسِ، فلولا أنَّ البَحرَ يُمسَكُ لَفاضَ على الأرضِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٩).

وظاهِرُ اختيارِ البِقاعي والسعدي الجَمعُ بيْنَ معنى الامتلاءِ بالماءِ، وحَبْسِه عن الفَيَضانِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٣، ٨١٤).

وقال ابن عثيمين: («مسجور» أي: ممنوعٌ مِن أن يَفيضَ على الأرضِ فيُغرِقَ أهْلَها. وقيل: المرادُ بالمسجورِ الَّذي سيُسجَرُ، أي: يُوقَدُ، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]. أي: أُوقِدَتْ. وهذا يكونُ يومَ القيامةِ، ... والمرادُ به المَعنيانِ جميعًا؛ لأنَّه لا مُنافاةَ بيْنَ هذا وهذا، فكِلاهما مِن آياتِ الله عزَّ وجلَّ، أي: سواءٌ قُلْنا: المسجورُ الممنوعُ مِن أن يَفيضَ على الأرضِ، أو المسجورُ الَّذي سيُسجَرُ -أي: يُوقَدُ-، فكلُّ ذلك مِن آياتِ الله). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٦).

وقال أيضًا: (هل معنى: «البحرِ المسجورِ» الَّذي سيُسجَّرُ ويكونُ نارًا يومَ القيامةِ، أو المسجور: المملوء، أو المسجور: الممنوع عن الفيَضانِ على الأرضِ... الآية صالحةٌ للجميعِ، أي: تُحمَلُ على الجميعِ، ولا مانِعَ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٨٧).

وقيل: المسجورُ: المُختَلِطُ عَذبُه بمِلْحِه. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

﴿ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: ما لِذلك العَذابِ مِن دافعٍ يَدفَعُه عن أهلِه، فيُنقِذُهم منه[١]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ١، ٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ في وَصفِ الكتابِ بأنَّه مَسطورٌ تحقيقٌ لكَونِه مَكتوبًا مَفروغًا منه[٢]، وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ به القرآنُ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ في وَصفِ الكتابِ بأنَّه مَنشورٌ إيذانٌ بالاعتِناءِ به، وأنَّه بأيدي الملائكةِ مَنشورٌ غيرُ مَهجورٍ[٣]، وذلك على القولِ بأنَّ المرادَ به القرآنُ.

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾ لَمَّا كان سُبحانَه عَظيمَ الإكرامِ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أضاف العَذابَ إلى صِفةِ الإحسانِ والتَّربيةِ الخاصَّةِ به[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلطُّورِ * وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ * وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٧٨).

قال ابنُ القيِّم: (لَمَّا كان الَّذي يقعُ قد يمكِنُ دَفْعُه، أخبَرَ سُبحانَه أنَّه لا دافِعَ له، وهذا يتناوَلُ أمْرَينِ؛ أحَدُهما: أنَّه لا دافِعَ لوُقوعِه، والثَّاني: أنَّه لا دافِعَ له إذا وَقَع). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦).

وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ * وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ القسَمُ بهذِه الأمورِ؛ للتَّأكيدِ وتَحقيقِ الوَعيدِ، وتَخصيصُ هذهِ الأُمورِ بالإقسامِ بها؛ لأنَّها أُمورٌ عِظامٌ تُنبِئُ عنْ عِظَمِ قُدْرةِ اللهِ تعالَى، وكَمالِ عِلْمِهِ وحِكمتِه الدَّالَّةِ عَلى إحاطتِه تعالَى بتَفاصيلِ أعمالِ العِبادِ وضبْطِها، الشَّاهدةِ بصِدْقِ أخْبارِه الَّتي مِن جُمْلتِها الجُملةُ المُقسَمُ عَليها[1].

وقيل: مُناسَبةُ الأُمورِ المُقسَمِ بها للمُقسَمِ عليه: أنَّ هذه الأشياءَ المُقسَمَ بها مِن شُؤونِ بَعثةِ مُوسى عليه السَّلامُ إلى فِرعونَ -بِناءً على أنَّ الكِتابَ هو التَّوراةُ، والبحرَ هو الأحمرُ-، وكان هَلاكُ فِرعونَ ومَن معَه مِن جَرَّاءِ تَكذيبِهم مُوسى عليه السَّلامُ[2].

- والطُّورُ: الجبَلُ باللُّغةِ السُّريانيَّةِ، وغُلِّبَ عَلَمًا على طُورِ سَيناءَ الَّذي ناجَى فيه مُوسى عليه السَّلامُ، وأُنزِلَ عليه فيه الألواحُ المُشتمِلةُ على أُصولِ شَريعةِ التَّوراةِ؛ فالقسَمُ به باعتِبارِ شَرَفِه بنُزولِ كَلامِ اللهِ فيه، ونُزولِ الألواحِ على مُوسى، وفي ذِكرِ الطُّورِ إشارةٌ إلى تلك الألواحِ؛ لأنَّها اشتُهِرَتْ بذلك الجَبَلِ، والقسَمُ بالطُّورِ تَوطئةٌ للقسَمِ بالتَّوراةِ الَّتي أُنزِلَ أوَّلُها على مُوسى في جبَلِ الطُّورِ[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وتَنكيرُ (كِتابٍ) و(رَقٍّ)؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، والإشْعارِ بأنَّهما لَيسَا مِن المُتعارَفِ فيما بيْنَ النَّاسِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٣٠).

- وإجراءُ الوصْفينِ ﴿مَّسۡطُورٖ * فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾ على الكِتابِ؛ لتَمْييزِه بأنَّه كِتابٌ مُشرَّفٌ، مُرادٌ بَقاؤُه، مأْمورٌ بقِراءتِه؛ إذ المَسطورُ هو المكتوبُ، أي: أقسَمَ بحالِ نَشْرِه لقِراءتِه، وهي أشرَفُ أحوالِه؛ لأنَّها حالةُ حُصولِ الاهتِداءِ به للقارِئِ والسَّامعِ[1].

- ومُناسَبةُ القَسَمِ بالتَّوراةِ -وذلِك على القَولِ بأنَّها المقصودةُ بلفظِ (كِتابٍ)- أنَّها الكِتابُ الموجودُ الَّذي فيه ذِكْرُ الجَزاءِ وإبطالِ الشِّرْكِ، وللإشارةِ إلى أنَّ القرآنَ الَّذي أنْكَروا أنَّه مِن عِندِ اللهِ ليس بِدْعًا؛ فقد نَزَلَت قبْلَه التَّوراةُ؛ وذلك لأنَّ المُقسَمَ عليه وُقوعُ العَذابِ بهم، وإنَّما هو جَزاءٌ على تَكذيبِهم القُرآنَ ومَن جاء به؛ بدَليلِ قَولِه بعْدَ ذِكْرِ العذابِ: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾[2] [الطور: ١١، ١٢].

- والبيتُ المَعمورُ هنا هو الكَعْبةُ -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-، ووَصْفُه بالمَعمورِ؛ لأنَّه لا يَخلو مِن طائفٍ به، وعُمرانُ الكَعبةِ هو عُمرانُها بالطَّائفينَ[3].

- ومُناسَبةُ القسَمِ بالبَيتِ المَعمورِ الَّذي هو الكعبةُ: سَبْقُ القَسَمِ بكِتابِ التَّوراةِ، فعُقِّبَ ذلك بالقسَمِ بمَواطنِ نُزولِ القُرآنِ؛ فإنَّ ما نزَلَ به مِن القُرآنِ أُنزِلَ بمكَّةَ وما حَوْلَها، مِثْلُ جَبلِ حِراءَ، وكان نُزولُه شَريعةً ناسِخةً لشَريعةِ التَّوراةِ، على أنَّ الوحْيَ كان يَنزِلُ حوْلَ الكَعبةِ؛ فيكونُ تَوسيطُ القسَمِ بالكعْبةِ في أثناءِ ما أُقسِمَ به مِن شُؤونِ شَريعةِ مُوسى عليه السَّلامُ إدماجًا[4]. وذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨، ٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩).

وتقدَّم تعريفُ الإدماجِ (ص: ٣٥).

على قَولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴾ السَّقْفُ المرفوعُ هو السَّماءُ، ومُناسَبةُ القسَمِ بها أنَّها مَصدرُ الوحْيِ كلِّه؛ التَّوراةِ والقُرآنِ، وتَسميةُ السَّماءِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ(١).

- والمَسجورُ: مَشتقٌّ مِن السَّجْرِ، وهو المِلْءُ والإمدادُ؛ فهو صِفةٌ كاشفةٌ(٢)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩).

والتَّشبيهُ: هو إلحاقُ شيءٍ بذِي وصْفٍ في وصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ للمُشَبَّهِ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به. وينقسمُ التَّشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتِباراتٍ عِدَّة، ومنه: التَّشبيهُ البليغُ: وهو ما كانتْ أداةُ التَّشبيهِ فيه مَحذوفةً. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٢) الصِّفةُ الكاشفةُ: هي الَّتي تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ لأنَّ الصِّفاتِ منها صِفةٌ مقيِّدةٌ تُخرِجُ ما سِواه، ومنها صفةٌ كاشِفةٌ تبيِّنُ حقيقةَ أمرِه، فهي خبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأن تكونَ وصفًا لازمًا مختصًّا به. والصِّفةُ إذا كان لها مفهومٌ فهي مقيِّدةٌ، وإن لم يكن لها مفهومٌ فهي كاشِفةٌ، أي: مبيِّنةٌ للحقيقةِ، مثالُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ ﴾ وصفٌ مطابقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لموافقتِه الواقِعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [البقرة: ٦١]، وقولُه: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٩٩، ٣١٤)، ((دراسات أصولية في القرآن الكريم)) للحفناوي (ص: ٢٢).

قُصِدَ منها التَّذكيرُ بحالِ خلْقِ اللهِ إيَّاهُ مَملوءًا ماءً دونَ أنْ تَملأَه أَوديةٌ أو سُيولٌ -وذلك علَى قولٍ-. أو هي للاحترازِ عن إرادةِ الوادي؛ إذ الوادي يَنقُصُ، فلا يَبْقى على مَلْئِه، وذلك دالٌّ على عِظَمِ القُدْرةِ، أو أنَّ وصْفَه بالمَسجورِ؛ للإيماءِ إلى الحالةِ الَّتي كان بها هَلاكُ فِرعَونَ بعْدَ أنْ فرَقَ اللهُ البحرَ لِمُوسى وبني إسرائيلَ، ثمَّ أسجَرَهُ، أي: أفاضَهُ على فِرعونَ ومَلَئِه[1]. وذلك على أنَّ المرادَ به البحرُ الأحمرُ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ * مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ تَحقيقُ وُقوعِ عَذابِ اللهِ يومَ القِيامةِ إثباتٌ للبَعثِ بطَريقِ الكِنايةِ القريبةِ، وتَهديدٌ للمُشرِكين بطَريقِ الكِنايةِ التَّعريضيَّةِ[2].

- وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ جوابُ القَسَمِ[3].

- وفي إضافةِ العذابِ لقولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ لَطيفةٌ؛ إذ هو المالِكُ والنَّاظِرُ في مَصلَحةِ العبْدِ؛ فبالإضافةِ إلى الرَّبِّ وإضافتِه لِكافِ الخِطابِ أمانٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأنَّ العذابَ لَواقِعٌ هو بمَن كذَّبَه[4]، وأيضًا أضاف الصِّفةَ إلى ضَميرِه؛ إيذانًا بأنَّه سُبحانَه يُرِي النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩، ٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٠).

وتَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازم) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريضٍ، وتلويحٍ، ورمْزٍ، وإيماءٍ. والتَّعريضُ اصطلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ، ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ، نحو قولِك للمؤذِي: ((المُسلِمُ مَن سَلِمَ المُسلِمونَ مِن لِسانِه ويَدِه)) تَعريضًا بنَفي صِفةِ الإسلامِ عن المؤذِي. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٤٠٣، ٤١١)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٨).

أُمَّتِه ما يَسُرُّه[١].

- وقولُه: ﴿لَوَٰقِعٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى الشِّدَّةِ، وهو أدَلُّ عليها مِن (لَكائنٌ)، كأنَّه مُهيَّأٌ في مَكانٍ مُرتفِعٍ، فيَقَعُ على مَن حلَّ به[٢].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿لَوَٰقِعٌ﴾، وتَقديرُه: على المكذِّبين، أو بالمكذِّبين، كما دلَّ عليه قولُه بعْدُ: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١]، أي: المكذِّبين بك، بقَرينةِ إضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِ المُخاطَبِ المُشعِرِ بأنَّه مُعذِّبُهم؛ لأنَّه ربُّك وهم كذَّبوك، فقد كذَّبوا رِسالةَ الرَّبِّ[٣].

- وقد تَضمَّنَ قولُه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ إثباتَ البَعثِ بعْدَ كَونِ الكلامِ وَعيدًا لهم على إنكارِ البعثِ، وإنكارِهم أنْ يَكونوا مُعذَّبينَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ زِيدَتْ (مِن) في النَّفْيِ؛ لتَحقيقِ عُمومِ النَّفْيِ وشُمولِه، أي: نفْيِ جِنسِ الدَّافعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١).

## الآيات (٩-١٦)

﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَمُورُ﴾: أي: تَدورُ، وتتحَرَّكُ، وتَضطَرِبُ بما فيها، وأصلُ (مور): يدُلُّ على تَرَدُّدٍ[1].

﴿خَوْضٍ﴾: أي: تَكذيبٍ، وتَخبُّطٍ في الأباطيلِ، والخَوضُ: الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ويُطلَقُ على الدُّخولِ في الأمرِ بالقَولِ، وأكثَرُ ما وردَ في القُرآنِ وردَ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصلُ (خوض): يدُلُّ على توسُّطِ شَيءٍ ودُخولٍ[2].

﴿يُدَعُّونَ﴾: أي: يُدفَعونَ بشِدَّةٍ، والدَّعُّ في اللُّغةِ: الدَّفعُ في قَسوةٍ وعُنفٍ، وأصلُ (دعع): يدُلُّ على دَفعٍ[3].

﴿ٱصْلَوْهَا﴾: أي: ادخُلوها، وذُوقوا حَرَّها، وأصلُ الصَّليِ: الإيقادُ بالنَّارِ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ وما أشبَهَها مِن الحمَّى[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، =

## المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ تعالى أنَّ عذابَه يَقَعُ يومَ تتحَرَّكُ السَّماءُ وتَضطَرِبُ، وتَذهَبُ الجِبالُ وتَزولُ عن أماكِنِها، فتَصيرُ هَباءً، وذلك كائِنٌ يومَ القيامةِ؛ فعَذابٌ وهَلاكٌ في ذلك اليَومِ للمُكَذِّبينَ الَّذين هم مُنغَمِسونَ في الباطِلِ، غافِلونَ عن الآخِرةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حالَهم يومَ القيامةِ، فيقولُ: يَومَ يُدفَعُونَ إلى نارِ جَهنَّم دَفعًا شَديدًا، ويُقالُ لهم: هذه هي النَّارُ الَّتي كُنتُم في الدُّنيا تُكذِّبونَ بها، أهذا الَّذي تَرَونَه مِن عذابِها الآنَ سِحرٌ لا حقيقةَ له، أم أنتم لا تُبصِرونَه بأعيُنِكم؟! ادخُلوا النَّارَ وذُوقُوا حَرَّها، فسَواءٌ عليكم الصَّبرُ والجَزَعُ؛ لن يَنفَعَكم شَيءٌ، إنَّما تُعذَّبونَ في النَّارِ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالَى أنَّ العذابَ واقعٌ؛ بَيَّن متَى يَقَعُ العَذابُ، فقال[1]:

﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ٩ ﴾.

أي: يومَ[2] تتحَرَّكُ السَّماءُ وتَضطَرِبُ، وتَذهَبُ وتَجيءُ، وذلك كائِنٌ يومَ

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١١٩).

(٢) قال السمين: (يجوزُ أن يكونَ العاملُ فيه «واقع»، أي: يقَعُ في ذلك اليومِ؛ وعلى هذا فتكونُ الجملةُ المَنفيَّةُ مُعترِضةً بيْنَ العامِلِ ومَعمولِه. ويجوزُ أن يكونَ العامِلُ فيه ﴿دَافِعٖ﴾ [الطور: ٨]، قاله الحوفيُّ وأبو البقاءِ، ومنَعَه مكِّيٌّ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٦٤، ٦٥). ويُنظر: ((التبيان =

القِيامةِ[١]!

﴿ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: وتَذهَبُ الجِبالُ وتَزولُ عن أماكِنِها، فتَصيرُ هَباءً[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ ﴾ [الكهف: ٤٧].

---

= في إعراب القرآن)) لأبي البقاء (٢/ ١١٨٣)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٤).

ممَّن اختار أنَّ ﴿ يَوْمَ ﴾ متعَلِّقٌ بقَولِه تعالى في الآيةِ السَّابِقةِ: ﴿لَوَٰقِعٌ ﴾ [الطور: ٧]، أي: إنَّ عذابَ رَبِّك لَواقِعٌ يومَ القيامةِ حينَ تمورُ السَّماءُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّيُّ بن أبي طالب، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦١)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٦٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٤).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ العامِلُ مَحذوفًا، تقديرُه: اذكُرْ. يُنظر: ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٤١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٠، ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

قال ابنُ القيِّم: (المَورُ: قد فُسِّر بالحَرَكةِ، وفُسِّر بالدَّوَرانِ، وفُسِّرَ بالتَّمَوُّجِ والاضطِرابِ، والتَّحقيقُ: أنَّه حركةٌ في تمَوُّجٍ وتكَفُّؤٍ، وذَهابٍ ومَجيءٍ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٠).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قَلَّ أن يُعبَّرَ عن لفظٍ واحدٍ بلَفظٍ واحدٍ يؤدِّي جميعَ معناه، بل يكونُ فيه تقريبٌ لِمعناه، وهذا مِن أسبابِ إعجازِ القُرآنِ، فإذا قال القائلُ: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ إنَّ المورَ هو الحَرَكةُ، كان تقريبًا؛ إذ المَورُ حَرَكةٌ خَفيفةٌ سريعةٌ). ((مجموع الفتاوى)) (١٣/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩، ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣].

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حَقَّق العذابَ وبَيَّن يومَه؛ بَيَّن أهلَه بقَولِه مُسَبَّبًا عن ذلك[1]:

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

أي: فعَذابٌ وهَلاكٌ شَديدٌ في ذلك اليَومِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[2]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

ذكَرَ ابنُ جريرٍ أنَّ الوَيلَ: هو الوادي الَّذي يَسيلُ مِن قَيحٍ وصَديدٍ في جَهنَّمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٤).

وتقدَّم (ص: ١٨٨) قولُ الراغبِ أنَّ مَن قال: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ وَيْلًا في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مَقَرًّا من النَّارِ، وثَبَت ذلك له.

وقال السعدي: (الوَيلُ: كَلِمةٌ جامِعةٌ لكُلِّ عُقوبةٍ وحُزنٍ، وعَذابٍ وخَوفٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

وممَّن اختار أنَّ الوَيلَ كَلِمةٌ تُقالُ للهالِكِ: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤).

قال ابن عثيمين: (وَيلٌ: كَلِمةُ وَعيدٍ وتهديدٍ، وإن كان قد رُوِيَ أنَّها وادٍ في جهنَّمَ، لكِنَّ الصَّوابَ أنَّها كَلِمةُ تهديدٍ ووعيدٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٨١). =

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ١٢ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان التَّكذيبُ قد يكونُ في محَلِّه؛ بَيَّن أنَّ المرادَ تكذيبُ ما محَلُّه الصِّدقُ، فقال[1]:

﴿ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ ١٢ ﴾.

أي: الَّذين هم في الدُّنيا مُنغَمِسونَ في الباطِلِ، فيَتخَبَّطونَ فيه بأقوالِهم وأفعالِهم، غافِلونَ عن الآخِرةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٦٨].

﴿ يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعّٗا ١٣ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا صَوَّر تكذيبَهم بأشنَعِ صُورةٍ؛ بَيَّن وَيْلَهم ببَيانِ ظَرْفِه وما يُفعَلُ فيه[3]، فقال:

---

= وقال الشنقيطي: (الأظهرُ أنَّ لفظةَ «وَيْلٌ» كلمةُ عَذابٍ وهلاكٍ، وأنَّها مَصدرٌ لا فِعلَ له مِن لَفظِه، وأنَّ المسَوِّغَ للابتِداءِ بها -مع أنَّها نَكِرةٌ- كَونُها في مَعرِضِ الدُّعاءِ عليهم بالهَلاكِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

قال ابن عطيَّةَ: (الخَوضُ: التَّخَبُّطُ في الأباطيلِ، يُشَبَّهُ بخَوضِ الماءِ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ [الأنعام: ٦٨]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠).

﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: يَومَ يُدفَعُونَ إلى نارِ جَهنَّم دَفعًا شَديدًا عَنيفًا[1]!

﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: ويُقالُ لهم: هذه هي النَّارُ الَّتي كُنتُم في الدُّنيا تُكذِّبونَ بها، ولا تُصدِّقونَ الرُّسُلَ الَّذين أخبَروكم بها[2].

كما قال تعالى: ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ٢٠].

﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: أهذا الَّذي تَرَونَه الآنَ سِحرٌ لا حقيقةَ له، أم أنتم لا تُبصِرونَه بأعيُنِكم[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٢).

قال السَّمينُ: (قولُه: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ ﴾: يجوزُ أَنْ يكونَ ظرفًا لـ «يُقالُ» المقدَّرةِ مع قَولِه: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ﴾، أي: يُقالُ لهم هذه النَّارُ يومَ يُدَعُّونَ. ويجوزُ أَنْ يكونَ بدَلًا مِنْ قولِه ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ﴾ أو مِنْ ﴿يَوْمَئِذٍ ﴾ قَبْلَه). ((الدر المصون)) (١٠/ ٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

قال البقاعي: (أي: هل تَستطيعونَ أن تقولوا: إنَّكم لا تُبصِرونَ المُخبَرَ عنه، كما كنتُم تقولونَ في الخبَرِ كَذِبًا وفُجورًا؟!). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١١).

﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦ ﴾.

﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾.

أي: ادخُلوا النَّارَ وذُوقُوا حَرَّها، فسَواءٌ عليكم الصَّبرُ والجَزَعُ؛ فإنَّكم لن تَنتَفِعوا في جميعِ الأحوالِ بالصَّبرِ ولا بالجَزَعِ[1]!

قال تعالى حاكيًا عن أهلِ النَّارِ قولَهم: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾ [إبراهيم: ٢١].

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

أي: إنَّما تُعذَّبونَ في النَّارِ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ؛ فالأمرُ جارٍ عليكم بالعَدلِ، ولم يَظلِمْكم اللهُ شَيئًا[2]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ۞ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ۞ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ۞ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا ۞ جَزَآءٗ وِفَاقًا ۞ إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ۞ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ۞ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ۞ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٢١ - ٣٠].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۞ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴾ حِكمةٌ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

الإيذانِ والإعلامِ بأنْ لا عَودَ إلى الدُّنيا؛ وذلك لأنَّ الأرضَ والجِبالَ والسَّماءَ والنُّجومَ كُلَّها لعِمارةِ الدُّنيا، والانتِفاعِ لبني آدَمَ بها، فإنْ لم يتَّفِقْ لهم عَودٌ لم يَبْقَ فيها نَفعٌ؛ فأعدَمَها اللهُ تعالى(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ إيذانٌ بأمانِ أهلِ الإيمانِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا قال: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ [الطور: ٧] لم يُبَيِّنْ مُوقِعَه بمَنْ، فلَمَّا قال: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾؛ عُلِمَ المخصوصُ به، وهو المكَذِّبُ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾ أنَّه اجتمَع عليهم أمْرانِ مُوجِبانِ للباطِلِ: الخَوضُ، واللَّعِبُ، فهم بحيثُ لا يكادُ يقَعُ لهم قَولٌ ولا فِعلٌ في مَوضِعِه؛ فلا يُؤسَّسُ على بيانٍ أو حُجَّةٍ(٣).

٤- قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ لَمَّا كانت علومُهم التي هي خوضٌ بالباطِلِ، وأعمالُهم- مُستَلزِمةً لدَفعِ الحَقِّ بعُنفٍ وقَهرٍ، أُدخِلوا جَهنَّمَ وهم يُدَعُّونَ إليها دَعًّا، أي: يُدفَعُ في أقفِيَتِهم وأكتافِهم دَفعًا بعدَ دَفعٍ(٤)!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ أنَّ هؤلاءِ المكذِّبينَ الكافِرينَ يُحضَرونَ إلى العَذابِ قَسْرًا وقَهرًا، يعني: يُدفَعونَ بعُنفٍ وشِدَّةٍ. والعياذُ باللهِ(٥)!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ﴾ بيانُ عَدَمِ الخَلاصِ، وانتِفاءِ المَناصِ؛ فإنَّ مَن لا يَصبِرُ فإنَّه يَدفَعُ الشَّيءَ عن نَفْسِه؛ إمَّا بأن يَدفَعَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ٨٥).

المُعَذِّبَ فيَمنَعَه، وإمَّا بأن يُغضِبَه فيَقتُلَه ويُريحَه، ولا شَيءَ مِن ذلك يُفيدُ في عذابِ الآخِرةِ؛ فإنَّ مَن لا يَغلِبُ المُعَذِّبَ فيَدفَعُه، ولا يتخَلَّصُ بالإعدامِ؛ فإنَّه لا يُقضَى عليه فيَموتَ، فإذَنِ الصَّبرُ كعَدَمِه؛ لأنَّ مَن يَصبِرُ يدومُ فيه، ومَن لا يَصبِرُ يَدومُ فيه[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ بيانُ ما يَتفاوَتُ به عَذابُ الآخِرةِ عن عَذابِ الدُّنيا؛ فإنَّ المُعَذَّبَ في الدُّنيا إنْ صَبَر رُبَّما انتَفَع بالصَّبرِ؛ إمَّا بالجَزاءِ في الآخِرةِ، وإمَّا بالحَمدِ في الدُّنيا؛ فيُقالُ له: ما أشجَعَه! وما أقوى قَلْبَه! وإنْ جَزِعَ يُذَمُّ فيُقالُ: يَجزَعُ كالصِّبيانِ والنِّسوانِ! وأمَّا في الآخِرةِ فلا مَدْحَ ولا ثوابَ على الصَّبرِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا * وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ يَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ بقولِه: ﴿لَوَٰقِعٞ﴾ [الذاريات: ٦]، على أنَّه ظرْفٌ له، مُبيِّنٌ لكَيفيَّةِ الوُقوعِ، مُنبِئٌ عن كَمالِ هَولِه وفَظاعتِه؛ فيَكونَ قولُه: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [الطور: ١١] تَفريعًا على الجُملةِ كلِّها، ويَكونَ العَذابُ عَذابَ الآخرةِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ قد تمَّ عندَ قولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ [الطور: ٧]؛ فيَكونَ ﴿يَوۡمَ﴾ مُتعلِّقًا بالكَونِ الَّذي بيْنَ المُبتدَأِ والخبَرِ في قولِه: ﴿فَوَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وقُدِّمَ الظَّرْفُ على عامِلِه للاهتِمامِ، فلمَّا قُدِّمَ الظَّرْفُ اكتسَبَ معْنى الشَّرطيَّةِ، وهو استِعمالٌ مُتَّبَعٌ في الظُّروفِ والمَجروراتِ الَّتي تُقدَّمُ على عَوامِلِها؛ فلذلك قُرِنَت الجُملةُ بعْدَه بالفاءِ على تَقديرِ: إنْ حلَّ ذلك اليَومُ فوَيلٌ للمكذِّبينَ، وقولُه: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ على هذا الوجْهِ أُريدَ به التَّأكيدُ للظَّرفِ، فحصَلَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَحقيقُ الخبَرِ بطَريقينِ: طَريقِ المُجازاةِ، وطَريقِ التَّأكيدِ في قولِه: ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ الآيةَ، تَصريحًا بيَومِ البَعثِ بعْدَ أنْ أُشِيرَ إليه تَضمُّنًا بقولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴾؛ فحصَلَ بذلك تأْكيدُه أيضًا[١].

- وتأْكيدُ فِعلَيْ ﴿تَمُورُ﴾ و(تَسيرُ) بمَصْدرَيْ ﴿مَوْرًا﴾ و﴿سَيْرًا﴾؛ لرفْعِ احتِمالِ المجازِ، أي: هو مَورٌ حَقيقيٌّ، وتَنقُّلٌ حَقيقيٌّ[٢]. أو للإيذانِ بغَرابتِهما وخُروجِهما عن الحُدودِ المَعهودةِ، أي: مَورًا عَجيبًا، وسَيرًا بَديعًا، لا يُدْرَكُ كُنْهُهما[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ أي: فويلٌ يومَئذٍ للَّذين يُكذِّبون الآنَ، وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾؛ لعِلْمِه مِن المَقامِ، أي: الَّذين يُكذِّبون بما جاءَهُم به الرَّسولُ مِن تَوحيدِ اللهِ والبَعثِ والجَزاءِ والقُرآنِ؛ فاسمُ الفاعلِ في زمَنِ الحالِ[٤].

- وحرْفُ (في) في قولِه: ﴿فِى خَوْضٍ ﴾ للظَّرفيَّةِ، أفادَ المُلابَسةَ الشَّديدةَ، كمُلابَسةِ الظَّرْفِ للمَظروفِ، أي: الَّذين تَمكَّنَ منهم الخَوضُ حتَّى كأنَّه أحاطَ بهم[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ الدَّعُّ هو الدَّفعُ العَنيفُ، وذلك إهانةٌ لهم، وغِلْظةٌ عليهم، أي: يومَ يُساقُون إلى نارِ جهنَّمَ سَوقًا بدَفْعٍ، وفيه تَمثيلُ حالِهم بأنَّهم خائِفون مُتقَهْقِرون، فتَدفَعُهم الملائكةُ المُوكَّلون بإزْجائِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إلى النَّارِ[١].

- وتأْكيدُ ﴿يُدَعُّونَ﴾ بـ ﴿دَعًّا﴾؛ لِيُوصَلَ إلى إفادةِ تَعظيمِه بتَنْكيرِه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، وتَقديرُه: يُقالُ لهم، أو مَقولًا لهم[٣].

- والإشارةُ بـ ﴿هَٰذِهِ﴾ -الَّذي هو للمُشارِ إليه القَريبِ المُؤنَّثِ- تُومِئُ إلى أنَّهم بَلَغوها وهمْ على شَفاها. والمَقصودُ بالإشارةِ التَّوطئةُ لِمَا سيَرِدُ بعْدَها مِن قولِه: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ إلى ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾[٤].

- والمَوصولُ وَصِلتُه في قولِه: ﴿ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ لتَنبيهِ المُخاطَبينَ على فَسادِ رأْيِهم؛ إذ كذَّبوا بالحَشْرِ والعِقابِ؛ فرَأَوا ذلك عِيانًا[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ فُرِّعَ على قولِه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾؛ تنبيهًا على ضَلالِهم في الدُّنيا؛ إذ كانوا حِينَ يَسمَعون الإنذارَ بيَومِ البَعثِ والجزاءِ، يَقولون: هذا سِحرٌ، وإذا عُرِضَ عليهم القرآنُ قالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]؛ فلِلمُناسَبةِ بيْنَ ما في صِلةِ المَوصولِ مِن مَعنى التَّوقيفِ على خَطَئِهم وبيْنَ التَّهكُّمِ عليهم بما كانوا يَقولونه، دخَلَت فاءُ التَّفريعِ، وهو مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جُملةِ ما يُقالُ لهم، المَحكيِّ بالقولِ المقدَّرِ[١].

- قولُه: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ هذه الفاءُ تَقْتضي مَعطوفًا عليه، وهو مُقدَّرٌ دلَّ عليه مَضمونُ قولِه: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١٤]، فدخَلَت الهمزةُ بيْنَ المَعطوفينِ لمَزيدٍ مِن التَّقريعِ والتَّهكُّمِ؛ فإنَّه لَمَّا قِيل: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، عُقِّب بقولِه: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾؛ يعْني: هذا المِصداقُ أيضًا سِحرٌ؟! أي: كُنتم تَقولون للقُرآنِ الَّذي أنذَرَكم هذه النَّارَ: هذا سِحرٌ، فتَقولون: سِحرٌ هذا أيضًا! فالمُشارُ إليه بـ﴿هَٰذَآ﴾ النَّارُ، وذُكِّر لأنَّه في تأْويلِ المِصداقِ، أو الخبَرُ مُذكَّرٌ. وقُدِّم الخبَرُ؛ لإفادةِ الاختِصاصِ تَتْميمًا للتَّقريعِ. أو قُدِّم الخبَرُ؛ لأنَّه المَقصودُ بالإنكارِ والتَّوبيخِ[٢].

- و(أَمْ) في قولِه: ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ مُنقطِعةٌ، أي: بلْ أنتُم عُمْيٌ عن المُخبَرِ عنه، وهذا تَقريعٌ وتَهكُّمٌ. والاستِفهامُ الَّذي تَقْتضيهِ (أَمْ) بعْدَها مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّهكُّمِ، والتَّقديرُ: بلْ أأنْتُم لا تُبصِرون. أو تكونُ (أمْ) مُعادِلةً؛ فالمعْنى: هلْ في المَرئيِّ شَكٌّ، أمْ هلْ في بصَرِكم خَلَلٌ؟ أي: لا واحدَ منهما ثابتٌ[٣].

- وأيضًا جِيءَ بالمسنَدِ إليه مُخبَرًا عنه بخَبرٍ فِعليٍّ مَنْفيٍّ ﴿لَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكْمِ؛ فلذلك لم يقلْ: (أمْ لا تُبصِرون)؛ لأنَّه لا يُفِيدُ تَقوِّيًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣).

ولا (أمْ لا تُبصِرون أنتُم)؛ لأنَّ مَجيءَ الضَّميرِ المُنفصِلِ بعْدَ الضَّميرِ المتَّصلِ يُفِيدُ تَقريرَ المُسنَدِ إليه المَحكومِ عليه، بخِلافِ تَقديمِ المُسنَدِ إليه؛ فإنَّه يُفِيدُ تأْكيدَ الحُكْمِ وتَقويتَه، وهو أشدُّ تَوكيدًا، وكلُّ ذلك في طَريقةِ التَّهكُّمِ(١).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ لَمَّا قِيلَ لهم: إنَّ هذه هي النَّارُ، وُقِفوا بعْدَ ذلك على الجِهتينِ اللَّتينِ يُمكِنُ دُخولُ الشَّكِّ في أنَّها النارُ؛ وهي: إمَّا أنْ يكونَ ثَمَّ سِحْرٌ يُلَبِّسُ ذاتَ المَرْئيِّ، وإمَّا أنْ يكونَ في نَظَرِ الناظِرِ اختِلالٌ، فأمَرَهم بصَلْيِها على جِهةِ التَّقريعِ، ثمَّ قِيلَ لهم على قَطْعِ رَجائِهم: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ ﴾، أي: ادْخُلوها على أيِّ وجْهٍ شِئتُم مِن الصَّبْرِ وعَدَمِه؛ فإنَّه لا مَحيصَ لكمْ عنها، فعَذابُكم حَتْمٌ، فسَواءٌ صَبْرُكم وجَزَعُكم، لا بُدَّ مِن جَزاءِ أعْمالِكم(٢).

- وقولُه: ﴿ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ ﴾ استِئنافٌ بمَنزِلةِ النَّتيجةِ المُترقَّبةِ مِن التَّوبيخِ والتَّغليظِ السَّابقَينِ، أي: ادْخُلوها فاصْطَلوا بنارِها(٣).

- والأمْرُ في ﴿ ٱصۡلَوۡهَا ﴾ إمَّا مُكنًّى به عن الدُّخولِ؛ لأنَّ الدُّخولَ لها يَستلزِمُ الاحتِراقَ بنارِها، وإمَّا مُستعمَلٌ في التَّنكيلِ(٤).

- وفُرِّعَ على ﴿ ٱصۡلَوۡهَا ﴾ أمْرٌ للتَّسويةِ بيْنَ صَبْرِهم على حَرِّها وبيْن عدَمِ الصَّبْرِ، وهو الجزَعُ؛ لأنَّ كِلَيهما لا يُخفِّفانِ عنهم شيئًا مِن العَذابِ؛ فإنَّهم يَقولونَ: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ﴾ [إبراهيم: ٢١]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لأنَّ جُرْمَهم عظيمٌ لا مَطْمعَ في تَخفيفِ جَزائِه[١].

- وقولُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: سواءٌ عليكم الأمْرانِ: الصَّبْرُ وعَدَمُه، أو ذلك سَواءٌ عليكمْ. وهي جُملةٌ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾؛ فلذلك فُصِلَت عنها، ولمْ تُعطَفْ عليها[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تَعليلٌ للاسْتِواءِ في جُملةِ ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾؛ وعليه فجُملتَا ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ مُعترِضتانِ بيْن جُملةِ ﴿ٱصۡلَوۡهَا﴾ والجُملةِ الواقعةِ تَعليلًا لها[٣].

- وعُلِّلَ استواءُ الصَّبْرِ وعَدَمِه بقَولِه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّ الصَّبْرَ إنَّما يكونُ له مَزيَّةٌ على الجَزَعِ لنَفْعِه في العاقِبةِ بأنْ يُجازَى عليه الصَّابرُ جَزاءَ الخَيرِ، فأمَّا الصَّبرُ على العذابِ الَّذي هو الجزاءُ ولا عاقبةَ له ولا مَنفعةَ، فلا مَزيَّةَ له على الجَزَعِ[٤].

- والحَصْرُ المُستفادُ مِن كَلمةِ (إنَّما) قصْرُ قلْبٍ[٥]، بتَنزِيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ ما لَقُوه مِن العذابِ ظُلْمٌ لم يَستوجِبوا مِثلَ ذلك؛ مِن شِدَّةِ ما ظهَرَ عليهم مِن الفزَعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٧، ١٤٨).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

- وعُدِّيَ ﴿تُجْزَوْنَ﴾ إلى ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بدونِ الباءِ، خِلافًا لقولِه بعْدَه: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩]؛ لِيَشملَ القصْرُ مَفعولَ الفِعلِ المَقصورِ، أي: تُجْزَون مِثلَ عمَلِكم لا أكثَرَ منه، فيَنْتفي الظُّلمُ عن مِقدارِ الجَزاءِ كما انْتَفى الظُّلمُ عن أصْلِه، ولهذه الخُصوصيَّةِ لم يُعلَّقْ مَعمولُ الفِعلِ بالباءِ؛ إذ جُعِلَ بمَنزلةِ نفْسِ الفِعلِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

## الآيات (١٧-٢١)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِىٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَٰكِهِينَ﴾: أي: ناعِمينَ مُستَمتِعينَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ[١].

﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾: أي: طَيِّبًا، مُستَساغًا، لا يُكَدِّرُه شَيءٌ، والهَنيءُ: الطَّيِّبُ المُساغُ الَّذي لا يُنغِّصُه شَيءٌ، وأصلُ (هنأ): يدُلُّ على إصابةِ خَيرٍ مِن غيرِ مَشقَّةٍ[٢].

﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾: الحَوراءُ: البَيضاءُ، أو: الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ الشَّديدةُ سوادِها، والعِينُ: جَمعُ عَيناءَ، وهي: الواسِعةُ العَينَينِ مِنَ النِّساءِ[٣].

﴿أَلَتْنَٰهُم﴾: أي: نَقَصْناهم وظَلَمْناهم، وأصلُ (ألت): يدُلُّ على نَقصٍ[٤].

﴿رَهِينٌ﴾: أي: مُرتَهَنٌ بكَسبِه، مأخوذٌ بعَمَلِه؛ إمَّا خَلَّصَه وإمَّا أوبَقَه، ورَهينٌ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٦/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥) و(٤/ ١٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٢) و (ص: ٥٩٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

فَعيلٌ بمعنى مَفعولٍ؛ مِنَ الرَّهنِ: وهو الحَبسُ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مخبرًا عن حالِ المتَّقينَ السُّعداءِ بعدَ أن بيَّن حالَ الكافرينَ الأشقياءِ: إنَّ الَّذين اتَّقوُا اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه: في بَساتينَ ونَعيمٍ عَظيمٍ في الآخِرةِ، فَرِحينَ مَسرورينَ بما أعطاهم رَبُّهم في الجنَّةِ مِنَ النَّعيم، وقد نجَّاهم اللهُ مِن عذابِ النَّارِ، ويُقالُ لهؤلاء المُتَّقينَ: كُلُوا واشرَبوا مُتهَنِّئينَ بلا أذًى ولا نَكَدٍ ولا كَدَرٍ؛ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الصَّالحاتِ، مُتَّكِئينَ على سُرُرٍ مَصفوفةٍ، وزوَّجْناهم بنِساءٍ بِيضٍ، شَديدٍ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها، عظيماتِ الأعيُنِ معَ حُسنِها واتِّساعِها.

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالَى عن أنواعٍ أُخرَى مِن تكريمِه لعبادِه المؤمنينَ، وفضلِه وكَرَمِه عليهم، وإحسانِه إليهم، فيقولُ: والَّذين آمَنوا ألحَقْنا بهم أولادَهم الَّذين اتَّبَعوهم على الإيمانِ، فجعَلْناهم معهم في دَرَجاتِهم في الجنَّةِ وإنْ لم يَعمَلوا بعَمَلِ آبائِهم، وما نَقَصْنا الآباءَ مِن أُجورِ أعمالِهم الصَّالِحةِ شَيئًا حينَ جعَلْنا ذُرِّيَّتَهم معهم في الجنَّةِ.

ثمَّ يُخبِرُ الله تعالى عن مقامِ عدلِه بعدَ أن أخبَر عن مقامِ فضلِه وكرمِه، فيقولُ: كُلُّ إنسانٍ مُرتَهَنٌ بعَمَلِه، لا يُحمَلُ عليه ذنْبُ غَيرِه مِنَ النَّاسِ، سواءٌ كان أبًا أو ابنًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥١).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى عُقوبةَ المُكَذِّبينَ؛ ذكَرَ نَعيمَ المُتَّقينَ؛ لِيَجمَعَ بيْنَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، فتكونَ القُلوبُ بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ(١).

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نهى عنه: في بَساتينَ ونَعيمٍ عَظيمٍ في الآخِرةِ(٢).

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿فَٰكِهِينَ﴾ قيلَ: بمعنى: فَرِحينَ أو مُعجَبينَ. وقيل: بمعنى: يتفَكَّهونَ، أي: يَستَطيبونَ ويَسْتَحْلونَ(٣).

٢- قِراءةُ ﴿فَٰكِهِينَ﴾ بألفٍ بعد الفاءِ، قيل: بمعنى: أصحابِ فاكِهةٍ. وقيل: ناعِمينَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، مِثْلُ: حاذِرينَ وحَذِرينَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

(٣) قرأ بها أبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٦٢٣). ويُنظر أيضًا: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤، ٣٥٥).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ٥٢٧)، ((الدر المصون)) للسمين (٩/ ٦٢٣).

﴿ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ ﴾.

أي: مُعجَبينَ بما أعطاهم رَبُّهم في الجنَّةِ مِنَ النَّعيمِ، ومُتَمتِّعينَ به، فَرِحينَ مَسرورينَ بذلك(١).

﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المتنَعِّمُ قد تكونُ نِعمتُه بعدَ عَذابٍ؛ بَيَّنَ أنَّهم لَيسُوا كذلك(٢).

﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴾.

أي: وقد نجَّاهم اللهُ مِن عذابِ النَّارِ(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ [الإنسان: ١١].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٩١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات-الحديد)) (ص: ١٨٤).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجُملةِ: الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، وابنُ عطية، وابن القيِّم، والسعديُّ، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وذهب أبو عُبَيدةَ، وابنُ جَرير، والقُرطبيُّ إلى أنَّ معنى ﴿ فَٰكِهِينَ ﴾ أي: عندَهم فاكِهةٌ كثيرةٌ، كقَولِ العَرَبِ لِمَن عِندَه تَمرٌ كثيرٌ، أو لَبَنٌ كثيرٌ: رجُلٌ تامِرٌ، ولابِنٌ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥).

وقال ابنُ كثير: (أي: يَتفكَّهونَ بما آتاهم اللهُ مِنَ النَّعيمِ مِن أصنافِ المَلاذِّ؛ مِن مآكِلَ ومَشارِبَ، ومَلابِسَ ومَساكِنَ ومَراكِبَ وغَيرِ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦).

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مَن باشَرَ النِّعمةَ وجانَبَ النِّقْمةَ في هَناءٍ عَظيمٍ؛ قال مُترجِمًا لذلك[1]:

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: يُقالُ للمُتَّقينَ: كُلُوا مِن طَعامِ الجنَّةِ، واشرَبوا مِن شَرابِها، مُتهَنِّئينَ بذلك بلا أذًى ولا تنغيصٍ، ولا نَكَدٍ ولا كَدَرٍ؛ بسَبَبِ ما كنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الصَّالحاتِ[2].

كما قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۞ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۞ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤١ - ٤٤].

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾.

أي: مُتَّكِئينَ على سُرُرٍ قد جُعِلَت صُفوفًا[3]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٤، ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٨)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٦، ١٨٧).

قال ابنُ عاشور: (أي: يُقالُ لهم: كُلُوا واشرَبوا حالَ كَونِهم متَّكِئينَ، أي: وهم في حالِ إِكلةِ =

﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا اجتَمَع لهم مِن نَعيمِ القَلبِ والرُّوحِ والبَدَنِ ما لا يَخطُرُ بالبالِ، ولا يَدورُ في الخَيالِ؛ مِن المآكِلِ والمشارِبِ اللَّذيذةِ، والمجالِسِ الحَسَنةِ الأنيقةِ- لم يَبْقَ إلَّا التَّمَتُّعُ بالنِّساءِ اللَّاتي لا يَتِمُّ سُرورٌ بدونِهنَّ؛ فذَكَر اللهُ أنَّ لهم مِنَ الأزواجِ أكمَلَ النِّساءِ أوصافًا وخَلْقًا وأخلاقًا؛ ولهذا قال[1]:

﴿وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾.

أي: وزوَّجْنا[2] المتَّقينَ بنِساءٍ بِيضٍ، شَديدٍ سوادُ أعيُنِهِنَّ وبَياضُها[3]، عظيماتِ

---

= أهلِ التَّرفِ المعهودِ في الدُّنيا؛ فقد كان أهلُ الرَّفاهيةِ يأكُلونَ متَّكِئينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٢) قيل: المرادُ: قرَنَّاهم بهم. وممَّن قال بهذا المعنى: مكِّي، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والنسفي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٧).

وقال ابنُ القَيِّم: (وعلى هذا فـ «زَوَّجْناهم» عندَ هؤلاءِ مِنَ الاقترانِ والشَّفعِ، أي: شَفَعْناهم وقَرَنَّاهم بهِنَّ. وقالت طائفةٌ منهم مجاهِدٌ: زوَّجْناهم بهِنَّ، أي: أنكَحْناهم إيَّاهُنَّ. قُلتُ: وعلى هذا فتَلويحُ فِعلِ التَّزويجِ قد دَلَّ على النِّكاحِ، وتعديتُه بالباءِ المتضَمِّنةِ معنى الاقترانِ والضَّمِّ؛ فالقَولانِ واحِدٌ. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٤).

(٣) قيل: الحُورُ جَمعُ حَوراءَ: وهي المرأةُ البيضاءُ النَّقيَّةُ البياضِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٨٧). =

الأعيُنِ معَ حُسنِها واتِّساعِها[1].

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٩٦).
قال النَّحَّاس: (وفي قراءةِ عبدِ اللهِ: «كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِعِيسٍ عِينٍ»، ومعناه: البِيضُ، يقالُ: جمَلٌ أعيَسُ: إذا كان أبيَضَ يَضرِبُ إلى الشُّقرةِ). ((معاني القرآن)) (٦/ ٤١٦).
وقال القرطبي: (والحُورُ: البِيضُ، في قَولِ قَتادةَ والعامَّةِ، جمعُ حَوراءَ، والحوراءُ: البَيضاءُ الَّتي يُرى ساقُها مِن وراءِ ثِيابِها، ويَرى النَّاظِرُ وَجهَه في كَعبِها كالمرآةِ؛ مِن دِقَّةِ الجِلدِ وبَضاضةِ البَشَرةِ [أي: رِقَّتِها ونُعومتِها] وصَفاءِ اللَّونِ). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢).
وقيل: الحَوراءُ: الشَّديدةُ بَياضِ بَياضِ العَينِ، والشَّديدةُ سَوادِ سَوادِ العَينِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: أبو عُبَيدةَ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢).
وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ السَّابقَينِ، فقال: هي البيضاءُ، القويَّةُ بياضِ بياضِ العَينِ، وسَوادِ سَوادِها: ابنُ عطيَّة، وابنُ القيِّم، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٠).
قال ابن القيِّم: (حوراءُ: إذا اشتَدَّ بَياضُ أَبيَضِها، وسَوادُ أسوَدِها، ولا تُسَمَّى المرأةُ حَوراءَ حتَّى يكونَ مع حَوَرِ عَينِها بياضُ لَونِ الجَسَدِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩).
وقيل: المرادُ: أنَّ الطَّرْفَ يَحارُ فيهنَّ؛ مِن حُسنِهنَّ وجمالِهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٧٥، ٨١٥).
وممَّن ذهب إلى نحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٨).
وقد ردَّ ابنُ جريرٍ هذا المعنى، فقال: (هذا الَّذي قاله مجاهِدٌ مِن أنَّ الحُورَ إنَّما معناها: أنَّه يَحارُ فيها الطَّرْفُ، قولٌ لا معنَى له في كلامِ العَرَبِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٥)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٤، ٢٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٧).
ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ العِينَ: جمْعُ عَيناءَ، وهي العظيمةُ العَينِ في حُسنٍ وسَعةٍ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابنُ عطية، وابن جُزَي، وجلال الدين المحلِّي، والعُلَيمي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٧)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ * هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾ بنِسبةِ الفِعلِ إلى اللهِ تعالى، بمعنى: أتْبَعْنا أولادَهم بهم[١].

٢- قِراءةُ ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾ بنِسبةِ الفِعلِ إلى الذُّرِّيَّةِ، بمعنى: اتَّبَعَ الأولادُ آباءَهم

---

= العليمي)) (٦/ ٤٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالعِينِ حِسانُ الأعيُنِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ١٣٢).

قال ابنُ القيِّم: (والعِينُ: جَمعُ عَيناءَ، وهي العَظيمةُ العَينِ مِن النِّساءِ ... والصَّحيحُ: أنَّ العِينَ: اللَّاتي جَمَعَت أعيُنُهُنَّ صِفاتِ الحُسنِ والْمَلَاحةِ، قال مُقاتلٌ: العِينُ: حِسانُ الأعيُنِ، ومِن محاسِنِ المرأةِ اتِّساعُ عَيْنِها في طُولٍ. وضِيقُ العَينِ في المرأةِ مِن العُيوبِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩).

ويُنظَرُ ما تقَدَّمَ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ (الدُّخَان) الآية (٥٤).

قال ابنُ عاشور: (هُنَّ النِّساءُ اللَّاتي كُنَّ أزواجًا لهم في الدُّنيا إنْ كُنَّ مُؤمِناتٍ، ومَن يَخلُقُهنَّ اللهُ في الجنَّةِ لنِعمةِ الجنَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٨).

(١) قرأ بها أبو عَمرٍو البَصْريُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٣)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٢)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٦٧).

على الحَقِّ، فآمَنوا به مِثلَهم[١].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا ألحَقْنا بِهم أولادَهم الَّذين اتَّبَعوهم على الإيمانِ، فجعَلْناهم معهم في دَرَجاتِهم في الجنَّةِ، وإنْ لم يَعمَلوا كعَمَلِ آبائِهم[٢].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٦٧).

قال ابن زنجلة: (قَولُه: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ﴾ ﴿وَٱتَّبَعَنَٰهُمۡ﴾ يَتداخَلانِ تَداخُلَ ﴿يُدۡخَلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ و﴿يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا أتْبَعَهم ذرِّيَّتَهم اتَّبَعَتْهم). ((حجة القراءات)) (ص: ٦٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٥، ٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٢، ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ عطيَّة -ونَسَبه للجُمهورِ-، والرازيُّ، وابن جُزَي، وابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الشوكاني: (ومعنى هذه الآيةِ: أنَّ اللهَ سُبحانَه يَرفَعُ ذُرِّيَّةَ المؤمِنِ إليه، وإن كانوا دونَه في العَمَلِ؛ لتَقَرَّ عَينُه، وتَطِيبَ نفْسُه، بشَرطِ أن يكونوا مؤمِنينَ، فيختَصُّ ذلك بمَن يتَّصِفُ بالإيمانِ مِن الذُّرِّيَّةِ، وهم البالِغونَ دونَ الصِّغارِ؛ فإنَّهم وإن كانوا لاحِقينَ بآبائِهم فبدليلٍ آخَرَ غيرِ هذه الآيةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٧).

وذهب الواحديُّ، والخازِنُ، والبقاعي، والعُلَيمي إلى شُمولِ الذُّرِّيَّةِ لِمَن أدرَكَ العَمَلَ ومَن لم يُدرِكْه، فتَشمَلُ الصِّغارَ والكِبارَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ١٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢١).

قال الواحدي: (لأنَّ الكِبارَ يَتَّبِعونَ الآباءَ بإيمانٍ منهم، والصِّغارَ يتَّبِعونَ الآباءَ بإيمانٍ مِن الآباءِ، والوَلَدُ يُحكَمُ له بالإسلامِ تَبَعًا لوالِدِه). ((الوسيط)) (٤/ ١٨٦).

وقال مقاتل: (﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ يعني: مَن أدرَكَ العمَلَ مِن أولادِ بني آدمَ المؤمنينَ فعَمِلَ خَيرًا فهم مع آبائِهم في الجنَّةِ، ثمَّ قال: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ يعني: الصِّغارَ الَّذين لم يَبلُغوا العمَلَ مِن أولادِ المؤمِنينَ فهم معهم وأزواجهم في الدَّرجةِ؛ لِتَقَرَّ أعينُهم). ((تفسير =

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان رُبَّما خِيفَ أن يُنقَصَ الآباءُ بسَبَبِ إلحاقِ ذُرِّيَّاتِهم بهم شَيئًا مِن دَرَجاتِهم؛ قال[1]:

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

أي: وما نَقَصْنا الآباءَ مِن أُجورِ أعمالِهم الصَّالِحةِ شَيئًا حينَ جعَلْنا ذُرِّيَّتَهم معهم في الجنَّةِ[2]!

﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ عن مَقامِ الفَضلِ، وهو رَفعُ دَرَجةِ الذُّرِّيَّةِ إلى مَنزِلةِ الآباءِ مِن غَيرِ عمَلٍ يَقتَضي ذلك؛ أخبَرَ عن مَقامِ العَدلِ، وهو أنَّه لا يُؤاخِذُ أحدًا بذَنْبِ أحَدٍ، بل

---

= مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٥).

وقد رجَّح ابنُ القَيِّم وابنُ عثيمين أنَّ المرادَ بالذُّرِّيَّةِ في الآيةِ: الصِّغارُ دونَ الكِبارِ. يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٣٩٦، ٣٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٧).

قال ابنُ القيِّم: (اختلَف المفسِّرون في الذُّرِّيَّةِ في هذه الآيةِ: هل المرادُ بها الصِّغارُ أو الكِبارُ أو النَّوعانِ؟ على ثلاثةِ أقوالٍ، واختِلافُهم مبنيٌّ على أنَّ قَولَه: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حالٌ مِن الذُّرِّيَّةِ والتَّابِعينَ، أو المؤمِنينَ المتبوعينَ... واختِصاصُ الذُّرِّيةِ هاهنا بالصِّغارِ أظهَرُ؛ لئَلَّا يلزَمَ استِواءُ المتأخِّرينَ بالسَّابِقينَ في الدَّرَجاتِ، ولا يلزَمُ مِثلُ هذا في الصِّغارِ؛ فإنَّ أطفالَ كُلِّ رجُلٍ وذُرِّيَّتَه معه في دَرَجتِه. واللهُ أعلَمُ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٣٩٦، ٣٩٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٧)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٧).

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ أي: مُرتَهَنٌ بعَمَلِه، لا يُحمَلُ عليه ذنْبُ غَيرِه مِنَ النَّاسِ، سواءٌ كان أبًا أو ابنًا(١).

وأيضًا لَمَّا كان رُبَّما تَوَهَّمَ مُتَوَهِّمٌ أنَّ أهلَ النَّارِ كذلك يُلحِقُ اللهُ بهم أبناءَهم وذُرِّيَّتَهم؛ أخبَرَ أنَّه ليس حُكمُ الدَّارَينِ حُكمًا واحِدًا؛ فإنَّ النَّارَ دارُ العَدلِ، ومِن عَدلِه تعالى ألَّا يُعَذِّبَ أحدًا إلَّا بذَنْبٍ(٢).

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾.

أي: كُلُّ نفْسٍ تَنالُ جَزاءَها وَفْقَ ما عَمِلَت في الدُّنيا، وكُلُّ إنسانٍ يُعاقَبُ بذُنوبِه، ولا يُؤاخَذُ بذَنْبِ غَيرِه ولو كان مِن أقارِبِه(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

قيل: هذه الآيةُ في المُشرِكينَ، وأمَّا المؤمِنُ فهو غيرُ مَحبوسٍ ولا مُرتَهَنٌ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والخازن، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ١٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٤).

قال السمعاني: (هذا في المُشرِكينَ، ومعناه: أنَّ الكُفَّارَ مَحبوسونَ في النَّارِ بعَمَلِهم، وأمَّا المؤمِنُ فهو غيرُ محبوسٍ ولا مُرتَهَنٍ؛ فإنِ ارتُهِنَ بعَمَلِه فلا بُدَّ أن يَدخُلَ النَّارَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٤).

وقال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ ظاهِرُ هذه الآيةِ الكريمةِ العُمومُ في جميعِ النَّاسِ، وقد بَيَّن تعالى في آياتٍ أُخَرَ أنَّ أصحابَ اليَمينِ خارِجونَ مِن هذا العُموم، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ۝ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [المدثر: ٣٨ - ٤١]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥٤).

وقيل: الآيةُ شامِلةٌ للجَميعِ: المؤمِنِ والكافِرِ. وهو ظاهِرُ اختيارِ البِقاعي، وقال به ابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥، ١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥١). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هذا فَضلُه تعالى على الأبناءِ ببَركةِ عَمَلِ الآباءِ، وأمَّا فَضلُه على الآباءِ ببَرَكةِ دُعاءِ الأبناءِ، فعن أبي هُرَيرةَ رَضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيَرفَعُ الدَّرَجةَ للعَبدِ الصَّالِحِ في الجنَّةِ، فيَقولُ: يا رَبِّ، أنَّى لي هذه؟! فيقولُ: باستِغفارِ وَلَدِك لك))(١).

---

= قال البِقاعي: (﴿كُلُّ امْرِئٍ﴾ أي: مِنَ الَّذين آمَنوا والمتَّقينَ وغَيرِهم ﴿بِمَا كَسَبَ﴾ أي: مِن وَلَدٍ وغَيرِه ﴿رَهِينٌ﴾ أي: مُسابِقٌ ومُخاطِرٌ ومَطلوبٌ، وآخِذٌ شَيئًا بَدَلَ كَسْبِه، ومُوفًّى على قَدرِ ما يَستَحِقُّه، ومُحتَبَسٌ به إن كان عاصِيًا، فمَنْ كان صالحًا كان آخِذًا بسَبَبِ صلاحِ وَلَدِه؛ لأنَّه كَسْبُه، ولا يُؤخَذُ به ذلًّا وهو حَسَنٌ في نَفْسِه؛ لأجْلِ الحُكمِ بإيمانِه سواءٌ كان حقيقةً أو حُكمًا، وكُلُّ حَسَنٍ مُرتَفِعٌ؛ فلذلك يَلتَحِقُ بأبيه، وأمَّا الإساءةُ فقاصِرةٌ على صاحِبِها يُؤخَذُ بها ويُرهَنُ بذَنْبِه، ولا يُؤخَذُ بذَنْبِ غَيرِه، والحاصِلُ أنَّ المعاليَ الَّتي هي كالحياةِ تَفيضُ مِن صاحبِها على غَيرِه فتُحييه، والمساوئَ الَّتي هي كالموتِ لا تتعَدَّى صاحِبَها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٥، ١٦).

وقال ابنُ عاشور: (﴿كُلُّ امْرِئٍ﴾ يَعُمُّ أهلَ الآخرةِ كُلَّهم، وليس المرادُ كُلَّ امرئٍ مِنَ المتَّقينَ خاصَّةً. والمعنى: انتفى إنقاصُنا إيَّاهم شيئًا مِن عَمَلِهم؛ لأنَّ كُلَّ أحَدٍ مَقرونٌ بما كَسَب، ومُرتَهَنٌ عِندَه، والمتَّقون لَمَّا كَسَبوا العَمَلَ الصَّالحَ كان لازِمًا لهم مُقتَرِنًا بهم، لا يُسلَبونَ منه شيئًا، والمرادُ بما كَسَبوا: جزاءُ ما كَسَبوا؛ لأنَّه الَّذي يَقتَرِنُ بصاحِبِ العَمَلِ، وأمَّا نَفْسُ العَمَلِ فقد انقضَى في إبَّانِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٣).

والحديث أخرجه ابنُ ماجه (٣٦٦٠)، وأحمدُ (١٠٦١٠) واللَّفظُ له.

قوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((المهذب)) (٥/ ٢٦٥٠)، وصحَّحه ابنُ كثير في ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤) وقال: (وله شاهدٌ في صحيحِ مسلمٍ)، والبوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٩٨) وقال: (رجالُه ثِقاتٌ)، وحسَّنه العِراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٤١٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط =

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ جُمِعَتِ الجنَّاتُ في الآيةِ لأنَّها أنواعٌ، ذَكَر اللهُ في سورةِ (الرَّحمنِ) أربعةَ أنواعٍ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثمَّ قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] هذه الجِنانُ الأربعُ تختَلِفُ بما جاء في وَصفِها في سورةِ (الرَّحمنِ)[١].

٢- قال اللهُ عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَنَعِيمٍ﴾ مُناسَبةٌ: أنَّ الجَنَة وإن كانت مَوضِعَ السُّرورِ، لكِنَّ النَّاطورَ[٢] قد يكونُ في البُستانِ الَّذي هو غايةُ الطِّيبةِ، وهو غَيرُ مُتنعِّمٍ؛ فقَولُه: ﴿وَنَعِيمٍ﴾ يُفيدُ أنَّهم فيها يَتنَعَّمونَ كما يكونُ المتفرِّجُ لا كما يكونُ النَّاطورُ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ هذه الجُملةُ خَبَريَّةٌ مؤكَّدةٌ بـ «إنَّ»، والتَّوكيدُ أسلوبٌ مِن أساليبِ اللُّغةِ العربيَّةِ، مُستعمَلٌ عندَ العَرَبِ، وهذا القرآنُ نَزَلَ بلُغةِ العَرَبِ، وإلَّا ففي الواقعِ فإنَّ خَبَرَ اللهِ عزَّ وجلَّ لا يَحتاجُ إلى توكيدٍ؛ لأنَّه أصْدَقُ القَولِ، فالرَّبُّ عزَّ وجلَّ إذا أخبَرَ بخبَرٍ فإنَّه لا يحتاجُ إلى أنْ يُؤَكِّدَ؛ لأنَّ خَبَرَ اللهِ صِدْقٌ، لكنْ لَمَّا كان القرآنُ العظيمُ نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ، صار جاريًا على ما كان يَعرِفُه العَرَبُ في لُغتِهم، فهنا أَكَّدَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه الجُملةَ[٤].

---

= في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦/ ٣٥٧)، والحديث حسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٦٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٤).

(٢) النَّاطورُ: حافِظُ الكَرْمِ والنَّخلِ والزَّرعِ، وهي لفظةٌ أعجميَّةٌ، وليسَت بعَرَبيَّةٍ مَحْضةٍ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٤/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ بيانُ أسبابِ التَّنعيمِ على التَّرتيبِ؛ فأوَّلُ ما يكونُ: المَسكَنُ -وهو الجنَّاتُ-، ثمَّ الأكلُ والشُّربُ، ثمَّ الفُرُشُ والبُسُطُ، ثمَّ الأزواجُ، فهذه أمورٌ أربعةٌ ذَكَرها اللهُ على التَّرتيبِ، وذكَرَ في كُلِّ واحدٍ منها ما يدُلُّ على كَمالِه[١].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ في قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ مُناسَبةٌ؛ أنَّ المتنعِّمَ قد تكونُ آثارُ التَّنعُّمِ على ظاهِرِه وقَلبُه مَشغولٌ، فلمَّا قال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ دَلَّ على غايةِ الطِّيبةِ[٢].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فيه أنَّ الفَكِهَ قد يكونُ خَسيسَ النَّفْسِ فيَسُرُّه أدنى شَيءٍ، ويَفرَحُ بأقَلِّ سَبَبٍ؛ فقال: ﴿فَٰكِهِينَ﴾ لا لدُنُوِّ هِمَمِهم، بل لعُلُوِّ نِعَمِهم؛ حيثُ هي مِن عندِ رَبِّهم[٣].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ * فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ فوقاهم مِمَّا يَكرَهونَ، وأعطاهم ما يُحِبُّونَ؛ جَزاءً وِفاقًا؛ لأنَّهم تَرَكوا ما يَكرَهُ، وأَتَوا بما يُحِبُّ؛ فكان جزاؤُهم مُطابِقًا لأعمالِهم[٤]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أنَّ عَمَلَهم في الدُّنيا سَبَبٌ في تمَتُّعِهم بنَعيمِ الجنَّةِ في الآخِرةِ، وجاء في الحديثِ: ((لا يَدخُلُ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعملِه))[٥]، ولا مُعارَضةَ بيْنَ النَّصَّيْنِ؛ إذِ الدُّخولُ بفضلٍ مِن الله،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٣).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦)، وأحمدُ (٧٤٧٩) واللَّفظُ له، مِن حديثِ أبي =

وبعدَ الدُّخولِ يكونُ التَّوارُثُ، وتكونُ الدَّرَجاتُ، ويكونُ التَّمتُّعُ بسببِ الأعمالِ. فكلُّهم يَشترِكون في التَّفضُّلِ مِن الله عليهم بدُخولِ الجنَّةِ، ولكنَّهم بعدَ الدُّخولِ يَتفاوَتون في الدَّرَجاتِ بسببِ الأعمالِ[1].

ويُجابُ أيضًا: بأنَّه لا مُناقَضةَ بيْنَ ما جاء به القرآنُ وما جاءت به السُّنَّةُ؛ إذِ المُثبَتُ في القرآنِ ليس هو المنفيَّ في السُّنَّةِ، والتَّناقُضُ إنَّما يكونُ إذا كان المُثبَتُ هو المَنفيَّ! وذلك أنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٩]، وقال: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٢ - ٢٤]، فبيَّن بهذه النُّصوصِ أنَّ العملَ سببٌ للثَّوابِ، والباءُ للسَّببِ، ولا رَيْبَ أنَّ العملَ الصَّالحَ سببٌ لِدُخولِ الجنَّةِ، واللهُ قدَّر لعبدِه المؤمنِ دُخولَ الجنَّةِ بما يُيَسِّرُه له مِن العملِ الصَّالحِ، كما قدَّر دُخولَ النَّارِ لِمَن يَدخُلُها بعمَلِه السَّيِّئِ.

أمَّا الحديثُ فقد نفى ما قد تَتوَهَّمُه النُّفوسُ مِن أنَّ الجزاءَ مِن الله عزَّ وجلَّ على سبيلِ المُعاوَضةِ والمُقابَلةِ كالمُعاوَضاتِ الَّتي تكونُ بيْنَ النَّاسِ في الدُّنيا[2].

٩- قَولُه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ فِعلُ أمْرٍ، وهذا الأمرُ ليس تكليفًا، وإنَّما الأمرُ هنا للتَّكريمِ، أي: يُقالُ لهم: كُلُوا مِن كلِّ ما في الجنَّةِ مِن النَّعيمِ[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾ إخبارٌ عن دَوامِ ذلك لهم بما

---

= هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٣، ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٤٥- ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٤).

أفهَمَه قَولُه تعالى: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾؛ فإنَّهم لو عَلِموا زَوالَه وانقِطاعَه لَنَغَّصَ عليهم ذلك نَعيمَهم، ولم يكُنْ هناءً لهم[١]!

١١- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ إشارةٌ إلى خُلُوِّهما عمَّا يكونُ فيهما من المفاسِدِ في الدُّنيا:

منها: أنَّ الآكِلَ يخافُ مِنَ المَرَضِ، فلا يَهنَأُ له الطَّعامُ.

ومنها: أنَّه يخافُ النَّفادَ، فلا يَسخُو بالأكلِ. والكُلُّ مُنتَفٍ في الجنَّةِ؛ فلا مَرَضَ، ولا انقِطاعَ؛ فإنَّ كُلَّ أحَدٍ عِندَه ما يَفضُلُ عنه، ولا إثمَ ولا تَعَبَ في تحصيلِه؛ فإنَّ الإنسانَ في الدُّنيا رُبَّما يَترُكُ لَذَّةَ الأكلِ؛ لِما فيه مِن تهيئةِ المأكولِ بالطَّبخِ، والتَّحصيلِ مِنَ التَّعبِ أو المِنَّةِ، أو ما فيه مِن قَضاءِ الحاجةِ واستِقذارِ ما فيه؛ فلا يَتهَنَّأُ، وكُلُّ ذلك في الجنَّةِ مُنتَفٍ[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ شُمولٌ لكُلِّ العَمَلِ: عَمَلِ الجوارحِ، والقَلبِ، واللِّسانِ؛ فعَمَلُ الجوارِحِ: الأفعالُ، كالرُّكوعِ، والسُّجودِ، وعَمَلُ اللِّسانِ: الأقوالُ، كالأذكارِ، وعَمَلُ القلوبُ: كالخَوفِ، والرَّجاءِ، والتَّوكُّلِ، وما أَشبَهَ ذلك؛ فكلُّ هذه تُسَمَّى أعمالًا[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖ﴾ ذكَرَ سُبحانَه وتعالى في السُّرُرِ أُمورًا:

منها: الاتِّكاءُ، فإنَّه هَيئةٌ تختَصُّ بالمُنعَّمِ والفارِغِ الَّذي لا كُلْفةَ عليه، ولا تكَلُّفَ لديه؛ فإنَّ مَن يكونُ عِندَه مَن يَتكَلَّفُ له: يَجلِسُ له، ولا يَتَّكِئُ عِندَه، ومَن

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٦).

يكونُ في مُهِمٍّ: لا يتفرَّغُ للاتِّكاءِ؛ فالهَيئةُ دَليلُ خَيرٍ، والمتكِئُ تدُلُّ هيئتُه على أنَّه في سُرورٍ، وانشراحٍ، وطُمأنينةٍ.

ومنها: الجَمعُ في قَولِه: ﴿سُرُرٍ﴾؛ وذلك لأمْرَينِ: أظهَرُهما: أن يكونَ لكُلِّ واحدٍ سُرُرٌ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ يدُلُّ على أنَّه لواحدٍ؛ لأنَّ سُرُرَ الكُلِّ لا تكونُ في مَوضِعٍ واحِدٍ مُصطَفَّةً.

ومنها: لَفظُ السَّريرِ، فيه حُروفُ السُّرورِ، بخِلافِ التَّخْتِ[1] وغَيرِه.

ومنها: ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ فهي دليلٌ على أنَّه لمجَرَّدِ العِظَمِ؛ فإنَّها لو كانت مُتفرِّقةً لَقيلَ: في كُلِّ مَوضِعٍ واحِدٌ؛ ليتَّكِئَ عليه صاحِبُه إذا حضَرَ في هذا الموضِعِ[2].

١٤- قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ هو نِعمةٌ جَمَع اللهُ بها للمُؤمِنينَ أنواعَ المسَرَّةِ؛ بسَعادتِهم بمُزاوَجةِ الحُورِ، وبمؤانَسةِ الإخوانِ المُؤمِنينَ، وباجتِماعِ أولادِهم ونَسْلِهم بهم؛ وذلك أنَّ في طَبعِ الإنسانِ التَّأنُّسَ بأولادِه، وحُبَّه اتِّصالَهم به[3].

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ ذَكَر مجالِسَهم وهَيئاتِهم فيها، وفي ذِكْرِ اصطِفافِها تَنبيهٌ على كَمالِ النِّعمةِ عليهم بقُرْبِ بَعضِهم مِن بَعضٍ، ومُقابَلةِ بعضِهم بَعضًا، كما قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٦]؛ فإنَّ مِن تمامِ اللَّذَّةِ والنَّعيمِ أنْ يكونَ مع الإنسانِ في بُستانِه ومَنزِلِه مَن يُحِبُّ مُعاشَرتَه، ويُؤْثِرُ قُربَه، ولا يكونُ بعيدًا منه، قد حِيلَ بيْنَه وبيْنَه، بل سريرُه إلى جانِبِ سَريرِ

---

(١) التَّخْتُ: مَكانٌ مُرتفِعٌ للجلوسِ أو للنَّومِ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٩).

مَن يُحِبُّه[١]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ وَصَف اللهُ السُّرُرَ بأنَّها مَصفوفةٌ؛ لِيَدُلَّ ذلك على كَثرتِها، وحُسنِ تَنظيمِها، واجتِماعِ أهلِها، وسُرورِهم بحُسنِ مُعاشَرتِهم، ولُطفِ كَلامِ بَعضِهم لبَعضٍ[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ ذِكرُ أُمورٍ تَدُلُّ على كَمالِ الحالِ:

**أحدُها**: أنَّه تعالى هو المُزَوِّجُ، وهو يَتولَّى الطَّرَفَينِ، يزوِّجُ عِبادَه بإمائِه، ومَن يكونُ كذلك لا يَفعَلُ إلَّا ما فيه راحةُ العبادِ والإماءِ.

**ثانيها**: قال: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ﴾، ولم يَقُل: «وزوَّجناهم حُورًا»، مع أنَّ لفظَ التَّزويجِ يتعَدَّى فِعلُه إلى مفعولينِ بغيرِ حَرفٍ، يقال: «زَوَّجْتُكَها»، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]؛ وذلك إشارةٌ إلى أنَّ المَنفَعةَ في التَّزويجِ لهم، وإنَّما زُوِّجوا لِلَذَّتِهم بالحُورِ، لا لِلَذَّةِ الحُورِ بهم؛ وذلك لأنَّ المفعولَ بغيرِ حَرفٍ يُعَلَّقُ الفِعلُ به، كذلك التَّزويجُ تعَلَّقَ بهم ثمَّ بالحُورِ؛ لأنَّ ذلك بمعنى: جعَلْنا ازْدِواجَهم بهذا الطَّريقِ، وهو الحُورُ[٣].

**ثالِثُها**: عَدَمُ الاقتصارِ على الزَّوجاتِ، بل وصَفَهنَّ بالحُسنِ، واختار الأحسَنَ مِن الأحسَنِ؛ فإنَّ أحسَنَ ما في صورةِ الآدَميِّ وَجهُه، وأحسَنَ ما في الوَجهِ العَينُ[٤].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ تأمَّلْ كيفَ أتَى بالواوِ العاطفةِ في اتِّباعِ الذُّرِّيَّةِ، وجَعَل الخبرَ عن المؤمِنينَ الَّذين هذا شَأنُهم؛

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٣) ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٢٧٤ - ٢٧٥)

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٧).

فجَعَل الخبرَ مُستحَقًّا بأمْرَينِ:

**أحدُهما**: إيمانُ الآباءِ، **والثَّاني**: اتِّباعُ ذُرِّيَّتِهم لهم، وذلك لا يقتضي أنَّ كلَّ مؤمنٍ يَتَّبِعُه كلُّ ذُرِّيَّةٍ له، ولو أُريدَ هذا المعنى لَقيل: «والَّذين آمنوا تَتَّبِعُهم ذرِّيَّاتُهم»، فعَطفُ الاتِّباعِ بـ «الواوِ» يقتضي أنْ يكونَ المعطوفُ بها قَيدًا وشَرطًا في ثُبوتِ الخبَرِ، لا حصولَه لكلِّ أفرادِ المبتدأِ[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ سُؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ مع قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمًا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ الآيةَ [لقمان: ٣٣]؛ فإنَّ هذه الآيةَ تدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ يومَ القيامةِ لا يَنفَعُ فيه والِدٌ وَلَدَه، وأمَّا الآيةُ الشَّاهِدُ فهي تدُلُّ على رَفعِ دَرَجاتِ الأولادِ بسَبَبِ صَلاحِ آبائِهم حتَّى يكونوا في دَرَجةِ الآباءِ، مع أنَّ عَمَلَهم -أي: الأولادِ- لم يُبَلِّغْهم تلك الدَّرَجةَ؛ إقرارًا لعُيونِ الآباءِ بوُجودِ الأبناءِ معهم في مَنازِلِهم من الجَنَّةِ، وذلك نَفعٌ لهم!

**الجوابُ**: وَجهُ الجَمعِ أُشيرَ إليه بالقَيدِ الَّذي في هذه الآيةِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾، وعَيَّنَ فيها النَّفعَ بأنَّ إلحاقَهم بهم في دَرَجاتِهم هو بقَيدِ الإيمانِ، فهي أخَصُّ مِنَ الآيةِ الأُخرى، والأخَصُّ لا يُعارِضُ الأعَمَّ، وعلى قَولِ مَن فَسَّرَ الآيةَ بأنَّ معنى قَولِه: ﴿لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ لا يَقضي عنه حَقًّا لَزِمَه، ولا يَدفَعُ عنه عذابًا حَقَّ عليه؛ فلا إشكالَ في الآيةِ[2].

٢٠- ثَمَّ سُؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ بيْنَ قَولِه تعالى هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ مع قَولِه تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٨٢).

[النجم: ٣٩]؛ فإنَّ هذه الآيةَ الكَريمةَ تدُلُّ على أنَّه لا يَنتَفِعُ أحَدٌ بعَمَلِ غَيرِه، وأمَّا الآيةُ الشَّاهِدُ فهي تدُلُّ على أنَّ بَعضَ النَّاسِ رُبَّما انتفَعَ بعَمَلِ غَيرِه؛ فرَفْعُ دَرَجاتِ الأولادِ -سواءٌ قُلْنا: إنَّهم الكِبارُ أو الصِّغارُ- نَفعٌ حاصِلٌ لهم، وإنَّما حَصَل لهم بعَمَلِ آبائِهم لا بعَمَلِ أنفُسِهم.

**والجوابُ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ آيةَ ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ إنَّما دَلَّت على نَفيِ مِلكِ الإنسانِ لغَيرِ سَعْيِه، ولم تدُلَّ على نَفيِ انتِفاعِه بسَعيِ غَيرِه؛ لأنَّه لم يَقُلْ: «وأنْ لن ينتَفِعَ الإنسانُ إلَّا بما سعى»، وإنَّما قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ ﴾ وبيْنَ الأمرينِ فَرقٌ ظاهِرٌ؛ لأنَّ سَعيَ الغَيرِ مِلكٌ لِساعيه، إنْ شاء بَذَلَه لِغَيرِه فانتَفَع به ذلك الغَيرُ، وإنْ شاء أبقاه لنَفْسِه، وقد أجمَعَ العُلَماءُ على انتِفاعِ المَيِّتِ بالصَّلاةِ عليه، والدُّعاءِ له، والحَجِّ عنه، ونحوِ ذلك مِمَّا ثبت الانتِفاعُ بعَمَلِ الغَيرِ فيه.

**الثَّاني**: أنَّ إيمانَ الذُّرِّيَّةِ هو السَّبَبُ الأكبَرُ في رَفعِ دَرَجاتِهم؛ إذ لو كانوا كُفَّارًا لَما حَصَل لهم ذلك؛ فإيمانُ العبدِ وطاعتُه سَعيٌ منه في انتِفاعِه بعَمَلِ غَيرِه مِنَ المُسلِمينَ، كما وقَعَ في الصَّلاةِ في الجَماعةِ؛ فإنَّ صلاةَ بَعضِهم مع بَعضٍ يَتضاعَفُ بها الأجرُ زيادةً على صَلاتِه مُنفَرِدًا، وتلك المُضاعَفةُ انتِفاعٌ بعَمَلِ الغَيرِ سعَى فيه المصَلِّي بإيمانِه وصلاتِه في الجَماعةِ، وهذا الوَجهُ يُشيرُ إليه قَولُه تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾.

**الثَّالِثُ**: أنَّ السَّعيَ الَّذي حَصَل به رَفعُ دَرَجاتِ الأولادِ ليس للأولادِ، كما هو نَصُّ قَولِه تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، ولكِنَّه مِن سَعيِ الآباءِ؛ فهو سَعيٌ للآباءِ أقَرَّ اللهُ عُيونَهم بسَبَبِه؛ بأنْ رَفَع إليهم أولادَهم لِيَتمتَّعوا في الجنَّةِ برُؤيتِهم، فالآيةُ تُصَدِّقُ الأُخرَى، ولا تُنافيها؛ لأنَّ المقصودَ بالرَّفعِ إكرامُ الآباءِ

لا الأولادِ؛ فانتِفاعُ الأولادِ تَبَعٌ، فهو بالنِّسبةِ إليهم تفَضُّلٌ مِنَ اللهِ تعالى عليهم بما ليس لهم، كما تفَضَّل بذلك على الوِلدانِ، والحُورِ العِينِ، والخَلقِ الَّذين يُنشِئُهم للجَنَّةِ(١).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أنَّ غَيرَ المكلَّفِ قد يُرحَمُ؛ فإنَّ أطفالَ المؤمِنينَ معَ آبائِهم في الجنَّةِ(٢).

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ اللهَ سُبحانَه يُلحِقُ ذُرِّيَّةَ المؤمِنينَ بهم في الجنَّةِ، وأنَّهم يكونونَ معهم في دَرَجتِهم، ومع هذا فلا يُتوهَّمُ نُزولُ الآباءِ إلى دَرَجةِ الذُّرِّيَّةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى لم يَلِتْهم -أي: لم يَنقُصْهم- مِن أعمالِهم مِن شَيءٍ، بل رفَعَ ذُرِّيَّاتِهم إلى دَرَجاتِهم مع توفيرِ أُجورِ الآباءِ عليهم، ولَمَّا كان إلحاقُ الذُّرِّيَّةِ بالآباءِ في الدَّرَجةِ إنَّما هو بحُكمِ التَّبَعيَّةِ لا بالأعمالِ، رُبَّما تَوَهَّم مُتوَهِّمٌ أنَّ ذُرِّيَّةَ الكُفَّارِ يُلحَقونَ بهم في العَذابِ تَبَعًا وإنْ لم يكُنْ لهم أعمالُ الآباءِ، فقَطَع تعالى هذا التَّوَهُّمَ بقَولِه تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾(٣).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ ذَكَر «الإيمانَ»؛ لئلَّا يُتَوَهَّمَ أنَّ الاتِّباعَ هو في نَسَبٍ أو تَربيةٍ، أو حُرِّيَّةٍ أو رِقٍّ، أو غَيرِ ذلك(٤).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ أنَّ مِن تمامِ نَعيمِ أهلِ الجنَّةِ أنْ ألحَقَ اللهُ بهم ذُرِّيَّتَهم الَّذين اتَّبَعوهم بإيمانٍ -أي: الَّذين لَحِقوهم بالإيمانِ الصَّادِرِ مِن آبائِهم -على

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٩٢).

قَولٍ-؛ فصارت الذُّرِّيَّةُ تَبَعًا لهم بالإيمانِ، ومِن بابِ أَولى إذا تَبِعَتهم ذُرِّيَّتُهم بإيمانِهم الصَّادِرِ منهم أنفُسِهم، فهؤلاء المذكورون يُلحِقُهم اللهُ بمنازِلِ آبائِهم في الجنَّةِ وإن لم يَبلُغوها؛ جزاءً لآبائِهم، وزيادةً في ثوابِهم، ومع ذلك لا يَنقُصُ اللهُ سُبحانَه الآباءَ مِن أعمالِهم شَيئًا[١]!

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ﴾ الذُّرِّيَّاتُ هنا تَصدُقُ على الآباءِ وعلى الأبناءِ، وإنَّ المُؤمِنَ إذا كان عَمَلُه أكثَرَ أُلحِقَ به مَن دُونَه في العَمَلِ ابنًا كان أو أبًا، وهو مَنقولٌ عن ابنِ عبَّاسٍ[٢] وغَيرِه[٣].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ على قراءةِ ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ﴾ فيه دَلالةٌ على تَبَعيَّةِ الوَلَدِ الصَّغيرِ لِمَن أسلَمَ مِن أَبَويه أو آبائِه[٤]، فالله تعالى أَتْبَعَ الوَلَدَ الوالِدَينِ في الإيمانِ، ولم يُتْبِعْه أباه في الكُفرِ، وبدليلِ أنَّ مَن أسلَمَ مِنَ الكُفَّارِ حُكِمَ بإسلامِ أولادِه، ومَن ارتَدَّ مِن المُسلِمينَ -والعياذُ باللهِ- لا يُحكَمُ بكُفرِ وَلَدِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٢) يُنظر ما أخرجه عبد الرَّزَّاقِ في ((تفسيره)) (٣/ ٢٤٥) (٣٠٠٩)، وسعيدُ بنُ منصورٍ في ((سننه)) (٧/ ٤٢٨) (٢٠٦٥)، وابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢١/ ٥٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٤٨).

قال ابن العربي بعدَ أن ذكر القراءتَينِ: (القِراءتانِ لِمَعنيَينِ: أمَّا إذا كان «اتَّبَعَتْهُم» على أن يكونَ الفِعلُ لِلذُّرِّيَّةِ فيَقتضي أن يكونَ الذُّرِّيَّةُ مُستَقِلَّةً بنفْسِها، تَعقِلُ الإيمانَ، وتَتلفَّظُ به. وأمَّا إذا كان الفِعلُ واقِعًا بهم مِن الله عزَّ وجلَّ بغيرِ واسِطةِ نِسبةٍ إليهم، فيكونُ ذلك لِمَن كان مِن الصِّغَرِ في حدٍّ لا يَعقِلُ الإسلامَ، ولكنْ جعَلَ اللهُ له حُكمَ أبيه لِفَضلِه في الدُّنيا مِن العِصمةِ والحُرمةِ. فأمَّا إتْباعُ الصَّغيرِ لأبيه في أحكامِ الإسلامِ فلا خِلافَ فيه، وأمَّا تبعيَّتُه لأُمِّه فاختلَف فيه العُلماءُ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٨).

٢٧- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ على صِحَّةِ إسلامِ الصَّبيِّ؛ فإنَّ اللهَ نَسَب الفِعلَ إليهم، فهذا يدُلُّ على أنَّهم عَقَلوه وتكَلَّموا به؛ فاعتَبَره اللهُ، وجَعَل لهم حُكمَ المُسلِمينَ، وقد احتَجَّ جماعةٌ بإسلامِ عليِّ بنِ أبي طالِبٍ صَغيرًا وأبواه كافِرانِ[1].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أنَّه مِن جُملةِ إحسانِه سُبحانَه إلى أهلِ الجنَّةِ أنَّه يَرعى المحسِنَ في المُسيءِ، ولَفظةُ ﴿أَلۡحَقۡنَا﴾ تَقتَضي أنَّ للمُلحَقِ بَعضَ التَّقصيرِ في الأعمالِ[2].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ لطيفةٌ: أنَّه قال سُبحانَه في الدُّنيا: ﴿وَأَتۡبَعۡنَاهُمۡ﴾ على قراءةٍ، وقال في الآخِرةِ: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ﴾؛ وذلك لأنَّ في الدُّنيا لا يُدرِكُ الصَّغيرُ التَّابِعُ مُساواةَ المَتبوعِ، وإنَّما يكونُ هو تَبَعًا والأبُ أصلًا؛ لفَضلِ السَّاعي على غَيرِ السَّاعي.

وأمَّا في الآخِرةِ فإذا أَلحَقَ اللهُ بفَضلِه وَلَدَه به جَعَل له مِنَ الدَّرَجةِ مِثلَ ما لأبيه[3].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أنَّ شَفَقةَ الأُبُوَّةِ كما هي في الدُّنيا مُتوفِّرةٌ كذلك في الآخِرةِ؛ ولهذا طَيَّب اللهُ تعالى قُلوبَ عِبادِه بأنَّه لا يُوَلِّهُهم[4]

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٦٨)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٨).

(٤) الوَلَهُ: ذَهابُ العَقلِ والتَّحَيُّرُ مِن شِدَّةِ الحُزنِ، أو: ذِهابُ العقلِ لِفقْدانِ الحبيبِ، والتَّوْليهُ أنْ يُفَرَّقَ بينَ المرأةِ وولدِها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٤٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٥٦١).

بأولادِهم، بل يَجمَعُ بيْنَهم[١]!

٣١- قال اللهُ عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم﴾ تَطييبٌ لِقَلبِهم، وإزالةُ وَهمِ المتوَهِّمِ أنَّ ثوابَ عَمَلِ الأبِ يُوزَّعُ على الوالِدِ والوَلَدِ، بل للوالِدِ أجْرُ عَمَلِه بفَضلِ السَّعيِ، ولأولادِه مِثلُ ذلك؛ فَضلًا مِنَ اللهِ تعالى ورَحمةً[٢]!

٣٢- قَولُه تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ هذه قاعِدةٌ عامَّةٌ في جميعِ العامِلينَ: أنَّ كلَّ واحدٍ رَهينٌ بعَمَلِه، لا يَنقُصُ منه شَيءٌ، أمَّا الزِّيادةُ فهي فَضلٌ مِن اللهِ تبارك وتعالى على مَن شاء مِن عِبادِه[٣].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ أنَّه لَمَّا كان هذا الإلحاقُ في الثَّوابِ والدَّرَجاتِ فضلًا مِن اللهِ، فرُبَّما وَقَع في الوَهمِ أنَّ إلحاقَ الذُّرِّيَّةِ أيضًا حاصِلٌ لهم في حُكْمِ العَدلِ؛ فلمَّا اكتَسَبوا سيِّئاتٍ أوجَبَتْ عقوبةً كان كلُّ عاملٍ رَهينًا بكَسْبِه لا يَتعلَّقُ بغَيرِه شَيءٌ، فالإلحاقُ المذكورُ إنَّما هو في الفَضلِ والثَّوابِ، لا في العَدلِ والعِقابِ، وهذا نَوعٌ مِن أسرارِ القرآنِ وكُنوزِه الَّتي يَختَصُّ اللهُ بفَهمِها مَن شاء[٤]، فلا يُتَوَهَّمْ أنَّ هذا الاتِّباعَ حاصِلٌ في أهلِ الجنَّةِ وأهلِ النَّارِ، بل هو للمُؤمِنينَ دُونَ الكُفَّارِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بكَسْبِه، وقد يُثيبُه مِن غيرِ كَسْبٍ منه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٥٧).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٩٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ بعْدَ أنْ ذكَرَ حالَ المُكذِّبين وما يُقالُ لهم، فمِن شأْنِ السَّامِعِ أنْ يَتساءَلَ عن حالِ أضْدادِهم، وهمُ الفريقُ الَّذين صدَّقوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما جاء به القرآنُ، وخاصَّةً إذ كان السَّامِعونَ المؤمنينَ، وعادةُ القرآنِ تَعقيبُ الإنذارِ بالتَّبشيرِ وعكْسُه؛ فلَمَّا ذكَرَ حالَ الكُفَّارِ، ذكَرَ حالَ المؤمنينَ؛ ليقَعَ التَّرهيبُ والتَّرغيبُ، وهو إخبارٌ عمَّا يَؤولُ إليه حالُ المؤمنينَ، أُخبِروا بذلك. والجُملةُ مُعترِضةٌ بيْنَ ما قبْلَها وجُملةِ ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾[1] [الطور: ٣٠]. ويَجوزُ أنْ يكونَ مِن جُملةِ القَولِ للكُفَّارِ؛ إذ ذلك زِيادةٌ في غمِّهم، وتَنكيدٌ لهم[2].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به[3].

- وتَنكيرُ ﴿جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، أي: في أيَّةِ جنَّاتٍ وأيِّ نَعيمٍ! بمعْنى الكَمالِ في الصِّفةِ. أوْ في جَنَّاتٍ ونَعيمٍ مَخصوصةٍ بالمُتَّقينَ، خُلِقَتْ لهم خاصَّةً، عَلى أنَّ التَّنكيرَ للتَّنويعِ[4].

- وجُمِعَ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ باعتبارِ جَمْعِ المُتَّقينَ، وهي جَناتٌ كثيرةٌ مُختلِفةٌ[5].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾

- قولُه: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ فيه استِحضارُ الجَلالةِ بوصْفِ ﴿رَبُّهُمْ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ٣٤٧) و (١٧/ ٤٥).

للإشارةِ إلى عَظيمِ ما آتاهُم؛ إذ العَطاءُ يُناسِبُ حالَ المُعْطي. وفي إضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِهم تقْريبٌ لهم وتَعظيمٌ[١].

- قولُه: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ المَقصودُ مِن ذِكرِ هذه الحالةِ: إظهارُ التَّبايُنِ بيْن حالِ المُتَّقينَ وحالِ المُكذِّبين؛ زِيادةً في الامتِنانِ؛ فإنَّ النِّعمةَ تَزدادُ حُسْنَ وقْعٍ في النَّفْسِ عندَ مُلاحَظةِ ضِدِّها[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ إظْهارُ الرَّبِّ في مَوقعِ الإضمارِ مُضافًا إلى ضَميرِهم؛ للتَّشريفِ والتَّعليلِ[٣]، فهو سُبحانَه المتفَضِّلُ بتَربيتِهم بكَفِّهم عن المعاصي والقاذوراتِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ في مَوضعِ الحالِ، تَقديرُه: يُقالُ لهم، أو مَقولًا لهم، وهذا القولُ مُقابِلُ ما يُقالُ للمُكذِّبين: ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦][٥].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ لإفادةِ التَّعميمِ، أي: كُلوا كلَّ ما يُؤكَلُ، واشْرَبوا كلَّ ما يُشرَبُ، وهو عُمومٌ عُرْفيٌّ، أي: ممَّا تَشْتَهونَ[٦]. وأيضًا تُرِك ذِكرُ المأكولِ والمَشروبِ؛ لِتَنوُّعِهما وكَثرتِهما[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

- والباءُ في قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سَببيَّةٌ، و(ما) مَوصولةٌ، أي: بسَببِ العمَلِ الَّذي كُنتُم تَعمَلونه، وهو العمَلُ الصَّالِحُ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالَى في حقِّ الكُفَّارِ: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦]، وقال في حقِّ المؤمنينَ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وبيْن العِبارتَينِ بَونٌ عَظيمٌ مِن وُجوهٍ:

الأوَّلُ: كلمةُ (إنَّما) للحصْرِ، أي: لا تُجْزَون إلَّا ذلك، ولم يَذكُرْ هذا في حقِّ المؤمِنِ؛ فإنَّه يَجْزِيه أضعافَ ما عمِلَ، ويَزِيدُه مِن فضْلِه.

**الثاني**: قال هنا: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾، وقال هناك: ﴿مَا كُنتُمْ﴾، أي: تُجْزَون عَينَ أعمالِكم؛ إشارةً إلى المُبالَغةِ في المماثَلةِ، كما تقولُ: هذا عَينُ ما عمِلْتَ، وقال في حقِّ المؤمنِ: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾، كأنَّ ذلك أمرٌ ثابتٌ مُستحَقٌّ بعمَلِكم هذا.

**الثالث**: ذكَرَ الجزاءَ هناك؛ وقال هاهنا: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّ الجزاءَ يُنبِئُ عن الانقطاعِ؛ فإنَّ مَن أحسَنَ إلى أحدٍ فأتى بجَزائِه، لا يَتوقَّعُ المحسِنُ منه شيئًا آخَرَ(٢).

٤- قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾

- قولُه: ﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ جِيءَ بالباءِ معَ أنَّ التَّزويجَ ممَّا يَتعدَّى إلى مَفعولَينِ؛ لِما في التَّزويجِ مِن معْنى الوصْلِ والإلصاقِ والقرْنِ. أو للسَّببيَّةِ؛ إذِ المعْنى: صيَّرْناهم أزواجًا بسَببِهنَّ؛ فإنَّ الزَّوجيَّةَ لا تَتحقَّقُ بدونِ انْضِمامِهنَّ إليهمْ(٣). وقيل: الباءُ للمُصاحَبةِ، أي: جعَلْنا حورًا عينًا معهم، ولم يُعَدَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٦)، ((تفسير =

فِعلُ (زوجناهم) إلى (بحُورٍ) بنفْسِه على المفعوليَّةِ، كما في قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]؛ لأنَّ (زَوَّجْنا) في هذه الآيةِ ليس بمعنى: أنكَحْناهم؛ إذ ليس المرادُ عقْدَ النِّكاحِ؛ لِنُبُوِّ المرادِ عن هذا المعنى؛ فالتَّزويجُ هنا واردٌ بمعنى جعْلِ الشَّيءِ المفردِ زَوجًا -وذلك على قَولٍ في تَفسيرِها-، وليس الباءُ لتعديةِ فِعلِ (زوَّجْناهم) بتضمينِه معنى: قرَنَّا[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ حالِ طائفةٍ مِن أهْلِ الجنَّةِ إثرَ بَيانِ حالِ الكُلِّ، وهُم الَّذينَ شاركَتْهم ذُرِّيَّتُهم في الإيمانِ[2]. أو اعتِراضٌ بيْن ذِكرِ كَراماتِ المؤمنينَ، والواوُ اعتراضيَّةٌ[3].

- والتَّعبيرُ بالمَوصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لتَكونَ الصِّلةُ إيماءً إلى وجْهَ بِناءِ الخبَرِ الواردِ بعْدَها، أي: إنَّ سَببَ إلْحاقِ ذُرِّيَّاتِهم بهمْ في نَعيمِ الجنَّةِ هو إيمانُهم، وكَونُ الذُّرِّيَّاتِ آمَنوا بسَببِ إيمانِ آبائِهم؛ لأنَّ الآباءَ المؤمنينَ يُلقِّنون أبْناءَهم الإيمانَ[4].

- ولفْظُ ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ الأوَّلُ قُرِئَ بصِيغةِ الإفرادِ، على أنَّه فاعلُ (اتَّبَعَتْهُمْ)، وقُرِئَ أيضًا بصِيغةِ الجمْعِ مَرفوعًا ﴿ذُرِّيَّاتُهُمْ﴾؛ للمُبالَغةِ في كثْرتِهم، والتَّصريحِ؛ فإنَّ الذُّرِّيَّةَ تقَعُ على الواحدِ والكثيرِ، فيكونُ الإنعامُ على آبائِهم بإلْحاقِ

---

= أبي السعود)) (٨/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ذُرِّيَّاتِهم بهمْ، وإنْ لم يَعمَلوا مِثلَ عمَلِهم. وقُرِئَ ﴿ذُرِّيَتَهُمْ﴾ و﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ بالنَّصبِ[1]، على أنَّهما مَفعولَا (أَتْبَعْنَاهُمْ)[2].

- وقولُه: ﴿وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ عطْفٌ على ﴿ءَامَنُواْ﴾، وقيل: إنَّه اعتِراضٌ للتَّعليلِ[3].

- والتَّنكيرُ في قَولِه: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ قيل: إنه للنَّوعيَّةِ، أي: بما يَصدُقُ عليه حَقيقةُ الإيمانِ؛ للإشعارِ بأنَّه يَكْفي للإلحاقِ المُتابَعةُ في أصْلِ الإيمانِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ: إيمانُ الذُّرِّيَّةِ الدَّاني المَحلِّ، كأنَّه قال: بشَيءٍ مِن الإيمانِ لا يُؤهِّلُهم لدَرَجةِ الآباءِ، ألْحَقْناهم بهمْ، فهو إيمانٌ في الجُملةِ قاصرٌ عن رُتْبةِ إيمانِ الآباءِ، والتَّنكيرُ حِينَئذٍ للتَّقليلِ[4]، فالمعنى: بشَيءٍ مِن الإيمانِ لم يَكونوا به أهلًا لدرجةِ آبائِهم، ولكنَّهم لَحِقوا بهم كرامةً للآباءِ، فالمرادُ تقليلُ إيمانِ الذُّرِّيَّةِ، ولكنَّه رفَع درجتَهم، فكيف إذا كان إيمانًا عظيمًا[5]؟!

- وإيثارُ فِعلِ ﴿أَلْحَقْنَا﴾ دونَ أنْ يُقالَ: أدخَلْنا معهم، أو جعَلْنا معهم؛ لعلَّه لِما

---

(١) قولُه تعالى: ﴿ذُرِّيَّتُهُم﴾ قرأه البَصريَّانِ -أبو عَمرٍو ويعقوبُ- وابنُ عامرٍ بألِفٍ على الجَمعِ، وقرأ الباقون بغيرِ ألِفٍ على التَّوحيدِ، وكسَرَ التَّاءَ أبو عَمرٍو وحْدَه، وضمَّها الباقونَ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٩).

ويُنظر ما تقدَّم في القراءات ذات الأثر في التَّفسير (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٨، ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٨، ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٢).

في مَعْنى الإلحاقِ مِن الصَّلاحيةِ للفَورِ والتَّأخيرِ؛ فقدْ يكونُ ذلك الإلحاقُ بعْدَ إجراءِ عِقابٍ على بَعضِ الذُّرِّيَّةِ استَحقُّوه بسَيِّئاتِهم على ما في الأعمالِ مِن تَفاوتٍ في استحقاقِ العِقابِ، واللهُ أعلَمُ بمُرادِه مِن عِبادِه. وأيضًا ففِعلُ الإلحاقِ يَقْتضي أنَّ الذُّرِّيَّاتِ صاروا في دَرَجاتِ آبائِهم(١).

- قولُه: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾، أي: وما نقَصْناهم، والمعْنى: أنَّ اللهَ ألْحَقَ بهم ذُرِّيَّاتِهم في الدَّرَجةِ في الجنَّةِ فضْلًا منه على الَّذين آمَنوا دُونَ عِوَضٍ؛ احتِراسًا مِن أنْ يَحسَبوا أنَّ إلْحاقَ ذُرِّيَّاتِهم بهمْ بعْدَ عطاءِ نَصيبٍ مِن حَسناتِهم لذُرِّيَّاتِهم ليَدخُلوا به الجنَّةَ، على ما هو مُتعارَفٌ عِندَهم في فكِّ الأسيرِ، وحَمالةِ الدِّيَاتِ، وخَلاصِ الغارِمينَ، وعلى ما هو مَعروفٌ في الانتِصافِ مِن المظلومِ للظَّالِمِ بالأخْذِ مِن حَسَناتِه وإعطائِها للمَظلومِ، وهو كِنايةٌ عن عَدَمِ انتقاصِ حُظوظِهم مِن الجَزاءِ على الأعمالِ الصَّالحةِ(٢).

- و﴿مِّنْ عَمَلِهِم﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم﴾، و(مِن) للتَّبعيضِ، و(مِن) الَّتي في قولِه: ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ لتَوكيدِ النفْيِ، وإفادةِ الإحاطةِ والشُّمولِ للنَّكرةِ(٣).

- قولُه: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم﴾ وبيْن جُملةِ ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ [الطور: ٢٢]؛ قيل: قُصِدَ منها تَعليلُ الجُملةِ الَّتي قبْلَها، وهي بما فيها مِن العُمومِ صالِحةٌ للتَّذييلِ مع التَّعليلِ(٤).

- وفي هذا التَّعليلِ كِنايتانِ؛ إحْداهما: أنَّ أهْلَ الكفْرِ مَقرونونَ بجَزاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٠، ٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أعمالِهم. وثانيَتُهما: أنَّ ذُرِّيَّاتِ المؤمنينَ الَّذين أُلْحِقوا بآبائِهم في النَّعيمِ، أُلْحِقوا بالجنَّةِ كَرامةً لآبائِهم، ولولا تلك الكرامةُ لَكانت مُعاملتُهم على حسَبِ أعمالِهم، وبهذا كان لهذه الجُملةِ هنا وقْعٌ أشدُّ حُسْنًا ممَّا سِواهُ، مع أنَّها صارتْ مِن حُسْنِ التَّتميمِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥١).

## الآيات (٢٢-٢٨)

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾
۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾
إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾: أي: يَتعاطَونَ ويَتداوَلون؛ هذا يأخُذُ مِن يَدِ هذا، وهذا يأخُذُ مِن يَدِ هذا، كالشَّيءِ المُتنازَعِ فيه، وأصلُه مِن نَزْعِ الدَّلوِ مِنَ البِئرِ عندَ الاستِقاءِ؛ فإنَّ النَّاسَ كانوا إذا وَرَدوا للاستِقاءِ نَزَع أحَدُهم دَلوًا مِنَ الماءِ، ثمَّ ناوَلَ الدَّلْوَ لِمَن حَوْلَه[1].

﴿لَغْوٌ﴾: أي: باطِلٌ مِن القَولِ يَصدُرُ عن خَلَلِ العَقلِ، وأصلُه يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[2].

﴿تَأْثِيمٌ﴾: أي: ما يُؤَثِّمُهم مِن فِعلٍ أو قَولٍ، مِثلُ الضَّربِ والشَّتمِ وغَيرِهما، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على بُطءٍ وتأخُّرٍ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، مُتأخِّرٌ عنه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٤٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٤).

﴿مَّكْنُونٌ﴾: أي: مَصونٌ مَستورٌ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ أو صَونٍ[١].

﴿مُشْفِقِينَ﴾: أي: خائِفينَ حَذِرينَ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿فَمَنَّ﴾: أي: أنْعَمَ، وصنَع الصُّنعَ الجَميلَ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على اصطِناعِ الخَيرِ[٣].

﴿ٱلسَّمُومِ﴾: أي: النَّارِ الحارَّةِ، وأصلُه اسمُ الرِّيحِ الَّتي تَهُبُّ مِن جِهةٍ حارَّةٍ جِدًّا، فتكونُ جافَّةً شَديدةَ الحرارةِ؛ سُمِّيت سَمومًا لدُخولِها بلُطفٍ في مَسامِّ البَدَنِ[٤].

﴿ٱلْبَرُّ﴾: أي: اللَّطيفُ الواسِعُ الفَضلِ، الصَّادقُ فيما وعَدَ، وأصلُ (برر) هنا: يدُلُّ على الصِّدقِ والسَّعةِ؛ فأمَّا الصِّدقُ فمِنْه قولُهم: صدَقَ فُلانٌ وبَرَّ، وبرَّتْ يَمينُه: صدَقَت، وأمَّا السَّعةُ فهو مِن البَرِّ الَّذي هو خِلافُ البَحرِ، وتُصُوِّرَ منه التَّوسُّعُ، فاشتُقَّ منه البِرُّ، أي: التَّوسُّعُ في فِعلِ الخَيرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٢٦٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦، ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٦٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

(٥) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧، ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١).

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا آخَرَ مِن مَظاهرِ فِضلِه على عبادِه المؤمنينَ، فيقولُ: وأمدَدْنا المؤمِنينَ في الجنَّةِ بفاكِهةٍ ولَحمٍ مِمَّا يَشتَهونَه، ويَتعاطَونَ في الجنَّةِ كأسًا مملوءةً بالخَمرِ، لا يَهذُونَ بكَلامٍ لا فائدةَ منه بسببِها، ولا يأثَمُ شارِبُها بِشُرْبِها ولا يُؤثِّمُه أحدٌ، ولا يحْمِلُه شُرْبُها على أنْ يَفعلَ إثْمًا بخِلافِ خَمْرِ الدُّنيا، ويَطوفُ عليهم غِلمانٌ لخِدمتِهم؛ فُهم لنَظافتِهم ونَضارتِهم مِثلُ اللُّؤلؤِ المصُونِ في صَدَفِه!

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن حَديثِهم في الجنَّةِ، فيقولُ: وأقبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ يَتحادَثونَ في أحوالِهم الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا، فقال بَعضُهم لِبَعضٍ: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا خائِفينَ مِن عَذابِ اللهِ تعالى يومَ القِيامةِ، فمَنَّ اللهُ علينا بفَضلِه فنجَّانا مِن عَذابِ النَّارِ؛ إنَّا كُنَّا في الدُّنيا نَدعوه تعالى وحْدَه، إنَّه تعالى هو اللَّطيفُ بعبادِه، الواسِعُ الإحسانِ، الرَّحيمُ بهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَمَدَّنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ٢٢﴾.

أي: وزِدْنا المؤمِنينَ في الجنَّةِ مِن فَضْلِنا، فأعطَيْناهم فاكِهةً ولَحمًا مِمَّا يَشتَهونَه ويَستَلِذُّونَه[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [الواقعة: ٢٠، ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٢).

قال القرطبي: (أي: أكثَرْنا لهم مِن ذلك؛ زيادةً مِنَ اللهِ، أمدَّهم بها غيرَ الَّذي كان لهم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٨).

وقال سبحانَه: ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ۝ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣].

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ٢٣﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا النَّعيمُ العَظيمُ المُقيمُ يدعو إلى المعاشَرةِ بالقَرينةِ العاطِرةِ؛ بَيَّنَ أنَّ ذلك حالُهم اللَّازِمةُ الظَّاهِرةُ مِن الخِصالِ اللَّائِقةِ الطَّاهِرةِ؛ فقال[1]:

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾.

أي: يَتعاطَونَ فيها كأسَ الشَّرابِ المملوءةَ بالخَمرِ[2].

﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٤، ٤٥٥).

قيل: المعنى: يَتعاطَونَ فيها كأسًا، يأخُذُها بعضُهم مِن بَعضٍ للشُّربِ، ويَتداوَلونَها بيْنَهم. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ -في ظاهرِ اختيارِهما-، والماتُريديُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٣)، ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٤٠٦)، ((تفسير النسفي)).

قال البقاعي: (﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ أي: يَشرَبونَ مُتجاذِبينَ مُجاذَبةَ الملاعَبةِ؛ لِفَرطِ المحبَّةِ والسُّرورِ، وتَحلِيةِ المُصاحَبةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٨).

وقال ابن عاشور: (الكأس... يجوزُ أن يكونَ هنا مرادًا به الإناءُ المعروفُ، ومرادًا به الجنسُ... وليس المرادُ أنَّهم يَشرَبونَ في كأسٍ واحدةٍ، يأخُذُ أحَدُهم مِن آخَرَ كأسَه، ويجوزُ أن يُرادَ بالكأسِ الخمرُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٣).

وقال السعدي: (﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ أي: تدورُ كاساتُ الرَّحيقِ والخمرِ عليهم، ويتعاطَوْنها فيما بيْنَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان في خَمرِ الدُّنيا غوائِلُ؛ نفاها عنها؛ فقال[١]:

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾.

أي: لا يَقَعُ منهم بسَبَبِ الشُّربِ هَذَيانٌ وكَلامٌ لا فائِدةَ منه، ولا يأثَمُ شارِبُها بِشُرْبِها، ولا يُؤثِّمُه أحدٌ، ولا يحْمِلُه شُرْبُها على أنْ يَفعلَ إثْمًا، بخِلافِ خَمْرِ الدُّنيا[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٨، ٦٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٨).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: أنَّهم لا يأثَمونَ في شُربِها: السمرقنديُّ، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٢٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّه لا يكونُ منهم ما يُؤَثِّمُهم: ابنُ قُتَيبةَ، وابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبغوي، والزمخشري. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١١).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٤).

وقال ابنُ عطية: (والتَّأثيمُ: يَلحَقُ خَمرَ الدُّنيا في نفْسِ شُربِها، وفي الأفعالِ الَّتي تكونُ مِن شَرابِها، وذلك كُلُّه مرتفِعٌ في الآخرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٠).

وقال ابنُ القيِّم: (فنَفى باللَّغوِ السِّبابَ والتَّخاصُمَ، والهُجْرَ والفُحْشَ في المقالِ، والعَرْبدةَ، ونفى بالتَّأثيم جَميعَ الصِّفاتِ المذمومةِ الَّتي أثَّمَت شارِبَ الخَمرِ، وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾، ولم يَقُلْ: ولا إثمٌ، أي: ليس فيها ما يَحمِلُهم على الإثمِ، ولا يُؤَثِّمُ بَعضُهم بَعضًا بشُربِها، ولا يؤثِّمُهم اللهُ بذلك ولا الملائِكةُ، فلا يَلْغُونَ ولا يَأثَمونَ. قال ابنُ قُتيْبةَ: لا تَذهَبُ بعُقولِهم فيَلْغُوا، ولم يَقَعْ منهم ما يُؤَثِّمُهم). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٧٧).

وقال الشنقيطي: (واللَّغْوُ: كُلُّ كلامٍ ساقِطٍ لا خيرَ فيه، فخَمرُ الآخرةِ لا تَحمِلُ شارِبيها على =

قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٥ - ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا * لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٤، ٣٥].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت المُعاطاةُ لا يَكمُلُ بَسطُها ولا يَعظُمُ إلَّا بخَدَمٍ وسُقاةٍ؛ قال[1]:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ويَطوفُ على المُؤمِنينَ في الجنَّةِ غِلمانٌ لِخدمتِهم، وهم في حُسْنِهم وبياضِهم، وصَفائِهم وبهائِهم ونظافتِهم: مِثلُ اللُّؤلؤِ المصُونِ في صَدَفِه[2].

---

= الكَلامِ الخَبيثِ والهَذَيانِ؛ لأنَّها لا تُؤَثِّرُ في عُقولِهم، بخِلافِ خَمرِ الدُّنيا؛ فإنَّهم إن يَشرَبوها سَكِروا، وطاشت عُقولُهم، فتكَلَّموا بالكلامِ الخبيثِ والهَذَيانِ، وكُلُّ ذلك من اللَّغوِ.

والتأثيمُ: هو ما يُنسَبُ به فاعِلُه إلى الإثمِ، فخَمرُ الآخرةِ لا يأثَمُ شارِبُها بشُربِها؛ لأنَّها مباحةٌ له، فيَنعَمُ بلذَّتِها، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [محمد: ١٥]، ولا تحمِلُ شارِبَها على أن يَفعَلَ إثمًا، بخِلافِ خَمرِ الدُّنيا؛ فشارِبُها يأثَمُ بشُربِها، ويَحمِلُه السُّكْرُ على الوُقوعِ في المحَرَّماتِ؛ كالقَتلِ والزِّنا والقَذفِ. ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٥٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٦٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٥).

قال ابنُ القيِّم: (الأشبَهُ أنَّ هؤلاءِ الوِلدانَ مخلوقونَ مِن الجنَّةِ -كالحُورِ العِينِ- خَدَمًا لهم وغِلْمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾، وهؤلاءِ غيرُ أولادِهم؛ فإنَّ مِن تمامِ كَرامةِ اللهِ تعالى لهم أن يجعَلَ أولادَهم مخدومينَ معهم، ولا يَجعَلَهم غِلمانًا لهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٦).

كما قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة: ١٧ - ٢١].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وأقبَلَ بَعضُ أهلِ الجنَّةِ على بَعضٍ يتحادَثونَ فيما بَيْنَهم، ويَتساءَلونَ عن أحوالِهم الَّتي كانوا عليها في الدُّنيا[١].

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: قال بَعضُهم لِبَعضٍ: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا بيْنَ أهلِنا خائِفينَ وحَذِرينَ مِن عَذابِ اللهِ يومَ القيامةِ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧].

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: فمَنَّ اللهُ علينا بفَضلِه فهَدانا، ونجَّانا مِن عَذابِ النَّارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧). =

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَروا إشفاقَهم بَيَّنوه مُؤَكِّدينَ أيضًا لِمِثْلِ ذلك، بقَولِهم[1]:

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ﴾.

أي: إنَّا كُنَّا في الدُّنيا نَدعو اللهَ تعالى وَحْدَه دعاءَ عبادةٍ ودعاءَ مسألةٍ، ونتضَرَّعُ إليه؛ فأجاب دُعاءَنا فوَقانا عذابَ السَّمومِ، وأدخَلَنا دارَ النَّعيمِ[2].

---

= قال القرطبي: (قال الحَسَنُ: السَّمُومُ: اسمٌ مِن أسماءِ النَّارِ، وطَبَقةٌ مِن طِباقِ جَهنَّمَ. وقيل: هو النَّارُ، كما تقولُ: جهنَّمُ. وقيل: نارُ عذابِ السَّمومِ. والسَّمُومُ: الرِّيحُ الحارَّةُ، تُؤَنَّثُ، يُقالُ منه: سُمَّ يَومُنا فهو مَسمومٌ، والجمعُ سمائِمُ. قال أبو عُبَيدةَ: السَّمومُ بالنَّهارِ، وقد تكونُ باللَّيلِ، والحَرورُ باللَّيلِ، وقد تكونُ بالنَّهارِ، وقد تُستعمَلُ السَّمُومُ في لَفحِ البَردِ، وهو في لَفحِ الحَرِّ والشَّمسِ أكثَرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٨).

ممَّن نصَّ على أنَّ عذابَ السَّمومِ أي عذابُ النَّارِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، الخازن، والعُلَيمي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٨).

قال العُلَيمي: (﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ اسمٌ من أسماءِ جَهنَّمَ، والسَّمُومُ: الحارُّ الَّذي يَبلُغُ مَسامَّ الإنسانِ، وهو النَّارُ في هذه الآيةِ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٤).

وقال البِقاعي: (﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ أي: الحَرِّ النَّافِذِ في المسامِّ نُفوذَ السُّمِّ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (﴿ٱلسَّمُومِ﴾ بفَتحِ السِّينِ، أصلُه اسمُ الرِّيحِ الَّتي تهُبُّ مِن جِهةٍ حارَّةٍ جِدًّا، فتكونُ جافَّةً شَديدةَ الحرارةِ، وهي معروفةٌ في بلاد العَرَبِ، تُهلِكُ منَ يَتنشَّقُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((مجموع الفتاوى)) =

كما قال تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

---

= لابن تيمية (١٥/ ١٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥، ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٨).

قال السمعاني: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أي: نُوَحِّدُه ونَعبُدُه، والدُّعاءُ هاهنا بمعنى التَّوحيدِ، وعليه أكثَرُ المفسِّرينَ. ويُقالُ: إنَّه الدُّعاءُ المعروفُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٥).

وذهب ابنُ تيميَّةَ وابنُ القيِّمِ إلى أنَّ المرادَ دعاءُ العبادةِ المُتضَمِّنُ للسُّؤالِ رَغبةً ورَهبةً. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ١٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥).

قال ابن القيِّم: (أمَّا قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ فهذا دعاءُ العبادةِ المُتضَمِّنُ للسُّؤالِ رَغبةً ورَهبةً، والمعنى: إنَّا كنَّا مِن قبْلُ نُخلِصُ له العبادةَ، وبهذا استحَقُّوا أنْ وقاهم عذابَ السَّمومِ، لا بمُجرَّدِ السُّؤالِ المُشتركِ بيْن النَّاجي وغيرِه؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه يَسألُه مَن في السَّمواتِ ومَن في الأرضِ، والفوزُ والنَّجاةُ إنَّما هي بإخلاصِ العبادةِ، لا بمُجرَّدِ السُّؤالِ والطَّلبِ). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٥).

وذهب السعديُّ وابنُ عثيمين إلى أنَّ قولَه: ﴿نَدْعُوهُ﴾ شاملٌ لِدُعاءِ العبادةِ، ودعاءِ المسألةِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٩).

قال ابن عثيمين: (قولُهم: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ يَشملَ دعاءَ العبادةِ؛ كالصَّلاةِ، والصَّدقةِ، والصِّيامِ، والحجِّ، وبرِّ الوالِدَينِ، وصِلةِ الأرحامِ، كلُّ هذا دعاءٌ، وإن كان هو عبادةً، فلو سألْتَ الدَّاعيَ: لماذا تَعبُدُ اللهَ، ولو سألْتَ العابدَ: لماذا تَعبُدُ اللهَ؟ لَقال: أرجو رحمتَه، وأخافُ عذابَه، فتَكونُ هذه العِبادةُ بمعنَى الدُّعاءِ. كذلك نَدْعوه دعاءَ مسألةٍ، لا يَسألونَ غيرَ الله، ولا يَلجَؤونَ إلَّا إلى الله؛ لأنَّهم يَعلَمون أنَّهم مُفتَقِرونَ إليه، وأنَّه هو القادرُ على كلِّ شَيءٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٩).

وقال السعدي: (﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ أنْ يَقِيَنا عذابَ السَّمُومِ، ويُوصِلَنا إلى النَّعيمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ المرادَ: نَبْتَهِلُ إليه في أُمورِنا، ويَدخُلُ في ذلك الدُّعاءُ لأنفُسِهم ولذُرِّيَّاتِهم بالنَّجاةِ مِن النَّارِ، وبنوالِ نعيمِ الجنَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

وقال سُبحانَه: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

أنَّهم عَلَّلوا دُعاءَهم إيَّاه تعالى مُؤكِّدينَ؛ لأنَّ إنعامَه عليهم مع تَقصيرِهم مِمَّا لا يكادُ يَفعَلُه غَيرُه سُبحانَه؛ فهو مِمَّا يُعجَبُ منه غايةَ العَجَبِ؛ فقالوا[1]:

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى هو اللَّطيفُ بعبادِه، الواسِعُ الإحسانِ، البالِغُ الرَّحمةِ بهم[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ كمالُ أدبِ أهلِ الجنَّةِ؛ في أنَّهم عندَ المحادَثةِ يُقبِلُ بعضُهم على بعضٍ، وهذا مِن كمالِ الأدبِ: أنْ تُقبِلَ إلى مُحَدِّثِك[3]!

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴾ ذكَرَ جَلَّ وعلا هنا أنَّ الإشفاقَ مِن عَذابِ اللهِ: مِن أسبابِ دُخولِ الجنَّةِ، والنَّجاةِ مِن العَذابِ يومَ القيامةِ، كما دَلَّ عليه مَنطوقُ هذه الآيةِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزَّجَّاج (ص: ٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٢٢).

وقال تعالى في (المعارِج): ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ [المعارج: ٢٧، ٢٨] إلى قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥]، وذكَرَ ذلك مِن صِفاتِ أهلِ الجنَّةِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧] إلى قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١]، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1] [الواقعة: ١٠ - ١٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ﴾ أنَّه لَمَّا كان هذا الكلامُ في دارِ الحقيقةِ لا يَصدُرُ إلَّا عن إلْهامٍ ومَعرِفةٍ، كان دليلًا على أنَّ دُعاءَ الصَّالِحينَ لأبنائِهم وذُرِّيَّاتِهم مَرجُوُّ الإجابةِ -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، كما دَلَّ على إجابةِ دُعاءِ الصَّالحينَ مِنَ الأبناءِ لآبائِهم على ذلك؛ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا مات الإنسانُ انقطَعَ عنه عَمَلُه إلَّا مِن ثَلاثةٍ))، فذكَرَ: ((أو ولَدٌ صالحٌ يدعو له))[2].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ﴾ أي: أنَّه وَحْدَه الواسِعُ الجُودِ، الَّذي عَطاؤُه حِكمةٌ، ومَنْعُه رَحمةٌ؛ لأنَّه لا يَنقُصُه إعطاءٌ، ولا يَزيدُه مَنعٌ؛ فهو يَبَرُّ عَبْدَه المُؤمِنَ بما يُوافِقُ نفْسَه؛ فرُبَّما بَرَّه بالنِّعمةِ، ورُبَّما بَرَّه بالبُؤسِ، فهو يختارُ له مِنَ الأحوالِ ما هو خيرٌ له؛ لِيُوسِّعَ له في العُقبى؛ فعلى المؤمِنِ ألَّا يتَّهِمَ رَبَّه في شَيءٍ مِن قَضائِه، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ المُكرِمُ لِمَن أراد مِن عبادِه بإقامتِه فيما يَرضاه مِن طاعتِه، ثمَّ بإفضالِه عليه وإن قَصَّرَ في خِدمتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

والحديث أخرجه مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم﴾ لطيفةٌ: وهي أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، ونَفيُ النُّقصانِ يَصدُقُ بحُصولِ المُساوِي؛ فقال: ليس عَدَمُ النُّقصانِ بالاقتِصارِ على المُساوي، بل بطريقٍ آخَرَ، وهو الزِّيادةُ والإمدادُ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أنَّه ليس فيه شَيءٌ منه مِمَّا لا يُعجِبُهم غايةَ الإعجابِ(٢)!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أنَّه ليس في الجنَّةِ كَلامٌ لَغْوٌ: وهو الَّذي لا فائِدةَ فيه، ولا تأثيمٌ: وهو الَّذي فيه إثمٌ ومَعصيةٌ؛ وإذا انتفَى الأمْرانِ ثَبَت الأمرُ الثَّالِثُ، وهو أنَّ كَلامَهم فيها سلامٌ طَيِّبٌ طاهِرٌ، مُسِرٌّ للنُّفوسِ، مُفرِحٌ للقُلوبِ، يَتعاشَرونَ أحسَنَ عِشرةٍ، ويَتنادَمونَ أطيَبَ المُنادَمةِ، ولا يَسمَعونَ مِن رَبِّهم إلَّا ما يُقِرُّ أعيُنَهم، ويدُلُّ على رِضاه عنهم، ومحبَّتِه لهم(٣).

٤- قَولُه تعالى: ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: مِلْكُهم؛ إعلامًا لهم بقُدرتِهم على التَّصَرُّفِ فيهم بالأمرِ والنَّهيِ والاستِخدامِ، وهذا هو المشهورُ، ويحتَمِلُ وَجهًا آخَرَ: وهو أنَّه تعالى لَمَّا بَيَّن امتيازَ خَمرِ الآخرةِ عن خَمرِ الدُّنيا؛ بيَّنَ امتيازَ غِلمانِ الآخِرةِ عن غِلمانِ الدُّنيا؛ فإنَّ الغِلْمانَ في الدُّنيا إذا طافُوا على السَّادةِ الملوكِ يَطوفونَ عليهم لحَظِّ أنفُسِهم؛ إمَّا لتوَقُّعِ النَّفعِ، أو لتوَقُّرِ الصَّفحِ، وأمَّا في الآخِرةِ فطَوفُهم عليهم مُتمَحِّضٌ لهم ولِنَفعِهم، ولا حاجةَ لهم إليهم(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ لم يُضِفْهم؛ لئَلَّا يُظَنَّ أنَّهم الَّذين كانوا يَخدُمونَهم في الدُّنيا، فيُشفِقَ كُلُّ مَن خَدَم أحَدًا في الدُّنيا بقَولٍ أو فِعلٍ أن يكونَ خادِمًا له في الجنَّةِ، فيَحزَنَ بكَونِه لا يزالُ تابِعًا، وأفاد التَّنكيرُ أنَّ كُلَّ مَن دَخَل الجنَّةَ وَجَد له خَدَمًا لم يَعرِفْهم قبْلَ ذلك[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أنَّه إذا كان هذا حالَ الخادِمِ، فما ظَنُّك بالمَخدومِ[٢]؟!

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ وصَف تعالى خَدَمَهم الطَّائِفينَ عليهم بأنَّهم كاللُّؤلُؤِ في بياضِهم، والمَكْنونُ: المَصونُ الَّذي لا تُدَنِّسُه الأيدي؛ فلم تُذهِبِ الخِدمةُ تلك المحاسِنَ، وذلك اللَّونَ والصَّفاءَ والبَهجةَ، بل مع انتِصابِهم لخِدمتِهم كأنَّهم لُؤلؤٌ مَكْنونٌ، ووصَفهم في مَوضِعٍ آخَرَ، فقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]؛ ففي ذِكرِه المنثورَ إشارةٌ إلى تفرُّقِهم في حوائِجِ ساداتِهم وخِدمتِهم، وذَهابِهم ومَجيئِهم، وسَعةِ المكانِ بحيث لا يحتاجُونَ أن يَنضَمَّ بَعضُهم إلى بَعضٍ فيه لضِيقِه[٣]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم يَعلَمونَ ما جرى عليهم في الدُّنيا ويَذكُرونَه، وكذلك الكافِرُ لا يَنسى ما كان له مِنَ النَّعيمِ في الدُّنيا؛ فتَزدادُ لذَّةُ المؤمِنِ؛ مِن حيثُ يرَى نفْسَه انتقَلَت مِنَ السِّجنِ إلى الجنَّةِ، ومِنَ الضِّيقِ إلى السَّعةِ، ويَزدادُ الكافِرُ ألَمًا؛ حيثُ يرَى نفْسَه مُنتقِلةً مِنَ الشَّرَفِ إلى التَّلَفِ، ومِنَ النَّعيمِ إلى الجَحيمِ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨). ويُنظر ما سيأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٢).

٩- قولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ * فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ فيه أنَّ الإشفاقَ الَّذي هو الخَوفُ الشَّديدُ مِن عَذابِ اللهِ في دارِ الدُّنيا سَبَبٌ للسَّلامةِ منه في الآخِرةِ، يُفهَمُ مِن دَليلِ خِطابِه -أي: مَفهومِ مُخالَفتِه-: أنَّ مَن لم يَخَفْ مِن عذابِ اللهِ في الدُّنيا لم يَنْجُ منه في الآخِرةِ، وما تضَمَّنَتْه هذه الآيةُ الكريمةُ بمَنطوقِها ومَفهومِها جاء مُوضَّحًا في غيرِ هذا الموضِعِ؛ مِن ذلك ما ذكَرَه اللهُ تعالى مِن أنَّ السُّرورَ في الدُّنيا وعَدَمَ الخَوفِ مِنَ اللهِ تعالى سَبَبُ العذابِ يومَ القيامةِ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ * فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا * وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا * إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا * إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾[1] [الانشقاق: ١٠ - ١٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أنَّه لم يَقُلْ: «مِن قَبْلُ» كما في قَولِه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ﴾، فقد أسقَطَ الجارَّ «مِنْ»؛ إشارةً إلى دوامِ خَوفِهم؛ تنبيهًا على أنَّ الخوفَ الحامِلَ على الكَفِّ عن المعاصي يُشتَرَطُ فيه الدَّوامُ، بخِلافِ الرَّجاءِ الحامِلِ على الطَّاعاتِ؛ فإنَّه يكفي فيه ما تَيسَّرَ، كما أشار إليه إثباتُ الجارِّ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ﴾. وفي هذا الإثباتِ للجارِّ هنا ﴿مِن قَبۡلُ﴾ مع إسقاطِه فيما قَبْلَه إشارةٌ إلى أنَّ التَّحلِّيَ بالفضائِلِ يُرضَى منه باليَسيرِ، والتَّخَلِّيَ عن الرَّذائِلِ لا بُدَّ فيه مِن البراءةِ عن كُلِّ قليلٍ وكثيرٍ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ * يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩، ٢٠).

- قولُه: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ خُصَّ الفاكهةُ واللَّحمُ تَمهيدًا لقولِه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾، منَحهم اللهُ في الآخرةِ لذَّةَ نشْوةِ الخمْرِ والمُنادَمةِ على شُرْبِها؛ لأنَّها مِن أحسَنِ اللَّذَّاتِ فيما ألِفَتْه نُفوسُهم، وكان أهلُ التَّرَفِ في الدُّنيا إذا شَربوا الخمْرَ كَسَروا سَورةَ حِدَّتِها في البطْنِ بالشِّواءِ مِن اللَّحمِ؛ ولذلك جِيءَ بقولِه: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ﴾ حالًا مِن ضَميرِ الغائبِ في ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ ...﴾ إلخ[1]. وأيضًا اختار مِنَ المأكولِ أرفَعَ الأنواعِ، وهو الفاكِهةُ واللَّحمُ؛ فإنَّهما طَعامُ المُتنعِّمينَ[2].

- وجُملةُ ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ صِفةً لكأْس، وضَميرُ ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ عائدًا إلى (كأْس)، ووصْفُ الكأْسِ بـ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ إنْ فُهِمَ الكأْسُ بمعْنى الإناءِ المعْروفِ، فهو على تَقديرِ: لا لَغْوٌ ولا تأْثيمٌ يُصاحِبُها؛ فإنَّ (في) للظَّرفيَّةِ الَّتي تُؤَوَّلُ بالمُلابَسةِ، أو تُؤَوَّلُ (في) بمعْنى التَّعليلِ. وإنْ فُهِمَ الكأْسُ مُرادًا به الخمْرُ، كانتْ (في) للسَّببيَّةِ، أي: لا لَغْوٌ يقَعُ بسَببِ شُرْبِها. والمعْنى على كِلا الوجهَينِ: أنَّها لا يُخالِطُ شارِبيها اللَّغْوُ والإثمُ بالسِّبابِ والضَّرْبِ ونحْوِه، أي: إنَّ الخمْرَ الَّتي استُعْمِلَت الكأْسُ لها لَيستْ كخُمورِ الدُّنيا. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ مُستأْنَفةً ناشئةً عن جُملةِ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾، ويكونَ ضَميرُ ﴿فِيهَا﴾ عائدًا إلى ﴿جَنَّٰتٍ﴾ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ﴾ [الطور: ١٧]، فيَكونَ في الجُملةِ معْنى التَّذييلِ؛ لأنَّه إذا انْتَفى اللَّغْوُ والتَّأْثيمُ عن أنْ يَكونَا في الجنَّةِ انْتَفى أنْ يَكونَا في كأْسِ شُرْبِ أهْلِ الجنَّةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ [الطور: ٢٣]؛ فهو مِن تَمامِه، وواقعٌ مَوقِعَ الحالِ مِثلَه(١).

- وجِيءَ بقولِه: ﴿وَيَطُوفُ﴾ في صِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والتَّكرُّرِ، أي: ذلك لا يَنقطِعُ، بخِلافِ لذَّاتِ الدُّنيا؛ فإنَّها لا بدَّ لها مِن الانقطاعِ بنِهاياتٍ تَنْتهي إليها، فتُكَرَّهُ لأصحابِها الزِّيادةُ منها؛ مِثلُ ذهابِ العقلِ، والصُّداعِ، ووجَعِ الأمعاءِ في شُرْبِ الخمْرِ، ومِثلُ الشِّبَعِ في تَناوُلِ الطَّعامِ، وغيرُ ذلك مِن كلِّ ما يُورِّثُ العجْزَ عن الازديادِ عن اللَّذَّةِ، ويَجعَلُ الازديادَ ألَمًا(٢).

- وأيضًا لَمَّا أشعَرَ فِعلُ (يَطُوفُ) بأنَّ الغِلمانَ يُناوِلونَهم ما فيه لذَّاتُهم، كان مُشعِرًا بتَجدُّدِ المُناوَلةِ وتَجدُّدِ الطَّوافِ، وقد صار كلُّ ذلك لذَّةً لا سآمةَ منها(٣).

- والطَّوافُ: مشْيٌ مُتكرِّرٌ ذَهابًا ورُجوعًا، وأكثرُ ما يكونُ على استِدارةٍ، وسُمِّيَ مشْيُ الغِلمانِ بيْنَهم طَوافًا؛ لأنَّ شأْنَ مَجالسِ الأحبَّةِ والأصدقاءِ أنْ تكونَ حِلَقًا ودَوائرَ؛ ليَسْتَووا في مَرْآهم، كما أشارَ إليه قولُه تعالى في سُورةِ (الصَّافاتِ) [٤٤]: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾(٤).

- وتُرِكَ ذِكرُ مُتعلَّقِ (يَطوف) -حيثُ لم يُذكَرْ ما يَطوفونَ به عليهم-؛ لظُهورِه مِن قولِه: ﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾، وقولِه: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ﴾ [الطور: ٢٢]، ودلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٥).

[الزخرف: ٧١]، وقولُه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٥، ٤٦]، فلمَّا تقدَّمَ ذِكرُ ما شأْنُه أنْ يُطافَ به هنا، تُرِكَ ذِكرُه بعْدَ فِعلِ ﴿يُطَافُ﴾، بخِلافِ ما في الآيتَينِ الأُخْريَينِ ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقولُه: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾[1] [الصافات: ٤٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا وفي سُورةِ (الإنسانِ): ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ [الطور: ٢٤] [الإنسان: ١٩] بالواوِ، عطْفًا على ما قبْلَه، وقالَه في سُورةِ (الواقعةِ) بغَيرِ واوٍ ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ [الواقعة: ١٧]؛ لأنَّه حالٌ أو خبرٌ بعْدَ خَبرٍ[2].

- ومعنَى قولِه: ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾: خَدَمةٌ لهم، وعُبِّرَ عنهم بالتَّنكيرِ، وتَعليقِ لامِ المِلْكِ بضَميرِ الَّذين آمَنوا دُونَ الإضافةِ الَّتي هي على تَقديرِ اللَّامِ؛ لِما في الإضافةِ مِن معْنى تَعريفِ المُضافِ بالانتِسابِ إلى المُضافِ إليه عِندَ السَّامِعِ مِن قبْلُ، وليس هؤلاء الغِلمانُ بمَمْلوكينَ للمُؤمنينَ، ولكنَّهم مَخلوقونَ لخِدْمَتِهم مَخصوصونَ بهم، خلَقَهم اللهُ مِن أجْلِهم في الجنَّةِ[3].

- وفي قولِه: ﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ شُبِّهتِ الغِلمانُ باللُّؤلؤِ المَكنونِ في حُسْنِ المرْأَى؛ لأنَّه أحسَنُ وأصْفَى، أو شُبِّهتْ باللُّؤلؤِ المَكنونِ في الأصدافِ؛ لأنَّه مَخزونٌ، ولا يُخزَّنُ إلَّا الثَّمينُ الغالي القِيمةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٣٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ * قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ [الطور: ٢٣]، والتَّقديرُ: وقدْ أقبَلَ بعضُهم على بَعضٍ يَتساءَلون، أي: همْ في تلك الأحوالِ قد أقبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ يَتساءَلون(١).

- وجُملةُ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾(٢).

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿مُشْفِقِينَ﴾؛ لأنَّه دلَّ عليه ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾. وعلى هذا الوجْهِ يكونُ معْنى (في) الظَّرفيَّةَ، ويَتعلَّقُ ﴿فِيٓ أَهْلِنَا﴾ بـ ﴿كُنَّا﴾، أي: حِينَ كنَّا في ناسِنا في الدُّنيا، فأهْلُنا هنا بمعْنى آلِنَا(٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ تدُلُّ على أنَّ عِلَّةَ ذلك هي الخَوفُ مِن اللهِ في دارِ الدُّنيا(٤).

- قولُه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ قيل: لَمَّا كان عَذابُ الذُّرِّيَّاتِ يُحزِنُ آباءَهُم، جُعِلَت وِقايةُ الذُّرِّيَّاتِ منه بمَنزلةِ وِقايةِ آبائِهم فقالوا: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾؛ إغراقًا في الشُّكرِ عنهم وعن ذُرِّيَّاتِهم، أي: فمَنَّ علينا جَميعًا ووَقَانا جميعًا عَذابَ السَّمومِ(٥).

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ تَعليلٌ لِمِنَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧، ٤٥٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

اللهِ عليهم، وثَناءٌ على اللهِ بأنَّه استجابَ لهم، أي: كنَّا مِن قبْلِ اليومِ نَدْعوه، أي: في الدُّنيا[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿نَدْعُوهُ﴾ للتَّعميمِ، أي: كنَّا نَبتَهِلُ إليه في أُمورِنا -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وسَببُ العُمومِ داخِلٌ ابتداءً، وهو الدُّعاءُ لأنفُسِهم ولذُرِّيَّاتِهم بالنَّجاةِ مِن النَّارِ، وبنَوالِ نَعيمِ الجنَّةِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ قُرِئَ ﴿أَنَّهُۥ﴾ على تَقديرِ حرْفِ الجرِّ مَحذوفًا حذْفًا مُطَّرِدًا مع (أنَّ)، وهو هنا اللَّامُ تَعليلًا لـ ﴿نَدْعُوهُ﴾، وقُرِئَ بكسْرِ همْزةِ (إنَّ)[٣]، ومَوقِعُ جُملتِها التَّعليلُ[٤].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُو) لإفادةِ الحَصْرِ، وهو لقصْرِ صِفتَي ﴿ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ على اللهِ تعالى، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٥] للمُبالَغةِ؛ لعدَمِ الاعتِدادِ ببُرورِ غيرِه ورَحمةِ غيرِه بالنِّسبةِ إلى بُرورِ اللهِ ورَحمتِه باعتبارِ القوَّةِ؛ فإنَّ غيرَ اللهِ لا يَبلُغُ بالمَبرَّةِ والرَّحمةِ مَبلَغَ ما للهِ، وباعتِبارِ عُمومِ المُتعلَّقِ، وباعتبارِ الدَّوامِ؛ لأنَّ اللهَ بَرٌّ في الدُّنيا والآخِرةِ، وغيرَ اللهِ بَرٌّ في بَعضِ أوقاتِ الدُّنيا، ولا يَملِكُ في الآخرةِ شيئًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ﴾ قرأه المَدَنيَّانِ -نافعٌ وأبو جعفرٍ-، والكِسائيُّ بفتحِ الهَمزةِ، وقرأه الباقون بكَسرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨).

(٥) تقدَّم تعريفه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨).

## الآيات (٢٩-٣٦)

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِكَاهِنٍ﴾: الكاهِنُ: هو الَّذي يُوهِمُ أنَّه يَعلمُ الغيبَ مِن غيرِ وحيٍ، وقيل: هو مَن يدَّعي عِلمَ الغَيبِ في المستقبَلِ. وقيل: هو الَّذي يُخبِرُ بالأخبارِ الماضيةِ الخَفيَّةِ بضَربٍ مِنَ الظَّنِّ[1].

﴿نَّتَرَبَّصُ﴾: أي: نَنتَظِرُ، وأصل (ربص): يدُلُّ على الانتِظارِ[2].

﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾: أي: حوادِثَ الدَّهرِ وأوجاعَه ومصائِبَه؛ مِن قَولِهم: رابَه الأمرُ رَيبًا، أي: نابَه وأصابَه، والمَنُونُ: الدَّهرُ، وأصلُه مِنَ المَنِّ بمعنى القَطعِ؛ وذلك أنَّه يَقطَعُ الأعمالَ والأجَلَ، والمَنُونُ كذلك: المَوتُ؛ لأنَّه يَقطَعُ الأجَلَ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٣)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٧٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ١٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٥٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٣٩١).

﴿أَحْلَٰمُهُم﴾: أي: عُقولُهم، والعَقلُ والحِلمُ مِن بابٍ واحِدٍ مِن حيثُ المعنى؛ لأنَّ العَقلَ يَضبِطُ المرءَ فيَكونُ كالبَعيرِ المَعقولِ، والحِلمُ أيضًا سَبَبُ وَقارِ المَرءِ وثَباتِه، وقيل: الحِلْمُ: ضبْطُ النَّفْسِ والطَّبعِ عن هَيجانِ الغضبِ، ويُفَسَّرُ الحِلمُ بالعقلِ، لِكَونِه مِن مُسبَّباتِ العقلِ، وأصلُ (حلم) هنا: يدُلُّ على تَركِ العَجَلةِ[١].

﴿طَاغُونَ﴾: أي: مُجاوِزونَ الحَدَّ في العِنادِ والكفرِ، وأصلُ (طغى): مُجاوَزةُ الحدِّ[٢].

﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾: أي: اختَلَقه وافتَعَله وافتَراه، والتَّقَوُّلُ أصلُه تَكَلُّفُ القولِ، ولا يُستعمَلُ إلَّا في الكذِبِ في الغالِبِ، وأصلُ (قول): يدُلُّ على النُّطقِ[٣].

﴿يُوقِنُونَ﴾: أي: يَعلَمونَ عِلمًا مُتمَكِّنًا في نُفوسِهم لا يَدخُلُه شَكٌّ، وأصلُ اليَقينِ: يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالَى آمِرًا رَسولَه صلَّى اللَّهِ عليه وسلَّم بأنْ يُبَلِّغَ رِسالَتَه إلى عِبادِه: فذكِّرِ النَّاسَ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ؛ فلَسْتَ بإنعامِ الله عليك بكاهِنٍ تدَّعي عِلمَ الغَيبِ، ولستَ بمَجنونٍ كما يَزعُمونَ!

ثمَّ يُبيِّنُ جانبًا مِن أكاذيبِ المشركينَ، وادِّعاءاتِهم الباطِلةِ في حقِّه صلَّى الله

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٥١، ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٨٦).

عليه وسلَّم، ويُلقِّنُه الرَّدَّ عليهم، فيقولُ: أم يَقولُ مُشرِكو قُرَيشٍ: مُحمَّدٌ شاعِرٌ نتَظِرُ به حوادِثَ الدَّهرِ ومَصائِبَه! قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: انتَظِروا ما يُصيبُني مِنَ الهَلاكِ؛ فإنِّي أيضًا مِنَ المُنتَظِرينَ ما يُصيبُكم مِن عذابِ اللهِ.

أم أمَرَتْهم عُقولُهم بهذا التَّكذيبِ والبُهتانِ؟! أمْ هم قَومٌ تجاوَزوا حُدودَ اللهِ؟!

أم يَقولُونَ: اختَلَق محمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبَه إلى اللهِ تعالى كَذِبًا؟! ليس الأمرُ كما يَقولُونَ، بل لا يُؤمِنونَ بالحَقِّ الَّذي جاءَهم مِنَ اللهِ تعالى!

ثمَّ يقولُ تعالى متحدِّيًا لهم: فلْيَأْتوا بمِثْلِ هذا القُرآنِ إن كانوا صادِقينَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مستدِلًّا عليهم بأمرٍ لا يمكنُهم فيه إلَّا التَّسليمُ للحقِّ: أم خُلِق أولئك المُشرِكونَ مِن غَيرِ خالِقٍ يَخلُقُهم؟! أم هم الخالِقونَ؟! أم خَلَقوا السَّمَواتِ والأرضَ؟! بل لا يُوقِنونَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان ما سَبَق معَ تشويقِه إلى الجنَّةِ والأعمالِ المُوصِلةِ إليها وَعْظًا يُرَقِّقُ القُلوبَ، ويُجَلِّي الكُروبَ؛ سَبَّبَ عنه قَولَه: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: جَدِّدِ التَّذكيرَ بمِثلِ هذا لكُلِّ مَن يرجو خَيرَه، ودُمْ على ذلك[1].

وأيضًا لَمَّا تَقدَّمَ إقسامُ اللهِ تعالى على وُقوعِ العَذابِ، وذَكَر أشياءَ مِن أحوالِ المعَذَّبينَ والنَّاجينَ؛ أمَرَه بالتَّذكيرِ إنذارًا للكافِرِ، وتبشيرًا للمؤمِنِ، ودعاءً إلى اللهِ تعالى بنَشرِ رِسالتِه، ثمَّ نفَى عنه ما كان الكُفَّارُ يَنسُبونَه إليه مِن الكِهانةِ والجُنونِ؛

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١).

إذ كانا طريقَينِ إلى الإخبارِ ببَعضِ المُغَيَّباتِ، وكان للجِنِّ بهما مُلابَسةٌ للإنْسِ[١].

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ ﴾.

أي: فذكِّرِ النَّاسَ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ؛ فلَسْتَ -بإنعامِ اللهِ عليك- بكاهِنٍ تدَّعي عِلمَ الغَيبِ، ولستَ بمَجنونٍ فاقدٍ للعَقلِ كما يَزعُمونَ، بلْ ما تَقولُه وَحْيٌ مِنَ اللهِ تعالى[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٨٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩، ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٠).

قال الشوكاني: (﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾ أي: اثبُتْ على ما أنت عليه مِن الوعظِ والتَّذكيرِ، والباءُ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ هو حالٌ، أي: ما أنت مُتلبِّسًا بنعمةِ ربِّك الَّتي أنعَمَ بها عليك مِن رَجاحةِ العقلِ والنُّبوَّةِ بكاهِنٍ ولا مجنونٍ. وقيل: بمحذوفٍ يدُلُّ عليه الكلامُ، أي: ما أنت في حالِ إذكارِك بنعمةِ ربِّك بكاهِنٍ ولا مجنونٍ. وقيل: الباءُ سببيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بمَضمونِ الجملةِ المنفيَّةِ، والمعنى: انتفى عنك الكِهانةُ والجنونُ بسببِ نعمةِ الله عليك، كما تقولُ: ما أنا بمُعسِرٍ بحمدِ الله. وقيل: الباءُ للقسَمِ، متوَسِّطةٌ بيْنَ اسمِ «ما» وخبَرِها، والتَّقديرُ: ما أنت ونعمةِ الله بكاهِنٍ ولا مجنونٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: بإنعامِه عليك بالنُّبوَّةِ وما أنزَل عليك مِن الوحيِ: ابنُ الجوزي، والنسفي، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: ما أنت بحمدِ الله وإنعامِه: ابنُ أبي زَمَنين، والزمخشريُّ، والبيضاوي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: برحمتِه وعِصمتِه: البغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٠).

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: أم[1] يَقولُ مُشرِكو قُرَيشٍ: مُحمَّدٌ شاعِرٌ ننتَظِرُ به حوادِثَ الدَّهرِ وقوارِعَه،

(١) ممَّن اختار أنَّ «أمْ» هنا للاستِفهامِ: الخليلُ -كما في ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩)- والسَّمعانيُّ، وابن جُزَي، والمعنى: أيَقولون شاعرٌ؟ يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٣).

قال ابن جُزَي: («أم» في هذا الموضِعِ وفيما بعدَه للاستِفهامِ بمعنى الإنكارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٣).

وممَّن اختار أنَّ «أمْ» هي المُنقَطِعةُ: الرَّسْعَنيُّ، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩١).

وفي «أم» المُنقطِعةِ خِلافٌ: هل هي مُقَدَّرةٌ بـ(بَلْ) والهمزةِ، أو بـ(بَلْ) وحْدَها؟ ونصَّ الرَّسْعَنيُّ، والعُلَيمي، وابنُ عثيمينَ على أنَّها بمعنى (بل) والهمزةِ، والمعنى: بل أيَقولون. ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩).

قال النسفي: (و«أمْ» في أوائلِ هذه الآيِ مُنقطِعةٌ بمعنى بلْ والهمزةِ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٦)، وذكَر الرَّسْعَنيُّ أيضًا أنَّ هذا هو معنى «أم» في هذه الآيةِ والآياتِ التي تَليها. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥١).

ومذهَبُ البصريِّينَ أنَّ (أم) المنقَطِعةَ بمعنى (بل) والهمزةِ، وذهَب الكِسائيُّ وهشامٌ إلى أنَّها بمعنى (بلْ) فقط، واختار ابنُ مالكٍ أنَّ الأصلَ فيها الإضرابُ (معنى بل)، والأكثَرُ أنَّها تُفيدُ الاستِفهامَ مع الإضرابِ، واختار ابنُ هشامٍ أنَّها قد تأتي بمعنى (بلْ) وحْدَها، وقد تأتي بمعنى (بلْ) والهمزةِ. يُنظر: ((شرح التسهيل)) لابن مالك (٣/ ٣٦٢)، ((شرح الكافية الشافية)) لابن مالك (٣/ ١٢١٩)، ((الجنى الداني في حروف المعاني)) للمرادي (ص: ٢٠٥)، ((شرح شذور الذهب)) لابن هشام (ص: ٥٨٠)، ((المساعد على تسهيل الفوائد)) لابن عقيل (٢/ ٤٥٦).=

فيَموتُ ويَهلِكُ كما هَلكَ مَن قَبْلَه مِنَ الشُّعراءِ، ونَستريحُ منه ومِن شَأنِه[١]؟!

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُشرِكينَ: انتَظِروا ما يُصيبُني مِنَ الهَلاكِ؛ فإنِّي أيضًا مِنَ المُنتَظِرينَ ما يُصيبُكم مِن عذابِ اللهِ، وسنَعلَمُ لِمَن تكونُ العاقِبةُ الحَسَنةُ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾.

---

= وقال ابن القيم في تفسيرِ ﴿أَمْ﴾ المُنقطِعةِ: (الحقُّ أن يُقالَ: إنَّها على بابِها وأصلِها الأوَّلِ مِن المُعادَلةِ والاستِفهامِ حيث وقعتْ، وإن لم يكُنْ قبْلَها أداةُ استِفهامٍ في اللَّفظِ، وتقديرُها بـ «بَلْ» والهمزةِ خارجٌ عن أُصولِ اللُّغةِ العربيَّةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٠٦، ٢٠٧). ويُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

وقال الشوكاني: (قال سيبوَيْهِ: خُوطِبَ العبادُ بما جَرَى في كلامِهم. قال النَّحَّاسُ: يريدُ سيبويهِ أنَّ «أمْ» في كلامِ العربِ للخروجِ مِن حديثٍ إلى حديثٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩١).

قال ابنُ عثيمين: (قيل: إنَّ المَنُونَ: هو الدَّهرُ. وقيل: إنَّ المَنُونَ هو الموتُ، وهما مُتلازِمانِ، والمرادُ بذلك حوادِثُ الدَّهرِ المُهلِكةُ المُبيدةُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩١، ١٩٢).

أي: هل أمَرَتْهم عُقولُهم بهذا التَّكذيبِ للرَّسولِ، ووَصْفِه بالباطِلِ(١)؟!

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾.

أي: أمْ هم قَومٌ تجاوَزوا حُدودَ اللهِ، فحَمَلَهم طُغيانُهم هذا على تَكذيبِ الرَّسولِ، ورَمْيِه بالباطِلِ(٢)؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾.

أي: أم يَقولُونَ: اختَلَق محمَّدٌ القُرآنَ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه، ونَسَبَه إلى اللهِ تعالى كَذِبًا(٣)؟!

كما قال تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ [السجدة: ٣].

﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَقولُونَ، بل هم غَيرُ مُؤمِنينَ بالحَقِّ الَّذي جاءَهم مِنَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٢).

تعالى، ولو آمَنوا لَمَا قالوا ما قالوا[١].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ثمَّ ردَّ الله عليهم جميعَ ما زعَموا وتحدَّاهم فى دحضِ ما قالوا، فقال[٢]:

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: فلْيَأْتِ المُشرِكونَ بمِثْلِ هذا القُرآنِ إن كانوا صادِقينَ في دَعواهم أنَّ مُحمَّدًا افتَراه وتقَوَّلَه مِن عندِ نَفْسِه، فإنْ عَجَزوا عن ذلك فإنَّهم كاذِبونَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [هود: ١٣، ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥-٦٧).

قال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ الحديثُ هنا قد أُطلِقَ على الكلامِ... أي: فلْيَأتوا بكلامٍ مِثلِه، أي: في غَرَضٍ مِن الأغراضِ الَّتي يَشتَمِلُ عليها القُرآنُ، لا خُصوصِ الأخبارِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الحَديثُ هنا أُطلِقَ على الأخبارِ، أي: فلْيأتوا بأخبارٍ مِثلِ قَصَصِ القُرآنِ، فيَكونَ استِنزالًا لهم؛ فإنَّ التَّكَلُّمَ بالأخبارِ أسهَلُ على المتكَلِّمِ مِن ابتكارِ الأغراضِ الَّتي يتكَلَّمُ فيها؛ فإنَّهم كانوا يقولونَ: إنَّ القُرآنَ «أساطيرُ الأوَّلينَ»، أي: أخبارٌ عن الأُمَمِ الماضِينَ، فقِيلَ لهم: فلْيأتوا بأخبارٍ مِثلِ أخبارِه؛ لأنَّ الإتيانَ بمِثلِ ما في القُرآنِ مِن المعارِفِ والشَّرائعِ والدَّلائلِ لا قِبَلَ لعُقولِهم به، وقُصاراهم أن يَفهَموا ذلك إذا سَمِعوه. ومعنى المِثْليَّةِ في قَولِه: ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ المِثْليَّةُ في فَصاحتِه وبلاغتِه، وهي خُصوصيَّاتٌ يُدرِكونَها إذا سَمِعوها، ولا تحيطُ قرائحُهم بإيداعِها في كلامِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٦).

﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كَذَّبوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونَسَبوه إلى الكِهانةِ والجُنونِ والشِّعرِ، وبَرَّأه اللهُ مِن ذلك؛ ذكَرَ الدَّليلَ على صِدقِه إبطالًا لتَكذيبِهم، وبَدَأ بأنفُسِهم، كأنَّه يقولُ: كيف يُكَذِّبونَه وفي أنفُسِهم دَليلُ صِدقِه[1]؟!

**ما ورد في هذه الآيةِ والآيتَينِ بعدَها:**

عن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رضيَ الله عنه، قال: ((سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في المَغرِبِ بالطُّورِ، فلمَّا بَلَغ هذه الآيةَ: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ قال: كاد قَلبي أن يَطيرَ[2]!))[3].

وفي روايةٍ قال: (وذلك أوَّلَ ما وقَرَ[4] الإيمانُ في قلبي[5])[6].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٥).

(٢) قال الخَطَّابي: (إنَّما كان انزِعاجُه عندَ سَماعِ هذه الآيةِ لحُسنِ تَلَقِّيه معنى الآيةِ، ومَعرفتِه بما تضَمَّنَتْه مِن بليغِ الحُجَّةِ، فاستَدرَكَها واستَشَفَّ مَعناها بذَكِيِّ فَهْمِه). ((أعلام الحديث)) (٣/ ١٩١٢).

وقال ابن عثيمين: («كاد قلبي يطيرُ»؛ لقُوَّةِ هذا الدَّليلِ المُفحِمِ المُقنِعِ حتَّى دخَل الإيمانُ في قَلبِه، ثمَّ اطمأنَّ الإيمانُ في قلبِه بعدَ ذلك؛ لأنَّ هذه الآيةَ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ الخَلْقَ حادِثٌ بعدَ أنْ لم يكُنْ، وأنَّ الَّذي أحدَثَه هو الله). ((فتح ذي الجلال والإكرام)) (٢/ ٩٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٨٥٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٦٣) مختصرًا.

(٤) وقَر: أي: ثبَت. يُنظر: ((التوضيح لشرح الجامع الصحيح)) لابن الملقن (٢١/ ٩٩).

(٥) قال ابنُ كثيرٍ: (وجُبَيْرُ بنُ مُطْعِمٍ كان قد قَدِم على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ وَقْعةِ بَدْرٍ في فِداءِ الأُسارَى، وكان إذ ذاك مُشرِكًا، وكان سماعُه هذه الآيةَ مِن هذه السُّورةِ مِن جُملةِ ما حَمَله على الدُّخولِ في الإسلامِ بعدَ ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧).

وقال القَسْطَلَّاني: (وقد كان حِينَئذٍ كافِرًا، ولم يَنطِقْ بالإسلامِ والتزَمَ أحكامَه إلَّا عندَ فَتحِ مكَّةَ). ((إرشاد الساري)) (٦/ ٢٧٣).

(٦) أخرجها البخاري (٤٠٢٣).

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾.

أي: أم خُلِق أولئك المُشرِكونَ مِن غَيرِ خالِقٍ يَخلُقُهم[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٧٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٣٦)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٤).

وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى المذكورِ: السمرقنديُّ، واستظهره السمعانيُّ، وذهب إليه ابنُ تيميَّةَ ونَسَبه إلى الأكثَرينَ، واختاره ابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والشوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٥).

وقيل: المعنى: أخُلِق المُشرِكونَ مِن غَيرِ آباءٍ ولا أمَّهاتٍ، فهم كالجَمادِ لا يَعقِلونَ؟! وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٣١).

وقيل: المعنى: أم خُلِقوا باطِلًا لِغَيرِ شَيءٍ، فهم لا يُؤمَرونَ ولا يُنهَونَ ولا يُحاسَبونَ؟! وممَّن اختار هذا المعنى: الواحديُّ، وأبو القاسمِ النَّيْسابوريُّ، وذكره الزَّجَّاجُ قَولًا في الآيةِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٣٦)، ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٧٦٩).

وقال ابنُ أبي زَمَنين: (﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أي: لم يُخلَقوا مِن غَيرِ شَيءٍ، خَلَقْناهم مِن نُطفةٍ، وأوَّلُ ذلك مِن ترابٍ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وقيل: أم خُلِقوا مِن غيرِ مادَّةٍ؟ وهذا ضعيفٌ؛ لِقَولِه بعد ذلك: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾، فدَلَّ ذلك على أنَّ التَّقسيمَ: أم خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ، أم هم الخالِقون؟ ولو كان المرادُ مِن غيرِ مادَّةٍ، لَقال: أم خُلِقوا مِن غيرِ شَيءٍ أم مِن ماءٍ مَهينٍ؟ فدَلَّ على أنَّ المرادَ: أنَا خالِقُهم لا مادَّتُهم، ولأنَّ كَونَهم خُلِقوا مِن غيرِ مادَّةٍ ليس فيه تعطيلُ وُجودِ الخالِقِ، فلو ظَنُّوا ذلك لم يَقدَحْ في إيمانِهم بالخالِقِ، بل دَلَّ على جَهْلِهم، ولأنَّهم لم يَظُنُّوا ذلك، ولا يُوسْوِسُ الشَّيطانُ لابنِ آدَمَ بذلك، بل كلُّهم يَعرِفونَ أنَّهم خُلِقوا مِن آبائِهم وأُمَّهاتِهم، ولأنَّ اعترافَهم بذلك لا يُوجِبُ إيمانَهم، ولا يَمنَعُ كُفرَهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٨/ ٢٣٦). =

﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾.

أي: أم هم الخالِقونَ لأنفُسِهم أو لِغَيرِهم مِنَ المخلوقاتِ(١)؟!

قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

---

= وقال الرازي: (ما المرادُ مِن قولِه تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾؟ نقولُ: فيه وُجوهٌ، المنقولُ منها أنَّهم خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ. وقيل: إنَّهم خُلِقوا لا لِشَيءٍ عبَثًا. وقيل: إنَّهم خُلِقوا مِن غيرِ أبٍ وأمٍّ. ويحتمِلُ أن يُقالَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، أي: ألم يُخلَقوا مِن ترابٍ أو مِن ماءٍ؟ ودليلُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠]. ويحتملُ أن يُقالَ: الاستِفهامُ الثَّاني ليس بمعنى النَّفيِ، بل هو بمعنى الإثباتِ؛ قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٩] و﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ [الواقعة: ٦٤] و﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ [الواقعة: ٧٢] كلُّ ذلك في الأوَّلِ مَنفيٌّ، وفي الثَّاني مُثبَتٌ، كذلك هاهنا قال الله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أي: الصَّادقُ هو هذا الثَّاني حينَئذٍ، وهذا كما في قولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، فإن قيل: كيف يكونُ ذلك الإثبات، والآدميُّ خُلِق مِن تُرابٍ؟ نقولُ: والتُّرابُ خُلِق مِن غيرِ شَيءٍ، فالإنسانُ إذا نظَرْتَ إلى خَلقِه وأسنَدْتَ النَّظرَ إلى ابتِداءِ أمرِه وجَدْتَه خُلِق مِن غيرِ شَيءٍ. أوْ نقول: المرادُ: أمْ خُلِقوا مِن غيرِ شَيءٍ مَذكورٍ أو مُعتبَرٍ، وهو الماءُ المَهينُ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٤).

قال القرطبي: (﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، أي: أَيقولونَ إنَّهم خَلَقوا أنفُسَهم فهم لا يأتَمِرونَ لأمرِ اللهِ، وهم لا يقولونَ ذلك، وإذا أقرُّوا أنَّ ثَمَّ خالِقًا غَيرَهم فما الذي يمنَعُهم مِنَ الإقرارِ له بالعبادةِ دونَ الأصنامِ، ومِنَ الإقرارِ بأنَّه قادِرٌ على البَعثِ؟). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤).

أي: أمْ هم الَّذين خَلَقوا السَّمَواتِ والأرضَ[١]؟!

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥].

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾.

أي: لم يَخلُقِ المُشرِكونَ ذلك، ولكِنْ عَدَمُ يَقينِهم بالحَقِّ هو الَّذي حمَلَهم على تَرْكِه، والوُقوعِ في الباطِلِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٦).

قال ابنُ القيِّم: (فإنْ قِيلَ: فما مَوقِعُ قَولِه: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مِن هذه الحُجَّةِ؟ قيل: أحسَنُ مَوقِعٍ؛ فإنَّه بَيَّن بالقِسمَينِ الأوَّلَينِ أنَّ لهم خالِقًا وفاطِرًا، وأنَّهم مخلوقونَ، وبَيَّن بالقِسمِ الثَّالِثِ أنَّهم بعدَ أنْ وُجِدوا وخُلِقوا فهم عاجِزونَ غَيرُ خالِقينَ؛ فإنَّهم لم يَخلُقوا نُفوسَهم، ولم يَخلُقوا السَّمَواتِ والأرضَ؛ وأنَّ الواحِدَ القَهَّارَ الَّذي لا إلهَ غَيرُه ولا رَبَّ سِواه هو الَّذي خلَقَهم وخَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ؛ فهو المتفَرِّدُ بخَلقِ المَسكَنِ والسَّاكِنِ، بخَلقِ العالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ وما فيه). ((الصواعق المرسلة)) (٢/ ٤٩٤).

وقال ابنُ عاشورٍ: (المعنى: أنَّ الَّذي خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ لا يُعجِزُه إعادةُ الأجسادِ بعدَ الموتِ والفَناءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٦، ١٩٧).

قال ابن جرير: (لا يُوقِنونَ بوَعيدِ اللهِ وما أعَدَّ لأهلِ الكُفرِ به مِنَ العَذابِ في الآخِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٧).

وقال الزمخشري: (إذا سُئِلوا مَن خَلَقَكم وخَلَق السَّمَواتِ والأرضَ؟ قالوا: اللهُ، وهم شاكُّونَ فيما يقولونَ، لا يُوقِنونَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٤).

وقال السعدي: (لَكِنَّ المُكَذِّبينَ ﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: ليس عِندَهم عِلمٌ تامٌّ، ويَقينٌ يُوجِبُ لهم الانتِفاعَ بالأدِلَّةِ الشَّرعيَّةِ والعَقليَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ تأمَّلْ هذا التَّرديدَ والحَصرَ المتضَمِّنَ لإقامةِ الحُجَّةِ بأقرَبِ طَريقٍ، وأفصَحِ عِبارةٍ؛ يقولُ تعالى: هؤلاء مخلوقونَ بعدَ أنْ لم يَكونوا، فهل خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ خَلَقَهم؟! فهذا مِنَ المُحالِ المُمتَنِعِ عندَ كُلِّ مَن له فَهمٌ وعَقلٌ؛ أن يكونَ مَصنوعٌ مِن غيرِ صانِعٍ، ومخلوقٌ مِن غيرِ خالِقٍ. ولو مَرَّ رجُلٌ بأرضٍ قَفرٍ لا بناءَ فيها، ثمَّ مَرَّ بها فرأى فيها بُنيانًا وقُصورًا وعِماراتٍ مُحكَمةً؛ لم يتخالَجْه شَكٌّ ولا رَيبٌ أنَّ صانِعًا صنَعَها، وبانيًا بناها. ثمَّ قال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، وهذا أيضًا مِن المُستَحيلِ؛ أن يكونَ العَبدُ مُوجِدًا خالِقًا لنَفْسِه؛ فإنَّ مَن لا يَقدِرُ أن يَزيدَ في حياتِه بعدَ وُجودِه وتَعاطِيه أسبابَ الحياةِ ساعةً واحِدةً، ولا إِصْبَعًا ولا ظُفُرًا ولا شَعرةً، كيف يكونُ خالِقًا لنَفْسِه في حالِ عَدَمِه؟!

وإذا بَطَلَ القِسمانِ تعَيَّنَ أنَّ لهم خالِقًا خلَقَهم، وفاطِرًا فطَرَهم؛ فهو الإلهُ الحَقُّ الَّذي يَستَحِقُّ عليهم العِبادةَ والشُّكرَ، فكيف يُشرِكونَ به إلهًا غَيرَه وهو وَحْدَه الخالِقُ لهم[1]؟!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ قد اكْتُفِيَ في إبطالِ كَونِه كاهنًا أو مَجنونًا بمُجرَّدِ النَّفيِ دونِ استِدلالٍ عليه؛ لأنَّ مُجرَّدَ التَّأمُّلِ في حالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كافٍ في تَحقُّقِ انتفاءِ ذَينِكَ الوصْفَينِ عنه، فلا يُحتاجُ

---

= وقال ابنُ عثيمين: (ليس عندَهم إيقانٌ في خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ؛ أنَّ الَّذي خلَقَهم هو الله؛ لأنَّه لو كان عندَهم يَقينٌ لَحمَلَهم هذا اليَقينُ على تصديقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والإقرارِ برسالتِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٦، ١٩٧).

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٤٩٣، ٤٩٤).

في إبطالِ اتِّصافِه بهما إلى أكثَرَ مِن الإخبارِ بنَفْيِهما؛ لأنَّ دَليلَه المُشاهَدةُ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥] نَجِدُ آدابًا كثيرةً مِن المناظَرةِ؛ فقد تَدَرَّجَ اللهُ تعالى معهم في الحُجَجِ، فقال: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨]؛ إنْ كان الأمرُ كذلك ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: ٣٨]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾، فإنْ كان الأمرُ كذلك ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾، فاللهُ سُبحانَه وتعالى في ختامِ المناظرةِ يَجعَلُ الخَصمَ مُفحَمًا بتحَدِّيه بما لا يَستطيعُ[٢].

٣- قال تعالَى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ لَمَّا كان انتِفاءُ كَونِه شاعِرًا أمْرًا واضحًا يَكْفي فيه مُجرَّدُ التَّأمُّلِ، لم يَتَصدَّ القرآنُ للاستِدلالِ على إبطالِه، وإنَّما اشتَمَلَت مَقالتُهم على أنَّهم يَتربَّصون أنْ يحُلَّ به ما حَلَّ بالشُّعراءِ الَّذين همْ مِن جُملةِ النَّاسِ، فأمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُجيبَهم عن مَقالتِهم هذه بأنْ يقولَ: ﴿تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾، وهو جوابٌ مُنصِفٌ؛ لأنَّ تَربُّصَ حُلولِ حَوادثِ الدَّهْرِ بأحدِ الجانبينِ، أو حُلولِ المَنيَّةِ مُشترِكُ الإلزامِ، لا يَدْري أحدُنا ماذا يَحُلُّ بالآخَرِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ تعَلُّقِ قَولِهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ بقَولِهم: ﴿شَاعِرٌ﴾؟

**الجوابُ فيه وَجهانِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ العَرَبَ كانت تحترِزُ عن إيذاءِ الشُّعَراءِ، وتتَّقي ألسِنَتَهم؛ فإنَّ الشِّعرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٢).

كان عندَهم يُحفَظُ ويُدَوَّنُ، وقالوا: لا نُعارِضُه في الحالِ؛ مخافةَ أن يَغلِبَنا بقُوَّةِ شِعرِه، وإنَّما سَبيلُنا الصَّبرُ وتربُّصُ مَوتِه.

**الثَّاني**: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: إنَّ الحَقَّ دينُ اللهِ، وإنَّ الشَّرعَ الَّذي أتيتُ به يَبقَى أبَدَ الدَّهرِ، وكتابي يُتلَى إلى قيامِ السَّاعةِ، فقالوا: ليس كذلك، إنَّما هو شاعِرٌ، والَّذي يَذكُرُه في حَقِّ آلهتِنا شِعرٌ، ولا ناصِرَ له، وسيُصيبُه مِن بَعضِ آلهتِنا الهَلاكُ، فنتَرَبَّصُ به ذلك[1].

٥- كلُّ آيةٍ مِن القُرآنِ فإنَّها مُعجِزةٌ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ ﴾. حديثٌ: آيةٌ، أو عَشْرُ آياتٍ، أو سورةٌ، أو عَشرُ سُوَرٍ، أو القُرآنُ كُلُّه[2]؛ فتَبيَّنَ بُطلانُ قَولِهم: إنَّه تقوَّلَه؛ لأنَّ اللهَ تعالى تحَدَّاهم أن يأتُوا بمِثْلِه، إنْ كانوا صادِقينَ في دَعواهم أنَّك تقوَّلْتَه فلْيَأتوا بحديثٍ مِثلِه، ولكِنَّهم عَجَزوا[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴾ لم يُكَلِّفْهم نَفْسَ الإحداثِ، بل طالَبَهم بالإتيانِ بمِثلِه؛ إمَّا إحداثًا، وإمَّا تبليغًا عنِ اللهِ أو عن مَخلوقٍ؛ لِيُظهِرَ عَجزَهم عن جميعِ الجِهاتِ[4].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ الاستِدلالُ بدَليلِ «السَّبْرِ والتَّقسيمِ»[5]، وهو مِن أُمَّهاتِ الجَدَلِ العِظامِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٧٤).

على خلافٍ في قَدْرِ المُعْجِزِ مِن القرآنِ. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٤/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ١٠٧٢).

(٥) السَّبرُ والتَّقسيمُ: يُقصَدُ بالتَّقسيمِ عندَ الأصوليِّين: حصْرُ الأوصافِ الَّتي تَحتمِلُ أنْ يُعَلَّلَ بها حُكمُ الأصلِ في عدَدٍ مُعيَّنٍ، والسَّبرُ: هو الاختبارُ لكلِّ الأوصافِ الَّتي قدْ جُمِعَت، فيُستبْعَدُ =

شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ كأنَّه يقولُ: لا يخلو حالُهم مِن واحِدةٍ مِن ثَلاثِ حالاتٍ: إمَّا أن يكونوا خَلَقوا أنفُسَهم، أو خُلِقوا مِن غَيرِ خالِقٍ، أو خَلَقَهم خالِقٌ، فهذه ثلاثةُ أقسامٍ؛ اثنانِ منها باطِلانِ بلا نِزاعٍ -وهو كَونُهم خَلَقوا أنفُسَهم، أو خُلِقوا مِن غيرِ خالِقٍ-، فتغَلَّب القِسمُ الثَّالِثُ: أنَّ لهم خالِقًا هو رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ، تجِبُ عليهم طاعتُه وعِبادتُه[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ أنَّ العِلمَ بأنَّ «المُحدَثَ لا بُدَّ له مِن مُحدِثٍ» عِلمٌ فطريٌّ ضروريٌّ[2]، حتَّى للصِّبيانِ؛ فإنَّ الصَّبيَّ لو ضَرَبَه ضاربٌ، وهو غافلٌ لا يُبصِرُه؛ لَقال: مَن ضرَبَني؟ فلو قيلَ له: لم يَضْرِبْك أحَدٌ، لم يَقبَلْ عَقلُه أن تكونَ الضَّربةُ حدَثَت مِن غيرِ مُحدِثٍ، بل يَعلَمُ أنَّه لا بُدَّ للحادثِ مِن مُحدِثٍ، فإذا قيل: فُلانٌ ضَرَبَك، بكى حتَّى يَضرِبَ ضاربَه؛ فكان في فِطرتِه الإقرارُ بالصَّانعِ، وبالشَّرعِ الَّذي مَبناه على العَدلِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾[3].

٩- مِن اللَّطائِفِ: أنَّه أعادَ (أَمْ) في هذه السُّورةِ خمْسَ عَشْرةَ مرَّةً، وكلُّها

---

= منها ما لا يَصلُحُ أنْ يكون عِلَّةً يُعلَّلُ بها الحُكمُ، ويُستبقَى ما يَصلُحُ أن يكونَ عِلَّةً، مثالُ ذلك أنْ يقولَ المجتهِدُ: تَحريمُ الرِّبا في «البُرِّ» ثبَتَ لعِلَّةٍ، والعِلَّةُ هذه هي إمَّا لِكَونِه مَكيلًا، وإمَّا لكَونِه مَطْعومًا، وإمَّا لكونِه قوتًا مُدَّخرًا، وإمَّا لكونِه مَوْزونًا، وإمَّا لكونِه مالًا. فهذا يُسمَّى «التَّقسيم»، ثمَّ يَختبِرَ هذه العِلَلَ ويَختارَ ما يَراهُ صَحيحًا ويُهمِلَ ما عداهُ، والتَّقسيمُ مُقدَّمٌ على السَّبْرِ في التَّطبيقِ. يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٧)، ((الإحكام في أصول الأحكام)) للآمدي (٣/ ٢٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١، ٤٩٢)، ((التعريفات الفقهية)) للبركتي (ص: ١١١).

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٨).

إلزاماتٌ؛ ليس للمُخاطَبينَ بها عنها جوابٌ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾

- قولُه: ﴿فَذَكِّرْ ...﴾ تَفريعٌ على ما تَقدَّمَ كلِّه مِن قَولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧]؛ لأنَّه تَضمَّنَ تَسليةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن تَكذيبِ المُكذِّبين والافتِراءِ عليه، وعُقِّبَ بهذا؛ لأنَّ مِن النَّاسِ مُؤمنينَ به، مُتيَقِّنينَ أنَّ اللهَ أرْسَلَه مع ما أعدَّ لِكِلا الفريقَينِ، فكان ما تَضمَّنه ذلك يَقْتضي أنَّ في استِمرارِ التَّذكيرِ حِكمةً أرادَها اللهُ، وهي ارعِواءُ بَعضِ المُكذِّبينَ عن تكذيبِهم، وازديادُ المُصدِّقينَ تَوغُّلًا في إيمانِهم، ففُرِّعَ على ذلك أنْ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالدَّوامِ على التَّذكيرِ[٢].

- وهذا الأمْرُ ﴿فَذَكِّرْ﴾ مُستعمَلٌ في طَلَبِ الدَّوامِ، والمعْنى: فاثبُتْ على ما أنتَ عليه مِن التَّذكيرِ بما أُنزِلَ إليك مِن الآياتِ والذِّكْرِ الحَكيمِ[٣].

- ولَمَّا كان أثَرُ التَّذكيرِ أهمَّ بالنِّسبةِ إلى فَريقِ المُكذِّبينَ ليَهتدِيَ مَن شُرِحَ قلْبُه للإيمانِ، رُوعِيَ ما يَزيدُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثَباتًا على التَّذكيرِ مِن تَبْرئتِه ممَّا يُواجِهونَه مِن قولِهم له: هو كاهنٌ، أو هو مَجنونٌ، فربَطَ اللهُ جأْشَ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وأعْلَمَه بأنَّ بَراءتَه مِن ذلك نِعمةٌ أنعَمَ بها عليه ربُّه تعالى، ففُرِّعَ هذا الخبرُ على الأمْرِ بالتَّذكيرِ بقولِه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨).

بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾. ونفْيُ هَذينِ الوَصْفينِ عنه -في خِطابِ أمثالِه ممَّن يَستحِقُّ الوصْفَ بصِفاتِ الكَمالِ- يدُلُّ على أنَّ المُرادَ مِن النَّفيِ غرَضٌ آخَرُ، وهو هنا إبطالُ نِسبةِ مَن نسَبَه إلى ذلك، ولذلك حسُنَ تَعقيبُه بقولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ [الطور: ٣٠] مُصرَّحًا فيه ببَعضِ أقوالِهم، فعُلِمَ أنَّ المَنْفيَّ عنه فيما قبْلَه مَقالةٌ مِن مَقالِهم(١).

- وقدِ اشتَمَلَت هاتِه الكلمةُ الطَّيِّبةُ ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ على خَصائصَ تُناسِبُ تَعظيمَ مَن وُجِّهت إليه، وبيانُ ذلك: أنَّها صِيغَت في نَظْمِ الجُملةِ الاسميَّةِ، فقِيلَ فيها: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ دونَ: (فلسْتَ بكاهنٍ)؛ لتَدُلَّ على ثَباتِ مَضمونِ هذا الخبَرِ. وقُدِّمَ فيها المُسنَدُ إليه، مع أنَّ مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُقدَّمَ المُسنَدُ، وهو ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾؛ لأنَّ المَقامَ يَقْتضي الاهتِمامَ بالمُسنَدِ، ولكنَّ الاهتِمامَ بالضَّميرِ المُسنَدِ إليه كان أرجَحَ هنا؛ لِما فيه مِن استِحضارِ مُعادِه المُشعِرِ بأنَّه شَيءٌ عَظيمٌ. وأفادَ مع ذلك أنَّ المَقصودَ أنَّه مُتَّصِفٌ بالخبَرِ، لا نفْسُ الإخبارِ عنه بالخبَرِ، كقَولِنا: الرَّسولُ يأْكُلُ الطَّعامَ ويَتزوَّجُ النِّساءَ. وأفاد أيضًا قصْرًا إضافيًّا(٢) بقَرينةِ المَقامِ؛ لقَلْبِ ما يَقولونَه أو يَعتقِدونَه مِن قَولِهم: هو كاهنٌ أو مَجنونٌ. وقُرِنَ الخبَرُ المَنْفيُّ بالباءِ الزَّائدةِ؛ لتَحقيقِ النَّفيِ، فحصَلَ في الكلامِ تَقويتانِ. وجِيءَ بالحالِ قبْلَ الخبَرِ، أو بالجُملةِ المُعترِضةِ بيْنَ المُبتدأِ والخبَرِ؛ لتَعجيلِ المَسرَّةِ، وإظهارِ أنَّ اللهَ أنعَمَ عليه بالبَراءةِ مِن هذَينِ الوَصْفينِ. وعُدِلَ عن استِحضارِ الجَلالةِ بالاسمِ العَلَمِ إلى تَعريفِه بالإضافةِ وبوَصْفِه الرَّبِّ؛ لإفادةِ لُطْفِه تعالى برَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّه ربُّه، فهو يَرُبُّه ويُدبِّرُ نفْعَه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٨، ٥٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

ولتُفيدَ الإضافةُ تَشريفَ المُضافِ إليه[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ ...﴾ (أَمْ) مُنقطِعةٌ، وهي للإضرابِ عن مَقالتِهم المرْدودةِ بقَولِه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]؛ للانتِقالِ إلى مَقالةٍ أُخرى، وهي قولُهم: (هو شاعرٌ نتربَّصُ به رَيبَ المَنونِ). وعُدِلَ عن الإتيانِ بحرْفِ (بل) مع أنَّه أشهَرُ في الإضرابِ الانتِقاليِّ؛ لقصْدِ تَضمُّنِ (أَمْ) للاستِفهامِ، والمعْنى: بلْ أيقولونَ: شاعرٌ... إلخ. والاستِفهامُ المُقدَّرُ إنكاريٌّ[٢].

- وإنْ كانتْ (أَمْ) مُجرَّدةً عن عمَلِ العطْفِ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا، وإلَّا فهي عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾[٣] [الطور: ٢٩].

- ومُناسَبةُ هذا الانتقالِ أنَّ أمْرَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالدَّوامِ على التَّذكيرِ، يُشيرُ إلى مَقالاتِهم الَّتي يَرُدُّون بها دَعوتَه، فلمَّا أُشيرَ إلى بَعضِها بقولِه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩]، انتُقِلَ إلى إبطالِ صِفةٍ أُخرى يُثَلِّثون بها الصِّفتينِ المذْكورتينِ قبْلَها، وهي صِفةُ شاعرٍ[٤].

- وجاء ﴿يَقُولُونَ﴾ مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ ذلك القولِ منهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٠، ٦١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦١).

- قولُه: ﴿تَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ التَّربُّصُ مُبالَغةٌ في الرَّبْصِ، وهو الانتظارُ[١].

والباءُ في ﴿بِهِۦ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ للسَّببِ، أي: بسَببِه، أي: نَتربَّصُ مِن أجْلِه؛ فتكونَ الباءُ مُتعلِّقةً بـ ﴿تَتَرَبَّصُ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ للمُلابَسةِ، وتتعلَّقَ بـ ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ حالًا منه مُقدَّمةً على صاحبِها، أي: حُلولَ رَيبِ المَنونِ به[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾

- وَرَدتْ جُملةُ ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ﴾ مَفصولةً بدُونِ عطْفٍ؛ لأنَّها وقَعَتْ في مَقامِ المُحاوَرةِ؛ لسَبْقِها بجُملةِ ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٌ ...﴾ إلخ [الطور: ٣٠]، فإنَّ أمْرَ أحدٍ بأنْ يَقولَ بمَنزلةِ قَولِه، فأُمِرَ بقَولِه[٣].

- والأمْرُ في ﴿تَرَبَّصُواْ﴾ هو أمْرُ تَهديدٍ[٤]. أو الأمْرُ مُستعمَلٌ في التَّسويةِ، أي: سَواءٌ عِندي تربُّصُكم بي وعَدَمُه[٥].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ على الأمْرِ بالتَّربُّصِ، أي: فإنِّي مُتربِّصٌ بكمْ مِثلَ ما تَتربَّصون بي؛ إذْ لا نَدْري أيُّنا يُصِيبُه رَيبُ المَنونِ قبْلُ[٦].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ تَعليلٌ للأمْرِ المَقصودِ به التَّهديدُ[٧]، وفيه عِدَةٌ كريمةٌ بإهلاكِهم[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٣٧).

(٨) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٠).

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ) في قولِه: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ لتَنزيلِ المُخاطَبينَ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّه يَتربَّصُ بهمْ كما يَتربَّصون بهِ؛ لأنَّهم لغُرورِهم اقتَصَروا على أنَّهم يَتربَّصون به لِيَرَوا هَلاكَه، فهذا مِن تَنزيلِ غيرِ المُنكِرِ مَنزِلةَ المُنكِرِ[1].

- ولَمَّا كان قولُه: ﴿مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ مُقدَّرًا معه (بِكُمْ) -لِمُقابَلةِ قولِهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]- كان في الكَلامِ تَوجيهٌ بأنَّه يَبْقَى معهم يَتربَّصُ هَلاكَهم حِين تَبْدو بَوادِرُه، إشارةً إلى وَقْعةِ بَدْرٍ؛ إذ أصابَهم مِن الحَدَثانِ القتْلُ والأسْرُ؛ فَتكونُ الآيةُ مُشيرةً إلى صَريحِ قولِه تعالَى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾[2] [التوبة: ٥٢].

- وإنَّما قال هنا: ﴿مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ ليُشيرَ إلى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَتربَّصُ بهمْ رَيبَ المَنونِ في جُملةِ المُتربِّصينَ مِن المؤمنينَ[3].

- وقد صِيغَ نظْمُ الكلامِ في هذه الآيةِ على ما يُناسِبُ الانتِقالَ مِن غرَضٍ إلى غرَضٍ، وذلك بما نُهِّيَ به مِن شِبْهِ التَّذييلِ بقولِه: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ إذ تمَّتْ به الفاصلةُ[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ إضرابُ انتقالٍ دَعا إليه ما في الاستِفهامِ الإنكاريِّ المُقدَّرِ بعْدَ (أَمْ) مِن معْنى التَّعجيبِ مِن حالِهم؛ إذ كيف يَقولونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِثلَ ذلك القولِ السَّابِقِ ويَستقِرُّ ذلك في إدْراكِهم، وهمْ يَدَّعُون أنَّهم أهْلُ عُقولٍ، لا تَلتبِسُ عليهم أحوالُ النَّاسِ؟! فهمْ لا يَجهَلون أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس بحالِ الكُهَّانِ، ولا المجانينِ، ولا الشُّعراءِ(١).

- ومعْنى إنكارِ أنْ تأْمُرَهم أحلامُهم بهذا أنَّ الأحلامَ الرَّاجحةَ لا تأْمُرُ بمِثلِه، وفيه تَعريضٌ بأنَّهم أضاعُوا أحلامَهم حِينَ قالُوا ذلك؛ لأنَّ الأحلامَ لا تأْمُرُ بمِثلِه، فهمْ كمَنْ لا أحلامَ لهم(٢).

- وقولُه: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ أيضًا مُتَّصِلٌ بالَّذي قبْلَه، انتُقِلَ به إلى استِفهامٍ عن اتِّصافِهم بالطُّغيانِ(٣).

- والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) مُستعمَلٌ: إمَّا في التَّشكيكِ؛ لِيَكونَ التَّشكيكُ باعثًا على التَّأمُّلِ في حالِهم، فيُومِئَ بأنَّهم طاغُون. وإمَّا مُستعمَلٌ في التَّقريرِ لكلِّ سامعٍ؛ إذْ يَجِدُهم طاغينَ(٤).

- وذِكرُ كَلِمةِ (قَومٍ) في قولِه: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ يُمهِّدُ لكَونِ الطُّغيانِ مِن مُقوِّماتِ حَقيقةِ القوميَّةِ فيهم، أي: تأصَّلَ فيهم الطُّغيانُ وخالَطَ نُفوسَهم، فدَفَعَهم إلى أمثالِ تلك الأقوالِ(٥).

- وفي الآيةِ احتِباكٌ(٦)؛ فقد ذَكَر الأحلامَ أوَّلًا دَليلًا على ضِدِّها ثانيًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) الاحتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالة الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالة الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصِر إعجازِه، وهو =

والطُّغيانَ ثانيًا دليلًا على ضِدِّه -العَدلِ السَّواءِ- أوَّلًا[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ انتِقالٌ مُتَّصِلٌ بقَولِه: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ ... ﴾ [الطور: ٣٠]. وهذا حِكايةٌ لإنكارِهم أنْ يكونَ القُرآنُ وَحْيًا مِن اللهِ، فزَعَموا أنَّه تَقوَّلَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على اللهِ، فالاستِفهامُ إنكارٌ لقَولِهم، وهمْ قد أكثَرُوا مِن الطَّعْنِ وتَمالَؤوا عليه؛ ولذلك جِيءَ في حِكايتِه عنْهم بصِيغةِ ﴿يَقُولُونَ ﴾ المُفيدةِ للتَّجدُّدِ[٢].

- وابتُدِئَ الرَّدُّ عليهم بقَولِه: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾؛ لتَعجيلِ تَكذيبِهم قبْلَ الإدْلاءِ بالحُجَّةِ عليهم، وليَكونَ وُرودُ الاستِدلالِ مُفرَّعًا على قَولِه: ﴿لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ بمَنزلةِ دَليلٍ ثانٍ[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾ لَمَّا كانتْ مَقالتُهم طَعْنًا في القُرآنِ، وهو المُعجزةُ القائمةُ على صِدْقِ رِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكانتْ دَعْواهم أنَّه تقَوَّلَ على اللهِ مِن تِلْقاءِ نفْسِه قد تَرُوجُ على الدَّهْماءِ؛ تَصدَّى القُرآنُ لبَيانِ إبطالِها بأنْ تَحدَّاهم بأنْ يأْتُوا بمِثلِ هذا القُرآنِ بقولِه: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴾، أي: صادِقينَ في أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تقوَّلَه مِن تِلْقاءِ نفْسِه، أي: فعَجْزُهم عن أنْ يأْتُوا بمِثلِه دَليلٌ على أنَّهم كاذِبون. ووَجْهُ المُلازَمةِ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أحدُ العرَبِ، وهو يَنطِقُ بلِسانِهم، فالمُساواةُ بيْنَه وبيْنَهم في المَقْدرةِ على نظْمِ الكَلامِ ثابتةٌ،

---

= مِن أَلْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فلو كان القرآنُ قد قالَه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَكانَ بَعضُ خاصَّةِ العرَبِ البُلغاءِ قادِرًا على تأْليفِ مِثلِه، فلمَّا تَحدَّاهم اللهُ بأنْ يأْتوا بمِثلِ القرآنِ وفيهم بُلَغاؤُهم وشُعراؤُهم وكَلِمتُهم، وكلُّهم واحدٌ في الكفْرِ؛ كان عَجْزُهم عن الإتيانِ بمِثلِ القرآنِ دالًّا على عجْزِ البشَرِ عن الإتيانِ بالقرآنِ؛ ولذلك قال تعالَى في سُورةِ (هُودٍ): ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾[1] [هود: ١٣، ١٤].

- ولامُ الأمْرِ في ﴿فَلْيَأْتُوا۟﴾ مُستعمَلةٌ في أمْرِ التَّعجيزِ[2]. والإتيانُ بالشَّيءِ: إحضارُه مِن مَكانٍ آخَرَ، واختِيرَ هذا الفِعلُ دونَ نحْوِ: (فلْيَقولوا مِثلَه) ونحْوِه؛ لقصْدِ الإعذارِ لهم بأنْ يُقتنَعَ منهم بجَلْبِ كَلامٍ مِثلِه ولو مِن أحَدٍ غَيرِهم[3].

- وقولُه: ﴿إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾، أي: في زَعْمِهم أنَّه تقوَّلَه، أي: فإنْ لم يأْتُوا بكَلامٍ مِثلِه فهمْ كاذِبون، وهذا إلهابٌ لعَزيمتِهم؛ ليَأْتُوا بكَلامٍ مِثلِ القُرآنِ؛ لِيَكونَ عدَمُ إتيانِهم بمِثلِه حُجَّةً على كَذِبِهم[4].

- وقد أشعَرَ نَظْمُ الكلامِ في قولِه: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ الواقعِ مَوقِعًا شَبيهًا بالتَّذييلِ والمَختومِ بكَلِمةِ الفاصلةِ؛ أنَّه نِهايةُ غَرَضٍ، وأنَّ ما بعْدَه شُروعٌ في غرَضٍ آخَرَ[5].

٧- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ إضرابٌ انتِقاليٌّ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٥، ٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إبطالِ ضَرْبٍ آخَرَ مِن شُبْهَتِهم في إنكارِهم البعثَ، ومِن أغراضِ هذه السُّورةِ إثباتُ البَعثِ والجَزاءِ، على أنَّ ما جاء بعْدَه مِن وصْفِ يومِ الجَزاءِ وحالِ أهْلِه قدِ اقتَضَتْه مُناسَباتٌ نَشَأتْ عنها تلك التَّفاصيلُ؛ فإذ وُفِّيَ حقُّ ما اقتَضَتْه تلك المُناسباتُ، ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلى الاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ وإبطالِ شُبهتِهم الَّتي تَعلَّلوا بها، مِن نحْوِ قَولِهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، فكان قولُه تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ...﴾ الآياتِ أدلَّةً على أنَّ ما خلَقَه اللهُ مِن بَدْءِ الخلْقِ أعظَمُ مِن إعادةِ خلْقِ الإنسانِ. وهذا مُتَّصِلٌ بقولِه آنفًا: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧]؛ لأنَّ شُبْهتَهم المَقصودُ رَدُّها بقَولِه: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ هي قَولُهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، ونحوُ ذلك[1].

- وحرْفُ (مِن) في قَولِه: ﴿مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ للابتِداءِ؛ فيكونَ معْنى الاستِفهامِ المُقدَّرِ بعْدَ (أَمْ) تَقريريًّا، والمعْنى: أيُقِرُّون أنَّهم خُلِقوا بعْدَ أنْ كانوا عدَمًا، فكَما خُلِقوا مِن عدَمٍ في نَشأتِهم الأُولى، يُنْشَؤونَ مِن عدَمٍ في النَّشأةِ الآخِرةِ، وذلك إثباتٌ لإمكانِ البَعثِ، ومعْنى (شَيءٍ) على هذا الوجْهِ: الموجودُ، فغَيرُ شَيءٍ: المَعدومُ، والمعْنى: أَخُلِقوا مِن عدَمٍ؟! وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ (مِن) للتَّعليلِ؛ فيكونَ الاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكاريًّا، ويكونَ اسمُ (شَيءٍ) صادِقًا على ما يَصلُحُ لِمَعْنى التَّعليلِ المُستفادِ مِن حَرْفِ (مِن) التَّعليليَّةِ، والمعْنى: إنكارُ أنْ يكونَ خلْقُهم بغَيرِ حِكمةٍ، وهذا إثباتُ أنَّ البَعثَ واقعٌ مِن أجْلِ الجَزاءِ على الأعمالِ، بأنَّ الجَزاءَ مُقْتَضى الحِكمةِ الَّتي لا يَخْلو عنها فِعلُ أحكَمِ الحُكماءِ. ولِحَرْفِ (مِن) في هذا الكلامِ الوقْعُ البَديعُ؛ إذ كانت -على احتِمالِ مَعنيَيْها- دَليلًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٧).

على إمكانِ البَعثِ، وعلى وُقوعِه، وعلى وُجوبِ وُقوعِه وُجوبًا تَقْتضيهِ الحِكمةُ الإلهيَّةُ العُلْيا(١).

- ولعلَّ العُدولَ عن صَوغِ الكلامِ بالصِّيغةِ الغالِبةِ في الاستِفهامِ التَّقريريِّ -وهي صيغةُ النَّفيِ- بأنْ يُقالَ: أَمَا خُلِقوا مِن غَيرِ شَيءٍ، والعُدولَ عن تَعْيينِ ما أُضِيفَ إليه (غَير) إلى الإتيانِ بلَفظٍ مُبْهَمٍ، وهو لَفظُ (شَيء)؛ رُوعِيَ فيه الصَّلاحيةُ لاحتِمالِ المَعنيَينِ، وذلك مِن مُنتَهى البَلاغةِ(٢).

- وإذ كان فرْضُ أنَّهم خُلِقوا مِن غَيرِ شَيءٍ واضِحَ البُطلانِ، لم يُحْتَجْ إلى استِدلالٍ على إبطالِه [إلَّا] بقولِه: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾، وهو إضرابُ انتقالٍ أيضًا، والاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكاريٌّ، أي: ما همُ الخالِقون، وإذ كانوا لمْ يَدَّعُوا ذلك، فالإنكارُ مُرتَّبٌ على تَنزيلِهم مَنزِلةَ مَن يَزعُمون أنَّهم خالِقون(٣).

- وصِيغَتِ الجُملةُ في صِيغةِ الحصْرِ الَّذي طَريقُه تَعريفُ الجُزْأينِ ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ قصْرًا إضافيًّا(٤)؛ للرَّدِّ عليهم بتَنزيلِهم مَنزلةَ مَن يَزعُمُ أنَّهم الخالِقون لا اللهُ؛ لأنَّهم عَدُّوا مِن المُحالِ ما هو خارجٌ عن قُدْرتِهم، فجَعَلوه خارجًا عن قُدْرةِ اللهِ، فالتَّقديرُ: أمْ همُ الخالِقون لا نحنُ، والمعْنى: نحنُ الخالِقون لا همْ(٥).

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿ٱلْخَٰلِقُونَ﴾؛ لقَصْدِ العُمومِ، أي: الخالِقون للمَخلوقاتِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٧، ٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٨).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٨، ٦٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٦٩).

٨- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بَدَلٌ مِن جُملةِ ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ بدَلَ مُفصَّلٍ مِن مُجمَلٍ إنْ كان مَفعولُ ﴿ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ المَحذوفُ مُرادًا به العُمومُ، وكان المُرادُ بالسَّماءِ والأرضِ ذاتَيْهما مع مَن فِيهما، أو بدَلُ بَعضٍ مِن كلٍّ إنْ [كانَ] المُرادُ ذاتَي السَّمواتِ والأرضِ؛ فيَكونُ تَخصيصُ السَّمواتِ والأرضِ بالذِّكْرِ لعِظَمِ خلْقِهما. وإعادةُ حرْفِ (أمْ) للتَّأْكيدِ، كما يُعادُ عامِلُ المُبدَلِ منه في البَدَلِ، والمعْنى: أمْ همُ الخالِقون للسَّمواتِ والأرضِ[1].

- والاستِفهامُ ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إنكاريٌّ، والكَلامُ كِنايةٌ عن إثباتِ أنَّ اللهَ خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، والمعْنى: أنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ لا يُعجِزُه إعادةُ الأجسادِ بعْدَ المَوتِ والفَناءِ[2].

- وقوله: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ إضْرابُ إبطالٍ على مَضمونِ الجُملتَينِ اللَّتَينِ قبْلَه، أي: لمْ يُخلَقوا مِن غَيرِ شَيءٍ، ولا خَلَقوا السَّمواتِ والأرضَ؛ فإنَّ ذلك بيِّنٌ لهم، فما إنكارُهم البعثَ إلَّا ناشِئٌ عن عَدَمِ إيقانِهم في مَظانِّ الإيقانِ، وهي الدَّلائلُ الدَّالَّةُ على إمكانِ البَعثِ، وأنَّه ليس أغرَبَ مِن إيجادِ المَخلوقاتِ العَظيمةِ، فما كان إنكارُهم إيَّاهُ إلَّا عن مُكابَرةٍ وتَصميمٍ على الكفْرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٦٩، ٧٠).

## الآيات (٣٧-٤٣)

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾: أي: المُسَلَّطونَ الجبَّارونَ الحَفَظةُ؛ مَأخوذٌ مِن تَسطيرِ الكِتابِ الَّذي يَحفَظُ ما كُتِبَ فيه[1].

﴿سُلَّمٌ﴾: أي: دَرَجٌ، والسُّلَّمُ: ما يُتوصَّلُ به إلى الأمكنةِ العاليةِ، فيُرْجَى به السَّلامةُ، ثمَّ جُعِل اسمًا لكلِّ ما يُتوصَّلُ به إلى شَيءٍ رَفيعٍ كالسَّببِ، وأصلُ (سلم): يدُلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ[2].

﴿بِسُلْطَٰنٍ﴾: أي: بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ، وسُمِّيتِ الحُجَّةُ سُلطانًا؛ لِمَا يَلحَقُ مِن الهُجومِ على القُلوبِ، وأصلُ (سلط): يدُلُّ على القُوَّةِ والقَهرِ[3].

﴿مَّغْرَمٍ﴾: أي: غُرمٍ، وهو: ما يَنوبُ الإنسانَ في مالِه مِن ضَرَرٍ لغَيرِ جِنايةٍ منه أو خيانةٍ، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٧)، =

﴿كَيْدًا﴾: أي: مَكْرًا، والكَيْدُ ضَرْبٌ مِن الاحتيالِ، وقدْ يكونُ مَذمومًا ومَمدوحًا، وإنْ كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثَرَ، وأصلُ (كيد): يدُلُّ على مُعالَجةٍ لشَيءٍ بشِدَّةٍ، وكلُّ شُيءٍ تُعالِجُه فأنتَ تَكيدُه(١).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: أمْ عندَ أولئك المُشرِكينَ مَفاتيحُ رَحمةِ ربِّك، يا محمَّدُ، أمْ هم المُتسَلِّطونَ بتدبيرِ الأُمورِ؟!

أمْ لهم سُلَّمٌ يَصعَدونَ به إلى السَّماءِ؛ لِيَستَمِعوا فيه إلى الوَحيِ؟! فلْيَأْتِ مَنِ استَمَعَ منهم بحُجَّةٍ ظاهِرةٍ على زَعْمِهم.

أمْ للهِ -سُبحانَه- البَناتُ ولكم البَنونَ؟!

أمْ تَسألُهم -يا محمَّدُ- مالًا على دَعوتِك؛ فهم بسَبَبِ تَكليفِهم الأموالَ لا يَستَجيبونَ لك؟! أم عِندَهم عِلمُ الغَيبِ، فهم يَكتُبونَه؟!

أمْ يُريدُون كَيدًا يُبطِلونَ به الحَقَّ؟! فالَّذين كَفَروا هم الَّذين يُكادُ بهم في الحَقيقةِ.

أمْ لهم إلهٌ آخَرُ غَيرُ اللهِ يَستَحِقُّ العِبادةَ، فهم يَعبُدونَه؟! تنزَّه اللهُ عمَّا يُشرِكونَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾.

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٥٠).

أي: أم عندَ أولئك المُشرِكينَ خزائنُ الله -يا محمَّدُ- مِن الرَّحمةِ والأرزاقِ وغيرِ ذلك[1]؟!

قال تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩].

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٠، ٧١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: خَزائِنُ الأرزاقِ: الشوكانيُّ، والقاسمي، وابن عثيمين. وقال السمرقنديُّ (مفاتيح رزقِ ربِّك). يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: خزائنُ رحمتِه: العُلَيمي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: الخزائنُ مِن النُّبوَّةِ والرِّزقِ وغيرِهما: النَّسَفي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٦٩٩).

وقال الألوسي: (خزائنُ رِزقِه تعالى ورحمتِه حتَّى يَرزُقوا النُّبوَّةَ مَن شاؤوا، ويُمسِكوها عمَّن شاؤوا). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٨).

قال ابن عطيَّة: (قولُه تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ بمَنزِلةِ قولِه: أم عندَهم الاستِغناءُ عن الله في جميعِ الأمورِ؛ لأنَّ المالَ والصِّحَّةَ والقوَّةَ وغيرَ ذلك مِن الأشياءِ كلُّها مِن خَزائنِ الله). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٢).

وقال ابن كثير: (أهم يَتصرَّفون في المُلكِ، وبيَدِهم مَفاتيحُ الخَزائنِ؟). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٥).

وقال الزَّجَّاج: (أي: عندَهم ما في خزائنِ ربِّك مِن العِلمِ؟). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠١).

وقال ابن جُزَي: (﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ المعنى: أعِندَهم خزائنُ الله بحيث يَستَغنون عن عبادتِه؟ وقيل: أعِندَهم خزائنُ الله بحيث يُعطُون مَن شاؤوا، ويَمنَعون مَن شاؤوا، ويَخُصُّون بالنُّبوَّةِ مَن شاؤوا؟). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٤).

أي: أم هم المُتسَلِّطونَ في الدُّنيا بتدبيرِ الأُمورِ، وقَهرِ النَّاسِ، والتَّصَرُّفِ في إعطائِهم ومَنْعِهم[1]؟!

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نَفَى أن يكونَ لهم تصَرُّفٌ قَوِيٌّ أو ضعيفٌ في مواهِبِ اللهِ تعالى على عبادِه؛ أعقَبَه بنَفيِ أن يكونَ لهم اطِّلاعٌ على ما قَدَّره اللهُ لِعبادِه اطِّلاعًا يُخَوِّلُهم إنكارَ أن يُرسِلَ اللهُ بَشَرًا أو يُوحِيَ إليه؛ وذلك لإبطالِ قَولِهم: ﴿نَقَوَّلَهُۥ﴾[2] [الطور: ٣٣].

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾.

أي: أم لهم سُلَّمٌ يَصعَدونَ به إلى السَّماءِ؛ لِيَستَمِعوا فيه إلى الوَحيِ أو الغَيبِ[3]؟!

﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾.

أي: فلْيَأْتِ مَن استَمَعَ منهم إذَنْ بحُجَّةٍ ظاهِرَةٍ تُبَيِّنُ أنَّهم على الحَقِّ فيما يَدَّعُونَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٧، ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٥، ٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٣).

﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا جرَى نَفيُ أن تكونَ لهم مُطالَعةُ الغَيبِ مِن المَلإِ الأعلَى؛ إبطالًا لِمَقالاتِهم في شُؤونِ الرُّبوبيَّةِ- أعقَبَ ذلك بإبطالِ نِسبتِهم للهِ بناتٍ؛ استِقصاءً لإبطالِ أوهامِهم في المُغَيَّباتِ مِن العالَمِ العُلويِّ[1].

﴿ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

أي: أمْ للهِ -سُبحانَه- البَناتُ، كما ادَّعيتُم وزَعمتُم أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ، ولكم البَنونَ الَّذين تُفَضِّلونَهم على البَناتِ، فنَسَبتُم إلى اللهِ تعالى الأنقَصَ لَدَيكم[2]؟!

قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [النحل: ٥٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٥].

﴿ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعْدَ أن أبطَلَ وَسائِلَ اكتِسابِ العِلمِ بما زَعَموه؛ عاد إلى إبطالِ الدَّواعي الَّتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

تحمِلُهم على الإعراضِ عن دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: أم تَسألُهم -يا محمَّدُ- مالًا مُقابِلَ دَعوتِك لهم إلى الحَقِّ، أو انقيادِهم إليه؛ فهم بسَبَبِ مَشقَّةِ ما كلَّفْتَهم مِن أموالٍ لا يَستَجيبونَ لك[٢]؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٦، ٨٧].

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أنْ رَدَّ عليهم إنكارَهم الإسلامَ بأنَّهم كالَّذين سألَهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أجرًا على تَبليغِها؛ أعقَبَه برَدٍّ آخَرَ بأنَّهم كالَّذين اطَّلَعوا على أنَّ عندَ اللهِ ما يُخالِفُ ما ادَّعى الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إبلاغَه عن اللهِ، فهم يَكتُبونَ ما اطَّلَعوا عليه، فيَجِدونَه مُخالِفًا لِما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣]!

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾.

أي: أم عِندَ المُشرِكينَ عِلمُ ما غاب عنِ النَّاسِ، فهم يَكتُبونَه[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٩)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٥، ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِن نقْضِ أقوالِهم وإبطالِ مَزاعِمِهم إلى إبطالِ نيَّاتِهم وعَزائمِهم مِن التَّبييتِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وللمُؤمنينَ، ولدَعوةِ الإسلامِ مِن الإضرارِ والإخفاقِ(١).

وأيضًا لَمَّا قالوا: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠]، قيل لهم: أتَعلَمونَ الغَيبَ، فتَعلَمونَ أنَّه يَموتُ قَبْلَكم، أم تُريدونَ كَيدًا ومِن ذلك أنَّكم تقولونَ: نَقتُلُه فيَموتُ قَبْلَنا؟ فإنْ كنتُم تَدَّعُونَ الغَيبَ فأنتم كاذِبونَ، وإنْ كنتُم تظُنُّونَ أنَّكم

---

= (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٦).

قال ابن عطية: (فهم يُبَيِّنونَ ذلك للنَّاسِ سَنَنًا وشَرعًا يَكتُبونَه، وذلك عبادةُ الأوثانِ، وتَسييبُ السَّوائِبِ، وغَيرُ ذلك مِن سِيَرِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٣).

وقال القرطبي: (أي: يَكتُبونَ للنَّاسِ ما أرادوه مِن عِلمِ الغُيوبِ. وقيل: أي: أم عِندَهم عِلمُ ما غاب عن النَّاسِ حتَّى عَلِموا أنَّ ما أخبَرَهم به الرَّسولُ مِن أمرِ القيامةِ والجنَّةِ والنَّارِ والبَعثِ باطِلٌ. وقال قتادةُ: لَمَّا قالوا: ﴿نَتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ قال الله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ حتَّى عَلِموا متى يموتُ محمَّدٌ، أو إلامَ يَؤولُ إليه أمرُه. وقال ابنُ عبَّاسٍ: أم عِندَهم اللَّوحُ المحفوظُ، فهم يَكتُبونَ ما فيه، ويُخبِرونَ النَّاسَ بما فيه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: أعِنْدَهم اللَّوحُ المحفوظُ: ابنُ جرير، والرَّسْعَنيُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: عِلمُ ما غاب عنهم: الثعلبيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠١).

وقال ابن أبي زَمَنين: (عِلْم غَيبِ الآخرةِ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

تَقدِرونَ عليه فأنتم غالِطونَ؛ فإنَّ اللهَ يَصونُه عنكم، ويَنصُرُه عليكم[١].

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾.

أي: أم يُريدُ أولئك أن يَكيدوا كَيدًا يُبطِلونَ به الحَقَّ[٢]؟!

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾.

أي: فالَّذين كَفَروا هم الَّذين يُكادُ بهم في الحَقيقةِ، ووَبالُ كَيدِهم عائِدٌ على أنفُسِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

قال السعدي: (قوله: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ ﴾ بقَدْحِهم فيك وفيما جِئتَهم به ﴿ كَيْدًا ﴾ يُبطِلون به دينَك، ويُفسِدون به أمْرَك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧).

وقال ابن جُزَي: (﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ إشارةٌ إلى كَيدِهم في دارِ النَّدوةِ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، حيث تشاوَروا في قتلِه أو إخراجِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٤).

وقال ابن عثيمين: (﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ﴾ يعني: أيُريدُ هؤلاء أن يَكيدوا لك يا محمَّدُ بإبطالِ دعوتِك، وإهلاكِك وإماتَتِك). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

أي: أم لهم مَعبودٌ آخَرُ غَيرُ اللهِ يَستَحِقُّ العِبادةَ، فهم يَعبُدونَه[١]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تنزَّه اللهُ عن أن يكونَ له شَريكٌ في العِبادةِ؛ فهو الواحِدُ الأحَدُ الَّذي لا مِثْلَ له ولا نِدَّ[٢].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ ثُمَّ رَزَقَكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۖ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفۡعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَيۡءٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ ضُرِبَ المَثَلُ بالخَزائِنِ؛ لأنَّ الخِزانةَ بَيتٌ يُهَيَّأُ لجَمعِ أنواعٍ مُختَلِفةٍ مِنَ الذَّخائِرِ، ومَقدوراتُ الرَّبِّ كالخزائِنِ الَّتي فيها مِن كُلِّ الأجناسِ، فلا نهايةَ لها[٣]!

٢- ليس في الآيةِ الاستِدلالُ لهذا النَّفْيِ في قولِه: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾؛ لأنَّ وُضوحَه كَنارٍ على عَلَمٍ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾ سؤالٌ: أنَّ المقصودَ نَفيُ الصُّعودِ، ولا يَلزَمُ مِن نَفيِ السُّلَّمِ لهم نفيُ الصُّعودِ، فما الجوابُ عنه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٧١٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٤، ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧١، ٧٢).

**الجوابُ**: أنَّ النَّفيَ أبلَغُ مِن نَفيِ الصُّعودِ، وهو نَفيُ الاستِماعِ، وآخِرُ الآيةِ شامِلٌ للكُلِّ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ إشارةٌ إلى لَطيفةٍ: وهي أنَّه لو طُلِبَ منهم ما سَمِعوه، وقيلَ لهم: فلْيَأتِ مُستَمِعُهم بما سَمِعَ، لَكان لواحِدٍ أن يَقولَ: أنا سَمِعتُ كذا وكذا، فيَفتَري كَذِبًا، فقال: لا، بل الواجِبُ أن يأتيَ بدَليلٍ يدُلُّ عليه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ إشارةٌ إلى نَفيِ الشِّركِ، وفَسادِ ما يقولونَ بطَريقٍ آخَرَ، وهو أنَّ المتصَرِّفَ إنَّما يَحتاجُ إلى الشَّريكِ لِعَجزِه، واللهُ قادِرٌ فلا شريكَ له؛ فإنَّهم قالوا: نحنُ لا نجعَلُ هذه الأصنامَ وغَيرَها شُرَكاءَ، وإنَّما نُعَظِّمُها لأنَّها بناتُ اللهِ! فقال تعالى: كيف تَجعَلونَ لله البَناتِ، وخَلقُ البناتِ والبَنينَ إنَّما كان لجَوازِ الفَناءِ على الشَّخصِ؟! ولهذا لا يكونُ في الجنَّةِ وِلادةٌ؛ لأنَّ الدَّارَ دارُ البَقاءِ، لا مَوتَ فيها للآباءِ حتَّى تُقامَ العِمارةُ بحُدوثِ الأبناءِ، إذا ثَبَت هذا فالولَدُ إنَّما يكونُ في صورةِ إمكانِ فَناءِ الأَبِ؛ ولهذا قال تعالى في أوائِلِ سُورةِ (آلِ عِمرانَ): ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ٢] أي: حيٌّ لا يموتُ فيَحتاجَ إلى وَلَدٍ يَرِثُه! وهو قيُّومٌ لا يتغَيَّرُ ولا يَضعُفُ فيَفتَقِرَ إلى ولَدٍ لِيَقومَ مَقامَه[٣].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ هل في خُصوصِ قَولِه تعالى: ﴿أَجْرًا﴾ فائِدةٌ لا تُوجَدُ في غيرِه، كما لو قال: «أم تسألُهم شيئًا أو مالًا» أو غيرَ ذلك؟

**الجوابُ**: نعَمْ؛ فكُلُّ لفظٍ في القُرآنِ فيه فائِدةٌ وإنْ كُنَّا لا نَعلَمُها، والَّذي يَظهَرُ هاهنا أنَّ ذلك إشارةٌ إلى أنَّ ما يأتي به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيه مَصلحتُهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وذلك لأنَّ الأجرَ لا يُطلَبُ إلَّا عندَ فِعلِ شَيءٍ يُفيدُ المطلوبَ منه الأجرُ، فقال: أنت أتَيْتَهم بما لو طلَبْتَ عليه أجرًا، وعَلِموا كمالَ ما في دعوتِك من المنفَعةِ لهم وبهم؛ لَأتَوك بجَميعِ أموالِهم، ولَفَدوك بأنفُسِهم، ومع هذا لا تَطلُبُ منهم أجرًا، ولو قال: «شيئًا أو مالًا» لَمَا حصَلَت هذه الفائِدةُ. واللهُ أعلَمُ[1].

٧- الرُّسُلُ عليهم الصَّلواتُ والسَّلامُ لا يأخُذونَ أجرًا على التَّبليغِ، وهناك آياتٌ دالَّةٌ على ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾، فما وجهُ الجَمعِ بيْنَ تلك الآياتِ وآيةِ سُورةِ (الشُّورى): ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: على القَولِ بأنَّ معنى الآيةِ: إلَّا أن تَوَدُّوني في قَرابتي الَّتي بيْني وبيْنَكم، فتَكُفُّوا عنِّي أذاكم، وتمنَعوني مِن أذى النَّاسِ، كما تَمنَعونَ كُلَّ مَن بيْنَكم وبيْنَه مِثلُ قرابتي منكم، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم له في كُلِّ بَطنٍ مِن قُرَيشٍ رَحِمٌ؛ فهذا الَّذي سألهم ليس بأجرٍ على التَّبليغِ؛ لأنَّه مَبذولٌ لكُلِّ أحَدٍ؛ لأنَّ كُلَّ أحَدٍ يَوَدُّه أهلُ قَرابتِه، وينتَصِرونَ له مِن أذى النَّاسِ، وقد فَعَل له ذلك أبو طالبٍ، ولم يكُنْ يسألُ أجرًا على التَّبليغِ؛ لأنَّه لم يُؤمِنْ، وإذا كان لا يَسألُ أجرًا إلَّا هذا الَّذي ليس بأجرٍ؛ تحَقَّق أنَّه لا يَسألُ أجرًا.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ معنى الآيةِ ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: لا تُؤذُوا قرابتي وعِتْرتي، واحفَظوني فيهم، وعليه فلا إشكالَ؛ لأنَّ المودَّةَ بين المُسلِمينَ واجِبةٌ فيما بيْنَهم، وأحرى قرابةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والأحاديثُ في مِثلِ هذا كثيرةٌ جِدًّا، وإذا كان نفْسُ الدِّينِ يُوجِبُ هذا بيْنَ المسلِمينَ؛ تَبيَّن أنَّه غيرُ عِوَضٍ عن التَّبليغِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٠).

وقيل: الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ على كِلا القَولَينِ، وعليه فلا إشكالَ، فمعناه على القَولِ الأوَّلِ: لا أسألُكم عليه أجرًا لكِنْ أُذَكِّرُكم قرابتي فيكم. وعلى الثَّاني: لكِنْ أُذَكِّرُكم اللهَ في قرابتي؛ فاحفَظوني فيهم.

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّ معنى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلَّا أن تتودَّدوا إلى اللهِ، وتتقَرَّبوا إليه بالطَّاعةِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وعليه فلا إشكالَ؛ لأنَّ التَّقَرُّبَ إلى اللهِ ليس أجرًا على التَّبليغِ.

**الوَجهُ الرَّابعُ**: أنَّ معنى ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إلَّا أن تتودَّدوا إلى قراباتِكم، وتَصِلوا أرحامَكم، وعليه أيضًا فلا إشكالَ؛ لأنَّ صِلةَ الإنسانِ رَحِمَه ليست أجرًا على التَّبليغِ[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ كَشفٌ لسرائِرِ المُشرِكينَ، وتنبيهٌ للمُؤمِنينَ؛ للحَذَرِ مِن كَيدِهم[2].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ الجَوابُ حَقيقةً: لا، وادِّعاءً: نعَمْ، لهم آلهةٌ غيرُ اللهِ يَعبُدونَها: اللَّاتُ، والعُزَّى، ومَناةُ، وهُبَلُ، وغَيرُها مِن الأصنامِ المعروفةِ عندَ العربِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، فنَزَّهَ اللهُ سُبحانَه وتعالى نفْسَه عمَّا يُشرِكُ به هؤلاء؛ لِيُبيِّنَ أنَّ هذه الأصنامَ باطِلةٌ، وأنَّ اللهَ تعالى مُنَزَّهٌ عن كلِّ شَريكٍ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ انتِقالٌ بالعَودِ إلى

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٩-٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٠).

رَدِّ جُحودِهم رِسالةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ولذلك غُيِّرَ أُسلوبُ الإخبارِ فيه إلى مُخاطَبَةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمعْنى: إبطالُ أنْ يكونَ لهم تَصرُّفٌ في شُؤونِ الرُّبوبيَّةِ، فيَجعَلوا الأُمورَ على مَشيئتِهم كالمالِكِ في مُلْكِه، والمُدبِّرِ فيما وُكِّلَ عليه(١).

- والاستِفهامُ ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ إنكاريٌّ، بتَنزيلِهم في إبطالِ النُّبوَّةِ عمَّن لا يَرْضَونَه مَنزِلةَ مَن عِندَهم خَزائنُ اللهِ؛ يَخلَعونَ الخُلَعَ منها على مَن يَشاؤُونَ، ويَمنَعونَ مَن يَشاؤُونَ(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم تُذكَرِ الرَّحمةُ هنا؛ لأنَّه لَمَّا كان ذِكرُ الرَّحمةِ لا يَقتضيهِ مَقصودُ السُّورةِ -الَّذي هو العذابُ-؛ لم تُذكَرْ كما في سُورةِ (ص) في قولِه تعالى: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾ [ص: ٩]، وكذا في سُورةِ (الإسراءِ) في قولِه تعالى: ﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ﴾ [الإسراء: ١٠٠]؛ فلذلك قِيل هنا: ﴿ رَبِّكَ ﴾(٣).

- وأيضًا قد سُلِكَ معهم هنا مَسلَكُ الإيجازِ في الاستِدلالِ بإحالَتِهم على مُجمَلٍ أجْمَله قولُه: ﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ غَضَبٍ عليهم؛ لجُرْأَتِهم على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في نفْيِ الرِّسالةِ عنه بوَقاحةٍ مِن قولِهم: كاهنٌ، ومَجنونٌ، وشاعرٌ، بخِلافِ آيةِ (الأنعامِ) في قولِه تعالَى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠]؛ فإنَّها ردَّتْ عليهم تَعريضَهم أنفُسَهم لنَوالِ الرِّسالةِ عن اللهِ؛ فقولُه تعالى هنا: ﴿ أَمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨).

عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ ﴾ هو كَقولِه في سُورةِ (ص): ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَاۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾ [ص: ٨، ٩]، وقولِه في سُورةِ (الزُّخرفِ): ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾[١] [الزخرف: ٣٢].

- قولُه: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾ إنكارٌ لأنْ يكونَ لهم تَصرُّفٌ في عَطاءِ اللهِ تَعالى ولو دونَ تَصرُّفِ المالِكِ، مِثْلُ تَصرُّفِ الوكيلِ والخازِنِ، وهو ما عُبِّرَ عنه بـ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

- حُذِفَ مَفعولُ ﴿يَسْتَمِعُونَ ﴾؛ ليَعُمَّ كَلامًا مِن شأْنِه أنْ يُسمَعَ مِن الأخبارِ المُغَيَّبَةِ بالمُستقبَلِ وغيرِه، الواقِعِ وغيرِه[٣].

- وسُلِكَ في نفْيِ عِلْمِهم بالغَيبِ طَريقُ التَّهكُّمِ بهم بإنكارِ أنْ يكونَ لهم سُلَّمٌ يَرْتَقون به إلى السَّماءِ ليَسْتمِعوا ما يَجْري في العالَمِ العُلويِّ مِن أمْرٍ تَتلقَّاهُ الملائكةُ، أو أهلُ المَلأِ الأعْلى بعضُهم مع بعضٍ، فيَسْترِقُوا بعضَ العِلمِ ممَّا هو مَحجوبٌ عن النَّاسِ؛ إذ مِن المَعلومِ أنَّه لا سُلَّمَ يصِلُ أهلَ الأرضِ بالسَّماءِ، وهم يَعلَمون ذلك، ويَعلَمُه كلُّ أحدٍ[٤].

- وعُلِمَ مِنِ اسمِ السُّلَّمِ أنَّه آلةُ الصُّعودِ، وعُلِمَ مِن ذِكْرِ السَّمواتِ في الآيةِ قبْلَها أنَّ المُرادَ سُلَّمٌ يَصعَدونَ به إلى السَّماءِ؛ فلذلك وُصِفَ بـ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٠، ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: يَرْتَقون به إلى السَّماءِ فيَستمِعون وهمْ فيه -أي: في دَرَجاتِه- الكلامَ الَّذي يَجْري في السَّماءِ[١].

- وإسنادُ الاستِماعِ إلى ضَميرِ جَماعَتِهم على اعتبارِ أنَّ المُستمِعَ سَفيرٌ عنهم، على عادةِ استعمالِ الكلامِ العرَبيِّ مِن إسنادِ فِعلِ بَعضِ القَبيلةِ إلى جَميعِها إذا لم تَصُدَّه عن عمَلِه؛ ألَا تَرى أنَّه قال بعْدَ هذا: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم﴾، أي: مَن استمَعَ منهم لأجْلِهم، أي: أرْسَلوه للسَّمْعِ[٢].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ لتَفريعِ هذا الأمْرِ التَّعجيزيِّ على النَّفيِ المُستفادِ مِن استِفهامِ الإنكارِ، فالمَعْنى: فما يأْتي مُستمِعٌ منهم بحُجَّةٍ تدُلُّ على صِدْقِ دَعواهم، فلامُ الأمْرِ مُستعمَلٌ في إرادةِ التَّعجيزِ؛ بقَرينةِ انتفاءِ أصْلِ الاستِماعِ بطَريقِ استِفهامِ الإنكارِ[٣].

- قولُه: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هذا تَحدٍّ لهم بكَذِبِهم؛ فلذلك اكْتُفِيَ بأنْ يأتِيَ بعضُهم بحُجَّةٍ دونَ تَكليفِ جَميعِهم بذلك، أي: فلْيأتِ مَن يَتعهَّدُ منهم بالاستِماعِ بحُجَّةٍ، وهذا بمَنزِلةِ التَّذييلِ للكلامِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾

- الاستِفهامُ إنكارٌ لأنْ يَكونَ للهِ البناتُ، ودليلُ الإنكارِ في نفْسِ الأمْرِ استحالةُ الولَدِ على اللهِ تعالى، ولكنْ لَمَّا كانت عُقولُ أكثَرِ المُخاطَبينَ بهذا الرَّدِّ غيرَ مُستعِدَّةٍ لإدراكِ دَليلِ الاستِحالةِ، وكان اعتقادُهم البناتِ للهِ مُنكَرًا؛ تُصُدِّيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٢، ٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لدَليلِ الإبطالِ، وسُلِكَ في إبطالِه دَليلٌ إقناعيٌّ يَتفطَّنون به إلى خَطَلِ رأْيِهم، وهو قولُه: ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾؛ فجُملةُ ﴿وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ الغائبِ، أي: كيف يكونُ للهِ البناتُ في حالِ أنَّ لكم بَنينَ؟! وهم يَعلَمونَ أنَّ صِنفَ الذُّكورِ أشرَفُ مِن صِنفِ الإناثِ على الجُملةِ، كما أشارَ إليه قولُه تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۞ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]؛ فهذا مُبالَغةٌ في تَشنيعِ قولِهم، وتَسفيهٌ لهم ولعُقولِهم، فليس المُرادُ أنَّهم لو نَسَبوا للهِ البنينَ لَكانَ قَولُهم مَقبولًا؛ لأنَّهم لم يَقولوا ذلك، فلا طائلَ تحتَ إبطالِه[1]. وفيه إشعارٌ بأنَّ مَن هذا رأيُه لا يُعَدُّ مِن العُقلاءِ، فضلًا أنْ يترقَّى برُوحِه إلى عالَمِ الملَكوتِ فيَتطلَّعَ على الغُيوبِ[2].

- وتَغييرُ أُسلوبِ الغَيبةِ المُتَّبَعِ مِن قولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ [الطور: ٣٠] إلى أُسلوبِ الخِطابِ الْتِفاتٌ؛ مُكافَحةً لهم بالرَّدِّ بجُملةِ الحالِ، ولتَشْديدِ ما في (أَم) المُنقطِعةِ مِن الإنكارِ والتَّوبيخِ[3].

- وتَقديمُ (لَكُمْ) على ﴿ٱلْبَنُونَ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: لكمُ البَنونَ دونَه، فهمْ لهم بَنونَ وبناتٌ، وزَعَموا أنَّ اللهَ ليس له إلَّا البناتُ! وأمَّا تَقديمُ المَجرورِ على المُبتدَأِ في قَولِه: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾؛ فللاهتِمامِ باسمِ الجَلالةِ. وقد أُنْهِيَ الكلامُ بالفاصِلةِ؛ لأنَّه غرَضٌ مُستقِلٌّ[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ مُرتبطٌ بقولِه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ [الطور: ٣٣]، وقولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمُ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٣٧]؛ إذ كلُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٤).

ذلك إبطالٌ للأسبابِ الَّتي تَحمِلُهم على زعْمِ انتفاءِ النُّبوَّةِ عن محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والإعراضِ عن دَعوتِه، ومِن أجْلِ ذلك جاء هذا الكلامُ على أُسلوبِ الكلامِ الَّذي اتَّصَلَ هو به، وهو أُسلوبُ خِطابِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال هنا: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾، وقال هنالكَ: ﴿أَمْ عِندَهُمُ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾[1] [الطور: ٣٧].

- والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ بهم بتَنزيلِهم مَنزِلةَ مَن يَتوجَّسُ خِيفةً مِن أنْ يَسأَلَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أجْرًا على إرشادِهم، والمَقصودُ: ما في التَّهكُّمِ مِن مَعنى أنَّ ما نشَأَ عنه التَّهكُّمُ أمْرٌ لا يَنْبغي أنْ يَخطُرَ بالبالِ[2].

- وجِيءَ بالمُضارِعِ ﴿تَسْـَٔلُهُمْ﴾؛ لإفادةِ التَّجدُّدِ، أي: تَسأَلُهم سُؤالًا مُتكرِّرًا؛ لأنَّ الدَّعوةَ مُتكرِّرةٌ، وقدْ شُبِّهَت بسُؤالِ سائلٍ[3].

- وتَفريعُ ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾؛ لِما فيه مِن بَيانِ المُلازَمةِ بيْنَ سُؤالِ الأجْرِ وبيْنَ تَجَهُّمِ مَن يَسأَلُ والتَّحرُّجِ منه، وقد فُرِّعَ قولُه: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ على الفِعلِ المُستفهَمِ عنه لا على الاستِفهامِ، أي: ما سألْتَهم أجْرًا فيَثْقُلَ غُرْمُه عليهم؛ لأنَّ الاستِفهامَ في مَعنى النَّفْيِ، والإثقالُ يَتفرَّعُ على سُؤالِ الأجْرِ المفروضِ؛ لأنَّ مُجرَّدَ السُّؤالِ مُحرِجٌ للمَسؤولِ؛ لأنَّه بيْنَ الإعطاءِ وهو ثَقيلٌ، وبيَّنَ الرَّدِّ وهو صعْبٌ[4].

- والمُثقَلُ: أصْلُه المُحمَّلُ بشَيءٍ ثَقيلٍ، وهو هنا مُعبَّرٌ به عمَّن يُطالَبُ بما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يَعسُرُ عليه أداؤُه، شُبِّهَ طَلَبُه أداءَ ما يَعسُرُ عليه بحَمْلِ الشَّيءِ الثَّقيلِ على مَن لا يَسهُلُ عليه حَمْلُه(١).

- و(مِنْ) للتَّعليلِ، أي: مُثقَلونَ مِن أجْلِ مَغْرَمٍ حُمِّلَ عليهم(٢).

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ هذا نَظيرُ الإضرابِ والاستِفهامِ في قولِه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٣٧]، أي: بلْ أعِندَهم الغَيبُ فهمْ يَكتُبون ما يَجِدونه فيه ويَرْوُونه للنَّاسِ؟! أي: ما عِندَهم الغَيبُ حتَّى يَكتُبوه(٣).

- وكَلمةُ (عِند) تُؤذِنُ بمَعنى الاختِصاصِ والاستئثارِ، أي: اسْتأْثروا بمَعرفةِ الغَيبِ، فعَلِموا ما لم يَعلَمْه غيرُهم(٤).

- والتعَّريفُ في (الغيب) تَعريفُ الجِنسِ(٥).

- والكِتابةُ في قولِه: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ يَجوزُ أنَّها مُعبَّرٌ بها عن الجزْمِ الَّذي لا يَقبَلُ التَّخلُّفَ؛ لأنَّ شأْنَ الشَّيءِ الَّذي يُرادُ تَحقيقُه والدَّوامُ عليه أنْ يُكتَبَ ويُسجَّلَ؛ فيَكونُ الخبَرُ في قولِه: ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ مُستعمَلًا في مَعناهُ مِن إفادةِ النِّسبةِ الخبَريَّةِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الكتابةُ على حَقيقتِها، أي: فهمْ يُسجِّلونَ ما اطَّلَعوا عليه مِن الغَيبِ؛ ليَبْقَى مَعلومًا لِمَن يطَّلِعُ عليه، ويكونَ الخبَرُ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ مُستعمَلًا في مَعنى الفرْضِ والتَّقديرِ، تَبَعًا لفرْضِ قولِه: ﴿عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾، وحاصِلُ المَعنى: أنَّهم لا قِبَلَ لهم بإنكارِ ما جَحَدوه، ولا بإثباتِ ما أثْبَتوه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٥، ٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٦، ٧٧).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾

- حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿كَيْدًا﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ ما يَسْتطيعونَ أنْ يَكِيدوهُ؛ فكانتْ هذه الجُملةُ بمَنزِلةِ التَّتميمِ لنقْضِ غَزْلِهم، والتَّذييلِ بما يَعُمُّ كلَّ عَزْمٍ يَجْري في الأغراضِ الَّتي جَرَت فيها مَقالاتُهم[1].

- وعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾، وكان مُقْتضى الظاهِرِ أنْ يُقالَ: (فهُمُ المَكِيدون)؛ للتَّسجيلِ على كُفْرِهم؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن وَجْهِ حُلولِ الكَيدِ بهم؛ لأنَّهم كَفَروا باللهِ، فاللهُ يُدافِعُ عن رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعن المؤمنينَ، وعن دِينِه كَيْدَهم، ويُوقِعُهم فيما نَوَوا إيقاعَهم فيه، فالتَّعريفُ في ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ للعهدِ. أو التَّعريفُ للجنسِ، والمرادُ جميعُ الكفرةِ، وكفَّارُ قريشٍ داخِلونَ فيهم دُخولًا أوَّليًّا[2].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُم) أفادَ القَصْرَ، أي: الَّذين كَفَروا المَكِيدونَ دونَ مَن أرادوا الكَيدَ به[3].

- وتَفريعُ ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾؛ لِما فيه مِن بَيانِ المُلازَمةِ بيْنَ كَيدِهم للنَّبيِّ والمؤمنينَ، وبيْنَ كَيدِ اللهِ لهُمْ[4].

٧- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ لَمَّا كان ما نُعِيَ عليهم مِن أوَّلِ السُّورةِ ناقضًا لأقوالِهم ونيَّاتِهم، وكان ما همْ فيه مِن الشِّركِ أعظَمَ؛ لم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٧٥، ٧٨).

يُتْرَكْ عَدُّ ذلك عليهمْ مع اشتِهارِه، بعْدَ استيفاءِ الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ بهذه المُناسَبةِ؛ ولذلك كان هذا المُنتقَلُ إليه بمَنزِلةِ التَّذييلِ لِما قبْلَه؛ لأنَّه ارْتِقاءٌ إلى الأهمِّ في نَوعِه، والأهمُّ يُشبِهُ الأعمَّ؛ فكان كالتَّذييلِ(١).

- وقدْ وقَعَ قولُه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إتمامًا للتَّذييلِ، وتَنهيةً للمَقصودِ مِن فضْحِ حالِهم(٢).

- والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَم) استِفهامٌ إنكاريٌّ(٣).

- ومِن قولِه تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ [الطور: ٣٠] إلى قولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ [الطور: ٤٣]، تَدرُّجٌ منه سُبحانه في حِكايةِ ما قالُوه مِن المنكَرِ إلى ما هو أدخَلُ فيه، والكلامُ لتَسليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّه لا مَحالةَ يَنتقِمُ له منْهم، وأنَّ العذابَ المكذَّبَ به واقِعٌ بهم جَزاءً لتَكذيبِهم بالمُنبِئِ والنَّبأِ والمُنبَّأِ به.

ومِن قولِه تعالَى: ﴿فَمَآ أَنتَ﴾ [الطور: ٢٩] إلى قولِه سُبحانَه: ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢]، تَفصيلٌ لما أُجْمِل معَ التَّعريضِ بفَسادِ مَقالاتِهم الحَمقاءِ، وأنَّهم بمَرأًى مِن اللهِ تعالَى ومَسمَعٍ؛ فلا مَحالةَ يَنتقِمُ لنَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ منهم، وفيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن اللهِ تَعالى بمَكانٍ لا يُقادَرُ قدْرُه.

وقولُه سُبحانَه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ ...﴾ [الطور: ٢٩] إلخ، فيه أنَّ مَن أُنعِمَ عليه بالنُّبوَّةِ يَستحيلُ أنْ يكونَ أحَدَ هذَينِ، وبدَأَ بقَولِهم المتناقِضِ؛ ليُنبِّهَ أوَّلًا على فَسادِ آرائِهم، ويَجعَلَه دُستورًا في إعراضِهم عن الحقِّ، وإيثارِ اتِّباعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أهْوائِهِم، والمعنى: فما أبعَدَ حالَ مَن كان أتقَنَهم رأْيًا، وأرجَحَهم عقْلًا، وأبْيَنَهم آيًا، منذُ تَرَعرَعَ إلى أنْ بلَغَ الأَشُدَّ عن الجُنونِ والكِهانةِ! على أنَّهما مُتناقِضانِ؛ لأنَّ الكُهَّانَ كانوا عِندَهم مِن كامِلِيهم، وكان قولُهم إمامًا مُتَّبَعًا عِندَهم، فأينَ الكِهانةُ مِن الجُنونِ؟!

ثمَّ تَرقَّى مُضرِبًا إلى قَولِهم فيه -وحاشاهُ صلَّى اللهُ تعالى عليه وسلَّمَ-: إنَّه شاعِرٌ؛ لأنَّه أدْخَلُ في الكذِبِ مِن الكاهِنِ والمجنونِ، وقديمًا قِيل: أحسَنُ الشِّعرِ أكذَبُه؛ ليُبيِّنَ حالَ تَلَجْلُجِهم واضْطِرابِهم.

وقولُه تعالَى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ [الطور: ٣١] مِن بابِ المُجازاةِ بمِثلِ صَنيعِهم، وفيه تتْميمٌ للوعيدِ؛ فهذا بابٌ مِن إنْكارِهم، هَدَمَه سُبحانه أوَّلًا تَلويحًا بقولِه تعالَى: ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾، وثانيًا تَصريحًا بقَولِه جلَّ وعَلا: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم﴾ [الطور: ٣٢]، كأنَّه قِيل: دَعْهم وتِلكَ المقالةَ وما فيها مِن الاضطرابِ؛ ففيها عِبرةٌ، ثمَّ قِيل: لا، بلْ ذلك مِن طُغيانِهم؛ لأنَّه أدخَلُ في الذَّمِّ مِن نُقْصانِ العَقْلِ، وأبلَغُ في التَّسليةِ؛ لأنَّ مَن طَغَى على اللهِ عزَّ وجلَّ، فقدْ باءَ بِغَضَبِه.

ثمَّ أخَذَ في بابِ أدْخَلَ في الإنكارِ، وهو نِسبةُ الافتراءِ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ وذلك لأنَّ الافتراءَ أبعَدُ شَيءٍ مِن حالِه؛ لاشتِهارِه بالصِّدقِ، على أنَّ كَونَه افتِراءً وعجْزَهم عن الإتيانِ بأقصَرِ سُورةٍ مِن هذا المُفترَى؛ مُتنافيانِ؛ لدَلالتِه على الصِّدقِ، ولأنَّ الشَّاعِرَ لا يَتعمَّدُ الكذِبَ لِذاتِه، ثمَّ قدْ يكونُ شِعْرُه حِكَمًا ومَواعِظَ.

والتَّدرُّجُ عن الشِّعرِ هاهنا عكْسُ التَّدرُّجِ إليه في (الأنبياءِ) في قولِه سبحانه: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء: ٥]؛ لأنَّ بِناءَ الكلامِ هاهنا على التَّدرُّجِ في المناقَضةِ والتَّوغُّلِ في القدْحِ فيه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ

ونفْيِ رِسالتِه، وهنالك عن القدْحِ في بَعضٍ مِن الذِّكْرِ مُتجدِّدِ النُّزولِ، فقِيل: إنَّ افتراءَه لا يَبعُدُ ممَّن هو شاعرٌ ذو افتراءاتٍ كثيرةٍ، وأيْن هذا مِن ذاك؟! وللتَّنبيهِ على التَّوغُّلِ جِيءَ بصَريحِ حرْفِ الإضرابِ في الرَّدِّ، فقِيل: ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]، وعُقِّبَ بقولِه تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾ [الطور: ٣٤]، ثمَّ مَن لا يُؤمِنُ أشدُّ إنكارًا له مِن الطَّاغي، كما أنَّ المفتريَ أدخَلُ في الكذِبِ مِن الشَّاعِرِ.

ثمَّ أخَذَ في أُسلوبٍ أبلَغَ في الرَّدِّ على مَقالاتِهم -الجُنونِ والكِهانةِ-؛ لتَقارُبِهما، ثمَّ الشِّعرِ، ثمَّ الافتراءِ، حيث نزَّل القائلينَ مَنزِلةَ مَن يدَّعي أنَّه خُلِقَ مِن غَيرِ شَيءٍ، أي: مُقدِّرٍ وخالِقٍ، وإلَّا لَأهَمَّهم البحثُ عن صِفاتِه وأفعالِه فلَمْ يُنكِروا منك ما أنْكَروا، ومَن حسِبَ أنَّه مُستغنٍ عن الخالقِ نَسَب رَسولَه إلى الجُنونِ والكِهانةِ، لا، بلْ كمَن يدَّعي أنَّه خالِقُ نفْسِه، فلا خالِقَ له ليَبحَثَ عن صِفاتِه، فهو يَنسُبُه إلى الشِّعرِ؛ إذ لا يُرسَلُ إليه البتَّةَ، والشِّعرُ أدخَلُ في الكذِبِ، لا، بلْ كمَن يدَّعي أنَّه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما، فهو يَنسُبُه إلى الافتِراءِ حيثُ لم يُرسِلْه!

ثمَّ أضرَبَ عنه صَريحًا بقولِه تعالَى: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [الطور: ٣٦]، ومَن لا إيقانَ له بمِثلِ هذا البَديهيِّ لا يَبعُدُ أنْ يَزُنَّك بما زَنَّ[1]، فكأنَّه قِيل: مَقالتُهم تلك تُؤدِّي إلى هذه، لا أنَّهم كانوا قائلينَ بها؛ إظهارًا لتَماديهم في العِنادِ.

ثمَّ بُولِغَ فيه فجِيءَ في قوله: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٣٧] بما يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ لا بُدَّ أنْ يكونَ مُفتريًا، غيرَ صالحٍ للنُّبوَّةِ في زعْمِهم؛ لأنَّه إذا كان عِندَهم جَميعُ خَزائنِ ربِّه وهمْ ما أرسَلُوه، لَزِمَ أنْ يكونَ مُفتريًا البتَّةَ، وأُدمِجَ فيه إنكارُهم للمَعادِ، ونِسبتُهم إيَّاهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في ذلك أيضًا خاصَّةً إلى

(١) يَزُنَّك: أي: يتَّهِمَك. مِن قولهم: زَنَنْتُه زَنًّا: إذا ظننتَ به واتَّهَمْتَه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢٥٧).

الافتراءِ. ولا يَخْفى ما في قولِه تعالى: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧] مِن التَّرقِّي.

ثمَّ لَمَّا فرَغَ مِن ذلك، وبيَّنَ فسادَ ما بَنَوا عليه أمْرَ الإنكارِ بدَليلِ العقْلِ؛ قِيل: لم يَبْقَ إلَّا المُشاهَدةُ والسَّماعُ منه تعالَى، وهو أظهَرُ استِحالةً، فتُهكِّمَ بهمْ، وقِيل: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ﴾ [الطور: ٣٨]، وذُيِّلَ بقولِه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ﴾ [الطور: ٣٩]؛ إشعارًا بأنَّ مَن جعَلَ خالِقَه أدْوَنَ حالًا منه، لم يُستبعَدْ منه تلك المقالاتُ الخرقاءُ، كأنَّه سُلِّيَ صلَّى اللهُ تعالَى عليه وسلَّمَ؛ وقيل: ناهِيكَ بتَساوي الطَّعنينِ في البُطلانِ، وبما يَلْقَون مِن سُوءِ مَغبَّتِهما.

ثم قِيل: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ [الطور: ٤٠]، وفيه تَهكُّمٌ بهم، وذمٌّ لهم بالحسَدِ واللُّؤمِ.

ثُمَّ قِيل: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ على معْنى: بلْ أعِندَهم اللَّوحُ -على قولٍ-، فيَعلَمون كُلَّ ما هو كائنٌ، ويَكتبُون فيه تلك المعلوماتِ، وقدْ عَلِموا أنَّ ما تدَّعِيه مِن المَعادِ ليس مِن الكائنِ المكتوبِ؟! والمقصودُ مِن هذا نفْيُ المُنْبَأ به -أي: البعثِ- على وجْهٍ يَتضمَّنُ دفْعَ النُّبوَّةِ أيضًا إدماجًا[1]، عكْسَ الأوَّلِ؛ ولهذا أخَّرَه عن قولِه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾؛ فقدْ سلَفَ أنَّ مَصَبَّ الغرَضِ حديثُ المُنبِئِ والنَّبأِ والمنبَّأ به، فقَضى الوطَرَ مِن الأوَّلَينِ مع الرَّمْزِ إلى الأخيرِ، ثمَّ أخَذَ فيه مع الرَّمْزِ إليهما قَضاءً لحَقِّ الإعجازِ؛ ففي ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ إشارةٌ إلى السَّاعةِ، وفيه ترَقٍّ في دَفْعِ كذبِهم وافتِراءاتِهم مِن وجْهٍ أيضًا؛ لأنَّ العِلمَ أشمَلُ مَورِدًا مِن القُدْرةِ، ولأنَّ الأوَّلَ إنكارٌ مِن حيثُ إنَّهم لم يُرسِلُوه، وهذا مِن تلك الحَيثيَّةِ، ومِن حيثُ إنَّهم ما عَلِموا بإرْسالِ غيرِه إيَّاه أيضًا مع إحاطةِ عِلمِهم، لكنَّه غيرُ مَقصودٍ قصْدًا أوَّليًّا.

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥).

ثمَّ ختَمَ الكلامَ بالإضرابِ عن الإنكارِ إلى الإخبارِ عن حالِهم بأنَّهم يُرِيدونَ بكَ كيدًا؛ فهمْ يَنصِبُون لك الحَبائلَ قوْلًا وفِعلًا، لا يَقِفون على هذه المقالةِ وحْدَها، وهم المَكيدونَ لا أنت؛ قولًا وفِعلًا، وحُجَّةً وسَيفًا، وحقَّقَ ما ضمَّنَه مِن الوَعيدِ بقولِه سُبحانَه: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾، فيُنجِّيهم مِن كَيدِه وعَذابِه؟! لا واللهِ، سُبحانَ اللهِ عن أنْ يكونَ إلهٌ غَيرُه! وما بَعْدَه مِن الآياتِ تأْكيدٌ لأمْرِ طُغيانِهم، ومَزيدُ تَحقيقٍ للوعيدِ، ومُبالَغةٌ في التَّسليةِ[1].

(١) نقَل هذه الوجوهَ ولخَّصها الألوسيُّ عن القزويني صاحِب «الكشف على الكشاف»؛ يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤١ - ٤٣).

## الآيات (٤٤-٤٩)

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كِسْفًا ﴾: أي: قِطْعةً أو قِطَعًا؛ يَجوزُ أنْ يكونَ وَاحِدًا، وأنْ يكونَ جمْعَ كِسْفَةٍ، مِثل سِدْرَةٍ وسِدْرٍ، وأمَّا (الكِسَف) -بفتْحِ السِّينِ- أي: القِطَعُ، فإنَّه جمْعُ كِسْفةٍ. والكِسْفةُ: القِطعةُ مِن الشَّيءِ، وأصلُ (كسف) هنا: يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[١].

﴿مَّرْكُومٌ ﴾: أي: مُتراكِمٌ؛ بَعضُه فوقَ بَعضٍ، وأصلُ (ركم): يدُلُّ على تجَمُّعِ شَيءٍ[٢].

﴿يُصْعَقُونَ ﴾: أي: يَموتونَ ويُهلَكونَ، وقيل: يُعذَّبون، والصَّاعِقةُ: هي الصَّوتُ الشَّديدُ مِن الجوِّ، ثمَّ يكونُ منه نارٌ فقط، أو عذابٌ، أو موتٌ، وقيل: الصَّاعقةُ: كلُّ عَذابٍ مُهلِكٍ، أو: هي اسمٌ للعذابِ على أيِّ حالٍ كان، وأصلُ (صعق): يدُلُّ على شِدَّةِ الصَّوتِ[٣].

---

(١) يُنظَر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٤/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٠٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٤، ٤٨٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير =

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالَى مبيِّنًا عنادَ المشركينَ ومُكابَرَتَهم للمحسوسِ: وإنْ يَرَ أولئك المُشرِكونَ قِطَعًا مِن السَّماءِ ساقِطةً عليهم، يقولوا: هذا سَحابٌ تراكَم بعضُه على بَعضٍ، ولا يُؤمِنوا بأنَّه عذابٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ فاترُكْهم -يا محمَّدُ- حتَّى يُلاقُوا يومَهم الَّذي فيه يُعذَّبونَ؛ يومَ لا يَنفَعُهم كَيدُهم شَيئًا، ولا هم يُنصَرونَ، وإنَّ لِلَّذِين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ باللهِ تعالى عَذابًا قبْلَ عَذابِ ذلك اليَومِ، ولكِنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمونَ!

ثمَّ يختمُ الله تعالى هذه الآياتِ بتوجيهِ الخِطابِ إلى نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، آمِرًا له بالصَّبرِ، وألَّا يعبأَ بهم، فيقولُ: واصبِرْ -يا محمَّدُ- لحُكْمِ رَبِّك؛ فإنَّك بمَرأًى مِنَّا، نَحُوطك ونَحميك، ونَزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- عن النَّقائِصِ تَنزيهًا مُقتَرِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ حينَ تَقومُ، وسَبِّحْ رَبَّك في بَعضِ أوقاتِ اللَّيلِ وحينَ تَميلُ النُّجومُ للمَغيبِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن فسادَ أقوالِهم وسُقوطَها عن درجةِ الاعتبارِ، أشار إلى أنَّه لم يَبْقَ لهم شيءٌ مِنْ وجهِ الاعتذارِ؛ فإنَّ الآياتِ ظَهَرتْ، والحُجَجَ تَميَّزَتْ، ولم يُؤْمِنوا[1]،

---

= (٣/ ٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢).

قال ابن جرير: (وأصْلُ الصَّاعِقةِ: كُلُّ أمْرٍ هائِلٍ رآه أو عايَنَه أو أصابَه، حتَّى يَصيرَ مِن هَوْلِه وعَظيمِ شَأْنِه إلى هَلاكٍ وعَطَبٍ، أو إلى ذَهابِ عَقلٍ وغُمورِ فَهْمٍ، أو فَقْدِ بَعضِ آلاتِ الجِسمِ؛ صَوتًا كان ذلك، أو نارًا، أو زَلزَلةً، أو رَجْفًا). ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٦٩٠، ٦٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٣).

فبَعْدَ ذلك استحَقُّوا الانتقامَ[١].

﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أي: وإنْ يَرَ المُشرِكونَ قِطَعًا من السَّماءِ ساقِطةً عليهم، يقولوا: هذا سَحابٌ تراكَم بعضُه على بَعضٍ، ولا يُؤمِنوا بأنَّه عذابٌ مِنَ اللهِ تعالى[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

قال البِقاعي: (﴿ كِسْفًا ﴾ أي: قِطعةً، وقيلَ: قِطَعًا، واحِدتُها كِسْفةٌ، مِثلُ: سِدْرةٍ وسِدْرٍ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٤).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ؛ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ كِسْفًا ﴾: أي: قِطعةً: ابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٩).

قال ابنُ عاشور: (الكِسْفُ -بكَسرِ الكافِ: القِطعةُ... و﴿ مِّنَ ﴾ تبعيضيَّة، أي: قِطعةً مِن أجزاءِ السَّماءِ مِثلَ القِطَعِ الَّتي تَسقُطُ مِنَ الشُّهُبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٩).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني -أي: أنَّها جمْعُ كِسفةٍ-: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٠)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ١٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٧).

قال أبو حيَّان: (﴿ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾: كانت قُريشٌ قد اقتَرَحَتْ على رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما اقتَرَحَتْ مِن قولِهم: ﴿ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء: ٩٢]، فأخْبَر تعالَى أنَّهم لو رَأَوا ذلك عِيانًا، حَسَبَ اقتراحِهم، لَبَلَغ بهم عُتُوُّهم وجهلُهم أنْ يُغالِطوا أنفُسَهم فيما عايَنوه، وقالوا: هو سَحابٌ مركومٌ، تَرَاكَم بعضُه على بعضٍ مُمْطِرُنا، وليسَ بكِسفٍ ساقِطٍ للعذابِ). ((تفسير أبي حيان)) (٩/ ٥٧٦).

واختار السعديُّ وابنُ عثيمينَ أنَّ المرادَ: قِطعٌ من العذابِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ [سبأ: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ [الإسراء: ٩٠ - ٩٢].

وقال تعالى حكايةً عن قَولِ أصحابِ الأَيْكةِ لِشُعَيبٍ عليه السَّلامُ: ﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٨٥ - ١٨٧].

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

أي: فاترُكْ -يا محمَّدُ- هؤلاء المُشرِكينَ المُعانِدينَ حتَّى يُلاقُوا اليَومَ الَّذي فيه يموتونَ ويهلكونَ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

وقد ذهَب ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وابنُ جُزَي: إلى أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾: النَّفخةُ الأُولى، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٣).

وذهب أبو السُّعودِ، وابنُ عجيبة، والألوسيُّ: إلى أنَّ المرادَ بذلك اليَومِ: يومُ بَدرٍ، واستَظْهَره البِقاعي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥). =

كما قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال: ﴿يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾، وكُلُّ بَرٍّ وفاجرٍ يُلاقي يَومَه؛ أعاد صِفةَ يَومِهم، وذكَرَ ما يتمَيَّزُ به يومُهم عن يومِ المُؤمِنينَ؛ فقال[1]:

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾.

---

= قال ابن عجيبة: (هو اليَومُ الَّذي صُعِقُوا فيه بالقَتلِ يومَ بَدرٍ، لا عِندَ النَّفخةِ الأُولى كما قيلَ؛ إذ لا يُصعَقُ بها إلَّا مَن كان حيًّا حينَئذٍ). ((تفسير ابن عجيبة)) (٥/ ٤٩٦).

وقال ابن عطية: (واختلَف النَّاسُ في اليومِ الَّذي تُوُعِّدوا به؛ فقال بعضُ المتأوِّلينَ: هو مَوتُهم واحدًا واحدًا، وهذا على تجَوُّزٍ، والصَّعقُ: التَّعذيبُ في الجملةِ، وإن كان الاستِعمالُ قد كثُر فيه فيما يُصيبُ الإنسانَ مِن الصَّيحةِ المُفرطةِ ونحوِه.

ويحتملُ أن يكونَ اليومُ الَّذي تُوعِّدوا به يومَ بدرٍ؛ لأنَّهم عُذِّبوا فيه. وقال الجمهورُ: التَّوعُّدُ بيومِ القيامةِ؛ لأنَّ فيه صَعقةً تعُمُّ جميعَ الخلائقِ، لكنْ لا مَحالةَ أنَّ بيْنَ صعقةِ المؤمنِ وصعقةِ الكافرِ فرقًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٤).

وقال ابنُ عثيمين: (هو يومُ مَوتِهم، يعني: اترُكْ هؤلاءِ؛ فإنَّ مآلَهم إلى الموتِ وإنْ فَرُّوا، وهم إذا لاقَوا يَومَهم الَّذي يُوعَدونَ عَرَفوا أنَّهم على باطِلٍ، وأنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الحَقِّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: يَموتون ويهلكون: السَّمرقنديُّ، والرسعني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٤).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿فَذَرْهُمْ﴾ فخَلِّ عنهم يا محمَّدُ ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ﴾ في الآخِرةِ ﴿الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ يعني: يُعذَّبون). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٦).

أي: يومَ لا يَنفَعُهم كَيدُهم الَّذي كادوا به الحَقَّ شَيئًا[١]!

كما قال الله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ﴾ [المرسلات: ٣٨، ٣٩].

﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾.

أي: ولا هم يُنصَرونَ؛ فيُنجِيَهم أحَدٌ مِن عَذابِه[٢]!

قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ [الطارق: ١٠].

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عذابَ الظَّالِمينَ في القيامةِ؛ أخبَرَ أنَّ لهم عَذابًا دونَ عَذابِ يومِ القِيامةِ[٣].

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

أي: وإنَّ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ باللهِ تعالى عَذابًا قبْل ذلك اليَومِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

قال ابن كثير: (﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ أي: لا يَنفَعُهم كَيدُهم ومَكْرُهم الَّذي استَعمَلوه في الدُّنيا، ولا يُجدي عنهم يومَ القيامةِ شَيئًا). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨).

وقال ابن عاشور: (أي: لا يَستطيعونَ كيدًا يومَئذٍ كما كانوا في الدُّنيا، فالمعنى: لا كَيدَ لهم فيُغْنيَ عنهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٤، ٦٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير =

= القرطبي)) (١٧/ ٧٨)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦١).

قيل: العَذابُ المذكورُ هنا شامِلٌ لعَذابِ الدُّنيا بالقَتلِ أو غَيرِه، ولِعَذابِ البَرزخِ والقَبرِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابن القيم، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦١).

قال ابن جرير: (الصَّوابُ مِن القولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه أخبَر أنَّ للَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بكُفرِهم به عذابًا دونَ يَومِهم الَّذي فيه يُصعقونَ، وذلك يومُ القيامةِ، فعذابُ القبرِ دونَ يومِ القيامةِ؛ لأنَّه في البَرزَخِ، والجوعُ الَّذي أصاب كفَّارَ قُرَيشٍ، والمصائبُ الَّتي تُصيبُهم في أنفُسِهم وأموالِهم وأولادِهم دونَ يومِ القيامةِ، ولم يَخصُصِ اللهُ نَوعًا مِن ذلك أنَّه لهم دونَ يومِ القيامةِ دونَ نَوعٍ، بل عَمَّ، فقال: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، فكلُّ ذلك لهم عذابٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٤).

وقال ابنُ القيِّم: (هذا يحتَمِلُ أن يُرادَ به عذابُهم بالقَتلِ وغَيرِه في الدُّنيا، وأن يرادَ به عذابُهم في البَرزخِ، وهو أظهَرُ؛ لأنَّ كثيرًا منهم مات ولم يُعَذَّبْ في الدُّنيا. وقد يُقالُ -وهو أظهَرُ-: إنَّ مَن مات منهم عُذِّبَ في البَرزخِ، ومَن بَقِيَ منهم عُذِّبَ في الدُّنيا بالقَتلِ وغَيرِه؛ فهو وَعيدٌ بعَذابِهم في الدُّنيا وفي البَرزخِ). ((الروح)) (ص: ٧٥).

وقال الشنقيطي: (الظَّاهرُ أنَّ قولَه: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ هو ما عُذِّبوا به في دارِ الدُّنيا مِن القتلِ وغيرِه. كما دَلَّ على ذلك قولُه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ الآيةَ [السجدة: ٢١]، وقولُه تعالَى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ، ولا مانِعَ مِن دُخولِ عَذابِ القَبرِ في ذلك؛ لأنَّه قد يَدخُلُ في ظاهِرِ الآيةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٦١).

وقيل: المرادُ به: العَذابُ في الدُّنيا، واختلَفوا؛ فمِنهم مَن اقتصَر على كَونِه في الدُّنيا؛ كالخازنِ، وابنِ كثير. ومِنهم مَن قصَر هذا العذابَ على القتلِ ببَدْرٍ؛ كابنِ جُزَي، والعُلَيمي، والشَّوكاني. ومِنهم مَن قال: عذابُ الجوعِ في سِنِي القَحطِ، وعذابُ السَّيْفِ يومَ بَدْرٍ، كابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، يعني: دونَ عذابِ الموتِ، وهو ما أُصيبوا به مِن =

كما قال تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

---

= الجدبِ والقحطِ والخوفِ والحروبِ وغيرِ ذلك، ممَّا كان قبْلَ الموتِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

وممَّن قال بمعنى هذا القولِ مِن السَّلفِ -معَ تنَوُّعِ عباراتِهم-: (الجوع، والقحط، والقتل ببدر، وذهاب الأموال والأولاد)-: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومجاهِدٌ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بهذا العذابِ: عذابُ القبرِ: الكرماني، والرسعني. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١١٤٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: البَراءُ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٢).

قال ابن عاشور: (كلمةُ «دونَ» أصْلُها المكانُ المنفصِلُ عن شَيءٍ انفصالًا قريبًا، وكَثُر إطلاقُه على الأقلِّ، يُقالُ: هو في الشَّرفِ دونَ فلانٍ، وعلى السَّابقِ؛ لأنَّه أقرَبُ حُلولًا مِن المسبوقِ، وعلى معنَى «غيرِ». و«دُونَ» في هذه الآيةِ صالِحةٌ للثَّلاثةِ الأخيرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

وقال الرازي: (﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾، على قولِ أكثَرِ المفسِّرينَ معناه: «قبْلَ»، ويُؤَيِّدُه قولُه تعالَى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السَّجْدَة: ٢١]. ويحتمِلُ وجهَيْنِ آخَرَيْنِ: أحدُهما: دونَ ذلك، أي: أقلَّ مِن ذلك في الدَّوامِ والشِّدَّةِ...

الثَّاني: على طريقةِ قولِ القائلِ: تحتَ لَجاجِكَ مفاسِدُ، ودونَ غَرَضِك متاعِبُ، وبَيانُه هو أنَّهم لَمَّا عَبَدوا غيرَ اللهِ ظلَموا أنفُسَهم، حيثُ وَضَعوها في غيرِ موضِعِها الَّذي خُلِقَتْ له، فقيلَ لهم: إنَّ لكم دونَ ذلك الظُّلمِ عذابًا). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: قبْلَ عذابِ الآخرةِ: البغويُّ، والخازنُ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٦).

واختار ابنُ عثيمينَ أنَّ المرادَ: قبْلَ عذابِ الموتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠١).

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

أي: ولكِنَّ أكثَرَ الكافِرينَ لا يَعلَمونَ ما سيَصيرونَ إليه مِنَ العَذابِ الواقِعِ بهم لا مَحالةَ[1]!

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن تعالى الحُجَجَ والبَراهينَ على بُطلانِ أقوالِ المُكَذِّبينَ؛ أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ألَّا يَعبَأَ بهم شَيئًا، وأن يَصبِرَ لحُكمِ رَبِّه القَدَريِّ والشَّرعيِّ بلُزومِه والاستِقامةِ عليه، ووَعَدَه اللهُ تعالى بالكفايةِ[2].

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾.

أي: واصبِرْ -يا محمَّدُ- لِحُكمِ ربِّك القَدَريِّ -ممَّا قدَّره عليك مِن ظُلمٍ يُصيبُك، وأذًى يَنالُك- ولحُكمِه الشَّرعيِّ؛ بلُزومِه، والاستقامةِ عليه، وتبليغِ رسالةِ الله؛ فإنَّك بمَرأًى مِنَّا، نَحوطُك ونَحفَظُك مِن كُلِّ سُوءٍ وكَيدٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢، ٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٢).

قال ابن عرفة: («الأكثر» إمَّا على بابِه، أو بمعنى «الجميعِ»، وعاقَبَهم على الجهلِ؛ لِتَمكُّنِهم مِن العِلمِ). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٢٥، ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٢).

قال القرطبي: (﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ قيل: لِقَضاءِ ربِّك فيما حمَّلَك مِن رسالتِه. وقيل: لِبَلائِه فيما ابتَلاك به مِن قَومِك). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٨). =

= قيل: معنى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ أي: لِما أمَرَك ربُّك، ونهاك عنه. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٧).

وقيل: معنى ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ أي: إلى أن يقَعَ بهم العذابُ الَّذي حكَمْنا عليهم. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والبغوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٥١٢)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٣).

وقيل: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ أي: لِما حكَم به عليك. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والسَّمعانيُّ، وابن الجوزي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٥).

وقيل: المعنى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ بإمهالِهم، وما يَلحَقُك فيه مِن المشَقَّةِ والكُلفةِ وتمَكُّنِهم مِن أذاك، معَ مُقاساةِ الأحزانِ، ومُعاناةِ الهمومِ. وممَّن اختاره في الجملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والرسعني، والنسفي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٦)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٨٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤٠).

قال ابن كثير: (وقوله: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ﴾ أي: اصبِرْ على أذاهم، ولا تُبالِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بحُكمِ رَبِّك: ما حَكَم به وقدَّره مِن انتفاءِ إجابةِ بَعضِهم، ومِن إبطاءِ إجابةِ أكثَرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٣).

وممَّن جمَع بيْنَ معنَيَي الحُكمِ، واختار أنَّ المرادَ: الأمرُ بالصَّبرِ على حُكمِ الله الشَّرعيِّ والكَونيِّ: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٢).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ يَشملُ الحُكمَ الكَونيَّ، والحُكمَ الشَّرعيَّ، يعني: اصبِرْ لِما حكَم به ربُّك مِن وُجوبِ إبلاغِ الرِّسالةِ وإن أصابك ما يُصيبُك، واصبِرْ لِحُكمِ ربِّك القَدَريِّ الكَونيِّ، وهو ما يُقدِّرُه اللهُ تعالى عليك مِن هؤلاء السُّفهاءِ مِن السُّخريةِ والعُدوانِ والظُّلمِ، ولقد أُوذيَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كما أُوذيَ إخوانُه مِن المُرسَلينَ، أُوذيَ إيذاءً عظيمًا). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٢).

وقال ابن تيميَّة: (بعضُ المفسِّرينَ يقولُ: هذه الآيةُ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ، وهذا يتوجَّهُ إن كان =

كما قال تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤، ٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ [المزمل: ١٠].

﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾.

أي: ونزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- عن النَّقائِصِ تَنزيهًا مُقترِنًا بوَصفِه بصِفاتِ الكَمالِ مَحبَّةً وتَعظيمًا له؛ حينَ تَقومُ[1].

---

= في الآيةِ النَّهيُ عن القتالِ، فيكون هذا النَّهيُ منسوخًا. ليس جميعُ أنواعِ الصَّبرِ منسوخةً، كيف والآيةُ لم تتعرَّضْ لذلك هنا لا بنَفْيٍ ولا إثباتٍ؟! بل الصَّبرُ واجبٌ لِحُكمِ الله ما زال واجبًا، وإذا أُمِر بالجهادِ فعليه أيضًا أن يَصبرَ لِحُكمِ الله؛ فإنَّه يُبتلى مِن قتالِهم بما هو أعظَمُ مِن كلامِهم، كما ابتُلِيَ به يومَ أُحُدٍ والخَندقِ، وعليه حينَئذٍ أن يَصبرَ ويَفعَلَ ما أُمِر به مِن الجهادِ.

والمقصودُ هنا قولُه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾؛ فإنَّ ما فعَلوه مِن الأذى هو ممَّا حكَم به عليك قَدَرًا، فاصبِرْ لِحُكمِه وإن كانوا ظالِمينَ في ذلك، وهذا الصَّبرُ أعظَمُ مِن الصَّبرِ على ما جرى وفُعِل بالأنبياءِ). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٣٢٥).

وقال الرَّسْعَني: (وهذا مِن المواضعِ الَّتي يقولُ أكثرُ المفسِّرينَ: إنَّها منسوخةٌ. ولا يصحُّ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٥٨). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢).

وقال الرازي: (اللَّام في قولِه: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ ﴾ تحتمِلُ وُجوهًا:

الأوَّل: هي بمعنى «إلى»، أي: اصبِرْ إلى أن يَحكُمَ اللهُ.

الثَّاني: الصَّبرُ فيه معنى الثَّباتِ، فكأنَّه يقولُ: فاثبُتْ لِحُكمِ ربِّك، يُقالُ: ثبَتَ فلانٌ لحملِ قِرنِه.

الثَّالث: هي اللَّامُ الَّتي تُستعمَلُ بمعنى السَّببِ، يُقالُ: لِمَ خرَجْتَ؟ فيُقالُ: لِحُكمِ فُلانٍ علَيَّ بالخروجِ، فقال: واصبِرْ واجعَلْ سببَ الصَّبرِ امتِثالَ الأمرِ، حيثُ قال: واصبِرْ لهذا الحُكمِ عليك، لا لشَيءٍ آخَرَ). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٨-٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٨، ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

= قال الماوَرْدي: (فيه أربعةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنْ يُسَبِّحَ اللهَ إذا قام مِن مَجلِسِه -قاله أبو الأحوصِ-؛ لِيَكونَ تَكفيرًا لِما أجرى في يَومِه.

الثَّاني: حينَ تقومُ مِن مَنامِك؛ لِيَكونَ مُفتَتَحًا لعَمَلِه بذِكرِ الله. قاله حسَّانُ بنُ عطيَّةَ.

الثَّالِثُ: حينَ تقومُ مِن نَومِ القائِلةِ لصَلاةِ الظُّهرِ. قاله زَيدُ بنُ أسلَمَ.

الرَّابِعُ: أنَّه التَّسبيحُ في الصَّلاةِ إذا قام إليها. وفي هذا التَّسبيحِ قَولانِ:

أحَدُهما: هو قَولُ: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ، في الرُّكوعِ، وسُبحانَ رَبِّيَ الأعلى، في السُّجودِ.

الثَّاني: التوَجُّهُ في الصَّلاةِ بقَولِه: سُبحانَك اللَّهُمَّ وبحَمدِك، وتبارَكَ اسمُك، وتعالى جَدُّك، ولا إلهَ غَيرُك. قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٨٧).

وقد ذكَرَ الرَّازي وُجوهًا أُخرى؛ منها: حينَ تَقومُ لأمرٍ ما، ولا سيَّما إذا قُمتَ مُنتَصِبًا لمجاهَدةِ قَومِك ومُعاداتِهم، والدُّعاءِ عليهم؛ فسَبِّحْ بحَمدِ رَبِّك، وبَدِّلْ قِيامَك للمُعاداةِ وانتِصابَك للانتِقامِ بقيامِك لذِكرِ اللهِ وتَسبيحِه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: التَّسبيحُ حينَ القيامِ مِن المَجلِسِ: الواحديُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٣).

قال الواحدي: (أكثرُ المفسِّرينَ على أنَّه أُمِر أن يقولَ حينَ يقومُ مِن مَجلِسِه: سُبحانَ الله وبحَمدِه). ((البسيط)) (٢٠/ ٥١٣).

وممَّن اختار هذا القولَ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهِدٌ، وعَطاءُ بنُ أبي رباحٍ، وأبو الأحوصِ عَوفُ بنُ مالكٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وسُفْيانُ الثَّوريُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٣٧).

وقال الزَّجَّاجُ: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حينَ تقومُ مِن مَنامِك). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٦٨).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ قَولُ: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه، وإلى العُمومِ في معنى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ فيَشمَلُ ذلك القيامَ مِن أيِّ شَيءٍ؛ كالقيامِ مِن النَّومِ، والقيامِ مِن المَجلِسِ، وغَيرِ ذلك: الزمخشريُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٥، ٥٦).

وقال مقاتل: (﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يقولُ: وصَلِّ بأمرِ ربِّك حِينَ تَقومُ إلى الصَّلاةِ المكتوبةِ). =

كما قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [غافر: ٥٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۞ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴾ [ق: ٣٩، ٤٠].

وعنْ عائِشةَ رَضِيَ الله عنها: أنَّها قالتْ: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

= ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٠).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: صَلِّ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي: للصَّلاةِ المكتوبةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والتُّسْتَريُّ، والقُشَيريُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير التستري)) (ص: ١٥٥)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٧٩).

وممَّن ذهَبَ إلى أنَّ المرادَ: صلاةُ الظُّهرِ بعدَ القيامِ مِن نَومِ القائِلةِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٦).

وقال ابن عاشور: (والقيامُ: جعلُ وَقْتٍ للصَّلَواتِ: إمَّا للنَّوافلِ، وإمَّا لصلاةِ الفريضةِ وهي الصُّبْحُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥).

قال السعدي: (وأمَره أن يستعينَ على الصَّبرِ بالذِّكرِ والعبادةِ، فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

وقال البقاعي: (﴿وَسَبِّحْ﴾ أي: أوقِعِ التَّنزيهَ عن شائبةِ كلِّ نقصٍ بالقلبِ واللِّسانِ والأركانِ، متلبِّسًا ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: المُحسِنِ إليك، فأثبِتْ له كلَّ كمالٍ، مع تنزيهِه له عن كلِّ نقصٍ، فلا يكونُ في مُلكِه ما لا يريدُ، ولا يريدُ إلا ما هو حِكمةٌ بالِغةٌ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ أي: مِن اللَّيلِ في جميعِ الأوقاتِ الَّتي هي مَظِنَّةُ القيامِ على الأمورِ الدُّنيويَّةِ، والأشغالِ النَّفسانيَّةِ، وهي أوقاتُ النَّهارِ، الَّذي هو للانتِشارِ بصلاةِ الصُّبحِ والظُّهرِ والعصرِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٨).

يُكثِرُ أنْ يَقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: سُبْحانكَ اللَّهُمَّ ربَّنا وبِحَمْدِك، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي يَتأَوَّلُ القُرْآنَ))(١).

وعنْ عائِشةَ أيضًا، قالتْ: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُكثِرُ مِن قَولِ: سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِه أسْتَغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه، قالتْ: فقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَرَاكَ تُكثِرُ مِن قَولِ: سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِه أسْتَغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه؟ فقال: خَبَّرني رَبِّي أنِّي سأَرَى عَلامةً في أُمَّتِي، فإذا رَأَيْتُها أكثَرْتُ مِن قَولِ: سُبْحانَ اللهِ وبِحَمْدِه أسْتَغفِرُ اللهَ وأتُوبُ إليه، فقَدْ رَأَيْتُها ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [النصر: ١] فَتْحُ مكَّةَ، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٢، ٣]))(٢).

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾.

أي: وسَبِّحْ رَبَّك -يا محمَّدُ- في بَعضِ أوقاتِ اللَّيلِ(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٨١٧)، ومسلِم (٤٨٤).

يتأوَّلُ القرآنَ أي: يعملُ ما أُمِر به في قولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾ [النصر: ٣]، ويجعلُ ما أُمِر به مِن التَّسبيحِ والتَّحميدِ والاستِغفارِ في أشرَفِ الأوقاتِ والأحوالِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ٢٠١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧٣٤).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

قال الماوَرْدي: (﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ...﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنَّها صَلاةُ اللَّيلِ. الثَّاني: التَّسبيحُ فيها. الثَّالِثُ: أنَّه التَّسبيحُ في صَلاةٍ وغَيرِ صَلاةٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٨٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ قَولُ: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه في هذا الوقتِ: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾.

أي: وسبِّحْه أيضًا حينَ تَميلُ النُّجومُ للمَغيبِ(١).

---

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ: صَلاةُ المَغرِبِ والعِشاءِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥، ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣، ٢٠٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ قَولُ: سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه إذا أدبرَتِ النُّجومُ مِن آخِرِ اللَّيلِ: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٥).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: صَلاةُ الفَجرِ: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٩، ٦١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢).

وقال السعدي: (﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: آخِرَ اللَّيلِ، ويَدخُلُ فيه صَلاةُ الفَجرِ. والله أعلَمُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

وقيل: المرادُ: الرَّكعتانِ قبْلَ الفَجرِ، وهو اختيارُ الواحدي -ونسَبه لقولِ الجميعِ-، ونسَبه البَغَويُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ، وابنُ الجوزي إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٥١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، وجابرُ بنُ عبدِ الله، وأنسُ بنُ مالكٍ، وأبو هُرَيرةَ، وابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٦٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦١١، ٦٣٨).

قال ابنُ عاشور: (والإدبارُ: رُجوعُ الشَّيءِ مِن حَيثُ جاء؛ لأنَّه يَنقَلِبُ إلى جِهةِ الدُّبُرِ، أي: الظَّهْرِ. وإدبارُ النُّجومُ: سُقوطُ طَوالِعِها...، وسقوطُ طوالِعِها الَّتي تَطلُعُ: أنَّها تَسقُطُ في جِهةِ المَغرِبِ عندَ الفَجرِ إذا أضاء عليها ابتِداءُ ظُهورِ شُعاعِ الشَّمسِ؛ فإدبارُ النُّجومِ: وَقتُ السَّحَرِ). ((تفسير =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ هذه الآيةُ ينبغي أن يُقَرِّرَها كُلُّ مُؤمِنٍ في نفْسِه؛ فإنَّها تَفْسَحُ مَضايِقَ الدُّنيا[1]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، وحُكمُ الله نَوعانِ: خَلْقٌ، وأمْرٌ؛ فالأوَّلُ: ما يُقدِّرُه مِن المصائبِ، والثَّاني: ما يأمُرُ به ويَنهى عنه، والعبدُ مأمورٌ بالصَّبرِ على هذا وعلى هذا؛ فعليه أن يَصبرَ لِما أُمِر به ولِما نُهيَ عنه، فيَفعلَ المأمورَ ويَترُكَ المحظورَ، وعليه أن يَصبرَ لِما قدَّره اللهُ عليه[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ممَّا يَنشَأُ عنه الرِّضا استِحضارَ اطِّلاعِ اللهِ عزَّ وجلَّ على عَبدِه في حالِ العَمَلِ له، وتَحَمُّلِ المَشاقِّ مِن أجْلِه؛ فمَن تَيَقَّنَ أنَّ البَلاءَ بعَينِ مَن يُحِبُّه هان عليه الألَمُ[3]!

---

= ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥، ٨٦).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ يعني: وَقتَ إدبارِها، وهل المرادُ إدبارُ ضَوئِها بانتِشارِ نُورِ الشَّمسِ، أو إدبارُ ذَواتِها عند الغُروبِ؟ فالجَوابُ هذا وهذا، والمرادُ بذلك: صَلاةُ الفَجرِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣، ٢٠٤).

وقال التُّسْتَري: (قولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ قال: يعني لا تَغفُلْ عن ذِكرِ مَن لا يَغفُلُ عن بِرِّك وحِفظِك في كلِّ الأوقات صباحًا ومساءً). ((تفسير التستري)) (ص: ١٥٥).

وقال القُشَيري: (في الآيةِ دليلٌ وإشارةٌ إلى أنَّه أمَره أن يَذكُرَه في كلِّ وقتٍ، وألَّا يَخلوَ وقتٌ مِن ذِكرِه). ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٧٩).

وقال ابن عاشور: (الآيةُ تُشيرُ إلى أوقاتِ الرَّغائِبِ مِن النَّوافِلِ وهي صلاةُ الفَجْرِ، والأشفاعُ بعدَ العشاءِ، وقيامُ آخِرِ اللَّيلِ، وقيل: أشارت إلى الصَّلَواتِ الخَمسِ بوَجهِ الإجمالِ، وبَيَّنَته السُّنَّةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ١٩).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: قُلْ: سبحانَ اللهِ وبحمدِه ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ حينَ تقومُ مِن مجلسِك، أو حِينَ تقومُ مِن منامِك، أو غير ذلك، فهي عامَّةٌ -على قولٍ في التَّفسيرِ-، ولهذا كان كفَّارةُ المجلسِ أنْ يقولَ الإنسانُ: «سُبْحانَك اللَّهمَّ وبحَمدِك، أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا أنت، أستَغفِرُك وأتوبُ إليك»[١]، فينبغي للإنسانِ كلَّما قام مِن مجلسٍ أنْ يَخْتِمَ مجْلِسَه بهذا[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم حينَ يَعجِزونَ عن التَّكذيبِ، ولا يُمكِنُهم أن يعقِلوا وُقوعَ شيءٍ على الأرضِ، يَرجِعونَ إلى التَّأويلِ والتَّخييلِ[٣].

٢- إنَّ اللهَ تعالى لم يُهلِكْ أحدًا ولم يُعَذِّبْه إلَّا بذَنْبٍ، وقد بيَّن الله تعالى ذلك في كتابِه، ومِن ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ على القولِ بأنَّ معنَى ﴿دُونَ ذَلِكَ﴾، أي: أقَلَّ مِن ذلك في الدَّوامِ والشِّدَّةِ ففيه فائِدةُ التَّنبيهِ على عذابِ الآخِرةِ العَظيمِ؛ وذلك لأنَّه إذا قال: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: قتْلًا وعذابًا في القبرِ -على

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٥٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٢٥٩)، وأحمد (١٩٧٦٩) من حديث أبي بَرْزةَ الأسْلَميِّ رضي الله عنه
حسَّن إسنادَه ابنُ القيِّم في ((تهذيب السنن)) (١٣/ ٢٠٤)، وحسَّن الحديثَ السَّخاويُّ في ((البلدانيات)) (٢٦٣)، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٨٥٩): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٣/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٢٤).

قولٍ في التَّفسيرِ-، فيَتفكَّرُ المتفكِّرُ ويقولُ: ما يكونُ القتْلُ دُونَه لا يكونُ إلَّا عظيمًا[١]!

٤- قَولُه تعالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ هذا يَتضَمَّنُ الحِراسةَ والكِلاءةَ والحِفظَ؛ للصَّابرِ لحُكْمِه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ إثباتُ العَينِ للهِ عزَّ وجلَّ، وهي حقيقيَّةٌ، ولكِنَّها لا تُماثِلُ أعيُنَ الخَلقِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[٣] [الشورى: ١١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ سُؤالٌ: كيف نَجمَعُ بيْن الجَمعِ وبيْن المُثَنَّى فيما ثَبَتَ مِن صفةِ العَينِ للهِ تعالَى؟

**الجوابُ**: الجَمْعُ بيْنَهما سَهلٌ، هو نَظيرُ الجَمعِ بيْنَ اليَدينِ الواردِ مَجيؤُهما بصِيغةِ التَّثنيةِ وبصيغةِ الجَمعِ؛ فإمَّا أنْ يُرادَ بالجَمعِ ما دونَ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ قد جاءتْ بالجَمعِ مُرادًا به ما دونَ الثَّلاثةِ، فيكونَ قولُه: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ كقَولِه: بـ «عَينَيْنا»؛ لأنَّ أقلَّ الجَمعِ اثنانِ، وإمَّا أنْ يُقالَ: أقلُّ الجَمعِ ثلاثةٌ -كما هو الأكثَرُ-، ولكنَّ الجَمعَ هنا لا يُرادُ به مَدلولُه التعَدُّديُّ، وإنَّما يُرادُ به مَدلولُه المَعنويُّ، وهو التَّعظيمُ، فيكونُ اللهُ عزَّ وجلَّ جَمَعَ العَينَينِ، فقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ تَعظيمًا لهما، وأيضًا يُضافُ إلى التَّعظيمِ المناسَبةُ؛ لأنَّ «نا» دالَّةٌ على الجَمعِ في أصلِ الوَضعِ؛ فناسَبَ أنْ يكونَ المُضافُ إليها مَجموعًا للتَّعظيمِ، كما هي في قَولِه تعالى: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ للتَّعظيمِ، فيَتناسَبُ هنا المُضافُ والمُضافُ إليه، وهذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

المُناسَبةُ لَفظيَّةٌ[١].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ يعني: وسَبِّحْ ربَّك مِن اللَّيلِ لا كُلَّ اللَّيلِ، و«مِن» هنا للتَّبعيضِ؛ ولهذا لَمَّا سَمِع النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأقوامٍ مِن أصحابِه قال أحدُهم: «أنا أقومُ ولا أنامُ»، قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لكنِّي أُصَلِّي وأنامُ -وفي لفظٍ: وأرقُدُ- فمَنْ رَغِب عن سُنَّتِي فليس مِنِّي))[٢]؛ ولذلك يُكرَهُ للإنسانِ أن يَقومَ اللَّيلَ كلَّه حتَّى لو كان فيه قُوَّةٌ ونَشاطٌ، فلا يَقُمِ اللَّيلَ كلَّه إلَّا في العَشرِ الأواخِرِ مِن رمضانَ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم كان يُحيي ليلَها كلَّه[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ استَدلَّ بَعضُ الفُقَهاءِ بالآيةِ على أنَّ الإسفارَ بصَلاةِ الفَجرِ أفضَلُ؛ لأنَّ النُّجومَ لا إدبارَ لها، وإنَّما ذلك بالاستِتارِ عن العُيونِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ﴾ [الطور: ٣٠] وما بعْدَها مِن الجُمَلِ الحاكيةِ لأقوالِهم، بمُناسَبةِ اشتِراكِ مَعانيها معَ ما في هذه الجُملةِ في تَصويرِ بُهتانِهم ومُكابَرتِهم

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١١٥٠).

قال القاسمي: (وهو استدلالٌ متينٌ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧).

والمذكورُ هو مذهبُ الحنفيَّة، أمَّا مذهبُ جمهورِ الفُقهاءِ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ فهو أنَّ الأفضلَ تَعجيلُ صلاةِ الفَجرِ في أوَّلِ وقتِها إذا تَحقَّق طُلوعُ الفَجرِ، وهو التَّغليسُ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (١/ ٣٦٦)، ((الشرح الكبير)) للدردير (١/ ١٨٠)، (المجموع)) للنووي (٣/ ٥١)، ((منتهى الإرادات)) لابن النجار (١/ ١٥٢).

الدَّالَّةِ على أنَّهم أهْلُ البُهتانِ، فلو أُرُوا كِسْفًا ساقطًا مِن السَّماءِ، وقِيل لهم: هذا كِسْفٌ نازلٌ؛ كابَروا وقالوا: هو سَحابٌ مَرْكومٌ(١).

- ووقَعَ ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ خبرًا عن مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، وتَقديرُه: هو سَحابٌ، أو هذا سَحابٌ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ لكَونِ المَقصودِ مِن قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أنَّ العِنادَ شِيمتُهم، فُرِّعَ عليه أنْ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يَترُكَهم، أي: يَترُكَ عرْضَ الآياتِ عليهم، أي: ألَّا يَسألَ اللهَ إظهارَ ما اقتَرَحوه مِن الآياتِ؛ لأنَّهم لا يَقترِحون ذلك طلَبًا للحُجَّةِ، ولكنَّهم يُكابِرون، وليس المُرادُ ترْكَ دَعوتِهم، وعرْضَ القُرآنِ عليهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الأمْرُ في قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ مُستعمَلًا في تَهديدِهم؛ لأنَّهم يَسمَعونَه حِينَ يُقرَأُ عليهم القُرآنُ، كما يُقالُ للَّذي لا يَرْعوي عن غَيِّه: دَعْهُ؛ فإنَّه لا يُقلِعُ(٣).

- وأفادتِ الغايةُ أنَّه يَترُكُهم إلى الأبَدِ؛ لأنَّهم بعْدَ أنْ يُصْعَقوا لا تُعادُ مُحاجَّتُهم بالأدلَّةِ والآياتِ(٤).

- وإضافةُ اليَومِ إلى ضَميرِهم ﴿يَوْمَهُمُ﴾؛ لأنَّهم اشْتُهِروا بإنكارِه، وعُرِفوا بالَّذين لا يُؤمِنون بالآخِرةِ، أو لأنَّه اليومُ الَّذي أُوعِدُوه؛ فالإضافةُ لِأدْنى مُلابَسةٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والإتيانُ بالمَوصولِ ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على خَطَئِهم في إنْكارِه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ يَنْفي عنهم التَّخلُّصَ بوَسائلَ مِن فِعْلِهم، وعُطِفَ عليه ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ لنَفْيِ أنْ يَتخلَّصوا مِن العَذابِ بفِعلِ مَن يُخلِّصُهم ويَنصُرُهم؛ فانْتَفَى نوعَا الوَسائلِ المُنجيةِ[٢].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ لم يَقُل: «يومَ لا يُغْنيهم كَيدُهم» مع أنَّ الإغناءَ يتعدَّى بنَفْسِه، وفي هذا فائدةٌ جليلةٌ، وهي: أنَّ قولَ القائِلِ: «أغناني كذا» يُفهَمُ منه أنَّه نفَعَني، وقولُه: «أغنى عنِّي» يُفهَمُ منه أنَّه دَفَع عنِّي الضَّرَرَ، فقَولُه: ﴿لَا يُغۡنِى عَنۡهُمۡ﴾ أي: لا يَدفَعُ عنهم الضَّرَرَ، ولا شَكَّ أنَّ قَولَه: «لا يَدفَعُ عنهم ضررًا» أبلَغُ مِن قَولِه: «لا يَنفَعُهم نَفعًا»، وإنَّما في المؤمِنِ لو قال: «يومَ يُغْني عنهم صِدقُهم» لَمَا فُهِمَ منه نَفعُهم، فقال: ﴿يَوۡمُ يَنفَعُ﴾ [المائدة: ١١٩] كأنَّه قال: «يومُ يُغْنيهم صِدقُهم»، فكأنَّه استعمَلَ في المؤمِنِ «يُغْنيهم»، وفي الكافِرِ «لا يُغْني عنهم». وهذا مِمَّا لا يَطَّلِعُ عليه إلَّا من يكونُ عِندَه مِن عِلمِ البَيانِ طَرَفٌ، ويتفَكَّرُ بقريحةٍ وقَّادةٍ آياتِ اللهِ، ووفَّقَه اللهُ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، أي: وإنَّ لهم عذابًا في الدُّنيا قبْلَ عَذابِ الآخِرةِ، وهو عَذابُ الجُوعِ في سِنِي القَحْطِ، وعذابُ السَّيفِ يومَ بَدْرٍ[٤]، وهذا علَى قولٍ في تَفسيرِها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨١، ٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: وإنَّ لهم عَذابًا، جَرْيًا على أُسلوبِ قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ [الطور: ٤٥]؛ فخُولِفَ مُقْتضى الظَّاهِرِ لإفادةِ عِلَّةِ استِحقاقِهم العَذابَ في الدُّنيا بأنَّها الإشراكُ باللهِ[١].

- ولِكَونِ هذا العَذابِ مُستبْعَدًا عِندَهم، وهمْ يَرَون أنفُسَهم في نِعمةٍ مُستمِرَّةٍ، أُكِّدَ الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ)؛ فالتَّأكيدُ مُراعًى فيه شكُّهُم حِينَ يَسمَعونَ القُرآنَ، كما دلَّ عليه تَعقيبُه بقولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستِدراكُ الَّذي أفادَتْه (لكنَّ) راجِعٌ إلى مُفادِ التَّأكيدِ، أي: هو واقعٌ لا مَحالةَ، ولكنَّ أكثَرَهم لا يَعلَمون وُقوعَه، أي: لا يَخطُرُ ببالِهم وُقوعُه، وذلك مِن بَطَرِهم وزَهْوِهم[٣].

- وأُسنِدَ عدَمُ العِلمِ إلى أكثَرِهم دونَ جَميعِهم؛ لأنَّ فيهم أهلَ رأْيٍ ونَظَرٍ يَتوقَّعون حُلولَ الشَّرِّ إذا كانوا في خَيرٍ[٤]. وقيل: الأكثرُ هنا بمعنَى الجميعِ[٥].

- ومَفعولُ ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ اختِصارًا؛ للعِلمِ به[٦].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ...﴾ [الطور: ٤٥] إلخ، وما بيْنَهما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨٢، ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٢).

اعتِراضٌ، وكان مُفتتَحُ السُّورةِ خِطابًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابتداءً مِن قَولِه تَعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور: ٧] المَسوقِ مَساقَ التَّسليةِ له، وكان في مُعظَمِ ما في السُّورةِ مِن الأخبارِ ما يُخالِطُه في نفْسِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الكَدَرِ والأسَفِ على ضَلالِ قَومِه، وبُعْدِهم عمَّا جاءَهُم به مِن الهُدى؛ خُتِمَت السُّورةُ بأمْرِه بالصَّبرِ تَسليةً له، وبأمْرِه بالتَّسبيحِ وحمْدِ اللهِ، شُكرًا له على تَفضيلِه بالرِّسالةِ[1].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ بمَعنى (على)؛ فتَكونَ لتَعديةِ فِعلِ (اصْبِرْ). ويَجوزُ فيها مَعنى (إلى)، أي: اصبِرْ إلى أنْ يَحكُمَ اللهُ بيْنَك وبيْنَهم. ويَجوزُ أنْ تكونَ للتَّعليلِ، فيكونَ ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ هو ما حَكَم به مِن إرسالِه إلى النَّاسِ، أي: اصبِرْ لأنَّك تقومُ بما وجَبَ عليك؛ فلِلَّامِ في هذا المكانِ مَوقعٌ جامعٌ لا يُفِيدُ غيرُ اللَّامِ مِثلَه[2].

- والتَّفريعُ في قولِه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ تَفريعُ العِلَّةِ على المَعلولِ، أي: اصبِرْ لأنَّك بأعْيُنِنا، أي: بمرأًى مِنَّا وبمَحلِّ العِنايةِ والكِلاءةِ مِنَّا، ونحنُ نَعلَمُ ما تُلاقِيه وما يُرِيدَونه بك، فنحنُ نُجازِيك على ما تَلْقاهُ، ونَحرُسُك مِن شَرِّهم، ونَنتقِمُ لك منهم. وقال: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ دونَ أنْ يقولَ: واصبِرْ لِحُكْمِنا، أو لحُكْمِ اللهِ؛ فإنَّ المَربوبيَّةَ تُؤذِنُ بالعِنايةِ بالمَربوبِ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هاهنا: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، وكذا في قِصَّةِ نُوحٍ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٥٧ - ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨٣، ٨٤).

الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧]، على الجَمْعِ، وقال في مَواضِعَ أُخَرَ: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] على الإفرادِ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا وحَّدَ الضَّميرَ هناك -وهو ياءُ المتكلِّمِ- وحَّدَ العَينَ، ولَمَّا ذكَرَ هاهنا ضَميرَ الجمْعِ في قولِه: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ -وهو النُّونُ- جمَعَ العَينَ وقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، وهذا مِن حيثُ اللَّفظُ. وأمَّا مِن حيثُ المعنى؛ فلأنَّ الحِفظَ هاهنا أتمُّ؛ لأنَّ الصَّبرَ مَطِيَّةُ الرَّحمةِ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، حيثُ اجتمَعَ له النَّاسُ، وجمَعُوا له مَكايدَ، وتَشاوَروا في أمْرِه، وكذلك أمْرُه بالفُلكِ في قصَّةِ نوحٍ عليه السَّلامُ، وأمْرُه بالاتِّخاذِ عندَ عدَمِ الماءِ، وحِفْظُه مِن الغرَقِ -مع كَونِ كلِّ البِقاعِ مَغمورةً تحتَ الماءِ تَحتاجُ إلى حِفظٍ عَظيمٍ في نظَرِ الخلْقِ-[1]؛ فقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾، وذلك خِلافُ قولِه في قِصَّةِ مُوسى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ﴾ [طه: ٣٩]؛ فإنَّه تَعلُّقٌ واحِدٌ؛ بمَشْيِ أُختِه إلى آلِ فِرعونَ، وقولِها: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥ﴾[2] [طه: ٤٠].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ للمُصاحَبةِ؛ جمْعًا بيْنَ تَعظيمِ اللهِ بالتَّنزيهِ عن النَّقائصِ، وبيْنَ الثَّناءِ عليه بأوْصافِ الكَمالِ[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾: أفْرَدَ اللَّيلَ بالذِّكرِ دونَ النَّهارِ وقدَّمَه على الفِعلِ؛ لتَعظيمِه؛ لأنَّ العِبادةَ فيه أشقُّ على النَّفْسِ، وأبعَدُ مِن الرِّياءِ[4].

---

(١) في مِثل قولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٣١١).

- وقولُه: ﴿فَسَبِّحْهُ﴾ اكتِفاءٌ[١]، أي: واحْمَدْه[٢].

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَين بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٥).

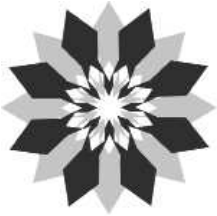

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ النَّجْمِ

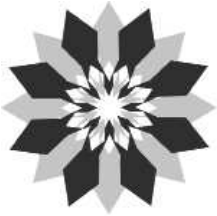

# سُورةُ النَّجْمِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّجْمِ)[١]، وممَّا يدُلُّ على ذلك ما يلي:

١- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَجَد بالنَّجْمِ، وسَجَدَ معه المُسلِمونَ والمُشرِكونَ، والجِنُّ والإنسُ))[٢].

٢- عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قرأ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم النَّجْمَ فسَجَدَ))[٣].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

١- في سُورةِ النَّجْمِ سَجدةٌ.

وذلك عندَ قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ﴾[٤] [النَّجم: ٦٢]. وممَّا يدُلُّ على ذلك ما جاء عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ النَّجمِ؛ لأنَّها ذُكِرَ فيها النَّجمُ، فافتُتِحَت بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٧).
وتُسمَّى أيضًا سُورةَ ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ بواوٍ، بحكايةِ لفظِ القرآنِ الواقِعِ في أوَّلِها، ويدلُّ عليه حديثُ ابنِ مسعودٍ، وسيأتي (ص: ٣٧٨).
وتُسمَّى أيضًا ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ كما في حديثِ زيدِ بنِ ثابتٍ رضي الله عنه: ((أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قرَأ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ ...)) [مسلم (٥٧٧) وهو في البخاري (١٠٧٢) بدونِ قولِه: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٠٧١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٥٣) واللَّفظُ له، ومسلم (٥٧٦).

(٤) وهذا مَذهَبُ الجُمهورِ مِنَ الحَنَفيَّةِ والشَّافِعيَّةِ والحنابِلةِ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٢/ ١٠٤)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٩)، (كشاف القناع)) للبُهوتي (١/ ٤٤٧).

وسلَّم قرأَ سُورةَ النَّجْمِ، فسَجَد فيها، وما بقِيَ أحدٌ مِنَ القَومِ إلَّا سَجَدَ))[١].

٢- سورةُ النَّجْمِ أوَّلُ سُورةٍ أُنزِلَت فيها سَجدةٌ.

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (أوَّلُ سورةٍ أُنزِلتْ فيها سَجدةٌ: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾)[٢].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ النَّجْمِ مَكِّيَّةٌ[٣]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٤].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

١- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى[٥].

٢- تحقيقُ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صادِقٌ فيما يُبَلِّغُه عن اللهِ تعالى[٦].

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

٣- افتُتِحَت السُّورةُ بقَسَمِ اللهِ تعالى بالنَّجْمِ، على صِدقِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٧٠)، ومسلم (٥٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٦٣).

(٣) قيل: إلَّا آيةً واحِدةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ [النجم: ٣٢]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٦).

(٤) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٣)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٥٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٨)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٥٦).

وسلَّم فيما يُبَلِّغُه عن رَبِّه تعالى.

٤- وَصفُ جِبريلَ عليه السَّلامُ -وهو أمينُ الوَحيِ- بصِفاتٍ تدُلُّ على قُوَّتِه وشِدَّتِه، وعلى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد رآه على هيئتِه الَّتي خَلَقه اللهُ عليها.

٥- الحديثُ عن آلهةِ المُشرِكينَ المزعومةِ، وبَيانُ أنَّها مُجَرَّدُ أسماءٍ أطلَقوها عليها، وأنَّها أوهامٌ لا حقائِقَ لها، وأنَّ العِبادةَ إنَّما تكونُ للهِ وَحْدَه.

٦- توبيخُ المُشرِكينَ على جَعْلِ الملائِكةِ إناثًا، وتَسميتِهم إيَّاهم بناتِ اللهِ.

٧- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عمَّن يَتولَّى عن ذِكرِ اللهِ، ويَشغَلُ نَفْسَه بالدُّنيا وَحْدَها؛ وتَسليتُه عمَّا لَحِقَه مِنَ المُشرِكينَ مِن أذًى.

٨- بيانُ مَظاهِرِ رَحمةِ اللهِ وعَدْلِه في خَلْقِه، وسَعةِ عِلمِه وقُدرتِه على كُلِّ شَيءٍ، والتَّذكيرُ بمَن جاء قبْلَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الرُّسُلِ، وما حَلَّ بالأُمَمِ المكذِّبةِ بهم.

٩- التَّعَجُّبُ مِن استهزاءِ المُشرِكينَ بالقُرآنِ حِينَ سَماعِه، وغَفلتِهم عن مَواعِظِه.

١٠- خُتِمَت السُّورةُ بالأمرِ بالخُضوعِ لله وعبادتِه، والإخلاصِ له في العَمَلِ.

## الآيات (١-١٨)

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَوَىٰ﴾: أي: سَقَط، والهُوِيُّ: سُقوطٌ مِن عُلْوٍ إلى سُفْلٍ، وأصلُه يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[1].

﴿غَوَىٰ﴾: أي: اعتَقَد باطِلًا، وتجاوَز الحَقَّ، وأصلُ (غوي): يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ[2].

﴿ٱلۡهَوَىٰٓ﴾: أي: ما تَميلُ إليه النَّفْسُ، والهَوى: مَيلُ النَّفْسِ إلى الشَّهوةِ، قيل: سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَهوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاوِيةِ، وأصلُه يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١).

﴿وَحۡيٞ﴾: الوَحْيُ هو كُلُّ ما أَلْقَيْتَه إلى غَيْرِكَ حتَّى عَلِمه كيفَ كانَ: إمَّا بإرسالِ رسولٍ، أو بإلهامٍ، أو بكتابةٍ، أو بإشارةٍ، يُقالُ: وحَى إليه بالكلامِ وَحْيًا، وأوْحَى يُوحِي إيحاءً، وأصلُه: إعلامٌ في خفاءٍ[١].

﴿مِرَّةٖ﴾: أي: قُوَّةٍ وشِدَّةٍ، وأصلُ المِرَّةِ: مِن أمرَرْتُ الحَبلَ، أي: شَدَدتُ فَتْلَه[٢].

﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾: أي: اعتَدَل واستقامَ على صُورتِه الحَقيقيَّةِ، وهو جِبريلُ عليه السَّلامُ، أو ارتَفَع وعلا، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بيْنَ شَيئَينِ[٣].

﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾: أي: أُفُقِ السَّماءِ الَّذي هو أعلَى مِنَ الأرضِ. وقيل: أُفُقِ مَشرِقِ الشَّمسِ، والأُفُقُ: ناحِيةُ السَّماءِ، وأصلُ (أفق): يدُلُّ على تباعُدِ ما بيْنَ أطرافِ الشَّيءِ[٤].

﴿فَتَدَلَّىٰ﴾: أي: دَنا وقَرُبَ، والتَّدَلِّي: هو النُّزولُ إلى الشَّيءِ حتَّى يَقرُبَ منه، وأصلُ (دلي): يدُلُّ على مُقارَبةِ الشَّيءِ ومُداناتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ١٩٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (١/ ٦٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾: أي: قَدْرَ قَوسَينِ، والقَوسُ: ما يُرمَى به. وقيل: قَدْرَ ذِراعَينِ، والقَوسُ: الذِّراعُ يُقاسُ بها كُلُّ شَيءٍ، وهذا إشارةٌ إلى تأكيدِ القُربِ، وأصلُه: أنَّ الحليفَينِ مِنَ العَرَبِ كانا إذا أرادا عَقْدَ الصَّفاءِ والعَهدِ خَرَجا بقَوسَيهما فألصَقَا بَيْنَهما؛ يُريدانِ بذلك أنَّهما مُتظاهِرانِ يُحامي كُلُّ واحِدٍ مِنهما عن صاحِبِه[1].

﴿ٱلْفُؤَادُ﴾: أي: القلبُ، سُمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[2].

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾: أي: أفتُجادِلونَه، والامتِراءُ والمُماراةُ: المحاجَّةُ فيما فيه مِريَةٌ، أي: تَرَدُّدٌ، وأصلُ (مري): يدُلُّ على صَلابةٍ في شَيءٍ؛ لأنَّ المِراءَ كَلامٌ فيه بَعضُ الشِّدَّةِ[3].

﴿نَزْلَةً﴾: أي: مَرَّةً، وأصلُ (نزل): يدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[4].

﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: أي: شَجَرةِ نَبْقٍ عَظيمةٍ فَوقَ السَّماءِ السَّابِعةِ، والمُنتَهى: أي: الانتِهاءِ، وقِيلَ لها سِدرةُ المُنتهَى؛ لانتِهاءِ عِلمِ كُلِّ عالِمٍ مِنَ الخَلقِ إليها، أو لانتِهاءِ ما يَصعَدُ مِن تحتِها، ويَنزِلُ مِن فَوقِها إليها، وقيل غيرُ ذلك[5].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠، ٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦، ٩١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣، ٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٠)، ((النهاية)) =

﴿جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾: أي: الجنَّةُ الَّتي يَأوي ويَرجِعُ إليها المؤمِنونَ يومَ القيامةِ. وقيل: هي عن يَمينِ العَرشِ تأوي إليها أرواحُ الشُّهَداءِ، والمَأْوَى: مَكانُ كُلِّ شَيءٍ ومَرجِعُه الَّذي يعودُ إليه، وأصلُ (أوي): يدُلُّ على التَّجمُّعِ[١].

﴿زَاغَ﴾: أي: عَدَلَ ومالَ، والزَّيغُ: المَيلُ عنِ القَصْدِ، وأصلُ (زيغ): يدُلُّ على مَيلٍ[٢].

﴿طَغَىٰ﴾: أي: زادَ وتَجاوَزَ، وأصلُ الطُّغيانِ: يدُلُّ على مُجاوَزةِ الحَدِّ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

افتتَح الله تعالى هذه السُّورةَ بهذا القَسَمِ العظيمِ؛ بالقسَمِ بالنَّجْمِ إذا سَقَطَ على أنَّه ما حادَ رسولُ اللهِ محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عن الحَقِّ -يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ-، وما كان غاوِيًا مُتَّبِعًا لِهَواه، وما يَصدُرُ كَلامُه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عن هَوًى في نَفْسِه؛ فما نُطْقُه في الدِّينِ إلَّا وَحْيٌ يُوحِيه اللهُ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن صفاتِ جبريلَ عليه السَّلامُ، فيقولُ: وقد علَّم مُحمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- هذا القُرآنَ جِبريلُ -عليه السَّلامُ- الشَّديدُ القُوَى،

---

= لابن الأثير (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٨٧).

ذو الجِسمِ القَوِيِّ السَّالمِ مِنَ النَّقصِ، الجَميلُ ظاهِرًا وباطِنًا.

فارتَفَع جِبريلُ وعلا في السَّماءِ على صُورتِه الحَقيقيَّةِ، وهو في ناحيةِ السَّماءِ العُليا، ثمَّ اقتَرَب جِبريلُ مِن مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وتدَلَّى إليه؛ لِيُوحِيَ إليه ما شاء اللهُ، فكان مِقدارُ قُربِ جِبريلَ مِن مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قَدْرَ قَوسَينِ، أو هو أقرَبُ، فأوحى جِبريلُ إلى عبدِ اللهِ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما أوحاه إليه مِنَ اللهِ تعالى، وما كَذَب قَلبُ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما رآه ببَصَرِه.

ثمَّ يوبِّخُ الله تعالى المشركينَ على تكذيبِهم للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: أفتُجادِلونَه -يا كُفَّارَ قُرَيشٍ- على ما أخبَرَكم برُؤيتِه ليلةَ الإسراءِ؟! ولقد رأَى محمَّدٌ جِبريلَ مرَّةً أُخرى على صُورتِه الحَقيقيَّةِ الَّتي خلَقَه اللهُ عليها عندَ شَجَرةِ نَبْقٍ عَظيمةٍ في السَّماءِ، تُسمَّى سِدْرةَ المنتهَى، عِندَ هذه الشَّجَرةِ جنَّةُ المأوى، وقد رأى محمَّدٌ جِبريلَ حينَ غَشِيَ سِدْرةَ المُنتَهى ما غَشِيَها مِن أمْرِ اللهِ تعالى، فما مالَ بَصَرُ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يَمينًا ولا شِمالًا، ولا تجاوَزَ الحدَّ الَّذي رآه، ولقد رأى محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَيلةَ الإسراءِ والمعراجِ الآياتِ الكُبرى مِن آياتِ رَبِّه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالنَّجْمِ إذا سَقَط[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٨٩-٩١).

قال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ هذا قسَمٌ. وفي المرادِ بالنَّجمِ خمسةُ أقوالٍ: =

= أحدُها: أنَّه الثُّرَيَّا، رواه العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وابنُ أبي نَجيحٍ عن مُجاهِدٍ. قال ابنُ قُتَيْبَةَ: والعربُ تُسمِّي الثُّريَّا -وهي ستَّةُ أنجُمٍ- نَجمًا. وقال غيرُه: هي سبعةٌ؛ فستَّةٌ ظاهرةٌ، وواحدٌ خفيٌّ يمتحِنُ به النَّاسُ أبصارَهم.

والثَّاني: الرُّجومُ مِن النُّجومِ، يعني ما يُرمى به الشَّياطينُ، رواه عِكْرِمةُ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثَّالثُ: أنَّه القرآنُ، نزَل نُجومًا متفرِّقةً، قاله عطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، والأعمشُ عن مجاهِدٍ. وقال مجاهِدٌ: كان يَنزِلُ نُجومًا؛ ثلاثَ آياتٍ، وأربعَ آياتٍ، ونحوَ ذلك.

والرَّابعُ: نجومُ السَّماءِ كُلُّها، وهو مَرويٌّ عن مجاهدٍ أيضًا.

والخامسُ: أنَّها الزُّهَرةُ، قاله السُّدِّيُّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٣). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٧).

القولُ الأوَّلُ: أنَّ المرادَ بالنَّجمِ في الآيةِ: الثُّرَيَّا، فالمعنى: أُقسِمُ بالثُّرَيَّا إذا سقَطَت. وممَّن اختاره: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥، ٧).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وسُفْيانُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٤٠).

وتقدَّم أنَّ العربَ تُسمِّي الثُّريَّا نَجمًا، وتُطلِقُ اسمَه عليها خاصَّةً وإن كانت في العددِ نُجومًا. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٢).

القولُ الثَّاني: أنَّ المرادَ: القَسَمُ بالنُّجومِ الَّتي تُرمَى بها الشَّياطينُ الَّذين يَستَرِقونَ السَّمعَ. وقد استظهَرَ ابنُ القَيِّمِ هذا القَولَ ورَجَّحه، وذكَرَ ابنُ كثيرٍ أنَّ له اتِّجاهًا. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٤).

قال ابن القيِّم: (ويكونُ سُبحانَه قد أقسَمَ بهذه الآيةِ الظَّاهِرةِ المُشاهَدةِ الَّتي نصَبها الله سُبحانَه آيةً وحِفظًا للوَحيِ مِنِ استِراقِ الشَّياطينِ له، على أنَّ ما أتى به رسولُه حقٌّ وصدقٌ، لا سبيلَ للشَّيطانِ ولا طريقَ له إليه، بل قد حُرِسَ بالنَّجمِ إذا هوى؛ رَصدًا بيْنَ يدَيِ الوحيِ، وحرسًا له. وعلى هذا فالارتِباطُ بيْنَ المُقْسَمِ به والمقسَمِ عليه في غايةِ الظُّهورِ، وفي المقسَمِ به دليلٌ على المقسَمِ عليه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٤٤).

القولُ الثَّالثُ: أنَّ المرادَ بالنَّجمِ إذا هوى: القُرآنُ إذا نَزَل على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ؛ لأنَّه نَزَل مُنَجَّمًا، أي: مُفَرَّقًا. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ =

= سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والواحديُّ، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٣، ٤٦٤).

قال الواحدي: (أُنزِلَ نُجومًا مُتفرِّقةً على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عِشرينَ سَنةً، والمرادُ بالنَّجمِ: القُرآنُ، سُمِّيَ نَجمًا؛ لِتَفريقِه في النُّزولِ، والعَرَبُ تُسَمِّي التَّفريقَ تَنجيمًا، والمُفَرَّقَ مُنَجَّمًا). ((الوسيط)) (٤/ ١٩٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠٠).

القولُ الرَّابعُ: أنَّ المرادَ: جَميعُ النُّجومِ في السَّماءِ. وممَّن اختاره: أبو عُبَيْدةَ، واستظهَرَ هذا القَولَ: السَّمعانيُّ، ذاهِبًا إلى أنَّ النَّجمَ هنا بمعنى الجَمعِ، فالمعنى: أُقسِمُ بنُجومِ السَّماءِ إذا غابت وغارت. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧).

قال السَّمعانيُّ: (عُبِّر عنها باسمِ الجِنْسِ، وهذا أظهَرُ الأقاويلِ؛ لأنَّه يُطابقُ اللَّفظَ مِن كلِّ وجهٍ. ويجوزُ أن يُذكَرَ النَّجْمُ بمعنى النُّجومِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٣).

قال الألوسي: (وأظهَرُ الأقوالِ القولُ بأنَّ المرادَ بالنَّجمِ جِنسُ النَّجمِ المعروفِ؛ فإنَّ أصْلَه اسمُ جِنسٍ لكلِّ كوكبٍ، وعلى القولِ بالتَّعيينِ فالأظهَرُ القَولُ بأنَّه الثُّرَيَّا). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤٥).

وقال ابنُ عطية: (قال الحَسَنُ ومَعْمَرُ بنُ المُثنَّى [أبو عُبَيْدةَ] وغَيرُهما: النَّجْمُ هنا: اسمُ جِنسٍ، أرادوا النُّجومَ إذا هَوَت، واختَلَف قائلو هذه المقالةِ في معنى ﴿هَوَىٰ﴾؛ فقال جمهورُ المُفَسِّرينَ: هوى إلى الغُروبِ، وهذا هو السَّابِقُ إلى الفَهمِ مِن كَلامِ العَرَبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٥). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٥).

وقال الشَّوكاني: (ومعنَى هُوِيِّهِ: سُقوطُه مِن علْوٍ، يُقالُ: هَوَى النَّجمُ يَهْوِي هُوِيًّا: إذا سَقَط مِن علْوٍ إلى سُفْلٍ، وقيل: غروبُه، وقيل: طلوعُه، والأوَّلُ أولَى، وبه قال الأصمعيُّ وغيرُه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٦).

وقال السعدي: (يُقسِمُ تعالى بالنَّجمِ عند هُوِيِّه، أي: سُقوطِه في الأُفُقِ في آخِرِ اللَّيلِ عندَ إدبارِ اللَّيلِ وإقبالِ النَّهارِ؛ لأنَّ في ذلك مِن آياتِ اللهِ العَظيمةِ ما أوجَبَ أن أَقسَم به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨). =

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ ﴾.

أي: ما حادَ صاحِبُكم محمَّدٌ -يا قُرَيشُ- عن الحَقِّ، وما زالَ عن اعتِقادِه والإيمانِ به، وما صار غاوِيًا مُتَّبِعًا لِهَواه، بل هو مُهْتَدٍ في عِلْمِه، راشِدٌ في عَمَلِه[1].

كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [يس: ٣، ٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان قد يكونُ مع الهُدى مُصادَفةً، قال: ﴿ وَمَا يَنطِقُ ﴾ أي: يُجاوِزُ نُطقُه فَمَه في وَقتٍ مِن الأوقاتِ لا في الحالِ ولا في الاستِقبالِ، نُطقًا ناشِئًا ﴿ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾[2].

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾.

أي: وما يَصدُرُ كَلامُ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- عن هَوًى في نَفْسِه[3].

---

= وقال ابن الجوزي: (على قولِ مَن قال: النَّجمُ: الثُّرَيَّا، يكونُ ﴿هَوَىٰ﴾ بمعنى: غابَ. ومَن قال: هو الرُّجومُ، يكونُ هُوِيُّها في رمْيِ الشَّياطينِ. ومَن قال: القرآن، يكونُ معنى ﴿هَوَىٰ﴾: نزَل. ومَن قال: نجومُ السَّماءِ كُلُّها، ففيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ هُوِيَّها أن تغيبَ. والثَّاني: أن تَنتثِرَ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧، ٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٤)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٢/ ١٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٤).

قال ابنُ جرير: (قَولُه: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ﴾ جَوابُ قَسَمِ ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٧)، =

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾.

أي: ما نُطقُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدِّينِ إلَّا وَحْيٌ يُوحِيه اللهُ إليه، فيَتَّبِعُه في نَفْسِه، ويُبَلِّغُه لِغَيرِه دونَ زيادةٍ أو نَقصٍ(١).

---

= ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٦).

قال الشنقيطي: (قَولُه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ معناه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُبَلِّغُ عن اللهِ إلَّا شَيئًا أوحى اللهُ إليه أن يُبَلِّغَه، فمَن يَقولُ: إنَّه شِعرٌ أو سِحرٌ أو كِهانةٌ أو أساطيرُ الأوَّلينَ- هو أكذَبُ خَلقِ اللهِ وأكفَرُهم). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٦٥).

وحكى ابنُ عطيَّةَ الإجماعَ على أنَّ المرادَ به القرآنُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والخازنُ، وابنُ جُزَي، والقاسميُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٦).

وقيل: المرادُ: نُطقُه في الدِّينِ مِن الكِتابِ والسُّنَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا: الثعلبيُّ، والبغويُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره ابنُ القيِّم، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٦)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٧-٢٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٦).

قال ابنُ القيِّم: (قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ فأعاد الضَّميرَ على المصدَرِ المفهومِ مِن الفِعلِ، أي: ما نُطقُه إلَّا وَحيٌ يُوحى، وهذا أحسَنُ مِن قَولِ مَن جَعَل الضَّميرَ عائدًا إلى القُرآنِ؛ فإنَّه يَعُمُّ نُطقَه بالقُرآنِ والسُّنَّةِ، وأنَّ كِلَيهما وَحيٌ يُوحى). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٤٧-٢٤٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

وقال البِقاعي: (﴿إِنْ﴾ أي: ما ﴿هُوَ﴾ أي: الَّذي يَتكلَّمُ به مِن القرآنِ وبيانِه، وكل أقوالِه وأفعالِه، وأحوالِه ﴿إِلَّا وَحْيٌ﴾ أي: مِن الله تعالى). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٣). =

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الوَحيُ ظاهِرًا فيما بواسِطةِ المَلَكِ؛ تشَوَّف السَّامِعُ إلى بَيانِ ذلك؛ فقال مُبَيِّنًا له بأوصافِه؛ لأنَّ ذلك أضخَمُ في حَقِّه، وأعلَى لِمِقدارِه[1]:

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥﴾.

أي: علَّم مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هذا القُرآنَ جِبريلُ -عليه السَّلامُ- الشَّديدُ القُوى[2].

---

= وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ نَفيَ النُّطقِ عن هَوًى يَقتضي نَفيَ جِنسِ ما يَنطِقُ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن الاتِّصافِ بالصُّدورِ عن هوًى، سواءٌ كان القُرآنَ أو غيرَه مِن الإرشادِ النَّبويِّ بالتَّعليمِ والخطابةِ والمَوعِظةِ والحِكمةِ، ولكِنَّ القُرآنَ هو المقصودُ؛ لأنَّه سَبَبُ هذا الرَّدِّ عليهم. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

وقال ابن عاشور: (النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَنطِقُ بغيرِ القُرآنِ عن وَحيٍ... وقد يَنطِقُ عن اجتِهادٍ، كأمْرِه بكَسرِ القُدورِ الَّتي طُبِخَت فيها الحُمُرُ الأهليَّةُ، فقيل له: أوْ نُهرِيقُها ونَغسِلُها؟ فقال: «أوْ ذاك» [البخاري (٤١٩٦)، ومسلم (١٨٠٢)]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٤). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٤، ٤٦٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨، ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٥).

وقد حكى الإجماعَ على أنَّ المرادَ هنا: جِبريلُ عليه السَّلامُ: الماوَرْديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

وقال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ يعني: جِبريلَ عليه السَّلامُ، في قَولِ سائِرِ المفَسِّرينَ سِوى الحَسَنِ؛ فإنَّه قال: هو اللهُ عزَّ وجلَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٥).

قال السعدي: (﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ أي: شَديدُ القُوَّةِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، قَوِيٌّ على تنفيذِ ما أمَرَه اللهُ بتَنفيذِه، قَويٌّ على إيصالِ الوَحيِ إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومَنْعِه مِن اختِلاسِ الشَّياطينِ له، أو إدخالِهم فيه ما ليس منه، وهذا مِن حِفظِ اللهِ تعالى لِوَحْيِه؛ أنْ أرسَلَه مع هذا الرَّسولِ القَوِيِّ الأمينِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٤].

وقال عزَّ شَأنُه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ * مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١].

﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦﴾.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾.

أي: إنَّ جِبريلَ ذو جِسمٍ قَويٍّ صَحيحٍ، سالمٍ مِنَ النَّقصِ، حَسَنُ الخَلْقِ، جَميلٌ ظاهِرًا وباطِنًا(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠، ١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٦)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٥).

قال الماوَرْدي: (﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ فيه خَمسةُ أوجُهٍ:

أحدُها: ذو مَنظَرٍ حَسَنٍ. الثَّاني: ذو غَناءٍ. الثَّالِثُ: ذو قُوَّةٍ... الرَّابعُ: ذو صِحَّةٍ في الجِسمِ وسَلامةٍ مِنَ الآفاتِ. الخامِسُ: ذو عَقلٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩١، ٣٩٢).

ومِمَّن قال بأنَّ المعنى: ذو قُوَّةٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٦).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ، وسُفيانُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤).

ومِمَّن قال بأنَّ المعنى: ذو صِحَّةٍ في الجِسمِ، وسَلامةٍ مِنَ الآفاتِ والعاهاتِ: ابنُ جرير. =

﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾.

أي: فارتَفَع جِبريلُ وعلا في السَّماءِ على صُورتِه الحَقيقيَّةِ(١).

= وأرجَعَ هذا إلى معنى القُوَّةِ؛ فإنَّه قال: (الجِسمُ إذا كان كذلك مِنَ الإنسانِ كان قَوِيًّا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١).

قال ابنُ القيِّمِ: (الأظهَرُ: أنَّ المِرَّةَ هي الصِّحَّةُ والسَّلامةُ مِنَ الآفاتِ والعاهاتِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ، وذلك يَستلزِمُ كَمالَ الخِلقةِ وحُسْنَها وجَمالَها؛ فإنَّ العاهةَ والآفةَ إنَّما تكونُ مِن ضَعفِ الخِلْقةِ والتَّركيبِ، فهي قُوَّةٌ وصِحَّةٌ تتضَمَّنُ جَمالًا وحُسنًا. واللهُ أعلَمُ). ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) (٢/ ١٢٩). بيْنَما اختار في موضِعٍ آخَرَ أنَّ المرادَ بالمِرَّةِ: المنظَرُ البَهِيُّ الجَميلُ. يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٧٧).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المرادَ: ذو مَنظَرٍ حَسَنٍ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤).

وذهب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّه لا تنافيَ بيْنَ قولِ مَن قال: إنَّ المعنى: ذو قوَّةٍ، وقولِ مَن قال: المعنى: أنَّه ذو منظرٍ حسَنٍ؛ فجِبريلُ عليه السَّلامُ ذو مَنظَرٍ حَسَنٍ، وذو قُوَّةٍ شديدةٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: السعديُّ -وزاد جمالَ الباطنِ- وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٧).

وقيل: ذو حَصافةٍ في عَقْلِه ورَأيِه. وممَّن اختاره: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٦-٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤).

قال السمعاني: (قَولُه: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ أَي: فاستوى جِبريلُ في أُفُقِ السَّماءِ على صُورتِه الَّتي خُلِقَ فيها. وكذا قَولُ ابنِ مَسعودٍ، وابنِ عَبَّاسٍ، ومُجاهدٍ، وقَتادةَ، وعَلْقَمةَ، ومُرَّةَ بنِ شَراحِيلَ، وأكثرِ أهلِ التَّفسيرِ. وعن الحسَنِ البَصرِيِّ: أنَّه اللهُ تعالى). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٥).

وقد ذهب الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، ومَكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ، والبغويُّ، والرَّسْعَنيُّ، والخازنُ: إلى أنَّ المعنى: فاستوى جِبريلُ ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالأُفُقِ الأعلى. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٩٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١، ١٢)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٧١٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠١)، ((تفسير =

﴿ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ﴾.

أي: وجِبريلُ في ناحيةِ السَّماءِ العُليا[1].

= الرسعني)) (٧/ ٤٦٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٣).

قال ابنُ جرير: (وذلك لَمَّا أُسرِيَ برَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم استوى هو وجِبريلُ عليهما السَّلامُ بمَطلِعِ الشَّمسِ الأعلى، وعَطَفَ الأعلى، وعَطَف بقَولِه: ﴿ وَهُوَ ﴾ على ما في قَولِه: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ مِن ذِكرِ -أي: ضَميرِ- محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأكثَرُ كَلامِ العَرَبِ إذا أرادوا العَطفَ في مِثلِ هذا الموضِعِ أن يُظهِروا كِنايةَ المعطوفِ عليه، فيقولوا: استوى هو وفُلانٌ، وقلَّما يقولونَ: استوى وفُلانٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١، ١٢).

وقد ضعَّف الزَّجَّاجُ، والواحِديُّ وغيرُهما أن يكونَ المعنى فاستوى أي: جِبريلُ ومحمَّدٌ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤).

وقَولُه: ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ أي: علا؛ لأنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ، فيُلْقِي الوَحْيَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم، ثمَّ يَصعَدُ إلى السَّماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٧، ٢٠٨).

وقيل: فاستقام على صورةِ نفْسِه الحقيقيَّةِ، دُونَ الصُّورةِ الَّتي كان يتمثَّلُ بها كلَّما هبَطَ بالوحْيِ. قاله الزمخشريُّ، وتَبِعه البَيضاويُّ، والنَّسَفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٠).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٤٨).

ذهب أكثَرُ المُفَسِّرينَ؛ منهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، والزمخشريُّ، إلى تخصيصِ الأُفُقِ الأعلى المذكورِ في الآيةِ بجِهةِ مَشرِقِ الشَّمسِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٤).

قال الواحدي: (قال مقاتِلٌ ﴿ وَهُوَ ﴾ يعني: جِبريلَ ﴿ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ يعني: مِن قِبَلِ المَطلِعِ. وقال الكَلبيُّ: يعني مَطلِعَ الشَّمسِ، وهذا قَولُ الجَميعِ في الأُفُقِ الأعلى. يعني: أُفُقَ المَشرِقِ). =

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: ثمَّ اقتَرَب جِبريلُ مِن مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- وتدَلَّى إليه، فاقتَرَب منه أكثَرَ حِينَ هَبَط إليه مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ؛ لِيُوحِيَ إليه ما شاء اللهُ[1].

---

= ((البسيط)) (٢١/ ١٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، ومجاهدٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٤٤).

وقال الواحدي: (والمرادُ بالأعلى: جانِبُ المَشرِقِ، وهو فَوقَ جانِبِ المَغرِبِ، في صَعيدِ الأرضِ لا في الهواءِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٩٣).

وذهب ابنُ عَطيَّةَ إلى أنَّه لا دليلَ على تخصيصِه بجهةِ المَشرِقِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٧).

قال السعدي: (أي: أُفُقِ السَّماءِ الَّذي هو أعلى مِنَ الأرضِ، فهو مِنَ الأرواحِ العُلويَّةِ الَّتي لا تنالُها الشَّياطينُ، ولا يتمَكَّنونَ مِنَ الوُصولِ إليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣)، ((التفسير الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٨٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٠٠-٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجُملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، وابن القيم، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عطية: (اختلَف النَّاسُ إلى مَن استَند قولُه: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾؛ فقال الجُمهورُ: استَنَد إلى جِبريلَ عليه السَّلامُ، أي: دنا إلى محمَّدٍ في الأرضِ عندَ حِرَاءٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٧).

وقال ابنُ كثير: (هذه الرُّؤيةُ لجِبريلَ لم تكُنْ ليلةَ الإسراءِ، بل قَبْلَها، ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأرضِ، فهَبَط عليه جِبريلُ عليه السَّلامُ، وتدلَّى إليه، فاقتَرَب منه وهو على الصُّورةِ الَّتي خلَقَه اللهُ عليها، له سِتُّمئةِ جَناحٍ، ثمَّ رآه بعدَ ذلك نَزلةً أُخرى عندَ سِدرةِ المُنتَهى، يعني: لَيلةَ الإسراءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٥).

وقال البِقاعي: (هذه النَّزْلةُ -واللهُ أعلَمُ- كانت على هذا التَّقديرِ في أوَّلِ الوَحيِ لَمَّا كان بحِراءٍ، وفَرِقَ منه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فرَجَع تَرجُفُ بَوادِرُه، وقال: زَمِّلوني زَمِّلوني). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٦). =

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ قالت: ((ذاكَ جِبريلُ، كان يأتيه في صُورةِ الرَّجُلِ، وإنَّه أتاه هذه المرَّةَ في صُورتِه الَّتي هي

---

= وقال أيضًا: (﴿فَتَدَلَّىٰ﴾... أي: أُنزِلَ إليه نُزولًا هو فيه كالمتدَلِّي إليه بحَبلٍ، فوَصَل إليه ولم ينفَصِلْ عن محَلِّه مِنَ الأُفُقِ الأعلى؛ لِما له مِن القُوَّةِ والاستِحكامِ؛ قال البَيضاوي: فإنَّ التَّدَلِّيَ هو استِرسالٌ مع تعَلُّقٍ، كتَدَلِّي الثَّمَرةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٥). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٧).

وممَّن قال مِن السَّلَفِ: إنَّ المرادَ هو جِبريلُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحَسَنُ، وقَتادةُ، والرَّبيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٣٧).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى اللهِ تعالى، وأنَّ المعنى: أنَّ اللهَ تعالى اقتَرَب مِنَ النَّبيِّ لَيلةَ الإسراءِ والمعراجِ إلى السَّماءِ السَّابِعةِ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٠).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤).

أمَّا ما جاء في ((صحيحِ البُخاريِّ)) (٧٥١٧) مِن تصريحٍ بنِسبةِ ذلك إلى اللهِ؛ فقد قال ابنُ رَجَبٍ: (وفي روايةِ شَريكِ بنِ أبي نَمِرٍ، عن أنَسٍ: «ثمَّ علا به فَوقَ ذلك بما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، حتَّى جاء سِدْرةَ المنتهَى، ودنا الجبَّارُ رَبُّ العِزَّةِ فتَدَلَّى، فكان قابَ قَوسَينِ أو أدنى، فأوحى فيما يُوحِي خَمسينَ صَلاةً على أمَّتِك كلَّ يَومٍ ولَيلةٍ». وقد تفَرَّد شَريكٌ بهذه الألفاظِ في هذا الحديثِ، وهي ممَّا أُنكِرَت عليه فيه). ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣١٨).

قال ابنُ حَجَرٍ: (قال الخَطَّابي: إنَّ الَّذي وقَع في هذه الرِّوايةِ مِن نِسبةِ التَّدَلِّي للجَبَّارِ عزَّ وجَلَّ مخالِفٌ لعامَّةِ السَّلَفِ والعُلَماءِ وأهلِ التَّفسيرِ مَن تقَدَّم منهم ومَن تأخَّر. قال: والَّذي قِيلَ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: أنَّه دنا جِبريلُ مِن مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتدَلَّى: أي: تقَرَّبَ منه. وقيل: هو على التَّقديمِ والتَّأخيرِ، أي: تدَلَّى فَدَنَا؛ لأنَّ التَّدَلِّيَ بسَبَبِ الدُّنُوِّ. الثَّاني: تدَلَّى له جِبريلُ بعدَ الانتِصابِ والارتِفاعِ حتَّى رآه متدَلِّيًا كما رآه مُرتَفِعًا، وذلك مِن آياتِ اللهِ؛ حيثُ أقدَرَه على أن يتدَلَّى في الهواءِ مِن غَيرِ اعتِمادٍ على شيءٍ، ولا تمسُّكٍ بشَيءٍ. الثَّالِثُ: دنا جِبريلُ فتَدَلَّى محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ساجِدًا لرَبِّه تعالى؛ شُكرًا على ما أعطاه. قال: وقد رُوِيَ هذا الحديثُ عن أنَسٍ مِن غَيرِ طَريقِ شَريكٍ، فلم يُذكَرْ فيه هذه الألفاظُ الشَّنيعةُ، وذلك ممَّا يُقَوِّي الظَّنَّ أنَّها صادِرةٌ مِن جِهةِ شَريكٍ. انتهى). ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٨٤). ويُنظر: ((أعلام الحديث)) للخطابي (٤/ ٢٣٥٣).

صُورتُه؛ فسَدَّ الأُفُقَ!))[١].

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾.

أي: فكان مِقدارُ مَسافةِ قُربِ جِبريلَ مِن مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- قَدْرَ قَوسَينِ، أو هو أقرَبُ إليه مِن ذلك[٢]!

عن أبي إسحاقَ الشَّيْبانيِّ، قال: ((سألتُ زِرَّ بنَ حُبَيْشٍ عن قَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ:

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٤) واللَّفظُ له، ومسلم (١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٧، ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٦، ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٧، ٩٨).

قال ابنُ كثير: (﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: بقَدْرِهما إذا مُدَّا. قاله مجاهِدٌ، وقَتادةُ. وقد قيل: إنَّ المرادَ بذلك بُعْدُ ما بيْنَ وَتَرِ القَوسِ إلى كَبِدِها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٦).

وقال ابن عثيمين: (قَولُه: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ بمعنى «بلْ»، أي: بلْ هو أدنى مِن ذلك). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٨).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾... هذه الصِّيغة تُستَعمَلُ في اللُّغةِ لإثباتِ المُخبَرِ عنه، ونَفيِ ما زاد عليه، كقَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أي: ما هي بألْيَنَ مِن الحِجارةِ، بل هي مِثلُها أو تَزيدُ عليها في الشِّدَّةِ والقَسوةِ، وكذا قَولُه: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء: ٧٧]، وقَولُه: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، أي: ليسُوا أقَلَّ منها، بل هم مِئةُ ألْفٍ حَقيقةً، أو يَزيدونَ عليها. فهذا تحقيقٌ للمُخبَرِ به، لا شَكٌّ ولا تَرَدُّدٌ؛ فإنَّ هذا ممتَنِعٌ هاهنا، وهكذا هذه الآيةُ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٦، ٤٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

وقال ابن القيِّم: (أخبَرَ سُبحانَه عن مسافةِ هذا القُربِ بأنَّه قَدْرُ قَوسَينِ أو أدنى مِن ذلك، وليس هذا على وَجهِ الشَّكِّ، بل تحقيقٌ لقَدْرِ المسافةِ، وأنَّها لا تَزيدُ عن قَوسَينِ البتَّةَ...، وهذا المعنى أحسَنُ وألطَفُ وأدَقُّ مِن قَولِ مَن جَعَلَ «أو» في هذه المواضِعِ بمعنى «بل»، ومِن قَولِ مَن جَعَلَها للشَّكِّ بالنِّسبةِ إلى الرَّائي، وقَولِ مَن جَعَلَها بمعنى الواوِ؛ فتَأمَّلْه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٥٠).

﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾، قال: أخبَرَني ابنُ مَسعودٍ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى جِبريلَ له سِتُّمِئةِ جَناحٍ))[1].

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾.

أي: فأوحى جِبريلُ إلى عبدِ اللهِ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما أوحاه إليه مِنَ اللهِ تعالى[2].

﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ ﴿كَذَّبَ﴾ بتَشديدِ الذَّالِ، بمعنى: أنَّ فُؤادَ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يُكَذِّبِ الَّذي رأى، ولم يَشُكَّ فيه، ولم يُنكِرْه، بل جعَلَه حَقًّا وصِدقًا. وقيل: المعنى: ما كَذَّب صاحِبُ الفؤادِ ما رأَى[3].

٢- قِراءةُ ﴿كَذَبَ﴾ بتَخفيفِ الذَّالِ، أي: ما كذَبَ فؤادُ مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فيما رأى بعَينِه؛ فقد رأى الحَقَّ. وقيل: ما كَذَب فؤادُ مُحمَّدٍ محمَّدًا

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٨).

قال ابنُ كثير: (معناه: فأوحى جِبريلُ إلى عبدِ اللهِ مُحمَّدٍ ما أوحى، أو: فأوحى اللهُ إلى عَبدِه مُحمَّدٍ ما أوحى بواسِطةِ جِبريلَ، وكِلا المعنَيَينِ صَحيحٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٨).

(٣) قرأ بها هشامٌ عن ابنِ عامرٍ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦، ٢٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٣).

الَّذي رأى، ولكِنَّه صَدَقَه[١].

﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

أي: ما كَذَب قَلبُ مُحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- ما رآه ببَصَرِه، بل صَدَقَه، وتحَقَّقَه وعَلِمَه يَقينًا[٢].

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١، ٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٩).

قال ابنُ الجوزي: (في الَّذي رأى قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه رأى ربَّه عزَّ وجَلَّ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وأنسٌ، والحسَنُ، وعِكْرِمةُ.

والثَّاني: أنَّه رأى جِبريلَ في صورتِه الَّتي خُلِقَ عليها. قاله ابنُ مسعودٍ، وعائِشةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٨٦).

ونَسَب ابنُ عطيَّةَ القَولَ الثَّانيَ إلى جمهورِ العُلَماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٨).

قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: رأى محمَّدٌ رَبَّه بفُؤادِه، ولم يَرَه بعَينِه. ويكونُ ذلك على أنَّ اللهَ تعالى جَعَل بَصَرَه في فؤادِه، أو خَلَق لفُؤادِه بَصَرًا، حتَّى رأى رَبَّه رُؤيةً غَيرَ كاذِبةٍ، كما ترى بالعَينِ. ومَذهَبُ جماعةٍ مِن المفَسِّرينَ: أنَّه رآه بعَينِه، وهو قَولُ أَنَسٍ، وعِكْرِمةَ، والحَسَنِ، وكان يَحلِفُ باللهِ لقد رأى محمَّدٌ رَبَّه. فكُلُّ هؤلاء أثبَتوا رُؤيةً صَحيحةً؛ إمَّا بالعَينِ، وإمَّا بالفُؤادِ، ومَذهَبُ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ وعائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنهما في هذه الآيةِ: أنَّه رأى جِبريلَ في صُورتِه الَّتي خُلِقَ عليها). ((الوسيط)) (٤/ ١٩٥).

وقال ابنُ كثير: (ومَن روى عنه بالبَصَرِ فقد أغرَبَ؛ فإنَّه لا يَصِحُّ في ذلك شَيءٌ عن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، وقَولُ البغَويِّ في تفسيرِه: وذهب جماعةٌ إلى أنَّه رآه بعَينِه، وهو قَولُ أَنَسٍ والحَسَنِ وعِكْرِمةَ: فيه نظَرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٤٨). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠٤).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وأمَّا «الرُّؤيةُ» فالَّذي ثبت في الصَّحيحِ عن ابنِ عَبَّاسٍ أنَّه قال: «رأى محمَّدٌ رَبَّه بفُؤادِه مَرَّتينِ»، وعائِشةُ أنكَرَت الرُّؤيةَ؛ فمِنَ النَّاسِ مَن جمَع بيْنَهما، فقال: عائِشةُ أنكَرَت رُؤيةَ =

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿أَفَتَمْرُونَهُ﴾ بفَتحِ التَّاءِ، وإسكانِ الميمِ، مِن غيرِ ألفٍ، بمعنى: أفتَجْحَدونَه[1]؟

٢- قِراءةُ: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ ﴾ بضَمِّ التَّاءِ، وفَتحِ المَيمِ، وألِفٍ بعْدَها، بمعنى: أفتُجادِلونَه[2]؟

﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾.

---

= العَينِ، وابنُ عبَّاسٍ أثبَتَ رُؤيةَ الفُؤادِ. والألفاظُ الثَّابتةُ عن ابنِ عَبَّاسٍ هي مُطلَقةٌ أو مُقيَّدةٌ بالفُؤادِ؛ تارةً يقول: رأى محمَّدٌ رَبَّه، وتارةً يقولُ: رآه محمَّدٌ. ولم يَثبُتْ عن ابنِ عبَّاسٍ لَفظٌ صَريحٌ بأنَّه رآه بعَينِه... وليس في الأدِلَّةِ ما يقتضي أنَّه رآه بعَينِه، ولا ثَبَت ذلك عن أحَدٍ مِنَ الصَّحابةِ، ولا في الكِتابِ والسُّنَّةِ ما يدُلُّ على ذلك، بل النُّصوصُ الصَّحيحةُ على نَفْيِه أدَلُّ)). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٥٠٩، ٥١٠).

وقال الكرماني: (يحتَمِلُ أنَّ المَرئيَّ ما فَسَّره اللهُ تعالى بقَولِه: (﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾؛ ولهذا قال: ﴿مَا رَأَىٰٓ ﴾، ولم يقُلْ: «مَن رأى»)). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١١٥٤).

وقال ابنُ عاشور: (الأظهَرُ أنَّ هذا ردٌّ لتكذيبٍ مِنَ المُشركينَ فيما بلَغَهم مِن الخَبَرِ عن رُؤيةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المَلَكَ جبريلَ، وهو الَّذي يُؤذِنُ به قَولُه بَعدُ: ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٧٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٣٧)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٨٥).

وقال القرطبي: (المعنيانِ مُتداخِلانِ؛ لأنَّ مُجادَلتَهم جُحودٌ. وقيل: إنَّ الجُحودَ كان دائِمًا منهم، وهذا جِدالٌ جَديدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٣).

أي: أفتُجادِلونَ مُحمَّدًا -يا كُفَّارَ قُرَيشٍ- على ما أخبَرَكم أنَّه رآه لَيلةَ الإسراءِ[١]؟ كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ولقد رأى محمَّدٌ جِبريلَ مرَّةً أُخرى على صُورتِه الحَقيقيَّةِ الَّتي خلَقَه اللهُ عليها[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٩)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٥٣٢).

قال الواحدي: (قال عامَّةُ المفَسِّرينَ وأهلُ التَّأويلِ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أفتُجادِلونَه). ((البسيط)) (٢١/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥١، ٤٥٣).

نسَب السمرقنديُّ والشوكانيُّ هذا المعنى المذكورَ إلى جُمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٨).

قال الثعلبي: (وذلك أنَّ جِبريلَ رآه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على صُورتِه الَّتي خُلِقَ عليها مَرَّتَينِ: مَرَّةً بالأُفُقِ الأعلى في الأرضِ، ومَرَّةً عندَ سِدرةِ المُنتهى في السَّماءِ، وهذا قَولُ عائِشةَ وأكثَرِ العُلَماءِ، وهو الاختيارُ؛ لأنَّه قَرَن الرُّؤيةَ بالمكانِ، فقال: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، ولأنَّه قال: ﴿نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عائشةُ، وابنُ مسعودٍ، وأبو هُرَيرةَ، ومجاهِدٌ، والرَّبيعُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٤٩).

وقد ذهب مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ إلى أنَّ المعنى: ولقد رأى محمَّدٌ رَبَّه بقَلبِه مرَّةً أُخرى. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ هذه هي المرَّةُ الثَّانيةُ الَّتي رأى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيها جِبريلَ على صُورتِه الَّتي خَلَقَه اللهُ عليها، وكانت لَيلةَ الإسراءِ، وابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما كان يُثبِتُ الرُّؤيةَ لَيلةَ الإسراءِ، ويَستَشهِدُ =

عن مَسروقٍ، قال: قلْتُ: يا أُمَّ المؤمنينَ، أَنْظِريني، ولا تُعْجِليني، أَلَمْ يَقُلِ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؟ فقالت: أنا أوَّلُ هذه الأمَّةِ سَأل عن ذلك رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: ((إنَّما هو جِبريلُ، لم أرَهُ على صورتِه الَّتي خُلِق عليها غيرَ هاتَينِ المرَّتَينِ، رأيْتُه مُنهَبِطًا مِن السَّماءِ، سادًّا عِظَمُ خَلْقِه ما بيْنَ السَّماءِ إلى الأرضِ!))[1].

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ١٤﴾.

أي: رأى محمَّدٌ جِبريلَ عندَ شَجَرةِ نَبْقٍ عَظيمةٍ في السَّماءِ تُسمَّى سِدرةَ المنتهَى[2].

---

= بهذه الآيةِ. وتابَعَه جماعةٌ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ، وقد خالفَه جماعاتٌ مِنَ الصَّحابةِ رَضِي اللهُ عنهم والتَّابعينَ وغَيرِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥١) بتصرف.

(١) أخرجه مسلم (١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣، ٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

قال أبو السعود: (والمُنْتهى مَوضِعُ الانتِهاءِ أو الانتِهاءُ، كأنَّها في مُنْتَهى الجنَّةِ. وقيلَ: إليها يَنْتهي عِلمُ الخلائقِ وأعمالُهم، ولا يَعلَمُ أحدٌ ما وراءَها. وقيل: يَنتهي إليها أرواحُ الشُّهداءِ. وقيل: يَنتهي إليها ما يَهبِطُ مِن فَوقِها، ويَصعَدُ مِن تَحتِها). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٦).

قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ معنى المُنتَهى الانتِهاءُ، فكأنَّه قال: عندَ سِدرةِ الانتِهاءِ. وجائزٌ أن يكونَ قيل لها سِدرةُ المُنتَهى؛ لانتهاءِ عِلمِ كُلِّ عالِمٍ مِنَ الخَلقِ إليها، كما قال كَعبٌ. وجائزٌ أن يكونَ قيل ذلك لها؛ لانتِهاءِ ما يَصعَدُ مِن تَحتِها، ويَنزِلُ مِن فَوقِها إليها، كما رُوِيَ عن عبدِ اللهِ [أي: ابن مسعود]. وجائزٌ أن يكونَ قيل ذلك كذلك؛ لانتِهاءِ كلِّ مَن خلا مِنَ النَّاسِ على سُنَّةِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليها. وجائزٌ أن يكونَ قيل لها ذلك؛ لجَميعِ ذلك، ولا خبَرَ يَقطَعُ العُذرَ بأنَّه قيل ذلك لها لبَعضِ ذلك دونَ بَعضٍ، فلا قَولَ فيه أصَحُّ مِنَ القَولِ الَّذي قال رَبُّنا جَلَّ ثناؤُه، وهو أنَّها سِدرةُ المُنتَهى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٥، ٣٩٦).

ومِمَّن قال: إنَّها سمِّيت بذلك؛ لأنَّه يَنتهي إليها ما يَنزِلُ مِن عندِ اللهِ، وما يَصعَدُ إليه مِن الأرضِ: ابنُ القيِّم، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين: =

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال -كما في قِصَّةِ الإسراءِ والمِعراجِ-: ((... ثمَّ ذَهَبَ بي إلى السِّدرةِ المُنتَهى، وإذا وَرَقُها كآذانِ الفِيَلةِ، وإذا ثَمَرُها كالقِلالِ، فلمَّا غَشِيَها مِن أمرِ اللهِ ما غَشِيَ تغيَّرَت، فما أحَدٌ مِن خَلقِ اللهِ يَستطيعُ أن يَنعَتَها؛ مِن حُسنِها، فأوحى اللهُ إلَيَّ ما أوحى!))[1].

---

= سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٥٠).

وممَّن قال: إنَّها سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّه إليها يَنتهي عِلمُ الخَلقِ، وما وراءَها لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحديُّ، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٩).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وكعبُ الأحبارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٤٩).

وجمَع البِقاعي بيْنَ هذينِ القَولينِ السَّابِقَينِ، فقال: (ويَنتَهي إليها عِلمُ الخلائِقِ، وينتهي إليها ما يَعرُجُ مِن تحتٍ وما يَنزِلُ مِن فَوقٍ، فيُتلَقَّى هنالِكَ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٥٣).

قال الشربيني: (إضافةُ السِّدْرةِ إلى المُنتَهَى تَحتَمِلُ وُجوهًا:

أحدُها: إضافةُ الشَّيءِ إلى مكانِه، كقَولِك: أشجارُ بَلدةِ كذا... فالمُنتهى حينَئذٍ مَوضِعٌ لا يتعدَّاه مَلَكٌ،... قال كَعبٌ:... إليها يَنتهي عِلمُ الخلائِقِ، وما خَلْفَها غَيبٌ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ تعالى. وقيل: يَنتهي إليها ما هَبَط مِن فَوقِها، ويَصعَدُ مِن تَحتِها، وقال كَعبٌ: تنتهي إليها الملائِكةُ والأنبياءُ. وقال الرَّبيعُ: تنتهي إليها أرواحُ المؤمِنينَ.

وثانيها: إضافةُ المِلْكِ إلى مالِكِه، كقَولِك: دارُ زَيدٍ، وشَجَرُ زَيدٍ، وحينَئذٍ المُنتهَى فيه محذوفٌ تقديرُه: سِدرةُ المُنتهَى إليه. قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فالمنتهى إليه هو اللهُ تعالى، وإضافةُ السِّدْرةِ إليه حينَئذٍ كإضافةِ البَيتِ إليه للتَّشريفِ والتَّعظيمِ.

وثالِثُها: إضافةُ المحَلِّ إلى الحالِّ فيه، كقَولِك: كِتابُ الفِقهِ، وعلى هذا فالتَّقديرُ: سِدرةٌ عِندَها مُنتهى العُلومِ، فتُتَلَقَّى هناك). ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٢٦). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٤٤).

(١) رواه البخاريُّ (٣٨٨٧)، ومسلمٌ (١٦٢) واللَّفظُ له.

وفي حديثِ أَنَسِ بنِ مالِكٍ، عن مالِكِ بنِ صَعصَعةَ رَضِيَ اللهُ عنهما -في قِصَّةِ الإسراءِ والمِعراجِ- قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... فأَتَيْنا السَّماءَ السَّابِعةَ، قيلَ: مَن هذا؟ قيل: جِبريلُ، قيلَ: مَن معك؟ قيل: محمَّدٌ. قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ مَرحَبًا به، ولَنِعْمَ المجيءُ جاءَ! فأتيتُ على إبراهيمَ فسَلَّمْتُ عليه، فقال: مَرحَبًا بك مِنِ ابْنٍ ونَبيٍّ، فرُفِعَ ليَ البَيتُ المعمورُ، فسألتُ جِبريلَ، فقال: هذا البَيتُ المَعمورُ، يُصَلِّي فيه كُلَّ يَومٍ سَبعونَ أَلْفَ ملَكٍ، إذا خَرَجوا لم يَعودوا إليه آخِرَ ما عليهم! ورُفِعَت لي سِدرةُ المُنتهى، فإذا نَبقُها كأنَّه قِلالُ هَجَرَ، ووَرَقُها كأنَّه آذانُ الفُيولِ))[1].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا أُسرِيَ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم انتُهِيَ به إلى سِدْرةِ المُنتَهى، وهي في السَّماءِ السَّادِسةِ، إليها يَنتَهي ما يُعرَجُ به مِنَ الأرضِ، فيُقبَضُ منها، وإليها ينتَهي ما يُهبَطُ به مِن فَوقِها، فيُقبَضُ منها))[2].

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ١٥﴾.

أي: عِندَ شَجَرةِ سِدْرةِ المُنتَهى الجنَّةُ الَّتي يَأوي ويَصيرُ إليها المُؤمِنونَ يومَ القيامةِ[3].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٠٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٦٤).

(٢) رواه مسلم (١٧٣).

ذهب أكثَرُ العُلَماءِ -كما نَسَبه إليهم القاضي عِياضٌ وصَحَّحه- إلى أنَّ سِدرةَ المنتهى في السَّماءِ السَّابعةِ لا السَّادسةِ. يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (١/ ٥٢٥).

وذهب القُرطبيُّ والنَّوويُّ إلى الجَمعِ بيْن الرِّوايةِ المرفوعةِ عن أَنَسٍ الَّتي فيها أنَّ سِدرةَ المُنتَهى في السَّماءِ السَّابعةِ، والرِّوايةِ الموقوفةِ عن ابنِ مَسعودٍ الَّتي فيها أنَّها في السَّماءِ السَّادسةِ: بأنَّ سِدْرةَ المُنتهى أصلُها في السَّماءِ السَّادسةِ، وأعلاها في السَّماءِ السَّابعةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٥)، ((شرح صحيح مسلم)) للنووي (٣/ ٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٩].

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

أي: رأى محمَّدٌ جِبريلَ حينَ غَشِيَ سِدْرةَ المُنتَهى ما غَشِيَها مِن أمْرِ اللهِ تعالى[1]!

---

= جزي)) (٢/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١١).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الجنَّةُ الَّتي وعَدها الله عبادَه، ويأْوي إليها المؤمنونَ يومَ القيامةِ: السمعانيُّ، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: الجنَّةُ الَّتي تأوي إليها أرواحُ الشُّهَداءِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٠)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٩٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٢).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قال قَتادةُ وابنُ عبَّاسٍ بخِلافٍ: هي جنَّةٌ يأوي إليها أرواحُ الشُّهَداءِ والمؤمِنينَ، وليست بالجنَّةِ الَّتي وُعِدَ بها المؤمِنونَ؛ جَنَّةَ النَّعيمِ، وهذا يحتاجُ إلى سَنَدٍ، وما أراه يَصِحُّ عن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٩).

وقيل: هي الجنَّةُ الَّتي تأوي إليها الملائكةُ. وممَّن اختاره: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٣٨).

قال الواحدي: (قوله تعالى: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ قال عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ: يريدُ الجنَّةَ الَّتي يأوي إليها جِبريلُ والملائكةُ). ((البسيط)) (٢١/ ٣٢).

وقال جلالُ الدِّين المحلِّي: (﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ تأوي إليها الملائكةُ وأرواحُ الشُّهداءِ والمتَّقينَ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠١).

وقال ابنُ عاشور: (﴿ جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾: الجنَّةُ المعروفةُ بأنَّها مأوى المتَّقينَ؛ فإنَّ الجنَّةَ مُنتهى مراتِبِ ارتِقاءِ الأرواحِ الزَّكيَّةِ، وفي حديثِ الإسراءِ بعد ذِكرِ سِدرةِ المُنتهى: «ثمَّ أُدْخِلتُ الجنَّةَ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) =

وفي حديثِ أَنَسِ بنِ مالِكٍ عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنهما -في قِصَّةِ المِعراجِ- قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((... ثمَّ انطَلَق بي جِبريلُ حتى نأتيَ سِدْرةَ المُنتَهى، فغَشِيَها ألوانٌ لا أدري ما هي!))[1].

﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: ما مالَ بَصَرُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَمينًا ولا شِمالًا، ولا تجاوَزَ الحدَّ الَّذي رآه[2].

---

= (٧/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

قال ابن عطية: (﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ معناه: مِن قُدرةِ اللهِ، وأنواعِ الصِّفاتِ الَّتي يختَرِعُها لها، وذلك مُبهَمٌ على جِهةِ التَّفخيمِ والتَّعظيمِ. وقال مجاهِدٌ: تُبَدَّلُ أغصانُها دُرًّا وياقوتًا ونحوَه. وقال ابنُ مسعودٍ ومَسروقٌ ومجاهِدٌ: ذلك جَرادٌ مِن ذَهَبٍ كان يَغشاها... وقال الرَّبيعُ وأبو هُرَيرةَ: «كان تَغشاها الملائكةُ كما تَغشى الطَّيرُ الشَّجَرَ»، وقيل غيرُ هذا ممَّا هو تكَلُّفٌ في الآيةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى أبهَمَ ذلك وهم يريدونَ شَرْحَه، وقد قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «فغَشِيَها ألوانٌ لا أدري ما هي»). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٠).

وقال ابن كثير: (قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾:... في أحاديثِ الإسراءِ أنَّه غَشِيَتْها الملائكةُ مِثلَ الغِرْبانِ، وغَشِيَها نورُ الرَّبِّ، وغَشِيَها ألوانٌ ما أدري ما هي). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٤).

وقال السعدي: (﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾: أي: يَغْشاها مِن أمْرِ اللهِ شيءٌ عظيمٌ لا يَعلَمُ وصْفَه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

(١) رواه البخاريُّ (٣٤٩)، ومسلمٌ (١٦٣) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٩٧، ٩٨)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٢).

قال ابنُ عطية: (قَولُه: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ معناه: ولا تجاوَزَ المَرئيَّ، بل وَقَع عليه وُقوعًا صَحيحًا، وهذا تحقيقٌ للأمرِ، ونَفيٌ لِوُجودِ الرَّيبِ عنه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٠).

وقال ابنُ القيِّم: (قال ابنُ عبَّاسٍ: ما زاغ البَصَرُ يَمينًا ولا شِمالًا، ولا جاوزَ ما أُمِرَ به. وعلى هذا المفسِّرونَ؛ فنفى عن نبيِّه ما يَعرِضُ للرَّائي الَّذي لا أدَبَ له بيْنَ يدَيِ الملوكِ والعُظَماءِ مِن الْتِفاتِه يَمينًا وشِمالًا، ومُجاوَزةِ بَصَرِه لِما بيْنَ يدَيْه، وأخبَرَ عنه بكمالِ الأدَبِ في ذلك المقامِ =

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانوا قد أنكَروا الإسراءَ إنكارًا لم يقَعْ لهم في غَيرِه مِثْلُه؛ زاد في تأكيدِه على وَجهٍ يَعُمُّ غَيرَه، فقال(١):

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾.

أي: لقد رأى محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَيلةَ الإسراءِ والمعراجِ مِن آياتِ رَبِّه وعجائِبِ مُلكِه الآياتِ الكُبرى(٢).

---

= وفي تلك الحَضرةِ؛ إذ لم يَلتفِتْ جانِبًا، ولم يَمُدَّ بَصَرَه إلى غيرِ ما أُرِيَ مِن الآياتِ، وما هناك مِن العجائِبِ، بل قام مقامَ العَبدِ الَّذي أوجب أدَبُه إطراقَه وإقبالَه على ما أُرِيَ دونَ التفاتِه إلى غَيرِه، ودونَ تطَلُّعِه إلى ما لم يَرَه، مع ما في ذلك من ثباتِ الجَأشِ، وسُكونِ القَلبِ وطُمأنينتِه، وهذا غايةُ الكمالِ. وزَيغُ البَصَرِ: التِفاتُه جانِبًا. وطُغيانُه: مَدُّه أمامَه إلى حيثُ يَنتهي؛ فنَزَّه في هذه السُّورةِ عِلْمَه عن الضَّلالِ، وقَصْدَه وعَمَلَه عن الغَيِّ، ونُطْقَه عن الهوى، وفُؤادَه عن تكذيبِ بَصَرِه، وبصَرَه عن الزَّيغِ والطُّغيانِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٦١، ٢٦٢). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦١، ٣٦٢).

وقال البِقاعي: (﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: تجاوَزَ الحَدَّ إلى ما لم يُؤذَنْ له فيه، مع أنَّ ذلك العالَمَ غَريبٌ عن بني آدَمَ، وفيه مِنَ العجائِبِ ما يُحَيِّرُ النَّاظِرَ! بل كانت له العِفَّةُ الصَّادِقةُ المتوسِّطةُ بيْنَ الشَّرَهِ والزَّهادةِ، على أتمِّ قوانينِ العَدلِ، فأثبَتَ ما رآه على حقيقتِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٣).

قال ابنُ الجوزي: (للمُفَسِّرينَ في المرادِ بما رأى مِنَ الآياتِ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه رأى رَفرَفًا أخضَرَ مِن الجنَّةِ قد سَدَّ الأُفُقَ. قاله ابنُ مسعودٍ.

والثَّاني: أنَّه رأى جِبريلَ في صورتِه الَّتي يكونُ عليها في السَّمواتِ. قاله ابنُ زَيدٍ.

والثَّالِثُ: أنَّه رأى مِن أعلامِ ربِّه وأدلَّتِه الأعلامَ والأدِلَّةَ الكبرى. قاله ابنُ جريرٍ). ((تفسير ابن =

قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسراء: ١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ نفَى سُبحانَه عن رَسولِه الضَّلالَ المنافيَ للهُدى، والغَيَّ المنافيَ للرَّشادِ؛ فالهُدى في عِلمِه، والرَّشادُ في عَمَلِه، وهذان الأصلانِ هما غايةُ كَمالِ العَبدِ، وبهما سعادتُه وفَلاحُه، وبهما وَصَفَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم خُلَفاءَه، فقال: ((عليكم بسُنَّتي، وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ مِن بَعْدِي))[1]. فالرَّاشِدُ ضِدُّ الغاوي، والمَهدِيُّ ضِدُّ الضَّالِّ،

---

= الجوزي)) (٤/ ١٨٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤).

قال القاسمي: (﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ يعني: المَلَكَ الَّذي عايَنَه، وأخبَره برسالتِه. وفيه غايةُ التَّفخيمِ لِمَقامِه، وأنَّه مِن الآياتِ الكُبَرِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٦٥).

وممَّن قال مِن السَّلفِ إنَّه رأى جِبريلَ في صورتِه الَّتي يكونُ عليها في السَّمواتِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ في روايةٍ، وابنُ زَيدٍ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٠٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لأنَّ رُؤيةَ جِبريلَ هي مِن تمامِ نبُوَّتِه، وممَّا يُبَيِّنُ أنَّ الَّذي أتاه بالقُرآنِ مَلَكٌ لا شيطانٌ). ((النبوات)) (١/ ٥٣٣).

وقيل: المرادُ: ما رأَى لَيلةَ الإسراءِ مِن الآياتِ العِظامِ وعجائبِ الملكوتِ ممَّا لا يحيطُ به الوصفُ مِنَ السَّمَواتِ والجنَّةِ والنَّارِ، والملائكةِ والأنبياءِ، وغيرِ ذلك. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: البيضاويُّ، والنسفي، والخازن، وابنُ جُزَي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

قال الألوسي: (رأى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ آياتٍ كُبرى لَيلةَ المعراجِ لا تُحصى، ولا تَكادُ تُستقصَى). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٥٢).

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وأحمد (١٧١٤٢)، من حديث العرباض ابن سارية رضي الله عنه.

وهو الَّذي زَكَت نفْسُه بالعِلمِ النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وهو صاحِبُ الهُدى ودينِ الحَقِّ، ولا يَشتَبِهُ الرَّاشِدُ المَهدِيُّ بالضَّالِّ الغاوي إلَّا على أجهَلِ خَلقِ اللهِ، وأعماهم قلبًا، وأبعَدِهم مِن حقيقةِ الإنسانيَّةِ؛ فالنَّاسُ أربَعةُ أقسامٍ:

**الأوَّلُ**: ضالٌّ في عِلمِه، غاوٍ في قَصدِه وعَمَلِه، وهؤلاء شِرارُ الخَلقِ، وهم مُخالِفو الرُّسُلِ.

**الثَّاني**: مُهتَدٍ في عِلمِه، غاوٍ في قَصْدِه وعَمَلِه، وهؤلاء هم الأُمَّةُ الغَضَبيَّةُ ومَن تَشَبَّه بهم، وهو حالُ كُلِّ مَن عَرَف الحَقَّ ولم يَعمَلْ به.

**الثَّالِثُ**: ضالٌّ في عِلمِه، ولكِنَّ قَصْدَه الخَيرُ، وهو لا يَشعُرُ.

**الرَّابِعُ**: مُهتَدٍ في عِلمِه، راشِدٌ في قَصدِه، وهؤلاء وَرَثةُ الأنبياءِ، وهم وإن كانوا الأقَلِّينَ عَدَدًا، فهم الأكثَرونَ عندَ اللهِ قَدْرًا، وهم صَفوةُ اللهِ مِن عِبادِه، وحِزبُه مِن خَلْقِه[1]. فصلاحُ العبدِ في أنَّه يَعلَمُ الحقَّ ويَعمَلُ به، فمَن لم يَعلَمِ الحقَّ فهو ضالٌّ عنه، ومَن عَلِمَه فخالفَه واتَّبَعَ هواه فهو غاوٍ، ومَن عَلِمَه وعَمِلَ به كان مِن أُولي الأيدي عَمَلًا، ومِن أُولي الأبصارِ عِلمًا، وهو الصِّراطُ المستقيمُ الَّذي أمَرَنا اللهُ سُبحانَه في كلِّ صلاةٍ أنْ نَقولَ: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فالمغضوبُ عليهم: الَّذين يَعرِفونَ الحقَّ ولا يَتَّبِعونَه،كاليهودِ، والضَّالُّون: الَّذين يَعمَلونَ أعمالَ القُلوبِ والجَوارِحِ بلا عِلمٍ،كالنَّصارى[2].

---

= قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ عبدِ البَرِّ في ((جامع بيان العلم وفضله)) (٢/ ١١٦٤)، والجورقاني في ((الأباطيل والمناكير)) (١/ ٤٧٢)، وابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ٣٠٩)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٩/ ٥٨٢).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((حقوق آل البيت)) لابن تيمية (ص: ٣٧).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ أنَّ مَن لم يكُنْ رَشيدًا فهو إمَّا غاوٍ، وإمَّا ضالٌّ؛ فالغاوي مَن تَعَمَّدَ خِلافَ الحقِّ، والضَّالُّ مَن لم يَتعمَّدْ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي: ما زاغَ يَمْنةً ولا يَسْرةً عن مَقصودِه، ﴿وَمَا طَغَىٰ ﴾ أي: وما تجاوَزَ البَصَرُ، وهذا كمالُ الأدبِ منه صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه؛ أنْ قام مَقامًا أقامَه اللهُ فيه، ولم يَقصُرْ عنه، ولا تجاوَزَه، ولا حاد عنه. وهذا أكمَلُ ما يكونُ مِنَ الأدَبِ العَظيمِ الَّذي فاق فيه الأوَّلينَ والآخِرينَ؛ فإنَّ الإخلالَ يكونُ بأحَدِ هذه الأُمورِ: إمَّا ألَّا يَقومَ العَبدُ بما أُمِرَ به، أو يقومَ به على وَجهِ التَّفريطِ أو على وجهِ الإفراطِ، أو على وَجهِ الحَيدةِ يَمينًا وشِمالًا، وهذه الأمورُ كُلُّها مُنتَفِيَةٌ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ أسرارٌ عَجيبةٌ، وهي مِن غوامِضِ الآدابِ اللَّائقةِ بأكمَلِ البَشَرِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تواطأَ هناك بصَرُه وبَصيرتُه، وتوافَقَا وتصادَقَا؛ فما شاهدَه بصَرُه فالبصيرةُ مواطِئةٌ له، وما شاهَدَتْه بصيرتُه فهو أيضًا حقٌّ مَشهودٌ بالبَصرِ، فتواطأَ في حقِّه مَشهَدُ البَصَرِ والبَصيرةِ؛ ولهذا قال سُبحانَه وتعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ * أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾ أي: ما كَذَبَ الفُؤادُ ما رآه ببَصَرِه؛ ولهذا قرأَها أبو جعفرٍ: ﴿مَا كَذَّبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ بتشديدِ الذَّالِ[٣]، أي: لم يُكَذِّبِ الفُؤادُ البصرَ، بل صَدَّقَه وواطأَه؛ لِصِحَّةِ الفُؤادِ والبَصَرِ، أو استِقامةِ البَصيرةِ والبَصَرِ، وكَونِ المرئيِّ المُشاهَدِ بالبَصَرِ والبَصيرةِ حقًّا، وقَرَأَ الجمهورُ: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ بالتَّخفيفِ، وهو مُتَعَدٍّ، و ﴿مَا رَأَىٰٓ ﴾ مَفعولُه، أي: ما كَذَبَ قَلبُه ما رأَتْه عَيْناه، بل واطأَه ووافَقَه، فلِمُواطأةِ قلْبِه لقالَبِه، وظاهِرِه

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

(٣) يُنظر ما تقدَّم في القراءات ذات الأثر في التَّفسير (ص: ٣٩٦).

لباطنِه، وبَصَرِه لبصيرتِه: لم يَكْذِبِ الفُؤادُ البَصَرَ، ولم يَتجاوَزِ البَصَرُ حدَّه فيَطغى، ولم يَمِلْ عنِ المرئيِّ فيَزيغَ، بلِ اعتدلَ البصرُ نحوَ المرئيِّ، ما جاوزَه ولا مالَ عنه، كما اعتدلَ القلبُ في الإقبالِ على اللهِ، والإعراضِ عمَّا سِواه؛ فإنَّه أقبَلَ على اللهِ بكُلِّيَّتِه، وللقَلبِ زَيغٌ وطُغيانٌ، وكِلاهما مُنتَفٍ عن قَلبِه وبَصَرِه؛ فلم يَزِغْ قلبُه التِفاتًا عنِ اللهِ إلى غَيرِه، ولم يَطْغَ بمجاوزتِه مَقامَه الَّذي أُقيمَ فيه، وهذا غايةُ الكمالِ والأدبِ مع اللهِ الَّذي لا يَلحَقُه فيه سِواه؛ فإنَّ عادةَ النُّفوسِ إذا أُقيمَتْ في مقامٍ عالٍ رفيعٍ أنْ تَتطَلَّعَ إلى ما هو أعلَى منه وفَوْقَه، ألَا ترى أنَّ موسى صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا أُقيمَ في مقامِ التَّكليمِ والمُناجاةِ طَلَبت نَفْسُه الرُّؤيةَ؟! ونَبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم لَمَّا أُقيمَ في ذلك المقامِ وَفَّاه حقَّه، فلم يَلتَفِتْ بَصَرُه ولا قَلبُه إلى غيرِ ما أُقيمَ فيه البتَّةَ، ومِن أجْلِ هذا ما عاقَه عائِقٌ، ولا وَقَفَ به مُرادٌ حتَّى جاوزَ السَّمواتِ السَّبْعَ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ أقسَمَ سُبحانَه بالنُّجومِ على صِحَّةِ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الوَحيِ الإلهيِّ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لأنَّ في ذلك مُناسَبةً عَجيبةً؛ فإنَّ اللهَ تعالى جَعَل النُّجومَ زِينةً للسَّماءِ، فكذلك الوَحيُ وآثارُه زينةٌ للأرضِ، فلولا العِلمُ الموروثُ عن الأنبياءِ لَكان النَّاسُ في ظُلمةٍ أشَدَّ مِنَ اللَّيلِ البَهيمِ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ أنَّ المعراجَ الَّذي حَصَلَ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان بجسَدِه ورُوحِه؛ فالعبدُ -وكذلك الصَّاحبُ- لا يكونُ إلَّا في الرُّوحِ

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

والجَسَدِ؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُسرِيَ به بجَسَدِه ورُوحِه، وعُرِجَ به إلى السَّمَواتِ حتَّى بَلَغ مُستوًى بجَسَدِه ورُوحِه صلَّى الله عليه وسلَّم، ولو كان ذلك برُوحِه فقط ما أنكَرَت قُرَيشٌ ذلك؛ إذ إنَّ المناماتِ يَقَعُ منها شيءٌ كثيرٌ مِن جِنسِ هذا، ولكِنَّه كان صلَّى الله عليه وسلَّم قد أُسرِيَ به بجَسَدِه ورُوحِه، وعُرِجَ به إلى السَّمَواتِ كذلك[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ * إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ بَيانُ أنَّ اللهَ عزَّ شأنُه أوجبَ اتِّباعَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فيما يقولُه، وإنْ لم يكنْ مِن القُرآنِ، وأيضًا فرِسالتُه اقتَضَتْ صِدْقَه فيما يُخبِرُ به عنِ اللهِ تعالى مِن القُرآنِ وغيرِ القُرآنِ؛ فوَجَبَ بذلك تصديقُه فيما أخبَرَ به، وإنْ لم يكُنْ ذلك مِن القُرآنِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ مع قَولِه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؟

**الجَوابُ**: أنَّ المرادَ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا﴾ أي: عمَّا أنت عليه الآنَ مِنَ الشَّريعةِ، فهداك إليها، بخِلافِ هذه الآيةِ[٣].

٥- قَولُه تعالى: ﴿مَا ضَلَّ﴾ دليلٌ على كمالِ عِلمِه ومَعرفتِه، وأنَّه على الحَقِّ المُبينِ، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ دليلٌ على كمالِ رُشدِه، وأنَّه أبَرُّ العالَمينَ؛ فهو الكامِلُ في عِلمِه وفي عَمَلِه[٤]. ففي ضِمنِ النَّفيِ الشَّهادةُ له بأنَّه على الهُدى والرَّشادِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الأصفهانية)) لابن تيمية (ص: ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٥).

فالمُقسَمُ عليه: تَنزيهُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الضَّلالِ في عِلمِه، والغَيِّ في قَصدِه، ويَلزَمُ مِن ذلك أن يكونَ مُهتديًا في عِلمِه، هاديًا حَسَنَ القَصدِ، ناصِحًا للأُمَّةِ، بعَكسِ ما عليه أهلُ الضَّلالِ مِن فَسادِ العِلمِ، وفَسادِ القَصدِ[١].

وإذا انتفَى عنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الجهلُ، وانتفَى عنه الغَيُّ؛ تبيَّنَ أنَّ منهجَه صلَّى الله عليه وسلَّم عِلْمٌ ورُشْدٌ؛ عِلْمٌ ضِدُّ الجهلِ وهو الضَّلالُ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، ورُشْدٌ ضِدُّ الغَيِّ ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، إذًا النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كلامُه حقٌّ، وشريعتُه حقٌّ؛ لأنها عن عِلْمٍ ورُشْدٍ[٢].

٦- تولَّى الحقُّ سُبحانَه الرَّدَّ عن نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾؛ أمَّا بقيَّةُ الأنبياءِ فدَفَعوا عن أنفُسِهم؛ قال سُبحانه عن نوحٍ -عليه السَّلامُ- وقومِه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٠، ٦١]، وقال عن هودٍ -عليه السَّلامُ- وقومِه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ * قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦، ٦٧]؛ فشَتَّانَ بيْنَ مَن دافَعَ عن نفْسِه، وبيْن مَن دافَعَ عنه ونَفَى عنه ربُّه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ تَنزيهُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن النُّطقِ عن هَوًى، وهذا يقتَضي التَّنزيهَ عن أن يَفعَلَ أو يَحكُمَ عن هَوًى؛ لأنَّ التَّنزُّهَ عن النُّطقِ عن هَوًى هو أعظَمُ مَراتِبِ الحِكمةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (١/ ٥٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ يُحتَجُّ به في جوازِ نَسخِ القُرآنِ وتَخصيصِه بالسُّنَّةِ(١).

٩- قَولُه تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ دَليلٌ على أنَّ كُلَّ ما سَنَّه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم فبِوَحيٍ سَنَّه(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧]: أنَّ الأخْذَ بالسُّنَّةِ أخْذٌ بكِتابِ اللهِ تعالى(٣).

١١- قَولُه تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ لم يَقُلْ: «وما ينطِقُ بالهَوى»؛ لأنَّ نُطقَه عنِ الهوى أبلَغُ؛ فإنَّه يتضَمَّنُ أنَّ نُطقَه لا يَصدُرُ عن هوًى، وإذا لم يَصدُرْ عن هوًى فكيف يَنطِقُ به؟! فتضَمَّنَ نفْيَ الأمْرَينِ: نفْيَ الهَوى عن مَصدَرِ النُّطقِ، ونَفْيَه عن نفْسِه؛ فنُطقُه بالحَقِّ، ومَصدَرُه الهُدَى والرَّشادُ، لا الغَيُّ والضَّلالُ(٤).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ الكَريمةَ تدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يجتَهِدُ في شَيءٍ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رُبَّما اجتَهد في بَعضِ الأُمورِ، كما دلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقَولُه تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الأنفال: ٦٧]. فما الجَوابُ؟

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٣٧).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٧).

**الجوابُ مِن وجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ أي: في كُلِّ ما يُبَلِّغُه عن اللهِ تعالى ﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي: كُلُّ ما يُبَلِّغُه عن اللهِ تعالى ﴿ إِلَّا وَحْىٌ ﴾ مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنَّه لا يقولُ على اللهِ شيئًا إلَّا بوَحيٍ منه تعالى، فالآيةُ رَدٌّ على الكُفَّارِ؛ حيث قالوا: إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم افترى هذا القُرآنَ!

**الثَّاني**: أنَّه إنِ اجتَهَد فإنَّه إنَّما يجتَهِدُ بوَحيٍ مِنَ اللهِ يأذَنُ له به في ذلك الاجتِهادِ، وعليه فاجتِهادُه بوَحيٍ؛ فلا منافاةَ، ويدُلُّ لهذا الوَجهِ أنَّ اجتِهادَه في الإذنِ للمتخَلِّفينَ عن غَزوةِ تَبوكَ أَذِنَ اللهُ له فيه؛ حيثُ قال: ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور: ٦٢]، فلَمَّا أَذِنَ للمُنافِقينَ عاتَبَه بقَولِه: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة: ٤٣]؛ فالاجتِهادُ في الحقيقةِ إنَّما هو الإذنُ قبْلَ التَّبيُّنِ، لا في مُطلَقِ الإذنِ؛ للنَّصِّ عليه.

والَّذي يَظهَرُ أنَّ التَّحقيقَ في هذه المسألةِ: أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رُبَّما فَعَل بَعضَ المسائِلِ مِن غَيرِ وَحيٍ في خُصوصِه، كإذْنِه للمُتخَلِّفينَ عن غَزوةِ تَبُوكَ قبْلَ أن يتبيَّنَ صادِقَهم مِن كاذِبِهم، وكأسْرِه لأُسارى بَدرٍ، وكأمْرِه بتَركِ تأبيرِ النَّخلِ[1]، وكقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لو استَقبَلْتُ مِن أمري ما استَدبَرْتُ ...)) الحديثَ[2]. إلى غيرِ ذلك؛ وأنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ لا إشكالَ فيه؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَنطِقُ بشَيءٍ مِن أجْلِ الهَوى، ولا يتكَلَّمُ بالهوى، وقَولُه تعالى: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ يعني: أنَّ كُلَّ ما يُبَلِّغُه عن اللهِ تعالى فهو وَحيٌ مِنَ اللهِ، لا بِهوًى ولا بكَذِبٍ ولا افتِراءٍ[3].

---

(١) يُنظر ما أخرجه مسلمٌ (٢٣٦١).

(٢) أخرجه البخاريُّ (١٦٥١)، ومسلمٌ (١٢١٦) مطوَّلًا مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أنَّ السُّنَّةَ وَحيٌ مِنَ اللهِ تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، وأنَّه مَعصومٌ فيما يُخبِرُ به عن اللهِ تعالى وعن شَرعِه؛ لأنَّ كَلامَه لا يَصدُرُ عن هوًى، وإنَّما يَصدُرُ عن وَحيٍ يُوحَى(١).

١٤- قَولُه تعالى: ﴿يُوحَىٰ﴾ فائِدةُ المجيءِ بهذا الوَصفِ أنَّه ينفي المجازَ، أي: هو وَحيٌ حَقيقةً لا مُجرَّدُ تَسميةٍ، كقَولِك: هذا قَولٌ يُقالُ(٢).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ فوائِدُ، وتَنبيهٌ على أُمورٍ:

**الأوَّلُ**: أنَّ مَدْحَ المعَلِّمِ مَدحٌ للمُتعَلِّمِ؛ فلو قال: «عَلَّمه جِبريلُ» ولم يَصِفْه، ما كان يحصُلُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فَضيلةٌ ظاهِرةٌ.

**الثَّاني**: أنَّ فيه ردًّا عليهم حيثُ قالوا: أساطيرُ الأوَّلينَ سَمِعَها وَقتَ سَفَرِه إلى الشَّامِ! فقال: لم يُعَلِّمْه أحدٌ مِنَ النَّاسِ، بل مُعَلِّمُه شَديدُ القُوى، والإنسانُ خُلِقَ ضَعيفًا، وما أُوتيَ مِن العِلمِ إلَّا قَليلًا.

**الثَّالثُ**: فيه وُثوقٌ بقَولِ جِبريلَ عليه السَّلامُ؛ فقَولُه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ جمَعَ ما يوجِبُ الوُثوقَ؛ لأنَّ قُوَّةَ الإدراكِ شَرطُ الوُثوقِ بقَولِ القائِلِ؛ لأنَّا إنْ ظَنَنَّا بواحِدٍ فَسادَ ذِهنٍ، ثمَّ نَقَل إلينا عن بعضِ الأكابِرِ مَسألةً مُشكِلةً؛ فلا نَثِقُ بقَولِه، ونقولُ: هو ما فَهِمَ ما قال. وكذلك قُوَّةُ الحِفظِ؛ حتَّى لا نَقولَ: أدرَكَها لكِنْ نَسِيَها. وكذلك قُوَّةُ الأمانةِ؛ حتَّى لا نَقولَ: حَرَّفَها وغَيَّرَها؛ فقال: ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ لِيَجمعَ هذه الشَّرائِطَ، فيَصيرَ كقَولِه تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ٢٠] إلى أن قال: ﴿أَمِينٍ﴾ [التكوير: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٨).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٨٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٥٧).

**الرَّابِعُ**: في تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي مِن حيثُ إنَّه إذا عُلِّمَ مُحمَّدٌ بواسِطةِ جِبريلَ يكونُ هذا نَقصًا عن دَرجتِه، فقال: ليس كذلك؛ لأنَّه شَديدُ القُوى يَثبُتُ لِمُكالمتِنا، وأنتَ بَعدُ ما استَوَيتَ، فتَكونُ كموسى حيثُ خَرَّ، فكأنَّه تعالى قد عَلَّمَه بواسِطةٍ، ثمَّ عَلَّمَه مِن غيرِ واسِطةٍ، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[1] [النساء: ١١٣].

**الخامسُ**: أنَّه بقُوَّتِه يَمنَعُ الشَّياطينَ أن تَدنوَ مِن القُرآنِ، وأن يَنالوا منه شَيئًا، وأنْ يَزيدوا فيه أو يَنقُصوا منه، بل إذا رآه الشَّيطانُ هَرَبَ منه ولم يَقرَبْه.

**السَّادسُ**: أنَّه مُوالٍ لهذا الرَّسولِ الَّذي كذَّبتُموه، ومُعاضِدٌ له، ومُوادٌّ له وناصِرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، ومَن كان هذا القَويُّ وليَّه ومِن أنصارِه وأعوانِه ومُعَلِّمَه، فهو المَهديُّ المنصورُ، واللهُ هاديه وناصِرُه.

**السَّابعُ**: أنَّ مَن عادى هذا الرَّسولَ فقد عادى صاحِبَه ووليَّه جِبريلَ، ومَن عادى ذا القُوَّةِ والشِّدَّةِ فهو عُرضةٌ للهَلاكِ.

**الثَّامنُ**: أنَّه قادِرٌ على تنفيذِ ما أُمِرَ به؛ لقُوَّتِه، فلا يَعْجِزُ عن ذلك، مُؤَدٍّ له كما أُمِرَ به؛ لأمانتِه، فهو القَويُّ الأمينُ، وأحدُكم إذا انتَدبَ غيرَه في أمْرٍ مِن الأُمورِ لرسالةٍ أو وِلايةٍ أو وَكالةٍ أو غَيرِها فإنَّما يَنتدِبُ لها القويَّ عليه، الأمينَ على فِعلِه، وإنْ كان ذلك الأمرُ مِن أهمِّ الأُمورِ عندَه انتَدبَ له قويًّا أمينًا مُعَظَّمًا ذا مكانةٍ عندَه، مُطاعًا في النَّاسِ، كما وَصَفَ اللهُ عبْدَه جِبريلَ بهذه الصِّفاتِ، وهذا يدُلُّ على عَظَمةِ شأنِ المُرسِلِ والرَّسولِ والرِّسالةِ والمُرسَلِ إليه؛ حيثُ انتَدبَ له الكَريمَ القويَّ المَكينَ عندَه، المُطاعَ في الملأِ الأعلى، الأمينَ حقَّ الأمينِ؛ فإنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣٧).

الملوكَ لا تُرسِلُ في مُهمَّاتِها إلَّا الأشرافَ ذوي الأقدارِ والرُّتَبِ العاليةِ[١]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ إلى آخرِ الآياتِ: أنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ الملائِكةَ بصِفاتٍ تقتضي أنَّهم أحياءٌ ناطِقونَ خارِجونَ عن قُوى البَشَرِ، وعنِ العُقولِ والنُّفوسِ الَّتي تُثبِتُها الفلاسِفةُ؛ فعُلِمَ أنَّ الملائِكةَ الَّتي أخبرَتْ عنها الأنبياءُ ليسوا مُطابِقينَ لِمَا يقولُه هؤلاء الفلاسِفةُ[٢]!

١٧- دلَّ القرآنُ على أنَّ المرئيَّ في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ هو جِبريلُ وليس اللهَ تعالى؛ وذلك مِن وُجوهٍ:

**أحدُها**: أنَّه تعالى قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾، وهذا جِبريلُ الَّذي وَصَفَه اللهُ بالقُوَّةِ في سُورةِ (التَّكويرِ)، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠].

**الثَّاني**: أنَّه تعالى قال: ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾، أي: حَسَنُ الخَلْقِ، وهو الكريمُ المذكورُ في (التَّكويرِ).

**الثَّالثُ**: أنَّه تعالى قال: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، وهو ناحيةُ السَّماءِ العُليا، وهذا استِواءُ جِبريلَ بالأُفُقِ الأعلى، وأمَّا استِواءُ الرَّبِّ جلَّ جلالُه فعلى عَرشِه.

**الرَّابعُ**: أنَّه تعالى قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾، فهذا دُنُوُّ جِبريلَ وتدَلِّيه إلى الأرضِ حيث كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

**الخامِسُ**: أنَّه تعالى قال: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، والمَرئيُّ عندَ السِّدْرةِ هو جِبريلُ قَطعًا، كما في حديث عائِشةَ رضيَ الله عنها[٣].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ١٩٩).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٠٠).

**السَّادِسُ**: أنَّ مُفَسَّرَ الضَّميرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾، وفي قَولِه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، وفي قَولِه: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾، وفي قَولِه: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: واحِدٌ؛ فلا يجوزُ أنْ يُخالَفَ بيْنَ المُفَسِّرِ والمُفَسَّرِ مِن غَيرِ دليلٍ.

**السَّابِعُ**: أنَّه سُبحانَه ذَكَر في هذه السُّورةِ الرَّسولَينِ الكَريمَينِ: المَلَكيَّ، والبَشَريَّ، ونَزَّه البَشَريَّ عن الضَّلالِ والغَوايةِ، ونَزَّه المَلَكيَّ عن أن يكونَ شَيطانًا قَبيحًا ضَعيفًا، بل هو قَويٌّ كريمٌ حَسَنُ الخَلْقِ، وهذا نظيرُ الوَصفِ المَذكورِ في سورةِ (التَّكويرِ) سَواءً.

**الثَّامِنُ**: أنَّه أخبَرَ هناك أنَّه رآه بالأُفُقِ المُبينِ، وهاهنا أخبَرَ أنَّه رآه بالأُفُقِ الأعلى، وهو واحِدٌ وُصِفَ بصِفتَينِ؛ فهو مُبينٌ، وهو أعلى؛ فإنَّ الشَّيءَ كلَّما عَلَا بانَ وظَهَرَ.

**التَّاسِعُ**: أنَّه تعالى قال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، والمِرَّةُ: الخَلْقُ الحَسَنُ المُحْكَمُ، فأخبَرَ عن حُسْنِ خَلْقِ الَّذي عَلَّمَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ ساق الخبَرَ كلَّه عنه نَسَقًا واحِدًا.

**العاشِرُ**: أنَّه لو كان خبَرًا عن الرَّبِّ سُبحانَه تعالى لَكان القُرآنُ قد دَلَّ على أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى رَبَّه سُبحانَه مرَّتَينِ: مرَّةً بالأُفُقِ، ومَرَّةً عندَ السِّدْرةِ، ومَعلومٌ أنَّ الأمرَ لو كان كذلك لم يَقُلِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي ذَرٍّ وقد سأله: ((هل رأيْتَ رَبَّك؟ فقال: نورٌ أَنَّى أَراه؟!))[1]، فكيف يُخبِرُ القُرآنُ أنَّه رآه مرَّتَينِ، ثمَّ يَقولُ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنَّى أَراه؟!))، وهذا أبلَغُ مِن قَولِه: لم أَرَه؛ لأنَّه مع النَّفيِ يَقتَضي الإخبارَ عن عَدَمِ الرُّؤيةِ فقط، وهذا يتضَمَّنُ النَّفيَ وطَرَفًا مِنَ الإنكارِ على السَّائِلِ، كما إذا قال لرجُلٍ: هل كان كَيْتَ وكَيْتَ؟ فيقولُ: كيف يكونُ ذلك؟!

---

(١) أخرجه مسلمٌ (١٧٨) من حديث أبي ذَرٍّ رضيَ الله عنه.

**الحادِيَ عَشَرَ**: أنَّه لم يَتقدَّمْ للرَّبِّ جلَّ جلالُه ذِكْرٌ يعودُ الضَّميرُ عليه في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، والَّذي يعودُ الضَّميرُ عليه لا يَصلُحُ له، وإنَّما هو لِعَبدِه.

**الثَّانيَ عَشَرَ**: أنَّه كيف يعودُ الضَّميرُ إلى ما لم يُذكَرْ، ويُترَكُ عَودُه إلى المذكورِ مع كَونِه أَولى به؟!

**الثَّالِثَ عَشَرَ**: أنَّه قد تقدَّم ذِكرُ ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، وأعاد عليه الضَّمائرَ الَّتي تليقُ به، ثمَّ ذَكَر بعْدَه ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ﴾ [النَّجْم: ٥، ٦]، وأعاد عليه الضَّمائرَ الَّتي تليقُ به، والخبَرُ كُلُّه عن هذينِ المُفَسَّرينِ، وهما الرَّسولُ المَلَكيُّ، والرَّسولُ البَشَريُّ.

**الرَّابعَ عَشَرَ**: أنَّهم لم يُمارُوه -صلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه- على رُؤيةِ رَبِّه، ولا أخبَرَهم بها؛ لِتقَعَ مُماراتُهم له عليها، وإنَّما مارَوه على رُؤيةِ ما أخبَرَهم مِنَ الآياتِ الَّتي أراه اللهُ تعالى إيَّاها، ولو أخبَرَهم برؤية الرَّبِّ تعالى لَكانت مُماراتُهم له عليها أعظَمَ مِن مُماراتِهم على رُؤيةِ المَخلوقاتِ.

**الخامسَ عَشَرَ**: أنَّه سُبحانَه قَرَّرَ صِحَّةَ ما رآه الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّ مُماراتَهم له على ذلك باطِلةٌ، بقَولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النَّجْم: ١٨]، فلو كان المَرئيُّ هو الرَّبَّ سُبحانَه وتعالى، والمُماراةُ على ذلك منهم؛ لَكان تقريرُ تلك الرُّؤيةِ أَولى، والمَقامُ إليها أحوَجَ. واللهُ أعلمُ[1].

١٨- قولُه تعالى: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أصْلُه قابَيْ قوسٍ، أو قابَيْ قَوسيْنِ -بتَثنيةِ أحَدِ اللَّفظينِ؛ المُضافِ والمُضافِ إليه، أو كِلَيْهما-؛ فوقَعَ إفرادُ أحَدِ اللَّفظينِ أو كِلَيْهما تَجنُّبًا لِثِقَلِ المُثنَّى، كما في قولِه تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٠٠-٣٠٢).

[التحريم: ٤]، أي: قَلْباكُما[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ دَلالةٌ على أنَّ وصْفَ الإنسانِ بالعُبوديَّةِ للهِ يُعَدُّ كَمالًا؛ لأنَّ العُبوديَّةَ للهِ هي حَقيقةُ الحُرِّيَّةِ، فمَن لم يَتعبَّدْ له كان عابِدًا لغَيرِه[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ أنَّ مَقامَ العُبوديَّةِ أشرَفُ مَقاماتِ الخَلقِ؛ ولهذا سَمَّى اللهُ تعالى محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في أشرَفِ مَقاماتِه وأعلاها بالعُبوديَّةِ، كما قال تعالى في صِفةِ لَيلةِ الإسراءِ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، وقال في حَقِّه في مَقامِ الدَّعوةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾[٣] [البقرة: ٢٣].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ثمَّ قال: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ دَلالةٌ على شِدَّةِ الوُصْلةِ والارتباطِ بينَ القَلبِ والبَصَرِ؛ ولهذا يَقرأُ الإنسانُ ما في قَلبِ الآخَرِ مِن عَينِه، وهذا كثيرٌ في كلامِ النَّاسِ: نَظْمِه ونَثْرِه[٤].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ وقَولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أنَّه لو كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم رأى ربَّه بعَينِه لَكان ذِكْرُ ذلك أَولى[٥].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥١٠).

رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴾ أنَّ المِعراجَ كان يَقَظةً؛ فالآياتُ صريحةٌ في أنَّ بَصَرَه رأى ما رآه في الملأِ الأعلى، وأنَّه ما زاغ بَصَرُه وما طَغى، وقد ثَبَتَ أنَّ جَنَّةَ المأوى وسِدرةَ المُنتَهى في السَّماءِ لا في الأرضِ، فإذا رأى بعَينِه ما هنالك امتنعَ أنْ يكونَ ذلك مَنامًا، ودلَّ ذلك على أنَّ جَسَدَه كان هُنالِك، ولكِنَّه سُبحانَه ذَكَرَ في سُورةِ (سُبحانَ): ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١]؛ لأنَّه مِمَّا ذُكِرَ له دلائِلُه وشواهِدُه؛ وذلك تَمهيدًا لِمَا أخبَرَ به عن رُؤيةِ ما رآه عندَ سِدرةِ المُنتَهى، والقُرآنُ يدُلُّ على ذلك؛ حيثُ قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النَّجم: ٥ - ٧]، كما قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ثمَّ قال في (النَّجم): ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾ أي: رأى الَّذي رآه بالأُفُقِ الأعلَى مرَّةً أُخرى ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾[1].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ لَمَّا ذَكَر رؤيتَه لجبريلَ عندَ سِدْرةِ المُنتَهى استطردَ منها، وذَكَر أنَّ جَنَّةَ المأوَى عِندَها، وأنَّه يَغشاها مِن أمْرِه وخَلْقِه ما يَغشَى، وهذا مِن أحسَنِ الاستِطرادِ، وهو أسلوبٌ لطيفٌ جدًّا في القرآنِ، وهو نَوعانِ:

**أحدُهما**: أنْ يَستطرِدَ مِن الشَّيءِ إلى لازمِه، مِثلُ هذا، ومِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، ثمَّ استطردَ مِن جوابِهم إلى قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مَهۡدٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَنشَرۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ۝ وَٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡفُلۡكِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مَا

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٧/ ٤٦).

تَرۡكَبُونَ * لِتَسۡتَوُاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٠-١٣]، وهذا ليس مِن جوابِهم، ولكنْ تقريرٌ له، وإقامةٌ للحُجَّةِ عليهم.

**والنَّوعُ الثَّاني**: أنْ يَستطرِدَ مِن الشَّخصِ إلى النَّوعِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣] إلى آخرِه، فالأوَّلُ آدمُ، والثَّاني بَنُوه[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ سُؤالٌ: لِمَ اختيرَت السِّدْرةُ لهذا الأمرِ دونَ غَيرِها مِنَ الشَّجَرِ؟

**الجوابُ**: قيل: لأنَّ السِّدْرةَ تَختَصُّ بثلاثةِ أوصافٍ: ظِلٌّ مديدٌ، وطَعمٌ لذيذٌ، ورائِحةٌ ذَكِيَّةٌ؛ فشابهت الإيمانَ الَّذي يَجمَعُ قَولًا وعَمَلًا ونِيَّةً؛ فظِلُّها بمنزِلةِ العَمَلِ لِتَجاوُزِه، وطَعمُها بمنزِلةِ النِّيَّةِ لكُمونِه، ورائحتُها بمنزلةِ القَولِ لظُهورِه[٢].

٢٦- قال الله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ أي: الجنَّةُ الجامِعةُ لكُلِّ نَعيمٍ، بحيث كانت مَحَلًّا تنتهي إليه الأماني، وتَرغَبُ فيه الإراداتُ، وتأوي إليها الرَّغَباتُ، وهذا دليلٌ على أنَّ الجَنَّةَ في أعلَى الأماكِنِ، وفَوقَ السَّماءِ السَّابِعةِ[٣]. وفي الآيةِ دَليلٌ أيضًا على أنَّ الجنَّةَ مَخلوقةٌ، وموجودةٌ الآنَ، ومَن زَعَم أنَّها غَيرُ مَخلوقةٍ فهو كافِرٌ بهذه الآيةِ[٤].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ يعني: المَصيرَ؛ مأوى مَن جَمعوا بيْنَ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، يأوُونَ إليها، ويَخلُدونَ فيها، وأمَّا النَّارُ فهي مأوى الكافِرينَ

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩١). ويُنظر أيضًا: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٥).

-والعِياذُ باللهِ-، وفي هذا دليلٌ واضِحٌ على أنَّ غايةَ الخلائِقِ -الجِنِّ والإنسِ- إمَّا إلى الجَنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ، ولا ثالثَ لهما، فالجِنُّ والإنسُ إمَّا في النَّارِ، وإمَّا في الجَنَّةِ(١).

٢٨- يُستفادُ مِن قوله: ﴿ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أنَّ القُبورَ ليست هي المَأوى والمَثوى؛ لأنَّ القبورَ مَمَرٌّ ومَعبَرٌ؛ إذ إنَّ وراءَ القُبورِ بَعْثًا(٢).

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ إمَّا كبيرةٌ، وإمَّا كُبرَى عُظمَى؛ لأنَّ «الكُبرَى» اسمُ تَفضيلٍ، ولا يقالُ: إنَّ مِن آياتِ اللهِ ما هو صغيرٌ؛ فالمِعْراجُ الَّذي حَصَل لا شَكَّ أنَّه مِن الآياتِ الكُبرى العَظيمةِ(٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسَمَ اللهُ تعالى بالنَّجمِ؛ لِما في خلْقِه مِن الدَّلالةِ على عَظيمِ قُدْرةِ اللهِ تعالَى(٤).

- ومُناسَبةُ القَسَمِ بالنَّجْمِ إذا هَوَى: أنَّ الكلامَ مَسوقٌ لإثباتِ أنَّ القُرآنَ وحْيٌ مِن اللهِ مُنزَّلٌ مِن السَّماءِ، فشابَهَ حالُ نُزولِه الاعتباريِّ حالَ النَّجْمِ في حالةِ هُويِّه مُشابَهةً تَمثيليَّةً حاصلةً مِن نُزولِ شَيءٍ مُنيرٍ إنارةً مَعنويَّةً نازِلٍ مِن مَحلِّ رِفعةٍ مَعنويَّةٍ، شُبِّهَ بحالةِ نُزولِ نَجْمٍ مِن أعْلى الأفُقِ إلى أسْفلِه، وهو مِن تمثيلِ المعقولِ بالمحسوسِ، أو الإشارةُ إلى مُشابَهةِ حالةِ نُزولِ جِبريلَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٠).

مِن السَّمواتِ بحالةِ نُزولِ النَّجْمِ مِن أعلى مَكانِه إلى أسْفَلِه، أو بانقِضاضِ الشِّهابِ؛ تَشبيهُ مَحسوسٍ بمَحسوسٍ[١]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وتَعريفُ (النَّجْم) باللَّامِ يَجوزُ أنْ يكونَ للجِنسِ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ تَعريفَ العَهْدِ، وأشهَرُ النُّجومِ بإطلاقِ اسمِ النَّجمِ عليه: الثُّريَّا؛ لأنَّهم كانوا يُوقِّتونَ بأزمانِ طُلوعِها مَواقيتَ الفُصولِ ونُضْجَ الثِّمارِ. وقيل: النَّجْمُ: الشِّعْرى اليَمانيَةُ، وهي العَبورُ، وكانتْ مُعظَّمةً عندَ العرَبِ، وعبَدَتْها خُزاعةُ[٢].

- وفي ذِكْرِ ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ احتِراسٌ مِن أنْ يَتوهَّمَ المشرِكون أنَّ في القسَمِ بالنَّجْمِ إقرارًا لعِبادةِ نَجْمِ الشِّعْرى؛ فإنَّ حالةَ الغُروبِ المُعبَّرَ عنها بالهُوِيِّ حالةُ انخفاضٍ ومَغيبٍ في تَخيُّلِ الرَّائي؛ لأنَّهم يَعُدُّون طُلوعَ النَّجمِ أَوْجًا لشَرَفِه، ويَعُدُّون غُروبَه حَضيضًا، وتلك اعتباراتٌ لهم تَخيليَّةٌ شائعةٌ بيْنَهم، فمِن النَّافعِ مَوعظةُ النَّاسِ بذلك؛ لأنَّه كافٍ في إقناعِهم وُصولًا إلى الحقِّ، فيَكونُ قولُه: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إشعارًا بأنَّ النُّجومَ كلَّها مُسَخَّرةٌ لقُدْرةِ اللهِ تعالى، مُسيَّرةٌ في نِظامٍ أوجَدَها عليه، ولا اختيارَ لها، فليست أهْلًا لأنْ تُعبَدَ، فحصَلَ المَقصودُ مِن القسَمِ بما فيها مِن الدَّلالةِ على القُدرةِ الإلهيَّةِ، مع الاحتراسِ عن اعتقادِ عِبادتِها[٣].

- وفي الإقْسامِ بالنَّجْمِ إذا هَوى -على نَزاهتِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عن شائبةِ الضَّلالِ والغَوايةِ- مِن البَراعةِ البَديعةِ وحُسْنِ المَوقعِ ما لا غايةَ وَراءَه؛ لأنَّ النَّجْمَ شأْنُه أنْ يَهتدِيَ بهِ السَّارِي إلى مَسالكِ الدُّنيا، كأنَّه قِيل: والنَّجْمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩١، ٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٣٣).

الَّذي يَهتدِي به السَّابلةُ[١] إلى سَواءِ السَّبيلِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ فيه تَنْويهٌ بشأْنِ القُرآنِ، وتَنبيهٌ على مَناطِ اهتِدائِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ومَدارِ رَشادِه، كأنَّه قيلَ: والقُرآنِ الَّذي هو عَلَمٌ في الهِدايةِ إلى مَناهجِ الدِّينِ، ومَسالكِ الحقِّ؛ ما ضلَّ عنَها محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وما غَوى[٣]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ لم يَقُلْ: ما ضَلَّ محمَّدٌ؛ تأكيدًا لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم بأنَّه صاحِبُهم، وهم أعلَمُ الخَلقِ به وبحالِه وأقوالِه وأعمالِه، وأنَّهم لا يَعرِفونَه بكَذِبٍ ولا غَيٍّ ولا ضَلالٍ، ولا يَنقِمونَ عليه أمرًا واحِدًا قَطُّ، وقد نَبَّه على هذا المعنى بقَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، وبقَولِه تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢][٤]، فإيرادُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعُنوانِ صاحبيَّتِه ﴿صَاحِبُكُمْ﴾؛ للإيذانِ بوُقوفِهم على تَفاصيلِ أحوالِه الشَّريفةِ، وإحاطتِهم خُبْرًا ببَراءتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّا نُفِيَ عنه بالكُلِّيَّةِ، واتِّصافِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بغايةِ الهُدَى والرَّشادِ؛ فإنَّ طُولَ صُحبتِهم له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومُشاهدَتَهم لِمَحاسنِ شُؤونِه العظيمةِ؛ مُقْتضيةٌ لذلكَ حتْمًا. وللتَّعريضِ بأنَّهم أهلُ بُهتانٍ؛ إذ هو بيْنَهم في بلَدٍ لا تَتعذَّرُ فيه إحاطةُ عِلمِ أهلِه بحالِ واحدٍ مُعيَّنٍ مَقصودٍ مِن بيْنِهم[٥].

---

(١) السَّبيلُ: الطَّريقُ، وما وَضَح منه، والسَّابِلةُ: القومُ المُختَلِفَةُ عليها في حوائِجِهم، جمعُ سَابِلٍ. يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ٢٦٣)، ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٩/ ١٦١، ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٢).

وأيضًا فإنَّه إذا كان صاحبَهم فإنَّ مقتضَى الصُّحبةِ أنْ يُصَدِّقُوه ويَنصروه؛ لا أنْ يكونوا أعداءً له[١].

- وهذا ردٌّ مِن اللهِ تعالَى على المشرِكينَ، وإبطالٌ لقولِهم في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّهم قالوا: مَجنونٌ، وقالوا: ساحِرٌ، وقالوا: شاعِرٌ، وقالوا في القُرآنِ: إنْ هذا إلَّا اختِلاقٌ، فالجنونُ مِن الضَّلالِ؛ لأنَّ المَجنونَ لا يَهْتدي إلى وَسائلِ الصَّوابِ، والكذِبُ والسِّحرُ ضَلالٌ وغَوايةٌ، والشِّعرُ المُتعارَفُ بيْنَهم غَوايةٌ[٢].

- وقدْ ذُكِرَتِ الضَّلالةُ والغَوايةُ وهما غيرُ مُتَّحِدَتَينِ في المعْنى؛ إذ الضَّلالةُ ضِدُّ الهُدى، والغَوايةُ ضِدُّ الرُّشْدِ، أو المعْنى: ما ضلَّ في قولِه، ولا غَوَى في فِعلِه. وبتَقديرِ اتِّحادِهما يكونُ ذلك مِن بابِ التَّأكيدِ باللَّفظِ المُخالِفِ مع اتِّحادِ المعْنى[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ عطْفٌ على جَوابِ القَسَمِ، وهذا وصْفُ كَمالٍ لِذاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: وما يَصدُرُ نُطقُه بالقُرآنِ -على قول- عن هَواهُ ورأْيِه أصلًا؛ فإنَّ المرادَ استِمرارُ نفْيِ النُّطقِ عن الهوَى، لا نفْيُ استِمرارِ النُّطقِ عنه[٤].

- و(ما) نافيةٌ، نَفَتْ أنْ يَنطِقَ عن الهَوى، ونفْيُ النُّطقِ عن هوًى يَقْتضي نفْيَ جِنسِ ما يَنطِقُ به عن الاتِّصافِ بالصُّدورِ عن هوًى، سواءٌ كان القرآنَ أو غيرَه مِن الإرشادِ النَّبويِّ بالتَّعليمِ والخَطابةِ، والمَوعظةِ والحِكمةِ، ولكنَّ القُرآنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٢، ٩٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

هو المَقصودُ؛ لأنَّه سَببُ هذا الرَّدِّ عليهم[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ﴾

- قولُه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾[٢] [النَّجْم: ٣].

- وضَميرُ ﴿هُوَ﴾ عائدٌ إلى المَنطوقِ به، المأخوذِ مِن فِعلِ ﴿يَنطِقُ﴾. ويَجوزُ أنْ يَعودَ الضَّميرُ إلى مَعلومٍ مِن سِياقِ الرَّدِّ عليهم؛ لأنَّهم زَعَموا في أقوالِهم المَردودةِ بقَولِه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النَّجْم: ٢]؛ زَعَموا القُرآنَ سِحرًا، أو شِعرًا، أو كِهانةً، أو أساطيرَ الأوَّلينَ، أو إفْكًا افتراهُ[٣]!

- وجُملةُ ﴿يُوحَىٰ﴾ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، مع دَلالةِ المُضارِعِ على أنَّ ما يَنطِقُ به مُتجدِّدٌ وحْيُه غيرُ مُنقطِعٍ[٤].

- ومُتعلَّقُ ﴿يُوحَىٰ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: إليه، أي: إلى صاحِبِكم[٥].

- وتُرِكَ فاعلُ ﴿يُوحَىٰ﴾ لضرْبٍ مِن الإجمالِ الَّذي يَعقُبُه التَّفصيلُ؛ لأنَّه سيَرِدُ بعْدَه ما يُبيِّنُه مِن قولِه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[٦] [النَّجْم: ١٠].

- وجُملةُ ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ...﴾ إلخ، مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لبَيانِ كَيفيَّةِ الوحْيِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وضَميرُ الغائبِ في ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ عائدٌ إلى الوَحْيِ، أو إلى ما عادَ إليه ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ مِن قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ﴾، وضَميرُ (هو) يَعودُ إلى القُرآنِ، وهو ضَميرٌ في مَحلِّ أحَدِ مَفعولَيْ (علَّم)، وهو المَفعولُ الأوَّلُ، والمفعولُ الثَّاني مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: علَّمَه إيَّاهُ، يَعودُ إلى ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ [النَّجم: ٢]. ويَجوزُ جَعْلُ هاءِ ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ عائدًا إلى ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، والمَحذوفُ عائدٌ إلى ﴿وَحْيٌ﴾؛ إبطالًا لقولِ المُشرِكين: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾[1] [النحل: ١٠٣].

- و﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ صِفةٌ لمَحذوفٍ يدُلُّ عليه ما يُذكَرُ بعْدُ ممَّا هو مِن شُؤونِ الملائِكةِ، أي: مَلَكٌ شَديدُ القُوى[2].

- والمِرَّةُ: تُطلَقُ على قوَّةِ الذَّاتِ، وتُطلَقُ على مَتانةِ العقْلِ وأصالتِه. وتَخصيصُ جِبريلَ بهذا الوَصْفِ يُشعِرُ بأنَّه الملَكُ الَّذي يَنزِلُ بفُيوضاتِ الحِكمةِ على الرُّسلِ والأنبياءِ[3].

- وقوله: ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ مُفرَّعٌ على ما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ بطَريقِ التَّفسيرِ، والفاءُ لتَفصيلِ ﴿عَلَّمَهُۥ﴾؛ فإنَّه إلى قولِه تعالى: ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ بيانٌ لكيفيَّةِ التعليمِ، أي: فاستقامَ على صُورتِه الَّتي خلَقَه اللهُ تعالَى عليها دونَ الصُّورةِ الَّتي كانَ يَتمثَّلُ بها كلَّما هبَطَ بالوحْيِ. وقيلَ: استوَى بقُوَّتِه على ما جُعلَ له مِن الأمرِ[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وصْفُ الأُفقِ بالأعْلى يُفيدُ أنَّه ناحيةٌ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٥، ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٦).

جَوِّ السَّماءِ؛ وذُكِرَ هذا ليُرتَّبَ عليه قولُه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾

- (ثُمَّ) عاطفةٌ على جُملةِ ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ [النَّجْم: ٦]، والتَّراخي الَّذي تُفيدُه (ثُمَّ) تراخٍ رُتبيٌّ؛ لأنَّ الدُّنوَّ إلى حيثُ يَبلُغُ الوحيُ هو الأهمُّ في هذا المقامِ، والدُّنوُّ: القُربُ، وإذ قدْ كان فِعلُ الدُّنوِّ قدْ عُطِفَ بحَرْفِ (ثُمَّ) على ﴿فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾؛ عُلِمَ أنَّه دنَا إلى العالَم الأرضيِّ، أي: أخَذَ في الدُّنوِّ بعدَ أنْ تلقَّى ما يُبلِّغُه إلى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٢].

- و(تَدلَّى): انخفَضَ مِن عُلُوٍّ قَليلًا، أي: ينزِلُ مِن طَبقاتٍ إلى ما تحتَها كما يَتدَلَّى الشَّيءُ المُعلَّقُ في الهواءِ، بحيثُ لو رآهُ الرَّائي يَحسَبُه مُتدلِّيًا وهو ينزِلُ مِن السَّماءِ غيرَ مُنقَضٍّ[٣].

- قولُه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ فيه إيجازٌ بالحذْفِ، والتَّقديرُ: فكان مِقدارُ مَسافةِ قُربِه مِثلَ قابِ قَوسَيْنِ، فحُذِفَت هذه المُضافاتُ[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ قيل: هو كِنايةٌ عن المُعاهَدةِ على لُزومِ الطَّاعةِ؛ لأنَّ الحَليفَينِ في عُرْفِ العربِ إذا تَحالَفا على الوفاءِ والصَّفاءِ، أَلْصَقا وتَرَيْ قَوسَيْهما[٥].

- وحرْفُ (أوْ) في قولِه: ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ للتَّخييرِ في التَّقديرِ، وهو مُستعمَلٌ في التَّقريبِ، أي: إنْ أراد أحدٌ تَقريبَ هذه المسافةِ، فهو مُخيَّرٌ بيْنَ أنْ يَجعَلَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٤٢٠).

قابَ قوسَينِ أو أدْنى، أي: لا أزيَدَ؛ إشارةً إلى أنَّ التَّقديرَ لا مُبالَغةَ فيه[١].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾

- تفرَّعَ قولُه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ على قولِه: ﴿فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ المُفرَّعِ على المُفرَّعِ على قَولِه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وهذا التَّفريعُ هو المَقصودُ مِن البَيانِ، وما قبْلَه تَمهيدٌ له، وتَمثيلٌ لأحوالٍ عَجيبةٍ بأقرَبِ ما يَفهَمُه النَّاسُ؛ لقصْدِ بَيانِ إمكانِ تَلقِّي الوحْيِ عن اللهِ تعالى؛ إذ كان المشرِكون يُحيلونه[٢].

- وضَميرُ ﴿أَوْحَىٰ﴾ عائدٌ إلى اللهِ تعالى المَعلومِ مِن قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النَّجْم: ٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ، والمعْنى: فأَوحَى اللهُ إلى عَبْدِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهذا كافٍ في هذا المَقامِ؛ لأنَّ المَقصودَ إثباتُ الإيحاءِ لإبطالِ إنكارِهم إيَّاهُ[٣].

- وقيل: قولُه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾، أي: جِبريلُ عليهِ السَّلامُ ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ عبْدِ الله تعالَى، وإضمارُه قبْلَ الذِّكرِ لغايةِ ظُهورِه، وإنْ لم يَجْرِ لاسْمِه عزَّ وجل ذِكرٌ؛ لأنَّه لا يُلْبِسُ[٤].

- وإيثارُ التَّعبيرِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعُنوانِ ﴿عَبْدِهِۦ﴾ إظْهارٌ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

ويُنظر ما تقدم في حاشية تفسير الآية (ص: ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٦).

مَقامِ الإضمارِ؛ لِمَا في اختِصاصِ الإضافةِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ مِن التَّشريفِ[١].

- في قولِه: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ إبهامٌ؛ لتَفخيمِ الوحْيِ الَّذي أُوحِيَ إليه وتعظيمِه، كأنَّه أعظَمُ مِن أنْ يُحيطَ به بَيانٌ، فأبْهَمَ الأمْرَ الَّذي أوحاهُ إلى عبْدِه وجعَلَه عامًّا، وذلك أبلَغُ؛ لأنَّ السَّامعَ يَذهَبُ وهمُه فيه كلَّ مَذهبٍ[٢].

٨- قولُه تعالَى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ اللَّامُ في قولِه: ﴿ٱلۡفُؤَادُ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: فُؤادُه؛ وعليه فيكونُ تَفريعُ الاستِفهامِ في قولِه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ استفهامًا إنكاريًّا؛ لأنَّهم مارَوْه. ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ تأْكيدًا لمَضمونِ قَولِه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النَّجْم: ٩]؛ فإنَّه يُؤذِنُ بأنَّه بمَرأًى مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لرفْعِ احتمالِ المجازِ في تَشبيهِ القُرْبِ، أي: هو قُرْبٌ حِسِّيٌّ، وليس مُجرَّدَ اتِّصالٍ رُوحانيٍّ[٣].

٩- قولُه تعالَى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ مِن المُماراةِ، وهي المُلاحاةُ والمُجادَلةُ في الباطلِ، وتَعديةُ الفِعلِ فيهما بحرْفِ الاستِعلاءِ (علَى)؛ لتَضمُّنِه معْنى الغَلَبةِ، أي: هَبْكُم غالَبْتُموه على عِبادتِكم الآلهةَ، وعلى الإعراضِ عن سَماعِ القرآنِ، ونحْوِ ذلك؛ أتَغْلِبونه على ما رَأى ببصَرِه[٤]؟!

- وفي قولِه: ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ عبَّر عن الماضِي بالمضارِعِ ﴿يَرَىٰ﴾؛ إشارةً إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٨، ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٩٩، ١٠٠).

استِحضارِ هذا الشَّيءِ، وأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ أخْبَرَ به كأنَّما يَراهُ الآنَ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا حدَّثَ عن ماضٍ فرُبَّما يقولُ قائلٌ: لعلَّه نسِيَ فأخطأَ، ولكنْ إذا عبَّرَ بالمضارِعِ صارَ كأنَّه يَتحدَّثُ عن شَيءٍ هو يُشاهِدُه[١]. وقيل: فيه إشارةٌ إلى ما يمكِنُ حدوثُه بعدُ[٢].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، أي: إنْ كُنتُم تَجحَدون رُؤيتَه جِبريلَ في الأرضِ، فلقدْ رآهُ رُؤيةً أعظَمَ منها؛ إذ رآهُ في العالَمِ العُلويِّ مُصاحِبًا، فهذا مِن التَّرقِّي في بَيانِ مَراتبِ الوحْيِ، والعطفُ عطْفُ قِصَّةٍ على قِصَّةٍ، ابتُدِئَ بالأضْعَفِ، وعُقِّبَ بالأقْوى؛ فتأْكيدُ الكلامِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ مِن أجْلِ ما في هذا الخبَرِ مِن الغَرابةِ، مِن حيثُ هو قدْ رأَى جِبريلَ، ومِن حيثُ إنَّه عرَجَ به إلى السَّماءِ، ومِن الأهمِّيَّةِ مِن حيثُ هو دالٌّ على عَظيمِ مَنزلةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فضَميرُ الرَّفْعِ في ﴿رَءَاهُ﴾ عائدٌ إلى ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ [النَّجْم: ٢]، وضَميرُ النَّصبِ عائدٌ إلى جِبريلَ، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ الرُّؤيةَ في هذه المرَّةِ كانت أيضًا بنُزولٍ ودُنُوٍّ[٣].

- وانتِصابُ ﴿نَزْلَةً﴾ على نزْعِ الخافضِ، أو على النِّيابةِ عن ظرْفِ المكانِ، أو على حذْفِ مُضافٍ بتَقديرِ: وقْتَ نَزلةٍ أُخرى، فتَكونُ نائبًا عن ظرْفِ الزَّمانِ[٤].

- وقوله: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿رَءَاهُ﴾، وخُصَّت بالذِّكرِ رُؤيتُه عندَ سِدرةِ المُنتَهى؛ لعَظيمِ شرَفِ المكانِ بما حصَلَ عِندَه مِن آياتِ ربِّه الكُبْرى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٠٩، ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ولأنَّها مُنتهَى العُروجِ في مَراتبِ الكَرامةِ[١].

- وإضافةُ ﴿سِدْرَةِ﴾ إلى ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ إضافةً بَيانيَّةً. ويَجوزُ كونُها لتَعريفِ السِّدرةِ بمَكانٍ يُنْتهَى إليه لا يَتجاوَزُه أحدٌ؛ لأنَّ ما وراءَهُ لا تُطيقُه المخلوقاتُ. أو إضافةُ المِلْكِ إلى المالِكِ على حذْفِ الجارِّ والمَجرورِ، أي: سِدرةُ المُنْتَهى إليهِ هو اللهُ عزَّ وجلَّ[٢].

١١- قولُه تعالَى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ ظرْفٌ مُستقَرٌّ[٣] في مَوضعِ الحالِ مِن ﴿سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، أُريدَ به التَّنويهُ بما حفَّ بهذا المكانِ المُسمَّى سِدرةَ المُنْتهى مِن الجَلالِ والجَمالِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ إبهامٌ للتَّفخيمِ الإجماليِّ، وتَعظيمٌ وتَكثيرٌ لِمَا يَغْشاها، وأنَّه تَضيقُ عنه عِباراتُ الوصْفِ في اللُّغةِ؛ فقد عُلِمَ بهذه العِبارةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

ويُنظر ما تقدم في حاشية تفسير هذه الآية (ص: ٤٠٥).

(٣) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبَرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لَغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولُك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زَيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زَيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

أنَّ ما يَغشاها مِن الخلائقِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ وجَلالِهِ أشياءُ لا يَكتَنِهُها النَّعتُ، ولا يُحيطُ بها الوصفُ[١].

- وتأْخيرُ ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ عن المَفعولِ؛ للتَّشويقِ إليهِ[٢].

- وصِيغةُ المُضارعِ ﴿مَا يَغْشَىٰ﴾ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ استِحضارًا لصُورتِها البَديعةِ، وللإيذانِ باستِمرارِ الغَشَيانِ بطَريقِ التَّجدُّدِ[٣].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾

- جُملةُ ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ مُعترِضةٌ، وهي في معْنى جُملةِ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ إلى آخِرِها، أي: رأى جِبريلَ رُؤيةً لا خطَأَ فيها، ولا زِيادةَ على ما وُصِفَ، أي: لا مُبالَغةَ[٤].

١٣- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ تَذْييلٌ، أي: رأى آياتٍ غيْرَ سِدرةِ المُنْتهَى، وجنَّةِ المأْوَى، وما غشِيَ السِّدرةَ مِن البَهجةِ والجَلالِ؛ رأى مِن آياتِ اللهِ الكُبْرى[٥].

- وفيه إيجازٌ بالحذْفِ، أي: واللهِ لقدْ رأَى ...[٦].

- قولُه: ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ صِفةُ ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾، والمَرئيُّ مَحذوفٌ؛ لتَفخيمِ الأمْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٠٢).

ويُنظر ما تقدم في حاشية تفسير الآية (ص: ٤٠٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢١).

وتَعظيمِه، كأنَّه قال: لقدْ رَأى مِن آياتِ ربِّه الكُبْرى أُمورًا عِظامًا لا يُحِيطُ بها الوصْفُ، والحذْفُ في مِثلِ هذا أبلَغُ وأهولُ؛ لأنَّ فيه تَفخيمًا لآياتِ اللهِ الكُبرى، وأنَّ فيها ما رآهُ، وفيها ما لمْ يَرَهُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٤٢١)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٥/ ٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٩ / ٣٥٠).

## الآيات (١٩-٢٥)

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ﴾: أصنامٌ مِن حِجارةٍ كانوا يَعبُدونَها، قيل: اشتَقُّوا اللَّاتَ مِنَ اللهِ، والعُزَّى مِنَ العَزيزِ، ومَناةَ مِن المنَّانِ. وقيل: اللَّاتُ: كان رجُلًا يَلُتُّ السَّويقَ ويُطعِمُه الحاجَّ، فلمَّا ماتَ عَكَفُوا على قَبرِه يَعبُدونَه، والعُزَّى: تأنيثُ الأعزِّ، ومَناةُ: قيل: سُمِّيَتْ بذلك؛ لأنَّ دماءَ النَّسائِكِ تُمْنَى عندَها، أي: تُراقُ[1].

﴿ضِيزَىٰٓ﴾: أي: جائِرةٌ ناقِصةٌ عَوْجاءُ، وأصلُ (ضيز): يدُلُّ على اعوِجاجٍ[2].

﴿تَمَنَّىٰ﴾: أي: اشتَهى وأمَّلَ، والتَّمَنِّي: تَشَهِّي حُصولِ الأمرِ المَرغوبِ فيه، وأصلُ (مني): يدُلُّ على تَقديرِ شَيءٍ ومنه التَّمَنِّي: لأنَّه أملٌ يُقدِّرُه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ٥٦٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ الله تعالى عمَّا عليه المشركونَ مِن جهلٍ وسَفَهٍ، ويُبيِّنُ بُطلانَ عبادتِهم للأصنامِ، فيقولُ: أفرأيتُم -أيُّها المُشرِكونَ- اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ الثَّالِثةَ الأُخرَى؛ تلك الأصنامَ الَّتي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ، وتَزعُمونَ أنَّها بَناتٌ للهِ تعالى: أتَختارون الذُّكْرانَ لأنفُسِكم، وتَنسُبونَ للهِ تعالى الإناثَ اللَّاتي تَكرَهونَهنَّ ولا تَرضَونَ بهنَّ بناتٍ لكم؟! قِسْمتُكم تلك -أيُّها المُشرِكونَ- قِسْمةٌ جائِرةٌ ظالِمةٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى منكِرًا عليهم ما ابتَدَعوه مِن الافتراءِ والكفرِ، مِن عبادةِ الأصنامِ وتسميتِها آلهةً: ما هذه الأسماءُ الَّتي سَمَّيتُم بها أصنامَكم إلَّا أسماءٌ لا حَقيقةَ لها، اختَرَعْتُموها أنتم وآباؤُكم وزَعمتُم أنَّها آلِهةٌ، وما أنزَل اللهُ تعالى بها مِن حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ!

ما يتَّبِعُ المُشرِكونَ في عِبادتِهم تلك الأصنامَ إلَّا الظَّنَّ وما تَميلُ إليه أنفُسُهم مِنَ الباطِلِ، ولقد جاء أولئك المُشرِكينَ الهُدَى مِن رَبِّهم.

ثمَّ ينكِرُ تعالى على مَن زعَم أنَّه يحصُلُ له ما تمنَّى، ويُبيِّنُ أنَّه ليس للإنسانِ ما يَتمنَّاه ويَشتهيه؛ فالأمرُ كلُّه لله، فيقولُ: أمْ للإنسانِ ما يَتمنَّاه مِنَ الخَيرِ؟! فلِلَّهِ وَحْدَه الآخِرةُ والدُّنيا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالى ما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الهُدَى ودِينِ الحَقِّ، والأمرِ بعبادةِ اللهِ وتوحيدِه؛ ذَكَرَ بُطلانَ ما عليه المُشرِكونَ مِن عبادةٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

وأيضًا لَمَّا قرَّرَ الرِّسالةَ أوَّلًا، وأتْبَعَه مِن ذِكرِ عَظَمةِ اللهِ وقُدرتِه الباهرةِ بذِكرِ التَّوحيدِ، والمنْعِ عن الإشراكِ باللهِ تعالى؛ وقَّفَهم على حَقارةِ مَعبوداتِهم، وهي الأوثانُ، وأنَّها ليستْ لها قُدرةٌ[1].

وأيضًا لَمَّا قَرَّر الرِّسالةَ؛ ذَكَر ما ينبغي أن يَبتدِئَ به الرَّسولُ، وهو التَّوحيدُ، ومَنعُ الخَلقِ عن الإشراكِ، فقال[2]:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: أفرأيتُم -أيُّها المُشرِكونَ- اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ الثَّالِثةَ الأُخرى، الَّتي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ، وتَزعُمونَ أنَّها بَناتٌ للهِ تعالى[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٥).
قال الشوكاني: (﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ أي: أَخبِرُوني عن الآلِهةِ الَّتي تَعبُدونَها مِن دُونِ اللهِ: هل لها قُدرةٌ تُوصَفُ بها؟ وهل أَوحَت إليكم شَيئًا كما أَوحى اللهُ إلى محمَّدٍ؟ أمْ هي جماداتٌ لا تَعقِلُ ولا تَنفَعُ؟). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٢٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٢).
وقال ابنُ كثير: (كانت اللَّاتُ صَخرةً بَيضاءَ مَنقوشةً، وعليها بيتٌ بالطَّائِفِ له أستارٌ وسَدَنةٌ، وحَولَه فِناءٌ مُعظَّمٌ عندَ أهلِ الطَّائِفِ، وهم ثَقيفٌ ومَن تابَعَها، يفتَخِرون بها على مَن عداهم مِن أحياءِ العرَبِ بعدَ قُرَيشٍ. قال ابنُ جرير: وكانوا قد اشتَقُّوا اسمَها مِن اسمِ اللهِ تعالى، فقالوا: اللَّاتَ، يَعْنونَ مُؤنَّثةً منه -تعالى اللهُ عن قَولِهم عُلُوًّا كَبيرًا-! وحُكِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ ومجاهدٍ والرَّبيعِ بنِ أنسٍ: أنَّهم قَرَؤُوا ﴿اللَّاتَّ﴾ بتشديدِ التَّاءِ، وفَسَّروه بأنَّه كان رجُلًا يَلُتُّ للحَجيجِ في الجاهِليَةِ السَّويقَ، فلمَّا مات عكَفوا على قَبرِه فعَبَدوه... قال ابنُ جرير: وكذا العُزَّى مِنَ العَزيزِ، وكانت شَجَرةً عليها بناءٌ وأستارٌ بنَخلةَ -وهي بيْنَ مكَّةَ والطَّائِفِ- كانت قُرَيشٌ يُعَظِّمونَها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٥). ويُنظر: ((كتاب الأصنام)) لهشام الكلبي (ص: ١٦، ١٧، ٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ١٩٩). =

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: أتختارونَ لأنفُسِكم -أيُّها المُشرِكونَ- صِنفَ الذُّكورِ مِنَ الأولادِ، فتُفَضِّلونَهم على الإناثِ، وتَنسُبونَ للهِ تعالى الإناثَ اللَّاتي تَكرهونَهنَّ ولا تَرضَونَ بهنَّ بناتٍ لكم؛ إذ زَعمتُم أنَّ تلك الأصنامَ بناتٌ للهِ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٧ - ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَٰتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ * أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ * أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾ [الصافات: ١٤٩ - ١٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٦].

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ ﴾.

أي: قِسْمتُكم تلك -أيُّها المُشرِكونَ- قِسْمةٌ جائِرةٌ ظالِمةٌ مائِلةٌ عن الحَقِّ

---

= وقال ابنُ كثير أيضًا: (وأمَّا مَناةُ فكانت بالمُشَلَّلِ -عندَ قُدَيدٍ بيْنَ مكَّةَ والمَدينةِ- وكانت خُزاعةُ والأَوسُ والخَزْرجُ في جاهليَّتِها يُعظِّمونَها، ويُهِلُّونَ منها للحَجِّ إلى الكعبةِ... وقد كانت بجزيرةِ العرَبِ وغَيرِها طواغيتُ أُخَرُ تُعظِّمُها العرَبُ كتعظيمِ الكعبةِ غيرُ هذه الثَّلاثةِ الَّتي نَصَّ عليها في كتابِه العزيزِ، وإنَّما أفرَد هذه بالذِّكرِ؛ لأنَّها أشهَرُ مِن غَيرِها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٦).
ويُنظر: ((كتاب الأصنام)) لهشام الكلبي (ص: ١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).
وقال السعدي: (سَمَّوُا «اللَّاتَ» مِنَ «الإلهِ» المُستَحِقِّ للعبادةِ! و«العُزَّى» مِنَ «العزيزِ»، و «مَناةَ» مِنَ «المنَّانِ»؛ إلحادًا في أسماءِ اللهِ تعالى، وتجَرِّيًا على الشِّركِ به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٦).

والصَّوابِ[١]!

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾.

أي: ما هذه الأسماءُ الَّتي سَمَّيتُم بها أصنامَكم -اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ- إلَّا أسماءٌ لا معانيَ تَحتَها، ولا حَقيقةَ لها، وإنَّما اختَرَعْتُموها أنتم وآباؤُكم، وزَعمتُم أنَّها آلِهةٌ، وادَّعيتُم أنَّها بناتُ اللهِ[٢]!

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

أي: ما أنزل اللهُ بذلك مِن حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ يدُلُّ على ما زَعمتُم وادَّعيتُم بشَأنِها[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٤ - ١٥٧].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾.

أي: ما يتَّبِعُ المُشرِكونَ إلَّا الوَهمَ وما تَميلُ إليه أنفُسُهم مِنَ الباطِلِ، بلا عِلمٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٦، ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨).

ويقينٍ، ولا حُجَّةٍ وبُرهانٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ * بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠ - ٢٢].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

أي: ولقد جاء أولئك المُشرِكينَ الهُدى مِن رَبِّهم؛ إذ أنزَلَ عليهم القُرآنَ وفيه الأمرُ بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه، وبيانُ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ[٢].

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٧).

قال ابنُ عطية: (الظَّنُّ: مَيلُ النَّفْسِ إلى أحدِ مُعتقَدَينِ مُتخالِفَينِ دونَ أن يكونَ مَيلُها بحُجَّةٍ ولا بُرهانٍ. وهوى الأنفُسِ: هو إرادتُها المَلذَّةَ لها، وإنَّما تَجِدُ هَوى النَّفْسِ أبدًا في تَركِ الأفضَلِ؛ لأنَّها مَجبولةٌ بطَبعِها على حُبِّ المَلاذِّ، وإنَّما يَردَعُها ويَسوقُها إلى حُسنِ العاقِبةِ: العَقلُ والشَّرعُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢).

وقال الرَّسْعَني: (﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ في عبادتِها واعتقادِ إلاهيَّتها ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: الوَهْمَ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٨٣).

وقال ابن جُزَي: (﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يعني: أنَّهم يقولون أقوالًا بغيرِ حُجَّةٍ؛ كقولِهم: إنَّ الملائكةَ بناتُ الله، وقولِهم: إنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لهم، وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٨).

وقال الشوكاني: (﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي: ما يَتَّبِعونَ فيما ذُكِرَ مِن التَّسميةِ والعملِ بموجَبِها إلَّا الظَّنَّ الَّذي لا يُغْني مِن الحقِّ شيئًا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

أي: أم للإنسانِ ما يَتمنَّاه ويَشتَهيه مِنَ الخَيرِ[١]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٨).

قال القرطبي: (﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ أي: اشتهى، أي: ليس ذلك له. وقيل: ﴿لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ مِنَ البَنينَ، أي: يكونُ له دونَ البناتِ. وقيل: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ مِن غيرِ جَزاءٍ، ليس الأمرُ كذلك. وقيل: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ مِن النُّبُوَّةِ أن تكونَ فيه دونَ غَيرِه. وقيل: ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ مِن شَفاعةِ الأصنامِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ في الآيةِ: محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمعنى: أم اشتهى محمَّدٌ النُّبُوَّةَ، فأعطاه اللهُ إيَّاها؟ ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ مُعَقِّبًا على هذا القَولِ: (هذا لا تَقتَضيه الآياتُ، وإن كان اللَّفظُ يَعُمُّه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢).

وقيل: المعنى: أمْ للكافِرِ ما تمنَّى مِن شَفاعةِ الأصنامِ، وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٢).

وذهب مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ إلى أنَّ المرادَ: ما تمنَّى مِن أنَّ الملائكةَ تَشفَعُ لهم. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٢).

وممَّن اختار العُمومَ -أي: ليس لأحدٍ ما يتمنَّى ويَشتهي، إنَّما الأمرُ كلُّه لله-: ابنُ عطية، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

قال ابنُ جُزَي: (﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ «أم» هنا للإنكارِ، والإنسانُ هنا جِنسُ بني آدَمَ، أي: ليس لأحَدٍ ما يَتمَنَّى، بل الأمرُ بيَدِ اللهِ. وقيل: إنَّ الإشارةَ إلى ما طَمِعَ فيه الكُفَّارُ مِن شَفاعةِ الأصنامِ. وقيل: إلى قَولِ العاصي بنِ وائِلٍ: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ [مريم: ٧٧]. وقيل: هو تمَنِّي بَعضِهم أن يكونَ نَبيًّا. والأحسَنُ حَملُ اللَّفظِ على إطلاقِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٨).

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١].

وقال سُبحانَه: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء: ١٢٣].

﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فلِلَّهِ وَحْدَه مُلكُ الآخِرةِ والدُّنيا، وله وَحْدَه مُطلَقُ التَّصَرُّفِ فيهما؛ فيُعطي مَن يَشاءُ ما شاء، ويَمنَعُ مَن يشاءُ ما شاء؛ فالأمرُ كما يُريدُ الرَّحمنُ، لا كما يَتمنَّى الإنسانُ(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ [الليل: ١٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- الظَّنُّ الَّذي لا يُعلَمُ رُجحانُه لا يجوزُ اتِّباعُه، وذلك هو الَّذي ذَمَّ اللهُ به مَن قال فيه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾، فهم لا يَتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ، ليس عندَهم عِلْمٌ، ولو كانوا عالِمينَ بأنَّه ظَنٌّ راجِحٌ لَكانوا قدِ اتَّبَعوا عِلمًا، ولم يَكونوا ممَّن لا يَتَّبِعُ إلَّا الظَّنَّ(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١، ١١٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٢٠).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ذَمُّ مَن أجاب داعيَ الجَهلِ والظُّلمِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أنَّ الشُّبهةَ والشَّهوةَ هما الأصلان اللَّذان ذَمَّ اللهُ مَن يَتَّبِعُهما، ويُحكِّمُهما على الوَحيِ الَّذي بَعَثَ اللهُ به أنبياءَه ورُسُلَه؛ فـ «الظَّنُّ»: الشُّبهةُ، و «ما تَهْوى الأنفُسُ»: الشَّهوةُ، والهُدى الَّذي جاءنا مِن ربِّنا مخالِفٌ لهذا وهذا[٢].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ اعلَمْ أنَّ الأُمنيَّةَ مَذمومةٌ، والإرادةَ مَحمودةٌ، والفَرقُ بيْنَهما أنَّ الأُمنيَّةَ شَهوةٌ لا يُصَدِّقُها العَمَلُ، والإرادةَ هي ما يُصَدِّقُه العَمَلُ[٣].

٥- قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ والمقصودُ إبطالُ نوالِ الإنسانِ ما يَتَمَنَّاه، وأنْ يَجعلَ ما يَتَمَنَّاه باعثًا عن أعمالِه ومُعْتَقَداتِه، بل عليه أنْ يَتطلَّبَ الحقَّ مِن دلائِلِه وعلاماتِه وإنْ خالَف ما يَتَمنَّاه، وهذا تأْديبٌ وتَرويضٌ للنُّفوسِ على تَحمُّلِ ما يُخالِفُ أهواءَها إذا كان الحقُّ مُخالِفًا للهَوى، وليَحمِلَ نفْسَه عليه

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩٦).

قال ابن القيِّم: (وممَّا يَنبغي أنْ يُعلَمَ أنَّ مَن رجَا شيئًا استلزَم رجاؤُه ثلاثةَ أمورٍ؛ أحدُها: محبَّةُ ما يَرجوه. الثَّاني: خَوفُه مِن فَواتِه. الثَّالثُ: سعيُه في تحصيلِه بحسَبِ الإمكانِ. وأمَّا رجاءٌ لا يُقارِنُه شيءٌ مِن ذلك فهو مِن بابِ الأمانيِّ، والرَّجاءُ شَيءٌ والأمانيُّ شيءٌ آخَرُ). ((الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)) (ص: ٣٩).

وقال أيضًا: (والفرقُ بيْنَ الرَّجاءِ والتَّمَنِّي أنَّ الرَّجاءَ يكونُ معَ بذْلِ الجهدِ واستِفراغِ الطَّاقةِ في الإتيانِ بأسبابِ الظَّفَرِ والفَوزِ، والتَّمَنِّيَ حَديثُ النَّفْسِ بحُصولِ ذلك معَ تَعطيلِ الأسبابِ الموصلةِ إليه). ((الروح)) (ص: ٢٤٥).

حتَّى تَتخلَّقَ به[١].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الأُنثى ناقِصةٌ بمُقتضى الخِلْقةِ والطَّبيعةِ، وأنَّ الذَّكَرَ أفضَلُ وأكمَلُ منها[٢]، فالذُّكورةُ قوَّةٌ وكمالٌ، والأنوثةُ ضَعفٌ خِلْقيٌّ جِبلِّيٌّ، ونقصٌ خلْقيٌّ جبَلَ اللهُ هذا النَّوعَ مِن الإنسانِ عليه، وهو أمرٌ مُشاهَدٌ لا يُنكِرُه العقلاءُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ دَلالةٌ على بُطلانِ قِصَّةِ الغَرانيقِ[٤]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرأَ بعْدَ ذلك هذه الآيةَ، فلو فرَضْنا أنَّه قال: «تلك الغَرانيقُ العُلَا»، ثمَّ أبطلَ ذلك بقَولِه: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، فكيف يَفرَحُ المُشرِكونَ بعدَ هذا الإبطالِ والذَّمِّ التَّامِّ لأصنامِهم بأنَّها أسماءٌ بلا مُسَمَّياتٍ[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٢١) و (٤/ ٣٩٦).

(٤) يُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحج، الآية (٥٢).

(٥) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٦٢).

أمَّا قِصَّةُ الغَرانيقِ فقد رُويت في سببِ نُزولِ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ...﴾ [الحج: ٥٢]، وحاصلُها: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قرأَ بمكَّةَ: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، فلمَّا بَلَغَ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] أَلْقى الشَّيطانُ على لسانِه: تلك الغَرانيقُ العُلى، وإنَّ شَفاعتَهُنَّ لتُرتَجى! فقال المشركون: ما ذَكَرَ آلهتَنا بخَيرٍ قبْلَ اليَومِ، فسَجَد وسَجَدوا؛ فنزلتْ هذه الآيةُ.

قال الشَّوكانيُّ: (لمْ يَصِحَّ شَيءٌ مِن هذا، ولا ثَبَتَ بوجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، ومع عدَمِ صِحَّتِه -بل بُطلانِه- فقد دفَعَه المُحقِّقون بكِتابِ اللهِ سُبحانَه؛ قال اللهُ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦]، وقولُه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أنَّ هذه الآلهةَ وإن سُمِّيَت آلِهةً فما هي إلَّا أسماءٌ لا حَقيقةَ لها؛ فهي باطِلةٌ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ المعنى: أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لم يُنزِلْ بها دَليلًا، وسُمِّيَ الدَّليلُ سُلطانًا؛ لأنَّ صاحِبَ الدَّليلِ معه سُلطةٌ يَعلُو بها على خَصْمِه، ومَن ليس له دليلٌ ليس له سُلطانٌ؛ فالسُّلطانُ يأتي بمعنى الحُجَّةِ -أي: الدَّليلِ-؛ لأنَّ مَن معه الدَّليلُ ذو سُلطةٍ على خَصْمِه[٢].

٥- قال الله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ لَمَّا كان الظَّنُّ قد يكونُ مُوافِقًا للحَقِّ مُخالِفًا للهَوى، قال: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أنَّ أكثرَ ما يَحمِلُ

---

= وقولُه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾ [الإسراء: ٧٤]، فنَفى المقارَبةَ للرُّكونِ، فضْلًا عن الرُّكونِ. قال البَزَّارُ: هذا حديثٌ لا نَعْلَمُه يُروى عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإسنادٍ مُتَّصِلٍ. وقال البَيهقيُّ: هذه القصَّةُ غيرُ ثابتةٍ مِن جهةِ النَّقلِ. ثمَّ أَخَذ يَتكلَّمُ أنَّ رُواةَ هذه القصَّةِ مَطعونٌ فيهم. وقال إمامُ الأئمَّةِ ابنُ خُزَيْمةَ: إنَّ هذه القصَّةَ مِن وضْعِ الزَّنادقةِ. قال القاضي عِياضٌ في الشِّفا: إنَّ الأُمَّةَ أجمَعَتْ فيما طريقُه البَلاغُ أنَّه معصومٌ فيه مِنَ الإخبارِ عن شَيءٍ بخِلافِ ما هو عليه، لا قصْدًا ولا عَمْدًا ولا سَهْوًا ولا غلَطًا. قال ابنُ كثيرٍ: قد ذَكَر كثيرٌ مِنَ المُفسِّرين هاهنا قصَّةَ الغَرانيقِ، وما كان مِن رُجوعِ كثيرٍ مِنَ المُهاجِرينَ إلى أرضِ الحبشةِ ظَنًّا منهم أنَّ مُشْركي قُرَيشٍ قد أَسلَموا، ولكنَّها مِن طُرُقٍ كلُّها مُرسَلةٌ، ولمْ أَرَها مُسنَدةً مِن وجْهٍ صحيحٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٥٤٦). ويُنظر: ((مسند البزار)) (١١/ ٢٩٦)، ((الشفا بتعريف حقوق المصطفى)) للقاضي عياض (٢/ ١٢٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٤١)، ((نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق)) للألباني.

ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحج الآية (٥٢).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٣/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦١).

الإنسانَ على اتِّباعِ الظَّنِّ المُخطِئِ هو هواه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ أنَّ مَنشَأَ الباطلِ هو مِن نَقْصِ العِلمِ، أو سُوءِ القَصدِ[٢].

٨- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، قولُه: ﴿مِّن رَّبِّهِمُ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يجوزُ تلقِّي الشَّريعةِ إلَّا مِن عندِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى هو الرَّبُّ، والرَّبُّ هو الخالِقُ المالِكُ المُدَبِّرُ[٣].

٩- قال تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أي: ليس للإنسانِ ما تمنَّى، وكثيرًا ما يَتَمَنَّى الإنسانُ شيئًا، بل ويسعَى في أسبابِه ولكنْ لا يحصُلُ؛ لأنَّ هناك مُدبِّرًا، وهو اللهُ عزَّ وجلَّ الَّذي بيدِه الأمرُ جلَّ وعلا؛ ولهذا قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾، وفي ذلك إشارةٌ إلى رَدِّ صنيعِ هؤلاءِ المشركينَ الَّذين يَعبدونَ الأصنامَ، ويقولونَ: إنَّها تُقَرِّبُهم إلى اللهِ؛ وليس لهم ذلك! وأيضًا رَدٌّ لقولِهم: إنَّ للهِ البناتِ، ولهم البنينَ، وليس لهم ذلك، وهم وإنْ تَمنَّوْا ذلك وصار في مُخَيِّلَتِهم، فإنَّه لا يَحْصُلُ، وليس للإنسانِ ما تَمَنَّى[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ لَمَّا جَرَى في صِفةِ الوحْيِ ومُشاهَدةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِبريلَ عليه السَّلامُ، ما دلَّ على شُؤونٍ جَليلةٍ مِن عَظَمةِ اللهِ تعالى، وشرَفِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وشرَفِ جِبريلَ عليه السَّلامُ؛ إذ وُصِفَ بصِفاتِ الكَمالِ، ومَنازِلِ العِزَّةِ،

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كما وُصِفَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعُروجِ في المَنازلِ العُلْيا -كان ذلك ممَّا يُثيرُ موازَنةَ هذه الأحوالِ الرَّفيعةِ بحالِ أعظَمِ آلهَتِهم الثَّلاثِ في زعْمِهم، وهي: اللَّاتُ، والعُزَّى، ومَناةُ الَّتي هي أحجارٌ مَقرُّها الأرضُ، لا تَملِكُ تَصرُّفًا، ولا يُعرَجُ بها إلى رِفعةٍ، فكان هذا التَّضادُّ جامِعًا خَياليًّا يَقْتضي تَعقيبَ ذِكرِ تلك الأحوالِ بذِكرِ أحوالِ هاتِه، فانتُقِلَ الكلامُ مِن غرَضِ إثباتِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُوحًى إليه بالقُرآنِ، إلى إبطالِ عِبادةِ الأصنامِ، ومَناطُ الإبطالِ قولُه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾؛ فالفاءُ لتَفريعِ الاستِفهامِ وما بعْدَه على جُملةِ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١٢] المُفرَّعةِ على جُملةِ ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[1] [النجم: ١١].

- ولَمَّا كان المشركون مع عِبادتِهم لهذه الأصنامِ يقولونَ: إنَّ الملائكةَ وتلكَ الأصنامَ بناتُ اللهِ -تعالَى اللهُ عن ذلكَ عُلوًّا كبيرًا-؛ قِيل لهم تَوبيخًا وتبكيتًا: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ...﴾ إلخ[2].

- والرُّؤيةُ في ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ بَصريَّةً، تَتعدَّى إلى مَفعولٍ واحدٍ، فلا تَطلُبُ مَفعولًا ثانيًا، ويكونَ الاستِفهامُ تَقريريًّا تَهكُّميًّا، أي: كيف ترَونَ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ بالنِّسبةِ لِما وُصِفَ في عَظَمةِ اللهِ تعالى، وشرَفِ مَلائكتِه، وشَرَفِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟! وهذا تَهكُّمٌ بهم، وإبطالٌ لإلهيَّةِ تلك الأصنامِ بطَريقِ الفَحْوى، ودَليلُه العِيانُ، وتَكونَ جُملةُ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢١] استِئنافًا وارتقاءً في الرَّدِّ، أو بدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾؛ لأنَّ مَضمونَها ممَّا تَشتمِلُ عليه مَزاعِمُهم؛ كانوا يَزعُمون أنَّ اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ بَناتُ اللهِ!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨).

ويَجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ عِلْميَّةً قَلبيَّةً، أي: أزَعَمْتُم اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ؟! فحُذِفَ المَفعولُ الثَّاني اختصارًا، والتَّقديرُ: أزَعَمْتُموهنَّ بَناتِ اللهِ، أتَجْعَلون له الأُنثى وأنتُم تَبْتَغون الأبناءَ الذُّكورَ؟! ولدَلالةِ الحالِ عليه؛ فالمعْنى: عَقِيبَ ما سمِعْتُم مِن آثارِ كَمالِ عَظَمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ في مُلكِه ومَلكوتِه، وجَلالِه وجَبروتِه، وإحكامِ قُدرتِه ونفاذِ أمْرِه في الملأِ الأَعْلى وما تحتَ الثَّرى وما بيْنَهما؛ رأيتُم هذهِ الأصنامَ -مع غايةِ حَقارتِها وقَماءتِها- بَناتٍ له تعالَى! وتَكونَ جُملةُ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ ...﴾ إلخ بَيانًا للإنكارِ، وارتقاءً في إبطالِ مَزاعِمِهم، أي: أتَجْعَلون للهِ البناتِ خاصَّةً وتَختصُّون أنفُسَكم بالبنينَ الذُّكورِ؟! وقولُه تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ يَشهَدُ به شَهادةً بيِّنةً؛ فإنَّه تَوبيخٌ مَبنيٌّ على التَّوبيخِ الأوَّلِ، وحيثُ كانَ مَدارُه تَفضيلَ جانبِ أنفُسِهم على جَنابِه تَعالى بنِسبتِهم إليه تَعالى الإناثَ مع اختيارِهم لأنفُسِهم الذُّكورَ، وجَبَ أنْ يكونَ مَناطُ الأولِ نفْسَ تلك النِّسبةِ؛ حتَّى يَتسنَّى بِناءُ التَّوبيخِ الثَّاني[1].

وقيل: لَمَّا كان فيما جَرَى مِن صِفةِ الوحْيِ ومَنازلِ الزُّلْفى الَّتي حَظِيَ بها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعَظَمةِ جِبريلَ: إشعارٌ بسَعةِ قُدرةِ اللهِ تَعالى وعَظيمِ مَلكوتِه، ممَّا يُسجِّلُ على المشرِكين في زَعْمِهم شُركاءَ للهِ أصنامًا مِثلَ اللَّاتِ والعُزَّى ومَناةَ، فسادَ زعْمِهم، وسَفاهةَ رأْيِهم -أُعقِبَ ذِكرُ دَلائلِ العَظَمةِ الإلهيَّةِ بإبطالِ إلهيَّةِ أصنامِهم بأنَّها أقلُّ مِن مَرتبةِ الإلهيَّةِ؛ إذ تلك أوهامٌ لا حَقائقَ لها، ولكنِ اخترَعَتْها مُخيَّلاتُ أهلِ الشِّركِ، ووَضَعوا لها أسماءً ما لها حَقائقُ، ففُرِّعَ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ...﴾ إلخ؛ فيَكونُ الاستِفهامُ تَقريريًّا إنكاريًّا، والرُّؤيةُ عِلْميَّةً، والمَفعولُ الثَّاني هو قولَه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، وتَكونُ جُملةُ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٢، ١٠٣).

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ إلخ مُعترِضةً بيْنَ المَفعولينِ؛ للارتقاءِ في الإنكارِ، أي: وزَعَمْتُموهنَّ بَناتٍ للهِ، أو وزَعَمْتُم الملائكةَ بَناتٍ للهِ! وهذه الوجوهُ غيرُ مُتنافيةٍ، فنَحمِلُها على أنَّ جميعَها مَقصودٌ في هذا المَقامِ. ويجوزُ جَعْلُ فِعلِ (أرأَيْتُم) -على اعتبارِ الرُّؤيةِ عِلْميَّةً- مُعلَّقًا عن العَملِ؛ لوُقوعِ (إنْ) النَّافيةِ بعْدَه في قولِه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، وتُجعَلَ جُملةُ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ اعتراضًا[1].

- وفيه مُناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ جاء هنا بالفاءِ حيث قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾، وفي مَواضعَ بغيرِ الفاءِ، كما قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف: ٤]، وقال: ﴿أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ [فاطر: ٤٠]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا قدَّمَ مِن عَظَمةِ آياتِ اللهِ في مَلَكوتِه أنَّ رسولَ اللهِ إلى الرُّسلِ -الَّذي يسُدُّ الآفاقَ ببَعضِ أجْنحَتِه، ويُهلِكُ المدائنَ بشِدَّتِه وقوَّتِه- لا يُمكِنُه أنْ يَتعدَّى السِّدرةَ في مَقامِ جَلالِ اللهِ وعِزَّتِه؛ قال: أفرَأَيْتُم هذه الأصنامَ -مع ذِلَّتِها وحَقارتِها- شُركاءَ اللهِ مع ما تَقدَّمَ؟! فقال بالفاءِ -عَقِيبَ ما سمِعْتُم مِن عَظَمةِ آياتِ اللهِ تَعالى الكُبرى، ونَفاذِ أمْرِه في الملأِ الأعلى وما تحتَ الثَّرى-: فانْظُروا إلى اللَّاتِ والعُزَّى؛ تَعلَموا فسادَ ما ذَهبْتُم إليه، وعوَّلْتُم عليه[2].

- ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ﴾ قيل: إنَّها مَنصوبةٌ بقولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾، وهي بمعْنى أخْبِروني، والمفعولُ الثَّاني الَّذي لها هو قولُه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾، ولم يَعُدْ ضَميرٌ مِن جُملةِ الاستِفهامِ على اللَّاتِ والعُزَّى ومَناةَ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ هو في معْنى: وله هذه الإناثُ، فأغْنى عن الضَّميرِ. وكانوا يَقولون في هذه الأصنامِ: هي بِناتُ اللهِ، فالمعْنى: ألَكمُ النَّوعُ المحبوبُ المستحسَنُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٤٨).

الموجودُ فيكم، وله النَّوعُ المذمومُ بزَعْمِكم؟! وهو المستثقَلُ. وحسَّنَ إبرازَ ﴿ٱلْأُنثَىٰٓ﴾ كونُه نصًّا في اعتِقادِهم أنَّهنَّ إناثٌ، وأنَّهنَّ بَناتُ اللهِ تَعالى، وإنْ كان في لَحاقِ تاءِ التأنيثِ في (اللَّاتِ) وفي (مَناةَ)، وألِفِ التأنيثِ في (العُزَّى) ما يُشعِرُ بالتَّأنيثِ، لكنَّه قد يُسمَّى المُذَكَّرُ بالمؤنَّثِ، فكان في قولِه: ﴿ٱلْأُنثَىٰٓ﴾ نصٌّ على اعتقادِ التَّأنيثِ فيها. وحسَّن ذلك أيضًا كونُه جاء فاصلةً؛ إذ لو أتَى ضَميرًا فكان التَّركيبُ (ألكمُ الذَّكَرُ وله هُنَّ)، لم تَقَعْ فاصلةً[1].

- قوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صِفتانِ للتَّأكيدِ، أو ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ مِن التَّأخُّرِ في الرُّتبةِ، فقد وصَفَ مَناةَ بقولِه: ﴿ٱلثَّالِثَةَ﴾؛ لأنَّها أقلُّ بالرُّتبةِ مِن اللَّاتِ والعُزَّى؛ فقد كانتْ عِندَهم دونَهما في المَنزِلةِ، أمَّا الوصْفُ بقولِه: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فإنَّها تُقوِّي هذا المعْنى، وتَزيدُ في وَضاعتِها، وإلَّا لَقال: الأُخرياتِ. ويجوزُ أنْ تكونَ الأوَّليَّةُ والتَّقديمُ عِندَهم لِلَّاتِ والعُزَّى؛ فالتَّراخي المستفادُ مِن لَفظِ ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ بحسَبِ الزَّمانِ[2]. وقيل: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ صِفةٌ للعُزَّى، وإنَّما أخَّرها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦).

قال أبو السعود: (وأمَّا ما قيلَ مِن أنَّ هذه الجملةَ مفعولٌ ثانٍ للرُّؤيةِ، وخلوها عن العائدِ إلى المفعولِ الأوَّلِ؛ لِما أنَّ الأصلَ: أخبِرونِي أنَّ اللَّاتَ والعُزَّى ومناةَ ألكُم الذَّكرُ وله هُنَّ، أي: تلك الأصنامُ، فوُضِعَ مَوضِعَ الأُنثى؛ لِمُراعاةِ الفواصلِ، وتحقيقِ مناطِ التَّوبيخِ- فمعَ ما فيه مِن التَّمَحُّلاتِ الَّتي ينبغي تنزيهُ ساحةِ التَّنزيلِ عن أمثالِها؛ يَقتَضِي اقتِصارَ التَّوبيخِ على ترجيحِ جانبِهم الحَقيرِ على جَنابِ اللهِ العزيزِ الجَليلِ، مِن غَيرِ تعَرُّضٍ للتَّوبيخِ على نِسبةِ الوَلَدِ إليه سُبحانَه). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٩٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٥٤، ٣٥٥).

على أنَّ أبا حيَّان قد قال: (ولفظُ «آخَرَ» ومُؤنَّثُه «أُخرى» لم يُوضَعَا للذَّمِّ ولا للمدحِ، إنَّما يدُلَّان على معنى «غيْر»، إلَّا أنَّ مِن شرطِهما أنْ يكونَا من جِنس ما قبْلَهما. لو قلتَ: مررتُ برجُلٍ =

رِعايةً للفاصلةِ[١].

وقيل: فيه تَقديمٌ وتأخيرٌ، تَقديرُه: والعُزَّى الأُخْرى، ومَناةَ الثَّالثةَ الذَّليلةَ؛ وذلك لأنَّ الأُولى كانت وَثَنًا على صُورةِ آدميٍّ، والعُزَّى صُورةَ نَباتٍ، ومَناةَ صُورةَ صَخْرةٍ، فالآدميُّ أشرَفُ مِن النَّباتِ، والنَّباتُ أشرَفُ مِن الجَمادِ، فالجَمادُ مُتأخِّرٌ، ومَناةُ جَمادٌ؛ فهي في أُخرياتِ المراتبِ[٢].

وقيل: وصْفُ مَناةَ بالثَّالثةِ في قولِه: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾؛ لأنَّها ثالثةٌ في الذِّكْرِ، وهو صِفةٌ كاشفةٌ[٣]، ووصْفُها بالأُخرى أيضًا صِفةٌ كاشفةٌ؛ لأنَّ كونَها

---

= وآخَرَ، لم يدُلَّ إلَّا على معنى «غير»، لا على ذمٍّ ولا على مدحٍ). ((تفسيرِ أبي حيان)) (١٠/ ١٧).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٣٩، ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧).

(٣) الصِّفةُ الكاشفةُ: هي الَّتي تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ لأنَّ الصِّفاتِ منها صِفةٌ مقيِّدةٌ تُخرِجُ ما سِواه، ومنها صفةٌ كاشِفةٌ تبيِّنُ حقيقةَ أمرِه، فهي خبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأن تكونَ وصفًا لازمًا مختصًّا به. والصِّفةُ إذا كان لها مفهومٌ فهي مقيِّدةٌ، وإن لم يكن لها مفهومٌ فهي كاشِفةٌ، أي: مبيِّنةٌ للحقيقةِ، مثالُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وصفٌ مطابقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لموافقتِه الواقِعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٩٩، ٣١٤)، ((دراسات أصولية في القرآن الكريم)) للحفناوي (ص: ٢٢).

ثالثةً في الذِّكرِ غيرَ المَذكورتينِ قبْلَها مَعلومٌ للسَّامعِ، فالحاصلُ مِن الصِّفتينِ تأْكيدُ ذِكْرِها؛ لأنَّ اللَّاتَ والعُزَّى عندَ قُريشٍ وعندَ جُمهورِ العرَبِ أشهَرُ مِن مَناةَ؛ لبُعْدِ مَكانِ مَناةَ عن بِلادِهم، ولأنَّ تَرتيبَ مَواقعِ بُيوتِ هذه الأصنامِ كذلك؛ فاللَّاتُ في أعْلى تِهامةَ بالطَّائفِ، والعُزَّى في وَسَطِها بنَخْلةَ بيْنَ مكَّةَ والطَّائفِ، ومَناةَ بالمُشلَّلِ بيْن مكَّةَ والمدينةِ، فهي ثالثةُ البِقاعِ[1].

أو أنَّ قولَه: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ جَرى على أُسلوبِ العرَبِ إذا أخبَروا عن مُتعدِّدٍ، وكان فيه مَن يُظَنُّ أنَّه غيرُ داخلٍ في الخبَرِ لعَظَمةٍ، أو تَباعُدٍ عن التَّلبُّسِ بمِثلِ ما تَلبَّسَ به نُظراؤه؛ أنْ يَختِموا الخبَرَ فيَقولوا: وفلانٌ هو الآخَرُ، ووَجْهُه هنا: أنَّ عُبَّادَ مَناةَ كَثيرون في قَبائلِ العرَبِ، فنَبَّه على أنَّ كَثرةَ عَبَدتِها لا يَزيدُها قوَّةً على بَقيَّةِ الأصنامِ في مَقامِ إبطالِ إلهيَّتِها. وكلُّ ذلك جارٍ مَجرى التَّهكُّمِ والتَّسفيهِ، والتَّوبيخِ والتَّبكيتِ لهم[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ ارتِقاءٌ في الإبطالِ والتَّهكُّمِ والتَّسفيهِ والتَّوبيخِ، وهي مُجاراةٌ لاعتقادِهم أنَّ تلك الأصنامَ الثَّلاثةَ بَناتُ اللهِ، وأنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ، أي: أجعَلْتُم للهِ البناتِ خاصَّةً وأنتم تَعلَمون أنَّ لكم أولادًا ذُكورًا وإناثًا، وأنَّكم تُفضِّلون الذُّكورَ وتَكرَهون الإناثَ، وقد خصَصْتُم اللهَ بالإناثِ دونَ الذُّكورِ، واللهُ أَولى بالفضْلِ والكَمالِ لو كُنتُم تَعلَمون؟! فكان في هذا زِيادةُ تَشنيعٍ لكُفْرِهم؛ إذ كان كُفْرًا وسَخافةَ عقْلٍ[3].

- وتَقديمُ المَجرورينِ في جُملةِ ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾؛ للاهتِمامِ بالاختصاصِ الَّذي أفادَتْه اللَّامُ اهتِمامًا في مَقامِ التَّهكُّمِ والتَّسفيهِ، على أنَّ في تَقديمِ ﴿وَلَهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٦).

ٱلْأُنثَىٰ ﴾ إفادةَ الاختِصاصِ، أي: دونَ الذَّكَرِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ تَعليلٌ للإنكارِ والتَّهكُّمِ المُفادِ مِن الاستفهامِ في ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ [النجم: ٢١]، أي: قد جُرْتُم في القِسمةِ وما عدَلْتُم، فأنتمْ أحِقَّاءُ بالإنكارِ[٢].

- والإشارةُ بكلمةِ ﴿ تِلْكَ ﴾ إلى المَذكورِ باعتبارِ الإخبارِ عنه بلَفظِ ﴿قِسْمَةٌ﴾؛ فإنَّه مُؤنَّثُ اللَّفظِ[٣].

- و﴿إِذًا﴾ حرْفُ جَوابٍ أُرِيدَ به جَوابُ الاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: تَرتَّبَ على ما زعَمْتُم أنَّ ذلك قِسمةٌ ضِيزَى، أي: قسَمْتُم قِسمةً جائرةً[٤].

- قولُه: ﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ فيه استِعمالُ كَلمةِ ﴿ضِيزَىٰٓ ﴾، وهي لفظةٌ غريبةٌ، هي مِن أغربِ ما في القرآنِ، ومعَ ذلك فإنَّ حُسنَها في نظمِ الكلامِ مِن أغربِ الحُسنِ وأعجبِه؛ فهي لَفظةٌ في مَوضعِها لا يسُدُّ غيرُها مسَدَّها؛ فسُورةُ (النَّجمِ) كلُّها مَسجوعةٌ على حَرْفِ الياءِ اللَّيِّنةِ، فلمَّا ذكَرَ الأصنامَ وقِسمةَ الأولادِ، وما كان يَزعُمُه الكفَّارُ، قال: ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾؛ فجاءت هذه اللَّفظةُ على الحرْفِ المَسجوعِ الَّذي جاءت السُّورة جميعُها عليه، هذا مِن النَّاحيةِ اللَّفظيَّةِ، أمَّا مِن ناحيةِ المعْنَى فإنَّها في مَعرِضِ الإنكارِ على العربِ المشركينَ؛ إذ ورَدت في ذِكرِ الأصنامِ، وزعمِهم في قِسمةِ الأولادِ، فكانت غرابةُ اللَّفظِ أشدَّ الأشياءِ مُلاءمةً لغرابةِ هذه القِسمةِ الَّتي أنكَرها، والغرَضُ تَهجينُ قَولِهم، وتفْنيدُ قِسمتِهم، والتَّشنيعُ عليها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وهذا مِن أعجَبِ ما ورَدَ في القرآنِ الكريمِ مِن مُطابَقةِ الألفاظِ لمُقْتضَى الحالِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾

- جُملةُ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ استِئنافٌ يَكُرُّ بالإبطالِ على مُعتقَدِهم مِن أصْلِه، بعْدَ إبطالِه بما هو مِن لَوازِمِه على مُجاراتِهم فيه؛ لإظهارِ اختلالِ مُعتقَدِهم، وفي هذه الجُملةِ احتِراسٌ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ إنكارَ نَسبتِهم البَناتِ للهِ، أنَّه إنكارٌ لتَخصيصِهم اللهَ بالبَناتِ، وأنَّ له أولادًا ذُكورًا وإناثًا، أو أنَّ مَصبَّ الإنكارِ على زعْمِهم أنَّها بناتٌ وليست ببَناتٍ، فيَكونُ كالإنكارِ عليهم في زعْمِهم الملائكةَ بَناتٍ(٢).

- والقَصْرُ في قولِه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ(٣)، أي: هي أسماءٌ لا حَقائقَ عاقلةً مُتصرِّفةً كما تَزعُمون، وليس القصْرُ حَقيقيًّا؛ لأنَّ لِهاتِه الأصنامِ مُسمَّياتٍ، وهي الحِجارةُ أو البيوتُ الَّتي يَقصِدُونها بالعِبادةِ، ويَجعَلون لها سَدَنةً(٤).

- وجُملةُ ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ تَعليلٌ لمعْنى القَصْرِ بطَريقةِ الاكتِفاءِ(٥)؛ لأنَّ كونَها لا حَقائقَ لها في عالَمِ الشَّهادةِ أمْرٌ مَحسوسٌ؛ إذ ليستْ إلَّا حِجارةً،

---

(١) يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (١/ ١٦٢)، ((إعجاز القرآن والبلاغة النبوية)) للرافعي (ص: ١٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٥٥، ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٧).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١٨٣-١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٧، ١٠٨).

(٥) تقدم تعريفه (ص: ٣٧٣).

وأمَّا كَونُها لا حَقائقَ لها مِن عالَمِ الغَيبِ؛ فلأنَّ عالَمَ الغَيبِ لا طَريقَ إلى إثباتِ ما يَحتويه إلَّا بإعلامٍ مِن عالِمِ الغَيبِ سُبحانَه، أو بدليلِ العقْلِ -فيما للعقلِ فيه إدراكٌ-، كدَلالةِ العالَمِ على وُجودِ الصَّانعِ وبعْضِ صِفاتِه، واللهُ لم يُخبِرْ أحدًا مِن رُسلِه بأنَّ للأصنامِ أرواحًا أو مَلائكةً، مِثلَ ما أخبَرَ عن حَقائقِ الملائكةِ والجنِّ والشَّياطينِ[١].

- والسُّلطانُ: الحُجَّةُ، وعُبِّرَ عن الإخبارِ المُوحى به بفِعلِ ﴿أَنزَلَ﴾؛ لأنَّه إخبارٌ يَرِدُ مِن العالَمِ العُلويِّ؛ مِن اللهِ تعالى، وهذا كِنايةٌ عن انتفاءِ أنْ تكونَ عليها حُجَّةٌ؛ لأنَّ وُجودَ الحُجَّةِ يَستلزِمُ ظُهورَها، فنفْيُ إنزالِ الحُجَّةِ بها مِن بابِ: (على لاحِبٍ لا يُهتدَى بمَنارِه)[٢]، أي: لا مَنارَ له فيُهْتَدى به[٣].

- وأُكِّدَ نفْيُ إنزالِ السُّلطانِ بحرْفِ (مِن) الزَّائدةِ؛ لتَوكيدِ نفْيِ الجِنسِ[٤].

- قولُه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ فضَميرُ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ عائدٌ إلى الَّذين كان الخِطابُ مُوجَّهًا إليهم، أُعقِبَ نفْيُ أنْ تَكونَ لهم حُجَّةٌ على الخَصائصِ الَّتي يَزعُمونها لأصنامِهم، أو على أنَّ اللهَ سمَّاهم بتلك الأسماءِ؛ بإثباتِ أنَّهم استَنَدوا فيما يَزعُمونَه إلى الأوهامِ، وما تُحِبُّه نُفوسُهم مِن عِبادةِ الأصنامِ ومَحبَّةِ سَدَنتِها ومَواكبِ زِيارتِها، وغُرورِهم بأنَّها تَسعَى في الوساطةِ لهم عندَ اللهِ تعالى بما يَرغَبونَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٨).

(٢) القائلُ هو امرُؤ القَيس. يُنظر: ((ديوان امرئ القيس)) (ص: ٩٦).
واللَّاحبُ: الطَّريقُ الواضحُ، ولم يُرِدْ أن فيه منارًا لا يُهتدَى به، ولكنَّه نفَى أن يكون به منارٌ. والمعنى: لا منارَ فيه فيُهتدَى به. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في حَياتِهم؛ فتلك أوهامٌ وأمانيُّ مَحبوبةٌ لهم يَعيشون في غُرورها[١].

- وقولُه: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ تَحويلٌ عن خِطابِ المشرِكينَ الَّذي كان ابتِداؤُه مِن أوَّلِ السُّورةِ، وهو مِن ضُروبِ الالْتِفاتِ؛ فهذا الْتِفاتٌ مِن خِطابِ المُشرِكينَ إلى الغَيبةِ عنْهم؛ تحقيرًا لهم، وللإيذانِ بأنَّ تَعدادَ قَبائحِهم اقْتضَى الإعراضَ عنهم تَحقيرًا لشأْنِهم، وحِكايةَ جِناياتِهم لغيرِهم[٢].

- وجِيءَ بالمُضارعِ في ﴿يَتَّبِعُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهم سيَستَمِرُّونَ على اتِّباعِ الظَّنِّ وما تَهواهُ نُفوسُهم، وذلك يدُلُّ على أنَّهم اتَّبعوا ذلك مِن قبْلُ، بدَلالةِ لَحْنِ الخِطابِ أو فَحواهُ[٣].

- قولُه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وقولُه بعْدَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٧، ٢٨] فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تكرَّرَ قولُه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في الآيتَينِ، واختَلفَ خِتامُهما؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا قال قبْلُ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، ثمَّ قال: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، أي: سمَّيتُم هذه الأصنامَ آلهةً، والملائكةَ بناتِ اللهِ تَسميةً باطلةً لا حُجَّةَ لكم فيها؛ فلم يَحصُلْ لكم إلَّا ألفاظُها! فأمَّا المعاني؛ فإنَّكم تتَّبِعون فيها الظَّنَّ وهَوى النَّفْسِ، وما في الطَّبعِ مِن حُبِّ الإلفِ، وقد أتاكُم مِن ربِّكم ما يَثْنِيكم

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٩).

عنه إلى الرَّشادِ! ومَن جاءه مِن اللهِ الهُدى فترَكَهُ لاتِّباعِ الهَوى؛ فقد ضلَّ وهَوَى، فلمَّا كان الَّذي يَجذِبُهم إلى مَقالتِهم شَيئانِ: ظنٌّ وهَوًى؛ ذُكِرَا معًا ليُبيِّنَ صارِفَهم عن الحقِّ. ثمَّ قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ۞ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾؛ فخصَّ الَّذين يقولونَ: الملائكةُ بناتُ اللهِ بالذِّكرِ تَوكيدًا لإلزامِه الحُجَّةَ عليهم، وأنَّهم يتَّبِعون الظَّنَّ بمَقالتِهم، والظَّنُّ لا يقومُ مَقامَ العلمِ، ولا يُغْني غَناءَه -والمرادُ بالحقِّ هاهنا هو العلمُ-؛ فوَصَفَ أنَّ الَّذي تَعتمِدونه لا يَجوزُ أنْ يُعتمَدَ؛ لأنَّه ظنٌّ، وبإزائِه عِلمٌ يُبطِلُه، وهُدًى مِن اللهِ تَعالى يَدفَعُه، ويَصرِفُ عنه إلى الحقِّ الَّذي لا مَهرَبَ منه، ومَن لم يَقبَلْه بعدَ وُضوحِ الحُجَّةِ له، فأعْرِضْ عنه، وهو قولُه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]؛ ففي الآيةِ الأُولى ذَكَر صارفَهم عن الحقِّ، وداعِيَهم إلى الباطلِ؛ فبيَّن ما هو، وفي الثَّانيةِ طَعَن على هذا الصَّارفِ والدَّاعي إلى الباطلِ، وإثباتُ الشَّيءِ أوَّلٌ في العَقلِ، ووَصْفُه بأنَّه صحيحٌ أو سقيمٌ ثانٍ في الرُّتبةِ؛ فلذلك اختُصَّت الأُولى بما اختُصَّت، والثَّانيةُ بما تَبِعَها[1]. وليس بتَكرارٍ؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصلٌ بعِبادتِهم اللَّاتَ والعُزَّى ومَناةَ، والثَّانيَ بعِبادتِهم الملائكةَ؛ والظَّنُّ فيها مَذمومٌ بقولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾، أي: لا يقومُ مَقامَ العِلمِ[2].

- وأصلُ الظَّنِّ الاعتِقادُ غيرُ الجازِمِ، ويُطلَقُ على العِلمِ الجازمِ إذا كان مُتعلِّقًا بالمُغيَّباتِ، وكَثُرَ إطلاقُه في القرآنِ على الاعتقادِ الباطلِ، وهو المُرادُ هنا؛ بقَرينةِ عطْفِ ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾ عليه، وهو كِنايةٌ عن الخطَأِ باعتبارِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٢٢-١٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٠).

لُزومِه له غالبًا، ومَناطُ الذَّمِّ في هذه الآيةِ هو قصْرُ اتِّباعِهم على ما تَهواهُ أنفُسُهم(١).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَنفُسُ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: وما تَهواهُ أنفُسُهم(٢).

- وعطْفُ ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ على ﴿ٱلظَّنَّ﴾ عطْفُ العِلَّةِ على المَعلولِ، أي: الظَّنَّ الَّذي يَبعَثُهم على اتِّباعِه أنَّه مُوافقٌ لِهَواهم وإلْفِهم(٣).

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ تَوبيخٌ لهم، والَّذي همْ عليه باطلٌ، واعتِراضٌ بيْنَ الجُملتَينِ، أي: يَفعَلونَ هذه القبائحَ، والهُدى قد جاءَهُم، فكانوا أَولى مَن يَقبَلُه ويَترُكُ عِبادةَ مَن لا يُجدي عِبادتُه(٤)!

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ حالٌ مُقرِّرةٌ للتَّعجيبِ مِن حالِهم، أي: يَستمِرُّون على اتِّباعِ الظَّنِّ والهَوى في حالِ أنَّ اللهَ أرسَلَ إليهم رسولًا بالهُدى(٥)!

- ولامُ القَسَمِ لتأْكيدِ الخبَرِ؛ للمُبالَغةِ فيما يَتضمَّنُه مِن التَّعجيبِ مِن حالِهم، كأنَّ المُخاطَبَ يشُكُّ في أنَّه جاءَهم ما فيه هُدًى مُقنِعٌ لهم مِن جِهةِ استِمرارِهم على ضَلالِهم استمرارًا لا يُظَنُّ مِثلُه بعاقلٍ(٦).

- والتَّعبيرُ عن الجَلالةِ بعُنوانِ ﴿رَّبِّهِمُ﴾؛ لِزيادةِ التَّعجيبِ مِن تَصامُمِهم عن سَماعِ الهُدى، مع أنَّه ممَّن تجِبُ طاعتُه، فكان ضَلالُهم مَخلوطًا بالعِصيانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٠٩، ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والتَّمرُّدِ على خالِقِهم[١].

- والتَّعريفُ في الهُدَى؛ للدَّلالةِ على معْنى الكَمالِ، أي: الهُدى الواضحُ[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، والاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكاريٌّ، وهذا مُتَّصِلٌ بقولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾[٣] [النجم: ٢٣].

- وتَعريفُ الإنسانِ في قولِه: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، ووُقوعُه في حيِّزِ الإنكارِ المُساوي للنفْيِ جَعَله عامًّا في كلِّ إنسانٍ[٤].

- و(ما) المَوصولةُ في ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ بمَنزِلةِ المُعرَّفِ بلامِ الجِنسِ؛ فوُقوعُها في حيِّزِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ الَّذي بمَنزلةِ النَّفْيِ يَقْتضي العُمومَ، أي: ما للإنسانِ شَيءٌ ممَّا تمنَّى، أي: ليس شَيءٌ جاريًا على إرادتِه، بلْ على إرادةِ اللهِ، وقد شمِلَ ذلك كلَّ هَوًى دَعاهم إلى الإعراضِ عن كَلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فشَمِلَ تَمنِّيَهم شَفاعةَ الأصنامِ، وهو الأهمُّ مِن أحوالِ الأصنامِ عِندَهم، وذلك ما يُؤذِنُ به قولُه بعْدَ هذا: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦] الآيةَ، وتَمنِّيَهم أنْ يكونَ الرَّسولُ مَلَكًا، وغيرَ ذلك، نحْوَ قولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقولِهم: ﴿ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾[٥] [يونس: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١).

- وتَقدُّمُ المَجرورِ في ﴿لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾؛ لأنَّ مَحطَّ الإنكارِ هو أمْنيَّتُهم أنْ تَجرِيَ الأمورُ على حسَبِ أهْوائِهم، فلذلك كانوا يُعرِضون عن كلِّ ما يُخالِفُ أهواءَهُم، فتَقديمُ المَعمولِ هنا لإفادةِ القصْرِ، وهو قصْرُ قلْبٍ[1]، أي: ليس ذلك مَقصورًا عليهم كما هو مُقْتضى حالِهم، فنُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَرَونَ الأمورَ تَجْري على ما يَتمنَّون، أي: بلْ أماني الإنسانِ بيَدِ اللهِ؛ يُعطي بعْضَها، ويَمنَعُ بعضَها، كما دلَّ عليه التَّفريعُ عقِبَه بقولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[2].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ بعْدَ أنْ أُنكِرَ أنَّ للإنسانِ ما تَمنَّى، فُرِّعَ عليه أنَّ اللهَ مالِكُ الآخِرةِ والأُولى، أي: فهو يَتصرَّفُ في أحوالِ أهلِهما بحسَبِ إرادتِه، لا بحسَبِ تَمنِّي الإنسانِ، وهذا إبطالٌ لمُعتقَداتِ المُشرِكين، الَّتي منها يَقينُهم بشَفاعةِ أصْنامِهم[3].

- وقولُه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ تعليلٌ لانتِفاءِ أنْ يكونَ للإنسانِ ما يَتمنَّاهُ حتْمًا؛ فإنَّ اختِصاصَ أُمورِ الآخرةِ والأُولى جَميعًا بهِ تعالى مُقْتضٍ لانتِفاءِ أنْ يكونَ للإنسانِ أمْرٌ مِن الأمورِ[4].

- وتَقديمُ المَعمولِ هنا ﴿فَلِلَّهِ﴾ لإفادةِ القصْرِ، وهو قصْرُ قلْبٍ، أي: للهِ، لا للإنسانِ[5].

- والمَقصودُ مِن ذِكرِ الآخرةِ والأُولى تَعميمُ الأشياءِ، وإنَّما قُدِّمَت الآخرةُ للاهتمامِ بها، والتَّنبيهِ إلى أنَّها الَّتي يجِبُ أنْ يكونَ اعتِناءُ المؤمنينَ بها؛ لأنَّ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣-١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١١، ١١٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٢).

الخِطابَ في هذه الآيةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ، معَ ما في هذا التَّقديمِ مِن الرِّعايةِ للفاصلةِ[١]، وأيضًا لأنَّ مُلْكَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الآخرةِ يَظهَرُ أكثَرَ مِمَّا في الدُّنيا؛ فالدُّنيا فيها مُلوكٌ، وفيها رُؤساءُ، وفيها زُعَماءُ، يرى العامَّةُ أنَّ لهم تَدبيرًا، لكِنْ في الآخرةِ لا يُوجَدُ هذا ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[٢] [غافر: ١٦].

- وفي تَعَلُّقِ الفاءِ بالكلامِ وُجوهٌ:

**الأوَّلُ**: أنَّ تقديرَه: الإنسانُ إذا اختار معبودًا في دُنياه على ما تمنَّاه واشتهاه، فلِلَّهِ الآخِرةُ والأُولى، يُعاقِبُه على فِعلِه في الدُّنيا، وإنْ لم يُعاقِبْه في الدُّنيا فيُعاقِبُه في الآخِرةِ، وقَولُه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ [النجم: ٢٦] يكونُ مُؤَكِّدًا لهذا المعنى، أي: عِقابُهم يَقَعُ، ولا يَشفَعُ فيهم أحَدٌ، ولا يُغْنِيهم شَفاعةُ شافِعٍ.

**الثَّاني**: أنَّه تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّ اتِّخاذَ اللَّاتِ والعُزَّى باتِّباعِ الظَّنِّ وهَوى الأنفُسِ، كأنَّه قَرَّره وقال: إنْ لم تَعلَموا هذا فلِلَّه الآخرةُ والأُولى، وهذه الأصنامُ ليس لها مِن الأمرِ شَيءٌ، فكيف يجوزُ الإشراكُ؟! وقَولُه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ على هذا الوَجهِ جَوابُ كَلامٍ، كأنَّهم قالوا: لا نُشرِكُ باللهِ شَيئًا، وإنَّما هذه الأصنامُ شُفَعاؤُنا؛ فإنَّها صورةُ مَلائِكةٍ مُقَرَّبينَ، فقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٦].

**الثَّالِثُ**: هذه تسليةٌ، كأنَّه تعالى قال ذلك لنَبيِّه حيثُ بَيَّن رِسالتَه ووحدانيَّةَ اللهِ ولم يُؤمِنوا، فقال: لا تأْسَ؛ فلِلَّهِ الآخِرةُ والأُولى، أي: لا يُعجِزونَ اللهَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٨).

**الرَّابعُ**: هو ترتيبُ حَقٍّ على دليلِه. بيانُه هو أنَّه تعالى لَمَّا بَيَّن رِسالةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] إلى آخِرِه، وبَيَّن بَعضَ ما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو التَّوحيدُ، قال: إذا عَلِمتُم صِدْقَ مُحمَّدٍ ببَيانِ رِسالةِ اللهِ تعالى، ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخبَرَكم عن الحَشرِ، فهو صادِقٌ.

**الخامِسُ**: هو أنَّ الكُفَّارَ كانوا يقولونَ عن المؤمنينَ: أهؤلاءِ أَهْدى مِنَّا؟ وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١١]، فقال تعالى: إنَّ اللهَ اختار لكم الدُّنيا، وأعطاكم الأموالَ، ولم يُعْطِ المؤمِنينَ بَعضَ ذلك الأمرِ، بل قُلتُم: لو شاء اللهُ لأغناهم، وتحَقَّقْتُم هذه القَضيَّةَ، فلِلَّهِ الآخِرةُ والأُولى، قُولُوا في الآخِرةِ ما قُلتُم في الدُّنيا؛ يَهدي اللهُ مَن يَشاءُ كما يُغْني اللهُ مَن يَشاءُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٣).

## الآيات (٢٦-٣٢)

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَبۡلَغُهُم﴾: أي: غايتُهم، وأصلُ (بلغ): يدُلُّ على وُصولٍ إلى شَيءٍ[1].

﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾: أي: بالجنَّةِ والثَّوابِ، وأصلُ (حسن): يدُلُّ على ضِدِّ القُبحِ[2].

﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾: الإثمُ والأثامُ: اسمٌ للأفعالِ المُبَطِّئةِ عن الثَّوابِ، أو الذَّنْبُ الَّذي يَستحِقُّ العقوبةَ عليه، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[3].

﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: جمعُ فاحِشَةٍ، أي: ما عَظُم قُبحُه مِنَ الكبائِرِ، والفُحْشُ والفَحْشاءُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

والفاحِشةُ: ما عظُم قُبحُه مِن الأفعالِ والأقوالِ، وكلُّ شَيءٍ جاوَز قَدْرَه فهو فاحِشٌ، ولا يكونُ ذلك إلَّا فيما يُتكَرَّهُ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشَناعةٍ[١].

﴿ٱللَّمَمَ﴾: أي: صِغارَ الذُّنوبِ؛ مِنْ ألَمَّ بالشَّيءِ: إذا لم يتعَمَّقْ فيه ولم يَلزَمْه، وأصلُ اللَّمَمِ: ما يَعمَلُه الإنسانُ الحِينَ بعدَ الحِينِ، ولا يكونُ له عادةً ولا إقامة عليه[٢].

﴿أَجِنَّةٌ﴾: جمعُ جَنينٍ: وهو الوَلَدُ ما دامَ في البَطنِ، وسُمِّيَ جَنينًا؛ لاجتِنانِه واستِتارِه، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ[٣].

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾: أي: لا تُبَرِّئُوها عن الآثامِ، ولا تَمدَحوها بحُسنِ أعمالِها، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على نَماءٍ وزِيادةٍ، وطهارةٍ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى منكِرًا على مَن عبَد الملائكةَ وغيرَهم، وزعَم أنَّها تشفعُ له عندَ الله يومَ القيامةِ، ومبينًا أنَّ الملائكةَ معَ سُمُوِّ مَنزِلتِهم ورِفعةِ مَقامِهم، لا يَملِكون الشَّفاعةَ لأحدٍ إلَّا بإذنِه تعالى، فيقولُ: وكَثيرٌ مِنَ الملائِكةِ في السَّمَواتِ لا تَنفَعُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤ / ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٠).

شَفاعتُهم شَيئًا إلَّا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ في الشَّفاعةِ لِمَن يَشاءُ منهم، ويَرضَى عن المَشفوعِ لهم.

ثمَّ ينكِرُ الله تعالى على المشركينَ ما كانوا يَعتقِدونَه في الملائكةِ مِن عقيدةٍ فاسدةٍ، فيقولُ: إنَّ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ لَيُسَمُّونَ مَلائكةَ اللهِ إناثًا، ويَزعُمونَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ سُبحانَه! وما للمُشرِكينَ بذلك مِن عِلمٍ، ما يَتَّبِعونَ في زَعْمِهم هذا إلَّا الوَهمَ الكاذِبَ، وإنَّ الظنَّ المَبنيَّ على الوَهمِ لا يُفيدُ شَيئًا!

ولَمَّا بيَّن الله تعالى أنَّهم لا غرَضَ لهم في اتِّباعِ الحقِّ؛ أمَر نبيَّه بالإعراضِ عنهم، فقال: فأعْرِضْ -يا محمَّدُ- عمَّن أعرَضَ عن القُرآنِ، ولم يُرِدْ إلَّا الحَياةَ الدُّنيا، وذلك هو مُنتهى عِلْمِهم وغايتُه، إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن طَريقِه، وهو أعلَمُ بالَّذين اهتَدَوا إلى الحَقِّ.

ولله وَحْدَه مُلْكُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ؛ لِيَجزيَ الَّذين أساؤُوا بما عَمِلوه مِن كُفرٍ أو عِصيانٍ، ولِيُثيبَ الَّذين أحسَنوا بالجنَّةِ.

ثمَّ يصِفُ الله تعالى هؤلاء المحسنينَ، فيقولُ: وأولئك المُحسِنونَ هم الَّذين يَبتَعِدونَ عن كَبائِرِ الذُّنوبِ والفواحِشِ، إلَّا صَغائِرَ الذُّنوبِ دونَ إصرارٍ عليها، فهي مَعفوٌّ عنها، إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- واسِعُ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، هو أعلَمُ بكم حينَ خَلَق أباكم آدَمَ مِن الأرضِ، وحينَ كُنتُم حَمْلًا في بُطونِ أمَّهاتِكم؛ فلا تَشهَدوا لأنفُسِكم بالبَراءةِ مِنَ الذُّنوبِ ولا بالصَّلاحِ والتَّقْوى؛ فاللهُ وَحْدَه أعلَمُ بمَن اتَّقى!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أيأَسَهم مِن أنْ يَنالوا خَيرًا مِن عِبادةِ أصنامِهم والتَّقَرُّبِ إليها، وأنَّها لا تكونُ وَسيلةً لهم عندَ رَبِّهم؛ حَرَمَهم فائِدةَ عِبادتِها مِن وَجهٍ آخَرَ(١).

وأيضًا لَمَّا كان التَّقديرُ: فكم مِن شَخصٍ تَرَونَه في الأرضِ -معَ أنَّه في غايةِ المُكْنةِ فيما يَظهَرُ لكم- لا يَصِلُ إلى رُبُعِ ما يتمَنَّاه؛ عَطَفَ عليه قَولَه مُظهِرًا لضَخامةِ مُلكِه، وأنَّه لا يُبالي بأحَدٍ(٢):

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وما أكثَرَ الملائِكةَ الَّذين في السَّمَواتِ، ولا تَنفَعُ شَفاعتُهم شَيئًا إلَّا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ في الشَّفاعةِ لِمَن يَشاءُ منهم، وبَعْدَ رِضاه عن المَشفوعِ لهم الَّذين هم مِن أهلِ التَّوحيدِ(٣)!

كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦، ٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٨)، ((حاشية الخفاجي)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢١٩).

قال الزمخشري: (يعني: أنَّ أمْرَ الشَّفاعةِ ضَيِّقٌ، وذلك أنَّ الملائِكةَ مع قُربتِهم وزُلْفاهم وكَثرتِهم واختِصاصِ السَّمَواتِ بجُموعِهم: لو شَفَعوا بأجمُعِهم لأحَدٍ لم تُغْنِ شَفاعتُهم عنه شَيئًا قطُّ ولم تَنفَعْ، إلَّا إذا شَفَعوا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ لهم في الشَّفاعةِ لِمَن يَشاءُ الشَّفاعةَ له ويَرضاه ويَراه أهلًا لأن يُشفَعَ له، فكيف تَشفَعُ الأصنامُ إليه لعَبَدتِهم؟!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قِيلَ لهم: إنَّ الصَّنَمَ جَمادٌ لا يَشفَعُ، وبَيَّنَ لهم أنَّ أعظَمَ أجناسِ الخَلقِ لا شَفاعةَ لهم إلَّا بالإذْنِ؛ قالوا: نحن لا نَعبُدُ الأصنامَ لأنَّها جماداتٌ، وإنَّما نَعبُدُ الملائِكةَ بعبادتِها؛ فإنَّها على صُوَرِها، ونَنصِبُها بيْنَ أيدينا لِيُذَكِّرَنا الشَّاهِدُ الغائِبَ، فنُعَظِّمَ المَلَكَ الَّذي ثَبَت أنَّه مُقَرَّبٌ عَظيمُ الشَّأنِ، رفيعُ المكانِ؛ فقال تعالى ردًّا عليهم: كيف تُعَظِّمونَهم وأنتم تُسَمُّونَهم تَسميةَ الأُنثى[1]؟!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ لَيُسَمُّونَ مَلائكةَ اللهِ إناثًا، ويَزعُمونَ أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ سُبحانَه[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩].

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٤، ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٥).
قال السعدي: (يعني: أنَّ المُشرِكينَ باللهِ المكَذِّبينَ لرُسُلِه، الَّذين لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، وبسَبَبِ عَدَمِ إيمانِهم بالآخِرةِ: تجَرَّؤوا على ما تجَرَّؤوا عليه مِنَ الأقوالِ والأفعالِ المُحادَّةِ للهِ ولِرَسولِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

أي: وما للمُشرِكينَ بادِّعائِهم أنَّ الملائِكةَ بَناتُ اللهِ مِن عِلمٍ صَحيحٍ يَعتَمِدونَ عليه في إثباتِ صِحَّةِ دَعواهم؛ كمُشاهَدةٍ لخَلْقِهم، أو قِراءةِ ذلك في كِتابٍ مِن كُتُبِ اللهِ، أو سَماعِ رَسولٍ يُخبِرُهم بصِدقِ ما يَزعُمونَ[1].

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نفى عِلْمَهم؛ تشَوَّفَ السَّامِعُ إلى الحامِلِ لهم على ذلك، فقال[2]:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

أي: ما يَتَّبِعونَ في زَعْمِهم هذا إلَّا الوَهمَ الكاذِبَ بغَيرِ عِلمٍ ولا يَقينٍ[3]!

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانوا كالقاطِعينَ بأنَّ ذلك يَنفَعُهم؛ أكَّدَ بقَولِه[4]:

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾.

أي: وإنَّ الظنَّ المَبنيَّ على الوَهمِ لا يُفيدُ شَيئًا مِنَ الحَقِّ، أو يقومُ مَقامَه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٣).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إيَّاكم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أكذَبُ الحَديثِ))(١).

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بَعْدَ أنْ وَصَف مَدارِكَهم الباطِلةَ وضَلالَهم؛ فَرَّع عليه أمْرَ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم؛ ذلك لأنَّ ما تقَدَّمَ مِن وَصفِ ضَلالِهم كان نَتيجةَ إعراضِهم عن ذِكرِ اللهِ، وهو التَّوَلِّي عن الذِّكرِ؛ فحَقَّ أن يكونَ جَزاؤُهم عن ذلك الإعراضِ إعراضًا عنهم(٢).

وأيضًا لَمَّا كان هذا دَأْبَ هؤلاءِ المذكورينَ؛ أنَّهم لا غَرَضَ لهم في اتِّباعِ الحَقِّ، وإنَّما غَرَضُهم ومَقصودُهم ما تَهواه نُفوسُهم؛ أمَرَ اللهُ رَسولَه بالإعراضِ عمَّن تولَّى عن ذِكْرِه، ولم يُرِدْ إلَّا الحياةَ الدُّنيا(٣).

﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾.

أي: فأعْرِضْ -يا محمَّدُ- عمَّنْ أعرَضَ عن القُرآنِ(٤).

---

(١) رواه البخاري (٦٠٦٤)، ومسلم (٢٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٤).

قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾، أي: أعرِضْ عن الَّذي أعرَضَ عن الحَقِّ، واهجُرْه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٨/ ١٦٤).

وقال ابنُ عاشور: (إعراضُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنهم المأمورُ به: مرادٌ به عَدَمُ الاهتِمامِ بنَجاتِهم؛ لأنَّهم لم يَقبَلوا الإرشادَ، وإلَّا فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مأمورٌ بإدامةِ دَعوتِهم =

= للإيمانِ، فكما كان يَدعوهم قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ فقد دعاهم غيرَ مَرَّةٍ بعدَ نُزولِها، على أنَّ الدَّعوةَ لا تَختَصُّ بهم؛ فإنَّها يَنتَفِعُ بها المؤمِنونَ، ومَن لم يَسبِقْ منه إعراضٌ مِنَ المُشرِكينَ؛ فإنَّهم يَسمَعونَ ما أُنذِرَ به المُعرِضونَ، ويتأمَّلونَ فيما تَصِفُهم به آياتُ القُرآنِ، وبهذا تَعلَمُ أنْ لا عَلاقةَ لهذه الآيةِ وأمثالِها بالمُتارَكةِ، ولا هي مَنسوخةٌ بآياتِ القِتالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٧).

وقال ابنُ عثيمين: (ليس المعنى: أعرِضْ عنه لا تَنصَحْه... معنى أعرِضْ: لا تُبالِ به، ولا يُهِمَّنَّك أمْرُه، ولا تَستَحسِرْ مِن أجْلِ توَلِّيه، بل ادْعُ إلى سَبيلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ أيًّا كان). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٤).

وقال القاسمي: (والمرادُ مِن «الإعراضِ»: هَجْرُهم هَجرًا جَميلًا، وتَرْكُ إيذائِهم. وقَولُ الزَّمخشريِّ: أي: أعرِضْ عن دَعوةِ مَن رأَيْتَه مُعرِضًا عن ذِكرِ اللهِ ... إلخ: لا يَصِحُّ؛ لأنَّ الصَّدعَ بالحَقِّ لا تَسامُحَ فيه، لا سِيَّما والدَّعوةُ للمُعرِضِينَ، وهي تَستَلزِمُ أن يُحاجُّوا به بمُنتَهى الطَّاقةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢]، وإنَّما معنى الآيةِ: فاصفَحْ عنهم، ودَعْ أذاهم في مُقابَلةِ ما يَجهَلونَ به عليك، كما بَيَّنَ ذلك في مواضِعَ مِن التَّنزيلِ، والقُرآنُ يُفَسِّرُ بَعضُه بَعضًا). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٧٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٤).

ممَّن اختار أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ: ابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، وابنُ عطية، والقُرطبيُّ، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٤).

واستظهر الشنقيطيُّ أنَّه كان في أوَّلِ الأمرِ مأمورًا بالإعراضِ عن المُشرِكينَ، ثمَّ نُسِخَ ذلك بآيةِ السَّيفِ، وذَكرَ أنَّ مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على ذلك قَولَه تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وقَولَه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَٱنتَظِرۡ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠]، وقَولَه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النجم: ٢٩]، وقَولَه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤٨]. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٢٠).

وقال الرازي: (وأكثَرُ المفَسِّرين يقولونَ بأنَّ كُلَّ ما في القُرآنِ مِن قَولِه تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾ منسوخٌ بآيةِ القَتلِ، وهو باطِلٌ؛ فإنَّ الأمرَ بالإعراضِ مُوافِقٌ لآيةِ القِتالِ، فكيف يُنسَخُ به؟ وذلك لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مأمورًا بالدُّعاءِ بالحِكمةِ والموعِظةِ الحَسَنةِ، فلمَّا عارَضوه بأباطيلِهم قيل له: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، ثمَّ لَمَّا لم يَنفَعْ قال له رَبُّه: فأعرِضْ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النساء: ٦٣].

﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المُعْرِضُ في وَقتٍ قد يُقبِلُ في آخَرَ، دَلَّ على دَوامِه على وَجهٍ بَليغٍ، بقَولِه: ﴿وَلَمۡ يُرِدۡ﴾ أي: في وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ ﴿إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾[1]!

﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾.

أي: ولم يَطلُبْ إلَّا الحَياةَ الدُّنيا ولَذَّاتِها[2].

﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠﴾.

﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾.

أي: طَلَبُ الدُّنيا والسَّعيُ لها: هو مُنتهى عِلْمِهم وغايتُه؛ فليس لهم عِلمٌ فَوقَ ذلك[3].

---

= عنهم، ولا تُقابِلْهم بالدَّليلِ والبُرهانِ؛ فإنَّهم لا يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ، ولا يتَّبِعونَ الحَقَّ، وقابِلْهم بالإعراضِ عن المُناظَرةِ بشَرطِ جوازِ المُقابَلةِ، فكيف يكونُ مَنسوخًا؟!). ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦٠).

والقاعدةُ أنَّ النَّسخَ لا يثبُتُ مع الاحتِمالِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٧٢٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٦٥)، ((تفسير =

كما قال الله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر ما هم عليه؛ أخبَرَ تعالى بأنَّه عالِمٌ بالضَّالِّ والمُهتَدِي، وهو مُجازِيهما[١].

وأيضًا لَمَّا قال تعالى للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أعرِضْ، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شديدَ المَيلِ إلى إيمانِ قَومِه، وكان رُبَّما هَجَس في خاطِرِه أنَّ في الذِّكرى بَعْدُ مَنفعةً، ورُبَّما يُؤمِنُ مِن الكافِرينَ قَومٌ آخَرونَ مِن غَيرِ قِتالٍ؛ فقال له[٢]:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن حادَ عن طَريقِه، فلم يتَّبِعِ الحَقَّ[٣].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴾.

---

= ابن كثير)) (٧/ ٤٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٦).

وممَّن قال بأنَّ المشارَ إليه هو طَلَبُهم الحياةَ الدُّنيا: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّة، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المشارُ إليه: ادِّعاؤُهم أنَّ الملائِكةَ بناتُ اللهِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

أي: ورَبُّك -يا محمَّدُ- أعلَمُ بالَّذين اهتَدَوا إلى الحَقِّ[١].

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه أعلَمُ بمَن ضَلَّ وبمَنِ اهتَدَى، وكان هذا رُبَّما أوهَمَ أنَّ مَن ضَلَّ على هذه الحالةِ ليس في قَبضَتِه؛ قال نافيًا لهذا الإبهامِ، مُبَيِّنًا أنَّ له الأسماءَ الحُسنى ومُقتَضياتِها في العالَمِ[٢]:

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: ولله وَحْدَه مُلْكُ جَميعِ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ[٣].

﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾.

أي: لِيَجزيَ اللهُ الَّذين أساؤُوا العَمَلَ جَزاءَ ما عَمِلوه مِن كُفرٍ أو عِصيانٍ[٤].

﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾.

أي: ولِيُثيبَ اللهُ الَّذين أحسَنوا العَمَلَ فآمَنوا به وأطاعوه المَثوبةَ الحُسنى، وهي الجنَّةُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٣)، ((تفسير =

= الزمخشري)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠).
قال ابن جُزَي: (﴿لِيَجْزِيَ﴾ اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بمعنى ما قبْلَها، والتَّقديرُ: أنَّ اللهَ مالكُ أمرِ السَّمواتِ والأرضِ ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٩).
وقال القرطبي: (اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بالمعنى الَّذي دلَّ عليه ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، كأنَّه قال: هو مالكُ ذلك، يَهدي مَن يَشاءُ، ويُضِلُّ مَن يَشاءُ؛ لِيَجزيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٥). وتبِعه الشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٥).
واللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ ذكر ابنُ عاشور أنَّها لامُ التَّعليلِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٠).
وقيل: إنَّ قولَه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ مُتعلِّقٌ بمعنَى قولِه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠]، فإذا كان أعْلَمَ بهم، جازى كُلًّا بما يَستحِقُّه؛ لأنَّ نتيجةَ العِلمِ بالضَّالِّ والمُهتدي: جزاؤُهما، وأنَّ ما بيْنَهما اعتِراضٌ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والرَّسْعَني، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٤٣، ٤٤٤).
قال الواحدي: (وهي لامُ العاقِبةِ؛ وذلك لأنَّ عِلمَه بالفريقَينِ أدَّى إلى جزائِهم باستِحقاقِهم، وإنَّما يَقدِرُ على مُجازاةِ المُحسِنِ والمُسيءِ إذا كان كثيرَ المِلْكِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٠١).
وذهب ابنُ عطيَّةَ والرَّازيُّ إلى أنَّ اللَّامَ في قولِه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿ضَلَّ﴾ وبقولِه: ﴿ٱهْتَدَىٰ﴾، وقولُه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ اعتِراضٌ.
قال ابن عطية: (فكأنَّه قال: لِيَصيرَ أمْرُهم جميعًا إلى أن يجزى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣).
قال الألوسي: (ولا يخفى بُعْدُه). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦٠).
وقال الرَّازي: (قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿ضَلَّ﴾ و﴿ٱهْتَدَىٰ﴾، لا بالعِلمِ ولا بخَلقِ ما في السَّمواتِ، تقديرُه كأنَّه قال: هو أعْلَمُ بمَن ضلَّ واهتدى ﴿لِيَجْزِيَ﴾، أي: مَن ضلَّ واهتدى يُجزى الجزاءَ، واللهُ أعلَمُ به). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٨).
وقال البِقاعي: (لَمَّا أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم، وسَلَّاه، وأعلَمَه أنَّ الكُلَّ في مُلكِه، فلو شاء لَهداهم ورَفَع النِّزاعَ، ولكِنَّه له في ذلك حِكَمٌ تَحارُ فيها الأفكارُ- عَلَّل الإعراضَ... بقَولِه تعالى ﴿لِيَجْزِيَ﴾...). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٦٦).
وقيل: إنَّ اللَّامَ مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾، قال الشَّوكاني: (وهو بعيدٌ مِن حيثُ اللَّفظُ ومِن حيثُ المعنَى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٥). ويُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي =

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَعَد سُبحانَه الَّذين وَقَع منهم الإحسانُ؛ وصَفَهم فقال[1]:

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾.

أي: الَّذين يَبتَعِدونَ عن كبائِرِ الذُّنوبِ، ويَبتَعِدونَ عن الفواحِشِ، كالزِّنا وعَمَلِ قَومِ لُوطٍ[2].

---

= (٢/ ٦٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦٠).

و«الحُسْنَى»: الجنَّةُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والعُلَيمي، والشوكاني، وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٥).

وقال البيضاوي: (﴿بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ بالمَثوبةِ الحُسنى، وهي الجنَّةُ، أو بأحسَنَ مِن أعمالِهم، أو بسببِ الأعمالِ الحُسنى). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠).

وقال ابن عثيمين: (﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾... فأنت إذا فعَلْتَ حسَنةً فتَكونُ عَشْرَ حسَناتٍ إلى سَبْعِمِئةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ... ولهذا قال: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، أي: بما هو أحسَنُ وأكثَرُ مِن عمَلِهم). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص:٢٢٩، ٢٣٠).

وقال السعدي: (﴿بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بالحالةِ الحسَنةِ في الدُّنيا والآخرةِ، وأكبَرُ ذلك وأجَلُّه رِضا ربِّهم، والفوزُ بنعيمِ الجنَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٠، ٢٣٢).

وقد اختُلِف في ضابطِ الكبيرةِ على أقوالٍ كثيرةٍ، وأقرَبُ الأقوالِ أنَّها ما يَترتَّبُ عليها حدٌّ في =

= الدُّنيا، أو تُوُعِّدَ عليها بالنَّارِ، أو اللَّعنةِ، أو الغضَبِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١١/ ٦٥٠)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٢٧)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٥٢٥)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤١٠)، ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) للهيتمي (١/ ٨).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ عندي في ضابطِ الكبيرةِ أنَّها كلُّ ذنْبٍ اقتَرن بما يدُلُّ على أنَّه أعظَمُ مِن مُطلَقِ المعصيةِ، سواءٌ كان ذلك الوعيد عليه بنارٍ أو غضَبٍ أو لعنةٍ أو عذابٍ، أو كان وجوب الحدِّ فيه، أو غير ذلك ممَّا يدُلُّ على تغليظِ التَّحريمِ وتوكيدِه). ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٤).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الفواحشَ مِن الكبائرِ، لكنَّها أعظَمُ قُبحًا، وأشَدُّ فُحشًا، وأقوى إثمًا: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والرَّسْعَني، والنَّسَفي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي، والألوسي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٧).

قال القاسمي: (والعطفُ إمَّا مِن عطفِ أحدِ المُترادِفَينِ، أو الخاصِّ على العامِّ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٧٩).

وقال السعدي: (﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ أي: يَفعلون ما أمَرَهم اللهُ به مِن الواجباتِ، الَّتي يكونُ ترْكُها مِن كبائرِ الذُّنوبِ، ويَترُكون المحرَّماتِ الكِبارَ؛ كالزِّنا، وشُربِ الخَمرِ، وأكلِ الرِّبا، والقتلِ، ونحوِ ذلك مِن الذُّنوبِ العظيمةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

وقال في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ الشُّورى: (الفرقُ بيْنَ الكبائرِ والفواحِشِ -معَ أنَّ جميعَهما كبائرُ- أنَّ الفواحشَ هي الذُّنوبُ الكِبارُ الَّتي في النُّفوسِ داعٍ إليها، كالزِّنا ونحوِه، والكبائرَ ما ليس كذلك، هذا عندَ الاقترانِ، وأمَّا مع إفرادِ كلٍّ منهما عنِ الآخَرِ فإنَّ الآخَرَ يَدخُلُ فيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٦٠).

قال السمرقندي: (قال بعضُهم: ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ ﴾ يعني: الشِّركَ بالله، ﴿ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ يعني: المعاصيَ. وقال بعضُهم: ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ بمعنًى واحدٍ؛ لأنَّ كلَّ فاحِشةٍ كبيرةٌ، وكلَّ كبيرةٍ فاحِشةٌ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٣).

كما قال تبارك وتعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ * وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ...﴾ [الشورى: ٣٦، ٣٧].

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾.

أي: إلَّا صَغائِرَ الذُّنوبِ دونَ إصرارٍ عليها، فهي مَعفوٌّ عنها، وليس ذلك بمُخرِجٍ لصاحِبِها مِن جُملةِ المُحسِنينَ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٨، ٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٦-١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ باللَّمَمِ صَغائِرُ الذُّنوبِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، وابن كثير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٨، ٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٣).

وقيل: إنَّ المُرادَ: القُبْلةُ، والغمزةُ، والنَّظرةُ، ونحوُ ذلك. وممَّن قال بهذا مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو هُرَيرةَ، وأبو سعيدٍ الخُدْريُّ، وحُذَيْفةُ بنُ اليَمانِ، ومَسروقٌ، والشَّعْبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٠).

وقيل: إنَّ المُرادَ باللَّمَمِ هو ما دونَ حدِّ الدُّنيا وحدِّ الآخرةِ، فليس فيه حدٌّ في الدُّنيا، ولا عذابٌ في الآخرةِ. وممَّن قال بهذا مِن السَّلفِ: ابنُ الزُّبَيرِ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٢). والأقوالُ المذكورةُ متقاربةٌ.

وقال ابنُ رجب: (في تفسيرِ اللَّمَمِ قَولانِ للسَّلَفِ:

أحدُهما: أنَّه مُقَدِّماتُ الفواحِشِ، كاللَّمسِ والقُبلةِ. وعن ابنِ عبَّاسٍ: هو ما دونَ الحَدِّ مِن وعَيدِ الآخِرةِ بالنَّارِ، وحَدِّ الدُّنيا. والثَّاني: أنَّه الإلمامُ بشَيءٍ مِنَ الفَواحِشِ والكبائِرِ مرَّةً واحِدةً، ثمَّ يتوبُ منه، ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ وأبي هُريرةَ... ومَن فَسَّر الآيةَ بهذا قال: لا بُدَّ أن يتوبَ منه، بخِلافِ مَن فَسَّره بالمقَدِّماتِ؛ فإنَّه لم يَشتَرِطْ تَوبةً. والظَّاهِرُ أنَّ القولَينِ صَحيحانِ، وأنَّ =

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ما رأيتُ شَيئًا أشبَهَ باللَّمَمِ مِمَّا قال أبو هُرَيرةَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ كَتَب على ابنِ آدَمَ حَظَّه مِنَ الزِّنا، أدرَكَ ذلك لا مَحالةَ؛ فزِنا العَينِ النَّظَرُ، وزِنا اللِّسانِ المَنطِقُ، والنَّفْسُ تَمَنَّى وتَشتَهي، والفَرْجُ يُصَدِّقُ ذلك كُلَّه ويُكَذِّبُه))(١).

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخرَجَ تعالى المُسِيءَ عن المَغفِرةِ؛ بَيَّنَ أنَّ ذلك ليس لضِيقٍ فيها، بل ذلك بمَشيئةِ اللهِ تعالى، ولو أراد اللهُ المَغفِرةَ لكُلِّ مَن أحسَنَ وأساء لَفَعَل، وما كان يَضيقُ عنهم مَغفِرتُه(٢).

وأيضًا لَمَّا كان المُلوكُ لا يَغفِرونَ لِمَن تكَرَّرَتْ ذُنوبُه إليهم وإنْ صَغُرَت، فكان السَّامِعُ يَستَعظِمُ أن يَغفِرَ مَلِكُ المُلوكِ سُبحانَه مِثْلَ هذا؛ عَلَّلَ ذلك بقَولِه تعالى(٣):

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- واسِعُ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، فيَستُرُها عليهم،

---

= كِلَيْهِما مُرادٌ مِنَ الآيةِ، وحينَئذٍ فالمحسِنُ: هو مَن لا يأتي بكبيرةٍ إلَّا نادِرًا، ثمَّ يتوبُ منها، ومَن إذا أتى بصغيرةٍ كانت مَغمورةً في حَسَناتِه المُكَفِّرةِ لها، ولا بُدَّ ألَّا يكونَ مُصِرًّا عليها، كما قال تعالى: ﴿وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. ((جامع العلوم والحكم)) (١/ ٤٤٨، ٤٤٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

قال السعدي: (هذه مع الإتيانِ بالواجباتِ وتَرْكِ المُحَرَّماتِ تَدخُلُ تحتَ مَغفِرةِ اللهِ الَّتي وَسِعَتْ كُلَّ شَيءٍ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٨).

ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[١].

كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: ((الصَّلَواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورَمَضانُ إلى رمَضانَ: مُكَفِّراتٌ ما بيْنَهنَّ إذا اجتَنَب الكبائِرَ))[٢].

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

تقريرٌ لِما مَرَّ مِن قَولِه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ﴾ [النجم: ٣٠]، كأنَّ العامِلَ مِن الكُفَّارِ يَقولُ: نحن نَعمَلُ أُمورًا في جَوفِ اللَّيلِ المُظلِمِ، وفي البَيتِ الخالي، فكيف

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٤، ٢٣٥).

قال ابنُ عثيمين: (في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الصَّغائِرَ تُغفَرُ، وقد ثَبَت في القُرآنِ الكريم أنَّ الصَّغائِرَ تُغفَرُ باجتِنابِ الكبائِرِ، فقال جلَّ وعلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾. أمَّا إذا قُلْنا: اللَّمَمُ: القَليلُ مِنَ الفَواحِشِ والكبائِرِ، فيَكونُ قَولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ إشارةً إلى أنَّ الكبائِرَ إذا تاب الإنسانُ منها غَفَر اللهُ له، وكأنَّها لم تكُنْ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٥).

(٢) رواه مسلم (٢٣٣).

يَعلَمُه اللهُ تعالى؟! فقال: ليس عَمَلُكم أخفى مِن أحوالِكم وأنتم أجِنَّةٌ في بُطونِ أُمَّهاتِكم، واللهُ عالمٌ بتلك الأحوالِ(١).

وأيضًا فهو تأكيدٌ وبَيانٌ للجَزاءِ؛ وذلك لأنَّه لَمَّا قال: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [النجم: ٣١] كأنَّ الكافِرينَ قالوا: هذا الجزاءُ لا يتحَقَّقُ إلَّا بالحَشرِ، وجَمْعِ الأجزاءِ بعدَ تفرُّقِها. وإعادةُ ما كان لِزَيدٍ مِن الأجزاءِ في بَدَنِه مِن غَيرِ اختِلاطٍ: غَيرُ مُمكِنٍ؛ فقال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم﴾، فيَجمَعُها بقُدرتِه على وَفْقِ عِلْمِه كما أنشَأَكم(٢).

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾.

أي: ربُّكم أعلَمُ بكم حينَ خَلَق أباكم آدَمَ مِن الأرضِ قبْلَ أن تُوجَدوا، وحينَ كُنتُم حَمْلًا مَستورينَ في بُطونِ أمَّهاتِكم قبْلَ أن تُولَدوا(٣).

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٦، ٢٣٧).

قال السعدي: (أي: هو تعالى أعلَمُ بأحوالِكم كُلِّها، وما جَبَلكم عليه مِنَ الضَّعفِ والخَوَرِ عن كَثيرٍ ممَّا أمرَكم اللهُ به، ومِن كَثرةِ الدَّواعي إلى بَعضِ المحَرَّماتِ، وكثرةِ الجواذِبِ إليها، وعدَمِ الموانِعِ القويَّةِ، والضَّعفُ موجودٌ مُشاهَدٌ منكم حينَ أنشأكم اللهُ مِن الأرضِ، وإذ كنتُم في بُطونِ أمَّهاتِكم، ولم يَزَل موجودًا فيكم، وإنْ كان اللهُ تعالى قد أوجدَ فيكم قوَّةً على ما أمرَكم به، ولكنَّ الضَّعفَ لم يَزَلْ؛ فلِعلمِه تعالى بأحوالِكم هذه ناسبَت الحِكمةُ الإلهيَّةُ والجُودُ الرَّبَّانيُّ أن يتغَمَّدَكم برَحمتِه ومَغفرتِه وعَفْوِه، ويَغمُرَكم بإحسانِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ إنشاءَهم مِنَ الأرضِ يَستلزِمُ ضَعفَ قُدَرِهم عن تحمُّلِ المَشاقِّ مع تفاوُتِ أطوارِ نَشأةِ بني آدمَ، فاللهُ عَلِمَ ذلك، وعَلِمَ أنَّ آخِرَ الأُمَمِ -وهي أمَّةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أضعفُ الأُمَمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٤).

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن عادةِ مَن سَلِمَ مِنَ الذُّنوبِ أن يَفتَخِرَ على مَن قارَفَها -لِما بُنِيَ الإنسانُ عليه مِن محبَّةِ الفَخرِ؛ لِما جُبِلَ عليه مِنَ النُّقصانِ-، وكان حالُه قد يَتبدَّلُ، فيَسبِقُ عليه الكِتابُ فيَشقَى- سَبَّبَ عن ذلك قَولَه تعالى[1]:

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾.

أي: فلا تَشهَدوا لأنفُسِكم بالبَراءةِ مِنَ الذُّنوبِ والآثامِ، أو تَمدَحوها بحُسنِ الأعمالِ[2].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا * ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤٩، ٥٠].

وعن مُحمَّدِ بنِ عَمرِو بنِ عَطاءٍ، قال: سَمَّيتُ ابنَتي بَرَّةَ، فقالت لي زَينبُ بنتُ أبي سَلَمةَ: ((إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نهى عن هذا الاسمِ، وسُمِّيتُ بَرَّةَ، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لا تُزَكُّوا أنفُسَكم؛ اللهُ أعلَمُ بأهلِ البِرِّ منكم! فقالوا: بمَ نُسَمِّيها؟ قال: سَمُّوها زَينبَ))[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٩٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٧).

قال ابن عاشور: (ويَشمَلُ تَزكيةَ المَرءِ غَيرَه، فيَرجِعُ ﴿أَنفُسِكُمۡ﴾ إلى معنى: قَومَكم أو جماعتَكم، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور: ٦١]، أي: لِيُسَلِّمْ بَعضُكم على بَعضٍ. والمعنى: فلا يُثْنِ بَعضُكم على بَعضٍ بالصَّلاحِ والطَّاعةِ؛ لئَلَّا يَغُرَّه ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٤٢).

وعن أبي بَكْرةَ الثَّقفيِّ رَضِيَ الله عنه، قال: أَثْنَى رَجُلٌ على رَجُلٍ عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ((وَيْلَك! قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبك، قَطَعْتَ عُنُقَ صاحِبك -مِرارًا-، ثمَّ قال: مَن كان مِنْكم مادِحًا أخاه لا مَحالةَ فلْيَقُلْ: أحسَبُ فُلانًا، واللهُ حَسيبُه[1]، ولا أُزَكِّي على اللهِ أحدًا[2]، أحسَبُه كذا وكذا، إنْ كان يَعلَمُ ذلك منه))[3].

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾.

أي: اللهُ أعلَمُ بمَن اتَّقى سَخَطَه وعَذابَه مِنْكم، فامتثَلَ أوامِرَه، واجتنَبَ نواهيَه[4].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مَنَع اللهُ تعالى مِنَ الظَّنِّ في ثلاثةِ مَواضِعَ، وفي جميعِ تلك المواضِعِ كان المَنعُ عَقيبَ التَّسميةِ والدُّعاءِ باسمٍ؛ مَوضِعانِ منها في هذه السُّورةِ، أحَدُهما: قَولُه تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٣]، والثَّاني: قَولُه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨]، والثَّالِثُ: في (الحُجُراتِ)، قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١١، ١٢] عَقِيبَ الدُّعاءِ باللَّقَبِ، وكُلُّ ذلك دليلٌ على أنَّ حِفظَ اللِّسانِ أَولى مِن حِفظِ

---

(١) أي: كافِيه، أو يكون فَعِيلٌ مِن الحِسابِ، أي: مُحاسِبُه على عمَلِه الَّذي يَعلَمُ حقيقتَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٧٧).

(٢) أي: لا أقطعُ على عاقِبةِ أحدٍ، ولا على ما في ضميرِه؛ لكونِ ذلك مُغيَّبًا عنه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٦٢) واللَّفظُ له، ومسلم (٣٠٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٠).

غَيرِه مِنَ الأركانِ، وأنَّ الكَذِبَ أقبَحُ مِنَ السَّيِّئاتِ الظَّاهِرةِ مِن الأيدي والأرجُلِ، وهذه المواضِعُ الثَّلاثةُ: أحَدُها: مَدحُ مَن لا يَستَحِقُّ المدحَ، كاللَّاتِ والعُزَّى مِنَ العِزِّ. وثانيها: ذَمُّ مَن لا يَستَحِقُّ الذَّمَّ، وهم الملائِكةُ الَّذين هم عِبادُ الرَّحمنِ، يُسَمُّونَهم تَسميةَ الأُنثى. وثالِثُها: ذَمُّ مَن لم يُعلَمْ حالُه. وأمَّا مَدحُ مَن يُعلَمُ حالُه فلم يَقُلْ فيه: لا يتَّبِعونَ إلَّا الظَّنَّ، بل الظَّنُّ فيه مُعتَبَرٌ، والأخذُ بظاهِرِ حالِ العاقِلِ واجِبٌ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ الاستِثناءُ هنا بمعنى الاستِدراكِ. ووَجهُه: أنَّ ما سُمِّيَ باللَّمَمِ: ضَربٌ مِنَ المعاصي المحَذَّرِ منها في الدِّينِ؛ فقد يَظُنُّ النَّاسُ أنَّ النَّهيَ عنها يُلحِقُها بكبائِرِ الإثمِ؛ فلذلك حَقَّ الاستِدراكُ، وفائدةُ هذا الاستِدراكِ عامَّةٌ وخاصَّةٌ؛ أمَّا العامَّةُ فلِكَيلا يُعامِلَ المُسلِمونَ مُرتَكِبَ شَيءٍ منها مُعامَلةَ مَن يَرتَكِبُ الكبائِرَ. وأمَّا الخاصَّةُ فرَحمةٌ بالمُسلِمينَ الَّذين قد يَرتَكِبونَها؛ فلا يَفُلُّ ارتِكابُها مِن نَشاطِ طاعةِ المُسلِمِ، ولِيَنصَرِفَ اهتِمامُه إلى تجنُّبِ الكبائِرِ؛ فهذا الاستِدراكُ بِشارةٌ لهم، وليس المعنى أنَّ اللهَ رَخَّص في إتيانِ اللَّمَمِ[٢]!

٣- صرَّح الله تعالى بالنَّهيِ العامِّ عن تزكيةِ النَّفْسِ في قَولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، وأحْرَى نَفْسُ الكافِرِ الَّتي هي أخَسُّ شَيءٍ وأنجَسُه[٣]! وفيه تحذيرٌ للمُؤمِنينَ مِن العُجْبِ بأعمالِهم الحَسَنةِ عُجبًا يُحدِثُه المَرءُ في نَفْسِه، أو يُدخِلُه أحَدٌ على غيرِه بالثَّناءِ عليه بعَمَلِه، ويَشمَلُ ذلك ذِكرَ المَرءِ أعمالَه الصَّالِحةَ للتَّفاخُرِ بها، أو إظهارَها للنَّاسِ، ولا يجوزُ ذلك إلَّا إذا كان فيه جَلبُ مَصلحةٍ عامَّةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

٤- إنَّ تزكيةَ الإنسانِ نَفْسَه ضَربانِ؛ أحَدُهما: بالفِعلِ، وهو مَحمودٌ، وإليه قُصِدَ بقَولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، والثَّاني: بالقَولِ -كتَزكيةِ العَدلِ غَيرَه-، وذلك مذمومٌ أن يَفعَلَ الإنسانُ بنَفْسِه، وقد نهى اللهُ تعالى عنه بقَولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾، ونَهيُه عن ذلك تأديبٌ؛ لِقُبحِ مَدحِ الإنسانِ نَفْسَه عَقلًا وشَرعًا؛ ولهذا قيل لحَكيمٍ: ما الَّذي لا يَحسُنُ وإنْ كان حقًّا؟ فقال: مَدْحُ الإنسانِ نَفْسَه[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ إشارةٌ إلى وُجوبِ الخَوفِ مِن العاقِبةِ، أي: لا تَقطَعوا بخَلاصِكم أيُّها المُؤمِنونَ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَعلَمُ عاقِبةَ مَن يكونُ على التُّقَى، وهذا يؤيِّدُ قَولَ مَن يَقولُ: «أنا مؤمِنٌ إن شاء اللهُ»؛ للصَّرفِ إلى العاقِبةِ[2].

٦- أنَّ المؤمِنَ مع المؤمِنِ بمَنزلةِ العُضوِ مع العُضوِ اللَّذَينِ تَجمَعُهما نَفْسٌ واحِدةٌ؛ ولهذا سَمَّى اللهُ تعالى الأخَ المؤمِنَ نَفْسًا لأخيه في غَيرِ مَوضِعٍ مِنَ الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾[3]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ إنْ قال قائِلٌ: أليس اللهُ تعالى يقولُ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]؟

**الجوابُ**: بلى، لكِنْ معنى: ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أي: مَن عَمِلَ عملًا تَزكُو به نَفْسُه، وليس معنى مَن زَكَّاها: مَن أَثنَى عليها ومَدَحَها بأنَّها عَمِلَت وعَمِلَت! بلِ المرادُ عَمِلَ عَمَلًا تَزكُو به نَفْسُه؛ فلا مُعارَضةَ بيْنَ الآيتَينِ، والتَّزكيةُ الَّتي يُذَمُّ عليها أنْ

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٨).

يُدِلَّ بعَمَلِه على ربِّه، ويَمدَحَ وكأنَّه يَمُنُّ على اللهِ! يقولُ: صَلَّيتُ، وتصَدَّقتُ، وصُمْتُ، وحَجَجْتُ، وجاهَدْتُ، وبَرَرتُ والديَّ، وما أشْبَهَ ذلك؛ فلا يجوزُ للإنسانِ أنْ يُزَكِّيَ نَفْسَه[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ رَدٌّ على أولئك الصُّوفيَّةِ الَّذين يَدَّعونَ أنَّهم أئِمَّةٌ، ويُزَكُّون أنْفُسَهم، ويقولونَ: وصَلْنا إلى حَدٍّ لا تَلْزَمُنا الطَّاعةُ! وصَلْنا إلى عالَمِ المَلَكوتِ؛ فليس علينا صَلاةٌ ولا صَدَقةٌ ولا صيامٌ، ولا يَحْرُمُ علينا شَيءٌ! وهؤلاء مُنسَلِخونَ مِنَ الدِّينِ انسِلاخًا تامًّا؛ ولذلك نقولُ: هؤلاء الَّذين يُزَكُّون أنْفُسَهم هم أبعَدُ النَّاسِ عن الزَّكاةِ؛ لأنَّهم أُعجِبوا بأعمالِهم، وأَدَلُّوا بها على اللهِ عزَّ وجلَّ، وجَعلوا لأنْفُسِهم مَنصِبًا لم يَجعَلْه اللهُ تعالى لهم، ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ كأنَّه يقولُ: لماذا تُزَكُّون أنْفُسَكم؟ أتُريدونَ أنْ تُعْلِموا اللهَ بما أنتم عليه؟! الجوابُ: لا؛ ولهذا قال: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، يعني: إنْ كنتَ مُتَّقيًا للهِ فاللهُ أعلَمُ بك، ولا حاجةَ أنْ تَقولَ للهِ: إنِّي فعَلْتُ وفعَلْتُ[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ أي: لا تَصِفُوها بالزَّكاةِ افتِخارًا، وأمَّا التَّحَدُّثُ بنِعمةِ اللهِ على العَبدِ، مِثلُ أنْ يقولَ القائلُ: إنَّه كان مُسرِفًا على نَفْسِه، كان مُنحَرِفًا، فهداه اللهُ ووَفَّقَه ولَزِمَ الاستِقامةَ؛ تحدُّثًا بنِعمةِ اللهِ، لا تزكيةً لنَفْسِه- فإنَّ هذا لا بأسَ به، ولا حَرَجَ فيه؛ أنْ يَذْكُرَ الإنسانُ نِعمةَ اللهِ عليه في الهِدايةِ والتَّوفيقِ، كما أنَّه لا حَرَجَ أنْ يَذْكُرَ نِعمةَ اللهِ عليه بالغِنى بعدَ الفَقرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٥٢١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ قَولُه: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ صِفةٌ لـ﴿مَّلَكٍ﴾، والمقصودُ منها بَيانُ شَرَفِ الملائكةِ بشَرَفِ العالَمِ الَّذي هم أهلُه، وهو عالَمُ الفضائِلِ ومنازِلِ الأسرارِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أمورٌ كُلُّها تُشيرُ إلى عِظَمِ الأمرِ:

**أحَدُها**: «كم»؛ فإنَّه للتَّكثيرِ.

**ثانيها**: لَفظُ «المَلَكِ»؛ فإنَّه أشرَفُ أجناسِ المخلوقاتِ.

**ثالِثُها**: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ فإنَّها إشارةٌ إلى عُلُوِّ مَنزِلتِهم، ودُنُوِّ مَرتبتِهم مِن مَقَرِّ السَّعادةِ.

**رابعُها**: اجتِماعُهم على الأمرِ في قَولِه: ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾. وكُلُّ ذلك لبيانِ فَسادِ قَولِهم: إنَّ الأصنامَ يَشفَعونَ[٢]، كأنَّه يقولُ: الملائكةُ الكرامُ لا تُغْني شفاعتُهم شيئًا إلَّا بإذْنِ الله، فكيفَ أوثانُكم[٣]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ نفَى سُبحانَه أنْ تُغْنِيَ شفاعةُ الملائكةِ الَّذين في السَّماءِ إلَّا مِن بعدِ إذْنِه؛ تنبيهًا بذلك على أنَّ مَن دَونَهم أَولى ألَّا تُغنِيَ شَفاعتُهم؛ فإنَّ المُشرِكينَ كانوا يقولونَ عن الأصنامِ: إنَّها تَشفَعُ لهم[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((الاستغاثة في الرد على البكري)) لابن تيمية (ص: ٢٣١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ أُفرِدَت الشَّفاعةُ؛ لأنَّها مَصدَرٌ، ولأنَّهم لو شَفَع جَميعُهم لواحدٍ لم تُغْنِ شَفاعتُهم عنه شيئًا[١]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ أنَّ للشَّفاعةِ شَرطَينِ؛ الأوَّلُ: الإذْنُ مِنَ اللهِ تعالى؛ لِقَولِه: ﴿أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾. والثَّاني: رِضاه عنِ الشَّافعِ والمَشفوعِ له؛ لِقَولِه: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ فلا بُدَّ مِن إذْنِه تعالى، ورِضاهُ عنِ الشَّافعِ والمَشفوعِ له، إلَّا في التَّخفيفِ عن أبي طالبٍ كما جاء في الحَديثِ[٢]، فالمُشرِكونَ إذَنْ لا نَصيبَ لهم مِن شَفاعةِ الشَّافِعينَ، وقد سَدُّوا على أنفُسِهم رَحمةَ أرحَمِ الرَّاحِمينَ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ أنَّه لَمَّا كان المَلِكُ قد يأذَنُ في الشَّفاعةِ وهو كارِهٌ، قال مُعْلِمًا أنَّه ليس كأولئك؛ فحينَئذٍ تُغْني شَفاعتُهم إذا كانوا مِن المأذونِ لهم، كلُّ هذا قَطعًا لأطماعِهم وعن قَولِهم بمُجَرَّدِ الهوى: إنَّ آلهتَهم تَشفَعُ لهم[٤]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ سُؤالٌ: كيف يَصِحُّ أن يُقالَ: «إنَّهم لا يُؤمِنونَ بالآخرةِ» مع أنَّهم كانوا يقولونَ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وكان مِن عادتِهم أن يَربِطوا مَركوبًا على قَبرِ مَن يموتُ، ويَعتَقِدونَ أنَّه يُحشَرُ عليه؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٦).

ويُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٣٨٨٥) ومسلمٌ (٢١٠) من حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٣).

**الجوابُ مِن وَجهينِ:**

**أحَدُهما:** أنَّهم لَمَّا كانوا لا يَجزِمونَ به؛ كانوا يقولونَ: لا حَشْرَ، فإنْ كان فَلَنا شُفَعاءُ، يدُلُّ عليه قَولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

**ثانيهما:** أنَّهم ما كانوا يَعترِفونَ بالآخرةِ على الوَجهِ الحَقِّ، وهو ما وَرَد به الرُّسُلُ(١).

ويمكنُ أن يُقالَ: إنَّهم كانوا يَطلُبون بعبادةِ الأصنامِ الشَّفاعةَ لِيَتحقَّقَ لهم ما يَطلُبون في الدُّنيا مِن أرزاقٍ ومكاسِبَ وعافيةٍ ونصْرٍ... إلخ.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ سؤالٌ: كيف أنَّ الظَّنَّ لا يَقومُ مَقامَ العِلمِ مع أنَّه يقومُ مَقامَه في كثيرٍ مِنَ المسائِلِ كالقياسِ؟

**الجوابُ:** المرادُ هنا: الظَّنُّ الحاصِلُ مِن اتِّباعِ الهوى، دونَ الظَّنِّ الحاصِلِ مِنَ الاستِدلالِ والنَّظَرِ، بقَرينةِ قَولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾(٢) [النجم: ٢٣].

٩- قَولُ مَن قال: إنَّه لا يجوزُ العَمَلُ بالظَّنِّ في المسائِلِ الفِقهيَّةِ وغَيرِها: خَطَأٌ؛ لأنَّ كثيرًا من المسائِلِ الفِقهيَّةِ ظَنِّيَّةٌ؛ إمَّا لخفاءِ الدَّليلِ، أو خفاءِ الدَّلالةِ: ليس كُلُّ مَسألةٍ في الفَقهِ يَقولُ بها الإنسانُ على سبيلِ اليقينِ أبَدًا، بل بَعضُها يَقينٌ وبَعضُها ظَنٌّ، والظَّنُّ إذا تعذَّرَ اليَقينُ: مِمَّا أحَلَّ اللهُ، ومِن نِعمةِ اللهِ أنَّه إذا تعَذَّر اليقينُ رجَعْنا إلى غَلَبةِ الظَّنِّ، فليس كلُّ ظَنٍّ مُنكَرًا، لكِنَّ الظَّنَّ الَّذي ليس له أصلٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٠).

يُبنَى عليه: مُنكَرٌ[١].

١٠- الظَّنُّ يُطلَقُ في لُغةِ العَرَبِ الَّتي نزل بها القُرآنُ على معنيَينِ:

**أحَدُهما**: الشَّكُّ المستوي الطَّرَفَينِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾، وقَولِه تعالى عن الكُفَّارِ: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: ٣٢]، وقولِه: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦].

**والثَّاني**: هو إطلاقُ الظَّنِّ مُرادًا به العِلمُ واليَقينُ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ [فصلت: ٤٨] أي: أيقَنوا أنَّهم ليس لهم يومَ القيامةِ مَحيصٌ، وقولُه: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي: يوقِنون أنَّهم مُلاقو اللهِ، وقولُه: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ * ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٥، ٤٦]، وقولُه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩، ٢٠] أي: أيقنتُ ذلك[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ لطيفةٌ: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان كالطَّبيبِ للقُلوبِ؛ فقد أتَى على ترتيبِ الأطِبَّاءِ في أنَّ المَرَضَ إذا أمكَنَ إصلاحُه بالغِذاءِ لا يَستَعمِلونَ الدَّواءَ القَويَّ، ثمَّ إذا عَجَز عن المُداواةِ بالمشروباتِ وغَيرِها عَدَلوا إلى الحديدِ والكَيِّ، كما قيل: آخِرُ الدَّواءِ الكَيُّ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٢٣). ويُنظر أيضًا: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٠٠) و (٧/ ٣٥).

فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوَّلًا: أمَرَ القُلوبَ بذِكرِ اللهِ فحَسْبُ؛ فإنَّ بذِكرِ اللهِ تَطمَئِنُّ القُلوبُ، كما أنَّ بالغِذاءِ تَطمَئِنُّ النُّفوسُ؛ فالذِّكرُ غِذاءُ القَلبِ؛ ولهذا قال أوَّلًا: قولوا: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» أمَرَ بالذِّكرِ لِمَن انتَفَع، مِثلُ أبي بَكرٍ وغَيرِه مِمَّن انتَفَع، ومَن لم ينتَفِعْ ذَكَر لهم الدَّليلَ، وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ﴾ [الأعراف: ١٨٤]، ﴿ قُلِ انظُرُوا ﴾ [يونس: ١٠١]، ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ [الغاشية: ١٧] إلى غيرِ ذلك، ثمَّ أتى بالوَعيدِ والتَّهديدِ، فلَمَّا لم يَنفَعْهم قال: أعرِضْ عن المعالَجةِ، واقطَعِ الفاسِدَ؛ لئَلَّا يُفسِدَ الصَّالحَ[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ سؤالٌ: أنَّ اللهَ تعالى بَيَّنَ أنَّ غايتَهم ذلك، و﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، والمجنونُ الَّذي لا عِلْمَ له والصَّبيُّ لا يُؤمَرُ بما فوقَ احتِمالِه، فكيف يُعاقِبُهم اللهُ؟

**الجوابُ**: ذَكَر سُبحانَه قبْلَ ذلك أنَّهم تولَّوا عن ذِكرِ اللهِ، فكان عدَمُ عِلْمِهم لعَدَمِ قَبولِهم العِلمَ، وإنَّما قَدَّرَ اللهُ تولِّيَهم؛ لِيُضافَ الجَهلُ إلى ذلك، فيُحَقَّقَ العِقابُ[2].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ صيغةَ التَّفضيلِ -الَّتي هي: ﴿أَعْلَمُ ﴾ في هذه الآيةِ- يُرادُ بها مُطلَقُ الوَصفِ لا التَّفضيلُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يُشارِكُه أحَدٌ في عِلمِ ما يَصيرُ إليه خَلْقُه مِن شَقاوةٍ وسَعادةٍ[3].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴾ إنَّما بَيَّنَ اللهُ سُبحانَه وتعالى أنَّه أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن سَبيلِه، وبمَنِ اهتدَى؛ لفائدتَينِ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٤٦٦).

**الفائدةُ الأُولى**: أنْ نَعلَمَ أنَّ ما وَقَعَ مِن الضَّلالِ والهدايةِ فهو صادِرٌ عن علمِ اللهِ تعالى، وبإرادتِه؛ إذ لا يُمكِنُ أنْ يوجَدَ في خَلْقِه خِلافُ مَعلومِه تعالى.

**الفائدةُ الثَّانيةُ**: التَّحذيرُ مِن الضَّلالِ، والتَّرغيبُ في الاهتِداءِ، ما دام الإنسانُ يَعلَمُ أنَّ أيَّ عَمَلٍ صَدَرَ منه فعِلْمُه عندَ اللهِ فإنَّه سوف يَخشَى أنْ يَعصِيَ اللهَ، وسوف يَسعَى أنْ يُرضِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ، كأنه يقولُ: إنْ ضَلَلْتَ فاللهُ أعلمُ بك، وإنِ اهتديتَ فاللهُ أعلمُ بك؛ فيَجزي الَّذين أساؤوا بما عَمِلوا، ويَجزي الَّذين أحسَنوا بالحُسنى[1].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ عَبَّرَ بالرَّبِّ؛ إشارةً إلى أنَّ ضلالَ هذا مِنَ الإحسانِ إليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو دخل في دينِه لأفسَدَ أكثَرَ مِمَّا يُصلِحُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾[2] [التوبة: ٤٧].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنه سُبحانَه مالِكٌ لِذَواتِهما، ومالِكٌ لِمَا فيهما أيضًا، يتصرَّفُ فيه كما يشاءُ حسَبَ ما تقتضيه حكمتُه. وإيمانُنا بأنَّ للهِ مُلْكَ السَّمَواتِ والأرضِ يُفيدُ فائدتَينِ عظيمتَينِ:

**الفائدة الأُولى**: الرِّضا بقضاءِ اللهِ تعالى؛ لأنَّك ملْكُه، فهو كما يَتصرَّفُ في السَّحابِ يُمْطِرُ أو لا يُمطِرُ، يَمضي أو لا يَمضي، ويَتصرَّفُ في الشَّمسِ والقمرِ، ويَتصرَّفُ في المخلوقاتِ؛ يَتصرَّفُ فيك أيضًا كما يشاءُ، إنْ شاء أعطاك صحَّةً، وإنْ شاء سَلَبَها، إنْ شاء أعطاك عقلًا، وإنْ شاء سَلَبَك، إنْ شاء أعطاك مالًا، وإنْ شاء سَلَبَك، أنت ملْكُه، فإذا آمنتَ بهذا رضيتَ بقضائِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٦٥).

**الفائدة الثَّانية**: الرِّضا بشرْعِه، وقَبولُ شرْعِه، والقيامُ به؛ لأنك ملْكُه، إذا قال لك: افعلْ فافعلْ، وإذا قال: لا تفعلْ فلا تفعلْ، فإذا عصيتَ ربَّك -إمَّا بفعلِ مُحَرَّم، وإمَّا بتركِ واجبٍ- فإنَّك خرجتَ عن مُقتضى العبوديَّةِ التَّامَّةِ؛ لأنَّ مقتضى العبوديَّةِ التَّامَّةِ أنْ تَخضَعَ لشرْعِه كما أنَّك خاضعٌ كرهًا أو طَوعًا لقضائه وقَدَرِه، فليس معنى قولِه تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أنْ يُخبرَنا أنه مالكٌ فقط! لكنْ مِن أجْلِ أنْ نعتقدَ مُقتضى هذا المُلْكِ، وهو الرِّضا بقضائِه، والرِّضا بشرْعِه، هذه حقيقةُ المُلْكِ[1].

١٧- إنَّ وُقوعَ الذَّنْبِ مع تَعَقُّبِه بالتَّوبةِ والاستِغفارِ لا يَقدَحُ في كَونِ الرَّجُلِ مِن المُقَرَّبينَ السَّابِقينَ ولا الأبرارِ، ولا يَلْحَقُه بذلك وعيدٌ في الآخرةِ، فضلًا عن أنْ يَجعلَه مِن الفُجَّارِ، وقد قال تعالى في عُمومِ وَصْفِ المؤمِنينَ: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾[2].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾ أنَّ السَّيِّئَةَ لا يُجازَى الإنسانُ بأكثرَ منها[3]، فحينَ ذَكَر سُبحانَه جزاءَ المُسيءِ قال: ﴿بِمَا عَمِلُوا۟ ﴾، وحينَ ذكَرَ جزاءَ المُحسِنِ أتَى بالصِّفةِ الَّتي تَقتَضي التَّفضُّلَ، وتدُلُّ على الكَرَمِ والزِّيادةِ للمُحسِنِ ﴿بِٱلْحُسْنَى ﴾، وهي كقَولِه تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[4] [العنكبوت: ٧]، فقال تعالى: ﴿بِٱلْحُسْنَى ﴾ ولم يَقُلْ: «بما عَمِلوا»؛ لأنَّ فَضْلَ اللهِ أوسعُ مِن أعمالِنا، فأنت إذا فعَلْتَ حَسَنةً فتكونُ عشْرَ حَسَناتٍ إلى سَبْعِمِئةِ ضِعْفٍ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠).

أضعافٍ كثيرةٍ، وهذا يَدُلُّك على سَعةِ فضلِ اللهِ عزَّ وجلَّ وإحسانِه وكمالِ عدلِه[١]!

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ بَيانُ المُسيءِ والمُحسِنِ؛ لأنَّ مَن لا يجتَنِبُ كبائِرَ الإثمِ يكونُ مُسيئًا، والَّذي يجتَنِبُها يكونُ مُحسِنًا، وعلى هذا ففيه لَطيفةٌ: وهي أنَّ المُحسِنَ لَمَّا كان هو مَن يجتَنِبُ الآثامَ، فالَّذي يأتي بالنَّوافِلِ يكونُ فَوقَ المُحسِنِ، واللهُ تعالى وَعَد المُحسِنَ بالزِّيادةِ؛ فالَّذي فَوقَه يكونُ له زياداتٌ فَوقَها، وهم الَّذين لهم جزاءُ الضِّعفِ[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى * ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ وَصْفُ اللهِ المُحسِنينَ باجتِنابِ الكبائِرِ[٣]، فقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ صِفةٌ لـ﴿ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾، أي: الَّذين أحسَنوا واجتَنَبوا كبائِرَ الإثمِ والفواحِشَ، أي: فَعَلوا الحَسَناتِ واجتَنَبوا المَنهيَّاتِ؛ وذلك جامعُ التَّقْوى. وهذا تنبيهٌ على أنَّ اجتِنابَ ما ذُكِرَ يُعَدُّ مِنَ الإحسانِ؛ لأنَّ فِعلَ السَّيِّئاتِ يُنافي وَصْفَهم بالَّذين أحسَنوا؛ فإنَّهم إذا أتَوا بالحَسَناتِ كُلِّها ولم يَترُكوا السَّيِّئاتِ، كان فِعْلُهم السَّيِّئاتِ غَيرَ إحسانٍ، ولو تَرَكوا السَّيِّئاتِ وتَرَكوا الحَسَناتِ كان تَركُهم الحَسَناتِ سَيِّئاتٍ[٤].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ أنَّ مِن الذُّنوبِ كَبائِرَ وصَغائِرَ[٥]، وفي قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ دَلالةٌ على عَدَمِ المساواةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن رجب الحنبلي)) (١/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٠).

(٥) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٥).

بيْنَ المعاصي[١].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ ... ﴾ الآيةَ: تَكفيرُ الصَّغائِرِ باجتِنابِ الكبائِرِ[٢].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ سُؤالٌ: إذا ذُكِرَتِ الكبائِرُ، فما الفواحِشُ بَعْدَها؟

**الجوابُ**: الكبائِرُ إشارةٌ إلى ما فيها مِن مِقدارِ السَّيِّئةِ، والفواحِشُ إشارةٌ إلى ما فيها مِن وَصفِ القُبحِ، كأنَّه قال: «عظيمةُ المقاديرِ، قَبيحةُ الصُّوَرِ»، والفاحِشُ في اللُّغةِ مُختَصٌّ بالقَبيحِ الخارِجِ قُبحُه عن حَدِّ الخَفاءِ، ولهذا لم يَقُل: «الفواحِشَ مِن الإثمِ»، وقال في الكبائِرِ: ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ ﴾؛ لأنَّ الكبائِرَ إنْ لم يُمَيِّزْها بالإضافةِ إلى الإثمِ لَمَا حَصَل المقصودُ، بخِلافِ الفواحِشِ[٣].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ ﴾ أنَّ الكبائرَ تختلِفُ؛ وأنَّ الفواحشَ تختلفُ، لأنَّ الكبائرَ وَصْفٌ؛ كلمَّا كان أعظمَ صار أشدَّ كبيرةً، والفواحشُ كذلك، وفي قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٢٢]، ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ ﴾ [الإسراء: ٣٢]، ﴿ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٨٠] فَرَّقَ اللهُ بيْنَها -معَ أنَّها كلَّها فواحشُ- لكنَّ بعضَها أعظمُ مِن بعضٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٠).

ويُنظر ما تقدَّم في حاشية تفسير الآية (ص: ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٢).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ أنَّه تعالى عالِمٌ بكُلِّ شَيءٍ قبْلَ وُقوعِه؛ فهو يَعلَمُ ما سيَعمَلُه الخَلقُ(١).

٢٦- قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ المعنى أنَّ الضَّعْفَ المُقتَضِيَ لسَعةِ التَّجاوُزِ بالمَغفِرةِ مُقَرَّرٌ في عِلمِ اللهِ مِن حينِ إنشاءِ آدَمَ مِنَ الأرضِ بالضَّعفِ الملازِمِ لجِنسِ البَشَرِ على تفاوُتٍ فيه؛ قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]؛ فإنَّ إنشاءَ أصلِ الإنسانِ مِن الأرضِ -وهي عُنصُرٌ ضَعيفٌ- يَقتَضي ملازَمةَ الضَّعفِ لجَميعِ الأفرادِ المنحَدِرةِ مِن ذلك الأصلِ(٢).

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ تَنبيهٌ على كَمالِ العِلمِ والقُدرةِ؛ فإنَّ بَطنَ الأُمِّ في غايةِ الظُّلمةِ، ومَن عَلِمَ بحالِ الجَنينِ فيها لا يَخفَى عليه ما ظَهَر مِن حالِ العِبادِ(٣).

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ دَليلٌ على تثبيتِ نَسَبِ ولدِ الزِّنا مِن أُمِّه، ومُغْنٍ عن قياسِه على وَلَدِ المُلاعَنةِ؛ لِدُخولِ ولَدِ الزِّنا -لا محالةَ- في هذا الخِطابِ، ونِسبتِه جلَّ وتعالى جميعَ الأَجِنَّةِ إلى الأُمَّهاتِ(٤).

٢٩- قَولُه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ دليلٌ على أنَّ الزَّكاةَ هي التَّقْوى، وعُلِم مِن ذلك أنَّ التَّزكيةَ هي الإخبارُ بالتَّقوى(٥).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٩١) و (١٦/ ١٩٩).

يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ لَمَّا بيَّنَ اللهُ أنَّ أُمورَ الدَّارَينِ بيَدِ اللهِ تعالى، وأنْ ليس للإنسانِ ما تَمنَّى، ضرَبَ لذلك مِثالًا مِن الأمانيِّ الَّتي هي أعظَمُ أمانيِّ المُشرِكين؛ وهي قولُهم في الأصنام: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣]، وقولُهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، فبيَّنَ إبطالَ قولِهم بطَريقِ فَحوى الخِطابِ؛ وهو أنَّ الملائكةَ الَّذين لهم شرَفُ المَنزلةِ -لأنَّ الملائكةَ مِن سُكَّانِ السَّمواتِ، فهمْ لا يَسْتطيعون إنكارَ أنَّهم أشرَفُ مِن الأصنامِ- لا يَملِكون الشَّفاعةَ إلَّا إذا أذِنَ اللهُ أنْ يُشفَعَ إذا شاء أنْ يَقبَلَ الشَّفاعةَ في المَشفوعِ له، فكيف يكونُ للمُشرِكينَ ما تَمنَّوا مِن شَفاعةِ الأصنامِ للمشركينَ الَّذين يَقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨]، وهي حِجارةٌ في الأرضِ، وليست مَلائكةً في السَّمواتِ؟! فثبَتَ أنْ لا شَفاعةَ إلَّا لِمَن شاء اللهُ، وقد نفَى اللهُ شَفاعةَ الأصنامِ، فبَطَلَ اعتقادُ المشرِكينَ أنَّهم شُفعاؤُهم، فهذه مُناسَبةُ عطْفِ هذه الجُملةِ على جُملةِ ﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ [النجم: ٢٤]، وليس هذا الانتِقالُ اقتضابًا لبَيانِ عِظَمِ أمْرِ الشَّفاعةِ(١).

- وفي هذا إقناطٌ لهم عمَّا علَّقوا به أطماعَهم مِن شَفاعةِ الملائكةِ لهم، مُوجِبٌ لإقناطِهم مِن شَفاعةِ الأصنامِ بطَريقِ الأَولويَّةِ(٢).

- وجُملةُ ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ...﴾ إلخ، خبَرٌ عن (كَمْ)، أي: لا تُغْني شَفاعةُ أحدِهم، فهو عامٌّ؛ لوُقوعِ الفِعلِ في سِياقِ النَّفْيِ، ولإضافةِ شَفاعةٍ إلى ضَميرِهم، أي: جَميعُ الملائكةِ -على كَثرتِهم وعُلوِّ مِقدارِهم- لا تُغْني شَفاعةُ واحدٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٢، ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٠).

منهم[١].

- و﴿شَيۡـٔٗا﴾ مَفعولٌ مُطلَقٌ -أي: لم تُذكَرْ مُتعلَّقاتُه- للتَّعميمِ، أي: شيئًا مِن الإغناءِ؛ لِزيادةِ التَّنصيصِ على عُمومِ نفْيِ إغناءِ شَفاعتِهم[٢].

- وفي قولِه: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم يقُلْ: (لا يَشفَعون)، مع أنَّ دَعْواهم: أنَّ هؤلاء شُفعاؤُنا، لا أنَّ شَفاعتَهم تَنفَعُ أو تُغْني، وقد قال تَعالى -في مواضِعَ أُخَرَ-: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؛ فنَفَى الشَّفاعةَ بدونِ الإذْنِ، وقال: ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا شَفِيعٍ﴾ [السجدة: ٤]؛ فنَفَى الشَّفيعَ، وهاهنا نَفى الإغناءَ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّهم كانوا يَقولون: هؤلاء شُفعاؤُنا، وكانوا يَعتقِدون نفْعَ شَفاعتِهم، كما قال تَعالى: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ثمَّ نقولُ: نفْيُ دَعواهم يَشتمِلُ على فائدةٍ عَظيمةٍ، أمَّا نفْيُ دَعواهم؛ لأنَّهم قالوا: الأصنامُ تَشفَعُ لنا شَفاعةً مُقرِّبةً مُغْنيةً! فقال: لا تُغْني شَفاعتُهم؛ بدليلِ أنَّ شَفاعةَ الملائكةِ لا تُغْني، وأمَّا الفائدةُ فلأنَّه لَمَّا استَثْنى بقولِه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾، أي: فيَشفَع، ولكنْ لا يكونُ فيه بَيانُ أنَّها تُقبَلُ وتُغْني أو لا تُقبَلُ، فإذا قال: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ﴾، ثمَّ قال: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾، فيَكونُ معناهُ: تُغْني؛ فتَحصُلُ البِشارةُ؛ لأنَّه تعالى قال: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧]، وقال تَعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: ٥]، والاستِغفارُ شَفاعةٌ. وأمَّا قولُه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فليس المرادُ نفْيَ الشَّفاعةِ وقَبولَها، كما في هذه الآيةِ حيثُ رَدَّ عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قولَهم، وإنَّما المرادُ عَظَمةُ اللهِ تَعالى، وأنَّه لا يَنطِقُ في حضْرتِه أحدٌ ولا يَتكلَّمُ، كما في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[1] [النبأ: ٣٨].

- ولَمَّا كان ظاهرُ قولِه: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾ يُوهِمُ أنَّهم قد يَشفَعون فلا تُقبَلُ شَفاعتُهم، وليس ذلك مُرادًا؛ لأنَّ المُرادَ أنَّهم لا يَجْرُؤونَ على الشَّفاعةِ عندَ اللهِ؛ فلذلك عُقِّبَ بالاستِثناءِ بقولِه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰ﴾، وذلك ما اقتضاهُ قولُه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقولُه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، أي: إلَّا مِن بَعْدِ أنْ يَأذَنَ اللهُ لأحدِهم في الشَّفاعةِ، ويَرضَى بقَبولِها في المَشفوعِ له، فالمُرادُ بـ ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مَن يَشاؤُه اللهُ منهم، أي: فإذا أذِنَ لأحدِهم قُبِلَت شَفاعتُه[2].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ هي اللَّامُ الَّتي تَدخُلُ بعدَ مادَّةِ الشَّفاعةِ على المشفوعِ له؛ فهي مُتعلِّقةٌ بشفاعتِهم، وليستِ اللَّامُ مُتعلِّقةً بـ ﴿يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾، ومَفعولُ ﴿يَأْذَنَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ﴾، وتَقديرُه: أنْ يَأْذنَهُم اللهُ. ويَجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ لتَعديةِ ﴿يَأْذَنَ﴾ إذا أُرِيدَ به معْنى يَستمِعُ. ومعْنى ذلك أنَّ الملائكةَ لا يَزالون يَتقرَّبون بطلَبِ إلْحاقِ المؤمنينَ بالمَراتبِ العُلْيا، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧]، وقولُه: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]؛ فإنَّ الاستغفارَ دُعاءٌ، والشَّفاعةَ تَوجُّهٌ أعْلى، فالملائكةُ يَعلَمون إذا أرادَ اللهُ استجابةَ دَعوتِهم في بَعضِ المؤمنينَ، أذِنَ لأحدِهم أنْ يَشفَعَ له عندَ اللهِ، فيَشفَعَ، فتُقبَلَ شَفاعتُه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٨/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٣، ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٤).

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ على ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ إذْنَ اللهِ بالشَّفاعةِ يَجْري على حسَبِ إرادتِه إذا كان المَشفوعُ له أهْلًا لأنْ يُشفَعَ له[1].

- وفي هذا الإبهامِ تَحريضٌ للمؤمنينَ أنْ يَجتهِدوا في التَّعرُّضِ لِرضا اللهِ عنهم؛ ليَكونوا أهْلًا للعفْوِ عمَّا فَرَّطوا فيه مِن الأعمالِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ۝ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ اعتِراضٌ واستِطرادٌ لِمُناسَبةِ ذِكرِ الملائكةِ، وتبَعًا لِما ذُكِرَ آنِفًا مِن جَعْلِ المشرِكين اللَّاتَ والعُزى ومَناةَ بَناتٍ للهِ بقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ١٩- ٢١]؛ ثُنِيَ إليهم عِنانُ الرَّدِّ والإبطالِ لزعْمِهم أنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ، جمْعًا بيْن رَدٍّ باطلَينِ مُتشابهينِ، وكان مُقْتضى الظَّاهِرِ أنْ يُعبَّرَ عن المَردودِ عليهم بضَميرِ الغَيبةِ تَبَعًا لقولِه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النجم: ٢٨]، فعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ بالمَوصوليَّةِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن التَّوبيخِ لهم، والتَّحقيرِ لعَقائدِهم؛ إذ كَفَروا بالآخرةِ، وقد تواتَرَ إثباتُها على ألْسِنةِ الرُّسلِ وعندَ أهْلِ الأديانِ المُجاورينَ لهم مِن اليهودِ والنَّصارَى والصَّابئةِ، فالمَوصوليَّةُ هنا مُستعمَلةٌ في التَّحقيرِ والتَّهكُّمِ نَظيرَ حِكايةِ اللهِ عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، إلَّا أنَّ التَّهكُّمَ المَحكيَّ هنالك تَهكُّمُ المُبطِلِ بالمُحقِّ؛ لأنَّهم لا يَعتقِدون وُقوعَ الصِّلةِ، وأمَّا التَّهكُّمُ هنا فهو تَهكُّمُ المُحِقِّ بالمُبطِلِ؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَضمونَ الصِّلةِ ثابتٌ لهم[١].

- وفي تَعليقِ تَسميتِهم الملائكةَ تَسميةَ الأُنثى بعَدَمِ الإيمانِ بالآخرةِ، إشعارٌ بأنَّها في الشَّناعةِ والفَظاعةِ واستِتْباعِ العقوبةِ في الآخرةِ بحيثُ لا يَجترِئُ عليها إلَّا مَن لا يُؤمِنُ بها رأْسًا[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ تَعريفُ الجِنسِ الَّذي هو في معْنى المُتعدِّدِ، والَّذي دَعا إلى هذا النَّظْمِ مُراعاةُ الفَواصلِ؛ ليَقَعَ لَفظُ ﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾ فاصِلةً[٣].

- جُملةُ ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿لَيُسَمُّونَ﴾، أي: يُثبِتونَ للملائكةِ صِفاتِ الإناثِ في حالِ انتِفاءِ عِلْمٍ منهم بذلك، وإنَّما هو تَخيُّلٌ وتَوهُّمٌ؛ إذ العِلمُ لا يكونُ إلَّا عن دَليلٍ لهم، فنَفْيُ العِلمِ مُرادٌ به نفْيُه ونفْيُ الدَّليلِ على طَريقةِ الكِنايةِ[٤].

- قولُه: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ مَوقِعُ هذه الجُملةِ ذو شُعَبٍ؛ فإنَّ فيها بَيانًا لجُملةِ ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾، وعَودًا إلى جُملةِ ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣]، وتأْكيدًا لمَضمونِها، وتَوطئةً لتَفريعِ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾[٥] [النجم: ٢٩].

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أُظهِرَ لَفظُ الظَّنِّ دونَ ضَميرِه؛ لتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بنفْسِها، فتَسيرَ مَسيرَ الأمثالِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٤، ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١١٦).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ونفْيُ الإغناءِ مَعناهُ نفْيُ الإفادةِ، أي: لا يُفيدُ شيئًا مِن الحقِّ؛ فحرْفُ (مِنْ) بَيانٌ، وهو مُقدَّمٌ على المُبيَّنِ، أعني ﴿شَيْـًٔا﴾[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ بعْدَ أنْ وصَفَ مَدارِكَهم الباطِلةَ وضَلالَهم، فَرَّعَ عليه أمْرَ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإعْراضِ عنهم؛ ذلك لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن وَصْفِ ضَلالِهم كان نَتيجةَ إعراضِهم عن ذِكرِ اللهِ، وهو التَّولِّي عن الذِّكْرِ، فحَقَّ أنْ يكونَ جَزاؤُهم عن ذلك الإعراضِ إعراضًا عنهم، فإنَّ الإعراضَ والتَّولِّي مُترادِفانِ أو مُتقارِبانِ[2].

- وماصَدَقَ[3] ﴿مَّن تَوَلَّىٰ﴾ القومُ الَّذين تَولَّوا، وإنَّما جَرَى الفِعلُ على صِيغةِ المُفرَدِ مُراعاةً للَفظِ (مَن)؛ ألَا تَرى قولَه: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم﴾ بضَميرِ الجمْعِ[4]؟

- وجِيءَ بالاسمِ الظَّاهرِ في مَقامِ الإضمارِ فقِيل: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾، دونَ: (فأعرِضْ عنهم)؛ لِما تُؤذِنُ به صِلةُ المَوصولِ مِن عِلَّةِ الأمْرِ بالإعراضِ عنهم، ومِن تَرتُّبِ تَولِّيهم عن ذِكرِ اللهِ على ما سبَقَ وصْفُه مِن ضَلالِهم؛ إذْ لم يَتقدَّمْ وصْفُهم بالتَّولِّي عن الذِّكْرِ، وإنَّما تَقدَّمَ وصْفُ أسبابِه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٦، ١١٧).

(٣) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ومعْنى ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ الإيمانِ بالحياةِ الآخِرةِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٣٠]؛ لأنَّهم لو آمَنوا بها على حَقيقتِها لَأرادُوها ولو ببَعضِ أعمالِهم(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾

- جُملةُ ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لقُصورِ هِمَمِهم بالدُّنيا، وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ بُيِّنَ به سَببُ جَهْلِهم بوُجودِ الحياةِ الآخِرةِ؛ لأنَّه لغَرابتِه ممَّا يَسأَلُ عنه السَّائلُ، وفيه تَحقيرٌ لهم، وازْدِراءٌ بهم بقُصورِ مَعلوماتِهم، وهذا الاستِئنافُ وقَعَ مُعترِضًا بيْنَ الجُمَلِ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ وعِلَّتِها في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ الآيةَ(٢).

- وفي تَعليلِ الأمرِ بإعراضِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ عن الاعتِناءِ بأمْرِهم باقتِصارِ العِلمِ بأحوالِ الفَريقينِ عليهِ تعالَى؛ رمْزٌ إلى أنَّه تعالَى يُعامِلُهم بمُوجَبِ عِلْمِه بهم، فيَجْزي كُلًّا منْهم بما يَليقُ بهِ مِن الجزاءِ؛ ففيهِ وَعيدٌ ووعْدٌ ضِمْنًا كما سيأْتي صَريحًا(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾، وهو تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والخبَرُ مُستعمَلٌ في معْنى أنَّه مُتولِّي حِسابِهم وجَزائِهم على طَريقةِ الكِنايةِ، وفيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦١).

وَعيدٌ للضَّالِّينَ[١].

- والتَّوكيدُ المُفادُ بحرْفِ (إنَّ) وبضَميرِ الفَصْلِ راجعٌ إلى المعْنى الكِنائيِّ، وأمَّا كونُه تعالى أعلَمَ بذلك، فلا مُقْتضى لتأْكيدِه؛ لمَّا كان المُخاطَبُ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعْنى: هو أعلَمُ منكَ بحالِهم[٢].

- وضَميرُ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ مُفيدٌ القصْرَ، وهو قصْرٌ حَقيقيٌّ[٣]، والمعْنى: أنتْ لا تَعلَمُ دَخائلَهم؛ فلا تَتحسَّرْ عليهم[٤].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تَتْميمٌ[٥]، وفيه وعْدٌ للمؤمنينَ، وبِشارةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٦].

- وتَكريرُ قولِه تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ﴾ لزِيادةِ التَّقريرِ، والإيذانِ بكَمالِ تَبايُنِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣-١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٨).

(٥) التَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٩).

المَعلومَينِ[١].

- والباءُ في ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وفي ﴿بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ لتَعديةِ صِفتَيْ (أعلَم)، وهي للمُلابَسةِ، أي: هو أشدُّ عِلمًا مُلابِسًا لِمَن ضَلَّ عن سَبيلِه، أي: مُلابِسًا لحالِ ضَلالِه[٢].

- وقَدَّم العِلمَ بمَن ضَلَّ على العِلمِ بالمُهتَدي، وكذا في كثيرٍ مِنَ المواضِعِ، منها قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧]، ومنها قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القلم: ٧]؛ ووَجْهُه: أنَّ المذكورَ في المواضِعِ كُلِّها نَبيُّه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- والمعانِدونَ؛ فذَكَرهم أوَّلًا تَهديدًا لهم، وتَسليةً لقَلبِ نَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣]، وأيضًا لأنَّ الضَّالِّينَ أهمُّ في هذا المَقامِ، وأمَّا ذِكرُ المُهتدينَ فتَتميمٌ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ...﴾ إلخ؛ فبَعْدَ أنْ ذكَرَ أنَّ للهِ أُمورَ الدَّارَينِ بقولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم: ٢٥]، انتقَلَ إلى أهمِّ ما يَجْري في الدَّارينِ مِن أحوالِ النَّاسِ الذين همْ أشرَفُ ما على الأرضِ، بمُناسَبةِ قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [النجم: ٣٠]، المُرادِ به الإشارةُ إلى الجَزاءِ، وهو إثباتٌ لوُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ ...﴾ يَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ بما في الخبَرِ مِن معْنى الكَونِ المقدَّرِ في الجارِّ والمجرورِ المُخبَرِ به عن ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: كائنٌ مِلْكًا للهِ كَونًا، عِلَّتُه أنْ يَجزيَ الَّذين أساؤُوا والَّذين أحْسَنوا مِن أهْلِ الأرضِ، وهم الَّذين يَصدُرُ منهم الإساءةُ والإحسانُ، فاللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ لامُ التَّعليلِ، جعَلَ الجزاءَ عِلَّةً لثُبوتِ مِلكِ اللهِ لِما في السَّمواتِ والأرضِ. وقيل: قولُه: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وهو مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩]، أي: فأعرِضْ عن دَعوةِ مَن تَدْعوه إلى لِقاءِ ربِّه والدَّارِ الآخِرةِ وهو يقولُ: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الجاثية: ٢٤]، والحالُ أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى إنَّما خلَقَ العالَمَ وسَوَّى هذا الملَكوتَ؛ ليَجزِيَ المُحسِنَ والمُسيءَ، ويكون قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ تعريضًا بهم، وبظَنِّهم الباطلِ أنَّهم يُتْرَكون سُدًى، ويَزعُمون أنَّ السَّمواتِ والأرضَ وما بيْنَهما خُلِقَ عبَثًا، وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الآيةَ على هذا اعتِراضٌ وتَوكيدٌ للتَّهديدِ والوعيدِ.

ويَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بقولِه: ﴿أَعْلَمُ﴾ مِن قولِه: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [النجم: ٣٠]، أي: مِن خَصائصِ عِلْمِه الَّذي لا يَعزُبُ عنه شَيءٌ أنْ يكونَ عِلْمُه مُرتَّبًا عليه الجَزاءُ[1].

- والباءانِ في قولِه: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ وقولِه: ﴿بِٱلْحُسْنَى﴾ لتَعديةِ فِعْلَيْ ﴿لِيَجْزِيَ﴾ ﴿وَيَجْزِيَ﴾؛ فما بعْدَ الباءَينِ في معْنى مَفعولِ الفِعلَينِ، فهما داخِلَتانِ على الجزاءِ، وقولُه: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ حينَئذٍ تَقديرُه: بمِثلِ ما عَمِلوا، أي: جَزاءً عادِلًا مُماثِلًا لِما

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٠).

عَمِلوا؛ فلذلك جُعِلَ بمَنزلةِ عَينِ ما عَمِلوه على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ[١].

- وقوله: ﴿بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ أي: بالمَثوبةِ الحُسنى، أي: بأفضلَ ممَّا عَمِلوا، وفيه إشارةٌ إلى مُضاعَفةِ الحَسَناتِ[٢].

- و(الْحُسْنَى) صِفةٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه (يَجزي)، وهي المَثوبةُ بمعْنى الثَّوابِ[٣].

- وجاء تَرتيبُ التَّفصيلِ لجَزاءِ المُسيئينَ والمُحسنينَ على وَفْقِ تَرتيبِ إجْمالِه الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠] على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُرتَّبِ[٤].

- وتَكريرُ الفِعلِ (يَجزي) لإبرازِ كَمالِ الاعتِناءِ بأمْرِ الجَزاءِ، والتَّنبيهِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مثل قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

تَبايُنِ الجَزاءَينِ[١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى في حقِّ المسيءِ: ﴿بِمَا عَمِلُوا﴾، وقال في حَقِّ المُحسِنِ: ﴿بِالْحُسْنَى﴾؛ ووجهُه: أنَّ جزاءَ المسيءِ عذابٌ؛ فنَبَّه على ما يَدفَعُ الظُّلمَ، فقال: لا يُعذِّبُ إلَّا عن ذَنْبٍ. وأمَّا في الحُسنَى فلم يقُلْ: (بما عمِلوا)؛ لأنَّ الثَّوابَ إنْ كان لا علَى حَسنةٍ يكونُ في غايةِ الفَضلِ، فلا يُخِلُّ بالمعنَى، هذا إذا قُلنا: الحُسنَى هي المَثوبةُ بالحُسنَى، وأمَّا إذا قُلْنا: الأعمالُ الحُسنَى؛ ففيه لطيفةٌ غيرُ ذلك، وهي أنَّ أعمالَهم لم يُذكَرْ فيها التَّساوي، وقال في أعمالِ المُحسنِينَ: الحسنَى؛ إشارةً إلى الكَرمِ والصَّفحِ، حيثُ ذكَرَ أحْسَنَ الاسمَينِ، والحُسنَى صِفةٌ أُقيمتْ مُقامَ المَوصوفِ، كأنَّه تعالَى قال: بالأعمالِ الحُسنَى، كقولِه تعالى: ﴿الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وحينَئذٍ هو كقولِه تعالَى: ﴿لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧]، أي: يأخُذُ أحْسنَ أعمالِهم ويَجعَلُ ثوابَ كلِّ ما وُجِدَ منهم لجزاءِ ذلك الأحسَنِ، أو هي صِفةُ المَثوبةِ، كأنَّه قال: ويَجزي الَّذين أحْسَنوا بالمَثوبةِ الحُسنَى، أو بالعاقِبةِ الحُسنَى، أي: جزاؤُهم حُسنُ العاقبةِ، وهذا جزاءٌ فحَسْبُ، وأمَّا الزِّيادةُ -الَّتي هي الفَضلُ بعْدَ الفَضلِ- فغيرُ داخلةٍ فيه[٢].

وقيل: لم يقلْ: (بما عملوا)؛ لأنَّ فضْلَ اللهِ أوسعُ مِن أعمالِنا[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٢٩).

- صِيغةُ المُضارِعِ ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ دالَّةٌ على الاستِقبالِ، وعلى تَجدُّدِ الاجتِنابِ واستِمرارِه[١].

- قُرِئَ ﴿كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ بصِيغةِ الإفرادِ والتَّذكيرِ[٢]؛ لأنَّ اسمَ الجِنسِ يَسْتوي فيه المُفرَدُ والجمْعُ[٣].

- وعطْفُ الفواحشِ يَقْتضي أنَّ المعطوفَ بها مُغايِرٌ للكبائرِ، ولكنَّها مُغايَرةٌ بالعُمومِ والخُصوصِ الوجْهيِّ؛ فالفواحشُ أخصُّ مِن الكَبائرِ، وهي أقْوى إثْمًا[٤].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ استِثناءُ اللَّمم استِثناءٌ مُنقطِعٌ -على قولٍ-؛ لأنَّ اللَّمَمَ ليس مِن كبائرِ الإثمِ ولا مِن الفواحشِ، فالاستِثناءُ بمعْنى الاستِدراكِ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في الكَبائرِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال في عبادةِ الطَّاغوتِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١٧]، والفرْقُ -مِن جِهةِ زمَنِ الفعلِ-: أنَّ عِبادةَ الطَّاغوتِ راجعةٌ إلى الاعتِقادِ، والاعتِقادُ إذا وُجِدَ دامَ ظاهرًا؛ فمَنِ اجتَنَبَها اعتَقَدَ بُطلانَها فيَستمِرُّ. وأمَّا مِثلُ الشُّربِ والزِّنا فأمرٌ تَختلِفُ أحوالُ النَّاسِ فيه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢).

(٢) وهي قراءةُ حمزةَ والكِسائيِّ وخلَفٍ، وقرأ الباقون ﴿كَبَٰٓئِرَ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢١، ١٢٢).

فيَترُكُه زَمانًا ويَعودُ إليه، فقال في الآثامِ: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ دائمًا، ويُثابِرونَ على التَّركِ أبدًا، وفي عِبادةِ الأصنامِ: ﴿ٱجۡتَنَبُواْ﴾ بصِيغةِ الماضي؛ لِيَكونَ أدَلَّ على الحُصولِ، ولأنَّ كَبائرَ الإثمِ لها عددُ أنواعٍ؛ فيَنْبغي أنْ يُجتنَبَ عن نوعٍ، ويُجتنَبَ عن آخَرَ، ويُجتنَبَ عن ثالثٍ؛ ففيه تَكرُّرٌ وتَجدُّدٌ؛ فاستُعمِلَ فيه صِيغةُ الاستِقبالِ، وعِبادةُ الصَّنمِ أمْرٌ واحدٌ مُتَّحِدٌ؛ فتُرِكَ فيه ذلك الاستِعمالُ، وأُتِيَ بصِيغةِ الماضي الدَّالَّةِ على وُقوعِ الاجتِنابِ لها دَفْعةً[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾ تَعليلٌ لاستِثناءِ اللَّمَمِ مِنِ اجتنابِهم كَبائرَ الإثمِ والفواحشَ شرْطًا في ثُبوتِ وصْفِ الَّذين أحْسَنوا لهم، وتَنْبيهٌ على أنَّ إخراجَه عن حُكمِ المُؤاخَذةِ به ليسَ لخُلُوِّهِ عن الذَّنْبِ في نفْسِه، بل لِسَعةِ المَغفرةِ الرَّبَّانيَّةِ[٢].

- وفي بِناءِ الخبَرِ على جَعْلِ المُسنَدِ إليه ﴿رَبَّكَ﴾ دونَ الاسمِ العَلَمِ: إشعارٌ بأنَّ سَعةَ المَغفرةِ رِفقٌ بعِبادِه الصَّالِحينَ، شأْنَ الرَّبِّ معَ مَربوبِه الحقِّ[٣].

- والواسعُ: الكثيرُ المَغفرةِ، عُبِّرَ بالسَّعةِ عن كَثرةِ الشُّمولِ؛ لأنَّ المكانَ الواسِعَ يُمكِنُ أنْ يَحتويَ على العدَدِ الكثيرِ ممَّنْ يَحِلُّ فيه[٤].

- وجُملةُ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ ...﴾ إلخ استِئنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾؛ لِما تَضمَّنَتْه مِن الامتِنانِ، فكأنَّ السَّامِعينَ لَمَّا سَمِعوا ذلك الامتِنانَ، شَكَروا اللهَ وهجَسَ في نُفوسِهم خاطرُ البَحثِ عن سَببِ هذه الرَّحمةِ بهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢٣).

فأُجيبوا بأنَّ ربَّهم أعلَمُ بحالِهم مِن أنفُسِهم؛ فهو يُدبِّرُ لهم ما لا يَخطُرُ ببالِهم[١].

- وقوله: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ صِفةٌ كاشِفةٌ[٢]؛ إذ الجَنينُ لا يُقال إلَّا على ما في بطْنِ أُمِّه، وفائدةُ هذا الكشْفِ أنَّ فيه تَذكيرًا باختلافِ أطْوارِ الأجِنَّةِ مِن وَقتِ العُلوقِ إلى الوِلادةِ، وإشارةً إلى إحاطةِ عِلمِ اللهِ تعالى بتلك الأطْوارِ[٣].

- وجُملةُ ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ وجُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ [النجم: ٣٣] إلخ، والفاءُ لتَفريعِ الاعتِراضِ[٤]. أو الفاءُ لتَرتيبِ النَّهيِ عن تَزْكيةِ النَّفْسِ على ما سبَقَ مِنْ أنَّ عدَمَ المُؤاخَذةِ باللَّمَمِ ليسَ لعدَمِ كَونِه مِن قَبيلِ الذُّنوبِ، بلْ لمَحْضِ مَغفرتِه تعالى مع عِلْمِه بصُدورِه عنكُم، أي: إذا كان الأمرُ كذلكَ، فلا تُثْنوا عليها بالطَّهارةِ عن المعاصِي بالكُلِّيَّةِ، أو بما يَستلزِمُها مِن زَكاءِ العمَلِ ونَماءِ الخَيرِ، بلِ اشكرُوا اللهَ تعالى على فضْلِه ومَغفرتِه[٥].

- ولَفظُ ﴿تُزَكُّوٓاْ﴾ مُضارِعُ (زكَّى) الَّذي هو مِن التَّضعيفِ المُرادِ منه نِسبةُ المَفعولِ إلى أصْلِ الفِعلِ، نحْو (جهَّلَه)، أي: لا تَنسُبوا لأنفسِكُم الزَّكاةَ، فقولُه: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ صادقٌ بتَزكيةِ المرْءِ نفْسَه في سِرِّه أو عَلانيتِه، فرجَعَ الجمْعُ في قولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾ إلى مُقابَلةِ الجمْعِ بالجمْعِ التي تَقتضي التَّوزيعَ على الآحادِ، مِثلُ: ركِبَ القومُ دَوابَّهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٤).

(٢) تقدَّم تعريفُها (ص: ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٥).

- ووَقَعَتْ جُملةُ ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ مَوقعَ البَيانِ لسَببِ النَّهيِ، أو لأهمِّ أسبابِه، والمعْنى: فَوِّضوا ذلك إلى اللهِ؛ إذ هو أعلَمُ بمَنِ اتَّقى، أي: بحالِ مَنِ اتَّقى؛ مِنْ كَمالِ تَقْوًى، أو نَقْصِها، أو تَزييفِها[1]. أو هو استِئنافٌ مُقرِّرٌ للنَّهيِ، ومُشعِرٌ بأنَّ فيهم مَن يَتَّقِيها بأسْرِها[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٢).

## الآيات (٢٢-٥٥)

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾
أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾
وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ
﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ
خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ
وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ
نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ
ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾: أي: مَنَع وانقَطَع، وأصلُه مِنَ الكُدْيةِ -وهي ما صَلُبَ مِنَ الأرضِ- يقالُ لِمَن حفَرَ بئرًا ثمَّ بَلَغ إلى حَجَرٍ لا يتهَيَّأُ له فيه حَفرٌ: قد أكْدَى، فشُبِّه الرَّجُلُ إذا أعطَى يسيرًا ثمَّ قَطَع بالحافرِ يَحفِرُ فيُكْدي فيُمْسِكُ عن الحفرِ(١).

﴿يُنَبَّأْ﴾: أي: يُخْبَرْ، والنَّبَأُ: الخَبَرُ ذو الفائدةِ العَظيمةِ يَحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والخبرُ يَأْتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ(٢).

﴿وَفَّىٰٓ﴾: أي: أكمَلَ وأتمَّ ما يَجِبُ للهِ تعالى عليه بالطَّاعةِ والصَّبرِ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨).

(وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[١].

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾: أي: لا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ إثْمَ نفْسٍ أُخرى، ولا تُؤخَذُ نفْسٌ بذَنْبِ غَيرِها، والوِزْرُ: الإثمُ والثِّقْلُ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقْلِ في الشَّيءِ[٢].

﴿ٱلْأَوْفَىٰٓ﴾: أي: الأكمَلَ والأتَمَّ، وأصلُ (وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[٣].

﴿نُّطْفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[٤].

﴿تُمْنَىٰ﴾: أي: تُصَبُّ، وتُلقَى في الرَّحِم، مِن قَولِك: أَمْنَى الرَّجُلُ: إذا خرَجَ منه المَنِيُّ، والمَنِيُّ: الماءُ الَّذي يُخلَقُ ويُقدَّرُ منه الوَلَدُ، ويَحتَمِلُ أن يكونَ مِن قَولِك: مَنَى اللهُ الشَّيءَ: إذا خَلَقه، فكأنَّه قال: تُخْلَقُ وتُقَدَّرُ، وأصلُ (مني): يدُلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٥٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٦).

قال الشنقيطي: (النُّطْفة مختلِطةٌ مِنْ ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لِمَنْ زَعَم أنَّها مِن ماءِ الرَّجُلِ وحْدَه). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٦٦). وذكَر الدَّليلَ على ذلك في موضِعٍ آخَرَ، فقال: (بدليلِ قولِه تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢]، أي: أخلاطٍ مِنْ ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٣٣٠).

على تقديرِ شَيءٍ ونَفاذِ القَضاءِ به، وماءُ الإنسانِ مَنِيٌّ، أيْ: يُقَدَّرُ منه خِلْقَتُه[١].

﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾: أي: الخَلْقَ الثَّانيَ لِلبَعثِ يومَ القيامةِ، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتِفاعٍ في شَيءٍ[٢].

﴿وَأَقْنَىٰ﴾: أي: أعطاهم قُنْيَةً يَقتَنونَها مِن أُصولِ الأموالِ وما يَدَّخِرونَه بعدَ الكِفايةِ؛ مِن قُنْيَةِ المالِ: وهو كَسْبُه وادِّخارُه، يُقالُ: أقْناه اللهُ مالًا: أي: أَكْسَبه إيَّاه، وقيل غيرُ ذلك[٣].

﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾: اسمُ نَجمٍ في السَّماءِ، وكان ناسٌ في الجاهليَّةِ يَعبُدونَها[٤].

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾: أي: قُرى قَومِ لُوطٍ المَخْسوفَ بها الَّتي ائتَفَكَت بأهلِها: أي: انقَلَبَت فصار أعلاها أسفَلَها، ومعنى الائتِفاكِ في اللُّغةِ: الانقِلابُ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ شَيءٍ وصَرفِه عن جِهتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٣).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٩)، =

﴿أَهْوَىٰ﴾: أي: طَرَحَها مِن هواءٍ عالٍ إلى أسفَلَ، وأصلُ (هوي): يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[١].

﴿فَغَشَّىٰهَا﴾: أي: ألبَسَها، والتَّغْشيةُ: إلباسُ الشَّيءِ الشَّيءَ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تَغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[٢].

﴿ءَالَآءِ﴾: أي: نِعَمِ، واحِدُها أَلًى وإِلًى[٣].

﴿تَتَمَارَىٰ﴾: أي: تَرتابُ وتَشُكُّ وتُجادِلُ، والمِرْيةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهو أخَصُّ مِنَ الشَّكِّ، وأصلُ (مري): يدُلُّ على صَلابةٍ في شَيءٍ؛ لأنَّ المِراءَ كَلامٌ فيه بَعضُ الشِّدَّةِ[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٥٤٦) و (٢١/ ٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

قَولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾: أَنْ: مُخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلةِ، واسمُها ضَميرُ الشَّأنِ مَحذوفٌ، أي: أنَّه. والجُملةُ المَنفيَّةُ (لا تَزِرُ) في محَلِّ رَفعٍ خَبَرُ «أَنْ» المخفَّفةِ، والمَصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾: في محَلِّ جَرٍّ بَدَلٌ مِن «ما» في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ﴾، والتَّقديرُ: بأنَّه لا تَزِرُ وازِرةٌ...

ويجوزُ أن يكونَ المصدَرُ المُؤَوَّلُ ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾: في محَلِّ رَفعٍ خَبَرًا لِمُبتدأٍ مَحذوفٍ، أي: ذلك أَنْ لا تَزِرُ، أو هو أنْ لا تَزِرُ. وجملةُ «هُو أَنْ لا تَزِرُ» استِئنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ، وهو استِئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيلَ: ما في صُحُفِهما؟ فقيلَ: هو ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾. ويجوزُ أن يكونَ المصدَرُ في محَلِّ نَصبٍ على المفعوليَّةِ بإضمارِ «أعني»[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى ذامًّا مَنْ أعرَض عن الحقِّ: أفرَأيتَ -يا محمَّدُ- الَّذي أعرَضَ عن الحَقِّ، وأعطى قليلًا مِنَ الخَيرِ ثمَّ انقَطَع عنه، أعِندَه عِلمُ الغَيبِ، فهو يَراه؟! أم لمْ يُخبَرْ هذا الكافِرُ بما في التَّوراةِ الَّتي أنزَلَها اللهُ على موسى، وبما في صُحُفِ إبراهيمَ الَّذي أكمَلَ وأتمَّ شَرائِعَ الإسلامِ الَّتي فرَضَها اللهُ عليه؟!

وذلك الَّذي في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى هو أنَّه لا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ ذَنْبَ نفْسٍ أُخرى، وأنَّه ليس للمَرءِ في الآخِرةِ إلَّا ما عَمِلَه في الدُّنيا، وأنَّ عَمَلَ كُلِّ عاملٍ سوف يُرى ويُشاهَدُ يومَ القيامةِ، ثمَّ يُجزَى على سَعْيِه الجزاءَ التَّامَّ الأكمَلَ!

ثمَّ يقولُ الله تعالى مبيِّنًا جانبًا مِن مظاهرِ قدرتِه ورحمتِه: وأنَّ إلى ربِّك -يا محمَّدُ- مَرجِعَ ومَصيرَ جَميعِ العِبادِ، وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أضحَكَ وأبكى،

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٥)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١١٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٦٥).

وأنَّه تعالى هو الَّذي أمات وأحيا، وأنَّه تعالى خَلَق الصِّنفَينِ -الذَّكَرَ والأُنثى- مِن نُطفةِ مَنِيٍّ حينَ تُصَبُّ في الأرحامِ، وأنَّ عليه تعالى إعادةَ المخلوقاتِ بعدَ مَوتِهم، وأنَّه تعالى هو الَّذي أغنى مَن شاءَ مِن عِبادِه، وجَعَل لِمَن شاءَ منهم ما يَقتَنيه ويَدَّخِرُه بَعْدَ كِفايتِه، وأنَّه تعالى هو خالِقُ نَجمِ الشِّعْرَى!

وأنَّه تعالى أهلَكَ عادًا قَومَ هُودٍ، وثَمودَ قَومَ صالحٍ، فما أبقى منهم أحَدًا، وأهلَكَ بالغَرَقِ قَومَ نُوحٍ مِن قَبْلِ عادٍ وثَمودَ؛ إنَّهم كانوا هم أشَدَّ ظُلمًا، وأعظَمَ كُفرًا وطُغيانًا، وقَلَبَ قَريةَ قَومِ لُوطٍ؛ فجَعَل عالِيَها سافِلَها، فغطَّى تلك القَريةَ ما غَطَّاها مِنَ الحِجارةِ الَّتي أُمطِرَت عليهم. فبأيِّ نِعَمِ رَبِّك تَرتابُ وتُكذِّبُ وتُجادِلُ، أيُّها الإنسانُ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ جَهْلَ المُشرِكينَ في عِبادةِ الأصنامِ؛ ذَكَر واحِدًا منهم مُعَيَّنًا بسُوءِ فِعْلِه[1].

﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾.

أي: أفرأيتَ -يا محمَّدُ- الَّذي أعرَضَ عن الحَقِّ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٩).

واستظهر الرَّازيُّ أنَّ ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ في هذه الآيةِ يعودُ إلى المُتوَلِّي في قَولِه تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ [النجم: ٢٩]، فهو عامٌّ غيرُ مُختَصٍّ بواحدٍ مِنَ المعانِدينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٢، ٢٧٣).

=

كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۞ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: وأعطَى قليلًا مِنَ الخَيرِ ثمَّ انقَطَع عنه، ولم يَستَمِرَّ على ذلك[1]!

﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: أعِندَه عِلمُ ما غاب عن النَّاسِ، فهو يراه[2]؟!

---

= وقال ابنُ عاشور: (اتَّفق المفَسِّرون والرُّواةُ على أنَّ المرادَ به هنا مُعَيَّنٌ... واختَلَفوا في تعيينِ هذا ﴿ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۞ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا﴾؛ فروى الطَّبريُّ عن مجاهِدٍ وابنِ زَيدٍ: أنَّ المرادَ به: الوليدُ بنُ المُغيرةِ... وروى القرطبيُّ عن السُّدِّيِّ: أنَّها نزَلَت في العاصي بنِ وائلٍ السَّهْميِّ، وعن محمَّدِ ابنِ كَعبٍ: نزَلَت في أبي جَهلٍ، وعن الضَّحَّاكِ: نزَلَت في النَّضرِ بنِ الحارثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١، ٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١١، ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٧).

قال ابنُ جرير: (ذُكِرَ أنَّ هذه الآيةَ نَزَلت في الوليدِ بنِ المُغيرةِ؛ مِن أجْلِ أنَّه عاتَبَه بَعضُ المُشرِكينَ، وكان قد اتَّبَع رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على دينِه، فضَمِنَ له الَّذي عاتَبَه إنْ هو أعطاه شَيئًا مِن مالِه ورَجَع إلى شِرْكِه أن يتحَمَّلَ عنه عذابَ الآخرةِ، ففَعَل، فأعطى الَّذي عاتَبَه على ذلك بَعضَ ما كان ضَمِنَ له، ثمَّ بَخِلَ، ومَنَعَه تمامَ ما ضَمِنَ له!). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١).

قال أبو حيان: (﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ قال ابنُ عبَّاس: أطاع قليلًا ثمَّ عصى.

وقال مجاهِدٌ: أعطى قليلًا مِن نَفْسِه بالاستِماعِ، ثمَّ أكْدَى بالانقِطاعِ.

وقال الضَّحَّاكُ: أعطى قليلًا مِن مالِه ثمَّ مَنَع.

وقال مقاتِلٌ: أعطى قليلًا مِنَ الخَيرِ بلِسانِه ثمَّ قَطَع). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٢/ ٤٨٤).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المعنى: وأعطى قليلًا مِن مالِه، ثمَّ بَخِلَ عليه فمَنَعه ولم يستَمِرَّ في عَطائِه: ابنُ جرير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٢)، ((تفسير =

﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان هذا الَّذي تولَّى قد يظُنُّ أنَّ عَمَلَ غَيرِه يَنفَعُه، عَبَّرَ عنه جامِعًا للوَعظِ والتَّهويلِ، بقَولِه[1]:

﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ ﴾.

أي: أم لمْ يُخبَرْ هذا الكافِرُ بما في التَّوراةِ الَّتي أنزَلَها اللهُ على موسى[2]؟!

﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧ ﴾.

أي: أم لمْ يُخبَرْ أيضًا بما في صُحُفِ إبراهيمَ الَّذي أطاع اللهَ تعالى في جميعِ أوامِرِه ونواهيه، وأكمَلَ شَرائِعَ الإسلامِ الَّتي فرَضَها اللهُ عليه، فلم يَنقُصْ منها

---

= ابن كثير)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: أعِندَ هذا الَّذي ضَمِنَ له صاحِبُه أن يتحَمَّلَ عنه عذابَ اللهِ في الآخرةِ عِلمُ الغَيبِ، فهو يرى حقيقةَ قَولِه، ووفاءَه بما وَعَده؟!). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٤).

وقال الشنقيطي: (الآيةُ تدُلُّ على أنَّ سَبَبَ النُّزولِ لا يَخلو مِن إعطاءِ شَيءٍ في مُقابَلةِ تحَمُّلِ الذُّنوبِ عمَّن أعطى؛ لأنَّ فاعِلَ ذلك ليس عِندَه عِلمُ الغَيبِ؛ فيَعلَمَ به أنَّ الَّذي ضَمِنَ له تحمُّلَ ذُنوبِه يَفعَلُ ذلك، ولم يُنَبَّأْ بما في الصُّحُفِ الأُولى مِن ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٧٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: أم لم يُخْبَرْ هذا المَضمونُ له أن يُتحَمَّلَ عنه عذابُ اللهِ في الآخِرةِ بالَّذي في صُحُفِ موسى بنِ عِمْرانَ صَلَواتُ الله عليه ...؟!). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٤).

شَيئًا[١]؟

كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ * فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ * وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ * وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصافات: ١٠١ - ١١١].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩].

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: وذلك الَّذي في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى هو أنَّه لا تَحمِلُ نَفْسٌ آثِمةٌ ذَنْبَ نفْسٍ أُخرى؛ فكُلُّ إنسانٍ يُجازَى بعَمَلِه، ولا يَحمِلُ ذنْبَ غَيرِه[٢]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٤، ٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٣)، ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٩)، ((السنن الكبرى)) للبيهقي (٨/ ٥٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٢).

قال ابنُ جريرٍ: (وإنَّما عَنَى بقَولِه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ الَّذي ضَمِنَ للوَليدِ بنِ المُغيرةِ أن يتحَمَّلَ عنه عذابَ اللهِ يومَ القيامةِ! يقولُ: ألم يُخبَرْ قائِلُ هذا القَولِ وضامِنُ هذا الضَّمانِ =

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا * مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٣ - ١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نَفَى أن يَضُرَّه إثمُ غَيرِه؛ نَفَى أن يَنفَعَه سَعيُ غَيرِه، فقال[1]:

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وأنَّه ليس للمَرءِ في الآخِرةِ إلَّا ما عَمِلَه في الدُّنيا[2].

---

= بالَّذي في صُحُفِ موسى وإبراهيمَ؛ مَكتوبٌ: أنْ لا تأثَمُ آثِمةٌ إثمَ أُخرى غَيرِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٢).

قال أبو حيان: (﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: الظَّاهِرُ أنَّ الإنسانَ يَشملُ المُؤْمنَ والكافرَ، وأنَّ الحصرَ في السَّعيِ، فليس له سَعْيُ غيرِه، وقال عِكْرِمةُ: كان هذا الحُكمُ في قومِ إبراهيمَ وموسى، وأمَّا هذه الأمَّةُ فلها سعيُ غيرِها... وقال الرَّبيعُ: الإنسانُ هنا الكافرُ، وأمَّا المؤمنُ فله ما سعى وما سعى له غيرُه). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤). =

كما قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ثَبَت أنَّه ليس له ولا عليه إلَّا ما عَمِلَ، وكان في الدُّنيا قد يَفعَلُ الشَّيءَ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ ولا يَراه مَن فَعَله مِن أجْلِه ولا غَيرُه؛ نفى أن تكونَ الآخرةُ كذلك،

---

= قال السَّمعاني: (قولُه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ مَعْناهُ: إنْ سعى في الخَيرِ يَلْقَ الخَيْرَ، وإنْ سعى في الشَّرِّ يَلْقَ الشَّرَّ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠١).

وقال ابن كثير: (﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: كما لا يُحمَلُ عليه وِزْرُ غيرِه، كذلك لا يُحصِّلُ مِن الأجرِ إلَّا ما كسَبَ هو لِنَفْسِه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥).

واختار ابنُ عاشور أنَّ المرادَ بالسَّعيِ هنا: عمَلُ الخَيرِ وما سعاه مِن الأعمالِ الصَّالحةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٢).

وقال الرَّازي: (قولُه تعالى: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ ليس المرادُ منه أنَّ له عيْنَ ما سعى، بل المرادُ... ليس له إلَّا ثوابُ ما سعى، أو إلَّا أجرُ ما سعى، أو يقالُ بأنَّ المرادَ: أنَّ ما سعى محفوظٌ له، مَصونٌ عن الإحباطِ؛ فإذَنْ له فِعلُه يومَ القيامةِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٦).

وقال ابنُ جُزَي: (اتَّفَق العلماءُ على أنَّ الأعمالَ الماليَّةَ -كالصَّدقةِ والعِتقِ- يجوزُ أن يَفعَلَها الإنسانُ عن غيرِه، ويَصِلُ نفعُها إلى مَن فُعِلَتْ عنه. واختلَفوا في الأعمالِ البدَنيَّةِ، كالصَّلاةِ والصِّيامِ. وقيل: إنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بقولِه: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]. والصَّحيحُ أنَّها مُحْكَمةٌ؛ لأنَّها خبَرٌ، والأخبارُ لا تُنسَخُ.

وفي تأويلِها ثلاثةُ أقوالٍ؛ الأوَّلُ: أنَّها إخبارٌ عمَّا كان في شريعةِ غيرِنا، فلا يَلزَمُ في شريعتِنا. الثَّاني: أنَّ للإنسانِ ما عَمِل بحقٍّ، وله ما عَمِل له غيرُه بهِبَةِ العاملِ له، فجاءت الآيةُ في إثباتِ الحقيقةِ دونَ ما زاد عليها. الثَّالثُ: أنَّها في الذُّنوبِ، وقد اتُّفِق أنَّه لا يَحتملُ أحدٌ ذنْبَ أحدٍ، ويدُلُّ على هذا قولُه بعدَها: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وكأنَّه يقولُ: لا يؤاخَذُ أحدٌ بذنْبِ غيرِه، ولا يؤاخَذُ إلَّا بذنْبِ نفْسِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٠).

فقال[١]:

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أي: وأنَّ عَمَلَ كُلِّ عاملٍ سوف يُرى ويُشاهَدُ يومَ القيامةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٩).

قيل: إنَّ المعنى: يُعرَضُ عليه، ويُكشَفُ له، أي: أنَّ اللهَ تعالى يُريه إيَّاهُ -مِن أرَيْتُه الشَّيءَ- فيرى العبدُ عمَلَه يومَ القيامةِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: السَّمعانيُّ، والرازي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٢).

وقال القرطبي: (أي: يُريه اللهُ تعالى جزاءَه يومَ القيامةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٥). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٤٩٥).

قال الرازي: (وفيه بِشارةٌ للمؤمنينَ...، وذلك أنَّ اللهَ يُريه أعمالَه الصَّالحةَ؛ لِيَفرَحَ بها. أو يكونُ يُري ملائكتَه وسائرَ خَلْقِه؛ لِيَفتخِرَ العاملُ به على ما هو المشهورُ، وهو مذكورٌ لفرَحِ المسلِمِ ولحزنِ الكافرِ؛ فإنَّ سَعْيَه يُرى للخَلقِ، ويُرى لنفْسِه). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٧).

ويحتمِلُ أن يكونَ قولُه: ﴿يُرَىٰ﴾ مِن رأى يَرى، فيكونَ كقولِه تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ١٠٥]. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٤).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: وأنَّ عمَلَ كلِّ عاملٍ سوف يَراه يومَ القيامةِ مَن ورَدَ القيامةَ، بالجزاءِ الَّذي يُجازَى عليه؛ خيرًا كان أو شرًّا، لا يؤخَذُ بعقوبةِ ذنْبٍ غيرُ عامِلِه، ولا يُثابُ على صالِحِ عمَلٍ عامِلٌ غيرُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٠).

وقال ابن جُزَي: (﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ قيل: معناه: يَراه الخَلقُ يومَ القيامةِ، والأظهرُ أنَّه صاحِبُه؛ لقولِه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٠).

وقال مكِّي: (قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ أي: وإنَّ عمَلَ كلِّ عامِلٍ سوف يَراه اللهُ يومَ القيامةِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٧١٧٢). =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

أي: ثمَّ يَجزيه اللهُ على سَعْيِه الجزاءَ الأَوفَرَ التَّامَّ[1].

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: وأنَّ إلى ربِّك -يا محمَّدُ- مَرجِعَ ومَصيرَ جَميعِ العِبادِ، لا إلى غَيرِه[2].

---

= وقال ابن عطيَّة: (وقولُه: ﴿يُرَىٰ﴾ فاعِلُه حاضِرو القيامةِ، أي: يَراه الله ومَن شاهَدَ الأمرَ، وفي عَرضِ الأعمالِ على الجميعِ تشريفٌ للمُحسِنينَ، وتَوبيخٌ للمُسيئينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧).

وذهب ابنُ عثيمينَ إلى أنَّ الآيةَ عامَّةٌ، أي: أنَّ عمَلَه سوف يُرَى في الدُّنيا وفي الآخرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٥).

وذهب ابنُ قُتَيْبةَ إلى أنَّ معنى قولِه: ﴿سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: يُعلَمُ. يُنظر: ((غريب القرآن)) (ص: ٤٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٠).

قال ابنُ عاشور: (﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾: اسمُ تَفضيلٍ مِنَ الوَفاءِ، وهو التَّمامُ والكَمالُ، والتَّفضيلُ مُستَعمَلٌ هنا في القُوَّةِ، وليس المرادُ تَفضيلَه على غَيرِه. والمعنى: أنَّ الجزاءَ على الفِعلِ مِن حَسَنٍ أو سَيِّئٍ مُوافِقٌ للمَجْزيِّ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٠).

وقال ابنُ عثيمين: (الأكمَلُ والأَوفى في الصَّالِحِ: زيادةُ المَثوبةِ، والأَوفى في السَّيِّئِ: العَدلُ، بحيثُ لا يُزادُ في سَيِّئاتِه، وعلى هذا فالأَوفى يُفَسَّرُ بمعنى العَدلِ، ويُفَسَّرُ بالزِّيادةِ والفَضلِ؛ العَدلُ في السَّيِّئةِ: لا يُمكِنُ أن يُزادَ سَيِّئةً، والفَضلُ في الحَسَناتِ: الحَسَنةُ بعَشرِ أمثالِها إلى سَبْعِمِئَةِ ضِعفٍ إلى أضعافٍ كَثيرةٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٣٨). =

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

انتِقالٌ مِنَ الاعتِبارِ بأحوالِ الآخِرةِ إلى الاعتِبارِ بأحوالِ الحياةِ الدُّنيا[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تعالى الأُمورَ الاختياريَّةَ وقَدَّمَها لأنَّها مَحَطٌّ للبَلاءِ، وسَلَب عِلْمَها عن أصحابِها، وحَذَّرَ مِن عاقِبَتِها بإحاطتِه بكُلِّ شَيءٍ، وكان معنى ذلك أنَّه القادِرُ على غَيرِه، والعالِمُ لا غَيرُه؛ عَطَف عليه قَولَه ذاكِرًا للأُمورِ الاضطراريَّةِ الَّتي هي في غايةِ التَّنافي؛ إكمالًا للدَّليلِ على أنَّه يَعلَمُ ما في النُّفوسِ دونَ أصحابِها وغَيرِهم، وأنَّه إليه المُنتهَى إعادةً وإبداءً[2].

وأيضا إنَّما جَرَى ذِكْرُ الإضحاكِ والإبكاءِ في هذا المَقامِ؛ لمُناسَبةِ أنَّ الجزاءَ الأَوفى لسعْيِ النَّاسِ: بعضُه سارٌّ لفريقٍ، وبَعضُه مُحزِنٌ لفريقٍ آخَرَ[3].

---

= وممَّن قال بالمعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: المصادر السابقة.

وذهب البِقاعي والسعدي إلى ما هو أعَمُّ مِن معنى الرُّجوعِ الأُخرويِّ إلى اللهِ تعالى. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

قال البقاعي: (﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ أي: الانتِهاءَ برُجوعِ الخَلائِقِ حِسًّا بالبَعثِ، ومَعنًى بالعَمَلِ والعِلمِ، وإسنادِ الأُمورِ وإرسالِ الآمالِ؛ ومكانَ رُجوعِهم وزَمانَه، كما كان منه المُبتَدأُ؛ أكَّدَ ذلك خَلقًا لذلك كُلِّه وحِسابًا عليه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٧٣).

وقال السعدي: (قَولُه: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ أي: إليه تَنتهي الأمورُ، وإليه تَصيرُ الأشياءُ والخلائِقُ بالبَعثِ والنُّشورِ، وإلى اللهِ المُنتَهى في كُلِّ حالٍ؛ فإليه يَنتهي العِلمُ والحُكمُ، والرَّحمةُ وسائِرُ الكمالاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

وممَّن ذهب إلى هذا العُمومِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٧). ويُنظر أيضًا: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٩٩) و(٢/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٢، ١٤٣).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أضحَكَ وأبكَى مَنْ شاء أن يُضحِكَهم أو يُبكِيَهم(١).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ٤٤﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أمات مَن شاءَ مِن خَلْقِه، وأحيا مَن شاءَ مِنهم(٢).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ ...﴾ [الملك: ٢].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٧١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٩، ٦٠، ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٧، ٢٤٨).

قال الواحدي: (أكثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ هذا عامٌّ في كُلِّ ضَحِكٍ وبُكاءٍ). ((البسيط)) (٢١/ ٧١).

وممَّن قال بأنَّ هذا الضَّحِكَ والبُكاءَ عامٌّ في الدُّنيا والآخِرةِ: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٧، ٢٤٨).

وقال ابنُ عاشور: (لَمَّا كان هذا الغَرَضَ مِن إثباتِ انفرادِ اللهِ تعالى بالتَّصَرُّفِ في الإنسانِ بما يَجِدُه النَّاسُ في أحوالِ أنفُسِهم مِن خُروجِ أسبابِ الضَّحِكِ والبُكاءِ عن قُدرتِهم؛ تعَيَّنَ أنَّ المرادَ: أضحَكَ وأبكى في الدُّنيا، ولا عَلاقةَ لهذا بالمَسَرَّةِ والحُزنِ الحاصِلَينِ في الآخِرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٢، ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٨).

قال الواحدي: (المتقَدِّمون مِنَ المفَسِّرينَ حَمَلوا هذا على الإماتةِ في الدُّنيا، والإحياءِ للبَعثِ، والمتأخِّرونَ منهم ذَكَروا وُجوهًا أُخرى؛ منها: أنَّه أمات الآباءَ، وأحيا الأبناءَ... ومنها: أنَّه أمات النُّطفةَ، وأحيا النَّسَمةَ، وأمات الكافِرَ بالكُفرِ، وأحيا المؤمِنَ بالإيمانِ). ((البسيط)) (٢١/ ٧٢).

ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٤).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ الانتقالِ إلى هذه الجُملةِ أنَّ فيها كَيفيَّةَ ابتداءِ الحياةِ[١].

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي خَلَق الصِّنفَينِ: الذَّكَرَ والأُنثى[٢].

قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦﴾.

أي: خلَق اللهُ الصِّنفينِ -الذَّكَرَ والأُنثى- مِن نُطفةِ مَنِيٍّ حينَ تُصَبُّ وتُراقُ في الأرحامِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٨).

قال الشوكاني: (المرادُ بالزَّوجَينِ: الذَّكَرُ والأُنثَى مِن كُلِّ حَيوانٍ، ولا يدخُلُ في ذلك آدَمُ وحَوَّاءُ؛ فإنَّهما لم يُخلَقا مِن النُّطفةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٠).

وقصَر ابنُ عاشورٍ المرادَ بالزَّوجينِ على البشرِ، فقال: (المرادُ بالزَّوجَينِ: الذَّكَرُ والأُنثَى مِن خُصوصِ الإنسانِ؛ لأنَّ سياقَ الكلامِ للاعتِبارِ ببَديعِ صُنعِ اللهِ، وذلك أشَدُّ اتِّفاقًا في خِلْقةِ الإنسانِ، ولأنَّ اعتِبارَ النَّاسِ بما في أحوالِ أنفُسِهم أقرَبُ وأمكَنُ، ولأنَّ بَعضَ الأزواجِ مِن الذُّكورِ والإناثِ لا يَتخَلَّقُ مِن نُطفةٍ، بل مِن بَيضٍ وغَيرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٦، ١٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٩). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۞ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۞ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۞ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠].

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ساق هذه الأشياءَ دَليلًا على إحاطةِ عِلْمِه، فلَزِمَها أنْ دَلَّت على تمامِ قُدرتِه، وخَتَمَها بالنَّشأةِ الأُولى، فلَزِمَ من ذلك الإقرارُ حَتمًا بأنَّه قادِرٌ على البَعثِ- عَبَّرَ بما يَقتَضي أنَّه لَمَّا تقَدَّمَ به وَعْدُه على جميعِ ألسِنَةِ رُسُلِه صار واجِبًا عليه، بمعنى أنَّه لا بُدَّ مِن كَونِه؛ لأنَّه لا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيه، لا غَيرُ ذلك[1].

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: وأنَّ على اللهِ تعالى أن يَخلُقَ النَّاسَ بعدَ مَوتِهم، فيُعيدَهم أحياءً يومَ القيامةِ[2].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي أغنى مَن شاءَ مِن عِبادِه، وجَعَل لِمَن شاءَ منهم ما يَقتَنيه ويَدَّخِرُه بَعْدَ كِفايتِه[3].

---

= وقيل: معنى ﴿مُّنَىٰ﴾: تُخلَقُ وتُقدَّرُ. وممَّن اختاره: أبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبةَ، والسَّمْعانيُّ، ونسَبه الماوَرْديُّ للأخفَشِ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).=

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ٤٩﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى هو خالِقُ نَجمِ الشِّعْرَى المُضيءِ، ومالِكُه ومُدَبِّرُ شَأنِه[1].

---

= قال الواحدي: (﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ﴾ النَّاسَ بالأموالِ ومَوَّلَهم، ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾ أعطى القُنْيَةَ وأصولَ الأموالِ، وما يَدَّخِرونَه بعد الكفايةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٠٤).

وقال ابنُ عطية: (والوَجهُ فيها بحَسَبِ اللُّغةِ: أكسَبَ ما يُقتَنَى. وقال ابنُ عبَّاسٍ: «أَقْنى»: قَنَّعَ. والقَناعةُ خَيرُ قُنْيةٍ، والغِنى عَرَضٌ زائِلٌ، فلِلَّه دَرُّ ابنِ عَبَّاسٍ!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٨).

وقال ابن كثير: (﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ أي: مَلَّك عِبادَه المالَ، وجعَلَه لهم قُنْيةً مُقيمًا عِندَهم لا يحتاجونَ إلى بَيعِه، فهذا تمامُ النِّعمةِ عليهم، وعلى هذا يدورُ كَلامُ كَثيرٍ مِنَ المفَسِّرينَ؛ منهم أبو صالحٍ، وابنُ جريرٍ، وغَيرُهما). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٢).

وقال ابن عاشور: (معنى ﴿أَغۡنَىٰ﴾ جَعَل غَنيًّا، أي: أعطى ما به الغِنى، والغِنى: التَّمَكُّنُ مِن الانتِفاعِ بما يُحَبُّ الانتِفاعُ به. ويَظهَرُ أنَّ معنى «أقْنَى» ضِدُّ معنى «أغْنَى»؛ رَعيًا لنظائِرِه الَّتي زاوَجَت بيْنَ الضِّدَّينِ مِن قَولِه: ﴿أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣]، و﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ [النجم: ٤٤]، و﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]؛ ولذلك فَسَّره ابنُ زَيدٍ والأخفَشُ وسُليمانُ التَّيمِيُّ بمعنى: أفقَرَ. وعن مُجاهِدٍ وقَتادةَ والحَسَنِ: أقنى: أخْدَمَ؛ فيكونُ مُشتَقًّا مِنَ القِنِّ: وهو العَبدُ، أو المولودُ في الرِّقِّ، فيكونُ زيادةً على الإغناءِ. وقيل: أقنى: أعطى القُنْيَةَ، وهذا زيادةٌ في الغِنى. وعن ابنِ عبَّاسٍ: أقنى: أرضَى، أي: أرضَى الَّذي أغناه بما أعطاه، أي: أغناه حتَّى أرضاه، فيكونُ زيادةً في الامتِنانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٩).ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥١).

قال ابنُ جرير: (هو نَجمٌ كان بَعضُ أهلِ الجاهِليَّةِ يَعبُدُه مِن دونِ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٥).

وأوَّلُ مَن سنَّ للعربِ عِبادةَ «الشِّعْرَى»، وأدخَل تلك العبادةَ إليهم: «أبو كَبْشةَ»، فخالَف قُرَيشًا في عبادةِ الأصنامِ، وعبَدَ الشِّعْرى، فقيل: لم يَعبُدْها مِن قبائلِ العربِ إلَّا خُزاعةُ، وقيل: حِمْيَرُ وخُزاعةُ، وقيل: بعضُ قبائلِ لَخْمٍ وخُزاعةَ وحِمْيَرَ وقُرَيشٍ، ولم تَعبُدِ العربُ مِن الكواكبِ غيرَها؛ فلذلك عُيِّنَتْ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١١٩)، ((الموافقات)) للشاطبي (٤/ ١٥٥)، ((المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام)) لجواد علي (١١/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥١).

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا استُوفِيَ ما يَستحِقُّه مَقامُ النِّداءِ على باطلِ أهْلِ الشِّركِ مِن تَكذيبِهم النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وطعْنِهم في القرآنِ، ومِن عِبادةِ الأصنامِ، وقولِهم في الملائكةِ، وفاسِدِ مُعتَقَدِهم في أُمورِ الآخرةِ، وفي المُتصرِّفِ في الدُّنيا، وكان مُعظَمُ شأْنِهم في هذه الضَّلالاتِ شَبيهًا بشأْنِ أُمَمِ الشِّركِ البائدةِ؛ نُقِلَ الكلامُ إلى تَهديدِهم بخَوفِ أنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بتلك الأُمَمِ البائدةِ، فذُكِرَ مِن تلك الأُمَمِ أشهَرُها عندَ العربِ، وهمْ: عادٌ، وثَمودُ، وقومُ نوحٍ، وقومُ لوطٍ[1].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ سُبحانَه على كَمالِ عِلْمِه وشُمولِ قُدرتِه بأُمورِ الخافِقَينِ -العُلويِّ والسُّفليِّ-، فكان ذلك داعِيًا إلى الإقبالِ على ما يُرضِيه، وناهيًا عن الإلمامِ بما يُسخِطُه؛ شَرَع في التَّهديدِ لِمَن وَقَف عن ذلك، بما وَقَع في مَصارِعِ الأوَّلِينَ مِن عجائِبِ قُدرتِه؛ فقال تعالى[2]:

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى أهلَكَ قَبيلةَ عادٍ؛ قَومِ هُودٍ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥١).

وقد ذهب ابنُ جريرٍ ومكِّيٌّ والواحديُّ إلى أنَّ عادًا لَمَّا أهلَكَها اللهُ بالرِّيحِ خَلَفَتْها أمَّةٌ أُخرى مِن نَسْلِها فكانوا عادًا الأخرى. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٦-٨٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥). =

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠].

﴿وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى أهلَكَ قَبيلةَ ثَمودَ؛ قَومِ صالحٍ، فما أبقَى منهم أحَدًا[1]!

---

= وضعَّف هذا القَولَ ابنُ عَطيَّةَ، وابنُ عاشور؛ لعَدَمِ وُجودِ دَليلٍ على صِحَّتِه. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٣).

قال ابنُ عطية: (اختُلِفَ في معنى وَصْفِها بـ﴿الْأُولَىٰ﴾؛ فقال ابنُ زَيدٍ والجُمهورُ: ذلك لأنَّها في وَجهِ الدَّهرِ وقَديمِه، فهي أُولى بالإضافةِ إلى الأُمَمِ المتأخِّرةِ. وقال الطَّبريُّ: سُمِّيَت أُولى، لأنَّ ثَمَّ عادًا أَخيرةً، وهي قَبيلةٌ كانت بمكَّةَ مع العماليقِ، وهم بنو لُقَيْمِ بنِ هَزَّالٍ. قال القاضي أبو محمَّدٍ [ابن عطية]: والقَولُ الأوَّلُ أبيَنُ؛ لأنَّ هذا الأخيرَ لم يَصِحَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٧).

وقال ابن عاشور: (معنى كَونِها أُولى؛ لأنَّها أوَّلُ العَرَبِ ذِكرًا، وهم أوَّلُ العَرَبِ البائِدةِ، وهم أوَّلُ أمَّةٍ أُهلِكَت بعدَ قَومِ نُوحٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥١).

وقال ابن عثيمين: (﴿الْأُولَىٰ﴾ وَصْفٌ كاشِفٌ، وليس وَصفًا مُقيِّدًا، يعني: ليس هناك عادٌ أُولى وعادٌ ثانيةٌ، بل هي واحِدةٌ، لكِنَّها عادٌ قديمةٌ سابِقةٌ؛ ولهذا وَصَفَها بأنَّها الأُولى، أي: أنَّها القَديمةُ السَّابقةُ، وليس ثَمَّةَ عادٌ أُخرى). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥١).

وقيل: سمَّاها الأُولى؛ لأنَّهم كانوا مِن قبْلِ ثَمودَ. وممَّن اختاره: القُرطبيُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: ولم يُبْقِ اللهُ ثَمودَ فيَترُكَها على طُغيانِها وتمَرُّدِها على رَبِّها مُقيمةً، ولكِنَّه عاقَبَها بكُفرِها وعُتُوِّها، فأهلَكَها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٥).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١٤].

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قَدَّمَ مَن كان إهلاكُهم بنَفْسِ الرِّيحِ الَّتي هي مَبدَأُ الأمطارِ الآتيةِ لهم في السَّحابِ، وأتْبَعَهم مَن إهلاكُهم بها بحَمْلِها للصَّيحةِ وإرجافِها بهم؛ أتْبَعَهم مَن كان إهلاكُهم بالماءِ الَّذي هو غايةُ السَّحابِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُ﴾.

أي: وأنَّ اللهَ تعالى أهلَكَ بالغَرَقِ قومَ نُوحٍ مِن قَبْلِ عادٍ وثَمودَ[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ﴾ [الفرقان: ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾.

أي: إنَّ قومَ نُوحٍ كانوا هم أشَدَّ ظُلمًا، وأعظَمَ كُفرًا وطُغيانًا مِن غَيرِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٨، ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٤).

قال ابنُ عطية: (جَعَلَهم أظلَمَ وأَطغى؛ لأنَّهم سَبَقوا إلى التَّكذيبِ دونَ اقتِداءٍ بأحَدٍ قَبْلَهم، وأيضًا فإنَّهم كانوا في غايةٍ مِنَ العُتُوِّ، وكان عُمُرُ نوحٍ قد طال في دُعائِهم!). ((تفسير ابن عطية)) =

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: ٩، ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات: ٤٦].

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾.

أي: وقَريةَ قَومِ لُوطٍ أسقَطَها جبريلُ، وجَعَل عالِيَها سافِلَها[1].

كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩، ١٠].

﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾.

أي: فغطَّى تلك القَريةَ ما غَطَّاها مِنَ الحِجارةِ الَّتي أُمطِرَت عليهم[2].

---

= (٥/ ٢٠٩).

قال ابن عاشور: (ضميرُ الجَمعِ في ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى قَومِ نُوحٍ، أي: كانوا أظلَمَ وأطغَى من عادٍ وثَمودَ، ويجوزُ أن يكونَ عائِدًا إلى عادٍ وثَمودَ وقَومِ نُوحٍ، والمعنى: أنَّهم أظلَمُ وأطغى مِن قَومِك الَّذين كَذَّبوك؛ فتكونَ تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الرُّسُلَ مِن قَبْلِه لَقُوا مِن أُمَمِهم أشَدَّ مِمَّا لَقِيَه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٤).

وقال ابن عثيمين: (وكِلا المعنَيَينِ صَحيحٌ؛ فهؤلاء الأُمَمُ أظلَمُ وأطغى مِن قُرَيشٍ، وقَومُ نوحٍ أظلَمُ وأَطغى مِن عادٍ وثمودَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٤).

قال ابنُ عطيَّةَ: (المُؤتَفِكةُ: قَريةُ قَومِ لُوطٍ، بإجماعٍ مِنَ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٤). =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْاْ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِيٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّك -أيُّها الإنسانُ- تَرتابُ وتُشَكِّكُ، وتُكذِّبُ وتُجادِلُ[1]؟!

---

= قال الواحدي: (﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ أي: فغَشَّاها اللهُ وألبَسَها ما غَشَّى، يعني: الحِجارةَ، في قَولِ جَميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢١/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣١، ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

ممَّن ذهب إلى أنَّ الخِطابَ للإنسانِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والواحدي، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

وقيل: الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: البِقاعي، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٥، ١٥٦).

وقيل: هو خِطابٌ للكافِرِ على وَجهِ الخُصوصِ. وممَّن قال بهذا: الماوَرْديُّ، والسمعاني، وابن عطية، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢١).

قال ابنُ تيميَّةَ: (لَمَّا ذَكَر ما ذَكَره في سورةِ «النَّجمِ»، وذكَرَ إهلاكَ مُكَذِّبي الرُّسُلِ؛ قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾، فإهلاكُهم مِن آلاءِ رَبِّنا، وآلاؤُه: نِعَمُه الَّتي تدُلُّ على رحمتِه، وعلى حِكمتِه، وعلى مَشيئتِه وقُدرتِه، ورُبوبيَّتِه سُبحانَه وتعالى). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٧٠).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ جاء الفِعلُ بصيغةِ الماضي دونَ المُستَقبَلِ؛ لزِيادةِ الحَثِّ على السَّعيِ في العَمَلِ الصَّالحِ، فقال: ليس له إلَّا ما قد سعى وحَصَّل وفَرَغ منه، وأمَّا تسويلاتُ الشَّيطانِ وعِداتُه فلا اعتِمادَ عليها(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أي: المنتهى في أمورِ الدِّينِ والدُّنيا -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-؛ فإلى اللهِ المنتهى في مسائلِ العِلمِ، في الحُكْمِ بيْنَ النَّاسِ وللنَّاسِ، ومنتهَى جميعِ الخلائقِ إليه يومَ القيامةِ، فإلى اللهِ المصيرُ، فمُنتهى أحوالِنا وأحكامِنا وجميعِ ما يَصْدُرُ مِنَّا وعلينا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وإذا كان إلى اللهِ المنتهَى؛ فاجعَلْ شكواكَ إليه إذا أصابَك الضُّرُّ، واجعَلْ توجُّهَك إليه إذا أرَدْتَ النَّفعَ؛ لأنَّ إليه المنتهَى، فلا يَجْلِبُ لك الخَيرَ إلَّا اللهُ، ولا يمنعُ عنك الضَّرَرَ إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ، فاجعَلْه مُنتهاك في كلِّ أمورِك(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ مُتضَمِّنٌ لكَنزٍ عَظيمٍ، وهو أنَّ كلَّ مُرادٍ إنْ لم يُرَدْ مِن أجْلِه، ويَتَّصِلْ به، وإلَّا فهو مُضمَحِلٌّ مُنقَطِعٌ؛ فإنَّه ليس إليه المُنتهى! وليس المُنتهى إلَّا إلى الَّذي انتَهَتْ إليه الأمورُ كلُّها؛ فانتَهَتْ إلى خَلْقِه ومَشيئتِه وحِكمتِه وعِلْمِه؛ فهو غايةُ كلِّ مطلوبٍ، وكلُّ محبوبٍ لا يُحَبُّ مِن أجْلِه فمَحبَّتُه عَناءٌ وعذابٌ، وكلُّ عَمَلٍ لا يُرادُ مِن أجْلِه فهو ضائعٌ وباطلٌ، وكلُّ قلبٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٦).

قال ابن تيميَّة: (وما هَمَّ به مِن القولِ الحسَنِ والعملِ الحسَنِ إنَّما يُكتَبُ له به حسَنةٌ واحدةٌ، فإذا صار قولًا وفعلًا كُتِب له به عَشْرُ حسَناتٍ إلى سَبْعِمِئةٍ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٣٧).

وقال السعدي: (مَن نَوى الخَيرَ، واقترَن بنيَّتِه الجازِمةِ سَعْيٌ فيما يَقدِرُ عليه، ثمَّ لم يقدرْ؛ فإنَّه يُنزَّلُ مَنزِلةَ الفاعِلِ التَّامِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٧).

لا يَصِلُ إليه فهو شَقِيٌّ مَحجوبٌ عن سَعادتِه وفَلاحِه! فاجتمَعَ ما يُراد منه كلُّه في قَولِه: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ ﴾ [الحجر: ٢١]، واجتَمَعَ ما يُرادُ له كلُّه في قَولِه: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾؛ فليس وراءَه سُبحانَه غايةٌ تُطلَبُ، وليس دونَه غايةٌ إليها المُنتَهى، وتحتَ هذا سِرٌّ عظيمٌ مِن أسرارِ التَّوحيدِ، وهو أنَّ القلبَ لا يَستقِرُّ ولا يَطمئِنُّ ويَسكُنُ إلَّا بالوُصولِ إليه، وكلُّ ما سِواه مما يُحَبُّ ويُرادُ فمُرادٌ لغَيرِه، وليس المرادُ المحبوبُ لِذَاتِه إلَّا واحِدًا إليه المُنتَهى، ويَستحيلُ أنْ يكونَ المُنتَهى إلى اثنَينِ، كما يَستحيلُ أنْ يكونَ ابتِداءُ المخلوقاتِ مِن اثنَينِ؛ فمَنْ كان انتِهاءُ مَحبَّتِه ورَغبتِه وإرادتِه وطاعتِه إلى غَيرِه، بَطَلَ عليه ذلك، وزالَ عنه، وفارقَه أحْوَجَ ما كان إليه، ومَن كان انتهاءُ محبَّتِه ورغبتِه ورَهبتِه وطَلَبِه هو سُبحانَه، ظَفِرَ بنِعَمِه ولَذَّتِه وبَهجتِه وسَعادتِه أَبَدَ الآبادِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴾ تَنبيهٌ إلى أنَّ الظُّلمَ والطُّغيانَ لا يُخَلِّصُ الإنسانَ، ولا يُغْني ولا يُجدِي، بل يُرْدِي، بدَلالةِ قومِ نوحٍ؛ فقد كانوا أظْلَمَ منهم وأَطغَى، فأُهلِكوا(٢)!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ﴾ هذا الاستِخبارُ ليس لعدَمِ عِلْمِه جلَّ وعلا، ولكنْ لِشَحْذِ النُّفوسِ والهِمَمِ إلى الاستِماعِ إلى ما يُلْقَى(٣).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ يقتَضي أنَّ المُنَبَّأَ بذلك يجِبُ عليه تصديقُ ذلك، والإيمانُ به؛ لأنَّه مِمَّا أَخبرَ به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٥٠٨، ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٠).

مُصَدِّقًا لإبراهيمَ وموسى، كما ذُكِرَ ذلك في آخرِ سورةِ (الأعلَى): ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ * صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، وهذا يَقتَضي ثلاثةَ أُصولٍ؛ الأوَّلُ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. الثَّاني: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾. الثَّالثُ: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾؛ فالأصلُ الأوَّلُ: أنَّ ذَنْبَ الإنسانِ لا يَحمِلُه غيرُه، وهو قَولُه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي: لا يَحْمِلُ أحدٌ عن أحدٍ مِن ذنْبِه شَيئًا. الثَّاني: أنَّه ليس للإنسانِ إلَّا سعيُه، وهو قولُه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾. الثَّالِثُ: أنَّه ﴿يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾، وهذه أصولُ الإيمانِ بالوَعدِ والوَعيدِ، والثَّوابِ والعِقابِ، وهي نتيجةُ الإيمانِ بالأمرِ والنَّهيِ والمَعادِ، بل نتيجةُ الجزاءِ في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ...﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: أنَّ أكثَرَ هذه الصُّحُفِ أمثالٌ ومَواعِظُ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: تأكيدُ تَرابُطِ الكُتُبِ السَّماويَّةِ[٣].

٥- قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أمَّا بَيانُ تَوفيتِه ففيه لطيفةٌ: وهي أنَّه لم يَعْهَدْ عَهدًا إلَّا وَفَّى به، وقال لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧] فاستغفَرَ ووَفَّى بالعَهدِ، ولم يغفِرِ اللهُ له! فعُلِمَ أنْ ليس للإنسانِ إلَّا ما سعَى، وأنَّ وِزرَه لا تَزِرُه نَفْسٌ أُخرى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٥).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَحمِلُ ذَنْبَ غيرِه، إلَّا أنَّه يُستَثنَى مِن ذلك إذا كان صاحِبَ سُنَّةٍ آثمةٍ؛ فإنَّ عليه وِزْرَها ووِزْرَ مَن عَمِلَ بها إلى يومِ القيامةِ، ولكِنَّ الحقيقةَ أنَّ هذا لا يَتحمَّلُ وِزْرَ غَيرِه؛ لأنَّ غيرَه قد وُزِرَ وأَثِمَ، لكِنْ هو تَحَمَّلَ إثمَ السُّنَّةِ السَّيِّئةِ، والبَدْءِ بالشَّرِّ، فيكونُ حقيقةً أنَّه لم يُوزَرْ وِزْرَ غَيرِه، ولكِنَّه وُزِرَ بوِزْرِ نفْسِه[1]!

٧- قَولُه تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ هذا خبَرٌ مِن الرَّسولَينِ الكَريمَينِ: إبراهيمَ وموسى عليهما السَّلامُ، وهما خبَرانِ عامَّانِ، والأخبارُ لا تُنسَخُ، ولا تَختَلِفُ شرائِعُ الأنبياءِ في الأخبارِ المُجرَّدةِ[2]، فهما آيتانِ مُحكَمتانِ يَقتَضيهما عَدلُ الرَّبِّ تعالى، وحِكمتُه، وكمالُه المُقَدَّسُ، والعَقلُ والفِطرةُ شاهِدانِ بهما، فالأُولى: تقتَضي أنَّه لا يُعاقَبُ بجُرْمِ غَيرِه، والثَّانيةُ: تقتَضي أنَّه لا يُفْلِحُ إلَّا بعَمَلِه وسَعْيِه، فالأُولى: تُؤَمِّنُ العبدَ مِن أخْذِه بجَريرةِ غيرِه، كما يَفعلُه مُلوكُ الدُّنيا، والثَّانيةُ: تَقطَعُ طَمَعَه مِن نجاتِه بعَمَلِ آبائِه وسَلَفِه ومَشايخِه، كما عليه أصحابُ الطَّمَعِ الكاذِبِ؛ فتأمَّلْ حُسْنَ اجتِماعِ هاتَينِ الآيتَينِ[3]، وهذا هو العَدلُ الَّذي نَزَّهَ نفْسَه عن خِلافِه[4].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أنَّه قال في حَقِّ المُسيءِ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وهو لا يدُلُّ إلَّا على عَدَمِ الحَملِ عن الوازِرةِ، وهذا لا يَلزَمُ منه بقاءُ الوِزرِ عليها -مِن ضَرورةِ اللَّفظِ-؛ لجَوازِ أن يَسقُطَ عنها ويَمحوَ اللهُ ذلك الوِزرَ، فلا يَبقى عليها، ولا يَتحَمَّلُ عنها غَيرُها، ولو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٠٨).

قال: «لا تَزِرُ وازرةٌ إلَّا وِزرَ نَفْسِها» كان مِن ضَرورةِ الاستِثناءِ أنَّها تَزِرُ؛ وقال في حَقِّ المحسِنِ: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، ولم يَقُلْ: «ليس له ما لم يَسْعَ»؛ لأنَّ العبارةَ الثَّانيةَ ليس فيها أنَّ له ما سعى، وفي العبارةِ الأُولى أنَّ له ما سعى -نظرًا إلى الاستِثناءِ-، فقال في حَقِّ المُسيءِ بعِبارةٍ لا تَقطَعُ رَجاءَه، وفي حَقِّ المُحسِنِ بعِبارةٍ تَقطَعُ خَوفَه؛ كُلُّ ذلك إشارةً إلى سَبْقِ الرَّحمةِ الغَضَبَ(١).

٩- قَولُه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ استَدَلَّ به الشَّافِعيُّ على أنَّ ثَوابَ القِراءةِ لا يَلحَقُ المَيِّتَ(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أنَّ الإنسانَ لا يَملِكُ غيرَ سَعيِه، ولا يَستَحِقُّ غيرَه، وإنْ كان قد يَحصُلُ له نَفعٌ بفَضلِ اللهِ وبرَحمتِه وبدُعاءِ غيرِه؛ فإنَّه قد عُرِفَ أنَّ اللهَ يَرحَمُ كثيرًا مِن النَّاسِ مِن غيرِ جِهةِ عَمَلِه، لكِنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥١).

قال ابن كثير: (ومِن هذه الآيةِ الكريمةِ استنبط الشَّافعيُّ -رحِمه الله- ومَن اتَّبعه أنَّ القِراءةَ لا يَصِلُ إهداءُ ثَوابِها إلى الموتَى؛ لأنَّه ليس مِن عمَلِهم ولا كَسبِهم؛ ولهذا لم يَندُبْ إليه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أمَّتَه، ولا حثَّهم عليه، ولا أرشَدهم إليه بنصٍّ ولا إيماءٍ، ولم يُنقَلْ ذلك عن أحدٍ مِن الصَّحابةِ رضيَ الله عنهم، ولو كان خيرًا لَسَبَقونا إليه، وبابُ القُرُباتِ يُقتصَرُ فيه على النُّصوصِ، ولا يُتصرَّفُ فيه بأنواعِ الأقيسةِ والآراءِ، فأمَّا الدُّعاءُ والصَّدقةُ فذاك مُجمَعٌ على وُصولِهما، ومنصوصٌ مِن الشَّارعِ عليهما). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٥).

وقال السعدي: (وقد استَدلَّ بقولِه تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ مَن يرَى أنَّ القُرَبَ لا يُفيدُ إهداؤُها للأحياءِ ولا للأمواتِ؛ قالوا: لأنَّ اللهَ قال: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾، فوُصولُ سعْيِ غيرِه إليه مُنافٍ لذلك، وفي هذا الاستِدلالِ نظرٌ؛ فإنَّ الآيةَ إنَّما تدُلُّ على أنَّه ليس للإنسانِ إلَّا ما سعَى بنفْسِه، وهذا حقٌّ لا خلافَ فيه، وليس فيها ما يدُلُّ على أنَّه لا ينتفعُ بسَعيِ غيرِه إذا أهداه ذلك الغيرُ له، كما أنَّه ليس للإنسانِ مِن المالِ إلَّا ما هو في ملكِه وتحتَ يدِه، ولا يَلزَمُ مِن ذلك ألَّا يَملِكَ ما وهَبه له الغيرُ مِن مالِه الَّذي يَملِكُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

ليس له إلَّا ما سعَى[1]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ سؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ تدُلُّ على أنَّه لا يَنتَفِعُ أحَدٌ بعَمَلِ غَيرِه، وقد جاءت آيةٌ أُخرى تدُلُّ على أنَّ بَعضَ النَّاسِ رُبَّما انتفَع بعَمَلِ غيرِه، وهي قَولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾ [الطور: ٢١]، فرَفعُ دَرَجاتِ الأولادِ -سواءٌ قُلنا: إنَّهم الكِبارُ أو الصِّغارُ- نَفعٌ حاصِلٌ لهم، وإنَّما حصَلَ لهم بعَمَلِ آبائِهم لا بعَمَلِ أنفُسِهم؟

**الجوابُ مِن ثَلاثةِ أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ آيةَ ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ إنَّما دَلَّت على نَفيِ مِلكِ الإنسانِ لغَيرِ سَعْيِه، ولم تدُلَّ على نَفيِ انتِفاعِه بسَعيِ غَيرِه؛ لأنَّه لم يَقُلْ: «وأنْ لن ينتَفِعَ الإنسانُ إلَّا بما سَعى»، وإنَّما قال: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ ﴾، وبيْنَ الأمْرَينِ فَرقٌ ظاهِرٌ؛ لأنَّ سَعيَ الغَيرِ مِلكٌ لساعيه: إنْ شاء بَذَله لِغَيرِه فانتفَعَ به ذلك الغَيرُ، وإن شاء أبقاه لنَفْسِه، وقد أجمَعَ العُلَماءُ على انتِفاعِ المَيِّتِ بالصَّلاةِ عليه، والدُّعاءِ له، والحَجِّ عنه، ونحوِ ذلك مِمَّا ثَبَت الانتِفاعُ بعَمَلِ الغَيرِ فيه.

**الثَّاني**: أنَّ إيمانَ الذُّرِّيةِ هو السَّبَبُ الأكبَرُ في رَفعِ دَرَجاتِهم؛ إذ لو كانوا كُفَّارًا لَمَا حَصَل لهم ذلك؛ فإيمانُ العَبدِ وطاعتُه سَعيٌ منه في انتِفاعِه بعَمَلِ غَيرِه مِنَ المُسلِمينَ، كما وَقَع في الصَّلاةِ في الجَماعةِ؛ فإنَّ صَلاةَ بَعضِهم مع بعضٍ يَتضاعَفُ بها الأجرُ زِيادةً على صَلاتِه مُنفَرِدًا، وتلك المُضاعَفةُ انتِفاعٌ بعَمَلِ الغَيرِ سَعى فيه المُصَلِّي بإيمانِه وصلاتِه في الجماعةِ، وهذا الوَجهُ يُشيرُ إليه قَولُه تعالى: ﴿ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ ﴾.

**الثَّالِثُ**: أنَّ السَّعيَ الَّذي حَصَل به رفْعُ دَرَجاتِ الأولادِ ليس للأولادِ، كما

---

(١) يُنظر: ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٤٥١).

هو نَصُّ قَولِه تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾، ولكِنَّه مِن سَعيِ الآباءِ، فهو سَعيٌ للآباءِ أقَرَّ اللهُ عُيونَهم بسَبَبِه بأنْ رَفَع إليهم أولادَهم؛ لِيَتمتَّعوا في الجنَّةِ برُؤيتِهم؛ فالآيةُ تُصَدِّقُ الأُخرى ولا تُنافيها؛ لأنَّ المقصودَ بالرَّفعِ إكرامُ الآباءِ لا الأولادِ، فانتِفاعُ الأولادِ تَبَعٌ، فهو بالنِّسبةِ إليهم تفَضُّلٌ مِنَ اللهِ سُبحانَه وتعالى عليهم بما ليس لهم، كما تَفضَّلَ بذلك على الوِلْدانِ والحُورِ العِينِ والخَلْقِ الَّذين يُنشِئُهم للجَنَّةِ[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ بِشارةٌ للمُوَحِّدِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى يُريه أعمالَه الصَّالِحةَ لِيَفرَحَ بها، ويَحزَنَ الكافِرُ بأعمالِه الفاسِدةِ، فيَزدادَ غَمًّا[2].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أنَّه لَمَّا كان في هذه الدَّارِ رُبَّما وَقَعت المُسامَحةُ ببَعضِ الأشياءِ، والغَفلةُ عن بَعضِها؛ قال: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أي: الأتَمَّ الأكمَلَ؛ فإن كان خيرًا فمعَ المُضاعَفةِ، وإن كان غَيرَه فعلى السَّواءِ؛ لِمَن أراد اللهُ تعالى ذلك له، ويَعفو عن كثيرٍ، لكِنَّه تَذكِرةٌ له[3]!

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ ما يَعمَلُه الإنسانُ فبِقَضاءِ اللهِ تعالى وخَلْقِه، حتَّى الضَّحِكَ والبُكاءَ[4].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾، وكذا قَولُه: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾: أَتَى بالأمْرَينِ وهما مُتقابِلانِ؛ لِيُعلَمَ بذلك أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى على

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢١١).

كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، وهو القادِرُ على خَلْقِ الضِّدَّينِ[١].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ أنَّه سُبحانَه المُحْيي المُميتُ، وأنَّه خَلَقَ الموتَ والحياةَ؛ فثَبَتَ أنَّ الأفعالَ كلَّها؛ خَيرَها وشرَّها: صادِرةٌ عن خَلْقِه وإحداثِه إيَّاها[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ أنَّه سُبحانَه خَلَقَ هذَينِ الصِّنفَينِ المُختَلِفَينِ خَلْقًا، والمُختَلِفَينِ مِزاجًا، والمُختَلِفَينِ عَقلًا، والمُختَلِفَينِ فِكْرًا؛ خَلَقَهما مِن شيءٍ واحدٍ؛ مِن نطفةٍ؛ ولهذا قال اللهُ تبارك وتعالى في آخرِ سورةِ (القيامةِ): ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۞ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ [القيامة: ٣٩، ٤٠]؟ **الجوابُ**: بلى، فاللهُ تعالى خَلَقَ الزَّوجَينِ مِن شَيءٍ واحدٍ، وهذا يدُلُّ على كمالِ قُدرتِه جلَّ وعلا؛ إذْ إنَّه خَلَقَ صِنفَينِ مُختَلِفَينِ في كلِّ الأحوالِ: في القُوَّةِ البَدَنيَّةِ، والعَقليَّةِ، والفِكريَّةِ، والتَّنظيميَّةِ، يختَلِفُ الذَّكَرُ عنِ الأنثى، وبذلك نَعْرِفُ ضلالَ أولئك القومِ الَّذين يُريدونَ أنْ يُلْحِقوا المرأةَ بالرَّجُلِ في أعمالٍ تختَصُّ بالرَّجُلِ! فإنَّهم سُفَهاءُ العُقولِ، ضُلَّالُ الأديانِ، فكيف يمكنُ أنْ نُساوِيَ بيْنَ صِنفَينِ فَرَّقَ اللهُ بيْنَهما خِلْقةً وشَرعًا؟! فهناك أحكامٌ يُطالَبُ بها الرَّجُلُ ولا تُطالَبُ بها المرأةُ، وأحكامٌ تُطالَبُ بها المرأةُ ولا يُطالَبُ بها الرَّجُلُ، وأمَّا قَدَرًا وخِلْقةً فالأمرُ واضحٌ، لكنَّ هؤلاء الَّذين لم يُوَفَّقوا وسَلَبَ اللهُ عقولَهم، وأَضعَفَ أديانَهم يُحاوِلونَ الآن أنْ يُلْحِقوا النِّساءَ بالرِّجالِ! وهذه لا شكَّ أنَّها فِكرةٌ خاطِئةٌ، مُخالِفةٌ للفِطرةِ، ومُخالِفةٌ للطَّبيعةِ، كما أنَّها مُخالِفةٌ للشَّريعةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٩).

١٨- قَولُه تعالى: ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ هذا مِن أعظَمِ الأدِلَّةِ على كَمالِ قُدرتِه سُبحانَه وتعالى، وانفرادِه بالعِزَّةِ العَظيمةِ، وهذا مِن وَجهَينِ؛ الأوَّلُ: أنَّه أوجَدَ تلك الحيواناتِ -صَغيرَها وكبيرَها- مِن نُطفةٍ ضَعيفةٍ مِن ماءٍ مَهينٍ، ثمَّ نَمَّاها وكَمَّلها، حتَّى بلَغَت ما بلَغَت، ثمَّ صار الآدميُّ منها إمَّا إلى أرفَعِ المقاماتِ في أعلى عِلِّيِّينَ، وإمَّا إلى أدنى الحالاتِ في أسفَلِ سافِلينَ[1]. الثَّاني: أنَّ النُّطفةَ جسمٌ مُتناسِبُ الأجزاءِ، يَخلُقُ اللهُ منها أعضاءً مُختَلِفةً، وطِباعًا مُتباينةً! وخَلْقُ الذَّكَرِ والأُنثى منها أعجَبُ ما يكونُ؛ ولهذا لم يَقدِرْ أحَدٌ على أن يَدَّعِيَه، كما لم يَقدِرْ على أن يدَّعِيَ خَلْقَ السَّمَواتِ[2].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ دَليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى أَوجبَ على نفْسِه أنْ يَبْعَثَ النَّاسَ؛ لأنَّه لو كان النَّاسُ يَحيَونَ ويَموتونَ بلا إرجاعٍ لَكان هذا عَبَثًا مَحْضًا؛ لأنَّنا نَعلَمُ الآنَ أنَّ النَّاسَ في الدُّنيا يختَلِفونَ في الغِنى والفَقرِ، والقُوَّةِ والضَّعفِ، والذَّكاءِ والعَقلِ، وغيرِ ذلك، ولو كان الخَلْقُ هكذا فقط بدونِ إرجاعٍ لَكان هذا مُنافيًا للحِكمةِ تمامًا، لكِنْ لا بُدَّ مِن رُجوعٍ[3].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿الْأُخْرَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ القادِرَ على الأُولى قادِرٌ على الآخِرةِ، كما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾[4] [الروم: ٢٧].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ قَولَه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ المقصودُ منه تخويفُ الظَّالِمِ بالهَلاكِ، فإذا قال: هم كانوا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٠).

غايةِ الظُّلمِ والطُّغيانِ فأُهلِكوا، فيَقولُ الظَّالِمُ: هم كانوا أظلَمَ فأُهلِكوا؛ لِمُبالَغتِهم في الظُّلمِ، ونحن ما بالَغْنا، فلا نَهلِكُ! وأمَّا لو قال: أُهلِكوا لأنَّهم ظَلَمةٌ، لَخاف كُلُّ ظالمٍ؛ فما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿أَظْلَمَ﴾؟

**الجوابُ**: المقصودُ بَيانُ شِدَّتِهم، وقُوَّةِ أجسامِهم؛ فإنَّهم لم يُقْدِموا على الظُّلمِ والطُّغيانِ الشَّديدِ إلَّا بتَماديهم وطولِ أعمارِهم، ومع ذلك ما نجا أحَدٌ منهم! فما حالُ مَن هو دُونَهم مِن العُمُرِ والقُوَّةِ؟! فهو كقَولِه تعالى: ﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾[1] [الزخرف: ٨].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في اختِصاصِ المُؤتَفِكةِ باسمِ الموضِعِ في الذِّكرِ، وقال في عادٍ وثمودَ وقَومِ نُوحٍ اسمَ القَومِ؟

**الجَوابُ مِن وَجهَينِ:**

**أحَدُهما**: أنَّ ثَمودَ اسمُ المَوضِعِ، فذَكَر عادًا باسمِ القَومِ، وثمودَ باسمِ المَوضِعِ، وقَومَ نوحٍ باسْمِ القَومِ، والمُؤتَفِكةَ باسْمِ المَوضِعِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ القَومَ لا يُمكِنُهم صَونُ أماكِنِهم عن عذابِ اللهِ تعالى، ولا الموضِعُ يُحَصِّنُ القَومَ عنه؛ فإنَّ في العادةِ تارةً يَقوَى السَّاكِنُ فيَذُبُّ عن مَسكَنِه، وأُخرى يَقوَى المَسكَنُ فيَرُدُّ عن ساكِنِه؛ وعذابُ اللهِ تعالى لا يَمنَعُه مانعٌ! وهذا المعنى حَصَل للمُؤمِنينَ في آيَتَينِ؛ إحداهما: قَولُه تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠]، وقَولُه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢]؛ ففي الأُولى: لم يَقدِرِ السَّاكِنُ على حِفظِ مَسكَنِه، وفي الثَّانيةِ: لم يَقْوَ الحِصنُ على حِفظِ السَّاكِنِ.

**والوَجهُ الثَّاني**: هو أنَّ عادًا وثَمودَ وقَومَ نوحٍ كان أمرُهم مُتقَدِّمًا، وأماكِنُهم كانت قد دَثَرت؛ ولكِنَّ أمْرَهم كان مَشهورًا مُتواتِرًا؛ وقومَ لُوطٍ كانت مساكِنُهم

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٤).

وآثارُ الانقِلابِ فيها ظاهِرةً؛ فذَكَر الأظهَرَ مِنَ الأمْرَينِ في كُلِّ قَومٍ[١].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ ضُمِّنَ «تَتمارى» معنى «تُكَذِّبُ»؛ ولهذا عَدَّاه بالباءِ؛ فإنَّه «تَفاعَلَ» مِن المِراءِ، يقالُ: تَمارَيْنا في الهِلالِ، و((مِراءٌ في القُرآنِ كُفْرٌ))[٢]، وهو يكونُ لتكذيبٍ وتشكيكٍ، ويقالُ: لَمَّا كان الخِطابُ لهم قال: «تَتمارَى» أي: يَتمارَونَ، ولم يَقُلْ: «تَمتَري»؛ لأنَّ التَّفاعُلَ يكونُ بيْنَ اثنَينِ[٣].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ سؤالٌ: كيف قال تعالى ذلك بعدَ تَعديدِ النِّقَمِ، والآلاءُ: النِّعَمُ؟!

**الجَوابُ**: قد تَقدَّمَ تعديدُ النِّعَمِ، مع أنَّ النِّقمةَ في طَيِّها نِعمةٌ؛ لِما تَضمَّنَتْه مِنَ المواعِظِ والزَّواجِرِ[٤] لِمَن اعتَبَرَ وتَدبَّرَ، لذا أُطلِقَ على النِّعَمِ والنِّقَمِ لفظُ الآلاءِ، وهي النِّعَمُ الَّتي لا يَتشكَّكُ فيها سامعٌ[٥]. وأيضًا فهلاكُ الكافرينَ مِن حيثُ إنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٦٠٣)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨٠٩٣)، وأحمد (٧٨٤٨) واللَّفظُ له مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

استحسنه يحيى بنُ مَعِينٍ كما في ((تاريخ دمشق)) لابن عساكر (٤٥/ ٧٣)، وصحَّح الحديثَ ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١٤٦٤)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٢٤٣) وقال: (على شرطِ مسلمٍ)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٣/ ٢٤١)، وحسَّن الحديثَ ابنُ القيِّم في ((تهذيب السنن)) (١٢/ ٣٥٣)، وقال الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٦٠٣): (حسَنٌ صحيحٌ).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦٨).

تَخليصٌ لأهلِ الأرضِ مِن شُؤمِ عَقائدِهم وأعمالِهم نعمةٌ جليلةٌ، يحقُّ أن يُحمَدَ عليها[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ أنَّ كلَّ ما خَلَقَه اللهُ تعالى فهو نِعمةٌ على عبادِه المُؤمِنينَ؛ يَستَحِقُّ أنْ يَحمَدوه ويَشكُروه عليه، وهو مِن آلائِه[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ * وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ الفاءُ لتَفريعِ الاستِفهامِ التَّعجيبيِّ على قولِه: ﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]؛ إذ كان حالُ هذا الَّذي تَولَّى وأعْطَى قَليلًا وأَكْدَى جَهْلًا بأنَّ للإنسانِ ما سَعى، وقد حصَلَ في وقْتِ نُزولِ الآيةِ المُتقدِّمةِ أو قبْلَها حادثٌ أنبَأَ عن سُوءِ الفَهمِ لمُرادِ اللهِ مِن عِبادِه، مع أنَّه واضحٌ لِمَن صرَف حقَّ فَهْمِه، ففُرِّعَ على ذلك كلِّه تَعجيبٌ مِن انحرافِ أفْهامِهم؛ فالَّذي تَولَّى وأعْطى قليلًا هو هنا ليس فَريقًا مِثلَ الَّذي عَناهُ قولُه: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [النجم: ٢٩]، بلْ هو شَخصٌ بعَينِه، ولعلَّ ذلك وَجْهُ التَّعبيرِ عنه بلَفظِ (الَّذي) دونَ كَلمةِ (مَن)؛ لأنَّ (الَّذي) أظهَرُ في الإطلاقِ على الواحِدِ المُعيَّنِ دونَ لَفظِ (مَن)[٣].

- قولُه: ﴿ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴾ وُصِفَ عَطاؤُه بأنَّه قليلٌ؛ تَوطئةً لذَمِّه بأنَّه مع قِلَّةِ ما أعطاهُ قد شحَّ به فقطَعَه، وأشار قولُه: ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ إلى بُخْلِه وقَطْعِه العَطاءَ، وهذه مَذمَّةٌ ثانيةٌ بالبُخلِ[٤]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢٨).

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ إنكاريٌّ، أي: ما عِندَه عِلمُ الغيبِ. وهذا الخبَرُ كِنايةٌ عن خَطئِه فيما تَوهَّمَه، والجُملةُ استِئنافٌ بَيانيٌّ للاستِفهامِ التَّعجيبيِّ مِن قولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰٓ ...﴾ إلخ[1].

- وتَقديمُ (عِنْدَهُ) -وهو مُسنَدٌ- على ﴿عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ -وهو مُسنَدٌ إليه-؛ للاهتِمامِ بهذه العِنديَّةِ العَجيبِ ادِّعاؤُها، والإشارةِ إلى بُعْدِه عن هذه المَنزِلةِ[2].

- وفُرِّعَ على هذا التَّعجيبِ قولُه: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾، أي: فهو يُشاهِدُ أُمورَ الغَيبِ. والرُّؤيةُ في قولِه: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ بَصريَّةٌ، ومَفعولُها مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: فهو يَرى الغَيبَ[3].

- وتَقديمُ الضَّميرِ المُسنَدِ إليه ﴿فَهُوَ﴾ على فِعلِه المُسنَدِ ﴿يَرَىٰٓ﴾ دونَ أنْ يقولَ: فيَرى؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكمِ، نحْو: هو يُعطِي الجَزيلَ. وهذا التَّقوِّي بِناءً على ما أظهَرَ مِن اليقينِ بالصَّفقةِ الَّتي عاقَدَ عليها -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهو أدخَلُ في التَّعجيبِ مِن حالِه[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾

- حرْفُ (أَمْ) لإضرابِ الانتِقالِ إلى مُتعجَّبٍ منه، وإنكارٍ عليه آخَرَ، وهو جَهْلُه بما عليه أنْ يَعلَمَه الَّذين يَخشَون اللهَ تعالى مِن عِلمِ ما جاء على ألْسِنةِ الرُّسلِ الأوَّلينَ؛ فإنْ كان هو لا يُؤمِنُ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهلَّا تَطلَّبَ ما أخبَرَت به رُسلٌ مِن قبْلُ، طالَما ذَكَرَ هو وقومُه أسماءَهُم وشَرائعَهم في الجُملةِ؟ وطالَما سأَلَ هو وقَومُه أهلَ الكتابِ عن أخبارِ مُوسى، فهلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٢٩).

سأَلَ عمَّا جاء عنهم في هذا الغرَضِ الَّذي يَسْعى إليه؟ -وهو طلَبُ النَّجاةِ مِن عَذابِ اللهِ- فيُنبِّئَه العالِمون؛ فإنَّ مآثِرَ شَريعةِ إبراهيمَ مأْثورٌ بعضُها عندَ العرَبِ، وشَريعةَ مُوسى مَعلومةٌ عندَ اليهودِ، فالاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) إنكارٌ، والتَّقديرُ: بلْ ألمْ يُنبَّأْ بما في صُحفِ مُوسى... إلخ[1].

- قولُه: ﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾ تَنبيهٌ لِمَن خُوطِبَ بقولِه: ﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ * وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ ﴾ على خَطَئِه في إمساكِه عن البِرِّ، وقَبولِ قولِ أخيهِ: أنا أتحمَّلُ ذُنوبَك كلَّها -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ ولذلك جُعِلَ قولُه: ﴿ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٨]؛ تَمهيدًا لقولِه: ﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[2] [النجم: ٣٩].

- وإنَّما خصَّ هذه الصُّحفَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ العرَبَ يَعرِفون إبراهيمَ وشَريعتَه ويُسَمُّونها الحَنيفيَّةَ، ورُبَّما ادَّعى بعضُهم أنَّه على أثارةٍ منها، وأمَّا صُحفُ مُوسى فهي مُشتهِرةٌ عندَ أهْلِ الكِتابِ، والعرَبُ يُخالِطون اليهودَ في خَيبرَ وقُرَيظةَ والنَّضيرِ وتَيْمَا، ويُخالِطون نَصارى نَجْرانَ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قدَّمَ مُوسَى هاهنا فقال: ﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾، وفي سُورةِ (الأعْلى) قال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ * صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، فقدَّمَ إبراهيمَ؛ وذلك لعِدَّةِ أوجهٍ: الأوَّلُ: مِثلُ هذا في كلامِ الفُصحاءِ لا يُطلَبُ له فائدةٌ، بلِ التَّقديمُ والتأخيرُ سواءٌ في كَلامِهم. الثَّاني: أنَّ الذِّكرَ في سُورةِ (الأعلى) لمُجرَّدِ الإخبارِ والإنذارِ، وهاهنا المقصودُ بَيانُ انتفاءِ الأعذارِ، فذُكِرَ هناك على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٢٩، ١٣٠).

تَرتيبِ الوجودِ: صُحفُ إبراهيمَ قبْلَ صُحفِ مُوسى في الإنزالِ، وأمَّا هاهنا فإنَّ الكلامَ مع أهلِ الكِتابِ -وهم اليهودُ- فقدَّمَ كِتابَهم، وإنْ قُلنا: الخِطابُ عامٌّ؛ فصُحُفُ مُوسى عليه السَّلامُ كانتْ كثيرةَ الوجودِ؛ فكأنَّه قِيل لهم: انْظُروا فيها تَعلَموا أنَّ الرِّسالةَ حقٌّ، وأُرسِلَ مِن قبْلِ مُوسى رُسلٌ، والتَّوحيدَ صِدقٌ، والحَشرَ واقعٌ، فلمَّا كانتْ صُحُفُ مُوسى عندَ اليَهودِ كثيرةَ الوجودِ قدَّمَها، وأمَّا صُحُفُ إبراهيمَ فكانتْ بعيدةً، وكانتِ المواعظُ الَّتي فيها غيرَ مَشهورةٍ فيما بيْنَهم كصُحُفِ مُوسى؛ فأخَّرَ ذِكرَها[1]، ولأنَّ كتابَ موسى عليه السَّلامُ أعظَمُ كتابٍ بعدَ القرآنِ الكريمِ[2].

وقيل: إنَّ تَقديمَ صُحفِ مُوسى؛ لأنَّها اشتُهِرَت بسَعةِ ما فيها مِن الهُدَى والشَّريعةِ، وأمَّا صُحفُ إبراهيمَ فكان المأْثورُ منها أشياءَ قليلةً. وإنَّما قُدِّمَ في سُورةِ (الأعْلى) صُحفُ إبراهيمَ على صُحفِ مُوسى؛ مُراعاةً لوُقوعِهما بدَلًا مِن الصُّحفِ الأُولى، فقُدِّمَ في الذِّكْرِ أقدَمُهما. أو تأْخيرُ ذِكرِ صُحفِ إبراهيمَ؛ ليقَعَ ما بعْدَها هنا جامعًا لِما احتَوَت عليه صُحفُ إبراهيمَ، فتَكونَ صُحفُ إبراهيمَ هي الكلماتِ الَّتي ابتَلى اللهُ بها إبراهيمَ المذكورةَ في قولِه في سُورةِ (البقرةِ): ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: بلَّغَهنَّ إلى قَومِه ومَنْ آمَنَ به، ويكونَ قَولُه هنا: ﴿ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ في معنى قولِه: ﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ في سُورةِ البقرةِ، الآية (١٢٤)[3].

- ووَصْفُ إبراهيمَ بأنَّه ﴿ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ تَسجيلٌ على المشرِكين بأنَّ إبراهيمَ بلَّغَ ما أُوحِيَ إليه إلى قَومِه وذُرِّيَّتِه، ولكنَّ العرَبَ أهْمَلوا ذلك، واعتاضُوا

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٠).

عن الحنيفيَّةِ بالإشراكِ[١].

- وتَخصيصُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ بـ﴿ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾؛ لاحتِمالِه ما لم يَحتمِلْه غيرُه، كالصَّبرِ على نارِ نُمْروذَ، وذَبْحِ الولَدِ[٢]. وقيل: مَدحُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه كان مُتَّفَقًا عليه بيْنَ اليَهودِ والمُشرِكينَ والمُسلِمينَ، ولم يُنكِرْ أحَدٌ كَونَه وَفيًّا ومُوفِيًا، ورُبَّما كان المُشرِكونَ يَتوقَّفونَ في وَصفِ موسى عليه السَّلامُ[٣].

- وجاءَ قولُه: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ مُشدَّدًا، والتَّشديدُ مُبالَغةٌ في الوفاءِ، أو بمعْنى: وفَّى وأتَمَّ ما الْتزَمَه أو أُمِرَ به[٤].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿وَفَّىٰٓ﴾؛ ليَتناوَلَ كلَّ وَفاءٍ وتَوفيةٍ، مِن ذلك: تَبليغُه الرِّسالةَ، واستِقلالُه بأعباءِ النُّبوَّةِ، والصَّبرُ على ذبْحِ ولَدِه وعلى نارِ نَمروذَ، وقِيامُه بأضيافِه وخِدمتُه إيَّاهم بنفْسِه[٥].

- وخَصَّ هذَينِ النَّبيَّينِ عليهما أفْضلُ الصَّلاةِ والسَّلامُ بالذِّكرِ؛ قِيل: لأنَّه ما بيْنَ نوحٍ وإبراهيمَ كانوا يأْخُذون الرَّجُلَ بأبيه وابنِه وعمِّه وخالِه، والزَّوجَ بامرأتِه، والعبدَ بسيِّدِه، فأوَّلُ مَن خالَفَهم إبراهيمُ، ومِن شَريعةِ إبراهيمَ إلى شَريعةِ مُوسى صلَّى اللهُ وسلَّم عليهما كانوا لا يأْخُذون الرَّجُلَ بجَريمةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٠).

غَيرِه[١].

وقيل: لأنَّ المُدَّعِينَ مِن بني إسرائيلَ -اليهودَ والنَّصارى- يَدَّعونَ مُتابَعةَ مُوسى عليه السَّلامُ، ومِنَ العَرَبِ يَدَّعونَ مُتابَعةَ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، ومَن عَداهم لا مُتمَسَّكَ لهم ولا سَلَفَ في نبُوَّةٍ مُحَقَّقةٍ، ولا شَريعةٍ مَحفوظةٍ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾

- تَفسيرٌ للَّذي في الصُّحُفِ، أو استِئنافٌ[٣].

- وعُمومُ لَفظِ ﴿وِزْرَ﴾ يَقْتضي اطِّرادَ الحُكمِ في أُمورِ الدُّنيا وأُمورِ الآخرةِ، وتأنيثُ ﴿وَازِرَةٌ﴾ بتأْويلِ: (نَفْس)، وكذلك تأنيثُ ﴿أُخْرَىٰ﴾، ووُقوعُ (نَفْس) و﴿أُخْرَىٰ﴾ في سِياقِ النَّفيِ يُفيدُ العُمومَ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ بَيانٌ لعدَمِ انتِفاعِ الإنسانِ بعمَلِ غَيرِه مِن حيثُ جلْبُ النَّفعِ إليه، إثرَ بَيانِ عدَمِ انتِفاعِه بهِ مِنْ حيثُ دفْعُ الضَّررِ عنه[٥].

- وهو عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]؛ فيصِحُّ أنْ تكونَ عطْفًا على المَجرورِ بالباءِ، فتَكونَ (أنْ) مُخفَّفةً مِن الثَّقيلةِ. ويصِحُّ أنْ تكونَ عطْفًا على ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، فتَكونَ (أنْ) تَفسيريَّةً، وعلى كِلا الاحتمالَينِ تكونُ (أنْ) تأْكيدًا لنَظيرتِها في المَعطوفِ عليها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧١)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٣، ١٦٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٢).

- وتَعريفُ الإنسانِ هنا تَعريفُ الجِنسِ، ووُقوعُه في سِياقِ النَّفيِ يُفيدُ العُمومَ، والمعْنى: لا يَختصُّ به إلَّا ما سعاهُ، قيل: المُرادُ هنا عمَلُ الخَيرِ؛ بقَرينةِ ذِكرِ لامِ الاختِصاصِ، وبأنْ جُعِلَ مُقابِلًا لقولِه: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨]، والمعْنى: لا تَحصُلُ لأحدٍ فائدةُ عمَلٍ إلَّا ما عمِلَه بنفْسِه، فلا يكونُ له عمَلُ غيرِه، ولامُ الاختِصاصِ يُرجِّحُ أنَّ المُرادَ ما سَعاهُ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ، وبذلك يكونُ ذِكْرُ هذا تَتْميمًا لمعْنى ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۞ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ فيه وَعيدٌ للكافِرِ، ووعْدٌ للمؤمِنِ[2].

- ومعنَى ﴿يُرَىٰ﴾ يُشاهَدُ عِندَ الحِسابِ؛ فيَجوزُ أنْ تُجسَّمَ الأعمالُ فتَصيرَ مُشاهَدةً، وأُمورُ الآخرةِ مُخالِفةٌ لمُعتادِ أُمورِ الدُّنيا. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ عَلاماتٌ على الأعمالِ يُعلَنُ بها عنها، كما في قولِه تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، وما في الحديثِ: «إنَّ الغادرَ يُنصَبُ له لِواءٌ يومَ القِيامةِ، فيُقال: هذه غَدْرةُ فُلانِ بنِ فُلانٍ»[3]، فيُقدَّرُ مُضافٌ تَقديرُه: وأنَّ عُنوانَ سَعْيِه سَوف يُرى. ويَجوزُ أنْ يكونَ ذلك بإشهارِ العمَلِ والسَّعيِ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ٤٩] الآيةَ، فتكون الرُّؤيةُ مُعبَّرًا بها عن العِلْمِ؛ لقصْدِ تَحقُّقِ العِلمِ واشتِهارِه. وحِكمةُ ذلك تَشريفُ المُحسنينَ بحُسْنِ السُّمعةِ، وانكسارُ المُسيئينَ بسُوءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٦١٧٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧٣٥) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

الأُحدوثةِ، وقولُه: ﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ هو المَقصودُ مِن الجُملةِ[١].

- و(ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ حُصولَ الجَزاءِ أهمُّ مِن إظهارِه، أو إظهارِ المَجزيِّ عنه[٢].

- وضَميرُ النَّصبِ في قولِه: ﴿يُجْزَىٰهُ﴾ عائدٌ إلى السَّعي، أي: يُجْزَى عليه، أو يُجْزى به؛ فحُذِفَ حرْفُ الجرِّ، ونُصِبَ على نَزعِ الخافضِ؛ فقد كثُرَ أنْ يُقالَ: جَزاهُ عمَلَه، وأصْلُه: جَزاهُ على عمَلِه، أو جَزاهُ بعمَلِه[٣].

- والأَوْفَى: اسمُ تَفضيلٍ مِن الوَفاءِ، وهو التَّمامُ والكَمالُ، والتَّفضيلُ مُستعمَلٌ هنا في القوَّةِ، وليس المُرادُ تَفضيلَه على غيرِه، والمعْنى: أنَّ الجَزاءَ على الفِعلِ -مِن حَسَنٍ أو سَيِّئٍ- مُوافِقٌ للمَجزيِّ عليه[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴾ [النجم: ٤٠]، فتَكونَ تَتِمَّةً لِما في صُحفِ مُوسى وإبراهيمَ، ويكونَ الخِطابُ في قَولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الْتِفاتًا مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، والمُخاطَبُ غيرُ مُعيَّنٍ، فكأنَّه قِيل: وأنَّ إلى ربِّه المُنْتهى. ويَجوزُ أنَّها ليستْ ممَّا اشتمَلَتْ عليه صُحفُ مُوسى وإبراهيمَ، ويَكونُ عطْفُها عطْفَ مُفرَدٍ على مُفرَدٍ، فيَكونُ المَصدَرُ المُنسبِكُ مِن (أنْ) ومَعمولِها مَدخولًا للباءِ، أي: لم يُنبَّأْ بأنَّ إلى ربِّك المُنتهى، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا نَتطلَّبُ لها نَظيرًا مِن كَلامِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٠، ١٤١).

- والتَّعبيرُ عن اللهِ بلفْظِ ﴿رَبِّكَ﴾ تَشريفٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَعريضٌ بالتَّهديدِ لمُكذِّبيه؛ لأنَّ شأْنَ الرَّبِّ الدِّفاعُ عن مَرْبوبه(١).

- ومعنى الرُّجوعِ إلى اللهِ: قيل: الرُّجوعُ إلى حُكْمِه المحْضِ الَّذي لا تُلابِسُه أحكامٌ هي في الظَّاهرِ مِن تَصرُّفاتِ المَخلوقاتِ ممَّا هو شأْنُ أُمورِ الدُّنيا؛ فالكلامُ على حذْفِ مُضافٍ دلَّ عليه السِّياقُ(٢).

- وقيل: في الآيةِ معنًى آخَرُ، وهو أنْ يكونَ المُنتهى مُعبَّرًا به عن انتهاءِ السَّيرِ، بمعْنى الوُقوفِ؛ لأنَّ الوقوفَ انتهاءُ سَيرِ السَّائرِ، ويكونَ الوُقوفُ تَمثيلًا لحالِ المُطيعِ لأمْرِ اللهِ؛ تَشبيهًا لأمْرِ اللهِ بالحدِّ الَّذي تُحدَّدُ به الحوائطُ، والمعْنى: التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ لِما أمَرَ اللهُ ونَهى، وقيل غير ذلك(٣).

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ لا يَخْلو الإنسانُ مِن حالَيْ حُزنٍ وسُرورٍ؛ لأنَّه إذا لم يكُنْ حَزينًا مَغمومًا كان مَسرورًا؛ لأنَّ اللهَ خلَقَ السُّرورَ والانشراحَ مُلازِمًا للإنسانِ بسَببِ سَلامةِ مِزاجِه وإدراكِه؛ لأنَّه إذا كان سالِمًا كان نَشيطَ الأعصابِ، وذلك النَّشاطُ تَنشَأُ عنه المَسرَّةُ في الجُملةِ، وإنْ كانتْ مُتفاوِتةً في الضَّعفِ والقُوَّةِ؛ فذِكْرُ الضَّحِكِ والبُكاءِ يُفيدُ الإحاطةَ بأحوالِ الإنسانِ بإيجازٍ، ويَرمُزُ إلى أسبابِ الفرَحِ والحُزنِ، ويُذكِّرُ بالصَّانعِ الحَكيمِ، ويُشيرُ إلى أنَّ اللهَ هو المُتصرِّفُ في الإنسانِ؛ لأنَّه خلَقَ أسبابَ فرَحِه ونكَدِه، وألْهَمَه إلى اجتِلابِ ذلك بما في مَقدورِه، وجعَلَ حدًّا عظيمًا مِن ذلك خارجًا عن مَقدورِ الإنسانِ، وذلك لا يَمْتري فيه أحدٌ إذا تأمَّلَ، وفيه ما يُرشِدُ إلى الإقبالِ على طاعةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ الآيةِ (ص: ٥٢٤ - ٥٢٥).

اللهِ والتَّضرُّعِ إليه؛ ليُقدِّرَ للنَّاسِ أسبابَ الفرَحِ، ويَدفَعَ عنهم أسبابَ الحُزنِ[١].

- وأفادَ ضَميرُ الفصْلِ (هُو) قصْرًا لصِفةِ خلْقِ أسبابِ الضَّحِكِ والبُكاءِ على اللهِ تعالى؛ لإبطالِ الشَّريكِ في التَّصرُّفِ، فتَبطُلُ الشَّرِكةُ في الإلهيَّةِ، وهو قصْرُ إفرادٍ[٢]؛ لأنَّ المَقصودَ نفْيُ تَصرُّفِ غيرِ اللهِ تعالى، وإنْ كان هذا القصْرُ بالنَّظرِ إلى نفْسِ الأمرِ قصْرًا حقيقيًّا لإبطالِ اعتِقادِ أنَّ الدَّهرَ مُتصرِّفٌ، وإسنادُ الإضحاكِ والإبكاءِ إلى اللهِ تعالى؛ لأنَّه خالِقُ قُوَّتي الضَّحِكِ والبُكاءِ في الإنسانِ، وذلك خلْقٌ عَجيبٌ، ولأنَّه خالقُ طِبائعِ المَوجوداتِ الَّتي تَجلِبُ أسبابَ الضَّحِكِ والبُكاءِ مِن سُرورٍ وحُزْنٍ[٣].

- ولم يُذكَرْ مَفعولُ ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾؛ لأنَّ القصْدَ إلى الفِعلَينِ، لا إلى مَفعولَيْهما، فالفِعلانِ مُنزَّلانِ مَنزِلةَ اللَّازِمِ، أي: أوجَدَ الضَّحِكَ والبُكاءَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ تَضادٌّ، وفي الاعتِبارِ بخلْقِ الشَّيءِ وضِدِّه إشارةٌ إلى دَقائقِ حِكمةِ اللهِ تعالى. وتَقديمُ الضَّحِكِ على البُكاءِ؛ لأنَّ فيه امتِنانًا بزِيادةِ التَّنبيهِ على القُدْرةِ، وحصَلَ بذلك مُراعاةُ الفاصِلةِ[٥].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ انتُقِلَ مِن الاعتبارِ بانفرادِ اللهِ بالقُدرةِ على إيجادِ أسبابِ المَسرَّةِ والحُزنِ -وهما حالتانِ لا تَخلو عن إحداهما نفْسُ الإنسانِ- إلى العِبرةِ بانفرادِه تَعالى بالقُدْرةِ على الإحياءِ والإماتةِ، وهما حالتانِ لا يَخلو الإنسانُ عن إحْداهما؛ فإنَّ الإنسانَ أوَّلُ وُجودِه نُطفةٌ مَيتةٌ، ثمَّ عَلَقةٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٢، ١٤٣).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ثمَّ مُضْغةٌ -قِطعةٌ ميِّتةٌ وإنْ كانت فيها مادَّةُ الحياةِ، إلَّا أنَّها لم تَبرُزْ مَظاهرُ الحياةِ فيها-، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ، فيَصيرُ إلى حياةٍ، وذلك بتَدْبيرِ اللهِ تَعالى وقُدرتِه. ولعلَّ المقصودَ هو العِبرةُ بالإماتةِ؛ لأنَّها أوضَحُ عِبْرةً، وللرَّدِّ عليهم قولَهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، وأنَّ عطْفَ ﴿وَأَحۡيَا﴾ تَتْميمٌ[١] واحتراسٌ[٢]؛ ولذلك قُدِّمَ ﴿أَمَاتَ﴾ على (أَحْيَا)، مع الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٣].

- وفِعلَا ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ مُنزَّلانِ مَنزلةَ اللَّازِمِ؛ إظهارًا لبَديعِ القُدْرةِ على هذا الصُّنْعِ الحَكيمِ، مع التَّعريضِ بالاستدلالِ على كَيفيَّةِ البَعثِ وإمكانِه، حيث أحالَه المُشرِكون، وشاهِدُه في خلْقِ أنفُسِهم[٤].

- وضَميرُ الفصلِ (هُو) للقصْرِ؛ ردًّا على أهلِ الجاهليَّةِ الَّذين يُسنِدون الإحياءَ والإماتةَ إلى الدَّهرِ، فقالوا: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فليس المُرادُ الحياةَ الآخرةَ؛ لأنَّ المُتحدَّثَ عنهم لا يُؤمِنون بها، ولأنَّها مُستقبَلةٌ، والمُتحدَّثُ عنه ماضٍ[٥]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٥٠٣).

(٢) الاحتراس: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفَعُ ذلك الاحتِمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ: التَّكميلَ.
والفَرقُ بيْنَ الاحتِراسِ والتَّتميمِ: أنَّ الاحتِراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التَّتميمُ فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنَهما إذَنْ هي التَّبايُنُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩-٥١، ٢٤٠-٢٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وأيضًا في قولِه: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ و﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ و﴿وَأَعْطَىٰ﴾ ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ و﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ طِباقٌ[1] لا يَخفَى، وهو في السُّورة جَميعِها مُتعدِّدٌ؛ ولهذا يَدخُلُ في بابِ المُقابَلةِ، وقد زادَ هذا الطِّباقَ حُسْنًا أنَّه أتَى في مَعرِضِ التَّسجيعِ الفَصيحِ؛ لمَجيءِ المُناسَبةِ التَّامَّةِ في فَواصِلِ الآيِ[2].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ هذه الآيةُ وإنْ كانتْ مُستقِلَّةً بإفادةِ أنَّ اللهَ خالِقُ الأزواجِ مِن الإنسانِ خلْقًا بَديعًا مِن نُطفةٍ فيَصيرُ إلى خَصائصِ نَوعِه، وذلك ما لا يَجهَلُه المُخاطَبون؛ فما كان ذِكْرُه إلَّا تَمهيدًا وتَوطئةً لقولِه: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧] على نحْوِ قولِه: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وباعتبارِ استقلالِها بالدَّلالةِ على عَجيبِ تَكوينِ نسْلِ الإنسانِ عُطِفَت عليها جُملةُ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾

---

(١) الطِّباقُ: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]؛ طابَقَ بيْنَ الضَّحكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقون. ومنه: طباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ مُتوهَّمةً، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخال النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) لبهاء الدين السبكي (٢/ ٢٢٥ - ٢٣٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٣٧٧ - ٣٨١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٧/ ٥٩).

[النجم: ٤٧]، وإلَّا لَكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (إنَّ عليه النَّشأةَ الأُخرى) بدونِ عطْفٍ، وبكسْرِ هَمزةِ (إنَّ)(١).

- ولم يُؤتَ في هذه الجُملةِ بضَميرِ الفصْلِ (هو) كما في اللَّتَينِ قبْلَها؛ لعدَمِ الدَّاعي إلى القَصْرِ هنا؛ إذ لا يُنازِعُ أحدٌ في أنَّ اللهَ خالِقُ الخلْقِ(٢).

- ولعلَّ وجْهَ ذِكرِ الزَّوجينِ والبدَلِ منه ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (وأنَّه خلَقَه -أي: الإنسانَ- مِن نُطفةٍ)، كما قال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ...﴾ [الطارق: ٥، ٦] الآيةَ؛ أمْرانِ: أحدُهما: إدماجُ الامتِنانِ في أثناءِ ذِكرِ الانفِرادِ بالخلْقِ بنِعمةِ أنْ خلَقَ لكلِّ إنسانٍ زوجةً، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ...﴾[الروم:٢١] الآيةَ. الثَّاني: الإشارةُ إلى أنَّ لكِلَا الزَّوجَينِ حظًّا مِن النُّطفةِ الَّتي منها يُخلَقُ الإنسانُ، فكانتْ للذَّكَرِ نُطفةٌ، وللمرأةِ نُطفةٌ، كما ورَدَ في الحديثِ الصَّحيحِ أنَّه إذا سبَقَ ماءُ الرَّجُلِ أشبَهَ المولودُ أباهُ، وإنْ سبَقَ ماءُ المرأةِ أشبَهَ المولودُ أُمَّه(٣)، وبهذا يَظهَرُ أنَّ لكلٍّ مِن الذَّكَرِ والأُنثى نُطفةً، وإنْ كان المُتعارَفُ عندَ الناسِ قبْلَ القُرآنِ أنَّ النُّطفةَ هي ماءُ الرَّجلِ، إلَّا أنَّ القرآنَ يُخاطِبُ النَّاسَ بما يَفهَمون، ويُشيرُ إلى ما لا يَعلَمون إلى أنْ يَفهَمَه المُتدبِّرون(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٧).

قال ابنُ عرفة: (السُّهَيلي: لم يُؤْتَ في هذه بضَميرِ الفَصلِ كما أتى به فيما قَبْلَها؛ لأنَّ بَعضَ الجُهَّالِ قد نَسَب تلك الأفعالَ لغَيرِ اللهِ تعالى، كقَولِ النُّمرودِ: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، وأمَّا هذا فلم يَدَّعِه أحَدٌ. انتهى). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٠٤).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٣٩٣٨) مِن حديثِ أنَسِ بنِ مالِكٍ رضيَ الله عنه.

وما أخرجه مسلمٌ (٣١١) مِن حديثِ أمِّ سُلَيمٍ رضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٥، ١٤٦).

- ولفْظُ (مِن) في قولِه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ ابتدائيَّةٌ؛ فإنَّ خلْقَ الإنسانِ آتٍ وناشئٌ بواسِطةِ النُّطفةِ، فإذا تكوَّنَتِ النُّطفةُ وأُمْنِيَتِ ابتدَأَ خلْقُ الإنسانِ(١).

- والتَّقييدُ بـ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾؛ لِمَا في اسمِ الزَّمانِ مِن الإيذانِ بسُرعةِ الخلْقِ عندَ دَفْقِ النُّطفةِ في رَحِمِ المرأةِ؛ فإنَّه عندَ الْتِقاءِ النُّطفتَينِ يَبتدِئُ تخَلُّقُ النَّسلِ، فهذا إشارةٌ خَفيَّةٌ إلى أنَّ البُويضةَ -الَّتي هي نُطفةُ المرأةِ- حاصِلةٌ في الرَّحِمِ، فإذا أُمْنِيَتْ عليها نُطفةُ الذَّكرِ أخَذَت في التَّخلُّقِ إذا لم يَعُقْها عائقٌ، ثمَّ لِما في فِعلِ ﴿تُمْنَىٰ﴾ مِن الإشارةِ إلى أنَّ النُّطفةَ تُقطَّرُ وتُصَبُّ على شَيءٍ آخَرَ؛ لأنَّ الصَّبَّ يَقْتضي مَصبوبًا عليه، فيُشيرُ إلى أنَّ التَّخلُّقَ إنَّما يَحصُلُ مِن انصبابِ النُّطفةِ على أُخرى، فعندَ اختلاطِ الماءَينِ يَحصُلُ تَخلُّقُ النَّسلِ، فهذا سِرُّ التَّقييدِ بقولِه: ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾(٢).

١١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ كان مُقْتضَى الظَّاهِرِ مِن التَّنظيرِ أنْ يُقدَّمَ قولُه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٨] على قولِه: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾؛ لِما في قولِه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾ مِن الامتنانِ وإظهارِ الاقتِدارِ المُناسبَينِ لقولِه: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ...﴾ [النجم: ٤٣- ٤٥] إلخ؛ إذ يُنتقَلُ مِن نِعمةِ الخلْقِ إلى نِعمةِ الرِّزقِ، كما في قولِه تعالى حِكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨، ٧٩]، وقولِه تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]، ولكنْ عُدِلَ عن ذلك على طَريقةٍ تُشبِهُ الاعتِراضَ؛ ليُقرَنَ بيْنَ البَيانَيْنِ ذِكْرُ قُدْرتِه على النَّشأتَينِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٦، ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٧).

- وفي جُملةِ ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ تَحقيقٌ لِفعلِه إيَّاها؛ شبَّهَها بالحقِّ الواجبِ على المَحقوقِ به بحيثُ لا يَتخلَّفُ، فكأنَّه حقٌّ واجبٌ؛ لأنَّ اللهَ وعَدَ بحُصولِ ما اقتَضَتْه الحِكمةُ الإلهيَّةُ؛ لظُهورِ أنَّ اللهَ لا يُكرِهُه شَيءٌ[1].

- والنَّشأةُ: المرَّةُ مِن الإنشاءِ، أي: الإيجادِ والخلْقِ، والأُخرى: مُؤنَّثُ الأخيرِ، أي: النَّشأةُ الَّتي لا نَشأةَ بعْدَها، وهي مُقابِلُ النَّشأةِ الأُولى الَّتي يَتضمَّنُها قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، وهذه المُقابَلةُ هي مُناسَبةُ ذِكْرِ هذه النَّشأةِ الأُخرى[2].

- وتَقديمُ الخبَرِ ﴿عَلَيْهِ﴾؛ للاهتِمامِ بالتَّحقيقِ الَّذي أفادَتْه (على)؛ تَنبيهًا على زِيادةِ تَحقيقِه بعْدَ أنْ حُقِّقَ بما في (أنَّ) مِن التَّوكيدِ[3].

١٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾

- الإتيانُ بضَميرِ الفصْلِ (هو) لقصْرِ صِفةِ الإغناءِ والإقناءِ عليه تَعالى دونَ غيرِه، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[4]؛ لمُقابَلةِ ذُهولِ النَّاسِ عن شُكرِ نِعمةِ اللهِ تَعالى بإسنادِهم الإرزاقَ لوسائلِه العاديَّةِ، معَ عدَمِ التَّنبُّهِ إلى أنَّ اللهَ أوجَدَ مَوادَّ الأرزاقِ وأسبابَها، وصرَفَ موانِعَها[5].

١٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ في هذه الآيةِ مِن البَلاغةِ والبَديعِ مُحسِّنُ التَّنكيتِ؛ وهو أنْ يَقصِدَ المُتكلِّمُ إلى شَيءٍ بالذِّكرِ دونَ غيرِه ممَّا يسُدُّ مَسدَّه مِن أجْلِ نُكتةٍ في المَذكورِ تُرجِّحُ مَجيئَه؛ فقولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٨، ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٩).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣ - ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٠).

﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾، خَصَّ الشِّعرى بالذِّكرِ دونَ غيرِها مِن النُّجوم؛ لأنَّ العرَبَ كان ظهَرَ فيهم رجلٌ يُعرَفُ بأبي كَبْشةَ عبَدَ الشِّعرى ودَعا خلْقًا إلى عِبادتِها، فأنزَلَ اللهُ سُبحانَه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ الَّتي ادُّعِيَت فيها الرُّبوبيَّةُ دونَ سائرِ النُّجومِ[1]. أو لَعلَّ تَخصيصَها؛ للإشعارِ بأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وإنْ وافَقَ أبا كَبْشةَ في مخالِفةِ قُرَيشٍ بتركِ عبادةِ الأوثانِ، خالَفَه أيضًا بتركِ عبادةِ الشِّعرَى[2].

وقيل: إنَّ تَخصيصَ الشِّعرى بالذِّكرِ في هاتِه السُّورةِ؛ لأنَّه تَقدَّمَ ذِكرُ اللَّاتِ والعُزَّى ومَناةَ، وهي مَعبوداتٌ وَهْميَّةٌ لا مُسمَّياتٍ لها، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٌ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [النجم: ٢٣]، وأعْقَبَها بإبطالِ إلهيَّةِ الملائكةِ، وهي مِن المَوجوداتِ المُجرَّداتِ الخَفيَّةِ -أعقَبَ ذلك بإبطالِ عِبادةِ الكواكبِ، وخُزاعةُ أجوارٌ لأهْلِ مكَّةَ، فلمَّا عَبَدوا الشِّعرَى ظَهَرتْ عِبادةُ الكَواكبِ في الحِجازِ، وإثباتُ أنَّها مَخلوقةٌ للهِ تعالى دليلٌ على إبطالِ إلهيَّتِها؛ لأنَّ المخلوقَ لا يكونُ إلهًا، مع ما في لَفظِ ﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ مِن مُناسَبةِ فَواصلِ هذه السُّورةِ[3].

- والإتيانُ بضَميرِ الفصْلِ (هو) يُفيدُ قصْرَ مَربوبيَّةِ الشِّعرَى على اللهِ تعالى، وذلك كِنايةٌ عن كَونِه ربَّ ما يَعتقِدون أنَّه مِن تَصرُّفاتِ الشِّعرى، أي: هو ربُّ تلك الآثارِ ومُقدِّرُها، وليستِ الشِّعرى ربَّةَ تلك الآثارِ المُسنَدةِ إليها في مَزاعِمِهم، وليس لقصْرِ كَونِ ربِّ الشِّعرى على اللهِ تعالى دونَ غيرِه؛ لأنَّهم لم يَعتقِدوا أنَّ للشِّعرى ربًّا غيرَ اللهِ، ضَرورةَ أنَّ منهم مَن يَزعُمُ أنَّ الشِّعرى

---

(١) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥١، ١٥٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦٩، ٣٧٠)

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٢).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٥٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٢).

ربَّةٌ مَعبودةٌ، ومنهم مَن يَعتقِدُ أنَّها تَتصرَّفُ بقطْعِ النَّظَرِ عن صِفتِها[١].

١٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾

- إنَّما قُدِّمَ في الآيةِ ذِكرُ عادٍ وثَمودَ على ذِكرِ قَومِ نُوحٍ، مع أنَّ هؤلاء أسبَقُ؛ لأنَّ عادًا وثمودَ أشهَرُ في العرَبِ وأكثَرُ ذِكرًا بيْنَهم، ودِيارُهم في بلادِ العرَبِ[٢].

- وجاء بيْنَ أنَّ وخبَرِها لَفظُ (هو) في قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾؛ ففي الثَّلاثةِ الأُوَلِ لَمَّا كان قد يَدَّعي ذلك بعضُ النَّاسِ، كقولِ نُمْروذَ: أنا أُحْيي وأُميتُ، احتِيجَ إلى تأْكيدٍ في أنَّ ذلك إنَّما هو للهِ لا غَيرِه، فهو الَّذي يُضحِكُ ويُبْكي، وهو المميتُ المُحْيي، والمُغْني والمُقْني حقيقةً، وإنِ ادَّعى ذلك أحدٌ فلا حَقيقةَ له، وأمَّا ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾؛ فلأنَّها لَمَّا عُبِدَتْ مِن دونِ اللهِ تعالى، نصَّ على أنَّه تعالى هو ربُّها ومُوجِدُها، ولَمَّا كان خلْقُ الزَّوجينِ، والإنشاءُ الآخَرُ، وإهلاكُ عادٍ ومَن ذُكِرَ لا يُمكِنُ أنْ يَدَّعيَ ذلك أحدٌ؛ لم يُحتَجْ إلى تأْكيدٍ ولا تَنصيصٍ أنَّه تعالى هو فاعِلُ ذلك[٣]. وأيضًا لِكَونِ هلاكِ هؤلاء مَعلومًا، لم تُقرَنِ الجُملةُ بضَميرِ الفَصْلِ هنا[٤].

١٥- قولُه تعالَى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿أَهۡلَكَ عَادًا﴾ إلى آخِرِها، وضَميرُ الجمْعِ في ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ﴾ يَجوزُ أنْ يَعودَ إلى قَومِ نُوحٍ، أي: كانوا أظلَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٣).

وأطْغَى مِن عادٍ وثَمودَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ عائدًا إلى عادٍ وثَمودَ وقَومِ نُوحٍ، والمعْنى: أنَّهم أظلَمُ وأطْغى مِن قَومِك الَّذين كذَّبوك، فتَكونُ تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الرُّسلَ مِن قبْلِه لَقُوا مِن أُمَمِهم أشدَّ ممَّا لقِيَه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ مُبْقٍ على أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلا يُهلِكُها؛ لأنَّه قدَّرَ دُخولَ بقيَّتِها في الإسلامِ ثمَّ أبنائِها[١].

- وضَميرُ الفصْلِ (هُمْ) في قولِه: ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ﴾ لتَقويةِ الخبَرِ[٢].

١٦- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾

- (المُؤتفِكةُ) صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه اشتِقاقُ الوصْفِ، والتَّقديرُ: القُرَى المُؤتفِكةَ، وهي قُرى قومِ لُوطٍ الأربعُ، ووُصِفَتْ في سُورةِ (بَراءةَ) بـ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ﴾ [التوبة: ٧٠]؛ لأنَّ وصْفَ جمْعِ المُؤنَّثِ يَجوزُ أنْ يُجمَعَ، وأنْ يكونَ بصِيغةِ المُفرَدِ المُؤنَّثِ، وقد صار هذا الوصْفُ غالبًا عليها بالغَلَبةِ. وذُكِّرت القُرى باعتبارِ ما فيها مِن السُّكَّانِ؛ تَفنُّنًا، ومُراعاةً للفواصلِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ المؤتفكةُ هنا وصْفًا للأُمَّةِ، أي: لأُمَّةِ لُوطٍ؛ ليكونَ نَظيرًا لذِكْرِ عادٍ وثَمودَ وقومِ نُوحٍ[٣].

- وتَقديمُ المفعولِ ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾؛ للاهتِمامِ بعِبْرةِ انقلابِها[٤].

١٧- قولُه تعالَى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾

- أفاد العَطْفُ بفاءِ التَّعقيبِ في قولِه: ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ أنَّ ذلك كان بعَقِبِ إهْوائِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- و﴿مَا﴾ هنا مَوصولةٌ، وجِيءَ بصِلَتِها مِن مادَّةِ وصِيغةِ الفِعلِ الَّذي أُسنِدَ إليها ﴿غَشَّىٰ﴾، وذلك لا يُفيدُ خَبرًا جديدًا زائدًا على مُفادِ الفِعلِ، والمَقصودُ منه التَّهويلُ؛ كأنَّ المُتكلِّمَ أراد أنْ يُبيِّنَ بالمَوصولِ والصِّلةِ وصْفَ فاعِلِ الفِعلِ، فلمْ يَجِدْ لبَيانِه أكثَرَ مِن إعادةِ الفِعلِ؛ إذ لا يُستطاعُ وصْفُه[1].

١٨- قولُه تعالَى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تَفريعُ فَذْلَكةٍ[2] لِما ذُكِرَ مِن أوَّلِ السُّورةِ ممَّا يَختَصُّ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن ذلك -على قولٍ في تفسيرِ هذه الآيةِ-، كقولِه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ٢- ١٨]، وممَّا يَشملُه ويَشملُ غيرَه، مِن قولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٣- ٤٩]؛ فإنَّ ذلك خَليطٌ مِن نِعَمٍ وضِدِّها على نَوعِ الإنسانِ، وفي مَجموعِها نِعمةُ تَعليمِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأُمَّتِه بمَنافعِ الاعتِبارِ بصُنْعِ اللهِ. ثمَّ مِن قَولِه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا﴾ [النجم: ٥٠] إلى هنا، فتلك نِقَمٌ مِن الضَّالِّين والظَّالِمين لنَصْرِ رُسلِ اللهِ، وذلك نِعمةٌ على جَميعِ الرُّسلِ، ونِعمةٌ خاصَّةٌ بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي بِشارتُه بأنَّ اللهَ سيَنصُرُه؛ فجَميعُ ما عُدِّدَ مِن النِّعَمِ على أقوامٍ والنِّقَمِ على آخَرينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٥).

(٢) الفَذْلكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحَوقلة)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

هو نِعَمٌ مَحضَةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمؤمنينَ[١].

- والاستِفهامُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ في معْنى الإنكارِ[٢]. و(أيّ) اسمُ استفهامٍ يُطلَبُ به تَمييزُ مُتشارِكٍ في أمْرٍ يعُمُّ بما يُميِّزُ البعضَ عن البقيَّةِ مِن حالٍ يَختَصُّ به، مُستعمَلٌ هنا في التَّسويةِ؛ كِنايةً عن تَساوي ما عُدِّد مِن الأُمورِ في أنَّها نِعَمٌ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -وذلك على قولٍ-؛ إذ ليس لواحدٍ مِن هذه المَعدوداتِ نقْصٌ عن نَظائرِه في النِّعمةِ، والمَقصودُ مِن هذا الاستفهامِ تَذكيرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذه النِّعَمِ؛ فالمعْنى: أنَّك لا تَحصُلُ لك مِرْيةٌ في واحدةٍ مِن آلاءِ ربِّك؛ فإنَّها سواءٌ في الإنعامِ[٣].

- والتَّماري: التَّشكُّكُ، وهو تَفاعُلٌ مِن المِرْيةِ؛ فإنْ كان الخِطابُ بقَولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كان ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ مُطاوِعَ مَاراهُ، والمعْنى: فبأيِّ آلاءِ ربِّك يُشكِّكونَك، أي: لا يَستَطيعونَ أنْ يُشكِّكوكَ في حُصولِ آلاءِ ربِّك الَّتي هي نِعَمُ النُّبوَّةِ، والَّتي منها رُؤيتُه جِبريلَ عِندَ سِدْرةِ المُنْتهى، والكلامُ مَسوقٌ لتأْييسِ المُشرِكين مِن الطَّمَعِ في الكفِّ عنهم. وإنْ كان الخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ كان ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تفاعلًا مُستعمَلًا في المُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ، ولا يُعرَفُ فِعلٌ مُجرَّدٌ للمِراءِ، وإنَّما يُقال: امترَى، إذا شكَّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٥، ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥٧).

## الآيات (٥٦-٦٢)

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾: أي: قرُبَت ودَنَت القيامةُ، وسُمِّيت بذلك؛ لِقُربِها، وأصلُ (أزف): يدُلُّ على الدُّنُوِّ والمُقارَبةِ[1].

﴿سَٰمِدُونَ﴾: أي: لاهُونَ غافِلونَ مُعرِضونَ، وأصلُ (سمد): يدُلُّ على مُضِيٍّ قُدُمًا مِن غَيرِ تَعريجٍ؛ لأنَّ اللَّاهيَ يَمضي في أَمرِه غَيرَ مُعَرِّجٍ ولا مُتمَكِّثٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقرِّرُ الله تعالى رسالةَ نبيِّه ويحذِّرُ مِن اقتِرابِ السَّاعةِ، فيقولُ: هذا رَسولُ اللهِ محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- نَذيرٌ للنَّاسِ مِن جِنْسِ مَن سَبَق مِن الرُّسُلِ.

قَرُبَت ودَنَت القيامةُ، ليس لها مِن دونِ اللهِ تعالى كاشِفٌ لوَقتِها، أو قادِرٌ على دَفعِ شَدائِدِها وأهوالِها.

ثمَّ يقولُ تعالى مُتوعِّدًا المنكِرينَ لرسالةِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، المعرِضينَ عن القرآنِ: أفمِنْ هذا القُرآنِ تَعجَبونَ -أيُّها المُشرِكونَ-؟! وتَضحَكونَ مِنَ القُرآنِ استِهزاءً، ولا تَبكُونَ، وأنتم غافِلونَ لاهُون.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤، ٤٢٥).

ثمَّ يختمُ الله تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ آمرًا لعبادِه بالسُّجودِ له والعبادةِ، فيقولُ: فاسجُدوا للهِ وَحْدَه، واعبُدوه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ٥٦﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَمَّ الكلامُ على هذا المِنهاجِ البَديعِ، والنَّمَطِ الرَّفيعِ، في حُسنِ البَيانِ للمَواعِظِ والشَّرعِ، والقَصَصِ القَديمةِ، والإنذارِ العَظيمِ التَّامِّ على وَجهٍ مُعجِزٍ مِن وُجوهٍ شَتَّى- أنتَجَ قَولَه مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا خاتِمًا السُّورةَ بما بدأ هنا به مِن ذِكْرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1]:

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ٥٦﴾.

أي: هذا الرَّسولُ محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- نَذيرٌ للنَّاسِ مِن جِنْسِ مَن سَبَق مِن الرُّسُلِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤١، ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).
قال الماوَرْدي: (فيه قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّ مُحمَّدًا نذيرٌ بالحَقِّ، الذي أنذَرَ به الأنبياءُ قَبْلَه. قاله ابنُ جُرَيجٍ. الثَّاني: أنَّ القُرآنَ نَذيرٌ بما أنذَرَت به الكُتُبُ الأُولى. قاله قَتادةُ. ويحتَمِلُ قولًا ثالثًا: أنَّ هلاكَ مَن تقَدَّم ذِكرُه مِن الأُمَمِ الأُولى نذيرٌ لكم). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٦).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فهو مِن جِنسِ الرُّسُلِ قَبْلَه: الواحدي، ومال إليه ابنُ عطيَّةَ، وذهب إليه ابنُ كثير، والبِقاعي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عطية (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير =

كما قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر إهلاكَ مَن تقَدَّمَ ذِكرُه، وذَكَر قَولَه: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾؛ ذكَرَ أنَّ الَّذي أنذَرَ به قَريبُ الوُقوعِ، فقال[1]:

﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ ۝٥٧﴾.

أي: قَرُبَت ودَنَت القيامةُ القَريبةُ مِنكم، أيُّها النَّاسُ[2]!

---

= السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ في روايةٍ عنه، وابنُ جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (الأشبَهُ أن تكونَ الإشارةُ إلى محمَّدٍ). ((تفسير ابن عطية (٥/ ٢٠٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ قيل: محمَّدٌ. وقيل: القُرآنُ. وهما مُتلازِمانِ، يقولُ: هذا نذيرٌ أنذَرَ بما أنذَرَت به الرُّسُلُ والكُتُبُ الأُولى. وقَولُه: ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: مِن جِنسِها). ((مجموع الفتاوى)) (٨/ ٢٠٩).

وقيل: المعنى: هذا المذكورُ في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى نذيرٌ مِنَ النُّذُرِ الأُولى الَّتي جاءت الأُمَمَ قَبْلَكم كما جاءَتكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٧، ١٥٨).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: أبو مالكٍ الغِفاريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ضاق الخِناقُ مِن ذِكرِها على هذا الوَجهِ، تشَوَّفَ السَّامِعُ إلى دَفعِها؛ فاستأنَفَ قَولَه[1]:

﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ٥٨﴾.

أي: لا يَدفَعُها مِن دونِ اللهِ أحَدٌ، ولا يَطَّلِعُ على عِلْمِها سِواه[2].

---

قال ابنُ عطية: (الآزِفةُ: عِبارةٌ عن القيامةِ بإجماعٍ مِنَ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٠٩).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: هذا نذيرٌ بآزفةٍ قَرُبَت). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨).

قال الواحدي: (ومعنى الكشفِ في اللُّغةِ: رفْعُ الشَّيءِ عمَّا يُواريه، والمعنى على هذا القولِ: أنَّ القيامةَ إذا غَشِيَتِ الخلْقَ بشَدائدِها وأهوالِها لم يَكشِفْها أحدٌ مِن آلهتِهم، أي: أنَّها لا تُنجيهم منها... والكاشفةُ على هذا القولِ نعتُ مؤنَّثٍ محذوفٍ، على تقديرِ: نفْسٌ كاشِفةٌ، أو جماعةٌ كاشفةٌ، وهذا معنَى قولِ قَتادةَ: ليس لها مِن دونِ الله رادٌّ.

ويجوزُ أن تكونَ الكاشِفةُ مَصدرًا، كالخائنةِ والعاقِبةِ والعافيةِ، فإذا قدَّرْتَها مصدرًا كان المعنى: ليس لها مِن دونِ الله كشْفٌ، أي: لا يَكشِفُ عنها غيرُه، بمعنَى: لا يُبديها ولا يُظهِرُها ولا يُزيلُ =

= عنها ما يَستُرُها، وهو معنَى قولِ مُقاتِلٍ: لا يَكشِفُها أحدٌ إلَّا الله، قال: يعني: السَّاعةَ اللهُ الَّذي يَكشِفُها... وهذا القولُ اختيارُ الزَّجَّاجِ والفَرَّاءِ، وهو قولُ الكلبيِّ، قال: ليس لها مَن يَكشِفُ عن عِلمِها إلَّا اللهُ، وإذا كشَف عن عِلمِها فقد كشَف عنها). ((البسيط)) (٢١/ ٨٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٦٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ، أي: أنَّ المرادَ: لا يَكشِفُها إذا غَشِيتْ، ولا يَقدِرُ على دفْعِ شَدائدِها وأهوالِها إلَّا اللهُ: الماوَرْديُّ، والواحدي، وابن الجوزي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: عَطاءٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٤).

وممَّن اختار القَولَ الثَّانيَ -أي: أنَّ المرادَ: ليس للقيامةِ مُظهِرٌ لعِلمِ وَقتِها ومتى تكونُ غَيرُ اللهِ تعالى، ولا يَكشِفُ عنها ولا يُظهِرُها إلَّا اللهُ-: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والبغوي، والخازن، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٤).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنَيَينِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨).

وقال ابن جرير: (ليس تَنكَشِفُ فتَقومَ إلَّا بإقامةِ اللهِ إيَّاها وكَشْفِها، دونَ مَن سِواه مِن خَلْقِه؛ لأنَّه لم يُطلِعْ عليها مَلَكًا مُقَرَّبًا، ولا نَبيًّا مُرسَلًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٥، ٩٦).

وقال القرطبي: (﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس لها مِن دُونِ اللهِ مَن يُؤَخِّرُها أو يُقَدِّمُها). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٢).

قال ابن جُزَي: (﴿كَاشِفَةٌ﴾ يحتمِلُ لفظُه ثلاثةَ أوجُه: أن يكونَ مَصدرًا كالعافيةِ، أي: ليس لها كشْفٌ. وأن يكونَ بمعنَى كاشِفٍ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، كعلَّامةٍ. وأن يكونَ صِفةً لِمَحذوفٍ تقديرُه: نفْسٌ كاشِفةٌ، أو جماعةٌ كاشِفةٌ. ويحتملُ معناه وجْهَينِ:

أحدُهما: أن يكونَ مِن الكَشفِ بمعنَى: الإزالةِ، أي: ليس لها مَن يُزيلُها إذا وقعَتْ.

والآخَرُ: أن يكونَ بمعنى الاطِّلاعِ، أي: ليس لها مَن يَعلَمُ وقتَها إلَّا اللهُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢١).

كما قال تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أفهَمَ هذا أنَّ اللهَ تعالى يَكشِفُ كُرَبَها عمَّن يُريدُ مِن عِبادِه، ويُثَقِّلُه على مَن يَشاءُ، ويَكشِفُ عِلْمَها بإقامتِها، ولا حِيلةَ لِغَيرِه في شَيءٍ مِن ذلك بوَجهٍ- سَبَّبَ عنه وعمَّا تقَدَّمَه مِنَ الإنذارِ قَولَه مُنكِرًا مُوَبِّخًا[1]:

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

أي: أفمِن هذا القُرآنِ تَعجَبونَ، أيُّها المُشرِكونَ[2]؟!

قال تعالى: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ [ص: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾ [ق: ٢].

﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: وتَضحَكونَ مِنَ القُرآنِ استِهزاءً، ولا تَبكُونَ انزِجارًا وخَوفًا[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن =

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ٦١﴾.

أي: وأنتم غافِلونَ لاهُون[1].

---

= عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٨).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٨).

قال السَّمينُ الحلبي: (قوله: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾: هذه الجُملةُ تحتَمِلُ أن تكونَ مُستأنَفةً؛ أخبَرَ اللهُ تعالى عنهم بذلك، وتحتَمِلُ أن تكونَ حالًا، أي: انتفى عنكم التَّباكي حالَ كَونِكم ﴿سَٰمِدُونَ﴾). ((الدر المصون)) (١٠/ ١١٦).

وقال ابن الجوزي: (﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ فيه خمسةُ أقوالٍ:

أحدُها: لاهُون، رواه العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ. قال أبو عُبَيْدَةَ: يقالُ: دَعْ عنك سُمودَك، أي: لَهْوَك.

والثَّاني: مُعْرِضون، قاله مجاهِدٌ.

والثَّالثُ: أنَّه الغِناءُ، وهي لغةٌ يمانيةٌ، يقولون: اسْمُدْ لنا، أي: تَغَنَّ لنا، رواه عِكْرِمةُ عن ابنِ عبَّاسٍ. وقال عِكْرِمةُ: هو الغِناءُ بالحِمْيَرِيَّةِ.

والرَّابعُ: غافِلونَ، قاله قَتادةُ.

والخامسُ: أَشِرون بَطِرون، قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ١٠٣)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٣٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٧٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: لاهون غافِلون: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبغوي، والرَّسْعَني، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣).

وقال ابن عثيمين: (الصَّوابُ أنَّ المرادَ: غافِلون عنه بالغناءِ وغيرِه ممَّا تَتَلَهَّون به؛ حتَّى لا تَسمَعوا =

قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: فاسجُدوا للهِ وَحْدَه خاضِعينَ له، واعبُدوه وَحْدَه مُخلِصينَ له[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾

---

= كلامَ الله عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٨).

وقال الزمخشري: (﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ شامِخون مُبَرْطِمُون [البَرْطَمة: الانتِفاخُ مِن الغضَبِ]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٠). ويُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١١٥).

وقال ابن عاشور: (﴿سَٰمِدُونَ﴾: مِن السُّمودِ، وهو ما في المرءِ مِن الإعجابِ بالنَّفْسِ، يقالُ: سَمَدَ البَعيرُ، إذا رفَع رأسَه في سَيرِه، مُثِّل به حالُ المُتكبِّرِ المُعرِضِ عن النُّصحِ، المُعجَبِ بما هو فيه بحالِ البَعيرِ في نشاطِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦٠).

وقال البِقاعي: (﴿سَٰمِدُونَ﴾ أي: دائِبون في العملِ، جاهِدون في العمل؛ فإنَّ الأمرَ جِدٌّ، فالدَّأبُ في العملِ والجِدُّ فيه حينَئذٍ علَّةٌ للبُكاءِ، فكأنَّه قيل: ولا تَدأبون في العملِ فتَبكون؛ وإنَّما قلتُ ذلك لأنَّ «سَمَد» معناه: دأبَ في العملِ، ورفَع رأسَه تكبُّرًا وعلا). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٨، ٢٥٩).

قال السَّمْعاني: (وقَولُه: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ حمَل بعضُهم هذا على الصَّلَواتِ الخَمْسِ. وقيل: إنَّ الآيةَ نزلتْ بمَكَّةَ قبْلَ فرضِ الصَّلَواتِ الخَمسِ، والسُّورةُ مكِّيَّةٌ، فعلى هذا معناه: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ أي: اخضَعوا لله ووَحِّدوا. ويُقالُ: المُرادُ منه أصلُ السُّجودِ، والمرادُ مِن العبادةِ هي الطَّاعةُ. وهو مَوضِعُ سُجودٍ عِندَ أكثَرِ الفُقهاءِ إلَّا مالك). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٥).

وقال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ قيل: المرادُ به: سُجودُ تِلاوةِ القرآنِ. وهو قولُ ابنِ مسعودٍ. وبه قال أبو حنيفةَ والشَّافِعيُّ... وقيل: المرادُ: سُجودُ الفرضِ في الصَّلاةِ، وهو قولُ ابنِ عُمرَ، كان لا يَراها مِن عَزائِمِ السُّجودِ. وبه قال مالكٌ... والأوَّلُ أصَحُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٤).

ذَمُّ المعرِضِينَ عن سَماعِ القُرآنِ، المتعوِّضِينَ عنه بسَماعِ الغِناءِ، كما هو حالُ السَّمَّاعاتِيَّةِ المُؤْثِرِينَ لسَماعِ المُكاءِ والتَّصْديةِ على سَماعِ القُرآنِ، المتعوِّضِينَ عنه بسَماعِ الغِناءِ، وهو نَظيرُ الَّذين أضاعوا الصَّلاةَ واتَّبَعوا الشَّهَواتِ[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ...﴾ استِحبابُ البُكاءِ عندَ قِراءةِ القُرآنِ وسَماعِه، وذَمُّ الضَّحِكِ والغِناءِ، واللَّهوِ واللَّعِبِ والغَفلةِ[٢]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ لم يَقُلْ: «بشيرٌ»؛ لأنَّ المقامَ لا يَقتَضي إلَّا ذِكْرَ الإنذارِ؛ إذْ إنَّ اللهَ تعالى تَحَدَّثَ مِن أوَّلِ السُّورة إلى آخِرِها عن قُرَيشٍ، وتَكذيبِها للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعبادتِها للأصنامِ، فيقولُ: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم ﴿نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾، أي: مِن الرُّسُلِ السَّابقينَ، وكما أنَّ الَّذين كَذَّبوا الرُّسُلَ حَلَّ بهمُ العِقابُ والنَّكالُ، فأنتم -أيُّها المكَذِّبونَ- لِرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُوشِكُ أنْ يَحُلَّ بكم النَّكالُ والعُقوبةُ؛ لأنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم مِثلُ غَيرِه نَذيرٌ مِن النُّذُرِ، فإذا كان نَذيرًا مِن النُّذُرِ فإنَّ مَن كَذَّبَه سوف يَقَعُ به مِثلُ ما وَقَعَ بالأُمَمِ السَّابقةِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ التَّنبيهُ على قُربِ المُنذَرِ به، وهو مِن كَمالِ الإنذارِ؛ للبِدارِ بتجَنُّبِ الوُقوعِ فيما يُنذَرُ به[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ الأمرُ بالسُّجودِ لله تعالى خُصوصًا؛

---

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨).

لِيَدُلَّ ذلك على فَضلِه، وأنَّه سِرُّ العِبادةِ ولُبُّها؛ فإنَّ لُبَّها الخُشوعُ للهِ والخُضوعُ له؛ والسُّجودُ هو أعظَمُ حالةٍ يَخضَعُ بها العَبدُ؛ فإنَّه يُخضِعُ قَلبَه وبَدَنَه، ويَجعَلُ أشرَفَ أعضائِه على الأرضِ المَهينةِ مَوضِعَ وَطءِ الأقدامِ[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ﴾ أنَّ السُّجودَ يُطلَقُ على الصَّلاةِ كلِّها[٢]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، أو فَذْلَكةٌ[٣] لِما تَقدَّمَ على اختِلافِ الاعتِبارَينِ في مَرجِعِ اسمِ الإشارةِ؛ فإنْ جُعِلَ اسمُ الإشارةِ راجعًا إلى القُرآنِ؛ فإنَّه لحُضورِه في الأذهانِ يُنزَّلُ مَنزِلةَ شَيءٍ مَحسوسٍ حاضرٍ بحيث يُشارُ إليه، فالكلامُ انتِقالٌ اقتضابيٌّ تَنهيةً لِما قبْلَه، وابتِداءً لِما بعْدَ اسمِ الإشارةِ، على أُسلوبِ قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]. والكلامُ مُوجَّهٌ إلى المُخاطَبينَ بمُعظَمِ ما في هذه السُّورةِ؛ فلذلك اقتُصِرَ على وصْفِ الكَلامِ بأنَّه نذيرٌ، دونَ أنْ يقولَ: نَذيرٌ وبَشيرٌ. وإنْ جُعِلَ اسمُ الإشارةِ عائدًا إلى ما تَقدَّمَ مِن أوَّلِ السُّورة بتأْويلِه بالمذْكورِ، أو إلى ما لمْ يُنبَّأْ به الَّذي تَولَّى وأعْطى قليلًا، ابتِداءً مِن قولِه: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم: ٣٦] إلى هنا؛ فتَكونُ الإشارةُ إلى الكَلامِ المُتقدِّمِ تَنزيلًا لحُضورِه في السَّمعِ مَنزِلةَ حُضورِه في المُشاهَدةِ بحيث يُشارُ إليه[٤].

وعلى أنَّ الإشارةَ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ فيكونُ افتتَحَ أوَّلَ السُّورة

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (١/ ٤٣٤).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٧).

بِه، واختَتَمَ آخِرَها به[١].

- وتَنوينُ ﴿نَذِيرٌ﴾ للتَّفخيمِ[٢].

- و(مِنْ) مُتعلِّقةٌ بمَحْذوفٍ هو نَعتٌ لـ﴿نَذِيرٌ﴾، مُقرِّرٌ له، ومُتضمِّنٌ للوعيدِ، أي: هذا القرآنُ الَّذي تُشاهِدونَه نذيرٌ مِن قَبيلِ الإنذاراتِ المُتقدِّمةِ الَّتي سمِعْتُم عاقبتَها، أو هذا الرَّسولُ مُنذِرٌ مِن جِنسِ المُنذِرينَ الأوَّلينَ، و﴿ٱلْأُولَىٰٓ﴾ على تأويلِ الجَماعةِ؛ لمُراعاةِ الفواصلِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ تَتنزَّلُ هذه الجُملةُ مِن الَّتي قبْلَها مَنزِلةَ البَيانِ للإنذارِ الَّذي تَضمَّنَه قولُه: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ [النجم: ٥٦]؛ فالمعْنى: هذا نَذيرٌ بآزِفةٍ قرُبَتْ[٤].

- وقولُه: ﴿أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ﴾ أي: دنَتِ القيامةُ، عُبِّرَ عنها بلفْظِ الماضي؛ لقُرْبِها، وضِيقِ وقْتِها[٥].

- وجِيءَ لِفعلِ ﴿أَزِفَتِ﴾ بفاعِلٍ مِن مادَّةِ الفِعلِ؛ للتَّهويلِ على السَّامعِ؛ لتَذهَبَ النَّفْسُ كلَّ مذهبٍ مُمْكنٍ في تَعيينِ هذه الحادثةِ الَّتي أزِفَتْ، ومَعلومٌ أنَّها مِن الأُمورِ المَكروهةِ؛ لوُرودِ ذِكْرِها عقِبَ ذِكرِ الإنذارِ[٦].

- والتَّأنيثُ في ﴿ٱلْآزِفَةُ﴾ بتَأويلِ الوَقْعةِ، أو الحادثةِ، كما يُقالُ: نزَلَتْ به نازِلةٌ، أو وقعَتِ الواقعةُ، وغشِيَتْه غاشيةٌ، والعرَبُ يَستعمِلون التَّأنيثَ دَلالةً على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١١٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨).

المُبالَغةِ في النَّوعِ[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْآزِفَةُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وفيه زِيادةُ تَهويلٍ بتَمْييزِ هذا الجِنسِ مِن بيْنِ الأجناسِ؛ لأنَّ في استِحضارِه زِيادةَ تَهويلٍ؛ لأنَّه حَقيقٌ بالتَّدبُّرِ في المَخلَصِ منه[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ مُستأنَفٌ بَيانيٌّ، أو صِفةٌ للآزِفةِ، و﴿كَاشِفَةٌ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مَصدرًا بوزْنِ فاعِلةٍ، كالعافيةِ، وخائنةِ الأعيُنِ، والمعْنى: ليس لها كشْفٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿كَاشِفَةٌ﴾ اسمَ فاعلٍ، قُرِنَ بهاءِ التَّأنيثِ للمُبالَغةِ، مِثلُ راويةٍ، وباقِعةٍ، ودَاهيةٍ، أي: ليس لها كاشفٌ قويُّ الكشْفِ، فضْلًا عمَّن دونَه[٣].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ صِلةٌ؛ للتَّوكيدِ[٤].

- والكشْفُ يَجوزُ أنْ يكونَ بمعْنى التَّعريةِ مُرادٌ به الإزالةُ، وذلك ضِدُّ ما يُقالُ: غَشِيَه الضُّرُّ؛ فالمعْنى: لا يَستطيعُ أحدٌ إزالةَ وَعيدِها غيرُ اللهِ، وقد أخبَرَ بأنَّها واقِعةٌ بقولِه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ كِنايةً عن تَحقُّقِ وُقوعِها[٥].

- وفي قولِه: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّمثيلِ؛ فقد أُخرِجَ الكلامُ مُخرَجَ المثَلِ السَّائرِ يُتمثَّلُ به في الوقائعِ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ تَفريعٌ على ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٨، ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٠).

[النجم: ٥٦] وما عُطِف عليه وبُيِّن به مِن بَيانٍ أو صِفةٍ، فُرِّعَ عليه استِفهامُ إنكارٍ وتَوبيخٍ(١).

- ومعْنى العجَبِ هنا الاستِبعادُ والإحالةُ، أو كِنايةٌ عن الإنكارِ(٢).

- وتَقديمُ المجْرورِ ﴿أَفَمِنْ﴾؛ للقصْرِ، أي: هذا الحديثُ ليس أهلًا لِأنْ تُقابِلوه بالضَّحِكِ والاستِهزاءِ والتَّكذيبِ، ولا لِئلَّا يَتوبَ سامِعُه، أي: لو قابلْتُم بفِعلِكم كلامًا غيرَه، لَكان لكم شُبْهةٌ في فِعلِكم، فأمَّا مُقابلتُكم هذا الحديثَ بما فَعَلْتُم فلا عُذْرَ لكمْ فيها(٣).

٥- قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ الجُملةُ حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾، وهي قَيدٌ للنَّفْيِ، والإنكارُ مُتوجِّهٌ إلى نفْيِ البُكاءِ ووُجودِ السُّمودِ. وقيل: هي حالٌ مِنْ فاعلِ ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ خَلا أنَّ مَضمونَها -على أنَّها بمعْنى: خاشِعونَ جامِدونَ، مِن السُّمودِ بمَعْنى الجُمودِ والخُشوعِ- قَيْدٌ للمَنْفيِّ، والإنكارُ واردٌ على نَفْيِ البُكاءِ والسُّمودِ معًا(٤).

- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ ذُكِرَ (سامِد) باسمِ الفاعِلِ -دونَ الضَّحِكِ والعَجَبِ-؛ لأنَّ الغَفلةَ دائِمةٌ، وأمَّا الضَّحِكُ والعَجَبُ فهُما أمْرانِ يَتجَدَّدانِ ويَعدَمانِ(٥).

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾ تَفريعٌ على الإنكارِ والتَّوبيخِ المُفرَّعَينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٧).

على الإنذارِ بالوعيدِ، فُرِّعَ عليه أمْرُهم بالسُّجودِ للهِ؛ لأنَّ ذلك التَّوبيخَ مِن شأْنِه أنْ يَعْمُقَ في قُلوبِهم، فيَكُفَّهم عمَّا همْ فيه مِن البطَرِ والاستِخفافِ بالدَّاعي إلى اللهِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ﴾ لتَرتيبِ الأمْرِ أو مُوجِبِه على ما تَقرَّرَ مِن بُطلانِ مُقابَلةِ القُرآنِ بالإنكارِ والاستِهزاءِ، ووُجوبِ تَلقِّيه بالإيمانِ مع كَمالِ الخضوعِ والخُشوعِ، أي: وإذا كانَ الأمرُ كذلِكَ فاسْجُدوا للهِ الَّذي أنزَلَه واعْبُدوا[٢].

- والسُّجودُ يَجوزُ أنْ يكونَ المُرادُ به سُجودَ الصَّلاةِ، ويكونَ الأمرُ به كِنايةً عن الأمْرِ بأنْ يُسلِموا؛ فإنَّ الصَّلاةَ شِعارُ الإسلامِ[٣].

وقيل: يَحتمِلُ أنْ يكونَ الأمرُ عامًّا، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ الْتِفاتًا؛ فيكونَ كأنَّه قال: أيُّها المؤمنونَ اسجُدوا شُكرًا على الهدايةِ، واشتغِلوا بالعِبادةِ[٤].

- وعُطِفَ على الأمْرِ بالسُّجودِ أمْرُهم بعِبادةِ اللهِ؛ لأنَّهم إذا خَضَعوا له حَقَّ الخُضوعِ، عَبَدوه وتَرَكوا عِبادةَ الأصنامِ، وقد كان المشرِكون يَعبُدون الأصنامَ بالطَّوافِ حوْلَها ومُعرِضين عن عِبادةِ اللهِ؛ فقَدْ عَمَدوا إلى الكعْبةِ فوَضَعوا فيها الأصنامَ؛ لِيَكونَ طَوافُهم بالكعْبةِ طَوافًا بما فيها مِن الأصنامِ[٥].

- ولم يقُلْ: (اعبُدوا الله)؛ إمَّا لِكَونِه معلومًا، وإمَّا لأنَّ العِبادةَ في الحَقيقةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦١).

ويُنظر ما تقدَّم في حاشية تفسير هذه الآية (ص: ٥٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦١).

لا تَكونُ إلَّا للهِ، فقال: ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾، أي: ائتُوا بالمأمورِ، ولا تَعبُدوا غيرَ اللهِ؛ لأنَّها ليستْ بعِبادةٍ[1].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ السَّادِسُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ القَمَرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٨٧).

# الفهرس

# الفهرس


سورةُ الذَّارِياتِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٧

بيانُ المَكِّيِّ والمَدنيِّ ..... ٧

مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٧

موضوعاتُ السُّورةِ ..... ٧

الآيات (١-٦) ..... ٩

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩

المعنى الإجماليُّ ..... ١٠

تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٠

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٦

بلاغةُ الآياتِ ..... ٢١

الآيات (٧-١٤) ..... ٢٤

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٤

المعنى الإجماليُّ ..... ٢٥

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٦

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٢

بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٥

الآيات (١٥-١٩) ..... ٤١

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤١

مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٢

المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٣

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٤

بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٧

الآيات (٢٠-٢٣) ..... ٦٤

مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٦٤

المعنى الإجماليُّ ..... ٦٤

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦٥

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٧١

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٧٢

بلاغةُ الآياتِ ..... ٧٧

الآيات (٢٤-٣٠) ..... ٨٢

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٨٢

مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٨٣

المعنى الإجماليُّ ..... ٨٣

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٨٤

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٩١

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٩٨

بلاغةُ الآياتِ ..... ١٠٥

الآيات (٣١-٣٧) ..... ١١١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١١١
المعنى الإجماليُّ ..... ١١١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١١٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٢٢
الآيات (٣٨-٤٦) ..... ١٢٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٢٦
المعنى الإجماليُّ ..... ١٢٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٣٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٤١
الآيات (٤٧-٥١) ..... ١٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٤٩
المعنى الإجماليُّ ..... ١٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٦٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٦٥
الآيات (٥٢-٥٥) ..... ١٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٧٣
المعنى الإجماليُّ ..... ١٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٧٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٨٢
الآيات (٥٦-٦٠) ..... ١٨٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٨٨
المعنى الإجماليُّ ..... ١٨٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٨٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٩٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ... ١٩٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٠٤

## سورةُ الطُّورِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٢١٥
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٢١٥
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٢١٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٢١٦
الآيات (١-٨) ..... ٢١٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢١٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٢١٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢١٨

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٢٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٢٧
الآيات (٩-١٦)..... ٢٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٣٣
المعنى الإجماليُّ..... ٢٣٤
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٣٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٤١
الآيات (١٧-٢١) ..... ٢٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٤٨
المعنى الإجماليُّ..... ٢٤٩
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٤٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٥٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٦٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٧٢
الآيات (٢٢-٢٨) ..... ٢٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٧٩
المعنى الإجماليُّ..... ٢٨١
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٨١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٨٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٢٩٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٩٢
الآيات (٢٩-٣٦) ..... ٢٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٩٨
المعنى الإجماليُّ..... ٢٩٩
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣١٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣١٤
الآيات (٣٧-٤٣) ..... ٣٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٢٥
المعنى الإجماليُّ..... ٣٢٦
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٣٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٣٦
الآيات (٤٤-٤٩) ..... ٣٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٤٩
المعنى الإجماليُّ..... ٣٥٠
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٦٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٣٦٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٦٧

**سُورةُ النَّجْمِ**

أسماءُ السُّورةِ ..... ٣٧٧

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها . ٣٧٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ..... ٣٧٨
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣٧٨
موضوعاتُ السُّورةِ..... ٣٧٨
الآيات (١-١٨)..... ٣٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٨٠
المعنى الإجماليُّ..... ٣٨٣
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٨٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٤٠٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٢٢
الآيات (١٩-٢٥) ..... ٤٣٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٣٥
المعنى الإجماليُّ..... ٤٣٦
تَفسيرُ الآياتِ..... ٤٣٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٤٤٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤٦
الآيات (٢٦-٣٢) ..... ٤٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٦٣
المعنى الإجماليُّ..... ٤٦٤
تَفسيرُ الآياتِ..... ٤٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٤٨٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٩٥
الآيات (٣٣-٥٥) ..... ٥١٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥١٢
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٥١٥
المعنى الإجماليُّ..... ٥١٦
تَفسيرُ الآياتِ..... ٥١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٣٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٥٣٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٤٦
الآيات (٥٦-٦٢) ..... ٥٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٦٦
المعنى الإجماليُّ..... ٥٦٦
تَفسيرُ الآياتِ..... ٥٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ... ٥٧٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٧٥
الفهرس ..... ٥٨١

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة القمر وسورة الرحمن و سورة الواقعة)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد السادس والثلاثون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة القمر وسورة الرحمن وسورة الواقعة)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد السادس والثلاثون - سورة القمر وسورة الرحمن وسورة الواقعة/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٦٠ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٠-٠٣-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧ ١٤٤٣/٨٦٩٥

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٨٦٩٥

ردمك: ٠-٠٣-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م**

**(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ القَمَرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ القَمَرِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القَمَرِ)[١].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

**مِنَ السُّنَّةِ قِراءةُ سُورةِ القَمَرِ في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صَلاةِ العِيدِ:**

عن عُبَيدِ اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ: أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ سأل أبا واقِدٍ اللَّيْثيَّ: ((ما كان يَقرَأُ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأضحَى والفِطرِ؟ فقال: كان يَقرَأُ فيهما بـ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]))[٢].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ القَمَرِ مَكِّيَّةٌ[٣]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٤].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ القَمَرِ؛ لاشتِمالِها على ذِكرِ انشِقاقِ القَمَرِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٥).

وتُسمَّى أيضًا: سورةَ ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ حِكايةً لأوَّلِ كَلِمةٍ افتُتِحَت بها. وتُسمَّى ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ لحديثِ أبي واقدٍ في ((صحيح مسلم)) (٨٩١). يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦١٥)، ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ١٩٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٩٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨٩١).

(٣) وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا ثلاثَ آياتٍ؛ مِن قَولِه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ [القمر: ٤٤] إلى قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]؛ فمَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠٣)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٠).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٥)، ((مصاعد النظر)) (٣/ ٣٩).

قال القرطبي: (سُورةُ القَمَرِ مَكِّيَّةٌ كُلُّها في قَولِ الجُمهورِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٥).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ مَقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

الحَديثُ عن سُنَنِ اللهِ تعالى في خَلْقِه، الَّتي مِن أبرَزِ مَظاهِرِها نَصرُ المؤمِنينَ، وخِذْلانُ الكافِرينَ[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ مَوضوعاتِ هذه السُّورةِ:**

١- الإنذارُ باقترابِ القيامةِ، وتَسجيلُ مُكابَرةِ المُشرِكينَ في الآياتِ البَيِّنةِ، وجُحودِهم للحَقِّ بعدَ إذ جاءَهم.

٢- أمْرُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالإعراضِ عنهم حتَّى يأتيَ قَضاءُ اللهِ فيهم.

٣- إنذارُ المُشرِكينَ بما سيَكونونَ عليه يومَ القيامةِ مِن ذِلَّةٍ ونَدامةٍ وحَسْرةٍ.

٤- ذِكرُ قَصَصِ المُكَذِّبينَ مِن سالِفي الأُمَمِ؛ كقَومِ نُوحٍ، وعادٍ، وثَمودَ، وقَومِ فِرعَونَ، وما لاقَوه مِن الجزاءِ على تكذيبِهم، وما حَلَّ بهم مِن هَلاكٍ ودَمارٍ.

٥- توبيخُ المُشرِكينَ على عَدَمِ الاعتِبارِ بهذه النُّذُرِ، وذِكرُ ما يُلاقُونَه مِنَ الجَزاءِ في الآخِرةِ إهانةً وتحقيرًا لهم.

٦- بيانُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وبَليغِ حِكمتِه، وأنَّ كُلَّ شَيءٍ بقَضائِه وقَدَرِه، وأنَّ مَشيئتَه نافِذةٌ في الكَونِ، وأنَّه قد أحاط عِلمًا بأفعالِهم وبكُلِّ شَيءٍ.

٧- خُتِمَت السُّورةُ بتبشيرِ المتَّقينَ بحُسنِ العاقبةِ، وما يُؤتَونَه مِنَ الكَرامةِ.

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٩٤).

## الآيات (١-٨)

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ٨﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾: أي: ذاهِبٌ، مِن قَولِهم: مَرَّ الشَّيءُ على وَجهِه واستَمَرَّ، أي: ذَهَبَ، وقيل: شَديدٌ قَوِيٌّ مُحكَمٌ؛ مِن قَولِهم: قد مرَّ الحَبْلُ: إذا صَلُبَ وقَوِيَ واشتَدَّ، وأصلُ (مرر) هنا: يدُلُّ على مُضِيِّ الشَّيءِ[١].

﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾: أي: واقِعٌ كائِنٌ، وأصلُ (قرر): يدُلُّ على تمكُّنٍ[٢].

﴿مُزۡدَجَرٌ﴾: أي: مُتَّعَظٌ ومُنتهًى عن الشِّركِ والمَعاصي، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على الانتِهارِ[٣].

﴿ٱلنُّذُرُ﴾: أي: الرُّسُلُ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٢-١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٩٠، ٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٦).

﴿نُّكُرٍ﴾: أي: مُنكَرٍ فَظيعٍ، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ[١].

﴿خُشَّعًا﴾: أي: ذَليلةً خاضِعةً، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[٢].

﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: القُبورِ، جَمعُ جَدَثٍ[٣].

﴿مُّهْطِعِينَ﴾: أي: مُسرِعينَ مُقبِلينَ، وأصلُ (هطع): يدُلُّ على إقبالٍ على الشَّيءِ وانقيادٍ[٤].

﴿عَسِرٌ﴾: أي: صَعبٌ شَديدٌ، وأصلُ (عسر): يدُلُّ على صُعوبةٍ وشِدَّةٍ[٥].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾

قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ﴾: مَنصوبٌ على الظَّرفيَّةِ بـ ﴿يَخْرُجُونَ﴾، أو على المَفعوليَّةِ بـ «اذْكُرْ» مُضمَرةً. وعليهما فيُوقَفُ على ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ وَقفًا تامًّا، ثمَّ يُبدَأُ بما بَعْدَها. وجَوَّزَ بَعضُهم نَصْبَ ﴿يَوْمَ﴾ على الظَّرفيَّةِ بـ «تَوَلَّ»، معناه: فتَولَّ عنهم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠).

يومَ يدعو الدَّاعي؛ لأنَّهم لَمَّا أعرَضوا حينَ دعاهم كان جزاؤُهم أن يُعرِضَ عنهم يومَ حاجتِهم إليه؛ لأنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ. وعلى هذا فلا يُوقَفُ على ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾. وقيلَ غَيرُ ذلك في ناصِبِ ﴿يَوۡمَ﴾.

وحُذِفَت الواوُ مِن ﴿يَدۡعُ﴾ لَفظًا؛ لالتِقاءِ السَّاكِنَينِ، وخَطًّا؛ اتِّباعًا لِلَّفظِ.

وحُذِفَت الياءُ مِن ﴿ٱلدَّاعِ﴾ تخفيفًا واكتِفاءً بالكَسرةِ؛ إجراءً لـ «أل» مجرى ما عاقَبَها وهو التَّنوينُ، فكما تُحذَفُ الياءُ مع التنوينِ كذلك مع ما عاقَبها.

﴿خُشَّعًا﴾ حالٌ مُقَدَّمةٌ مِن فاعلِ ﴿يَخۡرُجُونَ﴾. ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ فاعِلٌ باسمِ الفاعِلِ ﴿خُشَّعًا﴾: جمعُ خاشِعٍ. ﴿يَخۡرُجُونَ﴾ حالٌ مِنَ الضَّميرِ في ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾، أو جملةٌ مُستأنَفةٌ لا محَلَّ لها مِن الإعرابِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بدُنُوِّ القيامةِ، وبانفِلاقِ القَمَرِ فِلقَتَينِ؛ تأييدًا لنبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ثمَّ يُخبِرُ تعالى عنْ مُشرِكي قُرَيشٍ بأنَّهم إنْ يَرَوا عَلامةً تَدُلُّهم على صِدقِ نُبُوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُعرِضوا عن الإيمانِ بها، ويَقولوا مُنكِرينَ لها: هذا الَّذي يُرينا محمَّدٌ إيَّاه سِحرٌ ذاهِبٌ لا حقيقةَ له!

ثمَّ بيَّن الله تعالى حالَهم، فقال: وكَذَّبوا بالحَقِّ، واتَّبَعوا ما يَشتَهونَه بلا بُرهانٍ، وكُلُّ أمرٍ مُستَقِرٌّ إلى غايةٍ في الدُّنيا أو في الآخِرةِ، ولقد جاء مُشرِكي قُرَيشٍ مِنَ الأنباءِ ما فيه زَجرٌ لهم عن الكُفرِ باللهِ، والتَّكذيبِ بآياتِه ورُسُلِه؛ حِكمةٌ تامَّةٌ قد

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٩٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٩٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٢٣-١٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٧٩).

بَلَغَت الغايةَ، واصِلةٌ إلى المقصودِ منها، فما تَنفَعُهم النُّذُرُ، وهم مُعرِضونَ عن الآياتِ؟!

ثمَّ سلَّى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: فأَعرِضْ عنهم؛ فإنَّ الإنذارَ لا يُجدي فيهم. يومَ يَدعو الدَّاعي النَّاسَ إلى مَوقِفٍ فَظيعٍ كَثيرِ الأهوالِ يَخرُجونَ مِن قُبورِهم وأبصارُهم ذَليلةٌ خاضِعةٌ؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم وفَزَعِهم، فيَتوَجَّهونَ إلى مَوقِفِ الحِسابِ، وكأنَّهم في انتِشارِهم وكَثرتِهم جَرادٌ مُنتَشِرٌ، مُسرِعينَ إلى الدَّاعي؛ تلبيةً لنِدائِه، يقولُ الكافِرونَ يومَ القيامةِ: هذا يومٌ شَديدُ الصُّعوبةِ والعُسرِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١﴾.

### أسبابُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (انشَقَّ القَمَرُ على عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت قُرَيشٌ: هذا سِحرُ ابنِ أبي كَبْشةَ[1]! سَحَرَكم، فسَلُوا السُّفَّارَ[2]، فسَأَلُوهم، فقالوا: نَعَمْ، قد رَأَيْناه، فأنزَلَ اللهُ تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾)[3].

---

(١) أبو كَبْشةَ: رجُلٌ مِن خُزاعةَ خالَفَ قُرَيشًا في عبادةِ الأوثانِ، وعَبَد الشِّعْرَى، فلمَّا خالَفَهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عبادةِ الأوثانِ شَبَّهوه به، ونَسَبوه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليه. وقيل: إنَّه كان جَدَّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قِبَلِ أمِّه، فأرادوا أنَّه نَزَع في الشَّبَهِ إليه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٤٤).

(٢) السُّفَّارَ: أي: المسافِرينَ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٧١)، ((مختار الصحاح)) لزين الدين الرازي (ص: ١٤٨).

(٣) أخرجه الطَّيالسي (٢٩٣)، والطَّحاوي في ((شرح مُشْكِل الآثار)) (٦٩٧) مختصَرًا، وابنُ جرير في ((التفسير)) (٢٢/ ٥٦٧) واللَّفظُ له. =

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (سأَلَ أهلُ مكَّةَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آيةً، فانشَقَّ القمَرُ بمكَّةَ مرَّتَينِ[١]، فنزَلت ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ إلى قَولِه: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾، يقولُ: ذاهِبٌ)[٢].

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾.

أي: دَنَت القيامةُ الَّتي يَبعَثُ اللهُ فيها عِبادَه للحِسابِ والجَزاءِ[٣]!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ * مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ * لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بُعِثْتُ أنا والسَّاعةُ كهاتَينِ -وضَمَّ السَّبَّابةَ والوُسْطى))[٤].

---

= صَحَّحه ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (١/ ٢٠٣)، وصَحَّح إسنادَه على شرطِ البخاريِّ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((شرح مُشْكِلِ الآثار)) (٦٩٧).

(١) مرَّتَينِ: أي: شِقَّتَينِ وفِلقتَينِ. يُنظر: ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) لابن القيم (١/ ٣٠١)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٤/ ٣٠٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ١٨٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٨٦) واللَّفظُ له، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٥٥٤)، وأحمد (١٢٦٨٨).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصَحَّحه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥١٣) وقال: (على شرطِهما)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٨٦)، وصَحَّح إسنادَه على شرط الشَّيخينِ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٠/ ١١٨).

والحديثُ أصلُه في الصَّحيحَينِ دونَ ذِكرِ نُزولِ الآيةِ؛ أخرجه البخاري (٤٨٦٧)، ومسلم (٢٨٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦١).

(٤) رواه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) واللَّفظُ له.

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه سَمِعَ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّما أجَلُكم في أجَلِ مَن خَلا مِنَ الأُمَمِ ما بيْنَ صلاةِ العَصرِ إلى مَغرِبِ الشَّمسِ!))[١].

﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الإخبارُ باقتِرابِ السَّاعةِ يَحتاجُ عندَ المعانِدِ إلى آيةٍ دالَّةٍ عليه، وكانت الآياتُ السَّماويَّةُ أعظَمَ -فالتَّأثيرُ فيها أدَلُّ على تمامِ الاقتِدارِ-، وكان القَمَرُ أدَلَّ على الأنواءِ الَّتي بها مَنافِعُ الخَلقِ في مَعاشِهم، وكانت العَرَبُ أعرَفَ النَّاسِ بها- دَلَّهم على التَّأثيرِ فيه على اقتِرابِها، فقال[٢]:

﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾.

أي: وقد انفَلَق القَمَرُ، فصار فِلقَتَينِ بإذنِ اللهِ؛ تأييدًا لنبيِّه محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٥، ١٢٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ١٦٠، ١٦١، ٤٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٣).
قال ابن كثير: (قد كان هذا في زَمانِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما ثَبَت ذلك في الأحاديثِ المُتواتِرةِ بالأسانيدِ الصَّحيحةِ، وقد ثَبَت في الصَّحيحِ عن ابنِ مَسعودٍ أنَّه قال: «خَمْسٌ قد مَضَيْنَ: الرُّومُ، والدُّخَانُ، واللِّزامُ، والبَطشةُ، والقمَرُ» [((صحيح البخاري)) (٤٧٦٧)، ((صحيح مسلم)) (٢٧٩٨)]، وهذا أمرٌ مُتَّفَقٌ عليه بيْنَ العُلَماءِ: أنَّ انشِقاقَ القَمَرِ قد وقع في زمانِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّه كان إحدى المُعجِزاتِ الباهِراتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٢).
ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٤/ ٢٩٣)، (٨/ ٥٥٨). =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((انشَقَّ القَمَرُ على عَهدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شِقَّتَينِ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اشهَدوا!))[١].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ أهلَ مَكَّةَ سألوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُريَهم آيةً، فأراهم القَمَرَ شِقَّتَينِ، حتَّى رأَوا حِراءً بَيْنَهما))[٢].

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان التَّقديرُ: فأعرَضَ الكُفَّارُ عن آيةِ انشِقاقِه، وقالوا: سِحرٌ، مع عِلْمِهم بأنَّه دالٌّ قَطْعًا على صِدقِ مَن انَشَقَّ لتَصديقِه؛ عَطَف عليه الإعلامَ بحالِهم في المُستَقبَلِ؛ فَطمًا لِمَن يَطلُبُ مِنَ المُؤمِنينَ إجابةَ مُقتَرَحٍ مِن مُقتَرحاتِهم؛ رجاءَ إيمانِهم، فقال[٣]:

﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾.

أي: وإنْ يَرَ مُشرِكو قُرَيشٍ عَلامةً باهِرةً تَدُلُّهم على صِدقِ نُبُوَّةِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يُعرِضوا عن الإيمانِ بها، ويَقولوا مُنكِرينَ لها: هذا الَّذي يُرينا محمَّدٌ مِنَ المُعجِزاتِ -كانشِقاقِ القَمَرِ- سِحرٌ ذاهِبٌ باطِلٌ لا قَرارَ له، وخيالٌ لا حقيقةَ له[٤]!

---

= وقال الواحدي: (إلَّا ما روى عثمانُ بنُ عطاءٍ عن أبيه أنَّه قال: معناه: وسيَنشَقُّ القمرُ. وهو مَحجوجٌ بإجماعِ المفسِّرينَ على خلافِه، وبالأخبارِ المتظاهرةِ في انشقاقِ القمرِ). ((البسيط)) (٢١/ ٨٩).

(١) رواه البخاري (٣٦٣٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٨٠٠).

(٢) رواه البخاري (٣٨٦٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٨٠٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٧)، ((تفسير ابن =

﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾.

أي: وكَذَّبوا بالحَقِّ، واتَّبَعوا ما يَشتَهونَه ويَختارونَه مِنَ الباطِلِ بلا دَليلٍ ولا

---

= كثير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٣، ٢٦٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ؛ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهبٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابن أبي زَمَنين، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣١٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٨٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٣)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥).

وقيل: إنَّ المرادَ به: دائمٌ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والخازن، وابنُ جُزَي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٧٧).

وقيل: المرادُ: شديدٌ. وممَّن اختاره: أبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبَةَ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١).

قال ابنُ جُزَي: (قيل: شديدٌ. وهو على هذا المعنى مِن المِرَّةِ، وهي القُوَّةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٢).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ: مُحكَمٌ شديدٌ قويٌّ: الضَّحَّاكُ، وأبو العاليةِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٧).

قال الفراءُ: (قال بعضُهم: سِحْرٌ يُشبِهُ بعضُه بعضًا). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٠٤).

وقال السمعاني: (فيحتمِلُ أن يكونَ معناه: فِعلُه هذا في السِّحرِ يُشبِهُ سائرَ أفعالِه في السِّحرِ. ويحتملُ أنَّ معناه: سِحرُه يُشبِهُ سِحرَ موسى وعيسى وغَيرِهما). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٧).

بُرهانٍ[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [القصص: ٥٠].

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾.

أي: وكُلُّ أمرٍ لا بُدَّ أن يَستَقِرَّ في نهايتِه إلى غايةٍ في الدُّنيا أو في الآخِرةِ؛ فالحَقُّ ثابِتٌ، والباطِلُ زائِلٌ، وأهلُ الخَيرِ يَستَقِرُّونَ في الجنَّةِ، وأهلُ الشَّرِّ يَستَقِرُّونَ في النَّارِ[٢].

قال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: ولقد جاء مُشرِكي قُرَيشٍ مِنَ الأنباءِ ما فيه زَجرٌ لهم وانتِهاءٌ يَردَعُهم عن الكُفرِ باللهِ، والتَّكذيبِ بآياتِه ورُسُلِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٤).=

﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥﴾.

﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾.

أي: حِكمةٌ تامَّةٌ كامِلةٌ -قد بَلَغَت الغايةَ، فلا نَقْصَ فيها ولا خَلَلَ-، واصِلةٌ إلى المقصودِ منها[1].

---

= قيل: الأنباءُ هنا هي أخبارُ الأُمَمِ المُكَذِّبةِ لرُسُلِها، وما أصابهم مِنَ الهلاكِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، واستظهره الرَّازيُّ، وذهب إليه القرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥).

قال ابنُ عاشور: (أي: جاءهم في القُرآنِ مِن أنباءِ الأُمَمِ ما فيه مُزدَجَرٌ لهؤلاء. أو أُريدَ بالأنباءِ: الحُجَجُ الواردةُ في القُرآنِ، أي: جاءهم ما هو أشَدُّ في الحُجَّةِ مِن انشِقاقِ القَمَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

وقيل: يدخُلُ في المرادِ بالأنباءِ: ما ورد في القُرآنِ مِن المواعِظِ والقَصَصِ والبَراهينِ ومَثُلاتِ الأُمَمِ الكافِرةِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال الرَّسْعَني: (﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ بدَلٌ مِن «ما»، أو خَبَرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: هو حِكمةٌ تامَّةٌ قد بَلَغت الغايةَ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥١١).

قيل: المرادُ بالحِكمةِ البالِغةِ: القُرآنُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسَّمعانيُّ، والبغوي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٦).

قال البغوي: (﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾، يعني: القُرآنُ حِكمةٌ تامَّةٌ قد بلغت الغايةَ في الزَّجْرِ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٢). =

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

أي: فما تَنفَعُهم النُّذُرُ وهم مُعرِضونَ عن الآياتِ(١).

قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾.

---

= وقال الواحدي: (﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي: ما أتاهم مِن أخبارِ مَنْ قَبْلَهم حِكمةٌ بالِغةٌ تامَّةٌ ليس فيها نُقصانٌ، أي: القُرآنُ؛ وذلك أنَّ تلك الأخبارَ قُصَّت عليهم في القُرآنِ). ((الوجيز)) (ص: ١٠٤٦).

وذكر الرَّازيُّ وُجوهًا؛ منها: أنَّ المرادَ: شأنُ السَّاعةِ وعَلاماتُها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٤).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ أي: في هدايتِه تعالى لِمَن هَداه، وإضلالِه لِمَن أضَلَّه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٥).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ معنى ﴿بَٰلِغَةٌ﴾: تامَّةٌ وكامِلةٌ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والشوكاني. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٩٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٦).

وقيل: المرادُ: واصِلةٌ إلى الغَرَضِ المقصودِ منها. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال ابنُ جرير: (في «مَا» الَّتي في قَولِه: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ وجهانِ؛ أحَدُهما: أن تكونَ بمعنى الجَحدِ، فيكونَ -إذا وُجِّهَتْ إلى ذلك- معنى الكلامِ: فليسَت تُغْني عنهم النُّذُرُ، ولا يَنتَفِعونَ بها؛ لإعراضِهم عنها، وتكذيبِهم بها. والآخَرُ: أن تكونَ بمعنى: «أَنَّى»، فيكونَ معنى الكلامِ إذا وُجِّهَت إلى ذلك: فأيَّ شَيءٍ تُغْني عنهم النُّذُرُ؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦).

وقال الشوكاني: (والنُّذُرُ جمعُ نذيرٍ، بمعنَى المُنْذِرِ، أو بمعنَى الإنذارِ على أنَّه مَصدَرٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٦).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بان أنَّ المكذِّبينَ لا حيلةَ في هداهم؛ لم يَبْقَ إلَّا الإعراضُ والتَّولِّي عنهم، فقال[١]:

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾.

أي: فأعرِضْ -يا محمَّدُ- عن هؤلاء المكذِّبينَ المُعانِدينَ[٢].

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن اقترابَ السَّاعةِ بالإجابةِ إلى بَعضِ مُقترَحاتِهم، تطَلَّعَت النُّفوسُ إلى وَصفِ السَّاعةِ؛ فأجاب عن ذلك على سَبيلِ الاستِئنافِ بذِكرِ ظَرْفِها، وذِكرِ ما يقَعُ فيه مِنَ الأهوالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال ابن عاشور: (هذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَطمينٌ له بأنَّه ما قَصَّر في أداءِ الرِّسالةِ، ولا تعَلُّقَ لهذه الآيةِ بأحكامِ قِتالِهم؛ إذْ لم يكن السِّياقُ له، ولا حدَثَت دواعيه يومَئذٍ؛ فلا وَجْهَ للقَولِ بأنَّها مَنسوخةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦).

قال الواحدي: (وهاهنا وقْفُ التَّمام). ((البسيط)) (٢١/ ٩٤).

قال أبو عَمرٍو الدَّاني: (﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ تامٌّ. وقال ابنُ الأنباري: غيرُ تامٍّ. وليس كما قال؛ لأنَّ جميعَ أهلِ التَّفسيرِ يَجعلَون العاملَ في الظَّرفِ ﴿يَخْرُجُونَ ﴾ [القمر: ٧]. والمعنى عندَهم على [التَّقديمِ و] التَّأخيرِ، والتَّقديرُ: يَخرُجون مِن الأجْداثِ يومَ يَدْعُ الدَّاعِ، فإذا كان كذلك فالتَّمامُ: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾). ((المكتفى في الوقف والابتدا)) (ص: ٢٠٧). ويُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) لابن الأنباري (٢/ ٩١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٩٩).

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾.

أي: يومَ يَدعو داعي اللهِ النَّاسَ إلى مَوقِفٍ فَظيعٍ، شَديدِ البَلاءِ، كَثيرِ الأهوالِ، لم يُشاهِدِ النَّاسُ له نظيرًا(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٤١، ٤٢].

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن دُعاءَه بما هال أمرُه؛ بَيَّنَ حالَ المَدْعُوِّينَ؛ زيادةً في الهَولِ، فقال(٢):

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾.

أي: يَخرُجونَ مِن قُبورِهم والحالُ أنَّ أبصارَهم ذَليلةٌ خاضِعةٌ؛ مِن شِدَّةِ خَوفِهم وفَزَعِهم(٣)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٦، ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦-١٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال القرطبي: (﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ العامِلُ في ﴿يَوْمَ﴾: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾، أو ﴿خُشَّعًا﴾، أو فِعلٌ مُضمَرٌ تَقديرُه: واذكُرْ يَومَ. وقيل: على حَذفِ حَرفِ الفاءِ وما عَمِلَت فيه مِن جوابِ الأمرِ، تقديرُه: فتوَلَّ عنهم؛ فإنَّ لهم يومَ يدعو الدَّاعي. وقيل: تَوَلَّ عنهم -يا محمَّدُ-؛ فقد أقمْتَ الحُجَّةَ، وأبصِرْهم يومَ يدعو الدَّاعي. وقيل: أي: أعرِضْ عنهم يومَ القيامةِ، ولا تسألْ عنهم وعن أحوالِهم؛ فإنَّهم يُدْعَونَ إلى شيءٍ نُكُرٍ، ويَنالُهم عذابٌ شديدٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩).

وقال أبو حيَّان: (الدَّاعِ: هو إسرافيلُ، أو جِبرائيلُ، أو مَلَكٌ غيرُهما موكَّلٌ بذلك). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ * أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ [النازعات: ٨، ٩].

﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾.

أي: يَخرُجونَ مِنَ القُبورِ، فيَتوَجَّهونَ إلى مَوقِفِ الحِسابِ، وكأنَّهم في انتِشارِهم وكَثرتِهم جَرادٌ مُنتَشِرٌ(١).

---

= (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٦).

قال الواحدي: (قال المفسِّرون: يعني: ذليلةً خاضِعةً أبصارُهم عِندَ مُعايَنةِ العَذابِ. وقال أهل المعاني: وُصِفَت الأبصارُ بالخُشوعِ؛ لأنَّ ذِلَّةَ الذَّليلِ وعِزَّةَ العَزيزِ تَتبيَّنُ في نَظَرِه). ((البسيط)) (٢١/ ٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٥).

قال ابن جُزَي: (شبَّههم بالجرادِ في خروجِهم مِن الأرضِ، فكأنَّه استِدلالٌ على البعثِ، كالاستِدلالِ بخروجِ النَّباتِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٣).

وقال ابن جرير: (كأنَّهم في انتِشارِهم وسَعيِهم إلى مَوقِفِ الحِسابِ جَرادٌ مُنتَشِرٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٨).

وقال ابن كثير: (﴿كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ أي: كأنَّهم في انتِشارِهم وسُرعةِ سَيرِهم إلى مَوقِفِ الحسابِ إجابةً للدَّاعي ﴿جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ في الآفاقِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦).

وقال الشوكاني: (كأنَّهم لكثرتِهم واختِلاطِ بعضِهم ببعضٍ ﴿جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾، أي: مُنْبَثٌّ في الأقطارِ، مُختلِطٌ بعضُه ببعضٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٧).

وقال الرَّسْعَني: (كأنَّهم في كثرتِهم واضْطِرابِهم وتمَوُّجِهم جَرادٌ مُنبَثٌّ في كلِّ مكانٍ، ليست له جِهةٌ يَقصِدُها). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥١٤).

وقال البِقاعي: (كأنَّهم في كثرتِهم، وتَراكُمِ بعضِهم على بعضٍ مِن كبيرِهم وصغيرِهم، وضعيفِهم وقَويِّهم). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٠١).

وذكر ابن عاشور أنَّ التَّشبيهَ في الاكتِظاظِ، واستِتارِ بعضِهم ببعضٍ مِن شدَّةِ الخَوفِ، بالإضافةِ =

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٣، ٤٤].

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الانتِشارُ قد يكونُ على وَجهِ المَهَلِ والوَقارِ؛ قال مُبَيِّنًا أنَّ الأمرَ على خِلافِ ذلك؛ زيادةً في هَولِ ذلك اليَومِ، وتَقريرًا لِما تقَدَّمَ مِن وَصفِه[1]:

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾.

أي: يَخرُجونَ مِن قُبورِهم مُقبِلينَ مُسرِعينَ إلى الدَّاعي؛ تلبيةً لِندائِه[2].

كما قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨].

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

---

= إلى الكثرةِ والتَّحرُّكِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤).

قال القرطبي: (﴿مُّهْطِعِينَ﴾ معناه: مُسرِعينَ... الضَّحَّاكُ: مُقبِلينَ. قَتادةُ: عامِدينَ. ابنُ عبَّاسٍ: ناظِرينَ. عِكْرِمةُ: فاتِحينَ آذانَهم إلى الصَّوتِ. والمعنى مُتقارِبٌ؛ يُقال: هَطَع الرَّجُلُ يَهطَعُ هُطوعًا: إذا أقبَلَ على الشَّيءِ ببَصَرِه لا يُقلِعُ عنه، وأهطَعَ: إذا مَدَّ عُنُقَه وصَوَّبَ رأسَه). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠١)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٢/ ٣٩٨).

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن حالَ الكُلِّ؛ حَصَرَ حالَ المُبطِلينَ، فقال[١]:

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

أي: يقولُ الكافِرونَ باللهِ يومَ القيامةِ: هذا يومٌ في غايةِ العُسْرِ والصُّعوبةِ والشِّدَّةِ[٢].

كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ هذا بالنِّسبةِ للقَريبينَ مِن مَكَّةَ؛ كأهلِ الجزيرةِ مثلًا، أمَّا البَعيدونَ فقد لا يَرَونَه، وكما نعلَمُ الآنَ أنَّ اللَّيلَ هنا يكونُ نَهارًا في مكانٍ آخَرَ، أو لوجودِ غيومٍ وضبابٍ كثيرٍ يَمنَعُ الرُّؤيةَ؛ ولهذا لا يُمكِنُ أبدًا لأيِّ عاقِلٍ أنْ يُنكِرَ انشِقاقَ القَمَرِ انشقاقًا حِسِّيًّا لأنه لم يُذْكَرْ في تاريخِ اليونانِ! ولم يُذْكَرْ في تاريخِ الهندِ! ولم يُذْكَرْ في كذا وكذا! هذا ليس حجَّةً يَبطُلُ به ما ثَبَتَ في الصَّحيحَينِ وغَيرِهما مِن أنَّ القمرَ انشقَّ فِعلًا انشِقاقًا حِسِّيًّا، ونحن نؤمِنُ بأنَّ القادِرَ على أنْ يَطويَ السَّمَواتِ بيَمينِه كطَيِّ السِّجِلِّ للكُتُبِ قادِرٌ على أنْ يَفْلُقَ القَمرَ فِلْقَتَينِ، ولا شَيءَ يُعْجِزُهُ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]؛ ولهذا لا وَجْهَ لإنكارِ مَن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤).

أنكَر ذلك ممَّن يَنتَسِبونَ إلى الإسلامِ، ويقولونَ: إنَّ الأفلاكَ السَّماويَّةَ لا يُمكِنُ أنْ تتغيَّرَ! نقولُ: اللهُ أكبَرُ! مَنِ الَّذي خَلَقَ الأفلاكَ السَّماويَّةَ؟ أليس اللهَ؟! بلى، إذنْ هو قادِرٌ على أنْ يُغَيِّرَها ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] [يس: ٨٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ ذَكَر اللهُ تعالى انشِقاقَ القَمَرِ، وبَيَّن أنَّ اللهَ فَعَله، وأخْبَر به؛ لحِكمتَينِ عَظيمتَينِ؛ إحداهما: كَونُه مِن آياتِ النُّبُوَّةِ لَمَّا سَأَلَه المُشرِكونَ آيةً، فأراهم انشِقاقَ القمرِ. والثَّانيةُ: أنَّه دَلالةٌ على جَوازِ انشقاقِ الفَلَكِ، وأنَّ ذلك دليلٌ على ما أَخبَرَتْ به الأنبياءُ مِن انشقاقِ السَّمَواتِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾، فذَكَر اقتِرابَ السَّاعةِ، وانشِقاقَ القَمَرِ، وجَعَل الآيةَ في انشِقاقِ القَمَرِ دونَ الشَّمسِ وسائرِ الكواكبِ؛ لأنَّه أقرَبُ إلى الأرضِ مِن الشَّمسِ والنُّجومِ، وكان الانشِقاقُ فيه دونَ سائرِ أجزاءِ الفَلَكِ؛ إذْ هو الجِسمُ المُستنيرُ الَّذي يَظهَرُ فيه الانشِقاقُ لكُلِّ مَن يَراه ظُهورًا لا يُتمارَى فيه، وأنَّه نَفْسَه إذا قَبِل الانشِقاقَ فقَبولُ مَحَلِّه أَولى بذلك، وقد عاينَه النَّاسُ وشاهَدوه، وكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ بهذه السُّورةِ في المجامِعِ الكِبارِ، مِثلُ: صَلاةِ الجُمُعةِ والعيدَينِ؛ لِيُسمِعَ النَّاسَ ما فيها مِن آياتِ النُّبُوَّةِ ودلائِلِها، والاعتِبارِ بما فيها. وكُلُّ النَّاسِ يُقِرُّ بذلك ولا يُنكِرُه؛ فعُلِمَ أنَّ انشِقاقَ القَمَرِ كان معلومًا عندَ النَّاسِ عامَّةً، وفي الحديثِ ((أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٢). ويُنظر أيضًا: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٤/ ٢٩٩) و (٨/ ٥٦٤).

عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ سأل أبا واقدٍ اللَّيثيَّ: ما كان يَقرَأُ به رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الأضحى والفِطرِ؟ فقال: كان يَقرَأُ فيهما بـ ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [ق: ١] و ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ [القمر: ١]))[١]. ومعلومٌ بالضَّرورةِ في مُطَّرِدِ العادةِ أنَّه لو لم يكُنِ انشَقَّ لَأسرعَ المؤمِنونَ به إلى تكذيبِ ذلك، فضلًا عن أعدائِه الكُفَّارِ والمنافقِينَ، ومعلومٌ أنَّه كان مِن أحرَصِ النَّاسِ على تصديقِ الخَلقِ له، واتِّباعِهم إيَّاه، فلو لم يكُنِ انشَقَّ لَمَا كان يُخبِرُ به ويَقرَؤُه على جميعِ النَّاسِ، ويَستَدِلُّ به ويَجعَلُه آيةً له[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ التَّكذيبُ واتِّباعُ الهَوى قَرينانِ؛ فإذا حَصَل اتِّباعُ الهوى فمِن شُؤمِه يَحصُلُ التَّكذيبُ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُلبِّسُ على قَلبِ صاحِبِه حتَّى لا يَستَبصِرَ الرُّشدَ، أمَّا اتِّباعُ الرِّضا فمَقْرونٌ بالتَّصديقِ؛ لأنَّ اللهَ ببَركاتِ اتِّباعِ الحَقِّ يَفتَحُ عَينَ البَصيرةِ، فيَحصُلُ التَّصديقُ[٣]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ دليلٌ على أنَّ القرآنَ -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ- غايةُ كُلِّ حُجَّةٍ، وفاتِقُ كلِّ لُبْسَةٍ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞ﴾ أنَّه ما مِن شَيءٍ يَحكُمُ اللهُ تعالى به إلَّا وهو حِكمةٌ عَظيمةٌ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ أنَّ خَفْضَ البَصَرِ مِن تمامِ الخُشوعِ[٦].

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٧).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣).

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٧٨).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ إجازةُ تَشبيهِ النَّاسِ بغَيرِهم، وفي ذلك حُجَّةٌ للشُّعراءِ، إذا لم يَكذِبوا كَذِبًا مَحْضًا لا تأويلَ فيه[١]، ولم يكُنْ على سبيلِ الاحتِقارِ أو السُّخريةِ، أو التَّنقُّصِ لِخَلقِ الله.

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «يقولُ النَّاسُ»؛ لأنَّ هذا اليومَ العَسِرَ لا شكَّ أنَّه في حَدِّ ذاتِه عَسِرٌ شديدٌ عظيمٌ، ولكِنَّه على الكافِرينَ عَسيرٌ، وعلى المؤمِنينَ يَسيرٌ، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ١٠]، وأمَّا على المؤمِنينَ فهو يَسيرٌ[٢]، وبقَدْرِ ما يكونُ الإيمانُ عندَ العبدِ يكونُ اليُسرُ في ذلك اليَومِ؛ لأنَّ الجزاءَ مِن جِنْسِ العَمَلِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾

- تَصديرُ السُّورةِ بقَولِه: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ للاهتِمامِ بالمَوعظةِ؛ إذْ قد تَقرَّرَ المَقصودُ مِن تَصديقِ المُعجزةِ، فجُعِلَت تلك المُعجزةُ وَسيلةً للتَّذكيرِ باقترابِ السَّاعةِ على طَريقةِ الإدماجِ[٤]؛ بمُناسَبةِ أنَّ القمَرَ كائنٌ مِن

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٢٥٨).

(٤) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ =

الكائناتِ السَّماويَّةِ ذاتِ النِّظامِ المُسايِرِ لنَظامِ الجوِّ الأرضيِّ، فلمَّا حدَثَ تَغيُّرٌ في نِظامِه لم يكُنْ مأْلوفًا؛ ناسَبَ تَنبيهُ النَّاسِ للاعتبارِ بإمكانِ اضمِحلالِ هذا العالَمِ، وكان الفِعلُ الماضي مُستعمَلًا في حَقيقتِه[1].

- قولُه: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ بمعْنى قَرُبَت، وزِيادةُ المبْنى تدُلُّ على زِيادةِ المعْنى، وهنا ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ فيها زِيادةُ المبْنى على (قَرُبَت)، فيَدُلُّ على أنَّ القربَ قريبٌ جدًّا، فمعْنى ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ أي: قَرُبَت جِدًّا[2]. فقوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ أبلَغُ من قَرُبَت، كما أنَّ (اقتدَرَ) أبلَغُ مِن (قَدَرَ)[3].

والاقتِرابُ أصْلُه صِيغةُ مُطاوَعةٍ، أي: قَبولُ فِعلِ الفاعِلِ، وهو هنا للمُبالَغةِ في القُرْبِ، فإنْ حُمِلَ على حَقيقةِ القُربِ فهو قُرْبٌ اعتباريٌّ، أي: قُرْبُ حُلولِ السَّاعةِ فيما يأْتي مِن الزَّمانِ قُرْبًا نِسبيًّا بالنِّسبةِ لِما مَضى مِن الزَّمانِ ابتِداءً مِن خلْقِ السَّماءِ والأرضِ. وفائدةُ هذا الاعتِبارِ أنْ يُقبِلَ النَّاسُ على نَبْذِ الشِّركِ، وعلى الاستِكثارِ مِن الأعمالِ الصَّالحاتِ، واجتِنابِ الآثامِ؛ لقُرْبِ يومِ الجَزاءِ[4].

- قولُه: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ الخبَرُ مُستعمَلٌ في لازمِ مَعناهُ، وهو المَوعظةُ إنْ كانت الآيةُ نزَلَت بعْدَ انشقاقِ القمَرِ؛ لأنَّ عِلْمَهم بذلك حاصلٌ، فلَيسوا بحاجةٍ

---

= فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفِرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفِرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٦٨، ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٠، ١٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٤).

إلى إفادتِهم حكْمَ هذا الخبَرِ، وإنَّما هم بحاجةٍ إلى التَّذكيرِ بأنَّ مِن أماراتِ حُلولِ السَّاعةِ أنْ يقَعَ خسْفٌ في القمَرِ بما تَكرَّرت مَوعظتُهم به؛ كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٧، ٨] الآيةَ؛ إذ ما يُؤَمِّنُهم أنْ يكونَ ما وقَعَ مِن انشِقاقِ القمَرِ أمارةً على اقترابِ السَّاعةِ، فما الانشقاقُ إلَّا نوعٌ مِن الخسْفِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ تَذييلًا للإخبارِ بانشقاقِ القمَرِ، فيَكونَ المُرادُ بـ﴿ءَايَةً﴾ في قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ القمَرَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ كلامًا مُستأنَفًا مِن ذِكرِ أحوالِ تَكذيبِهم ومُكابرتِهم، وعلى كِلا الوجْهينِ فإنَّ وُقوعَ ﴿ءَايَةً﴾ -وهو نَكرةٌ- في سِياقِ الشَّرطِ يُفيدُ العُمومَ[٢].

- وجِيءَ بهذا الخبرِ في صُورةِ الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذا دَيدنُهم ودأْبُهم[٣].

- وضَميرُ ﴿يَرَوْا۟﴾ عائدٌ إلى غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ دالٍّ عليه المَقامُ، وهم المُشرِكون[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾، هذا إخبارٌ عن حالِهم فيما مَضَى، بعْدَ أنْ أخبَرَ عن حالِهم في المُستقبَلِ بالشَّرطِ الَّذي في قولِه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ [القمر: ٢]، ومُقابَلةُ ذلك بهذا فيه شِبهُ احتِباكٍ[٥]؛ كأنَّه قِيل: وإنْ يَرَوا آيةً يُعرِضوا ويَقولوا: سِحرٌ، وقد رَأَوُا الآياتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٧١، ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، =

وأعْرَضوا وقالوا: سِحرٌ مُستمِرٌّ، وكذَّبوا واتَّبعوا أهواءَهُم، وسيُكذِّبون ويتَّبِعون أهواءَهُم(١).

- وعُطِفَ ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ عطْفَ العِلَّةِ على المَعلولِ؛ لأنَّ تَكذيبَهم لا دافعَ لهم إليه إلَّا اتِّباعُ ما تَهواهُ أنفُسُهم مِن بَقاءِ حالِهم على ما أَلِفُوه وعهِدُوه واشتُهِرَ دَوامُه(٢).

- وذِكرُ الفِعلينِ ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ﴾ بلَفظِ الماضي؛ للإِشعارِ بأنَّهما مِن عادتِهم القديمةِ، وللدَّلالةِ على التَّحقُّقِ(٣).

- وجمَعَ الأهواءَ دونَ أنْ يقولَ: واتَّبعوا الهَوى، كما قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١١٦]؛ حيثُ إنَّ الهَوى اسمُ جِنسٍ يَصدُقُ بالواحدِ والمتعدِّدِ، فعُدِلَ عن الإفرادِ إلى الجمْعِ؛ لمُزاوَجةِ ضَميرِ الجمْعِ المُضافِ إليه، وللإشارةِ إلى أنَّ لهم أصنافًا مُتعدِّدةً مِن الأهواءِ: مِن حُبِّ الرِّئاسةِ، ومِن حسَدِ المؤمنينَ على ما آتاهم اللهُ، ومِن حُبِّ اتِّباعِ مِلَّةِ آبائِهم، ومِن مَحبَّةِ أصنامِهم، وإلْفٍ لعَوائدِهم، وحِفاظٍ على أنفَتِهم(٤).

- قولُه: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لإقناطِهم عمَّا علَّقوا به أمانِيَهم الفارغةَ مِن عدَمِ استِقرارِ أمْرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حسبَما قالُوا:

---

= إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن أَلْطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٢، ١٧٣).

سِحرٌ مُستمرٌّ؛ ببَيانِ ثَباتِه ورُسوخِه، أي: وكلُّ أمْرٍ مِن الأمورِ مُستقِرٌّ، أي: مُنتَهٍ إلى غايةٍ يَستقِرُّ عليها لا مَحالةَ، ومِن جُملتِها أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسَيصيرُ إلى غايةٍ يَتبيَّنُ عندَهَا حقِّيَّتُه، وعُلوُّ شَأْنِه. وإبهامُ المُستقَرِّ عليهِ؛ للتَّنبيهِ على كَمالِ ظُهورِ الحالِ، وعدَمِ الحاجةِ إلى التَّصريحِ بهِ[١].

أو تَذييلٌ للكَلامِ السَّابقِ مِن قَولِه: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ إلى قولِه: ﴿أَهْوَآءَهُمْ﴾ [القمر: ٢، ٣]، فهو اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَكَذَّبُوا۟﴾ وجُملةِ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ [القمر: ٤]، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وهو جارٍ مَجْرى المثَلِ[٢].

- و(كُلُّ) مِن أسماءِ العُمومِ، و(أمْر): اسمٌ يدُلُّ على جِنسٍ عالٍ، ومِثلُه: شَيءٌ، ومَوجودٌ، وكائنٌ، وهو هنا يَعُمُّ الأمورَ ذواتِ التَّأثيرِ[٣].

- قولُه: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ فيه تعريضٌ بأنَّ أمرَ الرَّسولِ لا بدَّ أنْ يستقِرَّ إلى غايةٍ، هي الظُّهورُ والنُّصرةُ، وأمرَ مكذبيه إلى الخذلانِ والشَّقاوةِ[٤].

- ومُستقِرٌّ: اسمُ فاعلٍ مِن استقَرَّ، أي: قَرَّ، والسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ؛ مِثلُ السِّينِ والتَّاءِ في استجابَ[٥].

- وقد تَضمَّنَ هذا التَّذييلُ بإجْمالِه تَسليةً للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَهديدًا للمُشرِكين، واستِدعاءً لنظَرِ المُتردِّدين[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[1] [القمر: ٣].

- وهذه الجملةُ مؤكَّدةٌ بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ: باللَّامِ و(قد) في قولِه: ﴿ وَلَقَدْ ﴾، وبالقسَمِ المقدَّرِ الذي دلَّتْ عليه اللَّامُ[2].

- و﴿مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ بيانُ ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾، قُدِّمَ على المُبيَّنِ، و(مِن) بَيانيَّةٌ[3].

- قولُه: ﴿مُزْدَجَرٌ ﴾ مَصدرٌ مِيميٌّ، وهو مُصاغٌ بصِيغةِ اسمِ المَفعولِ الَّذي فِعْلُه زائدٌ على ثَلاثةِ أحرُفٍ، ازدَجَره بمعْنى زجَرَه، ومادَّةُ الافتِعالِ فيه للمُبالَغةِ[4].

- قولُه: ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾ أي: ما فيه مانعٌ لهم مِن ارتكابِ ما ارتكَبُوه، والمعْنى: ما هو زاجرٌ لهم، فجُعِلَ الازدجارُ مَظروفًا فيه؛ للمُبالَغةِ في مُلازَمتِه له على طَريقةِ التَّجريدِ[5]؛ كقولِه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، أي: هو أُسوةٌ[6].

و﴿مَا ﴾ مَوصولةٌ أو مَوصوفةٌ، وهي فاعل بـ (جاءَ)، ومعناها: أنباءٌ وأخبارٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٧٤، ١٧٥).

(٥) التَّجريد: أن يُنتزَعَ مِن أمرٍ ذي صِفةٍ أمرٌ آخَرُ مِثلُه في تلك الصِّفةِ، حتَّى تَصِيرَ الذَّاتُ الواحدةُ ذاتَينِ؛ مُبالَغةً لكمالِ الوصفِ في تلكَ الذَّاتِ. كقَولِهم: لي مِنكَ صديقٌ حميمٌ، و: لَئِنْ سألْتَ فُلانًا، لَتَسْأَلَنَّ به بحرًا. يُنظر: ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥).

و﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ حالٌ منها[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ لتَرتيبِ عدَمِ الإغناءِ على مَجيءِ الحكمةِ البالغةِ مع كَونِه مَظِنَّةً للإغناءِ[٢].

- وصِيغةُ المُضارِعِ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ عدَمِ الإغناءِ واستِمرارِه حسَبَ تَجدُّدِ مَجيءِ الزَّواجرِ واستمرارِه[٣].

- و(مَا) تَحتمِلُ النَّفيَ، أي: لا تُغْني عنهم النُّذرُ بعْدَ ذلك، وهذا تَمهيدٌ لقولِه: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ [القمر: ٦]، فالمُضارِعُ للحالِ والاستقبالِ، أي: ما هي مُغْنيةٌ، ويُفيدُ بالفَحوى أنَّ تلك الأنباءَ لم تُغْنِ عنهم فيما مَضى بطَريقِ الأحْرى؛ لأنَّه إذا كان ما جاءهُم مِن الأنباءِ لا يُغْني عنهم مِن الانزجارِ شيئًا في الحالِ والاستقبالِ، فهو لم يُغْنِ عنهم فيما مَضى؛ إذ لو أغْنى عنهم لارْتفَعَ اللَّومُ عليهم. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ (ما) استفهاميَّةً للإنكارِ، أي: ماذا تُفيدُ النُّذرُ في أمثالِهم المُكابِرين المُصِرِّين؟! أي: لا غَناءَ لهم في تلك الأنباءِ؛ فـ (ما) على هذا في مَحلِّ نصْبٍ على المَفعولِ المُطلَقِ لـ﴿تُغۡنِ﴾، وحُذِفَ ما أُضِيفَت إليه (ما)، والتَّقديرُ: فأيَّ غَناءٍ تُغْني النُّذرُ[٤]؟!

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٥)، ((حاشية الجمل على الجلالين)) (٤/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٥).

يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۞ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾

- قولُه: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾ تفريعٌ على ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٥]، أي: أعرِضْ عن مُجادلتِهم؛ فإنَّهم لا تُفيدُهم النُّذرُ، أي: إنَّك قد بلَّغْتَ، فما أنت بمَسؤولٍ عن استِجابتِهم، وهذا تَسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

وقيل: قوله: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾، أي: لعِلْمِك أنَّ الإنذارَ لا يُغْني فيهم، فالفاءُ نَتيجةٌ للكَلامِ السَّابقِ، وفي مَدخولِها معْنى المُتارَكةِ والمُوادَعةِ؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا أخبَرَ عن المُعانِدين أنَّه بلَغَ إعراضُهم وتَمرُّدُهم بحيث إنْ يَرَوا آيةً يَقولوا: سِحرٌ مُستمِرٌّ، وكرَّرَ المعْنى بقولِه: ﴿ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾؛ لأنَّ الإعراضَ وقولَهم: سِحرٌ مُستمِرٌّ، تَكذيبٌ ومُتابَعةٌ للهوَى، ثمَّ جاء بقَولِه: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ ﴾ جُملةً قَسَميَّةً حالًا مُقرِّرةً لجِهةِ الإشكالِ، أي: يُكذِّبون والحالُ أنَّه جاءتْهم حِكمةٌ بالغةٌ، ثمَّ سجَّلَ عِنادَهم بقولِه: ﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ -قال: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ﴾، أي: بعْدَ أنِ استعْلَمْتَ حالَهم وأنَّهم لا يُؤمِنون البَتَّةَ، فتَولَّ عنهم وأعرِضْ عن الإنذارِ؛ لأنَّ الإنذارَ إنَّما يُفيدُ إذا انتفَعَ به المُنذَرُ(٢).

- قولُه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۞ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۞ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الأمْرَ بالتَّولِّي مُؤْذِنٌ بغضَبٍ ووَعيدٍ، فمِن شأْنِه أنْ يُثيرَ في نفْسِ السَّامعِ تَساؤُلًا عن مُجمَلِ هذا الوعيدِ، وهذا الاستئنافُ وقَعَ مُعترِضًا بيْن جُملةِ ﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ ﴾ [القمر: ٤] وجُملةِ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [القمر: ٩]، وإذ قد كان المُتوعَّدُ به شيئًا يَحصُلُ يومَ القيامةِ قُدِّمَ الظَّرفُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٢١).

عامِلِه -وهو ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾-؛ ليَحصُلَ بتَقديمِه إجمالٌ يُفصِّلُه بَعضَ التَّفصيلِ ما يُذكَرُ بعْدَه، فإذا سمِعَ السَّامعُ هذا الظَّرفَ، عَلِمَ أنَّه ظرْفٌ لأهوالٍ تُذكَرُ بعْدَه هي تَفصيلُ ما أجْمَلَه قولُه: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ مِن الوعيدِ، بحيث لا يَحسُنُ وقْعُ شَيءٍ ممَّا في هذه الجُملةِ هذا المَوقعَ غيرُ هذا الظَّرْفِ، ولولا تَقديمُه لَجاء الكلامُ غيرَ مَوثوقِ العُرى، وانظُرْ كيف جمَعَ فيما بعْدُ قولُه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ كثيرًا مِن الأهوالِ آخِذٌ بَعضُها بحُجَزِ بَعضٍ بحُسْنِ اتِّصالٍ يَنقُلُ كلٌّ منها ذِهنَ السَّامعِ إلى الَّذي بعْدَه، مِن غيرِ شُعورٍ بأنَّه يُعدِّدُ له أشياءَ[1].

- وعُدَّ في قولِه: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ سَبعةٌ مِن مَظاهرِ الأهوالِ:

**أوَّلُها**: دُعاءُ الدَّاعي؛ فإنَّه مُؤْذِنٌ بأنَّهم مُحضَرونَ إلى الحسابِ؛ لأنَّ مَفعولَ ﴿يَدْعُ﴾ مَحذوفٌ، بتَقديرِ: يَدْعوهم الدَّاعي؛ لدَلالةِ ضَميرِ ﴿عَنْهُمْ﴾ على تَقديرِ المَحذوفِ.

**الثَّاني**: أنَّه يَدْعو إلى شَيءٍ عظيمٍ؛ لأنَّ ما في لَفظِ ﴿شَيْءٍ﴾ مِن الإبهامِ يُشعِرُ بأنَّه مَهولٌ، وما في تَنكيرِه مِن التَّعظيمِ يُجسِّمُ ذلك الهَولَ.

**وثالثُها**: وصْفُ ﴿شَيْءٍ﴾ بأنَّه ﴿نُّكُرٍ﴾، أي: مَوصوفٌ بأنَّه تُنكِرُه النُّفوسُ وتَكرَهُه.

**ورابعُها**: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾، أي: ذَليلةً يَنظُرونَ مِن طرْفٍ خَفيٍّ، لا تَثبُتُ أحداقُهم في وُجوهِ النَّاسِ، وهي نَظْرةُ الخائفِ المُفتضَحِ، وهو كِنايةٌ؛ لأنَّ ذِلَّةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٦، ١٧٧).

الذَّليلِ وعِزَّةَ العزيزِ تَظهَرانِ في عُيونِهما.

**وخامسُها**: تَشبيهُهم بالجَرادِ المُنتشِرِ في الاكتِظاظِ واستتارِ بَعضِهم ببَعضٍ مِن شِدَّةِ الخوفِ -على قولٍ-، زِيادةً على ما يُفيدُه التَّشبيهُ مِن الكثرةِ والتَّحرُّكِ، وهو تَشبيهٌ تَمثيليٌّ[1]؛ لأنَّه تَشبيهُ هَيئةِ خُروجِ النَّاسِ مِن القبورِ مُتراكِمينَ، بهَيئةِ خُروجِ الجَرادِ مُتعاظِلًا (يَركَبُ بَعضُه بَعضًا) يَسيرُ غيرَ ساكنٍ، وقد أفاد هذا التَّشبيهُ تَجْسيدَ الصُّورةِ وتَشخيصَها؛ فهذه الجُموعُ الخارجةُ مِن الأجداثِ في مِثلِ رجْعِ الطَّرْفِ تُشبِهُ الجَرادَ الَّذي اشتُهِرَ بانتشارِه واحتشادِه دونَ أنْ يكونَ له هدَفٌ مِن هذا الانتشارِ والاحتشادِ، وكذلك هذه الجُموعُ قد أَلْجَمَها الخَوفُ، وعقَدَ الهولُ أفهامَها، وضرَبَ عليها رَواكِدَ مِن الحَيرةِ، وغشِيَها بأمواجٍ مِن الضَّلالةِ والرَّينِ، فهي تَسيرُ تَلبيةً لدَعوةِ الدَّاعِ دونَ أنْ تَعرِفَ لِمَ يَدْعوها، ولكنَّها تَعرِفُ بصُورةٍ مُبْهَمةٍ أنَّه يَدْعوها إلى شَيءٍ نُكُرٍ لا تَكتَنِهُ حَقيقتَه، ولا تَعرِفُ فَحواهُ.

**وسادسُها**: وصْفُهم بمُهطِعينَ، والمُهطِعُ: الماشي سَريعًا مادًّا عُنُقَه، وهي مِشْيَةُ مَذعورٍ غيرِ مُلْتفِتٍ إلى شَيءٍ.

**وسابعُها**: قولُهم: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾، وهو قولٌ مِن أثَرِ ما في نُفوسِهم مِن خَوفٍ، و﴿عَسِرٞ﴾: صِفةٌ مُشبَّهةٌ مِن العُسْرِ، وهو الشِّدَّةُ والصُّعوبةُ، ووصْفُ اليومِ بـ﴿عَسِرٞ﴾

---

(١) التشبيه: هو إلحاقُ شيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: إثباتُ حُكمٍ للمُشبَّه من أحكام المُشبَّه به. وينقسمُ التشبيهُ عِدَّةَ تقسيماتٍ باعتبارات عِدَّة: فمنه: التشبيه المفرَد. ومنه: التشبيه المركَّب: هو الذي يكون وجهُ الشبه فيه مُنتزَعًا من متعدِّد، أو من أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتشبيهُ مركَّب من أحوال الحِمار. وخصَّ البيانيون لفظ «التمثيل» بالتشبيه المركَّب. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي، (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

باعتِبارِ كَونِه زَمانًا لأُمورٍ عَسِرةٍ شَديدةٍ مِن شِدَّةِ الحسابِ، وانتِظارِ العَذابِ[١].

- وفي قولِه: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ * مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ شبَّهَهم بالجَرادِ المنتشِرِ، أي: كأنَّهم مِن كَثرتِهم، وتموُّجِ بعضِهم في بعضٍ، وكأنَّهم في انتِشارِهم وسُرعةِ سَيرِهم إلى مَوقفِ الحِسابِ إجابةً للدَّاعي جرادٌ منتشِرٌ في الآفاقِ، مُسرِعينَ لا يُخالِفونَ ولا يَتأخَّرونُ[٢].

- والجرادُ المنتشِرُ هو المُنبَثُّ في الأرضِ الَّذي لا يَدْري أين وجْهُه، ليس له طريقٌ قائمةٌ، لا يَعرِفُ كيف يَنْتهي، ولكنَّهم مُنتشِرونَ، وهذا مِن أدقِّ التَّشبيهاتِ؛ لأنَّ الجرادَ المنتشِرَ تَجِدُه يَذهَبُ يَمينًا ويَسارًا لا يَدْري أين يَذهَبُ؛ فهمْ سيَخرُجون مِن الأجداثِ على هذا الوجْهِ، بيْنَما هم في الدُّنيا لهم قائدٌ، ولهم أميرٌ، ولهم مُوجِّهٌ، يَعرِفون طَريقَهم، وإنْ كان طريقًا فاسدًا[٣].

- وفي إسنادِ القولِ المَذكورِ إلى الكُفَّارِ تَلويحٌ بأنَّ المؤمنينَ ليسُوا في تلكَ المَرْتبةِ مِن الشِّدَّةِ[٤].

- قولُه: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لوصْفِهم بهذا الوصْفِ الذَّميمِ، وفيه تَفسيرُ الضَّمائرِ السَّابقةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٤، ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٧، ١٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٤، ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٨).

## الآيات (٩-١٧)

﴿ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱزْدُجِرَ﴾: أي: انتُهِر وزُجِر وأُوعِدَ، أو استُطيرَ جُنونًا، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على انتِهارٍ[1].

﴿مُّنْهَمِرٍ﴾: أي: كثيرٍ، سَريعِ الانصِبابِ، وأصلُ (همر): يدُلُّ على صَبٍّ وانصِبابٍ[2].

﴿قُدِرَ﴾: أي: قُضِيَ، والقَدَرُ: قَضاءُ اللهِ تعالى الأشياءَ على مَبالِغِها ونهاياتِها الَّتي أرادَها لها، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦).

قال ابن عثيمين: (الزَّجرُ هو النَّهرُ بشدَّةٍ وعُنفٍ، والدَّالُ هنا مُنقلِبةٌ عن تاءٍ، وقد قال العلماءُ: إنَّ زيادةَ المبنى تدُلُّ على زيادةِ المعنى، والمعنى: أنَّه زجرٌ شديدٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠).

﴿أَلْوَٰحٍ﴾: أي: خَشَبٍ عَريضٍ، واللَّوحُ: واحِدُ ألواحِ السَّفينةِ[١].

﴿وَدُسُرٍ﴾: أي: مَساميرَ تُشَدُّ بها الألواحُ، وأصلُ (دسر): يدُلُّ على دَفعٍ شَديدٍ؛ لأنَّ المِسمارَ يُدفَعُ أبدًا حتَّى يَستويَ[٢].

﴿كُفِرَ﴾: أي: جُحِدَ، والكُفرُ في اللُّغةِ: سَترُ الشَّيءِ[٣].

﴿مُّدَّكِرٍ﴾: أي: مُتَذَكِّرٍ مُتَّعِظٍ، مُعتَبِرٍ خائفٍ، وأصلُه مُذْتَكِرٌ مُفْتَعِلٌ مِنَ الذِّكْرِ، فقُلِبَت التَّاءُ دالًا، وأُدْغِمَت الذَّالُ فيها، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسيانِ[٤].

﴿وَنُذُرِ﴾: أي: إنذاري، وهو اسمٌ مِنَ الإنذارِ يقومُ مَقامَ المَصدَرِ، والإنذارُ: الإبلاغُ، ولا يكونُ إلَّا في التَّخويفِ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تَخويفٍ[٥].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا عقوباتِ المكذِّبينَ في الأممِ السَّابقةِ: كذَّبَت قبْلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ قَومُ نوحٍ، فكذَّبوا نُوحًا، واتَّهَموه بالجُنونِ، وزجَروه عن دَعوتِهم، فدعا نوحٌ ربَّه قائِلًا: إنِّي مَغلوبٌ؛ فانتَصِرْ لي! فاستَجَبْنا لنُوحٍ دُعاءَه، ففَتَحْنا أبوابَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٣٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٢)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٥٦).

السَّماء بماءٍ مُتدَفِّقٍ كثيرٍ شَديدٍ، وأنبَعْنا عُيونَ الماءِ مِنَ الأرضِ، فالتَقَى الماءانِ: ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرضِ على أمرٍ قد كَتَبه اللهُ تعالى وقَضاه!

وحَمَلْنا نُوحًا على سَفينةٍ ذاتِ ألواحٍ ومَساميرَ، تجري تلك السَّفينةُ على الماءِ بمَرأًى وحِفظٍ مِنَّا؛ ثوابًا لنُوحٍ على صَبْرِه على أذى قَومِه وتكذيبِهم. ولقد تَرَكْنا فَعلَتَنا بقومِ نوحٍ وإهلاكَنا لهم عِبرةً وعِظةً لِمَن بعدَهم، وترَكْنا جنسَ السُّفنِ علامةً على كَمالِ قُدرة الله، وعِبرةً على ما جرَى لنوحٍ عليه السَّلامُ معَ قومِه، فهل مِن مُتذَكِّرٍ لِما قد فُعِل بتلك الأُمَّةِ الَّتي كفَرَت برَبِّها، وعَصَت رَسولَه؛ فيتَّعِظَ بذلك ويَعتَبِرَ؟ فكيف كان عذابي لأولئك الكُفَّارِ مِن قَومِ نُوحٍ، وكيف كان إنذاري بتلك العُقوبةِ مَن بَعْدَهم مِنَ الكُفَّارِ؛ لِيَحذَروا أن يَحُلَّ بهم العَذابُ؟

ثمَّ يقولُ الله تعالى مبينًا مظاهرَ فضلِه ورحمتِه على هذه الأمَّةِ: ولقد سَهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به والاتِّعاظِ، فهل مِن مُتذَكِّرٍ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما فيه؟

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ ٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها شروعٌ في تَعدادِ بعضِ ما ذُكِر مِن الأنباءِ الموجِبةِ للازْدِجارِ، ونَوعُ تفصيلٍ لها وبيانٍ لعدمِ تأثُّرِهم بها؛ تقريرًا لِفَحوى قولِه تعالى: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾[1] [القمر: ٥].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تبارك وتعالى حالَ المُكَذِّبينَ لِرَسولِه، وأنَّ الآياتِ لا تَنفَعُ فيهم، ولا تُجْدي عليهم شَيئًا؛ أنذَرَهم وخَوَّفَهم بعُقُوباتِ الأُمَمِ الماضيةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٨٠).

المُكَذِّبةِ للرُّسُلِ، وكيف أهلَكَهم اللهُ وأحَلَّ بهم عِقابَه[١]؛ ففيها تهوينٌ وتَسليةٌ لقَلبِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ حالَه كحالِ مَن تقَدَّمَه[٢].

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾.

أي: كذَّبَت قبْلَ كُفَّارِ قُرَيشٍ قَومُ نوحٍ، فكذَّبوا عَبْدَنا نُوحًا حينَ أرسَلْناه إليهم[٣].

﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾.

أي: وقال قومُ نوحٍ عن رَسولِهم نوحٍ عليه السَّلامُ: هو مجنونٌ. وزجَروه بشدَّةٍ وعُنفٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٣، ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٨، ٢٦٩).

قال البِقاعي: (﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي: أعمَلوا أنفُسَهم في انتِهارِه وتوَعُّدِه وتَهديدِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٠٣).

وقال الشوكاني: (وقولُه: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ معطوفٌ على قالوا، أي: وزُجِرَ عن دَعْوَى النُّبُوَّةِ، وعن تَبْليغِ ما أُرْسِل به بأنواعِ الزَّجْرِ...، وقيلَ: إنَّه مَعْطوفٌ على مجنونٍ، أي: وقالوا: إنَّه ازدُجِر، أي: ازْدَجَرَتْه الجِنُّ وذَهَبَتْ بلُبِّه، والأوَّلُ أولَى. قال مُجاهِدٌ: هو مِنْ كلامِ اللهِ سُبحانَه، أخبَرَ عنه بأنَّه انتُهِر وزُجِر بالسَّبِّ وأنواعِ الأذَى. قال الرَّازيُّ: وهذا أصَحُّ؛ لأنَّ المقصودَ تقويةُ قلبِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم بذِكْرِ مَن تَقَدَّمه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٤).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَازْدُجِرَ﴾ قال المفسِّرون: زجَروه عن دعوتِه بالشَّتمِ والوعيدِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥١٦).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾.

أي: فدعا نوحٌ ربَّه قائِلًا: إنَّ قَومي غَلَبوني بتمَرُّدِهم وكُفرِهم، وتَكذيبِهم وتخويفِهم؛ فانتَصِرْ لي منهم[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ٧٥، ٧٦].

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾.

أي: فاستَجَبْنا لنُوحٍ دُعاءَه على قَومِه، ففَتَحْنا أبوابَ السَّماء بماءٍ مُتدَفِّقٍ مُنصَبٍّ بكَثرةٍ وشِدَّةٍ[2].

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٩).

قال ابن جُزَي: (﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ عِبارةٌ عن كثرةِ المطرِ، فكأنَّه يخرُجُ مِن أبوابٍ. وقيل: فُتِحَتْ في السَّماءِ أبوابٌ يومَئذٍ حقيقةً). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٣).

ونسَبَ ابنُ عطيَّةَ القولَ الأوَّلَ لجمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٤).

﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾.

أي: وأنبَعْنا الماءَ بقُوَّةٍ وكَثرةٍ مِنَ الأرضِ[١].

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾.

أي: فالتَقى ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرضِ على أمرٍ قد كَتَبه اللهُ تعالى وقَضاه[٢]!

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى ﴿قَدْ قُدِرَ ﴾: أنَّه أمرٌ مَكتوبٌ ومُقدَّرٌ مِنَ اللهِ تعالى: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي، واستظهره الشنقيطي، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

قال السعدي: (قد كَتَبه اللهُ في الأزَلِ وقَضاه؛ عُقوبةً لهؤلاء الظَّالِمينَ الطَّاغينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

وقيل: المعنى: أنَّ ماءَ السَّماءِ وماءَ الأرضِ قَدَّرَهما اللهُ، فكانا سواءً؛ لم يَزِدْ أحَدُهما على الآخَرِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٢).

وقال البِقاعي: (لَمَّا تقرَّرَت هذه العَظَمةُ لهذه الواقِعةِ، فكان رُبَّما ظُنَّ أنَّه صار جُزافًا، وزاد على الحَدِّ المأمورِ به؛ أشار إلى أنَّه بالنِّسبةِ إلى عَظمتِه في غايةِ الحَقارةِ، فقال: ﴿قَدْ قُدِرَ ﴾ أي: مع كَونِه مَقدورًا عليه في كُلِّ وَقتٍ بغايةِ السُّهولةِ قد وَقَع تَقديرُه في الأزَلِ، فلم يَستَطِعْ أن يَزيدَ على ذلك قَطرةً فما فَوقَها، ولا أن يُهلِكَ غَيرَ مَن أمَرْناه بإهلاكِه، وأشار بالتَّخفيفِ إلى غايةِ السُّهولةِ في ذلك سُبحانَه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٠٥).

وقال ابن عاشور: (وُصِفَ الأمرُ بأنَّه ﴿قَدْ قُدِرَ ﴾، أي: أُتقِنَ وأُحكِمَ بمِقدارٍ؛ يُقالُ: قَدَرَه -بالتَّخفيفِ-: إذا ضَبَطَه وعَيَّنَه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣، ١٨٤).

أي: وحَمَلْنا نُوحًا على سَفينةٍ ذاتِ ألواحٍ مِن خَشَبٍ، وذاتِ مَساميرَ قد رُبِطَت بها تلك الألواحُ(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩].

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٠، ٢٧١).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: ألواحُها: خشباتُها العريضةُ الَّتي منها جُمِعت. وفي الدُّسُرِ أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها المساميرُ، رواه الوالِبيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال قَتادةُ، والقُرَظيُّ، وابنُ زَيدٍ. وقال الزَّجَّاجُ: الدُّسُرُ: المساميرُ والشُّرُطُ [حبالٌ تُفْتَلُ مِن الخُوصِ] الَّتي تُشَدُّ بها الألواحُ... والثَّاني: أنَّه صَدْرُ السَّفينةِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يَدْسُرُ الماءَ، أي: يَدفَعُه، رواه العَوفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال الحسَنُ وعِكْرِمةُ...

والثَّالثُ: أنَّ الدُّسُرَ: أضلاعُ السَّفينةِ، قاله مجاهدٌ.

والرَّابعُ: أنَّ الدُّسُرَ: طرَفاها وأصلُها، والألواحُ: جانِباها، قاله الضَّحَّاكُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ١٩٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٨٧، ٨٨).

قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ ومقاتِلٌ والكلبيُّ وجماعةُ المفسِّرينَ: يعني: المساميرَ والشُّروطَ، وكلَّ ما شُدَّتْ به السَّفينةُ). ((البسيط)) (٢١/ ٩٩، ١٠٠). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٩).

قال ابن عثيمين: (﴿وَدُسُرٍ﴾ أي: مساميرَ. وقيل: إنَّ الدُّسُرَ ما تُربَطُ به الأخشابُ، فيكونُ أعَمَّ مِن المساميرِ؛ لأنَّ الأخشابَ قد تُربَطُ بالمساميرِ وقد تُربَطُ بالحبالِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧١).

أي: تجري سَفينةُ نُوحٍ على الماءِ بمَرأًى مِنَّا، وحِفظٍ ورعايةٍ مِنَّا[١].

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾.

أي: أغرَقْنا قومَ نُوحٍ وأنجَيْناه ومَن معه؛ ثوابًا لنُوحٍ على صَبْرِه على أذى قَومِه، وتَكذيبِهم وكُفْرِهم به[٢].

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٨٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والقرطبي، والبِقاعي، والسعدي، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الزمخشري: (جعَلَه مَكفورًا؛ لأنَّ النَّبيَّ نِعمةٌ مِنَ اللهِ تعالى ورَحمةٌ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فكان نوحٌ عليه السَّلامُ نِعمةً مَكفورةً!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٥).

وقال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي ما قاله مجاهِدٌ، وهو أنَّ معناه: ففتَحْنا أبوابَ السَّماءِ بماءٍ مُنهَمِرٍ، وفجَّرْنا الأرضَ عُيونًا، فغرَّقْنا قَومَ نوحٍ، ونجَّيْنا نوحًا؛ عِقابًا مِن الله وثَوابًا للَّذي جحَدَ وكفَر؛ لأنَّ معنى الكفرِ: الجُحودُ، والَّذي جحَد أُلُوهَتَه ووحدانيَّتَه قومُ نوحٍ). وأجاز أيضًا المعنى الأوَّلَ المتقدِّمَ ذِكرُه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٧، ١٢٨).

وظاهِرُ عبارةِ ابنِ كثيرٍ الجَمعُ بيْنَ المعنيَينِ، فقال: (أي: جزاءً لهم على كُفرِهم بالله، وانتِصارًا لنوحٍ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧).

قال الشوكاني: (﴿كُفِرَ﴾... قيل: هو اللهُ سُبْحانَه؛ فإنَّهم كَفَروا به، وجَحَدوا نِعْمَتَه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تَمَّ الخبَرُ عن نجاتِه عليه السَّلامُ بحَمْلِه فيها؛ نَبَّه على آثارِها بقَولِه[1]:

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾.

أي: ولقد تَرَكْنا فَعلَتَنا بقومِ نوحٍ وإهلاكَنا لهم عِبرةً وعِظةً لِمَن بعدَهم ليَنتَهوا عن الكُفرِ باللهِ والتَّكذيبِ برُسُلِه؛ كيلا تكونَ عاقِبتُهم مِثلَ عاقِبةِ قَومِ نُوحٍ، وأبقَيْنا جنسَ السُّفنِ علامةً على رحمةِ الله وعنايتِه بخَلقِه، وكَمالِ قُدرتِه، وبَديعِ صَنعتِه، وعِبرةً على ما جرَى لنوحٍ معَ قومِه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٢).

وممَّن ذهب إلى عَوْدِ الضَّميرِ في قولِه تعالى: ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾ إلى سفينةِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ابنُ جرير، والرازي، وابن عادل، وابن عاشور، وهو ظاهرُ اختيارِ مقاتِلِ بنِ سُلَيمانَ، وابنِ أبي زَمَنين، ومكِّي، والسَّمْعاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٦)، ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٧٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧١٩٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٨).

قال ابنُ عاشور: (أي: أبقَيْنا سفينةَ نوحٍ مَحفوظةً مِنَ البِلَى؛ لِتَكونَ آيةً يَشهَدُها الأُمَمُ الَّذين أُرسِلَت إليهم الرُّسُلُ، متى أراد واحِدٌ مِنَ النَّاسِ رُؤيتَها مِمَّن هو بجوارِ مكانِها؛ تأييدًا للرُّسُلِ، وتخويفًا بأوَّلِ عذابٍ عُذِّبَت به أمَّةٌ كَذَّبَت رَسولَها؛ فكانت حُجَّةً دائِمةً، مِثلُ ديارِ ثَمودَ، ثمَّ أخَذَت تتناقَصُ حتَّى بَقِيَ منها أخشابٌ شَهِدَها صَدرُ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ، فلم تضمَحِلَّ حتَّى رآها ناسٌ مِن جميعِ الأُمَمِ بعدَ نوحٍ، فتواتَرَ خبَرُها بالمشاهَدةِ؛ تأييدًا لتواتُرِ الطُّوفانِ بالأخبارِ المتواترةِ. وقد ذَكَرَ القرآنُ أنَّها استقَرَّت على جبَلِ الجُودِيِّ، فمنه نزَلَ نوحٌ ومَن معه، وبَقِيَت السَّفينةُ هنالك لا ينالُها أحدٌ؛ وذلك مِن أسبابِ حِفظِها عن الاضمِحلالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٦). =

= وقيل: المراد: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي: ترَكْنا هذه الفَعْلةَ الَّتي فعَلْنا. وممَّن اختاره: البغويُّ، والقرطبي، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢١٩).

قال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الضَّميرُ في قولِه تعالى: ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾، قال بعضُ العلماءِ: إنَّه عائدٌ إلى هذه الفعلةِ العظيمةِ الَّتي فعَل بقَومِ نوحٍ. والمعنى: ولقد ترَكْنا فَعلَتَنا بقومِ نوحٍ وإهلاكَنا لهم آيةً لِمَن بَعْدَهم؛ لِيَنزَجِروا ويَكُفُّوا عن تكذيبِ الرُّسلِ؛ لئلا نَفعلَ بهم مِثلَ ما فعَلْنا بقَومِ نوحٍ، وكَوْنُ هذه الفَعلةِ آيةً نصَّ عليه تعالى بقولِه: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً﴾ [الفرقان: ٣٧]، وقولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩ - ١٢١].

وقال بعضُ العلماءِ: الضَّميرُ في ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾ عائدٌ إلى السَّفينةِ، وكَونُ سفينةِ نوحٍ آيةً بيَّنه اللهُ تعالى في آياتٍ مِن كتابِه؛ كقولِه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ﴾ [يس: ٤١، ٤٢]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٧٨).

وقال الزَّجَّاجُ: (قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: ترَكْنا هذه الفَعْلةَ وأمْرَ سفينةِ نُوحٍ ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامةً؛ لِيُعتبَرَ بها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٨٨).

واستظهر ابنُ كثيرٍ أنَّ المعنى: ترَكْنا جِنسَ السُّفُنِ بيْنَ النَّاسِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧).

قال ابن تيميَّة: (﴿... وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فأخبَر أنَّه أبقى السُّفُنَ آيةً على قدرةِ الرَّبِّ، وعلى ما جرى لنوحٍ مع قَومِه). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) (١/ ٤١٤، ٤١٥).

وقال السعدي: (أي: ولقد ترَكْنا قِصَّةَ نوحٍ مع قومِه آيةً يَتذكَّرُ بها المتذَكِّرونَ، على أنَّ مَن عصى الرُّسُلَ وعانَدَهم أهلَكَه اللهُ بعِقابٍ عامٍّ شَديدٍ، أو أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى السَّفينةِ وجِنسِها، وأنَّ أصلَ صَنعتِها تعليمٌ مِن اللهِ لعَبدِه نوحٍ عليه السَّلامُ، ثمَّ أبقى اللهُ تعالى صَنعتَها وجِنسَها بيْنَ النَّاسِ؛ ليَدُلَّ ذلك على رحمتِه بخَلقِه، وعنايتِه وكَمالِ قُدرتِه، وبَديعِ صَنعتِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

وذهب ابنُ عثيمينَ إلى حملِ الآيةِ على كِلا المعنيَينِ اللَّذينِ ذكَرَهما السعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٢).

وقال البِقاعي: (﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي: هذه الفعلةَ العظيمةَ، مِن جريِ السَّفينةِ على هذا الوجهِ، =

كما قال الله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ لِما قد فُعِل بتلك الأُمَّةِ الَّتي كفَرَت برَبِّها، وعَصَت رَسولَه نُوحًا؛ فيتَّعِظَ بذلك ويَعتَبِرَ[1]؟

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١، ١٢].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: فكيف كان عذابي لأولئك الكُفَّارِ مِن قَومِ نُوحٍ؟ وكيف كان إنذاري[2]؟

---

= وإبقاءِ نَوعِها دالَّةً على ما لَنا مِن العظَمةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٠)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٧١٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

قال الفرَّاءُ: (النُّذُرُ هاهنا مصدرٌ معناه: فكيفَ كان إنْذاري). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٠٧).

وقال ابنُ قتيبةَ: (﴿وَنُذُرِ﴾ جمعُ نَذيرٍ. ونذيرٌ بمعنى الإنذارِ، أي: فكيفَ كان عذابي وإنْذاري. ومثلُه النَّكيرُ بمعنَى الإنكارِ). ((غريب القرآن)) (ص: ٤٣٢).

وقال الرازي: (أكثرُ المفسِّرينَ على أنَّه [أي: نُذُر] مصدرٌ هاهنا، أي: كيف كان عاقبةُ عذابي، وعاقبةُ إنذاري). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٠).

وقال الواحدي: (المعنى: كيف كان إنذاري إيَّاهم، إذ دعاهم نوحٌ إلى الإيمانِ فلمْ يؤمنوا، =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الملك: ١٨].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

أي: ولقد سَهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، وحُصولِ الفَهمِ والاتِّعاظِ به[1].

---

= وفي هذا تخويفٌ للمشركين). ((البسيط)) (٢١/ ١٠٢).

وقال أبو حيَّان: (﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾: تهويلٌ لِمَا حلَّ بقومِ نوحٍ مِن العذابِ، وإعظامٌ له، إذ قد اسْتَأْصَل جميعَهم، وقَطَع دابِرَهم، فلم يَنْسُلْ منهم أحدٌ، أي: كيفَ كان عاقِبةُ إنذاري؟). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥).

وقال ابن جرير: (وكيفَ كان إنذاري بما فعلْتُ بهم مِن العقوبةِ الَّتي أحْلَلْتُ بهم، بكفرِهم برَبِّهم، وتكذيبِهم رسولَه نوحًا عليه السَّلامُ مَن أنذَرْتُه به، وهذا سُنَّةُ اللهِ عزَّ وجلَّ لِمُكَذِّبي رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن قَومِه مِن قُرَيشٍ، وتحذيرٌ منه لهم، أنْ يَحِلَّ بهم على تماديهم في غَيِّهم، مِثلُ الَّذي حلَّ بقومِ نوحٍ مِن العذابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٠).

وقال السمرقندي: (يعني: كيفَ رأيْتَ عَذابي وإنذاري لِمَن أنذَرَهم الرُّسُلُ فلم يؤمِنوا؟). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

وقال ابن كثير: (أي: كيفَ كان عذابي لِمَن كفَر بي وكذَّب رُسُلي ولم يتَّعِظْ بما جاءتْ به نُذُري؟ وكيفَ انتصرتُ لهم، وأخذْتُ لهم بالثَّأرِ؟). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣).

قال ابن عاشور: (معنى تيسيرِه يَرجِعُ إلى تيسيرِ ما يُرادُ مِن الكلامِ، وهو فَهْمُ السَّامِعِ المعانيَ الَّتي عَناها المتكلِّمُ به بدُونِ كُلْفةٍ على السَّامِعِ ولا إغلاقٍ، وهذا اليُسرُ يَحصُلُ مِن جانبِ الألفاظِ، وجانبِ المعاني.

فأمَّا مِن جانبِ الألفاظ؛ فذلك بكَونِها في أعلى درَجاتِ فَصاحةِ الكلماتِ، وفصاحةِ التَّراكيبِ -أي: فصاحةِ الكلامِ-، وانتِظامِ مَجموعِها؛ بحيث يخِفُّ حِفظُها على الألسِنةِ.

وأمَّا مِن جانبِ المعاني؛ فبِوُضوحِ انتِزاعِها مِن التَّراكيبِ، ووَفرةِ ما تحتوي عليه التَّراكيبُ منها مِن مَغازي الغرَضِ المَسوقةِ هي له، وبتوَلُّدِ مَعانٍ مِن مَعانٍ أُخَرَ كلَّما كرَّر المتدَبِّرُ تدَبُّرَه في =

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما في القُرآنِ الكريمِ[١]؟

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ عَبَّرَ هنا بما يُفهِمُ العِلَّةَ؛ لِيَحذَرَ السَّامِعُ وُقوعَ مِثلِ ذلك العَذابِ له إن وَقَع منه مِثلُ فِعلِ قَومِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ قوَّةٌ لرَجاءِ أهلِ الدِّينِ إذا لَقُوا في دينِ اللهِ مِحنةً؛ فإنَّ اللهَ يُهلِكُ عن قَريبٍ عَدُوَّهم، ويُمَكِّنُهم مِن ديارِهم وبِلادِهم، ويُورِثُهم ما كان إليهم[٣].

---

= فَهمِها، ووسائلُ ذلك لا يُحيطُ بها الوصفُ... ومِن أهمِّها: إيجازُ اللَّفظِ؛ لِيُسرِعَ تعلُّقُه بالحفظِ. وإجمالُ المَدلولاتِ؛ لِتَذهَبَ نُفوسُ السَّامِعينَ في انتِزاعِ المعاني منها كلَّ مَذهَبٍ يَسمَحُ به اللَّفظُ والغرَضُ والمَقامُ. ومنها: الإطنابُ بالبيانِ إذا كان في المعاني بعضُ الدِّقَّةِ والخَفاءِ. ويتأتَّى ذلك بتأليفِ نظمِ القرآنِ بلُغةٍ هي أفصَحُ لُغاتِ البشَرِ، وأسمَحُ ألفاظًا وتراكيبَ بوَفرةِ المعاني، وبكَوْنِ تراكيبِه أقْصى ما تَسمَحُ به تلك اللُّغةُ، فهو خِيارٌ مِن خيارٍ مِن خيارٍ، قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٨، ١٨٩).

وقال السعدي: (ولقد يسَّرْنا وسهَّلْنا هذا القرآنَ الكريمَ -ألفاظَه للحفظِ والأداءِ، ومعانيَه للفَهمِ والعِلمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٩٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ هذا التَّيسيرُ يُنبِئُ بعِنايةِ اللهِ تعالى بالقُرآنِ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] تَبصِرةً للمُسلِمينَ؛ لِيَزدادوا إقبالًا على مُدارستِه، وتَعريضًا بالمُشرِكينَ عسى أن يَرعَوُوا عن صُدودِهم عنه[١].

٤- مَن تدَبَّر القُرآنَ الكريمَ جاعِلًا إيَّاه دليلًا على الحَقِّ فإنَّه لا بُدَّ أن يهتدِيَ للحَقِّ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾، وتيسيرُه شامِلٌ لتيسيرِ لَفظِه ومعناه، والعَمَلِ به، لكِنْ يحتاجُ إلى تذَكُّرٍ[٢].

٥- قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ كُلُّ مَن أقبَلَ على القُرآنِ يَسَّرَ اللهُ عليه مَطلوبَه غايةَ التَّيسيرِ، وسَهَّلَه عليه، فعِلْمُ القُرآنِ حِفظًا وتَفسيرًا أسهَلُ العُلومِ، وأجَلُّها على الإطلاقِ، وهو العِلمُ النَّافِعُ الَّذي إذا طَلَبَه العَبدُ أُعِينَ عليه. قال بَعضُ السَّلَفِ عِندَ هذه الآيةِ: «هل مِن طالِبِ عِلمٍ فيُعانَ عليه؟»؛ ولهذا يدعو اللهُ تعالى عِبادَه إلى الإقبالِ عليه والتَّذَكُّرِ، بقَولِه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[٣]. أفلا يَليقُ بنا -وقد سهَّل اللهُ القُرآنَ للذِّكْرِ- أن نتَّعِظَ ونتذكَّرَ؟ بلى، هذا هو اللَّائِقُ[٤]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- كلمةُ (قَومٍ) تُذكَّرُ وتؤنَّثُ؛ لأنَّ أسماءَ الجُموعِ الَّتي لا واحدَ لها مِن لفظِها إذا كانت للآدَميِّينَ تُذكَّرُ وتؤنَّثُ، مِثل رهْطٍ ونفَرٍ، قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ ﴾ [الأنعام: ٦٦] فذكَّرَ، وقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ [الشعراء: ١٠٥] وقال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣).

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ فأنَّث. وقيل: القَومُ مؤنَّثٌ مجازيُّ التَّأنيثِ، ويُصغَّرُ: قُوَيْمَةٌ، ويُذَكَّرُ؛ لأنَّ مَدلولَه أفرادٌ ذكورٌ عُقلاءُ. وقيل: (قَومٌ) مُذَكَّرٌ، وأُنِّثَ لأنَّه في معنى الأمَّةِ والجماعةِ، فتَأْنيثُ (قَومٍ) باعتبارِ معناه، وتذكيرُه باعتبارِ لفظِه[1]. وقيل: أنَّث سبحانَه فِعلَهم فقال: ﴿كَذَّبَتْ﴾؛ تحقيرًا لهم، وتهوينًا لأمرِهم في جنبِ قدرتِه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ وهو نُوحٌ عليه السَّلامُ، وَصَفَه اللهُ تعالى بالعُبوديَّةِ؛ لأنَّ العُبوديَّةَ أشرَفُ ألقابِ البَشَرِ، وهي التَّذَلُّلُ للهِ بالطَّاعةِ والإنابةِ والتَّوكُّلِ، وغيرِ ذلك[3]. وهي أدلُّ على صِدقِه، وقُبحِ تكذيبِهم مِن قولِه: «رسولنا» لو قاله؛ لأنَّ العبدَ أقلُّ تحريفًا لكلامِ السَّيِّدِ مِن الرَّسولِ، فيكونُ كقولِه تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[4] [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ سُؤالٌ عن وَجهِ قَولِ ذلك، مع أنَّه قد يُتوهَّمُ أنَّه لو قيل: «كَذَّبوا عَبْدَنا وزَجَروه» كان الكلامُ أكثَرَ مُناسَبةً!

**الجوابُ**: أنَّ المقصودَ تَقويةُ قَلبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ مَن تقَدَّمَه، فقال: ﴿وَازْدُجِرَ﴾ أي: فَعَلوا ما يُوجِبُ الانزِجارَ مِن دُعائِهم، حتَّى تَرَكَ دَعوتَهم، وعَدَل عن الدُّعاءِ إلى الإيمانِ إلى الدُّعاءِ عليهم! ولو قال: «زَجَروه» ما كان يفيدُ أنَّه تأذَّى منهم؛ لأنَّ في السَّعةِ يُقالُ: «آذَوني ولكِنْ ما تأذَّيتُ»، وأمَّا «أُوذيتُ» فهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٧٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٤٨٧)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٤).

كاللَّازمِ، لا يُقالُ إلَّا عندَ حُصولِ الفِعلِ لا قَبْلَه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ أنَّ للسَّماءِ أبوابًا تُفتَحُ وتُغلَقُ[٢]. على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أنَّه سُبحانَه قال في السَّماءِ: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ لأنَّ السَّماءَ ذاتُ الرَّجْعِ، وما لَها فُطورٌ، ولم يقُلْ: «وشَقَقْنا السَّماءَ». وقال في الأرضِ: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ ﴾؛ لأنَّها ذاتُ الصَّدْعِ[٣].

٦- قال تعالى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ كأنَّ الأرضَ كلَّها كانت عُيونًا مُتفَجِّرةً، وفي هذا مِن الدَّلالةِ على قُدرةِ اللهِ تبارك وتعالى ما لا يَخفى، وأنَّ هذه الفَيَضاناتِ الَّتي تَحدُثُ إنَّما تَحدُثُ بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وليست كما قال الطَّبيعيُّونَ: إنَّها مِن الطَّبيعةِ! يقولون: هاجتِ الطَّبيعةُ! غَضِبَتِ الطَّبيعةُ! وما أشْبَهَ ذلك. نسألُ اللهَ العافيةَ. بل هي بأمرِ مَن يَقولُ للشَّيءِ: كُنْ؛ فيَكونُ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ معنًى لطيفٌ، وذلك أنَّه تعالى لَمَّا قال: ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ذكَرَ الماءَ وذكَرَ الانهِمارَ -وهو النُّزولُ بقُوَّةٍ-، فلمَّا قال: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ كان مِن الحَسَنِ البَديعِ أن يقولَ ما يُفيدُ أنَّ الماءَ نَبَع منها بقُوَّةٍ، فقال: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: مِن العَينِ فار الماءُ بقُوَّةٍ حتَّى ارتفَعَ والتقى بماءِ السَّماءِ، ولو جرى جَريًا ضَعيفًا لَما كان هو يلتقي مع ماءِ السَّماءِ، بل كان ماءُ السَّماءِ يَرِدُ عليه ويتَّصِلُ به، ولعَلَّ المرادَ مِن قَولِه: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠]

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٠).

مِثلُ هذا[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَرِيَّةِ بلَفظِ «القَدَرِ»[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ أنَّه سُبحانَه له عَينان -بلا كَيْف-[٣]، يَنظُرُ بهما حقيقةً على الوَجهِ اللَّائقِ به، وهما مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ الثَّابتةِ بالكِتابِ والسُّنَّةِ[٤].

١٠- صفةُ العينَينِ ثابِتةٌ للهِ تعالى، فكيف الجَمعُ بيْنَ المُثنَّى وصيغةِ الجَمعِ في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقَولِه تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾؟

**الجوابُ**: الجَمعُ بيْنَهما سَهلٌ، هو نظيرُ الجَمعِ بيْنَ اليدَينِ الواردِ مَجيؤُهما بصيغةِ التَّثنيةِ وبصيغةِ الجَمعِ؛ فإمَّا أنْ يُرادَ بالجَمعِ ما دونَ الثَّلاثةِ؛ لأنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ قد جاءتْ بالجمعِ مرادًا به ما دونَ الثَّلاثةِ، فيكونَ قولُه: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ كقَولِه: «بعَينَينا»؛ لأنَّ أقلَّ الجَمعِ اثنانِ، وإمَّا أنْ يقالَ: أقلُّ الجَمعِ ثلاثةٌ -كما هو الأكثرُ- ولكنَّ الجمعَ هنا لا يُرادُ به مَدلولُه التَّعدُّديُّ، وإنَّما يُرادُ به مَدلولُه المعنويُّ، وهو التَّعظيمُ، فيكونَ اللهُ عزَّ وجلَّ جَمَعَ العينَينِ، فقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾؛ تعظيمًا لهما، وأيضًا يُضافُ إلى التَّعظيمِ المناسَبةُ؛ لأنَّ «نا» دالَّةٌ على الجَمعِ في أصلِ الوَضعِ؛ فناسَبَ أنْ يكونَ المضافُ إليها مَجموعًا للتَّعظيمِ، كما هي في قَولِه تعالى: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ للتَّعظيمِ؛ فيَتناسَبُ هنا المضافُ والمضافُ إليه، وهذه المناسَبةُ لفظيَّةٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((الإبانة)) للأشعري (ص: ٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٥٨).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٠).

١١- قال تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ظاهرُ الكلامِ أنَّ السَّفينةَ تجري وعينُ اللهِ تَرعاها وتَكلؤُها، وهذا معنى قولِ بعضِ السَّلفِ: «بمرأًى منِّي»؛ فإنَّ اللهَ تعالى إذا كان يَكلؤُهم بعَينِه لَزِمَ مِن ذلك أنْ يَراهم، ولازِمُ المعنى الصَّحيحِ جزءٌ منه، كما هو معلومٌ مِن دَلالةِ اللَّفظِ، حيثُ تكونُ بالمُطابَقةِ، والتَّضَمُّنِ، والالتِزامِ، ولا يُقالُ: إنَّ ظاهرَ الكلامِ وحقيقتَه أنَّ السَّفينةَ تجري في عينِ اللهِ! فهذا قول باطلٌ مِن وَجهينِ:

**الأوَّلُ**: أنَّه لا يقتضيه الكلامُ بمقتضى الخِطابِ العربيِّ، والقرآنُ الكريمُ إنَّما نَزَلَ بلُغةِ العربِ، ولا أحدَ يَفهمُ مِن قولِ القائلِ: فلانٌ يسيرُ بعَيني: أنَّ المعنى أنَّه يسيرُ داخلَ عيْنِه!

**الثَّاني**: أنَّ هذا ممتنعٌ غايةَ الامتِناعِ، ولا يمكنُ لِمَن عَرَفَ اللهَ وقَدَرَه حقَّ قدْرِه أنْ يَفْهَمَه في حقِّ اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ تعالى مُستَوٍ على عرْشِه، بائِنٌ مِن خلْقِه، لا يَحُلُّ فيه شيءٌ مِن مخلوقاتِه، ولا هو حالٌّ في شيءٍ مِن مخلوقاتِه، سُبحانَه وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا. فإذا تبيَّنَ بُطلانُ هذا القولِ مِن النَّاحيةِ اللَّفظيَّةِ والمعنويَّةِ، تَعَيَّنَ أنْ يكونَ ظاهرُ الكلامِ أنَّ السَّفينةَ تجري وعينُ اللهِ تَرعاها وتَكلؤُها[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أنَّه سُبحانَه يَسَّرَ قِراءتَه على ألسِنةِ النَّاسِ، ويَسَّر عِلْمَه على قُلوبِ قَومٍ، ويَسَّر فَهْمَه على قُلوبِ قَومٍ، ويَسَّر حِفظَه على قُلوبِ قَومٍ، وكُلُّهم أهلُ القُرآنِ، وكُلُّهم أهلُ اللهِ تعالى وخاصَّتُه[2]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أنَّ اللهَ تعالى أبقَى آياتٍ -وهي: العلاماتُ والدَّلالاتُ-؛ فدلَّ ذلك على أنَّ ما يَخُصُّه مِن أخبارِ المؤمنينَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٤٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٨).

وحُسْنِ عاقبتِهم في الدُّنيا، وأخبارِ الكُفَّارِ وسوءِ عاقبتِهم في الدُّنيا: هو مِن بابِ الآياتِ والدَّلالاتِ الَّتي يُستدَلُّ بها، ويُعتبَرُ بها عِلمًا ووَعظًا؛ فيُفيدُ مَعرِفةَ صِحَّةِ ما أخبَرَتْ به الرُّسُلُ، ويفيدُ التَّرغيبَ والتَّرهيبَ، ويدُلُّ ذلك على أنَّ اللهَ تعالى يَرضَى عن أهلِ طاعتِه ويُكرِمُهم، ويَغضَبُ على أهلِ مَعصيتِه ويُعاقِبُهم[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أنَّ السُّفُنَ بعدَ نوحٍ مَتروكةٌ إلى القيامةِ آيةً للوَرَى[2]، على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ دليلٌ على أنَّ الذِّكْرَ مُلتمَسٌ منه، وطالبَه مُعانٌ عليه[3].

١٦- بيْنَ قولِه: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ وقولِه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فرْقٌ دَقيقٌ؛ فالادِّكارُ الأوَّلُ: ادِّكارُ اعتِبارٍ عن مُشاهَدةِ آثارِ الأُمَّةِ البائدةِ، والادِّكارُ الثَّاني: ادِّكارٌ عن سَماعِ مَواعظِ القرآنِ البالغةِ، وفَهْمِ مَعانيه، والاهتِداءِ به[4].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ [القمر: ٤]؛ فإنَّ مِن أشهَرِها تَكذيبَ قَومِ نوحٍ رَسولَهم، وسبَقَ الإنباءُ به في القرآنِ في السُّوَرِ النَّازلةِ قبْلَ هذه السُّورةِ. وهو خَبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّذكيرِ، وليُفرَّعَ عليه ما بعْدَه، فالمَقصودُ النَّعيُ عليهم عدَمَ ازدجارِهم بما جاءَهُم مِن الأنْباءِ بتَعدادِ بَعضِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٠).

المُهِمِّ مِن تلك الأنباءِ[١].

- وفائدةُ ذِكرِ الظَّرْفِ ﴿قَبْلَهُمْ﴾ تَقريرُ تَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: إنَّ هذه شِنْشِنةُ -أي: عادةُ وطَبيعةُ- أهلِ الضَّلالِ، معَ ما في ذلك مِن التَّعريضِ بأنَّ هؤلاء مُعرِضون[٢]. وكذلك في ذِكرِ الظَّرفِ مِن غيرِ حرْفِ جَرٍّ؛ لأنَّه أعظَمُ في التَّسليةِ[٣].

- قيل: عُرِّفَ قومُ نُوحٍ بالإضافةِ إلى اسْمِه؛ إذ لم يَكُنْ للأُمَّةِ في زمَنِ نُوحٍ عليه السَّلامُ اسمٌ يُعرَفون به[٤].

- وأُسنِدَ التَّكذيبُ إلى جَميعِ القَومِ؛ لأنَّ الَّذين صدَّقوه عدَدٌ قليلٌ؛ فإنَّه ما آمَنَ به إلَّا قَليلٌ[٥].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ لتَفريعِ الإخبارِ بتَفصيلِ تَكذيبِهم إيَّاهُ بأنَّهم قالوا: ﴿مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾، على الإخبارِ بأنَّهم كذَّبوه على الإجمالِ، وإنَّما جِيءَ بهذا الأُسلوبِ؛ لأنَّه لَمَّا كان المَقصودُ مِن الخبَرِ الأوَّلِ تَسليةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فُرِّعَ عليه الإخبارُ بحُصولِ المُشابَهةِ بيْن تَكذيبِ قَومِ نُوحٍ رَسولَهم وتَكذيبِ المُشرِكين محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ في أنَّه تَكذيبٌ لِمَن أرسَلَه اللهُ واصطفاهُ بالعُبوديَّةِ الخاصَّةِ، وفي أنَّه تَكذيبٌ مَشوبٌ ببُهتانٍ؛ إذ قال كِلا الفريقَينِ لرَسولِه: مَجنونٌ، ومَشوبٌ ببَذاءةٍ؛ إذ آذَى كِلا الفريقينِ رَسولَهم وازدَجَروه؛ فمَحلُّ التَّفريعِ هو وصْفُ نُوحٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعُبوديَّةِ اللهِ تَكْريمًا له، والإخبارُ عن قَومِه بأنَّهم افترَوا عليه وَصْفَه بالجُنونِ، واعتَدَوا عليه بالأذَى والازدِجارِ، فأصْلُ تَركيبِ الكلامِ: كذَّبَت قبْلَهم قومُ نُوحٍ فقالوا: مَجنونٌ، وازْدُجِرَ. ولَمَّا أُرِيدَ الإيماءُ إلى تَسليةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ابتِداءً جُعِلَ ما بعْدَ التَّسليةِ مُفرَّعًا بفاءِ التَّفريعِ؛ ليَظهَرَ قصْدُ استِقلالِ ما قبْلَه، ولولا ذلك لَكان الكلامُ غَنيًّا عن الفاءِ؛ إذ كان يقولُ: كذَّبَت قومُ نوحٍ عبْدَنا.

ويَجوزُ أنْ يكونَ فِعلُ ﴿كَذَّبَتْ﴾ مُستعمَلًا في معْنى أنَّهم اعتَقَدوا كذِبَه، فتَفريعُ ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ عليه تَفريعُ تَصريحِهم بتَكذيبِه على اعتقادِهم كذِبَه؛ فيَكونَ فِعلُ ﴿فَكَذَّبُوا۟﴾ مُستعمَلًا في معْنًى غيرِ الَّذي استُعْمِلَ فيه فِعلُ ﴿كَذَّبَتْ﴾، والتَّفريعُ ظاهرٌ على هذا الوجْهِ[1].

أو يكونُ في إعادةِ التَّكذيبِ -في قولِه: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ بعْدَ قولِه: ﴿كَذَّبَتْ﴾- فائدةُ حِكايةِ الواقعِ؛ وهو أنَّهم كذَّبوا تَكذيبًا بعْدَ تَكذيبٍ، كلَّما مَضى منهم قَرْنٌ مُكذِّبٌ تَبِعَه قرْنٌ مُكذِّبٌ. وفيه مَزيدةُ تَقريرٍ وتَحقيقٍ للتَّكذيبِ. أو لإفادةِ تَوكيدِ التَّكذيبِ، أي: هو تَكذيبٌ قوِيٌّ.

أو المعْنى: كذَّبت قَومُ نوحٍ الرُّسلَ فكذَّبوا عبْدَنا، أي: لَمَّا كانوا مُكذِّبين بالرُّسلِ جاحِدين للنُّبوَّةِ رأْسًا، كذَّبوا نوحًا؛ لأنَّه مِن جُملةِ الرُّسلِ.

أو الأوَّلُ تَكذيبُهم بالتَّوحيدِ، والثَّاني بالرِّسالةِ.

أو الأوَّلُ تَكذيبُهم باللهِ، والثَّاني برَسولِه نُوحٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٠).

- وفي ذِكرِ نُوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بعُنوانِ العُبوديَّةِ، مع الإضافةِ إلى نُونِ العظَمةِ، تَفخيمٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ورفْعٌ لمَحلِّه، وزِيادةُ تَشنيعٍ لمُكذِّبيهِ(١).

- وصِيغةُ الافتعالِ في لَفظِ ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ للمُبالَغةِ(٢).

- ونُكتةُ بِناءِ الفِعلِ ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ للمَجهولِ هنا التَّوصُّلُ إلى حذْفِ ما يُسنَدُ إليه فِعلُ الازدجارِ المَبْنيُّ للفاعلِ، وهو ضَميرُ ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾، فعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (وازدَجَروه) إلى قولِه: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾؛ مُحاشاةً للدَّالِّ على ذاتِ نُوحٍ -وهو ضَميرٌ- مِن أنْ يقَعَ مَفعولًا لضَميرِهم(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ تَفريعٌ على ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ [القمر: ٩] وما تَفرَّعَ عليه(٤).

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾؛ للإيجازِ، وللرَّعْيِ على الفاصلةِ، والتَّقديرُ: فانتصِرْ لي، أي: انصُرْني(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ مُفرَّعٌ على جُملةِ ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ [القمر: ١٠]، ففُهِمَ مِن التَّفريعِ أنَّ اللهَ استجابَ دَعوتَه، وأنَّ إرسالَ هذه المياهِ عِقابٌ لقَومِ نُوحٍ. وحاصِلُ المعْنى: فأرْسَلْنا عليهم الطُّوفانَ بهذه الكيفيَّةِ المُحكَمةِ السَّريعةِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٢).

- قولُه: ﴿ فَفَتَحْنَآ ﴾ قُرِئَ ﴿فَفَتَّحْنَا﴾ بالتَّشديدِ[١] على المُبالَغةِ، أو لكَثرةِ الأبوابِ[٢].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ للتَّعديةِ على المُبالَغةِ؛ حيث جُعِلَ الماءُ كأنَّه آلةٌ يُفتَحُ بها، كما تقولُ: فتَحْتُ البابَ بالمِفتاحِ، وكأنَّ الماءَ جاءَ وفتَحَ البابَ، فجُعِلَ المَقصودُ -وهو الماءُ- مُقدَّمًا في الوجودِ على فتْحِ البابِ المُغلَقِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الباءُ للحالِ، أي: مُلْتبِسةً بماءٍ مُنهمِرٍ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾

- قولُه: ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ أبلَغُ مِن قولِك: وفجَّرْنا عُيونَ الأرضِ؛ جُعِلَت الأرضُ مِن كَثرةِ عُيونِها كأنَّها عَينٌ تَتفجَّرُ، وفي هذا إجمالٌ جِيءَ مِن أجْلِه بالتَّمييزِ له بقَولِه: ﴿عُيُونًا﴾ لبَيانِ هذه النِّسبةِ، والمعْنى: وفجَّرْنا عُيونَ الأرضِ، ونُكتةُ ذلك: إفادةُ شُمولِ العُيونِ الأرضَ[٤].

- قولُه: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾، أي: ماءُ السَّماءِ وماءُ الأرضِ، والإفرادُ لتحقيقِ أنَّ الْتِقاءَ الماءَينِ لم يكُنْ بطَريقِ المُجاوَرةِ والتَّقارُبِ، بلْ بطَريقِ الاختلاطِ والاتِّحادِ[٥]. .....

---

(١) قرأ بها أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ، وقرأ الباقون بالتَّخفيفِ. يُنظر: ((المبسوط في القراءات العشر)) لابن مهران (ص: ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٦٩).

أو أراد به جِنسَ الماءِ، ووحَّده مُوافقةً لقولِه قبْلُ: ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾[١] [القمر: ١١].

- وإنَّما قيل: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ والالتقاءُ لا يكونُ مِن واحدٍ، وإنَّما يكونُ مِنِ اثنينِ فصاعدًا؛ لأنَّ الماءَ قد يكونُ جمْعًا وواحدًا، وأُرِيدَ به في هذا الموضعِ: مِياهُ السَّماءِ ومياهُ الأرضِ، فخرَجَ بلَفظِ الواحدِ ومعْناهُ الجمْعُ[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَآءُ﴾ للجنسِ، وعُلِمَ مِن إسنادِ الالتقاءِ أنَّهما نَوعانِ مِن الماءِ: ماءُ المطَرِ، وماءُ العُيونِ[٣].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ (على) بمعْنى (في)، ويَجوزُ أنْ تكونَ (على) للاستِعلاءِ، أي: مُلابِسًا لأمْرٍ قد قُدِرَ ومُتمكِّنًا منه، ومعْنى التَّمكُّنِ: شِدَّةُ المُطابَقةِ لِما قُدِرَ، وأنَّه لم يَحِدْ عنه قِيدَ شَعْرةٍ[٤].

- والجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰٓ أَمۡرٖ﴾ مُتعلِّقانِ بـ (الْتَقَى)، وأفادتْ (على) معْنى التَّعليلِ، والمعْنى: اجتَمَعَ مِن أجْلِ إغراقِهم المَقْضِيِّ أزَلًا[٥].

- والأمْرُ: الحالُ والشَّأنُ، وتَنوينُه للتَّعظيمِ[٦].

- واكْتُفِيَ بهذا الخبَرِ عن بَقيَّةِ المعْنى -وهو طُغيانُ الطُّوفانِ عليهم- اكتِفاءً بما أفادَه تَفريعُ ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ١١]، انتقالًا إلى وَصْفِ إنجاءِ نُوحٍ مِن ذلك الكرْبِ العظيمِ، فجُملةُ ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ﴾ [القمر: ١٣] مَعطوفةٌ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٣).

على التَّفريعِ عطْفَ احتِراسٍ، والمعْنى: فأغْرَقْناهم ونَجَّيْناهُ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾

- عُدِّيَ فِعلُ (حمَلْنا) إلى ضَميرِ نُوحٍ دونَ مَن معَه مِن قَومِه؛ لأنَّ هذا الحَمْلَ كان إجابةً لدعوتِه ولنَصْرِه، فهو المَقصودُ الأوَّلُ مِن هذا الحَمْلِ، وهو المَقصودُ بالإنجاءِ، وقدْ أشارَ إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [الأعراف: ٧٢]، وقَولُه: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، ونحْوُه مِن الآياتِ الدَّالَّةِ على أنَّه المَقصودُ بالإنجاءِ، وأنَّ نَجاةَ قَومِه بمَعيَّتِه، وحسْبُك قولُه في تَذييلِ هذه الآيةِ: ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ فإنَّ الَّذي ﴿كَانَ كُفِرَ﴾ هو نوحٌ؛ كفَرَ به قَومُه[٢].

- وحرْفُ (على) للاستِعلاءِ الَّذي يُفيدُ التَّمكُّنَ مِن الرُّكوبِ، وإلَّا فإنَّ استِقرارَه في السَّفينةِ كائنٌ في جَوفِها[٣].

- وقولُه: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ صِفةُ السَّفينةِ، أُقِيمَت مُقامَ المَوصوفِ هنا عِوَضًا عن أنْ يُقالَ: وحمَلْناه على الفُلْكِ؛ لأنَّ في هذه الصِّفةِ بَيانَ مَتانةِ هذه السَّفينةِ وإحكامِ صُنْعِها، وفي ذلك إظهارٌ لعِنايةِ اللهِ بنَجاةِ نُوحٍ ومَن معَه، وعادةُ البُلغاءِ إذا احتاجوا لذِكرِ صِفةٍ بشَيءٍ، وكان ذِكْرُها دالًّا على مَوصوفِها؛ أنْ يَستغْنُوا عن ذِكرِ الموصوفِ إيجازًا[٤].

وأيضًا مُراعاةً للآياتِ وفَواصلِها، فلو قال: حمَلْنا على فُلْكٍ أو على سَفينةٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٩).

لم تتناسَبْ هذه الآيةُ مع ما بَعْدَها ولا ما قَبْلَها، وأيضًا مِن أجْلِ أنْ يَتَعَلَّمَ النَّاسُ كيف يَصنَعونَ السُّفُنَ، وبيانِ أنَّها مِن الألواحِ والمساميرِ[١].

وقيل: حَذَف المَوصوفَ وأقامَ الصِّفةَ مقامَه؛ إشارةً إلى أنَّها كانت مِن ألواحٍ مُرَكَّبةٍ مُوثَقةٍ بدُسُرٍ، وكان انفِكاكُها في غايةِ السُّهولةِ ولم يَقَعْ؛ فهو بفَضلِ اللهِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾

- ﴿جَزَآءً﴾ مَفعولٌ لأجْلِه لـ(فتَحْنا) وما عُطِفَ عليه، أي: فَعَلْنا ذلك كلَّه جَزاءً لنُوحٍ. والمَقصودُ بقَولِه: ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ هو نوحٌ؛ فإنَّ قَومَه كَفَروا به، أي: لم يُؤمِنوا بأنَّه رسولٌ، وكان كُفْرُهم به مُنذُ جاءَهُم بالرِّسالةِ؛ فلذلك أُقحِمَ هنا فِعلُ (كان)، أي: لِمَن كُفِرَ منذُ زمانٍ مَضى[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿كُفِرَ﴾؛ لدَلالةِ الكَلامِ عليه، وتَقديرُه: كُفِرَ به. أو لأنَّه نصَحَ لهم ولقِيَ في ذلك أشَدَّ العَناءِ، فلم يَشكُروا له، بل كَفَروه، فهو مَكفورٌ[٤].

- وفي قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ مناسَبةٌ حسنةٌ، حيثُ قال في سورةِ (طه): ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] بحرفِ «على»، وقال تعالى هنا في سورةِ (القمرِ): ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ وفي سورةِ (هودٍ): ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] بحرفِ الباءِ؛ أمَّا في سورةِ (طه) فقد ورَدتْ في إظهارِ أمرٍ كان خفيًّا، وإبداءِ ما كان مكتومًا؛ فإنَّ الأطفالَ إذ ذاك كانوا يُغْذَونَ ويُصنعونَ سِرًّا؛ فلَمَّا أراد أنْ يُصْنَعَ موسى عليه السَّلامُ ويُغْذَى ويُرَبَّى على حالِ أَمْنٍ وظهورٍ -لا

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٥).

تحتَ خَوفٍ واستِسْرارٍ- دخلتْ «على» في اللَّفظِ؛ تنبيهًا على المعنى؛ لأنَّها تُعطي الاستِعلاءَ، والاستِعلاءُ: ظهورٌ وإبداءٌ، فكأنَّه يقولُ سُبحانَه وتعالى: «ولِتُصْنَعَ على أَمْنٍ؛ لا تحتَ خَوفٍ!»، وذَكَر العينَ لِتَضَمُّنِها معنى الرِّعايةِ والكِلاءةِ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] وقولُه سُبحانَه: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: ٣٧] فإنَّه إنَّما يريدُ: «برعايةٍ مِنَّا وحِفْظٍ»، ولا يريدُ إبداءَ شيءٍ، ولا إظهارَه بعدَ كَتْمٍ! فلمْ يُحْتَجْ في الكلامِ إلى معنى «على»، بخِلافِ ما تقَدَّم[1].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾

- التَّركُ كِنايةٌ عن الإبقاءِ، وعدَمِ الإزالةِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾، وقال في (العنكبوتِ): ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ [العنكبوت: ١٥]، وهُما وإنْ كانَا في المعْنى واحدًا، لكنَّ لَفظَ التَّركِ يَدلُّ على الجَعلِ والفراغِ بالأيَّامِ؛ فكأنَّها هنا مَذكورةٌ بالتَّفصيلِ، حيث بيَّنَ الإمطارَ مِن السَّماءِ، وتَفجيرَ الأرضِ، وذَكَر السَّفينةَ بقولِه: ﴿ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾، وذَكَر جَرْيَها فقال: ﴿تَّرَكْنَٰهَآ﴾؛ إشارةً إلى تَمامِ الفعلِ المقدورِ، وقال هناك: ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾؛ إشارةً إلى بَعضِ ذلك. فإنْ قِيلَ: إنْ كان الأمرُ كذلك؛ فكيف قال هاهنا: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ ولم يقُلْ: «وأصحابَه»، وقال هناك: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: ١٥]؟

**فالجوابُ**: أنَّ النَّجاةَ هاهنا مَذكورةٌ على وجْهٍ أبلَغَ ممَّا ذَكَره هناك؛ لأنَّه قال: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: حِفْظِنا، وحِفظُ السَّفينةِ حِفظٌ لأصحابِه، وحِفظٌ لأموالِهم

---

(١) يُنظر: ((نتائج الفكر)) للسهيلي (ص: ٢٣٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٦).

ودَوابِّهم والحيواناتِ الَّتي معَهم؛ فقولُه: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ لا يَلزَمُ منه إنجاءُ الأموالِ إلَّا ببَيانٍ آخَرَ، والحِكايةُ في سُورةِ (هُودٍ) أشدُّ تَفصيلًا وأتمُّ؛ فلهذا قال: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠]، يَعني: المَحمول، ثمَّ قال تَعالى: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] تَصريحًا بخَلاصِ السَّفينةِ، وإشارةً إلى خَلاصِ كلِّ مَن فيها[١]. وفيه وجهٌ آخَرُ، وهو أنَّه إنَّما قالَ هنا: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾، وقال في سُورةِ (العنْكبوتِ): ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]؛ لأنَّ ذِكرَها في سُورةِ (القمَرِ) ورَدَ بعْدَ ذِكرِ كَيفيَّةِ صُنْعِها، وحُدوثِ الطُّوفانِ، وحمْلِ نُوحٍ في السَّفينةِ، فأخبرَ بأنَّها أُبْقِيَت بعْدَ تلك الأحوالِ، فالآيةُ في بَقائِها، وفي سُورةِ (العنْكبوتِ) ورَدَ ذِكرُ السَّفينةِ ابتداءً، فأخبَرَ بأنَّ اللهَ جعَلَها آيةً؛ إذ أَوحى إلى نُوحٍ بصُنْعِها، فالآيةُ في إيجادِها، وهو المُعبَّرُ عنه بـ (جَعَلْنَاهَا)[٢].

- قولُه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، فُرِّعَ على إبقاءِ السَّفينةِ آيةً استِفهامٌ عمَّن يَتذكَّرُ بتلك الآيةِ، وهو استفهامٌ مُستعمَلٌ في معْنى التَّحضيضِ على التَّذكُّرِ بهذه الآيةِ واستِقْصاءِ خَبَرِها، والتَّحضيضُ مُوجَّهٌ إلى جَميعِ مَن تَبلُغُه هذه الآياتُ. و(مِن) صِلةٌ؛ للدَّلالةِ على عُمومِ الجِنسِ في الإثباتِ[٣].

٨- قولُه تعالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ تَفريعٌ على القصَّةِ بما تَضمَّنَتْه مِن قولِه: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [القمر: ١١] إلى آخِرِه[٤].

- و(كيف) للاستِفهامِ عن حالةِ العذابِ، وهو عَذابُ قَومِ نُوحٍ بالطُّوفانِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٦، ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٧).

والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعظيمِ والتَّعجيبِ مِن شِدَّةِ هذا العذابِ المَوصوفِ، أي: كان على كيفيَّةٍ هائلةٍ لا يُحيطُ بها الوصْفُ[١].

- والجُملةُ في معْنى التَّذييلِ، وهو تَعريضٌ بتَهديدِ المُشرِكين أنْ يُصيبَهم عَذابٌ جَزاءَ تَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وإعراضِهم وأذاهُم كما أصابَ قومَ نُوحٍ عليه السَّلامُ[٢].

- وحُذِفَ ياءُ المُتكلِّمِ مِن ﴿وَنُذُرِ﴾، وأصْلُه: (نُذُري)، وحذْفُها في الكلامِ في الوقْفِ فَصيحٌ، وكثُرَ في القرآنِ عندَ الفواصلِ[٣].

- والنُّذُرُ: جمْعُ نَذيرٍ -على قولٍ- الَّذي هو اسمُ مَصدرِ (أنْذَرَ)، كالنِّذارةِ، وإنَّما جُمِعَت لتَكرُّرِ النِّذارةِ مِن الرَّسولِ لقَومِه؛ طلَبًا لإيمانِهم[٤].

٩- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، لَمَّا كانتْ هذه النِّذارةُ بُلِّغَت بالقرآنِ، والمُشرِكون مُعرِضون عن استِماعِه، حارِمينَ أنفُسَهم مِن فَوائدِه؛ ذُيِّل خبَرُها بتَنويهِ شأْنِ القرآنِ بأنَّه مِن عِندِ اللهِ، وأنَّ اللهَ يسَّرَه وسهَّلَه لتَذكُّرِ الخلْقِ بما يَحتاجونَه مِن التَّذكيرِ ممَّا هو هدًى وإرشادٌ، وفيه تَعريضٌ بالمُشرِكينَ، كما أنبَأَ عنه قولُه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[٥].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إلخ، جُملةٌ قَسَميَّةٌ ورَدَتْ في أواخِرِ القصصِ الأربَعِ؛ تَقريرًا لِمَضمونِ ما سبَقَ مِن قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٧، ١٨٨).

جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤، ٥]، وتَنبيهًا على أنَّ كلَّ قصَّةٍ منها مُستقِلَّةٌ بإيجابِ الادِّكارِ، كافيةٌ في الازدجارِ[١]!

- وتأْكيدُ الخبَرِ باللَّامِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد) مُراعًى فيه حالُ المُشرِكين الشَّاكِّينَ في أنَّه مِن عِندِ اللهِ[٢].

- قولُه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾، فُرِّعَ على تَيسيرِ القرآنِ للذِّكرِ استِفهامٌ، وهو استِفهامٌ مُستعمَلٌ في معْنى التَّحضيضِ، والتَّحضيضُ مُوَجَّهٌ إلى جَميعِ مَن تَبلُغُه هذه الآياتُ. و(مِن) صِلةٌ؛ للدَّلالةِ على عُمومِ الجِنسِ[٣].

- وقيل: قولُه: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ إنْكارٌ ونفْيٌ للمُتَّعِظِ على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه؛ حيثُ يدُلُّ على أنَّه لا يَقدِرُ أحدٌ أن يُجيبَ المُستفهَمَ بـ «نَعَمْ»[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٨٦، ١٨٧، ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠).

## الآيات (١٨-٢٢)

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَرْصَرًا﴾: أي: شَديدةَ البَردِ والصَّوتِ، والصَّرصَرُ: الرِّيحُ العاصِفةُ الَّتي يكونُ لها صَرصَرةٌ، أي: دَوِيٌّ في هُبوبِها؛ مِن شِدَّةِ سُرعةِ تنقُّلِها، والتَّضعيفُ فيه للمُبالَغةِ في شِدَّتِها، مأخوذٌ مِن الصِّرِّ: وهو البَردُ الَّذي يَصُرُّ، أي: يَجمَعُ ويَقبِضُ[١].

﴿نَحْسٍ﴾: أي: شُؤْمٍ وشَرٍّ، وأصلُه يدُلُّ على خِلافِ السَّعدِ[٢].

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾: أي: تقلَعُهم مِن مَواضعِهم، ونَزَعَ الشَّيءَ: جَذَبه مِن مقرِّه، وأصلُ (نزع): يدُلُّ على قَلْعِ شَيءٍ[٣].

﴿أَعْجَازُ﴾: أي: أُصولُ، وأصلُ (عجز) هنا: يدُلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيءِ[٤].

﴿مُّنقَعِرٍ﴾: أي: مُنقَطِعٍ مِن أصولِه، ساقِطٍ على الأرضِ، يُقالُ: قَعَرتُ النَّخلةَ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٣٩٧-٣٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥١).

إذا قلَعْتَها مِن أصْلِها حتَّى تَسقُطَ، وقَعرُ الشَّيءِ: نِهايةُ أسفَلِه[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا موقفَ عادٍ مِن نبيِّهم هودٍ عليه السَّلامُ، وما نزَل بهم مِن العِقابِ: كذَّبت عادٌ رَسولَهم هُودًا، فكيف كان عذابي لهم؟ وكيف كان إنذاري بتلك العُقوبةِ مَن نَهَج نَهْجَهم؟! إنَّا بَعَثْنا عليهم رِيحًا باردةً شَديدةَ الهُبوبِ، في يَومِ شُؤمٍ مُستَمِرٍّ بهم عَذابُه، تَقتَلِعُ تلك الرِّيحُ كُفَّارَ عادٍ، فتَرْفعُهم، ثمَّ تَرْمي بهم وتَطرحُهم إلى الأرضِ فتَصرَعُهم، فتَذَرُهم بعدَ هَلاكِهم كأنَّهم أُصولُ نَخلٍ مُنقَلِعٍ مِن أصلِه! فكيف كان عذابي لهم؟ وكيف كان إنذاري؟!

ثمَّ ختَم الله تعالى هذه القصَّةَ بالدَّعوةِ إلى الاعتِبارِ بالقرآنِ وما فيه مِن قصصٍ وعِبَرٍ إلى غيرِ ذلك، فقال: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، والاتِّعاظِ، فهل مِن مُتذَكِّرٍ؟

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا انقَضَت قِصَّةُ نوحٍ عليه السَّلامُ على هذا الهَولِ العَظيمِ؛ ذَكَر قِصَّةَ عادٍ؛ لأنَّها أعظَمُ قِصَّةٍ جَرَتْ بعدَ قَومِ نُوحٍ فيما تَعرِفُه العَرَبُ[٢].

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٤٦).

أي: كذَّبت قَبيلةُ عادٍ رَسولَهم هُودًا، فكيف كان عذابي لهم جزاءَ تَكذيبِهم؟ وكيف كان إنذاري[١]؟

كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣].

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾﴾.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾.

أي: إنَّا بَعَثْنا عليهم حينَ أصَرُّوا على كُفرِهم رِيحًا بارِدةً شَديدةَ الهُبوبِ، لِصَوتِها صَريرٌ[٢].

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾.

أي: في يَومِ شُؤمٍ وشَرٍّ دائمٍ على عادٍ، استمرَّ عليهم بنُحوسِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

قال ابن عثيمين: (الجوابُ: كان شَديدًا عَظيمًا واقِعًا مَوقِعَه؛ فالاستِفهامُ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ والتَّقريرِ، وهو أنَّ عذابَ اللهِ كان عظيمًا، وكان واقِعًا مَوقِعَه، ﴿وَنُذُرِ﴾ يعني: آياتِه، كذلك كانت عَظيمةً واقِعةً مَوقِعَها). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

قال ابنُ القيِّم: (كان اليَومُ نَحسًا عليهم؛ لإرسالِ العَذابِ عليهم، أي: لا يُقلِعُ عنهم كما تُقلِعُ مَصائِبُ الدُّنيا عن أهلِها، بل هذا النَّحسُ دائِمٌ على هؤلاء المكَذِّبينَ للرُّسُلِ، و﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ صِفةٌ للنَّحسِ لا لليَومِ، ومَن ظَنَّ أنَّه صِفةٌ لليَومِ، وأنَّه كان يومَ أربِعاءَ آخِرَ الشَّهرِ، وأنَّ هذا اليومَ نَحسٌ أبدًا؛ فقد غَلِطَ، وأخطأَ فَهْمَ القُرآنِ؛ فإنَّ اليومَ المذكورَ بحَسَبِ ما يقَعُ فيه، وكم للهِ مِن نِعمةٍ =

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧].

﴿تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: تَقتَلِعُ الرِّيحُ كُفَّارَ عادٍ بعُنفٍ وشِدَّةٍ، فتَرْفعُهم ثمَّ تَرْمي بهم وتَطرَحُهم إلى الأرضِ فتَصرَعُهم، وتكونُ جُثَثُهم بعدَ هَلاكِهم مِثلَ أُصولِ نَخلٍ مُنقَلِعٍ مِن مَنْبِتِه[1]!

---

= على أوليائِه في هذا اليَوم، وإن كان له فيه بلايا ونِقَمٌ على أعدائِه! كما يقَعُ ذلك في غيرِه مِن الأيَّام). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ١٩٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٦)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٢٩٩).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾: أنَّ العذابَ استمَرَّ عليهم في الدُّنيا سَبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمعاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

وقيل: المرادُ بالاستِمرارِ: اتِّصالُ عَذابِهم الدُّنيويِّ بالأُخْرويِّ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٨).

قال البِقاعي: (وحَقَّق -لأنَّ المرادَ باليَومِ الجِنسُ لا الواحِدُ- بالوَصفِ، فقال: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١١٥).

وقال ابنُ عاشور: (أُريدَ بـ﴿يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أوَّلُ أيَّامِ الرِّيحِ الَّتي أُرسِلَت على عادٍ؛ إذ كانت سَبعةَ أيَّامٍ... والنَّحسُ: سوءُ الحالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٥، ١٣٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٣، ١٩٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٥). =

كما قال تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فكيف كان عَذابي لعادٍ على كُفرِهم؟ وكيف كان إنذاري[1]؟!

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

أي: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، وحُصولِ الفَهمِ والاتِّعاظِ به[2].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

---

= قال ابن جُزَي: (شبَّهَ اللهُ عادًا لَمَّا هلَكوا بذلك؛ لأنَّهم طِوالٌ عِظامُ الأجسادِ كالنَّخلِ. وقيل: كانت الرِّيحُ تَقطَعُ رؤوسَهم، فتبقى أجسادًا بلا رُؤوسٍ، فشبَّههم بأعجازِ النَّخلِ؛ لأنَّها دونَ أغصانٍ. وقيل: كانوا حفَروا حُفَرًا يَمتَنِعون بها مِن الرِّيحِ، فهلَكوا فيها، فشبَّههم بأعجازِ النَّخلِ إذا كانت في حُفَرِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٤).

وقال الواحدي: (شَبَّههم في طولِ قاماتِهم حينَ صَرَعتْهم الرِّيحُ وكَبَّتْهم على وُجوهِهم، بالنَّخيلِ السَّاقِطةِ على الأرضِ الَّتي ليست لها رُؤوسٌ؛ وذلك أنَّ الرِّيحَ قَلَعت رُؤوسَهم أوَّلًا، ثمَّ كَبَّتْهم على وُجوهِهم!). ((الوسيط)) (٤/ ٢١٠).

وقال الرَّسْعَني: (﴿كَأَنَّهُمْ﴾ وقد بانتْ رُؤوسُهم عن أجسادِهم، أو مالَتْ على أكتافِهم، صَرْعَى على الأرضِ، وهم جُثَثٌ طِوالٌ عِظامٌ ﴿أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ قُطعتْ فُروعُها ﴿مُنقَعِرٍ﴾ مُنقلِعٍ عن مَغارِسِها). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((الهداية)) لمكي (١١/ ٧١٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣، ٢٧٦).

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما في القُرآنِ الكريمِ[١]؟

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كَرَّرَ اللهُ تعالى هذا عندَ آخرِ كلِّ قصَّةٍ؛ مِن أجْلِ أنْ نَحرِصَ على التَّذكُّرِ بالقُرآنِ، وتدبُّرِ القُرآنِ، وتفَهُّمِ القُرآنِ؛ لأنه مُيَسَّرٌ، والجملةُ مؤكَّدةٌ بمؤكِّداتٍ ثلاثةٍ: القَسَمِ، واللَّامِ، و«قد»؛ ممَّا يدُلُّ على التَّرغيبِ في تَذَكُّرِ القُرآنِ، والتَّذَكُّرِ به، فهل مِن مُدَّكِرٍ[٢]؟!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ سؤالٌ: لِمَ لَمْ يَقُلْ: «فكَذَّبوا هُودًا»، كما قال تعالى في قِصَّةِ نُوحٍ: ﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ [القمر: ٩]؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ تَكذيبَ قَومِ نُوحٍ أبلَغُ؛ لِطُولِ مُقامِه فيهم، وكَثرةِ عِنادِهم.

**الثَّاني**: أنَّ قِصَّةَ عادٍ ذُكِرَت مُختَصَرةً[٣].

٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أنَّ قَولَ: «هذا يومُ النَّحْسِ» لا بأسَ به إذا لم يُقصَدِ السَّبُّ والعَيبُ، وإنَّما قُصِدَ الإخبارُ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ إضافةُ اليَومِ إلى النَّحْسِ باعتِبارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٨٢).

المنحوسِ؛ فهو يومُ نَحسٍ للمُعَذَّبينَ، ويَومُ نَصرٍ للمُؤمِنينَ، ومَصائِبُ قَومٍ عِندَ قَومٍ فَوائِدُ، وليس في الأيَّامِ يَومٌ يُوصَفُ بنَحسٍ أو بسَعْدٍ؛ لأنَّ كُلَّ يَومٍ تَحدُثُ فيه نُحوسٌ لِقَومٍ وسُعُودٌ لآخَرِينَ، وما يُروَى مِن أخبارٍ في تعيينِ بَعضِ أيَّامِ السَّنةِ للنَّحسِ هو مِن أغلاطِ القَصَّاصِينَ! فلا يُلْقي المُسلِمُ الحَقُّ إليها سَمْعَه. واشتَهَر بيْنَ كثيرٍ مِن المُسلِمينَ التَّشاؤُمُ بيَومِ الأربِعاءِ، وأصلُ ذلك انجَرَّ لهم مِن عقائِدِ مَجوسِ الفُرسِ، ويُسَمُّونَ الأربِعاءَ الَّتي في آخِرِ الشَّهرِ: «الأربِعاءَ الَّتي لا تَدورُ» أي: لا تعودُ، أرادوا بهذا الوَصفِ ضبْطَ مَعنَى كَونِها آخِرَ الشَّهرِ؛ لئَلَّا يُظَنَّ أنَّه جَميعُ النِّصفِ الأخيرِ منه، وإلَّا فأيَّةُ مُناسَبةٍ بيْن عَدَمِ الدَّورانِ وبيْن الشُّؤمِ؟! وما مِن يَومٍ إلَّا وهو يقَعُ في الأُسبوعِ الأخيرِ مِنَ الشَّهرِ، ولا يدورُ في ذلك الشَّهرِ[1]! فسُعُودُ الأيَّامِ ونُحوسُها إنَّما هو بسُعُودِ الأعمالِ ومُوافَقتِها لِمَرضاةِ الرَّبِّ تعالى، ونُحوسُ الأعمالِ مُخالَفتُها لِمَا جاءتْ به الرُّسُلُ، واليومُ الواحِدُ يكونُ يومَ سَعدٍ لطائفةٍ، ونَحْسٍ لطائفةٍ، كما كان يَومُ بدرٍ يومَ سَعْدٍ للمُؤمِنينَ، ويَومَ نَحْسٍ على الكافِرينَ[2]، فمَن أرادَ أنْ يعرِفَ النَّحسَ والشُّؤمَ والنَّكدَ والبَلاءَ والشَّقاءَ على الحقيقةِ، فليتحقَّقْ أنَّ ذلك كلَّه في معصيةِ الله، وعدمِ امتثالِ أمرِه[3].

٤- دَلَّ قَولُه تعالى: ﴿نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ على أنَّه سُبحانَه أبادهم؛ إذ لو نَجَوا لَما كان النَّحسُ مُستَمِرًّا[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ أنَّ الرِّيحَ تَنزِعُهم بعُنفٍ كأنَّهم أعجازُ نَخلٍ مُنقَعِرٍ، فيَنقَعِرونَ! وهذا إشارةٌ إلى عِظَمِ أجسادِهم، أو إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٤).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٣).

ثَباتِهم في الأرضِ، فكأنَّهم كانوا يَجعَلونَ أرجُلَهم في الأرضِ، ويَقصِدونَ المَنْعَ به على الرِّيحِ[١]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ لطيفةٌ: في أنَّه لو قال القائلُ: أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ «النُّذُر» في هذا الموضِعِ جَمعُ «نَذيرٍ» الَّذي هو مَصدَرٌ معناه: «إنذارٌ»، فما الحِكمةُ في توحيدِ العَذابِ؛ حيثُ لم يَقُلْ: «فكيف كان أنواعُ عذابي، ووَبالُ إنذاري»؟

**الجوابُ**: فيه إشارةٌ إلى غَلَبةِ الرَّحمةِ للغَضَبِ؛ وذلك لأنَّ الإنذارَ إشفاقٌ ورَحمةٌ، فقال: الإنذاراتُ الَّتي هي نِعَمٌ ورَحمةٌ تواتَرَت، فلمَّا لم تَنفَعْ وَقَع العذابُ دَفعةً واحِدةً؛ فكانت النِّعَمُ كَثيرةً، والنِّقمةُ واحِدةً[٢].

٧- يُستفادُ مِن تَكرارِ قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فائِدتانِ:

**الأُولى**: رَحمةُ اللهِ بعِبادِه، وعِنايتُه بهم؛ حيث دعاهم إلى ما يُصلِحُ دُنياهم وأُخراهم[٣].

**الثَّانيةُ**: الإيذانُ بأنَّ تيسيرَ القُرآنِ -مع إعجازِه- لا يكونُ إلَّا بعَظَمةٍ تَفُوتُ قُوى البَشَرِ، وتَعجِزُ عنها منهم القُدَرُ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مَوقعُ هذه الجُملةِ كمَوقعِ جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ [القمر: ٩]؛ فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ تُعطَفَ عليها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١١٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٤٧).

وإنَّما فُصِلَتْ عنها؛ ليَكونَ في الكلام تَكريرُ التَّوبيخ والتَّهديدِ والنَّعْيِ عليهم عقِبَ قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤، ٥]، ومَقامُ التَّوبيخِ والنَّعْيِ يَقْتضي التَّكريرَ(١).

- قولُه: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ أي: كذَّبَت رَسولَها هودًا عليه السَّلامُ، ولم يُتعرَّضْ لكَيفيَّةِ تَكذيبِهم له؛ رَوْمًا للاختِصارِ، ومُسارَعةً إلى بَيانِ ما فيه الازدجارُ(٢).

- وفي مَفعولِ ﴿كَذَّبَتْ﴾ المَحذوفِ إشعارٌ برَسولِهم الَّذي كذَّبوه، وبعْثُ الرَّسولِ وتَكذيبُهم إيَّاه يَتضمَّنُ الإنذارَ؛ لأنَّهم لَمَّا كذَّبوه حقَّ عليه إنذارُهم(٣).

- والحُكْمُ على عادٍ بالتَّكذيبِ عُمومٌ عُرْفيٌّ، بِناءً على أنَّ مُعظَمَهم كذَّبوه، وما آمَنَ به إلَّا نفَرٌ قليلٌ؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾(٤) [هود: ٥٨].

- ولَمَّا كانت عادٌ عَلَمًا لقَومِ هُودٍ، ذُكِرَ العَلَمُ؛ لأنَّه أبلَغُ في الذِّكرِ مِن التَّعريفِ بالإضافةِ(٥).

- وفُرِّعَ على التَّذكيرِ بتَكذيبِ عادٍ قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ قبْلَ أنْ يُذكَرَ في الكلامِ ما يُشعِرُ بأنَّ اللهَ عذَّبَهم، فضْلًا عن وصْفِ عَذابِهم، فالاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّشويقِ للخبَرِ الواردِ بعْدَه؛ لأنَّ الاستِفهامَ يَستلزِمُ طلَبَ الجوابِ، والجوابُ يَتوقَّفُ على صِفةِ العَذابِ، وهي لَمَّا تُذكَرْ. وهو أيضًا مُكنًّى به عن تَهويلِ ذلك العذابِ. وفي هذا الاستِفهامِ إجمالٌ لحالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١).

العَذابِ، وهو إجمالٌ يَزيدُ التَّشويقَ إلى ما يُبيِّنُه بعْدَه مِن قولِه: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا ﴾ الآيةَ[١].

- قولُه: ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ قيل: هو لتَوجيهِ قُلوبِ السَّامِعينَ نحْوَ الإصْغاءِ إلى ما يُلْقى إليهم قبْلَ ذِكرِه، لا لتَهويلِه وتَعظيمِه وتَعجيبِهم مِن حالِه بعْدَ بَيانِه كما قَبْلَه وما بَعْدَه؛ كأنَّه قِيلَ: كذَّبتْ عادٌ، فهلْ سمِعْتُم -أو فاسْمَعُوا- كيفَ كان عذابي وإنْذاراتي لهم[٢]؟ وقيل: هو للتَّهويلِ؛ لغَرابةِ ما عُذِّبوا به مِن الرِّيحِ، وانفِرادِه بهذا النَّوعِ مِن العَذابِ[٣].

- وهذه ليست تكريرًا لنَظيرِها السَّابِقِ في خَبَرِ قَومِ نُوحٍ، ولا اللَّاحِقِ في آخِرِ قِصَّةِ عادٍ؛ للاختِلافِ بيْنَ مُفادِها ومُفادِ مُماثِلَتِها وإن اتَّحَدَت ألفاظُهما. والبَليغُ يَتفَطَّنُ للتَّغايُرِ بيْنَهما فيَصرِفُه عن توَهُّمِ أن تكونَ هذه تكريرًا؛ فإنَّه لَمَّا لم يَسبِقْ وصْفُ عذابِ عادٍ، لم يَستَقِمْ أن يكونَ قَولُه: ﴿ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي ﴾ تعجيبًا مِن حالةِ عَذابِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَنُذُرِ﴾ عطْفٌ على ﴿عَذَابِي﴾ بتَقديرِ مُضافٍ دلَّ عليه المَقامُ، والتَّقديرُ: وعاقِبةُ نُذُري، أي: إنْذاراتي لهم، أي: كيف كان تَحقيقُ الوعيدِ الَّذي أنْذَرَهم، وهو مَوعِظةٌ مِن تَحقُّقِ وَعيدِ اللهِ إيَّاهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٨٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١، ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واستدلَّ أبو الحسنِ المجاشِعيُّ على أنَّ الواوَ لا تقتضي الترتيبَ بهذه الآيةِ، قال: (والنُّذُرُ قبلَ العذابِ). ((النكت)) (ص: ١٨٠).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ بَيانٌ للإجمالِ الَّذي في قولِه: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وهو في صُورةِ جَوابٍ للاستِفهامِ الصُّوريِّ، وكِلْتا الجُملتينِ يُفيدُ تَعريضًا بتَهديدِ المُشرِكين بعَذابٍ على تَكذيبِهم، وجُملةُ البَيانِ إنَّما تَصِفُ حالَ العَذابِ دونَ حالِ الإنذارِ، أو حالِ رَسولِهم، وهو اكتِفاءٌ[1]؛ لأنَّ التَّكذيبَ يَتضمَّنُ مَجيءَ نَذيرٍ إليهم[2].

- وتَعديةُ إرسالِ الرِّيحِ إلى ضَميرِهم هي كإسنادِ التَّكذيبِ إليهم؛ بِناءً على الغالِبِ، وقد أنْجَى اللهُ هودًا والَّذين معه، أو هو عائدٌ إلى المُكذِّبين، بقَرينةِ قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾[3] [القمر: ١٨].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾، وفي (الذَّارياتِ) قال: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، فعرَّفَ الرِّيحَ هناك، ونكَّرَها هاهنا؛ قيل: وَجْهُ ذلك: أنَّ العُقْمَ في الرِّيحِ أظهَرُ مِن البَرْدِ الَّذي يَضُرُّ النَّباتَ، أو الشِّدَّةِ الَّتي تَعصِفُ الأشجارَ؛ لأنَّ الرِّيحَ العقيمَ هي الَّتي لا تُنشِئُ سَحابًا، ولا تُلقِّحُ شَجَرًا -وهي كَثيرةُ الوُقوعِ-؛ وأمَّا الرِّيحُ المُهلِكةُ الباردةُ فقَلَّما تُوجَدُ؛ فقال: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾، أي: هذا الجِنسَ المعروفَ، ثمَّ زادَهُ

---

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بَيانًا بقولِه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، فتَميَّزَت عن الرِّيحِ العقيمِ، وأمَّا الصَّرصرُ فقَليلةُ الوُقوعِ، فلا تَكونُ مَشهورةً؛ فنكَّرَها[١].

- وأيضًا قال تعالَى هنا: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، وقال في سُورةِ (فُصِّلت): ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ [فصلت: ١٦]، وقال في (الحاقةِ): ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ المُرادَ مِن اليَومِ هنا الوقتُ والزَّمانُ، كما في قولِه: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]، وقولُه: ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ يُفيدُ ما يُفيدُه «الأيَّام»؛ لأنَّ الاستِمرارَ يُنبِئُ عن امتِدادِ الزَّمانِ كما تُنبِئُ عنه الأيَّامُ، والحكايةُ هنا مَذكورةٌ على سَبيلِ الاختِصارِ؛ فذُكِرَ الزَّمانُ، ولم يُذكَرْ مِقدارُه على سَبيلِ الإيجازِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾

- قولُه: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ صِفةً للرِّيحِ، وأنْ يكونَ حالًا منها؛ لأنَّها وُصِفَت فقَرُبَت مِن المعْرفةِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿تَنزِعُ﴾ مُستأنَفًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ؛ وذلك لإفادةِ العُمومِ، أي: إنَّ النَّزْعَ يعُمُّ الذُّكورَ والإناثَ جَميعًا، وإلَّا فالأصلُ: تَنزِعُهم[٤].

- في قولِه: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ شبَّهَهم بأعجازِ النَّخلِ المُنقَعِرِ؛ إذ تَساقَطوا على الأرضِ أمواتًا، وهم جُثَثٌ عِظامٌ طِوالٌ، والأعجازُ: الأصولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨١).

بلا فُروعٍ قد انقلَعَت مِن مَغارِسِها. وقيل: كانتِ الرِّيحُ تَقطَعُ رُؤوسَهم، فتَبْقَى أجسادًا بلا رُؤوسٍ، فأَشْبَهَت أعجازَ النَّخلِ الَّتي انقلَعَتْ مِن مَغرِسِها[1].

- ومُنقعِرٌ: وصْفُ النَّخلِ، رُوعِيَ في إفرادِه وتَذكيرِه صُورةُ لَفظِ (نخْل) دونَ عدَدِ مَدلولِه، خِلافًا لِما في قولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، وقولِه: ﴿وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾[2] [الرحمن: ١١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تَعالى هاهنا: ﴿مُنقَعِرٍ﴾، فذكَّرَ النَّخلَ، وقال في (الحاقةِ): ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، فأنَّثَها؛ ووَجْهُ ذلك أمْرانِ:

**الأوَّلُ**: في تلك السُّورةِ كانتْ أواخرُ الآياتِ تَقْتضي ذلك؛ لقولِه: ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ و﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ و﴿مُّنتَشِرٌ﴾؛ فإنَّ الكلامَ كما يُزيَّنُ بحُسْنِ المعْنى يُزيَّنُ بحُسْنِ اللَّفظِ.

**الثَّاني**: أنَّ «النَّخلَ» لَفظُه لَفظُ الواحدِ -كالبَقلِ والنَّملِ- ومعْناهُ معْنى الجَمْعِ؛ فيَجوزُ أنْ يُقالَ فيه: نَخْلٌ مُنقَعِرٌ، ومُنقَعِرةٌ، ومُنقَعِراتٌ، ونخْلٌ خاوٍ، وخاويةٌ، وخاوياتٌ، ونخْلٌ باسِقٌ، وباسِقةٌ، وباسِقاتٌ.

فإذا قال قائلٌ: «مُنقعِرٌ، أو: خاوٍ، أو: باسقٌ»؛ جرَّدَ النَّظرَ إلى اللَّفظِ، ولم يُراعِ جانبَ المعْنى، وإذا قال: «مُنقعِراتٌ، أو: خاوياتٌ، أو: باسِقاتٌ»؛ جرَّدَ النَّظرَ إلى المعْنى، ولم يُراعِ جانبَ اللَّفظِ، وإذا قال: «مُنقعِرةٌ، أو: خاويةٌ، أو: باسقةٌ»؛ جمَعَ بيْنَ الاعتِبارينِ مِن حيثُ وَحْدةُ اللَّفظِ، ورُبَّما قال: «مُنقَعِرةٌ» -على الإفرادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨١).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٧١ - ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٤).

مِن حيث اللَّفظُ- وألْحَقَ به تاءَ التَّأنيثِ الَّتي في الجَماعةِ. إذا تقرَّرَ هذا، فنقولُ: ذكَرَ اللهُ تَعالى لَفظَ «النَّخلِ» في مَواضِعَ ثلاثةٍ، ووَصَفها على الوُجوهِ الثَّلاثةِ؛ فقال: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ [ق: ١٠]؛ فإنَّها حالٌ منها وهي كالوصْفِ، وقال: ﴿نَخۡلٖ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧]، وقال: ﴿نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾، فحيثُ قال: ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ كان المختارُ ذلك؛ لأنَّ «المُنقعِرَ» في حَقيقةِ الأمرِ كالمفعولِ؛ لأنَّ الَّذي وَرَدَ عليه القعرُ فهو مَقعورٌ، والخاوِ والباسِقُ فاعلٌ، ومعناهُ إخلاءُ ما هو مَفعولٌ مِن عَلامةِ التَّأنيثِ أوَّلًا، كما تقولُ: امرأةٌ كفيلٌ، وامرأةٌ كَفيلةٌ، وامرأةٌ كبيرٌ، وامرأةٌ كبيرةٌ. وأمَّا «الباسِقاتُ» فهي فاعِلاتٌ حقيقةً؛ لأنَّ البُسوقَ أمْرٌ قام بها. وأمَّا «الخاويةُ» فهي مِن بابِ «حسن الوجْه»؛ لأنَّ الخاويَ مَوضِعُها؛ فكأنَّه قال: «نخْلٌ خاويةُ المَواضِعِ»، وهذا غايةُ الإعجازِ؛ حيثُ أتَى بلَفظٍ مُناسِبٍ للألفاظِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ مِن حيثُ اللَّفظُ؛ فكان الدَّليلُ يَقْتضي ذلك، وهذا بخِلافِ الشَّاعرِ الَّذي يَختارُ اللَّفظَ على المذهبِ الضَّعيفِ مِن أجْلِ الوزنِ والقافيةِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

- في إعادةِ ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في قصَّةِ عادٍ عدَّةُ أوجُهٍ:

منها: أنَّ الأوَّلَ لتَحذيرِهم قبْلَ إهلاكِهم، والثَّاني لتَحذيرِ غَيرِهم بهم بعْدَ هَلاكِهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠٤).

وقدْ قال القُرطبيُّ في ((تفسيره)) (١٧/ ١٣٧): (وقال أبو بَكرِ بنُ الأنباريِّ: سُئِلَ المُبَرِّدُ بحَضرةِ إسماعيلَ القاضي عن ألْفِ مَسألةٍ، هذه مِن جُملتِها، فقيل له: ما الفرقُ بيْنَ قولِه تعالَى: ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ﴾ [الأنبياء: ٨١] و﴿جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ [يونس: ٢٢]، وقولِه: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ خَاوِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٧] و﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ٢٠]؟ فقال: كلَّما ورَدَ عليك مِن هذا البابِ، فإنْ شِئتَ رَدَدْتَه إلى اللَّفظِ تذكيرًا، أو إلى المعنَى تأنيثًا).

(٢) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٠).

ومنها: أنَّ الأوَّلَ سُؤالٌ؛ كقولِ المعلِّمِ للمُتعلِّمِ: كيفَ المسألةُ الفُلانيَّةُ؟ ثُمَّ بيَّنَ فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا﴾، وأمَّا في المَرَّةِ الثَّانيةِ فاستَفهَم للتَّعظيمِ والتَّهويلِ، كما يقولُ القائلُ للعارفِ المشاهِدِ: كيف فَعلتُ وصَنعتُ؟ فيقولُ: نِعْمَ ما فَعلْتَ، ويقولُ: أتيْتُ بعَجيبةٍ، فيُحقِّقُ عَظَمةَ الفِعلِ بالاستِفهامِ[1].

ومنها: تَكرَّرَ التَّهويلُ بالاستِفهامِ قبْلَ ذِكرِ ما حلَّ بهم وبَعْدَه؛ لغَرابةِ ما عُذِّبوا به مِن الرِّيحِ، وانفِرادِهِم بهذا النَّوعِ مِن العذابِ، ولأنَّ الاختصارَ داعيةُ الاعتبارِ والتَّدبُّرِ[2].

ومنها: أنَّ مَقامَ التَّهويلِ والتَّهديدِ يَقْتضي تَكريرَ ما يُفِيدُهما[3].

- و(كيف) هنا استِفهامٌ عن حالةِ العَذابِ المَوصوفةِ في قولِه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ إلى ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ [القمر: ١٩، ٢٠]، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٥).

## الآيات (٢٢-٣٢)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ
ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟
ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟
صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟
كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَسُعُرٍ﴾: أي: شَقاءٍ وعَناءٍ وعَذابٍ، أو جُنُونٍ؛ مِن قَولِهم: ناقةٌ مَسعورةٌ: إذا كانت كأنَّ بها جُنونًا، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ شَيءٍ واتِّقادِه[1].

﴿أَشِرٌ﴾: أي: مُتكَبِّرٌ بَطِرٌ يُريدُ أن يَتعظَّمَ علينا بالنُّبُوَّةِ. والأَشَرُ: المَرَحُ والتَّجَبُّرُ والكِبرياءُ، وأصلُ (أشر): يدُلُّ على الحِدَّةِ[2].

﴿فِتْنَةً﴾: أي: اختِبارًا، وابتِلاءً، وامتِحانًا، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ[3].

﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾: أي: فانتَظِرْهم وتَبصَّرْ ما هم صانِعوه، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩ - ١٤٠).

انتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ[١].

﴿شِرْبٍ﴾: أي: نصيبٍ وحظٍّ مِن المَاءِ[٢].

﴿مُّحْتَضَرٌ﴾: أي: محضورٌ مَشهودٌ، وأصلُ (حضر): يدُلُّ على الوُرودِ والمُشاهَدةِ[٣].

﴿فَتَعَاطَىٰ﴾: أي: فتَناوَلَ النَّاقةَ؛ مِنَ العَطوِ: وهو التَّناوُلُ باليَدِ، وأصلُ (عطو): يدُلُّ على أخذٍ ومُناوَلةٍ[٤].

﴿فَعَقَرَ﴾: أي: قَتَل ونَحَر، وأصلُ (عقر) هنا: يدُلُّ على جَرحٍ[٥].

﴿صَيْحَةً﴾: الصَّيحةُ: المرَّةُ مِن الصَّوتِ الشَّديدِ، المُزعِجِ المُهلِكِ، وأصلُ (صيح): يدُلُّ على الصَّوتِ العالي[٦].

﴿كَهَشِيمِ﴾: الهشيمُ: هو ما يَبِسَ مِنَ الوَرَقِ وتكَسَّرَ وتحطَّمَ، وأصلُ (هشم):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٦٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١).

(٦) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٢).

يدُلُّ على الكَسرِ[١].

﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: أي: صاحِبِ الحَظيرةِ؛ يُقالُ: احتَظَر على نَعَمِه وحَظَر: إذا جَمَع الشَّجَرَ ووَضَع بَعضَه فَوقَ بَعضٍ؛ لِيَمنَعَ بَرْدَ الرِّيحِ عن النَّعَمِ، وأصلُ (حظر): يدُلُّ على المَنعِ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا موقفَ ثَمُودَ مِن نبيِّهم صالحٍ عليه السَّلامُ: كذَّبت ثَمُودُ -قَومُ صالحٍ- بنُذُرِ اللهِ الَّتي تُنذِرُهم عَذابَه! فقالوا: أَبَشَرًا مِثلَنا واحِدًا نتَّبِعُه؟ إنَّا إنِ اتَّبَعْناه لَفِي ذَهابٍ عن الحقِّ والصَّوابِ، وفي شَقاءٍ وعَذابٍ. أأُنزِلَ الوَحيُ عليه مِن بَيْنِنا؟! كيف يكونُ ذلك؟ بل هو كذَّابٌ مُتجَبِّرٌ مُتكَبِّرٌ مُعجَبٌ بنَفْسِه. فقال اللهُ تعالى ردًّا عليهم، ومهدِّدًا لهم: سيَعلَمونَ قَريبًا: مَنِ الكَذَّابُ المُتجَبِّرُ المُتكَبِّرُ؟!

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما اختَبر به قومَ صالحٍ، وما أمَر به نبيَّه صالحًا عليه السَّلامُ، فيقولُ: إنَّا مُرسِلو النَّاقةِ؛ اختِبارًا لِثَمودَ، فترَقَّبْهم -يا صالِحُ- وانظُرْ ماذا يَصنَعون، واصبِرْ عليهم صَبرًا بالِغًا، وأخبِرْهم أنَّ ماءَ القَريةِ مَقسومٌ بَيْنَهم وبيْنَ النَّاقةِ؛ فلَها يَومٌ تَشرَبُ فيه مِن ذلك الماءِ، ولهم يومٌ يَشرَبونَ فيه مِنه، كُلُّ شِربٍ مَحضورٌ مَشهودٌ؛ فإذا كان يومُ النَّاقةِ حَضَرت نصيبَها مِن الماءِ، وإذا كان يومُ ثَمودَ حَضَروا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٠، ٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩).

نصيبَهم مِن الماءِ.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما كان مِن ثمودَ واتِّفاقِهم على قتلِ النَّاقةِ: فنادى كُفَّارُ ثَمودَ صاحِبَهم وأشقاهم، فنَحَرَ النَّاقةَ، فكيف كان عذابي لِثَمودَ؟ وكيف كان إنذاري بتلك العُقوبةِ مَن نَهَج نَهْجَهم؟!

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى ما حلَّ بهم مِن عذابٍ، فيقولُ: إنَّا أرسَلْنا على ثمودَ صيَحةً واحِدةً عَظيمةً، فأهلَكَتْهم! فصاروا كحُطامِ النَّباتِ المتفَتِّتِ الَّذي يجمعُه مَن يَصنعُ الحظيرةَ.

ثمَّ يختِمُ الله سبحانَه هذه القصَّةَ بما ختَم به القصَّتينِ السَّابقتَينِ، فيقولُ: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، والاتِّعاظِ، فهل مِن مُتذَكِّرٍ؟

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا انقَضَت قِصَّةُ عادٍ؛ ذَكَر تعالى قِصَّةَ ثَمودَ؛ لأنَّها تلي قِصَّةَ عادٍ في الفَظاعةِ، فقال تعالى[1]:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: كذَّبت قَبيلةُ ثَمُودَ -قَومِ صالحٍ- بما جاءَهم مِنَ اللهِ مِن النُّذرِ الَّتي تُنذِرُهم عَذابَه[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٥، ١٩٦).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ هم قومُ صالحٍ، كَذَّبوا الرُّسُلَ ونَبيَّهم، أو كذَّبوا بالآياتِ الَّتي هي النُّذُرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥١).

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ ﴾.

﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ ﴾.

أي: فقال كُفَّارُ ثَمُودَ: هو آدَميٌّ مِثلُنا، ورَجُلٌ واحِدٌ فحَسْبُ، فكيف نتَّبِعُه[1]؟

﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾.

أي: إنَّا إنِ اتَّبَعْناه لَفي ذَهابٍ عن الحقِّ والصَّوابِ، وفي شَقاءٍ وعَذابٍ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦).

قال ابنُ عاشور: (وَصْفُ «بَشَرًا» بـ ﴿وَٰحِدٗا﴾: إمَّا بمعنى أنَّه مُنفَرِدٌ في دَعوتِه، لا أتْباعَ له ولا نُصَراءَ، وإمَّا بمعنى أنَّه مِن جملةِ آحادِ النَّاسِ، أي: ليس مِن أفضَلِنا، وإمَّا بمعنى أنَّه مُنفَرِدٌ في ادِّعاءِ الرِّسالةِ، لا سلَفَ له). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٩).

قيل: السُّعُرُ: بمعنى: العَناءِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والسَّمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والحسَنُ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٧٩).

وقيل: السُّعُرُ هنا: الجُنونُ. ومِمَّن ذهب إلى ذلك: الزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٠٧).

قال ابن عطيَّة: (﴿وَسُعُرٍ﴾ معناه: في احتِراقِ أنفُسٍ واستِعارِها حَنَقًا وهَمًّا باتِّباعِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٧).

﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾.

أي: وقالوا: أأُنزِلَ الوَحيُ على هذا الرَّجُلِ فاختُصَّ بالنُّبُوَّةِ مِن بَيْنِنا؟! كيف يكونُ ذلك؟ وأيُّ مَزيَّةٍ له علينا حتَّى يَستَحِقَّ ذلك[1]؟!

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾.

أي: وقالوا: لمْ يختَصَّ اللهُ صالِحًا بالوَحيِ والنُّبُوَّةِ، وإنَّما هو امرُؤٌ كَذَّابٌ، كَثيرُ المَرَحِ والتَّجَبُّرِ والتَّكبُّرِ، فهو مُعجَبٌ بنَفْسِه، مُدَّعٍ ما ليس له[2]!

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: سيَعلَمونَ قَريبًا حينَ يأتيهم العَذابُ: مَنِ الكَذَّابُ، الكَثيرُ المَرَحِ والتَّجَبُّرِ والتكَبُّرِ: أصالِحٌ أم قَومُه[3]؟!

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ ﴾.

أي: إنَّا باعِثُو النَّاقةِ؛ اختِبارًا وامتِحانًا لِثَمودَ؛ فإمَّا أن يُؤمِنوا باللهِ ويتَّبِعوا نَبيَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٨).
قال القرطبي: (﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا ﴾ أي: سيَرَونَ العَذابَ يومَ القيامةِ، أو في حالِ نُزولِ العَذابِ بهم في الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٩).

صالِحًا، أو يُكَذِّبوه ويَكفُروا باللهِ تعالى[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود: ٦٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾.

أي: فترقَّبْ -يا صالِحُ- وانظُرْ ما يَحصُلُ لهم مِنَ الفِتنةِ عندَ ظُهورِ النَّاقةِ، وما هم صانِعوه فيها، واصبِرْ عليهم صَبرًا قَويًّا بالِغًا[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٧٩).

قال السعدي: (أرسَل اللهُ النَّاقةَ الَّتي هي مِن أكبَرِ النِّعَمِ عليهم، آيةً مِن آياتِ الله، ونعمةً يَحتلِبون مِن ضَرْعِها ما يكفيهم أجمَعينَ، ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: اختِبارًا منه لهم وامتِحانًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

وقال الشنقيطي: (﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أي: ابتِلاءً واختِبارًا، وهو مفعولٌ مِن أجْلِه؛ لأنَّهم اقترَحوا على صالحٍ إخراجَ ناقةٍ مِن صخرةٍ، وأنَّها إن خرجتْ لهم منها آمَنوا به واتَّبَعوه، فأخرَج اللهُ النَّاقةَ مِن تلك الصَّخرةِ مُعجِزةً لصالحٍ، وفِتْنةً لهم، أي: ابتِلاءً واختِبارًا؛ وذلك أنَّ تلك النَّاقةَ مُعجِزةٌ عايَنوها، وأنَّ اللهَ حذَّرهم على لسانِ نبيِّه صالحٍ مِن أن يَمَسُّوها بسوءٍ، وأنَّهم إن تعرَّضوا لها بأذًى أخَذَهم اللهُ بعذابِه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٧٩). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

قال ابن عاشور: (الارتقابُ: الانتظارُ... والمعنى: فارتقِبْ ما يحصُلُ لهم مِن الفتنةِ عندَ ظهورِ النَّاقةِ. والاصطبارُ: الصَّبرُ القويُّ... أي: اصبِرْ صبرًا لا يَعتريه مللٌ ولا ضجَرٌ، أي: اصبِرْ على =

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ﴾.

أي: وأخبِرْهم أنَّ ماءَ القَريةِ مَقسومٌ بَيْنَهم وبيْنَ النَّاقةِ؛ فلَها يَومٌ تَشرَبُ فيه مِن ذلك الماءِ، ولهم يومٌ يَشرَبونَ فيه مِنه[1].

كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾.

أي: إذا كان يومُ النَّاقةِ حَضَرت نصيبَها مِن الماءِ، وإذا كان يومُ ثَمودَ حَضَروا نصيبَهم مِن الماءِ[2].

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾.

---

= تكذيبِهم، ولا تيأسْ مِن النَّصرِ عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٠، ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٠٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٠).

قال ابنُ عاشور: (هذا مِن جملةِ ما أُمِرَ رَسولُهم بأن يُنَبِّئَهم به، أي: لا يَحضُرِ القَومُ في يَومِ شِرْبِ النَّاقةِ، وهي بإلهامِ اللهِ لا تَحضُرُ في أيَّامِ شِرْبِ القَومِ، والشِّرْبُ -بكَسرِ الشِّينِ-: نَوبةُ الاستِقاءِ مِن الماءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

وقيل: المعنى: أنَّ ثمودَ يَحضُرونَ في يَومِهم إذا غابت النَّاقةُ فيَشرَبونَ مِن الماءِ، ويَحضُرونَ في يومِ النَّاقةِ فيَشرَبونَ مِن لَبَنِها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، وممَّن قال به مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣).

أي: فنادى كُفَّارُ ثَمودَ صاحِبَهم وأشقاهم لِعَقرِ النَّاقةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢].

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾.

أي: فباشَرَ قَتْلَها بنَفْسِه[٢].

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٠﴾.

أي: فكيف كان عَذابي لِثَمودَ على كُفرِهم؟ وكيف كان إنذاري بتلك العُقوبةِ للكُفَّارِ مِن غَيرِهم؛ لِيَحذَروا أن يَحُلَّ بهم العَذابُ[٣]؟

ثُمَّ بَيَّن الله تعالى ما أجْمَله مِن العذابِ، فقالَ[٤]:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ٣١﴾.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾.

أي: إنَّا أرسَلْنا على ثمودَ صيَحةً واحِدةً عَظيمةً، فأهلَكَتْهم[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧).

قال ابنُ كثير: (قال المفسِّرون: هو عاقِرُ النَّاقةِ، واسمُه قُدارُ بنُ سالفٍ، وكان أشقى قَومِه!). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩).

قال ابنُ عاشور: (العَقرُ: أصلُه: ضَربُ البَعيرِ بالسَّيفِ على عراقيبِه؛ لِيَسقُطَ إلى الأرضِ جاثيًا، فيتَمكَّنَ النَّاحِرُ مِن نَحْرِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٩، ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - =

كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾.

أي: فصاروا كحُطامِ النَّباتِ وما تكَسَّرَ مِنَ الشَّجَرِ اليابِسِ الَّذي يجمعُه مَن يصنعُ الحظيرةَ(١).

---

= الحديد)) (ص: ٢٨٣).

وقد ذهب مقاتلُ بنُ سُليمانَ، والزمخشريُّ، والقرطبيُّ: إلى أنَّ الصَّيحةَ كانت صادِرةً مِن جِبريلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. يُنظر: ((مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٢).

وقال الواحدي: (يعني: الصَّاعِقةَ الَّتي أخذَتْهم، وهي مذكورةٌ في مواضِعَ مِن التَّنزيلِ. وقال عَطاءٌ: يُريدُ صَيحةَ جِبريلَ). ((البسيط)) (٢١/ ١١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢، ٢٠٣).

قال القاسمي: (﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أي: كالشَّجرِ اليابسِ المُتكسِّرِ، الَّذي يتَّخِذُه مَن يَعملُ الحَظيرةَ للغنَمِ ونحوِها. أو كالحشيشِ اليابسِ الَّذي يَجمَعُه صاحبُ الحظيرةِ لماشيتِه في الشِّتاءِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٩٣).

والمُحتَظِرُ: قيل: هو صاحِبُ الحَظيرةِ، فكأنَّه يعني: صاحِبَ الغَنَمِ الَّذي يجمَعُ الحَشيشَ في الحظيرةِ لغَنَمِه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ قُتَيْبةَ، والألوسيُّ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٨٩).

وقيل: المُحتظِرُ: الَّذي يَعمَلُ الحَظيرةَ، وهي حائِطٌ مِن الأغصانِ أو القَصَبِ ونحوِ ذلك، وما يُحتظَرُ به يَيبَسُ بطُولِ الزَّمانِ، وتطَؤُه البهائمُ فيَتحطَّمُ ويَتهشَّمُ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، والزَّمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٨)، =

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

أي: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، وحُصولِ الفَهمِ والاتِّعاظِ به[1].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما في القُرآنِ[2]؟

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ تعالى قد يُظْهِرُ للإنسانِ مِن الآياتِ ما يُؤْمِنُ على مِثْلِه البشَرُ، حتَّى إذا استكبرَ كان استِكبارُه عن عِلْمٍ، فكان عِقابُه أشدَّ وأوجَعَ؛ ولهذا جَعَلَ اللهُ النَّاقةَ فِتنةً؛ لأنَّها أظهرَتِ الحقَّ لهم، ولكِنْ لم يَقبَلوه، وانتبِهْ لهذا الاستِدراجِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، إذا يَسَّرَ اللهُ

---

= ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٥).

قال السَّمينُ الحَلَبي: (أي: لَمَّا هَلَكوا صاروا مِثلَ حُطامِ النَّباتِ الَّذي يتَّخِذُه الرَّاعي حَظيرةً، في كَونِه هشيمًا مُتكَسِّرًا، ولله دَرُّ القُرآنِ! ما أبلَغَ تَشبيهاتِه!). ((عمدة الحفاظ)) (٤/ ٢٥٢).

وقال ابنُ عطية: (قرأ جمهورُ النَّاسِ: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بكَسرِ الظَّاءِ، ومعناه: الَّذي يَصنَعُ حَظيرةً؛ مِن الرِّعاءِ ونَحوِهم، قاله أبو إسحاقَ السَّبيعيُّ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، وهي مأخوذةٌ مِن الحَظْرِ، وهو المنعُ، والعرَبُ وأهلُ البوادي يَصنَعونَها للمَواشي وللسُّكنى أيضًا مِنَ الأغصانِ والشَّجَرِ المُورِقِ والقَصَبِ ونَحوِه، وهذا كُلُّه هَشيمٌ يَتفَتَّتُ إمَّا في أوَّلِ الصَّنعةِ، وإمَّا عندَ بِلَى الحَظيرةِ وتَساقُطِ أجزائِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣، ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

لك أسبابَ المعصيةِ فلا تَفعَلْ؛ فإنَّ اللهَ رُبَّما يُيَسِّرُ أسبابَ المعصيةِ للإنسانِ؛ فِتنةً له[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾ لم يَقُلْ: «فارتَقِبِ العذابَ»؛ إشارةً إلى حُسنِ الأدَبِ، والاجتِنابِ عن طَلَبِ الشَّرِّ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ قَولِه تعالى هنا: ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾، وفي قِصَّةِ عادٍ قال: ﴿كَذَّبَتۡ﴾ [القمر: ١٨] ولم يقُلْ: «بالنُّذُرِ»، وفي قِصَّةِ نوحٍ قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ [القمر: ٩]!

**الجوابُ**: أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ أنَّ عادتَهم ومَذهَبَهم إنكارُ الرُّسُلِ وتَكذيبُهم؛ فكَذَّبوا نُوحًا بِناءً على مذهبِهم، وإنَّما صَرَّح هاهنا؛ لأنَّ كلَّ قَومٍ يأتُونَ بعدَ قَومٍ، وأتاهما رَسولانِ، فالمكَذِّبُ المتأخِّرُ يُكَذِّبُ المُرسَلينَ جَميعًا حَقيقةً، والأوَّلونَ يُكَذِّبونَ رَسولًا واحِدًا حَقيقةً، ويَلزَمُهم تَكذيبُ مَن بَعْدَه بِناءً على ذلك؛ لأنَّهم لَمَّا كَذَّبوا مَن تقَدَّمَ في قَولِه: «اللهُ تعالى واحِدٌ، والحَشرُ كائِنٌ» ومَن أُرسِلَ بعْدَه كذلك في قَولِه ومَذْهَبِه- لَزِمَ منه أن يكَذِّبوه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ أنَّ المُشابَهةَ في البَشَريَّةِ لا تَستَلزِمُ عدَمَ التَّفاوُتِ في فَضلِ اللهِ تعالى! كما قال جَلَّ وعلا: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، وهذا كثيرٌ في القُرآنِ، وهذه الأقيسةُ فاسدةٌ[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ١٤٢).

٣- في قَولِه تعالى؛ إنكارًا على ثَمودَ: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾ حُجَّةٌ واضحةٌ في قَبولِ خبرِ الواحدِ العَدْلِ، ورَدٌّ على مَن يَرُدُّه؛ لأنَّ ثمودَ مع بشَريَّةِ صالحٍ أَنكَروا وَحْدَتَه، فكذَّبوه لذلك[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾ أنَّ هذا الكَلامَ مِن ضَلالِهم وشَقائِهم؛ فإنَّهم أَنِفُوا أن يتَّبِعوا رَسولًا مِنَ البَشَرِ، ولم يَأنَفوا أن يكونوا عابِدينَ للشَّجَرِ والحَجَرِ والصُّوَرِ[٢]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴾ أنَّ مِن مَدارِكِ عُقولِ الجَهَلةِ قِياسَ الأُمورِ بمقاييسِ قُصورِ أفهامِهم، ويَحسَبونَ أنَّ أسبابَ الأَثَرةِ في العاداتِ هي أسبابُها في الحقائِقِ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ ﴾ مع قَولِه عن مُشرِكي قُرَيشٍ: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١] فيه أنَّ قُلوبَ الكُفَّارِ مُتشابِهةٌ، فكانت أعمالُهم مُتشابِهةً، كما قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴾[٤] [الذاريات: ٥٣]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ ﴾ دَلالةٌ على جوازِ «المُهايَأةِ»[٥]

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١١٢).

(٥) المُهايَأةُ: هي أنْ يَتواضَعوا على أمرٍ فيَتَراضَوْا به، وحقيقَتُه أنَّ كلًّا منهم يرضَى بحالةٍ واحدةٍ ويختارُها. أو هي مُقاسَمةُ المنافِعِ، وهي أنْ يَتراضى الشَّريكانِ أنْ يَنتَفِعَ هذا بهذا النِّصفِ المُفْرَزِ، وذاك بذاك النِّصفِ، أو هذا بكلِّه في كذا مِن الزَّمانِ، وذاك بكُلِّه في كذا مِن الزَّمانِ بقَدرِ مُدَّةِ =

على الماءِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ دَليلٌ على أنَّ الماءَ مَقسومٌ بيْنَ النَّاسِ، ليس لأحدٍ أنْ يَنفَرِدَ به، ويَمنعَ غيرَه، فما كان مِن السَّماءِ والأنهارِ والعُيونِ فالقِسمةُ واقعةٌ عليه بالسَّوِيَّةِ، وما كان يَجري بالنَّفَقةِ والكُلْفةِ فهو لِمَن أجراه وأَنفقَ عليه؛ يَمنَعُه ممَّن أحَبَّ إلَّا الشَّفةَ[٢]، فلا يجوزُ مَنعُه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، إلَّا أنْ يُحرَزَ منه شَيءٌ في بيتٍ أو رَكْوةٍ أو آنيةٍ، أو ما أشْبَهَ ذلك[٣].

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ عاقرَ النَّاقةِ واحدٌ، وقد جاءتْ آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على كَونِه غيرَ واحدٍ، كقولِه: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ﴾ [الأعراف: ٧٧]، وقولِه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]؟

**والجوابُ مِن وجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّهم تَمالَؤوا كلُّهم على عَقْرِها، فانْبَعَث أشْقاهم لمُباشَرةِ الفِعلِ؛ فأُسنِدَ العقْرُ إليهم؛ لأنَّه برِضاهم ومُمالأتِهم. فثَمودُ اتَّفَقوا كلُّهم على عقْرِ الناقةِ، فنادَوا واحدًا منهم ليُنفِّذَ ما اتَّفَقوا عليه؛ أصالةً عن نفْسِه، ونِيابةً عن غيرِه. ومَعلومٌ أنَّ المُتمالئِينَ على العقْرِ كُلهم عاقِرون، وصحَّت نِسبةُ العقْرِ إلى المُنفِّذِ المباشِرِ للعقرِ، وصحَّت نِسبتُه أيضًا إلى الجميعِ؛ لأنَّهم مُتمالِئون، كما دلَّ عليه تَرتيبُ

---

= الأوَّلِ. يُنظر: ((طلبة الطلبة)) للنسفي (ص: ١٢٧)، ((المغرب في ترتيب المعرب)) للمُطَرِّزي (ص: ٥٠٩).

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٩٥)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٢).

(٢) الشَّفَةُ واحدةُ الشِّفاهِ، أصلُها شَفَهَةٌ، أُسقِطَت الهاءُ تَخفيفًا، والمرادُ الشُّرْبُ بالشِّفاهِ، وأهلُ الشَّفَةِ هم الَّذين لهم حَقُّ الشُّرْبِ بشِفاهِهم، وسَقْيُ دَوابِّهم والاستِقاءُ بالأوانِي، دونَ سقيِ الأراضي. يُنظر: ((طلبة الطلبة)) للنسفي (ص: ١٥٦)، ((العناية شرح الهداية)) للبابرتي (١٠/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٨).

تَعاطي العقْرِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ على نِدائِهم صاحبَهم؛ ليَنوبَ عنهم في مُباشَرةِ العقْرِ في قولِه تَعالى: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾، أي: نادَوه ليَعقِرَها.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّه مِن إسنادِ الفعلِ إلى المجموعِ مُرادًا به بَعضُه[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ مُناسَبةٌ في أخذِ ثَمودَ بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ؛ لأنَّهم نَادَوا صاحِبَهم ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾، فلمَّا كان نِداؤُهم صاحِبَهم سَبَبًا في عَقرِ النَّاقةِ، كان هَلاكُهم بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ[2]!

١١- عبَّر الله عزَّ وجلَّ عن الهلاكِ الَّذي أهلَك به ثمودَ بعِباراتٍ مُختلِفةٍ؛ فذكره في مَواضِعَ مِن كتابِه باسمِ الصَّيحةِ، ومِن ذلك قولُه هنا: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾.

وعبَّر عنه بالصَّاعِقةِ في مَواضِعَ مِن كتابِه، منها قولُه تعالى في سورةِ (الذَّارياتِ): ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ * فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤].

وعبَّر عنه بالرَّجْفةِ في سورةِ (الأعرافِ)، في قولِه تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

وعبَّر عنه بالتَّدميرِ في سورةِ (النَّملِ)، في قولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥١].

وعبَّر عنه بالطَّاغيةِ في (الحاقَّة)، في قولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٥٩).

وعبَّر عنه بالدَّمْدَمةِ في (الشَّمس)، في قولِه تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ [الشمس: ١٤].

وعبَّر عنه بالعذابِ في سورةِ (الشُّعَراء)، في قولِه تعالى: ﴿ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٧، ١٥٨].

ومعنى هذه العِباراتِ كلِّها راجعٌ إلى شيءٍ واحدٍ، وهو أنَّ اللهَ أرسَل عليهم صَيحةً أهلكَتْهم، والصَّيحةُ: الصَّوتُ المُزعِجُ المُهلِكُ. والصَّاعِقةُ تُطلَقُ أيضًا على الصَّوتِ المُزعِجِ المُهلِكِ، وعلى النَّارِ المُحرِقةِ، وعليهما معًا، ولِشِدَّةِ عظمِ الصَّيحةِ وهَوْلِها مِن فَوقِهم رجفَتْ بهم الأرضُ مِن تحتِهم، أي: تحرَّكَتْ حرَكةً قويَّةً، فاجتمَع فيها أنَّها صَيحةٌ وصاعِقةٌ ورَجْفةٌ، وكَوْنُ ذلك تدميرًا واضحٌ. والمرادُ بالصَّيحةِ: الطَّاغيةُ الَّتي أهلَكهم الله بها، وقيل لها طاغيةٌ؛ لأنَّها واقِعةٌ مُجاوِزةٌ للحدِّ في القوَّةِ وشدَّةِ الإهلاكِ.

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ ﴾ [الشمس: ١٤] فإنَّه لا يُخالِفُ ما ذكَرْنا؛ لأنَّ معنَى الآيةِ أنَّه أطبَق عليهم العذابَ، وألْبَسَهم إيَّاه بسببِ ذَنْبِهم.

وأمَّا إطلاقُ العذابِ عليه في سورةِ (الشُّعَراءِ) فواضِحٌ؛ فاتَّضَح رُجوعُ معنَى الآياتِ المذكورةِ إلى شَيءٍ واحدٍ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ * فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴾

- مَوقِعُ هذه الجُملةِ ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾ كمَوقِعِ جُملةِ ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ﴾

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢١-٢٣).

[القمر: ٩]؛ فكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ تُعطَفَ عليها، وإنَّما فُصِلَت عنها؛ ليَكونَ في الكلامِ تَكريرُ التَّوبيخِ والتَّهديدِ والنَّعْيِ عليهم عقِبَ قولِه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ [القمر: ٤، ٥]، ومَقامُ التَّوبيخِ والنَّعْيِ يَقْتضي التَّكريرَ(١).

- وإسنادُ حُكْمِ التَّكذيبِ إلى ثَمودَ -وهو اسمُ القَبيلةِ- مُعتبَرٌ فيه الغالبُ الكثيرُ؛ فإنَّ صالحًا قد آمَنَ به نفَرٌ قليلٌ، كما حَكاهُ اللهُ عنهم في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾(٢) [الأعراف: ٧٥، ٧٦].

- وفُرِّعَ على جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ قولُه: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ إلى قولِه: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾؛ لأنَّ المعنى: أنَّهم كذَّبوا إنذاراتِ رَسولِهم -أي: جَحَدوها- ثمَّ كذَّبوا رَسولَهم(٣).

- وقولُهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ...﴾ إلى آخِرِه، هذا القولُ يَقتَضي كَوْنَه جَوابًا عن دَعوةٍ وإنذارٍ، وإنَّما فُصِّلَ تَكذيبُ ثَمودَ وأُجمِلَ تَكذيبُ عادٍ؛ لقَصْدِ بَيانِ المُشابَهةِ بيْن تَكذيبِ ثَمودَ وتَكذيبِ قُريشٍ؛ إذ تَشابَهَت أقوالُهم(٤).

- وهذا قَولٌ قالوه لرَسولِهم لَمَّا أنْذَرَهم بالنُّذُرِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿كَذَّبَتْ﴾ يُؤْذِنُ بمُخبِرٍ؛ إذ التَّكذيبُ يَقْتضي وُجودَ مُخبِرٍ، وهو كلامٌ شافَهوا به صالحًا عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩١، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السَّلامُ، وهو الَّذي عَنَوه بقَولِهم: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا﴾ إلخ، وعَدَلوا عن الخِطابِ إلى الغَيبةِ(١).

- قولُه: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾، الاستفهامُ هنا إنكاريٌّ؛ أنْكَروا أنْ يُرسِلَ اللهُ إلى النَّاسِ بشَرًا مِثلَهم في الجِنسيَّةِ، وطَلَبوا أنْ يكونَ مِن جِنسٍ أعْلى مِن جِنسِ البشَرِ، وهم الملائكةُ(٢).

- وانتَصَب ﴿أَبَشَرًا﴾ على المَفعوليَّةِ لـ ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ على طَريقةِ الاشتِغالِ(٣)، وقُدِّمَ لاتِّصالِه بهَمزةِ الاستفهامِ؛ لأنَّ حقَّها التَّصديرُ، واتَّصَلت به دونَ أنْ تَدخُلَ على (نتَّبِع)؛ لأنَّ مَحلَّ الاستفهامِ الإنكاريِّ هو كَونُ البشَرِ مَتْبوعًا، لا اتِّباعُهم له، وهذا مِن دَقائقِ مَواقعِ أدواتِ الاستفهامِ(٤).

- قوله: ﴿وَٰحِدًا﴾ صِفةٌ أُخرى لـ (بَشَرًا)، وتأْخيرُه عن الصِّفةِ المُؤوَّلةِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ كلًّا مِن الجِنسيَّةِ والوَحدةِ ممَّا يَمنَعُ الاتِّباعَ، ولو قُدِّمَ عليها لَفاتتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦).

(٣) الاشتِغالُ: هو أن يتقَدَّمَ اسمٌ واحِدٌ، ويتأخَّرَ عنه عامِلٌ مُشتَغِلٌ عن العَمَلِ في ذلك الاسمِ بالعَمَلِ في ضَميرِه مُباشَرةً، أو في سَبَبِه -أي: كلِّ شَيءٍ له صِلةٌ وعَلاقةٌ به؛ مِن قَرابةٍ، أو صداقةٍ، أو عَمَلٍ-، بحيثُ لو فُرِّغ مِن ذلك المعمولِ وسُلِّطَ على الاسمِ المتقَدِّمِ، لعَمِلَ فيه النَّصبُ لَفظًا أو محَلًّا. وأركانُ الاشتِغالِ ثلاثةٌ؛ هي:

أ- مَشغولٌ عنه: وهو الاسمُ المتقَدِّمُ.

ب- مشغولٌ: وهو الفِعلُ المتأخِّرُ.

ج- ومَشغولٌ به: وهو الضَّميرُ الَّذي تعدَّى إليه الفِعلُ بنَفْسِه أو بالوَساطةِ. يُنظر: ((أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)) لابن هشام (٢/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٦).

هذه النُّكتةُ[١].

- جُملةُ ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ تَعليلٌ لإنكارِ أنْ يتَّبِعوا بشَرًا منهم، تَقديرُه: أَنتَّبِعُك وأنت بشَرٌ واحدٌ منَّا[٢]؟!

- و(في) للظَّرفيَّةِ، جَعَلوا تَلبُّسَهم بالضَّلالِ والجُنونِ كتَلبُّسِ المَظروفِ بالظَّرْفِ[٣].

- وجُملةُ ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ تَعليلٌ للاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: كيف يُلْقَى عليه الذِّكرُ دُونَنا؟! يُريدون أنَّ فيهم مَن هو أحقُّ منه بأنْ يُوحَى إليه[٤].

- وقولُه: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ إضرابٌ عمَّا أنْكَروه بقَولِهم: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾، أي: لم يَنزِلِ الذِّكرُ عليه مِن بيْنِنا، بلْ هو كذَّابٌ فيما ادَّعاهُ، بَطِرٌ مُتكبِّرٌ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: قُلْنا لنَذيرِهم... الَّذي دلَّ عليه قولُه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]؛ فإنَّ النُّذرَ تَقْتضي نَذيرًا بها، وهو المُناسِبُ لقولِه بعْدَه: ﴿فَأَرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ [القمر: ٢٧]، وذلك مَبْنيٌّ على أنَّ قولَه آنِفًا: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤] كَلامٌ أجابوا به نِذارةَ صالحٍ إيَّاهم المُقدَّرةَ مِن قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣]، وبذلك انتظَمَ الكلامُ أتمَّ انتِظامٍ[٦]؛ فقولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا ...﴾ حِكايةٌ لِما قالَهُ تعالَى لصالحٍ عليهِ السَّلامُ؛ وعْدًا له، ووَعيدًا لقَومِه، والسِّينُ لتَقريبِ مَضمونِ الجُملةِ وتأْكيدِه(١).

- قولُه: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ قُرِئَ بياءِ الغَيبةِ، وهو مِن إعلامِ اللهِ تعالى لصالحٍ عليه السَّلامُ. وعلى قِراءةِ ﴿سَتَعْلَمُونَ﴾ -بتاءِ الخِطابِ(٢)- فهي تَحتمِلُ أنْ يكونَ هذا حِكايةَ كَلامٍ مِن اللهِ لصالحٍ عليه السَّلامُ، على تَقديرِ: قُلْنا له: قُلْ لهم؛ ففيه حذْفُ قَولٍ. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ خِطابًا مِن اللهِ لهم، بتَقديرِ: قُلْنا لهم: ستَعْلَمون. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ خِطابًا للمُشرِكين على جعْلِ الجُملةِ مُعترِضةً(٣).

- وفي قولِه: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالإبهامِ؛ ليَكونَ الوَعيدُ أحفَلَ بالانتقامِ والتَّهديدِ، وأشدَّ أثَرًا في النُّفوسِ، وأَورَدَه مَورِدَ الإبهامِ وإنْ كانوا همُ المَعْنِيِّينَ؛ لأنَّه أراد وقْتَ الموتِ، ولم يُرِدْ غدًا بعَينِه(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ هذه الجُملةُ بَيانٌ لجُملةِ ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦]، باعتِبارِ ما تَضمَّنَته الجُملةُ المُبيَّنةُ مِن الوَعيدِ، وتَقريبِ زَمانِه، وأنَّ فيه تَصديقَ الرَّسولِ الَّذي كذَّبوه(٥).

- وضَميرُ ﴿لَّهُمْ﴾ جارٍ على مُقْتضَى الظَّاهرِ على قِراءةِ ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ بياءِ الغائبةِ. وعلى قِراءةِ ﴿سَتَعْلَمُونَ﴾ -بتاءِ الخِطابِ- فضَميرُ ﴿لَّهُمْ﴾ الْتِفاتٌ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧١).

(٢) وهي قراءةُ ابنِ عامرٍ، وحمزةَ، وقرأ الباقون ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٧، ٤٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٩).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وإرسالُ النَّاقةِ إشارةٌ إلى قِصَّةِ مُعجزةِ صالحٍ أنَّه أخرَجَ لهم ناقةً مِن صَخْرةٍ -على قولٍ-، وكانتْ تلك المُعجزةُ مُقدِّمةَ الأسبابِ الَّتي عُجِّلَ لهم العذابُ مِن أجْلِها؛ فذِكْرُ هذه القِصَّةِ في جُملةِ البَيانِ تَوطئةٌ وتَمْهيدٌ[١].

- واسمُ الفاعلِ مِن قولِه: ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ مُستعمَلٌ في الاستِقبالِ، بقَرينةِ قولِه: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾، فعُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (سنُرسِلُ) إلى صِيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ لتَقريبِ زمَنِ الاستِقبالِ مِن زمَنِ الحالِ[٢].

- قولُه: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ الارتقابُ: الانتِظارُ، ارتقَبَ مِثلُ: رقَبَ، وهو أبلَغُ دَلالةً مِن رقَبَ؛ لِزيادةِ المَبْنى فيه[٣].

- وعُدِّيَ الارتقابُ إلى ضَميرِهم على تَقديرِ مُضافٍ يَقْتضيهِ الكلامُ؛ لأنَّه لا يَرتقِبُ ذَواتِهم، وإنَّما يَرتقِبُ أحوالًا تَحصُلُ لهم، وهذه طَريقةُ إسنادِ أو تعليقِ المُشتقَّاتِ الَّتي مَعانيها لا تُسنَدُ إلى الذَّواتِ، فتَكونُ على تَقديرِ مُضافٍ اختصارًا في الكلامِ؛ اعتمادًا على ظُهورِ المعْنى[٤].

- والاصطبارُ: الصَّبرُ القويُّ، وهو أقْوى دَلالةً مِن الصَّبرِ[٥].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ (اصْطَبِرْ)؛ ليَعُمَّ كلَّ حالٍ تَسْتدعي الضَّجَرَ، والتَّقديرُ: واصطَبِرْ على أذاهُم، وعلى ما تَجِدُه في نفْسِك مِن انتظارِ النَّصرِ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾، باعتِبارِ أنَّ الوعْدَ بخلْقِ آيةِ النَّاقةِ يَقْتضي كَلامًا مَحذوفًا، تَقديرُه: فأرسَلْنا لهم النَّاقةَ، وقُلْنا: نَبِّئْهم أنَّ الماءَ قِسمةٌ بيْنَهم، على طَريقةِ العَطْفِ والحذْفِ في قولِه: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، وإنْ كان حرْفُ العطْفِ مُختلِفًا، ومِثلُ هذا الحذْفِ كَثيرٌ في إيجازِ القرآنِ[١].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَآءَ﴾ للعهْدِ، أي: ماءَ القريةِ الَّذي يَسْتقُون منه؛ فإنَّ لكلِّ مَحلَّةٍ يَنزِلُها قومٌ ماءً لسُقْياهُم[٢].

- وأُخبِرَ عن الماءِ بأنَّه قِسمةٌ بيْنَ النَّاسِ وبيْنَ النَّاقةِ، والمُرادُ مَقسومٌ؛ فهو مِن الإخبارِ بالمَصدرِ للتَّأكيدِ والمُبالَغةِ[٣].

- وضَميرُ (بَيْنَهُمْ) عائدٌ إلى مَعلومٍ مِن المَقامِ بعْدَ ذِكرِ الماءِ؛ إذ مِن المُتعارَفِ أنَّ الماءَ يَسْتقي منه أهلُ القريةِ لأنفُسِهم وماشِيَتِهم، ولَمَّا ذُكِرَت النَّاقةُ عُلِمَ أنَّها لا تَسْتغني عن الشُّربِ؛ فغُلِّب ضَميرُ العُقلاءِ على ضَميرِ النَّاقةِ الواحدةِ[٤].

- والمُحتضَرَ: اسمُ مَفعولٍ مِن الحُضورِ، وهو ضِدُّ الغَيبةِ، والمعْنى: مُحتضَرٌ عندَه، فحُذِفَ المُتعلَّقُ؛ لظُهورِه[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾

- عُبِّرَ عن قاتِلِ النَّاقةِ بـ﴿صَاحِبَهُمۡ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم راضُون بفِعلِه؛ إذ همْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

مُصاحِبون له ومُمالِئون[١].

- ونِداؤهم إيَّاهُ نِداءُ الإغراءِ بالنَّاقةِ، وإنَّما نادَوه لأنَّه مُشتهِرٌ بالإقدامِ، وقِلَّةِ المُبالاةِ؛ لعِزَّتِه[٢].

- و﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ مُطاوِعُ عاطاهُ، وهو مُشتَقٌّ مِن: عَطا يَعْطو، إذا تناوَلَ. وصِيغةُ (تَفاعل) تَقْتضي تَعدُّدَ الفاعلِ، شُبِّهَ تَخوُّفُ القَومِ مِن قتْلِها لِما أنذَرَهم به رسولُهم مِن الوعيدِ، وتَردُّدُهم في الإقدامِ على قتْلِها بالمُعاطاةِ؛ فكلُّ واحدٍ حِينَ يُحجِمُ عن مباشَرةِ ذلك، ويُشيرُ بغَيرِه، كأنَّه يُعْطي ما بيَدِه إلى يَدِ غيرِه حتَّى أخَذَه أشقَى القَومِ فعقَرها[٣].

- وعُطِفَ ﴿فَعَقَرَ﴾ بالفاءِ؛ للدَّلالةِ على سُرعةِ إتيانِه ما دَعَوه مِن أجْلِه[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تَفريعٌ على القصَّةِ، فليس هو تَكريرًا، ولكنَّه خاصٌّ بهذه القصَّةِ[٥].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ بَيانٌ للإجمالِ الَّذي في قولِه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٣٠]، وهو في صُورةِ جَوابٍ للاستِفهامِ الصُّوريِّ، وكِلْتا الجُملتَينِ يُفيدُ تَعريضًا بتَهديدِ المُشرِكين بعَذابٍ على تَكذيبِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤، ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠١، ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٧، ٢٠٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٩٢، ٢٠٢).

- والصَّيحةُ: الصَّاعقةُ، وهي المُعبَّرُ عنها بالطَّاغيةِ في سُورةِ (الحاقَّةِ)، وفي سُورةِ (الأعرافِ) بالرَّجْفةِ، وهي صاعقةٌ عظيمةٌ خارِقةٌ للعادةِ أهلَكَتْهم؛ ولذلك وُصِفَت بـ﴿وَٰحِدَةٌ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّها خارقةٌ للعادةِ؛ إذ أتَتْ على قَبيلةٍ كاملةٍ(١).

- والهشيمُ: ما يَبِسَ وجَفَّ مِن الكلَأِ ومِن الشَّجَرِ، وهو مُشتقٌّ مِن الهشْمِ، وهو الكسْرُ؛ لأنَّ اليابِسَ مِن ذلك يَصيرُ سَريعَ الانكسارِ، والمرادُ هنا شَيءٌ خاصٌّ منه، وهو ما جَفَّ مِن أغصانِ العِضاهِ والشَّوكِ وعَظيمِ الكلَأِ، كانوا يتَّخِذون منه حَظائرَ لحِفظِ أغنامِهم مِن الرِّيحِ والعاديةِ(٢)؛ ولذلك أُضِيفَ الهَشيمُ إلى المُحتظِرِ -وهو بكسْرِ الظَّاءِ المُعجَمةِ- الَّذي يَعمَلُ الحظيرةَ ويَبْنِيها؛ وذلك بأنَّه يَجمَعُ الهشيمَ ويُلْقِيه على الأرضِ؛ ليَرصُفَه بعْدَ ذلك سِياجًا لحَظيرتِه، فالمُشبَّهُ به هو الهشيمُ المَجموعُ في الأرضِ قبْلَ أنْ يُسيَّجَ؛ ولذلك قال: ﴿كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾، ولم يَقُلْ: كهَشيمِ الحظيرةِ؛ لأنَّ المَقصودَ بالتَّشبيهِ حالتُه قبْلَ أنْ يُرصَفَ ويُصفَّفَ، وقبْلَ أنْ تُتَّخَذَ منه الحَظيرةُ(٣).

- وتَعديةُ إرسالِ الصَّيحةِ إلى ضَميرِهم بِناءً على الغالِبِ(٤).

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تَكريرٌ ثانٍ بعْدَ نَظيرَيه السَّالفَينِ في قصَّةِ قَومِ نُوحٍ وقصَّةِ عادٍ؛ تَذْييلًا لهذه القصَّةِ كما ذُيِّلَت بنَظيرَيه القِصَّتانِ السَّالِفتانِ، اقْتَضى التَّكريرَ مَقامُ الامتِنانِ والحثِّ على التَّدبُّرِ بالقرآنِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢).

(٢) العاديَةُ: مِن عَدَا يَعْدو على الشَّيءِ، إذا اختلَسه. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٩٢، ٢٠٣).

لأنَّ التَّدبُّرَ فيه يأْتي بتَجنُّبِ الضَّلالِ، ويُرشِدُ إلى مَسالِكِ الاهتداءِ، فهذا أهمُّ مِن تَكريرِ ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾؛ فلذلك أُوثِرَ[1].

- وفائدةُ تَكريرِ قولِه: ﴿فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ وقولِه: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾؛ حتَّى يُجدِّدَ المُستمِعون عندَ استماعِ كلِّ نَبأٍ مِن أنباءِ الأوَّلينَ ادِّكارًا واتِّعاظًا، وأنْ يَستأنِفوا تَنبُّهًا واستيقاظًا إذا سَمِعوا الحثَّ على ذلك والبَعثَ عليه، وأنْ يَقْرَعَ لهم العَصا مرَّاتٍ، ويُقعقِعَ لهم الشَّنَّ [أي: القِرْبة الخَلَق] تاراتٍ؛ لئلَّا يَغلِبَهم السَّهوُ، ولا تَستوليَ عليهم الغَفْلةُ، وهكذا حُكْمُ التَّكريرِ؛ كقولِه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ عندَ كلِّ نِعمةٍ عدَّها في سُورةِ (الرَّحمنِ)، وقولِه: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ عندَ كلِّ آيةٍ أورَدَها في سُورةِ (المرسَلاتِ)، وكذلك تَكريرُ الأنباءِ والقصصِ في أنفُسِها؛ لتَكونَ تلك العِبَرُ حاضرةً للقلوبِ، مُصوَّرةً للأذهانِ، مَذكورةً غيرَ مَنْسيةٍ في كلِّ أوانٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٧٩).

## الآيات (٢٢-٤٠)

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حَاصِبًا﴾: أي: حِجارةً، أو: ريحًا عاصِفًا تَرمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى، وأصلُ (حصب): يدُلُّ على الرَّميِ[١].

﴿بِسَحَرٍ﴾: السَّحَرُ: آخِرُ اللَّيلِ، وأصلُه: يدُلُّ على وَقتٍ مِن الأوقاتِ[٢].

﴿بَطْشَتَنَا﴾: أي: عُقوبتَنا، وأخْذَنا إيَّاهم بالعَذابِ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخْذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ[٣].

﴿فَتَمَارَوْاْ﴾: أي: شَكُّوا وكَذَّبوا، والمِرْيَةُ: التَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهو أخصُّ مِن الشَّكِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٩).

﴿رَٰوَدُوهُ﴾: أي: أرادوا منه تَمكينَهم مِن ضُيوفِه، والمُراوَدةُ: مُفاعَلةٌ مِن راد يَرودُ: إذا جاء وذَهبَ، وأصلُ (رود): يدُلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ[١].

﴿فَطَمَسۡنَآ﴾: أي: مَحَوْنا وأَعمَيْنا، والطَّمسُ: إزالةُ الأثَرِ بالمحْوِ، وأصلُ (طمس): يدُلُّ على مَحوِ الشَّيءِ ومَسْحِه[٢].

﴿صَبَّحَهُم بُكۡرَةً﴾: أي: جاءَهم وقْتَ الصُّبحِ، يُقالُ: صَبَحْتُ فُلانًا وصَبَّحْتُه: إذا أَتَيْتَه صَباحًا، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا موقفَ قَومِ لوطٍ مِن نبيِّهم لوطٍ عليه السَّلامُ: كذَّبتْ قَومُ لُوطٍ بما جاءَهم مِنَ اللهِ مِن نُذُرٍ تُنذِرُهم عَذابَه، إنَّا أرسَلْنا على قَومِ لُوطٍ حِجارةً مِنَ السَّماءِ لإهلاكِهم إلَّا آلَ لُوطٍ الَّذين آمَنوا به واتَّبَعوه على دينِه؛ فإنَّا نَجَّيْناهم مِنَ العَذابِ وقْتَ السَّحَرِ في آخِرِ اللَّيلِ؛ إنعامًا مِنَّا عليهم، وكما أنجَيْنا لُوطًا وآلَه مِنَ العَذابِ نُنْجِي أيضًا كُلَّ مَن شَكَرَنا على نِعَمِنا.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا الأسبابَ الَّتي أدَّت إلى إهلاكِ قَومِ لوطٍ: ولقد خوَّف لُوطٌ قَومَه وحَذَّرهم مِن أخْذَتِنا الشَّديدةِ لهم، فشَكُّوا في إنذارِه لهم وكذَّبوا، ولقد راوَدوه عن ضُيوفِه؛ أنْ يمكِّنَهم مِن فِعلِ الفاحِشةِ بهم، فطَمَسْنا أعيُنَهم، فلمْ يُبصِروا! فذُوقوا -يا قَومَ لُوطٍ- عَذابي وعاقِبةَ إنذاري.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٣٣).

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى ما حلَّ بهم مِن عذابٍ، فيقولُ: ولقد صبَّحَهم أوَّلَ النَّهارِ عَذابٌ ثابِتٌ مُستَمِرٌّ. فذُوقوا -يا قَومَ لُوطٍ- عَذابي وعاقِبَةَ إنذاري.

ويختمُ سبحانَه قِصَّتَهم بما ختَم به القصصَ السَّابقةَ، فيقولُ: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، والاتِّعاظِ، فهل مِن مُتذَكِّرٍ؟

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت قِصَّةُ لُوطٍ -عليه السَّلامُ- مع قَومِه أعظَمَ ما كان بعدَ ثَمودَ مِمَّا تَعرِفُه العَرَبُ بالأخبارِ، ورُؤيةِ الآثارِ، ومعَ ما في قِصَّتِهم مِن تَصويرِ السَّاعةِ مِن تبديلِ الأرضِ غيرَ الأرضِ- استأنَفَ قَولَه[1]:

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣﴾.

أي: كذَّبتْ قَومُ لُوطٍ بما جاءَهم مِنَ اللهِ مِن النُّذرِ الَّتي تُنذِرُهم عَذابَه[2].

قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٠ أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٤).

قوله: ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ جمعَ نذيرٍ، أي: كَذَّبَتْ بِالرُّسلِ المُرسَلينَ إليهم، وقال: ﴿بِٱلنُّذُرِ﴾ معَ أنَّ لُوطًا كان واحدًا؛ لأنَّ مَن كذَّب واحِدًا مِن الرُّسُلِ، فكأنَّه كذَّب جميعَ الرُّسلِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا بمعنَى الإنذارِ، أي: كَذَّبَتْ بالإنذارِ الَّذي أُنْذِروا به. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥١).

فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨، ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٠].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾.

أي: إنَّا أرسَلْنا على قَومِ لُوطٍ حِجارةً أُمطِرَتْ عليهم؛ لإهلاكِهم[1].

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾.

أي: إلَّا لوطًا ومَن تبِعه على دينِه وآمَن به؛ فإنَّا نَجَّيْناهم مِنَ العَذابِ وَقتَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٤).

قيل: الحاصِبُ: هو الحِجارةُ. ومِمَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: هو الرِّيحُ الَّتي تَرمي بالحَصباءِ، وهي الحَصى. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ صِغارُ الحَصى: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٦).

وقيل: الحاصِبُ: السَّحابُ الرَّامي بالبَرَدِ وغَيرِه. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٩).

قال الشنقيطي في سورةِ الإسراءِ بعدَ أن ذكر أنَّ الحاصِبَ قد قيل: إنَّها السَّحابةُ أو الرِّيحُ، قال: (وكِلا القَولَينِ صحيحٌ؛ لأنَّ كلَّ ريحٍ شديدةٍ تَرمي بالحَصْباءِ تُسمَّى حاصِبًا وحَصِبَةً، وكلَّ سَحابةٍ تَرمي بالبَرَدِ تُسمَّى حاصِبًا أيضًا). ((أضواء البيان)) (٣/ ١٧٣).

وقيل غيرُ ذلك في معنى الحصباءِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤١٧).

السَّحَرِ في آخِرِ اللَّيلِ[١].

كما قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾.

أي: إنعامًا مِنَّا عليهم، وكَرامةً لهم مِن عِندِنا[٢]!

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾.

أي: كما أنجَيْنا لُوطًا وآلَه مِنَ العَذابِ؛ بسَبَبِ طاعتِهم للهِ تعالى- نُنْجِي أيضًا كُلَّ مَن شَكَرَنا على ما أنعَمْنا عليه مِنَ النِّعَمِ، فآمَنَ باللهِ وأطاعَه[٣].

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ولقد خوَّف لُوطٌ قَومَه، وحَذَّرهم مِن أخْذَتِنا الشَّديدةِ قبْلَ حُصولِها، فشَكُّوا في إنذاراتِه، وكذَّبوا بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٣-١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).
﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ أي: لُوطًا ومَن تَبِعه، وقيل: لم يَتْبَعْه إلَّا ابنتاه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٢٥/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).
قال ابنُ عثيمين: (أي: أنعَمْنا على آلِ لوطٍ نِعمةً مِن عندِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ مِن وَجهَينِ: الوَجهُ الأوَّلُ: أنَّ اللهَ أنجاهم. والوَجهُ الثَّاني: أنَّ اللهَ أهلَكَ عَدُوَّهم؛ لأنَّ إهلاكَ العَدُوِّ مِن نِعمةِ اللهِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن =

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾.

أي: ولقد طَلَب قَومُ لُوطٍ منه تمكينَهم مِن فِعلِ الفاحِشةِ بضُيوفِه، وألَحُّوا في طَلَبِهم مِرارًا[1]، فطَمَسْنا أعيُنَهم، فصارت كسائِرِ الوَجهِ بلا شَقٍّ، فلم يُبصِروا[2]! كما قال تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ

---

= كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٥، ٢٨٦).

(١) قال ابن كثير: (﴿ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ ﴾ وذلك لَيلةَ ورَدَ عليه الملائِكةُ: جِبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ في صورةِ شَبابٍ مُرْدٍ حِسانٍ؛ محنةً مِنَ اللهِ بهم، فأضافهم لوطٌ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٦).

وممَّن قال بأنَّ معنى طَمْسِ الأعيُنِ هنا: هو تصييرُها كسائِرِ الوَجهِ، فلا يكونُ لها شَقٌّ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والشوكاني، ونسَبَه البَغَويُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٤٩، ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٦).

وقال القرطبي: (﴿ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ ﴾ يُروى أنَّ جِبريلَ عليه السَّلامُ ضَرَبَهم بجَناحِه، فعَمُوا.

وقيل: صارت أعينُهم كسائِرِ الوَجهِ لا يُرى لها شَقٌّ، كما تَطمِسُ الرِّيحُ الأعلامَ بما تَسفي عليها مِنَ التُّرابِ.

وقيل: لا، بل أعماهم اللهُ مع صِحَّةِ أبصارِهم، فلم يَرَوهم. قال الضَّحَّاكُ: طَمَس اللهُ على أبصارِهم، فلم يرَوُا الرُّسُلَ، فقالوا: لقد رأَيْناهم حينَ دَخَلوا البَيتَ فأين ذَهَبوا؟! فرجَعوا ولم يَرَوهم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤).

وقال ابن عثيمين: (أمَّا كيف طَمَس أعيُنَهم: هل جِبريلُ عليه السَّلامُ ضَرَبَهم بجَناحِه، أو غيرُ ذلك؟ اللهُ أعلَمُ، إنَّما علينا أن نؤمِنَ بأنَّ اللهَ تعالى طَمَس أعيُنَهم، حتَّى أصبَحوا لا يُبصِرونَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٦).

يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ * قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ﴾ [هود: ٧٨ - ٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ * وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ * قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ * قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾ [الحجر: ٦٧ - ٧١].

﴿ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾.

أي: فذُوقوا -يا مَعشَرَ قَومِ لُوطٍ- عَذابي الَّذي حلَّ بكم، وعاقِبةَ إنذاراتي الَّتي أُنذِرْتُم بها[1]!

﴿ وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي: ولقد صبَّحَ قَومَ لوطٍ أوَّلَ النَّهارِ عَذابٌ ثابِتٌ لا يَنقَطِعُ عنهم[2].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٖ ﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٢)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦، ٢٠٧).
قال أبو حيَّان: (﴿عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ﴾: أي: لم يَكشِفْه عنهم كاشِفٌ، بل اتَّصَل بمَوتِهم، ثمَّ بما بعدَ ذلك مِن عذابِ القَبرِ، ثمَّ عذابِ جَهنَّمَ!). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦).
وقال ابنُ عاشور: (المُستَقِرُّ: الثَّابِتُ الدَّائِمُ الَّذي يجري على قُوَّةٍ واحِدةٍ لا يُقلِعُ، حتَّى استأصَلَهم. والعذابُ: هو الخَسفُ ومَطَرُ الحِجارةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ۞ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٣، ٧٤].

﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: فذُوقوا -يا مَعشَرَ قَومِ لُوطٍ- عَذابي الَّذي حَلَّ بكم، وعاقِبةَ إنذاراتي الَّتي أُنذِرْتُم بها[١].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾.

أي: ولقد سهَّلْنا القُرآنَ للتَّذَكُّرِ به، وحُصولِ الفَهمِ والاتِّعاظِ به[٢].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ؛ فيتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما في القُرآنِ الكريمِ[٣]؟

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ يَسَّرَ القرآنَ للذِّكْرِ؛ لِحِفْظِه، ولِفَهْمِ مَعناه، وهذا الخبرُ يُرادُ به الحَثُّ على حِفْظِ القُرآنِ، وعلى تَدَبُّرِ معناه؛ لأنه مُيَسَّرٌ سَهْلٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٣)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٢٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ١٨٩، ١٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٧٣، ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٨).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ أَخَذَ منه أهلُ العِلمِ أنَّ اللُّوطيَّ يُقتَلُ بكُلِّ حالٍ -الفاعِلَ والمفعولَ به-، وهذا هو القَولُ الرَّاجِحُ: أنَّ اللِّواطَ يجبُ فيه القَتلُ على كُلِّ حالٍ، وليس كالزِّنا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ أنَّ لفْظَ «آلِ فلانٍ» إذا أُطلِقَ في الكتابِ والسُّنَّةِ دَخَلَ فيه فُلانٌ[٢].

٣- ذِكْرُ ﴿بِسَحَرٖ﴾ -أي: في وقْتِ السَّحَرِ-؛ للإشارةِ إلى إنجائِهم قُبَيلَ حُلولِ العَذابِ بقَومِهم؛ لقولِه بعْدَه: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾[٣] [القمر: ٣٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ أنَّ إهلاكَ العَدُوِّ هو مِن نِعمةِ اللهِ تعالى[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ أنَّه كما جازَيْنا لُوطًا وأهْلَه بالإنجاءِ فكذلك نَجزي مَن شَكَر -أي: آمَنَ باللهِ وأطاعه-. قال المفَسِّرونَ: هو وعْدٌ لأمَّةِ محمَّدٍ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- بأنَّه يَصونُهم عن الهلاكِ العامِّ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ دليلٌ على أنَّ قومَ لوطٍ عَمُوا قبْلَ أنْ يُخسَفَ بهم، ويُمطَرَ عليهم؛ ففيه بيانٌ واضِحٌ -لِمَن تَدَبَّرَه- أنَّ النَّظَرَ إلى المُرْدِ للشَّهوةِ مَعصِيةٌ؛ لأنَّ الملائِكةَ كانوا جاؤوا لوطًا في صُورةِ المُرْدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٧١).

مِنَ البَشَرِ، فلمَّا رَمَقُوهم بعَينِ الشَّهوةِ عُوقِبوا بالعَمَى[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ سؤالٌ: أنَّ النُّذُرَ كيف تُذاقُ؟

الجوابُ: أنَّ المرادَ ثَمَرتُه وفائِدتُه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أنَّ لفْظَ «الذَّوقِ» يُستعمَلُ في كلِّ ما يُحَسُّ به ويَجِدُ أَلَمَه أو لَذَّتَه، ولا يَختَصُّ لفظُ «الذَّوقِ» بما يكونُ بالفَمِ[٣]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ قيل: عُرِّفَ قومُ لُوطٍ بالإضافةِ إليه؛ إذ لم يكُنْ لتلك الأُمَّةِ اسمٌ يُعرَفون به عندَ العرَبِ[٤].

- ولم يُحْكَ هنا ما تَلقَّى به قومُ لُوطٍ دَعوةَ لُوطٍ، كما حُكِيَ في القصصِ الثَّلاثِ قبْلَ هذه، وقد حُكِيَ ذلك في سُورةِ (الأعرافِ)، وفي سُورةِ (هُودٍ)، وفي سُورةِ (الحِجْرِ)؛ لأنَّ سُورةَ (القمَرِ) بُنِيَت على تَهديدِ المُشرِكين عن إعراضِهم عن الاتِّعاظِ بآياتِ اللهِ الَّتي شاهَدوها، وآثارِ آياتِه على الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي عَلِموا أخبارَها، وشَهِدوا آثارَها؛ فلم يكُنْ ثَمَّةَ مُقْتَضٍ لتَفصيلِ أقوالِ تلك الأُمَمِ إلَّا ما كان منها مُشابِهًا لأقوالِ المُشرِكين في تَفصيلِه، ولم تكُنْ أقوالُ قَومِ لوطٍ بتلك المَثابةِ؛ فلذلك اقتُصِرَ فيها على حِكايةِ ما هو مُشترِكٌ بيْنَهم وبيْنَ المُشرِكين، وهو تَكذيبُ رسولِهم، وإعراضُهم عن نُذُرِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبارِ عن قَومِ لوطٍ بأنَّهم كذَّبوا بالنُّذرِ، وكذلك جُملةُ ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾[١].

- والاستِثناءُ حَقيقيٌّ؛ لأنَّ آلَ لُوطٍ مِن جُملةِ قَومِه، وآلُ لوطٍ: قَرابتُه، وهم بَناتُه، ولُوطٌ داخِلٌ بدَلالةِ الفَحْوى[٢].

- وقد ذُكِرَ في آياتٍ أُخرى أنَّ زَوجةَ لوطٍ لم يُنَجِّها اللهُ، ولم يُذكَرْ ذلك هنا؛ اكتِفاءً بمَواقِعِ ذِكرِه، وتَنبيهًا على أنَّ مَن لا يُؤمِنُ بالرَّسولِ لا يُعَدُّ مِن آلِه، كما قال: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾[٣] [هود: ٤٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾

- جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ مُعترِضةٌ، وهي استِئنافٌ بَيانيٌّ عن جُملةِ ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ [القمر: ٣٤]، باعتِبارِ ما معها مِن الحالِ، أي: إنعامًا مِن أجْلِ أنَّه شكَرَ؛ ففيه إيماءٌ بأنَّ إهلاكَ غيرِهم لأنَّهم كَفَروا، وهذا تَعريضٌ بإنذارِ المُشرِكين، وبِشارةٌ للمؤمنينَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿مِّنۡ عِندِنَا﴾ تَنويهٌ بشَأْنِ هذه النِّعمةِ؛ لأنَّ ظرْفَ (عِند) يدُلُّ على الادِّخارِ والاستِئثارِ، فذلِكَ أبلَغُ مِن أنْ يُقالَ: نِعمةً مِنَّا، أو: أنعَمْنا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والمرادُ بالفَحْوى هنا: إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَوْلَى. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي الآيةِ احتِباكٌ[١]؛ فقد ذكَرَ الإنعامَ أوَّلًا -لأنَّه السَّبَبُ الحَقيقيُّ- دليلًا على حَذْفِه ثانيًا، والشُّكرَ ثانيًا -لأنَّه السَّبَبُ الظَّاهِرُ- دليلًا على حَذْفِه أوَّلًا[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ [القمر: ٣٤]. وتأْكيدُ الكلامِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قدْ) يُقصَدُ منه تأْكيدُ الغرَضِ الَّذي سِيقَت القصَّةُ مِن أجْلِه، وهو مَوعظةُ قُرَيشٍ الَّذين أنذَرَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَمارَوا بالنُّذرِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ لَطيفةٌ ومُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال اللهُ تعالَى هاهنا: ﴿بَطْشَتَنَا﴾، ولم يقُلْ: (بطْشَنا)، وقال في سُورةِ (البُروجِ): ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؛ وذلك لأنَّ قولَه تَعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ بَيانٌ لجِنسِ بطْشِه، فإذا كان جِنسُه شَديدًا؛ فكيف الكُبْرَى منه؟! وأمَّا لُوطٌ عليه السَّلامُ فذَكَرَ لهم البَطْشةَ الكُبرَى؛ لئلَّا يكونَ مُقصِّرًا في التَّبليغِ[٤].

- والتَّماري: تَفاعُلٌ مِن المِراءِ، وهو الشَّكُّ، وصِيغةُ المُفاعَلةِ للمُبالَغةِ[٥].

- وضُمِّن ﴿فَتَمَارَوْا﴾ معنى: كذَّبوا؛ فعُدِّيَ بالباءِ[٦].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ إجمالٌ

---

(١) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لِمَا ذُكِرَ في غيرِ هذه السُّورةِ في قِصَّةِ قَومِ لوطٍ؛ أنَّه نزَلَ به ضَيفٌ، فرامَ قومُه الفاحشةَ بهم، وعجَزَ لُوطٌ عن دفْعِ قَومِه؛ إذ اقتَحَموا بَيتَه، وأنَّ اللهَ أعْمى أعيُنَهم -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، فلمْ يَرَوا كيف يَدخُلون[١].

- وأُسنِدَت المُراوَدةُ إلى ضَميرِ قَومِ لُوطٍ وإنْ كان المُراوِدونَ نفَرًا منهم؛ لأنَّ ما راوَدوا عليه هو مُرادُ جَميعِ القومِ، بقَطْعِ النَّظَرِ عن تَعيينِ مَن يَفعَلُه[٢].

- ويَتعلَّقُ قولُه: ﴿عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ بفِعلِ ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ بتَقديرِ مُضافٍ، أي: عن تَمكينِهم مِن ضُيوفِهِ[٣]. وقيل: ضُمِّنَ ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ معْنى دفَعُوه وصَرَفوه؛ فعُدِّيَ بحرْفِ (عَن)[٤].

- قولُه: ﴿فَذُوقُوٓاْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه سِياقُ الكلامِ، أي: قُلْنا للنَّفَرِ الَّذين طمَسْنا أعيُنَهم: فذُوقوا عَذابي[٥].

- وعطْفُ النُّذرِ على العَذابِ باعتِبارِ أنَّ العذابَ تَصديقٌ للنُّذرِ، أي: ذُوقوا مِصْداقَ نُذُري[٦].

- وتَعديةُ فِعلِ ﴿فَذُوقُوٓاْ﴾ إلى نُذُري بتَقديرِ مُضافٍ، أي: وآثارَ نُذُري[٧].

- وحُذِفَت ياءُ المتكلِّمِ مِن قولِه: ﴿وَنُذُرِ﴾؛ تَخفيفًا[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٦).

(٨) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي تَكرارِ قولِه تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ أنَّ سَبَبَ العذابِ التَّكذيبُ بالإنذارِ لأيِّ رَسولٍ كان، وكان استِئنافُ كُلِّ قِصَّةٍ مُنَبِّهًا على أنَّها أهلٌ على حِدَتِها لأنْ يُتَّعَظَ بها[١]!

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾

- ذِكْرُ ﴿بُكْرَةً﴾؛ للدَّلالةِ على تَعجيلِ العذابِ لهم[٢].

- وفي وصْفِ العَذابِ بالاستِقرارِ إيماءٌ إلى أنَّ ما قبْلَه مِن عَذابِ الطَّمْسِ يَنتهِي إليهِ[٣].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ تَفريعُ قَولٍ مَحذوفٍ خُوطِبوا به، مُرادٍ به التَّوبيخُ[٤].

- والخِطابُ لجَميعِ الَّذين أصابَهم العذابُ المُستقِرُّ، وبذلك لم تكُنْ هذه الجُملةُ تَكريرًا[٥].

- والعذابُ الَّذي نزَلَ بهم مِن طمْسِ الأعيُنِ غيرُ العذابِ الَّذي أُهْلِكوا به؛ فلذلك حَسُنَ التَّكريرُ[٦].

- وفائدةُ الإعلامِ بما قِيل لهم مِن قولِه: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ في الموضِعَينِ: أنْ يَتجدَّدَ عندَ استِماعِ كلِّ نبَأٍ مِن ذلك ادِّكارٌ لهم، واتِّعاظٌ، وإيقاظٌ؛ استيفاءً

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٤).

لحقِّ التَّذكيرِ القُرآنيِّ[١].

٨- قولُه تعالَى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ تَكريرٌ ثالثٌ؛ تَنويهًا بشأْنِ القرآنِ؛ للخُصوصيَّةِ الَّتي تقدَّمت في المواضعِ الَّتي كُرِّرَ فيها نَظيرُه وما يُقارِبُه، وخاصَّةً في نَظيرِه المُوالي هو له. ولم يُذكَرْ هنا ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾؛ اكتِفاءً بحِكايةِ التَّنكيلِ لقَومِ لُوطٍ في التَّعريضِ بتَهديدِ المُشرِكين[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٤١-٤٦)

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلزُّبُرِ﴾: أي: الكُتُبِ، جَمْعُ زَبورٍ، وأصلُ (زبر) هنا: يدُلُّ على قِراءةٍ وكتابةٍ[١].

﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾: أي: يَنهَزِمونَ فيُوَلُّونَكم أدبارَهم، يُقالُ: ولَّاه دُبُرَه: إذا انهزَم. والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ. والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على خِلافِ القُبُلِ[٢].

﴿أَدْهَىٰ﴾: أي: أشدُّ وأفظَعُ، وهو «أفعَلُ»، مِنَ الدَّاهيةِ: وهي الرَّزِيَّةُ العُظمى تَنزِلُ بالمرءِ، وأصلُ (دهي): يدُلُّ على الإصابةِ بما يَسوءُ[٣].

﴿وَأَمَرُّ﴾: أي: أشَدُّ مَرارةً؛ مِن قَولِهم: مَرَّ الشَّيءُ وأمَرَّ: إذا اشتَدَّت مَرارتُه، وأصلُ (مرر) هنا: يدُلُّ على خِلافِ الحلاوةِ والطِّيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص ٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٣٤).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما حلَّ بفِرعونَ وقَومِه: ولقد جاء أتْباعَ فِرعَونَ وقَومَه النُّذُرُ الَّتي تُنذِرُهم عذابَ اللهِ تعالى، كذَّبوا بجَميعِ آياتِ اللهِ تعالى، فأخَذَهم اللهُ تعالى أخْذَ شديدٍ قَويٍّ بالِغِ القُدرةِ سُبحانَه!

ثمَّ يُخاطِبُ اللهُ تعالى المشركينَ محذِّرًا مِن سوءِ العاقبةِ، وداعيًا إلى التَّفكُّرِ والاعتِبارِ، فيقولُ: أكُفَّارُكم -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- خَيرٌ مِن أولئك الَّذين أهلَكْتُهم لكُفرِهم وتَكذيبِهم، أمْ لكم بَراءةٌ مَكتوبةٌ في الكُتُبِ الإلهيَّةِ السَّابِقةِ، مِن عاقبةِ كُفرِكم وتكذيبِكم، وعَذابِ رَبِّكم؟!

ثمَّ يقولُ الله تعالى موبِّخًا للمشركينَ على أحدِ أقوالِهم الباطِلةِ: أمْ يَقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ: نحنُ جماعةٌ كثيرةٌ مُنتَصِرونَ!

سيُهزَم جَمعُ كُفَّارِ قُرَيشٍ، ويَفِرُّونَ عن المُسلِمينَ مُدبِرينَ!

بل السَّاعةُ مَوعِدُ عَذابِهم الأصليِّ، وما يَحيقُ بهم في الدُّنيا فمِن طَلائِعِه، والسَّاعةُ أشدُّ فَظاعةً وأكثَرُ ألَمًا ومَرارةً مِمَّا يُصيبُهم مِن عَذابِ الدُّنيا!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الآخِرُ يَنبغي له أنْ يَحذَرَ ما وَقَع للأوَّلِ، وكان قَومُ فِرعَونَ قد جاؤوا بعدَ قَومِ لُوطٍ عليه السَّلامُ، فكان رُبَّما ظُنَّ أنَّهم لم يُنذَروا؛ لأنَّ مَن عَلِمَ أنَّ العادةَ جَرَت أنَّ مَن كَذَّب الرُّسُلَ هَلَك: أنكَرَ أن يَحصُلَ مِمَّن تَبِعَ ذلك تكذيبٌ، فقال

مُقسِمًا[١]:

﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ٤١﴾.

أي: ولقد جاء فِرعَونَ وآلَه النُّذرُ الَّتي تُنذِرُهم عذابَ اللهِ تعالى[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧).

قيل: المرادُ بـ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾: أتْباعُه وقَومُه: وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٠).

وقال ابنُ عطية: (ويحتَمِلُ أن يُريدَ بـ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾: قرابتَه على عُرفِ الآلِ، وخَصَّصَهم بالذِّكرِ؛ لأنَّهم عُمدةُ القَومِ وكُبراؤُهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٠).

وقيل: المرادُ بـ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾: القِبطُ: وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥).

قال ابن عاشور: (﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾، أي: فِرعونَ وآلَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).

وقال ابن تيميَّة: (فِرعون: داخلٌ في آلِ فِرعونَ المكذِّبينَ المأْخوذينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢/ ٢٨١).

وقال أيضًا: (الآلُ يُضافُ إلى مُعَظَّمٍ مِن شأنِه أنْ يَؤولَ غَيْرَه، أو يَسوسَه فيَكونَ مآلُه إليه، فآلُ الشَّخصِ هم مَن يَؤولُه، ويَؤولُ إليه، ويَرجِعُ إليه، ونفْسُه هي أوَّلُ وأَولَى مَن يَسُوسُه، ويَؤولُ إليه؛ فلهذا كان لفظُ «آل فُلانٍ» مُتناوِلًا له، ولا يُقالُ هو مُختَصٌّ به، بل يَتَناوَلُه ويَتناوَلُ مَنْ يَؤولُه). ((الفتاوى الكبرى)) (٢/ ١٩٦) بتصرف. ويُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٣٧٢، ٣٧٥)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٠٤).

قال الواحدي: (وفي ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّ المرادَ به موسى وهارونُ. وهذا قَولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومُقاتِلٍ، والمفَسِّرينَ، وهو على تسميةِ الاثنَينِ باسمِ الجماعةِ؛ لأنَّه جَمعُ نَذيرٍ.

والثَّاني: أنَّ المرادَ به الآياتُ الَّتي أنذَرَهم بها موسى، وكُلُّ آيةٍ منها نذيرٌ.

والآخِرُ: أنَّ المرادَ به الإنذارُ.

ويدُلُّ على القَولِ الثَّاني قَولُه: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾، يعني: الآياتِ التِّسعَ، في قَولِ المفَسِّرينَ). =

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ٤٢﴾.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾.

أي: كذَّبَ فِرعَونُ وآلُه بجَميعِ آياتِ اللهِ تعالى، الدَّالَّةِ على الحَقِّ(١).

= ((البسيط)) (٢١/ ١١٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٨، ٢٨٩).

قيل: المرادُ بالآياتِ هنا: الآياتُ التِّسْعُ؛ وهي: اليَدُ، والعَصا، والطَّمسُ، والسِّنونَ، والطُّوفانُ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥).

وقيل: هي: العَصا، واليدُ، والطُّوفانُ، والجَرادُ، والقُمَّلُ، والضَّفادِعُ، والدَّمُ، والجَدْبُ، ونَقصُ الثَّمَراتِ. وهو كالقولِ السَّابقِ لكنْ مع إبدالِ نقصِ الثَّمراتِ بالطَّمسِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ أبي زَمَنين، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٣/ ٤٣) و(٤/ ٣٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٣/ ٣١١) و(٥/ ١٥٤). ويُنظر أيضًا: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ١٢٤).

وممَّن قال: إنَّها الآياتُ التِّسعُ دونَ تفصيلِها: السمرقنديُّ، والثعلبي، والواحديُّ -ونسَبَه إلى قولِ المفسِّرينَ-، والبغوي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٦٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢١).

وعزاه الرَّازيُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٩).

وقيل: المرادُ: كلُّ ما جاءهم به موسى عليه السَّلامُ. وممَّن اختاره: مكِّي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٠٣).

وقيل: المرادُ: جَميعُ آياتِ مُوسى، وجميعُ آياتِ الأنبياءِ قَبْلَه، والآياتُ الدَّالَّةُ على وُجودِ الرَّبِّ وقُدرتِه ومَشيئتِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٤٨).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣].

﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

أي: فأخَذْناهم أخْذَ مَنْ هو شديدٌ قَويٌّ؛ فلا يُغلَبُ، بالِغُ القُدرةِ؛ فلا يَعجِزُ عمَّا يُريدُ[1]!

قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾.

أي: أكُفَّارُكم -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- خَيرٌ مِن أولئك الَّذين أهلَكْتُهم لكُفرِهم وتَكذيبِهم، مِثلُ: قَومِ نُوحٍ، وعادٍ، وثَمودَ، وقَومِ لُوطٍ، وآلِ فِرعَونَ؟ كلَّا! ليسوا خَيرًا منهم؛ فلْتَحذَروا مِن عِقابِ اللهِ إنْ أصرَرْتُم على كُفرِكم وتَكذيبِكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٩).

قال ابنُ عاشور: (هذا الأخْذُ: هو إغراقُ فِرعَونَ ورِجالِ دَولتِه وجُندِه الَّذين خَرَجوا لنُصرتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩).

وقال البِقاعي: (﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: لا يَعجَلُ بالأخْذِ؛ لأنَّه لا يَخافُ الفَوتَ، ولا يَخشى مُعَقِّبًا لحُكمِه، بالِغُ القُدرةِ إلى حَدٍّ لا يُدرِكُ الوَصفُ كُنْهَه؛ لأنَّ صِيغةَ الافتِعالِ مَبناها على المعاجَلةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٩).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان: ٣٧].

﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾.

أي: أم لكم -يا كُفَّارَ قُرَيشٍ- بَراءةٌ مَكتوبةٌ في صَحائِفِ الكُتُبِ الإلهيَّةِ السَّابِقةِ؛ فأنتم بَريئُونَ مِن عاقبةِ كُفرِكم وتكذيبِكم، وآمِنونَ مِن عذابِ رَبِّكم[1]؟!

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَلَغوا إلى هذا الحَدِّ مِنَ التَّمادي في الكُفرِ مع المواعِظِ البالِغةِ والاستِعطافِ المَكِينِ، استحَقُّوا أعظَمَ الغَضَبِ؛ فأعرَضَ عنهم الخِطابُ؛ إيذانًا بذلك، وإهانةً لهم واحتِقارًا، وإقبالًا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَسليةً، فقال عاطِفًا على ما تَقديرُه: أيَدَّعُونَ -جَهلًا ومُكابَرةً- شيئًا مِن هذَينِ الأمرَينِ[2]؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: أم يَقولُ كُفَّارُ قُرَيشٍ: نحنُ جماعةٌ كثيرةٌ مُنتَصِرونَ، فسنَغلِبُ مُحمَّدًا ومَن معه[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٠).

﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥ ﴾.

أي: سيُهزَمُ جمعُ كُفَّارِ قُرَيشٍ، ويتفرَّقونَ، ويَفِرُّونَ عن المُسلِمينَ مُدبِرينَ[1]!

قال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۚ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ * قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ [آل عمران: ١٢، ١٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو في قُبَّةٍ: ((اللَّهُمَّ إنِّي أَنشُدُك[2] عَهْدَك ووَعْدَك، اللَّهُمَّ إنْ شِئْتَ لم تُعبَدْ بعدَ اليَومِ! فأخَذ أبو بكرٍ بيَدِه، فقال: حَسْبُك يا رَسولَ اللهِ؛ فقد ألَحَحْتَ على رَبِّك -وهو في الدِّرْعِ-، فخَرَج وهو يقولُ: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ * بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٥، ٤٦]))[3].

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ٤٦ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَقَع هذا في الدُّنيا -وكان في يومِ بَدْرٍ-، وكان ذلك مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ، وكان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّ ذلك هو النِّهايةُ- كان كأنَّه قيل: ليس ذلك الموعِدَ الأعظَمَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (ظَهَر تَصديقُ ذلك يومَ بَدرٍ وغَيرَه، وبعدَ ذلك بسِنينَ كَثيرةٍ). ((الجواب الصحيح)) (١/ ٤٠٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٥، ١٤٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٢) أَنشُدُك: أي: أطلُبُك وأسألُك. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٨١).

(٣) رواه البخاري (٢٩١٥).

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ ﴾[١].

﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ ﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ، فهم حَتمًا سيُبعَثونَ بعدَ مَوتِهم، ويُجازَونَ بعُقوبةٍ تامَّةٍ على كُفرِهم؛ فالسَّاعةُ مَوعِدُ عَذابِهم الأصليِّ، وما يَحيقُ بهم في الدُّنيا فمِن طَلائِعِه[٢].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: (لقد أُنزِلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمكَّةَ، وإنِّي لَجاريةٌ ألعَبُ: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾)[٣].

﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾.

أي: والسَّاعةُ أشدُّ فَظاعةً وفَتْكًا، وأكثَرُ ألَمًا ومَرارةً مِنَ القَتلِ أو غَيرِه مِمَّا يُصيبُهم مِن عَذابِ الدُّنيا[٤]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ سؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ بَدَلَ «قَومَ فِرعَونَ»؟

**الجَوابُ**: أنَّ «القَومَ» أعَمُّ مِن «الآلِ»؛ فالقَومُ: كُلُّ مَن يقومُ الرَّئيسُ بأمْرِهم، أو يقومونَ هم بأمْرِه، وقومُ فِرعَونَ كانوا تحتَ قَهرِه بحيث لا يُخالِفونَه في قليلٍ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤).

(٣) رواه البخاري (٤٨٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٠).

ولا كثيرٍ؛ فأُرسِلَ إليه الرَّسولُ وَحْدَه، غيرَ أنَّه كان عندَه جماعةٌ مِنَ المقرَّبينَ، مِثلُ: قارونَ، مُقَدَّمٌ عندَه لمالِه العظيمِ، وهامانَ لدَهائِه؛ فاعتبَرَهم اللهُ تعالى في الإرسالِ؛ حيث قال في مواضِعَ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الزخرف: ٤٦]، وقال: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ﴾ [غافر: ٢٤]، وقال في (العنكبوتِ): ﴿وَقَـٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ﴾ [العنكبوت: ٣٩]؛ لأنَّهم إن آمَنوا آمَنَ الكُلُّ، بخِلافِ الأقوامِ الَّذين كانوا قَبْلَهم وبَعْدَهم؛ فقال: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾، وقال: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[1] [غافر: ٤٦].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ أنَّه قال هنا: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ﴾، ولم يَقُلْ في غيرِهم: «جاء»؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ موسى عليه السَّلامُ ما جاءهم كما جاء المُرسَلونَ أقوامَهم، بل جاءهم حقيقةً؛ حيث كان غائبًا عن القَومِ فقَدِمَ عليهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[2] [الحجر: ٦١]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ أنَّه قد خُتِمَت القِصَصُ بمِثلِ ما افتُتِحَت به مِن عَذابِ المُفسِدينَ بالإغراقِ؛ لِيُطابِقَ الخَتمُ البَدْءَ، وكانت نجاةُ المُصلِحينَ مِن الأوَّلينَ بالسَّفينةِ، وكانت نجاةُ المُصلِحينَ مِن الآخِرينَ بأرضِ البَحرِ، كانت هي سفينتَهم؛ لِيَكونَ الخَتمُ أعظَمَ مِنَ البَدْءِ، كما هو شأنُ أهلِ الاقتِدارِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٨، ٣١٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٢٩).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ إنَّما ذَكَرَ اللهُ تعالى أنَّه أَخَذَهم ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ لأنَّ فِرعونَ كان مُتكبِّرًا، وكان يقولُ: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]! وكان يَسخَرُ مِن موسى ومَن أرسَلَه؛ فناسَبَ أنْ يَذكُرَ اللهُ تعالى أخْذَه أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ بيانُ أنَّ أولئك إذا كانوا كُفَّارًا وقد عذَّبْناهم، فالكُفَّارُ الَّذين كذَّبوا مُحمَّدًا ليسوا خيرًا مِن أولئك، بل هم مِثْلُهم، استحَقُّوا مِن العُقوبةِ ما استحقَّه أولئك، ولو كانوا خَيرًا منهم لم يَستَحِقُّوا ذلك؛ فعُلِمَ أنَّه سُبحانَه يُسوِّي بيْنَ المتماثِلَين، ويُفَضِّلُ صاحبَ الخَيرِ، فلا يُسوِّي بيْنَه وبيْنَ مَن هو دونَه(٢). وفيه التَّنبيهُ على أنَّ الميزانَ العقليَّ حقٌّ -كما ذَكَرَ اللهُ في كتابِه-، وليس هو مُختَصًّا بمنطقِ اليُونانِ، بل هي الأقيسةُ الصَّحيحةُ المتضمِّنةُ للتَّسويةِ بيْنَ المتماثِلَين، والفَرقِ بيْنَ المختلِفَين، سواءٌ صِيغَ ذلك بصيغةِ قياسِ الشُّمولِ(٣)، أو بصيغةِ قياسِ التَّمثيلِ(٤)، وصِيَغُ التَّمثيلِ هي الأصلُ، وهي أكمَلُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٥/ ١٠٨).

(٣) قياس الشُّمولِ: هو انتِقالُ الذِّهنِ مِن المُعَيَّنِ إلى المعنى العامِّ المُشترَكِ الكُلِّيِّ المُتناوِلِ له ولغَيرِه، والحُكمُ عليه بما يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، بأن ينتقلَ مِن ذلك الكُلِّيِّ اللَّازِمِ إلى الملزومِ الأوَّلِ وهو المُعَيَّنُ، فهو انتِقالٌ مِن خاصٍّ إلى عامٍّ، ثمَّ انتِقالٌ مِن ذلك العامِّ إلى الخاصِّ؛ مِن جُزئيٍّ إلى كُلِّيٍّ، ثمَّ مِن ذلك الكُلِّيِّ إلى الجُزئيِّ الأوَّلِ، فيُحكَمُ عليه بذلك الكُلِّيِّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّةَ (٩/ ١١٩).

(٤) قياس التَّمثيلِ: هو حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ، أو: إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما مثل: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وهو القياسُ الأُصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ٢٩١، ٢٩٢).

والميزانُ هو القَدْرُ المُشتَرَكُ، وهو الجامِعُ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ بِشارةٌ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلك، وهو يَعلَمُ أنَّ اللهَ مُنجِزٌ وَعْدَه، ولا يَزيدُ ذلك الكافِرينَ إلَّا غُرورًا، فلا يُعِيرُوه جانِبَ اهتمامِهم، وأخْذَ العُدَّةِ لِمُقاوَمتِه، كما قال تعالى في نحوِ ذلك: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾[٢] [الأنفال: ٤٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في اختِصاصِ السَّاعةِ بمَوعِدِهم، مع أنَّها مَوعِدُ كُلِّ أحَدٍ؟

**الجوابُ**: المَوعِدُ: الزَّمانُ الَّذي فيه الوَعدُ والوَعيدُ، والمؤمِنُ مَوعودٌ بالخَيرِ، ومأمورٌ بالصَّبرِ، فلا يقولُ هو: متى يكونُ؟ بل يُفَوِّضُ الأمرَ إلى اللهِ تعالى، وأمَّا الكافِرُ فغَيرُ مُصَدِّقٍ، فيقولُ: متى يكونُ العَذابُ؟ فيُقالُ له: اصبِرْ؛ فإنَّه آتٍ يومَ القيامةِ؛ ولهذا كانوا يقولونَ: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا ﴾ [ص: ١٦]، وقال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ﴾[٣] [الحج: ٤٧].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾ لَمَّا كانتْ دَعوةُ مُوسَى عليه السَّلامُ غيرَ مُوجَّهةٍ إلى أُمَّةِ القِبطِ، وغيرَ مُرادٍ منها التَّشريعُ لهم، ولكنَّها مُوجَّهةٌ إلى فِرعونَ وأهْلِ دَولتِه الَّذين بأيْدِيهم تَسييرُ أُمورِ المَمْلكةِ الفِرْعَونيَّةِ؛ ليَسمَحوا بإطلاقِ بني إسرائيلَ مِن الاستِعبادِ، ويُمكِّنوهم مِن الخُروجِ مع مُوسَى -خُصَّ بالنُّذرِ هنا آلُ فِرعونَ، أي: فِرْعونُ وآلُه؛ لأنَّه يَصدُرُ عن رأْيِهم، ألَا تَرى أنَّ فِرعونَ لم يَستأثِرْ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٢٢).

برَدِّ دَعوةِ مُوسى، بلْ قال لِمَن حولَه: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]، وقال: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]؟ ولذلك لم يكُنْ أُسلوبُ الإخبارِ عن فِرعونَ ومَن معه مُماثِلًا لأُسلوبِ الإخبارِ عن قَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وقَومِ لُوطٍ؛ إذ صُدِّرَ الإخبارُ عن أولئك بجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ﴾ [القمر: ٩، ١٨، ٢٣، ٣٣]، وخُولِفَ في الإخبارِ عن فِرعونَ، فصُدِّرَ بجُملةِ ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾، وإنْ كان مآلُ هذه الأخبارِ الخمْسةِ مُتماثلًا[١].

- وأيضًا الاكتفاءُ بذِكرِ آلِ فِرعونَ؛ للعِلمِ بأنَّ نفْسَه أَوْلى بذلكَ[٢].

- وصُدِّرتْ قِصَّتُهم بالتَّوكيدِ القَسَمِي؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بشأْنِها لِغايةِ عِظَمِ ما فيها مِن الآياتِ وكَثرتِها، وهَولِ ما لاقَوه مِنَ العَذابِ، وقوَّةِ إيجابِها للاتِّعاظِ[٣].

- والنُّذرُ: جمْعُ نَذيرٍ، اسمُ مَصْدرٍ بمعْنى الإنذارِ -على قولٍ-. ووجْهُ جمْعِه أنَّ مُوسى عليه السَّلامُ كرَّرَ إنذارَهم[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ استِئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نشَأَ مِن حِكايةِ مَجيءِ النُّذرِ؛ كأنَّه قِيلَ: فماذا فعَلوا حِينَئذٍ؟ فقيلَ: كذَّبُوا بجَميعِ آياتِنا[٥].

- أو جُملةُ ﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[٦] مِن جُملةِ ﴿جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٣).

(٦) البَدَلُ: هو التَّابعُ المقصودُ بحُكمٍ بلا واسِطةٍ، وهو أقسامٌ: بدَلُ كُلٍّ مِن كُلٍّ بأنِ اتَّحَدَا معنًى، نحو: =

لأنَّ مَجيءَ النُّذرِ إليهم مُلابِسٌ للآياتِ، وظُهورَ الآياتِ مُقارِنٌ لتَكذيبِهم بها، فمَجيءُ النُّذرِ مُشتمِلٌ على التَّكذيبِ؛ لأنَّه مُقارِنُ مُقارِنِه(١).

- وإسنادُ التَّكذيبِ إليهم بِناءً على ظاهِرِ حالِهم، وإلَّا فقدْ آمَنَ منهم رجُلٌ واحدٌ كما في سُورةِ (غافرٍ)، وأيضًا آسِيةُ امرأةُ فِرعونَ(٢).

- وتأْكيدُ (آيَاتِنَا) بـ﴿كُلِّهَا﴾ إشارةٌ إلى كثْرةِ الآياتِ، وأنَّهم لم يُؤمِنوا بشَيءٍ منها، وتَكذيبُهم بآيةِ انفِلاقِ البحْرِ تَكذيبٌ فِعْليٌّ؛ لأنَّ مُوسى لم يَتحَدَّهم بتلك الآيةِ، وقومُ فِرعونَ لَمَّا رَأَوا تلك الآيةَ عدُّوها سِحرًا، وتَوهَّموا البحرَ أرْضًا؛ فلم يَهتَدُوا بتلك الآيةِ(٣).

- وانتصَبَ ﴿أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ مُبيِّنًا لنَوعِ الأخْذِ بأفظَعِ ما هو مَعروفٌ للمُخاطَبينَ مِن أخْذِ المُلوكِ والجَبابرةِ(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ كالنَّتيجةِ لحاصِلِ القصصِ عن الأُمَمِ الَّتي كذَّبَتِ الرُّسلَ مِن قومِ نُوحٍ فمَن ذُكِرَ بعْدَهم؛ ولذلك فُصِلتْ ولمْ تُعطَفْ، وقد غُيِّرَ أُسلوبُ الكلامِ مِن كَونِه مُوجَّهًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى تَوجيهِه للمُشرِكين؛ ليُنتقَلَ عن التَّعريضِ إلى التَّصريحِ؛ اعتِناءً

---

= ﴿صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]. وبدَلُ بعضٍ إن دلَّ على بعضِ ما دلَّ عليه الأوَّلُ، نحو: مرَرْتُ بقَومِك ناسٍ منهم. وبدَلُ اشتِمالٍ إن دلَّ على معنًى في الأوَّلِ أو استَلْزَمَه فيه، كعَجِبتُ مِن زَيدٍ عِلمِه أو قراءتِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. يُنظر: ((همع الهوامع)) للسيوطي (٣/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بمَقامِ الإنذارِ والإبلاغِ[١].

- والاستِفهامُ يَجوزُ أنْ يكونَ على حَقيقتِه، ويكونَ مِن المُحسِّنِ البَديعيِّ المُسمَّى (سَوْقَ المَعلومِ مَساقَ غَيرِه)، أو (تَجاهُلَ العارِفِ)[٢]، وهو هنا للتَّوبيخِ، والتَّوبيخُ عن تَخطئتِهم في عدَمِ العَذابِ الَّذي حَلَّ بأمثالِهم حتَّى كأنَّهم يَحسَبون كُفَّارَهم خيرًا مِن الكُفَّارِ الماضينَ المُتحدَّثِ عن قَصَصِهم، أي: ليس لهم خاصيَّةٌ تَربَأُ بهم عن أنْ يَلحَقَهم ما لَحِقَ الكُفَّارَ الماضينَ، فما الَّذي طمْأَنَكم مِن أنْ يُصِيبَكم مِثلُ ما أصابَهم[٣]؟!

- وضَميرُ (كُفَّارُكُمْ) لأهلِ مكَّةَ، وهم أنفُسُهم الكُفَّارُ؛ فإضافةُ لَفظِ (كُفَّار) إلى ضَميرِهم إضافةٌ بَيانيَّةٌ؛ لأنَّ المُضافَ صِنفٌ مِن جِنسِ مَن أُضِيفَ هو إليه، فهو على تَقديرِ (مِن) البَيانيَّةِ، والمعْنى: الكُفَّارُ منكم خيرٌ مِن الكُفَّارِ السَّالِفينَ، أي: أأنتُم الكُفَّارُ خيرٌ مِن أولئك الكُفَّارِ[٤]؟!

- وقولُه: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ إضرابٌ وانتِقالٌ إلى تنكيتٍ آخَرَ، فكأنَّه قيل: بل أَلِكُفَّارِكم براءةٌ وأمْنٌ مِن تَبِعاتِ ما يَعمَلونَ مِن الكُفرِ والمعاصي، وغَوائِلِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩).

(٢) تَجاهُل العارِفِ: له عِدَّةُ تعريفاتٍ، وتَرجِعُ كلُّها إلى: سَوْقِ المعلومِ مَساقَ غيرِه لنُكتةٍ؛ فمِن تعريفاتِه: أنَّه سؤالُ المتكلِّمِ عمَّا يَعلمُه حقيقةً تجاهُلًا؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ. ومنها: أنَّه إخراجُ ما يَعرِفُ صِحَّتَه مخرَجَ ما يَشُكُّ فيه؛ ليَزيدَ بذلك تأكيدًا. وقيل: هو إخراجُ الكلامِ مخرجَ الشَّكِّ في اللَّفظِ دون الحقيقةِ؛ لضربٍ مِن المُسامَحةِ وحَسْمِ العِنادِ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٩٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٠).

في الكُتُبِ السَّماويَّةِ؛ فلذلك يُصِرُّونَ على ما هم عليه ولا يخافونَ[١]؟!

- وقدْ أفادَ هذا الكلامُ تَرديدَ النَّجاةِ مِن العَذابِ بيْنَ الأمْرَينِ: إمَّا الاتِّصافُ بالخَيرِ الإلهيِّ المُشارِ إليهِ بقَولِه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وإمَّا المُسامَحةُ والعفْوُ عمَّا يَقترِفُه المَرْءُ مِن السَّيِّئاتِ، والمعْنى انتفاءُ كِلا الأمْرَينِ عن المُخاطَبينَ؛ فلا مأْمَنَ لهم مِن حُلولِ العَذابِ بهم كما حلَّ بأمثالِهم. والآيةُ تُؤْذِنُ بارتقابِ عَذابٍ يَنالُ المُشرِكين في الدُّنيا دونَ العَذابِ الأكبرِ، وذلك عَذابُ الجُوعِ الَّذي في قولِه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، وعَذابُ السَّيفِ يومَ بدْرٍ الَّذي في قولِه: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾[٢] [الدخان: ١٦]. على قولٍ فيهما.

- وفي الآيةِ احتِباكٌ[٣]؛ فقد أثبَتَ الخَيريَّةَ أوَّلًا؛ دليلًا على حَذفِها ثانيًا، والبراءةَ ثانيًا؛ دليلًا على حَذْفِها أوَّلًا[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾

- (أَمْ) مُنقطِعةٌ لإضرابٍ انتِقاليٍّ، والاستِفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ (أَمْ) مُستعمَلٌ في تَوبيخِهم والإنكارِ عليهم أنْ يَقولوا ذلك، فإنْ كانوا قد صرَّحوا بذلك فظاهرٌ، وإنْ كانوا لم يُصرِّحوا به فهو إنباءٌ بأنَّهم سيَقولونَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١١).

(٣) تقدم تعريفه (ص: ١١٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٠).

(٥) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١١).

- وغُيِّرَ أُسلوبُ الكَلامِ مِن الخِطابِ المُوجَّهِ إلى المشركينَ بقولِه: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ ﴾ إلخ [القمر: ٤٣]، إلى أُسلوبِ الغَيبةِ الْتفاتًا ورُجوعًا إلى الأُسلوبِ الجاري مِن أوَّلِ السُّورةِ في قولِه: ﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ ﴾ [القمر: ٢]، بعْدَ أنْ قُضِيَ حقُّ الإنذارِ بتَوجيهِ الخِطابِ إلى المشركين في قولِه: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾[1] [القمر: ٤٣].

- والكلامُ بِشارةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَعريضٌ بالنِّذارةِ للمُشرِكين، مَبْنيٌّ على أنَّهم تُحدِّثُهم نُفوسُهم بذلك، وأنَّهم لا يَحسَبونَ حالَهم وحالَ الأُمَمِ الَّتي سِيقَت إليهم قصَصُها مُتساويةً، أي: نحن مُنتصِرونَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه ليس رسولَ الله، فلا يُؤيِّدُه اللهُ، والمعْنى: بلْ أيَدَّعونَ أنَّهم يُغالِبونَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأصحابَه، وأنَّهم غالِبُوهم؛ لأنَّهم جَميعٌ لا يُغلَبونَ؟! وتَغييرُ أُسلوبِ الكَلامِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ مُشعِرٌ بأنَّ هذا هو ظَنُّهم واغترارُهم[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ جَوابٌ عن قولِهم: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾، وردٌّ وإبطالٌ لقولِهم؛ فلذلك لم تُعطَفِ الجُملةُ على الَّتي قبْلَها[3].

- والسِّينُ في ﴿ سَيُهْزَمُ ﴾ لتَقريبِ المُستقبَلِ، وللتَّأكيدِ، أي: يُهزَمُ جمْعُهم ألْبتَّةَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

- وبُنِيَ الفِعلُ ﴿ سَيُهۡزَمُ ﴾ للمَجهولِ؛ لظُهورِ أنَّ الهازِمَ المُسلِمونَ[١].

- قولُه: ﴿وَيُوَلُّونَ ﴾، أي: يَجعَلونَ غيرَهم يَلِي، فهو يَتعدَّى بالتَّضعيفِ إلى مَفعولَينِ، وقد حُذِفَ مَفعولُه الأوَّلُ هنا للاستِغناءِ عنه؛ إذ الغرَضُ الإخبارُ عنهم بأنَّهم إذا جاء الوغَى[٢] يَفِرُّون ويُوَلُّونكم الأدبارَ[٣].

- وأُفرِدَ ﴿ٱلدُّبُرَ ﴾ والمُرادُ الجمْعُ؛ لأنَّه جِنسٌ يَصدُقُ بالمُتعدِّدِ، أي: يُولِّي كلُّ أحدٍ منهم دُبُرَه؛ وذلك لرِعايةِ الفاصلةِ، ومُزاوَجةِ القرائنِ، على أنَّ انهزامَ الجمْعِ انهزامةٌ واحدةٌ، ولذلك الجيشِ جِهةُ تَولٍّ واحِدةٌ[٤].

- وأيضًا فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث أُفرِدَ ﴿ٱلدُّبُرَ ﴾ هنا وجُمِعَ في غيرِه؛ لأنَّ الجمْعَ هو الأصلُ؛ لأنَّ الضَّميرَ يَنوبُ مَنابَ تَكرارِ العاطفِ؛ فكأنَّه قِيل: تولَّى هذا وهذا، وأُفرِدَ لمُناسَبةِ المقاطعِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ جَميعَهم يَكونون في الانهزامِ كشخصٍ واحدٍ، وأمَّا قولُه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾ [الأنفال: ١٥] فجمْعٌ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ برَأْسِه مَنهيٌّ عن توليةِ دُبرِه، ثمَّ جمَع الفعلَ بقولِه: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ﴾ ولا يتمُّ إلَّا بقولِه: ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿ وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ﴾ [الأحزاب: ١٥]، أي: كلُّ واحدٍ قال: أنا أثْبُتُ ولا أُوَلِّي دُبُري[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٢) الوَغَى: الجَلبةُ والأصواتُ، وتُطلَقُ على الحربِ نفْسِها، وقيل للحربِ: وَغًى؛ لِما فيها مِن الصَّوتِ والجَلَبةِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٨/ ١٨٩)، ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٥٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٧٧).

٦- قولُه تعالَى: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾

- (بَل) للإضرابِ الانتِقاليِّ، وهو انتقالٌ مِن الوَعيدِ بعَذابِ الدُّنيا كما حلَّ بالأُمَمِ قبْلَهم إلى الوعيدِ بعَذابِ الآخرةِ، وعَذابُ الآخرةِ أعظَمُ؛ فلذلك قال: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾، وقال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ ﴾ [طه: ١٢٧]، وفي الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰ ﴾[1] [فصلت: ١٦].

- والمَوعِدُ: وقْتُ الوَعْدِ، وهو هنا وعْدُ سُوءٍ، أي: وَعيدٌ، وهذا إجمالٌ بالوَعيدِ، ثمَّ عُطِفَ عليه ما يُفصِّلُه، وهو: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾، ووجْهُ العَطْفِ أنَّه أُرِيدَ جَعْلُه خَبرًا مُستقِلًّا[2].

- وأُعِيدَ اسمُ السَّاعةِ دونَ أنْ يُؤتَى بضَميرِها؛ لقصْدِ التَّهويلِ، ولتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بنفْسِها؛ فتَسيرَ مَسيرَ المَثَلِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٤).

## الآيات (٤٧-٥٥)

﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَسَّ﴾: أي: إصابةَ وألَمَ، وأصلُ (مسس): يدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[١].

﴿سَقَرَ﴾: أي: جَهنَّمَ، وهي عَلَمٌ مُشتَقٌّ مِنَ السَّقْرِ: وهو التِهابُ النَّارِ، وأصلُ (سقر): يدُلُّ على إحراقٍ[٢].

﴿بِقَدَرٍ﴾: أي: بقَضاءٍ مَعلومٍ سابِقٍ في الأزَلِ، وبتَقديرٍ وحِكمةٍ، أو: بمِقدارٍ قدَّرْناه وقضَيْناه، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه[٣].

﴿كَلَمْحٍ﴾: أي: كخَطْفةٍ، واللَّمحُ: النَّظرُ بسُرعةٍ، وأصلُ ذلك مِن لَمَحْتُ البَرقَ، أي: أبصرتُ لَمعانَه، وهو أسرَعُ الأشياءِ زَوالًا[٤].

﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾: أي: أشباهَكم ونُظراءَكم في الكُفرِ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، وأصلُ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٩٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٤٠).

(شيع): يدُلُّ على مُعاضَدةٍ[١].

﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾: أي: مَكتوبٌ مَسطورٌ، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على الاصطفافِ[٢].

﴿وَنَهَرٖ﴾: أي: أنهارٍ، وحَّدَ وأراد الجَمْعَ، والنَّهْرُ: مَجرى الماءِ؛ وسُمِّيَ نهْرًا لأنَّه يَنهَرُ الأرضَ، أي: يَشُقُّها، وأصلُه يدُلُّ على تفتُّحٍ شَيءٍ أو فَتْحِه[٣].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾

قَولُه تعالى: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾: ﴿كُلَّ﴾: مَنصوبٌ على الاشتِغالِ[٤]؛ مَفعولٌ به لِفعلٍ مَحذوفٍ تقديرُه «خلَقْنا» يُفَسِّرُه ما بَعْدَه، والفِعلُ المقدَّرُ مع مَفعولِه في محلِّ رَفعٍ خَبَرُ «إنَّ»، أي: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ شَيءٍ بقَدَرٍ. ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ جُملةٌ تَفسيريَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. ﴿بِقَدَرٖ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ حالٌ، أي: مُقَدَّرًا مُحكَمًا، أو مُلتَبِسًا بقَدَرٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥).

قال الكفوي: (كلُّ اسْمٍ على «فَعْلٍ» عَينُه حَرفُ حَلقٍ: يَجوزُ تَسكينُ عَينِه وفَتحُه؛ كشَهْرٍ، ونَهْرٍ، وشَعْرٍ، ونَحْرٍ، إلَّا «نَحْو»؛ فإنَّه لا يجوزُ فتْحُ عَينِه). ((الكليات)) (ص: ٩٩٦).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٠٠).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٠٢)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٧٠٢)، ((إعراب القرآن)) للباقولي (٣/ ٩٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩٣).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا ما سينزِلُ بالمشركينَ مِن عذابٍ يومَ القيامةِ، ومفصِّلًا في ذلك: إنَّ المُشرِكينَ في ضَلالٍ وفي عَناءٍ وشَقاءٍ وعَذابٍ يومَ يُسحَبونَ في النَّارِ على وُجوهِهم، ويُقالُ لهم: ذُوقوا ألَمَ النَّارِ وعَذابَها.

ثمَّ يبيِّنُ تعالى مَظاهِرَ كمالِ قدرتِه وحِكمتِه، فيقولُ: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ شَيءٍ بقَضاءٍ سابِقٍ مُحكَمٍ، وما أمْرُنا إذا أرَدْنا شَيئًا إلَّا كَلِمةٌ واحِدةٌ -كُنْ- فيُوجَدُ ما أرَدْناه كلَمْحِ البَصَرِ!

ثمَّ يبيِّنُ تعالى ما يدُلُّ على نفاذِ هذه القدرةِ وسرعتِها، فيقولُ: ولقد أهلَكْنا أشباهَكم وأمثالَكم في الكُفرِ -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي كفَرَت باللهِ، وكَذَّبت رُسُلَها، فهل مِن مُتذَكِّرٍ مُعتَبِرٍ بإهلاكِ اللهِ للكُفَّارِ السَّابِقينَ؛ فيَحذَرَ أن يحُلَّ به ما حَلَّ بهم؟!

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ أعمالَ الإنسانِ مسجلةٌ عليه، فيقولُ: وكُلُّ شَيءٍ فَعَلوه موجودٌ في صحائفِ أعمالِهم الَّتي تُحصِيها الملائِكةُ عليهم، وكُلُّ صَغيرٍ وكَبيرٍ مِنَ الأشياءِ مَكتوبٌ مَسطورٌ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ ببِشارةٍ عظيمةٍ للمتَّقينَ، فيقولُ: إنَّ المتَّقينَ في جَنَّاتٍ وأنهارٍ؛ في مَجلِسِ حَقٍّ ثابتٍ، كامِلٍ في نَعيمِه، عِندَ مَلِكٍ عَظيمٍ بالِغِ القُدرةِ سُبحانَه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ٤٧ ﴾.

أي: إنَّ المُشرِكينَ في ضَلالٍ، وفي عَناءٍ وشَقاءٍ وعَذابٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير =

= القرطبي)) (١٧/ ١٤٧)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

قال ابن عطيَّة: (وأكثرُ المفسِّرينَ على أنَّ المجرمِينَ هنا يُرادُ بهم الكفَّارُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢١).

قيل: المرادُ: أنَّ المُشرِكينَ في ضَلالٍ عن الهدى في الدُّنيا، وفي عذابِ السَّعيرِ والاحتِراقِ بالنَّارِ في الآخِرةِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: السمرقنديُّ، وابنُ عطية، والبيضاوي، وابن جُزَي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

ممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بالسُّعُرِ: النَّارُ الَّتي تُسعَرُ عليهم: الضَّحَّاكُ، والحُسينُ بنُ الفضلِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٢٧).

وذكر الرَّازيُّ احتِمالَ الجَمعِ بيْنَ الأمْرَينِ في الدُّنيا، أي: هم في الدُّنيا في ضلالٍ وجنونٍ، لا يعقلونَ ولا يَهْتَدونَ، وعلى هذا فقولُه: ﴿يُسْحَبُونَ﴾ بَيانُ حالِهم في تلك الصُّورةِ، قال: (وهو أقرَبُ).

وذكر أيضًا احتمالَ الجمعِ في الآخرةِ، أي: هم في ضلالِ الآخرةِ وسُعُرٍ أيضًا؛ أمَّا السُّعُرُ فكَونُهم فيها ظاهِرٌ، وأمَّا الضَّلالُ فلا يَجِدونَ إلى مَقصدِهم أو إلى ما يصلُحُ مقصدًا وهم مُتحَيِّرونَ سَبيلًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٢٥).

وقال ابن كثير: (يخبِرُنا تعالى عن المجرمينَ أنَّهم في ضَلالٍ عن الحقِّ، وسُعُرٍ ممَّا هم فيه من الشُّكوكِ والاضْطِرابِ في الآراءِ، وهذا يَشمُلُ كلَّ مَنِ اتَّصَف بذلك مِن كافرٍ ومُبتَدِعٍ مِن سائرِ الفِرَقِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٢).

وقيل: المرادُ: في شَقاءٍ وعَناءٍ. وممَّن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٤).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بالسُّعُرِ العَناءُ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩).

وقال ابن جرير: (﴿وَسُعُرٍ﴾ يقولُ: في احْتِراقٍ مِن شِدَّةِ العَناءِ والنَّصَبِ في الباطِلِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩).

وقال ابنُ عاشور: (الضَّلالُ يُطلَقُ على ضِدِّ الهُدى، ويُطلَقُ على الخُسرانِ، وأكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ به هنا المعنى الثَّاني؛ فعن ابنِ عبَّاسٍ: المرادُ: الخُسرانُ في الآخرةِ؛ لأنَّ الظَّاهِرَ =

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ﴾.

أي: يومَ يُجَرُّ أولئك المُجرِمونَ في النَّارِ على وُجوهِهم الَّتي هي أشرَفُ أعضائِهم الظَّاهِرةِ، فيُهانونَ بذلك ويُخْزَونَ[1]!

﴿ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾.

أي: يُقالُ لهم: ذُوقوا ألَمَ النَّارِ وعَذابَها[2].

قال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۞ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۞ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۞ عَلَيْهَا تِسْعَةَ

---

= أنَّ ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ ﴾ ظَرفٌ للكَونِ في ضَلالٍ وسُعُرٍ، على نحوِ قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۞ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات: ٦ - ٨]، وقَولِه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴾[القصص: ٤٢]، فلا يُناسِبُ أن يكونَ الضَّلالُ ضِدَّ الهُدى. ويجوزُ أن يكونَ ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ ظَرفًا للكَونِ الَّذي في خَبَرِ إنَّ، أي: كائِنونَ في ضَلالٍ وسُعُرٍ يومَ يُسحَبونَ في النَّارِ، فالمعنى: أنَّهم في ضَلالٍ وسُعُرٍ يومَ القيامةِ). (٢٧/ ٢١٥).

وقال ابنُ عثيمين: (يحتَمِلُ أنَّ قَولَه: ﴿فِي ضَلَـٰلٍ﴾ أي: في ضَلالٍ عن الطَّريقِ الَّذي يَهتَدونَ به إلى الجنَّةِ؛ لأنَّهم ضَلُّوا في الدُّنيا، فضَلُّوا في الآخِرةِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

قال الشوكاني: (الظَّرفُ [يومَ] مُنْتَصِبٌ بما قبلَه، أي: كائِنونَ ﴿فِي ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ۞ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾، أو بقولٍ مُقَدَّرٍ بعدَه، أي: ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ ﴾ يُقالُ لهم: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩١).

قال ابنُ جرير: (وأمَّا سَقَرُ فإنَّها اسمُ بابٍ مِن أبوابِ جَهنَّمَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٥٩).

وقال القرطبي: (﴿سَقَرَ﴾ اسمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ لا يَنصَرِفُ... وقال عَطاءٌ: ﴿سَقَرَ﴾ الطَّبَقُ السَّادِسُ مِن جَهنَّمَ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٧).

عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦ - ٣٠].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء مُشرِكو قُرَيشٍ يُخاصِمونَ رَسولَ اللهِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في القَدَرِ، فنَزَلَت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ * إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾))[1].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ شَيءٍ بقَضاءٍ سابِقٍ مَضبوطٍ مُحكَمٍ[2].

عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٦-٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٢).

قال ابن جُزَي: (بقضاءٍ معلومٍ سابقٍ في الأزَلِ، ويحتملُ أن يكونَ معنَى ﴿بِقَدَرٍ﴾: بمِقْدارٍ في هيئتِه وصِفَتِه وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٦).

وقال السعدي: (بقضاءٍ سبَقَ به عِلمُه، وجرى به قلَمُه، بوقتِها ومِقْدارِها، وجميعِ ما اشتملَتْ عليه مِن الأوصافِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨).

وقال ابن جرير: (بمِقْدارٍ قدَّرْناه وقضَيْناه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٠).

وقال الألوسي: (﴿بِقَدَرٍ﴾ أي: مُقَدَّرًا مَكتوبًا في اللَّوحِ قبْلَ وُقوعِه؛ فالقَدَرُ بالمعنى المشهورِ الَّذي يُقابِلُ القَضاءَ، وحَمْلُ الآيةِ على ذلك هو المأثورُ عن كثيرٍ مِن السَّلَفِ... وجُوِّزَ كَونُ المعنى: إنَّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقْناه مُقَدَّرًا مُحكَمًا مُستوفًى، فيه مُقتَضى الحِكمةِ الَّتي يدورُ عليها أمرُ التَّكوينِ؛ فالآيةُ مِن بابِ ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٩٣).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((كَتَب اللهُ مَقاديرَ الخَلائِقِ قبْلَ أن يَخلُقَ السَّمَواتِ والأرضَ بخَمسينَ ألْفَ سَنةٍ، وعَرشُه على الماءِ))(١).

وعن طاوسٍ، قال: أدرَكْتُ ناسًا مِن أصحابِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولونَ: كُلُّ شَيءٍ بقَدَرٍ، قال: وسَمِعتُ عبدَ اللهِ بنَ عُمَرَ يَقولُ: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كُلُّ شَيءٍ بقَدَرٍ، حتَّى العَجْزُ والكَيْسُ(٢))(٣).

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ تعالى أنَّ كُلَّ شَيءٍ بفِعْلِه؛ بَيَّن يُسْرَ ذلك وسُهولتَه عليه، فقال(٤):

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠﴾.

أي: وما أمْرُنا إذا أرَدْنا شَيئًا إلَّا أن نَقولَ له مَرَّةً واحِدةً: كُنْ، فيُوجَدُ ما أرَدْناه كسُرعةِ اللَّمْحِ بالبَصَرِ بلا تأخيرٍ(٥)!

قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

(٢) الكَيْسُ: ضِدُّ العَجْزِ، وهو النَّشاطُ والحِذقُ بالأمورِ، ومعناه: أنَّ العاجزَ قد قُدِّر عَجْزُه، والكَيِّسَ قد قُدِّر كَيْسُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ٢٠٥).

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٩)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٤).

قال ابن كثير: (هو إخبارٌ عن نُفوذِ مَشيئتِه في خَلْقِه، كما أخبَرَ بنُفوذِ قَدَرِه فيهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٥، ٤٨٦).

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ بتَمامِ قُدرتِه، وكان إهلاكُ مَن ذُكِرَ مِن الكُفَّارِ، وإنجاءُ مَن ذُكِرَ مِن الأبرارِ في هذه السُّورةِ نَحوًا مِمَّا ذُكِرَ مِن أَمرِ السَّاعةِ في السُّهولةِ والسُّرعةِ- دَلَّ على ذلك بإنجاءِ أوليائِه، وإهلاكِ أعدائِه؛ فذَكَّرَ بهم جُملةً، وبما كان مِن أحوالِهم[1].

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ ﴾.

أي: ولقد أهلَكْنا أشباهَكم وأمثالَكم في الكُفرِ -يا مَعشَرَ قُرَيشٍ- مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي كفَرَت باللهِ، وكَذَّبت رُسُلَها[2].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ﴾ [سبأ: ٥٤].

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾.

أي: فهل مِن مُتذَكِّرٍ يَعلَمُ أنَّ سُنَّةَ اللهِ في الأوَّلينَ والآخِرينَ واحِدةٌ، ويتَّعِظُ ويَعتَبِرُ بإهلاكِ اللهِ للكُفَّارِ السَّابِقينَ، فيَحذَرَ أن يكونَ مِثْلَهم[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٤).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: فكما أهلَكْنا أشياعَكم نُهلِكُكم، وكذلك كان؛ فإنَّ المُشرِكينَ لَمَّا حَلُّوا ببَدرٍ وهم أوفَرُ عَدَدًا وعُدَدًا، كانوا واثِقينَ بأنَّهم مُنقِذونَ عِيرَهم، وهازِمونَ المُسلِمينَ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٥).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ۞ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ۞ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [المرسلات: ١٦ - ١٨].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تَمَّت الدَّلالةُ على إحاطةِ القُدرةِ بما شُوهِدَ مِن الأفعالِ الهائِلةِ الَّتي لا تَسَعُها قُدرةُ غَيرِه سُبحانَه، وكانوا يَظُنُّونَ أنَّ أحوالَه غَيرُ مَضبوطةٍ؛ لأنَّه لا يُمكِنُ ضَبطُها، ولا يَسَعُها عِلمُ عالمٍ، ولا سيَّما إذا ادَّعى أنَّه واحِدٌ؛ شَرَع في إتمامِ الإخبارِ بعَظَمةِ القدرةِ، بالإخبارِ بأنَّ أفعالَهم كُلَّها مكتوبةٌ، فَضلًا عن كَونِها محفوظةً؛ فقال[1]:

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ۝٥٢﴾

أي: وكُلُّ شَيءٍ فَعَلوه موجودٌ في الصَّحائِفِ والدَّواوينِ الَّتي تُحصِي الحَفَظةُ مِنَ الملائكةِ أعمالَهم فيها[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٦).

قال ابنُ عثيمين: (﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾ أي: فعَلَتْه الأُمَمُ السَّابِقةُ، أو الأُمَمُ اللَّاحِقةُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٥).

وممَّن قال بأنَّ الزُّبُرَ هنا: صحائِفُ الأعمالِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابن كثير، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: الزُّبُرُ: اللَّوحُ المحفوظُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٥).

قال ابنُ عثيمين: (﴿فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: في الكُتُبِ، وكِتابةُ الأعمالِ كِتابةٌ سابِقةٌ، وكِتابةٌ =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا خَصَّهم عَمَّ بقَولِه -واعِظًا ومُخَوِّفًا ومُحَذِّرًا- بأنَّ كُلَّ شَيءٍ مَحفوظٌ فمَكتوبٌ فمَعروضٌ على الإنسانِ يومَ الجَمعِ[1]:

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: وكُلُّ صَغيرٍ وكَبيرٍ مِنَ الأشياءِ مَكتوبٌ مَسطورٌ[2].

---

= لاحِقةٌ، والكِتابةُ السَّابِقةُ معناها أنَّ اللهَ سَبحانَه وتعالى كَتَب في اللَّوحِ المحفوظِ كُلَّ شَيءٍ... أمَّا الكِتابةُ اللَّاحِقةُ فهي أنَّ اللهَ سُبحانه وتعالى إذا عَمِلَ الإنسانُ عَمَلًا كَتَبَه؛ قال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۞ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ [الانفطار: ٩ - ١١]). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٥، ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٧).

قيل: مَسطورٌ في اللَّوحِ المحفوظِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: السمرقنديُّ، والسمعاني، والزمخشري، والبيضاوي، والنيسابوري، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٧).

قال السعدي: (﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: كلُّ ما فعلوه مِن خَيرٍ وشرٍّ مكتوبٌ عليهم في الكُتبِ القَدَريَّةِ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: مُسطَّرٌ مكتوبٌ، وهذا حقيقةُ القَضاءِ والقدَرِ، وأنَّ جميعَ الأشياءِ كلِّها، قد عَلِمَها اللهُ تعالى، وسَطرها عندَه في اللَّوحِ المحفوظِ، فما شاء اللهُ =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه- في جَنَّاتٍ وأنهارٍ جاريةٍ فيها[1].

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾.

---

= كان، وما لم يشَأْ لم يكُنْ، فما أصاب الإنسانَ لم يكُنْ لِيُخْطِئَه، وما أخطأه لم يكُنْ لِيُصيبَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨).

وقيل: مُسَطَّرٌ في صحائِفِهم. وممَّن قال بهذا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٦).

قال الزَّجَّاج: (المعنى: كلُّ صغيرٍ مِن الذُّنوبِ وكبيرٍ مُستطَرٌ مَكتوبٌ على فاعِليه قبْلَ أن يَفعلوه، ومكتوبٌ لهم وعليهم إذا فعَلوه؛ لِيُجازَوْا على أفعالِهم). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٨).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ في نعيمِ جَنَّاتٍ ونَهَرٍ؛ فإنَّ للجَنَّاتِ والأنهارِ لذَّاتٍ مُتعارَفةً مِنَ اللَّهوِ والأُنسِ والمحادَثةِ، واجتِناءِ الفواكِهِ، ورؤيةِ جَرَيانِ الجَداولِ، وخَريرِ الماءِ، وأصواتِ الطُّيورِ، وألوانِ السَّوابِحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤).

أي: في مَجلِسِ حَقٍّ، ثابتٍ لا يَزولُ، كامِلٍ في نَعيمِه، لا باطِلَ فيه ولا لَغْوَ ولا آثامَ[١].

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

أي: عِندَ مَلِكٍ عَظيمٍ تامِّ المُلْكِ، بالِغِ القُدرةِ على كلِّ شَيءٍ، وهو اللهُ سُبحانَه وتعالى[٢]!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ دَليلٌ على أنَّ الإنسانَ مَخلوقٌ للهِ تعالى، وأنَّ أفعالَه مخلوقةٌ للهِ، وأنَّ كلَّ شيءٍ قد قُدِّرَ وانتهى، وإذا كان كذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩-٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٥، ٢٢٦).

وقيل: مَقعَدُ الصِّدقِ: هو الجنَّةُ. وممَّن قال بهذا القَولِ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والقرطبي، وابن القيم، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٦).

قال الثعلبي: (﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مجلِسِ حقٍّ، لا لَغْوَ فيه ولا مأثَمَ، وهو الجنَّةُ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٤).

وقال السمرقندي: (﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ يعني: في أرضٍ كريمةٍ. ويُقالُ: في مجلِسٍ حسَنٍ، وهي أرضُ الجنَّةِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٧).

وذكَر ابنُ القيِّمِ أنَّ وصفَ المقعدِ وغيرِه بالصِّدقِ (مستلزمٌ ثبوتَه واستقرارَه -وأنَّه حقٌّ-، ودوامَه ونفعَه، وكمالَ عائدتِه؛ فإنَّه متَّصِلٌ بالحقِّ سبحانَه، كائنٌ به وله، فهو صِدقٌ غيرُ كذبٍ، وحقٌّ غيرُ باطلٍ، ودائمٌ غيرُ زائلٍ، ونافعٌ غيرُ ضارٍّ، وما للباطلِ ومتعلقاتِه إليه سبيلٌ ولا مدخلٌ). ((مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين)) (٢/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٣٧).

فلْيَلْجأِ الإنسانُ إذا أصابتْه ضَرَّاءُ إلى اللهِ الخالقِ، وإذا أراد السَّرَّاءَ أيضًا يلتجِئُ إلى اللهِ الخالقِ، لا يَفْخَرَنَّ ويُعْجَبَنَّ بنَفْسِه إذا حَصَلَ له مطلوبٌ، ولا ييأسَنَّ إذا أصابَه المكروبُ؛ فالأمرُ بيدِ اللهِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أنَّه يَجبُ الحذَرُ مِن المخالفةِ؛ فإيَّاك أنْ تُخالِفَ بقَولِك، أو فِعْلِك، أو تَرْكِك؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ مَكتوبٌ[٢]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أنَّ الضَّلالَ والشَّقاءَ مُتلازِمانِ، لا يَنفكُّ أحدُهما عن الآخَرِ[٣].

٢- قَول الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ نصٌّ في أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى خالقُ كُلِّ شيءٍ، ومُقَدِّرُه[٤].

فالآية حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ؛ لأنَّ أفعالَنا شَيءٌ، فتكونُ داخِلةً في كُلِّ شَيءٍ، فتكونُ مَخلوقةً للهِ تعالى[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ الرَّدُّ على القَدَرِيَّةِ الَّذين يُنكِرونَ أنَّ اللهَ تعالى يشاءُ أفعالَ العِبَادِ، ويقولونَ: إنَّ الإنسانَ خالِقُ عَمَلِه، مُريدٌ له، مُستَقِلٌّ به، وأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لا إرادةَ له به[٦]؛ فإنَّ قَولَه تعالى: ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٤٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٢٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٩٣).

يعني: من الأشياءِ المخلوقةِ -صَغيرِها وكَبيرِها- ﴿خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي: قَضاءٍ وحُكمٍ وقياسٍ مَضبوطٍ، وقِسمةٍ مَحدودةٍ، وقوَّةٍ بالِغةٍ، وتدبيرٍ مُحكَمٍ، في وَقتٍ مَعلومٍ، ومكانٍ مَحدودٍ، مكتوبٌ ذلك في اللَّوحِ قبلَ وُقوعِه(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ * وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أنَّ خَلْقَ اللهِ تعالى الأشياءَ مُصاحِبٌ لقوانينَ جاريةٍ على الحِكمةِ، وهذا المعنى قد تكَرَّرَ في القُرآنِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، ومِمَّا يَشملُه عُمومُ كُلِّ شَيءٍ خَلقُ جَهنَّمَ للعَذابِ، وفيه إحاطةُ عِلمِ اللهِ تعالى بكُلِّ مَوجودٍ، وإيجادُ الموجوداتِ بحِكمةٍ، وصُدورُها عن إرادةٍ وقُدرةٍ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أنَّ كلَّ شيءٍ وَقَعَ في السَّمَواتِ والأرضِ فإنَّه مُطابِقٌ لعِلْمِه السَّابقِ، ولِمَا كَتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى إذا أَمَرَ بشَيءٍ كَونًا فإنَّه لا يُعيدُ الأمرَ مرَّةً ثانيةً، بل يكونُ الشَّيءُ بأوَّلِ أمْرٍ، والَّذي يُعيدُ الأمرَ والكَلامَ هو العاجِزُ، وأمَّا القادِرُ فلا يُعيدُه(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ دَلالةٌ على كَمالِ قُدرةِ الله عزَّ وجلَّ، وأنَّ أمْرَه التَّكوينيَّ كَلِمةٌ واحِدةٌ، وقد يُورَدُ على المَرءِ سؤالٌ: لماذا خَلَقَ اللهُ تعالى السَّمواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيامٍ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [ق: ٣٨]؟ وهل هذا يُنافي قَولَه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٧، ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة يس)) (ص: ١٩١).

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾؟ ولماذا يَخلُقُ الجنينَ في بطْنِ أمِّه لمدَّةِ تِسعةِ أشهُرٍ، وما أشْبَهَ ذلك؟

**الجوابُ**: أنَّ أفعالَه سُبحانَه مَقرونةٌ بحِكمةٍ، وأنَّه سُبحانَه وتعالى جَعَل الأسبابَ مَربوطةً بمُسبَّباتِها؛ فلا بُدَّ مِن أنْ يكونَ هناك سَبَبٌ، ويَنتُجَ عنه مُسبَّبٌ، ولا بُدَّ مَن أنْ يكونَ هذا السَّببُ مُطابِقًا مُوافِقًا؛ حتَّى يَتِمَّ الخَلقُ على كَمالِه، فهذا الخَلقُ يحتاجُ إلى مُقدِّماتٍ وأسبابٍ يَحصُلُ بها كَمالُ الخَلقِ، فاللهُ سُبحانَه وتعالى قادِرٌ على أن يَخلُقَ الجَنينَ في بَطنِ أُمِّه بدونِ أنْ يَتناوَلَها الرَّجُلُ -كما حَصَلَ في عيسى عليه السَّلامُ- ومع هذا فإنَّ اللهَ تعالى قد جعَلَ لهذا أسبابًا: اتِّصالُ ماءِ الرَّجُلِ بالمرأةِ، ثمَّ بعدَ ذلك الجنَينُ يَتطوَّرُ شيئًا فشيئًا حتَّى يَصِلَ إلى الغايةِ، ثمَّ إذا كان قابِلًا لأنْ يَخرُجَ إلى الدُّنيا خرَجَ، ثمَّ مع ذلك يَنمو شيئًا فشيئًا، لا يأتيه العَقلُ كامِلًا دَفعةً واحِدةً، ولا يأتيه النُّمُوُّ دَفعةً واحِدةً، ولكِنَّه على وَفْقِ الحِكمةِ، كما قال تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ [الزمر: ٦]؛ فكُلُّ خَلقٍ منها يَحصُلُ بكَلِمةٍ واحِدةٍ كلَمحِ البَصَرِ، على أنَّ بَعضَ المخلوقاتِ تتولَّدُ منه أشياءُ وآثارٌ، فيُعتبَرُ تَكوينُه عندَ إيجادِ أوَّلِه[1]. ومِن جِهةٍ ثانيةٍ: أنَّه سُبحانَه أراد أن يُعَلِّمَ خَلْقَه التَّمَهُّلَ في الأُمورِ، والتَّدَرُّجَ فيها[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ﴾ تعميمٌ للحُكمِ، أي: ليست الكِتابةُ مُقتَصِرةً على ما فَعَلوه، بل ما فعَلَه غَيرُهم أيضًا مَسطورٌ؛ فلا يَخرُجُ عن الكُتُبِ صَغيرةٌ ولا كبيرةٌ[3].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٞ﴾ أنَّ الذُّنوبَ في نفْسِها تنَقسِمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٠).

إلى كبائرَ وصغائرَ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ سؤالٌ: أنَّه ذَكَر هنا نَهرًا واحِدًا، وفي مَواضِعَ أُخَرَ ذَكَرَ أنهارًا.

**الجوابُ**: أنَّ الإفرادَ باعتِبارِ الجِنسِ؛ فلا يُنافي التَّعَدُّدَ، فالمرادُ جِنسُ الأنهارِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ لم يقُلْ: «في مَجلِسِ صِدقٍ»؛ لأنَّ القُعودَ جُلوسٌ فيه مُكثٌ، ومنه: «قواعِدُ البَيتِ»، ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النور: ٦٠]، ولا يُقالُ: «جوالِسُ»، فأشار إلى دَوامِه وثَباتِه، ولأنَّ حُروفَ «ق ع د» كيف دارت تدُلُّ على ذلك، والاستِعمالُ في القُعودِ يدُلُّ على ذلك، ومنه: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ٩٥]، وقَولُه: ﴿مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إشارةً إلى الثَّباتِ، وكذا قَولُه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧]، فذَكَر المَقعَدَ؛ لِدَوامِه أو لطُولِه، وقال في المجلِسِ: ﴿تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: ١١] إشارةً إلى الحَرَكةِ، وقال: ﴿ٱنشُزُوا۟﴾ [المجادلة: ١١] إشارةً إلى تَركِ الجُلوسِ، أي: هو مَجلِسٌ؛ فلا يَجِبُ مُلازَمتُه، بخِلافِ المَقعَدِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ إشارةٌ إلى مُخالَفةِ مَعنى القُربِ منه مِن معنى القُربِ مِن الملوكِ؛ فإنَّ الملوكَ يُقَرِّبونَ مَن يكونُ مِمَّن يُحِبُّونَه، ومِمَّن يَرهَبونَه؛ مخافةَ أن يَعصَوا عليه، ويَنحازُوا إلى عَدُوِّه فيَغلِبوه، واللهُ تعالى قال:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٨٦).

قال ابن عاشور: (﴿وَنَهَرٍ﴾: -بفتحتَينِ- لغةٌ في نَهْرٍ -بفَتحٍ فسُكونٍ-، والمرادُ به: اسمُ الجِنسِ الصَّادِقُ بالمتعَدِّدِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الكهف: ٣١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٨٨).

﴿مُّقۡتَدِرٖ﴾ لا يُقَرِّبُ أحَدًا إلَّا بفَضلِه[١]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۞ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ بَيانٌ لقولِه: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦]. واقترانُ الكلامِ بحرْفِ (إنَّ) لفائدتَينِ؛ إحداهُما: الاهتِمامُ بصَريحِه الإخباريِّ. وثانِيهما: تأْكيدُ ما تَضمَّنَه مِن التَّعريضِ بالمُشرِكين؛ لأنَّ الكلامَ وإنْ كان مُوجَّهًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو لا يَشُكُّ في ذلك، فإنَّ المُشرِكين يَبلُغُهم ويَشيعُ بيْنَهم وهم لا يُؤمِنون بعَذابِ الآخرةِ، فكانوا جَديرين بتأْكيدِ الخبَرِ في جانبِ التَّعريضِ؛ فتَكونُ (إنَّ) مُستعمَلةً في غرَضَيها مِن التَّوكيدِ والاهتمامِ[٢].

- والتَّعبيرُ بالمُجرمينَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإلْصاقِ وصْفِ الإجرامِ بهم[٣].

- و(سُعُر) جمْع سَعيرٍ، وهو النَّارُ، وجُمِعَ السَّعيرُ؛ لأنَّه قَويٌّ شَديدٌ[٤]، وذلك على قول في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ السَّحْبُ: الجَرُّ، وهو في النَّارِ أشدُّ مِن مُلازَمةِ المكانِ؛ لأنَّه به يَتجدَّدُ مُماسَّةُ نارٍ أُخرى؛ فهو أشدُّ تَعذيبًا. وجُعِل السَّحبُ على الوُجوهِ؛ إهانةً لهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ[١].

- وصِيغةُ الأمْرِ ﴿ذُوقُواْ﴾ مُستعمَلةٌ في الإهانةِ والمُجازاةِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ استِئنافٌ وقَعَ تذْييلًا لِما قبْلَه مِن الوعيدِ والإنذارِ والاعتِبارِ بما حلَّ بالمُكذِّبين، وهو أيضًا تَوطئةٌ لقولِه: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾، والمعْنى: إنَّا خلَقْنا وفعَلْنا كلَّ ما ذُكِرَ مِن الأفعالِ، وأسبابِها، وآلاتِها، وسلَّطْناه على مُستحقِّيه؛ لأنَّا خلَقْنا كلَّ شَيءٍ بقدَرٍ، أي: فإذا علِمْتُم هذا فانتَبِهوا إلى أنَّ ما أنتم عليه مِن التَّكذيبِ والإصرارِ مُماثلٌ لِما كانت عليه الأُمَمُ السَّالفةُ[٣].

- ولَمَّا تَضمَّنتِ الآياتُ السَّابقةُ معْنى ادِّعاءِ المُشرِكين القُدرةَ والقُوى لأنفُسِهم، والوعيدَ بالإهلاكِ عاجلًا وآجلًا، والوعْدَ للمؤمنينَ بالانتصارِ منهم؛ جِيءَ بقولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ تَوكيدًا للوعْدِ والوعيدِ؛ يعْني: أنَّ هذا الوعدَ حقٌّ، وصِدقُ الموعدِ والموعودِ مُثبَتٌ في اللَّوحِ، مُقدَّرٌ عندَ اللهِ، لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، وذلك على اللهِ يَسيرٌ[٤].

- واقترانُ الكَلامِ بحرْفِ (إنَّ) للتَّوكيدِ والاهتمامِ[٥].

- وقد أشار إلى أنَّ الجزاءَ مِن مُقتضَى الحِكمةِ قولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٤٣، ١٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٥، ٢١٦).

ٱلْجَمِيلَ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦]، وقولُه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٣٨- ٤٠]، فترى هذه الآياتِ وأشباهَها تُعقِّبُ ذِكرَ كَونِ الخلْقِ كلِّه لحِكمةٍ بذِكرِ السَّاعةِ ويومِ الجزاءِ. فهذا وَجْهُ تَعقيبِ آياتِ الإنذارِ والعِقابِ المذكورةِ في هذه السُّورةِ بالتَّذييلِ بقولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، وسيَقولُ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾[1] [القمر: ٥١].

- والباءُ في ﴿بِقَدَرٍ﴾ للمُلابَسةِ، والمَجرورُ ظرْفٌ مُستقَرٌّ[2]؛ فهو في حُكْمِ المَفعولِ الثَّاني لِفعلِ ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾؛ لأنَّه مَقصودٌ بذاتِه؛ إذ ليس المَقصودُ الإعلامَ بأنَّ كلَّ شَيءٍ مَخلوقٌ للهِ؛ فإنَّ ذلك لا يَحتاجُ إلى الإعلامِ به بلْهَ تأْكيدَه، بلِ المَقصودُ إظهارُ معْنى العِلمِ والحِكمةِ في الجَزاءِ[3].

- وقدِ انتصَبَ ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ على المَفعوليَّةِ لـ ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾ على طَريقةِ الاشتِغالِ[4]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٧).

(٢) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٧).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ١٠٠).

وتَقديمُه على ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾؛ ليَتأكَّدَ مَدلولُه بذِكرِ اسمِه الظَّاهرِ ابتداءً، وذِكرِ ضَميرِه ثانيًا، وذلك هو الَّذي يَقْتضي العُدولَ إلى الاشتِغالِ في فَصيحِ الكلامِ العرَبيِّ، فيَحصُلَ تَوكيدٌ للمَفعولِ بعْدَ أنْ حصَلَ تَحقيقُ نِسبةِ الفِعلِ إلى فاعِلِه بحرْفِ (إنَّ) المُفيدِ لتَوكيدِ الخبَرِ، ولِيَتَّصِلَ قولُه: ﴿بِقَدَرٍ﴾ بالعامِلِ فيه، وهو ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾؛ لئلَّا يَلتبِسَ بالنَّعتِ لـ﴿شَيْءٍ﴾، لو قِيل: إنَّا خلَقْنا كلَّ شَيءٍ بقدَرٍ، فيُظَنُّ أنَّ المُرادَ: إنَّا خلَقْنا كلَّ شيءٍ مُقدَّرٍ، فيَبْقى السَّامعُ مُنتظِرًا لخبَرِ (إنَّ)[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]؛ فهو داخلٌ في التَّذييلِ، أي: خلَقْنا كلَّ شَيءٍ بعِلمٍ، فالمَقصودُ منه وما يَصلُحُ له مَعلومٌ لنا، فإذا جاء وقْتُه الَّذي أعدَدْناه حصَلَ دَفْعةً واحدةً، لا يَسبِقُه اختبارٌ ولا نظَرٌ ولا بَداءٌ[2]. والغرَضُ مِن هذا تَحذيرُهم مِن أنْ يَأخُذَهم العَذابُ بَغتةً في الدُّنيا عندَ وُجودِ مِيقاتِه، وسبْقِ إيجادِ أسبابِه ومُقوِّماتِه الَّتي لا يَتفطَّنون لوُجودِها، وفي الآخرةِ بحُلولِ الموتِ، ثم بقِيامِ الساعةِ[3].

- وعطْفُ هذا عَقِبَ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، مُشعِرٌ بتَرتُّبِ مَضمونِه على مَضمونِ المَعطوفِ عليه في التَّنبيهِ والاستدلالِ، حسَبَ ما هو جارٍ في كَلامِ البُلغاءِ مِن مُراعاةِ تَرتُّبِ مَعاني الكلامِ بَعضِها على بعْضٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٩).

(٢) يُقالُ: بدا له في هذا الأمرِ بَداءٌ، أي: نشأ له فيه رأيٌ. والبَداءُ له مَعانٍ: البَداءُ في العِلمِ، وهو أن يَظهَرَ له خِلافُ ما عَلِم. والبَداءُ في الإرادةِ، وهو أن يَظهَرَ له صوابٌ على خِلافِ ما أراد وحكَمَ. والبَداءُ في الأمرِ: وهو أن يأمُرَ بشَيءٍ، ثمَّ يأمُرَ بشَيءٍ آخَرَ بَعْدَه بخِلافِ ذلك. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٦/ ٢٢٧٨)، ((الفصل)) لابن حزم (١/ ١٤٨، ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٩، ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٢٠).

- صِفةُ ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ وصْفٌ لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ هو خبَرٌ عن ﴿أَمْرُنَآ﴾، والتَّقديرُ: إلَّا كَلمةٌ واحدةٌ، وهي كَلمةُ (كُنْ)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] [يس: ٨٢].

- وصحَّ الإخبارُ عن (أمْر) -وهو مُذكَّرٌ- بـ ﴿وَٰحِدَةٌ﴾ -وهو مُؤنَّثٌ- باعتبارِ أنَّ ماصَدَقَ[2] (الأمْر) هنا هو أمْرُ التَّسخيرِ، وهو الكلِمةُ، أي: كَلمةُ (كُنْ)[3].

- وقولُه: ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ﴿أَمْرُنَآ﴾ باعتِبارِ الإخبارِ عنه بأنَّه كَلمةٌ واحدةٌ، أي: حُصولُ مُرادِنا بأمْرِنا كلَمْحٍ بالبصَرِ، وهو تَشبيهٌ في سُرعةِ الحُصولِ، أي: ما أمْرُنا إلَّا كلمةٌ واحدةٌ سَريعةُ التَّأثيرِ في المُتعلِّقةِ هي به كسُرعةِ لَمْحِ البصَرِ، وهذا التَّشبيهُ في تَقريبِ الزَّمانِ أبلَغُ ما جاء في الكَلامِ العرَبيِّ[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾، وقال في سُورةِ (النَّحلِ): ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]؛ فزِيدَ هنالك: ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾؛ لأنَّ المَقامَ للتَّحذيرِ مِن مُفاجَأةِ النَّاسِ بها قبْلَ أنْ يَستعِدُّوا لها؛ فهو حَقيقٌ بالمُبالَغةِ في التَّقريبِ، بخِلافِ ما في هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٠).

(٢) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢١).

الآيةِ؛ فإنَّه لتَمثيلِ أمْرِ اللهِ، وذلك يَكفي فيه مُجرَّدُ التَّنبيهِ؛ إذ لا يَتردَّدُ السَّامعُ في التَّصديقِ به(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الْتُفِتَ مِن طَريقِ الغَيبةِ إلى الخِطابِ، ومَرجِعُ الخِطابِ هم المُشرِكون؛ لظُهورِ أنَّهم المَقصودُ بالتَّهديدِ، وهو تَصريحٌ بما تَضمَّنَه قولُه: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]؛ فهو بمَنزِلةِ النَّتيجةِ لقولِه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ إلى ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾(٢) [القمر: ٤٩، ٥٠].

- وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ بالإهلاكِ، وبأنَّه يُفاجِئُهم قياسًا على إهلاكِ الأُمَمِ السَّابقةِ، وهذا المَقصَدُ هو الَّذي مِن أجْلِه أُكِّدَ الخبَرُ بلامِ القسَمِ وحرْفِ (قدْ)، أمَّا إهلاكُ مَن قبْلَهم فهو مَعلومٌ لا يَحتاجُ إلى تأْكيدٍ. ويجوزُ جعْلُ مَناطِ التَّأكيدِ إثباتَ أنَّ إهلاكَهم كان مِن أجْلِ شِركِهم وتَكذيبِهم الرُّسلَ. وتَفريعُ ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ قَرينةٌ على إرادةِ المَعنيَينِ؛ فإنَّ قومَ نوحٍ بقُوا أزمانًا، فما أقْلَعوا عن إشراكِهم حتَّى أخَذَهم الطُّوفانُ بَغتةً، وكذلك عادٌ وثَمودُ كانوا غيرَ مُصدِّقينَ بحُلولِ العَذابِ بهم، فلمَّا حلَّ بهم العذابُ حلَّ بهم بَغتةً، وقومُ فِرعون خرَجوا مُقتَفينَ مُوسى وبني إسرائيلَ، واثِقينَ بأنَّهم مُدرِكوهم، واقتَرَبوا منهم، وظَنُّوا أنَّهم تَمكَّنوا منهم، فما راعَهُم إلَّا أنْ أنْجى اللهُ بني إسرائيلَ، وانطبَقَ البحرُ على الآخَرينَ(٣).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ المَرفوعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في قولِه: ﴿فَعَلُوهُ﴾ عائدًا إلى ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ [القمر: ٥١]، والمعْنى: أهلَكْناهم بعَذابِ الدُّنيا وهيَّأْنا لهم عَذابَ الآخِرةِ، فكُتِبَ في صَحائفِ الأعمالِ كلُّ ما فَعَلوه مِن الكُفْرِ وفُروعِه؛ فالكتابةُ في الزُّبُرِ -مع ثُبوتِها حقيقةً- وقَعَت هنا كِنايةً عن لازِمِها، وهو المُحاسَبةُ به فيما بعْدُ، وعن لازِمِ لازِمِها، وهو العِقابُ بعْدَ المُحاسَبةِ[١].

- وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بالمُخاطَبين بأنَّهم إذا تَعرَّضوا لِما يُوقِعُ عليهم الهلاكَ في الدُّنيا، فليس ذلك قُصارى عَذابِهم؛ فإنَّ بعْدَه حِسابًا عليه في الآخرةِ يُعذَّبون به[٢].

- و﴿ٱلزُّبُرِ﴾ جمْعُ زَبورٍ، وهو الكِتابُ، مُشتَقٌّ مِن الزَّبْرِ، وهو الكِتابةُ، وجُمِعَت الزُّبرُ؛ لأنَّ لكلِّ واحدٍ كِتابَ أعمالِه[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ كالتَّذييلِ لقولِه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]؛ فـ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ أعمُّ مِن ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ﴾، والمعْنى: وكلُّ شَيءٍ حَقيرٍ أو عظيمٍ مَكتوبٌ مَسطورٌ، أي: في عِلمِ اللهِ تعالى، أي: كلُّ ذلك يَعلَمُه اللهُ ويُحاسِبُ عليه، وذلك كِنايةٌ عن الجَزاءِ عليه؛ فكانَ ذلك جامِعًا للتَّبشيرِ والإنذارِ[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ أنَّ كلَّ صَغيرٍ وكَبيرٍ مُستطَرٌ على إرادةِ أنَّه مَعلومٌ ومُجازًى عليه، وقد عُلِمَ جَزاءُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٢٤).

المُجرِمين مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ [القمر: ٤٧]؛ كانت نفْسُ السَّامعِ بحيث تَتشوَّفُ إلى مُقابِلِ ذلك مِن جَزاءِ المُتَّقينَ، وجرْيًا على عادةِ القُرآنِ مِن تَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ والعكْسِ(١).

- وافتِتاحُ هذا الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ به(٢).

- و(فِي) للظَّرفيةِ الَّتي هي بمعْنى التَّلبُّسِ القَويِّ كتَلبُّسِ المَظروفِ بالظَّرفِ، والمُرادُ في نَعيمِ جنَّاتٍ ونهَرٍ، وبهذا الاعتِبارِ عُطِفَ (نَهَرٍ) على ﴿جَنَّٰتٍ﴾؛ إذ ليس المُرادُ الإخبارَ بأنَّهم ساكِنون جنَّاتٍ؛ فإنَّ ذلك يُغْني عنه قولُه بعْدُ: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾، ولا أنَّهم مُنغمِسون في أنهارٍ؛ إذ لم يكُنْ ذلك ممَّا يَقصِده السَّامِعون(٣).

- قولُه: ﴿وَنَهَرٍ﴾، أي: أنهارٍ كذلكَ، والإفرادُ للاكتِفاءِ باسمِ الجنسِ مُراعاةً للفواصلِ(٤). والتَّنكيرُ فيه للتَّعظيمِ(٥).

- وجُمِعَت الجنَّاتُ هنا إشارةً إلى سَعتِها وتَنوُّعِها، وأُفرِدَ النَّهَرُ قيل: لأنَّ المعْنى: «في خِلالِه»، فاستُغْنِيَ عن جَمْعِه، وجُمِعَ في قولِه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [البقرة: ٢٥] وغيرِه؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّه ليس في الجنَّةِ إلَّا نَهرٌ(٦).

٨- قولُه تعالَى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ إضافةُ ﴿مَقْعَدِ﴾ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٨٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿صِدۡقٍ﴾ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفتِه؛ للمُبالَغةِ في تَمكُّنِ الصِّفةِ منه، والمعْنى: هم في مَقعدٍ يَشتمِلُ على كلِّ ما يَحمَدُه القاعدُ فيه[١].

- و﴿مَلِيكٖ﴾: فَعيلٌ بمعْنى المالِكِ مُبالَغةً، وهو أبلَغُ مِن (مَلِكٍ)[٢].

- و﴿مُّقۡتَدِرٖ﴾ أبلَغُ مِن قادِرٍ[٣].

- وتَنكيرُ ﴿مَلِيكٖ﴾ و﴿مُّقۡتَدِرٖ﴾؛ للتَّعظيمِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٥، ٢٢٦).

ذكَرَ اللهُ تعالى في كتابِه خمسةَ أشياءَ مُضافةً إلى الصِّدقِ؛ وهي: مَقعَدُ الصِّدقِ -كما هنا-، ولِسانُ الصِدْقِ كما في سورةِ (مريم) [الآية: ٥٠]، و(الشعراء) [الآية: ٨٤]، وقدَمُ الصِّدقِ، كما في سورة (يونسَ) [الآية: ٢]، ومُدخَلُ الصِّدقِ، ومُخرَجُ الصِّدقِ، كما في سورةِ (الإسراءِ) [الآية: ٨٠]، وحقيقةُ الصِّدقِ في هذه الأشياءِ: هو الحقُّ الثَّابِتُ، المتَّصِلُ باللهِ، المُوصِلُ إلى اللهِ -وهو ما كان به وله، مِن الأقوالِ والأعمالِ-، وجزاءُ ذلك في الدُّنيا والآخرةِ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الرَّحْمنِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ الرَّحْمنِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الرَّحمنِ)[١]؛ فعنِ ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أقرَأَني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سورةَ الرَّحمنِ))[٢].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الرَّحمنِ مَكِّيَّةٌ[٣]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٤].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

التَّذكيرُ بعَظَمةِ اللهِ تعالى، وبيانُ جانِبٍ مِن نِعَمِه على خَلْقِه في الدُّنيا والآخِرةِ، والإنكارُ على مَن أخَلَّ بمُوجَبِ شُكْرِها[٥].

---

(١) وَجْهُ تَسميةِ هذه السُّورةِ بسُورةِ الرَّحمنِ أنَّها ابتُدِئَت باسمِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٧).

(٢) أخرجه ابنُ حِبَّانَ (٧٤٧) مُطوَّلًا.

صحَّحه ابنُ حِبَّان، وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٧٤٧).

(٣) قال ابنُ عاشور: (وهي [أي: سُورةُ الرَّحمنِ] مَكِّيَّةٌ في قَولِ جُمهورِ الصَّحابةِ والتَّابعينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٨).

وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيةً واحِدةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩]؛ فمَدَنيَّةٌ. وقيل: بَعضُها مَكِّيٌّ وبَعضُها مَدَنيٌّ. وقيل: السُّورةُ مَدَنيَّةٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥ / ١٧٠).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على أنَّها مَكِّيَّةٌ: الفيروزابادي. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ١٢٦).

=

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- البَدءُ بالثَّناءِ على اللهِ تعالى، والمِنَّةِ على الخَلْقِ بتَعليمِ القُرآنِ.

٢- بيانُ جانِبٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، ونِعَمِه على خَلْقِه.

٣- التَّذكيرُ بفَناءِ كُلِّ مَن على ظَهرِ الأرضِ، وأنَّ الباقيَ هو وَجهُ اللهِ تعالى وَحْدَه.

٤- تحَدِّي الجِنِّ والإنسِ أن يَنفُذُوا مِن أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ.

٥- بيانُ أهوالِ القيامةِ، وسُوءِ عاقِبةِ المكَذِّبينَ، وحُسنِ عاقِبةِ المؤمِنينَ؛ ووَصفُ ما أعَدَّه اللهُ لهم مِنَ النَّعيمِ.

٦- خُتِمَت السُّورةُ بتَعظيمِ اللهِ والثَّناءِ عليه.

---

= قال الرَّسْعَني: (جميعُ ما يأتيك في هذه السُّورةِ فهو: إمَّا تحديثٌ بنِعمةٍ، أو تحذيرٌ مِن نِقمةٍ، أو إعلامٌ بقُدرةٍ باهرةٍ، أو عَظَمةٍ ظاهِرةٍ، وجميعُ ذلك نِعَمٌ؛ فإنَّ شَخصًا لو جاءك مُنقِذًا لك مِن هَلَكةٍ كنتَ غافِلًا عنها لَرأيْتَها له نِعمةً جَسيمةً، ومِنَّةً عَظيمةً). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥٨).

## الآيات (١-٩)

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡبَيَانَ﴾: أي: النُّطقَ والتَّمييزَ، والفَهمَ والإبانةَ، وأصلُ (بين): يدُلُّ على الانكِشافِ والظُّهورِ[١].

﴿بِحُسۡبَانٖ﴾: أي: بحِسابٍ، ومَنازِلَ لا تَعْدوها الشَّمسُ ولا القمرُ، ولا يَحيدان عنها، وأصلُ (حسب): يدُلُّ على عَدَدٍ[٢].

﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾: يُطلَقُ النَّجمُ على النبَّتِ على الأرضِ ليس له ساقٌ، وسُمِّيَ نَجمًا لأنَّه نَجَمَ، أي: ظَهَر وطَلَع. ويُطلَقُ على الكَوكَبِ، وهو اسمُ الجِنسِ مِن نُجومِ السَّماءِ. وأصلُ (نجم): يدُلُّ على طُلوعٍ وظُهورٍ[٣].

﴿تَطۡغَوۡاْ﴾: أي: تُجاوِزوا العَدْلَ، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٢٥/ ٢٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((البسيط)) =

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ * أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾

قَولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾: مَنصوبةٌ على الاشتِغالِ[1] بفِعلٍ مُضمَرٍ على شَريطةِ التَّفسيرِ، أي: ورفَعَ السَّماءَ.

وقَولُه: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾: في «أنْ» هذه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها النَّاصبةُ وقَبْلَها لامُ عِلَّةٍ مُقَدَّرةٌ، و«لا» بعْدَها نافيةٌ، و﴿تَطۡغَوۡاْ﴾ مَنصوبٌ بـ «أنْ»، والجارُّ والمجرورُ «لِئَلَّا تَطْغَوا» مُتعَلِّقٌ بقَولِه: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾، والتَّقديرُ: ووَضَعَ المِيزانَ؛ لئَلَّا تَطْغَوا. والثَّاني: أنْ تكونَ المُفسِّرةَ؛ لأنَّ وَضْعَ الميزانِ يَستَدعي الأمرَ بالعَدْلِ، وفي الأمرِ بالعَدلِ مَعنى القَولِ دُونَ حُروفِه، وعلى هذا تكونُ «لا» ناهيةً، والفِعلُ مجزومٌ بها[2].

## المعنى الإجماليُّ:

بدأ الله تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ باسمِه «الرَّحمن» الدَّالِّ على سَعةِ رحمتِه، وعمومِ إحسانِه، وجزيلِ بِرِّه، وواسعِ فضلِه، ثمَّ ذكَر ما يدُلُّ على رحمتِه وأثَرِها الَّذي أوصَله إلى عبادِه مِن النِّعمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، فذكَر أنَّه تعالى علَّم عِبادَه القُرآنَ، ويَسَّرَه لهم، وأنَّه تعالى خَلَق آدَمَ وذُرِّيَّتَه، وأنَّه تعالى علَّم الإنسانَ النُّطقَ

---

= للواحدي (٢١/ ١٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٠٠).

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٩٦)، ((التبيان)) للعكبري (٢/ ١١٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٥٤-١٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩١)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٧/ ٨٩).

والإبانةَ عَمَّا في نَفْسِه.

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجريانِ بحِسابٍ دَقيقٍ مُتقَنٍ، وأنَّ جَميعَ النُّجومِ والأشجارِ تَسجُدُ للرَّحمنِ، وأنَّه تعالى رَفَعَ السَّماءَ فَوقَ الأرضِ، ووَضَعَ العَدْلَ بيْنَ خَلْقِه؛ لِئَلَّا يَتجاوَزوا الحَدَّ فيَجوروا، ثمَّ يأمُرُ تعالى عِبادَه بأن يُقيموا وَزْنَ الأشياءِ بالعَدلِ التَّامِّ، وألَّا يَنقُصوا الوَزنَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١﴾.

أي: اللهُ: الواسِعُ الرَّحمةِ، المُنعِمُ على عبادِه بالنِّعَمِ الكَثيرةِ في دِينِهم ودُنياهم وأُخراهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سُبحانَه حاكيًا دُعاءَ مَلائِكتِه: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ للهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

قال ابنُ عاشور: (﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ هذه آيةٌ واحِدةٌ عندَ جمهورِ العادِّينَ، ووقَعَ في المصاحِفِ الَّتي بروايةِ حَفصٍ عن عاصِمٍ علامةُ آيةٍ عَقِبَ كَلِمةِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ إذ عَدَّها قُرَّاءُ الكوفةِ آيةً؛ فلذلك عَدَّ أهلُ الكوفةِ آيَ هذه السُّورةِ ثمانيًا وسَبعينَ، فإذا جُعِلَ اسمُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ آيةً تعَيَّنَ أن يكونَ اسمُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾: إمَّا خبَرًا لمُبتدَأٍ محذوفٍ تقديرُه: هو الرَّحمنُ، أو مبتدأً خَبَرُه محذوفٌ يُقَدَّرُ بما يُناسِبُ المقامَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣).

وهذا الاختِلافُ في عدِّ الآياتِ لا تأثيرَ له في النَّصِّ القُرآنيِّ زيادةً أو نقصًا، بل النَّصُّ القُرآنيُّ كما أنزله الله لم يَتغيَّرْ منه شَيءٌ.

مِئةَ رَحمةٍ، أنزَلَ منها رَحمةً واحِدةً بيْنَ الجِنِّ والإنسِ والبهائِمِ والهَوامِّ، فبها يَتعاطَفونَ، وبها يَتراحَمونَ، وبها تَعطِفُ الوَحشُ على وَلَدِها، وأخَّرَ اللهُ تِسعًا وتِسعينَ رَحمةً، يَرحَمُ بها عِبادَه يومَ القيامةِ))(١).

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢﴾.

أي: علَّم الرَّحمنُ -سُبحانَه- عِبادَه ألفاظَ القُرآنِ ومَعانيَه، ويَسَّرَها لهم(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

وعن عُثمانَ بنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

قال ابن عثيمين: (﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: علَّمه مَن شاءَ مِن عبادِه، فعلَّمه جِبريلَ عليه السَّلامُ أوَّلًا، ثمَّ نزَل به جبريلُ على قلبِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ثانيًا، ثمَّ بلَّغه محمَّدٌ صلَّى الله عليه وعلى آلِه وسلَّم ثالثًا إلى جميعِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

وقال ابن الجوزي: (في قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ قولان؛ أحدُهما: علَّمه محمَّدًا، وعلَّمه محمدٌ أمَّتَه، قاله ابنُ السَّائبِ. والثاني: يسَّر القرآنَ، قاله الزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٠٥). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٩٥).

وقال الشنقيطي: (قولُه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: علَّم نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم القرآنَ، فتلقَّته أمَّتُه عنه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٨٨). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٧).

((خَيْرُكم مَن تَعلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَه))[١].

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ثَبَت كَونُه الرَّحمنَ، وأشار إلى ما هو شِفاءٌ ورَحمةٌ -وهو القُرآنُ-؛ ذكَرَ نِعَمَه، وبدأ بخَلْقِ الإنسانِ؛ فإنَّه نِعمةٌ تَتِمُّ جميعُ النِّعَمِ به، ولولا وُجودُه لَما انتَفَع بشَيءٍ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ تَعليمَ القُرآنِ ولم يَذكُرِ المُعَلَّمَ؛ ذكَرَه بَعْدُ لِيُعلَمَ أنَّه المقصودُ بالتَّعليمِ[٣].

﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ ﴾.

أي: خَلَق الرَّحمنُ آدَمَ وذُرِّيَّتَه[٤].

كما قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ ﴾ [النحل: ٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ * ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ * ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

---

(١) رواه البخاري (٥٠٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٦٨، ١٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

ذَكَر تعالى الوَصفَ الَّذي يتمَيَّزُ به الإنسانُ مِن المَنطِقِ المُفصِحِ عن الضَّميرِ، والَّذي به يُمكِنُ قَبولُ التَّعليمِ، وهو البَيانُ(١).

﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾.

أي: علَّم الرَّحمنُ الإنسانَ النُّطقَ والفَهمَ، والإبانةَ عَمَّا في نَفْسِه بالكَلامِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٢، ١٥٣)، ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٢).

قال ابن عاشور: (والبيانُ: الإعرابُ عمَّا في الضَّميرِ مِن المقاصِدِ والأغراضِ، وهو النُّطْقُ، وبه تَمَيُّزُ الإنسانِ عن بَقِيَّةِ أنواعِ الحيوانِ، فهو مِن أعظَمِ النِّعَمِ. وأمَّا البيانُ بغيرِ النُّطقِ مِن إشارةٍ وإيماءٍ ولمحِ النَّظرِ فهو أيضًا مِن مُمَيِّزاتِ الإنسانِ، وإنْ كان دونَ بيانِ النُّطقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٣).

وقال السعدي: (﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ أي: التَّبيينَ عمَّا في ضميرِه، وهذا شاملٌ للتَّعليمِ النُّطقيِّ والتَّعليمِ الخطِّيِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨).

وقال ابن عثيمين: (﴿ٱلۡبَيَانَ﴾ أي: ما يُبينُ به عمَّا في قَلبِه، وأيضًا ما يَستَبينُ به عندَ المُخاطَبةِ؛ فهنا بيانانِ: البَيانُ الأوَّلُ مِن المتكَلِّمِ، والبَيانُ الثَّاني مِن المخاطَبِ؛ فالبَيانُ مِن المتكلِّمِ يعني التَّعبيرَ عمَّا في قَلبِه، ويكونُ باللِّسانِ نُطْقًا، ويكونُ بالبَنانِ كتابةً...، وأيضًا ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ كيف يَستبينُ الشَّيءَ، وذلك بالنِّسبةِ للمُخاطَبِ، يَعلَمُ ويَعرِفُ ما يقولُ صاحِبُه، ولو شاء اللهُ تعالى لأسمعَ المخاطَبَ الصَّوتَ دون أنْ يَفهَمَ المعنى). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٢).

ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالى ما أنعَمَ به على الإنسانِ مِن تَعليمِه البَيانَ؛ ذكَرَ ما امتَنَّ به مِن وُجودِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وما فيهما مِنَ المنافِعِ العَظيمةِ للإنسانِ؛ إذ هما يَجريانِ على حِسابٍ مَعلومٍ وتَقديرٍ سَوِيٍّ في بُروجِهما ومَنازِلِهما[1].

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ٥ ﴾.

أي: الشَّمسُ والقَمَرُ يَجريانِ بحِسابٍ دَقيقٍ مُتقَنٍ لا يَختَلِفُ ولا يَضطَرِبُ، ولا يُجاوِزانِ مَنازِلَهما، ولا يتأخَّرانِ في جَرَيانِهما، فيَحسِبُ النَّاسُ بهما السِّنينَ والشُّهورَ والأيَّامَ والأوقاتَ[2].

كما قال تعالى: ﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِۚ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [يونس: ٥].

﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ٦ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٢، ٣٠٣).

أي: وجَميعُ النُّجومِ والأشجارِ تَسجُدُ للرَّحمنِ[1].

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧، ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣).

قال ابن جرير: (اخْتَلَف أهلُ التَّأويلِ في معنَى النَّجْمِ في هذا الموضعِ، معَ إجماعِهم على أنَّ الشَّجَرَ ما قامَ على ساقٍ؛ فقال بعضُهم: عُنِيَ بالنَّجمِ في هذا الموضعِ مِن النَّباتِ: ما نَجَم مِن الأرضِ، ممَّا يَنْبَسِطُ عليها، ولم يَكُنْ على ساقٍ، مِثلَ البَقْلِ ونحوِه... وقال آخَرونَ: عُنِيَ بالنَّجمِ في هذا الموضعِ: نَجْمُ السَّماءِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٣، ١٧٤).

وقال الزَّجَّاجُ: (قال أهلُ اللُّغةِ وأكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ: النَّجمُ: كُلُّ ما نَبَت على وَجهِ الأرضِ مِمَّا ليس له ساقٌ، والشَّجَرُ: كُلُّ ما له ساقٌ، ومعنى سُجودِهما: دَوَرانُ الظِّلِّ معهما، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨]. وقد قيلَ: إنَّ النَّجمَ أيضًا يرادُ به النُّجومُ. وهذا جائزٌ أن يكونَ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ قد أعلَمَنا أنَّ النَّجَمَ يَسجُدُ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ [الحج: ١٨]. ويجوزُ أن يكونَ النَّجمُ هاهنا يعني به: ما نَبَت على وَجهِ الأرضِ، وما طَلَع مِن نُجومِ السَّماءِ؛ يُقالُ لكُلِّ ما طَلَع: قد نَجَم). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٩٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالنَّجْمِ: النَّجمُ الَّذي في السَّماءِ: ابنُ القيِّم، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧، ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: مجاهدٌ، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩).

قال ابنُ عثيمين: («النَّجْمُ» اسمُ جِنسٍ، والمرادُ به النُّجومُ... النُّجومُ العُلْيا الَّتي نشاهِدُها في السَّماءِ تَسجُدُ لله عَزَّ وجَلَّ سجودًا حقيقيًّا، لكِنَّنا لا نعلَمُ كيفيَّتَه؛ لأنَّ هذا مِنَ الأمورِ الَّتي لا تُدرِكُها العُقولُ، والشَّجَرُ يَسجُدُ لله عزَّ وجَلَّ سُجودًا حقيقيًّا، لكِنْ لا ندري كيف ذلك، واللهُ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣).

وقد ذهب مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، وأبو حيَّان، والشوكاني: إلى أنَّ المرادَ بالنَّجْمِ: نَباتُ الأرضِ الَّذي ليس له ساقٌ. =

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨].

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧﴾.

﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾.

أي: ورَفَع الرَّحمنُ السَّماءَ فَوقَ الأرضِ[1].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

فيها مُقابَلةٌ عَظيمةٌ بيْنَ رَفعِ السَّماءِ -الَّذي هو حَقٌّ وعَدلٌ وقُدرةٌ- والميزانِ الَّذي

---

= يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٨).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّيُّ، وسُفْيانُ الثَّوْريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٨٩).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ للنَّجْمِ: البِقاعي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣).

قال البِقاعي: (﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ أي: حِسًّا بعدَ أن كانت مُلتَصِقةً بالأرضِ، ففَتَقَها منها، وأعلاها عنها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٤٧).

وَضَعه في الأرضِ؛ لِتَقوموا بالعَدلِ والإنصافِ، وبهذا العَدلِ قامت السَّمَواتُ والأرضُ(١).

﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾.

أي: ووَضَع الرَّحمنُ العَدْلَ بيْنَ خَلْقِه في الأرضِ، والآلةَ الَّتي يُعرَفُ بها العَدلُ(٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨﴾.

أي: لِئَلَّا تَتجاوزوا الحَدَّ فتَجوروا(٣).

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٣، ٣٠٤).

قال ابنُ القيِّم: (الميزانُ يُرادُ به العَدلُ والآلةُ الَّتي يُعرَفُ بها العَدلُ وما يُضادُّه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٠٣).

وقال ابن تيميَّةَ: (قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ * أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ * وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾، وقال كثيرٌ مِن المفسِّرينَ: هو العدلُ. وقال بعضُهم: ما يوزَنُ به ويُعرَفُ العدلُ. وهما مُتلازِمانِ). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٣٨٤).

وقال السعدي: (ووضَعَ اللهُ الميزانَ، أي: العَدلَ بيْنَ العِبادِ في الأقوالِ والأفعالِ، وليس المرادُ به الميزانَ المعروفَ وَحْدَه، بل... يَدخُلُ فيه الميزانُ المعروفُ، والمكيالُ الَّذي تُكالُ به الأشياءُ والمقاديرُ، والمِساحاتُ الَّتي تُضبَطُ بها المجهولاتُ، والحقائِقُ الَّتي يُفصَلُ بها بيْنَ المخلوقاتِ، ويُقامُ بها العَدلُ بَيْنَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن =

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ ﴾.

أي: وأقيموا وَزْنَ الأشياءِ بالعَدلِ التَّامِّ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

---

= عطية)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٤).

قال القرطبي: (الطُّغْيانُ: مُجاوَزةُ الحَدِّ. فمَن قال: الميزانُ: العَدلُ، قال: طُغيانُه: الجَورُ. ومَن قال: إنَّه الميزانُ الَّذي يُوزَنُ به، قال: طُغيانُه: البَخسُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٥).

وقال ابنُ عاشور: (ولَفظُ الميزانِ يَسمَحُ بإرادةِ المَعنَيينِ، على طريقةِ استِعمالِ المُشتَرَكِ في معنَيَيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ التَّعليلُ، أي: وَضَع الميزانَ لئَلَّا تَطْغَوا: البغويُّ، وابن عطية، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٤).

قال ابنُ عاشور: (ويجوزُ أن تكونَ «أنْ» مَصدريَّةً بتَقديرِ لامِ الجَرِّ محذوفةً قَبْلَها. والتَّقديرُ: لئَلَّا تَطغَوا في الميزانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨).

وقيل: «أنْ» مُفَسِّرةٌ، و«لا» ناهيةٌ، والمعنى: النَّهيُ عن الطُّغيانِ. وممَّن جوَّز ذلك: ابنُ عطية، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨).

وقال البِقاعي: (﴿ أَلَّا تَطْغَوْاْ ﴾ أي: لا تَتجاوَزوا الحدودَ ﴿فِي ٱلْمِيزَانِ ﴾ أي: الأشياءِ الموزونةِ مِن الموزوناتِ المعروفةِ، والعِلمِ والعملِ المقدَّرِ أحدُهما بالآخَرِ، وفي مساواةِ الظَّاهرِ والباطنِ والقولِ والفعلِ، فالميزانُ الثَّاني عامٌّ لميزانِ المعلوماتِ، وميزانِ المحسوساتِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٤).

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٥].

﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾.

أي: ولا تَنقُصوا الوَزنَ، بل أعطُوا الحُقوقَ كامِلةً وافِيةً[١].

كما قال شُعَيبٌ عليه السَّلامُ لِقَومِه: ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [هود: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ١ - ٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ وُجوبُ العَدلِ في الوَزنِ، وتحريمُ البَخْسِ فيه[٢].

٢- عَن قَتادةَ في قَولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ قال: (اعْدِلْ يا ابنَ آدَمَ كما تُحِبُّ أن يُعدَلَ عليك، وأَوْفِ كما تُحِبُّ أن يُوفَى لك؛ فإنَّ العَدلَ يُصلِحُ النَّاسَ)[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

قال ابن عاشور: (إنْ حُمِلَ ﴿ٱلْمِيزَانِ﴾ فيه على معنى العَدلِ كان المعنى: النَّهيَ عن التَّهاوُنِ بالعَدلِ؛ لغَفلةٍ أو تسامُحٍ بعدَ أنْ نهى عن الطُّغيانِ فيه، ... وإنْ حُمِلَ فيه على آلةِ الوَزنِ كان المعنى: النَّهيَ عن غَبْنِ النَّاسِ في الوَزنِ لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٢/ ١٧٨)، وابن المنذر كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٩٢).

٣- لَمَّا كانت السَّماءُ مع عُلُوِّها الدَّالِّ على عِزَّةِ مُوجِدِها ومُدَبِّرِها دالَّةً على عَدْلِه باعتِدالِ جميعِ أحوالِها مِنَ الحَرِّ والبَردِ، والمطَرِ والثَّلجِ، والنَّدى والطَّلِّ وغَيرِ ذلك؛ في أنَّ كُلَّ فَصلٍ منها معادِلٌ لضِدِّه، وأنَّها لا يُنزِلُها سُبحانَه إلَّا بقَدَرٍ مَعلومٍ، وإلَّا لفَسَدت الأرضُ كُلُّها- دَلَّنا على أنَّه شَرَعَ لنا مِثلَ ذلك العَدلِ؛ لِتَقومَ أحوالُنا، وتَصلُحَ أقوالُنا وأفعالُنا بما قامت به السَّمَواتُ والأرضُ- فقال: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: العَدْلَ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ابتدأَ سُبحانَه هذه السُّورة بـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ عُنوانًا على أنَّ ما بَعْدَه كلَّه مِن رَحمةِ اللهِ تعالى[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ خَصَّ سُبحانَه مِن أسمائِه الحُسنى هذا الاسمَ؛ إشعارًا برَحمتِه بالكِتابِ، وعَظيمِ إحسانِه به[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ردٌّ على الكُفَّارِ في قَولِهم: «إنَّه تعَلَّمَ هذا القُرآنَ مِن بَشَرٍ»؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ تعالى، لا كَلامُ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤].

٤- قال تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ فدلَّ تعليمُه القرآنَ على أنَّه يقدِرُ أنْ يعلِّمَ ما أراد مَن أراد، وكما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[٥] [البقرة: ٣١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ أنَّ اللهَ تعالى يَبدأُ بالشَّرائعِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٧، ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٨٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤١).

قبْلَ ذِكْرِ الخَلْقِ وما يَتعَلَّقُ به؛ لأنَّ المخلوقاتِ إنَّما سُخِّرَتْ للقيامِ بطاعةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] [الذاريات: ٥٦].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ دَلَّتْ هذه الكَلِماتُ على إعطائِه سُبحانَه مراتِبَ الوُجودِ بأَسْرِها؛ فقَولُه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ إخبارٌ عن الإيجادِ الخارجيِّ العَينيِّ، وخَصَّ الإنسانَ بالخَلْقِ؛ لأنَّه مَوضِعُ العِبْرةِ، والآيةُ فيه عَظيمةٌ، وقَولُه: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إخبارٌ عن إعطاءِ الوُجودِ العِلميِّ الذِّهنيِّ، فإنَّما تَعَلَّمَ الإنسانُ القُرآنَ بتَعليمِه، كما أنَّه إنَّما صار إنسانًا بخَلْقِه، فهو الَّذي خَلَقَه وعَلَّمَه، ثمَّ قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ والبَيانُ يَتناوَلُ مراتبَ ثلاثةً كلٌّ منها يُسمَّى بيانًا؛ أحدُها: البيانُ الذِّهنيُّ الَّذي يُميِّزُ فيه بيْنَ المعلوماتِ. الثَّاني: البيانُ اللَّفظيُّ الَّذي يُعَبِّرُ به عن تلك المعلوماتِ، ويُتَرجِمُ عنها فيه لغَيرِه. الثَّالثُ: البيانُ الرَّسميُّ الخَطِّيُّ الَّذي يَرسُمُ به تلك الألفاظَ؛ فيَتبيَّنُ النَّاظِرُ معانيَها كما يَتبيَّنُ للسَّامعِ معاني الألفاظِ. فهذا بَيانٌ للعَينِ، وذاك بَيانٌ للسَّمعِ، والأوَّلُ بَيانٌ للقَلبِ، وكثيرًا ما يَجمَعُ سُبحانَه بيْنَ هذه الثَّلاثةِ، كقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقولِه: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، ويَذُمُّ مَن عَدِمَ الانتِفاعَ بها في اكتِسابِ الهُدى والعِلمِ النَّافِعِ، كقَولِه: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]، وقَولِه: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَـٰرِهِمْ غِشَـٰوَةٌ﴾[2] [البقرة: ٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٧٩).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ بَدَأَ اللهُ تعالى بتعليمِ القُرآنِ قَبْلَ خَلْقِ الإنسانِ؛ إشارةً إلى أنَّ نِعمةَ اللهِ علينا بتعليمِ القرآنِ أشدُّ وأبلغُ مِن نعمتِه بخَلْقِ الإنسانِ، وإلَّا فمِنَ المعلومِ أنَّ خَلْقَ الإنسانِ سابِقٌ على تعليمِ القُرآنِ، لكنْ لَمَّا كان تَعليمُ القرآنِ أعظمَ مِنَّةٍ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ على العَبدِ، قَدَّمَه على خَلْقِه[1]؛ لأنَّ أصلَ النِّعَمِ الدِّينيَّةِ وأجَلَّها هو إنعامُه بالقُرآنِ وتَنزيلُه وتعليمُه؛ فإنَّه أساسُ الدِّينِ، ومَنشأُ الشَّرعِ، وأعظَمُ الوَحيِ، وأعزُّ الكُتُبِ؛ إذ هو بإعجازِه واشتِمالِه على خُلاصتِها مُصَدِّقٌ لِنَفْسِه ومِصْداقٌ لها[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ أنَّ القُرآنَ كَلامُ اللهِ تعالى، وكَلامُ اللهِ صفةٌ مِن صفاتِ ذاتِه، وليس شيءٌ مِن صفاتِ ذاتِه مَخلوقًا ولا مُحدَثًا ولا حادِثًا، فخَصَّ سُبحانَه القُرآنَ بالتَّعليمِ؛ لأنَّه كَلامُه وصِفتُه، وخَصَّ الإنسانَ بالتَّخليقِ؛ لأنَّه خَلْقُه ومَصنوعُه، ولولا ذلك لَقال: «خَلَقَ القُرآنَ والإنسانَ»[3]، واللهُ تعالى ذَكَر القُرآنَ في كِتابِه في أربعةٍ وخمسينَ مَوضِعًا، ما فيها موَضِعٌ صَرَّح فيه بلَفظِ الخَلْقِ، ولا أشار إليه، وذكَرَ الإنسانَ على الثُّلُثِ مِن ذلك؛ في ثمانيةَ عَشَرَ مَوضِعًا، كُلُّها نَصَّت على خَلْقِه، وقد اقتَرَن ذِكرُهما في هذه السُّورةِ على هذا النَّحوِ[4].

٩- تأمَّلْ قَولَه تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ * عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ كيفَ جَعَل الخَلْقَ والتَّعليمَ ناشِئًا عن صِفةِ الرَّحمةِ، مُتعَلِّقًا باسمِ الرَّحمنِ، وجَعَل معانيَ السُّورةِ مُرتَبِطةً بهذا الاسمِ، وختَمَها بقَولِه: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱسْمُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((الاعتقاد)) للبيهقي (ص: ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٣).

رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]؛ فالاسمُ الَّذي تبارَكَ هو الاسمُ الَّذي افتَتَح به السُّورةَ؛ إذ مجيءُ البَرَكةِ كُلِّها منه، وبه وُضِعَت البَرَكةُ في كُلِّ مُبارَكٍ، فكُلُّ ما ذُكِرَ عليه بُورِكَ فيه، وكُلُّ ما خَلِيَ منه نُزِعَت منه البَرَكةُ؛ فإنْ كان مُذَكًّى وخَلِيَ منه اسمُه، كان مَيتةً، وإن كان طعامًا، شارَكَ صاحِبَه فيه الشَّيطانُ، وإن كان مَدخَلًا، دَخَل معه فيه، وإن كان حَدَثًا، لم يُرفَعْ عندَ كثيرٍ مِن العُلَماءِ، وإن كان صَلاةً، لم تَصِحَّ عندَ كَثيرٍ منهم(١)!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ مُناسَبةٌ بيْنَ القُرآنِ والميزانِ؛ فإنَّ القُرآنَ فيه مِنَ العِلمِ ما لا يُوجَدُ في غَيرِه مِنَ الكُتُبِ، والميزانَ فيه مِنَ العَدلِ ما لا يُوجَدُ في غَيرِه مِنَ الآلاتِ(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ لم يَذكُرْ سُبحانَه خَلْقَ غيرِ الإنسانِ؛ لأنَّ أشرَفَ المخلوقاتِ جِنسًا هم البَشَرُ، مِن حيثُ الجِنسُ لا مِن حيثُ الأفرادُ؛ لأنَّ بَعضَ البَشَرِ أخَسُّ مِن الأنعامِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، لكِنَّ البَشَرَ مِن حيثُ الجنسُ هم أفضلُ أجناسِ المَخلوقاتِ(٣).

١٢- استدَلَّ بَعضُهم بقَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ على أنَّ الألفاظَ تَوقيفيَّةٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((دروس الحرم المدني)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٢٩٥).

قال الطُّوفي: (هذه المسألةُ مِن مسائلِ اللُّغاتِ مِن أصولِ الفقهِ، وقد اختُلِف فيها؛ فقيل: اللُّغاتُ توقيفٌ، وقيل: اصْطِلاحٌ، وقيل: القَدْرُ المعرِّفُ للتَّخاطُبِ توقيفٌ، والباقي اصطلاحٌ، وقيل غيرُ ذلك، وهذه المسألةُ مِن رياضاتِ الفنِّ، لا مِن ضَروريَّاتِه). ((الإشارات الإلهية إلي المباحث =

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ أنَّ عدَمَ البيانِ صِفةُ نَقصٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى مَيَّزَ الإنسانَ بالنُّطقِ والبَيانِ، الَّذي فَضَّلَه به على سائرِ الحَيوانِ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ نِعمةَ البَيانِ مِن أجَلِّ النِّعَمِ على الإنسانِ[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ تَنويهٌ بالعُلومِ الزَّائدةِ في بيانِ الإنسانِ، وهي خصائِصُ اللُّغةِ وآدابُها[٣].

١٦- قال تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۞ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ بعدَ ذِكرِ القُرآنِ، وكان هو كافيًا لا يُحتاجُ معه إلى دليلٍ آخَرَ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ بَعضَ النَّاسِ إنْ لم تكُنْ له النَّفْسُ الزَّكيَّةُ الَّتي يُغنيها اللهُ بالدَّلائِلِ الَّتي في القُرآنِ، فله في الآفاقِ آياتٌ: منها الشَّمسُ والقَمَرُ[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ سؤالٌ: ما معنى الجَمعِ بيْنَ آلةِ الوَزنِ والسَّماءِ؟ وأين الميزانُ مِنَ السَّماءِ؟! وإنَّما يُوصَلُ الشَّيءُ بجِنسِه وشِبْهِه!

**الجوابُ**: أنَّ الجَمعَ لم يكُنْ مِن قِبَلِ النَّظَرِ في شَخصِ الميزانِ وصِغَرِه، ولو نُظِرَ إلى مَبلغِ الحاجةِ إليه لَاستُعظِمَ مِن أمرِه ما استُصغِرَ، معَ ما في النُّفوسِ

---

= الأصولية)) (ص: ٤٩). ويُنظر: ((روضة الناظر وجنة المناظر)) لابن قدامة (١/ ٤٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٩٠) و(١٢/ ٤٤٦)، ((المزهر في علوم اللغة وأنواعها)) للسيوطي (١/ ١٢)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٩).

مِن الظُّلم ما يُبعِدُ عن العَدلِ في التَّعامُلِ لولا الميزانُ؛ ألَا ترَى إلى قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧]؛ إذ كان الكِتابُ يتضَمَّنُ حِفظَ العَدلِ، والميزانُ يُظهِرُ العَدْلَ؛ فقَرَن آلةَ العَمَلِ إلى آلةِ العِلمِ، ومَن اعتبَرَ حالَ الميزانِ بحَجْمِه دونَ مَنافِعِه كان كمَن اعتبَرَ القَلَمَ بشَخصِه إذ رآه قِطعةَ قَصَبٍ! وقد عَظَّمَه اللهُ في قَولِه: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ﴾ [القلم: ١]، وقَولِه: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾[1] [العلق: ٤].

١٨- قال تعالى: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ أي: أنزَلَ اللهُ الميزانَ؛ لئلَّا تَتجاوَزوا الحَدَّ في الميزانِ؛ فإنَّ الأمرَ لو كان يَرجِعُ إلى عُقولِكم وآرائِكم لحَصَل مِنَ الخَلَلِ ما اللهُ به عليمٌ، ولفَسَدت السَّمَواتُ والأرضُ[2].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ إشارةٌ إلى العَدلِ، وفيه لطيفةٌ: وهي أنَّه تعالى بدأ أوَّلًا بالعِلمِ، ثمَّ ذَكَر ما فيه أشرَفُ أنواعِ العُلومِ، وهو القُرآنُ، ثمَّ ذَكَر العَدلَ، وذَكَر أخَصَّ الأُمورِ له، وهو الميزانُ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ لِيَعمَلَ النَّاسُ بالكِتابِ، ويَفعَلوا بالميزانِ ما يأمُرُهم به الكِتابُ[3].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ سُؤالٌ عن الميزانِ: أنَّه ما الَّذي فيه مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ الَّتي بسَبَبِها يُعَدُّ في الآلاءِ؟

**الجَوابُ**: النُّفوسُ تأبى الغَبْنَ، ولا يَرضى أحدٌ بأن يَغلِبَه الآخَرُ -ولو في الشَّيءِ اليَسيرِ-، ويَرى أنَّ ذلك استِهانةٌ به؛ فلا يَترُكُه لخَصمِه لغَلَبةٍ، فلا أحَدَ

(١) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٢).

يَذهَبُ إلى أنَّ خَصْمَه يَغلِبُه، فلولا التَّبيينُ ثمَّ التَّساوي لأوقَعَ الشَّيطانُ بيْنَ النَّاسِ البَغضاءَ -كما وَقَع عندَ الجَهلِ، وزَوالِ العَقلِ، والسُّكْرِ-، فكما أنَّ العَقلَ والعِلمَ صارا سَبَبًا لبَقاءِ عِمارةِ العالَمِ؛ فكذلك العَدلُ في الحِكمةِ سَبَبٌ، وأخَصُّ الأسبابِ الميزانُ؛ فهو نِعمةٌ كامِلةٌ، ولا يُنظَرُ إلى عدَمِ ظُهورِ نِعمَتِه لكَثرتِه، وسُهولةِ الوُصولِ إليه،كالهَواءِ والماءِ اللَّذَينِ لا يتبَيَّنُ فَضلُهما إلَّا عندَ فَقدِهما[1]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۞ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾

- قولُه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ إمَّا خبَرٌ لمُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: هو الرَّحمنُ، أو مُبتدأٌ خبَرُه مَحذوفٌ، يُقدَّرُ بما يُناسِبُ المَقامَ. ويجوزُ أنْ يكونَ واقعًا مَوقعَ الكلماتِ الَّتي يُرادُ لفْظُها؛ للتَّنبيهِ على غلَطِ المُشرِكين؛ إذ أنْكَروا هذا الاسمَ؛ قال تعالَى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، فيَكونَ مَوقعُه شَبيهًا بمَوقعِ الحروفِ المُقطَّعةِ الَّتي يُتهجَّى بها في أوائلِ بعضِ السُّوَرِ -على أظهَرِ الوجوهِ في تأْويلِها-، وهو التَّعريضُ بالمُخاطَبينَ بأنَّهم أخْطؤوا في إنكارِهم الحقائقَ[2].

- ومِن بَديعِ أُسلوبِ السُّورة افتتاحُها الباهرُ باسمِه الرَّحمنِ، وهي السُّورة الوَحيدةُ المُفتتَحةُ باسمٍ مِن أسماءِ اللهِ لم يَتقدَّمْه غيرُه. وكان في افتِتاحِ السُّورة باسمِ الرَّحمنِ تَشويقُ جَميعِ السَّامِعينَ إلى الخبَرِ الَّذي يُخبَرُ به عنه؛ إذ كان المُشرِكون لا يأْلَفون هذا الاسمَ؛ قال تعالى: ﴿قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠]، فهُمْ إذا سَمِعوا هذه الفاتحةَ تَرقَّبوا ما سيَرِدُ مِن الخبَرِ عنه، والمؤمنونَ إذا طرَقَ أسماعَهم هذا الاسمُ، استَشْرَفوا لِما سيَرِدُ مِن الخبرِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٠).

المناسِبِ لوصْفِه هذا ممَّا هم مُتشوِّقون إليه مِن آثارِ رَحمتِه[١].

- وأُوثِرَ استِحضارُ الجَلالةِ باسْمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دونَ غيرِه مِن الأسماءِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ يَأبَونَ ذِكرَه، فجُمِعَ في هذه الجُملةِ بيْنَ رَدَّينِ عليهم، معَ ما للجُملةِ الاسميَّةِ مِن الدَّلالةِ على ثَباتِ الخبَرِ. ولأنَّ مُعظَمَ هذه السُّورةِ تَعدادٌ للنِّعمِ والآلاءِ؛ فافتِتاحُها باسمِ الرَّحمنِ بَراعةُ استِهلالٍ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ جِيءَ بالمُسنَدِ ﴿عَلَّمَ﴾ فِعلًا مُؤخَّرًا عن المُسنَدِ إليه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، أي: هو علَّمَ القرآنَ، لا بشَرٌ علَّمَه[٣].

- وحُذِفَ المفعولُ الأوَّلُ لِفعلِ ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ لظُهورِه لدَلالةِ المعْنى عليه، فقيل: التَّقديرُ: علَّمَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّهم ادَّعَوا أنَّه مُعلَّمٌ، وإنَّما أنْكَروا أنْ يكونَ مُعلِّمُه القرآنَ هو اللهَ تعالى، وهذا تَبكيتٌ أوَّلُ. وقيل: علَّمَ جِبريلَ، أو الإنسانَ[٤].

- وفي قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ أُسنِدَ تَعليمُ القرآنِ إلى اسمِ الرَّحمنِ؛ للإيذانِ بأنَّه مِن آثارِ الرَّحمةِ الواسعةِ وأحْكامِها، وقد اقتُصِرَ على ذِكرِه؛ تَنبيهًا على أصالتِه، وجَلالةِ قَدْرِه[٥].

- وقولُه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ خبَرٌ ثانٍ، والمُرادُ بالإنسانِ جِنسُ الإنسانِ، وهذا تَمهيدٌ للخبَرِ الآتي، وهو ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤]، وهذه قَضيَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٦).

لا يُنازِعون فيها، ولكنَّهم لَمَّا أعْرَضوا عن مُوجَبِها -وهو إفرادُ اللهِ تعالى بالعِبادةِ-، سِيقَ لهم الخبَرُ بها على أُسلوبِ التَّعديدِ بدونِ عطْفٍ، كالَّذي يَعُدُّ للمُخاطَبِ مَواقعَ أخطائِه وغَفلتِه، وهذا تَبكيتٌ ثانٍ؛ ففي خلْقِ الإنسانِ دَلالتانِ؛ أُولاهما: الدَّلالةُ على تَفرُّدِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ. وثانيتُهما: الدَّلالةُ على نِعمةِ اللهِ على الإنسانِ، والخلْقُ نِعمةٌ عَظيمةٌ؛ لأنَّ فيها تَشريفًا للمخلوقِ بإخراجِه مِن غَياهِبِ العدَمِ إلى مَبْرَزِ الوجودِ في الأعيانِ[١].

- وقُدِّمَ خَلْقُ الإنسانِ على خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لِمُناسَبةِ إردافِه بتَعليمِ القُرآنِ[٢].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ جِيءَ بالمُسنَدِ فِعلًا بعْدَ المُسنَدِ إليه ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾، وهو يُفيدُ تَقوِّي الحُكمِ، أو للتَّخصيصِ؛ بتَنزيلِهم مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ خلَقَ الإنسانَ؛ لأنَّهم عَبَدوا غيرَه[٣].

- وفي قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ * خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ (العَلَقِ): ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ثمَّ قال: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣، ٤]، فقدَّمَ الخلْقَ على التَّعليمِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه في تلك السُّورةِ لم يُصرِّحْ بتَعليمِ القُرآنِ؛ فهو كالتَّعليمِ الَّذي ذَكَرَه في هذه السُّورة بقولِه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ بعدَ قولِه: ﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ﴾[٤].

وقيل: لأنَّ سورةَ (العَلَقِ) أوَّلُ ما نزَل مِن القرآنِ، ولم يكُنِ القرآنُ معهودًا للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ولا لغيرِه، وسورةُ (الرحمنِ): نزَلت بعدَ معرفةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤)() يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٨).

القرآنِ، وشهرتِه عندَهم، فكان الابتداءُ بما يعرِفُه مِن تقديمِ الخلقِ في سورةِ (العلقِ) أنسبُ مِن القرآنِ الذي لم يعهَدْه، وكان الابتداءُ بتعليمِ القرآنِ الذي نعرِفُه، والمنَّةُ به في سورةِ (الرحمنِ) أنسبُ لسياقِ ما ورَدت به السُّورةُ مِن عظيمِ المنَّةِ على العبادِ(١).

- وقولُه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ خبَرٌ ثالثٌ تضمَّنَ الاعتبارَ بنِعمةِ الإبانةِ عن المُرادِ، والامتِنانَ بها بعْدَ الامتنانِ بنِعمةِ الإيجادِ، أي: علَّم جِنسَ الإنسانِ أنْ يُبِينَ عمَّا في نفْسِه ليُفيدَ غيرَه ويَستفيدَ هو(٢).

- وكذلك قولُه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ فيه مَجيءُ المُسنَدِ فِعلًا بعدَ المُسنَدِ إليه؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكمِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ تَبْكيتٌ؛ ووجْهُه أنَّهم لم يَشكُروه على نِعمةِ البيانِ؛ إذ صَرَفوا جُزءًا كبيرًا مِن بَيانِهم فيما يُلْهِيهم عن إفرادِ اللهِ بالعبادةِ، وفيما يُنازِعون به مَن يَدْعوهم إلى الهُدى(٤).

- وفي قولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۞ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۞عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ عدَّدَ اللهُ عزَّ وعَلا آلاءَه، فأرادَ أنْ يُقدِّمَ أوَّلَ شَيءٍ ما هو أسبَقُ قِدَمًا مِن ضُروبِ آلائِه، وأصنافِ نَعمائِه، وهي نِعمةُ الدِّينِ، فقدَّمَ مِن نِعمةِ الدِّينِ ما هو في أعْلى مَراتبِها، وأقْصى مَراقِيها؛ وهو إنعامُه بالقرآنِ وتَنزيلِه وتَعليمِه؛ لأنَّه أعظَمُ وَحْيِ اللهِ رُتبةً، وأعلاه مَنزلةً، وأحسَنُه في أبوابِ الدِّينِ أثرًا، وهو سَنامُ

---

(١) يُنظر: ((كشف المعانى فى المتشابه من المثانى)) لابن جماعة (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٣، ٢٣٤).

الكتُبِ السَّماويَّةِ، ومِصداقُها والعِيارُ[١] عليها. وأخَّر ذِكرَ خلْقِ الإنسانِ عن ذِكرِه، ثمَّ أتْبَعَه إيَّاه؛ لِيُعْلِمَ أنَّه إنَّما خلَقَه للدِّينِ، وليُحيطَ عِلمًا بوَحْيِه وكُتبِه وما خُلِقَ الإنسانُ مِن أجْلِه، وكأنَّ الغرَضَ في إنشائِه كان مُقدَّمًا عليه، وسابقًا له، ثمَّ ذكَرَ ما تَميَّزَ به عن سائرِ الحيوانِ مِن البَيانِ، وهو المنطِقُ الفَصيحُ المُعرِبُ عمَّا في الضَّميرِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۞ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾

- قولُه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ خبَرٌ رابعٌ عن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، ورابطُ الجُملةِ بالمُبتدأِ تَقديرُه: بحُسبانِه، أي: حُسبانِ الرَّحمنِ وضبْطِه، وهذا استِدلالٌ على التَّفرُّدِ بخلْقِ كوكبِ الشمسِ وكُرةِ القمَرِ، وامتِنانٌ بما أُودِعَ فيهما مِن مَنافعَ للنَّاسِ، ونِظامِ سَيرِهما الَّذي به تَدقيقُ نِظامِ مُعاملاتِ النَّاسِ واستِعْدادهم لِما يَحتاجون إليه عندَ تَغيُّراتِ أجْوائهم وأرزاقِهم، ويَتضمَّنُ الامتِنانَ بما في ذلك مِن مَنافعِهم[٣].

- وفيه تَبكيتٌ، ووجْهُه: أنَّهم غَفَلوا عمَّا في نِظامِ الشَّمسِ والقَمرِ مِن الحِكمةِ، وما يدُلُّ عليه ذلك النِّظامُ مِن تَفرُّدِ اللهِ بتَقديرِه، فاشتغَلَ بعضُهم بعِبادةِ الشَّمسِ، وبعضُهم بعِبادةِ القمرِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن

(١) العِيَارُ: مصدرُ عايَرَ المَكاييلَ؛ إذا عدَّلها، والمُعَدِّلُ يكون حفيظًا على المُعدَّلِ ومُهَيْمِنًا عليه، أي: القرآنُ عِيارٌ على سائرِ الكتبِ كلِّها، ومُصَدِّقُها، ومُهَيْمِنٌ عليها. يُنظر: ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٤٦، ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٢٩، ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٤).

كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[١] [فصلت: ٣٧].

- وأيضًا في قولِه: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ جِيءَ بهذه الجُملةِ اسميَّةً؛ للتَّهويلِ بالابتداءِ باسمِ الشَّمسِ والقمرِ، وللدَّلالةِ على أنَّ حُسبانَهما ثابتٌ لا يَتغيَّرُ منذُ بَدْءِ الخلْقِ، مُؤْذِنٌ بحِكمةِ الخالقِ[٢].

- واستُغْنِيَ بجَعْلِ اسمِ الشَّمسِ والقمَرِ مُسنَدًا إليهما عن تَفكيكِ المُسنَدِ إلى مُسندَينِ: أحدُهما يدُلُّ على الاستِدلالِ، والآخَرُ يدُلُّ على الامتِنانِ، كما وقَعَ في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[٣] [الرحمن: ٣، ٤].

- قولُه: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ الباءُ للمُلابَسةِ، وهي ظرْفٌ مُستقَرٌّ[٤] هو خبَرٌ عن الشَّمسِ والقمَرِ، والتَّقديرُ: كائنانِ بحُسبانٍ، أي: بمُلابَسةِ حُسبانٍ، أي: لحِسابِ النَّاسِ مَواقِعَ سَيرِهما[٥].

- والحُسبانُ كِنايةٌ عن انتظامِ سَيرِ الشَّمسِ والقمَرِ انتظامًا مُطَّرِدًا، لا يَختلُّ حِسابُ النَّاسِ له، والتَّوقيتُ به[٦].

- واقتُصِرَ على ذِكرِ الشَّمسِ والقمرِ دونَ بَقيَّةِ الكواكبِ، وإنْ كان فيها حُسبانُ الأنواءِ، والحَرِّ والبرْدِ -مِثل الجَوزاءِ، والشِّعْرى، ومَنزلةِ الأسَدِ، والثُّرَيَّا-؛ لأنَّ هذَين الكوكبَينِ هما الباديانِ لجميعِ النَّاسِ، لا يَحتاجُ تَعقُّلُ أحوالِهما إلى تَعليمِ تَوقيتٍ مِثلَ الكواكبِ الأُخرى، ولأنَّ السُّورةَ هذه بُنِيَت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٥).

على ذِكرِ الأُمورِ المُزدوَجةِ، والشَّمسُ والقمرُ مُزدوجانِ في مَعارفِ عُمومِ النَّاسِ، فذِكْرُ الشَّمسِ والقمرِ كذِكْرِ السَّماءِ والأرضِ، والمَشرِقِ والمَغربِ، والبحرَينِ[١].

أو: خَصَّهما بالذِّكْرِ؛ لأنَّ حَرَكتَهما بحُسبانٍ تدُلُّ على فاعلٍ مُختارٍ سَخَّرَهما على وَجهٍ مَخصوصٍ[٢].

- قولُه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۞ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ اتَّصلت هاتانِ الجُملتانِ بـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، واستُغْنِيَ فيهما عن الوصْلِ اللَّفظيِّ بالوصْلِ المَعنويِّ، وكان حقُّ النَّظمِ في الجُملتينِ أنْ يُقالَ: وأجْرى الشَّمسَ والقمَرَ، وأسجَدَ النَّجمَ والشَّجرَ، أو الشَّمسُ والقَمَرُ بحُسبانِه، والنَّجمُ والشَّجرُ يَسجُدانِ له؛ إشعارًا بأنَّ وُضوحَه يُغْنيهِ عن البيانِ، ولِما عُلِمَ أنَّ الحُسبانَ حُسبانُه، والسُّجودَ له لا لغيرِه. وللتَّناسُبِ بيْن هاتَين الجُملتَينِ وُسِّط بيْنَهما العاطفُ؛ لأنَّ الشَّمسَ والقمرَ سَماويَّانِ، والنَّجمَ والشَّجرَ أرضيَّانِ، -على قولٍ في النَّجمِ- فبيْن القَبيلَينِ تَناسُبٌ مِن حيث التَّقابُلُ، ولأنَّ السَّماءَ والأرضَ لا تَزالانِ تُذْكَرانِ قَرينتَينِ، ولأنَّ جَرْيَ الشَّمسِ والقمرِ بحُسبانٍ مِن جِنسِ الانقيادِ لأمْرِ اللهِ، فهو مُناسِبٌ لسُجودِ النَّجمِ والشَّجرِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]، عطْفَ الخبَرِ على الخبرِ؛ لأنَّ سُجودَ الشَّمسِ والقمرِ للهِ تعالى، وهو انتقالٌ مِن الامتنانِ بما في السَّماء مِن المنافعِ إلى الامتنانِ بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٧).

في الأرضِ، وجُعِلَ لَفظُ (النَّجم) واسِطةَ الانتِقالِ لصَلاحيَّتِه لأنْ يُرادَ منه نُجومُ السَّماءِ، وما يُسمَّى نَجْمًا مِن نباتِ الأرضِ[١].

- وعُطِفت جُملةُ ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ ولم تُفصَلْ، فخرَجَت مِن أُسلوبِ تَعدادِ الأخبارِ إلى أُسلوبِ عطْفِ بَعضِ الأخبارِ على بعْضٍ؛ لأنَّ الأخبارَ الواردةَ بعْدَ حُروفِ العطفِ لم يُقصَدْ بها التَّعدادُ؛ إذ ليس فيها تَعريضٌ بتَوبيخِ المُشرِكين، فالإخبارُ بسُجودِ النَّجمِ والشَّجرِ أُرِيدَ به الإيقاظُ إلى ما في هذا مِن الدَّلالةِ على عَظيمِ القدرةِ دَلالةً رمْزيَّةً، ولأنَّه لَمَّا اقْتَضى المَقامُ جمْعَ النَّظائرِ مِن المُزاوَجاتِ بعْدَ ذِكرِ الشَّمسِ والقمرِ، كان ذلك مُقتضيًا سُلوكَ طَريقةِ الوصْلِ بالعطْفِ بجامِعِ التَّضادِّ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]؛ ليُؤْذِنَ بأنَّ الأصلَ: أجْرى الشَّمسَ والقمَرَ، وأسجَدَ النَّجمَ والشجَرَ، فعُدِلَ إلى معْنى دَوامِ التَّسخيرِ والانقِيادِ في الجُملتينِ الأُولَيين، ومعْنى التَّوكيدِ في الأخيرةِ؛ فدَلَّ الاختلافُ في الأخبارِ المُتواليةِ لـ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على مَعانٍ تَبْهَرُ ذا اللُّبِّ[٣]!

- ولَمَّا ذكَرَ ما به حياةُ الأرواحِ مِن تَعليمِ القُرآنِ، ذكَرَ ما به حَياةُ الأشباحِ مِن النَّباتِ الَّذي له ساقٌ، وكان تَقديمُ النَّجمِ -وهو ما لا ساقَ له- وذلك على قولٍ؛ لأنَّه أصلُ القُوتِ، والَّذي له ساقٌ ثَمرُه يُتفكَّهُ به غالبًا[٤].

- ويُطلَقُ النَّجْمُ على النَّباتِ والحَشيشِ الَّذي لا سُوقَ له، فهو مُتَّصِلٌ بالتُّرابِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٥، ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦).

فحصَلَ مِن قولِه: ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ﴾ قَرينتانِ مُتوازِيتانِ في الحرَكةِ والسُّكونِ، وهذا مِن المحسِّناتِ البَديعيَّةِ الكامِلةِ(١). وذلك على قولٍ.

- وجُعِلَتِ الجُملةُ ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ مُفتتَحةً بالمُسنَدِ إليه ﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ ﴾؛ لتكونَ على صُورةِ فاتحةِ الجُملةِ الَّتي عُطِفَتْ هي عليها(٢).

- وأُتِيَ بالمُسنَدِ فِعلًا مُضارِعًا ﴿يَسۡجُدَانِ ﴾؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِ هذا السُّجودِ وتَكرُّرِه(٣).

- قولُه: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ۞ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ على القولِ بأنَّ المرادَ بالنَّجمِ هنا: النَّباتُ الَّذي لا ساقَ له؛ ففيه ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بإيهامِ التَّناسُبِ، وهو أن يُجمَعَ بيْنَ معنيَينِ غيرِ مُتناسِبَينِ بلَفظَينِ يكونُ لهما مَعنَيانِ مُتناسِبانِ وإن لم يَكونا مَقصودَينِ هاهنا، كقولِه تعالى: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ۞ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾؛ فإنَّه لَمَّا ذكَر لفظَ الشَّمسِ والقمرِ، وذكَر النَّجمَ بعدَهما في قولِه: ﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٍ ۞ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ فإنَّه أوْهَمَ أنَّ المرادَ بالنَّجمِ نَجمُ السَّماءِ؛ لِمُناسَبةِ الشَّمسِ والقمرِ، ولأنَّه أكثَرُ ما يُطلَقُ النَّجمُ على نَجمِ السَّماءِ، فتُوهِمَ أنَّ المُناسَبةَ هنا هي مِن بابِ مُراعاةِ النَّظيرِ أو الائتِلافِ، بَيْدَ أنَّ المرادَ بالنَّجمِ هنا هو النَّباتُ الَّذي لا ساقَ له، وعلى ذلك ففي النَّصِ إيهامٌ للتَّناسُبِ بيْنَ النَّجمِ والشَّمسِ والقمرِ، وتَناسُبٌ واضحٌ بيْنَ النَّجمِ بمعناه الَّذي ذكَرْناه وبيْنَ الشَّجرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويمكنُ أن يكونَ بيْنَ النَّجمِ بالمعنى المذكورِ وبيْنَ الشَّمسِ والقمرِ تَناسُبٌ لكنْ بطريقِ التَّقابُلِ أو المُضادَّةِ؛ لأنَّ الشَّمسَ والقمرَ سَماويَّانِ، والنَّجمَ والشَّجرَ أرْضيَّانِ(١).

- وأخبَرَ عن اسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ بأربعةِ أخبارٍ مُتتاليةٍ غيرِ مُتعاطِفةٍ، رابعُها هو جُملةُ ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن: ٥]؛ لأنَّها جِيءَ بها على نمَطِ التَّعديدِ في مَقامِ الامتِنانِ، وللتَّوقيفِ على الحَقائقِ، والتَّبكيتِ للخَصمِ في إنكارِهم صَريحَ بعْضِها، وإعراضِهم عن لَوازمِ بَعضِها، كما تقولُ: زَيدٌ أغناكَ بعْدَ فقْرٍ، أعَزَّك بعْدَ ذُلٍّ، كثَّرَك بعْدَ قِلَّةٍ، فعَلَ بك ما لم يَفعَلْ أحدٌ بأحدٍ، فما تُنكِرُ مِن إحسانِه؟! ففَصْلُ جُملتَيْ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ * عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤] عن جُملةِ ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ خِلافُ مُقْتضى الظَّاهرِ لنُكتةِ التَّعديدِ؛ للتَّبكيتِ. وعطَفَ عليها أربعةً أُخَرَ بحرْفِ العطفِ مِن قولِه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ [الرحمن: ٦- ١٠]، وكلُّها دالَّةٌ على تَصرُّفاتِ اللهِ؛ ليُعلِمَهم أنَّ الاسمَ الَّذي استَنْكَروه هو اسمُ اللهِ، وأنَّ المُسمَّى واحدٌ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ * أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ * وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾

- في قولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ اطَّرَدَ أُسلوبُ المقابَلةِ بيْن ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٩٩)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٩٧).

يُشبِهُ الضِّدَّينِ بعْدَ مُقابَلةِ ذِكرِ الشَّمسِ والقَمرِ بذِكرِ النَّجْمِ والشَّجرِ؛ فجِيءَ بذِكرِ خلْقِ السَّماءِ وخلْقِ الأرضِ، وعاد الكلامُ إلى طَريقةِ الإخبارِ عن المسنَدِ إليه بالمسنَدِ الفِعليِّ؛ كما في قولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۞ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١، ٢]، وهذا مَعطوفٌ على الخبرِ؛ فهو في معْناهُ(١).

- ورفْعُ السَّماءِ يَقْتضي خَلْقَها، وذُكِرَ رفْعُها؛ لأنَّه مَحلُّ العِبرةِ بالخلْقِ العجيبِ، ومعْنى رَفْعِها: خلْقُها مَرفوعةً؛ إذ كانت مَرفوعةً بغيرِ أعمدةٍ، كما يُقال للخيَّاطِ: وسِّعْ جَيبَ القميصِ، أي: خِطْهُ واسعًا، على أنَّ في مُجرَّدِ الرَّفعِ إيذانًا بسُموِّ المنزلةِ وشرَفِها(٢).

- وتَقديمُ (السَّمَاءَ) على الفِعلِ النَّاصبِ له ﴿رَفَعَهَا﴾ زِيادةٌ في الاهتِمامِ بالاعتبارِ بخلْقِها(٣).

- والمِيزانُ هنا مُرادٌ به العدْلُ -على قولٍ-، مِثلَ الَّذي في قولِه تعالَى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]؛ لأنَّه الَّذي وضَعَه اللهُ، أي: عيَّنَه لإقامةِ نِظامِ الخلْقِ؛ فالوضْعُ هنا مُعبَّرٌ به عن الجَعْلِ، فهو كالإنزالِ في قولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾(٤).

- وفي قولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ قرَنَ وَضْعَ الميزانِ مع رفْعِ السَّماءِ؛ تَنويهًا بشأْنِ العدلِ؛ بأنْ نُسِبَ إلى العالَمِ العُلويِّ، وهو عالَمُ الحقِّ والفضائلِ، وأنَّه نزَلَ إلى الأرضِ مِن السَّماءِ، أي: هو ممَّا أمَرَ اللهُ به؛ ولذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٨).

تَكرَّرَ ذلك العدلُ مع ذِكرِ خلْقِ السَّماءِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [يُونس: ٥]، وقولِه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الحِجر: ٨٥]، وقولِه: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الدُّخَان: ٣٨، ٣٩]، وإذ قد كان الأمرُ بإقامةِ العدْلِ مِن أهمِّ ما أَوصى اللهُ به إلى رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قُرِنَ ذِكرُ جَعْلِه بذِكرِ خلْقِ السَّماءِ، فكأنَّه قِيل: ووضَعَ فيها الميزانَ[1]. وأيضًا قُرِنَ برفعِ السَّماءِ؛ لأنَّه تعالى عدَّدَ نِعَمَه على عِبادِه، ومِن أجَلِّ هذه النِّعَمِ الميزانُ، الَّذي هو العدلُ، الَّذي به نِظامُ العالَمِ وقِوامُه[2].

- و(أنْ) في قولِه: ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا۟ ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ تَفسيريَّةً؛ لأنَّ فِعلَ (وَضَعَ الْمِيزَانَ) فيه معْنى أمْرِ النَّاسِ بالعَدلِ، وفي الأمرِ معْنى القولِ دونَ حُروفِه؛ فهو حَقيقٌ بأنْ يأتِيَ تَفسيرُه بحرْفِ (أنْ) التَّفسيريَّةِ، فكان النَّهيُ عن إضافةِ العدلِ في أكثرِ المُعامَلاتِ تَفسيرًا لذلك؛ فتَكونَ (لا) ناهيةً. ويَجوزُ أنْ تكونَ (أنْ) مَصدريَّةً، بتَقديرِ لامِ الجرِّ مَحذوفةً قبْلَها، والتَّقديرُ: لئلَّا تَطْغَوا في الميزانِ، وتكونَ (لا) نافيةً، وفِعلُ ﴿تَطْغَوْا۟﴾ مَنصوبًا بـ(أنْ) المصدريَّةِ[3].

- والمُرادُ بالميزانِ ما يَشملُ العدلَ، ويَشملُ ما به تَقديرُ الأشياءِ الموزونةِ ونحْوِها في البيعِ والشِّراءِ، أي: مِن فوائدِ تَنزيلِ الأمرِ بالعدْلِ أنْ تَجتَنِبوا الطُّغيانَ في إقامةِ الوزنِ في المعامَلةِ، ولفظُ الميزانِ يَسمَحُ بإرادةِ المعْنيَينِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨).

على طَريقةِ استِعمالِ المُشتركِ في مَعنيَيْه. وفي لَفظِ الميزانِ وما قارَنَه مِن فِعلِ (وَضَعَ) وفِعلَيْ ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا ﴾ ﴿ وَأَقِيمُوا ﴾، وحرْفِ الباءِ في قولِه: ﴿بِالْقِسْطِ﴾، وحرْفِ (في) مِن قولِه: ﴿فِي الْمِيزَانِ﴾، ولفظِ ﴿بِالْقِسْطِ﴾؛ كلُّ هذه تَظاهَرَت على إفادةِ هذه المعاني، وهذا مِن إعجازِ القرآنِ[1].

- وحرْفُ (في) للظَّرفيَّةِ الَّتي تُفيدُ النَّهيَ عن أقلِّ طُغيانٍ على الميزانِ، أي: ليس النَّهيُ عن إضاعةِ الميزانِ كلِّه، بلِ النَّهيُ عن كلِّ طُغيانٍ يَتعلَّقُ به[2].

- قولُه: ﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴾ على احتِمالِ كَونِ المعطوفِ عليها تَفسيريَّةً، وعلى جُملةِ ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ على احتِمالِ كَونِ المعطوفِ عليها تَعليلًا[3].

- والباءُ في ﴿بِالْقِسْطِ﴾ للمُصاحَبةِ، والمعْنى: اجْعَلوا العدْلَ مُلازِمًا لِما تُقوِّمونه مِن أُمورِكم. أو الباءُ للسَّببيَّةِ، أي: راعُوا في إقامةِ التَّمحيصِ ما يَقْتضيهِ العدْلُ. وقد كان المُشرِكون يَعهَدون إلى التَّطفيفِ في الوزْنِ، كما جاء في قولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١- ٣]، فلمَّا كان التَّطفيفُ سُنَّةً مِن سُنَنِ المشركين، تَصدَّتِ الآيةُ للتَّنبيهِ عليه، ويَجِيءُ على الاعتِبارَينِ تَفسيرُ قولِه: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾؛ فإنْ حُمِلَ الميزانُ فيه على معْنى العدْلِ، كان المعْنى النَّهْيَ عن التَّهاوُنِ بالعدْلِ لغَفلةٍ أو تَسامحٍ بعْدَ أنْ نَهى عن الطُّغيانِ فيه، ويَكونُ إظهارُ لفظِ (الميزان) في مَقامِ ضَميرِه تَنبيهًا على شِدَّةِ عِنايةِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالعدلِ، وإنْ حُمِلَ فيه على آلةِ الوزْنِ، كان المعْنى النَّهيَ عن غَبْنِ الناسِ في الوزْنِ لهم، كما قال تعالى في سُورةِ (المطفِّفين): ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾[1] [المطففين: ٣].

- وفائدةُ تَكرارِ لَفظِ الميزانِ ثَلاثَ مرَّاتٍ: التَّشديدُ؛ للتَّوصيةِ به، ولتَقويةِ الأمْرِ باستِعمالِه والحثِّ عليه، ولتوكيدِ إيفاءِ الحقوقِ وعدَمِ التَّطفيفِ لِفَرطِ الحاجةِ إليه في المعاملاتِ الجاريةِ بيْنَ الناس، وبيانِ أنَّ كلًّا مِن الآياتِ مُستقِلَّةٌ بنفْسِها، أو أنَّ كلًّا مِن الألفاظِ الثَّلاثةِ مُغايرٌ لكلٍّ مِن الآخَرَينِ؛ فالأوَّلُ: هو الآلةُ ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾، والثَّاني: بمعْنى المصدَرِ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾، أي: الوزْنِ، والثَّالثُ: للمفعولِ ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾، أي: الموزونَ، وذَكَرَ الكلَّ بلَفظِ «الميزانِ»؛ لأنَّ الميزانَ أشمَلُ للفائدةِ. وقيل: الأوَّلُ: مِيزانُ الدُّنيا، والثَّاني: مِيزانُ الآخرةِ، والثَّالثُ: مِيزانُ العقْلِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣١)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٣)، ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جَمَاعة (ص: ٣٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٣).

## الآيات (١٠-١٢)

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٣﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَكۡمَامِ﴾: أي: الأَوعيةِ الَّتي يكونُ فيها الثَّمَرُ، واحِدُها «كِمٌّ»: وهو وعاءُ الطَّلعِ قبْلَ أن يَنشَقَّ، وأصلُ (كمم): يدُلُّ على غِطاءٍ[1].

﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾: أي: تِبنِ الزَّرعِ ووَرَقِه الَّذي تَعصِفُه الرِّياحُ، وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[2].

﴿ءَالَآءِ﴾: الآلاءُ: النِّعَمُ[3].

## المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى بأنَّه خفَضَ الأرضَ ومَهَّدَها لِخَلْقِه، وجَعَل فيها أنواعَ الفواكِهِ، والنَّخلَ ذا الأوعيةِ الَّتي يكونُ فيها الثَّمَرُ، والحُبوبَ المأكولةَ ذواتِ الوَرَقِ اليابسِ والتِّبنِ، والرَّيحانَ ذا الرَّائحةِ الجَميلةِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ -يا مَعشَرَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣).

الإنسِ والجِنِّ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر إنعامَه الدَّالَّ على اقتِدارِه، برَفعِ السَّماءِ؛ ذَكَر على ذلك الوَجهِ مُقابِلَها، بعدَ أنْ وَسَّط بيْنَهما ما قامتا به مِنَ العَدلِ؛ تنبيهًا على شِدَّةِ العنايةِ والاهتِمامِ، فقال[1]:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠﴾.

أي: والأرضَ خفَضَها الرَّحمنُ، ووطَّأها لِخَلْقِه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٢).

قال الماوَرْدي: (في الأنامِ ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنَّهم النَّاسُ... الثَّاني: أنَّ الأنامَ الإنسُ والجِنُّ... الثَّالِثُ: أنَّ الأنامَ جميعُ الخَلقِ مِن كُلِّ ذي رُوحٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٥).

ومِمَّن قال بالقَولِ الأوَّلِ: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٥).

ومِمَّن قال بالقَولِ الثَّاني: الزَّجَّاجُ، والشربيني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٩٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٠).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٨).

ومِمَّن قال بالقَولِ الثَّالِثِ، وهو أنَّ المرادَ الخلْقُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقندي، وابن أبي زَمَنين، والثعلبي، والبغوي، والزمخشري، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٧٩)، ((تفسير =

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١﴾.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾.

أي: في الأرضِ أنواعُ الفواكِهِ المُختَلِفةِ الألوانِ والطُّعومِ والرَّوائِحِ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩].

﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾.

أي: وفي الأرضِ شَجَرُ النَّخلِ المُغَطَّى ثَمَرُه بالأوعيةِ التي تَنْشَقُّ، فتَخرُجُ

---

= السمرقندي)) (٣/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٥٩).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ، والشَّعبيُّ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٢٥).

قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿وَضَعَهَا﴾: خَفَضَها لهم، أي: جعَلَها تحتَ أقدامِهم وجُنوبِهم؛ لِتَمكينِهم مِنَ الانتِفاعِ بها بجَميعِ ما لهم فيها مِن منافعَ ومُعالجاتٍ، واللَّامُ في ﴿لِلۡأَنَامِ﴾ للأَجْلِ. والأنامُ: اختَلَفَت أقوالُ أهلِ اللُّغةِ والتَّفسيرِ فيه... وفَسَّره الزَّمخشري بقَولِه: الخَلقُ، وهو كُلُّ ما ظَهَر على وَجهِ الأرضِ مِن دابَّةٍ فيها رُوحٌ، وهذا مَرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ وجَمعٍ مِن التَّابِعينَ. وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضًا: أنَّه الإنسانُ فقط. وهو اسمُ جَمعٍ لا واحِدَ له مِن لَفظِه، وسياقُ الآيةِ يُرَجِّحُ أنَّ المرادَ به الإنسانُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٤).

قال ابنُ عاشور: (الفاكِهةُ: اسمٌ لِما يُؤكَلُ تفَكُّهًا لا قُوتًا، مُشتقَّةٌ مِن فَكِهَ كفَرِحَ: إذا طابت نَفْسُه بالحديثِ والضَّحِكِ؛ قال تعالى: ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥]؛ لأنَّ أكْلَ ما يَلَذُّ للآكِلِ وليس بضَروريٍّ له: إنَّما يكونُ في حالِ الانبِساطِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

منها عُذوقُ التَّمْرِ[١].

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر ما يُقتاتُ مِنَ الفَواكهِ -وهو في غايةِ الطُّولِ-؛ أتْبَعَه الأصلَ في الاقتياتِ للنَّاسِ والبَهائِمِ -وهو بمكانٍ مِنَ القِصَرِ-، فقال ذاكِرًا ثَمَرتَه؛ لأنَّها المقصودةُ بالذَّاتِ[٢]:

﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾.

أي: وفي الأرضِ الحُبوبُ المأكولةُ -كالبُرِّ والشَّعيرِ ونحوِهما- ذواتُ الورقِ اليابسِ، والتِّبنِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨١، ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٣)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٣).

قال الشنقيطي: (وقولُه: ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ قال أكثرُ العلماءِ: العصفُ وَرَقُ الزَّرْعِ، ومنه قولُه تعالَى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥]. وقيلَ: العصفُ التِّبْنُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٩٣).

وقال الواحدي: (العصف ورَقُ الزَّرعِ، ثمَّ إذا يَبِسَ ودِيسَ صار تِبنًا. وعلى هذا يَدورُ كلامُ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (٢١/ ١٤٣).

وقال العُلَيمي: (﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ التِّبنُ وورَقُ النَّباتِ اليابسِ). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٧٩).

وقال ابنُ عاشور: (هذا وَصفٌ لحَبِّ الشَّعيرِ والحِنطةِ، وبهما قِوامُ حياةِ مُعظَمِ النَّاسِ، وكذلك ما أشبَهَهما مِن نَحوِ السُّلْتِ [ضربٌ مِن الشَّعيرِ] والأَرُزِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٢).

ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴾ [يس: ٣٣].

﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿وَالرَّيْحَانَ﴾ بفَتحِ النُّونِ، وكذلك بفَتحِ ما قَبْلَها ﴿وَالْحَبَّ ذَا الْعَصْفِ﴾، أي: وخَلَق الحَبَّ ذا العَصْفِ، والرَّيحانَ الَّذي يُشَمُّ. وقيل: الرَّيحانُ: الرِّزقُ[١].

٢- قِراءةُ: ﴿وَالرَّيْحَانِ﴾ بكَسرِ النُّونِ عَطفًا على العَصْفِ، أي: وفيها الحَبُّ ذو العَصْفِ وذو الرَّيحانِ. فقيل: المرادُ هنا أنَّ العَصْفَ: ما تأكُلُه الأنعامُ، والرَّيحانُ: ما يأكُلُه النَّاسُ مِن نَفسِ الحَبِّ[٢].

٣- قِراءةُ: ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ بضَمِّ النُّونِ عَطفًا على الحَبِّ، أي: وفيها الحَبُّ ذو العَصفِ، وفيها الرَّيحانُ الَّذي يُشَمُّ. وقيل: الرَّيحانُ: الرِّزقُ[٣].

---

(١) قرأ بها ابنُ عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ١١٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٤).

(٢) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٠، ٦٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٤).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٨، ١٨٩)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٣٨)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٤).

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾.

أي: وفي الأرضِ الرَّيحانُ، وهو النَّبتُ ذو الرَّائِحةِ الجَميلةِ، الَّذي يُشَمُّ لِطيبِ رائِحتِه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٣، ٤٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

قال السعدي: (﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ يحتَمِلُ أنَّ المرادَ بذلك جميعُ الأرزاقِ الَّتي يأكُلُها الآدميُّونَ، فيَكونُ هذا مِن بابِ عَطفِ العامِّ على الخاصِّ، ويكونُ اللهُ قد امتَنَّ على عبادِه بالقُوتِ والرِّزقِ عُمومًا وخُصوصًا.

ويحتَمِلُ أنَّ المرادَ بالرَّيحانِ: الرَّيحانُ المعروفُ، وأنَّ اللهَ امتَنَّ على عبادِه بما يَسَّرَه في الأرضِ مِن أنواعِ الرَّوائِحِ الطَّيِّبةِ، والمشامِّ الفاخِرةِ الَّتي تَسُرُّ الأرواحَ، وتَنشَرِحُ لها النُّفوسُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

وقال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾: اختَلَف العُلَماءُ في معناه؛ فقال بَعضُ أهلِ العِلمِ: هو كُلُّ ما طاب رِيحُه مِن النَّبتِ، وصار يُشَمُّ للتَّمَتُّعِ بريحِه. وقال بعضُ العُلَماءِ: الرَّيحانُ: الرِّزقُ... ويتعَيَّنُ كَونُ الرَّيحانِ بمعنى الرِّزقِ على قراءةِ حَمزةَ والكِسائيِّ [أي: بكسرِ النونِ]؛ وأمَّا على قراءةِ غَيرِهما فهو مُحتَمِلٌ للأمْرَينِ المذكورَينِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤٩٣، ٤٩٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ به النَّبتُ الطَّيِّبُ الرَّائِحةِ: ابنُ القيِّم، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالرَّيحانِ: الرِّزقُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، والواحدي، والخازن، ونسَبَه الواحديُّ والبغويُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢١٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٢).

وممَّن قال مِن السَّلفِ إنَّ المرادَ بالرَّيحانِ: الرِّزقُ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٧٩). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن عُرِضَ عليه رَيحانٌ فلا يَرُدُّه[١]؛ فإنَّه خَفيفُ المَحْمِلِ[٢]، طَيِّبُ الرِّيحِ))[٣].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا عَدَّد تعالى نِعَمَه، وكان الجِنُّ والإنسُ مِمَّن دَخَلوا في قَولِه: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾؛ خاطبَهما بقَولِه[٤]:

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٥]؟!

---

= قال مقاتلٌ: (يعني الرِّزقَ -بلِسانِ حِمْيَرَ- الَّذي يخرجُ مِن الحبِّ مِن دَقيقٍ أو سَويقٍ أو غيرِه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالرَّيحانِ: الرِّزقُ، وخَصَّه بالحَبِّ المأكولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٨).

وقال الزمخشري: (والرَّيحانُ: الرِّزقُ، وهو اللُّبُّ، أراد: فيها ما يُتلذَّذُ به مِن الفَواكِهِ، والجامعُ بيْنَ التَّلذُّذِ والتَّغذِّي وهو ثمرُ النَّخلِ، وما يُتغذَّى به وهو الحَبُّ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٤).

(١) قال النووي: (فلا يردُّه برفعِ الدَّالِ على الفصيحِ المشهورِ). ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٩).

(٢) أي: خفيفُ الحَملِ، ليس بثقيلٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٩).

(٣) رواه مسلم (٢٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٨٩، ١٩١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٠١-٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

قال القرطبي: (الآلاءُ: النِّعَمُ، وهو قَولُ جَميعِ المفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٩).

وقال أيضًا: (قوله تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ خِطابٌ للإنسِ والجنِّ؛ لأنَّ الأنامَ واقعٌ عليهما. وهذا قولُ الجمهورِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٥٨). =

كما قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

رُوِيَ عن الرَّبيعِ بنِ زيادٍ الحارثيِّ: (أنَّه قال لعلِيِّ بنِ أبي طالبٍ رضِيَ اللهُ عنه: اعْدِني[1] على أخي عاصمٍ، قال: فما بالُه؟ قال: لَبِسَ العَباءةَ يُريدُ النُّسُكَ، فقال عليٌّ رضِيَ اللهُ عنه: علَيَّ به. فأُتِيَ به مُؤتزِرًا بعَباءةٍ مُرتديًا لأُخرى، شَعْثَ الرَّأسِ واللِّحيةِ، فعبَسَ في وجْهِه، وقال: ويْحَك! أمَا استحْيَيْتَ مِن أهلِك؟ أمَا رحِمْتَ ولَدَك؟ أَترى اللهَ أباح لك الطَّيِّباتِ وهو يَكرَهُ أنْ تَنالَ منها شيئًا؟! بل أنتَ أهونُ على اللهِ مِن ذلك، أمَا سمِعْتَ اللهَ يقولُ في كتابِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ إلى قولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ١٠ - ٢٢]؟ أفَترى اللهَ أباح هذه لعِبادِه إلَّا ليَبتَذِلُوه[2] ويَحمَدوا اللهَ عليه فيُثيبَهم عليه، وإنَّ ابتِذالَك نِعَمَ اللهِ بالفِعلِ خَيرٌ منه بالقولِ؟ قال عاصمٌ: فما بالُكَ في خُشونةِ مَأْكَلِك وخُشونةِ مَلبَسِك؟ قال: ويْحَك! إنَّ اللهَ فرَضَ على أئمَّةِ الحقِّ أنْ يَقدُروا أنفُسَهم بضَعَفةِ النَّاسِ).

إنَّ الله عزَّ وجلَّ لم يُطالِبِ العبادَ بتركِ الملذوذاتِ! وإنَّما طالبَهم بالشُّكرِ عليها إذا تَناوَلوها، فالاقتِصارُ على البَشِعِ في المأكولِ مِن غيرِ عُذْرٍ، وكذلك الاقتصارُ على الخشِنِ في الملبسِ مِن غيرِ ضرورةٍ: هو مِن قَبيلِ التَّشديدِ والتَّنطُّعِ

---

= واختار ابن عاشور أنَّه خِطابٌ للمؤمنينَ والكافرين الذين يَنقسِمُ إليهما جنسُ الإنسانِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٣).

(١) أي: أَعِنِّي وانصُرْني عليه. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٩٨)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٩/ ١٠).

(٢) أي: إلَّا لِيَستَعمِلوه، فالابتِذالُ: ضِدُّ الصِّيانةِ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٦٥).

المذمومِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ أخَذَ بَعضُ عُلَماءِ الأُصولِ مِن هذه الآيةِ الكَريمةِ وأمثالِها مِنَ الآياتِ، كقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]: «أنَّ الأصلَ فيما على الأرضِ الإباحةُ حتَّى يَرِدَ دَليلٌ خاصٌّ بالمنعِ»؛ لأنَّ اللهَ تعالى امتَنَّ على الأنامِ بأنَّه وَضَع لهم الأرضَ، وجَعَل لهم فيها أرزاقَهم، وامتَنَّ عليهم بأنَّه خَلَق لهم ما في الأرضِ جَميعًا في قَولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، ومَعلومٌ أنَّه جَلَّ وعلا لا يمتَنُّ بحَرامٍ؛ إذْ لا مِنَّةَ في شَيءٍ مُحَرَّمٍ.

**وفي هذه المسألةِ قَولانِ آخَرانِ:**

**أحدُهما:** أنَّ الأصلَ فيما على الأرضِ التَّحريمُ حتَّى يدُلَّ دَليلٌ على الإباحةِ.

**القَولُ الثَّاني:** هو الوَقفُ وعَدَمُ الحُكمِ فيها بمَنعٍ ولا إباحةٍ حتَّى يقومَ الدَّليلُ.

فتَحَصَّل أنَّ في المسألةِ ثَلاثةَ مَذاهِبَ: المَنعُ، والإباحةُ، والوَقفُ.

والصَّوابُ هو التَّفصيلُ؛ لأنَّ الأعيانَ الَّتي خلَقَها اللهُ في الأرضِ للنَّاسِ فيها ثلاثُ حالاتٍ: **الأُولى:** أن يكونَ فيها نَفعٌ لا يَشوبُه ضَرَرٌ، كأنواعِ الفواكِهِ، وغَيرِها.

**الثَّانيةُ:** أن يكونَ فيها ضَرَرٌ لا يَشوبُه نَفعٌ،كأكلِ الأعشابِ السَّامَّةِ القاتِلةِ.

**الثَّالِثةُ:** أن يكونَ فيها نَفعٌ مِن جِهةٍ، وضَرَرٌ مِن جِهةٍ أُخرى.

فإنْ كان فيها نَفعٌ لا يَشوبُه ضَرَرٌ، فالتَّحقيقُ حَملُها على الإباحةِ حتَّى يقومَ

---

(١) يُنظر: ((تلبيس إبليس)) لابن الجوزي (ص: ١٨٠)، ((الاعتصام)) للشاطبي (١/ ٤٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٠).

دَليلٌ على خِلافِ ذلك؛ لِعُمومِ قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، وقَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾.

وإنْ كان فيها ضَرَرٌ لا يَشوبُه نَفعٌ، فهي على التَّحريمِ.

وإن كان فيها نَفعٌ مِن جِهةٍ وضَرَرٌ مِن جِهةٍ أُخرى، فلها ثلاثُ حالاتٍ؛ الأُولى: أن يكونَ النَّفعُ أرجَحَ مِنَ الضَّرَرِ. والثَّانيةُ: عَكسُ هذا. والثَّالثةُ: أن يَتساوى الأمْرانِ؛ فإن كان الضَّرَرُ أرجَحَ مِن النَّفعِ أو مُساويًا له فالمَنعُ؛ لأنَّ «دَرْءَ المفاسِدِ مُقَدَّمٌ على جَلبِ المصالِحِ»، وإن كان النَّفعُ أرجحَ فالأظهَرُ الجوازُ؛ لأنَّ المقَرَّرَ في الأُصولِ «أنَّ المَصلَحةَ الرَّاجِحةَ تُقَدَّمُ على المَفسَدةِ المَرجوحةِ»[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ﴾ ما الحِكمةُ في ذِكرِ الفاكِهةِ باسمِها لا باسمِ أشجارِها، وذِكرِ النَّخلِ باسمِها لا باسْمِ ثَمَرِها؟

**الجَوابُ**: أنَّ شَجَرةَ العِنَبِ -وهي الكَرْمُ- بالنِّسبةِ إلى ثَمَرتِها -وهي العِنبُ- حقيرةٌ، وشَجَرةَ النَّخلِ بالنِّسبةِ إلى ثَمَرتِها عَظيمةٌ، وفيها مِن الفوائِدِ الكثيرةِ على ما عُرِفَ مِن اتِّخاذِ الظُّروفِ مِنها، والانتِفاعِ بجُمَّارِها[2]، وبالطَّلعِ والبُسرِ والرُّطَبِ، وغَيرِ ذلك؛ فثَمَرتُها في أوقاتٍ مُختَلِفةٍ كأنَّها ثَمَراتٌ مُختَلِفةٌ، فهي أتمُّ نِعمةً بالنِّسبةِ إلى الغَيرِ مِنَ الأشجارِ؛ فذَكَر النَّخلَ باسمِه، وذَكَر الفاكِهةَ دونَ أشجارِها؛ فإنَّ فوائِدَ أشجارِها في عَينِ ثِمارِها[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ذِكرُ لَفظِ «الرَّبِّ»؛ إشعارًا

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٥).

(٢) جُمَّارُ النَّخلةِ: قَلْبُها، ومِنه يَخرُجُ الثَّمَرُ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٥).

بالرَّحمةِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أنَّ مُخاطَبتَه سُبحانَه بهذا للثَّقَلَينِ دَليلٌ على أنَّ هذه الأشياءَ تَعُمُّ على الجِنِّ كما أنَّها تَعُمُّ على الإنسِ، وأنَّ لهم مِن ذلك ما لهم[٢].

٥- في ذِكرِه تعالى لهذه الآيةِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعدَ ذِكرِ هذا العَدَدِ مِن الآياتِ إشارةٌ إلى أنَّ زيادةَ النِّعَمِ: إلى حَدٍّ لا يُحصَى، بحيثُ إنَّ استيفاءَ عَدَدِها لا تُحيطُ به عُقولُ المكَلَّفينَ؛ لئلَّا يَظُنُّوا أنَّه لا نِعمةَ غَيرُ ما ذُكِرَ في هذه السُّورةِ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ذُكِرَتْ هذه الآيةُ إحدى وثلاثينَ مرَّةً؛ ثمانيةٌ منها ذُكِرَتْ عَقِبَ آياتٍ فيها تَعدادُ عَجائبِ خَلْقِ اللهِ، وبدائعِ صُنْعِه، ومَبْدَأِ الخَلْقِ ومَعادِهم، ثمَّ سَبعةٌ منها عَقِبَ آياتٍ فيها ذِكْرُ النَّارِ وشَدائدِها بعَدَدِ أبوابِ جهنَّمَ، وحَسُنَ ذِكْرُ الآلاءِ عَقِبَها؛ لأنَّ مِن جملةِ الآلاءِ رَفْعَ البلاءِ، وتأخيرَ العِقابِ، وبَعْدَ هذه السَّبعةِ ثمانيةٌ في وَصْفِ الجنَّتَينِ وأهلِهما بعَدَدِ أبوابِ الجَنَّةِ، وثمانيةٌ أُخرى بَعْدَها في الجنَّتَينِ اللَّتَينِ هما دونَ الجَنَّتَينِ الأُولَيَينِ؛ أَخْذًا مِن قَولِه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]؛ فمَن اعتقدَ الثَّمانيةَ الأُولى وعَمِلَ بموجَبِها استحقَّ هاتينِ الثَّمانِيَتَينِ مِن اللهِ، ووقاه السَّبعةَ السَّابِقةَ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أنَّ كُلَّ ما يَفعَلُه سُبحانَه هو إحسانٌ للعِبادِ ونِعمةٌ عليهم؛ ولهذا يَقولُ عَقِيبَ ما يُعَدِّدُه مِن النِّعَمِ على العِبادِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، وآلاؤُه هي نِعَمُه، وهي مُتضَمِّنةٌ لقُدرتِه ومَشيئتِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١١٧).

كما هي مُستَلزِمةٌ لرَحمتِه وحِكمتِه[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ * وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ عطْفٌ على ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ [الرحمن: ٧]، وهو مُقابِلُه في المُزاوَجةِ، والوضْعُ يُقابِلُ الرَّفعَ؛ فحصَلَ مُحسِّنُ الطِّباقِ[٢] مرَّتَين[٣].

- وجُملةُ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتقريرِ ما أفادَتْه الجُملةُ السَّابقةُ ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾؛ مِن كَونِ الأرضِ مَوضوعةً لمَنافعِ الأنامِ، وتَفصيلِ المنافعِ العائدةِ إلى البشرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٦١).

(٢) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ مع مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِنَ الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَقَ بيْن الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقونَ. ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةً، فتَبدو المطابَقةُ خفيَّةً لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ كقوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإن إدخال النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ. ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أمْلَحِ الطِّباقِ وأخفاهُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٨).

- وجُملةُ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ إلى آخِرِها، مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾، ولَمَّا كان قولُه: ﴿وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ يَتضمَّنُ وضْعًا وعِلَّةً لذلك الوضْعِ، كانت الجُملةُ المُبيِّنةُ له مُشتمِلةً على ما فيه العِبرةُ والامتنانُ[١].

- وتَقديمُ ﴿فِيهَا﴾ على المُبتدأِ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾؛ للاهتِمامِ بما تَحتوي عليه الأرضُ[٢].

- ووصْفُ النَّخلِ بأنَّه ﴿ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ وصْفٌ للتَّحسينِ؛ فليست الأكمامُ ممَّا يُنتفَعُ به، فتَعيَّنَ أنَّ ذِكرَها مع النَّخلِ للتَّحسينِ، فهو اعتبارٌ بأطوارِ ثَمرِ النَّخلِ، وامتنانٌ بجَمالِه وحُسْنِه[٣].

- ووَصْفُ الحَبِّ بأنَّه ﴿ذُو ٱلْعَصْفِ﴾؛ للتَّحسينِ، وللتَّذكيرِ بمِنَّةِ جَمالِ الزَّرعِ حِينَ ظُهورِه في سُنبلِه في حُقولِه، ولأنَّ في الموصوفِ ووَصْفِه أقواتَ البشَرِ وحَيوانِهم[٤].

- والرَّيحانُ: ما له رائحةٌ ذَكيَّةٌ مِن الأزهارِ والحشائشِ، وهذا اعتبارٌ وامتنانٌ بالنَّباتِ المُودَعةِ فيه الأطيابُ؛ مِثلَ الورْدِ والياسَمينِ، وما يُسمَّى بالرَّيحانِ الأخضرِ[٥].

- قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ * وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾، بدَأَ بقولِه: ﴿فَٰكِهَةٌ﴾؛ إذ هو مِن بابِ الابتداءِ بالأدْنى والتَّرقِّي إلى الأعْلى، ونكَّرَ لَفْظَها؛ لأنَّ الانتِفاعَ بها دونَ الانتفاعِ بما يُذكَرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعْدَها، ولِيَدُلَّ على كثرتِها، وقد صرَّح بالكثرةِ في مواضِعَ أُخَرَ. ثمَّ ثَنَّى بالنَّخلِ، فذكَرَ الأصلَ، ولم يَذكُرْ ثَمرَتَها -وهو الثَّمَرُ-؛ لكَثرةِ الانتفاعِ بها مِن لِيفٍ وسَعفٍ، وجَريدٍ وجُذوعٍ، وجُمَّارٍ وثمَرٍ. ثمَّ أتى ثالثًا بالحَبِّ الَّذي هو قِوامُ عَيشِ الإنسانِ في أكثَرِ الأقاليمِ، وهو البُرُّ والشَّعيرُ وكلُّ ما له سُنبلٌ وأوراقٌ مُتشعِّبةٌ على ساقِه، ووصَفَه بأنَّه ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾؛ تَنبيهًا على إنعامِه عليهم بما يَقُوتُهم مِن الحَبِّ، ويَقوتُ بَهائمَهم مِن ورَقِه الَّذي هو التِّبْنُ. وذكَرَ النَّخلَ باسْمِها، والفاكهةَ دونَ شَجَرِها؛ لعِظَمِ المَنفعةِ بالنَّخلِ مِن جِهاتٍ مُتعدِّدةٍ، وشَجرةُ الفاكهةِ بالنِّسبةِ إلى ثَمرتِها حَقيرةٌ، فنَصَّ على ما يَعظُمُ به الانتفاعُ مِن شَجرةِ النَّخلِ ومِن الفاكهةِ دونَ شَجَرتِها[1].

- وبَدَأ بالفاكِهةِ، وخَتَم بالمشمومِ، وبَيْنَهما النَّخلُ والحَبُّ؛ لِيَحصُلَ ما به يُتفَكَّهُ، وما به يُتَقَوَّتُ، وما به تَقَعُ اللَّذاذةُ مِنَ الرَّائِحةِ الطَّيِّبةِ[2].

- ولَمَّا عدَّدَ تعالَى نِعَمَه، خاطَبَ الثَّقلَينِ -الإنسَ والجنَّ- بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أي: إنَّ نِعَمَه كَثيرةٌ لا تُحصى، فبأيِّها تُكذِّبانِ؟ أي: مَن هذه نِعَمُه لا يُمكِنُ أنْ يُكذَّبَ بها[3]. وقيل: هو خِطابٌ للمؤمنينَ والكافرينَ الَّذين يَنقسِمُ إليهما جِنسُ الإنسانِ المذكور في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الرحمن: ٣]، وهم المُخاطَبونَ بقولِه: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٨] الآيةَ، والمُنقسِمُ إليهما الأنامُ المُتقدِّمُ ذِكرُه، أي: إنَّ نِعَمَ اللهِ على النَّاسِ لا يَجحَدُها كافرٌ، بلْهَ المؤمنَ، وكلُّ فَريقٍ يَتوجَّهُ إليه الاستِفهامُ بالمعْنى الَّذي يُناسِبُ حالَه. والمَقصودُ الأصليُّ: التَّعريضُ بالمُشرِكين وتَوبيخُهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧، ٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ٥٨).

على أنْ أشْرَكوا في العِبادةِ مع المُنعِمِ غيرَ المُنعِمِ، والشَّهادةُ عليهم بتَوحيدِ المؤمنينَ. وقيل: التَّثنيةُ قائمةٌ مَقامَ تَكريرِ اللَّفظِ لتَأكيدِ المعْنى؛ مِثل: لبَّيكَ وسَعْدَيك، ومعْنى هذا أنَّ الخطابَ لواحدٍ، وهو الإنسانُ[١].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للتَّفريعِ على ما تَقدَّمَ مِن المِنَنِ المُدمَجةِ مع دَلائلِ صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحَقِّيَّةِ وَحْيِ القرآنِ، ودَلائلِ عَظَمةِ اللهِ تعالى وحِكمتِه؛ باستفهامٍ عن تَعيينِ نِعمةٍ مِن نِعَمِ اللهِ يَتأتَّى لهم إنكارُها، وهو تَذييلٌ لِما قبْلَه. وحرْفُ (أيّ) استِفهامٌ عن تَعيينِ واحدٍ مِن الجِنسِ الَّذي تُضافُ إليه، وهي هنا مُستعمَلةٌ في التَّقريرِ بذِكرِ ضِدِّ ما يُقرِّبُه[٢].

- والفاءُ كذلِك لتَرتيبِ الإنكارِ والتَّوبيخِ على ما فُصِّلَ مِن فُنونِ النَّعماءِ وصُنوفِ الآلاءِ المُوجِبةِ للإيمانِ والشُّكرِ. والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُنْبئةِ عن المالكيَّةِ الكُلِّيَّةِ والتَّربيَّةِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِهم؛ لتأْكيدِ النَّكيرِ، وتَشديدِ التَّوبيخِ[٣].

- ومعْنى تَكذيبِهم بآلائِه تعالى كفْرُهم بها، والتَّعبيرُ عن كُفرِهم المَذكورِ بالتَّكذيبِ؛ لِما أنَّ دَلالةَ الآلاءِ المَذكورةِ على وُجوبِ الإيمانِ والشُّكرِ شَهادةٌ منها بذلك، فكُفْرُهم بها تَكذيبٌ بها لا مَحالةَ، أي: فإذا كان الأمْرُ كما فُصِّلَ، فبأيِّ فرْدٍ مِن أفرادِ آلاءِ مالِكِكُما ومُربِّيكُما بتلكَ الآلاءِ تُكذِّبانِ، مع أنَّ كلًّا منها ناطقٌ بالحقِّ، شاهدٌ بالصِّدقِ[٤]؟! وقيل: تَكذيبُ الآلاءِ هو كِنايةٌ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإشراكِ باللهِ في الإلهيَّةِ، والمعْنى: فبأيِّ نِعمةٍ مِن نِعَم اللهِ عليكم تُنكِرون أنَّها نِعمةٌ عليكم، فأشْرَكْتُم فيها غيرَه، بلْهَ إنكارَ جَميعِ نِعَمِه؛ إذ تَعبُدون غيرَه دَوامًا[1]؟!

- والتَّكريرُ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تكريرٌ عذْبٌ، وفيه أوجُهٌ:

**الأولُ**: السِّرُّ في تَكريرِ الآيةِ عقِبَ آياتٍ فيها تَعدادُ عَجائبِ خلْقِ اللهِ وبَدائعِ صُنْعِه، وبعْدَ آياتٍ فيها ذِكرُ النَّارِ وشَدائدِها؛ لأنَّ مِن جُملةِ الآلاءِ رفْعَ البلاءِ، وتأْخيرَ العقابِ، والتَّقريرَ بالنِّعَمِ المَعدودةِ، والتَّأكيدَ في التَّذكيرِ بها كلِّها، ولأنَّ مِن عَلاماتِ العاطفةِ المُحتدِمةِ هذا التَّكريرَ[2].

**الثَّاني**: أنَّ اللهَ تَعالى عدَّدَ في هذه السُّورة نَعماءَه، وذكَّرَ خلْقَه آلاءَه، ثمَّ أتْبَعَ كلَّ خَلَّةٍ وصَفَها بهذه الآيةِ، وجَعَلَها فاصِلةً بيْن كلِّ نِعمتَينِ؛ ليُنبِّهَهم على النِّعَمِ ويُقرِّرَهم بها، كما تقولُ -لِمَن تَتابَعَ فيه إحسانُك وهو يَكفُرُه ويُنكِرُه-: ألمْ تكُنْ فقيرًا فأغنَيْتُك؟! أفتُنكِرُ هذا؟! ألمْ تكُنْ خامِلًا فعزَّزْتُك؟! أفتُنكِرُ هذا؟! ألم تكُنْ راجِلًا فحمَلْتُك؟! أفتُنكِرُ هذا؟! والتَّكريرُ حَسَنٌ في مِثلِ هذا[3].

**الثَّالثُ**: أنَّ المُنكِرَ إذا تَكرَّرَ إنكارُه جِدًّا بحيث أحرَقَ الأكبادَ في المُجاهَرةِ بالعِنادِ؛ حَسُنَ سَرْدُ ما أنكَرَه عليه، وكلَّما ذُكِّرَ بفرْدٍ منه قِيل له: لِمَ تُنكِرُه؟ سواءٌ أقرَّ به حالَ التَّقريرِ، أو استمرَّ على العِنادِ؛ فالتَّكرارُ حينَئذٍ يُفيدُ التَّعريفَ بأنَّ إنكارَه تَجاوَزَ الحدَّ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣١٢).

**الرَّابعُ**: أنَّه لتَغايُرِ النِّعَمِ وتَعدُّدِها واختِلافِها حَسُنَ تَكريرُ التَّوقيفِ عليها واحدةً واحدةً؛ تَنبيهًا على جَلالتِها؛ فإنْ كانت نِعمةً فالأمرُ فيها واضحٌ، وإنْ كانت نِقمةً فالنِّعمةُ دَفْعُها، أو تأخيرُ الإيقاعِ بها[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٣).

## الآيات (١٤-١٨)

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦ رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿صَلۡصَٰلٖ﴾: أي: طينٍ يابسٍ له صَوتٌ وصَلْصَلةٌ، وأصلُ الصَّلصالِ: تردُّدُ الصَّوتِ مِن الشَّيءِ اليابسِ[1].

﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾: أي: الطِّينِ المَطبوخِ بالنَّارِ، إذا مَسَّه الماءُ فَخَر، أي: رَبَا وعَظُمَ، وهو الخَزَفُ. وأصلُ (فخر): يدُلُّ على عِظَمٍ[2].

﴿مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾: أي: الصَّافي مِن لَهَبِ النَّارِ الَّذي لا دُخَانَ فيه. وقيل: هو ما اختَلَط بعضُه ببَعضٍ مِنَ اللَّهَبِ الأحمَرِ والأصفَرِ والأخضَرِ الَّذي يعلو النَّارَ إذا أُوقِدَت؛ مِن قَولِهم: مَرَجَ أمرُ القَومِ: إذا اختَلَط، وأصلُ (مرج): يدُلُّ على مجيءٍ وذهابٍ واضطِرابٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦).

## المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى بأنَّه خَلَق آدَمَ أبا البَشَرِ مِن طِينٍ يابسٍ في غايةِ الصَّلابةِ، له صَوتٌ وصَلْصَلةٌ إذا نُقِرَ، كالخَزَفِ، وهو الطِّينُ المطبوخُ بالنَّارِ، وأنَّه تعالى خَلَق الجانَّ مِن لَهبِ النَّارِ الَّذي لا دُخَانَ له؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يذكرُ سبحانَه مَظهرًا آخَرَ مِن مظاهرِ قدرتِه، وهو أنَّه خالِقُ ومالِكُ مَشرِقِ الشَّمسِ وَمغرِبِها في الشِّتاءِ والصَّيفِ؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ -يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى خَلْقَ العالَمِ الكبيرِ مِن السَّماءِ والأرضِ وما أوجَدَ فيهما مِن النِّعَمِ، وما فيهما مِنَ الدَّلالاتِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه؛ ذكَرَ خَلْقَ العالَمِ الصَّغيرِ، وهو مبدأُ مَن خُلِقَت له هذه النِّعَمُ[1].

وأيضًا لَمَّا كان قد تقَدَّمَ في إشارةِ الخِطابِ الامتِنانُ بخَلقِ الإنسانِ، ثمَّ ذَكَر أصولَ النِّعَمِ عليه على وَجهٍ بديعِ الشَّأنِ إلى أنْ ذَكَر غِذاءَ رُوحِه «الرَّيحانَ»؛ أتْبَعَ ذلك تفصيلًا لِما أُجمِلَ، فقال[2]:

﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٥).

أي: خلَق اللهُ آدَمَ أبا البَشَرِ مِن طِينٍ يابسٍ في غايةِ الصَّلابةِ، له صَوتٌ وصَلْصَلةٌ إذا نُقِرَ، كالخَزَفِ، وهو الطِّينُ المطبوخُ بالنَّارِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧].

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

أي: وخَلَق اللهُ الجانَّ مِن لَهبِ النَّارِ الَّذي لا دُخَانَ له(٢).

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٥).

قال القرطبي: (﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ باتِّفاقٍ مِن أهلِ التَّأويلِ يعني آدَمَ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٩).

قال القرطبي: (قال الحَسَنُ: الجانُّ: إبليسُ، وهو أبو الجِنِّ. وقيل: الجانُّ واحِدُ الجِنِّ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦١).

وممَّن قال بقول الحَسَنِ: السمرقنديُّ، وابن جُزَي، وجلال الدين المحلي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٠٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ به: إبليسُ دونَ وَصفِه بأبي الجِنِّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٥).

وذهب كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ إلى أنَّ الجانَّ هو أبو الجِنِّ، دونَ تَقييدِه بإبليسَ. ومنهم: الواحديُّ، والسمعاني، والزمخشري، والبِقاعي، والشنقيطي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، =

قال تعالى: ﴿ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴾ [الحجر: ٢٧].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((خُلِقَت الملائِكةُ مِن نُورٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن مارجٍ مِن نارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لكم))[1].

---

= ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٩).

وقال ابنُ عطيَّة: (الجانُّ اسمُ جِنسٍ، كالجِنَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٦).

ممَّن اختار أنَّ المارِجَ هو الصَّافي مِن لهبِ النَّارِ ليس له دُخَانٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والنسفي، والخازن، والشوكاني، والقاسمي، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٠٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٩٩).

ونسَبَه الواحديُّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((البسيط)) (٢١/ ١٥٢).

وقال ابن جرير: (﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ ﴾ وهو ما اختلَط بعضُه ببعضٍ، مِن بيْنِ أحمَرَ وأصفَرَ وأخضَرَ... وذلك هو لَهبُ النَّارِ ولسانُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٤).

وقال الزَّجَّاج: (المارِجُ: اللَّهَبُ المُختَلِطُ بسَوادِ النَّارِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٩٩).

وقال ابن جُزَي: (المارِجُ: اللَّهيبُ المُضطرِبُ مِن النَّارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٨).

وقال القرطبي: (والمارِجُ: اللَّهَبُ. عن ابنِ عبَّاسٍ، وقال: خَلَق اللهُ الجانَّ مِن خالِصِ النَّارِ. وعنه أيضًا: مِن لسانِها الَّذي يكونُ في طَرَفِها إذا التهَبَت. وقال اللَّيثُ: المارِجُ: الشُّعلةُ السَّاطِعةُ ذاتُ اللَّهَبِ الشَّديدِ. وعن ابنِ عبَّاسٍ: أنَّه اللَّهَبُ الَّذي يعلو النَّارَ، فيَختَلِطُ بَعضُه ببَعضٍ أحمَرَ وأصفَرَ وأخضَرَ، ونحوُه عن مجاهدٍ، وكلُّه متقارِبُ المعنى. وقيل: المارِجُ: كُلُّ أمرٍ مُرسَلٍ غَيرِ مَمنوعٍ... وقال أبو عُبيدَةَ والحَسَنُ: المارِجُ: خلطُ النَّارِ، وأصلُه مِن مَرَجَ: إذا اضطَرَب واختَلَط). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦١). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٣).

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن خَلْقَ الثَّقَلينِ ومادَّةَ ذلك، وكان ذلك مِنَّةً منه تعالى على عِبادِه؛ قال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا كان خَلْقُ هذين القَبيلَينِ على هذينِ الوَجهَينِ اللَّذَين هما في غايةِ التَّنافي: مَستورًا أحدُهما عن الآخَرِ، مع مَنعِ كُلٍّ مِن التَّسَلُّطِ على الآخَرِ إلَّا نادِرًا؛ إظهارًا لعظيمِ قُدرتِه وباهِرِ حِكمتِه- مِن أعظَمِ النِّعَمِ؛ قال مُسَبِّبًا عنه[2]:

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[3]؟!

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه هذَينِ الجِنسَينِ -اللَّذينِ أحدُهما ظاهِرٌ والآخَرُ مُستَتِرٌ- إرشادًا إلى التَّأمُّلِ فيما فيهما مِن الدَّلالةِ على كَمالِ قُدرتِه؛ فكانا محتاجَينِ إلى ما هما فيه مِنَ المحَلِّ، وكان صلاحُه مِمَّا دَبَّر سُبحانَه فيه مِن منازلِ الشُّروقِ الَّذي هو سَبَبُ الأنوارِ والظُّهورِ، والغُروبِ الَّذي هو مَنشَأُ الظُّلمةِ والخَفاءِ؛ أتْبَعَه قَولَه مُنَبِّهًا على النَّظَرِ في بديعِ صُنعِه الدَّالِّ على توحيدِه[4]:

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٧).

أي: اللهُ خالِقُ ومالِكُ ومُدَبِّرُ مَشرِقِ الشَّمسِ في الشِّتاءِ والصَّيفِ، ومَغرِبِ الشَّمسِ في الشِّتاءِ والصَّيفِ(١).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان في هذا مِنَ النِّعَمِ ما لا يُحصى؛ قال مُسَبِّبًا(٢):

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٩٥).

قال ابنُ عاشور: (المَشرِقُ: جِهةُ شُروقِ الشَّمسِ، والمَغرِبُ: جِهةُ غُروبِها، وتثنيةُ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ باعتِبارِ أنَّ الشَّمسَ تَطلُعُ في فَصلَيِ الشِّتاءِ والرَّبيعِ مِن سَمْتٍ، وفي فَصلَيِ الصَّيفِ والخَريفِ مِن سَمْتٍ آخَرَ، وبِمُراعاةِ وَقْتِ الطُّولِ ووَقتِ القِصَرِ، وكذلك غُروبُها، وهي فيما بيْنَ هذَينِ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ يَنتَقِلُ طُلوعُها وغُروبُها في دَرَجاتٍ مُتقارِبةٍ، فقد يُعتبَرُ ذلك فيُقالُ: المشارِقُ والمغارِبُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ [المعارج: ٤٠]، ومَن زَعَم أنَّ تثنيةَ المَشرِقَينِ لِمُراعاةِ مَشرِقِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وكذلك تثنيةُ المَغرِبَينِ- لم يَغُصْ على مَعنًى كبيرٍ! وعلى ما فَسَّر به الجُمهورُ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ بمَشرِقَيِ الشَّمسِ ومَغرِبَيها فالمرادُ بـ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ﴾: النِّصفُ الشَّرقيُّ مِنَ الأرضِ، وبـ﴿ٱلْمَغَٰرِبِ﴾: النِّصفُ الغَربيُّ منها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٧).

وقال ابنُ عثيمين: (ثَنَّى المَشرِقَ هنا باعتِبارِ مَشرِقِ الشِّتاءِ ومَشرِقِ الصَّيفِ، فالشَّمسُ في الشِّتاءِ تَشرُقُ مِن أقصى الجَنوبِ، وفي الصَّيفِ بالعَكسِ، والقَمَرُ في الشَّهرِ الواحِدِ يَشرُقُ مِن أقصى الجَنوبُ، ومِن أقصى الشَّمالِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٥٩).

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[١]؟!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في كُلِّ ما خَلَقه اللهُ إحسانٌ إلى عِبادِه يُحمَدُ عليه حَمْدَ شُكرٍ، وله فيه حِكمةٌ تَعودُ إليه يَستَحِقُّ مِن أجْلِها أن يُحمَدَ عليه حَمدًا يَستَحِقُّه لِذَاتِه؛ فجَميعُ المخلوقاتِ فيها إنعامٌ على العِبادِ، كالثَّقَلينِ المخاطَبَينِ بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مِن جِهةِ أنَّها آياتٌ للرَّبِّ تعالى، يَحصُلُ بها هدايتُهم وإيمانُهم الَّذي يَسعَدونَ به في الدُّنيا والآخِرةِ، فيَدُلُّهم عليه وعلى وَحدانيَّتِه وقُدرتِه، وعِلْمِه وحِكْمتِه ورَحمتِه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ تذكيرٌ ومَوعِظةٌ بمَظهَرٍ مِن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه في خَلْقِ نَوعِ الإنسانِ وجِنسِ الجانِّ، وفيه إيماءٌ إلى ما سَبَق في القُرآنِ النَّازِلِ قبْلَ هذه السُّورة مِن تَفضيلِ الإنسانِ على الجانِّ؛ إذْ أمَرَ اللهُ إبليسَ -وهو مِن الجانِّ- بالسُّجودِ للإنسانِ، وما يَنطوي في ذلك مِن وَفرةِ مَصالحِ الإنسانِ على مَصالحِ الجانِّ، ومِن تأهُّلِه لعُمرانِ العالَمِ؛ لكَونِه مَخلوقًا مِن طِينتِه؛ إذ الفَضيلةُ تَحصُلُ مِن مَجموعِ أوصافٍ، لا مِن خُصوصيَّاتٍ مُفرَدةٍ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٥).

مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ دَلالةٌ على شَرَفِ عُنصُرِ الآدَميِّ المخلوقِ مِنَ الطِّينِ والتُّرابِ -الَّذي هو محَلُّ الرَّزانةِ، والثِّقلِ، والمنافِعِ-، بخِلافِ عُنصُرِ الجانِّ، وهو النَّارُ، الَّتي هي محَلُّ الخِفَّةِ والطَّيشِ، والشَّرِّ والفَسادِ[1].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ إنْ قيلَ: إنَّ المقصودَ هنا تَعديدُ النِّعَمِ على الإنسانِ، فما وَجهُ بَيانِ خَلْقِ الجانِّ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**أحَدُها:** أنَّ قَولَه: ﴿رَبِّكُمَا﴾ خِطابٌ مع الإنسِ والجِنِّ، يُعَدِّدُ عليهما النِّعَمَ، ليس على الإنسانِ وَحْدَه!

**ثانيها:** أنَّه بَيانُ فَضلِ اللهِ تعالى على الإنسانِ؛ حيثُ بَيَّن أنَّه خُلِقَ مِن أصلٍ كَثيفٍ كَدِرٍ، وخُلِقَ الجانُّ مِن أصلٍ لَطيفٍ، وجُعِلَ الإنسانُ أفضَلَ مِنَ الجانِّ؛ فإنَّه إذا نَظَرَ إلى أصلِه عَلِمَ أنَّه ما نالَ الشَّرَفَ إلَّا بفَضلِ اللهِ تعالى، فكيف يُكَذِّبُ بآلاءِ اللهِ؟!

**ثالِثُها:** أنَّ الآيةَ مَذكورةٌ لبَيانِ القُدرةِ، لا لبَيانِ النِّعْمةِ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ سؤالٌ: وهو إذا كان الجِنُّ مِن نارٍ، فكيف تُحرِقُه النَّارُ؟

**الجوابُ:** أنَّ النَّارَ يكونُ بَعضُها أقوى مِن بَعضٍ؛ فالأقوى يُؤَثِّرُ على الأضعَفِ، ومِمَّا يَشهَدُ له قَولُه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، والسَّعيرُ: أشَدُّ النَّارِ، ومَعلومٌ أنَّ النَّارَ طَبَقاتٌ بَعضُها أشَدُّ مِن بَعضٍ، وهذا أمرٌ مَلموسٌ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٩).

فقد تكونُ الآلةُ مَصنوعةً مِن حَديدٍ، وتُسَلَّطُ عليها آلةٌ مِن حَديدٍ أيضًا أَقوى منها فتَكسِرُها، كما قيل: «لا يَفُلُّ الحديدَ إلَّا الحَديدُ»، فلا يَمنَعُ كَونُ أصلِه مِن نارٍ ألَّا يتعَذَّبَ بالنَّارِ، كما أنَّ أصلَ الإنسانِ مِن طِينٍ مِن حَمَأٍ مَسنونٍ، ومِنْ صَلصالٍ كالفَخَّارِ، وبَعْدَ خَلْقِه فإنَّه لا يحتَمِلُ التَّعذيبَ بالصَّلصالِ ولا بالفَخَّارِ؛ فقد يُقضى عليه بضَربةٍ مِن قِطعةٍ مِن فَخَّارٍ[١].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى أضاف الشَّياطينَ والجانَّ إلى النَّارِ حسَبَ ما أضاف الإنسانَ إلى التُّرابِ والطِّينِ والفَخَّارِ، والمرادُ به في حقِّ الإنسانِ أنَّ أصْلَه الطِّينُ، وليس الآدميُّ طينًا حقيقةً، لكنَّه كان طينًا، وكذلك الجانُّ كان نارًا في الأصلِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- إذا أُرِيدَ بالإنسانِ آدَمُ عليه السَّلامُ، فقد جاءتْ غاياتٌ له مُختلِفةٌ، وذلك بتَنقُّلِ أصْلِه؛ فكان أوَّلًا تُرابًا، ثمَّ طِينًا، ثمَّ حمَأً مَسنونًا، ثمَّ صَلْصالًا؛ فناسَبَ أنْ يُنسَبَ خلْقُه لكلِّ واحدٍ منها. وعلى القَولِ بأنَّ المرادَ بالإنسانِ الجِنْسُ كلُّه، فيَسوغُ ذلك؛ لأنَّ أباهم مَخلوقٌ مِن الصَّلصالِ[٣].

- وقولُه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ تَمهيدٌ للتَّوبيخِ على إخلالِهم بمَواجِبِ شُكرِ النِّعمةِ المُتعلِّقةِ بذاتَيْ كلِّ واحدٍ مِن الثَّقلَينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((آكام المرجان في أحكام الجان)) للشبلي (ص: ٣١، ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٩).

- وجاءَ هنا أنَّ الإنسانَ خُلِقَ مِن صَلْصالٍ، وورَدَ في القرآنِ أنَّه خُلِقَ مِن التُّرابِ، وورَدَ أنَّه خُلِقَ مِن الطِّينِ، ومِن حمَأٍ، ومِن ماءٍ مَهينٍ، إلى غيرِ ذلك، كما في قولِه: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠] تارةً، و﴿مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] أُخرى، وإنَّما ذلِك باعتِبارِ شَخصينِ: آدَمَ خُلِقَ مِن الصَّلصالِ ومِن حَمَأٍ، وأولادِه خُلِقوا مِن ماءٍ مَهينٍ، ولولا خلْقُ آدَمَ لَما خُلِقَ أولادُه. ويجوزُ أنْ يُقالَ: «زيدٌ خُلِقَ مِن حمَأٍ»، بمعْنى أنَّ أصْلَه -الَّذي هو جدُّه- خُلِقَ منه[1].

وأمَّا قولُه: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾، وقال تَعالى في سُورةِ (الحِجرِ): ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال تَعالى في (الصَّافاتِ): ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١]، وقال تَعالى في (آلِ عِمرانَ): ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]؛ فكلُّه مُتَّفِقُ المعْنى؛ وذلك أنَّه أخَذَه مِن تُرابِ الأرضِ، فعَجَنَه بالماءِ، فصار طِينًا، ثمَّ تُرِكَ حتَّى صار حمَأً مَسنونًا ثمَّ مُنتِنًا، ثمَّ صوَّرَه -كما يُصوَّرُ الإبريقُ وغيرُه مِن الأواني-، ثمَّ أيْبَسَه حتَّى صار في غايةِ الصَّلابةِ، فصار كالخزَفِ -الَّذي إذا نُقِرَ صوَّتَ صَوتًا يُعلَمُ منه هل فيه عَيبٌ أو لا-؛ فالمذكورُ هنا آخِرُ تَخليقِه -وهو أنسَبُ بالرَّحمانيَّةِ-، وفي غيرِها تارةً مَبدؤه، وتارةً أثناؤه[2].

- وقولُه: ﴿مِّن نَّارٍ﴾ بَيانٌ لـ﴿مَّارِجٍ﴾، كأنَّه قِيل: مِن صافٍ مِن نارٍ، أو مُختلِطٍ مِن نارٍ، أو أراد مِن نارٍ مَخصوصةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٧٩).

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ فيه بَيانٌ لجُملةِ ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥]. وعُطِفَ ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾؛ مِن أجْلِ مُراعاةِ المُزاوَجةِ(١).

- وفي قولِه تَعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] أفرَدَ سُبحانه المشرِقَ والمغربَ، وهنا ثَنَّاهما في سُورةِ (الرَّحمن)، وجمَعَهما في سُورةِ (سأَلَ سائلٌ) في قولِه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وأفرد المشارقَ بالذِّكرِ في سُورةِ (الصَّافَّات) في قولِه: ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥]؛ فما وَجْهُ ذلك؟

**الجوابُ**: أنَّ قولَه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] وقولَه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] المرادُ به جِنسُ المشرقِ والمغربِ، فهو صادقٌ بكلِّ مَشرقٍ مِن مَشارقِ الشَّمسِ -الَّتي هي ثلاثُمئةٍ وسِتُّون-، وكلُّ مَغربٍ مِن مَغاربِها الَّتي هي كذلك. وقيل: قولُه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩] باعتبارِ النَّاحيةِ؛ لأنَّ النَّواحيَ أربعٌ: مَشرِقٌ، ومَغرِبٌ، وشَمالٌ، وجَنوبٌ. وقولُه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، يعْني مَشرقَ الشِّتاءِ ومَشرقَ الصَّيفِ ومَغربَهما -كما عليه الجُمهورُ-، وقيل: مَشرقُ الشَّمسِ والقمرِ ومَغربُهما. وقولُه: ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، أي: مَشارقِ الشَّمسِ ومَغاربِها، فجَمعُ المغاربِ والمشارقِ باعتبارِ مَشْرِقِ كُلِّ يومٍ ومَغْرِبِه؛ لأنَّ الشَّمسَ كلَّ يومٍ تَشْرُقُ مِن غيرِ المكانِ الَّذي شَرَقَتْ منه بالأَمسِ؛ فالشَّمسُ يَتغَيَّرُ شُروقُها وغُروبُها كُلَّ يومٍ، ولا سيَّما عندَ تَساوي اللَّيلِ والنَّهارِ، فتَجِدُ الفَرقَ دقيقةً أو دقيقةً ونِصفًا بيْنَ غُروبِها بالأمسِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٧).

واليَوم، وكذلك الغُروبُ. وقيل: مَشارقِ الشَّمسِ والقمَرِ والكواكبِ ومَغاربِها، فجمع باعتبارِ الشَّارقاتِ والغارِباتِ، وهذه لا يُحصيها إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ(١).

وأمَّا كَونُه اكْتَفى بذِكرِ المشارقِ في قولِه: ﴿وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ [الصافات: ٥] فلِوَجهَين؛ الأوَّلُ: أنَّه اكْتَفى بذِكرِ المشارقِ كقولِه: ﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، يعني: وتَقِيكم البرْدَ أيضًا. والثَّاني: أنَّ الشَّرقَ أقوى حالًا مِن الغروبِ، وأكثَرُ نفْعًا مِن الغروبِ؛ فذُكِرَ الشَّرقُ تَنبيهًا على كثرةِ إحسانِ اللهِ تَعالى على عِبادِه، ولهذه الدَّقيقةِ استَدلَّ إبراهيمُ عليه السَّلامُ بالمشرقِ فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ﴾(٢) [البقرة: ٢٥٨].

وأمَّا ورُودُه مُثَنًّى في سورةِ (الرَّحمنِ)؛ فلأنَّه لَمَّا كان مَساقُ السُّورةِ مَساقَ المَثاني المُزدوجاتِ؛ فذَكَر أوَّلًا نَوعَي الإيجادِ -وهما الخَلقُ والتَّعليمُ-، ثمَّ ذكَر سِراجَي العالَمِ ومَظهَرَيْ نُورِه -وهما الشَّمسُ والقَمَرُ-، ثمَّ ذكَرَ نوعَي النَّباتِ؛ ما قام منه على ساقٍ، وما انبسَطَ منه على وَجهِ الأرضِ، -وهما النَّجمُ (على قولٍ) والشَّجرُ-، ثمَّ ذَكَر نَوعَي السَّماءِ المرفوعةِ والأرضِ الموضوعةِ، وأخبَرَ أنَّه رَفَع هذه، ووَضَع هذه، ووَسَّط بيْنَهما ذِكرَ الميزانِ، ثمَّ ذكَرَ العَدْلَ والظُّلمَ في الميزانِ، فأمَرَ بالعَدلِ ونَهى عن الظُّلمِ، وذكَرَ نَوعَي الخارجِ مِن الأرضِ -وهما الحبوبُ والثِّمارُ-، ثمَّ ذكَرَ خَلْقَ نَوعَي المكَلَّفِينَ -وهما نوعُ الإنسانِ ونوعُ الجانِّ-، ثمَّ ذكَرَ نَوعَي المشرِقَينِ ونَوعَي المغرِبَينِ، ثمَّ ذكَرَ بعد ذلك البَحرينِ المِلْحَ والعَذْبَ؛ فتأمَّلْ حُسنَ تَثنيةِ المشرِقِ والمغرِبِ في هذه السُّورةِ، وجلالةَ وُرودِهما لذلك، وقَدِّرْ مَوضِعَهما اللَّفظَ مُفردًا ومجموعًا، تجِدِ السَّمعَ يَنْبو عنه،

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٦/ ٣١٦).

ويَشهَدِ العَقلُ بمُنافَرتِه للنَّظمِ[١]!

- وكرَّرَ هنا في قولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ ذِكرَ الرَّبِّ، بخِلافِ سُورتَي (المعارِجِ) و(المزمِّلِ)، حيثُ قالَ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، وقال: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: ٩]؛ تأكيدًا، وخَصَّ ما هنا بالتأْكيدِ؛ لأنَّه مَوضعُ الامتِنانِ، وتَعديدِ النِّعَمِ، ولأنَّ الخِطابَ فيه مِن جِنسينِ؛ هما: الإنسُ، والجنُّ، بخلافِ ذَينِك[٢].

- وقولُه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فيه تَوبيخٌ على عدَمِ الاعترافِ بنِعَمِ اللهِ تعالى، جِيءَ فيه بمِثلِ ما جِيءَ به في نَظيرِه الَّذي سبَقَه؛ ليكونَ التَّوبيخُ بكَلامٍ مِثلِ سابقِه، وذلك تَكريرٌ مِن أُسلوبِ التَّوبيخِ ونحوِه أنْ يكونَ بمِثلِ الكلامِ السَّابقِ، فحَقُّ هذا أنْ يُسمَّى بالتَّعدادِ لا بالتَّكرارِ؛ لأنَّه ليس تَكريرًا لمُجرَّدِ التَّأكيدِ، فالفاءُ مِن قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هنا تَفريعٌ على قولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧]؛ لأنَّ رُبوبيَّتَه تَقْتضي الاعترافَ له بنِعمةِ الإيجادِ والإمدادِ، وتَحصُلُ مِن تَماثُلِ الجُمَلِ المُكرَّرةِ فائدةُ التَّأكيدِ والتَّقريرِ أيضًا؛ فيَكونُ للتَّكريرِ غَرَضانِ. وفائدةُ التَّكريرِ تَوكيدُ التَّقريرِ بما للهِ تعالى مِن نِعَمٍ على المُخاطَبينَ، وتَعريضٌ بتَوبيخِهم على إشراكِهم باللهِ أصنامًا لا نِعمةَ لها على أحدٍ، وكلُّها دَلائلُ على تَفرُّدِ الإلهيَّةِ، فالتَّكريرُ طَرْدٌ للغَفْلةِ، وتأكيدٌ للحُجَّةِ، وهكذا القولُ في نَظائرِ قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ المذكورِ هنا، إلى ما في آخِرِ السُّورةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢١، ١٢٢). ويُنظر أيضًا: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٦، ٢٤٧).

## الآيات (١٩-٢٥)

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَرَجَ﴾: أي: خلَطَ أو خلَّى بَيْنَهما وأرسَلَهما، وأصلُ (مرج): يدُلُّ على مجيءٍ وذَهابٍ واضطرابٍ[1].

﴿بَرْزَخٌ﴾: أي: حاجِزٌ وحَدٌّ، وأصلُ (برزخ): يدُلُّ على الحدِّ بيْنَ الشَّيئينِ[2].

﴿يَبْغِيَانِ﴾: أي: يَختَلِطانِ ويَلتَقيانِ، وأصلُ (بغي) هنا: جنسٌ مِن الفَسادِ[3].

﴿ٱلْجَوَارِ﴾: أي: السُّفُنُ، وأصلُ (جري): يدُلُّ على انسِياحِ شَيءٍ[4].

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾: أي: المخلوقاتُ المُسخَّراتُ، أو المرفوعاتُ القِلاعِ، أو اللَّواتي أُنْشِئْنَ، أي: ابتُدِئَ بهنَّ في البحرِ، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ[5].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣، ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣).

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: أي: كالجِبالِ، واحِدُها عَلَمٌ: وهو الجَبَلُ الطَّويلُ، شَبَّهَ السُّفُنَ في البَحرِ بالجِبالِ في البَرِّ، وأصلُ (علم): يدُلُّ على أَثَرٍ مُمَيِّزٍ(١).

## المعنى الإجماليُّ:

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه أرسَلَ البَحرَ المِلْحَ والبَحرَ العَذْبَ يتَّصِلانِ مِن غَيرِ أن يختَلِطا، وجَعَل بَيْنَهما حاجِزًا يَمنَعُ اختِلاطَ أحَدِهما بالآخَرِ؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ أخبَرَ تعالى أنَّه يَخرُجُ مِنَ البَحرينِ -المِلْحِ والعَذْبِ- اللُّؤلُؤُ والمَرْجانُ اللَّذانِ يتَّخِذُهما النَّاسُ حِلْيَةً وزِينةً؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ولِلهِ سُبحانَه السُّفُنُ الجارياتُ المُنشَآتُ في البِحارِ، فتَبدو كالجِبالِ؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ١٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالى المَشرِقَ والمَغرِبَ -وهما حركتانِ في الفَلَكِ-؛ ناسَبَ ذلك ذِكرُ البَحرينِ؛ لأنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يَجرِيانِ في الفَلَكِ كما يجري الإنسانُ في البَحرِ؛ قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠]؛ فذَكَر البَحرينِ عَقِيبَ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩٣، ٤٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٠).

وأيضًا فإنَّ المَشرِقَينِ والمَغرِبَينِ فيهما إشارةٌ إلى البَحرِ؛ لانحِصارِ البَرِّ والبَحرِ بيْنَ المشرِقِ والمَغرِبِ، لكِنَّ البَرَّ كان مذكورًا بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ [الرحمن: ١٠]؛ فذكَرَ هاهنا ما لم يكُنْ مَذكورًا[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ أنَّه سُبحانَه ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، وكانتِ الأبحُرُ والأنهارُ في جِهاتِ الأرضِ؛ ناسَبَ الانتِقالُ إلى الاعتِبارِ بخلْقِهما، والامتِنانِ بما أودَعَهما مِن مَنافعِ النَّاسِ[٢].

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾﴾.

أي: أرسَل اللهُ البَحرَ المِلْحَ والبَحرَ العَذْبَ وتَرَكَهما يتَّصِلانِ مِن غَيرِ أن يختَلِطا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٨).

قال الشنقيطي: (لفظة: مرَج، تُطلَقُ في اللُّغةِ إطلاقَينِ:

الأوَّلُ: مرَج بمعنى: أرسَل وخلَّى... وعلى هذا فالمعنى: أرسَل البحَرينِ وخلَّاهما لا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ.

والإطلاقُ الثَّاني: مرَج بمعنى: خلَط...

فعلى القولِ الأوَّلِ: فالمرادُ بالبحرَينِ: الماءُ العَذبُ في جميعِ الدُّنيا، والماءُ المِلْحُ في جميعِها... وأمَّا على القولِ الثَّاني بأنَّ مرَج بمعنى خلَط، فالمعنى: أنَّه يوجَدُ في بعضِ المواضعِ اختِلاطُ الماءِ المِلْحِ والماءِ العَذبِ في مجرًى واحدٍ، ولا يَختلِطُ أحدُهما بالآخَرِ، بل يكونُ بيْنَهما حاجزٌ مِن قدرةِ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٥).

وفي البَحرَينِ أقوالٌ أخرى. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٤/ ١٥٠).

قال الشوكاني: (﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يَتجاوَرانِ لا فصْلَ بيْنَهما في مَرْأَى العَينِ، ومعَ ذلك فلم يَخْتَلِطا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦١). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣].

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: بيْنَ البَحرِ المِلْحِ والبَحرِ العَذْبِ حاجِزٌ يَمنَعُ اختِلاطَ أحَدِهما بالآخَرِ، وتَغييرَ طَعْمِه وصِفاتِه(١).

---

= وقال ابن عاشور: (﴿يَلْتَقِيَانِ﴾: يتَّصِلانِ بحيثُ يصُبُّ أحدُهما في الآخَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨).

وقال الرازي: (﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسَل بعضَهما في بعضٍ، وهُما عندَ الإرسالِ بحيثُ يَلتَقيانِ أو مِن شأنِهما الاختِلاطُ والالتِقاءُ، ولكنَّ اللهَ تعالى منَعَهما عمَّا في طبعِهما، وعلى هذا ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ حالٌ مِن البحرَينِ، ويحتملُ أن يُقالَ: مِن مَحذوفٍ تقديرُه: ترَكَهما فهُما يَلتَقيانِ إلى الآنَ ولا يَمتَزِجانِ. وعلى الأوَّلِ فالفائدةُ إظهارُ القُدرةِ في النَّفعِ؛ فإنَّه إذا أرسَل الماءَينِ بعضَهما على بعضٍ وفي طبعِهما بخَلقِ الله وعادَتِه السَّيلانُ والالتِقاءُ ويَمنَعُهما البَرزخُ الَّذي هو قدرةُ الله أو بقُدرةِ الله، يكونُ أدَلَّ على القُدرةِ ممَّا إذا لم يَكونا على حال يَلتَقيانِ.... وعلى الوجهِ الثَّاني: الفائدةُ في بيانِ القُدرةِ أيضًا على المنعِ مِن الاختِلاطِ؛ فإنَّ الماءَينِ إذا تَلاقَيا لا يَمتزِجانِ...). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ ونسَبَه إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ، والسَّمعانيُّ، والزمخشريُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال الواحدي: (﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: حاجِزٌ مِن قُدرةِ اللهِ تعالى، فلا يَبْغي المِلْحُ على العَذْبِ؛ فيُفسِدَه، ولا يَبغي على المِلحِ؛ فيَختَلِطَ به. والمعنى: لا يَطلُبانِ أن يَخرُجا ممَّا حُدَّ لهما. هذا قَولُ مقاتلٍ وأكثَرِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢١/ ١٥٤).

وممَّن فسَّر الحاجِزَ بالأرضِ اليابِسةِ: ابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ [النمل: ٦١].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[1]؟!

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر المِنَّةَ بالبَحرِ؛ ذَكَر النِّعمةَ بما يَنبُتُ فيه، كما فَعَل بالبَرِّ[2].

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾.

---

= قال الشنقيطي: (هذا الحاجزُ هو اليَبْسُ مِن الأرضِ الفاصلُ بيْنَ الماءِ العَذبِ والماءِ المِلْحِ على التَّفسيرِ الأوَّلِ [أي أنَّ مرَج بمعنى أرسَل].

وأمَّا على التَّفسيرِ الثَّاني [أي أنَّ مرَج بمعنى خلَط]: فهو حاجزٌ مِن قدرةِ الله، غيرُ مَرئيٍّ للبشَرِ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٦).

قال ابن عثيمين: (﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ وهو اليابسُ مِن الأرضِ ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يَبغي أحدُهما على الآخَرِ، ولو شاء اللهُ تعالى لَسَلَّط البحارَ ولَفاضتْ على الأرضِ وأغرَقَت الأرضَ، لأنَّ البحرَ عندَما تقفُ على السَّاحلِ لا تجدُ جِدارًا يمنعُ انسيابَه إلى اليابسِ، معَ أنَّ الأرضَ كرويَّةٌ، ومع ذلك لا يَسيحُ البحرُ؛ لا هاهنا ولا هاهنا، بقدرةِ الله عزَّ وجلَّ... إذَنِ البَرزخُ الَّذي بيْنَهما هو اليابسُ مِن الأرضِ...، وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: بل البرزخُ أمرٌ معنويٌّ يَحولُ بيْن المالحِ والعَذبِ أن يَختلِطَ بعضُهما ببعضٍ، وقالوا: إنَّه يوجَدُ الآنَ في عمقِ البحارِ عيونٌ عَذْبةٌ تَنبَعُ مِن الأرضِ... ومعَ ذلك لا تُفسِدُها مياهُ البحارِ، فإذا ثبت ذلك فلا مانعَ مِن أن نقولَ بقولِ علماءِ الجغرافيا وقولِ علماءِ التَّفسيرِ، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قديرٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٠٨).

وجوَّز ابنُ عاشور أن يكون المرادُ بالبَحرينِ: بحرَينِ مِلْحَينِ مُعيَّنَينِ، واستظهَرَ أنَّهما البَحرُ الأحمَرُ وبَحرُ العَرَبِ، والحاجِزُ بيْنَهما مَضِيقُ بابِ المَندَبِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٩).

ويُنظَرَ ما تقَدَّمَ في تفسيرِ سورة الفرقانِ الآية (٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦١).

أي: يَخرُجُ مِنَ البَحرينِ -المِلْحِ والعَذْبِ- اللُّؤلُؤُ والمَرْجانُ اللَّذانِ يتَّخِذُهما النَّاسُ حِلْيةً وزِينةً(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩).

وممَّن قال: إنَّهما يَخرُجانِ مِن الماءِ المِلحِ، ويَخرُجانِ أيضًا مِن الماءِ العَذْبِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩).

وقد أثبت العِلمُ والواقعُ أنَّ اللَّآلئَ تُستخرَجُ مِن المياهِ العَذبةِ، كما تُستخرَجُ مِن البحارِ المِلْحةِ. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٧٠٥).

وقيل: المرادُ: أنَّهما يَخرُجانِ مِن الماءِ المِلْحِ فقط. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٢١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٣).

قال الواحدي: (وقَولُه: ﴿مِنْهُمَا﴾ وإنَّما يخرُجُ مِن أحَدِ البَحرَينِ، وهو المِلحُ دونَ العَذبِ، قال أبو عُبَيدةَ: العرَبُ تَجمَعُ الجِنسَينِ ثمَّ تُخبِرُ عن أحَدِهما، كقَولِه تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] وإنَّما الرُّسُلُ مِن الإنسِ، وتقول: أكلتُ خُبزًا ولَبنًا، وإنَّما يقَعُ الأكلُ على الخُبزِ. وقال أبو إسحاقَ [الزَّجَّاجُ]: إنَّ اللهَ تعالى قد ذكَرَهما وجمَعَهما، فإذا أُخرِجَ مِن أحَدِهما فقد خَرَج منهما، ومِثلُ ذلك قَولُه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥، ١٦] والقَمَرُ في السَّماءِ الدُّنيا، إلَّا أنَّه لَمَّا أجمَلَ ذِكرَ السَّبْعِ كأنَّ ما في إحداهنَّ فيهنَّ). ((البسيط)) (٢١/ ١٥٥). ويُنظر ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٠).

وقال الشنقيطي: (جماعةٌ مِن أهلِ العِلمِ قالوا: إنَّ المرادَ بقَولِه في هذه الآيةِ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: مِن مَجموعِهما الصَّادِقِ بالبَحرِ المِلْحِ، وإنَّ الآيةَ مِن إطلاقِ المَجموعِ وإرادةِ بَعْضِه، وإنَّ اللُّؤلُؤَ والمَرْجانَ يَخرُجانِ مِنَ البَحرِ المِلْحِ وَحْدَه دونَ العَذْبِ. وهذا القَولُ الَّذي قالوه في هذه الآيةِ -مع كَثرتِهم وجلالتِهم- لا شَكَّ في بُطلانِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى صَرَّحَ بنَقيضِه في سورةِ «فاطرٍ»، ولا شَكَّ أنَّ كُلَّ ما ناقَضَ القُرآنَ فهو باطِلٌ، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا =

= عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾ [فاطر: ١٢]؛ فالتَّنوينُ في قَولِه: «مِنْ كُلٍّ» تنوينُ عِوَضٍ، أي: مِن كُلِّ واحِدٍ مِنَ العَذبِ والمِلْحِ تأكُلونَ لَحمًا طَرِيًّا، وتَستَخرِجونَ حِليةً تَلبَسونَها، وهي اللُّؤلؤُ والمَرْجانُ، وهذا مِمَّا لا نِزاعَ فيه). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٠٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩، ٣١٠).

وقال السمعاني: (ذَكَر القَفَّالُ الشَّاشي في تفسيرِه: أنَّ اللُّؤلؤَ والمَرْجانَ لا يكونُ إلَّا في مُلتقى البَحرينِ في أوَّلِ ما يُخلَقُ، ثمَّ حينَئذٍ مَوضِعُ الأصدافِ هو البَحرُ المِلْحُ دونَ العَذْبِ؛ فصَحَّ قولُه: ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ﴾؛ لأنَّهما في ابتِداءٍ عندَ مُلتقى البَحرينِ، وهذا قَولٌ حَسَنٌ إن كان كذلك). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦١، ١٦٢).

وقال ابنُ عاشور: (أي: يَخرُجُ اللُّؤلُؤُ والمَرْجانُ بسَبَبِهما، أي: بسَبَبِ مَجموعِهما؛... قال الرُّمَّاني: لَمَّا كان الماءُ العَذبُ كاللِّقاحِ للماءِ المِلْحِ في إخراجِ اللُّؤلؤِ، قيل: يَخرجُ منهما، كما يُقالُ: يتخَلَّقُ الوَلَدُ مِنَ الذَّكَرِ والأُنثى... والمَرْجانُ: لا يَخرُجُ مِن مُلتقى البَحرينِ المِلْحِ والعَذْبِ، بل مِنَ البَحرِ المِلْحِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٠).

واللُّؤلُؤُ هو الدُّرُّ الكِبارُ، والمَرْجانُ هو ما صَغُرَ منها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جريرٍ، ونَسَبه الواحديُّ إلى جَميعِ أهلِ اللُّغةِ، ونَقَله ابنُ الجوزيِّ عن أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٠٩). ويُنظر أيضًا: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٢٥٠).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: عليٌّ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ، وأبو رَزِينٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣).

وذهب مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ إلى عَكسِ ذلك. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٧).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، ومُرَّةُ الهَمْدانيُّ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٩٧).

ممَّن اختار أنَّ اللُّؤلُؤَ هو الدُّرُّ، وأنَّ المَرجانَ هو الخرزُ الأحمرُ: ابنُ عطيَّةَ، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨٢، ٤٨٣)، =

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[1]؟!

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾.

## القَراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿الْمُنْشِآتُ﴾ بكَسرِ الشِّينِ. قيل بمعنى: الرَّافِعاتِ الشُّرُعِ. وقيل: المعنى: المُنشِئاتُ السَّيرَ، فنَسَب الفِعلَ إليها على الاتِّساعِ، كما يُقالُ: مات زَيدٌ، ومَرِضَ عَمرٌو، وغَيرُ ذلك مِمَّا يُضافُ الفِعلُ إليه إذا وُجِدَ فيه، وهو في الحقيقةِ لِغَيرِه. وقيل: يجوزُ أن يكونَ المُنشِئاتُ مُشتَقًّا مِن أنشَأَ السَّيرَ: إذا أسرَعَ، أي:

---

= ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٠).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المَرجانَ هو الخرزُ الأحمرُ: ابنُ مسعود، وأبو مالكٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٧/ ٦٩٧).

وقال ابن عاشور: (اللُّؤلُؤُ: الدُّرُّ. ويُقالُ له: الجُمَانُ والجَوهَرُ، وهو حُبوبٌ بَيضاءُ وصَفراءُ ذاتُ بَريقٍ رَقراقٍ، تُستخرَجُ مِن أجوافِ حَيوانٍ مائيٍّ حَلَزونيٍّ مُستَقِرٍّ في غِلافٍ ذي دَفَّتَينِ مُغلَقَتينِ عليه، يَفتَحُهما بحَرَكةٍ حَيويَّةٍ منه؛ لامتِصاصِ الماءِ الَّذي يَسبَحُ فيه، ويُسَمَّى غِلافُه صَدَفًا، فتُوجَدُ في جَوفِ الحيوانِ حَبَّةٌ ذاتُ بَريقٍ، وهي تتفاوَتُ بالكِبَرِ والصِّغَرِ، وبصَفاءِ اللَّونِ وبَياضِه). ((تفسير ابن عاشور)) (١٧/ ٢٣٢).

وقال ابنُ عاشور أيضًا: (والمَرْجانُ: حَيوانٌ بَحريٌّ ذو أصابعَ دَقيقةٍ، يَنشَأُ لَيِّنًا ثمَّ يتحَجَّرُ ويتلوَّنُ بلَونِ الحُمرةِ، ويتصَلَّبُ كلَّما طال مُكثُه في البَحرِ، فيُستخرَجُ منه كالعُروقِ تُتَّخَذُ منه حِلْيَةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٠).

الَّتي يَسيرُ بها النَّاسُ سَيرًا سَريعًا[١].

٢- قِراءةُ: ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ بفَتحِ الشِّينِ. قيل: المعنى: المَرفوعاتُ الشُّرُعِ. وقيل: المعنى: أنَّها أُجرِيَت وفُعِل بها الإنشاءُ، ولم تَفعَلْ ذلك بنَفْسِها[٢].

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ولِلهِ -ملْكًا وتَدبيرًا وتَسخيرًا- السُّفُنُ الجارياتُ، المنشَآتُ، فتَبدو في البِحارِ كالجِبالِ[٣].

---

(١) قرأ بها حمزةُ، وشُعبةُ عن عاصمٍ في أحدِ الوجهينِ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨١). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٠٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩١، ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٠٠)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٢٤٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٠).
قال البغوي: (﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾... أي: المرفوعاتُ، وهي الَّتي رُفِعَ خَشَبُها بَعضُها على بعضٍ. وقيل: هي ما رُفِعَ قِلْعُه [أي: شِراعُه] مِنَ السُّفُنِ، وأمَّا ما لم يُرفَعْ قِلْعُه فليس مِن المُنشَآتِ. وقيل: المخلوقاتُ المسَخَّراتُ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٤).
ممَّن اختار أنَّ المعنى: المرفوعاتُ الشُّرُعِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، والرَّسْعَني، والنسفي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤١٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٠٥).
قال ابن جرير: (﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ بفتحِ الشِّينِ، بمعنَى: المرفوعاتِ القِلاعِ، اللَّاتي تُقْبِلُ بهنَّ وتُدْبِرُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٢].

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما في الجواري مِن المنافِعِ هو بالتَّكَسُّبِ مِن البَحرِ بالصَّيدِ وغَيرِه، والتَّوصُّلِ إلى البِلادِ الشَّاسِعةِ للفوائِدِ الهائِلةِ؛ سَبَّبَ عن ذلك قَولَه تعالى[1]:

﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ سمَّى اللهُ تعالى الأنهارَ والبِحارَ

---

= وممَّن اختار أنَّ المعنى: المرفوعاتُ، وهي الَّتي رُفِعَ خَشَبُها بعضُها على بعضٍ: البغويُّ، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٢).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: أنشاها النَّاسُ: ابنُ جُزَي، والسعدي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٠).

قال ابن عاشور: (﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ بفتحِ الشِّينِ، هو اسمُ مفعولٍ، إذا أُوجِدَ وصُنع، أي: الَّتي أنشأها النَّاسُ بإلهامٍ مِن الله). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

وقال ابن عطيَّة: (أي: أنشأها اللهُ تعالى، أو النَّاسُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٢٨).

وقال جلال الدين المحلي: (﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾: المُحْدَثاتُ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٠).

وقال الثعلبي: (أي: المخلوقاتُ المرفوعاتُ المسخَّراتُ في البَحرِ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١١).

المِلْحةَ بِحارًا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ على قولِ مَن قال: إنَّ اللُّؤلؤَ لا يَخرُجُ إلَّا مِنَ البحرِ المِلْحِ، فكيفَ يُوجَّهُ قولُه تعالى: ﴿مِنْهُمَا﴾؟

**الجوابُ** إنْ صَحَّ قَولُهم في اللُّؤلُؤِ: إنَّه لا يَخرُجُ إلَّا مِنَ البَحرِ المِلْحِ، فنَقولُ: فيه وُجوهٌ:

**أحَدُها**: أنَّ الصَّدَفَ لا يتوَلَّدُ فيه اللُّؤلُؤُ إلَّا مِنَ المطَرِ، وهو بَحرُ السَّماءِ.

**ثانيها**: أنَّه يتولَّدُ في مُلتقاهما ثمَّ يَدخُلُ الصَّدَفُ في الماءِ المِلْحِ عندَ انعِقادِ الدُّرِّ فيه؛ طالِبًا للمُلوحةِ، فيَثقُلُ هناك فلا يُمكِنُه الدُّخولُ في العَذبِ.

**ثالِثُها**: أنَّ ما ذكَرتُم إنَّما كان يَرِدُ أنْ لو قال: «يَخرُجُ مِن كُلِّ واحِدٍ مِنهما»، فأمَّا على قَولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ فلا يَرِدُ؛ إذِ الخارِجُ مِن أحَدِهما -مع أنَّ أحَدَهما مُبهَمٌ- خارِجٌ مِنهما، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦].

**رابِعُها**: أنَّ «مِنْ» ليست لابتداءِ شَيءٍ، كما يُقالُ: «خرَجْتُ مِنَ الكُوفةِ»، بل لابتِداءٍ عَقليٍّ، كما يُقالُ: «خُلِقَ آدَمُ مِن تراب، ووُجِدَت الرُّوحُ مِن أمرِ اللهِ»؛ فكذلك اللُّؤلُؤُ يَخرُجُ مِن الماءِ، أي: منه يتوَلَّدُ[٢].

**خامسُها**: أنَّ هذا مِن بابِ التَّغليبِ، والتَّغليبُ أنْ يُغَلَّبَ أحدُ الجانبَينِ على الآخَرِ، مِثلَما يُقالُ: العُمَرانِ: لأبي بكرٍ وعُمرَ، ويُقالُ: القَمَرانِ: للشَّمسِ والقَمَرِ، فهذا مِن بابِ التَّغليبِ، فـ﴿مِنْهُمَا﴾ المرادُ: واحِدٌ منهما.

**سادسُها**: أنَّ هذا على حَذفِ مُضافٍ، والتَّقديرُ: يَخرُجُ مِن أحَدِهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩).

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي: منهما جميعًا يَخرُجُ اللُّؤلؤُ والمَرجانُ، وإنِ امتاز المِلْحُ بأنَّه أكثَرُ وأطيَبُ، وهذا الَّذي يُوافِقُ ظاهِرَ القرآنِ؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ وهو خالِقُهما، وهو يَعلَمُ ماذا يَخرُجُ منهما، فإذا كانتِ الآيةُ ظاهِرُها أنَّ اللُّؤلؤَ يَخرُجُ مِنهما جميعًا وَجَبَ الأخذُ بظاهِرِها، لكنْ لا شكَّ أنَّ اللُّؤلؤَ مِن الماءِ المِلْحِ أكثَرُ وأطيَبُ، لكِنْ لا يَمنَعُ أنْ نَقولَ بظاهِرِ الآيةِ، بل يَتعيَّنُ أنْ نَقولَ بظاهِرِ الآيةِ، وهذه قاعِدةٌ في القُرآنِ والسُّنَّةِ: أنَّنا نَحْمِلُ الشَّيءَ على ظاهِرِه ولا نُؤَوِّلُ، اللَّهمَّ إلَّا لضَرورةٍ، فإذا كان هناك ضرورةٌ فلا بُدَّ أنْ نَتَمَشَّى على ما تَقتَضيه الضَّرورةُ، أمَّا بغيرِ ضَرورةٍ فيَجِبُ أنْ نَحمِلَ القُرآنَ والسُّنَّةَ على ظاهِرِهما[1]. فظاهِرُ كَلامِ اللهِ تعالى أَولى بالاعتِبارِ مِن كَلامِ بَعضِ النَّاسِ، الَّذي لا يُوثَقُ بقَولِه! ومَن عَلِمَ أنَّ اللُّؤلُؤَ لا يَخرُجُ مِنَ الماءِ العَذْبِ؟! وهَبْ أنَّ الغوَّاصِينَ ما أخرَجوه إلَّا مِنَ المِلْحِ وما وَجَدوه إلَّا فيه، لكِنْ لا يَلزَمُ مِن هذا ألَّا يُوجَدَ في الغَيرِ، وكيف يُمكِنُ الجَزمُ والأمورُ الأرضيَّةُ الظَّاهِرةُ خَفِيَت عن التُّجَّارِ الَّذين قَطَعوا المفاوِزَ، ودارُوا البِلادَ، فكيف لا يَخفى أمرُ ما في قَعرِ البَحرِ عليهم[2]؟!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ فائدةٌ عَظيمةٌ في جمعِ الجَواري وتوحيدِ البَحرِ وجَمعِ الأعلامِ، وهي أنَّ ذلك إشارةٌ إلى عَظَمةِ البَحرِ، ولو قال: «في البِحارِ» لَكانت كلُّ جاريةٍ في بَحرٍ، فيَكونُ البَحرُ دونَ بَحرٍ يكونُ فيه الجَواري الَّتي هي كالجِبالِ، وأمَّا إذا كان البَحرُ واحِدًا، وفيه الجواري الَّتي هي كالجِبالِ، يكونُ ذلك بحرًا عَظيمًا، وساحِلُه بَعيدًا؛ فيَكونُ الإنجاءُ بقُدرةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٢).

كامِلةٍ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أنَّه لَمَّا كانت الأركانُ أربعةً: التُّرابُ، والماءُ، والهواءُ، والنَّارُ؛ فاللهُ تعالى بَيَّن بقَولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ﴾ [الرحمن: ١٤] أنَّ التُّرابَ أصلٌ لمخلوقٍ عَجيبٍ، وبَيَّنَ بقَولِه: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥] أنَّ النَّارَ أيضًا أصلٌ لمخلوقٍ عَجيبٍ، وبَيَّنَ بقَولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أنَّ الماءَ أصلٌ لمخلوقٍ آخَرَ كالحَيوانِ عَجيبٍ، بَقِيَ الهواءُ لكِنَّه غيرُ مَحسوسٍ؛ فلم يَذكُرْ أنَّه أصلُ مَخلوقٍ، لكِنْ ذكَر أنَّ الهواءَ له تأثيرٌ عظيمٌ في جَرْيِ السَّفينةِ كالأعلامِ[٢]، وذلك على قولٍ.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ خبَرٌ آخَرُ عن لَفظِ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾، قُصِدَ منه العِبرةُ بخلْقِ البحارِ والأنهارِ، وذلك خلْقٌ عَجيبٌ دالٌّ على عَظَمةِ قُدرةِ الله وعِلمِه وحِكمتِه[٣].

- قولُه: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أي: أرسَلَ البَحرينِ لا يَحبِسُ ماءَهُما عن الجرْيِ حاجزٌ، وهذا تَهيئةٌ لقولِه بعْدُ: ﴿يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾، والمرادُ: أنَّه خلَقَهما ومرَجَهُما؛ لأنَّه ما مرَجَهُما إلَّا عقِبَ أنْ خلَقَهُما[٤].

- وذِكرُ البَرْزخِ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: بيْنَهما مِثلُ البَرْزخِ، وهو معْنى ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٢، ٣٥٣)، ((روح البيان)) للخلوتي (٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أي: لا يَبْغي أحدُهما على الآخَرِ، أي: لا يَغلِبُ عليه فيُفسِدَ طَعْمَه؛ فعُبِّرَ عن هذِه الغَلبةِ بلفْظِ (البغي)[١].

- وجُملةُ ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يَخْرُجُ﴾ قُرِئ ﴿يُخْرَجُ﴾ على البناءِ للمجهولِ[٣]، وعلى قراءةِ: ﴿يَخْرُجُ﴾ ففيه ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالاتِّساعِ[٤]؛ فقد أُسنِدَ الخُروجُ إلى اللُّؤلؤِ والمَرجانِ؛ لأنَّه إذا أُخرِجَ ذلك فقدْ خرَجَ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]؛ لأنَّ هذا مِن أحوالِ البَحرينِ، وقد أغْنَتْ إعادةُ لفظِ (البحر) عن ذِكرِ ضَميرِ البحرَينِ الرَّابطِ لجُملةِ الحالِ بصاحبِها[٦].

- واللَّامُ في (لَهُ) للمِلكِ، وهو مِلْكُ تَسخيرِ السَّيرِ فيها؛ قال تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ * إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) قرأ بها (أي: بضَمِّ الياءِ وفتحِ الرَّاءِ) نافعٌ وأبو عَمرٍو وأبو جعفرٍ ويعقوبُ، وقرأ الباقون ﴿يَخْرُجُ﴾ بفتحِ الياءِ وضمِّ الرَّاءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٠).

(٤) الاتِّساع: هو أن يأتيَ المتكلِّمُ بكلامٍ يتَّسِعُ فيه التَّأويلُ بحسَبِ ما تحتمِلُه ألفاظُه، فيتَّسِعُ التَّأويلُ فيه على قدرِ عقولِ النَّاسِ، وتفاوُتِ أفهامِهم. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٥٤)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٢/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ [الشورى: ٣٢ - ٣٤]؛ فالمعْنى: أنَّ الجواريَ في البَحرِ في تَصرُّفِه تعالَى؛ قال تعالَى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥]. والإخبارُ عن الجَواري بأنَّها له؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إنشاءَ البشرِ للسُّفنِ لا يُخرِجُها عن مِلكِ الله سُبحانَه[١]، فتَخصيصُ الجَواري بأنَّها له -وهو تعالى له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ وما فِيهِنَّ-؛ لأنَّهم لَمَّا كانوا هم مُنشِئِيها، أسنَدَها تعالى إليه؛ إذ كان تمامُ مَنفَعتِها إنَّما هو منه تعالى، فهو في الحقيقةِ مالِكُها[٢].

- و﴿ٱلْجَوَارِ﴾ صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه مُتعلِّقُه، وهو قولُه: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾، والتَّقديرُ: السُّفنُ الجَواري؛ إذ لا يَجري في البحرِ غيرُ السُّفنِ[٣].

- وتقديمُ الجارِّ «له» فيه إشارةٌ إلى أنَّ السَّائرَ في الفُلْكِ لا تصريفَ له، وإنْ ظَهَر له تصريفٌ؛ فهو -لضَعفِه- كَلَا تصريفٍ[٤].

- قولُه: ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ قُرِئَ بفتْحِ الشِّينِ؛ فهو اسمُ مَفعولٍ، إذا أُوجِدَ وصُنِعَ، أي: الَّتي أنشَأَها النَّاسُ بإلهامٍ مِن اللهِ تعالى؛ فحصَلَ مِن الكلامِ مِنَّتانِ: مِنَّةُ تَسخيرِ السُّفنِ للسَّيرِ في البحرِ، ومِنَّةُ إلهامِ النَّاسِ لإنْشائِها. وقُرِئَ بكسْرِ الشِّينِ (المُنْشِآتُ)[٥]؛ فهو اسمُ فاعلٍ، فيَجوزُ أنْ يكونَ المُنشِآتُ مُشتَقًّا مِن: أنشَأَ السَّيرَ؛ إذا أسرَعَ، أي: الَّتي يَسيرُ بها النَّاسُ سَيرًا سريعًا، والآيةُ تَحتمِلُ المعْنيَينِ على القراءتَينِ باستِعمالِ الاشتِقاقِ في معْنَيَي المُشتقِّ منه، ويكونُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٣).

(٥) يُنظر ما تقدَّم في القراءات ذات الأثر في التَّفسير (ص: ٢٤٠).

في ذلك تَذكيرٌ بنِعمةِ إلهامِ النَّاسِ إلى اختِراعِ الشِّراعِ لإسراعِ سَيرِ السُّفنِ[١].

- ووُصِفَتِ الجواري بأنَّها كالأعلامِ -أي: الجِبالِ- وَصْفًا يُفيدُ تَعظيمَ شأْنِها في صُنْعِها المُقتضي بَداعةَ إلْهامِ عُقولِ البشَرِ لصُنعِها، والمُقتضي عِظَمَ المِنَّةِ بها؛ لأنَّ السُّفنَ العظيمةَ أمكَنُ لحمْلِ العددِ الكثيرِ مِن النَّاسِ والمَتاعِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ تَشبيهٌ؛ فقد شَبَّهَ السُّفنَ وهي تَمخَرُ عُبابَ البحرِ رائحةً جائيةً بالجِبالِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٤).

## الآيات (٢٦-٣٠)

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿فَانٍ﴾: أي: هالِكٌ[1].

﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾: أي: المُستحِقُّ لأنْ يُجَلَّ - فهو ذو العَظَمةِ والكِبرياءِ والمجدِ-، ولأنْ يُكرَمَ؛ لاتِّصافِه بما يُوجبُ ذلك، والإجلالُ يتضمَّنُ التَّعظيمَ، والإكرامُ يتضمَّنُ الحمدَ والمحبةَ، والجَلالةُ: عِظَمُ القَدْرِ، والجَلالُ: التَّناهي في ذلك، وأصلُ (جلل): يدُلُّ على العَظَمةِ، وأصلُ (كرم): يدُلُّ على الشَّرَفِ[2].

﴿شَأْنٍ﴾: الشَّأْنُ: الحالُ والأمرُ، ولا يُقالُ إلَّا فيما يعظُمُ مِن الأحوالِ والأمورِ، فهو الشَّيءُ العظيمُ والحدثُ المهمُّ مِن مخلوقاتٍ وأعمالٍ مِن السَّمَواتِ والأرضِ، وأصل (شأن): يدُلُّ على ابْتِغاءٍ وطلَبٍ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يُخبرُ اللهُ تعالى عن تفرُّدِه بالبقاءِ بعدَ فناءِ جميعِ المخلوقاتِ على ظهرِ الأرضِ، فيقولُ: كلُّ مَنْ على الأرضِ مِن إنسٍ أو جِنٍّ أو غَيرِهما: هالِكٌ لا يَبقى، ولا يَبقى إلَّا وَجْهُ ربِّك -يا محمَّدُ- ذو العَظَمةِ والإكرامِ، المُستحِقُّ للتَّعظيمِ والمحبةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٨)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤١٧) و(٥/ ١٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٦، ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٥).

فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

وأنَّه تعالى يَسألُه مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ لقَضاءِ حاجاتِهم، وأنَّه سُبحانَه كُلَّ يومٍ هو في شَأنٍ؛ يُفَرِّجُ كَربًا، ويَغفِرُ ذنْبًا، ويُجيبُ دُعاءً، ويَشفِي مَريضًا، ويُغْني فَقيرًا، ويُحيي خَلْقًا ويُميتُ آخَرِينَ، ويُعِزُّ قَومًا ويُذِلُّ آخَرِينَ -سُبحانَه وبِحَمْدِه! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بَعْدَ أن ذَكَر الله تعالى النِّعَمَ الَّتي أنعَمَ بها على عِبادِه في البَرِّ والبَحرِ، في السَّماءِ والأرضِ؛ رَدِفَ ذلك بيانُ أنَّ هذه النِّعَمَ تَفنى ولا تَبقى[1].

وأيضًا لَمَّا كان قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الرحمن: ٢٤] مُؤْذِنًا بنِعمةِ إيجادِ أسبابِ النَّجاةِ مِن الهَلاكِ، وأسبابِ السَّعيِ لتَحصيلِ ما به إقامةُ العَيشِ؛ إذ يسَّرَ للنَّاسِ السُّفنَ عَونًا لهم على الأسْفارِ، وقَضاءِ الأوطارِ، مع السَّلامةِ مِن طُغيانِ ماءِ البِحارِ، وكان وَصْفُ السُّفنِ بأنَّها كالأعلامِ تَوسعةً في هذه النِّعمةِ؛ أتْبَعَه بالموعظةِ بأنَّ هذا لا يَحولُ بيْن النَّاسِ وبيْن ما قدَّره اللهُ لهم مِن الفَناءِ، على عادةِ القرآنِ في انتهازِ الفُرَصِ للموعظةِ والتَّذكيرِ[2].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: كلُّ مَنْ على الأرضِ مِن إنسٍ أو جِنٍّ أو غَيرِهما: هالِكٌ لا يَبقى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢١)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ [الكهف: ٧، ٨].

﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أي: ويَبقَى وَجهُ ربِّك -يا محمَّدُ- الموصوفُ وَجهُه بالعَظَمةِ والإكرامِ، واستِحقاقِ التَّعظيمِ والمحبَّةِ، وإثباتِ صِفاتِ الكَمالِ والجَمالِ، فالله عزَّ وجلَّ هو الحيُّ الَّذي لا يموتُ أبدًا[1].

---

= عطية)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١١).

قال السمينُ الحلبي: (غَلَّبَ -بقَولِه ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾- مَن يَعقِلُ على غَيرِه، وجَميعُهم مرادٌ. والضَّميرُ في ﴿عَلَيْهَا﴾ للأرضِ. قال بَعضُهم: وإنْ لم يَجْرِ لها ذِكرٌ... وقد رُدَّ على هذا القائِلِ، وقالوا: بل تقَدَّمَ ذِكرُها في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا ﴾ [الرحمن: ١٠]). ((الدر المصون)) (١٠/ ١٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٢٠-٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤).

قال ابنُ عثيمين: (أي: يبقَى اللهُ عزَّ وجَلَّ ذو الوَجهِ الكَريمِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١١).

وقال ابن تيميَّة: (والإجلالُ مِن جِنسِ التَّعظيمِ، والإكرامُ مِن جِنسِ الحُبِّ والحَمدِ،... فله الإجلالُ والمُلْكُ، وله الإكرامُ والحَمدُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٢٠).

وقال أيضًا: (وقولُه: ﴿ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ: قيل: أهلٌ أنْ يُجَلَّ وأنْ يُكرَمَ. كما يُقالُ: إنَّه أَهْلُ التَّقْوَى، أي: المستحِقُّ لأنْ يُتَقَّى. وقيل: أهلٌ أنْ يجِلَّ في نفسِه، وأنْ يُكْرِمَ أهلَ ولايتِه وطاعتِه. وقيل: أهلٌ أنْ يجِلَّ في نفسِه، وأهلٌ أنْ يُكرَمَ...

قلت: القولُ الأوَّلُ هو أقربُها إلى المرادِ معَ أنَّ الجلالَ هنا ليسَ مصدرَ جلَّ جلالًا، بل هو اسمُ =

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المَوتُ نفْسُه فيه نِعَمٌ لا تُنكَرُ، وكان مَوتُ ناسٍ نعمةً على ناسٍ -معَ ما ختَم به الآيةَ مِن وصفِه بالإنعامِ-؛ قال[1]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أفضَى الإخبارُ إلى حاجةِ النَّاسِ إليه تعالى، أتْبَعَ بأنَّ الاحتِياجَ عامٌّ في أهلِ الأرضِ وأهلِ السَّماءِ؛ فالجَميعُ يَسألونَه[3].

---

= مصدرِ أجلَّ إجلالًا... وإذا كان مستحقًّا للإجلالِ والإكرامِ، لزِم أنْ يكونَ متَّصِفًا في نفسِه بما يُوجِبُ ذلك). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣١٧). ويُنظر: ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٩١).

وقال السعدي: (﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: ذو العظمةِ والكبرياءِ والمجدِ، الذي يعظَّمُ ويبجَّلُ ويجَلُّ لأجلِه، والإكرامُ الذي هو سَعةُ الفضلِ والجودِ، والداعي لأنْ يكرمَ أولياءَه وخواصَّ خلقِه بأنواعِ الإكرامِ، الذي يكرمُه أولياؤه ويُجِلُّونَه، [ويُعظِّمونَه] ويُحبُّونَه، ويُنيبونَ إليه ويَعبدونَه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

وذكَر ابنُ عاشور أنَّ قولَه: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ خِطابٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه تعظيمٌ لقَدرِه، وأنَّه يجوزُ أن يكونَ خِطابًا لغَيرِ مُعَيَّنٍ؛ ليَعُمَّ كُلَّ مُخاطَبٍ. ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤).

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: إلى اللهِ يَفزَعُ جَميعُ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ بسُؤالِ حاجاتِهم؛ فلا يَستَغني الخَلائِقُ عن دُعاءِ رَبِّهم(١).

قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾.

أي: كُلَّ يَومٍ يُحدِثُ اللهُ تعالى شأنًا عَظيمًا؛ كأنْ يُحييَ خَلْقًا ويُميتَ آخَرينَ، أو يُفَرِّجَ كَربًا، أو يَغفِرَ ذنْبًا، أو يُجيبَ دُعاءً، أو يَشفِيَ مَريضًا، أو يُغنيَ فَقيرًا، أو يُعلِّمَ جاهِلًا، أو يَهدِيَ ضالًّا، أو يُعِزَّ قَومًا، ويُذِلَّ آخَرينَ(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٣).

قال ابن كثير: (هذا إخبارٌ عن غِناه عمَّا سِواه، وافتِقارِ الخلائقِ إليه في جميعِ الآناتِ، وأنَّهم يَسألونه بلِسانِ حالِهم وقالِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٧)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٦٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٤٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤-٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٤).

قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: مِن شأنِه أنَّه يُحيي ويُميتُ، ويَرزُقُ، ويُعِزُّ ويُذِلُّ، ويَشفي مريضًا، ويُجيبُ داعيًا، ويُعطي سائِلًا، ويَغفِرُ ذنْبًا، ويَكشِفُ كَربًا، إلى ما لا يُحصى من أفعالِه، وإحداثِه في خَلْقِه ما يشاءُ!). ((الوسيط)) (٤/ ٢٢١).

وقال السعدي: (وهذه الشؤونُ الَّتي أخبَر أنَّه تعالى كلَّ يومٍ هو في شأنٍ، هي تقاديرُه وتدابيرُه الَّتي قدَّرها في الأزلِ وقضاها، لا يزالُ تعالى يُمضيها ويُنفذُها في أوقاتِها الَّتي اقتضَتْه حكمتُه، =

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[١]؟!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الحَثُّ على العِبادةِ، وصَرفِ الزَّمانِ اليَسيرِ إلى الطَّاعةِ[٢]، والاستِعدادِ للحياةِ الباقيةِ بِفعلِ الصَّالحاتِ، والتَّفكُّرِ في عظيمِ قُدرةِ الله تعالَى، والإقبالِ على توحيدِه، وطَلَبِ مرضاتِه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ المَنعُ مِن الوُثوقِ بما يكونُ للمَرءِ، فلا يقولُ إذا كان في نِعمةٍ: إنَّها لن تَذهَبَ؛ فيَترُكَ الرُّجوعَ إلى اللهِ تعالى مُعتَمِدًا على مالِه ومُلْكِه[٤]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ الأمرُ بالصَّبرِ إن كان في ضُرٍّ -فلا يَكفُرُ باللهِ- مُعتَمِدًا على أنَّ الأمرَ ذاهِبٌ، والضُّرَّ زائِلٌ[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ تَركُ اتِّخاذِ الغَيرِ مَعبودًا، والزَّجرُ عن

---

= وهي أحكامُه الدِّينيَّةُ الَّتي هي الأمرُ والنَّهيُ، والقَدَريَّةُ الَّتي يُجريها على عبادِه مدَّةَ مقامِهم في هذه الدَّارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

وقال سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَةَ: (الدَّهرُ كلُّه عندَ الله سبحانه يَومانِ: أحدُهما مدَّةُ أيَّامِ الدُّنيا، والآخَرُ يومُ القيامةِ، والشَّأنُ الَّذي هو فيه اليَومَ الَّذي هو مدَّةُ الدُّنيا: الاختبارُ بالأمرِ والنَّهيِ، والإحياءِ والإماتةِ، والإعطاءِ والمنعِ، وشأنُ يومِ القيامةِ: الجزاءُ والحسابُ، والثَّوابُ والعِقابُ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الاغتِرارِ بالقُربِ مِنَ المُلوكِ، وتَركِ التَّقَرُّبِ إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ أمْرَهم إلى الزَّوالِ قَريبٌ، فيبقى القَريبُ منهم -عن قَريبٍ- في نَدَمٍ عَظيمٍ؛ لأنَّه إن مات قَبْلَهم يَلقى اللهَ كالعَبدِ الآبِقِ، وإنْ مات المَلِكُ قبْلَه فيَبقى بيْنَ الخَلقِ وكُلُّ أحَدٍ يَنتَقِمُ منه، ويتشَفَّى فيه، ويَستحِي مِمَّن كان يتكَبَّرُ عليه، وإن ماتا جميعًا فلِقاءُ اللهِ عليه -بعدَ التَّوَفِّي- في غايةِ الصُّعوبةِ[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ حُسنُ التَّوحيدِ، وتَركِ الشِّركِ الظَّاهِرِ والخَفيِّ جميعًا؛ لأنَّ الفانيَ لا يَصلُحُ لِأنْ يُعبَدَ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ لم يَقُلْ: «فيها»؛ لأنَّه عندَ الفَناءِ ليس الحالُ حالَ القَرارِ والتَّمكينِ[3]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أنَّ الدُّنيا إنَّما خُلِقَتْ للفَناءِ؛ ما خُلِقَ النَّاسُ للبَقاءِ في الدُّنيا[4]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ قال الشَّعبيُّ: (إذا قرأتَ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تَسْكُتْ حتَّى تَقْرَأَ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾). وهذا مِن فِقْهِه في القُرآنِ، وكَمالِ عِلْمِه؛ إذِ المقصودُ: الإخبارُ بفَناءِ مَن عليها مع بَقاءِ وَجْهِه سُبحانَه؛ فإنَّ الآيةَ سِيقَتْ لِتَمْدَحَه بالبَقاءِ وَحْدَه، ومُجَرَّدُ فَناءِ الخَليقةِ ليس فيه مَدْحُه، إنَّما المدحُ في بَقائِه بعدَ فَناءِ خَلْقِه؛ فهي نظيرُ قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٢١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٢٧).

إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[1] [القصص: ٨٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أفرَدَ كلمةَ ﴿فَانٍ﴾؛ لأنَّهم لم يَجتَمِعوا في الفَناءِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ سؤالٌ: أنَّ «مَنْ» للعُقَلاءِ، وكُلُّ ما على وَجهِ الأرضِ مع الأرضِ فانٍ، فما فائِدةُ الاختِصاصِ بالعُقَلاءِ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ المُنتَفِعَ بالتَّخويفِ هو العاقِلُ؛ فخَصَّه تعالى بالذِّكْرِ[3].

**الثَّاني**: أنَّ الآيةَ دلَّتْ بفَناءِ العاقِلِ على فَناءِ غَيرِ العاقِلِ بطَريقِ الأَولى[4].

**الثَّالثُ**: أنَّه ذكَره بلفظةِ ﴿مَنْ﴾ تغليبًا للعقلاءِ[5].

٦- اللهُ سُبحانَه وتعالى حيٌّ باقٍ يَرِثُ ولا يُورَثُ، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ...﴾، وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[6] [آل عمران: ١٨٠].

٧- لَمَّا كان الوَجهُ أشرَفَ ما في الوُجودِ، وكان يُعَبَّرُ به عمَّا أُريدَ به صاحِبُ الوَجهِ -مع أنَّه لا يُتصَوَّرُ بَقاءُ الوَجهِ بدُونِ صاحِبِه؛ فكان التَّعبيرُ به عن حقيقةِ ذلك الشَّيءِ أعظَمَ وأدَلَّ على الكَمالِ؛ قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[7].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٧).

(٦) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ١٥٢).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٦٥، ١٦٦).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ بكافِ الخِطابِ: إشارةٌ إلى اللُّطفِ، والإبقاءُ إشارةٌ إلى القَهرِ، والمَوضِعُ مَوضِعُ بَيانِ اللُّطفِ وتَعديدِ النِّعَمِ؛ فلهذا قال بلَفظِ الرَّبِّ وكافِ الخِطابِ، ولم يقُل: (ويبقى وجهُ الرَّبِّ)[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أنَّ «الوَجهَ» صِفةٌ مِن صِفاتِ اللهِ العَلِيِّ، وَصَف بها نَفْسَه؛ فعَلَينا أن نُصَدِّقَ رَبَّنا، ونُؤمِنَ بما وَصَف به نفْسَه، مع التَّنزيهِ التَّامِّ عن مُشابَهةِ صِفاتِ الخَلقِ[٢]، فهو وجهٌ لا يُشْبِهُ أوجُهَ المخلوقينَ؛ لقولِه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][٣]. وقد أثنى سُبحانَه على هذه الصِّفةِ ثَناءً خاصًّا لم يُثْنِ به على صِفةٍ غَيرِها؛ حيثُ قال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وفي قَولِه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] يَرِدُ إشكالٌ؛ فجاء في الآيةِ الأُولى «ذو»، وفي الآيةِ الثَّانيةِ «ذي»!

**الجوابُ**: ذلك لأنَّ «ذو» في الآيةِ الأُولى صِفةٌ للوجهِ الَّذي هو فاعلُ الفعلِ «يَبْقَى»، قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، وأمَّا «ذي» في الآيةِ الثَّانيةِ فهي صفةٌ للرَّبِّ تعالى، وليست صفةً للاسمِ؛ لأنَّ الاسمَ لا يُوصَفُ! فهو صفةٌ للذَّاتِ، وليس صفةً للاسمِ، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨]، فقال: ﴿رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾، وهذا يعني أنَّه لا يَصِحُّ أنْ يُوصفَ الاسمُ بأنه ذو جلالٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٣١٥).

وإكرامٍ! بخلافِ الوجهِ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فائدةٌ: أنَّه دَخَل في ﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾ جميعُ الصِّفاتِ الرَّاجِعةِ إلى التَّنزيهِ عن النَّقصِ، وفي (الْإِكْرَامِ) جميعُ صِفاتِ الكَمالِ الوُجوديَّةِ، وصِفاتِ الجَمالِ كالإحسانِ[٢].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فيه أنَّ حَمْلَ «وجْهِ اللهِ» على «ثوابِ اللهِ» باطلٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ الوجهَ بالجَلالِ والإكرامِ، فقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، و«ذو» صِفةُ الوَجهِ، ومَعلومٌ أنَّ الثَّوابَ لا يُوصَفُ بأنَّه ذو الجَلالِ والإكرامِ[٣]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سُؤالٌ: أيُّ نِعمةٍ في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ حتَّى تُعَدَّ مِن نِعَمِ الدُّنيا؟!

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ فيه التَّسويةَ بيْنَ الصَّغيرِ والكبيرِ، والأميرِ والمأمورِ، والمالِكِ والمملوكِ، والظَّالِمِ والمظلومِ في الفَناءِ المؤدِّي إلى دارِ البَقاءِ، ومُجازاةِ المحسِنِ والمسيءِ بحَقِّه مِن الجزاءِ؛ فالمظلومُ يأخُذُ حَقَّه، والظَّالمُ يَفزَعُ فيَترُكُ الظُّلمَ له، وسَبَبُ الفَناءِ يَعلَمُه الإنسانُ باضطرارٍ؛ فلا نِعْمةَ إذَن أكبَرُ مِن هذه[٤].

**الثَّاني**: أنَّ الموتَ سَبَبُ النَّقلِ إلى دارِ الجَزاءِ والثَّوابِ[٥]، فهو نِعمةٌ لأولياءِ

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٢٤).

اللهِ؛ حيثُ أفضَى بهم إلى السَّعادةِ الأبَديَّةِ، والنِّعمةِ العُظمَى[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سُؤالٌ: كيف قال: ﴿رَبِّكُمَا﴾ خِطابًا مع الاثنَينِ، وقال: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ خِطابًا مع الواحِدِ؟!

**الجَوابُ**: عندَ قَولِه تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ وَقَعت الإشارةُ إلى فَناءِ كُلِّ أحَدٍ، وبَقاءِ اللهِ تعالى ذي الوجهِ الكريمِ، فقال: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ أي: يا أيُّها السَّامِعُ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ فلا تلتَفِتْ إلى أحَدٍ غَيرِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ كُلَّ مَن عَداه فانٍ[٢]. وقيل: قَولُه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ اقتَضَى تَعميمَ الخِطابِ لكلِّ مَن يَصلُحُ للخِطابِ -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ لعِظَمِ الأمْرِ وفَخامتِه، ويَندرِجُ فيه الثَّقلانِ أوَّليًّا، ولا كذلك الثَّاني؛ فترَكَه على ظاهِرِه[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ دَلالةٌ على التَّقديرِ اليَوميِّ -كما ذَكَرَه بعضُ أهلِ العِلمِ-؛ فهو سُبحانَه كلَّ يومٍ يُغْني فَقيرًا، ويُفقِرُ غَنيًّا، ويُوجِدُ مَعدومًا، ويُعْدِمُ موجودًا، ويَبسُطُ الرِّزقَ ويَقْدِرُه، ويُنشِئُ السَّحابَ والمطَرَ، وغيرَ ذلك[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ أنَّ العِبادَ كلَّهم مُضطَرُّونَ إلى دُعاءِ الرَّبِّ سُبحانَه، وسُؤالِه وقَصْدِه، والافتِقارِ إليه[٥].

١٧- قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يَسألُه أولياؤُه وأعداؤُه، ويُمِدُّ هؤلاء وهؤلاء، وأبغَضُ خَلْقِه عَدُوُّه إبليسُ، ومع هذا فقد سأله حاجةً فأعطاه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٠٥).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٠٦).

إيَّاها، ومَتَّعَه بها، ولِيُعلَمَ أنَّ إجابةَ اللهِ لسائِليه ليست لكرامةِ السَّائِلِ عليه، بل يَسألُه عَبدُه الحاجةَ فيَقضِيها له وفيها هَلاكُه وشِقْوتُه، ويكونُ قَضاؤه له مِن هَوانِه عليه، وسُقوطِه مِن عَينِه، ويكونُ مَنْعُه منها لكرامتِه عليه، ومحبَّتِه له، فيَمنَعُه؛ حمايةً وصِيانةً وحِفظًا، لا بُخلًا، وهذا إنَّما يَفعَلُه بعَبدِه الَّذي يُريدُ كرامتَه ومَحبَّتَه، ويُعامِلُه بلُطْفِه، فيَظُنُّ بجَهْلِه أنَّ اللهَ لا يُحِبُّه ولا يُكرِمُه، ويَراه يقضي حوائِجَ غَيرِه، فيُسيءُ ظَنَّه برَبِّه[1]!

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ثُبوتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للرَّبِّ سُبحانَه، وقيامُها به[2].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ معَ كونِ القَلَمِ جَفَّ بما هو كائِنٌ إلى يومِ القيامةِ!

**الجوابُ**: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أنَّها شُؤونٌ يُبدِيها ولا يَبتدِيها[3]، وقال الحسينُ بنُ الفضلِ: (هو سَوْقُ المَقاديرِ إلى المَواقيتِ)[4].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ وُقوعُ هذه الجُملةِ عقِبَ ما عُدِّدَ مِن النِّعَمِ فيه إيماءٌ إلى أنَّ مَصيرَ نِعَمِ الدُّنيا إلى الفناءِ، وهذا

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٥٤).

تَذكيرٌ بالموتِ وما بعْدَه مِن الجزاءِ، والجُملةُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ[١].

- وتَفريعُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ إنَّما هو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ مِن أنَّه يَتضمَّنُ مُعامَلةَ خلْقِه مُعامَلةَ العظيمِ الَّذي لا تَصدُرُ عنه السَّفاسِفُ، الكريمِ الَّذي لا يَقطَعُ إنعامَه، وذلك مِن الآلاءِ العظيمةِ[٢].

- وفي مَجموعِ قولِه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ نِعمةٌ عَظيمةٌ؛ فإنَّه تعالَى رتَّبَ بالفاءِ في قولِه: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ على تِلك الآيةِ؛ تأنيبًا وتَوبيخًا على كُفرانِهم هذه النِّعمةَ السَّنِيَّةَ؛ فالمرادُ مِن الآيةِ مَلزومُ معْناها؛ لأنَّها كِنايةٌ عن مَجيءِ وقتِ الجَزاءِ، وهو مِن أجَلِّ النِّعَمِ؛ ولذلك خَصَّ الوَصفَينِ بالذِّكرِ -يعني: الجلالَ والإكرامَ-؛ لأنَّهما يدُلَّانِ على الإثابةِ والعِقابِ؛ ففي وصْفِه تعالَى بذلكَ بعْدَ ذِكرِ فَناءِ الخلْقِ وبَقائِه تعالى إيذانٌ يُفيضُ عليهم بعْدَ فَنائِهم أيضًا آثارَ لُطْفِه وكرَمِه حسبَما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؛ فإنَّ إحياءَهم بالحَياةِ الأبديَّةِ وإثابتَهم بالنَّعيمِ المُقيمِ أجَلُّ النَّعماءِ، وأعظَمُ الآلاءِ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالافتِنانِ[٤]؛ فقدْ جمَعَ سُبحانه بيْنَ التَّعزيةِ والفخْرِ؛ إذ عزَّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٠).

(٤) الافتنانُ: هو أنْ يَفْتَنَّ المتكلِّمُ، فيَأتيَ في كَلامِه بفَنَّينِ مِن فُنونِ الكَلامِ وأغراضِه؛ إمَّا مُتضادَّينِ، أو مُختلِفَينِ، أو مُتَّفقَينِ، والافتِنانُ في ضروبِ الفَصاحةِ أعلَى مِن الاسْتِمرارِ على ضَرْبٍ واحدٍ؛ =

جَميعَ المخلوقاتِ، وتمدَّحَ بالانفرادِ بالبَقاءِ بعْدَ فَناءِ الموجوداتِ، معَ وصفِ وجهِه الكريمِ بأنَّه ذو الجلالِ والإكرامِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ استِئنافٌ، والمعْنى أنَّ النَّاسَ تَنقرِضُ منهم أجيالٌ، وتَبْقى أجيالٌ، وكلُّ باقٍ مُحتاجٌ إلى أسبابِ بَقائِه، وصَلاحِ أحوالِه؛ فهُمْ في حاجةٍ إلى الَّذي لا يَفْنَى وهو غيرُ مُحتاجٍ إليهم، ولَمَّا أفْضى الإخبارُ إلى حاجةِ النَّاسِ إليه تعالى، أُتْبِعَ بأنَّ الاحتياجَ عامٌّ في أهلِ الأرضِ وأهلِ السَّماءِ، فالجميعُ يَسألونَه؛ فسُؤالُ أهلِ السَّمواتِ -وهم الملائكةُ- يُسبِّحون بحمْدِ ربِّهم ويَستغفِرون لِمَن في الأرضِ، ويَسألون رِضا اللهِ تعالى، ومَن في الأرضِ -وهم البشرُ- يَسألونَه نِعَمَ الحياةِ، والنَّجاةَ في الآخِرةِ، ورفْعَ الدَّرَجاتِ في الآخرةِ[2].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾؛ لإفادةِ التَّعميمِ، أي: يَسألونه حَوائجَهم ومَهامَّهم[3].

- قولُه: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ حالًا مِن ضَميرِ النَّصبِ في ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾، أو تَذييلًا لجُملةِ ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، أي: كلَّ يومٍ

---

= ولهذا ورَد بعضُ آيِ القُرآنِ مُتماثِلَ المقاطعِ، وبعضُها غيرَ متماثلٍ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٨٨)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ١٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٥٤، ١٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٥).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هو في شأْنٍ مِن الشُّؤونِ للسَّائلينَ وغيرِهم؛ فهو تعالى يُبرِمُ شُؤونًا مُختلِفةً مِن أحوالِ الموجوداتِ دَوامًا، ويكونَ ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ ظَرْفًا مُتعلِّقًا بالاستِقرارِ في قولِه: ﴿هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، وقُدِّمَ على ما فيه مُتعلَّقُه؛ للاهتِمامِ بإفادةِ تَكرُّرِ ذلك ودَوامِه، والمعْنى: في شأْنٍ مِن شُؤونِ مَن في السَّمواتِ والأرضِ؛ مِن استِجابةِ سُؤْلٍ، ومِن زِيادةٍ، ومِن حِرمانٍ، ومِن تأخيرِ الاستِجابةِ، ومِن تَعويضٍ عن المسؤولِ بثَوابٍ، كما ورَدَ في أحاديثِ الدُّعاءِ[1] أنَّ استجابتَه تكونُ مُختلِفةً. ومعْنى (في) على هذا التَّفسيرِ: تَقويةُ ثُبوتِ الشُّؤونِ للهِ تعالى، وهي شُؤونُ تَصرُّفِه، ومَظاهرُ قُدْرتِه[2].

---

(١) منها: حديثُ أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((ما مِن مُسلم يدْعو بدَعوةٍ ليسَ فيها إثمٌ، ولا قطيعةُ رحِمٍ، إلَّا أعطاهُ الله بها إحْدَى ثَلاثٍ: إمَّا أنْ تُعجَّلَ له دعوتُه، وإمَّا أنْ يَدَّخِرَها له في الآخِرةِ، وإمَّا أنْ يَصرِفَ عنه مِن السُّوءِ مِثلَها. قالوا: إذَنْ نُكثِرُ! قال: اللهُ أكثرُ)).

أخرجه أحمد (١١١٣٣) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٤٣٦٨)، والحاكمُ (١٨١٦).

ذكر ثبوتَه الشوكانيُّ في ((فتح القدير)) (١/ ٢٧٤)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٢٦/ ١٢٢)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الأدب المفرد)) (٥٤٧)، وجوَّد إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٧/ ٢١٤).

ومنها: حديثُ عُبادةَ بنِ الصَّامتِ رضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قال: ((ما على الأرضِ مُسلِمٌ يدْعو اللهَ بدَعوةٍ إلَّا آتاهُ اللهُ إيَّاها، أو صَرَف عنه مِن السُّوءِ مِثلَها، ما لم يَدْعُ بإثمٍ، أو قَطيعةِ رَحِمٍ. فقال رجُلٌ مِن القَومِ: إذَنْ نُكثِرُ! قال: اللهُ أكثرُ)).

أخرجه الترمذي (٣٥٧٣) واللَّفظُ له، وعبدُ الله بنُ أحمدَ في ((زوائد المسند)) (٢٢٧٨٥) مختصرًا.

صحَّحه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٩٨)، وابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (١٠/ ١٣٧)، وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٧٣): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٧/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٤، ٢٥٥).

- والظَّرفيَّةُ المُستعمَلةُ فيها حرْفُ (في) تُفِيدُ شِدَّةَ التَّلبُّسِ والتَّعلُّقِ بتَصرُّفاتِ اللهِ تعالى بمَنزِلةِ إحاطةِ الظَّرفِ بالمظروفِ، أو بأسئلةِ المخلوقاتِ الَّذين في السَّماءِ والأرضِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٥، ٢٥٦).

## الآيات (٢١-٢٦)

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَنَفْرُغُ﴾: أي: سنَقصِدُ لكم بعدَ طُولِ التَّركِ والإمهالِ، والفَراغُ في اللُّغةِ على ضَربَينِ: أحَدُهما: الفَراغُ مِنَ الشُّغلِ، والآخَرُ: القَصدُ للشَّيءِ، تقولُ: سأتفَرَّغُ لفُلانٍ، أي: سأجعَلُ قَصْدي إليه[1].

﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾: أي: الإنسُ والجِنُّ؛ سُمِّيا بذلك قيل: لأنَّهما مُثقلانِ بالتَّكليفِ. وقيل: لعِظَمِ شَأنِهما بالإضافةِ إلى ما في الأرضِ مِن غَيرِهما. وقيل: لأنَّهما مُثقَلانِ بالذُّنوبِ[2].

﴿تَنفُذُوا۟﴾: أي: تَجوزوا وتَخرجوا، يُقالُ: نفَذَ الشَّيءُ مِن الشَّيءِ إذا خلَص منه، ونفَذ السَّهمُ في الرَّمِيَّةِ نُفوذًا ونَفاذًا، إذا خرَقَ إلى الجهةِ الأخرى، وأصلُ (نفذ): يدُلُّ على مَضاءٍ في أمرٍ وغيرِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٦).

﴿أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: أي: جَوانِبِها ونَواحيها[١].

﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾: أي: بمُلْكٍ وقُوَّةٍ، والسُّلطانُ: القُوَّةُ الَّتي يُتسَلَّطُ بها على الأمرِ، فالمُلْكُ والقُدرةُ والحُجَّةُ: كُلُّها سُلطانٌ[٢].

﴿شُوَاظٞ﴾: أي: لَهَبٌ بِلَا دُخَانٍ[٣].

﴿وَنُحَاسٞ﴾: أي: دُخَانٌ، أو: دُخَانٌ فيه شَرَرٌ مُتطايِرٌ، وقِطْرٌ مُذابٌ، وقيل: هو الدُّخانُ الذي لا لهبَ فيه[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مهدِّدًا الَّذين يخالِفونَ أمْرَه: سنَقصِدُ لمُحاسَبتِكم يومَ القيامةِ -يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ- ونُجازيكم بحَسَبِ أعمالِكم؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يخبِرُ الله تعالى عن عَجْزِهم وضَعفِهم، وكمالِ سلطانِه، ونفوذِ مشيئتِه وقدرتِه، فيقول: يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ إنِ استَطَعْتُم أن تَخرجُوا هَرَبًا مِن جَوانِبِ السَّمَواتِ والأرضِ ونواحيها، فافعَلوا، لا تستطيعونَ النُّفوذَ مِن جوانبِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨)، ((الكليات)) (ص: ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٣).

السَّمَواتِ والأرضِ إلَّا بقُوَّةٍ وقَهرٍ وغَلَبةٍ، وأنَّى لكم ذلك؟! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يذكرُ ما أعدَّ لهم، فيقولُ: يُرسَلُ عليكما لَهَبٌ عَظيمٌ مِن نارٍ لا دُخانَ معها، ويُرسَلُ عليكما دُخانٌ فيه شَرَرٌ مُتطايِرٌ، وقِطرٌ مُذابٌ، فلا تَنتَصِرانِ مِن عَذابِه؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى ما أنعَمَ به مِن تَعليمِ العِلمِ، وخَلْقِ الإنسانِ والسَّماءِ والأرضِ، وما أودَعَ فيهما، وفَناءَ ما على الأرضِ- ذَكَر ما يَتعَلَّقُ بأحوالِ الآخِرةِ والجَزاءِ، فقال تعالى[1]:

﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ٣١﴾.

أي: سنَقصِدُ لمُحاسَبتِكم يومَ القيامةِ -يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ- ونُجازيكم ثوابًا أو عِقابًا بحَسَبِ أعمالِكم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٥).

قال الواحدي: (المفسِّرونَ على أنَّ هذا تهديدٌ منه لعِبادِه). ((الوسيط)) (٤/ ٢٢٢).

وقال البغوي: (ليسَ المرادُ منه الفراغَ عن شُغْلٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى لا يَشغلُه شأْنٌ عن شأنٍ، ولكنَّه وَعيدٌ مِن اللهِ تعالَى [للخَلْقِ] بالمحاسَبةِ، كقولِ القائلِ: لَأتفرَّغَنَّ لك، وما به شُغْلٌ، وهذا قولُ ابنُ عبَّاسٍ والضَّحَّاكِ، وإنَّما حَسُنَ هذا الفراغُ لسَبْقِ ذِكْرِ الشَّأْنِ. وقال آخَرونَ: معناه سنَقْصِدُكم بعدَ التَّرْكِ والإمهالِ ونأخُذُ في أمْرِكم، كقولِ القائلِ للَّذي لا شُغْلَ له: قد تفرَّغْتُ لك. وقال =

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان ما تقدَّم مِن أجَلِّ النِّعَمِ الَّتي يَدورُ عليها العِبادُ، ويَصلُحُ بها البِلادُ، وتقومُ بها السَّمَواتُ والأرضُ؛ لأنَّ مُطلَقَ التَّهديدِ يَحصُلُ به انزِجارُ النَّفْسِ عَمَّا لها مِنَ الانتِشارِ فيما يَضُرُّ ولا يَنفَعُ؛ فكيف بالتَّهديدِ بيَومِ الفَصلِ- قال تعالى[1]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بانَ أنَّ اللهَ تعالى لا يَشغَلُه شَأنٌ عن شأنٍ، كأنَّ قائِلًا قال: فلِمَ أخَّرَ عَذابَهم؟ فأُجيبَ بأنَّ الجَميعَ في قَبضتِه، وأنَّ الَّذي يَستَعجِلُ إنَّما يَخافُ الفَوتَ، والجَميعُ

---

= بعضُهم: إنَّ اللهَ وَعَد أهلَ التَّقوى وأَوْعدَ أهلَ الفجورِ، ثُمَّ قال: سنَفرُغُ لكم مِمَّا وعَدْناكم وأخبَرْناكم، فنُحاسِبُكم ونُجازيكم، ونُنجِزُ لكم ما وعَدْناكم، فنُتِمُّ ذلك ونَفرُغُ منه، وإلى هذا ذَهَب الحسَنُ ومقاتلٌ). ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٩).

وقال الواحدي: (وقولُه: ﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ يريدُ الجنَّ والإنسَ في قولِ الجميعِ). ((البسيط)) (٢١/ ١٦٦).

وقال ابن كثير: (الثَّقلانِ: الإنسُ والجنُّ، كما جاء في الصَّحيحِ: «يَسمَعُها كلُّ شَيءٍ إلا الثَّقلَينِ» وفي روايةٍ: «إلَّا الجنَّ والإنسَ». وفي حديثِ الصُّورِ: «الثَّقلانِ: الإنسُ والجنُّ»). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٧).

في قَبضةِ اللهِ تعالى، فلا يَفوتُونَه[١].

﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ ﴾.

أي: يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ إنِ استَطَعْتُم أن تَنفُذوا مِن جَوانِبِ السَّمَواتِ والأرضِ ونواحيها الواسِعةِ، فتَخرُجوا منها فِرارًا مِن رَبِّكم حتَّى لا يَقدِرَ عليكم- فافعَلوا[٢]!

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢١٧، ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦١)، ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٣، ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٨، ٢٥٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٦).

قال الشنقيطي: (المَعْشَرُ في لغةِ العربِ: الجماعةُ، كُلُّ جماعةٍ تُسَمَّى مَعْشَرًا، ويُجمَعُ على: مَعاشِرَ. كان بعضُهم يقولُ: لأنَّ بعضَهم يُعاشِرُ بعضًا. وقد يُطْلَقُ المَعْشَرُ على الجماعةِ المتَّفِقينَ في نِحْلةٍ أو ناحيةٍ وإن لم يُعاشِرْ بعضُهم بعضًا). ((العذب النمير)) (٢/ ٢٢٩).

وقال السمعاني: (اختلَفوا أنَّ هذا القَولَ متى يكونُ؟ فالأكثَرونَ على أنَّه يومَ القيامةِ يَكونُ، ويُنزِلُ اللهُ تعالى الملائِكةَ حتَّى يَنفُذوا على أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ، فإذا رأى الجِنُّ والإنسُ أهوالَ القيامةِ هَرَبوا، فتَرُدُّهم الملائِكةُ... ويُقالُ: إنَّ المرادَ هو الهَربُ مِنَ الموتِ، يعني: إنِ استَطَعتُم أن تَنفُذوا مِن أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ هَرَبًا مِن الموتِ، فانفُذوا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣٠).

وممَّن قال بأنَّه يُقالُ لهم ذلك يَومَ القيامةِ: ابنُ القيِّم، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٣، ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الهَربُ مِنَ الموتِ في الدُّنيا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٨).

﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾.

أي: ليسَت لكم -يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ- استِطاعةٌ على النُّفوذِ مِن أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ إلَّا بقُوَّةٍ وقَهرٍ وغَلَبةٍ، وليس لكم ذلك[1]!

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ قولَه: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾ أي: بقُوَّةٍ وقَهرٍ وغَلَبةٍ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٦٩).

واقتصَر ابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ على تفسيرِه بالقوَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٢٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٠).

قال ابن عطيَّة: (السُّلطانُ هنا القوَّةُ على غرضِ الإنسانِ، ولا يُستعمَلُ إلَّا في الأعظَمِ مِن الأمرِ والحُجَج أبدًا مِن القويِّ في الأمورِ، ولذلك يُعبِّرُ كثيرٌ مِن المفسِّرينَ عن السُّلطانِ بأنَّه الحُجَّةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٠).

قال ابن الجوزي: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُها: لا تَنفُذونَ إلَّا في سُلطانِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه مالِكُ كُلِّ شَيءٍ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

والثَّاني: لا تَنفُذونَ إلَّا بحُجَّةٍ. قاله مجاهِدٌ.

والثَّالثُ: لا تَنفُذونَ إلَّا بمُلكٍ، وليس لكم مُلكٌ. قاله قَتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ الحُجَّةُ: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣٠).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: إلَّا بمُلْكي، وفي سُلْطاني، أي: حيثُما توجَّهْتُم كنتم في ملْكي وسلْطاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبغويُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٤).

وقال الرَّسْعَني: (بقُدرةٍ تَتسَلَّطون بها على ما تُريدون، وأنَّى لكم ذلك وأنتم خَلْقي، وتحتَ سُلْطاني، وفي قبضتي؟!). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٦١). =

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[1]؟!

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾.

أي: يُرسَلُ عليكما -يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ- لَهَبٌ عَظيمٌ مُنتَشِرٌ مِن نارٍ لا دُخانَ معها، ويُرسَلُ عليكما دُخانٌ فيه شَرَرٌ مُتطايِرٌ، وقِطرٌ مُذابٌ[2].

---

= وقال ابن عاشور: (السُّلْطانُ: القُدرةُ، أي: لا تَنفُذون مِن هذا المأزِقِ إلَّا بقُدرةٍ عظيمةٍ تَفوقُ قُدرةَ الله الَّذي حشَرَكم لهذا الموقفِ، وأنَّى لكم هاتِه القوَّةُ؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٩).

وقال السعدي: (إلَّا بقوَّةٍ وتسَلُّطٍ منكم، وكمالِ قُدرةٍ، وأنَّى لهم ذلك؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٠).

وقال الواحدي: (معنى السُّلْطانِ: القوَّةُ الَّتي يُتسَلَّطُ بها على الأمرِ، ثمَّ المُلْكُ والقُدرةُ والحُجَّةُ كلُّها سُلْطانٌ، يدُلُّ على أنَّه واحدٌ). ((البسيط)) (٢١/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢١، ٢٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٠، ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

قال القرطبي: (أي: لو خرَجْتُم أُرسِلَ عليكم شُواظٌ مِن نارٍ، وأخَذَكم العذابُ المانِعُ مِن النُّفوذِ. وقيل: ليس هذا متعَلِّقًا بالنُّفوذِ، بل أخبَرَ أنَّه يُعاقِبُ العُصاةَ عَذابًا بالنَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٠).

وقال ابن عاشور: (الشُّواظُ: اللَّهبُ الَّذي لا يُخالِطُه دُخَانٌ؛ لأنَّه قد كمَلَ اشتعالُه، وذلك أشدُّ إحراقًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٠).

قال ابن الجوزي: (في «النُّحَاسِ» قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه دُخانُ النَّارِ... والقَولُ الثَّاني: أنَّه الصُّفْرُ المُذابُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١١). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٧، ٤٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ * إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٠ - ٣٣].

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾.

أي: فلا يُمكِنُكما الانتِصارُ -يا مَعشَرَ الجِنِّ والإنسِ-، فلا تمتَنِعانِ مِن عَذابِه بأنفُسِكم، ولا بناصِرٍ مِن غَيرِكم[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ١٠].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان تخويفُه سُبحانَه لعِبادِه نِعمةً مِنه عليهم، وسَوطًا يَسوقُهم به إلى أعلى المَطالِبِ، وأشرَفِ المواهِبِ- امتَنَّ عليهم، فقال[2]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[3]؟!

---

= وممَّن جمع بين المعنيَينِ للنُّحَاسِ: البقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧٣).
قال البِقاعي: (أي: دُخانٌ هو في غايةِ الفَظاعةِ، فيه شَرَرٌ مُتطايِرٌ، وقِطرٌ مُذابٌ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ هذه الجُملةُ المقصودُ بها الوَعيدُ، كما يقولُ قائلٌ لِمَن يَتَوَعَّدُه: سأتفرَّغُ لك، وأُجازيك، وليس المعنى أنَّ اللهَ تعالى يَشغَلُه شأنٌ عن شأنٍ، ثمَّ يَفْرُغُ مِن هذا ويأتي إلى هذا! هو سُبحانَه يُدَبِّرُ كلَّ شيءٍ في آنٍ واحدٍ في مَشارقِ الأرضِ ومَغاربِها، وفي السَّمَواتِ وفي كُلِّ مكانٍ، يُدَبِّرُه في آنٍ واحدٍ ولا يُعجِزُه، فلا تتوهمَنَّ أنَّ قولَه: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ أنَّه -تعالى- الآنَ مَشغولٌ وسَيَفرُغُ! بل هذه جُملةٌ وعيديَّةٌ تُعَبِّرُ بها العَرَبُ، والقُرآنُ الكريمُ نَزَلَ بلُغةِ العَرَبِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ سؤالٌ عن سَبَبِ التَّثنيةِ بعدَ الجَمعِ.

**الجَوابُ**: لأنَّهما فَريقانِ، وكُلُّ فَريقٍ جَمعٌ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ولم يقُلْ: «إنِ استَطعْتُما»؛ لأنَّهما فريقانِ في حالِ الجَمعِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]، وقَولِه تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾(٢) [الحج: ١٩].

٣- يدُلُّ ما تضَمَّنَتْه سورةُ (الرَّحمن) على أنَّ الجِنَّ مُكَلَّفونَ مُخاطَبونَ، مَأمورونَ مَنهيُّونَ، مُثابونَ مُعاقَبونَ، كالإنسِ سَواءً؛ مُؤمِنُهم كمُؤمِنِهم، وكافِرُهم ككافِرِهم؛ فإنَّه سُبحانَه وتعالى ذَكَرَ خَلْقَ النَّوعَينِ في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ * وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٤، ١٥]، ثمَّ خاطَبَ النَّوعَينِ بالخِطابِ المتضمِّنِ لاستِدعاءِ الإيمانِ منهم، وإنكارِ تَكذيبِهم بالآيةِ، وتَرغيبِهم في وَعْدِه، وتخويفِهم مِن وَعيدِه، وتهديدِهم؛ بقَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨٦).

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، وتخويفِهم مِن عواقِبِ ذنوبِهم، وأنَّه لِعِلْمِه بها لا يَحتاجُ أنْ يَسألَهم عنها سُؤالَ استِعلامٍ، بل يُعْرَفُ المجرِمونَ منهم بسِيماهم فيُؤخَذُ بنواصيهم والأقدامِ، ثمَّ ذَكَر عِقابَ الصِّنفَينِ وثَوابَهم، وهذا كُلُّه تَصريحٌ في أنَّهم هم المُكَلَّفون، المأمورونَ المنهيُّون، المُثابون المُعاقَبون. ومِن الأدِلَّةِ على ذلك أيضًا قَولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ * وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الأحقاف: ١٨، ١٩]، وقولُه سبحانَه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا * يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١، ٢] إلى قولِه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا * وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾[1] [الجن: ١٤، ١٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: إعلانٌ لهم بأنَّهم في قَبضةِ اللهِ تعالى لا يَجِدونَ مَنجًى منها، وهو تَرويعٌ للضَّالِّينَ والمُضِلِّينَ مِنَ الجِنِّ والإنسِ بما يترَقَّبُهم مِنَ الجَزاءِ السَّيِّئِ؛ لأنَّ مِثلَ هذا لا يُقالُ لجَمعٍ مُختَلِطٍ إلَّا والمقصودُ أهلُ الجِنايةِ مِنهم[2]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ﴾ دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ واحِدةٍ منها مُحيطةٌ بالأخرى؛ لأنَّ النُّفوذَ لا يكونُ حَقيقةً إلَّا مع الخَرْقِ[3].

٦- زَعَم بَعضُ مَن لا عِلْمَ عِندَه بكتابِ اللهِ تعالى أنَّ قَولَه جَلَّ وعلا: ﴿لَا

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧١).

تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴾ يُشيرُ إلى الوُصولِ إلى السَّماءِ، بدعوى أنَّ المرادَ بالسُّلطانِ في الآيةِ هو هذا العِلمُ الحادِثُ، الَّذي مِن نتائِجِه الصَّواريخُ والأقمارُ الصِّناعيَّةُ، وإذَنْ فإنَّ الآيةَ قد تكونُ فيها الدَّلالةُ على أنَّهم يَنفُذونَ بذلك العِلمِ مِن أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ! وهذا مردودٌ مِن أوجُهٍ:

**الأوَّلُ**: أنَّ معنى الآيةِ الكريمةِ هو إعلامُ اللهِ جَلَّ وعلا خَلْقَه أنَّهم لا مَحيصَ لهم ولا مَفَرَّ عن قَضائِه، ونُفوذِ مَشيئتِه فيهم، وذلك عندَما تحُفُّ بهم صُفوفُ الملائِكةِ يومَ القيامةِ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، فكُلَّما فَرُّوا إلى جِهةٍ وَجَدوا صُفوفَ الملائِكةِ أمامَهم، ويُقالُ لهم في ذلك الوَقتِ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ... ﴾، والسُّلطانُ قيل: الحُجَّةُ والبَيِّنةُ، وقيل: المُلْكُ والسَّلْطَنةُ، وكُلُّ ذلك مَعدومٌ عندَهم يومَ القيامةِ؛ فلا نُفوذَ لهم.

**الثَّاني**: أنَّ الجِنَّ أعطاهم اللهُ القُدرةَ على الطَّيرانِ والنُّفوذِ في أقطارِ السَّمَواتِ والأرضِ، وكانوا يَستَرِقونَ السَّمْعَ مِنَ السَّماءِ، وإنَّما مُنِعوا من ذلك حينَ بُعِثَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالجِنُّ كانوا قادِرينَ على بُلوغِ السَّماءِ مِن غَيرِ حاجةٍ إلى صاروخٍ ولا قَمَرٍ صِناعيٍّ! فلو كان معنى الآيةِ هو ما يَزعُمُه أولئك لم يَقُلْ: ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ ﴾؛ لأنَّهم كانوا يَنفُذونَ إلى السَّماءِ قبْلَ حُدوثِ السُّلطانِ المزعومِ!

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ العِلمَ المذكورَ -الَّذي لا يُجاوِزُ صِناعةً يَدويَّةً- أهوَنُ على اللهِ جَلَّ وعلا مِن أن يُطلِقَ عليه اسمَ السُّلطانِ؛ لأنَّه لا يُجاوِزُ أغراضَ هذه الحياةِ الدُّنيا، ولا نَظَرَ فيه البتَّةَ لِما بعدَ الموتِ، وعِلمُ هؤلاءِ الكُفَّارِ نفى اللهُ عنه اسمَ العِلمِ الحَقيقيِّ، وأثبَتَ له أنَّه عِلمٌ ظاهِرٌ مِنَ الحياةِ الدُّنيا، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٦، ٧]؛ فحِذْقُ الكُفَّارِ في الصِّناعاتِ اليَدويَّةِ كحِذقِ بَعضِ

الحَيواناتِ في صِناعتِها بإلهامِ اللهِ لها ذلك!

**الوجهُ الرَّابعُ**: أنَّا لو سَلَّمْنا تسليمًا جَدَليًّا أنَّ ذلك المعنى المزعومَ كَذِبًا هو معنى الآيةِ، فإنَّ اللهَ تعالى أتْبَعَ ذلك بقَولِه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ الآيةَ، فهو يدُلُّ -على ذلك التَّقديرِ- على أنَّهم لو أرادوا النُّفوذَ في أقطارِها أحرَقَهم ذلك الشُّواظُ والنُّحاسُ[1]!

**الوجهُ الخامسُ**: أنَّ الآيةَ في سياقِ التَّحدِّي ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾، ولا يمكنُ أنْ يَتَحَدَّى اللهُ عزَّ وجلَّ أحدًا بما يستطيعُ! التَّحدِّي معناه أنَّ المخاطَبَ لا يستطيعُ، وإذا كان أفضلُ رسولٍ في البشرِ وأفضلُ رسولٍ في الملائكةِ لم يَدْخُلا السَّماءَ الدُّنيا إلَّا باستفتاحٍ وإذْنٍ؛ فكيف بهؤلاء[2]؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ لا يخفى ما يَسبقُ إلى الذِّهنِ مِن أنَّ إرسالَ شُواظِ النَّارِ والنُّحاسِ، وعَدَمَ الانتِصارِ؛ ليس في شَيءٍ منه إنعامٌ على الثَّقَلينِ، وقولُه لهم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ يُفهَمُ منه أنَّ إرسالَ الشُّواظِ والنُّحاسِ، وعَدَمَ الانتِصارِ: هو مِن آلاءِ اللهِ -أي: نِعَمِه على الجِنِّ والإنسِ!

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ تكريرَ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للتَّوكيدِ، ولم يُكَرِّرْه مُتواليًا؛ لأنَّ تكريرَه بعدَ كُلِّ آيةٍ أحسَنُ مِن تكريرِه مُتواليًا، وإذا كان للتَّوكيدِ فلا إشكالَ؛ لأنَّ المذكورَ منه بعدَ ما ليس مِن الآلاءِ مُؤَكِّدٌ للمَذكورِ بعدَ ما هو مِنَ الآلاءِ.

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٦١، ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزخرف)) (ص: ٤١).

**الثَّاني**: أنَّ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ذُكِرَتْ بعدَ ذِكرِ الإنذارِ والتَّخويفِ؛ ففيه أيضًا أعظَمُ نِعمةٍ على العَبدِ؛ لأنَّ إنذارَه في دارِ الدُّنيا مِن أهوالِ يومِ القيامةِ هو مِن أعظَمِ نِعَمِ اللهِ عليه؛ ألَا ترى أنَّه لو كان أمامَ إنسانٍ مُسافِرٍ مَهلَكةٌ كُبرى وهو مُشرِفٌ على الوُقوعِ فيها مِن غيرِ أن يَعلَمَ بها، فجاءه إنسانٌ فأخبَرَه بها وحَذَّره مِنَ الوُقوعِ فيها؛ أنَّ هذا يكونُ يدًا له عندَه، وإحسانًا يُجازيه عليه جزاءَ أكبَرِ الإنعامِ؟ وهذا الوَجهُ الأخيرُ هو مُقتضى الأُصولِ؛ لأنَّه قد تقَرَّرَ في عِلمِ الأُصولِ: أنَّ النَّصَّ إذا احتَمَل التَّوكيدَ والتَّأسيسَ فالأصلُ حَملُه على التَّأسيسِ لا على التَّوكيدِ؛ لأنَّ في التَّأسيسِ زِيادةَ مَعنًى ليست في التَّوكيدِ، وعلى هذا القَولِ فتكريرُ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إنَّما هو باعتِبارِ أنواعِ النِّعَمِ المذكورِ قَبْلَها؛ مِن إنعامٍ، أو مَوعِظةٍ، أو إنذارٍ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ تَخلُّصٌ مِن الاعتِبارِ بأحوالِ الحَياةِ العاجلةِ إلى التَّذكيرِ بأحوالِ الآخِرةِ والجزاءِ فيها؛ انتُقِلَ إليه بمُناسَبةِ اشتِمالِ ما سبَقَ مِن دَلائلِ سَعةِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، على تَعريضٍ بأنَّ فاعلَ ذلك أهلٌ للتَّوحيدِ بالإلهيَّةِ، ومُستحِقٌّ الإفرادَ بالعِبادةِ، وإذ قد كان المُخاطَبون بذلك مُشرِكين مع اللهِ في العِبادةِ، انتُقِلَ إلى تَهديدِهم بأنَّهم وأولياءَهم مِن الجِنِّ المُسوِّلينَ لهم عِبادةَ الأصنامِ، سيُعرَضون على حُكمِ اللهِ فيهم[2].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٦).

- وحرْفُ التَّنفيسِ (السِّين) مُستعمَلٌ في مُطلَقِ التَّقريبِ المُكنَّى به عن التَّحقيقِ[١].

- قولُه: ﴿سَنَفْرُغُ﴾ قُرِئَ بالياءِ المفتوحةِ ﴿سَيَفْرُغُ﴾[٢]، على أنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى اللهِ تعالى على طَريقةِ الالتِفاتِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ هما الثَّقَلانِ، خُوطِبا باسمِ جِنسِهما؛ لزيادةِ التَّقريرِ، ولأنَّ الجِنَّ مَشهورونَ بالقُدرةِ على الأفاعيلِ الشَّاقَّةِ، فخُوطِبوا بما يُنبِئُ عن ذلكَ؛ لبَيانِ أنَّ قُدرتَهُم لا تَفِي بما كُلِّفُوه[٤].

- وقيل: قولُه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه سِياقُ الكلامِ السَّابقِ واللَّاحقِ، وليس خِطابًا للإنسِ والجنِّ في الحياةِ الدُّنيا -على قولٍ-، والتَّقديرُ: فنقولُ لكم: يا مَعشَرَ الجنِّ... فقولُه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ المقصودُ به أهلُ الجِنايةِ منهم؛ فهو عامٌّ مُرادٌ به الخصوصُ، بقَرينةِ قولِه بعْدَه: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ [الرحمن: ٣٥] إلخ[٥]. وذلك على قولٍ.

- فإنْ قِيل: ما الحِكمةُ في تَقديمِ الجِنِّ على الإنسِ هاهنا، وتقديمِ الإنسِ على الجنِّ في قولِه تَعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٨]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٧).

(٢) قرأها بالياءِ حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، وقرَأها الباقونَ بالنُّونِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٨).

**الجوابُ**: النُّفوذُ مِن أقطارِ السَّمواتِ والأرضِ بالجنِّ أَلْيَقُ -إنْ أمكَنَ-، والإتيانُ بمِثلِ القُرآنِ بالإنسِ أَلْيَقُ -إنْ أمكَنَ-؛ فقُدِّمَ في كلِّ مَوضعٍ مَن يُظَنُّ به القُدرةُ على ذلك[1].

- قال تعالَى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [الرحمن: ٣٣]، ولم يقُلْ: (إنِ استطعتُما)؛ لإرادة الجَماعةِ كما في آيةٍ أخرَى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقال تعالَى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا﴾ [الرحمن: ٣٥]، ولم يقُلْ: (يُرسَل عليكم)؛ لإرادةِ الصِّنفَينِ، أي: لا يختصُّ به صِنفٌ عن صِنفٍ، بلْ يُرسَلُ ذلك على الصِّنفينِ معًا. وهذا وإنْ كان مرادًا بقولِه تعالَى: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [الرحمن: ٣٣]؛ فخِطابُ الجَماعةِ في ذلك بلفظ الجمْعِ أحسَنُ، أي: مَنِ استطاعَ منكم. وحسَّنَ الخِطابَ بالتَّثنيةِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡكُمَا﴾ [الرحمن: ٣٥] أمرٌ آخَرُ، وهو موافقةُ رُؤوسِ الآيِ؛ فاتَّصلَتِ التَّثنيةُ بالتَّثنيةِ. وفيه التَّسويةُ بيْن الصِّنفينِ في العذابِ بالتَّنصيصِ عليهما، فلا يَحتمِلُ اللَّفظُ إرادةَ أحدِهما[2]. فقولُه: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ هو لبيانِ عَجزِهم وعَظَمةِ ملْكِ الله تعالى؛ فقال: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ﴾ باجتِماعِكم وقوَّتِكم ﴿فَٱنفُذُواْ﴾، ولا تَستطيعون؛ لِعَجزِكم؛ فقد بان عندَ اجتِماعِكم واعتِضادِكم بعضِكم ببعضٍ؛ فهو عندَ افتِراقِكم أظهَرُ، فهو خِطابٌ عامٌّ مع كلِّ أحدٍ عندَ الانضِمام إلى جميعِ مَن عَداهُ مِن الأعوانِ والإخوانِ. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا﴾ فهو لِبَيانِ الإرسالِ على النَّوعَينِ، لا على كلِّ واحدٍ منهما؛ لأنَّ جميعَ الإنسِ والجِنِّ لا يُرسَلُ عليهم العذابُ والنَّارُ، فهو يُرسَلُ على النَّوعَينِ، ويَتخلَّصُ منه بعضٌ منهما -بفضلِ الله-، ولا يَخرُجُ أحدٌ مِن الأقطارِ أصلًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤).

ويُجابُ أيضًا بأنَّ الخِطابَ مع المَعْشَرِ؛ فقولُه: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أيُّها المَعشَرُ، وقولُه: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا﴾ ليس خِطابًا مع النِّداءِ، بل هو خِطابٌ مع الحاضِرينَ -وهما نَوعانِ-، وليس الكلامُ مذكورًا بحرفِ واوِ العطفِ حتَّى يكونَ النَّوعانِ مُنادَيَينِ في الأوَّلِ! وعندَ عدَمِ التَّصريحِ بالنِّداءِ فالتَّثنيةُ أَوْلى، كقولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾، وهذا يتأيَّدُ بقولِه تعالى: ﴿سَنَفۡرُغُ لَكُمۡ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، وحيثُ صرَّح بالنِّداءِ جمَع الضَّميرَ، وقال بعدَ ذلك: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ حيث لم يُصرِّحْ بالنِّداءِ[1].

- والشَّرطُ ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ، وكذلك الأمرُ الَّذي هو جوابُ هذا الشَّرطِ مِن قولِه: ﴿فَٱنفُذُواْ﴾، أي: وأنتم لا تَستَطيعون الهُروبَ، والمعْنى: إنْ قدَرْتُم على الانفلاتِ مِن هذا الموقفِ فأفْلِتُوا، وهذا مُؤْذِنٌ بالتَّعريضِ بالتَّخويفِ ممَّا سيَظهَرُ في ذلك الموقفِ مِن العقابِ لأهلِ التَّضليلِ[2].

- وذِكرُ السَّمواتِ والأرضِ؛ لتَحقيقِ إحاطةِ الجِهاتِ كلِّها تَحقيقًا للتَّعجيزِ، أي: فهذه السَّمواتُ والأرضُ أمامَكم، فإنِ استَطَعْتُم فاخْرُجوا مِن جهةٍ منها فِرارًا مِن مَوقِفِكم هذا؛ وذلك أنَّ تَعدُّدَ الأمكنةِ يُسهِّلُ الهروبَ مِن إحدى جِهاتِها[3].

- والأرضُ المذكورةُ هنا إمَّا أنْ تكونَ الأرضَ الَّتي في الدُّنيا، وذلك حينَ البعثِ، وإمَّا أنْ تكونَ أرضَ الحشْرِ، وهي الَّتي سمَّاها القرآنُ ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ في سُورةِ (النازعاتِ) [١٤]، وإمَّا أنْ يكونَ ذلك جاريًا مَجْرى المثَلِ المُستعمَلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٢، ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٥٩).

للمُبالَغةِ في إحاطةِ الجهاتِ، وهذه المعاني لا تَتنافى، وهي مِن حدِّ إعجازِ القرآنِ[١].

- وجُملةُ ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ﴾ بَيانٌ للتَّعجيزِ الَّذي في الجُملةِ قبْلَه[٢]!

٣- قولُه تعالَى: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ عن جُملةِ ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ ...﴾ [الرحمن: ٣٣] إلخ؛ لأنَّ ذلك الإشعارَ بالتَّهديدِ يُثيرُ في نُفوسِهم تَساؤلًا عمَّا وراءَه[٣].

- وضَميرُ ﴿عَلَيۡكُمَا﴾ راجعٌ إلى الجنِّ والإنسِ؛ فهو عامٌّ مُرادٌ به الخُصوصُ بالقرينةِ، وهي قولُه بعْدَه: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] الآياتِ، وهذا تَصريحٌ بأنَّهم مُعاقَبون بعْدَ أنْ عرَّضَ لهم بذلك تَعريضًا بقولِه: ﴿إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْ﴾[الرحمن: ٣٣]، والمُضارعُ ﴿يُرۡسَلُ﴾ للحالِ، أي: ويُرسَلُ عليكما الآنَ شُواظٌ[٤]. وذلك على قولٍ في التفسيرِ.

- قولُه: ﴿شُوَاظٞ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿يُرۡسَلُ﴾، أو بمُضمرٍ هو صِفةٌ للشُّواظِ، أي: كائنٌ مِن نارٍ، والتَّنوينُ للتَّفخيمِ[٥].

- وذيل بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢).

نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾؛ فإنَّ التَّهديدَ لُطْفٌ، والتَّمييزَ بيْنَ المطيعِ والعاصي بالجزاءِ والانتقامِ مِن الكفَّارِ في عِدادِ الآلاءِ؛ إذ به يَنزَجِرُ الشَّخصُ عن المعاصي، فيَفوزُ بالنَّعيمِ المُقيمِ، فبهذا الاعتِبارِ كان مِن الآلاءِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٣٥).

## الآيات (٣٧-٤٥)

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾: ﴿وَرۡدَةٗ﴾: أي: حَمراءَ كالوردةِ المعروفةِ، وقيل: المرادُ: كالفَرَسِ الوَرْدِ، يُقالُ له ذلك إذا كان يَتلَوَّنُ بألوانٍ مُختَلِفةٍ، والدِّهانُ: جمعُ دُهْنٍ، قيل: هو دُرْدِيُّ الزَّيتِ، وذلك أنَّ السَّماءَ يَعتَريها يومَ القيامة ذَوبٌ وتَمَيُّعٌ؛ مِن شِدَّةِ الهَولِ. وقيل: تحمَرُّ احمِرارَ الوَردِ، ثمَّ تذوبُ ذَوَبانَ الدُّهنِ. وقيل: تَمورُ كالدُّهنِ صافِيَةً. وقيل: الدِّهانُ اسمٌ لِما يُدهَنُ به، وقيل: الدِّهانُ: الأديمُ الأحمرُ، وأصلُ (ورد) هنا: لَوْنٌ مِن الألوانِ، وأصلُ (دهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[1].

﴿بِسِيمَٰهُمۡ﴾: أي: بعَلاماتِهم وآثارِهم، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ[2].

﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾: أي: تُضَمُّ ناصيةُ كُلٍّ منهم (أي: مُقَدَّمُ رأسِه) إلى

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٩، ٣٨٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٨) و(٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٣١). ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

قَدَمَيه مِن خَلفٍ أو قُدَّامٍ، ويُلقَى في النَّارِ[١].

﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾: أي: ماءٍ مُغْلًى بَلَغ الغايةَ في شِدَّةِ حَرِّه، وأصلُ (حمم): يدُلُّ على الحَرارةِ، وأصلُ (أنى) هنا: يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا جانبًا مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، والعذابِ الَّذي ينزِلُ بالمجرِمينَ: فإذا انشَقَّت السَّماءُ يومَ القيامةِ، فصارت مِثلَ الوَردةِ حمراءَ، كالدُّهنِ؛ فما أعظَمَ الهَولَ يومَئِذٍ! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟! ففي ذلك اليَومِ لا يُسأَلُ إنسِيٌّ ولا جِنِّيٌّ عمَّا اقتَرَف مِن ذنْبٍ؛ فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يُبينُ الله سُبحانَه ما يحلُّ بالمجرِمينَ في هذا اليَومِ مِن عذابٍ، فيقولُ: ويُعرَفُ المُجرِمونَ يومَ القيامةِ بعَلاماتٍ تُمَيِّزُهم عن غَيرِهم، فيُؤخَذُ بمُقَدَّمِ رُؤوسِهم وبأقدامِهم، فيُدْفَعون إلى جَهنَّمَ! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

يُقالُ لهم: هذه جَهنَّمُ الَّتي يُكذِّبُ بها المُجرِمونَ في الدُّنيا، يَطوفونَ بَيْنَها وبيْنَ حَميمٍ قد بَلَغ النِّهايةَ في حَرِّه! فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١) و(٢/ ٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها إشارةٌ إلى ما هو أعظَمُ مِن إرسالِ الشُّوَاظِ على الإنسِ والجِنِّ، فكأنَّه تعالى ذَكَر أوَّلًا ما يَخافُ منه الإنسانُ، ثمَّ ذَكَر ما يَخافُ منه كُلُّ واحِدٍ مِمَّن له إدراكٌ؛ مِن الجِنِّ والإنسِ والمَلَكِ، حيثُ تخلو أماكِنُ الملائِكةِ بالشَّقِّ، ومَساكِنُ الجِنِّ والإنسِ بالخَرابِ[1]!

وأيضًا لَمَّا عَدَّد -عَزَّت قُدرتُه- نَعماءَه على عِبادِه، وما يجِبُ مِن شُكرِهم عليها، ثمَّ أرشَدَهم إلى أنَّ هذه النِّعَمَ لا بقاءَ لها ولا ثباتَ، ثمَّ ذَكَر أنَّ النَّاسَ مُحاسَبونَ على الصَّغيرِ والكَبيرِ مِن أعمالِهم، وسيَلقَونَ الجَزاءَ عليها، ولا مَهرَبَ حينَئذٍ مِنها، ولا نَصيرَ لهم يُنقِذُهم مِمَّا سيَحُلُّ بهم مِنَ العذابِ- ذكَرَ هنا أنَّه إذا جاء ذلك اليَومُ اختَلَّ نِظامُ العالَمِ[2].

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧ ﴾.

أي: فإذا انشَقَّت السَّماءُ يومَ القيامةِ، فصارت مِثلَ الوَردةِ حَمراءَ، كالدُّهْنِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٦، ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠١، ٥٠٢).

قال الرَّسْعَني: (قال ابنُ قُتَيْبَةَ: فكانت حَمْراءَ في لَونِ الفَرَسِ الوَرْدِ. وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ، وقَتادةَ، والضَّحَّاكِ، والرَّبيعِ، وجمهورِ المفسِّرينَ. وقيل: هي وردةُ النَّباتِ، وقد تختلِفُ ألوانُها، إلَّا أنَّ الأغلَبَ عليها الحُمْرةُ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٦٣).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ، والواحديُّ ونسَبَه للأكثَرِ، والبَغَويُّ، والخازنُ. ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٢٩). =

= وممَّن اختار القولَ الثَّاني -أي: تكونُ مِثلَ الوردةِ في الحُمرةِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشري، والبيضاوي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشربيني، والشوكاني، وابن عاشور، والشنقيطي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٧).

قال ابنُ عاشور: (والوَردةُ: واحِدةُ الوَرْدِ، وهو زَهرٌ أحمَرُ مِن شَجَرةٍ دَقيقةٍ ذاتِ أغصانٍ شائِكةٍ تَظهَرُ في فَصلِ الرَّبيعِ، وهو مَشهورٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١).

وقال الشنقيطي: (والقولُ بِأنَّ الوردةَ تشبيهٌ بالفَرَسِ الكُمَيْتِ وهو الأحمرُ؛ لأنَّ حُمْرَتَه تَتَلَوَّنُ باختلافِ الفصولِ، فتَشْتَدُّ حُمْرَتُها في فَصْلٍ، وتميلُ إلى الصُّفْرةِ في فصلٍ، وإلى الغَبَرةِ في فصلٍ، وأنَّ المرادَ بالتَّشْبيهِ كَونُ السَّماءِ عندَ انْشِقاقِها تَتَلَوَّنُ بألوانٍ مُختلفةٍ: واضِحُ البُعدِ عن ظاهِرِ الآيةِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٠٢).

وقال الشنقيطي أيضًا: (وقولُه: ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ فيه قَولانِ معروفانِ للعلماءِ:

الأوَّلُ منهما: أنَّ الدِّهانَ هو الجلدُ الأحمَرُ، وعليه فالمعنَى أنَّها تَصِيرُ وَرْدةً مُتَّصِفَةً بلَونِ الوَرْدِ مُشابِهةً للجِلْدِ الأحمرِ في لونِه.

والثَّاني: أنَّ الدِّهانَ هو ما يُدهنُ به، وعليه، فالدِّهانُ، قيل: هو جمعُ دُهْنٍ، وقيلَ: هو مُفْرَدٌ، لأنَّ العربَ تُسَمِّي ما يُدْهَنُ به دِهانًا، وهو مُفْرَدٌ، ...

وحَقيقةُ الفرْقِ بيْنَ القولينِ أنَّه على القولِ بأنَّ الدِّهانَ هو الجلدُ الأحمَرُ يَكونُ اللهُ وصَفَ السَّماءَ عندَ انْشِقاقِها يومَ القيامةِ بوصْفٍ واحِدٍ، وهو الحُمْرةُ، فشَبَّهَها بحُمْرةِ الورْدِ، وحُمرةِ الأديمِ الأحْمَرِ.

قال بعضُ أهلِ العلمِ: إنَّها يَصِلُ إليها حرُّ النَّارِ فتَحْمَرُّ مِنْ شِدَّةِ الحرارةِ. وقال بعضُ أهلِ العلمِ: أصلُ السَّماءِ حمراءُ، إلَّا أنَّها لشِدَّةِ بُعْدِها وما دُونَها مِنَ الحَواجِزِ لم تَصِلِ العيونُ إلى إدراكِ لَوْنِها الأحمرِ على حقيقتِه، وأنَّها يومَ القيامةِ تُرَى على حقيقةِ لَوْنِها.

وأمَّا على القولِ بأنَّ الدِّهانَ هو ما يُدهنُ به، فإنَّ اللهَ قد وصَفَ السَّماءَ عندَ انْشِقاقِها بوصفَينِ؛ أحدُهما: حُمْرةُ لَونِها، والثَّاني: أنَّها تَذوبُ وتَصيرُ مائعةً كالدُّهْنِ.

أمَّا على القولِ الأوَّلِ، فلم نَعلَمْ آيةً مِن كتابِ اللهِ تُبَيِّنُ هذه الآيةَ، بأنَّ السَّماءَ ستَحْمَرُّ يومَ القيامةِ =

= حتَّى تكونَ كلَونِ الجلدِ الأحمرِ.

وأمَّا على القولِ الثَّاني الَّذي هو أنَّها تَذُوبُ وتَصيرُ مائعةً، فقد أوضَحه اللهُ في غيرِ هذا الموضعِ، وذلك في قولِه تعالَى في «المعارجِ»: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ [المعارج: ٦ - ٨]، والمُهْلُ شَيءٌ ذائِبٌ على كِلا القولَينِ، سواءٌ قُلْنا: إنَّه دُرْدِيُّ الزَّيْتِ وهو عَكَرُه، أو قُلْنا: إنَّه الذَّائِبُ مِن حَديدٍ أو نُحاسٍ أو نحوِهما). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٠١).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ أنَّها تُذابُ وتكونُ كالزَّيتِ أو المُهلِ والرَّصاصِ المُذابِ ونحوِ ذلك: النسفيُّ، وابنُ جُزَي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤١٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ أنَّها تكونُ كالجِلدِ الأحمرِ: أبو حيَّان، وجلالُ الدِّينِ المحليُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٧).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ أي: تَذوبُ كما يَذوبُ الدُّردِيُّ والفِضَّةُ في السَّبْكِ، وتتلوَّنُ كما تتلوَّنُ الأصباغُ الَّتي يُدَّهَنُ بها؛ فتارةً حمراءُ، وصفراءُ، وزرقاءُ، وخَضراءُ؛ وذلك مِن شِدَّةِ الأمرِ، وهَولِ يومِ القيامةِ العَظيمِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٨).

وقيل: إنَّه عُنيَ به الدُّهنُ في إشراقِ لَونِه وصفائِه. وممَّن اختاره في الجملةِ: ابنُ جرير، وأبو القاسمِ النَّيسابوريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٦، ٢٢٩)، ((إيجاز البيان عن معاني القرآن)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٧٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٠).

وممَّن قال بنحوِ ذلك مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

وقال البِقاعي: (﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ أي: ذائبةً صافيةً كالشَّيءِ الَّذي يُدهنُ به، أو كالأديمِ الأحمَرِ، والمكانِ الزَّلِقِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧٤).

وقال القرطبي: (وقيل: المعنى أنَّها تمرُّ وتَجيءُ. قال الزَّجَّاجُ: أصلُ الواوِ والرَّاءِ والدَّالِ للمَجيءِ والإتيانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٣).

قال الشنقيطي: (وقولُ مَن قال: إنَّها تَذْهَبُ وتَجيءُ - مَعْناه له شاهدٌ في كتابِ اللهِ، وذلك في قولِه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ الآيةَ [الطور: ٩]، ولكِنَّه لا يَخْلو عِندي مِنْ بُعْدٍ). ((أضواء =

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان حِفظُ السَّماءِ عن مِثلِ ذلك -بتأخيرِ إرسالِ هذا وغَيرِه مِنَ الأسبابِ- وجَعلُها محَلَّ الرُّوحِ والحياةِ والرِّزقِ- مِن أعظَمِ الفواضِلِ؛ قال مُسَبِّبًا عنه[1]:

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن تعالى أنَّ العذابَ في الدُّنيا مُؤَخَّرٌ -بقَولِه: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ ﴾ [الرحمن: ٣١]- بَيَّن أنَّه في الآخِرةِ لا يُؤخَّرُ بقَدْرِ ما يُسْأَلُ[3]!

وأيضًا لَمَّا كان يومُ القيامةِ ذا ألوانٍ كثيرةٍ، ومواقِفَ مَهُولةٍ طَويلةٍ شَهيرةٍ، تكونُ في كُلٍّ مِنها شُؤونٌ عَظيمةٌ وأمورٌ كَبيرةٌ؛ ذكَرَ بَعضَ ما سَبَّبَه هذا الوَقتُ مِن التَّعريفِ بالعاصي والطَّائعِ، بآياتٍ جَعَلها اللهُ سَبَبًا في عِلْمِها؛ فقال[4]:

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾.

---

= البيان)) (٧/ ٥٠٢).

وقال ابنُ عطيَّة: (جوابُ «إذا» -في قَولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾- محذوفٌ، مقصودٌ به الإبهامُ، كأنَّه يقولُ: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ ﴾ فما أعظَمَ الهَولَ!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٥).

أي: ففي ذلك اليَومِ لا يُسْألُ إنسِيٌّ ولا جِنِّيٌّ عمَّا اقترَف مِن ذنْبٍ[١]!

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[٢]؟!

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ ﴾.

أي: يُعرَفُ المُجرِمونَ يومَ القيامةِ بعَلاماتٍ تُمَيِّزُهم عن غَيرِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٤)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٣، ٥٠٤).

قال السعدي: (﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ أي: سُؤالَ استِعلامٍ بما وقع؛ لأنَّه تعالى عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ، والماضي والمستقبَلِ، ويُريدُ أن يُجازيَ العِبادَ بما عَلِمَه مِن أحوالِهم، وقد جَعَل لأهلِ الخَيرِ والشَّرِّ يومَ القيامةِ علاماتٍ يُعرَفونَ بها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٧).

قال ابنُ جزي: (والمجرِمونَ هنا الكفَّارُ بدليلِ قولِه: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [الرحمن: ٤٣]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠).

وقال ابنُ عاشور: (أي: يُستغنَى عن سُؤالِهم بظُهورِ عَلاماتِهم للملائِكةِ، ويَعرفونَهم بسِيماهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

وقال البقاعي: (﴿يُعْرَفُ ﴾ أي: لكلِّ أحدٍ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٧٦).

وقال الواحدي: (قال جماعةُ المفسِّرينَ: يُعرَفُ بسَوادِ الوُجوهِ، وزُرقةِ الأعيُنِ، ودليلُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقَولُه تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه: ١٠٢]). ((البسيط)) (٢١/ ١٧٩). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (وهذا كما يُعرَفُ المؤمِنونَ بالغُرَّةِ والتَّحْجيلِ مِن آثارِ الوضوءِ). ((تفسير ابن =

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾.

أي: فيُؤخَذ بمُقَدَّمِ رُؤوسِ المُجرِمينَ وبأقدامِهم، ويُلقَوْن في جَهنَّمَ[1].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان أخْذُهم على هذا الوَجهِ مُؤذِنًا بأنَّه يَصيرُ إلى خِزيٍ عَظيمٍ؛ صَرَّح به، فقال تعالى[3]:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: يُقالُ لهم: هذه هي جَهنَّمُ الَّتي يُكذِّبُ بوُجودِها المُجرِمونَ في الدُّنيا، هاهي حاضِرةٌ يُشاهِدونَها في الآخِرةِ عِيانًا[4]!

---

= كثير)) (٧/ ٤٩٩).

وقيل: سِيماهم ما يَعْلوهم مِن الحزنِ والكآبةِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٣).

قال ابنُ جُزَي: (﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ قيل: معناه: يُؤخَذُ بعضُ الكفَّارِ بناصيتِه، وبعضُهم بقدميه. وقيل: بل يُؤخَذُ كلُّ واحدٍ بناصيتِه وقدميه فيُطوى ويُطرحُ في النَّارِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٠). =

كما قال تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [يس: ٦٣، ٦٤].

﴿ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ ﴾.

أي: يَطوفُ المُجرِمونَ بيْنَ مَوضِعِ جَهنَّمَ وبيْنَ مَوضِعِ الحَميمِ الَّذي قد بَلَغ ماؤُه الغايةَ في حَرِّه، ويَتردَّدونَ بَيْنَهما[1]!

قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مُعاقَبةُ العُصاةِ المُجرِمينَ وتنعيمُ المتَّقِينَ: مِن فَضْلِه ورَحمتِه، وعَدْلِه

---

= قال ابن جرير: (يقولُ تعالَى ذِكْرُه: يُقالُ لهؤلاءِ المجرِمينَ الَّذينَ أخبَر جلَّ ثناؤُه أنَّهم يُعرَفونَ يومَ القيامةِ بسِيماهم حينَ يُؤخَذُ بالنَّواصي منهم والأقدامِ: هذه جهنَّمُ الَّتي يُكَذِّبُ بها المجرمونَ، فترَكَ ذِكْرَ «يُقالُ»؛ اكتفاءً بدَلالةِ الكلامِ عليه منه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٢).

وقال الرَّسْعَني: (قولُه تعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ هو على إضمارِ القولِ، تقديرُه: يُقال لهم إذا سُحبوا إليها تحقيرًا وتعنيفًا وانتقامًا منهم: هذه جهنَّمُ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٠)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٣، ٢٦٤).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: يَمشُونَ بيْنَ مكانِ النَّارِ وبيْنَ الحَميم، فإذا أصابَهم حَرُّ النَّارِ طَلَبوا التَّبَرُّدَ، فَلاحَ لهم الماءُ، فذَهَبوا إليه، فأصابهم حَرُّه، فانصَرَفوا إلى النَّارِ دَوالَيك!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٤).

وقال ابن عثيمين: (أمَّا كيفَ يكون ذلك؟ فاللهُ أعلَمُ، لكِنَّنا نُؤمِنُ بأنَّهم يَطوفونَ بيْنَها وبيْنَ الحَميمِ الحارِّ الشَّديدِ الحَرارةِ. واللهُ أعلَمُ بذلك). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٨).

ولُطفِه بخَلْقِه، وكان إنذارُه لهم عَذابَه وبأسَه مِمَّا يَزجُرُهم عمَّا هم فيه مِنَ الشِّركِ والمعاصي وغيرِ ذلك- قال مُمتَنًّا بذلك على بَرِيَّتِه[1]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ ربِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعْشَرَ الإنْسِ والجِنِّ[2]؟!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ وكذلك قَولُه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨] سُؤالٌ: كيفَ الجَمعُ بيْنَ هذا وبيْنَ الآياتِ الَّتي تدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، وقَولِه تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وقَولِه تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ٦]؛ مِمَّا يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى يسألُ جَميعَ النَّاسِ يومَ القيامةِ؟

**والجوابُ عن ذلك مِن وُجوهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ للآخِرةِ مَواطِنَ؛ فلا يُسألُ في مَوطِنٍ، ويُسأَلُ في مَوطِنٍ.

**الثَّاني**: أنَّه لا يُسأَلُ سُؤالَ استِعلامٍ واسترشادٍ، بل يُسأَلُ سُؤالَ تَوبيخٍ وتَبكيتٍ؛ فإنَّ السُّؤالَ قِسمانِ: سؤالُ تَوبيخٍ وتقريعٍ، وأداتُه غالبًا: (لِمَ)، وسؤالُ استِخبارٍ واستعلامٍ، وأداتُه غالبًا: (هَل)، فالمُثبَتُ هو سؤالُ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والمنفيُّ هو سُؤالُ الاستِخبارِ والاستِعلامِ. وَجْهُ دَلالةِ القُرآنِ على هذا: أنَّ سؤالَه لهم المنصوصَ في كُلِّه توبيخٌ وتقريعٌ؛ كقَولِه: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ [الصافات:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٠).

٢٤، ٢٥]، وقَولِه: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور: ١٥]، وكقَولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨]، وقَولِه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥] إلى غيرِ ذلك مِنَ الآياتِ.

**الثَّالثُ**: أنَّ السُّؤالَ المنفيَّ في قَولِه هنا أخَصُّ مِن السُّؤالِ المثبَتِ في قَولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]؛ لأنَّ هذه فيها تعميمُ السُّؤالِ في كُلِّ عَملٍ، وتلك ليس فيها نَفيُ السُّؤالِ إلَّا عن الذُّنوبِ خاصَّةً.

**الرَّابعُ**: أنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عن التَّوحيدِ وتَصديقِ الرُّسُلِ، وعَدَمَ السُّؤالِ محمولٌ على ما يَستَلزِمُه الإقرارُ بالنُّبُوَّاتِ مِن شرائعِ الدِّينِ وفُروعِه، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

**الخامسُ**: أنَّهم يُسأَلونَ قبْلَ الخَتمِ على أفواهِهم، ثمَّ يُختَمُ على أفواهِهم، وتتكَلَّمُ جوارِحُهم شاهِدةً عليهم.

**السَّادسُ**: أنَّهم لا يُسأَلونَ إذا استقَرُّوا في النَّارِ. وقيل غيرُ ذلك[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أضاف سُبحانَه الذُّنوبَ إلى الثَّقَلَينِ، وهذا دَليلٌ على أنَّهما مُستَويانِ في التَّكليفِ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أنَّ لصاحبِ كلِّ ذنْبٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٠، ٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٠)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٣)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤).

الذُّنوبِ الَّتي يُريد اللهُ إظهارَها علامةً يُعرَفُ بها صاحِبُها[١].

٤- كلُّ ما ذَكَر اللهُ تعالى مِن قَولِه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ [الرحمن: ٢٦] إلى هاهنا مَواعِظُ ومَزاجِرُ، وتهديدٌ وتخويفٌ، وهي كُلُّها نِعمةٌ مِنَ اللهِ تعالى؛ لِلانزجارِ عن المعاصي؛ ولذلك خَتَم كُلَّ آيةٍ بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[٢].

٥- كُرِّرَت هذه الآيةُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ عَقِبَ ذِكرِ النَّارِ وأهوالِها سَبْعَ مرَّاتٍ؛ تنبيهًا على استِدفاعِ أبوابِها السَّبعةِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ تَفريعُ إخبارٍ على إخبارٍ؛ فُرِّعَ على بعضِ الخبَرِ المُجمَلِ في قولِه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١] إلى آخرِه، تَفصيلٌ لذلك الإجمالِ؛ بتَعيينِ وَقتِه، وشَيءٍ مِن أهوالِ ما يقَعُ فيه للمُجرِمين، وبَشائرِ ما يُعطاهُ المتَّقونَ مِن النَّعيمِ والحُبورِ[٤].

- قولُه: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: كانتِ السَّماءُ كوَرْدةٍ (أي: زهرةٍ حمراءَ، وذلك على قولٍ). ووَجْهُ الشَّبهِ قيل: هو شِدَّةُ الحُمرةِ، أي: يَتغيَّرُ لونُ السَّماءِ المعروفُ أنَّه أزرَقُ إلى البياضِ، فيَصيرُ لَونُها أحمَرَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ وَجْهُ الشَّبَهِ كَثرةَ الشُّقوقِ كأوراقِ الوردةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((حاشية =

وقيل: أراد لَونَ الفَرَسِ الوَرْدِ، يكونُ في الرَّبيعِ إلى الصُّفرةِ، وفي الشِّتاءِ إلى الحُمرةِ، وفي اشتِدادِ البَردِ إلى الغُبْرةِ، فشُبِّهَ تلَوُّنُ السَّماءِ بتَلَوُّنِ الوردةِ مِن الخَيلِ[١].

- قولُه: ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ جمْعُ دُهنٍ، شبَّه السَّماءَ يومَ القيامةِ به؛ لأنَّها تَذوبُ مِن شِدَّةِ الهَولِ. وقيل: شبَّه لَمَعانَها بلَمَعانِ الدُّهنِ[٢]. وقيل: للدُّهنِ ألوانٌ، شبَّه السَّماءَ بألوانِه[٣]. وقيل: الدِّهانُ: الجِلدُ الأحمرُ، وبه شبَّهها[٤].

- وجَوابُ (إذَا) مَحذوفٌ، أي: يكونُ مِن الأحوالِ والأهوالِ ما لا يُحيطُ بِهِ دائرةُ المَقالِ، أي: فما أعظَمَ الهولَ[٥]!

- قولُه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ الشَّرطِ ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ وجُملةِ الجوابِ ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾، وهي تَكريرٌ، للتَّقريرِ والتَّوبيخِ[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- التَّنوينُ في ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ للعِوَضِ مِن الجُملةِ المحذوفةِ، والتَّقديرُ: فيومَ إذِ

---

= الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٦٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((معترك الأقران في إعجاز القرآن)) للسيوطي (٢/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦١، ٢٦٢).

انشقَّتِ السَّماءُ...[١].

- ومعْنى قولِه: ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ﴾ نفْيُ السُّؤالِ الَّذي يُريدُ به السَّائلُ مَعرفةَ حُصولِ الأمرِ المُتردِّدِ فيه، وهذا مِثلُ قولِه: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[٢] [القصص: ٧٨].

- والضَّميرُ في ﴿ذَنۢبِهِۦٓ﴾ للإنسِ؛ لتَقدُّمِه رُتْبةً، وإفرادُه لِما أنَّ المُرادَ فرْدٌ مِن الإنسِ، كأنَّه قيلَ: لا يُسأَلُ ذنْبَه إنْسيٌّ ولا جِنيٌّ[٣].

- وتَكريرُ جُملةِ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ للتَّقريرِ والتَّوبيخِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، يَجْرِي مَجْرى التَّعليلِ لعدَمِ السُّؤالِ[٥].

- و(أل) في ﴿بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: بنَواصِيهم وأقدامِهم، أو الضَّميرُ مَحذوفٌ تَقديرُه: بالنَّواصي والأقدامِ منْهم[٦].

- وأُسنِدَ الأخذُ إلى النَّواصي دونَ ضَميرِ المُجرِمينَ؛ إشارةً إلى استيلاءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٢).

الآخِذينَ على المأخوذينَ، وكَثرتِهم، وكيفيَّةِ الأخذِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ على إرادةِ القَولِ، أي: يُقالُ لهم ذلكَ يومَ القِيامةِ على رُؤوسِ الملأِ بطَريقِ التَّوبيخِ، على أنَّ الجُملةَ إمَّا استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ ناشئٍ مِن حِكايةِ الأخْذِ بالنَّواصِي والأقدامِ، كأنَّه قِيلَ: فماذا يُفعَلُ بهم عندَ ذلكَ؟ فقيلَ: يُقالُ... إلخ. أو حالٌ مِن أصحابِ النَّواصِي والأقدامِ؛ لأنَّ الألِفَ واللَّامَ عِوَضٌ عن المضافِ إليهِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ[٢].

- وخُصَّ هذا الاسمُ ﴿جَهَنَّمُ﴾؛ إشارةً إلى أنَّها تَلْقاهم بالتَّجَهُّمِ والعُبوسةِ والكَلاحةِ والفَظاعةِ، كما كانوا يَفعَلونَ مع الصَّالحينَ عندَ الإجرامِ المذكورِ[٣]!

- ووَصْفُ جَهنَّمَ بقولِه: ﴿ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ تَسفيهٌ للمجرمينَ، وفضْحٌ لهم[٤].

- وقال سُبحانَه: ﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ ولَمْ يَقُلْ: «تكذِّبون بها»! إشارةً إلى أنَّهم مُجرِمون، وما أعظَمَ جُرْمَ الكفَّارِ الَّذين كفروا باللهِ ورسولِه، واستهزَؤوا بآياتِ اللهِ، واتَّخَذوها هُزُوًا ولَعِبًا[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٨).

## الآيات (٤٦-٦١)

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾: أي: أغْصانٍ، واحِدُها فَنَنٌ، وهو الغُصنُ المُستَقيمُ طُولًا. وقيل: الأفنانُ: الألوانُ المُختَلِفةُ[1].

﴿بَطَآئِنُهَا﴾: جَمعُ بِطانةٍ، وهي الَّتي تحتَ الظِّهارةِ مِمَّا يلي الأرضَ[2].

﴿إِسْتَبْرَقٍ﴾: أي: ما غَلُظَ مِنَ الحَريرِ، وهو فارسيٌّ مُعَرَّبٌ[3].

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾: أي: ثَمَرُهما قَريبٌ يَنالُه القائِمُ والقاعِدُ والنَّائِمُ، والجَنَى: ما يُجتَنَى مِنَ الثِّمارِ، وأصلُ (جني): أخْذُ الثَّمرةِ مِن شجرِها، وأصلُ (دنو):

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

المُقارَبةُ[١].

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾: أي: حابِساتُ الأبصارِ على أزواجِهنَّ، وأصلُ (قصر): يدُلُّ على الحَبسِ[٢].

﴿يَطۡمِثۡهُنَّ﴾: أي: يَمْسَسْهنَّ ويَفتَضُّهنَّ ويَدْنُ مِنهنَّ، والطَّمْثُ: النِّكاحُ بالتَّدميَةِ، وأصلُه مِنَ الطَّمْثِ، وهو الدَّمُ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

بعدَ أنْ أخبَر الله تعالى عمَّا أعدَّه للمجرِمينَ مِن عِقابٍ يخبِرُ عمَّا أعدَّه للمُتَّقينَ مِن جزيلِ الثَّوابِ، فيقولُ: ولِمَنْ خاف مَقامَه بيْنَ يَدَيِ اللهِ للحِسابِ يومَ القيامةِ: جَنَّتانِ في الآخِرةِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وهاتانِ الجَنَّتانِ ذَواتا أغصانٍ كَثيرةٍ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفي هاتَينِ الجنَّتينِ عَينانِ تَجريانِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفيهما مِن كُلِّ أنواعِ الفاكِهةِ صِنفانِ مُختَلِفانِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٢) و (٢/ ٣٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٤٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤).

مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

يَتنَعَّمُ أهلُها مُتَّكِئينَ على فُرُشٍ بطائنُها مِنَ الحَريرِ الغَليظِ اللَّامِعِ، فكيف بظَواهِرِها الَّتي تَلِي بَشَرَتَهم؟!

وثَمَرُ هاتَينِ الجنَّتينِ قَريبٌ مِن أهلِهما، فيَتناوَلونَه بيُسرٍ وسُهولةٍ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفيهنَّ نِساءٌ قد قَصَرْنَ نَظَرَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَرغَبْنَ في غَيرِهم، ولم يُجامِعْهنَّ ويَفتَضَّ بَكارتَهنَّ قبْلَ أزواجِهنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ أو الجِنِّ! فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

أولئك الحُورُ العِينُ كأنَّهنَّ الياقوتُ والمَرْجانُ في الصَّفاءِ واللَّونِ! فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يقولُ تعالى: هل جَزاءُ مَن أحسَنَ العَمَلَ في الدُّنيا إلَّا أن يُحسَنَ إليه بالنَّعيمِ في الآخِرةِ؟! فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالى ما يُفعَلُ بالمُجرِمينَ؛ ذَكَر جَزاءَ المُتَّقينَ الخائِفينَ[1].

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: ولكلِّ مَن خاف -مِنَ الإنسِ والجِنِّ- مَقامَه بيْنَ يَدَيِ اللهِ للحِسابِ يومَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

القيامةِ، فاتَّقاه في الدُّنيا بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهِيه: جَنَّتانِ في الآخِرةِ[١].

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٦، ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٨).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزمخشري، وابن عطية، والقرطبي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وجوَّز الزَّمخشري أنَّ المرادَ: خاف قيامَ اللهِ عليه في الدُّنيا، ومُراقبتَه لأعمالِه، وإحصاءَها عليه، وهو ظاهِرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١). ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٦).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِف هل الجنَّتانِ لكُلِّ خائفٍ على انفِرادِه؟ أو للصِّنفِ الخائِفِ، وذلك مبنيٌّ على قَولِه: «لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ» هل يُرادُ به واحِدٌ أو جماعةٌ؟ وقال الزمخشريُّ: إنَّما قال: جنَّتانِ؛ لأنَّه خاطَبَ الثَّقَلينِ، فكأنَّه قال: جَنَّةٌ للإنسِ، وجنَّةٌ للجِنِّ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿جَنَّتَانِ﴾ كلامُ بَعضِ المفَسِّرينَ يدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن تَرَكَ المعصيةَ خَوفًا مِنَ اللهِ، فله جنَّتانِ على حِدَتِه، لا يشارِكُه فيهما غيرُه، وكلامُ بَعضِهم يدُلُّ على أنَّهما جَنَّتانِ لكُلِّ مَن خاف اللهَ تبارك وتعالى بتَركِ المعصيةِ، على المشارَكةِ فيهما، وهذا معنى قَولِ مُقاتِلٍ، يعني: جَنَّةَ عَدْنٍ، وجنَّةَ النَّعيمِ). ((البسيط)) (٢١/ ١٨١). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٢).

وقال السعدي: (له جَنَّتانِ مِن ذَهَبٍ آنيتُهما وحِلْيتُهما وبُنيانُهما وما فيهما؛ إحدى الجنَّتينِ جزاءٌ على تَركِ المَنهيَّاتِ، والأُخرى على فِعلِ الطَّاعاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١١٥).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت هذه نِعمةً جامِعةً؛ سَبَّبَ عنها قَولَه تعالى[١]:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٢]؟!

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت البَساتينُ لا يَكمُلُ مَدحُها إلَّا بكَثرةِ الأنواعِ والألوانِ، والفُروعِ المُشتَبِكةِ والأغصانِ؛ قال واصِفًا لهما[٣]:

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وهاتانِ الجَنَّتانِ صاحِبَتا أغصانٍ كَثيرةٍ[٤].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٥]؟!

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات-الحديد)) (ص: ٣١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت الجِنانُ لا تقومُ إلَّا بالأنهارِ؛ قال[١]:

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠﴾.

أي: في هاتَينِ الجنَّتينِ عَينانِ تَجريانِ[٢].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٣]؟!

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان بالمياهِ حَياةُ النَّباتِ وزَكاؤُه، قال ذاكِرًا أفضَلَ النَّباتِ[٤]:

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

قال القرطبي: (أي: في كلِّ واحدةٍ منهما عينٌ جاريةٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

وقال ابن الجوزي: (قولُه تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: تَجريانِ بالماءِ الزُّلالِ، إحداهما: السَّلْسَبيلُ، والأُخرى: التَّسْنيمُ. وقال عطيَّةُ: إحداهما: مِن ماءٍ غيرِ آسِنٍ، والأخرى: مِن خَمرٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٣).

واستظهر ابنُ عثيمين أنَّ هاتَينِ العينَينِ الجاريتَينِ غيرُ الأنهارِ الأربعةِ الَّتي ذكر اللهُ أنَّها في الجنَّةِ مِن ماءٍ ولَبَنٍ وخَمْرٍ وعَسَلٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨١).

أي: في الجنَّتينِ مِن كُلِّ أنواعِ الفاكِهةِ صِنفانِ مُختَلِفانِ[١].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٢]؟!

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان التَّفَكُّهُ لا يَكمُلُ حُسنُه إلَّا مع التَّنَعُّمِ مِن طِيبِ الفُرُشِ وغَيرِه؛ قال تعالى مُخبِرًا عن هؤلاء الَّذين يَخافونَ مَقامَ رَبِّهم[٣]:

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ﴾.

أي: مُتنَعِّمينَ بالاتِّكاءِ على فُرُشٍ بطائنُها الَّتي تلي جِهةَ الأرضِ: مِنَ الحَريرِ الغَليظِ اللَّامِعِ، فكيفَ بظَواهِرِها الَّتي تَلِي بَشَرَتَهم[٤]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٩)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٩).

قال ابنُ القيِّم: (اختُلِفَ في هذين الزَّوجَينِ بعدَ الاتِّفاقِ على أنَّهما صِنفانِ؛ فقالت طائِفةٌ: الزَّوجانِ: الرَّطْبُ، واليابِسُ الَّذي لا يَقصُرُ في فَضلِه وجَودتِه عن الرَّطبِ، وهو مُتمَتَّعٌ به كما يُتمتَّعُ باليابِسِ، وفيه نظَرٌ لا يخفَى. وقالت طائِفةٌ: الزَّوجانِ: صِنفٌ مَعروفٌ، وصِنفٌ مِن شَكلِه غَريبٌ. وقالت طائفةٌ: نَوعانِ، ولم تَزِدْ. والظَّاهِرُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّه الحُلوُ والحامِضُ، والأبيضُ والأحمَرُ؛ وذلك لأنَّ اختِلافَ أصنافِ الفاكِهةِ أعجَبُ وأشهى، وألَذُّ للعَينِ والفَمِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير =

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المُتَّكِئُ قد يَشُقُّ عليه القيامُ لِتَناوُلِ ما يُريدُ، قال تعالى[1]:

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾.

أي: وثَمَرُ هاتَينِ الجنَّتينِ قَريبٌ مِن أهلِهما، فيَتناوَلونَه بيُسرٍ وسُهولةٍ[2].

قال تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٢، ٢٣].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[3]؟!

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾.

---

= ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٩).

قال ابنُ عاشور: (الاتِّكاءُ: افتِعالٌ مِنَ الوَكْءِ -مَهموزِ اللَّامِ- وهو الاعتِمادُ، فصار الاتِّكاءُ اسمًا لاعتِمادِ الجالِسِ ومَرفِقُه إلى الأرضِ وجَنبُه إلى الأرضِ، وهي هيئةٌ بيْنَ الاضطِجاعِ على الجَنبِ والقُعودِ... والاتِّكاءُ: جِلسةُ أهلِ التَّرَفِ المخدومينَ؛ لأنَّها جِلسةُ راحةٍ، وعَدَمِ احتياجٍ إلى النُّهوضِ للتَّناوُلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٧، ٢٦٨).

وقال البقاعي: (﴿مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ وهو ثَخينُ الدِّيباجِ، يُوجَدُ فيه مِن حُسْنِه بَريقٌ كأنَّه مِن شِدَّةِ لَمَعانِه يَطلُبُ إيجادَه، حتَّى كأنَّه نورٌ مُجَرَّدٌ!). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٨٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٥).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما ذُكِرَ لا تَتِمُّ نِعمتُه إلَّا بالنِّساءِ الحِسانِ؛ قال تعالى[1]:

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾.

أي: فيهنَّ نِساءٌ قد قَصَرْنَ نَظَرَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يُبصِرْنَ سِواهم، ولا يَرغَبْنَ في غَيرِهم[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٩).

قال ابن الجوزي: (وفي قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ قَولانِ:

أحدُهما: أنَّها تَعودُ إلى الجَنَّتَينِ وغيرِهما ممَّا أُعِدَّ لصاحبِ هذه القِصَّةِ، قاله الزَّجَّاجُ. والثَّاني: أنَّها تعودُ إلى الفُرُشِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٤).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾ عائِدٌ على الفُرُشِ المتقَدِّمِ ذِكرُها: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٩).

قال مكِّي: (و«في» بمعنى «على»، والمعنى: على الفُرُشِ حورٌ قاصِراتُ الطَّرفِ). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٧٢٣٧).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الجنَّتَينِ: الزَّجَّاجُ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧٠).

وقيل: ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الجِنانِ. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والشربيني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٧٣).

وقال الزمخشري: (﴿فِيهِنَّ﴾ في هذه الآلاءِ المعدودةِ مِن الجنَّتَينِ والعَينَينِ والفاكهةِ والفُرُشِ والجَنَى. أو في الجنَّتَينِ؛ لاشتِمالِهما على أماكنَ وقُصورٍ ومَجالِسَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٣).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿فِيهِنَّ﴾ أكثَرُ العُلَماءِ يقولونَ: إنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الجنَّتينِ، وإنَّ الجَمعَ باعتبارِ أنَّ لكُلِّ واحِدٍ مِن النَّاسِ جَنَّةً خاصَّةً به، فيكونُ ﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في جَنَّةِ كُلِّ واحِدٍ مِمَّن =

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ * كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨، ٤٩].

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الاختِصاصُ بالشَّيءِ -ولا سيَّما المرأةِ- مِن أعظَمِ المَلَذَّاتِ؛ قال تعالى[1]:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾.

أي: لم يُجامِعْهنَّ فيَفتَضَّ بَكارتَهنَّ قبْلَ أزواجِهنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ أو الجِنِّ[2].

---

= هو في هاتينِ الجنَّتينِ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، وعندي أنَّ قولَه: ﴿فِيهِنَّ﴾ يَشملُ الجنَّاتِ الأربَعَ: هاتينِ الجنَّتينِ، والجنَّتينِ اللَّتينِ بَعْدَهما). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٠).

قال ابنُ القيِّم في قولِه: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: (المفسِّرونَ كُلُّهم على أنَّ المعنى: قَصَرْنَ طَرْفَهنَّ على أزواجِهنَّ، فلا يَطمَحْنَ إلى غَيرِهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٠).

وقيل: المعنى: أنهنَّ قد قصَرْنَ طَرْفَهنَّ على أزواجِهنَّ؛ مِن حُسنِهم وجمالِهم، وكمالِ محبَّتِهنَّ لهم، وقَصَرْنَ أيضًا طَرْفَ أزواجِهنَّ عليهنَّ؛ مِن حُسنِهنَّ وجمالِهنَّ ولَذَّةِ وِصالِهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: البِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠).

قال ابنُ القيِّم: (ظاهِرُ القُرآنِ أنَّ هؤلاء النِّسوةَ لَسْنَ مِن نِساءِ الدُّنيا، وإنَّما هُنَّ مِن الحُورِ العِينِ، وأمَّا نِساءُ الدُّنيا فقد طَمَثَهنَّ الإنسُ، ونِساءُ الجِنِّ قد طَمَثَهنَّ الجِنُّ، والآيةُ تدُلُّ على ذلك). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠).

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[١]؟!

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾﴾.

أي: أولئك الحُورُ العِينُ مِثلُ الياقوتِ والمَرْجانِ صَفاءً ولَونًا[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لِكُلِّ امْرِئٍ منهم زَوجتانِ، كلُّ واحدةٍ مِنهما يُرَى مُخُّ ساقِها مِن وَراءِ لَحمِها؛ مِنَ الحُسنِ!))[٣].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٤]؟!

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٤٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢١).

قال الزجاج: (قال أهلُ التَّفسيرِ وأهلُ اللُّغةِ: هنَّ في صفاءِ الياقوتِ، وبَياضِ المَرْجانِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٠٣).

وقال ابن القيِّم: (قال الحَسَنُ وعامَّةُ المفَسِّرينَ: أراد صَفاءَ الياقوتِ في بَياضِ المَرْجانِ، شَبَّههنَّ في صفاءِ اللَّونِ وبَياضِه بالياقوتِ والمَرْجانِ). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٢٢٣).

(٣) رواه البخاري (٣٢٤٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٨٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥١).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان أَلَذُّ ما أفاده الإنسانُ مِنَ النِّعمِ ما كان تسَبُّبًا منه؛ قال[١]:

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

أي: هل جَزاءُ مَن أحسَنَ العَمَلَ في الدُّنيا إلَّا أن يُحسَنَ إليه بالتَّنعيمِ في الآخِرةِ[٢]؟!

قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٣]؟!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ أضاف المَقامَ إلى اللهِ تعالى مِن حَيثُ هو بيْنَ يَدَيه، وفي هذه الإضافةِ تَنبيهٌ على صُعوبةِ المَوقِفِ، وتحريضٌ على الخَوفِ الَّذي هو أسرَعُ المطايا إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ هذا الخَوفُ يَستلزِمُ شَيئينِ:

**الأوَّلُ**: الإيمانُ بلِقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يخافُ مِن شَيءٍ إلَّا وقد تيَقَّنَه.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧).

**والثَّاني**: أنْ يَتجنَّبَ محارِمَ اللهِ، وأنْ يقومَ بما أوجَبَه اللهُ خَوفًا مِن عِقابِ اللهِ تعالى؛ فعليه يَلزَمُ كلَّ إنسانٍ أنْ يُؤمِنَ بلِقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وأنْ يقومَ بما أوجَبَه اللهُ، وأنْ يَجتنِبَ محارِمَ اللهِ؛ فمَن خاف هذا المقامَ بيْنَ يَدَيِ اللهِ عزَّ وجلَّ فله جَنَّتانِ(١).

٣- مَن خاف اللهَ تعالى في الدُّنيا أمَّنَه في الآخِرةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾(٢) [النازعات: ٤٠، ٤١].

٤- الإحسانُ مِن أفضَلِ مَنازِلِ العُبوديَّةِ؛ لأنَّه لُبُّ الإيمانِ ورُوحُه وكَمالُه، وجميعُ المنازِلِ مُنطَوِيَةٌ فيها؛ قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾، وقال رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((الإحسانُ أن تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه))(٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ لطيفةٌ: أنَّه لَمَّا قال تعالى في حَقِّ المُجرِمِ: إنَّه يَطوفُ بيْنَ نارٍ وبيْنَ حَميمٍ آنٍ -وهما نَوعانِ-، ذكَرَ لِغَيرِه -وهو الخائِفُ- جنَّتينِ في مُقابَلةِ ما ذَكَر في حَقِّ المُجرِمِ، لكِنَّه ذَكَر هناك أنَّهم يَطوفونَ فيُفارِقونَ عَذابًا، ويَقَعونَ في الآخَرِ، ولم يَقُلْ هاهنا: يَطوفونَ بيْنَ الجَنَّتينِ، بل

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٤٧١).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٤٦٥).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٤٧٧٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩) مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

جعَلَهم اللهُ تعالى مُلوكًا، وهم فيها يُطافُ عليهم، ولا يُطافُ بهم؛ احترامًا لهم، وإكرامًا في حَقِّهم[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ ثوابَ مُحسِني الجِنِّ الجَنَّةُ؛ وَجْهُه: أنَّ «مَنْ» مِن صِيغِ العُمومِ، فتَتناوَلُ كلَّ خائفٍ. ولأنَّه رَتَّبَ الجزاءَ المذكورَ على خَوفِ مَقامِه، فدلَّ على استِحقاقِه به[٢]، وأيضًا في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ دَلالةٌ على أنَّ مُؤمِني الجِنِّ والإنسِ يَدخُلونَ الجَنَّةَ، وأنَّه لم يَسْبِقْ مِن أحَدٍ منهم طَمْثٌ لأحدٍ مِن الحُورِ؛ فدلَّ على أنَّ مُؤمِنيهم يَتأتَّى منهم طَمْثُ الحُورِ العِينِ بعدَ الدُّخولِ، كما يَتأتَّى مِن الإنسِ، ولو كانوا ممَّن لا يَدخُلُ الجَنَّةَ لَمَا حَسُنَ الإخبارُ عنهم بذلك[٣]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ترتيبٌ في غايةِ الحُسنِ؛ لأنَّه في أوَّلِ الأمرِ بَيَّنَ المَسكَنَ -وهو الجنَّةُ-، ثمَّ بَيَّن ما يُتنَزَّهُ به؛ فإنَّ مَن يَدخُلُ بُستانًا يتفرَّجُ أوَّلًا، فقال: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ و﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ﴾، ثمَّ ذَكَر ما يُتناوَلُ مِن المأكولِ، فقال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾، ثمَّ ذَكَر مَوضِعَ الرَّاحةِ بعدَ التَّناوُلِ وهو الفِراشُ، ثمَّ ذَكَر ما يكونُ في الفِراشِ معه[٤]، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٤- قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ وَحَّد الضَّميرَ؛ مُراعاةً لِلَفْظِ «مَنْ» إشارةً إلى قِلَّةِ الخائِفينَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٧٠).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ أنَّه سُبحانَه ضَمِنَ الجَنَّةَ لِمَن خافَه مِن أهلِ الإيمانِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إن قيلَ: إنَّه سُبحانَه سَوَّى بيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ في الاعتِدادِ بالإنعامِ على الثَّقَلَينِ بوَصفِهما، وإنَّما النِّعمةُ إحداهما دونَ الأُخرى!

**فالجوابُ**: أنَّ اللهَ تعالى مُنعِمٌ على عبادِه نِعمَتَينِ: نِعمةَ الدُّنيا، ونِعمةَ الدِّينِ، وأعظَمُها في الأُخرى، واجتِهادُ الإنسانِ رَهبةً مِمَّا يُؤلِمُه أكثَرُ مِن اجتِهادِه رَغبةً فيما يُنَعِّمُه؛ فالتَّرهيبُ زَجرٌ عن المعاصي، وبَعثٌ على الطَّاعاتِ، وهو سَبَبُ النَّفعِ الدَّائِمِ، فأيَّةُ نِعمةٍ أكبَرُ إذَنْ مِن التَّخويفِ بالضَّرَرِ المُؤَدِّي إلى أشرَفِ النِّعَمِ؟! فلمَّا جاز عندَ ذِكرِ ما أنعَمَ به علينا في الدُّنيا، وعندَ ذِكرِ ما أعَدَّه للمُطيعينَ في الأُخرى أن يَقولَ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ جاز أن يقولَ عندَ ذِكرِ ما تخَوَّفَنا به مِمَّا يَصرِفُنا عن مَعصيتِه إلى طاعتِه الَّتي تَكسِبُنا نعيمَ جَنَّتِه، لأنَّ هذا أسوَقُ إلى تلك الكرامةِ مِن وَصفِ ما أُعِدَّ فيها مِنَ النِّعمةِ(٢)!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ و﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ و﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ سؤالٌ: أنَّ هذه أوصافٌ للجَنَّتينِ المذكورتَينِ، فهو كالكلامِ الواحِدِ، تَقديرُه: «جنَّتانِ ذواتا أفنانٍ، وفيهما عينانِ تجريانِ، وفيهما مِن كُلِّ فاكِهةٍ زَوجانِ»، فما الفائِدةُ في فَصلِ بَعضِها عن بَعضٍ بقَولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع أنَّه لم يَفصِلْ -حينَ ذَكَرَ العَذابَ- بيْنَ الصِّفاتِ، بل قال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥]، مع أنَّ إرسالَ النُّحاسِ غيرُ إرسالِ الشُّواظِ،

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٤٠).

وقَولُه: ﴿ يَطُوفُونَ ﴾ [الرحمن: ٤٤] كلامٌ آخَرُ؟!

**الجَوابُ**: أنَّه جَمَع العذابَ جُملةً، وفَصلَ آياتِ الثَّوابِ؛ ترجيحًا لجانبِ الرَّحمةِ على جانبِ العَذابِ، وتَطييبًا للقَلبِ، وتَهييجًا للسَّامِعِ؛ فإنَّ إعادةَ ذِكرِ المحبوبِ مَحبوبٌ، وتطويلَ الكَلامِ في اللَّذَّاتِ مُستَحسَنٌ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ وَصْفُ الفُرُشِ بكَونِها مُبَطَّنةً بالإستَبرَقِ، وهذا يدُلُّ على أمْرَينِ:

**أحدُهما**: أنَّها فُرُشٌ عاليةٌ، لها سمْكٌ وحشْوٌ بيْنَ البِطانةِ والظِّهارةِ.

**الثَّاني**: أنَّ ظهائِرَها أعلى وأحسَنُ مِن بطائِنِها؛ لأنَّ بطائِنَها للأرضِ، وظهائِرَها للجَمالِ والزِّينةِ والمُباشَرةِ؛ عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ في قَولِه تعالى: ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ ﴾؛ قال: (هذه البطائِنُ قد أُخْبِرْتُم بها، فكيف بالظَّهائِرِ؟!)(٢). فقولُه: ﴿ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ ﴾ يدُلُّ على نهايةِ شَرَفِها؛ فإنَّ ما تكونُ بَطائِنُها مِنَ الإستبرَقِ تكونُ ظَهائِرُها خَيرًا منها، وكأنَّه شَيءٌ لا يُدرِكُه البَصَرُ مِن سُندُسٍ، وهو الدِّيباجُ الرَّقيقُ النَّاعِمُ.

وفيه وجهٌ آخَرُ مَعنويٌّ: وهو أنَّ أهلَ الدُّنيا يُظهِرونَ الزِّينةَ ولا يتمَكَّنونَ مِن أن يَجعَلوا البَطائِنَ كالظَّهائِرِ؛ لأنَّ غَرَضَهم إظهارُ الزِّينةِ، والبَطائِنُ لا تَظهَرُ، وإذا انتفى السَّبَبُ انتفى المُسَبَّبُ؛ فلمَّا لم يَحصُلْ في جَعلِ البَطائِنِ مِن الدِّيباجِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٤٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٠٥).

وقد أخرج أثرَ ابنِ مسعودٍ ابنُ جريرٍ في ((تفسيره)) (٢٢/ ٢٤٣)، والحاكمُ في ((مستدركه)) (٢/ ٥١٦).

قال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشَّيخَينِ)، وقال المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٣٨٦): (إسنادُه حسَنٌ)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (٣٧٤٦).

مَقصودُهم -وهو الإظهارُ- تَرَكوه، وفي الآخِرةِ الأمرُ مَبنيٌّ على الإكرامِ والتَّنعيمِ؛ فتكونُ البطائِنُ كالظَّهائِرِ، فذَكَر البَطائِنَ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ ذُكِرَ الاتِّكاءُ؛ لأنَّه حالُ الصَّحيحِ، الفارِغِ القَلبِ، المُتنَعِّمِ، بخلافِ المَريضِ والمَهمومِ[٢]. وقيل: ذُكِر الاتِّكاءُ فِي الجنَّة؛ لأنَّهم لا يَنامونَ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ -بضَميرِ الجَمعِ- دَلالةٌ على أنَّ في كُلِّ بُستانٍ جَماعةً مِنَ النِّسوانِ[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ أنَّ الحُورَ المذكوراتِ في الجَنَّتَينِ الأُولَيَينِ والأُخرَيَينِ أوصافُهنَّ للجَميعِ؛ ولهذا تَجِدُ: ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ تَجۡرِيَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٦]، ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ [الرحمن: ٦٨] كلُّها بلَفظِ التَّثنيةِ، لكنْ لَمَّا تَكَلَّمَ عن الحُورِ قال: ﴿فِيهِنَّ﴾ فأتَى بالجَمْعِ، فيُستفادُ منه -واللهُ أعلمُ- أنَّ هذه الأوصافَ -أوصافَ الحُورِ العِينِ- ثابتةٌ في كلٍّ مِن الجَنَّتَينِ الأُولَيَينِ والأُخرَيَينِ[٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ دَلالةٌ على عِفَّتِهنَّ، وعلى حُسنِ المُؤمِنينَ في أعيُنِهنَّ، فيُحبِبْنَ أزواجَهنَّ حُبًّا يَشغَلُهنَّ عن النَّظَرِ إلى غَيرِهم، ويدُلُّ أيضًا على الحَياءِ؛ لأنَّ الطَّرْفَ حَرَكةُ الجَفْنِ، والحُوريَّةُ لا تُحَرِّكُ جَفْنَها، ولا تَرفَعُ رَأسَها[٦]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٤٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((دروس الحرم المدني)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٦).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجِنَّ تَغشى كالإنسِ، وتَدخُلُ الجنَّةَ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أنَّ الجنَّ يَتناكَحونَ، وكذا في قَولِه تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي﴾[٢] [الكهف: ٥٠].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أنَّه كما أنَّ كافِري الجِنِّ في النَّارِ فمُؤمِنُهم المُطيعُ في الجنَّةِ؛ فإنَّ في الآيةِ أنَّ في الجنَّةِ جانًّا يَطمِثونَ النِّساءَ، ومِن أصرَحِ الأدِلَّةِ في ذلك قَولُه تعالى مُخاطِبًا الجِنَّ والإنسَ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، ثمَّ قال مُبَيِّنًا دُخولَ الجِنِّ والإنسِ فيه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فلو لم يكُنْ مِنَ الآلاءِ على الجِنِّ دُخولُهم الجنَّةَ لَمَا قال فيهم وفي الإنسِ معًا: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعدَ قَولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[٣]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ دليلٌ على فَضْلِ الأبكارِ على الثَّيِّباتِ؛ إذْ لا يَصِفُهنَّ ببراءتِهنَّ مِنَ الطَّمْثِ إلَّا وقد فَضَّلَهنَّ على مَن طُمِثْنَ[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ إعلامٌ بكمالِ اللَّذَّةِ بهنَّ؛ فإنَّ لَذَّةَ الرَّجُلِ بالمرأةِ الَّتي لم يَطَأْها سِواه لها فَضْلٌ على لَذَّتِه بغَيرِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٠).

والفضلُ هنا ليس فضْلَ الذَّواتِ، وإنَّما فضْلُ الصِّفاتِ مِن حيثُ قوَّةُ داعيةِ الرَّغبةِ، والإقبالِ على الزَّوجِ.

وكذلك هي أيضًا[١].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ تقديمُ الإنسِ على الجِنِّ، والحِكمةُ هنا: هو أنَّ النَّفيَ تابعٌ لِمَا تَعْقِلُه القُلوبُ مِن الإثباتِ، فيَرِدُ النَّفيُ عليه، وعِلْمُ النُّفوسِ بطَمْثِ الإنسِ ونفْرَتُها ممَّن طَمَثَها الرِّجالُ هو المعروفُ؛ فجاء النَّفيُ على مقتضى ذلك، وكان تقديمُ الإنسُ في هذا النَّفيِ أهمَّ[٢].

١٩- قد يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ أنَّ ألوانَهنَّ البَياضُ والحُمرةُ على نَوعٍ مِنَ الإشرابِ، وهو في غايةِ الإعجابِ مِن الشُّفوفِ والصَّفاءِ، وهو مع ذلك ثابِتٌ لا يَعتَريه تغَيُّرٌ، وقد شَبَّهَهنَّ بهما فيما يَحسُنُ التَّشبيهُ به؛ فالياقوتُ في إملاسِه وشُفوفِه، والمَرْجانُ في إملاسِه وجَمالِ مَنظَرِه[٣].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ دليلٌ على أنَّ الصَّفاءَ والرِّقَّةَ مَدْحٌ في الأشخاصِ[٤].

٢١- هذه الآيةُ: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ خِتامُ ثمانِي آياتٍ حاثَّةٍ على العَمَلِ الموصِلِ إلى الثَّمانيةِ الأبوابِ الكائِنةِ لجَنَّةِ المُقَرَّبينَ[٥].

٢٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ عُلِمَ منه أنَّ جَزاءَ الإساءةِ السُّوءُ؛ قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[٦] [النبأ: ٢٦].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ كمالُ فَضْلِ اللهِ عزَّ

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧١).

وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الَّذي أحسَنَ إليك أوَّلًا بتَوفيقِك للطَّاعاتِ والإحسانِ، ثمَّ أحسَنَ إليك ثانيًا بالجَزاءِ عليه[١]. فمِن فَضْلِ اللهِ على عبْدِه أنْ يُحسِنَ إليه، ثمَّ يَعُدَّ إحسانَ العَبدِ إحسانًا[٢]!

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ أنَّ مَن أدَّى عن غيرِه واجبًا أنَّه يَرْجِعُ عليه به[٣]، وكذلك مَن خَلَّصَ مالَ غيرِه مِن التَّلَفِ بما أدَّاه عنه يَرجِعُ به عليه، مِثلُ مَن خَلَّصَ مالًا مِن قُطَّاعٍ، أو عَسْكَرٍ ظالمٍ، أو مُتَوَلٍّ ظالمٍ -ولم يُخَلِّصْه إلَّا بما أدَّى عنه-؛ فإنه يَرجِعُ بذلك، وهو مُحسِنٌ إليه بذلك -وإنْ لم يكُنْ مؤتمَنًا على ذلك المالِ، ولا مُكْرَهًا على الأداءِ عنه-؛ فإنَّه مُحسِنٌ إليه بذلك، وهل جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسانُ[٤]؟!

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ أنَّ الأعمالَ مَحَلُّ الثَّناءِ والقَدْحِ؛ فقولُه تعالى: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ مَحَلُّ الثَّناءِ، وقَولُه: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [الأنعام: ٣١] هذا قَدْحٌ؛ فالأعمالُ مَحَلُّ القَدْحِ ومَحَلُّ المَدْحِ، وإذا ثَبَتَ القَدْحُ أوِ المَدْحُ في العَمَلِ فهو يَستلزِمُ قَدْحَ العاملِ إنْ أساء، ومَدْحَه إنْ أحسَنَ، وهذا هو الأصلُ، ولاسيَّما في أمورِ الدُّنيا؛ فإنَّه ليس لنا إلَّا الظَّاهِرُ، أمَّا أمورُ الآخرةِ فعِندَ اللهِ؛ ولهذا لو أنَّنا رَأَيْنا شَخصًا يَسجُدُ لصَنَمٍ قُلْنا: كافِرٌ، مع أنه يَحتَمِلُ أنْ يكونَ جاهِلًا، فإنِ استقامَ ووَحَّدَ اللهَ ارتفَعَ عنه هذا الوَصفُ، وإلَّا فهو باقٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٦٥).

## بلاغةُ الآياتِ:

١ - قولُه تعالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ شُروعٌ في تَعدادِ الآلاءِ الفائضةِ عليهم في الآخرةِ، بعْدَ تَعدادِ ما وصَلَ إليهم في الدُّنيا مِن الآلاءِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ[١].

- وهو انتِقالٌ مِن وصْفِ جَزاءِ المُجرمين إلى ثَوابِ المتَّقينَ، والجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١] إلى آخرِها[٢].

- قولُه: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، أي: خاف مَوقِفَه الَّذي يقِفُ فيه العِبادُ للحِسابِ، وفي هذه الإضافةِ تَنبيهٌ على صُعوبةِ الموقفِ. أو خاف قِيامَ اللهِ على أحوالِه، مِن: قام عليه، إذا راقَبَه. أو خاف مَقامَ الخائفِ عندَ ربِّه للحسابِ؛ فأُضِيفَ إلى الرَّبِّ تَفخيمًا وتَهويلًا. أو خاف ربَّه، و(مَقام) مُقحَمٌ؛ للمُبالَغةِ والتَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ قيل: يَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ جِنسَينِ مِن الجنَّاتِ، وقد ذُكِرَت الجنَّاتُ في القُرآنِ بصِيغةِ الجمْعِ غيرَ مرَّةٍ، فالمرادُ جِنسانِ مِن الجنَّاتِ. ويجوزُ أنْ تكونَ التَّثنيةُ مُستعمَلةً كِنايةً عن التَّعدُّدِ، وإيثارُ صِيغةِ التَّثنيةِ هنا لمُراعاةِ الفواصلِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ؛ فقد بُنِيَت قرائنُ السُّورة عليها، والقرينةُ ظاهرةٌ، وعلى هذا فجَميعُ ما أُجرِيَ بصِيغةِ التَّثنيةِ في شأْنِ الجنَّتينِ فمُرادٌ به الجمْعُ. وقيل: المرادُ بالجنَّتينِ جنَّةٌ واحدةٌ، وإنَّما ثَنَّى مُراعاةً للفواصلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي =

- ولَمَّا ذَكَر سُبحانه الخوفَ ذَكَر المقامَ، وعندَ الخشيةِ ذَكَر اسمَه الكريمَ فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]؛ لأنَّهم عرَفوا عَظَمةَ اللهِ فخافوه لا لِذُلٍّ منهم، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]؛ لأنَّه يَعرِفُ ربَّه بالعَظَمةِ فيَخشاهُ، فالخَوفُ خَشيةُ سببُها ذُلُّ الخاشي، والخشيةُ خَوفٌ سببُه عَظَمةُ المَخشيِّ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ صِفةٌ للجنَّتينِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ وُسِّطَ بيْنَهما؛ تَنبيهًا على أنَّ تَكذيبَ كلٍّ مِن الموصوفِ والصِّفةِ مُوجِبٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ(٢).

- وخَصَّ الأفنانَ بالذِّكرِ -وهي الأغصانُ الَّتي تَتشعَّبُ مِن فُروعِ الشَّجرةِ-؛ لأنَّها هي الَّتي تُورِقُ وتُثمِرُ، فمنها تَمتَدُّ الظِّلالُ، ومنها تُجْتنى الثِّمارُ(٣). أو خَصَّ الأفنانَ بالذِّكرِ ونكَّرَها؛ لأنَّ المقصودَ هنا أفنانٌ عظيمةٌ، كثيرةُ الإيراقِ والإثمارِ والظِّلِّ، بقَرينةِ أنَّ الأفنانَ لا تَخلو عنها الجنَّاتُ، فلا يُحتاجُ إلى ذِكرِ الأفنانِ لولا قصْدُ ما في التَّنكيرِ مِن التَّعظيمِ(٤).

---

= حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

- وإنْ كان الجنَّتانِ اثنتَينِ لكلِّ مَن خاف مَقامَ ربِّه؛ فلكلِّ جنَّةٍ منهما عَينٌ؛ فهما عَينانِ لكلِّ مَن خاف مَقامَ ربِّه. وإنْ كان الجنَّتانِ جِنسَينِ، فالتَّثنيةُ مُستعمَلةٌ في إرادةِ الجمْعِ، أي: عُيونٌ على عدَدِ الجنَّاتِ. وكذلك إذا كان المرادُ مِن تَثنيةِ ﴿جَنَّتَانِ﴾ الكثرةَ، كان تَثنيةُ ﴿عَيْنَانِ﴾ للكَثرةِ[١].

- وجاء الفصْلُ بيْنَ قولِه: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ وبيْنَ قولِه: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ بقولِه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ -والأفنانُ عليها الفواكهُ-؛ لأنَّ الدَّاخلَ إلى البُستانِ لا يَقْدَمُ إلَّا للتَّفرُّجِ بِلَذَّةِ ما فيه بالنَّظرِ إلى خُضرةِ الشَّجرِ، وجرْيِ الأنهارِ، ثمَّ بعْدُ يَأخُذُ في اجتِناءِ الثِّمارِ للأكلِ[٢].

أو فصَلَ بيْنَ الأفنانِ وبيْنَ ذِكرِ الفاكهةِ بذِكرِ العَينينِ، معَ أنَّ الفاكهةَ بالأفنانِ أنسَبُ؛ لأنَّه لَمَّا جَرَى ذِكرُ الأفنانِ -وهي مِن جَمالِ مَنظَرِ الجنَّةِ-، أعقَبَ بما هو مِن مَحاسِنِ الجنَّاتِ -وهو عُيونُ الماءِ- جمْعًا للنَّظيرَينِ، ثمَّ أعقَبَ ذلك بما هو مِن جَمالِ المَنظَرِ -أعني: الفواكهَ في أفنانِها- ومِن مَلذَّاتِ الذَّوقِ[٣].

- وأمَّا تَثنيةُ ﴿زَوْجَانِ﴾ فإنَّ الزَّوجَ هنا النَّوعُ، وأنواعُ فواكهِ الجنَّةِ كثيرةٌ، وليس لكلِّ فاكهةٍ نَوعانِ: فإمَّا أنْ تكونَ التَّثنيةُ بمعْنى الجمْعِ، ويكونَ إيثارُ صِيغةِ التَّثنيةِ لمُراعاةِ الفاصِلةِ، ومِن أجْلِ المُزاوَجةِ مع نَظائرِها مِن قولِه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ إلى هنا، وإمَّا أنْ تكونَ تَثنيةُ ﴿زَوْجَانِ﴾ لكونِ الفواكهِ بَعضُها يُؤكَلُ رَطْبًا، وبَعضُها يُؤكَلُ يابِسًا؛ مِثلُ الرُّطَبِ والتَّمرِ، والعِنبِ والزَّبيبِ، وغيرِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ بَيانٌ لـ ﴿زَوۡجَانِ﴾ مُقدَّمٌ على المُبيَّنِ؛ لرعْيِ الفاصِلةِ[1].

٣- قوله تعالى ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- انتصَبَ ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالًا مِن (لِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ)، وجِيءَ بالحالِ صِيغةَ جمْعٍ باعتِبارِ معْنى صاحبِ الحالِ، وصَلاحيةِ لَفْظِه للواحدِ والمتعدِّدِ، لا باعتبارِ وُقوعِ صِلتِه بصِيغةِ الإفرادِ؛ فإنَّ ذلك اعتبارٌ بكونِ (مَن) مُفرَدةَ اللَّفظِ، والمعْنى: أُعْطوا الجِنانَ، واستقَرُّوا بها، واتَّكَؤوا على فُرُشٍ. وقيل: العاملُ مَحذوفٌ، أي: يَتنعَّمون مُتَّكئينَ. وقيل: نُصِبَ على المدْحِ[2].

- قولُه: ﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾، البِطانةُ: هي الثَّوبُ الَّذي يُجعَلُ على الفِراشِ، والظِّهارةُ: الثَّوبُ الَّذي يُجعَلُ فوقَ البِطانةِ؛ ليَظهَرَ لرُؤيةِ الدَّاخلِ للبَيتِ، فتَكونُ الظِّهارةُ أحسَنَ مِن البطانةِ في الفِراشِ، فالمعْنى هنا: أنَّ بطائنَ فُرشِ الجنَّةِ مِن إستبرقٍ، وإذا كانت البطائنُ كذلك فما ظنُّكَ بالظَّهائرِ؟! فلا بُدَّ أنَّها أجودُ مِن ذلك، فوَصْفُ البطائنِ بذلك هنا كِنايةٌ عن نَفاسةِ وصْفِ ظَهائرِ الفُرشِ[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

---

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٨). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣١٣).

- قولُه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ مع أنَّ قبْلَه ﴿جَنَّتَانِ﴾؛ لرُجوعِه إلى الآلاءِ المعدودةِ في الجنَّتَينِ، أو إلى الجنَّتَينِ لكنَّ جمْعَه لاشتِمالِهما على قُصورٍ ومَنازلَ، أو إلى المنازلِ والقصورِ الَّتي دلَّ عليها ذِكرُ الجنَّتينِ، أو إلى الفُرُشِ لقُرْبِها، وتكونُ (في) بمعْنى (على)، كما في قولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [الطور: ٣٨]، أي: عليه[١].

- وضَميرُ ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ إلى ﴿فُرُشٖ﴾ -على قولٍ-، وهو سَببُ تأْخيرِ نِعَمِ أهلِ الجنَّةِ بلَذَّةِ التأنُّسِ بالنِّساءِ عمَّا في الجنَّاتِ مِن الأفنانِ والعُيونِ والفواكهِ والفُرشِ؛ ليكونَ ذِكرُ الفُرشِ مُناسبًا للانتقالِ إلى الأوانسِ [جمع آنسةٍ] في تلك الفُرشِ، وليَجِيءَ هذا الضَّميرُ مُفيدًا معنًى كثيرًا مِن لفْظٍ قليلٍ، وذلك مِن خَصائصِ التَّرتيبِ في هذا التَّركيبِ فـ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ كائنةٌ في الجنَّةِ، وكائنةٌ على الفُرشِ مع أزواجِهنَّ[٢].

- و﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾: صِفةٌ لموصوفٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: نِساءٌ، وشاعَ المدْحُ بهذا الوصفِ في الكلامِ حتَّى نُزِّلَ مَنزلةَ الاسمِ[٣]. وحُذِفَ الموصوفُ لِنُكتةٍ، وهي أنَّه تعالى لم يَذكُرْهنَّ باسمِ الجِنسِ -وهو النِّساءُ- بل بالصِّفاتِ، فقال: ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ [الواقعة: ٢٢]، ﴿وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا﴾ [النبأ: ٣٣]، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ [الصافات: ٤٨]، ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ﴾ [الرحمن: ٧٢]، ولم يقُلْ: نِساءٌ عُرُبٌ، ولا نِساءٌ قاصِراتٌ؛ لِوَجهَينِ: إمَّا على عادةِ العُظماءِ -كبناتِ الملوكِ- إنَّما يُذكَرْنَ بأوصافِهنَّ، وإمَّا لأنهنَّ لَمَّا كَمَلْنَ كأنَّهنَّ خرَجْنَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٦، ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

جِنسِهنَّ[١].

- والطَّمْثُ: مَسيسُ الأُنثى البِكرِ، وعُبِّرَ عن البكارةِ بقولِه: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ إطنابًا في التَّحسينِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنسٌ قَبْلَهُمْ﴾، أي: لم يَطمِثْهُنَّ أحدٌ قبْلُ، وقولُه: ﴿وَلَا جَآنٌّ﴾ تَتميمٌ واحتِراسٌ[٣]، وهو إطنابٌ دَعا إليه أنَّ الجنَّةَ دارُ ثوابٍ لصالحِي الإنسِ والجنِّ، فلمَّا ذُكِرَ ﴿إِنسٌ﴾ نشَأَ تَوهُّمُ أنْ يَمسَّهُنَّ جِنٌّ؛ فدُفِعَ ذلك التَّوهُّمُ بهذا الاحتِراسِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠).

(٣) التَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها.
والاحتِراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفَعُ ذلك الاحتِمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ: التَّكميلَ.
والفَرقُ بيْنَ الاحتِراسِ والتَّتميمِ: أنَّ الاحتِراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التَّتميمُ فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنَهما إذَنْ هي التَّبايُنُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩-٥١، ٢٤٠ - ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠).

- وفي قولِه: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالإردافِ[1]، والمعْنى في الآيةِ: فيهنَّ عَفيفاتٌ قد قَصَرَت عِفَّتُهنَّ طَرْفَهنَّ على بُعولتِهنَّ، وعُدِلَ عن المعْنى الخاصِّ إلى لَفظِ الإردافِ؛ لأنَّ كلَّ مَن عفَّ غضَّ الطَّرْفَ عن الطُّموحِ، فقد يَمتدُّ نظَرُ الإنسانِ إلى شَيءٍ وتَشتهيهِ نفْسُه ويَعِفُّ عنه مع القُدرةِ عليه لأمرٍ آخَرَ، وقصْرُ طَرْفِ المرأةِ على بَعْلِها، أو قصْرُ طَرْفِها حَياءً وخَفَرًا[2]، أو قَصْرُ عَينَيْ مَن يَنظُرُ إليهنَّ عن النَّظرِ إلى غيرِهنَّ؛ أمرٌ زائدٌ على العِفَّةِ؛ لأنَّ مَن لا يَطمَحُ طَرْفُها لغيرِ بَعْلِها، أو لا يَطمَحُ حَياءً وخَفَرًا؛ فإنَّها ضَرورةً تكونُ عَفيفةً، فكلُّ قاصرةِ الطَّرْفِ عَفيفةٌ، وليست كلُّ عفيفةٍ قاصرةَ الطَّرْفِ؛ فلذلك عُدِلَ عن اللَّفظِ الخاصِّ إلى لَفظِ الإردافِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ[4] مُجمَلٌ، قيل: وَجْهُ الشَّبهِ

---

(١) الإرداف: هو أنْ يُريدَ المُتكلِّمُ معنًى، فلا يُعبِّرُ عنه بلَفظِه الموضوعِ له، بلْ بلَفظٍ هو رِدفُ المعْنى الخاصِّ وتابِعُه قَريبٌ مِن لَفظِ المعْنى الخاصِّ قُرْبَ الرَّديفِ مِن الرِّدفِ. وهو شبيهٌ بالتَّنكيتِ، إلاَّ أنَّ الإردافَ يُتْرَكُ فيه اللَّفظُ الَّذي يُدَلُّ به عادةً على المعنَى، ويُسْتَخدَمُ تعبيرٌ غيرُه؛ لتحقيقِ أغراضٍ فِكريَّةٍ ومَعانٍ لا تُؤَدَّى بالتَّعبيرِ المتروكِ. يُنظر: ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر (ص: ٥٧)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٠٧)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٣٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤١٦)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨٠).

(٢) الخَفَرُ: شِدَّةُ الحَياءِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤١٦).

(٤) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذي وصفٍ في وصْفِه. وقيل: أن تُثبِتَ للمُشَبَّهِ حُكمًا مِن أحكامِ المُشَبَّهِ به. وقد اتَّفَق الأدباءُ على شرَفِه في أنواعِ البلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادها كمالًا، وكساها حلَّةً وجمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العربِ، بل هو أكثرُ كلامِهم. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ عدَّةَ تقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ المُفرَدُ. ومنه: التَّشبيهُ المُركَّبُ: وهو الَّذي يكونُ =

في لَونِ الحُمرةِ المَحمودةِ، أي: حُمرةُ الخدودِ، كما يُشبَّهُ الخدُّ بالورْدِ، ويجوزُ أنْ يكونَ التَّشبيهُ بهما في الصَّفاءِ واللَّمَعانِ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

- قولُه: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما فُصِّلَ قبْلَه[٢]. وهو تَذييلٌ للجُمَلِ المَبدوءةِ بقولِه: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، أي: لأنَّهم أحْسَنوا فجازاهم ربُّهم بالإحسانِ[٣].

- والاستِفهامُ هنا مُستعمَلٌ في النَّفيِ؛ ولذلك عُقِّبَ بالاستِثناءِ، فأفاد حصْرَ مُجازاةِ الإحسانِ في أنَّها إحسانٌ، وهذا الحصرُ إخبارٌ عن كَونِه الجزاءَ الحقَّ، ومُقتضى الحكمةِ والعدلِ، وإلَّا فقدْ يَتخلَّفُ ذلك لدى الظَّالِمينَ، قال تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾[٤] [الواقعة: ٨٢].

---

= وجْهُ الشَّبَهِ فيه مُنتزَعًا مِن مُتعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ مِن أحوالِ الحِمارِ. وخصَّ البَيانيُّون لفظَ «التَّمثيلِ» بالتَّشبيهِ المُركَّبِ. ومنه: التَّشبيهُ البليغُ: وهو ما كانت أداةُ التَّشبيهِ فيه محذوفةً. ويَنقسِمُ باعتبارٍ آخَرَ إلى: مؤكَّدٍ: وهو ما حُذِفت فيه الأداةُ، نحو: ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مَرِّ السَّحابِ. ومُرْسَلٍ: وهو ما لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٦٢-٧٨)

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾: دُونَ: أقَلُّ، أي: أقَلُّ منهما في المَنزِلةِ والقَدرِ، يُقالُ للقاصِرِ عن الشَّيءِ: دُون، وقيل: (دون) بمعنَى (غير)، ولها مَعانٍ كثيرةٌ، و(دُونَ) قيل: هو مقلوبٌ مِن الدُّنوِّ، وأصل (دون): يدُلُّ على المُداناةِ والمُقارَبةِ[١].

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾: أي: سَوْداوانِ؛ مِن شِدَّةِ الخُضرةِ والرِّيِّ، والأصلُ في ذلك أنَّ الخُضرةَ إذا اشتَدَّت ضَرَبَت إلى السَّوادِ[٢].

﴿نَضَّاخَتَانِ﴾: أي: فوَّارتانِ بالماءِ بقُوَّةٍ، والنَّضْخُ: فَورُ الماءِ مِنَ العَينِ، وهو أكثَرُ مِنَ النَّضْحِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٥، ٢/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٠)، ((غريب =

﴿حُورٌ﴾: جمعُ حوراءَ، وهي: البَيضاءُ، أو: الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ الشَّديدةُ سَوادِها[١].

﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾: أي: مَحبوساتٌ مَستوراتٌ، والقَصرُ: المَنعُ والحَبسُ[٢].

﴿رَفْرَفٍ﴾: أي: ما تدَلَّى مِنَ الأَسِرَّةِ مِن غالي الثِّيابِ والبُسُطِ؛ مِن رَفَّ البَيتُ: إذا تنَعَّمَ وحَسُنَ، جَمعٌ واحِدتُها: رَفرَفةٌ[٣].

﴿وَعَبْقَرِيٍّ﴾ أي: بُسُطٍ ووسائِدَ فائِقةِ الجَمالِ، بديعةِ الصُّنعِ، والعَبقريُّ: نِسبةٌ

---

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٣، ٢٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((أدب الكاتب)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

قال الرازي: (إمَّا أنْ يَكونَ أصْلُه مِن رَفَّ الزَّرْعُ إذا بَلَغ مِن نضارَتِه، فيكونَ مُناسِبًا لقولِه تعالَى: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٤]، ويكونَ التَّقديرُ أنَّهم مُتَّكِئونَ على الرِّياضِ والثِّيابِ العبقريَّةِ. وإمَّا أنْ يكونَ مِن رفرفةِ الطَّائرِ، وهي حَوْمُه في الهواءِ حوْلَ ما يُريدُ النُّزولَ عليه، فيكونَ المعنَى أنَّهم على بُسُطٍ مَرْفوعةٍ، كما قال تعالَى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٤]، وهذا يدُلُّ على أنَّ قولَه تعالَى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢] أنَّهما دونَهما في المكانِ، حيثُ رُفِعَتْ فُرُشُهم). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨١).

إلى عَبقَرٍ: اسمُ بلادِ الجِنِّ في مُعتَقَدِ العَرَبِ، فنَسَبوا إليه كُلَّ ما تجاوَزَ العادةَ في الإتقانِ والحُسْنِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومِن دُونِ هاتَينِ الجَنَّتَينِ -اللَّتَينِ تقَدَّمَ ذِكرُهما- في الرُّتبةِ والفَضلِ جَنَّتانِ أُخْرَيانِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يُفصِّلُ اللهُ سُبحانَه أوصافَ هاتَينِ الجنَّتَينِ، فيقولُ: هاتانِ الجَنَّتانِ مُسْوَدَّتانِ؛ مِن شِدَّةِ خُضرتِهما؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفيهما عَيْنانِ فوَّارتانِ بالماءِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفيهما فَواكِهُ ونَخلٌ ورُمَّانٌ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

وفِيهنَّ نساءٌ خَيْراتُ الصِّفاتِ والأخلاقِ، حِسانُ الوُجوهِ والأبدانِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟! وهُنَّ بِيضٌ، شَديدٌ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها، مَحجوباتٌ في بُيوتِ اللُّؤلؤِ المُجَوَّفِ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟! ولم يُجامِعْهنَّ فيَفتَضَّ بَكارتَهُنَّ قبْلَ أزواجِهنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ أو الجِنِّ؛ فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

يَتنَعَّمونَ بالاتِّكاءِ على ثيابٍ خَضراءَ فاخِرةٍ مُتدَلِّيةٍ مِن فُرُشِهم، وعلى بُسُطٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٥).

ووسائِدَ بديعةِ الصُّنعِ، حَسَنةِ المَنظَرِ! فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ؟!

ثمَّ يختمُ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ، فيقولُ: تَبارَكَ اسمُ رَبِّك -يا محمَّدُ- ذي العَظَمةِ والإكرامِ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان قد عُلِمَ مِمَّا ذُكِرَ أوَّلَ هذا الكلامِ مِنَ الخَوفِ معَ ذِكرِ وَصفِ الإكرامِ، وآخِرَه مِن ذِكرِ الإحسانِ: أنَّ هذا الفَريقَ مُحسِنٌ، وكان مِن المعلومِ أنَّ العامِلينَ طَبَقاتٌ، وأنَّ كُلَّ طَبَقةٍ أجرُها على مِقدارِ أعمالِها؛ اقتضى الحالُ بَيانَ ما أُعِدَّ لِمَن دُونَهم[1].

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾.

أي: ومِن دُونِ الجَنَّتَينِ -اللَّتَينِ تقَدَّمَ ذِكرُهما- جَنَّتانِ أقَلُّ مِنهما رُتبةً وفَضلًا[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٢ - ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٦، ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: دُونَهما في الفَضلِ والرُّتبةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والواحديُّ، وابن القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٢، ١٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٦، ٥٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢١). =

عن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جَنَّتانِ مِن فِضَّةٍ، آنِيَتُهما وما فيهما، وجَنَّتانِ مِن ذَهَبٍ، آنِيَتُهما وما فيهما))(١).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ(٢)؟!

﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

أي: هاتانِ الجَنَّتانِ مُسْوَدَّتانِ؛ مِن شِدَّةِ خُضرتِهما(٣).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ ﴾.

---

= وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وأبو موسى الأشعريُّ، وابنُ زَيدٍ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤٣).

قال الرَّسْعَني: (قال المفسِّرون: مِن دُونِهما في الفضلِ والدَّرَجاتِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٧٥).

وذكَر ابنُ عطيَّةَ أنَّ أكثَرَ النَّاسِ على هذا التَّأويلِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٥).

وقيل: المعنى: هما أقرَبُ مَكانًا مِن الأُولَيَينِ، وأفضَلُ مِنهما مَرتبةً ومَنزِلةً. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧١).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ١٩٣).

وقال الشوكاني: (ومعنَى «مِنْ دُونِهما» أيْ: مِن أمامِهما ومِنْ قَبلِهما، أي: هما أقرَبُ منهما). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧١). ويُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٩٤).

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

قال ابن حجر: (قولُه: «جنَّتانِ» إشارةٌ إلى قولِه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾، وتفسيرٌ له). ((فتح الباري)) (١٣/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[١]؟!

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: في هاتَينِ الجنَّتَينِ عَينانِ فوَّارتانِ بالماءِ بقُوَّةٍ[٢].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٣]؟!

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر الرِّيَّ والسَّبَبَ فيه؛ ذَكَر ما يَنشَأُ عنه، فقال[٤]:

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: في هاتَينِ الجَنَّتَينِ فَواكِهُ ونَخيلٌ ورُمَّانٌ[٥].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٦]؟!

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٥٨، ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٢).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان ما ذُكِرَ لا تَكمُلُ لذَّتُه إلَّا بالأنيسِ؛ قال[١]:

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ٧٠﴾.

أي: فِيهنَّ خَيْراتُ الصِّفاتِ والأخلاقِ والشِّيَمِ، وحِسانُ الوُجوهِ والأبدانِ؛ فهنَّ في غايةِ الجَمالِ خَلْقًا وخُلُقًا[٢]!

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٧١﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٣]؟!

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ٧٢﴾.

أي: مِن وَصفِهنَّ أنَّهنَّ بِيضٌ شَديدٌ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها[٤]، مَحجوباتٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ﴾: في هذه الجِنانِ الأربَعِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٢٢).

وذهب الشوكاني إلى أنَّ هذه الصِّفةَ ليست عائدةً إلى الجِنانِ الأربَعِ، وذكَرَ أنَّه لا وَجْهَ لهذا؛ وعلَّل ذلك بأنَّه قد وَصَف نِساءَ الجنَّتَينِ الأُولَيَينِ بأنَّهنَّ قاصِراتُ الطَّرفِ كأنَّهنَّ الياقوتُ والمَرجانُ، قال: (وبَيْنَ الصِّفَتينِ بَونٌ بعيدٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٣).

(٤) الحُورُ جَمعُ حَوراءَ، قيل: هي المرأةُ البيضاءُ، وقيل: الحَوراءُ: الشَّديدةُ بَياضِ بَياضِ العَينِ، =

ومَحبوساتٌ في بُيوتِ اللُّؤلؤِ المُجَوَّفِ[1].

= والشَّديدةُ سَوادِ سَوادِ العَينِ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبَيدة (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٥٢) و(١٧/ ١٨٨).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: ابنُ عطيَّةَ، والعُلَيمي، فقالا: الحَوْراءُ هي البيضاءُ، القويَّةُ بياضِ بياضِ العَينِ، وسَوادِ سَوادِها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٢٠).

قال ابنُ القيِّم: (الصَّحيحُ أنَّ الحُورَ مأخوذٌ مِنَ الحَوَرِ في العَينِ: وهو شِدَّةُ بَياضِها مع قُوَّةِ سَوادِها، فهو يتضَمَّنُ الأمْرَينِ... ولا تُسَمَّى المرأةُ حَوراءَ حتَّى يكونَ مع حَوَرِ عَيْنِها بياضُ لَونِ الجَسَدِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٩).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ الطُّورِ، الآية (٢٠).

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٨، ١٨٩)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٣، ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٢).

قال ابنُ عاشور: (المقصوراتُ: اللَّائي قُصِرْنَ على أزواجِهنَّ لا يَعْدُونَ الأُنسَ مع أزواجِهنَّ، وهو من صِفاتِ التَّرَفِ في نساءِ الدُّنيا؛ فهُنَّ اللَّائي لا يحتَجْنَ إلى مُغادرةِ بُيوتِهنَّ لخِدمةٍ أو وِردٍ أو اقتِطافِ ثِمارٍ، أي: هُنَّ مخدوماتٌ مُكْرَماتٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٤). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢٠)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٨/ ٢٧٩).

وقال السعدي: (أي: محبوساتٌ في خِيامِ اللُّؤلؤِ، قد تهيَّأنَ وأعدَدْنَ أنفُسَهنَّ لأزواجِهنَّ، ولا يَنفي ذلك خُروجَهنَّ في البَساتينِ ورِياضِ الجنَّةِ، كما جَرَت العادةُ لبناتِ المُلوكِ ونَحوِهنَّ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

وقال ابن القيِّم: (قال تعالى في وصْفِهنَّ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾، المقصوراتُ: المحبوساتُ. قال أبو عُبَيدةَ: خُدِّرْنَ في الخيامِ. وكذلك قال مقاتلٌ: محبوساتٌ في الخِيامِ. وفيه معنًى آخَرُ، وهو أن يكونَ المرادُ: أنَّهنَّ مَحبوساتٌ على أزواجِهنَّ، لا يَرَوْنَ غيرَهم، وهم في الخيامِ. وهذا معنَى قولِ مَن قال: قُصِرْنَ على أزواجِهنَّ، فلا يُرِدْنَ غيرَهم، ولا يَطمَحْنَ إلى مَن سِواهم، وذكره الفرَّاءُ.

قلتُ: وهذا معنى: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ [الرحمن: ٥٦]، ولكنَّ أولئك قاصِراتٌ بأنفُسِهنَّ، =

عن أبي موسى الأَشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((في الجنَّةِ خَيمةٌ مِن لُؤلؤةٍ مُجَوَّفةٍ، عَرضُها سِتُّونَ مِيلًا، في كُلِّ زاويةٍ منها أهلٌ ما يَرَونَ الآخَرينَ، يَطوفُ عليهم المُؤمِنُ!))[1].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[2]؟!

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت أنفُسُ الأخيارِ، ذَوِي الهِمَمِ العاليةِ الكِبارِ، في الالتِفاتِ إلى الأبكارِ؛ قال[3]:

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ ﴾.

---

= وهؤلاء مقصوراتٌ. وقولُه: ﴿فِي ٱلْخِيَامِ﴾ على هذا القولِ صِفةٌ لـ ﴿حُورٌ﴾، أي: هُنَّ في الخيامِ، وليس معمولًا لـ ﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾، وكأنَّ أربابَ هذا القولِ فرُّوا مِن أن يَكُنَّ مَحبوساتٍ في الخيامِ، لا تُفارِقْنَها إلى الغُرَفِ والبَساتينِ.

وأصحابُ القولِ الأوَّلِ يُجيبونَ عن هذا بأنَّ اللهَ سُبحانَه وصَفَهنَّ بصِفاتِ النِّساءِ المُخَدَّراتِ المَصوناتِ، وذلك أجملُ في الوصفِ، ولا يَلزَمُ مِن ذلك أنَّهنَّ لا يُفارِقْنَ الخيامَ إلى الغُرَفِ والبَساتينِ، كما أنَّ نساءَ الملوكِ وذَوِيهم مِن النِّساءِ المُخدَّراتِ المَصوناتِ لا يَمتنِعُ أن يَخرُجْنَ في سفَرٍ وغيرِه إلى مُتنزَّهٍ وبُستانٍ ونحوِه، فوَصْفُهنَّ اللَّازِمُ لهنَّ: القصرُ في البيتِ، ويَعرِضُ لهنَّ مع الخدَمِ الخُروجُ إلى البساتينِ ونحوِها. وأمَّا مجاهدٌ فقال: مقصوراتٌ قلوبُهُنَّ على أزواجِهِنَّ في خيامِ اللُّؤْلُؤِ. ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٣، ٢٢٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢٠)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦).

(١) رواه البخاري (٤٨٧٩)، ومسلم (٢٨٣٨) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩١).

أي: لم يُجامِعْهنَّ فيَفتَضَّ بَكارتَهُنَّ قبْلَ أزواجِهنَّ أحَدٌ مِنَ الإنسِ أو الجِنِّ[١].

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[٢]؟!

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

أي: يَتنَعَّمونَ بالاتِّكاءِ على ثيابٍ خَضراءَ فاخِرةٍ رَقيقةٍ مُتدَلِّيةٍ مِن فُرُشِهم، ومُتَّكِئينَ على بُسُطٍ فائِقةِ الجَمالِ، بديعةِ الصُّنعِ، حَسَنةِ المَنظَرِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٣، ٢٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٠، ١٩٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٠٧-٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٤، ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٣).

ممَّن اختار أنَّ الرَّفْرَفَ هو ما تدلَّى مِن الأَسِرَّةِ مِن عالي الثِّيابِ: أبو حيَّان، والسَّمينُ الحلبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٨٦).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالرَّفرفِ: البُسُطُ: السمعانيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٢).

وقال ابن القيِّم: (والرَّفْرَفُ: ثيابٌ خُضْرٌ يُتَّخَذُ منها المحابسُ [وهي الثيابُ الَّتي تُطرَحُ على ظَهرِ الفِراشِ للنَّومِ عليه] الواحدةُ رَفْرَفةٌ، وكلُّ ما فضَل مِن شَيءٍ فثُنِيَ وعُطِف فهو رَفْرَفٌ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٠٨).

وقال ابن الجوزي: (واختلَف المفسِّرونَ في المرادِ بالرَّفرفِ على ثلاثةِ أقوالٍ؛ أحدُها: فُضولُ المحابسِ والبُسُط... والثَّاني: أنَّها رياضُ الجنَّةِ... والثَّالثُ: أنَّها الوسائدُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٧).

=

= وقال القرطبي: (قولُه تعالَى: ﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ ﴾ الرَّفْرَفُ المحابِسُ. وقال ابنُ عَبَّاسٍ: الرَّفْرَفُ فضولُ الفُرُشِ والبُسُطِ. وعنه أيضًا: الرَّفْرَفُ المحابِسُ يَتَّكِئونَ على فضولِها، وقالَه قَتادةُ. وقال الحسنُ والقُرَظيُّ: هي البُسُطُ. وقال ابنُ عُيَيْنَةَ: هي الزَّرابيُّ. وقال ابنُ كَيْسانَ: هي المرافقُ، وقالَه الحسَنُ أيضًا... وقال اللَّيثُ: ضَرْبٌ مِن الثِّيابِ الخضْرِ تُبْسَطُ. وقيلَ: الفُرُشُ المرتفعةُ. وقيل: كلُّ ثوبٍ عريضٍ عندَ العربِ فهو رَفْرَفٌ... وهذه أقوالٌ مُتَقارِبَةٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٠).

وقال السعدي: (أي: أصحابُ هاتينِ الجنَّتينِ مُتَّكَؤُهم على الرَّفرفِ الأخضَرِ، وهي الفُرُشُ الَّتي فوق المجالسِ العاليةِ، الَّتي قد زادت على مجالِسِهم، فصار لها رَفرفةٌ مِن وراءِ مَجالِسِهم؛ لزيادةِ البَهاءِ، وحُسنِ المنظَرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

وقال ابنُ عثيمين: (أي: مُعتَمِدينَ بأيديهم وظُهورِهم ﴿عَلَىٰ رَفۡرَفٍ ﴾ أي: على مَسانِدَ تُرفرِفُ مِثلَ ما يكونُ على أطرافِ المسانِدِ، ويكونُ في الأسِرَّةِ، هكذا يُرفرِفُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٣).

وقال ابن الجوزي: (قوله تعالى: ﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّها الزَّرابيُّ -كُلُّ ما بُسِطَ واتُّكِئَ عليه-، قاله ابنُ عبَّاسٍ، وعَطاءٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، وكذلك قال ابنُ قُتَيْبَةَ: العَبقريُّ: الطَّنَافِسُ -بِساطٌ له خَمْلٌ رَقيقٌ- الثِّخانُ. قال أبو عُبَيدَةَ: يُقالُ لكُلِّ شَيءٍ مِنَ البُسُطِ: عَبقريٌّ.

والثَّاني: أنَّه الدِّيباجُ الغَليظُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٧). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٤).

وقال ابنُ جرير: (وأمَّا العَبقريُّ فإنَّه الطَّنافِسُ الثِّخانُ، وهي جمْعٌ، واحِدُها: عَبقريَّةٌ، وقد ذُكِرَ عن العربِ أنَّها تُسمِّي كُلَّ شَيءٍ مِنَ البُسُطِ عَبقريًّا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٦).

وقال ابن عاشور: (عَبقريٌّ: وَصفٌ لِما كان فائِقًا في صِنفِه، عَزيزَ الوُجودِ، وهو نِسبةٌ إلى عَبْقَرٍ -بفَتحٍ فسُكونٍ ففَتحٍ-: اسمُ بلادِ الجِنِّ في مُعتَقَدِ العَرَبِ، فنَسَبوا إليه كُلَّ ما تجاوَزَ العادةَ في الإتقانِ والحُسنِ، حتَّى كأنَّه ليس مِنَ الأصنافِ المعروفةِ في أرضِ البَشَرِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٥).

وقال السعدي: (﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ ﴾ العَبْقريُّ: نِسبةٌ لكُلِّ مَنسوجٍ نَسجًا حَسَنًا فاخِرًا؛ ولهذا وَصَفَها بالحُسنِ الشَّامِلِ؛ لحُسنِ الصَّنعةِ، وحُسنِ المنظَرِ، ونُعومةِ المَلمَسِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ نِعَمِ رَبِّكما تُكَذِّبانِ، يا مَعشَرَ الإنسِ والجِنِّ[١]؟!

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا خَتَم سُبحانَه نِعَمَ الدُّنيا بقَولِه تعالى: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٧]، خَتَم نِعَمَ الآخِرةِ بقَولِه: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ الباقيَ والدَّائِمَ لِذَاتِه هو اللهُ تعالى لا غَيرُ، والدُّنيا فانيةٌ، والآخِرةُ وإن كانت باقيةً لكِنَّ بقاءَها بإبقاءِ اللهِ تعالى[٢].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى سَعةَ فَضلِه وإحسانِه؛ قال[٣]:

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾ ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ بالواوِ رَفعًا على الوَصفِ لـ﴿ ٱسْمُ ﴾[٤].

٢- قراءةُ: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ بالياءِ جَرًّا على الوَصفِ لـ﴿ رَبِّكَ ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

(٤) قرأ بها ابنُ عامر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٨).

(٥) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٨).

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾.

أي: تَبارَكَ اسمُ رَبِّك -يا محمَّدُ- فالبَرَكةُ كلُّها منه، فكلُّ ما ذُكِر عليه بُورِك فيه[1]، صاحِبِ العَظَمةِ الباهِرةِ، المُستَحِقِّ لتَعظيمِه وعِبادتِه، والمُكرِمِ عِبادَه

(١) قال ابن أبي زمنين: (﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾: تقدَّسَ اسْمُ رَبِّك). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٣٥).
وقال العُلَيمي: (﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ تعالى اسمُه مِن حَيثُ إنَّه مُطلَقٌ على ذاتِه، فما ظَنُّك بذاتِه). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٤٩٧).
وقال السعدي: (﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ أي: تعاظَمَ وكَثُرَ خَيرُه، الَّذي له الجَلالُ الباهِرُ، والمجدُ الكامِلُ، والإكرامُ لأوليائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).
وقال ابن عثيمين: (﴿تَبَٰرَكَ﴾: قال العُلَماءُ: معناها: تعالى وتعاظَمَ إنْ وُصِفَ بها اللهُ، كقَولِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنين: ١٤]، وإنْ وُصِفَ بها اسمُ اللهِ، معناها: أنَّ البَرَكةَ تكونُ باسمِ اللهِ، أي: إنَّ اسمَ اللهِ إذا صاحَبَ شَيئًا، صارت فيه البَرَكةُ... فنقول: إنَّ ﴿فَتَبَارَكَ﴾ هنا ليست بمعني: تعالى وتعاظَمَ، بل: يتعَيَّنُ أن يكونَ معناها: حَلَّت البَرَكةُ باسمِ اللهِ، أي: إنَّ اسمَه سَبَبٌ للبَرَكةِ إذا صَحِبَ شَيئًا). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣٤٩، ٣٥٠).
وقيل: الاسمُ هنا يُرادُ به المسَمَّى. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١١٤).
قال القاسمي: (و «الاسمُ» هنا كنايةٌ عن الذَّاتِ العَلِيَّةِ؛ لأنَّه كَثُر اقترانُ الفِعلِ المذكورِ معها، كآيةِ ﴿نَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ [الفرقان: ٦١]، وآيةِ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ [الملك: ١] ونحوِهما، وسِرُّ إيثارِ الاسمِ: التَّنبيهُ على أنَّه لا يُعرَفُ منه تعالى إلَّا أسماؤه الحُسنى [أي: وما تضَمَّنَتْه مِن أوصافِ الكمالِ، وكذا أوصافُه الَّتي دلَّ عليها النَّقلُ]؛ لاستِحالةِ اكتِناهِ الذَّاتِ المقَدَّسةِ، فما عَرَفَ اللهَ إلَّا اللهُ. هذا هو التَّحقيقُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١١٤).
وقال ابنُ تيميَّة: (قال ابنُ الأنباريِّ وغيرُه: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ تفاعَلَ مِن البَرَكةِ، والمعنَى: أنَّ البركةَ تُكتسَبُ وتُنالُ بذِكرِ اسمِه، فلو كان لفظُ الاسمِ مَعْناه المسمَّى لَكانَ يكفي قولُه: «تبارَكَ رَبُّك»؛ فإنَّ نفْسَ الاسمِ عندَهم هو نفْسُ الرَّبِّ، فكان هذا تكريرًا. وقد قال بعضُ النَّاسِ: إنَّ ذِكْرَ الاسمِ هنا صِلَةٌ، والمرادُ تبارَكَ رَبُّك، ليسَ المرادُ الإخبارَ عن اسمِه بأنَّه تبارَكَ. وهذا غَلَطٌ؛ فإنَّه على هذا يكونُ قولُ المصَلِّي: تَبارَكَ اسمُك، أي: تبارَكْتَ أنت، ونَفْسُ أسماءِ الرَّبِّ لا بَرَكةَ فيها! ومعلومٌ أنَّ نفْسَ أسْمائِه مُبارَكةٌ، وبَرَكَتُها مِن جهةِ دَلالَتِها على المسمَّى). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ١٩٣).

بنِعَمِه، المُستَحِقِّ للإكرامِ والحُبِّ مِن جَميعِ خَلْقِه[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ الصِّفاتِ الأخلاقيَّةَ تُزاحِمُ الصِّفاتِ المادِّيَّةَ في نعتِ هؤلاء الرَّفيقاتِ العُلويَّاتِ، ليس ذلك فحَسْبُ، ولكنِ العنصرُ الأخلاقيُّ يَتقدَّمُ على المادِّيِّ، ومِن ثَمَّ وجَدْنا: ﴿أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥] [النساء: ٥٧]، و﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ -أوَّلًا- ﴿حِسَانٌ حِسَانٌ﴾، و﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ -أوَّلًا- ﴿عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨]، ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢]، وهنَّ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٨)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٦، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٤-٣٢٥).

قال الماوَرْدي: (في ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ وَجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه الجليلُ. الثَّاني: أنَّه المستَحِقُّ للإجلالِ والإعظامِ. وفي «الإكرام» وجهانِ؛ أحَدُهما: الكريمُ. الثَّاني: ذو الإكرامِ لِمن يُطيعُه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٤٤).

وقال ابنُ جرير: (﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ يعني: ذي العَظَمةِ ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ يعني: ومَن له الإكرامُ مِن جَميعِ خَلْقِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٨).

وقال ابنُ القَيِّم: (حقيقةُ العِبادةِ هي الحُبُّ والذُّلُّ، وهذا هو الإجلالُ والإكرامُ الَّذي وَصَف به نفْسَه في قَولِه سُبحانَه وتعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، وأصَحُّ القولَينِ في ذلك: أنَّ الجَلالَ هو التَّعظيمُ، والإكرامَ هو الحُبُّ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ١٨٦).

قال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾ بمعني: العَظَمةِ. ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ بمعني: التَّكريمِ، وهو صالِحٌ لأن يكونَ الإكرامُ مِن اللهِ لِمَن أطاعه، وممَّن أطاعه له. فـ﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾: عَظَمتُه في نفْسِه، ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾: عَظَمتُه في المؤمِنينَ، فيُكرِمونَه ويُكرِمُهم). ((شرح العقيدة الواسطية)) (١/ ٣٥٠).

وقال البِقاعي: (قال الرَّازي في «اللَّوامِعِ»: كأنَّه يريدُ بالاسمِ الَّذي افتَتَح به السُّورةَ، وقد انعَطَف آخِرُ السُّورةِ على أوَّلِها على وَجهٍ أعَمَّ، فيَشملُ الإكرامَ بتَعليمِ القُرآنِ وغَيرِه، والانتِقامَ بإدخالِ النِّيرانِ وغَيرِها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ١٩٤).

لا يَبرَحْنَها. هذه الصِّفاتُ الأخلاقيَّةُ ذاتُها هي الَّتي أمَرَنا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن نبنيَ عليها اختيارَنا الزَّوْجيَّ، فقال: ((تُنكَحُ المرأةُ لِأربَعٍ: لِمالِها، ولحَسَبِها، وجمالِها، ولدِينِها، فاظفَرْ بذاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَداك))(١).

٢- قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ فأثنى عليهنَّ بكَونِهنَّ مَقصوراتٍ في خِيامِهنَّ، لا يَخرُجْنَ منها، كما قال تعالى لأزواجِ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وكَونُ المرأةِ مَقصورةً في بيتِها لا تخرُجُ منه مِن صِفاتِها الجميلةِ، وذلك معروفٌ في كلامِ العربِ(٢)؛ وذلك لأنَّ الصِّيانةَ تَصونُ ماءَ الملاحةِ ومعناها، والابتِذالَ يُذهِبُ ذلك كلَّه(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أنَّه إذا عَلِمْنا أنَّ اللهَ تعالى مَوصوفٌ بالجَلالِ فإنَّ ذلك يَستوجِبُ أنْ نُعَظِّمَه، وأنْ نُجِلَّه، وإذا عَلِمْنا أنَّه مَوصوفٌ بالإكرامِ فإنَّ ذلك يَستوجِبُ أنْ نرجوَ كَرَمَه وفَضْلَه، وبذلك نُعَظِّمُه بما يَستَحِقُّه مِن التَّعظيمِ والتَّكريمِ(٤).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ سُؤالٌ: كيف انقَسَمتْ هذه الجِنانُ الأربَعُ على مَن خاف مَقامَ رَبِّه؟

**الجوابُ**: لَمَّا كان الخائِفونَ نَوعَينِ: مُقَرَّبينَ، وأصحابَ يمينٍ، كان للمُقَرَّبينَ

---

(١) يُنظر: ((دستور الأخلاق في القرآن)) لمحمد عبد الله دراز (ص: ٣٨٦، ٣٨٧).
والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٠٩٠)، ومسلمٌ (١٤٦٦) من حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣١٣، ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((رحلة الحج إلى بيت الله الحرام)) للشنقيطي (ص: ٦٨).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٥).

منهم الجَنَّتانِ العاليتانِ، ولأصحابِ اليَمينِ الجَنَّتانِ اللَّتانِ دُونَهما[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أنَّ هاتَينِ الجنَّتَينِ دونَ الجنَّتَينِ الأُولَيَينِ، وكما وَصَف الأُولَيَينِ بعِدَّةِ أوصافٍ لم يَصِفْ بها الأُخرَيَينِ؛ فقال في الأُولَيَينِ: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمن: ٥٠]، وفي الأُخرَيَينِ: ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾، ومِنَ المعلومِ الفَرقُ بيْنَ الجاريةِ والنَّضَّاخةِ، وقال في الأُولَيَينِ: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٨]، ولم يَقُلْ ذلك في الأُخرَيَينِ، وقال في الأُولَيَينِ: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]، وفي الأُخرَيَينِ: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، وقد عُلِمَ ما بيْنَ الوَصفَينِ مِنَ التَّفاوُتِ، وقال في الأُولَيَينِ: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤]، ولم يَقُلْ ذلك في الأُخرَيَينِ، بل قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، وقال في الأُولَيَينِ -في وَصفِ نِسائِهم وأزواجِهم-: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٥٦]، وقال في الأُخرَيَينِ: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾، وقد عُلِمَ التَّفاوُتُ بيْنَ ذلك، وقال في الأُولَيَينِ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ الأُولَيَينِ جَزاءُ المُحسِنينَ، ولم يَقُلْ ذلك في الأُخرَيَينِ، ومجَرَّدُ تَقديمِ الأُولَيَينِ على الأُخرَيَينِ يدُلُّ على فَضلِهما، فبهذه الأوجُهِ يُعرَفُ فَضلُ الأُولَيَينِ على الأُخرَيَينِ، وأنَّهما مُعَدَّتانِ للمُقَرَّبينَ مِنَ الأنبياءِ والصِّدِّيقينَ وخَواصِّ عِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، وأنَّ الأُخرَيَينِ مُعَدَّتانِ لعُمومِ المُؤمِنينَ[٢]. وقيل: جَعَل عزَّ وجَلَّ لِمَن خاف مَقامَ رَبِّه -وهو الرَّجُلُ يَهُمُّ بالمعصيةِ، ثمَّ يَدَعُها مِن خَوفِ اللهِ- أربَعَ جِنانٍ؛ لِيَتضاعَفَ سُرورُه بالتَّنَقُّلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢).

(٣) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٤٤١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ يَحتَجُّ به مَن يُخرِجُ الرُّمَّانَ والنَّخلَ مِن مُطلَقِ اسمِ الفاكِهةِ؛ لأنَّ الشَّيءَ لا يُعطَفُ على نَفْسِه، وإنَّما يُعطَفُ على غَيرِه، هذا ظاهِرُ الكَلامِ. والشَّافعيُّ يقولُ: هو كقَولِه تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[1] [البقرة: ٩٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ أنَّ التَّقديمَ ليس لازِمًا للفَضلِ، فلَمْ يَدُلَّ التَّقديمُ فيها على فَضْلِ المبدوءِ به[2].

٥- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ وقال قَبْلًا: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٥٦]، إنْ قيلَ: كيف قال في ذِكْرِ النِّساءِ: ﴿فِيهِنَّ﴾ في الموضِعَين، ولَمَّا ذَكَرَ غيرَهُنَّ قال: «فيهما»؟!

قيل: لَمَّا ذَكَر الفُرُشَ في قَولِه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖ﴾ [الرحمن: ٥٤] قال بَعْدَها: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾، ثمَّ أعاده هنا في الجَنَّتَينِ الأُخرَيَينِ بهذا اللَّفظِ؛ لِيَتشاكَلَ اللَّفظُ والمعنى. واللهُ أعلَمُ[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ أنَّهنَّ خَيْراتُ الأخلاقِ، حِسانُ الأوجُهِ؛ فجَمَعْنَ بيْنَ جَمالِ الظَّاهِرِ والباطِنِ، وحُسْنِ الخَلْقِ والخُلُقِ[4].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿حُورٞ مَّقۡصُورَٰتٞ فِي ٱلۡخِيَامِ﴾ إشارةٌ إلى عَظَمتِهنَّ؛ فإنَّهنَّ

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٣٩٧)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٣).

ويُنظر ما سيأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣١).

ما قُصِرْنَ حَجرًا عليهِنَّ، وإنَّما ذلك إشارةٌ إلى ضَربِ الخِيامِ لهنَّ، وإدلاءِ السِّترِ عليهنَّ، والخَيمةُ مَبيتُ الرَّجُلِ كالبَيتِ مِن الخَشَبِ، حتَّى إنَّ العَرَبَ تُسَمِّي البَيتَ مِنَ الشَّعرِ خيمةً؛ لأنَّه مُعَدٌّ للإقامةِ.

إذا ثَبَت هذا، فقَولُه: ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ إشارةٌ إلى معنًى في غايةِ اللُّطفِ، وهو أنَّ المؤمِنَ في الجنَّةِ لا يحتاجُ إلى التَّحَرُّكِ لشَيءٍ، وإنَّما الأشياءُ تتحَرَّكُ إليه؛ فالمأكولُ والمشروبُ يَصِلُ إليه مِن غيرِ حَركةٍ منه، ويُطافُ عليهم بما يَشتَهونَه[1]!

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أنَّ الحُورَ العِينَ لَسْنَ مِن نِساءِ أهلِ الدُّنيا -وهو المَشهورُ-، وإنَّما هُنَّ مَخلوقاتٌ في الجنَّةِ؛ فإنَّ أكثَرَ نِساءِ أهلِ الدُّنيا مَطْموثاتٌ[2].

٩- بهذه الآيةِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تَمَّت النِّعَمُ الثَّمانِي المُختَصَّةُ بجَنَّةِ أصحابِ اليَمينِ؛ إشارةً إلى العَمَلِ لأبوابِها الثَّمانيةِ[3].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ قَولُه تعالى: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ﴾ (ذي) صِفةٌ لـ (رَبِّكَ)، وكأنَّه يريدُ الاسمَ الَّذي افتَتَح به السُّورةَ، فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الرحمن: ١]، فافتتَحَ بهذا الاسمِ، فوَصَف خَلْقَ الإنسانِ والجِنِّ، وخَلْقَ السَّمَواتِ والأرضِ، وصُنْعَه، وأنَّه ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، ووَصَف تَدبيرَه فيهم، ثمَّ وَصَف يومَ القيامةِ وأهوالَها وصِفةَ النَّارِ، ثمَّ خَتَمها بصِفةِ الجِنانِ، ثمَّ قال في آخِرِ السُّورةِ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: هذا الاسمُ الَّذي افتَتَح به هذه السُّورةَ، كأنَّه يُعْلِمُهم أنَّ هذا كُلَّه خرَج لكم مِن رحمتي؛ فمِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٣).

رحمتي خلَقْتُكم، وخلَقْتُ لكم السَّماءَ والأرضَ، والخَلْقَ والخليقةَ، والجنَّةَ والنَّارَ؛ فهذا كُلُّه لكم مِن اسمِ الرَّحمنِ؛ فمَدَح اسمَه، ثمَّ قال: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ جَليلٌ في ذاتِه، كريمٌ في أفعالِه سُبحانَه وتعالى[1].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ خَتَمَ اللهُ تبارك وتعالى هذه السُّورةَ بهذه الجُملةِ العَظيمةِ، أي: ما أعظَمَ بَرَكةَ اللهِ عزَّ وجلَّ! وما أعظَمَ البَرَكةَ باسمِه! حتَّى إنَّ اسمَ اللهِ يُحَلِّلُ الذَّبيحةَ أو يُحَرِّمُها؛ لو ذَبَحَ الإنسانُ ذبيحةً ولم يَقُلْ: باسمِ اللهِ، تكونُ مَيْتةً حَرامًا نَجسةً، مُضِرَّةً على البَدَنِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]، فانظُرِ البَرَكةَ! والإنسانُ إذا رأى الصَّيدَ الزَّاحِفَ أوِ الطَّائِرَ فرَماه ولم يُسَمِّ، يكونُ هذا الصَّيدُ حَرامًا مَيْتةً نَجسًا مُضِرًّا على البَدَنِ، فانظُرِ البَرَكةَ! والإنسانُ إذا أتى أهلَه -يعني: جامَعَ زوجتَه- وقال: «باسمِ اللهِ، اللَّهمَّ جَنِّبْنا الشَّيطانَ، وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رَزَقْتَنا» كان هذا حمايةً لهذا الوَلَدِ الَّذي يَنشَأُ مِن هذا الجِماعِ؛ حِمايةً له مِن الشَّيطانِ؛ قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لو أنَّ أحدَهم إذا أراد أن يأتيَ أهلَه قال: باسمِ اللهِ، اللهمَّ جَنِّبْنا الشَّيطانَ، وجَنِّبِ الشَّيطانَ ما رَزَقْتَنا؛ فإنَّه إنْ يُقَدَّرْ بيْنَهما وَلَدٌ في ذلك لم يَضُرَّه الشَّيطانُ أبدًا))[2]، وكلُّ هذا دَليلٌ على بَرَكةِ اسمِ اللهِ عزَّ وجلَّ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَآمَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٣٦٦).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٣٨٨)، ومسلمٌ (١٤٣٤) مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٤).

فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

- قولُه: ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، أي: ومِن دُونِ تَينِكَ الجنَّتينِ جنَّتانِ، أي: لِمَن خاف مَقامَ ربِّه[١].

- وقدْ وَصَف ما في هاتَينِ الجنَّتينِ بما يُقارِبُ ما وَصَف به ما في الجنَّتينِ الأُوليَينِ وصْفًا سُلِكَ فيه مَسلَكُ الإطنابِ أيضًا؛ لبَيانِ حُسْنِهما؛ تَرغيبًا في السَّعْيِ لنَيلِهما بتَقْوى اللهِ تعالى، فذلك مُوجِبٌ تَكريرَ بَعضِ الأوصافِ، أو ما يَقرُبُ مِن التَّكريرِ بالمُترادِفاتِ[٢].

- وقولُه: ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ صِفةٌ لـ ﴿ جَنَّتَانِ ﴾، وُسِّطَ بيْنَهما الاعتِراضُ ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾؛ لِما ذُكِر مِن التَّنبيهِ على أنَّ تَكذيبَ كلٍّ مِن الموصوفِ والصِّفةِ حَقيقٌ بالإنكارِ والتَّوبيخِ[٣].

- وقولُه: ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ وصْفٌ مُشتَقٌّ مِن الدُّهمةِ، وهي لَونُ السَّوادِ، ووَصْفُ الجنَّتينِ بالسَّوادِ مُبالَغةٌ في شِدَّةِ خُضرةِ أشجارِهما حتَّى تَكونَا بالْتِفافِ أشجارِها وقُوَّةِ خُضرتِها كالسَّوداوَينِ؛ لأنَّ الشَّجرَ إذا كان ريَّانَ اشتدَّتْ خُضرةُ أوراقِه حتَّى تَقرُبَ مِن السَّوادِ[٤].

- قولُه: ﴿ مُدۡهَآمَّتَانِ ﴾ قيل: فيه إشعارٌ بأنَّ الغالبَ على هاتَينِ الجنَّتينِ النَّباتُ والرَّياحينُ المنبسِطةُ على وجْهِ الأرضِ، وعلى الأُوليَينِ الأشجارُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

والفواكهُ[١]؛ فإنَّ الأشجارَ توصَفُ بأنَّها ذَواتُ أفنانٍ، والنَّباتَ يوصَفُ بالخُضرةِ الشَّديدةِ، فالاقتِصارُ في كلٍّ منهما على أحدِ الأمْرَينِ مُشعِرٌ بما ذُكِر[٢].

- وُصِفَتِ العَينانِ في قولِه: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ بغَيرِ ما وُصِفَت به العَينانِ في الجنَّتينِ المذكورتينِ قبْلُ؛ فقِيل: هما صِنفانِ مُختلِفانِ في أوصافِ الحُسنِ، يُشيرُ اختِلافُهما إلى أنَّ هاتَينِ الجنَّتينِ دونَ الأُولَيينِ في المَحاسِنِ؛ ولذلك جاء هنا ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، وجاء فيما تَقدَّم ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]. وقيل: الوصْفانِ سَواءٌ؛ وعليه فالمُخالَفةُ بيْنَ الصِّنفَينِ مِن الأوصافِ تَفنُّنٌ[٣].

- قولُه: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، عطَفَ النَّخلَ والرُّمَّانَ على الفاكهةِ -وهما منْها-؛ اختِصاصًا لهما، وبَيانًا لفضْلِهما وشَرَفِهما؛ فإنَّهما كأنَّهما مِن المَزيَّةِ جِنسانِ آخَرانِ، فهذا العطْفُ مِن بابِ عطْفِ الجُزئيِّ على الكُلِّيِّ؛ تَنويهًا ببَعضِ أفرادِ الجنَّتينِ، أو لأنَّ النَّخلَ ثَمرةُ فاكهةٍ وطَعامٍ، والرُّمَّانَ فاكهةٌ ودَواءٌ؛ فلم يَخْلُصَا للتَّفكُّهِ[٤].

- وهذا كقولِه تَعالى: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمن: ٥٢]؛ وذلك لأنَّ الفاكهةَ أرضيَّةٌ -نحْو البِطِّيخِ وغيرِه مِن الأرضيَّاتِ المزروعاتِ- وشَجريَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢١).

-نحْو النَّخلِ وغيرِه مِن الشَّجَريَّاتِ-؛ فقال: ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ بأنواعِ الخُضَرِ الَّتي منها الفواكهُ الأرضيَّةُ، وفيهما أيضًا الفواكهُ الشَّجَريَّةُ، وذَكَر منها نَوعَينِ -وهما الرُّمَّانُ والرُّطَبُ-؛ لأنَّهما مُتقابِلانِ؛ فأحدُهما حُلوٌ والآخرُ غيرُ حُلوٍ، وكذلك أحدُهما حارٌّ، والآخرُ باردٌ، وأحدُهما فاكهةٌ وغِذاءٌ، والآخَرُ فاكهةٌ، وأحدُهما مِن فَواكِهِ البلادِ الحارَّةِ، والآخرُ مِن فَواكِهِ البلادِ الباردةِ، وأحدُهما أشجارُه في غايةِ الطُّولِ، والآخرُ أشجارُه بالضِّدِّ، وأحدُهما ما يُؤكَلُ منه بارزٌ وما لا يُؤكَلُ كامنٌ، والآخرُ بالعكسِ؛ فهما كالضِّدَّينِ، والإشارةُ إلى الطَّرَفينِ تَتناوَلُ الإشارةَ إلى ما بيْنَهما؛ كما قال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾[1] [الرحمن: ١٧].

- وجاءتْ جُملُ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مُعترِضاتٍ بيْنَ ﴿جَنَّتَانِ﴾ وصِفاتِها؛ اعتِراضًا للازديادِ مِن تَكريرِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ لِمَن حُرِموا مِن تلك الجنَّاتِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ ضَميرُ ﴿فِيهِنَّ﴾ عائدٌ إلى الجنَّاتِ الأربعِ -على قولٍ-: الجنَّتينِ الأُولَيينِ، والجنَّتَين اللَّتَينِ مِن دُونِهما، فيَجوزُ أنْ يكونَ لصاحبِ الجنَّتَينِ الأُولَيينِ جَنَّتانِ أُخريانِ؛ فصارت له أربعُ جنَّاتٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ تَوزيعًا على مَن خافوا ربَّهم[3].

- و﴿خَيْرَٰتٌ﴾ صِفةٌ لمَحذوفٍ يُناسِبُ صِيغةَ الوصْفِ، أي: نِساءٌ خَيْراتٌ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

و(خَيْراتٌ) مُخفَّفٌ مِن خَيِّراتٍ بتَشديدِ الياءِ؛ مُؤنَّثِ خَيِّرٍ، وهو المُختَصُّ بأنَّ صِفتَه الخيرُ ضِدَّ الشَّرِّ. وخُفِّفَ في الآيةِ؛ طلَبًا لخِفَّةِ اللَّفظِ، معَ السَّلامةِ مِن اللَّبسِ بما أُتبِعَ به مِن وَصفِ ﴿حِسَانٌ﴾ الَّذي هو جمْعُ حَسناءَ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ فيه وصْفُ نِساءِ الجَنَّتينِ الأُوليَيْنِ بأنَّهنَّ ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾، ووصْفُ نِساءِ الجنَّاتِ الأربعِ بأنهنَّ ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾؛ فعُلِم أنَّ الصِّفاتِ الثَّابتةَ لنِساءِ الجنَّتينِ واحِدةٌ[2].

- واعتُرِضَ بجُملةِ ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بيْن البَدَلِ ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ والمُبدَلِ منْه ﴿حُورٌ﴾، وبيْن الصِّفتَينِ ﴿مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ﴾ ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾؛ لقَصْدِ التَّكريرِ في كلِّ مَكانٍ يَقْتضيهِ[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾

- قولُه: ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾ حالٌ مِن ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، كُرِّرَت بدونِ عطْفٍ؛ لأنَّها في مَقامِ تَعدادِ النِّعمِ، وهو مَقامٌ يَقْتضي التَّكريرَ استِئنافًا. أو حالٌ حُذِفَ عامِلُه، أي: يَتنعَّمون، أو نُصِبَ على الاختِصاصِ[4].

- وقولُه: ﴿رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ الرَّفرفُ: ضَرْبٌ مِن البُسطِ، وهو اسمُ جمْعِ رَفرفةٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢٠).

وهي ما يُبسَطُ على الفِراشِ ليُنامَ عليه، وهي تُنسَجُ على شِبهِ الرِّياضِ، ويَغلِبُ عليها اللَّونُ الأخضرُ، فوصْفُ الرَّفرفِ بأنَّها خُضْرٌ وصْفٌ كاشفٌ؛ لاستِحضارِ اللَّونِ الأخضرِ؛ لأنَّه يَسُرُّ النَّاظرَ[١].

- و(عَبْقَرِيٍّ) وصْفٌ لِمَا كان فائقًا في صِنفِه، عَزيزَ الوجودِ؛ فضَرَبه القرآنُ مثَلًا لِما هو مألوفٌ عندَ العرَبِ في إطلاقِه[٢].

- وقولُه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تكريرٌ في آخِرِ الأوصافِ؛ لزِيادةِ التَّقريرِ والتَّوبيخِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ لَمَّا ختَمَ تعالى نِعَمَ الدُّنيا بقولِه: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]، ختَمَ نِعَمَ الآخرةِ بقولِه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، وناسَبَ هنالك ذِكرُ الوصفِ بالبَقاءِ والدَّيمومةِ له تعالى؛ إذ ذُكِرَ فَناءُ العالَمِ، وناسَبَ هنا ذِكرُ ما اشتُقَّ مِن البَرَكةِ -وهي النُّموُّ والزِّيادةُ-؛ إذ جاء ذلك عَقِبَ ما امتنَّ به على المؤمنينَ، وما آتاهُم في دارِ كَرامتِه مِن الخَيرِ وزِيادتِه ودَيمومتِه[٤].

- وأيضًا قولُه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ تَنزيهٌ وتَقديسٌ له سُبحانَه تعالَى، فيه تَقريرٌ لِمَا ذُكِرَ في السُّورة الكَريمةِ مِن آلائِه الفائِضةِ على الأنامِ، أي: تعالَى اسمُه الجليلُ الَّذي مِن جُمْلتِه ما صُدِّرتْ به السُّورةُ مِن اسمِ الرَّحمنِ المُنبئِ عن إفاضتِه الآلاءَ المُفصَّلةَ، وارتفَعَ عمَّا لا يَليقُ بشأنِه مِن الأمورِ الَّتي مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٢).

جُملتِها جُحودُ نَعمائِه وتَكذيبُها. وإذا كان حالُ اسمِه بمُلابَسةِ دَلالتِه عليه؛ فما ظنُّك بذاتِه الأقدسِ الأَعْلى[١]؟!

- قولُه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ إيذانٌ بانتِهاءِ الكلامِ، وفَذْلَكةٌ[٢] لِما بُنِيَتْ عليه السُّورةُ مِن التَّذكيرِ بعَظَمةِ اللهِ تعالى ونَعْمائِه في الدُّنيا والآخِرةِ، والكلامُ إنشاءُ ثَناءٍ على اللهِ تعالى مُبالَغٍ فيه بصِيغةِ التَّفعُّلِ، الَّتي إذا كان فِعلُها غيرَ صادرٍ مِن اثنينِ فالمَقصودُ منها المُبالَغةُ[٣].

- وأُسنِدَ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ إلى ﴿ٱسۡمُ﴾ -وهو ما يُعرَفُ به المُسمَّى- دونَ أنْ يقولَ: (تَبارَكَ ربُّك)؛ لقصْدِ المُبالَغةِ في وَصْفِه تعالى بصِفةِ البَرَكةِ، على طَريقةِ الكِنايةِ؛ لأنَّها أبلَغُ مِن التَّصريحِ؛ لأنَّه إذا كان اسمُه قد تبارَكَ، فإنَّ ذاتَه تَبارَكَت لا مَحالةَ؛ لأنَّ الاسمَ دالٌّ على المُسمَّى، فذِكرُ ﴿ٱسۡمُ﴾ في قولِه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ﴾ مُراعًى فيه أنَّ ما عُدِّدَ مِن شُؤونِ اللهِ تعالى ونِعَمِه وإفضالِه، لا تُحيطُ به العِبارةُ، فعُبِّرَ عنه بهذه المُبالَغةِ -إذ هي أقْصى ما تَسمَحُ به اللُّغةُ في التَّعبيرِ-؛ ليَعلَمَ النَّاسُ أنَّهم مَحقوقونَ للهِ تعالى بشُكرٍ يُوازي عِظَمَ نِعَمِه عليهم[٤].

- وفي استِحضارِ الجَلالةِ بعُنوانِ (ربّ) مُضافًا إلى ضَميرِ المُخاطَبِ -وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٧).

(٢) الفَذْلَكةُ: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكَةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغَ مِنْه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أولًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملة) و(الحوقلة)، من قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحِسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٧٦، ٢٧٧).

النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- إشارةٌ إلى ما في معْنى الرَّبِّ مِن السِّيادةِ المَشوبةِ بالرَّأفةِ والتَّنميةِ، وإلى ما في الإضافةِ مِن التَّنويهِ بشَأنِ المُضافِ إليه، وإلى كَونِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ هو الواسِطةَ في حُصولِ تلك الخَيراتِ للَّذين خافوا مَقامَ ربِّهم بما بلَّغَهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن الهُدى[1].

- وقولُه: ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وُصِفَ به الرَّبُّ تعالى تَكميلًا لِما ذُكِرَ مِن التَّنزيهِ والتَّقريرِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٧).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الواقِعةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ الواقِعةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الواقِعةِ[١].

## بيانُ المكِّيِّ والمدَنيِّ:

سورةُ الواقِعةِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

تقريرُ البَعثِ والجزاءِ، والتَّذكيرُ بيَومِ القيامةِ، وبيانُ أقسامِ النَّاسِ فيه[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- التَّذكيرُ بيومِ القيامةِ، والحَديثُ عن أهوالِها، وبيانُ أصنافِ النَّاسِ في هذا

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ الواقعةِ؛ لِافتِتاحِها بلَفظِ (الواقِعةِ). يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٠).

قال ابنُ عاشور: (وهكذا سُمِّيَتْ في المصاحِفِ وكُتُبِ السُّنَّةِ، فلا يُعْرَفُ لها اسمٌ غيرُ هذا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٧٩).

(٢) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيةً منها فمَدَنيَّةٌ، وهي قَولُه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]. وقيل: والآيةُ الَّتي قَبْلَها. وقيل: السُّورةُ كُلُّها مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٩)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢١٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٠).

ونَسَب ابنُ الجوزي إلى الأكثَرينَ القَولَ بأنَّها مَكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٧).

اليومِ، ومآلِ كُلِّ صِنفٍ.

٢- الحَديثُ عن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وسَعةِ رَحمتِه، وعَظيمِ فَضْلِه.

٢- تأكيدُ أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، وأنَّه نِعمةٌ أنعَمَ اللهُ بها عليهم فلم يَشكُروها، وكَذَّبوا بما فيه.

٣- ذِكرُ مَشهَدِ الاحتِضارِ، وحالِ المتوَفَّينَ وأقسامِهم، وعاقِبةِ كُلِّ قِسمٍ.

## الآيات (١-٩)

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾: أي: القيامةُ، والواقِعَةُ لا تُقالُ إلَّا في الشِّدَّةِ والمَكروهِ[١].

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾: أي: ليس لمجيئِها رَدٌّ ولا رُجوعٌ ولا تكذيبٌ، والكاذِبةُ هنا: مَصدَرٌ بمعنى الكَذِبِ، كالخائِنةِ، واللَّاغيةِ، والخاطِئةِ، والعافيةِ، والعاقِبةِ[٢].

﴿رُجَّتِ﴾: أي: زُلْزِلَتْ واضطَرَبت، وأصلُ (رجج): يدُلُّ على الاضطِرابِ[٣].

﴿وَبُسَّتِ﴾: أي: فُتِّتَتْ، وقيل: خُلِطَتْ فصارَتْ كالدَّقيقِ المبْسوسِ، وهو الملتوتُ بشيءٍ مِن الماءِ، وقيل: معناه: سِيقَت سَوقًا سَريعًا؛ مِن قَولِهم: انْبَسَّتِ الحيَّاتُ: أي: انسابت انسيابًا سريعًا، وأصلُ (بسس) هنا: فَتُّ الشَّيءِ وخَلْطُه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٣- ٢١٤)، ((المفردات)) =

﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾: أي: غُبارًا مُنتشِرًا مُتَفَرِّقًا كالَّذي يُرى في شُعاعِ الشَّمسِ إذا دَخَل مِنَ الكَوَّةِ، وأصلُ (هبو): يدُلُّ على غَبرةٍ ورِقَّةٍ فيها، وأصلُ (بثث): تفريقُ الشَّيءِ وإظهارُه[١].

﴿أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾: أي: أصنافًا وأنواعًا ثلاثةً، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارَنةِ شَيءٍ لشَيءٍ[٢].

﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾: أي أصحابُ اليمينِ، والمَيمنةُ: ناحيةُ اليمينِ[٣].

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾: أي: وأصحابُ الشِّمالِ، وأصلُ (شأم): يدُلُّ على الجانبِ اليَسارِ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مقرِّرًا الحقيقةَ الَّتي لا بدَّ مِن وُقوعِها: إذا قامت القيامةُ وتحقَّقَ وُقوعُها، ليس وُقوعُها بكَذِبٍ؛ فهو أمرٌ حَقٌّ واقعٌ لا محالةَ، فتَخفِضُ أقوامًا فيَدخُلونَ النَّارَ، وتَرفَعُ آخَرينَ فيَدخُلونَ الجنَّةَ.

---

= للراغب (ص: ١٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢) و (٦/ ٣١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٩).

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما يَحدُثُ في هذا اليَوم، فيقولُ: إذا زُلْزِلَت الأرضُ زِلزالًا شَديدًا، وفُتِّتَت الجِبالُ تَفتيتًا، فصارت غُبارًا مُتفرِّقًا، وصِرْتُم -أيُّها النَّاسُ- أصنافًا ثلاثةً.

ثمَّ يقولُ الله تعالى مفصِّلًا أحوالَ الأزواجِ الثَّلاثةِ: فالصِّنفُ الأوَّلُ: أصحابُ اليَمينِ، ما أعظَمَ شَأنَهم! والصِّنفُ الثَّاني: أصحابُ الشِّمالِ، ما أفظَعَ شأنَهم!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١﴾.

أي: إذا قامت القيامةُ، وتحقَّقَ وُقوعُها[1].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٣ - ١٥].

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾.

أي: ليس وُقوعُها بكَذِبٍ؛ فهو أمرٌ حَقٌّ واقِعٌ يَقينًا لا محالةَ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٨).

قال ابنُ كثير: (الواقِعةُ: مِن أسماءِ يومِ القيامةِ؛ سُمِّيَت بذلك لتحَقُّقِ كَونِها ووُجودِها). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٨، ٥٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٧).

قال ابن جُزَي: (﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ يحتمِلُ ثلاثةَ أوجُهٍ:

الأوَّلُ: أن تكونَ الكاذبةُ مصدرًا كالعافيةِ، والمعنى: ليس لها كذِبٌ ولا ردٌّ. =

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٨٧].

﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ٣﴾.

أي: تَخفِضُ أقوامًا إلى النَّارِ فيَدخُلونَ الجَحيمَ، وإن كانوا في الدُّنيا أعِزَّاءَ، وتَرفَعُ أقوامًا إلى الجنَّةِ فيَنالونَ النَّعيمَ، وإن كانوا في الدُّنيا أذِلَّاءَ[1]!

---

= الثَّاني: أن تكونَ ﴿كَاذِبَةٌ﴾ صفةَ مَحذوفٍ، كأنَّه قال: ليس لها حالةٌ كاذبةٌ، أي: هي صادِقةُ الوُقوعِ، ولا بُدَّ، وهذا المعنى قريبٌ مِن الأوَّلِ.

الثَّالثُ: أن يكونَ التَّقديرُ: ليس لها نفْسٌ كاذبةٌ أيَّ تكذيبٍ في إنكارِ البعثِ؛ لأنَّ كلَّ نفْسٍ تؤمنُ حينَئذٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤).

وممَّن اختار القولَ المذكورَ وأنَّ المرادَ: تَخفِضُ قَومًا إلى النَّارِ، وتَرفَعُ آخَرينَ إلى الجنَّةِ: ابن جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبي، والبغوي، وابن جُزَي، والخازن، وابن كثير، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٣).

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: تَخفِضُ أقوامًا إلى أسفَلِ السَّافِلينَ في النَّارِ، وتَرفَعُ أقوامًا إلى عِلِّيِّينَ في الجنَّةِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ، وعثمانُ بنُ عبدِ الله بنِ سُراقةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٠)، ))تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٢)، ))تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤(، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤، ٥).

وقيل: المعنى: خَفَضَت صَوتَها فأسمَعَت القَريبَ، ورَفَعَت صَوتَها فأسمَعَتِ البعيدَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء: ١٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ ﴾.

أي: إذا زُلْزِلَت الأرضُ على سَعَتِها وثِقْلِها، فحُرِّكت تَحريكًا شَديدًا، فاهتَزَّت واضطَرَبتْ[1]!

كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ ﴾.

أي: وفُتِّتَت الجِبالُ على عَظَمتِها وصَلابتِها تَفتيتًا[2]!

---

= ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ المعنى: خافِضةٌ الأشياءَ المُرتَفِعةَ كالنُّجومِ، رافِعةٌ الأشياءَ الَّتي كانت مُنخَفِضةً. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٩، ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١١، ٥١٢).

قال الشنقيطي: (وقولُه تعالى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴾ في معناه لأهلِ العلمِ أوجهٌ متقارِبةٌ، لا يُكذِّبُ بعضُها بعضًا، وكلُّها حقٌّ، وكلُّها يشهدُ له قرآنٌ). ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١١)

وذكَر الواحديُّ في معنى (بُسَّت) ثلاثةَ أقوالٍ: =

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

أي: فصارت ذَرَّاتِ غُبارٍ صَغيرةً مُتطايرةً مُتفرِّقةً، كالَّتي تُرَى لدى انعِكاسِ أشِعَّةِ الشَّمسِ في مَوضِعٍ مُظلِمٍ[1]!

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾.

أي: وصِرْتُم -أيُّها النَّاسُ- أصنافًا ثلاثةً بحَسَبِ أعمالِكم في الدُّنيا[2].

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨﴾.

---

= الأوَّلُ: خُلِطت، فصارَتْ كالدَّقيقِ المبسوسِ، وهو الملتوتُ بشيءٍ مِن الماءِ.

الثَّاني: أنَّ معنَى البسِّ الفتُّ.

الثَّالثُ: أنَّ البسَّ هو السَّوقُ والطَّردُ، فمعنى (بُسَّت) سِيقَتْ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٤).

ونسَب الشِّنقيطي إلى أكثرِ المفسِّرينَ أنَّ معنَى ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فُتِّتْ تَفتيتًا حتَّى صارَتْ كالبسيسةِ، وهي دقيقٌ ملتوتٌ بسمنٍ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٤-٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٣).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قَسَّمَهم إلى ثلاثةِ أقسامٍ، وفَرَّع تَقسيمَهم؛ ذكَرَ أحوالَهم، فقال[١]:

﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: فالصِّنفُ الأوَّلُ: أصحابُ اليَمينِ الَّذين يَدخُلونَ الجنَّةَ، وما أعظَمَ شَأنَ أصحابِ اليَمينِ[٢]!

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ ﴾.

أي: والصِّنفُ الثَّاني: أصحابُ الشِّمالِ الَّذين يَدخُلونَ النَّارَ، وما أفظَعَ شأنَ أصحابِ الشِّمالِ[٣]!

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [البلد: ١٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- هذه السُّورةُ لو لم يَنزِلْ في القُرآنِ إلَّا هي، لَكانت كافيةً في الحَثِّ على فِعلِ الخَيرِ وتَرْكِ الشَّرِّ؛ فقد ذَكَرَ اللهُ تعالى في أوَّلِها يومَ القيامةِ: ﴿إِذَا وَقَعَتِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٤).

قال الشنقيطي: (قال بَعضُ العُلَماءِ: قيل لهم أصحابُ اليَمينِ؛ لأنَّهم يُؤتَونَ كُتُبَهم بأيْمانِهم. وقيل: لأنَّهم يُذهَبُ بهم ذاتَ اليَمينِ إلى الجنَّةِ. وقيل: لأنَّهم عن يمينِ أبيهم آدَمَ، كما رآهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كذلك لَيلةَ الإسراءِ. وقيل: سُمُّوا أصحابَ اليَمينِ وأصحابَ المَيمَنةِ؛ لأنَّهم مَيامينُ، أي: مُبارَكونَ على أنفُسِهم؛ لأنَّهم أطاعوا ربَّهم فدَخَلوا الجنَّةَ، واليُمْنُ: البَرَكةُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٤).

﴿ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، ثمَّ قَسَّمَ النَّاسَ فيها إلى ثلاثةِ أقسامٍ: السَّابقِينَ، وأصحابِ اليمينِ، وأصحابِ الشِّمالِ، ثمَّ ذَكَر اللهُ في آخرِها حالَ الإنسانِ عندَ الموتِ، وقَسَّمَ كلَّ النَّاسِ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: مُقرَّبينَ، وأصحابِ يَمينٍ، ومُكذِّبينَ ضالِّينَ، وكذلك ذَكَر اللهُ فيها ابتِداءَ الخلْقِ في قَولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۞ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩]، والرِّزْقَ مِن طَعامٍ وشَرابٍ وما يُصلِحُهما؛ فهي سورةٌ مُتكامِلةٌ؛ ولهذا ينبغي للإنسانِ أنْ يَتدبَّرَها إذا قَرَأها، كما يَتدبَّرُ سائِرَ القُرآنِ، لكنْ هي اشتَمَلتْ على مَعانٍ عظيمةٍ. واللهُ الموفِّقُ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ ترغيبٌ وترهيبٌ؛ ليَخافَ النَّاسُ في الدُّنيا مِن أسبابِ الخَفضِ في الآخِرةِ، فيُطيعوا اللهَ، ويَرغَبوا في أسبابِ الرَّفعِ فيُطيعوه أيضًا[٢].

٣- عَن زَيدِ بنِ أسلَمَ في قَولِه تعالى: ﴿خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ﴾ قال: (مَنِ انخفَضَ يَومَئِذٍ لم يَرتَفِعْ أبدًا، ومَن ارتَفَع يَومَئِذٍ لم يَنخَفِضْ أبدًا)[٣]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا﴾ إشارةٌ إلى أنَّها تَقَع دَفْعةً واحِدةً؛ فالواقِعةُ: للمَرَّةِ الواحِدةِ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾ إلى قَولِه: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٨] بِشارةٌ للمُؤمِنينَ كَبيرةٌ، ورَدٌّ على المُعتَزِلةِ واضِحٌ؛ لأنَّ اللهَ -جلَّ جَلالُه- زَمَرَ جميعَ خلْقِه ثلاثَ زُمَرٍ، وأخبَرَ عن كلِّ زُمرةٍ بما هو فاعِلٌ بها ومُصَيِّرُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٠).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في ((المصنَّف)) (٧/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٨٥).

إليه، فأخبَرَ عن المقرَّبينَ بما أخبَرَ، فعُلِمَ أنَّه مَيَّزَهم عنِ المؤمِنينَ بفَضلِ الطَّاعةِ، وزيادةِ ما أُوتوا؛ إذ فيهم الأنبياءُ والصِّدِّيقونَ والشُّهَداءُ، وأخبَرَ عن أصحابِ اليَمينِ بما أخبَرَ، فعُلِمَ أنَّهم دونَهم في المَنزِلةِ، مُساوونَ لهم في التَّوحيدِ، فمَن كان مُذنِبًا مُوَحِّدًا فهو داخِلٌ معهم، وأخبَرَ عن أصحابِ الشِّمالِ بما أخبَرَ، وجَعَل في صِفَتِهم أنَّهم كانوا: ﴿يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]؛ فعُلِمَ أنَّهم الكُفَّارُ كلُّهم عَبَدةُ الأوثانِ، والمنافِقونَ، وأهلُ الكِتابِ الَّذين لا يُؤمِنونَ باللهِ ولا باليَومِ الآخِرِ، وكذا قال في آخرِ السُّورةِ: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٨ - ٩٤]، فلم يَذْكُرْ لهم ثالِثًا، وذَكَرَ أصحابَ الأعرافِ -في موضعٍ آخَرَ- وذَكَرَ نجاتَهم؛ فهُم زُمَرٌ ثلاثٌ لا رابعَ لهم، أو أَربَعٌ لا خامِسَ لهم، فمَنِ الزُّمرةُ الخامِسةُ -ليتَ شِعْري!- الَّتي يُخَلِّدُها المُعتَزِلةُ مع الكُفَّارِ في النَّارِ؟! إذ غيرُ مُمكِنٍ أنْ تُجعَلَ واحِدةً مِن هؤلاء، ولا خارجَ في قَولِهم بَتَّةً!

فقد وَضَحَ -بنِعمةِ اللهِ- دَحْضُ حُجَّتِهم في الوَعيدِ، بالدَّليلِ العَتيدِ في هذا الفَصلِ، وحَقَّتْ بِشارةُ المؤمِنينَ المُذنِبينَ بالنَّجاةِ، بنِعمةِ ربِّهم ورَأفَتِه(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ ذَكَرَهم اللهُ تعالى غيرَ مُرَتَّبينَ في الفَضلِ؛ فبَدَأَ اللهُ بأصحابِ المَيمَنةِ، ثمَّ ثَنَّى بأصحابِ الشِّمالِ، ثمَّ ثَلَّثَ بالسَّابِقينَ، لكِنْ عندَ التَّفصيلِ بَدَأَ بهم مُرَتَّبينَ على حَسَبِ الفَضلِ؛ فبَدَأَ بالسَّابِقينَ، ثمَّ بأصحابِ اليَمينِ، ثمَّ بأصحابِ الشِّمالِ، وهذا التَّفصيلُ المُرَتَّبُ خِلافُ التَّرتيبِ المُجمَلِ،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١١).

وهو مِن أساليبِ البلاغةِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾

- افتِتاحُ هذِه السُّورةِ بالظَّرفِ المُتضمِّنِ الشَّرطَ -وهو قولُه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾- افتتاحٌ بَديعٌ؛ لأنَّه يَسْترعي الألْبابَ لتَرقُّبِ ما بعْدَ هذا الشَّرْطِ الزَّمانيِّ، معَ ما في الاسمِ المُسنَدِ إليه -﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾- مِن التَّهويلِ بتَوقُّعِ حدَثٍ عَظيمٍ يَحدُثُ[٢].

- و(إذَا) في قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ قيل: إنَّها هي الظَّرفيَّةُ المضَمَّنةُ معنَى الشَّرطِ، وإنَّ قولَه الآتيَ: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ بدَلٌ مِن قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾، وجوابَ (إذا) هو قولُه: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾؛ فالمعْنى: إذا قامتِ القِيامةُ، وحَصَلَتْ هذه الأحوالُ العَظيمةُ؛ ظَهَرَت مَنزِلةُ أصحابِ الميمنةِ وأصحابِ المشْأمةِ[٣]. وقيل: إنَّ انتصابَ (إذَا) بمُضمَرٍ يُنبِئُ عن الهَولِ والفَظاعةِ، ولتذهبَ النَّفْسُ فيه كلَّ مَذهبٍ؛ فيَكونَ أهْوَلَ، أي: إذا وقعتْ كانتْ أمورًا يَضيقُ عنها نِطاقُ الحَصرِ، أو كأنَّه قيلَ: إذَا وقَعَتِ الواقعةُ يَكونُ مِن الأهوالِ ما لا يَفي به المَقالُ[٤].

- والتَّعبيرُ عن القِيامةِ بالواقِعةِ؛ للإيذانِ بتَحقُّقِ وُقوعِها لا مَحالةَ، فكأنَّه قِيل: إذا وقَعَت الَّتي لا بُدَّ مِن وُقوعِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) =

- وأيضًا حُذِفَ جوابُ الشَّرطِ في هذِه الآياتِ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ...﴾؛ مِن أجْلِ أنْ يَذهبَ الذِّهنُ في تَقديرِه كلَّ مذهبٍ، يعني: إذا وقعتِ الواقعةُ صارتِ الأهوالُ العظيمةُ، وصارَ انقسامُ النَّاسِ، وحصَل ما حصَل ممَّا أخبَرَ به اللهُ سُبحانَه، ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّا يكونُ في يومِ القيامةِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشِئٌ عن قولِه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ...﴾ إلخ، وهو اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ...﴾ [الواقعة: ٨] إلخ، والجوابُ قولُه: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩]، فيُفيدُ جوابًا للشَّرطِ، ويُفيدُ تَفصيلَ جُملةِ ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧]، وتكونُ الفاءُ مُستعمَلةً في مَعنيَينِ: ربْطِ الجوابِ، والتَّفريعِ، وتكونُ جُملةُ ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ وما بعْدَه اعتِراضًا[2].

- وقيل: انتصابُ (إذَا) بمُضمَرٍ يُنبِئُ عن الهَولِ والفظاعةِ كأنَّه قيلَ: إذَا وقعتِ الواقعةُ يكونُ من الأهوالِ ما لا يفي به المقالُ، وعليه فقولُه ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ الشَّرطِ، على أنَّ الكاذبةَ مَصدَرٌ كالعافيةِ، أي: ليسَ لأجْلِ وَقْعَتِها وفي حقِّها كذِبٌ أصْلًا، بلْ كلُّ ما ورَدَ في شأْنِها مِن الأخبارِ حقٌّ صادقٌ لا رَيبَ فيهِ[3].

- وهذا وَعيدٌ بتَحذيرِ المُنكِرينَ للقِيامةِ مِن خِزْيِ الخَيبةِ، وسَفاهةِ الرَّأيِ بيْنَ

---

= (٨/ ١٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨).

أهلِ الحشْرِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ خَبرانِ لمُبتدأٍ مَحذوفٍ ضَميرِ ﴿ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]، أي: هي خافضةٌ رافعةٌ[٢].

- وهذا تَقريرٌ لعَظَمةِ القِيامةِ، وتَهويلٌ لأمْرِها؛ فإنَّ الوقائعَ العِظامَ شأْنُها كذلك، أو بَيانٌ لِما يكونُ حِينَئذٍ مِن حَطِّ الأشقياءِ إلى الدَّرَكاتِ، ورفْعِ السُّعداءِ إلى الدَّرجاتِ، ومِن زَلزلةِ الأشياءِ، وإزالةِ الأجرامِ عن مَقارِّها، بنَثْرِ الكواكبِ، وإسقاطِ السَّماءِ كِسَفًا، وتَسييرِ الجبالِ في الجوِّ كالسَّحابِ[٣].

- وتَقديمُ الخفْضِ على الرَّفعِ؛ للتَّشديدِ في التَّهويلِ[٤].

- وفي قولِه: ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ مُحسِّنُ الطِّباقِ[٥]، مع الإغرابِ بثُبوتِ الضِّدَّينِ لشَيءٍ واحدٍ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ الرَّجُّ: الاضطرابُ والتَّحرُّكُ الشَّديدُ، وهو ما يَطرَأُ فيها مِن الزَّلازلِ والخسْفِ ونحْوِ ذلك، والتَّأكيدُ بالمَصدرِ ﴿رَجًّا﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقُّقِه، وليَتأتَّى التَّنوينُ المُشعِرُ بالتَّعظيمِ والتَّهويلِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٨).

(٥) تقدَّم تعريفه (ص: ٢١٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٣).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٨٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ فيه تأْكيدُ الفِعلِ ﴿ وَبُسَّتِ ﴾ بقولِه: ﴿بَسًّا ﴾؛ لإفادةِ التَّعظيمِ بالتَّنوينِ[١].

- وتَفريعُ ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ على (بُسَّتِ الْجِبَالُ) لائقٌ بمَعْنيَي البَسِّ -وهما التَّفتُّتُ وتَفريقُ الأجزاءِ، والسَّوقُ-؛ لأنَّ الجِبالَ إذا سُيِّرَت فإنَّما تُسيَّرُ تَسييرًا يُفتِّتُها ويُفرِّقُها، أي: تَسْييرَ بَعثرةٍ وارتِطامٍ[٢].

- والمُنبَثُّ: مُطاوِعُ بثَّه، إذا فرَّقَه، واختِيرَ هذا المُطاوِعُ لمُناسَبتِه مع قولِه: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ ﴾ في أنَّ المَبنيَّ للنَّائبِ معْناه كالمُطاوَعةِ[٣].

- قولُه: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: فكانت كالهَباءِ المُنبَثِّ[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ الخِطابُ في ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ للنَّاسِ كلِّهم، وهذا تَخلُّصٌ للمَقصودِ مِن السُّورةِ، وهو المَوعِظةُ[٥].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ لَمَّا وقَعَ قولُه: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ [الواقعة: ٧] عطْفًا على الجُمَلِ الَّتي أُضِيفَ إليها (إذا) مِن قولِه: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾ [الواقعة: ٤]، كان هو مَحَطَّ القصْدِ مِن التَّوقيتِ بـ (إذا) الثَّانيةِ الواقعةِ بَدَلًا مِن (إذا) الأُولى، وكِلْتاهما مُضمَّنةٌ معْنى الشَّرطِ، فكان هذا في معْنى الجَزاءِ؛ فيجوزُ جعْلُ الفاءِ في قولِه: ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾ لربْطِ الجَزاءِ، مع التَّفصيلِ للإجمالِ، وتكونُ جُملةُ ﴿ فَأَصْحَٰبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ جَوابًا لـ (إذا) الثَّانيةِ، يَؤُولُ إلى كَونِه جَوابًا لـ (إذا) الأُولى؛ لأنَّ الثَّانيةَ مُبدَلةٌ منها؛ ولذلك جاز أنْ يكونَ هذا هو جوابَ (إذا) الأُولى، فتَكونَ الفاءُ مُستعمَلةً في مَعْنَيَيها: ربْطِ الجَوابِ بالشَّرطِ، والتَّفريعِ -كما تقدَّمَ عِندَ قولِه تعالَى: ﴿لَيۡسَ لِوَقۡعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[1] [الواقعة: ٢].

- وقد أفاد التَّفصيلُ أنَّ الأصنافَ ثلاثةٌ: صِنفٌ منهم أصحابُ المَيمنةِ، واليمينُ جِهةُ عِنايةٍ وكَرامةٍ في العُرفِ، قيل: اشتُقَّتْ مِن اليُمْنِ، أي: البَرَكةِ، وصِنفٌ أصحابُ المَشأمةِ، وهي اسمُ جِهةٍ، قيل: هي مُشتقَّةٌ مِن الشُّؤمِ، وهو ضِدُّ اليُمْنِ، فهو الضُّرُّ وعدَمُ النَّفعِ، وقد سُمِّيَا في الآيةِ الآتيةِ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٢٧]، و﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ [الواقعة: ٤١]؛ فجُعِلَ الشِّمالُ ضِدَّ اليَمينِ، كما جُعِلَ المَشأمةُ هنا ضِدَّ المَيمنةِ؛ إشعارًا بأنَّ حالَهم حالُ شُؤمٍ وسُوءٍ، وكلُّ ذلك مُعبَّرٌ به عمَّا عُرِفَ في كَلامِ العَربِ مِن إطلاقِ هذَينِ اللَّفظَينِ على هذا المعْنى الكِنائيِّ الَّذي شاعَ حتَّى ساوَى الصَّريحَ؛ ولذلك استُغنِيَ هنا عن الإخبارِ عن كِلَا الفَريقينِ بخبَرٍ فيه وصْفُ بَعضِ حالَيْهما بذِكرِ ما هو إجمالٌ لحالَيْهما، ممَّا يُشعِرُ به ما أُضِيفَ إليه أصحابُه مِن لَفظَي المَيمنةِ والمَشأمةِ بطَريقةِ الاستِفهامِ المُستعمَلِ في التَّعجيبِ مِن حالِ الفريقَينِ في السَّعادةِ والشَّقاوةِ، وهو تَعجيبٌ تُرِكَ على إبْهامِه هنا؛ لتَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهبٍ مُمكِنٍ مِن الخَيرِ والشَّرِّ، فـ (ما) في المَوضعينِ اسمُ استِفهامٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٨٥، ١٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٥، ٢٨٦).

- وإظهارُ لَفظَيْ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ و﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ وتَكريرُهما بعْدَ الاستِفهامَينِ دونَ الإتيانِ بضَميرَيْهما؛ لأنَّ مَقامَ التَّعجيبِ والتَّفخيمِ والتَّشهيرِ يَقْتضي الإظهارَ، كما في قولِه: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣]، وكما يُقالُ: زيدٌ ما زيدٌ! والمقصودُ تكثيرُ ما لأصحابِ الميمنةِ مِن الثَّوابِ، وما لأصحابِ المشأمةِ مِن العِقابِ[١].

- قيل: والَّذي تَقتضيهِ جَزالةُ التَّنزيلِ أنَّ قولَه تعالَى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، وكذا قولُه تعالى: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ وقولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾؛ فإنَّ المُترقَّبَ عندَ بَيانِ انقسامِ النَّاسِ إلى الأقسامِ الثَّلاثةِ بَيانُ أنفَسِ الأقسامِ الثَّلاثةِ، وأمَّا أَوصافُها وأَحوالُها فحَقُّها أنْ تُبيَّنَ بعْدَ ذلكَ بإسنادِها إليها، والتَّقديرُ: فأحدُها أصحابُ المَيمنةِ، والآخَرُ أصحابُ المشْأَمة، والثَّالثُ السَّابقونَ، خَلا أنَّه لَمَّا أُخِّرَ بيانُ أحوالِ القِسمَينِ الأوَّلَينِ، عُقِّبَ كلٌّ منهُما بجُملةٍ مُعترِضةٍ بيْنَ القِسمَينِ مُنبئةٍ عن تَرامي أحوالِهما في الخَيرِ والشَّرِّ إنباءً إجماليًّا، مُشعِرًا بأنَّ لأحوالِ كلٍّ منهُما تفصيلًا مُترقَّبًا، لكنْ لا على أنَّ (مَا) الاستِفهاميَّةَ مُبتدَأٌ وما بعْدَها خَبرٌ، بلْ على أنَّها خبَرٌ لِما بعْدَها؛ فإنَّ مَناطَ الإفادةِ بَيانُ أنَّ أصحابَ المَيمنةِ أمْرٌ بَديعٌ، كما يُفيدُه كونُ (ما) خبَرًا، لا بَيانُ أنَّ أمْرًا بَديعًا أصحابُ المَيمنةِ، كما يُفيدُه كونُها مُبتدأً، وكذا الحالُ في أصحابِ المشْأمةِ، وأمَّا القِسمُ الأخيرُ فحيثُ قُرِنَ بَيانُ مَحاسِنِ أحوالِه بذِكْرِه لم يُحتَجْ فيهِ إلى تَقديمِ الأُنْمُوذَجِ؛ فقولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مبتدأٌ، والإظهارُ في مقامِ الإضمارِ للتَّفخيمِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٣٣، ١٣٤).

## الآيات (١٠-٢٦)

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوْضُونَةٖ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٖ مِّن مَّعِينٖ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٖ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوٗا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ثُلَّةٞ﴾: أي: فِرقةٌ وجَماعةٌ غَيرُ مَحصورةِ العَدَدِ في قِلَّةٍ ولا كَثرةٍ، وأصلُ (ثلل) هنا: يدُلُّ على التَّجمُّعِ[1].

﴿مَّوْضُونَةٖ﴾: أي: مَنسوجةٍ مُتداخِلٍ بعضُها في بَعضٍ، والوَضْنُ: نَسجُ الدِّرْعِ، ويُستَعارُ لكُلِّ نَسجٍ مُحكَمٍ[2].

﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: أي: لَا يَموتونَ، مِن الخُلْدِ وهو البقاءُ، أو: يبقونَ على حالِهم لا يَتغيَّرونَ، ولا يَكبَرونَ، ولا يهرَمونَ، والعربُ تقولُ للَّذي لا يشيبُ: مخلَّدٌ، وأصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والملازمةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، =

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ﴾: الأكوابُ جَمْعُ كُوبٍ، وهو الإناءُ المستديرُ الرَّأسِ الَّذي لا عُرْوةَ له ولا خُرطومَ، فإنْ كان له ذلك فهو الإبريقُ، والكأسُ: الإناء فيه الخَمرُ والشَّرابُ، فإن كان فارغًا فليس بكأسٍ، فالكأسُ اسْمٌ يَقعُ لكلِّ إناءٍ معَ شَرابِه(١).

﴿مَّعِينٍ﴾: أي: شرابٍ ظاهرٍ للعيونِ جارٍ، يقالُ: مَعَن الماءُ: أي: جرى، وأصلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ، وقيل: هو مشتقٌّ مِن العينِ، ووزنُه مفعولٌ، فالميمُ زائدةٌ(٢).

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾: أي: لا تُصَدَّعُ رُؤوسُهم مِن شُرْبِها، والتَّصديعُ: الإصابةُ بالصُّداعِ، وهو وَجَعُ الرَّأسِ النَّاشِئُ عن السُّكرِ، والصَّدعُ: الشَّقُّ في الأجسامِ الصُّلبةِ، كالزُّجاجِ والحَديدِ ونَحوِهما، واستُعيرَ منه الصُّداعُ، وهو شِبهُ الانشِقاقِ

---

= ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٥٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٧، ١٢٣، ٢١٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٦٤٤) و(٢٢/ ٢٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢١) و(٥/ ١٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٢٥/ ٤٣٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ١٨٣) و(٣/ ٣٦٢، ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).
ذكر الرَّازيُّ أنَّ ﴿مَّعِينٍ﴾ على وزن فَعِيلٍ أو مَفعولٍ، ثمَّ قال: (فإنْ قُلْنا: «فَعِيل» فهو مِن مَعَن الماءُ، إذا جرى، وإنْ قُلْنا: «مفعول» فهو مِن عانه، إذا شخَصه بعَينِه وميَّزه، والأوَّلُ أصحُّ وأظهَرُ؛ لأنَّ المَعْيونَ يوهِمُ بأنَّه مَعيوبٌ؛ لأنَّ قولَ القائلِ: عانَني فُلانٌ معناه: ضرَّني إذا أصابَتْني عَيْنُه، ولأنَّ الوصفَ بالمفعولِ لا فائدةَ فيه، وأمَّا الجرَيانُ في المشروبِ فهو إن كان في الماءِ فهو صِفةُ مدحٍ، وإن كان في غيرِه فهو أمرٌ عجيبٌ لا يوجَدُ في الدُّنيا، فيكونُ كقولِه تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ﴾ [محمد: ١٥]). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٩٤).

في الرَّأسِ مِنَ الوَجَعِ[١].

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾: أي: لا يَسْكَرونَ، ولا تَذْهَبُ عُقولُهم، ولا يَنفَدُ شَرابُهم، يقالُ: أنزَفَ الرَّجُلُ: إذا فَنِيَت خَمرُه، وأنزَفَ: إذا ذَهَب عَقْلُه مِنَ السُّكْرِ، وأصلُ (نزف): يدُلُّ على نَفادِ شَيءٍ وانقِطاعٍ[٢].

﴿وَحُورٌ﴾: جمعُ حَوْراءَ، وهي: البَيضاءُ، أو: الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ الشَّديدةُ سَوادِها[٣].

﴿عِينٌ﴾: جمعُ عَيْناءَ، وهي نَجْلاءُ العَيْنِ (أي: واسِعَتُها) في حُسْنٍ، وأصلُ (عين): يدُلُّ على حاسَّةِ البَصَرِ[٤].

﴿ٱلْمَكْنُونِ﴾: أي: المَصُونِ المَخزونِ في الصَّدَفِ لم تَمَسَّه الأيدي، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٦)، ((البسيط)) للواحدي (١٩/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٦٣، ٣٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٤٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٥/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١١).

﴿لَغۡوٗا﴾: أي: باطِلًا مِن القَولِ يَصدُرُ عن خَلَلِ العَقلِ، وأصلُه يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[١].

﴿تَأۡثِيمًا﴾: أي: ما يُؤَثِّمُهم مِن فِعلٍ أو قَولٍ، مِثلُ الضَّربِ والشَّتمِ وغَيرِهما، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على بُطءٍ وتأخُّرٍ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ مُتأخِّرٌ عنه[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾: فيه وَجهانِ:

**أحدُهما**: أنَّهما مُبتدَأٌ وخَبَرٌ، على وَجهِ التَّعظيمِ والتَّفخيمِ، كقَولِهم: أنتَ أنتَ، والنَّاسُ النَّاسُ! أو على تقديرِ: والسَّابِقونَ إلى الإيمانِ: السَّابِقونَ إلى الجنَّةِ، أو السَّابِقونَ إلى طاعةِ اللهِ: السَّابِقونَ إلى رَحمتِه، أو نحوِ ذلك. وعليه يَكونُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ بدَلًا أو خبَرًا ثانيًا.

**الوَجهُ الثَّاني**: أَنْ يكونَ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الثَّاني توكيدًا لفَظيًّا للأوَّلِ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ جملةٌ في محلِّ رَفعٍ خَبَرٌ للمُبتَدَأِ، والرَّابِطُ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾[٣].

- قَولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٩)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢١٧)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٠٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ١٩٥).

قَولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ﴾: مَرفوعٌ على وَجهَينِ:

**أحَدُهما**: أنَّه مُبتدأٌ مَرفوعٌ خَبَرُه مَحذوفٌ مُقَدَّمٌ عليه، تَقديرُه: لهم حُورٌ، أو عِندَهم، أو ثَمَّ.

**الثَّاني**: أنَّه مَعطوفٌ على ﴿وِلْدَانٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾[1] [الواقعة: ١٧].

- قَولُه تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾

قولُه تعالى: ﴿قِيلًا﴾ مَنصوبٌ على الاستِثناءِ المُنقَطِعِ؛ لأنَّ هذا القِيلَ لا يندَرِجُ تحتَ اللَّغْوِ والتَّأثيمِ.

قولُه تعالى: ﴿سَلَامًا سَلَامًا﴾ فيه أوجُهٌ:

**أحَدُها**: أنَّه بدَلٌ مِن ﴿قِيلًا﴾، أي: لا يَسمَعونَ فيها إلَّا سَلامًا سَلامًا.

**الثاني**: أنَّه مَنصوبٌ على المَفعوليَّةِ بالمَصدَرِ ﴿قِيلًا﴾، أي: إلَّا أن يَقولَ بَعضُهم لِبَعضٍ: سَلامًا سَلامًا.

**الثَّالِثُ**: أنَّه نَعتٌ لـ ﴿قِيلًا﴾ على معنى: إلَّا قِيلًا يسلَمُ فيه مِنَ اللَّغوِ والإثمِ.

**الرَّابعُ**: أنَّه مَنصوبٌ على المَصدَريَّةِ بفِعلٍ مَحذوفٍ، تقديرُه: إلَّا قِيلًا اسْلَموا سَلامًا، و﴿سَلَامًا﴾ الثَّاني: توكيدٌ لَفظيٌّ للأوَّلِ[2].

---

(١) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ١٧٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١١)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢١٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٢٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٠٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٠٥).

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى أحوالَ السَّابقينَ، فيقولُ: والسَّابقونَ إلى الإيمانِ والأعمالِ الصَّالِحةِ هم السَّابقونَ إلى دخولِ الجنَّاتِ، أولئك المُقَرَّبونَ عِندَ اللهِ تعالى، في جَنَّاتِ النَّعيمِ، وهم جَماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الأوَّلينَ، وعَدَدٌ قَليلٌ مِنَ الآخِرينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ ما أعدَّه لهؤلاءِ السَّابقينَ بالخَيراتِ مِن النَّعيمِ، فيقولُ: يَجلِسونَ على سُرُرٍ مَنسوجةٍ بالذَّهَبِ واللَّآلِئِ وغيرِهما، متَّكِئينَ على تلك السُّرُرِ مُتقابِلينَ لا يَنظُرُ بَعضُهم إلى قَفا بَعضٍ.

ويَدورُ عليهم لخِدمتِهم وِلدانٌ صِغارٌ لا يَهرَمونَ ولا يموتونَ؛ يَطوفُون عليهم بأكوابٍ وأباريقَ وكُؤوسٍ مِن خَمرٍ ظاهرةٍ جاريةٍ بلا انقطاعٍ، لا يُصيبُهم مِن تلك الخَمْرِ صُداعٌ، ولا يَسْكَرونَ، ولا ينفَدُ شرابُهم، ويَطوفُ عليهم أولئك الوِلْدانُ بفاكِهةٍ مِمَّا يَتخَيَّرونَه، ولَحْمِ طَيرٍ مِمَّا يَشتَهونَه، ولهم نِساءٌ بِيضٌ، شَديدٌ سوادُ أعيُنِهنَّ وبَياضُها، واسعاتُ الأعْيُنِ معَ حُسنِها، وهُنَّ في بَياضِهنَّ وجَمالِهنَّ كالدُّرِّ الأبيَضِ الصَّافي، المحفوظِ المَستورِ؛ جَزاءً بما كانوا يَعمَلونَ في الدُّنيا.

لا يَسمَعونَ في تلك الجَنَّاتِ كَلامًا باطِلًا، ولا ما يُوقِعُهم في الإثمِ، إنَّما يَسمَعون فيها التَّسليمَ، والقَولَ السَّالِمَ مِنَ اللَّغْوِ والتَّأثيمِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾.

أي: والَّذين يَسبِقونَ إلى الإيمانِ والأعمالِ الصَّالِحاتِ، ويُبادِرونَ إلى فِعلِ الخَيراتِ هم السَّابقونَ إلى دخولِ الجنَّاتِ ونَيلِ الكراماتِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٨٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّنَ عُلُوَّ شأنِهم، ونَسَب السَّبْقَ إليهم؛ تَرجَمَه نازِعًا للفِعلِ منهم، بقَولِه[1]:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ١١﴾.

أي: أولئك الَّذين يُقرِّبُهم اللهُ تعالى منه[2].

---

= ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ لفظَ «السَّابِقونَ» الأوَّلَ (المبتدأ)، غيرُ الثَّاني (الخبر)، وأنَّ المعنى: والسَّابِقونَ في الدُّنيا إلى الطَّاعاتِ هم السَّابِقونَ في الآخِرةِ إلى الجنَّاتِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ، واستظهره ابنُ القَيِّم، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٣)، ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٩).

وقيل: السَّابِقونَ الأوَّلُ: مُبتدَأٌ، والثَّاني: خَبَرُه، على وَجهِ التَّعظيم، كقولِك: أنتَ أنتَ! أو النَّاسُ النَّاسُ. وممَّن اختار هذا المعنى: الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٧٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٧).

وقال أبو حيَّان: (ويرجِّحُ هذا القَولَ أنَّه ذَكَر أصحابَ المَيمَنةِ مُتعَجِّبًا منهم في سعَادتِهم، وأصحابَ المَشأَمةِ مُتعَجِّبًا منهم في شَقاوتِهم، فناسَبَ أن يَذكُرَ «السَّابِقونَ» مُثبِتًا حالَهم مُعَظِّمًا، وذلك بالإخبارِ أنَّهم نهايةٌ في العَظَمةِ والسَّعادةِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٩).

وقيل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأوَّلُ مُبتدَأٌ، والثَّاني توكيدٌ، والخبرُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٠٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٢٩، ٣٣٠).

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لما ذَكَر السَّابِقينَ وأنَّهم المقرَّبونَ؛ بَيَّن تَقريبَه لهم بقَولِه تعالى[١]:

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢﴾.

أي: في جَنَّاتٍ مُشتَمِلةٍ على نِعَمٍ كَثيرةٍ -بَدَنيَّةٍ وقَلبيَّةٍ- لا تَنقَطِعُ أبدًا[٢].

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر السَّابِقينَ فَصَّلَهم؛ فقال[٣]:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣﴾.

أي: هم جَماعةٌ كثيرةٌ مِنَ الأوَّلينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٧-٥١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٥، ٥١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣١).
قيل: المرادُ: جماعةٌ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، وقَليلٌ مِن أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٥، ٥١٦).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٨). =

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وهم عَدَدٌ قَليلٌ مِنَ الآخِرينَ(١).

---

= قال الشنقيطي: (ظاهِرُ القرآنِ في هذا المقامِ أنَّ الأوَّلينَ في الموضِعَينِ مِن الأُمَمِ الماضيةِ، والآخِرينَ فيهما مِن هذه الأُمَّةِ، وأنَّ قولَه تعالَى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ في السَّابقينَ خاصَّةً، وأنَّ قَولَه: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩، ٤٠] في أصحابِ اليمينِ خاصَّةً. وإنَّما قُلْنا: إنَّ هذا هو ظاهرُ القرآنِ في الأمورِ الثَّلاثةِ، الَّتي هي شُمولُ الآياتِ لجميعِ الأُممِ، وكَونُ قليلٍ مِن الآخِرينَ في خصوصِ السَّابقينَ، وكَونُ ثُلَّةٍ مِن الآخِرينَ في خصوصِ أصحابِ اليمينِ؛ لأنَّه واضحٌ مِن سِياقِ الآياتِ. أمَّا شمولُ الآياتِ لجميعِ الأُممِ فقد دَلَّ عليه أوَّلُ السُّورةِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ إلى قولِه: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ لا شكَّ أنَّه لا يَخُصُّ أُمَّةً دُونَ أُمَّةٍ، وأنَّ الجَميعَ مُسْتَوونَ في الأهوالِ والحسابِ والجزاءِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ قولَه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ عامٌّ في جميعِ أهلِ المحشَرِ، فظَهَر أنَّ السَّابقينَ وأصحابَ اليمينِ مِنهم مَنْ هو مِنَ الأُمَمِ السَّابقةِ، ومنهم مَنْ هو مِنْ هذه الأمَّةِ. وعلى هذا فظاهِرُ القُرآنِ أنَّ السَّابِقينَ مِن الأُمَمِ الماضيةِ أكثَرُ مِنَ السَّابقينَ مِن هذه الأمَّةِ، وأنَّ أصحابَ اليمينِ مِن الأُممِ السَّابِقةِ ليست أكثرَ مِن أصحابِ اليمينِ مِن هذه الأمَّةِ؛ لأنَّه عَبَّر في السَّابقينَ مِن هذه الأمَّةِ بقولِه: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾، وعَبَّر عن أصحابِ اليمينِ مِن هذه الأُمَّةِ ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٤٠]. ولا غرابةَ في هذا؛ لأنَّ الأُمَمَ الماضيةَ أُممٌ كثيرةٌ، وفيها أنبياءُ كثيرةٌ ورُسُلٌ، فلا مانِعَ مِن أن يَجتَمِعَ مِن سابِقيها مِنْ لَدُنْ آدَمَ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكثرُ مِن سابِقي هذه الأُمَّةِ وحْدَها. أمَّا أصحابُ اليمينِ مِن هذه الأمَّةِ فيحتملُ أنْ يَكونوا أكثرَ مِن أصحابِ اليمينِ مِن جميعِ الأممِ؛ لأنَّ الثُّلَّةَ تَتناوَلُ العددَ الكثيرَ، وقد يكونُ أحدُ العددَيْنِ الكثيرَينِ أكثَرَ مِن الآخَرِ، معَ أنَّهما كِلَيْهما كثيرٌ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥١٥).

وقيل: الأوَّلونَ هم أوَّلُ هذه الأُمَّةِ، والآخِرونَ: المُتأخِّرونَ مِن هذه الأُمَّةِ. وممَّن رجَّح هذا القَولَ: ابنُ جُزَي، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٧-٥١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((أضواء =

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

أي: مَجالِسُهم على سُرُرٍ مَنسوجةٍ بالذَّهَبِ وغَيرِه مِنَ الجواهِرِ واللَّآلِئِ[1]!

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر السُّرَرَ وبَيَّنَ عَظَمَتَها؛ ذَكَر غايتَها، فقال[2]:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: متَّكِئِينَ على تلك السُّرُرِ مُتقابِلينَ بوُجوهِهم، لا يَنظُرُ بَعضُهم إلى قَفا

---

= البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٥، ٥١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٧).

قال البِقاعي: (﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ وهو ما يَسُرُّ الإنسانَ مِن المقاعِدِ العاليةِ المصنوعةِ للرَّاحةِ والكرامةِ، الَّتي هي آيةُ المُلْكِ، وهو العَرشُ ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: مَنسوجةٍ نَسْجًا مُضاعَفًا، مَنضودةٍ، داخِلٍ بَعضُها في بَعضٍ، مُقارِبةِ النَّسْجِ... لكِنْ نَسْجُها بالذَّهَبِ، مُفَصَّلًا بالجَوهَرِ مِنَ الدُّرِّ والياقوتِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٠٢).

وقال ابن عاشور: (السُّرُرُ: جَمعُ سَريرٍ، وهو كُرسيٌّ طَويلٌ مُتَّسِعٌ، يجلِسُ عليه المُتَّكِئُ والمُضطجِعُ، له سُوقٌ أربَعٌ، مُرتَفِعٌ على الأرضِ بنَحوِ ذِراعٍ، يُتَّخَذُ مِن مُختَلِفِ الأعوادِ، ويتَّخِذُه الملوكُ مِن ذَهَبٍ ومِن فِضَّةٍ، ومِن عاجٍ ومِن نَفيسِ العُودِ... والمَوضونةُ: المَسبوكُ بَعضُها ببَعضٍ، كما تُسبَكُ حِلَقُ الدُّروعِ، وإنَّما تُوضَنُ سُطوحُها، وهي ما بَينَ سُوقِها الأربَعِ، حيث تُلقى عليها الطَّنافِسُ أو الزَّرابيُّ؛ للجُلوسِ والاضطِجاعِ؛ لِيَكونَ ذلك المَفرَشُ وَثيرًا، فلا يُؤلِمَ المُضطجِعَ ولا الجالِسَ. وفَسَّرَ بَعضُهم ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ بمَرمولةٍ، أي: مَنسوجةٍ بقُضبانِ الذَّهَبِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٢، ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٢).

بَعضٍ؛ فليس أحَدٌ منهم وراءَ أحَدٍ[١]!

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٧].

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المُتَّكِئُ قد يَصعُبُ عليه القيامُ لحاجتِه؛ بَيَّنَ تعالى أنَّهم في غايةِ الرَّاحةِ، بقَولِه تعالى[٢]:

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: يَدورُ عليهم لخِدمتِهم وِلدانٌ صِغارٌ، لا يَهرَمونَ ولا يموتونَ[٣]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴾ [الإنسان: ١٩].

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مَدْحُهم هذا في غايةِ الإبلاغِ مع الإيجازِ، وكان فيه -إلى تبليغِ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٧).

قال السَّعدي: (﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا ﴾ أي: على تلك السُّرُر، جُلوسَ تمكُّنٍ وطُمأنينةٍ، وراحةٍ واستِقرارٍ. ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ وَجهُ كُلٍّ مِنهم إلى وَجهِ صاحِبِه؛ مِن صفاءِ قُلوبِهم، وحُسنِ أدَبِهم، وتَقابُلِ قُلوبِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٤، ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٣).

لهم- تحريكٌ إلى مِثْلِ أعمالِهم، وكان الأكلُ الَّذي هو مِن أعظَمِ المآرِبِ مُشارًا إليه بالمَدحِ العَظيمِ الَّذي مِن جُملتِه الاستِراحةُ على الأسِرَّةِ الَّتي عُلِمَ أنَّ مِن عادةِ الملوكِ أنَّهم لا يَتسَنَّمونَها إلَّا بعدَ قَضاءِ الوَطَرِ منه؛ فلم يَبْقَ بَعدَه إلَّا ما تدعو الحاجةُ إليه مِنَ المَشارِبِ وما يَتْبَعُها- قال تعالى[١]:

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾.

أي: يَطوفُ الوِلْدانُ عليهم بأكوابٍ مُستديرةٍ لا خراطيمَ لها ولا آذانَ، وأباريقَ يَبرُقُ لَونُها مِن صَفائِها، لها خراطيمُ وآذانٌ[٢].

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾.

أي: ويَطوفُ الوِلْدانُ عليهم بكُؤوسٍ مِن خَمرٍ ظاهِرةٍ جاريةٍ تَنبُعُ كما يَنبُعُ الماءُ، بلا انقِطاعٍ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٣، ٢٩٤).

قال البقاعي: (﴿بِأَكْوَابٍ﴾ أي: كِيزانٍ مُستديرةِ الأفواهِ بلا عُرًى ولا خَراطيمَ، لا يَعوقُ الشَّارِبَ منها عائِقٌ عن الشُّربِ مِن أيِّ مَوضِعٍ أراد منها، فلا يحتاجُ أن يحَوِّلَ الإناءَ عن الحالةِ الَّتي تَناوَله بها لِيَشرَبَ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٠٣). ويُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٣).

وقال ابنُ عاشور: (الأباريقُ: جَمعُ إبريقٍ، وهو إناءٌ تُحمَلُ فيه الخَمرُ للشَّارِبينَ، فتُصَبُّ في الأكوابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٤).

قال الزجاج: (الكأسُ: الإناءُ فيه الشَّرابُ، فإن لم يكُنْ فيه شَرابٌ فليس بكأسٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١١٠).

وقال ابن جُزَي: (وقيل: الكأسُ إناءٌ واسعُ الفَمِ، ليس له مِقْبَضٌ، سواءٌ كان فيه خمرٌ أمْ لا). =

كما قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ * لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٥ - ٤٧].

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أثبَتَ نَفْعَها وما يُشَوِّقُ إليها؛ نفَى ما يُنَفِّرُ عنها، فقال تعالى[١]:

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾.

أي: لا يَنشَأُ عن شُربِهم مِن تلك الخَمرِ صُداعٌ في رُؤوسِهم[٢].

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ بكَسرِ الزَّايِ، أي: لا يَسكَرونَ بها، أو: لا يَنفَدُ شَرابُهم[٣].

٢- قِراءةُ: ﴿وَلَا يُنْزَفُونَ﴾ بفَتحِ الزَّاي، قيل: لا تذْهبُ عُقولهم. أو: لا يسكرون. وقيل: لا تَتَغَيَّرُ ألوانُهم، وَقيل غيرُ ذلك[٤].

---

= ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

(٣) قرأ بها عاصِمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).
ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣١٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٨٦).

(٤) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧). =

﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾.

أي: لا يَسْكَرُ بها شارِبُوها، فتَزولَ عُقولُهم، ولا ينفَدُ شرابُهم[١].

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠﴾.

أي: ويَطوفُ عليهم الوِلْدانُ بفاكِهةٍ مِمَّا يَختارونَه مِن أصنافِ الفَواكِهِ الكَثيرةِ في الجَنَّةِ[٢].

---

= ويُنظر لمعنى هذه القِراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٣١٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٠٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٠٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير الرسعني)) (٦/ ٣٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

ذكَر الفرَّاءُ أنَّ ﴿يُنزِفُونَ﴾ لها معنيانِ: الأوَّلُ: مِن أنزفَ الرَّجلُ إذا فنِيتْ خَمْرُه، والثَّاني: مِن أنزفَ إذا ذهَب عقلُه. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ٣٨٥).

وممَّن اختار أنَّه على قراءةِ الكسرِ فالمعنى: لا يَنفَدُ شَرابُهم، ولا تفنَى خمرُهم: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، والعليمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٢٩٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٠٤).

وممن اختار أنَّ المعنَى: لا تذهبُ عقولُهم، ولا يسكرونَ: جلالُ الدِّين المحلِّي، وأبو السُّعودِ، والشَّوكاني، والقنوجي، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٠) ((تفسير القنوجي)) (١٣/ ٣٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

وممَّن جمَع بينَ المعنيينِ السَّابقينِ: السَّمرقندي، فقال: (لا تَذْهبُ عقولُهم، ولا ينفَدُ شرابُهم). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر ما جَرَت العادةُ بتَناوُلِه لمُجَرَّدِ اللَّذَّةِ؛ أتْبَعَه ما العادةُ أنَّه لإقامةِ البِنْيَةِ، وإنْ كان هناك لمجَرَّدِ اللَّذَّةِ أيضًا؛ فقال تعالى[1]:

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ويَطوفُ الوِلْدانُ عليهم بلَحْمِ طَيرٍ مِمَّا تَرغَبُ أنفُسُهم في أكْلِه[2].

قال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

وعن أنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُئِلَ عن الكَوثَرِ، فقال: نَهرٌ أعطانِيه رَبِّي، أشَدُّ بَياضًا مِنَ اللَّبَنِ، وأحلى مِنَ العَسَلِ، وفيه طَيرٌ كأعناقِ الجُزُرِ[3]! فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ تلك لَطَيرٌ ناعِمةٌ! فقال: أكَلَتُها أنعَمُ منها يا عُمَرُ!))[4].

---

= (٧/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٤).

قال السعدي: (أي: مِن كُلِّ صِنفٍ مِنَ الطُّيورِ يَشتَهونَه، ومِن أيِّ جِنسٍ مِن لَحمِه أرادوا، وإنْ شاؤوا مَشويًّا أو طَبيخًا أو غيرَ ذلك!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٣) الجُزُرُ: جَمعُ جَزُورٍ، وهو: ما يَصلُحُ للذَّبحِ مِنَ الإبِلِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٥٩١).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٤٢)، والنَّسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٧٠٣)، وأحمد (١٣٣٠٦) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (حَسَنٌ غَريبٌ). وقال الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥٤٢): (حَسَنٌ =

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا لم يَكُنْ بعْدَ الأكلِ والشَّرابِ أشهَى مِنَ النِّساءِ؛ قال تعالى[1]:

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾ بالخَفضِ، قيل: المعنى: ويُطافُ عليهم بِحُورٍ عِينٍ. وقيل: المعنى: يُنعَّمونَ بحُورٍ عِينٍ، أو يُكرَمونَ بحُورٍ عِينٍ. وقيل هي عَطفٌ على قَولِه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٢]، على تقديرِ: أولئك المُقَرَّبونَ في جنَّاتِ النَّعيمِ، وفي حُورٍ عِينٍ، أي: في مُقارَنةِ حُورٍ عِينٍ، أو مُباشَرةِ حُورٍ عِينٍ[2].

---

= صَحيحٌ). وصَحَّح إسنادَه شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢١/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٤).

(٢) قرأ بها أبو جعفرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٢).

وقال ابنُ كثير: (وقراءةُ الجَرِّ تحتَمِلُ مَعنَيَينِ؛ أحَدُهما: أن يكونَ الإعرابُ على الإتْباعِ لِما قَبْلَه؛ لِقَولِه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ﴾، كما قال: ﴿وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة: ٦] [على قراءةِ الجَرِّ]، وكما قال: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١]. [على قراءةِ الجَرِّ]. والاحتِمالُ الثَّاني: أن يكونَ مِمَّا يَطوفُ به الوِلْدانُ المخَلَّدونَ عليهم: الحُورُ العِينُ، ولكِنْ يكونُ ذلك في القُصورِ، لا بيْن بَعضِهم بَعضًا، بل في الخيامِ يطوفُ عليهم الخُدَّامُ بالحُورِ العِينِ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤).

٢- قِراءةُ: ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ بالرَّفعِ، على معنى: ولهم حُورٌ عِينٌ، أو: وعِندَهم حُورٌ عِينٌ. وقيل: هو مَعطوفٌ على ﴿وِلْدَٰنٌ﴾، والمعنى: ويَطوفُ عليهم حُورٌ عِينٌ(١).

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: ولهم نِساءٌ بِيضٌ، شَديدٌ سوادُ أعيُنِهِنَّ وبَياضُها، واسِعاتُ الأعيُنِ معَ حُسنِها(٢).

﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: وهُنَّ في بَياضِهِنَّ وجَمالِهِنَّ وصَفائِهِنَّ يُشبِهْنَ الدُّرَّ الأبيَضَ الصَّافيَ المُتَلألِئَ المَستورَ عن لَمسِ الأيدي، وإصابةِ الغُبارِ والشَّمسِ والرِّياحِ(٣)!

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٠)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٤٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٦٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

الحُورُ جَمعُ حَوراءَ، قيل: هي المرأةُ البيضاءُ النَّقيَّةُ البياضِ.

وقيل: الحَوراءُ: الشَّديدةُ بَياضِ العَينِ، والشَّديدةُ سَوادِ سَوادِ العَينِ.

وقيل جمعًا بينَ القولينِ السابقينِ: هي البيضاءُ القويَّةُ بَياضِ بياضِ العَينِ، وسوادِ سَوادِها.

والعِينُ: جمعُ عَيناءَ، وهي العظيمةُ العَينِ في حُسنٍ وسَعةٍ.

وقيل: المرادُ بالعِينِ حِسانُ الأعيُنِ.

ويُنظَرُ ما تقدَّمَ في سورةِ (الدُّخَان) الآية (٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٤).

ممَّن نصَّ على أنَّ المرادَ بالمكنونِ: أي: في أصدافِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحدي، =

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أبلَغَ في وَصفِ جَزائِهم بالحُسْنِ والصَّفاءِ؛ دَلَّ على أنَّ أعمالَهم كانت كذلك؛ لأنَّ الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فقال تعالى[1]:

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾.

أي: إنَّما كانت جَنَّاتُ النَّعيمِ ثوابًا لأولئك السَّابِقينَ المُقَرَّبينَ؛ بسَبَبِ أعمالِهم الصَّالِحةِ الَّتي كانوا يَعمَلونَها في الدُّنيا[2].

قال تعالى: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥﴾.

---

= والسمعاني، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٠٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١، ٤١).

قال الألوسي: (وقُيِّد بالمكنونِ -أي: المستورِ بما يَحفَظُه؛ لأنَّه أصفى وأبعَدُ مِن التَّغيُّرِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٤).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها تكملةٌ لوصفِ النَّعيمِ بذِكْرِ نعمةٍ رُوحيَّةٍ؛ فإنَّ سَلامةَ النَّفْسِ مِن سَماعِ ما لا يُحَبُّ سَماعُه، ومِن سَماعِ ما يُكرَهُ سَماعُه مِنَ الأذى: نِعمةٌ براحةِ البالِ، وشُغلِه بسَماعِ المَحْبوبِ(١).

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: لا يَسمَعونَ في تلك الجَنَّاتِ كَلامًا باطِلًا لا يَنفَعُهم، ولا يَسمَعونَ فيها كَلامًا يَجلِبُ عليهم الإثمَ، فيَضُرُّهم(٢).

قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً﴾ [الغاشية: ١٠، ١١].

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه أتْبَع ذِكرَ النِّعمةِ السَّابِقةِ بذِكرِ نِعمةٍ أُخرى مِنَ الإنعامِ بالمَسموعِ الَّذي يُفيدُ الكَرامةَ؛ لأنَّ الإكرامَ لَذَّةٌ رُوحيَّةٌ، يَكسِبُ النَّفْسَ عِزَّةً وإدلالًا؛ بقَولِه تعالى(٣):

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: إنَّما يَسمَعُ أهلُ الجَنَّةِ فيها التَّسليمَ، والقَولَ السَّالِمَ مِنَ اللَّغْوِ والتَّأثيمِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٤، ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٠، ٤٠٣)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ بِشارةٌ للمُسلِمينَ بأنَّ حَظَّهم في هذا الصِّنفِ كحَظِّ المُؤمِنينَ السَّالِفينَ -أصحابِ الرُّسُلِ-؛ لأنَّ المُسلِمينَ كانوا قد سَمِعوا في القُرآنِ وفي أحاديثِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تنويهًا بثَباتِ

---

= القرطبي)) (١٧/ ٢٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٥، ٣٣٦).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المرادَ هنا: التَّسليمُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، وابنُ عاشور، وهو ظاهِرُ اختيارِ الشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥١، ١٥٢) و(٣/ ٤٦٦) و(٧/ ٥١٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤١).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المرادَ: عُمومُ الكلامِ السَّالمِ مِنَ اللَّغوِ والإثمِ: الواحديُّ، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٣٦).

وظاهِرُ عبارةِ ابنِ كثيرٍ الجَمعُ بيْنَ المَعنَيَينِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥).

قال ابنُ القيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ وهذا فيه نَفيٌ لِسَماعِ اللَّغْوِ والتَّأثيمِ، وإثباتٌ لضِدِّه، وهو السَّلامُ المُنافي لهما، فالمَقصودُ به نَفيُ شَيءٍ، وإثباتُ ضِدِّه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٦٩).

وقال السعدي: (﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ أي: إلَّا كلامًا طيِّبًا؛ وذلك لأنَّها دارُ الطَّيِّبينَ، ولا يكونُ فيها إلَّا كلُّ طيِّبٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

المُؤمِنينَ السَّالِفينَ مع الرُّسُلِ ومُجاهَدتِهم؛ فرُبَّما خامَرَ نُفوسَهم أنَّ تلك صِفةٌ لا تُنالُ بَعْدَهم، فبَشَّرَهم اللهُ بأنَّ لهم حَظًّا منها، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤ - ١٤٦] وغَيرِها؛ تلهيبًا للمُسلِمينَ، وإذكاءً لِهِمَمِهم في الأخذِ بما يُلحِقُهم بأمثالِ السَّابِقينَ مِن الأوَّلِينَ، فيَستَكثِرونَ مِن تلك الأعمالِ[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- قال تعالى: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴾ قولُه: ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿ عَلَىٰ ﴾ مِن قولِه: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴾، وهو العاملُ فيها، أي: استَقرُّوا عليها مُتَّكِئينَ مُتَقابِلينَ، لا يَنظُرُ بَعضُهم في أقْفاءِ بَعضٍ، وُصِفوا بحُسنِ العِشرةِ، وتَهذيبِ الأخلاقِ والآدابِ[2]، فلَدَيهم مِن كَمالِ الأدَبِ ما لا يُمكِنُ أنْ يَستَدبِرَ أحدُهم الآخَرَ، كلُّهم مُؤَدَّبونَ، كلُّهم قُلوبٌ صافيةٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧] ولو أنَّ أحدًا يُكَلِّمُك وقد ولَّاك ظَهْرَه، هل يكونُ سماعُك له ومحبَّتُك له كما لو كان يُحَدِّثُك مُستَقبِلًا إيَّاك؟ وهذا شيءٌ مُشاهَدٌ مَعلومٌ[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلسَّـٰبِقُونَ * أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ أنَّ كلَّ شيءٍ يُخالِفُ الإسلامَ فهو تأخُّرٌ، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٢).

وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ [التوبة: ١٠٠] هؤلاء هم أهلُ السَّبْقِ، هم أهلُ التَّقَدُّمِ، هم أهلُ السَّعادةِ والفَلاحِ في الدُّنيا والآخِرةِ، أمَّا مَن خَرَجَ عن سَبيلِهم فهو في تأخُّرٍ، إلَّا أنْ يُرادَ بالتَّقَدُّمِ أنَّه كما قال اللهُ تعالى في فِرعَونَ: ﴿يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴾[1] [هود: ٩٨]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ ذَكَرَ سُبحانَه مَنزِلتَهم قبْلَ ذِكْرِ مَنزِلِهم، وكما يقالُ: الجارُ قبْلَ الدَّارِ، وكما قالتِ امرأةُ فِرعَونَ: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ﴾ [التحريم: ١١] بدأتْ بالجِوارِ ﴿لِي عِندَكَ ﴾، وهنا قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ قبْلَ أنْ يَبدأَ بذِكرِ الثَّوابِ؛ لأنَّ قُربَهم مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ فوقَ كلِّ شيءٍ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أضاف الجَنَّاتِ إلى النَّعيمِ؛ لأنَّ ساكِنَها مُنَعَّمٌ في بَدَنِه، ومُنَعَّمٌ في قَلْبِه، كما قال عزَّ وجلَّ في سورةِ (الإنسانِ): ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا * فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴾ [الإنسان: ١٠، ١١]؛ نَضرةً في الوُجوهِ، وسُرورًا في القُلوبِ، فهم في نِعمَتَينِ؛ هما: نَعيمُ البَدَنِ، ونَعيمُ القَلبِ[3].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ دَلالةٌ على فَضلِ صَدرِ هذه الأُمَّةِ -في الجُملةِ- على مُتأخِّريها؛ لِكَونِ المُقَرَّبينَ مِنَ الأوَّلينَ أكثَرَ مِنَ المتأخِّرينَ[4]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٥/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: تَبشيرٌ ببَعضِ ما لهم مِنَ النَّعيمِ مِمَّا تَشتاقُ إليه النُّفوسُ في هذه الحياةِ الدُّنيا؛ لِتَشويقِهم إلى هذا المَصيرِ، فيَسْعَوا لنوالِه بصالحِ الأعمالِ، وليس الاقتِصارُ على المذكورِ هنا بمُقتَضٍ حَصْرَ النَّعيمِ فيما ذُكِرَ؛ فقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾[1] [الزخرف: ٧١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ أنَّ مِن تمامِ اللَّذَّةِ والنَّعيمِ أنْ يكونَ مع الإنسانِ في بُستانِه ومَنزِلِه مَن يُحِبُّ مُعاشَرتَه، ويُؤْثِرُ قُربَه، ولا يكونَ بَعيدًا منه، قد حِيلَ بَيْنَه وبيْنَه، بل سريرُه إلى جانبِ سَريرِ مَن يُحِبُّه[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ دَلالةٌ على سَعةِ المكانِ؛ لأنَّ المكانَ إذا كان ضَيِّقًا فلا يُمكِنُ أنْ يكونَ النَّاسُ مُتقابِلينَ، والجَنَّةُ عَرضُها كعَرضِ السَّمَواتِ والأرضِ، ومَن يحيطُ بسَماءٍ واحدةٍ؟! كيف وهي عَرضُ السَّمَواتِ السَّبْعِ، والسَّمواتُ السَّبْعُ بعضُها مِن فَوقِ بعضٍ، وكُلَّما كان الشَّيءُ فَوقَ كانت دائِرتُه أوسَعَ، فمَن يحيطُ بهذا إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ؟! إذَنْ هم مُتقابِلونَ؛ لأنَّ أمكِنتَهم واسِعةٌ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ التَّخليدَ لا يَختَصُّ بالوِلْدانِ في الجنَّةِ؟!

**الجَوابُ**: مَعناه: أنَّهم لا يَتحَوَّلونَ عن شَكلِ الوِلْدانِ[4]، فهم مُخلَّدونَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٨).

صفةِ الوِلْدانِ، أي: بالشَّبابِ والغضاضةِ، أي: ليسوا كوِلْدانِ الدُّنيا يَصيرونَ قريبًا فِتيانًا، فكُهولًا، فشُيوخًا. فهم دائِمونَ على الطَّوافِ عليهم ومُناوَلتِهم، لا يَنقطِعون عن ذلك. وإذ قد أَلِفوا رؤيتَهم؛ فمِنَ النِّعمةِ دَوامُهم معهم(١).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ دليلٌ على جوازِ أكلِ الفاكِهةِ على صِفةِ التَّخَيُّرِ، وهو مُستثنًى مِنَ الأكلِ مِمَّا يلي(٢).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ لطيفةٌ: وهي أنَّه تعالى قال: ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾، ولم يَقُلْ: «ممَّا يَختارونَ» مع قُربِ أحَدِهما إلى الآخَرِ في المعنى، وهو أنَّ التَّخَيُّرَ مِن بابِ التَّكَلُّفِ، فكأنَّهم يأخُذونَ ما يكونُ في نهايةِ الكَمالِ، وهذا لا يُوجَدُ إلَّا مِمَّن لا يكونُ له حاجةٌ ولا اضطِرارٌ(٣).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ لَمَّا كان في لَحمِ الطَّيرِ مِمَّا يُرغَبُ عنه، احتَرَز عنه بقَولِه: ﴿مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: غايةَ الشَّهوةِ، بحيثُ يَجِدونَ لآخِرِه مِنَ اللَّذَّةِ ما لأَوَّلِه(٤).

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الصَّفاءَ والرِّقَّةَ مَدْحٌ في الأشخاصِ(٥).

١٣- قَولُه تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فيه أنَّ العملَ سببٌ للثَّوابِ، فالباءُ للسَّبَبِ(٦)، وأنَّه كما حَسُنَت منهم الأعمالُ، أحسَنَ اللهُ لهم الجزاءَ، ووَفَّرَ لهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٠)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٠)

(٦) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ١٤٥).

الفَوزَ والنَّعيمَ[١].

١٤- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ دليلٌ على حُسنِ أدَبِ أهلِ الجنَّةِ في خِطابِهم فيما بَيْنَهم؛ وأنَّه أطيَبُ كَلامٍ، وأسَرُّه للنُّفوسِ، وأسلَمُه مِن كُلِّ لَغوٍ وإثمٍ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ هو القِسمُ الثَّالثُ مِن الأزواجِ الثَّلاثةِ، ولعلَّ تأْخيرَ ذِكرِهم مع كَونِهم أسبَقَ الأقسامِ، وأقدَمَهم في الفضلِ؛ لِيَقترِنَ ذِكرُهم ببَيانِ مَحاسِنِ أحوالِهم، على أنَّ إيرادَهم بعُنوانِ السَّبقِ مُطْلَقًا مُعرِبٌ عن إحرازِهم لقَصَبِ السَّبقِ مِن جَميعِ الوجوهِ[٣].

أو: أُخِّرَ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ في الذِّكرِ عن أصحابِ اليمينِ؛ لتَشويقِ السَّامِعينَ إلى مَعرفةِ صِنفِهم بعْدَ أنْ ذُكِرَ الصِّنفانِ الآخَرانِ مِن الأصنافِ الثلاثةِ؛ تَرغيبًا في الاقتِداءِ[٤].

- وقولُه: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ ثانيًا يَجوزُ جعْلُه خبَرًا عن ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأوَّلِ، كما أُخبِرَ عن أصحابِ المَيمنةِ بأنَّهم ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨]؛ لأنَّه يدُلُّ على وصْفِهم بشَيءٍ لا يُكْتَنَهُ كُنْهُه، بحيث لا يَفي به التَّعبيرُ بعبارةٍ غيرِ تلك الصِّفةِ؛ إذ هي أقْصى ما يَسَعُه التَّعبيرُ، فإذا أراد السَّامعُ أنْ يَتصوَّرَ صِفاتِهم، فعليهِ أنْ يَتدبَّرَ حالَهم. ويَجوزُ جَعْلُه تأْكيدًا للأوَّلِ، فمآلُ جُملةِ ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٨).

ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾، ونَظيرتِها ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾، وجُملةِ ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ هو التَّعجيبُ مِن حالِهم، وطَريقُه هو الكِنايةُ، ولكنَّ بيْن الكنايتَين فرْقًا بأنَّ إحداهما كانتْ مِن طريقِ السُّؤالِ عن الوصْفِ، والأُخرى مِن طَريقِ تَعذُّرِ التَّعبيرِ بغيرِ ذلك الوصْفِ، والمعْنى: أنَّ حالَهم بلَغَت مُنتهَى الفضْلِ والرِّفعةِ، بحيث لا يَجِدُ المُتكلِّمُ خبَرًا يُخبِرُ به عنهم أدَلَّ على مَرتبتِهم مِن اسمِ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾، فهذا الخبَرُ أبلغُ في الدَّلالةِ على شرَفِ قدْرِهم مِن الإخبارِ بـ (ما) الاستِفهاميَّةِ التَّعجيبيَّةِ في قولِه: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾، ألَا ترى كيف سبَقَ بَسْط حالِ السَّابقينَ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾، فجمعَ بيْنَ اسمِ الإشارةِ المشارِ به إلى مَعروفٍ، وبيْنَ الإخبارِ عنه بقولِه: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ مُعرَّفًا بالألِفِ واللَّامِ العهديَّةِ، وليس مِثلُ هذا مَذكورًا في بَسْطِ حالِ أصحابِ اليمينِ؛ فإنَّه مُصدَّرٌ بقولِه: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ [الواقعة: ٢٨]، معَ ما في اشتِقاقِ لَقَبِهم مِن (السَّبْق) مِن الدَّلالةِ على بُلوغِهم أقْصى ما يَطلُبُه الطَّالِبون(١).

- ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ مُستعمَلًا في المُبادَرةِ والإسراعِ إلى الخَيرِ في الدِّينِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ مُستعمَلًا في المُغالَبةِ في تَحصيلِ الخَيرِ(٢).

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ في الآيةِ؛ لقصْدِ جَعْلِ وَصْفِ ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ ﴾ بمَنزلةِ اللَّقَبِ لهم، وليُفِيدَ العُمومَ، أي: إنَّهم سابِقون في كلِّ مَيدانٍ تَتسابَقُ إليه النُّفوسُ الزَّكيَّةُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المنيِّر)) (٤/ ٤٥٧، ٤٥٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٦، ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٨٧).

- جُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّها جَوابٌ عمَّا يُثيرُه قولُه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ مِن تَساؤُلِ السَّامعِ عن أثَرِ التَّنويهِ بهم، وبذلك كان هذا ابتداءَ تَفصيلٍ لجَزاءِ الأصنافِ الثَّلاثةِ على طَريقةِ النَّشرِ بعْدَ اللَّفِّ[1]، اقتَضَتْه مُناسَبةُ اتِّصالِ المَعاني بالنِّسبةِ إلى كلِّ صِنفٍ أقرَبَ ذِكرًا، ثمَّ مُراعاةُ الأهمِّ بالنِّسبةِ إلى الصِّنفينِ الباقيَينِ؛ فكان

(١) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكَرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرَ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضَ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلِّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفْقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوسِ»- هو: أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرَتَّبٍ؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى، ومتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ، ومُتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ، ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

بَعضُ الكلامِ آخِذًا بِحُجَزِ بَعضٍ[١].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، المُقرَّبُ: أبلَغُ مِن القريبِ؛ لدَلالةِ صِيغتِه على الاصطفاءِ والاجتباءِ[٢].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى السَّابقينَ، وما فيه مِن معْنى البُعدِ مع قُرْبِ العهْدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِهم في الفضْلِ[٣]، وفي جَعْلِ المُسنَدِ إليه اسمَ إشارةٍ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تَنبيهٌ على أنَّهم أحْرياءُ بما يُخبَرُ عنه مِن أجْلِ الوصْفِ الوارِدِ قبْلَ اسمِ الإشارةِ، وهو أنَّهم السَّابقونَ[٤].

- ولم يُذكَرْ مُتعلَّقُ ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾؛ لظُهورِ أنَّه مُقرَّبٌ مِن اللهِ[٥].

- قولُه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾، أو بمُضمَرٍ هو حالٌ مِن ضَميرِه، أي: كائنينَ في جنَّاتِ النَّعيمِ، وإيقاعُ قولِه: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بعْدَ وصْفِ ﴿ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ مُشيرٌ إلى أنَّ مَضمونَه مِن آثارِ التَّقريبِ المذكورِ[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ وَقَلِيلٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٢] وجُملةِ ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ﴾ [الواقعة: ١٥]، وهذا الاعتِراضُ يُقصَدُ منه التَّنويهُ بصِنفِ السَّابقينَ، وتَفضيلُهم بطَريقِ الكِنايةِ عن ذلك بلَفْظَيْ ﴿ثُلَّةٞ﴾ ﴿وَقَلِيلٞ﴾ المُشعِرَينِ بأنَّهم قُلٌّ مِن كُثْرٍ، فيَستلزِمُ ذلك أنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠).

صِنفٌ عَزيزٌ نَفيسٌ؛ لِما عُهِدَ في العُرفِ مِن قِلَّةِ الأشياءِ النَّفيسةِ[١].

- و﴿ ثُلَّةٌ ﴾ خبَرٌ عن مُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: همْ ثُلَّةٌ، ومَعادُ الضَّميرِ المُقدَّرِ (السَّابِقون)، أي: السَّابقونَ ثُلَّةٌ مِن الأوَّلينَ، وقَليلٌ مِن الآخِرينَ[٢].

- ولِما في هذا الاعتِراضِ مِن الإشعارِ بالعِزَّةِ، قُدِّمَ على ذِكرِ ما لهم مِن النَّعيمِ؛ للإشارةِ إلى عَظيمِ كَيفيَّتِه المُناسِبةِ لوَصْفِهم بالسَّابقينَ، بخلافِ ما يَأتي في أصحابِ اليمينِ[٣].

- و(مِن) في قولِه: ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ تَبعيضيَّةٌ، فاقْتَضى أنَّ السَّابقينَ في الأزْمنةِ الماضيةِ وزَمانِ الإسلامِ حاضِرِه ومُستقبَلِه، بَعضٌ مِن كلٍّ، والبَعضيَّةُ تَقْتضي القِلَّةَ النِّسبيَّةَ، ولَفظُ ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ مُشعِرٌ بذلك، ولَفظُ (قَلِيلٌ) صَريحٌ فيه، وإنَّما قُوبِلَ لَفظُ ﴿ ثُلَّةٌ ﴾ بلَفظِ (قَلِيلٌ)؛ للإشارةِ إلى أنَّ الثُّلَّةَ أكثَرُ منه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ * مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ * لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ * وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ * جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٩١).

- قولُه: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[1] [الواقعة: ١٢].

- قولُه: ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ الكأْسُ جِنسٌ يَصدُقُ بالواحدِ والمُتعدِّدِ، فليس إفرادُه هنا للوَحدةِ؛ فإنَّ المُرادَ كُؤوسٌ كَثيرةٌ كما اقتَضاهُ جمْعُ أكوابٍ وأباريقَ، فإذا كانت آنيةُ حمْلِ الخمْرِ كَثيرةً كانت كُؤوسُ الشَّاربينَ أكثَرَ، وإنَّما أُوثِرَت صِيغةُ المُفرَدِ؛ لأنَّ في لَفظِ (كُؤوس) ثِقَلًا بوُجودِ همْزةٍ مَضمومةٍ في وَسَطِه مع ثِقَلِ صِيغةِ الجمْعِ[2]. وقيلَ: إنَّما أفرَدَ الكأْسَ؛ لأنَّها لا تُسمَّى كأْسًا إلَّا إذا كانتْ مَمْلوءةً[3].

- في قولِه: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ فنُّ الإيجازِ، فجُمِعَ في هاتَينِ الكَلمتينِ جَميعُ عُيوبِ الخمْرِ في الدُّنيا[4].

- ومعْنى ﴿عَنْهَا﴾ مُجاوزينَ لها، أي: لا يقَعُ لهم صُداعٌ ناشئٌ عنها، أي: فهي مُنزَّهةٌ عن ذلك، بخِلافِ خُمورِ الدُّنيا، فاستُعْمِلَت (عن) في معْنى السَّببيَّةِ، وعُطِفَ ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ على ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾ عنها، فيُقدَّرُ له مُتعلَّقٌ دلَّ عليه مُتعلَّقُ ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ﴾؛ فقد قال في سُورةِ (الصَّافاتِ): ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٧]، أي: لا يَعتَريهم نَزْفٌ بسَببِها كما يَحصُلُ للشَّاربينَ في الدُّنيا[5].

- و(ما يَتخيَّرون) هو الجِنسُ الَّذي يَختارونه ويَشْتهونَه، أي: يَطوفون عليهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٤).

بفاكهةٍ مِن الأنواعِ الَّتي يَختارونها؛ ففِعلُ ﴿يَتَخَيَّرُونَ﴾ يُفيدُ قُوَّةَ الاختيارِ[١].

- قولُه: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ﴾ ذكَر لحمَ الطَّيرِ؛ لأنَّ لحومَ الطَّيرِ أنعمُ اللُّحومِ وألَذُّها، وأشهاها وأعزُّها[٢].

- قولُه: ﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ الاشتِهاءُ: مَصدرُ اشْتَهى، وهو افتِعالٌ مِن الشَّهوةِ الَّتي هي مَحبَّةُ نَيلِ شَيءٍ مَرغوبٍ فيه مِن مَحسوساتٍ ومعْنوياتٍ، يُقالُ: شَهِيَ كرَضِيَ، وشَها كدَعا، والأكثرُ أنْ يُقالَ: اشْتَهى، والافتِعالُ فيه للمُبالَغةِ[٣].

- وتَقديمُ ذِكرِ الفاكهةِ على ذِكرِ اللَّحمِ قد يكونُ لأنَّ الفواكِهَ أعَزُّ، وبهذا يَظهَرُ وجْهُ المُخالَفةِ بيْن الفاكهةِ ولَحمِ طَيرٍ، فجُعِلَ التَّخيُّرُ للأوَّلِ، والاشتِهاءُ للثَّاني؛ لأنَّ الاشتِهاءَ أعلَقُ بالطَّعامِ منه بالفواكهِ؛ فلَذَّةُ كَسرِ الشَّاهيةِ بالطَّعامِ لَذَّةٌ زائدةٌ على لَذَّةِ حُسنِ طَعمِه، وكثرةُ التَّخيُّرِ للفاكهةِ هي لَذَّةُ تَلوينِ الأصنافِ[٤]؛ فإنَّ اللَّحمَ والفاكِهةَ إذا حَضَرا عندَ الجائعِ تميلُ نفْسُه إلى اللَّحمِ، وإذا حضَرَا عند الشَّبعانِ تَميلُ نفْسُه إلى الفاكِهةِ؛ فالجائِعُ مُشتَهٍ، والشَّبعانُ غيرُ مُشتَهٍ، بل هو مختارٌ، وأهلُ الجنَّةِ إنَّما يأكُلونَ لا مِن جُوعٍ، بل للتفَكُّهِ؛ فمَيلُهم للفاكِهةِ أكثَرُ، فيتخَيَّرونَها؛ ولهذا ذُكِرَت في مواضِعَ كَثيرةٍ في القرآنِ، بخِلافِ اللَّحمِ، وإذا اشتهاه حَضَر بيْن يديه على ما يَشتَهيه، فتَميلُ نفْسُه إليه أَدنى مَيلٍ، فالفاكِهةُ تَلَذُّ الأعيُنُ بحُضورِها، واللَّحمُ لا تلَذُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأعيُنُ بحُضورِه؛ ولهذا قدَّم الفاكِهةَ على اللَّحمِ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ مُجمَلٌ[٢]، ووَجْهُ الشَّبَهِ هو الصَّونُ[٣].

- والأمثالُ: الأشباهُ. ودُخولُ كافِ التَّشبيهِ على (أمثال) للتَّأكيدِ، والمعْنى: هنَّ أمثالُ اللُّؤلؤِ المكنونِ[٤].

- ووَصَفَ اللُّؤلُؤَ بالمَكنونِ؛ لأنَّه أصْفَى وأبْعَدُ مِن التَّغيُّرِ[٥].

- قولُه: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، انتصَبَ ﴿جَزَآءَۢ﴾ على المفعولِ لأجْلِه لِفعلٍ مُقدَّرٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١١]، أي: أعطَيْناهم ذلك جَزاءً. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿جَزَآءَۢ﴾ مَصدرًا جاء بدَلًا عن فِعلِه، والتَّقديرُ: جازَيْناهم جَزاءً. والجُملةُ على التَّقديرَينِ اعتِراضٌ يُفيدُ إظهارَ كَرامتِهم، بحيثُ جُعِلَتْ أصنافُ النَّعيمِ الَّذي حُظُوا به جَزاءً على عمَلٍ قَدَّموه، وذلك إتمامٌ لكَونِهم مُقرَّبينَ[٦].

- قولُه: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾، فيه (تأْكيدُ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه) المُشتهرُ في البَديعِ باسمِ (تأْكيدِ المدْحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ[٧])،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٣٩٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٤).

(٢) تقدَّم تعريفه (ص: ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٦).

(٧) تأكيدُ المدحِ بما يُشبه الذمَّ- أو: تأكيد الشَّيءِ بما يُشبه ضِدَّه-: هو عند عُلماءِ البلاغةِ استِثناءُ صِفة مَدْحٍ مِن صِفةِ ذمٍّ منفيَّةٍ عن الشَّيء، بتقديرِ دُخولِها في صِفة الذمِّ المنفيَّة. يُنظر: ((البرهان)) =

بأنْ يُستثنَى مِن صفةِ ذمٍّ مَنْفِيَّةٍ عن الشَّيءِ صِفةُ مدحٍ بتقديرِ دُخولِها فيها، وله مَوقعٌ عَظيمٌ مِن البَلاغةِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيث قال تَعالى هنا: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾، وقال تعالى في سُورةِ (النَّبأِ): ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥]؛ ووجْهُ الفرْقِ بيْنَهما: أنَّ الكِذَّابَ كثيرُ التَّكذيبِ، ومعْناه -هناك-: أنَّهم لا يَسمَعون كذِبًا، ولا أحدًا يقولُ لآخَرَ: كذَبْتَ. وفائدتُه: أنَّهم لا يَعرِفون كذِبًا مِن مُعيَّنٍ مِن النَّاسِ، ولا مِن واحدٍ منهم غيرِ مُعيَّنٍ؛ لتَفاوُتِ حالِهم وحالِ الدُّنيا؛ فإنَّا نَعلَمُ أنَّ بَعضَ النَّاسِ بأعْيانِهم كذَّابون، فإنْ لم نَعرِفْ ذلك نَقطَعُ بأنَّ في النَّاسِ كذَّابًا؛ لأنَّ أحدَهم يقولُ لصاحِبِه: كذَبْتَ، فإنْ صدَقَ فصاحبُه كذَّابٌ، وإنْ لم يَصدُقْ فهو كاذبٌ، فيُعلَمُ أنَّ في الدُّنيا كذَّابًا بعَينِه أو بغيرِ عَينِه، ولا كذلك في الآخرةِ؛ فلا كَذِبَ فيها. وقال هاهنا: ﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾، وهو أبلَغُ مِن التَّكذيبِ؛ فإنَّ مَن يقولُ في حقِّ مَن لا يَعرِفُه: إنَّه زانٍ، أو شاربُ الخَمرِ -مثلًا-؛ فإنَّه يَأثَمُ -وقد يكونُ صادقًا-، فالَّذي ليس عن عِلمٍ: إثمٌ، فلا يقولُ أحدٌ لأحدٍ: قُلْتَ ما لا عِلمَ لك به، فالكلامُ هاهنا أبلَغُ؛ لأنَّه قَصَرَ السُّورةَ على بَيانِ أحوالِ الأقسامِ؛ لأنَّ المذكورينَ هنا هم السَّابقون، وفي سُورةِ (النَّبأِ) هم المتَّقون، والسَّابقُ فوقَ المتَّقي(٢).

- القيلُ اسمٌ لقولٍ لم يُعلَمْ قائِلُه؛ لذا قال: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ لعدَمِ اختِصاصِ هذا القولِ بقائلٍ دونَ قائلٍ، فيُسمَعُ هذا القولُ دائمًا مِن الملائكةِ والنَّاسِ،

---

= للزركشي (٣/ ٥١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٥٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (٢/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلَٰمٌ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[١] [يس: ٥٨].

- وقولُه: ﴿سَلَٰمًا﴾ الأوَّلُ مَقُولُ ﴿قِيلًا﴾، أي: هذا اللَّفظُ الَّذي تَقديرُه: سلَّمْنا سَلامًا، فهو جُملةٌ مَحكيَّةٌ بالقولِ، و﴿سَلَٰمًا﴾ الثَّاني تَكريرٌ لـ﴿سَلَٰمًا﴾ الأوَّلِ تَكريرًا ليس للتَّأكيدِ، بلْ لإفادةِ التَّعاقُبِ، أي: سَلامًا إثرَ سَلامٍ، أو مُشارًا به إلى كَثرةِ المُسَلِّمينَ، فهو مُؤْذِنٌ -مع الكرامةِ- بأنَّهم مُعظَّمونَ مُبجَّلون، والفرقُ بيْنَ الوَجهَينِ أنَّ الأوَّلَ يُفيدُ التَّكريرَ بتَكريرِ الأزمنةِ، والثَّانيَ يُفيدُ التَّكرارَ بتَكرارِ المسَلِّمينَ. وقيل: التَّكرارُ للدَّلالةِ على فُشُوِّ السَّلامِ بيْنَهم[٢].

وقيل: فائِدةُ تَكريرِ السَّلامِ الإشارةُ إلى تمامِ النِّعْمةِ؛ وذلك لأنَّ أثَرَ السَّلامِ في الدُّنيا لا يَتِمُّ إلَّا بالتَّسليمِ ورَدِّ السَّلامِ، فكما أنَّ أحَدَ المُتلاقِيَينِ في الدُّنيا يقولُ للآخَرِ: السَّلامُ عليك، فيَقولُ الآخَرُ: وعليك السَّلامُ، فكذلك في الآخِرةِ يَقولونَ: ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾[٣].

- وإنَّما جِيءَ بلفظِ ﴿سَلَٰمًا﴾ مَنصوبًا دونَ الرَّفعِ، مع كَونِ الرَّفعِ أدلَّ على المُبالَغةِ -كما ذكَروه في قولِه: ﴿قَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾ في سُورةِ (هودٍ) [٦٩]، وسُورةِ (الذَّارياتِ) [٢٥]: ﴿فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ﴾-؛ لأنَّه أُرِيدَ جَعْلُه بدَلًا مِن ﴿قِيلًا﴾[٤].

وقيل: الفرقُ بيْن قولِه تَعالى: ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ -بنصْبِهما-، وبيْن قولِه تَعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٧).

﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ﴾ [هود: ٦٩]؛ أنَّ قولَه: (سلامٌ عليك) أتمُّ وأبلَغُ مِن قولِهم: (سلامًا عليك)؛ فإبراهيمُ عليه السَّلامُ أراد أنْ يَتفضَّلَ عليهم بالذِّكرِ، ويُجيبَهم بأحسَنَ ممَّا حَيَّوا -وذلك على قولٍ-، وأمَّا هنا فلا يَتفضَّلُ أحدٌ مِن أهلِ الجنَّةِ على الآخَرِ مِثلَ التَّفضُّلِ في تلك الصُّورةِ؛ إذ هم مِن جِنسٍ واحدٍ -وهم المؤمنون-، ولا يَنسُبُ أحدٌ إلى أحدٍ تَقصيرًا[١].

- وأيضًا قال اللهُ تعالى في سُورةِ (يس): ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨] ولم يكُنْ له رَدٌّ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ تَسليمَ اللهِ على عبْدِه مُؤمِّنٌ له، فأمَّا اللهُ تَعالى فهو مُنزَّهٌ عن أنْ يُؤمِّنَه أحدٌ، بل الرَّدُّ -إنْ كان- فهو قولُ المؤمَّنِ: سلامٌ عَلينا وعلى عِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٧-٤٠)

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِدْرٍ﴾: أي: شَجَرِ نَبْقٍ[١].

﴿مَّخْضُودٍ﴾: أي: مَنْزوعِ الشَّوكِ، والخَضْدُ: كَسرُ الشَّيءِ اللَّيِّنِ، وأصلُ (خضد): يدُلُّ على تَثَنٍّ في شَيءٍ لَيِّنٍ[٢].

﴿وَطَلْحٍ﴾: الطَّلْحُ: شَجَرٌ ذو شَوكٍ، له ظِلٌّ بارِدٌ طَيِّبٌ. وقيل: المرادُ به هنا المَوْزُ[٣].

﴿مَّنضُودٍ﴾: أي: مُتراكِمٍ بَعضُه على بَعضٍ، قد جُمِع بعضُه إلى بعضٍ، أو نُضِدَ بالحِمْلِ (الثَّمرِ) مِن أوَّلِه إلى آخِرِه، فليست له سُوقٌ بارزةٌ، والنَّضْدُ هو الرَّصُّ، والمُنَضَّدُ: المرصوصُ، وأصلُ (نضد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شيءٍ في اتِّساقٍ وجَمعٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٢). قيل: هو شجرٌ يشبهُ الطَّلحَ فِي الكِبَرِ وَحسنِ المنظرِ، فالجنَّةُ لا شوكَ فيها. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٢)، ((مقاييس =

﴿مَّسۡكُوبٖ﴾: أي: مَصبوبٍ جارٍ غَيرِ مُنقَطِعٍ، وأصلُ (سكب): يدُلُّ على صَبِّ الشَّيءِ[1].

﴿عُرُبًا﴾: جَمعُ عَرُوبٍ: وهي المُتَحَبِّبَةُ إلى زَوجِها، الحَسَنةُ التَّبَعُّلِ، وأصلُ (عرب) هنا: يدُلُّ على النَّشاطِ وطِيبِ النَّفْسِ، والإبانةِ والإفصاحِ؛ فالمرأةُ العَروبُ: ضَحَّاكةٌ طَيِّبةُ النَّفْسِ، تُفصِحُ عن حُبِّها لِزَوجِها[2].

﴿أَتۡرَابٗا﴾: أي: أقرانًا مُستَوياتٍ على سِنٍّ واحدةٍ، والتِّرْبُ: هو الَّذي مَسَّ التُّرابَ مع تِرْبِه في وَقتٍ واحِدٍ، وأصلُ (ترب) هنا: يدُلُّ على التَّساوي[3].

## المعنى الإجماليُّ:

يبينُ الله تعالى نعيمَ أصحابِ اليمينِ بعدَ أن ذكَر السَّابقينَ، فيقولُ: وأصحابُ اليَمينِ ما أعظَمَ شَأنَهم! فهم في شَجَرِ نَبْقٍ لا شَوكَ فيه، وشَجَرِ طَلحٍ ثَمَرُه مُتراصٌّ بَعضُه مع بَعضٍ، وظِلٍّ دائِمٍ لا يَزولُ، وماءٍ مَصبوبٍ جارٍ بلا أُخدودٍ، وفاكِهةٍ كثيرةٍ لا تَنقَطِعُ عنهم ولا تُمنَعُ، وهم في فُرُشٍ عاليةٍ مُرتَفِعةٍ.

---

= اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

إنَّا خَلَقْنا نِساءَ أهلِ الجَنَّةِ خَلْقًا، فجَعَلْناهنَّ أبكارًا، مُحِبَّاتٍ لأزواجِهنَّ، مُتَساوِياتٍ في السِّنِّ، أنشَأْناهنَّ لأصحابِ اليَمينِ، وأصحابُ اليَمينِ جَماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الأَوَّلِينَ، وجَماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الآخِرِينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ حالَ السَّابِقينَ؛ شَرَع في شأنِ أصحابِ المَيمَنةِ مِنَ الأزواجِ الثَّلاثةِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧﴾.

أي: وأصحابُ اليَمينِ ما أعظَمَ شَأنَهم! وما أحسَنَ حالَهم[2]!

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨﴾.

أي: هم في شَجَرِ نَبْقٍ لا شَوكَ فيه، مُثقَلةٍ أغصانُه بالثَّمَرِ الكثيرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٠٦، ٣٠٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

قال ابن القيِّم: (والمخضودُ: الَّذي قد خُضِد شَوكُه، أي نُزِع وقُطِع، فلا شوكَ فيه... وقالت طائفةٌ: المخضودُ: هو المُوقَرُ حَمْلًا، وأُنكِر عليهم هذا القولُ، وقالوا: لا يُعرَفُ في اللُّغةِ الخَضدُ بمعنى الحملِ، ولم يُصِبْ هؤلاء الَّذين أنكروا هذا القولَ، بل هو قولٌ صحيحٌ، وأربابُه ذهبوا إلى أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى لَمَّا خضَدَ شَوْكَه وأذهَبَه، وجعَلَ مكانَ كلِّ شَوكةٍ ثَمَرةً أوقَرَه بالحملِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٦٥). =

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩﴾.

أي: وفي شَجَرِ طَلحٍ بلا شَوكٍ، ذي ثَمَرٍ مَنظومٍ مُتراكِمٍ ومُتراصٍّ بَعضُه مع بَعضٍ، على تَرتيبٍ في غايةِ الحُسنِ(١).

= وقال ابن كثير: (قال ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، وأبو الأحوصِ، وقَسامةُ بنُ زُهَيرٍ، والسَّفْرُ ابنُ نُسَيْرٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، وعبدُ الله بنُ كثيرٍ، والسُّدِّيُّ، وأبو حَزْرةَ، وغيرُهم: هو الَّذي لا شَوكَ فيه. وعن ابنِ عبَّاسٍ: هو المُوقَرُ بالثَّمرِ. وهو روايةٌ عن عِكْرِمةَ، ومجاهدٍ، وكذا قال قَتادةُ أيضًا: كنَّا نُحَدَّثُ أنَّه المُوقَرُ الَّذي لا شوكَ فيه.

والظَّاهرُ أنَّ المرادَ هذا وهذا؛ فإنَّ سِدْرَ الدُّنيا كثيرُ الشَّوكِ قليلُ الثَّمرِ، وفي الآخرةِ على عكسٍ مِن هذا؛ لا شوكَ فيه، وفيه الثَّمرُ الكثيرُ الَّذي قد أثقَلَ أصْلَه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى المعنى المذكورِ: ابنُ عطية، وابن القيم، وابن كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٤)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٦٦، ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩).

وقال الواحدي: (قَولُه: ﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ قال اللَّيثُ: الطَّلحُ شَجَرُ أمِّ غيلانَ، له شَوكٌ أحجَنُ، وهو مِن أعظَمِ العِضاهِ شَوكًا، وأصلَبِه عُودًا، وأجوَدِه صَمغًا، والواحِدةُ طَلحةٌ، وهذا قَولُ جميعِ أهلِ اللُّغةِ في الطَّلْحِ). ((البسيط)) (٢١/ ٢٣٠).

وقيل: المرادُ: شجَرُ المَوزِ. وممَّن ذهب إلى ذلك: القُشَيريُّ، والزمخشري، والواحدي، والسمعاني، والرازي، والقرطبي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٣).

ونسَبَ أبو عُبَيْدةَ، والهرَويُّ، والواحديُّ هذا القولَ إلى أهلِ التَّفسيرِ، ونسَبَه الثَّعلبيُّ والقُرطبيُّ والرَّسْعَنيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٣٠)، ((تفسير =

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: وهُم في ظِلٍّ دائِمٍ باقٍ لا يتقَلَّصُ أو يَزولُ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ في الجَنَّةِ شَجَرةً يَسيرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّها مِئةَ عامٍ لا يَقطَعُها، واقرؤُوا إنْ شِئتُم: ﴿وَظِلٍّ

---

= الثعلبي)) (٩/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٨)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٩٨).

ونَسَبه ابن جرير إلى مُفَسِّري السَّلَفِ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابِعينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وأبو سعيدٍ الخُدْريُّ، وأبو هُرَيرةَ، والحسَنُ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، وعَطاءٌ، وقَسامةُ بنُ زُهَيرٍ، وقَتادةُ، وأبو حَزْرةَ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٣).

وذهب ابنُ القيِّم إلى أنَّ مَنْ ذَكَر الموزَ مِنَ السَّلَفِ إنَّما أراد التَّمثيلَ به لحُسْنِ نَضْدِه، لا التَّخصيصَ. واللهُ أعلَمُ. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٣٠٩)، ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ١٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٦).

قال ابنُ عاشور: (هو ظِلٌّ حاصِلٌ مِن التِفافِ أشجارِ الجنَّةِ وكَثرةِ أوراقِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ أي: لا نهايةَ له؛ لأنَّ الجنَّةَ ليس فيها شَمسٌ، بل هي ظِلٌّ، وصَفَها بَعضُ السَّلَفِ بأنَّها كالنُّورِ الَّذي يكون قُربَ طُلوعِ الشَّمسِ؛ تجِدُ الأرضَ مملوءةً نُورًا، ولكِنْ لا تُشاهِدُ شَمسًا، فهو ظِلٌّ ممدودٌ في المساحةِ والزَّمَنِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٣٦).

مَّمْدُودٍ﴾))[١].

﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾﴾.

أي: وفي ماءٍ مَصبوبٍ جارٍ مِن غيرِ أُخدودٍ، لا ينقطعُ[٢].

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: وفي فَواكِهَ كَثيرةٍ مُتنَوِّعةٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ﴾ [ص: ٥١].

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: لا تَنقَطِعُ عنهم تلك الفَواكِهُ في وَقتٍ مِنَ الأوقاتِ، ولا يَمنَعُهم مِن تَناوُلِها

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٨٨١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٢٦).

ورواه البخاريُّ (٣٢٥١) أيضًا مِن حديثِ أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥١٩).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: ماءٌ مصبوبٌ جارٍ مِن غيرِ أُخدودٍ، دائمُ الجرَيانِ لا يَنقَطِعُ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والماوَرْدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٠٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٢٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٣).

وقال مقاتلٌ، والسمرقنديُّ: ﴿وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي: منصبًّا كثيرًا. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٢٩).

مانِعٌ أبَدًا[١].

عن عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((خَسَفَت الشَّمسُ على عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فصَلَّى، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، رَأَيْناك تناوَلْتَ شَيئًا في مَقامِك، ثمَّ رَأَيناك تكَعْكَعْتَ[٢]! قال: إنِّي أُرِيتُ الجنَّةَ، فتناوَلْتُ منها عُنقودًا، ولو أخَذْتُه لأكلْتُم منه ما بَقِيَت الدُّنيا!))[٣].

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان التَّفَكُّهُ لا يَكمُلُ الالتِذاذُ به إلَّا مع الرَّاحةِ؛ قال[٤]:

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: وهم في فُرُشٍ عاليةٍ مُرتَفِعةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٠)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٣).

(٢) تَكَعْكَعْتَ: أي: توقَّفْتَ وأحجَمْتَ وتأخَّرْتَ إلى وراءٍ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٨٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٢١٣).

(٣) رواه البخاري (٧٤٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٩٠٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

قيل: المعنى: أنَّ الفُرُشَ مَرفوعةٌ فوقَ السُّرُرِ بعضها فوقَ بعضٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وجلال الدين المحلي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠). =

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الَّذي مع الإنسانِ في الفِراشِ الحُورَ العِينَ؛ قال اللهُ تعالى[1]:

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥﴾.

أي: إنَّا خَلَقْنا نِساءَ أهلِ الجَنَّةِ خَلْقًا فأوجَدْناهنَّ[2].

---

= قال الواحدي: (وجماعةُ المفسِّرينَ قالوا: بعضُها فوقَ بعضٍ، فهي مرفوعةٌ، أي: عاليةٌ). ((البسيط)) (٢١/ ٢٣٤).

وقال ابن الجوزي بعدَ أن عرَّف الفُرُشَ بأنَّها الحَشايا المفروشةُ للجلوسِ والنَّومِ، قال: (وفي رفْعِها قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّها مرفوعةٌ فوقَ السُّرُرِ. والثَّاني: أنَّ رفْعَها: زيادةُ حَشوِها؛ لِيَطيبَ الاستِمتاعُ بها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٣).

وقيل: الفُرُشُ هي الأَسِرَّةُ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٦).

قال ابن عاشور: (والفُرُشُ: جمْعُ فِراشٍ بكسرِ الفاءِ، وهو ما يُفرَشُ... و﴿مَّرۡفُوعَةٍ﴾: وصْفٌ لفُرُشٍ، أي: مرفوعةٍ على الأسِرَّةِ، أي: ليست مفروشةً في الأرضِ. ويجوزُ أن يُرادَ بالفُرُشِ الأسِرَّةُ، مِن تسميةِ الشَّيءِ باسمِ ما يَحلُّ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠).

وقيل: المرادُ بالفُرُشِ: النِّساءُ، ونسَبَه السَّمْعانيُّ لجماعةٍ مِن التَّابِعينَ، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى أبي عُبَيْدةَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٤).

قال ابن الجوزي: (وفي معنى رَفْعِهنَّ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّهنَّ رُفِعْنَ بالجَمالِ على نساءِ أهلِ الدُّنيا. والثَّاني: رُفِعنَ عن الأدناسِ. والثَّالثُ: رُفِعنَ في القلوبِ؛ لشِدَّةِ المَيلِ إليهِنَّ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٦، ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨). =

= قيل: المرادُ: أنَّ اللهَ تعالى ابتدَأَ إنشاءَ خَلْقٍ جَديدٍ لم تَقَعْ عليه وِلادةٌ مِن قَبلُ، وهُنَّ الحُورُ العِينُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، واستظهره أبو حيَّانَ، وذهب إليه الشَّوكانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٤).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهِرُ أنَّ الإنشاءَ هو الاختِراعُ الَّذي لم يُسبَقْ بخَلقٍ، ويكونُ ذلك مخصوصًا بالحُورِ اللَّاتي لَسْنَ مِن نَسْلِ آدَمَ، ويحتَمِلُ أن يُريدَ إنشاءَ الإعادةِ، فيَكونَ ذلك لبناتِ آدَمَ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٢).

وقال ابن القيِّم: (الظَّاهرُ أنَّ المرادَ: أنْشَأَهنَّ اللهُ تعالى في الجَنَّةِ إنشاءً [ولَسْنَ هُنَّ نساءَ الآدميَّاتِ]، ويدُلُّ عليه وُجوهٌ:

أحدُها: أنَّه قد قال في حقِّ السَّابقِينَ: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] إلى قولِه: ﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]، فذَكَر سُرُرَهم، وآنيتَهم، وشرابَهم، وفاكهتَهم، وطعامَهم، وأزواجَهم، والحُوْرَ العِينَ، ثمَّ ذَكَرَ أصحابَ المَيمنةِ وطعامَهم، وشرابَهم، وفِراشَهم، ونساءَهم، والظَّاهرُ أنهنَّ مِثْلُ نساءِ مَن قَبْلَهم خُلِقْنَ في الجَنَّةِ.

الثَّاني: أنَّه سُبحانَه قال: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾، وهذا ظاهرٌ أنه إنشاءٌ أوَّلُ لا ثانٍ؛ لأنَّه سُبحانَه حيثُ يريدُ الإنشاءَ الثَّانيَ يُقَيِّدُه بذلك، كقولِه: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧]، وقولِه: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: ٦٢].

الثَّالثُ: أنَّ الخِطابَ بقولِه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] إلى آخِرِه للذُّكورِ والإناثِ، والنَّشأةُ الثَّانيةُ عامَّةٌ أيضًا للنَّوعَينِ، وقولُه: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾ ظاهرُه اختصاصُهُنَّ بهذا الإنشاءِ، وتأمَّلْ تأكيدَه بالمصدر). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢٢٦).

وقيل: المرادُ: نِساءُ الدُّنيا مِن أهلِ الجنَّةِ. والمعنى: أعاد إنشاءَهنَّ وخَلْقَهنَّ على صِفةٍ أُخرى. وممَّن قال بهذا القَولِ في الجُملةِ: الماوَرْديُّ، وابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٩).

قال ابنُ الجوزي: (وفي المُشارِ إليهِنَّ قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّهنَّ نِساءُ أهلِ الدُّنيا المؤمِناتُ. ثمَّ في إنشائِهنَّ قَولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه إنشاؤُهنَّ مِنَ القُبورِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. والثَّاني: إعادتُهنَّ بعدَ الشَّمَطِ والكِبَرِ صِغارًا. قاله الضَّحَّاكُ.

والثَّاني: أنَّهنَّ الحُورُ العِينُ، وإنشاؤُهنَّ: إيجادُهنَّ عن غَيرِ وِلادةٍ. قاله الزَّجَّاجُ.

والصَّوابُ أن يُقالَ: إنَّ الإنشاءَ عمَّهنَّ كُلَّهنَّ؛ فالحُورُ أُنشِئْنَ ابتداءً، والمُؤمِناتُ أُنشِئْنَ بالإعادةِ =

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان للنَّفْسِ أَتَمُّ التِفاتٍ إلى الاختِصاصِ، وكان الأصلُ في الأُنثى المُنْشأةِ أن تكونَ بِكرًا؛ نَبَّه على أنَّ المرادَ بَكارةٌ لا تَزولُ إلَّا حالَ الوَطْءِ ثمَّ تَعودُ، فكُلَّما عاد إليها وَجَدَها بِكرًا[1]!

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فجَعَلْناهنَّ أبكارًا عَذارى[2].

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾.

أي: جَعَلْناهُنَّ مُظهِراتٍ شِدَّةَ مَحبَّتِهنَّ لأزواجِهنَّ، وجعَلْناهُنَّ على سِنٍّ واحِدةٍ في غايةِ الشَّبابِ[3].

---

= وتَغييرِ الصِّفاتِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٣).

وممَّن ذهب إلى حَملِ الآيةِ على العُمومِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣١٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

قال السعدي: (عمومُ ذلك يَشملُ الحُورَ العِينَ ونِساءَ أهلِ الدُّنيا، وأنَّ هذا الوَصفَ -وهو البَكارةُ- ملازِمٌ لهنَّ في جميعِ الأحوالِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٣، ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١١)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٤٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٣، ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣٣].

﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: أنشَأْنا تلك النِّسوةَ على تلك الصِّفاتِ لأصحابِ اليَمينِ(١).

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: وأصحابُ اليَمينِ جَماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الأوَّلِينَ(٢).

---

= قال البِقاعي: (لَمَّا كان الاتِّفاقُ في السِّنِّ أَدعى إلى المحبَّةِ ومَزيدِ الأُلْفةِ قال: ﴿أَتْرَابًا﴾، أي: على سِنٍّ واحدةٍ، وقَدٍّ واحدٍ، بناتِ ثلاثٍ وثلاثينَ سَنةً، وكذا أزواجُهنَّ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢١٠).

وقال ابنُ عاشور: (جُعِلْنَ في سِنٍّ مُتساوِيةٍ لا تفاوُتَ بَيْنَهنَّ، أي: هُنَّ في سِنِّ الشَّبابِ المُستوي، فتكونُ مَحاسِنُهنَّ غَيرَ مُتفاوِتةٍ في جميعِ جِهاتِ الحُسنِ، وعلى هذا فنِساءُ الجنَّةِ هنَّ الموصوفاتُ بأنَّهنَّ «أترابٌ» بَعضُهنَّ لِبَعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢١).

وممَّن قال بأنَّ قَولَه تعالى: ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ يتعلَّقُ بقَولِه: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾: ابنُ جرير، وابنُ كثير، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢١).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: ذلك المذكورُ مِنَ النَّعيمِ النَّفْسيِّ والبَدَنيِّ لأصحابِ اليَمينِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).

قيل: معنى قَولِه تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾: جماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، وجماعةٌ كثيرةٌ مِن أُمَّةِ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، الَّتي هي آخِرُ الأُمَمِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦١). =

﴿ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠ ﴾.

أي: وجَماعةٌ كَثيرةٌ مِنَ الآخِرِينَ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ * وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴾ وقَولِه: ﴿ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴾ سؤالٌ: ما الحِكمةُ في ذِكرِ الأشجارِ المُورِقةِ بأنفُسِها، وذِكرِ أشجارِ الفواكِهِ بثِمارِها؟

**الجوابُ**: أنَّ الأوراقَ حُسنُها عندَ كَونِها على الشَّجَرِ، وأمَّا الثِّمارُ فهي في أنفُسِها مَطلوبةٌ، سواءٌ كانت عليها أو مقطوعةً؛ ولهذا صارت الفواكِهُ لها أسماءٌ بها تُعرَفُ أشجارُها، فيُقالُ: شَجَرُ التِّينِ ووَرَقُه[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ مَّخۡضُودٖ ﴾ تنبيهٌ على أنَّ كُلَّ ما لا نَفْعَ فيه، أو فيه نوعُ أذًى؛

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٥).

وتقدَّم (ص: ٣٨٠) كلامُ الشنقيطيِّ أنَّ ظاهِرَ القرآنِ في هذا المقامِ أنَّ (الأوَّلينَ) في هذا الموضعِ والموضعِ السَّابقِ مِن الأُممِ الماضيةِ، والآخِرينَ فيهما مِن هذه الأمَّةِ، وتوجيهُه لهذا القولِ.

وقيل: المرادُ: جماعةٌ كثيرةٌ مِن أوَّلِ هذه الأمَّةِ المحَمَّديَّةِ، وجماعةٌ كَثيرةٌ مِن آخِرِها. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، وابنُ جُزَي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو العاليةِ، ومجاهِدٌ، وعَطاءُ بنُ أبي رباحٍ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ في روايةٍ عنه، ومحمَّدُ بنُ سِيرينَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣، ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٦).

له في الجَنَّةِ وُجودٌ كَريمٌ؛ لأنَّ الجنَّةَ إنَّما خُلِقَت للنَّعيمِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في وَصفِ الفاكِهةِ بالكَثرةِ، لا بالطِّيْبِ واللَّذَّةِ؟

**الجوابُ**: أنَّ اللهَ تعالى حيثُ ذَكَر الفاكِهةَ ذَكَر ما يدُلُّ على الكَثرةِ؛ لأنَّها ليست لدَفعِ الحاجةِ حتَّى تكونَ بقَدْرِ الحاجةِ، بل هي للتَّنَعُّمِ؛ فوَصَفَها بالكَثرةِ والتَّنَوُّعِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أنَّ طعامَ الجَنَّةِ، وما فيها: لا يَنفَدُ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ تَفضيلُ الأبكارِ على الثَّيِّباتِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ جَمَع سُبحانَه بيْنَ حُسْنِ صُورتِهنَّ، وحُسْنِ عِشرَتِهنَّ، وهذا غايةُ ما يُطلَبُ مِن النِّساءِ، وبه تَكمُلُ لَذَّةُ الرَّجُلِ بِهنَّ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ الآخِرينَ أكثَرُ؛ فإنَّ وَصْفَ الأوَّلِينَ بالكَثرةِ لا يُنافي كَونَ غَيرِهم أكثَرَ؛ لِيَتَّفِقَ مع إخبارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ هذه الأُمَّةَ ثُلُثا أهلِ الجنَّةِ؛ فقد قال: ((أهلُ الجنَّةِ عِشرونَ ومِئةُ صَفٍّ، ثمانونَ منها مِن هذه الأُمَّةِ، وأربعونَ مِن سائرِ الأمَمِ))[٦]، على قولٍ في معنى الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٧).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١١). =

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ شُروعٌ في تَفصيلِ ما أُجمِلَ عندَ التَّقسيمِ مِن شؤونِهم الفاضِلةِ إثْرَ تَفصيلِ شُؤونِ السَّابقينَ، وعَوْدٌ إلى نشْرِ ما وقَعَ لَفُّه في قولِه: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾[1] [الواقعة: ٧].

- جُملةُ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٥] عطْفَ القصَّةِ على القصَّةِ[2].

- وجُملةُ ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ خبَرٌ عن ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ بإبهام يُفيدُ التَّنويهَ بهم، وهي جُملةٌ استفهاميَّةٌ لتَفخيمِهم، والتَّعجيبِ مِن حالِهم[3].

- الفائدةُ في ذِكرِهم بلَفظِ: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ [الواقعة: ٨] عندَ ذِكرِ الأقسامِ، وبلَفظِ ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ عندَ ذِكرِ الإنعامِ مِن وَجهينِ:

**الأوَّلُ**: «المَيْمَنةُ» مَفعلةٌ؛ إمَّا بمعْنى مَوضعِ اليمينِ -كالمحكمةِ لموضعِ الحُكمِ-، أي: الأرضُ الَّتي فيها اليمينُ، وإمَّا بمعْنى مَوضعِ اليمنِ -كالمنارةِ مَوضعُ النَّارِ، والمِجْمرةِ مَوضعُ الجمْرِ-؛ فكَيْفما كان فالمَيمنةُ فيها دَلالةٌ على الموضعِ، لكنَّ الأزواجَ الثَّلاثةَ في أوَّلِ الأمرِ يَتميَّزُ بعضُهم عن بَعضٍ ويَتفرَّقون؛ لقولِهِ تَعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]، وقال: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ [الروم:

---

= والحديث أخرجه الترمذيُّ (٢٥٤٦)، وابنُ ماجَه (٤٢٨٩) مِن حديثِ بُرَيْدةَ الأسْلَميِّ رضيَ الله عنه.

قال الترمذيُّ: (حيثٌ حسَنٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ (٧٤٦٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٥٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

٤٣]، فيَتفرَّقونَ بالمكانِ؛ فأشار في الأوَّلِ إليهم بلَفظٍ يدُلُّ على المكانِ، ثمَّ عندَ الثَّوابِ وقَعَ تَفرُّقُهم بأمْرٍ مُبهَمٍ لا يَتشاركونَ فيه كالمكانِ؛ فقال: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾[1]. الثَّاني: أنَّ ذلك تَفنُّنٌ في العبارةِ، والمعنى واحدٌ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ * وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ * وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ * وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ * وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ * لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ * وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ﴾

- قولُه: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ خبَرٌ ثانٍ للمُبتدَأِ، أو خبَرٌ لمُبتدَأٍ مَحذوفٍ، والجُملةُ استِئنافٌ لبَيانِ ما أُبهِمَ في قولِه تعالى: ﴿مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾ مِن عُلوِّ الشَّأنِ، أي: همْ في سِدْرٍ غيرِ ذي شَوكٍ، لا كَسِدْرِ الدُّنيا[3].

قيل: خُصَّ السِّدرُ -وكان مَحبوبًا للعرَبِ- بالذِّكرِ مِن بيْنِ شَجرِ الجنَّةِ؛ إغرابًا به وبمَحاسِنِه الَّتي كان مَحرومًا منها مَن لا يَسكُنُ البواديَ، وبوَفْرةِ ظِلِّه، وتَهَدُّلِ أغصانِه، ونَكهةِ ثَمَرِه، ووُصِفَ بالمَخضودِ، أي: المُزالِ شَوكُه؛ فقد كمَلَت مَحاسنُه بانتِفاءِ ما فيه مِن أذًى[4].

- قولُه: ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ يُسكَبُ لهم أينَ شاؤوا، وكيف شَاؤوا بلا تعَبٍ، أو مَصبوبٍ سائلٍ، كأنَّه لَمَّا شبَّهَ حالَ السَّابقينَ في التَّنعُّمِ بأعْلى ما يُتصوَّرُ لأهلِ المُدُنِ، شَبَّهَ حالَ أصحابِ اليمينِ بأكمَلِ ما يَتمنَّاهُ أهلُ البوادي؛ إشعارًا بالتَّفاوُتِ بيْنَ الحالَينِ[5].

- وسكْبُ الماءِ: صبُّه، وأُطلِقَ هنا على جَرْيِه بقوَّةٍ تُشْبِهُ السَّكبَ، وهو ماءُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٣).

أنهارِ الجنَّةِ[١].

- ووُصِفَت الفاكهةُ بأنَّها ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ وَصْفًا بانتفاءِ ضِدِّ المطلوبِ؛ إذ المطلوبُ أنَّها دائمةٌ مَبذولةٌ لهم، والنَّفيُ هنا أوقَعُ مِن الإثباتِ؛ لأنَّه بمَنزِلةِ وصْفٍ وتَوكيدِه[٢].

- وجُمِعَ بيْن الوصْفينِ ﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾؛ لأنَّ فاكهةَ الدُّنيا لا تَخْلو مِن أحدِ ضِدَّيْ هذَينِ الوصْفَينِ؛ فإنَّ أصحابَها يَمنعونَها، فإنْ لم يَمنَعوها فإنَّ لها إبَّانًا تَنقطِعُ فيه[٣].

- قولُه: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ إنْ أُرِيدَ بها النِّساءُ كانت كنايةً عن مَوصوفٍ، والعرَبُ تُسمِّي المرأةَ فِراشًا ولِباسًا[٤]. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالفُرُشِ الأَسِرَّةُ؛ مِن تَسميةِ الشَّيءِ باسمِ ما يَحُلُّ فيه[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ لَمَّا جَرى ذِكرُ الفُرشِ -وهي ممَّا يُعَدُّ للاتِّكاءِ والاضطجاعِ وقتَ الرَّاحةِ في المَنزلِ- يَخطُرُ بالبالِ بادئَ ذي بَدْءٍ مُصاحَبةُ الحُورِ العِينِ معهم في تلك الفُرُشِ، فيُتشوَّفُ إلى وَصْفِهنَّ، فكانت جُملةُ ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ بيانًا؛ لأنَّ الخاطرَ بمَنزِلةِ السُّؤالِ عن صِفاتِ الرَّفيقاتِ، فضَميرُ المؤنَّثِ مِن ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ عائدٌ إلى غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ، ولكنَّه مَلحوظٌ في الأفهامِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٠٠، ٣٠١).

- في قولِه: ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ كِنايةٌ عن عَودتِهنَّ أو نَشأتِهنَّ في سِنٍّ صَغيرةٍ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾

- اللَّامُ في ﴿ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ لإفادةِ تَوكيدِ الاعتناءِ بأصحابِ اليمينِ المُستفادِ مِن المقامِ مِن قولِه: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٢٧] الآيةَ[٢].

- وقيل: إنَّما أُخِّرَ هذا ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴾ عن ذِكرِ ما لهم مِن النَّعيمِ؛ للإشعارِ بأنَّ عِزَّةَ هذا الصِّنفِ وقِلَّتَه دونَ عِزَّةِ صِنفِ السَّابقينَ؛ فالسابقونَ أعزُّ، وهذه الدَّلالةُ مِن مُستتبَعاتِ التَّراكيبِ المُستفادةِ مِن تَرتيبِ نظْمِ الكلامِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٢، ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٠٣).

## الآيات (٤١-٥٦)

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ
وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟
يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ
ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ
﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ
شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَمُومٍ﴾: أي: رِيحٍ حارَّةٍ تدخُلُ مَسامَّ الإنسانِ، وأصلُ (سمم): يدُلُّ على مَدخَلٍ في الشَّيءِ[1].

﴿وَحَمِيمٍ﴾: أي: ماءٍ حارٍّ شَديدِ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الحَرارةِ[2].

﴿يَحْمُومٍ﴾: أي: دُخَانٍ شَديدِ السَّوادِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الاسوِدادِ[3].

﴿ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾: أي: الذَّنْبِ العَظيمِ، وهو الشِّركُ، وأصلُ (حنث): يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

الإثْمِ والحَرَجِ[١].

﴿زَقُّومٍ﴾: الزَّقُّومُ: ثَمَرُ شَجَرةٍ خَبيثةٍ مُرَّةٍ كَريهةِ الطَّعمِ، يُكرَهُ أهلُ النَّارِ على تَناوُلِه، فهم يتزَقَّمونَه على أشَدِّ كراهيةٍ، ومنه قَولُهم: تزقَّمَ الطَّعامَ: إذا تناوَلَه على كُرهٍ ومَشقَّةٍ شَديدةٍ[٢].

﴿ٱلْهِيمِ﴾: أي: الإبِلِ العِطاشِ الَّتي أصابَها مَرَضٌ لا تَرْوَى معه مِنَ الماءِ، وأصلُ (هيم): يدُلُّ على عَطَشٍ شَديدٍ[٣].

﴿نُزُلُهُمْ﴾: أي: رِزْقُهم وطَعامُهم، والنُّزُلُ: ما يُعَدُّ للضَّيفِ مِنَ الزَّادِ عندَ قُدومِه[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حالَ أصحابِ الشِّمالِ وما أعدَّه لهم: وأصحابُ الشِّمالِ ما أفظَعَ شَأنَهم؛ فهم في رِيحٍ حارَّةٍ، وماءٍ شَديدِ الحَرارةِ، وظِلٍّ مِن دُخَانٍ شَديدِ السَّوادِ، لا باردٍ ولا حَسَنِ المَنظَرِ!

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّت بهم إلى هذا المصيرِ، فيقولُ: إنَّهم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٨/ ١٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٠).

كانوا في الدُّنيا مُترَفِينَ مُقبلينَ على شَهَواتِهم، وكانوا مُقيمينَ على الشِّركِ باللهِ تعالى، وكانوا يَقولونَ مُنكِرينَ البَعثَ يومَ القيامةِ: أَئِذا مِتْنا وصِرْنا في قُبورِنا تُرابًا وعِظامًا أَئِنَّا لَمَبعوثونَ أحياءً مِن بَعدِ ذلك، أَوَيُبعَثُ آباؤُنا الأوَّلونَ كذلك؟!

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يرُدَّ عليهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُنكِرينَ البَعثَ: إنَّ الأوَّلِينَ والآخِرينَ لَمَجموعونَ إلى وَقتٍ مُحَدَّدٍ معلومٍ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله عزَّ وجلَّ ما سيُصيبُهم مِن العذابِ في هذا اليومِ، فيقولُ: ثمَّ إنَّكم -أيُّها الضَّالُّونَ المكذِّبونَ- لَآكِلونَ مِن شَجَرٍ مِنَ الزَّقُّومِ كَريهٍ مُرٍّ خَبيثٍ، فمَالِئونَ مِنه بُطونَكم؛ لشِدَّةِ جُوعِكم، فشارِبونَ على هذا الشَّجَرِ شَرابًا مُغْلًى شديدَ الحَرارةِ، فشارِبونَ مِن هذا الحَميمِ شُربَ الإبلِ العِطاشِ الَّتي لا تَرْوَى مِن الماءِ لمرضٍ أصابها، وهذا الطَّعامُ والشَّرابُ هو ما أُعِدَّ لأولئك الضَّالِّينَ المُكَذِّبينَ عِندَ مَقْدَمِهم يَومَ القيامةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَر تعالى حالَ أصحابِ اليمينِ؛ عطَف عليهم بذكرِ أصحابِ الشِّمالِ، وتَفصيلِ أحوالِهم الَّتي أُشيرَ عندَ التَّنويعِ إلى هَولِها وفَظاعتِها، فقال[1]:

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤).

أي: وأصحابُ الشِّمالِ ما أفظَعَ شَأنَهم! وما أسوَأَ حالَهم[١]!

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَمَّهم وعابَهم، ذَكَر عَذابَهم؛ لِيُعلَمَ أنَّ القِسمَ الأشَدَّ منهم في الشُّؤمِ أشَدُّ عَذابًا؛ فقال[٢]:

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: هم في رِيحٍ شَديدةِ الحَرارةِ، وشَرابٍ بَالِغِ الغايةِ في الحَرارةِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٠، ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).
وقال السعدي: (المرادُ بأصحابِ الشِّمالِ: هم أصحابُ النَّارِ، والأعمالِ المَشؤومةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).
قيل: سُمُّوا بأصحابِ الشِّمالِ؛ لأنَّهم يُؤخَذُ بهم ذاتَ الشِّمالِ مِن مَوقِفِ الحِسابِ إلى النَّارِ. وقيل: لأنَّهم على شِمالِ العَرشِ، وهنالك هي النَّارُ. وقيل: لأنَّهم يَأخُذونَ كُتُبَهم بشَمائِلِهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣).
قال ابنُ القيِّم: (مَصيرُهم ومآلُهم إلى جِهةٍ واحِدةٍ، وهي جِهةُ الشِّمالِ؛ مُستَقَرِّ أهلِ النَّارِ، والنَّارُ مِن جِهةِ الشِّمالِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٢٠).
وقال البِقاعي: ([وهي] الجهةُ الَّتي تَتشاءَمُ العربُ بها، وعُبِّر بها عن الشَّيءِ الأخَسِّ، والحظِّ الأنقَصِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢١١).
وذكر ابنُ كثيرٍ ما ظاهرُه الجمعُ بيْن هذه الأقوالِ، وهو أنَّ عامَّةَ أهلِ النَّارِ يومَ القيامةِ يَكونونَ عن يَسارِ العرشِ، وأنَّهم هم الَّذين خرَجوا مِن شقِّ آدَمَ الأيسَرِ، ويُؤْتَوْنَ كُتُبَهم بشَمائِلِهم، ويُؤخَذُ بهم ذاتَ الشِّمالِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥١٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤). =

كما قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ ۞ يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥].

﴿وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ٤٣﴾.

أي: وفي ظِلٍّ مِن دُخَانٍ شَديدِ السَّوادِ[١]!

قال تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۞ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۞ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات: ٢٩ - ٣١].

﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المعهودُ مِنَ الظِّلِّ البَردَ والإراحةَ؛ نفَى ذلك عنه، فقال[٢]:

﴿لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ٤٤﴾.

أي: وهو ظِلٌّ غيرُ باردٍ، وليس بحَسَنِ المَنظَرِ[٣]!

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ٤٥﴾.

---

= قال القرطبي: (السَّمومُ: الرِّيحُ الحارَّةُ الَّتي تَدخُلُ في مَسامِّ البَدَنِ، والمرادُ هنا: حَرُّ النَّارِ ولَفْحُها). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣).

وقال ابنُ عاشور: (السَّمومُ: الرِّيحُ الشَّديدُ الحرارةِ الَّذي لا بَلَلَ معه، وكأنَّه مأخوذٌ مِنَ السُّمِّ، وهو ما يُهلِكُ إذا لاقى البَدَنَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر -جلَّ وعلا- ما أعَدَّ لأصحابِ الشِّمالِ مِن العذابِ؛ بَيَّن بعضَ أسبابِه[1]، فقال:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾.

أي: إنَّ أصحابَ الشِّمالِ كانوا في الدُّنيا قبْلَ أن يُصيبَهم هذا العَذابُ في تنَعُّمٍ وإسرافٍ وإقبالٍ على الشَّهَواتِ؛ فاستحَقُّوا تلك العُقوباتِ[2].

قال تعالى: ﴿ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴾ [المزمل: ١١].

﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

أي: وكانوا في الدُّنيا مُستَمِرِّينَ على الإقامةِ على الذَّنْبِ العَظيمِ، وهو الشِّركُ باللهِ تعالى[3].

﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: وكانوا يَقولونَ إنكارًا للبَعثِ يومَ القيامةِ: أَئِذا مِتْنا وصِرْنا في قُبورِنا تُرابًا وعِظامًا أَئِنَّا لَمَبعوثونَ أحياءً مِن بَعدِ ذلك[4]؟!

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

أي: وهل يُبعَثُ أيضًا آباؤُنا الأوَّلونَ[١]؟!

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالى استِفهامَهم عن البَعثِ على طَريقِ الاستِبعادِ والإنكارِ؛ أمَرَ نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُخبِرَهم ببَعثِ العالَمِ -أوَّلِهم وآخِرِهم- للحِسابِ، وبما يَصِلُ إليه المُكَذِّبونَ للبَعثِ مِنَ العَذابِ[٢].

وأيضًا لَمَّا جَرى تَعليلُ ما يُلاقِيه أصحابُ الشِّمالِ مِن العذابِ بما كانوا عليه مِن كُفْرانِ النِّعمةِ، وكان المقصودُ مِن ذلك وَعيدَ المُشرِكين، وكان إنكارُهم البعثَ أدخَلَ في استِمرارِهم على الكفْرِ -أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُخاطِبَهم بتَحقيقِ وُقوعِ البعثِ، وشُمولِه لهم ولآبائِهم ولجَميعِ الناسِ[٣]، فقال:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُنكِرينَ للبَعثِ: إنَّ الأوَّلِينَ والآخِرينَ مِنكم أو مِن غَيرِكم[٤].

---

= (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤). =

﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: لَمَجموعونَ بالبَعثِ والحَشرِ إلى وَقتٍ مُحَدَّدٍ عِندَ اللهِ تعالى، وهو يومُ القيامةِ[1].

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّكم بعْدَ بَعثِكم أيُّها الضَّالُّونَ عن طَريقِ الهُدى، المكذِّبونَ بالحَقِّ[2].

﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾﴾.

---

= قيل: المرادُ: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ مِن آبائِكم، ﴿وَٱلْآخِرِينَ﴾ منكم. وممَّن قال بهذا: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٩).

وقيل: المرادُ: الأوَّلونَ والآخِرونَ مِن جَميعِ بني آدَمَ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ كثير، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٢/ ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

وقيل: المرادُ بالأَوَّلينَ: الأُمَمُ الماضيةُ. وبالآخِرينَ: أمَّةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. ومِمَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٥).

وقال الشَّوكاني: (قُلْ لهم يا محمَّدُ: إنَّ الأوَّلينَ مِن الأمَمِ، والآخِرينَ منهم الَّذين أنتم مِن جُملَتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

قال ابنُ عاشور: (معنى ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾: أنَّهم يُبعَثونَ ويُحشَرونَ جميعًا، وليس البَعثُ على أفواجٍ في أزمانٍ مُختَلِفةٍ كما كان موتُ النَّاسِ، بل يُبعَثُ الأوَّلونَ والآخِرونَ في يومٍ واحِدٍ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

أي: لَآكِلونَ مِن شَجَرٍ كَريهِ المَنظَرِ والطَّعْمِ والرَّائِحةِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ * إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ [الصافات: ٦٢ - ٦٦].

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: فمَالِئونَ مِن شَّجَرِ الزقُّومِ بُطونَكم؛ لشِدَّةِ جُوعِكم، واضطِرارِكم للأكْلِ[٢].

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ أكْلَهم؛ أتْبَعَه مَشْرَبَهم[٣].

وأيضًا لَمَّا كان مَن يأكُلُ كَثيرًا يَعطَشُ عَطشًا شَديدًا، فيَشرَبُ ما قَدَر عليه؛ رَجاءَ تَبريدِ ما به مِن حَرارةِ العَطَشِ- سَبَّبَ عنه قَولَه تعالى[٤]:

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: فشارِبونَ على هذا الزَّقُّومِ الَّذي مَلأْتُم به بُطونَكم شَرابًا مُغْلًى قد بَلَغ النِّهايةَ في الحَرارةِ[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤١). =

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ * ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٧، ٦٨].

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان شُربُهم لأدنى قَطرةٍ مِن ذلك في غايةِ العَجَبِ؛ أتْبَعَه ما هو أعجَبُ منه، وهو شِدَّةُ تمَلُّئِهم منه؛ فقال مُسَبِّبًا عَمَّا مضى[1]:

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ۝٥٥﴾.

أي: فشارِبونَ مِن هذا الحَميمِ شُربَ الإبِلِ العِطاشِ الَّتي أصابَها مَرَضٌ لا تَرْوَى معه مِن الماءِ[2]!

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان كأنَّه قيل: هذا عَذابُهم كُلُّه؟! قيل تهكُّمًا بهم، ونِكايةً لهم[3]:

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٥٦﴾.

أي: هذا الطَّعامُ والشَّرابُ مِن الزَّقُّومِ والحَميمِ هو ضيافةُ أولئك الضَّالِّينَ

---

= قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ أي: على الزَّقُّومِ، أو على الأكْلِ، أو على الشَّجَرِ؛ لأنَّه يُذكَّرُ ويُؤَنَّثُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٤).

وقال ابن جرير: (قوله: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا﴾ مرادٌ به مِن الشَّجرِ، أنَّث للمعنَى، وقال: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ مُذَكَّرًا للَفظِ الشَّجرِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٢، ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٨).

المُكَذِّبينَ، المُعَدَّةُ لهم عندَ مَقْدَمِهم، وذلك في يَومِ القيامةِ الَّذي يُحاسِبُ اللهُ فيه عِبادَه، ويُجازيهم على أعمالِهم(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ نَفْيُ محاسِنِ الظِّلالِ عن أصحابِ الشِّمالِ؛ ففيه تذكيرٌ للسَّامِعينَ بما حُرِمَ منه أصحابُ الشِّمالِ؛ عسى أن يَحذَروا أسبابَ الوُقوعِ في الحِرْمانِ، ولإفادة هذا التَّذكيرِ عُدِلَ عن وصْفِ الظِّلِّ بالحرارةِ والمَضرَّةِ إلى وصْفِه بنَفْيِ البرْدِ ونفْيِ الكرَمِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ فيه ذَمُّ التَّرَفِ والتَّنَعُّمِ في الدُّنيا، والتَّرَفُ طريقٌ إلى البَطالةِ، وتَرْكِ التَّفَكُّرِ في العاقِبةِ(٣).

٣- الإسرافُ في المباحاتِ منهيٌّ عنه، كما قال تعالى عن أصحابِ النَّارِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾(٤) [الفرقان: ٦٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١١، ٣١٢).

وقال البِقاعي: (﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ أي: ما يُعَدُّ لهم أوَّلَ قُدومِهم مكانَ ما يُعَدُّ للضَّيفِ أوَّلَ حُلولِه؛ كرامةً له... وإذا كان هذا نُزُلَهم فما ظَنُّك بما يأتي بَعْدَه؟!). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ١٣٣).

وذكر ابنُ تيميَّةَ أنَّ الإسرافَ في المباحاتِ هو مُجاوَزةُ الحدِّ، وهو مِن العُدوانِ المحَرَّمِ، وكذلك فإنَّ الامتِناعَ مِن فِعلِ المُباحاتِ مُطلَقًا، كالَّذي يمتنِعُ مِن أكلِ اللَّحمِ أو لبسِ الكَتَّانِ والقُطنِ، ولا يَلبَسُ إلَّا الصُّوفَ، ويمتنِعُ مِن نكاحِ النِّساءِ، ويظُنُّ أنَّ هذا مِن الزُّهدِ المُستحَبِّ؛ فهذا جاهلٌ ضالٌّ، مِن جنسِ زُهَّادِ النَّصارى.

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لَمَّا كانتِ اليمينُ جهةَ الخَيرِ والفَلاحِ -وأهلُها هم النَّاجون- أُفْرِدَتْ؛ لأنَّ طريقَ الحقِّ واحدٌ؛ إذ مرَدُّه إلى الله الملكِ الحقِّ، ولَمَّا كانتِ الشِّمالُ جهةَ أهلِ الباطلِ -وهم أصحابُ الشِّمالِ- جُمِعَتْ في قَولِه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾ [النحل: ٤٨]؛ لأنَّ طرقَ الباطلِ متشعِّبةٌ متعدِّدةٌ؛ فإنْ قيلَ: فهَلَّا كذلك في قَولِه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾؟ وما بالُها جاءتْ مُفرَدةً؟

**الجوابُ**: جاءتْ مُفرَدةً؛ لأنَّ المرادَ أهلُ هذه الجهةِ، ومصيرُهم، ومآلُهم إلى جهةٍ واحدةٍ؛ وهي جهةُ الشِّمالِ؛ مُسْتَقَرُّ أهلِ النَّارِ، والنَّارُ مِن جهةِ الشِّمالِ؛ فلا يَحْسُنُ مجيئُها مجموعةً؛ لأنَّ الطُّرُقَ الباطلةَ -وإنْ تَعَدَّدَتْ- فغايتُها المَرَدُّ إلى طريقِ الجحيمِ، وهي جهةُ الشِّمالِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ هذه الآياتُ تَضمَّنَتْ ذِكْرَ ما يُتبَرَّدُ به في الدُّنيا مِن الكَرْبِ والحَرِّ، وهو ثلاثةٌ: الماءُ، والهواءُ، والظِّلُّ؛ فهواءُ جَهنَّمَ: السَّمُومُ، وهو الرِّيحُ الحارَّةُ الشَّديدةُ الحَرِّ، وماؤُها: الحميمُ الَّذي قد اشتَدَّ حَرُّهُ، وظِلُّها: اليَحْمومُ، وهو قِطَعُ دُخَانِها[2]، كأنَّه قيل: أبرَدُ الأشياءِ في الدُّنيا حارٌّ عِندَهم، فكيف أحَرُّها[3]؟!

٣- لم يقُلِ الله سبحانَه في حقِّ أصحابِ اليمينِ: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

---

أمَّا تَركُ فُضولِ المُباحاتِ -وهو ما لا يحتاجُ إليه لمصلحةِ دينِه- فهو مِن الزُّهدِ المُباحِ، ويُثابُ على تركِ فُضولِها. يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٢/ ١٣٤). ويُنظر أيضًا: ((الموافقات)) للشاطبي (١/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٠٦). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٠٩).

[الواقعة: ٢٤] كما قاله عزَّ وجلَّ في حقِّ السَّابقينَ؛ رمزًا إلى أنَّ الفضلَ في حَقِّهم مُتمَحِّضٌ، كأنَّ عمَلَهم -لقُصورِه عن عملِ السَّابقينَ- لم يُعتبَرِ اعتِبارَه(١).

٤- النَّارُ محلُّ ذوي الشَّهواتِ الَّذين ليس لهم همٌّ إلَّا اتِّباعُ شهواتِهم، ولذلك أكثرُ مَن يَدخُلُ النَّارَ المُترَفونَ؛ فالتَّرَفُ سبَبٌ للتَّلَفِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ سُؤالٌ: أنَّ إصرارَهم على الحِنْثِ وإنكارَهم البَعثَ لا يَخفى تَسَبُّبُه في العَذابِ؛ لأنَّ اللهَ توَعَّدَهم عليه فلم يُقلِعوا عنه، وإنَّما يَبقى النَّظَرُ في قَولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾؛ فإنَّ التَّرَفَ في العَيشِ ليس جريمةً في ذاتِه، وكم مِن مُؤمِنٍ عاش في تَرَفٍ؟! وليس كُلُّ كافِرٍ مُترَفًا في عَيشِه، فلا يكونُ التَّرَفُ سَبَبًا مُستَقِلًّا في تسَبُّبِ الجزاءِ الَّذي عُومِلوا به، فما وجْهُ ذلك؟

**الجَوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ الإترافَ سَبَبٌ باعتِبارِ ضَميمةِ ما ذُكِرَ بَعْدَه إليه، بأنْ كان إصرارُهم على الحِنْثِ وتكذيبُهم بالبَعثِ جَريمتَينِ عَظيمتَينِ؛ لأنَّهما مَحفوفتانِ بكُفرِ نِعمةِ التَّرَفِ الَّتي خَوَّلَهم اللهُ إيَّاها، على نَحوِ قَولِه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، فيكونُ الإترافُ جُزءَ سَبَبٍ، وليس سَبَبًا مُستَقِلًّا، وفي هذا مِن معنى قَولِه تعالى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٢١)، ((شرح صحيح البخاري)) لابن عثيمين (٨/ ٣٨١).

**الثَّاني**: أنَّ التَّرَفَ في العَيشِ عَلَّقَ قُلوبَهم بالدُّنيا، واطمأَنُّوا بها؛ فكان ذلك مُمْليًا على خَواطِرِهم إنكارَ الحياةِ الآخِرةِ، فيَكونُ المرادُ التَّرَفَ الَّذي هذا الإنكارُ عارِضٌ له وشَديدُ المُلازَمةِ له، فوِزانُه وِزانُ قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ [محمد: ١٢].

فجُعِلَ أهلُ الشِّمالِ مُترَفِينَ؛ لأنَّهم لا يخلو واحِدٌ منهم عن تَرَفٍ -ولو في بَعضِ أحوالِه وأزمانِه- مِن نِعَمِ الأكْلِ والشُّرْبِ، والنِّساءِ، وكُلُّ ذلك جديرٌ بالشُّكرِ لواهِبِه، وهم قد لابَسوا ذلك بالإشراكِ في جميعِ أحوالِهم، أو لأنَّهم لَمَّا قَصَروا أنظارَهم على التَّفكيرِ في العِيشةِ العاجِلةِ صَرَفَهم ذلك عن النَّظَرِ والاستِدلالِ على صِحَّةِ ما يدعوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فهذا وجْهُ جَعْلِ التَّرَفِ في الدُّنيا من أسبابِ جَزائِهم الجَزاءَ المذكورَ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ * وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ * وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ لَطيفةٌ: وهي أنَّه أشار في الآياتِ الثَّلاثِ إلى الأُصولِ الثَّلاثةِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ -مِن حيثُ الاستِعمالُ- يدُلُّ على ذَمِّهم بإنكارِ الرُّسُلِ؛ إذ المُترَفُ مُتكَبِّرٌ بسَبَبِ الغِنى، فيُنكِرُ الرِّسالةَ. والمُترَفونَ كانوا يَقولونَ: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ [القمر: ٢٤]. وقَولُه: ﴿يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ إشارةٌ إلى الشِّركِ ومخالفةِ التَّوحيدِ. وقَولُه تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ إشارةٌ إلى إنكارِ الحَشرِ والنَّشْرِ[2].

٧- أنَّ الجَدَّ يُسمَّى أبًا؛ لأنَّهم قالوا: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ﴾، وآباؤُهم الأَوَّلونَ أجدادٌ سابِقونَ، فالجَدُّ يُسمَّى أبًا، ويَتفرَّعُ على ذلك مَسألةٌ فَرَضيَّةٌ، وهي: أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤١١).

الجَدَّ يُسقِطُ الإِخْوةَ، أشقَّاءَ كانوا، أمْ لأبٍ، أمْ لأمٍّ[١].

٨- قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾، والنُّزُلُ: هو ما يُعَدُّ للضَّيفِ عندَ قُدومِه، فدَلَّت هذه الآياتُ على أنَّ أهلَ النَّارِ يُتحَفونَ عندَ دُخولِها بالأكْلِ مِن شَجَرةِ الزَّقُّومِ، والشُّربِ مِن الحَميمِ، وهم إنَّما يُساقُونَ إلى جَهنَّمَ عِطاشًا[٢]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾

- في هذا الاستِفهامِ ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ تَعظيمُ مُصابِهم[٣].

- وأُتْبِعَ الإبهامُ الَّذي في قولِه: ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ بما يُبيِّنُ بَعضَه[٤].

- قولُه: ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ وصْفُ الظِّلِّ بأنَّه مِن يَحموم؛ للإشعارِ بأنَّه ظِلُّ دُخَانِ لهَبِ جهنَّمَ، والدُّخَانُ الكثيفُ له ظِلٌّ؛ لأنَّه بكَثافتِه يَحجُبُ ضَوءَ الشَّمسِ، وإنَّما ذُكِرَ مِن الدُّخَانِ ظِلُّه لمُقابَلتِه بالظِّلِّ الممدودِ المُعَدِّ لأصحابِ اليمينِ في قولِه: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصَّافَّات)) (ص: ٤٧).

وهذا المذكورُ -أي: حَجْبُ الجدِّ للإخوةِ- هو قولُ أبي حنيفةَ، وهو خلافُ قولِ مالكٍ، والشَّافعيِّ، وأحمدَ. يُنظر: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هبيرة (٢/ ٩١)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤).

٣٠]، أي: لا ظِلَّ لأصحابِ الشِّمالِ سِوى ظِلِّ اليَحْموم، وهذا مِن قَبيلِ التَّهكُّمِ، ولتَحقيقِ معْنى التَّهكُّمِ وُصِفَ هذا الظِّلُّ بما يُفيدُ نفْيَ البرْدِ عنه ونفْيَ الكرَمِ، فبرْدُ الظِّلِّ ما يَحصُلُ في مَكانِه مِن دفْعِ حَرارةِ الشمْسِ، وكرَمُ الظِّلِّ ما فيه مِن الصِّفاتِ الحَسَنةِ في الظِّلالِ؛ مِثل سَلامتِه مِن هبُوبِ السَّمومِ عليه، وسَلامةِ الموضعِ الَّذي يُظِلُّه مِن الحشراتِ والأوساخِ، وسَلامةِ أرْضِه مِن الحجارةِ ونحْوِ ذلك؛ إذ الكريمُ مِن كلِّ نوعٍ هو الجامعُ لأكثرِ مَحاسِنِ نَوعِه، فوُصِفَ ظِلُّ اليَحموم بوصْفٍ خاصٍّ، وهو انتفاءُ البُرودةِ عنه، وأُتبِعَ بوصْفٍ عامٍّ، وهو انتفاءُ كَرامةِ الظِّلالِ عنه[1].

أو هذا تَتْميمٌ[2] لنفْيِ كَرامةِ مَن يَستروِحُ إليه، والمرادُ هم، أي: يَستظِلُّون إليه وهم مُهانون، وقد يُحتمَلُ المجلسُ الرَّديءُ لنَيلِ الكرامةِ. وقد يجوزُ أنْ يكونَ ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ صِفةً لـ ﴿يَحْمُومٍ﴾، ويلزَمُ منه أنْ يكونَ الظِّلُّ مَوصوفًا بذلك[3].

- وفي قولِه: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّعريضِ[4]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٤، ٣٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٦).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٤).

(٤) التَّعريضُ في اصطلاحِ البَلاغيِّينَ: هو الدَّلالةُ على المعنى مِن طريقِ المفهوم، أي: تضمينُ الكلامِ ما يَصلُحُ للدَّلالةِ على مقصودِ المتكلِّمِ، ويصلُحُ للدَّلالةِ على غيرِ مقصودِه؛ إلَّا أنَّ إشعارَه بجانبِ المقصودِ أتمُّ وأرجَحُ. وقد يُسمَّى تلويحًا؛ لأنَّه يَلوحُ منه ما يُريدُ. والفرقُ بيْن الكِنايةِ والتَّعريضِ: أنَّ الكِنايةَ ذِكرُ الشَّيءِ بذِكرِ لَوازِمِه، كقولِك: فُلانٌ طويلُ النِّجادِ، كثيرُ الرَّمادِ... والتَّعريضَ: ذِكرُ كلامٍ يحتملُ مقصودَ المتكلِّمِ ويحتملُ غيرَ مقصودِه، إلَّا أنَّ قرائنَ الأحوالِ تؤكِّدُ حمْلَه على مقصودِه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٦/ ٤٦٩)، ((المثل السائر)) لابن الأثير (٢/ ١٨٦)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣١١)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٠٧)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حبنكة الميداني (٢/ ١٢٧).

وهو أنَّ الَّذين يَستأْهِلون الظِّلَّ الَّذي فيه بَرْدٌ وإكرامٌ غيرُ هؤلاء، فيَكونُ أشْجَى لحُلوقِهم، وأدْعَى لتَحسُّرِهم[١].

- وفي قولِه: ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ مُقابَلةٌ خَفيَّةٌ كامِنةٌ فيما بيْن سُطورِ هذا الكلامِ العجيبِ؛ فهؤلاء الَّذين أمْسَوا بهذه المَثابةِ كانوا في الدُّنيا يَعيشون غارِقين في التَّرَفِ، مُتقلِّبين في أعطافِه، فإذا بهم وقد لَفَّهم السَّمومُ واليَحْمومُ، يَتذكَّرون ما كانوا فيه، ويُقابِلون بيْنه وبيْن حالتِهم الرَّاهنةِ، والتَّجسيدُ والتَّخييلُ حاضرانِ مُهيَّآنِ أمامَهم[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ تَعليلٌ لِما يَلقاهُ أصحابُ الشِّمالِ مِن العذابِ، فيَتعيَّنُ أنَّ ما تَضمَّنَه هذا التَّعليلُ كان مِن أحوالِ كُفْرِهم، وأنَّه ممَّا له أثرٌ في إلحاقِ العذابِ بهم؛ بقَرينةِ عطْفِ ﴿ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴾... ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ ﴾ إلخ عليه[٣].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُصِرُّونَ﴾ و﴿يَقُولُونَ ﴾ تُفيدُ تكرُّرَ الإصرارِ والقولِ مِنْهم[٤].

- وذِكرُ فِعلِ (كَانُوا)؛ لإفادةِ أنَّ ذلك دَيدنُهم[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الاستِفهامُ في قولِهم: ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ؛

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

كِنايةً عن الإحالةِ والاستبعادِ[١].

- وتَقديمُ التُّرابِ؛ لعَراقتِه في الاستِبعادِ، وانْقلابِه مِن الأجْزاءِ الباديةِ[٢].

- وأُعيدَ الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؛ تَوكيدًا للاستبعادِ والإنكارِ، وللدَّلالةِ على إنكارِ البعثِ مُطلقًا[٣].

- وتَحليةُ الجُملةِ ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ بـ (إنَّ) لتأكيدِ الإنكارِ لا لإنكارِ التَّأكيدِ؛ كما عسَى يُتوَهَّمُ مِن ظاهِرِ النَّظمِ؛ فإنَّ تَقديمَ الهَمزةِ لاقتِضائِها الصَّدارةَ -كما في مِثلِ قولِه: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ومعناه: تعقيبُ الإنكارِ لا إنكارُ التَّعقيبِ، ومَرجِعُه إلى إنكارِ البَعثِ بعدَ تِلك الحالةِ، وفيه مِن الدَّلالةِ على غُلوِّهم في الكُفْرِ وتَماديهم في الضَّلالِ ما لا مَزيدَ عليه[٤].

- وتَكريرُ الهَمزةِ في قولِه تعالَى: ﴿أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾؛ لتأْكيدِ النَّكيرِ والاستبعادِ، والواوُ للعطْفِ على المُستكِنِّ في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، وحسُنَ العطْفُ على المُضمَرِ في ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾ مِن غيرِ تأكيدٍ بـ (نحن)؛ لوُجودِ الفاصلِ الَّذي هو الهمزةُ[٥]. وهذه الهَمزةُ على قِراءةِ بَعضِ القُرَّاءِ ﴿أَوْ﴾ بسُكونِ الواوِ[٦]؛ فمعْنى الآيةِ: استِبعادُ أنْ يُبعَثوا همْ وآباؤهم على حدٍّ واحدٍ مِن الاستبعادِ. وعلى قِراءةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٧).

(٦) قرأ بها أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ وقالونُ، وقرأ الباقونَ بفتحِ الواوِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٧).

الجُمهورِ: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ﴾ بتَحريكِ الواوِ، على أنَّها واوُ العطْفِ دخَلَ عليها ألِفُ الاستِفهامِ، ومعْناها: شِدَّةُ الاستبعادِ في الآباءِ، كأنَّهم استَبْعَدوا أنْ يُبعَثوا، ثمَّ أتَوا بذِكرِ مَنِ البعثُ فيهم أبعَدُ، وهذا بيِّنٌ لأهلِ العلمِ بلِسانِ العربِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

- قولُه: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴾ افتُتِحَ الكلامُ بالأمْرِ بالقولِ؛ للاهتِمامِ به، كما افتُتِحَ به نَظائرُه في آياتٍ كثيرةٍ؛ لِيَكونَ ذلك تَبليغًا عن اللهِ تعالى، فيكون قولُه: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ إلخ استئنافًا ابتدائيًّا لِمُناسَبةِ حِكايةِ قَولِهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ [الواقعة: ٤٧] الآيةَ(٢).

- وفي تَقديمِ الأوَّلِينَ مُبالَغةٌ في الرَّدِّ؛ حيثُ كان إنكارُهم لبَعثِ آبائِهم أشدَّ مِن إنكارِهم لبَعْثِهم، مع مُراعاةِ التَّرتيبِ الوُجوديِّ(٣).

- قولُه: ﴿ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ معْناهُ أنَّهم يُبعَثون ويُحشَرون جميعًا، وهذا إبطالٌ لِما اقتضاهُ عطْفُ ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ في كَلامِهم مِنِ اسْتِنتاجِ استِبعادِ البَعثِ؛ لأنَّهم عَدُّوا سبْقَ مَن سبَقَ مَوتُهم أدَلَّ على تَعذُّرِ بَعثِهم بعْدَ أنْ مَضَت عليهم القرونُ ولم يُبعَثْ فريقٌ منهم إلى يومِ هذا القيلِ(٤).

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) واللَّامِ؛ لرَدِّ إنكارِهم مَضمونَه(٥).

- وقد ضُمِّنَ ﴿ لَمَجْمُوعُونَ ﴾ معْنى (مَسوقون)؛ فتَعلَّقَ به مَجرورُه بحرْفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(إلى) للانتهاءِ، وإلَّا فإنَّ ظاهرَ (مَجمُوعون) أنْ يُعدَّى بحرْفِ (في). وأفاد تَعليقُ مَجرورِ ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ به بواسطةِ (إلى) أنَّه مُسيَّرٌ إليه حتَّى يَنْتهيَ إليه؛ فدلَّ على مَكانٍ، وهذا مِن الإيجازِ[1].

- وإضافةُ ﴿مِيقَٰتِ﴾ إلى ﴿يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾؛ لأنَّ التَّجمُّعَ واقعٌ في ذلك اليَومِ، وإذ كان التَّجمُّعُ الواقعُ في اليومِ واقعًا في ذلك المِيقاتِ، كانت بيْنَ المِيقاتِ واليومِ مُلابَسةٌ صحَّحت إضافةَ المِيقاتِ إليه لأدْنى مُلابَسةٍ، وهذا أدقُّ مِن جَعْلِ الإضافةِ بَيانيَّةً، وهذا تَعريضٌ بالوعيدِ بما يَلْقَونه في ذلك اليومِ الَّذي جَحَدوه[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾، هذا مِن جُملةِ ما أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَقولَه لهم، و(ثُمَّ) للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ فإنَّ في التَّصريحِ بتَفصيلِ جَزائِهم في ذلك اليومِ ما هو أعظَمُ وقْعًا في النُّفوسِ مِن التَّعريضِ الإجماليِّ بالوعيدِ الَّذي استُفيدَ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، وهذا التَّراخي الرُّتبيُّ بمَنزلةِ الاعتِراضِ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٤٩] وجُملةِ ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾[3] [الواقعة: ٥٧].

- قولُه: ﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾، نِداؤُهم بهذَين الوصْفينِ إيماءٌ إلى أنَّهما سبَبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما لَحِقَهم مِن الجزاءِ السَّيِّئِ[١].

- والمقصودُ مِن قولِه: ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ﴾ تَفظيعُ حالِهم في جَزائِهم على ما كانوا عليه مِن التَّرَفِ في الدُّنيا بمَلْءِ بُطونِهم بالطَّعامِ والشَّرابِ مَلْئًا أنْساهم إقبالَهم عليه، ومنَعهم مِن التَّفكُّرِ في مَصيرِهم. وقد زِيدَ تَفظيعًا بالتَّشبيهِ في قولِه: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾[٢].

- يَجوزُ أنْ يكونَ (علَى) في قولِه: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ﴾ للاستِعلاءِ، أي: شارِبون فوقَه الحميمَ، ويَجوزُ مع ذلك استِفادةُ معْنى (مع) مِن حرْفِ (علَى) تَعجيبًا مِن فَظاعةِ حالِهم، أي: يَشرَبون هذا الماءَ المُحرِقَ مع ما طَعِموه مِن شجَرِ الزَّقُّوم، فيُفيدُ أنَّهم يَتجرَّعونه، ولا يَستطيعونَ امتِناعًا[٣].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ﴾ عطْفٌ على ﴿لَأٓكِلُونَ﴾؛ لإفادةِ تَعقيبِ أكْلِ الزَّقُّومِ بـ﴿شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ دونَ فَتْرةٍ ولا استراحةٍ، وإعادةُ ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ تَوكيدٌ لَفظيٌّ لنَظيرِه، وفائدةُ هذا التَّوكيدِ زيادةُ تَقريرِ ما في هذا الشُّربِ مِن الأعجوبةِ، وهي أنَّه مع كَراهتِه يَزدادونَ منه، فيَزيدُهم تَقطيعًا لأمعائِهم؛ لإفادةِ التَّعجيبِ مِن حالِهم تَعجيبًا ثانيًا بعْدَ الأوَّلِ؛ فإنَّ كَونَهم شارِبين للحَميمِ على ما هو عليه مِن تَناهي الحرارةِ أمْرٌ عَجيبٌ، وشُرْبُهم له كما تَشرَبُ الإبلُ الهِيمُ في الإكثارِ أمْرٌ عَجيبٌ أيضًا؛ فكانتَا صِفَتينِ مُختلفتَينِ[٤].

- وجملةُ ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ مَسوقةٌ مِن جِهَتِه تعالَى بطَريقِ الفذْلَكةِ[٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١١).

(٥) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٥٠).

مُقرِّرةٌ لمَضمونِ الكَلامِ المُلقَّنِ، غَيرُ داخلةٍ تَحتَ القولِ[١].

- والكلامُ أيضًا اعتِراضٌ بيْن جُمَلِ الخِطابِ، موجَّهٌ إلى السَّامِعينَ غيرِهم؛ فليس في ضَميرِ الغَيبةِ الْتِفاتٌ[٢].

- قولُه: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ تَشبيهٌ تَهكُّميٌّ؛ فقد سمَّى الجحيمَ وما فيه مِن صُنوفِ العذابِ وضُروبِ الأهوالِ نُزُلًا تَهكُّمًا بهم؛ لأنَّ النُّزُلَ ما يُعَدُّ للنَّازلِ تَكرمةً له، كما في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٣] [آل عمران: ٢١].

- وجَعْلُ يومِ الدِّينِ وقْتًا لنُزُلِهم مُؤْذِنٌ بأنَّ ذلك الَّذي عُبِّر عنه بالنُّزُلِ جَزاءٌ على أعمالِهم، وهذا تَجريدٌ[٤] للتَّشبيهِ التَّهكُّميِّ، وهو قَرينةٌ على التَّهكُّمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٣٧).

(٤) التجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشَّيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئنْ لَقيتَ زيدًا لَتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، وهو عينُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٢).

## الآيات (٥٧-٦٢)

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّا تُمْنُونَ﴾: أي: ما تَقْذِفونَ وتَصبُّونَ في أرحامِ النِّساءِ مِن المَنيِّ؛ مِن قَولِك: أَمْنَى الرَّجُلُ: إذا خرَجَ منه المَنِيُّ، والمَنِيُّ: الماءُ الَّذي يُخلَقُ ويُقدَّرُ منه الوَلَدُ، وأصلُ (مني): يدُلُّ على تقديرِ شَيءٍ، وقيل: سُمِّي المنيُّ مَنِيًّا لأنَّه يُمْنَى، أي: يُراقُ[1].

﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾: أي: ابتِداءَ الخَلْقِ، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتِفاعِ شَيءٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مقرِّرًا للمَعادِ، ردًّا على المكذِّبينَ به، ومقيمًا الأدِلَّةَ على كمالِ قدرتِه: نحن خَلَقْناكم أوَّلَ مرَّةٍ مِنَ العَدَمِ، فهَلَّا تُصَدِّقونَ خالِقَكم في إخبارِه ببَعْثِكم أحياءً يومَ القيامةِ بعْدَ مَوتِكم!

أفرأيتُم ما تَقْذِفونَ مِنَ المنيِّ في أرحامِ نِسائِكم، أأنتُم تَخلُقونَه أم نحن الخالِقونَ له؟

نحن قَضَيْنا بَيْنَكم الموتَ، وما نحن بعاجِزينَ عن تَبديلِ صُوَرِكم وأشخاصِكم، وأن نُنشِئَكم نَشأةً أُخرى في خِلْقةٍ لا تَعلَمونَها مِنَ الصُّوَرِ والهَيئاتِ، ولقد عَلِمتُم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩).

خَلْقَنا لكم أوَّلَ مَرَّةٍ، فهَلَّا تَتذكَّرونَ ذلك فتَعلَموا أنَّ الَّذي خلَقكم ولم تَكونوا شَيئًا، قادرٌ على إعادتِكم أحياءً بعْدَ مَوتِكم؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أنكَرَ الكُفَّارُ بَعْثَهم وآبائِهم الأوَّلِينَ، وأمَرَ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُخبِرَهم أنَّه تعالى باعِثٌ جَميعَ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، وذَكَر جَزاءَ مُنكِري البَعثِ بأكْلِ الزَّقُّومِ وشُربِ الحَميمِ- أتْبَع ذلك بالبَراهينِ القاطِعةِ الدَّالَّةِ على البَعثِ، فقال تعالى[1]:

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ٥٧﴾.

أي: نحن خَلَقْناكم -أيُّها الكفرةُ المكذِّبونَ بالبعثِ[2]- أوَّلَ مرَّةٍ مِنَ العَدَمِ، فهَلَّا تُصَدِّقونَ خالِقَكم في إخبارِه ببَعْثِكم أحياءً يومَ القيامةِ بعْدَ مَوتِكم؟ فالَّذي قَدَر على ابتِداءِ خَلْقِكم قادِرٌ على إعادتِكم بطَريقِ الأَولى[3].

قال الله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٨٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٢).

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ٥٨﴾.

أي: أفرأيتُم ما تَقْذِفونَ مِنَ المَنيِّ في أرحامِ نِسائِكم[١]؟

قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ * يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ * إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ [الطارق: ٥ - ٨].

﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٥٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت العِبرةُ بالمُسَبَّبِ لا بالسَّبَبِ، نَبَّه على ذلك بتَجديدِ الإنكارِ؛ تَنبيهًا على أنَّهم وإن كانوا مُعتَرِفينَ بتفَرُّدِه بالإبداعِ، فإنَّ إنكارَهم للبَعثِ مُستلزِمٌ لإنكارِهم لذلك، فقال تعالى[٢]:

﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ٥٩﴾.

أي: أأنتُم تَخلُقونَ ذلك المَنِيَّ أم نحن الخالِقونَ له[٣]؟

﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٦٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه تقريرٌ لما سبَق، فقال: ﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ [الواقعة: ٥٧]، ثمَّ قال: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٨).

بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ فمَنْ قدَر على الإحياءِ والإماتةِ، وهما ضِدَّانِ ثبَت كونُه مختارًا، فيمكِنُ الإحياءُ ثانيًا منه بعدَ الإماتةِ[1].

وأيضًا لما كان الجوابُ عن قولِه: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾: أنتَ الخالقُ وحدَك، وكان ربَّما نازَع في ذلك أهلُ الطَّبائِعِ، وكانت المفاوتةُ للآجالِ معَ المساواةِ في اسميةِ الحياةِ مِن الدَّلائلِ العظيمةِ على تمامِ القدرةِ على الإفناءِ والإبداءِ بالاختيارِ، مبطلةً لقولِ أهلِ الطَّبائعِ دافعةً لهم؛ أكَّد ذلك الدليلَ بقولِه[2]:

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾.

أي: نحن قَضَيْنا بَيْنَكم الموتَ، فما مِن إنسانٍ يُفلِتُ مِنَ الموتِ في الوَقتِ الَّذي قدَّرَه اللهُ تعالى لذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٩، ٥٣٠).

قال الشنقيطي: (قوله: ﴿قَدَّرْنَا﴾ فيه وجْهانِ مِن التَّفسيرِ:

فقال بعضُ العلماءِ، وهو اختيارُ ابنِ جريرٍ، أنَّ قولَه: ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: قدَّرْنا لِمَوتِكم آجالًا مُختلِفةً، وأعمارًا مُتفاوِتةً؛ فمِنكم مَن يموتُ صغيرًا، ومنكم مَن يموتُ شابًّا، ومنكم مَن يموتُ شَيخًا. وهذا المعنى دلَّتْ عليه آياتٌ كثيرةٌ مِن كتابِ الله؛ كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الحج: ٥]، وقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]...

الوجهُ الثَّاني: أنَّ ﴿قَدَّرْنَا﴾ بمعنى: قضَيْنا وكَتَبْنا، أي: كتَبْنا الموتَ وقدَّرْناه على جميعِ الخلْقِ. وهذا الوجهُ تَشهَدُ له آياتٌ مِن كتابِ الله؛ كقولِه تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: =

كما قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤].

﴿... وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾.

أي: وما نحن بمَغلوبينَ ولا عاجِزينَ على تَبديلِ صُوَرِكم وأشخاصِكم، وأن نُنشِئَكم نَشأةً أُخرى في خِلْقةٍ لا تَعلَمونَها مِنَ الصُّوَرِ والهَيئاتِ، والأحوالِ والصِّفاتِ[1]!

---

= ٨٨]، وقولِه تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] [الأنبياء: ٣٥] [العنكبوت: ٥٧]، وقولِه تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٢٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والسمرقندي، والخازن، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٧).

وبنحوِ هذا القولِ قولُ مَن قال: قَسَمْناه عليكم قِسمةَ الرِّزقِ على اختِلافٍ وتَفاوُتٍ كما تَقتَضيه مَشيئتُنا، ووقَّتْنا موتَ كلِّ أحدٍ بوقتٍ مُعيَّنٍ؛ فاختلفتْ أعمارُكم مِن قصيرٍ وطويلٍ ومتوسِّطٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ في الجملةِ: القرطبيُّ، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦، ٢١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((نظم =

= الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٢، ٣٤٣).

قال ابن جُزَي: (المسبوقُ على الشَّيءِ هو المغلوبُ عليه، بحيث لا يقدِرُ عليه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٧).

قال أبو حيَّان: (المعنَى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾: أيْ: نحنُ قادِرونَ على ذلك، لا تَغْلِبونَنا عليه، إنْ أرَدْنا ذلك. وقال الطَّبَريُّ: «المعنَى: نحنُ قادِرونَ، قَدَّرْنا بَيْنَكم الموتَ، ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أيْ: بموتِ طائفةٍ ونُبَدِّلُها بطائِفةٍ، هكَذا قَرْنًا بعدَ قَرْنٍ». انتهى. فـ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ﴾ مُتَعَلِّقٌ بقولِه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا﴾، وعلى القولِ الأوَّلِ مُتَعَلِّقٌ ﴿بِمَسْبُوقِينَ﴾، أي: لا نُسْبَقُ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٨٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٦).

ممَّن نصَّ على أنَّ قولَه: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ ...﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾: السمينُ الحلبي، وابنُ عادل، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٦).

قال الشنقيطي: (والمعنى: وما نحن بمغلوبينَ على أن نُبدِّلَ أمثالَكم إنْ أهلَكْناكم لو شِئْنا، فنحن قادِرونَ على إهلاكِكم، ولا يوجَدُ أحدٌ يَغلِبُنا ويَمنَعُنا مِن خَلقِ أمثالِكم بدَلًا منكم. وهذا المعنى تَشهدُ له آياتٌ مِن كتابِ الله؛ كقولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣]، وقولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقولِه تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ * وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩، ٢٠] [فاطر: ١٦، ١٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٠).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أيُّها النَّاسُ في أنفُسِكم وآجالِكم، فمُفْتاتٌ علينا فيها في الأمرِ الَّذي قدَّرْناه لها مِن حياةٍ ومَوتٍ، بل لا يَتقدَّمُ شَيءٌ مِنها أجَلَنا، ولا يَتأخَّرُ عنه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٦).

قال الشنقيطي موضِّحًا هذا القولَ: (﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: ما نحن بمَغلوبينَ... أي: وما نحن بمغلوبينَ على ما قدَّرْنا مِن آجالِكم، وحدَّدْناه مِن أعمارِكم، فلا يَقدِرُ أحدٌ أن يُقدِّمَ أجَلًا أخَّرْناه، ولا يؤخِّرَ أجَلًا قدَّمْناه.

وهذا المعنى دلَّتْ عليه آياتٌ كثيرةٌ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] [النحل: ٦١]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ =

= [نوح: ٤]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٠).

وقال أيضًا: (وعلى هذا القولِ، فقولُه تعالَى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾، ليس مُتَعَلِّقًا بـ«مَسْبُوقِينَ»، بل بقولِه تعالَى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، والمعنَى: نحنُ قَدَّرْنا بيْنكم الموتَ على أنْ نُبَدِّلَ أمثالَكم، أي: نُبَدِّلَ مِن الَّذينَ ماتوا أمثالًا لهم نُوجِدُهم.

وعلى هذا، فمعنَى تبديلِ أمثالِهم: إيجادُ آخَرينَ مِن ذُرِّيَّةِ أُولئكَ الَّذين ماتوا، وهذا المعنَى تشهدُ له آياتٌ مِن كتابِ اللهِ؛ كقولِه تعالَى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٠).

وقال ابنُ القَيِّم: (المرادُ بتَبديلِ أمثالِهم: الخَلْقُ الجَديدُ، والنَّشأةُ الآخِرةُ الَّتي وُعِدوا بها... وكَونُهم أمثالَهم هو إنشاؤُهم خَلقًا جديدًا بعَينِه، فهم هم بأعيانِهم، وهم أمثالُهم، فهم أنفُسُهم يُعادُونَ، فإذا قُلتَ: المُعادُ هذا هو الأوَّلُ بعَينِه، صَدَقْتَ، وإنْ قُلْتَ: هو مِثلُه، صَدَقْتَ، فهو هو مُعادٌ، أو هو مِثلُ الأوَّلِ.

وقد أوضَحَ هذا سُبحانَه بقَولِه: ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، فهذا الخَلقُ الجَديدُ هو المتضمِّنُ لكَونِهم أمثالَهم، وقد سَمَّاه اللهُ سُبحانَه وتعالى إعادةً، والمُعادُ مِثلُ المُبتَدَأِ، وسَمَّاه نشأةً أُخرى، وهي مِثلُ الأُولى، وسمَّاه خَلقًا جَديدًا، وهو مِثلُ الخَلقِ الأوَّلِ، كما قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، وسَمَّاه أمثالًا، وهم هم؛ فتطابَقَت ألفاظُ القُرآنِ، وصدَّقَ بَعضُها بعضًا، وبيَّنَ بَعضُها بَعضًا، وبهذا تَزولُ إشكالاتٌ أورَدَها مَن لم يَفهَمِ المَعادَ الَّذي أخبَرَت به الرُّسُلُ عن اللهِ. ولا يُفهَمُ مِن هذا القَولِ ما قاله بَعضُ المتأخِّرينَ: إنَّهم غَيرُهم مِن كُلِّ وجْهٍ! فهذا خَطأٌ قَطعًا -مَعاذَ اللهِ مِن اعتِقادِه-، بل هم أمثالُهم، وهم أعيانُهم، فإذا فُهِمَت الحقائِقُ فلا يُناقِشُ في العِبارةِ إلَّا ضَيِّقُ العَطَنِ، صَغيرُ العَقلِ، ضَعيفُ العِلمِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٩٨، ١٩٩).

وقال الشنقيطي: (وقولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فيه للعلماءِ أقوالٌ مُتقارِبةٌ:

قال بعضُهم: نُنشِئَكم بعدَ إهلاكِكم فيما لا تَعلَمونه مِن الصُّوَرِ والهَيئاتِ، كأنْ نُنشِئَكم قِرَدةً وخَنازيرَ، كما فعَلْنا ببعضِ المجرمين قبْلَكم.

وقال بعضُهم: نُنشِئَكم فيما لا تَعلَمونه مِن الصِّفاتِ، فنُغيِّرَ صِفاتِكم، ونُجَمِّلَ المؤمنينَ ببَياضٍ =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۞ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ [النجم: ٤٥ - ٤٧].

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾.

أي: ولقد عَلِمتُم خَلْقَنا لكم أوَّلَ مَرَّةٍ، ولم تَكونوا شَيئًا قبْلَ ذلك[1]!

---

= الوُجوهِ، ونُقَبِّحَ الكافرين بسَوادِ الوُجوهِ وزُرقةِ العُيونِ. إلى غيرِ ذلك مِن الأقوالِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

قيل: المرادُ: خلْقُهم مِن نطفةٍ ثُمَّ مِن عَلَقةٍ ثُمَّ مِن مُضْغةٍ في بُطونِ أمَّهاتِهم، ولم يَكونوا قبْلَ ذلك شيئًا. وممَّن اختار هذا القولَ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، وابن الجوزي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

وقيل: المرادُ: الإحداثةُ الأُولى والخِلْقةُ الأُولى: خلْقُ آدَمَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والسمعانيُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٥٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٠).

قال ابن عطية: (﴿ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ﴾: قال أكثرُ المفسِّرينَ: إشارةٌ إلى خلْقِ آدَمَ، ووقف عليه؛ لأنَّه لا تجِدُ أحدًا يُنكِرُ أنَّه مِن ولدِ آدَمَ، وأنَّه مِن طينٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٨). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٧ - ٧٩].

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

أي: فهَلَّا تَتذكَّرونَ ذلك؛ فتَعلَموا أنَّ الَّذي أنشَأَكم النَّشْأَةَ الأُولى ولم تَكونوا شَيئًا: لا يَتعَذَّرُ عليه إعادتُكم أحياءً بعْدَ مَوتِكم[1]؟!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ التَّحريضُ على العَمَلِ الصَّالِحِ؛ لأنَّ التَّبديلَ والإنشاءَ -وهو الموتُ والحَشرُ- إذا كان واقِعًا في زَمانٍ لا يَعلَمُه أحَدٌ، فيَنبغي ألَّا يَتَّكِلَ الإنسانُ على طُولِ المُدَّةِ، ولا يَغفُلَ عن إعدادِ العُدَّةِ[2].

٢- عن أبي جعفرٍ، قال: (كان يُقالُ: يا عجَبًا لِمَن يُكذِّبُ بالنَّشأةِ الآخرةِ وهو يرى النَّشأةَ الأُولَى! يا عجَبًا كلَّ العجَبِ لِمَن يُكَذِّبُ بالنَّشرِ بعدَ الموتِ وهو يُنْشَرُ في كلِّ يومٍ ولَيلةٍ!)[3].

---

= وممَّن جمَع بيْنَ المعنيَينِ البِقاعي -وتبعه الشربيني-، فذكَرَا أنَّ ﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: التُّرابيَّةَ لأبيكم آدَمَ عليه السَّلامُ، واللَّحميَّةَ لأُمِّكم حوَّاءَ رضيَ الله عنها، والنُّطفيَّةَ لكم. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤١٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في ((الأهوال)) (٢١١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ هذا البُرهانُ الدَّالُّ على البَعثِ -الَّذي هو خلْقُ الإنسانِ مِن نُطفةِ مَنِيٍّ تُمنَى- يَجِبُ على كُلِّ إنسانٍ النَّظَرُ فيه؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وعلا وَجَّه صِفةَ الأمرِ بالنَّظَرِ فيه إلى مَنِيِّ الإنسانِ، والأصلُ في صيغةِ الأمرِ على التَّحقيقِ: الوُجوبُ إلَّا لدَليلٍ صارِفٍ عنه، وذلك في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥، ٦] الآيةَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ سؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّهم مُصَدِّقونَ بذلك، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]؟

**الجوابُ**: هم وإنْ صَدَّقوا بألسِنَتِهم لكِنْ لَمَّا كان مَذهَبُهم خِلافَ ما يَقتَضيه التَّصديقُ، كانوا كأنَّهم مُكَذِّبونَ به، أو أنَّ ذلك تَحضيضٌ على التَّصديقِ بالبَعثِ بعدَ المَوتِ بالاستِدلالِ بالخَلْقِ الأوَّلِ، فكَأنَّه قال: هو خَلَقَكم أوَّلًا باعتِرافِكم؛ فلا يَمتَنِعُ عليه أن يُعيدَكم ثانيًا؛ فهلَّا تُصَدِّقونَ بذلك[٢]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَرَونَ المقتولَ مَيِّتًا بغَيرِ أَجَلِه، وهو جَهلٌ بَيِّنٌ[٣]!

٤- قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ احتِجاجٌ عليهم، أي: إذا أَقْرَرْتُم بأنَّا خالِقوه لا غيرُنا، فاعتَرِفوا بالبعثِ، وقولُه تعالَى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٣).

بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ احْتِجاجٌ أيضًا، أي: الَّذي يَقدِرُ على الإماتةِ يَقدِرُ على الخلْقِ، وإذا قَدَر على الخلقِ قَدَر على البعثِ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ عُدِّيَ بـ «على» دونَ «إلى»؛ لأنَّه لَمَّا ضَمَّنَه معنى «مَغلوبينَ ومَقهورين» عَدَّاه بـ «على»، بخِلافِ «سَبَقَه إليه»؛ فإنَّه فَرْقٌ بيْنَ «سَبَقْتُه إليه» و«سَبَقْتُه عليه»؛ فالأوَّلُ بمعنى: غَلَبْتُه وقَهَرْتُه عليه، والثَّاني بمعنى: وصَلْتُ إليه قَبْلَه(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أنَّ مَن قَدَر على النَّشْأةِ الأُولى قَدَر على الثَّانيةِ؛ فإنَّها أقَلُّ صنعًا؛ لحُصولِ المَوادِّ، وتخصيصِ الأجزاءِ، وسَبْقِ المِثالِ(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ دَليلٌ على صِحَّةِ القياسِ(٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ أُعقِبَ إبطالُ نفْيِهم البَعثَ بالاستِدلالِ على إمكانِه، وتَقريبِ كَيفيَّةِ الإعادةِ الَّتي أحالوها، فاستُدِلَّ على إمكانِ إعادةِ الخلْقِ بأنَّ اللهَ خَلَقَهم أوَّلَ مرَّةٍ؛ فلا يَبعُدُ أنْ يُعِيدَ خلْقَهم، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ لأنَّهم لم يَكونوا يُنكِرون ذلك، وليس المقصودُ إثباتَ أنَّ اللهَ خلَقَهم. وهذا الكلامُ يَجوزُ أنْ يكونَ مِن تمامِ ما أُمِرَ بأنْ يَقولَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم، ويجوزُ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يكونَ استئنافًا مُستقلًّا. والخِطابُ على كِلا الوجهينِ مُوجَّهٌ للسَّامعينَ؛ فليس في ضَميرِ ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾ الْتفاتٌ[1]. وقيل: قولُه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ تَلوينٌ للخِطابِ، وتَوجيهٌ له إلى الكَفرةِ بطَريقِ الإلزامِ والتَّبكيتِ[2].

- وتقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿نَحْنُ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿خَلَقْنَٰكُمْ﴾؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكمِ؛ ردًّا على إحالتِهم أنْ يَكونَ اللهُ قادرًا على إعادةِ خَلْقِهم بعْدَ فَناءِ مُعظَمِ أجسادِهم حِينَ يَكونونَ تُرابًا وعِظامًا، فهذا تَذكيرٌ لهم بما ذُهِلوا عنه بأنَّ اللهَ هو خلَقَهم أوَّلَ مرَّةٍ، وهو الَّذي يُعِيدُ خَلْقَهم ثانيَ مرَّةٍ؛ فإنَّهم -وإنْ كانوا يَعلَمون أنَّ اللهَ خلَقَهم- لَمَّا لم يَجْروا على مُوجَبِ ذلك العِلمِ بإحالتِهم إعادةَ الخَلْقِ؛ نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يشُكُّ في أنَّ اللهَ خلَقَهم، فالمَقصودُ بتَقوِّي الحُكْمِ الإفضاءُ إلى ما سيُفرَّعُ عنه مِن قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾[3] [الواقعة: ٥٨- ٦١].

- ومَوقعُ هذه الجُملةِ استِدلالٌ وعِلَّةٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]؛ ولذلك لم تُعطَفْ[4].

- وأيضًا الفاءُ في قولِه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ لترتيبِ التَّحضيضِ على ما قبْلَها، أي: فهلَّا تُصدِّقونَ بالخَلْقِ؟! فإنَّ ما لا يُحقِّقُه العمَلُ ولا يُساعِدُه -بلْ يُنبِئُ عن خِلافِه- ليس مِن التَّصديقِ في شَيءٍ. وقيل: التَّقديرُ: فلولا تُصدِّقونَ بالبَعثِ استِدلالًا عليه بالإنشاءِ؛ فإنَّ مَن قدَرَ عليه قدَرَ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الإعادةِ حتْمًا[١]؛ ففُرِّعَ على التَّذكيرِ بخلْقِ اللهِ لهم في قولِه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ تَحضيضُهم على التَّصديقِ، أي: بالخَلْقِ الثاني، وهو البَعثُ؛ فإنَّ ذلك هو الَّذي لم يُصَدِّقوا به[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ تَفريعٌ على ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [الواقعة: ٥٧]، أي: خلَقْناكُم الخلْقَ الَّذي لم تَرَوه، ولكنَّكم تُوقِنون بأنَّا خلَقْناكم، فتَدبَّروا في خلْقِ النَّسلِ؛ لتَعلَموا أنَّ إعادةَ الخلْقِ تُشبهُ ابتداءَ الخلْقِ[٣].

- والاستِفهامُ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ للتَّقريرِ بتَعْيينِ خالِقِ الجَنينِ مِن النُّطفةِ؛ إذ لا يَسَعُهم إلَّا أنْ يُقِرُّوا بأنَّ اللهَ خالِقُ النَّسلِ مِن النُّطفةِ، وذلك يَستلزِمُ قُدرتَه على ما هو مِن نَوعِ إعادةِ الخلْقِ[٤].

- وإنَّما ابتُدِئَ الاستِدلالُ بتَقديمِ جُملةِ ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ زِيادةً في إبطالِ شُبهتِهم؛ إذ قاسُوا الأحوالَ المَغيبةَ على المُشاهَدةِ في قولِهم: لا نُعادُ بعْدَ أنْ كنَّا تُرابًا وعِظامًا، وكان حقُّهم أنْ يَقيسوا على تَخلُّقِ الجنينِ مِن مَبدأِ ماءِ النُّطفةِ، فيَقولوا: لا تَتخلَّقُ مِن النُّطفةِ المَيتةِ أجسامٌ حيَّةٌ، كما قالوا: لا تَصِيرُ العِظامُ الباليةُ ذواتًا حيَّةً، وإلَّا فإنَّهم لم يدَّعُوا قطُّ أنَّهم خالِقون؛ فكان قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ تَمْهيدًا للاستِدلالِ على أنَّ اللهَ هو خالِقُ الأجنَّةِ بقُدرتِه، وأنَّ تلك القدرةَ لا تَقصُرُ عن الخلْقِ الثَّاني عندَ البَعْثِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٣).

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿ءَأَنتُمۡ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾ لإفادةِ التَّقوِّي؛ لأنَّهم لَمَّا نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَزعُمُ ذلك، صِيغَتْ جُملةُ نَفْيِه بصِيغةٍ دالَّةٍ على زَعْمِهم تَمكُّنَ التَّصرُّفِ في تَكوينِ النَّسْلِ[1].

- وقد حصَلَ مِن نفْيِ الخلْقِ عنهم وإثباتِه للهِ تعالَى معْنى قَصْرِ الخلْقِ على اللهِ تعالَى[2].

- و﴿أَمۡ﴾ في قولِه: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ مُتَّصِلةٌ، مُعادِلةٌ للهَمزةِ، وما بعْدَها مَعطوفٌ؛ لأنَّ الغالبَ ألَّا يُذكَرَ له خبَرٌ اكتِفاءً بدَلالةِ خبَرِ المعطوفِ عليه على الخبَرِ المحذوفِ، وهاهنا أُعِيدَ الخَبرُ في قولِه: ﴿أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ زِيادةً في تَقريرِ إسنادِ الخَلْقِ إلى اللهِ في المعْنى، وللإيفاءِ بالفاصِلةِ، وامتدادِ نفَسِ الوقْفِ. ويَجوزُ أنْ نَجعَلَ ﴿أَمۡ﴾ مُنقطِعةً بمعْنى (بل)؛ لأنَّ الاستِفهامَ ليس بحَقيقيٍّ، فليس مِن غرَضِه طلَبُ تَعيينِ الفاعلِ، ويكونَ الكلامُ قد تمَّ عندَ قولِه: ﴿تَخۡلُقُونَهُۥٓ﴾، والمعْنى: أتظُنُّون أنفُسَكم خالِقينَ النَّسَمةَ ممَّا تُمْنون[3]؟!

- قولُه: ﴿ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ فيه احتِباكٌ[4]؛ ذكَرَ أوَّلًا «تَخلُقُونَ» دليلًا على حَذفِ مِثْلِه له سُبحانَه ثانيًا، وذكَرَ الاسمَ ثانيًا دَليلًا على حَذفِ مِثلِه لهم أوَّلًا، وسِرُّ ذلك: أنَّه ذَكَر ما هو الأوفَقُ لأعمالِهم ممَّا يدُلُّ على وقتِ التَّجَدُّدِ ولو وقتًا ما، وما هو الأَولى بصِفاتِه سُبحانَه ممَّا يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٤).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩).

الثَّباتِ والدَّوامِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ استِدلالٌ بإماتةِ الأحياءِ على أنَّها مَقدورةٌ للهِ تعالَى، ضَرورةَ أنَّهم مُوقِنون بها ومُشاهِدونها، وواثِقُون دفْعَها أو تأْخيرَها؛ فإنَّ الَّذي قدَرَ على خلْقِ الموتِ بعْدَ الحياةِ قادرٌ على الإحياءِ بعْدَ الموتِ؛ إذ القدرةُ على حُصولِ شَيءٍ تَقْتضي القُدرةَ على ضِدِّه، فلا جَرَمَ أنَّ القادرَ على خلْقِ حَيٍّ ممَّا ليس فيه حَياةٌ، وعلى إماتتِه بعْدَ الحياةِ، قَديرٌ على التَّصرُّفِ في حالتَيْ إحيائِه وإماتتِه، وما الإحياءُ بعْدَ الإماتةِ إلَّا حالةٌ مِن تَينِكَ الحقيقتَينِ؛ فوضَحَ دليلُ إمكانِ البَعثِ، هذا أصلُ المُفادِ مِن قولِه: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، ثمَّ هو مع ذلك تَنبيهٌ على أنَّ الموتَ جعَلَه اللهُ طَورًا مِن أطوارِ الإنسانِ؛ لحِكمةِ الانتِقالِ به إلى الحياةِ الأبَديَّةِ بعْدَ إعدادِه لها بما تُهيِّئُه له أسبابُ الكمالِ المُؤهِّلةُ لتلك الحياةِ؛ لتَتِمَّ المُناسَبةُ بيْن ذلك العالَمِ وبيْن عامِريه؛ فهذا وجْهُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ دونَ: (نحن نُميتُكم)، أي: إنَّ الموتَ مَجعولٌ على تَقديرٍ مَعلومٍ مُرادٍ، مع ما في مادَّةِ (قدَّرْنا) مِن التَّذكيرِ بالعِلمِ والقُدرةِ والإرادةِ؛ لتَتوجَّهَ أنظارُ العُقولِ إلى ما في طَيِّ ذلك مِن دَقائقَ، وهي كثيرةٌ، وخاصَّةً في تَقديرِ مَوتِ الإنسانِ الَّذي هو سَبيلٌ إلى الحياةِ الكاملةِ إنْ أُخِذَ لها أسبابُها[٢].

- وفي كَلمةِ ﴿بَيْنَكُمُ﴾ معْنًى آخَرُ، وهو أنَّ الموتَ يأْتي على آحادِهم تَداوُلًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٤، ٣١٥).

وتَناوُبًا، فلا يُفْلِتُ واحدٌ منهم، ولا يَتعيَّنُ لحُلولِه صِنفٌ ولا عُمُرٌ، فآذَنَ ظَرفُ (بيْن) بأنَّ الموتَ كالشَّيءِ الموضوعِ للتَّوزيعِ، لا يَدري أحدٌ متى يُصِيبُه قِسطُه منه، فالنَّاسُ كمَن دُعُوا إلى قِسمةِ مالٍ، أو ثمَرٍ، أو نَعَمٍ، لا يَدْري أحدٌ متى يُنادَى عليه ليَأخُذَ قِسمَه، أو متى يَطيرُ إليه قِطُّه -أي: نصيبُه- ولكنَّه يُوقِنُ بأنَّه نائلُه لا مَحالةَ، وفي هذا كِنايةٌ عن كَونِ الموتِ فائدةً ومَصلحةً للنَّاسِ؛ أمَّا في الدُّنيا فلئلَّا تَضيقَ بهم الأرضُ والأرزاقُ، وأمَّا في الآخرةِ فلِلْجَزاءِ الوِفاقِ[1].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿نَحْنُ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿قَدَّرْنَا﴾؛ لإفادةِ تَقوِّي الحُكْمِ وتَحقيقِه، والتَّحقيقُ راجِعٌ إلى ما اشتَمَلَ عليه التَّركيبُ مِن فِعلِ (قدَّرْنا) وظَرفِ (بيْنكم) في دَلالتِهما على ما في خَلْقِ الموتِ مِن الحِكمةِ[2].

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا نَتيجةٌ لِما سبَقَ مِن الاستِدلالِ على أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على الإحياءِ بعْدَ الموتِ؛ فكان مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُعطَفَ بفاءِ التَّفريعِ أو يُترَكَ عطْفُه، فعُدِلَ عن الأمْرَينِ، وعُطِفَ بالواوِ عَطْفَ الجُمَلِ، فيكونُ جُملةً مُستقلَّةً مَقصودًا لِذاتِه؛ لأنَّ مَضمونَه يُفيدُ النَّتيجةَ، ويُفيدُ تَعليمًا اعتقاديًّا، فيَحصُلُ الإعلامُ به تَصريحًا وتَعريضًا؛ فالصَّريحُ منه التَّذكيرُ بتَمامِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، وأنَّه لا يَغلِبُه غالبٌ، ولا تَضيقُ قُدرتُه عن شَيءٍ، وأنَّه يُبدِلُهم خلْقًا آخَرَ في البَعثِ مُماثِلًا لخلْقِهم في الدُّنيا، ويُفيدُ تَعريضًا بالتَّهديدِ باستئصالِهم وتَعويضِهم بأُمَّةٍ أُخرى، ولو جِيءَ بالفاءِ لَضاقتْ دَلالةُ الكَلامِ عن المعْنيَينِ الآخَرينِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ويَتعلَّقُ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ بـ (مَسْبُوقِينَ) -على قولٍ-؛ لأنَّه يُقالُ: غلَبَه على كذا، إذا حالَ بيْنه وبيْن نَوالِه، وأصْلُه: غلَبَه على كذا، أي: تمكَّنَ مِن كذا دُونَه؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١]، ويكونُ الوقفُ على قولِه: ﴿أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿قَدَّرۡنَا﴾ [الواقعة: ٦٠]، أي: قدَّرْنا الموتَ على أنْ نُحيِيَكم فيما بعْدُ، إدماجًا[1] لإبطالِ قولِهم: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]؛ فتَكونَ (على) بمعْنى (مع)، وتَكونَ حالًا مُقدَّرةً، وهذا كقولِ الواعظِ: «على شَرْطِ النَّقضِ رُفِعَ البُنيانُ، وعلى شَرْطِ الخُروجِ دخَلَتِ الأرواحُ للأبدانِ»، ويكونَ مُتعلِّقُ (مَسبوقين) مَحذوفًا دالًّا عليه المَقامُ، أي: ما نحن بمَغلوبينَ فيما قدَّرْناه مِن خلْقِكم وإماتتِكم، ويُجعَل الوقْفُ على (مَسبوقِين)، ويُفيدُ قولُه: ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ ...﴾ إلخ وراءَ ذلك عِبرةً بحالِ الموتِ بعْدَ الحياةِ؛ فإنَّ في تَقلُّبِ ذَينِكَ الحالَينِ عِبرةً وتدبُّرًا في عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وتَصرُّفِه، ومعْنَى: ﴿أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ﴾: نُبدِّلَ بكم أمْثالَكم، أي: نَجعَلَ أمْثالَكم بدَلًا، وفِعلُ (بدَّل) يَنصِبُ مَفعولًا واحدًا، ويَتعدَّى إلى ما هو في معْنى المفعولِ الثَّاني بحرْفِ الباءِ -وهو الغالبُ- أو بـ (مِن) البَدليَّةِ؛ فإنَّ مَفعولَ (بدَّلَ) صالحٌ لأنْ يكونَ مُبدَلًا ومُبدَلًا منه، فالتَّقديرُ هنا: على أنْ نُبدِّلَ منكم أمثالَكم، فحُذِفَ مُتعلَّقُ (نُبدِّل) وأُبقِيَ المفعولُ؛ لأنَّ المجرورَ أَوْلَى بالحَذْفِ. ويجوزُ أنْ يُفيدَ معْنى التَّهديدِ بالاستِئصالِ، أي: لو شِئْنا استِئصالَكم لَما أعْجزْتُمونا؛ فيَكونَ إدماجًا للتَّهديدِ في أثناءِ الاستدلالِ[2].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٦، ٣١٧).

- قولُه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ عُطِفَ بالواوِ دونَ الفاءِ؛ لأنَّه بمُفردِه تَصويرٌ لقُدرةِ اللهِ تعالى وحِكمتِه بعْدَ ما أفادَهُ قولُه: ﴿أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ﴾ مِن إثباتِ أنَّ اللهَ قادرٌ على البعثِ(١).

- و(ما) في قولِه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ صادِقةٌ على الكَيفيَّةِ أو الهيئةِ الَّتي يَتكيَّفُ بها الإنشاءُ، أي: في كَيفيَّةٍ لا تَعلَمونها؛ إذ لم تُحِيطوا عِلمًا بخَفايا الخِلْقةِ، وهذا الإجمالُ جامِعٌ لجَميعِ الصُّوَرِ الَّتي يَفرِضُها الإمكانُ في بَعثِ الأجسادِ لإيداعِ الأرواحِ(٢).

- والظَّرفيَّةُ المُستفادةُ مِن (في) معْناها قوَّةُ المُلابَسةِ الشَّبيهةِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمَظروفِ؛ كقولِه: ﴿فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾(٣) [الانفطار: ٧، ٨].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، أُعقِبَ دَليلُ إمكانِ البعثِ المُستنِدِ للتَّنبيهِ على صَلاحيةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ لذلك، ولسَدِّ مَنافذِ الشُّبهةِ -بدَليلٍ مِن قِياسِ التَّمثيلِ(٤)، وهو تَشبيهُ النَّشأةِ الثَّانيةِ بالنَّشأةِ الأُولى المَعلومةِ عندَهم بالضَّرورةِ، فنُبِّهوا ليَقِيسوا عليها النَّشأةَ الثَّانيةَ في أنَّها إنشاءٌ مِن أثَرِ قُدرةِ اللهِ وعِلمِه، وفي أنَّهم لا يُحيطون عِلمًا بدَقائقِ حُصولِها(٥).

- ولَمَّا كان عِلمُهم بالنَّشأةِ الأُولَى كافيًا لهم في إبطالِ إحالتِهم النَّشأةَ الثَّانيةَ، رُتِّبَ عليه مِن التَّوبيخِ ما لم يُرتَّبْ مِثلُه على قولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٨).

أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، فقال: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾، أي: هلَّا تَذكَّرْتم بذلك، فأمسَكْتُم عن الجحْدِ؟! وهذا تَجهيلٌ لهم في تَرْكِهم قِياسَ الأشباهِ على أشْباهِها[1].

- وجِيءَ بالمضارعِ في قولِه: ﴿تَذَكَّرُونَ ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ بابَ التَّذكُّرِ مَفتوحٌ، فإنْ فاتَهُم التَّذكُّرُ فيما مَضى فلْيَتدارَكوه الآنَ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٦٢-٧٤)

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حُطَٰمًا﴾: أي: فُتاتًا مُكَسَّرًا، مِن تحطَّمَ العُودُ: إذا تفتَّت مِن اليُبْسِ، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسرِ الشَّيءِ[١].

﴿تَفَكَّهُونَ﴾: أي: تَنْدَمونَ. وقيلَ: تَتعَجَّبونَ مِمَّا نَزَل بزَرْعِكم[٢].

﴿لَمُغْرَمُونَ﴾: أي: مُعَذَّبونَ؛ مِنَ الغَرامِ: وهو أشَدُّ العَذابِ. وقيل: أي: غَرِمْنا أموالَنا وصار ما أنفَقْنا غُرْمًا علينا، والمُغْرَمُ: الَّذي ذَهَب مالُه بغَيرِ عِوَضٍ، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ[٣].

﴿ٱلْمُزْنِ﴾: أي: السَّحابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٨)، =

﴿أُجَاجًا﴾: أي: شَديدَ المُلوحةِ، وأصلُ (أجج): يدُلُّ على الشِّدَّةِ[١].

﴿تُورُونَ﴾: أي: تَستَخرِجونَ، يُقالُ: وَرَى الزَّنْدُ (أي: العودُ الَّذي تُقدَحُ به النَّارُ) يَرِي وَرْيًا: خَرَجَت نارُه[٢].

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾: أي: مَنْفَعةً للمُسافِرينَ، والمُقْوِي: الَّذي يَنزِلُ بالقَوَاءِ: وهي الأرضُ الخاليةُ. وقيل: هم الَّذين لا زادَ معهم ولا مالَ لهم؛ مِن قَولِهم: أقْوَتِ الدَّارُ، أي: خَلَت، فالمُقْوِي: الخالي مِنَ الزَّادِ، وأصلُ (قوي) هنا: يدُلُّ على قِلَّةِ خَيرٍ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى دليلًا آخَرَ على صحَّةِ البعثِ وإمكانيَّتِه، وعلى كمالِ قدرتِه، وهو الدَّليلُ الثَّاني، فيقولُ: أفرأيتُمُ البَذْرَ الَّذي تَحرُثونَ له الأرضَ، فتُلْقونَه فيها لِيَنبُتَ؟ أأنتُم تُصَيِّرونَ ذلك البَذْرَ زَرْعًا أمْ نحن؟ لو نَشاءُ لصَيَّرْنا ذلك الزَّرْعَ مُتفَتِّتًا يابِسًا، فبَقِيتُم نادِمينَ مُتعَجِّبينَ مِن هَلاكِه، فتَقولونَ: إنَّا لَمُعَذَّبونَ، بل نحن مَحرومونَ!

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٨).

ثمَّ يذكرُ الدَّليلَ الثَّالثَ، فيقولُ: أفرأيتُمُ الماءَ العَذْبَ الَّذي تَشرَبونَ؟ أأنتم أنزَلْتُموه مِنَ السَّحابِ أمْ نحن المُنزِلونَ؟ لو نَشاءُ جَعَلْنا ذلك الماءَ العَذْبَ مِلْحًا شَديدَ المَرارةِ، فهلَّا تَشكُرونَ اللهَ تعالى!

ثمَّ يذكرُ الدَّليلَ الرَّابعَ، فيقولُ: أفرأيتُمُ النَّارَ الَّتي تَستَخرِجونَها مِنَ الشَّجَرِ؟ أأنتُم أنشَأْتُم تلك الشَّجَرةَ الَّتي تَخرُجُ منها النَّارُ، أمْ نحن الَّذين أنشَأْناها بقُدْرتِنا؟ نحن جعَلْنا تلك النَّارَ تَذكيرًا للنَّاسِ بنارِ جَهنَّمَ، ومَنفَعةً للمُسافِرينَ؛ فنَزِّهْ ربَّك العَظيمَ -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها انتِقالٌ إلى دليلٍ آخَرَ على إمكانِ البَعثِ، وصلاحيَةِ قُدرةِ اللهِ له، بضَربٍ آخَرَ مِن ضُروبِ الإنشاءِ بعدَ العَدَمِ[1].

وأيضًا فمُناسَبةُ الانتقالِ مِن الاستِدلالِ بخَلقِ النَّسلِ إلى الاستِدلالِ بنَباتِ الزَّرعِ: هي التَّشابُه البَيِّنُ بيْنَ تكوينِ الإنسانِ وتكوينِ النَّباتِ؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾[2] [نوح: ١٧].

وأيضًا لَمَّا كان عِلْمُهم بأمرِ النَّباتِ -الَّذي هو الآيةُ العظمى لإعادةِ الأمواتِ- أعظَمَ مِن عِلْمِهم بجَميعِ ما مضى، وكان أمرُه في الحَرثِ وإلقاءِ البَذرِ فيه أشبَهَ شَيءٍ بالجِماعِ وإلقاءِ النُّطفةِ -ولذلك سُمِّيَت المرأةُ حَرثًا-؛ وصل بما مضى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٢٠).

مُسَبِّبًا عنه قَولَه، مُنكِرًا عليهم[١]:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

أي: أفرأيتُمُ البَذْرَ الَّذي تَشُقُّون له الأرضَ وتُثيرونَها، فتُلْقونَه فيها لِيَنبُتَ[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانوا لا يَدَّعُونَ القُدرةَ على الإنباتِ بوَجهٍ، وكان القادِرُ عليه قادِرًا على كُلِّ شَيءٍ، وهم يَعتَقِدونَ في أمرِ البَعثِ ما يُؤَدِّي إلى الطَّعنِ في قُدرتِه- كَرَّر الإنكارَ عليهم، فقال تعالى[٣]:

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

أي: أأنتُم تُصَيِّرونَ ذلك البَذْرَ زَرْعًا، أم نحن الَّذين أنبَتْناه بقُدرَتِنا[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٤٣).

﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الجوابُ قَطْعًا: «أنت الفاعِلُ لذلك وَحْدَك» قال مُوَضِّحًا -لأنَّه ما زَرَعَه غَيرُه- بأنَّ الفاعِلَ الكامِلَ هو مَن يَدفَعُ عَمَّا صَنَعَه ما يُفسِدُه، ومَن إذا أراد إفسادَه لم يَقدِرْ أحَدٌ على مَنْعِه[1]:

﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا﴾.

أي: لو نَشاءُ لَصَيَّرْنا ذلك الزَّرْعَ -الَّذي أنبَتْناه- هَشيمًا يابِسًا، فلا تَنتَفِعونَ به[2]!

﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ﴾.

أي: فبَقِيتُم نادِمينَ مُتعَجِّبينَ مِن هَلاكِ زَرْعِكم، قد زال عنكم السُّرورُ والمَرَحُ[3]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: لو نَشاءُ لَجعَلْنا ما يَنبُتُ بعدَ خُروجِه مِنَ الأرضِ حُطامًا، بأن نُسَلِّطَ عليه ما يُحَطِّمُه مِن بَردٍ أو رِيحٍ أو حَشَراتٍ قبْلَ أن تَنتَفِعوا به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥).

﴿فَظَلۡتُمۡ﴾ أصلُه فظللْتُم، حُذِفتْ إحدى اللامينِ تخفيفًا. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ بمعنى: تَنْدَمونَ على ما خَسِرْتُم مِنَ الإنفاقِ عليه، كقَولِه تعالى: ﴿فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا﴾ [الكهف: ٤٢]. وقال بعضُ العلماءِ: تَنْدَمونَ على مَعصيةِ اللهِ الَّتي كانت سَبَبًا لتَحطيمِ زَرْعِكم. والأوَّلُ مِنَ الوَجهَينِ في سَبَبِ النَّدَمِ هو الأظهَرُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٣). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٩).

وقال ابنُ عثيمين: (أي: تَتفَكَّهونَ بالكلامِ، تُريدونَ أن تُذهِبوا الحُزْنَ عنكم، فتَقولونَ: ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ﴾ أي: لَحِقَنا الغُرمُ بهذا الزَّرعِ الَّذي صار حُطامًا، ثمَّ تَستأنِفون فتَقولون: ﴿بَلۡ نَحۡنُ =

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تَفَكُّهَهم، وكان التَّفَكُّهُ يُطلَقُ على التَّعَجُّبِ والتَّنَدُّمِ، وعلى التَّنَعُّمِ؛ بَيَّن المرادَ بقَولِه حِكايةً لتفَكُّهِهم[1]:

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

أي: فتَقولونَ: إنَّا لَمُعَذَّبونَ[2]!

---

= ﴿مَحْرُومُونَ﴾). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٣).

قال ابنُ عطيَّة: (المعنى: يحتَمِلُ أن يكونَ: إنَّا لَمُعَذَّبونَ؛ مِنَ الغَرامِ: وهو أَشَدُّ العَذابِ... ويحتَمِلُ أن يكونَ: إنَّا لَمُحَمَّلونَ الغُرْمَ، أي: غَرِمْنا في النَّفَقةِ، وذَهَب زَرْعُنا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٩).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: الفرَّاءُ، وأبو عُبَيْدَةَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢٩)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٨)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٠).

قال الواحدي: (كأنَّهم ذهبوا إلى أنَّهم عُذِّبوا بذَهابِ أموالِهم). ((البسيط)) (٢١/ ٢٥٢).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٦)، ((تفسير الشوكاني)) =

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

أي: إنَّما نحن مَحرومونَ مِن مَنفَعةِ زَرْعِنا، وحُصولِ خَيْرِه، فلا حَظَّ لنا فيه[١]!

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالى نِعمَتَه على عِبادِه بالطَّعامِ؛ ذكَرَ نِعمتَه عليهم بالشَّرابِ العَذْبِ الَّذي منه يَشرَبونَ[٢].

وأيضًا فهذا انتِقالٌ إلى دليلٍ آخَرَ على إمكانِ البعثِ وصَلاحيةِ قُدرةِ اللهِ له، بضَرْبٍ آخَرَ مِن ضُروبِ الإنشاءِ بعْدَ العدَمِ، ومُناسبةُ الانتِقالِ أنَّ الحرْثَ إنَّما يَنبُتُ زَرْعُه وشَجرُه بالماءِ، فانتُقِلَ مِن الاستِدلالِ بتَكوينِ النَّباتِ إلى الاستِدلالِ بتَكوينِ الماءِ الَّذي به حياةُ الزَّرعِ والشَّجرِ[٣].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

أي: أفرأيتُمُ الماءَ العَذْبَ الَّذي تَشرَبونَ منه[٤]؟

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: أأنتُم الَّذين أنزَلْتُم هذا الماءَ مِنَ السَّحابِ إلى الأرضِ، أم نحن المُنزِلونَ

---

= (٥/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٤٣). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٣).

له بقُدْرتِنا[١]؟

﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ٧٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الجَوابُ عمَّا سَبقَ: «أنتَ وَحْدَك فعَلْتَ ذلك، على غِناكَ عن الخَلْقِ بما لك مِنَ الرَّحمةِ وكَمالِ الذَّاتِ والصِّفاتِ»؛ قال مُذَكِّرًا بنِعمةٍ أُخرى[٢]:

﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾.

أي: لو نَشاءُ جَعَلْنا ذلك الماءَ العَذْبَ مِلْحًا شَديدَ المَرارةِ؛ فلا يُمكِنُكم شُربُه، والانتِفاعُ به[٣]!

﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾.

أي: فهلَّا تَشكُرونَ اللهَ الَّذي رزَقَكم الماءَ العَذْبَ الزُّلالَ[٤]!

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ٧١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٣).

قال ابنُ عطيَّة: (المُزْنُ: السَّحابُ، بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٩).

وقال البِقاعي: (أي: السَّحابِ المَملوءِ المَمدوحِ الَّذي شأنُه الإسراعُ في المُضِيِّ. وقال الأصبهاني: وقيل: السَّحابُ الأبيَضُ خاصَّةً، وهو أعذَبُ ماءً). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٤).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

انتَقَلَ اللهُ تعالى إلى أمرٍ ثالثٍ يُصْلَحُ به الطَّعامُ والشَّرابُ، وهو النَّارُ[١].

وأيضًا مُناسَبةُ الانتِقالِ مِن الاستِدلالِ بخَلقِ الماءِ إلى الاستِدلالِ بخَلقِ النَّارِ: هي ما تقدَّمَ في مناسَبةِ الانتِقالِ إلى خَلقِ الماءِ مِن الاستِدلالِ بخَلقِ الزَّرعِ والشَّجَرِ؛ فإنَّ النَّارَ تَخرُجُ مِن الشَّجَرِ بالاقتِداحِ، وتُذْكَى بالشَّجَرِ في الاشتِعالِ والالتِهابِ، وهذا استِدلالٌ على تقريبِ كَيفيَّةِ الإحياءِ للبَعثِ؛ مِن حَيثُ إنَّ الاقتِداحَ إخراجٌ، والزَّندُ الَّذي به إيقادُ النَّارِ يَخرُجُ مِن أعوادِ الاقتداحِ، وهي مَيِّتةٌ[٢]!

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

أي: أفرأيتُم النَّارَ الَّتي تَستَخرِجونَها مِنَ الشَّجَرِ بالاقتِداحِ، وتُوقِدونَها[٣]؟

﴿ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

أي: أأنتُم أنشَأْتُم الشَّجَرةَ الَّتي تَخرُجُ منها النَّارُ، أم نحن الَّذين أنشَأْناها بقُدْرتِنا[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٥، ٥٣٦).

قال ابنُ عاشور: (شَجَرةُ النَّارِ: هي جِنسُ الشَّجَرِ الَّذي فيه حُرَّاقٌ، أي: ما يُقتَدَحُ منه النَّارُ، وهو شَجرُ الزَّنْدِ أو الزِّنَادِ، وأشجارُ النَّارِ كَثيرةٌ؛ منها: المَرْخُ -بفَتحٍ فسُكونٍ-، والعَفَارُ -بفَتحِ العَينِ- ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٥).

وقال ابن عثيمين: (وشجرةُ النَّارِ هي شجرٌ معروفٌ في الحجازِ، ورُبَّما يكونُ معروفًا غيره، يُسمَّى المَرْخَ والعَفَارَ، وهذا الشَّجرُ له خاصيَّةٌ إذا ضُرِب بالمَرْو أو بشَيءٍ يَنقدِحُ مع المُماسَّةِ، اشتعَل =

كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٠].

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الجوابُ عمَّا سَبقَ قَطْعًا: «أنتَ وَحْدَك»، قال دالًّا على ذلك؛ تنبيهًا على عِظَمِ هذا الخَبَرِ[1]:

﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً ﴾.

أي: نحن جعَلْنا تلك النَّارَ تَذكيرًا للنَّاسِ بنارِ جَهنَّمَ، فيَعتَبِرونَ ويَنزَجِرونَ خَوفًا منها[2].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي الله عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نارُكم جُزءٌ مِن سَبعينَ جُزءًا مِن نارِ جَهنَّمَ! قيلَ: يا رَسولَ اللهِ: إنْ كانت لَكافيةً! قال: فُضِّلَت عليهِنَّ بتِسعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كُلُّهنَّ مِثلُ حَرِّها))[3].

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾.

أي: وجعَلْنا نارَ الدُّنيا مَنفَعةً للمُسافِرينَ؛ في الطَّبخِ، والتَّدفِئةِ، والاستِضاءةِ،

---

= نارًا يوقَدُ منه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٤، ٣٤٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٣٦)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٦).

(٣) رواه البخاري (٣٢٦٥) واللفظ له، ومسلم (٢٨٤٣).

وغيرِ ذلك[١].

﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن مِن نِعَمِه ما يُوجِبُ الثَّناءَ عليه مِن عِبادِه، وشُكرَه وعبادتَه؛ أمرَ بتَسبيحِه وتحميدِه[٢].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى حالَ المكَذِّبينَ بالحَشرِ والوحدانيَّةِ، وذكَرَ الدَّليلَ عليهما بالخَلقِ والرِّزقِ، ولم يُفِدْهم الإيمانُ؛ قال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ وظيفتَك أن تَكمُلَ في نفْسِك، وهو عِلمُك برَبِّك، وعَمَلُك لرَبِّك؛ فسَبِّحْ باسمِ رَبِّك[٣].

﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤ ﴾.

أي: فنَزِّهْ ربَّك المتَّصِفَ بكَمالِ العَظَمةِ -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائِلًا: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ[٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ، يَجِبُ على كُلِّ إنسانٍ

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٨)، ((ياقوتة الصراط)) لغلام ثعلب (ص: ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣١، ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٨، ٣٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٥).

أن يَنظُرَ في هذا البُرهانِ الَّذي دَلَّت عليه هذه الآيةُ الكريمةُ؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ وعلا وَجَّه في كتابِه صِيغةَ أمرٍ صَريحةً عامَّةً في كُلِّ ما يَصدُقُ عليه مُسَمَّى الإنسانِ بالنَّظَرِ في هذا البُرهانِ العَظيمِ المتضَمِّنِ للامتِنانِ لأعظَمِ النِّعَمِ على الخَلقِ، ولِلدَّلالةِ على عَظَمةِ اللهِ وقُدرتِه على البَعثِ وغَيرِه، وشِدَّةِ حاجةِ خَلْقِه إليه -مع غِناه عنهم-؛ وذلك قَولُه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ - ٣٢]. والمعنى: انظُرْ -أيُّها الإنسانُ الضَّعيفُ- إلى طعامِك، كالخُبزِ الَّذي تأكُلُه ولا غِنى لك عنه: مَنِ الَّذي خَلَق الماءَ الَّذي صار سَبَبًا لإنباتِه؟ هل يَقدِرُ أحَدٌ غيرُ اللهِ على خَلقِ الماءِ، أي: إبرازِه مِن أصلِ العَدَمِ إلى الوُجودِ؟ ثمَّ هَبْ أنَّ الماءَ خُلِقَ، هل يَقدِرُ أحَدٌ غيرُ اللهِ أن يُنزِلَه على هذا الأُسلوبِ الهائِلِ العَظيمِ الَّذي يَسقي به الأرضَ مِن غَيرِ هَدْمٍ ولا غَرَقٍ؟ ثمَّ هَبْ أنَّ الماءَ نَزَل في الأرضِ، مَن الَّذي يَقدِرُ على شَقِّ الأرضِ عن مَسارِ الزَّرعِ؟ ثمَّ هَبْ أنَّ الزَّرعَ طَلَع، فمَن الَّذي يَقدِرُ على إخراجِ السُّنبُلِ منه؟ ثمَّ هَبْ أنَّ السُّنبُلَ خَرَج منه، فمَن الَّذي يَقدِرُ على إنباتِ الحَبِّ فيه وتَنميتِه حتَّى يُدرَكَ صالِحًا للأكلِ[1]؟!

٢- النَّارُ مِن أكبرِ الماعونِ، وأعظمِ المنافعِ والمرافقِ، ولو لم يكُنْ فيها إلَّا أنَّ الله تعالى جعَلها الزَّاجرةَ عن المعاصي، لكان في ذلك ما يزيدُ في قدرِها ونباهةِ ذِكرِها، وقال تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، فالعاقِلُ المعتبِرُ إذا تأمَّل قولَه تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ تصوَّر ما فيها مِن النِّعَمِ أوَّلًا ومِن

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٨، ٢١٩).

النِّقَم آخرًا[١]، فقولُه: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: نذكِّرُ النَّاسَ بها في دارِ الدُّنيا -إذا أحسُّوا شدَّةَ حرارتِها- نارَ الآخرةِ، الَّتي هي أشدُّ منها حرًّا؛ ليَنزَجِروا عن الأعمالِ المقتضيةِ لدُخولِ النَّارِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ دَلالةٌ على إباحةِ الزَّرعِ، مِن جِهةِ الامتِنانِ به[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى هو الزَّارِعُ، فكيف قال تعالى: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]؟

**الجَوابُ**: قد ثَبَت مِنَ التَّفسيرِ أنَّ الحَرْثَ مُتَّصِلٌ بالزَّرعِ؛ فالحَرثُ أوائِلُ الزَّرعِ، والزَّرعُ أواخِرُ الحَرْثِ، فيَجوزُ إطلاقُ أحَدِهما على الآخَرِ، لكِنْ قَولُه: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بدَلًا عن قَولِه: «يُعجِبُ الحُرَّاثَ» يدُلُّ على أنَّ الحارِثَ إذا كان هو المُبتدئَ فرُبَّما يَتعَجَّبُ بما يترتَّبُ على فِعْلِه مِن خُروجِ النَّباتِ، والزَّارِعُ لَمَّا كان هو المُنتهيَ، ولا يُعجِبُه إلَّا شَيءٌ عَظيمٌ؛ فقال: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ الَّذين تعَوَّدوا أخْذَ الحِرَاثِ، فما ظَنُّك بإعجابِه الحُرَّاثَ[٤]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ أنَّه يُوصَفُ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنَّه الزَّارِعُ؛ ولا يُسمَّى به[٥].

---

(١) يُنظر: ((الأزمنة والأمكنة)) للمرزوقي (ص: ٥٣٥)، ويُنظر أيضًا: ((الحيوان)) للجاحظ (٤/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٠).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١١٩).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على ما لا يَفعَلُه؛ فإنَّه أخبرَ أنَّه لو شاء جَعَلَ الماءَ أُجاجًا، وهو لم يَفعَلْه، ومِثْلُ هذا: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ [البقرة: ٢٥٣]؛ فإنَّه أخبرَ في غيرِ مَوضعٍ أنَّه لو شاء لَفَعَل أشياءَ، وهو لم يَفعَلْها، فلو لم يكُنْ قادِرًا عليها لَكان إذا شاءَها لم يُمكِنْ فِعلُها[1]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ أنَّ جَميعَ الماءِ السَّاكِنِ في الأرضِ، النَّابِعِ مِن العُيونِ والآبارِ ونَحوِ ذلك: أنَّ أصْلَه كُلَّه نازِلٌ مِنَ المُزْنِ، وأنَّ اللهَ أسكَنَه في الأرضِ، وخَزَنَه فيها لخَلْقِه[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أنَّه لو شاء تعالى لجَعَل الماءَ غيرَ صالحٍ للشُّرْبِ، وقد جاء مَعناه في آياتٍ أُخَرَ؛ كقَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ [الملك: ٣٠]، وقَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]؛ لأنَّ الذَّهابَ بالماءِ، وجَعْلَه غَورًا لا يُوصَلُ إليه، وجَعْلَه أُجاجًا: كُلُّ ذلك في المعنى سَواءٌ، بجامِعِ عَدمِ تأتِّي شُربِ الماءِ، وهذه الآياتُ المذكورةُ تدُلُّ على شِدَّةِ حاجةِ الخَلْقِ إلى خالِقِهم كما ترى[3].

٧- قولُه تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ استِدلالٌ مِن اللهِ سُبحانه بأنَّه قادرٌ على نقْضِ ما في الماءِ مِن الصَّلاحيةِ للنَّفْعِ بعْدَ وُجودِ صُورةِ المائيَّةِ فيه؛ تَكملةً

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لدَليلِ إمكانِ البعثِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه لم يَقُلْ عندَ ذِكرِ الطَّعامِ «الشُّكْرَ»؛ وذلك لأوجُهٍ:

**أحَدُها**: أنَّه لم يَذكُرْ في المأكولِ أكْلَهم، فلمَّا لم يَقُلْ: «تأكُلونَ» لم يَقُلْ: «تَشكُرونَ»، وقال في الماءِ: ﴿تَشْرَبُونَ﴾ فقال: ﴿تَشْكُرُونَ﴾.

**الثَّاني**: أنَّ في المأكولِ قال: ﴿تَحْرُثُونَ﴾ فأثبَتَ لهم سَعيًا، فلم يَقُلْ: «تَشكُرونَ»، وقال في الماءِ: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ لا عَمَل لكم فيه أصلًا، فهو مَحْضُ النِّعْمةِ؛ فقال: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

**ثالِثُها -وهو الأحسَنُ-**: أن يُقالَ: النِّعمةُ لا تَتِمُّ إلَّا عندَ الأكلِ والشُّربِ؛ ألَا ترى أنَّ في البَراريِّ -الَّتي لا يُوجَدُ فيها الماءُ- لا يأكُلُ الإنسانُ شَيئًا مخافةَ العَطَشِ؟ فلمَّا ذَكَر المأكولَ أوَّلًا وأتَمَّه بذِكرِ المَشروبِ ثانيًا، قال: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ على هذه النِّعمةِ التَّامَّةِ[٢]؟!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ بُطلانُ مَقولةِ: «أنَّ الأسبابَ مُؤَثِّرةٌ بطبائِعها، بمُقتضى طَبيعتِها، مُؤثِّرةٌ بذاتِها»؛ فالحَجَرُ هو الَّذي كَسَرَ الزُّجاجةَ بنَفْسِه وبطَبيعتِه، والنَّارُ هي الَّتي أحرَقَتِ الوَرَقَ بنَفْسِها! وهذا القولُ باطلٌ بدَلالةِ الواقعِ ودَلالةِ الشَّرعِ، وهو نَوعٌ مِن الشِّركِ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ اعتقادَ أنَّ شيئًا ما يُؤَثِّرُ في الشَّيءِ الآخَرِ بنَفْسِه دونَ اللهِ: هذا شَيءٌ مِن الشِّركِ لا شكَّ فيه.

ووَجهُ بُطلانِه مِن الشَّرعِ قولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ *

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢١، ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٢).

﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾، فبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ الَّذي أَنْشَأَ شَجَرةَ النَّارِ -الَّتي تَنقَدِحُ بها النَّارُ- هو اللهُ عزَّ وجلَّ، وبَيَّنَ أنَّه جَعَلَها مَتاعًا للمُقْوِينَ، وتَذكِرةً للمُتَّقينَ.

وأمَّا الواقعُ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قال للنَّارِ الَّتي أُلقِيَ فيها إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فكانت[1].

١٠- إنَّ بَرَكةَ الاسمِ تابعةٌ لبَرَكةِ المُسمَّى؛ فقَولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ دَليلٌ على الأمرِ بتَسبيحِ الرَّبِّ بطَريقِ الأَولى؛ فإنَّ تَنزيهَ الاسمِ مِن توابِعِ تَنزيهِ المُسمَّى[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أنَّهم أثبَتوا أَلِفَ الوَصلِ هنا في «باسمِ رَبِّك»؛ لأنَّه لم يَكثُرْ دَورُه كَثْرَتَه في البَسمَلةِ، وحَذَفوه منها؛ لكَثرةِ دَورِها، وهم شأنُهم الإيجازُ وتقليلُ الكثيرِ إذا عُرِفَ مَعناه، وهذا مَعروفٌ لا

---

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٥/ ٤٨٣).

قال ابن عثيمين: (النَّاسُ في الأسبابِ طرَفانِ ووسَطٌ:

فالطَّرَفُ الأوَّلُ: نُفاةٌ أنكَروا تأثيرَ الأسبابِ، وجعَلوها مجرَّدَ علاماتٍ يَحصُلُ الشَّيءُ عندَها، لا بها، حتَّى قالوا: إنَّ انكِسارَ الزُّجاجةِ بالحجَرِ إذا رمَيْتَها به حصَل عندَ الإصابةِ، لا بها! وهؤلاء خالَفوا السَّمْعَ، وكابَروا الحِسَّ، وأنكَروا حِكمةَ الله تعالى في ربطِ المُسبَّباتِ بأسبابِها.

والطَّرَفُ الثَّاني: غُلاةٌ أثبَتوا تأثيرَ الأسبابِ، لكنَّهم غَلَوْا في ذلك وجعَلوها مؤَثِّرةً بذاتِها! وهؤلاء وقَعوا في الشِّركِ، حيث أثبَتوا مُوجِدًا مع الله تعالى، وخالَفوا السَّمعَ والحِسَّ...

وأمَّا الوسَطُ: فهم الَّذين هُدُوا إلى الحقِّ، وتوَسَّطوا بيْن الفريقَينِ، وأخَذوا بما مع كلِّ واحدٍ منهما مِن الحقِّ، فأثبَتوا للأسبابِ تأثيرًا في مُسَبَّباتِها، لكنْ لا بذاتِها، بل بما أودَعه اللهُ تعالى فيها مِن القُوَى المُوجِبةِ، وهؤلاء هم الطَّائفةُ الوسَطُ الَّذين وُفِّقوا للصَّوابِ، وجمَعوا بيْن المَنقولِ والمعقولِ والمحسوسِ). ((تقريب التدمرية)) (ص: ٩٨). ويُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٧).

يُجهَلُ، وإثباتُ ما أُثبِتَ مِن أشكالِه مِمَّا لا يَكثُرُ: دَليلٌ على الحَذفِ منه؛ ولذا لا تُحذَفُ مع غيرِ الباءِ في «اسمِ اللهِ»، ولا مع الباءِ في غيرِ الجلالةِ الكريمةِ مِن الأسماءِ[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في دُخولِ الباءِ في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، ولم تَدخُلْ في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؟

**الجوابُ**: التَّسبيحُ يُرادُ به التَّنزيهُ والذِّكْرُ المُجَرَّدُ دونَ مَعنًى آخَرَ، ويُرادُ به ذلك مع الصَّلاةِ، وهو ذِكْرٌ وتَنزيهٌ مع عَمَلٍ؛ ولهذا تُسَمَّى الصَّلاةُ تَسبيحًا، فإذا أُريدَ التَّسبيحُ المُجَرَّدُ فلا مَعنى للباءِ؛ لأنَّه لا يَتعدَّى بحَرفِ جَرٍّ، لا تَقولُ: سَبَّحْتُ باللهِ، وإذا أردتَ المقرونَ بالفِعلِ -وهو الصَّلاةُ- أدْخَلتَ الباءَ؛ تنبيهًا على ذلك المرادِ، كأنَّك قُلتَ: سَبِّحْ مُفتَتِحًا باسمِ ربِّك، أو ناطِقًا باسمِ ربِّك، كما تَقولُ: صَلِّ مُفتَتِحًا أو ناطِقًا باسمِه؛ ولهذا السِّرِّ -واللهُ أعلمُ- دَخَلتِ اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمرادُ: التَّسبيحُ الَّذي هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، ولم يَقُلْ في مَوضِعٍ: سَبَّحَ اللهَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]. وتأمَّلْ قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] كيف قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ لَمَّا ذَكَرَ السُّجودَ باسمِه الخاصِّ، فصار التَّسبيحُ ذِكْرَهم له، وتَنزيهَهم إيَّاه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٢).

قال النووي: (قال الكُتَّابُ مِن أهلِ العربيَّةِ: إذا قيل: «باسمِ الله» تعَيَّنَ كَتْبُه بالألِفِ، وإنَّما تُحذَفُ الألِفُ إذا كتب «بسمِ الله الرَّحمنِ الرَّحيم» بكمالِها). ((شرح النووي على مسلم)) (١٣/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٠).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ دَلالةٌ على أنَّه مأمورٌ بالذِّكرِ اللِّسانيِّ، وليس له أن يَقتَصِرَ على الذِّكرِ القَلبيِّ[1]! ففائِدةُ ذِكْرِ الاسمِ هي أنْ يكونَ التَّسبيحُ باللِّسانِ؛ إذْ لا يُمكِنُ تَسبيحُ اللهِ تعالى باللِّسانِ إلَّا بذِكرِ اسمِه، أمَّا إذا لم تَذْكُرِ اسمَ اللهِ فإنَّ التَّسبيحَ يكونُ بالقَلبِ؛ ولهذا تقولُ: «سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ»، «سُبحانَ اللهِ وبحَمدِه»، «سُبحانَ اللهِ العَظيمِ» تَذْكُرُ الاسمَ، ففائِدةُ ذِكْرِ الاسمِ هنا عَظيمةٌ جِدًّا؛ لئلَّا يَقتَصِرَ الإنسانُ على التَّسبيحِ بقَلبِه، الَّذي لا يَظْهَرُ معه الاسمُ[2].

١٤- قوله تعالى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ وهذه الأربعةُ الَّتي ذكَرها الله تعالى ووقَفهم عليها -مِن أمرِ خلقِهم وما به قوامُ عيشِهم مِن المطعومِ والمشروبِ والنَّارِ- مِن أعظمِ الدَّلائلِ على البعثِ، وفيها انتِقالٌ مِن شيءٍ إلى شيءٍ، وإحداثُ شيءٍ مِن شيءٍ، ولذلك أمر في آخرها بتنزيهِه تعالَى عمَّا يقولُ الكافِرونَ، ووَصَف تعالَى نفْسَه بالعظيمِ، فقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾؛ إذ مَن هذه أفعالُه تدُلُّ على عَظَمتِه وكبريائِه وانفرادِه بالخلقِ والإنشاءِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ الفاءُ لتَفريعِ ما بعْدَها على جُملةِ ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]، كما فُرِّع عليه قولُه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨]؛ لِيَكونَ الغرَضُ مِن هذه الجُمَلِ مُتَّحِدًا، وهو الاستِدلالُ على إمكانِ البعثِ، فقُصِدَ تَكريرُ الاستِدلالِ وتَعدادُه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٠).

بإعادةِ جُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾، وإنْ كان مَفعولُ فِعلِ الرُّؤيةِ مُختلِفًا. وإنْ شِئتَ جعَلْتَ الفاءَ لتَفريعِ مُجرَّدِ استدلالٍ على استدلالٍ، لا لتَفريعِ معْنى مَعطوفِها على معْنى المعطوفِ عليه، على أنَّه لَمَّا آلَ الاستِدلالُ السَّابقُ إلى عُمومِ صَلاحيةِ القدرةِ الإلهيَّةِ، جاز أيضًا أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مُرادًا بها تَمثيلٌ بنَوعٍ عَجيبٍ مِن أنواعِ تَعلُّقاتِ القدْرةِ بالإيجادِ دونَ إرادةِ الاستِدلالِ على خُصوصِ البعثِ؛ فيَصِحُّ جَعْلُ الفاءِ تَفريعًا على جُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾، مِن حيثُ إنَّها اقتَضَت سَعةَ القدْرةِ الإلهيَّةِ[1].

- وجُملةُ ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ ...﴾ إلخ بَيانٌ لجُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾[2].

- والاستِفهامُ في ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ للتَّقريرِ[3].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿ءَأَنتُمْ﴾ على المُسنَدِ الفِعليِّ ﴿تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ لإفادةِ التَّقَوِّي؛ لأنَّهم لَمَّا نُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَزعُمُ ذلك، صِيغَت جُملةُ نَفْيِه بصِيغةٍ دالَّةٍ على زَعْمِهم تَمكُّنَ إنباتِ ما يَحرُثون[4].

- ونفْيُ الزَّرعِ عنهم وإثباتُه للهِ تعالى يُفيدُ معْنى قَصْرِ الزَّرعِ -أي: الإنباتِ- على اللهِ تعالى، أي: دُونَهم، وهو قصْرُ مُبالَغةٍ[5]؛ لعدَمِ الاعتِدادِ بزَرعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣١٤، ٣٢١).

(٥) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ =

النَّاسِ[١].

وقيلَ: أضافَ الحرْثَ إليهم، والزَّرعَ إليه تَعالى؛ لأنَّ الحرْثَ فِعْلُهم، ويَجْري على اختِيارِهم، والزَّرعَ مِن فِعلِ اللهِ تَعالى، ويَنْبُتُ على اختِيارِه لا على اختِيارِهم[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾

- جُملةُ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ مَوقِعُها كمَوقِعِ جُملةِ ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ [الواقعة: ٦٠] في أنَّها استِدلالٌ مِن اللهِ سُبحانَه بإفْنائِه ما أوجَدَه

---

= الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكور منزِلةَ العدَمِ، وقصْر الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعِرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و (٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢١٧، ٢١٨).

على انفِرادِه بالتَّصرُّفِ إيجادًا وإعدامًا؛ تَكمِلةً لدَليلِ إمكانِ البَعثِ[١].

- ودخَلَتِ اللامُ على جَوابِ (لَوْ) في قولِه: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، ونُزِعَتْ مِن قولِه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾؛ لِوُجوهٍ: الوجْهُ الأولُ: ذكَرَ في جَوابِ (لو) في الزَّرعِ اللَّامَ عمَلًا بالأصلِ، وحذَفَها منه في الماءِ اختصارًا؛ لدَلالةِ الأوَّلِ عليه. الوجْهُ الثَّاني: أنَّ هذه اللَّامَ مُفيدةٌ معْنى التَّوكيدِ لا مَحالةَ، فأُدخِلَت في آيةِ المطعومِ دونَ آيةِ المشروبِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ أمْرَ المطعومِ مُقدَّمٌ على أمْرِ المشروبِ، وأنَّ الوعيدَ بفَقْدِه أشدُّ وأصعبُ؛ مِن قِبَلِ أنَّ المشروبَ إنَّما يُحتاجُ إليه تبَعًا للمَطعومِ؛ ولذلك رُتِّبَ على أمْرِ المطعومِ قولُه: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾، وعلى أمْرِ المشروبِ قولُه: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾، والأوَّلُ أدلُّ على التَّوبيخِ والتَّعييرِ على كُفرانِ النِّعَمِ؛ لمَجيئِه إخباريًّا مُفصَّلًا فيه تَصويرُ خَيبتِهم وتَحسُّرِهم. الوجْهُ الثالثُ: أنَّ الزَّرعَ ونباتَه وجَفافَه بعْدَ النَّضارةِ حتَّى يَعودَ حُطامًا، ممَّا يَحتمِلُ أنَّه مِن فِعلِ الزَّارعِ، أو أنَّه مِن سَقْيِ الماءِ، وجَفافُه مِن عدَمِ السَّقْيِ، فأخبَرَ سُبحانه أنَّه الفاعلُ لذلك على الحقيقةِ، وأنَّه قادرٌ على جَعْلِه حُطامًا في حالِ نُموِّه لو شاءَ، وإنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ ممَّا لا يُتوهَّمُ أنَّ لأحدٍ قُدرةً عليه غيرَ اللهِ تعالى[٢].

وقيل: اللَّامُ تَقَعُ للاستِقبالِ؛ تقولُ: لَأَضْرِبَنَّك -أي: فيما بعْدُ؛ لا في الحالِ، والمعنى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢١١، ٢١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢١، ٣٢٤، ٣٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٤، ٤٤٥).

حُطَٰمًا ﴾ أي: في مُستقبَلِ الزَّمانِ إذا تَمَّ فاستَحْصَدَ (أي: حان له أن يُحصدَ)، وذلك أشدُّ العذابِ؛ لأنها حالةُ انتهاءِ تَعَبِ الزَّارِعِ، واجتماعِ الدَّيْنِ عليه؛ لرجاءِ القضاءِ بعدَ الحصادِ، مع فراغِ البيوتِ مِن الأقواتِ، وأمَّا في الماءِ فقال: ﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ أي: الآنَ، لأنَّا لو أَخَّرْنا ذلك لشَرِبَ العطشانُ، وادَّخَرَ الإنسانُ[1].

وقيل: أُدخِلت اللَّامُ في آيةِ المطعومِ دونَ آيةِ المشروبِ؛ لأنَّ جَعْلَ الماءِ العذبِ مِلحًا أسهلُ إمكانًا في العُرفِ والعادةِ، والموجودُ مِن الماءِ الملحِ أكثرُ مِن الماءِ العذبِ، وكثيرًا ما إذا جرَت المياهُ العذبةُ على الأراضي المتغيرةِ التربة أحالَتْها إلى الملوحةِ، فلم يحتَجْ في جعلِ الماءِ العذبِ ملحًا إلى زيادةٍ تأكيد، فلذلك لم تدخُلْ عليه لامُ التأكيدِ المفيدةُ زيادةَ التحقيقِ، وأمَّا المطعومُ فإنَّ جعلَه حطامًا مِن الأشياءِ الخارجةِ عن المعتادِ، وإذا وقَع فلا يكونُ إلا عن سخطٍ مِن الله شديدٍ، فلذلك قُرِن بلامِ التَّأكيدِ زيادةً في تحقيقِ أمرِه، وتقريرِ إيجادِه[2].

وأيضًا قال: ﴿لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾، ولم يقُلْ عزَّ وجَلَّ: (لو نشاءُ لم نُخرِجْه)، بل قال: ﴿لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ أي: بَعْدَ أن يَخرُجَ ويكونَ زَرعًا وتتعَلَّقَ به النُّفوسُ، يَجعَلُه اللهُ تعالى حُطامًا! وهذا أشَدُّ ما يكونُ سَبَبًا للحُزنِ والأَسى؛ لأنَّ الشَّيءَ قبْلَ أن يَخرُجَ لا تتعَلَّقُ به النُّفوسُ، فإذا خَرَج وصار زَرْعًا ثمَّ سَلَّط اللهُ عليهم آفةً، فكان حُطامًا -أي: محطومًا لا فائدةَ منه-؛ فهو أشَدُّ حَسرةً[3]!

- قولُه: ﴿فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴾، أي: فأقمْتُم دائمًا تَندَمونَ على مَعاصيكم الَّتي سبَّبَتْ ذلك التَّلفَ، أو تَتَعجَّبون، أو تَحدَّثونَ في ذلك ولم تُعرِّجوا على شُغلٍ

---

(١) الكلامُ لابنِ هُبَيْرَةَ، نقَله عنه ابنُ الجوزي في ((المقتبس)). يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر)) لابن الأثير (٢/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٤٣).

غَيرِه كما تَفعَلونَ عِندَ الأشياءِ السَّارَّةِ الَّتي هي في غايةِ الإعجابِ والمَلاحةِ والمُلاءَمةِ؛ ولهذا عبَّرَ عمَّا المرادُ به الإقامةُ مع الدَّوامِ بـ (ظَلَّ) الَّذي معْناه: أقامَ نَهارًا؛ إشارةً إلى تَرْكِ الأشغالِ الَّتي تُهِمُّ ومَحلُّها النَّهارُ، ويَمنَعُ الإنسانَ مِن أكثرِ ما يُهِمُّه مِن الكلامِ لهذا النَّازلِ الأعظَمِ[١].

- قولُهم: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ تَندُّمٌ وتَحسُّرٌ، أي: تَعلَمون أنَّ حَطْمَ زَرعِكُم حِرمانٌ مِن اللهِ جَزاءً لكُفْرِكم، ومعْنى ﴿لَمُغْرَمُونَ﴾ مِن الغَرامِ، وهو الهلاكُ[٢]. وقيل: الجملةُ إخبارٌ بمعنى الإنكارِ والجحودِ[٣]، وقُرِئ بالاستِفهامِ ﴿أَئِنَّا﴾[٤] لإنكارِ هذا الواقعِ، والاستِعظامِ له، والتَّعجُّبِ منه، وهي مُنبِّهةٌ على أنَّهم -لِشِدَّةِ اضْطِرابِهم مِن ذلك الحادثِ- مُذَبْذَبونَ؛ تارةً يَجزِمون باليأسِ والشَّرِّ، وتارةً يَشُكُّون فيه، ويَنسُبونَ الأمرَ إلى سوءِ تصَرُّفِهم، وعليه يدُلُّ إضرابُهم: ﴿بَلْ نَحْنُ﴾[٥].

- ومعْنى الآيةِ يَجوزُ أنْ يكونَ جاريًا على ظاهرِ مادَّةِ فِعلِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ الَّذي هو المَسرَّةُ والفرَحُ، ويكون ذلك تَهكُّمًا بهم، حمْلًا لهم على مُعتادِ أخلاقِهم مِن الهَزْلِ بآياتِ اللهِ، وقَرينةُ التَّهكُّمِ ما بعْدَه مِن قولِه عنهم: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ مَحمَلُ الآيةِ على جَعْلِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ بمعْنى تَندَمون وتَحزَنون؛ ولذلك كان لفِعلِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ هنا وقْعٌ لا يُعوِّضُه غيرُه[٦].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١٦).

(٤) وهي قراءةُ أبي بكرٍ عن عاصمٍ، وقرأه الباقونَ بهمزةٍ واحدةٍ على الخبَرِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٣٧٢).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٢٥، ٢٢٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

- وجُملةُ ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ هو حالٌ مِن ضَميرِ ﴿تَفَكَّهُونَ﴾[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ * لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾

- وَصْفُ ﴿ٱلْمَآءَ﴾ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ إدماجٌ[٢] للمِنَّةِ في الاستِدلالِ، أي: أفرأيتُم الماءَ العذْبَ الَّذي تَشرَبونه؛ فإنَّ شُرْبَ الماءِ مِن أعظَمِ النِّعَمِ على الإنسانِ؛ ليُقابَلَ بقولِه بعْدَه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾[٣] [الواقعة: ٧٠].

- ووَجْهُ الاستِدلالِ على البعثِ هو إنشاءُ ما به الحياةُ بعْدَ أنْ كان مَعدومًا؛ بأنْ كوَّنَه اللهُ في السَّحابِ بحِكمةِ تكوينِ الماءِ، فكما استُدِلَّ بإيجادِ الحيِّ مِن أجزاءٍ مَيتةٍ في خلْقِ الإنسانِ والنَّباتِ، استُدِلَّ بإيجادِ ما به الحياةُ عن عدَمٍ؛ تَقريبًا لإعادةِ الأجسامِ بحِكمةٍ دَقيقةٍ خَفيَّةٍ، أي: يَجوزُ أنْ يُمطِرَ اللهُ مطَرًا على ذواتِ الأجسادِ الإنسانيَّةِ يكونُ سَببًا في تَخلُّقِها أجسادًا كاملةً كما كانت أُصولُها، كما تَتكوَّنُ الشَّجرةُ مِن نَواةِ أصْلِها، وقد تمَّ الاستدلالُ على البعثِ عندَ قولِه: ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾[٤].

- وجُعِل قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ استِدلالًا مَنوطًا بإنزالِ الماءِ مِن المُزْنِ على طَريقةِ الكنايةِ بإنزالِه عن تَكوينِه صالحًا للشَّرابِ؛ لأنَّ إنزالَه هو الَّذي يَحصُلُ منه الانتفاعُ به؛ ولذلك وُصِفَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وأُعقِبَ قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ بقولِه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، فحصَلَ بيْن الجُملتينِ احتِباكٌ[١]، كأنَّه قِيل: أأنْتُم خلَقْتُموه عَذْبًا صالحًا للشُّربِ وأنْزَلْتُموه مِن المُزْنِ؟ لو نَشاءُ جَعَلْناه أُجاجًا، ولَأمْسكناهُ في سَحاباتِه، أو أنْزَلْناه على البحارِ أو الخَلاءِ، فلمْ تَنتفِعوا به[٢].

- قولُه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، أي: جعَلْناه مِلْحًا، كَريهَ الطَّعمِ، لا يُمكِنُ أنْ يُشرَبَ، ولم يقُلْ: لو نَشاءُ لغَوَّرْناه، أو مَنَعْنا إنزالَه؛ لأنَّ كونَهم يَنظُرون إلى الماءِ رأْيَ العينِ ولكنْ لا يُمكِنُهم شُرْبُه، أشدُّ حَسرةً ممَّا لو لم يكُنْ مَوجودًا، واللهُ عزَّ وجلَّ يُريدُ أنْ يَتحدَّاهم بما هو أعظَمُ شَيءٍ في حَسرةِ نُفوسِهم[٣].

- جُملةُ ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ [الواقعة: ٦٥] وجُملةُ ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠] شَرطيَّتانِ، مُستأنَفتانِ، مَسوقتانِ لبَيانِ أنَّ عِصْمتَه تعالى للزَّرعِ والماءِ عمَّا يُخِلُّ بالتَّمتُّعِ بهما، نِعمةٌ أُخرى بعْدَ نِعمةِ الإنباتِ والإنزالِ، مُستوجِبةٌ للشُّكرِ[٤].

- وتُخُلِّصَ مِن هذا التَّتميمِ[٥] إلى الامتِنانِ بقولِه: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾؛ تَحضيضًا لهم على الشُّكرِ، ونبْذِ الكفْرِ والشِّركِ[٦].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال سُبحانَه في الأُولى: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وقال في الماءِ: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠]؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الأُولى تَنبيهٌ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٨).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٢٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٤).

على البَعثِ والإعادةِ -وهي: النَّشأةُ الثَّانيةُ كالنَّشأةِ الأُولى-، وحمْلٌ على أنْ يَتذكَّرَ الأوَّلَ -الَّذي هو الأصلُ-؛ ليُثبِتَ به الثَّانيَ -الَّذي هو فرْعٌ على أنَّ القادرَ كما كان لم يَتغيَّرْ-، وأمَّا قولُه: ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ فإنَّه بعْدَ قولِه: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة: ٧٠]، أي: شديدَ المُلوحةِ كماءِ البَحرِ، كما قال: ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، أي: فهلَّا تَشكُرون أنْ جَعَلَه عَذْبًا؟! فكلُّ مكانٍ لائقٌ به ما ذُكِرَ فيه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ * نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ إدماجٌ للامتِنانِ في الاستِدلالِ بما تقدَّمَ في قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨]، وهو أيضًا وَصْفٌ للمَقصودِ مِن الدَّليلِ، وهو النَّارُ الَّتي تَقتدِحُ مِن الزَّنْدِ، لا النَّارُ المُلتهِبةُ[٢].

- قولُه: ﴿ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ حُذِفَ العائدُ على المَوصولِ؛ لأنَّ ضَميرَ النَّصبِ يَكثُرُ حذْفُه مِن الصِّلةِ، وتَقديرُه: الَّتي تُورُونَها. وتَعديةُ ﴿تُورُونَ﴾ إلى ضَميرِ النَّارِ تَعديةٌ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: تُورُونَ شَجرَتَها، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾، وقد شاعَ هذا الحذْفُ في الكَلامِ، فقالوا: أَورَى النارَ، كما قالوا: أَورَى الزِّنادَ[٣].

- وجُملةُ ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾[٤].

- قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ عَبَّرَ عن خَلْقِ الشَّجرةِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (٣/ ١٢٤٧-١٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بالإنشاءِ المُنبِئِ عن بَديعِ الصُّنعِ المُعرِبِ عن كَمالِ القُدرةِ والحِكمةِ؛ لِمَا فيه مِن الغَرابةِ الفارقةِ بيْنها وبيْن سائرِ الشَّجرِ الَّتي لا تَخلُو عن النارِ، كما أنَّ التَّعبيرَ عن نفْخِ الرُّوحِ بالإنشاءِ في قولِه تعالَى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] لذلك(١).

- قولُه: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لِمَنافعِها(٢)، أو بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾(٣).

- قولُه: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، أي: مَنفعةً للنَّازلينَ بالقَواءِ -الأرضِ القَفْرِ-، وهم المسافِرون، يُقالُ: أقْوى الرَّجلُ؛ إذا نزَلَ بالقِيِّ والقَوَى، وهي الأرضُ الخاليةُ، وخصَّ المُقْوينَ بالذِّكرِ -وإنْ كانتْ مَنفَعتُها عامَّةً للمُسافِرينَ والمُقيمينَ؛ تَنْبيهًا لعِبادِه -واللهُ أعلَمُ بمُرادِه مِن كَلامِه- على أنَّهم كلَّهم مُسافِرونَ، وأنَّهم في هذه الدَّارِ على جَناحِ سَفرٍ، لَيْسوا همْ مُقيمينَ ولا مُستَوطِنينَ، وأنَّهم عابِرو سَبيلٍ وأبناءُ سَفرٍ(٤)، وأيضًا لشِدَّةِ حاجتِهم إليها في خَبْزِهم وطَبْخِهم؛ حيثُ لا يَجِدُون ما يَشترونَه، فيُغْنيَهم عمَّا يَصنَعونَه بالنَّارِ(٥).

وقيل: إيثارُ هذا الوصْفِ في هذه الآيةِ ليَجمَعَ بيْن مَعْنيَي القواءِ، فالمُقْوِي يُطلَقُ على الدَّاخلِ في القَوَاءِ، وهي القَفْرُ، ويُطلَقُ المُقْوِي على الجائعِ؛ فإنَّ النَّارَ مَتاعٌ للمُسافرينَ يَسْتضيئون بها في مناخِهم، ويَصْطَلون بها في البرْدِ، ويَراها السَّائرُ ليلًا في القفْرِ فيَهْتدي إلى مَكانِ النُّزَّلِ، فيَأْوي إليهم، ومَتاعٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) (ص: ١٤١، ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٣٦).

للجائعينَ يَطبُخونَ بها طَعامَهم في الحضَرِ والسَّفرِ، وهذا إدماجٌ للامتنانِ في خِلالِ الاستِدلالِ، واختِيرَ هذانِ الوصفانِ ﴿تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾؛ لأنَّ احتياجَ أصحابِهما إلى النَّارِ أشدُّ مِن احتياجِ غَيرِهما[1].

- وقَدَّم سُبحانَه كَونَها تَذكِرةً على كَونِها مَتاعًا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الأهمَّ هو النَّفعُ الأُخرويُّ[2].

- وفي قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ و﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ و﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ و﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾، بدَأَ بذِكرِ خلْقِ الإنسانِ، ثمَّ بما لا غِنى له عنه، وهو الحَبُّ الَّذي منه قُوتُه، ثمَّ بالماءِ الَّذي به سَوْغُه وعَجْنُه، ثمَّ بالنَّارِ الَّتي بها نُضْجُه وصَلاحُه، وذكَرَ عقِبَ كُلٍّ مِن الثَّلاثةِ الأُولى ما يُفسِدُه؛ فقال في الأولى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾، وفي الثَّانيةِ: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾، وفي الثالثةِ: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾، ولم يقُلْ في الرَّابعةِ ما يُفسِدُها، بل قال: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾، أي: جعَلْناها تَذكرةً تتَّعِظون بها، ومتاعًا للمسافِرينَ يَنتفِعون بها[3].

- وفي الآياتِ الآنِفةِ الذِّكرِ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بِصِحَّةِ الأقسامِ؛ وهو استيفاءُ المُتكلِّمِ جميعَ الأقسامِ للمعْنى المذكورِ الآخِذِ فيه، بحيث لا يُغادِرُ منه شيئًا، فقد

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٧).

قال أبو السعود: (وقد جُوِّز أن يُرادَ بالمُقْوِينَ الَّذين خلَتْ بُطونُهم ومَزاوِدُهم مِن الطَّعام، وهو بعيدٌ؛ لعدَمِ انحصارِ ما يهمُّهم ويسُدُّ خللَهم فيما لا يؤكَلُ إلَّا بالطَّبخِ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥١، ٤٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٤٩).

عُدِلَ عن لَفظِ الحِرمانِ والمنْعِ إلى لَفظٍ هو رِدفُه وتابعُه، وهو لَفظُ الجَعْلِ؛ إذ قال ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾، وكذلك جاء لَفظُ الاعتدادِ بالماءِ؛ حيث قال: ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ بلَفظِ الجَعْلِ عندَ ذِكرِ الحرمانِ وما هو في معْناه، وجاء العطاءُ بلَفظِ الزَّرعِ في الحرْثِ، وفي الماءِ بلَفظِ الإنزالِ[1].

- وأيضًا في هذه الآياتِ ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّسهيمِ؛ وهو أنْ يكونَ ما تَقدَّمَ مِن الكلامِ دَليلًا على ما يَتأخَّرُ منه أو بالعكسِ؛ فقولُه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ تَقْتضي أوائلُ هذه الآياتِ أواخِرَها اقتِضاءً لَفظيًّا ومعنويًّا، كما ائْتَلَفت الألفاظُ فيها بمَعانيها المُجاورةِ؛ الملائمُ بالملائمِ، والمناسبُ بالمُناسبِ؛ لأنَّ ذِكرَ الحرْثِ يُلائمُ ذِكرَ الزَّرعِ، والاعتدادَ بكَونِه سُبحانَه لم يَجعَلْه حُطامًا مُلائمٌ لحُصولِ التَّفكُّهِ به، وعلى هذه الآيةِ يُقاسُ نظْمُ أخْتِها[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، رُتِّب على ما مَضَى مِن الكلامِ المُشتمِلِ على دَلائلِ عَظَمةِ القُدْرةِ الإلهيَّةِ، وعلى أمثالٍ لتَقريبِ البَعثِ الَّذي أنْكَروا خبَرَه، وعلى جَلائلِ النِّعَمِ المُدمَجةِ في أثناءِ ذلك -أنْ أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُنزِّهَه تَنزيهًا خاصًّا، مُعقِّبًا لِما تُفيضُه عليه تلك الأوصافُ الجَليلةُ الماضيةُ مِن تَذكُّرٍ جَديدٍ يكونُ التَّنزيهُ عَقِبَه ضَرْبًا مِن التَّذكُّرِ في جَلالِ ذاتِه، والتَّشكُّرِ لآلائِه؛ فإنَّ للعباداتِ مَواقعَ تكونُ هي فيها أكمَلَ منها في دُونِها،

---

(١) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٥).

فيكونُ لها مِن الفضْلِ ما يُجزَلُ ثوابُه، فالرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَخْلو عن تَسبيحِ ربِّه، والتَّفكُّرِ في عَظَمةِ شأْنِه، ولكنْ لاختلافِ التَّسبيحِ والتَّفكُّرِ مِن تَجدُّدِ مُلاحَظةِ النَّفْسِ، ما يَجعَلُ لكلِّ حالٍ مِن التَّفكُّرِ مَزايا تَكْسِبُه خَصائصَ، وتَزيدُه ثَوابًا؛ فالجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٤٩- ٧٣]، وهي تَذييلٌ، وتَعقيبُ الأمرِ بالتَّسبيحِ لَمَّا عدَّدَ مِن بَدائعِ صُنعِه وإنعامِه؛ إمَّا لتَنزيهِه تعالى عمَّا يقولُ الجاحِدون لوَحدانيَّتِه، الكافِرون لنِعمتِه، أو للتَّعجُّبِ مِن أمْرِهم في غَمْطِ نِعَمِه، أو للشُّكرِ على ما عدَّها مِن النِّعَمِ(١).

- ولَمَّا كان الكلامُ مَوضوعًا للدَّلالةِ على ما في النَّفْسِ، كان تَسبيحُ الاسمِ مُقتضيًا تَنزيهَ مُسمَّاهُ، وكان أيضًا مُقتضيًا أنْ يكونَ التَّسبيحُ باللَّفظِ مع الاعتِقادِ، لا مُجرَّدَ الاعتِقادِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ لَمَّا عُلِّقَ بلَفظِ (اسم) تعيَّنَ أنَّه تَسبيحٌ لَفظيٌّ، أي: قُلْ كلامًا فيه معْنى التَّنزيهِ، وعلِّقْه باسمِ ربِّك؛ فكلُّ كلامٍ يدُلُّ على تَنزيهِ اللهِ مَشمولٌ بهذا الأمْرِ، ولكنْ مُحاكاةُ لَفظِ القرآنِ أَولى وأجمَعُ، بأنْ يَقولَ: سُبحانَ اللهِ(٢).

- والباءُ الدَّاخلةُ على ﴿بِٱسْمِ﴾ قيل: زائدةٌ لتَوكيدِ اللُّصوقِ، أي: اتِّصالِ الفِعلِ بمَفعولِه؛ وذلك لوُقوعِ الأمْرِ بالتَّسبيحِ عَقِبَ ذِكرِ عدَّةِ أُمورٍ تَقْتضيه، حسبَما دلَّت عليه فاءُ التَّرتيبِ، فكان حَقيقًا بالتَّقويةِ والحثِّ عليه، وهذا بخِلافِ قولِه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؛ لوُقوعِه في صَدْرِ جُملتِه؛ كقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٨).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾. وقيل: مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ، أي: فسَبِّحْ مُتلَبِّسًا باسْمِ ربِّكَ، أو للمُصاحَبةِ، يعني: سبِّحِ اللهَ تسبيحًا مَصحوبًا باسمِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٥).
قال الشنقيطي: (وزيادةُ حرفِ الباءِ للتَّوكيدِ قبْلَ مفعولِ الفعلِ المتعدِّي بنفْسِه، كثيرةٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العربِ). ((أضواء البيان)) (٣/ ٣٩٩).
ويُنظر ما تَقدَّم (ص: ٤٨١).

## الآيات (٧٥-٨٢)

﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾: أي: مَطالِعِ النُّجومِ ومَغارِبِها، ومَساقِطِها ومَنازِلِها، وأصلُ (نجم): يدُلُّ على طُلوعٍ وظُهورٍ، وأصلُ (وقع): يدُلُّ على سُقوطِ شَيءٍ[1].

﴿مَّكۡنُونٖ﴾: أي: مَصونٍ مَحفوظٍ، وأصلُ (كنن): يدُلُّ على سَترٍ وصَونٍ[2].

﴿مُّدۡهِنُونَ﴾: أي: مُكَذِّبونَ، يُلاينُ بَعضُكم بَعضًا، ويتَّبِعُه على الكُفرِ؛ مِنَ الإدهانِ: وهو الجَريُ في الباطِنِ على خِلافِ الظَّاهِرِ، هذا أصلُه، ثمَّ قِيلَ للمُكَذِّبِ: مُدْهِنٌ وإنْ صَرَّح بالتَّكذيبِ والكُفرِ، والمُداهَنةُ: عِبارةٌ عن المُداراةِ والمُلايَنةِ، مَأخوذةٌ مِنَ الدُّهنِ؛ لِلِينِه وإملاسِه، وأصلُ (دهن): يَدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُثنيًا على كتابِه المجيدِ: فلا أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ في السَّماءِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٦، ٦/ ١٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩، ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٠).

-وإنَّ هذا القَسَمَ لَقَسَمٌ عَظيمٌ، لو تَعلَمونَ قَدْرَه وعَظَمتَه- إنَّ هذا القُرآنَ لَعَظيمُ النَّفعِ والخَيرِ، مُنزَّهٌ عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، في كِتابٍ مَصونٍ مِن كُلِّ سُوءٍ، لا يَمَسُّه إلَّا الملائِكةُ المطَهَّرونَ مِنَ الذُّنوبِ والعُيوبِ، وهذا القُرآنُ الكريمُ مُنزَّلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يقولُ تعالى منكِرًا على الكافرينَ: أفبِهذا القُرآنِ أنتم كافِرونَ مُكذِّبونَ، وتَجعَلونَ شُكرَ رِزقِكم التَّكذيبَ ؟!

**تَفسيرُ الآياتِ:**

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن أنَّه خالقُ الخلْقِ والرِّزقِ وله العَظَمةُ بالدَّليلِ القاطِعِ، ولم يؤمِنوا؛ قال: لم يَبْقَ إلَّا القسَمُ[1].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ٧٥﴾.

أي: فلا أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ في السَّماءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧) و(٢/ ١٩٢، ١٩٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠، ٣٣١).

قال ابن الجوزي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ في «لا» قَولانِ:

أحدُهما: أنَّها دخلت توكيدًا. والمعنى: فأُقسِمُ، ومِثلُه: ﴿لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]، قاله الزَّجَّاجُ، وهو مذهبُ سعيدِ بنِ جُبَيرٍ.

والثَّاني: أنَّها على أصلِها. ثمَّ في مَعناها قَولانِ: =

= أحدُهما: أنَّها تَرجِعُ إلى ما تقدَّم، ومعناه: النَّهيُ [أي: ناهية]، تقديرُ الكلامِ: فلا تُكَذِّبوا، ولا تَجحَدوا ما ذَكَرْتُه مِن النِّعَمِ والحُجَجِ، قاله الماوَرْديُّ.

والثَّاني: أنَّ «لا» ردٌّ لِما يقولُه الكفَّارُ في القرآنِ: إنَّه سِحرٌ، وشِعرٌ، وكِهانةٌ [أي: نافية]، ثمَّ استأنف القسَمَ على أنَّه قرآنٌ كريمٌ، قاله عليُّ بنُ أحمدَ النَّيْسابوريُّ. ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٧). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩).

وممَّن قال: دَخَلَت (لا) توكيدًا. والمعنى: فأُقسِمُ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والزمخشري، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠).

ونسَبَ هذا القولَ إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ وجمهورِهم: البغويُّ، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٥٨).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٢٠)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠).

واختلف المُفَسِّرونَ في المُرادِ بالنُّجومِ:

فقيل: المرادُ بها: نُجومُ السَّماءِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والقرطبي، وابن القيم، والسعدي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧) و(٢/ ١٩٢، ١٩٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠، ٣٣١).

ونسَبه ابنُ الجوزي إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والحسَنُ، وابنُ جُرَيجٍ، والضَّحَّاكُ، وعطاءُ بنُ أبي رباحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤).

وعلى القولِ بأنَّ المرادَ نجومُ السَّماءِ فقد وقع خِلافٌ في المرادِ بمَواقِعِها، فقال ابنُ القيِّمِ: (... ففي مَواقِعِها أقوالٌ: =

= أحَدُها: أنَّه انكِدارُها وانتِشارُها يومَ القيامةِ. وهذا قَولُ الحَسَنِ. والمُنَجِّمونَ يُكَذِّبونَ بهذا ولا يُقِرُّونَ به.

والثَّاني: مَواقِعُها: مَنازِلُها. قاله عَطاءٌ وقَتادةُ [حكاه ابنُ الجوزي عنهما].

والثَّالِثُ: أنَّه مَغارِبُها.

والرَّابعُ: أنَّه مَواقِعُها عندَ طُلوعِها وغُروبِها. حكاه ابنُ عطيَّةَ عن مجاهدٍ وأبي عُبَيدةَ.

والخامِسُ: أنَّ مَواقِعَها: مَواضِعُها مِنَ السَّماءِ. وهذا الَّذي حكاه ابنُ الجوزي عن قَتادةَ حكاه ابنُ عطيَّةَ عنه، فيَحتَمِلُ أن يكونَا واحِدًا، وأن يكونَا قَولَينِ.

السَّادِسُ: أنَّ مَواقِعَها: انقِضاضُها إثرَ العِفْريتِ وقْتَ الرُّجومِ. حكاه ابنُ عطيَّةَ أيضًا، ولم يَذكُرْ أبو الفَرَجِ بنُ الجوزيِّ سِوى الثَّلاثةِ الأُوَلِ. ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ١٩٢). ويُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بمَواقِعِ النُّجومِ: مَساقِطُها ومَغايِبُها في السَّماءِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والزمخشري، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦١).

وقيل: النُّجومُ: هي آياتُ القُرآنِ الكريمِ، ومَواقِعُها: هي نُزولُها شيئًا بعدَ شَيءٍ؛ فالقُرآنُ نَزَل جُملةً واحِدةً مِن اللَّوحِ المحفوظِ إلى السَّماءِ الدُّنيا، ثمَّ نَزَل مُنَجَّمًا -أي: مُفَرَّقًا- على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ورجَّحه الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٢٢٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٦٣، ٤٦٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، والسُّدِّيُّ، وأبو حَزْرةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٥٩)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٦).

قال ابنُ عطيَّة: (ويُؤَيِّدُ هذا القَولَ عَودُ الضَّميرِ على القُرآنِ في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾؛ وذلك أنَّ ذِكْرَه لم يتقَدَّمْ إلَّا على هذا التَّأويلِ، ومَن لا يتأوَّلُ بهذا التَّأويلِ يَقولُ: إنَّ الضَّميرَ يَعودُ على القُرآنِ وإن لم يتقَدَّمْ ذِكرُه؛ لِشُهرةِ الأمرِ، ووُضوحِ المعنى، كقَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ =

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ٧٦﴾.

أي: وإنَّ هذا القَسَمَ لَقَسَمٌ عَظيمٌ، لو تَعلَمونَ قَدْرَه وعَظَمتَه[1]!

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧﴾.

أي: أُقسِمُ على أنَّ هذا القُرآنَ المُنزَّلَ على مُحمَّدٍ: قرآنٌ عَظيمُ الحُسْنِ والنَّفعِ، والخَيرِ والإنعامِ؛ مُتَّصِفٌ بصِفاتِ الكَمالِ والجَمالِ، مُنزَّهٌ عن كُلِّ شائِبةِ نَقصٍ وعَيبٍ وقُبحٍ[2]!

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨﴾.

أي: إنَّ القُرآنَ مَحفوظٌ عِندَ اللهِ -تعالى- في كِتابٍ مَصونٍ مِن كُلِّ سُوءٍ[3].

---

= [ص: ٣٢]، و﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾ [الرحمن: ٢٦] وغيرِ ذلك. وقال جمهورٌ كَثيرٌ مِنَ المُفَسِّرينَ: النُّجومُ هنا: الكواكِبُ المعروفةُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي: وإنَّ هذا القَسَمَ الَّذي أقسمتُ به لَقَسَمٌ عظيمٌ، لو تعلمون عظَمتَه لَعظَّمْتُم المُقسَمَ به عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤).

وقال أبو السعود: (جوابُ ﴿لَّوۡ﴾ إمَّا مَتروكٌ أُريدَ به نَفيُ عِلْمِهم، أو محذوفٌ ثِقةً بظُهورِه، أي: لَعَظَّمتُموه، أو لَعَمِلتم بمُوجبِه). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠).

وقال أبو حيَّان: (في إقسامِه تعالى بمواقِعِ النُّجومِ سِرٌّ في تعظيمِ ذلك لا نَعلَمُه نحن، وقد أعظَمَ ذلك تعالى، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦). =

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩ ﴾.

أي: لا يَمَسُّ هذا الكِتابَ المكنونَ إلَّا الملائكةُ الَّذين طَهَّرهمُ اللهُ تعالى مِنَ الذُّنوبِ والعُيوبِ(١).

= نَقَل ابنُ عَطيَّةَ اتِّفاقَ المُفَسِّرينَ على أنَّ المكنونَ بمعنى: المَصُونِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١).

واختَلَفوا في المرادِ بهذا الكِتابِ؛ فقيل هو: اللَّوحُ المحفوظُ، كما قال تعالى: ﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والرازي، والخازن، والعُلَيمي، والسعدي، ونسَبَه ابنُ عثيمينَ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٨).

قال ابن جُزَي: (المرادُ بهذا الكتابِ المَكنونِ المصاحفُ الَّتي كُتِب فيها القرآنُ، أو صُحُفُ القُرآنِ الَّتي بأيدي الملائكةِ عليهم السَّلامُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٣٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

وقال ابنُ القَيِّم: (الصَّحيحُ أنَّه الكتابُ الَّذي بأيدي الملائكةِ، وهو المذكورُ في قولِه: ﴿ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ * مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ * بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ * كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴾ [عبس: ١٣ - ١٦]، ويدُلُّ على أنَّه الكتابُ الَّذي بأيدي الملائكةِ قولُه: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٩]، فهذا يدُلُّ على أنَّه بأيديهم يَمَسُّونَه، وهذا هو الصَّحيحُ في معنى الآيةِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٢٦).

وقيل: المرادُ: المصاحِفُ الَّتي بأيدي المُسلِمينَ، واستحسَنه ابنُ الفَرَس، وعليه فهذا إخبارٌ بغَيبٍ؛ وذلك لأنَّه لم تكُنْ مَصاحفُ يومَ نزلَتِ الآيةُ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥١٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٨).

قال الواحدي: (أكثَرُ المُفَسِّرين على أنَّ الكِنايةَ -الضَّميرَ- في قَولِه: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾ تعودُ إلى الكِتابِ المكنونِ، والمُطَهَّرونَ: هم الملائكةُ، قال المُبَرِّدُ: لا يَمَسُّ ذلك اللَّوحَ المحفوظَ إلَّا الملائكةُ الَّذين وُصِفوا بالطَّهارةِ. ومَذهَبُ قَومٍ: أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى القُرآنِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٣٩).=

= وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ ﴾ يعودُ إلى الكتابِ المكنونِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٨).

قال ابن جرير: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ مِن ذلك عِندَنا: أنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤُه أخبَرَ أنَّه لا يَمَسُّ الكتابَ المكنونَ إلَّا المُطَهَّرونَ، فعَمَّ بخَبَرِه المُطَهَّرينَ، ولم يَخْصُصْ بَعضًا دونَ بَعضٍ؛ فالملائِكةُ مِنَ المُطَهَّرينَ، والرُّسُلُ والأنبياءُ مِنَ المُطَهَّرينَ، وكُلُّ مَن كان مُطَهَّرًا مِنَ الذُّنوبِ فهو مِمَّن اسْتُثْنِيَ وعُنِيَ بقَولِه: ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧).

وتخصيصُ المُطَهَّرينَ هنا بالملائِكةِ: ذهب إليه مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٨).

ونسَبَ الواحديُّ، وابنُ عاشور هذا القولَ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أنسٌ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وأبو الشَّعْثاءِ جابرُ بنُ زَيدٍ، وأبو نَهيكٍ، وباذانُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو العاليةِ، والضَّحَّاكُ، والكلبيُّ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٤).

قال ابن تيميَّةَ: (والصَّحيحُ اللَّوحُ المحفوظُ الَّذي في السَّماءِ مُرادٌ مِن هذه الآيةِ، وكذلك الملائِكةُ مُرادُونَ مِن قَولِه: ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾؛ لوُجوهٍ:

أحدُهما: أنَّ هذا تفسيرُ جماهيرِ السَّلَفِ مِن الصَّحابةِ ومَن بعدَهم، حتَّى الفُقَهاءُ الَّذين قالوا: «لا يَمَسُّ القُرآنَ إلَّا طاهرٌ» مِن أئمَّةِ المذاهِبِ صَرَّحوا بذلك، وشَبَّهوا هذه الآيةَ بقَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١ - ١٦].

أنَّه أخبَرَ أنَّ القرآنَ جميعَه في كِتابٍ، وحينَ نزَلَتْ هذه الآيةُ لم يكُنْ نَزَلَ إلَّا بعضُ المكِّيِّ منه، ولم يُجْمَعْ جميعُه في المُصحَفِ إلَّا بعدَ وَفاةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وثالثُها: أنَّه قال: ﴿ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ والمَكنونُ: المصونُ المُحْرَزُ الَّذي لا تَنالُه أيدي المُضِلِّينَ؛ فهذه صِفةُ اللَّوحِ المحفوظِ. =

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الَّذي منه صيانتُه؛ أتْبَعَه شَرَفَه بشَرَفِ مُنزِلِه[1]:

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

---

= ورابِعُها: أنَّ قولَه: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ صِفةٌ للكتابِ، ولو كان معناها الأمرَ لم يَصِحَّ الوَصفُ بها، وإنَّما يوصَفُ بالجُملةِ الخَبَريَّةِ.

وخامِسُها: أنَّه لو كان معنى الكلامِ الأمرَ لَقيل: «فلا يَمَسَّه»؛ لِتَوسُّطِ الأمرِ بما قَبْلَه.

وسادِسُها: أنَّه قال: ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾، وهذا يَقتَضي أنْ يكونَ تَطهيرُهم مِن غَيرِهم، ولو أُريدَ طهارةُ بني آدمَ فقط لقِيلَ: المُتَطَهِّرونَ، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وسابِعُها: أنَّ هذا مَسوقٌ لبيانِ شَرَفِ القُرآنِ وعُلُوِّهِ وحِفْظِه، وذلك بالأمرِ الَّذي قد ثَبَتَ واستقرَّ أبلَغُ منه بما يَحْدُثُ ويكونُ.

نعمْ، الوجهُ في هذا -واللهُ أعلمُ- أنَّ القرآنَ الَّذي في اللَّوحِ المحفوظِ هو القُرآنُ الَّذي في المُصحَفِ، كما أنَّ الَّذي في هذا المُصحَفِ هو الَّذي في هذا المُصحَفِ بعَينِه، سواءٌ كان المَحَلُّ وَرَقًا أو أَديمًا، أو حَجَرًا أو لِخَافًا، فإذا كان مِن حُكْمِ الكتابِ الَّذي في السَّماءِ ألَّا يَمَسَّه إلَّا المُطَهَّرونَ وَجَبَ أنْ يكونَ الكِتابُ الَّذي في الأرضِ كذلك؛ لأنَّ حُرمَتَه كحُرمَتِه، أو يكونُ الكِتابُ اسمَ جنسٍ يَعُمُّ كلَّ ما فيه القُرآنُ، سواءٌ كان في السَّماءِ أو الأرضِ، وقد أُوحى إلى ذلك قَولُه تعالى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢ - ٣]، وكذلك قولُه تعالى: ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٣]. ((شرح العمدة - كتاب الطهارة)) لابن تيمية (ص: ٣٨٣).

ويُنظر أيضًا: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٩٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٧).

واستظهر أبو حيَّان أنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى القُرآنِ، وذهب إليه السعديُّ، وكِلاهما على أنَّ المطَهَّرينَ هم الملائِكةُ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

وقيل: المُطَهَّرونَ هم المُتَطَهِّرونَ مِنَ الجَنابةِ والحَدَثِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٩).

أي: هذا القُرآنُ الكريمُ مُنزَّلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ؛ فهو الحَقُّ الَّذي لا مِرْيَةَ فيه[١].

قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾.

أي: أفبِهذا القُرآنِ أنتم[٢] كافِرونَ مُكذِّبونَ[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

قال السعدي: (أي: إنَّ هذا القُرآنَ الموصوفَ بتلك الصِّفاتِ الجَليلةِ هو تنزيلُ رَبِّ العالَمينَ، الَّذي يُرَبِّي عِبادَه بنِعَمِه الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، ومِنْ أجَلِّ تَربيةٍ رَبَّى بها عِبادَه إنزالُه هذا القُرآنَ الَّذي قد اشتَمَل على مصالِحِ الدَّارَينِ، ورَحِمَ اللهُ به العِبادَ رَحمةً لا يَقدِرونَ لها شُكورًا!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

(٢) هذا خِطابٌ للكفَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٠).

وقال البغوي: (﴿أَنتُم﴾، يا أهلَ مَكَّةَ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٨، ٣٣٩).

قيل: إنَّ المُدهِنَ هو الكذَّابُ المنافقُ. وممَّن قال بهذا: الزَّجَّاجُ، والبغوي، والبِقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٠).

وقال السمعاني: (مكذِّبون تكذيبَ مُنافِقٍ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٠).

وقال البِقاعي: (أي: كذَّابون منافِقون، بسببِه تُظهِرون غيرَ ما تُبطِنون: أنَّه كذَّابٌ وأنتم تَعلَمون صِدقَه بحُسنِ مَعانيه، وعَجْزِكم عن مُماثَلَتِه في نُظومِه ومَبانيه، وتقولونَ: لو شِئْنا لَقُلْنا مِثلَ هذا! وجميعُ أفعالِكم تُخالِفُ هذا). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٤٠).

وقال البغوي: (وهو مِن الإدهانِ، وهو الجريُ في الباطنِ على خِلافِ الظَّاهرِ، هذا أصْلُه، ثُمَّ قيل للمكَذِّبِ مُدْهِنٌ وإنْ صَرَّح بالتَّكذيبِ والكفرِ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١). =

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان هذا القُرآنُ مُتَكَفِّلًا بسَعادةِ الدَّارَينِ؛ قال تعالى[1]:

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وتَجعَلونَ شُكْرَ رزقِكم التَّكذيبَ؛ فتَضَعونَ التَّكذيبَ مَوضِعَ الشُّكرِ، وتُقابِلونَ مِنَّةَ الله عليكم بالكُفرِ بها[2]؟!

---

= وقيل: المعنى: مُتهاوِنون، كمَنْ يُدْهِنُ في الأمرِ أي: يُلينُ جانبَه ولا يَتصلَّبُ فيه تهاوُنًا به. وممَّن قال بهذا: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٠).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: أفبِهذا القُرآنِ الَّذي أنبَأْتُكم خَبَرَه، وقَصَصْتُ عليكم أمْرَه -أيُّها النَّاسُ- أنتم تُلِينونَ القَولَ للمُكَذِّبينَ به؛ مُمالأةً منكم لهم على التَّكذيبِ به والكُفرِ؟!). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٧).

وقال ابن عطية: (﴿مُدْهِنُونَ﴾ معناه: يُلايِنُ بعضُكم بعضًا، ويَتبعُه في الكفرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢).

قال ابن عاشور: (وعلى تفسيرِ ﴿مُدْهِنُونَ﴾ بمعنى الإلانةِ، فالمعنى: لا تَتراخَوْا في هذا الحديثِ، وتَدبَّروه، وخُذوا بالفورِ في اتِّباعِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٦٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٠).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والزَّمخشريُّ، والقرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادرُ السَّابقة.

قال ابن عطيَّة: (وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أجمَع المفسِّرونَ على أنَّ الآيةَ =

= توبيخٌ للقائلينَ في المطَرِ الَّذي يُنزِلُه اللهُ للعِبادِ: هذا بنَوْءِ كذا وكذا... والمعنى: وتَجعَلونَ شُكرَ رِزْقِكم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٢).

وقال الشنقيطي: (قولُه: ﴿رِزۡقَكُمۡ﴾، أي: المطرَ؛ كما قال تعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗا﴾ [غافر: ١٣]. وقولُه: ﴿أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾، أي: بقوْلِكم: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا). ((أضواء البيان)) (٦/ ٦٣).

وقال الرازي: (تَجعلونَ شُكْرَ النِّعَمِ أنَّكم تَقولونَ: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا! وهذا عليه أكثرُ المفسِّرينَ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٣٤).

وقال ابن الجوزي: (وتَجعلونَ شُكرَ رِزقِكم تكذيبَكم. قاله الأكثَرونَ؛ وذلك أنَّهم كانوا يُمطَرونَ، فيَقولون: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا!). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٢٩).

وقال ابن القيِّم: (ومِن بَعضِ معنى الآيةِ قَولُهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا وكذا، فهذا يَصلحُ أن تَدُلَّ عليه الآيةُ ويُرادَ بها، وإلَّا فمعناها أوسَعُ منه وأعَمُّ وأعلى. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٣٦).

وقيل: تَجعَلونَ شُكرَ اللهِ على ما رزَقَكم تكذيبَ رُسُلِه والكُفرَ به. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٥).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: وتَجعَلون حظَّكم ونصيبَكم مِن القرآنِ أنَّكم تُكَذِّبون: الثعلبيُّ، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٢١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٢).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِنَ السَّلَفِ: الحَسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٢).

قال ابن عثيمين: (قوله: ﴿رِزۡقَكُمۡ﴾: الرِّزقُ هو العَطاءُ، والمرادُ به هنا ما هو أعَمُّ مِن المطرِ؛ فيَشمَلُ معنيَين:

الأوَّل: أنَّ المرادَ به رزقُ العِلم؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ * وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥-٨٢]، أي: تَخافونَهم فتُداهِنونَهم، وتَجعَلون شُكرَ ما رزَقَكم اللهُ به مِن العِلم والوحيِ أنَّكم تُكَذِّبون به، وهذا هو ظاهرُ سياقِ الآيةِ.

الثَّاني: أنَّ المرادَ بالرِّزقِ المطرُ، وقد... صحَّ عن ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما في تفسيرِ الآيةِ: أنَّ المرادَ بالرِّزقِ المطَرُ، وأنَّ التَّكذيبَ به نِسبتُه إلى الأنواءِ...

والقاعدةُ في التَّفسيرِ: أنَّ الآيةَ إذا كانت تحتمِلُ المعنيَينِ جميعًا بدونِ مُنافاةٍ، تُحمَلُ عليهما جميعًا، وإن حصَل بيْنَهما مُنافاةٌ طُلِب المُرَجِّحُ. =

قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢].

---

= ومعنى الآيةِ: أنَّ اللهَ يوبِّخُ هؤلاء الَّذين يَجعلون شُكرَ الرِّزقِ التَّكذيبَ والاستِكبارَ والبُعدَ؛ لأنَّ شُكرَ الرِّزقِ يكونُ بالتَّصديقِ والقَبولِ والعمَلِ بطاعةِ المُنعِمِ...، سواءٌ قُلْنا: المرادُ بالرِّزقِ المطرُ الَّذي به حياةُ الأرضِ، أو قُلْنا: إنَّ المرادَ به القرآنُ الَّذي به حياةُ القُلوبِ؛ فإنَّ هذا مِن أعظَمِ الرِّزقِ؛ فكيف يليقُ بالإنسانِ أن يُقابِلَ هذه النِّعمةَ بالتَّكذيبِ؟!). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (٢/ ١٩).

وجوَّز الرَّازيُّ أن يكونَ المعنى: تَخافون أنَّكم إن صدَّقتُم ومَنعْتُم ضُعَفاءَكم عن الكُفرِ يَفوتُ عليكم مِن كَسْبِكم ما تَربَحونَه بسَبَبِهم، فتَجعلونَ رِزقَكم أنَّكم تُكَذِّبونَ الرُّسُلَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٣٤).

وقال ابنُ عاشور: (أي: تَجعَلونَ شُكرَ اللهِ على رِزْقِه إيَّاكم أن تُكَذِّبوا بقُدرتِه على إعادةِ الحياةِ؛ لأنَّهم عَدَلوا عن شُكرِ اللهِ تعالى فيما أنعَمَ به عليهم، فاستَنقَصوا قُدرتَه على إعادةِ الأجسامِ، ونَسَبوا الزَّرعَ لأنفُسِهم، وزَعَموا أنَّ المطَرَ تُمطِرُه النُّجومُ المُسَمَّاةُ بالأنواءِ؛ فلذلك قال ابنُ عبَّاسٍ: نزلت في قَولِهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، أي: لأنَّهم يقولونَه عن اعتقادِ تأثيرِ الأنواءِ في خَلْقِ المطَرِ، فمعنى قَولِ ابنِ عبَّاسٍ: نَزَلت في قَولِهم: مُطِرْنا بنَوءِ كذا- أنَّه مُرادٌ مِن معنى الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٠).

قال ابن القيِّم: (إنَّ اللهَ تعالى تأذَّنَ أنَّه لا بدَّ أن يَزيدَ الشَّكورَ مِن نِعَمِه، ولا بدَّ أن يَسْلُبَها مَن لم يَشكُرْها، فلمَّا وضَعوا الكفرَ والتَّكذيبَ مَوضِعَ الشُّكرِ والإيمانِ، جعَلوا رِزقَهم نفْسَه تكذيبًا؛ فإنَّ التَّصديقَ والشُّكرَ لَمَّا كانا سببَ زيادةِ الرِّزقِ، وهما رِزقُ القلبِ حقيقةً، فهؤلاء جعَلوا مكانَ هذا الرِّزقِ التَّكذيبَ والكفرَ، فجعَلوا رِزقَهم التَّكذيبَ، وهذا المعنى هو الَّذي حامَ حوْلَه مَن قال: التَّقديرُ: وتَجعَلون شُكرَ رِزقِكم أنَّكم تُكَذِّبون). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٣٥، ٢٣٦).

وقال القرطبي: (إنَّما صلَح أن يُوضَعَ اسمُ الرِّزقِ مكانَ شُكرِه؛ لأنَّ شُكرَ الرِّزقِ يَقتضي الزِّيادةَ فيه، فيكونُ الشُّكرُ رِزقًا على هذا المعنى، فقيل: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾، أي: شُكرَ رِزقِكم الَّذي لو وُجِد منكم لَعادَ رِزقًا لكم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٨).

وعن زَيدِ بنِ خالِدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صلَّى بنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صلاةَ الصُّبحِ بالحُدَيْبِيَةِ في إِثْرِ السَّماءِ[١] كانت مِنَ اللَّيلِ، فلمَّا انصَرَف أقبَلَ على النَّاسِ فقال: هل تَدْرُونَ ماذا قال رَبُّكم؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. قال: قال: أصبَحَ مِن عِبادي مُؤمِنٌ بي وكافِرٌ؛ فأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بفَضلِ اللهِ ورَحمتِه فذلك مُؤمِنٌ بي، كافِرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا مَن قال: مُطِرْنا بنَوءِ[٢] كذا وكذا فذلك كافِرٌ بي، مُؤمِنٌ بالكوكَبِ))[٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألم تَرَوا إلى ما قال رَبُّكم؟! قال: ما أنعَمْتُ على عبادي مِن نِعمةٍ إلَّا أصبَحَ فَريقٌ منهم بها كافِرينَ، يقولونَ: الكواكِبُ، وبالكواكِبِ!))[٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ فوصَفه بما يَقتَضي حُسْنَه، وكَثرةَ خَيرِه ومَنافِعِه، وجلالتَه؛ فإنَّ الكريمَ هو البَهيُّ، الكثيرُ الخَيرِ، العَظيمُ النَّفعِ، وهو مِن كلِّ شيءٍ أحسَنُه وأفضَلُه، واللهُ سُبحانَه وَصَف نفْسَه بالكَرَمِ، ووَصَف به كلامَه، ووَصَف به عرْشَه، ووَصَف به ما كَثُرَ خيْرُه وحَسُنَ منْظَرُه مِن النَّباتِ وغيرِه؛ ولذلك فَسَّرَ السَّلَفُ «الكريمَ» بالحَسَنِ. وبالجُملةِ فالكريمُ: الَّذي مِن شأنِه أنْ يُعطيَ الخَيرَ الكثيرَ بسُهولةٍ ويُسْرٍ، وضِدُّهُ: اللَّئيمُ: الَّذي لا يُخرِجُ خيْرَه النَّزْرَ إلَّا بعُسْرٍ وصُعوبةٍ، وكذلك الكريمُ في النَّاسِ واللَّئيمُ[٥]، والقُرآنُ يُعطي

---

(١) السَّمَاءِ: أي: المَطَرِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٦٠).

(٢) بنَوءِ كذا: أي: بنَجْمِ كذا، والنَّوءُ عندَ العَرَبِ: سُقوطُ نَجمٍ مِن نُجومِ المنازِلِ الثَّمانيةِ والعِشرينَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٩٩).

(٣) رواه البخاريُّ (١٠٣٨)، ومسلمٌ (٧١) واللَّفظُ له.

(٤) رواه مسلم (٧٢).

(٥) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٥).

أهلَه مِن الخَيراتِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ والجِسْميَّةِ والقَلبيَّةِ؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]؛ فهو سِلاحٌ لِمَن تمسَّكَ به، ولكنْ يَحتاجُ إلى أنْ نتمَسَّكَ به بالقَولِ والعَمَلِ والعَقيدةِ، فلا بُدَّ أنْ يُصَدِّقَ العَقيدةَ العَمَلُ؛ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَد الجَسَدُ كلُّه، ألَا وهي القَلبُ))[١]، ووَصَفَ اللهُ القرآنَ في آيةٍ أُخرى بأنَّه مَجيدٌ، والمَجْدُ صِفةُ العَظَمةِ والعِزَّةِ والقُوَّةِ، والقُرآنُ جامِعٌ بيْنَ الأمْرَينِ: فيه قُوَّةٌ وعَظَمةٌ، وكذا خَيراتٌ كثيرةٌ وإحسانٌ لِمَن تمسَّكَ به[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يَجِبُ علينا أنْ نَعمَلَ به؛ لأنَّ الَّذي أنزَلَه هو الرَّبُّ المُطاعُ الخالِقُ الرَّازِقُ الَّذي يَجِبُ أنْ نُطيعَه بما أمَرَ، وننتهيَ عمَّا نهى عنه وزَجَرَ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ إنكارٌ على مَن سَمِعَ أحَدًا يتكَلَّمُ في القُرآنِ بما لا يَليقُ، ثمَّ لا يُجاهِرُه بالعَداوةِ[٤]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ أنَّ الواجِبَ على مَنْ آمَنَ بأنَّه ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأنَّه قرآنٌ كريمٌ، وأنَّه لا يَمَسُّه إلَّا المطهَّرونَ- الواجِبَ أنْ يُصارِحَ ويُصَرِّحَ، ولا يُدْهِنَ، وقد قال اللهُ تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، ولكنْ هذا ليس بحاصِلٍ، فالواجِبُ على المؤمِنِ أنْ يَبرُزَ بدينِه، ويَفتَخِرَ به، ويُظهِرَه، بخِلافِ ما عليه كثيرٌ مِن النَّاسِ اليومَ مع الأسفِ؛

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢)، ومسلمٌ (١٥٩٩) من حديثِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٠).

تَجِدُ الرَّجُلَ منهم إذا قام ليصَلِّيَ يَستحي أنْ يُصَلِّيَ، ورُبَّما يُداهِنُ ويُؤَخِّرُ الصَّلاةَ عن وقتِها؛ موافَقةً لهؤلاء الَّذين لا يُصَلُّونَ! وهذا غلَطٌ عظيمٌ، بلِ الواجبُ أنْ يكونَ الإنسانُ صَريحًا، فلا يُداهِنَ في دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ بَيانُ أنَّ ما أصاب العِبادَ مِن خَيرٍ فلا يَنبغي أن يَرَوه مِن قِبَلِ الوَسائِطِ الَّتي جَرَت العادةُ بأن تكونَ أسبابًا، بل ينبغي أن يَرَوه مِن قِبَلِ الله تعالى، ثمَّ يُقابِلوه بشُكرٍ إنْ كان نِعمةً، أو صَبرٍ إن كان مَكروهًا؛ تعَبُّدًا له تعالى وتذَلُّلًا(٢).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: تَجعَلونَ عَطاءَ اللهِ إيَّاكم تَكذيبًا له، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، ومِن ذلك أنْ يَنسُبَ الإنسانُ نِعمةَ اللهِ عزَّ وجلَّ إلى السَّبَبِ مُتناسيًا المُسَبِّبَ سُبحانَه وتعالى، كقَولِه مثلًا: مُطِرْنا بنَوءِ كذا، فيَنْسُبُ المطرَ إلى النَّوءِ لا إلى الخالقِ عزَّ وجلَّ، فهذا نَوعٌ مِن الشِّركِ(٣)!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ تَنبيهٌ على فَضيلةِ القُرآنِ لِيَتدَبَّروه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٠).

قال ابن عثيمين: (نِسبةُ المطرِ إلى النَّوءِ تَنقسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

١- نِسبةُ إيجادٍ، وهذه شِركٌ أكبَرُ.

٢- نِسبةُ سببٍ، وهذه شِركٌ أصغَرُ.

٣- نِسبةُ وقتٍ، وهذه جائزةٌ، بأن يريدَ بقولِه: مُطِرْنا بنَوْءِ كذا؛ أي: جاءنا المطرُ في هذا النَّوءِ، أي: في وقتِه). ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) (٢/ ٣١).

فإنَّه ليس بشِعرٍ ولا سِحرٍ ولا كِهانةٍ، كما زَعَموا[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ سؤالٌ: ما الفائدةُ مِن إقسامِه سُبحانَه مع أنَّه صادقٌ بلا قَسَمٍ؛ لأنَّ القَسَمَ إنْ كان لقَومٍ يؤمِنون به ويُصَدِّقون كلامَه فلا حاجةَ إليه، وإنْ كان لقَومٍ لا يُؤمِنونَ به فلا فائدةَ منه؛ قال تعالى: ﴿وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥]؟

**الجوابُ: أنَّ فائدةَ القَسَمِ مِن وُجوهٍ:**

**الأوَّلُ:** أنَّ هذا أُسلوبٌ عربيٌّ لتأكيدِ الأشياءِ بالقَسَمِ، وإنْ كانت مَعلومةً عندَ الجميعِ، أو كانت مُنكَرةً عندَ المخاطَبِ، والقرآنُ نَزَلَ بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ.

**الثَّاني:** أنَّ المؤمِنَ يَزدادُ يقينًا مِن ذلك، ولا مانِعَ مِن زيادةِ المؤكِّداتِ الَّتي تَزيدُ في يقينِ العَبدِ؛ قال تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيۡفَ تُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰۖ قَالَ أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠].

**الثَّالثُ:** أنَّ اللهَ تعالى يُقْسِمُ بأمورٍ عظيمةٍ دالَّةٍ على كَمالِ قدرتِه وعَظَمتِه وعِلْمِه، فكأنَّه يُقيمُ في هذا المُقسَمِ به البَراهينَ على صِحَّةِ ما أقسَمَ عليه بواسِطةِ عِظَمِ ما أقسَمَ به.

**الرَّابعُ:** التَّنويهُ بحالِ المُقسَمِ به؛ لأنه لا يُقسَمُ إلَّا بشَيءٍ عَظيمٍ، وهذانِ الوَجهان لا يَعودانِ إلى تصديقِ الخَبَرِ، بل إلى ذِكْرِ الآياتِ الَّتي أقسَمَ بها تَنويهًا له بها، وتنبيهًا على عِظَمِها.

**الخامِسُ:** الاهتِمامُ بالمُقسَمِ عليه، وأنَّه جديرٌ بالعِنايةِ والإثباتِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ تَقتَضي أنَّه لم يُقسِمْ بهذا القَسَمِ، وقَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ يدُلُّ على خِلافِ ذلك، فما الجوابُ؟

**الجوابُ على وَجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ «لا» النَّافيةَ يَتعَلَّقُ نَفيُها بكَلامِ الكُفَّارِ، فمعناها إذَنْ: ليس الأمرُ كما يَزعُمُه الكُفَّارُ المُكَذِّبونَ للرَّسولِ، وعليه فقَولُه: ﴿أُقۡسِمُ﴾ إثباتٌ مُؤتَنَفٌ.

**الثَّاني**: أنَّ لَفظةَ «لا» صِلةٌ، وهذا على عادةِ العَرَبِ؛ فإنَّها رُبَّما لَفَظَت «لا» مِن غيرِ قَصدِ مَعناها الأصليِّ، بل لمُجَرَّدِ تَقويةِ الكلامِ وتَوكيدِه، كقَولِه تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣] يعني: أن تتَّبِعَني[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾ مُناسَبةٌ بيْنَ ذِكْرِ النُّجومِ في القَسَمِ وبيْنَ المُقْسَمِ عليه -وهو القُرآنُ- مِن وُجوهٍ:

منها: أنَّ النُّجومَ جَعَلَها اللهُ يُهتدَى بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ، وآياتُ القُرآنِ يُهتدَى بها في ظُلُماتِ الجَهلِ والغَيِّ، فتلك هدايةٌ في الظُّلماتِ الحِسِّيَّةِ، وآياتُ القُرآنِ هِدايةٌ في الظُّلُماتِ المَعنويَّةِ، فجَمَعَ بيْنَ الهدايتَينِ. معَ ما في النُّجومِ مِن الرُّجومِ للشَّياطينِ، وفي آياتِ القُرآنِ مِن رُجومِ شياطينِ الإنسِ والجِنِّ.

والنجومُ آياتُه: المشهودةُ المُعايَنةُ، والقرآنُ آياتُه: المَتلوَّةُ السَّمعيَّةُ، معَ ما في مَواقِعِها عندَ الغُروبِ مِن العِبرةِ والدَّلالةِ على آياتِه القُرآنيَّةِ ومَواقِعِها عندَ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٢٩، ٢٦٣).
ويُنظر ما تقدَّم في حاشية تفسير الآية (ص: ٤٩٧).

النُّزولِ[١].

٥- تأمَّلْ جُمَلَ القَسَمِ الَّتي في القُرآنِ، المُصَدَّرَةَ بحَرفِ النَّفيِ: كيفَ تجدُ المُقْسَمَ عليه مَنفيًّا ومُتَضَمِّنًا للنَّفيِ، ولا يخرمُ هذا قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾؛ فإنَّه لَمَّا كان المقصودُ بهذا القَسَم نَفيَ ما قاله الكُفَّارُ في القُرآنِ مِن أنَّه شِعرٌ أو كِهانةٌ أو أساطيرُ الأوَّلينَ، صَدَّرَ القَولَ بأداةِ النَّفيِ، ثمَّ أثبَتَ له خِلافَ ما قالوه، فتَضمَّنتِ الآيةُ معنى: ليس الأمرُ كما يَزعُمونَ، ولكِنَّه قُرآنٌ كَريمٌ[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ أنَّ القُرآنَ لا يَهُونُ بكَثرةِ التِّلاوةِ؛ لأنَّ الكلامَ متى أُعيدَ وكُرِّرَ استُهِينَ به، والقُرآنُ يكونُ إلى آخِرِ الدَّهرِ ولا يَزدادُ إلَّا عِزًّا[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ وقولِه: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] أنَّ القرآنَ حروفٌ وكلماتٌ؛ لأنَّ اللهَ أَخبرَ بأنه محفوظٌ في صدورِ أهلِ العلمِ، ومكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ؛ ولا يُحفَظُ ويُكتَبُ إلَّا ما هو حروفٌ وكلماتٌ، والقرآنُ كلامُ اللهِ حروفُه ومعانيه[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ أنَّه مِن كَرَمِ هذا القرآنِ العَظيمِ كَونُه مِن المَلِكِ الأعلى إلى خَيرِ الخَلقِ بسِفارةِ رُوحِ القُدُسِ، مُشتَمِلًا على أُصولِ العُلومِ

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٢٧، ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٤٢).

المُهِمَّةِ في إصلاحِ المَعاشِ والمَعادِ، وبلِسانِ العَرَبِ -الَّذين اتَّفَقَت عُلَماءُ الفِرَقِ على أنَّ لِسانَهم أفصَحُ الألسُنِ-، وعلى وَجهٍ أعجَزَ العَرَبَ كافَّةً، وبَقيَّةَ الخَلقِ أجمَعينَ[1]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ دَلالةٌ مِن أظهرِ الأدِلَّةِ على نُبُوَّةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّ هذا القُرآنَ جاء مِن عِندِ اللهِ تعالى، وأنَّ الَّذي جاء به رُوحٌ مُطَهَّرٌ، فما للأرواحِ الخَبيثةِ عليه سَبيلٌ، وأنَّ الآيةَ أُختُ قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾[2] [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ تفضيلٌ للقُرآنِ على أفرادِ نَوعِه مِنَ الكُتُبِ الإلهيَّةِ، مثل التَّوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ، وفَضْلُه عليها: بأنَّه فاقها في استيفاءِ أغراضِ الدِّينِ، وأحوالِ المَعاشِ والمَعادِ، وإثباتِ المعتَقَداتِ بدَلائلِ التَّكوينِ، والإبلاغِ في دَحْضِ الباطِلِ دَحْضًا لم يَشتَمِلْ على مِثْلِه كِتابٌ سابِقٌ -وخاصَّةً الاعتقادَ-، وفي وُضوحِ معانيه، وفي كثرةِ دَلالتِه مع قِلَّةِ ألفاظِه، وفي فصاحتِه، وفي حُسنِ آياتِه، وحُسنِ مواقِعِها في السَّمعِ، وذلك مِن آثارِ ما أراد اللهُ به مِن عُمومِ الهدايةِ به، والصَّلاحيةِ لكُلِّ أمَّةٍ ولكُلِّ زَمانٍ؛ فهذا وصْفٌ للقُرآنِ بالرِّفعةِ على جميعِ الكُتُبِ حَقًّا، لا يستطيعُ المخالِفُ طَعنًا فيه[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا يَمَسُّ المُصحَفَ إلَّا طاهِرٌ؛ لأنَّه إذا كانت تلك الصُّحُفُ لا يَمَسُّها إلَّا المُطهَّرونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٣).

لكَرامتِها على اللهِ، فهذه الصُّحُفُ أَولى ألَّا يَمَسَّها إلَّا طاهِرٌ[١]، فدلَّت الآيةُ بتَنبيهِها على أنَّه لا يجوزُ أن يَمَسَّ القُرآنَ إلَّا طاهِرٌ؛ ولهذا قيل: إنَّ الآيةَ خَبَرٌ بمعنى النَّهيِ، أي: لا يَمَسَّ القُرآنَ إلَّا طاهِرٌ[٢].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يُدْرِكُ مَعانيَ القُرآنِ ولا يَفهَمُه إلَّا القُلوبُ الطَّاهِرةُ، وحَرامٌ على القَلبِ المُتلوِّثِ بنَجاسةِ البِدَعِ والمُخالَفاتِ أنْ يَنالَ مَعانيَه، وأنْ يَفهَمَه كما ينبغي؛ قال البُخاريُّ في صَحيحِه في هذه الآيةِ: «لا يَجِدُ طَعْمَه ونفْعَه إلَّا مَنْ آمَنَ به»[٣]، وهذا أيضًا مِن إشارةِ الآيةِ وتَنبيهِها، وهو أنَّه لا يَلْتَذُّ به وبقِراءتِه وفَهْمِه وتدَبُّرِه إلَّا مَن شَهِدَ أنَّه كلامُ اللهِ، تكلَّمَ بها حقًّا، وأَنزَلَه على رَسولِه وَحْيًا، ولا يَنالُ مَعانيَه إلَّا مَن لم يكُنْ في قلْبِه حَرَجٌ منه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ[٤]! وقد قيل: إنَّه لا يَبلُغُ حقائِقَ مَعرفةِ القُرآنِ إلَّا مَن يُطَهِّرُ نفْسَه مِن دَرَنِ الفَسادِ والجَهالاتِ والمُخالَفاتِ[٥]!

١٣- قَولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَتضَمَّنُ أُمورًا؛ أحدُها: أنَّه تعالى فوقَ خلْقِه كلِّهم، وأنَّ القرآنَ نَزَلَ مِن عندِه. والثَّاني: أنَّه تَكَلَّمَ به حقيقةً؛ لِقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (١/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

واتَّفَقت المذاهبُ الفقهيَّةُ الأربعةُ على عدَمِ جوازِ مسِّ المصحفِ مِن غيرِ وُضوءٍ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (١/ ٥٧)، ((الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي)) (١/ ١٠٧)، ((المجموع)) للنووي (٢/ ٦٧)، ((الفروع)) لابن مفلح (١/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((صحيح البخاري)) (كتاب التوحيد- باب قول الله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ [آل عمران: ٩٣]) (٤/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٣٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٤٢)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٥٢٨).

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ولو كان غيرُه هو المتكلِّمَ به لَكان مِن ذلك الغَيرِ.

الأمرُ الثَّالثُ: ما تضمَّنَه قولُه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ رُبوبيَّتَه الكاملةَ لِخَلْقِه تأبى أنْ يَترُكَهم سُدًى؛ لا يأمُرُهم ولا ينهاهُم، ولا يُرشِدُهم إلى ما يَنفَعُهم، ويُحَذِّرُهم ما يَضُرُّهُم، بل يَترُكُهم هَمَلًا بمنزلةِ الأنعامِ السَّائمةِ! فمَن زَعَمَ ذلك لم يَقْدُرْ رَبَّ العالَمينَ قَدْرَه، ونَسَبَه إلى ما لا يَليقُ به تعالى. ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[1] [المؤمنون: ١١٦].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ ليس بمَخلوقٍ؛ لأنَّه نَزَلَ مِنَ اللهِ تعالى، فهو كَلامُه، وكَلامُه مِن صِفاتِه تعالى، وصِفاتُه غيرُ مَخلوقةٍ[2].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ نازِلٌ لجَميعِ الخَلْقِ؛ ففيه دَليلٌ على عُمومِ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[3].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ نازِلٌ مِن رَبِّهم، وإذا كان كذلك فهو الحَكَمُ بَيْنَهم، الحاكِمُ عليهم[4].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ نُزولَ القُرآنِ هو مِن كَمالِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى، فإذا أُضيفَ إلى هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٢، ٣] عُلِمَ أنَّ القُرآنَ رَحمةٌ للعِبادِ أيضًا، ورُبوبيَّةُ اللهِ تعالى مَبنيَّةٌ على الرَّحمةِ؛ قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]، وكلُّ ما أمَرَ اللهُ به عبادَه أو نهاهم عنه فهو رَحمةٌ بهم[5].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٦ - ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ * وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]، يُعرِبُ عن خِطابٍ مِن اللهِ تعالى مُوجَّهٍ إلى المُكذِّبين بالبعثِ القائلينَ: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧]، انتُقِلَ به إلى التَّنويهِ بالقرآنِ؛ لأنَّهم لَمَّا كذَّبوا بالبعثِ، وكان إثباتُ البعثِ مِن أهمِّ ما جاء به القرآنُ، وكان ممَّا أغْراهُم بتَكذيبِ القرآنِ اشتِمالُه على إثباتِ البعثِ الَّذي عَدُّوه مُحالًا، زِيادةً على تَكذيبِهم به في غَيرِ ذلك ممَّا جاء به مِن إبطالِ شِرْكِهم وأكاذيبِهم؛ فلمَّا قامَتِ الحُجَّةُ على خَطَئِهم في تَكذيبِهم، فقد تَبيَّنَ صِدقُ ما أنْبَأَهم به القرآنُ، فثبَتَ صِدْقُه؛ ولذلك تَهيَّأَ المقامُ للتَّنويهِ بشَأْنِه[1].

- والفاءُ لتَفريعِ القسَمِ على ما سبَقَ مِن أدلَّةِ وُقوعِ البَعثِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠] إخبارٌ بيَومِ البعثِ، وإنذارٌ لهم به، وهم قد أنْكَروه، ومِن أجْلِ استِحالتِه في نَظَرِهم القاصرِ كذَّبوا القرآنَ، وكذَّبوا مَن جاء به، ففُرِّعَ على تَحقيقِ وُقوعِ البعثِ والإنذارِ به تَحقيقُ أنَّ القرآنَ مُنزَّهٌ عن النَّقائصِ، وأنَّه تَنزيلٌ مِن اللهِ، وأنَّ الَّذي جاء به مُبلِّغٌ عن اللهِ؛ فتَفريعُ القسَمِ تَفريعٌ مَعنويٌّ باعتبارِ المُقسَمِ عليه، وهو أيضًا تَفريعٌ ذِكريٌّ باعتبارِ إنشاءِ القسَمِ إنْ قالوا لك: أَقْسِمْ بمَواقعِ النُّجومِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بمعْنى: أُقسِمُ، و(لا) مَزيدةٌ للتَّوكيدِ، وأصْلُها نافيةٌ تدُلُّ على أنَّ القائلَ لا يُقدِمُ على القسَمِ بما أقسَمَ به خَشيةَ سُوءِ عاقبةِ الكذِبِ في القسَمِ، وبمعْنى أنَّه غيرُ مُحتاجٍ إلى القسَمِ؛ لأنَّ الأمرَ واضحُ الثُّبوتِ، ثمَّ كثُرَ هذا الاستِعمالُ فصارَ مُرادًا به تأْكيدُ الخبرِ، فساوى القسَمَ؛ بدليلِ قولِه عَقِبَه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، وعلى الوجْهينِ فهو إدماجٌ[1] للتَّنويهِ بشأْنِ ما لو كان مُقسِمًا لأقسَمَ به. وعلى الوجْهِ الثَّاني يكونُ قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ بمعْنى: وإنَّ المذكورَ لَشيءٌ عظيمٌ يُقسِمُ به المُقسِمون، فإطلاقُ (قَسَم) عليه مِن إطلاقِ المصدرِ وإرادةِ المفعولِ، كالخلْقِ بمعْنى المَخلوقِ. ويجوزُ أنْ يكونَ (لا) حرْفًا مُستقِلًّا عن فِعلِ ﴿أُقۡسِمُ﴾، واقعًا جَوابًا لكلامٍ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه ما بعْدَه مِن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾، ردًّا على أقوالِهم في القرآنِ: إنَّه شِعرٌ، أو سِحرٌ، أو أساطيرُ الأوَّلين، أو قولُ كاهنٍ، ويكونَ قولُه: ﴿أُقۡسِمُ﴾ استئنافًا، فمَعنى الكلامِ مع فاءِ التَّفريعِ: أنَّه تفرَّعَ على ما سطَعَ مِن أدلَّةِ إمكانِ البعثِ ما يُبطِلُ قولَكم في القرآنِ، فهو ليس كما تَزعُمون، بلْ هو قرآنٌ كريمٌ... إلخ[2].

- وذِكرُ (مَواقع النُّجوم) تَنويهٌ بها، وتَعظيمٌ لأمْرِها؛ لدَلالةِ أحوالِها على دَقائقِ حِكمةِ اللهِ تعالى في نِظامِ سَيرِها، وبدائعِ قُدرتِه على تَسخيرِها[3].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعتراضٌ في اعتراضٍ، قُصِدَ به

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣١).

المُبالَغةُ في تَحقيقِ مَضمونِ الجُملةِ القَسَميَّةِ وتأْكيدِه؛ حيث اعتُرِضَ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ بيْن القسَمِ وجَوابِه الَّذي هو قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾، وبقولِه تعالى: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ بيْن المَوصوفِ وصِفتِه[1]، فجاء هذا الاعتراضُ في ضِمْنِ هذا الاعتراضِ ألطَفَ شَيءٍ وأحسَنَه مَوقِعًا، وأحسَنُ ما يَقَعُ هذا الاعتِراضُ إذا تَضَمَّنَ تأكيدًا أو تَنبيهًا أو احتِرازًا[2].

- والعِلمُ الَّذي اقْتَضَى شَرْطُ (لو) الامتِناعيَّةِ عدَمَ حُصولِه لهم -إنْ كان ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدًا على القسَمِ- هو العِلمُ التَّفصيليُّ بأحوالِ مَواقعِ النُّجومِ؛ فإنَّ المُشرِكين لا يَخْلُون مِن عِلمٍ إجماليٍّ مُتفاوِتٍ بأنَّ في تلك المواقعِ عِبرةً للنَّاظِرينَ، أو نُزِّلَ ذلك العِلمُ الإجماليُّ مَنزِلةَ العدَمِ؛ لأنَّهم بكُفْرِهم لم يَجْرُوا على مُوجَبِ ذلك العِلمِ مِن تَوحيدِ اللهِ، فلو عَلِموا ما اشتَمَلَت عليه أحوالُ مَواقعِ النُّجومِ مِن مُتعلِّقاتِ صِفاتِ اللهِ تعالى، لَعَلِموا أنَّها مَواقعُ قُدْسيَّةٌ لا يَحلِفُ بها إلَّا بارٌّ في يَمينِه، ولكنَّهم بمَعزِلٍ عن هذا العِلمِ؛ فإنَّ جَلالةَ المُقسَمِ به ممَّا يَزَعُ الحالِفَ عن الكذبِ في يَمينِه[3].

- وجوابُ (لو) إمَّا محذوفٌ بالكليَّةِ؛ لأنَّه لا يتعلَّقُ بذِكرِه غرضٌ؛ إذ المقصودُ هو نفْيُ عِلْمِهم، أي: أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ، وإنَّه لقَسَمٌ عظيمٌ، ولكنَّكم لا تَعْلمونَ منزلتَه. وإمَّا أنْ يكونَ جوابُها مقدَّرًا، أي: لَعظَّمْتموه، ولآمنْتُم بما أقْسَمْنا عليه، لكنَّكم ما عظَّمتُموه ولا آمنْتُم، فعُلِم أنَّكم لا تَعْلمونَ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣١، ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ١٨٣).

- ومَفعولُ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه الكلامُ، أي: لو تَعلَمون عظَمَتَه، أي: دَلائلَ عَظَمتِه. ولك أنْ تَجعَلَ فِعلَ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ مُنزَّلًا مَنزِلةَ اللَّازمِ، أي: لو كان لكم عِلمٌ، لَكِنَّكم لا تَتَّصِفون بالعِلمِ(١).

- وضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ راجعٌ إلى غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ؛ لكَونِه مَعلومًا مُستحضَرًا لهم(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- جُملةُ ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٨، ٧٩]، فهي تابِعةٌ لصِفةِ القرآنِ، أي: فبُلوغُه إليكم كان بتَنزيلٍ مِن اللهِ، أي: نزَّلَ به الملائِكةَ(٣).

- وسمَّاه باسمِ المَصدَرِ للمُبالَغةِ، ولأنَّ هذا المَصدَرَ أغلَبُ أحوالِه؛ ولذلك غَلَب عليه هذا الاسمُ(٤).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾، الفاءُ تَفريعٌ على ما سِيقَ لأجْلِه الكلامُ الَّذي قبْلَها في غرَضِه مِن التَّنويهِ بشأْنِ القرآنِ(٥).

- قولُه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ إشارةٌ إلى القرآنِ؛ لِمُناسَبةِ الانتِقالِ مِن التَّنويهِ بشأْنِ القرآنِ إلى الإنكارِ على المُكذِّبين به وتَوبيخِهم، فالتَّفريعُ على قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٧).

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ [الواقعة: ٧٧] الآيةَ، والعدولُ عن الإضمارِ إلى اسمِ الإشارةِ بقولِه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ دونَ أنْ يقولَ: أفبِهِ أنتُم مُدهِنون، إخراجٌ للكلامِ على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ؛ لتَحصُلَ باسمِ الإشارةِ زِيادةُ التَّنويهِ بالقرآنِ الَّذي ذُكِرَتْ نُعوتُه الجليلةُ المُوجِبةُ لإعظامِه وإجلالِه[١].

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والإنكارِ، أي: كَلامُكم لا يَنْبغي إلَّا أنْ يكونَ مُداهَنةً، كما يُقالُ لأحدٍ قال كلامًا باطلًا: أتَهزَأُ؟! أي: قد نهَضَ بُرهانُ صِدقِ القرآنِ بحيث لا يُكذِّبُ به مُكذِّبٌ إلَّا وهو لا يَعتقِدُ أنَّه كذِبٌ؛ لأنَّ حُصولَ العلمِ بما قام عليه البرهانُ لا يَستطيعُ صاحبُه دفْعَه عن نفْسِه، فليس إصرارُكم على التَّكذيبِ بعْدَ ذلك إلَّا مُداهنةً لقَومِكم، تَخشَون إنْ صدَّقْتُم بهذا الحديثِ أنْ تَزولَ رِئاستُكم[٢].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾؛ للاهتمامِ[٣].

- وصَوغُ الجُملةِ الاسميَّةِ في ﴿أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾؛ لأنَّ المُقرَّرَ عليه إدْهانٌ ثابتٌ مُستمِرٌّ[٤].

- قولُه: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١] عطْفَ الجُملةِ على الجُملةِ، فهي داخلةٌ في حيِّزِ الاستفهامِ ومُستقِلَّةٌ بمعْناها، والمعْنى: أفَتجْعَلون رِزقَكم أنَّكم تُكذِّبون؟! وهو تَفريعٌ على ما تَضمَّنَه الاستِدلالُ بتَكوينِ نسْلِ الإنسانِ، وخلْقِ الحَبِّ، والماءِ في المُزنِ، والنَّارِ مِن أعوادِ الاقتِداحِ؛ فإنَّ في مَجموعِ ذلك حُصولَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُقوِّماتِ الأقواتِ، وهي رِزقٌ، والنَّسلُ رِزقٌ، يُقال: رُزِقَ فُلانٌ ولَدًا؛ لأنَّ الرِّزقَ يُطلَقُ على العطاءِ النَّافعِ، والاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ العاطفِ إنكاريٌّ[١].

- وإذ كان التَّكذيبُ لا يصِحُّ أنْ يُجعَلَ رِزقًا، تَعيَّنَ بدلالةِ الاقتضاءِ تَقديرُ مَحذوفٍ يُفيدُه الكلامُ، أي: شُكرَ رِزقِكم، أو نحْوه، أي: تَجعَلون شُكرَ اللهِ على رِزقِه إيَّاكم أنْ تُكذِّبوا بقُدرتِه على إعادةِ الحياةِ؛ لأنَّهم عَدَلوا عن شُكرِ اللهِ تعالى فيما أنْعَمَ به عليهم، فاسْتَنْقَصوا قُدرتَه على إعادةِ الأجسامِ، ونَسَبوا الزَّرعَ لأنفُسِهم، وزَعَموا أنَّ المطَرَ تُمطِرُه النُّجومُ المُسمَّاةُ بالأنواءِ[٢]، وذلك على قولٍ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٣٩، ٣٤٠).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٥٠٥).

## الآيات (٨٢-٩٦)

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن
لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ
مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ
لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾
وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾: أي: مَجْرى النَّفَسِ، وقيل: مجرَى الطَّعامِ[١].

﴿مَدِينِينَ﴾: أي: مَجْزِيِّينَ مُحاسَبِينَ. وقيل: مَملوكينَ أذِلَّاءَ؛ مِن قَولِك: دِنْتُ له بالطَّاعةِ، وأصلُ (دين): يدُلُّ على الانقيادِ والذُّلِّ، فالحسابُ والجزاءُ كِلاهما أمرٌ يُنْقادُ له[٢].

﴿فَرَوْحٌ﴾: أي: راحةٌ واستِراحةٌ وفَرَحٌ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ، وفُسحةٍ، واطِّرادٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

﴿وَرَيْحَانٌ﴾: أي: رِزقٌ طَيِّبٌ. وقيل: هو النَّبتُ ذو الرَّائحةِ الجَميلةِ، وأصلُ (روح): يدُلُّ على سَعةٍ، وفُسحةٍ، واطِّرادٍ، وأصلُ ذلك كلِّه الرِّيحُ(١).

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾: أي: دُخولٌ لها، ومُقاساةٌ لحَرِّها، وأصلُ (صلي): يدُلُّ على الإيقادِ بالنَّارِ، والجحيمُ: النَّارُ، وأصْلُ (جحم): عِظَمُ الحرارةِ وشِدَّتُها(٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حالَ الإنسانِ عندَ الاحتضارِ: فهلَّا إذا بَلَغَت رُوحُ المَيِّتِ حَلْقَه، وأنتم -أيُّها الحاضِرونَ عندَه- تَنظُرونَ إليه وهو في سَكَراتِ المَوتِ، ومَلائِكتُنا المُوكَّلونَ بقَبضِ رُوحِه أقرَبُ إليه منكم، ولكِن لا تَرَونَهم، فهلَّا إنْ كُنتُم -أيُّها المُكَذِّبونَ بالبَعثِ- غَيرَ مملوكينَ، ولا مُحاسَبينَ على أعمالِكم؛ هلَّا تَرجِعونَ رُوحَ المُحتَضَرِ إلى جَسَدِه إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعوى إنكارِ البَعثِ والحِسابِ!

ثمَّ يذكرُ الله تعالى أحوالَ الطَّوائفِ الثَّلاثِ: المقرَّبينَ، وأصحابِ اليمينِ، والمكذِّبينَ الضَّالِّينَ، فيقولُ: فأمَّا إنْ كان المَيِّتُ مِن المُقَرَّبينَ عِندَ اللهِ سُبحانَه تعالى، فله راحةٌ وسُرورٌ ورَحمةٌ، ورِزقٌ طَيِّبٌ وطِيبُ رائِحةٍ، وجَنَّةٌ يَتنَعَّمُ فيها؛ وأمَّا إنْ كان المَيِّتُ مِن أصحابِ اليَمينِ، فيُقالُ له: سَلامٌ لك لأنَّك مِن أصحابِ اليَمينِ؛ وأمَّا إن كان المَيِّتُ مِنَ المُكَذِّبينَ الضَّالِّينَ، فله ضِيافةٌ مِن شَرابٍ شَديدِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٤، ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩) و (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

الحَرارةِ، ونارٌ يُقاسِي حَرَّها.

إنَّ هذا الجَزاءَ المذكورَ لِمَن تَقَدَّمَ ذِكرُهم لَهُو أمرٌ ثابِتٌ لا شَكَّ في وُقوعِه؛ فنَزِّهْ ربَّك العَظيمَ -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائِلًا: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أنكَرَ الله تعالى عليهم، وعَجَّب منهم في أن يَنسُبوا لِغَيرِه فِعلًا، أو يُكَذِّبوا له خبَرًا؛ سَبَّب عن ذلك -تحقيقًا لأنَّه لا فاعِلَ سِواه- قَولَه[1]:

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾.

أي: فهلَّا إذا بَلَغَت رُوحُ المَيِّتِ حَلْقَه حينَ خُروجِها مِن جَسَدِه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٥٠).

ممَّن اختار أنَّ الحُلْقومَ هو مجرى الطَّعامِ: ابنُ عطيَّة، والسَّمينُ الحلبي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٥٧).

قال البقاعي: (﴿ٱلْحُلْقُومَ﴾: وهو مَجرى الطَّعامِ في الحَلقِ، والحَلقُ: مَساغُ الطَّعامِ والشَّرابِ، مَعروفٌ، فكان الحُلْقومُ أَدنى الحَلقِ إلى جِهةِ اللِّسانِ؛ لأنَّ المِيمَ لِمُنقَطَعِ التَّمامِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٤٢).

وممَّن اختار أنَّ الحُلقومَ هو مجرى النَّفَسِ: الخازنُ، والنيسابوري، وابن عثيمين: يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٢/ ٨)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٤٨). =

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۞ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ۞ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۞ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٢٦ - ٣٠].

﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ٨٤﴾.

أي: وأنتم -أيُّها الحاضِرونَ عندَ المُحتَضَرِ- تَنظُرونَ إليه وهو في سَكَراتِ المَوتِ، ولا تَستَطيعونَ رَدَّ رُوحِه إلى مَوضِعِها[1].

﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ٨٥﴾.

أي: ومَلائِكتُنا -الَّذين نُرسِلُهم إلى المُحتَضَرِ لِقَبضِ رُوحِه- أقرَبُ إليه منكم -أيُّها الحاضِرونَ عِندَه- ولكِن لا تَرَونَهم[2].

---

= قال الأزهري: (والحُلْقومُ وهي الحُنْجورُ، وهو مَخْرَجُ النَّفَسِ، لا يَجْري فيه الطَّعامُ والشَّرابُ، والَّذي يجْري فيه الطَّعامُ والشَّراب يُقال له المَرِيءُ). ((تهذيب اللغة)) (٥/ ١٩٦). ويُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (٤/ ٤٤).

وقال ابن أبي نصر: (والحُلْقومُ مَبدؤُه من أقْصَى الفَمِ، وهو مجْرى النَّفَسِ لا غيرُ). ((تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم)) (ص: ٧٥).

وفي ((المعجم الوسيط)) (١/ ١٩٣): (الحُلْقومُ: تَجويفٌ خلْفَ تَجويفِ الفَمِ، وفيه سِتُّ فَتَحاتٍ: فَتْحةُ الفَمِ الخَلفيَّةُ، وفَتْحَتَا المَنخِرَينِ، وفتحَتا الأُذُنَينِ، وفتحةُ الحَنجرةِ، وهي مجْرى الطَّعامِ والشَّرابِ والنَّفَسِ).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣)، ((شرح حديث النزول)) لابن تيميَّة (ص: ١٢٥-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥١، ٣٥٢).

وقد دَلَّ سياقُ الآياتِ على أنَّ المرادَ بالآيةِ الملائِكةُ؛ فقولُه: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّ هذا القريبَ في المكانِ نفْسِه ولكن لا نُبصِرُه، وهذا يُعَيِّنُ أن يكونَ المرادُ قُربَ =

كما قال تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا * وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ [النازعات: ١، ٢].

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

أي: فهلَّا إنْ كُنتُم -أيُّها المُكَذِّبونَ بالبَعثِ- غَيرَ مقهورينَ مملوكينَ، ولا مُحاسَبينَ مَجْزِيِّينَ بأعمالِكم(١).

---

= الملائكةِ؛ لاستِحالةِ ذلك في حقِّ الله تعالى. فاللهُ تعالى لو أراد قُرْبَ ذاتِه لم يُخَصَّ ذلك بهذه الحالِ، ولا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾؛ فإنَّ هذا إنَّما يُقالُ إذا كان هناك مَن يجوزُ أنْ يُبصَرَ في بَعضِ الأحوالِ، ولكِنْ نحن لا نُبْصِرُه، والرَّبُّ تعالى لا يَراه في هذه الحالِ لا الملائِكةُ ولا البَشَرُ. وأيضًا فإنَّ القُربَ مُقَيَّدٌ بحالِ الاحتِضارِ، والَّذي يَحضُرُ الميتَ عندَ موتِه هم الملائكةُ.

وأيضًا فإنَّه قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، فأخبَرَ عمَّن هو أقرَبُ إلى المُحتَضَرِ مِن النَّاسِ الَّذين عِندَه في هذه الحالِ، ولا يجوزُ أنْ يرادَ به قُرْبُ الرَّبِّ الخاصُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]؛ فإنَّ ذاك إنَّما هو قُرْبُه إلى مَن دعاه أو عَبَدَه، وهذا المُحتَضَرُ قد يكونُ كافِرًا أو فاجِرًا أو مُؤمِنًا أو مُقَرَّبًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾، ومَعلومٌ أنَّ مِثلَ هذا المُكَذِّبِ لا يَخُصُّه الرَّبُّ بقُرْبِه منه دونَ مَن حَوْلَه، وقد يكونُ حَوْلَه قومٌ مُؤمِنونَ، وإنَّما همُ الملائِكةُ الَّذين يَحضُرونَ عندَ المؤمِنِ والكافِرِ.

ومِمَّا يدُلُّ على ذلك أنَّه ذَكَرَه بصيغةِ الجَمعِ، فقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾، وهذا كقَولِه سُبحانَه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ * فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧ - ١٩]؛ فإنَّ مِثْلَ هذا اللَّفظِ إذا ذَكَرَه اللهُ تعالى في كتابِه دلَّ على أنَّ المرادَ أنَّه سُبحانَه يَفعَلُ ذلك بجُنودِه وأعوانِه مِن الملائِكةِ؛ فإنَّ صيغةَ «نحن» يقولُها المتبوعُ المُطاعُ العَظيمُ الَّذي له جُنودٌ يَتَّبِعون أمْرَه، وليس لأحدٍ جُندٌ يُطيعونَه كطاعةِ الملائِكةِ ربَّهم، وهو خالِقُهم وربُّهم؛ فكان لفظُ «نحن» هنا هو المناسِبَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٥/ ٥٠٥ - ٥٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣، ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣١)، ((تفسير =

﴿ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٨٧ ﴾.

أي: هلَّا تَرجِعونَ رُوحَ المُحتَضَرِ إلى جَسَدِه إنْ كُنتُم صادِقينَ في دَعوى إنكارِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ[1]؟

= ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٢).

قال الرازي: (في ﴿مَدِينِينَ﴾ أقوالٌ؛ منهم مَن قال: المرادُ مَملوكينَ، ومنهم مَن قال: مَجزيينَ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ١٧٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَدِينِينَ﴾: أي: مَجزيِّينَ مُحاسَبينَ: أبو عُبَيْدَةَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والقرطبيُّ، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٢).

ونسَبَ الواحديُّ والبغويُّ هذا القولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢).

وممَّن اختار أنَّ معنى مَدينينَ: مملوكينَ: الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، وابن عطية، والخازن. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٣).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: الثعلبيُّ، والواحدي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٢٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٣).

قال الزمخشري: (ترتيبُ الآيةِ: فلولا ترجِعونَها إذا بلَغَت الحلقومَ إنْ كنتُم غيرَ مدينينَ. و﴿فَلَوۡلَآ﴾ الثانيةُ مكرَّرةٌ للتوكيدِ، والضَّميرُ في ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾ للنَّفسِ وهي الرُّوحُ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٣، ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

قال ابن جرير: (جوابُ قولِه: ﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾، وجوابُ قولِه: ﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ﴾ جوابٌ واحدٌ، وهو قولُه: ﴿تَرۡجِعُونَهَآ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٥). ويُنظر: ((تفسير =

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ حالِ المُتوفَّى بعْدَ المماتِ، إثرَ بَيانِ حالِه عندَ الوفاةِ[١].

وأيضًا لَمَّا دَلَّ بما ذُكِرَ على أنَّهم مُحاسَبونَ ومَجْزِيُّونَ ومَملوكونَ؛ ذكَرَ طَبَقاتِهم[٢].

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ٨٨ ﴾.

أي: فأمَّا إنْ كان المَيِّتُ مِن المُقرَّبينَ عِندَ اللهِ سُبحانَه تعالى[٣].

﴿ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩ ﴾.

﴿ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿فَرُوحٌ﴾ بضَمِّ الرَّاءِ، أي: فله حياةٌ دائِمةٌ لا مَوتَ فيها. وقيل:

---

= القرطبي)) (١٧/ ٢٣١، ٢٣٢).

وقال ابنُ عاشور: (معنى الكلام: قد أخبرَكم اللهُ بأنَّه يُجازي النَّاسَ على أفعالِهم؛ ولذلك فهو مُحْييهم بعْدَ موتِهم لإجراءِ الجَزاءِ عليهم، وقد دلَّكم على ذلك بانتِزاعِ أرواحِهم منهم قَهرًا، فلو كان ما تَزعُمونَ مِن أنَّكم غيرُ مَجْزِيِّينَ بعْدَ الموتِ، لَبَقِيَت الأرواحُ في أجسادِها؛ إذ لا فائِدةَ في انتِزاعِها منها بعْدَ إيداعِها فيها لولا حِكمةُ نَقْلِها إلى حياةٍ ثانيةٍ؛ لِيَجريَ جَزاؤُها على أفعالِها في الحياةِ الأُولى!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨).

قال ابنُ كثير: (هم الَّذين فَعَلوا الواجِباتِ والمُستَحَبَّاتِ، وتَرَكوا المحَرَّماتِ والمكروهاتِ وبَعضَ المُباحاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٣).

المعنى: تخرُجُ رُوحُه معها الرَّيحانُ. وقيل: فله رَحمةٌ[١].

٢- قِراءةُ: ﴿فَرَوْحٌ﴾ بفَتحِ الرَّاءِ، أي: فله بعْدَ مَوتِه راحةٌ. وقيل: رَحمةٌ ومَغفِرةٌ. وقيل: فَرَحٌ. وقيل: بَردٌ. وقيلَ: فَرَحٌ. وقيل: طِيبُ النَّسيمِ[٢].

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾.

أي: فله راحةٌ وسُرورٌ ورَحمةٌ، ورِزقٌ طَيِّبٌ وطِيبُ رائِحةٍ[٣].

---

(١) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٧، ٣٤٨).

قال ابنُ جرير بعدَ أن ذكر الأقوالَ في الرَّوحِ، وأنَّ مِنهم مَن قال: هي الرَّاحةُ، ومنهم مَن قال: الفرَحُ، ومنهم مَن قال: الرَّحمةُ- قال: (وأَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ عندي: قَولُ مَن قال: عُنِيَ بالرَّوحِ: الفَرَحُ والرَّحمةُ والمَغفِرةُ، وأصْلُه مِن قَولِهم: وجَدْتُ رَوحًا: إذا وَجَد نَسيمًا رَوْحًا يَستريحُ إليه مِن كَرْبِ الحَرِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩). ويُنظر: ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٢٤٠).

وقال النَّحَّاسُ: (أمَّا ﴿وَرَيْحَانٌ﴾ ففي معناه ثلاثةُ أقوالٍ؛ منها أنَّه الرِّزقُ، ومنها أنَّه الرَّاحةُ، ومنها أنَّه الرَّيحانُ الَّذي يُشَمُّ). ((إعراب القرآن)) (٤/ ٢٣٠).

ممَّن اختار أنَّ الرَّيحانَ المرادُ به الرِّزقُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، ومكِّي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٢٢٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٢٩٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٢٣).

قال ابنُ جرير: (أمَّا الرَّيحانُ فإنَّه عِندي الرَّيحانُ الَّذي يُتلَقَّى به عندَ الموتِ، كما قال أبو =

عن أبي قَتادةَ بنِ رِبْعِيٍّ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلم مُرَّ عليه بجِنازةٍ، فقال: مُستريحٌ ومُستراحٌ منه! قالوا: يا رَسولَ اللهِ، ما المُستريحُ والمُستراحُ منه؟ قال: العَبدُ المُؤمِنُ يَستريحُ مِن نَصَبِ الدُّنيا وأذاها إلى رَحمةِ اللهِ، والعَبدُ الفاجِرُ يَستريحُ منه العِبادُ والبِلادُ، والشَّجَرُ والدَّوابُّ!))[1].

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبْدَ المؤمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهمُ الشَّمْسُ، معَهم كَفَنٌ مِن أكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٍ[2] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوْتِ علَيه السَّلامُ، حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأْسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مَغْفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ. فتَخْرُجُ تَسِيلُ كَما تَسِيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقَاءِ،

---

= العاليةِ والحَسَنُ ومَن قال في ذلك نحوَ قَولِهما؛ لأنَّ ذلك الأغلَبُ والأظهَرُ مِن معانيه)). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ -أي أنَّ الرَّيحانَ الرِّزقُ، وأيضًا النَّبتُ طيِّبُ الرَّائحةِ-: البِقاعي، فقال: (﴿وَرَيْحَانٌ﴾ أي: رِزقٌ عظيمٌ، ونباتٌ حسَنٌ بهِجٌ، وأزاهيرُ طيِّبةُ الرَّائحةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٤٥).

وذكر ابنُ عثيمينَ أنَّ القولَ بأنَّ المرادَ بالرَّيحانِ كلُّ ما يسُرُّ النَّفْسَ، وما فيه راحتُها ولَذَّتُها مِن مأكولٍ، ومَشروبٍ، ومَلبوسٍ، ومنكوحٍ، ومَشمومٍ- هو أشمَلُ الأقوالِ، فتُحمَلُ الآيةُ عليه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٣).

وقال ابنُ كثيرٍ -بعدَ أن ذكَر بعضَ الأقوالِ في الرَّوحِ والرَّيحانِ-: (وكلُّ هذه الأقوالِ مُتقاربةٌ صحيحةٌ؛ فإنَّ مَن مات مُقرَّبًا حصَل له جميعُ ذلك مِن الرَّحمةِ والرَّاحةِ والاستِراحةِ، والفرَحِ والسُّرورِ والرِّزقِ الحسَنِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٤٩).

(١) رواه البخاريُّ (٦٥١٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩٥٠).

(٢) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَأخُذوها، فيَجْعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ، وفي ذلك الحَنُوطِ، ويَخْرُجُ مِنها كأَطْيَبِ نَفْحةٍ[١] مِسْكٍ وُجِدَت على وَجْهِ الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ المَلائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحْسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَسْتَفتِحون له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنْتَهى به إلى السَّماءِ السَّابِعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ[٢]، وأعيدُوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي مِنها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومِنْها أُخْرِجُهم تارَةً أُخْرى. فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، فيَأْتيه مَلَكانِ، فيُجْلِسانِه، فيَقولانِ له: مَن رَبُّك؟ فيَقولُ: رَبِّيَ اللهُ، فيَقولانِ له: ما دِينُك؟ فيَقولُ: دِينيَ الإسلامُ، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِث فيكُم؟ فيَقولُ: هو رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَقولانِ له: وما عِلْمُك؟ فيَقولُ: قرَأتُ كِتابَ اللهِ، فآمَنْتُ به وصَدَّقتُ، فيُنادي مُنادٍ في السَّماءِ: أنْ صَدَق عَبْدي، فأفْرِشوه مِنَ الجنَّةِ، وألبِسُوه مِن الجَنَّةِ، وافْتَحوا له بابًا إلى الجنَّةِ. فيَأْتِيه مِنْ رَوْحِها[٣] وطِيبِها، ويُفْسَحُ[٤] له في قَبْرِه مَدَّ بَصَرِه. ويَأْتيه رجُلٌ حسَنُ الوَجهِ، حَسنُ الثِّيابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أبْشِرْ بالَّذي يَسُرُّك؛ هذا يَومُك الَّذي كنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ له: مَن أنتَ؛ فوَجْهُك الوَجهُ يَجيءُ بالخَيرِ؟ فيَقولُ: أنا عمَلُكَ الصَّالحُ، فيَقولُ: رَبِّ أقِمِ السَّاعةَ حتَّى أرجِعَ إلى أهْلي ومالي))[٥].

---

(١) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٢) عِلِّيِّينَ: هو دِيوانُ المُقَرَّبينَ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٦).

(٣) مِن رَوْحِها (بفتحِ الرَّاءِ): أي: مِن نَسيمِها. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).

(٤) يُفسَحُ: أي: يُوسَّعُ له. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٧).

(٥) أخرجه ابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمد (١٨٥٣٤)، والطيالسي (٧٨٩)، والحاكم في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقارِبةٍ. =

﴿وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾.

أي: وله جَنَّةٌ يَتنَعَّمُ فيها[١].

عن كَعبِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّما نَسَمةُ المُؤمِنِ طائِرٌ يَعْلُقُ[٢] في شَجَرِ الجَنَّةِ حتَّى يَرجِعَه اللهُ تبارك وتعالى إلى جَسَدِه يومَ يَبعَثُه))[٣].

وعن عائِشةَ رضيَ اللهُ عنها، قالت: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن أحَبَّ لِقاءَ اللهِ أحَبَّ اللهُ لِقاءَه، ومَن كَرِهَ لِقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَه. فقُلتُ: يا نبيَّ اللهِ، أكراهيةَ المَوتِ؟ فكُلُّنا نَكرَهُ الموتَ! فقال: ليس كذلك، ولكِنَّ المؤمِنَ إذا بُشِّرَ برَحمةِ اللهِ ورِضوانِه وجَنَّتِه، أحَبَّ لِقاءَ اللهِ، فأحَبَّ اللهُ لِقاءَه، وإنَّ الكافِرَ إذا بُشِّرَ

---

= صَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحَسَّنه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠). وصَحَّح إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابن مَنْدَه في ((الإيمان)) (٣٩٨): (إسنادُه مُتَّصِلٌ مَشهورٌ ثابتٌ على رَسمِ الجماعةِ).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

قال السمعاني: (قال أهلُ التَّفسيرِ: الرَّوحُ والرَّيحانُ في القَبرِ، وجَنَّةُ نَعيمٍ يومَ القيامةِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٢).

وقال ابن القيِّم: (فيُعطَون هذه الثَّلاثَ في البَرزَخِ وفي المَعادِ الثَّاني). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٤١).

(٢) يَعلُقُ -بضَمِّ اللَّامِ- أي: يتناوَلُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٢١٦).

(٣) أخرجه النَّسائي (٢٠٧٣)، وابن ماجه (٤٢٧١)، وأحمد (١٥٧٧٨) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٤٦٥٧)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٢/ ٦١٤)، وابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٤/ ١٢٥)، وابنُ القيم في ((الروح)) (١/ ٣٨١)، وابنُ حجر في ((توالي التأسيس)) (١/ ٢٠٣)، وابن باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (١٠/ ٩٧)، والألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢٧١).

بعَذابِ اللهِ وسَخَطِه، كَرِهَ لِقاءَ اللهِ، وكَرِهَ اللهُ لِقاءَه))[١].

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩٠﴾.

أي: وأمَّا إنْ كان المَيِّتُ مِن أصحابِ اليَمينِ[٢].

﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ٩١﴾.

أي: فيُقالُ له: سَلامٌ لك لأنَّك مِن أصحابِ اليمينِ[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥٠).

قال السعدي: (﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ وهم الَّذين أدَّوُا الواجِباتِ، وتَرَكوا المحَرَّماتِ، وإنْ حَصَل منهم التَّقصيرُ في بَعضِ الحُقوقِ الَّتي لا تُخِلُّ بتوحيدِهم وإيمانِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٤).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ جرير، وابن القيم، وابن كثير، وابن عثيمين. يُنظر المصادر السابقة.

قال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: معناه: فسَلامٌ لك أنَّك مِن أصحابِ اليمينِ، ثمَّ حُذِفَتْ «أن»، واجتُزِئَ بدَلالةِ «مِن» عليها منها، بمعنى: فسَلِمْتَ مِن عذابِ الله، وممَّا تَكْرَهُ؛ لأنَّك مِن أصحابِ اليمينِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨١).

وقال السمعاني: (وقولُه تعالَى: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: لأنَّك مِن أصحابِ اليمينِ. وهذا قولُ كثيرٍ مِن المُفسِّرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٣).

وقال ابن كثير: (أي: تُبشِّرُهم الملائكةُ بذلك، تقولُ لأحدِهم: سلامٌ لك، أي: لا بأسَ عليك، أنت إلى سلامةٍ، أنت مِن أصحابِ اليمينِ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥٠).

وقال ابن القيِّم: (﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ﴾ أي: ثبَت لك السَّلامُ، وحصَل لك، وعلى هذا فالخِطابُ لكلِّ مَن هو مِن هذا الضَّربِ، فهو خِطابٌ للجِنسِ، أي: فسلامٌ لك يا مَن هو مِن أصحابِ اليمينِ، =

= كما تقولُ: هنيئًا لك يا مَن هو منهم؛ ولهذا -واللهُ أعلَمُ- أتى بحرفِ «مِن» في قولِه: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، والجارُّ والمجرورُ في موضعِ حالٍ، أي سلامٌ لك كائنًا مِن أصحابِ اليمينِ، كما تقولُ: هنيئًا لك مِن أتْباعِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وحِزبِه، أي: كائنًا منهم، والجارُّ والمجرورُ بعدَ المعرفةِ ينتصِبُ على الحالِ، كما تقولُ: أحبَبْتُك مِن أهلِ الدِّينِ والعِلمِ، أي: كائنًا منهم، فهذا معنَى هذه الآيةِ. ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٤٧).

وقال أيضًا: (أكثَرُ المفسِّرينَ حامُوا حوْلَ المعنى وما ورَدوه، وقالوا أقوالًا لا يَخفى بُعْدُها عن المقصودِ، وإنَّما معنى الآيةِ واللهُ أعلَمُ: فسلامٌ لك أيُّها الرَّاحلُ عن الدُّنيا حالَ كَوْنِك مِن أصحابِ اليمينِ، أي: فسلامُه لك كائنًا مِن أصحابِ اليمينِ الَّذين سَلِموا مِن الدُّنيا وأنكادِها، ومِن النَّارِ وعذابِها، فبُشِّرَ بالسَّلامةِ عندَ ارتحالِه مِن الدُّنيا وقُدومِه على الله، كما يُبشِّرُ المَلَكُ رُوحَه عندَ أخْذِها بقولِه: «أبْشِري برَوحٍ ورَيْحانٍ، ورَبٍّ غيرِ غَضْبانَ»، وهذا أوَّلُ البُشْرى الَّتي للمؤمنِ في الآخرةِ). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٩٦).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَسَلَٰمٌ﴾ أي: سلامةٌ ﴿لَّكَ﴾ أي: أيُّها المُحتضَرُ ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: أنت مِن أصحابِ اليمينِ، والمعنى: فسلامٌ لك حالَ كَونِك مِن أصحابِ اليمينِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٤).

وقال الفَرَّاءُ: (قولُه: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: فذلك مُسلَّمٌ لك أنَّك مِن أصحابِ اليمينِ، وأُلغِيَتْ «أنَّ» وهو معناها، كما تقولُ: أنت مُصَدَّقٌ مُسافرٌ عن قليلٍ، إذا كان قد قال: إنِّي مسافرٌ عن قليلٍ...). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٣١). وذكره البخاريُّ بلَفظِه. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٤٦).

قال ابن حجر: (ويؤيِّدُ ما قال الفَرَّاءُ ما أخرَج ابنُ المُنذِرِ مِن طريقِ عَطاءٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: تأتيه الملائكةُ مِن قِبَلِ الله: سلامٌ لك مِن أصحابِ اليمينِ، تُخبِرُه أنَّه مِن أصحابِ اليمينِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٢٧).

وقيل: المعنى: فسَلامٌ لك يا صاحبَ اليمينِ مِن إخوانِك أصحابِ اليمينِ يُسلِّمون عليك. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والسمين الحلبي، والشربيني، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٠)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٢٣٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٢).

قال السعدي: («فـ»يُقالُ لأحَدِهم: «سَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» أي: سلامٌ حاصلٌ لك مِن =

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الصِّنفَينِ النَّاجِيَينِ؛ أَتْبَعَهما الهالِكِينَ، فقال[1]:

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ٩٢﴾.

---

= إخوانِك أصحابِ اليمينِ، أي: يُسَلِّمون عليه ويُحَيُّونه عندَ وُصولِه إليهم ولقائِهم له. أو يُقالُ له: سلامٌ لك مِن الآفاتِ والبَلِيَّاتِ والعذابِ؛ لأنَّك مِن أصحابِ اليمينِ، الَّذين سَلِموا مِن الذُّنوبِ الموبِقاتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

وقيل: المعنى: سلامةٌ لك يا محمَّدُ منهم، فلَسْتَ تَرَى فيهم إلَّا ما تُحِبُّ مِن السَّلامةِ، فلا تَهْتَمَّ بهم، فإنَّهم يَسْلَمونَ مِن عذابِ اللهِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والثَّعلبيُّ، والبَغَوي، والرَّسْعَني، والقُرطبي، والخازن، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٥).

قال ابن جُزَي: (﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ معنى هذا على الجملةِ: نجاةُ أصحابِ اليمينِ وسعادتُهم، والسَّلامُ هنا يحتمِلُ أن يكونَ بمعنى السَّلامةِ أو التَّحيَّةِ، والخِطابُ في ذلك يحتمِلُ أن يكونَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ أو لأحدٍ مِن أصحابِ اليمينِ؛ فإنْ كان للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ فالسَّلامُ بمعنى السَّلامةِ، والمعنى: سلامٌ لك يا محمَّدُ منهم، أي: لا ترى منهم إلَّا السَّلامةَ مِن العذابِ، وإن كان الخِطابُ لأحدٍ مِن أصحابِ اليمينِ فالسَّلامُ بمعنى التَّحيَّةِ، والمعنى: سلامٌ لك -أي: تحيَّةٌ لك- يا صاحبَ اليمينِ مِن إخوانِك، وهم أصحابُ اليمينِ، أي: يُسَلِّمون عليك، فهو كقولِه: ﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة: ٢٦]، أو يكونُ بمعنى السَّلامةِ، والتَّقديرُ: سلامةٌ لك يا صاحبَ اليمينِ، ثمَّ يكونُ قولُه: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ خبَرَ ابتِداءٍ مُضمَرٍ تقديرُه: أنت مِن أصحابِ اليمينِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤١). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٣٨، ٤٣٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٧).

أي: وأمَّا إن كان المَيِّتُ مِنَ المُكَذِّبينَ بآياتِ اللهِ، الضَّالِّينَ عن سَبيلِه[١].

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: فله ضِيافةٌ مِن شَرابٍ قد بَلَغ الغايةَ في الحَرارةِ[٢]!

﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾﴾.

أي: وله نارٌ شَديدةُ التَّوَقُّدِ يُقاسِي حَرَّها[٣].

عن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((وإنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كان في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرَةِ، نَزَل إليه مِن السَّماءِ مَلائكةٌ سُودُ الوُجوهِ، مَعَهمُ المُسُوحُ[٤]، فيَجْلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ حتَّى يَجْلِسَ عِندَ رأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخْرُجي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

قال ابنُ عثيمين: (﴿مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالخَبَرِ ﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ في العَمَلِ، فلا تصديقَ ولا التِزامَ؛ فكُلُ كافِرٍ داخِلٌ في هذه الآيةِ حتَّى المُنافِقُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧١٠)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٠).

قال ابنُ عجيبة: (هذا يدُلُّ على أنَّ الكافِرَ بمُجَرَّدِ مَوتِه يَدخُلُ النَّارَ. وقيل: معنى ذلك: ما يَجِدُه في القَبرِ مِن سَمومِ النَّارِ ودُخَانِها. ويحتمِلُ: أنَّ الآيةَ لا تَختَصُّ بعالَمِ البَرزخِ، بل تَعُمُّ البَرْزخَ وما بَعْدَه). ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٣٠٥).

(٤) المُسوحُ: جمعُ المِسحِ: وهو اللِّباسُ الخَشِن. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٩).

إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ! فتَفَرَّقُ في جسَدِه، فيَنتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ[١] مِنَ الصُّوفِ المَبْلولِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لَم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَجْعَلوها في تِلك المُسوحِ، ويَخْرُجُ مِنها كأنْتَنِ رِيحِ جِيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فلا يَمُرُّون بها على مَلأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأقبَحِ أسمائِه الَّتي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتَّى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له، فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرَأ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفْلى، فتُطْرَحُ رُوحُه طَرحًا. ثمَّ قرَأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. فتُعادُ رُوحُه في جَسَدِه، ويَأْتيه مَلَكانِ، فيُجْلِسانِه، فيَقُولانِ له: مَن ربُّك؟ فيَقولُ: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيَقولانِ له: ما هذا الرَّجُلُ الَّذي بُعِثَ فيكم؟ فيقول: هاهْ هاهْ! لا أَدْري، فيُنادي مُنادٍ مِن السَّماءِ: أنْ كَذَب، فأفْرِشوا له مِنَ النَّارِ، وافْتَحوا له بابًا إلى النَّارِ، فيَأتيه مِنْ حَرِّها، وسَمُومِها، ويُضيَّقُ عليه قَبرُه حتَّى تَختَلِفَ فيه أَضلاعُه، ويَأتيه رجُلٌ قَبيحُ الوَجْهِ، قبيحُ الثِّيابِ، مُنتِنُ الرِّيحِ، فيَقولُ: أبْشِرْ بالَّذي يَسوؤُك! هذا يَومُك الَّذي كُنتَ تُوعَدُ، فيَقولُ: مَن أنتَ؛ فوَجْهُك الوَجهُ يَجيءُ بالشَّرِّ، فيَقولُ: أنا عمَلُك الخَبيثُ، فيَقولُ: رَبِّ لا تُقِمِ السَّاعةَ))[٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

---

(١) السَّفُّودُ: الحديدةُ الَّتي يُشوى عليها اللَّحمُ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٨).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٥٣٢).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا انقَضى الإخبارُ بتَقسيمِ أحوالِهم وما آلَ إليه كُلُّ قِسمٍ منهم؛ أكَّدَ ذلك بقَولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: إنَّ هذا الخبَرَ المذكورَ في هذه السُّورةِ ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾[1].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: إنَّ هذا المذكورَ عن المُقرَّبينَ وأصحابِ اليَمينِ وعن المُكَذِّبينَ الضَّالِّينَ، وما يَصيرونَ إليه: لَهُو خَبَرٌ أكيدٌ لا شَكَّ فيه، وأمرٌ ثابِتٌ لا بُدَّ مِن وُقوعِه[2].

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تحَقَّق للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم هذا اليَقينُ؛ سَبَّبَ عنه أمْرَه بالتَّنزيهِ له سُبحانَه عمَّا وَصَفوه به مِمَّا يَلزَمُ منه وَصْفُه بالعَجزِ[3]!

وأيضًا لَمَّا بَيَّن سُبحانَه الحَقَّ وامتَنَع الكُفَّارُ؛ قال لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هذا هو حَقٌّ؛ فإن امتَنَعوا فلا تترُكْهم ولا تُعرِضْ عنهم، وسَبِّحْ رَبَّك في نَفْسِك، وما عليك مِن قَومِك، سواءٌ صَدَّقوك أو كَذَّبوك[4].

وأيضًا لَمَّا تقدَّمَ ذِكرُ الأقسامِ الثَّلاثةِ مُسهَبًا الكَلامُ فيهم؛ أمَرَه تعالَى بتَنزيهِه عمَّا لا يَليقُ به مِن الصِّفاتِ، ولَمَّا أعاد التَّقسيمَ مُوجِزًا الكلامَ فيه؛ أمَرَه أيضًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٢)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٠).

بتَنزيهِه وتَسبيحِه[١].

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

فنَزِّهْ ربَّك المُتَّصِفَ بكَمالِ العَظَمةِ -يا مُحمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائِلًا: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ عِبارةٌ تَقتضي الأمرَ بالإعراضِ عن أقوالِ الكفَّارِ وسائرِ أمورِ الدُّنيا المُختصَّةِ بها، وبالإقبالِ على أمورِ الآخرةِ وعِبادةِ الله تعالى والدُّعاءِ إليه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى الحُلْقومَ دونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٥).

قال ابن تيميَّة: (قولُه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] و ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ أمرٌ بتسبيحِ ربِّه، ليس أمرًا بصيغةٍ مُعَيَّنة، فإذا قال: «سُبْحانَ اللهِ وبحَمْدِه» «سُبْحانَك اللَّهمَّ وبحَمدِك» فقد سبَّحَ ربَّه الأعلى والعظيمَ؛ فإنَّ اللهَ هو الأعلى وهو العظيمُ، واسمُه «اللهُ» يَتناوُلُ معانيَ سائرِ الأسماءِ بطريقِ التَّضمُّنِ، وإن كان التَّصريحُ بالعُلوِّ والعَظَمةِ ليس هو فيه). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١١٧).

وقال أيضًا: (المراد المقصود مِن الاسم هو المُسمَّى، لا أنَّ نفْسَ اللَّفظِ هو المُسمَّى؛ فإنَّ هذا لا يقولُه عاقلٌ، وتنزيهُ الاسم وتسبيحُه تنزيهٌ للمُسمَّى وتسبيحٌ له، كما قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) (٣/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٥).

المَرِيءِ؛ لأنَّ الحُلْقومَ مجرى النَّفَسِ -على قولٍ-، وبانقِطاعِه يَموتُ الإنسانُ، فإذا بلَغَتِ الرُّوحُ الحُلْقومَ وهي صاعِدةٌ مِن أسفَلِ البَدَنِ إلى هذا المَوضِعِ، حينَئذٍ تَنقَطِعُ العلائِقُ مِن الدُّنيا، ويَعرِفُ الإنسانُ أنه أقبَلَ على الآخرةِ، وانتهى مِن الدُّنيا(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الرُّوحَ تَخرُجُ مِن أسفَلِ البَدَنِ، تَصْعَدُ حتَّى تَصِلَ إلى أعلى البَدَنِ، ثمَّ تُقبَضُ مِن هناك، فأوَّلُ ما يموتُ مِن الإنسانِ أسفَلُه(٢).

٣- قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ توقيفٌ على مَوضِعِ عَجزٍ يَقتَضي النَّظَرُ فيه أنَّ اللهَ تعالى مالكُ كُلِّ شَيءٍ(٣)!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ لم يَقُلْ: «تُبصِرونَ»؛ لئَلَّا يُظَنَّ أنَّ لهم إدراكًا بالبَصَرِ لِشَيءٍ مِن البَواطِنِ مِن حَقيقةِ الرُّوحِ وغَيرِها(٤).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ ما أحْسَنَ إعادةَ «لولا» ثانيًا قبْلَ ذِكْرِ الفعلِ الَّذي يَقتضيه الأوَّلُ؛ وجَعْلَ الحَرْفَينِ يَقتَضِيانِه اقتِضاءً واحدًا، وذِكْرَ الشَّرطِ بيْنَ «لولا» الثَّانيةِ وما تَقتَضيه مِن الفعلِ، ثُمَّ الموالاة بيْنَ الشَّرطِ الأوَّلِ والثَّاني مع الفصلِ بيْنَهما بكلمةٍ واحدةٍ هي الرَّابطُ بيْنَ «لولا» الأُولى والثَّانيةِ؛ والشَّرطِ الأوَّلِ والثَّاني، وهذا تركيبٌ يَسجُدُ العقلُ والسَّمعُ لمعناه ولَفظِه. فتضمَّنَتِ الآيَتانِ تقريرًا وتوبيخًا واستِدلالًا على أصولِ الإيمانِ؛ مِن وُجودِ الخالقِ سُبحانَه، وكمالِ قدرتِه، ونُفوذِ مشيئتِه ورُبوبيَّتِه، وتَصَرُّفِه في أرواحِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٢).

عبادِه، حيثُ لا يَقْدِرون على التَّصرُّفِ فيها بشَيءٍ؛ وأنَّ أرواحَهم بيَدِه يَذْهَبُ بها إذا شاء، ويَرُدُّها إليهم إذا شاء، ويُخْلِي أبدانَهم منها تارةً، ويَجْمَعُ بيْنَها وبَيْنَها تارةً، وإثباتِ المعادِ، وصِدْقِ رسولِه فيما أخبَرَ به عنه، وإثباتِ ملائكتِه، وتقريرِ عبوديَّةِ الخَلْقِ. وأتَى بهذا في صورةِ تحضيضَينِ، وتوبيخَينِ، وتقريرَينِ، وجوابَينِ، وشرطَينِ، وجزاءَينِ، مُنتَظِمةً أحْسَنَ الانتِظامِ، ومُتداخِلةً أحْسَنَ التَّداخُلِ؛ مُتَعَلِّقًا بعضُها ببعضٍ، وهذا كلامٌ لا يَقدِرُ البشرُ على مِثلِ نَظْمِه ومعناه[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ ارتباطٌ بيْنَ هذين الأمْرَينِ، وهو مِن أحسَنِ الاستِدلالِ وأبْلَغِه؛ فإنَّهم إمَّا أنْ يُقِرُّوا بأنَّهم مَربوبونَ مَملوكونَ -على قولٍ في معنى مَدِينينَ-، عَبيدٌ لمالِكٍ قادِرٍ مُتصَرِّفٍ فيهم قاهرٍ، آمِرٍ ناهٍ، أو لا يُقِرُّون بذلك؛ فإنْ أقَرُّوا به لَزِمَهم القيامُ بحقِّه عليهم، وشُكْرُه وتَعظيمُه وإجلالُه، وألَّا يَجعَلوا له نِدًّا ولا شَريكًا، وهذا هو الَّذي جاءهم به رَسولُه، ونَزَلَ عليه به كتابُه، وإنْ أنكروا ذلك وقالوا: إنَّهم ليسوا بعَبيدٍ ولا مملوكِينَ ولا مَربوبِينَ، وإنَّ الأمرَ إليهم؛ فهَلَّا يَرُدُّون الأرواحَ إلى مَقَارِّها إذا بَلَغتِ الحُلْقومَ! فإنَّ المتصرِّفَ في نفْسِه الحاكِمَ على رُوحِه لا يَمتَنِعُ منه ذلك! بخِلافِ المحكومِ عليه، المتصرِّفِ فيه غيرُه، المُدَبِّرِ له سِواهُ، الَّذي هو عَبدٌ مملوكٌ مِن جَميعِ الجِهاتِ، وهذا الاستِدلالُ لا مَحيدَ عنه، ولا مَدْفَعَ له، ومَن أعطاه حقَّه مِن التَّقريرِ والبَيانِ انتَفَعَ به غايةَ النَّفعِ، وانقادَ مِن أجْلِه للعُبوديَّةِ وأذعَنَ، ولم يَسَعْه غَيرُ التَّسليمِ للرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ، والإقرارِ بالعُبوديَّةِ[2].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى آخِرِ الآياتِ: استُدِلَّ به على

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٣٦).

أنَّ الرُّوحَ بعدَ مُفارَقةِ البَدَنِ مُنَعَّمةٌ أو مُعَذَّبةٌ، وعلى أنَّ مَقَرَّ أرواحِ المُؤمِنينَ في الجنَّةِ، ومَقَرَّ أرواحِ الكُفَّارِ في النَّارِ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ جَعَل سُبحانَه تحيَّةَ المُقَرَّبينَ عندَ الوَفاةِ الرَّوحَ والرَّيحانَ والجَنَّةَ، وهذه الكَراماتُ الثَّلاثُ الَّتي يُعطَونَها بعدَ الموتِ نَظيرُ الثَّلاثِ الَّتي يُعطَونَها يومَ القيامةِ؛ فالرَّوحُ: الفَرَحُ والسُّرورُ، والابتِهاجُ ولَذَّةُ الرُّوحِ، فهي كَلِمةٌ جامِعةٌ لنَعيمِ الرُّوحِ ولَذَّتِها، وذلك قُوتُها وغِذاؤُها. والرَّيحانُ: الرِّزْقُ -على قولٍ-، وهو الأكلُ والشُّربُ. والجَنَّةُ: المَسْكَنُ الجامِعُ لذلك كلِّه؛ فيُعطَونَ هذه الثَّلاثَ في البَرزَخِ، وفي المَعادِ الثَّاني(٢).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أنَّهم لَمَّا كانوا دونَ المُقَرَّبينَ في المَرتَبةِ، جَعَل تحيَّتَهم عندَ القُدومِ عليه السَّلامةَ مِنَ الآفاتِ والشُّرورِ الَّتي

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٤).

قال ابن القيِّم -بعدَ أن ذكر الأقوالَ في مُسْتقَرِّ الأرواحِ ما بيْنَ الموتِ إلى القيامةِ-، مُبينًا الرَّاجحَ: (الأرواح مُتَفاوِتةٌ في مُستقَرِّها في البَرزَخِ أعظَمَ تَفاوُتٍ؛ فمنها أرواحٌ في أعلَى عِلِّيِّينَ في الملأِ الأعلى، وهي أرواحُ الأنبياءِ صلَواتُ الله وسَلامُه عليهم، وهم مُتفاوِتون فِي مَنازِلِهم كما رآهم النَّبيُّ لَيلةَ الإسراءِ.

ومنها أرواحٌ في حَواصِلِ طَيرٍ خُضْرٍ تَسرَحُ في الجنَّةِ حيثُ شاءَت، وهي أرواحُ بعضِ الشُّهَداءِ لا جميعِهم، بل مِن الشُّهَداءِ مَن تُحبَسُ رُوحُه عن دُخولِ الجنَّةِ لِدَيْنٍ عليه أو غَيرِه... ومنهم مَن يكونُ مَحْبوسًا على بابِ الجنَّةِ... ومنهم مَن يكونُ محبوسًا في قبرِه... ومنهم مَن يكونُ مَقَرُّه ببابِ الجنَّةِ... ومنهم مَن يكونُ محبوسًا في الأرضِ... ومنها أرواحٌ تكونُ في تَنُّورِ الزُّناةِ والزَّواني، وأرواحٌ في نهرِ الدَّمِ تَسبَحُ فيه وتُلْقَمُ الحِجارةَ؛ فليس للأرواحِ سعيدِها وشقيِّها مُستقَرٌّ واحدٌ، بل رُوحٌ في أعلَى عِلِّيِّينَ، ورُوحٌ أرضيَّةٌ سُفليَّةٌ لا تَصعَدُ عن الأرضِ). ((الروح)) (ص: ١١٥، ١١٦).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٠).

تَحصُلُ للمُكذِّبينَ الضَّالِّينَ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٠- الوَجهُ في «اللَّامِ» في قَولِه تعالى: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ دونَ «على»: أنَّ هذا ليس سلامَ تحيَّةٍ، ولو كان تحيَّةً لَقال: «فسَلامٌ عليه»، كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٩]، ولكنَّ الآيةَ تضَمَّنتْ ذِكْرَ مراتبِ النَّاسِ وأقسامِهم عندَ القيامةِ الصُّغرى حالَ القُدومِ على اللهِ تعالى؛ فذَكَر أنَّهم ثلاثةُ أقسامٍ: مُقَرَّبٌ له الرَّوحُ والرَّيحانُ وجَنَّةُ النَّعيمِ، ومُقتَصِدٌ مِن أصحابِ اليَمينِ له السَّلامةُ -فوَعَدَه بالسَّلامةِ، ووَعَدَ المُقَرَّبَ بالغَنيمة والفَوزِ، وإنْ كان كلٌّ منهما سالِمًا غانِمًا-؛ وظالِمٌ بتَكذيبِه وضَلالِه، فأوعَدَه بنُزُلٍ مِن حَميمٍ، وتَصليةِ جَحيمٍ، فلمَّا لم يكنِ المَقامُ مَقامَ تحيَّةٍ، وإنَّما هو مقامُ إخبارٍ عن حالِه، ذَكَر ما يَحصُلُ له مِنَ السَّلامةِ[٢].

١١- ذَكَر اللهُ تعالى أحوالَ الطَّوائِفِ الثَّلاثِ -المقرَّبينَ، وأصحابِ اليَمينِ، والمكَذِّبينَ الضَّالِّينَ- في أوَّلِ السُّورةِ في دارِ القَرارِ، ثمَّ ذَكَر أحوالَهم في آخرِها عندَ الاحتِضارِ والموتِ[٣].

١٢- المراتبُ ثلاثٌ؛ علمُ يقينٍ يحصلُ عن الخبرِ، ثمَّ تتجلَّى حقيقةُ المخبَرِ عنه للقلبِ أو البصرِ، حتَّى يصيرَ العِلمُ به عينَ يقينٍ، ثمَّ يباشرُه ويلابِسُه فيصيرُ حقَّ يقينٍ، فعِلمُنا بالجنَّةِ والنَّارِ الآنَ عِلمُ يقينٍ، فإذا أُزلِفَت الجنَّةُ للمتَّقينَ في الموقفِ، وبُرِّزت الجحيمُ للغاوينَ، وشاهدوهما عيانًا، كان ذلك عينَ يقينٍ، كما قال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦ - ٧]،

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٦).

فإذا دخَل أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ، وأهلُ النَّارِ النَّارَ، فذلك حقُّ اليقينِ، وقد مُثِّلت المراتبُ الثلاثةُ بمَن أخبَرك أنَّ عندَه عسلًا، وأنتَ لا تشكُّ في صِدقِه، ثمَّ أراك إيَّاه فازْدَدْتَ يقينًا، ثمَّ ذُقتَ منه. فالأوَّلُ: عِلمُ اليقينِ. والثَّاني: عينُ اليقينِ. والثَّالثُ: حقُّ اليقينِ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ مُقْتضَى فاءِ التَّفريعِ أنَّ الكلامَ الواقعَ بعْدَها ناشئٌ عمَّا قبْلَه على حسَبِ تَرتيبِه، وإذ قد كان الكلامُ السَّابقُ إقامةَ أدلَّةٍ على أنَّ اللهَ قادرٌ على إعادةِ الحياةِ للنَّاسِ بعْدَ الموتِ، وأعقَبَ ذلك بأنَّ تلك الأدلَّةَ أيَّدَت ما جاء في القرآنِ مِن إثباتِ البعثِ، وأنْحَى عليهم أنَّهم وَضَحَت لهم الحُجَّةُ، ولكنَّهم مُكابِرونَ فيها، ومُظهِرونَ الجُحودَ وهم مُوقِنون بها في الباطنِ، وكلُّ ذلك راجعٌ إلى الاستدلالِ بقُوَّةِ قُدرةِ اللهِ على إيجادِ مَوجوداتٍ لا تَصِلُ إليها مَداركُ الناسِ -انتقَلَ الكلامُ إلى الاستدلالِ على إثباتِ البَعثِ بدَليلٍ لا مَحيصَ لهم عن الاعترافِ بدَلالتِه؛ فالتَّفريعُ على جُملةِ ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]، وهو أنَّ عجْزَهم عن إرجاعِ الرُّوحِ عندَ مُفارقتِها الجسَدَ، يُنبِّهُهم على أنَّ تلك المُفارَقةَ مُقدَّرةٌ في نِظامِ الخِلْقةِ، وأنَّها لحِكمةٍ[2].

- قولُه: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ تَبكيتٌ مَبْنيٌّ على تَكذيبِهم بالقُرآنِ فيما نطَقَ به قولُه: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [الواقعة: ٥٧] إلى هُنا، مِن القوارعِ الدَّالَّةِ على كَونِهم تحتَ مَلكوتِه تعالى مِن حيثُ ذَواتُهم، ومِن حيث طَعامُهم

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) (١/ ٤٦٩، ٤٧٠)، (٢/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٢).

وشَرابُهم، وسائرُ أسبابِ مَعايشِهم[١].

- و(لولا) حرْفُ تَحضيضٍ مُستعمَلٌ هنا في التَّعجيزِ؛ لأنَّ المحضوضَ إذا لم يَفعَلْ ما حُضَّ على فِعلِه، فقدْ أظهَرَ عجْزَه، والفعلُ المحضوضُ عليه هو ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، أي: تُحاوِلون رُجوعَها[٢].

- قولُه: ﴿إِذَا بَلَغَتِ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ مُقدَّمٌ عليه؛ لتَهويلِه، والتَّشويقِ إلى الفعلِ المَحضوضِ عليه[٣].

- والضَّميرُ المُستتِرُ في ﴿بَلَغَتِ﴾ عائدٌ على مَفهومٍ مِن العِباراتِ؛ لظُهورِ أنَّ الَّتي تَبلُغُ الحُلقومَ هي الرُّوحُ، حُذِفَ إيجازًا[٤].

- جُملةُ ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿بَلَغَتِ﴾، ومَفعولُ ﴿تَنظُرُونَ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: تَنظُرون صاحبَها، أي: صاحبَ الرُّوحِ؛ بقَرينةِ قولِه بعْدَه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾

- جُملةُ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن مَفعولِ ﴿تُبْصِرُونَ﴾ المَحذوفِ، أو مُعترِضةٌ والواوُ اعتراضيَّةٌ. وأيًّا ما كانتْ فهي احتراسٌ لبَيانِ أنَّ ثَمَّةَ حُضورًا أقرَبَ مِن حُضورِهم عندَ المُحتضَرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ وجُملةِ ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾[1] [الواقعة: ٨٦].

- ومَفعولُ ﴿تُبْصِرُونَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

- كَلمةُ (فلولا) الثَّانيةُ تأْكيدٌ لَفظيٌّ لنَظيرِها السَّابقِ، أُعِيدَ لتُبْنى عليه جُملةُ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾؛ لطُولِ الفَصلِ[3].

- وجُملةُ ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ مُعترِضةٌ، أو حالٌ مِن الواوِ في ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾، وجَوابُ شَرطِ (إنْ) مَحذوفٌ دلَّ عليه فِعلُ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾[4].

- قيل: أُسنِدَ فِعلُ ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ إلى المُخاطَبينَ بضَميرِ المُخاطَبينَ، دونَ أنْ يَقولَ: إنْ كان النَّاسُ غيرَ مَدينينَ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ همُ الَّذين مِن أجْلِ إنكارِهم البعثَ سِيقَ هذا الكلامُ، والمعْنى: لو كُنتُم أنتُم وكان النَّاسُ غيرَ مَدينينَ، لَما أُخرِجَت الأرواحُ مِن الأجسادِ؛ إذْ لا فائدةَ تَحصُلُ مِن تَفريقِ ذَينِكَ الإلْفَينِ لولا غرَضٌ سام، وهو وضْعُ كلِّ رُوحٍ فيما يَلِيقُ بها مِن عالَمِ الخُلودِ جَزاءً على الأعمالِ؛ ولذلك أُوثِرَ لَفظُ ﴿غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: غيرَ مَبعوثِينَ، أو غيرَ مُعادِينَ، وإنْ كان لا يَلزَمُ مِن نفْيِ الإدانةِ نفْيُ البَعثِ؛ فإنَّه يجوزُ أنْ يكونَ بعثٌ بلا جَزاءٍ، لكنْ ذلك لا يُدَّعَى؛ لأنَّه عبَثٌ؛ فقولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤).

﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الغرَضَ مِن سَوقِ هذا الدَّليلِ إبطالُ إنكارِهم البعثَ الَّذي هو لحِكمةِ الجزاءِ. ومِن مُستتبَعاتِ هذا الكلامِ أنْ يُفيدَ الإيماءَ إلى حِكمةِ الموتِ بالنِّسبةِ للإنسانِ؛ لأنَّه لتَخليصِ الأرواحِ مِن هذه الحياةِ الزَّائلةِ المَملوءةِ باطلًا إلى الحياةِ الأبَديَّةِ الحقِّ الَّتي تَجْري فيها أحوالُ الأرواحِ على ما يُناسِبُ سُلوكَها في الحياةِ الدُّنيا، كما أشار إليه قولُه تَعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فيَقْتضي أنَّه لولا أنَّكم مَدِينونَ لَما انتَزَعْنا الأرواحَ مِن أجسادِها بعْدَ أنْ جَعَلْناها فيها، ولَأبْقَيْناها؛ لأنَّ الرُّوحَ الإنسانيَّ ليس كالرُّوحِ الحَيوانيِّ، فتَكونُ الآيةُ مُشتمِلةً على دَليلَينِ: أحدُهما بحاقِّ التَّركيبِ، والآخَرُ بمُستَتبعاتِه الَّتي أَومَأَ إليها قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، والغرَضُ الأوَّلُ هو الَّذي ذُيِّلَ بقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

- وقولُه: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ سَدَّ مَسدَّ الأجوبةِ والبَياناتِ الَّتي يَقْتضيها التَّحْضيضاتُ، و(إذا) مِن قولِه: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ﴾، و(إنْ) المُتكرِّرةُ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وحمَل بعضُ القولِ بَعضًا، إيجازًا واقتضابًا[2].

- وجُملةُ ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾، وعلى أن معْنى ﴿مَدِينِينَ﴾ أي: مُجازَيْنَ على أعْمالِكم يكونُ وَجْهُ إعادةِ هذا الشَّرطِ مع أنَّه ممَّا استُفيدَ بقولِه: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ هو الإيماءَ إلى فرْضِ الشَّرطِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ بالنِّسبةِ لِما في نفْسِ الأمْرِ، وأنَّ الشَّرطَ في قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٥، ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٣، ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٤).

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هو فرْضُ وتَقديرُ -لا وُقوعَ له- نفْيِ البعثِ، وعلى أن معْنى ﴿مَدِينِينَ﴾ أي: مَرْبوبينَ يَرجِعُ قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إلى ما أفادَه التَّحضيضُ، ومَوقعُ فاءِ التَّفريعِ مِن إرادةِ أنَّ قبْضَ الأرواحِ لتَأخيرِها إلى يومِ الجزاءِ، أي: إنْ كُنتم صادِقينَ في نفْيِ البَعثِ والجزاءِ[1].

- قولُه: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيه إشكالٌ في جَعْلِ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ مِن جُملةِ جَوابِ شَرطِ (إنْ)؛ إذ لا يَلزَمُ مِن عدَمِ قُدرتِهم على صَدِّ الأرواحِ عن الخروجِ أنْ يكونَ خُروجُها لإجراءِ الحسابِ. ودفْعُ هذا الإشكالِ: وُجوبُ تأْويلِ ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ بمعْنى: تُحاوِلون إرجاعَها، أي: عدَمُ مُحاولتِكم إرجاعَها منذُ العصورِ الأُولى دليلٌ على تَسليمِكم بعدَمِ إمكانِ إرجاعِها، وما ذلك إلَّا لوجوبِ خُروجِها مِن حياةِ الأعمالِ إلى حَياةِ الجزاءِ، وأصلُ تَركيبِ هذه الجُملةِ: فإذا كُنتم صادقينَ في أنَّكم غيرُ مَدينِين، فلولا حاوَلْتُم عندَ كلِّ مُحتضَرٍ إذا بلَغَت الرُّوحُ الحُلْقومَ أنْ تَرجِعوها إلى مَواقعِها مِن أجزاءِ جَسَدِه، فما صَرَفَكم عن مُحاولةِ ذلك إلَّا العلمُ الضَّروريُّ بأنَّ الرُّوحَ ذاهبةٌ لا مَحالةَ. فإذا علِمْتَ هذا اتَّضَحَ لك انتظامُ الآيةِ الَّتي نُظِمَت نظْمًا بَديعًا مِن الإيجازِ، وأُدمِجَ في دَليلِها ما هو تَكملةٌ للإعجازِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾، لَمَّا اقْتَضى الكلامُ بحَذافِرِه أنَّ الإنسانَ صاحبَ الرُّوحِ صائرٌ إلى الجزاءِ، فُرِّعَ عليه إجمالُ أحوالِ الجزاءِ في مَراتبِ النَّاسِ، إجمالًا لِما سبَقَ تَفصيلُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٣).

بقولِه: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ إلى قولِه: ﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة: ٧- ٤٤]؛ لِيَكونَ هذا فَذْلَكةً[١] للسُّورةِ، ورَدًّا لعَجُزِها على صَدْرِها؛ فضَميرُ ﴿إِن كَانَ﴾ عائدٌ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿إِلَيْهِ﴾ مِن قولِه: ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ ﴾[٢] [الواقعة: ٨٥].

- وجَوابُ (إنْ) مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ جَوابِ (أمَّا) المذكورِ عليه، وحذْفُ جَوابِ (إنْ) شائعٌ كثيرًا[٣].

- وقد ذُكِرَ لكلِّ صِنفٍ جَزاءٌ لم يُذكَرْ له فيما تَقدَّمَ؛ ليُضَمَّ إلى ما أُعِدَّ له فيما تقدَّمَ على طَريقةِ القرآنِ في توزيعِ القصَّةِ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ فيه تَخصيصُ الرَّيحانِ بالذِّكرِ قبْلَ ذِكرِ الجنَّةِ الَّتي تَحْتوي عليه؛ للإيماءِ إلى كَرامتِهم عِندَ اللهِ سُبحانَه[٥].

- ولَمَّا كانت جِنانُ الدُّنيا قد يكونُ فيها نَكَدٌ، أضاف هذه الجَنَّةَ إلى المرادِ بهذه الجِنانِ؛ إعلامًا بأنَّها لا تَنفَكُّ عنه، فقال: ﴿نَعِيمٍ﴾، أي: ليس فيها غيرُه، بل هي مقصورةٌ عليه[٦].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ الكلامُ إجمالٌ للتَّنويهِ بهم، وعُلوِّ مَرتبتِهم، وخَلاصِهم مِن المُكدِّراتِ؛ لتَذهَبَ نفْسُ السَّامعِ كلَّ مَذهبٍ[٧].

---

(١) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٤٨).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٤٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٨).

- قولُه: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ الخطابُ لكلِّ مَن هو مِن هذا الضَّرْبِ، فهو خطابٌ للجنسِ، أي: فسلامٌ لك يا مَن هو مِن أصحابِ اليمينِ، ولهذا أَتى بحرف «مِن» في قَولِه: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، والجارُّ والمجرورُ في موضعِ حالٍ؛ أي: سلامٌ لك كائنًا مِن أصحابِ اليمينِ(١).

وقيل: كافُ الخِطابِ في قولِه: ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ مُوجَّهةٌ لغيرِ مُعيَّنٍ، أي: لكلِّ مَن يَسمَعُ هذا الخبرَ، والمعْنى: أنَّ السَّلامةَ الحاصِلةَ لأصحابِ اليَمينِ تَسُرُّ مَن يَبلُغُه أمْرُها، وهذا كما يُقالُ: ناهيكَ به، وحسْبُك به. و(مِن) ابتدائيَّةٌ، واللَّفظُ جَرى مَجرَى المثَلِ؛ فطُوِيَ منه بَعضُه، وأصْلُه: فلهمُ السَّلامةُ؛ سَلامةٌ تَسُرُّ مَن بلَغَه حَديثُها.

وقيل: الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُسَرُّ بما يَنالُه أهلُ الإسلامِ مِن الكرامةِ عندَ اللهِ، وهم ممَّن شَمِلَهم لفظُ ﴿أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

وقيل: الكلامُ على تَقديرِ القَولِ، أي: فيُقالُ له: سلامٌ لك، أي: تقولُ له الملائكةُ، و﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ خَبرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: أنت مِن أصحابِ اليمينِ، و(مِن) على هذا تَبعيضيَّةٌ؛ فهي بِشارةٌ للمُخاطَبِ عندَ البعثِ.

وقيل: الكافُ خِطابٌ لِمَن كان مِن أصحابِ اليمينِ على طَريقةِ الالتِفاتِ، ومُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقال: فسلامٌ له؛ فعُدِلَ إلى الخِطابِ لاستِحضارِ تلك الحالةِ الشَّريفةِ، أي: فيُسلِّمُ عليه أصحابُ اليمينِ، على نحْوِ قولِه تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]، أي: يُبادِرونَه بالسَّلامِ، وهذا كِنايةٌ عن كَونِه مِن أهلِ مَنزلتِهم، و(مِن) على هذا ابتدائيَّةٌ. فهذه مَحامِلُ لهذه الآيةِ يُستخلَصُ مِن

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤٦).

مَجموعِها معْنى الرِّفعةِ والكَرامةِ[١].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾

- فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾؛ فقدَّمَ هنا (الْمُكَذِّبِينَ) على (الضَّالِّينَ)، وقال في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾؛ فقدَّمَ (الضَّالُّونَ) على (الْمُكَذِّبُونَ)؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّهم في أوَّلِ السُّورةِ أصَرُّوا على الحِنْثِ العظيمِ، فضَلُّوا عن السَّبيلِ، ثمَّ كذَّبوا الرَّسولَ، وقالوا: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا﴾؛ فقُدِّمَ وصْفُ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ على وصْفِ ﴿ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾؛ مُراعاةً لتَرتيبِ الحُصولِ؛ لأنَّهم ضلُّوا عن الحقِّ فكذَّبوا بالبَعثِ؛ ليَحذَروا مِن الضَّلالِ، ويَتدبَّروا في دَلائلِ البعثِ، وذلك مُقْتضى خِطابِهم بهذا الإنذارِ بالعذابِ المُتوقَّعِ.

وأمَّا هنا في آخِرِ السُّورةِ فقدَّمَ «المكذِّبينَ» بالحَشرِ على «الضَّالِّينَ» عن طَريقِ الخَلاصِ.

أو يُقالُ: إنَّ الكلامَ في الأوَّلِ معَ الكُفَّارِ، وهم ضلُّوا أوَّلًا، وكذَّبوا ثانيًا، وفي آخِرِ السُّورةِ الكَلامُ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فقدَّمَ التَّكذيبَ به إظهارًا للعِنايةِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

وقيل: قُدِّمَ هنا وَصْفُ التَّكذيبِ على وصْفِ الضَّلالِ، عكْسَ ما تَقدَّمَ في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٥١]؛ لِمُراعاةِ سَببِ ما نالَهم مِن العذابِ، وهو التَّكذيبُ؛ لأنَّ الكَلامَ هنا على عَذابٍ قد حانَ حِينُه، وفات وقْتُ الحَذَرِ منه؛ فبُيِّنَ سبَبُ عَذابِهم، وذُكِّروا بالَّذي أوْقَعَهم في سَببِه؛ ليَحصُلَ لهم ألَمُ التَّندُّمِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٨، ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن =

٨- قولُه تعالَى: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ النُّزُلُ: هو ما يُقدَّمُ للضَّيفِ مِن القِرَى، وإطلاقُه هنا تَهكُّمٌ. والتَّصليةُ: مَصدرُ الفِعلِ (صلَّاهُ) المُشدَّدِ، إذا أحْرَقَه وشَواهُ، وهو هنا مِن الكَلامِ المُوجَّهِ (أي: يصلحُ لاحتِمالِ معنيَينِ)؛ لإيهامِه أنَّه يُصلَّى له الشِّواءُ في نُزُلِه على طَريقةِ التَّهكُّمِ، أي: يُحرَّقُ بها[1].

٩- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ تَذييلٌ لجَميعِ ما اشتَمَلَت عليه السُّورةُ مِن المعاني المُثبَتةِ، والإشارةُ إلى ذلك بتأويلِ المذكورِ مِن تَحقيقِ حقٍّ، وإبطالِ باطلٍ[2].

- وأيضًا قدِ اشتَمَلَ هذا التَّذييلُ على أربعةِ مُؤكِّداتٍ؛ وهي: (إنَّ)، ولامُ الابتداءِ، وضَميرُ الفصْلِ، وإضافةُ شِبهِ المُترادِفَينِ[3].

- وإضافةُ ﴿حَقُّ﴾ إلى ﴿ٱلْيَقِينِ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: لَهو اليقينُ الحقُّ؛ وذلك أنَّ الشَّيءَ إذا كان كاملًا في نَوعِه، وُصِفَ بأنَّه حقُّ ذلك الجنسِ، ومآلُ هذا الوصفِ إلى تَوكيدِ اليقينِ؛ فهو بمَنزلةِ ذِكرِ مُرادفِ الشَّيءِ، وإضافةُ المُترادفَينِ تُفيدُ معْنى التَّوكيدِ والمُبالَغةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الإضافةُ بَيانيَّةً على معْنى (مِن)، وحَقيقتُه على معْنى اللَّامِ، بتَقديرِ: لهو حقُّ الأمْرِ اليقينِ. وقيل: هو مِن إضافةِ الموصوفِ إلى صِفَتِه؛ جُعِلَ الحقُّ مُباينًا لليقينِ، أي: الثَّابتُ المُتيقَّنُ[4].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾

---

= عاشور)) (٢٧/ ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٠).

- هو تَفريعٌ على تَحقيقِ أنَّ ما ذُكِرَ هو اليقينُ حقًّا؛ فإنَّ ما ذُكِرَ يَشتمِلُ على عَظيمِ صِفاتِ اللهِ، وبَديعِ صُنْعِه وحِكمتِه وعدْلِه، ويُبشِّرُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأُمَّتَه بمَراتبَ مِن الشَّرفِ والسَّلامةِ على مَقاديرِ دَرجاتِهم، وبنِعمةِ النَّجاةِ ممَّا يَصيرُ إليه المُشركون مِن سُوءِ العاقبةِ؛ فلا جَرَمَ كان حَقيقًا بأنْ يُؤمَرَ بتَسبيحِ اللهِ تَسبيحًا استَحقَّه لعَظَمتِه، والتَّسبيحُ ثَناءٌ؛ فهو يَتضمَّنُ حمْدًا لنِعمتِه، وما هَدَى إليه مِن طُرقِ الخَيرِ[1].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ السَّادِسُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ السَّابِعُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الحَديدِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥١).

# الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# الفهرس


سُورةُ القَمَرِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٧

فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: .... ٧

بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٧

مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٨

مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٨

الآيات (١-٨) ..... ٩

غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٩

مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ١٠

المعنى الإجماليُّ: ..... ١١

تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ٢٤

بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٧

الآيات (٩-١٧) ..... ٣٨

غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٨

المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٩

تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٠

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٥٠

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ٥١

بلاغةُ الآياتِ: ..... ٥٦

الآيات (١٨-٢٢) ..... ٦٨

غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٦٨

المعنى الإجماليُّ: ..... ٦٩

تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٦٩

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٧٣

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ٧٣

بلاغةُ الآياتِ: ..... ٧٥

الآيات (٢٣-٣٢) ..... ٨٣

غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٨٣

المعنى الإجماليُّ: ..... ٨٥

تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٨٦

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٩٣

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ٩٤

بلاغةُ الآياتِ: ..... ٩٨

الآيات (٣٣-٤٠) ..... ١٠٨

غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٠٨

المعنى الإجماليُّ: ..... ١٠٩

تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١١٠

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١١٥

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١١٦

بلاغةُ الآياتِ: ..... ١١٧
الآيات (٤١-٤٦) ..... ١٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٢٣
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٢٤
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٣٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٣٣
الآيات (٤٧-٥٥) ..... ١٤١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٤١
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ١٤٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٤٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٤٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٥٣
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٥٧
سورةُ الرَّحْمنِ
أسماءُ السُّورةِ: ..... ١٦٩
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ١٦٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ١٦٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ١٧٠
الآيات (١-٩) ..... ١٧١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٧١
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ١٧٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٧٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٧٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٨٣
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٨٩
الآيات (١٠-١٣) ..... ٢٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٠٣
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٠٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٠٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢١١
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢١٤
الآيات (١٤-١٨) ..... ٢٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٢٠
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٢١
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٢١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢٢٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٢٦
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٢٨
الآيات (١٩-٢٥) ..... ٢٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٣٣

المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٣٤
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٤٢
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٤٥
الآيات (٢٦-٣٠) ..... ٢٤٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٤٩
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٤٩
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٥٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٦٠
الآيات (٣١-٣٦) ..... ٢٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٦٥
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٦٦
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٧٧
الآيات (٣٧-٤٥) ..... ٢٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٨٣
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٩٢
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٩٤
الآيات (٤٦-٦١) ..... ٢٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٩٨
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٩٩
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣١٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣١٨
الآيات (٦٢-٧٨) ..... ٣٢٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٢٦
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٢٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٢٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٤٤

**سورةُ الواقِعةِ**

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٣٥٥
بيانُ المكِّيِّ والمدَنيِّ: ..... ٣٥٥
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٣٥٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٣٥٥
الآيات (١-٩) ..... ٣٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٥٧

المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٥٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٥٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٦٤
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٦٦
الآيات (١٠-٢٦) ..... ٣٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٧٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٣٧٥
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٧٧
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٧٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٩٢
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٩٦
الآيات (٢٧-٤٠) ..... ٤٠٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٠٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٠٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤١٨
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٢٠
الآيات (٤١-٥٦) ..... ٤٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٢٤
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٢٥
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٤٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٣٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٣٨
الآيات (٥٧-٦٢) ..... ٤٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٤٦
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٤٦
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٤٥٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٥٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٥٦
الآيات (٦٣-٧٤) ..... ٤٦٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٦٥
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٦٦
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٤٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٧٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٨٢
الآيات (٧٥-٨٢) ..... ٤٩٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٩٦
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٩٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٥٠٨

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥١٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٥١٧
الآيات (٨٣-٩٦) ..... ٥٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٥٢٣
المعنى الإجماليُّ: ..... ٥٢٤
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٥٢٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٥٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٥٤٥
الفهرس ..... ٥٥٥

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة الحديد وسورة المجادلة و سورة الحشر)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف


**المجلد السابع والثلاثون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(سورة الحديد وسورة المجادلة وسورة الحشر)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد السابع والثلاثون - سورة الحديد وسورة المجادلة وسورة الحشر/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٧٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-٠٢-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧ ١٤٤٣/٨٠٥٥

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٨٠٥٥

ردمك: ٣-٠٢-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م**

**(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الحَديدِ

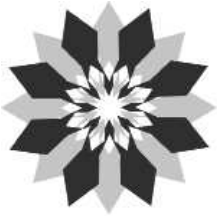

# سورةُ الحَديدِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحديدِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الحديدِ مَدَنيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ عن بعضِ المفسِّرينَ الإجماعُ على ذلك[٣].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الحديدِ؛ لِقَولِه تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٣).

قال ابنُ عاشور: (وهذا اللَّفظُ وإنْ ذُكِر فِي سورةِ الكَهفِ [٩٦] في قَولِه تعالى: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ وهي سابقةٌ في النُّزولِ على سورةِ الحديدِ على المختارِ، فلم تُسَمَّ به؛ لأنَّها سُمِّيَت باسمِ الكَهفِ؛ للاعتناءِ بقصَّةِ أهلِ الكَهفِ، ولأنَّ الحديدَ الَّذي ذُكِرَ هنا مرادٌ به حديدُ السِّلاحِ؛ مِن سُيوفٍ ودُروعٍ وخُوَذٍ، تنويهًا به؛ إذ هو أثَرٌ من آثارِ حِكمةِ الله في خَلْقِ مادَّتِه، وإلهامِ النَّاسِ صُنْعَه لتحصُلَ به منافِعُ لتأييدِ الدِّينِ، ودِفاعِ المعتدِينَ، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٣).

(٢) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤١).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: النَّحَّاسُ -كما حكاه عنه ابنُ عطيَّةَ-، والقرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٥)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٨٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٥٧).

ونسَب ابنُ الفَرَسِ وابنُ عاشور هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٥٣).

واستظهر ابن عاشور أنَّ صدرَ هذه السُّورةِ مكِّيٌّ، وأنَّ ذلك يَنتهي إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٩]، وأنَّ ما بعدَ ذلك بعضُه نزَل بالمدينةِ كما تقتضيه معانيه، مِثلُ حكايةِ أقوالِ المنافِقين، وبعضُه نزَل بمكَّةَ، مِثلُ آيةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحديد: ١٦] الآيةَ.

قال: (ويُشبِهُ أن يكونَ آخرُ السُّورةِ [إلى] قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] نزَل بالمدينةِ، أُلْحِق بهذه السُّورةِ بتوقيفٍ مِن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في خِلالِها أو في آخِرِها. =

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

١- الحَديثُ عن مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وعن صِفاتِه الجليلةِ[١].

٢- دعوةُ المؤمِنينَ إلى التَّمَسُّكِ بتعاليمِ دينِهم[٢].

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- افتتاحُ السُّورةِ ببَيانِ تَسبيحِ جميعِ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ للهِ، والثَّناءُ عليه سُبحانَه بذِكرِ بَعضِ أسمائِه الحُسْنى وصِفاتِه.

٢- ذِكرُ بَعضِ مظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وسَعةِ مُلْكِه، وشُمولِ عِلْمِه.

٣- حَضُّ المؤمنينَ على الثَّباتِ على إيمانِهم، وعلى الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ.

٤- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ المؤمِنينَ والمؤمناتِ يومَ القيامةِ، وسُوءِ عاقِبةِ المنافِقينَ، وما يجري بيْن الفريقَينِ مِن محاوراتٍ.

٥- حثُّ المؤمنينَ على الخُشوعِ لله وخَشْيتِه، وتحذيرُ المسلِمينَ مِن الوُقوعِ في أسبابِ قَساوةِ القُلوبِ الَّتي وَقَع فيها أهلُ الكِتابِ.

٦- ذِكرُ ثوابِ المتصَدِّقينَ الَّذين أقرَضوا اللهَ قَرضًا حَسَنًا.

---

= قلتُ: وفيها آيةُ: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ﴾ [الحديد: ١٠] الآيةَ، وسواءٌ كان المرادُ بالفتحِ في تلك الآيةِ فتْحَ مكَّةَ أو فتْحَ الحُدَيْبِيَةِ، فإنَّه أُطلِق عليه اسمُ الفتحِ، وبه سُمِّيَتْ «سورةُ الفتحِ»، فهي متعيِّنةٌ لأن تكونَ مدَنيَّةً، فلا يَنبغي الاختِلافُ في أنَّ مُعظَمَ السُّورةِ مدَنيٌّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- بيانُ مَصيرِ الحياةِ الدُّنيا، والدَّعوةُ إلى إيثارِ الآجِلةِ على العاجِلةِ، والباقيةِ على الفانيةِ.

٨- تقريرُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه.

٩- بيانُ وَحدةِ الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ، والتَّنويهُ بحِكمةِ إرسالِ الرُّسُلِ والكُتُبِ.

## الآيات (١-٦)

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾: أي: الغالِبُ، العالي بذاتِه على كُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه، فلا شَيءَ فَوقَه؛ مِنَ الظُّهورِ بمعنى القَهرِ والغَلَبَةِ وكَمالِ القُدرةِ، ومعنى الظُّهورِ يَقتَضي العُلُوَّ، ومنه: ظَهَر فلانٌ على فلانٍ: إذا علاه وغَلَبَه. وظاهِرُ الشَّيءِ: هو ما علا منه وأحاط بباطِنِه، وأصلُ (ظهر) يدلُّ على قوَّةٍ وبروزٍ[1].

﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾: أي: العالِمُ بما بَطَن، مِن قَولِهم: فُلانٌ يَبطُنُ أمرَ فُلانٍ، أي: يَعلَمُ داخِلةَ أمْرِه، وبُطونُه سُبحانَه: إحاطتُه بكُلِّ شَيءٍ، ويجوزُ أن يكونَ المعنى: المُحتَجِبُ عن الأبصارِ والعُقولِ، وأصلُ (بطن): يدُلُّ على خِلافِ الظَّهرِ[2].

﴿يَلِجُ﴾: أي: يَدخُلُ، ﴿يُولِجُ﴾: أي: يُدخِلُ، وأصلُ (ولج): يدُلُّ على دُخولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٤)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٨/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٩).

شَيءٍ[١].

﴿يَعۡرُجُ﴾: أي: يَصعَدُ ويَرقَى، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على ارتِقاءٍ[٢].

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بما تُكِنُّه الضَّمائِرُ، وقيل: حاجةِ الصُّدورِ، وقيل: بخَفِيَّاتِ القلوبِ، وقيل: بحقيقةِ ما في الصُّدورِ، وذاتُ الشَّيءِ: نَفْسُه وحَقيقتُه[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

ابتدأ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكَريمةَ بالإخبارِ بأنَّه نزَّهَه -تعالى- عن النَّقائِصِ والعُيوبِ كُلُّ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ، وأنَّه هو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، ولا يَمتَنِعُ عليه شَيءٌ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، وأنَّ له وَحْدَه سُلطانَ السَّمَواتِ والأرضِ، يُحيي ويُميتُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ ذكَر سبحانَه مِن صفاتِه أيضًا أنَّه هو وَحْدَه الموَجودُ أزَلًا قبْلَ كُلِّ شَيءٍ، بلا بدايةٍ، والباقي دائِمًا بعْدَ كُلِّ شَيءٍ بلا نِهايةٍ، وهو وَحْدَه العالي بذاتِه على كُلِّ شَيءٍ، والباطِنُ الَّذي لا شَيءَ دُونَه، وهو بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣، ٤٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٦٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٠،١٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٣٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٠، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٥).

ثمَّ ذكَر تعالى مِن الأدلَّةِ على وحدانيَّتِه وقدرتِه أنَّه هو الَّذي خلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ علا على العَرشِ عُلُوًّا يَليقُ بجَلالِه، يَعلَمُ سُبحانَه ما يَدخُلُ في الأرضِ وما يَخرُجُ مِنها، وما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ، وما يَصعَدُ إليها، واللهُ معكم أينما كُنتُم بعِلْمِه وإحاطتِه، وهو سُبحانَه بَصيرٌ بما تَعمَلونَ.

له وَحْدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، وإليه وَحْدَه تَرجِعُ الأُمورُ.

يُدخِلُ سُبحانَه ظُلْمةَ اللَّيلِ في ضَوءِ النَّهارِ، وضَوءَ النَّهارِ في ظُلمةِ اللَّيلِ، وهو وَحْدَه عليمٌ بضَمائِرِ القُلوبِ وأسرارِها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: نَزَّهَ اللهَ تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ كُلُّ مَن في السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٦)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٧، ٣٥٨).

قال ابن جُزَي: (هذا التَّسبيحُ المذكورُ هنا وفي أوائلِ سائرِ السُّوَرِ المُسَبِّحاتِ يحتمِلُ أن يكونَ حقيقةً، أو أن يكونَ بلِسانِ الحالِ؛ لأنَّ كلَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ دليلٌ على وُجودِ الله وقُدرتِه وحِكمتِه). ((تفسير ابن جزي)) (ص: ٢٣١٣).

وممَّن اختار أنَّه تسبيحٌ حقيقيٌّ: الزَّجَّاجُ، والسمعانيُّ، والرَّسْعَني، والقرطبي، وابنُ جُزَي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثير، واختاره العُلَيمي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٤)، ((تفسير الرسعني)) (٤/ ١٧٥) و(٧/ ٦٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٥، ٢٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (ص: ٢٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤١). =

كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجمعة: ١].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، ولا يَمتَنِعُ عليه شَيءٌ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[1].

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢﴾.

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

---

= قال ابن جرير: (يعني تعالى ذِكرُه بقولِه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أنَّ كلَّ ما دُونَه مِن خَلْقِه يُسَبِّحُه تعظيمًا له، وإقرارًا برُبوبيَّتِه، وإذعانًا لطاعتِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤).

قال الشوكاني: (والمرادُ بالتَّسبيحِ المُسنَدِ إلى ما في السَّمواتِ والأرضِ مِن العُقلاءِ وغيرِهم، والحيواناتِ والجماداتِ هو ما يَعُمُّ التَّسبيحَ بلِسانِ المَقالِ كتسبيحِ الملائكةِ والإنسِ والجنِّ، وبلِسانِ الحالِ كتسبيحِ غيرِهم؛ فإنَّ كلَّ موجودٍ يدُلُّ على الصَّانعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ١٩٨).

وقال ابن عثيمين: (كلُّ ما في السَّمواتِ والأرضِ يُسَبِّحُ الله... بلِسانِ الحالِ وبلِسانِ المقالِ، إلَّا الكافرَ؛ فإنَّه يُسبِّحُ اللهَ بلِسانِ الحالِ لا بلِسانِ المقالِ؛ لأنَّ الكافرَ يَصِفُ اللهَ بكلِّ نقصٍ، يقولُ: اتَّخَذ اللهُ ولدًا، ويقولُ: إنَّ معه إلهًا، ورُبَّما يُنكِرُ الخالقَ أصلًا، لكنْ حالُه وخلقتُه وتصرُّفُه تسبيحٌ لله عزَّ وجلَّ. والحشراتُ والحيَواناتُ تُسَبِّحُ اللهَ بلِسانِ المقالِ، والحصى يُسَبِّحُ اللهَ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٥٨). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧). ويُنظر أيضًا ما تقدَّم في تفسير سورة الإسراء الآية (٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤١، ٥٤٢).

أي: لله وَحْدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ؛ فلا شَريكَ له في خَلْقِهما، ولا في تَدبيرِهما والتَّصَرُّفِ فيهما[١].

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ بأنَّه له المُلْكُ؛ أخبَرَ عن ذاتِه بهذَينِ الوصفَينِ العَظيمَينِ اللَّذَينِ بهما تَمامُ التَّصرُّفِ في المُلكِ، وهو إيجادُ ما شاءَ، وإعدامُ ما شاءَ؛ ولذلك أُعقِبَ بالقُدرةِ الَّتي بها الإحياءُ والإماتةُ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر سُبحانَه مِن دَلائِلِ الآفاقِ مُلْكَ السَّمَواتِ والأرضِ؛ ذَكَر بعْدَه دَلائِلَ الأنفُسِ؛ فقال[٣]:

﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾.

أي: يُحيي ما يَشاءُ، ويُميتُ ما يَشاءُ مِن خَلْقِه[٤].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالى دَلائِلَ الآفاقِ أوَّلًا، ودَلائِلَ الأنفُسِ ثانيًا؛ ذَكَر لَفظًا يَتناوَلُ الكُلَّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٤، ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١).

فقال[١]:

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: وهو ذو قُدرةٍ بالِغةٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ، سُبحانَه[٢].

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَر بتمامِ القدرةِ، دلَّ على ذلك بقولِه[٣]:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾.

أي: هو وَحْدَه الموَجودُ أزَلًا قبْلَ كُلِّ شَيءٍ، بلا بِدايةٍ مُفتَتَحةٍ، والباقي دائِمًا بعْدَ كُلِّ شَيءٍ بلا نِهايةٍ مُنقَضِيةٍ[٤].

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾.

أي: وهو وَحْدَه العالي بذاتِه على كُلِّ شَيءٍ مِن خَلْقِه؛ فلا شَيءَ فَوقَه، وهو وَحْدَه الباطِنُ الَّذي لا شَيءَ دُونَه، قد أحاط بكُلِّ شَيءٍ، بحيثُ يكونُ أقرَبَ إليه مِن نَفْسِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٥)، ((التوحيد)) لابن منده (٢/ ٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٥)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦١، ٣٦٢). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُنا إذا أخَذْنا مَضجَعَنا أن نَقولَ: اللَّهمَّ رَبَّ السَّمَواتِ ورَبَّ الأرضِ ورَبَّ العَرشِ العَظيمِ، رَبَّنا ورَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فالِقَ الحَبِّ والنَّوى، ومُنزِلَ التَّوراةِ والإنجيلِ والفُرقانِ، أعوذُ بك مِن شَرِّ كُلِّ شَيءٍ أنت آخِذٌ بناصيتِه، اللَّهمَّ أنت الأوَّلُ فليس قَبْلَك شَيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بَعْدَك شَيءٌ، وأنت الظَّاهِرُ فليس فَوقَك شَيءٌ، وأنت الباطِنُ فليس دُونَك شَيءٌ، اقْضِ عنَّا الدَّينَ، وأغْنِنا مِن الفَقرِ))[1].

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مَن ظَهَر لِشَيءٍ بَطَن عن غَيرِه، ومَن بَطَن لشَيءٍ غاب عنه عِلمُه، وكان سُبحانَه في ظُهورِه على ذلك بمعنى أنَّه ليس فَوقَه شَيءٌ، وفي بُطونِه بحيثُ ليس دُونَه شَيءٌ؛ فقد جَمَعت الأوصافُ إحاطةَ العِلمِ والقُدرةِ- أعلَمَ نَتيجةَ ذلك، فقال[2]:

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: وهو ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بكُلِّ شَيءٍ، فلا يَخفَى عليه شَيءٌ[3].

---

= قال الزجاج: (الباطنُ؛ لأنَّه غيرُ مدركٍ بالحواسِّ كالأشياءِ المخلوقاتِ التي تُدرَكُ بالحواسِّ نحو اللمسِ، والحسِّ، والباطنُ خلافُ الظَّاهرِ، والباطنُ أيضًا في كلامِ العربِ: الخبيرُ العالمُ بما بطَن مِن أمورِ بعضِ مَن يصحبُه، ويداخِلُه). ((اشتقاق أسماء الله)) (ص: ٢٠٩).

وقال ابنُ منده: (ومعنَى الباطِنِ: المُحْتَجِبُ عن ذَوي الألبابِ كُنْهُ ذاتِه وكيفِيَّةُ صفاتِه عزَّ وجَلَّ). ((التوحيد)) (٢/ ٨٢).

(١) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٣).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

أي: هو وَحْدَه الَّذي أوجَدَ السَّمَواتِ والأرضَ في ستَّةِ أيَّامٍ[١].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾.

أي: ثمَّ علا على عَرشِه بعْدَ خَلقِ السَّمَواتِ والأرضِ عُلُوًّا يَليقُ بجَلالِه[٢].

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾.

أي: يَعلَمُ اللهُ ما يَدخُلُ في الأرضِ فيَغيبُ فيها مِن ماءٍ وبُذورٍ وحَيَواناتٍ، وأَمواتٍ وكُنوزٍ وغَيرِها، ويَعلَمُ ما يَخرُجُ مِن الأرضِ مِن نَباتٍ وحَيوانٍ، ومَعادِنَ وغَيرِها[٣].

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ تعالى ما يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ مِن الملائِكةِ، والأمطارِ والبَرَدِ والثُّلوجِ والصَّواعِقِ، والأرزاقِ والوَحيِ وغَيرِ ذلك، ويَعلَمُ ما يَصعَدُ في السَّماءِ مِنَ الملائِكةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٥، ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٦٧).

والأرواحِ والأعمالِ، والأبخِرةِ وغَيرِها[١].

قال سُبحانَه: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾ [المعارج: ٤].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام فينا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخَمسِ كَلِماتٍ، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ لا يَنامُ، ولا يَنبغي له أن يَنامَ، يَخفِضُ القِسطَ ويَرفَعُه، يُرفَعُ إليه عَمَلُ اللَّيلِ قبْلَ عَمَلِ النَّهارِ، وعَمَلُ النَّهارِ قبْلَ عَمَلِ اللَّيلِ...))[٢] الحديثَ.

﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾.

أي: واللهُ معَكم بعِلمِه وإحاطتِه، رَقِيبٌ عليكم، شَهيدٌ على أعمالِكم في أيِّ مَوضِعٍ كُنتُم فيه مِن بَرٍّ أو بحرٍ، في لَيلٍ أو نهارٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

(٢) رواه مسلم (١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٤٢) و(٥/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات-الحديد)) (ص: ٣٦٩).

قال ابن جُزَي: (يعني أنه حاضرٌ مع كلِّ أحدٍ بعِلمِه وإحاطتِه. وأجمَعَ العلماءُ على تأويلِ هذه الآيةِ بذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٣).

أي: ولا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها[١].

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان صانِعُ الشَّيءِ قد لا يَكونُ مَلِكًا، وكان المَلِكُ لا يَكمُلُ مُلكُه إلَّا بعِلمِ جَميعِ ما يكونُ في مَملكتِه، والقُدرةِ عليه، وكان إنكارُهم للبَعثِ إنكارًا لأن يكونَ مَلِكًا؛ أكَّدَ ذلك بتَكريرِ الإخبارِ به، فقال[٢]:

﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: لله وَحْدَه سُلطانُ السَّمَواتِ والأرضِ، فلا شَريكَ له في خَلْقِهما، ولا في تَدبيرِهما والتَّصَرُّفِ فيهما[٣].

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

أنَّ الله تعالى دَلَّ على دوامِ مُلكِه وإحاطتِه، عاطِفًا على ما تَقديرُه: «فمِنَ اللهِ المَبدَأُ»، مُعَبِّرًا بالاسمِ الأعظَمِ الجامِعِ؛ لئَلَّا يُظَنَّ الخُصوصُ بأمورِ ما تقَدَّمَ، فقال تعالى[٤]:

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦١).

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه لا إلى غَيرِه مَرجِعُ جَميعِ الأُمورِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

مُناسَبةُ ذِكرِه هذه الجُملةَ ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ أنَّ تَقديرَ اللَّيلِ والنَّهارِ وتَعاقُبَهما مِن التَّصرُّفاتِ الإلهيَّةِ المُشاهَدةِ في أحوالِ السَّمواتِ والأرضِ، ومُلابساتِ أحوالِ الإنسانِ؛ فهذه الجُملةُ بدَلُ اشتمالٍ مِن جُملةِ ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد: ٥]، وهو أيضًا مُناسِبٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]؛ تذكيرًا للمُشرِكين بأنَّ المُتصرِّفَ في سَببِ الفناءِ هو اللهُ تعالى؛ فإنَّهم يَعتقِدون أنَّ اللَّيلَ والنَّهارَ هما اللَّذانِ يُفنيانِ النَّاسَ، وحَكَى اللهُ عنهم قولَهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤]، فلمَّا قال: ﴿ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الحديد: ٥]، أبطَلَ بعْدَه اعتقادَ أهلِ الشِّركِ أنَّ للزَّمانِ -الَّذي هو تَعاقُبُ اللَّيلِ والنَّهارِ، والمُعبَّرُ عنه بالدَّهرِ- تَصرُّفًا فيهم[٢].

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ ﴾.

أي: يُدخِلُ اللهُ ظُلْمةَ اللَّيلِ في ضَوءِ النَّهارِ، فيَغيبُ فيه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

قال ابنُ عثيمين: (كُلُّ الأُمورِ -أي: الشُّؤونِ العامَّةِ والخاصَّةِ، الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ- كُلُّها تَرجِعُ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، يتصَرَّفُ كما شاء، يحكُمُ بما شاء، ولا مُعَقِّبَ لحُكمِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٦، ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠)، =

﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾.

أي: ويُدخِلُ اللهُ ضَوءَ النَّهارِ في ظُلمةِ اللَّيلِ، فيَغيبُ فيه[١].

﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر تصَرُّفَ اللهِ في اللَّيلِ -وكان اللَّيلُ وَقتَ إخفاءِ الأشياءِ- أعقَبَ ذِكرَه بأنَّ اللهَ عَليمٌ بأخفى الخفايا -وهي النِّيَّاتُ-؛ فإنَّها مع كَونِها معانيَ غائِبةً عن الحواسِّ كانت مَكنونةً في ظُلمةِ باطِنِ الإنسانِ؛ فلا يَطَّلِعُ عليها عالِمٌ إلَّا اللهُ تعالى[٢].

﴿وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: وهو وَحْدَه البالِغُ العِلمِ بضَمائِرِ عِبادِه وسَرائِرِهم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ مَعرِفةُ هذه الأسماءِ

---

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٢).

قال ابنُ عثيمين: (هذا الإيلاجُ لا يأتي دَفعةً واحِدةً، ولكِنَّه يأتي تدريجيًّا شَيئًا فشَيئًا). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٧)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٧).

الأربَعةِ -وهي: الأوَّلُ، والآخِرُ، والظَّاهِرُ، والباطِنُ- هي أركانُ العِلمِ والمَعرِفةِ؛ فحَقيقٌ بالعَبدِ أن يَبلُغَ في مَعرفتِها إلى حيثُ ينتهي به قُواه وفَهمُه، واعلَمْ أنَّ لك أنت أوَّلًا وآخِرًا، وظاهِرًا وباطِنًا، بل كلُّ شَيءٍ فله أوَّلٌ وآخِرٌ، وظاهِرٌ وباطِنٌ، حتَّى الخَطرةُ واللَّحظةُ والنَّفَسُ، وأدنى مِن ذلك وأكثَرُ؛ فأوَّلِيَّةُ اللهِ عزَّ وجَلَّ سابِقةٌ على أوَّليَّةِ كُلِّ ما سِواه، وآخِريَّتُه ثابِتةٌ بعْدَ آخِريَّةِ كُلِّ ما سِواه؛ فأوَّلِيَّتُه سَبْقُه لكُلِّ شَيءٍ، وآخِريَّتُه بقاؤُه بعدَ كُلِّ شَيءٍ، وظاهِريَّتُه -سُبحانَه- فَوقيَّتُه وعُلُوُّه على كُلِّ شَيءٍ، ومعنى الظُّهورِ يَقتَضي العُلُوَّ، وظاهِرُ الشَّيءِ: هو ما علا منه وأحاط بباطِنِه. وبُطونُه سُبحانَه: إحاطتُه بكُلِّ شَيءٍ، بحيثُ يكونُ أقرَبَ إليه مِن نَفسِه، وهذا قُربٌ غَيرُ قُربِ المحِبِّ مِن حَبيبِه؛ هذا لَونٌ، وهذا لَونٌ؛ فمَدارُ هذه الأسماءِ الأربَعةِ على الإحاطةِ، وهي إحاطتانِ: زمانيَّةٌ ومَكانيَّةٌ؛ فأحاطت أوَّلِيَّتُه وآخِريَّتُه بالقَبلِ والبَعدِ، فكُلُّ سابِقٍ انتهى إلى أوَّلِيَّتِه، وكُلُّ آخِرٍ انتهى إلى آخِريَّتِه، فأحاطت أوَّلِيَّتُه وآخِريَّتُه بالأوائِلِ والأواخِرِ، وأحاطت ظاهِريَّتُه وباطِنيَّتُه بكُلِّ ظاهِرٍ وباطِنٍ؛ فما مِن ظاهِرٍ إلَّا واللهُ فَوقَه، وما مِن باطِنٍ إلَّا واللهُ دُونَه، وما مِن أوَّلٍ إلَّا واللهُ قَبْلَه، وما مِن آخِرٍ إلَّا واللهُ بَعْدَه؛ فالأوَّلُ قِدَمُه، والآخِرُ دوامُه وبَقاؤُه، والظَّاهِرُ عُلُوُّه وعَظَمتُه، والباطِنُ قُربُه ودُنُوُّه، فسَبَقَ كُلَّ شَيءٍ بأوَّلِيَّتِه، وبَقِيَ بعدَ كُلِّ شَيءٍ بآخِريَّتِه، وعلا على كُلِّ شَيءٍ بظُهورِه، ودنا مِن كُلِّ شَيءٍ ببُطونِه، فلا تُواري منه سَماءٌ سَماءً، ولا أرضٌ أرضًا، ولا يَحجُبُ عنه ظاهِرٌ باطِنًا، بل الباطِنُ له ظاهِرٌ، والغَيبُ عِندَه شَهادةٌ، والبَعيدُ منه قَريبٌ، والسِّرُّ عِندَه عَلانيَةٌ؛ فهذه الأسماءُ الأربَعةُ تَشتَمِلُ على أركانِ التَّوحيدِ؛ فهو الأوَّلُ في آخِريَّتِه، والآخِرُ في أوَّلِيَّتِه، والظَّاهِرُ في بُطونِه، والباطِنُ في ظُهورِه، لم يَزَلْ أوَّلًا وآخِرًا، وظاهِرًا

وباطِنًا -سُبحانَه وبِحَمدِه[١]!

٢- يُستفادُ مِن قولِه تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كمالُ مُراقَبةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وخَشيتِه؛ بحيث لا يَفْقِدُه حيثُ أمَرَه، ولا يَراه حيثُ نَهاه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ تحذيرُ المرءِ مِن المُخالَفةِ، فإذا سَوَّلَت لك نفْسُك مَعصيةً للهِ عزَّ وجلَّ فاعرِضْ عليها مِثْلَ هذه الآيةِ وأشباهَ ذلك مِن الأشياءِ الَّتي يَجِبُ على المرءِ إذا هَمَّ بسَيِّئةٍ أنْ يَستعرِضَها؛ حتَّى تَمنَعَه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رَدٌّ على «أهلِ الوَحْدةِ» الَّذين يَحتجُّون بنُصوصِ «المَعِيَّةِ» و«القُرْبِ» على أنَّ الوُجودَ واحِدٌ، ويَتأوَّلونَ نُصوصَ العُلُوِّ والاستِواءِ، وكلُّ نَصٍّ يَحتجُّون به حُجَّةٌ عليهم؛ فإنَّ «المَعِيَّةَ» أكثرُها خاصَّةٌ بأنبيائِه وأوليائِه، وعِندَهم أنَّه -تعالى وتَقَدَّس- في كلِّ مَكانٍ، وفي نُصوصِهم ما يُبَيِّنُ نَقيضَ قَولِهم؛ ففي قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أنَّ كلَّ مَن في السَّمَواتِ والأرضِ يُسَبِّحُ، والمُسَبِّحُ غيرُ المُسَبَّحِ[٤]!

٢- قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ افتتاحُ هذِه السُّورةِ بذِكرِ تَسبيحِ اللهِ وتَنزيهِه مُؤْذِنٌ بأنَّ أهمَّ ما اشتَمَلَت عليه إثباتُ وصْفِ اللهِ بالصِّفاتِ الجليلةِ المُقتضيةِ أنَّه مُنزَّهٌ عمَّا ضلَّ في شأْنِه أهلُ الضَّلالِ مِن وصْفِه بما لا يَليقُ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٤).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٢٣).

بجَلالِه، وأوَّلُ التَّنزيهِ هو نفْيُ الشَّريكِ له في الإلهيَّةِ؛ فإنَّ الوَحدانيَّةَ هي أكبرُ صِفةٍ ضلَّ في كُنْهِها المُشرِكون والمانويَّةُ[1] ونحْوُهم مِن أهلِ التَّثنيةِ، وأصحابِ التَّثليثِ والبَراهمةِ[2]، وهي الصِّفةُ الَّتي يُنبِئُ عنها اسمُه العَلَمُ (الله)؛ لأنَّ أصْلَه الإلهُ، أي: المُنفرِدُ بالإلهيَّةِ، وأُتبِعَ هذا الاسمُ بصِفاتٍ رَبَّانيَّةٍ تدُلُّ على كَمالِ اللهِ تعالى وتَنزُّهِه عن النَّقصِ، فكانتْ هذه الفاتحةُ بَراعةَ استِهلالٍ لهذه السُّورةِ؛ ولذلك أُتبِعَ اسْمُه العَلَمُ بعَشْرِ صِفاتٍ هي جامِعةٌ لصِفاتِ الكمالِ؛ وهي: ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾، ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾، ﴿وَٱلْءَاخِرُ﴾، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾، ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أنَّ جَميعَ ما في السَّمَواتِ والأرضِ مِنَ الحَيواناتِ النَّاطِقةِ والصَّامِتةِ وغَيرِها، والجوامِدِ: تُسَبِّحُ بحَمدِ رَبِّها، وتُنَزِّهُه عمَّا لا يَليقُ بجَلالِه، وأنَّها قانِتةٌ لرَبِّها، مُنقادةٌ لعِزَّتِه، قد ظهَرَت فيها آثارُ حِكمتِه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، فهذا فيه بَيانُ عُمومِ افتِقارِ المَخلوقاتِ العُلويَّةِ والسُّفْليَّةِ لرَبِّها في جَميعِ أحوالِها، وعُمومِ

---

(١) المانويَّة: فرقةٌ مِن الثَّنويَّةِ [الَّذين يَزعمون أنَّ النُّورَ والظُّلمةَ أزَليَّانِ قديمانِ، بخِلافِ المجوسِ؛ فإنَّهم قالوا بحدوثِ الظَّلامِ]، وهم أصحابُ ماني بنِ فاتك، الَّذي أحدَث دينًا بيْنَ المجوسيَّةِ والنَّصرانيَّةِ، وكان يقولُ بنُبُوَّةِ المسيحِ عليه السَّلامُ، ولا يقولُ بنُبوَّةِ موسى عليه السَّلامُ، ويزعمُ أنَّ العالَمَ مصنوعٌ مركَّبٌ مِن أصلَينِ قديمَينِ: أحدُهما نورٌ، والآخَرُ ظُلْمةٌ، وأنَّهما أزَليَّانِ لم يَزالا، ولن يَزالا. يُنظر: ((المِلَل والنِّحَل)) للشَّهْرَسْتاني (٢/ ٤٩).

(٢) البَراهمة: قومٌ مِن الهندِ، يقولونُ بنفيِ النُّبوَّاتِ أصلًا ورأسًا، يَنتسِبون إلى رجُلٍ منهم يُقالُ له: بَراهمُ، ثمَّ إنَّ البَراهمةَ تفرَّقوا أصنافًا، ومنهم أصحابُ التَّناسُخِ. يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (١/ ٦٣)، ((الملل والنحل)) للشَّهْرَسْتاني (٣/ ٩٥-٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٦، ٣٥٧).

عِزَّتِه وقَهرِه للأشياءِ كُلِّها، وعُمومِ حِكمتِه في خَلْقِه وأمْرِه[١]!

٤- قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ فَسَّرَه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه الَّذي ليس قَبْلَه شيءٌ، ففَسَّرَ الإثباتَ بالنَّفيِ؛ فجَعَل هذه الصِّفةَ الثُّبوتيَّةَ صِفةً سَلبيَّةً، مع أنَّ الصِّفاتِ الثُّبوتيَّةَ أكمَلُ وأكثَرُ؛ وذلك لتوكيدِ الأوَّليَّةِ، يعني أنَّها مُطلَقةٌ، أوَّليَّةٌ ليست أوَّليَّةً إضافيَّةً؛ فيُقالُ: هذا أوَّلٌ باعتِبارِ ما بَعْدَه، وهناك شَيءٌ آخَرُ قَبْلَه، فصار تَفسيرُها بأمرٍ سَلبيٍّ أدَلَّ على العُمومِ باعتبارِ التَّقَدُّمِ الزَّمَنيِّ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ حَسَّنَ العطفَ هنا التَّغايرُ الظَّاهرُ، وكلَّما كان التَّغايُرُ أبْيَنَ كان العطفُ أحسَنَ، فإنَّ الأوَّليَّةَ لا تُجامِعُ الآخِريَّةَ! ولهذا فَسَّرَها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقولِه: ((أنت الأوَّلُ؛ فليس قَبْلَك شَيءٌ، وأنت الآخِرُ؛ فليس بَعْدَك شَيءٌ))[٣]، فأوَّليَّتُه أزَليَّتُه، وآخِريَّتُه أبَديَّتُه.

فإنْ قيلَ: فما تَصنَعُ بقولِه: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾؛ فإنَّ ظُهورَه تعالى ثابتٌ مع بُطونِه، فيَجتمِعُ في حقِّه الظُّهورُ والبُطونُ، والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم فَسَّر «الظَّاهرَ» بأنَّه الَّذي ليس فوقَه شَيءٌ، و«الباطنَ» بأنَّه الَّذي ليس دونَه شيءٌ، وهذا العُلُوُّ والفوقيَّةُ مجامِعٌ لهذا القُرْبِ والدُّنُوِّ والإحاطةِ؟

**والجوابُ**: الَّذي حَسَّنَ دخولَ «الواوِ» هاهنا أنَّ هذه الصِّفاتِ مُتقابِلةٌ مُتضادَّةٌ؛ وقد عُطِفَ الثَّاني منها على الأوَّلِ للمُقابَلةِ الَّتي بيْنَهما، والصِّفتانِ الأُخْرَيانِ كالأُولَيَيْنِ في المُقابَلةِ، ونِسبةُ الباطنِ إلى الظَّاهرِ كنِسبةِ الآخِرِ إلى الأوَّلِ؛ فكما حَسُنَ العطفُ بيْنَ الأُولَيَيْنِ حَسُنَ بيْن الأُخْرَيَينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨١).

(٣) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ هذا الوَصفُ يَستلزِمُ صِفةَ الغِنى المُطلَقِ؛ لأنَّ الأوَّلَ هنا معناه الموجودُ لِذَاتِه دون سَبْقِ عَدَمٍ، ثمَّ هذه الأوَّلِيَّةُ في الوُجودِ تقتَضي أن تَثبُتَ لله جميعُ صِفاتِ الكَمالِ(١).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ المُتقابِلَ مِن هذه الأسماءِ مُتلازِمٌ؛ فإذا قلتَ: «الأوَّلُ» فقُلِ: «الآخِرُ»، وإذا قُلتَ: «الظَّاهِرُ» فقُلِ: «الباطِنُ»؛ لِئلَّا تَفوتَ صِفةُ المقابَلةِ الدَّالَّةِ على الإحاطةِ(٢).

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ قَولُه: ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ اشتَمَلا على عُمومِ الزَّمانِ، وقَولُه: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُ﴾ على عُمومِ المَكانِ(٣).

٩- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ إثباتُ أربعةِ أسماءٍ للهِ تعالى، وهي: الأوَّلُ، والآخِرُ، والظَّاهِرُ، والباطِنُ، واستفَدْنا منها خَمسَ صِفاتٍ: الأوَّلِيَّةُ، والآخِرِيَّةُ، والظَّاهِرِيَّةُ، والباطِنيَّةُ، وعُمومُ العِلمِ، واستَفَدْنا مِن مَجموعِ الأسماءِ: إحاطةَ اللهِ تعالى بكلِّ شَيءٍ زَمانًا ومَكانًا؛ لأنَّه قد يَحصُلُ مِن اجتِماعِ الأوصافِ زيادةُ صِفةٍ(٤).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ إرشادٌ إلى بُطلانِ التَّسَلسُلِ الباطِلِ ببَديهةِ العَقلِ، وأنَّ سِلسِلةَ المخلوقاتِ في ابتِدائِها تَنتَهي إلى أوَّلٍ ليس قَبْلَه شَيءٌ، كما تَنتَهي في آخِرِها إلى آخِرٍ ليس بعدَه شَيءٌ، كما أنَّ ظُهورَه هو العُلوُّ الَّذي ليس فَوقَه شَيءٌ، وبُطونَه هو الإحاطةُ الَّتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٢).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٣).

لا يكونُ دُونَه فيها شَيءٌ، ولو كان قَبْلَه شيءٌ يكونُ مُؤثِّرًا فيه لَكان ذلك هو الرَّبَّ الخَلَّاقَ! ولا بُدَّ أنْ يَنتهيَ الأمرُ إلى خالقٍ غَيرِ مَخلوقٍ، وغَنيٍّ عن غَيرِه، وكلُّ شَيءٍ فقيرٌ إليه، قائِمٍ بنَفْسِه وكُلُّ شَيءٍ قائِمٌ به، مَوجودٍ بذاتِه وكلُّ شَيءٍ مَوجودٌ به، قَديم لا أوَّلَ له، وكُلُّ ما سِواه فوُجودُه بَعْدَ عَدَمِه، باقٍ بذاتِه وبَقاءُ كلِّ شيءٍ به؛ فهو الأوَّلُ الَّذي ليس قَبْلَه شَيءٌ، والآخِرُ الَّذي ليس بَعْدَه شَيءٌ، الظَّاهِرُ الَّذي ليس فَوقَه شَيءٌ، الباطِنُ الَّذي ليس دُونَه شَيءٌ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ فَسَّرَه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه الَّذي ليس بَعْدَه شَيءٌ[٢]، ولا يُتوهَّمُ أنَّ هذا يدُلُّ على غايةٍ لآخِريَّتِه؛ لأنَّ هناك أشياءَ أبَديَّةً وهي مِن المَخلوقاتِ،كالجَنَّةِ والنَّارِ، وعليه فيَكونُ معنى: ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ أنَّه مُحيطٌ بكُلِّ شَيءٍ، حتَّى الَّذي لا نِهايةَ له[٣].

١٢- يُستفادُ مِن اسمِ اللهِ «الظَّاهِرُ» عُلُوُّ اللهِ تعالى[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ فَسَّرَه النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه الَّذي ليس دُونَه شَيءٌ[٥]، وهذا كِنايةٌ عن إحاطتِه بكُلِّ شَيءٍ، ولكِنَّ المعنى أنَّه مع عُلُوِّهِ -عزَّ وجلَّ- فهو باطِنٌ؛ فعُلُوُّه لا يُنافي قُرْبَه عزَّ وجلَّ، فـ «الباطِنُ» قَريبٌ مِن معنى «القَريبِ»[٦].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّه تعالى

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٢/ ٤٢٢).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٦).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((شرح الكافية الشافية)) لابن عثيمين (٢/ ١١٦).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٦).

(٦) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٢).

مُستوٍ على عَرْشِه، عالٍ على جَميعِ خَلْقِه، وقَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ يُوهِمُ خِلافَ ذلك! فما الجَوابُ؟

**الجَوابُ مِن أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّه تعالى مُستوٍ على عَرشِه -كما قال، بلا كَيفٍ ولا تَشبيهٍ- استِواءً لائِقًا بكَمالِه وجَلالِه، وجميعُ الخلائِقِ في يَدِه أصغَرُ مِن حَبَّةِ خَردَلٍ! فهو مع جَميعِهم بالإحاطةِ الكامِلةِ، والعِلمِ التَّامِّ، ونُفوذِ القُدرةِ -سُبحانَه وتعالى عُلُوًّا كَبيرًا؛ فلا مُنافاةَ بيْنَ عُلُوِّه على عَرشِه ومَعِيَّتِه لجَميعِ الخَلائِقِ؛ ألَا تَرى -ولله المَثَلُ الأَعلى- أنَّ أحَدَنا لو جَعَل في يَدِه حَبَّةً مِن خَردَلٍ، أنَّه ليس داخِلًا في شَيءٍ مِن أجزاءِ تلك الحَبَّةِ، معَ أنَّه مُحيطٌ بجَميعِ أجزائِها، ومع جَميعِ أجزائِها، والسَّمَواتُ والأرضُ ومَن فيهما في يَدِه تعالى أصغَرُ مِن حَبَّةِ خَردَلٍ في يَدِ أحَدِنا -وله المَثَلُ الأعلى سُبحانَه وتعالى عُلُوًّا كَبيرًا-؛ فمعَ أنَّه مُستوٍ على عَرشِه، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن عَمَلِ خَلْقِه جَلَّ وعلا[1]!

**الثَّاني**: أنَّه ذَكَرَ استِواءَه على العَرشِ، ثمَّ قال: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وإذا جَمَع اللهُ لنَفْسِه بيْن وَصْفَينِ فإنَّنا نَعلَمُ عِلْمَ اليَقينِ أنَّهما لا يَتناقَضانِ؛ لأنَّهما لو تناقَضَا لاستَحالَ اجتِماعُهما؛ إذِ المُتناقِضانِ لا يَجتَمِعانِ ولا يَرتَفِعانِ؛ فلا بُدَّ مِن وُجودِ أحدِهما وانتِفاءِ الثَّاني، ولو كان هناك تَناقُضٌ لَزِمَ أنْ يكونَ أوَّلُ الآيةِ مُكَذِّبًا لآخِرِها، أو بالعكسِ!

**الثَّالثُ**: أنَّه قد يَجتَمِعُ العُلُوُّ والمَعيَّةُ في المخلوقاتِ، كما في قَولِ النَّاسِ: «ما زِلْنا نَسيرُ والقَمَرُ مَعَنا».

**الرَّابعُ**: لو فُرِضَ تعارُضُهما بالنِّسبةِ للمَخلوقِ لم يَلزَمْ ذلك بالنِّسبةِ للخالِقِ؛

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٣٠).

لأنَّ اللهَ ليس كمِثْلِه شَيءٌ سُبحانَه[١].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ مِن أدَلِّ شَيءٍ على مُبايَنةِ الرَّبِّ تعالى لِخَلْقِه؛ فإنَّه لم يَخلُقْهم في ذاتِه، بل خَلَقَهم خارِجًا عن ذاتِه، ثمَّ بانَ عنهم باستِوائِه على عَرْشِه، وهو يَعلَمُ ما هم عليه، فيَراهم، ويَنْفُذُهم بَصَرُه، ويُحيطُ بهم عِلمًا وقُدرةً وإرادةً، وسَمعًا وبَصَرًا، فهذا معنى كَونِه سُبحانَه «معهم أينَما كانوا»[٢]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ خَلْقَ العَرشِ قَبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإنَّه يَقتَضي أنَّه استوى على العَرشِ بعدَ خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ، ولم يَذْكُرْ أنَّه خَلَقَه حينَئذٍ، ولو كان خَلَقَه حينَئذٍ لَكان قد ذَكَر خَلْقَه ثُمَّ استِواءَه عليه، ولأنَّ ذِكْرَه للاستِواءِ عليه دونَ خَلْقِه دَليلٌ على أنَّه كان مخلوقًا قبْلَ ذلك[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أنَّ الاستِواءَ مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ، وليس مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ؛ لأنَّه مُرتَّبٌ بعدَ خَلْقِ السَّمَواتِ -يعني: حادِثًا[٤]- ولا شَكَّ أنَّ قيامَ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ عزَّ وجلَّ مِن كَمالِ اللهِ، فمِن كَمالِه أنْ يكونَ فاعِلًا؛ متى شاء فَعَل، ومتى شاء لم يَفْعَلْ. وأمَّا مَن قال: إنَّه يَلْزَمُ مِن قيامِ الحوادِثِ به أنْ يكونَ حادِثًا، فهذه قَضيَّةٌ غَيرُ مُسَلَّمةٍ ولا صَحيحةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيميَّة (٣/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ سُؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْنَ هذه الآيةِ وبيْنَ قَولِه سُبحانَه وتعالى في آيةِ الكُرسيِّ: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]؟

**الجوابُ**: لا يُوجَدُ خِلافٌ بَيْنَهما؛ فالكُرسيُّ شامِلٌ للسَّمَواتِ والأرضِ، يعني لِعظَمِه وكِبَرِه يكونُ واسِعًا لهما جَميعًا، أي لكلِّ السَّمَواتِ والأرضِ، والعَرشُ فَوْقَه[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ إثباتُ عُلُوِّ اللهِ تعالى، والعَرشُ أعلى المخلوقاتِ[2].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أنَّه إذا قُلْنا: استوى على العَرشِ -بمعنى: علا- فهاهنا سُؤالٌ: وهو: أنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَواتِ ثمَّ استوى على العَرشِ، فهل يَستلزِمُ أنَّه قبْلَ ذلك ليس عاليًا؟

**فالجوابُ**: لا يَستلزِمُ ذلك؛ لأنَّ الاستواءَ على العَرشِ أخَصُّ مِن مُطلَقِ العُلُوِّ؛ لأنَّ الاستِواءَ على العَرشِ عُلُوٌّ خاصٌّ به، والعُلُوُّ شامِلٌ على جَميعِ المخلوقاتِ؛ فعُلُوُّه عزَّ وجلَّ ثابِتٌ له أزَلًا وأبَدًا، لم يَزَلْ عاليًا على كُلِّ شَيءٍ قبْلَ أنْ يَخلُقَ العَرشَ، ولا يَلزَمُ مِن عَدَمِ استِوائِه على العَرشِ عَدَمُ عُلُوِّه، بل هو عالٍ، ثمَّ بعْدَ خَلْقِ السَّمَواتِ والأرضِ عَلَا عُلُوًّا خاصًّا على العَرشِ[3].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ إبطالُ قَولِ المُعَطِّلةِ والجَهْميَّةِ الَّذين يَقولونَ: ليس على العَرشِ شَيءٌ سِوى العَدَمِ! وأنَّ اللهَ ليس مُستويًا على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٣٢).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨٥).

عرْشِه! ولا تُرفَعُ إليه الأيدي! ولا يَصْعَدُ إليه الكَلِمُ الطَّيِّبُ! ولا رَفَعَ المسيحَ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- إليه! ولا عُرِجَ برَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم إليه! ولا تَعرُجُ الملائِكةُ والرُّوحُ إليه! ولا يَنْزِلُ مِن عندِه جِبريلُ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- ولا غيرُه! ولا يَنْزِلُ هو كُلَّ لَيلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا! ولا يخافُه عبادُه مِن الملائِكةِ وغَيرِهم مِن فَوقِهم! ولا يَراه المؤمِنونَ في الدَّارِ الآخِرةِ عِيانًا بأبصارِهم مِن فَوقِهم! ولا تجوزُ الإشارةُ إليه بالأصابِعِ إلى فَوقٍ كما أشار إليه النَّبيُّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- في أعظَمِ مَجامِعِه؛ في حَجَّةِ الوداعِ، ((وجَعَلَ يَرفعُ إصْبَعَه إلى السَّماءِ ويَنْكُتُها إلى النَّاسِ[1]، ويقولُ: اللَّهُمَّ اشهَدْ))[2]!

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ أنَّه سُبحانَه على العَرشِ بذاتِه، فإنْ قالوا: فإنَّ العَرَبَ يقولونَ: «استوى فُلانٌ على بَلَدِ كذا وكذا»: إذا استولى عليه وقَهَرَ.

**فالجوابُ مِن أوجهٍ:**

**أحدُها**: أنَّه لو كان «استوى» بمعنى «استولى» لم يكُنْ لتَخصيصِه العَرشَ بالاستواءِ مَعنًى؛ لأنَّه مُسْتَولٍ على كُلِّ شَيءٍ غَيرِه، فكان يجوزُ أنْ يقالَ: الرَّحمنُ على الجَبَلِ استَوى! وهذا باطلٌ.

**الثَّاني**: أنَّ العربَ لا تُدْخِلُ «ثُمَّ» إلَّا لأمرٍ مُستقبَلٍ سيكونُ، واللهُ تعالى لم يَزَلْ قاهِرًا قادِرًا مُستَولِيًا على الأشياءِ؛ فلم يكُنْ -بزَعمِهم- لِقَولِه: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ مَعنًى.

---

(١) يَنْكُتُها إلى النَّاسِ: أي: يشيرُ بها إليهم، كالَّذي يَضرِبُ بها الأرضَ. يُنظر: ((مِرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٥/ ١٧٧٣).

(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٩٥).

والحديث أخرجه مسلمٌ (١٢١٨) مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما.

**الثَّالِثُ**: أنَّ «الاستواءَ» بمعنى «الاستيلاءِ» لا يكونُ عندَ العربِ إلَّا بعدَ أنْ يكونَ ثَمَّ مُغَالِبٌ يُغالِبُه، فإذا غَلَبَه وقَهَرَه قيل: قد استَولى عليه، فلمَّا لم يكُنْ مع اللهِ مُغالِبٌ لم يكُنْ معنى استِوائِه على عَرْشِه استيلاءَه عليه وغَلَبَتَه، وصَحَّ أنَّ استواءَه عليه هو عُلُوُّه وارتِفاعُه عليه بلا حَدٍّ ولا كَيفٍ ولا تَشبيهٍ.

**الرَّابعُ -وهو قولُ أئمَّةِ اللُّغَةِ-**: أنَّ الاستواءَ في اللُّغةِ: هو العُلُوُّ والرِّفْعةُ؛ لأنَّهم يقولونَ: «استَوَتِ الشَّمسُ»: إذا تعالتْ، و«استوى الرَّجُلُ على ظَهرِ دابَّتِه»: إذا علاها، وقولُه تعالى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، أي: ارتفَعتْ عليه، وقولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] أي: ارتفَعَ عن حالِ النُّقصانِ إلى حالِ الكَمالِ، ويقالُ: استوى أَمْرُ فلانٍ، أي: ارتفعَ وعلا عنِ الحالِ الَّتي كان عليها مِن الضَّعْفِ وسُوءِ الحالِ(١).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ دَلالةٌ على بُطلانِ تأويلِ «الاستواءِ» بمعنى «المُلْكِ»؛ لأنَّه سُبحانَه أخبَرَ أنَّه خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّةِ أيَّامٍ، ثمَّ استوى على العَرشِ، وقد أخبَرَ أنَّ العَرشَ كان مَوجودًا قبْلَ خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ -كما دلَّ على ذلك الكِتابُ والسُّنَّةُ-، وحينَئذٍ فهو مِن حِينِ خلَقَ العَرشَ مالِكٌ له مُسْتَولٍ عليه؛ فكيف يكونُ الاستواءُ عليه مُؤخَّرًا عن خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ؟! وأيضًا فاللهُ مالِكٌ لكُلِّ شَيءٍ، مُستَولٍ عليه؛ فكيف يُخصُّ العَرشُ بالاستِواءِ(٢)؟!

٢٤- قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ وهذه المَعِيَّةُ مَعِيَّةُ العِلمِ والاطِّلاعِ؛ ولهذا تَوعَّد ووَعَد على المُجازاةِ بالأعمالِ، بقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، أي:

---

(١) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٣٠٣)، ونقله عن صاحب ((الجامع الصغير في أصول الدين)) الحسين بن أحمد الأشعري المتكلم.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٣٧٦).

هو تعالى بصيرٌ بما يَصدُرُ منكم مِنَ الأعمالِ، وما صدَرَت عنه تلك الأعمالُ مِن بِرٍّ وفُجورٍ، فمُجازيكم عليها، وحافِظُها عليكم[١].

٢٥- قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وقال أيضًا: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ [المجادلة: ٧]، وقد فسَّر السَّلفُ مَعيَّةَ اللهِ تعالى لِخَلقِه في الآيتَينِ بالعِلمِ، وهم بذلك لم يُؤَوِّلوها تأويلَ أهلِ التَّعطيلِ، ولم يَصرِفوا الكلامَ عن ظاهِرِه؛ وذلك مِن وُجوهٍ ثلاثةٍ:

**الأوَّل**: أنَّ اللهَ تعالى ذكَرها في سورةِ (المجادلةِ) بيْنَ عِلمَينِ، فقال في أوَّلِ الآيةِ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقال في آخِرِها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ فدلَّ ذلك على أنَّ المرادَ أنَّه يَعلَمُهم، ولا يخفَى عليه شيءٌ مِن أحوالِهم.

**الثَّاني**: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَها مَقرونةً باستِوائِه على عَرْشِه -الَّذي هو أعلى المخلوقاتِ-؛ فدَلَّ على أنَّ المرادَ مَعِيَّةُ الإحاطةِ بهم عِلمًا وبَصَرًا، لا أنَّه معهم بذاتِه في كلِّ مَكانٍ، وإلَّا لَكان أوَّلُ الآيةِ وآخِرُها مُتناقِضًا.

**الثَّالِثُ**: أنَّ العِلمَ مِن لوازمِ المَعِيَّةِ[٢].

٢٦- قَولُه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: إلى حيثُ لا مالِكَ سِواه، ودَلَّ بهذا القَولِ على إثباتِ المَعادِ[٣].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ تمامُ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ وسُلطانِه في كَونِه يُولِجُ اللَّيلَ في النَّهارِ، ويُولِجُ النَّهارَ في اللَّيلِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٧).

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ إثباتُ حِكمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ هذا الإيلاجَ له حِكمةٌ عَظيمةٌ لا تقومُ مَصالِحُ الخَلْقِ إلَّا بها؛ لأنَّه يَترتَّبُ على هذا الإيلاجِ اختِلافُ فُصولِ السَّنةِ الَّتي يَترتَّبُ على اختِلافِها نُمُوُّ الأجسادِ والنَّباتِ؛ فمِن النَّباتِ ما يكونُ شَتْويًّا، ومِن النَّباتِ ما يكونُ صَيفيًّا[1].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ أنَّ الإنسانَ يَعرِفُ به ضَعْفَه وافتِقارَه إلى ربِّه؛ إنْ جاء البَرْدُ صار يَتطَلَّبُ ما يُدفِّئُه، وإنْ جاء الحَرُّ صار يَتطَلَّبُ ما يُبَرِّدُه؛ فهو محتاجٌ إلى ربِّه في الحالَينِ، وهذا مِن فوائدِ اختِلافِ الحَرِّ والبَرْدِ[2].

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ دَليلٌ على رَحمةِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ تناوُبَ اللَّيلِ والنَّهارِ بالزِّيادةِ والنَّقصِ فيه مَصلحةٌ عَظيمةٌ جِدًّا؛ لأنَّ اللَّيلَ إذا طال حَصَلَ البَرْدُ والشِّتاءُ، وظَهَرتْ أشجارُ الشِّتاءِ، وماتتِ الحَشَراتُ الَّتي قد يكونُ بقاؤها ضارًّا بالإنسانِ والنَّباتِ، وكذلك إذا ازدادَ النَّهارُ ازدادَ الحَرُّ فنَضِجَتِ الثِّمارُ، وزال البُخارُ مِن الأرضِ، وماتتْ بذلك حَشَراتٌ كثيرةٌ مِن أجْلِ الحَرِّ، لو أنَّها بَقِيَتْ وتنامَتْ لأَضَرَّتْ بالنَّاسِ، فيكونُ هذا أيضًا فيه دَليلٌ على كَمالِ الحِكمةِ والرَّحمةِ مع القُدرةِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- عُبِّر هنا وفي سُورتَي (الحَشْرِ) و(الصَّفِّ) بالمُضِيِّ: ﴿سَبَّحَ﴾، وفي سُورتَي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٧٢).

(الجُمُعةِ) و(التَّغابُنِ) بالمُضارِعِ: ﴿يُسَبِّحُ﴾، وفي سُورةِ (الأعْلى) بالأمْرِ: ﴿سَبِّحِ﴾، وفي سُورةِ (الإسراءِ) بالمصدَرِ: ﴿سُبْحَٰنَ﴾؛ استيعابًا للجِهاتِ المشهورةِ لهذه الكَلِمةِ، وللإيذانِ بتَحقُّقِه في جَميعِ الأوقاتِ. وأنَّ هذه الأشياءَ مسبِّحةٌ في كلِّ الأوقاتِ، لا يختصُّ بوقتٍ دونَ وقتٍ؛ بل هي مسبِّحةٌ أبدًا في الماضي، وستكونُ مسبِّحةً أبدًا في المستقبَلِ. وبدَأَ بالمَصدرِ في (الإسراءِ)؛ لأنَّه الأصلُ، ولأنَّه أبلَغُ مِن حيثُ إنَّه يُشعِرُ بإطلاقِه على استِحقاقِ التَّسبيحِ مِن كلِّ شَيءٍ وفي كلِّ حالٍ، ثم بالمُضِيِّ لسَبْقِ زَمَنِه، ثمَّ بالمضارِعِ؛ لشُمولِه الحالَ والمستقبَلَ، ثمَّ بالأمرِ؛ لخُصوصِه بالحالِ، مع تأخُّرِه في النُّطقِ به في قولِهم: فَعلَ، يَفْعلُ، افْعلْ[1]. وقيل: جاء في بَعضِ الفواتحِ (سبَّح) على لَفظِ الماضي، وفي بَعضِها على لَفظِ المضارِعِ، وكلُّ واحدٍ منهما معناهُ: أنَّ مِن شأْنِ مَن أُسنِدَ إليه التَّسبيحُ أنْ يُسبِّحَه، وذلك هِجِّيراهُ ودَيدنُه[2].

- وصِيغَ فِعلُ التَّسبيحِ هنا بصِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ تَنزيهَه تعالى أمْرٌ مُقرَّرٌ، أمَرَ اللهُ به عِبادَه مِن قبْلُ، وألْهَمَه النَّاسَ، وأودَعَ دَلائلَه في أحوالِ ما لا اختيارَ له، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، وقولُه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]؛ ففي قولِه: ﴿سَبَّحَ﴾ تَعريضٌ بالمُشرِكين الَّذين أهْمَلوا أهمَّ التَّسبيحِ، وهو تَسبيحُه عن الشَّريكِ والنِّدِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٧).

- واللَّامُ في ﴿لِلَّهِ﴾ إمَّا أنْ تكونَ بمَنزلةِ اللَّامِ في: نصَحْتُ لِزَيدٍ، يُقالُ: سبَّحَ اللهَ، كما يُقالُ: نصَحْتُ زَيدًا؛ فجِيءَ باللَّامِ لتَقويةِ وُصولِ الفِعلِ إلى المفعولِ. وإمَّا أنْ تكونَ لامَ التَّعليلِ، أي: أحدَثَ التَّسبيحَ مِن أجْلِ اللهِ، أي: لوَجْهِه خالِصًا[1]. وقيل: دخلتِ «اللَّامُ» هنا؛ لأنَّ المرادَ هو التَّسبيحُ الَّذي هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، وليس التَّنزيهَ والذِّكْرَ المُجَرَّدَ[2]!

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بحذْفِ (ما) بيْنَ السَّمواتِ والأرضِ؛ مُوافَقةً لقولِه بعْدُ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢]، و﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الحديد: ٤]، ولأنَّ التَّقديرَ في هذه السُّورةِ: «سبَّحَ للهِ خلْقُ السَّمواتِ والأرضِ»، وكذلك قال في آخِرِ (الحشرِ) بعْدَ قولِه: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ٢٤]، أي: خلْقُهما، وقاله في سُوَرِ (الحَشْرِ)، و(الصَّفِّ)، و(الجُمعةِ)، و(التَّغابُنِ) بإثباتِها؛ عمَلًا بالأصْلِ[3].

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ حالٌ، أو اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه، مُشعِرٌ بعِلَّةِ الحكمِ[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- هو استِئنافٌ ابتدائيٌّ بذِكرِ صِفةٍ عَظيمةٍ مِن صِفاتِ اللهِ الَّتي مُتعلَّقُها أحوالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٣).

الكائناتِ في السَّمواتِ والأرضِ، وخاصَّةً أهلَ الإدراكِ منهم، ومَضمونُ هذه الجُملةِ يُؤْذِنُ بتَعليلِ تَسبيحِ اللهِ تعالى؛ لأنَّ مَن له مُلكُ العوالِمِ العُليا والعالَمِ الدُّنيويِّ حَقيقٌ بأنْ يَعرِفَ النَّاسُ صِفاتِ كَمالِه[١].

- وأفاد تَعريفُ المُسنَدِ قصْرَ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٢] لعدَمِ الاعتِدادِ بمُلكِ غَيرِه في الأرضِ؛ إذ هو مُلكٌ ناقصٌ؛ فإنَّ المُلوكَ مُفتقِرونَ إلى مَن يَدفَعُ عنهم العواديَ بالأحلافِ والجُندِ، وإلى مَن يُدبِّرُ لهم نِظامَ المملَكةِ مِن وُزراءَ وقُوَّادٍ، وإلى أخْذِ الجِبايةِ والجِزيةِ، ونحوِ ذلك، أو هو قَصْرٌ حَقيقيٌّ، إذا اعتُبِرَتْ إضافةُ (مُلْك) إلى مَجموعِ السَّمواتِ والأرضِ؛ فإنَّه لا مُلكَ لمالكٍ على الأرضِ كلِّها بَلْهَ السَّمواتِ معه سبحانه[٣].

- وقولُه: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[٤] مِن مَضمونِ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٨).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ: في اصطِلاحِ البلاغيِّينَ هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه، مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحَقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمُبالَغةِ، بتنزيلِ غَيرِ المذكورِ مَنزِلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. يُنظر: ((مِفتاح العلوم)) للسكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٨).

(٤) البَدَلُ: هو التَّابعُ المقصودُ بحُكمٍ بلا واسِطةٍ، وهو أقسامٌ: بدَلُ كُلٍّ مِن كُلٍّ بأنِ اتَّحَدَا معنًى، نحو: ﴿صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ١، ٢]. وبدَلُ بعضٍ إن دلَّ على بعضِ ما دلَّ =

وَٱلۡأَرۡضِ ﴾؛ فإنَّ الإحياءَ والإماتةَ ممَّا يَشتمِلُ عليه معْنى مُلكِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّهما مِن أحوالِ ما عليهما. وتَخصيصُ صِفتَيِ الإحياءِ والإماتةِ بالذِّكرِ للاهتِمامِ بهما؛ لدَلالتِهما على دَقيقِ الحِكمةِ في التَّصرُّفِ في السَّماءِ والأرضِ، ولظُهورِ أنَّ هذَينِ الفِعلَينِ لا يَستطيعُ المخلوقُ ادِّعاءَ أنَّ له عمَلًا فيهما، وللتَّذكيرِ بدَليلِ إمكانِ البعثِ الَّذي جحَدَه المشرِكون، وللتَّعريضِ بإبطالِ زَعْمِهم إلهيَّةَ أصنامِهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا ﴾[1] [الفرقان: ٣]. وقيل: قولُه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لبَعضِ أحكامِ المُلكِ والتَّصرُّفِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ تُفيدُ مُفادَ التَّذييلِ لجُملةِ ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾؛ لتَعميمِ ما دلَّ عليه قولُه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ مِن بَيانِ جُملةِ ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾. وإنَّما عُطِفَت بالواوِ، وكان حقُّ التَّذييلِ أنْ يكونَ مَفصولًا؛ لقصْدِ إيثارِ الإخبارِ عن اللهِ تعالى بعُمومِ القدرةِ على كلِّ مَوجودٍ، وذلك لا يُفِيتُ قصْدَ التَّذييلِ؛ لأنَّ التَّذييلَ يَحصُلُ بالمعْنى[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ استِئنافٌ في سِياقِ تَبْيينِ أنَّ للهِ مُلكَ السَّمواتِ والأرضِ، وبأنَّ مُلكَه دائمٌ في عُمومِ الأزمانِ، وتصرُّفَه فيهما في كلِّ الأحوالِ[4].

---

= عليه الأوَّلُ، نحو: مرَرْتُ بقَومِك ناسٍ منهم. وبدَلُ اشتِمالٍ إن دلَّ على معنًى في الأوَّلِ أو استَلْزَمَه فيه، كعَجِبتُ مِن زَيدٍ عِلمِه أو قراءتِه، ومنه قولُه تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٧]. يُنظر: ((همع الهوامع)) للسيوطي (٣/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٨، ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ ولم يُذكَرْ لهذا الوصْفِ هنا مُتعلِّقٌ -بكسْرِ اللَّامِ-، ولا ما يدُلُّ على مُتعلِّقٍ؛ لأنَّ المقصودَ أنَّه الأوَّلُ بدونِ تَقييدٍ(١).

- قولُه: ﴿وَٱلْآخِرُ﴾، أي: هو الآخِرُ بعدَ جَميعِ مَوجوداتِ السَّماءِ والأرضِ، وهو معْنى قولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]، وقولِه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]؛ فتَقديرُ المعْنى: والآخِرُ في ذلك، أي: في استِمرارِ الوُجودِ الَّذي تَقرَّرَ بوَصْفِه بأنَّه الأوَّلُ، فآلَ معْنى (الآخِر) إلى معْنى (الباقي)، وإنَّما أُوثِرَ وصْفُ (الآخِرِ) بالذِّكرِ مع وَصْفِ (الأوَّل)؛ لأنَّه مُقْتضَى البَلاغةِ؛ ليَتِمَّ الطِّباقُ(٢) بيْن الوصْفينِ المُتضادَّينِ(٣).

- وفي قولِه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ دَلالةُ قصْرٍ مِن طَريقِ تَعريفِ جُزْأيِ الجُملةِ؛ فأمَّا قصْرُ الأوَّليَّةِ على اللهِ تعالى في صِفةِ الوُجودِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٠).

(٢) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ معَ مُراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبَياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَقَ بيْنَ الضَّحكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادقونَ. ومنه: طِباقٌ ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متَوهَّمةً، فتَبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لتعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ، كقولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ، ومنه: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القِصاصِ القتلُ، فصار القتلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أملَحِ الطِّباقِ وأخفاه. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦١).

فظاهرٌ، وأمَّا قصْرُ الآخِريَّةِ عليه في ذلك، وهو معْنى البَقاءِ، فإنْ أُرِيدَ به البقاءُ في العالَمِ الدُّنيويِّ، عرَضَ إشكالُ المُتعارِضِ بما ورَدَ مِن بَقاءِ الأرواحِ، وحديثِ أنَّ عجْبَ الذَّنَبِ لا يَفْنى، وأنَّ الإنسانَ منه يُعادُ[1]. ورفْعُ هذا الإشكالِ أنْ يُجعَلَ القَصْرُ ادِّعائيًّا[2]؛ لعدَمِ الاعتِدادِ ببقاءِ غيرِه تعالى؛ لأنَّه بقاءٌ غيرُ واجبٍ، بلْ هو بجَعْلِ اللهِ تعالَى[3].

- وفائدةُ إجراءِ الوَصفَينِ المُتضادَّينِ على اسمِ اللهِ تعالَى هنا: التَّنبيهُ على عِظَمِ شأْنِ اللهِ تعالى؛ ليَتدبَّرَ العالِمون في مَواقِعِها[4].

- قَولُه: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ هذه الأسماءُ الأربعةُ متقابِلةٌ؛ وكلُّها خبرٌ عن مبتدأٍ واحدٍ لكنْ بواسطةِ حرفِ العطفِ، والإخبارُ بواسطةِ حرفِ العطفِ أقوى مِن الإخبارِ بدونِ واسطةِ حرفِ العطفِ، وفائدتُها: أوَّلًا: توكيدُ السَّابقِ؛ لأنَّك إذا عَطَفْتَ عليه جَعَلْتَه أصلًا، والأصلُ ثابتٌ، ثانيًا: إفادةُ الجمعِ، ولا يَستَلْزِمُ ذلك تعدُّدَ الموصوفَ، فإذا قيل: المعروفُ أنَّ العطفَ يَقتضي المُغايَرةَ! فالجوابُ: نعمْ، لكنَّ المغايرةَ تارةً تكونُ بالأعيانِ، وتارةً تكونُ بالأوصافِ؛ وهذا تغايُرُ أوصافٍ[5].

٤- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦١- ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٦٣).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٢).

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ استِئنافٌ ثانٍ مُفيدٌ الاستِدلالَ على انفِرادِه تعالَى بالإلهيَّةِ؛ ليُقلِعوا عن الإشراكِ به. ويُفيدُ أيضًا بيانًا لمَضمونِ جُملةِ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ٢]، وجُملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢]؛ فإنَّ الَّذي خلَقَ السَّمواتِ والأرضَ قادرٌ على عَظيمِ الإبداعِ(١).

- وبَدَأَ سُبحانَه بالسَّمَواتِ، مع أنَّ الأرضَ سابِقةٌ على السَّماءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال في سُورةِ «فُصِّلَت» لَمَّا ذَكَر خَلْقَ الأرضِ؛ قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]؛ لأنَّها أشرَفُ وأعلى مِن الأرضِ(٢).

- ولعلَّ تَقديمَ الخَلْقِ على العِلمِ؛ لأنَّه دَليلٌ عليه(٣).

- قولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ استِئنافٌ لتَقريرِ عُمومِ عِلمِه تعالَى بكلِّ شَيءٍ؛ فكان بيانَ جُملةِ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحديد: ٢] وجُملةِ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] جاريًا على طَريقةِ النَّشرِ لِلَّفِّ على التَّرتيبِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٣، ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٤).

اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: =

- وقولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ بدأ بما يُمَاسُّ الإنسانَ -وإنْ كان غيرُه أشرَفَ منه-؛ لأنَّه تَحَدَّثَ عمَّا يَلِجُ في الأرضِ وما يَخْرُجُ منها قبْلَ التحدُّثِ عمَّا يَنْزِلُ مِن السماءِ وما يَعْرُجُ فيها[1].

- والتَّعبيرُ بالمضارعِ (يَلِجُ، يَخْرُجُ، يَنْزِلُ، يَعْرُجُ) فيه دَلالةٌ على ما أُودِعَ في الخافِقَينِ مِنَ القُوى؛ فصارَا بحيث يتجَدَّدُ منهما ذلك بخَلْقِه تجَدُّدَ استِمرارٍ إلى حينِ خَرابِهما[2].

- وقَولُه: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ جاءتْ بلفظِ «فيها» بدلَ «إليها»؛ لنستفيدَ فائدتَينِ:

**الفائِدةُ الأُولى**: العُروجُ، يعني: الصُّعودَ.

**الفائدةُ الثَّانيةُ**: الدُّخولُ؛ لأنَّ «في» يُناسِبُها مِن الأفعالِ الدُّخولُ، تقولُ: «دَخَلَ في المكانِ»، أمَّا «عَرَجَ» و «يَعْرُجُ» فالَّذي يُناسِبُها «إلى»، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عَدَلَ عن قولِه: «يَعْرُجُ إليها» إلى قوله: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾؛ ليُفيدَ الصُّعودَ والدُّخولَ[3].

- وقولُه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هو عطْفُ معنًى خاصٍّ

---

= ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ«اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس».

يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٨).

على معْنًى شَمِلَه وغيرَه؛ لقَصْدِ الاهتِمامِ بالمعطوفِ[١].

- و﴿أَيْنَ مَا﴾ ظَرفٌ للدَّلالةِ على تَعميمِ الأمْكِنةِ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تَكملةٌ لمَضمونِ ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، وكان حقُّها ألَّا تُعطَفَ، وإنَّما عُطِفَت تَرجيحًا لجانِبِ ما تَحْتوي عليه مِن الخبَرِ عن هذه الصِّفةِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾

- قولُه: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تأْكيدٌ لنَظيرِه الَّذي في أوَّلِ هذه السُّورةِ؛ كُرِّر ليُبْنى عليه قولُه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ فكان ذِكرُه في أوَّلِ السُّورةِ مَبنيًّا عليه التَّصرُّفُ في الموجوداتِ القابِلةِ للحَياةِ والموتِ في الدُّنيا، وكان ذِكرُه هنا مَبنيًّا عليه أنَّ أُمورَ الموجوداتِ كلِّها تَرجِعُ إلى تَصرُّفِه[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالى هنا: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، وقال قبْلَها بآيتَينِ: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ فأعاد لَفظةَ ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ووُصِلَت الأُولَى بقولِه: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾، ووُصِلَتْ الأُخرى بقولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ المعنَى له المُلْكُ أوَّلًا وآخِرًا؛ فالأوَّلُ في الدُّنيا، وهو وقْتُ الإحياءِ والإماتةِ، والآخَرُ في الآخِرةِ حِينَ تَرجِعُ الأمورُ إليه؛ فقَرَنَ بالأوَّلِ: ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٥).

لأنَّهما مِن أماراتِ المُلْكِ، وقَرَنَ بالآخَرِ ما يكونُ في الآخِرةِ مِن مَرجِعِ الخَلْقِ وجَزائِهم بالثَّوابِ والعِقابِ إليه؛ فجاء في كلِّ مكانٍ ما اقتضاهُ وما شاكَلَ معْناه(١).

- وتَقديمُ المُسنَدِ ﴿لَهُۥ﴾؛ لقَصْرِ الإلهيَّةِ عليه تعالى؛ فيُفيدُ صِفةَ الواحدِ(٢).

- وعطَفَ ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ عطْفَ الخاصِّ مِن وجهٍ على العامِّ منه فيما يَتعلَّقُ بالأمورِ الجاريةِ في الدُّنيا، وعطْفَ المُغايرِ فيما يَتعلَّقُ بالأمورِ التي تَجري يومَ القِيامةِ، فإذا كان المعْنى: تَرجِعُ أفعالُ النَّاسِ إلى اللهِ -أي: تَرجِعُ في الحشرِ-؛ فالمرادُ: رُجوعُ أهلِها للجزاءِ على أعمالِهم؛ إذ لا يَتعلَّقُ الرُّجوعُ بحَقائقِها، فعطْفُ قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ تَتميمٌ لجُملةِ ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: له مُلكُ العوالمِ في الدُّنيا، وله التَّصرُّفُ في أعمالِ العُقلاءِ مِن أهلِها في الآخرةِ. وإنْ أخَذْنا بشُمولِ اسمِ الأمورِ للذَّواتِ، كان مُفيدًا لإثباتِ البعثِ، أي: الذَّواتُ الَّتي كانتْ في الدُّنيا تَصيرُ إلى اللهِ يومَ القيامةِ، فيُجازِيها على أعمالِها(٣).

- وتَعريفُ الجمْعِ في ﴿ٱلۡأُمُورُ﴾ مِن صِيَغِ العُمومِ(٤).

- وتَقديمُ المُجرورِ على مُتعلَّقِه في قولِه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ للاهتِمامِ لا للقَصْرِ؛ إذ لا مُقْتضَى للقصْرِ الحَقيقيِّ، ولا داعيَ للقَصْرِ الإضافيِّ؛ إذ لا يُوجَدُ مِن الكفَّارِ مَن يُثبِتُ البَعثَ، ولا مَن زَعَموا أنَّ الناسَ يَصيرونَ في

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٦٦).

تَصرُّفِ غيرِ اللهِ سُبحانَه[١].

- وإظهارُ اسمِ الجلالةِ دونَ أنْ يقولَ: (وإليه تُرجَعُ الأمورُ)؛ لتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بما دلَّتْ عليه، فتَكونَ كالمَثَلِ صالحةً للتَّسييرِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٧-١١)

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾: أي: مُمَلَّكِينَ، فجعَل المالَ في أيديكم خَلَفًا لِمَن قبلَكم، فكان لغيرِكم فملَكْتموه، وأصلُ (خلف): يدُلُّ على مَجيءِ شَيءٍ بعدَ شيءٍ(١).

﴿مِيثَٰقَكُمۡ﴾: المِيثاقُ: عَقدٌ مُؤكَّدٌ بيَمينٍ، وهو مِفعالٌ مِنَ الوَثيقةِ، وأصلُ (وثق): يدُلُّ على عَقْدٍ وإحْكامٍ(٢).

﴿لَرَءُوفٞ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، والرَّأفةُ أعلَى معاني الرَّحمةِ، وأبلغُها وأرَقُّها، وأصلُ (رأف): يدُلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٣٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤) و(٣/ ٥٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٥)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((التبيان)) =

﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: أي: الجَنَّةَ، وأصلُ الحسنِ ضِدُّ القُبحِ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى داعيًا عبادَه إلى الإيمانِ والثَّباتِ عليه، وإلى الإنفاقِ في سبيلِه: آمِنوا باللهِ تعالى فوَحِّدوه، وبرَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فصَدِّقوه واتَّبِعوه، وأنفِقوا مِن مالِ اللهِ الَّذي استَخلَفَكم فيه.

ثمَّ يُبيِّنُ ما لهم إذا فعَلوا ذلك، فيقولُ: فالَّذينَ آمَنوا باللهِ ورَسولِه مِنكم، وأنفَقوا في سَبيلِه؛ لهم ثوابٌ عَظيمٌ.

ثمَّ يُرغِّبُهم سبحانَه في الثَّباتِ على الإيمانِ، فيقولُ: وما لَكم لا تُؤْمِنونَ باللهِ، ورَسولُه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدعوكم إلى الإيمانِ برَبِّكم، وقد أخَذَ اللهُ منكم العَهدَ بالإيمانِ إنْ كُنتُم مُؤمِنينَ؟!

ثمَّ يقولُ سبحانَه مبينًا جانبًا مِن مظاهرِ فضلِه: اللهُ تعالى هو الَّذي يُنَزِّلُ على عَبدِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آياتِ القُرآنِ الواضِحاتِ؛ لِيُخرِجَكم بها مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وإنَّ اللهَ بكم -أيُّها النَّاسُ- لَرَؤوفٌ رَحيمٌ.

ثمَّ يحُضُّ على الإنفاقِ مرَّةً أخرَى، فيقولُ: وما الَّذي يَمنَعُكم مِنَ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ مِمَّا رَزَقكم، وللهِ مِيراثُ السَّمَواتِ والأرضِ؟!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى تفاوُتَ الدَّرَجاتِ، على حسَبِ تفاوُتِ الأحوالِ والأعمالِ، فيقولُ: لا يَستَوي في الفَضلِ والأجْرِ مَن أنفَقَ مِنْكم -أيُّها المُؤمِنونَ- في سَبيلِ اللهِ قبْلَ الفَتحِ وقاتَلَ، مع مَنْ أنفَقَ بَعْدَ الفَتحِ وقاتَلَ؛ أولئك -الَّذين أنفَقوا قبْلَ

---

= لابن الهائم (ص: ١١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣١١).

الفَتحِ وقاتَلوا- أفضَلُ دَرَجةً عندَ اللهِ مِن الَّذين أنفَقوا مِن بَعدِ الفَتحِ وقاتَلوا.

ثمَّ يمدحُ الله تعالى كِلا الفريقَينِ، فيقولُ: وكُلًّا مِنهما وعَدَ اللهُ الفَوزَ بالجَنَّةِ، واللهُ بما تَعمَلونَ خَبيرٌ.

ثمَّ يحُثُّ الله سبحانَه على الإنفاقِ في وُجوهِ الخَيرِ، فيقولُ: مَن هذا الَّذي يُنفِقُ في سَبيلِ اللهِ مُبتَغِيًا به ما عِندَ رَبِّه بلا مَنٍّ ولا أذًى، فيُثيبَه اللهُ على ذلك الإنفاقِ أُجورًا كَثيرةً، وله ثوابٌ حَسَنٌ وجزاءٌ جَميلٌ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ٧ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالى تَسبيحَ العالَمِ له، وما احْتَوى عليه مِن المُلكِ والتَّصرُّفِ، وما وصَفَ به نفْسَه مِن الصِّفاتِ العُلا، وخَتَمها بالعالِمِ بخَفيَّاتِ الصُّدورِ- أمَرَ تعالى عِبادَه المؤمنينَ بالثَّباتِ على الإيمانِ وإدامتِه، والنَّفقةِ في سَبيلِ اللهِ تعالى[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر تعالى أنواعًا مِنَ الدَّلائِلِ على التَّوحيدِ والعِلمِ والقُدرةِ؛ أتْبَعَها بالتَّكاليفِ، وبدأ بالأمرِ بالإيمانِ باللهِ ورَسولِه[2].

وأيضًا لَمَّا قامت الأدِلَّةُ على تنزيهِه سُبحانَه؛ قال تعالى آمِرًا بالإذعانِ له ولرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3]:

﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٠٣).

أي: آمِنوا باللهِ تعالى[١] فوَحِّدوه، وآمِنوا برَسولِه مُحمَّدٍ فصَدِّقوه وأقِرُّوا برسالتِه وما جاء به واتَّبِعوه، وداوِموا على ذلك الإيمانِ واثبُتوا عليه[٢].

﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾.

أي: وأنفِقوا مِن مالِ اللهِ الَّذي استَخلَفَكم فيه وجعَلَه عِندَكم عارِيَّةً، فتصَدَّقوا منه في سَبيلِه[٣].

---

(١) قال ابن الجوزي: (﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قال المفسِّرونَ: هذا الخِطابُ لكفَّارِ قُرَيشٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٢).

وقال الشوكاني: (وهذا خِطابٌ لكفَّارِ العرَبِ، ويجوزُ أن يكونَ خِطابًا للجميعِ، ويكونَ المرادُ بالأمرِ بالإيمانِ في حقِّ المسلمينَ الاستِمرارَ عليه، أو الازديادَ منه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٠).

وممَّن اختار أنَّه خِطابٌ للنَّاسِ وجميعِ العِبادِ: ابنُ جرير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

قوله: ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ المرادُ: المالُ الَّذي أورثَكم عمَّن كان قبْلَكم، فخَلَفْتُموهم فيه وملكتُموه. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٣٠).

وقيل: المرادُ: أنَّ الأموالَ الَّتي بأيديكم إنَّما هي أموالُ الله، ولَسْتُم بأربابِها المالِكينَ لها على الحقيقةِ؛ لأنَّه خلَقها، وأباح لكم الانتِفاعَ بها، والاستِمتاعَ بمَنافِعِها، وجعَلَكم خُلَفاءَ بالتَّصرُّفِ فيها، فأنتم فيها بمَنزِلةِ الوُكَلاءِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: الرَّسْعَنيُّ، وابنُ جُزَي، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٠).

قال الماوَرْدي: (في «ما جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ» قَولانِ؛ أحدُهما: يعني: ممَّا جعلَكم مُعَمَّرينَ =

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ تعالى بالإنفاقِ، ووَصَفه بما سَهَّله؛ سَبَّب عنه ما يُرَغِّبُ فيه، فقال تعالى[1]:

﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾.

أي: فالَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه مِنكم، وأنفَقوا في سَبيلِه مِن أموالِهم الَّتي استَخلَفَهم فيها: لهم ثوابٌ عَظيمٌ[2].

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه ذَكَر السَّبَبَ الدَّاعيَ لهم إلى الإيمانِ، وعَدَمَ المانعِ منه[3]، فقال:

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾.

أي: وما الَّذي يَحمِلُكم على عَدَمِ الإيمانِ باللهِ، والحالُ أنَّ رَسولَه مُحَمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدْعوكم إلى الإيمانِ برَبِّكم المُحسِنِ إليكم[4]؟!

---

= فيه بالرِّزقِ، قاله مجاهِدٌ. الثَّاني: ممَّا جعَلَكم مُستَخلَفينَ فيه بوِراثَتِكم له عمَّن قبْلَكم، قاله الحسَنُ. ويحتمِلُ ثالثًا: ممَّا جعَلَكم مُستَخلَفينَ على القيامِ بأداءِ حُقوقِه). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

قال القُرطبي في قولِه: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾: (هو الجنَّةُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن =

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

أي: والحالُ أنَّ اللهَ قد أخَذَ منكم العَهدَ بالإيمانِ[1]، .....

---

= كثير)) (٨/ ١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

قال القرطبي: (أيْ: أخَذ اللهُ ميثاقَكم. قال مجاهِدٌ: هو الميثاقُ الأوَّلُ الَّذي كان وهم في ظَهرِ آدَمَ بأنَّ اللهَ رَبَّكم لا إلَهَ لكم سِواه. وقيل: أخَذ مِيثاقَكم بأنْ رَكَّب فيكم العقولَ، وأقام عليكم الدَّلائلَ والحُجَجَ الَّتي تَدْعو إلى مُتابَعةِ الرَّسولِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، وابن عطية، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧١٩)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٣١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وعَطاءٌ، والكلبيُّ، ومقاتلُ بنُ حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٧٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أي أنَّ ذلك الميثاقَ بنَصبِ الأدِلَّةِ، والتَّمكينِ مِن النَّظرِ-: الرازيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥١). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٥).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابِقَينِ: البِقاعي، فقال: (﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: وَقَع أخْذُه، فصار في غايةِ القباحةِ تَركُ ما وقع التَّوثُّقُ بسَبَبِه بنَصبِ الأدِلَّةِ، والتَّمكينِ مِن النَّظَرِ بإبداعِ العُقولِ، وذلك كُلُّه منضَمٌّ إلى أخذِ الذُّرِّيَّةِ مِن ظَهرِ آدَمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإشهادِهم على أنفُسِهم، وإشهادِ الملائكةِ عليهم). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٦٤).

وقال ابن عثيمين: (ما أعطانا عزَّ وجَلَّ مِنَ الفِطرةِ والعَقلِ والفَهمِ الَّذي نُدرِكُ به ما يَنفَعُنا ويَضُرُّنا، هذا هو الصَّحيحُ في معنى الميثاقِ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٧٨).

وقال القاسمي: (﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي: بالإيمانِ؛ إذ ركَّبَ فيكم العُقولَ، ونَصَب الأدِلَّةَ، =

إنْ كُنتُم مُؤمِنينَ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰۛ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۞

---

= ومكَّنَكم مِنَ النَّظَرِ، بل أودَعَ في فِطَرِكم ما يَضطرُّكم لذلك إذا نُبِّهْتُم، وقد حصَل ذلك بتذكيرِ الرَّسولِ، فما عليكم إلَّا أن تأخُذوا في سَبيلِه). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٢).

وقيل: إنَّ ذلك ببَيعةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وممَّن اختاره: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١).

قال ابن تيميَّة: (وإنَّما أَخَذ مِيثاقَ المؤمِنينَ ببَيعتِهم له؛ فإنَّ كُلَّ مَن كان مُسلِمًا مُهاجِرًا كان يُبايِعُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما بايَعه الأنصارُ لَيلةَ العَقَبةِ، وإنَّما دعاهم إلى تحقيقِ الإيمانِ وتكميلِه بأداءِ ما يجِبُ مِن تمامِه باطِنًا وظاهِرًا). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٨٩، ٣٩٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٨، ٢٣٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٧٨).

قال ابن عطية: (وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قال الطَّبَريُّ: المعنى: إنْ كنتُم مؤمِنينَ في حالٍ مِن الأحوالِ فالآنَ.

وهذا معنًى ليس في ألفاظِ الآيةِ، وفيه إضمارٌ كثيرٌ، وإنَّما المعنى عندي أنَّ قولَه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، يَقتَضي أن يُقدَّرَ بأثَرِه: فأنتم في رُتَبٍ شريفةٍ وأقدارٍ رفيعةٍ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: إنْ دُمْتُم على ما بدَأْتُم به). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٨).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٠).

وقال الشوكاني: (﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بما أخَذ عليكم مِن الميثاقِ، أو بالحُجَجِ والدَّلائلِ، أو ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بسببٍ مِن الأسبابِ، فهذا مِن أعظَمِ أسبابِه، وأوضَحِ مُوجِباتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠١).

وقيل: إنْ كنتُم مؤمنينَ باللهِ خالِقِكم. وكانوا يَعترِفون بهذا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٩).

وقيل: إنْ كنتُم مؤمنينَ فالْزَموا الإيمانَ باللهِ ورسولِه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٣٧٨).

أَوۡ نَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تَوطِئةَ ما يُوجِبُ الإيمانَ، وذكَرَ دُعاءَ الرَّسولِ إيَّاهم للإيمانِ- ذكَرَ أنَّه تعالى هو المُنَزِّلُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما دعا به إلى الإيمانِ[1]، فقال:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾.

أي: اللهُ تعالى هو الَّذي يُنَزِّلُ على عَبدِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آياتِ القُرآنِ الواضِحةَ الدَّلالةِ على الحَقِّ؛ لِيُخرِجَكم بها مِن ظُلُماتِ الكُفرِ والشِّركِ والضَّلالِ والجَهلِ إلى نورِ الإيمانِ والتَّوحيدِ والهُدى واليَقينِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١، ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٩).

قال ابن عثيمين: (قَولُه: ﴿لِّيُخۡرِجَكُم﴾ يَحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بذلك الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: يكونُ سَببًا في إخراجِكم مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، ويحتمِلُ أن يعودَ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، أي: لِيُخرِجَكم اللهُ تعالى بهذه الآياتِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وكِلا المعنَيَينِ حَقٌّ؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال الله تعالى: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]؛ فالنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَبَبٌ في إخراجِ النَّاسِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وأمَّا المُخرِجُ حَقيقةً فهو اللهُ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٩). =

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١].

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَبالِغُ الرَّأفةِ والرَّحمةِ بكم؛ حيثُ أنزَلَ كُتُبَه، وأرسَلَ رُسُلَه لِهدايتِكم[1].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ أوَّلًا بالإيمانِ وبالإنفاقِ، ثمَّ أكَّد في الآيةِ المتقَدِّمةِ إيجابَ الإيمانِ؛ أتْبَعَه في هذه الآيةِ بتأكيدِ إيجابِ الإنفاقِ، والمعنى: أنَّكم ستَموتونَ فتُورَثونَ؛

---

= وقال البِقاعي: (﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ الَّتي أنتم مُنغَمِسونَ فيها؛ مِنَ الحُظوظِ والنَّقائِصِ الَّتي جُبِلَ عليها الإنسانُ، والغَفلةِ والنِّسيانِ- الحامِلةِ على تَراكُمِ الجَهلِ؛ فمَن آتاه سُبحانَه العِلمَ والإيمانَ فقد أخرجه مِن هذه الظُّلُماتِ الَّتي طرَأَت عليه ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ الَّذي كان وَصفًا لِرُوحِه وفِطرتِه الأُولى السَّليمةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٦٥).

وقال ابن عثيمين: (المرادُ بالظُّلُماتِ: ظُلُماتُ الجَهلِ، وظُلُماتُ الشِّركِ، وظُلُماتُ العُدوانِ، وظُلُماتُ العِصيانِ، وكُلُّ ما خالف الحَقَّ فهو ظُلمةٌ، وكلُّ ما وافقَه فهو نُورٌ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠١).

فهلَّا قَدَّمْتُموه في الإنفاقِ في طاعةِ اللهِ تعالى[١]؟!

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: وما الَّذي يَمنَعُكم مِنَ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ مِمَّا رَزَقكم، والحالُ أنَّ كلَّ أملاكِ الخَلقِ صائِرةٌ بعدَ مَوتِهم إلى اللهِ تعالى وَحْدَه؟! فلا معنى للبُخلِ بشَيءٍ لا تَملِكونَه حَقيقةً، وأنتم عنه زائِلونَ[٢]!

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ تعالى أنَّ الإنفاقَ فَضيلةٌ؛ بيَّنَ أنَّ المُسابَقةَ في الإنفاقِ تَمامُ الفَضيلةِ[٣].

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾.

أي: لا يَتَساوى في الفَضلِ والأجْرِ مَن أنفَقَ منكم -أيُّها المُؤمِنونَ- في سَبيلِ اللهِ قبْلَ الفَتحِ[٤] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجُملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن كثير: (أي: أنفِقوا ولا تَخشَوا فَقرًا وإقلالًا؛ فإنَّ الَّذي أنفَقتُم في سَبيلِه هو مالِكُ السَّمَواتِ والأرضِ، وبيَدِه مَقاليدُهما، وعندَه خَزائِنُهما، وهو مالِكُ العَرشِ بما حوى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٢).

(٤) قيل: المرادُ بالفَتحِ هنا: صُلحُ الحُدَيْبِيَةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ، ومالَ إليه ابنُ عاشور، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، =

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

وممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الشَّعبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢).

قال السعدي: (المرادُ بالفَتحِ هنا: هو فَتحُ الحُدَيبيَةِ، حينَ جرى مِنَ الصُّلحِ بيْنَ الرَّسولِ وبيْنَ قُرَيشٍ مِمَّا هو أعظَمُ الفُتوحاتِ الَّتي حَصَل بها نَشرُ الإسلامِ، واختِلاطُ المُسلِمينَ بالكافِرين، والدَّعوةُ إلى الدِّينِ مِن غيرِ مُعارِضٍ؛ فدَخَل النَّاسُ مِن ذلك الوَقتِ في دينِ اللهِ أفواجًا، واعتَزَّ الإسلامُ عِزًّا عَظيمًا، وكان المسلِمونَ قبْلَ هذا الفَتحِ لا يَقدِرونَ على الدَّعوةِ إلى الدِّينِ في غيرِ البُقعةِ الَّتي أسلَمَ أهلُها، كالمدينةِ وتوابِعِها، وكان مَن أسلَمَ مِن أهلِ مَكَّةَ وغَيرِها مِن ديارِ المُشرِكينَ يُؤذَى ويُخافُ؛ فلذلك كان مَن أسلَمَ قبْلَ الفَتحِ وأنفَقَ وقاتَلَ أعظَمَ دَرَجةً وأجرًا وثَوابًا مِمَّن لم يُسلِمْ ويُقاتِلْ ويُنفِقْ إلَّا بعدَ ذلك، كما هو مُقتضى الحِكمةِ؛ ولذلك كان السَّابِقونَ وفُضَلاءُ الصَّحابةِ غالِبُهم أسلَمَ قبْلَ الفَتحِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩). ويُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٢٥، ٢٦).

وقال ابن تيميَّةَ: (قال صلَّى الله عليه وسلَّم في الحديثِ الصَّحيحِ: «لا تَسُبُّوا أصحابي؛ فوالَّذي نفْسي بيَدِه، لو أنفَقَ أحَدُكم مِثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلَغ مُدَّ أحَدِهم ولا نَصيفَه» [البخاري «٣٦٧٣»، ومسلم «٢٥٤٠»]. وهذا قاله لخالدِ بنِ الوليدِ لَمَّا تشاجَر هو وعبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ؛ لأنَّ عبدَ الرَّحمنِ بنَ عَوفٍ كان مِن السَّابِقينَ الأوَّلينَ، وهم الَّذين أنفَقوا مِن قبْلِ الفتحِ وقاتَلوا، وهو فتحُ الحُدَيبيَةِ، وخالدٌ هو وعَمرُو بنُ العاصِ وعُثمانُ بنُ طَلحةَ أسلَموا في مدَّةِ الهُدنةِ بعدَ الحُدَيبيَةِ وقبْلَ فتحِ مكَّةَ، فكانوا مِن المُهاجِرينَ التَّابِعينَ، لا مِن المهاجِرينَ الأوَّلينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٣٨٩). ويُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢).

وقيل: المرادُ بالفَتحِ هنا: فَتحُ مَكَّةَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: الواحديُّ -ونسَبَه إلى جميعِ المفَسِّرينَ-، والزمخشريُّ، وابنُ جُزَي -وقال: (هو الأظهَرُ والأشهَرُ)-، وابنُ كثير -ونسَبَه إلى الجُمهورِ-، وذهب إليه البِقاعي.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٨). =

وقاتَلَ أعداءَ الدِّينِ، مع مَنْ أنفَقَ بعْدَ الفَتحِ وقاتَلَ[١]!

قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾.

أي: أولئك -الَّذين أنفَقوا قبْلَ الفَتحِ وقاتَلوا- أفضَلُ دَرَجةً عندَ اللهِ مِن الَّذين أنفَقوا مِن بَعدِ الفَتحِ وقاتَلوا[٢].

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان التَّفضيلُ مُفهِمًا اشتِراكَ الكُلِّ في الفَضلِ؛ صَرَّح به ترغيبًا في الإنفاقِ على كُلِّ حالٍ[٣].

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وزيدُ بنُ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٠).

قيل: المُرادُ بهذا الفتحِ فتحُ مَكَّةَ؛ لأنَّ إطلاقَ لفظِ الفتحِ فِي المتعارَفِ يَنْصَرِفُ إليه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٥)، ((الاستذكار)) لابن عبد البَرِّ (٥/ ١٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٥)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٢٥، ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٩).

وأيضًا لَمَّا كان التَّفضيلُ بيْن الأمورِ قد يُتوَهَّمُ منه نَقصٌ وقَدحٌ في المفضولِ؛ احترَز تعالى مِن هذا بقَولِه[1]:

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: وكُلٌّ مِنَ القِسمَينِ قد وعَدَه اللهُ الفَوزَ بالجَنَّةِ، وإن كان السَّابِقونَ أفضَلَ مِن اللَّاحِقينَ[2].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان زَكاءُ الأعمالِ إنَّما هو بالنِّيَّاتِ، وكان التَّفضيلُ مَناطَ العِلمِ؛ قال مُرَغِّبًا في إحسانِ النِّيَّاتِ، مُرَهِّبًا مِنَ التَّقصيرِ فيها[3]:

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على أعمالِكم ونيَّاتِكم فيها، وسيُجازيكم عليها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

قال ابنُ كثير: (أي: فلِخبرتِه فاوَتَ بيْنَ ثَوابِ مَن أنفَقَ مِن قَبلِ الفَتحِ وقاتَلَ، ومَن فَعَل ذلك بعدَ ذلك؛ وما ذلك إلَّا لعِلْمِه بقَصدِ الأوَّلِ وإخلاصِه التَّامِّ، وإنفاقِه في حالِ الجَهدِ والقِلَّةِ والضِّيقِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ اللهَ يَعلَمُ أسبابَ الإنفاقِ وأوقاتَه وأعذارَه، ويَعلَمُ أحوالَ الجِهادِ ونَوايا المجاهِدينَ، فيُعطي كُلَّ عامِلٍ على نِيَّةِ عَمَلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٦).

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ الله تعالى حَثَّ على النَّفَقةِ في سَبيلِه؛ لأنَّ الجِهادَ مُتوَقِّفٌ على النَّفَقةِ فيه، وبَذْلِ الأموالِ في التَّجَهُّزِ له، فقال تعالى[1]:

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾.

أي: مَن هذا الَّذي يُنفِقُ في سَبيلِ اللهِ مِن طَيِّبِ مالِه مُحتَسِبًا في نَفَقتِه، مُبتَغِيًا ما عِندَ رَبِّه بلا مَنٍّ ولا أذًى، فيُثيبَه اللهُ على ذلك الإنفاقِ أُجورًا كَثيرةً، قد تَبلُغُ سَبْعَمِئةِ ضِعْفٍ أو أكثَرَ، وله ثَوابٌ حَسَنٌ، وجزاءٌ جَميلٌ[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٦، ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٢، ٢٤٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا ﴾ قال عمرُ بنُ الخطَّابِ: هو الإنفاقُ في سبيلِ اللهِ. وقيل: هو النَّفَقةُ على العيالِ. والصَّحيحُ أنَّه أعَمُّ مِنْ ذلك، فكلُّ مَن أنْفَق في سبيلِ اللهِ بنِيَّةٍ خالِصةٍ وعزيمةٍ صادِقةٍ دَخَل في عُمومِ هذه الآيةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤).

قيل: المرادُ بالأجرِ الكريمِ: الجنَّةُ، وممَّن اختاره: ابنُ جرير، وابن الجوزي، والقرطبيُّ، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٢).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني: جزاءً حسَنًا في الجنَّةِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣٩).

ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥).

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما تَصَدَّقَ أحَدٌ بصَدَقةٍ مِن طَيِّبٍ -ولا يَقبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه، وإنْ كانت تَمْرةً، فتَربو في كَفِّ الرَّحمنِ حتَّى تكونَ أعظَمَ مِنَ الجَبَلِ، كما يُرَبِّي أحَدُكم فَلُوَّه أو فَصِيلَه[1]))[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾ دَليلٌ على أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يُحقِّقَ إيمانَه ويُثَبِّتَه، وكُلَّما رأَى فيه تَزعزُعًا استعاذ باللهِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، ومضَى إلى سبيلِه، وأنْ يُنْفِقَ مِن المالِ، والمالُ محبوبٌ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴾ [الفجر: ٢٠]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات: ٨]، ولا يمكِنُ أنْ يَبْذُلَ الإنسانُ شيئًا محبوبًا إليه إلَّا لِمَا هو أحَبُّ، فإذا بَذَلَ الإنسانُ المحبوبَ إليه ابتِغاءَ لِرضوانِ اللهِ، عَلِمْنا أنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ رِضوانَ اللهِ أكثرَ مِن المالِ، وبذلك يَتَحَقَّقُ الإيمانُ[3].

٢- قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾، قَولُه: ﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ ﴾: أي: ليسَت لكم بالحَقيقةِ، وإنَّما انتَقَلتْ إليكم مِن غَيرِكم، وكما وصَلَتْ إليكم تَترُكونَها لغَيرِكم! وفيه تزهيدٌ فيما بيَدِ النَّاسِ؛ إذ مَصيرُه إلى غَيرِه، وليس له مِنه

---

(١) الفَلُوُّ: المُهْرُ (وهو الصَّغيرُ مِن أولادِ الفَرَسِ)؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّه فليَ عن أُمِّه، أي: فُصِلَ وعُزِلَ. والفصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِل من إرضاعِ أمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٢) رواه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤) واللفظ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٧٧).

إلَّا ما جاء في الحَديثِ: ((يقولُ ابنُ آدَمَ: مالي مالي! وهل لك يا ابنَ آدَمَ مِن مالِك إلَّا ما أكَلْتَ فأفنَيتَ، أو لَبِسْتَ فأبلَيتَ، أو تصَدَّقْتَ فأمضَيتَ؟!))[١]، وقيل لأعرابيٍّ: لِمَن هذه الإبِلُ؟ فقال: هي للهِ تعالى، عندي[٢]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ دَليلٌ على أنَّ كُلَّ عَمَلٍ صالحٍ يُسبَقُ إليه أفضَلُ مِمَّا يُؤَخَّرُ، مِن غيرِ أنْ نُلْحِقَ بالمتأخِّرِ تَقصيرًا[٣].

٤- يَجِبُ أنْ نَكُفَّ عن مَساوِئِ الصَّحابةِ، فلا نَذكُرَهم إلَّا بما يَستَحِقُّونَه مِن الثَّناءِ الجَميلِ، وأنْ نُطَهِّرَ قُلوبَنا مِن الغِلِّ والحِقدِ على أحَدٍ منهم؛ لقَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقولِه فينا: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤] [الحشر: ١٠].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ فَضيلةَ العَمَلِ على قَدْرِ رُجوعِ مَنفَعتِه إلى الإسلامِ والمُسلِمينَ، أو لكَثرةِ المِحْنةِ به؛ لقِلَّةِ المُسلِمينَ وكَثرةِ الكُفَّارِ، وهو مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾[٥] [التوبة: ١١٧]. فالنَّفَقةُ قبْلَ الفَتحِ كانت أعظَمَ؛ لأنَّ حاجةَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٨) من حديث عبدِ الله بنِ الشِّخِّيرِ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٠١)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٥).

النَّاسِ كانت أكثَرَ لضَعفِ الإسلامِ، وفِعْلَ ذلك كان على المُنفِقينَ حينَئذٍ أشَقَّ. واللهُ أعلَمُ[١]. ويُؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ مَن أنفَقَ في شِدَّةٍ أعظَمُ أجرًا مِمَّن أنفَقَ في حالِ الرَّخاءِ[٢].

٦- قال الإمامُ مالِكٌ: (يَنبغي أن يُقَدَّمَ أهلُ الفَضلِ والعَزمِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾)[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ نَدْبٌ بَليغٌ مِن اللهِ تعالى إلى الإنفاقِ في سَبيلِه -بعْدَ الأمرِ به، والتَّوبيخِ على تَرْكِه، وبَيانِ دَرجاتِ المُنفِقينَ[٤]-، وترغيبُ النَّاسِ في أن يُنفِقوا أموالَهم في نُصرةِ المُسلِمينَ، وقِتالِ الكافِرينَ، ومُواساةِ فُقَراءِ المُسلِمينَ[٥]، وسمَّى ذلك الإنفاقَ قرضًا حسنًا؛ حَثًّا للنُّفوسِ وبَعثًا لها على البَذلِ؛ لأنَّ الباذِلَ متى عَلِمَ أنَّ عَينَ مالِه يعودُ إليه -ولا بُدَّ- طَوَّعَت له نَفْسُه بَذْلَه، وسَهُلَ عليه إخراجُه، فإنْ عَلِمَ أنَّ المُستَقرِضَ مَليءٌ وَفِيٌّ مُحسِنٌ كان أبلَغَ في طِيبِ قَلبِه وسَماحةِ نَفْسِه، فإنْ عَلِمَ أنَّ المُستَقرِضَ يَتَّجِرُ له بما اقتَرَضه ويُنَمِّيه له ويُثَمِّرُه حتَّى يَصيرَ أضعافَ ما بَذَله، كان بالقَرضِ أسمَحَ وأسمَحَ، فإنْ عَلِمَ أنَّه مع ذلك كُلِّه يَزيدُه مِن فَضلِه وعَطائِه أجرًا آخَرَ مِن غَيرِ جِنسِ القَرضِ، وأنَّ ذلك الأجرَ حَظٌّ عَظيمٌ وعَطاءٌ كَريمٌ؛ فإنَّه لا يتخَلَّفُ عن قَرضِه إلَّا لآفةٍ في نَفْسِه مِنَ البُخلِ والشُّحِّ، أو عَدَمِ الثِّقةِ بالضَّمانِ! وذلك مِن ضَعفِ إيمانِه؛ ولهذا كانت الصَّدَقةُ بُرهانًا لصاحِبِها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٤).

وهذه الأمورُ كُلُّها تحتَ هذه الألفاظِ الَّتى تضَمَّنَتْها الآيةُ؛ فإنَّه سُبحانَه سَمَّاه قَرضًا، وأخبَرَ أنَّه هو المُقتَرِضُ لا قَرْضَ حاجةٍ، ولكِنْ قَرْضَ إحسانٍ إلى المُقرِضِ، استدعاه لمُعامَلتِه، ولِيَعرِفَ مِقدارَ الرِّبحِ فهو الَّذي أعطاه مالَه، واستدعَى منه مُعامَلتَه به، ثمَّ أخبَرَ عمَّا يَرجِعُ إليه بالقَرْضِ، وهو الأضعافُ المُضاعَفةُ، ثمَّ أخبَرَ عَمَّا يُعطيه فَوقَ ذلك مِنَ الزِّيادةِ، وهو الأجرُ الكريمُ، وحيث جاء هذا القَرضُ في القُرآنِ قَيَّده بكَونِه حَسَنًا، وذلك يَجمَعُ أُمورًا ثلاثةً:

**أحدُها**: أن يكونَ مِن طَيِّبِ مالِه، لا مِن رَديئِه وخَبيثِه.

**الثَّاني**: أن يُخرِجَه طَيِّبةً به نَفْسُه، ثابتةً عندَ بَذلِه؛ ابتغاءَ مَرضاةِ اللهِ.

**الثَّالِثُ**: ألَّا يَمُنَّ به ولا يُؤذِيَ.

فالأوَّلُ: يَتعَلَّقُ بالمالِ، والثَّاني: يتعَلَّقُ بالمُنفِقِ بَيْنَه وبيْنَ اللهِ، والثَّالِثُ: بَيْنَه وبيْنَ الآخِذِ[1].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ * وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ ﴾ لَمَّا حثَّهم على تجديدِ الإيمانِ على سبيلِ الاستِمرارِ بالتَّعجُّبِ مِن تركِ ذلك، وكان كلُّ واحدٍ يدَّعي العراقةَ في الخَيرِ؛ هيَّجهم وألهبَهم بقولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتِ ﴾ أنَّ مِن لُطفِه سُبحانَه وعِنايتِه بكم أنَّه لم يَكتَفِ بمُجَرَّدِ دَعوةِ الرَّسولِ الَّذي هو أشرَفُ العالَمِ، بل أيَّده

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٦٥).

بالمُعجزاتِ، ودَلَّكم على صِدقِ ما جاء به بالآياتِ البَيِّناتِ[١].

٣- قال عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ إثباتُ العِلَلِ والحِكَمِ لأفعالِ اللهِ تعالى[٢].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا المعنى الَّذي تضَمَّنَتْه هذه الآيةُ الكريمةُ جاء مُبَيَّنًا في قَولِه تعالى في (الطَّلاقِ): ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[الطلاق: ١٠، ١١]، وآيةُ (الطَّلاقِ) هذه بَيَّنَت أنَّ آيةَ (الحَديدِ) مِن العامِّ المخصوصِ، وأنَّه لا يُخرَجُ بهذا القُرآنِ العَظيمِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ إلَّا مَن وَفَّقَهم اللهُ تعالى للإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ فقَولُه تعالى في (الحَديدِ): ﴿لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾، أي: بشَرطِ الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، بدَليلِ قَولِه تعالى: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[الطلاق: ١١]؛ فالدَّعوةُ إلى الإيمانِ بالقُرآنِ، والخُروجِ بنُورِه مِن ظُلُماتِ الكُفرِ: عامَّةٌ، ولكِنَّ التَّوفيقَ إلى الخُروجِ به مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ خاصٌّ بمَن وَفَّقَهم اللهُ تعالى[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّ الرَّحمةَ بالمعنى الخاصِّ: للمُؤمِنينَ فقط[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تنبيهٌ على مُوجِبِ الإنفاقِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٠).

وهذا مِن أبلَغِ البَعثِ على الإنفاقِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الإشارةُ إلى اسمِ اللهِ «الآخِرِ»؛ فإنَّ اللهَ تعالى هو الأوَّلُ والآخِرُ، فإذا ثَبَتَ إرْثُه لهما لَزِمَ منه أنْ يكونَ هو الآخِرَ عزَّ وجلَّ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أنَّ الصَّحابةَ مَراتِبُ، وأنَّ الفَضلَ للسَّابِقِ، وفيه دليلٌ على تَنزيلِ النَّاسِ مَنازِلَهم[٣]، وأنَّ الأعمالَ تَتفاوَتُ، والعُمَّالَ يَتفاوتونَ أيضًا؛ فَهُم كلُّهم صَحابةٌ، لكنْ لا يَستَوونَ[٤]. فهذه الآيةُ أصلٌ في تفاضُلِ أهلِ الفَضلِ فيما فُضِّلوا فيه، وأنَّ الفَضلَ ثابِتٌ للَّذين أسلَموا بعْدَ الفَتحِ مِن أهلِ مَكَّةَ وغَيرِهم[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أنَّ السَّبْقَ إلى الإيمانِ وإلى العَمَلِ الصَّالحِ مَنقَبةٌ، ومِن أسبابِ الرُّتَبِ العاليةِ[٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ نفْيُ التَّساوي بيْنَ النَّاسِ، والعَجَبُ أنَّنا نَسمَعُ مَن يُدَندِنُ كثيرًا فيقولُ: «إنَّ دِيْنَ الإسلامِ دِينُ المُساواةِ»! وهذا غلَطٌ على دِينِ الإسلامِ؛ فدِينُ الإسلامِ ليس دِينَ المُساواةِ، ولكِنَّه دِينُ العَدْلِ، والعَدْلُ هو: إعطاءُ كلِّ أحَدٍ ما يَستَحِقُّه؛ ولذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٧٨)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ١١٤).

تَجِدُ أكثرَ ما في القرآنِ نَفيَ المُساواةِ، وليس إثباتَها! كقَولِه تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ [الرعد: ١٦]، وكقَولِه: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١] [الزمر: ٩].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أنَّ السَّابِقينَ الأوَّلينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ أفضَلُ مِن سائرِ الصَّحابةِ، والسَّابِقونَ الأوَّلُون هم الَّذين أنفَقوا مِن قبْلِ الفَتحِ وقاتَلوا، والمرادُ بالفَتحِ صُلْحُ الحُدَيبيَةِ؛ فإنَّه كان أوَّلَ فَتْحِ مَكَّةَ[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ دليلٌ على فَضيلةِ أبي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنه؛ لإنفاقِه مالَه على رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قبْلَ الفَتحِ[٣].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ أنَّه ليس كلُّ مَن لم يَكفُرْ أو مَن لم يأتِ بكَبيرةٍ أفضَلَ ممَّن تاب عنها مُطلَقًا، بل قد يكونُ التَّائِبُ مِن الكُفرِ والفُسوقِ أفضَلَ مِمَّن لم يَكفُرْ ولم يَفْسُقْ؛ فإنَّ اللهَ تعالى فضَّلَ الَّذين أنفَقوا مِن قبْلِ الفَتحِ وقاتَلوا على الَّذين أنفَقوا مِن بَعْدُ وقاتَلوا، وأولئك كلُّهم أسلَموا بعدَ الكُفرِ، وهؤلاء فيهم مَن وُلِدَ على الإسلامِ! وفَضَّلَ السَّابِقينَ الأوَّلينَ على التَّابِعينَ لهم بإحسانٍ، وأولئك آمَنوا بعدَ الكُفرِ، وأكثرُ التَّابِعينَ وُلِدوا على الإسلامِ[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ دَلالةٌ على فَضلِ الصَّحابةِ كُلِّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢١٩).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ١٣٤).

رَضِيَ الله عنهم؛ حيث شَهِدَ اللهُ لهم بالإيمانِ، ووعَدَهم الجَنَّةَ[١].

١٥- قَولُه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إنَّما نبَّه بهذا؛ لئلَّا يُهدَرَ جانِبُ الآخَرِ بمَدحِ الأوَّلِ دونَ الآخَرِ، فيَتوَهَّمَ مُتوَهِّمٌ ذَمَّه؛ فلهذا عَطَف بمَدحِ الآخَرِ والثَّناءِ عليه، مع تَفضيلِ الأوَّلِ عليه[٢]، فمِن بلاغةِ الكلامِ الاحتِراسُ بدَفعِ ما يُتَوَهَّمُ وُقوعُه[٣]، فلمَّا كان تفضيلُ السَّابِقينَ قد يُفهَمُ منه أنْ لا فَضْلَ للَّاحِقينَ قال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي: كلٌّ مِن الَّذين أنفَقوا مِن قَبْلِ الفَتحِ وقاتَلوا، والَّذين أنفَقوا مِن بعدُ وقاتَلوا: وَعَدَهم اللهُ الحُسنى، يعني: الجَنَّةَ[٤].

١٦- المُبهَمُ[٥] لا يُقبَلُ حديثُه حتَّى يُعْلَمَ مَن هو؛ وذلك لِجَهالَتِنا بحالِه، إلَّا المُبهَمَ مِن الصَّحابةِ؛ فإنَّ إبهامَه لا يَضُرُّ حَديثَه؛ لأنَّ الصَّحابةَ كلَّهم عُدُولٌ ثِقاتٌ بشَهادةِ اللهِ تعالى لهم في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، ولِتَزكيتِه إيَّاهم في قَولِه تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[٦] [الفتح: ٢٩].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أنَّ كلَّ مَن لم يكُنْ -مِن الصَّحابةِ- مِن المنافقِينَ فهو مِن أهلِ الجَنَّةِ يَقينًا؛ لأنَّه قد وَعَدَهم اللهُ تعالى الحُسنى كلَّهم، وأخبَرَ أنَّه لا يُخلِفُ وَعْدَه، وأنَّ مَن سَبَقَتْ له الحُسنى فهو مُبعَدٌ مِن النَّارِ، لا يَسمَعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٤).

(٥) المبهمُ: هو الرَّاوي الَّذي لم يُسَمَّ، أو مَن سُمِّيَ ولا تُعرَفُ عينُه. يُنظر: ((اختصار علوم الحديث)) لابن كثير (ص: ٢١٨).

(٦) يُنظر: ((شرح المنظومة البيقونية)) لابن عثيمين (ص: ٧٣).

حَسيسَها، ولا يَحزُنُه الفَزَعُ الأكبَرُ، وهو فيما اشتَهَى خالِدٌ[١].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ يُؤَيِّدُ حديثَ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ -جلَّ جلالُه- يُرَبِّي صَدَقةَ المتصدِّقِ كما يُرَبِّي أحَدُكم فَلُوَّه، أو فَصيلَه))[٢]؛ فقد ذَكَر مُضاعَفتَها قبْلَ أجْرِها؛ لِيَكونَ الأجرُ على ما ربَّاه وأعظَمَه، لا على صَغيرِ ما أقرَضَه؛ جُودًا منه وكَرَمًا، وهو أعلَمُ[٣].

١٩- قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ في تسميةِ الصَّدقةِ بالقَرضِ، وإضافتِها إلى نفْسِه، وهي واصِلةٌ إلى غيرِه: إفادتُنا أنَّ المُتَقَرِّبَ إلى اللهِ بإعطاءِ الفَقيرِ مُعَظِّمٌ حَقَّه، فيَخْرُجُ مِنه: أنَّ المُتحَرِّيَ مَسَرَّةَ رَجُلٍ بإرفادِ مَن يُحِبُّه هو مُكرِمُه بذلك الرِّفْدِ، ومُستَوجِبٌ مِن عِندِه المكافأةَ على فِعْلِه[٤].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ كَرَمُ اللهِ تعالى؛ حيثُ سَمَّاه قَرضًا، والمالُ مالُه، والعَبدُ عَبدُه، ووَعَد بالمُضاعَفةِ عليه أضعافًا كَثيرةً، وهو الكَريمُ الوَهَّابُ[٥].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ إشارةٌ إلى شَيئَينِ: إلى الإخلاصِ، في قَولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ يعني: لا

---

(١) يُنظر: ((الفصل في الملل والأهواء والنحل)) لابن حزم (٤/ ١١٧)، ((الإصابة)) لابن حجر (١/ ١٦٣).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٢٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩).

يَرى سِوى اللهِ عزَّ وجلَّ. وإلى المُتابَعةِ، في قَولِه تعالى: ﴿حَسَنًا﴾؛ لأنَّ العَمَلَ الحَسَنَ ما كان مُوافِقًا للشَّريعةِ الإسلاميَّةِ.

والإخلاصُ والمُتابَعةُ هما شَرطانِ في كلِّ عَمَلٍ: الإخلاصُ لله سبحانَه وتعالى، والمتابعةُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

٢٢- القَرضُ الحَسَنُ في قَولِه تعالى: ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾: هو القَرضُ المُستَكمِلُ مَحاسِنَ نَوعِه؛ مِن كَونِه عن طِيبِ نَفسٍ، وبَشاشةٍ في وَجهِ المُستَقرِضِ، وخُلُوٍّ عن كُلِّ ما يُعَرِّضُ بالمِنَّةِ، أو بتَضييقِ أجَلِ القَضاءِ[٢].

٢٣- قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أَجْرٌ﴾ سَمَّى اللهُ عزَّ وجلَّ الثَّوابَ أجرًا؛ لأنَّه لا بُدَّ أنْ يَنالَه العامِلُ، فهو كأُجرةِ الأجيرِ؛ فلا بُدَّ أنْ يَنالَها العامِلُ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

- هو استِئنافٌ وقَعَ مَوقعَ النَّتيجةِ بعْدَ الاستدلالِ؛ فإنَّ أوَّلَ السُّورةِ قرَّرَ خُضوعَ الكائناتِ إلى اللهِ تعالى، وأنَّه تعالى المُتصرِّفُ فيها بالإيجادِ والإعدامِ وغيرِ ذلك؛ فهو القديرُ عليها، وأنَّه عليمٌ بأحوالِهم، مُطَّلِعٌ على ما تُضمِرُه ضَمائرُهم، وأنَّهم صائرونَ إليه فمُحاسِبُهم؛ فلا جَرَمَ تَهيَّأَ المقامُ لإبلاغِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٧).

التَّذكيرَ بالإيمانِ به إيمانًا لا يَشوبُه إشراكٌ، والإيمانِ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ قد تَبيَّن صِدقُه بالدَّلائلِ الماضيةِ الَّتي دلَّت على صِحَّةِ ما أخبَرَهم به ممَّا كان مَحلَّ ارتيابِهم وتَكذيبِهم، كما أشار إليه قولُه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٨]، فذلك وجْهُ عَطفِ ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ على مُتعلَّقِ الإيمانِ، مع أنَّ الآياتِ السَّابقةَ ما ذَكَرَت إلَّا دَلائلَ صِفاتِ اللهِ دونِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فالخِطابُ بـ﴿ءَامِنُواْ﴾ للمُشرِكين[١].

- قولُه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ فيه تَخصيصُ الإنفاقِ بالذِّكرِ؛ للتَنويهِ بشأْنِه هنا[٢].

- وجِيءَ بالمَوصولِ في قولِه: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (وأنْفِقوا مِن أموالِكم)، أو (ممَّا رزَقَكم اللهُ)؛ لِمَا في صِلةِ الموصولِ مِن التَّنبيهِ على غفْلةِ السَّامِعينَ عن كَونِ المالِ للهِ، فلمَّا أمَرَهم بالإنفاقِ منه على عِبادِه، كان حقًّا عليهم أنْ يَمتثِلوا لذلك، كما يَمتثِلُ الخازنُ أمْرَ صاحبِ المالِ إذا أمَرَه بإنفاذِ شَيءٍ منه إلى مَن يُعَيِّنُه. وأيضًا وُضِعَ قولُه: ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِ﴾ مَوضِعَ (ممَّا رزَقْناكم) -كما في سائرِ المواضِعِ- تَسهيلًا على بَذْلِها، وإيذانًا بأنَّ الأموالَ عَواريُّ ودُوَلٌ[٣].

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿مُّسۡتَخۡلَفِينَ﴾ للمُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ، لا للطَّلَبِ؛ لاستِفادةِ الطلَبِ مِن فِعلِ ﴿جَعَلَكُم﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ لتَأكيدِ الطَّلَبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٩).

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ تفريعٌ وتَسبُّبٌ على الأمرِ بالإيمانِ والإنفاقِ؛ لإفادةِ تَعليلِه، كأنَّه قِيل: لأنَّ الَّذين آمَنوا وأنْفَقوا أعدَدْنا لهم أجْرًا كَبيرًا[١].

- وقولُه: ﴿مِنكُمۡ﴾ (مِن) للتَّبعيضِ، أي: الَّذين آمَنوا، وهم بَعضُ قومِكم، وفي هذا إغراءٌ لهم بأنْ يُماثِلوهم[٢].

- ويجوزُ أنْ يكونَ فِعلَا المُضِيِّ (آمَنوا - أنفَقوا) في قولِه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ﴾ مُستعمَلَينِ في معْنى المضارعِ؛ للتَّنبيهِ على إيقاعِ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وعْدٌ بالأجرِ، وفيه مُبالَغاتٌ؛ بجَعْلِ الجُملةِ اسميَّةً، وإعادةِ ذِكرِ الإيمانِ والإنفاقِ، وبِناءِ الحكْمِ على الضَّميرِ، وتَنكيرِ الأجْرِ، ووصْفِه بالكُبْرِ[٤].

- وحُذِفَ مَفعولُ (أَنْفَقُوا)؛ للمُبالَغةِ في الحَثِّ على الإنفاقِ، وعدَمِ البُخلِ بالمالِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ ...﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَوبيخِهم على ترْكِ الإيمانِ حسَبَما أُمِروا به، بإنكارِ أنْ يكونَ لهم في ذلك عُذرٌ ما في الجُملةِ، على أنَّ ﴿لَا تُؤۡمِنُونَ﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿لَكُمۡ﴾، والعاملُ ما فيه مِن مَعْنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥٦).

الاستِقرارِ، أيْ: أيُّ شَيءٍ حصَلَ لكُم غيرَ مؤمنينَ؟! على تَوجيهِ الإنكارِ والنَّفيِ إلى السَّببِ فقطْ مع تَحقُّقِ المسبَّبِ، لا إلى السَّببِ والمسبَّبِ جميعًا، فيَكونُ مَضمونُ الجُملةِ الحاليةِ مُحقَّقًا؛ فإنَّ كُلًّا مِن عدَمِ الإيمانِ وعدَمِ الرَّجاءِ أمرٌ مُحقَّقٌ قد أُنكِرَ ونُفِيَ سَببُه(١).

- قولُه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿لَا تُؤۡمِنُونَ﴾، وهي مُفيدةٌ لتَوبيخِهم على الكُفرِ معَ تَحقُّقِ ما يُوجِبُ عدَمَه، بعْدَ تَوبيخِهم عليهِ مع عدَمِ ما يُوجِبُه، أيْ: وأيُّ عذْرٍ في ترْكِ الإيمانِ والرَّسولُ يَدعُوكم إليهِ، ويُنبِّهُكم عليه(٢)؟!

- وجُملةُ ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مُستأنَفةٌ، وجَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾(٣).

- واسمُ الفاعلِ في قولِه: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ مُستعمَلٌ في المُستقبَلِ، بقَرينةِ وُقوعِه في سِياقِ الشَّرطِ، أي: فقدْ حصَلَ ما يَقتضي أنْ تُؤمِنوا مِن السَّببِ الظَّاهرِ، والسَّببِ الخفِيِّ المُرتكِزِ في الجِبِلَّةِ(٤). وذلك على قولٍ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ استِئنافٌ ثالثٌ انتقَلَ به الخِطابُ إلى المؤمنينَ، والخطابُ هنا وإنْ كان صالحًا لتَقريرِ ما أفادَتْه جُملةُ ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الحديد: ٨]، ولكنَّ أُسلوبَ النَّظمِ وما عُطِفَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٦٩، ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذه الجُملةِ يَقتضيانِ أنْ تكونَ استئنافًا انتقاليًّا، هو مِن حُسْنِ التَّخلُّصِ[١] إلى خِطابِ المسلِمينَ، مع الدَّلالةِ على تَقريرِ ما قبْلَه، ولا تَفوتُه الدَّلالةُ على تَقريرِ ما قبْلَه؛ لأنَّ التَّقريرَ يَحصُلُ مِن انتِسابِ المعْنيَينِ: معنَى الجُملةِ السَّابقةِ، ومعْنى هذه الجُملةِ الموالِيةِ؛ فهذه الجُملةُ بمَوقعِها ومعْناها وعِلَّتِها وما عُطِفَ عليها؛ أفادتْ بَيانًا، وتأْكيدًا، وتَعليلًا، وتَذييلًا[٢]، وتَخلُّصًا لغرَضٍ جديدٍ، وهي أغراضٌ جمَعَتْها جمْعًا بلَغَ حدَّ الإعجازِ في الإيجازِ، مع أنَّ كلَّ جُملةٍ منها مُستقِلَّةٌ بمعنًى عظيمٍ مِن الاستدلالِ والتَّذكيرِ والإرشادِ والامتنانِ[٣].

-وفي قَولِه: ﴿يُنَزِّلُ﴾ خُصوصيَّتَينِ؛ إحداهُما: التَّعبيرُ بصيغةِ (فعَّل) الدَّالَّةِ على التَّكريرِ، والثَّانيةُ: التَّعبيرُ بصيغةِ المُضارِعِ الدَّالَّةِ على التَّجدُّدِ والاستِمرارِ؛ لأنَّ المَقامَ للتَّبشيرِ بزيادةِ الإخراجِ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النُّورِ يَومًا فيَومًا، وفي كلِّ

---

(١) حُسنُ التَّخَلُّصِ: هو الانتِقالُ ممَّا ابتُدِئَ به الكلامُ إلى المقصودِ، أو مِن مَوضوعٍ إلى موضوعٍ آخَرَ بأسلوبٍ حَسَنٍ مُستطابٍ، على وَجهٍ سَهلٍ دَقيقِ المعنى، بحيث لا يَشعُرُ السَّامِعُ بالانتقالِ مِن المعنى الأوَّلِ إلَّا وقد وقعَ عليه الثَّاني؛ لشِدَّةِ الالتِئامِ بيْنَهما. وحُسنُ التَّخَلُّصِ مُتشابِهٌ جِدًّا مع الاستِطرادِ، إلَّا أنَّ بيْنَهما فَرقًا دقيقًا، بيانُه: أنَّ التَّخَلُّصَ تَركُ ما كان الكلامُ فيه بالكُلِّيَّةِ، والإقبالُ على ما تُخُلِّصَ إليه. والاستِطرادُ: مُرورٌ بذِكرِ الأمرِ الَّذي استُطرِدَ إليه مُرورًا كالبَرقِ الخاطِفِ، ثمَّ تَرْكُه والعودةُ إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكَلِّمَ لم يَقصِدْه، وإنَّما عرَضَ عُروضًا. يُنظر: ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ٣٢٩)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥٦١).

(٢) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧١).

حالٍ. وانظُرْ قَولَه في الآيةِ الأُخرى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [آل عمران: ٣]، فلا تَجِدُ في ﴿نَزَّلَ﴾ إلَّا خُصوصيَّةً واحِدةً، وهي: التَّعبيرُ بصيغةِ (فعَّل)؛ لأنَّ المَقامَ للامتِنانِ، والامتِنانُ يَكونُ بما وقَعَ، لا بما سيَقَعُ[1].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) واللَّامِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ لأنَّ المُشرِكين في إعراضِهم عن دَعوةِ الإسلامِ قد حَسِبوها إساءةً لهم ولآبائِهم وآلِهَتِهم؛ فقد قالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾[2] [الفرقان: ٤١، ٤٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾ الآيةَ، الخِطابُ مُوجَّهٌ للمؤمنينَ، فقد أُعِيدَ الخِطابُ بلَونٍ غيرِ الَّذي ابتُدِئَ به في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾، ومِن لَطائِفِه أنَّه مُوجَّهٌ إلى المنافِقين الَّذين ظاهِرُهم أنَّهم مُسلِمونَ وهمْ في الباطنِ مُشرِكون، فهمُ الذين شَحُّوا بالإنفاقِ، ووَجْهُ إلحاقِ هذه الآيةِ وهي مَدنيَّةٌ بالمكِّيِّ مِن السُّورةِ -على قولٍ-: مُناسَبةُ استيعابِ أحوالِ المُمسِكينَ عن الإنفاقِ مِن الكُفَّارِ والمؤمنينَ؛ تَعريضًا بالتَّحذيرِ مِن خِصالِ أهلِ الكفْرِ؛ إذ قد سبَقَها قولُه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[3] [الحديد: ٧].

---

(١) يُنظر: ((موجز البلاغة)) ابن عاشور (ص: ٩، ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وهو تَوبيخٌ لهم على تَرْكِ الإنفاقِ المأمورِ به بعدَ تَوبيخِهم على ترْكِ الإيمانِ بإنكارِ أنْ يكونَ لهم في ذلكَ أيضًا عُذْرٌ مِن الأعذارِ[١].

- و(ما) استفهاميَّةٌ، مُستعمَلةٌ في اللَّومِ والتَّوبيخِ على عدَمِ إنفاقِهم في سَبيلِ اللهِ، و(أنْ) مَصدريَّةٌ، والمَصدرُ المُنسبِكُ منها والفِعلِ المنصوبِ بها في مَحلِّ جَرٍّ باللَّامِ، أو بـ(في) مَحذوفٍ، والتَّقديرُ: ما حصَلَ لكمْ في عدَمِ إنفاقِكم؟! أي: ذلك الحاصلُ أمرٌ مُنكَرٌ[٢].

- وحُذِفَ مفعولُ ﴿نُنفِقُواْ﴾؛ لظُهورِ أنَّه الَّذي بُيِّنَ حالُه فيما سبَقَ، وللمُبالَغةِ في الحثِّ على الإنفاقِ، وعدَمِ البُخلِ بالمالِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ حالٌ مِن فاعلِ (لَا تُنْفِقُوا) ومَفعولِه، مُؤكِّدةٌ للتَّوبيخِ؛ فإنَّ ترْكَ الإنفاقِ بغيرِ سَببٍ قَبيحٌ مُنكَرٌ، ومع تَحقُّقِ ما يُوجِبُ الإنفاقَ أشدُّ في القبْحِ، وأدخَلُ في الإنكارِ؛ فإنَّ بَيانَ بَقاءِ جَميعِ ما في السَّمواتِ والأرضِ مِن الأموالِ بالآخِرةِ للهِ عزَّ وجلَّ مِن غيرِ أنْ يَبقَى مِن أصحابِها أحدٌ؛ أقْوى في إيجابِ الإنفاقِ عليهم مِن بَيانِ أنَّها للهِ تعالى في الحقيقةِ، أو أنَّها انتقَلت إليهم مِن غيرِهم، كأنَّه قيلَ: وما لَكم في ترْكِ إنفاقِها في سَبيلِ الله والحالُ أنَّه لا يَبقَى لكُم منها شَيءٌ، بل تَبقى كلُّها للهِ تعالَى[٤]؟!

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه إظهارُ الاسمِ الجَليلِ في مَوقِعِ الإضمارِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٧١).

لِزيادةِ التَّقريرِ، وتَربيةِ المَهابةِ[١].

- وإضافةُ ﴿مِيرَٰثُ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مِن إضافةِ المصدَرِ إلى المفعولِ، وهو على حذْفِ مُضافٍ، تَقديرُه: أهْلِها، وليس المُرادُ مِيراثَ ذاتِ السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّ ذلك إنَّما يَحصُلُ بعْدَ انقراضِ النَّاسِ، فلا يُؤثِّرُ في المقصودِ مِن حثِّهم على الإنفاقِ[٢].

- قولُه: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ تَفاوُتِ درَجاتِ المُنفِقينَ حسَبَ تَفاوتِ أحوالِهم في الإنفاقِ، بعْدَ بَيانِ أنَّ لهم أجرًا كَبيرًا على الإطلاقِ؛ حثًّا لهم على تَحرِّي الأفْضلِ[٣].

- وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عمَّا يَجولُ في خَواطرِ كثيرٍ مِن السَّامعينَ مِن أنَّهم تأخَّروا عن الإنفاقِ غيرَ ناوينَ تَرْكَه، ولكنَّهم سيَتدارَكونه. وأُدمِجَ[٤] فيه تَفضيلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥٥).

(٤) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفِرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

جِهادِ بَعضِ المجاهِدينَ على بَعضٍ؛ لِمُناسَبةِ كَونِ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ يَشمَلُ إنفاقَ المجاهِدِ على نفْسِه في العُدَّةِ والزَّادِ، وإنفاقَه على غيرِه ممَّن لم يَستكمِلْ عُدَّتَه ولا زادَهُ؛ ولأنَّ مِن المسلمينَ مَن يَستطيعُ الجهادَ ولا يَستطيعُ الإنفاقَ، فأُرِيدَ ألَّا يُغفَلَ ذِكْرُه في عِدادِ هذه الفضيلةِ؛ إذ الإنفاقُ فيها وَسيلةٌ لها[١].

- وعطْفُ القِتالِ على الإنفاقِ للاستِطرادِ[٢]، أو للإيذانِ بأنَّه مِن أهمِّ مَوادِّ الإنفاقِ مع كَونِه في نفْسِه مِن أفضَلِ العباداتِ، وأنَّه لا يَخلُو مِن الإنفاقِ أصلًا[٣].

- ونفْيُ التَّسويةِ مُرادٌ به نفْيُها في الفَضيلةِ والثَّوابِ؛ فإنَّ نفْيَ التَّسويةِ في وصْفٍ يَقْتضي ثُبوتَ أصلِ ذلك الوصْفِ لجَميعِ مَن نُفِيَت عنهم التَّسويةُ، فنفْيُ التَّسويةِ كِنايةٌ عن تَفضيلِ أحدِ جانبَينِ، وتَنقيصِ الجانبِ الآخَرِ نقْصًا مُتفاوِتًا[٤].

- وحُذِفَ ثانِي الاستِواءَينِ -وهو قَسيمُ مَن أنفَقَ مِن قبْلِ الفتْحِ- إيجازًا؛ لأنَّ الاستِواءَ لا يتِمُّ إلَّا بعدَ شَيئينِ مُقدَّرينِ، وتَقديرُهما: لا يَستوي منكم مَن أنفَقَ مِن قبْلِ فتْحِ مكَّةَ وقوَّةِ الإسلامِ، ومَن أنفَقَ مِن بعْدِ الفتْحِ، فحُذِفَ؛ لوُضوحِ الدَّلالةِ عليه فيما بعْدَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٤).

(٢) الاستطراد: خروجُ المتكلِّمِ مِن الغرضِ الَّذي كان يتكلَّمُ فيه إلى غيرِه لِمُناسَبةٍ بيْنَهما، ثمَّ يرجِعُ إلى الأوَّل. ويكونُ المرورُ بذكرِ الأمرِ الَّذي استطرد إليه مرورًا كالبَرقِ الخاطِفِ ثمَّ تركه والعودة إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكلِّمَ لم يَقصِدْه، وإنَّما عرَض عروضًا. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦)، =

- وقولُه: ﴿مِنكُم﴾ حالٌ مِن ﴿مَّنْ أَنفَقَ﴾ أصْلُه نعْتٌ، قُدِّمَ للاهتِمامِ؛ تَعجيلًا بهذا الوصْفِ[١].

- وجِيءَ باسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ دونَ الضَّميرِ؛ لِما تُؤْذِنُ به الإشارةُ مِن التَّنويهِ والتَّعظيمِ، والإشعارِ ببُعدِ مَنزلتِهم، وعُلوِّ طَبقتِهم في الفضلِ، وللتَّنبيهِ على أنَّ المُشارَ إليهم جَديرونَ بما يُذكَرُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ مِن أجْلِ ما ذُكِرَ قبْلَه مِن الإخبارِ[٢].

- قولُه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ احتِراسٌ مِن أنْ يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ أنَّ اسمَ التَّفضيلِ مَسلوبُ المُفاضَلةِ للمُبالَغةِ، وعُبِّرَ بلَفظِ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لبَيانِ أنَّ الدَّرجةَ هي دَرجةُ الحُسنَى؛ ليَكونَ للاحتِراسِ معْنًى زائدٌ على التَّأكيدِ، وهو ما فيه مِن البَيانِ[٣].

- جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تَذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، مَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقعُ التَّعليلِ والبَيانِ لجُملةِ ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، وما بيْنَهما اعتِراضٌ[٥].

- و(مَن) استِفهاميَّةٌ، و﴿ٱلَّذِى يُقْرِضُ﴾ خبَرُها، و﴿ذَا﴾ مُعترِضةٌ لاستِحضارِ حالِ المُقترِضِ بمَنزلةِ الشَّخصِ الحاضرِ القريبِ. أو ﴿ذَا﴾ صِلةٌ، أي: زائدةٌ

---

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٥، ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧٧).

لمُجرَّدِ التأْكيدِ[١].

- والفاءُ في جُملةِ ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ فاءُ السَّببيَّةِ؛ لأنَّ المُضاعَفةَ مُسبَّبةٌ على القرْضِ، والمعْنى التَّحريضُ على الإقراضِ، وتَحصيلِ المُضاعَفةِ؛ لأنَّ الإقراضَ سَببُ المضاعَفةِ، فالعملُ لحُصولِ الإقراضِ كأنَّه عمَلٌ لحُصولِ المُضاعفةِ. أو على اعتبارِ مُبتدأٍ مَحذوفٍ؛ لِتَكونَ الجُملةُ اسميَّةً في التَّقديرِ، فيَقَعَ الخبرُ الفِعليُّ بعْدَ المبتدأِ مُفيدًا تَقويةَ الخبَرِ، وتأْكيدَ حُصولِه، واعتبارِ هذه الجُملةِ جوابًا لـ (مَن) المَوصولةِ بإشرابِ الموصولِ معْنى الشَّرطِ، وهو إشرابٌ كثيرٌ في القرآنِ[٢].

- وضَميرُ النَّصبِ في ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ﴾ عائدٌ إلى القرْضِ الحسَنِ، والكلامُ على حذْفِ مُضافٍ، تَقديرُه: فيُضاعِفَ جَزاءَه له[٣].

- وجُعِلَ الأجْرُ الكَريمُ مُقابِلَ القَرْضِ الحسَنِ؛ فقُوبِلَ بهذا مَوصوفٌ وصِفتُه بمِثْلِهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٢-١٥)

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بُشْرَىٰكُمُ﴾: أي: بِشارَتُكم الَّتي تُبَشَّرون بها، والبُشرى تُطلَقُ على الإخبارِ بما يَسُرُّ، وما يُعطَى للمُبشِّرِ، وأصلُ (بشر): ظهورُ الشَّيءِ مع حُسْنٍ وجَمالٍ[1].

﴿ٱنظُرُونَا﴾: أي: انتَظِرُونا، مِنَ النَّظَرِ بمعنى الانتِظارِ، ومِنْه النَّظِرةُ: وهي التَّأخيرُ، وأصلُ (نظر): يدُلُّ على تأمُّلِ الشَّيءِ ومُعايَنتِه، ومنه الانتظارُ، كأنَّه يَنظُرُ إلى الوقتِ الَّذي يَأتي فيه[2].

﴿نَقْتَبِسْ﴾: أي: نَستَضِئْ، والقَبَسُ: شُعْلَةُ النَّارِ، وأصلُ (قبس): يدُلُّ على صِفةٍ مِن صِفاتِ النَّارِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٥).

﴿مِن قِبَلِهِ﴾: أي: مِنْ جِهَتِه، وقِبَلُ: أي: الجهةُ المقابِلةُ، ويُقالُ: فَعَل ذلك قِبَلًا، أيْ: مُواجَهةً. وهذا مِن قِبَلِ فُلانٍ، أيْ: مِن عِنْدِه، كأنَّه هو الَّذي أقْبَل به عليكَ، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[١].

﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾: أي: أهْلَكْتُموها وأضْلَلْتُموها بالنِّفاقِ، أو: أوقَعْتُموها في بَليَّةٍ وعذابٍ. وفِتنتُهم أنفُسَهم في هذا الموضعِ كانت النِّفاقَ، والفِتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رَداءتِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥).

قال الشنقيطي: (الفِتنة أُطْلِقَتْ في القرآنِ ثلاثةَ إطلاقاتٍ، وبعضُهم يقولُ: أربعةُ إطلاقاتٍ. أمَّا الإطلاقاتُ الثَّلاثُ الَّتي لم يُخالِفْ فيها أحَدٌ:

فمنها إطلاقُ الفِتنةِ على الاختبارِ، وهو أشهَرُها في القرآنِ.

ومنها إطلاقُ الفتنةِ على الإحراقِ بالنَّارِ؛ لأنَّ العربَ تقولُ: فَتَنْتُ الذَّهبَ، إذا سَبَكْتَه في النَّارِ وأذَبْتَه، أي: لِيَتَبَيَّنَ أخالِصٌ هو أم زائِفٌ. ومِن إطلاقِ الفِتنةِ على مُطْلَقِ الوضعِ في النَّارِ قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات: ١٣]، أي: يُحْرَقون بالنَّارِ، والعياذُ بالله...

وكذلك تُطْلَقُ الفِتنةُ على نتيجةِ الاختبارِ إن كانت سيِّئةً خاصَّةً؛ كالمعاصي والكفرِ، فإنَّ الكفَّارَ والعُصاةَ اختَبَرَهم اللهُ بالأوامرِ والنَّواهي، فكانت نتيجةُ الاختبارِ فيهم غيرَ محمودةٍ، حيث كفَروا وعَصَوْا؛ ولِذا يُطْلَقُ اسمُ الفِتنةِ على الكفرِ والمعاصي، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣]، أي: حتَّى لا يَبقى شِرْكٌ.

الرَّابعُ: إطلاقُ الفتنةِ بمعنَى الحُجَّةِ، كما قاله بعضُ العلماءِ في قولِه...: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣]، أي: حُجَّتُهم). ((العذب النمير)) (١/ ٣٢٥). =

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾: أي: انتَظَرْتُم بالمُؤمِنينَ حُلولَ الهلاكِ بهم، أو: تأخَّرْتُم بالتَّوبةِ، وأصلُ (ربص): يدُلُّ على الانتِظارِ[1].

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾: أي: شَكَكْتُم، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[2].

﴿ٱلْغَرُورُ﴾: أي: الشَّديدُ التَّغريرِ والخِداعِ، والمرادُ به الشَّيطانُ، يقالُ: غَرَرتُ فُلانًا: إذا أصبْتَ غِرَّتَه ونِلتَ منه ما تُريدُه، مِنَ الغِرَّةِ: وهي الغَفلةُ[3].

﴿فِدْيَةٌ﴾: أي: عِوَضٌ وبَدَلٌ، وأصلُ (فدي): يدُلُّ على جَعْلِ شَيءٍ مكانَ شَيءٍ حِمًى له[4].

﴿مَأْوَىٰكُمُ﴾: أي: مَثْواكم ومَسكَنُكم، والمأوى: مكانُ كُلِّ شَيءٍ يَأْوِي إليه،

---

= وذكر ابنُ قُتَيْبَةَ مِن معاني الفِتنةِ أيضًا: الصَّدَّ والاستِزلالَ، واستشهَد بقولِه تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩] أي: يَصُدُّوك ويَستَزِلُّوك. وقولِه: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]، وقولِه: ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٢، ١٦٣] أي: صادِّينَ.

وذكر مِن معانيها: العِبْرةَ، واستشهَد بقولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]، وقولِه: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الممتحنة: ٥]، قال: (أي: يَعتَبِرونَ أمْرَهم بأمْرِنا، فإذا رأَوْنا في ضرٍّ وبلاءٍ، ورأَوْا أنفُسَهم في غِبْطةٍ ورَخاءٍ؛ ظنُّوا أنَّهم على حقٍّ، ونحن على باطلٍ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٦٠).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣، ٦٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧).

وأصلُ (أوى): يدُلُّ على التَّجَمُّعِ[١].

﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾: أي: مَصيرُكم، وأولَى بكم، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا فضلَ الإيمانِ واغتِباطَ أهلِه به يومَ القيامةِ: يومَ تَرى المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ يَومَ القيامةِ يَسْعى نُورُهم مِن أمامِهم، وبأيمانِهم، يُقالُ لهم: بِشارتُكم العَظيمةُ اليَومَ جَنَّاتٌ لكم، تجري مِن تَحتِها الأنهارُ، ماكِثينَ فيها أبَدًا، ذلك هو الفَوزُ العَظيمُ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى سوءَ عاقِبةِ المنافِقين، ويَذكُرُ جانبًا ممَّا يَدورُ بيْنَهم وبيْنَ المؤمنينَ مِن مُحاوَراتٍ، فيقول: يَومَ يَقولُ المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ للَّذين آمَنوا: انتَظِرونا نَنَلْ قَبَسًا مِن نُورِكم، فيُقالُ لهم: ارجِعوا خَلْفَكم، فاطلُبوا مِن هُنالِك نُورًا لأنفُسِكم! فضُرِبَ بيْنَهم وبيْنَ المُؤمِنينَ حاجِزٌ يَفصِلُ بيْنَهم، له بابٌ باطِنُه مِن جِهةِ المُؤمِنينَ فيه الجنَّةُ، وظاهِرُه مِن جِهةِ المُنافِقينَ يأتِيهم مِن قِبَلِه العَذابُ.

يُنادي المُنافِقونَ المُؤمِنينَ مِن وَراءِ السُّورِ الحاجِزِ بَيْنَهم: ألَمْ نَكُنْ مَعَكم في الدُّنيا نُصَلِّي ونَصومُ، ونَفعَلُ ما تَفعَلونَ؟! قالوا لهم: بلَى قد كُنتُم معنا في الدُّنيا في الظَّاهِرِ، ولكِنْ بلا إيمانٍ صادِقٍ؛ فأهلَكْتُم أنفُسَكم، وانتَظَرْتُم بالمُؤمِنينَ حُلولَ الهلاكِ بهم، وشَكَكْتُم في الحَقِّ، وخَدَعَتْكم أمانيُّكم الباطِلةُ، وخدَعكم باللهِ -تعالى- الشَّيطانُ!

فاليَومَ لا يُؤخَذُ مِنكم عِوَضٌ يُخَلِّصُكم مِن العَذابِ، ولا مِنَ الَّذين كَفَروا،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٠).

مَنزِلُكم النَّارُ، هي مَوضِعُ قُربِكم، ومَصيرُكم، وبِئسَ المَصيرُ هي!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أن أمَرَ اللهُ تعالى بالإيمانِ والإنفاقِ في سبيلِه، وحَثَّ على كُلٍّ منهما بوُجودِ مُوجِباتِه؛ فحَثَّ على الإيمانِ بوُجودِ الأسبابِ الَّتي تُساعِدُ عليه، وهي وُجودُ الرَّسولِ بيْنَ أظهُرِهم، وكتابِه الَّذي يُتلَى بيْنَ أيديهم، وحَثَّ على الإنفاقِ فأبان أنَّ المالَ مالُ اللهِ، وهو عارِيَّةٌ بيْنَ أيديهم ثمَّ يُرَدُّ إليه، وأنَّهم يَنالونَ على إنفاقِه الأجرَ العظيمَ في جنَّاتِ النَّعيمِ، ثمَّ ذَكَر أنَّ المنفِقينَ أوَّلَ الإسلامِ لهم مِن الأجرِ أكثَرُ مِمَّن أنفَقوا مِن بَعْدُ حِينَ كَثُرَ النَّصيرُ والمُعِينُ- ذكَرَ هنا حالَ المؤمِنينَ المنفِقينَ يومَ القيامةِ[1].

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي: يومَ[2] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٦٨).

(٢) قال الزمخشري: (﴿يَوْمَ تَرَى﴾ ظَرفٌ لِقَولِه: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾. أو مَنصوبٌ بإضمارِ «اذْكُرْ»؛ تعظيمًا لذلك اليَومِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٥).

ممَّن قال: إنَّ ﴿يَوْمَ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بقَولِه تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ -أي: وله أجرٌ كَريمٌ في اليَومِ الَّذي ترى فيه المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ يَسعى نُورُهم-: الزَّجَّاجُ، وابنُ عطية، والقرطبيُّ، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٣٤).

وممَّن قال بأنَّ ﴿يَوْمَ﴾ مَنصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ: جلالُ الدين المحلي، وابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩)، =

ترَى[١] المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ يومَ القيامةِ يَمضي نُورُهم معهم مِن أمامِهم، وبأيْمانِهم[٢].

= ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥).

وقيل: هذه الآيةُ تَتعَلَّقُ بقَولِه تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾... وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩).

(١) قال ابن عاشور: (الخِطابُ في ﴿تَرَى﴾ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ؛ لِيَكونَ على مِنْوالِ المُخاطَباتِ الَّتي قَبْلَه، أي: يومَ يَرى الرَّائي، والرُّؤيةُ بَصَريَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩).

وقال الألوسي: (الخِطابُ لكلِّ مَن تتأتَّى منه، أو لسيِّدِ المُخاطَبينَ صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٧٤). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥، ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩، ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٥، ٣٨٦).

قيل: ذلك يكونُ على الصِّراطِ. وممَّن نصَّ على هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٣٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٣).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ مسعود، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (ثمَّ يَنتهي النَّاسُ بعدَ مفارقتِهم مكانَ الموقفِ إلى الظُّلمةِ التي دونَ الصِّراطِ، وهي على جسرِ جهنَّمَ، كما تقدَّم عن عائشةَ: أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم سُئِل أينَ النَّاسُ ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]؛ فقال: «هم في الظُّلمةِ دونَ الجسرِ» [مسلم «٣١٥»]. وفي هذا الموضعِ يفترقُ المنافقونَ عن المؤمنينَ، ويتخلَّفونَ عنهم، ويسبِقُهم المؤمنونَ، ويُحالُ بينَهم وبينَهم بسورٍ يمنعُهم مِن الوصولِ إليهم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾). ((البداية والنهاية)) (٢٠/ ٨٠).

وقال ابنُ عاشور: (النُّورُ المذكورُ هنا نورٌ حَقيقيٌّ يَجعَلُه اللهُ للمُؤمِنينَ في مَسيرِهم مِن مَكانِ الحَشرِ؛ إكرامًا لهم، وتنويهًا بهم في ذلك المَحشَرِ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠).

واختُلِف في قولِه: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾؛ فقيل: المعنى: وعن أيمانِهم، والمرادُ: في جميعِ جِهاتِهم، وعَبَّرَ عن ذلك بالأيْمانِ؛ تشريفًا لها، فأقامَ الباءَ مُقامَ (عن)، واكتفى بالأيمانِ عن ذِكرِ الشَّمائلِ.

وقيل: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾: كُتُبِهم الَّتي أُعطوها، فكُتُبُهم بأيْمانِهم، ونُورُهم بيْنَ أيديهم، فحذَفَ الكُتُبَ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ تعالى نُفوذَهم فيما يُحِبُّونَ مِنَ الجِهاتِ، وتَيسيرَه لهم؛ أتْبَعَه ما يُقالُ لهم مِنَ المحبوبِ في سُلوكِهم لذلك المحبوبِ، فقال[1]:

---

= لدَلالةِ قولِه: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ عليها. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥).

وممَّن قال في الجملة بأنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ يعني: مِن الجِهةِ اليُمنى: البغويُّ، والخازن، والبِقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أي: كُتُبُ أعمالِهم: ابنُ جرير، وابن أبي زَمَنين، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٥).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦).

قال ابن عطية: (وقال جمهورُ المفسِّرينَ: المعنى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، يُريدُ: الضَّوءَ المُنبسِطَ مِن أصلِ النُّورِ. ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ أصْلُه، والشَّيءُ الَّذي هو مُتَّقَدٌ فيه. قال القاضي أبو محمَّدٍ [ابن عطية]: فمُضَمَّنُ هذا القَولِ أنَّهم يَحمِلونَ الأنوارَ، وكونُهم غيرَ حامِلينَ أكرَمُ، ألَا ترى أنَّ فَضيلةَ عَبَّادِ بنِ بِشرٍ وأُسَيدِ بنِ حُضَيرٍ إنَّما كانت بنُورٍ لا يَحمِلانِه [يُنظر: «صحيح البخاري» «٤٦٥، ٣٨٠٥»]. هذا في الدُّنيا، فكيف في الآخِرةِ؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦١). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢).

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: يُقالُ للمُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ: بِشارتُكم العَظيمةُ هذا اليَومَ -أي: يومَ القيامةِ- جَنَّاتٌ لكم تَدخُلونَها، تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ؛ مِن الماءِ أو اللَّبَنِ، أو الخَمرِ أو العَسَلِ[١].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ماكِثينَ في تلك الجَنَّاتِ، لا تَخرُجونَ منها أبَدًا[٢].

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: دُخولُ تلك الجَنَّاتِ في الآخِرةِ والخُلودُ فيها: هو الرِّبحُ والنَّجاحُ العَظيمُ[٣].

قال تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا شَرَح تعالى حالَ المُؤمِنينَ في مَوقِفِ القيامةِ؛ أتْبَعَ ذلك بشَرحِ حالِ المُنافِقينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٧).

قال ابنُ عاشور: (جملةُ ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن بَقِيَّةِ الكَلامِ المَحكيِّ بالقَولِ المُبَشَّرِ به، ويحتَمِلُ أن يكونَ مِن الحِكايةِ الَّتي حُكِيَت في القُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

فقال تعالى[١]:

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾.

أي: يومَ[٢] يَقولُ المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ لأولئك المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ: انتَظِرونا وأمْهِلونا؛ حتَّى نَلحَقَ بكم، ونَنالَ شُعْلةً مِن نُورِكم[٣]!

عن أبي هُرَيرةَ وأبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم قال: ((يَجمَعُ اللهُ النَّاسَ يومَ القيامةِ فيَقولُ: مَن كان يَعبُدُ شَيئًا فلْيَتْبَعْه، فيَتْبَعُ مَن كان يَعبُدُ الشَّمسَ الشَّمسَ، ويَتْبَعُ مَن كان يَعبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، ويَتْبَعُ مَن كان يَعبُدُ الطَّواغيتَ الطَّواغيتَ، وتَبقى هذه الأُمَّةُ فيها مُنافِقوها))[٤].

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾.

أي: يُقالُ لأولئك المُنافِقينَ والمُنافِقاتِ؛ تَهكُّمًا بهم: ارجِعوا خَلْفَكم، فاطلُبوا مِن هُنالِك نُورًا لأنفُسِكم[٥]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٥٦).

(٢) قال ابنُ عاشور: (﴿يَوْمَ يَقُولُ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿يَوْمَ تَرَى﴾ بدَلًا مُطابِقًا؛ إذِ اليَومُ هو عَينُ اليَومِ المُعَرَّفِ في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: ١٢]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١، ٣٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٧).

قال ابنُ عاشور: (ذلك يَقتَضي أنَّ اللهَ يأذَنُ للمُؤمِنينَ الأوَّلينَ بالسَّيرِ إلى الجنَّةِ فَوجًا، ويَجعَلُ المُنافِقينَ -الَّذين كانوا بَيْنَهم في المدينةِ- سائِرينَ وَراءَهم، كما وَرَد في حديثِ الشَّفاعةِ: «وتَبقى هذه الأُمَّةُ فيها مُنافِقوها»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٢).

(٤) رواه البخاريُّ (٨٠٦)، ومسلمٌ (١٨٢) واللَّفظُ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٢، ٣٨٣). =

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾.

أي: فضَرَب اللهُ بيْنَ المُؤمِنينَ والمُنافِقينَ حاجِزًا يَفصِلُ بيْنَهم[١].

﴿لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾.

أي: لذلك السُّورِ الحاجِزِ بينَ المُؤمِنينَ والمنافِقينَ بابٌ يَدخُلُ منه المؤمِنونَ، داخلُ ذلك السُّورِ مِن جِهةِ المُؤمِنينَ: فيه الجنَّةُ، وخارِجُ السُّورِ مِن الجِهةِ الَّتي تَلي المُنافِقينَ وتَبدو لهم: يأتِيهم مِن قِبَلِه عَذابُ جهنَّمَ[٢].

---

= قال ابن عثيمين: (﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ والقِيلُ هذا: إمَّا مِن المُؤمِنينَ، أو مِنَ الملائِكةِ. فاللهُ أعلَمُ، لا ندري). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٨).

وقال أبو السعود: (﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ﴾ أي: إلى الموقفِ ﴿فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ فإنَّه مِن ثَمَّ يُقتبَسُ، أو إلى الدُّنيا). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧، ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٨).

قيل: المرادُ بالسُّورِ: الحِجابُ المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، ومحمد رشيد رضا، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٠٨) و(٢٢/ ٤٠١)، ((تفسير الثعلبي)) (٤/ ٢٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ١٠٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٢/ ١٢٣)، ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٤٨)، ((تفسير الرسعني)) (٢/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٨/ ٣٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٨٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٤). =

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾.

أي: يُنادي المُنافِقونَ المُؤمِنينَ مِن وَراءِ السُّورِ الحاجِزِ بَيْنَهم، وهم في الظُّلْمةِ والعَذابِ: ألَمْ نَكُنْ مَعَكم في الدُّنيا نُصَلِّي ونَصومُ ونَذكُرُ اللهَ، ونَدِينُ بالإسلامِ، ونَفعَلُ مِثلَ ما تَفعَلونَ[1]؟!

﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

أي: قال المؤمِنونَ لهم: قد كُنتُم معنا في الدُّنيا في الظَّاهِرِ، ولكِنْ بلا نِيَّةٍ صَحيحةٍ، ولا إيمانٍ صادِقٍ؛ فأهلَكْتُم أنفُسَكم بالنِّفاقِ الَّذي هو كُفرٌ باطِنٌ[2]!

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾.

---

= قال الواحدي: (الرَّحمةُ قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرونَ: يعني الجنَّةَ الَّتي فيها المؤمنونَ). ((البسيط)) (٢١/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

أي: وانتَظَرْتُم بالمُؤمِنينَ حوادثَ الدَّهرِ ونوائبَه أن تُهلِكَهم[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التوبة: ٩٨].

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾.

أي: وشَكَكْتُم في الحَقِّ الَّذي جاءَ مِن عِندِ اللهِ تعالى[٢].

قال تعالى: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾.

أي: وخَدَعَتْكم أمانيُّ نُفوسِكم الباطِلةُ، فصَرَفَتْكم عن اتِّباعِ الحَقِّ، حتَّى جاءَكم الموتُ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ المرادَ: تربَّصْتُم بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو بالمُؤمِنينَ الدَّوائرَ والهلاكَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور، والشنقيطيُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: تربَّصْتُم بالإيمانِ والتَّوبةِ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، وابن جُزَي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٥)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٩).

قال ابن كثير: (﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: أخَّرْتُم التَّوبةَ مِن وقتٍ إلى وقتٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨).

وقال الشربيني: (﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: بالإيمانِ والتَّوبةِ، وبمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٣٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) =

﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

أي: وخدَعكم باللهِ -تعالى- الشَّيطانُ[1].

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: يَقولُ المُؤمِنونَ للمُنافِقينَ الَّذين سَتَروا كُفْرَهم: ففي هذا اليَومِ -يومِ القيامةِ- لا يُؤخَذُ مِنكم عِوَضٌ مِنَ المالِ بَدَلًا مِن عَذابِ اللهِ؛ فيُخَلِّصَكم منه،

---

= (ص: ٨٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥).

قال الشوكاني: (﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ الباطِلةُ الَّتي مِن جُملتِها ما كُنتُم فيه مِنَ التَّرَبُّصِ. وقيل: هو طُولُ الأمَلِ. وقيل: ما كانوا يَتمَنَّونَه مِن ضَعفِ المُؤمِنينَ. وقال قَتادةُ: الأمانيُّ هنا: غُرورُ الشَّيطانِ. وقيلَ: الدُّنيا. وقيل: هو طَمَعُهم في المَغفِرةِ. وكُلُّ هذه الأشياءِ تَدخُلُ في مُسمَّى الأمانيِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: وخَدَعَكم باللهِ الشَّيطانُ، فأطمَعَكم بالنَّجاةِ مِن عُقوبتِه، والسَّلامةِ مِن عَذابِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٦).

وقال البِقاعي: (فإنَّه يُنوِّعُ لكم بغُرورِه التَّسويفَ، ويقولُ: إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، وعَفُوٌّ كريمٌ، وماذا عسى أن تكونَ ذُنوبُكم عندَه وهو عظيمٌ ومُحسِنٌ وحليمٌ ونحو هذا، فلا يَزالُ حتَّى يوقِعَ الإنسانَ، فإذا أوقَع واصَل عليه مِثلَ ذلك حتَّى يَتمادَى، فإذا تَمادَى صار الباعثُ له حينَئذٍ مِن قِبَلِ نفْسِه، فصار طَوْعَ يَدِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٧٧).

وقال ابن عاشور: (أي: جعَلَ الشَّيطانُ شأنَ الله سببًا لِغُرورِكم، بأنْ خَيَّل إليكم أنَّ الحِفاظَ على الكفرِ مَرْضيٌّ لله تعالى، وأنَّ النِّفاقَ حافَظْتُم به على دينِكم، وحَفِظْتُم به نُفوسَكم، وكرامةَ قَومِكم، واطَّلَعْتُم به على أحوالِ عدوِّكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧).

ولا يُؤخَذُ أيضًا عِوَضٌ مِنَ الَّذين أظهَروا كُفْرَهم؛ فلا خَلاصَ لكم مِنَ النَّارِ، فأنتم جميعًا مُشتَرِكونَ في الكُفرِ[١]!

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾.

أي: مَنزِلُكم ومُقامُكم الَّذي تَصيرونَ إليه وتَسكُنونَ فيه: النَّارُ[٢].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣].

﴿هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾.

أي: وتلك النَّارُ هي قَرينتُكم الَّتي تُلازِمُكم وتَضُمُّكم إليها، ومَوضِعُ قُربِكم، ومَصيرُكم؛ فلا قُربَ لكم إلى غَيرِها، ولا مَصيرَ إلى سِواها[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ هذا الكلامُ مِن تَتِمَّةِ خِطابِ المُؤمِنينَ للمُنافِقينَ استِمرارًا في التَّوبيخِ والتَّنديم، وهذا ما جرى عليه المفَسِّرون... ويجوزُ أن يكونَ كَلامًا صادِرًا مِن جانِبِ اللهِ تعالى للمُنافِقينَ؛ تأييسًا لهم مِنَ الطَّمَعِ في نَوالِ حَظٍّ مِن نُورِ المؤمِنينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وبِئسَ المَرجِعُ النَّارُ[١]!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ مِن حَقِّ المؤمِنِ أن يَعتَبِرَ بما تضَمَّنَه قَولُه تعالى: ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ، فلا يُماطِلَ التَّوبةَ، ولا يَقولَ: غَدًا غَدًا[٢]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم﴾ إلى قَولِه في المُنافِقينَ: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ أخبَرَ سُبحانَه أنَّ المُنافِقينَ يَفقِدونَ النُّورَ الَّذي كان المُؤمِنونَ يَمشُونَ به، ويَطلُبونَ الاقتِباسَ مِن نُورِهم، فيُحجَبونَ عن ذلك بحِجابٍ يُضرَبُ بيْنَهم وبيْن المؤمِنينَ، كما أنَّ المنافِقينَ لَمَّا فَقَدوا النُّورَ في الدُّنيا كان ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ﴾[٣] [البقرة: ١٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ عَطفُ المُؤمِناتِ على المُؤمِنينَ، وكذا في نظائِرِه مِنَ القُرآنِ المَدَنيِّ. ووَجهُ ذلك: التَّنبيهُ على أنَّ حُظوظَ النِّساءِ في هذا الدِّينِ مُساويةٌ حُظوظَ الرِّجالِ، إلَّا فيما خُصِصْنَ به مِن أحكامٍ قَليلةٍ لها أدِلَّتُها الخاصَّةُ؛ وذلك لإبطالِ ما عندَ اليَهودِ مِن وَضعِ النِّساءِ في حالةِ مَلعوناتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٥).

ومَحرومات مِن مُعظَمِ الطَّاعاتِ[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ أنَّ هذا النُّورَ على حَسَبِ الإيمانِ؛ لأنَّ الحُكْمَ إذا عُلِّقَ بوَصفٍ كان قَويًّا بقُوَّةِ ذلك الوَصفِ، وضَعيفًا بضَعْفِه، إذَنْ نُورُهم على حَسَبِ إيمانِهم؛ الذَّكَرِ والأُنثى[٢].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ في قَولِه: ﴿نُورُهُم﴾ غَلَبَةُ المُذَكَّرِ على المؤنَّثِ، فلم يَقُلْ: «نُورُهُنَّ»[٣].

٥- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ وَجْهُ عطْفِ المنافِقاتِ على المنافِقينَ هنا كعَطفِ المؤمناتِ على المُؤمنِينَ في الآيةِ السَّابقةِ قبْلَ هذِه، وهو التَّنبيهُ على أنَّ حُظوظَ النِّساءِ في هذا الدِّينِ مُساويةٌ حُظوظَ الرِّجالِ إلَّا فيما خُصِّصْنَ به مِن أحكامٍ قليلةٍ لها أدِلَّتُها الخاصَّةُ[٤].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ لعَلَّ جَعْلَ البابِ في سُورٍ واحِدٍ فيه ليمُرَّ منه أفواجُ المؤمِنينَ الخالِصينَ مِن وُجودِ منافِقينَ بيْنَهم بمرأًى مِن المنافِقينَ المحبوسين وراءَ ذلك السُّورِ؛ تنكيلًا بهم وحَسرةً حينَ يُشاهِدونَ أفواجَ المؤمِنينَ يُفتَحُ لهم البابُ الَّذي في السُّورِ؛ لِيَجتازُوا منه إلى النَّعيمِ الَّذي بباطِنِ السُّورِ[٥].

٧- المنافقونَ هم أشقَى الأشقياءِ، ولهذا يُستهزأُ بهم فى الآخرةِ، ويُعطَوْنَ نورًا يَتوسَّطون به على الصِّراطِ، ثمَّ يُطفئُ اللهُ نورَهم، ويُقالُ لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩، ٣٨١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٤).

﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۚ﴾ [الحديد: ١٣]، ويُضرَبُ بيْنَهم وبيْنَ المؤمنينَ: ﴿بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ۞ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٣]، وهذا أشدُّ ما يكونُ مِن الحسرةِ والبَلاءِ: أن يُفتَحَ للعبدِ طريقُ النَّجاةِ والفَلاحِ، حتَّى إذا ظنَّ أنَّه ناجٍ ورأى مَنازِلَ السُّعداءِ اقتُطِع عنهم، وضُرِبَتْ عليه الشِّقْوةُ، ونعوذُ باللهِ مِن غضَبِه وعِقابِه(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾ ذِكْرُ أربعةِ أُصولٍ لهم، هي أسبابُ الخُسْرانِ؛ وهي: فِتنةُ أنفُسِهم، والتَّرَبُّصُ بالمُؤمِنينَ، والارتيابُ في صِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والاغترارُ بما تُمَوِّهُ إليهم أنفُسُهم. وهذه الأربعةُ هي أصولُ الخِصالِ المتفرِّعةِ على النِّفاقِ(٢).

٩- قال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ذكَر الله الكفَّار والمنافقينَ هنا وفي غيرِ موضعٍ مِن القرآنِ، كقولِه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١، ٤٨]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]؛ لِيُمَيِّزَهم عنهم بإظهارِ الإسلامِ، وإلَّا فَهُم في الباطِنِ شَرٌّ مِن الكُفَّارِ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾(٣) [النساء: ١٤٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ إجازةُ تَسميةِ المخلوقِ باسمِ الخالِقِ -وذلك فيما يكونُ له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٣٥٣).

والصِّفاتِ-[١]؛ إذْ قد دَلَّ على تَسميةِ النَّاسِ به، ثمَّ أجاز هاهنا تَسميةَ النَّارِ أيضًا به[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ...﴾ مَنصوبٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: (اذكُرْ) تَعظيمًا لذلك اليَومِ، وتَنويهًا بما يَحصُلُ في ذلك اليومِ مِن ثَوابٍ للمؤمنينَ والمؤمناتِ، ومِن حِرمانٍ للمنافِقينَ والمنافِقاتِ؛ ولذلك كُرِّر (يَوم) -﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾-؛ ليَختَصَّ كلُّ فريقٍ بذِكرِ ما هو مِن شُؤونِه في ذلك اليَومِ. وعلى هذا فالجُملةُ مُتَّصِلةٌ بالَّتي قبْلَها بسَببِ هذا التَّعلُّقِ، على أنَّه في نظْمِ الكلامِ يصِحُّ جَعْلُه ظرْفًا مُتعلِّقًا بـ ﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، على طَريقةِ التَّخلُّصِ لِذكرِ ما يَجْري في ذلك اليَومِ مِن الخَيراتِ لأهْلِها، ومِن الشَّرِّ لأهْلِه. وعلى الوجْهِ الأوَّلِ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا لِمُناسَبةِ ذِكرِ أجْرِ المُنفِقينَ، فعُقِّبَ ببَيانِ بَعضِ مَزايا المؤمنينَ، وعلى الوجْهِ الثَّاني فهي مُتَّصلةٌ بالَّتي قبْلَها بسَببِ التَّعلُّقِ[٣].

---

(١) جاء في ((فتاوى اللَّجنةِ الدَّائمةِ)) -بعدَ تقريرِ منْعِ تسميةِ غيرِ الله بهذا الاسمِ (الله)؛ لأنَّ مُسمَّاه مُعيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّرِكةَ، وكذا ما كان مِن الأسماءِ في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّرِكةِ، كالخالقِ والبارئِ-: (أمَّا ما كان له معنًى كُلِّيٌّ تتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالملِكِ، والعزيزِ، والجبَّارِ، والمُتكبِّرِ؛ فيجوزُ تسميةُ غيرِه بها؛ فقد سمَّى الله نفْسَه بهذه الأسماءِ، وسمَّى بعضَ عبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الثانية)) (٢/ ٣٦٨). ويُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٩، ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي =

- ومعنَى قولِه: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾: يَسْعى نُورُهم حينَ يَسعَون؛ فحُذِفَ ذلك لأنَّ النُّورَ إنَّما يَسْعى إذا سَعى صاحبُه، وإلَّا لانْفصَلَ عنه وترَكَه، وإضافةُ (نُور) إلى ضَميرِهم، وجَعْلُ مَكانِه ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ يُبيِّنُ أنَّه نُورٌ لِذَواتِهم أُكرِموا به[1].

- وإنَّما قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾؛ لأنَّ السُّعداءَ يُؤتَون صَحائفَ أعمالِهم مِن هاتَينِ الجِهتَينِ، كما أنَّ الأشقياءَ يُؤتَونَها مِن شَمائلِهم ومِن وراءِ ظُهورِهم، فجُعِلَ النُّورُ في الجِهتَينِ شِعارًا لهم وآيةً[2]. أو اقتُصِرَ على ذِكرِ الأيمانِ تَشريفًا لها، وهو مِن الاكتفاءِ[3]، أي: وبجانِبَيْهم[4].

- قولُه تَعالَى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، وفي سُورةِ (التَّحريمِ): ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ [التحريم: ٨]؛ فقُدِّمَ الفعلُ في الأُولى ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾، وأُخِّرَ في الثَّانيةِ ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾! ووَجْهُ ذلك -واللهُ أعلَمُ-: أنَّ قولَه في سُورةِ (التَّحريمِ): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يُفهِمُ -مِن حيث المعيَّةُ- قُرْبَ المَنزِلةِ، وعُلوَّ الحالِ، فتَقدَّمَ ثُبوتُه، فناسَبَ

---

= حيان)) (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥).

(٣) الاكتفاء: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، على سَبيلِ الاكتِفاءِ؛ إذِ التَّقْديرُ: تقيكُمُ الحرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠).

ذلك وُرودُ الجُملةِ الاسميَّةِ هنا؛ لِما تَقْتضيه مِن الثَّباتِ وتَقدُّمه واستحكامه، أمَّا قولُه في سُورةِ (الحديدِ): ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فبشارةٌ للمؤمنينَ، ولم يأْتِ هنا كونُهم مع نَبيِّهم، فلمْ يَتحصَّلْ ما يُفهِمُ تَمكُّنَ المنزلةِ وثُبوتَها ما تَحصَّلَ في آيةِ التَّحريمِ، إنَّما هذه بِشارةٌ؛ فناسَبَها التَّجدُّدُ والحدوثُ، فناسَبَ ذلك الفعلُ بما يُعطِيه مِن المعْنى، فقيلَ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ ليُفهَمَ التَّكرُّرُ وحُدوثُ الشَّيءِ بعْدَ الشَّيءِ، فوَرَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُ[١].

- قولُه: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ مُقدَّرٌ بقَولٍ هو حالٌ أو استِئنافٌ، أيْ: يُقالُ لهم: بُشراكُم، أي: ما تُبشَّرونَ بِه جنَّاتٌ، أو بُشراكم دُخولُ الجنَّةِ. والكلامُ على حذْفِ مُضافَينِ تَقديرُهما: إعلامٌ بدُخولِ جنَّاتٍ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾[٢].

- وقولُه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ بعْدَ قولِه: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ الْتِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، ولو جَرى على الخِطابِ لَكان التَّركيبُ: (خالدًا أنتُم فيها)[٣].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ تَذييلٌ يدُلُّ على مَجموعِ مَحاسِنِ ما وقَعَتْ به البُشرَى، واسمُ الإشارةِ للتَّعظيمِ والتَّنبيهِ، وضَميرُ الفَصْلِ لتَقويةِ الخبَرِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

- قولُه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تَغليبٌ للذُّكورِ؛ لأنَّ المخاطَبِينَ هم أصحابُ النُّورِ، وهو للمُؤمنينَ والمؤمناتِ(١).

- والأمرُ في قولِه: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ أمْرُ تَوبيخٍ وطرْدٍ، أي: ارْجِعوا إلى الموقفِ حيثُ أُعطِينا الفوزَ فالْتَمِسوه هناك، فمِن ثَمَّ يُقتبَسُ. أو ارْجِعوا إلى الدُّنيا والْتَمِسوا نُورًا، أي: بتَحصيلِ سَببِه، وهو الإيمانُ، أو ارْجِعوا خائبينَ وتَنحَّوا عنَّا، فالْتمِسوا نُورًا غيرَ هذا؛ فلا سَبيلَ لكم إلى الاقتباسِ منه. وقد عَلِموا أنْ لا نُورَ وراءَهم، وإنَّما هو تَخييبٌ وإقناطٌ لهم(٢).

- قولُه: ﴿قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ﴾ على القَولِ بأنَّه مِن كَلامِ الملائكةِ السَّائقينَ للمُنافِقين؛ فمَقالةُ الملائكةِ للمنافِقِينَ تَهكُّمٌ؛ إذ لا نُورَ وَراءهم، وإنَّما أرادوا إطْماعَهم، ثم تَخييبَهم بضرْبِ السُّورِ بيْنَهم وبيْنَ المؤمنينَ؛ لأنَّ الخَيبةَ بعْدَ الطَّمعِ أشدُّ حَسرةً(٣).

- ولفْظُ ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾ تأْكيدٌ لمعْنى ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾؛ إذِ الرُّجوعُ يَستلزمُ الوراءَ، وهذا كما يُقالُ: رجَعَ القَهْقرَى. ويَجوزُ أنْ يكونَ ظرْفًا لفِعلِ ﴿فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ﴾، أي: في المكانِ الَّذي خلْفَكم، وتَقديمُه على عامِلِه للاهتِمام؛ فيَكونُ فيه معْنى الإغراءِ بالْتماسِ النُّورِ هناك، وهو أشدُّ في الإطماعِ؛ لأنَّه يُوهِمُ أنَّ النُّورَ يُتناوَلُ مِن ذلك المكانِ الَّذي صدَرَ منْه المؤمنونَ، وبذلك الإيهامِ لا يكونُ الكلامُ كذِبًا؛ لأنَّه مِن المَعاريضِ، لا سيَّما مع احتمالِ أنْ يكونَ ﴿وَرَآءَكُمۡ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٥، ٤٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٢، ٢٨٣).

تأْكيدًا لمعْنى ﴿ٱرۡجِعُواْ﴾[١].

- وضُمِّن قولُه: ﴿فَضُرِبَ﴾ في الآيةِ معْنى الحَجْزِ؛ فعُدِّيَ بالباءِ، أي: ضُرِبَ بيْنهم سُورٌ للحجْزِ به بيْنَ المنافِقينَ والمؤمنينَ[٢].

- وضَمائرُ ﴿لَّهُۥ بَابُۢ﴾ و﴿بَاطِنُهُۥ﴾ و(ظَاهِرُهُ) عائِدةٌ إلى السُّورِ، والجُملتانِ صِفتانِ لـ (سُورٍ)، وإنَّما عُطِفَت الجُملةُ الثَّالثةُ بالواوِ ﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ لأنَّ المقصودَ مِن الصِّفةِ مَجموعُ الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾

- الاستِفهامُ في قولِه: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾ تَقريريٌّ، استُعمِلَ كِنايةً عن طلَبِ اللَّحاقِ بهم، والانضمامِ إليهم كما كانوا معَهم في الدُّنيا يَعمَلون أعمالَ الإسلامِ مع المُسلِمينَ[٤].

- قولُه: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾، هذا الجوابُ إقرارٌ بأنَّ المنافِقِين كانوا يَعمَلون أعمالَهم معهم، ولَمَّا كان هذا الإقرارُ يُوهِمُ أنَّه قولٌ بمُوجَبِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ﴾، أعْقَبوا جَوابَهم الإقراريَّ بالاستِدراكِ الرَّافعِ لِما تَوهَّمَه المنافِقون مِن أنَّ الموافقةَ للمؤمنِينَ في أعمالِ الإسلامِ تَكفِي في الْتِحاقِهم بهم في نَعيمِ الجنَّةِ، فبيَّنوا لهم أسبابَ التَّباعُدِ بيْنَهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والتَّربُّصُ: انتظارُ شَيءٍ، ويَتعدَّى فِعلُه إلى المفعولِ بنَفْسِه، ويَتعلَّقُ به ما زادَ على المفعولِ بالباءِ، وحُذِفَ هنا مَفعولُه ومُتعلَّقُه؛ ليَشملَ عِدَّةَ الأمورِ الَّتي يَنتظِرُها المنافِقون في شأْنِ المؤمنينَ، وهي كثيرةٌ، مَرجِعُها إلى أذى المسلمينَ والإضرارِ بهم، فيَتربَّصون هَزيمةَ المسلمينَ في الغزَواتِ ونحْوِها مِن الأحداثِ؛ قال تعالى في بعضِهم: ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التوبة: ٩٨]، ويَتربَّصون انقِسامَ المؤمنينَ؛ فقدْ قالوا لفَريقٍ مِنَ الأنصارِ يُندِّمونهم على مَن قُتِلَ مِن قَومِهم في بعضِ الغزَواتِ: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾[1] [آل عمران: ١٦٨].

- والمَقصودُ مِن الغايةِ بقولِه: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ التَّنديدُ عليهم بأنَّهم لم يَرْعَوُوا عن غَيِّهم معَ طُولِ مُدَّةِ أعمارِهم، وتَعاقُبِ السِّنينَ عليهم وهم لم يَتدبَّروا في العواقِبِ، كما قال تعالَى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[2] [فاطر: ٣٧].

- وجُملةُ ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾؛ تَحقيرًا لغُرورِهم وأمانِيِّهم بأنَّها مِن كَيدِ الشَّيطانِ؛ ليَزدادوا حَسرةً حينَئذٍ[3].

- والغَرورُ -بفتْحِ الغَينِ-: مُبالَغةٌ في المُتَّصِفِ بالتَّغريرِ، والمرادُ به الشَّيطانُ، أي: بإلقائِه خَواطرَ النِّفاقِ في نُفوسِهم بتَلوينِه في لَونِ الحقِّ، وإرضاءِ دِينِ الكفْرِ. أو عُبِّرَ عَنِ الشَّيطانِ بصِيغةِ المبالَغةِ ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ الَّتي هي المفعولُ؛ لكَثرةِ غُرورِه لبني آدَمَ، كما قال تَعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]، ويَجوزُ أنْ يُرادَ جِنسُ الغارِّينَ، أي: وغرَّكم باللهِ أئمَّةُ الكفْرِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٦، ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٧).

وقادةُ النِّفاقِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ لَمَّا كان قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾ معلومًا عندَهم قد شاهَدوا دَلائلَه، فرَّعوا لهم عليه قولَهم: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾؛ قَطعًا لطَمَعِهم أنْ يَكونوا مع المؤمنينَ يومَئذٍ كما كانوا معَهم في الحياةِ[٢].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا الكلامُ مِن تَتِمَّةِ خِطابِ المؤمنينَ للمنافِقِين؛ استِمرارًا في التَّوبيخِ والتَّنديمِ، فمَوقعُ فاءِ التَّفريعِ بيِّنٌ، والعِلمُ للمؤمنينَ بأنْ لا تُؤخَذُ فِديةٌ مِن المنافِقينَ والَّذين كَفَروا حاصِلٌ ممَّا يَسمَعون في ذلك اليَومِ مِن الأقضيةِ الإلهيَّةِ بيْنَ الخلْقِ بحيث صار مَعلومًا لأهلِ المحشَرِ، أو هو عِلمٌ مُتقرِّرٌ في نُفوسِهم ممَّا عَلِموه في الدُّنيا مِن أخبارِ القُرآنِ وكلامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وذلك مُوجِبُ عطْفِ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تَعبيرًا عمَّا عَلِموه بأسْرِه، وهو عطْفٌ مُعترِضٌ جرَّتْه المناسَبةُ. ويجوزُ أنْ يكونَ كلامًا صادرًا مِن جانبِ اللهِ تعالى للمنافِقِين؛ تأْييسًا لهم مِن الطَّمَعِ في نَوالِ حظٍّ مِن نُورِ المؤمنينَ، فيَكونَ الفاءُ مِن عطْفِ التَّلقينِ عاطِفةً كلامَ أحدٍ على كَلامِ غيرِه؛ مِن أجْلِ اتِّحادِ مكانِ المُخاطَبةِ، ويكونَ عطْفُ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جمْعًا للفريقَينِ في تَوبيخٍ وتَنديمٍ واحدٍ؛ لاتِّحادِهما في الكُفْرِ[٣].

- وإقحامُ كَلمةِ ﴿فَٱلۡيَوۡمَ﴾؛ لتَذكيرِهم بما كانوا يُضمِرونه في الدُّنيا حِينَ يُنفِقونَ معَ المؤمنينَ رِياءً وتَقيَّةً، وهو ما حَكاهُ اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٥، ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٨).

مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾[١] [التوبة: ٩٨].

- وفي قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾ كُنِّيَ بنَفْيِ أخْذِ الفِديةِ عن تَحقُّقِ جَزائِهِم على الكُفرِ؛ وإلَّا فإنَّهم لم يَبذُلوا فِدْيةً، ولا كان النِّفاقُ مِن أنواعِ الفِدْيةِ، ولكنَّ الكلامَ جرى على الكِنايةِ؛ لِما هو مَشهورٌ مِن أنَّ الأسيرَ والجانيَ قد يَتخلَّصانِ مِن المؤاخَذةِ بفِديةٍ تُبذَلُ عنهما؛ فعَطْفُ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قُصِدَ منه تَعليلُ أنْ لا مَحيصَ لهم مِن عَذابِ الكُفْرِ مِثلَ الَّذين كَفَروا، أي: الَّذين أعْلَنوا الكُفْرَ حتَّى كان حالةً يُعرَفون بها، وهذا يَقْتضي أنَّ المنافقينَ كانوا هم والكافِرونَ في صَعيدٍ واحدٍ عندَ أبوابِ جَهنَّمَ؛ ففيه احتِراسٌ مِن أنْ يَتوهَّمَ الكافرونَ الصُّرحاءُ مِن ضَميرِ ﴿لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ﴾ أنَّ ذلك حُكْمٌ خاصٌّ بالمنافِقينَ تَعلُّقًا بأقلِّ طمَعٍ؛ فليس ذِكرُ ﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مُجرَّدَ استطرادٍ[٢].

- والمأْوى: هو المكانُ الَّذي يُؤْوَى إليه، أي: يُصارُ إليه ويُرجَعُ، وكُنِّيَ به عن الاستِمرارِ والخُلودِ، وأُكِّدَ ذلك بالصَّريحِ بجُملةِ ﴿مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾، أي: تَرجِعون إليها كما يَرجِعُ المُستنصِرُ إلى مَولاهُ لِيَنصُرَه أو يُفادِيَ عنه، فعُبِّرَ بالمَولى عن المَقرِّ على طَريقةِ التَّهكُّمِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ تَذييلٌ يَشملُ جَميعَ ما يَصِيرون إليه مِن العذابِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٦-١٩)

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَمَدُ﴾: أي: الزَّمانُ والغايةُ[١].

﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾: أي: الَّذين كثُر صِدقُهم وتصديقُهم، وأصلُ (صدق): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ قولًا وغيرَه[٢].

﴿ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: النَّارِ، والجُحْمَةُ: شدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، ومنه: الجحيمُ، وأصْلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[٣].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى معاتبًا المؤمنينَ: ألم يَحِنْ للمُؤمِنينَ أن تَلِينَ قُلوبُهم وتَخضَعَ لذِكرِ اللهِ وما نَزَل مِن القُرآنِ، ثمَّ يُحذِّرُهم مِن مُشابَهةِ أهلِ الكِتابِ، فيقولُ: ولا يَكونوا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

كاليَهودِ والنَّصارى الَّذين أنزَلَ اللهُ عليهم الكِتابَ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ، فطالَ عليهم الزَّمانُ، فقَسَت قُلوبُهم، وكَثيرٌ منهم خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ؟!

ثمَّ يقولُ تعالى: اعلَموا أنَّ اللهَ تعالى يُحْيي الأرضَ بالماءِ بعْدَ يُبسِها، فكذلك يُحْيي القَلْبَ بعْدَ قَسْوتِه بالوَحيِ المُنَزَّلِ مِنَ السَّماءِ. قد أوضَحْنا لكم الآياتِ الدَّالَّةَ على الحَقِّ؛ لِتَعقِلوا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُبينًا ما أعدَّه للمؤمنينَ الَّذين يَبذُلونَ أموالَهم في سبيلِه: إنَّ المُتصَدِّقينَ والمُتصَدِّقاتِ والمُنفِقينَ في سَبيلِ اللهِ مُبتَغِينَ ما عِندَ رَبِّهم بلا مَنٍّ ولا أذًى: يُثيبُهم اللهُ على ذلك الإنفاقِ أُجورًا كَثيرةً، ولهم ثَوابٌ حَسَنٌ، وجَزاءٌ جَميلٌ.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى السُّعداءَ ومآلَهم، ويَعطِفُ بذكرِ الأشقياءِ، ويُبينُ حالَهم، فيقولُ: والَّذين آمَنوا باللهِ وبرُسُلِه هم الصِّدِّيقونَ، والشُّهَداءُ لهم ثَوابُ اللهِ في الآخِرةِ، ولهم نُورُهم. والَّذين كَفَروا باللهِ ورُسُلِه وكَذَّبوا: أولئك أصحابُ النَّارِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر حالَ المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ والمُنافِقينَ والمُنافِقاتِ في الدَّارِ الآخِرةِ، كان ذلك مِمَّا يدعو القُلوبَ إلى الخُشوعِ لِرَبِّها، والاستِكانةِ لعَظَمتِه؛ فعاتَبَ اللهُ المُؤمِنينَ على عَدَمِ ذلك، فقال تعالى[1]:

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أُنزِلَ القُرآنُ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتلا عليهم زَمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، لو قصَصْتَ علينا! فأنزَلَ اللهُ: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ١ - ٣]، فتلاها عليهم رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زمانًا، فقالوا: يا رَسولَ اللهِ لو حدَّثْتَنا! فأنزَلَ اللهُ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر: ٢٣] الآيةَ، كُلُّ ذلك يُؤمَرونَ بالقُرآنِ. قال خَلَّادٌ[١]: وزاد فيه حِينَ قالوا: يا رَسولَ اللهِ ذَكِّرْنا، فأنزَلَ اللهُ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾))[٢].

عن ابنِ مَسعودٍ رَضِي اللهُ عنه، قال: (ما كان بيْنَ إسلامِنا وبيْنَ أنْ عاتَبَنا اللهُ بهذه الآيةِ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلَّا أربَعُ سِنِينَ)[٣].

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: أمَا حانَ للمُؤمِنينَ أن تَلِينَ قُلوبُهم وتَرِقَّ وتَخضَعَ وتَذِلَّ لذِكرِ اللهِ وما نَزَل

---

(١) هو أحدُ رواةِ الحديثِ.

(٢) أخرجه الطَّحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (١١٥٧)، وابنُ حِبَّانَ (٦٢٠٩) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٣٣١٩).

صحَّحه ابنُ حِبَّان، والألبانيُّ في ((صحيح الموارد)) (١٤٦٢)، وصَحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّن إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٠)، وحَسَّنَ الحديثَ ابنُ حجر في ((المطالب العالية)) (٤/ ١٢٦)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٦٢٠٩).

(٣) رواه مسلم (٣٠٢٧).

مِن القُرآنِ[١]؟!

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان للمُسابَقةِ والمُنافَسةِ أثرٌ عَظيمٌ في تحريكِ الهِمَمِ لأهلِ الأَنَفةِ وأُولي المَعالي؛ قال[٢]:

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾.

أي: وأمَا حانَ للمُؤمِنينَ ألَّا يَكونوا كاليَهودِ والنَّصارى الَّذين أنزَلَ اللهُ عليهم الكِتابَ -التَّوراةَ والإنجيلَ- المُوجِبَ لخُشوعِ القَلبِ والانقيادِ التَّامِّ، مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ الكريمِ عليكم[٣]؟

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٩)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٨٩، ٣٩٠).

قال الشنقيطي: (قَولُه: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الأظهَرُ منه: أنَّ المرادَ خُشوعُ قُلوبِهم لأجْلِ ذِكرِ اللهِ، وهذا المعنى دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، أي: خافت عِندَ ذِكرِ اللهِ، فالوَجَلُ المذكورُ في آيةِ الأنفالِ هذه والخَشيةُ المذكورةُ هنا: مَعناهما واحِدٌ. وقال بَعضُ العُلَماءِ: المرادُ بذِكرِ اللهِ: القُرآنُ، وعليه فقَولُه: ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ مِن عَطفِ الشَّيءِ على نَفْسِه مع اختِلافِ اللَّفظَينِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٤٧).

وقيل: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ حقوقُ الله، وقيل: ما يُذَكِّرُهم به النبيُّ صلى الله عليه وسلم، وقيل: هو الصَّلاةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

أي: فطالَ على أهلِ الكِتابِ الزَّمانُ[1].

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

أي: فقَسَت بسَبَبِ طُولِ الزَّمانِ قُلوبُهم، فصارت غَليظةً لا تَلِينُ لِذِكرٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٠).

قيل: طال الزَّمانُ بَيْنَهم وبيْنَ موسى عليه السَّلامُ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٢٢).

وقيل: طال الزَّمانُ بَيْنَهم وبيْنَ أنبيائِهم. ومِمَّن قال بهذا: الثعلبيُّ، والواحدي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٦٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٧).

قال ابن الجوزي: (المعنى: أنَّه بَعُدَ عَهدُهم بالأنبياءِ والصَّالِحينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٥).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ يعني: طولَ الأجَلِ، وخُروجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٢).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: طُولُ الزَّمانِ بَيْنَهم وبيْنَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

قال ابنُ عاشور: (الأَمَدُ: الغايةُ مِن مَكانٍ أو زَمانٍ، والمرادُ به هنا: المُدَّةُ الَّتي أُوصُوا بأن يُحافِظوا على اتِّباعِ شَرائِعِهم فيها، المُغَيَّاةُ بمَجيءِ الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- المُبَشَّرِ في الشَّرائِعِ، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

وقيل: المرادُ: طُولُ الأجَلِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: السمرقنديُّ، والزمخشري، والنسفي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٤٧).

وقال ابنُ عطية: (الأَمَدُ: قيل: معناه: أَمَدُ انتِظارِ الفَتحِ. وقيل: أَمَدُ انتِظارِ القيامةِ. وقيل: أَمَدُ الحَياةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٤). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦١).

ولا تَرِقُّ لِمَوعِظةٍ[١].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢، ٤٣].

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

أي: وكَثيرٌ منهم خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، ضالُّونَ عن الحَقِّ والهُدى[٢].

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

أي: اعلَموا أنَّ اللهَ تعالى يُحْيي الأرضَ بعْدَ يُبسِها وجَدْبِها، بالماءِ المُنزَّلِ مِنَ السَّماءِ، فكذلك يُحْيي اللهُ القَلْبَ بعْدَ قَسْوتِه وصَلابتِه، بالوَحيِ المُنَزَّلِ مِنَ السَّماءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن =

عن أبي مُوسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قال: ((إنَّ مَثَلَ ما بعَثَني اللهُ به عزَّ وجلَّ مِنَ الهُدى والعِلمِ؛ كَمَثلِ غَيثٍ أصاب أرضًا، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنبَتَتِ الكَلَأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكان منها أجادِبُ[1] أمسَكَتِ الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا منها وسَقَوْا ورَعَوْا، وأصابَ طائفةً منها أخرى، إنَّما هي قِيعانٌ[2]؛ لا تُمسِكُ ماءً، ولا تُنبِتُ كَلأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقُه في دِينِ اللهِ، ونَفَعَه بما بعَثَني اللهُ به، فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ مَن لم يَرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يَقْبَلْ هُدى اللهِ الَّذي أُرسِلْتُ به))[3].

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

أي: قد أوضَحْنا وأظهَرْنا لكم الآياتِ الدَّالَّةَ على الحَقِّ؛ لِتَعقِلوا وتتَّعِظوا وتَعمَلوا بمُوجَبِ ذلك[4].

قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾.

---

= كثير)) (٨/ ٢١)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٣، ٣٩٤).

(١) الأجادِبُ: الأرضُ الصُّلبةُ الَّتي تُمسِكُ الماءَ؛ مِنَ الجَدْبِ، وهو القَحْطُ، سَمَّاها أجادِبَ؛ لأنَّها لِصَلابَتِها لا تُنبِتُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٢)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧).

(٢) القِيعانُ: جمعُ قاعٍ، وهي الأرضُ المُستَوِيةُ الَّتي لا نَباتَ فيها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢٣٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٧٩)، ومسلمٌ (٢٢٨٢) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٢).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أن وازَنَ بيْنَ المؤمنينَ والمنافِقِين فيما مضى، وأبان ما يكونُ بيْنَهما مِن فارِقٍ يومَ القيامةِ؛ ذكَرَ هنا التَّفاوُتَ بيْنَ حالِ المؤمنينَ وحالِ الكافِرين[1].

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿الْمُصَدِّقِينَ وَالْمُصَدِّقَاتِ﴾ بتَخفيفِ الصَّادِ، أي: إنَّ الَّذين صدَّقوا اللهَ ورَسولَه[2]. مِن الصِّدقِ، الَّذي هو خِلافُ الكذبِ.

٢- قِراءةُ: ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ بتَشديدِ الصَّادِ، أي: إنَّ المُتصَدِّقينَ والمُتصَدِّقاتِ[3]. مِن التَّصدُّقِ.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾.

أي: إنَّ المُتصَدِّقينَ والمُتصَدِّقاتِ في سَبيلِ اللهِ مِن طَيِّبِ أموالِهم مُحتَسِبينَ في إنفاقِها، مُبتَغِينَ ما عِندَ رَبِّهم بلا مَنٍّ ولا أذًى- يُثيبُهم اللهُ على ذلك الإنفاقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٧/ ١٧٤).

وذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّ هذه الآيةَ يُشبِهُ أنْ تكونَ متَّصلةَ المعنَى بقولِه تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١]، وأنَّ آيةَ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحديد: ١٦] وما بعدَها معترضٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٥).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وشُعبةُ عن عاصِمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٢)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ١٩٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٠١).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٤).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٥٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٠١).

أُجورًا كَثيرةً، قد تَبلُغُ سَبْعَمِئةِ ضِعفٍ أو أكثَرَ[١]!

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

أي: ولهم ثَوابٌ حَسَنٌ، وجَزاءٌ جَميلٌ[٢].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

ذكَرَ تعالى -قبْلَ هذه الآيةِ- حالَ المؤمِنينَ والمنافِقِين، وذكَرَ الآنَ حالَ المؤمنينَ وحالَ الكافِرين[٣].

وأيضًا لَمَّا ذُكِرَ فَضْلُ المُتصدِّقينَ، وكان مِن المُؤمنينَ مَن لا مالَ له لِيَتصدَّقَ منه؛ أُعقِبَ ذِكرُ المُتصدِّقينَ ببَيانِ فضْلِ المؤمنينَ مُطلقًا، وهو شاملٌ لِمَن يَستطيعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١١، ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٢، ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالأجرِ الكريم: الجنَّةُ: ابنُ جرير، والبغويُّ، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٨).

قال ابن عثيمين: (﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ثوابٌ كريمٌ، والكريمُ هو الحسَنُ الطَّيِّبُ؛ وذلك أنَّ الجنَّةَ فيها ما لا عَيْنٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خطَرَ على قلبِ بشَرٍ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٤).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني: جزاءً حسَنًا في الجنَّةِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٢).

أنْ يَتصدَّقَ ومَن لا يَستطيعُ، على نحْوِ التَّذكيرِ المُتقدِّمِ آنِفًا في قولِه: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾[1] [الحديد: ١٠].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾.

أي: والَّذين آمَنوا باللهِ وبرُسُلِه هم الصِّدِّيقونَ الَّذين هم في غايةِ الصِّدقِ وكَثرةِ التَّصديقِ لِما وَجَب التَّصديقُ به، فليس في قُلوبِهم أدنَى شَكٍّ[2].

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ أهلَ الجنَّةِ لَيَتراءَوْنَ أهلَ الغُرَفِ مِن فَوقِهم، كما تَتراءَونَ الكوكَبَ الدُّرِّيَّ[3] الغابِرَ مِن الأُفُقِ[4]، مِن المَشرِقِ أو المَغرِبِ؛ لِتَفاضُلِ ما بيْنَهم. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، تلك مَنازِلُ الأنبياءِ لا يَبلُغُها غَيرُهم؟! قال: بلى، والَّذي نفْسي بيَدِه، رِجالٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٩).

قال ابن جزي: (الصِّدِّيقُونَ مبالغةٌ مِن الصِّدقِ أو مِن التَّصديقِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٧).

وقال ابن عثيمين: (﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ أي: البالِغونَ في الصِّدقِ مبلغًا كبيرًا؛ لأنَّ الصِّدِّيقَ صيغةُ مبالغةٍ، والصِّدقُ يكونُ بالقصدِ وبالقولِ وبالفعلِ). ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٩).

وقال السعدي: (الصِّدِّيقونَ هم الذين كمَّلوا مراتِبَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ، والعلمِ النَّافعِ، واليقينِ الصَّادقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)

(٣) الدُّرِّيَّ: الشَّديدَ الإضاءةِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

(٤) الغابِرَ: أي: الباقِيَ في الأُفُقِ بعدَ انتِشارِ ضَوءِ الفَجرِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٥/ ٢٨٥).

آمَنوا باللهِ، وصَدَّقوا المُرسَلينَ))[١].

﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾.

أي: والشُّهَداءُ: لهم ثَوابُ اللهِ في الآخِرةِ، ولهم نُورُهم[٢].

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٥٦)، ومسلمٌ (٢٨٣١) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٩)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٥١، ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣)، ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٠).

قال ابن جُزَي: (﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ﴾ يحتملُ أن يكونَ الشُّهداءُ مُبتدَأً وخبرُه ما بعدَه، أو يكونَ معطوفًا على الصِّدِّيقينَ. فإنْ كان مُبتدَأً ففي المعنى قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه جمْعُ شهيدٍ في سبيلِ الله، فأخبَر أنَّهم عندَ ربِّهم لهم أجرُهم ونورُهم.

والآخَرُ: أنَّه جمعُ شاهِدٍ، ويُرادُ به الأنبياءُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّهم يَشهَدونَ على قَومِهم.

وإن كان معطوفًا ففي المعنى قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه جمْعُ شهيدٍ، فوصَفَ اللهُ المؤمنينَ بأنَّهم صِدِّيقونَ وشُهَداءُ، أي: جمَعوا الوصفَينِ،...

والآخَرُ: أنَّه جمعُ شاهِدٍ؛ لأنَّ المؤمنينَ يَشهَدون على النَّاسِ، كقولِه: ﴿لِتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ هذا خبَرٌ عن الشُّهداءِ خاصَّةً إن كان مُبتدَأً، أو خبرٌ عن المؤمنينَ إن كان الشُّهداءُ مَعطوفًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٧). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٧٩).

ممَّن اختار أنَّ الجُملةَ مُستأنَفةٌ، وأنَّ الشُّهداءَ مُبتدَأٌ وخبَره ما بعدَه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والرَّسْعَنيُّ، وأبو حيان، وابن كثير، والنيسابوري، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٣)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومَسروقٌ، وأبو الضُّحى، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢).

وممَّن اختار أنَّها معطوفةٌ: الزمخشريُّ، والنسفي، والبِقاعي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٢). =

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مَسعودٍ، ومجاهِدٌ، وزَيدُ بنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٦).

قال أبو السعود: (أي: أُولئكَ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ بمنزلةِ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ المشهورينَ بعلوِّ الرُّتبةِ، ورفعةِ المحلِّ). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالشُّهداءِ: الأنبياءُ: الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٠).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالشُّهداءِ: الَّذين استُشْهِدوا في سبيلِ الله: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والنسفي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٣٨).

قال ابن رجب: (قد يُطلَقُ الشَّهيدُ على مَن حقَّق الإيمانَ وشَهِد بصِحَّته؛ لقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾). ((أهوال القبور وأحوال أهلها إلى النشور)) (ص: ١٠١).

وقال ابن القيِّم: (قيل: إنَّ الوقفَ على قولِه تعالى: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، ثمَّ يبتدئُ: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، فيَكونُ الكلامُ جُملتَينِ أخبر في إحداهما عن المؤمنينَ باللهِ ورُسلِه أنَّهم هم الصِّدِّيقونَ، والإيمانُ التَّامُّ يَستلزِمُ العِلمَ والعمَلَ والدَّعوةَ إلى الله بالتَّعليم والصَّبرِ عليه، وأخبر في الثَّانيةِ أنَّ الشُّهداءَ عندَ ربِّهم لهم أجرُهم ونورُهم، ومرتبةُ الصِّدِّيقينَ فوقَ مرتبةِ الشُّهداءِ؛ ولهذا قدَّمَهم عليهم...

وقيل: إنَّ الكلامَ كلَّه جملةٌ واحدةٌ، وأخبر عن المؤمنينَ بأنَّهم هم الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ عندَ ربِّهم، وعلى هذا فالشُّهداءُ هم الَّذين يَستَشْهِدُهم اللهُ على النَّاسِ يومَ القيامةِ، وهو قولُه تعالى: ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وهم المؤمنونَ، فوصَفَهم بأنَّهم صِدِّيقونَ في الدُّنيا وشُهداءُ على النَّاسِ يومَ القيامةِ، ويكونُ الشُّهداءُ وصْفًا لجملةِ المؤمنينَ الصِّدِّيقينَ. وقيل: الشُّهداءُ هم الَّذين قُتِلوا في سبيلِ الله، وعلى هذا القولِ يَترجَّحُ أن يكونَ الكلامُ جُملتَينِ، ويكونَ قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مُبتدَأً خبرُه ما بعْدَه؛ لأنَّه ليس كلُّ مؤمنٍ صِدِّيقٍ شهيدًا في سبيلِ الله. ويُرجِّحُه أيضًا أنَّه لو كان الشُّهداءُ داخلًا في جملةِ الخبَرِ عن المؤمنينَ لَكان قولُه تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ داخلًا أيضًا في جملةِ الخبرِ عنهم، ويكونُ قد أخبر عنهم بثلاثةِ أشياءَ؛ أحدُها: أنَّهم هم الصِّدِّيقونَ، والثَّاني: أنَّهم هم الشُّهداءُ، والثَّالثُ: أنَّ لهم أجْرَهم ونورَهم، وذلك يَتضَمَّنُ =

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

## مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ سُبحانَه حالَ المُؤمِنينَ؛ أتْبَعَه بذِكرِ حالِ الكافِرينَ[1].

---

= عطفَ الخبَرِ الثَّاني على الأوَّلِ، ثمَّ ذِكْرَ الخبرِ الثَّالثِ مجرَّدًا عن العطفِ، وهذا كما تقولُ: زَيدٌ كريمٌ وعالِمٌ له مالٌ. والأحسَنُ في هذا تَناسُبُ الأخبارِ بأنْ تُجَرِّدَها كلَّها مِن العطفِ، أو تَعطِفَها جميعًا فتقولُ: زَيدٌ كريمٌ عالِمٌ له مالٌ، أو كريمٌ وعالِمٌ وله مالٌ، فتأمَّلْهُ.

ويُرجِّحُه أيضًا أنَّ الكلامَ يَصيرُ جُمَلًا مُستقِلَّةً قد ذُكِر فيها أصنافُ خلْقِه السُّعداءُ، وهم الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ والصَّالِحونَ، وهم المَذكورونَ في الآيةِ، وهم المُتصَدِّقونَ الَّذين أقرَضوا اللهَ قرضًا حسَنًا، فهؤلاء ثلاثةُ أصنافٍ، ثمَّ ذكَر الرُّسلَ في قولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]). ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٣٥١، ٣٥٢).

وجوَّز ابنُ عاشور أن يكونَ قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ عَطفًا على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، أي: وهم الشُّهَداءُ، قال: (قيل: معنى كَونِهم شُهَداءَ: أنَّهم شُهَداءُ على الأُمَمِ يَومَ الجزاءِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، فالشَّهادةُ تكونُ بمعنى الخبَرِ بما يُثبِتُ حَقًّا يُجازَى عليه بخَيرٍ أو شَرٍّ ...)، وجوَّز أيضًا أن يكونَ قَولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مُبتدَأً، وجُملةُ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ خبرًا عن المبتدَأِ، ويكونَ المرادُ الشُّهداءَ في سبيلِ الله.

ثمَّ قال: (والمَعْنَيانِ مِن الشُّهداءِ ممكنٌ الجمْعُ بيْنَهما، فتُحمَلُ الآيةُ على إرادتِهما على طريقةِ استعمالِ المُشتركِ في مَعنيَيْهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧، ٣٩٨). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٣، ١٨٤).

قال ابنُ جزي: (﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ هذا خبرٌ عن الشهداءِ خاصَّةً إنْ كان مبتدأً، أو خبرٌ عن المؤمنينَ إنْ كان الشهداءُ معطوفًا، ونورُهم هو النُّورُ الذي يكونُ لهم يومَ القيامةِ، حسَبَما ذكَره في هذه السُّورةِ، وقيل: هو عبارةٌ عن الهدَى والإيمانِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٧).

ونسَب ابنُ عطيةَ كونَ هذا النُّورِ حقيقةً إلى جمهورِ المفسرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٦).

وقال الزمخشري بناءً على أنَّ الشهداءَ معطوفٌ: (﴿لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ أي: مثلُ أجرِ الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ، ومثلُ نورِهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٣).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾.

أي: والَّذين كَفَروا باللهِ ورُسُلِه، وكَذَّبوا بآياتِ القُرآنِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ: أولئك مُلازِمونَ للنَّارِ الشَّديدةِ التَّوَقُّدِ(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مِن آياتِ القرآنِ تأثيرُه على القَلبِ؛ فإنَّ الإنسانَ إذا قَرَأَه بتدبُّرٍ فإنَّه يُلَيِّنُ القَلبَ، ويُوَجِّهُ الإنسانَ إلى ربِّه، ويُوجِدُ طَعمًا عَجيبًا للإيمانِ؛ قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾(٢) [الزمر: ٢٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ توبيخٌ وعِتابٌ لِمَن سَمِعَ هذا السَّماعَ ولم يُحْدِثْ له في قَلبِه صَلاحًا ورِقَّةً وخُشوعًا(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أنَّ قَسْوةَ القَلبِ، وطُولَ الأَمَدِ، والتَّسويفَ: هي العوامِلُ الأساسيَّةُ للغَفلةِ وإيثارِ الدُّنيا، وأنَّ الخَشْيةَ والذِّكْرَ: هي العوامِلُ الأساسيَّةُ لإيثارِ الآخِرةِ(٤).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٤٦٩).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٥٠٦).

﴿ٱلۡحَقِّ﴾ الحَثُّ على الاجتِهادِ على خُشوعِ القَلبِ لله تعالى ولِما أنزَلَه مِنَ الكِتابِ والحِكْمةِ، وأنْ يتذَكَّرَ المُؤمِنونَ المواعِظَ الإلهيَّةَ والأحكامَ الشَّرعيَّةَ كُلَّ وَقتٍ، ويُحاسِبوا أنفُسَهم على ذلك(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ الإرشادُ إلى وَسيلةِ الإنابةِ إلى اللهِ تعالى، والحَثُّ على تعَهُّدِ النَّفْسِ بالمَوعِظةِ، والتَّذكيرُ بالإقبالِ على القُرآنِ وتدَبُّرِه، وكَلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ في اللَّجَأِ إلى كتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نجاةً، وفي المَفزَعِ إليهما عِصْمةً، وقد قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به مِنَ الهُدى والعِلمِ كمَثَلِ الغَيثِ الكَثيرِ أصاب أرضًا، فكان منها نَقِيَّةٌ قَبِلَت الماءَ، فأنبَتَت الكَلأَ والعُشْبَ، وكانت منها أجادِبُ أمسَكَت الماءَ، فنَفَع اللهُ بها النَّاسَ، فشَربوا وسَقَوا وزَرَعوا، وأصاب منها طائِفةً أُخرى إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنبِتُ كَلأً؛ فذلك مَثَلُ مَن فَقُه في دِينِ اللهِ، ونَفَعَه ما بعَثَني اللهُ به، فعَلِمَ وعلَّم، ومَثَلُ مَن لم يَرفَعْ بذلك رأسًا، ولم يقبَلْ هُدى اللهِ الَّذي أُرسِلْتُ به))(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ﴾ دليلٌ على أنَّ المرءَ مَمنوعٌ مِن التَّشَبُّهِ والاقتِداءِ بمَن لا يَكونُ مَرضِيَّ الفِعَالِ، وأنَّه إنِ اقتدى به في فِعلٍ بعَينِه لم يَصِرْ بجَميعِ الصِّفاتِ مِثلَه؛ فليَعتبِرِ المُنْكِرُ على مَن شَبَّهَ المُشْمَئِزِّينَ مِن دَعوةِ الدَّاعي في الأحكامِ إلى القُرآنِ، بالمُنافِقينَ والكافِرينَ، وإنْ لم يكُنْ مُنافِقًا ولا كافِرًا بهذا؛ لِيَردَعَه عنِ استِعظامِ ما ليس بعَظيمٍ مِن المُشَبِّهِ، بل فِعْلُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٤).

والحديثُ الأخيرُ تقدَّم تخريجُه (ص: ١١١).

المُشْمَئِزِّ بالتَّشبيهِ بالقَومِ عظيمٌ لو عَقَله[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ النَّهيُ عن التَّشبُّهِ بالَّذين أُوتوا الكتابَ في عدَمِ خشوعِ قُلوبِهم، والتَّحذيرُ للمؤمنينَ -بعدَ أن يَطولَ الزَّمانُ- مِن أنْ يَقعوا فيما وقَع فيه أهلُ الكِتابِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أنَّ الإنسانَ يَنبغي له أنْ يُحافِظَ على العَمَلِ، وألَّا يَتكاسَلَ، وألَّا يَدَعَه، بل يَستَمِرَّ على ما هو عليه[٣].

٩- قسوةُ القلوبِ: شِدَّتُها وصلابتُها حتَّى لا يَدخُلَ فيها خَيرٌ؛ لأنَّ ذا الشَّيءَ القاسيَ ليس بقابِلٍ لِدُخولِ شيءٍ فيه، فقلوبُهم صُلْبةٌ شديدةٌ نابيةٌ عن الخَيرِ، لا يَدخُلُها وَعْظٌ، ولا يَنْجِعُ فيها خَيرٌ، والسَّبَبَ الَّذي قَسَت به قُلوبُ أهلِ الكِتابِ نَهى اللهُ عن ارتِكابِه المُسلِمينَ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أنَّ قَسوةَ القَلبِ وطُولَ الأَمَلِ يُساعِدُ على الكُفرِ والتَّمادي في الباطِلِ[٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أنَّه يَتَولَّدُ مِن طُولِ الأمَلِ الكَسَلُ عنِ الطَّاعةِ، والتَّسويفُ بالتَّوبةِ، والرَّغبةُ في الدُّنيا، والنِّسيانُ للآخِرةِ،

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٩/ ٩٣).

والقَسوةُ في القَلبِ؛ لأنَّ رِقَّتَه وصَفاءَه إنَّما يَقَعُ بتَذكيرِ الموتِ والقَبرِ، والثَّوابِ والعِقابِ، وأهوالِ القيامةِ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ إهمالَ الرِّعايةِ مُبْلٍ للادِّكارِ في قُلوبِ المُؤمنينَ، وتَعاهُدَها مُجَدِّدٌ له؛ والقَسوةَ مُتوَلِّدةٌ مِن طولِ الأملِ، وإدمانِ الزَّلَلِ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أنَّ القُلوبَ تَحتاجُ في كُلِّ وَقتٍ إلى أن تُذَكَّرَ بما أنزَلَه اللهُ، وتُناطَقَ بالحِكْمةِ، ولا يَنبغي الغَفلةُ عن ذلك؛ فإنَّ ذلك سَبَبٌ لِقَسوةِ القَلبِ، وجُمودِ العَينِ[٣].

١٤- أسبابُ القَسوةِ كَثيرةٌ؛ منها: كثرةُ الكلامِ بغيرِ ذِكرِ اللهِ، ونَقضُ العَهدِ مع اللهِ تعالى، وكثرةُ الضَّحِكِ، وكَثرةُ الأكلِ ولا سيَّما إن كان مِنَ الشُّبُهاتِ أو الحرامِ، وكثرةُ الذُّنوبِ.

وأمَّا مُزيلاتُ القَسوةِ فمُتعَدِّدةٌ أيضًا؛ فمنها: كثرةُ ذِكرِ اللهِ الَّذي يَتَواطأُ عليه القَلبُ واللِّسانُ، والأصلُ في إزالةِ قَسوةِ القُلوبِ بالذِّكرِ قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، وقَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾. ومنها: الإحسانُ إلى اليَتامى والمساكينِ. ومنها: كثرةُ ذِكرِ الموتِ. ومنها: زيارةُ القُبورِ بالتَّفكُّرِ في

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

حالِ أهلِها ومَصيرِهم. ومنها: النَّظَرُ في ديارِ الهالِكينَ، والاعتِبارُ بمَنازِلِ الغابِرينَ. ومنها: أكلُ الحلالِ(١).

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، قولُه: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: في الأعمالِ؛ فقُلوبُهم فاسِدةٌ، وأعمالُهم باطِلةٌ، كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، أي: فَسَدتْ قُلوبُهم فقَسَتْ، وصار مِن سَجِيَّتِهم تحريفُ الكَلِمِ عن مَواضِعِه، وتَرَكوا الأعمالَ الَّتي أُمِروا بها، وارتَكَبوا ما نُهُوا عنه؛ ولهذا نَهى اللهُ تعالى المُؤمنينَ أن يَتشَبَّهوا بهم في شَيءٍ مِنَ الأُمورِ الأصليَّةِ والفَرعيَّةِ(٢).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ العدالةُ التَّامَّةُ في حُكْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ حيثُ لم يُعَمِّمْ، وهذا هو الواجِبُ على مَن تَحَدَّثَ عن قَومٍ؛ أنْ يُبَيِّنَ الواقِعَ؛ لأنَّ بَعضَ النَّاسِ إذا رأى مِن قومٍ زَيغًا في بَعضِهم عَمَّمَ الحُكْمَ على الجَميعِ، والواجِبُ العَدْلُ، فإنْ كان الأكثَرُ هم الفاسِقينَ، فقُلْ: «أكثَرُهم»، وإنْ كان كثيرٌ منهم فاسِقينَ فعَبِّرْ بالكَثيرِ، على حَسَبِ ما تَقتَضيه الحالُ؛ لأنَّ الواجِبَ أنْ يَقومَ الإنسانُ بالعَدلِ ولو على نَفْسِه أو والِدَيه والأقرَبينَ(٣).

١٧- بعدَ ذِكْرِ أصنافِ السُّعَداءِ ذَكَرَ -سُبحانَه- الأشقياءَ، وهم نَوعانِ: كُفَّارٌ، ومُنافِقونَ؛ فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾،

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٦١) فما بعدها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٠).

وذَكَرَ المُنافِقينَ في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، فهؤلاء أصنافُ العالَمِ كلُّهم، وتَرَكَ سُبحانَه وتعالى ذِكْرَ المُخَلِّطِ صاحِبِ الشَّائِبَتينِ، على طريقةِ القُرآنِ في ذِكْرِ السُّعَداءِ والأشقياءِ دونَ المُخَلِّطِينَ غالِبًا؛ لِسِرٍّ اقتَضَتْه حِكْمتُه سُبحانَه وتعالى؛ فلْيَحْذَرْ صاحِبُ التَّخليطِ؛ فإنَّه لا ضَمانَ له على اللهِ، ولا هو مِن أهلِ وَعْدِه المُطْلَقِ، ولا يَيأسْ مِن رَوْحِ اللهِ؛ فإنه ليس مِن الكُفَّارِ الَّذين قُطِعَ لهم بالعَذابِ، ولكِنَّه بيْنَ الجَنَّةِ والنَّارِ، واقفٌ بيْن الوَعدِ والوَعيدِ؛ كلٌّ مِنهما يَدْعُوه إلى مُوجبِه؛ لأنَّه أَتَى بسَبَبِه[1]!

١٨- مِن وُجوهِ الاعتِبارِ في النَّظَرِ إلى الأرضِ الَّتي أحياها اللهُ بَعْدَ مَوتِها في فَصلِ الرَّبيعِ بما ساق إليها مِن قَطْرِ السَّماءِ: أنَّه يُرجَى مِن كَرَمِه أنْ يُحْيِيَ القُلوبَ المَيِّتةَ بالذُّنوبِ وطُولِ الغَفلةِ، بسَماعِ الذِّكرِ النَّازِلِ مِنَ السَّماءِ، وإلى ذلك الإشارةُ بقَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن قَدَر على إحياءِ الأرضِ بعْدَ مَوتِها بوابِلِ القَطْرِ فهو قادِرٌ على إحياءِ القُلوبِ المَيِّتةِ القاسيةِ، بالذِّكرِ؛ عسى لمحةٌ مِن لَمَحاتِ عَطْفِه ونَفحةٌ مِن نَفَحاتِ لُطفِه، وقد صَلَحَ مِنَ القُلوبِ كُلُّ ما فَسَد[2]!

فمَن أحسَّ بقسوةٍ في قلبِه فليُهْرَعْ إلى ذكرِ الله تعالى وتلاوةِ كتابِه يَرجِعْ إليه حالُه، كما أشار إليه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فهو تمثيلٌ لإحياءِ القلوبِ القاسيةِ بالذِّكرِ والتِّلاوةِ بإحياءِ الأرضِ الميتةِ بالغيثِ؛

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣١٧).

للتَّرغيبِ في الخشوعِ، والتَّحذيرِ عن القساوةِ[١]. ففي ذِكْرِه تعالى لهذه الآيةِ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ بعْدَ الَّتي قبْلَها تنبيهٌ على أنَّه تعالى كما يُحيي الأرضَ بعْدَ مَوتِها، كذلك يُلينُ القلوبَ بالإيمانِ بعْدَ قَسوتِها مِن الذُّنوبِ والمعاصي[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ رَدٌّ على المُرْجِئةِ؛ إذِ المُخاطَبون المُوَبَّخونَ بهذا قد كان لهم -لا مَحالةَ- حَظٌّ في الخُشوعِ قبْلَ استِبطائِهم وتَقريعِهم؛ إذْ لو لم يَكُنْ لهم حَظٌّ فيه -وإنْ قَلَّ- ما كانوا مُؤمِنينَ، فهُم ما التُمِس مِنهم إلَّا زيادةٌ في خُشوعِهم الَّذي بقَليلِه استَحقُّوا اسمَ الإيمانِ قبْلَ أنْ يُطالَبوا بكَثيرِه[٣].

٢- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ غيرَ هذا الذِّكرِ دَخَله الدَّخيلُ، وأمَّا هذا فثابِتٌ ثباتًا لا يَقدِرُ أحَدٌ على إزالتِه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ المقصودُ التَّحذيرُ، لا أنَّهم تلبَّسوا بذلك ولم يأْنِ لهم الإقلاعُ عنه. والتَّحذيرُ مُنصَبٌّ إلى ما حدث لأهلِ الكتابِ مِن قَسوةِ القُلوبِ بَعْدَ طُولِ الأمَدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٩).

عليهم في مُزاوَلةِ دِينِهم، أي: فلْيَحذَرِ الَّذين آمَنوا مِن أن يكونوا مِثْلَهم على حِدْثانِ عَهْدِهم بالدِّينِ. وليس المقصودُ عُذْرَ الَّذين أُوتوا الكِتابَ بطُولِ الأمَدِ عليهم؛ لأنَّ طُولَ الأمَدِ لا يكونُ سَبَبًا في التَّفريطِ فيما طال فيه الأمَدُ، بل الأمرُ بالعَكسِ، ولا قُصِد تَهوينُ حُصولِه للَّذين آمَنوا بعدَ أن يَطُولَ الأمَدُ؛ لأنَّ ذلك لا يتعَلَّقُ به الغَرَضُ قبْلَ طُولِ الأمَدِ، وإنَّما المقصودُ النَّهيُ عن التَّشبُّهِ بالَّذين أُوتوا الكتابَ في عدَمِ خُشوعِ قُلوبِهم، ولكنَّه يُفيدُ تَحذيرَ المؤمِنينَ بعْدَ أنْ يَطولَ الزَّمانُ مِن أنْ يَقَعوا فيما وقَعَ فيه أهلُ الكِتابِ، ويَستتبِعُ ذلك الإنباءَ بأنَّ مُدَّةَ المسلِمينَ تَطولُ قريبًا أو أكثَرَ مِن مدَّةِ أهلِ الكتابِ الَّذين كانوا قبْلَ البَعثةِ؛ فإنَّ القُرآنَ مَوعِظةٌ للعُصورِ والأجيالِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ التَّنديدُ التَّامُّ باليَهودِ والنَّصارى؛ لأنَّها قَسَتْ قُلوبُهم لَمَّا طال عليهم الأمَدُ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ أوَّلَ الأُمَّةِ خَيرٌ مِن آخِرِها، وأخشَعُ قُلوبًا؛ وذلك لقُرْبِهم مِن عَهْدِ الرِّسالةِ، وقد صَحَّ بذلك الحديثُ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ((خَيْرُ النَّاسِ قَرْني، ثُمَّ الَّذين يَلُونَهم، ثُمَّ الَّذين يَلُونَهم))[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩١، ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٢٦٥٢)، ومسلمٌ (٢٥٣٣) من حديثِ عبدِالله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.

ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ عَدَمَ الخُشوعِ في أوَّلِ الأمرِ يُفضي إلى الفِسقِ في آخِرِ الأمرِ[1]!

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ فإنَّ الآياتِ تدُلُّ العُقولَ على العِلمِ بالمَطالِبِ الإلهيَّةِ، والَّذي أحيا الأرضَ بعْدَ مَوتِها قادِرٌ على أن يُحييَ الأمواتَ بعدَ مَوتِهم، فيُجازيَهم بأعمالِهم، والَّذي أحيا الأرضَ بعْدَ مَوتِها بماءِ المطَرِ قادِرٌ على أنْ يُحييَ القُلوبَ المَيِّتةَ بما أنزَلَه مِنَ الحَقِّ على رَسولِه، وهذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّه لا عَقْلَ لِمَن لم يَهْتَدِ بآياتِ اللهِ، ولم يَنْقَدْ لشَرائِعِ اللهِ تعالى[2].

٨- عُمَّالُ الآخرةِ على قِسْمَينِ: منهم مَن يَعمَلُ على الأجرِ والثَّوابِ، ومنهم مَن يَعمَلُ على المَنزلةِ والدَّرَجةِ، فهو يُنافِسُ غيْرَه في الوَسيلةِ والمنزلةِ عندَ اللهِ تعالى، ويُسابِقُ إلى القُرْبِ منه، وقد ذَكَرَ اللهُ تعالى النَّوعَينِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾، فهؤلاء أصحابُ الأُجورِ والثَّوابِ، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ فهؤلاء أصحابُ المَنزلةِ والقُرْبِ[3].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ؛ هذه الآياتُ جَمَعَت أصنافَ الخَلْقِ: المتصَدِّقينَ، والصِّدِّيقينَ، والشُّهداءَ، وأصحابَ الجَحيمِ؛ فالمُتصَدِّقونَ: الَّذين كان جُلُّ عَمَلِهم الإحسانَ إلى الخَلْقِ، وبَذْلَ النَّفعِ إليهم بغايةِ ما يُمكِنُهم، خُصوصًا بالنَّفعِ بالمالِ في سَبيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

(٣) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٦٩).

اللهِ. والصِّدِّيقونَ: هم الَّذين كَمَّلوا مَراتِبَ الإيمانِ، والعَمَلِ الصَّالحِ، والعِلمِ النَّافعِ، واليَقينِ الصَّادِقِ. والشُّهَداءُ: هم الَّذين قاتَلوا في سَبيلِ اللهِ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ، وبَذَلوا أنفُسَهم وأموالَهم فقُتِلوا. وأصحابُ الجَحيمِ: هم الكُفَّارُ الَّذين كَذَّبوا بآياتِ اللهِ. وبَقِيَ قِسمٌ ذَكَرَهم اللهُ تعالى في سورةِ فاطِرٍ -في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [فاطر: ٣٢]- وهم المُقتَصِدونَ الَّذين أدَّوُا الواجِباتِ، وتَرَكوا المُحَرَّماتِ إلَّا أنَّهم حَصَل منهم تقصيرٌ ببَعضِ حُقوقِ اللهِ وحُقوقِ عِبادِه؛ فهؤلاء مآلُهم الجنَّةُ، وإن حَصَلَ لهم عُقوبةٌ ببَعضِ ما فَعَلوا[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ﴾ سُؤالٌ: لِماذا عَبَّرَ اللهُ تعالى بالقَرضِ، وهو الغَنيُّ سُبحانَه وتعالى؟

**الجوابُ**: يقولُ هذا جلَّ وعلا؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ أجْرَهم مَضمونٌ كما أنَّ القرضَ مَضمونٌ، وسَيَرُدُّ عليه الحَسَنةَ بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِمئةِ ضِعْفٍ إلى أضعافٍ كثيرةٍ، لكنْ كيف تكونُ الواحِدةُ بعَشَرةٍ وهي رِبًا في القَرْضِ؟

**الجوابُ**: أوَّلًا: لا رِبَا بيْنَ العَبدِ وبيْنَ رَبِّه.

**ثانيًا**: القَرْضُ إذا أعطاك المقترِضُ شيئًا بدونِ شرْطٍ فهو حَلالٌ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم استَقرَضَ بَكْرًا -والبَكْرُ يعني بَعيرًا صغيرًا- وردَّ خَيرًا منه، وقال: ((إنَّ خَيْرَكم أحسَنُكم قَضاءً))[٢]؛ ولهذا عبارةُ الفُقَهاءِ: «كلُّ شَرطٍ جَرَّ نَفعًا للمُقْرِضِ فهو رِبًا»، ولم يقولوا: كلُّ زيادةٍ[٣]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٢٣٩٠)، ومسلمٌ (١٦٠١) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.
وأخرجه مسلم (١٦٠٠) من حديث أبي رافع رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٩٣).

دليلٌ على أنَّ الخُلودَ في النَّارِ مَخصوصٌ بالكُفَّارِ؛ مِن حيثُ إنَّ التَّركيبَ يُشعِرُ بالاختِصاصِ، والصُّحبةَ تدُلُّ على المُلازَمةِ عُرفًا، وأمَّا غَيرُهم مِنَ العُصاةِ فدُخولُهم فيها ليس على وَجهِ الصُّحبةِ الدَّالَّةِ على المُلازَمةِ(١).

١٢- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أنَّ الكُفْرَ قد يَصحَبُه التَّكذيبُ، وقد لا يَصحَبُه؛ ولهذا أحيانًا يَذكُرُ اللهُ الكُفرَ فقط؛ مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣١]، وأحيانًا يَذكُرُ التَّكذيبَ فقط؛ قال تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ [الزمر: ٣٢]، وأحيانًا يَقْرِنُ بَيْنَهما؛ وذلك لأنَّ كُلًّا منهما قد يكونُ وَحْدَه مُوجِبًا للخُلُودِ في النَّارِ، فإذا اجتَمَعا جميعًا صار ذلك أشدَّ وأعظَمَ. والعياذُ باللهِ(٢).

١٣- قَولُه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: المرادُ بالآياتِ هنا الآياتُ الشَّرعيَّةُ، والكونيَّةُ؛ فمَن أنكَرَ رُبوبيَّةَ اللهِ تعالى وخَلْقَه للمَخلوقاتِ، وتصرُّفَه في الكَونِ؛ فهذا مكذِّبٌ بالآياتِ الكَونيَّةِ، وقد يُقِرُّ بذلك، لكنَّه يَكْفُرُ ويُكَذِّبُ بالآياتِ الشَّرعيَّةِ، ويُعرِضُ عن طاعةِ اللهِ تعالى(٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ استِئنافٌ ناعٍ عليهم تَثاقُلَهم في أُمورِ الدِّينِ، ورَخاوةَ عَقدِهم فيها، واستِبطاءٌ لانتِدابِهم لِما نُدِبوا إليهِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ١٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٨).

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ، أي: إنكارِ نفْيِ اقترابِ وقْتِ فِعْلِ الفعلِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ الاستفهامُ للتَّقريرِ على النفْيِ[1].

- والمقصودُ مِن قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إمَّا بعضٌ منهم رُبَّما كانوا مُقصِّرينَ عن جُمهورِ المؤمنينَ يومَئذٍ بمكَّةَ، فأراد اللهُ إيقاظَ قُلوبِهم بهذا الكلامِ المُجمَلِ، على عادةِ القرآنِ وأقوالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في التَّعريضِ، وإمَّا أنْ يكونَ تَحريضًا للمؤمنينَ على مُراقَبةِ ذلك، والحذَرِ مِن التَّقصيرِ[2].

- وقَدَّم الخُشوعَ بالذِّكْرِ على الخُشوعِ بما نَزَل مِنَ القُرآنِ؛ لأنَّ الخُشوعَ والخَوفَ والخَشْيةَ لا تَحصُلُ إلَّا عِندَ ذِكرِ اللهِ تعالى، فأمَّا حُصولُها عِندَ سَماعِ القُرآنِ فذلك مِن أجْلِ اشتِمالِ القُرآنِ على ذِكرِ اللهِ تعالى[3].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ الوَصْفانِ في قولِه: ﴿لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ للقرآنِ؛ تَشريفًا له بأنَّه ذِكرُ اللهِ، وتَعريفًا لنفْعِه بأنَّه نزَلَ مِن عندِ اللهِ، وأنَّه الحقُّ[4].

- ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ (لا) في قولِه: ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ حرْفَ نَهْيٍ، ويُعلَّقَ النَّهيُ بالغائبِ التِفاتًا[5]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩١).

(٥) الالتفاتُ: هو نقْلُ الكلامِ مِن أُسلوبٍ إلى أُسلوبٍ آخَرَ؛ استِدرارًا للسَّامعِ، وتَجديدًا لنشاطِه، وصِيانةً لخاطِرِه مِن الملالِ والضَّجرِ بدوامِ الأُسلوبِ الواحدِ على سمْعِه؛ كالانتِقالِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، أو تَغييرِ ضَميرِ المُتكلِّمِ نفْسِه: تارةً يَجعلُه تاءً على جِهةِ الإخبارِ عن نفْسِه، وتارةً =

أو المرادُ: أبْلِغْهم ألَّا يَكونوا[١].

- وفاءُ ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ لتَفريعِ طُولِ الأمَدِ على قَسْوةِ القلوبِ مِن عدَمِ الخُشوعِ، فهذا التَّفريعُ خارجٌ عن التَّشبيهِ الَّذي في قولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾، ولكنَّه تَنبيهٌ على عاقِبةِ ذلك التَّشبيهِ؛ تَحذيرًا مِن أنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَ الَّذين أُوتوا الكتابَ مِن قبْلُ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ اعتِراضٌ في آخِرِ الكلامِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، افتِتاحُ الكلامِ بفِعلِ الأمْرِ ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ يُؤْذِنُ بأنَّ ما سيُلْقى جَديرٌ بتوجُّهِ الذِّهنِ بكُلِّيَّتِه إليه، وهو هنا يُشيرُ إلى أنَّ الكلامَ الَّذي بعْدَه له مَغزًى عَظيمٌ غيرُ ظاهرٍ؛ وذلك أنَّه أُرِيدَ به تَمثيلُ حالِ احتِياجِ القُلوبِ المُؤمِنةِ إلى ذِكرِ اللهِ بحالِ الأرضِ المَيتةِ في الحاجةِ إلى المطَرِ، وحالِ الذِّكرِ في تَزكيةِ النُّفوسِ واستِنارتِها بحالِ الغَيثِ في إحياءِ الأرضِ الجَدْبةِ، ودلَّ على ذلك قولُه بعْدَه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ

---

= يجَعلُه كافًا، فيَجعَلُ نفْسَه مُخاطَبًا، وتارةً يَجعلُه هاءً، فيُقيمُ نفْسَه مُقامَ الغائبِ. وشرْطُه أنْ يكونَ الضَّميرُ في المتنقَّلِ إليه عائدًا في نفْسِ الأمرِ إلى المُلتَفَتِ عنه. وللمُتَكلِّمِ والخِطابِ والغَيبةِ مَقاماتٌ، والمشهورُ: أنَّ الالتفاتَ هو الانتقالُ مِن أحدِها إلى الآخَرِ بعدَ التَّعبيرِ بالأوَّلِ. وهذا النَّوعُ قد يختصُّ مواقعُه بلطائفِ مَعانٍ قَلَّما تتَّضِحُ إلَّا لأفرادِ البُلغاءِ، أو للحُذَّاقِ المَهرَةِ في هذا الفنِّ والعُلماءِ النَّحاريرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٠٠، ٢٠١)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾؛ وإلَّا فإنَّ إحياءَ اللهِ الأرضَ بعْدَ مَوتِها بما يُصيبُها مِن المطَرِ لا خَفاءَ فيه؛ فلا يَقْتضي أنْ يُفتتَحَ الإخبارُ عنه بمِثلِ ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ إلَّا لأنَّ فيه دَلالةً غيرَ مألوفةٍ، وهي دَلالةُ التَّمثيلِ؛ فالجُملةُ بمَنزِلةِ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]؛ لِما تَتضمَّنُه تلك مِن التَّحريضِ على الخُشوعِ لِذِكرِ اللهِ، ولكنَّ هذه بمَنزلةِ العِلَّةِ؛ ففُصِلَت ولم تُعطَفْ(١).

- والخِطابُ في قولِه: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ﴾ للمُؤمنِينَ، على طَريقةِ الالْتِفاتِ، إقْبالًا عليهم؛ للاهتِمامِ(٢).

- وقولُه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؛ لأنَّ السَّامعَ قولَه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يَتطلَّبُ مَعرفةَ الغرَضِ مِن هذا الإعلامِ، فيكونُ قولُه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ﴾ جَوابًا عن تَطلُّبِه، أي: أعلَمْناكم بهذا تَبْيينًا للآياتِ(٣).

- وأيضًا قولُه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يُفيدُ بعُمومِه مُفادَ التَّذييلِ للآياتِ السَّابقةِ مِن أوَّلِ السُّورةِ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾ للاستِغراقِ(٤).

- وقولُه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ رَجاءٌ وتَعليلٌ، أي: بيَّنَّا لكم لأنَّكم حالُكم كحالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٣، ٣٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٦٩، ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٩٤، ٣٩٥).

مَن يُرْجى فَهْمُه، والبَيانُ عِلَّةٌ لفَهمِه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ مِن عَطْفِ المرادِفِ في المعْنى؛ لِمَا في المعطوفِ مِن تَشبيهِ فِعْلِهم بقرْضٍ للهِ؛ تَنويهًا بالصَّدقاتِ[٢].

- وعُطِفَ ﴿وَأَقْرَضُوا۟﴾ -وهو جُملةٌ- على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ -وهو مُفرَدٌ-؛ لأنَّ المفردَ في حُكْمِ الفعلِ؛ حيثُ كانتِ اللَّامُ في معْنى الموصولِ؛ فقُوَّةُ الكلامِ: إنَّ الَّذين اصَّدَّقوا واللَّائي تَصدَّقْنَ وأقْرَضوا على التَّغليبِ، ووَجْهُ العُدولِ عن تَماثُلِ الصِّلتَينِ فلم يَقُلْ: (إنَّ المُصَّدِّقينَ والمُقرِضينَ)؛ هو تَصويرُ معْنى كَونِ التَّصدُّقِ إقراضًا للهِ. وقيل: ﴿وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ اعتراضٌ على سَبيلِ الاستِطرادِ؛ فإنَّ المُصَّدِّقاتِ لو لمْ تُذكَرْ لَكانتْ مُندرِجةً تحتَ ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾ على سَبيلِ التَّغليبِ، كما أنَّ قولَه: ﴿وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عامٌّ في الرِّجالِ والنِّساءِ؛ فذِكرُ ﴿وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ لِمَزيدِ التَّقريرِ. وقيل: إنَّ (المُصَّدِّقاتِ) ليسَ بعطفٍ على ﴿ٱلْمُصَّدِّقِينَ﴾، بل هُو مَنصوبٌ على الاختِصاصِ، كأنَّه قيلَ: إنَّ المُصَّدِّقينَ على العُموم تَغليبًا، وأخصُّ المُصَّدِّقاتِ مِن بيْنِهم، كما تقولُ: إنَّ الَّذين آمنوا -ولا سيَّما العلماءِ منهم- وعمِلُوا الصَّالِحاتِ لهم كذا، لكنْ لا على أنَّ مَدارَ التَّخصيصِ مَزيدُ استِحقاقِهنَّ لمُضاعَفةِ الأجْرِ، كما في المثالِ المذكورِ، بل زِيادةُ احتياجِهنَّ إلى التَّصدُّقِ، الدَّاعيةُ إلى الاعتِناءِ بِحَثِّهنَّ على التَّصدُّقِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٧)، =

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾

- في جمْعِ لَفظِ ﴿وَرُسُلِهِۦٓ﴾ تَعريضٌ بأهلِ الكتابِ الَّذين قالوا: ﴿نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ﴾ [النساء: ١٥٠]، فاليهودُ آمَنوا باللهِ وبمُوسى، وكَفَروا بعِيسى وبمحمَّدٍ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، والنَّصارى آمَنوا باللهِ وبعِيسَى، ثُمَّ كفَروا فعَبدوه، وكفَروا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والمُؤمِنونَ آمَنوا برُسلِ اللهِ كلِّهم؛ ولذلك وُصِفوا بأنَّهم الصِّدِّيقونَ(١).

- وأيضًا جمَعَ الرُّسلَ؛ لأنَّ مَن آمَن باللهِ، وبجَميعِ ما يجِبُ أنْ يُؤمِنَ به مِن صِفاتِه وأفعالِه، وبجَميعِ ما يُضافُ ويُنسَبُ إليهم؛ يكونُ مُفرِطًا في الصِّدْقِ؛ لكَثرةِ ما صدَّقَ به(٢).

- وفي قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المشارَ إليهم استَحَقُّوا ما يَرِدُ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ الصِّفاتِ الَّتي قبْلَ اسمِ الإشارةِ. وما فيهِ مِن معْنى البُعدِ معَ قُربِ العَهدِ بالمشارِ إليه؛ للتَّنويهِ بشأْنِهم(٣).

- وضَميرُ الفصْلِ (هُم) للقَصْرِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ(٤)، أي: همُ الصِّدِّيقونَ

---

= ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧).

(٤) القصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره =

لا الَّذين كذَّبوا بعضَ الرُّسلِ، وهذا إبطالٌ لأنْ يكونَ أهلُ الكتابِ صِدِّيقينَ؛ لأنَّ تَصديقَهم رسولَهم لا جَدْوى له؛ إذ لم يُصدِّقوا برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

- و(الصِّدِّيقُ) -بتَشديدِ الدَّالِ- مُبالَغةٌ في المُصَدِّقِ(٢).

- قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ عطْفًا على ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ عطْفَ المفرَدِ على المفرَدِ؛ فهو عطْفٌ على الخبَرِ، أي: وهم الشُّهداءُ، فتَكونَ جُملةُ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ استِئنافًا بَيانيًّا نشَأَ عن وصْفِهم بتَينِكَ الصِّفتَينِ؛ فإنَّ السَّامعَ يَترقَّبُ ما هو نَوالُهم مِن هذَينِ الفضْلَينِ. وقيل: معنَى كونِهم شُهداءَ: أنَّهم شهداءُ على الأُممِ يومَ الجزاءِ. ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ﴾ مُبتدأً، وجُملةُ ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ وَنُورُهُمۡ﴾ خبرًا عن المُبتدأِ، ويكونَ العطْفُ مِن عطْفِ الجُمَلِ، فيُوقَفَ على قولِه: ﴿ٱلصِّدِّيقُونَ﴾، فيكونَ انتِقالًا مِن وصْفِ مَزيَّةِ الإيمانِ باللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى وَصْفِ مَزيَّةِ فَريقٍ منهم استَأْثروا بفَضيلةِ الشَّهادةِ في سَبيلِ اللهِ، وهذا مِن تَتمَّةِ قولِه: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [الحديد: ١٠]؛ فإنَّه لَمَّا نوَّه بوعْدِ المُؤمنينَ

---

= بشأنِه، أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ يدورُ حولَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويستدلُّ عليها بالقرائنِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨)، ((التعريفات)) للجرجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٧).

المُصَدِّقينَ المَعْفِيينَ مِن قولِه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ ...﴾ [الحديد: ٨] إلخ، فأَوفاهم حقَّهم بقولِه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾؛ أقبَلَ على وعْدِ الشُّهداءِ في سَبيلِ الله، الَّذين تَضمَّنَ ذِكرَهم قولُه: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ١٠] الآياتِ، فالشُّهداءُ إذنْ هم المَقتولونَ في الجهادِ في سَبيلِ اللهِ، ويمكِنُ الجمْعُ بيْن معْنيي الشُّهداءِ، على طَريقةِ استِعمالِ المُشتركِ في مَعْنيَيه[1].

- قيل: سمَّاهم شُهداءَ تَغليبًا، أو المرادُ لهم أجْرُ الشُّهداءِ، وإلَّا فبَعضُهم لم يُقتَلْ حتَّى يكونَ شَهيدًا[2]. وذلك على أنَّ ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ معطوفٌ.

- ومعْنى إضافةِ أجْرٍ ونُورٍ إلى ضَميرِهم في قوله: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ أنَّه أجْرٌ يُعرَّفُ بهم، ونُورٌ يُعرَّفُ بهم، وإذ قد كان مُقْتضَى الإضافةِ أنْ تُفيدَ تَعريفَ المضافِ بنِسبتِه إلى المضافِ إليه، وكان الأجرُ والنُّورُ غيرَ مَعلومَينِ للسَّامعِ؛ كان في الكلامِ إبهامٌ يُكنَّى به عن أجْرٍ ونُورٍ عَظيمَينِ، فهو كِنايةٌ عن التَّنويهِ بذلك الأجْرِ وذلك النُّورِ، أي: أجرٌ ونُورٌ لا يُوصَفانِ إلَّا بأجْرِهم ونُورِهم، أي: أجرٌ ونورٌ لائقانِ بمقامِهم، مع ضَميمةِ ما أفادَتْه العِنْديَّةُ الَّتي في قولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ مِن معْنى الزُّلْفى والعِنايةِ بهم، المُفيدِ عَظيمَ الأجْرِ والنُّورِ[3].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ ضَميرَا ﴿أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ عائدَينِ إلى لَفظَي ﴿الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ﴾، أو إلى لَفظِ (الشُّهَدَاءُ) خاصَّةً، بمعْنى الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ ممَّن كانوا قبْلَهم مِن الأُمَمِ، ومعْنى الصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ حينَئذٍ مُغايرٌ للمعْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٨، ٣٩٩).

السَّابقِ بالعمومِ والخُصوصِ على طَريقةِ الاستِخدامِ في الضَّميرِ، وطَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ في حمْلِ الخبرِ على المُبتدَأِ في قولِه: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾، بتَقديرِ: لهم مِثْلُ أجْرِهم ونُورِهم، ولا تأْويلَ في إضافةِ الأجرِ والنُّورِ إلى الضَّميرَينِ بهذا المَحملِ؛ فإنَّ تَعريفَ المضافِ بيِّنٌ؛ لأنَّه قد تَقرَّر في عِلمِ النَّاسِ ما وُعِدَ به الصِّدِّيقونَ والشُّهداءُ مِن الأمَمِ الماضيةِ، وفائدةُ التَّشبيهِ على هذا الوجْهِ تَصويرُ قوَّةِ المُشبَّهِ وإنْ كان أقوى مِن المُشبَّهِ به؛ لأنَّ للأحوالِ السَّالفةِ مِن الشُّهرةِ والتَّحقُّقِ ما يُقرِّبُ صُورةَ المُشبَّهِ عندَ المخاطَبِ(١).

- قولُه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ تَتميمٌ(٢) اقتَضاهُ ذِكرُ أهلِ مَراتبِ الإيمانِ والتَّنويهُ بهم، فأُتْبِعَ ذلك بوَصْفِ أضْدادِهم؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ التَّنويهَ بهم بأنَّ إيمانَهم أنْجاهم مِن الجَحيمِ(٣).

- ولَفظُ ﴿بِآيَاتِنَا﴾ جمْعٌ مُضافٌ يُفيدُ الاستِغراقَ، فيَتناوَلُ جَميعَ آياتِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٩).

(٢) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ. ومِن أمثلةِ التَّتميم قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٢٧)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١) و(١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٩٩، ٤٠٠).

المُختلِفةِ الأنواعِ، ومُكذِّبُها يكونُ مُفْرِطًا في الكذِبِ؛ لكثرةِ ما كذَّبَ به[١].

- والمُرادُ بالَّذين كَفَروا باللهِ وكذَّبوا بالقُرآنِ: ما يَشملُ المُشرِكينَ واليهودَ والنَّصارَى، على تَفاوُتٍ بيْنَهم في درَكاتِ الجحيمِ. وفي استِحضارِهم بتَعريفِ اسمِ الإشارةِ مِن التَّنبيهِ على أنَّهم جَديرون بذلك مِن أجْلِ الكفْرِ والتَّكذيبِ، ولم يُؤْتَ في خبَرِهم بضَميرِ الفَصلِ؛ إذ لا يُظَنُّ أنَّ غيرَهم أصحابُ الجحيمِ[٢].

- وفي التَّعبيرِ عنهم بـ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ مُضافٍ إلى ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: دَلالةٌ على شِدَّةِ مُلازمتِهم للجحيمِ[٣].

- وفي الآيةِ احتباكٌ[٤]؛ ذكَرَ الصِّدِّيقيَّةَ -وما معها- أوَّلًا دليلًا على أضْدادِها ثانيًا، والجحيمَ ثانيًا دليلًا على النَّعيمِ أولًا. وسرُّه أنَّ الأوَّلَ أعظمُ في الكرامةِ، والثَّانيَ أعظمُ في الإهانةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) الاحتِباكُ: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن ألطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٦).

## الآيتان (٢٠-٢١)

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَلَهۡوٞ﴾: اللَّهْوُ: ما يَشغَلُ الإنسانَ عمَّا يَعْنيه ويُهِمُّه، وكُلُّ باطِلٍ ألهَى عن الخَيرِ، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بِشَيءٍ[١].

﴿وَتَفَاخُرُۢ﴾: أي: يَفخَرُ بَعضُكم على بعضٍ بما أُعطِيَ مِن مَتاعِ الدُّنيا؛ مِنَ الفَخْرِ: وهو المُباهاةُ في الأشياءِ الخارجةِ عن الإنسانِ، كالمالِ والجاهِ، وأصلُ (فخر): يدُلُّ على تعاظُمٍ[٢].

﴿وَتَكَاثُرٞ﴾: التَّكاثُرُ: التَّباهي والتَّباري بكَثرةِ المالِ والعزِّ، وأصلُ (كثر): يدُلُّ على خِلافِ القِلَّةِ[٣].

﴿غَيۡثٍ﴾: أي: مطَرٍ، وسُمِّيَ المطرُ غَيْثًا؛ لأنَّه يُغيثُ الخلْقَ، وقيل: الغَيثُ هو

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

مطرٌ في إبَّانِه، وإلَّا فمطرٌ[١].

﴿ٱلۡكُفَّارَ﴾: أي: الزُّرَّاعَ؛ لأنَّ الكُفْرَ هو التَّغطيةُ، والزَّارِعُ يُغَطِّي البَذْرَ أو الحَبَّةَ، ويَستُرُها في التُّرابِ. وقيل: الكُفَّارُ هنا هم الكُفَّارُ باللهِ، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[٢].

﴿يَهِيجُ﴾: أي: يَيبَسُ بعدَ أنْ كان أخضَرَ نَضِرًا، وأصلُ (هيج) هنا: يدُلُّ على يُبْسِ نَباتٍ[٣].

﴿حُطَٰمٗا﴾: أي: فُتاتًا، والحُطامُ: ما تحطَّمَ مِن عِيدانِ الزَّرْعِ إذا يَبِسَ، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسْرِ شَيْءٍ[٤].

﴿مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾: أي: مَتاعٌ زائِلٌ باطِلٌ يَخدَعُ مَن يَركَنُ إليه، ومَتاعُ الغُرورِ: الشَّيءُ الَّذي لا يُعظِّمُ الاستِمتاعَ به إلا مُغْتَرٌّ، وهو كُلُّ ما يُلْهِي عن طَلَبِ الآخرةِ، وأصلُ (متع): المنفعةُ، وامتِدادُ مدَّةٍ في خَيرٍ، وأصلُ (غرر) هنا: يدُلُّ على نُقْصانٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٢).
قال القرطبي: (والغَيثُ ما كان نافعًا في وقتِه، والمطرُ قد يكونُ نافعًا وضارًّا، في وقتِه وغيرِ وقتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٠) و(٥/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ الدُّنيا: اعلَموا أنَّ الحياةَ الدُّنيا لَعِبٌ ولَهْوٌ زائِلٌ، وزِينةٌ تَتزَيَّنونَ بها، وتفاخُرٌ بَيْنَكم، وتكاثُرٌ في الأموالِ والأولادِ، ومُباهاةٌ بكَثرةِ ذلك بَيْنَكم؛ مَثَلُها كمَثَلِ مَطَرٍ أنبَتَتْ به الأرضُ زُروعًا أعجَبَت الكُفَّارَ، ثمَّ تيبَسُ تلك الزُّروعُ، فتُرَى بعدَ تَمامِ خُضرتِها ونَضْرتِها ذابِلةً مُصْفَرَّةَ اللَّونِ، ثمَّ تَصيرُ فُتاتًا مُتَكَسِّرًا!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى عِظَمَ الآخرةِ، فيقولُ: وفي الآخِرةِ عذابٌ شَديدٌ للكافِرينَ الَّذين اغتَرُّوا بالدُّنيا، وأعرَضوا عن الآخِرةِ، ومَغفِرةٌ مِنَ اللهِ لعِبادِه المؤمِنينَ، ورِضوانٌ، وما الحَياةُ الدُّنيا إلَّا مَتاعٌ زائِلٌ باطِلٌ يَخدَعُ مَن يَركَنُ إليه.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى عبادَه بالمُسابَقةِ إلى ما فيه سعادتُهم، فيقولُ: سابِقُوا إلى مَغفِرةٍ مِن رَبِّكم وجَنَّةٍ عَرْضُها كعَرْضِ السَّماءِ والأرضِ، أُعِدَّت للَّذين آمَنوا باللهِ -تعالى- ورُسُلِه؛ ذلك فَضلُ اللهِ -تعالى- يُؤتيه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، واللهُ ذو الفَضلِ العَظيمِ الواسِعِ.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ٢٠ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أعقَبَ التَّحريضَ على الصَّدَقاتِ والإنفاقِ بالإشارةِ إلى دَحْضِ سَببِ الشُّحِّ أنَّه الحِرْصُ على استِبقاءِ المالِ لإنفاقِه في لَذائذِ الحَياةِ الدُّنيا، فضرَبَ لهم مَثَلَ

الحياةِ الدُّنيا بحالٍ مُحقَّرةٍ على أنَّها زائلةٌ؛ تَحقيرًا لحاصِلِها، وتَزهيدًا فيها؛ لأنَّ التَّعلُّقَ بها يَعوقُ عن الفَلَاحِ[١].

وأيضًا وَجْهُ الاتِّصالِ أنَّ الإنسانَ قد يَترُكُ الجِهادَ؛ خَوفًا على نَفْسِه مِن القَتلِ، وخَوفًا مِن لُزومِ الموتِ، فبَيَّن أنَّ الحياةَ الدُّنيا مُنقَضِيةٌ؛ فلا يَنبغي أن يُترَكَ أمرُ اللهِ محافظةً على ما لا يَبقَى[٢].

﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ ﴾.

أي: اعلَموا أنَّ حَقيقةَ الحياةِ الدُّنيا أنَّها لَعِبٌ وهَزْلٌ باطِلٌ مُنقَطِعٌ لا دوامَ له، ولهوٌ يُلْهِي ويَفرَحُ النَّاسُ ويَتلَذَّذونَ به، ثمَّ يَنقَضي[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

﴿وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾.

أي: والحياةُ الدُّنيا زِينةٌ تَتزَيَّنونَ بها، وتَستَطِيبونَ شَهَواتِها، وتَستَحسِنونَ مَنظَرَها وزُخْرُفَها، وهي تفاخُرٌ بَيْنَكم؛ فيَفخَرُ بَعضُكم على بَعضٍ بما حَصَّله منها[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٢).

وللفرقِ بينَ اللَّعبِ واللَّهوِ يُنظر ما تقدَّم في هذا التَّفسيرِ المحررِ (٣٣/ ٥٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٥)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٠٣).

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وعن أبي مالِكٍ الأَشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أربَعٌ في أُمَّتي مِن أمرِ الجاهِليَّةِ لا يَترُكونَهنَّ: الفَخرُ في الأحسابِ[1]، والطَّعنُ في الأنسابِ، والاستِسقاءُ بالنُّجومِ، والنِّياحةُ!))[2].

﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾.

أي: وهي تكاثُرٌ؛ تَتكَثَّرونَ فيها مِنَ الأموالِ والأولادِ، وتَتباهَونَ فيها بكَثرةِ ذلك بَيْنَكم[3]!

قال الله تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قَرَّر سُبحانَه أنَّها ظِلٌّ زائِلٌ، وعَرَضٌ هائِلٌ، وكان بعضُ النَّاسِ يَتنَبَّهُ فيَشكُرُ، وبعضُهم يَعمَى فيَكفُرُ، وكان القِسمُ الثَّاني أكثَرَ؛ لأنَّ وُجودَها وإقبالَها يُعمِي

(١) الفَخرُ في الأحسابِ أي: التَّفاخُرُ والتَّكبُّرُ والتَّعظيمُ بعَدِّ الرَّجُلِ مَناقِبَه، ومآثِرَ آبائِه، وتفضيلِه نفْسَه على غيرِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا علي القاري (٣/ ١٢٣٤).

(٢) رواه مسلم (٩٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١).

أكثَرَ القُلوبِ عن حقارتِها- ضرب لذلك مثلًا مُقَرِّرًا لِما مضَى من وَصْفِها؛ لأنَّ للأمثالِ في تقريرِ الأشياءِ وتَصويرِها ما ليس لغَيرِها[1].

﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾.

أي: كمَثَلِ مَطَرٍ جاءَ بعْدَ قُنوطِ النَّاسِ، فأنبَتَت به الأرضُ المُجدِبةُ زُروعًا استَحسَنَها الكُفَّارُ[2].

كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [البقرة: ٢١٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٥).

قيل: الكُفَّارُ هنا: الزُّرَّاعُ؛ لأنَّ الكُفْرَ هو التَّغطيةُ، والزَّارِعُ يُغَطِّي البَذْرَ أو الحَبَّةَ ويَستُرُها في التُّرابِ. ومِمَّن قال بأنَّ الكُفَّارَ هنا هم الزُّرَّاعُ: الواحديُّ، والقرطبي، وابن كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٨).

وقيل: المرادُ: الكُفَّارُ باللهِ تعالى؛ فهم أشَدُّ إعجابًا بزينةِ الدُّنيا مِنَ المؤمِنينَ. وممَّن ذَهَب إلى هذا القولِ: الزمخشريُّ، وابن القيم، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ١٧١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٥).

قال ابن القيم: (الصَّحيحُ -إنْ شاء اللهُ- أنَّ الكُفَّارَ هم الكُفَّارُ باللهِ تعالى، وذلك عُرْفُ القُرآنِ حيثُ ذُكِروا بهذا النَّعْتِ في كلِّ مَوضِعٍ، ولو أراد الزُّرَّاعَ لَذَكَرَهم باسمِهم الَّذي يُعرَفونَ به، كما ذَكَرَهم به في قَولِه: ﴿ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ [الفتح: ٢٩]). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ١٧١).

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ [فاطر: ٢٧].

﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾.

أي: ثمَّ يَبتَدِئُ ذلك الزَّرعُ بالجَفافِ واليُبْسِ، فيُرَى بعْدَ تَمامِ خُضرتِه ونَضْرتِه ذابِلًا مُصْفَرَّ اللَّونِ[1]!

﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾.

أي: ثمَّ يَصيرُ بعدَ تَناهي جَفافِه ويُبْسِه فُتاتًا مُتَكَسِّرًا[2]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان هذا المثَلُ دالًّا على زَوالِ الدُّنيا وانقِضائِها وفراغِها لا محالةَ، وأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٥).

قال ابنُ كثير: (هكذا الحياةُ الدُّنيا؛ تكونُ أوَّلًا شابَّةً، ثمَّ تَكتَهِلُ، ثمَّ تكونُ عَجوزًا شَوْهاءَ، والإنسانُ كذلك؛ في أوَّلِ عُمُرِه وعُنْفوانِ شبابِه يكونُ غَضًّا طَرِيًّا لَيِّنَ الأعطافِ، بَهِيَّ المَنظَرِ، ثمَّ إنَّه يَشرَعُ في الكُهولةِ، فتَتغَيَّرُ طِباعُه، ويَنفَدُ بَعضُ قُواه، ثمَّ يَكبَرُ فيَصيرُ شَيخًا كبيرًا، ضَعيفَ القُوى، قليلَ الحَرَكةِ، يُعجِزُه الشَّيءُ اليَسيرُ!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٠٥).

الآخِرةَ كائِنةٌ لا محالةَ؛ حَذَّر مِن أمْرِها، ورَغَّب فيما فيها مِن الخَيرِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر ما يَؤُولُ إليه أمرُ الدُّنيا مِن الفَناءِ؛ ذكَرَ ما هو ثابِتٌ دائِمٌ مِن أمرِ الآخِرةِ مِن العَذابِ الشَّديدِ، ومِن رِضاه الَّذي هو سَبَبُ النَّعيمِ[٢].

وأيضًا بعدَما بُيِّن حَقارةُ أمْرِ الدُّنيا؛ تَزهيدًا فيها، وتَنفيرًا عن العكوفِ عليها، أُشيرَ إلى فَخامةِ شأْنِ الآخرةِ، وعِظَمِ ما فيها مِنَ اللَّذَّاتِ والآلامِ؛ تَرغيبًا في تَحصيلِ نَعيمِها المُقيمِ، وتَحذيرًا مِن عذابِها الأليمِ، وقد ذُكِرَ العذابُ فقِيلَ: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾؛ لأنَّه مِن نَتائجِ الانهماكِ فيما فُصِّلَ مِن أحوالِ الحياةِ الدُّنيا[٣].

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ﴾.

أي: وفي الآخِرةِ يَقَعُ عذابٌ شَديدٌ على الكافِرينَ باللهِ -تعالى- وبرُسُلِه، الَّذين اغتَرُّوا بالدُّنيا الزَّائِلةِ، وأعرَضوا عن الآخِرةِ الباقِيةِ[٤].

﴿وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞ﴾.

أي: وفي الآخِرةِ تَكونُ مَغفِرةٌ مِنَ اللهِ لذُنوبِ عِبادِه الَّذين سَعَوا للآخِرةِ سَعْيَها، ورِضوانٌ مِن اللهِ تعالى يُحِلُّه على أهلِ جَنَّتِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠، ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٦).

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

أي: وما الحَياةُ الدُّنيا إلَّا مَتاعٌ يَتمَتَّعُ به النَّاسُ زَمَنًا قَليلًا، يَغُرُّ النَّاظِرينَ إليه، وهو زائِلٌ، ويَخدَعُ مَن يَركَنُ إليه، وهو باطِلٌ[١]!

كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

وعن المُستَورِدِ بنِ شَدَّادٍ الفِهْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يَجعَلُ أحَدُكم إِصْبَعَه هذه -وأشار يحيى[٢] بالسَّبَّابةِ- في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!))[٣].

وعن سَهلِ بنِ سَعدٍ السَّاعِديِّ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَوضِعُ سَوطٍ في الجنَّةِ خَيرٌ مِنَ الدُّنيا وما فيها))[٤].

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَر الله تعالى ما في الآخِرةِ مِنَ المغفِرةِ؛ أمَرَ بالمسابَقةِ إليها[٥].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن حالَ الدُّنيا لِيَصرِفَ الكمَلةَ مِنَ العِبادِ عنها؛ لسُفولِها وحقارتِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤، ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٠٦).

(٢) وهو يحيى بنُ يحيى التَّميمي، أبو زكريَّا النَّيسابوري، أحدُ رواةِ الحديثِ.

(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨).

(٤) رواه البخاري (٣٢٥٠، ٦٤١٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٠).

وأنَّ الآخِرةَ بَقاءٌ وكَمالٌ؛ لِيَرغَبوا غايةَ الرَّغبةِ فيها، ولِيَشتاقوا كلَّ الاشتياقِ لكَمالِها وشَرَفِها وجَلالِها؛ أنتَجَ ذلك قَولَه تعالى(١):

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

أي: سابِقُوا غَيرَكم وبادِروا إلى عَمَلِ ما يُوجِبُ لكم تحقيقَ المَغفِرةِ مِن رَبِّكم لذُنوبِكم، فيَستُرُها عليكم، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِكم(٢).

قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: وسابِقوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُها كعَرْضِ السَّمواتِ والأرضِ، لو بُسِطَت ووُصِلَ بَعضُها ببَعضٍ(٣)!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٥)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٧).

قال الرازي: (سارِعوا مُسارَعةَ المُسابِقِينَ لأقرانِهم في المِضْمارِ، وقَولُه: ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ﴾... لا شَكَّ أنَّ المرادَ منه المُسارَعةُ إلى ما يُوجِبُ المَغفِرةَ؛ فقال قومٌ: المرادُ: سابِقوا إلى التَّوبةِ. وقال آخَرونَ: المرادُ: سابِقوا إلى سائِرِ ما كُلِّفْتُم به، فدَخَل فيه التَّوبةُ. وهذا أصَحُّ؛ لأنَّ المَغفِرةَ والجَنَّةَ لا يُنالانِ إلَّا بالانتِهاءِ عن جميعِ المعاصي، والاشتِغالِ بكُلِّ الطَّاعاتِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (أي: أكثِروا مِن أسبابِها ووسائِلِها؛ فالمُسابَقةُ إلى المَغفِرةِ هي المُسابَقةُ في تحصيلِ أسبابِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٢، ٢٩٣).

قال الرازي: (أمَّا قولُه تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وقال في «آلِ عِمْرانَ»: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، فذكروا فيه وُجوهًا: =

كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾.

أي: أُعِدَّت تلك الجَنَّةُ وهُيِّئَتْ للَّذين آمَنوا باللهِ تعالى، وآمَنوا برُسُلِه عليهم

---

= أحدُها: أنَّ السَّمواتِ السَّبْعَ والأرَضينَ السَّبْعَ لو جُعِلَتْ صفائحَ وأُلزِقَ بعضُها ببعضٍ لَكانت الجنَّةُ في عَرضِها، هذا قولُ مُقاتِلٍ.

وثانيها: قال عَطاءٌ [عن] ابنِ عبَّاسٍ: يريدُ أنَّ لكلِّ واحدٍ مِن المُطيعينَ جنَّةً بهذه الصِّفةِ.

وثالثُها: قال السُّدِّيُّ: إنَّ اللهَ تعالى شبَّه عَرْضَ الجنَّةِ بعَرضِ السَّمواتِ السَّبْعِ والأرَضينَ السَّبْعِ، ولا شكَّ أنَّ طُولَها أزْيَدُ مِن عَرضِها، فذكَرَ العَرضَ تنبيهًا على أنَّ طولَها أضعافُ ذلك.

ورابعُها: أنَّ هذا تمثيلٌ للعِبادِ بما يَعقِلونه، ويقَعُ في نُفوسِهم وأفكارِهم، وأكثَرُ ما يقعُ في نُفوسِهم مِقدارُ السَّمواتِ والأرضِ، وهذا قولُ الزَّجَّاجِ.

وخامِسُها، وهو اختيارُ ابنِ عبَّاسٍ: أنَّ الجِنانَ أربعةٌ، قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، وقال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٦٢]، فالمرادُ هاهنا تشبيهُ واحدةٍ مِن تلك الجِنانِ في العَرضِ بالسَّمواتِ السَّبْعِ والأرَضينَ السَّبْعِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٥).

ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٢).

ونسَبَ القُرطبيُّ هذا القولَ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمْرانَ الآية (١٣٣) إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٠٤).

وقال النَّيْسابوريُّ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمْرانَ: (المرادُ المُبالَغةُ في وصْفِ سَعةِ الجنَّةِ، فشُبِّهَتْ بأوسَعِ ما عَلِمَه النَّاسُ مِن خَلقِه وأبسَطِه). ((تفسير النيسابوري)) (٢/ ٢٥٨).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٨).

السَّلامُ[١].

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: دُخولُ تلك الجَنَّةِ فَضلٌ مِنَ اللهِ تعالى تَفَضَّلَ به عليهم، واللهُ يُعطي فَضْلَه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه بحَسَبِ ما تَقتَضيه حِكْمتُه[٢].

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا * ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ صاحِبُ الفَضلِ العَظيمِ والثَّوابِ الكَبيرِ، فلا يَبعُدُ منه عزَّ وجلَّ التَّفضُّلُ بذلك على مَن يَشاءُ وإنْ عَظُمَ قَدْرُه[٣].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان: ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ [غافر: ٦١].

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ إلى آخرِ السِّياقِ: إشارةٌ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٩، ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١١).

أنَّ الحياةَ ينبغي أن تُتَّخَذَ وَسيلةً للنَّعيمِ الدَّائِمِ في الآخِرةِ، ووِقايةً مِنَ العذابِ الشَّديدِ، وما عدا ذلك مِن أحوالِ الحياةِ فهو مَتاعٌ قَليلٌ؛ ولذلك أعقَبَ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا بالإخبارِ عن الآخِرةِ، بقَولِه تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ﴾... إلخ[١].

٢- إنَّ ذَمَّ الدُّنيا ليس راجِعًا إلى مَكانِ الدُّنيا الَّذي هو الأرضُ الَّتي جَعَلَها اللهُ لبني آدَمَ مِهادًا وسَكَنًا، ولا إلى ما أودَعَ اللهُ فيها مِن الجِبالِ والبِحارِ والأنهارِ والمعادِنِ، ولا إلى ما أنبَتَه فيها مِن الشَّجَرِ والزَّرْعِ، ولا إلى ما بَثَّ فيها مِن الحيَواناتِ وغَيرِ ذلك؛ فإنَّ ذلك كلَّه مِن نعمةِ اللهِ على عِبادِه بما لهم فيه مِن المنافِعِ، ولهم به مِن الاعتِبارِ والاستِدلالِ على وحدانيَّةِ صانِعِه وقُدرتِه وعَظَمتِه، وإنَّما الذَّمُّ راجِعٌ إلى أفعالِ بني آدمَ الواقِعةِ في الدُّنيا؛ لأنَّ غالبَها واقِعٌ على غيرِ الوجهِ الَّذي تُحمَدُ عاقِبتُه، بل يَقَعُ على ما تَضُرُّ عاقِبتُه، أو لا تَنفَعُ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ دليلٌ على أنَّ اللَّعِبَ واللَّهوَ والزِّينةَ وكُلَّ ما ذُكِرَ معها: مَذمومٌ جُملةً، إلَّا ما رُخِّصَ فيه مِن مُلاعبةِ الرَّجُلِ امرأتَه وجاريتَه، ولَهْوِ النِّضالِ وما ذُكِرَ معه، وما استُثنيَ مِن الزِّينةِ في سورةِ (الأعرافِ) مِن أَخْذِ الزِّينةِ عندَ المساجِدِ، وما لم يكُنْ منها سَرَفًا[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ التَّزهيدُ في الدُّنيا[٤].

٥- قد نَجِدُ الإنسانَ أحيانًا يكونُ في حالِ الضِّيقِ أو الوَسَطِ خَيرًا منه في حالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٥١٥).

الغِنى؛ لأنَّه يَغُرُّه الغِنى ويُطْغِيه والعِياذُ باللهِ؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾، يعنى: فلا تغتَرُّوا بها، وعليكم بالآخِرةِ الَّتي إذا زُحزِحَ فيها الإنسانُ عن النَّارِ وأُدخِلَ الجنَّةَ، فإنَّه بذلك يفوزُ فَوزًا لا فَوزَ مِثلُه. نسألُ اللهَ تعالى أن يَجعَلَنا وإيَّاكم مِمَّن أُوتِيَ في الدُّنيا حَسَنةً، وفي الآخِرةِ حَسَنةً، ووقاه اللهُ عذابَ النَّارِ[١].

٦- لَمَّا سَمِعَ الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم قَولَ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فَهِموا أنَّ المرادَ مِن ذلك أن يجتهِدَ كُلُّ واحدٍ منهم أن يكونَ هو السَّابِقَ لغَيرِه إلى هذه الكرامةِ، والمسارِعَ إلى بلوغِ هذه الدَّرَجةِ العاليةِ؛ فكان أحَدُهم إذا رأى مَن يعمَلُ عَمَلًا يَعجِزُ عنه خَشِيَ أن يكون صاحِبُ ذلك العمَلِ هو السَّابِقَ له، فيَحزَنُ لفَواتِ سَبْقِه، فكان تنافُسُهم في دَرَجاتِ الآخرةِ، واستباقُهم إليها، كما قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، ثمَّ جاء مَن بَعْدَهم فعَكَسَ الأمرَ، فصار تنافُسُهم في الدُّنيا الدَّنِيَّةِ وحُظوظِها الفانيةِ[٢]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ فاللَّعبُ طَورُ سِنِّ الطُّفولةِ والصِّبا، واللَّهوُ طَورُ الشَّبابِ، والزِّينةُ طَورُ الفُتُوَّةِ، والتَّفاخُرُ طَورُ الكُهولةِ، والتَّكاثُرُ طَورُ الشَّيخوخةِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ إخبارٌ بأنَّ في الآخِرةِ عَذابًا شَديدًا، ومَغفِرةً منه تعالى ورِضوانًا، وهذا مَعنًى حَسَنٌ،

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠١).

وهو أنَّه قابَلَ العَذابَ بشَيئَينِ: بالمَغفِرةِ والرِّضوانِ؛ فهو من بابِ: (لن يَغلِبَ عُسرٌ يُسرَينِ)[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ * سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وَصْفُ الدَّاءِ والدَّواءِ معًا؛ فالدَّاءُ: هو الغُرورُ. والدَّواءُ: هو المُسابَقةُ إلى مَغفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضوانِه[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ دَلالةٌ على المُبادَرةِ فَورًا لامتِثالِ أوامِرِ اللهِ تعالى[٣]، وقد احتَجَّ القائِلونَ بأنَّ الأمرَ يُفيدُ الفَورَ بهذه الآيةِ، فقالوا: هذه الآيةُ دَلَّت على وُجوبِ المُسارَعةِ؛ فوجب أن يكونَ التَّراخي مَحظورًا[٤].

٥- قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ هذه الآيةُ حُجَّةٌ عندَ جميعِ العلماءِ في النَّدبِ إلى الطَّاعاتِ، وقد استدَلَّ بها بعضُهم على أنَّ أوَّلَ أوقاتِ الصَّلَواتِ أفضلُ؛ لأنَّه يَقْتضي المسارعةَ والمسابقةَ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أَمْرٌ بالمُسابَقةِ، وقد جاء الأمرُ في آيةٍ أُخرى بالمُسارَعةِ: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٤٨٨).

(لن يَغلِبَ عُسرٌ يُسرَينِ) لفظُ أثرٍ أخرجه مالكٌ (٢/ ٤٤٦)، والحاكمُ (٣١٧٦)، والبيهقيُّ (١٠٠١٠) موقوفًا عن عُمَرَ رضيَ الله عنه.

صحَّحه الحاكمُ على شرطِ مسلمٍ، ووافقه الذهبيُّ في ((التلخيص)) (٢/ ٣٢٩)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٤/ ٣٧٢)، وقوَّى إسنادَه ووثَّق رجالَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سير أعلام النبلاء)) (١٥/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٨/ ٥٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١١).

ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]؛ ﴿إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ ﴾ وذلك بفِعلِ أسبابِ المغفرةِ، ومِن أسبابِ المغفرةِ: أنْ تسألَ اللهَ المَغفِرةَ، تقولُ: اللَّهُمَّ اغفِرْ لي، أو تَقولُ: أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه، ومِن أسبابِ المغفرةِ: فِعْلُ ما تكونُ به المَغفِرةُ، كقَولِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((مَن صام رَمَضانَ إيمانًا واحتِسابًا غُفِرَ له ما تقدَّمَ مِن ذَنْبِه))[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ أنَّ مُحْسِنِي الجِنِّ في الجَنَّةِ، كما أنَّ مُسيئَهم في النَّارِ؛ لأنَّ مُؤمِنَهم ممَّنْ آمَنَ باللهِ ورُسُلِه، فيَدْخُلُ في المبشَّرينَ، ويَستحِقُّ البِشارةَ[٢].

٨- قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الجَنَّةَ مَخلوقةٌ، وتَكَرُّرُ ذلك في القُرآنِ يُقَوِّي ذلك، والسُّنَّةُ ناصَّةٌ على ذلك، وذلك يَرُدُّ على المُعتَزِلةِ في قَولِهم: «إنَّها الآنَ غَيرُ مَخلوقةٍ وستُخْلَقُ»[٣]!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ في بابِ الوَعيدِ -حيثُ يُخَلِّدون عُصاةَ الموحِّدينَ في النَّارِ- وقد أخْبَرَ اللهُ جلَّ جلالُه عن نَفْسِه بإعدادِ الجَنَّةِ للمُؤمِنينَ به وبرُسُلِه في هذه الآيةِ بلا شَرْطٍ[٤].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾، وفي سورةِ (آلِ عِمرانَ) قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٧).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٣٨)، ومسلمٌ (٧٦٠) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٢٧).

ولا مُنافاةَ؛ لأنَّ الأوَّلَ: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تَشبيهٌ، والثَّانيَ: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣] أيضًا تَشبيهٌ، لكِنْ يُسَمِّيه أهلُ البَلاغةِ: «تشبيهٌ بَليغٌ»(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أنَّ غَيْرَهم لا حَظَّ لهم في الجنَّةِ؛ لأنَّ مَعنى إعدادِ شَيءٍ لِشَيءٍ قَصْرُه عليه(٢).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ سؤالٌ: أنَّه يَلزَمُ على هذا أن يُقطَعَ بحُصولِ الجنَّةِ لجَميعِ العُصاةِ، وأنْ يُقطَعَ بأنَّه لا عِقابَ عليهم!

**الجوابُ**: أنَّا نَقطَعُ بحُصولِ الجنَّةِ، ولا نَقطَعُ بنَفيِ العِقابِ عنهم؛ لأنَّهم إذا عُذِّبوا مُدَّةً ثمَّ نُقِلوا إلى الجنَّةِ بَقُوا فيها أبَدَ الآبادِ، فكانت مُعَدَّةً لهم(٣).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ بيانُ أنَّه لا يَدخُلُ أحَدٌ الجَنَّةَ إلَّا بفَضلِ اللهِ تعالى لا بمُجَرَّدِ عَمَلِه، كما ثبَت عن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لن يُدخِلَ أحدًا مِنكم عَمَلُه الجنَّةَ، قالوا: ولا أنت يا رَسولَ اللهِ؟ قال: ولا أنا، إلَّا أن يَتغَمَّدَنيَ اللهُ منه بفَضلٍ ورَحمةٍ))(٤).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أنَّ الفَضائِلَ لا يُسأَلُ عنها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦) واللَّفظُ له.

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٠٧).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تنبيهٌ على عِظَمِ حالِ الجنَّةِ؛ وذلك لأنَّ ذا الفَضلِ العَظيمِ إذا أَعطَى عَطاءً مَدَح به نَفْسَه وأثنَى بسَبَبِه على نفْسِه؛ فإنَّه لا بُدَّ أن يكونَ ذلك العَطاءُ عَظيمًا[1]!

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ جوازُ وَصْفِ غيرِ اللهِ تعالى بالعِظَمِ؛ لأنَّ الفَضلَ هنا يَحتَمِلُ: أنْ يُرادَ به الفَضلُ الَّذي هو فَضلُ اللهِ -أي: عَطاؤُه-، أو أنَّ المرادَ به المُتفضَّلُ به، وهو المُعطَى؛ فعلى الثَّاني لا إشكالَ في استِنباطِ تلك الفائدةِ: أنَّ العِظَمَ يُوصَفُ به غيرُ اللهِ. وعلى الأوَّلِ إذا قُلْنا: إنَّ الفَضلَ هو نفْسُ فِعْلِ اللهِ، فوَصْفُه بالعِظَمِ لا إشكالَ فيه؛ لأنَّه مِن صِفاتِ اللهِ تعالى، وصِفاتُ اللهِ كذاتِه عَظيمةٌ، فإنْ قال قائلٌ: ما دام الاحتِمالانِ قائِمَينِ فلا دَلالةَ على أنه يُوصَفُ بالعِظَمِ مَن سِوَى اللهِ ما دُمْنا نَقولُ: يَحتَمِلُ أنْ يكونَ الفَضلُ هنا صِفةً للهِ تعالى، وصِفةُ اللهِ عَظيمةٌ كذاتِ اللهِ!

فالجوابُ عن هذا أنْ يُقالَ: اقرأْ قَولَ اللهِ تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، فوَصَفَ العَرْشَ بالعِظَمِ مع أنَّ عَرشَها مخلوقٌ، إذنْ يَصِحُّ أنْ نقولَ: هذا الفِعلُ عَظيمٌ، وهذا رَجُلٌ عَظيمٌ، هذه سَيَّارةٌ عَظيمةٌ، هذا بَيتٌ عظيمٌ، وما أَشْبَهَ ذلك، ولا يَضُرُّ، كما أنَّه يَصِحُّ أنْ نقولَ: فلانٌ عزيزٌ، فلانٌ قَوِيٌّ؛ ولا حَرَجَ في ذلك، ولكنْ يجبُ أنْ نَعلَمَ أنَّ ما نَصِفُ به المَخلوقَ مِن صفاتِ اللهِ لا يُماثِلُ صِفاتِ اللهِ تعالى، ولا يُدانيها أيضًا؛ لأنَّ الصِّفةَ تكونُ لِمَوصوفٍ تُناسِبُه[2].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٤٢٢).

فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

- قولُه: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ افتِتاحُ الكَلامِ بفِعلِ الأمْرِ ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ ﴾ يُؤْذِنُ بأنَّ ما سيُلْقَى جَديرٌ بتَوجُّهِ الذِّهنِ بكُلِّيَّتِه إليه[1].

- و(أنَّما) المفتوحةُ الهَمزةِ أخْتُ (إنَّما) المكسورةِ الهَمزةِ في إفادةِ الحصرِ، وحصْرُ الحياةِ الدُّنيا في الأخبارِ الجاريةِ عليها هو قصْرُ أحوالِ النَّاسِ في الحياةِ على هذه الأمورِ السِّتَّةِ ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ باعتبارِ غالبِ النَّاسِ؛ فهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[2] بالنَّظرِ إلى ما تَنصرِفُ إليه هِمَمُ غالبِ النَّاسِ مِن شُؤونِ الحياةِ الدُّنيا، الَّتي إنْ سَلِمَ بعضُهم مِن بعضِها لا يَخْلو مِن مُلابَسةِ بعضٍ آخَرَ، إلَّا الَّذين عصَمَهم اللهُ تعالَى؛ وإلَّا فإنَّ الحياةَ قد يكونُ فيها أعمالُ التُّقى، والمنافعِ، والإحسانِ، والتأْييدِ للحقِّ، وتَعليمِ الفضائلِ، وتَشريعِ القوانينِ[3].

- والتَّكاثُرُ: تَفاعُلٌ مِن الكثرةِ، وصِيغةُ التَّفاعُلِ هنا للمُبالَغةِ في الفِعلِ، بحيثُ يُنزَّلُ مَنزِلةَ مَن يُغالِبُ غيرَه في كثْرةِ شَيءٍ، فإنَّه يكونُ أحرَصَ على أنْ يكونَ الأكثرُ منه عندَه[4].

- و﴿فِي﴾ مِن قولِه: ﴿فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ إمَّا مُستعمَلةٌ في التَّعليلِ، وإمَّا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٠، ٤٠١).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٠٣).

الظَّرفيَّةِ، فإنْ جُعِلَت الأموالُ كالظَّرفِ يَحصُلُ تَكاثُرُ النَّاسِ عندَه كمَن يَنزِعُ مِن بِئرٍ[١].

- وقولُه: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ في مَوضعِ خَبرٍ مِن مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: هي كمَثَلِ غَيثٍ؛ فتَكونَ الجُملةُ استِئنافًا، وحذْفُ المُسنَدِ إليه مِن النَّوعِ الَّذي يُسمَّى مُتابعةَ الاستعمالِ[٢].

ويجوزُ أنْ يكونَ الكافُ في مَوضعِ الحالِ، و﴿كَمَثَلِ﴾ معْناه: كحالِ، أي: حالُ الحياةِ الدُّنيا كحالِ غَيثٍ... إلخ، فشُبِّهَت هَيئةُ أهلِ الدُّنيا في أحوالِهم الغالبةِ عليهم -والمُشارُ إلى تَنويعِها بقولِه: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى آخِرِه-، بهَيئةِ غَيثٍ أنبَتَ زرْعًا فأينَعَ، ثمَّ اصفرَّ، ثمَّ اضمَحلَّ وتَحطَّمَ، أي: تَشبيهُ هَيئةِ هذه الأحوالِ الغالبةِ على النَّاسِ في الحياةِ في كَونِها مَحبوبةً للنَّاسِ مُزهيةً لهم وفي سُرعةِ تَقضِّيها، بهَيئةِ نباتٍ جديدٍ أنْبَتَه غَيثٌ فاسْتوَى واكتمَلَ وأُعجِبَ به مَن رآهُ، فمَضَت عليه مدَّةٌ فيَبِسَ وتَحطَّمَ، والمقصودُ بالتَّمثيلِ هو النَّباتُ، وإنَّما ابتُدِئَ بغَيثٍ تَصويرًا للهيئةِ مِن مَبادئِها؛ لإظهارِ مَواقعِ الحُسنِ فيها؛ لأنَّ ذلك يَكتسِبُ منه المُشبَّهُ حُسنًا[٣].

- قيل: المرادُ بالكُفَّارِ هنا: الزُّرَّاعُ، جمْعُ كافِرٍ، وهو الزَّارعُ؛ لأنَّه يَكفُرُ الزَّريعةَ[٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٣).

(٢) وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٩/ ٤٧٠).

(٤) الزَّريعةُ: ما يُزْرَعُ مِن الحَبِّ. يُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (١/ ٥١٨)، ((غلط الفقهاء)) لابن بَرِّي (ص: ٢١).

بتُرابِ الأرضِ، أي: يَستُرُها بالتُّرابِ، وإنَّما أُوثِرَ هذا الاسمُ هنا -وقدْ قال تعالَى في سُورةِ (الفتحِ): ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]-؛ قصْدًا هنا للتَّوريةِ بالكُفَّارِ الَّذين هم الكافِرونَ باللهِ؛ لأنَّهم أشدُّ إعجابًا بمَتاعِ الدُّنيا؛ إذ لا أمَلَ لهم في شَيءٍ بعْدَه. وقيل: المرادُ الكُفَّارُ جمْعُ الكافرِ باللهِ؛ لأنَّهم قَصَروا إعجابَهم على الأعمالِ ذاتِ الغاياتِ الدُّنيا دونَ الأعمالِ الدِّينيَّةِ؛ فذِكرُ الكُفَّارِ تَلويحٌ إلى أنَّ المَثَلَ مَسوقٌ إلى جانِبِهم أوَّلًا[١]. وقيل: وإنَّما خَصَّ الكُفَّارَ به؛ لأنَّهم أشَدُّ إعجابًا بالدُّنيا؛ فإنَّها دارُهم الَّتي لها يَعمَلونَ ويَكدَحونَ، فهم أشدُّ إعجابًا بزينتِها وما فيها؛ مِن المؤمِنينَ[٢].

- وعُطِفَتْ جُملةُ ﴿يَهِيجُ﴾ بحرْفِ (ثُمَّ)؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ اصفِرارَ النَّباتِ أعظمُ دَلالةً على التَّهيُّؤِ للزَّوالِ، وهذا هو الأهمُّ في مَقامِ التَّزهيدِ في مَتاعِ الدُّنيا[٣].

- وعُطِفَ ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ بالفاءِ؛ لأنَّ اصفرارَ النبْتِ مُقارِبٌ ليُبْسِه[٤].

- وإنَّما لم يقُلْ: (فيَصْفَرُّ)؛ إيذانًا بأنَّ اصفِرارَه غيرُ مُقارِنٍ لهَيَجانِه وجَفافِه، وإنَّما المُترتِّبُ عليه رُؤيتُه كذلكَ[٥].

- وعُطِفَ ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗا﴾ بـ (ثمَّ) كعَطفِ ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّه أعظمُ دَلالةً على التَّهيُّؤِ للزَّوالِ، وهذا هو الأهمُّ في مَقامِ التَّزهيدِ في مَتاعِ الدُّنيا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٤، ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٥).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾، وقال في سُورةِ (الزُّمَر): ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ [الزمر: ٢١]؛ ووجْهُه: أنَّ الأفعالَ الَّتي نُسِقَ -أي: عُطِفَ- هذا الفِعلُ عليها في سُورةِ (الزُّمَر) هي أفعالُ اللهِ تَعالى؛ لأنَّه قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ [الزمر: ٢١]، فهو مَعطوفٌ على قولِه: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾، والَّذي في سُورةِ (الحديدِ) لم يُسنَدِ الفِعلُ المتقدِّمُ فيه إلى اللهِ تَعالى فيُسنَدَ إليه ما بعْدَه؛ وإنَّما هو: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ﴾، فلم يَصلُحْ في كلِّ مكانٍ إلَّا ما جاء فيه مِن اختيارِ الكلامِ(١).

- وقدْ ضرَبَ اللهُ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا لأطوارِ ما فيها مِن شَبابٍ وكُهولةٍ وهَرَمٍ ففَناءٍ، ومِن جِدَّةٍ وتَبذُّلٍ وبِلًى، ومِن إقبالِ الأمورِ في زمَنِ إقبالِها، ثمَّ إدْبارِها بعْدَ ذلك؛ بأطوارِ الزَّرعِ. وكلُّها أعراضٌ زائلةٌ، وآخِرُها فَناءٌ، وتَندرِجُ فيها أطوارُ المرْءِ في الحياةِ المذكورةِ في قولِه: ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى ﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾، كما يَظهَرُ بالتَّأمُّلِ. وهذا التَّمثيلُ مع كَونِه تَشبيهَ هَيئةٍ مُركَّبةٍ بهَيئةٍ مِثلِها، هو صالحٌ للتَّفريقِ ومُقابَلةِ أجزاءِ الهَيئةِ المُشبَّهةِ بأجزاءِ الهَيئةِ المُشبَّهِ بها؛ فيُشبَّهُ أوَّلُ أطوارِ الحياةِ وإقْبالُها بالنَّباتِ عقِبَ المطَرِ، ويُشبَّهُ النَّاسُ المُنتفِعون بإقبالِ الدُّنيا بناسٍ زُرَّاعٍ، ويُشبَّهُ اكتِمالُ أحوالِ الحياةِ وقوَّةِ الكُهولةِ بهِياجِ الزَّرعِ، ويُشبَّهُ ابتداءُ الشَّيخوخةِ، ثمَّ الهرَمُ وابتِداءُ ضَعفِ عمَلِ العامِلِ، وتِجارةِ التَّاجرِ، وفِلاحةِ الفلَّاحِ؛ باصفِرارِ الزَّرعِ وتَهيُّئِه للفَناءِ، ويُشبَّهُ زَوالُ ما كان للمرْءِ مِن قوَّةٍ ومالٍ بتَحطُّمِ الزَّرعِ، ويُفهَمُ مِن هذا أنَّ ما كان مِن

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٥٥، ١٢٥٦).

أحوالِ الحياةِ مَقصودًا لوجْهِ اللهِ؛ فإنَّه مِن شُؤونِ الآخِرةِ، فلا يَدخُلُ تحتَ هذا التَّمثيلِ إلَّا ظاهرًا(١).

- قولُه: ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ كان ذِكرُ حالِ الحياةِ الدُّنيا مُقتَضيًا ذِكرَ مُقابِلِه على عادةِ القرآنِ، والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّحذيرِ والتَّحريضِ بقَرينةِ السِّياقِ؛ ولذلك لم يُبيَّنْ أصحابُ العذابِ وأصحابُ المغفرةِ والرِّضوانِ؛ لظُهورِ ذلك(٢).

- وكُنِّيَ عن النَّعيمِ بـ(مَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ)؛ لأنَّ النَّعيمَ قِسمانِ: ماديٌّ، ورُوحانيٌّ؛ فالمَغفرةُ والرِّضوانُ أصلُ النَّعيمِ الرُّوحانيِّ، كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢]، وهما يَقتضيانِ النَّعيمَ الجُسمانيَّ؛ لأنَّ أهلَ الجنةِ لَمَّا رُكِّبَت ذَواتُهم مِن أجسامٍ، وأُودِعَت فيها الأرواحُ، كان النَّعيمانِ مُناسبَينِ لهم تَكثيرًا للَّذَّاتِ، وما لذَّةُ الأجسامِ إلَّا صائرةٌ إلى الأرواحِ؛ لأنَّها المُدرِكةُ اللَّذَّاتِ، وكان رِضوانُ اللهِ يَقتضي إعطاءَهُم مُنتهى ما به الْتِذاذُهم، ومَغفرتُه مُقتضيةً الصَّفْحَ عمَّا قد يَعوقُ عن بعضِ ذلك(٣).

- وعطْفُ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ على ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ للمُقابَلةِ بيْن الحالَينِ؛ زِيادةً في التَّرغيبِ والتَّنفيرِ، والكلامُ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: وما أحوالُ الحياةِ الدُّنيا إلَّا مَتاعُ الغُرورِ(٤).

- والحصْرُ في قولِه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ ادِّعائيٌّ(٥) باعتِبارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٥، ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

غالبِ أحوالِ الدُّنيا بالنِّسبةِ إلى غالبِ طالِبيها، فكونُها مَتاعًا أمرٌ مُطَّرِدٌ، وكَونُ المتاعِ مُضافًا إلى الغُرورِ أمرٌ غالبٌ بالنِّسبةِ لِما عدا الأعمالَ العائدةَ على المرْءِ بالفوزِ في الآخرةِ(١).

- وإضافةُ ﴿مَتَٰعُ﴾ إلى ﴿ٱلْغُرُورِ﴾ على مَعْنى لامِ العاقِبةِ، أي: مَتاعٌ صائرٌ لأجْلِ الغُرورِ به، أي: آيلٌ إلى أنَّه يَغُرُّ النَّاظِرينَ إليه، فيُسرِعون في التَّعلُّقِ به(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ فَذْلَكةٌ(٣) لِمَا تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾ [الحديد: ١٢] إلى هنا، فذلِكَ مَسوقٌ مَساقَ التَّرغيبِ فيما به تَحصيلُ نَعيمِ الآخرةِ، والتَّحذيرِ مِن فَواتِه، وما يَصرِفُ عنه مِن إيثارِ زِينةِ الدُّنيا؛ ولذلك فُصِلَت الجُملةُ ولم تُعطَفْ، واقتُصِرَ في الفَذْلَكةِ على الجانبِ المَقصودِ تَرغيبُه دونَ التَّعرُّضِ إلى المُحذَّرِ منه؛ لأنَّه المقصودُ(٤).

- والبِشارةُ هاهنا أعمُّ ممَّا في سُورةِ (آلِ عِمرانَ)؛ لأنَّه قال هناك: ﴿... أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ ...﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤] إلى آخِرِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٧).

وهاهنا قال: ﴿أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾، ولأنَّ هؤلاءِ أدْوَنُ حالًا مِن أولئك جَعَل عرْضَ الجنَّةِ هنا أقلَّ؛ فقال: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فلمْ يَجمَعِ السَّماءَ، وأدْخَلَ حرْفَ التَّشبيهِ الدَّالَّ على أنَّ المشبَّهَ أدونُ حالًا مِن المشبَّهِ به. وفي لفظِ ﴿سَابِقُوٓا۟﴾ هاهنا إشارةٌ إلى أنَّ مَراتبَ هؤلاء مُختلِفةٌ بَعضُها أسبَقُ مِن بَعضٍ، كالمسابَقةِ في الخَيلِ، وفي لَفظِ (سَارِعُوا) هُنالِكَ رمْزٌ إلى أنَّ كلَّهم مُسْتوونَ في القُرْبِ أو مُتقارِبون؛ لأنَّ المرتبةَ العُليا واحِدةٌ، وهي مَرتبةُ السَّابِقينَ المقرَّبينَ، وإنَّها غايةُ الرُّتبِ الإنسانيَّةِ، فافْهَمْ هذه الأسرارَ؛ فإنَّ ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤتِيه مَن يَشاءُ[1].

- قولُه: ﴿سَابِقُوٓا۟﴾، أي: افْعَلوا في السَّعيِ لها بالأعمالِ الصَّالِحةِ حَقَّ السَّعيِ فِعلَ مَن يُسابِقُ شَخصًا، فهو يَسْعى ويَجتهِدُ غايةَ الاجتهادِ في سَبْقِه، ولكنْ رُبَّما كان قَرينُه بَطيئًا فسار هُوينى، وأمَّا المُسارَعةُ فلا تكونُ إلَّا بجَهدِ النَّفْسِ مِن الجانبَينِ مع السُّرعةِ في العُرفِ؛ فآيةُ آلِ عمرانَ[2] الآمِرةُ بالمسارَعةِ الأخصِّ مِن المسابَقةِ أبلَغُ؛ لأنَّها للحثِّ على التَّجرُّدِ عن النَّفْسِ والمالِ وجميعِ الحُظوظِ أصْلًا ورأْسًا، ولذلك كانت جنَّتُها للمتَّقينَ الموصوفينَ، وأمَّا هذه ففي سِياقِ التَّصديقِ الَّذي هو تَجرُّدٌ عن فُضولِ الأموالِ؛ ولذلك كانت جنَّتُها للَّذين آمَنوا[3].

- وتَنكيرُ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ لقصْدِ تَعظيمِها، ولتكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بنفْسِها، وإلَّا فإنَّ المَغفرةَ سبَقَ ذِكرُها في قولِه: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٠]، فكان

---

(١) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٥٨).

(٢) في قولِه تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩١، ٢٩٢).

مُقتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: سابِقوا إلى المغفرةِ، أي: أكْثِروا مِن أسبابِها ووَسائلِها؛ فالمُسابَقةُ إلى المغفرةِ هي المسابَقةُ في تَحصيلِ أسبابِها[1].

- وذِكرُ العَرْضِ دُونَ الطُّولِ في قوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ كلَّ ما لَه عَرْضٌ وطولٌ، فإنَّ عَرْضَه أقلُّ مِن طُولِه، فإذا وُصِفَ عرْضُه بالبَسطةِ عُرِفَ أنَّ طُولَه أبسَطُ وأمَدُّ[2]. أو العَرْضُ مُستعمَلٌ في السَّعةِ، وتَشبيهُ عَرْضِ الجنَّةِ بعرْضِ السَّماءِ والأرضِ -أي: مَجموعِ عَرْضَيْهما- لقصْدِ تَقريبِ المُشبَّهِ بأقْصى ما يَتصوَّرُه النَّاسُ في الاتِّساعِ، وليس المُرادُ تحديدَ ذلك العَرْضِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٨).

## الآيات (٢٢-٢٤)

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾: المصيبةُ: الأمرُ المكروهُ يَنزِلُ بالإنسانِ، يُقالُ: أصابَ السَّهمُ: إذا وصل إلى المرمى بالصَّوابِ، والمُصيبَةُ أصلُها في الرَّميةِ، ثمَّ اختصَّتْ بالنَّائبةِ، و(أصاب) جاء في الخَيرِ والشَّرِّ؛ قيل: الإصابةُ في الخَيرِ اعتِبارًا بالصَّوْبِ، أي: المطرِ، وفي الشَّرِّ اعتبارًا بإصابةِ السَّهمِ، وكِلاهما يَرجِعُ إلى أصلٍ واحدٍ، وأصلُ (صوب): يدُلُّ على نُزولِ شَيءٍ واستِقرارِه قَرارَه[1].

﴿نَّبْرَأَهَآ﴾: أي: نَخلُقَها، وأصلُ (برأ): يدُلُّ على الخَلْقِ[2].

﴿تَأْسَوْا۟﴾: أي: تَحْزَنوا، يُقالُ: أَسِيتُ على الشَّيءِ أَسًى، أي: حَزِنتُ عليه[3].

﴿مُخْتَالٍ﴾: أي: مُتكَبِّرٍ ذي خُيَلاءَ، وأصلُ (خيل): يدُلُّ على حَرَكةٍ في تَلَوُّنٍ؛

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٥٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٥٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٦).

لأنَّ المُخْتالَ في مِشْيَتِه يتَلَوَّنُ في حَرَكتِه ألوانًا[١].

﴿فَخُورٍ﴾: أي: كثيرِ الخُيَلاءِ والفَخرِ، وأصلُ (فخر): يدُلُّ على عِظَمٍ وقِدَمٍ[٢].

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: أي: المحمودُ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودُ على ما لَه مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه الَّتي أنْعَمها على خلْقِه، المستحِقُّ لكلِّ حمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن مَحاسنِ المحمودِ معَ حُبِّه وإجلالِه وتَعظيمِه، وقيل: هو أيضًا بمعنى حامِدٍ، يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه، وأصلُ (حمد): يدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مخبرًا عن عمومِ قضائِه وقدَرِه: ما وَقَع في الأرضِ أو في أنفُسِكم مِن مُصيبةٍ إلَّا وهي مَكتوبةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ مِن قَبلِ أن نَخلُقَها، إنَّ ذلك أمرٌ سَهلٌ وهَيِّنٌ على اللهِ تعالى، أخْبَرْناكم بذلك؛ لِكَيْلا تَحزَنوا على شَيءٍ فاتَكم مِن الدُّنيا، ولا تَفرَحوا فَرَحَ بَطَرٍ بما نِلْتُم مِن مَتاعِها، واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مُتكَبِّرٍ فَخورٍ؛ الَّذين يَبخَلونَ بما أُوتُوه مِن نِعَمٍ، ويأمُرونَ غَيرَهم بالبُخْلِ. ومَن يُعْرِضْ فإنَّ اللهَ هو الغَنيُّ الحَميدُ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨، ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا جرى ذِكرُ الجِهادِ آنِفًا، وجرى ذِكرُ الدُّنيا، وكان ذلك كُلُّه مِمَّا تَحدُثُ فيه المصائِبُ؛ مِن قَتلٍ وقَطعٍ وأسْرٍ في الجِهادِ، ومِن كوارِثَ تَعرِضُ في الحياةِ؛ مِن فَقْدٍ وألمٍ واحتياجٍ، وجرى مَثَلُ الحياةِ الدُّنيا بالنَّباتِ، وكان ذلك ممَّا يَعرِضُ له القَحطُ والجوائِحُ- أُتْبِع ذلك بتسليةِ المسلمينَ على ما يُصيبُهم[1].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾.

أي: ما وَقَع في الأرضِ مِن مُصيبةٍ، كقَحْطِها وهَلاكِ زَرْعِها وثَمَرِها، أو في أنفُسِكم، كالأمراضِ والأوجاعِ، والفَقرِ والمَوتِ- إلَّا وهي مكتوبةٌ في اللَّوحِ المحفوظِ مِن قَبلِ أن نَخلُقَ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤١٢، ٤١٣).

قال الماوَرْدي: (﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فيه وجهانِ:

أحدُهما: الجوائِحُ في الزَّرعِ والثِّمارِ. الثَّاني: القَحطُ والغَلاءُ.

﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ فيه أربعةُ أوجُهٍ:

أحدُها: في الدِّينِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: الأمراضُ والأوصابُ. قاله قَتادةُ. الثالثُ: إقامةُ الحُدودِ. قاله ابنُ حَيَّانَ. الرَّابعُ: ضِيقُ المعاشِ، وهذا معنى روايةِ ابنِ جُرَيجٍ). ((تفسير الماوردى)) (٥/ ٤٨١، ٤٨٢).

وقال السعدي: (وهذا شامِلٌ لعُمومِ المصائبِ الَّتي تُصيبُ الخَلْقَ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، فكُلُّها قد =

كما قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [التغابن: ١١].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

أي: إنَّ ذلك[1] أمرٌ سَهلٌ وهَيِّنٌ على اللهِ تعالى، لا يَتعَذَّرُ عليه سُبحانَه؛ لإحاطَةِ

---

= كُتِبَت في اللَّوحِ المحفوظِ؛ صغيرُها وكبيرُها، وهذا أمرٌ عَظيمٌ لا تحيطُ به العقولُ، بل تَذهَلُ عندَه أفئدةُ أُولي الألبابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

والضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿نَّبۡرَأَهَآ﴾ قيل: عائِدٌ على المُصيبةِ. وقيل: عائدٌ على الأرضِ. وقيل: عائدٌ على الأنفُسِ. وقيل: عائدٌ إلى جميع ذلك. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١١).

والقَولُ بأنَّه يعودُ على المُصيبةِ: مالَ إليه الرازيُّ، واستظهره أبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٥)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٨٢).

وممَّن قال بعَودِ الضَّميرِ على الأنفُسِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، وأبو العاليةِ، والكلبيُّ، ومقاتلُ بنُ حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٠٥).

وقال ابنُ عاشور: (وضَميرُ النَّصبِ في ﴿نَّبۡرَأَهَآ﴾ عائِدٌ إلى الأرضِ، أو إلى الأنفُسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١).

وممَّن قال بعَودِ الضَّميرِ على جَميعِ ذلك: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٣).

قال ابن عطيَّة: (الضَّميرُ عائِدٌ على المصيبةِ. وقيل: على الأرضِ. وقيل: على الأنفُسِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، وجماعةٌ. وذكَرَ المَهْدويُّ جَوازَ عَودِ الضَّميرِ على جميعِ ما ذُكِرَ، وهي كُلُّها مَعانٍ صِحاحٌ؛ لأنَّ الكتابَ السَّابقَ أَزَليٌّ قبْلَ هذه كُلِّها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٨)، ويُنظر: ((التحصيل لفوائد كتاب التفصيل)) للمهدوي (٦/ ٣٤٠).

(١) قال الرازي: (﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ وفيه قَولانِ؛ أحدُهما: إنَّ حِفظَ ذلك على اللهِ هَيِّنٌ. والثَّاني: إنَّ إثباتَ ذلك على كثرتِه في الكتابِ يسيرٌ على الله، وإن كان عسيرًا على العبادِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٧). =

عِلمِه، وكمالِ قُدْرَتِه[١].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن ذلك الأمرَ العَظيمَ الدَّالَّ على ما لَه سُبحانَه مِنَ الكِبرياءِ والعَظَمةِ؛ بَيَّنَ ثَمَرةَ إعلامِه، بقَولِه تعالى[٢]:

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾.

أي: أخبَرْناكم بأنَّ كلَّ مصيبةٍ تقعُ فهي في كتابٍ[٣]؛ لِكَيْلا يَشتَدَّ حُزنُكم على

---

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أي: خَلْقَ ذلك وحِفْظَه-: الثعلبيُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: البغويُّ، وابن الجوزي، والبيضاوي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١١).

وقال ابن كثير: (أي: أنَّ عِلمَه تعالَى الأشياءَ قبْلَ كَونِها، وكتابَتَه لها طِبقَ ما يُوجَدُ في حِينِها سهلٌ على اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه يَعلَمُ ما كان وما يكونُ وما لم يَكُنْ لو كان كيفَ كان يكونُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤١٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١١). =

شَيءٍ فاتَكم مِن مَتاعِ الدُّنيا[١].

﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾.

أي: ولِكَيلا تَفرَحوا فَرَحَ بَطَرٍ وفَخْرٍ على غَيرِكم بما أعطاكم اللهُ مِن مَتاعِ الدُّنيا[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦].

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾.

أي: واللهُ لا يُحِبُّ كلَّ مُتكَبِّرٍ في نَفْسِه بما أُوتِيَ مِنَ الدُّنيا، فَخورٍ به على النَّاسِ[٣].

---

= وقال ابنُ جرير: (يعني تعالى ذِكرُه: ما أصابكم -أيُّها النَّاسُ- مِن مُصيبةٍ في أموالِكم ولا في أنفُسِكم إلَّا في كتابٍ قد كُتِبَ ذلك فيه مِن قَبلِ أن نخلُقَ نُفوسَكم؛ ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٠).

وقال العُلَيمي: (فَعَل اللهُ هذا كُلَّه، وأعلَمَكم به). ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤١٣).

قال ابنُ كثير: (لِتَعلَموا أنَّ ما أصابكم لم يكُنْ لِيُخطِئَكم، وما أخطأَكم لم يكُنْ لِيُصيبَكم، فلا تأسَوا على ما فاتَكم؛ فإنَّه لو قُدِّرَ شَيءٌ لَكانَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧).

وقال البِقاعي: (أي: أعلَمْناكم بأنَّا -على ما لَنا مِنَ العَظَمةِ- قد فرَغْنا مِن التَّقديرِ، فلا يُتصَوَّرُ فيه تقديمٌ ولا تأخيرٌ، ولا تبديلٌ ولا تغييرٌ؛ لأنَّ الحُزنَ لا يَدفَعُه، ولا السُّرورُ يَجلِبُه ويَجمَعُه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٢٩٥).

وقال ابنُ عاشور: (فلا تَجزَعوا للمصائِبِ؛ لأنَّ مَن أيقَنَ أنَّ ما عِندَه مِن نِعمةٍ دُنيويَّةٍ مَفقودٌ يومًا لا محالةَ، لم يَتفاقَمْ جَزَعُه عِندَ فَقْدِه؛ لأنَّه قد وطَّنَ نَفْسَه على ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٠-٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- الحديد)) (ص: ٤١٤).

قال ابن جزي: (النَّهي عن الفَرحِ إنَّما هو عن الذي يقودُ إلى الكِبرِ والطُّغيانِ، وعن الحُزنِ الذي يُخرِجُ عن الصَّبرِ والتَّسليمِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن =

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مِن جملةِ صِفاتِ المختالِ المكاثِرِ بالمالِ البُخلُ، وكان قد تقَدَّم الحَثُّ على الإنفاقِ، وكان ما يُوجِبُه لذَّةُ الفَخارِ والاختيالِ الَّتي أوصَلَ إليها المالُ حامِلةً على البُخلِ خَوفًا من الإقتارِ الموجِبِ عندَ أهلِ الدُّنيا للصَّغارِ؛ قال تعالى[1]:

﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ ﴾.

أي: وهم مع اختيالِهم وفَخْرِهم هذا يَبخَلونَ بما أُوتُوه مِن نِعَمٍ، فيَمتَنِعونَ عن إخراجِ ما وَجَب عليهم بَذْلُه منها، ويأمُرونَ غَيْرَهم بذلك[2].

---

= كثير)) (٨/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (المُختالُ: الَّذي يتخَيَّلُ في نَفْسِه أنَّه عَظيمٌ، فيَعتَقِدُ في نَفْسِه أكثَرَ مِمَّا يَستَحِقُّه). ((درء تعارض العقل والنقل)) (٦/ ١٧).

وقال ابنُ عثيمين: (مُختالٌ في فِعْلِه، فَخورٌ في قَولِه). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٥، ٤١٦).

قال القرطبي: (أي: لا يُحِبُّ المُختالينَ الَّذين يَبخَلُونَ. فـ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ في مَوضِعِ خَفضٍ نَعتًا للمُختالِ. وقيل: رَفعٌ بالابتِداءِ، أي: الَّذين يَبخَلونَ فاللهُ غَنيٌّ عنهم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٩). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٦٧٦، ٦٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٣).

قال ابن تيميَّةَ في هذه الآيةِ وآيةِ النساء (٣٧): (قد تُؤُوِّلَتْ في البُخلِ بالمالِ، والمَنعِ، والبُخلِ بالعِلمِ ونحوِه، وهي تَعُمُّ البُخلَ بكُلِّ ما يَنفَعُ في الدِّينِ والدُّنيا مِن عِلْمٍ ومالٍ وغَيرِ ذلك). ((مجموع الفتاوى)) (١٤/ ٢١٢).

كما قال الله تبارك وتعالى عن المُنافِقينَ: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٧].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان التَّقديرُ: «فمَنْ أقبَلَ على ما نُدِبَ إليه مِنَ الإقراضِ الحَسَنِ، والأمرِ بالمعروفِ، والنَّهيِ عن المُنكَرِ؛ فإنَّ اللهَ شَكورٌ حَليمٌ»- عَطَف عليه قَولَه ذامًّا للبُخلِ، مُحَذِّرًا منه[1]:

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

أي: ومَن يُعْرِضْ فإنَّ اللهَ هو الغَنيُّ عن خَلْقِه غِنًى تامًّا مُطلَقًا؛ المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه، وأفعالِه وأقوالِه، كثيرُ الحَمدِ لِمَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

قيل: ﴿يَتَوَلَّ﴾ أي: يُعرِضْ عن الإنفاقِ. وممَّن اختار هذا القولَ: السمرقنديُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٢).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: ومَن يُدْبِرْ مُعرِضًا عن عِظَةِ الله، تاركًا العملَ بما دعاه إليه مِن الإنفاقِ في سبيلِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٣).

وقيل: يُعرِضْ عن الإيمانِ. وممَّن اختار هذا القولَ: الواحديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٥٩). =

= وقيل: يُعرِضْ عن أمرِ اللهِ وطاعتِه. وممَّن اختار هذا القولَ في الجملةِ: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، وابن كثير، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٦).

وقال ابن عاشور: («مَن يَتَوَلَّ» يَعُمُّ الَّذين يَبخَلون وغيرَهم؛ فإنَّ الَّذين يَبخَلون ويأمُرون النَّاس بالبُخلِ -أي: في سبيلِ الله، وفي النَّفَقاتِ الواجِبةِ- قد تَوَلَّوْا عن أمرِ الله). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٣).

وقال مكِّي: (قولُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: يُعرِضْ عن قَبولِ ما أمَر اللهُ عزَّ وجلَّ به مِن الإنفاقِ في سبيلِ الله، وإخراجِ الزَّكاةِ، والإيمانِ بالله وبرسولِه). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١١/ ٧٣٣١).

قولُه: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ الأكثَرُ على أنَّه فَعيلٌ بمعنَى مَفعولٍ، أي: مَحمودٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٥٨٨) و(٢٢/ ٤٢٣)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٥)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((المقصد الأسنى)) للغزالي (ص: ١٣٠)، ((جامع الأصول)) لابن الأثير (٤/ ١٨٠)، ((تفسير الرسعني)) (٢/ ٣٢١)، ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/ ١٥٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨) و(ص: ٨٥٦).

قال ابنُ القيِّم: (الحَميدُ فَعيلٌ مِن الحَمْدِ، وهو بمعنى مَحمودٍ، وأكثرُ ما يأتي فَعيلًا في أسمائِه تعالَى، بمعنى فاعِلٍ، كـ: سَميع، وبَصير، وعَليم، وقَدير، وعَليٍّ، وحَكيم، وحَليم، وهو كثيرٌ ... وأمَّا الحميدُ فلمْ يأتِ إلَّا بمعنى المحمودِ، وهو أبلغُ مِن المحمودِ؛ فإنَّ فَعيلًا إذا عُدِلَ به عن مَفعولٍ، دلَّ على أنَّ تِلك الصِّفةَ قد صارتْ مِثلَ السَّجيَّةِ والغَريزةِ والخُلُقِ اللَّازمِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٣١٥).

وذهب الرَّاغبُ وابنُ عاشور وابنُ عثيمين إلى أنَّه يصحُّ أيضًا أن يكونَ اسمَ فاعِلٍ بمعنى الحامدِ، كما يصحُّ أن يكونَ اسمَ مفعولٍ بمعنى المحمودِ. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

قال ابن عاشور: (اسمه «الحميد» صالحٌ لمعنى المحمودِ، فيكونُ فَعيلًا بمعنَى مفعولٍ، وصالحٌ لمعنَى كثيرِ الحمدِ، فيكونُ مِن أمثلةِ المُبالَغةِ؛ لأنَّ اللهَ يُثيبُ على فِعلِ الخَيرِ ثوابًا جزيلًا، ويُثْني على فاعِلِه ثناءً جميلًا، فكان بذلك كثيرَ الحمدِ. وقد حمَلَه على كِلا المعنيَين ابنُ بَرَّجَانَ الإشبيليُّ في شرحِه لأسماءِ الله الحُسْنى، ووافقه كلامُ ابنِ العربي في «أحكام القرآن» في =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

عن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روَى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عبادي إنَّكم لن تَبلُغوا ضَرِّي فتَضُرُّوني، ولن تَبلُغوا نَفعي فتَنفَعوني، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أتقَى قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ منكم، ما زاد ذلك في مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم كانوا على أفجَرِ قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ، ما نقَص ذلك مِن مُلكي شَيئًا، يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنسَكم وجِنَّكم قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كُلَّ إنسانٍ مَسألتَه، ما نقَصَ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يَنقُصُ المِخْيَطُ إذا أُدخِلَ البَحرَ، يا عبادي إنَّما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثمَّ أُوَفِّيكم إيَّاها، فمَن وَجَد خَيرًا فلْيَحمَدِ اللهَ، ومَن وَجَد غَيرَ ذلك فلا يَلومَنَّ إلَّا نَفْسَه))[1].

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ

---

= سورةِ الأعرافِ، وهو الحقُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤). ويُنظر: ((شرح أسماء الله الحسنى)) لابن برجان (١/ ١٤٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٧).

وقال ابنُ عُثَيمين: (كَلِمةُ «حميد» يَصِحُّ أن تكونَ اسمَ فاعلٍ، ويصِحُّ أنْ تكونَ بمعنى اسم المفعولِ؛ اسمُ الفاعِلِ: لأنَّه سُبحانَه وتعالَى حامِدٌ يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه؛ ولهذا يُثني على رُسُلِه وأنبيائِه وعِبادِه الصَّالحينَ، والثَّناءُ عليهم هو الحَمدُ. وهو أيضًا المحمودُ على أمْرينِ: على ما لَه مِن كَمالِ الصِّفاتِ، وعلى ما له مِن كَمالِ الإنعامِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

ءَاتَىٰكُمۡ﴾ أنَّه لَمَّا كانتِ المُصيبةُ تتضَمَّنُ فَواتَ مَحبوبٍ أو خَوفَ فَواتِه، أو حُصولَ مَكروهٍ أو خَوفَ حُصولِه؛ نَبَّهَ بالأَسى على الفائتِ على مُفارَقةِ المحبوبِ بعدَ حصولِه، وعلى فَوتِه حيثُ لم يَحْصُلْ، ونَبَّهَ بعَدَمِ الفرحِ به -إذا وُجِدَ- على تَوطينِ النَّفْسِ لِمُفارَقتِه قبْلَ وُقوعِها، وعلى الصَّبرِ على مَرارتِها بعدَ الوُقوعِ، وهذه هي أنواعُ المصائبِ، فإذا تَيَقَّنَ العبدُ أنَّها مَكتوبةٌ مُقَدَّرةٌ، وأنَّ ما أصابه منها لم يكُنْ لِيُخْطِئَه، وما أخطَأَه لَمْ يكن لِيُصيبَه؛ هانتْ عليه، وخَفَّ حَمْلُها، وأنزَلَها مَنزِلةَ الحَرِّ والبَرْدِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ أخبَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ عِبادَه بذلك مِن أجْلِ أن تتقرَّرَ هذه القاعدةُ عندَهم، ويَبنوا عليها ما أصابهم مِن الخَيرِ والشَّرِّ، فلا يَأْسَوا ويَحزَنوا على ما فاتهم ممَّا طَمَحتْ له أنفُسُهم وتشَوَّفوا إليه؛ لِعِلْمِهم أنَّ ذلك مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، لا بُدَّ مِن نُفوذِه ووُقوعِه، فلا سبيلَ إلى دَفعِه، ولا يَفرَحوا بما آتاهم اللهُ فرَحَ بَطَرٍ وأشَرٍ؛ لعِلْمِهم أنَّهم ما أدرَكوه بحَولِهم وقُوَّتِهم، وإنَّما أدرَكوه بفَضلِ اللهِ ومَنِّه، فيَشتَغِلون بشُكرِ مَن أَولى النِّعَمَ، ودَفَع النِّقَمَ(٢).

٣- قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ فالعبدُ مأمورٌ بالصَّبرِ عندَ المصائبِ نظرًا إلى القَدَرِ، وأمَّا عندَ الذُّنوبِ فمأمورٌ بالاستِغفارِ؛ قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، أمَرَه أن يَصبِرَ على المصائبِ المُقَدَّرةِ ويَستغفِرَ من الذَّنْبِ، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [آل

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

عمران: ١٨٦]، وقال يوسفُ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، فذكَر الصَّبرَ على المصائبِ، والتَّقْوى بتَرْكِ المعايبِ، فالنَّظَرُ إلى القَدَرِ عندَ المصائبِ، والاستِغفارُ عندَ المعايبِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ تنبيهٌ على أنَّ المُفرِحاتِ صائِرةٌ إلى زَوالٍ، وأنَّ زَوالَها مُصيبةٌ، واعلَمْ أنَّ هذا مَقامُ المُؤمِنِ مِن الأدَبِ بعْدَ حُلولِ المُصيبةِ، وعِندَ نَوالِ الرَّغيبةِ[٢]. قال يحيى بنُ مُعاذٍ الرَّازيُّ: (يا ابنَ آدَمَ، لا تأسَفْ على مَفقودٍ لا يَرُدُّه عليك الفَوتُ، ولا تَفرَحْ بموجودٍ لا يَترُكُه في يديك الموتُ)[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ مَنْعُ إعجابِ المرءِ بعَمَلِه إذا عَمِلَ عَمَلًا يُشْكَرُ عليه؛ لأنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي مَنَّ عليه، وقَدَّرَه له[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡ﴾ الطُّمَأنينةُ والرَّاحةُ النَّفْسيَّةُ بما يَجري على العَبدِ مِن أقدارِ اللهِ تعالى، فلا يَقْلَقُ بفَواتِ محبوبٍ، أو حُصولِ مَكروهٍ؛ لأنَّ ذلك بقَدَرِ اللهِ الَّذي له مُلْكُ السَّمَواتِ والأرضِ، وهو كائِنٌ لا محالةَ[٥].

٧- قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (ليس أحدٌ إلَّا وهو يَحزَنُ ويَفرَحُ، ولكنْ

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((شُعَب الإيمان)) للبيهقي (١/ ٣٩٧).

ونُسِب إلى جعفرٍ الصَّادقِ في ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٤٥).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١١٥).

إذا أصابَتْه مصيبةٌ جعَلَها صبرًا، فإن أصابه خيرٌ جعَلَه شُكرًا)[١].

٨- قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ متى آمَنَ العبدُ بالقَدَرِ وعَلِمَ أنَّ المصيبةَ مُقَدَّرةٌ في الحاضرِ والغائبِ لم يَجزَعْ ولم يَفرَحْ، ولا يُنافي هذا رقَّةَ القلبِ؛ فإنَّها ناشئةٌ مِن صِفةِ الرَّحمةِ الَّتي هي كمالٌ، والله سُبحانَه إنَّما يَرحَمُ مِن عِبادِه الرُّحماءَ، وقد كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أرَقَّ النَّاسِ قلبًا، وأبْعَدَهم مِن الجَزَعِ، فرِقَّةُ القلبِ رأفةٌ ورحمةٌ، وجَزَعُه مرَضٌ وضَعفٌ[٢].

٩- لقد عزَّى اللهُ المؤمنينَ رحمةً لهم في مصائبِهِم، وزهَّدَهم في رغائبِهم، بأنَّ أسَفَهم على فَوتِ المطلوبِ لا يُعيدُه، وفرَحَهم بحُصولِ المحبوبِ لا يُفيدُهم، ولأنَّ ذلك لا مَطمَعَ في بقائِه إلَّا بادِّخارِه عندَ الله، فلا يزالُ العبدُ خائفًا عندَ النِّقمةِ، راجيًا أثَرَ النِّعمةِ، قائلًا في الحالَينِ: ما شاء اللهُ كان، وما لم يَشَأْ لم يكُنْ، وأكمَلُ مِن هذا أن يكونَ مسرورًا بذِكرِ رَبِّه له في كِلْتا الحالتَينِ، وقيمةُ الرِّجالِ إنَّما تُعرَفُ بالوارداتِ المغيِّرةِ، ومَن لم تُغَيِّرْه المَضارُّ ولم يَتأثَّرْ بالمَسارِّ فهو سَيِّدُ وَقْتِه[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تحذيرٌ مِنَ الفَرَحِ، وفيه بيانٌ للمُرادِ مِنَ الفَرَحِ أنَّه الفَرَحُ المُفرِطُ البالِغُ بصاحِبِه إلى الاختيالِ والفَخْرِ[٤].

---

(١) أخرجه ابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنف)) (٧/ ١٣٧)، وابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٢/ ٤٢١) والحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٢١) وقال: (صحيحُ الإسنادِ)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٦، ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۞ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ البُخلَ صِفةُ ذَمٍّ؛ حيثُ قَرَنَ البُخْلَ بالاختيالِ والفَخرِ والأمرِ بالبُخلِ، وذَمَّ على المجموعِ[١].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أنَّ اللهَ تعالى كَتَب في اللَّوحِ المحفوظِ مَقاديرَ كُلِّ شَيءٍ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ حُجَّةٌ على القَدَريَّةِ والمُعتزِلةِ واضِحةٌ؛ إذْ قد أخبَر سُبحانَه نصًّا بإيداعِ المصائبِ كتابَه السَّابِقَ قبْلَ وُقوعِها، والهاءُ في ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ لا تَخْلو مِن أنْ تكونَ راجِعةً على الأنْفُسِ، أو على الأرضِ؛ فإنْ كانت على الأرضِ فالأنفُسُ مَخلوقةٌ بَعْدَها، وإنْ كانت على الأنفُسِ فمَصائِبُها مَكتوبةٌ عليها قبْلَ خَلْقِها، وهي على كُلِّ الأحوالِ قبْلَ الأنفُسِ، والمعاصي أكبَرُ المصائبِ، والجِناياتُ مِن جانبِها، ومَن كُتِب عليه فِعلٌ يَفعَلُه أو يُفعَلُ به فلا بُدَّ مِن كَونِه[٣]. وهذه الآيةُ الكريمةُ مِن أدَلِّ دليلٍ على القَدَريَّةِ نُفاةِ العِلمِ السَّابِقِ[٤]، فقد استُدِلَّ بها على أنَّه تعالى عالِمٌ بالأشياءِ قبْلَ وُقوعِها. ووَجهُ الاستِدلالِ: أنَّه تعالى لَمَّا كَتَبَها في الكِتابِ قبْلَ وُقوعِها، وجاءت مُطابِقةً لذلك الكِتابِ؛ عَلِمْنا أنَّه تعالى عالِمٌ بها بأَسْرِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٤٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أنَّ المرادَ ذَمُّ الفَرَحِ الَّذي يَختالُ فيه صاحِبُه ويَبطَرُ، وأمَّا الفَرَحُ بنِعمةِ اللهِ والشُّكرُ عليها فغَيرُ مَذمومٍ[١]؛ فليس المرادُ به الانتِهاءَ عن الحُزنِ والفَرَحِ -اللَّذَينِ لا ينفَكُّ عنهما الإنسانُ بطَبْعِه-، بل المرادُ الحُزنُ المُخرِجُ لصاحِبِه إلى الذُّهولِ عن الصَّبرِ والتَّسليمِ لأمرِ اللهِ تعالى، والفَرَحِ المُلْهي عن الشُّكرِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿بِمَا آتَاكُمْ﴾ دَلالةٌ على أنَّ النِّعَمَ لا بُدَّ في إيجادِها وإبقائِها مِن حافِظٍ، ثُمَّ إنَّها لو خُلِّيَت ونَفْسَها فاتَت؛ لأنَّ الأشياء ليس مِن ذاتِها إلَّا العَدَمُ[٣]. فالفواتُ والعَدمُ ذاتيٌّ للأشياءِ، فلو خُلِّيتْ ونفسَها لم تَبْقَ، بخلافِ حصولِها وبقائِها؛ فإنَّه لا بدَّ مِن استنادِهما إليه عز وجل[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ الَّذي يَتولَّى عن طاعةِ اللهِ إنَّما يَضُرُّ نفْسَه، ولا يَضُرُّ اللهَ شيئًا؛ فإنَّ اللهَ غنيٌّ، وفي الحَديثِ القُدُسيِّ: ((يا عِبادي، لو أنَّ أوَّلَكم وآخِرَكم وإنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أفْجَرِ قَلبِ رَجُلٍ واحدٍ، ما نَقَصَ ذلك مِن مُلكي شَيئًا))[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢، ٥٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٧). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٧).
والحديثُ المذكورُ تقدَّم تخريجُه (ص: ١٧٣).

مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾

- قولُه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآ﴾ (ما) نافيةٌ، و(مِن) صِلةٌ في النفْيِ؛ للدَّلالةِ على نفْيِ الجِنسِ؛ قَصْدًا للعُمومِ[١].

- ومَفعولُ ﴿أَصَابَ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: ما أصابَكُم، أو ما أصابَ أحَدًا[٢].

- وتَكريرُ حرْفِ النَّفيِ (لا) في المَعطوفِ على المنْفيِّ في قولِه: ﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾؛ لقَصْدِ الاهتِمامِ بذلك المذكورِ بخُصوصِه؛ فإنَّ المصائبَ الخاصَّةَ بالنَّفْسِ أشدُّ وقْعًا على المُصابِ؛ فإنَّ المصائِبَ العامَّةَ إذا أخطَأَتْه فإنَّما يَتأثَّرُ لها تأثُّرًا بالتَّعقُّلِ لا بالحِسِّ، فلا تَدومُ مُلاحظةُ النَّفْسِ إيَّاها[٣].

- والاستِثناءُ في قولِه: ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ استِثناءٌ مِن أحوالٍ مَنفيَّةٍ بـ (ما)؛ إذ التَّقديرُ: ما أصابَ مِن مُصيبةٍ في الأرضِ كائنةٍ في حالٍ إلَّا في حالِ كَونِها مَكتوبةً في كتابٍ، أي: مُثبَتةً فيه. والقصْرُ المُفادُ بـ (إلَّا) قصْرُ مَوصوفٍ على صِفةٍ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[٤]، أي: إلَّا في حالِ كَونِها في كتابٍ دونَ عدَمِ سبْقِ تَقديرِها في عِلمِ اللهِ، ردًّا على اعتقادِ المُشركين والمنافقينَ المذكورِ في قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾[٥] [آل عمران: ١٦٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٠).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ردٌّ على أهْلِ الضَّلالِ مِن المشركين وبَعضِ أهلِ الكتابِ الَّذين لا يُثبِتون للهِ عُمومَ العِلمِ، ويُجوِّزون عليه البَداءَ(١) وتَمشِّي الحِيَلِ، ومِن أجْلِ قصْدِ الرَّدِّ على المُنكِرين أُكِّدَ الخبَرُ بـ(إنَّ)(٢).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، فقد قال سُبحانه هنا: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وقال في (التَّغابُن): ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]، ففصَّل هنا، وأَجمَلَ ثَمَّ؛ مُوافَقةً لِما قبْلَهما؛ لأنَّه فصَّلَ هنا بقولِه: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ...﴾ الآيةَ [الحديد: ٢٠]، بخلافِه ثَمَّ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

- قولُه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ التَّعليلُ بلامِ العِلَّةِ و(كَي) مُتعلِّقٌ بمُقدَّرٍ دلَّ عليه هذا الإخبارُ الحكيمُ، أي: أعلَمْناكم بذلك لكَي لا تَأْسَوا على ما فاتَكُم... إلخ(٤).

- وقولُه: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ تَتميمٌ لقولِه: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾؛ فإنَّ المقصودَ مِن الكلامِ ألَّا يَأْسَوا عندَ حُلولِ المصائبِ؛ لأنَّ

---

(١) البَداءُ له مَعانٍ؛ منها: البَداءُ في العِلمِ، وهو أن يَظهَرَ له خِلافُ ما عَلِم. والبَداءُ في الإرادةِ، وهو أن يَظهَرَ له صوابٌ على خِلافِ ما أراد وحكَمَ. والبَداءُ في الأمرِ: وهو أن يأمُرَ بشَيءٍ، ثمَّ يأمُرَ بشَيءٍ آخَرَ بَعْدَه بخِلافِ ذلك. يُنظر: ((المِلَل والنِّحَل)) للشَّهْرَسْتاني (١/ ١٤٨، ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١).

المقصودَ هو قولُه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ ﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾، ثمَّ يُعلَمُ أنَّ المَسرَّاتِ كذلك بطَريقِ الاكتفاءِ[١].

- وقُرِئَ قولُه: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ بمَدٍّ بعْدَ الهَمزةِ مُحوَّلٍ عن هَمزةٍ ثانيةٍ، هي فاءُ الكَلمةِ، أي: ما جعَلَه آتيًا لكم، أي: حاصِلًا عِندَكم؛ فالهمزةُ الأُولى للتَّعديةِ إلى مَفعولٍ ثانٍ، والتَّقديرُ: بما آتاكُمُوه. وعلى هذه القِراءةِ فعائدُ الموصولِ مَحذوفٌ؛ لأنَّه ضَميرٌ مُتَّصلٌ مَنصوبٌ بفِعلٍ، وفيه إدماجُ[٢] المِنَّةِ مع الموعظةِ؛ تَذكيرًا بأنَّ الخَيراتِ مِن فَضلِ اللهِ. وقُرِئ ﴿بِمَا أَتَاكُمْ﴾ بهمْزةٍ واحدةٍ[٣]، على أنَّه مِن (أتى)؛ إذا حصَلَ، فعائدُ الموصولِ هو الضَّميرُ المستترُ المرفوعُ بـ (أتى)، وفي هذه القراءةِ مُقابَلةُ ﴿أَتَاكُمْ﴾ بـ ﴿فَاتَكُمْ﴾، وهو مُحسِّنُ الطِّباقِ[٤]، ففي كِلْتا القراءتينِ مُحسِّنٌ[٥].

- وفي تَخصيصِ التَّذييلِ بالنَّهيِ عن الفرَحِ المذكورِ: إيذانٌ بأنَّه أقبَحُ مِن الأَسَى[٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١١). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٧).

والاكتفاءُ تقدم تعريفه (ص: ٩٨).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٦).

(٣) وهي قراءةُ أبي عَمرٍو، وقرأ الباقون بمدِّ الهمزةِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٤).

والقِراءتانِ مُتلازِمتانِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧).

(٤) تقدم تعريفه (ص: ٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٢، ٤١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١١).

ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾

- يَجوزُ أنْ يكونَ ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ ابتِداءَ كلام على الاستِئناف؛ لأنَّ الكلامَ الَّذي قبْلَه خُتِمَ بالتَّذييلِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣]؛ فيكونَ ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ مُبتدأً، وخبَرُه مَحذوفًا يدُلُّ عليه جَوابُ الشَّرطِ، وهو ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾، والتَّقديرُ: فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنهم، وحامدٌ للمُنفِقينَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ مُتَّصِلًا بما قبْلَه على طَريقةِ التَّخلُّصِ؛ فيكونَ ﴿ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ ﴾ بدَلًا مِن ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾، أو خبَرًا لِمُبتدَأٍ مَحذوفٍ هو ضَميرُ ﴿كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾، تَقديرُه: هم الَّذين يَبخَلون، وعلى هذا الاحتِمالِ الأخيرِ فهو مِن حذْفِ المُسنَدِ إليه اتِّباعًا للاستِعمالِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ (مَن يَتولَّ) يَعُمُّ الَّذين يَبخَلون وغيرَهم -على قولٍ-؛ فإنَّ الَّذين يَبخَلون ويأْمُرون بالبُخلِ قد تَولَّوا عن أمْرِ اللهِ، و(مَنْ) شَرطيَّةٌ عامَّةٌ[٢].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ قائِمةٌ مَقامَ جَوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّ مَضمونَها عِلَّةٌ للجوابِ، فالتَّقديرُ: ومَن يَتولَّ فلا يَضُرُّ اللهَ شيئًا، ولا يَضُرُّ الفقيرَ؛ لأنَّ اللهَ غنِيٌّ عن مالِ المُتولِّينَ، ولأنَّ له عِبادًا يُطيعون أمْرَه فيَحمَدُهم[٣].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ تهديدٌ وإشعارٌ بأنَّ الأمرَ بالإنفاقِ إنَّما هو لمصلحةِ المُنفِقِ فقط[٤]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٣).

وتقدَّم الكلامُ على متابعة الاستعمال (ص: ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٢).

وقولُه: ﴿هُوَ﴾ تنصيصٌ على الحصرِ والتَّأكيدِ[١].

- والغَنِيُّ: الموصوفُ بالغِنَى، أي: عدَمِ الاحتِياجِ. ولَمَّا لم يُذكَرْ له مُتعلِّقٌ كان مُفيدًا الغِنى العامَّ[٢].

- والحميدُ: وصْفُ مُبالَغةٍ، أي: كثيرُ الحمْدِ للمُنفِقينَ؛ لأنَّ اللهَ يُثِيبُ على فِعلِ الخَيرِ ثَوابًا جَزيلًا، ويُثْني على فاعِلِه ثَناءً جَميلًا؛ فكان بذلك كَثيرَ الحمْدِ[٣]. وذلك على قولٍ في معناه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٣٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤، ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٦٥، ١٧٢).

## الآيات (٢٥-٢٧)

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِالْقِسْطِ﴾: أي: بالعدلِ، وأصلُ القِسطِ يدُلُّ على مَعنيَينِ مُتضادَّيْنِ: العَدلِ، والجَوْرِ؛ يُقالُ: أَقْسَطَ: إذا عدَل، وقَسَط: إذا جارَ[1].

﴿بَأْسٌ﴾: أي: قُوَّةٌ وشِدَّةٌ، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما ضارَعَها[2].

﴿قَفَّيْنَا﴾: أي: أتْبَعْنا، تَقولُ: قَفَوْتُ الرَّجُلَ: إذا تَبِعْتَه وسِرْتَ في أثَرِه، وأصلُ (قفو): يدُلُّ على إتباعِ شَيءٍ لِشَيءٍ[3].

﴿رَأْفَةً﴾: الرَّأفةُ: أشَدُّ الرَّحمةِ، وأعلَى معانيها، وأبلغُها وأرَقُّها، وأصلُ (رأف):

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

يدُلُّ على رقَّةٍ ورحمةٍ[١].

﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾: الرَّهْبانيَّةُ: الغُلُوُّ في التَّعَبُّدِ، بالانفِرادِ في الجِبالِ، والانقِطاعِ عن النَّاسِ في الصَّوامِعِ، ورَفْضِ النِّساءِ، وتَرْكِ الدُّنيا، وهي اسمٌ مَبنيٌّ مِنَ «الرَّهبةِ» بمعنى الخَوفِ، وأصلُ (رهب): يدُلُّ على الخَوفِ[٢].

﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾: أي: أحْدَثوها واختَرَعوها، وأصلُ (بدع): يدُلُّ على ابتِداءِ شَيءٍ وصُنْعِه لا عن مِثالٍ[٣].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ في نَصبِ «رَهبانيَّةً» وَجهانِ:

**أحَدُهما:** أنَّها مَنصوبةٌ على الاشتِغالِ بفِعلٍ مَحذوفٍ يُفَسِّرُه الفِعلُ المذكورُ بَعْدَها، أي: وابتَدَعوا رَهبانيَّةً ابتَدَعوها. فالوَقفُ تامٌّ عِندَ قَولِه: ﴿وَرَحْمَةً﴾، ثمَّ يَبتَدِئُ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾، أي: لم نَشْرَعْها لهم، بل هم ابتَدَعوها مِن عندِ أنفُسِهم، ولم نَكتُبْها عليهم، وجُملةُ ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ مُفَسِّرةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

**والوَجهُ الثَّاني:** أنَّها مَعطوفةٌ على ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، و«جَعَلَ» على هذا بمعنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٥٤) و(٣/ ٥٩٥) و(٢٢/ ٤٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٠)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٢).

«خَلَقَ»؛ فالجَعْلُ هنا جَعلٌ كَونيٌّ قَدَريٌّ، وليس جَعْلًا شَرعيًّا دِينيًّا، و﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾ صِفةٌ لـ (رَهْبَانِيَّةً)، أي: جَعَل اللهُ في قُلوبِهم الرَّأفةَ والرَّحمةَ والرَّهبانيَّةَ المُبتَدَعةَ[1].

قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ مَنصوبٌ على الاستِثناءِ المُنقَطِعِ، أي: لم نَفْرِضْها عليهم، ولكِنَّهم ابتَدَعوها ابتِغاءَ رِضوانِ اللهِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: لقد أرسَلْنا رُسُلَنا بالحُجَجِ والبَراهينِ الواضِحةِ، وأنزَلْنا معهم الكِتابَ والميزانَ؛ لِيَقُومَ النَّاسُ بالعَدْلِ، وأنزَلْنا الحديدَ فيه قُوَّةٌ وصَلابةٌ، ومنه تُصنَعُ آلاتُ الحربِ، وفيه مَنافِعُ للنَّاسِ في مَعايِشِهم، ولِيَعلَمَ اللهُ مَن يَستَعمِلُ السِّلاحَ المُتَّخَذَ مِنَ الحَديدِ في نَصرِ اللهِ ورُسُلِه بالغَيبِ، إنَّ اللهَ قَويٌّ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، عزيزٌ لا يُغلَبُ ولا يُقهَرُ سُبحانَه.

ثمَّ يقولُ تعالى: ولقد أرسَلْنا نُوحًا وإبراهيمَ، وجعَلْنا في نَسْلِهما الأنبياءَ والكُتُبَ؛ فمِنهم مُهْتَدٍ إلى الحَقِّ، وكثيرٌ مِنهم خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، ثمَّ أتْبَعْنا على آثارِهم رُسُلَنا واحِدًا تِلْوَ الآخَرِ، وأرسَلْنا مِن بَعْدِهم عيسى ابنَ مَريَمَ، وآتَيْناه الإنجيلَ، وجعَلْنا في قُلوبِ الَّذين اتَّبَعوه رِقَّةً ورَحمةً. ورَهبانيَّةً ابتَدَعوها مِن عِندِ أنفُسِهم، لم نَفرِضْها عليهم، بل ابتَدَعوها طَلَبًا لِرِضا اللهِ تعالى، فما رَعَوا تلك الرَّهبانيَّةَ

---

(١) قال ابن عطيَّة: (والمعتزلةُ تُعرِبُ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ أنَّها نصبٌ بإضمارِ فِعلٍ يُفَسِّرُه ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، وليست بمعطوفةٍ على الرَّأفةِ والرَّحمةِ، ويَذهَبون في ذلك إلى أنَّ الإنسانَ يَخلُقُ أفعالَه، فيُعرِبون الآيةَ على مَذهَبِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٢/ ١٨٩-١٩٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٥٤- ٢٥٧)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٧٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٣).

الَّتي ابتَدَعوها الرِّعايةَ الواجِبةَ، فآتَيْنا المؤمِنينَ مِنهم أجْرَهم، وكثيرٌ مِنهم خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾.

أي: لقد أرسَلْنا رُسُلَنا بالحُجَجِ والبَراهينِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على صِدْقِهم[1].

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾.

أي: وأنزَلْنا مع رُسُلِنا الكِتابَ بالحَقِّ، وأنزَلْنا معهم العَدْلَ[2]؛ لِيَتعامَلَ النَّاسُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

(٢) قال ابنُ عطيَّة: (﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾: العَدْلَ في تأويلِ أكثَرِ المُتأوِّلينَ. وقال ابنُ زَيدٍ وغَيرُه مِن المتأوِّلينَ: أراد الموازينَ المُصَرَّفةَ بيْنَ النَّاسِ. وهذا جزءٌ مِنَ القَولِ الأوَّلِ. وقَولُه: ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ يُقَوِّي القَولَ الأوَّلَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٩).

وقال ابنُ تيميَّة: (والميزانُ يُفَسِّرُه السَّلَفُ بالعَدلِ، ويُفَسِّرُه بَعضُهم بما يُوزَنُ به، وهما مُتلازِمانِ). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٣٧١).

وقال ابن كثير: (﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ وهو: العدلُ. قاله مُجاهِدٌ، وقَتادةُ، وغيرُهما. وهو الحقُّ الَّذي تَشهَدُ به العقولُ الصَّحيحةُ المُستقيمةُ، المُخالِفةُ للآراءِ السَّقيمةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧).

قيل: المعنَى: وأمَرْنا بالعَدْلِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٢).

وقال ابن كثير: (﴿... بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: بالحقِّ والعدلِ، وهو: اتِّباعُ الرُّسُلِ فيما أخبَروا به، وطاعتُهم فيما أمَروا به؛ فإنَّ الَّذي جاؤُوا به هو الحقُّ الَّذي ليس وراءَه حقٌّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧).

بَيْنَهم بالعَدلِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾ [الشورى: ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الإعراضُ بعدَ الإبلاغِ في الإيضاحِ مُوجِبًا للرَّدِّ على الفَسادِ بأنواعِ الجِهادِ؛ قال مُهَدِّدًا ومُمْتَنًّا، ترغيبًا وترهيبًا[٢]:

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾.

أي: وخَلَقْنا الحديدَ، فيه قُوَّةٌ وصَلابةٌ شَديدةٌ، ومنه تُصنَعُ آلاتُ الحربِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٤، ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦، ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٢).

قال السعدي: (الكِتابُ هو اسمُ جِنسٍ يَشملُ سائِرَ الكُتُبِ الَّتي أنزَلَها اللهُ لهدايةِ الخَلقِ، وإرشادِهم إلى ما يَنفَعُهم في دينِهم ودُنياهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

وقال الواحدي: (﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ لِيَتعامَلَ النَّاسُ بَيْنَهم بالعَدلِ). ((الوجيز)) (ص: ١٠٧١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤). =

﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾.

أي: وفي الحَديدِ مَنافِعُ كَثيرةٌ للنَّاسِ في مَعايِشِهم وحاجاتِهم المُتنوِّعةِ[١].

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾.

أي: ولِيَعلَمَ اللهُ -عِلمَ رُؤيةٍ وظُهورٍ للوُجودِ يَترَتَّبُ عليه الثَّوابُ والعِقابُ- مَن يَنصرُ دينَ الله، ويَنصرُ رُسُلَه، بالغَيبِ[٢].

---

= قال الشوكاني: (﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ أي: خلَقْناه، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الزمر: ٦] والمعنى: أنَّه خلَقَه مِن المعادِنِ، وعَلَّم النَّاسَ صَنْعَتَه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤).

قال الرَّسْعَني: (﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ في مَعايِشهم ومصالحِهم وصنائِعِهم. فقَلَّ أن تَرى صنعةً إلَّا والحديدُ قِوامُها، أو له فيها مَدخَلٌ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠١، ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤-٤٢٦).

قال البقاعي: (﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ﴾... عِلمَ شَهادةٍ؛ لأجْلِ إقامةِ الحُجَّةِ بما يَليقُ بعُقولِ الخَلقِ، فيكَونَ الجَزاءُ على العَمَلِ لا على العِلمِ). ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠١).

وقال ابن عثيمين: (المرادُ عِلْمُ الظُّهورِ الَّذي يترتَّبُ عليه الثَّوابُ أو العِقابُ...؛ لأنَّه سُبحانَه لم يَزَلْ ولا يَزالُ عالِمًا بكُلِّ شَيءٍ، ولكن لا يُشْكِلْ عليك الأمرُ، لا تَقُلْ: إنَّ اللهَ لا يَعلَمُ إلَّا بعدَ هذا! فالعِلمُ عِلْمانِ: عِلْمٌ بالشَّيءِ قبْلَ وُجودِه، وعِلْمٌ بالشَّيءِ بعدَ وُجودِه، والعِلمُ السَّابقُ لا يَترتَّبُ عليه ثَوابٌ ولا عِقابٌ حتَّى يُمتحَنَ النَّاسُ). ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤).

وقولُه ﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾: قيل: بالغَيبِ منه عنهم، أو غائبًا عنهم، أو غائبينَ عنه، أو وهم لم يَرَوُا اللهَ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والرازيُّ، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٢١٢)، ((تفسير الجلالين)) (١١/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان طَلَبُ النُّصْرةِ مَظِنَّةً لتَوَهُّمِ الضَّعفِ، نفى ذلك[1]، وذَكَر أنَّه غَنِيٌّ عن نُصرتِه بقُدرتِه وعِزَّتِه، وأنَّه إنَّما كَلَّفَهم الجِهادَ لِمَنفعةِ أنفُسِهم، وتحصيلِ ما يترَتَّبُ لهم مِن الثَّوابِ[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو القُوَّةِ البالغةِ فلا يُعجِزُه شَيءٌ، وذو العِزَّةِ التَّامَّةِ فيَمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ وسُوءٍ ونَقصٍ؛ فهو الغالِبُ القاهِرُ الَّذي لا يُغلَبُ ولا يُقهَرُ[3]!

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

---

= الحديد)) (ص: ٤٢٦).

وقيل: المرادُ: ولم يرَ الله ولا الآخرةَ. وممَّن اختاره: البغويُّ، وابن الجوزي، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥٢).

قال القرطبي: (﴿وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: يَنصُرونَهم لا يُكَذِّبونهم، ويؤمِنون بهم ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وهم لا يَرَوْنَهم). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦١).

وقيل: أي: بما سمِع مِن الأوصافِ الغائبةِ عنه، فآمَن بها؛ لقيامِ الأدِلَّةِ عليها. وممَّن اختاره: ابنُ عطية، وأبو حيَّان، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٥).

وقال البِقاعي: (كائنًا ذلك النَّصرُ بالغَيبِ مِن الوعدِ والوعيدِ، أي: بسببِ تصديقِ النَّاصِرِ لِما غاب عنه مِن ذلك. أو: غائبًا عن كلِّ ما أوجَب له النُّصرةَ). ((نظم الدرر)) (٧/ ٤٥٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر نبُوَّةَ الأنبياءِ عُمومًا؛ ذكَرَ مِن خَواصِّهم النَّبِيَّيْنِ الكريمَينِ نُوحًا وإبراهيمَ اللَّذَينِ جَعَل اللهُ النُّبُوَّةَ والكتابَ في ذُرِّيَّتِهما[١].

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ ﴾.

أي: ولقد أرسَلْنا نُوحًا وإبراهيمَ إلى قَومِهما[٢].

﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ﴾.

أي: وجعَلْنا في نَسْلِ نُوحٍ وإبراهيمَ جَميعَ الأنبياءِ والكُتُبِ الإلهيَّةِ مِن بَعْدِهما؛ كالتَّوراةِ، والزَّبُورِ، والإنجيلِ، والقُرآنِ[٣].

كما قال تعالى عن نُوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ [الصافات: ٧٧ - ٧٩].

وقال سُبحانَه عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وقال الله تبارك وتعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ﴿الْكِتَابَ ﴾: ما كان بيَدِ ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وذُرِّيَّةِ إبراهيمَ مِن الكُتُبِ الَّتي فيها أصولُ ديانتِهم مِن صُحُفِ إبراهيمَ، وما حَفِظوه مِن وَصاياه ووصايا إسماعيلَ وإسحاقَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٩).

[الصافات: ١١٢، ١١٣].

﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾.

أي: فمِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ وإبراهيمَ مَن هو مُهْتَدٍ إلى الحَقِّ(١).

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن ذُرِّيَّتِهما خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، ضالُّونَ عن طَريقِ الحَقِّ والهُدى(٢).

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾.

أي: ثمَّ أتْبَعْنا على آثارِهم رُسُلَنا إلى أقوامِهم، فأرسَلْناهم واحِدًا تِلْوَ آخَرَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يعودُ إلى الذُّرِّيَّةِ، أي: على آثارِ الذُّرِّيَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا: مكِّي، والقرطبي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢).

وقيل: على آثارِ نُوحٍ وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٢٩). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾ [المؤمنون: ٤٤].

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان عيسى عليه السَّلامُ أعظَمَ مَن جاء بعْدَ مُوسى عليه السَّلامُ مِن بني إسرائيلَ؛ وهو المُؤَيَّدُ به هذا النَّبيُّ الخاتَمُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في تجديدِ دِينِه، وتقريرِ شَريعتِه، وكان الزُّهْدُ والرَّأفةُ والرَّحمةُ في تابِعِيه في غايةِ الظُّهورِ، مع أنَّ ذلك لم يَمنَعْهم مِن القَسوةِ المُنَبِّهةِ سابِقًا على أنَّ المُوجِبَ لها طُولُ الأمَدِ، النَّاشِئِ عنها الإعراضُ عن الآياتِ الحاضِرةِ معه، والكِتابِ الباقي بَعْدَه- خَصَّه بالذِّكرِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾.

أي: وأرسَلْنا مِن بَعْدِهم عيسى ابنَ مَريَمَ، وآتَيْناه الكِتابَ المُسَمَّى بالإنجيلِ[2].

---

= وقيل: مِن بَعدِ نُوحٍ وإبراهيمَ وذُرِّيَّتِهما. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٨).
وقال النسفي: (﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: نوحٍ وإبراهيمَ ومَن مضى مِن الأنبياءِ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٤٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).
وقال البيضاوي: (أي: أرسَلْنا رَسولًا بعْدَ رَسولٍ، حتَّى انتهى إلى عيسى عليه السَّلامُ، والضَّميرُ لنُوحٍ وإبراهيمَ ومَن أُرسِلَا إليهم، أو مَن عاصَرَهما مِنَ الرُّسُلِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٠).
وقال البِقاعي: (﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ أي: الأبوَينِ المَذكورَينِ ومَن مضى قَبْلَهما مِنَ الرُّسُلِ، ولا يعودُ الضَّميرُ على الذُّرِّيَّةِ؛ لأنَّها باقيةٌ مع الرُّسُلِ وبَعْدَهم). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٠٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾.

أي: وجعَلْنا في قُلوبِ الَّذين اتَّبَعوا عِيسى على دِينِه رِقَّةً ولِينًا ورَحمةً[1].

كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ - ٨٤].

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾.

أي: ورَهبانيَّةً ابتَدَعوها مِن عِندِ أنفُسِهم، ولم نَفرِضْها عليهم؛ فاعتَزَلوا النَّاسَ، ورَفَضوا الزَّواجَ، وتَرَكوا الدُّنيا، وآثَروا العُكوفَ والتَّفَرُّغَ للعبادةِ في الصَّوامِعِ أو الجِبالِ أو غَيرِها[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٢٨).

والفرقُ بيْنَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ أنَّ الرَّأفةَ أبْلَغُ مِن الرَّحمةِ، فهي أشَدُّ الرَّحمةِ وأرَقُّها. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٥٩)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٩٦).

وقيل: الرَّأفةُ: الرَّحمةُ المُتعلِّقةُ بدَفْعِ الأذَى والضُّرِّ، والرَّحمةُ: العطْفُ والمُلايَنةُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ما ابتَدَعوها إلَّا طَلَبًا لِرِضا اللهِ تعالى[1].

---

= (١٧/ ٢٦٣)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٢/ ١٨٨، ١٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (للنَّاسِ في قَولِه: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً﴾ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّها مَنصوبةٌ -يعني: ابتَدَعوها- إمَّا بفِعلٍ مُضمَرٍ يُفَسِّرُه ما بَعْدَه، أو يُقالُ: هذا الفِعلُ عَمِلَ في المُضمَرِ والمُظهَرِ، كما هو قَولُ الكوفيِّينَ. حكاه عنهم ابنُ جَريرٍ، وثَعلَبٌ وغَيرُهما... وعلى هذا القَولِ فلا تكونُ الرَّهبانيَّةُ مَعطوفةً على الرَّأفةِ والرَّحمةِ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّها مَعطوفةٌ عليها، فيكونُ اللهُ قد جَعَل في قُلوبِهم الرَّأفةَ والرَّحمةَ والرَّهبانيَّةَ المُبتدَعةَ، ويكونُ هذا جعلًا خَلْقِيًّا كَونيًّا، والجَعْلُ الكَونيُّ يَتناوَلُ الخَيرَ والشَّرَّ، كقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، وعلى هذا القَولِ فلا مَدْحَ للرَّهبانيَّةِ بجَعْلِها في القُلوبِ، فثَبَت على التَّقديرَينِ أنَّه ليس في القُرآنِ مَدحٌ للرَّهبانيَّةِ). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) (٢/ ١٨٩-١٩١).

وقال البِقاعي: (ولَمَّا قَدَّم المعمولَ لِفعلٍ غَيرِ مَذكورٍ؛ لِيَدُلَّ عليه بما يُفَسِّرُه، لِيَكونَ مَذكورًا مرَّتينِ تأكيدًا له، وإفهامًا لذَمِّ نَفْسِ الابتِداعِ- أتْبَعَه المُفَسِّرَ لعامِلِه، فقال: ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾... وفي التَّقديمِ على العامِلِ سِرٌّ آخَرُ، وهو الصَّلاحيةُ للعَطفِ على ما قَبْلَها؛ لئَلَّا يُتوهَّمَ في لَفظِ الابتِداعِ أنْ لا صُنْعَ للهِ فيها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٢٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

قال القرطبي: (وقَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما أمَرْناهم إلَّا بما يُرضي اللهَ. قاله ابنُ مسلم. وقال الزَّجَّاجُ: ﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾ معناه: لم نَكتُبْ عليهم شيئًا البتَّةَ، ويكونُ ﴿ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ بدلًا مِنَ الهاءِ والألِفِ في ﴿كَتَبۡنَٰهَا﴾، والمعنى: ما كتَبْنا عليهم إلَّا ابتغاءَ رِضوانِ اللهِ. وقيل: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ﴾ الاستِثناءُ مُنقَطِعٌ، والتَّقديرُ: ما كتَبْناها عليهم لَكِنِ ابتَدَعوها ابتِغاءَ رِضوانِ اللهِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٣). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣٠).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّهم قصَدوا بذلك =

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾.

أي: فما رَعَوا تلك الرَّهبانيَّةَ الَّتي ابتَدَعوها الرِّعايةَ الواجِبةَ، وما قاموا بها حَقَّ القيامِ[1].

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾.

أي: فآتَيْنا المؤمِنينَ مِنهم ثوابَ إيمانِهم[2].

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت مُتابَعةُ الأهواءِ تَكسِبُ صِفاتٍ ذَميمةً تَصيرُ مَلَكاتٍ راسِخةً للأنفُسِ،

---

= رِضوانَ الله، قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ. والآخَرُ: ما كتَبْنا عليهم ذلك، إنَّما كتَبْنا عليهم ابتِغاءَ رِضوانِ الله). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

قال ابنُ جرير: (الَّذين لم يَرعَوها حَقَّ رِعايتِها مُمكِنٌ أن يكونَوا كانوا على عَهدِ الَّذين ابتَدَعوها، وممكِنٌ أن يكونوا كانوا بَعْدَهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٣).

وقال ابنُ كثير: (أي: فما قاموا بما التَزَموه حَقَّ القيامِ، وهذا ذمٌّ لهم مِن وَجهَينِ؛ أحَدُهما: في الابتِداعِ في دينِ اللهِ ما لم يأمُرْ به اللهُ. والثَّاني: في عدَمِ قيامِهم بما التَزَموه مِمَّا زَعَموا أنَّه قُربةٌ يُقَرِّبُهم إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٣/ ١٦٩).

وقال ابن عاشور: (ظاهِرُ الآيةِ أنَّ جَميعَهم قَصَّروا تقصيرًا مُتفاوِتًا، قَصَّروا في أداءِ حقِّها... والمعنى: ما حَفِظوا شؤونَ الرَّهبانيَّةِ حِفظًا كاملًا، فمَصَبُّ النَّفيِ هو القَيدُ بوَصفِ ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، وهذا الانتفاء لهُ مراتِبُ كثيرةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٥، ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

أشار إلى ذلك بالعُدولِ عن النَّهْجِ الأوَّلِ، فقال[١]:

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

أي: وكثيرٌ مِن أولئك خارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، ضالُّونَ عن طَريقِ الحَقِّ والهُدى[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ على اعتبارِ أنَّ المرادَ بالحَديدِ السِّلاحُ: حَضٌّ على القِتالِ، وتَرغيبٌ فيه[٣].

٢- اعلَمْ أنَّ الدَّعوةَ إلى الله تعالى بطَريقَينِ: طَريقِ لِينٍ، وطَريقِ قَسْوةٍ؛ أمَّا طَريقُ اللِّينِ: فهي الدَّعوةُ إلى اللهِ تعالى بالحِكمةِ والمَوعِظةِ الحَسَنةِ، وإيضاحِ الأدِلَّةِ في أحسَنِ أُسلوبٍ وألطَفِه، فإنْ نجَحَت هذه الطَّريقُ فبها ونِعْمَتْ، وهو المطلوبُ، وإنْ لم تَنجَحْ تَعَيَّنَت طَريقُ القَسوةِ بالسَّيفِ حتَّى يُعبَدَ اللهُ وَحْدَه، وتُقامَ حُدودُه، وتُمتَثَلَ أوامِرُه، وتُجتَنَبَ نَواهيه، وإلى هذه الإشارةُ بقَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٦، ٤٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾؛ ففيه الإشارةُ إلى إعمالِ السَّيفِ بَعْدَ إقامةِ الحُجَّةِ؛ فإنْ لم تَنفَعِ الكُتُبُ تعيَّنَت الكَتائِبُ، واللهُ تعالى قد يَزَعُ بالسُّلطانِ ما لا يَزَعُ بالقُرآنِ(١)!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ لَفتُ بَصائِرِ السَّامِعينَ إلى الاعتِبارِ بحِكمةِ اللهِ تعالى مِن خَلقِ الحَديدِ وإلهامِ صُنْعِه، والتَّنبيهِ على أنَّ ما فيه مِن نَفْعٍ وبأسٍ إنَّما أُريدَ به أن يُوضَعَ بأسُه حيثُ يَستَحِقُّ، ويُوضَعَ نَفْعُه حيثُ يَليقُ به، لا لِتُجعَلَ مَنافِعُه لِمَن لا يَستَحِقُّها، مِثلُ قُطَّاعِ الطَّريقِ، والثُّوَّارِ على أهلِ العَدْلِ؛ ولِتَجهيزِ الجُيوشِ لحِمايةِ الأوطانِ مِن أهلِ العُدوانِ، وللادِّخارِ في البُيوتِ لِدَفعِ الضَّارياتِ والعادياتِ على الحُرَمِ والأموالِ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أنَّه لَمَّا كانت النُّصْرةُ قد تكونُ ظاهِرةً، كما يقَعُ مِن مُنافِقٍ، أو ممَّن مُرادُه المنافِعُ في الدُّنيا؛ بَيَّنَ تعالى أنَّ الَّذي أراده: النُّصرةُ بالغَيبِ، ومعناه: أن تَقَعَ عن إخلاصٍ بالقَلبِ(٣)!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ يَدخُلُ في هذا النَّصرِ نَصرُ شَرائِعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعْدَه، ونَصرُ وُلاةِ أُمورِ المُسلِمينَ القائِمينَ بالحَقِّ(٤).

٦- ذُكِرَ عِندَ عبدِ الرَّحمنِ بنِ مَهْديٍّ قَومٌ مِن أهلِ البِدَعِ، واجتِهادُهم في العِبادةِ، فقال: (لا يَقبَلُ اللهُ إلَّا ما كان على الأمرِ والسُّنَّةِ، ثمَّ قرَأَ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٨).

عَلَيۡهِمۡ ﴾ [الحديد: ٢٧]، فلم يَقبَلْ ذلك منهم، ووبَّخَهم عليه. ثمَّ قال: الزَمِ الطَّريقَ والسُّنَّةَ)[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ تنفيرٌ عَظيمٌ عن البِدَعِ، وحَثٌّ شَديدٌ على لُزومِ ما سَنَّه اللهُ وشَرَع، وتحذيرٌ مِن التَّشديدِ؛ فإنَّه لن يُشادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غَلَبَه. وفيه أيضًا حَثٌّ عَظيمٌ على المُداوَمةِ على ما اعْتِيدَ مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ، خُصوصًا أنَّه ما عَمِلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَمَلًا إلَّا داوَمَ عليه، وكان يَنهى عن التَّعَمُّقِ في الدِّينِ، ويأمُرُ بالرِّفْقِ والقَصْدِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ هذه جملةٌ مؤكَّدةٌ بـ «اللَّامِ»، و«قد»، و«القَسَمِ المُقَدَّرِ»، والتَّقديرُ: واللهِ لقد أرسَلْنا رُسُلَنا بالبيِّناتِ، ولعَلَّ قائلًا يقولُ: كيف يُقْسِمُ اللهُ؟ وكيف يُؤَكِّدُ اللهُ خَبَرَه بالقَسَمِ، وهو الصَّادِقُ بدونِ ذلك؟!

**الجوابُ**: أنَّ القرآنَ الكريمَ نَزَلَ بلِسانٍ عَرَبيٍّ مُبينٍ، واللِّسانُ العَربيُّ المُبينُ يُؤَكِّدُ الأشياءَ الهامَّةَ، أو الأشياءَ المُنْكَرةَ بأنواعِ المؤكِّداتِ حتَّى يَطْمَئِنَّ المُخاطَبُ، ولا يَرتابَ المُرتابُ، وهذا يُذكَرُ في القُرآنِ كثيرًا[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أنَّ الكتابَ أعَمُّ مِن القُرآنِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٦٥).

كلَّ رسولٍ معه كتابٌ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إذا كان هذا الميزانُ مِمَّا يُعرَفُ بالعَقلِ فكيف جَعَلَه اللهُ تعالى مما أُرسِلَتْ به الرُّسُلُ؟

**الجَوابُ**: أنَّ الرُّسُلَ ضَرَبَتْ للنَّاسِ الأمثالَ العَقليَّةَ الَّتي يَعرِفونَ بها التَّماثُلَ والاختِلافَ؛ فإنَّ الرُّسُلَ دَلَّتِ النَّاسَ وأرشَدَتْهم إلى ما به يَعرِفونَ العَدْلَ، ويَعرِفونَ الأقيِسةَ العَقليَّةَ الصَّحيحةَ الَّتي يُستَدَلُّ بها على المطالِبِ الدِّينيَّةِ؛ فليستِ العُلومُ النَّبَويَّةُ مَقصورةً على مجرَّدِ الخبَرِ -كما يَظُنُّ ذلك مَن يَظُنُّه مِن أهلِ الكلامِ، ويَجعلون ما يُعْلَمُ بالعَقلِ قَسيمًا للعُلومِ النَّبَويَّةِ-، بلِ الرُّسُلُ صلواتُ اللهِ عليهم بَيَّنَتِ العُلومَ العَقليَّةَ الَّتي بها يَتِمُّ دينُ النَّاسِ عِلمًا وعَمَلًا، وضربتِ الأمثالَ، فَكَمَلَت الفِطرةُ بما نَبَّهَتْها عليه وأرشَدَتْها؛ مِمَّا كانتِ الفِطرةُ مُعرِضةً عنه، أو كانتِ الفِطرةُ قد فَسَدَتْ بما حَصَلَ لها مِنَ الآراءِ والأهواءِ الفاسِدةِ، فأزالتْ ذلك الفَسادَ، وبَيَّنَتْ ما كانتِ الفِطرةُ مُعرِضةً عنه، حتَّى صار عندَ الفِطرةِ مَعرِفةُ الموازينِ الَّتي أَنزَلها اللهُ وبَيَّنَتْها رُسُلُه، والقُرآنُ والحديثُ مملوءٌ مِن هذا؛ يُبَيِّنُ اللهُ الحقائقَ بالمقاييسِ العَقليَّةِ والأمثالِ المضروبةِ، ويُبَيِّنُ طُرُقَ التَّسويةِ بيْنَ المُتماثِلَينِ، والفَرْقَ بيْن المُختَلِفَينِ، ويُنكِرُ على مَن يَخرُجُ عن ذلك؛ كقَولِه تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقَولِه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، أي: هذا حُكْمٌ جائِرٌ لا عادِلٌ؛ فإنَّ فيه تَسويةً بيْن المختلفَينِ، وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٨).

[ص: ٢٨]، ومِن التَّسويةِ بيْن المتماثلَينِ قَولُه تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣]. فجِنْسُ الميزانِ العَقليِّ حقٌّ كما ذَكَرَ اللهُ في كتابِه، وليس هو مُختَصًّا بمَنطِقِ اليونانِ -وإنْ كان فيه قِسْطٌ منها-، بل هي الأقيسةُ الصَّحيحةُ المتضمِّنةُ التَّسويةَ بيْن المتماثلَينِ، والفَرْقَ بيْن المختلفَينِ، سواءٌ صِيغَ ذلك بصيغةِ قياسِ الشُّمولِ[1]، أو بصيغةِ قياسِ التَّمثيلِ[2]. وصِيَغُ التَّمثيلِ هي الأصلُ، وهي أكمَلُ، والميزانُ هو القَدْرُ المُشترَكُ، وهو الجامِعُ، وهو الحدُّ الأوسَطُ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ أنَّ الأصلَ في العُقودِ كلِّها إنَّما هو العَدْلُ الَّذي بُعِثَتْ به الرُّسُلُ، وأُنزِلَتْ به الكُتُبُ[4].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ

---

(١) قياس الشُّمولِ: هو انتِقالُ الذِّهنِ مِن المُعَيَّنِ إلى المعنى العامِّ المُشترَكِ الكُلِّيِّ المُتناوِلِ له ولغيرِه، والحُكمُ عليه بما يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، بأن ينتقلَ مِن ذلك الكُلِّيِّ اللَّازِمِ إلى الملزومِ الأوَّلِ وهو المُعَيَّنُ، فهو انتِقالٌ مِن خاصٍّ إلى عامٍّ، ثمَّ انتِقالٌ مِن ذلك العامِّ إلى الخاصِّ؛ مِن جُزئيٍّ إلى كُلِّيٍّ، ثمَّ مِن ذلك الكُلِّيِّ إلى الجُزئيِّ الأوَّلِ، فيُحكَمُ عليه بذلك الكُلِّيِّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١١٩).

(٢) قياس التَّمثيلِ: هو حمْلُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ، أو إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما، مثل: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ هو القياسُ الأُصوليُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (ص: ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٣٨٢).
والحدُّ الأوسطُ: هو ما يكونُ مكرَّرًا بيْن القضيَّتَينِ الصُّغرى والكبرى. يُنظر: ((معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم)) للسيوطي (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٩٢).

لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أنَّ الشَّريعةَ مَبْناها على العَدْلِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أنَّ المقصودَ مِن إرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ أنْ يقومَ النَّاسُ بالقِسْطِ في حُقوقِ اللهِ وحُقوقِ خَلْقِه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أَخْبَرَ الله سُبحانَه وتعالى أنَّه أَرْسَلَ رُسُلَه وأَنْزَلَ كُتُبَه؛ لِيَقومَ النَّاسُ بالقِسطِ، وهو العَدلُ، ومِن أعظَمِ القِسطِ التَّوحيدُ، وهو رأسُ العَدلِ وقِوامُه، وإنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عظيمٌ؛ فالشِّرْكُ أظلَمُ الظُّلْمِ، والتَّوحيدُ أعدَلُ العَدلِ، فما كان أشَدَّ مُنافاةً لهذا المقصودِ فهو أكبَرُ الكبائرِ، وتفاوتُها في دَرَجاتِها بحَسَبِ مُنافاتِها له، وما كان أشدَّ مُوافَقةً لهذا المقصودِ فهو أوجَبُ الواجِباتِ، وأفرَضُ الطَّاعاتِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أنَّ الدِّينَ لن يقومَ إلَّا بالكِتابِ، والميزانِ، والحَديدِ؛ كِتابٌ يَهدي به، وحَديدٌ يَنْصُرُه، فالكِتابُ به يقومُ العِلمُ والدِّينُ، والميزانُ به تقومُ الحُقوقُ في العقودِ الماليةِ والقُبوضِ، والحَديدُ به تقومُ الحدودُ على الكافِرينَ والمنافِقينَ، ولهذا كان في الأزمانِ المتأخِّرةِ الكتابُ للعُلَماءِ والعُبَّادِ، والميزانُ للوزراءِ والكُتَّابِ وأهلِ الدِّيوانِ، والحديدُ للأمراءِ والأَجْنَادِ، والكِتابُ له الصَّلاةُ، والحديدُ له الجِهادُ؛ ولهذا كان أكثرُ الآياتِ والأحاديثِ النَّبويَّةِ في الصَّلاةِ والجِهادِ، ولهذا جَمَعَ الله تعالى

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٢٨).

بيْنَهما في مَواضِعَ مِن القُرآنِ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ دَليلٌ على أنَّ الميزانَ هو مِمَّا جاءتْ به الرُّسُلُ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ دَلالةٌ واضِحةٌ على أنَّ القياسَ الصَّحيحَ هو مِمَّا بُعِثَ به الرُّسُلُ؛ لأنَّ القياسَ تَسويةُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكْمٍ لِعِلَّةٍ جامِعةٍ، وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي: العَدْلَ والمُقايَسةَ بيْنَ الأُمورِ؛ ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: لِيَقُومَ النَّاسُ في الدِّينِ والدُّنيا بالقِسْطِ؛ بالعَدْلِ في حَقِّ اللهِ، وفي حَقِّ العِبادِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ دَليلٌ على أنَّ الرُّسُلَ مُتَّفِقونَ في قاعِدةِ الشَّرعِ، وهي القيامُ بالقِسْطِ، وإن اختَلَفت أنواعُ العَدلِ بحَسَبِ الأزمِنةِ والأحوالِ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ اللَّامُ في قَولِه ﴿لِيَقُومَ﴾ للتَّعليلِ، يعني: أَرْسَلْنا الرُّسُلَ وأنزَلْنا معهم الكتابَ، وأنزَلْنا معهم الميزانَ لهذه الحكمةِ؛ لِيَقُومَ النَّاسُ بالقِسطِ، ولهذا لا تَجِدُ أَعْدَلَ مِن دِينِ اللهِ عزَّ وجلَّ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وكلُّ ما خالَفَ دِينَ اللهِ عزَّ وجلَّ فهو جَوْرٌ وظُلْمٌ[٥].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٣).

وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ سؤالٌ: هل كلُّ مُنَزَّلٍ غيرُ مخلوقٍ؟

**الجوابُ**: لا، لكنْ كلُّ مُنَزَّلٍ يكونُ وَصفًا مُضافًا إلى اللهِ، فهو غيرُ مخلوقٍ -كالكلام-، وإلَّا فإنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِن السَّماءِ ماءً، وهو مخلوقٌ، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ ﴾ وهو مَخلوقٌ، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ﴾ [الزمر: ٦] والأنعامُ مَخلوقةٌ، فإذا كان المُنَزَّلُ مِن عندِ اللهِ صفةً لا تقومُ بذاتِها وإنَّما تقومُ بغَيرِها، لَزِمَ أنْ يكونَ غيرَ مخلوقٍ؛ لأنَّه مِن صِفاتِ اللهِ تعالى[١].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ أصلٌ في جميعِ ما يُتَّخَذُ مِنه؛ مِن سِلاحٍ وغَيرِه[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ وقَبْلَها: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ أنَّ قُوَّةَ الحَديدِ لحِفظِ الكِتابِ والمِيزانِ، وحَملِ النَّاسِ عليهما[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ نَصْرُ الرُّسُلِ؛ فإذا كان الرَّسولُ حيًّا فالمرادُ: يَنْصُرُ الرَّسولَ نَفْسَه وشَريعتَه، وبَعْدَ مَوتِه يَنصُرُ شَريعتَه، وفي هذا دليلٌ على أنَّ نَصْرَ الشَّريعةِ نَصْرٌ لِمَن جاء بها، فلا يُشْكِلُ على هذا أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد يُمِيتُ الرَّسولَ قبْلَ أنْ يرى النَّصرَ الواسِعَ له؛ لأنَّنا نقولُ: نَصْرُ شَريعتِه نَصْرٌ له[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٠/ ٦١٨). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٦/ ٥ - ١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١١٧، ١١٨)، ((مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية)) (٣/ ٨٩)، ((شرح الطحاوية)) (١/ ١٩٦، ١٩٧) و(٢/ ٥٦٣، ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٥).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ دَليلٌ على أنَّ آدَمَ ليس برَسولٍ، وأنَّ إدريسَ ليس قَبْلَ نُوحٍ -كما ذَكَرَه بعضُ المؤرِّخينَ-، وهو خَطَأٌ مُخالِفٌ للقُرآنِ الكريمِ، فليس قَبْلَ نُوحٍ رَسولٌ، وآدمُ نبيٌّ مُكَلَّمٌ كَلَّمَه اللهُ عزَّ وجلَّ بما شاء مِن وَحْيِه، ثمَّ سار على نَهْجِه بَنُوه مِن بَعْدِه، فلمَّا انتشرَ النَّاسُ وكَثُروا صار بيْنَهم اختِلافٌ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾[1] [البقرة: ٢١٣].

١٩- قال الله تعالى في سُورةِ (العنكبوتِ): ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] وفيه دَلالةٌ على أنَّ النُّبوَّةَ والكتابَ في خُصوصِ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وذكر هنا في سُورةِ (الحديد) ما يدُلُّ على اشتِراكِ نوحٍ عليه السَّلامُ معه في ذلك في قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ وَجْهَ الاقتِصارِ على إبراهيمَ في سُورةِ (العنكبوتِ) أنَّ جَميعَ الرُّسلِ بعْدَه مِن ذُرِّيَّتِه، وذُكِرَ نوحٌ معه لأمْرينِ:

**أحدُهما**: أنَّ كلَّ مَن كان مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ فهو مِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ.

**الثَّاني**: أنَّ بعضَ الأنبياءِ مِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ، ولم يكُنْ مِن ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ؛ كهودٍ، وصالحٍ، ولوطٍ، ويُونسَ -على خِلافٍ فيه-، ولا يُنافي ذلك الاقتِصارَ على إبراهيمَ؛ لأنَّ المرادَ مَن كان بعْدَ إبراهيمَ لا مَن كان قبْلَه أو في عصْرِه، كلُوطٍ عليهما وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ[2].

٢٠- قَولُه تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ هذا هو الواقعُ؛ أنَّ بني آدمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ١٧٩).

أكثَرُهم ضالٌّ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1] [الأنعام: ١١٦].

٢١- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيۡنَا بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ﴾ نُصَّ على عيسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّه ليس بَيْنَه وبيْنَ مُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِهِ وسلَّمَ رَسولٌ، بل ولا نبيٌّ أيضًا، ليس بَيْنَهما رَسولٌ ولا نَبيٌّ، وما يُقالُ: إنَّ خالِدَ بنَ سنانٍ وغَيرَه له نُبُوَّةٌ، فكلُّه كَذِبٌ[2].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ قيل: هذا إشارةٌ إلى أنَّهم أُمِروا في الإنجيلِ بالصَّفحِ، وتَرْكِ إيذاءِ النَّاسِ، وألانَ اللهُ قُلوبَهم لذلك، بخِلافِ اليَهودِ الَّذين قَسَت قُلوبُهم، وحَرَّفوا الكَلِمَ عن مَواضِعِه[3].

٢٣- قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأۡفَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾ الرَّأفةُ والرَّحمةُ مِن أفعالِهم، واللهُ جاعِلُهما، فهو الجاعلُ لِلذَّواتِ وصِفاتِها وأفعالِها وإراداتِها واعتِقاداتِها، فذلك كلُّه مَجعولٌ مخلوقٌ له، وإن كان العبدُ فاعلًا له باختيارِه وإرادتِه[4].

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةًا۟بۡتَدَعُوهَا﴾ الآيَةَ: ذمٌّ لهم؛ لابتِداعِ ما لم يأمُرْ به اللهُ في الدِّينِ، ولعَدَمِ القيامِ بما التَزَموه على أنَّه قُرْبةٌ، فيُستَدَلُّ به على كراهةِ النَّذرِ، مع وُجوبِ الوَفاءِ به، وعلى أنَّ أحَبَّ الأعمالِ إلى اللهِ أدْوَمُها، وأنَّ مَن اعتاد تطَوُّعًا كُرِهَ له تَرْكُه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٢٧، ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٠٣).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٥٦).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٥).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ إشعارٌ بأنَّ ما يَكتُبُه اللهُ على العِبادِ مِنَ التَّكاليفِ لا يَشُقُّ على النَّاسِ العَمَلُ به[١].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى ذَمَّ مَن لم يَرْعَ قُرْبةً ابتَدَعَها للهِ تعالى حَقَّ رعايتِها، فكيف بمَن لم يَرْعَ قُرْبةً شَرَعَها اللهُ لعبادِه، وأَذِنَ بها، وحَثَّ عليها[٢]؟!

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ ثَناءٌ على المُؤمِنينَ الصَّادِقينَ مِمَّن مَضَوا مِنَ النَّصارى قبْلَ البَعثةِ المُحَمَّديَّةِ، وبُلوغِ دَعوتِها إلى النَّصارى[٣].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ رَدٌّ على المُعتَزِلةِ -فيما يَجعلون الفِسْقَ دَرَجةً بيْنَ دَرَجتَينِ مِن الإيمانِ والكُفرِ-؛ إذِ الفِسْقُ في جميعِ هذه الأمكِنةِ كُفْرٌ لا شَكَّ فيه؛ لِمَا دلَّ عليه سِياقُ الكَلامِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ ناشئٌ عمَّا تقدَّمَ مِن التَّحريضِ على الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ، وعن ذِكرِ الفتْحِ، وعن تَذييلِ ذلك بقولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤]، وهو إعذارٌ للمُتولِّينَ مِن المنافِقين؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٣٩).

ليَتدارَكوا صَلاحَهم باتِّباعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والتَّدبُّرِ في هدْيِ القرآنِ، وإنذارٌ لهم أنْ يَرْعَوُوا ويَنْصاعوا إلى الحُجَّةِ السَّاطعةِ بأنَّه يكونُ تَقويمُ عِوَجِهم بالسُّيوفِ القاطعةِ، وهو ما صرَّحَ لهم به في قولِه في سُورةِ (الأحزابِ) [٦٠، ٦١]: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾، وقولِه في سُورةِ (التَّحريمِ) [٩]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾؛ لئلَّا يَحسَبوا أنَّ قولَه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤] مُجرَّدُ مُتارَكةٍ، فيَطمَئِنُّوا لذلك[١].

- قولُه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ فيه تأْكيدُ الخبَرِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ (قد)، وهو راجِعٌ إلى ما تَضمَّنَه الخبرُ مِن ذِكرِ ما في إرسالِ رُسلِ اللهِ وكُتبِه مِن إقامةِ القسْطِ للنَّاسِ، ومِن التَّعريضِ بحمْلِ المُعرِضينَ على السَّيفِ إنِ استَمرُّوا على غُلَوائِهم[٢].

- وجمْعُ (الرُّسلِ) هنا لإفادةِ أنَّ ما جاء به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ليس بِدْعًا مِن الرُّسلِ، وأنَّ مُكابَرةَ المنافِقينَ عَمايةٌ عن سُنَّةِ اللهِ في خلْقِه، فتأْكيدُ ذلك مَبنيٌّ على تَنزيلِ السَّامعينَ مَنزلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ أرسَلَ رسُلًا قبْلَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لأنَّ حالَهم في التَّعجُّبِ مِن دَعواهُ الرِّسالةَ كحالِ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ أرسَلَ رُسلًا مِن قبْلُ[٣].

- والمِيزانُ: مُعبَّرٌ به عن العدْلِ بيْنَ الناسِ في إعطاءِ حُقوقِهم -على قولٍ-؛ لأنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ممَّا يَقتضيهِ الميزانُ وُجودَ طرَفَينِ يُرادُ مُعرفةُ تَكافئِهما؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، وهذا الميزانُ تُبيِّنُه كُتبُ الرُّسلِ، فذِكرُه بخُصوصِه للاهتمامِ بأمْرِه؛ لأنَّه وَسيلةُ انتِظامِ أُمورِ البشَرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وليس المرادُ أنَّ اللهَ أَلْهَمَهم وضْعَ آلاتِ الوزْنِ؛ لأنَّ هذا ليس مِن المُهِمِّ، وهو ممَّا يَشملُه معْنى العدْلِ؛ فلا حاجةَ إلى التَّنبيهِ عليه بخُصوصِه[1].

- قَولُه: ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ جَمَعَ المنافِعَ؛ لأنَّها لا تُحصى أجناسُها، فَضْلًا عن أنواعِها وأفرادِها، فمَن يُحصي المنافِعَ الَّتي تَحصُلُ بالحَديدِ؟ ولهذا جاءتْ بالجَمعِ المعروفِ بـ «صيغةِ مُنتهى الجُموعِ»[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إلى آخِرِها، أي: لأنَّ اللهَ قويٌّ عزيزٌ في شُؤونِه القُدسيَّةِ، فكذلك يجِبُ أنْ تكونَ رُسلُه أقوياءَ أعِزَّةً، وأنْ تكونَ كُتبُه مُعظَّمةً مُوقَّرةً، وإنَّما يَحصُلُ ذلك في هذا العالَمِ المَنوطةِ أحداثُه بالأسبابِ المَجعولةِ بأنْ يَنصُرَه الرُّسلُ وأقوامٌ مُخلِصون للهِ، ويُعِينوا على نشْرِ دِينِه وشَرائعِه[3].

- وأيضًا قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ؛ جِيءَ به تَحقيقًا للحقِّ، وتَنبيهًا على أنَّ تَكليفَهم الجهادَ وتَعريضَهم للقِتالِ ليس لحاجتِه في إعلاءِ كَلمتِه وإظهارِ دِينِه إلى نُصرتِهم، بلْ إنَّما هُو ليَنتَفِعوا بهِ، ويَصِلُوا بامتثالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٨).

الأمْرِ فيه إلى الثَّوابِ؛ وإلَّا فهُو غَنِيٌّ بقُدرتِه وعِزَّتِه عنهم في كلِّ ما يُريدُه[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥] عطْفَ الخاصِّ على العامِّ؛ لمَّا أُرِيدَ تَفصيلٌ لإجْمالِه تَفصيلًا يُسجَّلُ به انحرافُ المُشرِكين مِن العرَبِ والضَّالِّين مِن اليهودِ عن مَناهجِ أبوَيْهما: نوحٍ، وإبراهيمَ[٢].

- ولَمَّا ذكَرَ تعالى إرسالَ الرُّسلِ جُملةً؛ أفرَدَ منهم في هذه الآيةِ نُوحًا وإبراهيمَ عليهما السَّلامُ؛ تَشريفًا لهما بالذِّكرِ؛ أمَّا نوحٌ فلأنَّه أوَّلُ الرُّسلِ إلى مَن في الأرضِ، وأمَّا إبراهيمُ فلأنَّه انتسَبَ إليه أكثرُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، وهو مُعظَّمٌ في كلِّ الشَّرائعِ، ثمَّ ذكَرَ أشرَفَ ما حصَلَ لذُرِّيَّتِهما، وذلك النُّبوَّةُ -وهي الَّتي بها هَدْيُ النَّاسِ مِن الضَّلالِ- والكتابُ، كالتَّوراةِ، والزَّبورِ، والإنجيلِ، والقرآنِ، وهي جَميعُها في ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وإبراهيمُ مِن ذُرِّيَّةِ نُوحٍ؛ فصدَقَ أنَّها في ذُرِّيَّتِهما[٣].

- وتَكريرُ القَسَمِ في قولِه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾؛ لإظهارِ مَزيدِ الاعتناءِ بالأمْرِ، أيْ: وباللهِ لَقدْ أرسَلْناهُما[٤].

- والعُدولُ عن سَنَنِ المُقابَلةِ في قولِه: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١١٤، ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٣).

للمُبالَغةِ في الذَّمِّ، والإيذانِ بغَلَبةِ الضُّلَّالِ وكَثرتِهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾، (ثمَّ) للتَّراخِي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ بَعثةَ رُسلِ الله الَّذين جاؤوا بعْدَ نوحٍ وإبراهيمَ، ومَن سبَقَ مِن ذُرِّيَّتِهما، أعظَمُ ممَّا كان لدى ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ قبْلَ إرسالِ الرُّسلِ الَّذين قفَّى اللهُ بهم؛ إذ أُرسِلوا إلى أُمَمٍ كَثيرةٍ، مِثْلِ عادٍ وثَمودَ، وبني إسرائيلَ، وفيهم شَريعةٌ عظيمةٌ، وهي شَريعةُ التَّوراةِ[٢].

- قولُه: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ هذا تَعريفٌ للأمَّةِ بأنَّ اللهَ أرسَلَ رُسلًا كثيرينَ على وجْهِ الإجمالِ، وهو تَمهيدٌ للمقصودِ مِن ذِكرِ الرَّسولِ الأخيرِ الَّذي جاء قبْلَ الإسلامِ، وهو عِيسى عليه السَّلامُ[٣].

- وفي إعادةِ فعلِ ﴿قَفَّيْنَا﴾ وعدَمِ إعادةِ ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ قيل: إنَّ ذلك إشارةٌ إلى بُعدِ المدَّةِ بيْنَ آخرِ رُسلِ إسرائيلَ وبيْنَ عيسَى عليه السَّلامُ[٤].

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ عطْفُ الرَّحمةِ على الرَّأفةِ مِن عطْفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لاستِيعابِ أنواعِه بعْدَ أنْ اهتُمَّ ببَعضِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢٠، ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢١).

- والإتيانُ بالموصولِ وصِلتِه في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ إشعارٌ بأنَّ جعْلَ الرَّأفةِ والرَّحمةِ في قُلوبِهم مُتسبَّبٌ عن اتِّباعِهم سِيرتَه، وانقطاعِهم إليه[١].

- وجُملةُ ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، وقولُه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ احتِراسٌ[٢]، ومَجموعُ الجُمَلِ الثَّلاثِ استِطرادٌ واعتِراضٌ[٣].

- والاستِثناءُ بقولِه: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ وجُملةِ ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾، وهو استِثناءٌ مُنقطِعٌ؛ فالاستِثناءُ يَقْتضي أنْ يكونَ قولُه: ﴿ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ مَعمولًا في المعْنى لفِعلِ ﴿كَتَبْنَٰهَا﴾؛ فالمعْنى: لكنْ كتَبْنا عليهم ابتِغاءَ رِضوانِ اللهِ -وذلك على قولٍ- أي: أنْ يَبتَغوا رِضوانَ اللهِ بكلِّ عمَلٍ، لا خُصوصَ الرَّهبانيَّةِ الَّتي ابتَدَعوها، أي: إنَّ اللهَ لم يُكلِّفْهم بها بعَينِها[٤].

- وقد فُرِّع على قولِه: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ وما بَعْدَه، قولُه: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، أي: فَترتَّبَ على الْتِزامِهم الرَّهبانيَّةَ أنَّهم -أي: المُلتزِمين للرَّهبانيةِ- ما رَعَوها حقَّ رِعايتِها[٥].

- والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ اللَّومِ على تَقصيرِهم فيما الْتَزَموه أو نَذَرُوه، وذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٣).

(٢) الاحتراس: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدْفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم: التَّكميلَ. يُنظر: ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٣، ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢٥).

تَقهقُرٌ عن مَراتبِ الكمالِ، وإنَّما يَنْبغي للمُتَّقي أنْ يَكونَ مُزدادًا مِن الكَمالِ[١].

- وقولُه: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ إلى آخِرِه، وما بيْنَهما استِطرادٌ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيتان (٢٨-٢٩)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ كِفۡلَيۡنِ ﴾: أي: ضِعْفَينِ ونَصيبَينِ وحَظَّينِ، ويُستَعمَلُ الكِفلُ في النَّصيبِ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ، وأصلُ (كفل): يدُلُّ على تضَمُّنِ شَيءٍ لِشَيءٍ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقُوا اللهَ وآمِنوا برَسولِه مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، يُؤتِكم اللهُ نَصيبَينِ عَظيمَينِ مِن رَحمتِه، ويَجْعَلْ لكم نُورًا تَهتَدونَ به في الحياةِ الدُّنيا، ويَغفِرْ لكم، واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ.

يُؤتِكم اللهُ تعالى هذا الثَّوابَ؛ لِكَي يَعلَمَ اليَهودُ والنَّصارى أنَّهم لا يَقدِرونَ على شَيءٍ مِن فَضلِ اللهِ الَّذي يُريدُه لكم -أيها المُسلِمونَ-، ولِكَي يَعلَمُوا أنَّ الفَضلَ بيَدِ اللهِ يُعطيه مَن يَشاءُ، واللهُ ذو الفَضلِ العَظيمِ.

### تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٨ ﴾.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٢/ ٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٦).

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اتَّقُوا اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، وحَقِّقوا الإيمانَ برَسولِه مُحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، واثبُتوا عليه(١).

---

(١) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٢٩).

قيل: الخِطابُ هنا لليَهودِ والنَّصارى، وأنَّ المعنى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا بموسى وعيسى، اتَّقوا اللهَ وآمَنوا برَسولِه مُحمَّدٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير، والماوَرْديُّ، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والنسفي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٤)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٤٨).

ونقَلَ ابنُ الجوزيِّ هذا القولَ عن عامَّةِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والضَّحَّاكُ، وعُتْبةُ بنُ أبي حَكِيمٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢).

قال ابن جُزَي: (يؤيِّدُ هذا [أي أنَّ الخِطابَ لأهلِ الكتابِ] قولُه: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ أي: نَصيبَينِ، وقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم: «ثلاثةٌ يُؤْتَوْنَ أجرَهم مرَّتَينِ: رجُلٌ مِن أهلِ الكتابِ آمَنَ بنَبيِّه وآمَنَ بي...»). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٤٩).

قال الرَّسْعَني: (المعنى: يؤتِكم كِفْلَينِ بسببِ إيمانِكم الأوَّلِ والثَّاني. ومنه الحديثُ الصَّحيحُ: «أيُّما رجُلٍ مِن أهلِ الكتابِ آمَنَ بنَبيِّه وآمَنَ بمحمَّدٍ فله أجْرانِ». أخرجه مسلمٌ مِن حديثِ أبي موسى الأشعريِّ عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٦٥٨).

وضعَّف هذا القَولَ ابنُ تيميَّةَ، والشنقيطيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٨٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات- الحديد)) (ص: ٤٢٩).

وذلك لأنَّه لا يُمكِنُ أن يُناديَ اللهُ عزَّ وجلَّ أهلَ الكتابِ وهم كَفَرةٌ بوصفِ الإيمانِ أبدًا؛ فإنَّ اللهَ لم يقُلْ قَطُّ للكفَّارِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فسياقُ الآيةِ في المؤمنينَ مِن هذه الأمَّةِ، وهو ظاهرُ القرآنِ المُتبادرُ الَّذي لم يَصرِفْ عنه صارِفٌ. يُنظر المصادر السَّابقة. ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٦٣). =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ ...﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾.

أي: يُؤتِكم اللهُ نَصيبَينِ كَبيرَينِ مِن رحمتِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۞ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [القصص: ٥٢ - ٥٤].

وعن أبي موسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثَلاثةٌ يُؤتَونَ أجْرَهم مَرَّتَينِ: رجُلٌ مِن أهلِ الكِتابِ آمَنَ بنَبيِّه، وأدرَكَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فآمَنَ به واتَّبَعَه وصَدَّقَه؛ فله أجْرانِ ...))[2].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((مَثَلُ المُسلِمينَ واليَهودِ والنَّصارى كَمَثَلِ رَجُلٍ استأجَرَ قَومًا يَعمَلونَ له

---

= وذكر السعديُّ أنَّ الظَّاهرَ أنَّ الأمرَ عامٌّ، يَدخُلُ فيه أهلُ الكتابِ وغيرُهم، وأنَّ اللهَ أمَرَهم بالإيمانِ والتَّقْوى الَّذي يَدخُلُ فيه جميعُ الدِّينِ، ظاهرِه وباطنِه، أُصولِه وفُروعِه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

وقال ابنُ عاشور: (الأظهَرُ أنَّ هَذينِ الاحتِمالَينِ مَقصودانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣٠).

قال ابن الجوزي: (وفي المرادِ بالكِفْلَينِ هاهنا قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ أحَدَهما لإيمانِهم بمَن تقدَّم مِن الأنبياءِ، والآخَرَ لإيمانِهم بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قاله ابنُ عبَّاسٍ [وهذا على أنَّ الخِطابَ لأهلِ الكِتابِ]. والثَّاني: أنَّ أحدَهما أجرُ الدُّنيا، والثَّاني أجرُ الآخرةِ. قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٣٩).

(٢) رواه البخاري (٩٧)، ومسلم (١٥٤) واللَّفظُ له.

عَمَلًا يومًا إلى اللَّيلِ، على أجرٍ مَعلومٍ، فعَمِلوا له إلى نِصفِ النَّهارِ، فقالوا: لا حاجةَ لنا إلى أجْرِكَ الَّذي شرَطْتَ لنا، وما عَمِلْنا باطِلٌ! فقال لهم: لا تَفعَلوا، أكمِلوا بَقيَّةَ عَمَلِكم، وخُذوا أجْرَكم كامِلًا، فأَبَوا، وتَرَكوا! واستأجَرَ أجيرَينِ بَعْدَهم، فقال لهما: أكمِلا بَقيَّةَ يَومِكما هذا، ولَكما الَّذي شرَطْتُ لهم مِنَ الأجرِ، فعَمِلوا حتَّى إذا كان حينُ صَلاةِ العَصرِ، قالا: لك ما عَمِلْنا باطِلٌ! ولك الأجرُ الَّذي جعَلْتَ لنا فيه، فقال لهما: أكمِلا بَقيَّةَ عَمَلِكما، ما بَقِيَ مِنَ النَّهارِ شَيءٌ يَسيرٌ، فأبَيَا! واستأجَرَ قَومًا أن يَعمَلوا له بَقيَّةَ يَومِهم، فعَمِلوا بَقيَّةَ يَومِهم حتَّى غابت الشَّمسُ، واستَكمَلوا أجرَ الفَريقَينِ كِلَيهما! فذلك مَثَلُهم ومَثَلُ ما قَبِلوا مِن هذا النُّورِ!))[1].

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾.

أي: ويَجْعَلِ اللهُ لكم نُورًا بالقُرآنِ واتِّباعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، تَهتَدونَ به في الحياةِ الدُّنيا[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

قال الواحدي: (﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يعني: الصِّراطَ، كما قال: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، فهذا علامةُ المُؤمِنينَ في القيامةِ، وهذا قَولُ ابنِ عَبَّاسٍ ومُقاتِلٍ. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: ويجعَلْ لكم سَبيلًا واضِحًا في الدِّينِ تَهتَدونَ به، وهذا معنى قَولِ مجاهِدٍ، يعني: الهُدى والبَيانَ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٥٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧١).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٨٠).

والمعنى الثَّاني: هو في الجُملةِ ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، وذهب إليه القرطبيُّ، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن =

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الإنسانُ لا يخلو مِن نُقصانٍ، فلا يَبلُغُ جَميعَ ما يَحِقُّ للرَّحمنِ؛ قال[1]:

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

أي: ويَستُرِ اللهُ لكم ذُنوبَكم، ويَتجاوَزْ عن مُؤاخَذتِكم[2].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ هو البالِغُ المَغفِرةِ والرَّحمةِ لعِبادِه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦].

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: يُؤتِكم اللهُ تعالى هذا الثَّوابَ إنِ اتَّقَيتُموه وآمَنتُم برَسولِه؛ لِكَي يَعلَمَ اليَهودُ والنَّصارى أنَّهم لا يَقدِرونَ على شَيءٍ مِن فَضلِ اللهِ الَّذي يُريدُه للمُسلِمينَ؛ مِن

---

= عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣٠، ٤٣١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ إيتاؤُهم نُورًا مَعنويًّا في الدُّنيا، وحَقيقيًّا في الآخِرةِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣١).

تَضعيفِ الأجْرِ، والنُّورِ، والمَغفِرةِ، فلا يَملِكونَ مَنْعَه أو إعطاءَه[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣١).

قال ابنُ جرير: (قِيلَ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ إنَّما هو: لِيَعلَمَ، وذُكِرَ أنَّ ذلك في قراءةِ عبدِ اللهِ: «لِكَيْ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ»؛ لأنَّ العَرَب تَجعَلُ «لا» صِلةً في كُلِّ كَلامٍ دخَلَ في أوَّلِه أو آخِرِه جَحدٌ غَيرُ مُصرَّحٍ، كقَولِه في الجَحدِ السَّابِقِ الَّذي لم يُصَرَّحْ به: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقَولِه: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقَولِه: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ﴾ [الأنبياء: ٩٥] الآيةَ، ومعنى ذلك: أهلَكْناها أنَّهم يرجِعون). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٤).

وقال البِقاعي: (﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ أي: لِيَعلَمَ عِلمًا عَظيمًا يَثبُتُ مَضمونُ خَبَرِه ويَنتَفي ضِدُّه، بما أفاده زيادةُ النَّافي). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٢٦).

وقال ابنُ عاشور: (أرى أنَّ دعوى زيادةِ «لا» لا داعيَ إليها، وأنَّ بقاءَها على أصلِ معناها -وهو النَّفيُ- مُتعَيِّنٌ، وتُجعَلُ اللَّامُ للعاقبةِ، أي: أعطَيْناكم هذا الفَضلَ وحُرِمَ منه أهلُ الكتابِ، فبَقِيَ أهلُ الكتابِ في جَهْلِهم وغُرورِهم بأنَّ لهم الفَضلَ المستمِرَّ، ولا يحصُلُ لهم عِلمٌ بانتِفاءِ أن يكونوا يَملِكونَ فَضْلَ اللهِ، ولا أنَّ اللهَ قد أعطى الفضلَ قَومًا آخَرينَ وحَرَمَهم إيَّاه، فيَنسَونَ أنَّ الفَضلَ بيَدِ اللهِ، وليس أحدٌ يَستَحِقُّه بالذَّاتِ. وبهذا الغرورِ استمَرُّوا على التَّمَسُّكِ بدينِهم القديمِ... والمعنى: لا تَكتَرِثوا بعَدَمِ عِلمِ أهلِ الكتابِ بأنَّهم لا يَقدِرونَ على شَيءٍ مِن فَضلِ اللهِ، وبأنَّ الفَضلَ بيَدِ اللهِ يؤتيه مَن يشاءُ، أي: لا تَكتَرِثوا بجَهْلِهم المركَّبِ في استِمرارِهم على الاغترارِ بأنَّ لهم مَنزِلةً عندَ اللهِ تعالى؛ فإنَّ اللهَ عالمٌ بذلك، وهو خلَقَهم، فهم لا يُقلِعونَ عنه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣٢).

وقيل -بناءً على أنَّ (لا) غيرُ مزيدةٍ-: الضَّمِيرُ فِي قولِه: ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ﴾ عائدٌ إلى الرَّسولِ وأصحابِه، والتَّقديرُ: لِئلَّا يَعْلَمَ أهلُ الكتابِ أنَّ النَّبيَّ والمؤمِنينَ لا يَقْدِرونَ على شيءٍ مِن فضلِ اللَّه، وأنَّهم إذا لم يَعْلَموا أنَّهم لا يَقْدِرونَ عليه فقد عَلِموا أنَّهم يَقْدِرونَ عليه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٦).

وقال السمين الحلبي: (وفي «لا» هذه وجهانِ؛ أحدهما: وهو المشهورُ عندَ النُّحاةِ والمفسِّرينَ والمُعْرِبين: أنَّها مَزيدةٌ... والتَّقديرُ: أَعْلَمَكم اللهُ بذا؛ لِيَعلمَ أهلُ الكتابِ عدمَ قُدرتِهم على شيءٍ مِنْ فضلِ اللهِ، وثبوتَ أنَّ الفَضْل بيدِ اللهِ. وهذا واضِحٌ بَيِّنٌ... =

﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ولِكَي يَعلَمَ أهلُ الكِتابِ أنَّ كُلَّ الفَضلِ بيَدِ اللهِ وَحْدَه، فيُعطي فَضلَه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه وَفْقَ حِكمتِه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّه سَمِع رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّما بقاؤُكم فيما سَلَف قَبْلَكم مِن الأُمَمِ كما بيْنَ صَلاةِ العَصرِ إلى غُروبِ الشَّمسِ، أُوتيَ أهلُ التَّوراةِ التَّوراةَ، فعَمِلوا حتَّى إذا انتَصَف النَّهارُ عَجَزوا، فأُعطُوا قِيراطًا قِيراطًا[2]، ثمَّ أُوتيَ أهلُ الإنجيلِ الإنجيلَ، فعَمِلوا إلى صَلاةِ العَصرِ، ثمَّ عَجَزوا، فأُعطُوا قِيراطًا قِيراطًا، ثمَّ أُوتِينا القُرآنَ، فعَمِلْنا إلى غُروبِ الشَّمسِ، فأُعطِينا قِيراطَينِ قِيراطَينِ، فقال أهلُ الكِتابَينِ: أيْ رَبَّنا أعطَيتَ هؤلاءِ قيراطَينِ قيراطَينِ، وأَعطَيتَنا قيراطًا قيراطًا، ونحنُ كُنَّا أكثَرَ عَمَلًا! قال: قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: هل ظَلَمْتُكم مِن أَجرِكم مِن شَيءٍ؟ قالوا: لا، قال: فهو فَضْلي أُوتِيه مَن أشاءُ!))[3].

---

= والثَّاني: أنَّها غيرُ مَزيدةٍ. والمعنى: لئلَّا يَعلَمَ أهلُ الكتابِ عَجْزَ المؤمنينَ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٢٥٨).

وقال الرازي: (أكثر المفسِّرينَ على أنَّ «لا» هاهنا صِلةٌ زائدةٌ، والتَّقديرُ: لِيَعلَمَ أهلُ الكتابِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٤، ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

(٢) القيراط: المرادُ به النَّصيبُ، وهو في الأصل نِصفُ دانقٍ، والدَّانِقُ سدسُ درهمٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٤٤٦)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١/ ٤٩٨).

(٣) رواه البخاري (٥٥٧).

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّه لا يَخُصُّ بالفضلِ إلَّا لأنَّه لا يَسَعُ جَميعَ النَّاسِ، دَفَع ذلك بقَولِه تعالى[1]:

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

أي: واللهُ صاحِبُ الفَضلِ العَظيمِ، فيَتفَضَّلُ على مَن يَشاءُ بما يَشاءُ مِن نِعَمِه الكثيرةِ العَظيمةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۞ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [آل عمران: ٧٣، ٧٤].

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ التَّقْوى هي مِن أسبابِ حُصولِ العِلمِ، وما أكثَرَ الَّذين يَنْشُدُون العِلمَ، ويَنْشُدُون الحِفظَ، ويَطلُبونَ الفَهمَ، فنقولُ: إنَّ تحصيلَه يَسيرٌ، وذلك بتقوى اللهِ عزَّ وجلَّ، وتحقيقِ الإيمانِ -الَّذي هو مُوجَبُ العِلمِ-؛ فاعمَلْ بما عَلِمتَ يَحصُلْ لك عِلْمُ ما لم تَعلَمْ، فتَقْوى اللهِ عزَّ وجلَّ مِن أسبابِ زيادةِ العِلمِ ولا شَكَّ؛ ولهذا قال: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أي: تَسيرونَ بسَبَبِه سَيرًا صَحيحًا يُوصِلُكم إلى اللهِ عزَّ وجلَّ[3]، فمَن عَمِلَ بما عَلِمَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤٣٠).

أورَثَه اللهُ عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ[١]، فهذه التَّقوَى الَّتي يُعلِّمُ الله صاحبَها بسببِها ما لم يكُنْ يَعلَمُ: هي عمَلُه بما عَلِم مِن أمرِ الله، لا تَزيدُ على ذلك[٢].

٢- النُّورُ هو مادَّةُ كلِّ خَيرٍ، وصلاحِ كلِّ شيءٍ، وهو يَنشأُ عن امتثالِ أمرِ الله واجتِنابِ نَهْيِه، وعن الصَّبرِ على ذلك؛ فإنَّه ضياءٌ، فإنَّ حِفْظَ الحُدودِ بتَقوى اللهِ يَجعَلُ اللهُ به لصاحِبِه نورًا، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ أنَّ العَمَلَ بالعِلْمِ هو مِن أعظمِ أسبابِ حِفْظِه وثباتِه، وتَرْكَ العَمَلِ به إضاعةٌ له، فما استُدِرَّ العِلْمُ ولا استُجْلِبَ بمِثْلِ العَمَلِ[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّ المُؤمِنينَ مُؤمِنونَ برَسولِه؟!

**الجوابُ**: أنَّ المُرادَ طَلَبُ الدَّوامِ على الإيمانِ. أو معناه: يا أيُّها الَّذين آمَنوا يومَ الميثاقِ، آمِنوا باللهِ ورَسولِه اليَومَ. أو: يا أيُّها الَّذين آمَنوا في العَلانِيَةِ باللِّسانِ، اتَّقُوا اللهَ وآمِنوا برَسولِه في السِّرِّ بتَصديقِ القَلبِ[٥]. وقيل: معناه: يا أيُّها الَّذين آمَنوا بموسى وعيسى، آمِنوا بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَكونُ خِطابًا لأهلِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٣).

الكِتابِ خاصَّةً[١].

٢- لَفْظُ «الإيمانِ» أكثرُ ما يُذكَرُ في القُرآنِ مُقيَّدًا؛ فلا يكونُ ذلك اللَّفظُ مُتناوِلًا لجَميعِ ما أمَرَ اللهُ به، بل يُجعَلُ مُوجِبًا لِلَوازِمِه وتَمامِ ما أُمِرَ به، وحينَئذٍ يَتناوَلُه الاسمُ المطلَقُ؛ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ ﴾[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قد كَفَلَ لِمَنْ آمَنَ به أنْ يَجعَلَ له نُورًا يَمشي به[٣].

٤- مَنْ آمَنَ برَبِّه وأطاعه زاده رَبُّه هُدًى؛ لأنَّ الطَّاعةَ سَبَبٌ للمَزيدِ مِنَ الهُدى والإيمانِ كما بيَّن الله تعالى ذلك في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾، وفيه أنَّ الإيمانَ يَزيدُ، ومَفهومٌ مِنها أنَّه يَنقُصُ أيضًا[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ أنَّ الحَسَنةَ الثَّانيةَ قد تكونُ مِن ثَوابِ الأُولى، وكذلك السَّيِّئةُ الثَّانيةُ قد تكونُ مِن عُقوبةِ الأُولى[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ أنَّ مَن قام بما جاء به الكِتابُ والسُّنَّةُ أشْرَفَ على عِلْمِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ، وأغناه اللهُ بالنُّورِ الَّذي بَعَثَ به محمَّدًا -صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢١٣، ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٤٠).

عليه وسلَّم- عمَّا سِواه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ ضَمِنَ لهم سُبحانَه بالتَّقْوى ثلاثةَ أُمورٍ:

**أحدُها**: أعطاهم نَصيبَينِ مِن رَحمتِه؛ نصيبًا في الدُّنيا، ونَصيبًا في الآخِرةِ، وقد يُضاعَفُ لهم نَصيبُ الآخِرةِ فيَصيرُ نَصيبَينِ.

**الثَّاني**: أعطاهم نورًا يَمشُونَ به في الظُّلُماتِ.

**الثَّالِثُ**: مَغفِرةُ ذُنوبِهم، وهذا غايةُ التَّيسيرِ؛ فقد جَعَلَ سُبحانَه التَّقوى سَبَبًا لكُلِّ يُسْرٍ، وتَرْكَ التَّقوى سَبَبًا لكلِّ عُسْرٍ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أنَّ اللهَ تعالى ضاعَفَ لهذه الأُمَّةِ -لِكَونِها خَيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للنَّاسِ- أَجْرَها مرَّتَينِ[٣]، ومِن ذلك كَونُ صَومِ يومِ عَرَفةَ بسَنَتَينِ؛ فإنَّها قد وُعِدَتْ في العَمَلِ بأجْرَينِ، وأمَّا عاشوراءُ فقد كانتِ الأُمَمُ قبْلَ هذه الأُمَّةِ تَصومُه، ففُضِّلَ ما خُصَّتْ به هذه الأُمَّةُ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ أنَّ ما وَعَد اللهُ به المؤمِنينَ مِن هذه الأُمَّةِ أعظَمُ مِمَّا وَعَدَ به مُؤمِني أهلِ الكِتابِ، وإيتاؤُهم أجرَهم مرَّتَينِ هو كما قال تعالى فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ * وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ﴾ [القصص: ٥٢-٥٤]، وكَونُ ما وَعَدَ به المؤمِنينَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ١٦٣).

(٤) الفائدةُ لابنِ هُبَيرةَ في كتابِه ((الإفصاح))، نقَلها عنه ابنُ رجب. يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) (٢/ ١٦٤).

مِن هذه الأُمَّةِ أعظَمَ: أنَّ إيتاءَ أهلِ الكِتابِ أجْرَهم مَرَّتَينِ، أعطى المؤمِنينَ مِن هذه الأُمَّةِ مِثْلَه، كما بَيَّنَه بقَولِه تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾، وزادهم بقَولِه: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ نُكتةٌ بَديعةٌ: وهي: أنَّهم يَمشُونَ على الصِّراطِ بأنوارِهم كما يَمشُونَ بها بيْنَ النَّاسِ في الدُّنيا، ومَن لا نورَ له فإنَّه لا يَستطيعُ أنْ يَنقُلَ قَدَمًا عن قَدَمٍ على الصِّراطِ، فلا يَستطيعُ المشيَ أحْوَجَ ما يكونُ إليه[2]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أنَّه سُبحانَه حَكيمٌ؛ لا يَفعَلُ شَيئًا عَبَثًا ولا لغَيرِ مَعنًى ومَصلَحةٍ[3]!

١٢- لَمَّا نهى اللهُ عن التَّشَبُّهِ بهؤلاء الَّذين قَسَت قلوبُهم، ذكَرَ أيضًا في آخِرِ السُّورةِ حالَ الَّذين ابتَدَعوا الرَّهبانيَّةَ، فما رعَوْها حَقَّ رعايتِها، فعَقَّبَها بقَولِه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٨، ٢٩]؛ فإنَّ الإيمانَ بالرَّسولِ: تصديقُه وطاعتُه، واتِّباعُ شريعتِه، وفي ذلك مُخالَفةٌ للرَّهبانيَّةِ؛ لأنَّه لم يُبعَثْ بها، بل نهَى عنها، وأخبَرَ أنَّ مَنِ اتَّبَعه كان له أجْرانِ، وبذلك جاءت الأحاديثُ الصَّحيحةُ[4].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الغالبُ في القُرآنِ

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٤٤).

(٣) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٢٩٥).

العَظيمِ أنَّ الَّذين آمَنوا لقَبٌ للمُؤمنينَ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولكنْ لَمَّا وقَعَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ هنا عقِبَ قولِه: ﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡ﴾ [الحديد: ٢٧] -أي: مِنَ الَّذين اتَّبعوا عِيسى عليه السَّلامُ- احتمَلَ قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ أنْ يكونَ مُستعمَلًا استِعمالَه اللَّقَبِيَّ -أي: كونَه كالعَلَمِ- بالغَلَبةِ على مُؤمِني مِلَّةِ الإسلامِ. واحتمَلَ أنْ يكونَ قد استُعمِلَ استِعمالَه اللُّغويَّ الأعمَّ، أي: مَن حصَلَ منه إيمانٌ، وهو هنا مَن آمَنَ بعِيسى. أو يكونَ هذانِ الاحتِمالانِ مَقصودينِ؛ ليأخُذَ خُلَّصُ النَّصارَى مِن هذا الكلامِ حَظَّهم، وهو دَعوتُهم إلى الإيمانِ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ليَستَكمِلوا ما سبَقَ مِن اتِّباعِهم عِيسى؛ فيكون الخِطابُ مُوجَّهًا إلى الموجودينَ ممَّن آمَنوا بعِيسى، أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إيمانًا خالِصًا بشَريعةِ عِيسى، اتَّقوا اللهَ، واخْشَوا عِقابَه، واتْرُكوا العَصبيَّةَ والحَسَدَ وسُوءَ النَّظرِ، وآمِنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وأمَّا احتمالُ أنْ يُرادَ بالَّذين آمَنوا الإطلاقُ اللَّقَبيُّ، فيَأخُذَ منه المؤمِنونَ مِن أهلِ المِلَّةِ الإسلاميَّةِ بِشارةً بأنَّهم لا يَقِلُّ أجْرُهم عن أجْرِ مُؤْمِني أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم لَمَّا آمَنوا بالرُّسلِ السَّابقينَ أعْطاهم اللهُ أجْرَ مُؤْمِني أهلِ مِلَلِهم، ويكون قولُه: ﴿وَءَامِنُواْ﴾ مُستعمَلًا في الدَّوامِ على الإيمانِ؛ كقولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ في سُورةِ (النِّساءِ) [١٣٦]، ويكون إقحامُ الأمْرِ بالتَّقوى في هذا الاحتمالِ قصْدًا لأنْ يَحصُلَ في الكلامِ أمْرٌ بشَيءٍ يَتجدَّدُ ثمَّ يُردَفَ عليه أمْرٌ يُفهَمُ منه أنَّ المرادَ به طلَبُ الدَّوامِ، وهذا مِن بَديعِ نظْمِ القرآنِ(١).

- قولُه: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي: بمحمَّدٍ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي إطلاقِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٧).

لَفظِ ﴿بِرَسُولِهِۦ﴾ إيذانٌ بأنَّه عَلَمٌ فَردٌ في الرِّسالةِ، لا يَذهَبُ الوهمُ إلى غَيرِه[١].

- وقولُه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أمْرٌ لهم بما هو وَسيلةٌ ومُقدِّمةٌ للمَقصودِ، وهو الأمْرُ بقولِه: ﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾، ورُتِّبَ على هذا الأمرِ ما هو جَوابُ شَرْطٍ مَحذوفٍ، وهو جُملةُ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ ...﴾ إلخ، المجزومُ في جَوابِ الأمرِ، أي: يُؤتِكُم جَزاءً في الآخِرةِ، وجَزاءً في الدُّنيا[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ويَتعلَّقُ ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ بـ﴿يُؤْتِكُمْ﴾، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، أي: ذلك مِن رَحمةِ اللهِ بكم. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ صِفةً لـ﴿كِفْلَيْنِ﴾، وتكونَ (مِن) بَيانيَّةً[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

- قولُه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تَحتمِلُ أنْ تكونَ تعليليَّةً، فيَكونَ ما بعْدَها مَعلولًا بما قبْلَها، وحرْفُ (لا) يكون زائدًا للتَّأكيدِ والتَّقويةِ، والمُعلَّلُ هو ما يَرجِعُ إلى فضْلِ اللهِ لا مَحالةَ. وقيل: تَحتمِلُ أنْ تكونَ (لا) نافيةً، وضَميرُ ﴿يَقْدِرُونَ﴾ عائدًا إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والَّذين آمَنوا به -على قولٍ في التفسيرِ- على طريقِ الالْتفاتِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وأصْلُه: ألَّا تَقدِروا، وإذا انتَفَى عِلمُ أهلِ الكتابِ بأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلمينَ لا يَقدِرون على شَيءٍ مِن فضْلِ اللهِ، ثبَتَ ضِدُّ ذلك في عِلْمِهم، أي: كيف أنَّ الرسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ٤٢٨، ٤٢٩).

والمسلمينَ يَقدِرون على فضْلِ اللهِ، ويكون ﴿يَقۡدِرُونَ﴾ مُعبَّرًا به عن معْنى: يَنالُون، وأنَّ الفضلَ بيَدِ اللهِ، فهو الَّذي فضَّلَهم، ويكون ذلك كِنايةً عن انتفاءِ الفضلِ عن أهلِ الكتابِ الَّذين لم يُؤمِنوا بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وتَحتمِلُ أنْ تكونَ (لا) نافيةً، وليستْ زائدةً، واللَّامُ للعاقِبةِ[1].

- قوله: ﴿يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ لعلَّ التَّعبيرَ بالمضارعِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذا خاصٌّ بهذه الأمَّةِ الَّتي هي أقَلُّ عمَلًا وأكثرُ أجرًا[2].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ تَذييلٌ، يَعُمُّ الفَضلَ الَّذي آتاهُ اللهُ أهْلَ الكِتابِ المُؤمنينَ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وغيرَه مِن الفضْلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣٠ - ٤٣٢). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٤٣٣).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ المُجادلةِ

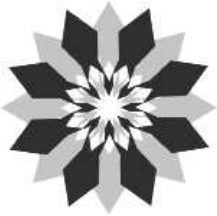

# سورةُ المُجادلةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المجادلةِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ المجادلةِ مَدَنيَّةٌ[٢]، وحكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

١- بيانُ حُكمِ الظِّهارِ، وإبْطالُ ما كان في الجاهِلِيَّةِ[٤].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ المجادلةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾، وقد افتُتِحَت بقَضيَّةِ مجادَلةِ امرأةِ أَوسِ بنِ الصَّامِتِ لدى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في شأنِ مُظاهَرةِ زَوجِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥).

قال الشهاب الخفاجي: (المجادلة: بفَتحِ الدَّالِ وكَسْرِها، والثَّاني هو المعروفُ... وتُسمَّى سورةَ ﴿قَدۡ سَمِعَ﴾). ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٦٤).

واختار ابن عاشور أنَّ كَسرَ الدَّالِ أظهَرُ، قال: (لأنَّ السُّورةَ افتُتِحت بذِكرِ الَّتي تجادِلُ في زوجِها، فحقيقةٌ أن تُضافَ إلى صاحبةِ الجدالِ، وهي الَّتي ذكرها اللهُ بقَولِه: ﴿ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا﴾ [المجادلة: ١]... وأمَّا فَتحُ الدَّالِ فهو مصدَرٌ مأخوذٌ مِن فِعلِ ﴿تُجَٰدِلُكَ﴾ كما عَبَّرَ عنها بالتَّحاوُرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥).

(٢) وقيل: قَولُه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ﴾ نزل بمكَّةَ، وقيل: العَشرُ الأُوَلُ منها مدنيَّةٌ، والباقي مكِّيٌّ. ولا دليلَ على ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٨٧)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٢١).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، والقرطبيُّ، والفيروزابادي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٦٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٤٢).

٢- فَضحُ المنافِقينَ، وبَيانُ ضَلالاتِهم، وأقوالِهم الباطِلةِ، وأفعالِهم الذَّميمةِ[١].

٣- ذِكرُ بَعضِ الآدابِ الَّتي يجِبُ على المؤمِنينَ أن يَتحَلَّوا بها[٢].

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- الحديثُ عن المرأةِ الَّتي جادَلَت النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في شأنِ زَوْجِها، وبيانُ حُكمِ الظِّهارِ وكَفَّارتِه.

٢- ذِكرُ الَّذين يُحادُّونَ اللهَ ورَسولَه، وبيانُ سُوءِ عاقبتِهم.

٣- تقريرُ سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى، وأنَّه لا يخفَى عليه شَيءٌ.

٤- الكلامُ عن التَّناجي وما كان يَتناجى به أعداءُ الإسلامِ ويُحَيُّونَ به الرَّسولَ، وما يَنبغي أن يكونَ عليه تناجي المؤمِنينَ، وذِكرُ ما كان اللهُ تعالى شَرَعه للمؤمِنينَ قبْلَ مناجاتِهم للرَّسولِ.

٥- بيانُ بَعضِ آدابِ المجالِسِ.

٦- ذِكرُ بَعضِ صِفاتِ المنافِقينَ، ومُوالاتِهم لليَهودِ، وحَلِفِهم على الكَذِبِ، ونِسْيانِهم ذِكرَ اللهِ، وبيانُ سُوءِ عاقبتِهم.

٧- خُتِمَت السُّورةُ بالثَّناءِ على المؤمِنينَ، وبيانِ صِفاتِهم الكريمةِ، وحُسْنِ عاقبتِهم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٤٢).

## الآيات (١-٤)

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُجَٰدِلُكَ﴾: أي: تُحاجِجُك وتُراجِعُك، والجِدالُ: المُفاوَضةُ على سَبيلِ المُنازَعةِ والمُغالَبةِ، وهو مِن بابِ استِحكامِ الشَّيءِ في استِرسالٍ يكونُ فيه، وامتِدادِ الخصومةِ، ومراجعةِ الكلامِ، وأصلُه مِن: جَدَلْتُ الحَبْلَ، أي: أحكَمْتُ فَتْلَه[1].

﴿تَحَاوُرَكُمَآ﴾: أي: مُحاوَرتَكما ومُراجَعتَكما القَولَ، وأصلُ (حور) هنا: يدُلُّ على رُجوعٍ[2].

﴿وَزُورًا﴾: أي: كَذِبًا ومَيلًا عن طريقِ الحَقِّ، وأصلُ (زور): يدُلُّ على المَيلِ والعُدولِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٣٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦)، ((المفردات)) =

﴿يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾: الظِّهارُ: قَولُ الرَّجُلِ لامرأتِه: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي، وهي كَلِمةٌ كانوا يقولونَها يُريدونَ بها الفِراقَ، يُقالُ: ظاهَر الرَّجُلُ مِن امرأتِه ظِهارًا، وتَظَهَّر، وتَظاهَر، إذا قال لها ذلك. وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قوَّةٍ وبُروزٍ[1].

﴿يَتَمَآسَّا﴾: كنايةٌ عن الجِماعِ، وأصلُ (مسس): يدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: قد سَمِعَ اللهُ قَولَ المرأةِ الَّتي تُحاوِرُك وتُراجِعُك -يا محمَّدُ- في شأنِ زَوجِها الَّذي ظاهَرَ منها قائِلًا لها: أنتِ عَلَيَّ كظَهرِ أُمِّي، وتَشتَكي إلى اللهِ تعالى مِمَّا لَحِقَ بها بظِهارِ زَوجِها منها، واللهُ يَسمَعُ تَخاطُبَكما، إنَّ اللهَ سميعٌ بصيرٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُبيِّنًا حقيقةَ الظِّهارِ: الَّذين يُحرِّمونَ منكم زَوجاتِهم تحريمَ اللهِ

---

= للراغب (ص: ٣٨٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٠).

قيل: الظِّهارُ مُشتَقٌّ مِن الظَّهرِ، ويُنظر في سببِ اختِصاصِ الظَّهرِ بذلك: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ١٦٥)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٣٨٨).

وقيل: ليس مأخوذًا مِن الظَّهرِ الَّذي هو عُضوٌ مِن الجسدِ؛ لأنَّه ليس الظَّهرُ أولى بالذِّكرِ في هذا الموضعِ مِن سائرِ الأعضاءِ الَّتي هي مَواضِعُ المُباضَعةِ والتَّلذُّذِ، بل الظَّهرُ هاهنا مأخوذٌ مِن العُلوِّ، وكلُّ مَن علا شيئًا فقد ظهَره، ومنه سُمِّيَ المركوبُ ظَهرًا؛ لأنَّ راكبَه يعلوه، وكذلك امرأةُ الرَّجُلِ ظَهْرُه؛ لأنَّه يعلوها بمِلكِ البُضْعِ، وإن لم يكُنْ مِن ناحيةِ الظَّهرِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٠).

عليهم ظُهورَ أمَّهاتِهم، لا يَصِرْنَ زوجاتُهم أمَّهاتٍ لهم في الحقيقةِ بهذا الظِّهارِ، ما أُمَّهاتُهم في الحقيقةِ إلَّا اللَّاتي ولَدْنَهم، وإنَّ أولئك المُظاهِرينَ لَيَقولونَ قولًا شَنيعًا، وكَذِبًا لا حقيقةَ له، وإنَّ اللهَ لعَفُوٌّ غَفورٌ.

ويُبيِّنُ الله تعالى تفصيلَ الأحكامِ المترتِّبةِ على الظِّهارِ شرعًا، فيقولُ: والَّذين يُحرِّمونَ نِساءَهم على أنفُسِهم بالظِّهارِ، ثمَّ يَعزِمونَ على جِماعِهنَّ ثانيةً؛ فعلى الرَّجُلِ عِتقُ رَقبةٍ مِن قَبلِ أن يَقَع بيْنَهما جِماعٌ، وذلكم مَوعِظةٌ مِن ربِّكم، واللهُ خبيرٌ بجَميعِ ما تَعمَلونَه. فمَن لم يجِدْ رَقَبةً يُحَرِّرُها وَجَبَ عليه صيامُ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ مِن قَبلِ أن يَقَعَ بيْنَ الزَّوجينِ جِماعٌ، فمَن لم يَستَطِعْ صِيامَ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ وَجَبَ عليه إطعامُ سِتِّينَ مِسكِينًا. فُرِضَ هذا عليكم؛ لِتُؤمِنوا باللهِ وبرَسولِه مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتلك حدودُ الله حدَّها لكم. وللكافِرينَ باللهِ وبرَسولِه عذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾.

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((الحَمدُ لله الَّذي وَسِعَ سَمعُه الأصواتَ، لقد جاءت خَوْلةُ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَشكو زَوجَها، فكان يَخفَى علَيَّ كلامُها، فأنزَل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ الآية))[1].

---

(١) أخرجه البخاريُّ مُعَلَّقًا بصيغةِ الجزمِ مختصَرًا قبل حديث (٧٣٨٦)، وأخرجه موصولًا =

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾.

أي: قد سَمِعَ اللهُ قَولَ المرأةِ[١] الَّتي تُحاوِرُك وتُراجِعُك -يا محمَّدُ- في شأنِ[٢] زَوجِها الَّذي ظاهَرَ منها قائِلًا لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي[٣]، فتُجادِلُك خَوفًا مِن وُقوعِ الطَّلاقِ عليها، وخَشيةً مِن فِراقِ زَوجِها بذلك الظِّهارِ[٤].

---

= النسائيُّ (٣٤٦٠) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (١٨٨)، وأحمدُ (٢٤١٩٥).

صحَّحه ابنُ عساكر في ((معجم الشيوخ)) (١/ ١٦٣)، وابنُ حجر في ((تغليق التعليق)) (٥/ ٣٣٩)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٤٦٠)، وقال ابنُ تيميَّةَ في ((تلبيس الجهمية)) (١/ ٢٨٠): (إسناده ثابتٌ). وصحَّح إسنادَه على شرطِ مسلمٍ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٠/ ٢٢٨).

(١) قال ابنُ كثير: (خَولةُ بِنتُ ثَعْلبةَ، ويُقالُ فيها: خَولةُ بنتُ مالكِ بنِ ثَعلبةَ، وقد تُصَغَّرُ فيُقالُ: خُوَيلةُ، ولا مُنافاةَ بيْنَ هذه الأقوالِ، فالأمرُ فيها قريبٌ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦). وقيل في اسمِها غيرُ ذلك، يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ١٩٨).

(٢) قال ابنُ عاشور: (وتعَلُّقُ فِعلِ التَّجادُلِ بالكَونِ في زَوجِها على نيَّةِ مُضافٍ معلومٍ مِن المقامِ في مِثلِ هذا، أي: في شأنِ زَوجِها وقَضيَّتِه، كقَولِه تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، وقَولِه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وهو مِن المسألةِ الملَقَّبةِ في أصولِ الفِقهِ بإضافةِ التَّحليلِ والتَّحريمِ إلى الأعيانِ [وهي دلالةُ الاقتِضاءِ]، في نحوِ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة:٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: تُجادِلُك في شأنِ زَوْجِها: الرازيُّ، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٧).

وقال الواحدي: (تُجادِلُك في قَولِ زَوجِها وكَلامِه). ((البسيط)) (٢١/ ٣٢٦).

(٣) قال الزَّجَّاجُ: (كانت هذه الكَلِمةُ مِمَّا يُطَلِّقُ بها أهلُ الجاهِليَّةِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٧).

قال ابنُ جرير: (كانت مُجادَلتُها رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في زَوجِها -وزوجُها أوسُ بنُ الصَّامِتِ- مُراجَعَتَها إيَّاه في أمرِه، وما كان مِن قَولِه لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي، ومُحاوَرَتَها إيَّاه في ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٤٦).

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: وتَشتَكي تلك المُجادِلةُ إلى اللهِ تعالى ما لَدَيها مِنَ الهَمِّ والضُّرِّ بظِهارِ زَوجِها منها، وتَسألُه الفَرَجَ[١].

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾.

أي: واللهُ يَسمَعُ تَخاطُبَكما ومُراجَعتَكما الكلامَ فيما بَيْنَكما[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ له كَمالُ السَّمعِ والبَصَرِ، فأحاط سَمْعُه وبَصَرُه بكُلِّ شَيءٍ، فلا تخفَى عليه خافيةٌ[٣].

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أتَمَّ اللهُ تعالى الخبَرَ عن إحاطةِ العِلمِ؛ استأنَفَ الإخبارَ عن حُكمِ الأمرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

قال الواحدي: (هو قولُها: أشكو إلى اللهِ فاقَتي ووَحْدتي، وإنَّ لي صِبيةً صِغارًا، إنْ ضَمَمْتُهم إليه ضاعوا، وإن ضَمَمْتُهم إلَيَّ جاعُوا، وجعَلَتْ تَرفَعُ رأسَها إلى السَّماءِ، وتقولُ: اللَّهمَّ إنِّي أشكو إليك). ((الوسيط)) (٤/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

قال السعدي: (في ضِمنِ ذلك الإشارةُ بأنَّ اللهَ تعالى سيُزيلُ شَكْواها، ويَرفَعُ بَلْواها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

المجادَلِ بسَبَبِه، فقال ذامًّا للظِّهارِ[١]:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾.

أي: الَّذين يُحرِّمونَ منكم زَوجاتِهم على أنفُسِهم بتَشبيهِهنَّ بظُهورِ أُمَّهاتِهم، فيقولونَ لهنَّ: أنتُنَّ علينا كظُهورِ أمَّهاتِنا؛ ما نِساؤُهم اللَّائي يُظاهِرونَ مِنهنَّ بأمَّهاتِهم؛ فيقولوا لهنَّ: أنتُنَّ علينا كظَهرِ أمَّهاتِنا، بل هنَّ لهم حلالٌ[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

قال القرطبي: (أجمَع الفُقَهاءُ على أنَّ مَن قال لزَوجتِه: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي، أنَّه مُظاهِرٌ، وأكثَرُهم على أنَّه إن قال لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ ابنتي أو أختي أو غيرِ ذلك مِن ذواتِ المَحارِمِ؛ أنَّه مُظاهِرٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٣).

وممَّن نقَل الإجماعَ أيضًا على أنَّه إن قال لزَوجتِه: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي، كان مُظاهِرًا: ابنُ المنذِرِ، وابنُ رُشْدٍ، وابنُ قُدامةَ. يُنظر: ((الإجماع)) لابن المنذر (ص: ١١٨)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ١٠٥)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٥).

وكذلك يكونُ مُظاهِرًا مَن شَبَّه زَوجتَه بمَن تَحرُمُ عليه على التَّأبيدِ مِن أقارِبِه غَيرِ الأمِّ؛ كجَدَّتِه، وعَمَّتِه، وخالتِه، وأُختِه، وهذا باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق للزَّيْلَعي وحاشية الشِّلْبي)) (٣/ ٤)، ((منح الجليل)) لعُلَيْش (٤/ ٢٢٧)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٤٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٦٩).

وإذا قال الرَّجُلُ لِزَوجتِه: أنتِ أمِّي، ونوى الظِّهارَ؛ كان مُظاهِرًا، وإن لم يَنوِ به ظِهارًا فليس بظِهارٍ، وهذا مَذهَبُ الجُمهورِ: المالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((حاشية الصاوي على الشرح الصغير)) (٢/ ٦٣٨)، ((تحفة المحتاج)) لابن حجر الهيتمي (٨/ ١٧٨)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ١٦٦).

قال ابن كثير: (أصلُ الظِّهارِ مُشتَقٌّ مِنَ الظَّهرِ، وذلك أنَّ الجاهِليَّةَ كانوا إذا تظاهَرَ أحدٌ مِن امرأتِه قال لها: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي، ثمَّ في الشَّرعِ كان الظِّهارُ في سائرِ الأعضاءِ قياسًا على الظَّهرِ، وكان الظِّهارُ عندَ الجاهليَّةِ طلاقًا، فأرخَصَ اللهُ لهذه الأمَّةِ وجعل فيه كفَّارةً، ولم يَجعَلْه طلاقًا =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤].

﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾.

أي: ما أُمَّهاتُهم في الحقيقةِ إلَّا اللَّاتي ولَدْنَهم، لا زَوجاتُهم اللَّاتي ظاهَروا مِنهُنَّ(١).

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

أي: وإنَّ المُظاهِرينَ مِن نِسائِهم لَيَقولونَ بظِهارِهم هذا قولًا شَنيعًا لا يُعرَفُ في الشَّرعِ، وكَذِبًا لا حقيقةَ له، ولا وجودَ له في الواقِعِ(٢)!

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

أي: وإنَّ اللهَ لَبالِغُ العَفوِ عن ذُنوبِ عِبادِه -فيَتجاوَزُ عنها، ولا يُعاقِبُهم بها-،

---

= كما كانوا يعتَمِدونَه في جاهِلِيَّتِهم. هكذا قال غيرُ واحِدٍ مِنَ السَّلَفِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧).

إذا شَبَّه زَوجتَه بعُضوٍ مِن أعضاءِ أمِّه غيرِ الظَّهرِ، كان ظِهارًا، وهذا باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ في الجُملةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ، على تفصيلٍ عندَهم واختلافٍ في بعضِ الأعضاءِ. يُنظر: ((البناية)) للعَيْني (٥/ ٥٣٥)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٥/ ٤٢٥)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦٣)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٦٩).

وقوله: ﴿مِنكُم﴾ قيل: خِطابٌ للمؤمنينَ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٥/ ٣٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٦).

وقيل: الخِطابُ للعربِ خاصَّةً، وكان طلاقُهم في الجاهليَّةِ الظِّهارَ. يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٥).

بالِغُ المَغفرةِ لهم فيَمحو عَيْنَها وأثَرَها، ويَسترُها عليهم[١].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا هَجَّن اللهُ سُبحانَه الظِّهارَ، وأثبَتَ تَحريمَه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه، وكان ما مَضَت عليه العوائِدُ لا بُدَّ أن يبقَى منه بقايا؛ أتْبَعَ ذلك بيانَ حُكمِ هذه الواقِعةِ، وما لعَلَّه يَقَعُ مِن نظائِرِها[٢].

﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾.

أي: والَّذين يُحرِّمونَ نِساءَهم على أنفُسِهم بالظِّهارِ، ثمَّ يَعودونَ لِما قالوا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤).

قال ابن كثير: (﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ أي: عمَّا كان منكم في حالِ الجاهليَّةِ، وهكذا أيضًا عمَّا خرج مِن سَبْقِ اللِّسانِ، ولم يَقصِدْ إليه المتكَلِّمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩).

وقال ابن عثيمين: (العفوُ هو التَّجاوُزُ عن عبادِه في تركِ الواجبِ وفِعلِ المحرَّم، وعفْوُ الله عزَّ وجلَّ عفْوٌ كاملٌ مقرونٌ بالقُدرةِ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوّٗا قَدِيرٗا﴾ [النساء: ١٤٩]، بخِلافِ عفوِ غيرِه؛ فقد يكونُ للعَجْزِ؛ أي: العجْزِ عن الأخْذِ بالثَّأرِ...

الغفورُ: هو السَّاتِرُ للذُّنوبِ، المُتجاوِزُ عنها، فإذا أُضيفَ العفوُ إلى المغفرةِ حصَل الكمالُ، وهو أنَّ العفْوَ لتَرْكِ الواجبِ، والمغفرةَ لِفعلِ المحرَّم). ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٦، ٤٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٥٨- ٤٦٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ١٩٢، ١٩٣).

اختلَف أهلُ العِلمِ في تفسيرِ العَودِ المذكورِ؛ على أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّ المُرادَ بالعَودِ: العزمُ على الوطءِ. وممَّن ذهب إليه: الحنفيَّةُ، والمالكيَّةُ -(وزادوا =

= في قولٍ آخَرَ لهم مع هذا العزم: نِيَّةَ الإمساكِ في العصمةِ)- وهو اختيارُ ابنِ عثيمين. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٣/ ٢٣٦)، ((الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٤٤٦)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٥١).

الثَّاني: أنَّ المرادَ بالعَودِ: الوطءُ نفْسُه. وهو مذهبُ الحنابلةِ، واختاره ابنُ القيِّم. يُنظر: ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٧٤)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٣٠٤).

الثَّالثُ: أنَّ معناه: أن يُمسِكَها زوجةً بعدَ الظِّهارِ، معَ القُدرةِ على الطَّلاقِ. وهذا مذهبُ الشَّافعيَّةُ. يُنظر: ((تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي)) (٨/ ١٨٣)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٣/ ٣٥٦).

قال الشوكاني: (وقيل: هو الكفَّارةُ، والمعنى: أنَّه لا يَستبيحُ وطْأَها إلَّا بكفَّارةٍ، وبه قال اللَّيثُ ابنُ سعدٍ، ورُويَ عن أبي حَنيفةَ. وقيل: هو تكريرُ الظِّهارِ بلَفظِه، وبه قال أهلُ الظَّاهرِ، ورُويَ عن بُكَيرِ بنِ الأشَجِّ وأبي العاليةِ والفرَّاءِ، والمعنى: ثمَّ يَعودون إلى قَولِ ما قالوا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢١٩). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩).

وقال ابنُ قُتَيْبةَ: (يَتوهَّمُ قَومٌ: أنَّ الظِّهارَ لا يُحسَبُ ولا يقَعُ حتَّى يتكرَّرَ اللَّفظُ به؛ لقولِ الله تعالى: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾! وقد أجمَع النَّاسُ على أنَّ الظِّهارَ يقعُ بلَفظٍ واحدٍ، فأمَّا تأويلُ قولِه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ فإنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا يُطلِّقون بالظِّهارِ؛ فجعَل اللهُ حُكمَ الظِّهارِ في الإسلامِ خِلافَ حُكمِه عندَهم في الجاهليَّةِ؛ وأنزَل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ في الجاهليَّةِ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ لما كانوا يَقولونه مِن هذا الكلامِ). ((غريب القرآن)) (ص: ٤٥٦، ٤٥٧).

وقال ابن العربي: (إذا عَزَم على خِلافِ ما قال، ورآها خِلافَ الأُمِّ كَفَّر، وعاد إلى أهلِه. وتحقيقُ هذا القولِ أنَّ العزمَ قولٌ نفْسيٌّ، وهذا رجُلٌ قال قولًا يَقتضي التَّحليلَ وهو النِّكاحُ، وقال قولًا يَقتضي التَّحريمَ وهو الظِّهارُ، ثمَّ عاد لِما قال، وهو قولُ التَّحليلِ؛ فلا يَصِحُّ أنْ يكونَ منه ابتداءَ عقدٍ؛ لأنَّ العقدَ باقٍ، فلم يَبْقَ إلَّا أنَّه قَولُ عزمٍ يُخالِفُ ما اعتَقَده، وقاله في نفْسِه مِن الظِّهارِ الَّذي أخبَر عنه بقولِه: أنتِ عليَّ كظهرِ أُمِّي. وإذا كان ذلك كَفَّر، وعادَ إلى أهلِه؛ لقولِه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣]، وهذا تفسيرٌ بالغٌ في فَنِّه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٩٣).

وقال الشنقيطي: (الَّذي يَظهَرُ -واللهُ تعالى أعلَمُ- أنَّ العَودَ له مَبدَأٌ ومُنتهى، فمَبدؤُه العزمُ على الوطءِ، ومُنتهاه الوطءُ بالفعلِ، فمَن عزَم على الوطءِ فقد عاد بالنِّيَّةِ؛ فتَلزَمُه الكفَّارةُ لإباحةِ الوطءِ، ومَن وطِئَ بالفعلِ تحَتَّمَ في حقِّه اللُّزومُ، وخالف بالإقدامِ على الوطءِ قبْلَ التَّكفيرِ). =

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾.

أي: فعليهم عِتقُ رَقبةٍ كامِلةٍ مِن قَبلِ أن يَقَعَ بيْنَ الزَّوجَينِ جِماعٌ(١).

---

= ((أضواء البيان)) (٦/ ١٩٢).

قال ابن الفَرَس: (وقد اختُلِف في هذه الآيةِ: هل هي على نَظْمِها، أم فيها تقديمٌ وتأخيرٌ؟ فالمشهورُ أنَّه لا تقديمَ فيها ولا تأخيرَ، وهو الصَّحيحُ. وذهب بعضُهم إلى أنَّ فيها تقديمًا وتأخيرًا، وذُكِر عن الأخفَشِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٢٦).

وقال الواحدي: (قال الأخفشُ: تقديرُ الآيةِ: والَّذين يُظاهِرون مِن نسائِهم، فتحريرُ رقَبةٍ لِما قالوا، ثمَّ يَعودون إلى نسائِهم، أي: فعليهم تحريرُ رقبةٍ لِما نطَقوا به مِن ذلك التَّحريم. والتَّقديمُ والتَّأخيرُ كثيرٌ في التَّنزيلِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٦١). ويُنظر: ((معانى القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٣٧).

قال ابن الفَرَس: (وهذا قولٌ ضعيفٌ، يَفسُدُ به نظْمُ الآيةِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٢٦).

وقال أيضًا: (واختُلِف في معنى اللَّامِ في قولِه: ﴿لِمَا قَالُواْ﴾؛ فيحتملُ أن يكونَ بمعنَى: في أيِّ فيما قالوا. وقيل: المعنى: مِن أجْلِ ما قالوا. وقال الفرَّاءُ: معناه: عن ما قالوا، قال: والمعنى: ثمَّ يَرجِعون عن ما قالوا ويُريدون الوطءَ. وقيل: هي على بابِها، والمعنى: ثمَّ يَعودون لِقَولِهم، والقولُ بمعنى المَقولِ، فالمعنى: ثمَّ يَعودونَ لِوَطْءِ المَقولِ فيها الظِّهارُ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٢٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

قال القرطبي: (لا يجوزُ للمُظاهِرِ الوَطءُ قبْلَ التَّكفيرِ، فإنْ جامَعَها قبْلَ التَّكفيرِ أَثِمَ وعَصى، ولا يَسقُطُ عنه التَّكفيرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٣). ويُنظر: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هُبَيْرة (٢/ ١٨٨).

وقال ابنُ هُبَيرةَ: (اختَلَفوا في اشتراطِ الإيمانِ في الرَّقَبةِ الَّتي يُكَفِّرُ بها المُظاهِرُ؛ فقال أبو حَنيفةَ وأحمَدُ في إحدى روايتَيه: ليس بشَرطٍ فيه. وقال مالكٌ والشَّافِعيُّ وأحمدُ في الرِّوايةِ الأُخرى عنه: هو شَرطٌ). ((اختلاف الأئمة العلماء)) (٢/ ١٨٩).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: فإعتاقُ رقَبةٍ كاملةٍ مِن قبْلِ أن يَتماسَّا، فهاهنا الرَّقبةُ مُطْلَقةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ بالإيمانِ، وفي كفَّارةِ القتلِ مُقيَّدةٌ بالإيمانِ؛ فحمَلَ الشَّافعيُّ رحمه الله ما أُطلِق هاهنا على ما قُيِّد هناك لاتِّحاد المُوجبِ، وهو عِتقُ الرَّقبةِ، واعتضَد في ذلك بما رواه عن مالكٍ بسنَدِه، عن مُعاويةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَميِّ، في قصَّةِ الجاريةِ السَّوْداءِ، وأنَّ رسولَ الله صلَّى الله =

﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾.

أي: وَجَب عليكم ذلك العِتقُ؛ مَوعِظةً لكم؛ لِتَنتَهوا عن الظِّهارِ، وتَنزَجِروا عن الوُقوعِ فيه ثانيةً(١).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

أي: واللهُ بجَميعِ ما تَعمَلونَه مِن هذا التَّكفيرِ وغيرِه ذو خِبرةٍ بالِغةٍ تامَّةٍ، فلا يَخفَى عليه شيءٌ، ويُجازي كلَّ عامِلٍ بعمَلِه(٢).

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤﴾.

﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾.

أي: فمَن لم يجِدْ رَقَبةً يُحَرِّرُها -إمَّا لعَدَمِ وُجودِها، أو لعَدَمِ القُدرةِ على دَفعِ ثَمَنِها- وَجَبَ عليه صيامُ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ بلا إفطارٍ بَيْنَهما، مِن قَبلِ أن يَقَعَ بيْنَ الزَّوجينِ جِماعٌ(٣).

﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾.

---

= عليه وسلَّم قال: «أعتِقْها فإنَّها مؤمنةٌ». وقد رواه أحمدُ في مُسنَدِه [٢٣٧٦٢]، ومسلمٌ في صحيحه [٥٣٧]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠). ويُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩).

قال البِقاعي: (﴿خَبِيرٞ﴾ أي: عالِمٌ بظاهِرِه وباطِنِه، فهو عالِمٌ بما يُكَفِّرُه؛ فافعَلوا ما أمَرَ اللهُ به، وقِفوا عندَ حُدودِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٢-٤٦٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

أي: فمَن لم يَستَطِعْ صِيامَ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ -لِمَرضٍ، أو لغيرِه مِنَ الأعذارِ- وَجَبَ عليه إطعامُ سِتِّينَ مِسكِينًا[1].

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

أي: هذا المفروضُ عليكم في كَفَّارةِ الظِّهارِ قد شَرَعْناه لكم؛ لِتُؤمِنوا باللهِ وبرَسولِه مُحمَّدٍ، فتَعمَلوا بحُكمِ اللهِ، وتَنتَهوا عمَّا حرَّم اللهُ[2].

﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

أي: وتلك الحدودُ الَّتي حدَّها اللهُ لكم، والفُروضُ الَّتي بيَّنها لكم: هي حُدودُ اللهِ؛ فلا تَتعَدَّوها ولا تَنتَهِكوها[3].

﴿وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: وللكافِرينَ باللهِ وبرَسولِه، التَّارِكينَ العَمَلَ بأحكامِ شَرعِه، والوُقوفَ عندَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١).

قال السعدي: (﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾ الصِّيامَ ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينًا﴾ إمَّا بأنْ يُطعِمَهم مِن قوتِ بلدِه ما يَكْفيهم، كما هو قولُ كثيرٍ مِن المفسِّرينَ، وإمَّا بأن يُطعِمَ كلَّ مسكينٍ مُدَّ بُرٍّ أو نِصفَ صاعٍ مِن غيرِه ممَّا يجزي في الفِطرةِ، كما هو قولُ طائفةٍ أخرَى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

وقال الشوكاني: (الظَّاهرُ مِن الآيةِ أن يُطعِمَهم حتَّى يَشبَعوا مرَّةً واحدةً، أو يَدفَعَ إليهم ما يُشبِعُهم، ولا يَلزَمُه أن يَجمَعَهم مرَّةً واحدةً، بل يجوزُ له أن يُطعِمَ بعضَ السِّتِّينَ في يومٍ، وبعضَهم في يومٍ آخَرَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١).

حُدودِه: عذابٌ مُؤلمٌ مُوجِعٌ[١].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قول الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ هذه الواقِعةُ تدُلُّ على أنَّ مَن انقَطَع رَجاؤُه عن الخَلقِ، ولم يَبقَ له في مُهِمِّه أحدٌ سِوى الخالقِ، كفاه اللهُ ذلك المُهِمَّ[٢].

٢- عن ثُمامةَ بنِ حَزْنٍ، قال: (بَيْنَما عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ يَسيرُ على حِمارِه لَقِيَتْه امرأةٌ، فقالت: قِفْ يا عُمَرُ، فوقف، فأغلَظَت له القَولَ، فقال رجُلٌ: يا أميرَ المؤمِنينَ، ما رأيتُ كاليَومِ! فقال: وما يَمنَعُني أن أستَمِعَ إليها وهي الَّتي استَمَع اللهُ لها؟! أنزَلَ فيها ما نَزَل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾)[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ التَّحذيرُ مِن قَولِ الإنسانِ ما لا يُرضي ربَّه عزَّ وجلَّ، وأنَّه مهما أخفى القولَ فإنَّ اللهَ تعالى يَسمَعُه؛ قال اللهُ تعالى في آيةٍ أخرى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[٤] [الزخرف: ٨٠].

٤- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فيه بيانُ لُطفِ اللهِ تعالى بعِبادِه، واعتنائِه بهم؛ حيثُ ذكَرَ شَكوى هذه المرأةِ المُصابةِ، وأزالها ورفَعَ عنها البَلوَى، بل رفَع البلوى بحُكمِه العامِّ لكُلِّ مَنِ ابتُلِيَ بمِثلِ هذه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٧٨).

(٣) أخرجه البخاريُّ في ((التاريخ الكبير)) (٧/ ٢٤٥)، وابنُ مَرْدويه كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٧٠).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣١).

القَضيَّةِ[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ افتُتِحَت آياتُ أحكامِ الظِّهارِ بذِكرِ سَبَبِ نُزولِها؛ تنويهًا بالمرأةِ الَّتي وجَّهَت شَكواها إلى اللهِ تعالى، بأنَّها لم تُقَصِّرْ في طَلَبِ العَدلِ في حَقِّها وحَقِّ بَنيها، ولم تَرضَ بفِعلِ زَوجِها، وابتِدارِه إلى ما يَنثُرُ عِقْدَ عائلتِه، وتعليمًا لنِساءِ الأمَّةِ الإسلاميَّةِ ورِجالِها واجِبَ الذَّودِ عن مَصالِحِها[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ ترغيبٌ في التَّوبةِ ودعوةٌ إليها، فمِن صفاتِه تعالى أنْ يَترُكَ عِقابَ مَن شاء، ومِن صفاتِه أنْ يَمحوَ عينَ الذَّنْبِ وأثَرَه حتَّى إنَّه كما لا يعاقبُ عليه لا يُعاتبُ؛ فهل مِن تائبٍ طلبًا للعفوِ عن الزَّللِ، والإصلاحِ لما كان مِن خلَلٍ[٣]؟

٧- قول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه أنَّ التِزامَ أحكامِ اللهِ والعَمَلَ بها: مِن الإيمانِ، بل هي المقصودةُ، ومِمَّا يَزيدُ به الإيمانُ ويَكمُلُ ويَنمو[٤].

٨- جعَل الله تعالى الصِّيامَ معادِلًا لتحريرِ الرَّقبةِ في ثلاثةِ أحكامٍ مِن كتابِه؛ إذ جعَل على مَن قتَل مؤمنًا خطأً: تحريرَ رقبةٍ مؤمنةٍ، وديةً مسلَّمةً إلى أهلِه ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٢]. وجعَل على الذين يُظاهِرونَ مِن نسائِهم ثمَّ يَعودونَ لما قالوا تحريرَ رقبةٍ مِن قبلِ أنْ يتماسَّا ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾. وجعَل كفَّارةَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٧/ ٤٨٢)

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

اليمينِ تحريرَ رقبةٍ ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة: ٨٩]، فانظُرْ لم كتَب الله على مَن ارتكَب شيئًا مِن هذه الخطايا الثلاثَ: أنْ يُحرِّرَ رقبةً مؤمنةً مِن رقِّ الاستعبادِ، فإنْ لم يجِدْها فعليه أنْ يعمَلَ على تحريرِ نفسِه مِن رقِّ مطالبِ الحياةِ، ورقِّ ضروراتِ البدنِ، ورقِّ شهواتِ النَّفسِ، فالصيامُ هو عتقُ النَّفسِ الإنسانيةِ مِن كلِّ رقٍّ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: أوجَبْنا ذلك لِيتحَقَّقَ لكم الإيمانُ؛ فإنَّه كُلَّما كان الإنسانُ مُمتَثِلًا لأمرِ اللهِ مع المشَقَّةِ ازداد إيمانُه ورَغبتُه فيما عندَ اللهِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ يدُلُّ على أنَّ هذا الكلامَ كان بعدَ وُقوعِ الحادثةِ، وأنَّ اللهَ تكلَّمَ بالقرآنِ حديثًا[٣]؛ فإنَّ «قد» للتَّحقيقِ، و«سَمِعَ» فعلٌ ماضٍ يَقتضي أنْ يكونَ المسموعُ سابقًا للخَبَرِ عنه، وأنَّ الخَبَرَ عنه لاحِقٌ، ومعلومٌ أنَّ المرأةَ إنَّما شَكَتْ إلى النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في أمرٍ حادثٍ[٤]؛ فالكلامُ صِفةٌ فعليَّةٌ باعتبارِ آحادِه، لكن باعتبارِ أصْلِه صِفةٌ ذاتيَّةٌ، لأنَّ اللهَ تعالى لم يَزَلْ ولا يَزالُ مُتكلِّمًا، لكنَّه يَتكلَّمُ بما شاء متى شاء[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إثباتُ الأفعالِ الاختياريَّةِ للرَّبِّ سُبحانَه، وقيامِها به[٦].

---

(١) يُنظر: ((جمهرة مقالات محمود شاكر)) (٢/ ٩٣٨).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٢١١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ إثباتُ صِفةِ السَّمعِ للرَّبِّ تعالى حقيقةً، وأنَّه بنَفْسِه سَمِعَ[١]، وأنَّه يَسْمَعُ الأصواتَ مهما بَعُدَتْ ومهما خَفِيَتْ[٢]، والآيةُ الكريمةُ أصرَحُ ما يكونُ في إثباتِ صفةِ السَّمْعِ؛ فقد ذَكَر الماضيَ والمُضارِعَ واسمَ الفاعلِ؛ فقال: «سَمِعَ»، و «يَسْمَعُ»، وهو «سميعٌ»، وله السَّمْعُ[٣]. فنؤمنُ بأنَّ مِن أسماءِ الله تعالى السَّميعَ، وأنَّه دالٌّ على صِفةِ السَّمعِ، وأنَّ لهذا السَّمعِ حُكمًا وأثَرًا وهو أنَّه يَسمَعُ به[٤]، وأنَّ سَمْعَ الله يَنقسِمُ إلى قِسمَينِ: سمْعِ إدراكٍ، كما في هذه الآيةِ -وهو مِن الصِّفاتِ الذَّاتيَّةِ-، وسمعِ استِجابةٍ، وهو مِن الصِّفاتِ الفِعليَّةِ، كما في قولِه تعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي: مُجيبُ الدُّعاءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٨٧).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٤).

قال ابن عثيمين: (سمْعُ الإدراكِ قد يُرادُ به بيانُ الإحاطةِ والشُّمولِ، وقد يُرادُ به التَّهديدُ، وقد يُرادُ به التَّأييدُ، فهذه ثلاثةُ أنواعٍ:

الأوَّلُ: يُرادُ به بيانُ الإحاطةِ والشُّمولِ، مِثلُ هذه الآيةِ [﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ﴾].

الثَّاني: يُرادُ به التَّهديدُ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [آل عمران: ١٨١]. وانظُرْ كيف قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ حينَ وصَفوا اللهَ تعالى بالنَّقصِ، قبْلَ أن يقولَ: ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّ وصْفَ الله بالنَّقصِ أعظَمُ مِن قتلِ الأنبياءِ.

الثَّالثُ: سمْعٌ يُرادُ به التَّأييدُ، ومنه قولُه تبارك وتعالى لموسى وهارونَ: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، فالمرادُ بالسَّمعِ هنا التَّأييدُ، يعني: أسمَعُك وأؤيِّدُك، يعني: أسمَعُ =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ دَلالةٌ على القاعدةِ المُقَرَّرةِ: أنَّ «العِبرةَ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخُصوصِ السَّبَبِ»؛ فالسَّبَبُ خاصٌّ، ولكنَّ الحُكْمَ عامٌّ[١].

٥- قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ والمُتعارَفُ في صِيغةِ الظِّهارِ أنْ تَشتمِلَ على ما يدُلُّ على الزَّوجةِ والظَّهرِ والأُمِّ، ولم يُشِرِ القرآنُ إلى اسمِ الظَّهرِ ولا إلى اسمِ الأُمِّ إلَّا مُراعاةً للصِّيغةِ المُتعارَفةِ بيْن النَّاسِ يومَئذٍ، بحيث لا يَنتقِلُ الحُكْمُ مِن الظِّهارِ إلى صِيغةِ الطَّلاقِ إلَّا إذا تَجرَّدَ عن تلك الكلماتِ الثَّلاثِ تَجرُّدًا واضحًا[٢].

٦- قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ استَدَلَّ به مَن قال: لا حُكمَ لظِهارِ الزَّوجةِ مِن زَوجِها؛ لأنَّه تعالى خَصَّ الظِّهارَ بالرَّجُلِ[٣]، فالمرأةُ إنْ قالتْه لزَوجِها فليس بظِهارٍ، فكما أنَّها لا تُطَلِّقُ نفْسَها؛ فلا تُظاهِرُ مِن زوجِها[٤].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ استدَلَّ مالكٌ بقَولِه: ﴿مِنكُم﴾ أنَّ الكافرَ لا يَدخُلُ في هذا الحُكمِ[٥]؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿مِنكُم﴾ كنايةٌ عن

---

= ما تَقولانِ، وما يُقالُ لكما). ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٤٣).

وذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ. يُنظر: ((البناية)) للعيني (٥/ ٥٤١)، ((مواهب الجليل)) للحطاب (٥/ ٤٢٤)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦٥)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٩/ ١٤٥).

(٥) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

وهذا القولُ هو مذهبُ الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، وروايةٌ عن أحمدَ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (٣/ ٢)، ((مواهب الجليل)) للحطاب (٥/ ٤٢٤)، ((المبدع شرح المقنع)) لابن مفلح (٨/ ٣٢). =

المُسلِمينَ؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قال في آخِرِ الآيةِ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، والكافِرُ غيرُ جائزِ المغفِرةِ، وقَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ بِناءٌ على الأوَّلِ[1].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ فيه أنَّه لا يَصِحُّ الظِّهارُ مِن امْرأةٍ قبْلَ أن يَتزَوَّجَها؛ لأنَّها لا تَدخُلُ في نِسائِه وقْتَ الظِّهارِ، كما لا يَصِحُّ طَلاقُها، سواءٌ نَجَز ذلك أو عَلَّقَه[2]، فالظِّهارُ خاصٌّ للزَّوجاتِ، دون الأجنبيَّاتِ[3].

٩- قول الله تعالى: ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ فيه سُؤالٌ: ظاهِرُ الآيةِ يقتضي أنَّه لا أمَّ إلَّا الوالِدةُ، وهذا مُشكِلٌ؛ لأنَّه قال في آيةٍ أخرى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣]، وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ﴾ [الأحزاب: ٦]، ولا يمكِنُ أن يُدفَعَ هذا السُّؤالُ بأنَّ المَعنيَّ مِن كَونِ المرضِعةِ أُمًّا، وزَوجةِ

---

= قال الشنقيطي: (لأنَّ الظِّهارَ منكَرٌ مِن القولِ وَزُورٌ يُكَفِّرُه اللهُ بالعِتقِ، أو الصَّومِ، أو الإطعامِ، ... والكافرُ لا يُكَفِّرُ عنه العِتقُ أو الصَّومُ أو الإطعامُ ما ارْتَكَبه مِن المُنكَرِ والزُّورِ لكفرِه؛ لأنَّ الكفرَ سَيِّئةٌ لا تَنفَعُ معها حسَنةٌ). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٠٩).

(١) يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٣/ ٢٣٠).

قال الجَصَّاصُ: (وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ وذلك خِطابٌ للمؤمنينَ يدُلُّ على أنَّ الظِّهارَ مخصوصٌ به المؤمنونَ دونَ أهلِ الذِّمَّةِ. فإن قيل: فقد قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ ولم يَخصُصِ المَذكورينَ في الثَّانيةِ؟ قيل له: المَذكورونَ في الآيةِ الثَّانيةِ هم المذكورونَ في الآيةِ الأولى؛ فوجب أن يكونَ خاصًّا في المُسلمينَ دونَ غيرِهم). ((أحكام القرآن)) (٥/ ٣٠٢). ويُنظر ما أُجيبَ به عن ذلك في: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

وهذا القولُ هو مذهبُ الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والظَّاهريَّةِ وروايةٌ عن أحمدَ. يُنظر: ((الدر المختار وحاشية ابن عابدين)) (٣/ ٤٦٦)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦١)، ((المحلى)) لابن حزم (٩/ ١٩٩)، ((الفروع)) لابن مفلح (٩/ ١٨٢).

الرَّسولِ أُمًّا: حُرمةُ النِّكاحِ، وذلك لأنَّا نقولُ: إنَّ بهذا الطَّريقِ ظَهَر أنَّه لا يلزَمُ مِن عدَمِ الأُمومةِ الحقيقيَّةِ عَدَمُ الحُرمةِ، فإذَنْ لا يلزَمُ مِن عَدَمِ كَونِ الزَّوجةِ أُمًّا عَدَمُ الحُرمةِ، وظاهِرُ الآيةِ يُوهِمُ أنَّه تعالى استدَلَّ بعَدَمِ الأمومةِ على عدَمِ الحُرمةِ، وحينَئذٍ يتوَجَّهُ السُّؤالُ؟

**الجوابُ**: أنَّه ليس المرادُ مِن ظاهِرِ الآيةِ ما ذُكِرَ في السُّؤالِ، بل تقديرُ الآيةِ كأنَّه قيل: الزَّوجةُ ليست بأمٍّ حتَّى تَحصُلَ الحُرمةُ بسَبَبِ الأُمومةِ، ولم يَرِدِ الشَّرعُ بجَعْلِ هذا اللَّفظِ سَبَبًا لوُقوعِ الحُرمةِ حتَّى تحصُلَ الحُرمةُ، فإذَنْ لا تحصُلُ الحُرمةُ هناك البتَّةَ، فكان وصْفُهم لها بالحُرمةِ كَذِبًا وزُورًا[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾، وكذا في الآيةِ الأخرى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤] سؤالٌ: وهو أنَّ المتظاهِرَ ما قال: إنَّ زوجتَه أُمُّه، لكِنَّه شَبَّهَها بها، وهو لَمْ يَقُلْ: «ما هُنَّ مِثْلَ أُمَّهاتِهم»؛ بل قال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾!

**والجواب**: أنَّ المُتظاهِرَ مقصودُه تحريمُ الوطءِ، وقولُه «أنتِ عليَّ كظَهرِ أمِّي» معناه: وَطْؤُكِ مِثْلُ وَطْءِ أمِّي، فمقصودُه تشبيهُ الوطءِ بالوطءِ؛ وأنْ يكونَ وَطْؤُها مِثلَ وَطْءِ أُمِّه، وذلك يقتضي أنْ تكونَ حرامًا، ووَطْؤُها لا يكونُ مِثْلَ وَطْءِ أُمِّه إلَّا إذا كانت مِن جِنْسِ أُمِّه، وإلَّا فإذا تباينَتِ الحقائقُ تباينتْ أحكامُها، فكان مُوجَبُ قولِهم أنْ تكونَ الأزواجُ مِن جنسِ الأمَّهاتِ، كما تكونُ أُمُّ الأبِ والأمِّ مِن جنسِ الأمِّ في التَّحريمِ والمَحْرَمِيَّةِ، فبَيَّنَ اللهُ تعالى أنَّ هذا الجِنسَ ما هو هذا الجِنسُ، بل جنسٌ آخَرُ، فقال: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٤]، كما قال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٢).

أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]، وهم لَمْ يكونوا يَقولونَ: هو مولودٌ منه، بل جَعلوه مِن جنسِ المولودِ، فجَعلوا حُكْمَه حُكْمَ المولودِ منه الَّذي هو الابنُ، فقال تعالى: هذا ما هو مِن جِنْسِ الابنِ، فلا يكونُ حالُه حالَه(١).

وأمَّا قولُه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ فالجوابُ عنه أنَّ الكَذِبَ إنَّما لزِمَ لأنَّ قَولَه: (أنتِ علَيَّ كظَهرِ أمِّي) إمَّا أنْ يَجعَلَه إخبارًا أو إنشاءً، وعلى التَّقديرِ الأوَّلِ: أنَّه كَذِبٌ؛ لأنَّ الزَّوجةَ مُحلَّلةٌ والأمَّ مُحرَّمةٌ، وتشبيهُ المحلَّلةِ بالمحَرَّمةِ في وَصفِ الحِلِّ والحُرمةِ كَذِبٌ، وإنْ جعَلْناه إنشاءً(٢) كان ذلك أيضًا كَذِبًا؛ لأنَّ كَونَه إنشاءً معناه: أنَّ الشَّرعَ جعَلَه سَببًا في حُصولِ الحُرمةِ، فلمَّا لم يَرِدِ الشَّرعُ بهذا التَّشبيهِ كان جَعْلُه إنشاءً في وُقوعِ هذا الحُكمِ يكونُ كَذِبًا وزُورًا(٣).

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾، وذِكْرُ الآياتِ لمَن ظاهَرَ بأُمِّه فهذا بِناءً على أنَّه الغالبُ: أنَّ الإنسانَ يُظاهِرُ بأُمِّه، لكنْ لو قال الإنسانُ: «أنتِ علَيَّ كظَهرِ أختي» أو: «كظَهرِ عَمَّتي» فهو كقَولِه: «كظَهرِ أُمِّي»؛ لأنَّه لا فَرْقَ، والضَّابِطُ في هذا: أنْ يُشَبِّهَ زوجتَه بمَن تَحرُمُ عليه تَحريمًا مؤبَّدًا(٤).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ تأكيدُ ميراثِ وَلَدِ الملاعَنةِ، ووَلَدِ الزِّنا؛ لشُمولِ اسمِ الأُمومةِ لِمَن وُلِدَ بهما، وهو نظيرُ قولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٣٩٣).

(٢) أي: إنشاء الزَّوجِ حُكمًا، وهو تحريمُ زوجتِه، بتنزيلِها مَنزِلةَ الأمِّ.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨١، ٤٨٢).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣١).

ويُعَدُّ مظاهِرًا مَن شبَّه زوجتَه بمَن تحرُمُ عليه تحريمًا مؤبَّدًا، وذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ: الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشافعيَّةِ، والحنابلةِ. ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣٨).

﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾[١] [النجم: ٣٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أنَّ الظِّهارَ حرامٌ[٢] لا يجوزُ الإقدامُ عليه؛ لأنَّه -كما أخْبَر اللهُ عنه- مُنكَرٌ مِن القَولِ وزُورٌ، وكِلاهما حرامٌ، والفرقُ بيْنَ جِهةِ كَونِه مُنكَرًا وجِهةِ كَونِه زُورًا: أنَّ قولَه: «أنتِ عليَّ كظَهرِ أمِّي» يتضمَّنُ إخبارَه عنها بذلك، وإنشاءَه تحريمَها، فهو يتضمَّنُ إخبارًا وإنشاءً، فهو خَبَرٌ زورٌ، وإنشاءٌ مُنكَرٌ؛ فإنَّ الزُّورَ هو الباطلُ، خِلافُ الحقِّ الثَّابتِ، والمُنكَرُ خِلافُ المعروفِ، وخَتَم سُبحانَه الآيةَ بقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، وفيه إشعارٌ بقيامِ سَبَبِ الإثمِ الَّذي لولا عَفوُ اللهِ ومَغفِرتُه لآخَذَ به[٣].

١٤- قولُ الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ فيه أنَّه يُكرَهُ للرَّجُلِ أن يُناديَ زوجتَه ويُسَمِّيَها باسمِ مَحارِمِه، كقَولِه: (يا أُمِّي) (يا أُختي)

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٤٧).

وولدُ الملاعنةِ وأمُّه يتوارثانِ تَوارُثَ سائرِ الأولادِ والأمَّهاتِ، وذكرَ ابُن قُدامةَ أنَّه لا يعلمُ خِلافًا في أنَّ أمَّ ولدِ المُلاعَنةِ تَرِثُ هذا الولدَ، ويرثُ ذَوو الفروضِ منه فروضَهم. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٦/ ٣٤٠)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٦/ ٤٣).

واتَّفق الفقهاءُ على استِحقاقِ ولدِ الزِّنا الإرثَ مِن أمِّه وأقاربِها، وعلى أنَّهم يَرِثونه أيضًا بالفرضِ والتَّعصيبِ، وعصَبَتُه عصَبةُ أمِّه. يُنظر: ((المحلى بالآثار)) لابن حزم (٨/ ٣٣٤)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤٥/ ٢٢٣).

(٢) قال برهانُ الدِّينِ ابنُ مُفلِحٍ: (وهو محرَّمٌ إجماعًا، حكاه ابنُ المُنذِرِ). ((المبدع)) (٧/ ٣).

ومِن أهلِ العِلمِ مَن جعَلَ الظِّهارَ كبيرةً مِن الكبائرِ، قال الهَيْتَميُّ: (الظِّهار كبيرةٌ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى سمَّاه زُورًا، والزُّورُ كبيرةٌ... ويُوافِقُ ذلك ما نُقِل عن ابنِ عبَّاسٍ مِن أنَّ الظِّهارَ مِن الكبائِرِ). ((الزواجر عن اقتراف الكبائر)) (٢/ ٨٥). ويُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

ومنهم مَن لم يَعُدَّه مِن الكبائرِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٢٩٦).

ونحوَه؛ لأنَّ ذلك يُشبِهُ المحرَّمَ[١].

١٥- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوّٞ غَفُورٞ﴾ أوْمَأَ قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوّٞ غَفُورٞ﴾ إلى أنَّ مُرادَ اللهِ مِن هذا الحُكمِ التَّوسِعةُ على النَّاسِ، فعَلِمْنا أنَّ مَقصَدَ الشَّريعةِ الإسلاميَّةِ أن تدورَ أحكامُ الظِّهارِ على مِحوَرِ التَّخفيفِ والتَّوسِعةِ، فعلى هذا الاعتبارِ يَجِبُ أن يَجريَ الفُقَهاءُ فيما يُفتُونَ؛ ولذلك لا ينبغي أن تلاحَظَ فيه قاعِدةُ الأخذِ بالأحوَطِ، ولا قاعِدةُ سَدِّ الذَّريعةِ، بل يجبُ أن نسيرَ وَراءَ ما أضاء لنا قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوّٞ غَفُورٞ﴾[٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ دليلٌ على أنَّ التَّحريمَ لا يكونُ طَلاقًا؛ إذْ لو كان الحرامُ طَلاقًا بوَجهٍ مِن الوُجوهِ ما جاز وَطْءُ المُظاهَرِ منها بعدَ الكَفَّارةِ؛ لأنَّ الطَّلاقَ حَلٌّ لا تَعقِدُه الكَفَّارةُ، والبَيْنونةُ لا تَعودُ وَصْلًا بها، والمُحَرَّمةُ بالظِّهارِ إنْ لم تكُنْ أغلَظَ تحريمًا مِن المُحَرَّمةِ بغيرِ الظِّهارِ فهي مِثلُها[٣].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ إبطالُ ما كانوا عليه في الجاهِليَّةِ وفي صَدرِ الإسلامِ مِن كَونِ الظِّهارِ طَلاقًا، ولو

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤، ١٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٤٨).

يُنظر للخِلافِ في حُكمِ ما إذا قال لزَوجتِه: أنتِ عليَّ حرام: ((المغني)) لابن قدامة (٧/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٠).

وقال ابنُ قُدامةَ: (وأكثرُ الفُقهاءِ على أنَّ التَّحريمَ إذا لم يَنوِ به الظِّهارَ، ليس بظِهارٍ، وهو قولُ مالكٍ، وأبي حنيفةَ، والشَّافعيِّ). ((المغني)) (٨/ ٨).

صَرَّح بنِيَّتِه له، فقال: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي، أعني به الطَّلاقَ؛ لم يكُنْ طَلاقًا، وكان ظِهارًا، وهذا بالاتِّفاقِ، إلَّا ما عَساه مِن خِلافٍ شاذٍّ؛ وهذا لأنَّ الظِّهارَ كان طَلاقًا في الجاهِليَّةِ فنُسِخَ، فلم يَجُزْ أنْ يُعادَ إلى الحُكْمِ المنسوخِ[١].

١٨- قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فيه أنَّ الكفَّارةَ إنَّما تجِبُ بالعَودِ لِما قال المُظاهِرُ، لا بمُجَرَّدِ الظِّهارِ[٢]، وفيه ردٌّ على مَن أوجَبَ الكَفَّارةَ بمُجَرَّدِ لَفظِ الظِّهارِ، ولم يَعتَبِرِ العَودَ[٣].

١٩- قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ لعَلَّ الحِكمةَ في وُجوبِ الكَفَّارةِ قبْلَ المَسيسِ: أنَّ ذلك أدعَى لإخراجِها؛ فإنَّه إذا اشتاقَ إلى الجِماعِ، وعَلِمَ أنَّه لا يُمكَّنُ مِن ذلك إلَّا بعْدَ الكَفَّارةِ، بادَرَ لإخراجِها[٤]. أو لأنَّ ذلك أبلغُ في النِّكايةِ.

٢٠- قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ فيه أنَّه يُجزِئُ في كَفَّارةِ الرَّقَبةِ الصَّغيرُ والكَبيرُ، والذَّكَرُ والأُنثى؛ لإطلاقِ الآيةِ في ذلك[٥].

٢١- قَولُه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ استدَلَّ به مَن قال بإباحةِ الاستِمتاعاتِ بالمُظاهَرِ منها، بِناءً على عَدَمِ دُخولِها في لَفظِ المُماسَّةِ[٦]، وعلى هذا فيَجوزُ

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٤٣).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

وهو مذهبُ الشَّافعيَّةِ في الأظهَرِ، وقولٌ للمالكيَّةِ، وروايةٌ عن أحمدَ، واختاره ابنُ عثيمين. =

له أنْ يُقبِّلَها ويَضُمَّها، ويَخلُوَ بها، ويُكَرِّرَ نَظَرَه إليها، إلَّا إذا كان لا يأمَنُ على نَفْسِه، فحينَئذٍ تكونُ له فَتوى خاصَّةٌ بالمَنعِ، وإلَّا فالأصلُ الجوازُ؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى حَرَّمَ التَّماسَّ وهو الجِماعُ، فأباح ما سِواه بالمفهومِ، لكنْ لو كان الرَّجُلُ يَعلَمُ مِن نفْسِه -لقُوَّةِ شَهوتِه- أنَّه لو فَعَل هذه المقَدِّماتِ لَجامَعَ، فحينَئذٍ نَمنَعُه، ونَظيرُه الصَّائِمُ يَحرُمُ أنْ يُجامعَ، ويجوزُ أنْ يُباشِرَ، والحائِضُ يَحرُمُ وَطْؤُها، وتجوزُ مُباشَرتُها، فالمُهِمُّ أنَّه ليس هناك دليلٌ أنَّه متى حُرِّمَ الجِماعُ في عبادةٍ حُرِّمَ دواعيه[1].

٢٢- قولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ يدُلُّ على إيجابِ الكَفَّارةِ قبْلَ المُماسَّةِ؛ فإنْ جامَعَ قبْلَ أن يُكَفِّرَ لم يَجِبْ عليه إلَّا كَفَّارةٌ واحِدةٌ، وهو قَولُ أكثَرِ أهلِ العِلمِ[2].

---

= يُنظر: ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦٩)، ((حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير)) (٢/ ٤٤٥)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٩/ ١٤٨)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٤٩).

وذلك خلافًا للجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((الهداية)) للمَرْغِيناني (٤/ ٣٧٤)، ((حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير)) (٢/ ٤٤٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٧٤).

قال الشنقيطي: (التَّحقيقُ: عدمُ جوازِ الاستِمتاعِ بوطءٍ أو غيرِه قبْلَ التَّكفيرِ؛ لعمومِ قولِه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾). ((أضواء البيان)) (٦/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٥).

نقل ابنُ قُدامةَ أنَّه لا اختلافَ أنَّ المُظاهِرَ يَحرُمُ عليه وَطءُ امرأتِه قبْلَ أن يُكَفِّرَ، إذا كانت الكفَّارةُ عِتقًا أو صَومًا. يُنظر: ((المغني)) (٨/ ١١).

أمَّا إذا كانت الكفَّارةُ إطعامًا فيَحرُمُ على المُظاهِرِ الوَطءُ أيضًا قبْلَ أدائِها باتِّفاقِ المذاهبِ الأربعةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٣/ ١٣)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٥/ ٤٣٩)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٦٨)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٩/ ١٤٨). =

٢٣- القَيدُ في قَولِه تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ لم يَذْكُرْه سُبحانَه في الإطعامِ؛ لأنَّ فيما تَقَدَّمَ بيانًا له، كما أنَّه لم يَقُلْ في الصِّيامِ: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ فيما تَقَدَّمَ بيانًا له، ولكِنْ ذَكَرَ التَّماسَّ في الصِّيامِ ولم يَكْتَفِ بذِكْرِه في العِتْقِ؛ لأنَّ في الصِّيامِ يصومُ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ قبْلَ التَّماسِّ، فيَتَأَخَّرُ التَّماسُّ هذه المدَّةَ الطَّويلةَ، فلو لم يَذْكُرْه لَظَنَّ الظَّانُّ أنَّه في العِتْقِ وَجَبَ التَّقديمُ؛ لأنَّ الزَّمانَ يَسيرٌ، فيُمكِنُه أنْ يُعتِقَ ثُمَّ يَطَأَ تلك اللَّيلةَ، وأمَّا الصِّيامُ فيَتأَخَّرُ الوَطْءُ شَهرينِ مُتتابِعَينِ، وفي هذا مَشَقَّةٌ عَظيمةٌ، فلا يُفهَمُ هذا مِن مجَرَّدِ تَقييدِه في العِتْقِ؛ فلهذا أُعِيدَ ذلك في الصِّيامِ، وأمَّا الإطعامُ فمعلومٌ أنَّه دونَ الإعتاقِ ودونَ الصِّيامِ، وقد جُعِلَ بَدَلًا عنه، فإذا كانتِ الكَفَّارةُ المتقدِّمةُ الفاضِلةُ يجبُ عليه أنْ يُقَدِّمَها على الوَطْءِ، والمرأةُ مُحَرَّمةٌ قبْلَ التَّكفيرِ، فلَأَنْ تكونَ الكفَّارةُ المؤخَّرةُ المفضولةُ كذلك بطَريقِ الأَولى؛ فإنَّ الظِّهارَ أَوْجَبَ تحريمَها إلى التَّكفيرِ بالكَفَّارةِ المقَدَّمةِ؛ فكيف يُبيحُها قبْلَ التَّكفيرِ إذا كَفَّرَ بالكَفَّارةِ المفضولةِ المؤخَّرةِ؟! هذا ممَّا يُعْلَمُ مِن تنبيهِ الخِطابِ وفَحواه[1] أنَّ الشَّارعَ لا يَشْرَعُ مِثلَه، فكان إعادةُ ذِكْرِه ممَّا لا

---

= وقال ابنُ قُدامةَ: (وذهبَ أبو ثورٍ إلى إباحةِ الجِماعِ قبْلَ التَّكفيرِ بالإطعامِ. وعن أحمدَ ما يَقتضي ذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى لم يَمنَعِ المَسيسَ قبْلَه، كما في العِتقِ والصِّيامِ). ((المغني)) (٨/ ١٢). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

ومَن جامَعَ قبْلَ أن يُكَفِّرَ لم تَلزَمْه إلَّا كفَّارةٌ واحِدةٌ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: يُنظر: ((مختصر القُدُوري)) (ص: ١٦٥)، ((شرح الزرقاني على مختصر خليل)) (٤/ ٢٩٩)، ((تحفة المحتاج)) لابن حجر الهيتمي (٨/ ١٨٥)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ١٦٩).

(١) فَحوى الخِطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخِطابِ، ومفهومَ الموافَقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمسكوتِ عنه بطريقِ الأولَى، وهو نَوعانِ: تنبيهٌ بالأقلِّ على الأكثرِ؛ كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فإنَّه نبَّه بالنَّهيِ عن قولِ أفٍّ على النَّهيِ عن الشَّتمِ والضَّربِ وغيرِ ذلك. وتنبيهٌ بالأكثرِ على الأقلِّ؛ كقولِه تعالى: ﴿مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. يُنظر: ((تقريب الوصول إلى علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

يَليقُ ببلاغةِ القرآنِ وفصاحتِه وحُسْنِ بيانِه، بل نَفْسُ تحريمِها قبْلَ صيامِ الشَّهرينِ -وهو الأصلُ المُبْدَلُ منه- يُوْجِبُ تحريمَها قبْلَ البَدَلِ -وهو الإطعامُ- بطَريقِ الأَولى، وتقديمُ الإطعامِ على التَّمَاسِّ أسهَلُ مِن تقديمِ الصِّيامِ، وهو في الإعتاقِ قال: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ ولم يَقُلْ مِثلَ ذلك في الصِّيامِ والإطعامِ، وقد عُلِمَ أنَّهما كذلك، وأنَّهم يُوعَظونَ بالصِّيامِ والإطعامِ كما يُوعَظونَ بالإعتاقِ[1].

٢٤- قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى الحُكمِ المذكورِ، أي: تُزْجَرون به عن ارتكابِ المنكَرِ المذكورِ؛ فإنَّ الغَراماتِ مَزاجِرُ عن تَعاطِي الجِناياتِ، والمرادُ بذِكرِه بَيانُ أنَّ المقصودَ مِن شَرعِ هذا الحُكمِ ليس تَعويضَكم للثَّوابِ بمُباشرتِكُم لتَحريرِ الرَّقبةِ الَّذي هو عَلَمٌ في استِتباعِ الثَّوابِ العظيمِ، بلْ هو رَدْعُكم وزجْرُكم عن مُباشَرةِ ما يُوجِبُه[2].

٢٥- قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ * فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا﴾ فيه أنَّ الكَفَّارةَ مُرَتَّبةٌ: العِتقُ، ثمَّ صَومُ شَهرَينِ مُتتابِعَينِ، ثمَّ إطعامُ سِتِّينَ مِسكينًا[3].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (١/ ٤٠٩).

قال البِقاعي: (حُذِفَ قَيدُ المُماسَّةِ لذِكْرِه في الأوَّلَينِ، ولَعلَّ الحِكمةَ في تخصيصِ هذا به أنَّ ذِكرَه في أوَّلِ الخِصالِ لا بُدَّ منه، وإعادتَه في الثَّاني لطُولِ مُدَّتِه؛ فالصَّبرُ فيها عنه فيه مَشقَّةٌ، وهذا يمكِنُ أن يُفعَلَ في لحظةٍ لَطيفةٍ لا مَشَقَّةَ للصَّبرِ فيها عن المُماسَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

وممَّن نقل الإجماعَ على أنَّ الكفَّارةَ على التَّرتيبِ: ابنُ رُشْدٍ، والرَّمْليُّ، والصَّنْعانيُّ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ١١١)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (٣/ ٢٠٤)، ((سبل السلام)) =

٢٦- قولُه تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ فيه تشوُّفُ الشَّارعِ إلى تحريرِ الرِّقاب من الرِّقِّ، ويتفرَّعُ على هذه الفائدة الرَّدُّ على من أنكر على المسلمين الاسْتِرْقاقَ، فيُقالُ: إنَّ الاسترقاقَ جاء نتيجةً لأمرٍ ضروريٍّ، ومع ذلك فإنَّ هناك مُشَجِّعَاتٍ كثيرةً على التَّحْريرِ[١].

٢٧- قول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ يدُلُّ على أنَّ التَّتابُعَ شَرطٌ[٢]، فيجبُ ألَّا يُفطِرَ بَيْنَهما إلَّا لعُذرٍ كالسَّفَرِ والمرَضِ، فإنْ لَمْ يُتابِعْ -بأنْ أَفْطَرَ يومًا في أثناءِ الشَّهرَينِ بدُونِ عُذرٍ- فعليه أنْ يَستَأنِفَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى اشتَرَطَ أنْ يكونَ الشَّهرانِ مُتتابِعَينِ، فلا بُدَّ أنْ يَستَأنِفَ[٣].

---

= للصنعاني (٣/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٧).

نقَل ابنُ قُدامةَ الإجماعَ على وُجوبِ التَّتابُعِ. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٦).

قال ابن عاشور: (ولا يَمَسُّ امرأتَه حتَّى يَتِمَّ الشَّهرانِ مُتتابِعَين، فإنْ مسَّها في خلالِ الشَّهرينِ أثِم، ووجَب عليه إعادةُ الشَّهرينِ. وقال الشَّافعيُّ: إذا كان الوطءُ لَيلًا لم يَبطُلِ التَّتابُعُ؛ لأنَّ اللَّيلَ ليس محلًّا للصَّومِ، وهذا هو الجاري على القياسِ، وعلى مقتضى حديثِ سلَمةَ بنِ صخرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١).

اتَّفَق الفقهاءُ على أنَّ المُظاهِرَ إذا وطِئَ مَن ظاهَرَ منها في النَّهارِ عامدًا، فإنَّ فِعلَه هذا يَقطَعُ التَّتابُعَ.

واختلَفوا فيما إذا وَطِئها في اللَّيلِ عامدًا أو ناسيًا، أو وطِئها في النَّهارِ ناسيًا؛ فذهب أبو حنيفةَ ومحمَّدٌ إلى أنَّ المُظاهِرَ إذا جامَع الَّتي ظاهَر منها باللَّيلِ عامدًا أو بالنَّهارِ ناسيًا، فإنَّ ذلك يَقطَعُ التَّتابُعَ. وقال أبو يوسفَ: إنَّ التَّتابُعَ لا يُقطَعُ بذلك.

وذهب المالكيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّ وطْءَ المُظاهَرِ منها يَقطَعُ التَّتابُعَ مطلقًا؛ سواءٌ أكان باللَّيلِ أم بالنَّهارِ، وسواءٌ أكان عالِمًا أو ناسيًا أم جاهلًا أم غالطًا، أو بعُذرٍ يُبيحُ الفِطرَ كسَفَرٍ.

وذهب الشَّافعيَّةُ إلى أنَّ وطْأَه باللَّيلِ لا يَقطعُ التَّتابُعَ، ويُعتبَرُ عاصيًا. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٠/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣١). =

٢٨- قال اللهُ تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾ أُعيدَ قَيدُ ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه لا يكونُ المَسُّ إلَّا بعْدَ انقِضاءِ الصِّيامِ، فلا يُظَنُّ أنَّ مجَرَّدَ شُروعِه في الصِّيامِ كافٍ في العَودِ إلى الاستِمتاعِ[1].

---

= ونقَل ابنُ المُنذِرِ وابنُ قُدامةَ الإجماعَ على أنَّ مَن صام بعضَ الشَّهرَينِ، ثمَّ قَطَعَه مِن غيرِ عُذرٍ: أنَّ عليه أن يَستأنِفَ الشَّهرَينِ. ((الإجماع)) لابن المنذر (ص: ١١٩)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٦).

وقال ابن عطيَّة: (ولا خِلافَ أحفَظُه مِن أهلِ العِلمِ أنَّ الصَّائِمَ في الظِّهارِ إنْ أفسَدَ التَّتابُعَ باختيارِه أنَّه يَبتَدِئُ صَومَها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٥).

وقال الشنقيطيُّ بعدَ أن ذكر الخِلافَ في قطعِ تَتابُعِ الصَّومِ لِعُذرٍ كمرَضٍ ونحوِه، وأنَّ مِن أهلِ العِلمِ مَن قال: إن كان قطعُ التَّتابُعِ لعُذرٍ، فإنَّه لا يَقطَعُ حُكمَ التَّتابُعِ، وله أن يَبنيَ على ما صام قبْلَ حُصولِ العُذرِ. ومنهم مَن قال: يَنقطِعُ التَّتابُعُ؛ لأنَّه أفطَرَ بفِعلِه، فلَزِمَه الاستئنافُ.

قال: (الأظهَرُ عندي في هذا الفرعِ أنَّ قطْعَ تَتابُعِ صَومِ كفَّارةِ الظِّهارِ بالإفطارِ في أثناءِ الشَّهرَينِ إن كان لسببٍ لا قُدرةَ له على التَّحرُّزِ عنه، كالمرضِ الشَّديدِ الَّذي لا يَقدِرُ معه على الصَّومِ: أنَّه يُعذَرُ في ذلك، ولا يَنقطِعُ حُكمُ التَّتابُعِ؛ لأنَّه لا قُدرةَ له على التَّحرُّزِ عن ذلك، واللهُ جلَّ وعلا يقولُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ويقولُ: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يقولُ: «إذا أمَرْتُكم بشَيءٍ فأْتُوا منه ما استَطَعْتُم» [البخاري «٧٢٨٨» ومسلم «١٣٣٧»]، وإن كان يُمكِنُه التَّحرُّزُ عن الإفطارِ الَّذي قطَع به التَّتابُعَ كالإفطارِ للسَّفرِ في أثناءِ صَومِ الكفَّارةِ، وكما لو كان ابتِداءُ صَومِه الكفَّارةَ مِن شعبانَ؛ لأنَّ شَهرَه الثَّانيَ رمضانُ، وهو لا يُمكِنُ صَومُه عن الكفَّارةِ، وكما لو ابتدَأ الصَّومَ في مدَّةٍ يَدخُلُ فيها يومُ النَّحرِ أو يومُ الفِطرِ أو أيَّامُ التَّشريقِ: فإنَّ التَّتابُعَ يَنقطِعُ بذلك؛ لأنَّه قادرٌ على التَّحرُّزِ عن قَطعِه بما ذُكِر؛ لقُدرتِه على تأخيرِ السَّفرِ عن الصَّومِ كعَكسِه، ولقُدرتِه أيضًا على الصَّومِ في مدَّةٍ لا يَتخلَّلُها رمضانُ، ولا العيدانِ، ولا أيَّامُ التَّشريقِ، كما لا يَخفى. وإذا قطَع التَّتابُعَ بإفطارٍ هو قادرٌ على التَّحرُّزِ عنه بما ذُكِر، فكَونُه يَستأنِفُ صَومَ الشَّهرَينِ مِن جديدٍ ظاهرٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، وقد ترَك التَّتابُعَ مع قُدرتِه عليه. هذا هو الأظهَرُ عندَنا، والعِلمُ عندَ الله تعالى). ((أضواء البيان)) (٦/ ٢٢١، ٢٢١). ويُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٧)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٠/ ١٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠).

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ ثمَّ قَولِه: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أنَّ عَدْلَ الصِّيامِ مِنَ الصَّدَقةِ أنْ يُطْعِمَ عن كلِّ يومٍ مِسكينًا، وكقَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ [البقرة: ١٨٤]؛ وذلك لأنَّ طَعامَ يومٍ كصَومِ يومٍ(١).

٣٠- قال تعالى: ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾، والشَّهرانِ هما الهِلالانِ، وليس السِّتينَ يَومًا، فلو قُدِّرَ أنَّ الشَّهرَ الأوَّلَ ناقِصٌ والثَّانيَ ناقِصٌ، فستكونُ الأيامُ ثمانيةً وخمسينَ يومًا، ولا حَرَجَ؛ لأنَّ اللهَ لَمْ يَقُلْ: «ستِّينَ يَومًا»، إنَّما قال: ﴿شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾(٢). وجائِزٌ أن يَصومَهما الرَّجُلُ بالعَدَدِ، فيَصومُ سِتِّينَ يَومًا تِباعًا، وجائِزٌ أن يَصومَهما بالأهِلَّةِ، يَبدأُ مع الهِلالِ، ويُفطِرُ مع الهِلالِ، وإن جاء أحَدُ شَهرَيه ناقِصًا فذلك مُجزِئٌ عنه، وجائِزٌ إن بدأ صَومَه في وَسَطِ الشَّهرِ أنْ يُبعِّضَ الشَّهرَ الأوَّلَ، فيَصومَ إلى الهِلالِ، ثمَّ يَصومَ شَهرًا بالهِلالِ، ثمَّ يُتِمَّ الشَّهرَ الأوَّلَ بالعَدَدِ(٣).

٣١- قولُه تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ فيه مَجيءُ الصَّومِ دَرجةً ثانيةً قَريبةً مِن دَرجةِ تَحريرِ الرَّقَبةِ في المُناسَبةِ؛ وذلك رُخصةٌ لِمَن لم يَجِدْ عِتْقَ رَقبةٍ أنْ يَنتقِلَ إلى صِيامِ شَهرينِ مُتتابعينِ؛ لأنَّه لَمَّا لم يَجِدْ رَقبةً يَعتاضُ بفَكِّها عن فَكِّ عِصمةِ الزَّوجةِ، نُقِلَ إلى كَفَّارةٍ فيها مَشقَّةُ النَّفْسِ بالصَّبرِ على لذَّةِ الطَّعامِ والشَّرابِ؛ ليَدفَعَ ما الْتَزَمَه بالظِّهارِ مِن مَشقَّةِ الصَّبرِ على ابتعادِ حَليلتِه(٤).

٣٢- قول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فيه أنَّه لا بُدَّ مِن إطعامِ سِتِّينَ مِسكينًا، فلو جَمَع طَعامَ سِتِّينَ مِسكينًا

---

(١) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيميَّة - كتاب الحج)) (٢/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩، ٢٠).

ودفَعَها لواحِدٍ أو أكثَرَ مِن ذلك دونَ السِّتِّينَ، لم يَجُزْ ذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[١]. فالواجِبُ إطعامُ سِتِّينَ مِسكينًا، لا طَعامُ سِتِّينَ مِسكينًا، فبَيْنَهما فَرْقٌ؛ إذا قُلْنا: إطعامُ ستِّينَ مِسكينًا فلا بُدَّ مِن هذا العَدَدِ، وإذا قُلْنا: طعامُ سِتِّينَ مِسكينًا فإنَّه يجوزُ أنْ تُعطيَه واحِدًا[٢].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أنَّه لا يُجْزِئُه دَفْعُ الكَفَّارةِ إلَّا إلى المساكينِ، ويَدخُلُ فيهم الفُقَراءُ، كما يَدخُلُ المساكينُ في لَفظِ الفُقَراءِ عندَ الإطلاقِ[٣].

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ أنَّ الواجِبَ الإطعامُ؛ أنْ تُطْعِمَ سِتِّينَ مِسكينًا، لا أنْ تُمَلِّكَ السِّتِّينَ مِسكينًا، فلو غَدَّى المساكينَ أو عَشَّاهم فإنه يُجْزِئُه؛ لأنَّه يَصْدُقُ عليه أنَّه أَطْعَمَ سِتِّينَ مِسكينًا، أمَّا ما قَدَّرَه الشَّرعُ فإنَّه لا بُدَّ فيه مِن التَّمليكِ، ولا بُدَّ فيه مِن التَّقديرِ الَّذي قَدَّرَه الشَّرعُ، مثالُه: صَدَقةُ الفِطرِ، وفِديةُ الأذى[٤].

٣٥- قول الله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، أي: بالتِزامِ هذا الحُكمِ وغيرِه مِن الأحكامِ، والعملِ به؛ فإنَّ التِزامَ أحكامِ الله، والعملَ بها مِن الإيمانِ، وممَّا يَزيدُ به الإيمانُ ويكملُ ويَنْمو[٥]، ففيه دليلٌ على أنَّ العَمَلَ يَدخُلُ في مُسَمَّى الإيمانِ؛ فقد أمَرَهم بهذه الأعمالِ، وبَيَّنَ أنَّه أمَرَهم بها لِيَصيروا بعَمَلِها مُؤمِنينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٥/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٥/ ٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٣).

فدَلَّت الآيةُ على أنَّ العَمَلَ مِنَ الإيمانِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾

- حرْفُ (قَدْ) للتَّحقيقِ، ففي هذه الآيةِ تحقيقُ الفعلِ بـ (قد)[٢].

- وقد استُحضِرَت المرأةُ بعُنوانِ الصِّلةِ ﴿ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ تَنويهًا بمُجادَلتِها وشَكواها؛ لأنَّها دلَّت على تَوكُّلِها الصَّادقِ على رَحمةِ ربِّها بها وبأبْنائِها وبزَوجِها[٣].

- والاشتِكاءُ: مُبالَغةٌ في الشَّكوَى، وهي ذِكرُ الإنسانِ ما آذاهُ، يُقال: شَكا، وتَشكَّى، واشْتَكى، وأكثَرُها مُبالَغةً (اشْتَكى)[٤].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ لِما قبْلَه؛ فإنَّ إلْحافَها في المسألةِ، ومُبالَغتَها في التَّضرُّعِ إلى اللهِ تعالى، ومُدافَعتَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إيَّاها بجَوابٍ مُنبئٍ عن التَّوقُّفِ، وتَرقُّبِ الوحْيِ، وعِلْمَه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٩٠).

وقال الرَّسْعَني: («قَدْ» هاهنا على أصلِها للتَّوقُّع؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم والمُجادِلةَ توَقَّعا أن يَسمَعَ اللهُ مُجادَلتَهما وشَكْواهما، ويُنزِلَ فيهما ما عَساه يكونُ راحةً لها). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣).

وقال ابن عاشور: (ومعنى التَّوقُّعِ الَّذي يُؤذِنُ به حرْفُ «قدْ» في مِثلِ هذا يُؤَوَّلُ إلى تَنزيلِ الَّذي يَتوقَّعُ حُصولَ أمْرٍ -لشِدَّةِ استِشرافِه له- مَنزِلةَ المُتردِّدِ الطَّالبِ؛ فتَحقيقُ الخبَرِ مِن تَخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقْتضَى الظَّاهرِ لنُكتةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٩).

تعالى بحالِها؛ مِنْ دَواعي الإجابةِ[١].

- وجِيءَ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يَسْمَعُ﴾؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ السَّمعِ حسَبَ استِمرارِ التَّحاوُرِ وتجدُّدِه[٢]، ولاستِحضارِ حالةِ مُقارَنةِ سَمْعِ اللهِ تعالَى لتَحاوُرِهما؛ زِيادةً في التَّنويهِ بشأْنِ ذلك التَّحاوُرِ[٣]. فكَونُ اللهِ تَعالى سامِعًا ما جَرى مِن المُحاوَرةِ مَعلومٌ لا يُرادُ مِن الإخبارِ به إفادةُ الحكْمِ، فتَعيَّنَ صَرْفُ الخبَرِ إلى إرادةِ الاعتناءِ بذلك التَّحاوُرِ، والتَّنويهِ به وبعَظيمِ مَنزلتِه؛ لاشتمالِه على تَرقُّبِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يُنزِلُه عليه مِن وحْيٍ، وتَرقُّبِ المرأةِ الرَّحمةَ[٤].

- وفي نَظْمِ المُجادِلةِ في سِلْكِ الخِطابِ تَغليبًا: تَشريفٌ لها مِن جِهتَينِ[٥]: تَوجيهِ الخِطابِ لها، وجَعْلِها في ضَميرٍ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ تَعليلٌ لِمَا قبْلَه بطَريقِ التَّحقيقِ[٦]، أو تَذييلٌ[٧] لجُملةِ ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾[٨].

- وكُرِّرَ اسمُ الجَلالةِ (الله) في مَوضعِ إضمارِه ثَلاثَ مرَّاتٍ في قولِه: ﴿وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾؛ لتَربيةِ المَهابةِ، وإثارةِ تَعظيمِ مِنَّتِه تعالَى ودَواعي شُكْرِه، ولتَعليلِ الحُكمِ بوَصْفِ الأُلوهيَّةِ، وتأكُّدِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢١٦).

(٧) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٣).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩).

استِقلالِ كلِّ جُملةٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾

- جُملةُ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ وما يُتِمُّ أحكامَها تَتنزَّلُ مَنزلةَ البَيانِ لجُملةِ ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا ...﴾ [المجادلة: ١] الآيةَ؛ لأنَّ فيها مَخرَجًا ممَّا لَحِقَ بالمُجادِلةِ مِن ضُرٍّ بظِهارِ زَوجِها، وإبطالًا له، ولها أيضًا مَوقعُ الاستِئنافِ البَيانيِّ لجُملةِ ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ يُثيرُ سُؤالًا في النَّفْسِ أنْ تقولَ: فماذا نشَأَ عن استِجابةِ اللهِ لشَكوى المُجادِلةِ؟ فيُجابُ بما فيه المَخرَجُ لها منه[٢].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ كان الظَّاهِرُ أنْ يُقالَ هنا: (الَّذين يُظاهِرون مِن نِسائِهم)، ولكِنْ زِيدَ هنا ﴿مِنكُم﴾؛ قيل: ليُدمَجَ فيه تَوبيخُ العرَبِ، وتَهجينًا لعادَتِهم في الظِّهارِ؛ لأنَّه كان مِن أَيْمانِ أهلِ جاهليَّتِهم خاصَّةً دونَ سائرِ الأُمَمِ[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾، وبعْدَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٣]؛ وذلك أنَّ الأوَّلَ خِطابٌ للعربِ -على قولٍ-، وكان طَلاقُهم في الجاهليَّةِ الظِّهارَ، فقيَّده بقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦).

﴿مِنكُم﴾، وبقولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾، ثمَّ بيَّن أحكامَ الظِّهارِ للنَّاسِ عامَّةً، فعطَفَ عليه، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾؛ فجاء في كلِّ آيةٍ ما اقتضاهُ معناهُ[1]. أو أنَّ قولَه: ﴿مِنكُم﴾ خِطابٌ للمؤمنينَ، والمذكورون في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ﴾ [المجادلة:٣] هم المذكورونَ في الآيةِ الأولى[2].

- وعلى أنَّ الخِطابَ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم﴾ للمسلمينَ، فيَكونُ ذِكرُ هذا الوَصْفِ للتَّعميمِ؛ بَيانًا لمَدلولِ الصِّلةِ مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾؛ لئلَّا يُتوهَّمَ إرادةُ مُعيَّنٍ بالصِّلةِ[3].

- قولُه: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾، أي: ليس أزواجُهم أُمَّهاتٍ لهم بقولِ أحَدِهم: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمِّي، أي: لا تَصيرُ الزَّوجُ بذلك أُمًّا لقائلِ تلك المقالةِ. وهذا تَمهيدٌ لإبطالِ أثَرِ صِيغةِ الظِّهارِ في تَحريمِ الزَّوجةِ، بما يُشيرُ إلى أنَّ الأُمومةَ حَقيقةٌ ثابتةٌ لا تُصنَعُ بالقولِ؛ إذ القولُ لا يُبدِّلُ حَقائقَ الأشياءِ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾[الأحزاب: ٤]؛ ولذلك أُعقِبَ هنا بقولِه: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾، أي: فليستِ الزَّوجاتُ المُظاهَرُ منهنَّ بِصائراتٍ أُمَّهاتٍ بذلك الظِّهارِ؛ لانعِدامِ حَقيقةِ الأُمومةِ منْهنَّ؛ إذ هنَّ لم يَلِدْنَ القائلينَ: أنتِ عليَّ كظَهْرِ أُمِّي، فلا يَحرُمْنَ عليهم؛ فالقَصْرُ في الآيةِ حَقيقيٌّ[4]، أي:

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٦، ٤٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصَّاص (٥/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

فالتَّحريمُ بالظِّهارِ أمْرٌ باطلٌ لا يَقْتضيهِ سَببٌ يُؤثِّرُ إيجادَه[١].

- وجُملةُ ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ واقعةٌ موقعَ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾، وهو تَعليلٌ للمَقصودِ مِن هذا الكلامِ، أي: إبطالِ التَّحريمِ بلَفظِ الظِّهارِ؛ إذ كَونُهنَّ غيرَ أُمَّهاتِهم ضَروريٌّ لا يَحتاجُ إلى التَّعليلِ[٢].

- وفي الآيةِ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالسَّلبِ والإيجابِ[٣]؛ ففي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْ﴾ نفْيٌ لصَيرورةِ المرأةِ أُمًّا بالظِّهارِ، وإثباتُ الأُمومةِ لِلَّتي وَلَدَتِ الولَدَ[٤].

- وزِيدَ صَنيعُهم ذمًّا بقولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾؛ تَوبيخًا لهم على صَنيعِهم، أي: هو مع كَونِه لا يُوجِبُ تَحريمَ المرأةِ هو قولٌ مُنكَرٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٣).

(٣) السَّلْبُ والإيجابُ: هو بِناءُ الكلامِ على نفْيِ الشَّيءِ من جِهةٍ، وإثباتِه مِن جِهةٍ أخرى، أو الأمْرِ به في جِهةٍ، والنَّهي عنه في جِهةٍ، وما يَجري مَجرَى ذلك، كأنْ يَقصِدَ المادِحُ أنْ يُفرِدَ ممدوحَه بصِفةِ مدحٍ لا يَشرَكُه فيها غيرُه، فيَنفيها في أوَّلِ كلامِه عن جميعِ النَّاسِ، ويُثبتُها لممدوحِه بعدَ ذلك، وهو يَجري في الأفعالِ والأسماءِ على حدٍّ سواءٍ، فمِن أمثلةِ الأفعالِ: الأمرُ والنَّهيُ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، والإثباتُ والنَّفيُ في قولِه سبحانَه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم ٦، ٧]. وجرَيانُه في الأسماءِ مِثل قولِه تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: ٤]، وقولِه تعالى: ﴿مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]. يُنظر: ((الصناعتين: الكتابة والشعر)) للعسكري (ص: ٤٠٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٩٣)، ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ تأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) واللَّام؛ للاهتِمام بإيقاظِ النَّاسِ لشَناعةِ الظِّهارِ؛ إذ كانوا قد اعْتادُوه، فنُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَتردَّدُ في كَونِه مُنكَرًا أو زُورًا[1]. ومَناطُ التأْكيدِ ليس صُدورَ القولِ عنهم؛ فإنَّه أمرٌ مُحقَّقٌ، بلْ كونُه مُنكَرًا عندَ الشَّرعِ وعندَ العقلِ والطَّبْعِ، كما يُشعِرُ بهِ تَنكيرُ كَلمةِ ﴿مُنكَرًا﴾[2].

- وبعْدَ التَّوبيخِ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ عُطِفَ عليه جُملةُ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ كِنايةً عن عدَمِ مُؤاخَذتِهم بما صدَرَ منهم مِن الظِّهارِ قبْلَ هذه الآيةِ؛ إذ كان عُذْرُهم أنَّ ذلك قَولٌ تابَعوا فيه أسْلافَهم، وجَرى على ألْسنتِهم دونَ تَفكُّرٍ في مَدلولاتِه[3].

- وتأْكيدُ الخبَرِ في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ لمُشاكَلةِ تأْكيدِ مُقابِلِه في قولِه: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾[4].

- وأَعْقَبَ ﴿لَعَفُوٌّ﴾ بقولِه: ﴿غَفُورٌ﴾؛ فقولُه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ في معنى: إنَّ اللهَ عفَا عنهم، وغفَر لهم؛ لأنَّه عفوٌّ غفورٌ، يَغفِرُ هذا وما هو أشدُّ. والعفوُّ: الكثيرُ العَفوِ، والعفْوُ عدَمُ المؤاخَذةِ بالفِعلِ، أي: عفُوٌّ عن قولِهم الَّذي هو مُنكَرٌ وزُورٌ. والغَفورُ: الكَثيرُ الغُفرانِ، والغُفرانُ: الصَّفحُ عن فاعلِ فِعلٍ مِن شأْنِه أنْ يُعاقِبَه عليه؛ فذِكرُ وصْفِ (غَفُورٍ) بعْدَ وصْفِ (عَفُوٍّ) تَتميمٌ[5]؛ لتَمجيدِ اللهِ؛ إذ لا ذنْبَ في المُظاهَرةِ حيثُ لم يَسبِقْ فيها نهْيٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٦).

ومع ما فيه مِن مُقابَلةِ شَيئينِ -وهما: (مُنكَرًا وزُورًا)- بشَيئينِ هما: (عفُوٌّ غَفورٌ)[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ [المجادلة: ٢]؛ أُعيدَ المُبتدأُ -﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ﴾- فيها للاهتِمامِ بالحُكْمِ والتَّصريحِ بأصحابِه، وكان مُقتضَى الكلامِ أنْ يُقالَ: (فإنْ يَعودوا لِما قالوا فتَحريرُ رَقبةٍ)؛ فيَكونَ عطْفًا على جُملةِ الخبَرِ مِن قولِه: ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾[٢] [المجادلة: ٢].

- وقيل: هو كَلامٌ مُستأنَفٌ؛ مَسوقٌ لتَفصيلِ حُكْمِ الظِّهارِ بعْدَ بَيانِ كَونِه أمرًا مُنكَرًا[٣].

- و(ثُم) في قولِه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ عاطفةٌ جُملةَ ﴿يَعُودُونَ﴾ على جُملةِ ﴿يُظَٰهِرُونَ﴾، وهي للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ تَعريضًا بالتَّخطئةِ لهم بأنَّهم عادُوا إلى ما كانوا يَفعَلونه في الجاهليَّةِ بعْدَ أنِ انقطَعَ ذلك بالإسلامِ؛ ولذلك عُلِّقَ بفِعلِ ﴿يَعُودُونَ﴾ ما يدُلُّ على قَولِهم لفظَ الظِّهارِ[٤].

- والمُرادُ بـ (ما قالوا): ما قالوا بلَفظِ الظِّهارِ، وهو ما حرَّموه على أنفُسِهم مِنَ الاستِمتاعِ المُفادِ مِن لَفظِ: أنتِ علَيَّ كظَهرِ أُمِّي؛ ففِعلُ القولِ في هذا وأمثالِه ناصبٌ لمُفرَدٍ؛ لوُقوعِه في خِلالِ جُملةٍ مَقولةٍ، وإيثارُ التَّعبيرِ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥، ١٦).

المعْنى الَّذي وقَعَ التَّحريمُ له بلَفظِ الظِّهارِ بالمَوصولِ وصِلتِه هذه؛ إيجازٌ وتَنزيهٌ للكلامِ عن التَّصريحِ به، فالمعْنى: ثمَّ يَرُومون أن يَرجِعوا للاستِمتاعِ بأزواجِهم بعْدَ أنْ حرَّموه على أنفُسِهم(١).

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ للتَّعليلِ؛ فيَكونَ التَّقديرُ على هذا الوجْهِ: ثمَّ يُريدونَ العَودَ لأجْلِ ما قالوا، أي: لأجْلِ رَغبتِهم في أزواجِهم، فيَصيرَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿يَعُودُونَ﴾ مُقدَّرًا يدُلُّ عليه الكلامُ، أي: يَعودون لِما تَرَكوه مِن العِصمةِ، ويَصيرَ الفِعلُ في معْنى: يَندَمون على الفِراقِ(٢).

- قولُه: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ عبَّر بالرقبةِ عن الذَّاتِ؛ فإنَّ الإنسانَ لا يُحَرِّرُ الرَّقَبةَ وحْدَها، بل يُحَرِّرُ كُلَّ العَبدِ، ففيه صِحَّةُ إضافةِ الشَّيءِ إلى بعضِه، وهذا كثيرٌ في القرآنِ(٣).

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ﴾، أي: واللهُ عليمٌ بجَميعِ ما تَعمَلونه مِن هذا التَّكفيرِ وغيرِه(٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ فيه مَجيءُ الكَفَّارةِ مُتناسِبةً مع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٣٦٨، ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩).

المُكفَّرِ عنه مُرتَّبةً تَرتيبًا مُناسِبًا؛ وتَوضيحُ ذلك أنَّه مَن لم يَستطِعْ -لعَجْزِه أو ضَعْفِه- رخَّصَ اللهُ له أنْ يَنتقِلَ إلى إطعامِ سِتِّينَ مِسكينًا عِوَضًا عن الصِّيامِ؛ فالإطعامُ دَرجةٌ ثالثةٌ يَدفَعُ عن سِتِّينَ مِسكينًا أَلَمَ الجوعِ عِوَضًا عمَّا كان الْتزَمَه على نفْسِه مِن مَشقَّةِ الابتعادِ عن لَذَّاتِه[١].

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّ مِن البيانِ والتَّعليمِ للأحكامِ، والتَّنبيهِ عليها، وإلى ما ذُكِرَ مِن الأحكامِ، أي: ذلك المَذكورُ لتُؤمِنوا باللهِ ورَسولِه، أي: لتُؤمِنوا إيمانًا كاملًا بالامتثالِ لِما أمَرَكم اللهُ ورسولُه، فلا تَشُوبوا أعمالَ الإيمانِ بأعمالِ أهلِ الجاهليَّةِ، وهذا زِيادةٌ في تَشنيعِ الظِّهارِ، وتَحذيرٌ للمسلمينَ مِن إيقاعِه فيما بعْدُ. وما في اسمِ الإشارةِ (ذَلِكَ) مِن معْنى البُعدِ؛ للتَّنبيهِ على عُلوِّ شأْنِ المُشارِ إليهِ، وبُعْدِه في الفضْلِ[٢].

- ولَمَّا كان المشارُ إليه -وهو صِيامُ شَهرينِ أو إطعامُ ستِّينَ مسكينًا- عِوَضًا عن تَحريرِ رَقبةٍ، كان ما عُلِّلَ به تَحريرُ رَقبةٍ مُنسَحِبًا على الصِّيامِ والإطعامِ، وما عُلِّلَ به الصِّيامُ والإطعامُ مُنسحِبًا على تَحريرِ رقبةٍ، فأفاد أنَّ كلًّا مِن تَحريرِ رَقبةٍ وصِيامِ شَهرينِ وإطعامِ سِتِّينَ مِسكينًا؛ مُشتمِلٌ على كِلْتا العِلَّتينِ، وهما: الموعظةُ، والإيمانُ باللهِ ورَسولِه[٣].

- قولُه: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى الأحكامِ المذكورةِ. وما في اسمِ الإشارةِ (تِلْكَ) مِن معْنى البُعدِ؛ لتَعظيمِها، والتَّنبيهِ على عُلوِّ شأْنِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٧).

- وقولُه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تَتْميمٌ لجُملةِ ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: ذلك الحُكمُ -وهو إبطالُ التَّحريمِ بالظِّهارِ- حكْمُ الإسلامِ، وأمَّا ما كانوا عليه فهو مِن آثارِ الجاهليَّةِ، وهو سُنَّةُ قومٍ لهم عَذابٌ أليمٌ على الكفْرِ وما تولَّدَ منه مِن الأباطيلِ، فالظِّهارُ شرْعُ الجاهليَّةِ؛ لأنَّه وضَعَه المشرِكون، ولم يَكنْ مِن الحَنيفيَّةِ(١).

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث خُتِمَ قولُه هنا: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بـ﴿أَلِيمٌ﴾، وبعْدَه ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ٥] بـ﴿مُّهِينٌ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصِلٌ بضِدِّه، وهو الإيمانُ، فتَوعَّدَهم على الكفْرِ بالعذابِ الأليمِ، الَّذي هو جَزاءُ الكافرينَ، والثَّانيَ مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿كُبِتُواْ﴾، وهو الإذلالُ والإهانةُ، فوصَفَ العذابَ بمِثلِ ذلك، فقال: ﴿مُّهِينٌ﴾(٢)، فهذه الآيةُ خُتِمتْ بقولِه: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ لأنَّه قال: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: يبيِّنُ لكم ذلك لتُؤْمِنوا بالله ورسولِه، وذكَرَ الحدودَ الَّتي حدَّها لعِبادِه، ثمَّ سمَّى مَن لم يُؤمِنْ كافرًا باسمِه، وتوعَّدَه بالعَذابِ الموجِعِ المبالَغِ فيه، وهو ما يُخَوِّفُ اللهُ تعالَى به عِبادَه. وأمَّا قولُه: ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾؛ فلأنَّ قبْلَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ﴾؛ فضمَّنَ معنَى الفِعلَينِ الشَّرطَ والجزاءَ، فجعَل الكبْتَ جَزاءَ مَن آثَرَ حِزبًا غَيرَ حِزبِ اللهِ ورسولِه، وحدًّا غَيرَ حَدِّهما، والكَبْتُ: الإذلالُ، وقيل: الغَلَبُ والقهرُ والتَّخييبُ، وكلُّ ذلك مُتقارِبٌ، فلمَّا أخبَر اللهُ تعالى بالكَبتِ عمَّن حادَّ اللهَ ورسولَه وجانَبَهما، وصارَ في حدٍّ غَيرِ حَدِّهما؛ وصَف العذابَ الَّذي ينزِلُ به بالإذلالِ والإهانةِ، وإنْ كان كلُّ مؤْلِمٍ مُهينًا، وكلُّ مُهينٍ مؤْلِمًا.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٤).

وممَّا يَشهَدُ لذلك قولُه تعالى في آخرِ السُّورةِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ [المجادلة: ٢٠]؛ فقولُه هنا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ كقولِه في الأوَّلِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾[1].

(١) يُنظر: ((درة التنزيل)) للإسكافي (ص: ١٢٥٧، ١٢٥٨).

## الآيات (٥-٧)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُحَآدُّونَ﴾: أي: يُخالِفونَ ويُحارِبونَ ويُعادُونَ، يُقالُ: حادَّ فُلانٌ فُلانًا، أي: صار في حَدٍّ غَيرِ حَدِّه. وأصلُ (حدد): يدُلُّ على طَرَفِ الشَّيءِ؛ وذلك لأنَّ المُحادَّ يكونُ فِي حَدٍّ، وَاللهُ ورَسولُه فِي حَدٍّ[١].

﴿كُبِتُوا۟﴾: أي: أُذِلُّوا وأُخْزُوا، يُقالُ: كَبَتَ اللهُ فُلانًا: إذا صَرَفَه وأذَلَّه. والمردودُ بالذُّلِّ يُقالُ له: مَكْبوتٌ، وأصلُ (كبت): يدُلُّ على الإذلالِ والصَّرفِ عن الشَّيءِ[٢].

﴿أَحْصَىٰهُ﴾: أي: عدَّه عليهم، وأثبَتَه وحَفِظَه، وأصلُ (حصي): يدُلُّ على عَدٍّ وإطاقةٍ[٣].

﴿نَّجْوَىٰ﴾: أي: سِرَارٍ ومُناجاةٍ، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ١٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٢٨٢)، ((مقاييس =

﴿أَدْنَىٰ﴾: أي: أقَلَّ، وأصل الدُّنوِّ: القُرْبُ بالذَّاتِ أو بالحُكمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمَنزِلةِ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾

قَولُه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾: ﴿مَا﴾: نافيةٌ. ﴿يَكُونُ﴾: فِعلٌ مُضارِعٌ تامٌّ مَرفوعٌ، أي: ما يَقَعُ أو يَحدُثُ. ﴿مِن نَّجْوَىٰ﴾: مِن: حرفُ جَرٍّ زائدٌ. نَجْوَى: فاعِلٌ مجرورٌ لَفظًا، مرفوعٌ محَلًّا. ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾: مضافٌ إليه مجرورٌ. ﴿إِلَّا﴾: أداةُ حَصرٍ، والاستِثناءُ مفرَّغٌ مِن أعمِّ الأحوالِ. ﴿هُوَ﴾: ضميرٌ مَبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ مُبتدَأٌ. ﴿رَابِعُهُمْ﴾: خبَرُ المُبتدَأِ مَرفوعٌ، والجُملةُ الاسميَّةُ في محَلِّ نَصبٍ، حالٌ.

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾: الواو: حرفُ عَطفٍ. (لَا): زائِدةٌ لتوكيدِ النَّفيِ. ﴿أَدْنَىٰ﴾: معطوفٌ على لَفظِ ﴿نَّجْوَىٰ﴾ مجرورٌ مِثلُه، وعَلامةُ جرِّه الفَتحةُ المقدَّرةُ؛ لأنَّه ممنوعٌ مِن الصَّرفِ، ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾: معطوفٌ على لَفظِ «نَجْوَى» مجرورٌ مِثلُه، وعَلامةُ جرِّه الفَتحةُ المقدَّرةُ؛ لأنَّه ممنوعٌ مِن الصَّرفِ، ﴿إِلَّا﴾: أداةُ حَصرٍ. ﴿هُوَ﴾: ضميرٌ مَبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ مُبتدَأٌ. ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرفٌ مَنصوبٌ متعلِّقٌ بمَحذوفٍ خَبَرٌ، والجملةُ في محلِّ نَصبٍ، حالٌ[2].

---

= اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢١٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٨/ ١٧٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُبيِّنًا سوءَ عاقِبةِ الَّذين يُعادون ويحارِبونَ اللهَ ورسولَه: إنَّ الَّذين يُخالِفونَ اللهَ ورَسولَه، ويُعادونَهما ويُحارِبونَهما أُذِلُّوا وأُخْزُوا كما وقَع للمُخالِفينَ مِن قَبْلِهم، وقد أنزَلْنا في القُرآنِ آياتٍ واضِحاتٍ، وللكافِرينَ عَذابٌ مُخْزٍ مُذِلٌّ يومَ يَبعَثُهم اللهُ، فيُخبِرُهم بما عَمِلوه في الدُّنيا، عَدَّ اللهُ عليهم ما عَمِلوه، وأثبَتَه وحَفِظَه، ونَسِيَه عامِلوه، واللهُ شهيدٌ رَقيبٌ على كُلِّ شَيءٍ.

ثمَّ يخبرُ تعالى عن شمولِ عِلمِه وإحاطتِه بخَلقِه، فيقولُ: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ يَعلَمُ ما في السَّمَواتِ، وما في الأرضِ، لا يتحَدَّثُ ثَلاثةٌ مِنَ النَّاسِ سِرًّا فيما بَيْنَهم إلَّا واللهُ تعالى رابِعُهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم، ولا خَمسةٌ إلَّا واللهُ تعالى سادِسُهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم، ولا أقَلُّ مِن ذلك ولا أكثَرُ إلَّا واللهُ تعالى معهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم في أيِّ مَوضِعٍ كانوا فيه، ثمَّ يُخبِرُ اللهُ يومَ القيامةِ أولئك المُتناجِينَ بما عَمِلوه في الدُّنيا، إنَّ اللهَ عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى المؤمِنينَ الواقِفينَ عندَ حُدودِه؛ ذَكَر المحادِّينَ المخالِفينَ لها[1].

وأيضًا لَمَّا جَرى ذِكرُ الكافرينَ، وجَرى ذِكرُ حُدودِ اللهِ، وكان في المدينةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٤).

مُنافِقون مِن المشركين؛ نُقِل الكلامُ إلى تَهديدِهم، وإيقاظِ المسلمينَ للاحترازِ منْهم[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُخالِفونَ ويُعادُونَ اللهَ ورَسولَه، ويجعلون حدودًا غيرَ حدودِه؛ فإنَّهم يُرَدُّونَ عن مُبتَغاهم هذا بعُنفٍ وإذلالٍ وإغاظةٍ لهم، كما وقع للمُخالِفينَ اللهَ ورُسُلَه مِن قَبْلِهم[٢].

﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾.

أي: وقد أنزَلْنا آياتٍ واضِحاتٍ، ليس لأحَدٍ حُجَّةٌ أو عُذرٌ في مُخالفتِها، ولا يخالِفُها مِن بَعدِ ذلك سِوى مُكابِرٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [البقرة: ٩٩].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٨)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٣٩٢، ١٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

قال الشوكاني: (والحالُ أنَّا قد أنزَلْنا آياتٍ واضحاتٍ فيمَن حادَّ الله ورسلَه مِن الأُمَم المتقدِّمَة، وقيل: المرادُ الفرائِضُ التي أنزَلها الله سبحانَه، وقيل: هي المُعجِزاتُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٢).

أي: وللكافِرينَ عَذابٌ يُهينُهم ويُذِلُّهم في الآخِرةِ مُقابِلَ استِكبارِهم عن اتِّباعِ الحَقِّ، وتَرْكِ الخُضوعِ والانقيادِ إليه[١].

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ سُبحانَه بيَّنَ أنَّ عَذابَ هؤلاء المحادِّينَ في الدُّنيا: الذُّلُّ والهوانُ، وفي الآخِرةِ العَذابُ الشَّديدُ، ثمَّ ذَكَر تعالى ما به يتكامَلُ هذا الوَعيدُ[٢].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عذابَه، ذكَرَ وَقْتَه على وَجهٍ مُقَرِّرٍ لِما مضَى من شُمولِ عِلْمِه وكَمالِ قُدرتِه، فقال[٣]:

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ﴾.

أي: للكافِرينَ عَذابٌ مُهينٌ في اليَومِ الَّذي يَبعَثُ اللهُ فيه الكافِرينَ جَميعًا، فيُخبِرُهم بما عَمِلوه في الدُّنيا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

قال القرطبي: (قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ نُصِب بـ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أو بفِعلٍ مُضمَرٍ تقديرُه: «واذكُرْ»؛ تعظيمًا لليومِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ عطيَّة، والرَّسْعَني، والبِقاعي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير =

﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾.

أي: أحصى اللهُ عليهم ما عَمِلوه، فعَدَّه وأثبَتَه وحَفِظَه، ونَسِيَه عامِلوه[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على كُلِّ شَيءٍ ممَّا عمِلوه وغيرِه، ولا يخفَى عليه شَيءٌ، فهو سُبحانَه حاضِرٌ لا يَغيبُ، وحَفيظٌ رَقيبٌ[2].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ

---

= الرسعني)) (٨/ ٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٥٨).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: مكِّيٌّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٦٧).

قال الرَّازي: (في قولِه: ﴿جَمِيعًا﴾ قَولانِ:

أحدُهما: كلَّهم، لا يُترَكُ منهم أحدٌ غيرَ مَبعوثٍ.

والثَّاني: مُجتمِعينَ في حالٍ واحدةٍ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٨٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣٦).

وقال البِقاعي: (﴿جَمِيعًا﴾ في حالِ كَونِهم مُجتمِعينَ في البعثِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه على كلِّ شيءٍ شهيدٌ، لا يخفَى عليه شيءٌ؛ أكَّد سبحانَه بيانَ كَونِه عالِمًا بكلِّ شيءٍ، فقال[1]:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- أنَّ اللهَ يَعلَمُ جَميعَ ما في السَّمَواتِ، وجميعَ ما في الأرضِ، فلا يخفَى عليه شَيءٌ مِن أقوالِ عِبادِه وأعمالِهم وسرائرِهم[2]؟

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [آل عمران: ٥].

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾.

أي: لا يَتحَدَّثُ ثَلاثةٌ مِنَ النَّاسِ سِرًّا فيما بَيْنَهم إلَّا واللهُ تعالى رابِعُهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

قال ابن عاشور: (﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مِن الرُّؤيةِ العِلميَّةِ؛ لأنَّ عِلمَ الله لا يُرى). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١، ٤٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

قال الآجُرِّي: (ابتدأ اللهُ عزَّ وجَلَّ الآيةَ بالعِلمِ، وختَمَها بالعِلمِ؛ فعِلمُه عزَّ وجَلَّ مُحيطٌ بجَميعِ خَلْقِه، وهو على عَرشِه، وهذا قَولُ المُسلِمينَ). ((الشريعة)) (٣/ ١٠٧٦). ويُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ١٥٤)، ((الإبانة الكبرى)) لابن بطة (٧/ ١٤٤).

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: (عُلماءُ الصَّحابةِ والتَّابِعينَ الَّذين حُمِلَ عنهم التَّأويلُ في القُرآنِ قالوا في =

﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾.

أي: ولا يَتحَدَّثُ خَمسةٌ مِنَ النَّاسِ سِرًّا فيما بَيْنَهم إلَّا واللهُ تعالى سادِسُهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم[1].

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [التوبة: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠].

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾.

أي: ولا يَتحدَّثُ سِرًّا أقَلُّ مِن ثلاثةٍ أو أكثَرُ مِن خَمسةٍ إلَّا واللهُ تعالى معهم بعِلْمِه، يَسمَعُهم ويَراهم في أيِّ مَوضِعٍ كانوا فيه[2].

عن أبي موسى الأَشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكُنَّا إذا أشرَفْنا[3] على وادٍ هَلَّلْنا وكَبَّرْنا، ارتَفَعَت أصواتُنا، فقال

---

= تأويلِ هذه الآية: هو على العَرشِ، وعِلمُه في كُلِّ مَكانٍ، وما خالفَهم في ذلك أحدٌ يُحتَجُّ بقَولِه)). ((التمهيد)) (٧/ ١٣٨، ١٣٩).

وقال ابنُ كثيرٍ: (حكى غيرُ واحِدٍ الإجماعَ على أنَّ المرادَ بهذه الآيةِ مَعِيَّةُ عِلمِ اللهِ تعالى، ولا شَكَّ في إرادةِ ذلك، ولكِنَّ سَمْعَه أيضًا مع عِلْمِه مُحيطٌ بهم، وبَصَرَه نافِذٌ فيهم، فهو سُبحانَه مُطَّلِعٌ على خَلْقِه، لا يَغيبُ عنه مِن أمورِهم شَيءٌ)). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١، ٤٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١، ٤٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٣) أشرَفْنا: أي اطَّلعنا. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٥/ ١٣٥).

النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا أيُّها النَّاسُ، ارْبَعُوا[١] على أنفُسِكم؛ فإنَّكم لا تَدْعُونَ أصَمَّ ولا غائِبًا، إنَّه معكم، إنَّه سَميعٌ قَريبٌ))[٢].

﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

أي: ثمَّ يُخبِرُ اللهُ يومَ القيامةِ أولئك المُتناجِينَ بما عَمِلوه في الدُّنيا[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه الكامِلُ بأقوالِ خَلْقِه وأفعالِهم، وضَمائِرِهم وأحوالِهم، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك سُبحانَه[٤].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ هذه

---

(١) ارْبَعُوا: أي: ارفُقُوا بأنفُسِكم، واخفِضُوا أصواتَكم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٢٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٢٩٩٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٦).

الجُملةُ تأكيدٌ لِمَا سَبَقَ مِن حيثُ المعنى، يعني أنَّ اللهَ شهيدٌ على كلِّ شيءٍ، سواءٌ كان فِعلًا أو قَولًا أو إضمارًا في القَلبِ،كلُّ ذلك فاللهُ شَهيدٌ عليه، والمقصودُ مِن هذا بيانُ إحاطةِ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ثمَّ التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ بأنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ شهيدٌ فإنَّه يَحْذَرُ ويَكُفُّ عن المعاصي، ويقومُ بالواجِباتِ(١).

٢- مَن كثُرتْ ذُنوبُه وسيِّئاتُه حتَّى فاتت العَدَّ والإحصاءَ، فلْيَستَغفِرِ اللهَ ممَّا عَلِم اللهُ؛ فإنَّ اللهَ قد عَلِم كلَّ شَيءٍ وأحصاه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، فالعبدُ يحتاجُ إلى استغفارٍ عامٍّ مِن جميعِ ذُنوبِه، ما عَلِم منها وما لم يَعلَمْ، ما ذكره منها وما نَسِيَه، فكلُّ ذلك قد عَلِمَه اللهُ وأحصاه(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه تحذيرٌ مِن المعاصي، وترغيبٌ في الطَّاعاتِ(٣)، فهو يَستوجِبُ أنْ يخافَ العبدُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وأنْ يقومَ بطاعتِه، وأنْ يَدَعَ معصيتَه؛ لأنَّه يَعلَمُ أنَّ اللهَ تعالى عالِمٌ به، حتَّى وإنْ خَفِيْتَ على النَّاسِ؛ فإنَّك لن تَخفى على اللهِ، بل إنَّ اللهَ يَعلَمُ مِن نفْسِك ما لا تَعلَمُه أنت؛ فأنت تَعلَمُ مِن نفْسِك ما يمكنُ أن تُحِيطَ به، لكنَّ اللهَ يَعلَمُ مِن نفْسِك ما لا تحيطُ به، فيَعلَمُ مُستقبَلَك، ومآلَك، وحالَك، وأنت لا تَعلَمُ، وهذا يُوجِبُ

---

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤١٦)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩١).

للعبدِ المؤمنِ بذلك: أنْ يخافَ ربَّه في السِّرِّ والعَلَنِ، حتَّى لو كنتَ بحُجرةٍ مُظلِمةٍ ليس عندَك أحَدٌ، وأردتَ أنْ تُغضِبَ اللهَ، فاعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى يَراك[1].

٤- مِمَّا يُوجِبُ خَشيةَ اللهِ تعالى في السِّرِّ والعَلانيةِ قُوَّةُ المُراقَبةِ له، والعِلمُ بأنَّه شاهِدٌ ورقيبٌ على قُلوبِ عبادِه وأعمالِهم، وأنَّه مع عبادِه حيثُ كانوا، كما دَلَّ على ذلك القُرآنُ في مواضِعَ؛ كقَولِه تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وقَولِه: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾[2]، ومَعِيَّةُ اللهِ مَعِيَّتانِ: مَعِيَّةٌ عامَّةٌ، وهي مَعِيَّتُه لجميعِ عِبادِه حتَّى مَن عصاه؛ قالَ تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨]، ومَعِيَّةٌ خاصَّةٌ وهي مَعِيَّتُه لأهلِ طاعتِه، فهوَ سبحانه مع الَّذين اتَّقَوا ومع الَّذين هم مُحسِنون. وقال لِموسى وهارونَ عليهما السَّلامُ: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، وقال موسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقال في حَقِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم وصاحِبِه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. والمَعِيَّةُ الخاصَّةُ تَقتضي حُسْنَ الظَّنِّ بإجابتِه ورِضاه، وحِفْظِه وصِيانتِه، والمَعِيَّةُ العامَّةُ تقتضي التَّحذيرَ مِن عِلْمِه واطِّلاعِه، وقُدرتِه وبَطْشِه وانتِقامِه[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ لَمَّا ذَكَر إحصاءَه له في قَولِه: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ فكان رُبَّما ظُنَّ أنَّه ممَّا يُمكِنُ في العادةِ إحصاؤُه، نفَى ذلك بقَولِه: ﴿وَنَسُوهُ﴾ أي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٣٣).

كُلُّهم مجتَمِعينَ؛ لخُروجِه عن الحَدِّ في الكثرةِ، فكيف بكُلِّ واحدٍ على انفِرادِه، ونَسُوا ما فيه مِنَ المعاصي تهاوُنًا بها، وذلك عَينُ التَّهاوُنِ باللهِ تعالى، والاجتراءِ عليه[١].

٢- ذَكَرَ أهلُ اللُّغةِ أنَّه إذا كان اسمُ «فاعل» على العَدَدِ مِن غيرِ جنسِ المفعولِ فإنَّه يُجعَلُ زائِدًا، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وإنْ كان مِن جِنْسِه فيُجعَلُ أحدَهم[٢]، فلو قيل: «فلانٌ رابعُ أربعةٍ» فإنه يكونُ مِن جِنْسِه، ولو قيل: «رابعُ ثلاثةٍ» صار مِن غيرِ جِنْسِه؛ ولهذا قال اللهُ تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ ولَمْ يَقُلْ: «إلَّا هو ثالثُهم»، وقال عن النَّصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] ولَمْ يَقُلْ: «ثالثُ اثنينِ»؛ لأنَّهم يَجعلون اللهَ ومريمَ وعيسى سواءً! يَجعلون الكلَّ جِنسًا واحدًا، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠]؛ قال ذلك لأنَّهما مِن جِنسٍ واحِدٍ[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ﴾ ليس مُقتضاها أنْ تكونَ ذاتُ الرَّبِّ عزَّ وجلَّ مُختَلِطةً بالخَلْقِ. ويدُلُّ على ذلك: أنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَها في آيةِ المجادَلةِ بيْنَ ذِكْرِ عمومِ عِلْمِه في أولِ الآيةِ وآخِرِها، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، فيكونُ ظاهِرُ الآيةِ: أنَّ مُقتَضى هذه المَعِيَّةِ عِلْمُه بعبادِه، وأنَّه لا يَخفى

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية - كتاب الطهارة)) (ص: ٨٦).

(٣) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٤/ ١٧٠).

عليه شيءٌ مِن أعمالِهم، لا أنَّه سُبحانَه مُختلِطٌ بهم، ولا أنَّه معهم في الأرضِ[١]!

٤- قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ لا يُنافي ما ذَكَرَه تعالى عن نفْسِه مِن العُلُوِّ، لأنَّه سُبحانَه وتعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولا يُقاسُ بخَلْقِه؛ فمَعِيَّتُه ثابتةٌ مع عُلُوِّهِ تبارك وتعالى، وإذا كان العُلُوُّ والمَعِيَّةُ لا يَتناقَضانِ في حقِّ المخلوقِ -فإنَّهم يقولونَ: «ما زِلْنا نسيرُ والقَمَرُ معنا» ولا يَعُدُّون ذلك تناقُضًا مع أنَّ القمرَ في السَّماءِ- فثُبُوتُ ذلك في حقِّ الخالقِ مِن بابِ أَولى، وبهذا يَبطُلُ قولُ مَن زَعَمَ أنَّ مَعِيَّةَ اللهِ تَستَلزِمُ أنْ يكونَ في الأرضِ مُختَلِطًا بالخَلْقِ! فإنَّ هذا قَولٌ باطلٌ باتِّفاقِ السَّلَفِ، المُستنِدِ على الكتابِ والسُّنَّةِ في إثباتِ عُلُوِّ اللهِ فوقَ خَلْقِه[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ هذه المَعِيَّةُ تقتضي إحصاءَ ما عَمِلُوه، فإذا كان يومُ القيامةِ نَبَّأهم بما عَمِلوا، يعني: أخْبَرهم به، وحاسَبَهم عليه؛ لأنَّ المرادَ بالإنباءِ لازِمُه، وهو المحاسَبةُ، لكنْ إنْ كانوا مؤمِنينَ فإنَّ اللهَ تعالى يُحصي أعمالَهم، ثمَّ يقولُ سُبحانَه وتعالى: ((ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليومَ!))[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٤٩).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٢٤٤١)، ومسلمٌ (٢٧٦٨) مطوَّلًا من حديث عبدِالله بنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أُوثِرَ الفِعلُ ﴿يُحَآدُّونَ﴾ هنا؛ لوُقوعِ الكلامِ عقِبَ ذِكرِ حُدودِ اللهِ؛ فإنَّ المُحادَّةَ مُشتقَّةٌ مِن الحدِّ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ مِن المُتعادِيَينِ كأنَّه في حدٍّ مُخالِفٍ لحَدِّ الآخَرِ. وفِعلُ ﴿كُبِتُوا۟﴾ مُستعمَلٌ في الوعيدِ، أي: سيُكْبَتون، فعُبِّر عنه بالمُضِيِّ تَنبيهًا على تَحقيقِ وُقوعِه؛ لصُدورِه عمَّن لا خِلافَ في خبَرِه، مِثل: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، ولأنَّه مُؤيَّدٌ بتَنظيرِه بما وقَعَ لأمثالِهم، وقَرينةُ ذلك تأْكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)؛ لأنَّ الكلامَ لو كان إخبارًا عن كبْتٍ وقَعَ، لم يكُنْ ثَمَّ مُقْتضًى لتأْكيدِ الخبَرِ؛ إذ لا يُنازِعُ أحدٌ فيما وقَعَ، ويَزيدُ ذلك وُضوحًا قولُه: ﴿كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1].

- وجُملةُ ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وجُملةِ ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، أي: لا عُذْرَ لهم في مُحادَّةِ اللهِ ورسولِه؛ فإنَّ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم آياتِ القرآنِ بيِّنةً على صِدْقِه[2]. أو حالٌ مِن واوِ ﴿كُبِتُوا۟﴾، أيْ: كُبِتوا لمُحادَّتِهم، والحالُ أنْ قدْ أنزَلْنا آياتٍ واضحاتٍ[3].

- قولُه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إمَّا تَتميمٌ[4]؛ فتَكونُ اللَّامُ للعهْدِ، والتَّقديرُ: ولهم عَذابٌ مُهينٌ، ويكونُ قولُه: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ وضْعًا للمُظهَرِ مَوضعَ المُضمَرِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ اللَّعنةَ لَحِقَتْهم لكُفْرِهم، وللإشارةِ إلى أنَّ هؤلاء الَّذين حَادُّوا اللهَ ورسولَه كفَّارٌ، ولِيَعُمَّ هؤلاء وغيرَهم -وإنْ كان كلُّ مَن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٦).

كَفَر فهو مُحادٌّ للهِ ورسولِه-؛ لكنَّ ذِكْرَ الوصفِ أَبْلَغُ. وإمَّا تَذييلٌ[١]، فتَكونُ اللَّامُ للجنْسِ؛ ليَستغرِقَ كلَّ الكافرينَ، فيَدخل الكافِرون بالآياتِ فيه دُخولًا أوَّليًّا[٢].

- ووُصِفَ عَذابُهم بالمُهينِ؛ لمُناسَبةِ وَعيدِهم بالكبْتِ الَّذي هو الذُّلُّ والإهانةُ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ...﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ لَفظُ ﴿يَوْمَ﴾ مَنصوبًا على المفعولِ به لِفعلٍ تَقديرُه: اذكُرْ؛ تَنويهًا بذلك اليوم، وتَهويلًا عليهم، أو يكونَ على أنَّه جَوابٌ لِمَن سأَلَ: متى يكونُ عَذابُ هؤلاء؟ فقيل له: يومَ يَبعَثُهم اللهُ، أي: يكونُ يومَ يَبعَثُهم اللهُ[٤].

- وقولُه: ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ تَهديدٌ بفضْحِ نِفاقِهم يومَ البعثِ، وفيه كِنايةٌ عن الجزاءِ على أعمالِهم[٥].

- وجُملةُ ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن (مَا عَمِلُوا)، والمقصودُ مِن الحالِ هو ما عُطِفَ عليها مِن قولِه: ﴿وَنَسُوهُ﴾؛ لأنَّ ذلك مَحلُّ العِبرةِ. وبه تَكونُ الحالُ مُؤسِّسةً لا مُؤكِّدةً لعامِلِها[٦]، وهو ﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾، أي: عَلِمَه

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٧٨، ٢٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤)، ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤).

(٦) الحالُ في اصطلاحِ النُّحاةِ: إمَّا مُؤسِّسةٌ، وإمَّا مؤكِّدةٌ؛ فالمؤسِّسةُ -وتُسمَّى المبيِّنةَ أيضًا؛ لأنها =

اللهُ عِلمًا مُفصَّلًا مِن الآنَ، وهم نَسُوه، وذلك تَسجيلٌ عليهم بأنَّهم مُتهاوِنون بعَظيمِ الأمرِ، وذلك مِن الغُرورِ[١].

وقيل: قولُه: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جَوابًا عمَّا نشَأَ ممَّا قبْلَه مِنَ السُّؤالِ؛ إمَّا عنْ كَيفيَّةِ التَّنبئةِ، أو عنْ سَببِها، كأنَّه قيلَ: كيفَ يُنبِّئُهم بأعمالِهم وهيَ أعراضٌ مُنْقضيةٌ مُتلاشيةٌ؟ فقيلَ: أحصاهُ اللهُ عَددًا، لمْ يَفُتْه منه شَيءٌ، فقولُه تعالَى: ﴿وَنَسُوهُ﴾ حينَئذٍ حالٌ مِن مَفعولِ (أحْصَى). أو قِيل: لِمَ يُنبِّئُهم بذلك؟ فقِيل: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾، فيُنبِّئُهمْ به؛ ليَعرِفُوا أنَّ ما عايَنُوه مِن العذابِ إنَّما حاقَ بهم مِن أجْلِه، وفيه مَزيدُ تَوبيخٍ وتَنديمٍ لهُم غَيرِ التَّخجيلِ والتَّشهيرِ[٢].

- جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لإحصائِهِ تعالى[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن

---

= تُذكَرُ للتَّبيينِ والتَّوضيحِ- هي الَّتي لا يُستفادُ معناها بدُونِها، نحو: جاء خالدٌ راكبًا. وأكثَرُ ما تأتي الحالُ مِن هذا النَّوعِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨] و [الكهف: ٥٦]. والمؤكِّدةُ هي الَّتي يُستفادُ معناها بدُونِها، وإنَّما يُؤتَى بها للتَّوكيدِ، وهي ثلاثةٌ؛ الأُولَى: ما يُؤتَى بها لتَوكيدِ عامِلِها، وهي الَّتي تُوافِقُه معنًى فقط، أو معنًى ولفظًا. فالأوَّلُ نحو: تَبسَّمَ ضاحِكًا، ومنه قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]. والثَّاني كقولِه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]. الثَّانيةُ: ما يُؤتَى بها لتوكيدِ صاحبِها، نحو: جاء التَّلاميذُ كلُّهم جميعًا. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]. الثَّالثةُ: ما يُؤتَى بها لتَوكيدِ مَضمونِ جُملةٍ مَعقودةٍ مِن اسمَينِ مَعرفتَينِ جامدَينِ، نحو: هو الحقُّ بَيِّنًا، أو صريحًا، ونحو: نحن الإخوةُ مُتعاونينَ. يُنظر: ((أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)) لابن هشام (٢/ ٢٤٩، ٢٥٠)، ((شرح الأشمونى لألفية ابن مالك)) (٢/ ٢٧، ٢٨)، ((جامع الدروس العربية)) للغلاييني (٣/ ٩٩، ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥).

نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ...﴾ استِشهادٌ على شُمولِ شَهادتِه تعالى، أي: ألمْ تَعلَمْ عِلمًا يَقينًا مُتاخِمًا للمُشاهَدةِ بأنَّه تعالى يَعلَمُ ما فيهما مِن الموجوداتِ[1]؟

- وهو استِئنافٌ ابتدائيٌّ هو تَخلُّصٌ مِن قولِه تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] إلى ذِكرِ عِلمِ اللهِ بأحوالِ المنافِقينَ وأحلافِهم اليهودِ، فكان المنافِقون يُناجي بعضُهم بَعضًا ليُرِيَ للمسلمينَ مَوَدَّةَ بَعضِ المنافقينَ لبَعضٍ؛ فإنَّ المنافِقين بتَناجِيهم يُظهِرون أنَّهم طائفةٌ أمْرُها واحدٌ، وكلمتُها واحدةٌ، وهم وإنْ كانوا يُظهِرون الإسلامَ يُحِبُّون أنْ تكونَ لهم هيْبةٌ في قُلوبِ المسلمينَ يتَّقون بها بأْسَهم إنِ اتَّهَموا بَعضَهم بالنِّفاقِ، أو بدَرَت مِن أحَدِهم بادِرةٌ تَنُمُّ بنِفاقِه، فلا يُقْدِمُ المؤمنون على أذاهُ؛ لعِلمِهم بأنَّ له بِطانةً تُدافعُ عنه. وكانوا إذا مرَّ بهم المسلِمون نَظَروا إليهم، فحَسِبَ المارُّونَ لعلَّ حدَثًا حدَثَ مِن مُصيبةٍ، وكان المسلمونَ يَومَئذٍ على تَوقُّعِ حرْبٍ مع المشرِكين في كلِّ حِينٍ، فيَتوهَّمونَ أنَّ مُناجاةَ المُتناجِينَ حديثٌ عن قُرْبِ العدُوِّ، أو عن هَزيمةٍ للمُسلمينَ في السَّرايا الَّتي يَخرُجون فيها؛ فنَزَلَتْ هذه الآياتُ لإشعارِ المنافقين بعِلمِ اللهِ بماذا يَتناجَون، وأنَّه مُطْلِعٌ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على دَخيلتِهم؛ ليَكُفُّوا عن الكَيدِ للمُسلمينَ؛ فهذه الآيةُ تَمهيدٌ لقولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ الآيةَ[2] [المجادلة: ٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥، ٢٦).

- قولُه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِما قبْلَه مِن سَعةِ عِلمِه تَعالى، ومُبَيِّنٌ لكَيفيَّتِه[1]. وقيل: جملةُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ إلى آخرِها بدَلُ البعضِ مِن الكلِّ؛ فإنَّ معْنى قولِه: ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾، وقولِه: ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾، وقولِه: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾: أنَّه مُطَّلِعٌ على ما يَتناجَون فيه، فكأنَّه تعالى نَجِيٌّ معهم، والمقصودُ مِن هذا الخبرِ الإنذارُ والوعيدُ[2].

- وحرْفُ (مِن) في قولِه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ...﴾ صِلةٌ في النَّفيِ؛ لقَصْدِ العُمومِ[3].

- والنَّجوى: التَّناجي، فلا تَخْلو إمَّا أنْ تكونَ مُضافةً إلى ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾، أي: مِن نَجْوى ثلاثةِ نفَرٍ، أو مَوصوفةً بها، أي: مِن أهْلِ نَجوى ثلاثةٍ، فحُذِفَ الأهْلُ، أو جُعِلوا نَجْوى في أنفُسِهم مُبالَغةً[4].

- ولَمَّا عُلِمَ بالتَّكريرِ أنَّ ما ذُكِرَ على سَبيلِ المثالِ لا لمعْنًى يَخُصُّه مِن جِهةٍ بالعلمِ، عمَّ بقولِه: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ﴾، فَبدَأَ بالقليلِ؛ لأنَّه قبْلَ الكثيرِ، وهو أخْفى منه. ولَمَّا كان العِلمُ بالكثيرِ أعسَرَ مِن أجْلِ انتشارِهِ قال: ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾[5].

- وخُصَّ الثلاثةُ والخَمسةُ بالذِّكرِ؛ قيل: لِبناءِ الكلامِ على أغلبِ عاداتِ المُتناجِينَ. أو لأنَّ العدَدَ المفردَ أشرَفُ مِن الزَّوجِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى وتْرٌ يُحِبُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٣).

الوِترَ؛ فخُصَّ العَددانِ المذكورانِ بالذِّكرِ؛ تَنبيهًا على أنَّه لا بُدَّ مِن رِعايةِ الأمورِ الإلهيَّةِ في جَميعِ الأمورِ، ثمَّ بعْدَ ذِكرِهما زِيدَ عليهما ما يَعُمُّ غيرَهما مِن المُتناجِينَ. أو خُصَّ الثَّلاثةُ والخمسةُ؛ لأنَّ أقلَّ ما يَكْفي في المُشاوَرةِ ثلاثةٌ حتَّى يَتِمَّ الغرَضُ، فيَكونُ الاثنانِ كالمُتنازِعَينِ في النَّفيِ والإثباتِ، والثَّالثُ كالمُتوسِّطِ الحاكمِ بيْنَهما، فحينَئذٍ تُحمَدُ المُشاوَرةُ، ويتِمُّ الغرَضُ، وكذا كلُّ جمْعٍ يَجتمِعُ للمُشاوَرةِ لا بُدَّ مِن واحدٍ يكونُ حَكَمًا بيْنَهم مَقبولَ القولِ[1]. وقيلَ: العددُ غيرُ مقصودٍ؛ لأنَّه تعالى إنَّما قصَد -وهو أعلَمُ- أنَّه مع كلِّ عدَدٍ قَلَّ أو كَثُر، يَعلَمُ ما يَقولون سرًّا وجهرًا، ولا تَخفى عليه خافيةٌ، فمِنْ أجْلِ ذلك اكتفى بذِكرِ بعضِ العددِ دونَ بعضٍ[2]. وقيل غيرُ ذلك[3].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حرْفُ (ثُمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ إنْباءَهم بما تَكلَّموا وما عَمِلوه في الدُّنيا في يومِ القيامةِ، أدَلُّ على سَعةِ عِلمِ اللهِ مِن عِلمِه بحَديثِهم في الدُّنيا؛ لأنَّ مُعظَمَ عِلمِ العالِمينَ يَعْتريهِ النِّسيانُ في مِثلِ ذلك الزَّمانِ مِن الطُّولِ، وكَثرةِ تَدبيرِ الأمورِ في الدُّنيا والآخِرةِ. وفي هذا وَعيدٌ لهم بأنَّ نَجْواهم إثمٌ عَظيمٌ، فنُهِيَ عنها، ويَشملُ هذا تَحذيرَ مَن يُشارِكُهم[4].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾، فأغنَتْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦، ١٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (٢٦/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢ - ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧).

(إنَّ) غَناءَ فاءِ السَّببيَّةِ[١].

- وفيه تأْكيدُ الجُملةِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به، وإلَّا فإنَّ المخاطَبَ لا يَتردَّدُ في ذلك[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٨-١٠)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصْلَوْنَهَا﴾: أي: يَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ (صلي): يدُلُّ على الإيقادِ بالنَّارِ[١].

﴿بِٱلْإِثْمِ﴾: الإثمُ والأثامُ: اسمٌ للأفعالِ المُبَطِّئةِ عن الثَّوابِ، أو الذَّنْبُ الَّذي يَستحِقُّ العقوبةَ عليه، أو الفعلُ الَّذي يستحقُّ عليه اللَّومَ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، والإثمُ مُشتَقٌّ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[٢].

﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾: أي: التَّعدِّي والظُّلْمِ، والعُدوانُ أصْلُه الظُّلْمُ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ١٥٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٣٣٤، ٧٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٦، ٧١٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، =

﴿بِٱلۡبِرِّ﴾: البِرُّ هو اسمٌ جامعٌ لكلِّ خَيرٍ وطاعةٍ، وقيامٍ بحقِّ الله ولعِبادِه، وأصلُ (برر) هنا: الصِّدْقُ، ومِن ذلك قولُهم: يَبَرُّ رَبَّه، أيْ: يُطيعُه، وهو مِن الصِّدْقِ[1].

﴿وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾: أي: أداءِ مَا كَلَّفكم مِن فَرائِضِه واجْتِنابِ مَعاصيه، أو: التَّقْوى هنا: اسمٌ جامعٌ لتركِ جميعِ المَحارِمِ والمآثِمِ، وأصل (وقى): يدُلُّ على دَفْعِ شَيءٍ عن شيءٍ بغيرِه[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- إلى الَّذين نهاهم اللهُ تعالى عن إسرارِ الحديثِ فيما بَيْنَهم بالشَّرِّ، ثمَّ يَرجِعون إلى ما نَهاهم اللهُ عنه مِنَ ذلك الإسرارِ، ويَتسارُّونَ بيْنَهم بالإثمِ والعُدوانِ ومَعصيتِك، وإذا جاءك هؤلاء القَومُ -يا محمَّدُ- حيَّوكَ

---

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

قال ابن رجب: (البِرُّ يُطلَقُ باعتِبارِ مَعنيَينِ:

أحدُهما: باعتبارِ مُعامَلةِ الخَلقِ بالإحسانِ إليهم، ورُبَّما خُصَّ بالإحسانِ إلى الوالدَينِ، فيُقالُ: بِرُّ الوالدين، ويُطلَقُ كثيرًا على الإحسانِ إلى الخَلقِ عمومًا... وإذا قُرِن البِرُّ بالتَّقْوى -كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٢]- فقد يكونُ المرادُ بالبِرِّ: مُعامَلةَ الخَلقِ بالإحسانِ، وبالتَّقْوى: معاملةَ الحقِّ بفِعلِ طاعتِه، واجتِنابِ مُحرَّماتِه، وقد يكونُ أُريدَ بالبِرِّ: فِعلُ الواجباتِ، وبالتَّقْوى: اجتِنابُ المحرَّماتِ...

والمعنى الثَّاني مِن معنى البِرِّ: أن يُرادَ به فِعلُ جميعِ الطَّاعاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]). ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

بغَيرِ السَّلامِ الَّذي حَيَّاك به اللهُ تعالى، ويقولونَ سِرًّا: هلَّا يُعَذِّبُنا اللهُ، فيُعَجِّلَ لنا العُقوبةَ في الدُّنيا بما نَقولُه لمحمَّدٍ؟ كافِيَتُهم جَهنَّمُ يَدخُلونَها في الآخِرةِ، ويُقاسُونَ عَذابَها، فبِئسَ المرجِعُ هي!

ثمَّ يقولُ تعالى مخاطبًا المؤمنينَ، ومؤدِّبًا وموجِّهًا لهم: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا تسارَرْتُم بيْنَكم، فلا تتحَدَّثوا بالإثمِ والعُدوانِ ومُخالَفةِ الرَّسولِ، وتَسارُّوا بيْنَكم بفِعلِ الخَيراتِ واجتِنابِ المحَرَّماتِ، واتَّقوا اللهَ الَّذي إليه تُجمَعونَ.

إنَّما المُناجاةُ مِن تزيينِ الشَّيطانِ؛ ليوقِعَ الحُزنَ في قُلوبِ المؤمِنينَ، وليس الشَّيطانُ بضَارِّ المؤمِنينَ شيئًا إلَّا بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمِنونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- إلى الَّذين نهاهم اللهُ تعالى عن إسرارِ الحديثِ فيما بَيْنَهم بالشَّرِّ، ثمَّ يَرجِعون إلى ما نهاهم اللهُ عنه مِنَ التَّناجي بالشَّرِّ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠).
قيل: نزَلَت هذه الآيةُ في اليهودِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ عطيَّة، والرازيُّ ونسَبَه للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩١).
وممَّن رُويَ عنه هذا القَولُ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩). =

﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

أي: ويُوصي بَعضُهم بعضًا سرًّا فيما بيْنَهم بالإثمِ والعُدوانِ[1] ومَعصيةِ الرَّسولِ

---

= وقيل: هي في المنافِقين. وممَّن ذهب إلى ذلك: السَّمعانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠، ٣١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة)) لخالد المزيني (٢/ ٩٦٦-٩٦٩).

قال ابن عطية: (وقال ابنُ عبَّاسٍ: هذه الآيةُ كُلُّها في منافِقينَ. ويُشبِهُ أنَّ مِن المنافِقينَ مَن تخَلَّق في هذا كُلِّه بصِفةِ اليهودِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧).

وقيل: هي في المنافِقينَ واليهودِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والزمخشري. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩١).

(١) الإثم قيل: هو المعصيةُ. ومِمَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٥٩).

وقال ابن عاشور: (الإثمُ: المعصيةُ، وهو ما يَشتَمِلُ عليه تناجيهم مِن كلامِ الكُفرِ وذَمِّ المُسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠).

وقيل: المرادُ به الكَذِبُ. وممَّن ذهب إلى هذا: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي))، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩١).

وقيل: هو الفواحِشُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٠).

والعدوان قيل: هو الظُّلمُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، والقرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٥٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠).

قال ابنُ عاشور: (العُدوانُ -بضَمِّ العَينِ: الظُّلمُ، وهو ما يُدَبِّرونَه مِن الكَيدِ للمُسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠).

وقيل: هو النِّهايةُ في قَصدِ الشَّرِّ بالإفراطِ في مجاوَزةِ الحُدودِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٦٨).

وقيل: معنى الإثمِ ما هو إثمٌ في نفْسِه، والعدوانُ ما فيه تَعَدٍّ على المؤمنينَ. وممَّن اختار هذا =

محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومخالَفتِه[١]؟

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

بعْدَ أنْ ذكَرَ حالَهم في اختلاءِ بَعضِهم ببَعضٍ؛ ذكَرَ حالَ نِيَّاتِهم الخبيثةِ عندَ الحضورِ في مَجلِسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

**سَبَبُ النُّزولِ:**

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُناسٌ مِنَ اليهودِ، فقالوا: السَّامُ عليك يا أبا القاسِمِ. قال: وعَلَيكم، قالت عائِشةُ: قُلْتُ: بل عليكم السَّامُ والذَّامُ[٣]! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا عائِشةُ، لا

---

= المعنى: أبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٠).

وقريبٌ منه قولُ ابنِ كثير: (﴿بِٱلْإِثْمِ﴾ وهو ما يختَصُّ بهم، ﴿وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ وهو ما يتعلَّقُ بغَيرِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣).

وقيل: الإثمُ هو تناجيهم في حالةِ نصرةِ المؤمنينَ وأمْنِهم، والعُدوانُ هو تناجيهم حالةَ خَوفِ المؤمنينَ وقتالِهم؛ لكنْ في غَيبةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ١٨١).

وقال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ يحتمِلُ وجهَين:

أحدُهما: أنَّ الإثمَ والعُدوانَ مُخالَفتُهم الرَّسولَ في النَّهيِ عن النَّجوى، فلمَّا عادوا إلى ما نَهاهم عنه لَزِمَهم الإثمُ والعُدوانُ، وصاروا آثِمينَ ظالِمينَ.

والثَّاني: أنَّ الإثمَ والعدوانَ ذلك السِّرُّ الَّذي يجري بيْنَهم؛ لأنَّه إمَّا مكرٌ وكَيدٌ بالمسلمينَ، أو شيءٌ يَسوؤُهم، فهو إثمٌ وعُدوانٌ). ((البسيط)) (٢١/ ٣٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١).

(٣) السَّامُ: المَوتُ. والذَّامُ: العَيبُ والذَّمُّ. يُنظَر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٤، ١٥٨).

تَكوني فاحِشةً، فقالت: ما سَمِعْتَ ما قالوا؟! فقال: أوَلَيس قد ردَدْتُ عليهم الَّذي قالوا، قُلْتُ: وعليكم؟ فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ))[١].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رَضِي اللهُ عنهما: ((أنَّ اليهودَ كانوا يقولونَ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: سامٌ عليك! ثمَّ يقولونَ في أنفُسِهم: لولا يُعَذِّبُنا اللهُ بما نَقولُ! فنزلَتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ))[٢].

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾.

أي: وإذا جاءك هؤلاء القَومُ -يا محمَّدُ- حيَّوكَ بغَيرِ السَّلامِ الَّذي حَيَّاك به اللهُ تعالى[٣].

---

(١) رواه مسلم (٢١٦٥).

(٢) أخرجه أحمدُ (٦٥٨٩) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ (١٣/ ٥٦٤) (١٤٤٦٢)، والبيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٨٦٧٩).

حسَّن إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٦٩)، وجوَّد إسنادَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٢٤)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩٥)، وصحَّح الحديثَ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧).

قال ابن العربي: (لا خِلافَ بيْنَ النَّقَلةِ أنَّ المرادَ بهم اليهودُ، كانوا يأتون النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيقولونَ: السَّامُ عليك، يُريدونَ بذلك السَّلامَ ظاهِرًا، وهم يَعنون الموتَ باطِنًا). ((أحكام القرآن)) (٤/ ١٩٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٢).

وقال السعدي: (هؤلاء المذكورونَ إمَّا أُناسٌ مِن المنافقين يُظهِرونَ الإيمانَ، ويُخاطِبونَ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بهذا الخِطابِ الَّذي يوهِمون أنَّهم أرادوا به خَيرًا، وهم كَذَبةٌ في ذلك، وإمَّا أُناسٌ مِن أهلِ الكِتابِ، الَّذين إذا سلَّموا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قالوا: السَّامُ عليك يا محمَّدُ، يَعنون بذلك الموتَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ هذه الآيةَ كُلَّها في المنافِقينَ لا في اليهودِ، وأنَّ المرادَ تحيَّتُهم بتحيَّةٍ =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً﴾ [النور: ٦١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أَتَى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُناسٌ مِنَ اليهودِ، فقالوا: السَّامُ عليك يا أبا القاسِمِ. قال: وعَلَيكم، قالت عائشةُ: قُلْتُ: بل عليكم السَّامُ والذَّامُ! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا عائشةُ، لا تَكوني فاحِشةً، فقالت: ما سَمِعْتَ ما قالوا؟! فقال: أوَلَيس قد ردَدْتُ عليهم الَّذي قالوا، قُلْتُ: وعليكم؟))[1].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((مرَّ يهوديٌّ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: السَّامُ عليك، فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وعليكَ. فقال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أتدرونَ ما يقولُ؟ قال: السَّامُ عليك. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، ألا نَقتُلُه؟ قال: لا، إذا سلَّم عليكم أهلُ الكِتابِ فقولوا: وعليكم))[2].

﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾.

أي: ويقولون سِرًّا[3]: هلَّا يُعَذِّبُنا اللهُ فيُعَجِّلَ لنا العُقوبةَ في الدُّنيا؛ بسَبَبِ ما

---

= الجاهليَّةِ، كأَنعِمْ صَباحًا. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١). ويُنظر أيضًا: ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) لخالد المزيني (٢/ ٩٦٦-٩٦٩).

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٢٤)، ومسلمٌ (٢١٦٥) واللَّفظُ له.

(٢) رواه البخاري (٦٩٢٦) واللفظ له، ومسلم (٢١٦٣).

(٣) قال ابن عثيمين: (﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أي: يُحدِّثُ شخصٌ منهم نفْسَه، أو المعنى: يقولون فيما بيْنَهم). ((لقاء الباب المفتوح)) (اللقاء رقم: ٤).

ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أي: فيما بيْنَهم: السمرقنديُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير =

نَقولُه لمحمَّدٍ[١]؟

﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾.

أي: يكفي هؤلاء عِقابًا لهم على ما يقولونَه: جَهنَّمُ، يَدخُلونَها في الآخِرةِ، ويُقاسُونَ عَذابَها[٢].

---

= الشوكاني)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢).

قال ابن تيميَّةَ: (المراد أنَّهم قالوه بألسنتِهم سرًّا... وهذا هو الَّذي ذكره المفسِّرونَ، قالوا: كانوا يقولون: سامٌ عليك، فإذا خرَجوا يَقولون في أنفُسِهم، أي: يقولُ بعضُهم لبعضٍ: لو كان نبيًّا عُذِّبْنا بقولِنا له ما نقولُ. وإن قُدِّر أنَّه أُريدَ بذلك أنَّهم قالوه في قُلوبِهم فهذا قولٌ مُقيَّدٌ بالنَّفْسِ، مِثلُ قولِه: «عمَّا حدَّثَتْ به أنفُسَها»؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾، فأطلَقوا لفظَ القَولِ هنا والمرادُ به ما قالوه بألسنتِهم؛ لأنَّه النَّجوى والتَّحيَّةُ الَّتي نُهوا عنها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٣٥).

وقال السعدي: (﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يُسِرُّون في أنفُسِهم ما ذكره عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ عنهم، وهو قولُهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

وقال ابن عثيمين: (أصلُ القولِ لا بُدَّ أن يكونَ بصَوتٍ، ولو كان قولًا بالنَّفْسِ لَقَيَّده اللهُ، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣، ٤٤)، ((التفسير المظهري)) (٩/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

قال القرطبي: (قالوا: لو كان محمَّدٌ نبيًّا لعَذَّبَنا اللهُ بما نقولُ، فهلَّا يُعَذِّبُنا اللهُ! وقيل: قالوا إنَّه يَرُدُّ علينا ويقولُ: وعليكم السَّامُ، والسَّامُ: الموتُ، فلو كان نبيًّا لاستُجيبَ له فينا ومُتْنا. وهذا موضِعُ تَعجُّبٍ منهم؛ فإنَّهم كانوا أهلَ كتابٍ، وكانوا يَعلَمونَ أنَّ الأنبياءَ قد يَغضَبونَ فلا يُعاجَلُ مَن يُغضِبُهم بالعذابِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٩، ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢).

﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: فبِئسَ المرجِعُ والمُنقَلَبُ جَهنَّمُ[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَمَّ اليهودَ والمنافِقينَ على التَّناجي بالإثمِ والعُدوانِ ومَعصيةِ الرَّسولِ؛ أتْبَعَه بأنْ نهَى أصحابَه المؤمِنينَ أن يَسلُكوا مِثلَ طَريقتِهم[٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا تسارَرْتُم فيما بيْنَكم، فلا تَتحَدَّثوا بالإثمِ والعُدوانِ ومُخالَفةِ الرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤)، ((التفسير المظهري)) (٩/ ٢٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

وفي المخاطَبينَ بهذه الآيةِ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه خِطابٌ للمؤمنينَ، والثَّاني: أنَّه خِطابٌ للمنافِقين، والمعنى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا بألسِنَتِهم، وقيل: آمَنوا بزَعمِهم. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦١).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكي، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤)، =

﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾.

أي: وتَسارُّوا الحديثَ فيما بيْنَكم بفِعلِ الخَيراتِ، واجتِنابِ المحَرَّماتِ[1].

كما قال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٤].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

أي: واجعَلوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعذابِه وقايةً بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه؛ فهو الَّذي إليه تُجمَعونَ فيُجازيكم على أقوالِكم وأعمالِكم[2].

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـٔٗا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا شدَّد اللهُ سُبحانَه في أمرِ النَّجوى المذمومةِ، وكان لا يَفعَلُها إلَّا أهلُ النِّفاقِ، فكان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أنَّه يَحدُثُ عنها ضَرَرٌ لأهلِ الدِّينِ؛ بيَّنَ أنَّ ضَرَرَها

---

= ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٤).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنين، والواحديُّ، والزمخشري، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٢).

إنَّما يعودُ عليهم[١].

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: إنَّما المُناجاةُ الَّتي نهَى الله عنها مِن تزيينِ الشَّيطانِ للمُتناجِينَ مِن أجْلِ أن يُوقِعَ الحُزنَ في قُلوبِ المؤمِنينَ[٢].

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤، ٤٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤).

قال الماوَرْدي: (وفي قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وجْهانِ:

أحدُهما: ما كان يَتناجى به اليهودُ والمنافقون مِن الأراجيفِ بالمسلمينَ.

الثَّاني: أنَّها الأحلامُ الَّتي يَراها الإنسانُ في مَنامِه فتَحزُنُه). ((تفسير الماوردى)) (٥/ ٤٩١).

وقال ابن عطية: (واختلَف النَّاسُ في النَّجْوى الَّتي هي مِنَ الشَّيطانِ الَّتي أخبر عنها في هذه الآيةِ؛ فقال جماعةٌ مِن المفسِّرينَ: أراد: إنَّما النَّجْوى في الإثمِ والعُدوانِ ومَعصيةِ الرَّسولِ مِن الشَّيطانِ. وقال قَتادةُ وغيرُه: الإشارةُ إلى نَجوى المنافِقينَ واليهودِ. وقال عبدُ الله بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ: الإشارةُ إلى نجوى قومٍ مِن المسلمينَ كانوا يَقصدون مُناجاةَ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، وليس لهم حاجةٌ ولا ضرورةٌ إلى ذلك، وإنَّما كانوا يُريدون التَّبجُّحَ بذلك، وكان المسلمون يَظُنُّون أنَّ تلك النَّجوى في إخبارِ بعَدُوٍّ قاصِدٍ أو نحوِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٨).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ مُناجاةُ المنافِقين بعضِهم بعضًا بالإثمِ والعُدوانِ -وزاد بعضُ المفسِّرينَ اليهودَ أيضًا-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٨٧).

قال السعدي: (أي: تناجي أعداءِ المؤمنينَ بالمؤمنينَ، بالمَكرِ والخديعةِ، وطَلَبِ السُّوءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

وقال الزَّجَّاجُ: (أي: النَّجوى بالإثمِ والعُدوانِ مِن الشَّيطانِ؛ لِيَحزُنَ الَّذين آمنوا). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٣٨).

وسلَّم: ((إذا كُنتُم ثلاثةً، فلا يَتناجى اثنانِ دونَ صاحِبِهما؛ فإنَّ ذلك يَحزُنُه))[١].

﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وليس الشَّيطانُ بضَارٍّ المؤمِنينَ بأيِّ ضَرَرٍ إلَّا بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه؛ فإنَّ اللهَ يَكفيهم شَرَّ أعدائِهم ومَكْرِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمِنونَ ويَثِقوا به؛ فإنَّ مَن توكَّلَ على اللهِ كفاه[٣].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥١، ٥٢].

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٢٩٠)، ومسلمٌ (٢١٨٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥، ٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

قال ابن عطية: (أمَرَ بتوكُّلِ المؤمنينَ عليه تبارَك وتعالى، وهذا كلُّه يقوِّي أنَّ التَّناجيَ الَّذي مِن الشَّيطانِ إنَّما هو الَّذي وقَعَ منه للمؤمِنينَ خَوفٌ؛ وللخَوفِ اللَّاحِقِ للقُلوبِ في هذا قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لا يَتناجى اثنانِ دونَ الثَّالِثِ»). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٨).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قول الله تعالى: ﴿وَتَنَاجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ أمَرَ اللهُ تعالى المؤمِنينَ أن يَتناجَوا بالبِرِّ -وهو اسمٌ جامِعٌ لكُلِّ خَيرٍ وطاعةٍ، وقيامٍ بحَقِّ لله ولعبادِه- والتَّقوى؛ فالمؤمِنُ يمتَثِلُ هذا الأمرَ الإلهيَّ، فلا تجِدُه مُناجيًا ومتحَدِّثًا إلَّا بما يُقَرِّبُه مِن الله، ويُباعِدُه مِن سَخَطِه، والفاجِرُ يتهاوَنُ بأمرِ اللهِ، ويُناجي بالإثمِ والعُدوانِ ومعصيةِ الرَّسولِ، كالمنافِقينَ الَّذين هذا دأْبُهم وحالُهم مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

٢- الحُزنُ يُضعِفُ القَلبَ، ويُوهِنُ العَزْمَ، ويَضُرُّ الإرادةَ، ولا شَيءَ أحَبُّ إلى الشَّيطانِ مِن حُزنِ المؤمِنِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، فالحُزنُ مَرَضٌ مِن أمراضِ القَلبِ يَمنَعُه مِن نُهوضِه وسَيرِه وتَشميرِه[2]، ولم يأتِ الحُزنُ في القرآنِ إلَّا منهيًّا عنه، أو منفيًّا؛ فالمنهيُّ عنه كقولِه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقولِه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨] في غيرِ موضعٍ، وقولِه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]. والمنفيُّ كقولِه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3] [البقرة: ٣٨].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ فإنَّ الله تعالى وَعَد المؤمنينَ بالكفايةِ والنَّصرِ على الأعداءِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٥).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٧٩).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٠).

قال ابن تيمية: (لم يأمُرِ الله به [أي: الحزنِ] ولا رسولُه، بل قد نهَى عنه في مواضعَ، وإنْ تعلَّق بأمرِ الدِّينِ... وذلك لأنَّه لا يجلِبُ منفعةً، ولا يدفعُ مضرَّةً، فلا فائدةَ فيه، وما لا فائدةَ فيه لا يأمُرُ الله به، نَعَمْ لا يأثمُ صاحبُه إذا لم يقترِنْ بحزنِه محرَّمٌ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ١٦).

وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣]، فأعداءُ اللهِ ورَسولِه والمؤمِنينَ مهما تناجَوا ومَكَروا، فإنَّ ضَرَرَ ذلك عائدٌ إلى أنفُسِهم، ولا يضُرُّ المؤمنينَ إلَّا شَيءٌ قَدَّرَه اللهُ وقَضاه، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: ليَعتَمِدوا عليه، ويَثِقوا بوَعدِه؛ فإنَّ مَن توكَّلَ على الله كفاه، وتولَّى أمرَ دينِه ودُنياه[١].

٤- قَولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه: تنبيهٌ وتهديدٌ جاءَ عَقِيبَ تحليلٍ وتحريمٍ، وناسَب ذِكرُ الحشْرِ؛ إذ فيه يَظهَرُ مَن أطاع وعصَى[٢]. وفي إجراءِ الوَصفِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ وتِلك الصِّلةِ ﴿إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ تذكيرٌ بأنَّ المرجِعَ إلى الله؛ ليُعِدَّ النَّاسُ ما استطاعوا مِن الطَّاعةِ لذلك اللِّقاءِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ فيه تحريمُ النَّجوى، وهو تَحَدُّثُ الاثنَينِ سِرًّا بحَضْرةِ ثالثٍ[٤]؛ لأنَّها توجِبُ إيحاشًا، وكَسْرَ القلبِ[٥]، وقد قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا كانوا ثلاثةٌ، فلا يَتناجى اثْنانِ دونَ الثَّالثِ))[٦]، وقال صلَّى الله عليه وسلَّمَ: ((إذا كنتُم ثلاثةً فلا يَتناجى اثْنانِ دونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٤/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

قال العراقي: (مَحَلُّ النَّهْيِ عن تَناجي اثنيْنِ دونَ ثالثٍ إذا كان ذلك الثَّالثُ معَهما في ابتداءِ النَّجْوَى، فأمَّا إذا انْفَرَد اثنانِ فتَناجَيا ثمَّ جاء ثالثٌ في أثناءِ تناجيهما فليس عليهما قَطْعُ التَّناجي). ((طرح التثريب)) (٨/ ١٤٣).

قال الزرقاني: (وفي معنَى التَّناجي ما لو تَحدَّثا بلِسانٍ لا يُفْهَمُ). ((شرح الزرقاني على الموطأ)) (٤/ ٦٤٧).

(٥) يُنظر: ((فصول الآداب ومكارم الأخلاق المشروعة)) لابن عَقِيل الحنبلي (ص: ٤٦).

(٦) رواه البخاري (٦٢٨٨)، ومسلم (٢١٨٣) من حديث عبدِ الله بن عُمرَ رضيَ الله عنهما.

الآخَرِ حتَّى تَختَلِطوا بالنَّاسِ مِن أجْلِ أن يُحزِنَه))[١]، ففي هذا النَّهيُ عن تَناجي اثنَينِ بحضَرةِ ثالثٍ، وكذا ثلاثةٍ وأكثَرَ بحَضرةِ واحدٍ، وهو نهيُ تحريمٍ، فيَحرُمُ على الجماعةِ المُناجاةُ دونَ واحدٍ منهم إلَّا أن يَأذَنَ، أمَّا اذا كانوا أربعةً فتَناجى اثنانِ دونَ اثنَينِ فلا بأسَ بالإجماعِ[٢]، فإذا كثُر النَّاسُ فلا بأسِ أن يَتناجى منهم اثنانِ وأكثَرُ[٣].

٢- قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ يَدخُلُ فيه قَولُ بَعضِ النَّاسِ لبَعضٍ: (صباحُ الخَيرِ)، ونحوَه، مُعرِضًا عن السَّلامِ[٤]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أنَّه إذا زال هذا السَّبَبُ، وقال الكِتابيُّ: «سلامٌ عليكمْ ورَحمةُ اللهِ» فالعَدلُ في التَّحيةِ يَقتضي أنْ يُرَدَّ عليه نَظيرُ سَلامِه[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أنَّ الشَّيطانَ يُريدُ مِن بني آدمَ أنْ يكونوا دائمًا على قَلقٍ وعلى حُزْنٍ[٦]، وأنَّ كلَّ مَن حاول إدخالَ الحُزْنِ على أخيه المُسلمِ فإنَّه شَبيهٌ بالشَّيطانِ الَّذي يريدُ إدخالَ الأحزانِ

---

(١) رواه البخاري (٦٢٩٠)، ومسلم (٢١٨٤) من حديث عبدِ الله بن مسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٦٧، ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٨/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٦٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٤٢٦).

قال القرطبي: (وقد اختُلِف في ردِّ السَّلام على أهلِ الذِّمَّةِ هل هو واجبٌ كالرَّدِّ على المسلمينَ، وإليه ذَهَب ابنُ عبَّاسٍ والشَّعبيُّ وقَتادةُ؛ لَلأمرِ بذلك. وذَهَب مالكٌ فيما روى عنه أشهَبُ وابنُ وهبٍ إلى أنَّ ذلك ليس بواجبٍ، فإنْ رَدَدْت فقُلْ: عليك). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٣). وكلامُ ابنِ القيِّمِ إذا قال الكِتابيُّ: «سلامٌ عليكمْ ورَحمةُ اللهِ» فالعَدلُ في التَّحيةِ يَقتضي أنْ يُرَدَّ عليه نَظيرُ سَلامِه: أوفَقُ لمعنى الآيةِ.

(٦) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٥/ ١٠٤).

على المؤمنينَ[١].

٥- قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: كيف لا يَضُرُّهم ذلك ولا يَحْزُنُهم إلَّا بإذنِ اللهِ؟

**الجوابُ**: أنَّهم كانوا يُوهِمونَ المؤمنينَ في نَجواهم وتفاخُرِهم أنَّ غُزاتَهم غُلِبوا، وأنَّ أقارِبَهم قُتِلوا، فقال تعالى: لا يَضُرُّهم الشَّيطانُ والحُزنُ بذلك الموهِمِ إلَّا بإذنِ الله تعالى، أي: بمشيئتِه، وهو أن يَقضِيَ الموتَ على أقارِبِهم، والغَلَبةَ على الغُزاةِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزلةِ والقَدَريَّةِ في إخبارِه عنِ الشَّيطانِ بإدخالِه الحُزنَ والضَّرَرَ على المؤمِنينَ، وزوالِ ضَرَرِه عنهم إلَّا بإذنِ اللهِ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ فيه وُجوبُ التَّوكُّلِ على اللهِ وحْدَه، وإفرادُ الله بالتَّوكُّلِ يُؤخَذُ مِن تقديمِ المعمولِ على عامِلِه؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، وهذه قاعِدةٌ[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ التَّوكُّلَ مِن مُقتَضياتِ الإيمانِ؛ لأنَّه عَلَّقَ الحُكمَ على وَصفٍ -وهو الإيمانُ-، فدلَّ ذلك على أنَّه كُلَّما قَوِيَ الإيمانُ قَوِيَ التَّوكُّلُ على اللهِ، وكُلَّما ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ التَّوكُّلُ على اللهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ الاستِفهامُ تَعجيبيٌّ، مُرادٌ به تَوبيخُهم حينَ يَسمَعونه[1].

- والتَّعريفُ في (النَّجوى) تَعريفُ العَهدِ؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ في نوعٍ خاصٍّ مِن النَّجوى، وهي النَّجوى الَّتي تَحزُنُ الَّذين آمَنوا، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [المجادلة: ١٠]. ويجوزُ أنْ يكونَ النَّهيُ عن جِنسِ النَّجوى في أوَّلِ الأمرِ يعُمُّ كلَّ نَجوى بمَرأًى مِن النَّاسِ؛ سدًّا للذَّريعةِ[2].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ مَعطوفٌ على ﴿نُهُوا۟﴾، وعُدِلَ عن صِيغةِ الماضي المُناسِبةِ للعطْفِ؛ لسِرٍّ لطيفٍ، وهو استحضارُ صُورةِ العَودِ وتَجدُّده وتَجْسيده، فصِيغةُ المُضارعِ في ﴿يَعُودُونَ﴾ دالَّةٌ على التَّجدُّدِ، أي: يُكرِّرونَ العَودَ بحيثُ يُريدونَ بذلك العِصيانَ، وقِلَّةَ الاكتِراثِ بالنَّهيِ؛ فإنَّهم لو عادوا إلى النَّجوى مرَّةً أو مرَّتينِ لاحتَمَلَ حالُهم أنَّهم نَسُوا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨).

- وحرْفُ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ عَودتَهم إلى النَّجوى بعْدَ أنْ نُهُوا عنها أعظَمُ مِن ابتداءِ النَّجوى؛ لأنَّ ابتداءَها كان إثمًا لِمَا اشتَمَلَتْ عليه نَجْواهم مِن نيَّاتٍ سَيِّئةٍ نحْوَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلِمينَ، فأمَّا عَودتُهم إلى النَّجوى بعْدَ أنْ نُهُوا عنها، فقد زادوا بها تَمرُّدًا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومُشاقَّةً للمسلمينَ؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا اقتَضاهُ استمرارُ المنافقين على نَجْواهم[١].

- و﴿لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ هو النَّجوَى؛ فعُدِلَ عن الإتيانِ بضَميرِ النَّجوى إلى الموصولِ وصِلتِه؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن التَّعليلِ لِما بعْدَها مِن الوعيدِ بقولِه: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾، على ما في الصِّلةِ مِن التَّسجيلِ على سَفَهِهم[٢].

- والباءُ في ﴿بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ للمُلابَسةِ، أي: يَتناجَون مُلابِسينَ الإثمَ والعُدوانَ ومَعصيةَ الرَّسولِ[٣].

- وجاء قولُه: ﴿وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ بعُنوانِ الرِّسالةِ بيْنَ الخِطابَينِ المُتوجِّهينِ إليهِ عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ -﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾، ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾-؛ لزِيادةِ تَشنيعِهم، واستعظامِ مَعصيتِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ (لولا) للتَّحضيضِ، أي: هلَّا يُعذِّبُنا اللهُ بسَببِ كَلامِنا الَّذي نَتناجى به مِن ذَمِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونحْوِ ذلك! أي: يَقولون ما معناهُ: لو كان محمَّدٌ نَبيًّا لَعذَّبَنا اللهُ بما نَقولُه مِن السُّوءِ فيه ومِن الذَّمِّ، وهو ما لخَّصَه اللهُ مِن قولِهم بكلمةِ ﴿لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢١٩).

فإنَّ (لولا) للتَّحضيضِ مُستعمَلةٌ كِنايةً عن جَحْدِ نُبوَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: لو كان نَبيًّا لغَضِبَ اللهُ علينا، فلَعذَّبَنا الآنَ بسَببِ قَولِنا له[١].

- قولُه: ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا﴾ ردٌّ على كَلامِهم، أي: كافِيهم مِن العذابِ جهنَّمُ؛ فإنَّه عذابٌ. وأصلُ ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يَصْلَون بها، فضُمِّن معْنى يَذوقُونها أو يُحِسُّونها، وقد تَكرَّرَ هذا الاستِعمالُ في القرآنِ الكريمِ[٢].

- وقولُه: ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ تَفريعٌ على الوعيدِ بشأْنِ ذمِّ جهنَّمَ[٣].

- وأتى بالفاءِ في قوله: ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ لِما فيه مِن معنَى التَّعقيبِ، أي: بئسَ المصيرُ ما صاروا إليه، وهو جَهنَّمُ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ قيل: هو خِطابٌ للمنافِقين الَّذين يُظهِرونَ الإيمانَ، فعامَلَهم اللهُ بما أظْهَروه، وناداهم بوصْفِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، كما قال: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١]، ومنه ما حكاهُ اللهُ عن المشرِكين: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، أي: يا أيُّها الَّذي نُزِّلَ عليه الذِّكرُ بزعْمِه، ونبَّهَهم إلى تَدارُكِ حالِهم بالإقلاعِ عن آثارِ النِّفاقِ، على عادةِ القرآنِ مِن تَعقيبِ التَّخويفِ بالتَّرغيبِ، فالجُملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ ذلك أنَّ المنافِقينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٧).

كانوا يَعمَلون بعمَلِ أهلِ الإيمانِ إذا لَقُوا الَّذين آمَنوا، فإذا رَجَعوا إلى قَومِهم غلَبَ عليهم الكفرُ، فكانوا في بَعضِ أحوالِهم مُقارِبينَ الإيمانَ بسَببِ مُخالطتِهم للمؤمنينَ، ويَكونُ قولُه: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ تَنبيهًا على ما يجبُ عليهم إنْ كانوا مُتناجِينَ لا مَحالةَ. ويجوزُ أنْ تكونَ خِطابًا للمؤمنينَ الخُلَّصِ؛ بأنْ وجَّهَ اللهُ الخطابَ إليهم تَعليمًا لهم بما يَحسُنُ مِن التَّناجي، وما يَقبُحُ منه بمُناسَبةِ ذَمِّ تَناجي المنافِقين؛ فلذلك ابتُدِئَ بالنَّهيِ عن مِثلِ تَناجي المنافِقين، وإنْ كان لا يَصدُرُ مِثلُه مِن المؤمنينَ؛ تَعريضًا بالمنافِقين، مِثل قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزًّى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةً فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، ويَكونَ المَقصودُ مِن الكلامِ هو قولَه: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾؛ تَعليمًا للمؤمنينَ(١).

- وفيه ترتيبٌ حسَنٌ بديعٌ، حيثُ نَهَى المؤمنينَ أنْ يكونَ تَناجِيهم مِثلَ تَناجي الكُفَّارِ، وبدَأَ بالإثمِ؛ لعُمومِه، ثمَّ بالعُدوانِ؛ لعَظَمتِه في النُّفوسِ؛ إذ هي ظُلاماتُ العِبادِ، ثمَّ تَرقَّى إلى ما هو أعظَمُ، وهو مَعصيةُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي هذا طعْنٌ على المنافِقين؛ إذ كان تَناجيهم في ذلك(٢).

- والتَّقييدُ بـ ﴿إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ﴾ يُشيرُ إلى أنَّه لا يَنْبغي التَّناجي مُطلقًا، ولكنَّهم لَمَّا اعْتادوا التَّناجيَ حُذِّروا مِن غَوائلِه، وإلَّا فإنَّ التَّقييدَ مُستغنًى عنه بقولِه: ﴿فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢، ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣).

شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ تَسليةٌ للمؤمنينَ، وتأنيسٌ لنُفوسِهم يُزالُ به ما يَلحَقُهم مِن الحُزْنِ لمُشاهَدةِ نَجْوى المنافِقين لاختلافِ مَذاهبِ نُفوسِهم إذا رَأَوُا المُتناجِينَ في عَديدِ الظُّنونِ والتَّخوُّفاتِ؛ فالجُملةُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ اقتَضَتْه مُناسَبةُ النَّهيِ عن النَّجوى، على أنَّها قدْ تكونُ تَعليلًا لتأْكيدِ النَّهيِ عن النَّجوى(١).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ تَعريفُ العهْدِ، أي: نَجْوى المنافِقين الَّذين يَتناجَون بالإثمِ والعُدوانِ ومَعصيةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

- والحصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قصْرُ مَوصوفٍ على صِفةٍ، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، أي: قصْرُ النَّجوى على الكَونِ مِن الشَّيطانِ، أي: جائيةٌ؛ لأنَّ الأغراضَ الَّتي يَتناجَون فيها مِن أكبَرِ ما يُوَسوِسُ الشَّيطانُ لأهلِ الضَّلالةِ بأنْ يَفعَلوه؛ ليَحزُنَ الَّذين آمَنوا بما يَتطرَّقُهم مِن خَواطرِ الشَّرِّ بالنَّجوى، وهذه العِلَّةُ ليستْ قَيدًا في الحصْرِ؛ فإنَّ للشَّيطانِ عِللًا أُخرى؛ مِثْلَ إلْقاءِ المُتناجِينَ في الضَّلالةِ، والاستِعانةِ بهم على إلْقاءِ الفِتنةِ، وغيرِ ذلك مِن الأغراضِ الشَّيطانيَّةِ. وقدْ خُصَّت هذه العِلَّةُ بالذِّكرِ؛ لأنَّ المَقصودَ تَسليةُ المؤمِنينَ وتَصبيرُهم على أذَى المنافِقينَ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا﴾؛ ليَطمئِنَّ المؤمِنونَ بحِفْظِ اللهِ إيَّاهم مِن ضُرِّ الشَّيطانِ، وهذا نحوٌ مِن قولِه تعالَى: ﴿لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾(٣) [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥].

- ووُقوعُ ﴿شَيۡـًٔا﴾ وهو نَكِرةٌ في سِياقِ النَّفيِ يُفيدُ عُمومَ نفْيِ كلِّ ضُرٍّ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤).

الشَّيطانِ، أي: انْتَفى كلُّ شَيءٍ مِن ضُرِّ الشَّيطانِ عن المؤمنينَ؛ فيَشملُ ضُرَّ النَّجوى وضُرَّ غيرِها[١].

- والاستِثناءُ في قولِه تعالَى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ مِن عُمومِ ﴿شَيْـًٔا﴾ الواقعِ في سِياقِ النَّفيِ، أي: إلَّا ضُرًّا مُلابِسًا لإذْنِ اللهِ في أنْ يُسلِّطَ عليهم الشَّيطانُ ضُرَّه فيهم، أي: ضُرَّ وَسوستِه؛ ولهذا ذُيِّلَ بقولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّهم إذا تَوكَّلوا على اللهِ توكُّلًا حقًّا بأنِ استَفْرَغوا وُسْعَهم في التَّحرُّزِ مِن كَيدِ الشَّيطانِ، واستَعانوا باللهِ على تَيسيرِ ذلك لهم، فإنَّ اللهَ يَحفَظُهم مِن كَيدِ الشيطانِ؛ قال تَعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. ويَجوزُ أنْ يكونَ عُمومُ ﴿شَيْـًٔا﴾ مُرادًا به الخُصوصُ، أي: ليس بضارِّهم شَيئًا ممَّا يُوهِمُه تَناجي المنافِقين مِن هَزيمةٍ أو قتْلٍ، إلَّا بتَقديرِ اللهِ حُصولَ هَزيمةٍ أو قتْلٍ، والمعْنى: أنَّ التَّناجيَ يُوهِمُ الَّذين آمَنوا ما ليس واقعًا، فأعْلَمَهم اللهُ ألَّا يَحزَنوا بالنَّجوى؛ لأنَّ الأُمورَ تَجْري على ما قدَّرَه اللهُ في نفْسِ الأمْرِ حتَّى تَأتيَهم الأخبارُ الصَّادقةُ[٢].

- وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بمَدلولِ هذا المُتعلَّقِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥، ٣٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٦).

## الآيات (١١-١٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَفَسَّحُواْ﴾: أي: تَوسَّعُوا، وأصلُ (فسح): يدُلُّ على سَعةٍ واتِّساعٍ[١].

﴿ٱنشُزُواْ﴾: أي: قُومُوا وارتَفِعوا عن أماكِنِكم، وأصلُ (نشز): يدُلُّ على ارتِفاعٍ وعُلُوٍّ[٢].

﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ﴾: أي: أخِفتُم وخَشِيتُم، والإشْفاقُ: الخَوفُ والحَذَرُ مِن وُقوعِ المكروهِ، والشَّفَقةُ: رِقَّةُ القَلبِ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن الفارس (٥/ ٤٣٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٤٢) و(٢٣/ ٣٦٤).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مرشدًا عبادَه إلى بعضِ آدابِ المجالسِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا قِيلَ لكم: توسَّعوا في المجالِسِ لِيَجلِسَ آخَرون معكم، فوَسِّعوا لهم، يُوسِّعِ اللهُ عليكم في الدُّنيا والآخِرةِ، وإذا قيل لكم: قُوموا وانهَضوا مِن المجلِسِ، فافعَلوا ذلك؛ يَرفَعِ اللهُ المؤمِنينَ منكم والعُلَماءَ العامِلينَ بعِلْمِهم دَرَجاتٍ عاليةً، واللهُ بما تَعملونَ خَبيرٌ.

ثمَّ يأمُرُ تعالى المؤمنينَ بالصَّدقةِ أمامَ مُناجاةِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم تأديبًا لهم، وتعظيمًا للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ تعالى: يا أيُّها المؤمِنونَ إذا أردتُم أن تُسارُّوا الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بكلامٍ بَيْنَكم وبيْنَه، فتصَدَّقوا قبْلَ ذلك؛ ذلك خَيرٌ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- وأطهَرُ، فإنْ لم تَجِدوا صَدَقةً تُقَدِّمونَها قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ، فلا حَرَجَ عليكم؛ لأنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ بكم.

ثمَّ يقولُ تعالى: أخِفْتُم الفَقْرَ؛ مِن تقديمِ الصَّدَقاتِ قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ؟ فإذْ لم تُقَدِّموا تلك الصَّدَقاتِ، وتاب اللهُ عليكم مِن تَرْكِكم لها؛ فحافِظوا على الصَّلَواتِ، وأعطُوا الزَّكاةَ، وأطيعوا اللهَ ورَسولَه، واللهُ خبيرٌ بجَميعِ أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا نهَى عبادَه المؤمِنينَ عَمَّا يكونُ سَبَبًا للتَّباغُضِ والتَّنافُرِ؛ أمَرَهم

الآنَ بما يَصيرُ سببًا لزيادةِ المحبَّةِ والمودَّةِ[١].

وأيضًا لَمَّا بَيَّن اللهُ تعالى أنَّ اليهودَ يحيُّونَه بما لم يحَيِّهِ به اللهُ، وذمَّهم على ذلك؛ وَصَل به الأمرَ بتحسينِ الأدَبِ في مجالَسةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حتَّى لا يُضَيِّقوا عليه المجلِسَ، وأمَرَ المسلِمينَ بالتَّعاطُفِ والتَّآلُفِ حتَّى يَفسَحَ بَعضُهم لبعضٍ، حتَّى يتمَكَّنوا مِن الاستماعِ مِن رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والنَّظَرِ إليه[٢].

وأيضًا لَمَّا نهى سُبحانَه عن التَّناجي والسِّرارِ، عُلِم منه الجلوسُ مع الملأِ؛ فذكَرَ جلَّ وعلا آدابَه بعْدَه، بقولِه عزَّ مِن قائلٍ[٣]:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا قيلَ لكم: توَسَّعوا في المجالِسِ لِيَجلِسَ آخَرون معكم، فوَسِّعوا لهم؛ فإنَّكم إن فعَلْتُم ذلك يُوسِّعِ اللهُ عليكم في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٨).

قال ابن الجوزي: (في المرادِ بالمجلسِ هاهنا ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه مجلسُ الحربِ ومقاعدُ القتالِ، كان الرَّجُلُ يأتي القَومَ في الصَّفِّ، فيقولُ لهم: توَسَّعوا، فيأبَوْن عليه؛ لحِرصِهم على القتالِ. وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ، والحسَنِ، وأبي العاليةِ، والقُرَظيِّ.

والثَّاني: أنَّه مَجلِسُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم، قاله مجاهدٌ. وقال قَتادةُ: كان هذا للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ ومَن حَوْلَه خاصَّةً.

والثَّالثُ: مجالِسُ الذِّكرِ كلُّها). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٤٧).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ مجلِسُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: الزمخشريُّ، والنسفي، والخازن، =

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أنَّه نهَى أن يُقامَ الرَّجُلُ مِن مَجلِسِه، ويَجلِسَ فيه آخَرُ، ولكِنْ تَفَسَّحوا وتوسَّعوا))، وكان ابنُ عُمَرَ يَكرَهُ أن يقومَ الرَّجُلُ مِن مجلِسِه ثمَّ يَجلِسَ مَكانَه[1].

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾.

أي: وإذا قيل لكم: قُوموا وانهَضوا مِن المجلِسِ، فافعَلوا ذلك[2].

---

= والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير العليمي)) (٦/ ٥٦٢).

وقال ابن جرير: (الصَّوابُ مِن القولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أمَر المؤمنينَ أن يَتفَسَّحوا في المَجلِسِ، ولم يَخْصُصْ بذلك مَجلِسَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم دونَ مَجلِسِ القِتالِ، وكِلا المَوضعَينِ يُقالُ له مَجلِسٌ، فذلك على جميعِ المَجالِسِ مِن مَجالِسِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ومَجالِسِ القِتالِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٨).

وقال ابن جُزَي: (اختلَفوا هل هي مَقصورةٌ على مَجلسِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّمَ أو هي عامَّةٌ في جميعِ المَجالِسِ؟ فقال قَومٌ: إنَّها مخصوصةٌ، ويدُلُّ على ذلك قِراءةُ ﴿المَجلِسِ﴾ بالإفرادِ [قرأ عاصمٌ بألفٍ على الجمعِ، والباقونَ بغيرِ ألفٍ. «النشر» لابن الجزري «٢/ ٣٨٥»]، وذهَب الجمهورُ إلى أنَّها عامَّةٌ، ويدُلُّ على ذلك قراءةُ ﴿ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ بالجَمعِ، وهذا هو الأصَحُّ، ويكونُ المجلِسُ بالإفرادِ على هذا للجنسِ، والتَّفسيحُ المأمورُ به هو التَّوسُّعُ دونَ القيامِ؛ ولذلك قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ: «لا يُقِمْ أحدٌ [أحدًا] مِن مَجلِسِه ثمَّ يَجلِس الرَّجُلُ فيه، ولكنْ تَفسَّحوا وتَوسَّعوا»). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٣).

وقال القرطبي: (الصَّحيحُ في الآيةِ أنَّها عامَّةٌ في كلِّ مَجلِسٍ اجتمَع المُسلِمونَ فيه للخَيرِ والأجرِ؛ سواءٌ كان مَجلِسَ حربٍ، أو ذِكْرٍ، أو مَجلِسَ يومِ الجُمُعةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٧).

وقال ابن عطيَّة: (قال جمهورُ أهلِ العِلمِ: السَّببُ مَجلِسُ النَّبيِّ عليه السَّلامُ، والحُكمُ في سائرِ المجالسِ الَّتي هي للطَّاعاتِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٨).

(١) رواه البخاريُّ (٦٢٧٠) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢١٧٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

قال الماوَرْدي: (﴿... وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ فيه أربعةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: معناه: وإذا قيل لكم: انهَضوا إلى القتالِ فانهَضوا، قاله الحسَنُ. الثَّاني: إذا دُعيتُم إلى الخَيرِ فأجِيبوا، قاله =

﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾.

أي: يَرفَعِ اللهُ المؤمِنينَ منكم والعُلَماءَ العامِلينَ بعِلْمِهم دَرَجاتٍ عاليةً(١).

---

= قَتادةُ. الثَّالثُ: إذا نُوديَ للصَّلاةِ فاسعَوْا إليها، قاله مُقاتِلُ بنُ حَيَّانَ. الرَّابعُ: أنَّهم كانوا إذا جلَسوا في بيتِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أطالوا؛ لِيَكونَ كلُّ واحدٍ منهم هو الآخِرَ عهدًا به، فأمَرَهم اللهُ أن يَنشُزوا إذا قيل لهم: انشُزوا، قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٩٢).

قال القاسمي: (ولا تَنافيَ بيْن هذه الأقوالِ؛ لأنَّ كُلًّا منها تفسيرٌ لِلَّفظِ العامِّ ببعضِ أفرادِه وما يَصدُقُ عليه؛ إشارةً إلى تَناوُلِه لذلك، لا أنَّ أحَدَها هو المرادُ دونَ غيرِه، فذلك ما لا يُتَوهَّمُ. وقد كثُر مِثلُ ذلك في تفاسيرِ السَّلفِ لكثيرٍ مِن الآيِ، وكلُّه ممَّا لا اختِلافَ فيه). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٧٣).

وقال الثعلبي: (قال أكثرُ المفسِّرينَ: معناه: وإذا قيل لكم: انهضَوا إلى الصَّلاةِ والجِهادِ والذِّكرِ وعمَلِ الخَيرِ -أيَّ حقٍّ كان- فانشُزُوا ولا تُقَصِّروا). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٠).

وممَّن اختار العُمومَ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٧٨، ٤٨٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٦).

قال البقاعي: (لَمَّا كانت التَّوسِعةُ يَكفي فيها التَّزَحزُحُ مع دوامِ الجلوسِ تارةً، وأُخرى تدعو الحاجةُ فيها إلى القيامِ للتَّحَوُّلِ مِن مكانٍ إلى آخَرَ؛ قال:... ﴿ٱنشُزُواْ﴾ أي: ارتَفِعوا وانهَضوا إلى الموضِعِ الَّذي تُؤمَرونَ به أو يقتضيه الحالُ للتَّوسعةِ أو غيرِها مِن الأوامِرِ، كالصَّلاةِ، أو الجهادِ، وغَيرِهما؛ ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ أي: فارتَفِعوا وانهَضوا). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٧٥، ٣٧٦).

وقال ابن عاشور: (ذُكِرَ النُّشوزُ لئلَّا يُتوَهَّمَ أنَّ التَّفسيحَ المأمورَ به تفسيحٌ مِن قُعودٍ... وهذا الحُكمُ إذا عَسُرَ التَّفسيحُ واشتَدَّ الزِّحامُ والتَّراصُّ؛ فإنَّ لأصحابِ المقاعِدِ الحَقَّ المستقِرَّ في أن يَستَمِرُّوا قاعِدينَ لا يُقامُ أحدٌ لغَيرِه، وذلك إذا كان المَقومُ لأجْلِه أَولى بالمكانِ مِن الَّذي أُقيمَ له؛ بسَبَبٍ مِن أسبابِ الأوَّليَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٩٩)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

قال ابن رجب: (قال: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ يعني: على الَّذين آمَنوا ولم يُؤْتَوُا العِلمَ، كذا قال ابنُ مَسعودٍ وغيرُه مِن السَّلَفِ). ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤). =

كما قال تبارك وتعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وعن عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ يَرفَعُ بهذا الكِتابِ أقوامًا، ويَضَعُ به آخَرينَ))(١).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

أي: واللهُ ذو خِبرةٍ بالِغةٍ تامَّةٍ، فلا تَخفَى عليه أعمالُ العِبادِ ونيَّاتُهم، فيَعلَمُ المُطيعَ مِن العاصي، ويَعلَمُ مَن يَستَحِقُّ رفْعَ الدَّرَجاتِ ومَن لا يَستَحِقُّ ذلك(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾.

## النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

اتَّفَق العُلَماءُ على أنَّ هذه الآيةَ مَنسوخةٌ بالآيةِ الَّتي تَليها(٣).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾.

---

= وقال ابنُ كثير: (أي: لا تَعتَقِدوا أنَّه إذا فَسَح أحدٌ منكم لأخيه إذا أقبَلَ، أو إذا أُمِرَ بالخُروجِ فخرَج؛ أن يكونَ ذلك نقصًا في حقِّه، بل هو رفعةٌ ومَزيَّةٌ عندَ اللهِ، واللهُ تعالى لا يُضيعُ ذلك له، بل يَجزيه بها في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإنَّ مَن تواضَعَ لأمرِ اللهِ رَفَع اللهُ قَدْرَه، ونَشَر ذِكْرَه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨).

(١) رواه مسلم (٨١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٥٣)، ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٥٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٦).

أي: يا أيُّها المؤمِنونَ إذا أردتُم أن تُسارُّوا محمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بكلامٍ بَيْنَكم وبيْنَه، فتصَدَّقوا قبْلَ ذلك[1].

﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾.

أي: تقديمُ الصَّدَقةِ قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ خَيرٌ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- مِن تَرْكِها، وأطهَرُ لقُلوبِكم[2].

﴿فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

أي: فإنْ لم تَجِدوا صَدَقةً تُقَدِّمونَها قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ، فلا حَرَجَ عليكم؛ لأنَّ اللهَ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رَحيمٌ بهم؛ فلا يَشُقُّ عليهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٣).

قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: إنَّهم نُهُوا عن المُناجاةِ حتَّى يتصَدَّقوا، فلم يُناجِهِ أحدٌ إلَّا عليُّ ابنُ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه؛ تصَدَّقَ بدينارٍ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٥).

قال القاسمي: (﴿خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أي: لأنفُسِكم؛ لِما فيه مِن مُضاعَفةِ الأجرِ والثَّوابِ، والقيامِ بحقِّ الإخاءِ، بالعَودِ على ذَوي المَسْكنةِ بالمواساةِ والإغناءِ. ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾ أي: لأنفُسِكم مِن رَذيلةِ البخلِ والشُّحِّ، ومِن حُبِّ المالِ وإيثارِه). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال السعدي: (يأمُرُ تعالى المؤمنينَ بالصَّدقةِ أمامَ مُناجاةِ رسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تأديبًا لهم وتعليمًا، وتعظيمًا للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فإنَّ هذا التَّعظيمَ ﴿خَيۡرٞ﴾ للمؤمنينَ ﴿وَأَطۡهَرُۚ﴾، أي: بذلك يَكثُرُ خيرُكم وأجرُكم، وتحصُلُ لكم الطَّهارةُ مِن الأدناسِ، الَّتي مِن جملتِها ترْكُ احترامِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم والأدبِ معه بكثرةِ المُناجاةِ الَّتي لا ثمرةَ تحتَها، فإنَّه إذا أمر بالصَّدقةِ بيْن يدَيْ مُناجاتِه صار هذا ميزانًا لِمَن كان حريصًا على الخَيرِ والعِلمِ، فلا يُبالي بالصَّدقةِ، ومن لم يكُنْ له حِرصٌ ولا رَغبةٌ في الخَيرِ، وإنَّما مقصودُه مجرَّدُ =

﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٣ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا دَلَّ خَتمُ الآيةِ على التَّخفيفِ، وكان قد يَدَّعي مُدَّعُونَ عَدَمَ الوِجدانِ كَذِبًا، فيَحصُلُ لهم حَرَجٌ، وكان اللهُ تعالى شديدَ العنايةِ بنَجاةِ هذه الأُمَّةِ؛ دَلَّ على لُطفِه بهم بنَسْخِه بعد فَرْضِه(١).

﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ ﴾.

أي: أخِفْتُم وخَشِيتُم الفَقْرَ؛ مِن تقديمِ الصَّدَقاتِ قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ(٢)؟

﴿ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾.

---

= كثرةِ الكلامِ؛ فيَنكَفُّ بذلك عن الَّذي يشُقُّ على الرَّسولِ، هذا في الواجدِ للصَّدقةِ، وأمَّا الَّذي لا يجِدُ الصَّدقةَ فإنَّ اللهَ لم يُضيِّقْ عليه الأمرَ، بل عفا عنه وسامَحه، وأباح له المُناجاةَ بدونِ تقديمِ صدقةٍ لا يَقدِرُ عليها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال القرطبي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ ﴾ أيْ: أبَخِلْتُم بالصَّدقةِ؟ وقيل: خِفْتُم، والإشفاقُ: الخوفُ مِن المكروهِ. أيْ: خِفْتُم وبَخِلْتُم بالصَّدقةِ وشقَّ عليكم ﴿أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ ﴾) ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٣).

وقال ابن جرير: (أصلُ الإشفاقِ في كلامِ العَرَبِ: الخوفُ والحَذَرُ، ومعناه في هذا الموضِعِ: أخَشِيتُم بتقديمِ الصَّدَقةِ الفاقةَ والفَقرَ؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: أخِفْتُم مِن استمرارِ هذا الحُكمِ عليكم مِن وُجوبِ الصَّدَقةِ قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ؟). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩).

وقال أبو السعود: (أيْ: أخِفْتُم الفقرَ مِن تقديمِ الصَّدقاتِ؟ أو: أخِفْتُم التَّقديمَ لِما يَعِدُكُم الشَّيطانُ عليهِ مِن الفَقرِ؟). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢١).

أي: فإذْ لم تُقَدِّموا تلك الصَّدَقاتِ، وتاب اللهُ عليكم مِن تَرْكِكم لها؛ فحافِظوا على الصَّلَواتِ الواجِبةِ، بأركانِها وشُروطِها وواجباتِها، وأعطُوا الزَّكاةَ المفروضةَ في أموالِكم إلى مُستَحِقِّيها[1].

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: وأطيعوا اللهَ ورَسولَه في أمْرِهما ونَهْيِهما[2].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ ذو خِبرةٍ بجَميعِ أعمالِكم، فيَعلَمُ بواطِنَها كما يَعلَمُ ظواهِرَها، لا يخفَى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وسيُجازيكم عليها[3].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ يدُلُّ على أنَّ كُلَّ مَن وَسَّع على عبادِ اللهِ أبوابَ الخَيرِ والرَّاحةِ، وَسَّع اللهُ عليه خَيراتِ الدُّنيا والآخرةِ، ولا يَنبغي للعاقِلِ أن يُقَيِّدَ الآيةَ بالتَّفَسُّحِ في المجلِسِ، بل المرادُ منه إيصالُ الخَيرِ إلى المسلِمِ، وإدخالُ السُّرورِ في قَلْبِه؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: نَسَخَ اللهُ ذلك الحُكمَ، وهذا خِطابٌ لِمَن وَجَد ما يتصَدَّقُ به). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٣، ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

ولذلك قال عليه السَّلامُ: ((واللهُ في عَونِ العبدِ ما كان العبدُ في عَونِ أخيه))[١].

٢- قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ هذا تأديبٌ مِن اللهِ لعبادِه المؤمنينَ إذا اجتَمَعوا في مجلِسٍ مِن مجالِسِ مُجتَمَعاتِهم، واحتاج بَعضُهم أو بَعضُ القادمينَ عليهم للتَّفَسُّحِ له في المجلِسِ؛ فإنَّ مِن الأدَبِ أن يَفسَحوا له؛ تحصيلًا لهذا المقصودِ[٢]. فالآيةُ فيها استِحبابُ التَّفَسُّحِ في مجالسِ العِلمِ والذِّكرِ والحَربِ، وكُلِّ مَجلِسِ طاعةٍ، والنَّهيُ عن إقامةِ شَخصٍ ويجلِسَ مكانَه، ولكِنْ يَتفَسَّحُ[٣].

٣- قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ مَن عَمِل بهذا القُرآنِ تَصديقًا بأخبارِه، وتنفيذًا لأوامِرِه، واجتِنابًا لِنواهيه، واهتِداءً بهَدْيِه، وتخَلُّقًا بما جاء به مِن أخلاقٍ، وكُلُّها أخلاقٌ فاضِلةٌ؛ فإنَّ الله تعالى يَرفَعُه به في الدُّنيا والآخِرةِ؛ وذلك لأنَّ هذا القُرآنَ هو أصلُ العِلمِ، ومَنبَعُ العِلمِ، وكُلُّ العِلمِ[٤].

٤- قول الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ الرِّفعةَ عندَ اللهِ تعالى بالعِلمِ والإيمانِ، لا بالسَّبْقِ إلى صدورِ المجالِسِ[٥].

٥- قول الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ فيه أنَّ اللهَ تعالى رَفَع المؤمِنَ على مَن ليس بمؤمِنٍ، والعالِمَ على مَن ليس بعالِمٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٤).

والحديث أخرجه مسلم (٢٦٩٩) مطوَّلًا مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٦٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٤٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٦- قول الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ فيه فَضيلةُ العِلمِ، وأنَّ زِينتَه وثَمرتَه التَّأدُّبُ بآدابِه، والعَمَلُ بمُقتَضاه[1].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ في إدْخالِ الَّذين أُوتوا العِلمَ في حُكمِ رفْعِ المَنزِلةِ بسَببِ امتثالِ الأوامرِ مع الَّذين آمَنوا، ثمَّ في إخْراجِهم عنهم والعطْفِ عليهم- إيذانٌ بأنَّ العمَلَ الواحدَ تَتفاوَتُ دَرجةُ فاعِلِه بحسَبِ التَّخلِّي عن العِلمِ والتَّحلِّي به إلى غاياتٍ بَعيدةٍ، وأنَّ العمَلَ مع عُلوِّ رُتبتِه يَكتسِبُ مِن العِلمِ المقرونِ به مِن الرِّفعةِ ما لا يَكتسِبُه إذا انفرَدَ عنه[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ حَثٌّ على تحقيقِ الإيمانِ، وعلى طَلَبِ العلمِ؛ لأنَّ اللهَ يَرْفَعُ أهلَ العلمِ، وفي هذا يقولُ الشَّاعرُ:

العِلمُ يَرْفَعُ بَيتًا لا عِمادَ لَه ... والجَهلُ يَهْدِمُ بيتَ العِزِّ والشَّرَفِ[3]

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تحذيرُ الإنسانِ أنْ يَعمَلَ بما يُسخِطُ اللهَ تعالى، فلا تَعمَلْ بما يُسْخِطُ اللهَ، لا بالقَولِ، ولا بالفِعلِ، ولا بالاعتِقادِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عليمٌ به، واحذرْ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾[4] [آل عمران: ٢٨].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾ دليلٌ على أنَّه لا حَرَجَ على الإنسانِ أنْ يقولَ للجماعةِ الَّذين عنده «انْشُزُوا، اخرُجوا بارَكَ اللهُ فيكم، انتهى

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

شغلُكم» ونحوَ ذلك، ولا حياءَ في ذلك ولا غَضاضةَ عليه، وينبغي للإنسانِ أنْ يُخَفِّفَ الجلوسَ عندَ النَّاسِ ما استطاعَ، إلَّا إذا عَلِمَ مِن صاحبِه أنَّه يُحِبُّ أنْ تبقى عندَه، فلا بأسَ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ يُستَفادُ منه أنَّ تَفَسُّحَ المسلمينَ بَعضِهم لبَعضٍ في المجالِسِ مَحمودٌ مأمورٌ به وُجوبًا أو نَدْبًا؛ لأنَّه مِن المكارَمةِ والإرفاقِ، فهو مِن مُكَمِّلاتِ واجِبِ التَّحابِّ بيْن المسلِمينَ، وإن كان فيه كُلفةٌ على صاحِبِ البُقعةِ يُضايِقُه فيها غَيرُه، فهي كُلفةٌ غيرُ مُعتبَرةٍ إذا قُوبِلَت بمَصلحةِ التَّحابِّ وفوائِدِه، وذلك ما لم يُفْضِ إلى شِدَّةِ مُضايَقةٍ ومَضَرَّةٍ، أو إلى تفويتِ مَصلَحةٍ مِن سَماعٍ أو نحوِه، مِثلُ مجالِسِ العِلمِ والحديثِ، وصُفوفِ الصَّلاةِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ أفهَمَ لَفظُ التَّفَسُّحِ أنَّه تجنُّبٌ للمُضايَقةِ والمُراصَّةِ، بحيثُ يَفُوتُ المقصودُ مِن حُضورِ ذلك المجلِسِ، أو يَحصُلُ ألمٌ للجالِسينَ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ وعْدٌ بالجزاءِ على الامتِثالِ لأمْرِ التَّفسُّحِ مِن جِنسِ الفِعلِ؛ إذ جُعِلَت تَوسعةُ اللهِ على المُمتثِلِ جَزاءً على امتثالِه الَّذي هو إفساحُه لغيرِه، فضَميرُ ﴿لَكُمۡ ﴾ عائدٌ على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ باعتِبارِ أنَّ الَّذين يَفسَحون همْ مِن جُملةِ المؤمنينَ؛ لأنَّ الحُكمَ مُشاعٌ بيْن جَميعِ الأُمَّةِ، وإنَّما

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الجزاءُ للَّذين تَعلَّقَ بهم الأمْرُ تعلُّقًا إلْزاميًّا[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾. قَولُه: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمۡ ﴾ يَشملُ ما إذا قاله الدَّاخِلُ، أو قاله مَن يُدِيرُ المجلِسَ؛ ولهذا تَجِدُ أنَّ الفِعلَ هو «قيل»، ولم يُذْكَرِ القائلُ؛ لِيَشملَ هذا وهذا، فمثلًا: إذا كان المجلسُ له مديرٌ يُجَلِّسُ النَّاسَ وقال لبَعضِهم: تَوَسَّعوا لفُلانٍ يَجْلِسْ، فلْيَتَوَسَّعوا، أو أنَّ رجُلًا دَخَلَ والمجلسُ مُكْتَظٌّ بالجالِسينَ، فقال: تَوَسَّعوا؛ فلْيَتَوَسَّعوا[٢].

٥- قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ ﴾ لَمَّا كان النُّشوزُ ارتفاعًا عن المكانِ الَّذي كان به، كان جَزاؤهُ مِن جِنسِه[٣].

٦- أفضَلُ ما اكتسَبَتْه النُّفوسُ وحَصَّلَته القُلوبُ، ونال به العَبدُ الرِّفعةَ في الدُّنيا والآخِرةِ: هو العِلمُ والإيمانُ؛ ولهذا قَرَن بيْنَهما سُبحانَه في قَولِه: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾، وقَولِه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِ ﴾ [الروم: ٥٦]، وهؤلاء هم خُلاصةُ الوُجودِ ولُبُّه، والمؤهَّلونَ للمراتِبِ العاليةِ[٤].

٧- قول الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ قال قومٌ: معناه: يَرفَعِ اللهُ المؤمِنينَ العُلَماءَ منكم دَرَجاتٍ على غَيرِهم؛ فلذلك أَمَر بالتَّفَسُّحِ من أجْلِهم، ففيه دليلٌ على رفْعِ العُلَماءِ في المجالِسِ، والتَّفَسُّحِ لهم عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٠).

(٤) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٠٣).

المجالِسِ الرَّفيعةِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ خَصَّ سُبحانَه رفْعَه بالأقدارِ والدَّرَجاتِ الَّذين أُوتوا العِلمَ والإيمانَ، وهم الَّذين استَشهدَ بهم في قَولِه تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وأَخْبَرَ أنَّهم هم الَّذين يَرون ما أُنْزِلَ إلى الرَّسولِ هو الحقَّ، بقَولِه تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ [سبأ: ٦]، فدلَّ على أنَّ تَعَلُّمَ الحُجَّةِ والقيامَ بها يَرفَعُ دَرَجاتِ مَن يَرْفَعُها، كما قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]. قال زَيدُ بنُ أَسلَمَ: بالعِلمِ. فرَفْعُ الدَّرَجاتِ والأقدارِ على قَدْرِ مُعامَلةِ القُلوبِ بالعِلمِ والإيمانِ، فكم ممَّن يَختِمُ القرآنَ في اليومِ مرَّةً أو مرَّتَينِ، وآخَرَ لا ينامُ اللَّيلَ، وآخرَ لا يُفْطِرُ، وغيرُهم أقلُّ عبادةً منهم، وأَرْفَعُ قَدْرًا في قُلوبِ الأُمَّةِ[٢]؟!

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ لم يُعَيِّنْ عزَّ وجلَّ الدَّرَجاتِ؛ لأنَّ هذه الدَّرَجاتِ بحَسَبِ ما مع الإنسانِ مِن الإيمانِ والعِلمِ، كلَّما قَوِيَ الإيمانُ وكُلَّما كَثُرَ العِلمُ، وانتَفَعَ الإنسانُ به، ونَفَعَ غيرَه- كان أكثرَ درَجاتٍ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أنَّ الإنسانَ كُلَّما ازداد طاعةً للهِ وانقيادًا لِأمْرِه، ازداد رِفعةً[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٦/ ٤٤٠).

أنَّ الجزاءَ على قَدْرِ قيمةِ المَجْزِيِّ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ تفضيلُ العِلمِ على العبادةِ؛ فقولُه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ يعني: على الَّذين آمَنوا ولم يُؤْتَوُا العِلمَ، كذا قال ابنُ مسعودٍ وغيرُه مِن السَّلَفِ[٢].

١٣- قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ مَنسوخٌ بالآيةِ الَّتي بَعْدَها؛ ففيه دليلٌ على جوازِ النَّسخِ بلا بَدَلٍ، ووُقوعِه، خلافًا لِمَن أبى ذلك[٣].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ تنبيهٌ وإشارةٌ أنه إذا استُحِبَّتِ الصَّدقةُ بيْن يَدَيْ مُناجاةِ المخلوقِ، فاستِحبابُها بيْن يَدَيْ

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٧). ويُنظر أيضًا: ((الفروق)) للقرافي (١/ ٦)، ((شرح العضد على مختصر المنتهى الأصولي ومعه حاشية السعد والجرجاني)) (٣/ ٢٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٥٨).

وقال ابنُ القيِّم -بعد أن ذكر أنَّ الأحكامَ المنسوخةَ لم تبطُلْ بالكُلِّيَّةِ، بل لها بقاءٌ بوجْهٍ-: (نَسخُ وُجوبِ الصَّدَقةِ بيْنَ يَدَيْ مُناجاةِ الرَّسولِ لم يَبطُلْ حُكمُه بالكُلِّيَّةِ، بل نُسِخَ وُجوبُه، وبَقِيَ استِحبابُه والنَّدبُ إليه). ((مفتاح دار السعادة)) (٢/ ٣٣).

وقال أبو يعلى الفرَّاءُ: (الصَّدقةُ عندَ مُناجاةِ الرَّسولِ كانت واجبةً بقولِه تعالى: ﴿إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾، فنُسِخ ذلك الوُجوبُ إلى جَوازِ تَركِها وجوازِ فِعلِها بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾). ((العدة في أصول الفقه)) (٣/ ٧٨٤).

وقال الشنقيطي: (وُجوب تقديمِ الصَّدقةِ أمامَ المُناجاةِ لَمَّا نُسِخ بقيَ استِحبابُ الصَّدقةِ ونَدْبُها، بدلًا مِن الوُجوبِ المنسوخِ كما هو ظاهرٌ). ((أضواء البيان)) (٢/ ٤٤٨).

مُناجاةِ اللهِ عندَ الصَّلَواتِ والدُّعاءِ: أَولى[١].

١٥- قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ﴾ التَّعبيرُ بأفعَلَ؛ لأنَّهم مُطَهَّرونَ قَبْلَه بالإيمانِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فُصِلَ بيْنَ آياتِ الأحكامِ المُتعلِّقةِ بالنَّجوى بهذه الآيةِ؛ مُراعاةً لاتِّحادِ الموضوعِ بيْنَ مَضمونِ هذه الآيةِ ومَضمونِ الَّتي بعْدَها في أنَّهما يَجمَعُهما غرَضُ التَّأدُّبِ مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتلك المُراعاةُ أَولى مِن مُراعاةِ اتِّحادِ سِياقِ الأحكامِ؛ ففي هذه الآيةِ أدَبٌ في مَجلسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والآيةُ الَّتي بعْدَها تَتعلَّقُ بالأدَبِ في مُناجاةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأُخِّرت تلك عن آياتِ النَّجوى العامَّةِ؛ إيذانًا بفضْلِها دونَ النَّجوى الَّتي تَضمَّنَتها الآياتُ السَّابقةُ، فاتِّحادُ الجِنسِ في النَّجوى هو مُسوِّغُ الانتِقالِ مِن النَّوعِ الأوَّلِ إلى النَّوعِ الثَّاني، والإيماءُ إلى تَميُّزِها بالفضْلِ هو الَّذي اقْتَضى الفصلَ بيْن النَّوعَينِ بآيةِ أدَبِ المجلسِ النَّبويِّ، وأيضًا قد كان للمنافِقين نِيَّةُ مَكْرٍ في قَضيَّةِ المجلِسِ كما كان لهم نِيَّةُ مَكرٍ في النَّجوى، وهذا ممَّا أنشَأَ مُناسَبةَ الانتِقالِ مِن الكلامِ على النَّجوى إلى ذِكرِ التَّفسُّحِ في المجلسِ النَّبويِّ

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٣٣).

وقال ابن القيِّم: (كان بَعضُ السَّلَفِ الصَّالحِ يتصَدَّقُ بيْن يدَيِ الصَّلاةِ والدُّعاءِ إذا أمكَنَه، ويَتأوَّلُ هذه الأولويَّةَ، ورأيتُ شَيخَ الإسلامِ ابنَ تَيميَّةَ يَفعَلُه ويَتحرَّاه ما أمكَنَه، وفاوَضْتُه فيه، فذكَرَ لي هذا التَّنبيهَ والإشارةَ). ((المصدر السابق)).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨١).

الشَّريفِ[١].

- قولُه: ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ حُذِفَ فاعلُ القولِ؛ لظُهورِه، أي: إذا قال لكم الرَّسولُ: تفسَّحوا، فافْسَحوا؛ فإنَّ اللهَ يُثيبُكم على ذلك[٢]. أو: إذا قال لكم قائلٌ كائنًا مَن كان[٣].

- وابتُدِئت الآيةُ بالأمْرِ بالتَّفسُّحِ؛ لأنَّ إقامةَ النَّاسِ مِن المجالسِ يكونُ لطلَبِ التَّفسيحِ، فإناطةُ الحكْمِ إيماءٌ إلى عِلةِ الحكْمِ[٤].

- والتَّفسُّحُ: التَّوسُّعُ، ومادَّةُ التَّفعُّلِ هنا للتَّكَلُّفِ، أي: يُكلَّفُ أنْ يَجعَلَ فُسحةً في المكانِ[٥].

- وتَعريفُ (المَجالسِ) يَجوزُ أنْ يكونَ تَعريفَ العهْدِ، وهو مَجلسُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: إذا قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لكم ذلك؛ لأنَّ أمْرَه لا يكونُ إلَّا لمُراعاةِ حقٍّ راجحٍ على غيرِه، ويجوزُ أنْ يكونَ تَعريفُ المجالسِ تَعريفَ الجِنسِ[٦].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ ما يَتطلَّبُ النَّاسُ الإفساحَ فيه في الدُّنيا والآخِرةِ؛ مِن مَكانٍ ورِزقٍ، أو جنَّةٍ عرْضُها السَّمواتُ والأرضُ على حسَبِ النِّيَّاتِ، وتَقديرُ الجزاءِ مَوكولٌ إلى إرادةِ اللهِ تعالَى[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦، ٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٣).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٨).

- وقولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾ عطْفٌ على ﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجَٰلِسِ﴾، و﴿ٱنشُزُواْ﴾ أمْرٌ مِن: نَشَزَ؛ إذا نهَضَ مِن مكانِه، والنُّشوزُ: أخَصُّ مِن التَّفسيحِ مِن وجْهٍ؛ فهو مِن عطْفِ الأخَصِّ مِن وجْهٍ على الأعمِّ منه للاهتمامِ بالمعطوفِ؛ لأنَّ القِيامَ مِن المجلسِ أقْوى مِن التَّفسيحِ مِن قُعودٍ؛ فذُكِرَ النُّشوزُ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ التَّفسيحَ المأمورَ به تَفسيحٌ مِن قُعودٍ[1].

- قولُه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ الجَزاءُ برفْعِ الدَّرجاتِ هنا مُناسِبٌ للعمَلِ؛ لأنَّ المأمورَ به تَفسيحُ المجالِسِ؛ كيْلَا يَتنافَسوا في القُرْبِ مِن المكانِ الرَّفيعِ حوْلَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيَتضايَقوا، وذلك لا يَليقُ بآدابِ المجلسِ الَّتي مِن أوَّلِها تَفادي إزعاجِ المُجالِسينَ وتَضييقِ صُفوفِهم، واجتنابُ ما يُكدِّرُ صَفاءَهم، ويُنغِّصُ بالَهُم. ولَمَّا كان المُمتثِلُ لذلك الأمْرِ يَخفِضُ نفْسَه عمَّا يُتنافَسُ فيه مِن الرِّفعةِ امتثالًا وتَواضُعًا؛ جُوزِيَ على تَواضُعِه برفْعِ الدَّرجاتِ، ثمَّ لَمَّا علِمَ أنَّ أهلَ العِلمِ بحيث يَسْتوجبونَ عِندَ أنفُسِهم وعِندَ النَّاسِ ارتفاعَ مَجالِسِهم، خصَّهم بالذِّكرِ عندَ الجَزاءِ؛ لِيَسهُلَ عليهم ترْكُ ما لهم مِن الرِّفعةِ في المجلِسِ تَواضعًا للهِ تعالَى، وفي هذا التَّخصيصِ إلْماعٌ إلى فضْلِ العِلمِ[2].

- وعطْفُ (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) عطْفُ الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ غِشْيانَ مَجلسِ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما هو لطلَبِ العِلمِ مِن مَواعظِه وتَعليمِه، أي: والَّذين أُوتوا العِلمَ منكم أيُّها المؤمِنون؛ لأنَّ الَّذين أُوتوا العِلمَ قد يكونُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المنير)) (٤/ ٤٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٤).

الأمرُ لأحدٍ بالقِيامِ مِن المَجلِسِ مِن أجْلِهم، أي: مِن أجْلِ إجْلاسِهم، وذلك رفْعٌ لدَرَجاتِهم في الدُّنيا، ولأنَّهم إذا تَمكَّنوا مِن مَجلِسِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان تَمكُّنُهم أجمَعَ للفَهمِ، وأنْفى للمَلَلِ، وذلك أدْعى لإطالتِهم الجلوسَ، وازديادِهم التَّلقِّيَ، وتَوفيرِ مُستنبَطاتِ أفْهامِهم فيما يُلْقى إليهم مِن العِلمِ؛ فإقامةُ الجالسينَ في المَجلِسِ مِن أجْلِ إجلاسِ الَّذين أُوتوا العِلمَ مِن رفْعِ دَرَجاتِهم في الدُّنيا. ويَجوزُ أنَّ بعضًا مِن الَّذين أُمِروا بالقِيامِ كان مِن أهلِ العِلمِ؛ فأُقِيمَ مِن أجلِ رُجْحانِ فَضيلةِ البَدْريِّينَ عليه، فيَكونُ في الوعْدِ للَّذي أُقِيمَ مِن مَكانِه برفْعِ الدَّرَجاتِ استئناسٌ له بأنَّ اللهَ رافعٌ دَرجتَه[1].

وقيل: رُوعِيَ في هذا التَّركيبِ لَطيفةٌ؛ وهي أنَّ مَن يَشهَدُ مَجلِسَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن المؤمنينَ أحدُ رجُلَينِ: عامِلٌ يَسمَعُ للعمَلِ، وعالِمٌ عامِلٌ يَسمَعُ للعمَلِ والاستِنباطِ والتَّعليمِ، فأراد اللهُ سُبحانَه وتعالَى مدْحَ الفريقَينِ، وتَفضيلَ أحدِهما على الآخَرِ مِن حيث لا يَلزَمُ منه نقْصُه، أتى بالعامِّ وعطَفَ عليه الخاصَّ، وأبرَزَهما في مَعرِضِ الجُملتَينِ، فيَكونُ مِن بابِ عطفِ التَّقديرِ لا الانسحابِ؛ فالدَّرجاتُ ظرْفٌ للفِعلِ المُقدَّرِ، ويُضمَرُ للمذكورِ أحطُّ منه ممَّا ناسَبَ المقامَ، مثل: يَرفَعِ اللهُ الَّذينَ آمَنوا مِنكم بالنَّصرِ وحُسْنِ الذِّكرِ في الدُّنيا، وإيوائِهم غُرَفَ الجِنانِ في الآخرةِ، ويَرفَعِ العُلماءَ منهم خاصَّةً دَرَجاتٍ؛ بما جَمَعوا بيْن العِلمِ والعمَلِ[2].

- وضَميرُ ﴿مِنكُمْ﴾ خِطابٌ للَّذين نُودوا بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، و(مِن) تَبعيضيَّةٌ، أي: يَرفَعِ اللهُ دَرَجاتِ الَّذين امْتَثَلوا، وقَرينةُ هذا التَّقديرِ هي جَعلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٨٧، ٢٨٨).

الفِعلِ ﴿يَرۡفَعِ﴾ جَزاءً للأمرِ ﴿فَٱنشُزُواْ﴾؛ فإنَّ الجزاءَ مُسبَّبٌ عمَّا رُتِّبَ عليه بقولِه: ﴿مِنكُمۡ﴾ صفة لـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، أي: الَّذين آمَنوا مِن المؤمنينَ، والتَّغايُرُ بيْن معْنى الوصفِ ومعْنى الموصوفِ بتَغايُرِ المُقدَّرِ، وإن كان لَفظُ الوصْفِ ولَفظُ الموصوفِ مُترادفَينِ في الظَّاهرِ، فآلَ الكلامُ إلى تَقديرِ: يَرفَعِ اللهُ الَّذين اسْتَجابوا للأمْرِ بالنُّشوزِ إذا كانوا مِن المؤمنينَ، أي: دونَ مَن يضُمُّه المجلسُ مِن المنافقين، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: يَرفَعِ اللهُ النَّاشِزينَ منكم، فاستُحْضِروا بالمَوصولِ بصِلةِ الإيمانِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن الإيماءِ إلى عِلَّةِ رفْعِ الدَّرجاتِ مِن أجْلِ امتثالِهم أمْرَ القائلِ ﴿ٱنشُزُواْ﴾، وهو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنْ كان لإيمانِهم، وأنَّ ذلك الامتثالَ مِن إيمانِهم ليس لنفاقٍ، أو لصاحبِه امتعاضٌ[١].

- وتَنكيرُ ﴿دَرَجَٰتٖ﴾؛ للإشارةِ إلى أنْواعِها مِن درَجاتِ الدُّنيا ودرَجاتِ الآخِرةِ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ تَذييلٌ، أي: اللهُ عليمٌ بأعمالِكم، ومُختلِفِ نِيَّاتِكم مِن الامتثالِ، كقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يُكْلَمُ[٣] أحدٌ في سَبيلِ اللهِ، واللهُ أعلَمُ بمَن يُكلَمُ في سَبيلِه ...))[٤] الحديثَ[٥].

- وقُدِّم الجارُّ ومَدخولُه وإنْ كان عِلمُه سُبحانَه بالأشياءِ كلِّها على حدٍّ سواءٍ؛ تنبيهًا على مَزيدِ الاعتِناءِ بالأعمالِ، لا سيَّما الباطنةِ مِن الإيمانِ والعِلمِ اللَّذَينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٠، ٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٤٠).

(٣) أي: يُجْرَحُ؛ مِنَ الكَلْمِ: وهو الجُرْحُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٦/ ٢٤٦٢).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٢٨٠٣)، ومسلمٌ (١٨٧٦) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٢).

هُما الرُّوحُ الأعظَمُ؛ لأنَّ المَقامَ لنُزولِ الإنسانِ عن مكانِه بالتَّفسُّحِ والانخفاضِ والارتفاعِ، ولا يَخفَى ما في ذلك مِن حَظِّ النفْسِ الحامِلِ على الجريِ مع الدَّسائسِ؛ فكان جديرًا بمَزيدِ التَّرهيبِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ عاد به إلى ذِكرِ بَعضِ أحوالِ النَّجوى، وهو مِن أحوالِها المحمودةِ، والمُناسَبةُ هي قولُه تعالى: ﴿وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المجادلة: ٩]؛ فهذه الصَّدقةُ شرَعَها اللهُ تعالى وجعَلَ سبَبَها مُناجاةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فذُكِرَت عقِبَ آيِ النَّجوى؛ لاستِيفاءِ أنواعِ النَّجوى مِن مَحمودٍ ومَذمومٍ(٢).

- وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُ﴾ تَعريفٌ بحِكمةِ الأمْرِ بالصَّدقةِ قبْلَ نَجوى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَرغَبَ فيها الرَّاغِبون(٣).

- واستِفادةُ أنَّ غيرَ الواجدِ لا حرَجَ عليه في النَّجوى بدونِ صَدقةٍ، حاصلةٌ بدَلالةِ الفَحْوى؛ لأنَّه لا يَترُكُ مُناجاةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ إرادةَ مُناجاتِه الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيست عبَثًا، بلْ لتَحصيلِ عِلمٍ مِن أُمورِ الدِّينِ. وأمَّا قولُه: ﴿رَّحِيمٞ﴾ فهو في مُقابَلةِ ما فات غيرَ الواجدِ ما يَتصدَّقُ به

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٧٧، ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٤٥).

مِن تَزكيةِ النَّفْسِ؛ إشعارًا له بأنَّ رَحمةَ اللهِ تَنفَعُه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

- قولُه: ﴿ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖ ﴾ الاستِفهامُ تَوبيخيٌّ، مُستعمَلٌ في اللَّومِ على تَجهُّمِ تلك الصَّدقةِ مع ما فيها مِن فَوائدَ لنفْعِ الفُقراءِ[٢]. أو الهمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ[٣].

- و(إذ) ظَرفيَّةٌ مُفيدةٌ للتَّعليلِ، أي: فحِينَ لم تَفعَلوا فأقِيموا الصَّلاةَ، و(فاءُ) ﴿فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ﴾ لتَفريعِ ما بعْدَها على الاستِفهامِ التَّوبيخيِّ[٤].

- وما تَتعلَّقُ به (إذ) مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ ﴾، تَقديرُه: خفَّفْنا عنكم، وأعفَيْناكم مِن أنْ تُقدِّموا صَدقةً قبْلَ مُناجاةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٥].

- و(الفاءُ) في ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ عاطِفةٌ على الكلامِ المُقدَّرِ: وحافِظوا على التَّكاليفِ الأُخرى، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وطاعةِ اللهِ ورسولِه، أي: فذلك لا تَسامُحَ فيه؛ قِيل لهم ذلك لئلَّا يَحسَبوا أنَّهم كلَّما ثَقُلَ عليهم فِعلٌ ممَّا كُلِّفوا به يُعْفَون منه. وفِعلُ ﴿فَأَقِيمُواْ ﴾ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٥، ٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٤٦، ٤٧).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فِعلُ ﴿وَءَاتُواْ﴾ مُستعمَلٌ في طلَبِ الدَّوامِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وهو كِنايةٌ عن التَّحذيرِ مِن التَّفريطِ في طاعةِ اللهِ ورَسولِه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٤-١٩)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿تَوَلَّوْا﴾: أصلُ (ولي) يدُلُّ على القُرْبِ، سواءٌ مِن حيثُ: المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[1].

﴿أَيْمَٰنَهُمْ﴾: أي: حَلِفَهم، واليَمينُ: القَسَمُ، وسُمِّيَ الحَلِفُ يَمينًا -وهو اسمُ اليَدِ-؛ لأنَّهم كانوا يَبْسُطونَ أيْمانَهم إذا حَلَفوا أوْ تحالَفوا، ثمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّيَ الحلفُ والعهدُ نفْسُه يمينًا، وقِيل: يَمينٌ فَعيلٌ مِن اليُمنِ، وهو البَرَكةُ، سَمَّاها اللهُ تعالَى بذلك؛ لأنَّها تحفَظُ الحُقوقَ[2].

﴿جُنَّةً﴾: أي: تَقِيَّةً وسُترةً، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥).

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ﴾: أي: غَلَب واستَولَى، وأصلُ (حوذ): يدُلُّ على الخِفَّةِ والسُّرعةِ[١].

﴿حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: أي: جُنْدُه وأتْباعُه وطائِفَتُه، والحزبُ: الجماعةُ مِن النَّاسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ مِن كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيءِ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا شناعةَ حالِ المنافِقين، وسوءَ عاقبتِهم: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- إلى المنافِقينَ الَّذين تولَّوُا اليَهودَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم، وما هؤلاء المنافِقونَ مِن أهلِ دينِكم، ولا هم أيضًا على مِلَّةِ اليهودِ، ويَحلِفونَ لكم كَاذِبينَ وهم يَعلَمونَ كَذِبَهم، هيَّأَ اللهُ لأولئك المنافِقينَ عَذابًا شديدًا؛ لأنَّهم عَمِلوا أعمالًا سَيِّئةً.

اتَّخَذ المنافِقونَ حَلِفَهم الكاذِبَ للمُؤمِنينَ وِقايةً لهم مِن كَشْفِ أمْرِهم، فصَدُّوا عن اتِّباعِ الحَقِّ؛ فلهم عَذابٌ مُذِلٌّ لهم. لن تُغْنيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم شيئًا مِن عذابِ اللهِ، أولئك أهلُ النَّارِ هم فيها ماكِثونَ أبدًا، يومَ يَبعَثُهم اللهُ فيَحلِفونَ له كَذِبًا أنَّهم مُؤمِنونَ مُهتَدونَ كما كانوا يَحلِفونَ لكم في الدُّنيا كَذِبًا، ويَظُنُّونَ أنَّهم في حَلِفِهم باللهِ كَذِبًا على شَيءٍ يَنفَعُهم عندَ اللهِ تعالى، ألَا إنَّ المنافِقينَ هم الكاذِبونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى سببَ انغماسِ المنافِقينَ في نِفاقِهم، فيقولُ: استولَى عليهم الشَّيطانُ حتَّى غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ، ولم يَعمَلوا بطاعَتِه، ولم يَنتَهوا عن معصيتِه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦).

أولئك أتْباعُ الشَّيطانِ وجُندُه، ألَا إنَّ أتْباعَ الشَّيطانِ وجُندَه هم الخاسِرونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ الله تعالى بإحاطةِ عِلمِه؛ ردعًا لِمَن يَغتَرُّ بطولِ حِلمِه- دلَّ على ذلك باطِّلاعِه على نِفاقِ المنافِقِين، الَّذي هو أبطنُ الأشياءِ[1].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾.

أي: ألمْ تَرَ -يا محمَّدُ- إلى المنافِقينَ الَّذين توَلَّوُا اليَهودَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم، فيَنصَحونَ لهم ويُناصِرونَهم[2]؟

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١، ٥٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٢، ٥٥٣).

قال ابن تيميَّة: (هم المنافِقونَ الَّذين توَلَّوُا اليهودَ، باتِّفاقِ أهلِ التَّفسيرِ، وسياقُ الآيةِ يدُلُّ عليه). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (١/ ٧٧، ٧٨).

وقال السعدي: (يخبِرُ تعالى عن شَناعةِ حالِ المنافِقِينَ الَّذين يَتَولَّون الكافِرِين مِن اليهودِ والنَّصارى وغيرِهم ممَّن غَضِبَ اللهُ عليهم، ونالوا مِن لَعنةِ الله أوفى نصيبٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

وقال الشنقيطي: (المراد إنكارُ الله على المنافِقينَ تَوَلِّيَهم القَومَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم، وهم اليهودُ والكفَّارُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٥٣).

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾.

أي: ليس المنافِقونَ في الحقيقةِ مِن أهلِ دينِكم -أيُّها المؤمِنونَ-، ولا هم أيضًا على مِلَّةِ اليهودِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال السعدي: (ليسوا مِن المؤمِنينَ ولا مِن الكافِرينَ، فليسوا مؤمنينَ ظاهِرًا وباطِنًا؛ لأنَّ باطِنَهم مع الكُفَّارِ، ولا مع الكُفَّارِ ظاهِرًا وباطِنًا؛ لأنَّ ظاهِرَهم مع المؤمنينَ، وهذا وصْفُهم الَّذي نعَتَهم اللهُ به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿مَّا هُم﴾ يعودُ على المنافِقين: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وابن جُزَي، وأبو حيان، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال أبو حيَّان: (الضَّمير في ﴿مَّا هُم﴾ عائدٌ على الَّذين تولَّوْا، وهم المنافِقون، أي: ليسوا منكم أيُّها المؤمنونَ، ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ أي: ليسوا مِن الَّذين تولَّوْهم، وهم اليهودُ. و﴿مَّا هُم﴾ استئنافُ إخبارٍ بأنَّهم مُذَبْذَبون، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء... وقال ابنُ عطيَّة: يحتملُ تأويلًا آخَرَ، وهو أن يكونَ قولُه: ﴿مَّا هُم﴾ يريدُ به اليهودَ، وقولُه: ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ يريدُ به المنافِقين، فيَجيءُ فِعلُ المنافِقينَ على هذا التَّأويلِ أخَسَّ؛ لأنَّهم تولَّوْا مغضوبًا عليهم، ليسوا مِن أنفُسِهم فيَلزَمَهم ذِمامُهم، ولا مِن القَومِ المُحِقِّينَ فتكونَ الموالاةُ صوابًا. انتهى. والظَّاهرُ التَّأويلُ الأوَّلُ؛ لأنَّ الَّذين تولَّوْا هم المُحَدَّثُ عنهم، والضَّميرُ في ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ عائدٌ عليهم، فتَتَناسَقُ الضَّمائرُ لهم ولا تختلِفُ. وعلى هذا التَّأويلِ يكونُ ﴿مَّا هُم﴾ استئنافًا، وجاز أن يكونَ حالًا مِن ضميرِ ﴿تَوَلَّوْا﴾. وعلى احتمالِ ابنِ عطيَّةَ يكونُ ﴿مَّا هُم﴾ صِفةً لقَومٍ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٠).

وقال السمين الحلبي عن الاحتمالِ الَّذي ذكره ابنُ عطيَّة: (فيه تنافُر الضَّمائرِ؛ فإنَّ الضَّميرَ في =

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ٨ - ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣].

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يَدخُلُ عليكم رجُلٌ يَنظُرُ بعَينِ شَيطانٍ، أو بعينَيْ شَيطانٍ. قال: فدخَلَ رجُلٌ أزرَقُ، فقال له[1]: عَلامَ تَسُبُّني أوْ تَشْتُمُني؟ قال: فجَعَل يَحْلِفُ، قال: فنزَلَت هذه الآيةُ الَّتي في المجادَلةِ: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤] والآيةُ الأُخرى))[2].

---

= ﴿وَيَحْلِفُونَ﴾ عائدٌ على ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ﴾). ((الدر المصون)) (١٠/ ٢٧٣).

(١) ورد في بعضِ الرِّواياتِ: ((فقال: يا محمَّدُ، عَلامَ سبَبْتَني -أو شتَمْتَني)) قال أحمد شاكر: («محمَّد» خطأٌ ينافي السِّياقَ؛ فإنَّ الَّذي نُسِب إليه السَّبُّ والشَّتمُ هو هذا المنافِقُ الأزرقُ، ورسولُ الله يَسألُه ويَتَّهِمُه، وهو يَحلِفُ كاذبًا يَتبرَّأُ مِن التُّهمةِ..، فالظَّاهرُ أنَّ الخطأَ بهذه الزِّيادةِ مِن بعضِ رُواةِ المُسنَدِ أو ناسخيه). ((مسند أحمد)) بتحقيق أحمد شاكر (٢/ ٥٤٣). ويُنظر: ((مسند أحمد)) بتحقق شعيب الأرناؤوط (٤/ ٤٨).

(٢) أخرجه أحمدُ (٢١٤٧)، والبَزَّارُ (٥٠١٠)، وابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٢/ ٤٨٩) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ (١٢/ ٨) (١٢٣٠٩).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٢٥): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ١٨)، وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج =

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: وهم يَحلِفونَ للمُؤمِنينَ على الكَذِبِ في دعوى الإيمانِ، أو غيرِ ذلك، وهم يَعلَمونَ أنَّهم كاذِبونَ فيما حَلَفوا عليه(١)!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ * ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١، ٢].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن حالِ المنافِقينَ؛ أتْبَعَه الإخبارَ عن مآلِهم(٢).

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾.

أي: هيَّأَ اللهُ لأولئك المنافِقينَ عَذابًا شديدًا(٣).

---

= ((مسند أحمد)) (٤/ ٤٨). ويُنظر: ((الصحيح المسند من أسباب النزول)) للوادعي (ص: ٢٠٥).

ويُنظر روايةٌ أخرى لهذا الحديثِ (ص: ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قال السعدي: (جزاءُ هؤلاء الخَوَنةِ الفَجَرةِ الكَذَبةِ: أنَّ اللهَ أعَدَّ لهم عذابًا شديدًا، لا يُقادَرُ قَدرُه، ولا يُعلَمُ وَصفُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥].

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ بعَذابِهم علَّله بما دَلَّ على أنَّه واقِعٌ في أتَمِّ مواقِعِه، فقال مؤكِّدًا؛ تقبيحًا على مَن كان يَستَحسِنُ أفعالَهم[1]:

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: قد أعدَّ اللهُ لهم عذابًا شديدًا؛ لأنَّهم عَمِلوا أعمالًا سَيِّئةً مُتكَرِّرةً أصَرُّوا عليها، حتَّى صارت دَيدَنًا لهم وطَبعًا وجِبِلَّةً[2].

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: جَعَل المنافِقونَ حَلِفَهم الكاذِبَ للمُؤمِنينَ وِقايةً لهم مِن كَشْفِ أمْرِهم، وافتِضاحِ نِفاقِهم، فيتَّقونَ بذلك القَتلَ، ويَدفَعونَ عن أنفُسِهم وأموالِهم وذرارِيِّهم، فصَدُّوا أنفُسَهم وغيرَهم عن اتِّباعِ الحَقِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩، ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٣).

قال ابن جرير: (فالمنافِقونَ يَصُدُّونَ المؤمنينَ عن سبيلِ اللهِ فيهم بأيْمانِهم إنَّهم مؤمنونَ، =

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

أي: فلهؤلاء المنافِقينَ عَذابٌ مُذِلٌّ لهم[1].

---

= وإنَّهم منهم، فيَحولونَ بذلك بيْنَهم وبيْنَ قَتْلِهم، ويَمتَنِعونَ به ممَّا يَمتَنِعُ منه أهلُ الإيمانِ باللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠).

وقال ابن كثير: (اتَّقَوا بالأيْمانِ الكاذبةِ، فظَنَّ كثيرٌ ممَّن لا يَعرِفُ حقيقةَ أمْرِهم صِدْقَهم، فاغتَرَّ بهم، فحَصَل بهذا صَدٌّ عن سبيلِ اللهِ لبَعضِ النَّاسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢).

وقال ابن عاشور في قولِه ﴿جُنَّةً﴾: (أي: وقايةً مِن شُعورِ المسلمينَ بهم؛ لِيَتمَكَّنوا مِن صَدِّ كثيرٍ ممَّن يريدُ الدُّخولَ في الإسلامِ عن الدُّخولِ فيه؛ لأنَّهم يختَلِقونَ أُكذوباتٍ يَنسُبونَها إلى الإسلامِ والمسلمينَ... و«صَدُّوا» يجوزُ أن يكونَ مُتعَدِّيًا، وحُذِفَ مفعولُه؛ لظُهورِه، أي: فصَدُّوا النَّاسَ عن سبيلِ اللهِ، أي: الإسلامِ، بالتَّثبيطِ، وإلصاقِ التُّهَمِ والنَّقائصِ بالدِّينِ. ويجوزُ أن يكونَ الفِعلُ قاصِرًا، أي: فصَدُّوا هم عن سَبيلِ اللهِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٩، ٥٠).

وذهب السَّعدي إلى حملِ الآيةِ على كِلا المعنيَينِ، أي: صَدُّوا أنفُسَهم، وصَدُّوا غيرَهم عن سبيلِ اللهِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

واستظهر الشنقيطي أنَّ المرادَ أنَّهم صَدُّوا غَيرَهم ممَّن أطاعَهم؛ لأنَّ صُدودَهم في أنفُسِهم دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾، والحَملُ على التَّأسيسِ أَولى مِن الحَملِ على التَّأكيدِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٥٣).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّهم صدُّوا غَيْرَهم: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٤).

قال القرطبي: (﴿فَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ في الدُّنيا بالقَتلِ، وفي الآخِرةِ بالنَّارِ). ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٤).

قيل: لهم عذابٌ مُهينٌ في مُقابَلةِ ما امتَهَنوا مِن الحَلِفِ باسمِ اللهِ العظيمِ في الأيْمانِ الكاذِبةِ الحانثةِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢).

وقيل: جزاءً بما طلبوا بذلك الصَّدِّ إعزازَ أنفُسِهم، وإهانةَ أهلِ الإسلامِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٩).

وقيل: لأنَّهم استكبَروا عن الإيمانِ باللهِ، والانقيادِ لآياتِه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: السعديُّ. =

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها مناسبةٌ لقولِ الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً ﴾ [المجادلة: ١٦]، فكما لمْ تَقِهم أيمانُهم العذابَ، لم تُغْنِ عنهم أموالُهم ولا أنصارُهم شَيئًا يومَ القيامةِ[١]، فأرشد اللهُ تعالى إلى أنَّ ما ظنُّوه مُنجيًا لهم مِن عذابِه مِن المالِ والأولادِ ليس بنافِعٍ لهم حينَئذٍ، فقال[٢]:

﴿ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾.

أي: لن تُغنيَ عن المنافِقينَ بأيِّ وجهٍ مِن الوُجوهِ أموالُهم، فيَفتَدوا بها مِن عذابِ اللهِ، ولا أولادُهم، فيُنقِذوهم منه[٣].

---

= يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠، ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ٢٣). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠، ٥١).

قال السعدي: (فلا تَدفَعُ عنهم شيئًا مِن العذابِ، ولا تُحصِّلُ لهم قِسطًا مِن الثَّوابِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

وقال ابن عاشور: (كان المنافِقونَ مِن أهلِ الثَّراءِ بالمدينةِ، وكان ثراؤُهم مِن أسبابِ إعراضِهم عن قَبولِ الإسلامِ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ سيادةٍ، فلم يَرضَوا أن يَصيروا في طَبَقةِ عُمومِ النَّاسِ. وكان عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلُولَ مُهَيَّأً لأن يُملِّكوه على المدينةِ قُبَيلَ إسلامِ الأنصارِ، فكانوا يَفخَرونَ على المسلمينَ بوَفرةِ الأموالِ، وكثرةِ العَشائِرِ، وذلك في السَّنةِ الأولى من الهِجرةِ، ومِن ذلك قولُ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ: ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون: ٨]، يريد بالأعَزِّ فَريقَه، وبالأذَلِّ فَريقَ المسلمينَ، فآذنَهم اللهُ بأنَّ أموالَهم وأولادَهم لا تُغْني =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

أي: أولئك أهلُ النَّارِ الَّذين هم لها مُلازِمونَ، وفيها ماكِثونَ، ومنها لا يُخرَجونَ[1].

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾.

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جالِسًا في ظِلِّ حُجرتِه، قد كاد يَقلِصُ[2] عنه، فقال لأصحابِه: يجيئُكم رجُلٌ يَنظُرُ إليكم بعَينِ شَيطانٍ، فإذا رأيتُموه فلا تكَلِّموه، فجاء رجُلٌ أزرَقُ، فلمَّا رآه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دعاه، فقال: عَلامَ تَشتُمني أنت وأصحابُك؟! قال: كما أنتَ حتَّى آتيَك بهم، فذهب فجاءَ بهم، فجعلوا يَحلِفونَ باللهِ ما قالوا، وما فَعَلوا، وأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ))[3].

---

= عنهم ممَّا توعَّدَهم اللهُ به من المذَلَّةِ في الدُّنيا، والعذابِ في الآخِرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠، ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(٢) يَقلِصُ أي: يرتَفِعُ ويَذهَبُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ١٠٠).

(٣) أخرجه أحمد (٣٢٧٧) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ (١٢/ ٧) (١٢٣٠٧)، والحاكمُ (٣٧٩٥).

صحَّحه الحاكِمُ على شرطِ مسلمٍ، وصحَّح إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((الصارم المسلول)) =

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾.

أي: يومَ يَبعَثُ اللهُ أولئك المنافِقينَ مِن قُبورِهم أحياءً، فيَحلِفونَ لله كَذِبًا أنَّهم مُؤمِنونَ مُهتَدونَ كما يَحلِفونَ لكم -أيُّها المؤمِنونَ- في الدُّنيا كَذِبًا[1]!

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾.

أي: ويَظُنُّ المنافِقونَ يومَ القيامةِ أنَّهم في حَلِفِهم باللهِ كَذِبًا على شَيءٍ يُعتدُّ به فيَنفَعُهم عندَ اللهِ تعالى[2].

---

= (٢/ ٤٨)، والبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٦/ ٢٨٤)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ٩٥)، وجوَّد إسنادَه الزَّيْلَعيُّ في ((تخريج الكشاف)) (٣/ ٤٣٢)، وابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٧٨)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٢٥): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ٣١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

قيل: قولُه: ﴿يَوْمَ﴾ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرُه: اذكُرْ. وممَّن اختاره: جلالُ الدين المحلي، والشربيني، والقِنَّوْجي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٢٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٣٤)، ((تفسير القنوجي)) (١٤/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

وقيل: الآيةُ مُتعلِّقةٌ بما قبْلَها، أي: هم أصحابُ النَّارِ أو ماكِثونَ فيها وخالِدونَ يومَ يَبعَثُهم اللهُ، أو ﴿يَوْمَ﴾ ظرفٌ لإظهارِ التَّعذيبِ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

قال ابن جرير: (يظنُّونَ أنَّهم في أيْمانِهم وحَلِفِهم باللهِ كاذِبينَ: على شَيءٍ مِن الحَقِّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١).

وقال ابن كثير: (أي: يَحلِفونَ باللهِ عزَّ وجلَّ أنَّهم كانوا على الهدى والاستقامةِ، كما كانوا يحلِفونَ للنَّاسِ في الدُّنيا؛ لأنَّ مَن عاش على شَيءٍ مات عليه وبُعِثَ عليه، ويَعتَقِدونَ أنَّ =

﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾.

أي: ألَا إنَّ المنافِقينَ هم الكاذِبونَ حَقًّا؛ فقد بَلَغوا في الكَذِبِ حَدًّا لم يَبلُغْه غَيرُهم[1].

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان هذا الانهماكُ فيما لا يُغْني ممَّا يَحصُلُ لسامِعِه غايةُ العَجَبِ مِن وُقوعِ عاقِلٍ فيه مرَّةً مِنَ الدَّهرِ، فَضلًا عن مُلازَمتِه؛ أخبَرَ عن الحامِلِ لهم عليه، فقال[2]:

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾.

أي: غَلَب عليهم الشَّيطانُ فتمَلَّكهم واستولى على قُلوبِهم حتَّى غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ، فلم يَعمَلوا بطاعتِه، ولم يَنتَهوا عن معصيتِه، ويَقِفوا عندَ حُدودِه[3].

---

= ذلك يَنفَعُهم عندَ الله كما كان ينفَعُهم عندَ النَّاسِ!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢).

وقال السعدي: (ويحسَبونَ في حَلِفِهم هذا أنَّهم على شيءٍ؛ لأنَّ كُفرَهم ونِفاقَهم وعقائِدَهم الباطِلةَ لم تَزَل تَرسَخُ في أذهانِهم شيئًا فشيئًا، حتَّى غرَّتْهم وظنُّوا أنَّهم على شَيءٍ يُعتَدُّ به، ويُعلَّقُ عليه الثَّوابُ، وهم كاذِبون في ذلك، ومِن المعلومِ أن الكَذِبَ لا يَروجُ على عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٤، ٥٥).

قال الشوكاني: (﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾ أي: أوامِرَه والعَمَلَ بطاعَتِه، فلم يَذْكُروا شَيئًا مِن ذلك. =

عن أبي الدَّرداءِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((ما مِن ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بَدوٍ لا تُقامُ فيهم الصَّلاةُ إلَّا قد استَحوذَ عليهم الشَّيطانُ، فعليك بالجماعةِ؛ فإنَّما يأكُلُ الذِّئبُ القاصيةَ))[١].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

أي: أولئك أتْباعُ الشَّيطانِ وأنصارُه وجُندُه وطائِفتُه[٢].

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: ألَا إنَّ أتْباعَ الشَّيطانِ وأنصارَه وجُندَه هم الهالِكونَ، الَّذين خَسِروا دينَهم ودُنياهم وأنفُسَهم وأهْلِيهم[٣].

---

= وقيل: زَواجِرَه في النَّهْيِ عن معاصيه، وقيل: لم يَذْكُروه بقُلوبِهم ولا بألسِنَتِهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٠).

وقال ابن أبي زَمَنين: (﴿فَأَنسَىٰهُمۡ ذِكۡرَ ٱللَّهِ﴾ أن يَذكُروه بالإخلاصِ له). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٦٣).

وقال ابن كثير: (استَحوذَ على قلوبِهم الشَّيطانُ حتَّى أنْساهم أن يَذكُروا اللهَ عزَّ وجلَّ، وكذلك يَصنَعُ بمَنِ استَحوَذَ عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣).

وقال ابن عاشور: (المعنى: أنَّه أنساهم توحيدَ الله بكلمةِ الشَّهادةِ، والتَّوجُّه إليه بالعبادةِ. والَّذي لا يَتذَكَّرُ شيئًا لا يَتَوجَّهُ إلى واجِباتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(١) أخرجه أبو داودَ (٥٤٧) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (٨٤٧)، وأحمدُ (٢١٧١٠).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٢١٠١)، وابنُ الملقِّن في ((البدر المنير)) (٤/ ٣٨٦)، وصحَّح إسنادَه الحاكِمُ في ((المستدرك)) (٣٧٩٦)، والنوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ١٨٢)، وحسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٤٧)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ المرادُ إنكارُ اللهِ على المنافِقينَ توَلِّيَهم القومَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم، وهذا الإنكارُ يدُلُّ على شِدَّةِ مَنعِ ذلك التَّوَلِّي(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أنَّ مِن علاماتِ النِّفاقِ محبَّةَ أعداءِ الإسلامِ وأئمَّةِ الكُفرِ، ومَدْحَهم، ونَشْرَ آرائِهم المخالفةِ للإسلامِ(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المنافِقينَ كانوا يُرضُونَ المؤمِنينَ بالأَيْمانِ الكاذبةِ، ويُنكِرونَ أنَّهم كَفَروا، ويَحلِفونَ أنَّهم لَمْ يتكَلَّموا بكَلِمةِ الكُفرِ، وذلك دليلٌ على أنَّهم يُقتَلونَ إذا ثَبَتَ ذلك عليهم بالبيِّنَةِ؛ لِوُجوهٍ:

**أحدُها**: أنَّهم لو كانوا إذا أَظهروا التَّوبةَ قُبِلَ ذلك منهم لَمْ يَحتاجوا إلى الحَلِفِ والإنكارِ، ولَكانوا يقولونَ: قُلْنا وقد تُبْنا، فعُلِمَ أنَّهم كانوا يَخافُونَ إذا ظَهَرَ ذلك عليهم أنَّهم يُعاقَبونَ مِن غيرِ استتابةٍ.

**الثَّاني**: أنَّه قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾، واليَمينُ إنَّما تكونُ جُنَّةً إذا لَمْ نأتِ ببَيِّنَةٍ عادِلةٍ تُكَذِّبُها، فإذا كَذَّبَتْها بَيِّنَةٌ عادلةٌ انخرقتِ الجُنَّةُ، فجاز قَتْلُهم، ولا

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٨٠).

يمكِنُه أنْ يَجْتَنَّ بعدَ ذلك إلَّا بجُنَّةٍ مِن جنسِ الأُولى، وتلك جُنَّةٌ مخروقةٌ.

**الثَّالثُ**: أنَّ الآياتِ دليلٌ على أنَّ المنافِقينَ إنَّما عَصَمَ دماءَهم الكذبُ والإنكارُ، ومعلومٌ أنَّ ذلك إنَّما يَعصِمُ إذا لم تَقُمِ البيِّنةُ بخِلافِه؛ ولذلك لم يَقتُلْهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ في قَولِه: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ دَلالةٌ على إبطالِ قَولِ الجاحِظِ: إنَّ الخَبَرَ الكَذِبَ هو الَّذي يكونُ مخالِفًا للمُخبَرِ عنه مع أنَّ المُخبِرَ يَعلَمُ المخالَفةَ؛ وذلك أنَّه لو كان كما زَعَم لم يكُنْ لِقَولِه: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فائدةٌ، بل يكونُ تَكرارًا صِرْفًا[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ؛ مُنْكِري صفاتِ اللهِ، في إخبارِه عن نفْسِه بالغَضَبِ[3]، فالغضبُ صفةٌ فِعليَّةٌ خَبَريَّةٌ

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٦).

وقال ابن حجر بعدَ أن ذكَرَ الخِلافَ في قَبولِ تَوبةِ الزِّنديقِ -وهو الَّذي يُظهِرُ الإسلامَ ويُبطِنُ غيرَه-: (ومِن حُجَّةِ مَنِ اسْتَتابهم قولُه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾؛ فدَلَّ على أنَّ إظهارَ الأيْمانِ يُحَصِّنُ مِن القَتلِ، وكلُّهم أجْمَعوا على أنَّ أحكامَ الدُّنيا على الظَّاهِرِ، واللهُ يَتولَّى السَّرائرَ). ((فتح الباري)) (١٢/ ٢٧٣). ويُنظر: ((المغني)) لابن قُدامة (٩/ ٦(، ((الإيمان الأوسط)) لابن تيميَّة (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٢٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٧).

قال ابنُ عاشور: (توهَّمَ الجاحِظُ أنَّ ماهيَّةَ الكَذِبِ تتقَوَّمُ مِن عَدَمِ مطابقةِ الخبَرِ للواقِعِ وللاعتقادِ معًا، وسرى هذا التَّقَوُّمُ إلى ماهيَّةِ الصِّدقِ، فجَعَل قِوامَها المطابَقةَ للخارجِ والاعتقادِ معًا، ومِن هنا أثبت الواسِطةَ بيْنَ الصِّدقِ والكَذِبِ، وقريبٌ منه قولُ الرَّاغِبِ، ويُشبِهُ أن يكونَ الخِلافُ لَفظِيًّا، ومحَلُّ بَسْطِه في عِلْمَيِ الأصولِ والبلاغةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٤١). ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧٨)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (١/ ١١٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٤).

ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ بالكتابِ والسُّنَّةِ[١].

٥- قول الله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فيه سؤالٌ: ما فائِدةُ الإخبارِ عنهم بذلك؟

**الجَوابُ**: فائدتُه بيانُ ذَمِّهم بارتِكابِهم اليَمينَ الغَمُوسَ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ أنَّ مِن شأنِ النَّفْسِ المجادَلةَ بالباطِلِ، حتَّى إنَّه يومَ القيامةِ تريدُ أنْ تدفَعَ عن نفْسِها وتجادِلَ اللهَ بالباطِلِ[٣]!

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ هذا يقتَضي توَغُّلَهم في النِّفاقِ ومُرونتَهم عليه، وأنَّه باقٍ في أرواحِهم بعد بَعْثِهم؛ لأنَّ نُفوسَهم خرَجَت مِن عالَمِ الدُّنيا متخَلِّقةً به؛ فإنَّ النُّفوسَ إنَّما تَكتسِبُ تَزكيةً أو خُبْثًا في عالَمِ التَّكليفِ، وحِكمةُ إيجادِ النُّفوسِ في الدُّنيا هي تَزكيتُها وتَصفيةُ أكْدارِها؛ لتَخلُصَ إلى عالَمِ الخُلودِ طاهرةً، فإنْ هي سَلَكَت مَسلكَ التَّزكيةِ تَخلَّصَت إلى عالَمِ الخُلودِ زَكيَّةً، ويَزيدُها اللهُ زَكاءً وارْتياضًا يومَ البعثِ، وإنِ انغمَسَت مدَّةَ الحياةِ في حَمْأةِ النَّقائصِ وصَلْصالِ الرَّذائلِ، جاءت يومَ القيامةِ على ما كانتْ عليه تَشويهًا لحالِها؛ لتَكونِ مَهزلةً لأهْلِ المَحشرِ[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أنَّ

---

(١) يُنظر: ((صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة)) للسقاف (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢، ٥٣).

كلَّ كافرٍ مُلْحِدٍ فاجرٍ، فهو مِن أولياءِ الشَّيطانِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ هذه حالةٌ أُخرى مِن أحوالِ أهلِ النِّفاقِ؛ هي تَولِّيهم اليهودَ مع أنَّهم لَيسوا مِن أهلِ مِلَّتِهم؛ لأنَّ المنافِقِينَ مِن أهلِ الشِّركِ. والجُملةُ مُستأْنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا؛ لأنَّها عَودٌ إلى الغرَضِ الَّذي سِيقتْ فيه آياتُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ كُبِتُوا۟﴾ [المجادلة: ٥] بعْدَ أنْ فُصِلَ بمُستطْرَداتٍ كَثيرةٍ بعْدَه[٢].

- وهو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للتَّعجيبِ مِن حالِ المنافِقِينَ الَّذين كانوا يَتَّخِذون اليهودَ أولياءَ، ويُناصِحونهم، ويُفْشُون إليهم بأسرارِ المؤمنينَ[٣].

- والهمزةُ في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ للاستِفهامِ التَّعجُّبيِّ، ووجْهُ التَّعجيبِ مِن حالِهم أنَّهم تَولَّوا قومًا مِن غيرِ جِنسِهم، ولَيسوا في دِينِهم، ما حمَلَهم على تَولِّيهم إلَّا اشتراكُ الفريقَينِ في عَداوةِ الإسلامِ والمسلمينَ[٤]. وقيل: الهمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ[٥].

- وضَميرُ ﴿مَّا هُم﴾ يَعودُ إلى ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾، وهمُ المنافِقون؛ وجُملةُ ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾، أي: ما هم مُسلِمون ولا يَهودُ. وقيل: يَعودُ الضَّميرُ إلى ﴿قَوْمًا﴾، وهم اليَهودُ؛ فتكونَ جُملةُ ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ﴾ صفةَ ﴿قَوْمًا﴾، أي: قومًا لَيسوا مُسلِمينَ ولا مُشرِكين، بلْ هم يَهودُ. وكذلك ضَميرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٥، ٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٦).

﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ يَحتمِلُ الأمْرَينِ على التَّعاكُسِ، وقيل: كِلا الاحتِمالينِ واقعٌ ومُرادٌ على طَريقةِ الكلامِ المُوجَّهِ (أي: الَّذي يَصلُحُ لاحتِمالِ معنيَينِ)؛ تَكثيرًا للمَعاني مع الإيجازِ، فيُفيدُ التَّعجيبَ مِن حالِ المنافِقينَ أنْ يَتولَّوا قَومًا أجانبَ عنهم على قَومٍ همْ أيضًا أجانبُ عنهم، على أنَّهم إنْ كان يُفرِّقُ بيْنَهم وبيْن المسلمينَ اختِلافُ الدِّينِ، فإنَّ الَّذي يُفرِّقُ بيْنهم وبيْن اليهودِ اختلافُ الدِّينِ واختلافُ النَّسَبِ؛ لأنَّ المنافِقين مِن أهلِ يَثرِبَ عرَبٌ، ويُفيدُ بالاحتِمالِ الآخَرِ الإخبارَ عن المنافِقين بأنَّ إسلامَهم ليس صادقًا، أي: ما همْ منكم أيُّها المسلِمونَ، وهو المقصودُ، ويكونُ قولُه: ﴿وَلَا مِنۡهُمۡ﴾ على هذا الاحتِمالِ احتِراسًا[1] وتتْميمًا[2] لحِكايةِ حالِهم، وعلى هذا الاحتِمالِ يَكونُ ذمُّ المنافقين أشَدَّ؛ لأنَّه يدُلُّ على حَماقتِهم؛ إذ جَعَلوا لهم أولياءَ مَن لَيسوا على دِينِهم، فهمْ لا يُوثَقُ بوِلايتِهم، وأضْمَروا بُغضَ المسلمينَ، فلم يُصادِفوا الدِّينَ الحقَّ[3].

- وقولُه: ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾ عطْفٌ على ﴿تَوَلَّوۡاْ﴾، وجِيءَ به مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على تَجدُّدِه، ولاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ في حِينِ حَلِفِهم على الكذِبِ؛ للتَّنصُّلِ ممَّا فَعَلوه[4].

- وقولُه: ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ حالٌ مِن فاعلِ ﴿وَيَحۡلِفُونَ﴾، مُفيدةٌ لكَمالِ شَناعةِ ما فَعَلُوا[5].

---

(١) تقدم تعريفه (ص: ٢١٢).

(٢) تقدم تعريفه (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير أبي =

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ تَعليلٌ لإعدادِ العذابِ الشَّديدِ لهم، أي: إنَّهم عَمِلوا فيما مَضَى أعمالًا سيِّئةً مُتطاوِلةً مُتكرِّرةً، كما يُؤذِنُ به المضارعُ مِن قولِه: ﴿يَعْمَلُونَ﴾[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا عن جُملةِ ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [المجادلة: ١٤]؛ لأنَّ ذلك يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ أنْ يَقولَ: ما أَلْجَأَهم إلى الحَلِفِ على الكذِبِ؟ فأُجِيبَ بأنَّ ذلك لقَضاءِ مآرِبِهم، وزِيادةِ مَكْرِهم. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ الجُملةُ خبرًا ثانيًا لـ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٥]، وتكونَ داخلةً في التَّعليلِ[2].

- وفِعلُ (صَدُّوا) يَجوزُ أنْ يكونَ مُتعدِّيًا، وحُذِفَ مَفعولُه لظُهورِه، أي: فصَدُّوا النَّاسَ عن سَبيلِ اللهِ. ويجوزُ أنْ يكونَ الفِعلُ قاصِرًا (لازمًا)، أي: فصَدُّوا هم عن سَبيلِ اللهِ. ومَجيءُ فِعلِ ﴿فَصَدُّواْ﴾ ماضيًا مُفرَّعًا على ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾، مع أنَّ أيْمانَهم حصَلَت بعْدَ أنْ صَدُّوا عن سَبيلِ اللهِ على كِلا المعنيَينِ؛ مُراعًى فيه التَّفريعُ في قولِه: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3].

- وفُرِّعَ ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ على قولِه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّ ما

---

= حيان)) (١٠/ ١٢٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٥٠).

اتَّخذوا مِن أيْمانِهم جُنَّةً سَببٌ مِن أسبابِ العَذابِ يَقْتضي مُضاعَفةَ العذابِ[١].

- وقد وُصِفَ العذابُ أوَّلَ مرَّةٍ بشَديدٍ -في قولِه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [المجادلة: ١٥]-، وهو الَّذي يُجازَون به على تَولِّيهم قومًا غضِبَ اللهُ عليهم وحَلِفِهم على الكذِبِ. ووُصِفَ عَذابُهم ثانيًا بأنَّه ﴿مُّهِينٌ﴾؛ لأنَّه جَزاءٌ على صدِّهم النَّاسَ عن سَبيلِ الله، وهذا معْنَى شَديدِ العذابِ مِن أجْلِ عَظيمِ الجُرْمِ، وإنَّما وعدَهم اللهُ العذابَ المُهينَ المُخزيَ؛ لكُفرِهم وصَدِّهم، كقولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]، فهو وَعيدٌ ثانٍ بوَصفٍ آخَرَ لعذابِهم، فكان العَذابُ مُناسِبًا للمَقصدَينِ في كفْرِهم، وهو عَذابٌ واحدٌ فيه الوصْفانِ. وكُرِّرَ ذِكرُه إبلاغًا في الإنذارِ والوعيدِ؛ فإنَّه مَقامُ تَكريرٍ، مع تَحسينِه باختِلافِ الوصْفَينِ، وقيلَ: الأوَّلُ عذابُ القبرِ، وهذا عذابُ الآخِرةِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۖ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فيه إقحامُ حرْفِ النَّفيِ (لا) في المعطوفِ ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُهُم﴾ على المَنفيِّ؛ لتَوكيدِ انتفاءِ الإغناءِ[٣].

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾، أي: لأنَّهم أصحابُ النارِ، أي: حقَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥١).

عليهم أنَّهم أصحابُ النَّارِ، أيْ: مُلازِمُوها ومُقارِنُوها؛ إذ قد تقرَّرَ مِن قولِه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ [المجادلة: ١٥] ومِن قولِه: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٦] أنَّهم لا مَحيصَ لهم عن النَّارِ، فكيف تُغْني عنهم أموالُهم وأولادُهم شيئًا مِن عذابِ النَّارِ؟! فاسمُ الإشارةِ في مِثلِ هذا الموقعِ يُنبِّهُ على أنَّ المشارَ إليه صار جديرًا بما يَرِدُ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ الأخبارِ الَّتي أُخبِرَ بها عنه قبْلَ اسمِ الإشارةِ(١).

- وجاء قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بغيرِ فاءٍ، موافَقةً للجُمَلِ الَّتي قبْلَها، وموافقةً لقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾(٢) [المجادلة: ٢٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ هذا مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾(٣).

- ويَجوزُ أنْ يكونَ لَفظُ ﴿يَوْمَ﴾ مَنصوبًا على المفعولِ به لفِعلٍ تَقديرُه: اذكُرْ؛ تَنويهًا بذلك اليومِ، وتَهويلًا عليهم(٤).

- وحَلِفُهم للهِ في الآخِرةِ إشارةٌ إلى ما حكاهُ اللهُ عنْهم في قولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، والتَّشبيهُ في قولِه: ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ في صِفةِ الحَلِفِ، وهي قولُهم: إنَّهم غيرُ مشرِكين، وفي كَونِه حَلِفًا على الكذِبِ وهم يَعلَمون؛ ولذلك سمَّاه تعالى فِتنةً في قولِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥١، ٥٢).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٤، ٥٢).

تعالَى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[1] [الأنعام: ٢٣].

- وحُذِفَت صِفةُ ﴿شَيْءٍ﴾؛ لظُهورِ معْناها مِن المَقامِ، أي: على شَيءٍ نافعٍ[2].

- وخُتِمَ الكلامُ بقولِه: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، وهو تَذييلٌ جامعٌ لحالِ كَذِبِهم الَّذي ذكَرَه اللهُ بقولِه: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ [المجادلة: ١٤]، فالمرادُ أنَّ كذِبَهم عليكم لا يُماثِلُه كذِبٌ، حتَّى قُصِرَت صِفةُ الكاذبِ عليهم بضَميرِ الفصْلِ في قولِه: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[3] للمُبالَغةِ؛ لعدَمِ الاعتِدادِ بكذِبِ غَيرِهم، وأُكِّدَ ذلك بحرْفِ التَّوكيدِ تَوكيدًا لمُفادِ الحصْرِ الادِّعائيِّ، وهو أنَّ كذِبَ غَيرِهم كَلا كَذِبٍ في جانبِ كَذِبِهم، وبأداةِ الاستِفتاحِ المُقتضيةِ استِمالةَ السَّمْعِ لخبَرِهم؛ لتَحقيقِ تَمكُّنِ صِفةِ الكذِبِ منهم، حتَّى إنَّه يُلازِمُهم يومَ البعثِ[4].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما سِيقَ مِن وصْفِهم بانحصارِ صِفةِ الكذِبِ فيهم، يُثيرُ سُؤالَ السَّامعِ أنْ يَطلُبَ السَّببَ الَّذي بلَغَ بهم إلى هذا الحالِ الفظيعِ، فيُجابُ بأنَّه استِحواذُ الشَّيطانِ عليهم، وامتلاكُه زِمامَ أنفُسِهم يُصرِّفُها كيف يُريدُ، وهل يَرْضى الشَّيطانُ إلَّا بأشَدِّ الفسادِ والغَوايةِ[5]؟!

- والاستِحواذُ: الاستِيلاءُ والغلَبُ، وهو استِفعالٌ مِن حاذَ حَوذًا؛ إذا حاطَ شَيئًا وصرَّفَه كيف يُريدُ. يقال: حاذَ العِيرَ؛ إذا جمَعَها وساقَها غالِبًا لها، فاشتَقُّوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٢).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٥٤).

منه (استَفعَلَ) للَّذي يَسْتولي بتَدبيرٍ ومُعالَجةٍ؛ ولذلك لا يُقال: (استَحْوذَ) إلَّا في استيلاءِ العاقلِ؛ لأنَّه يَتطلَّبُ وَسائلَ استيلاءٍ. والسِّينُ والتاءُ للمُبالَغةِ في الغلَبِ، مِثْلها في (استجابَ)[١].

- والذِّكرُ يُطلَقُ على نُطقِ اللِّسانِ باسمٍ أو كَلامٍ، وهو هنا مُستعمَلٌ في صَريحِه وكِنايتِه، أي: مُستعمَلٌ في لازِمِه، وهو العِبادةُ والطاعةُ؛ لأنَّ المعْنى: أنَّه أنْساهم تَوحيدَ اللهِ بكَلمةِ الشَّهادةِ، والتَّوجُّهِ إليه بالعِبادةِ، والَّذي لا يَتذكَّرُ شَيئًا لا يَتوجَّهُ إلى واجباتِه[٢].

- جُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ نَتيجةٌ وفَذْلَكةٌ[٣] لقولِ: ﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾؛ فإنَّ الاستِحواذَ يَقْتضي أنَّه صيَّرَهم مِن أتْباعِه[٤].

- وجِيءَ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لزِيادةِ تَمييزِهم؛ لئلَّا يُتردَّدَ في أنَّهم حِزبُ الشَّيطانِ[٥].

- وجُملةُ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ واقِعةٌ مَوقعَ التَّفرُّعِ والتَّسبُّبِ على جُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: فإنَّ حِزبَ الشَّيطانِ هم الخاسِرون؛ ولذلك عُدِلَ عن ذلك إلى حرْفِ الاستِفتاحِ تَنبيهًا على أهمِّيَّةِ مَضمونِها، وأنَّه ممَّا يَحِقُّ العِنايةُ باستِحضارِه في الأذهانِ؛ مُبالَغةً في التَّحذيرِ مِن الاندماجِ فيهم، والتَّلبُّسِ بمِثلِ أحوالِهم المذكورةِ آنفًا. وزِيدَ هذا التَّحذيرُ اهتمامًا بتأْكيدِ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) وبصِيغةِ القصْرِ؛ إذ لا يَتردَّدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٥٥).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

أحدٌ في أنَّ حِزبَ الشَّيطانِ خاسِرون؛ فإنَّ ذلك مِن القَضايا المُسلَّمةِ بيْن البشَرِ؛ فلذلك لم تكُنْ هذه المُؤكِّداتُ لرَدِّ الإنكارِ، بلْ لتَحذيرِ المسلِمينَ أنْ تَغُرَّهم حَبائلُ الشَّيطانِ، وتَرُوقَ في أنظارِهم بَزَّةُ المنافِقين، وتَخدَعَهم أيْمانُهم الكاذبةُ[١].

- وإظهارُ كَلمةِ ﴿حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ دونَ ضَميرِ (همْ)؛ لزِيادةِ التَّصريحِ، ولِتكونَ الجُملةُ صالحةً للتَّمثُّلِ بها، مُستقِلَّةً بدَلالتِها[٢].

- وضَميرُ الفصْلِ (هم) أفاد القصْرَ، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٣]؛ للمُبالَغةِ في مِقدارِ خُسرانِهم، وأنَّه لا خُسرانَ أشَدُّ منه، فكأنَّ كلَّ خُسرانٍ غَيرِه عدَمٌ، فيُدَّعى أنَّ وصْفَ الخاسرِ مَقصورٌ عليهم[٤].

- في تَصديرِ جُملةِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱلشَّيۡطَٰنِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ بحرْفَيِ التَّنبيهِ والتَّحقيقِ، وإظهارِ المُضافَينِ معًا في مَوقعِ الإضمارِ، وتَوسيطِ ضَميرِ الفصلِ مِنْ فُنونِ التَّأكيدِ ما لا يَخْفَى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣).

## الآيات (٢٠-٢٢)

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَذَلِّينَ﴾: أي: الأذِلَّاءِ الصَّاغِرِينَ، وأصلُ (ذلل): يدُلُّ على الخُضوعِ والاستِكانةِ[1].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾: أي: قضَى اللهُ وخَطَّ في أمِّ الكِتابِ، وأصل (كتب): يدُلُّ على جمْعِ شَيءٍ إلى شيءٍ[2].

﴿عَشِيرَتَهُمۡ﴾: العَشِيرةُ: أهلُ الرَّجُلِ الَّذين يَتكَثَّرُ بهم، وأصلُ (عشر): يدُلُّ على مُدَاخَلةٍ ومُخالَطةٍ[3].

﴿حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾: أي: أنصارُ اللهِ وجُنُده، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تجَمُّعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٧).

شَيءٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبينًا سُنَّةً مِن سُنَنِه في خَلقِه: إنَّ الَّذين يُعادونَ ويُشاقُّونَ اللهَ ورَسولَه أولئك مِن جملةِ أهلِ الذِّلَّةِ، قضى اللهُ بأنَّ له ولرُسُلِه النَّصرَ والغَلَبةَ في الدُّنيا والآخِرةِ، إنَّ اللهَ قَوِيٌّ عزيزٌ.

ثمَّ يخبرُ تعالى عن صفةِ المؤمنينَ الصَّادقينَ مبيِّنًا حُسنَ عاقبتِهم: لا تَجِدُ -يا محمَّدُ- قَومًا يُؤمِنونَ باللهِ واليَومِ الآخِرِ يُحِبُّونَ ويُوالُونَ مَن خالَفَ حُدودَ اللهِ ورَسولِه، ولو كان هؤلاء المحادُّون آباءَ أولئك المؤمِنينَ، أو أبناءَهم، أو إخوانَهم، أو أقارِبَهم وجماعتَهم، أولئك أثبَتَ اللهُ في قُلوبِهم الإيمانَ، وقوَّاهم بوَحْيِه، ومَعونتِه، ونصرِه، ومَددِه، وإحسانِه، ويُدخِلُهم اللهُ في الآخِرةِ جنَّاتٍ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ ماكِثينَ فيها أبدًا، رَضِيَ اللهُ عنهم، ورَضُوا عنه، أولئك أولياءُ اللهِ وأنصارُه، ألَا إنَّ أولياءَ اللهِ وأنصارَه هم الفائِزونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ٢٠ ﴾.

أي: إنَّ الَّذين يُخالِفونَ ويُعادونَ اللهَ ورَسولَه أولئك مِن جملةِ أهلِ الذِّلَّةِ الشَّديدةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٤).

كما قال الله تبارك وتعالى عن اليَهودِ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾.

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾.

أي: قضى اللهُ وقدَّر تقديرًا ثابتًا لا يتخَلَّفُ ولا يتبدَّلُ بأنَّ له ولرُسُلِه النَّصرَ والغَلَبةَ في الدُّنيا والآخِرةِ على مَن خالَفَ الحَقَّ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

قال ابن تيميَّة: (الغَلَبةُ للرُّسُلِ بالحُجَّةِ والقَهرِ، فمَن أُمِرَ منهم بالحَربِ نُصِرَ على عدُوِّه، ومَن لم يُؤمَرْ بالحربِ أُهلِكَ عَدُوُّه. وهذا أحسَنُ مِن قَولِ مَن قال: إنَّ الغَلَبةَ للمحارِبِ بالنَّصرِ، ولغيرِ المحارِبِ بالحُجَّةِ، فعُلِمَ أنَّ هؤلاء المحادِّينَ مُحارَبونَ مغلوبونَ). ((الصارم المسلول)) (ص: ٢٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٤١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٥).

وقال ابن كثير: (أي: قد حَكَم وكَتَب في كتابِه الأوَّلِ وقدَرِه الَّذي لا يُخالَفُ، ولا يُمانَعُ، ولا يُبدَّلُ: بأنَّ النُّصرةَ له ولكتابِه ورُسُلِه، وعبادِه المؤمنينَ؛ في الدُّنيا والآخرةِ، وأنَّ العاقِبةَ للمُتَّقينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣). ويُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٧٦-١٩٣).

ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ قَوِيٌّ فلا يُعجِزُه الانتِصارُ مِمَّن حادَّه ورُسُلَه، عزيزٌ لا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ؛ فهو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ(١).

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: لا يُمكِنُ أن تَجِدَ -يا محمَّدُ- قَومًا يُؤمِنونَ باللهِ، ويُؤمِنونَ باليَومِ الآخِرِ، ومع ذلك يُحِبُّونَ ويُوالُونَ مَن خالَفَ وعادَى اللهَ ورَسولَه(٢).

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٣٩٥، ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٧، ٣٠٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٦).

ذكر ابن عاشور أنَّ هذه الآيةَ رُويَ فيها أقوالٌ في سببِ نُزولِها، ثمَّ قال: (وليس يَلزَمُ أن يكونَ للآيةِ سببُ نُزولٍ؛ فإنَّ ظاهرَها أنَّها مُتَّصِلةُ المعنى بما قبْلَها وما بَعْدَها مِن ذمِّ المنافِقِينَ وموالاتِهم اليهودَ، فما ذُكِر فيها مِن قصصٍ لسببِ نُزولِها فإنَّما هو أمثلةٌ لِمُقتضى حكمِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٧، ٥٨). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٧).

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ * وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ * وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٨٠، ٨١].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾.

أي: لا يَجتَمِعُ الإيمانُ باللهِ وباليَومِ الآخِرِ مع موادَّةِ مَن حادَّ اللهَ ورَسولَه، ولو كان هؤلاء المحادُّون آباءَ أولئك المؤمِنينَ أو أبناءَهم أو إخوانَهم، أو أقارِبَهم وجماعتَهم(١).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة: ٢٤].

وعن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يُؤمِنُ أحَدُكم حتَّى أكونَ أحَبَّ إليه مِن والِدِه ووَلَدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾.

أي: أولئك قرَّر وأثبَتَ اللهُ في قُلوبِهم الإيمانَ، فلا يَشُكُّونَ ولا يَرتَدُّونَ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

قال الرازي: (المرادُ أنَّ المَيلَ إلى هؤلاء أعظَمُ أنواعِ الميلِ، ومع هذا فيَجِبُ أن يكونَ هذا الميلُ مَغلوبًا مطروحًا بسَبَبِ الدِّينِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٤٩٩).

وقال البِقاعي: (مدارُ ذلك على أنَّ الإنسانَ يَقطَعُ رَجاءَه مِن غيرِ اللهِ، وإنْ لم يكُنْ كذلك لم يكُنْ مُخلِصًا في إيمانِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٩٨).

(٢) رواه البخاريُّ (١٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٧).

قال ابن عاشور: (كتابةُ الإيمانِ في القلوبِ نَظيرُ قَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]. وهي التَّقديرُ الثَّابتُ الَّذي لا تتخَلَّفُ آثارُه، أي: هم المؤمنونَ حَقًّا، الَّذين =

كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ * فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ [الحجرات: ٧، ٨].

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وَجَد بهِنَّ حلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورَسولُه أحَبَّ إليه ممَّا سِواهما، وأن يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا للهِ، وأن يَكرَهَ أن يعودَ في الكُفرِ بعدَ أن أنقَذَه اللهُ منه، كما يَكرَهُ أن يُقذَفَ في النَّارِ))[1].

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾.

أي: وقَوَّاهم اللهُ بوَحْيِه، ومَعونتِه، ونصرِه، ومَددِه، وإحسانِه سُبحانَه[2].

---

= زَيَّن اللهُ الإيمانَ في قُلوبهم، فاتَّبَعوا كمالَه، وسَلَكوا شُعَبَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

(١) رواه البخاريُّ (١٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٣).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾: برحمةٍ منه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وقال: (كذلك قال المفسِّرونَ). يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٦٦)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ في روايةٍ عنه، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٥٩).

وقيل: المرادُ: بنُورِ الإيمانِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٠٧٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٠).

وقيل: معناه: بهُدًى ولُطفٍ ونورٍ وتوفيقٍ إلهيٍّ ينقَدِحُ من القُرآنِ. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وابن عطية، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٢)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وعن أبي سَلَمةَ بنِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عَوفٍ: ((أنَّه سَمِعَ حَسَّانَ بنَ ثابتٍ الأنصاريَّ يَستَشهِدُ أبا هُرَيرةَ: أَنشُدُكَ اللهَ[1]، هل سَمِعتَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: يا حسَّانُ، أَجِبْ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، اللَّهُمَّ أيِّدْه برُوحِ القُدُسِ[2]؟ .....

---

= ابن جزي)) (٢/ ٣٥٦).

قال البقاعي: (﴿وَأَيَّدَهُم﴾ أي: قوَّاهم وشَدَّدَهم، وأعانهم وشَجَّعهم، وعَظَّمَهم وشَرَّفَهم ﴿بِرُوحٍ﴾ أي: نُورٍ شَريفٍ جِدًّا يَفهَمونَ به ما أُودِعَ في كتابِه وسُنَّةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن كُنوزِ العِلمِ والعَمَلِ، فهو لقُلوبِهم كالرُّوحِ للأبدانِ، فلا يَفعَلونَ شَيئًا مِن أحوالِ أهلِ الجاهليَّةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٣٩٩).

وقيل: أيَّدَهم بنَصرٍ منه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: السَّمْعانيُّ، والبغوي، والخازن، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٦/ ٥٠٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٠).

وذكَرَ ابنُ القيِّم أنَّ الرُّوحَ هنا هي القُوَّةُ والثَّباتُ والنُّصرةُ الَّتي يُؤَيِّدُ بها مَن شاءَ مِن عبادِه المُؤمنينَ. يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٣).

وقال السعدي: (قوَّاهم اللهُ برُوحٍ منه، أي: بوَحْيِه، ومَعونتِه، ومَدَدِه الإلهيِّ، وإحسانِه الرَّبَّانيِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٩٦).

وقيل: المرادُ بالرُّوحِ هنا: بكتابٍ أنزَله فيه حياةٌ لهم. وممَّن اختاره: النَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٣).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّه القرآنُ وحُجَجُه: الربيعُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٠).

وقيل: المعنى: أيَّدَهم بجِبريلَ عليه السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(١) أَنشُدُكَ اللهَ أي: أسألُك باللهِ، وأُقسِمُ عليك به. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٥٣).

(٢) برُوحِ القُدُسِ: أي: بجِبْريلَ، سُمِّيَ به؛ لأنَّه كان يأتي الأنبياءَ بما فيه حياةُ القُلوبِ، فهو =

قال أبو هُريرةَ: نَعَمْ))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اهجُوا[٢] قُرَيشًا؛ فإنَّه أشَدُّ عليها مِن رَشْقٍ بالنَّبْلِ. قالت عائِشةُ: فسَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ لحسَّانٍ: إنَّ رُوحَ القُدُسِ لا يَزالُ يؤيِّدُك ما نافَحْتَ[٣] عن اللهِ ورَسولِه))[٤].

﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: ويُدخِلُهم اللهُ في الآخِرةِ جنَّاتٍ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ، وهم ماكِثونَ في تلك الجنَّاتِ أبدًا[٥].

﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾.

أي: رَضِيَ اللهُ عنهم فلا يَسخَطُ عليهم أبَدًا، ورَضُوا هم عن اللهِ بما أعطاهم مِن الكراماتِ، وإجزالِ المثوباتِ، وإدخالِ الجنَّاتِ[٦].

---

= كالمبدأِ لحياةِ القَلْبِ، كما أنَّ الرُّوحَ مَبدَأٌ لحياةِ الجَسدِ، والقُدُس: صِفةٌ للرُّوحِ، وإنَّما أُضيفَ إليه؛ لأنَّه مجبولٌ على الطَّهارةِ والنَّزاهةِ عن العيوبِ. وقيل: القُدُسُ بمعنى: المقَدَّسِ، وهو اللهُ، وإضافةُ الرُّوحُ إليه للتَّشريفِ. ثمَّ تأييدُه: إمدادُه له بالجواب، وإلهامُه لِما هو الحَقُّ والصَّوابُ. يُنظَر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٣٠١٥).

(١) رواه البخاري (٦١٥٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

(٢) اهجُوا أي: اشتِمْهم، يقال: هَجاهُ هِجاءً: إذا شتَمَه بالشِّعْرِ، وعَدَّدَ فيه مَعايِبَه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٤٠/ ٢٧٩).

(٣) نَافَحْتَ: أي: دافَعْتَ، يُريدُ بِمُنافَحتِه هِجاءَ المشْرِكين، ومُجاوَبَتَهم على أشْعارِهم. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٨٩).

(٤) رواه مسلم (٢٤٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨)، ((تفسير ابن =

﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾.

أي: أولئك أولياءُ اللهِ وأنصارُه، وجُندُه وطائِفتُه(١).

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

أي: ألَا(٢) إنَّ أولياءَ اللهِ وأنصارَه وجُندَه وطائفتَه: هم وَحْدَهم دونَ غَيرِهم الفائِزونَ الظَّافِرونَ، وهم في النَّعيمِ باقُونَ ماكِثونَ(٣).

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ زَجْرٌ عن التَّوَدُّدِ إلى مَن كان على غيرِ دِينِ الإسلامِ، والتَّحَبُّبِ إليه، والموالاةِ له؛ إذْ في ذلك ذَهابُ العَداوةِ، وانغِراسُ المحبَّةِ لِمَن يُعادي اللهَ جلَّ جلالُه، أَلَا ترى أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه سمَّاهم أعداءَه؟! حيثُ يقولُ: ﴿وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ﴾ [فصلت: ١٩]، وكقولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١] إلى آخرِ الآيةِ(٤).

٢- قولُ الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيه أنَّه لا يكونُ العَبدُ مُؤمِنًا باللهِ واليومِ الآخِرِ حَقيقةً إلَّا كان عامِلًا على مُقتَضى الإيمانِ ولَوازِمِه؛ مِن محبَّةِ مَن قام بالإيمانِ ومُوالاتِه، وبُغْضِ مَن

---

= عاشور)) (٢٨/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٥).

(٢) قال الزجاج: (﴿أَلَآ﴾ كَلِمةُ تنبيهٍ وتوكيدٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٠، ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٥).

لم يَقُمْ به ومُعاداتِه، ولو كان أقرَبَ النَّاسِ إليه، وأمَّا مَن يَزعُمُ أنَّه يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ، وهو مع ذلك مُوادٌّ لأعداءِ الله، مُحِبٌّ لِمَن ترَكَ الإيمانَ وراءَ ظَهرِه؛ فإنَّ هذا إيمانٌ زَعْميٌّ لا حقيقةَ له، فإنَّ كُلَّ أمرٍ لا بدَّ له مِن بُرهانٍ يُصَدِّقُه، فمُجَرَّدُ الدَّعوى لا تُفيدُ شَيئًا، ولا يُصَدِّقُ صاحِبُها[1].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أخَذَ العُلَماءُ منه أنَّ أهلَ الإيمانِ الكامِلِ لا يُوادُّونَ مَن فيه معنًى مِن محادَّةِ اللهِ ورَسولِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بخَرقِ سِياجِ شَريعتِه عَمدًا، والاستِخفافِ بحُرُماتِ الإسلامِ، وهؤلاء مِثلُ أهلِ الظُّلمِ والعُدوانِ في الأعمالِ مِن كُلِّ ما يُؤذِنُ بقِلَّةِ اكتِراثِ مُرتَكِبِه بالدِّينِ، ويُنبِئُ عن ضَعفِ احترامِه للدِّينِ، مِثلُ المتجاهِرينَ بالكبائِرِ والفواحِشِ، السَّاخِرينَ مِن الزَّواجِرِ والمواعِظِ، ومِثلُ أهلِ الزَّيغِ والضَّلالِ في الاعتقادِ، ممَّن يُؤذِنُ حالُهم بالإعراضِ عن أدِلَّةِ الاعتِقادِ الحَقِّ، وإيثارِ الهوى النَّفسيِّ والعَصَبيَّةِ على أدِلَّةِ الاعتقادِ الإسلاميِّ الحَقِّ[2].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عن سَهلِ بنِ عبدِ الله التُّسْتَري أنَّه قال: (مَن صَحَّح إيمانَه وأخلَصَ توحيدَه، فإنَّه لا يأنَسُ إلى مُبتَدِعٍ ولا يُجالِسُه، ولا يُؤاكِلُه ولا يُشارِبُه، ولا يُصاحِبُه، ويُظهِرُ له مِن نَفْسِه العداوةَ والبَغضاءَ، ومَن داهَنَ مُبتَدِعًا سَلبَه اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٩، ٦٠).

والعبدُ يجتمعُ فيه سببُ الولايةِ وسَبَبُ العداوةِ، والحبُّ والبغضُ؛ فيكونُ مَحْبوبًا مِن وجهٍ مَبْغوضًا مِن وجهٍ، فالحبُّ والبغضُ بحَسَبِ ما فيه مِن خِصالِ الخَيرِ والشَّرِّ؛ فمَن كان مؤمنًا وجبَتْ مُوالاتُه مِن أيِّ صنفٍ كان، ومَن كان كافرًا وجبتْ مُعاداتُه مِن أيِّ صنفٍ كان، ومَن كان فيه إيمانٌ وفيه فُجورٌ أُعطيَ مِن الموالاةِ بحسَبِ إيمانِه، ومِن البُغضِ بحسَبِ فُجورِه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٢٨/ ٢٢٨)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٥٤٧).

تعالى حلاوةَ السُّنَنِ، ومَن تحَبَّب إلى مُبتَدِعٍ يَطلُبُ عِزَّ الدُّنيا أو عَرَضًا منها، أذَلَّه اللهُ تعالى بذلك العِزِّ، وأفقَرَه بذلك الغِنى، ومَن ضَحِكَ إلى مُبتَدِعٍ نَزَع اللهُ تعالى نورَ الإيمانِ مِن قَلْبِه، ومَن لم يُصَدِّقْ فلْيُجَرِّبْ). انتهى[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ۞ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ هذا وعدٌ ووَعيدٌ؛ وعيدٌ لِمَن حادَّ اللهَ ورَسولَه بالكُفرِ والمعاصي، أنَّه مَخذولٌ مذلولٌ، لا عاقِبةَ له حميدةٌ، ولا رايةَ له منصورةٌ. ووَعدٌ لِمَن آمَنَ به، وبرُسُلِه، واتَّبَع ما جاء به المُرسَلونَ، فصار مِن حِزبِ اللهِ المُفلِحينَ، أنَّ لهم الفَتحَ والنَّصرَ والغَلَبةَ في الدُّنيا والآخِرةِ، وهذا وَعدٌ لا يُخلَفُ ولا يُغَيَّرُ؛ فإنَّه مِن الصَّادِقِ القويِّ العزيزِ الَّذي لا يُعجِزُه شَيءٌ يُريدُه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ أنَّه ما مِن إنسانٍ يُحَادُّ اللهَ ورسولَه إلَّا أذَلَّه اللهُ عزَّ وجلَّ، ويكونُ إذلالُه بقَدْرِ ما حَصَلَ منه مِن المُحَادَّةِ؛ جزاءً وِفاقًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٢٩).

ويُشرعُ الهَجرُ وفي دائرةِ ضوابِطِه الشَّرعيَّةِ المَبنيَّةِ على رعايةِ المصالحِ ودَرْءِ المَفاسِدِ، وهذا ممَّا يَختلِفُ باختلافِ البِدعةِ نفْسِها، واختلافِ مُبتَدِعِها، واختلافِ أحوالِ الهاجِرينَ، واختلافِ المكانِ والقوَّةِ والضَّعفِ، والقِلَّةِ والكَثرةِ إلى غيرِ ذلك مِن وُجوهِ الاختلافِ والاعتبارِ الَّتي يَرعاها الشَّرعُ، وميزانُها للمُسلِمِ الَّذي به تَنضبِطُ المَشروعيَّةُ هو: مدى تحقُّقِ المَقاصِدِ الشَّرعيَّةِ مِن الهَجرِ: مِن الزَّجْرِ، والتَّأديبِ، ورجوعِ العامَّةِ، وتحجيمِ المُبتدِعِ وبدعتِه. يُنظر: ((هجر المبتدع)) لبكر أبو زيد (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٢).

قال ابن عاشور: (الَّذي يحادُّ الله ورسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إن كان مُتجاهِرًا بذلك مُعلِنًا به، أو متجاهرًا بسوءِ معاملةِ المسلمينَ لأجْلِ إسلامِهم، لا لِمُوجبِ عداوةٍ دنيويَّةٍ؛ فالواجبُ =

٣- قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴾ الأذلُّ أبلغُ مِن الذَّليلِ، ولا يكونُ أذلَّ حتَّى يخافَ على نفْسِه ومالِه إن أظهَر المحادَّةَ؛ لأنَّه إن كان دمُه ومالُه معصومًا لا يُستباحُ، فليس بأذَلَّ، وقد جعَل المحادِّينَ في الأذَلِّينَ، فلا يكونُ لهم عهدٌ؛ إذ العهدُ يُنافي الذِّلَّةَ، والأذلُّ هو الَّذي ليس له قوَّةٌ يمتنعُ بها ممَّن أراده بسوءٍ، فإذا كان له مِن المسلمينَ عهدٌ يجبُ عليهم به نصرُه ومنعُه فليس بأذلَّ؛ فثبَت أنَّ المحادَّ لله ولرسولِه لا يكونُ له عهدٌ يعصِمُه، والمؤذِي للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُحادٌّ، فالمؤذِي للنَّبيِّ ليس له عهدٌ يعصمُ دمَه(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴾ أنَّ المؤذيَ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كافرٌ حلالُ الدَّم، ولو كان مُؤمنًا معصومًا لَمْ يكن أَذَلَّ! لقَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [المنافقون: ٨]، وقَولِه: ﴿ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ [المجادلة: ٥]، والمؤمنُ لا يُكْبَتُ كما كُبِتَ مُكَذِّبُو الرُّسُلِ قَطُّ، ولأنَّه قد قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآيةَ، فإذا كان مَن يُوَادُّ المُحَادَّ ليس بمؤمِنٍ، فكيف بالمُحَادِّ نَفْسِه(٢)؟!

---

= على المسلمينَ إظهارُ عداوتِه، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الممتحنة: ٩]، ولم يُرَخَّصْ في معاملتِهم بالحسنى إلَّا لاتِّقاءِ شرِّهم إن كان لهم بأسٌ، قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وأمَّا مَن عدا هذا الصنفَ فهو الكافرُ الممسكُ شرَّه عن المسلمينَ، قال تعالى: ﴿ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ [الممتحنة: ٨]، ومِن هذا الصنفِ أهلُ الذِّمَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٩).

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ * كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ أنَّ كلَّ حزبٍ يُحاربُ اللهَ، فاللهُ سُبحانَه وتعالى يَهْزِمُه[1].

٦- قول الله تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ دلَّت هذه الآيةُ الكريمةُ، وأمثالُها مِن الآيِ، كقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١ - ١٧٣]؛ أنَّه لن يُقتَلَ نَبيٌّ في جِهادٍ قَطُّ؛ لأنَّ المقتولَ ليس بغالِبٍ؛ لأنَّ القَتلَ قِسمٌ مُقابِلٌ للغَلَبةِ، كما بَيَّنَه تعالى في قَولِه: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ [النساء: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر: ٥١]، وقد نفَى عن المنصورِ كَونَه مَغلوبًا نَفيًا باتًّا في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، فالرُّسُلُ الَّذينَ جاء في القُرآنِ أنَّهم قُتِلوا، كقَولِه تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ﴾ [آل عمران: ١٨٣]، ليسوا مقتولينَ في جِهادٍ.

فالرُّسلُ قِسْمانِ: قِسمٌ أُمِروا بالقتالِ في سبيلِ الله، وقِسمٌ أُمِروا بالصَّبرِ والكفِّ عن النَّاسِ، فالَّذين أُمِروا بالقتالِ وعَدَهم اللهُ بالنَّصرِ والغَلَبةِ في الآياتِ المذكورةِ، والَّذين أُمِروا بالكفِّ والصَّبرِ هم الَّذين قُتِلوا لِيَزيدَ اللهُ رفْعَ دَرَجاتِهم العَلِيَّةِ بقَتْلِهم مَظلومينَ، وهذا الجمعُ مفهومٌ مِن الآياتِ؛ لأنَّ النَّصرَ والغَلَبةَ فيه الدَّلالةُ بالالتِزامِ على جِهادٍ ومُقاتَلةٍ.

ولا يَرِدُ على هذا الجمعِ قولُه تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ﴾ [آل

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٣/ ٤٠٢).

عمران: ١٤٦]؛ أمَّا على قِراءةِ ﴿قَٰتَلَ﴾ بصيغةِ الماضي مِن (فاعَلَ) فالأمرُ واضحٌ، وأمَّا على قِراءةِ ﴿قُتِلَ﴾ بالبناءِ للمَفعولِ[١] فنائبُ الفاعلِ قولُه: ﴿رِبِّيُّونَ﴾، لا ضميرُ ﴿نَّبِيٍّ﴾، وتَطَرُّقُ الاحتِمالِ يَرُدُّ الاستِدلالَ، وأمَّا على القولِ بأنَّ غَلَبَةَ الرُّسلِ ونُصرتَهم بالحُجَّةِ والبُرهانِ، فلا إشكالَ في الآيةِ[٢].

٧- إنَّ لَفْظَ «الكتابةِ» يدُلُّ على اللُّزومِ والثُّبوتِ؛ إمَّا شَرْعًا، كقَولِه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، أو قَدَرًا، كقَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[٣].

٨- الكتابةُ قِسمانِ: كتابةٌ شرعيَّةٌ، وهذه لا يَلْزَمُ منها وُقوعُ المكتوبِ -أي حصولُه في الواقعِ مِن كلِّ أحدٍ- مِثلُ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣]، وقَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، والكتابةُ الثَّانيةُ: كتابةٌ كَونيَّةٌ، وهذه يَلزَمُ منها وُقوعُ المكتوبِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وقَولِه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾[٤]، فالكتابةُ الكونيَّةُ كتابةٌ بمعنى القدرِ، والكتابةُ الشَّرعيَّةُ كتابةٌ بمعنى الأمرِ[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ في الكتابِ السَّابقِ الَّذي لا يُؤمِنونَ به أصلًا، ولا يُقِرُّون به بَتَّةً[٦]!

---

(١) قرأ بها نافعٌ وابنُ كثيرٍ والبصريَّانِ، وقرأ الباقونَ: ﴿قَٰتَلَ﴾. يُنظر: ((الكشف)) لمكي (١/ ٣٥٩)، ((النشر)) لابن الجزري (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٥٥٥، ٥٥٦)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٣٩٩).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٨٤).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨١).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٥).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ عَقِبَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْأَذَلِّينَ﴾ دليلٌ على أنَّ المُحَادَّةَ مغالَبَةٌ ومعاداةٌ حتَّى يكونَ أحدُ المُتَحادَّينِ غالبًا والآخرُ مَغلوبًا، وهذا إنَّما يكونُ بيْن أهلِ الحربِ لا أهلِ السِّلْمِ؛ فعُلِمَ أنَّ المُحَادَّ ليس بمُسالِمٍ، والغلبةَ للرُّسُلِ بالحُجَّةِ والقَهْرِ؛ فمَن أُمِرَ منهم بالحَربِ نُصِرَ على عَدُوِّهِ، ومَن لَمْ يُؤْمَرْ بالحربِ أُهْلِكَ عَدُوُّه[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّه لا يوجِدُ مؤمِنٌ يُوَادُّ كافِرًا؛ فمَن وَادَّ الكفَّارَ فليس بمؤمِنٍ، والمشابهةُ الظَّاهِرةُ مَظِنَّةُ المُوادَّةِ، فتكونُ مُحَرَّمةً[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ مُوادَّةَ عَدُوِّ اللهِ تُنافي محبَّةَ الله، فأَخْبَرَ سُبحانَه أنَّ المؤمنَ الَّذي لا بُدَّ أنْ يكونَ اللهُ ورسولُه أَحَبَّ إليه ممَّا سِواهما -كما في الحَديثِ المتَّفَقِ عليه: ((لا يؤمِنُ أحدُكم حتَّى أكونَ أَحَبَّ إليه مِن وَلَدِه ووالِدِه والنَّاسِ أجمَعينَ))[٣]- لا تَجِدُه مُوادًّا لِمَن حادَّ اللهَ ورَسولَه؛ فإنَّ هذا جَمْعٌ بيْن ضِدَّيْنِ لا يجتَمِعانِ، ومحبوبُ اللهِ ومحبوبُ مُعادِيه لا يجتَمِعانِ[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّه إذا كان بمُوادَّةِ المُحَادِّ لا يكونُ المرءُ مُؤمِنًا، فأَلَّا يكونَ مؤمنًا إذا حادَّ بطريقِ الأَولى والأَحرى[٥].

---

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ٥٥١).

(٣) أخرجه البخاريُّ (١٥)، ومسلمٌ (٤٤) واللَّفظُ له مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٢٧٥).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٢٠٨).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ ما يقومُ بالقَلبِ مِن تصديقٍ، وحُبٍّ للهِ ولرَسولِه، وتعظيمٍ: لا بُدَّ أنْ يَظْهَرَ على الجوارحِ، وكذلك بالعَكسِ؛ ولهذا يُستَدَلُّ بانتفاءِ اللَّازمِ الظَّاهرِ على انتفاءِ الملزومِ الباطنِ، كما في الحديثِ الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((ألَا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كلُّه، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألَا وهي القلبُ))[١]، وكما قال مَن قال مِن السَّلفِ لِمَن رآه يَعبَثُ في الصَّلاةِ[٢]: «لو خَشَعَ قَلْبُ هذا لَخَشَعَتْ جوارحُه»[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ الرَّجُلَ إذا كان يُوالي أعداءَ اللهِ بقَلبِه، كان ذلك دليلًا على أنَّ قلْبَه ليس فيه الإيمانُ الواجبُ[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أنَّ شُعَبَ الإيمانِ قد تتلازَمُ عندَ القوَّةِ ولا تتلازمُ عندَ الضَّعفِ، فإذا قَوِيَ ما في القَلبِ مِن التَّصديقِ والمعرفةِ والمحَبَّةِ للهِ ورَسولِه، أوْجَبَ بُغْضَ أعداءِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [المائدة: ٨١]، وقد تحصُلُ للرَّجُلِ مُوادَّتُهم لِرَحِمٍ أو حاجةٍ، فتكونُ ذنْبًا يَنقُصُ به إيمانُه ولا يكونُ به كافرًا، كما

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٢)، ومسلمٌ (١٥٩٩) مطوَّلًا مِن حديثِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رضيَ الله عنهما.

(٢) وهو مرويٌّ عن حُذَيْفةَ وابنِ المُسيِّبِ، ورُويَ مرسَلًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٣٣٧).

وأثرُ (حذيفة) أخرجه المروزيُّ في ((تعظيم قدر الصلاة)) (١٥٠).

وأثرُ (ابن المسَيِّب) أخرجه ابن المبارك في ((الزهد)) (١١٨٨)، وعبدُ الرَّزَّاقِ (٣٣٠١)، وابنُ أبي شَيْبَةَ (٦٨٥٤).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٤٨٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٧).

حَصَلَ مِن حاطبِ بنِ أبي بَلْتعةَ لَمَّا كاتَبَ المشركينَ ببَعضِ أخبارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنْزَلَ اللهُ تعالى فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾[1] [الممتحنة: ١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ أنَّ المحبَّةَ الدِّينيَّةَ لا تجوزُ بيْن المؤمنِ والكافرِ[2].

١٨- قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استدَلَّ مالِكٌ -رَحِمَه اللهُ- مِن هذه الآيةِ على مُعاداةِ القَدَريَّةِ وتَرْكِ مُجالَستِهم، وفي معنى أهلِ القَدَرِ جَميعُ أهلِ الظُّلمِ والعُدوانِ[3].

١٩- قول الله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ استدَلَّ به مَن مَنَع تعزيةَ الكافرِ[4].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أنَّ مَن عَمِلَ بما عَلِمَ، أورَثَه اللهُ عِلْمَ ما لم يَعْلَمْ[5]، وأنَّ ما يَحصُلُ في القُلوبِ مِن الهُدى والنُّورِ والإيمانِ، هو مِن اللهِ تعالى بفَضْلِه ورَحمتِه[6].

٢١- إنَّ إضافةَ الرُّوحِ إلى اللهِ تعالى لا تدُلُّ على أنَّها صِفتُه، فَضلًا أنْ يكونَ هو اللهَ. وجبريلُ يُسمَّى رُوحَ اللهِ، والمسيحُ اسمُه رُوحُ اللهِ، والمضافُ إلى اللهِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٣٩).

(٦) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٥٩).

إذا كان ذاتًا قائِمةً بنَفْسِها فهو إضافةُ مملوكٍ إلى مالكٍ؛ كبَيْتِ اللهِ، وناقةِ اللهِ، ورُوحِ اللهِ، ليس المرادُ به بيتًا يَسكُنُه، ولا ناقةً يَركَبُها، ولا رُوحًا قائِمةً به، وقد قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢][١]، فما يُنزِلُه اللهُ في قُلوبِ أنبيائه ممَّا تحيا به قلوبُهم مِن الإيمانِ الخالصِ يُسَمِّيه رُوحًا، وهو ما يُؤيِّدُ اللهُ به المؤمِنينَ مِن عبادِه[٢].

٢٢- الرِّضا باللهِ هو أصلُ الرِّضا عنه، والرِّضا عنه هي ثمرةُ الرِّضا به، كما قال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾، والسِّرُّ في ذلك أنَّ الرِّضا به مُتعَلِّقٌ بأسمائِه وصفاتِه، وأمَّا الرِّضا عنه فهو متعلِّقٌ بثَوابِه وجزائِه، فهو رضا العبدِ بما يَفعَلُه به ويُعطيه إيَّاه؛ ولهذا لم يَجِئْ إلَّا في الثَّوابِ والجزاءِ[٣].

٢٣- في قَولِه: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ سِرٌّ بديعٌ، وهو أنَّه لَمَّا سَخِطوا على القرائِبِ والعَشائِرِ في اللهِ، عَوَّضَهم اللهُ بالرِّضا عنهم، وأرضاهم عنه بما أعطاهم مِنَ النَّعيمِ المقيمِ، والفَوزِ العظيمِ، والفَضلِ العَميمِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لتَعليلِ ما قبْلَه مِن خُسرانِ حزْبِ الشَّيطانِ[٥].

- ومَوقعُ هذه الآيةِ بعْدَ ما ذُكِرَ مِن أحوالِ المنافِقين يُشبِهُ مَوقعَ آيةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) يُنظر: ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣).

﴿يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [المجادلة: ٥]؛ فالَّذين يُحادُّون اللهَ ورسولَه المُتقدِّمُ ذِكرُهم هم المشرِكون المُعلِنون بالمُحادَّةِ، وأمَّا المُحادُّون المذكورونَ في هذه الآيةِ فهمُ المُسِرُّون للمُحادَّةِ المُتظاهِرون بالمُوالاةِ، وهم المنافِقون؛ فالجُملةُ استِئنافٌ بَيانيٌّ بيَّنَتْ شَيئًا مِن الخُسرانِ الَّذي قُضِيَ به على حزْبِ الشَّيطانِ الَّذي همْ في مُقدِّمتِه، وبهذا تَكتسِبُ هذه الجُملةُ معْنَى بدَلِ البعضِ مِن مَضمونِ جُملةِ ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩]؛ لأنَّ الخُسرانَ يكونُ في الدُّنيا والآخرةِ، وخُسرانُ الدُّنيا أنواعٌ، أشَدُّها على النَّاسِ المَذَلَّةُ والهزيمةُ، والمعْنى: أنَّ حِزبَ الشَّيطانِ في الأذَلِّينَ والمَغلوبين(١).

- واستِحضارُ المنافِقين بصِلةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، فمُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقال: إنَّهم -أي: حِزبَ الشَّيطانِ- في الأذَلِّينَ؛ فأُخرِجَ الكلامُ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ إلى المَوصوليَّةِ؛ لإفادةِ مَدلولِ الصِّلةِ أنَّهم أعداءٌ للهِ تعالى ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإفادةِ المَوصولِ تَعليلَ الحكْمِ الواردِ بعْدَه، وهو كَونُهم أذَلِّينَ؛ لأنَّهم أعداءُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فهمْ أعداءُ اللهِ القادرِ على كلِّ شَيءٍ، فعَدُوُّه لا يكونُ عزيزًا(٢).

- قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ في التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ (أُولَئِكَ): تَنبيهٌ على أنَّ المُشارَ إليهم جَديرونَ بما بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن الحكْمِ؛ بسَببِ الوَصْفِ الَّذي قبْلَ اسمِ الإشارةِ(٣).

- ومُفادُ حرْفِ الظَّرفيَّةِ (في): أنَّهم كائِنون في زُمرةِ القومِ الموصوفينَ بأنَّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦).

أذَلُّونَ، أي: شَديدو المَذلَّةِ؛ ليَتصوَّرَهم السَّامعُ في كلِّ جَماعةٍ يَرى أنَّهم أذَلُّون، فيَكونُ هذا النَّظمُ أبلَغَ مِن أنْ يُقالَ: أولئك همُ الأذَلُّون(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ استِئنافٌ واردٌ لتَعليلِ كونِهمْ في الأذلِّينَ، أي: لأنَّ اللهَ أراد أنْ يكونَ رسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم غالبًا لأعدائِه، وذلك مِن آثارِ قُدرةِ الله الَّتي لا يَغلِبُها شَيءٌ، وقد كتَبَ لجَميعِ رُسلِه الغَلَبةَ على أعدائِهم، فغلَبَتُهم مِن غَلَبةِ اللهِ؛ إذ قُدرةُ اللهِ تَتعلَّقُ بالأشياءِ على وَفْقِ إرادتِه، وإرادةُ اللهِ لا يُغيِّرُها شَيءٌ(٢).

- والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ التَّهديدِ، فالمُرادُ: الغَلَبةُ بالقوَّةِ، وأمَّا الغَلَبةُ بالحُجَّةِ فأمْرٌ مَعلومٌ(٣).

- وجُملةُ ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ﴾ مُدْليةٌ بنَوعٍ مِن التَّوكيدِ، وبضَرْبٍ مِن التَّقريرِ؛ فهي مُؤكَّدةٌ بلامِ القسَمِ والنُّونِ وبالضَّميرِ(٤).

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿لَأَغۡلِبَنَّ﴾؛ لأنَّ الَّذي يُغالِبُ الغالِبَ مَغلوبٌ(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٦، ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٧).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٩٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٧).

هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾

- افتِتاحُ الكلامِ بقولِه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ يُثيرُ تَشويقًا إلى مَعرفةِ حالِ هؤلاء القومِ وما سيُساقُ في شأْنِهم مِن حُكْمٍ، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمقصودُ منه أمْرُه بإبلاغِ المسلمينَ أنَّ مُوادَّةَ مَن يُعلَمُ أنَّه مُحادُّ اللهِ ورسولِه، هي ممَّا يُنافي الإيمانَ؛ ليَكُفَّ عنها مَن عَسى أنْ يكونَ مُتلبِّسًا بها، فالكلامُ مِن قِبَلِ الكِنايةِ عن السَّعيِ في نفْيِ وِجدانِ قومٍ هذه صِفتُهم، مِن قَبيلِ قولِهم: لا أرَيَنَّك هاهنا، أي: لا تَحضُرْ هنا[1].

وقيل: إنَّ هذا مِن بابِ تَنزيلِ الموجودِ الكائنِ مَنزِلةَ المَعدومِ الَّذي لا يُمكِنُ تَصوُّرُه إلَّا في خِزانةِ الخَيَالِ؛ فقد خُيِّلَ أنَّ مِن المُمتنِعِ المُحالِ أنْ تَجِدَ قَومًا مؤمنينَ يُوادُّون المشركين، والغرَضُ منه أنَّه لا يَنْبغي أنْ يكونَ ذلك، وحقُّه أنْ يَمتنعَ، ولا يُوجَدَ بحالٍ؛ مُبالَغةً في النَّهيِ عنه، والزَّجرِ عن مُلابَستِه، والتَّصلُّبِ في مُجانَبةِ أعداءِ اللهِ. وزاد ذلك تأكيدًا بقولِه: ﴿وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾، وبقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾، وبمُقابَلةِ قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ﴾، فلا تجِدُ شيئًا أدخَلَ في الإخلاصِ مِن مُوالاةِ أولياءِ اللهِ ومُعاداةِ أعدائِه، بلْ هو الإخلاصُ بعَينِه[2].

- والمُوادَّةُ أصْلُها: حُصولُ المَوَدَّةِ في جانبَينِ، والنَّهيُ هنا إنَّما هو عن مَودَّةِ المؤمنِ الكافرينَ، لا عن مُقابَلةِ الكافرِ المؤمنينَ بالمَودَّةِ، وإنَّما جِيءَ بصِيغةِ المُفاعَلةِ هنا اعتبارًا بأنَّ شأْنَ الوُدِّ أنْ يَجلِبَ وُدًّا مِن المَودودِ للوادِّ، وإمَّا

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٩٦، ٢٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٣، ٢٢٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٠).

أنْ تكونَ المُفاعَلةُ كِنايةً عن كَونِ الوُدِّ صادقًا؛ لأنَّ الوادَّ الصَّادقَ يُقابِلُه المَودودُ بمِثلِه، ويُعرَفُ ذلك بشَواهدِ المُعامَلةِ، وقَرينةُ الكِنايةِ تَوجيهُ نفْيِ وِجدانِ الموصوفِ بذلك إلى القَومِ الَّذين يُؤمِنون باللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولذلك لم يَقُلِ اللهُ هنا: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾ [آل عمران: ٢٨]؛ لأنَّ المودَّةَ مِن أحوالِ القلْبِ، فلا تُتصوَّرُ معها التَّقيَّةُ، بخِلافِ قولِه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ إلى قولِه: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ﴾[1] [آل عمران: ٢٨].

- قولُه: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ رُوعِيَ فيه تَرتيبٌ عَجيبٌ؛ فقد بدَأَ أوَّلًا بالآباءِ؛ لأنَّهم أدْعى إلى الاهتمامِ بهم؛ لوُجوبِ إخلاصِ الطَّاعةِ لهم، ومع ذلك نَهاهم عن مُوادَّتِهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان: ١٥]، وثنَّى بالأبناءِ؛ لأنَّهم أعلَقُ بحَبَّاتِ القلوبِ، ثمَّ ثلَّثَ بالإخوانِ؛ لأنَّهم هم المَثابةُ عندَ الحاجةِ، والنَّاصرُ عندَ نُشوبِ الأزماتِ، ثمَّ ربَّعَ بالعشيرةِ؛ لأنَّها المُستغاثُ في الشَّدائدِ، وهي المَوئلُ والمَفزَعُ في النَّوائبِ، وهم المُسرِعون إلى النَّجدةِ[2].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ﴾ مُبالَغةٌ في نِهايةِ الأحوالِ الَّتي قد يُقدِمُ فيها المرْءُ على التَّرخُّصِ فيما نُهِيَ عنه بعِلَّةِ قُربِ القرابةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٥٩).

- وجُملةُ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ الأوصافَ السَّابقةَ ووُقوعَها عقِبَ ما وُصِفَ به المنافِقون مِن مُحادَّةِ اللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سابقًا وآنِفًا، وما تَوعَّدَهم اللهُ به أنَّه أعَدَّ لهم عَذابًا شديدًا ولهم عَذابٌ مُهينٌ، وأنَّهم حِزبُ الشَّيطانِ، وأنَّهم الخاسِرون؛ ممَّا يَستشرِفُ بعْدَه السَّامعُ إلى ما سيُخبَرُ به عن المتَّصِفينَ بضِدِّ ذلك، وهم المؤمِنونَ الَّذين لا يُوادُّون مَن حادَّ اللهَ ورسولَه[1].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى الَّذينَ لا يُوادُّونهم وإنْ كانوا أقرَبَ النَّاسِ إليهم وأمَسَّ رُحمًا، وما فيه مِن معْنى البُعدِ؛ لرِفعةِ دَرَجتِهم في الفضلِ[2].

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ مُدْليةٌ بنَوعٍ مِن التَّوكيدِ، وبضرْبٍ مِن التَّقريرِ؛ وذلك بذِكْرِ القُلوبِ وإثباتِ الإيمانِ فيها، ثمَّ التَّوفيقِ بتأْييدِهم برُوحٍ مِن اللهِ، وإدخالِهم دارَ النَّعيمِ والخُلدِ المُقيمِ، ثم حُلولِ الرِّضوانِ، ورِضوانٌ مِن اللهِ أكبَرُ، وتَسميتِهم بحِزبِ اللهِ، ووَسْمِهم بسِمَةِ حَقيقةِ الفلاحِ والفوزِ بالمَباغي[3].

- قولُه: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾ التأْييدُ: التَّقويةُ والنَّصرُ، أي: إنَّ تأْييدَ اللهِ إيَّاهم قد حصَلَ وتقرَّرَ بالإتيانِ بفِعلِ المُضيِّ؛ للدَّلالةِ على الحصولِ وعلى التَّحقُّقِ والدَّوامِ، فهو مُستعمَلٌ في مَعنيَيْه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٠، ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

- قولُه: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ[١].

- وقولُه: ﴿وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ بَيانٌ لابتِهاجِهم بما أُوتُوه عاجلًا وآجلًا[٢].

- ورِضا اللهِ عنهم حاصلٌ مِن الماضي ومُحقَّقُ الدَّوامِ؛ فهو مِثْلُ الماضي في قولِه: ﴿وَأَيَّدَهُم﴾، ورِضاهم عن ربِّهم كذلك حاصِلٌ في الدُّنيا بثَباتِهم على الدِّينِ ومُعاداةِ أعدائِه، وحاصلٌ في المُستقبَلِ بنَوالِ رِضا اللهِ عنهم ونَوالِ نَعيمِ الخُلودِ[٣].

- وتَحوَّلَ التَّعبيرُ مِن الماضي في قولِه: ﴿كَتَبَ﴾ ﴿وَأَيَّدَهُم﴾ إلى المضارِعِ في قولِه: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾؛ لأنَّه الأصلُ في الاستِقبالِ. وقد استُغنِيَ عن إفادةِ التَّحقيقِ بما تَقدَّمَه مِن قولِه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾[٤].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِ﴾ تَشريفٌ لهُمْ ببَيانِ اختِصاصِهم بهِ عزَّ وجلَّ[٥].

- قولُه: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ بَيانٌ لاختِصاصِهم بالفوزِ بسَعادةِ الدَّارَينِ، والفوزِ بسَعادةِ النَّشأتَينِ. وحرْفُ التَّنبيهِ يَحصُلُ منه تَنبيهُ المسلمينَ إلى فضْلِهم، وتَنبيهُ مَن يَسمَعُ ذلك مِن المنافِقِين إلى ما حَبَا اللهُ به المسلمينَ مِن خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ؛ لعلَّ المنافقين يَغبِطونهم فيُخلِصونَ الإسلامَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦١).

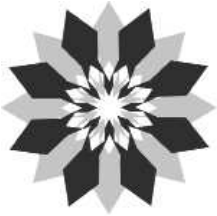

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الحَشْرِ

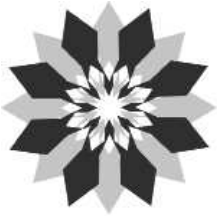

# سورةُ الحَشْرِ

## أسماءُ السُّورةِ:

١- سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحَشْرِ)[١].

فعن سعيدِ بنِ جُبَيرٍ، قال: (قُلْتُ لابنِ عبَّاسٍ: ... سورةُ الحَشْرِ، قال: نزَلتْ في بَني النَّضيرِ)[٢].

٢- سُمِّيتْ أيضًا بسورةِ بَني النَّضيرِ.

فعن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ أيضًا في روايةٍ، قال: (قلتُ لابنِ عبَّاسٍ: سورةُ الحَشْرِ. قال: قُلْ: سورةُ بني النَّضيرِ)[٣].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الحَشْرِ مَدَنيَّةٌ[٤]، .....

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الحَشْرِ؛ لوُقوعِ لَفظِ الحَشْرِ فيها، ولكَونِها ذُكِرَ فيها حَشْرُ بَني النَّضيرِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٠٢٩)، ومسلمٌ (٣٠٣١).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٤٠٢٩).

قال ابنُ حَجَرٍ: (كأنَّه [أي: ابنَ عبَّاسٍ] كَرِه تسميتَها بالحَشْرِ؛ لِئلَّا يُظَنَّ أنَّ المرادَ يومُ القيامةِ، وإنَّما المرادُ به هنا إخراجُ بني النَّضيرِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٢٩).

وقال ابنُ عاشور: (ابنُ جُبَيرٍ سَمَّاها باسمِها المشهورِ، وابنُ عبَّاسٍ يُسَمِّيها سورةَ بني النَّضيرِ، ولعَلَّه لم يَبلُغْه تسميةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيَّاها «سورةَ الحَشْرِ»؛ لأنَّ ظاهِرَ كَلامِه أنَّه يرى تسميتَها «سورةَ بني النَّضيرِ»؛ لِقَولِه لابنِ جُبَيرٍ: «قُلْ: بني النَّضيرِ»، وتأوَّلَ ابنُ حَجَرٍ كلامَ ابنِ عباسٍ على أنَّه كَرِهَ تَسميتَها بـ «الحَشْر»؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ المرادَ بالحَشْرِ يومُ القيامةِ. وهذا تأوُّلٌ بعيدٌ. وأحسَنُ مِن هذا أنَّ ابنَ عَبَّاسٍ أراد أنَّ لها اسمَينِ، وأنَّ الأمرَ في قَولِه: «قُلْ» للتَّخييرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير =

ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[١].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

١- الحديثُ عن غزوةِ بَني النَّضيرِ، ونصْرِ الله لعِبادِه المؤمنينَ، وخِذْلانِه للضَّالِّينَ[٢].

٢- ذِكرُ جانبٍ مِن أسماءِ الله تعالى الحسنى، وصِفاتِه العُلى[٣].

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- افتُتِحَت سورةُ الحَشْرِ بتَنزيهِ اللهِ تعالى عمَّا لا يَليقُ به، وإظهارِ عِزَّتِه وحِكْمتِه في تَصريفِ الأُمورِ.

٢- الحديثُ عن غزوةِ بني النَّضيرِ، وما يَسَّرَ اللهُ تعالى مِن إجلائِهم، مع ما كانوا عليه مِن المَنَعةِ والحُصُونِ والعُدَّةِ.

٣- الحديثُ عن تقسيمِ أموالِ بني النَّضيرِ، وعن حِكمةِ اللهِ تعالى في إرشادِه النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى هذا التَّقسيمِ (أحكام الفيءِ).

٤- الثَّناءُ على المهاجِرينَ والأنصارِ.

---

= الزمخشري)) (٤/ ٤٩٨).

(١) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٢٨٠).

٥- كَشْفُ دخائِلِ المنافِقينَ الَّذين تحالَفوا مع اليَهودِ ضِدَّ المؤمِنينَ، وذِكْرُ جانبٍ مِن أقوالِهم الكاذِبةِ، ووُعودِهم الخادِعةِ.

٦- وَصفُ بني النَّضيرِ والمنافِقينَ بالجُبْنِ، وتفَرُّقِ الكَلِمةِ، وتنظيرُ حالِ تغريرِ المنافِقينَ لليَهودِ بتغريرِ الشَّيطانِ للَّذين يَكفُرونَ باللهِ، وتنَصُّلِه منهم يومَ القيامةِ.

٧- توجيهُ الأمرِ للمُؤمِنينَ بتَقْوى اللهِ، ونهيُهم عن التَّشَبُّهِ بالفاسِقينَ عن أمرِ اللهِ، والتَّذكيرُ بتفاوُتِ حالِ الفريقَينِ.

٨- بيانُ عَظَمةِ القُرآنِ وجلالَتِه، واقتضائِه خُشوعَ أهلِه.

٩- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بذِكرِ جانبٍ مِن أسماءِ اللهِ تعالى وصِفاتِه.

## الآيات (١-٤)

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ٤﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَبَّحَ﴾: أي: نَزَّهَ وبَرَّأَ مِن كلِّ عَيبٍ، وأصلُ (سبح) هنا: جِنسٌ مِن العِبادةِ[١].

﴿دِيَٰرِهِمْ﴾: أي: مَنازِلِهم، والدَّارُ: المَنزِلُ؛ اعتِبارًا بدوَرانِها الَّذي لها بالحائطِ، ثمَّ تُسمَّى البلدةُ دارًا، والدُّنيا كلُّها دارًا، والدَّارُ أيضًا: القبيلةُ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حَوالَيْه[٢].

﴿ٱلْحَشْرِ﴾: أي: الجَمعِ والجلاءِ والإخراجِ، وأصلُ الحشرِ: الجمعُ مع سَوقٍ، وكلُّ جمْعٍ حشْرٌ، وقيل: الحَشْرُ: إخراجُ الجماعةِ عن مقرِّهم، وإزعاجُهم عنه إلى الحربِ ونحوِها، وأصلُ (حشر): السَّوقُ والبَعْثُ والانْبِعاثُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٤)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (١/ ٤١٣).

﴿حُصُونُهُم﴾: الحصونُ جمْعُ حِصْنٍ، وهو كلُّ مَوضِعٍ حَصينٍ لا يوصَلُ إلى جَوفِه، وأصلُ (حصن): الحِفظُ والحِياطةُ والحِرزُ[١].

﴿لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾: أي: لم يَظُنُّوا، ولم يَخطُرْ ببالِهم، ويَحتسِبُ مُبالَغةٌ في الحِسبانِ، أي: الظَّنِّ، يُقالُ: حَسِبتُ كذا حِسبانًا في معنى ظَنَنْت، وأصلُ (حسب) هنا: العَدُّ، ومنه الحِسْبانُ؛ لأنَّه إذا قال: حَسِبْتُه كذا، فكأنَّه قال: هو في الَّذي أعُدُّه مِن الأمورِ الكائِنَةِ[٢].

﴿وَقَذَفَ﴾: أي: ألْقى، وأصلُ (قذف): يدُلُّ على الرَّميِ والطَّرحِ[٣].

﴿ٱلرُّعْبَ﴾: أي: الخوفَ والهَلَع والجَزَعَ، وقيل: الرُّعب هو الخَوفُ الَّذي يَملأُ الصَّدرَ والقلبَ، وقيل: إنَّه أشدُّ الخوفِ، وأصلُ (رعب) هنا: الخَوفُ[٤].

﴿فَٱعْتَبِرُواْ﴾: أي: فاتَّعِظوا، والاعتِبارُ والعِبْرةُ: الدَّلالةُ بالشَّيءِ على مِثلِه، وحقيقتُها الحالةُ الَّتي يُتوصَّلُ بها مِن مَعرِفةِ المُشاهَدِ إلى ما ليس بمُشاهَدٍ، وأصلُ (عبر): يدُلُّ على النُّفوذِ والمُضِيِّ في الشَّيءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((روح المعاني)) للخلوتي (٩/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (١/ ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فاس (٢/ ٥٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٢).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٩)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢/ ٥٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١١/ ٧٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٣/ ٢٣).

وقال ابن فارس: (كأنَّه قال: انظُروا إلى مَن فعَل ما فعَل، فعُوقِب بما عُوقِب به، فتجَنَّبوا مِثلَ صَنيعِهم؛ لئلَّا يَنزِلَ بكم مِثلُ ما نزَل بأولئك). ((مقاييس اللغة)) (٤/ ٢١٠).

﴿ٱلْجَلَآءَ﴾: أي: الإخلاءَ، والخُروجَ مِن الوَطنِ، وأصلُ (جلو): يدُلُّ على الكَشفِ الظَّاهِرِ[1].

﴿شَآقُّواْ﴾: أي: حَاربُوا وخَالَفُوا، وصارُوا فِي شِقٍّ غيرِ شِقِّه، وأصلُ (شقق): يدُلُّ على انصِداعٍ في الشَّيءِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

ابتدأت هذه السُّورةُ الكريمةُ بالإخبارِ بأنَّه نزَّه اللهَ تعالى عن العُيوبِ والنَّقائِصِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ مِن المخلوقاتِ، واللهُ هو العزيزُ الَّذي لا يَغلِبُه شَيءٌ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به.

ثمَّ بيَّن الله تعالى جانبًا مِن مَظاهرِ فضلِه على المؤمنينَ، حيثُ نصَرهم على أعدائِهم، فقال: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي أخرَجَ يَهودَ بَني النَّضيرِ مِن مَنازِلِهم حَولَ المدينةِ لأوَّلِ جَمعٍ لليَهودِ، وإجلاءٍ لهم مِن المدينةِ، ما ظَنَنْتُم -يا أصحابَ النَّبيِّ- أن يَخرُجَ يهودُ بَني النَّضيرِ مِن مَنازِلِهم، وظنَّ أولئك اليهودُ أنَّ حُصونَهم ستَمنَعُهم مِن بأسِ اللهِ، فأنزَلَ اللهُ بهم بأسَه وعذابَه مِن حيثُ لم يَخطُرْ ببالِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٢).

قال الماوَرْدي: (الفرقُ بيْنَ الجَلاءِ والإخراجِ -وإن كان معناهما في الإبعادِ واحدًا- مِن وجهَينِ؛ أحدُهما: أنَّ الجَلاءَ ما كان مع الأهلِ والولدِ، والإخراجَ قد يكونُ مع بقاءِ الأهلِ والولدِ. الثَّاني: أنَّ الجَلاءَ لا يكونُ إلَّا لجماعةٍ، والإخراجَ يكونُ لجماعةٍ ولواحدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

وأَلْقَى في قُلوبِهم الخَوفَ، يُخْرِبونَ مَساكِنَهم بأيديهم، وهم الَّذين ألجؤُوا المؤمنينَ إلى تخريبِها؛ فاتَّعِظوا يا أصحابَ البصائِرِ والعقولِ والأفهامِ بعاقِبةِ أولئك اليَهودِ.

ولولا أنْ كَتَب اللهُ وقدَّرَ على يَهودِ بَني النَّضيرِ إخراجَهم مِن دِيارِهم، لَعذَّبَهم في الدُّنيا، ولهم عذابُ النَّارِ في الآخِرةِ، وإنَّما استَحَقُّوا الجَلاءَ في الدُّنيا، وعذابَ النَّارِ في الآخِرةِ؛ لأنَّهم خالَفوا اللهَ ورسولَه وعادَوهما، ومَن يُخالِفِ اللهَ ويُعادِه فإنَّ اللهَ يُعاقِبُه عِقابًا شَديدًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: نزَّه اللهَ عن العُيوبِ والنَّقائِصِ جَميعُ ما في السَّمَوَاتِ وجميعُ ما في الأرضِ مِن المخلوقاتِ[1].

كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍۖ كُلٌّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٣، ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

قال ابن كثير: (يخبرُ تعالى أنَّ جميعَ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن شَيءٍ يُسبِّحُ له ويُمَجِّدُه ويُقَدِّسُه، ويُصَلِّي له ويوَحِّدُه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦).

وقال ابن جرير: (يَعْني بقولِه جَلَّ ثَناؤُه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾: صَلَّى لله، وسَجَد له). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٦).

ويُنظر ما تقدَّم في أوَّل سورة الحديد (ص: ١٢).

قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة: ١].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ الَّذي لا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ، ولا يَغلِبُه شَيءٌ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[1].

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ١] بيَّن بعضَ آثارِ عِزَّتِه، وأحكامِ حِكمتِه[2]، ودلَّ عليهما بدَليلٍ شُهوديٍّ مِن أنَّه أنفَذَ ما كَتَب مِن أنَّه يَغلِبُ هو ورسُلُه، ومِن أنَّه كَبَت الَّذين حادُّوه، وخَيَّب ظَنَّ الَّذين نافَقوا، فتوَلَّوُا اليهودَ مِن أهلِ الكِتابِ؛ لِيَعتَزُّوا بهم، فأذَلَّ اليَهودَ وطَرَدَهم مِن مَهبِطِ الوَحيِ، وأخزَى المنافِقينَ الَّذين جَعَلوهم مَحَطَّ اعتمادِهم، ومَوضِعَ وَلايتِهم ووِدادِهم[3].

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ﴾.

أي: هو وَحْدَه الَّذي أخرَجَ يَهودَ بَني النَّضيرِ مِن مَنازِلِهم ودُورِهم حَولَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٦).

المدينةِ لأوَّلِ جَمعٍ لليَهودِ، وإجلاءٍ لهم مِن المدينةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٦-٤٩٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٦٦-٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦، ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٠٦).

قال الرازي: (قولُ ابنِ عبَّاسٍ والأكثَرينَ أنَّ هذا أوَّلُ حشرِ أهلِ الكتابِ، أي: أوَّلُ مرَّةٍ حُشِروا وأُخرِجوا مِن جزيرةِ العرَبِ، لم يُصِبْهم هذا الذُّلُّ قبْلَ ذلك؛ لأنَّهم كانوا أهلَ مَنَعةٍ وعزٍّ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠١، ٥٠٢).

وقال السعدي: (وكان إخراجُهم منها [أي: المدينةِ] أوَّلَ حشرٍ وجَلاءٍ كتَبَه اللهُ عليهم على يدِ رسولِه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فجُلوا إلى خَيْبرَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

وقال الشوكاني: (وقد أجمَع المفسِّرونَ على أنَّ هؤلاء المذكورينَ في الآيةِ هم بنو النَّضيرِ، ولم يخالِفْ في ذلك إلَّا الحسَنُ البصريُّ فقال: هم بنو قُرَيْظةَ، وهو غلَطٌ؛ فإنَّ بني قُرَيظةَ ما حُشِروا، بل قُتِلوا بحُكمِ سعدِ بنِ مُعاذٍ لَمَّا رضُوا بحُكمِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ١٨٢).

وقال ابنُ القيِّم: (زعَم محمَّدُ بنُ شِهابٍ الزُّهْريُّ أنَّ غزوةَ بني النَّضيرِ كانت بعدَ بدرٍ بستَّةِ أشهرٍ، وهذا وهمٌ منه أو غلَطٌ عليه، بل الَّذي لا شكَّ فيه أنَّها كانت بعدَ أُحُدٍ). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٢٣). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٠٧)، ((الروض الأُنُف)) للسهيلي (٦/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٤)، ((إمتاع الأسماع)) للمقريزي (٨/ ٣٥٩).

وقال البقاعي: (مَن زَعَم أنَّ شيئًا ممَّا في هذه السُّورةِ نُسِخَ بشَيءٍ مِمَّا في سورةِ الأنفالِ، فقد أخطَأَ؛ لأنَّ الأنفالَ نَزَلت في بَدْرٍ، وهي قبْلَ هذه بمدَّةٍ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٣٤).

ونقَلَ ابنُ عطيَّةَ الاتِّفاقَ على أنَّ الحشرَ: الجمْعُ والتَّوجيهُ إلى ناحيةٍ ما. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٣).

قال ابن جُزَي: (﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ في معناه أربعةُ أقوالٍ:

أحدها: أنَّه حشْرُ القيامةِ، أي: خُروجُهم مِن حُصونِهم أوَّلُ الحَشرِ، والقيامُ مِن القُبورِ آخِرُه...

الثَّاني: أنَّ المعنى: لأوَّلِ مَوضِعِ الحَشرِ، وهو الشَّامُ؛ وذلك أنَّ أكثَرَ بَني النَّضيرِ خرَجوا إلى الشَّامِ...

الثَّالثُ: أنَّ المرادَ: الحشرُ في الدُّنيا الَّذي هو الجَلاءُ والإخراجُ، فإخراجُهم مِن حُصونِهم أوَّلُ الحَشرِ، وإخراجُ أهلِ خَيْبرَ آخِرُه.

الرَّابعُ: أنَّ معناه: إخراجُهم مِن ديارِهم لأوَّلِ ما حَشر لِقتالِهم؛ لأنَّه أوَّلُ قتالٍ قاتَلَهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٧). =

عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ أنَّه سألَ ابنَ عبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما عن سورةِ الحَشرِ، قال: (نزَلَت في بَني النَّضيرِ)[1].

﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾.

أي: ما ظَنَنْتُم -يا أصحابَ النَّبيِّ- أن يَخرُجَ يهودُ بَني النَّضيرِ مِن مَنازِلِهم ودُورِهم، ويَترُكوا لكم أموالَهم حينَ حاصَرْتُم حُصونَهم المنيعةَ[2].

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: وظنَّ أولئك اليهودُ أنَّ حُصونَهم ستَحميهم مِن بأسِ اللهِ، فتتعَذَّرُ هزيمتُهم[3].

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾.

أي: فأنزَلَ اللهُ بهم بأسَه وعذابَه مِن حيثُ لم يَخطُرْ ببالِهم[4].

---

= فعلى اعتبارِ أنَّ المرادَ بالحشرِ أرضُ المَحشَرِ -وهي الشَّامُ- فتَكونُ الأوَّليَّةُ مَكانيَّةً، أي: لأوَّلِ مكانٍ مِن أرضِ المَحشَرِ، وهي أرضُ الشَّامِ، وأوائلُه خَيْبرُ وأَذْرِعاتٍ.

وعلى اعتبارِ أنَّ المرادَ بالحشرِ: الجمعُ، فقد حَشدَ الرَّسولُ لقتالِهم، وهو أوَّلُ قِتالٍ قاتَلَهم: فتكونُ الأوَّليَّةُ زمانيَّةً، وتَقتضي حشرًا بعْدَه. يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٥).

(١) رواه البخاريُّ (٤٠٢٩)، ومسلمٌ (٣٠٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٧، ٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

قال الشوكاني: (﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ أي: أتاهم أمْرُ اللهِ مِن حيث لم يَخطُرْ ببالِهم أنَّه يأتيهم أمْرُه مِن تلك الجهةِ، وهو أنَّه سُبحانَه أمَر نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بقِتالِهم وإجلائِهم، وكانوا لا يَظُنُّون ذلك. وقيل: هو قتْلُ رئيسِهم كعبِ بنِ الأشرَفِ، قاله ابنُ جُرَيجٍ والسُّدِّيُّ وأبو صالحٍ؛ فإنَّ قتْلَه أضعَفَ شَوكَتَهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٣). =

كما قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦].

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾.

أي: وأَلْقى اللهُ تعالى في قُلوبِهم الخَوفَ والهَلَعَ حينَ حاصَرَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابُه[1].

كما قال تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نُصِرتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ[2]))[3].

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

= وقال السعدي: (قال: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ أي: مِن الأمرِ والبابِ الَّذي لم يَخطُرْ ببالِهم أن يُؤْتَوا منه، وهو أنَّه تعالى «قَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ»). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

قال ابن عاشور: (حَصَل الرُّعبُ في قلوبِهم دَفعةً دونَ سابِقِ تأمُّلٍ، ولا حُصولِ سَبَبٍ للرُّعبِ... والمعنى: وجَعَل اللهُ الرُّعبَ في قلوبِهم، فأسرعوا بالاستِسلامِ. وقذْفُ الرُّعبِ في قلوبِهم هو مِن أحوالِ إتيانِ اللهِ إيَّاهم مِن حيثُ لم يحتَسِبوا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧١).

(٢) أي: نَصَرني اللهُ بإلقاءِ الخَوفِ في قُلوبِ أعدائي مِن مَسيرَةِ شَهرٍ، يَعْني: بيْني وبيْنَهم مِن سائرِ نواحي المَدينةِ وجَميعِ جِهاتِها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٧٤)، ((التيسير بشرح الجامع الصغير)) للمُناوي (١/ ١٧٢).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٣٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٥٢١).

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ﴾ قِراءتانِ:

١- قِراءةُ ﴿يُخَرِّبُونَ﴾ بالتَّشديدِ، أي: يُهَدِّمون[١].

٢- قراءة ﴿يُخْرِبُونَ﴾ بالتَّخفيفِ. قيل: بمعنَى التَّركِ والتَّعطيلِ، أي: يَترُكون بُيوتَهم ويُعطِّلونها، تقولُ: أخرَبْتُ المكانَ، إذا خرَجْتَ عنه وترَكْتَه. وقيل: بمعنى الهدمِ، فيَجري ذلك مَجرى أكرَمتُ وكرَّمْتُ، وكذلك خرَّبتُ وأخرَبتُ[٢].

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: هم جَعَلوا مَساكِنَهم خرابًا بأيديهم، وهم مَن ألجؤُوا المؤمنينَ إلى تخريبِها[٣].

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

---

(١) قرأ بها أبو عَمرٍو. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٦٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٠٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٦).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٦٣)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٤٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٧، ٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).
قال ابنُ جُزَي: (أمَّا إخرابُ المؤمنينَ فهو هدمُ أسوارِ الحُصونِ لِيَدخُلوها، وأسنَدَ ذلك إلى الكُفَّارِ في قولِه: ﴿يُخْرِبُونَ﴾؛ لأنَّه كان بسَبَبِ كُفرِهم وغَدرِهم، وأمَّا إخرابُ الكُفَّارِ لِبُيوتِهم فلثلاثةِ مَقاصِدَ؛ أحدُها: حاجتُهم إلى الخَشَبِ والحِجارةِ؛ لِيَسُدُّوا بها أفواهَ الأزِقَّةِ، ويحَصِّنوا ما خَرَّبه المسلِمون مِن الأسوارِ. والثَّاني: لِيَحمِلوا معهم ما أعجبَهم مِن الخَشَبِ والسَّواري وغيرِ ذلك. والثَّالثُ: ألَّا تَبقى مساكِنُهم مَبنيَّةً للمُسلِمينَ، فهَدَموها شُحًّا عليها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٧، ٣٥٨).

أي: فاتَّعِظوا يا أصحابَ البصائرِ والعقولِ والأفهامِ بما أحلَّ الله بهؤلاء اليَهودِ فلم تمنَعْهم قوَّتُهم، ولا حصَّنَتْهم حُصونُهم، وتفكَّروا في عاقِبةِ مَن خالَفَ أمْرَ الله، وخالَف رسولَه؛ فإنَّ في هذا مُعتبَرًا[1].

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾.

أي: ولولا أنَّ اللهَ قضى وقدَّرَ على يَهودِ بَني النَّضيرِ إخراجَهم مِن دِيارِهم إلى بلادٍ أُخرى لَعذَّبَهم في الدُّنيا[2].

﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾.

أي: ولهم مع جَلائِهم في الدُّنيا عذابُ النَّارِ في الآخِرةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٩).

قال ابن عاشور: (الاعتبارُ: النَّظرُ في دَلالةِ الأشياءِ على لَوازِمِها وعواقبِها وأسبابِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٢). ويُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيميَّة (٥/ ١٠٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيميَّة (٥/ ٢٥٩)، ((البحر المحيط في أصول الفقه)) للزركشي (٧/ ٢٨-٣٠).

وقال القرطبي: (ومِن جملةِ الاعتبارِ هنا أنَّهم اعتصَموا بالحُصونِ مِن الله، فأنزَلهم اللهُ منها. ومِن وُجوهِه: أنَّه سلَّط عليهم مَن كان يَنصرُهم. ومِن وُجوهِه أيضًا: أنَّهم هدَموا أموالَهم بأيديهم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥).

وقولُه: ﴿يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾ أي: يا أصحابَ العقولِ والألبابِ. وقيل: يا مَن عايَنَ ذلك ببصَرِه، فهو جمْعٌ للبصرِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٤، ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٣).

قال ابن القيِّم: (التَّعذيبُ في الدُّنيا هو القِتالُ والإهلاكُ). ((أحكام أهل الذمة)) (٣/ ١٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن =

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى بما نالهم في الدُّنيا، ويَنالُهم في الآخِرةِ؛ عَلَّلَه بقَولِه[1]:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

أي: إنَّما استَحَقَّ يَهودُ بَني النَّضيرِ الجَلاءَ في الدُّنيا، وعذابَ النَّارِ في الآخِرةِ؛ لأنَّهم خالَفوا اللهَ ورسولَه وعادَوهما[2].

﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: ومَن يُخالِفِ اللهَ في أمرِه ونَهْيِه ويُعادِه فإنَّ اللهَ يُعاقِبُه عِقابًا شَديدًا[3].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- افتِتاحُ السُّورةِ بالإخبارِ عن تَسبيحِ ما في السَّمواتِ والأرضِ للهِ تعالى، تَذكيرٌ للمؤمنينَ بتَسبيحِهم للهِ تَسبيحَ شُكْرٍ على ما أنالَهُم مِن فتْحِ بِلادِ بني النَّضيرِ، فكأنَّه قال: سبِّحوا للهِ كما سبَّح له ما في السَّمواتِ والأرضِ[4].

---

= كثير)) (٨/ ٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (جَعَل سَبَبَ استحقاقِهم العذابَ في الدُّنيا، وعذابَ النَّارِ في الآخرةِ: هو مُشاقَّةَ اللهِ ورسولِه، والمؤذي للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُشاقٌّ للهِ ورَسولِه...، والعذابُ هنا هو الإهلاكُ بعذابٍ مِن عندِه أو بأيدِينا، وإلَّا فقد أصابهم ما دونَ ذلك مِن ذَهابِ الأموالِ، وفِراقِ الأوطانِ). ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٤).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ هو الخَوفُ الشَّديدُ الَّذي هو جُندُ اللهِ الأكبَرُ، الَّذي لا يَنفَعُ معه عَدَدٌ ولا عُدَّةٌ، ولا قوَّةٌ ولا شِدَّةٌ، فالأمرُ الَّذي يحتَسِبونَه ويَظنُّونَ أنَّ الخَلَل يَدخُلُ عليهم منه إن دخَل: هو الحُصونُ الَّتي تحصَّنوا بها، واطمأنَّت نُفوسُهم إليها، ومَن وَثِقَ بغيرِ اللهِ فهو مخذولٌ، ومَن رَكَن إلى غيرِ اللهِ فهو عليه وَبالٌ[1].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يدُلُّ على الأمرِ بالاعتِبارِ، وهو اعتِبارُ النَّظيرِ بنَظيرِه، وقياسُ الشَّيءِ على مِثْلِه، والتَّفَكُّرُ فيما تضَمَّنَتْه الأحكامُ مِن المعاني والحِكَمِ الَّتي هي محَلُّ العَقلِ والفِكرةِ، وبذلك يَزدادُ العَقلُ، وتتنوَّرُ البصيرةُ، ويَزدادُ الإيمانُ، ويَحصُلُ الفَهمُ الحقيقيُّ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِ﴾ يدُلُّ على أنَّ لهم حَشرًا وجَلاءً غَيرَ هذا؛ فقد وقع حينَ أجلاهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خَيبَرَ، ثمَّ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه أخرَجَ بَقيَّتَهم منها[3]. وهذا بِناءً على أنَّ الأوَّليَّةَ زمانيَّةٌ، وأنَّه أوَّلُ حشرٍ وجَلاءٍ كتبه الله عليهم.

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ إنَّما ذَكَر اللهُ تعالى ذلك؛ تعظيمًا لهذه النِّعمةِ؛ فإنَّ النِّعمةَ إذا ورَدَت على المرءِ والظَّنُّ بخِلافِه، تكونُ أعظَمَ؛ فالمسلِمونَ ما ظَنُّوا أنَّهم يَصِلونَ إلى مُرادِهم في خروجِ هؤلاء اليَهودِ، فيَتخَلَّصونَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٩).

مِن ضَرَرِ مَكايِدِهم، فلمَّا تيسَّرَ لهم ذلك كان وَقْعُ هذه النِّعمةِ أعظَمَ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأمورَ كُلَّها لله؛ وذلك لأنَّ الآيةَ دَلَّت على أنَّ وُقوعَ ذلك الرُّعبِ في قُلوبِهم كان مِنَ اللهِ، ودلَّت على أنَّ ذلك الرُّعبَ صار سَبَبًا في إقدامِهم على بعضِ الأفعالِ، وبالجُملةِ فالفِعلُ لا يحصُلُ إلَّا عندَ حُصولِ داعيةٍ مُتأكِّدةٍ في القَلبِ، وحُصولُ تلك الدَّاعيةِ لا يكونُ إلَّا مِنَ اللهِ؛ فكانت الأفعالُ بأسْرِها مُسنَدةً إلى اللهِ تعالى بهذا الطَّريقِ(٢).

٤- الإتيانُ والمجيءُ مِنَ اللهِ تعالى نوعانِ: مُطلَقٌ، ومُقَيَّدٌ؛ فإذا كان مجيءَ رَحمتِه أو عذابِه كان مُقَيَّدًا... النَّوعُ الثَّاني: المجيءُ والإتيانُ المُطلَقُ، كقَولِه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ﴾ [الفجر: ٢٢]، وقَولِه: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وهذا لا يكونُ إلَّا مجيئَه سُبحانَه... ومِنَ المجيءِ المقَيَّدِ قَولُه: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، فلمَّا قَيَّده بالمفعولِ -وهو البُنيانُ- وبالمجرورِ -وهو القواعِدُ- دَلَّ ذلك على مجيءِ ما بَيَّنَه، وهذا يُشبِهُ قَولَه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾، فهذا مجيءٌ مُقَيَّدٌ لِقَومٍ مخصوصينَ قد أوقَعَ بهم بَأْسَه، وعَلِمَ السَّامِعون أنَّ جُنودَه مِنَ الملائكةِ والمسلِمينَ أَتَوهم، فكان في هذا السِّياقِ ما يدُلُّ على المرادِ، على أنَّه لا يمتَنِعُ في الآيتَينِ أن يكونَ الإتيانُ على حقيقتِه، ويكونَ ذلك دُنُوًّا ممَّن يريدُ إهلاكَهم بغَضَبِه وانتِقامِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٥٠٣).

كما يَدنو عَشِيَّةَ عَرَفةَ مِنَ الحُجَّاجِ برَحمتِه ومَغفرتِه[١]، ولا يَلزَمُ مِن هذا الدُّنُوِّ والإتيانِ المُلاصَقةُ والمُخالَطةُ، بل يأتي هؤلاءِ برَحمتِه وفَضْلِه، وهؤلاء بانتقامِه وعُقوبتِه، وهو فَوقَ عَرْشِه؛ إذ لا يكونُ الرَّبُّ إلَّا فوقَ كُلِّ شَيءٍ، ففَوقيَّتُه وعُلُوُّه مِن لَوازمِ ذاتِه، ولا تناقُضَ بيْن نُزولِه ودُنُوِّه، وهبوطِه ومجيئِه، وإتيانِه وعُلُوِّه؛ لإحاطتِه وسَعَتِه وعَظَمتِه، وأنَّ السَّمَواتِ والأرضَ في قَبْضَتِه، وأنَّه مع كَونِه الظَّاهِرَ الَّذي ليس فَوقَه شَيءٌ، فهو الباطِنُ الَّذي ليس دُونَه شَيءٌ[٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ مَنطوقُه أنَّ الرُّعبَ سَبَبٌ مِن أسبابِ هزيمةِ اليَهودِ، ومفهومُ المُخالَفةِ يدُلُّ على أنَّ العَكسَ بالعَكسِ، أي: أنَّ الطُّمَأنينةَ -وهي ضِدُّ الرُّعبِ- سَبَبٌ مِن أسبابِ النَّصرِ، وهو ضِدُّ الهزيمةِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ حُجَّةٌ في إخرابِ بلادِ العَدُوِّ للنِّكايةِ[٤] أثناءَ الحِصارِ.

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إن قيل: كيف قال:

---

(١) قال ابن تيميَّة: (الرَّبُّ سُبْحانَه إذا وَصَفَه رَسولُه صلَّى الله عليه وسَلَّم بأنَّه يَنزِلُ إلى سماءِ الدُّنْيا كُلَّ لَيلةٍ، وأنَّه يَدْنو عَشِيَّةَ عَرَفةَ إلى الحُجَّاجِ، وأنَّه كَلَّم موسَى في الوادي الأيمَنِ في البُقْعةِ المُبارَكةِ مِن الشَّجَرةِ، وأنَّه استَوَى إلى السَّماءِ وهي دُخَانٌ...: لم يَلْزَمْ مِن ذلك أن تكونَ هذه الأفعالُ مِن جِنْسِ ما نُشاهِدُه مِن نُزولِ هذه الأعيانِ المشهودةِ حتَّى يُقالَ: ذلك يَستَلزِمُ تَفريغَ مكانٍ وشَغْلَ آخَرَ! فإنَّ نُزولَ الرُّوحِ وصُعودَها لا يَستَلزِمُ ذلك، فكيف برَبِّ العالَمينَ؟! وكذلك الملائكةُ لهم صعودٌ ونُزولٌ مِن هذا الجنسِ. فلا يجوزُ نَفْيُ ما أثْبَتَه اللهُ ورَسولُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، ولا يجوزُ تَمثيلُ ذلك بصِفاتِ المخلوقاتِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم)) للبعلي (ص: ٤٤٨، ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٧).

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، ولا يُتصَوَّرُ أن يُخرِبوا بُيوتَهم بأيدي المؤمِنينَ؟

**فالجوابُ**: إنَّما أضاف إليهم؛ لأنَّهم هم الَّذين ألجؤُوا المؤمِنينَ إلى التَّخريبِ، وحَمَلوهم على ذلك؛ بسَبَبِ امتِناعِهم عن الإيمانِ وكُفرِهم، ونَقْضِهم العهدَ وغَدرِهم، فكأنَّهم كلَّفوهم إيَّاه، وأمَرُوهم به[1].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فيه أنَّ الاعتبارَ أحدُ قوانينِ الشَّرعِ، ومَن لم يَعتَبِرْ بغَيرِه، اعتبَرَ به غيرُه[2].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ استُدِلَّ به على حُجِّيَّةِ القياسِ، وأنَّه فَرضُ كفايةٍ على المجتَهِدينَ؛ لأنَّ الاعتبارَ: قياسُ الشَّيءِ بالشَّيءِ[3].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أنَّه سُبحانَه كما يُنْكِرُ التَّسويةَ بيْنَ المُختَلِفاتِ، فهو يُسَوِّي بيْن المُتماثِلاتِ[4]، فالشَّارعُ حكيمٌ لا يُفرِّقُ بيْنَ متماثِلَينِ إلَّا لاختِصاصِ أحدِهما بما يُوجِبُ الاختِصاصَ، ولا يُسوِّي بيْنَ مُختَلِفَينِ غيرِ مُتساوِيَينِ، فقال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا﴾، والاعتبارُ إنَّما يكونُ إذا سَوَّى بيْن المتماثِلَينِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٥٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٣/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١٢٧).

١١- الاعتبارُ والقياسُ نَوعانِ: قياسُ الطَّردِ، وقياسُ العَكسِ؛ فقياسُ الطَّردِ: اعتِبارُ الشَّيءِ بنَظيرِه حتَّى يُجعَلَ حُكمُه مِثلَ حُكْمِه. وقياسُ العَكسِ: اعتِبارُ الشَّيءِ بنَقيضِه حتَّى يُعلَمَ أنَّ حُكمَه نَقيضُ حُكمِه. وقَولُه تعالى: ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ يَتناوَلُ الأمْرَينِ؛ فيَعتَبِرُ العاقِلُ بتعذيبِ اللهِ لِمَن كَذَّب رُسُلَه، كما فَعَل ببَني النَّضيرِ؛ حتَّى يَرغَبَ في نقيضِ ذلك، ويَرهَبَ مِن نظيرِ ذلك، فيَستَعمِل قياسَ الطَّردِ في الرَّهبةِ، وقياسَ العَكسِ في الرَّغبةِ[1].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ﴾ حُجَّةٌ في الكِتابةِ القَدَريَّةِ على مَن يُنْكِرُها[2].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وُجوبُ قَتلِ سابِّ اللهِ ورسولِه، وانتقاضُ عَهْدِه؛ لأنَّ التَّعذيبَ في الدُّنيا هو القتالُ والإهلاكُ، ثمَّ عَلَّلَ ذلك بالمُشَاقَّةِ، وأَخَّرَ عنهم ذلك التَّعذيبَ؛ لِمَا سَبَق مِن كتابةِ الجَلاءِ عليهم، فمَن وُجِدَتْ منه المُشَاقَّةُ مِن غَيرِهم ممَّن لَمْ يُكْتَبْ عليه الجَلاءُ، استحَقَّ عذابَ الدُّنيا الَّذي أَخَّرَه عن أولئك[3].

١٤- إن قيل: إنَّ (لولا) تُفيدُ انتِفاءَ الشَّيءِ لِثُبوتِ غيرِه، فيَلزَمُ مِن ثُبوتِ الجَلاءِ عدَمُ التَّعذيبِ في الدُّنيا، لكنَّ الجَلاءَ نَوعٌ مِن أنواعِ التَّعذيبِ، فإذًا يَلزَمُ مِن ثُبوتِ الجَلاءِ عدَمُه، وهو محالٌ!

**والجوابُ**: أنَّ معناه: ولولا أن كتَب اللهُ عليهم الجَلاءَ لَعَذَّبهم في الدُّنيا بالقتلِ

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٣/ ١٣٩٤).

كما فعَل بإخوانِهم بَني قُرَيْظةَ[١]. فـ(لولا) حرفُ امتِناعٍ لِوُجودٍ، تُفيدُ امتِناعَ جوابِها مِن أجْلِ وُجودِ شَرْطِها، أي: وُجودُ تقديرِ الله جَلاءَهم سببٌ لانتِفاءِ تعذيبِ الله إيَّاهم في الدُّنيا بعذابٍ آخَرَ، فلو لم يُعاقِبْهم اللهُ بالجَلاءِ لَعاقَبَهم بالقتلِ والأَسْرِ؛ لأنَّهم استَحَقُّوا العِقابَ، فالمُرادُ بالتَّعذيبِ: الألمُ المحسوسُ بالأبدانِ بالقتلِ والجرحِ والأسْرِ والإهانةِ، وإلَّا فإنَّ الإخراجَ مِن الدِّيارِ نَكْبةٌ ومُصيبةٌ، لكنَّها لا تُدرَكُ بالحِسِّ، وإنَّما تُدرَكُ بالوِجْدانِ[٢].

١٥- قولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى أوقَعَ ما أوقَعَه ببَني النَّضيرِ مِن إخراجِهم مِن ديارِهم، وتخريبِ بُيوتِهم؛ بسَبَبِ أنَّهم شاقُّوا اللهَ ورَسولَه، وأنَّ المُشاقَّةَ المذكورةَ هي عِلَّةُ العُقوبةِ الحاصِلةِ بهم، ولا شكَّ أنَّ مُشاقَّةَ اللهِ ورَسولِه مِن أعظَمِ أسبابِ الهَلاكِ[٣].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فيه سؤالٌ: لو كانت المُشاقَّةُ عِلَّةً لهذا التَّخريبِ لَوَجَب أن يُقالَ: أيْنَما حَصَلت هذه المُشاقَّةُ حَصَل التَّخريبُ، ومعلومٌ أنَّه ليس كذلك؟

**الجوابُ**: أنَّ هذا أحَدُ ما يدُلُّ على أنَّ تخصيصَ العِلَّةِ المنصوصةِ لا يَقدَحُ في صِحَّتِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية محمد سالم (٨/ ٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٥).

قال الشنقيطي: (هذه الآيةُ الكريمةُ تؤيِّدُ قولَ مَن قال إنَّ النَّقضَ [أي: تخلُّفَ حُكمِ العلَّةِ عنها] في فنِّ الأصولِ تخصيصٌ للعلَّةِ مُطلَقًا، لا نقْضٌ لها، وعزاه في «مراقي السعود» للأكثَرينَ). =

١٧- شَرْعُ اللهِ وقَدَرُه ووَحْيُه وثوابُه وعِقابُه كلُّه قائمٌ على أصلِ إلحاقِ النَّظيرِ بالنَّظيرِ، واعتِبارِ المِثْلِ بالمِثْلِ؛ ولهذا يَذْكُرُ الشَّارعُ العِلَلَ والأوصافَ المؤثِّرةَ، والمعانيَ المُعتبَرةَ في الأحكامِ القَدَريَّةِ والشَّرعيَّةِ والجَزائيَّةِ؛ لِيَدُلَّ بذلك على تَعَلُّقِ الحُكْمِ بها أين وُجِدَتْ، واقتِضائِها لأحكامِها، وعدَمِ تَخَلُّفِها عنها إلَّا لمانعٍ يُعارِضُ اقتِضاءَها، ويُوجِبُ تَخَلُّفَ أثَرِها عنها، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُواْ﴾ [غافر: ١٢]، وقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا﴾ [الجاثية: ٣٥]، وقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ [غافر: ٧٥]، وقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ [محمد: ٢٦]، وقَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٢٨]، وقَولِه تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾[1] [فصلت: ٢٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالإخبارِ عن تَسبيحِ ما في السَّمواتِ والأرضِ للهِ تعالى تَعريضٌ بأولئك الَّذين نزَلَت السُّورةُ فيهم بأنَّهم أصابَهُم ما أصابَهُم لتكبُّرِهم عن تَسبيحِ اللهِ حقَّ تَسبيحِه بتَصديقِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ أعْرَضوا عن النَّظَرِ في دَلائلِ رِسالتِه، أو كابَروا في مَعرفتِها[2].

---

= ((آداب البحث والمناظرة)) (ص: ٢٩٩). ويُنظر: ((نثر الورود شرح مراقي السعود)) للشنقيطي (ص: ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٤).

- وأيضًا فافتِتاحُ السُّورةِ بذِكرِ تَسبيحِ اللهِ وتَنزيهِه مُؤذِنٌ بأنَّ أهمَّ ما اشتَمَلَت عليه إثباتُ وصْفِ اللهِ بالصِّفاتِ الجليلةِ المُقتَضيةِ أنَّه مُنزَّهٌ عمَّا ضلَّ في شأْنِه أهلُ الضَّلالِ مِن وصْفِه بما لا يَليقُ بجَلالِه، وأوَّلُ التَّنزيهِ هو نفْيُ الشَّريكِ له في الإلهيَّةِ؛ فإنَّ الوَحدانيَّةَ هي أكبرُ صِفةٍ ضلَّ في كُنْهِها المُشرِكون، وهي الصِّفةُ الَّتي يُنبِئُ عنها اسمُه العَلَمُ (الله)؛ لأنَّ أصْلَه الإلهُ، أي: المُنفرِدُ بالإلهيَّةِ، وأُتْبِعَ هذا الاسمُ بصِفاتٍ رَبَّانيَّةٍ تدُلُّ على كَمالِ اللهِ تعالى، وتَنزُّهِه عن النَّقصِ، فكانت هذه الفاتحةُ بَراعةَ استِهلالٍ لهذه السُّورةِ[1].

- قال تعالى في أوَّلِ سُورةِ (الحديدِ): ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، وهاهنا قال: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ فاتحةَ سُورةِ الحديدِ تَضمَّنَت الاستِدلالَ على عَظَمةِ اللهِ تعالى وصِفاتِه وانفرادِه بخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، فكان دَليلُ ذلك هو مَجموعَ ما احتَوَت عليه السَّمواتُ والأرضُ مِن أصنافِ الموجوداتِ، فجُمِعَ ذلك كلُّه في اسمٍ واحدٍ هو (ما) المَوصولةُ، الَّتي صِلَتُها قولُه: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. وأمَّا فاتحةُ سُورةِ الحَشرِ فقدْ سِيقَت للتَّذكيرِ بمِنَّةِ اللهِ تعالى على المسلِمينَ في حادثةٍ أرْضيَّةٍ، وهي خِذلانُ بَني النَّضيرِ؛ فناسَبَ فيها أنْ يُخَصَّ أهلُ الأرضِ باسمٍ مَوصولٍ خاصٍّ بهم، وهي (ما) المَوصولةُ الثَّانيةُ الَّتي صِلَتُها ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[2].

أو كُرِّرَ الموصولُ هاهنا؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، والتَّنبيهِ على استِقلالِ كلٍّ مِن الفَريقينِ بالتَّسبيحِ[3].

- وأُوثِرَ هنا الإخبارُ عن ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بفِعلِ المُضِيِّ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٥٦، ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٦٤، ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٤).

لأنَّ المُخبَرَ عنه تَسبيحُ شُكْرٍ عن نِعمةٍ مَضَت قبْلَ نُزولِ السُّورةِ، وهي نِعمةُ إخراجِ أهلِ النَّضيرِ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

- يَجوزُ أنْ تُجعَلَ جُملةُ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ... ﴾ إلى آخِرِها استِئنافًا ابتدائيًّا؛ لقَصْدِ إجراءِ هذا التَّمجيدِ على اسمِ الجَلالةِ؛ لِما يَتضمَّنُه مِن باهِرِ تَقديرِه، ولِما يُؤذِنُ به ذلك مِن التَّعريضِ بوُجوبِ شُكْرِه على ذلك الإخراجِ العجيبِ. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ عِلَّةً لِما تَضمَّنَه الخبرُ عن تَسبيحِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِن التَّذكيرِ للمؤمنينَ، والتَّعريضِ بأهلِ الكِتابِ والمُنافِقين الَّذين همْ فَريقانِ ممَّا في الأرضِ؛ فإنَّ القصَّةَ الَّتي تَضمَّنَتها فاتحةُ السُّورةِ مِن أهمِّ أحوالِهما. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ مُبيِّنةً لجُملةِ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ١]؛ لأنَّ هذا التَّسخيرَ العظيمَ مِن آثارِ عِزِّه وحِكمتِه، وعلى كلِّ الوُجوهِ فهو تَذكيرٌ بنِعمةِ اللهِ على المسلمينَ، وإيماءٌ إلى أنْ يَشكُروا اللهَ على ذلك، وتَمهيدٌ للمقصودِ مِن السُّورةِ، وهو قِسمةُ أمْوالِ بني النَّضيرِ(٢).

- والضَّميرُ (هو) راجِعٌ إلى اللهِ تعالَى بذلك العُنوانِ؛ إمَّا بِناءً على كَمالِ ظُهورِ اتِّصافِه تَعالى بهما -﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾- مع مُساعدةٍ تامَّةٍ مِن المَقامِ، أو على جَعْلِ الضَّميرِ مُعبَّرًا به عن اسمِ الإشارةِ، كأنَّه قيلَ: ذلك المنْعوتُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٥).

بالعِزَّةِ والحِكمةِ الَّذي أخْرَجَ... إلخ؛ ففيهِ إشعارٌ بأنَّ في الإخراجِ حِكمةً باهرةً[١].

- وتَعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ بالضَّميرِ والمَوصولِ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾ يُفيدُ قصْرَ صِفةِ إخراجِ الَّذين كَفَروا مِن دِيارِهم عليه تعالَى، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٢]؛ لعَدَمِ الاعتِدادِ بسَعْيِ المؤمنينَ في ذلك الإخراجِ، ومُعالجتِهم بَعضَ أسبابِه، كتَخريبِ دِيارِ بَني النَّضيرِ؛ ولذلك فجُملةُ ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ التَّعليلِ لجُملةِ القصْرِ[٣].

- والمُرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بنو النَّضيرِ، ووُسِمُوا بالَّذين كَفَروا؛ لأنَّهم كَفَروا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -بالإضافةِ إلى أنواعِ الكفرِ الأُخرَى-؛ تَسجيلًا عليهم بهذا الوصْفِ الذَّميمِ[٤].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ بَيانيَّةٌ؛ لأنَّ المُرادَ بأهلِ الكِتابِ هنا خُصوصُ اليهودِ، أي: الَّذين كَفَروا برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -بالإضافةِ إلى أنواعِ الكفرِ الأُخرَى-، وهمْ أهلُ الكِتابِ، وأراد بهم اليهودَ، فوُصِفوا بـ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ المُرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ المُشركون بمكَّةَ، أو بَقيَّةُ المشركين بالمدينةِ، فيُظَنَّ أنَّ الكلامَ وَعيدٌ[٥].

- قولُه: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ ﴿مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ يتعلَّقُ بـ﴿أَخۡرَجَ﴾، و﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ يَتعلَّقُ بمَحذوفٍ، أي: كائنِينَ مِن أهلِ الكتابِ، وصحَّتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٥، ٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٦٧).

الإضافةُ إليهم؛ لأنَّهم كانوا ببَرِّيَّةٍ لا عُمْرانَ فيها، فبَنَوْا فيها وأنْشَؤوا[١].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ لامُ التَّوقيتِ، وهي الَّتي تَدخُلُ على أوَّلِ الزَّمانِ المَجعولِ ظَرْفًا لعَملٍ، وهي بمعْنى (عندَ)، فالمعْنى: أنَّه أخرَجَهم عِندَ مَبدَأِ الحشْرِ المُقدَّرِ لهم، وهذا إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ قدَّرَ أنْ يُخرَجوا مِن جَميعِ دِيارِهم في بلادِ العرَبِ؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْحَشْرِ﴾ تَعريفُ العهْدِ[٢].

- ونظْمُ جُملةِ ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ على هذا النَّظمِ دونَ أنْ يُقالَ: (وظَنُّوا أنَّ حُصونَهم مانِعتُهم)؛ لِيَكونَ الابتِداءُ بضَميرِهم؛ لأنَّه سيَعقُبُه إسنادُ ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ إليه، فيَكونُ الابتداءُ بضَميرِهم مُشيرًا إلى اغترارِهم بأنفُسِهم أنَّهم في عِزَّةٍ ومَنَعةٍ، وأنَّ مَنَعةَ حُصونِهم هي مِن شُؤونِ عِزَّتِهم، ففيه تقديمُ ﴿مَّانِعَتُهُمْ﴾ -وهو وصْفٌ- على ﴿حُصُونُهُم﴾ وهو اسمٌ، والاسمُ -بحسَبِ الظَّاهرِ- أَوْلى بأنْ يُجعَلَ في مَرتبةِ المبتدأ، ويُجعَلَ الوصْفُ خَبَرًا عنه؛ فعُدِلَ عن ذلك، وقُدِّم الخبرُ على المُبتدَأِ دليلًا على فَرطِ وُثوقِهم بحصانتِها ومَنْعِها إيَّاهم، وفي تصييرِ ضميرِهم اسمًا لـ (أنَّ)، وإسنادِ الجملةِ إليه دليلٌ على اعتقادِهم في أنفُسِهم أنَّهم في عزَّةٍ ومَنَعةٍ، وليس ذلك في قولِك: (وظنُّوا أنَّ حُصونَهم تَمنَعُهم)[٣].

- قولُه: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ الأصلُ: (ظَنُّوا ألَّا يُخرَجوا)؛ لقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٦٩، ٧٠).

﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾، بناءً على قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ليُطابِقَ ما قبْلَه بإيقاعِ النَّاصبةِ للفِعلِ بعْدَها، فخُولِفَ ليُؤذِنَ بأنَّ ظنَّ المؤمنينَ كان على الرَّجاءِ والطَّمَعِ، وظَنَّهم على العِلمِ واليقينِ، فعُلِمَ مِن التَّأسيسِ أنَّ بِناءَ أمْرِه على الجزْمِ والثُّبوتِ، ثمَّ في المَرتبةِ الثَّانيةِ (ظَنُّوا أنَّ حُصونَهم تَمنَعُهم) نظَرًا إلى كَلامِ أوساطِ النَّاسِ، ثمَّ لَمَّا أُرِيدَ مَزيدُ التَّوكيدِ قِيل: (ظَنُّوا أنَّ حُصونَهم مانِعَتُهم)؛ لإرادةِ الثُّبوتِ في الدَّرجةِ الثَّانيةِ، ثمَّ في المَرتبةِ الثَّالثةِ: (ظَنُّوا أنَّه مانِعَتُهم حُصونُهم)؛ لإفادةِ التَّخصيصِ، وأنْ ليس لحُصونِهم صِفةٌ سِوى المنْعِ، وأنَّه لا بُدَّ منه، ثمَّ في المَرتبةِ الرابعةِ: (ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ)؛ ليَتقوَّى الحُكمُ لإفادةِ تَكثيرِ الإسنادِ، وإنْ لم يُرَدْ ما ذُكِرَ فما بالُ التَّرتيبِ لم يُترَكْ على أصْلِه؛ وهو: (ظَنُّوا ألَّا يُخرَجوا)[1]؟!

- قولُه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ تفريعٌ على مَجموعِ جُملتَيْ ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ اللَّتينِ هما تَعليلٌ للقصْرِ في قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[2].

- قولُه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْ﴾ الاحتِسابُ: مُبالَغةٌ في الحِسبانِ -أي: الظَّنِّ- أي: مِن مَكانٍ لم يَظُنُّوه؛ لأنَّهم قَصَروا استِعدادَهم على التَّحصُّنِ والمَنَعةِ، ولم يَعلَموا أنَّ قُوَّةَ اللهِ فوقَ قُوَّتِهم[3].

- قولُه: ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قذْفُ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٠٦، ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الرُّعبِ في قُلوبِهم هو مِن أحوالِ إتيانِ اللهِ إيَّاهم مِن حيثُ لم يَحتَسِبوا؛ فتَخصيصُه بالذِّكرِ للتَّعجيبِ مِن صُنْعِ اللهِ، وعطْفُه على ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ﴾ عطْفُ خاصٍّ على عامٍّ؛ للاهتِمامِ[1].

- والقذْفُ: الرَّميُ باليدِ بقُوَّةٍ، وهو مُعبَّرٌ به عن الحُصولِ العاجلِ، أي: حصَلَ الرُّعبُ في قُلوبِهم دَفْعةً دونَ سابقِ تأمُّلٍ ولا حُصولِ سَببٍ للرُّعبِ؛ ولذلك لم يُؤْتَ بفِعلِ القذْفِ في آيةِ (آلِ عمرانَ): ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾[2] [آل عمران: ١٥١].

- وجُملةُ ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم﴾ حالٌ مِن الضَّميرِ المُضافِ إليه ﴿قُلُوبِهِمُ﴾؛ لأنَّ المُضافَ جُزْءٌ مِن المُضافِ إليه، فلا يَمنَعُ مَجيءَ الحالِ منه، والمَقصودُ التَّعجيبُ مِن اختلالِ أُمورِهم؛ فإنَّهم وإنْ خرَّبوا بُيوتَهم باختيارِهم، لكنْ داعي التَّخريبِ قَهْريٌّ[3].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ مُوجَّهٌ إلى غيرِ مُعيَّنٍ، ونُودِيَ أُولو الأبصارِ بهذه الصِّلةِ؛ ليُشيرَ إلى أنَّ العِبرةَ بحالِ بَني النَّضيرِ واضحةٌ مَكشوفةٌ لكلِّ ذي بصَرٍ ممَّن شاهَدَ ذلك، ولكلِّ ذي بصَرٍ يَرى مَواقعَ دِيارِهم بعْدَهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-، فتكونَ له عِبرةً قُدْرةُ اللهِ على إخْراجِهم، وتَسليطِ المسلِمينَ عليهم مِن غيرِ قِتالٍ، وفي انتصارِ الحقِّ على الباطلِ، وانتصارِ أهلِ اليَقينِ على المُذَبْذَبينَ[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأَخِرَةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٢).

عَذَابُ ٱلنَّارِ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾

- جُملةُ ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ ناشِئةٌ عن جُملةِ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الحشر: ٢]؛ فالواوُ اعتراضيَّةٌ، أي: أخْرَجَهم اللهُ مِن قَريتِهم؛ عِقابًا لهم على كُفْرِهم وتَكذيبِهم للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما قال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ استِئنافٌ غيرُ مُتعلِّقٍ بجَوابِ (لولا)؛ جِيءَ به لبَيانِ أنَّهُم إنْ نَجَوا مِن عَذابِ الدُّنيا بكِتابةِ الجَلاءِ لا نَجاةَ لهم مِن عَذابِ الآخرةِ[2]. وقيل: إنَّ قولَه: ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ﴾ الآيةَ، أو على جُملةِ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الحشر: ٢]، وليس عطْفًا على جَوابِ (لولا)؛ فإنَّ عَذابَ النارِ حاقٌّ عليهم، وليس مُنتفيًا، والمَقصودُ الاحتراسُ مِن تَوهُّمِ أنَّ الجَلاءَ بدَلٌ مِن عَذابِ الدُّنيا ومِن عَذابِ الآخِرةِ[3].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ عُطِفَ اسمُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على اسمِ الجلالةِ؛ لقصْدِ تَعظيمِ شأْنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَعلَموا أنَّ طاعتَه طاعةُ اللهِ؛ لأنَّه إنَّما يَدْعو إلى ما أمَرَه اللهُ بتَبليغِه، ولم يُعطَفِ اسمُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الجُملةِ الثَّانيةِ ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ ﴾؛ استِغناءً بما عُلِمَ مِن الجُملةِ الأُولى[4]، وأيضًا اقتُصِر على ذِكرِ مُشاقَّتِه تعالَى؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٥).

لتَضمُّنِها لمُشاقَّتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وليُوافِقَ قولَه تَعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١).

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ تُرِك الإدغامُ على حالِه؛ قيل: لأنَّهم ما أظهَروا مُعاداةً، وإنَّما كان ما فَعَلوا مكرًا ومُساتَرةً، وذلك أخَفُّ مِن المُجاهَرةِ، وأُظهِرَ في (الأنفالِ) -يعني في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٣]-؛ لقوَّةِ أمرِ المُجاهِرينَ. ولم يُعَدْ ذِكرُ الرَّسولِ؛ تفخيمًا له بإفهامِ أنَّ مُشاقَقتَه مُشاقَقةٌ للهِ مِن غَيرِ مَثْنويَّةٍ أصلًا، وإشارةً إلى أنَّهم بالَغوا في إخفاءِ مُشاقَقتِهم، فلم يَظهَرْ عليها غيرُ الله، فلمْ يَحصُلْ منهم في ذلك مُفاعَلةٌ بيْنَهم وبيْنَ الرسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّه لم يَمكُرْ بهم، وإنَّما جاهَرَهم حينَ أَعلَمَه الله بمَكرِهم، بخِلافِ ما تقدَّمَ في (الأنفالِ)؛ فإنَّ المَقامَ اقتضَى هناك الذِّكرَ؛ لأنَّهم مَكَروا به، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وهو صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أخفى أمرَ هِجرتِه، وأعمَلَ الحِيلةَ في الخلاصِ مِن مَكرِهم على حسَبِ ما أمَرَه الله به، فحصلَتِ المُفاعَلةُ في تَحيُّزِ كلٍّ مِن الفَريقَينِ إلى شِقٍّ غَيرِ شِقِّ الآخَرِ خُفْيَةً(٢).

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تَذْييلٌ، أي: شَديدُ العِقابِ لكلِّ مَن يُشاقِقُه مِن هؤلاء وغيرِهم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٤، ٤١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٤).

- قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ إمَّا نفْسُ الجزاءِ قد حُذِفَ منه العائدُ إلى (مَنْ)، أي: شَديدُ العِقابِ له، أو تَعليلٌ للجزاءِ المحذوفِ، أي: وَمَنْ يُشَاقِّ اللهَ يُعاقِبْه اللهُ؛ فإنَّ اللهَ شَديدُ العقابِ، وأيًّا ما كانَ فالشَّرطيَّةُ تَكمِلةٌ لِما قبْلَها، وتَقريرٌ لمَضمونِه، وتَحقيقٌ للسَّببيَّةِ بالطَّريقِ البُرهانيِّ، كأنَّه قِيلَ: ذلك الَّذي حاقَ بهم مِن العِقابِ العاجِلِ والآجِلِ بسَببِ مُشاقَّتِهم للهِ تَعالى ورَسولِه، وكلُّ مَن يُشاقِّ اللهِ كائنًا مَن كان فلهُ بسَببِ ذلكَ عِقابٌ شديدٌ؛ فإذَنْ لهم عِقابٌ شديدٌ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٥).

## الآيات (٥-٧)

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿لِّينَةٍ﴾: اللِّينةُ: النَّخلةُ ما لم تكُنْ عَجوةً أو بَرْنيَّةً[1]. وقيل: هي النَّخلةُ مِن غَيرِ استثناءٍ. وقيل غيرُ ذلك[2].

﴿وَلِيُخْزِىَ﴾: أي: ولِيُذِلَّ، والخِزيُ: أن يَلحَقَ الرَّجُلَ انكسارٌ مِن غيرِه، وهو ضربٌ مِن الاستِخفافِ، وأصل (خزو) هنا: يدُلُّ على الإبعادِ[3].

﴿أَفَآءَ﴾: أي: رجَعَه ورَدَّه مِن الكُفَّارِ. والفَيءُ هو: ما ناله المُسلِمونَ مِن العَدُوِّ بغيرِ قِتالٍ، وأصلُ (فيأ): يدُلُّ على الرُّجوعِ[4].

﴿أَوْجَفْتُمْ﴾: أي: أسرَعْتُم، والإيجافُ: الإسراعُ في السَّيرِ، وقد أوجَفَ

---

(١) البَرْنِيُّ: نَوعٌ مِن أَجْوَدِ التَّمْرِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٠).

دابَّتَه يُوجِفُها إيجافًا: إذا حَثَّها على السُّرعةِ[١].

﴿رِكَابٍ﴾: أي: إبِلٍ، واحِدتُها راحِلةٌ، ولا واحِدَ لها مِن لَفظِها، وأصلُ (ركب): يدُلُّ على عُلُوِّ شَيءٍ شَيئًا[٢].

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: المُنقَطِعِ بالطَّريقِ يُريد بلدًا آخَرَ، والسَّبيلُ: الطَّريقُ، وسُمِّيَ الطَّريقُ بذلك؛ لامتِدادِه، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتِدادِ شَيءٍ[٣].

﴿دُولَةَۢ﴾: الدُّولَةُ: اسمٌ للشَّيءِ الَّذي يَتداوَلُه القَومُ بَيْنَهم، وأصلُ (دول): يدُلُّ على تحَوُّلِ شَيءٍ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مطمئِنًا المؤمنينَ الَّذين شاركوا في إجلاءِ بَني النَّضيرِ وقطْعِ نخيلِهم: ما قطَعْتُم -أيُّها المُسلِمونَ- مِن نخلةٍ في حِصارِكم لبَني النَّضيرِ، أو ترَكْتُموها قائِمةً على جُذوعِها: فإنَّما هو بإذنِ اللهِ تعالى؛ فلا لَومَ عليكم فيما قطَعْتُم أو ترَكْتُم، ولِيُذِلَّ اللهُ الخارِجينَ عن طاعتِه.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى مَن انتقَلَت إليه أموالُهم وأمتعتُهم، فيقولُ: وما ردَّه اللهُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٤)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٧٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٢).

رَسولِه مِن أموالِ يَهودِ بَني النَّضيرِ، فما أسرَعتُم -أيُّها المسلِمونَ- مِن أجْلِه خَيلًا ولا إبِلًا؛ إذ كانوا قريبينَ مِنكم، ولكِنَّ اللهَ سَلَّط رَسولَه عليهم، واللهُ على كلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حُكمَ الفَيءِ الَّذي أفاءَه على المسلمينَ، فيقولُ: ما ردَّه اللهُ على رَسولِه مِن أموالِ مُشرِكي القُرى كبَني النَّضيرِ وغَيرِهم بلا قِتالٍ؛ فهو للهِ يَحكُمُ فيه بما يَشاءُ، ولِرَسولِه، ولقَرابةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولليتامى، ولأهلِ الحاجةِ، وللغَريبِ المسافِرِ المُحتاجِ للمالِ؛ كي لا يكونَ مالُ الفَيءِ للأغنياءِ يَتداوَلونَه بيْنَهم دونَ الفُقَراءِ.

وما آتاكم رَسولُ اللهِ فخُذوه، وما نهاكم عنه فانتَهوا، وخافُوا اللهَ، واحذَروا سَخَطَه بفِعلِ ما أمَرَكم به، وتَركِ ما نهاكم عنه، إنَّ اللهَ شديدُ العِقابِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا دَلَّ اللهُ سُبحانَه على عِزَّتِه وحِكمتِه بما فَعَل ببَني النَّضيرِ الَّذين يقولونَ: إنَّهم أشجَعُ النَّاسِ، وأشَدُّهم شَكيمةً، بما لهم مِن الأصالةِ والاصطفاءِ على العالَمينَ، مع التَّأييدِ بالكِتابِ والحِكمةِ، وخَتَم بأنَّ مَن شاقَّ رَسولَه فقد شاقَّه، ومَن شاقَّه فقد شدَّدَ عِقابَه- أتْبَعَه ببيانِ ما عاقَبَهم به مِن قَطعِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم بأمرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِنَخْلِهم الَّذي هو أعزُّ عليهم مِن أبكارِهم،

وهم يَنظُرونَ إليه، لا يُغنُونَ شَيئًا، ولا مَنعةَ لَدَيهم[١].

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((حرَّق رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نَخلَ بني النَّضيرِ وقَطَعَ، وهي البُوَيرةُ، فنزلت: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾))[٢].

﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ما قطَعْتُم مِن نخلةٍ -أيُّها المُسلِمونَ- في حِصارِكم لبَني النَّضيرِ، أو ترَكْتُم قَطْعَها، فبَقِيَت قائِمةً على جُذوعِها: إنَّما هو بإذْنِ اللهِ تعالى، فلا لَومَ عليكم فيما قطَعْتُم أو ترَكْتُم[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٥).

(٢) رواه البخاري (٤٠٣١)، ومسلم (١٧٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٦، ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قيل: اللِّينةُ تُطلَقُ على جميعِ أنواعِ النَّخلِ ما عدا العَجوةَ والبَرْنيَّ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: أبو عُبَيْدَة، وابنُ قُتَيْبَة، والواحديُّ، ونسَبَه ابنُ عاشور إلى جمهورِ أهلِ المدينةِ، وأئمَّةِ اللُّغةِ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبيدة (٢/ ٢٥٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٦، ٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الزُّهْريُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧١).

وقيل: اللِّينةُ تُطلَقُ على جميعِ أنواعِ النَّخلِ ما عدا العَجْوةَ. وممَّن اختار هذا القولَ: ابنُ جرير، وابنُ العربي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٧، ٥٠٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ويَزيدُ بنُ رُومانَ، والزُّهْريُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٠). =

﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

أي: وليُذِلَّ اللهُ ويُهِينَ الخارِجينَ عن طاعتِه، المخالِفينَ لأمْرِه ونَهْيِه مِن يهودِ بني النَّضيرِ، بما يَصنَعُه المُسلِمونَ في نَخْلِهم، وهم عاجِزونَ عن رَدِّهم واستِنقاذِه منهم[1].

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ حالِ ما أُخِذَ مِن أموالِ بَني النَّضيرِ، بعْدَ بَيانِ ما حلَّ بأنفُسِهم مِن العذابِ العاجِلِ والآجِلِ، وما فُعِلَ بدِيارِهِم ونَخيلِهم مِن التَّخريبِ

---

= وقيل: اللِّينةُ اسمٌ للنَّخلةِ مِن غيرِ أن تختَصَّ بنَوعٍ دونَ آخَرَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الخليلُ بنُ أحمدَ الفَراهِيديُّ، والرَّاغبُ -وزاد الراغِبُ أنَّها النَّخلةُ النَّاعِمةُ-، والسعديُّ، ونَسَب الشربيني هذا القَولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((العين)) للخليل (٨/ ٣٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهِدٌ، وعَمرُو بنُ مَيمونٍ، وعطيَّةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٠٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧١).

وقيل في اللِّينةِ غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٦).

ذكر ابنُ القيِّمِ أنَّ الإذْنَ في هذه الآيةِ إذْنٌ دينيٌّ، فمعنى قولِه: ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بأمْرِه ورِضاه. يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

وقال السعدي: (أخبَر تعالى أنَّ قطْعَ النَّخيلِ إن قطَعوه، أو إبقاءَهم إيَّاه إن أبقَوْه؛ أنَّه بإذْنِه تعالى، وأمْرِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

وقال ابن عثيمين: (يعني: أنَّ اللهَ هو الَّذي أذِنَ لنا، وإذا أذِن اللهُ بشَيءٍ صار حلالًا، حتَّى وإن كان جِنسُه حرامًا فإنَّه يكونُ حلالًا). ((فتح ذي الجلال والإكرام)) (٥/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٨).

والقطْعِ[١].

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾.

أي: والَّذي ردَّه اللهُ على رَسولِه مِن أموالِ يَهودِ بَني النَّضيرِ، فما حرَّكتُم وأسرَعتُم -أيُّها المسلِمونَ- مِن أجْلِه خَيلًا ولا إبلًا، ولا قَطَعْتُم مِن أجْلِه مَسافةً؛ إذ كانوا قريبينَ مِنكم، فلم يَحصُلْ لكم كبيرُ مَشَقَّةٍ في أخْذِ أموالِهم[٢].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٢، ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠، ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٥٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٠، ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٨، ٧٩).

قال السعدي: (تعريفُ الفَيءِ في اصطِلاحِ الفُقَهاءِ: هو ما أُخِذَ مِن مالِ الكُفَّارِ بحَقٍّ مِن غيرِ قِتالٍ، كهذا المالِ الَّذي فَرُّوا وترَكوه خَوفًا مِن المسلمينَ، وسُمِّيَ فَيئًا؛ لأنَّه رَجَع مِن الكُفَّارِ الَّذين هم غيرُ مُستحِقِّينَ له، إلى المسلمينَ الَّذين لهم الحَقُّ الأوفَرُ فيه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

ويُنظر: ((الإقناع)) لابن المنذر (٢/ ٥٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٥٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (قال أبو بكرٍ ابنُ العربيِّ: لا خِلافَ بيْن العُلَماءِ أنَّ الآيةَ الأُولى خاصَّةٌ لِرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. أي: هذه الآيةُ الأُولى مِن الآيتَينِ المذكورتَينِ في هذه السُّورةِ خاصَّةٌ بأموالِ بَني النَّضيرِ، وعلى أنَّها خاصَّةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَضَعُها حيث يَشاءُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٠). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢١٣).

وقال ابنُ كثير: (كلُّ مالٍ أُخِذَ مِن الكُفَّارِ بغيرِ قِتالٍ ولا إيجافِ خَيلٍ ولا رِكابٍ، كأموالِ بَني النَّضيرِ هذه، فإنَّها مِمَّا لم يُوجِفِ المسلمونَ عليه بخَيلٍ ولا رِكابٍ، أي: لم يُقاتِلوا الأعداءَ فيها بالمبارَزةِ والمُصاوَلةِ، بل نَزَل أولئك مِن الرُّعبِ الَّذي ألقى اللهُ في قُلوبِهم مِن هَيبةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأفاءه اللهُ على رَسولِه؛ ولهذا تصَرَّف فيه كما شاء، فرَدَّه على المسلمينَ في وُجوهِ البِرِّ والمصالحِ الَّتي ذكَرَها الله عزَّ وجلَّ في هذه الآياتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٥).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: فما هو مِن حَقِّكم، أو لا تَسألوا قِسْمَتَه؛ لأنَّكم لم تَنالوه بقِتالِكم، ولكِنَّ اللهَ أعطاه رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نِعمةً منه بلا مشَقَّةٍ ولا نَصَبٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩).

أي: إنَّ ما خَوَّلَه اللهُ لرَسولِه مِن أموالِ بَني النَّضيرِ شَيءٌ لم تَحصُلوا عليه بالقِتالِ والغَلَبةِ، ولكِنْ سَلَّط اللهُ رَسولَه عليهم وعلى ما في أيديهم، كما كان يُسَلِّطُ رُسُلَه على أعدائِهم؛ فالرَّسولُ أحَقُّ به، والأمرُ فيه مُفَوَّضٌ إليه[1].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

أي: واللهُ ذو قُدرةٍ بالغةٍ تامَّةٍ على فِعلِ كُلِّ شَيءٍ، كما سَلَّط رَسولَه على يَهودِ بَني النَّضيرِ؛ فلا يُعجِزُه أحدٌ، ولا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ[2].

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نَزَع اللهُ سُبحانَه أموالَهم مِن أيدي الجَيشِ؛ بيَّنَ مَصرِفَ غَيرِها مِمَّا كان مِثْلَها، بأنْ فَتَح له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بغَيرِ قِتالٍ، فقال مستأنِفًا جوابًا لِمَن كأنَّه قال: هل يَعُمُّ هذا الحُكمُ كُلَّ فَيءٍ يكونُ بعدَ بني النَّضيرِ[3]؟

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾.

أي: الَّذي ردَّه اللهُ على رَسولِه مِن أموالِ مُشرِكي القُرى كبَني النَّضيرِ وغَيرِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩، ٨٠).

قال البِقاعي: (﴿يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ﴾ أي: له هذه السُّنَّةُ في كُلِّ زَمَنٍ ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ بجَعلِ ما آتاهم سُبحانَه مِن الهَيبةِ رُعبًا في قُلوبِ أعدائِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٧).

بلا قِتالٍ؛ فهو للهِ يَحكُمُ فيه بما يَشاءُ، ولِرَسولِه محمَّدٍ يَصرِفُه ويُقَسِّمُه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥١٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٧، ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قولُه تعالَى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ...﴾ اشترَكَ معَ الآيةِ السَّابقةِ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ في أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما تَضَمَّنتْ شيئًا أفاءَه اللَّهُ على رسولِه، واقْتَضَتْ الآيةُ السابقةُ أنَّه حاصِلٌ بغيرِ قِتالٍ؛ لقولِه: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾، وعريَتْ هذه الآيةُ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ...﴾ عن ذِكْرِ حصولِه لقِتالٍ أو لغيرِ قِتالٍ؛ وقد قال تعالى في سورةِ الأنفالِ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ ...﴾ [الأنفال: ٤١]، فاقتضى أنَّه حاصِلٌ بقتالٍ، فنشأَ الخلافُ في هذه الآيةِ مِنْ هاهُنا، فمِنْ طائِفَةٍ قالَتْ: هي مُلْحَقَةٌ بالآيةِ التي سبقتها -وهو مالُ الصُّلْحِ كُلُّه ونحوُه-، ومِنْ طائِفَةٍ قالَتْ: هي مُلْحَقَةٌ بآيةِ الأنفالِ، والَّذينَ قالوا: إنَّها مُلْحَقَةٌ بآيةِ الأنفالِ اختلَفوا: هل هي مَنْسوخَةٌ أو مُحْكَمةٌ؟ يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢١٤).

قال ابن جُزَي: (الصَّحيحُ أنَّه لا تَعارُضَ بيْن هذه الآيةِ وبيْن آيةِ الأنفالِ؛ فإنَّ آيةَ الأنفالِ في حُكمِ الغنيمةِ الَّتي تؤخَذُ بالقتالِ وإيجافِ الخَيلِ والرِّكابِ، فهذا يُخرَجُ منه الخُمُسُ ويُقسَمُ باقيه على الغانِمينَ، وأمَّا هذه الآيةُ ففي حُكمِ الفَيءِ، وهو ما يؤخَذُ مِن أموالِ الكفَّارِ مِن غيرِ قتالٍ ولا إيجافِ خَيلٍ ولا رِكابٍ، وإذا كان كذلك فكلُّ واحدةٍ مِن الآيتَينِ في معنًى غيرِ معنَى الأخرى، ولها حُكمٌ غيرُ حُكمِ الأخرى، فلا تَعارُضَ بيْنَهما ولا نَسْخَ، وانظُرْ كيف ذُكِر هنا لفظُ الفَيءِ، وفي الأنفالِ لفظُ الغَنيمةِ، وقد تقرَّر في الفِقهِ الفرقُ بيْن الفَيءِ والغَنيمةِ، وأنَّ حُكْمَهما مُختلِفٌ. قال أبو محمَّدٍ، ابنُ الفَرَسِ: وهو قولُ الجمهورِ، وبه قال مالكٌ وجميعُ أصحابِه، وهو أظهرُ الأقوالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٩). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٨٩).

وقال الشنقيطي: (بيَّن [الله تعالى] في سورةِ الحشرِ أنَّ ما أفاء الله على رسولِه مِن غيرِ إيجافِ المسلمينَ عليه الخيلَ والرِّكابَ، أنَّه لا يُخمَّسُ، ومصارفُه التي بيَّن أنَّه يُصرَفُ فيها كمصارفِ خُمسِ الغَنيمةِ...، وذلك في قولِه تعالى في فيءِ بني النَّضيرِ: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ الآية [٦]، ثمَّ بيَّن شمولَ الحكمِ لكُلِّ ما أفاء الله على رسولِه مِن جميعِ القُرَى بقولِه: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية [٧]). ((أضواء البيان)) (٢/ ٥٤).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (جُمهورُ العُلَماءِ على أنَّ الفَيءَ لا يُخمَسُ، كقَولِ مالِكٍ وأبي حنيفةَ وأحمدَ، وهذا قَولُ السَّلَفِ قاطبةً... والصَّوابُ قَولُ الجمهورِ؛ فإنَّ السُّنَنَ الثَّابتةَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ =

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (كانت أموالُ بَني النَّضيرِ مِمَّا أفاء اللهُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مِمَّا لم يُوجِفِ المسلِمونَ عليه بخَيلٍ ولا رِكابٍ، فكانت لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاصَّةً، وكان يُنفِقُ على أهلِه نَفَقةَ سَنَتِه، ثمَّ يَجعَلُ ما بَقِيَ في السِّلاحِ والكُراعِ[1] عُدَّةً في سَبيلِ اللهِ)[2].

﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

أي: ولقَرابةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممَّن تَحرُمُ عليهم الصَّدقةُ[3].

---

= عليه وسلَّم وخُلَفائِه تَقتَضي أنَّهم لم يَخْمُسوا فَيئًا قطُّ ...). ((منهاج السنة النبوية)) (٦/ ١٠٧-١١١). ويُنظر: ((الإشراف على مذاهب العلماء)) لابن المنذر (٤/ ٨١، ٨٢، ١٦٨، ١٦٩)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٢١١-٢١٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٣).

وقد اختلَف العلماءُ في تخميسِ الفَيءِ؛ فذهبَتِ الحنَفيَّةُ والمالكيَّةُ والشَّافعيُّ في القديم وأحمدُ في روايةٍ إلى أنَّ الفَيءَ لا يُخمَسُ، وإنَّما كلُّه لرسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم ومَن ذُكِروا معه. وذهب الشَّافِعيُّ في الجديدِ ومحمَّدٌ مِن الحنفيَّةِ وهو روايةٌ عن أحمدَ إلى أنَّ الفَيءَ يُخمسُ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣٢/ ٢٣٠).

(١) الكُراع: الخَيْل. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٧٦).

(٢) رواه البخاري (٢٩٠٤) واللفظ له، ومسلم (١٧٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني: ذَوي قَراباتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ؛ لأنَّهم قد مُنِعوا الصَّدقةَ، فَجُعِلَ لهم حقٌّ في الفَيءِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٤٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بهم بَنو هاشمٍ وبَنو المُطَّلِبِ: النَّحَّاسُ، والثعلبي، والواحدي، والخازن، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٦١)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قال السعدي: (وإنَّما دخَل بَنو المُطَّلِبِ في خُمسِ الخُمسِ مع بَني هاشمٍ، ولم يَدخُلْ بقيَّةُ بَني عبدِ مَنافٍ؛ لأنَّهم شارَكوا بَني هاشمٍ في دُخولِهم الشِّعبَ، حينَ تعاقَدَتْ قُرَيشٌ على هَجرِهم =

﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ﴾.

أي: ولليَتامى الَّذين مات آباؤُهم وهم دونَ سِنِّ البُلوغِ[١].

﴿وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾.

أي: ولأهلِ الحاجةِ والفاقةِ[٢].

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾.

أي: وللغَريبِ المسافِرِ المُنقَطِعِ، المُحتاجِ للمالِ في غيرِ مَعصيةِ اللهِ[٣].

---

= وعداوتِهم، فنصَروا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، بخِلافِ غيرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

قال الشنقيطي: في قوله تعالى ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]: (أمَّا ذَوو القُربى: فهم بنو هاشمٍ، وبنو المطَّلبِ على أظهرِ الأقوالِ دليلًا، وإليه ذهَب الشافعيُّ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، وأبو ثورٍ، ومجاهدٌ، وقتادةُ، وابنُ جُريجٍ، ومسلمُ بنُ خالدٍ...

عن جُبيرِ بنِ مُطعِمٍ، قال: مشيتُ أنا وعثمانُ بنُ عفَّانَ إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، فقُلْنا: يا رسولَ الله أعطيْتَ بني المطَّلبِ وتركْتَنا، ونحن وهم منكَ بمنزلةٍ واحدةٍ، فقال: رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «إنَّما بنو المطَّلبِ، وبنو هاشمٍ شيءٌ واحدٌ»... فبهذا الذي بيَّنَّا يتَّضِحُ أنَّ الصَّحيحَ أنَّ المرادَ بذي القُربَى في الآيةِ: بنو هاشمٍ، وبنو المطَّلبِ دونَ بني عبدِ شمسٍ، وبني نوفلٍ. ووجهُه أنَّ بني عبدِ شمسٍ، وبني نوفلٍ عادَوا الهاشميينَ، وظاهَروا عليهم قريشًا، فصاروا كالأباعدِ منهم؛ للعداوةِ، وعدمِ النُّصرةِ...

بهذا الحديثِ الصَّحيحِ الذي ذكَرنا: يتَّضِحُ عدمُ صحَّةِ قولِ مَن قال بأنَّهم بنو هاشمٍ فقط، وقولُ مَن قال: إنَّهم قريشٌ كلُّهم). ((أضواء البيان)) (٢/ ٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٨، ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾.

أي: أَمَرْنا بصَرفِ مالِ الفَيءِ في هذه الأصنافِ السَّابِقةِ؛ كي لا يكونَ مالُ الفَيءِ خاصًّا للأغنياءِ يَتداوَلونَه بيْنَهم دونَ الفُقَراءِ والضُّعَفاءِ[١].

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾.

أي: وما أعطاكم رَسولُ اللهِ مِن أموالِ الفَيءِ أو غيرِ ذلك، فخُذوه[٢].

﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾.

أي: وما نهاكم رَسولُ اللهِ عنه، كأخْذِ الغُلولِ وغيرِ ذلك، فانتَهوا عنه[٣].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه كان يحَدِّثُ أنَّه سَمِعَ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((ما نَهيتُكم عنه فاجتَنِبوه، وما أمَرتُكم به فافعَلوا منه ما استَطعتُم؛ فإنَّما أهلَكَ الَّذين مِن قَبْلِكم كَثرةُ مَسائِلِهم، واختِلافُهم على أنبيائِهم))[٤].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

أي: وخافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه، بفِعلِ ما أمَرَكم به ورَسولُه، وتَركِ ما نهاكم عنه ورَسولُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦، ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٧٢٨٨)، ومسلمٌ (١٣٣٧) واللَّفظُ له.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨).

كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ شديدٌ عِقابُه لِمَن يَعصي اللهَ ورَسولَه، ويخالِفُ أمْرَهما ونَهْيَهما(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ أمَرَ اللهُ بالقاعِدةِ الكُلِّيَّةِ والأصلِ العامِّ، فقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، وهذا شامِلٌ لأُصولِ الدِّينِ وفُروعِه؛ ظاهِرِه وباطِنِه، وأنَّ ما جاء به الرَّسولُ يتعَيَّنُ على العِبادِ الأخْذُ به واتِّباعُه، ولا تَحِلُّ مُخالَفتُه، وأنَّ نَصَّ الرَّسولِ على حُكمِ الشَّيءِ كنَصِّ اللهِ تعالى، لا رُخصةَ لأحدٍ، ولا عُذرَ له في تَرْكِه، ولا يجوزُ تقديمُ قَولِ أحَدٍ على قَولِه، ثمَّ أمَرَ بتَقْواه الَّتي بها عِمارةُ القُلوبِ والأرواحِ، والدُّنيا والآخِرةِ، وبها السَّعادةُ الدَّائِمةُ والفَوزُ العظيمُ، وبإضاعتِها الشَّقاءُ الأبَديُّ، والعذابُ السَّرْمَديُّ، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ على مَن تَرَكَ التَّقوى، وآثَرَ اتِّباعَ الهوى(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ خُصَّت اللِّينةُ بالقَطْعِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨).

قال ابنُ عاشور: (المعنى: واتَّقوا عِقابَ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ شَديدُ العِقابِ، أي: لِمَن خالَفَ أمْرَه، واقتَحَم نَهْيَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

**الجوابُ**: إن كانت مِنَ الألوانِ فلِيَستَبْقوا لأنفُسِهم العَجوةَ والبَرْنيَّةَ، وإن كانت من كِرامِ النَّخلِ فلِيَكونَ غَيظُ اليهودِ أشَدَّ وأشَقَّ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ استَدَلَّ بعضُ الفقهاءِ بهذه الآيةِ على أنَّ كُلَّ مُجتَهِدٍ مُصيبٌ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠١).

وقال ابنُ حجر: (قال السُّهَيلي: في تخصيصِها بالذِّكرِ إيماءٌ إلى أنَّ الَّذي يجوزُ قَطْعُه مِن شَجَرِ العَدُوِّ ما لا يكونُ مُعَدًّا للاقتياتِ؛ لأنَّهم كانوا يَقتاتونَ العَجْوةَ والبَرْنِيَّ دونَ اللِّينةِ). ((فتح الباري)) (٧/ ٣٣٣). ويُنظر: ((الروض الأُنُف)) للسهيلي (٦/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٥٨).

قال ابنُ العربي: (ورُوِيَ أنَّه كان بعضُ النَّاسِ يَقطَعُ، وبَعضُهم لا يَقطَعُ، فصَوَّبَ اللهُ الفريقَينِ، وخَلَّص الطَّائفتَينِ، فظَنَّ عندَ ذلك بعضُ النَّاسِ أنَّ كُلَّ مجتهدٍ مُصيبٌ يخرجُ من ذلك، وهذا باطِلٌ؛ لأنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان معهم، ولا اجتهادَ مع حُضورِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما يدُلُّ على اجتهادِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما لم ينزِلْ عليه؛ أخذًا بعُمومِ الإذايةِ للكُفَّارِ، ودُخولًا في الإذنِ للكُلِّ بما يقضي عليهم بالاجتياحِ والبَوارِ، وذلك قَولُه: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥]). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢١١).

وقال الشوكاني -بعدَ أن ذكَرَ قولَه صلَّى الله عليه وسلَّم: «إذا حَكَمَ الحاكمُ فاجتهَدَ ثمَّ أصاب فله أجْرانِ، وإذا حكَمَ فاجتهَدَ ثمَّ أخطأ فله أجرٌ» [البخاري (٧٣٥٢)]-: (فهذا الحديثُ يُفيدُك أنَّ الحقَّ واحدٌ، وأنَّ بعضَ المُجتَهِدينَ يُوافِقُه، فيُقالُ له: مُصِيبٌ، ويَستَحِقُّ أجرَينِ، وبعضَ المُجتَهِدينَ يُخالِفُه، ويُقالُ له: مُخْطِئٌ، واستِحقاقُه الأجرَ لا يَستلزِمُ كَوْنَه مُصيبًا، وإطلاقُ اسمِ الخَطأِ عليه لا يَستَلزِمُ ألَّا يَكونَ له أجرٌ، فمَنْ قال: كُلُّ مُجتَهِدٍ مُصِيبٌ، وجَعَل الحقَّ مُتَعدِّدًا بتَعَدُّدِ المُجتَهِدينَ، فقد أخطأ خطأً بَيِّنًا، وخالَفَ الصَّوابَ مُخالَفةً ظاهرةً).

ثمَّ قال: (وأمَّا استِدلالُهم بمِثلِ قَولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو خارِجٌ عن محلِّ النِّزاعِ؛ لأنَّ اللهَ سُبْحانَه قد صَرَّح في هذه الآيةِ بأنَّ ما وقَعَ منهم مِنَ القَطْعِ والتَّركِ هو بإذْنِه عزَّ وجَلَّ، فأفادَ ذلك أنَّ حُكْمَه في هذه الحادِثةِ بِخُصوصِها هو كلُّ واحِدٍ مِنَ الأمْرَينِ، وليس النِّزاعُ إلَّا فيما لم يَرِدِ النَّصُّ فيه «بأنَّه سُبْحانَه يُريدُ كُلَّ واحِدٍ مِنَ الأمْرَينِ، أو أنَّ حُكْمَه على التَّخْييرِ بيْنَ أُمُورٍ يَختارُ المُكَلَّفُ ما شاء منها، كالواجِبِ المُخَيَّرِ، =

٣- قال تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ دَلَّت الآيةُ على جوازِ إفسادِ أموالِ أهلِ الحَرْبِ على أيِّ حالٍ كان، مُثمِرًا كان أو لا، بالتَّحريقِ والتَّغريقِ والهَدْمِ وغَيْرِه[1] إذا دَعَت إليه المصلحةُ المتعَيِّنةُ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ في قَطْعِ الشَّجَرِ المُثمِرِ وغيرِ المثمِرِ في بلادِ العَدُوِّ، ودليلٌ على أنَّ النَّاسَ فيه بالخِيارِ؛ إنْ شاؤُوا قَطَعوا، وإنْ شاؤُوا تَرَكوا، والاختيارُ القَطْعُ كما قَطَعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نَخْلَ بَني النَّضيرِ، والآيةُ نازِلةٌ فيهم[3]. وذلك حالَ الحِصارِ إذا اقتَضَتْه مصلحةُ القتالِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين يَجعلونَ الإذْنَ بمعنى العِلْمِ؛ إذْ لو لم يَكُنِ الإذْنُ إطلاقًا، ما عُلِمَ أنَّ قَطْعَ الشَّجَرةِ مُباحٌ أو غيرُ مباحٍ. أَلَا ترى أنَّ عِلْمَه سُبحانَه محيطٌ

---

= أو أنَّ حُكْمَه يَجِبُ على الكلِّ، حتَّى يَفعَلَه البعضُ فيَسقُطَ عن الباقِينَ، كفُرُوضِ الكفاياتِ، فتَدَبَّرْ هذا وافْهَمْهُ حقَّ فَهْمِه). ((إرشاد الفحول)) (٢/ ٢٣٢-٢٣٤).

وسُئل شيخُ الإسلام: هل كلُّ مُجتَهِدٍ مصيبٌ؟ أو المصيبُ واحدٌ والباقي مُخطِئون؟

فأجاب: (... لفظُ الخطأِ قد يُرادُ به الإثمُ، وقد يُرادُ به عدَمُ العِلمِ؛ فإن أُريدَ الأوَّلُ فكلُّ مُجتهِدٍ اتَّقى اللهَ ما استطاع فهو مصيبٌ؛ فإنَّه مطيعٌ لله، ليس بآثمٍ ولا مذمومٍ. وإن أُريدَ الثَّاني فقد يُخَصُّ بعضُ المُجتَهدينَ بعِلمٍ خَفِيَ على غيرِه، ويكونُ ذلك عِلمًا بحقيقةِ الأمرِ لو اطَّلَع عليه الآخَرُ لَوَجَب عليه اتِّباعُهُ؛ لكنْ سقَط عنه وُجوبُ اتِّباعِه لعجزِه عنه، وله أجرٌ على اجتِهادِهِ، ولكنِ الواصلُ إلى الصَّوابِ له أجْرانِ...). ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ١٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٥)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٧).

بالمحظورِ والمُباحِ معًا؟! وليس كلُّ ما أحاط بفِعلِه عِلْمُه جاز لِفاعِلِه فِعْلُه دونَ إطلاقِه؛ فقد دلَّ هذا بغيرِ إشكالٍ على أنَّ إعدادَ الإذْنِ عِلْمًا خَطَأٌ لا يُشَكُّ فيه[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ اللهَ إذا أَذِنَ بشَيءٍ صار حلالًا، وحتَّى وإنْ كان جِنْسُه حرامًا فإنَّه يكونُ حلالًا؛ فقَطْعُ النَّخيلِ أو إحراقُ النَّخيلِ إضاعةُ مالٍ لا شكَّ، لكنْ إذا أَذِنَ اللهُ به صار قُرْبَةً؛ فاللهُ تعالى أَذِنَ لنَبيِّه بأنْ يُحَرِّقَ النَّخيلَ ويَقطَعَه، ثمَّ قال: ﴿وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وهذه فائدةٌ عظيمةٌ؛ فخِزْيُ الفاسِقين أمرٌ مطلوبٌ للشَّرعِ حتَّى وإنْ ضاع به المالُ، فبَيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّ اللهَ أباح له أنْ يَفْعَلَ، وأنَّ مِن فوائدِه إذلالَ الفاسِقين، يعني: الكافِرين[٢].

٧- الإذْنُ على قِسمَين: إذْنٍ كَونيٍّ -وهو ما يَتعلَّقُ بالمخلوقاتِ، والتَّقديراتِ-؛ وإذْنٍ شرعيٍّ -وهو ما يتعلَّقُ بالتَّشريعاتِ[٣]-، فمِنَ الإذْنِ الشَّرعيِّ الدِّينيِّ قَولُه تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، ومِن الإذنِ الكَونيِّ قولُه تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾[٤] [البقرة: ١٠٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾ سُمِّيَ الفَيءُ فَيئًا؛ لأنَّ اللهَ أفاءَه على المُسلِمينَ، أي: رَدَّه عليهم مِن الكُفَّارِ؛ فإنَّ الأصلَ أنَّ اللهَ تعالى إنَّما خَلَقَ الأموالَ إعانةً على عبادتِه؛ لأنَّه إنَّما خَلَقَ الخَلْقَ لعبادتِه، فالكافِرونَ به أباح أنفُسَهم الَّتي لَمْ يَعبُدوه بها، وأموالَهم الَّتي لم يَستَعينوا بها على عبادتِه؛ لعبادِه المؤمِنينَ الَّذين

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٥/ ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٧٨).

(٤) يُنظر: ((أمراض القلوب وشفاؤها)) لابن تيمية (ص: ٤٧).

يَعبُدونَه، وأفاء إليهم ما يَستَحِقُّونَه، كما يُعادُ على الرَّجُلِ ما غُصِبَ مِن ميراثِه، وإنْ لم يكُنْ قَبَضَه قَبْلَ ذلك[١]. فالآيةُ فيها إشعارٌ بأنَّ الفَيءَ كان حَقيقًا بأنْ يكونَ له عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإنَّما وقَعَ في أيْديهِم بغَيرِ حقٍّ، فرَجَعَه اللهُ تَعالى إلى مُستحقِّهِ[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الفَيءَ: ما أُخِذَ مِن الكُفَّارِ بلا قتالٍ وإيجافِ خَيلٍ ورِكابٍ، ومنه ما جَلَوا عنه خَوفًا. والغنيمةُ: ما أُخِذَ منهم بقِتالٍ، خِلافًا لِمَن زَعَم أنَّهما بمعنًى واحِدٍ، أو فرَّقَ بيْنَهما بغيرِ ذلك[٣].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ يدُلُّ على أنَّ إيجافَ الخَيلِ والرِّكابِ، وقَصْدَ العَدُوِّ إلى الأماكِنِ الشَّاسِعةِ: له وَقعٌ كَبيرٌ في النُّفوسِ، ورُعبٌ عَظيمٌ[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ أضاف سُبحانَه الأرضَ إلى الرَّسولِ؛ إشارةً إلى أنَّ كلَّ قريةٍ يُفيئُها اللهُ على أُمَّتِه إلى يومِ القيامةِ فهي مُضافةٌ إلى الرَّسولِ غيرُ مختصَّةٍ بالغانمِينَ، والإمامُ يقومُ مقامَ الرَّسولِ في قِسْمَتِها بالاجتِهادِ، يدُلُّ على ذلك أنَّه جَعَلَها لثلاثةِ أصنافٍ: المهاجِرينَ، والأنصارِ، ومَن جاء بعدَهم مِن المسلِمينَ، وهذا لا يمكنُ في المنقولاتِ قَطعًا؛ لأنَّ المنقولاتِ تُستهلَكُ ويَختَصُّ بها مَن يأخُذُها؛ فلا يُمكِنُ اشتِراكُ جميعِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٢٧).

المسلمينَ فيه[١].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡ ﴾ بَدا مِن هذا التَّعليلِ: أنَّ مِن مَقاصِدِ الشَّريعةِ أن يكونَ المالُ دُولةً بيْن الأمَّةِ الإسلاميَّةِ، على نِظامٍ مُحكَمٍ في انتِقالِه مِن كُلِّ مالٍ لم يَسبِقْ عليه مِلكٌ لأحَدٍ؛ مِثلُ: المَواتِ، والفَيءِ، واللُّقَطاتِ، والرِّكازِ، أو كان جُزءًا مُعَيَّنًا؛ مِثلُ: الزَّكاةِ، والكفَّاراتِ، وتخميسِ المغانمِ، والخَراجِ، والمواريثِ، وعُقودِ المعامَلاتِ الَّتي بيْن جانِبَي مالٍ وعمَلٍ؛ مِثلُ: القِراضِ، والمُغارَسةِ، والمُساقاةِ، وفي الأموالِ الَّتي يَظفَرُ بها الظَّافِرُ بدُونِ عَمَلٍ وسَعيٍ، مِثلُ: الفَيءِ، والرِّكازِ، وما ألقاه البَحرُ[٢].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ ﴾ إضافةُ الأموالِ الشَّرعيَّةِ إلى اللهِ والرَّسولِ؛ لأنَّ العبدَ الرَّسولَ لا يُعطي أحدًا إلَّا بأمرِ ربِّه، ولا يُعطي مَن يشاءُ ويَحرِمُ مَن يشاءُ، وأمَّا النَّبيُّ المَلِكُ فإنَّه يَفعَلُ ما فَرَضَ اللهُ عليه، ويَترُكُ ما حَرَّمَ اللهُ عليه، ويَتصَرَّفُ في الوِلايةِ والمالِ بما يُحِبُّه ويَختارُ مِن غيرِ إثمٍ عليه، كما في قَولِه تعالى: ﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[٣] [ص: ٣٩].

١٤- قال تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ إلى قَولِه سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ [الحشر: ١٠] فأخبَرَ أنَّ ما أفاء اللهُ على رَسولِه بجُملتِه هو لِمَن ذُكِرَ في هذه الآياتِ، ولم يَخُصَّ منه خُمُسَه بالمذكورينَ في آيةِ الخُمسِ، بل عَمَّمَ وأَطْلَقَ واستَوعبَ، ويُصرَفُ على المصارفِ الخاصَّةِ، وهم أهلُ الخُمسِ، ثمَّ على

(١) يُنظر: ((الاستخراج لأحكام الخراج)) لابن رجب (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨١).

المصارفِ العامَّةِ، وهم المهاجِرون والأنصارُ، وأتْباعُهم إلى يومِ الدِّينِ[١]، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فتخصيصُ هؤلاء بالذِّكْرِ هو للاعتناءِ بهم، لا لاختصاصِهم بالمالِ؛ ولهذا قال: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي: لا تتداوَلونَه وتَحرِمونَ الفُقراءَ، ولو كان مختصًّا بالفُقراءِ لم يكُنْ للأغنياءِ، فضلًا عن أنْ يكونَ دُولةً[٢]!

١٥- إنَّ اللهَ تعالى قال في الخُمُسِ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١] فاستفتَحَ الكلامَ بأنْ نَسَبَه إلى نَفْسِه، ثمَّ ذَكَر أهْلَه بَعْدُ، وكذلك قال في الفَيءِ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ﴾ [الحشر: ٧]، فنَسَبَه جَلَّ ثناؤُه إلى نَفْسِه، ثمَّ اقتَصَّ ذِكرَ أهلِه، فصار فيهما الخِيارُ إلى الإمامِ في كُلِّ شَيءٍ يُرادُ اللهُ به، فكان أقرَبَ إليه، ثمَّ ذَكَر الصَّدَقةَ، فقال: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] ولم يَقُلْ: لله، ولِكذا ولِكذا، فأوجَبَها لهم، ولم يجعَلْ لأحدٍ فيها خِيارًا أن يَصرِفَها عن أهلِها إلى مَن سِواهم، ومعنى هذا أنَّ الصَّدَقةَ إنَّما هي مِن أموالِ المُسلِمينَ خاصَّةً، فحُكمُها أن تُؤخَذَ مِن أغنيائِهم، فتُرَدَّ في فُقَرائِهم، فلا يجوزُ منها نَفلٌ ولا عَطاءٌ، فهذه مِن أموالِ المُسلِمينَ، وذاك مِن أموالِ أهلِ الكُفْرِ؛ فافتَرَق حُكمُ الخُمُسِ والصَّدَقةِ لِما ذَكَرْنا[٣].

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ١١٠).

قال السيوطي: (قولُه تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ استَدَلَّ بها مَن قال: إنَّ الفَيءَ لا يُصرَفُ منه شيءٌ للمُعَدينَ للقِتالِ، بل يُصرَفُ أربعةُ أخماسِ خُمُسِه إلى الأربعةِ: ذَوِي القُربى، واليتامى، والمساكينِ، وابنِ السَّبيلِ، ويُصرَفُ الخُمسُ والأخماسُ الأربعةُ الباقيةُ الَّتي كانت لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى مصالحِ المُسلِمينَ). ((الإكليل)) (ص: ٢٥٨).

وتقدَّم ذِكرُ الخلافِ في حُكمِ تخميسِ الفَيءِ (ص: ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((الأموال)) للقاسم بن سلام (ص: ٤١١).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أنَّ أحكامَ القُرآنِ يُرشِدُ سُبحانَه فيها إلى مَدارِكِها وعِلَلِها، وكقَولِه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فأَمَرَ سُبحانَه نَبيَّه أنْ يَذْكُرَ لهم عِلَّةَ الحُكْمِ قبْلَ الحُكْمِ(١).

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أنَّ الوَقفَ على الأغنياءِ باطِلٌ(٢)؛ فقد أخْبَر سُبحانَه أنَّه شَرَعَ ما ذَكَرَه؛ لئلَّا يكونَ الفَيءُ مُتداوَلًا بيْن الأغنياءِ دونَ الفُقراءِ، فعُلِمَ أنَّه سُبحانَه يَكْرَهُ هذا ويَنهى عنه ويَذُمُّه، فمَن جَعَلَ الوقفَ للأغنياءِ فقط فقد جَعَلَ المالَ دُولةً بيْن الأغنياءِ، فيتداوَلونَه بطنًا بعدَ بطنٍ دونَ الفُقَراءِ، وهذا مُضادٌّ للهِ في أمْرِه ودِينِه؛ فلا يجوزُ ذلك(٣).

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ هذا عامٌّ يَدخُلُ فيه قِسمةُ ما أفاء اللهُ، والغنائِمِ، وغَيرِها، حتَّى إنَّه قد استُدِلَّ بهذا العُمومِ على تحريمِ الخَمرِ، وحُكمِ الواشِمةِ والمُستَوشِمةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٤).

(٢) وهو مذهبُ الحنفيَّةِ، والحنابلةِ، خلافًا للمالكيَّة والشافعيَّةِ، على تفصيلٍ لدى بعضِ هذه المذاهبِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤٤/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣١/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤١).

أمَّا تحريمُ الخَمرِ فعن ابنِ عبَّاسٍ وابنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما: ((أنَّهما شَهِدا على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنَّه نهى عن الدُّبَّاءِ، والحَنْتَمِ، والمُزَفَّتِ، والنَّقِيرِ، ثمَّ تلا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ هذهِ الآيَةَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾)). أخرجه النسائيُّ (٥٦٤٣)، وقال الألبانيُّ: (صحيحٌ دونَ تِلاوةِ الآيةِ، وكأنَّها مُدْرَجةٌ).

وأمَّا حُكمُ الواشِمةِ والمُستَوشِمةِ فعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضيَ الله عنه: ((لَعَنَ اللهُ الواشِماتِ والمُستَوشِماتِ، والمُتنَمِّصاتِ، والمُتفَلِّجاتِ للحُسنِ، المُغَيِّراتِ خَلْقَ اللهِ تعالى، ما لي لا ألعَنُ مَن لعَنَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! وهو في كتابِ اللهِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾)). =

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ كُلَّ ما أَمَر به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرٌ مِن اللهِ تعالى؛ لأنَّ الآيةَ وإن كانت في الغنائِمِ، فجَميعُ أوامِرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونواهيه داخِلٌ فيها[١].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ فيه وُجوبُ امتِثالِ أوامِرِه ونواهيه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال العُلَماءُ: وكُلُّ ما ثبَتَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَصِحُّ أن يُقالَ: إنَّه في القُرآنِ؛ مِن هذه الآيةِ[٢].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ أنَّ سُنَّةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَصدرُ تَشريعٍ[٣].

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ أنَّ صِيغةَ النَّهيِ عندَ الإطلاقِ تَقتَضي تحريمَ المنهيِّ عنه وفَسادَه؛ فالأمرُ بالانتِهاءِ عمَّا نهى عنه يَقتَضي وُجوبَ الانتِهاءِ، ومِن لازِمِ ذلك تحريمُ الفِعلِ[٤]، ولأنَّ استِحبابَ الانتِهاءِ معلومٌ بنَفْسِ النَّهيِ، فلا بدَّ أنْ يُفيدَ هذا الخِطابُ فائدةً زائدةً على جميعِ أنواعِ الاستِحبابِ، وهي وجوبُ الانتهاءِ[٥].

٢٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ هذه الآيةُ جامِعةٌ للأمرِ باتِّباعِ ما يَصدُرُ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قَولٍ وفِعلٍ، فيَندَرِجُ فيها جميعُ أدِلَّةِ السُّنَّةِ[٦].

---

= أخرجه البُخاريُّ (٥٩٣١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٨٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((أصول في التفسير)) لابن عثيمين (ص: ٧).

(٤) يُنظر: ((الأصول من علم الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٢٩).

(٥) يُنظر: ((تنبيه الرجل العاقل على تمويه الجدل الباطل)) لابن تيمية (٢/ ٥٢١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ أنَّ الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم هو القاسِمُ للفَيءِ والمَغانِمِ، ولو كانت مَقسومةً محدودةً كالفرائضِ لم يكُنْ للرَّسولِ أمرٌ فيها ولا نهيٌ[١].

٢٥- قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ عطْفُ الأمْرِ بالتَّقْوى على الأمْرِ بالأخْذِ بالأوامرِ وتَرْكِ المَنهيَّاتِ، يدُلُّ على أنَّ التَّقوى هي امتثالُ الأمْرِ واجتنابُ النَّهيِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ أُفْضِيَ به إلى المَقصدِ مِن السُّورةِ عن أحكامِ أمْوالِ بَني النَّضيرِ[٣].

- وإيثارُ (لِينةٍ) على (نَخلةٍ)؛ لأنَّه أخَفُّ؛ ولذلك لم يَرِدْ لَفظُ (نَخلةٍ) مُفرَدًا في القرآنِ، وإنَّما ورَدَ النَّخلُ اسمَ جمْعٍ[٤].

- قولُه: ﴿مِّن لِّينَةٍ﴾ بَيانٌ لإبهامِ (ما) في قولِه: ﴿مَا قَطَعۡتُم﴾[٥].

- وجِيءَ بالحالِ في قولِه: ﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾؛ لتَصويرِ هَيئتِها وحُسْنِها، وتَعلَّقَ ﴿عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ بـ ﴿قَآئِمَةً﴾، والمَقصودُ: زِيادةُ تَصويرِ حُسْنِها، ووَصْفُها بأنَّها قائمةٌ على أُصولِها هو بتَقديرِ: قائمةً فُروعُها على أُصولِها؛

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٦، ٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٦).

لظُهورِ أنَّ أصْلَ النَّخلةِ بَعضُها. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ تَرْكَ القطْعِ أَولى[١].

- قولُه: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ عِلَّةٌ لمَحذوفٍ، أي: وفعَلْتُم، أو وأَذِنَ لكمْ في القطْعِ؛ ليَجْزِيَهم على فِسقِهم بما غاظَهَم منه[٢].

- وعطْفُ ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ مِن عطْفِ العِلَّةِ على السَّببِ، وهو ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ السَّببَ في معْنى العِلَّةِ[٣].

- والمرادُ بالفاسِقينَ في قولِه: ﴿وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يَهودُ النَّضيرِ، وعُدِل عن الإتيانِ بضَميرِ أهلِ الكِتابِ كما أُتِيَ بضَمائرِهم مِن قبْلُ ومِن بَعْدُ إلى التَّعبيرِ عنهم بوَصْفِ ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾؛ لأنَّ الوصْفَ المُشتقَّ يُؤذِنُ بسَببِ ما اشتُقَّ منه في ثُبوتِ الحكْمِ، أي: ليَجْزِيَهم مِن أجْلِ الفِسقِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

- يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الآيةُ عطْفًا على جُملةِ ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ [الحشر: ٥] الآيةَ؛ فتَكونَ امتِنانًا وتَكملةً لمَصارِفِ أموالِ بَني النَّضيرِ. ويجوزُ أنْ تكونَ عطْفًا على مَجموعِ ما تَقدَّمَ عطْفَ القِصَّةِ على القِصَّةِ، والغرَضِ على الغرَضِ؛ للانتِقالِ إلى التَّعريفِ بمَصيرِ أموالِ بَني النَّضيرِ؛ لئلَّا يَختلِفَ رِجالُ المسلِمينَ في قِسمتِها، ولبَيانِ أنَّ ما فَعَلَه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قِسمةِ أموالِ بَني النَّضيرِ هو عدْلٌ إنْ كانتِ الآيةُ نزَلَت بعْدَ القِسمةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفي قولِه: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَهُ هنا بواوِ العطفِ، وقاله بعْدُ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ ...﴾ بحَذْفِها؛ لأنَّه مُستأنَفٌ عمَّا قبْلَه[١].

- قولُه: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ هو بصَريحِه امتِنانٌ على المسلمينَ بأنَّ اللهَ ساقَ لهم أموالَ بَني النَّضيرِ دونَ قِتالٍ، ويُفيدُ مع ذلك كِنايةً بأنْ يُقصَدَ بالإخبارِ عنه بأنَّهم لم يُوجِفوا عليه لازِمُ الخَبرِ؛ وهو أنَّه ليس لهم سَببُ حقٍّ فيه، والمعْنى: فما هو مِن حقِّكم، أو لا تَسْألوا قِسمتَه؛ لأنَّكم لم تَنالُوه بقِتالِكم، ولكنَّ اللهَ أعطاهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نِعمةً منه بلا مَشقَّةٍ ولا نصَبٍ[٢].

- وحرْفُ (على) في قولِه تعالَى: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾ للتَّعليلِ، وليس لتَعديةِ ﴿أَوْجَفْتُمْ﴾؛ لأنَّ معْنى الإيجافِ لا يَتعدَّى إلى الفَيءِ بحرْفِ الجرِّ، أو مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ هو مَصدرُ ﴿أَوْجَفْتُمْ﴾، أي: إيجافًا لأجْلِه[٣].

- و(مِن) في ﴿مِنْ خَيْلٍ﴾ صِلةٌ داخلةٌ على النَّكرةِ في سِياقِ النَّفيِ؛ للاستِغراقِ، ومَدخولُ (مِنْ) في معْنى المفعولِ به لـ﴿أَوْجَفْتُمْ﴾، أي: ما سُقْتُم خَيلًا ولا رِكابًا[٤].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ استِدراكٌ على النَّفيِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ﴾؛ لرفْعِ تَوهُّمِ أنَّه لا حقَّ فيه لأحدٍ، والمرادُ: أنَّ اللهَ سلَّطَ عليه رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالرَّسولُ أحقُّ به. وهذا

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩).

التَّركيبُ يُفيدُ قصْرًا مَعنويًّا، كأنَّه قِيل: فما سلَّطَكم اللهُ عليهم، ولكنْ سلَّطَ عليهم رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

- وفيه إيجازُ حَذْفٍ؛ لأنَّ التَّقديرَ: ولكنَّ اللهَ سلَّطَ عليهم رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واللهُ يُسلِّطُ رُسلَه على مَن يَشاءُ، وكان هذا بمَنزلةِ التَّذييلِ لعُمومِه، وهو دالٌّ على المُقدَّرِ. وعُمومُ ﴿مَن يَشَآءُ﴾؛ لشُمولِ أنَّه يُسلِّطُ رُسلَه على المُقاتِلينَ، ويُسلِّطُهم على غيرِ المُقاتِلينَ، والمعْنى: وما أفاء اللهُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إنَّما هو بتَسليطِ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عليهم، وإلْقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهم، واللهُ يُسلِّطُ رُسلَه على مَن يَشاءُ؛ فأغْنى التَّذييلُ عن المَحذوفِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ هذه الآيةُ ابتِداءُ كلامٍ، أي: على الاستِئنافِ الابتدائيِّ، وقُصِدَ منها حُكْمٌ غيرُ الحُكْمِ الَّذي تَضمَّنَتْه الآيةُ الَّتي قبْلَها؛ فمَضمونُ الآيةِ الَّتي قبْلَها أموالُ بَني النَّضيرِ خاصَّةً، ومَضمونُ هذه الآيةِ إخبارٌ عن حُكْمِ الأَفْياءِ الَّتي حصَلَت عندَ فتْحِ قُرًى أُخرى بعْدَ غَزوةِ بَني النَّضيرِ؛ مِثل قُرَيْظَةَ سَنةَ خمْسٍ، وفَدَكٍ سَنةَ سَبْعٍ، ونحوِهما، فعيَّنَتْه هذه الآيةُ للأصنافِ المذكورةِ فيها، ولا حقَّ في ذلك لأهلِ الجَيشِ أيضًا، وهو الَّذي يَقْتضيه تَغييرُ أُسلوبِ التَّعبيرِ بقولِه هنا: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ بعْدَ أنْ قال في الَّتي قبْلَها: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ﴾ [الحشر: ٦]؛ فإنَّ ضَميرَ ﴿مِنْهُمْ﴾ راجعٌ لـ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الحشر: ٢]، وهم بَنو النَّضيرِ لا مَحالةَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٧٩، ٨٠).

ويَجوزُ جَعْلُ هذه الآيةِ تَكملةً وبَيانًا للآيةِ الَّتي قبْلَها، أي: بَيانًا للإجمالِ الواقعِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ﴾ الآيةَ [الحشر: ٦]؛ لأنَّ الآيةَ الَّتي قبْلَها اقتَصَرَت على الإعلامِ بأنَّ أهلَ الجَيشِ لا حقَّ لهم فيه، ولم تُبيِّنْ مُستحِقَّه، وأشْعَرَ قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ [الحشر: ٦] أنَّه مالٌ للهِ تَعالى يَضَعُه حيث شاءَ على يَدِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقدْ بيَّنَ اللهُ له مُستحقِّيه مِن غيرِ أهلِ الجيشِ، فمَوقعُ هذه الآيةِ مِن الَّتي قبْلَها مَوقعُ عطْفِ البَيانِ؛ ولذلك فُصِلَت[١].

- وعلى أنَّ هذه الآيةَ بَيانٌ للآيةِ الَّتي قبْلَها فإعادةُ عَينِ العبارةِ الأُولى لزِيادةِ التَّقريرِ، ووَضْعُ ﴿أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مَوضعَ ضَميرِهم -على قولٍ في التَّفسيرِ-؛ للإشعارِ بشُمولِ ما -في قولِه ﴿مَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾- لعِقاراتِهم[٢].

- وتَقييدُ الفَيءِ بفَيءِ القُرى جَرى على الغالِبِ؛ لأنَّ الغالبَ ألَّا تُفتَحَ إلَّا القُرى؛ لأنَّ أهلَها يُحاصَرون فيَسْتسلِمون ويُعطُون ما بأيْديهم إذا اشتدَّ عليهم الحصارُ، فأمَّا النَّازِلون بالبوادي فلا يُغلَبون إلَّا بعْدَ إيجافٍ وقتالٍ؛ فليس لقَيدِ ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ مَفهومٌ[٣].

- والتَّعريفُ في قولِه تعالى: ﴿مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ تَعريفُ العهدِ، وهي قُرًى مَعروفةٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٠، ١٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨، ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٢، ٨٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٨٢).

- وقولُه: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ...﴾ تَعليلٌ لِما اقتضاهُ لامُ التَّمليكِ مِن جَعْلِه مِلْكًا لأصنافٍ كثيرةِ الأفرادِ، أي: جَعَلْناه مَقسومًا على هؤلاء؛ مِن أجْلِ ألَّا يكونَ الفَيءُ دُولةً بيْن الأغنياءِ مِن المسلِمينَ، أي: لئلَّا يَتداوَلَه الأغنياءُ، ولا يَنالَ أهْلَ الحاجةِ نَصيبٌ منه(١).

- قولُه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ...﴾ اعتِراضٌ ذُيِّلَ به حُكْمُ فَيْءِ بَني النَّضيرِ؛ إذ هو أمْرٌ بالأخْذِ بكلِّ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والقصْدُ مِن هذا التَّذييلِ إزالةُ ما في نُفوسِ بَعضِ الجيشِ مِن حَزازةِ حِرمانِهم ممَّا أفاءَ اللهُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أرضِ النَّضيرِ(٢).

- والإيتاءُ مُعبَّرٌ به هنا عن تَبليغِ الأمْرِ إليهم؛ جَعَلَ تَشريعَه وتَبليغَه كإيتاءِ شَيءٍ بأيْدِيهم، وعُبِّرَ بالأخْذِ عن قَبولِ الأمْرِ والرِّضا به والعمَلِ، وقَرينةُ ذلك مُقابَلتُه بقولِه تعالى: ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، وهو تَتْميمٌ لنَوعَيِ التَّشريعِ(٣).

- وقد جاءَ هذا التَّذييلُ على هذه الآيةِ بقولِه تعالَى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ إيذانًا بأنَّ هذا التَّكليفَ لا هَوادةَ فيه، وأنَّه مُلزِمٌ للأُمَّةِ سرًّا وعلَنًا، وأنَّ مَن خالَفَ شَيئًا منه يَتوجَّهُ إليه هذا الإنذارُ الشَّديدُ؛ لأنَّ معصيتَه معصيةٌ لله، وطاعتَه مِن طاعةِ الله؛ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(٤) [النساء: ٨٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٨٦، ٨٧).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٢).

## الآيات (٨-١٠)

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾: أي: توَطَّنوا المدينةَ، واتَّخَذوها مَوطِنًا، والتَّبَوُّءُ: التَّمَكُّنُ والاستِقرارُ، وأصلُ (بوأ): يدُلُّ على رُجوعٍ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حوالَيْه[1].

﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾: أي: يُقَدِّمونَ المحاويجَ على حاجةِ أنفُسِهم، وأصلُ (أثر) هنا: يدُلُّ على تقديمِ الشَّيءِ[2].

﴿خَصَاصَةٌ﴾: أي: حاجةٌ وفَقرٌ، قيل: الخَصاصةُ مأخوذةٌ مِن خَصاصِ البَيتِ، وهي الفُرَجُ الَّتي تَكونُ فيه، وقيل: إنَّها مأخوذةٌ مِن الاختِصاصِ، وهو الانفرادُ بالأمرِ، فالخَصاصةُ: الانفرادُ بالحاجةِ، وأصلُ (خصص): يدُلُّ على فُرْجةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣١٢) و(٢/ ٣١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، =

﴿شُحَّ﴾: الشُّحُّ: بُخلٌ مع حِرصٍ، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (شحح): يدُلُّ على مَنعٍ[١].

﴿غِلًّا﴾: أي: حِقدًا وحَسَدًا وبُغضًا، وأصلُ (غلل): يدُلُّ على تخَلُّلِ شَيءٍ[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ ...﴾

قَولُه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾: فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه بدَلُ كُلٍّ مِن كُلٍّ مِنْ (لِذِي الْقُرْبَى) وما عُطِف عليه في قَولِه تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧]، فكأنَّه قيل: أعني بأولئك الأربعةِ هؤلاء الفُقراءَ المهاجِرينَ. الثَّاني: أنَّه في محَلِّ رَفعٍ خَبَرٌ لِمُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: ولكِنِ الفَيْءُ للفُقَراءِ. الثَّالِثُ: أنَّه مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ، تقديرُه: اعجَبوا للفُقراءِ.

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحدُها: مَعطوفٌ على ﴿ٱلدَّارَ﴾ مَنصوبٌ مِثله، على تضمينِ ﴿تَبَوَّءُو﴾ معنى «لَزِموا»؛ لأنَّ الإيمانَ لا يُتَبَوَّأُ. والثَّاني: أنَّه منصوبٌ على المفعوليَّةِ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ، أي: واعتَقَدوا أو أَلِفوا. الثَّالِثُ: أنْ يكونَ معطوفًا على ﴿ٱلدَّارَ﴾ على نِيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، والأصلُ: دارَ الهجرةِ ودارَ الإيمانِ.

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦). ويُنظر ما سيأتي: (ص: ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٣).

الرَّابعُ: أنَّه منصوبٌ على المفعولِ معه، أي: معَ الإيمانِ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يُثْني الله تعالى على المهاجِرينَ الَّذينَ فارَقوا أموالَهم وديارَهم، مِن أجْلِ إعلاءِ كلمةِ الله، فيقولُ: لأصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الفُقراءِ المُهاجِرينَ مِن مكَّةَ إلى المدينةِ، الَّذين أخرَجَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن بُيوتِهم وأموالِهم: نَصيبٌ مِن الفَيءِ، يَطلُبونَ رِزقًا مِنَ اللهِ يأتيهم، ورِضًا منه، ويَنصُرونَ اللهَ ورسولَه، أولئك هم الصَّادِقونَ.

ثمَّ يُثْني سبحانَه على الأنصارِ ويُبيِّنُ فضائلَهم، فيقولُ: والصَّحابةُ الأنصارُ الَّذين سَكَنوا مَدينةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وآمَنوا باللهِ ورَسولِه مِن قَبْلِ هجرةِ المُهاجِرينَ إليهم: يُحِبُّونَ المُهاجِرينَ إليهم، ولا يَجِدُ أولئك الأنصارُ في صُدورِهم حَسَدًا مِمَّا أعطاه اللهُ ورَسولُه للمُهاجِرينَ مِن فَيْءِ بَني النَّضيرِ، ويتَصَدَّقُ الأنصارُ بأموالِهم وطعامِهم؛ إيثارًا للمُحتاجِينَ على أنفُسِهم، حتَّى لو كان بهم فَقرٌ وشدَّةُ حاجةٍ، ومَن وقاه اللهُ مِن شدَّةِ حِرصِ نفْسِه على جَمعِ المالِ، فأولئك هم الفائِزونَ.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى مِن اللَّاحِقينَ مَن هو مؤتمٌّ بهم، وسائرٌ على طريقِهم، فيقولُ: والمؤمِنونَ الَّذين جاؤُوا مِن بَعدِ المهاجِرينَ والأنصارِ يَقولونَ: رَبَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنا في الدِّينِ، الَّذين تقَدَّمونا في الإيمانِ به، ولا تَجعَلْ في قُلوبِنا شَيئًا مِنَ البُغضِ أو الحِقدِ أو الحَسَدِ لأحَدٍ من أهلِ الإيمانِ بك، رَبَّنا إنَّك رؤوفٌ رَحيمٌ.

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٤٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٤، ٢٤٥).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَزَع اللهُ سُبحانَه أموالَ الفَيءِ وما كانت عليه في الجاهِليَّةِ، وبَيَّنَ مَصرِفَ الفَيءِ مِن القُرى، وتهَدَّدَ في المُخالَفةِ في ذلك لصعوبتِه على النُّفوسِ، فكان ذلك جديرًا بالتَّقَبُّلِ بعدَ أن أفهَمَ أنَّ أموالَ بني النَّضيرِ لِمَن سلَّطَه عليهم، وهو رَسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكان مِن المعلومِ مِن حالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الإيثارُ على نَفْسِه، والقناعةُ بما دونَ الكَفَافِ- بيَّنَ المَصرِفَ فيها بعدَ كفايتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ بَيانَ ذلك هو المقصودُ الأعظَمُ[1].

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾.

أي: لأصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الفُقراءِ المُهاجِرينَ مِن مَكَّةَ إلى المدينةِ، الَّذين أخرَجَهم كُفَّارُ قُرَيشٍ مِن بُيوتِهم وأموالِهم: نَصيبٌ مِن الفَيءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

قال الشوكاني: (قَولُه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ قيل: هو بدَلٌ مِن «لِذِي الْقُرْبَى» وما عُطِفَ عليه، ولا يَصِحُّ أن يكونَ بدلًا مِنَ الرَّسولِ وما بَعْدَه؛ لئلَّا يَستَلزِمَ وصْفَ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالفَقرِ.

وقيل: التَّقديرُ: كي لا يكونَ دُولةً، ولكِنْ يكونُ للفُقَراءِ.

وقيل: التَّقديرُ: اعجَبوا للفُقَراءِ.

وقيل: التَّقديرُ: واللهُ شديدُ العِقابِ؛ للفُقَراءِ، أي: شديدُ العِقابِ للكُفَّارِ؛ بسَبَبِ الفُقَراءِ.

وقيل: هو عَطفٌ على ما مضى بتقديرِ الواوِ، كما تقولُ: المالُ لزَيدٍ لِعَمروٍ لبَكرٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٨، ٢٣٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩). =

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾.

أي: وهم يَطلُبونَ رِزقًا مِنَ اللهِ يأتيهم، ورِضًا منه يَحُلُّ عليهم حينَ خَرَجوا إلى دارِ الهِجرةِ[1].

---

= قَولُه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ممَّن اختار أنَّه بيانٌ للمَساكينِ الَّذين تقدَّمَ ذِكرُهم: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٢).

وممَّن اختار أنَّه بيانٌ للمَساكِينِ وابنِ السَّبيلِ: ابنُ عطيَّة، وتبِعه الثعالبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٤٠٨).

وممَّن اختار أنَّه بدَلٌ مِن الأصنافِ الأربعةِ: ذَوِي القُربى، واليتامى، والمساكينِ، وابنِ السَّبيلِ، يعني: كأنَّه قيل: أعني بأولئك الأربعةِ هؤلاءِ الفُقَراءَ والمهاجِرينَ الَّذين مِن صِفَتِهم كذا وكذا: الزمخشريُّ، والرازي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧).

وممَّن اختار أنَّه بَدَلٌ مِن (لِلَّهِ وللرَّسُولِ) وما عُطِفَ عليهما في قَولِه تعالى: ﴿... فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ [الحشر: ٧] عدَا ذَوِي القُرْبى؛ لئلَّا يَختَصَّ بفَقيرِهم: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٤، ٤٣٥).

وقال ابنُ أبي زَمَنين: (قولُه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ أي: وللفُقراءِ، رجع إلى أوَّلِ الآيةِ: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧]، وللفُقراءِ المُهاجِرينَ الَّذين أُخرِجوا مِن ديارِهم وأموالِهم). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٦٨).

وقيل: كيلا يكونَ ما أفاء اللهُ على رسولِه دُولةً بيْنَ الأغنياءِ منكم، ولكنْ يكونُ للفُقراءِ المُهاجِرينَ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، ومكِّي، وابن الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٩).

﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾.

أي: ويَنصُرونَ دينَ اللهِ الَّذي بَعَث به رَسولَه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

أي: أولئك العالُو الرُّتبةِ هم الصَّادِقونَ حقًّا في إيمانِهم باللهِ تعالى، وبرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا مَدَح اللهُ تعالى المهاجِرينَ، وأعطاهم فطابت نُفوسُ الأنصارِ بذلك، وكانوا في كُلِّ حالٍ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غايةِ الطَّاعةِ له، مهما شاء فَعَل، ومهما أراد منهم صار إليه ووَصَل؛ أتْبَعَه مَدْحَهم؛ جَبرًا لهم، وشُكرًا لصَنيعِهم[3].

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٥).

قال الألوسي: (﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ عَطفٌ على ﴿يَبْتَغُونَ﴾؛ فهي حالٌ مُقَدَّرةٌ، أي: ناوينَ لنُصرةِ اللهِ تعالى ورسولِه صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم، أو مُقارِنةٌ؛ فإنَّ خُروجَهم مِن بَينِ الكُفَّارِ مُراغِمينَ لهم مُهاجِرينَ إلى المدينةِ: نُصرةٌ، وأيُّ نُصرةٍ؟!). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٧).

أي: والصَّحابةُ الأنصارُ الَّذين سَكَنوا مَدينةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وآمَنوا باللهِ ورَسولِه مِن قَبْلِ هجرةِ المُهاجِرينَ إليهم- يُحِبُّونَ الَّذين هاجَروا إليهم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨، ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

قال السمعاني: (قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أجمَع أهلُ التَّفسيرِ على أنَّ المرادَ بهم الأنصارُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٠).

وقال القرطبي: (لا خِلافَ أنَّ الَّذين تبَوَّؤوا الدَّارَ هم الأنصارُ الَّذين استوطَنوا المدينةَ قبْلَ المُهاجِرينَ إليها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠).

واختلَف المفسِّرون في قولِه تعالى: ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، ومعنى كَونِهم تبَوَّؤُوا الإيمانَ مِن قبْلِ المُهاجِرينَ.

قال ابن عادل: (وفي قولِه: ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ ستَّةُ أوجُهٍ:

أحدُها: أنَّه ضمَّن ﴿تَبَوَّءُو﴾ معنى لَزِموا، فيصحُّ عطفُ الإيمانِ عليه؛ إذ الإيمانُ لا يُتَبَوَّأُ.

الثَّاني: أنَّه منصوبٌ بمُقَدَّرٍ، أي: واعتقَدوا، أو وأَلِفوا، أو وأحَبُّوا، أو وأخلَصوا.

الثَّالثُ: أنَّه يُتجوَّزُ في الإيمانِ، فيُجعَلُ اختِلاطُه بهم وثَباتُهم عليه كالمكانِ المُحيطِ بهم، فكأنَّهم نزَلوه...

الرَّابعُ: أن يكونَ الأصلُ: دارَ الهجرةِ، ودارَ الإيمانِ، فأقامَ لام التَّعريفِ في الدَّارِ مُقامَ المُضافِ إليه، وحذَفَ المُضافَ مِن دارِ الإيمانِ، ووضَع المُضافَ إليه مَقامَه.

الخامسُ: أن يكونَ سمَّى المدينةَ؛ لأنَّها دارُ الهِجرةِ، ومكانُ ظُهورِ الإيمانِ.

السَّادسُ: أنَّه منصوبٌ على المفعولِ معه، أي: مع الإيمان معًا). ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٨٤). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٨٥).

ممَّن اختار الوجهَ الأوَّلَ -أي: أنَّه ضمَّن ﴿تَبَوَّءُو﴾ معنَى: لَزِموا، فقولُه: ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: ولابَسوه وصَحِبوه وخصُّوه بالصُّحبةِ، ولَزِموه لُزومًا هو كلُزومِ المَنزِلِ الَّذي لا غِنَى لِنازِلِه عنه-: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٨).

وممَّن اختار الوجهَ الثَّانيَ -أنَّه منصوبٌ بفِعلٍ تقديرُه: واعتقَدوا الايمانَ، أو أخلَصوه، أو آثَروه-: الواحديُّ، وابن الجوزي، والقرطبي، والعُلَيمي، ونسَبَه ابنُ عاشور إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٠). =

= قال الواحدي: (تقديرُ الآيةِ: والَّذين تبَوَّؤوا الدَّارَ مِن قَبْلِهم والإيمانَ؛ لأنَّ الأنصارَ لم يؤمِنوا قبْلَ المُهاجِرينَ، وعطفُ الإيمانِ على الدَّارِ في الظَّاهرِ لا في المعنى؛ لأنَّ الإيمانَ ليس بمكانٍ يُتَبَوَّأُ، والتَّقديرُ: وآثَروا الإيمانَ، أو اعتقَدوا الإيمانَ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٧٣).

وممَّن اختار معنَى الوجهِ الثَّالثِ في الجملةِ -أي: أنَّهم لَزِموا المدينةَ والإيمانَ، واتَّخَذوهما مَبَاءةً، وتمَكَّنوا فيهما أشدَّ تمكُّنٍ، على تنزيلِ الحالِ مَنزِلةَ المكانِ-: البيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٩).

قال ابن جُزَي: (المعنى: أنَّهم جعَلوا الإيمانَ كأنَّه مَوطِنٌ لهم؛ لِتَمكُّنِهم فيه، كما جعَلوا المدينةَ كذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٠).

أمَّا الوَجهانِ الرَّابعُ والخامسُ فقال فيهما السمينُ الحلبي: (قال هذَينِ الوجهَينِ الزَّمخشريُّ، وليس فيه إلَّا قيامُ «أل» مَقامَ المُضافِ إليه، وهو مَحَلُّ نَظَرٍ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٢٨٥). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٤).

وقال الألوسي في الوجهِ الرَّابعِ: (ولا يخفى ما فيه مِن التَّكلُّفِ والتَّعسُّفِ)، وقال في الوجهِ الخامسِ: (وهو كما ترى). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٥).

وممَّن اختار الوجهَ السَّادسَ: -أي: أنَّهم تبَوَّؤوا الدَّارَ مع الإيمانِ، فجَمَعوا بيْن الحالتَينِ قبْلَ المهاجِرينَ، فبهذا الاقترانِ يَصِحُّ معنى قَولِه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾-: ابنُ عطية، واستحسَنه ابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٠، ٩١).

قال ابنُ جُزَي معلِّلًا هذا الوجهَ: (لأنَّ المهاجِرينَ إنَّما سبَقوهم بالإيمانِ، لا بتَبَوُّءِ الدَّارِ، فيكونُ الإيمانُ على هذا مفعولًا معه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٠).

وقال ابن كثير: (﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: سكَنوا دارَ الهِجرةِ مِن قَبلِ المُهاجِرينَ، وآمَنوا قبْلَ إيمانِ كثيرٍ مِنهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٨).

وقال الثعلبيُّ والبغويُّ والخازنُ: نظْمُ الآيةِ: والَّذين تبَوَّؤوا الدَّارَ مِن قبْلِهم، أي: مِن قبْلِ قُدومِ المُهاجِرينَ عليهم وقد آمَنوا. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧١).

وأمَّا قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فقيل: معناه: مِن قبْلِ المُهاجِرينَ. وقيل: معناه: مِن قبْلِ هِجرتِهم. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٥).

ممَّن اختارَ الأوَّلَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزي، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٤)، =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قالت الأنصارُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اقسِمْ بَيْنَنا وبيْنَ إخوانِنا النَّخيلَ، قال: لا. فقالوا: تَكفُونا المَؤُونةَ، ونَشْرَكُكم في الثَّمَرةِ، قالوا: سَمِعْنا وأطَعْنا))[1].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((دعا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الأنصارَ إلى أن يُقطِعَ[2] لهم البَحْرينِ، فقالوا: لا، إلَّا أن تُقْطِعَ لإخوانِنا مِن المهاجِرينَ مِثْلَها، قال: إمَّا لا[3]، فاصبِروا حتَّى تَلْقَوني؛ فإنَّه سيُصيبُكم بَعْدي أَثَرةٌ[4]))[5].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قال المهاجِرونَ: يا رَسولَ اللهِ، ما رَأَيْنا مِثلَ

---

= ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧١).

وممَّن اختارَ الثَّاني: مقاتل بن سليمان، والسمرقندي، ومكي، والسمعاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٧٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٩٢). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٥٨).

وقال الشوكاني: (ومعنى ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: مِن قبلِ هجرةِ المهاجرينَ، فلا بدَّ مِن تقديرِ مضافٍ؛ لأنَّ الأنصارَ إنَّما آمَنوا بعدَ إيمانِ المهاجِرينَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٩).

وقال الألوسي: (الكلامُ بتقديرِ مُضافٍ؛ أي: مِن قَبلِ هِجرتِهم، فنِهايةُ ما يلزَمُ سَبقُ إيمانِ الأنصارِ على هِجرةِ المُهاجرينَ، ولا يلزمُ منه سبقُ إيمانِهم على إيمانِهم ليُقالَ: إنَّ الأمرَ بالعكسِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٥).

(١) رواه البخاري (٢٣٢٥).

(٢) يُقْطِعَ: أي: يُعْطِيَ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٦/ ١٥٤).

(٣) أي: إن كنتُم لا تُريدونَ أو لا تَقْبَلونَ إيثاري لكم، فأُدغِمَ النُّونُ في الميمِ، وحُذِف فِعلُ الشَّرطِ. يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هُبَيْرة (٥/ ٢٨٠)، ((اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح)) للبِرماوي (١٠/ ٣٥٨).

(٤) أَثَرةً: أي: استئثارًا لغَيرِكم عليكم. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ١٥٤).

(٥) رواه البخاري (٣٧٩٤).

قَومٍ قَدِمْنا عليهم أحسَنَ مُواساةً في قليلٍ، ولا أحسَنَ بَذْلًا في كثيرٍ، لقد كَفَونا المَؤُونةَ[١]، وأشرَكُونا في المَهْنَأِ[٢]، حتَّى لقد حَسِبْنا أن يَذهَبوا بالأجْرِ كُلِّه! قال: لا، ما أَثنيتُم عليهم، ودَعوتُم اللهَ لهم))[٣].

وعن أنسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (قَدِمَ علينا عبدُ الرَّحمنِ بنُ عَوفٍ، وآخَى رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَيْنَه وبيْنَ سَعدِ بنِ الرَّبيعِ، وكان كثيرَ المالِ، فقال سَعدٌ: قد عَلِمَتِ الأنصارُ أنِّي مِن أكثَرِها مالًا، سأَقسِمُ مالي بيْني وبيْنَك شَطرَينِ، ولي امرأتانِ فانظُرْ أعجَبَهما إليك، فأُطَلِّقُها، حتَّى إذا حلَّت تزَوَّجْتَها! فقال عبدُ الرَّحمنِ: بارك اللهُ لك في أهلِك)[٤].

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾.

أي: ولا يَجِدُ أولئك الأنصارُ في صُدورِهم أيَّ حَسَدٍ مِمَّا أعطاه اللهُ ورَسولُه للمُهاجِرينَ مِن فَيْءِ بَني النَّضيرِ[٥].

---

(١) أي: تَحمَّلوا عنَّا مَشَقَّةَ الخِدمةِ في عِمارةِ الدُّورِ والنَّخيلِ مِن سَقيٍ وإصلاحٍ وغيرِ ذلك. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهري (٣/ ٥٢٢)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠١٢).

(٢) المَهْنَأ: كلُّ ما يأتيكَ مِنَ المالِ مِن غيرِ تَعَبٍ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٣/ ٥٢٢).

(٣) أخرجه مِن طرقٍ: أبو داودَ (٤٨١٢) مختصَرًا، والترمذيُّ (٢٤٨٧)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٠٠٩)، وأحمدُ (١٣٠٧٥) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (صحيحٌ حسَنٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ). وصَحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١١٧)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٨٧)، وقال ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٣/ ٢٢٧): (على شرطِ الصَّحيحَينِ). وصَحَّح إسنادَه على شرطِ الشَّيخَينِ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٠/ ٣٦١).

(٤) رواه البخاري (٣٧٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١١٩، ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٩، ٤٤٠)، ((تفسير ابن =

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَجُلًا أتى النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فبَعَث إلى نسائِه فقُلْنَ: ما مَعَنا إلَّا الماءُ! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: مَن يَضُمُّ أو يُضيفُ هذا؟ فقال رجُلٌ مِن الأنصارِ: أنا، فانطلَقَ به إلى امرأتِه، فقال: أكرِمي ضَيفَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: ما عِندَنا إلَّا قوتُ صِبياني، فقال: هَيِّئي طعامَكِ، وأَصْبِحي[1] سِراجَكِ، ونَوِّمي صِبيانَكِ إذا أرادوا عَشاءً، فهَيَّأَت طَعامَها، وأصبَحَت سِراجَها، ونوَّمَت صِبيانَها، ثمَّ قامت كأنَّها تُصلِحُ سِراجَها فأطفَأَتْه! فجعَلَا يُرِيانِه أنَّهما يأكُلانِ، فباتا طاوِيَينِ[2]! فلمَّا أصبَحَ غَدَا إلى رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ضَحِكَ اللهُ اللَّيلةَ، أو عَجِبَ مِن فِعالِكما! فأنزَلَ اللهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ

---

= عاشور)) (٢٨/ ٩٣).

قال ابنُ تيميَّة: (أي: ممَّا أُوتيَ إخوانُهم المهاجِرونَ. قال المفسِّرونَ: لا يجِدونَ في صُدورِهم حاجةً، أي: حَسَدًا وغَيظًا مِمَّا أُوتيَ المُهاجِرونَ. ثمَّ قال بعضُهم: مِن مالِ الفَيءِ. وقيل: مِن الفَضلِ والتَّقَدُّمِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ١١٩).

وممَّن قال بالأوَّلِ -أي مِن مالِ الفيءِ-: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٣).

قال القرطبي: (يعني لا يحسُدونَ المهاجِرينَ على ما خُصُّوا به مِن مالِ الفيءِ وغيرِه، كذلك قال النَّاسُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني -أي ما فضَّلهم الله به مِن المنزلةِ والشَّرفِ، وخصَّهم به مِن الفضائلِ والمناقبِ-: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

(١) أي: أوقِدِيه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ١٥٦).

(٢) طاوِيَينِ: أي: بغَيرِ عَشاءٍ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ١٥٦).

نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾))[١].

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

أي: ويتَصَدَّقُ الأنصارُ بأموالِهم وطعامِهم؛ إيثارًا للمُحتاجِينَ على أنفُسِهم، حتَّى لو كان بهم فَقرٌ وحاجةٌ شَديدةٌ لذلك[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ الصَدَقةِ أفضَلُ؟ قال: ((جُهْدُ المُقِلِّ[٣]، وابدَأْ بمَنْ تَعُولُ[٤]))[٥].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: ومَن سلَّمَه اللهُ مِن شِدَّةِ حِرصِ النَّفْسِ على جَمعِ المالِ، فأولئك هم الفائِزونَ

---

(١) رواه البخاريُّ (٣٧٩٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٠٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٠، ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٤).

قال الشوكاني: (المعنى: ويُقَدِّمون المُهاجِرينَ على أنفُسِهم في حُظوظِ الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٣٩).

وقال البِقاعي: (يُوقِعونَ الأَثَرةَ -وهي اختيارُ الأشياءِ الحَسَنةِ- لِغَيرِهم؛ تخصيصًا لهم بها). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٤٠).

(٣) جُهْدُ المُقِلِّ: أي: بَذْلُ الفَقيرِ؛ لأنَّه يكونُ بجُهدٍ ومَشَقَّةٍ لِقِلَّةِ مالِه. يُنظر: ((تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة)) للبيضاوي (٢/ ٥٩٤).

(٤) بمَن تَعُولُ: أي: بمَن تَلزَمُك نَفَقتُه. يُنظر: ((السراج المنير شرح الجامع الصغير)) للعَزِيزي (١/ ٢٥٧).

(٥) أخرجه أبو داودَ (١٦٧٧)، وأحمدُ (٨٧٠٢).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٣٣٤٦)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٥٧٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٧٧)، وقال ابنُ حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) (٢/ ٣٠٣): (أصلُه في الصَّحيحِ). وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٦/ ٢٨٦)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٦٧٧).

الظَّافِرونَ[١].

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اتَّقوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبلَكم، حمَلَهم على أنْ سَفَكوا دِماءَهم، واستحَلُّوا محارِمَهم[٢])[٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: خَطَب رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ((إيَّاكم والشُّحَّ؛ فإنَّما هلَك مَن كان قَبْلَكم بالشُّحِّ، أمَرَهم بالبُخلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧١)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٤، ٩٥).

قال ابن سِيْدَه: (الشُّحُّ: حِرصُ النَّفْسِ على ما ملَكَت، وبُخْلُها به). ((المحكم)) (٢/ ٤٨٩).

وقال العُلَيمي: (شُحُّ النَّفْسِ: هو كثرةُ الطَّمَعِ، وضَبطُها على المالِ، والرَّغبةُ فيه، وامتِدادُ الأمَلِ، وهو فَقرٌ لا يُذهِبُه غِنى المالِ، بل يَزيدُه، وهو داعيةُ كُلِّ خُلُقِ سُوءٍ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣).

وقال ابنُ القيِّم: (الفَرقُ بيْنَ الشُّحِّ والبُخلِ: أنَّ الشُّحَّ هو شِدَّةُ الحِرصِ على الشَّيءِ، والإحفاءُ في طَلَبِه، والاستِقصاءُ في تحصيلِه، وجَشَعُ النَّفْسِ عليه، والبُخلُ مَنْعُ إنفاقِه بعدَ حُصولِه، وحُبُّه وإمساكُه؛ فهو شحيحٌ قبْلَ حُصولِه، بخيلٌ بعدَ حُصولِه، فالبُخلُ ثَمَرةُ الشُّحِّ، والشُّحُّ يدعو إلى البُخلِ، والشُّحُّ كامِنٌ في النَّفْسِ، فمَنْ بَخِلَ فقد أطاع شُحَّه، ومَن لم يَبخَلْ فقد عصى شُحَّه). ((الوابل الصيب)) (ص: ٣٣).

وقيل: إنَّ الشُّحَّ هو البُخلُ مع حِرصٍ. وقيل: البخلُ: هو المنعُ مِن مالِ نفْسِه، والشُّحُّ: هو بُخلُ الرَّجُلِ مِن مالِ غيرِه. وقيل: إنَّهما مُترادِفانِ. يُنظر: ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ١٧٦)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (٤/ ٢٩٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣٠)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٤٧).

(٢) استحَلُّوا مَحارِمَهم: أي: جَعَلوا المُحرَّمَ عليهم مِن وَطْءِ نسائِهم حلالًا. يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن المَلَك (٥/ ٣٥٧).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٨).

فبَخِلوا، وأمَرَهم بالقَطيعةِ فقَطَعوا، وأمَرَهم بالفُجورِ ففَجَروا))[١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((لا يَجتَمِعُ الشُّحُّ والإيمانُ في قَلبِ عبدٍ أبدًا))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتى رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلٌ، فقال: يا رَسولَ اللهِ، أيُّ الصَّدَقةِ أعظَمُ؟ فقال: أنْ تَصَدَّقَ وأنت صَحيحٌ شَحيحٌ، تَخشى الفَقْرَ، وتأمُلُ الغِنى، ولا تُمهِلْ حتَّى إذا بلَغَتِ الحُلْقومَ قُلتَ: لِفُلانٍ كذا، ولفُلانٍ كذا، ألَا وقد كان لفُلانٍ))[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أثْنى اللهُ سُبحانَه وتعالى على المُهاجِرينَ والأنصارِ -رَضِيَ اللهُ عنهم- بما هم أهلُه؛ عقَّب التَّابِعينَ لهم بإحسانٍ ما يُوجِبُ لهم الثَّناءَ[٤].

---

(١) أخرجه مِن طُرقٍ: أبو داودَ (١٦٩٨) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٥٨٣)، وأحمدُ (٦٤٨٧)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٥١٧٦).
صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٩٨)، وصحَّح إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند عمر)) (١/ ١٠٦)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٥٧٦)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٩/ ٢٠١)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٦٩٨).

(٢) أخرجه مطوَّلًا النسائيُّ (٣١١٠) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٩٦٩٣)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٣٢٥١).
صَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٣١١٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط بطُرُقِه وشواهِدِه في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥/ ٤٣٣)، وصحَّح إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند عمر)) (١/ ١٠٢).

(٣) رواه البخاريُّ (١٤١٩)، ومسلمٌ (١٠٣٢) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٣).

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾.

أي: والمؤمِنونَ الَّذين جاؤُوا مِن بَعدِ المهاجِرينَ والأنصارِ يَقولونَ: رَبَّنا اغفِرْ لنا ولإخوانِنا في دينِ اللهِ، الَّذين تقَدَّمونا في الإيمانِ به[1].

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٢، ٧٣).

قيل: المرادُ: عُمومُ المؤمِنينَ الَّذين يَجيئونَ مِن بَعدِ المهاجِرينَ والأنصارِ إلى يومِ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ في الجُملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ تيميَّةَ، واختاره ابنُ كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، واستظهره الشَّوكانيُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ السعديِّ، وإليه ذهب ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٢، ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١، ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٦).

غيرَ أنَّ القُرطبيَّ وابنَ كثيرٍ نَصَّا على أنَّ المرادَ: التَّابِعونَ بإحسانٍ إلى يومِ القيامةِ. والبِقاعي والشوكانيُّ وابنُ عاشور أدخَلوا الصَّحابةَ المتأخِّرَ إسلامُهم، فآمَنوا بعدَ انقِطاعِ الهِجرةِ بالفَتحِ، وبعدَ إيمانِ الأنصارِ الَّذين أسلَموا بعدَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ بقيَّةَ المؤمنينَ إلى يومِ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٢، ٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٦).

قال الثعالبي: (قال جمهورُ العُلماءِ: أراد مَنْ يجيءُ مِن التَّابعينَ وغيرِهم إلى يومِ القيامةِ). ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٤١١).

وقيل: الَّذين جاؤوا مِن بَعدِهم هم المهاجِرونَ يَستَغفِرونَ لإخوانِهم مِن الأنصارِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٢).

وقيل: المرادُ: مَن عدا المهاجِرينَ والأنصارَ مِنَ الصَّحابةِ، كالَّذين أسلَموا يومَ فَتحِ مكَّةَ. وممَّن ذهب إلى هذا القول: ابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦١).

أي: ولا تَجعَلْ في قُلوبِنا شَيئًا مِنَ البُغضِ أو الحِقدِ أو الحَسَدِ لأحَدٍ مِن أهلِ الإيمانِ بك[١].

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: رَبَّنا إنَّك ذو رأفةٍ ورَحمةٍ تامَّةٍ بالِغةٍ؛ فحقيقٌ أن تُجيبَ دُعاءَنا[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ دلَّ على كمالِ صدقِهم فيما ادَّعَوه مِن الإيمانِ بالله ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حيثُ نابَذوا مَن عاداهما، وهو القَريبُ الصَّافي نسبًا ودارًا، وأَوْلَوا أولياءَهما مَن كانوا، وإن بَعُدَت دارُهم، وشَطَّ مَزارُهم، وهذا يدُلُّ على أنَّ مبنى الدِّينِ على إقامةِ البَيِّناتِ بالثَّباتِ عندَ الابتلاءاتِ، على أنَّ العَونَ قد يأتي على قدرِ البلاءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قد خصَّ المهاجرينَ مما أذِن فيه مِن أموالِ بني النَّضيرِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ هذه الآيةُ مِن أعظَمِ حاثٍّ على حُسنِ الإخاءِ، مُحَذِّرٍ مِن الحَسَدِ والاستياءِ[٤].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ فيه مَدحُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٤)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٤٤٠).

الإيثارِ في حُظوظِ النَّفسِ والدُّنيا[١].

٤- الإيثارُ على النَّفْسِ مِن مَحامِدِ الأخلاقِ، وزَكِيَّاتِ الأعمالِ، وذلك أن يَترُكَ حظَّه لِحَظِّ غيرِه؛ اعتِمادًا على صحَّةِ اليقينِ، وإصابةً لِعَينِ التَّوكُّلِ، وتحمُّلًا للمَشَقَّةِ في عَونِ الأخِ في الله على المحبَّةِ مِن أجْلِه، وهو ثابتٌ مِن فِعلِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ومِن خُلُقِه المَرْضيِّ، وهكذا كان الصَّحابةُ، فمِنَ النَّاسِ مَن يَعمَلُ العملَ أو يَكتسِبُ الشَّيءَ فيكونُ فيه وكيلًا على التَّفرقةِ على خَلقِ الله بحسَبِ ما قدَر، ولا يَدَّخِرُ لِنَفْسِه مِن ذلك شيئًا، بل لا يجعلُ مِن ذلك حظًّا لنفْسِه مِن الحُظوظِ؛ إمَّا لعدَمِ تذَكُّرِه لنفْسِه؛ لِاطِّراحِ حظِّها حتَّى يَصيرَ مِن قَبيلِ ما يُنسى، وإمَّا قوَّة يقينٍ بالله؛ لأنَّه عالِمٌ به، وبيَدِه مَلَكوتُ السَّمواتِ والأرضِ، وهو حَسْبُه فلا يُخيبُه، أو عدم التِفاتٍ إلى حظِّه يقينًا بأنَّ رِزقَه على الله، فهو النَّاظرُ له بأحسَنَ ممَّا يَنظُرُ لِنَفْسِه، أو أنَفَة مِن الالتِفاتِ إلى حظِّه مع حقِّ الله تعالى، أو لغيرِ ذلك مِن المقاصِدِ الواردةِ على أصحابِ الأحوالِ، وفي مِثلِ هؤلاء جاء: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[٢].

٥- مَن مَلَكَ نَفْسَه وقَهَرَها ودانَها، عَزَّ بذلك؛ لأنَّه انتصرَ على أشدِّ أعدائِه، وقَهَره وأسَرَه وكُفِيَ شَرَّه؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾، فحَصَرَ سُبحانَه الفلاحَ في وقايةِ شُحِّ نَفْسِه، وتَطَلُّعِها إلى ما مُنِعَتْ منه، وحِرْصِها على ما يَضِيرُها ممَّا تَشتَهيه مِن عُلُوٍّ وتَرَفُّعٍ، ومالٍ وجاهٍ، وأهلٍ ومَسكَنٍ، ومأكلٍ ومَشرَبٍ ومَلْبَسٍ، وغيرِ ذلك؛ فإنَّها تَتَطَلَّعُ إلى ذلك كلِّه وتَشتَهيه، وهو عينُ هلاكِها، ومنه يَنشَأُ البَغيُ والحَسَدُ والحِقدُ، فمَن وُقِيَ شُحَّ

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((الموافقات)) للشاطبي (٢/ ٣٢١) و (٣/ ٦٦).

نفْسِه فقد قَهَرها، وقَصَرها على ما أُبيحَ لها وأُذِنَ لها فيه، وذلك عينُ الفَلاحِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تحريمُ الشُّحِّ، فدَلَّتِ الآيةُ على أنَّ مَن لم يُوقَ شُحَّ نفْسِه فلا فَلاحَ له[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ هذا مِن فضائِلِ الإيمانِ: أنَّ المؤمِنينَ يَنتَفِعُ بعضُهم ببَعضٍ، ويَدعو بعضُهم لبَعضٍ؛ بسبَبِ المُشارَكةِ في الإيمانِ المُقتَضي لعَقدِ الأُخُوَّةِ بيْنَ المُؤمِنينَ، الَّتي مِن فُروعِها أن يَدعوَ بَعضُهم لبَعضٍ، وأن يُحِبَّ بَعضُهم بعضًا[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ فمدَحَ اللهُ المُهاجِرينَ والأنصارَ بستَّةِ أوصافٍ؛ الأوَّلُ: أنَّ هِجرةَ هؤلاء المُهاجِرينَ ما كانت مِن أجْلِ الدُّنيا، بل كانت مِن أجْلِ ابتِغاءِ مَرضاتِ الله. والثَّاني: أنَّهم كانوا ناصِرينَ لدينِ الله ورسولِه. والثَّالثُ: أنَّهم كانوا صادِقينَ قولًا وفِعلًا. والرَّابعُ: أنَّ الأنصارَ كانوا يُحِبُّون مَن هاجَرَ إليهم. والخامسُ: أنَّهم كانوا يُسَرُّون إذا حصَل شَيءٌ للمُهاجِرينَ. والسَّادسُ: أنَّهم كانوا يُقَدِّمونهم على أنفُسِهم مع احتياجِهم. وهذه الأوصافُ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

السِّتَّةُ تدُلُّ على كمالِ الإيمانِ، ومَنِ اعتقَد في حقِّهم غيرَ هذا فهو مُخطئٌ[١]؛ ففي هذه الآياتِ ذَكَر اللهُ تعالى أصحابَ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأثْنى عليهم، فهذا الآنَ حُجَّةٌ على كلِّ مَن سَبَّ واحِدًا منهم أو تَنَقَّصَه، ودليلٌ على أنَّ مَن أتى في أصحابِ نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خلافَ الجَميلِ؛ أنَّه رادٌّ على اللهِ تعالى، وغيرُ راضٍ لدِينِه -جَلَّ وتعالى- بما رَضِيَه هو له بنَصِّ القرآنِ الَّذي لا يأتيه الباطِلُ مِن بيْنِ يَدَيه ولا مِن خَلْفِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّ الصَّحابةَ جميعَهم عُدولٌ، ولم يُخالِفْ في ذلك إلَّا شُذوذٌ مِن المُبتَدِعةِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ وصَفَهم بالفَقرِ؛ لأنَّهم كانوا عندَ نُزولِ السُّورةِ كذلك[٤].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ تمسَّك بَعضُ العُلَماءِ بهذه الآيةِ على إمامةِ أبي بكرٍ رَضِيَ الله عنه، فقال: هؤلاءِ الفُقَراءُ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ كانوا يقولونَ لأبي بَكرٍ: (يا خليفةَ رَسولِ اللهِ)، واللهُ يَشهَدُ على كَونِهم صادقينَ؛ فوَجَب أن يَكونوا صادِقينَ في قَولِهم: (يا خليفةَ رَسولِ اللهِ)، ومتى كان الأمرُ كذلك وجَبَ الجَزمُ بصِحَّةِ إمامتِه[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ

---

(١) يُنظر: ((إظهار الحق)) لمحمد رحمت الله الهندي (٣/ ٩٣٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((الإصابة)) لابن حجر (١/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٧، ٥٠٨).

فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ أنَّ الحَربيَّ لو أَسْلَمَ وبيَدِه مالُ مُسلم قد أَخَذَه مِن المُسلِمينَ بطَريقِ الاغتنامِ ونحوِه ممَّا لا يَمْلِكُ به مُسلِمٌ مِن مُسلمٍ؛ لكَونِه مُحَرَّمًا في دِينِ الإسلامِ- كان له مِلْكًا، ولم يَرُدَّه إلى المُسلمِ الَّذي كانَ يَمْلِكُه. ووَجهُ الدَّلالةِ: أنَّه سُبحانَه بَيَّنَ أنَّ المُسلِمينَ أُخرِجوا مِن ديارِهم وأموالِهم بغيرِ حَقٍّ حتَّى صاروا فُقَراءَ بعدَ أنْ كانوا أغنياءَ، ثمَّ إنَّ المُشرِكينَ استَولَوا على تلك الدِّيارِ والأموالِ، وكانت باقيةً إلى حينِ الفَتحِ، وقد أسلَمَ مَنِ استَولى عليها في الجاهِليَّةِ، ثمَّ لم يَرُدَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أحَدٍ منهم أُخرِجَ مِن دارِه بعدَ الفَتحِ والإسلامِ دارًا ولا مالًا، بل قيلَ للنَّبيِّ يومَ الفتحِ: أينَ تَنزِلُ في دارِك بمكَّةَ؟ فقال: ((وهل تَرَك عَقِيلٌ مِن رباعٍ أو دورٍ))[1]؟! وسأله المهاجِرونَ أنْ يَرُدَّ عليهم أموالَهم الَّتي استولى عليها أهلُ مكَّةَ، فأبى ذلك صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأقَرَّها بيَدِ مَنِ استولى عليها بعدَ إسلامِه[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ ثُبوتُ فَضْلِ المهاجِرينَ؛ لِمَا اشتملتْ عليه مِن أوصافِهم الجَميلةِ، وشهادةِ اللهِ تعالى لهم بالصِّدْقِ[3]، واعلَمْ أنَّه ليس في المهاجِرينَ مُنافِقٌ، وإنَّما كان النِّفاقُ في قبائلِ الأنصارِ؛ لأنَّ أحدًا لم يُهاجِرْ إلَّا باختيارِه، والكافِرُ بمكَّةَ لم يكُنْ يَختارُ الهِجرةَ ومُفارَقةَ وَطَنِه وأهلِه لِنَصْرِ عدوِّه، وإنَّما يَختارُها الَّذين وَصَفَهم اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا

---

(١) أخرجه البخاريُّ (١٥٨٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٣٥١) مِن حديثِ أُسامةَ بنِ زَيدٍ رضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٩).

وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ * وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ ﴾ يدُلُّ على أنَّ المهاجِرينَ أفضَلُ مِن الأنصارِ؛ لأنَّ اللهَ قدَّمَهم بالذِّكرِ، وأخبَرَ أنَّ الأنصارَ لا يَجِدونَ في صُدورِهم حاجةً مِمَّا أُوتُوا؛ فدَلَّ على أنَّ اللهَ تعالى آتاهم ما لم يُؤتِ الأنصارَ ولا غَيرَهم، ولأنَّهم جَمَعوا بينَ النُّصْرةِ والهِجْرةِ[٢]؛ فقد هاجَروا أوطانَهم وأموالَهم وأهلِيهم إلى اللهِ ورَسولِه، ونَصَروا اللهَ ورَسولَه، قال اللهُ تعالى في وَصفِ المهاجِرينَ: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾، فنَصَّ على الهِجرةِ، ونَصَّ على النُّصرةِ؛ فهم رَضِيَ اللهُ عنهم أفضلُ مِن الأنصارِ، وهذا مِن حيثُ الجِنسُ[٣].

٨- إنْ قيلَ: كيف قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ ﴾، وإنَّما تُتَبَوَّأُ الدَّارُ، أي: تُسكَنُ، ولا يُتَبَوَّأُ الإيمانُ؟

**فالجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ معناه: تبَوَّؤا الدَّارَ، وأخلَصوا الإيمانَ، فهو كقَولِك: عَلَفْتُها تِبنًا وماءً بارِدًا. تقديرُه: علَفْتُها تِبنًا، وسَقَيتُها ماءً بارِدًا.

**الثَّاني**: أنَّ المعنى: أنَّهم جَعَلوا الإيمانَ كأنَّه مَوطِنٌ لهم؛ لتمَكُّنِهم فيه، كما جَعَلوا المدينةَ كذلك.

---

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٠).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٥٨٢).

فإنْ قيل: قَولُه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ يَقتضي أنَّ الأنصارَ سَبَقوا المهاجِرينَ بنُزولِ المدينةِ وبالإيمانِ، فأمَّا سَبْقُهم لهم بنزولِ المدينةِ فلا شَكَّ فيه؛ لأنَّها كانت بلَدَهم، وأمَّا سَبْقُهم لهم بالإيمانِ فمُشكِلٌ؛ لأنَّ أكثَرَ المهاجِرينَ أسلَمَ قبْلَ الأنصارِ؟

**فالجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**أحَدُهما:** أنَّه أراد بقَولِه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن قَبلِ هِجْرَتِهم.

**والآخَرُ:** أنَّه أراد: تبَوَّؤا الدَّارَ مع الإيمانِ معًا، أي: جَمَعوا بيْن الحالتَينِ قبْلَ المهاجِرينَ؛ لأنَّ المهاجِرينَ إنَّما سَبَقوهم بالإيمانِ لا بتَبَوُّءِ الدَّارِ، فيكونُ الإيمانُ على هذا مفعولًا معه، وهذا الوَجهُ أحسَنُ؛ لأنَّه جوابٌ عن هذا السُّؤالِ، وعن السُّؤالِ الأوَّلِ؛ فإنَّه إذا كان الإيمانُ مفعولًا معه، لم يَلزَمِ السُّؤالُ الأوَّلُ؛ إذ لا يَلزَمُ إلَّا إذا كان الإيمانُ مَعطوفًا على الدَّارِ[1].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أخبَرَ عنهم بأنَّهم يَبذُلونَ ما عِندَهم مِنَ الخَيرِ مع الحاجةِ، وأنَّهم لا يَكرَهونَ ما أُنعِمَ به على إخوانِهم، وضِدُّ الأوَّلِ البُخلُ، وضِدُّ الثَّاني الحَسَدُ؛ ولهذا كان البُخلُ والحَسَدُ مِن نَوعٍ واحِدٍ؛ فإنَّ الحاسِدَ يَكرَهُ عَطاءَ غَيرِه، والباخِلَ لا يُحِبُّ عَطاءَ نَفْسِه[2].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ في ذِكرِ الدَّارِ -وهي المدينةُ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٠).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٣٣٤).

مع ذِكرِ الإيمانِ: إيماءٌ إلى فَضيلةِ المدينةِ، بحيث جَعَل تبَوُّءَهم المدينةَ قَرينَ الثَّناءِ عليهم بالإيمانِ(١).

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ هذا ثناءٌ عليهم بما تقرَّر في نُفوسِهم مِن أُخُوَّةِ الإسلامِ؛ إذ أحَبُّوا المهاجِرينَ، وشأنُ القبائِلِ أن يتحَرَّجوا مِن الَّذين يُهاجِرونَ إلى ديارِهم لِمُضايقتِهم(٢).

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ وهذا المقامُ أعلى مِن حالِ الَّذين وَصَف اللهُ بقَولِه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، وقَولِه: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [البقرة: ١٧٧]؛ فإنَّ هؤلاءِ يتصَدَّقونَ وهم يُحِبُّونَ ما تصَدَّقوا به، وقد لا يكونُ لهم حاجةٌ إليه، ولا ضرورةٌ به، وهؤلاء آثَروا على أنفُسِهم مع خَصاصتِهم وحاجتِهم إلى ما أنفَقوه. ومِن هذا المقامِ تَصَدُّقُ الصِّدِّيقِ رضي اللهُ عنه بجَميعِ مالِه. وهكذا الماءُ الَّذي عُرِضَ على عِكْرِمةَ وأصحابِه يومَ اليَرموكِ، فكُلٌّ منهم يأمُرُ بدَفعِه إلى صاحِبِه، وهو جَريحٌ مُثقَلٌ أحوَجُ ما يكونُ إلى الماءِ، فرَدَّه الآخَرُ إلى الثَّالِثِ، فما وَصَل إلى الثَّالثِ حتَّى ماتوا عن آخِرِهم، ولم يَشرَبْه أحدٌ منهم، رَضِيَ اللهُ عنهم وأرضاهم(٣)!

١٣- التَّصَدُّقُ بجميعِ المالِ يختلِفُ باختلافِ الأحوالِ؛ فمَن كان قويًّا على ذلك يَعلَمُ مِن نَفْسِه الصَّبرَ لم يُمنَعْ، وعليه يَتنزَّلُ فِعْلُ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ الله عنه، وإيثارُ الأنصارِ على أنْفُسِهم المهاجِرينَ ولو كان بهم خَصاصةٌ؛ قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، ومَن لم يكُنْ كذلك فلا، وعليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٠، ٧١).

يَتَنَزَّلُ حَديثُ: ((لا صَدَقةَ إلَّا عن ظَهْرِ غِنًى))[١]. فالأنصارُ الَّذين أثْنى اللهُ تعالى عليهم بالإيثارِ على أنفُسِهم، فكانوا كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فكان الإيثارُ فيهم أفضَلَ مِن الإمساكِ، والإمساكُ لِمن لا يَصبِرُ، ويتعَرَّضُ للمسألةِ: أَولى مِن الإيثارِ[٢].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ ذِكرُ النَّفْسِ دَليلٌ على أنَّهم في غايةِ النَّزاهةِ مِن الرَّذائِلِ؛ لأنَّ النَّفْسَ إذا طَهُرَت كان القَلبُ أطهَرَ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ إضافةُ الشُّحِّ إلى النَّفْسِ؛ ففيه دَلالةٌ على أنَّه غريزةٌ فيها، وفي قَولِه: ﴿وَمَن يُوقَ﴾ إشارةٌ إلى إمكانِ إزالةِ ذلك[٤].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يُبَيِّنُ أنَّ مِن شأنِ مَن جاء مِن بَعدِ المهاجِرينَ والأنصارِ أن يَذكُرَ السَّابقينَ -وهم المهاجِرونَ والأنصارُ- بالدُّعاءِ والرَّحمةِ، فمَن لم يكُنْ كذلك، بل ذَكَرَهم بسُوءٍ؛ كان خارِجًا من جملةِ أقسامِ المؤمِنينَ بحَسَبِ نَصِّ هذه الآيةِ[٥]، ومَن كان في قَلْبِه غِلٌّ على

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٥٧٤).

والحديث أخرجه البخاريُّ معلَّقًا بصيغةِ الجزمِ قبْلَ حديث (٢٧٥٠)، وأخرجه موصولًا أحمدُ (٧١٥٥) مِن حديثِ أبي هُريرةَ رضيَ الله عنه.

صحَّح إسنادَه على شرطِ مسلمٍ شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٢/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٥/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبِقاعي (١٩/ ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٢٥٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٩).

أحَدٍ مِن الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم، فليس ممَّن عَنَى اللهُ تعالى بهذه الآيةِ[١].

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ حَقًّا على المسلِمينَ أن يَذكُروا سَلَفَهم بخَيرٍ، وأنَّ حَقًّا عليهم محبَّةُ المهاجِرينَ والأنصارِ، وتَعظيمُهم[٢].

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه دليلٌ على وُجوبِ محبَّةِ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم؛ لأنَّه جَعَل لِمَن بَعْدَهم حَظًّا في الفَيءِ ما أقاموا على محَبَّتِهم ومُوالاتِهم والاستِغفارِ لهم، ومَن أبغَضَهم أو واحِدًا منهم، أو اعتَقَد فيه شَرًّا، أنَّه لا حَقَّ له في الفَيءِ[٣]، فالفَيءُ إنَّما حَصَلَ بجِهادِ المهاجِرينَ والأنصارِ وإيمانِهم وهِجرتِهم ونُصرتِهم؛ فالمتأخِّرونَ إنَّما يَتناوَلونَه مُخلَفًا عن أولئك، مُشَبَّهًا بتَناوُلِ الوارثِ ميراثَ أبيه، فإنْ لم يكُنْ مُواليًا له لَمْ يَسْتَحِقَّ الميراثَ، فلا يَرِثُ المسلمَ الكافِرُ، فمَن لَمْ يَستغفِرْ لأولئك بل كان

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٢)، ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٩٦). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٧).

عن مالِكِ بنِ أنَسٍ، قال: (مَن سَبَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فليس له في الفَيءِ حَقٌّ؛ يقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ الآيةَ، هؤلاء أصحابُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذين هاجَروا معه، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ الآيةَ، هؤلاءِ الأنصارُ، ثمَّ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ قال مالِكٌ: فاستثنى اللهُ عزَّ وجَلَّ فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ الآيةَ، فالفَيءُ لهؤلاء الثَّلاثةِ؛ فمَن سَبَّ أصحابَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فليس هو مِن هؤلاء الثَّلاثةِ، ولا حَقَّ له في الفَيءِ). ((السنن الكبرى)) للبيهقي (١٣١١١).

مُبغِضًا لهم، خَرَجَ عن الوَصفِ الَّذي وَصَفَ اللهُ به أهلَ الفيءِ، حتَّى يكونَ قلْبُه مُسلِمًا لهم، ولِسانُه داعيًا لهم[١]، فمَن كان له في أحدٍ مِن الصَّحابةِ قولٌ سَيِّئٌ أو بُغْضٌ، فلا حَظَّ له في الفَيءِ أخْذًا مِن هذه الآيةِ[٢]، ولأنَّهم سألوا اللهَ أنْ يَتَخَلَّوا مِن هذا الغِلِّ الَّذي يكونُ في القلوبِ، وهذا يَقتَضي وُجوبَ المحبَّةِ[٣].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ أنَّ الدُّعاءَ للغيرِ إذا كان المَدْعوُّ له مُسلِمًا فإنَّه يَنتَفِعُ به[٤]، وهذا هو المشروعُ في حقِّ الأمواتِ؛ أنْ نَدعوَ اللهَ لهم بالمَغفِرةِ والرَّحمةِ وما يَنفعُهم مِن الدُّعاءِ[٥]. والآيةُ فيها دَلالةٌ على انتِفاعِ الميِّتِ بدُعاءِ غَيرِ وَلَدِه له[٦].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه الحَثُّ على الدُّعاءِ والتَّرَضِّي عن الصَّحابةِ، وتَصفيةِ القُلوبِ مِن بُغضِ أحَدٍ مِنهم[٧]، فالاستِغفارُ للمُهاجِرينَ والأنصارِ، وطهارةُ القَلبِ مِن الغِلِّ لهم: أمرٌ يُحِبُّه اللهُ ويَرضاه، ويُثني على فاعِلِه، كما أنَّه قد أَمَرَ بذلك رسولَه في قَولِه تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩][٨].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٦٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٩٩).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٦/ ١٥٢).

(٦) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٥/ ٣٠).

(٧) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٥٩).

(٨) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٥٧٤).

٢١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ وصَف اللهُ مَنْ بَعْدَ الصَّحابةِ بالإيمانِ؛ لأنَّ قَولَهم: ﴿سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ دليلٌ على المُشارَكةِ في الإيمانِ، وأنَّهم تابِعونَ للصَّحابةِ في عقائِدِ الإيمانِ وأُصولِه، وهم أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ، الَّذين لا يَصدُقُ هذا الوَصفُ التَّامُّ إلَّا عليهم، ووصَفَهم بالإقرارِ بالذُّنوبِ، والاستِغفارِ منها، واستِغفارِ بَعضِهم لبَعضٍ، واجتِهادِهم في إزالةِ الغِلِّ والحِقدِ عن قُلوبِهم لإخوانِهم المؤمِنينَ؛ لأنَّ دُعاءَهم بذلك مُستلزِمٌ لِما ذكَرْنا، ومتضَمِّنٌ لمحَبَّةِ بَعضِهم بَعضًا، وأن يُحِبَّ أحَدُهم لأخيه ما يُحِبُّ لِنَفسِه، وأن يَنصَحَ له حاضِرًا وغائِبًا، حيًّا ومَيِّتًا، ودَلَّت الآيةُ الكريمةُ على أنَّ هذا مِن جملةِ حُقوقِ المؤمنينَ بَعضِهم لبَعضٍ[1].

٢٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ الصَّحيحَ مِن أقوالِ العُلَماءِ قِسمةُ المنقولِ، وإبقاءُ العَقارِ والأرضِ شَملًا: -أي: عامَّةً شاملةً- بيْن المُسلِمينَ أجمَعينَ، كما فَعَل عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه، إلَّا أن يجتَهِدَ الوالي فيُنفِذَ أمرًا فيَمضي عَمَلُه فيه؛ لاختِلافِ النَّاسِ عليه- وأنَّ هذه الآيةَ قاضيةٌ بذلك؛ لأنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ عن الفَيءِ وجعَلَه لثَلاثِ طوائِفَ: المهاجِرينَ والأنصارِ-وهم معلومون-، ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾؛ فهي عامَّةٌ في جميعِ التَّابِعينَ والآتِينَ بَعْدَهم إلى يومِ الدِّينِ[2].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ رَدٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ في خَلقِ الأفعالِ؛ إذْ مُحالٌ أنْ يَدْعوه بما هو مُنكَرٌ عِندَه -على زعمِهم-

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٢).

في صِفاتِه، فيُثْنيَ به عليهم[١]!

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «للَّذين سَبَقونا بالإيمانِ»؛ لِيَشملَ هؤلاء السَّابقِين وغَيرَهم إلى يومِ القيامةِ[٢].

٢٥- إنْ قِيل: كيف وُصِفَ الأوَّلون بالمُهاجَرةِ وابتغاءِ الفضْلِ والنُّصرةِ والصِّدقِ، والأنصارُ بالرُّسوخِ في الإيمانِ ومَحبَّةِ الإيواءِ والسَّخاوةِ البالغةِ حدَّها، والفَلاحِ في الآجِلِ، واقتُصِرَ في مدْحِ هؤلاء على قولِه: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا﴾؟

**فالجوابُ**: كَفى بذلك بهم مَدْحًا؛ أنْ يُوفِّقَهم إلى الدُّعاءِ لأولئك السَّادةِ الكِرامِ، ويَمنَحَهم مَحبَّتَهم، ويُدخِلَهم في زُمْرتِهم بأُخوَّةِ الإسلامِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ بدَلٌ ممَّا يَصلُحُ أنْ يكونَ بَدلًا منه مِن أسماءِ الأصنافِ المُتقدِّمةِ الَّتي دخَلَت عليها اللَّامُ مُباشرةً وعطْفًا في قولِه: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧] بدَلَ بَعضٍ مِن كُلٍّ -على قولٍ-. وأوَّلُ فائدةٍ في هذا البدَلِ التَّنبيهُ على أنَّ ما أفاءَ اللهُ على المسلِمينَ مِن أهلِ القُرى المَعْنيَّةِ في الآيةِ لا يَجْري قَسْمُه على ما جَرى عليه قَسْمُ أموالِ بَني النَّضيرِ، فكأنَّه قِيل: ولِذي القُربى والْيَتامى والمساكينِ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦٠).

لأنَّ الجَعلَ عندَهم بمعنَى الخَلقِ، فإمَّا أن يَرجِعوا عن القولِ بخَلقِ القرآنِ، وإمَّا أن يُقِرُّوا بخَلقِ الأفعالِ. يُنظر: ((النكت)) للقصاب (١/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣٢، ٣٣٣).

وابنِ السَّبيلِ، للفُقراءِ منهم لا مُطلقًا -على قولٍ-، يَدخُلُ في ذلك المهاجِرونَ والأنصارُ والَّذين آمَنوا بعْدَهم. وأُعيدَ اللامُ مع البدَلِ لرَبْطِه بالمُبدَلِ منه؛ لانفصالِ ما بيْنَهما بطُولِ الكلامِ مِن تَعليلٍ وتَذييلٍ وتَحذيرٍ، ولإفادةِ التَّأكيدِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ ابتدائيَّةً، على حذْفِ المُبتدأِ، والتَّقديرُ: (ما أفاء اللهُ على رسولِه للمُهاجِرينَ الفُقراءِ ...) إلى آخِرِ ما عُطِفَ عليه، فتَكونَ هذه مَصارِفَ أُخرى للْفَيءِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مَعطوفةً بحذْفِ حرْفِ العطْفِ على طَريقةِ التَّعدادِ، كأنَّه قِيل: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ...﴾ إلى آخِرِه، ثمَّ قيل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾؛ فعلى هذَينِ القولَينِ يَنتفِي كونُها قَيْدًا للجُملةِ الَّتي قبْلَها[1].

- ووُصِفَ المهاجِرون بـ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ إعطاءَهُم مُراعًى فيه جَبْرُ ما نُكِبوا به مِن ضَياعِ الأموالِ والدِّيارِ، ومُراعًى فيه إخلاصُهم الإيمانَ، وأنَّهم مُكرِّرُون نصْرَ دِينِ اللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذُيِّلَ بقولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[2].

- قولُه: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ حالٌ مُقيِّدةٌ لإخراجِهم، وُصِفوا أوَّلًا بما يدُلُّ على استِحقاقِهم للْفَيءِ مِن الإخراجِ مِن الدِّيارِ والأموالِ، وقُيِّدَ ذلكَ ثانيًا بما يوُجِبُ تَفخيمَ شأْنِهم ويُؤكِّدُه[3].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لتَعظيمِ شأْنِ المهاجِرين، وللتَّنبيهِ على أنَّ استِحقاقَهم وصْفَ الصَّادِقينَ مِن أجْلِ ما سبَقَ اسمَ الإشارةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٧ - ٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٨).

مِن الصِّفاتِ؛ وهي أنَّهم أُخرِجوا مِن دِيارِهم وأمْوالِهم، وابتِغاؤهم فضْلًا مِن اللهِ ورِضوانًا، ونصْرُهم اللهَ ورسولَه؛ فإنَّ الأعمالَ الخالصةَ فيما عُمِلَت مِن أجْلِه يَشهَدُ للإخلاصِ فيها ما يَلحَقُ عامِلَها مِن مَشاقَّ وأذًى وإضرارٍ، فيَستطيعُ أنْ يَخلُصَ منها لو تَرَكَ ما عَمِلَه مِن أجْلِها أو قصَّرَ فيه(١).

- وجُملةُ ﴿هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ مُفيدةٌ القصْرَ مِن أجْلِ ضَميرِ الفصْلِ، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ(٢)؛ للمُبالَغةِ في وصْفِ المهاجِرين بالصِّدقِ الكاملِ، كأنَّ صِدقَ غَيرِهم ليس صِدقًا في جانبِ صِدقِهم(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ تَعريفُ (الدَّارِ) هنا للعهْدِ؛ لأنَّ المُرادَ بالدَّارِ المدينةُ، والمعْنى: الَّذين همْ أصحابُ الدَّارِ، وهذا تَوطئةٌ لقولِه: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾(٤).

- وعلى القولِ بأنَّ الواوَ في ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ للمعيَّةِ، و(الإيمانَ) مَفعولٌ معه، فهو يُفيدُ الثَّناءَ عليهم بأنَّ دارَ الهجرةِ دارُهم آوَوا إليها المهاجِرينَ؛ لأنَّها دارُ مُؤمنينَ، لا يُماثِلُها يَومَئذٍ غيرُها(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٩٠، ٩١).

- وقولُه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ أُرِيدَ بالوِجدانِ الإدراكُ العقليُّ، وكُنِّيَ بانتِفاءِ وِجدانِ الحاجةِ عن انتِفاءِ وُجودِها؛ لأنَّها لو كانت مَوجودةً لأدْرَكُوها في نُفوسِهم؛ فتَكونُ (مِن) في قولِه: ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ ابتدائيَّةً، أي: مأْرَبًا أو رَغبةً ناشئةً مِن فَيْءٍ أُعطِيَه المُهاجِرونَ. ويَجوزُ وجْهٌ آخَرُ بأنْ يُحمَلَ لَفظُ (حاجة) على أنَّه اسمُ مَصدرِ الاحتياجِ؛ فإنَّ الحاجةَ بهذا المعْنى يصِحُّ وُقوعُها في الصُّدورِ؛ لأنَّها مِن الوِجدانيَّاتِ والانفعالاتِ، ومعْنى نفْيِ وِجدانِ الاحتياجِ في صُدورِهم أنَّهم لفرْطِ حُبِّهم للمُهاجِرينَ صاروا لا يُخامِرُ نُفوسَهم أنَّهم مُفتقِرون إلى شَيءٍ ممَّا يُؤتاهُ المُهاجِرونَ، أي: فهُمْ أغنياءُ عمَّا يُؤتاهُ المهاجِرونَ، فلا تَستشرِفُ نُفوسُهم إلى شَيءٍ ممَّا يُؤتاهُ المُهاجِرون، بلْهَ أنْ يَتطلَّبُوه، وتَكونَ (مِن) في قولِه تَعالى: ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ للتَّعليلِ، أي: حاجةً لأجْلِ ما أُوتِيَه المهاجِرون، أو ابتدائيَّةً، أي: حاجةً ناشئةً عمَّا أُوتِيَه المهاجِرون؛ فيُفيدَ انتفاءَ وِجدانِ الحاجةِ في نُفوسِهم وانتفاءَ أسبابِ ذلك الوِجدانِ ومَناشِئِه المُعتادةِ في النَّاسِ تَبَعًا للمُنافَسةِ والغِبطةِ، وقد دلَّ انتفاءُ أسبابِ الحاجةِ على مُتعلَّقِ ﴿حَاجَةً﴾ المَحذوفِ؛ إذِ التَّقديرُ: ولا يَجِدون في نُفوسِهم حاجةً لشَيءٍ أُوتِيَه المهاجِرون[1].

- قولُه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الإيثارُ: تَرجيحُ شَيءٍ على غَيرِه بمَكرُمةٍ أو مَنفعةٍ، والمعْنى: يُؤثِرون على أنفُسِهم في ذلك اختيارًا منهم، وهذا أعْلى دَرَجةً ممَّا أفادَه قولُه: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾؛ فلذلك عُقِّبَ به، ولم يُذكَرْ مَفعولُ (يُؤْثِرُونَ)؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٢، ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٩٣).

- وقولُه: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تَذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وتَذييلُ الكلامِ بذِكرِ فضْلِ مَن يُوقَونَ شُحَّ أنفُسِهم بعْدَ قولِه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾؛ يُشيرُ إلى أنَّ إيثارَهم على أنفُسِهم حتَّى في حالةِ الخَصاصةِ، هو سَلامةٌ مِن شُحِّ الأنفُسِ، فكأنَّه قِيل: لسَلامتِهم مِن شُحِّ الأنفُسِ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ اسمُ الإشارةِ لتَعظيمِ هذا الصِّنفِ مِن النَّاسِ[2].

- وصِيغةُ القصْرِ المُؤدَّاةُ بضَميرِ الفصْلِ (همْ) للمُبالَغةِ؛ لكثرةِ الفَلاحِ الَّذي يَترتَّبُ على وِقايةِ شُحِّ النَّفْسِ، حتَّى كأنَّ جِنسَ المُفلِحِ مَقصورٌ على ذلك المُوقَى[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ المَجيءُ مُستعمَلٌ للطُّروءِ والمَصيرِ إلى حالةٍ تُماثِلُ حالَ الأنصارِ والمهاجرينَ، وهي حالةُ الإسلامِ، فكأنَّهم أَتَوا إلى مَكانٍ لإقامتِهم. وإنَّما صِيغَ ﴿جَآءُو﴾ بصِيغةِ الماضي تَغليبًا؛ لأنَّ مِن العرَبِ وغيرِهم مَن أسْلَموا بعْدَ الهجرةِ، فكأنَّه قيل: الَّذين جاؤوا ويَجيئون، بدَلالةِ لَحْنِ الخِطابِ، والمقصودُ مِن هذا زِيادةُ دفْعِ إيهامِ أنْ يَختَصَّ المهاجِرون بما أفاء اللهُ على

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ القُرى كما اختَصَّهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بفَيءِ بني النَّضيرِ[١].

- قولُه: ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ صِيغَتَا مُبالَغةٍ، أي: مُبالِغٌ في الرَّأفةِ والرَّحمةِ، فحَقيقٌ بأنْ تُجيبَ دُعاءَنا[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠).

## الآيات (١١-١٢)

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾: أي: يَنهَزِمونَ، يُقالُ: ولَّاه دُبُرَه: إذا انهزَم. والتَّولِّي: الإعراضُ بعدَ الإقبالِ. والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جِهةِ الخَلفِ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على خِلافِ القُبُلِ[1].

﴿رَهْبَةً﴾: أي: خَوفًا وخَشيةً، وأصلُ (رهب): يدُلُّ على خَوفٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ تعالى عن المنافِقينَ، حينَ بعَثوا إلى يهودِ بَني النَّضيرِ يَعِدونهم النَّصرَ مِن أنفُسِهم، فيقولُ تعالى: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- إلى المنافِقينَ الَّذين يقولونَ لإخوانِهم في الكُفرِ مِن يَهودِ بني النَّضيرِ: لَئِنْ أخرَجَكم المُسلِمونَ مِن ديارِكم لَنَخرُجَنَّ معكم مِن المدينةِ، ولن نُطيعَ في شأنِكم مُحمَّدًا ولا غيرَه مِمَّن يَسألُنا خِذْلانَكم، ولَئِنْ قاتَلَكم محمَّدٌ ومَن مَعَه لَنَنصُرَنَّكم عليهم، واللهُ يَشهَدُ إنَّ هؤلاء المُنافِقينَ لَكاذِبونَ فيما قالوا!

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤).

لَئِنْ أُخرِجَ يهودُ بَني النَّضيرِ مِن ديارِهم لا يخرُجُ معهم أولئك المُنافِقونَ، ولَئِن قُوتِلوا لا يَنصُرونهم، ولَئِنْ نَصَروهم -على سَبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ- فقاتَلوا معهم عَدُوَّهم، لَيَفِرُّون ويَهرُبونَ مُنهَزِمينَ، ثمَّ لا يُنصَرونَ.

لَخَوفُهم منكم -أيُّها المؤمِنونَ- أشَدُّ مِن خَوفِهم مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنَّهم قَومٌ لا يَعلَمونَ قَدْرَ عَظَمةِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى حالَ المُؤمِنينَ؛ أتْبَعَه بذِكرِ حالِ المنافِقينَ[1].

وأيضًا لَمَّا ذُكِر ما حلَّ ببَني النَّضيرِ وما اتَّصَلَ به مِن بَيانِ أسبابِه، ثمَّ بَيانِ مَصارِفِ فَيئِهم وفَيءِ ما يُفتَحُ مِن القُرى بعْدَ ذلك؛ أُعقِبَ بذِكرِ أحوالِ المنافِقينَ مع بَني النَّضيرِ وتَغريرِهم بالوُعودِ الكاذبةِ؛ ليَعلَمَ المُسلِمون أنَّ النِّفاقَ سَجيَّةٌ في أولئك، لا يَتخلَّون عنه ولو في جانبِ قومٍ همُ الَّذين يَوَدُّون أنْ يَظهَروا على المسلِمينَ[2].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ﴾.

أي: ألم يَنْتَهِ علمُك -يا محمَّدُ- إلى المنافِقينَ الَّذين يقولونَ لإخوانِهم في الكُفرِ مِن يَهودِ بني النَّضيرِ: نُقسِمُ باللهِ لَئِنْ أخرَجَكم المُسلِمونَ مِن ديارِكم

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٨).

لَنَخرُجَنَّ معكم مِن المدينةِ[١]؟

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾.

أي: ولن نُطيعَ في شأنِكم مُحمَّدًا ولا غيرَه مِمَّن يَسألُنا خِذْلانَكم، ويَدْعونا إلى تَركِ نُصرتِكم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٢/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٨، ٩٩).

قال الشوكاني: (الخِطابُ لرَسولِ اللهِ، أو لكُلِّ مَن يَصلُحُ له. والَّذين نافَقوا هم: عبدُ اللهِ بنُ أُبيٍّ وأصحابُه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بأهلِ الكتابِ هنا: يهودُ بني النَّضيرِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١٥).

وقيل: المرادُ: يَهودُ بَني قُرَيظةَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٠).

وعلى هذا القولِ يكون المُنافِقونَ قد قالوا لهم ذلك بعدَ أن أُجليَ بَنو النَّضيرِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٤).

قال مقاتل: (﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ لئن أخرَجكم محمَّدٌ مِن المدينةِ كما أخرَج أهلَ النَّضيرِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٠).

وقيل: المرادُ: يهودُ بني قُرَيظةَ والنَّضيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا: الثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زَمَنين)) (٤/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

﴿وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾.

أي: ولَئِنْ قاتَلَكم محمَّدٌ ومَن مَعَه لَنَنصُرَنَّكم عليهم، فنُعينُكم على قِتالِهم[١].

﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: واللهُ يَشهَدُ إنَّ هؤلاء المُنافِقينَ لَكاذِبونَ فيما وَعَدوا به يهودَ بَني النَّضيرِ[٢].

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا شَهِدَ اللهُ تعالى على كَذِبِ المنافِقينَ على سَبيلِ الإجمالِ؛ أتْبَعَه بالتَّفصيلِ[٣].

﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾.

أي: لَئِنْ أُخرِجَ يَهودُ بني النَّضيرِ مِن ديارِهم لا يخرُجُ معهم أولئك المُنافِقونَ الَّذين وَعَدوهم الخُروجَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

قال ابنُ كثير: (أي: لَكاذِبونَ فيما وَعَدوهم به؛ إمَّا أنَّهم قالوا لهم قولًا مِن نِيَّتِهم ألَّا يَفُوا لهم به، وإمَّا أنَّهم لا يَقَعُ منهم الَّذي قالوه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

قال الشوكاني: (﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ وقد كان الأمرُ كذلك؛ فإنَّ المنافِقينَ لم يَخرُجوا مع مَن أُخرِج مِن اليهودِ، وهم بَنو النَّضيرِ ومَن معهم، ولم يَنصُروا مَن قُوتِل مِن اليَهودِ، وهم بَنو قُرَيْظَةَ وأهلُ خَيْبَرَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٣). =

﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾.

أي: ولَئِن قُوتِلوا لا يَنصُرُهم المنافِقونَ ولا يُقاتِلونَ معهم كما وَعَدوهم[1].

﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾.

أي: ولَئِنْ نَصَرهم المُنافِقونَ -على سَبيلِ الفَرضِ والتَّقديرِ- فقاتَلوا معهم عَدُوَّهم، لَفَرَّ المنافِقونَ وهَرَبوا مُنهَزِمينَ[2].

﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

أي: ثمَّ لا يُنصَرُ الكفَّارُ مِن بَعدِ ذلك[3].

---

= وقال ابنُ عاشور: (ضميرُ ﴿أُخۡرِجُواْ﴾ و﴿قُوتِلُواْ﴾ عائِدانِ إلى ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الحشر: ١١]، أي: الَّذين لم يُخْرَجوا ولَمَّا يُقاتَلوا، وهم قُرَيظةُ وخَيبرُ، أمَّا بنو النَّضيرِ فقد أُخرِجوا قبْلَ نُزولِ هذه السُّورةِ، فهم غيرُ مَعنيِّينَ بهذا الخبَرِ المستقبَلِ. والمعنى: لَئِنْ أُخرِجَ بَقيَّةُ اليهودِ في المستقبَلِ لا يَخرُجونَ معهم، ولَئِنْ قُوتِلوا في المستقبَلِ لا يَنصُرونَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٠٩، ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠١).

قيل: المرادُ: لا يُنصَرُ بنو النَّضيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والواحديُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٣٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠١).

وقيل: المرادُ: لا يُنصَرُ المنافِقونَ. وهذا المعنى جوَّزه الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٦).

وقيل: المرادُ: لا يُنصَرُ المنافِقونَ ولا اليهودُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: البِقاعي، والشربيني. =

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ١٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان المقصودُ مِن ذِكرِ وَهْنِ المنافِقينَ في القِتالِ تشديدَ نَفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأنفُسِ المؤمِنينَ؛ حتَّى لا يَرهَبوهم، ولا يَخشَوا مُساندَتَهم لأهلِ حَربِ المُسلِمينَ؛ أحلافِ المنافِقينَ مِن اليهودِ- أعقَبَ ذلك بإعلامِ المؤمِنينَ بأنَّهم يَخشَونَ المُسلِمينَ خَشيةً شَديدةً، وُصِفت شِدَّتُها بأنَّها أشَدُّ مِن خَشيتِهم اللهَ تعالَى[1].

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

أي: إنَّ الخَوفَ الكامِنَ في صُدورِهم منكم -أيُّها المؤمِنونَ- أشَدُّ مِن خَوفِهم مِنَ اللهِ تعالى[2]!

---

= يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥٢).

قال البِقاعي: (لَمَّا كان مِن عادةِ العَرَبِ الكَرُّ بعدَ الفَرِّ، بَيَّنَ أنَّهم لا كَرَّةَ لهم بعدَ هذه الفَرَّةِ وإن طال المَدى، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ أي: لا يتجَدَّدُ لفريقَيهم ولا لواحدٍ منهما نُصرةٌ في وقتٍ مِن الأوقاتِ، وقد صَدَق سُبحانَه؛ لم يَزَلِ المنافِقونَ واليهودُ في الذُّلِّ، ولا يَزالونَ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤).

والضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿صُدُورِهِم﴾ قيل: عائدٌ إلى بني النَّضيرِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥).

وقيل: في صُدورِ المنافِقينَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمينُ الحلبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٨٨).

وقيل: في صُدورِ المنافِقينَ واليهودِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير =

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾.

أي: خَوفُهم مِن المسلِمينَ أعظَمُ مِن خَوفِهم مِنَ اللهِ تعالى؛ لأنَّهم قَومٌ لا يَعلَمونَ قَدْرَ عَظَمةِ اللهِ، وكَمالِ قُدرتِه؛ فيُدرِكوا أنَّه هو وَحْدَه مَنْ يَنبَغي أن يُخشَى(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ دليلٌ على أنَّ سَجايا المنافِقينَ مَجبولةٌ على مُنافَقةِ أوليائِهم وأعدائِهم معًا! فهو تنبيهٌ بَيِّنٌ أنَّ الاستِنامةَ إلى وُدِّ مَن ليس يَتَّقي، والمُعَوَّلَ على وَلايتِه: ليس مِن فِعْلِ ذوي التَّحصيلِ، ولا يُغتَرُّ به مِن خليلٍ، ويؤيِّدُ هذا قولُه سُبحانَه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فلو كانت خُلَّتُهم في الدُّنيا مُستقيمةً لَكانوا بها مُحسِنينَ، والإحسانُ لا يعودُ سَيِّئًا فيَضمَحِلَّ، كما لم تَضمَحِلَّ خُلَّةُ المتَّقينَ، وكانت في الدُّنيا والآخِرةِ مُتَّصِلةً لهم غيرَ مُنقَطِعةٍ بهم(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ إنَّما الفِقهُ كُلُّ الفِقهِ أن يكونَ خَوفُ الخالِقِ ورَجاؤُه ومحَبَّتُه مُقَدَّمةً

---

= ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠١، ١٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤).

قال ابنُ عاشور: (الفِقهُ: فَهمُ المعاني الخفيَّةِ... ذلك أنَّهم تَبِعوا دواعيَ الخَوفِ المشاهَدِ، وذَهِلوا عن الخَوفِ المُغَيَّبِ عن أبصارِهم، وهو خَوفُ اللهِ؛ فكان ذلك من قِلَّةِ فَهمِهم للخَفيَّاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦٠).

على غَيرِها، وغَيرُها تبَعًا لها[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ لِمَن يَقولُ: (خَوِّفِ المنافِقَ بالنَّاسِ، والمؤمِنَ باللهِ جلَّ وعزَّ)[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّه سُبحانَه يَشهَدُ على كَذِبِهم. ووَجهُه: أنَّ ما يُسِرُّونَه هو في قُلوبِهم، ولا يَعلَمُ ما في القُلوبِ إلَّا عَلَّامُ الغُيوبِ، فكأنَّ هذا المضمَرَ في قُلوبِهم بالنِّسبةِ إلى اللهِ أمرٌ مَشهودٌ يُرى بالعَينِ، كما قال اللهُ تبارك وتعالى في سورةِ (المنافِقونَ): ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾[٣] [المنافقون: ١].

٢- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ لَمَّا كان قولُهم ﴿لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ كلامًا يَقضي عليه سامعُه بالصِّدقِ مِن حيثُ كَونُه مُؤكَّدًا مع كونِه مُبتدَأً من غيرِ سؤالٍ فيه؛ بيَّن حالَه سُبحانَه بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾، أي: يقولون ذلك والحالُ أنَّ المحيطَ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعِلمًا يَشهَدُ بما يَعلمُ مِن بواطنِهم في عالَمِ الغَيبِ. ولَمَّا كان بعضُ مَن يَسمَعُ قولَهم هذا يُنكِرُ أنْ لا يُطابِقَه الواقعُ، وكان إخلافُهم فيه مُتحقِّقًا في عِلمِ اللهِ؛ أطْلَق عليه ما لا يُطلَقُ إلَّا على ما كشَفَ الواقعُ عن أنَّه غيرُ مُطابِقٍ، فقال تَشجيعًا للمؤمنينَ على قِتالِهم مؤكِّدًا: ﴿إِنَّهُمْ﴾، أي: المنافِقون ﴿لَكَٰذِبُونَ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ * لَئِنۡ أُخۡرِجُواْ لَا يَخۡرُجُونَ مَعَهُمۡ ...﴾ هذا مِن أعظمِ دَلائلِ النُّبوَّةِ؛ لأنَّه إخبارٌ بمُغَيَّبٍ بعيدٍ عن العادةِ بشَهادةِ ﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْ﴾ [الحشر: ٢]، فحَقَّقه اللهُ عن قريبٍ[١]، ففيه دَليلٌ على صِحَّةِ النبُوَّةِ؛ لأنَّه إخبارٌ بالغَيبِ[٢].

٤- قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمۡ وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ بعدَ قولِه: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾؟

**الجوابُ**: أنَّ المعنى على الفَرضِ والتَّقديرِ، أي: ولَئِنْ نَصَروهم فَرضًا وتقديرًا، كقَولِه تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾[٣] [الزمر: ٦٥].

وقيل: قَولُه: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾ أي: طائعينَ. وقَولُه: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾ أي: مُكرَهينَ.

وقيل: قولُه: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمۡ﴾ أَي: لا يَدومون على نَصرِهم. وقولُه: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ﴾ أي: نصَروهم في الابتِداءِ. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا بِشارةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُسلِمينَ، بأنَّ اللهَ أوقَعَ الرُّعبَ منهم في نُفوسِ عَدُوِّهم، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((نُصِرْتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شَهرٍ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عادل)) (١٨/ ٥٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٣).

والحديث أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٣٣٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٥٢١) مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما.

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فيه سُؤالٌ: إنْ عُلِّقَ قَولُه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بـ ﴿أَشَدُّ﴾ لَزِمَ ثُبوتُ الخَوفِ لله، وهو مُحالٌ، أو بـ (الرَّهبةِ)، لَزِمَ كَونُ المؤمنينَ أشَدَّ خَوفًا مِن المذكورينَ، وليس مُرادًا؟

**الجوابُ**: الرَّهبةُ مَصدَرُ (رُهِبَ) بالبناءِ للمفعولِ هنا -على مذهبِ مَن يُجيزُ جعْلَ المصدرِ مَبنيًّا للمفعولِ- فالمعنى: أشَدُّ مَرهوبيَّةً، يعني: أنَّكم في صُدورِهم أَهيَبُ مِن كَونِ اللهِ تعالى فيها، ونظيرُه قولُك: (زَيدٌ أشَدُّ ضَربًا في الدَّارِ مِن عَمرٍو)، يعني: مَضروبيَّةً[1].

فإنْ قيل: كيفَ يستقيمُ التَّفضيلُ وهم ما كانوا يَرهبونَ الله؛ لأنَّهم لو رهبوه لتركوا النِّفاقَ والكُفرَ؟

قيل: رَهبَتُهم في السِّرِّ منكم أشَدُّ مِن رَهبتِهم مِنَ اللهِ تعالى الَّتي يُظهِرونَها لكم، وكانوا يُظهِرونَ للمُؤمِنينَ رَهبةً شَديدةً مِنَ اللهِ تعالى[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ الجُملةُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ[3].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ...﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن حالِ المنافِقينَ الَّذين طمَّعوا إخوانَهم مِن أهلِ الكِتابِ في نُصرتِهم وموالاتِهم

---

(١) يُنظر: ((أنموذج جليل)) لزين الدين الرازي (ص: ٥١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧)، ((أنموذج جليل)) لزين الدين الرازي (ص: ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩).

على المؤمنينَ، فبُنِيَ على نفْيِ العِلمِ بحالِهم كِنايةً عن التَّحريضِ على إيقاعِ هذا العِلمِ، كأنَّه يقولُ: تأمَّلِ الَّذين نافَقوا في حالِ مَقالتِهم لإخوانِهم، ولا تَترُكِ النَّظرَ في ذلك؛ فإنَّه حالٌ عَجيبٌ[١]. وقيل: هو تعجُّبٌ مِن اغترارِ اليهودِ بما وعَدَهم المُنافِقونَ مِن النَّصرِ، مع عِلمِهم بأنَّهم لا يَعتقدون دِينًا ولا كِتابًا[٢].

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ...﴾ استئنافٌ لبَيانِ المُتعجَّبِ منهُ، وصِيغةُ المُضارِعِ ﴿يَقُولُونَ﴾ للدَّلالةِ على استِمرارِ قَولِهِم، وتَكرُّرِ ذلك منهم، أي: يَقولون ذلك مُؤكِّدينه ومُكرِّرينَه لا على سَبيلِ البَداءِ أو الخاطرِ المَعدولِ عنه، أو لاستِحضارِ صُورتِه. وهذه الجُملةُ في مَوضعِ المفعولِ الثَّاني، والتَّقديرُ: ألمْ تَرَهُم قائِلينَ...[٣].

- والمرادُ بإخوانِهم بَنو النَّضيرِ، وإنَّما وصَفَهم بالإخُوَّةِ لهم؛ لأنَّهم كانوا مُتَّحدِين في الكُفْرِ برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤].

- وفي وصْفِ إخوانِهم بأنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إيماءٌ إلى أنَّ جانبَ الأُخوَّةِ بيْنَهم هو الكفْرُ، إلَّا أنَّ كُفرَ المنافِقينَ كُفْرُ الشِّركِ، وكُفْرَ إخوانِهم كُفْرُ أهلِ الكتابِ، وهو الكفْرُ برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٥].

- وإنَّما وَعَدوهم بالخُروجِ معهم بقولِه: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ﴾؛ ليَطْمَئِنُّوا لنُصرتِهم؛ فهو كِنايةٌ عن النَّصرِ، وإلَّا فإنَّهم لا يَرضَون أنْ يُفارِقوا بِلادَهم(١).

- وجُملةُ ﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ ﴾؛ فهي مِن المَقولِ لا مِن المُقسَم عليه، وقد أُعرِيَت عن المُؤكِّدِ؛ لأنَّ بَني النَّضيرِ يَعلَمون أنَّ المنافِقين لا يُطِيعون الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلِمينَ؛ فكان المُنافِقون في غُنْيةٍ عن تَحقيقِ هذا الخبَرِ(٢).

- وفي قولِه: ﴿فِيكُمْ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ، أي: في ضُرِّكم؛ إذ لا يَخطُرُ بالبالِ أنَّهم لا يُطِيعون مَن يَدْعُوهم إلى مُوالاةِ إخوانِهم(٣).

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ أعلَمَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم كاذِبونَ في ذلك بعدَما أعْلَمه بما أقْسَموا عليه؛ تطمينًا لخاطِرِه؛ لئلَّا يَتوجَّسَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خِيفةً مِن بأسِ المنافِقينَ، وسمَّى اللهُ الخبرَ شهادةً؛ لأنَّه خبرٌ عن يَقينٍ بمنزلةِ الشَّهادةِ الَّتي لا يَتجازَفُ المخبِرُ في شأنِها(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴾

- قولُه: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١]، واللَّامُ مُوطِّئةٌ للقسَمِ، وهذا تأْكيدٌ مِن اللهِ تعالَى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّهم لنْ يَضُرُّوه شيئًا؛ لكَيْلَا يَعبأَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠٠).

بما بَلَغَه مِن مَقالتِهم[١].

- وقد سُلِكَ في هذا البيانِ طَريقُ الإطنابِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١] جمَعَ ما في هاتَينِ الجُملتَينِ، فجاء بَيانُه بطَريقةِ الإطنابِ؛ لزِيادةِ تَقريرِ كَذِبِهم[٢].

- وقولُه: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمۡ لَيُوَلُّنَّ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ ارتِقاءٌ في تَكذيبِهم على ما وَعَدوا به إخوانَهم، والواوُ واوُ الحالِ، وليست واوَ العطْفِ[٣].

- وحرْفُ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ انتِفاءَ النَّصرِ أعظَمُ رُتبةً في تأْييسِ أهلِ الكتابِ مِن الانتفاعِ بإعانةِ المنافِقِين، فهو أقْوى مِن انهزامِ المنافِقينَ إذا جاؤوا لإعانةِ أهْلِ الكتابِ في القتالِ، والمقصودُ تَثبيتُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ، وتأْمينُهم مِن بأْسِ أعدائِهم[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةٗ فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ﴾ إنَّ خَشيةَ جَميعِ الخلْقِ مِن اللهِ أعظَمُ خَشيةً، فإذا بلَغَت الخشيةُ في قلْبِ أحدٍ أنْ تكونَ أعظَمَ مِن خَشيةِ اللهِ، فذلك مُنتهَى الخشيةِ. والمقصودُ تَشديدُ نُفوسِ المسلِمينَ؛ ليَعلَموا أنَّ عدُوَّهم مُرْهَبٌ منهم، وذلك ممَّا يَزيدُ المسلِمينَ إقدامًا في مُحاربتِهم؛ إذ ليس سِياقُ الكلامِ للتَّسجيلِ على المنافِقِين واليهودِ قِلَّةَ رَهْبَتِهم للهِ، بلْ إعلامُ المسلِمينَ بأنَّهم أرهَبُ لهم مِن كلِّ أعظَمِ الرَّهَباتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠١، ١٠٢).

- قولُه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ هذا تَركيبٌ غَريبُ النَّسْجِ بَديعُه! والمألوفُ في أداءِ مِثلِ هذا المعْنى أنْ يُقالَ: (لَرَهْبَتُهم منكم في صُدورِهم أشدُّ مِن رَهبتِهم مِن اللهِ)؛ فحُوِّلَ عن هذا النَّسجِ إلى النَّسجِ الَّذي حُبِكَ عليه في الآيةِ؛ لِيَتأتَّى الابتداءُ بضَميرِ المسلِمينَ اهتمامًا به، ولِيَكونَ مُتعلِّقُ الرَّهبةِ ذَواتِ المسلِمينَ؛ لتَوقُّعِ بَطْشِهم، وليأتِيَ التَّمييزُ المُحوَّلُ عن الفاعِلِ -على قولٍ-؛ لِما فيه مِن خُصوصيَّةِ الإجمالِ مع التَّفصيلِ، ولِيَتأتَّى حذْفُ المُضافِ في تَركيبِ ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ إذ التَّقديرُ: مِن رَهبةِ اللهِ؛ لأنَّ حَذْفَه لا يَحسُنُ إلَّا إذا كان مَوقعُه مُتَّصلًا بلَفظِ (رَهْبة)؛ إذ لا يَحسُنُ أنْ يُقالَ: (لَرَهْبتُهم أشدُّ مِن اللهِ)؛ فاليهودُ والمنافِقون مِن شأْنِهم أنْ يَخشَوا اللهَ؛ أمَّا اليهودُ فلأنَّهم أهلُ دِينٍ، فهمْ يَخافون اللهَ ويَحذَرون عِقابَ الدُّنيا وعِقابَ الآخرةِ، وأمَّا المنافِقون فهُمْ مُشرِكون، وهم يَعترِفون بأنَّ اللهَ تعالَى هو الإلهُ الأعظَمُ، وأنَّه أَولى الموجوداتِ بأنْ يُخْشَى؛ لأنَّه ربُّ الجميعِ، وهمْ لا يُثبِتون البعثَ والجزاءَ، فخَشْيتُهم اللهَ قاصرةٌ على خَشيةِ عَذابِ الدُّنيا مِن خسْفٍ وقحْطٍ واستِئصالٍ، ونحوِ ذلك، وليس وراءَ ذلك خَشيةٌ[1].

- ووَجْهُ وَصْفِ الرَّهبةِ بأنَّها ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ الإشارةُ إلى أنَّها رهبةٌ جِدُّ خَفيَّةٍ، أي: إنَّهم يَتظاهَرون بالاستِعدادِ لحرْبِ المسلِمينَ، ويَتطاوَلون بالشَّجاعةِ ليَرهَبَهم المسلِمون، وما همْ بتلك المَثابةِ، فأطْلَعَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على دَخيلتِهم، فليس قولُه: ﴿فِي صُدُورِهِم﴾ وصْفًا كاشفًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٢، ١٠٣).

ويُنظر ما تقدم: (ص: ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٣). =

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ لَمَّا حصَلَت البِشارةُ مِن الخبَرِ عن الرُّعبِ الَّذي في قُلوبِهم، ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلى مَذمَّةِ هؤلاء الأعداءِ مِن جَرَّاءِ كَونِهم أخوفَ للنَّاسِ منهم للهِ تعالَى؛ بأنَّ ذلك مِن قِلَّةِ فِقهِ نُفوسِهم، ولو فَقِهُوا لَكانوا أخوفَ للهِ منهم للنَّاسِ، فنَظَروا فيما يُخلِّصُهم مِن عِقابِ التَّفريطِ في النَّظرِ في دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعَلِموا صِدقَه، فنَجَوْا مِن عَواقبِ كُفْرِهم به في الدُّنيا والآخِرةِ، فكانت رَهبتُهم مِن المسلمينَ هذه الرَّهبةَ مُصيبةً عليهم، وفائدةً للمسلمينَ؛ فالجُملةُ مُعترِضةٌ بيْن البيانِ ومُبَيَّنِه(١).

- والإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى المذكورِ مِن قولِه: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾، واجتلابُ اسمِ الإشارةِ ليَتميَّزَ الأمرُ المحكومُ عليه أتمَّ تَمييزٍ؛

---

= والصِّفةُ الكاشفةُ: هي الَّتي تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ لأنَّ الصِّفاتِ منها صِفةٌ مقيِّدةٌ تُخرِجُ ما سِواه، ومنها صفةٌ كاشِفةٌ تبيِّنُ حقيقةَ أمرِه، فهي خبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأن تكونَ وصفًا لازمًا مختصًّا به. والصِّفةُ إذا كان لها مفهومٌ فهي مقيِّدةٌ، وإن لم يكن لها مفهومٌ فهي كاشِفةٌ، أي: مبيِّنةٌ للحقيقةِ، مثالُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ وصفٌ مطابقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لموافقتِه الواقعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ، ومن ذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٩٩، ٣١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٣).

لغَرابتِه[١].

- والإتيانُ بلَفظِ ﴿قَوۡمٌ﴾؛ لِما يُؤذِنُ به مِن أنَّ عَدَمَ فِقهِ أنفُسِهم أمْرٌ عُرِفوا به جميعًا، وصار مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، لا يَخْلو عنه أحدٌ منهم[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٤-١٧)

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٧﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّحَصَّنَةٍ﴾: أي: مُحكَمةٍ مُمتَنِعةٍ بالأسوارِ والخنادقِ، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على حِفظٍ وحِياطةٍ[١].

﴿جُدُرٍ﴾: أي: حيطانٍ وأسوارٍ، إلَّا أنَّ الحائِطَ يُقالُ اعتبارًا بالإحاطةِ بالمكانِ، والجِدارَ يُقالُ اعتبارًا بالنُّتوءِ والارتِفاعِ[٢].

﴿بَأۡسُهُم﴾: أي: عداوتُهم، وأصلُ (بأس): يدُلُّ على الشِّدَّةِ وما شابَهَها[٣].

﴿شَتَّىٰ﴾: أي: مُختَلِفةٌ، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تفَرُّقٍ[٤].

﴿وَبَالَ﴾: الوبالُ: الجزاءُ والثِّقلُ والعاقِبةُ، وأيضًا: الوَخامةُ وسُوءُ العاقِبةِ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥).

وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ فِي شَيءٍ وتجَمُّعٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: لا يُقاتِلُكم المنافِقونَ واليَهودُ -أيُّها المُسلِمونَ- وهم مجتَمِعونَ، إلَّا في مُدُنٍ آمِنةٍ مُحاطةٍ بالحُصونِ، أو مِن وراءِ جُدرانٍ وأسوارٍ، عداوتُهم بيْنَهم شَديدةٌ، تَظُنُّ أنَّهم مُجتَمِعونَ، والحَقُّ أنَّ قُلوبَهم مُختَلِفةٌ؛ بسَبَبِ أنَّهم قَومٌ لا عَقْلَ لهم!

ثمَّ يقولُ تعالى ضاربًا المثَلَ؛ تثبيتًا للمؤمنينَ، وتهوينًا مِن شأنِ أعدائِهم: مَثَلُ اليَهودِ والمنافِقينَ كمَثَلِ الَّذين مِن قَبلِهم مِن يَهودِ بني قَينُقاعَ وكُفَّارِ قُرَيشٍ، قبْلَ وُقوعِ جَلاءِ بني النَّضيرِ بزَمَنٍ يَسيرٍ، نالوا جزاءَ كُفرِهم، فعَذَّبَهم اللهُ في الدُّنيا، ولهم عَذابٌ شَديدٌ في الآخِرةِ.

ويَضرِبُ مثلًا آخَرَ فيقولُ: مَثَلُ أولئك المنافِقينَ الَّذين وَعَدوا يَهودَ بَني النَّضيرِ الخُروجَ معهم إن أُخرِجوا، والنُّصرةَ لهم إن قُوتِلوا، ثمَّ خَذَلوهم، ومثلُ اليهودِ في اغترارِهم بهم؛ كمَثَلِ الشَّيطانِ إذ قال للإنسان: اكفُرْ باللهِ، فلمَّا كَفَر الإنسانُ بالله تبَرَّأَ منه الشَّيطانُ وخَذَلَه، وقال له: إنِّي أخافُ اللهَ ربَّ العالَمينَ! فكان آخِرَ أمْرِهما أنَّهما في النَّارِ ماكِثَينِ فيها أبَدًا، وذلك جزاءُ الظَّالِمينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرٗى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرِۭۚ بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٞۚ تَحۡسَبُهُمۡ جَمِيعٗا وَقُلُوبُهُمۡ شَتَّىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ١٤﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا أخبَرَ الله تعالى برَهْبَتِهم؛ دلَّ عليها بقولِه[1]:

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾.

أي: لا يُقاتِلُكم المنافِقونَ واليَهودُ -أيُّها المُسلِمونَ- وهم مجتَمِعونَ، إلَّا في مُدُنٍ آمِنةٍ مُمَنَّعةٍ بالحُصونِ، أو مِن وراءِ جُدرانٍ وأسوارٍ وحِيطانٍ، فلا يَبرُزونَ لِقتالِكم؛ مِن شِدَّةِ جُبنِهم، وخَوفِهم منكم[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ عائِدٌ إلى يَهودِ بَني النَّضيرِ، وممَّن اختاره: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧).

وقيل: الضَّميرُ عائِدٌ إلى اليَهودِ، وممن اختاره: ابنُ أبي زَمَنين، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، وأبو حيَّان، وجلال الدين المحلي، ونسَبَه ابنُ الجوزي للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦١).

قال ابنُ عطيَّةَ: (الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾ لِبَني النَّضيرِ وجميعِ اليَهودِ، وهذا قَولُ جماعةِ المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: اليهودُ والمنافِقونَ: الزمخشريُّ، والرازي، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسَفي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٥١).

قال ابن عطية: (يحتَمِلُ أن يريدَ بذلك: اليهودَ والمنافِقينَ؛ لأنَّ دُخولَ المنافِقينَ في قَولِه =

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾.

أي: عداوةُ بَعضِهم لِبَعضٍ عَداوةٌ شَديدةٌ(١).

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾.

أي: تَظُنُّ أنَّهم مُجتَمِعونَ على كَلِمةٍ واحِدةٍ، والحَقيقةُ أنَّ قُلوبَهم مُختَلِفةٌ،

---

= تعالى: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متمكِّنٌ بيِّنٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٩).

وقال ابنُ عاشور: (قَولُه: ﴿جَمِيعًا﴾ يجوزُ أن يكونَ بمعنى «كُلُّهم»، كقَولِه تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فيكونَ للشُّمولِ، أي: كُلُّهم لا يُقاتِلونَكم -اليهودُ والمنافِقونَ- إلَّا في قُرًى مُحَصَّنةٍ... إلخ. ويجوزُ أن يكونَ بمعنى «مجتَمِعينَ»، أي: لا يقاتِلونَكم جُيوشًا كشأنِ جُيوشِ المتحالِفينَ؛ فإنَّ ذلك قتالُ مَن لا يَقبَعونَ في قُراهم، فيكونَ النَّفيُ مُنصَبًّا إلى هذا القَيدِ، أي: لا يَجتَمِعون على قِتالِكم اجتِماعَ الجُيوشِ، أي: لا يُهاجِمونَكم، ولكنْ يُقاتِلون قِتالَ دِفاعٍ في قُراهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤، ١٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

قال الزمخشري: (يعني: أنَّ البأسَ الشَّديدَ الَّذي يُوصَفونَ به إنَّما هو بيْنَهم إذا اقتَتَلوا، ولو قاتَلوكم لم يَبْقَ لهم ذلك البأسُ والشِّدَّةُ؛ لأنَّ الشُّجاعَ يَجبُنُ، والعزيزَ يَذِلُّ، عندَ محاربةِ اللهِ ورَسولِه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧).

وقال الشوكاني: (﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي: بعضُهم غليظٌ فظٌّ على بعضٍ، وقُلوبُهم مُختَلِفةٌ، ونِيَّاتُهم مُتباينةٌ. قال السُّدِّيُّ: المرادُ اختِلافُ قُلوبِهم، حيث لا يَتَّفِقون على أمرٍ واحدٍ. وقال مجاهدٌ: بأسُهم بيْنَهم شديدٌ بالكلامِ والوعيدِ: لَيَفْعَلُنَّ كذا، والمعنى: أنَّهم إذا انفَرَدوا نَسَبوا أنفُسَهم إلى الشِّدَّةِ والبأسِ، وإذا لاقَوا عَدُوًّا ذَلُّوا وخَضَعوا وانهَزَموا. وقيل: المعنى: أنَّ بأْسَهم بالنِّسبةِ إلى أقرانِهم شديدٌ، وإنَّما ضَعفُهم بالنِّسبةِ إليكم؛ لِما قذَفَ اللهُ في قُلوبِهم مِن الرُّعبِ. والأوَّلُ أَوْلى؛ لقوله: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾؛ فإنَّه يدُلُّ على أنَّ اجتِماعَهم إنَّما هو في الظَّاهرِ، معَ تَخالُفِ قُلوبِهم في الباطنِ، وهذا التَّخالُفُ هو البأسُ الَّذي بيْنَهم، المَوصوفُ بالشِّدَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٣).

وفي غايةِ التَّفَرُّقِ[١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ﴾.

أي: وُقوعُ مُعاداةِ بَعضِهم لبَعضٍ، وتَشَتُّتُ آرائِهم، وتَفَرُّقُ أهوائِهم؛ بسَبَبِ أنَّهم قَومٌ لا عَقْلَ لهم؛ حيثُ وَقَعوا فيما يَعلَمونَ ضَرَرَه، وأهمَلوا النَّظَرَ في عواقبِ الأُمورِ[٢].

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان الإخبارُ بعَدَمِ عَقْلِهم دَعوى؛ دَلَّ عليها بأمرٍ مُشاهَدٍ، فقال[٣]:

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗا﴾.

أي: مَثَلُ اليَهودِ والمنافِقينَ كمَثَلِ يَهودِ بني قَينُقاعَ الَّذين عَذَّبَهم اللهُ بالجَلاءِ مِنَ المدينةِ، وكَمَثَلِ كُفَّارِ قُرَيشٍ الَّذين هُزِموا في بَدرٍ، وذلك قبْلَ وُقوعِ جَلاءِ بَني النَّضيرِ بزَمَنٍ يَسيرٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

قال ابنُ عاشور: (لأنَّ مَعرِفةَ مآلِ التَّشَتُّتِ في الرَّأيِ وصَرفِ البأسِ إلى المُشارِكِ في المصلحةِ، مِنَ الوَهْنِ والفَتِّ في ساعدِ الأمَّةِ: مَعرِفةٌ مشهورةٌ بيْنَ العُقَلاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٩، ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣). =

= ممَّن اختار أنَّ المرادَ: مَثَلُ المنافِقِينَ واليهودِ ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: ابنُ جرير، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: مَثَلُ هؤلاء اليهودِ مِن بَني النَّضيرِ والمنافِقِينَ فيما اللهُ صانعٌ بهم، مِن إحلالِ عُقوبتِه بهم، ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، يقولُ: كشَبَهِهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٩).

وممَّن اختار أنَّ المثَلَ مَضروبٌ لليهودِ: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، والخازنُ، وجلال الدين المحلي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

وقيل: أي: مَثَلُ هؤلاء المنافِقِينَ كمَثَلِ مُنافِقِي الأُمَمِ الماضيةِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٥٢).

واختُلِف في قولِه: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ فقيل: المرادُ بالَّذينَ مِن قَبلِهم: يهودُ بَني قَينُقاعَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٣٩).

وقيل: المرادُ: كُفَّارُ قُرَيشٍ الَّذين هُزِموا في بَدرٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والزمخشري، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١٦).

وذهب ابنُ جرير إلى العُموم، فقال: (أَولى الأقوالِ بالصَّوابِ أنْ يُقالَ: إنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ مَثَّلَ هؤلاء الكُفَّارَ مِن أهلِ الكِتابِ مِمَّا هو مُذيقُهم مِن نَكالِه، بالَّذين مِن قَبْلِهم مِن مُكَذِّبي رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، الَّذين أهلَكَهم بسَخَطِه، وأمْرُ بَني قَيْنُقاعَ ووَقْعةُ بَدرٍ كانا قبْلَ جلاءِ بني النَّضيرِ، وكُلُّ أولئك قد ذاقوا وَبالَ أَمْرِهم، ولم يَخْصُصِ اللهُ عزَّ وجَلَّ منهم بعضًا في تمثيلِ هؤلاء بهم =

﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾.

أي: نالوا جزاءَ كُفرِهم، فعَذَّبَهم اللهُ في الدُّنيا(١).

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: ولهم عَذابٌ شَديدُ الإيلامِ في الآخِرةِ(٢).

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

هذا المَثَلُ مُتَّصِلٌ بقَولِه تعالى: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الحشر: ١٥] كما يُفصِحُ عنه قَولُه في آخِرِه: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ الآيةَ، أي: مَثَلُهم في تَسبيبِهم

---

= دونَ بَعضٍ، وكُلٌّ ذائِقٌ وَبالَ أمْرِه، فمَن قَرُبَت مُدَّتُه منهم قَبْلَهم، فهم مُمثَّلونَ بهم فيما عُنُوا به مِنَ المَثَلِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠).

وقيل: هم بنو النَّضيرِ الذين أُجلوا مِن الحِجازِ إلى الشَّامِ، وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٠٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١٦).

قال ابنُ عاشور: (أي: حالُ أهلِ الكِتابِ الموعودِينَ بنَصرِ المنافقينَ كحالِ الَّذين مِن قَبلِهم قريبًا. والمرادُ: أنَّ حالَهم المركَّبةَ مِن التَّظاهُرِ بالبأسِ مع إضمارِ الخَوفِ مِن المسلمينَ، ومِن التَّفَرُّقِ بيْنَهم وبيْنَ إخوانِهم مِن أهلِ الكتابِ، ومِن خِذلانِ المنافِقينَ إيَّاهم عندَ الحاجةِ، ومِن أنَّهم لا يُقاتِلونَ المسلِمينَ إلَّا في قُرًى مُحَصَّنةٍ أو مِن وَراءِ جُدُرٍ- كحالِ الَّذين كانوا مِن قَبلِهم في زمَنٍ قَريبٍ، وهم بنو النَّضيرِ؛ فإنَّهم أظهَروا الاستِعدادَ للحَربِ وأَبَوُا الجَلاءَ، فلم يُحارِبوا إلَّا في قَريتِهم؛ إذ حَصَّنوها وقَبَعوا فيها حتَّى أعياهم الحِصارُ فاضطُرُّوا إلى الجَلاءِ، ولم يَنفَعْهم المنافِقونَ ولا إخوانُهم مِن أهلِ الكِتابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٨).

لأنفُسِهم عذابَ الآخِرةِ كمَثَلِ الشَّيطانِ إذ يُوَسْوِسُ للإنسانِ بأن يَكفُرَ، ثمَّ يَترُكُه ويَتبَرَّأُ منه، فلا ينتَفِعُ أحَدُهما بصاحِبِه، ويَقَعانِ معًا في النَّارِ؛ فجُملةُ ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الحشر: ١٥]، أي: في الآخِرةِ[١].

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ﴾.

أي: مَثَلُ أولئك المنافِقينَ الَّذين وَعَدوا يَهودَ بَني النَّضيرِ الخُروجَ معهم إن أُخرِجوا، والنُّصرةَ لهم إن قُوتِلوا، ثمَّ خَذَلوهم، فما مِن شَيءٍ مِن ذلك فَعَلوا، ومَثَلُ اليهودِ في اغترارِهم بهم- كمَثَلِ الشَّيطانِ حينَ سوَّل للإنسانِ الكُفرَ بالرَّحمنِ، وزَيَّنَه له، ووَعَده وَعدًا حَسَنًا بالنَّصرِ أو نَحوِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٨، ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧، ١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

ممَّن قال في الجملةِ إنَّ المرادَ أنَّ اللهَ تعالى ضرَبَ مثَلًا للمنافِقينَ واليهودِ في تَخاذُلِهم، وتخلِّي بعضِهم عن بعضٍ، وعدَمِ الوفاءِ في نُصرتِهم: الثعلبيُّ، والواحدي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠).

وممَّن قال: إنَّ المرادَ مثَلُ المنافِقين في غُرورِهم لبَني النَّضِيرِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، والزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٤٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٤٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

وقيل: المرادُ: مثَلُ اليهودِ معَ المنافِقينَ، واغترارِهم بهم حينَ وعَدوهم النَّصرَ. وممَّن اختاره: =

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ﴾.

أي: فلمَّا كَفَر الإنسانُ باللهِ؛ اتِّباعًا للشَّيطانِ، وقَبولًا لتَزيينِه، واغترارًا بوَعدِه- تبَرَّأَ منه الشَّيطانُ وخَذَلَه[1]!

---

= أبو حيَّان، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٣٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥٣).

وقال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: مَثَلُ هؤلاء المنافِقينَ الَّذين وعَدوا اليهودَ مِن النَّضيرِ النُّصْرةَ إن قُوتِلوا، أو الخروجَ معهم إنْ أُخرِجوا، ومَثَلُ النَّضيرِ في غُرورِهم إيَّاهم بإخلافِهم الوعدَ، وإسلامِهم إيَّاهم عندَ شدَّةِ حاجتِهم إليهم، وإلى نُصرتِهم إيَّاهم - كمَثَلِ الشَّيطانِ...). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٠، ٥٤١). ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ١٩٣).

وقال ابن عاشور: (حكى ابنُ عبَّاسٍ وغَيرُهما مِن السَّلَفِ في هذه الآيةِ قِصَّةَ راهبٍ بحِكايةٍ مُختَلفةٍ، جُعِلَت كأنَّها المرادُ مِن الإنسانِ في هذه الآيةِ، ذكَرَها ابنُ جريرٍ، والقُرطبيُّ، وضَعَّف ابنُ عطيَّةَ أسانيدَها، فلئن كانوا ذكَروا القِصَّةَ فإنَّما أرادوا أنَّها تَصلُحُ مِثالًا لِما يقَعُ مِن الشَّيطانِ للإنسانِ، كما مالَ إليه ابنُ كثيرٍ، فالمعنى: إذ قال للإنسانِ في الدُّنيا: اكفُرْ، فلمَّا كَفَر ووافى القيامةَ على الكُفرِ، قال الشَّيطانُ يومَ القيامةِ: إنِّي بَريءٌ منك، أي: قال كُلُّ شَيطانٍ لقَرينِه مِنَ الإنسِ: إنِّي بريءٌ منك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

قال ابن عطية: (ذهَب مجاهدٌ وجمهورٌ مِن المتأوِّلينَ إلى أنَّ الشَّيطانَ والإنسانَ في هذه الآيةِ أسماءُ جِنسٍ؛ لأنَّ العُرفَ أن يَعمَلَ هذا شياطينُ بناسٍ، كما يُغْوي الشَّيطانُ الإنسانَ ثمَّ يَفِرُّ منه بعدَ أن يُوَرِّطَه، كذلك أغوى المنافِقونَ بَني النَّضيرِ، وحرَّضوهم على الثُّبوتِ، ووَعَدوهم النَّصرَ، فلمَّا نَشِبَ بَنو النَّضيرِ وكشَفوا عن وُجوهِهم ترَكَهم المُنافِقون في أسوأِ حالٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠).

وقال الألوسي: (الجُمهورُ على أنَّ المرادَ بالشَّيطانِ والإنسانِ الجِنسُ، فيكونُ التَّبَرِّي يومَ القيامةِ، وهو الأوفَقُ بظاهِرِ قَولِه: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ...﴾ إلخ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٥٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٧).

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

أي: قال الشَّيطانُ مُبيِّنًا سَبَبَ تَبَرُّئِه مِن الإنسانِ الَّذي أطاعه في الكُفرِ: إنِّي أخافُ اللهَ الَّذي أوجَدَ جميعَ الخلائِقِ، وربَّاهم بنِعَمِه، فلا يُغْني أحَدٌ مِن خَلْقِه عن أحَدٍ شَيئًا إلَّا بإذْنِه؛ فليس لي قُدرةٌ على دَفعِ العذابِ عنك، أو جَلْبِ النَّفعِ لك(١).

﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

قال ابنُ عطية: (قولُ الشَّيطانِ: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ﴾، رياءٌ مِن قَولِه، وليست على ذلك عقيدتُه، ولا يَعرِفُ اللهَ حَقَّ مَعرفتِه، ولا يَحجُزُه خَوفُه عن سُوءٍ يُوقِعُ فيه ابنَ آدَمَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٠).

وقال القرطبي: (ليس قَولُ الشَّيطانِ: ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾، حَقيقةً، إنَّما هو على وَجهِ التَّبَرُّؤِ مِن الإنسانِ؛ فهو تأكيدٌ لِقَولِه تعالى: ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٢).

وقال الشوكاني: (قال الشَّيطانُ: ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ ﴾. وهذا يكونُ منه يومَ القيامةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٤).

أي: فكان آخِرَ أمْرِ ذلك الشَّيطانِ والإنسانِ أنَّهما في النَّارِ ماكِثَينِ فيها أبَدًا[١].

﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: والعاقِبةُ السَّيِّئةُ بالخُلودِ في النَّارِ هي جزاءُ كُلِّ مَن ظَلَم نَفْسَه بالكُفرِ باللهِ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ فيه تَربيةٌ للمُسلِمينَ؛ لِيَحذَروا مِن التَّخالُفِ والتَّدابُرِ، ويَعلَموا أنَّ الأُمَّةَ لا تكونُ ذاتَ بأسٍ على أعدائِها إلَّا إذا كانت متَّفِقةَ الضَّمائِرِ، يَرَونَ رأيًا مُتماثِلًا في أُصولِ مَصالِحِهما المُشتَرَكةِ، وإن اختَلَفت في خُصوصيَّاتِها الَّتي لا تَنقُضُ أُصولَ مَصالِحِها، ولا تُفَرِّقُ جامِعَتَها؛ وأنَّه لا يكفي في الاتِّحادِ تَوافُقُ الأقوالِ، ولا التَّوافُقُ على الأغراضِ، إلَّا أن تكونَ الضَّمائِرُ خالِصةً مِن الإحَنِ والعَداواتِ[٣]، فاجتِماعُ النُّفوسِ مع تنافُرِ القُلوبِ واختِلافِها: أصلُ كُلِّ فَسادٍ، ومُوجِبُ كُلِّ تَخاذُلٍ، ومُقتَضٍ لتجاسُرِ العَدُوِّ؛ واتِّفاقُ القُلوبِ، والاشتراكُ في الهِمَّةِ، والتَّساوي في القَصدِ: يُوجِبُ كُلَّ ظَفَرٍ، وكُلَّ سعادةٍ[٤].

٢- عَن قَتادةَ في قَولِه تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ قال: (كذلك أهلُ الباطِلِ؛ مُختَلِفةٌ شَهادتُهم، مُختَلِفةٌ أهواؤُهم، مُختَلِفةٌ أعمالُهم، وهم مُجتَمِعونَ في عَداوةِ أهلِ الحَقِّ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٥٦٣).

(٥) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١١٦).

٣- أعظَمُ الأسبابِ في القَضاءِ على كِيانِ الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ هو اختِلافُ القُلوبِ؛ وذلك لاستِلزامِه الفَشَلَ، وذَهابَ القُوَّةِ والدَّولةِ، وسبَبُ هذا الدَّاءِ الَّذي عَمَّت به البلوى إنَّما هو ضَعفُ العَقلِ؛ كما بيَّن الله تعالى ذلك في قولِه: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾، ثمَّ ذَكَر العِلَّةَ لكَونِ قُلوبِهم شَتَّى بقَولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾، ولا شَكَّ أنَّ داءَ ضَعفِ العَقلِ الَّذي يُصيبُه فيُضعِفُه عن إدراكِ الحقائِقِ، وتمييزِ الحَقِّ مِن الباطِلِ، والنَّافِعِ مِن الضَّارِّ، والحَسَنِ مِن القَبيحِ: لا دواءَ له إلَّا إنارتُه بنُورِ الوَحيِ؛ لأنَّ نُورَ الوَحيِ يحيا به مَن كان مَيتًا، ويُضيءُ الطَّريقَ للمُتمَسِّكِ به[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أنَّه لا فائدةَ مِن اجتِماعِ الأبدانِ مع تَفَرُّقِ القلوبِ! الفائدةُ باجتماعِ القلوبِ وتآلُفِ القلوبِ ولو تباعدَتِ الأبدانُ، وكم مِن إنسانٍ يكونُ بيْنَك وبيْنَه مَوَدَّةٌ وصداقةٌ وهو بعيدٌ منك، وبعيدٌ عنك؟! وكم مِن إنسانٍ بالعكسِ؛ تَشعُرُ بأنَّه يُنافِقُك؛ وأنَّه لا يُكِنُّ لك المحَبَّةَ ولا الصَّداقةَ؛ ومع ذلك هو ملازِمٌ لك كمُلازَمةِ الظِّلِّ؟! فالشَّأنُ كلُّ الشَّأنِ بالقلوبِ[2]. قال الإمامُ أحمدُ: (إنَّ لي إخوانًا لا ألْقاهم إلاَّ في كلِّ سنةٍ مرَّةً، أنا أوثقُ بمودَّتِهم ممَّن ألقَى كلَّ يومٍ)[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- القِتالُ على الخَيلِ بالسِّلاحِ هو أعلى وأفضلُ مِن القِتالِ في الحُصونِ بالسِّلاحِ، فالحِصانُ خَيرٌ مِن الحُصونِ، ومَن لم يكُنْ قِتالُه إلَّا في الحُصونِ والجُدُرِ فهو مَذمومٌ كما قال تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥٩٧).

(٣) يُنظر: ((مناقب الإمام أحمد)) لابن الجوزي (ص: ١٥٢).

أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ لَمَّا كان رُبَّما ظُنَّ أنَّ هذا عن عَجزٍ منهم لازِمٍ لهم، دَفَعَه بقَولِه إعلامًا بأنَّه إنَّما هو مِن مُعجِزاتِ هذا الدِّينِ: ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ﴾، أي: إذا أدارُوا رأيًا، أو حاربَ بَعضُهم بَعضًا -على قولٍ-؛ فجَرَّأَ المؤمِنينَ عليهم بأنَّ ما يَنظُرونَه مِن شِدَّتِهم وشَجاعتِهم إذا حارَبوا المُشرِكينَ، لا يُذكَرُ عندَ مُحارَبةِ المؤمِنينَ؛ كرامةً أكرَمَ اللهُ بها المؤمِنينَ، تتضَمَّنُ عَلَمًا مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ، تقويةً لإيمانِهم، وإعلاءً لشَأنِهم[٢].

٣- قولُ اللهِ تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف ذلك ونحنُ نراهم متَّفِقينَ؟

**الجوابُ**: أنَّ ظاهِرَ حالِهم حالُ اجتِماعٍ واتِّحادٍ، وهم في بواطِنِهم مُختَلِفونَ؛ فآراؤُهم غَيرُ مُتَّفِقةٍ، لا ألْفةَ بيْنَهم؛ لأنَّ بيْنَهم إِحَنًا وعَداواتٍ، فلا يَتعاضَدونَ، وهذا تقويةٌ للمؤمنينَ، وتَشجيعٌ لقُلوبِهم على قِتالِهم، والاستِخفافِ بجَماعتِهم[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾ أنَّ اليهودَ ليسوا مجتَمِعينَ -وذلك على أنَّ الضَّميرَ يعودُ عليهم-؛ ولذلك هم أحزابٌ شتَّى، وحتَّى داخِلَ الحزبِ الواحدِ مُتفرِّقونَ؛ لأنَّهم لا يُمكِنُ أنْ يَجتَمِعوا وقد أَلْقَى اللهُ بيْنَهم العداوةَ والبَغضاءَ، لكنْ لاحِظْ أنَّ العَدُوَّينِ إذا كان لهما عدوٌّ ثالثٌ، اجتمَعا عليه لمقابلةِ العدوِّ الثَّالثِ؛ فاجتِماعُهم الآنَ ليس لأنَّهم مُتحابُّونَ مُتآلِفونَ أبدًا، ولا يمكِنُ

(١) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

أنْ نُصَدِّقَ، واللهُ يقولُ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ٦٤]، لكِنَّهم اجتَمَعوا لهَدَفٍ واحدٍ ومَصلَحةٍ واحِدةٍ ضِدَّ عَدُوٍّ واحدٍ للجَميعِ، وهذا الاجتِماعُ لا شَكَّ أنَّه اجتِماعٌ ظاهِريٌّ فقط، مَقصودٌ لغيرِه، وليس مَقصودًا لِذاتِه[١]، فقُلوبُهم ليست مُتوادَّةً مُتواليةً إلَّا ما دام الغَرَضُ الَّذي يَؤُمُّونَه مُشتَرِكًا بيْنَهم، ثمَّ يَتخَلَّى بَعضُهم عن بعضٍ، بخِلافِ المؤمِنِ؛ فإنَّه يُحِبُّ المؤمِنَ، ويَنصُرُه بظَهرِ الغَيبِ، وإن تناءَت بهم الدِّيارُ، وتباعدَ الزَّمانُ[٢].

٥- العقلُ الصَّريحُ يُوجِبُ الاجتماعَ؛ فإنَّ الحقَّ لا يَختلِفُ ولا يَتناقَضُ، وقد بَيَّنَ سُبحانَه وتعالى أنَّ تَشَتُّتَ اليهودِ هو بسَبَبِ عَدَمِ العَقلِ، قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[٣]، فالعَقلُ مدارُ الاجتماعِ، كما كان الصَّحابةُ رِضوانُ اللهِ عليهم أجمعينَ في زَمَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما أنَّ الهوى مدارُ الاختِلافِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أنَّ الشَّيطانَ يَخذُلُ الإنسانَ في المواطنِ التي يحتاجُ فيها إلى النَّصرِ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (١/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ١٠٣).

- قولُه: ﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوۡ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ هذه الجُملةُ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿لَأَنتُمۡ أَشَدُّ رَهۡبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]؛ لأنَّ شِدَّةَ الرَّهبةِ مِن المسلمينَ تَشتمِلُ على شِدَّةِ التَّحصُّنِ لقِتالِهم إيَّاهم، أي: لا يَقدِرون على قِتالِكم إلَّا في هاتِه الأحوالِ[١].

- وهذا أيضًا كِنايةٌ عن مَصيرِهم إلى الهزيمةِ؛ إذ ما حُورِبَ قومٌ في عُقْرِ دارِهم إلَّا ذَلُّوا، كما قال عليٌّ رضِيَ اللهُ عنه، وهذا إطْلاعٌ لهم على تَطمينٍ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ، ودَخائلِ الأعداءِ[٢].

- قولُه: ﴿بَأۡسُهُم بَيۡنَهُمۡ شَدِيدٌ﴾ استئنافٌ سِيقَ لبَيانِ أنَّ ما ذُكِرَ مِن رَهبتِهم ليسَ لضَعْفِهم وجُبْنِهم في أنفُسِهم؛ فإنَّ بأْسَهُم بالنِّسبةِ إلى أقرانِهم شديدٌ -على قولٍ-، وإنَّما ضَعْفُهم وجُبْنُهم بالنِّسبةِ إليكم بما قذَفَ اللهُ تَعالَى في قُلوبِهم مِن الرُّعبِ[٣]. وقيل: هو استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ الإخبارَ عن أهلِ الكِتابِ وأنصارِهم بأنَّهم لا يُقاتِلون المسلِمينَ إلَّا في قُرًى مُحصَّنةٍ المُفيدَ أنَّهم لا يتَّفِقون على جَيشٍ واحدٍ مُتساندين فيه؛ ممَّا يُثيرُ في نفْسِ السامعِ أنْ يَسأَلَ عن مُوجِبِ ذلك مع أنَّهم مُتَّفِقون على عَداوةِ المسلِمينَ، فيُجابُ بأنَّ بيْنهم بأسًا شديدًا وتَدابُرًا، فهمْ لا يَتَّفِقون[٤].

- وافتُتِحَ الكلامُ بكَلمةِ ﴿بَأۡسُهُم﴾؛ للاهتِمامِ بالإخبارِ عنه بأنَّه بيْنَهم، أي: مُتسلِّطٌ مِن بَعضِهم على بَعضٍ، وليس بأْسُهم على المسلمينَ، وفيه تَهكُّمٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٥، ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠٦).

- قولُه: ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ قيل: القلوبُ: العقولُ والأفكارُ، وإطلاقُ القلْبِ على العقلِ كَثيرٌ في اللُّغةِ؛ شُبِّهَت العقولُ المختلِفةُ مَقاصدُها بالجماعاتِ المُتفرِّقينَ في جِهاتٍ في أنَّها لا تَتلاقى في مَكانٍ واحدٍ[1].

- وأُتيَ بلَفظِ القومِ في قولِه: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ إيماءً إلى أنَّ ذلك مِن آثارِ ضَعْفِ عُقولِهم حتَّى صارَتْ عُقولُهم كالمَعدومةِ؛ فالمُرادُ: أنَّهم لا يَعقِلون المَعقِلَ الصَّحيحَ، وإسنادُ الحُكْمِ إلى عُنوانِ (قَوم) يُؤذِنُ بأنَّ ذلك الحُكمَ كالجِبِلَّةِ المُقوِّمةِ للقوميَّةِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾، وفي الآيةِ الَّتي قبْلَها: ﴿لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [الحشر: ١٣]؛ ووَجْهُه: أنَّه لَمَّا قال: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ﴾، أي: خَوفُهم منكم أشدُّ مِن خَوفِهم مِن اللهِ تَعالى؛ لأنَّهم يَعلَمون ظاهرًا، ولا يَعرِفون ما استَتَرَ عنْهم منه، والفَقيهُ: مَن يَستدرِكُ مِن الكلامِ ظاهرَه الجَليَّ، وغامِضَه الخَفيَّ، بسُرعةِ فِطنتِه، وجَودةِ قَريحتِه، فلمَّا رَهِبوا النَّبيَّ ما لم يَرهَبوا اللهَ عزَّ ذِكرُه، صاروا كمَن يَعرِفُ ما يَشهَدُه، ويَجهَلُ ما يَغيبُ عنْه، ولو فَقِهوا لَعَلِموا أنَّ لِما ظَهَرَ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باطنًا، خَفِيَ عنهم مِن أمْرِ اللهِ تَعالى؛ فلذلك وَصَفَهم بأنَّهم ﴿قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، وقال هنا: ﴿لَّا يَعْقِلُونَ﴾؛ لأنَّ مَعرِفةَ مآلِ التَّشتُّتِ في الرَّأيِ، وصَرْفِ البأسِ إلى المُشاركِ في المصلحةِ مِن الوهْنِ والْفَتِّ في ساعدِ الأُمَّةِ؛ مَعرِفةٌ مَشهورةٌ بيْن العُقلاءِ، فإهْمالُهم سُلوكَ ذلك جَعَلَهم سواءً مع مَن لا عُقولَ لهم، فكانت هذه الحالةُ شِقْوةً لهم حصَلَت منها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٠٧).

سَعادةٌ للمسلمينَ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

- قولُه: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: مَثَلُهم[٢].

- قولُه: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ حرْفُ (مِن) صِلةٌ؛ لتأْكيدِ ارتباطِ الظَّرفِ بعامِلِه[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾

- قولُه: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ خَبرٌ ثانٍ للمُبتدأِ المُقدَّرِ مُبيِّنٌ لحالِهم، مُتضمِّنٌ لحالٍ أُخْرَى لليهودِ، وهي اغترارُهم بمُقابَلةِ المنافقينَ أوَّلًا وخَيبتُهُم آخِرًا، وقد أُجْمِلَ في النَّظمِ الكريمِ، حيث أُسنِدَ كلٌّ مِن الخَبَرينِ إلى المقدَّرِ المضافِ إلى ضَميرِ الفَريقَينِ مِن غيرِ تَعيينِ ما أُسْنِدَ إليه بخُصوصِه؛ ثقةً بأنَّ السَّامعَ يَرُدُّ كلًّا مِن المَثَلَينِ إلى ما يُماثِلُه، كأنَّهُ قيلَ: مَثَلُ اليهودِ في حُلولِ العذابِ بهم كمَثَلِ الَّذينَ مِن قبْلِهم... إلخ، ومَثَلُ المنافِقينَ في إغرائِهِم إيَّاهُم على القتالِ -حسَبَما نُقِلَ عنهُم- كمَثَلِ الشَّيطانِ...[٤]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- وفي الآيةِ إيجازُ حذْفٍ، حُذِفَ فيها مَعطوفاتٌ مُقدَّرةٌ بعْدَ شرْطِ (لَمَّا) هي داخلةٌ في الشَّرطِ؛ إذ التَّقديرُ: فلمَّا كَفَرَ واستَمرَّ على الكفْرِ، وجاء يومَ الحشْرِ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٦٤-١٢٦٦)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٧١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٥٨، ٤٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٧، ٥٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢).

واعتَذَرَ بأنَّ الشَّيطانَ أضَلَّه؛ قال الشَّيطانُ: إنِّي بَريءٌ منك... إلخ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ تَعليلٌ كاذِبٌ مِن الشَّيطانِ لبَراءتِه مِن مُتَّبِعِه؛ وإلَّا فهو لا يَخافُ اللهَ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مِن تَمامِ المَثَلِ، أي: كان عاقبةُ المُمثَّلِ بهما خُسرانَهما معًا، وكذلك تكونُ عاقبةُ الفريقَينِ المُمثَّلينِ أنَّهما خائبانِ فيما دبَّرَا وكادَا للمُسلِمينَ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذييلٌ، والإشارةُ بـ (ذلِك) إلى ما يدُلُّ عليه ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ﴾ مِن معْنى: فكانتْ عاقبتُهما سُوأَى، والعاقبةُ السُّوأى جَزاءُ جَميعِ الظَّالِمينَ المُعتدينَ على اللهِ والمسلِمينَ، فكما كانتْ عاقبةُ الكافرِ وشَيطانِه عاقبةَ سُوءٍ، كذلك تكونُ عاقبةُ المُمثَّلَينِ بهما وقدِ اشتَرَكَا في ظُلمِ أهلِ الخَيرِ والهُدى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٨-٢١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩ لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَٰشِعٗا﴾: أي: مُتذَلِّلًا مُتواضِعًا، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[1].

﴿مُّتَصَدِّعٗا﴾: أي: مُتَشَقِّقًا، وأصلُ (صدع): يدُلُّ على انفراجٍ في الشَّيءِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موجِّهًا نداءَه إلى المؤمنينَ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، اتَّقُوا اللهَ، ولْيَنظُرْ كُلُّ أحدٍ فيما قدَّمَه مِن أعمالٍ لآخِرتِه، واتَّقُوا اللهَ؛ إنَّ اللهَ خَبيرٌ بما تَعمَلونَ، ولا تَكونوا كالَّذين غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ، والقيامِ بحَقِّه وطاعتِه، فأنساهم اللهُ أنفُسَهم؛ عُقوبةً لهم، أولئك هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ، لا يَستوي أهلُ النَّارِ وأهلُ الجنَّةِ، أهلُ الجنَّةِ هم الفائِزونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى معظِّمًا لأمرِ القرآنِ، ومبيِّنًا عُلُوَّ قَدرِه: لو أنزَلْنا هذا القُرآنَ على جَبَلٍ لَرأيتَه خاضِعًا مُتذَلِّلًا مُتشَقِّقًا؛ لشِدَّةِ خَوفِه مِنَ اللهِ تعالى، وتلك الأمثالُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤).

نَذكُرُها للنَّاسِ؛ لعَلَّهم يَتفكَّرونَ فيها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا انْقَضى في هذه السُّورةِ وصْفُ المنافِقينَ واليهودِ، وَعَظَ المؤمنينَ بكلامٍ مُستأنَفٍ؛ لأنَّ الموعظةَ بعْدَ ذِكرِ المصيبةِ لها مَوقعٌ في النَّفْسِ لرِقَّةِ القلوبِ، والحذَرِ ممَّا يُوجِبُ العذابَ[1].

وأيضًا هو انتِقالٌ مِن الامتنانِ على المسلِمينَ بما يسَّرَ اللهُ مِن فتْحِ قَريةِ بَني النَّضيرِ بدونِ قِتالٍ، وما أفاء اللهُ على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منهم- إلى الأمرِ بتَقوى اللهِ؛ شُكرًا له على ما مَنَحَ وما وعَدَ مِن صادقِ الوعدِ؛ فإنَّ الشُّكرَ جَزاءُ العبدِ عن نِعمةِ ربِّه؛ إذ لا يَستطيعُ جَزاءً غيرَ ذلك، فأقبَلَ على خِطابِ الَّذين آمَنوا بالأمرِ بتَقوى اللهِ. ولَمَّا كان ما تَضمَّنَته السُّورةُ مِن تأْييدِ اللهِ إيَّاهم وفَيضِ نِعَمِه عليهم، كان مِن مَنافعِ الدُّنيا؛ أعْقَبَه بتَذكيرِهم بالإعدادِ للآخرةِ بقولِه: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، خافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه الدُّنيويَّ والأُخرويَّ، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾.

أي: ولْيتأمَّلْ كُلُّ أحدٍ فيما قدَّمَه مِن أعمالٍ لآخِرتِه؛ فيَزدادَ مِنَ الحَسَناتِ، ويَتوبَ مِن السَّيِّئاتِ، ويَستَعِدَّ لِلقاءِ رَبِّه، ويُحاسِبَ نفْسَه قبْلَ أن يُحاسِبَه ربُّه[1]!

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: واجعَلوا بَيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه وِقايةً[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو خِبرةٍ بالِغةٍ تامَّةٍ بجَميعِ أعمالِكم؛ ظاهِرِها وباطِنِها، وسيُجازيكم عليها[3].

ثمَّ ضرَب لهم الأمثالَ تحذيرًا وإنذارًا، فقال[4]:

---

= (٨/ ٧٧)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٣٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٧)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٧٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠، ١١١).

قال الرازي: (الغَدُ: يومُ القيامةِ، سمَّاه باليَومِ الَّذي يَلِي يَومَك؛ تقريبًا له). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١١).

وقال البِقاعي: (﴿لِغَدٖ﴾ أي: لأجْلِ العَرضِ بعدَ الموتِ، أو في يومِ القيامةِ الَّذي هو في غايةِ القُربِ؛ لأنَّ هذه الدُّنيا كُلَّها يومٌ واحِدٌ يَجيءُ فيه ناسٌ ويذهَبُ آخَرونَ، والموتُ أو الآخرةُ غَدُه، لا بدَّ مِن كُلٍّ منهما، وكُلُّ ما لا بُدَّ منه فهو في غايةِ القُربِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ٥٣).

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾.

أي: ولا تَكونوا كالَّذين غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ، والقيامِ بحَقِّه وطاعتِه؛ فأنساهم اللهُ أنفُسَهم؛ عُقوبةً لهم، فلم يُقَدِّموا لها خَيرًا يَنفَعُها، أو أمرًا يُصلِحُها، فضَيَّعوها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٨-٣٥٣)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٠، ١٠٣، ١٠٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٤/ ١٤٨١)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٩، ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٢، ١١٣).

قال ابن القيِّم: (نهى أن يَتشَبَّهَ عِبادُه المؤمنونَ بمَن نَسِيَه بتَرْكِ تَقْواه، وأخبَر أنَّه عاقَب مَن ترَك التَّقْوى بأنْ أنساه نفْسَه، أي: أنساه مصالِحَها، وما يُنجيها مِن عذابِه، وما يوجِبُ له الحياةَ الأبَديَّةَ، وكمالَ لَذَّتِها وسُرورِها ونعيمِها، فأنساه اللهُ ذلك كلَّه جزاءً لِما نَسِيَه مِن عَظَمتِه وخَوفِه، والقيامِ بأمْرِه). ((الجواب الكافي)) (ص: ٧٠). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٤٨ - ٣٥٣).

وقال أيضًا: (هؤلاء نَسُوا نُفوسَهم لا مِن جميعِ الوُجوهِ، بل مِنَ الوَجهِ الَّذي به مَصالِحُها وكمالُها وسعادتُها، وإن لم يَنسَوها مِن الوَجهِ الَّذي منه شَهوتُها وحَظُّها وإرادتُها، فأنساهم مَصالِحَ نُفوسِهم أن يَفعَلوها ويَطلُبوها، وعُيوبَها ونقائِصَها أن يُزيلوها ويجتَنِبوها، وكمالَها الَّذي خُلِقَت له أن يَعرِفوه ويَطلُبوه؛ فهم جاهِلونَ بحقائِقِ أنفُسِهم مِن هذه الوُجوهِ، وإن كانوا عالِمينَ بها مِن وُجوهٍ أُخَرَ). ((الروح)) (ص: ٢١٢). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٥).

وقال ابن تيميَّة: (ونِسيانُهم أنفُسَهم يَتضَمَّنُ إعراضَهم وغفلتَهم، وعدَمَ مَعرفتِهم بما كانوا عارِفينَ به قبْلَ ذلك مِن حالِ أنفُسِهم، كما أنَّه يَقتضي تَرْكَهم لِمَصالِحِ أنفُسِهم؛ فهو يَقتضي أنَّهم لا يَذكُرون أنفُسَهم ذِكرًا يَنفَعُها ويُصلِحُها، وأنَّهم لو ذكَروا اللهَ لَذَكَروا أنفُسَهم). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٤٨ - ٣٥٣).

وقال ابن جُزَي: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ يعني: الكُفَّارَ، والنِّسيانُ هنا يحتمِلُ أن يكونَ بمعنى التَّرْكِ أو الغَفْلةِ، أي: نَسُوا حقَّ اللهِ، فأنساهم حُقوقَ أنفُسِهم والنَّظَرَ لها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾.

أي: أولئك الَّذين نَسُوا اللهَ، فأنساهم أنفُسَهم: هم الخارِجونَ عن طاعةِ اللهِ إلى مَعصيتِه(١).

﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أرشَد المؤمنينَ إلى ما هو مَصلَحتُهم يومَ القيامةِ بقولِه: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ [الحشر: ١٨]، وهدَّد الكافِرين بقولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر: ١٩]؛ بيَّن الفَرقَ بيْنَ الفَريقَينِ(٢)، فقال:

﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾.

أي: لا يَستوي أهلُ النَّارِ وأهلُ الجنَّةِ في الفَضلِ والرُّتبةِ والجَزاءِ عِندَ اللهِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

قال ابن عاشور: (فالفاسِقونَ هم الآتُونَ بفواحِشِ السَّيِّئاتِ ومَساوِئِ الأعمالِ، وأعظَمُها الإشراكُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١١، ٥١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

قال البقاعي: (﴿لَا يَسۡتَوِيٓ﴾ أي: بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ الَّتي هي محلُّ الشَّقاءِ الأعظَمِ ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ الَّتي هي دارُ النَّعيمِ الأكبَرِ؛ لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٦١).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾ أي: في الفضلِ والرُّتبةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤).

وقال ابن كثير: (لا يَستوي هؤلاء وهؤلاء في حُكمِ الله يومَ القيامةِ، كما قال: ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ =

كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ * أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٠].

﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾.

أي: أهلُ الجنَّةِ هم وَحْدَهم النَّاجُونَ مِن العَذابِ، الظَّافِرونَ بالثَّوابِ(١).

كما قال الله وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ اللهُ تعالى لِعبادِه ما بَيَّنَ، وأمَرَهم ونهاهم في كتابِه العزيزِ؛ كان هذا مُوجِبًا لأنْ يُبادِروا إلى ما دعاهم إليه، وحَثَّهم عليه، ولو كانوا في القَسْوةِ وصَلابةِ القُلوبِ كالجِبالِ الرَّواسي؛ فإنَّ هذا القُرآنَ لو أنزَلَه على جَبَلٍ لَرأَيْتَه خاشِعًا متَصَدِّعًا مِن خَشيةِ اللهِ(٢).

---

= [الجاثية: ٢١]، ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ﴾ الآيةَ [غافر: ٥٨]، وقال: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]، في آياتٍ أُخَرَ دالَّاتٍ على أنَّ اللهَ سُبحانَه يُكرِمُ الأبرارَ، ويُهينُ الفُجَّارَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

وأيضًا لَمَّا حذَّر المسلِمينَ مِن الوُقوعِ في مَهْواةِ نِسيانِ اللهِ الَّتي وقَعَ فيها الفاسِقون، وتوعَّد الَّذين نَسُوا اللهَ بالنَّارِ، وبيَّن حالَهم بأنَّ الشَّيطانَ سوَّلَ لهم الكفْرَ، وكان القرآنُ دالًّا على مَسالكِ الخَيرِ، ومُحذِّرًا مِن مَسالكِ الشَّرِّ، وما وقَعَ الفاسِقون في الهَلَكةِ إلَّا مِن جَرَّاءِ إهمالِهم التَّدبُّرَ فيه، وذلك مِن نِسيانِهم اللهَ تَعالى؛ انتقَلَ الكلامُ إلى التَّنويهِ بالقرآنِ وهَدْيِه البيِّنِ الَّذي لا يَصرِفُ النَّاسَ عنه إلَّا أهْواؤُهم ومُكابَرتُهم، وكان إعراضُهم عنه أصلَ استِمرارِ ضَلالِهم وشِركِهم- ضرَبَ لهم هذا المثَلَ تَعجيبًا مِن تَصلُّبِهم في الضَّلالِ(١).

﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ ﴾.

أي: لو أنزَلْنا هذا القُرآنَ على أيِّ جَبَلٍ مِن الجِبالِ، فسَمِعَ كَلامَ اللهِ وفَهِمَه؛ لَرأيتَه في حالِ خُضوعٍ وذُلٍّ، وفي غايةِ التَّشَقُّقِ؛ لشِدَّةِ خَوفِه مِنَ اللهِ تعالى، رَغْمَ قَساوتِه وصلابتِه؛ وذلك لكمالِ تأثيرِ معاني القرآنِ العَظيمِ(٢).

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ [الرعد: ٣١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٥، ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨، ٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٦١، ٤٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٦، ١١٧).

قال ابنُ كثير: (فكيف يَليقُ بكم -أيُّها البَشَرُ- ألَّا تَلينَ قُلوبُكم وتَخشَعَ، وتتصَدَّعَ مِن خَشيةِ اللهِ، وقد فَهِمتُم عن اللهِ أمْرَه، وتدبَّرتُم كِتابَه؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٨).

﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

أي: وتلك الأمثالُ المَضروبةُ في القُرآنِ نَذكُرُها للنَّاسِ؛ لعَلَّهم يَتفَكَّرونَ فيها، فيَعتَبِرونَ بها ويتَّعِظونَ[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيه حَثٌّ على تقوى اللهِ[٢]، ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ في مجيءِ ﴿قَدَّمَتْ﴾ بصِيغةِ الماضي حَثٌّ على الإسراعِ في العَملِ، وعدَمِ التَّأخيرِ؛ لأنَّه لم يَملِكْ إلَّا ما قدَّمَ في الماضي، والمُستقبَلُ ليس بيَدِه، ولا يَدري ما يكونُ فيه: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[٣] [لقمان: ٣٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ وُجوبُ محاسَبةِ النَّفْسِ[٤]. والآيةُ أصلٌ في محاسَبةِ العَبدِ نَفْسَه، وأنَّه يَنبغي له أن يتفَقَّدَها؛ فإنْ رأى زَلَلًا تَدارَكَه بالإقلاعِ عنه، والتَّوبةِ النَّصوحِ، والإعراضِ عن الأسبابِ الموصِلةِ إليه، وإنْ رأى نَفْسَه مُقَصِّرًا في أمرٍ مِن أوامِرِ اللهِ، بَذَل جُهدَه واستعان برَبِّه في تكميلِه وتتميمِه وإتقانِه، ويقايِسُ بيْن مِنَنِ اللهِ عليه وإحسانِه، وبيْنَ تَقصيرِه؛ فإنَّ ذلك يُوجِبُ له الحَياءَ بلا مَحالةٍ.

والحِرمانُ كُلُّ الحِرمانِ أن يَغفُلَ العبدُ عن هذا الأمرِ، ويُشابِهَ قَومًا نَسُوا اللهَ، وغَفَلوا عن ذِكرِه والقيامِ بحَقِّه، وأقبَلوا على حُظوظِ أنفُسِهم وشَهَواتِها؛ فلم يَنجَحوا، ولم يَحصُلوا على طائِلٍ، بل أنساهم اللهُ مصالحَ أنفُسِهم، وأغفَلَهم عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٢)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٥٤).

(٤) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٨٤).

منافِعِها وفوائِدِها، فصار أمرُهم فُرُطًا، فرَجَعوا بخَسارةِ الدَّارَينِ، وغُبِنوا غَبنًا لا يُمكِنُهم تَدارُكُه، ولا يُجبَرُ كَسرُه؛ لأنَّهم هم الفاسِقونَ الَّذين خرَجوا عن طاعةِ رَبِّهم، وأوضَعوا في معاصيه، فهل يَستوي مَن حافَظَ على تقوى اللهِ ونَظَر لِما قدَّم لغَدِه، فاستحَقَّ جَنَّاتِ النَّعيمِ والعَيشَ السَّليمَ مع الَّذين أنعَمَ اللهُ عليهم مِن النَّبيِّينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ، ومَن غفَل عن ذِكرِ اللهِ، ونَسِيَ حُقوقَه؛ فشَقِيَ في الدُّنيا، واستحَقَّ العذابَ في الآخِرةِ؛ فالأوَّلونَ هم الفائِزونَ، والآخِرونَ هم الخاسِرونَ[1]؟!

٣- قال تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ جعَلَ اللهُ تعالى يومَ القيامةِ في القُربِ بمَنزِلةِ الغَدِ؛ تَهييجًا لِدَواعي العبادِ على الاستِعدادِ له، والعملِ مِن أجْلِه، كما قرَّب زمَنَ إهلاكِ القُرونِ الماضيةِ فقال: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]؛ لِيَكونَ ذلك في جهةِ الاعتِبارِ والادِّكارِ كأنَّه بالنِّسبةِ إلى يَومِهم الحاضِرِ أمْسِهم الذَّاهِبُ؛ فإنَّه أبْلَغُ في المَوعِظةِ والتَّخويفِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ تَنبيهٌ للنَّاسِ، وإيذانٌ لهم بأنَّهم لفَرْطِ غَفلتِهم وقِلَّةِ فِكرِهم في العاقِبةِ، وتَهالُكِهم على إيثارِ العاجِلةِ، واتِّباعِ الشَّهواتِ؛ كأنَّهم لا يَعرِفون الفرْقَ بيْن الجنَّةِ والنَّارِ، والبَونَ العظيمَ بيْن أصحابِهما، وأنَّ الفوزَ مع أصحابِ الجنَّةِ، فمِن حقِّهم أنْ يُعلَموا ذلك، ويُنبَّهوا عليه[3].

٥- قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ حثَّ على تأمُّلِ مَواعِظِ القُرآنِ، وبَيَّنَ أنَّه لا عُذْرَ في تَركِ التَّدَبُّرِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٨).

فإنَّه لو خُوطِبَ بهذا القُرآنِ الجِبالُ مع تركيبِ العَقلِ فيها، لَانقادت لِمَواعِظِه، ولَرأيتَها على صلابتِها ورزانتِها خاشِعةً متصَدِّعةً[١]! فالغرضُ تَوبيخُ الإنسانِ على قَسْوةِ قلْبِه، وقِلَّةِ خشوعِه عندَ تِلاوةِ القُرآنِ، وإعراضِه عن تَدبُّرِ آياتِه، والتَّفكُّرِ في عجائبِ ما صُرِّف فيه مِن الوعدِ والوعيدِ[٢].

٦- قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هذه الجِبالُ -وهي الحِجارةُ الصُّلبةُ- قد أخبَرَ عنها فاطِرُها وباريها أنَّه لو أنزَلَ عليها كلامَه لخَشَعت ولتصَدَّعَت من خَشيةِ اللهِ.

فيا عَجَبًا مِن مُضغةِ لَحمٍ أَقسى مِن هذه الجِبالِ! تَسمَعُ آياتِ اللهِ تُتلَى عليها، ويُذكَرُ الرَّبُّ تبارك وتعالى، فلا تَلينُ ولا تَخشَعُ ولا تُنيبُ؛ فليس بمُستَنكَرٍ على اللهِ عزَّ وجَلَّ، ولا يُخالِفُ حِكمتَه: أن يَخلُقَ لها نارًا تُذيبُها؛ إذ لم تَلِنْ بكلامِه وذِكْرِه، وزواجِرِه ومَواعِظِه، فمَن لم يَلِنْ لله في هذه الدَّارِ قَلْبُه، ولم يُنِبْ إليه، ولم يُذِبْه بحُبِّه والبكاءِ مِن خَشيتِه؛ فلْيَتمتَّعْ قليلًا؛ فإنَّ أمامَه المُلِيِّنَ الأعظَمَ، وسيُرَدُّ إلى عالِمِ الغَيبِ والشَّهادةِ، فيَرى ويَعلَمُ[٣]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ مِن أسبابِ لِينِ القَلبِ قراءةَ القُرآنِ الكريمِ؛ فإنَّه يُلَيِّنُ القَلبَ إذا قَرَأَه الإنسانُ بتدَبُّرٍ وتَمعُّنٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ١٩).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحَضُّ على تَدَبُّرِ القرآنِ وفِقْهِه وعَقْلِه، والتَّذَكُّرِ به والتَّفَكُّرِ فيه[1]. قال الحسَنُ: (يا ابْنَ آدَمَ، إذا وَسْوَسَ لك الشَّيطانُ بخطيئةٍ أو حدَّثتَ بها نفْسَك، فاذكُرْ عندَ ذلك ما حمَّلك اللهُ مِن كتابِه ممَّا لو حملَتْه الجبالُ الرَّواسي لَخَشعَتْ وتصَدَّعتْ، أمَا سمِعتَه يقولُ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ فإنَّما ضرَب لك الأمثالَ لِتَتفكَّرَ فيها، وتَعتبِرَ بها، وتَزدَجِرَ عن معاصي الله عزَّ وجلَّ، وأنت يا ابْنَ آدَمَ أحقُّ أن تَخشَعَ لِذِكْرِ الله، وما حمَّلك مِن كتابِه، وآتاك مِن حِكمةٍ؛ لأنَّ عليك الحسابَ، ولك الجنَّةَ أو النَّارَ)[2].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أخبَرَ تعالى أنَّه يَضرِبُ للنَّاسِ الأمثالَ، ويُوضِّحُ لعبادِه في كتابِه الحلالَ والحرامَ؛ مِن أجْلِ أن يتفكَّروا في آياتِه ويَتدَبَّروها؛ فإنَّ التَّفَكُّرَ فيها يَفتَحُ للعَبدِ خزائِنَ العِلمِ، ويُبَيِّنُ له طرُقَ الخَيرِ والشَّرِّ، ويَحُثُّه على مَكارِمِ الأخلاقِ، ومحاسِنِ الشِّيَمِ، ويَزجُرُه عن مَساوي الأخلاقِ؛ فلا أنفَعَ للعَبدِ مِن التَّفَكُّرِ في القُرآنِ، والتَّدَبُّرِ لِمَعانيه[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ فيه سؤالٌ: (الغَدُ): اليَومُ الَّذي يَعقُبُ لَيلتَك، فكيف أُطلِقَ على يومِ القيامةِ؟

**أجابوا عن ذلك مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** لَمَّا كان أمرُ القيامةِ كائِنًا لا مَحالةَ، عَبَّرَ عنه بالغَدِ، وهو اليومُ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

الَّذي يَلِي يَومَك، على سَبيلِ التَّقريبِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: عبَّرَ عن الآخِرةِ بالغَدِ، كأنَّ الدُّنيا والآخِرةَ نهارانِ: يومٌ، وغَدٌ[١].

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: يحتَمِلُ أن يريدَ بقَولِه ﴿لِغَدٍ﴾: ليَومِ الموتِ؛ لأنَّه لكُلِّ إنسانٍ كغَدِه[٢].

**الوَجهُ الرَّابعُ**: الغَدُ له معنيانِ: اليومُ الَّذي يَعقُبُ ليلتَك، ومُطلَقُ الزَّمانِ المُستَقبَلُ[٣]، فاللُّغةُ العربيَّةُ واسِعةٌ، تقولُ: غدًا لليَومِ الَّذي يَلي يومَك، وتقولُ غدًا لليَومِ الَّذي بعدَ يَومِك بآلافِ السِّنينَ، فقولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ يعني بـ «غَدٍ» يومَ القيامةِ، وبَيْنَك وبيْنَه مَسافاتٌ اللهُ أعلمُ بها، كذلك الأمسُ؛ فإنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ واسعةٌ، قد يُرادُ بالأمسِ ما قَبْلَ يومِك المباشرِ، وقد يُرادُ به ما قبْلَ يومِك بزَمَنٍ بعيدٍ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ حُجَّةٌ واضحةٌ لِمَن أراد المُبالَغةَ في وَصْفِ شيءٍ أنْ يُبالِغَ فيه، ولا يكونُ كاذِبًا ولا آثمًا؛ لأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه سمَّى الآخرةَ بـ «غَدٍ» كما ترى، وبَيْنَ نزولِ الآيةِ وبيْنَها دهرٌ طويلٌ[٥].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ أنَّ الاعترافَ بالخالقِ عِلمٌ ضَروريٌّ لازِمٌ للإنسانِ، لا يَغفُلُ عنه أحدٌ بحيثُ لا يَعرِفُه، بل لا بُدَّ أنْ يكونَ قد عَرَفَه وإنْ قُدِّرَ أنَّه نَسِيَه؛ ولهذا يُسمَّى التَّعريفُ بذلك تذكيرًا؛ فإنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٩).

(٤) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٢).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦١).

تذكيرٌ بعُلومٍ فِطريَّةٍ ضَروريَّةٍ قد يَنساها العَبدُ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ الجزاءُ بالمعاصي على المعاصي، وكقَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥][٢]. فقولُه: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ هذا مِن المُجازاةِ على الذَّنْبِ بالذَّنبِ؛ عُوقِبوا على نِسيانِ جِهةِ اللهِ تعالى، بأن أنساهم أنفُسَهم[٣]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أنَّ مَن عَرَفَ اللهَ عَرَفَ ما سِواه، ومَن جَهِلَ ربَّه فهو لِمَا سِواهُ أجهَلُ؛ فتأمَّلْ هذه الآيةَ تَجِدْ تَحتَها معنًى شَريفًا عَظيمًا، وهو أنَّ مَن نَسِيَ ربَّه أنساه ذاتَه ونفْسَه، فلم يَعرِفْ حقيقتَه ولا مَصالِحَه، بل نَسِيَ ما به صلاحُه وفَلاحُه في مَعاشِه ومَعادِه؛ فصار مُعَطَّلًا مُهمَلًا بمَنزِلةِ الأنعامِ السَّائمةِ، بل رُبَّما كانتِ الأنعامُ أَخْبَرَ بمَصالِحِها منه؛ لبَقائِها على هُداها التَّامِّ الَّذي أعطاها إيَّاه خالقُها، وأمَّا هذا فخَرَجَ عن فِطرتِه الَّتي خُلِقَ عليها، فنَسِيَ ربَّه، فأنساه نفْسَه وصِفاتِها وما تَكمُلُ به، وتَزكو به، وتَسْعَدُ به في مَعاشِها ومَعادِها[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أنَّ مَن أضاعَ اللهَ -أي: أضاع دِينَ اللهِ-، فإنَّ اللهَ يُضَيِّعُه ولا يَحفَظُه[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أنَّ مِن عُقوبةِ المعصيةِ أنَّها تُنسي العبدَ نفْسَه، وإذا نَسِيَ نفْسَه

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٠٤).

أهمَلَها وأفسَدَها وأهلَكَها[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ أنَّ دوامَ ذِكرِ الرَّبِّ تبارك وتعالى يُوجِبُ الأمانَ مِن نِسيانِه الَّذي هو سَبَبُ شَقاءِ العَبدِ في مَعاشِه ومَعادِه[٢].

٩- قوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾ يَقتضي نَفْيَ مُطلَقِ المُساواةِ بيْنَ المُسلمِ والكافرِ، لا نفْيَ المُساواةِ المُطلَقةِ؛ فإنَّها مُنتَفيةٌ عن كلِّ شيئينِ وإنْ تماثَلَا، وبهذه الآيةِ احتجَّ مَن نفى القِصاصَ بيْنَ أهلِ الذِّمَّةِ وبيْنَ المسلِمينَ[٣]، ومَن قال: إنَّ المسلِمَ لا يُقتَلُ بالذِّمِّيِّ[٤].

١٠- نفْيُ التَّساوي في كتابِ الله تعالى قد يأتي بيْنَ الفِعلَينِ، كقولِه تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ١٩]، وقد يأتي بيْنَ الفاعِلَينِ، نحو: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ [النساء: ٩٥]، وقد يأتي بيْن الجَزاءَينِ، كقولِه: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ﴾، وقد جمَع اللهُ بيْن الثَّلاثةِ في موضعٍ واحدٍ، وهو قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ۝ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ [فاطر: ١٩ - ٢٢]؛ فالأعمى والبصيرُ: الجاهلُ والعالِمُ، والظُّلماتُ والنُّورُ: الكفرُ والإيمانُ، والظِّلُّ والحَرورُ: الجنَّةُ والنَّارُ، والأحياءُ والأمواتُ: المؤمنونَ

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٥٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٢).

وهو مذهبُ الشَّافعيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٧/ ١٣٦) و(٣١/ ٣٤٢).

والكفَّارُ[١].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يكونُ هذا تأثيرَ القُرآنِ لو أُنزِلَ على الجِبالِ، ولم تتأثَّرْ به القُلوبُ؟

**الجوابُ**: أجاب القُرآنُ عن ذلك في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وكذلك أَصَمُّوا آذانَهم عن سَماعِه، وغَلَّفوا قُلوبَهم بالكُفرِ عن فَهْمِه، وأَوْصَدوها بأقْفالِها، فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾ [البقرة: ٨٨]، وكذلك قَولُه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الكهف: ٥٧]، أي: بسَبَبِ الإعراضِ، وعَدَمِ التَّدَبُّرِ، والنِّسيانِ[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ للجَبَلِ إحساسًا؛ لأنَّه يَخشَعُ ويَتصَدَّعُ، والأمرُ كذلك؛ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أُحُدٍ: ((هذا أُحُدٌ، جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه))[٣].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ضَربُ الأمثالِ في القرآنِ يُستفادُ منه أمورٌ: التَّذكيرُ والوَعظُ، والحَثُّ والزَّجرُ، والاعتبارُ والتَّقريرُ، وتقريبُ المرادِ للعَقلِ، وتَصويرُه في صورةِ المحسوسِ، بحيثُ يكونُ نِسبَتُه للعَقلِ كنِسبةِ المحسوسِ إلى الحِسِّ. وقد تأتي أمثالُ القُرآنِ مُشتَمِلةً على

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٨، ٩).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٧٣).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٤٤٢٢)، ومسلمٌ (١٣٩٢) مِن حديثِ أبي حُمَيدٍ السَّاعديِّ رضيَ الله عنه.

بيانِ تَفاوُتِ الأجرِ على المَدحِ والذَّمِّ، وعلى الثَّوابِ والعِقابِ، وعلى تفخيمِ الأمرِ أو تحقيرِه، وعلى تحقيقِ أمرٍ وإبطالِ أمرٍ. واللهُ أعلَمُ(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾ تَنكيرُ النَّفْسِ لاستِقلالِ -أي: لتَقليلِ- الأنفُسِ النَّواظِرِ فيما قدَّمْن للآخِرةِ، وتَنكيرُ (الغَدِ)؛ لتَعظيمِه وإبهامِ أمْرِه، كأنَّه قِيل: لغَدٍ لا يُعرَفُ كُنْهُه لِعِظَمِه، وأصلُ الكلامِ: يا أيُّها الَّذينَ آمَنوا اتَّقوا اللهَ وانْظُروا ما تُقدِّموا لأنفُسِكم ليَومِ القِيامةِ؛ فوُضِعَ مَوضِعَ الضَّميرِ ﴿نَفۡسٞ﴾ مَنكورةً؛ تقليلًا لها، وتَقريعًا على قِلَّةِ نَظَرِها في العاقِبةِ، وأُقِيمَ مُقامَ يومِ القيامةِ (غَد) مَنْكورًا؛ تَهويلًا، كأنَّه قِيل: فلْتَنظُرْ نفْسٌ واحدةٌ لذلك اليَومِ الهَولِ(٢).

وقيل: ذِكرُ كَلمةِ ﴿نَفۡسٞ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ: وانْظُروا ما قدَّمْتُم؛ فعُدِلَ عن الإظهارِ لقَصْدِ العمومِ، أي: لِتَنْظُروا وتَنظُرْ كلُّ نفْسٍ. وتَنكيرُ ﴿نَفۡسٞ﴾ يُفيدُ العُمومَ في سِياقِ الأمرِ، أي: لِتَنظُرْ كلُّ نفْسٍ، وإنَّما لم يُعرَّفْ بلامِ التَّعريفِ تَنصيصًا على العُمومِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ نفْسٌ مَعهودةٌ(٣).

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- مع حاشية ابن المنير)) (١/ ٣٩٦)، (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣٩، ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٠، ١١١).

- و(التَّقديمُ) مُعبَّرٌ به هنا عن العمَلِ الَّذي يُعمَلُ لتَحصيلِ فائدتِه في زمَنٍ آتٍ؛ شُبِّهَ قصْدُ الانتِفاعِ به في المُستقبَلِ بتَقديمِ مَن يَحُلُّ في المَنزِلِ قبْلَ وُرودِ السَّائرينَ إليه مِن جَيشٍ أو سَفَرٍ ليُهيِّئَ لهم ما يُصلِحُ أمْرَهم، ومنه مُقدِّمةُ الجَيشِ، وتَقديمُ الرَّائدِ قبْلَ القافلةِ[1].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ إعادةُ وتَكرُّرُ الأمرِ بالتَّقْوى في قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ ليُبْنى عليه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، فيَحصُلَ الرَّبطُ بيْن التَّعليلِ والمُعلَّلِ؛ إذ وقَعَ بيْنَهما فصْلٌ بـ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾، وإنَّما أُعِيدَ بطَريقِ العطْفِ لزِيادةِ التَّأكيدِ؛ وذلك أنَّ في العطفِ إيهامَ أنْ يكونَ التَّوكيدُ يُجعَلُ كالتَّأسيسِ؛ لزِيادةِ الاهتمامِ بالمُؤكَّدِ. أو كُرِّرَ الأمرُ بالتَّقْوى لاختلافِ مُتعلَّقِ التَّقْوى؛ فالأُولى في أداءِ الفرائضِ؛ لأنَّه مُقترِنٌ بالعمَلِ، والثَّانيةُ في ترْكِ المعاصي؛ لأنَّه مُقترِنٌ بالتَّهديدِ والوعيدِ.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ المذكورُ أوَّلًا مُرادًا به التَّقوى بمعْنى الخَوفِ مِن اللهِ، وهي الباعثةُ على العملِ؛ ولذلك أُردِفَ بقولِه: ﴿وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ﴾، ويكونَ ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ المذكورُ ثانيًا مُرادًا به الدَّوامُ على التَّقوى الأُولى، أي: ودُوموا على التَّقوى؛ ولذلك أُردِفَ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، أي: بمِقدارِ اجتِهادِكم في التَّقوى، وأُردِفَ بقولِه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر: ١٩]، أي: أهْمَلوا التَّقْوى بعْدَ أنْ تَقلَّدُوها[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٢).

وقيل: التَّقْوى الأُولى لإيجادِ صُوَرِ الأعمالِ، والثَّانيةُ لتَصفيتِها وتزكيةِ أرواحِها؛ ولذلك عَلَّل بقَولِه مُرَغِّبًا مُرَهِّبًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[١].

وقيل: الأمرُ بتقوى اللهِ أوَّلًا بالنِّسبةِ لِما مضى وسبَقَ مِن عَمَلٍ تقَدَّمَ بالفِعْلِ، ويكونُ النَّظَرُ بمعنى المحاسَبةِ والتَّأَمُّلِ، فإذا ما نَظَر في الماضي وحاسَبَ نَفْسَه، وعَلِمَ ما كان مِن تقصيرٍ أو وُقوعٍ في محظورٍ، جاءه الأمرُ الثَّاني بتقوى اللهِ لِما يَستَقبِلُ مِن عَمَلٍ جديدٍ، ومُراقَبةِ اللهِ تعالى عليه ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فلا يكونُ هناك تَكرارٌ، ولا يكونُ تَوزيعٌ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تَعليلٌ للحثِّ على تَقْوى اللهِ، ومَوقعُ (إنَّ) فيها مَوقعُ التَّعليلِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ إظهارُ اسمِ الجَلالةِ في مَقامِ الإضمارِ، فتَكونُ الجُملةُ مُستقِلَّةً بدَلالتِها أتمَّ استقلالٍ، فتَجْري مَجْرى الأمثالِ، ولتَربيةِ المَهابةِ في نفْسِ المُخاطَبينَ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ جِيءَ في النَّهي بنَهْيِهم عن حالةِ قَومٍ تَحقَّقت فيهم هذه الصِّلةُ؛ ليَكونَ النَّهيُ عن إضاعةِ التَّقوى مُصَوَّرًا في صُورةٍ مَحسوسةٍ هي صُورةُ قَومٍ تَحقَّقت فيهم تلك الصِّلةُ، وهم الَّذين أعْرَضوا عن التَّقوى[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٢، ١١٣).

- قولُه: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ قيل: ظاهرُ الموصولِ أنَّه لطائفةٍ مَعهودةٍ، فيحتملُ أنْ يُرادَ بـ(الَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ) المنافِقون؛ لأنَّهم كانوا مُشرِكين ولم يَهتَدُوا للتَّوحيدِ بهُدى الإسلامِ، فعُبِّرَ عن النِّفاقِ بنِسيانِ اللهِ؛ لأنَّه جهْلٌ بصِفاتِ اللهِ مِن التَّوحيدِ والكمالِ، وعبَّرَ عنهم بالفاسِقِينَ قولُه تَعالى: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]؛ فتَكونَ هذه الآيةُ ناظِرةً إلى تلك. ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ بهم اليهودَ؛ لأنَّهم أضاعوا دِينَهم، ولم يَقبَلوا رِسالةَ عِيسى عليه السَّلامُ، وكَفَروا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالمعْنى: نَسُوا دِينَ اللهِ ومِيثاقَه الَّذي واثَقَهم به، وقد أُطلِقَ نِسيانُهم على التَّرْكِ والإعراضِ عن عمْدٍ، أي: فنَسُوا دَلائلَ تَوحيدِ اللهِ، ودَلائلَ صِفاتِه، ودَلائلَ صِدقِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وفَهْمِ كِتابِه، فالكلامُ بتَقديرِ حذْفِ مُضافٍ أو مُضافَينِ(١).

- وإظهارُ اسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾، دونَ أنْ يُقالَ: نَسُوه؛ لاستِفظاعِ هذا النِّسيانِ، فعُلِّقَ باسمِ اللهِ الَّذي خَلَقَهم وأرْشَدَهم(٢).

- وأشعَرَ فاءُ التَّسبُّبِ في ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ بأنَّ إنساءَ اللهِ إيَّاهم أنفُسَهم مُسبَّبٌ على نِسيانِهم اللهَ(٣).

- وجُملةُ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا لبَيانِ الإبهامِ الَّذي أفادَهُ قولُه: ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، كأنَّ السَّامعَ سأَلَ: ماذا كان إثرَ إنْساءِ اللهِ إيَّاهم أنفُسَهم؟ فأُجِيبَ بأنَّهم بَلَغوا بسَببِ ذلك مُنْتهى الفِسقِ في الأعمالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٣).

السَّيِّئةِ حتَّى حقَّ عليهم أنْ يُقالَ: إنَّه لا فِسقَ بعْدَ فِسقِهم[١].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفصْلِ في قولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٢]؛ للمُبالَغةِ في وصْفِهم بشِدَّةِ الفِسقِ، حتَّى كأنَّ فِسقَ غَيرِهم ليس بفِسقٍ في جانبِ فِسقِهم[٣].

- وأيضًا يُستفادُ عِظَمُ الفِسقِ مِن تَعريفِ الخَبرِ بلامِ الجِنسِ، أي: همُ الكامِلون في الفِسقِ[٤].

- واسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتَّشهيرِ بهم بهذا الوصْفِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾

- قولُه: ﴿لَا يَسۡتَوِيٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۚ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ تَذْييلٌ لجُملةِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖ...﴾ [الحشر: ١٨] إلخ؛ لأنَّه جامعٌ لخُلاصةِ عاقِبةِ الحالَينِ: حالِ التَّقْوى والاستِعدادِ للآخِرةِ، وحالِ نِسيانِ ذلك وإهمالِه، ولِكلَا الفَريقينِ عاقِبةُ عَمَلِه، ويَشملُ الفَريقينِ وأمثالَهم، والجُملةُ أيضًا فَذْلَكةٌ[٦] لِما قبْلَها مِن حالِ المُتَّقينَ والَّذين نَسُوا اللهَ ونَسُوا أنفُسَهم؛ لأنَّ ذِكرَ مِثلِ هذا الكلامِ بعْدَ ذِكرِ أحوالِ المُتحدَّثِ عنه يكونُ في الغالبِ للتَّعريضِ؛ فمعْنى الآيةِ كِنايةٌ عن كَونِ المؤمنينَ همْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

(٦) تقدَّم تعريفُها (ص: ١٦١).

أصحابَ الجنَّةِ، وكَونِ الَّذين نَسُوا اللهَ همْ أهلَ النارِ، فتَضمَّنَت الآيةُ وعْدًا للمُتَّقينَ، ووَعيدًا للفاسِقين[١].

- وتَقديمُ أصحابِ النَّارِ في الذِّكرِ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ المقصورَ الَّذي يُنبِئُ عنه عدَمُ الاستِواءِ مِن جِهتِهِم لا مِن جِهةِ مُقابلِيهِم؛ فإنَّ مَفهومَ عدَمِ الاستواءِ بيْن الشَّيئينِ المُتفاوِتَينِ زِيادةً ونُقصانًا، وإنْ جازَ اعتِبارُه بحسَبِ زِيادةِ الزَّائدِ، لكنِ المُتبادِرُ اعتبارُه بحسَبِ نُقصانِ النَّاقصِ[٢]، وبيانُ ذلك أنَّ الفَرْقَ بيْن المتفاوتَينَ في الزِّيادةِ والنَّقصِ يمكنُ اعتبارُ التَّفاوُتِ بالنِّسبةِ إلى النَّقصِ في النَّاقصِ، ويمكن اعتبارُه بالنِّسبةِ إلى الزِّيادة في الزَّائدِ؛ فقدَّمَ الجانبَ النَّاقصَ ليُبيِّنَ أنَّ التَّفاوُتَ الَّذي حصَل بيْنَهما إنَّما هو بسَببِ النَّقصِ الَّذي جاء منهما، لا بسببِ الزِّيادةِ في الفريقِ الثَّاني، والنَّتيجةُ في ذلك عدمُ إمكانِ جانبِ النَّقصِ الاحتِجاجَ على جانبِ الزِّيادةِ. وفيه زيادةُ تأنيبٍ لجانبِ النَّقصِ[٣].

- وقيل: إنَّ الملوكَ إذا أرادُوا الجمْعَ بيْنَ الأشياءِ بالذِّكرِ قدَّموا الأدْنَى، والتَّقديمُ في الذِّكْرِ لا يَقتضي تشريفًا[٤].

- والمُرادُ مِن نفْيِ الاستِواءِ في مِثلِ هذا الكنايةُ عن البَونِ بيْن الشَّيئينِ[٥].

- قولُه: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ استِئنافٌ مُبَيِّنٌ لكَيفيَّةِ عدَمِ الاستِواءِ بيْنَ الفَريقَينِ، أي: هُمُ الفائزونَ بكلِّ مَطلوبٍ، النَّاجون مِن كلِّ مَكروهٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٤ / ٣٤٩، ٣٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣).

- والقصرُ المُستفادُ مِن ضَميرِ الفصْلِ في قولِه تَعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ قصْرٌ ادِّعائيٌّ[١]؛ لأنَّ فَوزَهم أبَديٌّ، فاعتُبِرَ فَوزُ غَيرِهم ببَعضِ أُمورِ الدُّنيا كالعدَمِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ انتقَلَ الكلامُ إلى التَّنويهِ بالقرآنِ وهَدْيِه البيِّنِ، وفي هذا الانتِقالِ إيذانٌ بانتهاءِ السُّورةِ؛ لأنَّه انتِقالٌ بعْدَ طُولِ الكلامِ في غرَضِ فتْحِ قُرى اليهودِ وما يَنالُ المنافِقين مِن جَرَّائِه مِن خُسرانٍ في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

- فائدةُ الإتيانِ باسمِ إشارةِ القريبِ (هذا) في قولِه تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ...﴾ التَّعريضُ لهم بأنَّ القُرآنَ غيرُ بَعيدٍ عنْهم، وأنَّه في مُتناوَلِهم، ولا كُلْفةَ عليهم في تَدبُّرِه، ولكنَّهم قَصَدوا الإعراضَ عنه[٤].

- والخِطابُ في ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ﴾ لغَيرِ مُعيَّنٍ؛ فيَعُمُّ كلَّ مَن يَسمَعُ هذا الكلامَ، والرُّؤيةُ بَصريَّةٌ، وهي مَنْفيَّةٌ لوُقوعِها جَوابًا لحرْفِ (لو) الامتناعيَّةِ، والمعْنى: لو كان كذلك لَرَأيتَ الجَبَلَ في حالةِ الخُشوعِ والتَّصدُّعِ[٥].

- وجُملةُ ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ ما قبْلَها سِيقَ مَساقَ المَثَلِ، فذُيِّلَ بأنَّ الأمثالَ الَّتي يَضرِبُها اللهُ في كَلامِه -مِثلَ هذا المثَلِ- أراد

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٥، ١١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٧).

منها أنْ يَتفكَّروا، فإنْ لم يَتفكَّروا بها فقد سُجِّلَ عليهم عِنادُهم ومُكابرتُهم؛ فالإشارةُ بـ (تِلْكَ) إلى مَجموعِ ما مرَّ على أسْماعِهم مِن الأمثالِ الكثيرةِ، وتَقديرُ الكلامِ: ضَرَبْنا هذا مَثَلًا، وتلك الأمثالُ نَضرِبُها للنَّاسِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٧).

## الآيات (٢٢-٢٤)

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾: أي: الطَّاهرُ مِن كلِّ عيبٍ، المُنَزَّهُ عن كُلِّ نَقصٍ، مِن «القُدْس» وهو: الطَّهارةُ، وأصلُ (قدس): يدُلُّ على الطُّهرِ[1].

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾: أي: الَّذي سَلِمَ مِن كلِّ عَيبٍ، وبَرِئَ مِن كلِّ آفةٍ ونَقْصٍ يَلْحَقُ المَخْلوقينَ، وأصلُ (سلم): الصِّحَّةُ والعافِيةُ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٠)، ((تفسير الرسعني)) (٢/ ٣٢٠).

قال ابن القيِّم: (أمَّا السَّلامُ الَّذي هو اسمٌ مِن أسماءِ الله، ففيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه... اسمُ مصدرٍ، وإطلاقُه عليه كإطلاقِ العدلِ عليه، والمعنى أنَّه ذو السَّلام وذو العدلِ، على حذفِ المُضافِ. والثَّاني: أنَّ المصدرَ بمعنى الفاعِلِ هنا، أي: السَّالم، كما سُمِّيَتْ لَيلةُ القَدْرِ سَلامًا، أي: سالِمةً مِن كلِّ شرٍّ، بل هي خَيرٌ لا شرَّ فيها. وأحسَنُ مِن القَولَينِ وأَقْيَسُ في العربيَّةِ أن يكونَ نفْسُ السَّلامِ مِن أسمائِه تعالى، كالعدلِ، وهو مِن بابِ إطلاقِ المصدرِ على الفاعِلِ لِكَونِه غالبًا عليه، مُكرَّرًا منه، كقولِهم: رجُلٌ صَومٌ وعدلٌ وزَورٌ، وبابه، وأمَّا السَّلامُ الَّذي هو بمعنى السَّلامةِ فهو مصدرٌ نفْسُه، وهو مِثلُ الجَلالِ والجَلالةِ، فإذا حذَفْتَ التَّاءَ كان المرادُ نفْسَ المصدرِ، وإذا أَتَيْتَ بالتَّاءِ كان فيه إيذانٌ بالتَّحديدِ بالمرَّةِ مِن المَصدرِ، كالحبِّ والحبَّةِ، فالسَّلامُ والجَمالُ والجَلالُ كالجِنسِ العامِّ مِن حيثُ لم يكُنْ فيه تاءُ التَّحديدِ، والسَّلامةُ والجَلالةُ والمَلاحةُ والفَصاحةُ =

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: أي: الَّذي يُؤمِنُ عِبادَه المؤمنينَ مِن بأسِه وعَذابِه، فيَأْمَنون، أو الَّذي آمَنَ الخَلْقَ مِن ظُلمِه، مِن الأمانِ، أو المُصَدِّقُ لِرُسُلِه وأنبيائِه بما جاؤوا به، بالآياتِ والبَراهينِ والحُجَجِ، أو هو الَّذي يَصدُقُ ما وَعَدَ عِبادَه مِنَ الثَّوابِ، أو الَّذي يُصدقُ ظُنونَ عِبادِه المؤمنينَ، ولا يُخَيِّبُ آمالَهم، على أنَّ المؤمنَ: المُصَدِّقُ، مِن الإيمانِ، وهو التَّصديقُ(١).

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: أي: القائمُ على خَلقِه بأعمالِهم وأرزاقِهم وآجالِهم، باطِّلاعِه واستيلائه وحِفظِه، وكلُّ مُشرِفٍ على كُنهِ الأمرِ مُستَوْلٍ عليه حافِظٍ له فهو مُهَيمِنٌ عليه، وأصلُ الهيمَنةِ: الحِفظُ والارتِقابُ، يُقالُ إذا رقَبَ الرَّجُلُ الشَّيءَ وحَفِظَه وشَهِدَه: قد هَيمَنَ فُلانٌ عليه. وقيل: المُهَيمِنُ: الشَّاهِدُ على خَلْقِه بما يكونُ منهم

---

= كلُّها تدُلُّ على الخَصلةِ الواحدةِ، ألَا ترى أنَّ المَلاحةَ خَصلةٌ مِن خِصالِ الكمالِ، والجَلالةَ مِن خِصالِ الجَلالِ؛ ولهذا لم يَقولوا: كمالة، كما قالوا: ملاحة، وفصاحة؛ لأنَّ الكمالَ اسمٌ جامعٌ لِصِفاتِ الشَّرفِ والفضلِ، فلو قالوا: كمالة، لَنَقَضوا الغرضَ المقصودَ مِن اسمِ الكمالِ، فتأمَّلْه... فتأمَّلِ الآنَ كيف جاء السَّلامُ مجرَّدًا عن التَّاءِ؛ إيذانًا بحُصولِ المسمَّى التَّامِّ؛ إذ لا يَحصُلُ المقصودُ إلَّا به؛ فإنَّه لو سَلِم مِن آفةٍ ووقَع في آفةٍ لم يكُنْ قد حصَل له السَّلامُ، فوضَح أنَّ السَّلامَ لم يخرُجْ عن المَصدريَّةِ في جميعِ وُجوهِه). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ١٣٨).

وقال أيضًا: (لَمَّا كان السَّلامُ اسمًا مِن أسماءِ الرَّبِّ تبارك وتعالى، وهو اسمُ مصدرٍ في الأصلِ -كالكلامِ والعَطاءِ- بمعنَى السَّلامةِ؛ كان الرَّبُّ تعالى أحقَّ به مِن كلِّ ما سِواه؛ لأنَّه السَّالمُ مِن كلِّ آفةٍ وعَيبٍ ونقْصٍ وذمٍّ؛ فإنَّ له الكمالَ المُطلَقَ مِن جميعِ الوُجوهِ، وكمالُه مِن لَوازِمِ ذاتِه، فلا يكونُ إلَّا كذلك، والسَّلامُ يَتضمَّنُ سلامةَ أفعالِه مِن العبَثِ والظُّلْمِ وخِلافِ الحِكمةِ، وسلامةَ صِفاتِه مِن مُشابَهةِ صِفاتِ المخلوقينَ، وسلامةَ ذاتِه مِن كلِّ نقصٍ وعَيبٍ، وسلامةَ أسمائِه مِن كلِّ ذَمٍّ؛ فاسمُ السَّلامِ يَتضمَّنُ إثباتَ جميعِ الكمالاتِ له، وسَلْبَ جميعِ النَّقائصِ عنه). ((أحكام أهل الذمة)) (١/ ٤١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٢١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٥)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/ ٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

مِن قولٍ أو فعلٍ. وقيلَ: المُهَيمِنُ: الأمينُ[١].

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: أي: الَّذي اتَّصَف بالعِزَّة التَّامَّة: عِزَّةِ القَدْرِ -فهو عظيمُ القَدرِ، لا يَبلُغُ أحدٌ قَدْرَه، فلا مِثلَ له، ولا نَظيرَ-، وعِزَّةِ القَهْرِ -فهو قاهرٌ غالبٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ-، وعِزَّةِ الامتِناعِ، فهو مُمْتَنِعٌ عليه النَّقصُ بأيِّ وجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهما مِن غَلَبةٍ وقَهْرٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٦) و (٢٢/ ٥٥٢)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٣٩٥)، ((المقصد الأسنى)) للغزالي (ص: ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٣٩)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٦).

قال الخَطَّابي: (والعزُّ في كلامِ العَرَبِ على ثلاثةِ أوْجُهٍ:

أحَدُها: بمعنَى الغَلَبةِ، ومنه قولُهم: مَنْ عزَّ بزَّ، أي: مَنْ غَلَب سَلَبَ...

والثَّاني: بمعنَى الشِّدَّةِ والقوَّةِ...

والوجهُ الثَّالثُ: أنْ يكونَ بمعنَى نَفاسةِ القَدرِ... فيتأوَّلُ معنى العزيزِ على هذا؛ أنَّه الَّذي لا يُعادِلُه شَيءٌ، وأنَّه لا مِثلَ له ولا نَظيرَ). ((شأن الدعاء)) (١/ ٤٧).

وقال الزَّجَّاجي: (العزيزُ في كلامِ العربِ على أربعةِ أوجُهٍ:

العزيزُ: الغالبُ القاهرُ، والعِزَّةُ: الغَلَبةُ، والمُعازَّةُ: المُغالَبةُ، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي: غلَبَني في مُحاوَرةِ الكلامِ...

والعزيزُ: الجليلُ الشَّريفُ، ومنه قولُهم: إذا عَزَّ أخوك فهُنْ، وقولُهم: فُلانٌ يَعتَزُّ بفُلانٍ، أي: يَتجالَلُ به ويَتشرَّفُ ويَتكبَّرُ. وكذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، أي: لَيُخرِجَنَّ الجليلُ الشَّريفُ منها الذَّليلَ...

والوجهُ الثَّالثُ: أن يكونَ العزيزُ بمعنى القويِّ...

والوجهُ الرَّابعُ: أن يكونَ العزيزُ بمعنى الشَّيءِ القليلِ الوُجودِ، المُنقطِعِ النَّظيرِ، يُقالُ: عزَّ الشَّيءُ =

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾: الجَبَّارُ بمعنى العَليِّ الأعلى، مِن قَولِهم: تَجَبَّرَ النَّباتُ: إذا عَلا، ويُقالُ للنَّخلةِ إذا طالتْ وارتفعتْ وفاتَتِ الأيديَ: جَبَّارةٌ. وبمعنَى القَهَّارِ، الَّذي جَبَر الخَلْقَ على ما أراد، ودانَ له كلُّ شَيءٍ وخضَعَ، يُقالُ: أجبَرْتُه على كذا وجبَرْتُه؛ إذا أكرَهْتَه وقهَرْتَه عليه. وبمعنى الرَّؤوفِ، الَّذي يَجبُرُ الضَّعيفَ بالغِنى والقوَّةِ، ويجبُرُ الكَسيرَ بالسَّلامةِ، ويجبُرُ المُنكَسِرةَ قُلوبُهم، يُقالُ: جَبَرتُ عَظْمَه مِن كَسرٍ، وهذا مِن الإصلاحِ، وقيل: أصلُ الجَبْرِ: إصلاحُ الشَّيءِ بضَربٍ مِن القَهرِ. والجبَّارُ: ذو الكبرياءِ والعَظَمةِ، يُقالُ: قَومٌ فيهم جَبريَّةٌ، أي: عَظَمةٌ وكِبرٌ، والجبَّارُ: الملِكُ، يُسمَّى بذلك؛ لِتَجَبُّرِه، وأصلُ (جبر): جِنْسٌ مِن العَظَمةِ والعُلوِّ والاستِقامةِ[1].

---

= عِزَّةً فهو عزيزٌ؛ غيرُ موجودٍ.

فهذه أربعةُ أوجُهٍ في العزيزِ، يجوزُ وصْفُ الله عزَّ وجلَّ بها؛ يُقالُ: «اللهُ العزيزُ» بمعنى الغالِبِ القاهِرِ، و«اللهُ العزيزُ» أي: هو الجليلُ العظيمُ، و«اللهُ العزيزُ» بمعنى القويِّ... و«اللهُ العزيزُ» أي: هو غيرُ مَوجودِ النَّظيرِ والمِثلِ جلَّ وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا). ((اشتقاق أسماء الله)) (ص: ٢٣٧).

وقال ابن القيِّم: (والعِزَّةُ يُرادُ بها ثلاثةُ مَعانٍ: عزَّةُ القوَّةِ، وعزَّةُ الامتِناعِ، وعزَّةُ القهرِ، والرَّبُّ تبارك وتعالى له العزَّةُ التَّامَّةُ بالاعتِباراتِ الثَّلاثِ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١٩)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٤٠)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٧٦)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٥٩) و(٦/ ١٧٥).

قال ابن القيِّم: (الجبَّارُ في صفةِ الرَّبِّ سُبحانَه تَرجِعُ إلى ثلاثةِ مَعانٍ: المُلْكُ، والقهرُ، والعُلُوُّ). ((شفاء العليل)) (ص: ١٢٠).

وقال السعدي بعدَ أنْ ذكَرَ أنَّ الجبَّارَ بمعنى العَليِّ الأعلى، وبمعنى القهَّارِ، وبمعنى الرَّؤوفِ: (وقد يُرادُ به معنًى رابعٌ، وهو المُتكَبِّرُ عن كلِّ سوءٍ ونَقصٍ، وعن مُماثَلةِ أحَدٍ، وعن أن يكونَ =

﴿ٱلْبَارِئُ﴾: أي: الخالِقُ المُنشِئُ مِنَ العَدَمِ، وأصلُ (برأ) هنا: يدُلُّ على الخَلقِ[١].

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾: المُوجِدُ لصُورِ الأشياءِ ومُرَكِّبُها على هَيئاتٍ مُختَلِفةٍ، والتَّصويرُ: التَّخطيطُ والتَّشكيلُ، وهو مُرتَّبٌ على الخَلقِ والبَرْأِ وتابِعٌ لهما[٢].

﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الحُسنى: تأنيثُ الأحسَنِ، كالكُبرى تأنيثُ الأكبَرِ، وهو صيغةُ تفضيلٍ، فالحُسنى أي: الَّتي هي أحسَنُ مِن غَيرِها؛ فهي أحسَنُ الأسماءِ لِدَلالتِها على أحسَنِ مُسَمًّى، وأشرَفِ مَدلولٍ. وقيل: هي مَصدرٌ وُصِف به، وحُسنُ أسماءِ الله هي أنَّها صِفةُ مَدحٍ وتعظيمٍ وتحميدٍ[٣].

---

= له كُفؤٌ أو ضِدٌّ أو سَمِيٌّ أو شَريكٌ في خصائصِه وحقوقِه). ((تفسير أسماء الله الحسنى)) (ص: ١٧٦).

وقال ابن عثيمين: (ومِن أسمائه تعالى «الجَبَّارُ»، وله ثلاثةُ مَعانٍ: جَبرُ القوَّةِ، وجبرُ الرَّحمةِ، وجبرُ العُلوِّ). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٦/ ١٧٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٢٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٧/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٣٠٥)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٤/ ٣٥١).

قال الشنقيطي: (وإنَّما وصَف أسماءَه جلَّ وعلا بلَفظِ المؤنَّثِ المُفرَدِ؛ لأنَّ جمْعَ التَّكسيرِ مُطلَقًا وجمْعَ المؤنَّثِ السَّالِمَ يَجريانِ مَجرَى المؤنَّثةِ الواحدةِ المَجازيَّةِ التَّأنيثِ). ((أضواء البيان)) (٤/ ٧).

وقال الواحدي: (لأنَّها مؤنَّثةٌ، والجماعةُ توصَفُ بصِفةِ المؤنَّثِ الواحدِ، كقولِه: ﴿حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ [النمل: ٦٠]، و﴿مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]، كأنَّها اسمٌ واحدٌ للجميعِ). ((البسيط)) (١٤/ ٣٦١).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُثنيًا على ذاتِه، ومبيِّنًا بعضَ أسمائِه الحسنَى: هو اللهُ الَّذي لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو سُبحانَه، عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ، هو الرَّحمنُ الرَّحيمُ، هو اللهُ الَّذي لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو سُبحانَه، المَلِكُ الحَقُّ، المتَّصِفُ بالطُّهرِ التَّامِّ، والنَّزاهةِ البالِغةِ، المتَّصِفُ بالسَّلامةِ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى وسُوءٍ، واهِبُ الأمنِ، الَّذي يصدقُ رُسُلَه بالآياتِ، والمؤمنينَ ما وعَدَهم به مِن الثَّوابِ، والكافِرينَ ما أَوْعَدَهم مِن العِقابِ، الشَّاهِدُ الحافِظُ الرَّقيبُ على خَلْقِه، القائمُ عليهم باطِّلاعِه واستيلائه وحِفظِه، المُتَّصِفُ بالعِزَّةِ التَّامَّةِ: الَّذي قد عَظُمَ قَدْرُه، وامتنَع عليه النَّقصُ بأيِّ وجهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وغلَب كلَّ شَيءٍ فلا يُغلَبُ سُبحانَه، العَظيمُ القاهِرُ الَّذي قهَرَ جميعَ العِبادِ، المُصْلِحُ أُمورَ خَلْقِه، والَّذي يُصَرِّفُهم فيما فيه صَلاحُهم، المُتعَظِّمُ على جَميعِ خَلْقِه، تنزَّهَ اللهُ عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ وسُوءٍ، وعن أن يكونَ له شَريكٌ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ!

هو اللهُ المعبودُ بحَقٍّ، المُتفَرِّدُ بتَقديرِ جَميعِ المخلوقاتِ وإنشائِها على غَيرِ مِثالٍ سَبَقَ، الَّذي أحيا وأوجَدَ مِنَ العَدَمِ، والَّذي يُصَوِّرُ كُلَّ مَخلوقٍ في أيِّ صُورةٍ شاءَها سُبحانَه، له وَحْدَه الأسماءُ الحُسنى، يُنَزِّهُه عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ، وهو العزيزُ الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تَكرَّرَ في هذه السُّورةِ ذِكرُ اسمِ اللهِ وضَمائرِه وصِفاتِه أرْبعينَ مرَّةً، منها

أربعٌ وعِشرون بذِكرِ اسمِ الجلالةِ، وستَّ عَشْرةَ مرَّةً بذِكرِ ضَميرِه الظَّاهرِ، أو صِفاتِه العَلِيَّةِ، وكان ما تَضمَّنَتْه السُّورةُ دَلائلَ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وبَديعِ تَصرُّفِه وحِكمتِه، وكان ممَّا حَوَتْه السُّورةُ الاعتبارُ بعَظيمِ قُدرةِ اللهِ؛ إذ أيَّدَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلمينَ ونَصَرَهم على بَني النَّضيرِ ذلك النَّصرَ الخارقَ للعادةِ، وذُكِرَ ما حلَّ بالمنافِقين أنْصارِهم، وأنَّ ذلك لأنَّهم شاقُّوا اللهَ ورسولَه، وقُوبِلَ ذلك بالثَّناءِ على المؤمنينَ باللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذين نَصَروا الدِّينَ، ثمَّ الأمرُ بطاعةِ اللهِ والاستِعدادِ ليَومِ الجزاءِ، والتَّحذيرُ مِن الَّذين أعْرَضوا عن كِتابِ اللهِ ومِن سُوءِ عاقِبتِهم، وخُتِمَ ذلك بالتَّذكيرِ بالقرآنِ الدَّالِّ على الخَيرِ، والمُعرِّفِ بعَظَمةِ اللهِ المُقتضيةِ شِدَّةَ خَشيتِه- عُقِّبَ ذلك بذِكرِ طائفةٍ مِن عَظيمِ صِفاتِ اللهِ ذاتِ الآثارِ العديدةِ في تَصرُّفاتِه المُناسِبةِ لغرَضِ السُّورةِ؛ زِيادةً في تَعريفِ المؤمنينَ بعَظَمتِه المُقتَضيةِ للمَزيدِ مِن خَشيتِه، وبالصِّفاتِ الحُسنى المُوجِبةِ لمَحبَّتِه، وزِيادةً في إرهابِ المُعانِدين المُعرِضين مِن صِفاتِ بَطْشِه وجَبروتِه؛ ولذلك ذُكِرَ في هذه الآياتِ الخواتمِ للسُّورةِ مِن صِفاتِه تَعالى ما هو مُختلِفُ التَّعلُّقِ والآثارِ للفريقَينِ حَظُّ ما يَليقُ به منها، وفي غُضونِ ذلك كلِّه دَلائلُ على بُطلانِ إشراكِهم به أصْنامَهم[1].

وأيضًا لَمَّا وَصَف اللهُ تعالى القُرآنَ بالعِظَمِ، ومَعلومٌ أنَّ عِظَمَ الصِّفةِ تابِعٌ لعِظَمِ الموصوفِ؛ أتْبَعَ ذلك بشَرحِ عَظَمةِ اللهِ، فقال تعالى[2]:

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

أي: هو اللهُ الَّذي لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو وَحْدَه سُبحانَه، وكلُّ ما عُبِدَ مِن دُونِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٧، ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٢).

فهو باطِلٌ[١].

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

أي: العالِمُ بكُلِّ شَيءٍ، سواءٌ ما يَغيبُ عن خَلْقِه، أو ما يُشاهِدونَه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

أي: اللهُ ذو الرَّحمةِ الواسِعةِ العظيمةِ الَّتي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ. الموصِلُ رحمتَه إلى مَن يَشاءُ مِن عبادِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

قال ابن جرير: (الَّذي يَتصَدَّعُ مِن خَشيتِه الجَبَلُ -أيُّها النَّاسُ- هو المعبودُ الَّذي لا تَنبغي العِبادةُ والأُلوهةُ إلَّا له). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٩)، ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١٨)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨).

ممَّن اختار أنَّ الرَّحمنَ اسمٌ دلَّ على اتِّصافِه بالرَّحمةِ، والرَّحيمَ اسمٌ دلَّ على وُقوعِ الفِعلِ منه، وهو إيصالُ رحمتِه إلى خَلقِه: ابنُ القيِّم، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٣، ٢٤)، ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) لابن عثيمين (ص: ٢٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٦٦، ٤٦٧).

قال ابن القيِّم: (قال السُّهَيلي: «... وفائدةُ الجَمعِ بيْن الصِّفَتينِ الرَّحمنِ والرَّحيمِ: الإنباءُ عن رحمةٍ عاجِلةٍ وآجِلةٍ، وخاصَّةٍ وعامَّةٍ». قلتُ:... وأمَّا الجمعُ بيْن الرَّحمنِ الرَّحيمِ ففيه معنًى هو أحسَنُ مِن المعنيَينِ اللَّذَينِ ذكرَهما، وهو أنَّ الرَّحمنَ دالٌّ على الصِّفةِ القائمةِ به سُبحانَه، =

كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((جَعَل اللهُ الرَّحمةَ مِئةَ جُزءٍ، فأمسَكَ عِندَه تِسعةً وتِسعينَ، وأنزَلَ في الأرضِ جُزءًا واحِدًا، فمِن ذلك الجزءِ تَتراحَمُ الخلائِقُ، حتَّى تَرفَعَ الدَّابَّةُ حافِرَها عن وَلَدِها؛ خَشْيةَ أن تُصيبَه))[1].

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

---

= والرَّحيمَ دالٌّ على تعَلُّقِها بالمرحوم؛ فكان الأوَّلُ للوَصفِ، والثَّاني للفِعلِ، فالأوَّلُ دالٌّ أنَّ الرَّحمةَ صِفتُه، والثَّاني دالٌّ على أنَّه يَرحَمُ خَلْقَه برَحمتِه، وإذا أرَدْتَ فَهْمَ هذا فتأمَّلْ قَولَه: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يَجِيءْ قَطُّ رَحمنٌ بهم؛ فعُلِمَ أنَّ الرَّحمنَ هو المَوصوفُ بالرَّحمةِ، ورَحيمٌ هو الرَّاحِمُ برحمتِه، وهذه نُكتةٌ لا تَكادُ تَجِدُها في كتابٍ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ٢٣، ٢٤). ويُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ٤٣).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ ذو الرَّحمةِ الواسِعةِ، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الموصِلُ رحمتَه مَن شاء مِن خَلْقِه؛ فالفَرقُ بيْنَ الرَّحمنِ والرَّحيمِ أنَّ الأوَّلَ باعتِبارِ كَونِ الرَّحمةِ وَصْفًا له، والثَّانيَ باعتِبارِها فِعلًا له يُوصِلُها لِمَن شاء مِن خَلْقِه). ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) (ص: ٢٩).

وقال الخَطَّابي: (الرَّحمنُ: ذو الرَّحمةِ الشَّاملةِ الَّتي وَسِعَتِ الخَلْقَ في أرزاقِهم وأسبابِ مَعاشِهم ومَصالِحِهم، وعَمَّتِ المؤمنَ والكافِرَ، والصَّالِحَ والطَّالِحَ، وأمَّا الرَّحيمُ فخاصٌّ للمؤمِنينَ). ((شأن الدعاء)) (ص: ٣٨).

وقال ابن جرير: (هو رحمنُ الدُّنيا والآخرةِ، رحيمٌ بأهلِ الإيمانِ به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٠).

(١) رواه البخاريُّ (٦٠٠٠)، ومسلمٌ (٢٧٥٢) واللَّفظُ له.

﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ﴾.

أي: هو اللهُ الَّذي لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو وَحْدَه سُبحانَه، المَلِكُ الحَقُّ، المالِكُ لجَميعِ الأشياءِ، الكامِلُ التَّصَرُّفِ في جميعِ خَلْقِه بما يَشاءُ(١).

كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

﴿ ٱلْقُدُّوسُ ﴾.

أي: المتَّصِفُ بالطُّهرِ التَّامِّ، والنَّزاهةِ البالِغةِ(٢).

كما قال اللهُ تبارك وتعالى حاكيًا قَولَ الملائِكةِ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كانَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا سلَّمَ منَ الوِتْرِ قال: ((سُبحانَ المَلِكِ القدُّوسِ -ثَلاثَ مرَّاتٍ)). وفي روايةٍ: يُطيلُ في آخِرِهنَّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٦٨، ٤٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٣٠)، والنسائي (١٦٩٩)، وأحمد (٢١١٨٠)، وابن حبان (٢٤٥٠). =

وعن عبدِ الرَّحمنِ بنِ أَبْزَى رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ إذا سلَّم -أي: مِن الوِتْرِ-: ((سُبحانَ المَلِكِ القُدُّوسِ -ثَلاثًا، ويَرفَعُ صَوتَه بالثَّالِثةِ))(١).

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ في رُكوعِه وسُجودِه: ((سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الملائِكةِ والرُّوحِ))(٢).

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾.

أي: المتَّصِفُ بالسَّلامةِ التَّامَّةِ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى وسُوءٍ، في ذاتِه وصِفاتِه وأفعالِه(٣).

---

= صَحَّحه ابنُ القطان في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٦١٤)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٢١)، والألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (١٤٣٠)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (١٢٠)، وابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٢٦٧).

(١) أخرجه النسائي (١٧٣٢)، وأحمد (١٥٣٦١) مطوَّلًا.

صحَّح إسنادَه على شرطِ الشَّيخَينِ الحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٠٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٤/ ٧٨)، وجوَّد إسنادَه ابنُ الملقِّنِ في ((البدر المنير)) (٤/ ٣٣٩)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٧٣٢).

وذكر محمد بنُ عبدِ الهادي في ((تنقيح تحقيق التعليق)) (١/ ٥١٥) أنَّه رُوِيَ بطُرقٍ كثيرةٍ، وقد أرسله بعضُهم.

(٢) رواه مسلم (٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣١)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

قال القرطبي: (﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ أي: ذو السَّلامةِ مِن النَّقائِصِ. وقال ابنُ العربي: اتَّفَق العُلَماءُ -رحمةُ الله عليهم- على أنَّ معنى قولِنا في اللهِ: السَّلامُ: النِّسبةُ، تقديرُه: ذو السَّلامةِ. ثمَّ اختلَفوا في ترجمةِ النِّسبةِ على ثلاثةِ أقوالٍ؛ الأوَّلُ: معناه: الَّذي سَلِمَ مِن كُلِّ عَيبٍ، وبَرِئَ مِن كُلِّ نَقصٍ. الثَّاني: معناه: ذو السَّلامِ، أي: المُسَلِّمُ على عبادِه في الجنَّةِ، كما قال: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وعن ثَوبانَ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا انصَرَفَ مِن صَلاتِه استَغفَرَ ثَلاثًا، وقال: اللَّهمَّ أنت السَّلامُ، ومنك السَّلامُ، تباركْتَ ذا الجَلالِ والإكرامِ))[1].

﴿ٱلۡمُؤۡمِنُ﴾.

أي: واهبُ الأمنِ، فلا يأمَنُ إلَّا مَن آمَنه اللهُ تعالى، الَّذي يصدقُ رُسُلَه بالآياتِ،

---

= ٥٨]. الثَّالثُ: أنَّ معناه: الَّذي سَلِمَ الخَلقُ مِن ظُلمِه. قلتُ: وهذا قَولُ الخَطَّابيِّ، وعليه والَّذي قَبْلَه يكونُ صِفةَ فِعلٍ. وعلى أنَّه البَريءُ مِن العيوبِ والنَّقائِصِ يكونُ صِفةَ ذاتٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦). ويُنظر: ((الأمد الأقصى)) لابن العربي (١/ ٣٤٨)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٤١).

وقال السعدي: («القُدُّوسُ، السَّلامُ» أي: المُعَظَّمُ المُنَزَّهُ عن صِفاتِ النَّقصِ كلِّها، وأن يُماثِلَه أحدٌ مِن الخَلقِ، فهو المُتنَزِّهُ عن جميعِ العُيوبِ، والمُتنَزِّهُ عن أن يُقاربَه أو يُماثِلَه أحدٌ في شَيءٍ مِن الكمالِ ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١] ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٤] ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: ٢٢]، فالقُدُّوسُ كالسَّلامِ، يَنفيانِ كلَّ نقصٍ مِن جميعِ الوُجوهِ، ويَتَضمَّنانِ الكمالَ المُطلَقَ مِن جميعِ الوُجوهِ؛ لأنَّ النَّقصَ إذا انتفى ثبَت الكمالُ كلُّه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤٦).

وقال الهرَّاس: (القُدُّوسُ والسَّلامُ، ومعناهما مُتقارِبانِ؛ فانَّ القُدُّوسَ مأخوذٌ مِن قدَّس، بمعنى: نزَّهه وأبْعَدَه عن السُّوءِ، مع الإجلالِ والتَّعظيم. والسَّلامَ مأخوذٌ مِن السَّلامةِ، فهو سُبحانَه السَّالمُ مِن مُماثَلةِ أحدٍ مِن خَلْقِه، ومِن النُّقصانِ، ومِن كلِّ ما يُنافي كمالَه). ((شرح القصيدة النونية)) (٢/ ١٠٧).

(١) رواه مسلم (٥٩١).

والمؤمنينَ ما وعَدَهم به مِن الثَّوابِ، والكافِرِين ما أوعَدَهم مِن العِقابِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١).

قال الزَّجَّاجي: (المؤمنُ في صِفاتِ اللهِ عزَّ وجلَّ على وجهَينِ؛ أحدُهما: أن يكونَ مِن الأمانِ، أي: يُؤْمِنُ عِبادَه المؤمنينَ مِن بأسِه وعَذابِه فيَأْمَنون ذلك، كما تقولُ: آمنَ فُلانٌ فلانًا، أي: أعطاه أمانًا لِيَسكُنَ إليه ويَأمَنَ، فكذلك أيضًا يُقالُ: اللهُ المؤمِنُ، أي: يؤمِنُ عِبادَه المؤمِنينَ، فلا يَأمَنُ إلَّا مَن آمنَه... والوجهُ الآخَرُ: أن يكونَ المؤمِنُ مِن الإيمانِ، وهو التَّصديقُ، فيَكونَ ذلك على ضَربَينِ؛ أحدُهما: أن يُقالَ: «اللهُ المؤمِنُ» أي: مُصدِّقٌ عِبادَه المؤمنينَ، أي: يصدقُهم على إيمانِهم، فيكونُ تصديقُه إيَّاهم قَبولَ صِدقِهم وإيمانِهم، وإثابتَهم عليه. والآخَرُ: أن يكونَ «اللهُ المؤمنُ» أي: مُصدقٌ ما وعَدَه عبادَه، كما يقالُ: صدَق فُلانٌ في قولِه وصدَّق، إذا كرَّر وبالَغَ، يكونُ بمَنزِلةِ ضرَب وضرَّب؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ مُصدِّقٌ ما وعد به عِبادَه ومُحَقِّقُه. فهذه ثلاثةُ أوجُهٍ في المؤمنِ، سائغٌ إضافتُها إلى الله.

ولا يُصرفُ فِعلُ هذه الصِّفةِ مِن صِفاتِه عزَّ وجلَّ، فلا يُقالُ: آمَنَ اللهُ، كما يُقالُ: تقدَّسَ اللهُ، وتَبارَكَ اللهُ، ولا يُقالُ: اللهُ يؤمِنُ، كما يُقالُ: اللهُ يَحلُمُ ويَغفِرُ، ولم يُستعمَلْ ذلك). ((اشتقاق أسماء الله)) (ص: ٢٢١-٢٢٣).

وقال ابن جُزَي: (﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه مِنَ الأمْنِ؛ الَّذي أمَّن عِبادَه، والآخَرُ: أنَّه مِن الإيمانِ، أي: المُصَدِّقُ لعِبادِه في إيمانِهم، أو في شَهادتِهم على النَّاسِ يومَ القيامةِ، أو المصدِّقُ نفْسَه في أقوالِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٣).

ممَّن اختار أنَّه مِنَ الأمْنِ: ابنُ جرير، البغويُّ، والزمخشري، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٢/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

والمعنى على هذا القولِ: أنَّه واهِبُ الأمْنِ، أو أمَّن عِبادَه مِن العذابِ، أو أمَّن خَلْقَه مِن الظُّلْمِ.

قال البقاعي: (فهو الَّذي يُعزَى إليه الأمنُ والأمانُ بإفادتِه أسبابَه، ومَنْعِ أسبابِ المَخاوِفِ؛ فلا أَمْنَ في الوُجودِ ولا أمانَ إلَّا وهو مُستفادٌ مِن جِهتِه). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٧١).

وقال ابنُ عاشور: (المؤمِنُ اسمُ فاعِلٍ مِن آمَنَ الَّذي هَمزتُه للتَّعْديةِ، أي: جَعَل غَيرَه آمِنًا؛ فاللهُ هو الَّذي جَعَل الأمانَ في غالِبِ أحوالِ الموجوداتِ؛ إذ خَلَق نظامَ المخلوقاتِ بعيدًا عن الأخطارِ =

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾.

أي: الشَّاهِدُ الحافِظُ الرَّقيبُ على خَلْقِه، القائمُ عليهم بأعمالِهم وأرزاقِهم وآجالِهم، باطِّلاعه واستيلائِه وحِفظِه[1].

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾.

أي: المُتَّصِفُ بالعِزَّة التَّامَّةِ: الَّذي قد عَظُم قَدرُه، وامتنَع عليه النَّقصُ بأيِّ وجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وغلَب كلَّ شَيءٍ فلا يُغلَبُ سُبحانَه، ولا يُذِلُّه أحَدٌ[2].

---

= والمصائِب، وإنَّما تَعرِضُ للمخلوقاتِ المصائِبُ بعوارِضَ تترَكَّبُ مِن تقارُنٍ أو تَضادٍّ، أو تعارُضِ مَصالِحَ، فيَرجَحُ أقواها ويَدحَضُ أدناها، وقد تأتي مِن جرَّاءِ أفعالِ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

وممَّن اختار أنَّه مِن الإيمانِ، أي: التَّصديقِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والقرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

والمعنى على ذلك: المصدِّقُ لِرُسُلِه بإظهارِ مُعجزاتِه عليهم، ومصدقُ المؤمنينَ ما وعَدَهم به مِن الثَّوابِ، ومصدقُ الكافرين ما أوْعَدَهم مِن العِقابِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦).

وقال الزَّجَّاجُ: (﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾: الَّذي وَحَّد نَفْسَه بقولِه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٥٠).

وهذا القولُ نسَبه القرطبي لمجاهدٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٨/ ٤٨٦)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٧)، ((المقصد الأسنى)) للغزالي (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧١-٤٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

وقال السجستاني: (المُهَيمِنُ في أسماءِ اللهِ جَلَّ وعَزَّ: القائِمُ على خَلْقِه بأعمالِهم وآجالِهم وأرزاقِهم). ((غريب القرآن)) (ص: ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠).

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾.

أي: العَظيمُ القاهِرُ -الَّذي قهَر جميعَ العبادِ-، المُصلِحُ أُمورَ خَلْقِه، والَّذي يُصَرِّفُهم فيما فيه صَلاحُهم(١).

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾.

أي: المُتعَظِّمُ على جَميعِ خَلْقِه، المُتعالي والمترَفِّعُ عن الانقيادِ لِغَيرِه(٢).

قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالا: قال رَسولُ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٤)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٤، ٣٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٤، ١٨٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٢/ ٣٤٤)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٢٠، ١٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٢).

قال ابن عاشور: (وإذا وُصِفَ الإنسانُ بالجَبَّارِ كان وَصْفَ ذَمٍّ؛ لأنَّه يُشعِرُ بأنَّه يَحمِلُ غَيرَه على هواه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

قال الرازي: (اعلَمْ أنَّ المتكَبِّرَ في حَقِّ الخَلقِ اسمُ ذَمٍّ؛ لأنَّ المتكَبِّرَ هو الَّذي يُظهِرُ مِن نَفْسِه الكِبْرَ، وذلك نَقصٌ في حَقِّ الخَلْقِ؛ لأنَّه ليس له كِبرٌ ولا عُلُوٌّ، بل ليس معه إلَّا الحقارةُ والذِّلَّةُ والمَسْكنةُ، فإذا أظهَرَ العُلُوَّ كان كاذِبًا، فكان ذلك مذمومًا في حَقِّه، أمَّا الحَقُّ سُبحانَه فله جميعُ أنواعِ العُلُوِّ والكِبرياءِ، فإذا أظهَرَه فقد أرشَدَ العِبادَ إلى تعريفِ جَلالِه وعُلُوِّه، فكان ذلك في غايةِ المدحِ في حَقِّه سُبحانَه). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٤). ويُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٥).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((العِزُّ إزاري، والكِبرياءُ رِدائي، فمَنْ نازَعَني بشَيءٍ منهما عذَّبْتُه))(١).

وعن عَوفِ بنِ مالِكٍ الأشجَعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قُمتُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيلةً، فقام فقَرَأَ سُورةَ البَقَرةِ، لا يَمُرُّ بآيةِ رَحمةٍ إلَّا وَقَف فسَأَلَ، ولا يَمُرُّ بآيةِ عَذابٍ إلَّا وَقَف فتعَوَّذَ، ثمَّ ركَعَ بقَدْرِ قيامِه، يقولُ في رُكوعِه: سُبحانَ ذي الجَبَروتِ والمَلَكوتِ، والكِبْرِياءِ والعَظَمةِ، ثمَّ سَجَد بقَدْرِ قيامِه، ثمَّ قال في سُجودِه مِثْلَ ذلك، ثمَّ قام فقَرَأَ بآلِ عِمْرانَ، ثمَّ قرأَ سُورةً سُورةً))(٢).

﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾.

أي: تنزَّهَ اللهُ عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ وسُوءٍ، وعن أن يكونَ له شَريكٌ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ(٣).

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾.

أي: هو اللهُ المعبودُ بحَقٍّ، الَّذي تفرَّدَ بتَقديرِ وإنشاءِ جَميعِ المخلوقاتِ على غَيرِ مِثالٍ سَبَقَ(٤).

---

(١) رواه البخاريُّ في ((الأدب المفرد)) (٥٥٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٢٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٧٣) واللفظ له، والنسائي (١١٣٢)، وأحمد (٢٣٩٨٠).
صحَّحه النوويُّ في ((المجموع)) (٤/ ٦٧)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٨٧٣)، وحَسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٧٤)، ووثَّق رجالَ إسنادِه الشوكانيُّ في ((نيل الأوطار)) (٢/ ٣٧٥)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٨٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٧)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٥، =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

وقال سُبحانَه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [لقمان: ١٠، ١١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [فاطر: ٣].

﴿ٱلْبَارِئُ﴾.

أي: الَّذي أحيا وأوجَدَ مِنَ العَدَمِ على مُقتَضى ما خلَقَ وقَدَّرَ(١).

كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢].

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾.

أي: الَّذي يُصَوِّرُ ويُشَكِّلُ كُلَّ مَخلوقٍ على الصِّفةِ واللَّونِ والصُّورةِ الَّتي يَختارُها سُبحانَه(٢).

---

= ٣٦)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٥-٤٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٤).

والخَلقُ في كلامِ العربِ على ضربَينِ؛ أحدُهما: ابتِداعُ الشَّيءِ وإنشاؤُه على مِثالٍ لم يُسبَقْ إليه. والثَّاني: التَّقديرُ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٧/ ١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٥)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠).

كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران: ٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٨].

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

أي: لله وَحْدَه الأسماءُ الكثيرةُ الكامِلةُ في حُسْنِها، والدَّالَّةُ على صِفاتِ كَمالِه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ لله تِسعةً وتِسعينَ اسمًا؛ مِئةً إلَّا واحِدًا، مَن أحصاها دَخَل الجَنَّةَ))[2].

﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.

أي: يُنَزِّهُ اللهَ وَحْدَه عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ[3].

كما قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

قال الشنقيطي: (أسماءُ الله حُسْنى، أي: هي أحسَنُ شَيءٍ؛ لأنَّ الحُسنى صيغةُ تفضيلٍ، هي أفضَلُ مِن كلِّ شَيءٍ في الحُسنِ والجَمالِ؛ لِما تدُلُّ عليه مِن صِفاتِ الكمالِ والجَلالِ المَوصوفِ بها خالِقُنا جلَّ وعَلا تقدَّسَ وتَعاظَمَ وتَنَزَّهَ؛ لأنَّ أسماءَه تدُلُّ على صِفاتِ كمالِه وجَلالِه جلَّ وعَلا). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٥٢).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

﴿ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، وهو الحَكيمُ في كلِّ ما خَلَقَه وشَرَعَه وقدَّرَه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ إلى قولِه: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أنَّه سُبحانَه يَستَدِلُّ بأسمائِه وصفاتِه على وَحدانيَّتِه، وعلى بُطلانِ الشِّركِ[2].

٢- القَولُ بأنَّ أسماءَ اللهِ أعلامٌ مَحضَةٌ مُترادِفةٌ لا تدُلُّ إلَّا على ذاتِ اللهِ فقط: قَولٌ باطلٌ؛ فاللهُ تعالى يُسَمِّي نفْسَه باسمَينِ أو أكثَرَ في مَوضِعٍ واحدٍ، كقَولِه تعالى: ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ﴾، فلو كانتِ الأسماءُ مُترادِفةً ترادُفًا مَحْضًا لَكان ذِكرُها مُجتَمِعةً لَغْوًا مِن القَولِ؛ لعدَمِ الفائدةِ، فدَلالاتُ الكتابِ والسُّنَّةِ مُتضافِرةٌ على أنَّ كلَّ اسمٍ مِن أسماءِ الله دالٌّ على معناه المُختَصِّ به، مع اتِّفاقِها على مُسمًّى واحدٍ ومَوصوفٍ واحدٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٨٠، ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٢٨).

٣- قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ ليس بتَكرارٍ، بل هي مَعانٍ مُتغايِرةٌ، بَيْنَها قَدْرٌ مُشترَكٌ، وبَيانُه: أنَّ الإيجادَ يَتعلَّقُ بالمادَّةِ وبالصُّورةِ وبمَجموعِهما؛ فإنْ تَعَلَّقَ بالمادَّةِ فهو بَرْؤُه، ولا يُقالُ للمُصَوِّرِ: إنَّه بارئٌ باعتبارِ تَصويرِه، وإنَّما البارئُ مِن بَرَأَ الشَّيءَ مِن العَدَمِ إلى الوُجودِ، وإنْ تَعَلَّقَ بالصُّورةِ فهو تصويرٌ، ويُقالُ لفاعِلِه: المُصَوِّرُ. والخالِقُ يَنظِمُهما معًا؛ فالبارِئُ للمادَّةِ، والمُصَوِّرُ للصُّوَرِ، والخالِقُ لهما جَميعًا، فأينَ التَّكرارُ[1]؟!

وأيضًا: الخَلْقُ: التَّقديرُ، والبراءُ: هو الفَرْيُ، وهو التَّنفيذُ وإبرازُ ما قدَّره وقرَّره إلى الوجودِ، وليس كلُّ مَن قدَّر شيئًا ورتَّبه يقدِرُ على تنفيذِه وإيجادِه سوَى الله عزَّ وجلَّ، وقولُه تعالى: ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي إذا أرادَ شيئًا قال له: كُنْ، فيكونُ على الصِّفةِ التي يريدُ، والصُّورةِ التي يختارُ، كقولِه: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٨] لهذا قال: ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: الذي يُنفذُ ما يريدُ إيجادَه على الصِّفةِ التي يريدُها[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أنَّ أسماءَ اللهِ سُبحانَه وتعالى كلَّها حُسْنى، ليس فيها نَقصٌ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ ولا بحالٍ مِن الأحوالِ؛ ووَجهُه: أنَّه سُبحانَه وَصَفَها باسمِ التَّفضيلِ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أنَّ أسماءَ اللهِ تعالى مُشتَقَّةٌ، أي: إنَّها تتضَمَّنُ معانيَ وأوصافًا؛ فكلُّ اسمٍ منها يتضَمَّنُ الصِّفةَ الَّتي اشتُقَّ منها، حتَّى اسمُ «اللهِ» يتضَمَّنُ صِفةً، وهي الألوهيَّةُ؛ فأسماءُ اللهِ تعالى إذَنْ أعلامٌ دالَّةٌ على صِفةٍ، ولولا ذلك ما كانت حُسنى؛ لأنَّها إذا لم تتضَمَّنْ معنًى صارتْ أسماءً جامدةً

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٦٢).

لا معنَى لها، وإذا كانت أسماءً جامدةً لا معنَى لها فلا تُوصَفُ بالحُسْنى، واللهُ عزَّ وجلَّ وَصَفَها بأنَّها حُسنى، أي: بالغةٌ في الحُسنِ كمالَه، وقد يتضَمَّنُ بعضُها صِفتَينِ أو أكثرَ عن طريقِ الالتزامِ، يعني: مِن بابِ دَلالةِ اللُّزومِ أو الالتزامِ[1].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ أسماءَ اللهِ تعالى مختصَّةٌ به، فكما اختَصَّ بالعبادةِ وبالألوهيَّةِ؛ فلا معبودَ بحقٍّ إلَّا الله، وبأنَّه يُسَبِّحُ له ما في السَّمَواتِ والأرضِ؛ فهو مُختَصٌّ بالأسماءِ الحُسنى، فتسميةُ غيرِه بها على الوَجهِ الَّذي يَختَصُّ باللهِ عزَّ وجلَّ مَيلٌ بها عمَّا يَجِبُ فيها[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ضَميرُ الغَيبةِ ﴿هُوَ﴾ مُبتدأٌ، وهو عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ في قولِه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الحشر: ١٨]. واسمُ الجَلالةِ في ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى ...﴾ خبَرٌ عنه، و(الَّذي) صِفةٌ لاسمِ الجلالةِ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ الاقتِصارَ على الضَّميرِ دونَ ذِكرِ اسمِ الجَلالةِ؛ لأنَّ المقصودَ الإخبارُ عن الضَّميرِ بـ﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وبما بعْدَ ذلك مِن الصِّفاتِ العَلِيَّةِ، فالجمْعُ بيْن الضَّميرِ وما يُساوي مُعادَه اعتبارٌ بأنَّ اسمَ الجلالةِ يَجمَعُ صِفاتِ الكمالِ؛ لأنَّ أصْلَه الإلهُ، ومَدلولُ (الإلَهِ) يَقْتضي

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ١٦٣).

ودَلالةُ اللُّزومِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على لازِمِ مُسمَّاه؛ كدَلالةِ السَّقفِ على الجِدارِ، ودَلالةِ الأسدِ على الشَّجاعةِ. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٤٥)، ((الإبهاج في شرح المنهاج)) للسبكي (١/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ١٧).

جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ. ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ الضَّميرُ ضَميرَ الشَّأنِ، واسمُ الجلالةِ مبتدَأً، و﴿ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خَبرًا، والجُملةُ خبرًا عن ضَميرِ الشَّأنِ، ويكونَ الكلامُ استِئنافًا قُصِدَ منه تَعليمُ المسلِمينَ هذه الصِّفاتِ؛ ليَتبصَّروا فيها، وللرَّدِّ على المُشرِكين إشراكَهم بصاحبِ هذه الصِّفاتِ معه أصْنافًا ليس لواحدٍ منها شَيءٌ مِن مِثلِ هذه الصِّفاتِ؛ ولذلك خُتِمَت طائفةٌ منها بجُملةِ ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الحشر: ٢٣]؛ لتَكونَ خِتامًا لهذه السُّورةِ الجليلةِ الَّتي تَضمَّنَت مِنَّةً عَظيمةً، وهي مِنَّةُ الفتْحِ الواقعِ والفتْحِ المُيسَّرِ في المُستقبَلِ، لا جَرَمَ أنَّه حَقيقٌ بأنْ يَعرِفوا جَلائلَ صِفاتِه الَّتي لِتَعلُّقاتِها آثارٌ في الأحوالِ الحاصلةِ والَّتي ستَحصُلُ مِن هذه الفُتوحِ، ولَمَّا كان شأْنُ هذه الصِّفاتِ عَظيمًا، ناسَبَ أنْ تُفتَتَحَ الجُملةُ بضَميرِ الشَّأنِ[1].

- وابتُدِئَ في هذه الصِّفاتِ العَلِيَّةِ بصِفةِ الوَحدانيَّةِ، وهي مَدلولُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهي الأصلُ فيما يَتبَعُها مِن الصِّفاتِ؛ ولذلك كَثُرَ في القُرآنِ ذِكرُها عَقِبَ اسمِ الجلالةِ، كما في آيةِ الكُرسيِّ وفاتحةِ (آلِ عِمرانَ)، وثُنِّيَ بصِفةِ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾؛ لأنَّها الصِّفةُ الَّتي تَقتَضيها صِفةُ الإلهيَّةِ؛ إذ عِلمُ اللهِ هو العِلمُ الواجبُ، وهي تَقْتضي جَميعَ الصِّفاتِ، وإنَّما ذُكِرَ مِن مُتعلِّقاتِ عِلمِه أُمورُ الغَيبِ؛ لأنَّه الَّذي فارَقَ به عِلمُ اللهِ تَعالى عِلمَ غيرِه، وذُكِرَ معه عِلمُ الشَّهادةِ للاحتِراسِ[2] مِن تَوهُّمِ أنَّه يَعلَمُ الحقائقَ العاليةَ الكُلِّيَّةَ فقطْ، كما ذهَبَ إليه فريقٌ مِن الفلاسِفةِ الأقدمِينَ؛ ولأنَّ التَّعريفَ في ﴿ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ للاستِغراقِ، أي: كلِّ غَيبٍ وشَهادةٍ، وذلك ممَّا لا يُشارِكُه فيه غيرُه.

وفي ذِكرِ الغَيبِ إيماءٌ إلى ضَلالِ الَّذين قَصَروا أنفُسَهم على المُشاهَداتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٨).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢١٢).

وكَفَروا بالمُغيَّباتِ مِن البعثِ والجَزاءِ وإرسالِ الرُّسلِ، أمَّا ذِكرُ عِلمِ الشَّهادةِ فتَتميمٌ[١] على أنَّ المشركينَ يَتوهَّمون اللهَ لا يَطَّلِعُ على ما يُخْفُونه؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[٢] [فصلت: ٢٢، ٢٣].

- وتَقديمُ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ لتَقدُّمِه في الوُجودِ، وتَعلُّقِ العِلمِ الأزَليِّ به[٣].

- والضَميرُ (هو) في: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ضَميرُ فصْلٍ يُفيدُ قصْرَ الرَّحمةِ عليه تَعالى؛ لعدَمِ الاعتِدادِ برَحمةِ غَيرِه؛ لقُصورِها، قال تَعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾[٤] [الأعراف: ١٥٦].

- ووَجْهُ تَعقيبِ صِفةِ عُمومِ العِلمِ بصِفةِ الرَّحمةِ أنَّ عُمومَ العِلمِ يَقْتضي ألَّا يَغيبَ عن عِلمِه شَيءٌ مِن أحوالِ خلْقِه وحاجتِهم إليه، فهو يَرحَمُ المُحتاجينَ إلى رَحمتِه، ويُمهِلُ المعانِدينَ إلى عِقابِ الآخرةِ؛ فهو رحْمنٌ بهم في الدُّنيا[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تَكريرٌ للاستِئنافِ؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ تَعظيمٍ، وهو مِن مَقاماتِ التَّكريرِ، وفيه اهتمامٌ بصِفةِ الوَحدانيَّةِ[٦].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١١٩، ١٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

- وعُقِّبَ وَصْفَا الرَّحمةِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بوصْفِ ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ رَحمتَه فضْلٌ، وأنَّه مُطلَقُ التَّصرُّفِ[١].

- و﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾ وصْفُ مُبالَغةٍ[٢]. وعُقِّبَ بوَصْفِ ﴿ٱلۡقُدُّوسُ﴾ وصْفُ ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ للاحتِراسِ؛ إشارةً إلى أنَّه مُنزَّهٌ عن نَقائصِ المُلوكِ المعروفةِ، مِن الغُرورِ، والاسترسالِ في الشَّهواتِ، ونحْوِ ذلك مِن نَقائصِ النُّفوسِ[٣].

- و﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ وُصِفَ اللهُ تَعالى به على طَريقةِ الوَصْفِ بالمصدَرِ؛ للمُبالَغةِ في الوصْفِ، أي: ذو السَّلامِ والسَّلامةِ[٤].

- وعُقِّبَ وصْفُ المَلِكِ بوصْفِ السَّلامِ؛ للدَّلالةِ على العدْلِ في مُعامَلتِه الخلْقَ، وهذا احتراسٌ أيضًا[٥].

- وبَدَأَ بالقُدُّوسِ قبْلَ السَّلامِ؛ لأنَّ القُدُّوسَ مَحْوٌ للنَّقصِ في الماضي -إنْ قُدِّرَ-، والسَّلامَ مَنْعٌ للنَّقصِ المُستَقبَلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٠، ١٢١).

ويُنظر ما تقدم (ص: ٥٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

(٦) يُنظر: ((شرح الكافية الشافية)) لابن عثيمين (٣/ ١٩٤).

قال السَّفَّاريني: (الفرقُ بيْن القُدُّوسِ والسَّلامِ أنَّ القُدُّوسَ فيه إشارةٌ إلى أنَّه بريءٌ مِن جميعِ

- وذِكرُ وصْفِ ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ عَقِبَ الأوصافِ الَّتي قبْلَه إتمامٌ للاحتِراسِ مِن تَوهُّمِ وَصْفِه تَعالى بالمَلِكِ؛ أنَّه كالمُلوكِ المَعروفين بالنَّقائصِ، فأُفِيدَ أوَّلًا نَزاهةُ ذاتِه بوصْفِ القدُّوسِ، ونَزاهةُ تَصرُّفاتِه المُغيَّبةِ عن الغدْرِ والكَيدِ بوصْفِ المؤمنِ، ونَزاهةُ تَصرُّفاتِه الظَّاهرةِ عن الجَورِ والظُّلمِ بوصْفِ السَّلامِ[1].

- وتَعقيبُ ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ بوَصْفِ ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾؛ لدفْعِ تَوهُّمِ أنَّ تَأْمينَه عن ضَعْفٍ أو عن مَخافةِ غَيرِه، فأُعْلِموا أنَّ تَأمينَه لحِكمتِه مع أنَّه رَقيبٌ مُطَّلِعٌ على أحوالِ خلْقِه، فتَأمينُه إيَّاهم رَحمةٌ بهم[2]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ووَجْهُ ذِكرِ الصِّفاتِ الثَّلاثِ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ عَقِبَ صِفةِ ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾: أنَّ جَميعَ ما ذَكَرَه آنِفًا مِن الصِّفاتِ لا يُؤذِنُ إلَّا باطمئنانِ العِبادِ لِعنايةِ ربِّهم بهم، وإصلاحِ أُمورِهم، وأنَّ صِفةَ المُهيمِنِ تُؤذِنُ بأمْرٍ مُشتركٍ، فعُقِّبَت بصِفةِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾؛ ليَعلَمَ النَّاسُ أنَّ اللهَ غالبٌ لا يُعجِزُه شَيءٌ، وأُتْبِعَت بصِفةِ ﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ الدَّالَّةِ على أنَّه مُسخِّرُ المخلوقاتِ لإرادتِه، ثمَّ صِفةِ المُتكبِّرِ الدَّالَّةِ على أنَّه ذُو الكِبْرياءِ يَصغُرُ كلُّ شَيءٍ دونَ كِبريائِه؛ فكانت هذه الصِّفاتُ في جانبِ التَّخويفِ كما كانتِ الصِّفاتُ قبْلَها في جانبِ الإطماعِ[3].

---

العُيوبِ والنَّقائصِ في الماضي والحاضرِ، والسَّلامَ فيه إشارةٌ إلى أنَّه لا يَطرأُ عليه شَيءٌ مِن = = ذلك في المُستقبَلِ). ((لوامع الأنوار البهية)) (٢/ ٢٥٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٢). وقيل: القُدُّوسُ هو المُنَزَّهُ عن النَّقائصِ في ذاتِه وفي صِفاتِه. والسَّلامُ هو المُنزَّهُ عن النَّقائصِ في أفعالِه. يُنظر: ((المطالب العالية من العلم الإلهي)) للرازي (٣/ ٢٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٢٣).

- قولُه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ذُيِّلَت الصِّفاتُ المذكورةُ بتَنزيهِ اللهِ تَعالى عن أنْ يكونَ له شُركاءُ بأنْ أشْرَكَ به المُشرِكون؛ فضَميرُ ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ عائدٌ إلى مَعلومٍ مِن المقامِ، وهم المُشرِكون الَّذين لم يَزَلِ القُرآنِ يَقْرَعُهم بالمواعظِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ إنْ كان ضَميرُ الغَيبةِ (هُوَ) ضَميرَ شأْنٍ فالجُملةُ بعْدَه خبَرٌ عنه، وجُملةُ ﴿ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ﴾ تُفيدُ قصْرًا بطَريقِ تَعريفِ جُزأَيِ الجُملةِ؛ هو الخالقُ لا شُركاؤُهم، وهذا إبطالٌ لإلهيَّةِ ما لا يَخلُقُ؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]، وقال: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[2] [النحل: ١٧].

- قوله: ﴿ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُ﴾ ذُكِرَت هذه الصِّفاتُ مُتتابِعةً؛ لأنَّ كلَّ ما يخرجُ مِن العدمِ إلى الوُجودِ يَفتقِرُ إلى تقديرٍ أوَّلًا، وإلى الإيجادِ على وَفْقِ التَّقديرِ ثانيًا، وإلى التَّصويرِ بعدَ الإيجادِ ثالثًا، واللهُ سُبحانَه وتعالَى خالِقٌ مِن حيثُ إنَّه مُقَدِّرٌ، وبارئٌ مِن حيثُ إنَّه مُختَرِعٌ موجِدٌ، ومُصَوِّرٌ مِن حيثُ إنَّه مُرَتِّبٌ صوَرِ المُختَرَعاتِ أحسَنَ ترتيبٍ[3].

وقيل: الخالقُ: اسمُ فاعِلٍ مِن الخَلْقِ، وأصلُ الخلْقِ في اللُّغةِ إيجادُ شَيءٍ على صُورةٍ مَخصوصةٍ، ويُطلَقُ الخلْقُ على معنًى أخصَّ مِن إيجادِ الصُّوَرِ، وهو إيجادُ ما لم يكُنْ مَوجودًا، كقولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ [ق: ٣٨]، وهذا هو المعْنى الغالبُ مِن إطلاقِ اسمِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المقصد الأسنى)) للغزالي (ص: ٧٥).

تَعالى (الخالِق)، وبهذا يكونُ الخلْقُ أعمَّ مِن التَّصويرِ، ويكونُ ذِكرُ (البارئِ والمُصوِّرِ) بعْدَ (الخالقِ) تَنبيهًا على أحوالٍ خاصَّةٍ في الخلْقِ[١].

وقيل: إنَّما ذُكِرَت هذه الصِّفاتُ مُتتابِعةً؛ لأنَّ مِن مَجموعِها يَحصُلُ تَصوُّرُ الإبداعِ الإلهيِّ للإنسانِ؛ فابتُدِئَ بالخلْقِ الَّذي هو الإيجادُ الأصليُّ، ثمَّ بالبَرْءِ الَّذي هو تَكوينُ جِسمِ الإنسانِ، ثمَّ بالتَّصويرِ الَّذي هو إعطاءُ الصُّورةِ الحَسَنةِ، كما أشار إليه قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾ [الانفطار: ٧، ٨]، ﴿ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾[٢] [آل عمران: ٦].

- ووجْهُ ذِكرِ هذه الصِّفاتِ ﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ عقِبَ الصِّفاتِ المُتقدِّمةِ ﴿ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أنَّ هذه الصِّفاتِ الثَّلاثَ أُريدَ منها الإشارةُ إلى تَصرُّفِه في البشرِ بالإيجادِ على كَيفيَّتِه البديعةِ؛ ليُثيرَ داعيةَ شُكْرِهم على ذلك؛ ولذلك عُقِّبَ بجُملةِ ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[٣].

- قيل: وَجْهُ إرجاعِ هذه الصِّفاتِ الحُسنى إلى ما يُناسِبُها ممَّا اشتَمَلَت عليه السُّورةُ يَنقسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ، ولكنَّها ذُكِرَت في الآيةِ بحسَبِ تَناسُبِ مَواقعِ بَعضِها عقِبَ بعضٍ مِن تَنظيرٍ، أو احتراسٍ[٤]، أو تَتميمٍ[٥]:

القِسمُ الأوَّلُ: يَتعلَّقُ بما يُناسِبُ أحوالَ المشركين وأحلافِهم اليهودِ المُتألِّبين على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعلى المسلمينَ بالحرْبِ والكَيدِ والأذى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٥).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢١٢).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٣٦).

وأنصارِهم مِن المنافِقِين المُخادِعين للمُسلمينَ.

وإلى هذا القِسمِ تَنْضوي صِفةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الحشر: ٢٣]، وهذه الصِّفةُ هي الأصلُ في التَّهيُّؤِ للتَّدبُّرِ والنَّظرِ في بَقيَّةِ الصِّفاتِ؛ فإنَّ الإشراكَ أصلُ الضَّلالاتِ، والمشرِكون همُ الَّذين يُغْرُون اليهودَ، والمنافِقونَ بيْن يَهودَ ومُشرِكين تَستَّروا بإظهارِ الإسلامِ، فالشِّركُ هو الَّذي صدَّ النَّاسَ عن الوصولِ إلى مَسالكِ الهُدى.

وصِفةُ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ [الحشر: ٢٢]؛ فإنَّ مِن أُصولِ الشِّركِ إنكارَ الغَيبِ الَّذي مِن آثارِه إنكارُ البعثِ والجزاءِ، والاسترسالُ في الغَيِّ وأعمالِ السَّيِّئاتِ، وإنكارُ الوحْيِ والرِّسالةِ، وهذا ناظرٌ إلى قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الحشر: ٤] الآيةَ.

وكذلك ذِكرُ صِفاتِ (المَلِك، والعَزيز، والجبَّار، والمُتكبِّر)؛ لأنَّها تُناسِبُ ما أنْزَلَه ببَني النَّضيرِ مِن الرُّعبِ والخِزْيِ والبطْشةِ.

القِسمُ الثَّاني: مُتعلِّقٌ بما اجْتَناهُ المؤمنون مِن ثَمَرةِ النَّصرِ في قصَّةِ بَني النَّضيرِ، وتلك صِفاتُ ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ [الحشر: ٢٣]؛ لقولِه: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر: ٦]، أي: لم يَتجشَّمِ المسلِمون للغِنى مَشقَّةً، ولا أذًى، ولا قِتالًا.

وكذلك صِفتَا ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢]؛ لِمُناسَبتِهما لإعطاءِ حظٍّ في الفَيءِ للضُّعفاءِ.

القسمُ الثالثُ: مُتعلِّقٌ بما يَشترِكُ فيه الفريقانِ المذكورانِ في هذه السُّورةِ، فيَأخُذُ كلُّ فريقٍ حظَّه منها، وهي صِفاتُ (القُدُّوس، المُهيمِن، الخالِق، البارِئ، المُصوِّر)[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٥، ١٢٦).

- قولُه: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ تَذييلٌ لِما عُدِّدَ مِن صِفاتِ اللهِ تعالى، أي: له جَميعُ الأسماءِ الحُسنى الَّتي بَعضُها الصِّفاتُ المذكورةُ آنِفًا(١).

- وقولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ الحالِ، وأُوثِرَ هاتانِ الصِّفتانِ؛ لشِدَّةِ مُناسَبتِهما لنِظامِ الخلْقِ(٢).

- وفي هذه الآيةِ رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ(٣)؛ لأنَّ صَدْرَ السُّورةِ مُماثِلٌ لآخِرِها(٤).

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ السَّابعُ والثَّلاثونَ

ويليه المجلدُ الثَّامنُ والثَّلاثونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ المُمْتحنةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٢٧).

(٣) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ، أو المُتجانِسَينِ، أو المُلحَقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٧).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# الفهرس

# الفهرس

## سورةُ الحَديدِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٨
موضوعاتُ السُّورةِ ..... ٨
الآيات (١-٦) ..... ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٠
المعنى الإجماليُّ ..... ١١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٤
الآيات (٧-١١) ..... ٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٩
الآيات (١٢-١٥) ..... ٨٠

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٨٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٨٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٨٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٩٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٩٧
الآيات (١٦-١٩) ..... ١٠٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٠٥
المعنى الإجماليُّ ..... ١٠٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٠٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٢٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٢٨
الآيتان (٢٠-٢١) ..... ١٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٣٨
المعنى الإجماليُّ ..... ١٤٠
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ١٤٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٥١
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ١٥٥
الآيات (٢٢-٢٤) ..... ١٦٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٦٤

المعنى الإجماليُّ ..... ١٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٦٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٧٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٧٨
الآيات (٢٥-٢٧) ..... ١٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٨٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٨٥
المعنى الإجماليُّ ..... ١٨٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٨٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٩٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٠٧
الآيتان (٢٨-٢٩) ..... ٢١٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢١٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٢١٤
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٢١٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٢٢
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٢٢٥

## سورةُ المُجادلةِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٢٣١

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٢٣١
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٢٣١
موضوعاتُ السُّورةِ ..... ٢٣٢
الآيات (١-٤) ..... ٢٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٣٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٣٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٣٥
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٤٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٦٣
الآيات (٥-٧) ..... ٢٧٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٧٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٧٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٧٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٧٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٢٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٨٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٨٦
الآيات (٨-١٠) ..... ٢٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٩٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٩٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٩٦

الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٠٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣١٠
الآيات (١١-١٣) ..... ٣١٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣١٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣١٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣١٧
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٢٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٣١
الآيات (١٤-١٩) ..... ٣٣٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٣٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٤٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٤١
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٥٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٥٥
الآيات (٢٠-٢٢) ..... ٣٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٦٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٦٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٦٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ٣٧٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٧٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٨١

## سورةُ الحَشْرِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٣٩١
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٣٩١
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣٩٢
موضوعاتُ السُّورةِ ..... ٣٩٢
الآيات (١-٤) ..... ٣٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٩٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٩٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٩٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٠٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤١١
الآيات (٥-٧) ..... ٤٢١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٢١
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٣٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤١
الآيات (٨-١٠) ..... ٤٤٧

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٤٧
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٤٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٤٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٥٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٦٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٧٤
الآيات (١١-١٣) ..... ٤٨٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٨٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٨٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٨١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٨٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٨٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٨٩
الآيات (١٤-١٧) ..... ٤٩٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٩٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٩٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٩٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٠٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٠٩
الآيات (١٨-٢١) ..... ٥١٤

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥١٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٥١٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥١٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٢٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٢٩
الآيات (٢٢-٢٤) ..... ٥٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٣٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٤٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٥٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٥٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٥٧
الفهرس ..... ٥٦٧

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(سورة الممتحنة إلى سورة التغابن)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد الثامن والثلاثون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة الممتحنة إلى سورة التغابن)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثامن والثلاثون - من سورة الممتحنة إلى سورة التغابن/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - الظهران، ١٤٤٣ هـ

٤٩٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٧-٠٤-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧ ١٤٤٣/٨٦٩٧

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٨٦٩٧

ردمك: ٧-٠٤-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م**

**(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ المُمْتَحَنةِ

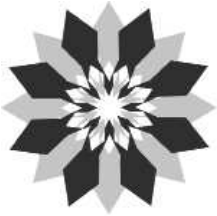

# سورةُ المُمْتَحَنةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المُمْتَحَنةِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمدَنِيِّ:

سورةُ المُمتَحَنةِ مَدَنِيَّةٌ[٢]، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

## مقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

تحذيرُ المؤمِنينَ مِن اتِّخاذِ المُشرِكينَ أولياءَ[٤].

---

(١) وجْهُ التَّسْميةِ أنَّها جاءت فيها آيةُ امتحانِ إيمانِ النِّساءِ اللَّاتي يأتينَ مِن مكَّةَ مُهاجِراتٍ إلى المدينةِ، وهي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٢٩).

وقد عُرِفَت هذه السُّورةُ في كتُبِ التفسيرِ وكُتُبِ السُّنَّةِ وفي المصاحِفِ بـ«سورة المُمتَحَنةِ». يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١١٥).

قال ابنُ حَجَرٍ: (والمشهورُ في هذه التسميةِ فَتحُ الحاءِ، وقد تُكسَرُ، وبه جزَم السُّهَيليُّ؛ فعلى الأوَّلِ هي صِفةُ المرأةِ الَّتي نزلت السُّورةُ بسَبَبِها، والمشهورُ فيها أنَّها أمُّ كلثومٍ بنتُ عُقْبَةَ بنِ أبي مُعَيطٍ. وقيل: سَعيدةُ بنتُ الحارثِ. وقيل: أُمَيمةُ بنتُ بِشرٍ. والأوَّلُ هو المعتَمَدُ... ومَن كَسَر جعَلَها صِفةً للسُّورةِ، كما قيل لـ ﴿بَرَآءَةٞ﴾ الفاضِحةُ). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٣٣). ويُنظر: ((التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام)) للسهيلي (ص: ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٠).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٧٥).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣١).

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- نَهْيُ المؤمِنينَ عن اتِّخاذِ أعداءِ اللهِ وأعدائِهم أولياءَ، وبيانُ كراهيَةِ أعداءِ اللهِ للحَقِّ، وسوءِ عاقبةِ مَن يُوالِيهم.

٢- دعوةُ المؤمِنينَ إلى الاقتِداءِ بأبيهم إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- الَّذي قَطَع صِلَتَه بأبيه وقَومِه؛ لإصرارِهم على الكُفرِ.

٣- بِشارةُ اللهِ للمُؤمِنينَ بجَمْعِ شَمْلِهم بأقارِبِهم، وحُصولِ المَوَدَّةِ بيْنَهم، بِهدايةِ أقارِبِهم إلى الحَقِّ.

٤- بَيانُ الرُّخصةِ في حُسنِ مُعامَلةِ الكَفَرةِ الَّذين لم يُقاتِلوا المسلِمينَ قِتالَ عَداوةٍ في دينٍ، ولا أخرَجوهم مِن ديارِهم.

٥- تفصيلُ أحكامِ النِّساءِ اللَّائي أتَيْنَ مُؤمِناتٍ إليهم، بعد أن ترَكْنَ أزواجَهنَّ الكُفَّارَ.

٦- أمْرُ اللهِ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمُبايَعةِ النِّساءِ المؤمِناتِ، وأخْذِ العُهودِ عليهِنَّ بطاعةِ اللهِ، والبُعْدِ عن المحَرَّماتِ.

٧- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بنَهْيِ المؤمنين عن موالاةِ أعداءِ اللهِ وأعدائِهم.

## الآيات (١-٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَوْلِيَآءَ﴾: أي: أنصارًا وأخِلَّاءَ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على القُرْبِ؛ سواءٌ مِن حيثُ المكانُ أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ أو الاعتِقادُ، وكلُّ مَن وَلِيَ أمْرَ آخَرَ فهو وَلِيُّه[1].

﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾: المودَّةُ: المَحَبَّةُ، والوُدُّ: محبَّةُ الشَّيءِ، أو هو خالصُ الحُبِّ وألطفُه وأرَقُّه، يُقالُ: وَدِدْتُ الرَّجُلَ وُدًّا: أحببْتُه، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محبَّةٍ[2].

﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: أي: قَصْدَ الطَّريقِ ووسَطَه، وأصلُ السَّواءِ: الوَسَطُ، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ وامتِدادِه، وسُمِّيَ الطَّريقُ بذلك لامْتِدادِه[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٣٥)، ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٦، ٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٥/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٥/ ٨٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٤١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٣).

﴿يَثْقَفُوكُمْ﴾: أي: يَجِدُوكم ويَظفَروا بكم، وأصلُ (ثقف): يدُلُّ على الحِذْقِ في إدراكِ الشَّيءِ، ثمَّ يُتجَوَّزُ به فيُستعمَلُ في الظَّفَرِ والإدراكِ مطلقًا[١].

﴿وَيَبْسُطُوٓاْ ...﴾: أي: يُؤذوكُم بالمقالِ والفِعالِ، وبَسطُ اليدِ: مدُّها، ويُستعمَلُ تارةً للطَّلبِ، وتارةً للأخذِ، وتارةً للضَّربِ، وتارةً للبذلِ، وأصلُ (بسط): امْتِدادُ الشَّيءِ[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾

قَولُه: ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ ضميرٌ مُنفَصِلٌ مَبنيٌّ في محلِّ نَصبٍ مَعطوفٌ على ﴿ٱلرَّسُولَ﴾، أي: ويُخرِجونَكم. ﴿أَن تُؤْمِنُواْ﴾ مَصدَرٌ مُؤَوَّلٌ في محَلِّ نَصبٍ مَفعولٌ لأجلِه، أي: يُخرجونَكم؛ لإيمانِكم، أو كَراهةَ إيمانِكم. ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾: شَرطٌ جَوابُه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما تقدَّمَ عليه، وهو قَولُه تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي﴾[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بخِطابِ المؤمِنينَ قائِلًا: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تتَّخِذوا أعدائي وأعداءَكم أنصارًا تَتودَّدونَ إليهم، وقد كَفَروا بالحَقِّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (٨/ ٢٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٢٩٩).

الَّذي جاءَكم، يُخرِجونَ رَسولَ اللهِ، ويُخرِجونَكم مِن ديارِكم؛ بسَبَبِ إيمانِكم باللهِ رَبِّكم، إن كُنتُم هاجَرْتُم وخرَجْتُم مِن أوطانِكم جِهادًا في سَبيلِ اللهِ، وطَلَبًا لنَيلِ رِضوانِه فلا تتَّخِذوا الكُفَّارَ أولياءَ.

تَتودَّدونَ إليهم -أيُّها المؤمِنونَ- بمناصَحتِهم في السِّرِّ، والحالُ أنِّي أعلَمُ بما أضمَرْتُموه وما أظهَرْتُموه، ومَن يَفعَلْ ذلك منكم فقد حادَ عن طريقِ الحَقِّ.

ثمَّ بيَّن الله تعالى حالَ هؤلاءِ الأعداءِ عندَما يتمكَّنونَ مِن المؤمنينَ، فقال: إنْ يَظفَرْ بكم الكُفَّارُ يُظهِروا لكم العَداوةَ، ويَبسُطوا إليكم أيديَهم وألسِنَتَهم بما يَسوؤُكم، وتَمَنَّوا أن تَكفُروا برَبِّكم.

ثمَّ بيَّن الله تعالى عدمَ نفعِ الأرحامِ والأولادِ يومَ القيامةِ، فقال: لا تَحمِلَنَّكم قراباتُكم وأولادُكم على مَعصيةِ اللهِ مِن أجْلِهم؛ فلن يَنفَعوكم يومَ القيامةِ الَّذي يَفصِلُ اللهُ فيه بَيْنَكم وبيْنَهم، فيُدخِلُ المؤمِنينَ الجنَّةَ، ويُدخِلُ الكافِرينَ والعُصاةَ النَّارَ. واللهُ بصيرٌ بأعمالِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡۙ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن عَليِّ بنِ أبي طالبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بَعَثني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

وسلَّم أنا والزُّبَيرُ والمِقدادُ، فقال: انطَلِقوا حتَّى تأتوا رَوضةَ خاخٍ[١]؛ فإنَّ بها ظَعينةً[٢] معها كتابٌ، فخُذوا منها، فانطلَقْنا تَعادَى[٣] بنا خَيلُنا حتَّى أتَيْنا الرَّوضةَ، فإذا نحن بالظَّعينةِ، قُلْنا لها: أخرِجي الكِتابَ، قالت: ما معي كِتابٌ، فقُلْنا: لَتُخرِجِنَّ الكتابَ، أو لَنُلْقِيَنَّ الثِّيابَ. فأخرَجَتْه مِن عِقاصِها[٤]، فأتَيْنا به رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإذا فيه: مِن حاطِبِ بنِ أبي بَلْتَعةَ إلى ناسٍ بمكَّةَ مِن المشرِكينَ، يُخبِرُهم ببَعضِ أمرِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يا حاطِبُ، ما هذا؟! قال: يا رَسولَ اللهِ، لا تَعْجَلْ عليَّ، إنِّي كُنتُ امرَأً مُلصَقًا في قُرَيشٍ -يقولُ: كنتُ حَليفًا، ولم أكُنْ مِن أنفُسِها-، وكان مَن معَك مِن المهاجِرينَ مَنْ لهم قَراباتٌ يَحْمُونَ أهلِيهم وأموالَهم، فأحببتُ إذ فاتَني ذلك مِنَ النَّسَبِ فيهم أن أتَّخِذَ عِندَهم يدًا يَحمُونَ قَرابتي، ولم أفعَلْه ارتِدادًا عن ديني، ولا رِضًا بالكُفرِ بعدَ الإسلامِ. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أمَا إنَّه قد صَدَقَكم! فقال عُمَرُ: يا رَسولَ اللهِ، دَعْني أضرِبْ عُنُقَ هذا المنافِقِ! فقال: إنَّه قد شَهِدَ بَدْرًا، وما يُدريكَ لعَلَّ اللهَ اطَّلَع على مَن شَهِدَ بَدرًا، فقال: اعمَلوا ما شِئتُم؛ فقد غفرْتُ لكم. فأنزل اللهُ السُّورةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]))[٥].

---

(١) مَوضِعٌ بيْن مكَّةَ والمدينةِ بقُربِ المدينةِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٤٠١٢).

(٢) الظَّعينةُ: المرأةُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٥١).

(٣) تَعادَى: أي: تَتَعادى، والمعنى: تَجْري وتتسابقُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٥/ ١٤١).

(٤) عِقاصِها: أي: الخَيطِ الَّذي يُعتقَصُ به أطرافُ الذَّوائبِ، أو الشَّعرِ المضفورِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ٣٨٧).

(٥) رواه البخاريُّ (٤٢٧٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٤٩٤). =

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، اعمَلوا بمُقتَضى إيمانِكم، فلا تتَّخِذوا أعدائي وأعداءَكم مِن المشرِكينَ والكُفَّارِ أنصارًا وأخِلَّاءَ(١).

---

= قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: إنَّ الآيةَ نزلت في حاطِبٍ، حينَ كتَبَ إلى مُشركي قُرَيشٍ يُخبِرُهم بمَسيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم لَمَّا قصَد فتْحَ مكَّةَ، يَنهاه اللهُ عن موالاةِ الكفَّارِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٨٢).

وقال ابنُ عاشور: (اتَّفَقوا على أنَّ الآيةَ الأولى نزلت في شأنِ كتابِ حاطِبِ بنِ أبي بَلتَعةَ إلى المشركينَ مِن أهلِ مكَّةَ... واختَلَفوا في آنِ كتابِه إليهم: أكان عندَ تجهُّزِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للحُدَيبيَةِ؟ وهو قولُ قَتادةَ، ودَرَج عليه ابنُ عطيَّةَ، وهو مقتضى روايةِ الحارثِ عن عليٍّ ابنِ أبي طالبٍ عندَ الطَّبَريِّ... قال ابنُ عطيَّةَ: نزَلَت هذه السُّورةُ سَنةَ ستٍّ. وقال جماعةٌ: كان كِتابُ حاطِبٍ إلى أهلِ مكَّةَ عند تجهُّزِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لفَتحِ مكَّةَ. وهو ظاهِرُ صَنيعِ جمهورِ أهلِ السِّيَرِ، وصَنيعِ البُخاريِّ في كتابِ المغازي مِن صَحيحِه في ترتيبِه للغَزَواتِ، ودرَج عليه مُعظَمُ المفسِّرينَ. ومعظَمُ الرِّواياتِ ليس فيها تعيينُ ما قصَدَه رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تجَهُّزِه إلى مكَّةَ: أهو لأجْلِ العُمرةِ أمْ لأجلِ الفَتحِ؟ فإن كان الأصَحُّ الأوَّلَ -وهو الَّذي نختارُه- كانت السُّورةُ جميعُها نازلةً في مدَّةٍ مُتقارِبةٍ؛ فإنَّ امتحانَ أمِّ كُلثومِ بنتِ عُقبةَ كان عَقِبَ صُلحِ الحُدَيبيَةِ، ويكونُ نزولُ السُّورةِ مُرَتَّبًا على ترتيبِ آياتِها، وهو الأصلُ في السُّوَرِ. وعلى القَولِ الثَّاني يكونُ صُدورُ السُّورةِ نازِلًا بعدَ آياتِ الامتحانِ وما بَعْدَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٠، ١٣١). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٣). ويُنظر أيضًا: ((سيرة ابن هشام)) (٢/ ٣٩٨)، ((دلائل النبوة)) للبيهقي (٥/ ١٤)، ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٢/ ٥٢٥)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٢-٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٨٤-٤٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥).

قال الألوسي: (الصَّحيحُ أنَّ كُلَّ ما عَدَّه العُرفُ تَعظيمًا وحَسِبَه المسلمون موالاةً، فهو مَنهيٌّ عنه، ولو مع أهلِ الذِّمَّةِ، لا سيَّما إذا أوقَعَ شَيئًا في قلوبِ ضُعَفاءِ المؤمنينَ). ((تفسير الألوسي)) (٢/ ١١٦).

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾.

أي: تُبادِرونَ إلى موَدَّتِهم والتَّودُّدِ إليهم، ومِن ذلك إيصالُ أسرارِ المُسلِمينَ إليهم، والنُّصحُ لهم(١)!

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾.

أي: والحالُ أنَّ أولئك المُشرِكينَ الَّذين نُهيتُم عن اتِّخاذِهم أولياءَ: قد كَفَروا بالحَقِّ الَّذي جاءَكم مِن عِندِ اللهِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٢، ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).
قال ابن جُزَي: (﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ عبارةٌ عن إيصالِ الموَدَّةِ إليهم، و«ألْقى» يَتعدَّى بحرفِ جرٍّ وبغيرِ حرفِ جرٍّ، كقولِه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٤).
وقال الشوكاني: (﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ أي: توصِلون إليهم الموَدَّةَ، على أنَّ الباءَ زائدةٌ. أو هي سببيَّةٌ، والمعنى: تُلْقون إليهم أخبارَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم بسببِ الموَدَّةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَهم. قال الزَّجَّاجُ: (تُلْقون إليهم أخبارَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وسِرَّه بالموَدَّةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٥٥).
وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يقولُ جلَّ ثَناؤُه: تُلْقون إليهم مَوَدَّتَكم إيَّاهم. ودُخولُ الباءِ في قولِه: ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ وسُقوطُها سَواءٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٧).
وقال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يعني: بالظَّاهِرِ؛ لأنَّ قَلْبَ حاطِبٍ كان سليمًا، بدليلِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لهم: «أمَّا صاحِبُكم فقد صَدَق»، وهذا نَصٌّ في سلامةِ فُؤادِه، وخُلوصِ اعتِقادِه). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٢)، ((تفسير =

﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾.

أي: وهم يُخرِجونَ رَسولَ اللهِ ويُخرِجونَكم أيضًا -أيُّها المؤمِنونَ- مِن ديارِكم، ويَحمِلونَكم على فِراقِ أوطانِكم؛ بسَبَبِ إيمانِكم باللهِ وَحْدَه الَّذي أحسَنَ إليكم، وربَّاكم بنِعَمِه الظَّاهِرةِ والباطِنةِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾.

أي: لا تتَّخِذوا الكُفَّارَ أولياءَ، ولا تُلْقُوا إليهم بالمودَّةِ إن كُنتُم هاجَرْتُم وخرَجْتُم مِن أوطانِكم بقَصدِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ لإعلاءِ كَلِمتِه، وطَلَبًا لنَيلِ رِضوانِه[2].

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾.

أي: تَتودَّدونَ إليهم -أيُّها المؤمِنونَ- بمناصَحتِهم في السِّرِّ، والحالُ أنِّي أعلَمُ مِن كُلِّ أحَدٍ بالَّذي أضمَرْتُموه والَّذي أظهَرْتُموه، فكيفَ تَفعَلونَ ذلك[3]؟!

---

= القرطبي)) (١٨/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).
قال الواحدي: (﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني: القرآنَ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٥).
قال ابنُ جرير: (ذلك إخراجُ مُشرِكي قُرَيشٍ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه مِن مكَّةَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٨٦، ٤٨٧).
وقال السمعاني: (معنى الإخراجِ هاهنا: هو الإلجاءُ إلى الخروجِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾

أي: ومَن يَفعَلْ ذلك منكم -أيُّها المؤمِنونَ- فقد حادَ عن طريقِ الحَقِّ، وأخطَأَ الصَّوابَ[1].

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نَهَى المؤمنينَ عن اتِّخاذِ الكفَّارِ أولياءَ، وشرَحَ ما به الولايةُ مِن الإلْقاءِ بالمَودَّةِ بيْنَهم، وذكَرَ ما صنَعَ الكُفَّارُ بهم أوَّلًا مِن إخراجِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ- ذكَرَ صَنيعَهم آخِرًا لو قَدَروا عليه؛ مِن أنَّه إنْ تَمكَّنوا منْكم تَظهَرْ عَداوتُهم لكم، ويَبسُطوا أيدِيَهم بالقتْلِ والتَّعذيبِ، وألْسنَتَهم بالسَّبِّ، ووَدُّوا لو ارْتدَدْتُم عن دِينِكم الَّذي هو أحبُّ الأشياءِ إليكم، وهو سَببُ إخراجِهم إيَّاكم[2].

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾.

أي: إنْ يَظفَرْ بكم الكُفَّارُ الَّذين توادُّونَهم -أيُّها المؤمِنونَ- يُظهِروا لكم العَداوةَ؛ فلا تَظُنُّوا أنَّ في التَّوَدُّدِ إليهم مَنفَعةً لكم[3].

---

= (٨/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥٨، ٥٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٩).

قال ابن عطية: (السَّواءُ: الوَسَطُ؛ وذلك لأنَّه تتساوى نِسبَتُه إلى أطرافِ الشَّيءِ، والسَّبيلُ هنا: شَرعُ اللهِ، وطريقُ دِينِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير ابن =

كما قال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨].

﴿وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾.

أي: ولو ظَفِروا بكم لَبَسَطوا إليكم أيديَهم بفِعلٍ يُؤذِيكم، وألسِنَتَهم بكَلامٍ يَسوؤُكم[1].

﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان أعدى الأعداءِ لك مَن تمَنَّى أن يَفوتَك أعزُّ الأشياءِ لديك، وكان أعزُّ الأشياءِ عندَ كلِّ أحدٍ دِينَه؛ قال مُتمِّمًا للبَيانِ[2]:

﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

---

= عطية)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٩).

قال الرَّسْعَني: (أخبَرَهم بما في أنفُسِهم لهم مِن العداوةِ، فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: يَظفَروا بكم ﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً﴾ ظاهِري العداوةِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤).

أي: وتَمَنَّوا وأحَبُّوا لكم أن تَكفُروا برَبِّكم، فتَكونوا على مِثْلِ ما هم عليه مِنَ الكُفرِ[١]!

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان حاطِبٌ رضِيَ اللهُ عنه قدِ اعتذَرَ بأنَّ له بمكَّةَ قَرابةً، فكَتَبَ إلى أهْلِها بما كَتَبَ لِيَرْعَوه في قَرابتِه؛ قال تعالَى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡ﴾[٢].

وأيضًا لَمَّا كانت عداوتُهم معروفةً، وإنَّما غطَّاها محبَّةُ القَراباتِ؛ لأنَّ الحُبَّ للشَّيءِ يُعْمي ويُصِمُّ، فخَطَّأَ رأيَهم في موالاتِهم بما أعَلَمهم به مِن حالاتِه- زَهَّد فيها بما تُورِثُه مِن الشَّقاءِ الدَّائِمِ يومَ البَعْثِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥).

قال مقاتل بن سليمان: (﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ إن ظَهَروا عليكم). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٠).

وقال ابن عاشور: (جملةُ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَكُونُواْ﴾، والواوُ: واوُ الحالِ، أي: وهم قد ودُّوا مِنَ الآنَ أن تَكفُروا، فكيف لو يأسِرونَكم؟ أليس أهمُّ شَيءٍ عندَهم حينَئذٍ أن يَرُدُّوكم كُفَّارًا؟). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٠).

وقال ابن كثير: (يحرِصونَ على ألَّا تَنالوا خَيرًا، فهم عداوتُهم لكم كامِنةٌ وظاهِرةٌ، فكيف توالُونَ مِثلَ هؤلاء؟ وهذا تهييجٌ على عداوتِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤).

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾.

أي: لا تَحمِلَنَّكم قراباتُكم وأولادُكم على مَعصيةِ اللهِ مِن أجْلِهم؛ فإنَّكم إذا أرضَيْتُموهم بما يُسخِطُ اللهَ فلن يَنفَعوكم بأيِّ وَجهٍ مِن الوُجوهِ يومَ القيامةِ الَّذي يَفصِلُ اللهُ فيه بيْنَكم وبَيْنَهم، فيُدخِلُ المؤمِنينَ الجنَّةَ، ويُدخِلُ الكافِرينَ والعُصاةَ النَّارَ[1].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٦، ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤، ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال ابنُ جُزَي: (يَحتَمِلُ أن يكونَ مِن الفَصلِ بالحُكمِ بَيْنَهم، أو مِنَ الفَصلِ بمعنى التَّفريقِ، أي: يُفَرِّقُ بَيْنَكم وبيْنَ قرابتِكم يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٥).

وقال السمين الحلبي: (قولُه: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يجوزُ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنْ يَتعلَّقَ بما قبْلَه، أي: لن يَنفعَكم يومَ القيامةِ، فيُوقَفُ عليه، ويُبْتدأُ: ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾. والثَّاني: أنْ يَتعلَّقَ بما بعْدَه، أي: يَفصِلُ بيْنَكم يومَ القيامةِ، فيُوقَفُ على ﴿أَوْلَٰدُكُمْ﴾ ويُبتدَأُ: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾). ((الدر المصون)) (١٠/ ٣٠٢). ويُنظر: ((منار الهدى في بيان الوقف والابتدا)) للأشموني (٢/ ٣٣٢).

وقال ابنُ عاشور: (﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ظَرفٌ يَتنازَعُه كُلٌّ مِن فِعلِ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ﴾، وفِعلُ ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾؛ إذ لا يَلزَمُ تقَدُّمُ العامِلَينِ على المعمولِ المتنازَعِ فيه إذا كان ظرفًا؛ لأنَّ الظُّروفَ تتقَدَّمُ على عوامِلِها، وإن أبَيتَ هذا التَّنازُعَ فقُلْ: هو ظَرفُ ﴿تَنفَعَكُمْ﴾، واجعَلْ لـ ﴿يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ ظرفًا محذوفًا دَلَّ عليه المذكورُ. والفَصلُ هنا: التَّفريقُ، وليس المرادُ به القَضاءَ. والمعنى: يومَ القيامةِ يُفَرِّقُ بَيْنَكم وبَينَ ذَوي أرحامِكم وأولادِكم: فريقٌ في الجنَّةِ، وفَريقٌ في السَّعيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤١).

وممَّن اختار أنَّ الفصلَ بيْنَهم بإدخالِ المؤمنينَ الطَّائعينَ الجنَّةَ، والكافرين والعاصينَ النَّارَ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والرازي، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥١).

أي: واللهُ بصيرٌ بأعمالِكم، لا يخفَى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ بيانُ أنَّ خُلَّةَ غيرِ المتَّقينَ المؤمِنينَ لا مُعَوَّلَ عليها؛ ألَا ترَى أنَّ الموالِينَ المُلْقَى إليهم بالمودَّةِ -في أوَّلِ هذه السُّورةِ- لم يُراعُوا للمُسِرِّينَ إليهم بها، ولم يُحامُوا عليهم مِن أجْلِها[٢]؟!

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ فيه بَيانٌ واضِحٌ في أنَّ روابِطَ الدِّينِ أقوى وألزَمُ مِن روابِطِ النَّسَبِ[٣].

٣- قال تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾، وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٩]، وقال: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]، وهذا كلُّه تكذيبٌ لأطماعِ المشركين الباطِلةِ أنَّ مَنْ تعلَّقوا به مِن دون اللهِ مِن قَرابةٍ أو صِهْرٍ أو نكاحٍ أو صُحْبةٍ يَنفَعُهم يومَ القيامةِ، أو يُجيرُهم مِن عذابِ الله، أو هو يَشفَعُ لهم عندَ اللهِ؛ فإنَّ الأسبابَ كلَّها تَنقَطِعُ يومَ القيامةِ إلَّا ما كان منها متَّصِلًا باللهِ وَحْدَه على أيدي رُسُلِه، فمَن رَكِبَ معصيةَ اللهِ وخالَفَ أمْرَه، فلنْ يَنفَعَه صلاحُ غيرِه مِن قريبٍ أو أجنبيٍّ، ولو كان بيْنَهما في الدُّنيا أشدُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥١).

قال السعدي: (فلذلك حَذَّركم مِن مُوالاةِ الكافِرينَ الَّذين تضُرُّكم مُوالاتُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨٤).

الاتِّصالِ؛ فلا اتِّصالَ فَوقَ اتِّصالِ البُنوَّةِ والأبُوَّةِ والزَّوجيَّةِ، ولم يُغْنِ نوحٌ عنِ ابنِه، ولا إبراهيمُ عن أبيه، ولا نوحٌ ولا لوطٌ عن امرأتَيهما مِن اللهِ شَيئًا[١]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ فيه النَّهيُ الشَّديدُ عن مُوالاةِ الكُفَّارِ مِن المُشرِكينَ وغَيرِهم، وإلقاءِ المودَّةِ إليهم، وأنَّ ذلك مُنافٍ للإيمانِ[٢]. والسُّورةُ أصلٌ في النَّهيِ عن مُوالاةِ الكُفَّارِ[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ ردَّ أهلُ السُّنَّةِ به وأمثالِه على المُعتَزِلةِ وأمثالِهم قَولَهم: (إنَّ المعصيةَ تُنافي الإيمانَ)؛ لأنَّ اللهَ ناداهم بوَصفِ الإيمانِ مع قَولِه: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾، فلم يُخرِجْهم بضَلالِهم عن عُمومِ إيمانِهم، ويَشهَدُ لهذا أنَّ الضَّلالَ هنا عن سواءِ السَّبيلِ لا مُطلَقِ السَّبيلِ[٤].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هذا كُلُّه مُعاتَبةٌ لحاطِبٍ، وهو يدُلُّ على فَضْلِه وكَرامتِه، ونَصيحتِه لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وصِدْقِ إيمانِه؛

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٢).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨٢).

فإنَّ المُعاتَبةَ لا تكونُ إلَّا مِن مُحِبٍّ لحَبيبِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أنَّه قد تَحصُلُ للرَّجُلِ مُوادَّةُ أعداءِ اللهِ؛ لِرَحِمٍ أو حاجةٍ، فتكونُ ذنْبًا يَنقُصُ به إيمانُه ولا يكونُ به كافِرًا، كما حَصَلَ مِن حاطِبِ بنِ أبي بَلْتعةَ لَمَّا كاتَبَ المُشرِكينَ ببَعضِ أخبارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنزَلَ اللهُ فيه الآياتِ[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فيه سؤالٌ: اتِّخاذُ العَدُوِّ وليًّا كيف يُمكِنُ، وقد كانت العداوةُ مُنافِيةً للمَحَبَّةِ والموَدَّةِ، والمحبَّةُ والمودَّةُ مِن لوازمِ ذلك الاتِّخاذِ؟

**الجوابُ**: لا يَبعُدُ أن تكونَ العداوةُ بالنِّسبةِ إلى أمرٍ، والمحبَّةُ والمودَّةُ بالنِّسبةِ إلى أمرٍ آخَرَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾[٣] [التغابن: ١٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ أنَّ الكافرَ عدوٌّ للهِ ولنا[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ أنَّ موَدَّةَ أعداءِ اللهِ ومحبَّتَهم ومُوالاتَهم مُخالِفةٌ لِمَا يجِبُ على المُسلِمِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد نهى عن ذلك[٥].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ نزَلَ فيما

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٣/ ١٦).

فعَلَه حاطِبٌ خَوفًا على مالِه ووَلَدِه؛ فيُؤخَذُ منه أنَّ الخَوفَ عليهما لا يُبيحُ التَّقِيَّةَ في دِينِ اللهِ[١]، ولا يُبيحُ التَّقِيَّةَ في إظهارِ الكُفْرِ، كما يُبيحُ في الخَوفِ على النَّفْسِ، ويُبَيِّنُ ذلك أنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ الهِجْرةَ، ولم يَعْذِرْهم في التَّخَلُّفِ مِن أجْلِ أموالِهم وأولادِهم. وقيل: إنَّما ظَنَّ حاطِبٌ أنَّ ذلك يجوزُ له؛ ليَدفَعَ به عن وَلَدِه، كما يجوزُ له أن يَدفَعَ عن نَفْسِه بمِثْلِ ذلك عندَ التَّقِيَّةِ[٢].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فيه سُؤالٌ: لَمَّا قال: ﴿عَدُوِّى﴾، فلِمَ لَمْ يكتَفِ به حتَّى قال: ﴿وَعَدُوَّكُمْ﴾؛ لأنَّ عَدُوَّ اللهِ إنَّما هو عَدُوُّ المؤمنينَ؟

**الجوابُ**: الأمرُ لازِمٌ مِن هذا التَّلازُمِ، وإنَّما لا يَلزَمُ مِن كَونِه عَدُوًّا للمُؤمِنينَ أن يكونَ عَدُوًّا لله، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾[٣] [التغابن: ١٤]. أو أنَّه ذكَرَ ذلك في مَقامِ التَّنفيرِ؛ إذ هو عدوٌّ لله وعدوٌّ لهم أيضًا.

١٠- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ ولم يقُلْ: (وَلِيًّا)، والعَدُوُّ والوَلِيُّ بلَفظٍ؟

**الجوابُ**: كما أنَّ المعَرَّفَ بحَرفِ التَّعريفِ يتناوَلُ كُلَّ فَردٍ، فكذلك المُعَرَّفُ بالإضافةِ[٤]، وكذلك فإنَّ لفظ «العَدُوَّ» مَصدَرٌ يُطلَقُ على الواحِدِ والاثنينِ والجماعةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٠٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦٨) نقلًا عن القاضي أبي يعلى.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٠).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ سؤالٌ: لماذا لم يَكُنِ الكَلامُ: «يُخرِجونَكم والرَّسولَ»؛ لأنَّه لا فَصْلَ مع إمكانِ الوَصلِ، كما قال ابنُ مالكٍ في الألفيَّةِ:

«وفي اختيارٍ لا يَجيءُ المُنفَصِلْ إذا تأتَّى أنْ يجيءَ المتَّصِلْ»؟

**الجوابُ**: نعَمْ، هو في الإمكانِ أنْ يكونَ هذا، لكنْ يُفَوِّتُ الغايةَ؛ ففي قَولِه: ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ تقديمُ الرُّتبةِ؛ فذُكِرَ الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لئلَّا يكونَ تابعًا لغَيرِه، فيُقالَ: «يُخرِجونَكم والرَّسولَ»[1]؛ لأنَّه الأصلُ للمؤمنينَ به[2]. وكذلك قُصِدَ فيها تقدُّمُ ذِكْرِ الرَّسولِ؛ تشريفًا له، وتشنيعًا على مَنْ تجاسَرَ على مثلِ ذلك الفِعلِ الفَظيعِ[3].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ فيه سؤالٌ: لمْ يقُلْ: (بما أسرَرْتُم وما أعلَنْتُم)، مع أنَّه أليقُ بما سبقَ، وهو ﴿تُسِرُّونَ﴾؟

**الجوابُ**: أنَّ فيه مِن المبالغةِ ما ليس في ذلك؛ فإنَّ الإخفاءَ أبلَغُ من الإسرارِ؛ دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، أي: أخفى مِنَ السِّرِّ[4].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ أنَّ الخِلافَ الَّذي يَقَعُ بيْنَ أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطلِ لا يَنتَهي بالدُّنيا، وإنَّما سوف يَحكُمُ اللهُ بيْنَهم يومَ القيامةِ، ويَنصُرُ أهلَ الحقِّ[5]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ ﴿يَفْصِلُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٤/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٩١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾

- في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ...﴾ وُجِّهَ الخِطابُ بالنَّهيِ إلى جَميعِ المؤمنينَ؛ تَحذيرًا مِن إتيانِ مِثلِ فِعلِ حاطبٍ[١].

- والاتِّخاذُ: افتِعالٌ مِن الأخْذِ، صِيغَ الافتِعالُ للمُبالَغةِ في الأخذِ؛ فأُطلِقَ على التَّلبُّسِ والمُلازَمةِ[٢].

- وأضافَ العدُوَّ إليه سُبحانَه في قولِه: ﴿عَدُوِّى﴾؛ تَغليظًا لجُرْمِهم، وإعلامًا بحُلولِ عِقابِ اللهِ بهم[٣].

- قولُه: ﴿عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ﴾ قُدِّم ﴿عَدُوِّى﴾ على (عَدُوَّكُمْ)؛ قيل: لأنَّ الشَّيءَ إذا كان له نِسبةٌ إلى الطَّرَفَينِ، فالطَّرَفُ الأعلى مُقدَّمٌ على الطَّرفِ الأدنى. وقيل: لأنَّ عداوةَ العبدِ لله هي الأصلُ، وهي أشدُّ قُبحًا؛ فلذا قُدِّمَتْ، وقُبحُها في أنَّهم عبَدوا غيرَ خالِقِهم، وشكَروا غيرَ رازِقِهم، وكذَّبوا رُسُلَ ربِّهم وآذَوْهم. كذلك فتقديمُه يؤكِّدُ بأنَّه هو السَّببُ في العداوةِ بيْن المؤمنينَ والكافِرين، وما كان سببًا فحقُّه التَّقديمُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصر السابق)) (٢٨/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٦)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨١).

- وقولُه: ﴿تُلْقُونَ﴾ بيانٌ لمُوالاتِهم، أو استئنافُ إخبارٍ، كأنَّه لَمَّا قِيل: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، قالوا: كيف نتَّخِذُهم أولياءَ؟ فقِيل: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿تُلْقُونَ ...﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾؛ لأنَّ جَعْلَها حالًا يُتوصَّلُ منه إلى التَّعجيبِ مِن إلْقائِهم إليهم بالمودَّةِ[1].

- والإلقاءُ مُعبَّرٌ به هنا عن إيقاعِ الشَّيءِ بدونِ تَدبُّرٍ في مَوقِعِه، أي: تَصرِفونَ إليهم مَودَّتَكم بغَيرِ تأمُّلٍ[2].

- والباءُ في ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ لتأْكيدِ اتِّصالِ الفِعلِ بمَفعولِه، وأصلُ الكلامِ: تُلْقُون إليهم المَودَّةَ، وذلك تَصويرٌ لقُوَّةِ مَودَّتِهم لهم. أو سَببيَّةٌ، والمفعولُ مَحذوفٌ، والتَّقديرُ: تُلْقُون إليهم أخبارَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بسَببِ المودَّةِ الَّتي بيْنَكم وبيْنَهم[3].

- وبدَأَ هنا في قولِه: ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ بلَفظِ ﴿تُلْقُونَ﴾، وبعْدَه بلَفظِ ﴿تُسِرُّونَ﴾؛ تَنبيهًا بالأوَّلِ على ذمِّ مَودَّةِ الأعداءِ جَهرًا وسِرًّا، وبالثَّاني على تأْكيدِ ذَمِّها سِرًّا، وخَصَّ الأوَّلَ بالعُمومِ -أي: جَهرًا وسِرًّا-؛ لتَقدُّمِه[4].

- وزِيدَ في تَصويرِ هذه الحالةِ بجُملةِ الحالِ الَّتي بعْدَها، وهي ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٠).

بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾، وهي حالٌ مِن ضَميرِ ﴿إِلَيْهِم﴾ أو مِن ﴿عَدُوِّى﴾. و(مَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ) هو القرآنُ والدِّينُ، وذُكِر بطَريقِ الموصوليَّةِ؛ لِيَشملَ كلَّ ما أتاهم به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على وجْهِ الإيجازِ، مع ما في الصِّلةِ مِن الإيذانِ بتَشنيعِ كُفْرِهم بأنَّه كُفْرٌ بما ليس مِن شأْنِه أنْ يَكفُرَ به طُلَّابُ الهُدى؛ فإنَّ الحقَّ مَحبوبٌ مَرغوبٌ[1].

- قولُه: ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ فيه تَعديةُ (جَاءَ) إلى ضَميرِ المُخاطَبينَ -وهمُ الَّذين آمَنوا-؛ لأنَّهم الَّذين انتَفَعوا بذلك الحقِّ وتَقبَّلوه، فكأنَّه جاء إليهم لا إلى غَيرِهم، وإلَّا فإنَّه جاء لدَعوةِ الَّذين آمَنوا والمُشرِكين، فقَبِله الَّذين آمَنوا، ونَبَذَه المشرِكون، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ كُفْرَ الكافِرينَ به ناشئٌ عن حَسَدِهم الَّذين آمَنوا قبْلَهم، وفي ذلك أيضًا إلهابٌ لقُلوبِ المؤمنينَ؛ لِيَحذَروا مِن مُوالاةِ المشرِكين[2].

- وجُملةُ ﴿يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ استِئنافٌ مُبيِّنٌ لكُفْرِهم، أو حالٌ مِن ضَميرِ ﴿كَفَرُواْ﴾، أي: لم يَكتَفُوا بكُفْرِهم بما جاء مِن الحقِّ، فتَلبَّسوا معه بإخراجِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإخراجِكم مِن بَلَدِكم؛ لأنْ تُؤمِنوا باللهِ ربِّكم، أي: هو اعتداءٌ حَمَلَهم عليه أنَّكم آمنْتُم باللهِ ربِّكم، وأنَّ ذلك لا عُذْرَ لهم فيه؛ لأنَّ إيمانَكم لا يَضِيرُهم؛ ولذلك أُجرِيَ على اسمِ الجلالةِ وصْفُ ﴿رَبِّكُمْ﴾. وحُكِيَت هذه الحالةُ بصِيغةِ المضارعِ لتَصويرِ الحالةِ؛ لأنَّ الجُملةَ لَمَّا وَقَعَت حالًا مِن ضَميرِ ﴿وَقَدْ كَفَرُواْ﴾، كان إخراجُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ في تلك الحالةِ عَمَلًا فظيعًا؛ فأُرِيدَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٣٥).

استحضارُ صُورةِ ذلك الإخراجِ العَظيمِ[١].

- وأُسنِدَ الإخراجُ إلى ضَميرِ العدُوِّ كلِّهم في قولِه: ﴿يُخْرِجُونَ﴾؛ لأنَّ جَميعَهم كانوا راضِينَ بما يَصدُرُ مِن بَعضِهم مِن أذَى المسلمين، وربَّما أغْرَوا به سُفهاءَهُم[٢].

- وقولُه: ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تَعليلٌ للإخراجِ، أي: يُخرِجونكم لإيمانِكم، وفيه تَغليبُ المُخاطَبِ، والْتِفاتٌ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ ﴿بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾؛ للدَّلالةِ على ما يُوجِبُ الإيمانَ مِن الأُلوهيَّةِ والرُّبوبيَّةِ[٣].

- وجِيءَ بصِيغةِ المضارعِ في قولِه تعالَى: ﴿أَن تُؤْمِنُوا﴾؛ لإفادةِ استِمرارِ إيمانِ المؤمنينَ، وفيه إيماءٌ إلى الثَّناءِ على المؤمنينَ بثَباتِهم على دِينِهم، وأنَّهم لمْ يَصُدَّهم عنه ما سبَّبَ لهم الخُروجَ مِن بِلادِهم[٤].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ شرْطٌ ذُيِّل به النَّهيُ مِن قولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾، بمَنزلةِ التَّتميمِ لِما قبْلَه دونَ قصْدِ تَعليقِ ما قبْلَه بمَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ، أي: لا يُقصَدُ أنَّه إذا انْتَفى فِعلُ الشَّرطِ انْتَفى ما عُلِّقَ عليه كما هو الشَّأنُ في الشُّروطِ، بلْ يُقصَدُ تأْكيدُ الكلامِ الَّذي قبْلَه بمَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ، فيَكونُ كالتَّعليلِ لِما قبْلَه، وإنَّما يُؤتَى به في صُورةِ الشَّرطِ مع ثِقةِ المُتكلِّمِ بحُصولِ مَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ بحيث لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٥).

يُتوقَّعُ مِن السَّامعِ أنْ يَحصُلَ منه غَيرُ مَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ، فتَكونُ صِيغةُ الشَّرطِ مُرادًا بها التَّحذيرُ؛ لأنَّ معْنى الشَّرطِ يَلزَمُه التَّردُّدُ غالبًا؛ ولهذا يُؤتَى بمِثلِ هذا الشَّرطِ إذا كان المُتكلِّمُ واثقًا بحُصولِ مَضمونِه مُتحقِّقًا صِحةَ ما يقولُه قبْلَ الشَّرطِ، ويَغلِبُ أنْ يكونَ فِعلُ الشَّرطِ في مِثلِه فِعلَ كَونٍ إيذانًا بأنَّ الشَّرطَ مُحقَّقُ الحُصولِ، والمقصودُ استقرارُ النَّهيِ عن اتِّخاذِ عَدُوِّ اللهِ أولياءَ، وعُقِّبَ بفرْضٍ شَرْطُه مَوثوقٌ بأنَّ الَّذين نُهُوا مُتلبِّسونَ بمَضمونِ فِعلِ الشَّرطِ بلا رَيبٍ، فكان ذِكرُ الشَّرطِ ممَّا يَزيدُ تأْكيدَ الانكفافِ[١].

- والمرادُ بالخُروجِ الخروجُ مِن مكَّةَ مُهاجَرةً إلى المدينةِ، فالخِطابُ خاصٌّ بالمهاجرينَ، على طَريقةِ تَخصيصِ العُمومِ في قولِه تَعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، رُوعِيَ في هذا التَّخصيصِ قَرينةُ سَببِ نُزولِ الآيةِ على حادثِ حاطبِ بنِ أبي بَلْتعةَ[٢].

- قولُه: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ بَيانًا لجُملةِ ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾، أو استئنافٌ، أو بدَلُ اشتمالٍ منها؛ فإنَّ الإسرارَ إليهم بالموَدَّةِ ممَّا اشتَمَلَ عليه الإلقاءُ إليهم بالمَودَّةِ. والخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّعجيبِ، فالتَّوبيخُ مُستفادٌ مِن إيقاعِ الخبَرِ عَقِبَ النَّهيِ المُتقدِّمِ، والتَّعجيبُ مُستفادٌ مِن تَعقيبِه بجُملةِ ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾، أي: كيف تَظُنُّون أنَّ إسرارَكم إليهم يَخْفَى علينا، ولا نُطلِعُ عليه رَسولَنا[٣]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

- ومَفعولُ ﴿تُسِرُّونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ مَحذوفًا يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: تُخبِرُونهم أحوالَ المسلمينَ سِرًّا، وجِيءَ بصِيغةِ المُضارِعِ لتَصويرِ حالةِ الإسرارِ إليه؛ تَفظيعًا لها، والباءُ في ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: تُخبِرونهم سِرًّا بسَببِ المودَّةِ، أي: بسَببِ طَلَبِ المودَّةِ لهم، كما هو في قضيَّةِ كِتابِ حاطبٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ في مَحلِّ المفعولِ لفِعلِ ﴿تُسِرُّونَ﴾، والباءُ زائدةً لتَأكيدِ المَفعوليَّةِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ﴾ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿تُسِرُّونَ﴾، أو مُعترِضةٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، وهذا مَناطُ التَّعجيبِ مِن فِعلِ المُعرَّضِ به، وهو حاطبُ بنُ أبي بَلْتعةَ[2].

- وتَقديمُ الإخفاءِ على الإعلانِ؛ لأنَّه المناسِبُ لقولِه: ﴿وَأَنَا۠ أَعْلَمُ﴾، ولمُوافَقتِه للقصَّةِ، وللمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلمِه المحيطِ لجَميعِ المعلوماتِ، كأنَّ عِلمَه بما يُسِرُّونه أقدَمُ منه بما يُعْلِنونَه، مع كَونِهما في الحقيقةِ على السَّويَّةِ[3]. وأيضا قَدَّم العِلمَ بالإخفاءِ على الإعلانِ، مع أنَّ ذلك مُستَلزِمٌ لهذا مِن غيرِ عَكسٍ؛ إذ هما سِيَّانِ في عِلْمِ الله تعالى، ولأنَّ المقصودَ هو بيانُ ما هو الأخفى، فيكونُ مُقَدَّمًا[4].

- قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ النَّهيِ في قولِه تَعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾، عُطِفَ على النَّهيِ التَّوعُّدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١١٨) و(٨/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٧).

على عدَمِ الانتهاءِ بأنَّ مَن لم يَنتَهِ عمَّا نُهِيَ عنه هو ضالٌّ عن الهُدى. و(مَنْ) شَرطيَّةٌ، الفِعلُ بعْدَها مُستقبَلٌ، وهو وَعيدٌ للَّذين يَفعَلون مِثلَ ما فَعَلَ حاطِبٌ بعْدَ أنْ بَلَغَهم النَّهيُ والتَّحذيرُ والتَّوبيخُ والتَّفظيعُ لعَمَلِه[١].

- وقولُه: ﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ مُعبَّرٌ به هنا عن أعْمالِ الصَّلاحِ والهُدَى؛ لشَبَهِها بالطَّريقِ المُستوي الَّذي يَبلُغُ مَن سَلَكَه إلى بُغيتِه، ويَقَعُ مَنِ انحَرَفَ عنه في هَلَكةٍ، والمُرادُ به هنا: ضلَّ عن الإسلامِ، وضلَّ عن الرُّشدِ[٢].

- و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ مِن إضافةِ الصِّفةِ للمَوصوفِ، أي: الطَّريقَ المستويَ؛ لقصدِ المبالغةِ في بيانِ قوَّةِ الاتِّصافِ كأنَّه نفْسُ السَّواءِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾

- هذه الجُملةُ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ...﴾ تُفيدُ معْنى التَّعليلِ لمُفادِ قولِه تعالى: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، باعتبارِ بَعضِ ما أفادَتْه الجُملةُ، وهو الضَّلالُ عن الرُّشدِ؛ فإنَّه قد يَخفَى ويُظَنُّ أنَّ في تَطلُّبِ مَودَّةِ العدُوِّ فائدةً، كما هو حالُ المنافقينَ، فقد يُظَنُّ أنَّ مُوالاتَهم مِن الدَّهاءِ والحزْمِ رجاءَ نفْعِهم إنْ دالَتْ لهم الدَّولةُ؛ فبيَّنَ اللهُ لهم خطأَ هذا الظَّنِّ، وأنَّهم إنِ استَفادوا مِن مَودَّتِهم إيَّاهم اطِّلاعًا على قُوَّتِهم فتَأهَّبوا لهم وظَفِروا بهم، لم يَكونوا لِيَرْقُبوا فيهم إلًّا ولا ذِمَّةً، وأنَّهم لو أخَذُوهم وتَمكَّنوا منهم لَكانوا أعداءً لهم؛ لأنَّ الَّذي أضْمَرَ العداوةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٤٥)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٨٤).

زَمَنًا يَعسُرُ أنْ يَنقلِبَ وَدودًا؛ وذلك لشِدَّةِ الحَنَقِ على ما لَقُوا مِن المسلمينَ مِن إبطالِ دِينِ الشِّركِ، وتَحقيرِ أهْلِه وأصنامِهم(١).

- وفِعلُ ﴿يَكُونُواْ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ عَداوتَهم قَديمةٌ، وأنَّها تَستمِرُّ(٢).

- والبَسطُ: مُعبَّرٌ به هنا عن الإكثارِ؛ لِما شاعَ مِن تَشبيهِ الكثيرِ بالواسعِ والطَّويلِ، وتَشبيهِ ضِدِّه -وهو القبضُ- بضِدِّ ذلك، فبَسْطُ اليدِ الإكثارُ مِن عَمَلِها، والمرادُ به هنا: عمَلُ اليدِ الَّذي يضُرُّ، مثل الضَّربِ والتَّقييدِ والطَّعنِ، وعمَلُ اللِّسانِ الَّذي يُؤذِي، مثل الشَّتمِ والتَّهكُّمِ(٣).

- قولُه: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ قيل: إنَّه مَعطوفٌ على جَوابِ الشَّرطِ، وعُدِلَ عن المضارعِ المناسبِ لِمَا قبْلَه إلى الماضي، مع أنَّ السِّياقَ يَتطلَّبُ أنْ يكونَ مُضارعًا مُستقبَلًا؛ لاعتبارِه قدْ كان، أي: إنَّ وَدادتَهم كُفْرَكم هو المُهِمُّ لَديهم، ولا شَيءَ يَعدِلُه في الرُّجحانِ، يعْني أنَّهم يُريدون أنْ يُلْحِقوا بكم جَميعَ مَضارِّ الدُّنيا والدِّينِ، وارْتدادُكم كُفَّارًا أسبَقُ المَضارِّ لكم؛ لأنَّهم يَعلَمون أنَّ الدِّينَ أعزُّ عليكم مِن أرواحِكم، وهذا مِن بَديعِ التَّعبيرِ(٤). فلأنَّ مُصيبةَ الدِّينِ أعظَمُ، فهُم إليها أسرَعُ؛ لأنَّ دأبَ العدُوِّ القَصدُ إلى أعظَمِ ضَررٍ يَراهُ لِعَدوِّه، وعُبِّر بما يُفهِمُ التَّمنِّيَ الَّذي يَكونُ في المُحالاتِ؛ لِيَكونَ المعنى أنَّهم أحَبُّوا ذلك غايةَ الحُبِّ وتَمَنَّوْهُ، وفيه بُشْرى بأنَّه مِن قَبِيلِ المُحالِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤).

وقيل: التَّعبيرُ بالماضي وإنْ كان المعنى على الاستِقبالِ؛ للإشعارِ بأنَّ وَدادَتَهم كُفْرَهم قبْلَ كلِّ شَيءٍ، وأنَّها حاصِلةٌ وإنْ لم يَثقَفوهم. وتحقيقُ ذلك أنَّ الوَدادةَ سابقةٌ بالنَّوعِ، مُتأخِّرةٌ باعتِبارِ بعضِ الأفرادِ؛ فعُبِّر بالماضي نظَرًا للأوَّلِ، وجُعِلَت جوابًا مُتأخِّرًا نظرًا للثَّاني[1].

- وقيل: إنَّ جُملةَ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿يَكُونُواْ﴾، والواوُ واوُ الحالِ، أي: وهمْ قدْ ودُّوا مِن الآنَ أنْ تَكفُروا، فكيف لو يَأسِرُونكم؟! أليس أهمُّ شَيءٍ عِندَهم حينَئذٍ أنْ يَرُدُّوكم كُفَّارًا؟! فجُملةُ الحالِ دليلٌ على مَعطوفٍ مُقدَّرٍ على جَوابِ الشَّرطِ، كأنَّه قِيل: إنْ يَثقَفوكم يَكونوا لكمْ أعداءً... إلى آخِرِه، ويرُدُّوكم كُفَّارًا، وليستْ جُملةُ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ مَعطوفةً على جُملةِ الجوابِ؛ لأنَّ مَحبَّتَهم أنْ يَكفُرَ المسلمون مَحبَّةٌ غيرُ مُقيَّدةٍ بالشَّرطِ؛ ولذلك وقَعَ فِعلُ (ودُّوا) ماضيًا ولم يقَعْ مُضارِعًا مِثلَ الأفعالِ الثَّلاثةِ قبْلَه ﴿يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّه ليس مَعطوفًا على جَوابِ الشَّرطِ[2]؛ فليس قولُه: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ مَعطوفًا على جَوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّ وَدادَتَهم كُفْرَهم ليست مُترتِّبةً على الظَّفرِ بهم، والتَّسلُّطِ عليهم، بلْ هم وادُّون كُفْرَهم على كلِّ حالٍ، سواءٌ أظفَروا بهمْ أمْ لم يَظْفَروا، وإنَّما هو مَعطوفٌ على جُملةِ الشَّرطِ والجزاءِ، أخبَرَ تَعالى بخَبَرَين؛ أحدُهما: اتِّضاحُ عَداوتِهم والبَسطُ إليهم ما ذُكِرَ على تَقديرِ الظَّفرِ بهم، والآخرُ: وَدادتُهم كُفْرَهم، لا على تَقديرِ الظَّفرِ بهم[3].

- وقُدِّمُ الأوَّلُ -وهو ﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٤).

بِٱلسُّوٓءِ﴾-؛ لأنَّه أبيَنُ في العَداوةِ، وإنْ كان الثَّاني -وهو: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾- أنكَأَ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإعلامِ بأنَّ أرحامَهم وأولادَهم لنْ يَنفَعُوهم[2]. وهو تَخلُّصٌ مِن تَبْيينِ سُوءِ عاقبةِ مُوالاةِ أعداءِ الدِّينِ في الحياةِ الدُّنيا، إلى بَيانِ سُوءِ عاقبةِ تلك المُوالاةِ في الآخِرةِ، ومُناسَبةُ حُسْنِ التَّخلُّصِ قولُه: ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢] الدَّالُّ على معْنى: أنَّ وَدادتَهم كُفْرَكم مِن قبْلِ أنْ يَثقَفوكم تَنقلِبُ إلى أنْ يُكْرِهوكم على الكُفرِ حِينَ يَثقَفونَكم، فلا تَنفَعُكم ذَوُو أرحامِكم -مِثل الأُمهاتِ والإخوةِ الأشِقَّاءِ ولِلأُمِّ-، ولا أولادُكم، ولا تَدفَعُ عنكم عَذابَ الآخِرةِ إنْ كانوا قد نَفَعوكم في الدُّنيا بصِلةِ ذَوي الأرحامِ ونُصرةِ الأولادِ؛ فجُملةُ ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ إلى آخِرِها مُستأنَفةٌ استِئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن سؤالٍ مَفروضٍ ممَّن يَسمَعُ جُملةَ ﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ [الممتحنة: ٢]، أي: مِن حقِّ ذلك أنْ يَسألَ عن آثارِه لخطَرِ أمْرِها، وإذا كان ناشئًا عن كَلامٍ جَرى مَجرى التَّعليلِ لجُملةِ ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]؛ فهو أيضًا مُفيدٌ تَعليلًا ثانيًا بحسَبِ المعْنى، ولولا إرادةُ الاستئنافِ البَيانيِّ لَجاءتْ هذه الجُملةُ مَعطوفةً بالواوِ على الَّتي قبْلَها، وزاد ذلك حُسْنًا أنَّ ما صدَرَ مِن حاطِبِ بنِ أبي بَلْتعةَ ممَّا عُدَّ عليه هو مُوالاةٌ للعَدُوِّ، وأنَّه اعتذَرَ بأنَّه أراد أنْ يتَّخِذَ عِندَ المشركين يدًا يَحْمُون بها قَرابتَه (أي: أُمَّه وإخوتَه)؛ ولذلك ابتُدِئَ في نفْيِ النَّفعِ بذِكرِ الأرحامِ؛ لمُوافَقةِ قِصَّةِ حاطبٍ؛ لأنَّ الأمَّ ذاتُ رَحِمٍ، والإخوةُ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨).

أبْناؤها همْ إخوتُه مِن رَحِمِه، وأمَّا عطْفُ ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ فتَتميمٌ[١]؛ لشُمولِ النَّهيِ قومًا لهم أبناءٌ في مكَّةَ[٢].

- قولُه: ﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡ﴾، أي: إنَّهم لا يَنفَعونكم يومَ القِيامةِ، فما لَكم تَرفُضون حقَّ اللهِ مُراعاةً لهم وهم يَفِرُّون منكم يومَ اشتِدادِ الهولِ؟! خطَّأَ رأْيَهم في مُوالاةِ الكفَّارِ أوَّلًا بما يَرجِعُ إلى حالِ مَن والَوهُ، ثمَّ خطَّأَهُ ثانيًا بما يَرجِعُ إلى حالِ مَنِ استَعْمَلوا المُوالاةَ مِن أجْلِهم، وهو تَقسيمٌ حاصرٌ؛ إشارةً إلى أنَّ ما أقدَمَ عليه حاطِبٌ مِن أيِّ جِهةٍ نُظِر إليه يكونُ خطأً وباطلًا[٣].

---

(١) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو: هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو: هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ. ومِن أمثلةِ التَّتميم قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تحرير التَّحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٢٧)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و (٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدِّين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التَّفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٢).

## الآيات (٤-٦)

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أُسْوَةٌ﴾: أي: قُدوةٌ وائتِمامٌ واتِّباعٌ، وأصلُ (أسو): يدُلُّ على المُداواةِ والإصلاحِ[1].

﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾: جَمعٌ على فُعلاءَ، مُفردُه بريءٌ، مِثلُ: شُركاءَ وشَريكٍ، مِن (برِئ)، بمعنى التَّفصِّي والتَّنزُّهِ ونفْيِ المُخالَطةِ، فالبريءُ: الخليُّ عن التَّلبُّسِ بشَيءٍ وعن مُخالَطتِه، وأصلُ (برأ) هنا: يدُلُّ على التَّباعُدِ مِن الشَّيءِ ومُزايَلتِه[2].

﴿ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾: العَداوةُ: اختِلافَ القُلوبِ والنِّيَّاتِ والتَّباعُدُ بها، مأخوذةٌ مِن عَدْوَتَيِ الجَبلِ، وهما طَرَفاه؛ سُمِّيَا بذلك لبُعدِ ما بيْنَهما، وقيل: مِن عدا، أي: ظَلَم. والبُغضاءُ: البُغضُ، وهو نِفارُ النَّفْسِ عن الشَّيءِ الَّذي تَرغَبُ عنه، وأصلُ البُغضِ: خِلافُ الحبِّ. والعَداوةُ أخصُّ مِن البَغضاءِ؛ لأنَّ كلَّ عدُوٍّ مبغِضٌ، وقد

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٧/ ٣٢٢) و (١١/ ١٧٦).

يُبغَضُ مَن ليس بعَدُوٍّ[١].

﴿أَنَبْنَا﴾: أي: رجَعْنا، وأصلُ (نوب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[٢].

﴿فِتْنَةً﴾: الفِتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ والابتلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جَودتُه مِن رداءتِه، وتُطلَقُ الفِتنةُ على الضَّلالِ والشِّرْكِ والكُفرِ والشَّرِّ والعَذابِ[٣].

﴿يَتَوَلَّ﴾: أي: يُعْرِضْ، وتولَّى إذا عُدِّي بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنى الإعراضِ، وإذا عُدِّي بنَفْسِه اقتَضَى مَعنى الوَلايةِ والقُرْبِ[٤].

﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: أي: المحمودُ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودُ على ما لَه مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه الَّتي أنْعَمها على خلْقِه، المستحِقُّ لكلِّ حمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن مَحاسنِ المحمودِ معَ حُبِّه وإجلالِه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٦، ٥٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٦٨، ١٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٤٤).

وقال العسكري: (الفرقُ بيْن العَداوةِ والبِغضةِ: أنَّ العَداوةَ البِعادُ مِن حالِ النُّصْرةِ، ونقيضُها الولايةُ، وهي الهرَبُ مِن حالِ النُّصْرةِ. والبِغضةَ: إرادةُ الاستِحقارِ والإهانةِ، ونقيضُها المحبَّةُ، وهو إرادةُ الإعظامِ والإجلالِ). ((الفروق اللغوية)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩- ١٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥، ٨٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

وتَعظيمِه، وقيل: هو أيضًا بمعنى حامِدٍ، يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه، وأصلُ (حمد): يدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ(١).

## المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ إبراهيمَ -عليه السَّلامُ- ويأمُرُ بالاقتِداءِ به، فيقولُ تعالى: قد كانت لكم -أيُّها المؤمِنونَ- قُدوةٌ صالِحةٌ في إبراهيمَ والَّذين معه مِن المُؤمِنينَ، حينَ قالوا لِقَومِهم المُشرِكينَ: إنَّا نتبَرَّأُ منكم ومِمَّا تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ، كفَرْنا بكم، وظهَرَ بيْنَنا وبيْنَكم العداوةُ والكراهيةُ أبدًا إلى أن تُؤمِنوا بالله وَحْدَه، إلَّا قَولَ إبراهيمَ لأبيه المُشرِكِ: لَأستَغفِرَنَّ لك اللهَ؛ فلا تتَأَسَّوا به في هذا القَولِ؛ إذ لا ينبغي لأحَدٍ أن يَستَغفِرَ للمُشرِكينَ ولو كانوا ذَوِي قُرْبَى. قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ لأبيه: والحالُ أنِّي لا أدفَعُ عنك عُقوبةَ اللهِ.

ثمَّ يخبرُ الله تعالى عن قولِ إبراهيمَ والَّذين معَه، حينَ فارَقوا قومَهم وتبرَّؤوا منهم، فلَجَؤوا إلى الله وتضرَّعوا إليه، فقالوا: رَبَّنا عليك وَحْدَك توَكَّلْنا، وإليك وَحْدَك تُبْنَا، وإليك مَرجِعُنا في الآخِرةِ، يا ربَّنا لا تُسلِّطْهم علينا فيَفْتِنونا، ويُميلونا عمَّا نحن عليه مِن الحقِّ، ويُفتَنونَ أيضًا بأنفُسِهم؛ فإنَّهم إذا رأوا لهم الغلَبَةَ ظنُّوا أنَّهم على الحقِّ وأنَّا على الباطلِ، فازدادوا كفرًا وطغيانًا، وامْحُ عنَّا ذُنوبَنا يا رَبَّنا؛ إنَّك أنت العزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ يكرِّرُ الله تعالى الحثَّ لهم على الاقتداءِ بهم، فيقولُ: لقد كان لكم -أيُّها المؤمِنونَ- قُدوةٌ صالِحةٌ في إبراهيمَ ومَن معه مِن المؤمِنينَ؛ لِمَن يرجو رِضوانَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨، ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

اللهِ والنَّجاةَ مِن عَذابِه، ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ والتَّأسِّي برُسُلِه، فإنَّ اللهَ هو الغَنيُّ المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعْدَ الفراغِ مِن بَيانِ خطَأِ مَن يُوالي عدُوَّ اللهِ بما يَجُرُّ إلى أصحابِه مِن مَضارَّ في الدُّنيا وفي الآخِرةِ؛ تَحذيرًا لهمْ مِن ذلك، انتُقِلَ إلى تَمثيلِ الحالةِ الصَّالحةِ بمِثالٍ مِن فِعلِ أهلِ الإيمانِ الصَّادقِ، والاستِقامةِ القويمةِ، وناهيكَ بها أُسوةً[1]، فلَمَّا نَهَى عن مُوالاةِ الكفَّارِ؛ ذكَرَ قصَّةَ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأنَّ مِن سِيرتِه التَّبرُّؤَ مِن الكفَّارِ؛ ليَقتدُوا به في ذلك ويَتأسَّوا[2].

وأيضًا لَمَّا أبلغَ اللهُ سُبحانَه في وَعْظِهم في ذلك، وكانت عادتُه التَّربيةَ بالماضِينَ؛ كان مَوضِعَ توَقُّعِ ذلك[3].

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾.

أي: قد كانت لكم -أيُّها المؤمِنونَ- قُدوةٌ صالِحةٌ في إبراهيمَ والَّذين معه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٦).

المُؤمِنينَ[١].

﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

أي: حينَ قال إبراهيمُ ومَن معه مِن المؤمِنينَ لِقَومِهم المُشرِكينَ الكافِرينَ: إنَّا نتبَرَّأُ منكم ومِمَّا تَعبُدونَ مِن دونِ اللهِ مِن الأصنامِ تبَرُّؤًا عظيمًا[٢].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ إبراهيمَ لأبيه وقَومِه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

ممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ(الَّذِينَ مَعَهُ): أتْباعُه المؤمنونَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ «الَّذِينَ مَعَهُ»: الَّذين آمَنوا به واتَّبَعوا هَدْيَه، وهم زَوجُه سارَةُ، وابنُ أخيه لوطٌ، ولم يكُنْ لإبراهيمَ أبناءٌ؛ فضميرُ «إِذْ قَالُوا» عائدٌ إلى إبراهيمَ والَّذين معه، فهم ثلاثةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٥٥).

وقيل: المرادُ: الَّذين معه مِن أنبياءِ اللهِ تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٦).

قال ابن عطيَّة: (واختلَف النَّاسُ في الَّذين معه؛ فقال قومٌ مِن المتأوِّلينَ: أراد: مَنْ آمَنَ به مِنَ النَّاسِ. وقال الطَّبريُّ وغيرُه: أراد الأنبياءَ الَّذين كانوا في عصرِه وقريبًا مِن عصرِه، وهذا القولُ أرجَحُ؛ لأنَّه لم يُروَ أنَّ إبراهيمَ كان له أتْباعٌ مؤمنونَ في مكافحتِه نُمْرُودًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بقَولِهم هذا لقَومِهم أنَّهم قالوه مقالَ الصَّادقِ في قَولِه؛ فالائتِساءُ بهم في ذلك القَولِ، والعَمَلِ بما يُترجِمُ عليه القَولُ مِمَّا في النُّفوسِ، فالمؤتَسى به أنَّهم كاشَفُوا قَومَهم بالمنافَرةِ، وصَرَّحوا لهم بالبَغضاءِ؛ لأجْلِ كُفرِهم باللهِ، ولم يُصانِعوهم ويَغُضُّوا عن كُفرِهم لاكتسابِ مَوَدَّتِهم كما فَعَل الموبَّخُ بهذه الآيةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٥).

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ * وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨].

﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا ﴾.

أي: أنكَرْنا ما أنتم عليه مِن الكُفرِ، وجَحَدْنا أن تكونَ آلهتُكم حَقًّا، وظهَرَ بيْنَنا وبيْنَكم المُعاداةُ والكراهيةُ الدَّائِمةُ ما دُمتُم مُستَمِرِّينَ على كُفرِكم بالله تعالى[1].

﴿ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾.

أي: إلى أن تُؤمِنوا بتوحيدِ اللهِ، فتَعبُدوه وَحْدَه لا شَريكَ له، فحينَئذٍ تَزولُ البَغضاءُ والعَداوةُ، وتَنقَلِبُ مودَّةً ووَلايةً[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٤، ١٤٥).

قال الماوَرْدي: (﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ يحتمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: كفَرْنا بما آمَنْتُم به مِن الأوثانِ. الثَّاني: بأفعالِكم، وكذَّبْنا بها). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥١٨).

وقال البيضاوي: (﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي: بدينِكم أو بمَعبودِكم، أو بكم وبه، فلا نَعتَدُّ بشأنِكم وآلهتِكم). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥).

وقال ابن جرير: (﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾: أنكَرْنا ما كنتُم عليه مِن الكفرِ بالله، وجحَدْنا عِبادتَكم ما تَعبُدون مِن دونِ الله أن تكونَ حقًّا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦).

وقال ابن عطيَّة: (قولُه: ﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي: كذَّبْناكم في أقوالِكم، ولم نؤمنْ بشَيءٍ منها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٥).

وقال البِقاعي: (﴿ كَفَرْنَا بِكُمْ ﴾ أي: أوجَدْنا السترَ لكلِّ ما يَنبغي سترُه حالَ كَونِنا مُكَذِّبينَ بكلِّ ما يكونُ مِن جِهتِكم مِن دينٍ وغيرِه الَّذي يَلزَمُ منه الإيمانُ، وهو إيقاعُ الأمانِ مِن التَّكذيبِ لِمَن يُخبِرُنا بسببِ كلِّ ما يُضادُّه، مُصَدِّقينَ بذلك). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾.

أي: لا تَتأَسَّوا -أيُّها المؤمنونَ- بقَولِ إبراهيمَ لأبيه المُشرِكِ: لَأستَغفِرَنَّ لك اللهَ؛ إذ لا ينبغي لأحَدٍ أن يَستَغفِرَ للمُشرِكينَ ولو كانوا ذَوِي قُرْبَى(١).

كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَعَده بالاستِغفارِ تَرغيبًا له؛ رهَّبَه لئلَّا يَترُكَ السَّعيَ في النَّجاةِ، بما معناه أنَّه ليس في يَدِي غيرُ الاستِغفارِ، فقال(٢):

﴿وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٧، ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٥).

قال الشوكاني: (﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ هو استِثناءٌ مُتَّصِلٌ مِن قولِه: ﴿فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بتقديرِ مُضافٍ مَحذوفٍ لِيَصِحَّ الاستِثناءُ، أي: قد كانت لكم أُسْوةٌ حسَنةٌ في مقالاتِ إبراهيمَ، إلَّا قولَه لأبيه. أو مِن ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وصحَّ ذلك لأنَّ القولَ مِن جملةِ الأُسْوةِ، كأنَّه قيل: قد كانت أسوةٌ حسَنةٌ في إبراهيمَ في جميعِ أقوالِه وأفعالِه إلَّا قولَه لأبيه. أو مِن التَّبرِّي والقطيعةِ الَّتي ذُكِرَتْ، أي: لم يواصِلْه إلَّا قولَه، ذكَر هذا ابنُ عطيَّة. أو هو منقطِعٌ، أي: لكنْ قولُ إبراهيمَ لأبيه لَأستَغفِرَنَّ لك، فلا تأتَسوا به، فتَستغفِرون للمشرِكين). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٣).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٥).

ونسَبَ الألوسي إلى الأكثَرِ أنَّه استِثناءٌ مُنقَطِعٌ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٠).

أي: قال إبراهيمُ لأبيه: والحالُ أنِّي لا أدفَعُ عنك عُقوبةَ اللهِ إنْ عاقَبَك على كُفْرِك به، ولا أقدِرُ أن أنفَعَك عندَ اللهِ بشَيءٍ[1].

﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾.

أي: قال إبراهيمُ والَّذين معه مِن المؤمِنينَ: رَبَّنا عليك وَحْدَك توَكَّلْنا، ففَوَّضْنا جميعَ أُمورِنا إليك، واعتَمَدْنا عليك في إصلاحِ أُمورِنا، ودَفْعِ ما يَضُرُّنا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

وممَّن قال بأنَّه مِن كلامِ إبراهيمَ والمؤمنينَ معه: ابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير، والسعديُّ، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٦).

قال ابنُ جُزَي: (هذا مِن كلامِ سَيِّدِنا إبراهيمَ عليه السَّلامُ والَّذين معه، وهو متَّصِلٌ بما قبْلَ الاستِثناءِ، فهو مِن جملةِ ما أُمِروا أن يَقتَدوا به). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٦).

وقال ابنُ عاشور: (الأظهرُ أن يكونَ هذا مِن كلامِ إبراهيمَ وقَومِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٦).

وذكر ابنُ جرير أنَّه مِن كلامِ إبراهيمَ وأنبياءِ اللهِ عليهم السَّلامُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨).

وقيل: المرادُ: قولوا أنتم: ربَّنا عليك توَكَّلْنا...، وممَّن اختاره: الفرَّاءُ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٧).

قال ابنُ عاشور: (يحتَمِلُ أن يكونَ تعليمًا للمؤمِنينَ أن يقولوا هذا الكلامَ، ويَستَحضِروا معانيَه؛ لِيَجريَ عَمَلُهم بمُقتَضاه، فهو على تقديرِ أمرٍ بقَولٍ محذوفٍ، والمقصودُ مِن القَولِ العَمَلُ بالقولِ؛ فإنَّ الكلامَ يُجَدِّدُ المعنى في نفْسِ المتكَلِّمِ به، ويُذكِّرُ السَّامِعَ مِن غَفلتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٤).

﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾.

أي: وإليك وَحْدَك رجَعْنا بالتَّوبةِ مِمَّا تَكرَهُ مِن مَعصيتِك إلى ما تُحِبُّ مِن طاعتِك[1].

﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: وإليك وَحْدَك -يا رَبَّنا- مَرجِعُنا في الآخِرةِ[2].

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٥﴾.

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: يا ربَّنا لا تُسلِّطْهم علينا، فيَفْتِنونا، ويَمْنَعونا ممَّا يَقْدِرون عليه مِن أمورِ الإيمانِ، ويُميلونا عمَّا نحن عليه مِن الحقِّ، ويُفتنون أيضًا بأنفُسِهم؛ فإنَّهم إذا رأوا لهم الغلَبَةَ، ظنُّوا أنَّهم على الحقِّ وأنَّا على الباطلِ، فازدادوا كفرًا وطُغيانًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٧).

قال ابن عاشور: (فإنَّ المصيرَ مَصيرانِ: مَصيرٌ بعدَ الحياةِ، ومَصيرٌ بعدَ البَعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠١، ٥٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال الماوَرْدي: (﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه تأويلانِ:

أحَدُهما: معناه: لا تُسَلِّطْهم علينا فيَفتِنونا. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: لا تُعَذِّبْنا بأيديهم ولا بعذابٍ مِن عِندِك، فنَصيرَ فِتنةً لهم، فيقولوا: لو كانوا على حَقٍّ ما عُذِّبوا. قاله مجاهِدٌ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥١٨). =

كما قال اللهُ حاكيًا قولَ قومِ موسى: ﴿فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥].

﴿وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ﴾.

---

= وممَّن جمَع بيْن المعنيَين: البِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠١، ٥٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن هُبَيرةَ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٢٩).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تُقَتِّرْ علينا بالرِّزقِ، وتَبسُطْ لهم في الرِّزقِ؛ فنَحتاجَ إليهم، فيكونَ ذلك فِتنةً لنا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى جَعْلِهم فِتنةً للَّذين كَفَروا: جَعْلُهم مَفتونينَ يَفتِنُهم الَّذين كَفَروا، فيَصدُقُ ذلك بأن يتسَلَّطَ عليهم الَّذين كَفَروا فيُفتَنونَ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البروج: ١٠] إلخ. ويَصدُقُ أيضًا بأن تختَلَّ أمورُ دينِهم بسَبَبِ الَّذين كَفَروا، أي: بمحَبَّتِهم والتَّقَرُّبِ منهم، كقَولِه تعالى حكايةً عن دُعاءِ موسى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. وعلى الوَجهَينِ فالفِتنةُ مِن إطلاقِ المصدَرِ على اسمِ المفعولِ... واللَّامُ في ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على الوَجهَينِ للمِلْكِ، أي: مفتونينَ مُسَخَّرينَ لهم. ويجوزُ عندي أن تكونَ ﴿فِتْنَةً﴾ مصدرًا بمعنى اسمِ الفاعِلِ، أي: لا تجعَلْنا فاتِنينَ، أي: سَبَبَ فِتنةٍ للَّذينَ كفَروا، فيكونَ كنايةً عن معنى: لا تُغَلِّبِ الَّذين كفَروا علينا، واصرِفْ عنَّا ما يكونُ به اختِلالُ أمرِنا، وسوءُ الأحوالِ؛ كي لا يكونَ شَيءٌ مِن ذلك فاتِنًا الَّذين كَفَروا، أي: مُقَوِّيًا فِتنتَهم، فيُفتتَنوا في دينِهم، أي: يَزدادوا كُفرًا، وهو فِتنةٌ في الدِّينِ، أي: فيَظنُّوا أنَّا على الباطِلِ وأنَّهم على الحَقِّ، وقد تُطلَقُ الفِتنةُ على ما يُفضِي إلى غُرورٍ في الدِّينِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ [الزمر: ٤٩]، وقَولِه: ﴿وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]. واللَّامُ على هذا الوَجهِ لامُ التَّبليغِ، وهذه مَعانٍ جَمَّةٌ أفادَتْها الآيةُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٨).

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان رأسُ مالِ المسلِمِ الأعظَمُ الاعترافَ بالتَّقصيرِ وإن بَلَغ النِّهايةَ في المجاهَدةِ؛ فإنَّ الإلهَ في غايةِ العظَمةِ، والعَبدَ في نهايةِ الضَّعفِ، فبُلوغُه ما يَحِقُّ له سُبحانَه لا يمكِنُ بوَجهٍ- قالوا[1]:

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا رَبَّنَآ﴾.

أي: وامْحُ عنَّا ذُنوبَنا؛ واستُرْها وأزِلْ آثارَها، وقِنَا واكْفِنا شَرَّها[2].

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: إنَّك أنت -يا رَبَّنا- العزيزُ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، فلا يُضامُ مَن لاذ بجَنابِه، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[3].

﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦﴾.

﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾.

أي: لقد كان لكم -أيُّها المؤمِنونَ- قُدوةٌ صالِحةٌ في إبراهيمَ ومَن معه مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٢، ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال السعدي: (فبعِزَّتِك وحِكمَتِك انصُرْنا على أعدائِنا، واغفِرْ لنا ذُنوبَنا، وأصلِحْ عُيوبَنا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال البقاعي: (مَن كان كذلك فهو حقيقٌ بأنْ يُعطِيَ مَن أمَّله فَوقَ ما طَلَب). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٥٠٣).

المؤمِنينَ؛ لِمَن يَطمَعُ في رِضوانِ اللهِ وثَوابِه، ويَرجو النَّجاةَ مِن عَذابِه[١].

﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

أي: ومَن يُعرِضْ عن طاعةِ اللهِ والتَّأسِّي برُسُلِه، فيُوالِ أعداءَه؛ فإنَّ اللهَ ذو الغِنى التَّامِّ المُطلَقِ عن كُلِّ أحَدٍ؛ فليس به حاجةٌ إلى إيمانِه وطاعتِه، وهو المحمودُ في ذاتِه وأسمائِه وصِفاتِه، وأفعالِه وأقوالِه؛ فلا يَضُرُّه كُفرُ أحَدٍ وعِصيانُه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ إلى قولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٦، ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٣، ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٤، ٥٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال ابن عاشور: (فِعْلُ ﴿يَتَوَلَّ﴾ مضارِعُ تولَّى، فيجوزُ أن يكونَ ماضيه بمعنى الإعراضِ، أي: مَن لا يرجُو اللهَ واليومَ الآخِرَ، ويُعرِضُ عن نَهْيِ اللهِ؛ فإنَّ اللهَ غَنيٌّ عن امتِثالِه. ويجوزُ عندي أن يكونَ ماضيه مِن التَّوَلِّي بمعنى اتِّخاذِ الوَليِّ، أي: مَن يتَّخِذ عَدُوَّ اللهِ أولياءَ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عن وَلايتِه، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠). ويُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٨٩).

وقال الرازي: (الحميدُ قد يكونُ بمعنى الحامِدِ، وبمعنى المحمودِ؛ فالمحمودُ أي: يَستحِقُّ الحمدَ مِن خَلقِه بما أنعَمَ عليهم، والحامدُ أي: يَحمَدُ الخَلقَ، ويَشكُرُهم حيث يَجزيهم بالكثيرِ مِن الثَّوابِ عن القليلِ مِن الأعمالِ). ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٠). ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحديد الآية (٢٤).

﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ تحذيرُ وُلاةِ الأمورِ وعامَّةِ النَّاسِ مِن الكُفَّارِ ووَلايتِهم، ونُصْحُهم بأنْ يَتَّخِذوهم أعداءً حقيقيِّينَ، كما هو الواقعُ(١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ فيه أنَّه ليس كُلُّ أحدٍ تَسهُلُ عليه هذه الأُسوةُ، وإنَّما تَسهُلُ على مَن ﴿كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾؛ فإنَّ الإيمانَ واحتِسابَ الأجرِ والثَّوابِ يُسَهِّلُ على العَبدِ كُلَّ عَسيرٍ، ويُقَلِّلُ لَدَيه كُلَّ كثيرٍ، ويُوجِبُ له الإكثارَ مِن الاقتداءِ بعِبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، والأنبياءِ والمُرسَلينَ؛ فإنَّه يرى نَفْسَه مُفتَقِرًا ومُضطرًّا إلى ذلك غايةَ الاضطرارِ(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فيه وُجوبُ الاقتِداءِ بإبراهيمَ ومِلَّتِه إلَّا ما ثبت في شَرعِنا نَسْخُه(٣).

وقد استُدِلَّ به على أنَّ شَرْعَ مَن قَبْلَنا شَرْعٌ لنا ما لَمْ يأتِ شَرْعُنا بخِلافِه، ونحن نَتَّبِعُ شَرْعَ مَن قَبْلَنا؛ لا لأنَّه شَرْعُ مَن قَبْلَنا، ولكنْ لأنَّ شَرْعَنا دَلَّنا على العَمَلِ به(٤). فالآيةُ نصٌّ في الأمرِ بالاقتِداءِ بإبراهيمَ صلَّى الله عليه وسلَّم في فِعلِه، وذلك يُصحِّحُ أنَّ شرْعَ مَن قبْلَنا شرعٌ لنا فيما أخبَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ ورسولُه صلَّى الله عليه وسلَّم(٥).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٦).

﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ العَداوةِ والوَلايةِ، وهو أصلٌ في الدِّينِ؛ فإنَّ وَلايةَ المؤمِنينَ مِن واجبِ المؤمنِ، والبَراءةَ مِن الكُفَّارِ مِن واجبِ المؤمِنِ[١]، فالمُسلِمُ يجبُ عليه أنْ يُبغِضَ أعداءَ اللهِ، ويَتَبرَّأَ منهم؛ لأنَّ هذه هي طريقةُ الرُّسُلِ وأتْباعِهم[٢]، وإبراهيمُ والَّذين آمَنوا معه تبَرَّؤُوا مِن قَومِهم المُشرِكينَ قبْلَ أنْ يَتبرَّؤوا مِن الأصنامِ[٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ في هذا دَلالةٌ على تفضيلِ نَبيِّنا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على سائِرِ الأنبياءِ؛ لأنَّا حينَ أُمِرْنا بالاقتداءِ به أُمِرْنا أمرًا مُطلَقًا في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧]، وحين أُمِرْنا بالاقتداءِ بإبراهيمَ عليه السَّلامُ استَثنى بَعْضَ أفعالِه[٤]. وذلك بِناءً على أنَّ الاستثناءَ مُتَّصِلٌ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه سُبحانَه يَحكُمُ في الأُمورِ المتماثِلةِ بأحكامٍ مُتماثِلةٍ[٥].

٥- أنَّ جمهورَ المُشرِكينَ كانوا مُقِرِّين بربِّ العالَمينَ، والمُنكِرُ له قليلٌ، مِثلُ فِرعَونَ ونحوِه؛ فقومُ إبراهيمَ كانوا مُقِرِّين بالصَّانعِ؛ ولهذا قال لهم إبراهيمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- القصص)) (ص: ٧٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٣).

الخليلُ: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إلى قَولِه: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾[١].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾، فيه سؤالٌ: إن كان قولُه: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾، مُستثنًى مِن القولِ الَّذي سبَق، وهو: ﴿أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فما بالُ قولِه: ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾، وهو غيرُ حقيقٍ بالاستثناءِ، ألا ترَى إلى قولِه تعالى: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ [الفتح: ١١]؟

**الجواب**: أراد الله تعالى استثناءَ جملةِ قولِه لأبيه، والقصدَ إلى موعدِ الاستغفارِ له، وما بَعْدَه مبنيٌّ عليه، وتابعٌ له، كأنَّه قال: أنا أستغفِرُ لك، وما وُسعي إلَّا الاستِغفارُ[٢]، فمَوردُ الاستثناءِ نفْسُ الاستغفارِ لا قيدُه الَّذي هو في نفْسِه مِن خِصالِ الخَيرِ؛ لِكَونِه إظهارًا للعجزِ، وتفويضًا للأمرِ إلى الله تعالى[٣].

وقيل: قولُه: ﴿وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ مِن تمامِ قولِه المُستثنَى، ولا يَلزَمُ مِنِ استِثناءِ المجموعِ استِثناءُ جميعِ أجزائِه[٤].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ إنَّما جرَى ذلك؛ لأنَّه ظَنَّ أنَّه أسلَمَ، فلمَّا بان أنَّه لم يُسلِمْ تبرَّأَ منه، وعلى هذا يجوزُ الاستغفارُ لِمَن يُظنُّ أنَّه أسلَمَ[٥]. أو أنَّه كان يَرْجو إيمانَه، فقال له: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ فمَنِ اسْتَغْفَر لحَيٍّ يَرْجو إيمانَه، يَقْصِدُ سُؤالَ اللهِ أنْ يَهْدِيَه لِمَا يكونُ به أهلًا للمغفرةِ فلا بأسَ. قال ابنُ عبَّاسٍ: لم يَزَلْ إبراهيمُ يَستَغفِرُ لأبيه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٨).

حتَّى مات، فلَمَّا مات تَبَيَّن له أنَّه عدُوٌّ للهِ فتَبَرَّأ منه. وفي روايةٍ عنه: لَمَّا مات على كُفْرِه[١]. وقيل: إنَّه تَبَيَّن له ذلك بوَحْيٍ مِن اللهِ تعالَى، فحينَئِذٍ تَبَرَّأ منه ومِن قَرابَتِه، وتَرَك الاستغفارَ له كما هو مُقتضَى الإيمانِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ وتعالى قد يَفتِنُ الكافِرينَ بما شاء، لولا ذلك ما كان لهذا الدُّعاءِ معنًى، فهو ردٌّ على المُعتزلةِ والقَدَريَّةِ[٣]. وذلك على أحدِ المعنَيَينِ في تفسيرِ الآيةِ.

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ دليلٌ على أنَّ الإنسانَ الَّذي يَتولَّى عن طاعةِ اللهِ إنَّما يَضُرُّ نفْسَه، ولا يَضُرُّ اللهَ شيئًا؛ فإنَّ اللهَ غنيٌّ. وفي الحديثِ القُدُسيِّ: ((يا عِبادي، لو أنَّ أَوَّلَكم وآخِرَكم وإِنْسَكم وجِنَّكم كانوا على أفْجَرِ قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكم، ما نَقَصَ ذلك مِن مُلْكي شيئًا))[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لضرْبِ المِثالِ الجَديرِ بالاحتِذاءِ في النَّهيِ عن مُوالاةِ الكُفَّارِ، والرُّكونِ إلى الأعداءِ، وأنَّ الصُّدورَ المَطويَّةَ على الضِّغنِ يَجِبُ أنْ تَبقَى على عَدائِها حتَّى يَزولَ السَّببُ القائمُ، فإذا زال انقَلَبَت

---

(١) يُنظر: ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للسيوطي (٤/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١١/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٧).
والحديث أخرجه مسلم (٢٥٧٧) من حديث أبي ذَرٍّ رضي الله عنه.

العَداوةُ مَودَّةً، والبَغضاءُ مَحبَّةً[١].

- وصَدْرُ هذه الآيةِ -﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ...﴾- يُفيدُ تأْكيدًا لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ [الممتحنة: ٢]، وجُملةِ ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣]؛ لأنَّها بما تضمَّنَتْه مِن أنَّ المُوجَّهَ إليهم التَّوبيخُ خالَفوا الأُسوةَ الحَسَنةَ، تُقوِّي إثباتَ الخَطَأِ المُستوجِبِ للتَّوبيخِ[٢].

- وافتِتاحُ الكلامِ بكَلِمتَيْ ﴿قَدْ كَانَتْ﴾ لتَأْكيدِ الخبَرِ؛ فإنَّ (قَدْ) مع فِعلِ الكَونِ يُرادُ بهما التَّعريضُ بالإنكارِ على المُخاطَبِ، ولَومُه في الإعراضِ عن العمَلِ بما تَضمَّنَه الخبَرُ[٣].

- وعطْفُ ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾؛ ليَتِمَّ التَّمثيلُ لحالِ المسلمينَ مع رَسولِهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحالِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ والَّذين معه، أي: أنْ يكونَ المسلمونَ تابِعينَ لِرِضا رَسولِهم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما كان الَّذين مع إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٤].

- والأسوةُ: القُدوةُ الَّتي يُقتدَى بها في فِعلٍ ما؛ فوُصِفَت في الآيةِ بـ﴿حَسَنَةٌ﴾ وصْفًا للمدْحِ؛ لأنَّ كَونَها حَسَنةً قد عُلِمَ مِن سِياقِ ما قبْلَه وما بعْدَه[٥].

- وحرْفُ (فِي) مُعبَّرٌ به هنا عن قُوَّةِ الملابَسةِ؛ إذ جُعِلَ تَلبُّسُ إبراهيمَ والَّذين معه بكَونِهم أُسوةً حَسنةً، بمَنزِلةِ تَلبُّسِ الظَّرفِ بالمظروفِ في شِدَّةِ التَّمكُّنِ مِن الوصْفِ، ولذلك كان المعْنى: قدْ كان لكم إبراهيمُ والَّذين معه أسوةٌ في

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤٢، ١٤٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

حِينِ قَولِهم لقَومِهم؛ فليس قولُه: ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ مِن قَبيلِ التَّجريدِ[١]؛ لأنَّ الأسوةَ هنا هي قولُ إبراهيمَ والَّذين معَه لا أنفُسُهم[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ بتَأنيثِ الفِعلِ (كانتْ) مع الفاصِلِ (لكُمْ)؛ لقُرْبِه وإنْ جاز التَّذكيرُ، وأعادَهُ في قولِه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦]، بتَذكيرِه مع الفاصِلِ؛ لكَثرتِه وإنْ جاز التَّأنيثُ؛ فلم تتَّصِلْ بفِعلِ (كان) تاءُ تأْنيثٍ مع أنَّ اسْمَها مُؤنَّثُ اللَّفظِ؛ لأنَّ تأْنيثَ (أُسوة) غيرُ حَقيقيٍّ، ولوُقوعِ الفَصْلِ بيْن الفِعلِ ومَرفوعِه بالجارِّ والمجرورِ. وإنَّما كرَّر ذلك؛ لأنَّ الأوَّلَ في القولِ، والثَّانيَ في الفِعلِ. وقيل: الأوَّلُ في إبراهيمَ، والثَّاني في محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه أعادَ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾؛ لأنَّ الإسلامَ بُنِيَ أوَّلُه على التَّبرُّؤِ مِن الآلهةِ ومِن عَبَدتِها، ومِن الأصنامِ وعَبَدتِها، فقولُ مَن يَشهَدُ بالتَّوحيدِ: إنَّه يَنْفي الآلهةَ أوَّلًا بقولِه: (لا إلهَ)، ويُثبِتُ ثانيًا بقولِه: (إلَّا اللهُ)

---

(١) التَّجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشَّيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئن لَقيتَ زَيدًا لَتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، وهو عينُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. ويُطلقُ عندَ البعضِ على عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ كأنَّ الخاصَّ جُرِّد مِن العامِّ، وأُفرِد بالذِّكرِ؛ تفضيلًا. وله إطلاقاتٌ أخرى في البديعِ والمعاني. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٩).

الواحدُ الَّذي تَحِقُّ له العبادةُ، فقال في الأُسوةِ الأُولى المتعلِّقةِ بالبَراءةِ مِن الكُفَّارِ ومِن فِعْلِهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وإنَّهم يُعادُونَهم إلى أنْ يُؤمِنوا، فهذه الأُسوةُ تَفصِلُ المؤمنَ مِن الكافرِ؛ ليَتميَّزَ عنه في الظَّاهرِ، ويَتبرَّأَ مِن صَداقتِه، ويَتحقَّقَ بعَداوتِه. والثَّانيةُ معْناها: تَأسَّوا بهم لتَنالُوا مِثلَ ثَوابِهم، وتَنقلِبوا إلى الآخِرةِ كانْقِلابِهم مُبشَّرينَ بالجنَّةِ، غيرَ خائفينَ مِن العُقوبةِ[1].

وفيه وَجْهٌ آخَرُ: أنَّ هذا مِن دُعاءِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، وإنَّما تَكرَّرت الأُسوةُ بهذا؛ إذ كان مِن إبراهيمَ فِعلٌ حسَنٌ، وهو التَّبرُّؤُ مِن أبيهِ وقومِه الكافرينَ، وقولٌ حسَنٌ، وهو هذا الدُّعاءُ[2].

- وجُملةُ ﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ وما عُطِفَ عليها بَيانٌ لمعْنى جُملةِ ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ﴾[3].

- قولُه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ الأظهرُ أنْ يكونَ هذا مِن كَلامِ إبراهيمَ وقَومِه، وجُملةُ ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ إلى آخِرِها مُعترِضةً بيْنَ أجزاءِ القَولِ؛ فهو ممَّا أُمِرَ المسلِمونَ أنْ يأتَسُوا به، وبه يكونُ الكلامُ شَديدَ الاتِّصالِ معَ قولِه: ﴿لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الممتحنة: ٦]. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ تَعليمًا للمؤمنينَ أنْ يَقولوا هذا الكلامَ ويَستحضِروا مَعانِيَه؛ ليَجرِيَ عَمَلُهم بمُقتضاهُ، فهو على تَقديرِ أمْرٍ بقَولٍ مَحذوفٍ، والمَقصودُ مِن القولِ العمَلُ بالقولِ؛ فإنَّ الكلامَ يُجدِّدُ المعْنى في نفْسِ المُتكلِّمِ به، ويُذكِّرُ السَّامعَ مِن غَفلَتِه. وهذا تَتميمٌ لِما أَوصاهم به مِن مُقاطَعةِ الكُفَّارِ بعْدَ التَّحريضِ على الائتساءِ بإبراهيمَ ومَن معه؛ فعلى المعْنى الأوَّلِ يكونُ حِكايةً لِما قاله إبراهيمُ وقومُه بما يُفيدُ حاصلَ مَعانِيه؛ فقدْ يكونُ هو معْنى ما حَكاهُ اللهُ عن إبراهيمَ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٦٧، ١٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٤٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٤).

مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٢]؛ فإنَّ التَّوكُّلَ على اللهِ في أُمورِ الحياةِ بسُؤالِه النَّجاحَ فيما يُصلِحُ أعمالَ العبدِ في مَساعِيه، وأعظَمُه النَّجاحُ في دِينِه وما فيه قِوامُ عَيشِه، ثمَّ ما فيه دفْعُ الضُّرِّ، وقد جَمَعَها قولُ إبراهيمَ هناك: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وهذا جمَعَه قولُه هنا: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾، ﴿وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ جَمَعَه قولُه: ﴿وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾؛ فإنَّ المصيرَ مَصيرانِ: مَصيرٌ بعْدَ الحياةِ، ومَصيرٌ بعْدَ البعثِ، وقولُه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى﴾؛ فإنَّ وَسيلةَ الطَّمعِ هي التَّوبةُ، وقد تَضمَّنَها قولُه: ﴿وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾، وعلى المعْنى الثَّاني هو تَعليمٌ للمُؤمنينَ أنْ يَصرِفوا توجُّهَهم إلى اللهِ بإرضائِه، ولا يَلتفِتوا إلى ما لا يَرْضاهُ وإنْ حَسِبوا أنَّهم يَنتفِعون به؛ فإنَّ رِضا اللهِ مُقدَّمٌ على ما دُونَه[1].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿عَلَيْكَ﴾ و(إِلَيْكَ) على هذه الأفعالِ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ و﴿أَنَبْنَا﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ، وهو قصْرٌ بَعضُه ادِّعائيٌّ وبَعضُه حَقيقيٌّ[2]، كما تَصرِفُ إليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٥، ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٦، ١٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٤).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ =

القَرينةُ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فيه إعادةُ النِّداءِ بقولِهم: ﴿رَبَّنَا﴾؛ لتأْكيدِ إظهارِ التَّضرُّعِ والجُؤارِ مع كلِّ دَعوةٍ مِن الدَّعواتِ الثَّلاثِ[٢].

- وفي قولِهم: ﴿وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا﴾ أعْقَبوا دَعواتِهم الَّتي تَعودُ إلى إصلاحِ دِينِهم في الحياةِ الدُّنيا بطَلَبِ ما يُصلِحُ أُمورَهم في الحياةِ الآخِرةِ، وما يُوجِبُ رِضا اللهِ عنهم في الدُّنيا؛ فإنَّ رِضاهُ يُفْضي إلى عِنايتِه بهم بتَسييرِ أُمورِهم في الحياتَينِ. وللإشعارِ بالمُغايَرةِ بيْن الدَّعوتينِ عَطَفَتْ هذه الواوُ ولم تَعطِفِ الَّتي قبْلَها[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تَعليلٌ للدَّعواتِ كلِّها؛ فإنَّ التَّوكُّلَ والإنابةَ

---

= فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثْلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكور منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زَيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٨).

والمصيرَ تُناسِبُ صِفةَ العزيزِ؛ إذ مِثلُه يُعامِلُ بمِثلِ ذلك، وطلَبَ ألَّا يَجعَلَهم فِتنةً باختِلافِ مَعانيه يُناسِبُ صِفةَ الحكيمِ، وكذلك طَلَبُ المغفرةِ؛ لأنَّهم لَمَّا ابتَهَلوا إليه ألَّا يَجعَلَهم فِتنةً للكافِرين، وأنْ يَغفِرَ لهم؛ رَأَوا أنَّ حِكمتَه تُناسِبُها إجابةُ دُعائِهم؛ لِما فيه مِن صَلاحِهم وقدْ جاؤوا سائلِينَه[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تكريرٌ لقولِه آنفًا: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ...﴾ [الممتحنة: ٤]؛ أُعِيدَ لتأْكيدِ التَّحريضِ والحثِّ على عدَمِ إضاعةِ الائتساءِ بإبراهيمَ ومَن معه، وليُبْنى عليه قولُه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ...﴾، وقُرِنَ هذا التَّأكيدُ بلامِ القسَمِ مُبالَغةً في التَّأكيدِ. وقولُه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ بدَلٌ مِن ضَميرِ الخِطابِ في قولِه: ﴿لَكُمْ﴾، وهو شاملٌ لجَميعِ المُخاطَبينَ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ بضَميرِ ﴿لَكُمْ﴾ المؤمنونَ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]؛ فليس ذِكرُ ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ تَخصيصًا لبَعضِ المؤمنينَ، ولكنَّه ذُكِرَ للتَّذكيرِ بأنَّ الإيمانَ باللهِ واليومِ الآخِرِ يَقْتضي تأَسِّيَهم بالمؤمنينَ السَّابقينَ، وهمْ إبراهيمُ والَّذين معَه. وأُعِيدَ حرْفُ الجرِّ -وهو اللَّامُ- العاملُ في المُبدَلِ منه؛ لتَأكيدِ أنَّ الإيمانَ يَستلزِمُ ذلك، والقصْدُ هو زِيادةُ الحثِّ على الائتساءِ بإبراهيمَ ومَن معَه، وليُرتَّبَ عليه قولُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾، وهذا تَحذيرٌ مِن العَودِ لِما نُهُوا عنه[2].

- وقيل: لَمَّا سلَّى اللهُ تَعالى المسلِمينَ في قطْعِ مُوالاةِ أقْربائِهم الكُفَّارِ بالائتساءِ بإبراهيمَ والَّذين معَه، واستَثْنى منه استِغفارَه لأبيهِ لَمَّا لم يَظهَرْ له أمارةٌ أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٤٩).

نصٌّ مِن اللهِ بالبَراءةِ الكُلِّيَّةِ منه، كما ظَهَرَ للمسلمينَ بقولِه: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [الممتحنة: ١]؛ كرَّرَ الائتساءَ به، وتَرَكَه مُطلقًا لِيَكونَ صالحًا لجميعِ ما يَجِبُ أنْ يُؤتَسَى به، يَشهَدُ لذلك قولُه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾، بخِلافِه في الأوَّلِ، حيثُ أُبدِلَ مِن المُؤتَسى فيه قولُه: ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ ليَكونَ تَعميمًا بعْدَ تَخصيصٍ(١).

- وضَميرُ الفصْلِ (هو) في قولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ تَوكيدٌ للحَصْرِ الَّذي أفادَهُ تَعريفُ الجُزأينِ، وهو حصْرٌ ادِّعائيٌّ(٢) لعَدَمِ الاعتدادِ بغِنى غيرِه ولا بحمْدِه -على قولٍ في معنَى الحميدِ-، أي: هو الغنيُّ عن المُتولِّينَ؛ لأنَّ النَّهيَ عمَّا نُهُوا عنه إنَّما هو لفائدتِهم لا يُفيدُ اللهَ شيئًا؛ فهو الغنيُّ عن كلِّ شَيءٍ(٣).

- وإتْباعُ ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ بوَصْفِ ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ تَتميمٌ(٤)، أي: الحميدُ لمَن يَمتثِلُ أمْرَه ولا يُعرِضُ عنه، أو الحَميدُ لِمَن لا يتَّخِذُ عدُوَّه وليًّا، على نحْوِ قولِه: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾(٥) [الزمر: ٧]. على قولٍ في معنى الحميدِ.

أو المرادُ: المحمودُ على غِناه؛ لأنَّه ليس كلُّ غنيٍّ يكونُ محمودًا، فالغنيُّ البخيلُ غيرُ محمودٍ، لكنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ غنيٌّ حميدٌ يُحمَدُ على غِناه؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٦٢).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠).

واسعُ العَطاءِ كثيرُه[١].

- والآيةُ مِنَ الاحتباكِ[٢]: ذَكَرَ الرَّجاءَ أوَّلًا؛ دليلًا على ضِدِّه ثانيًا، والتَّوَلِّيَ ثانيًا؛ دليلًا على ضِدِّه أوَّلًا، وسِرُّه: أنَّه ذَكَر سَبَبَ السَّعادةِ ترغيبًا، وسَبَبَ الشَّقاوةِ تَرهيبًا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ٤١٧).

(٢) الاحتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القرآنِ وعناصِر إعجازِه، وهو مِن أَلْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٥).

## الآيات (٧-٩)

﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَرُّوهُمۡ﴾: أي: تُحْسِنوا إليهم، والبرُّ: التوسُّعُ في فعلِ الخيرِ، والبَرُّ خلافُ البحرِ، وتُصوِّرَ منه التَّوسُّعُ فاشتُقَّ منه البِرُّ[1].

﴿وَتُقۡسِطُوٓاْ﴾: أي: تَعْدِلوا، وأصلُ (قسط): يدُلُّ على العَدْلِ[2].

﴿وَظَٰهَرُواْ﴾: أي: عاوَنوا، والظَّهيرُ: العَونُ، وأصلُ التَّظاهُرِ مِنَ الظَّهرِ، فكأنَّ التَّظاهُرَ: أن يَجعَلَ كُلُّ واحدٍ مِن الرَّجُلَينِ أو مِن القَومِ الآخَرَ له ظَهرًا يتقَوَّى به، ويَستَنِدُ إليه، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبشِّرًا بأنَّه يَهدي إلى الإسلامِ قومًا مِن الأعداءِ الَّذين تربطُهم بالمؤمنينَ رابطةُ الدَّمِ والقرابةِ: عسى اللهُ أن يَجعَلَ بيْنَكم -أيُّها المؤمِنونَ- وبيْنَ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٠).

الَّذين عادَيْتُم مِن المُشرِكينَ موَدَّةً بعدَ العداوةِ والبَغضاءِ الَّتي انعقَدَت بيْنَكم، واللهُ ذو قُدرةٍ تامَّةٍ على كُلِّ شَيءٍ، واللهُ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رحَيمٌ بهم.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه للمؤمنينَ القاعدةَ الَّتي يَسيرونَ عليها في موَدَّتِهم وعداوتِهم، وصِلَتِهم ومقاطعتِهم، فيقولُ: لا يَنهاكم اللهُ -أيُّها المؤمِنونَ- عن الكافِرينَ الَّذين لم يُقاتِلوكم مِن أجْلِ دينِكم، ولم يُخرِجوكم مِن بلادِكم؛ أن تُحسِنوا إليهم وتُكرِموهم، وتَعدِلوا في تعامُلِكم معهم؛ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُنصِفينَ، إنَّما يَنهاكم اللهُ عن مُوالاةِ الكافِرينَ المحارِبينَ الَّذين قاتَلوكم بسبَبِ إيمانِكم، وأخرَجوكم مِن بلادِكم، وعاوَنوا غَيرَهم على إخراجِكم، ومَن يتَّخِذِ الكافِرينَ أولياءَ يُحِبُّهم ويُناصِرُهم فأولئك هم الظَّالِمونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَر الله المؤمنينَ بعداوةِ الكفَّارِ، عادى المؤمنونَ أقرباءَهم المشركين، وأظهَروا لهم العَداوةَ والبَراءةَ، وعَلِمَ اللهُ شدَّةَ ذلك على المؤمنينَ؛ فوعَدَ سُبحانَه المسلمينَ بإسلامِ أقارِبِهم الكفَّارِ[1].

وأيضًا لَمَّا أتَمَّ اللهُ تعالى وَعْظَهم بما هو الأنفَعُ والأقرَبُ إلى صَلاحِهم، ففَعَلوا، وكان ذلك شاقًّا؛ لِمَا جُبِلَ عليه البَشَرُ مِن حُبِّ ذَوِي الأرحامِ والعَطْفِ عليهم، فتشَوَّفَت النُّفوسُ إلى تخفيفٍ بنَوعٍ مِنَ الأنواعِ- أتْبَعَه التَّرجيةَ فيما قَصَدَه حاطِبٌ -رَضِيَ اللهُ عنه- بغيرِ الطَّريقِ الَّذي يُتوصَّلُ به، فقال على عادةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٨١)، ((حاشية الجمل)) (٤/ ٣٤١).

الملوكِ في الرَّمزِ إلى ما يُريدونَه، فيَقنَعُ الموعودُ به، بل يكونُ ذلك الرَّمزُ عندَه أعظَمَ مِنَ البَتِّ مِن غَيرِهم(١):

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾.

أي: عسى اللهُ أن يَجعَلَ بيْنَكم -أيُّها المؤمِنونَ- وبيْنَ الَّذين عاديتُم مِن المُشرِكينَ مودَّةً بعدَ النفرةِ والعداوةِ والبَغضاءِ الَّتي انعقَدَت بيْنَكم، وذلك بأن يَنتَقِلوا للإيمانِ؛ فلا تيأسُوا مِن إيمانِهم(٢).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((جاءت هندُ بنتُ عُتبةَ، قالت: يا رَسولَ اللهِ، ما كان على ظَهرِ الأرضِ مِن أهلِ خِباءٍ(٣) أَحَبَّ إلَيَّ أن يَذِلُّوا مِن أهلِ خِبائِك، ثمَّ ما أصبَحَ اليَومَ على ظَهرِ الأرضِ أهلُ خِباءٍ أَحَبَّ إلَيَّ أن يَعِزُّوا مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٥، ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

قال ابنُ جرير: (ففَعَل اللهُ ذلك بهم، بأنْ أسلَمَ كثيرٌ منهم، فصاروا لهم أولياءَ وأصْرابًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٠).

وقال الزَّجَّاج: («عسى» واجِبةٌ مِن الله. جاء في التَّفسيرِ أنَّه يعني بهذا أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تزوَّجَ أمَّ حَبيبةَ بنتَ أبي سُفيانَ، فهذه هي المودَّةُ. وقيل: إنَّه يعني به مَن أسلَمَ منهم، فيكونُ بيْنَكم وبيْنَهم مودَّةٌ). ((معاني القرآن)) (٥/ ١٥٧).

وقال ابن تيميَّةَ: (نزلت في المُشرِكينَ الَّذين عادَوُا اللهَ ورَسولَه، مِثلُ أهلِ الأحزابِ، كأبي سُفيانَ ابنِ حَربٍ، وأبي سُفيانَ بنِ الحارِثِ، والحارِثِ بنِ هِشامٍ، وسُهَيلِ بنِ عَمرٍو، وعِكْرِمةَ بنِ أبي جَهلٍ، وصَفوانَ بنِ أُمَيَّةَ، وغَيرِهم؛ فإنَّهم بعدَ مُعاداتِهم لله ورَسولِه جَعَل اللهُ بيْنَهم وبيْنَ الرَّسولِ والمؤمِنينَ مودَّةً). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٣٠٥، ٣٠٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠).

(٣) الخِباءُ: خَيمةٌ مِن وَبَرٍ أو صُوفٍ، ثمَّ أُطلِقَت على البَيتِ كيف كان. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٦/ ١٧١).

أهلِ خِبائِك، قال: وأيضًا والَّذي نَفْسي بيَدِه[١]))[٢].

وعن ابنِ شِهابٍ، قال: ((أعطى رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ حُنَينٍ صَفوانَ ابنَ أُمَيَّةَ مِئةً مِنَ النَّعَمِ، ثمَّ مِئةً، ثمَّ مِئةً، قال ابنُ شِهابٍ: حَدَّثني سعيدُ بنُ المسَيِّبِ أنَّ صَفوانَ قال: واللهِ لقد أعطاني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أعطاني، وإنَّه لَأبغَضُ النَّاسِ إلَيَّ، فما بَرِحَ يُعطيني حتَّى إنَّه لَأحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ))[٣].

﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ ذو قُدرةٍ تامَّةٍ بالغةٍ على كُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك قُدرتُه على جَعْلِ العَداوةِ الَّتي بَيْنَكم وبيْنَ المُشرِكينَ مَودَّةً، فيَهديهم للإيمانِ، ويُؤَلِّفُ بيْنَ قُلوبِكم[٤].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: واللهُ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه؛ فيَستُرُها ويَمحوها ويَقِي شَرَّها، رحيمٌ بهم؛ فيَغفِرُ للكافِرينَ كُفْرَهم إذا تابُوا، ويَرحَمُهم[٥].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) أي: ستَزيدين مِن ذلك، ويَتمَكَّنُ الإيمانُ مِن قَلبِكِ، ويَزيدُ حُبُّكِ لله ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، ويَقوى رُجوعُك عن بُغضِه. وأصلُ لفظةِ أيضًا: آضَ يَئيضُ أيضًا، إذا رجَع. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٢/ ٩).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٨٢٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧١٤).

(٣) رواه مسلم (٢٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧١)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧١)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٦، ٥٠٧).

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى بَعْدَ ما ذَكَر مِن تَرْكِ انقِطاعِ المؤمِنينَ بالكُلِّيَّةِ عن الكُفَّارِ؛ رخَّصَ في صِلةِ الَّذين لم يُقاتِلوهم مِنَ الكُفَّارِ[1].

وأيضًا لَمَّا نَزَلت هذه الآياتُ الكريماتُ المُهَيِّجةُ على عداوةِ الكافِرينَ، وقَعَتْ مِن المؤمِنينَ كُلَّ مَوقِعٍ، وقاموا بها أتمَّ القيامِ، وتأثَّموا مِن صِلةِ بَعضِ أقاربِهم المُشرِكينَ، وظَنُّوا أنَّ ذلك داخِلٌ فيما نهَى اللهُ عنه[2]؛ فقال الله تعالى:

﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾.

أي: لا يَنهاكم اللهُ -أيُّها المؤمِنونَ- عن الكافِرينَ الَّذين لم يُقاتِلوكم مِن أجْلِ دينِكم؛ مِن أقارِبِكم وغَيرِهم مِن الكُفَّارِ، ولم يُخرِجوكم مِن بلادِكم كما أخرَجَكم كُفَّارُ مَكَّةَ؛ أن تُحسِنوا إليهم وتُكرِموهم، وتَعدِلوا في تعامُلِكم معهم عدلًا تامًّا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧١، ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

قال الشوكاني: (﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ يُقالُ: أقسَطْتُ إلى الرَّجُلِ، إذا عامَلْتَه بالعدلِ. قال الزَّجَّاجُ: المعنى: وتَعدِلوا فيما بيْنَكم وبيْنَهم مِن الوفاءِ بالعهدِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٤). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٥٨).

وقيل: معنى قَولِه تعالى: ﴿وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾: تُعطوهم قِسطًا مِن أموالِكم على وَجهِ الصِّلةِ، وليس المرادُ به العَدْلَ؛ فإنَّ العَدلَ واجِبٌ فيمَن قاتَلَ وفيمَن لم يُقاتِلْ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ العربي. يُنظر: ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٥٩).

كما قال تعالى في الوالِدَينِ الكافرَينِ: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَاۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥].

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان غُلامٌ يَهوديٌّ يَخدُمُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فمَرِضَ، فأتاه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعودُه، فقَعَد عندَ رأسِه، فقال له: أَسْلِمْ، فنظَرَ إلى أبيه وهو عندَه، فقال له: أطِعْ أبا القاسِمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأسْلَمَ، فخرجَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يقولُ: الحَمدُ للهِ الذي أنقَذَه مِنَ النَّارِ))[١].

وعن أسماءَ بنتِ أبي بَكرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قالت: ((قدِمَتْ علَيَّ أمِّي وهي مُشرِكةٌ، في عَهدِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاستَفتيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قُلتُ: وهي راغِبةٌ[٢]، أفأصِلُ أُمِّي؟ قال: نعمْ، صِلِي أُمَّكِ))[٣].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((رأى عُمَرُ حُلَّةً[٤] على رجُلٍ تُباعُ، فقال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابتَعْ هذه الحُلَّةَ تَلبَسْها يومَ الجُمُعةِ، وإذا جاءك الوَفدُ. فقال: إنَّما يَلبَسُ هذا مَن لا خَلاقَ[٥] له في الآخِرةِ، فأُتِيَ رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منها بحُلَلٍ، فأرسَلَ إلى عُمَرَ منها بحُلَّةٍ، فقال عُمَرُ: كيف ألبَسُها وقد قُلتَ فيها ما قُلتَ؟! قال: إنِّي لم أَكْسُكَها لِتَلبَسَها، تبيعُها أو تَكسوها. فأرسَلَ

---

(١) رواه البخاري (١٣٥٦).

(٢) أي: راغِبةٌ في شيءٍ تأخُذُه، أو عن ديني، أو في القُربِ منِّي ومُجاوَرَتي والتَّودُّدِ إلَيَّ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٣٦٣).

(٣) رواه البخاري (٢٦٢٠) واللفظُ له، ومسلم (١٠٠٣).

(٤) الحُلَّةُ: إزارٌ ورِداءٌ، ولا تُسَمَّى حُلَّةً حتَّى تكونَ ثَوبَينِ. يُنظر: ((غريب الحديث)) لأبي عُبَيدٍ القاسم ابن سلَّام (١/ ٢٨٥).

(٥) لا خَلاقَ: أي: لا حَظَّ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٤/ ٣٦٢).

بها عُمَرُ إلى أخٍ له مِن أهلِ مكَّةَ قبْلَ أن يُسْلِمَ))[١].

وعن عِمْرانَ بنِ حُصَينٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في قِصَّةِ المرأةِ المُشرِكةِ صاحِبةِ المَزادتَينِ[٢] مِن الماءِ، الَّتي لَقُوها في سفَرٍ، وفي الحديثِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((هاتُوا ما كان عِندَكم، قال عِمرانُ: فجمَعْنا لها مِن كِسَرٍ وتَمرٍ، وصَرَّ لها صُرَّةً[٣]، فقال لها: اذهَبي فأطعِمي هذا عِيالَكِ، واعلَمِي أنَّا لم نرْزَأْ[٤] مِن مائِكِ))[٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُنصِفينَ الَّذين يُنصِفونَ النَّاسَ، ويُعطونَهم الحقَّ، ويَحكُمونَ بَيْنَهم بالعَدلِ التَّامِّ[٦].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

---

(١) رواه البخاري (٢٦١٩) واللفظُ له، ومسلم (٢٠٦٨).

(٢) المزادةُ: وِعاءٌ يُحمَلُ فيه الماءُ، أكبَرُ مِن القِرْبةِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ١٩٠).

(٣) وصَرَّ لها صُرَّةً: أي: شدَّ وربَط، والصُّرَّةُ: الربطةُ. يُنظر: ((شرح مسند الشافعي)) لأبي القاسم القزويني (٣/ ١٩٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ٢٩٣).

(٤) نرْزَأْ أي: نَنْقُصْ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ١٩٢).

(٥) رواه البخاريُّ (٣٤٤)، ومسلمٌ (٦٨٢) واللَّفظُ له.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ المُقْسِطينَ عندَ اللهِ على مَنابِرَ مِن نُورٍ عن يمينِ الرَّحمنِ عزَّ وجَلَّ، وكِلْتا يَدَيه يَمينٌ؛ الَّذين يَعدِلونَ في حُكمِهم وأهلِيهم وما وَلُوا))[١].

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((ما منَعَني أن أشهَدَ بَدرًا إلَّا أنِّي خرَجْتُ أنا وأبي حُسَيلٌ، قال: فأخَذَنا كُفَّارُ قُرَيشٍ، قالوا: إنَّكم تُريدونَ مُحمَّدًا! فقُلْنا: ما نُريدُه، ما نُريدُ إلَّا المدينةَ، فأخَذوا مِنَّا عَهدَ اللهِ ومِيثاقَه لَنَنصَرِفَنَّ إلى المدينةِ، ولا نُقاتِلُ معه، فأتَيْنا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأخبَرْناه الخبَرَ، فقال: انصَرِفا، نَفِي لهم بعَهْدِهم، ونَستعينُ اللهَ عليهم!))[٢].

﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾.

أي: إنَّما يَنهاكم اللهُ -أيُّها المؤمِنونَ- عن الكافِرينَ المحارِبينَ الَّذين ناصَبوكم العَداوةَ، فقاتَلوكم بسبَبِ إيمانِكم برَبِّكم[٣].

﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ ﴾.

أي: وأخرَجوكم مِن بلادِكم، وعاوَنوا غَيرَهم على إخراجِكم[٤].

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٧).

(٢) رواه مسلم (١٧٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

قال السمرقندي: (هم أهلُ مكَّةَ ومَن كان في مِثلِ حالِهم مِن أهلِ الحَربِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾.

أي: أن تتولَّوهم، فتَكونوا لهم محِبِّينَ مُناصِرينَ[١].

﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

أي: ومَن يتَّخِذِ الكافِرينَ أولياءَ يُحِبُّهم ويُناصِرُهم، فأولئك هم الظَّالِمونَ الَّذين وَضَعوا المُوالاةَ في غيرِ مَوضِعِها، وعرَّضوا أنفُسَهم لعذابِ اللهِ تعالى[٢].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيه إشارةٌ إلى الاقتِصادِ في العَداوةِ والوَلايةِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّ الشَّخصَ قد يكونُ عدوًّا للهِ، ثُمَّ يصيرُ وليًّا للهِ، مُواليًا للهِ ورَسولِه والمؤمِنينَ؛ فهو سُبحانَه يَتوبُ على مَن تاب، ومَن لم يَتُبْ فإلى اللهِ إيابُه، وعليه حِسابُه. وعلى المؤمِنينَ أنْ يَفعَلوا معه ومع غيرِه ما أمَرَ اللهُ به ورَسولُه؛ مِن قَصْدِ نصيحتِهم، وإخراجِهم مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وأمْرِهم بالمعروفِ، ونَهْيِهم عن

---

= (٨/ ٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٠/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٦٤).

المُنكَرِ، كما أمَرَ اللهُ ورَسولُه، لا اتِّباعًا للظَّنِّ وما تَهوى الأنفُسُ، حتَّى يكونَ مِن خيرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للنَّاسِ، يأمُرونَ بالمعروفِ، ويَنْهَونَ عنِ المُنكَرِ، ويُؤمِنونَ باللهِ، وهؤلاء يَعلَمونَ الحقَّ ويَقصِدونَه، ويَرحَمونَ الخَلْقَ، وهم أهلُ صِدْقٍ وعَدْلٍ، أعمالُهم خالِصةٌ للهِ، صوابٌ موافِقةٌ لأَمْرِ اللهِ، كما قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال الفُضَيلُ بنُ عياضٍ وغيرُه: «أخلَصُه وأصْوَبُه؛ والخالصُ أنْ يكونَ للهِ، والصَّوابُ أنْ يكونَ على السُّنَّةِ»(١).

٣- متى عَلِمْتَ أنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ فإنَّه لن يَمنَعَك مانعٌ مِن أنْ تَلتجِئَ إليه سُبحانَه وتعالى بسُؤالِ ما تريدُ؛ ولهذا قال اللهُ تعالى مُنَبِّهًا على هذا الأمرِ: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾، ومَعلومٌ أنَّ العَداوةَ بيْنَ المؤمِنينَ والكافِرينَ أمرٌ ثابتٌ، وأنَّ الإنسانَ قد يَستبعِدُ أنْ يَجعَلَ اللهُ في قلْبِه مودَّةً لهذا الكافرِ، فقال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿قَدِيرٌ﴾: بالنِّسبةِ لتقليبِ القُلوبِ، ﴿غَفُورٌ﴾: بأنْ يُيَسِّرَ هؤلاء الكفَّارَ إلى الإسلامِ، فيَغفِرَ لهم(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ حَثٌّ على العَدلِ في كلِّ شيءٍ(٣). وناهيكَ بتَوصيةِ اللهِ المؤمنينَ أنْ يَستعمِلوا القِسطَ مع المشرِكين به، ويَتحامَوا ظُلْمَهم، مُترجِمةً عن حالِ مُسلمٍ يَجترِئُ على ظُلمِ أخيهِ المسلمِ(٤)! فإذا نهَى عن الظُّلمِ في حقِّ المشركِ، فكيفَ في حقِّ المسلمِ(٥)؟! فحَسْبُك وكافيك تنبيهًا

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٤١٥). ويُنظر أيضًا: ((الإخلاص والنية)) لابن أبي الدنيا (٢٢)، ((حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)) لأبي نعيم الأصبهاني (٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٦٩).

على قُبحِ صنيعِ مَن يَجترئُ على ظُلمِ أخيه المُسلِمِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه إشارةٌ وبِشارةٌ إلى إسلامِ بَعضِ المُشرِكينَ الَّذين كانوا إذ ذاك أعداءً للمؤمِنينَ، وقد وقَع ذلك[٢]، فقد أسلَمَ عامَ الفَتحِ وقبْلَ عامِ الفَتحِ أُمَّةٌ مِن الكفَّارِ، وصارتِ العَداوةُ في قلوبِ المؤمِنينَ لهم مودَّةً[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞ﴾ التَّذييلُ بأنَّ اللهَ قَديرٌ يُشعِرُ بأنَّ تأليفَ القُلوبِ ومَودَّتَها إنَّما هو مِن قُدرةِ اللهِ تعالى وَحْدَه، كما بَيَّنَه قَولُه تعالى: ﴿لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[٤] [الأنفال: ٦٣].

٣- قال الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ أخرَجَ ذلك القِتالَ بسَبَبِ حَقٍّ دُنيويٍّ لا تعَلُّقَ له بالدِّينِ، وأخرجَ مَن لم يقاتِلْ أصلًا، كخُزاعةَ والنِّساءِ، ومِن ذلك أهلُ الذِّمَّةِ، بل الإحسانُ إليهم مِن محاسِنِ الأخلاقِ، ومعالي الشِّيَمِ؛ لأنَّهم جِيرانٌ[٥].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ رُخصةٌ مِن اللهِ تعالى في صِلةِ الَّذين

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٠٨).

لم يُعادُوا المؤمِنينَ ولم يُقاتِلوهم[١]، يدُلُّ على جوازِ البِرِّ بيْنَ المُشرِكينَ والمُسلِمينَ، وإن كانت المُوالاةُ مُنقَطِعةً[٢].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، فيه دليلٌ على جوازِ التَّصدُّقِ على أهلِ الذِّمَّةِ، دونَ أهلِ الحربِ، ووُجوبِ النَّفقةِ للأبِ الكافرِ الذِّمِّيِّ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه لَمَّا نهَى في أوَّلِ السُّورةِ عنِ اتِّخاذِ المُسلِمينَ الكُفَّارَ أولياءَ، وقَطَعَ المودَّةَ بَيْنَهم وبيْنَهم، تَوَهَّمَ بعضُهم أنَّ بِرَّهُم والإحسانَ إليهم مِن الموالاةِ والمودَّةِ؛ فبَيَّنَ اللهُ سُبحانَه أنَّ ذلك ليس مِن الموالاةِ المنهيِّ عنها، وأنَّه لم يَنْهَ عن ذلك، بل هو مِن الإحسانِ الَّذي يُحِبُّه ويَرضاه، وكتَبَه على كُلِّ شَيءٍ، وإنَّما المنهيُّ عنه تولِّي الكُفَّارِ، والإلقاءُ إليهم بالمودَّةِ[٤]. والكافِرُ الَّذي لم يُنْهَ عن برِّه والإقساطِ إليه مَشروطٌ فيه عدَمُ القِتالِ في الدِّينِ، وعدمُ إخراجِ المؤمِنينَ مِن ديارِهم، والكافِرُ المَنهيُّ عن ذلك فيه هو المقاتِلُ في الدِّينِ، المُخرِجُ للمؤمِنينَ مِن ديارِهم، المُظاهِرُ للعَدُوِّ على إخراجِهم[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٠٩). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٣/ ٥٨٣).

(٤) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (١/ ٦٠٢).

(٥) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٣٦).

أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ بعدَ قولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ [الممتحنة: ١] أنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ لا تُعَدُّ مُوالاةً، بلِ الموالاةُ شَيءٌ والصِّلَةُ شيءٌ آخَرُ؛ ولهذا جَمَع اللهُ تعالى بيْنَ الصِّلَةِ وبيْنَ النَّهيِ عن اتِّخاذِ الوَلايةِ في سُورةٍ واحدةٍ؛ فصِلَةُ الرَّحِمِ أمرٌ مُنفَصِلٌ عن الوَلايةِ، فعلى هذا يجبُ على الإنسانِ أنْ يَصِلَ رَحِمَه ولو كانوا كفَّارًا، لكنْ بدونِ مُوالاةٍ ومُناصَرةٍ ومُعاضَدةٍ على ما هم عليه مِن الكُفرِ، وكذلك يجوزُ أنْ يَدْعُوَهم إلى بَيتِه مثلًا، ولكنْ مع ذلك يَنبغي أن يَحرِصَ على عَرْضِ الإسلامِ عليهم ونُصْحِهم وإرشادِهم؛ لعلَّ اللهَ أنْ يَهديَهم بسَبَبِه[1]، وأيضًا فليس مِن موالاتِهم أنْ نُضيفَهم إذا استضافُونا، يعني: لو نَزَلَ بك كافرٌ وأكرَمْتَه إكرامَ ضَيفٍ لا يكونُ هذا مِن مُوالاتِهم؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ ﴾، وهذا إحسانٌ، ﴿وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ هذا عَدْلٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[2]، وكذلك فإنَّ الصُّلحَ والمُهادَنةَ لا يَلزَمُ منها محَبَّةٌ، ولا موالاةٌ، ولا موَدَّةٌ لأعداءِ الله[3].

٨- قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ﴾ لا يُمكِنُ لأمَّةٍ اليومَ أن تَعيشَ مُنعَزِلةً عن غيرِها مِن الدُّولِ؛ لِتَداخُلِ المصالحِ وتَشابُكِها، ولا سِيَّما في المجالِ الاقتصاديِّ عَصَبِ الحياةِ اليومَ؛ مِن إنتاجٍ، أو تصنيعٍ، أو تسويقٍ؛ فعلى هذا تكونُ الآيةُ مُساعِدةً على جوازِ التَّعامُلِ مع أولئك المسالِمينَ ومُبادَلتِهم مصلحةً بمَصلحةٍ، بشَرطِ عَدَمِ المَيلِ بالقَلْبِ، ولو قيل بشَرطٍ آخَرَ، وهو: مع عَدَمِ وُجودِ تلك المصلحةِ عندَ

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٨/ ٤٤٨).

المسلِمينَ أنفُسِهم، أي: إنَّ العالَمَ الإسلاميَّ يَتعاوَنُ أوَّلًا مع بَعْضِه، فإذا أعوَزَه أو بَعضَ دُوَلِه حاجةٌ عندَ غيرِ المسلمينَ مِمَّن لم يقاتِلوهم ولم يُظاهِروا عَدُوًّا على قِتالِهم؛ فلا مانِعَ مِن التَّعاوُنِ مع تلك الدَّولةِ في ذلك، وممَّا يؤَيِّدُ كُلَّ ما تقَدَّمَ عمَلِيًّا مُعامَلةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لليَهودِ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ أنَّ الحَربيَّ لو أسْلَمَ وبيَدِه مالُ مُسلمٍ قد أَخَذَه مِن المسلِمينَ بطَريقِ الاغتِنامِ ونحوِه ممَّا لا يَملِكُ به مُسلمٌ مِن مُسلمٍ؛ لكَونِه مُحَرَّمًا في دِيْنِ الإسلامِ- كان له مِلْكًا، ولم يَرُدَّه إلى المُسلمِ الَّذي كان يَملِكُه. ووجْهُ الدَّلالةِ: أنَّه سُبحانَه بيَّنَ أنَّ المسلِمينَ أُخرِجوا مِن ديارِهم وأموالِهم بغيرِ حَقٍّ حتَّى صاروا فُقَراءَ بعدَ أنْ كانوا أغنياءَ، ثمَّ إنَّ المُشرِكينَ استَولَوا على تلك الدِّيارِ والأموالِ، وكانت باقيةً إلى حينِ الفَتحِ، وقد أسلَمَ مَنِ استولى عليها في الجاهليَّةِ، ثمَّ لم يَرُدَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أحدٍ منهم أُخرِجَ مِن دارِه بعدَ الفَتحِ والإسلامِ دارًا ولا مالًا، بل قيل للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يومَ الفَتحِ: أين تَنزِلُ غدًا؟ فقال: ((وهل تَرَكَ لنا عَقِيلٌ مِن مَنزِلٍ؟!))[2]، وسأله المهاجِرونَ أنْ يَرُدَّ عليهم أموالَهم الَّتي استولى عليها أهلُ مكَّةَ، فأبَى ذلك صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأقَرَّها بيَدِ مَنِ استَولى عليها بعدَ إسلامِه[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ اعتِراضٌ، وهو استِئنافٌ مُتَّصِلٌ بما قبْلَه مِن أوَّلِ السُّورةِ، خُوطِبَ به

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٢٨٢)، ومسلمٌ (١٣٥١) مِن حديثِ أسامةَ بنِ زَيدٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ١٥٤).

المؤمنونَ تَسليةً لهم على ما نُهُوا عنه مِن مُوالاةِ أقْربائِهم؛ بأنْ يَرْجُوا مِن اللهِ أنْ يَجعَلَ عداوتَهم آيلةً إلى مودَّةٍ بأنْ يُسْلِمَ المشرِكونَ مِن قَرابةِ المؤمنينَ(١).

- قولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ وعْدٌ مِن اللهِ على عاداتِ الملوكِ، حيث يَقولونَ في بَعضِ الحوائجِ: عَسى أو لعلَّ، فلا تَبْقَى شُبهةٌ للمُحتاجِ في تَمامِ ذلك، أو قَصَد به إطماعَ المؤمنينَ(٢).

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ قَدِيرٌ﴾ تَذييلٌ(٣)، أي: مُبالغٌ في القُدرةِ، فَيقدِرُ على تَقليبِ القُلوبِ، وتَغييرِ الأحوالِ، وتَسهيلِ أسبابِ المودَّةِ(٤).

- وعُطِفَ على التَّذييلِ جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: يَغفِرُ لِمَن أنابوا إليه ويَرحَمُهم؛ فلا عَجَبَ أنْ يَصيروا أوِدَّاءَ لكم كما تَصيرون أوِدَّاءَ لهم(٥).

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾

- قولُه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ استئنافٌ هو مَنطوقٌ لمَفهومِ الأوصافِ الَّتي وُصِفَ بها العدُوُّ في قولِه تَعالى: ﴿وَقَدْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١).

(٣) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦ - ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١).

كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١]، وقوله: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ ﴾ [الممتحنة: ٢]، المَسوقةِ مَساقَ التَّعليلِ للنَّهيِ عن اتِّخاذِ عدُوِّ اللهِ أولياءَ، اسْتَثْنى اللهُ أقوامًا مِن المشركين غيرَ مُضمِرينَ العداوةَ للمسلِمينَ، وكان دِينُهم شَديدَ المُنافَرةِ مع دِينِ الإسلامِ، وهذه الجُملةُ قد أَخرَجَتْ مِن حُكْمِ النَّهيِ القومَ الَّذين لم يُقاتِلوا في الدِّينِ ولم يُخرِجوا المسلِمينَ مِن دِيارِهم[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ تَذييلٌ، أي: يُحِبُّ كلَّ مُقسطٍ، فيَدخُلُ الَّذين يُقسِطون للَّذين حالَفُوهم في الدِّينِ إذ كانوا مع المُخالَفةِ مُحسِنينَ مُعاملتَهم[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ فذْلَكةٌ[٣] لِما تَقدَّمَ، وحصْرٌ لحُكْمِ الآيةِ المُتقدِّمةِ، وهي تُؤذِنُ بانتهاءِ الغرَضِ المسوقِ له الكلامُ مِن أوَّلِه[٤].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن جُملةِ ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ ...﴾ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥١، ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٥٣).

(٣) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و (الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

آخِرِها، قصْرُ قلْبٍ[١]؛ لرَدِّ اعتقادِ مَن ظنَّ أو شكَّ في جَوازِ صِلةِ المشركين على الإطلاقِ[٢].

- والقصْرُ في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٣]، فظُلْمُهم وقَع بعْدَ النَّهيِ الشَّديدِ، والتَّنبيهِ على الأخطاءِ والعِصيانِ؛ وهو اعتداءٌ على حُقوقِ اللهِ، وحُقوقِ المسلمينَ، وعلى حقِّ الظالِمِ نفْسِه، فجُعِلوا كمَن انْحَصَر الظُّلْمُ فيهم[٤].

- وأيضًا جِيءَ في جَوابِ الشَّرطِ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ باسمِ الإشارةِ (أولئك)؛ لتَمييزِ المشارِ إليهم زِيادةً في إيضاحِ الحُكْمِ[٥].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ١٦) و(٢٨/ ١٥٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٥٤).

## الآيتان (١٠-١١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿١١﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جُنَاحَ﴾: أي: إثْمٌ وحَرَجٌ، وسُمِّيَ بذلك؛ لِمَيلِه عن طَريقِ الحَقِّ، وأصلُ (جنح): يدُلُّ على مَيلٍ وتَعَدٍّ(١).

﴿بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾: أي: بعقدِ نكاحِ النِّساءِ الكوافِرِ، والكوافِرُ: جَمعُ كافِرةٍ، والعِصَمُ: جمعُ عِصْمةٍ، وهي ما اعتُصِمَ به مِنَ العَقدِ والسَّبَبِ، وأصلُ (عصم): يدُلُّ على إمساكٍ ومَنعٍ ومُلازَمةٍ(٢).

﴿فَعَاقَبۡتُمۡ﴾: قيل: هو مِن العُقْبى، أي: أصَبْتُم عُقْبى، وهي الغنيمةُ. وقيل: مِن العُقْبةِ، وهي النَّوبةُ والتَّعاقُبُ على الشَّيءِ، أي: فجاءتْ عقبتُكم -أي: نَوبتُكم- مِن أداءِ المهرِ. وقيل: المعنى: فعَلْتُم ما فُعِل بكم، أي: ظَفِرتُم، وهو مِن قَولِك: العُقْبى لفُلانٍ، أي: العاقِبةُ بعدَ الأُولى. وقيل: غزَوْتُم مُعاقِبينَ غَزوًا بعدَ غَزوٍ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٧١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٣١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٨).

وقيل: المعنى: أصَبْتُموهم في القتالِ بعُقوبةٍ حتَّى غَنِمتُم، وأصل (عقب) هنا: يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ وإتيانِه بعدَ غَيْرِه[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ الأحكامِ الَّتي تتعلَّقُ بالنِّساءِ المؤمناتِ، اللَّاتي ترَكْنَ أزواجَهنَّ الكفَّارَ، ورَغِبْنَ في الهجرةِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا جاءَكم المُؤمِناتُ مُهاجِراتٍ إليكم فاختَبِروهنَّ، اللهُ أعلمُ بحَقيقةِ إيمانِهنَّ، فإنْ عَلِمْتُم بعدَ اختِبارِهنَّ أنَّهنَّ مُؤمِناتٌ فلا تَرُدُّوهنَّ إلى الكُفَّارِ؛ فليست المُؤمِناتُ بمُباحاتٍ للكافِرينَ بالنِّكاحِ، ولا الكُفَّارُ يَحِلُّونَ للمُؤمِناتِ بالنِّكاحِ، وأعطُوا أزواجَ مَن هاجَرْنَ إليكم ما دَفَعوا إليهنَّ مِن مُهورٍ، ولا إثمَ عليكم -أيُّها المؤمِنونَ- أن تتزَوَّجوا المؤمِناتِ المُهاجِراتِ إليكم إذا أعطيتُموهُنَّ مُهورَهنَّ.

ومَن كانت له منكم -أيُّها المؤمِنونَ- زوجةٌ مُشرِكةٌ فلْيُطلِّقْها ولا يُمسِكْها عندَه، واسألوا -أيُّها المؤمِنونَ- ما دفَعْتُم مِن المهورِ إلى أزواجِكم اللَّاتي فارَقْتُموهنَّ لكُفْرِهنَّ، ولْيَسألِ المُشرِكونَ ما دَفَعوا مِن المُهورِ إلى أزواجِهم المؤمِناتِ اللَّاتي هاجَرْنَ إليكم، وذلكم هو حُكمُ اللهِ الَّذي يَقضيه بيْنَكم وبيْنَ الكُفَّارِ، واللهُ عليمٌ حكيمٌ.

وإن فرَّ بعضُ أزواجِكم -أيُّها المؤمِنونَ- إلى الكُفَّارِ ولم يُعطوكم مُهورَهنَّ، فعاقَبْتُم، فأعطُوا المؤمِنينَ الَّذين فَرَّت أزواجُهم إلى الكُفَّارِ ما دَفَعوه إليهنَّ مِن مُهورٍ، وخافوا اللهَ الَّذي أنتم به مُؤمِنونَ.

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠).

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ وُرودِ هذه الآيةِ بعْدَ ما قبْلَها -أي: النَّهيِ عن مُوالاةِ المشركين- يَتطرَّقُ إلى ما بيْن المسلمينَ والمشركين مِن عُقودِ النِّكاحِ والمُصاهَرةِ؛ فقد يكونُ المسلمُ زَوجًا لمشركةٍ، وتكونُ المسلمةُ زَوجًا لمُشرِكٍ، فتَحدُثُ في ذلك حَوادثُ لا يَسْتغني المسلِمون عن مَعرفةِ حُكْمِ الشَّريعةِ في مِثلِها[1]؛ لذا بَيَّنَ أحكامَ مُهاجَرةِ النِّساءِ[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرمةَ ومَرْوانَ بنِ الحَكَمِ عن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قِصَّةِ الحُدَيبيَةِ: ((جاءت المُؤمِناتُ مُهاجِراتٍ، وكانت أمُّ كُلثومٍ بنتُ عُقْبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ مِمَّن خَرَج إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَومَئذٍ وهي عاتِقٌ[3]، فجاء أهلُها يَسألونَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَرجِعَها إليهم، فلم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦١).

(٣) العاتِقُ: الشَّابَّةُ أوَّلَ ما تُدْرِكُ. وقيل: هي الَّتي لم تَبِنْ مِنْ والِدَيها، ولم تُزَوَّجْ، وقد أدْرَكَت وشَبَّت. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١٧٩).

يَرجِعْها إليهم؛ لِمَا أنزَلَ اللهُ فيهنَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾)). وفي روايةٍ: ((ثُمَّ جاءَه نِسْوةٌ مُؤْمِناتٌ فأنْزَل اللَّهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ ...﴾))[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا جاءَكم النِّساءُ المُؤمِناتُ مُهاجِراتٍ مِن بِلادِ الكُفرِ إلى بِلادِ الإسلامِ، فاختَبِروهنَّ[2].

---

(١) رواه البخاري (٢٧١١) (٢٧٣١ و٢٧٣٢). ويُنظر ما يأتي (ص: ٨٤).

قال ابنُ تيميَّة: (نزَلَت باتِّفاقِ المُسلِمينَ في قَضيَّةِ الصُّلحِ الَّذي كان بيْن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيْن أهلِ مكَّةَ؛ صُلحِ الحُدَيبيَةِ، لَمَّا شَرَط عليهم أن يَرُدَّ المسلمونَ مَن جاءَهم مُسلِمًا، وألَّا يَرُدَّ أهلُ مكَّةَ مَن ذهبَ إليهم مُرتَدًّا، فهاجَرَ نِسوةٌ كأمِّ كُلثومٍ بِنتِ عُقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ، فنَسَخ اللهُ تعالى الرَّدَّ في النِّساءِ، وأمَرَ برَدِّ المهرِ عِوَضًا عن رَدِّ المرأةِ). ((مختصر الفتاوى المصرية)) للبعلي (ص: ٥٤٠). ويُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٦٧٨).

وقال ابن حجر: (اختُلِف في تَركِ ردِّ النِّساءِ إلى أهلِ مكَّةَ مع وُقوعِ الصُّلحِ بيْنَهم وبيْن المسلمينَ في الحُدَيبيَةِ على أنَّ مَن جاء منهم إلى المسلمينَ ردُّوه، ومَن جاء مِن المسلمينَ إليهم لم يَرُدُّوه: هل نُسِخ حُكمُ النِّساءَ مِن ذلك فمُنِع المُسلمونَ مِن رَدِّهِنَّ، أو لم يَدخُلْنَ في أصلِ الصُّلحِ، أو هو عامٌّ أُريدَ به الخُصوصُ وبُيِّن ذلك عندَ نُزولِ الآيةِ؟). ((فتح الباري)) (٩/ ٤١٩).

وقال القرطبي: (أكثَرُ العُلماءِ على أنَّ هذا ناسخٌ لِما كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عاهَد عليه قُرَيشًا، مِن أنَّه يَرُدُّ إليهم مَن جاءه منهم مُسلِمًا، فنُسِخ مِن ذلك النِّساءُ. وهذا مذهبُ مَن يَرى نَسْخَ السُّنَّةِ بالقرآنِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٣). ويُنظر: ((قواطع الأدلة في الأصول)) للسمعاني (١/ ٤٣٣)، ((كشف الأسرار شرح أصول البزدوي)) (٣/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٦).

قال الماوَرْدي: (لأنَّه يُعلَمُ بالامتحانِ ظاهِرُ إيمانِهنَّ، واللهُ يَعلَمُ باطِنَ إيمانِهنَّ). ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٢٠).

قال القرطبي: (اختُلِفَ فيما كان يمتَحِنُهنَّ به؛ على ثلاثةِ أقوالٍ:

الأوَّلُ: قال ابنُ عبَّاسٍ: كانت المحنةُ أن تُستحلَفَ باللهِ أنَّها ما خرَجَت مِن بُغضِ زَوجِها، ولا =

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((إنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يمتَحِنُ مَن هاجَرَ مِن المؤمِناتِ بهذه الآيةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٢]))[1].

﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾.

أي: اللهُ أعلمُ بحَقيقةِ إيمانِ أولئك المهاجِراتِ، وما يُسْرِرْنَه في قُلوبِهنَّ؛ فاحكُموا لهنَّ بما يَظهَرُ لكم مِنَ الدَّلائِلِ[2].

﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾.

---

= رغبةً مِن أرضٍ إلى أرضٍ، ولا التِماسَ دُنيا، ولا عِشقًا لرجُلٍ مِنَّا، بل حُبًّا لله ولرَسولِه. فإذا حلَفَت باللهِ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو على ذلك، أعطى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم زَوْجَها مَهْرَها وما أنفَقَ عليها، ولم يَرُدَّها، فذلك قَولُه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

الثَّاني: أنَّ المحنةَ كانت أن تَشهَدَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ أيضًا.

الثَّالثُ: بما بَيَّنَه في السُّورةِ بَعْدُ مِن قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٢]، قالت عائشةُ رَضِيَ اللهُ عنها: ما كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يمتَحِنُ إلَّا بالآيةِ الَّتي قال اللهُ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ﴾ [الممتحنة: ١٢]. رواه مَعمَرٌ عن الزُّهريِّ عن عائشةَ. خَرَّجه التِّرمذيُّ [٣٣٠٦]، وقال: هذا حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: السمرقنديُّ، ومكِّي، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٤٢٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

ومعنى ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: اختَبِروهنَّ بما يَغلِبُ على ظنِّكم مُوافَقةُ قُلوبِهنَّ لألسِنَتِهنَّ في الإيمانِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٠٨).

(١) رواه البخاريُّ (٤١٨٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٦).

أي: فإن عَلِمْتُم بعدَ اختبارِهنَّ أنَّهنَّ مُؤمِناتٌ، فلا تَرُدُّوهنَّ إلى الكُفَّارِ[١].

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

## النَّاسِخُ والمنسوخُ:

هذه الآيةُ نَسَخَت ما كان في أوَّلِ الإسلامِ مِن إباحةِ نِكاحِ الكافِرِ للمُسلِمةِ[٢].

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾.

أي: ليست المُؤمِناتُ بمُباحاتٍ للكافِرينَ بالنِّكاحِ، ولا الكُفَّارُ بجَميعِ مِلَلِهم يَحِلُّونَ للمُؤمِناتِ بالنِّكاحِ؛ فقد حَرَّم اللهُ نِكاحَ الكافِرِ للمُؤمِنةِ تَحريمًا مُؤَكَّدًا في جميعِ الأحوالِ والأزمانِ[٣].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ

---

(١) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٤٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٣).

قال ابنُ العربي: (قال أهلُ التَّفسيرِ: أمَرَ اللهُ تعالى مَن كان له زوجةٌ مُشرِكةٌ أن يُطَلِّقَها. وقد كان الكُفَّارُ يَتزَوَّجون المُسلِماتِ، والمسلِمونَ يتزَوَّجونَ المُشرِكاتِ، ثمَّ نَسَخ اللهُ ذلك في هذه الآيةِ وغَيرِها، وكان ذلك نَسْخَ الإقرارِ على الأفعالِ بالأقوالِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٣١). ويُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لأبي بكر بن العربي (٢/ ٣٨٥).

وقال ابن كثير: (هذه الآيةُ هي الَّتي حرَّمت المسلِماتِ على المُشرِكينَ، وقد كان جائِزًا في ابتداءِ الإسلامِ أن يتزوَّجَ المُشرِكُ المُؤمِنةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٦).

يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢١].

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾.

أي: وأعطُوا مَن كانوا أزواجًا للَّاتي أسلَمْنَ وهاجَرْنَ إليكم، ما دَفَعوا إليهنَّ مِن مُهورٍ[١].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

أي: ولا إثمَ عليكم -أيُّها المؤمِنونَ- أن تتزَوَّجوا المؤمِناتِ المُهاجِراتِ إليكم بعدَ انقِضاءِ عِدَّتِهنَّ، ولو كان لهنَّ أزواجٌ مِن الكُفَّارِ في دارِ الشِّركِ، بشَرطِ إعطائِهنَّ مُهورَهنَّ[٢].

﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ﴾.

أي: ومَن كانت له منكم -أيُّها المؤمِنونَ- زوجةٌ مُشرِكةٌ فلْيُطلِّقْها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

قال القرطبي: (أمَرَ اللهُ تعالى إذا أُمسِكَت المرأةُ المسلمةُ أن يُرَدَّ على زَوجِها ما أنفَقَ، وذلك مِن الوفاءِ بالعَهدِ؛ لأنَّه لَمَّا مُنِع مِن أهلِه بحُرمةِ الإسلامِ أُمِرَ برَدِّ المالِ إليه؛ حتَّى لا يَقَعَ عليهم خُسرانٌ مِن الوَجهَينِ: الزَّوجةِ، والمالِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤١٩).

وقال ابنُ عاشور: (المكلَّفُ بإرجاعِ مُهورِ الأزواجِ المُشرِكينَ إليهم هم وُلاةُ أُمورِ المُسلِمينَ مِمَّا بيْنَ أيديهم مِن أموالِ المُسلِمينَ العامَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٩). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٥)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٠)، =

عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمةَ ومَروانَ بنِ الحَكَمِ: (أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جاءه نِسْوةٌ مُؤمِناتٌ، فأنزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠] حتَّى بَلَغَ: ﴿بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، فطَلَّق عُمَرُ يومَئذٍ امرأتَينِ كانتا له في الشِّركِ، فتزوَّج إحداهما مُعاويةُ بنُ أبي سُفيانَ، والأُخرى صَفوانُ بنُ أُميَّةَ)[1].

﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾.

أي: وطالِبوا -أيُّها المؤمِنونَ- بما دفَعْتُم مِن المهورِ إلى أزواجِكم اللَّاتي فارقتُموهنَّ لكُفْرِهنَّ، ولْيُطالِبِ المُشرِكونَ بما دَفَعوا مِن المُهورِ إلى أزواجِهم المؤمِناتِ اللَّاتي هاجَرْنَ إليكم[2].

---

= ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٤)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٨).

(١) رواه البخاري (٢٧٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٤، ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

قال الجصَّاص: (هذه الأحكامُ في رَدِّ المَهرِ وأخْذِه مِن الكُفَّارِ، وتَعويضِ الزَّوجِ مِن الغنيمةِ أو مِن صِداقٍ قد وَجَب رَدُّه على أهلِ الحَربِ: مَنسوخٌ عندَ جماعةِ أهلِ العِلمِ، غيرُ ثابتِ الحُكمِ إلَّا شَيئًا رُوِيَ عن عطاءٍ؛ فإنَّ عبدَ الرَّزَّاقِ روى عن ابنِ جُرَيجٍ قال: قُلتُ لعَطاءٍ: أرأيْتَ لو أنَّ امرأةً مِن أهلِ الشِّركِ جاءت المسلِمينَ فأسلَمَت، أيُعَوَّضُ زَوجُها منها شيئًا؛ لِقَولِه تعالى في المُمتَحَنةِ: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾؟ قال: إنَّما كان ذلك بيْن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبيْنَ أهلِ عَهْدِه. قُلتُ: فجاءت امرأةٌ الآنَ مِن أهلِ عَهدٍ؟ قال: نعمْ، يُعاضُ. فهذا مَذهَبُ عَطاءٍ في ذلك، وهو خِلافُ الإجماعِ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٨٩). ويُنظر: ((مصنَّف عبد الرزاق)) (١٢٧٠٧).

وقال ابن العربي: (قال المفَسِّرون: كُلُّ مَن ذَهَب مِن المسلِماتِ مُرتدَّاتٍ مِن أهلِ العَهدِ إلى الكُفَّارِ، يُقالُ للكُفَّارِ: هاتوا مَهْرَها، ويُقالُ للمُسلِمينَ إذا جاء أحدٌ مِن الكافِراتِ مُسلِمةً مُهاجِرةً: رُدُّوا إلى الكُفَّارِ مَهْرَها، وكان ذلك نَصَفًا وعَدلًا بيْنَ الحالتَينِ، وكان هذا حُكمَ اللهِ مَخصوصًا بذلك الزَّمانِ في تلك النَّازِلةِ خاصَّةً، بإجماعِ الأمَّةِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٣١). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٨). =

﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾.

أي: ما بيَّنه اللهُ تعالى لكم في هذه الآيةِ مِن إرجاعِ مُهورِ النِّساءِ اللَّاتي يَذهَبْنَ إلى الفَريقِ الآخَرِ: هو حُكمُ اللهِ الَّذي يَقضيه بيْنَكم وبيْنَ الكُفَّارِ بالعَدلِ التَّامِّ[1].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

أي: واللهُ عليمٌ بما يُصلِحُ عِبادَه، حكيمٌ في تدبيرِهم بما يَشرَعُه لهم مِن الأحكامِ، فيُعطي كُلَّ ذي حَقٍّ حَقَّه[2].

﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ١١﴾.

﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾.

أي: وإن فرَّ بعضُ أزواجِكم -أيُّها المؤمِنونَ- إلى الكُفَّارِ ولم يُعطوكم مُهورَهنَّ، فعاقَبْتُم[3]؛ فأعطُوا المؤمِنينَ الَّذين فَرَّت أزواجُهم إلى الكُفَّارِ ما دَفَعوه إليهنَّ مِن

---

= وقال ابنُ عاشور: (كانت هذه الأحكامُ الَّتي في هذه الآياتِ مِن التَّرادِّ في المهورِ شَرعًا في أحوالٍ مخصوصةٍ اقتضاها اختِلاطُ الأمرِ بيْنَ أهلِ الشِّركِ والمؤمِنينَ، وما كان مِن عَهدِ المُهادَنةِ بيْن المُسلِمينَ والمُشرِكينَ في أوائِلِ أمرِ الإسلامِ خاصًّا بذلك الزَّمانِ بإجماعِ أهلِ العِلمِ، قاله ابنُ العربي، والقرطبيُّ، وأبو بكرٍ الجصَّاصُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(٣) قيل: المعنى: فغَنِمْتُم مِن العدُوِّ شَيئًا بأن صارت العاقِبةُ في الظَّفَرِ لكم، فأعطُوا الأزواجَ مِن الغنيمةِ ما أنفَقوا عليهنَّ مِن المهرِ. وممَّن قال بهذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سليمان، والواحديُّ، =

مُهورٍ[(١)].

= والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٢، ١٦٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، ومسروقٌ، وإبراهيمُ، والضَّحَّاكُ، وسفيانُ بنُ حُسَينٍ، والزُّهريُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٥).

وقيل: هو مِن العُقْبةِ، وهي النَّوبةُ، والمعنى: فآتُوا مَن فاتَتْه امرأتُه إلى الكُفَّارِ مِثلَ مَهرِها مِن مَهرِ المهاجِرةِ، ولا تُؤتُوه زَوجَها الكافِرَ. وممَّن قال بهذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٨). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٣٣).

وذكَر ابنُ كثيرٍ أنَّه لا تنافيَ بينَ القولَينِ السَّابقَينِ، وأنَّه إذا أمكَنَ عَدَمُ إعطاءِ المهاجِرةِ شَيئًا في مقابِلِ فِرارِ زَوجةِ المؤمِنِ، فهو أولى، وإلَّا فمِن الغنائمِ اللَّاتي تؤخَذُ مِن أيدي الكُفَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٥).

وأيضًا ذهب ابنُ جريرٍ إلى عدمِ تخصيصِ إيتائِهم ذلك مِن مالٍ دونَ مالٍ؛ فعليهم أن يُعطوهم ذلك مِن كُلِّ تلك الأموالِ المذكورةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٣).

قال الرَّسْعَني: (وفي المالِ الَّذي يُرَدُّ منه هذا المهرُ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: مِن أموالِ غنائمِهم. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: مِن أموالِ الفَيءِ. قاله الزُّهْريُّ.

الثَّالثُ: مِن صَداقِ مَن أسلَمْنَ مِنهُنَّ عن زَوجٍ كافرٍ. وهذا مرويٌّ عن الزُّهْريِّ أيضًا). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٢، ١٦٣).

ذكر النَّحَّاسُ أنَّ هذه الآيةَ ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٌ ...﴾ مَنسوخةٌ عندَ أكثَرِ العُلَماءِ، وحكاه السمرقنديُّ إجماعًا. يُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) للنحاس (ص: ٧٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٠).

وقال ابنُ عطيَّة: (هذه الآيةُ كُلُّها قد ارتفَعَ حُكمُها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٨). ويُنظر: ((نواسخ القرآن)) لابن الجوزي (٢/ ٦٠٨، ٦٠٩). =

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾.

أي: وخافوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعذابَه، بطاعتِه واجتنابِ مَعصيتِه؛ الَّذي أنتم مُؤمِنونَ بوحدانيَّتِه وصِفاتِه، وثوابِه وعِقابِه(١).

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ أنَّ المؤمِنَ مُحتاجٌ إلى امتحانِ مَن يريدُ أنْ يُصاحِبَه ويُقارِنَه بنِكاحٍ وغَيرِه(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ في الجُملةِ: الامتِحانُ طَريقٌ إلى المعرفةِ، وجواهِرُ النَّاسِ تتبَيَّنُ بالتَّجرِبةِ، ومَن

---

= وقال الشوكاني: (هذه الآيةُ منسوخةٌ، قد انقطَع حُكمُها بعدَ الفتحِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٧).

وقال ابن العربي: (قولُه تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾ قال بعضُهم: المرادُ بهذه الآيةِ: إنِ ارتدَّتِ امرأةٌ منكم فذهبتْ منكم إلى الكفَّارِ فأَعْطوا زوْجَها مِثلَ ما أنفَق عليها -يعني: مِن صَداقٍ-، ثمَّ نسَخ اللهُ ذلك. واختُلِف في نَسخِه على ثلاثةِ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّه منسوخٌ بقولِه: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ﴾ الآية [الأنفال: ٤١].

الثَّاني: أنَّه منسوخٌ بآيةِ القتالِ.

الثَّالثُ: أنَّ آيةَ «براءة» نسخَتْ أحكامَ هذه السُّورةِ). ((الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم)) (٢/ ٣٨٦).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (كلُّ هؤلاء الآياتِ نسَخَتْها في «براءة» آيةُ السَّيفِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٦).

وقال ابن عاشور: (عن ابنِ عبَّاسٍ والجمهورِ: الَّذين فاتَهم أزواجُهم إلى الكفَّارِ يُعطَوْنَ مُهورَ نسائِهم مِن مَغانمِ المسلمينَ. وهذا يَقتضي أن تكونَ الآيةُ منسوخةً بآيةِ سورةِ «براءة»: ﴿كَيۡفَ يَكُونُ لِلۡمُشۡرِكِينَ عَهۡدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٢٨).

أقدَمَ على شَيءٍ مِن غيرِ تجربةٍ تحسَّى كأسَ النَّدَمِ[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ نَدَب تعالى إلى التَّقوى وأوجَبَها، وذَكَر العِلَّةَ الَّتي بها يجِبُ التَّقوى، وهي الإيمانُ باللهِ، والتَّصديقُ بوَحدانيَّتِه وصِفاتِه، وعِقابِه وإنعامِه[٢]، فالإيمانُ به عزَّ وجلَّ يقتضي التَّقوى منه سُبحانَه وتعالى[٣].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ فيه تحريضٌ للمُسلِمينَ على الوَفاءِ بما أمَرَهم اللهُ، وألَّا يَصُدَّهم عن الوَفاءِ ببَعضِه مُعامَلةُ المُشرِكينَ لهم بالجَورِ، وقِلَّةِ النَّصَفةِ[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- المعانِدُ لا يخلو مِن أحَدِ أحوالٍ ثلاثةٍ: إمَّا أن يستَمِرَّ عِنادُه، أو يُرجَى منه أن يترُكَ العِنادَ، أو يترُكَ العِنادَ ويَستسلِمَ، وقد بَيَّن اللهُ تعالى في هذه الآياتِ أحوالَهم، وأمَرَ المسلِمينَ أن يُعامِلوهم في كُلِّ حالةٍ على ما يَقتَضيه الحالُ؛ أمَّا قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ﴾ [الممتحنة: ٤] فهو إشارةٌ إلى الحالةِ الأُولى، ثمَّ قَولُه: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗ﴾ [الممتحنة: ٧] إشارةٌ إلى الحالةِ الثَّانيةِ، ثمَّ قَولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٠] إشارةٌ إلى الحالةِ الثَّالثةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢١).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ نَزَل في شَرطِ صُلحِ الحُدَيبيَةِ أن يُرَدَّ إلى المُشرِكينَ مَن جاء مُسلِمًا مِن أهلِ مَكَّةَ، فاستُدِلَّ به على أنَّه لا يجوزُ في الهُدنةِ شَرطُ رَدِّ مُسلِمةٍ تأتينا منهم، وأنَّه إن لم يُذكَرْ رَدٌّ أو شُرِطَ رَدُّ مَن جاءَنا منهم، فجاءت امرأةٌ؛ لا يجوزُ رَدُّها[١].

٣- إذا تعارضتْ سَيِّئتانِ لا يمكنُ الخُلُوُّ منهما، فإنَّه يُدفَعُ أسوأُهما باحتِمالِ أدناهما، كما في تقديمِ المرأةِ المهاجِرةِ لسَفَرِ الهِجرةِ بلا مَحْرَمٍ على بقائِها بدارِ الحَربِ، كما فعَلَت أمُّ كُلثومٍ الَّتي أنزَلَ اللهُ فيها آيةَ الامتِحانِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ﴾[٢].

٤- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ دلَّ على أنَّ مجرَّدَ إظهارِ الإسلامِ لا يكونُ دليلًا على الإيمانِ في الباطنِ؛ إذْ لو كان كذلك لم تَحْتَجِ المهاجِراتُ اللَّاتي جِئْنَ مُسلِماتٍ إلى الامتِحانِ[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ مَفهومُه أنَّ الرِّجالَ المهاجِرينَ لا يُمتَحَنونَ، وفِعلًا لم يكنِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يمتَحِنُ مَن هاجَرَ إليه، والسَّبَبُ في امتِحانِهنَّ دونَ الرِّجالِ هو ما أشارت إليه هذه الآيةُ في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾، كأنَّ الهِجرةَ وَحْدَها لا تَكفي في حَقِّهنَّ بخِلافِ الرِّجالِ؛ فقد شَهِدَ اللهُ لهم بصِدقِ إيمانِهم بالهِجرةِ، في قَولِه تعالى: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٧/ ٥٨١).

وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨]؛ وذلك أنَّ الرَّجُلَ إذا خرجَ مُهاجِرًا يَعلَمُ أنَّ عليه تَبِعةَ الجِهادِ والنُّصرةِ، فلا يُهاجِرُ إلَّا وهو صادِقُ الإيمانِ، فلا يَحتاجُ إلى امتِحانٍ، بخِلافِ النِّساءِ؛ فليس عليهنَّ جِهادٌ، ولا يَلزَمُهنَّ بالهِجرةِ أيَّةُ تَبَعيَّةٍ، فأيُّ سَبَبٍ يواجِهُهنَّ في حياتِهنَّ سَواءٌ كان بسَبَبِ الزَّوجِ أو غَيرِه، فإنَّهنَّ يَخرُجنَ باسمِ الهِجرةِ؛ فكان ذلك مُوجِبًا للتَّوثُّقِ مِن هِجرتِهنَّ بامتِحانِهنَّ؛ لِيُعلَمَ إيمانُهنَّ، ويُرشِّحُ لهذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾، وفي حَقِّ الرِّجالِ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]، وكذلك مِن جانبٍ آخَرَ، وهو أنَّ هِجرةَ المؤمِناتِ يَتعَلَّقُ عليها حَقٌّ مع طَرَفٍ آخَرَ، وهو الزَّوجُ، فيُفسَخُ نِكاحُها منه، ويُعَوَّضُ هو عمَّا أنفَقَ عليها، وإسقاطُ حَقِّه في النِّكاحِ، وإيجابُ حَقِّه في العِوَضِ قضايا حقوقيَّةٌ تتطَلَّبُ إثباتًا، بخِلافِ هِجرةِ الرِّجالِ. واللهُ تعالى أعلَمُ[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾، وذلك معلومٌ مِن غَيرِ شَكٍّ؟

**الجوابُ**: فائِدتُه بيانُ أنْ لا سَبيلَ إلى ما تَطمَئِنُّ به النَّفْسُ مِن الإحاطةِ بحَقيقةِ إيمانِهنَّ؛ فإنَّ ذلك ممَّا استأثَرَ به علَّامُ الغُيوبِ، وأنَّ ما يُؤدِّي إليه الامتحانُ مِن العِلمِ كافٍ في ذلك، وأنَّ تَكليفَكم لا يَعْدُوه[2].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ لم يُرِدْ حَقيقةَ العِلْمِ بضَمائِرِهنَّ واعتقادِهنَّ، وإنَّما أراد ما ظَهَر مِن إيمانِهنَّ بالقَولِ، وجَعَل ذلك عِلْمًا؛ فدَلَّ على أنَّه لا اعتبارَ بالضَّميرِ في أحكامِ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٧، ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٨)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٢).

الدُّنيا، وإنَّما الاعتبارُ بما يَظهَرُ مِنَ القَولِ[١]؛ فقَولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ يعني: بسرائِرهنَّ في إيمانِهنَّ، وهذا يدُلُّ على أنْ لم يُعْطَ أحَدٌ مِن بني آدَمَ أن يَحكُمَ على غيرِ ظاهِرٍ[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف سُمِّيَ الظَّنُّ عِلْمًا؟

**الجوابُ**: أنَّه مِن بابِ أنَّ الظَّنَّ الغالِبَ، وما يُفضي إليه الاجتِهادُ والقياسُ: جارٍ مَجرى العِلمِ، وأنَّ صاحِبَه غَيرُ داخِلٍ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌ﴾[٣] [الإسراء: ٣٦].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾. ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، ويُمكِنُ أن يكونَ في أحَدِ الجانِبَينِ دونَ الآخَرِ؟

**الجوابُ**: هذا باعتِبارِ الإيمانِ مِن جانِبِهنَّ ومِن جانِبِهم؛ إذ الإيمانُ مِن الجانِبَينِ شَرطٌ للحِلِّ، ولأنَّ الذِّكْرَ مِن الجانِبَينِ مُؤَكِّدٌ لارتفاعِ الحِلِّ، وفيه مِن الإفادةِ ما لا يكونُ في غَيرِه[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ تخصيصُ السُّنَّةِ بالكِتابِ، وهو قليلٌ؛ فإنَّ مِن الشُّروطِ الَّتي بيْن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُشرِكينَ في الحُديبيَةِ: أنَّ مَن جاء مِن المُشرِكينَ مُسلِمًا يُرَدُّ إليهم، وهذا الشَّرطُ عامٌّ يَشمَلُ الذَّكَرَ والأُنثى؛ فأنزَلَ اللهُ تعالى الآيةَ[٥]. وهذا على قولٍ.

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصاص (٢/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٥٢٢).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٥٠٥). ويُنظر أيضًا: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٣٠)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٩). =

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ أنَّ أنكِحةَ الكُفَّارِ لها حُكْمُ الصِّحَّةِ، لا يُحكَمُ عليها بالبُطلانِ[1].

١٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذا أوَّلُ دَليلٍ على أنَّ الَّذي أوجَبَ فُرقةَ المُسلِمةِ مِن زَوجِها الكافِرِ إسلامُها لا هِجرتُها[2]، .....

---

= قال البغوي: (واختلَف القولُ في أنَّ ردَّ مهرِ مَن أسلمَتْ مِن النِّساءِ إلى أزواجِهنَّ، كان واجبًا أو مندوبًا؟ وأصلُه أنَّ الصُّلحَ هل كان وقَع على ردِّ النِّساءِ؟ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّه وقَع على ردِّ الرِّجالِ والنِّساءِ جميعًا؛ لِما رُوِّينا: «أنَّه لا يَأتيك مِنَّا أحدٌ وإن كان على دينِك إلَّا ردَدْتَه إلينا»، ثمَّ صار الحُكمُ في ردِّ النِّساءِ منسوخًا بقولِه: ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾. فعلى هذا كان ردُّ المهرِ واجبًا.

والقولُ الآخَرُ: أنَّ الصُّلحَ لم يقَعْ على ردِّ النِّساءِ؛ لأنَّه يُروى: «على أنَّه لا يأتيك مِنَّا رجُلٌ وإن كان على دينِك إلَّا ردَدْتَه إلينا»؛ وذلك لأنَّ الرَّجُلَ لا يُخشى عليه مِن الفِتنةِ في الرَّدِّ ما يُخشى على المرأةِ مِن إصابةِ المشركِ إيَّاها، وأنَّه لا يُؤْمَنُ عليها الرِّدَّةُ إذا خُوِّفَتْ وأُكرِهَتْ عليها؛ لِضَعفِ قلبِها، وقلَّةِ هدايتِها إلى المَخرَجِ منها بإظهارِ كلمةِ الكفرِ مع التَّوريةِ وإضمارِ الإيمانِ، ولا يُخشى ذلك على الرَّجُلِ؛ لقوَّتِه وهِدايتِه إلى التَّقيَّةِ. فعلى هذا كان ردُّ المهرِ مندوبًا.

واختلَفوا في أنَّه هل يجبُ العملُ به اليومَ في ردِّ المالِ إذا شُرِط في مُعاقَدةِ الكفَّارِ؟

فقال قَومٌ: لا يجِبُ، وزعَموا أنَّ الآيةَ منسوخةٌ، وهو قولُ عَطاءٍ ومجاهِدٍ وقَتادةَ. وقال قومٌ: هي غيرُ منسوخةٍ، ويُرَدُّ إليهم ما أنفَقوا). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧٥).

وقال ابنُ القَيِّمِ: (الصَّحيحُ أنَّ الصُّلحَ كان عامًّا على رَدِّ مَن جاء مُسلِمًا مُطلَقًا ولم يكُنْ فيه تخصيصٌ، بل وقع بصيغةِ «مَنْ» المتناوِلةِ للرِّجالِ والنِّساءِ، ثمَّ أبطل اللهُ منه رَدَّ النِّساءِ، وعَوَّض منه رَدَّ مُهورِهنَّ، وهذه شُبهةُ مَن قال: إنَّ حُكمَ هذه الآيةِ مَنسوخٌ، ولم يُنسَخْ منه إلَّا رَدُّ النِّساءِ خاصَّةً، وكان ردُّ المهورِ مأمورًا به، والظَّاهِرُ أنَّه كان واجِبًا؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]؛ فثبَت أنَّ رَدَّ المهورِ حَقٌّ لِمن يَسألُه، فيَجِبُ رَدُّه إليه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١٦٦، ١٦٧).

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢٥).

ففيه تحريمُ المؤمِناتِ على الكافِرينَ[١]، وأنَّ الكافِرَ لا يَحِلُّ له نِكاحُ المُسلِمةِ بحالٍ، وأنَّ إسلامَها تحتَه يَفسَخُ النِّكاحَ؛ لأنَّه جَعَل عَدَمَ الإرجاعِ مُرَتَّبًا على الإيمانِ، لا على اختِلافِ الدَّارِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠).

قال ابنُ القَيِّمِ: (لا رَيْبَ أنَّ الإسلامَ لو كان بمُجَرَّدِه فُرقةً، لم تكُنْ فُرقةً رَجْعيَّةً، بل بائِنةٌ، فلا أَثَرَ للعِدَّةِ في بقاءِ النِّكاحِ، وإنَّما أَثرُها في مَنْعِ نكاحِها للغَيرِ، فلو كان الإسلامُ قد نَجَز الفُرقةَ بيْنَهما، لم يكُنْ أحَقَّ بها في العِدَّةِ، ولكِنَّ الَّذي دلَّ عليه حُكمُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ النِّكاحَ موقوفٌ، فإنْ أسلَمَ قبل انقِضاءِ عِدَّتِها فهي زوجُته، وإن انقَضَت عِدَّتُها فلها أن تَنكِحَ مَن شاءت، وإن أحَبَّت انتظَرَتْه، فإن أسلَمَ كانت زوجتَه مِن غَيرِ حاجةٍ إلى تجديدِ النِّكاحِ. ولا نعلَمُ أحدًا جَدَّدَ للإسلامِ نِكاحَه البتَّةَ، بل كان الواقعُ أحدَ أمْرَينِ: إمَّا افتراقُهما ونِكاحُها غيرَه، وإمَّا بقاؤُها عليه وإن تأخَّرَ إسلامُها أو إسلامُه. وأمَّا تنجيزُ الفُرقةِ أو مُراعاةُ العِدَّةِ، فلا نَعلَمُ أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قضى بواحدةٍ منهما مع كثرةِ مَن أسلَمَ في عَهْدِه مِن الرِّجالِ وأزواجِهنَّ، وقُربِ إسلامِ أحدِ الزَّوجينِ مِن الآخَرِ وبُعْدِه منه، ولولا إقرارُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الزَّوجَينِ على نكاحِهما وإن تأخَّرَ إسلامُ أحَدِهما عن الآخَرِ بَعْدَ صُلحِ الحُدَيبيَةِ وزَمَنِ الفَتْحِ، لَقُلْنا بتَعجيلِ الفُرقةِ بالإسلامِ مِن غيرِ اعتبارِ عِدَّةٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وقَولِه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠]، وأنَّ الإسلامَ سَبَّب الفُرقةَ، وكُلُّ ما كان سببًا للفُرقةِ تَعْقُبُه الفُرقةُ، كالرَّضاعِ، والخُلْعِ، والطَّلاقِ، وهذا اختيارُ الخَلَّالِ، وأبي بكرٍ صاحِبِه، وابنِ المنذِرِ، وابنِ حَزمٍ، وهو مَذهَبُ الحسَنِ، وطاووسٍ، وعِكْرِمةَ، وقَتادةَ، والحَكَمِ)). ((زاد المعاد)) (٥/ ١٢٥، ١٢٦).

وقال أيضًا: (إذا أسلَمَت المرأةُ أوَّلًا فلها أن تَتربَّصَ بإسلامِ زَوْجِها، أيَّ وَقتٍ أسلَمَ فهي امرأتُه، وإذا أسلم الرَّجُلُ فليس له أن يحبِسَ المرأةَ على نَفْسِه، ويُمسِكَ بعِصْمَتِها، فلا يُكرِهْها على الإسلامِ، ولا يحبِسْها على نَفْسِه، فلا يَظلِمْها في الدِّينِ ولا في النِّكاحِ، بل إن اختارت هي أن تتربَّصَ بإسلامِه تربَّصَت، طالت المدَّةُ أو قَصُرت، وإن اختارت أن تتزوَّجَ غَيْرَه بَعْدَ انقضاءِ عِدَّتِها فلها ذلك، والعِدَّةُ هاهنا لحِفظِ ماءِ الزَّوجِ الأوَّلِ، وأيُّهما أسلَمَ في العِدَّةِ أو بَعْدَها فالنِّكاحُ بحالِه، إلَّا أن يختارَ الرَّجُلُ الطَّلاقَ، فيُطَلِّقُ، كما طَلَّق عُمَرُ رَضِيَ الله عنه امرأتينِ له مُشرِكتينِ لَمَّا أنزل اللهُ تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، أو تختارَ المرأةُ أن تُزَوَّجَ بعدَ استبرائِها فلها ذلك، =

١٣- قَولُه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ يدُلُّ على أنَّ الفُرقةَ إذا جاءت بسَبَبٍ مِن جِهةِ الزَّوجةِ أنَّ عليها ردَّ ما أنفَقَ الزَّوجُ عليها(١).

١٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ استَدَلَّ به من أوجَبَ رَدَّ مَهرِ المِثْلِ إلى زَوجِها(٢).

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ أنَّ خروجَ البُضْعِ مُتَقَوَّمٌ؛ حيثُ أَمَرَ سُبحانَه بردِّ المَهرِ عِوَضًا عن ردِّ المرأةِ، فذلك قولُه تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾، فأَمَرَ أنْ يُؤتَى الأزواجُ ما أَنفَقوا على المرأةِ المُمتحَنةِ الَّتي لا تُرَدُّ، والَّذي أَنفَقوا هو المسَمَّى ﴿وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ﴾، فشَرَعَ للمؤمِنينَ أنْ يَسألوا الكُفَّارَ ما أَنفَقوا على النِّسوةِ اللَّاتي ارتَدَدْنَ إليهم، وأنْ يَسألَ الكُفَّارُ ما أَنفَقوا على النِّساءِ المهاجراتِ، فلمَّا حَكَمَ اللهُ سُبحانَه وتعالى بذلك دلَّ على أنَّ خروجَ البُضْعِ مُتَقَوَّمٌ، وأنَّه بالمَهرِ المُسَمَّى، ودَلَّتِ الآيةُ على أنَّ المرأةَ إذا أَفسدَتْ نكاحَها رَجَعَ عليها زوجُها بالمَهرِ(٣).

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ المرادُ

---

= وأيضًا فإنَّ في هذا تنفيرًا عن الإسلامِ؛ فإنَّ المرأةَ إذا عَلِمَت أو الزَّوجَ أنَّه بمجَرَّدِ الإسلامِ يَزولُ النِّكاحُ، ويفارِقُ مَن يحِبُّ، ولم يَبْقَ له عليها سبيلٌ إلَّا برضاها ورضا وَلِيِّها، ومَهْرٍ جديدٍ؛ نَفَر عن الدُّخولِ في الإسلامِ، بخِلافِ ما إذا عَلِمَ كلٌّ منهما أنَّه متى أسلم فالنِّكاحُ بحالِه، ولا فِراقَ بيْنَهما إلَّا أن يختارَ هو المفارَقةَ، كان في ذلك مِن التَّرغيبِ في الإسلامِ ومحَبَّتِه ما هو أدعى إلى الدُّخولِ فيه). ((أحكام أهل الذمة)) (٢/ ٦٩٤).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٥٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

بالأُجورِ هنا الصَّدَاقُ، وسمَّاه اللهُ أجرًا؛ لأنَّه عِوَضٌ عنِ استمتاعِ الرَّجُلِ بالمرأةِ، فكأنَّه عِوَضٌ في الإجارةِ(١).

١٧- قال تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ للتَّنبيهِ على خُصوصِ قولِه: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ ما دُفِعَ للزَّوجِ السَّابقِ مُسقِطٌ استِحقاقَ المرأةِ المهرَ ممَّن يَرُومُ تَزويجَها، ومَعلومٌ أنَّ نِكاحَها بعْدَ استبرائِها بثلاثةِ أقراءٍ(٢).

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّ النِّكاحَ بغيرِ صَداقٍ غيرُ جائزٍ؛ لأنَّ اللهَ تبارك وتعالى أباح النِّكاحَ في هذه الأمكِنةِ مَقرونًا بإيتاءِ الأُجورِ، وابتغائِه بالمالِ، وليس إفرادُ ذِكْرِه في أماكِنَ بمؤَثِّرٍ -واللهُ أعلمُ- في المواضِعِ المقرونةِ بما ذَكَرْنا، بلِ المفسَّرُ أَحرى أنْ يَحْكُمَ على المُجمَلِ(٣).

١٩- قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ إذا نهَى عن الإمساكِ بعِصمتِها، فالنَّهيُ عن ابتداءِ تَزويجِها أَولى(٤).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ أنَّه لا يَحِلُّ لمسلمٍ وَطْءُ كافرةٍ إلَّا الكتابيَّةَ المُستثناةَ له بقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾(٥) [المائدة: ٥].

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٩).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ يعني: إذا أسلَمْنَ وانقضَتْ عدَّتُهنَّ؛ لِما ثبت مِن تحريمِ نكاحِ المشركةِ والمعتَدَّةِ. فإن أسلمَتْ قبْلَ الدُّخولِ ثبَتَ النِّكاحُ في الحالِ، ولها التَّزوُّجُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٧٤).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أنَّه ما مِن حُكْمٍ مِن أحكامِ الشَّريعةِ إلَّا وله حِكمةٌ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، لكنْ قد تَظهَرُ لنا بالنَّصِّ أو بالإجماعِ أو بالاستِنباطِ، وقد لا تَظهَرُ؛ وذلك لقُصورِنا، أو لِتَقصيرِنا في طَلَبِ الحِكمةِ[1].

٢٢- إنَّ حُكْمَ اللهِ نوعانِ: حكمٌ كَونيٌّ، كقَولِه: ﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحۡكُم بِٱلۡحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]، أي: افعَلْ ما تَنْصُرُ به عبادَك، وتخذُلُ به أعداءَك. وحكمٌ دينيٌّ، كقَولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾، وقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقد يَرِدُ بالمعنيَينِ معًا، كقَولِه: ﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾ [الكهف: ٢٦]، فهذا يتناولُ حُكْمَه الكونيَّ وحُكْمَه الشَّرعيَّ[2].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ فَعَاقَبۡتُمۡ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتۡ أَزۡوَٰجُهُم مِّثۡلَ مَآ أَنفَقُواْۚ﴾ أنَّ الضَّمانَ بيْنَ الطَّوائفِ المُقتَتِلةِ مِن المسلِمينَ يَقَعُ على مجموعِ الطَّائفةِ، يَستوي فيه الرِّدْءُ والمباشِرُ، لا يقالُ: انظُروا مَن قَتَل صاحِبَكم هذا فطالِبوه بدِيَتِه، بل يقالُ: دِيَتُه عليكم كلِّكم؛ فإنَّكم جميعًا قتَلْتُموه؛ لأنَّ المباشِرَ إنَّما تَمَكَّنَ بمعاونةِ الرِّدْءِ له.

ووجهُ الدَّلالةِ: أنَّ أولئك الكُفَّارَ كان عليهم مِثلُ صَداقِ هذه المرأةِ الَّتي ذَهبتْ إليهم، فإذا لم يُؤَدُّوه أُخِذَ مِن أموالِهم الَّتي يَقدِرُ المسلِمونَ عليها، مِثلُ امرأةٍ جاءتْ منهم يَستحِقُّونَ صَداقَها، فيُعطَى المسلمُ زَوْجُ تلك المرتَدَّةِ صَداقَها مِن صَداقِ هذه المُسلِمةِ المهاجرةِ الَّذي يَستَحِقُّه الكُفَّارُ؛ لكَونِها أَسْلَمَتْ وهاجَرتْ، وفَوَّتَتْ زوجَها بُضْعَها، كما فَوَّتَتْ المرتَدَّةُ بُضْعَها لزَوجِها، وإنْ كان

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٦/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٠).

زوجُ المهاجرةِ ليس هو الَّذي تزوَّجَ بالمرتَدَّةِ؛ لأنَّ الطَّائفةَ لَمَّا كانت ممتَنِعةً؛ يَمنَعُ بعضُها بعضًا، صارتْ كالشَّخصِ الواحِدِ(١).

٢٤- قال تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ...﴾ أشارت الآيةُ إلى نِسوةٍ مِن نِساءِ المهاجِرينَ لم يُسْلِمْنَ(٢).

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ الإيمانَ باللهِ عزَّ وجلَّ مُستَلزِمٌ لِتَقواه، فِلإيمانكم يَلْزَمُكم التَّقوى، فمَن قال: إنَه مُؤمِنٌ ولكنْ لم يَتَّقِ اللهَ، فهو إمَّا فاقدٌ للإيمانِ بالكُلِّيَّةِ، وإمَّا ناقِصُ الإيمانِ(٣).

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ بيانٌ لحُكْمِ مَن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٣).

قال ابن عاشور: (وهُنَّ ثماني نِساءٍ: أمُّ الحَكَمِ بنتُ أبي سفيانَ كانت تحتَ عِياضِ بنِ شَدَّادٍ، وفاطِمةُ بنتُ أبي أُمَيَّةَ -ويُقالُ: قُرَيبةُ، وهي أُختُ أمِّ سَلَمةَ- كانت تحتَ عُمرَ بنِ الخَطَّابِ، وأمُّ كُلثومٍ بنتُ جَرْوَل كانت تحتَ عُمَرَ، وبَرْوَعُ -بفتح الباءِ على الأصَحِّ، والمحَدِّثون يَكسِرونَه- بنتُ عُقبةَ كانت تحتَ شَمَّاسِ بنِ عُثمانَ، وشَهبةُ بنتُ غَيْلانَ، وعَبدةُ بنتُ عبدِ العُزَّى كانت تحتَ هِشامِ بنِ العاصِ، وقيل: تحت عَمرِو بنِ عَبدٍ، وهِندُ بنتُ أبي جهلٍ كانت تحتَ هِشامِ ابنِ العاصِ، وأَرْوى بنتُ رَبيعةَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ كانت تحتَ طلحةَ بنِ عُبَيدِ اللهِ). ((المصدر السابق)). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٨٤)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٠٧).

يُظهِرُ الإيمانَ بعْدَ بَيانِ حُكمِ فَريقَي الكافرينَ[١].

- وجُملةُ ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ﴾ مُعترِضةٌ، أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ سَرائرَهنَّ، ولكنْ عليكم أنْ تَختبِروا ذلك بما تَسْتطيعون مِن الدَّلائلِ؛ ولذلك فُرِّعَ على ما قبْلَ الاعتِراضِ قولُه: ﴿فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ ...﴾ إلخ، أي: إنْ حَصَل لكم العِلمُ بأنَّهنَّ مُؤمناتٌ غيرُ كاذباتٍ في دَعواهنَّ[٢].

- ومَوقعُ قولِه: ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ مَوقعُ البيانِ والتَّفصيلِ للنَّهيِ في قولِه: ﴿فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾؛ تَحقيقًا لوُجوبِ التَّفرقةِ بيْن المرأةِ المؤمنةِ وزَوجِها الكافرِ[٣]. أو تَعليلٌ للنَّهيِ عن رَجْعِهنَّ إلى الكفَّارِ[٤].

- فإنْ قِيل: ما وجْهُ الإتيانِ بالجُملتينِ ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، ووَجْه التَّعاكُسِ في تَرتيبِ أجْزائِهما؟

**فالجوابُ**: أنَّ رُجوعَ المرأةِ المؤمنةِ إلى الزَّوجِ الكافرِ يقَعُ على صُورتَينِ؛ إحداهما: أنْ تَرجِعَ المرأةُ المؤمنةُ إلى زَوجِها في بِلادِ الكفْرِ، وذلك هو ما ألحَّ الكفَّارُ في طَلَبِه لمَّا جاءت بَعضُ المؤمناتِ مُهاجِراتٍ. والثَّانيةُ: أنْ تَرجِعَ إلى زَوجِها في بلادِ الإسلامِ؛ بأنْ يُخلَّى بيْنها وبيْن زَوجِها الكافرِ يُقيمُ معها في بِلادِ الإسلامِ إذا جاء يَطلُبُها ومُنِعَ مِن تَسلُّمِها.

وكِلْتا الصُّورتينِ غيرُ حلالٍ للمرأةِ المسلمةِ، فلا يُجيزُها وُلاةُ الأمورِ، وقد عُبِّرَ عن الصُّورةِ الأُولى بجُملةِ ﴿لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ﴾؛ إذ جُعِلَ فيها وصْفُ ﴿حِلّٞ﴾ خبَرًا عن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩).

ضَميرِ النِّساءِ، وأُدخِلَت اللَّامُ على ضَميرِ الرِّجالِ، وهي لامُ تَعديةِ الحِلِّ، وأصْلُها لامُ المِلْكِ، فأفاد ألَّا يَملِكَ الرِّجالُ الكفَّارُ عِصمةَ أزواجِهم المؤمناتِ، وذلك يَستلزِمُ أنَّ بَقاءَ النِّساءِ المؤمناتِ في عِصمةِ أزواجِهنَّ الكافرينَ غيرُ حَلالٍ، أي: لم يُحْلِلْهنَّ الإسلامُ لهم. وقدَّم ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾؛ لأنَّه راجعٌ إلى الصُّورةِ الأكثرِ أهمِّيَّةً عندَ المشركينَ؛ إذ كانوا يَسألون إرجاعَ النِّساءِ إليهم، ويُرسِلونَ الوسائطَ في ذلك بقَصْدِ الرَّدِّ عليهم بهذا. وجِيءَ في الجُملةِ الأُولَى بالصِّفةِ المُشبَّهةِ -وهي ﴿حِلٌّ﴾- المُفيدةِ لثُبوتِ الوصْفِ؛ إذ كان الرِّجالُ الكافِرونَ يظُنُّونَ أنَّ العِصمةَ الَّتي لهم على أزواجِهم المؤمناتِ مُثبِتةٌ أنَّهم حِلٌّ لهم. وعُبِّرَ عن الثَّانيةِ بجُملةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، فعُكِسَ الإخبارُ بالحلِّ؛ إذ جُعِل خبَرًا عن ضَميرِ الرِّجالِ، وعُدِّيَ الفعلُ إلى المُحلَّلِ باللَّامِ داخلةً على ضَميرِ النِّساءِ، فأفاد أنَّهم لا يحِلُّ لهنَّ أزواجُهنَّ الكافِرون ولو بقِيَ الزَّوجُ في بلادِ الإسلامِ؛ ولهذا ذُكِرَت الجُملةُ الثَّانيةُ ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ كالتَّتِمَّةِ لحكْمِ الجُملةِ الأُولى، وجِيءَ في الجُملةِ الثَّانيةِ بالمُسنَدِ فِعلًا مُضارعًا لدَلالتِه على التَّجدُّدِ؛ لإفادةِ نفْيِ الطَّماعيةِ في التَّحليلِ، ولو بتَجدُّدِه في الحالِ بعقْدٍ جديدٍ أو اتِّفاقٍ جديدٍ على البقاءِ في دارِ الإسلامِ[1].

ويَجوزُ في الآيةِ وجْهٌ آخَرُ؛ وهو أنْ يكونَ المرادُ تأْكيدَ نفْيِ الحالِ؛ فبَعْدَ أنْ قال: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ -وهو الأصلُ- أكَّدَ بجُملةِ ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، أي: إنَّ انتفاءَ الحلِّ حاصلٌ مِن كلِّ جِهةٍ، كما يُقالُ: لَسْتُ منك ولستَ منِّي، ونظيرُه قولُه تَعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ في سُورةِ البقرةِ [١٨٧]؛ تأْكيدًا لشِدَّةِ التَّلبُّسِ والاتِّصالِ مِن كلِّ جِهةٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٧، ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٨).

وقيل: جاء قولُه: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ على سَبيلِ التَّأكيدِ وتَشديدِ الحُرمةِ؛ لأنَّه إذا لم تَحِلَّ المؤمنةُ للكافرِ، عُلِمَ أنَّه لا حِلَّ بيْنَهما ألبتَّةَ. وقِيل: أفاد قولُه: ﴿وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ استمرارَ الحُكمِ بيْنَهم فيما يُستقبَلُ، كما هو في الحالِ ما داموا على الإشراكِ وهنَّ على الإيمانِ. أو لأنَّ الأوَّلَ لبَيانِ زوالِ النِّكاحِ الأوَّلِ، والثَّانيَ لبَيانِ امتِناعِ النِّكاحِ الجديدِ(١).

- والمرادُ بـ ﴿مَّآ أَنفَقُواْ﴾ ما أعْطَوه مِن المُهورِ، والعُدولُ عن إطلاقِ اسمِ المُهورِ والأجورِ على ما دَفَعَه المشركون لنِسائِهم اللَّائي أسْلَمْنَ مِن لَطائفِ القرآنِ؛ لأنَّ أولئك النِّساءَ أصبَحْنَ غيرَ زَوجاتٍ، فأُلغِيَ إطلاقُ اسمِ المهورِ على ما يُدفَعُ لهم، وقد سمَّى اللهُ بعْدَ ذلك ما يُعطِيه المسلمون لهنَّ أُجورًا بقولِه تَعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾(٢).

- قولُه: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ عطْفٌ على قولِه: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾، وهو تتْميمٌ لحُكْمِه، أي: كما تُعْطونَهم مُهورَ أزواجِهم اللَّائي فرَرْنَ منهم مُسلِماتٍ، فكذلك إذا فرَّتْ إليهم امرأةٌ مسلمٍ كافرةً ولا قُدْرةَ لكم على إرجاعِها إليكم؛ تَسْألون المشركين إرجاعَ مَهْرِها إلى زَوجِها المسلمِ الَّذي فرَّت منه، وهذا إنصافٌ بيْن الفريقَينِ(٣).

- وقولُه: ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ تَكملةٌ لقولِه: ﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾؛ لإفادةِ أنَّ معْنى واوِ العَطْفِ هنا على المَعيَّةِ بالقرينةِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ لو

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٨، ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٦٠).

أُرِيدَ حُكْمُه بمُفرَدِه لَكان مُغْنِيًا عنه قولُه: ﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾، فلمَّا كُرِّرَ عَقِبَ قولِه: ﴿وَسَـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ عَلِمْنا أنَّ المرادَ جمْعُ مَضمونِ الجُملتينِ، أي: إذا أعْطَوا ما عليهم أَعْطُوهم ما عليكم، وإلَّا فلا؛ فالواوُ مُفيدةٌ معْنى المعيَّةِ هنا بالقرينةِ[١]. وقيل: أعاده توكيدًا؛ لئلَّا يُتهاوَنَ به مِن حيث إنَّهم مُشركون؛ ولذلك أمَرَهم بالسُّؤالِ؛ فإنَّه حقٌّ مِن حُقوقِهم[٢].

- وقولُه: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ، أو حالٌ مِن لفْظِ الجلالةِ، أو حالٌ مِن ﴿حُكْمُ ٱللَّهِ﴾ على حذْفِ الضَّميرِ، أي: يَحكُمُه اللهُ، أو جُعِلَ الحكْمُ حاكمًا على المُبالَغةِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ تَذييلٌ يُشيرُ إلى أنَّ هذا حُكْمٌ يَقتضيهِ عِلمُ اللهِ بحاجاتِ عِبادِه، وتَقتضيهِ حِكمتُه؛ إذْ أعْطى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾

- فائدةُ إيقاعِ ﴿شَيْءٌ﴾ في هذا الموضعِ التَّحقيرُ، والمُبالَغةُ في التَّعميمِ، أي: لا يُغادَرُ شَيءٌ مِن هذا الجنسِ، وإنْ قلَّ وحقُرَ، غيرُ مُعوَّضٍ منه؛ تَغليظًا في هذا الحُكمِ، وتَشديدًا فيه[٥]. وقيل: لفظُ ﴿شَيْءٌ﴾ هنا مُرادٌ به: بعضٌ ﴿مِّنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠).

أَزْوَٰجِكُمْ﴾ بيانٌ لـ ﴿شَيْءٌ﴾، وأُريدَ بـ ﴿شَيْءٌ﴾ تحقيرُ الزَّوْجاتِ اللَّائي أَبَيْنَ الإسلامَ؛ فإنَّ المرادَ قد فاتتْ ذاتُها عن زَوجِها، فلا انتِفاعَ له بها[١].

- والكلامُ إيجازُ حذْفٍ شَديدٍ دلَّ عليه مَجموعُ الألْفاظِ ومَوضِعُ الكلامِ عَقِبَ قولِه تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾، والمعْنى: إنْ فرَّتْ بَعضُ أزواجِكم، ولَحِقَت بالكُفَّارِ، وحصَلَ التَّعاقُبُ بيْنَكم وبيْنَ الكُفَّارِ، فعقَّبْتُم على أزواجِ الكُفَّارِ، وعقَّبَ الكُفَّارُ على أزواجِكم -وذلك على قولٍ-، وأبى الكُفَّارُ مِن دفْعِ مُهورِ بَعضِ النِّساءِ اللَّائي ذَهَبْنَ إليهم؛ فادْفَعوا أنتُم لِمَن حَرَمَه الكُفَّارُ مَهْرَ امرأتِه -أي: ما هو حقُّه- واحْجُزوا ذلك عن الكُفَّارِ[٢].

- وقولُه: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾، أي: جاءت عُقْبَتُكم، أي: نَوبتُكم مِن أداءِ المَهرِ، شبَّهَ الحُكْمَ بأداءِ هؤلاء مُهورَ نِساءِ أولئك تارةً، وأداءِ أولئك مُهورَ نِساءِ هؤلاء أُخرى؛ بأمْرٍ يَتعاقَبون فيه كما يُتعاقَبُ في الرُّكوبِ وغيرِه[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والتَّذييلُ بقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ تَحريضٌ للمُسلِمينَ على الوفاءِ بما أمَرَهم اللهُ، وألَّا يَصُدَّهم عن الوفاءِ ببَعضِه مُعامَلةُ المشركين لهم بالجَورِ وقِلَّةِ الإنصافِ، فأمَرَ بأنْ يُؤدِّيَ المسلِمونَ لإخوانِهم مُهورَ النِّساءِ اللَّائي فارَقُوهنَّ ولم يَرْضَ المُشركونَ بإعطائِهم مُهورَهنَّ؛ ولذلك أُتبِعَ اسمُ الجلالةِ بوصْفِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الإيمانَ يَبعَثُ على التَّقوى،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٥٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٣).

والمشركون لَمَّا لم يُؤمِنوا بما أَمَرَ اللهُ انْتَفى منهم وازِعُ الإنصافِ، أي: فلا تَكونوا مِثلَهم، والجُملةُ الاسميَّةُ في الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ﴾ للدَّلالةِ على ثَباتِ إيمانِهم[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٤).

## الآيتان (١٢-١٣)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُبَايِعۡنَكَ﴾: البَيعةُ والمُبايَعةُ: العهدُ على الطَّاعةِ والنُّصْرةِ، وما يأخُذُه الإمامُ على رعيَّتِه مِن المَواثيقِ بالسَّمعِ والطَّاعةِ. يُقالُ: بايَعَ السُّلطانَ: إذا تضمَّنَ بَذْلَ الطَّاعةِ بما رضَخ له، والبَيعُ والمُبايَعةُ مأخوذانِ مِن مَدِّ الباعِ؛ لأنَّ المُتبايِعَينِ للسِّلعةِ كلٌّ منهما يمُدُّ باعَه للآخَرِ ويُعاقِدُه عليها، وكذلك مَن بايَع الإمامَ ونحوَه فإنَّه يمُدُّ باعَه إليه ويُعاهِدُه ويُعاقِدُه على ما يُبايِعُه عليه، وقيل: المُبايَعةُ مُفاعَلةٌ مِن البَيعِ؛ لأنَّ صاحِبَها باع نفْسَه لله[1].

﴿بِبُهۡتَٰنٖ﴾: أي: افتِراءٍ وكَذِبٍ يَبهَتُ سامِعَه لِفَظاعَتِه، يُقالُ: بَهَت فُلانٌ فُلانًا: إذا كَذَب عليه، وأصلُه مِن قولِهم: بُهِت الرَّجُلُ: إذا تحيَّرَ؛ فالبُهتانُ كَذِبٌ يُحيِّرُ الإنسانَ لعِظَمِه، ثمَّ جُعِل كلُّ باطلٍ يُتحيَّرُ مِن بطلانِه بُهتانًا، وكانت المرأةُ تلتَقِطُ الوَلَدَ فتَقولُ لزَوجِها: هذا وَلَدي منك، فذلك البُهتانُ المُفتَرَى هنا[2].

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ١٢٩)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٢٤٨)، ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ض: ١٤٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠١).

﴿يَفْتَرِينَهُۥ﴾: أي: يَتعَمَّدْنَ كَذِبَه، يُقالُ: افتَرَى فُلانٌ على فُلانٍ: إذا قذَفَه بما ليس فيه، والافتِراءُ: اختِلاقُ الكَذِبِ، وأصلُه: مِنْ فَرْيِ الجِلْدِ، أي: قَطْعِه، فقِيلَ للكَذِبِ: افتِراءٌ؛ لأنَّ الكاذِبَ يَقطَعُ به على التَّقديرِ مِن غيرِ تحقيقٍ(١).

## المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بمبايعةِ المؤمناتِ، ويُبيِّنُ ما تمَّت عليه المبايعةُ، فيقولُ: يا أيُّها النَّبيُّ إذا جاءك المؤمِناتُ يُبايِعْنَك على ألَّا يَعبُدْنَ أحَدًا غيرَ اللهِ تعالى، ولا يَسرِقْنَ، ولا يَزنِينَ، ولا يَقتُلْنَ أولادَهنَّ خَوفًا مِنَ الفَقرِ أو غَيرِه، ولا يُلْحِقْنَ بأزواجِهنَّ أولادًا مِن غَيرِهم، ولا يَعصِينَك -يا محمَّدُ- فيما تأمُرُهنَّ به مِن طاعةِ اللهِ، وتَرْكِ مَعصيتِه؛ فبايِعْهنَّ على الوَفاءِ بتلك الشُّروطِ، واطلُبْ لهنَّ مِنَ اللهِ المغفرةَ؛ إنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

ثمَّ يَنهَى الله تعالى في خاتمةِ هذه السُّورةِ عن موالاةِ الكافرينَ، كما نهَى عنها في أوَّلِها، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَتوَلَّوُا الكافِرينَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم لكُفرِهم، وقد يَئِسوا مِن ثوابِ اللهِ ورَحمتِه في الآخِرةِ كما يَئِسَ الكُفَّارُ الموتَى في القُبورِ مِن ثوابِ الله ورحمتِه.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

هذه الآيةُ تَكملةٌ لامتحانِ النِّساءِ المُتقدِّمِ ذِكرُه في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّ﴾ الآيةَ [الممتحنة: ١٠]، وبَيانٌ لتَفصيلِ آثارِه؛ فكأنَّه يقولُ: فإنْ عَلِمْتُموهنَّ مُؤمناتٍ فلا تَرجِعوهنَّ إلى الكُفَّارِ، وبيِّنوا لهنَّ شرائعَ الإسلامِ(١).

وأيضًا لَمَّا خاطَبَ اللهُ سُبحانَه المؤمِنينَ الَّذين لهم موضِعُ الذَّبِّ والحمايةِ والنُّصرةِ بما وطَّن به المؤمِناتِ في دارِ الهِجْرةِ، فوَقَع الامتحانُ وعُرِفَ الإيمانُ- أمَرَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ الحُكمِ بإيمانِهنَّ بمُبايعَتِهنَّ(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ إذا جاءك المؤمِناتُ يُبايِعْنَك على ألَّا يَعبُدْنَ أحَدًا غَيرَ اللهِ تعالى(٣).

عن أُمَيْمةَ بِنتِ رُقَيْقةَ التَّيْميَّةِ، قالت: ((أتَيْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في نِسوةٍ مِن المُسلِمينَ لِنُبايِعَه، فقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، جِئْنا لِنُبايعَك على ألَّا نُشرِكَ باللهِ شَيئًا، ولا نَسرِقَ، ولا نَزنيَ، ولا نَقتُلَ أولادَنا، ولا نأتيَ ببُهتانٍ نَفتريه بيْنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٧).

قال ابنُ عطيَّةَ: (سَمَّاهنَّ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ﴾ بحَسَبِ الظَّاهِرِ مِن أمْرِهنَّ، ورفضُ الإشراكِ هو محضُ الإيمانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩).

وقال الألوسي: (المبايعةُ وَقَعت غيرَ مَرَّةٍ؛ وقَعَت في مكَّةَ بعدَ الفَتحِ، وفي المدينةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٧٤).

أيدِينا وأرجُلِنا، ولا نَعصيَك في مَعروفٍ. فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: فيما استطَعْتُنَّ وأطَقْتُنَّ. قالت: قُلْنا: اللهُ ورَسولُه أرحَمُ بنا مِن أنفُسِنا، بايِعْنا يا رَسولَ اللهِ. قال: اذهَبْنَ؛ فقد بايَعْتُكنَّ، إنَّما قولي لِمِئَةِ امرأةٍ كقَولي لامرأةٍ واحِدةٍ. قالت: ولم يُصافِحْ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَّا امرأةً))[١].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((شَهِدتُ الصَّلاةَ يومَ الفِطرِ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأبي بكرٍ، وعُمَرَ، وعُثمانَ، فكُلُّهم يُصَلِّيها قبْلَ الخُطبةِ، ثمَّ يَخطُبُ بَعْدُ، فنَزَل نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكأنِّي أنظُرُ إليه حينَ يُجلِّسُ الرِّجالَ بيَدِه[٢]، ثمَّ أقبَلَ يَشُقُّهم، حتَّى أتَى النِّساءَ معَ بلالٍ، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ حتَّى فَرَغ من الآيةِ كُلِّها، ثمَّ قال حينَ فَرَغ: أنتُنَّ على ذلك؟ فقالت امرأةٌ واحدةٌ لم يُجِبْه غَيرُها: نَعَمْ يا رَسولَ اللهِ. قال: فتَصَدَّقْنَ، وبَسَطَ بِلالٌ ثَوبَه، فجَعَلْنَ يُلقِينَ الفَتَخَ[٣] والخواتيمَ في ثَوبِ بِلالٍ))[٤].

---

(١) أخرجه من طُرُقٍ: الترمذيُّ (١٥٩٧)، وابنُ ماجه (٢٨٧٤) مختصرًا، والنَّسائيُّ (٤١٨١)، وأحمدُ (٢٧٠٠٧) واللَّفظُ له.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٤٥٥٣)، وابنُ القطَّانِ في ((الوهم والإيهام)) (٥/ ٥١٦)، وابنُ حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (١/ ٥٢٧)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٤١٨١)، وصَحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسيره)) (٨/ ١٢٢)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٤/ ٥٥٨).

قال ابنُ عطيَّة: (الإجماعُ على أنَّه لم تَمَسَّ يَدُه يَدَ امرأةٍ أجنبيَّةٍ قَطُّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩).

(٢) أي: يأمُرُهم بالجلوسِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٧٢).

(٣) الفَتَخُ: خَواتيمُ كِبارٌ تُلبَسُ في الأيدي، ورُبَّما وُضِعَت في أصابِعِ الأرْجُلِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٠٨).

(٤) رواه البخاري (٤٨٩٥) واللَّفظُ له، ومسلم (٨٨٤).

وعن عُبادةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال لنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ونحن في مجلِسٍ: ((تُبايِعوني على ألَّا تُشرِكوا باللهِ شَيئًا، ولا تَسرِقوا، ولا تَزنُوا، ولا تَقتُلوا أولادَكم، ولا تأتوا ببُهتانٍ تَفتَرونَه بيْن أيديكم وأرجُلِكم، ولا تَعصُوا في معروفٍ، فمَنْ وفَى منكم فأجْرُه على اللهِ، ومَن أصاب مِن ذلك شيئًا فعُوقِبَ في الدُّنيا فهو كفَّارةٌ له، ومَن أصاب مِن ذلك شيئًا فستَرَه اللهُ فأمْرُه إلى اللهِ؛ إن شاء عاقَبَه، وإن شاء عفا عنه. فبايَعْناه على ذلك))[١].

﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾.

أي: ولا يأخُذْنَ مالَ أحدٍ خُفيةً بغَيرِ استِحقاقٍ[٢].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((دخَلَتْ هِندُ بِنتُ عُتبةَ امرأةُ أبي سُفيانَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقالت: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ أبا سُفيانَ رَجُلٌ شَحيحٌ لا يُعطيني مِنَ النَّفَقةِ ما يَكفيني ويَكفي بَنيَّ إلَّا ما أخذْتُ مِن مالِه بغيرِ عِلْمِه، فهل علَيَّ في ذلك مِن جُناحٍ؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: خُذي مِن مالِه بالمعروفِ ما يكفيكِ ويكفي بَنِيكِ))[٣].

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾.

أي: ولا يقَعْنَ في الزِّنا بتَمكينِ أحَدٍ مِن وَطْئِهنَّ بغَيرِ عَقدٍ صَحيحٍ[٤].

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

---

(١) رواه البخاري (٧٢١٣) واللَّفظُ له، ومسلم (١٧٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٢).

(٣) رواه البخاريُّ (٥٣٦٤)، ومسلمٌ (١٧١٤) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾.

أي: ولا يَقتُلْنَ أبناءَهنَّ وبَناتِهنَّ خَوفًا مِنَ الفَقرِ أو غَيرِه(١).

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾.

أي: ولا يُلْحِقْنَ بأزواجِهنَّ أولادًا مِن غَيرِهم(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٧٠).

قال ابنُ كثير: (هذا يَشملُ قَتْلَه بعدَ وُجودِه، كما كان أهلُ الجاهليَّةِ يَقتُلونَ أولادَهم خَشيةَ الإملاقِ، ويَعُمُّ قَتْلَه وهو جنينٌ، كما قد يفعَلُه بعضُ الجَهَلةِ مِن النِّساءِ، تَطرَحُ نَفْسَها لئلَّا تَحبَلَ؛ إمَّا لغَرَضٍ فاسِدٍ، أو ما أشبَهَه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، والبِقاعي، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٤١).

قال القرطبي: (هذا عامٌّ في الإتيانِ بولدٍ وإلحاقِه بالزَّوجِ وإن سبَق النَّهيُ عن الزِّنا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٢).

وقال ابنُ عطية: (الإتيانُ بالبُهتانِ: قال أكثَرُ المفسِّرينَ: معناه أن تَنسُبَ إلى زَوجِها ولَدًا ليس هو له، واللَّفظُ أعَمُّ من هذا التَّخصيصِ؛ فإنَّ الفِريةَ بالقَولِ على أحدٍ مِن النَّاسِ بعظيمةٍ لَمِنْ هذا، وإنَّ الكَذِبَ فيما اؤتُمِنَّ فيه مِن الحَملِ والحَيضِ لَفِريةٌ وبُهتانٌ، وبَعضٌ أقوى مِن بعضٍ، وذلك أنَّ بَعضَ النَّاسِ قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾: يُرادُ به اللِّسانُ والفَمُ؛ في الكَلامِ والقُبلةِ ونَحوِه، وبيْنَ الأرجُلِ: يُرادُ به الفُروجُ، وولَدُ الإلحاقِ، ونحوُه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٤).

وقال الواحدي: (﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ وذلك أنَّ المولودَ إذا وضَعَتْه الأمُّ، سقَط بيْن =

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾.

أي: ولا يَعصِينَك -يا محمَّدُ- فيما تأمُرُهنَّ به مِن طاعةِ اللهِ، وتَرْكِ مَعصيتِه؛ كأمْرِك لهنَّ بتَركِ النِّياحةِ وشَقِّ الجُيوبِ والتَّبرُّجِ ووَصلِ الشَّعرِ والخَلوةِ بالرِّجالِ الأجانِبِ، وغَيرِ ذلك[1].

قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وعن أمِّ عَطيَّةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((أخَذَ علينا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ البَيعةِ ألَّا نَنُوحَ))[2].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((ليس مِنَّا مَن ضرَبَ الخُدودَ، وشَقَّ الجُيوبَ، ودَعا بدَعوى الجاهِليَّةِ[3]))[4].

﴿فَبَايِعۡهُنَّ﴾.

---

= يدَيْها ورِجليها، وليس المعنى نَهْيَهُنَّ مِن أنَّ يأتينَ بولدٍ مِن الزِّنا، فيَنسُبْنَه على الأزواجِ؛ لأنَّ الشَّرطَ بنَهيِ الزِّنا قد تقدَّم). ((الوسيط)) (٤/ ٢٨٧). ويُنظر ما يأتي (ص: ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

قال الْكِيَا الهَرَّاسي: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ هو عُمومٌ في جميعِ طاعاتِ اللهِ تعالى). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٤١٠، ٤١١). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٧٤).

وقال ابن رجب: (دخَل في قولِه: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ الانتهاءُ عن جميعِ المعاصي. ويَدخُلُ فيها أيضًا القيامُ بجميعِ الطَّاعاتِ، على رأيِ مَن يَرى أنَّ النَّهيَ عن شَيءٍ أمْرٌ بضِدِّه). ((فتح الباري)) (١/ ٧٧).

(٢) رواه البخاريُّ (١٣٠٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩٣٦).

(٣) دَعْوى الجاهِليَّةِ هي: النِّياحةُ ونَدْبُ الميِّتِ، والدُّعاءُ بالوَيلِ وشِبْهِه، والمرادُ بالجاهِليَّةِ: ما كان في الفَترةِ قبْلَ الإسلامِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١١٠).

(٤) رواه البخاريُّ (١٢٩٧)، ومسلمٌ (١٠٣).

أي: إذا جاءك -يا محمَّدُ- المؤمِناتُ يُبايِعْنَك، فبايِعْهنَّ على الوَفاءِ بتلك الشُّروطِ[١].

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الإنسانُ محلَّ النُّقصانِ؛ رجَّاهنَّ سُبحانَه بقولِه[٢]:

﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾.

أي: واطلُبْ -يا محمَّدُ- مِنَ اللهِ أن يَغفِرَ للمُؤمِناتِ المُبايِعاتِ ذُنوبَهنَّ وتَقصيرَهنَّ[٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بالغُ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه، بالغُ الرَّحمةِ بهم[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ١٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

قال ابنُ جُزَي: (هذه المبايَعةُ للنِّساءِ غيرُ مَعمولٍ بها اليومَ؛ لأنَّه أجمَعَ العُلَماءُ على أنَّه ليس للإمامِ أن يَشتَرِطَ عليهنَّ هذا؛ فإمَّا أن تكونَ مَنسوخةً ولم يُذكَرِ النَّاسِخُ، أو يكونَ تَرْكُ هذه الشُّروطِ لأنَّها قد تقَرَّرَتْ وعُلِمَت مِن الشَّرعِ بالضَّرورةِ؛ فلا حاجةَ إلى اشتِراطِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما أَمَر به نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في المبايعاتِ، بعدَ أن عَدَّ الَّذين آمنوا أصلًا في امتحانِ المُهاجِراتِ، فعُلِمَ مِن ذلك أنَّ تولِّيَ النِّساءِ -مع أنَّه لا ضَرَرَ فيهِنَّ بقِتالٍ ونَحْوِه- لا يَسوغُ إلَّا بعدَ العِلمِ بإيمانِهنَّ، وكان الخَتمُ بصِفَتَيِ الغُفرانِ والرَّحمةِ رُبَّما جرَّأ على مُحاباةِ المؤمنينَ لبَعضِ الكُفَّارِ مِن أزواجٍ أو غَيرِهم؛ لقَرابةٍ أو غيرِها، لعِلَّةٍ يُبدِيها الزَّوجُ، أو غيرِ ذلك مِن الأمورِ- كرَّر سُبحانَه الأمرَ بالبَراءةِ مِن كلِّ عَدُوٍّ؛ ردًّا لآخِرِ السُّورةِ على أوَّلِها، تأكيدًا للإعراضِ عنهم، وتنفيرًا مِن تولِّيهم، كما أفهَمَتْه آيةُ المبايَعةِ، وآيةُ الامتحانِ[1].

وأيضًا بعدَ أن استقصَتِ السُّورةُ إرشادَ المُسلِمينَ إلى ما يَجِبُ في المعامَلةِ مع المُشرِكينَ، جاء في خاتِمَتِها الإرشادُ إلى المعامَلةِ مع قَومٍ لَيسُوا دونَ المُشرِكينَ في وُجوبِ الحَذَرِ منهم، وهم اليَهودُ[2]. وذلك على قولٍ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَتولَّوُا الكافِرينَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم بسَبَبِ كُفرِهم، فتَتَّخِذوهم أولياءَ لكم[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٦، ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

قيل: المرادُ بهم: اليهودُ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ، ومقاتلٌ. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) =

﴿قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾.

أي: قد يَئِسوا مِن ثوابِ اللهِ ورَحمتِه في الآخِرةِ[1] كما يَئِسَ الكُفَّارُ الموتى في قُبورِهم مِن ثَوابِ اللهِ ورَحمتِه؛ لأنَّهم وقفُوا على حقيقةِ الحالِ[2].

---

= (٣/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن أبي زَمَنِين)) (٤/ ٣٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٨٩).

قال ابن جُزَي: (لأنَّ الغضَبَ قد صار عُرفًا لليهودِ؛ كقولِه: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٦٩).

وقيل: هم كُفَّارُ قُرَيش. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٠).

وقيل: المرادُ: جميعُ أصنافِ الكُفَّارِ وطوائفِهم. وممَّن ذهب إلى هذا العموم: ابنُ كثير، وأبو السعود، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

قال البقاعي: (عامٌّ في كُلِّ مَنِ اتَّصَف بذلك، يَتناوَلُ اليهودَ تناوُلًا أوَّلِيًّا). ((نظم الدرر)) (١٩/ ٥٢٧).

(١) قال الرَّسْعَني: (﴿قَدۡ يَئِسُواْ﴾ يعني: القومَ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم ﴿مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أي: مِن ثوابِ الآخرةِ بسَبَبِ كُفرِهم بمحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهم يَعرِفونَه كما يَعرِفونَ أبناءَهم، هذا قَولُ جمهورِ العُلَماءِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

ممَّن ذهب إلى القَولِ المذكور: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والبغويُّ، وأبو السعود، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والكلبيُّ، وابنُ زَيدٍ، ومنصور بن المعتمر. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٣).

وقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ -على هذا القَولِ- بيانٌ للكُفَّارِ، فـ (مِنْ) بيانيَّةٌ، أي: كما يَئِسَ الكُفَّارُ الَّذين قُبِروا. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨).

وقيل: المعنى: كما يَئِس الكفَّارُ الأحياءُ مِن أمواتِهم الَّذين في القُبورِ أن يَرجِعوا أحياءً، وأن يُبعَثوا؛ لأنَّهم لا يُوقِنونَ بالبَعْثِ. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والزمخشري، والرَّسْعَني، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٢٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يَدخُلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا أُرِيَ مَقعَدَه مِن النَّارِ لو أساءَ؛ لِيَزدادَ شُكرًا، ولا يَدخُلُ النَّارَ أحدٌ إلَّا أُرِيَ مَقعَدَه مِنَ الجَنَّةِ لو أحسَنَ؛ لِيَكونَ عليه حَسرةً!))[١].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ أحَدَكم إذا مات عُرِضَ عليه مَقعَدُه بالغَداةِ والعَشِيِّ؛ إن كان مِن أهلِ الجنَّةِ فمِن أهلِ الجَنَّةِ، وإن كان مِن أهلِ النَّارِ فمِن أهلِ النَّارِ، يُقالُ: هذا مَقعَدُك حتَّى يَبعَثَك اللهُ إليه يومَ القيامةِ))[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ﴾ أي: قد حُرِموا مِن خَيرِ الآخِرةِ، فليس لهم منها نَصيبٌ؛ فاحذَروا أن تَوَلَّوهم، فتُوافِقُوهم على شَرِّهم وكُفرِهم، فتُحرَموا خيرَ الآخِرةِ كما حُرِموا[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ

---

= الرسعني)) (٨/ ١٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٣).

و﴿مِنۡ﴾ على هذا القَولِ لابتِداءِ الغايةِ. يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨).

(١) رواه البخاريُّ (٦٥٦٩).

(٢) رواه البخاريُّ (١٣٧٩)، ومسلمٌ (٢٨٦٦) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ﴾ ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ ورَسولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في صِفةِ البَيعةِ خِصالًا شَتَّى صَرَّح فيهِنَّ بأركانِ النَّهيِ في الدِّينِ، ولم يَذكُرْ أركانَ الأمرِ، وهي سِتَّةٌ أيضًا: الشَّهادةُ، والصَّلاةُ، والزَّكاةُ، والصِّيامُ، والحَجُّ، والاغتِسالُ مِن الجنابةِ؛ وذلك لأنَّ النَّهيَ دائِمٌ في كُلِّ الأزمانِ وكُلِّ الأحوالِ، فكان التَّنبيهُ على اشتراطِ الدَّائِمِ آكَدَ.

وقيل: إنَّ هذه المناهِيَ كان في النِّساءِ كَثيرٌ مَن يَرتَكِبُها، ولا يَحجُزُهنَّ عنها شَرَفُ النَّسَبِ؛ فخُصَّت بالذِّكرِ لهذا[1].

وقيل: لم يَذكُرْ في بَيعتِهنَّ الصَّلاةَ والزَّكاةَ، والصِّيامَ والحَجَّ؛ لوُضوحِ كَونِ هذه الأمورِ ونَحوِها مِن أركانِ الدِّينِ وشَعائِرِ الإسلامِ[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ تَقييدُ مُبايَعتِهنَّ بِما ذُكِرَ مِن مَجيئِهنَّ؛ لحَثِّهنَّ على المُسارعةِ إليها مع كَمالِ الرَّغبةِ فيها مِن غَيرِ دَعوةٍ لهنَّ إليها[3].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾، وما وَجهُه؟

**الجوابُ**: أنَّ بطنَها الَّذي تحملُه فيه بيْنَ يديها، ومَخرجُه بينَ رِجْلَيْها[4].

وقيل: إنَّ المرأةَ إذا التقَطَت ولَدًا فإنَّما التقَطَت بيَدِها، ومَشَت إلى أخْذِه برِجْلِها، فإذا أضافَتْه إلى زوجِها فقد أتت ببُهتانٍ تَفتريه بينَ يَدَيها ورِجْلَيها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٠).

وقيل: الوَلَدُ إذا وضعَتْه أمُّه سَقَط بينَ يَدَيها ورِجْلَيها[١].

وقيل: لأنَّ الثَّدْيَ بينَ يدينِ، والفَرْجَ بينَ الرِّجلَيْنِ، والمرأةُ تَضَعُ وتُرضِعُ. وقيل غيرُ ذلك[٢].

٤- إنْ قِيل: لو اقتَصَرَ على قولِه: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ﴾؛ فقدْ عُلِمَ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَأمُرُ إلَّا بمَعروفٍ؟

**فالجوابُ**: نبَّهَ بذلك على أنَّ طاعةَ المَخلوقِ في مَعصيةِ الخالقِ جَديرةٌ بغايةِ التَّوقِّي والاجتنابِ[٣]؛ لئلَّا يترخَّصَ أحدٌ في طاعةِ السَّلاطينِ إذا لم تكُنْ طاعةً لله تعالى؛ إذ شَرَطَ في طاعةِ خيرِ العالَمينَ أن يأمُرَ بالمعروفِ، وكذلك لا يجِبُ طاعةُ أئمَّةِ العِلمِ فيما يتعَلَّقُ بالأغراضِ المتأوَّلةِ، ولا يَسوغُ لِمُسلمٍ اتِّباعُهم[٤]، فالآيةُ فيها دَلالةٌ على أنَّ طاعةَ أُولي الأمرِ إنَّما تَلزَمُ في المعروفِ، كما ثَبَتَ في الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((إنَّما الطَّاعةُ في المعروفِ))[٥]، ونظيرُ هذا قولُه: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال: ٢٤]، وهو لا يدعو إلَّا إلى ذلك، والتَّقييدُ هنا لا مَفهومَ له؛ فإنَّه لا يَقَعُ دعاءٌ لغيرِ ذلك، ولا أَمرٌ بغَيرِ مَعروفٍ[٦]! وقيل: التَّقييدُ به لقصْدِ التَّوسعةِ عليهنَّ في أمْرٍ لا يَتعلَّقُ بالدِّينِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤١٠، ٤١١).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٧١٤٥)، ومسلمٌ (١٨٤٠) مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٦) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦١).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٧).

فقولُه تعالى: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الطَّاعةَ لا تكونُ إلَّا في معروفٍ، فلا يُطاعُ مخلوقٌ إلَّا في معروفٍ، ولا يُطاعُ في معصيةِ الخالقِ عزَّ وجلَّ. وقد استنبَط هذا المعنى مِن هذه الآيةِ طائفةٌ مِن السَّلفِ. فلو كان لأحدٍ مِن البشَرِ أن يُطاعَ بكلِّ حالٍ، لَكان ذلك للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلمَّا خُصَّتْ طاعتُه بالمعروفِ، مع أنَّه لا يأمُرُ إلَّا بما هو معروفٌ؛ دل على أنَّ الطَّاعةَ في الأصلِ لله وحْدَه، والرَّسولُ مُبلِّغٌ عنه، وواسِطةٌ بيْنَه وبيْن عِبادِه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[1] [النساء: ٨٠].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

- جُملةُ ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ حالًا مِن المؤمناتِ، على معْنى: يُرِدْنَ المُبايَعةَ، وهي المذكورةُ في هذه الآيةِ، وجوابُ (إذا) ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾ جَوابَ ﴿إِذَا﴾، ومعْنى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾، أي: الدَّاخلاتُ في جَماعةِ المؤمنينَ على الجُملةِ والإجمالِ، لا يَعْلَمْنَ أُصولَ الإسلامِ، وبيَّنه بقَولِه: ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾، فهو خبَرٌ مُرادٌ به الأمرُ، أي: فلْيُبايِعْنَك، وتكونَ جُملةُ ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ تَفريعًا لجُملةِ ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾، ولْيُبْنى عليها قولُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾[2].

- وقال هنا: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ﴾، ولم يقُلْ: ﴿فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة:

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (١/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٦).

١٠]، كما قال في المُهاجِراتِ؛ قيل: ذلك لأنَّ الامتحانَ حاصلٌ بقولِه تَعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ﴾ إلى آخِرِه. أو لأنَّ المُهاجِراتِ يأْتِين مِن دارِ الحرْبِ، فلا اطِّلاعَ لهُنَّ على الشَّرائعِ، فلا بُدَّ مِن الامتحانِ، وأمَّا المؤمناتُ فهُنَّ في دارِ الإسلامِ، وعُلِّمْنَ الشَّرائعَ، فلا حاجةَ إلى الامتحانِ[1].

أو لأنَّ المقصودَ بامتحانِ المُهاجِراتِ التَّحقُّقُ مِن أنَّ انتِقالَها إلى المدينةِ ليس لغرَضٍ دُنيويٍّ ويَنبني عليه عدمُ ردِّها إلى الكفَّارِ، بخِلافِ البَيعةِ هنا؛ فهي لا تختصُّ بالمُهاجِراتِ.

- قولُه: ﴿وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ﴾ أي: بعدَ وُجودِهم أو وهُم أجِنَّةٌ. وقيل: أراد وَأْدَ البناتِ الَّذي كان يَفعَلُه أهلُ الجاهليَّةِ، ثمَّ هو عامٌّ في كلِّ نوعٍ مِن قتلِ الولدِ وغيرِه[2]، وأُسنِدَ القَتلُ إلى النِّساءِ وإنْ كان بَعضُه يَفعَلُه الرِّجالُ؛ لأنَّ النِّساءَ كنَّ يَرْضَينَ به، أو يَسكُتْنَ عليه[3].

- وقولُه: ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ﴾ يَتعلَّقُ بقولِه: ﴿يَأۡتِينَ﴾، وهذا مِن الكلامِ الجامعِ لِمَعانٍ كثيرةٍ؛ فالبُهتانُ حَقيقتُه: الإخبارُ بالكذبِ، وهو مَصدرٌ، ويُطلَقُ المصدرُ على اسمِ المفعولِ، كالخلْقِ بمعْنى المخلوقِ، وحقيقةُ (بيْنَ الأيدي والأرْجُلِ): أنْ يكونَ الكذبُ حاصلًا في مَكانٍ يَتوسَّطُ الأيديَ والأرجُلَ، فإنْ كان البُهتانُ على حَقيقتِه -وهو الخبرُ الكاذبُ- كان افتِراؤُه بيْن أيدِيهنَّ وأرْجُلِهنَّ: أنَّه كذِبُ مُواجَهةٍ في وجْهِ المكذوبِ عليه، كقولِها: يا فُلانةُ، زَنَيتِ مع فُلانٍ، أو سرَقْتِ حَلْيَ فُلانةَ؛ لتَبْهَتَها في مَلأٍ مِن النَّاسِ، أو

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٦).

أنتِ بنتُ زِنًا، أو نحوِ ذلك. وإنْ كان البهتانُ بمعْنى المكذوبِ، كان معْنى افترائِه بيْن أيدِيهنَّ وأرجُلِهنَّ كِنايةً عن ادِّعاءِ الحمْلِ؛ بأنْ تَشرَبَ ما يَنفُخُ بَطْنَها، فتُوهِمَ زَوجَها أنَّها حاملٌ، ثمَّ تُظهِرَ الطَّلْقَ وتأْتيَ بولدٍ تَلتقِطُه وتَنسُبُه إلى زَوجِها؛ لئلَّا يُطلِّقَها، أو لئلَّا يَرِثَه عَصَبتُه، فهي تُعظِّمُ بطْنَها وهو بيْن يَدَيها، ثمَّ إذا وصَلَ إبَّانُ إظهارِ الطَّلْقِ وَضَعَت الطِّفلَ بيْن رِجْلَيْها وتَحدَّثت وتَحدَّثَ النَّاسُ بذلك؛ فهو مَبهوتٌ عليه، فالافتراءُ هو ادِّعاؤها ذلك تأكيدًا لمعْنى البُهتانِ.

وإنْ كان البُهتانُ مُعبَّرًا به عن الباطِلِ الشَّبيهِ بالخبَرِ البُهتانِ، كان ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ مُحتمِلًا للكِنايةِ عن تَمكينِ المرأةِ نفْسَها مِن غيرِ زَوجِها يُقبِّلُها أو يَجُسُّها، فذلك بيْن يَدَيْها، أو يَزْني بها، وذلك بيْن أرْجُلِها[1].

وقيل: إنَّ ذِكرَ اليدَيْنِ والرِّجلَيْنِ على طريقِ التَّأكيدِ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] يعني: بما كسَبْتُم، وذِكرُ الأيدي على طَريقِ التَّأكيدِ[2].

- وتَخصيصُ الأُمورِ المَعدودةِ بالذِّكرِ في حَقِّهنَّ؛ لكَثرةِ وُقوعِها فيمَا بيْنَهنَّ، معَ اختصاصِ بَعضِها بِهنَّ[3].

- ووَجهُ التَّرتيبِ في الأشياءِ المذكورةِ، وتقديمِ بعضِها على بعضٍ في الآيةِ؛ مِن وُجوهٍ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٦، ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢١).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠٩، ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١). ويُنظر ما تقدم: (ص: ١١٤-١١٥).

منها: أنَّه قَدَّم الأقبَحَ على ما هو الأدنى منه في القُبحِ، ثمَّ كذلك إلى آخِرِه.

ومنها: أنَّه قدَّم مِن الأشياءِ المذكورةِ ما هو الأظهَرُ فيما بَيْنَهم(١).

وقيل: لَمَّا كان الشِّرْكُ بَذْلَ حَقِّ المَلِكِ لِمَن لا يستَحِقُّه؛ أتْبَعَه أخْذَ مالِ المالِكِ بغَيرِ حقٍّ؛ لاقتضاءِ الحالِ لذلك بتمَكُّنِ المرأةِ مِن اختلاسِ مالِ الزَّوجِ، وعُسْرِ تحَفُّظِه منها، فقال: ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ﴾، وأتبَعَ ذلك بَذْلَ حَقِّ الغَيرِ لغَيرِ أهْلِه، فقال: ﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾، أي: يمكِّنَّ أحدًا مِن وَطْئِهنَّ بغَيرِ عَقدٍ صَحيحٍ، ولَمَّا كان الزِّنا قد يكونُ سَبَبًا في إيجادِ أو إعدامِ نَسَمةٍ بغيرِ حَقِّها؛ أتبَعَه إعدامَ نَسَمةٍ بغيرِ حَقِّه، فقال: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾، ولَمَّا ذَكَر إعدامَ نَسَمةٍ بغيرِ حَقٍّ ولا وَجهٍ شَرْعيٍّ؛ أتبَعَه ما يَشملُ إيجادَ نَسَمةٍ بغيرِ حِلٍّ، فقال: ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾، أي: وَلَدٍ مِن غيرِ الزَّوجِ، ﴿يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ أي: بالحَمْلِ في البُطونِ ﴿وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ أي: بالوَضعِ مِن الفُروجِ -على قولٍ-، وهذا شامِلٌ لِما كان مِن شُبْهةٍ أو لُقَطةٍ، ولَمَّا حَقَّق هذه الكبائِرَ العظيمةَ؛ تعظيمًا لأَمْرِها لعُسْرِ الاحتِرازِ منها، وأكَّد النَّهيَ عن الزِّنا مُطابَقةً وإلزامًا لِما يَجُرُّ إليه مِن الشُّرورِ؛ القَتْلِ فما دُونَه، وغَلَّظ أمْرَ النَّسَبِ لِما يَتفرَّعُ عليه مِن إيقاعِ الشُّبُهاتِ، وانتِهاكِ الحُرُماتِ- عمَّ في النَّهيِ، فقال: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾(٢).

- قيل: قدَّمَ المنهيَّاتِ على المأموراتِ المستفادةِ مِن المعروفِ في قوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾؛ لأنَّ التخَلِّيَ عن الرَّذائِلِ مُقَدَّمٌ على التَّحلِّي بالفضائِلِ؛ لأنَّ دَرْءَ المَفاسِدِ أَولى مِن جَلبِ المصالحِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٥٢٢-٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ٥٢٤).

- وقولُه: ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ جَوابُ (إذا) تَفريعٌ على ﴿يُبَايِعْنَكَ﴾، أي: فاقْبَلْ مِنهنَّ ما بايَعْنَكَ عليه؛ لأنَّ البَيعةَ عِندَه مِن جانبينِ؛ ولذلك صِيغَت لها صِيغةُ المُفاعَلةِ(١).

- قولُه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: فيما فَرَطَ منْهنَّ في الجاهليةِ ممَّا خُصَّ بالنَّهيِ في شُروطِ البَيعةِ وغيرِ ذلك؛ ولذلك حُذِفَ المفعولُ الثَّاني لفِعلِ (اسْتَغْفِرْ)(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، أي: مُبالِغٌ في المَغفرةِ والرَّحمةِ. وهو تَعليلٌ للأمرِ بالاستِغفارِ(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾

- هو كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لاختِتامِ السُّورةِ بمِثلِ ما ابتَدَأَها مِن النَّهيِ عن اتِّخاذِ الكفَّارِ أولياءَ(٤)؛ تأكيدًا لتَركِ مُوالاتِهم، وتنفيرًا للمُسلِمينَ عن تولِّيهم، وإلقاءِ المودَّةِ إليهم(٥).

- على القولِ بأنَّ الَّذين غَضِبَ اللهُ عليهم هم اليهودُ، وإذ قد كانوا لا يُنكِرون الدَّارَ الآخرةَ؛ كان معْنى يأْسِهم مِن الآخِرةِ هو اليأسُ مِن خيرِ الآخرةِ وثَوابِها؛ لِعِنادِهم الرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم المَنعوتَ في كتابِهم، المؤيَّدَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦١).

بالآياتِ البيِّناتِ، والمُعجزاتِ الباهِراتِ. ويحتملُ أنْ يُرادَ به الإعراضُ عن العمَلِ للآخِرةِ، فكأنَّهم في إهمالِ الاستِعدادِ لها آيِسُون منها. ووجْهُ تَشبيهِ إعراضِهم هذا بيَأْسِ الكفَّارِ مِن أصحابِ القُبورِ: شِدَّةُ الإعراضِ، وعدَمُ التَّفكُّرِ في الأمْرِ؛ شُبِّهَ إعراضُهم عن العمَلِ لنفْعِ الآخِرةِ بيَأْسِ الكفَّارِ مِن حَياةِ المَوتى والبَعثِ، وفيه تَشنيعُ المُشبَّهِ. و﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ على هذا الوجْهِ مُتعلِّقٌ بـ﴿يَئِسُواْ﴾، والكفَّارُ: المشركون.

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ بَيانًا للكُفَّارِ، أي: الَّذين هم أصحابُ القبورِ، أي: الكفَّارُ الموتى، الَّذين هَلَكوا ورَأَوا أنْ لا حظَّ لهم في خَيرِ الآخرةِ؛ فشَبَّهَ إعراضَ اليهودِ عن الآخِرةِ بيَأْسِ الكُفَّارِ مِن نَعيمِ الآخرةِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: تَحقُّقُ عدَمِ الانتفاعِ بالآخرةِ، والمعْنى: كيَأْسِ الكُفَّارِ الأمواتِ، أي: يأسًا مِن الآخِرةِ، والمُشبَّهُ به مَعلومٌ للمُسلِمينَ بالاعتقادِ؛ فالكلامُ مِن تَشبيهِ المحسوسِ بالمعقولِ(١).

ويجوزُ أن تكونَ ﴿مِنْ﴾ لابتِداءِ الغايةِ، والمعنى: أنَّ هؤلاء القومَ المغضوبَ عليهم قد يَئِسوا مِن الآخرةِ كما يَئِسوا مِن مَوتاهم أن يُبعَثوا ويَلقوهم في دارِ الدُّنيا، فالمرادُ بالكفَّارِ أولئك القومُ، ووُضِع الظَّاهرُ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ تسجيلًا لكفرِهم، وإشعارًا بعِلَّةِ يأسِهم(٢).

- وفي هذه الآيةِ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالاستِطرادِ(٣)؛ وهو فنٌّ رَفيعٌ مِن فُنونِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٦٩، ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧١).

(٣) الاستطراد: خروجُ المتكلِّمِ مِن الغرضِ الَّذي كان يتكلَّمُ فيه إلى غيرِه لِمُناسَبةٍ بيْنَهما، ثمَّ ترْكُه والعودةُ إلى ما كان فيه، كأنَّ المتكلِّمَ لم يَقصِدْه، وإنَّما عرَض عُروضًا. يُنظر: ((خزانة الأدب)) =

البَيانِ؛ فقدْ ذمَّ اليهودَ واستَطْرَدَ ذَمَّهم بذَمِّ المشركين على نَوعٍ حَسَنٍ مِن النِّسبةِ[١].

= لابن حِجَّة الحموي (١/ ١٠٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٥٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧١).

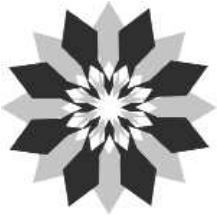

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الصَّفِّ

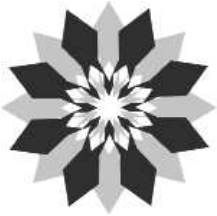

# سُورةُ الصَّفِّ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الصَّفِّ)[١].

فعن عَبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ، قال: ((تذاكَرْنا أيُّكم يأتي رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيَسأَلُه: أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ فلم يَقُمْ أحَدٌ مِنَّا، فأرسَلَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلينا رجُلًا فجَمَعَنا، فقَرَأَ علينا هذه السُّورةَ، يعني: سُورةَ الصَّفِّ كُلَّها))[٢].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الصَّفِّ مَدَنيَّةٌ[٣]، .....

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ ذِكرُ لَفظِ الصَّفِّ فيها، في قَولِه تعالى: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾ [الصف: ٤]، وهو صَفُّ القِتالِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧١).

قال ابنُ عاشور: (اشتَهَرت هذه السُّورةُ باسمِ «سورةِ الصَّفِّ»، وكذلك سُمِّيَت في عَصرِ الصَّحابةِ... وبذلك عُنْونَت في «صحيحِ البُخاريِّ» وفي «جامعِ التِّرمذيِّ»، وكذلك كُتِبَ اسمُها في المصاحِفِ، وفي كُتُبِ التَّفسيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧١). يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٨٨)، ((سنن الترمذي)) (٥/ ٤١٢).

وقال أبو الحسنِ السَّخاوي: (سورةُ الصفِّ، وتُسمَّى سورةَ الحواريِّينَ). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (١/ ٢٠١).

(٢) أخرجه مِن طُرقٍ الترمذيُّ (٣٣٠٩) بنحوه، وأحمدُ (٢٣٧٨٨) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٥٩٤).

صحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخينِ في ((المستدرك)) (٢/ ٧٩)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٠٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٩/ ٢٠٥) وقال: (على شرطِ الشَّيخَينِ).

(٣) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ، قال ابنُ عطيَّةَ: (وهي مَدَنيَّةٌ في قَولِ الجُمهورِ، وقال مَكِّيٌّ عن ابنِ عَبَّاسٍ، =

وحُكيَ الإجماعُ على ذلك[١].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

التَّحريضُ على نُصرةِ الدِّينِ، والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، والاستِجابةِ لله ولرسولِه[٢].

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- افتُتِحَت السُّورةُ بتَسبيحِ اللهِ تعالى، وتنزيهِه عن كُلِّ ما لا يليقُ به.

٢- النَّهيُ عن الأقوالِ الَّتي لا تُطابِقُها الأفعالُ.

٣- ذِكرُ جانبٍ مِمَّا قاله موسى عليه السَّلامُ لِقَومِه، وما لَقِيَه منهم مِن أذًى.

٤- ذِكرُ دَعوةِ عيسى عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ، وبِشارتِه بالنَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم.

٥- بيانُ ما جُبِلَ عليه الكافِرونَ مِن كَذِبٍ على الحَقِّ، ومِن كراهيةٍ لِظُهورِ نُورِه.

---

= والمَهْدويُّ عن عطاءٍ ومجاهِدٍ: إنَّها مَكِّيَّةٌ. والأوَّلُ أصَحُّ؛ لأنَّ معانيَ السُّورةِ تُعَضِّدُه، ويُشبِهُ أن يكونَ فيها المَكِّيُّ والمَدَنيُّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٧٦). ويُنظر: ((التحصيل لفوائد كتاب التفصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٢).

وممَّن نَسَب القَولَ بكَونِها مَدَنيَّةً إلى الجُمهورِ أيضًا: ابنُ الفَرَسِ، وابن الجوزي، وابن عاشور. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٥٣).

(١) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٥/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٣).

٦- دَعوةُ المؤمِنينَ إلى الجِهادِ في سبيلِ اللهِ بالأنفُسِ والأموالِ، وحَضُّهم على أن يَقتَدُوا بالحَواريِّينَ.

٧- البِشارةُ بنَصرِ أهلِ الإيمانِ على أهلِ الكُفْرِ.

## الآيات (١-٤)

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾: أي: عَظُمَ بُغضًا، والمَقْتُ: البُغضُ الشَّديدُ لِمَن تَراه تعاطَى القَبيحَ، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ، وأصلُ (مقت): يدُلُّ على شَناءةٍ وقُبحٍ[1].

﴿مَّرْصُوصٌ﴾: أي: مُلتَزِقٌ بَعضُه ببَعضٍ، والتَّراصُّ: التَّلاصُقُ؛ يُقالُ: رَصصتُ البِناءَ رَصًّا: إذا ضَمَمْتَ بَعْضَه إلى بَعضٍ، وأصلُ (رصص): يدُلُّ على انضِمامِ شَيءٍ إلى شَيءٍ بقُوَّةٍ وتَداخُلٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

ابتَدَأ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بأنَّ جميعَ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ قد نَزَّه اللهَ تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ، وأخبَر أيضًا بأنَّه هو العزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

ثمَّ وَجَّه سُبحانَه الخِطابَ إلى المؤمِنينَ، فقال تعالى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لِمَ تَقولونَ ما لا تَفعَلونَ، عَظُم بُغْضًا عندَ اللهِ قولُكم ما لا تَفعَلونَه! إنَّ اللهَ يُحِبُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣، ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٧٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٠٨).

الَّذين يُقاتِلونَ في سبيلِ اللهِ لإعلاءِ دِينِه مُنتَظِمينَ في صَفِّ القِتالِ كأنَّهم بِناءٌ عظيمُ الاتِّصالِ، لاصِقٌ بَعضُه ببَعضٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قعَدْنا نفرٌ مِن أصحابِ رَسولِ اللَّهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَذاكَرْنا، فقُلْنا: لو نَعلَمُ أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى اللهِ لَعَمِلْناه، فأنزل اللهُ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾. قالَ عبدُ اللَّهِ بنُ سَلَامٍ: فقَرَأَها علينا رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[1].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١﴾.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: نزَّه اللهَ تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وجميعُ ما في الأرضِ[2].

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٠٩) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٢٣٧٨٨)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٥٩٤). صَحَّحه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٢٤٨) وقال: (على شرطِ الشَّيخينِ). وصَحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٠٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٩/ ٢٠٥)، وقال: (على شرطِ الشَّيخينِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).
وتسبيحُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ تسبيحٌ حقيقيٌّ بلِسانِ المقالِ، وأيضًا بلِسانِ الحالِ. يُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الإسراء الآية (٤٤)، وأوَّل سورة الحديد.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العزيزُ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، فيَنتَقِمُ مِن أعدائِه، الحكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ ممَّا خلَقَه وشَرَعَه وقدَّرَه في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ٢﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لِمَ تَقولونَ القَولَ الَّذي لا تُصَدِّقونَه بالعَمَلِ؛ فتكونَ أعمالُكم مُخالِفةً لأقوالِكم؟! ومِن ذلك تَركُ فِعلِ الخَيرِ لِمَن وَعَد بفِعْلِه، كالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ أَوۡ أَشَدَّ خَشۡيَةٗۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبۡتَ عَلَيۡنَا ٱلۡقِتَالَ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖۗ قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدۡ كَانُواْ عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلۡأَدۡبَٰرَۚ وَكَانَ عَهۡدُ ٱللَّهِ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الأحزاب: ١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُۙ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ * طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦، ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥، ٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((آيةُ المنافِقِ ثَلاثٌ: إذا حدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا اؤْتُمِنَ خان))[١].

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾.

أي: عَظُم واشتَدَّ بُغْضًا عندَ اللهِ قولُكم -أيُّها المؤمنونَ- شَيئًا، ثمَّ لا تَفعَلونَه[٢]!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ قَولَ اللهِ تعالى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فيه مَذَمَّةُ المخالِفينَ في القِتالِ، وهم الَّذين وَعَدوا بالقِتالِ ولم يُقاتِلوا، وهذه الآيةُ مَحمَدةٌ لِلموافِقينَ في القِتالِ، وهم الَّذين قاتَلوا في سَبيلِ اللهِ وبالَغوا فيه[٣]، فبَعْدَ أنْ ذمَّ المخالِفينَ فى أمرِ القتالِ وهم الَّذين وعَدوا ولم يفْعَلوا؛ مدَح الَّذين قاتَلوا فى سبيلِه[٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾.

أي: إنَّ اللهَ يُحِبُّ المجاهِدينَ الَّذين يُقاتِلونَ أعداءَ اللهِ لإعلاءِ دِينِهِ حالَ كَونِهم مُنتَظِمينَ في صَفِّ القِتالِ[٥].

---

(١) رواه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩١)، ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦، ٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٧، ٥٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٦).

=

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الاصطِفافُ يَصْدُقُ مع التَّقَدُّمِ والتأخُّرِ اليسيرِ؛ نفى ذلك بقَولِه حالًا بعدَ حالٍ[1]:

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

أي: كأنَّهم في اصطِفافِهم للقِتالِ -مِن شِدَّةِ التَّراصِّ والمُساواةِ والثَّباتِ في المراكِزِ- بِناءٌ واحِدٌ عظيمُ الاتِّصالِ، شَديدُ الاستِحكامِ، لاصِقٌ بَعضُه ببَعضٍ، بلا فُرجةٍ ولا خَلَلٍ[2]!

عن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ((إنَّ المؤمِنَ للمُؤمِنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بَعضُه بَعضًا، وشَبَّك أصابِعَه))[3].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ استُدِلَّ بالآيةِ مِن عُمومِ لَفظِها على الإنكارِ على كُلِّ مَن خالَفَ قَولُه فِعْلَه، سواءٌ في عَهدٍ أو وَعدٍ، أو أمرٍ أو نَهيٍ[4]. ففيها أنَّه

---

= قال البقاعي: (أي: مُصْطَفِّينَ حتَّى كأنَّهم في اتِّحادِ المرادِ على قَلبٍ واحِدٍ، كما كانوا في التَّساوي في الاصطِفافِ كالبَدَنِ الواحِدِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

(٣) رواه البخاري (٤٨١) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٨٥).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٠٥).

ينبغي للآمِرِ بالخَيرِ أن يكونَ أوَّلَ النَّاسِ إليه مُبادَرةً، ولِلنَّاهي عن الشَّرِّ أن يكونَ أبْعَدَ النَّاسِ منه[١]. فمِن آدابِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنْكَرِ -وليس مِن شُروطِه- أنْ يكونَ الإنسانُ أوَّلَ فاعلٍ للمَعروفِ، وأوَّلَ مُنْتَهٍ عنِ المنكَرِ، بمعنى أنَّه لا يأمرُ بالمعروفِ ثُمَّ لا يَفعَلُه، أو لا يَنهى عنِ المُنْكَرِ ثُمَّ يَقَعُ فيه[٢]، فإذا كنتَ تقولُ الشَّيءَ ولا تفعَلُه، فأنت بيْنَ أمْرَينِ: إمَّا أنَّك كاذِبٌ فيما تقولُ، ولكنْ تُخَوِّفُ النَّاسَ، فتقولُ لهم الشَّيءَ وليس بحقيقةٍ، وإمَّا أنَّك مُستَكبِرٌ عمَّا تقولُ؛ تأمرُ النَّاسَ به ولا تَفعَلُه، وتنهى النَّاسَ عنه وتَفعَلُه[٣]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ * كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ يُحتَجُّ به في وُجوبِ الوَفاءِ بالوُعودِ[٤]، والتَّحذيرِ مِن إخلافِها، وفيه الالتزامُ بواجِباتِ الدِّينِ[٥].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ حَثٌّ مِن اللهِ لِعبادِه على الجِهادِ في سَبيلِه، وتعليمٌ لهم كيف يَصنَعونَ، وأنَّه ينبغي لهم أن يَصُفُّوا في الجِهادِ صَفًّا مُتراصًّا مُتساويًا مِن غيرِ خَلَلٍ يَقَعُ في الصُّفوفِ، وتكونَ صُفوفُهم على نظامٍ وتَرتيبٍ به تحصُلُ المساواةُ بيْنَ المجاهِدينَ، والتَّعاضُدُ وإرهابُ العَدُوِّ، وتنشيطُ بَعضِهم بَعضًا[٦]. وفيه تحريضٌ على الثَّباتِ في الجهادِ، وصِدقِ الإيمانِ، والثَّباتِ في نُصرةِ الدِّينِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ استِحبابُ قيامِ المجاهدِينَ في القتالِ صُفوفًا كصُفوفِ الصَّلاةِ، وأنَّه يُستَحَبُّ سَدُّ الفُرَجِ والخَلَلِ في الصُّفوفِ، وإتمامُ الصَّفِّ الأوَّلِ فالأوَّلِ، وتسويةُ الصُّفوفِ بِعَدَمِ تَقَدُّمِ بَعضٍ على بَعضٍ فيها[1].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ عَلَّقَ سُبحانَه المحبَّةَ لهؤلاء بأعمالِهم، بعِدَّةِ صِفاتٍ:

**أوَّلًا**: يُقاتِلونَ فلا يَركَنونَ إلى الخُلودِ والخُمولِ والكَسَلِ والجُمودِ؛ الَّذي يُضعِفُ الدِّينَ والدُّنيا.

**ثانيًا**: الإخلاصُ؛ لِقَولِه: ﴿فِي سَبِيلِهِۦ﴾.

**ثالثًا**: يَشُدُّ بعضُهم بعضًا؛ لِقَولِه: ﴿صَفّٗا﴾.

**رابعًا**: أنَّهم كالبُنيانِ، والبنيانُ حِصْنٌ مَنيعٌ.

**خامسًا**: لا يَتَخَلَّلُهم ما يُمَزِّقُهم؛ لِقَولِه: ﴿مَّرۡصُوصٞ﴾[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ في إجراءِ وَصفِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ عليه تعالى هنا إيماءٌ إلى أنَّه الغالِبُ لعَدُوِّه؛ فما كان لكم أن تَرهَبوا أعداءَه فتَفِرُّوا منهم عندَ اللِّقاءِ؛ وإجراءِ صِفةِ ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ إنْ حُمِلَت على معنى المتَّصِفِ بالحِكمةِ: أنَّ الموصوفَ بالحِكمةِ لا يأمُرُكم بجِهادِ العَدُوِّ عَبَثًا، ولا يُخَلِّيهم يَغلِبونَكم، وإن حُمِلَت على معنى المُحكِمِ للأمورِ، فكذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٤).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ يُحتَجُّ به في وُجوبِ الوَفاءِ بالنَّذرِ في نَذْرِ اللَّجاجِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ مَن ألزَمَ نَفْسَه عَمَلًا فيه طاعةٌ لَزِمه أن يَفِيَ بها[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾ إثباتُ صفةِ المَقْتِ للهِ تعالى، وأنَّه يَتفاوَتُ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا﴾ إثباتُ صفةِ المحبَّةِ للهِ تعالى[٤]، وكذلك قولُه: ﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقولُه:

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤١٣).

ونَذْرُ اللَّجَاجِ والغَضَبِ: هو أن يمنَعَ نَفْسَه مِن فِعلٍ، أو يَحُثَّها عليه، بتعليقِ التزامِ قُربةٍ بالفِعلِ أو بالتَّركِ. يُنظر: ((المجموع شرح المهذب)) للنووي (٨/ ٤٥٩).

وقد اتَّفقَتِ المذاهبُ الفقهيَّةُ الأربعةُ -الحنَفيَّةُ والمالِكيَّةُ والشَّافِعيَّةُ والحنابِلةُ- على أنَّ النَّذرَ على وجهِ اللَّجاجِ والغضبِ يَنعقِدُ، على خِلافٍ بيْنَهم: هل يجبُ عليه الوفاءُ بالنَّذرِ، أو تُجزئُه كفَّارةُ اليمينِ، أو يُخَيَّرُ بيْنَهما؟ يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٣/ ١١٠)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ١٦١)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٣/ ٢٩٤)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١١/ ٩٠).

والأقربُ هو التَّخييرُ بيْن الوَفاءِ بما التَزَم أو الكَفَّارةِ، وهو مَذهَبُ الشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ، واختاره ابنُ تيميَّةَ وابنُ القَيِّمِ وابنُ بازٍ وابنُ عُثيمينَ. يُنظر: ((مغني المحتاج)) للشربيني (٤/ ٣٥٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٢٧٤)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٤/ ١١٠)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٢/ ٨٧، ٨٨)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٢٢/ ٣٣، ٣٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفَرَس (٣/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٧٨).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٣٢١).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]. وهذه الآياتُ وأشباهُها تَقتضي أنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ أصحابَ هذه الأعمالِ؛ فهو يُحِبُّ التَّوَّابينَ، ففي هذه الحالِ يُحِبُّهُم، وهذا مبنيٌّ على الصِّفاتِ الاختياريَّةِ، فمَن نفاها رَدَّ هذا كُلَّه[١]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ دليلٌ على تَعبئةِ الحَربِ، والتَّظاهُرِ في القِتالِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ مُناسَبةُ هذه الفاتحةِ لِما بعْدَها مِن السُّورةِ بَيانُ أنَّ الكافرينَ مَحقوقُون بأنْ تُقاتِلوهم؛ لأنَّهم شَذُّوا عن جَميعِ المخلوقاتِ فلمْ يُسبِّحوا اللهَ، ولم يَصِفُوه بصِفاتِ الكمالِ؛ إذ جَعَلوا له شُركاءَ في الإلهيَّةِ، وفيه تَعريضٌ بالَّذين أَخْلَفوا ما وَعَدوا بأنَّهم لم يُؤدُّوا حقَّ تَسبيحِ اللهِ؛ لأنَّ اللهَ مُستحِقٌّ لأنْ يُوفَى بعَهْدِه في الحياةِ الدُّنيا، وأنَّ اللهَ ناصرُ الَّذين آمَنوا على عَدُوِّهم[٣].

- قولُه: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ فيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عبَّر هنا بالماضِي ﴿سَبَّحَ﴾ كما في سُورةِ (الحَديدِ) و(الحَشرِ)، وقال تعالَى في بعضِ السُّورِ: ﴿يُسَبِّحُ﴾ [الجمعة: ١، التَّغابُن: ١] بصِيغةِ المُضارِعِ، وفي البعضِ: ﴿سَبِّحِ﴾ [الأعلى: ١] بصِيغةِ الأمْرِ؛ ليُعلَمَ أنَّ تَسبيحَ اللهِ تَعالى دائمٌ غيرُ مُنقطِعٍ؛ لِما أنَّ الماضيَ يدُلُّ عليه في الماضي مِن الزَّمانِ، والمستقبَلَ يدُلُّ عليه في المستقبَلِ مِن الزَّمانِ، والأمْرَ يدُلُّ عليه في الحالِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٦).

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾

- النِّداءُ بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إنْ كان للمؤمنينَ حقيقةً -ويدُلُّ عليه سببُ النُّزولِ-، فالاستفهامُ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ يُرادُ به التَّلطُّفُ في العَتْبِ، وإنْ كان النِّداءُ للمُنافِقين؛ فالمعْنى: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، أي: بألْسِنَتهم، والاستِفهامُ يُرادُ به الإنكارُ والتَّوبيخُ، وتَهكُّمٌ بهم في إسنادِ الإيمانِ إليهم[١].

- وناداهم بوَصْفِ الإيمانِ تَعريضًا بأنَّ الإيمانَ مِن شأْنِه أنْ يَزَعَ المؤمنَ عن أنْ يُخالِفَ فِعلُه قولَه في الوعْدِ بالخَيرِ[٢].

- قولُه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ اللَّامُ لتَعليلِ المُستفهَمِ عنه، وهو الشَّيءُ المُبهَمُ الَّذي هو مَدلولُ (ما) الاستفهاميَّةِ؛ لأنَّها تدُلُّ على أمْرٍ مُبهَمٍ يُطلَبُ تَعيينُه، والتَّقديرُ: تَقولون ما لا تَفعَلون لأيِّ سَببٍ أو لأيَّةِ عِلَّةٍ؟ وهذا كِنايةٌ عن تَحذيرِهم مِن الوُقوعِ في مِثلِ ما فَعَلوه يومَ أُحُدٍ بطَريقِ الرمْزِ، وكِنايةٌ عن اللَّومِ على ما فَعَلوه يومَ أُحُدٍ بطَريقِ التَّلويحِ[٣].

- قولُه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ معنَاه: لأيِّ شَيءٍ تَقولونَ: (نَفعَلُ) ما لا تَفعَلونَ مِن الخَيرِ والمعروفِ؟ على أنَّ مَدارَ التَّعييرِ والتَّوبيخِ في الحَقيقةِ عدَمُ فِعلِهم، وإنَّما وُجِّهَا إلى قَولِهم تَنبيهًا على تَضاعُفِ مَعصيتِهم، ببَيانِ أنَّ المُنكَرَ ليس تَرْكَ الخَيرِ الموعودِ فقطْ، بلِ الوعدُ به أيضًا، وقد كانوا يَحسَبونَهُ مَعروفًا، ولو قيلَ: (لِمَ لا تَفعلونَ ما تَقولونَ)، لَفُهِمَ منه أنَّ المُنكَرَ هُو ترْكُ الموعودِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٢، ٥٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٧٤، ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٢).

- وفيه تَعريضٌ بالمُنافِقين؛ إذ يُظهِرون الإيمانَ بأقوالِهم وهم لا يَعمَلون أعمالَ أهلِ الإيمانِ بالقلْبِ ولا بالجسَدِ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾؛ تَصريحًا بالمعْنى المُكنَّى عنه بها[٢].

- في قولِه: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المُبالَغةُ والتَّكريرُ؛ ولهذا اعتُبِرَتْ هذه الجُملةُ مِن أفصَحِ الكلامِ وأبلَغِه في معْناهُ؛ لأُمورٍ:

أ- قصَدَ إلى التَّعجُّبِ بغَيرِ صِيغةِ التَّعجُّبِ؛ لتَعظيمِ الأمْرِ في قُلوبِ السَّامعينَ؛ لأنَّ التَّعجُّبَ لا يكونُ إلَّا مِن شَيءٍ خارقٍ للعادةِ والنَّظائرِ.

ب- أسْنَدَ إلى ﴿أَن تَقُولُواْ﴾، ونصَبَ ﴿مَقْتًا﴾ على تَفسيرِه؛ دَلالةً على أنَّ قولَهم ما لا يَفعَلون مَقْتٌ خالصٌ لا شَوبَ فيه؛ لفَرْطِ تَمكُّنِ المَقتِ منه.

ج- اختيارُ لَفظِ المَقْتِ؛ لأنَّه أشدُّ البُغضِ وأبلَغُه.

د- ثُمَّ لمْ يَقتصِرْ على أنْ جَعَلَ البُغضَ كَبيرًا حتَّى جعَلَه أشدَّهُ وأفْحَشَه، وقولُه: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ أبلَغُ مِن ذلك؛ لأنَّه إذا ثبَتَ كِبَرُ مَقْتِه عندَ اللهِ، فقد تمَّ كِبَرُه وشِدَّتُه وانجابَتْ عنه الشُّكوكُ.

هـ- التَّكرارُ لقولِه: ﴿مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وهو لَفظٌ واحدٌ في كلامٍ واحدٍ، ومِن فَوائدِ التَّكرارِ التَّهويلُ والإعظامُ والتَّأكيدُ، وإلَّا فقدْ كان الكلامُ مُستقِلًّا لو قِيل: (كبُرَ مَقتًا عِندَ اللهِ ذلك)، فما إعادتُه إلَّا لمكانِ هذه الفائدةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي =

- وفيه أيضًا اندراجُ الخاصِّ بالعامِّ، وقد ورَدَ النَّهيُ العامُّ عن القولِ غيرِ المؤيَّدِ بالفِعلِ، والمقصودُ اندراجُ الأمْرِ الخاصِّ الَّذي ورَدَ عقِبَ ذلك، وهو قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾.

وفائدةُ مِثلِ هذا النَّظمِ النَّهيُ عن الشَّيءِ الواحدِ مرَّتينِ مُندرِجًا في العمومِ، ومُفرَدًا بالخُصوصِ، وهو أَوْلى مِن النَّهيِ عنه على الخُصوصِ مرَّتَينِ؛ فإنَّ ذلك مَعدودٌ في حَيِّزِ التَّكرارِ، وهذا لا يَتكرَّرُ، مع ما في التَّعميمِ مِن التَّعظيمِ والتَّهويلِ[1].

- وعدلَ عن جَعْلِ فاعِلِ ﴿كَبُرَ﴾ ضَميرَ القَولِ، بأن يَقتَصِرَ على ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ﴾، أو يُقالَ: (كَبُرَ ذلك مَقْتًا)؛ لِقَصدِ زِيادةِ التَّهويلِ بإعادةِ لَفْظِه، ولإفادةِ التَّأكيدِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ بَيانٌ لِما هو مَرْضيٌّ عِندَه تعالَى بعْدَ بَيانِ ما هو مَمقوتٌ عِندَه[3]. وهو أيضًا جوابٌ على تَمنِّيهم مَعرفةَ أحبِّ الأعمالِ إلى اللهِ، وما قبْلَه تَوطئةٌ له على أُسلوبِ الخُطَبِ ومُقدِّماتِها[4].

- قولُه: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ المرصوصُ: المتلاصِقُ بعْضُه ببَعضٍ،

---

= حيان)) (١٠/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٥، ١٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧٧، ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٥٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٦).

وهو تَشبيهٌ في الثَّباتِ وعدَمِ الانفلاتِ، وهو الَّذي اقتَضاهُ التَّوبيخُ السَّابقُ في قولِه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]. وقيل: المرادُ: استواءُ نِيَّاتِهم في الثَّباتِ حتَّى يَكونوا في اجتِماعِ الكلمةِ كالبُنيانِ المرصوصِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٦).

## الآيتان (٥-٦)

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَاغُوٓا۟ ﴾: أي: مالُوا وجارُوا، والزَّيغُ: المَيلُ عن الاستِقامةِ، وأصلُ (زيغ): يدُلُّ على مَيلٍ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قال موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: يا قَومِ، لِمَ تُؤذُونَني وأنتم تَعلَمونَ أنِّي رَسولُ اللهِ إليكم، فلمَّا مالُوا عن الحَقِّ أمالَ اللهُ قُلوبَهم عن الهُدى، واللهُ لا يَهدي القَومَ الخارجِينَ عن طاعتِه.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى جانبًا ممَّا قاله عيسَى عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ، فيقولُ: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قال عيسى ابنُ مَريمَ: يا بني إسرائيلَ إنِّي رَسولُ اللهِ أرسَلَني إليكم مُصَدِّقًا للتَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت مِن قَبلُ على موسى، ومُبَشِّرًا برَسولٍ يأتي مِن بَعْدي اسمُه أحمَدُ، فلمَّا جاءهم بالمُعجِزاتِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ، قال الكافِرونَ: هذا الَّذي جاءَنا به سِحرٌ ظاهِرٌ!

### تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٥).

إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الجِهادَ، ذَكَر قِصَّةَ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ؛ تسليةً لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليصبرَ على أذى قَومِه، مُبتَدِئًا بقِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، لتقَدُّمِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان في المؤمنينَ مَن يقولُ ما لا يَفعَلُ، وهو راجِعٌ إلى الكَذِبِ؛ فإنَّ ذلك في معْنى الإذايةِ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إذ كان في أتْباعِه مَن عانَى الكَذِبَ، فناسَبَ ذِكرُ قصَّةِ مُوسى وقَولِه لقَومِه: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾، وإذايتُهم له كانتْ بانتِقاصِه في نفْسِه، وجُحودِ آياتِ اللهِ تعالَى، واقتِراحاتِهم عليه ما ليس لهم اقتِراحُه[2].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر أمْرَ الجِهادِ؛ بَيَّنَ أنَّ موسى وعيسى عليهما السَّلامُ أَمَرَا بالتَّوحيدِ وجاهَدَا في سَبيلِ اللهِ، وحَلَّ العِقابُ بمَن خالَفَهما[3].

وأيضًا لَمَّا كان التخَلُّفُ عن أمرِ اللهِ تعالى، والغَفلةُ عن شَيءٍ يُؤَدِّي تَرْكُه إلى التَّهاوُنِ به، والإخلالِ بأدَبٍ مِن آدابِه: مُوجِبًا للكَونِ في صَفِّ الشَّيطانِ، ومُفارَقةِ حِزبِ الرَّحمنِ، فيَكونُ آذى الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيُوجِبُ ذلك الشَّقاءَ كُلَّه؛ لأنَّه جَديرٌ بأن يَجُرَّ إلى أكبَرَ منه؛ إلى أن تُحيطَ الخَطايا فتُبيحَ الرَّزايا، وكان للتَّذكيرِ بالمُشاهَداتِ والأُمورِ الواقِعاتِ ما ليس لغَيرِه في التَّأديبِ، ومَرجِعِ التَّرهيبِ- ذكَّرَ بما كان لبني إسرائيلَ؛ ترهيبًا مِن مِثْلِ حالِهم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩).

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قال موسى لِقَومِه بني إسرائيلَ: يا قَومِ، لِمَ تُصيبونَني بما يُؤذِيني، والحالُ أنَّكم تَعلَمونَ عِلمًا يَقينيًّا أنِّي رَسولُ اللهِ إليكم، وأنَّه يَجِبُ عليكم تَعظيمي والانقيادُ لأَمْري[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ * يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ * قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٠ - ٢٦].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قَسَم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَسْمًا، فقال رجُلٌ: إنَّ هذه لَقِسْمةٌ ما أُريدَ بها وَجهُ اللهِ! فأخبَرْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فغَضِبَ، حتَّى رأيتُ الغضَبَ في وَجْهِه، وقال: يَرحَمُ اللهُ

---

ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ١٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩). ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ (الأحزاب) آية رقم (٦٩).

موسى؛ لقد أُوذِيَ بأكثَرَ مِن هذا فصبَرَ!))[١].

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾.

أي: فلمَّا مالَ قَومُ موسى عن الحَقِّ عَمْدًا منهم، أمالَ اللهُ قُلوبَهم عن الهُدى إلى الضَّلالِ؛ عُقوبةً لهم على زَيغِهم عن الحَقِّ، مع تعَمُّدِهم وعِلْمِهم به[٢].

كما قال تعالى حِكايةً عن دُعاءِ الرَّاسِخينَ في العِلمِ: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يوفِّقُ لاتِّباعِ الحقِّ القَومَ الَّذين آثَروا الخُروجَ عن طاعتِه، وأصَرُّوا على مَعصيتِه[٣].

﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٦﴾.

---

(١) رواه البخاريُّ (٦٣٣٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٠٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧، ١٠٠، ١٣٤، ١٣٥)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١، ١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى شيئًا مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع بني إسرائيلَ، ذَكَر أيضًا شيئًا مِن قِصَّةِ عيسى عليه السَّلامُ[1].

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- حينَ قال عيسى ابنُ مَريمَ: يا بني إسرائيلَ إنِّي رَسولُ اللهِ أرسَلَني إليكم؛ لأدعوَكم إلى الخَيرِ، وأنهاكم عن الشَّرِّ[2].

﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

أي: مُصَدِّقًا للتَّوراةِ الَّتي أُنزِلَت مِن قَبلُ على موسى[3].

كما قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

قيل: معنى تصديقِ عيسى للتَّوراةِ: تَصديقُه لها في التَّوحيدِ وجمهرةِ شرائِعِها. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجُملةِ: السمرقنديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٠، ١٨١).

وقيل: المرادُ: أنَّ في التَّوراةِ صِفتَه، وأنَّها بَشَّرَت به، وأنَّه لم يأتِ بما يُخالِفُها. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: القرطبيُّ، والشوكاني، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

أي: ومُبَشِّرًا لكم برَسولٍ يأتي مِن بَعْدي اسمُه أحمَدُ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۞ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وعن أبي أُمامةَ رضي الله عنه، قال: ((قلْتُ: يا نبيَّ الله، ما كان أولُ بدءِ أمرِك؟ قال: دعوةُ أبي إبراهيمَ، وبُشرَى عيسى، ورأتْ أمِّي أنَّه يخرجُ منها نورٌ أضاءَتْ منه قصورُ الشَّامِ))[٢].

وعن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لي خَمسةُ أسماءٍ: أنا محمَّدٌ، وأحمدُ، وأنا الماحي الَّذي يَمحو اللهُ بيَ الكُفرَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٣، ٨٤)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٩٠، ٩١)، ((هداية الحيارى)) لابن القيم (١/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤).

(٢) أخرجه الطيالسي (١٢٣٦) وأحمد (٢٢٢٦١) والطبراني (٧٧٢٩).

قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٥/ ٢٢٥): (إسنادُه حسنٌ، وله شَواهدُ تقويه). وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تحقيقِ ((مسند أحمد)) (٣٦/ ٥٩٦).

وأنا الحاشِرُ الَّذي يُحشَرُ النَّاسُ على قَدَمي، وأنا العاقِبُ[١]))[٢].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُسَمِّي لنا نَفْسَه أسماءً، فقال: أنا محمَّدٌ، وأحمَدُ، والمُقَفِّي[٣]، والحاشِرُ، ونَبيُّ التَّوبةِ، ونبيُّ الرَّحمةِ))[٤].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قراءةُ: ﴿سَاحِرٌ﴾[٥].

٢- قِراءةُ: ﴿سِحْرٌ﴾[٦].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: فلمَّا جاءهم بالمُعجِزاتِ الواضِحةِ الدَّالَّةِ على الحَقِّ، قال المعانِدونَ الكافِرونَ: هذا الَّذي جاءَنا به سِحرٌ ظاهِرٌ[٧].

---

(١) العاقِبُ: الَّذي ليس بَعْدَه نَبيٌّ، والَّذي يَخلُفُ في الخَيرِ مَن كان قَبْلَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٩٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٣٥٣٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٣٥٤).

(٣) المُقَفِّي، أي: المُتَّبِعُ؛ مِن قَفَا أثَرَه: إذا تَبِعَه، يعني: أنَّه آخِرُ الأنبياءِ الآتي على أثَرِهم، ولا نَبيَّ بَعْدَه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٩٧).

(٤) رواه مسلم (٢٣٥٥).

(٥) قرأ بها: حمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

(٦) قرأ بها: الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٥٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

قال ابن جُزَي: (﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ عيسى أو محمَّدًا عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧١). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٣). =

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [سبأ: ٤٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ هذا مِن العُقوبةِ على الذَّنْبِ بالذَّنبِ[١]، والجزاءِ بالمعاصي على المعاصي[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تُفيدُ أنَّ إضلالَ اللهِ لعبادِه ليس ظُلمًا منه، ولا حُجَّةً لهم عليه، وإنَّما ذلك بسَبَبٍ منهم؛ فإنَّهم الَّذين أغلَقوا على أنفُسِهم بابَ الهُدى بعدَما عَرَفوه، فيُجازيهم بعدَ ذلك بالإضلالِ والزَّيغِ الَّذي لا حيلةَ لهم في دَفْعِه، وتقليبِ القُلوبِ؛ عُقوبةً لهم، وعدلًا منه بهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٣] [الأنعام: ١١٠].

---

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، ومكِّي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١١/ ٧٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٤٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، وأبو حيان، والشوكاني، والعُلَيمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٨).

٣- قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ عاقَبَهم سُبحانَه بإزاغةِ قُلوبِهم عن الحَقِّ لَمَّا زاغوا عنه ابتِداءً، ونَظيرُه قَولُه تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]؛ ولهذا قيلَ: مَن عُرِضَ عليه حَقٌّ فرَدَّه فلم يَقبَلْه، عُوقِبَ بفَسادِ قَلْبِه وعَقْلِه ورَأْيِه، ومِن هنا قيلَ: لا رأيَ لصاحِبِ هَوًى؛ فإنَّ هَواه يَحمِلُه على رَدِّ الحَقِّ، فيُفسِدُ اللهُ عليه رأيَه وعَقْلَه[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ أنَّ الإنسانَ كُلَّما أوغَلَ في المعاصي ازداد بُعْدًا عن الإقبالِ على الحَقِّ؛ ولذلك يجبُ أنْ يُعلَمَ أنَّ مِن أشدِّ عُقوباتِ الذُّنوبِ أنْ يُعاقَبَ الإنسانُ بمَرَضِ القَلبِ، فالإنسانُ إذا عُوقِبَ بهَلاكِ حبيبٍ أو فَقْدِ مَحبوبٍ مِن المالِ، فهذه عقوبةٌ لا شكَّ، لكنْ إذا عُوقِبَ بانسلاخِ القَلبِ فهذه العقوبةُ أشدُّ ما يكونُ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ أنَّ مَن أعْرَضَ عن اتِّباعِ الحقِّ الَّذي يَعْلَمُه تَبَعًا لهواهُ، فإنَّ ذلك يُورِثُه الجَهلَ والضَّلالَ حتَّى يَعْمَى قلْبُه عن الحقِّ الواضِحِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ المُنكِرينَ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ تعالى؛ حيثُ أخبَرَ سُبحانَه في كلامٍ واحدٍ عن زَيغِهم وإزاغتِهم[٤]، فجمَعَ سُبحانَه بيْنَ الأمْرينِ في قولِه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٣٩).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٣).

ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾، فالإزاغةُ فِعلُه، والزَّيغُ فِعلُهم[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أنَّ إضلالَ مَن ضَلَّ ليس لمجَرَّدِ المشيئةِ، بل لوجودِ العِلَّةِ الَّتي كانت سَببًا في إضلالِ اللهِ العبدَ[٢]؛ فمَن زَاغَ عنِ الحقِّ فهو السَّبَبُ، ولا يمكنُ لأحدٍ أنْ يَزيغَ إلَّا وهو السَّبَبُ في زَيغِ نَفْسِه[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ الخارِجَ عن طاعةِ اللهِ لا يَهديه اللهُ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وقَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [النساء: ٩٤].

وأيضًا يُشْكِلُ على هذا أنَّ الواقعَ أنَّ اللهَ قد يَهدي الفاسِقينَ، وقد يَهدي الكافِرينَ، فكيف نَجْمَعُ بيْن الواقعِ وهذا الخبرِ الصَّادقِ؟

**الجوابُ مِن عدَّةِ أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ الآيةَ مِن العامِّ المخصوصِ؛ فهي في خُصوصِ الأشقياءِ الَّذين أزاغ اللهُ قُلوبَهم عن الهُدى لشَقاوتِهم الأزَليَّةِ. فقولُه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ أي: الَّذين كَتَبَ اللهُ عليهم الفِسْقَ، وأمَّا مَن كَتَبَ عليه أنْ يُؤمِنَ، فيُؤمِنُ ولا بُدَّ، ولكنَّ الفائدةَ مِن هذا -أي: مِن إطلاقِ قَولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾- الإشارةُ إلى أنَّ عدمَ هِدايةِ اللهِ للقومِ الفاسِقينَ؛ لأنَّهم اختاروا الفِسْقَ، كما قال

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٢).

اللهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾. فالآيةُ عُمومٌ معناه الخُصوصُ فيمَن حتَمَ فِسقَه وموافاتَه عليه.

**الثَّاني**: أنَّ المعنى: لا يَهدِيهم ما داموا على فِسْقِهم، فإن تابُوا منه هَداهم.

**الثَّالثُ**: أنَّه يحتملُ أن يريدَ الإخبارَ عن أنَّ الفاسِقَ في فِسْقِه ليس على هُدًى مِن الله، فتَجيءَ الآيةُ عامَّةً تامَّةَ العُمومِ[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ وعيدٌ شديدٌ، وأنَّ الفاسِقَ عُرْضةٌ لِئلَّا يَهديَه اللهُ عزَّ وجلَّ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ فيه تنبيهٌ على عَظيمِ إيذاءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، حتَّى إنَّه يؤدِّي إلى الكُفرِ، وزَيغِ القُلوبِ عن الهُدى[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾. قال عيسى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ مِن حيثُ لم يكُنْ له فيهم أبٌ، وإن كانت أمُّه منهم؛ لأنَّ النَّسَبَ لا يكونُ إلَّا مِن جِهةِ الأبِ، وإنْ كانت أمُّه مَريمَ مِن أشرَفِهم نَسَبًا[٤].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّ بني إسرائيلَ بَعْدَ موسى عليه السَّلامُ اشتُهِروا بعنوانِ (بني إسرائيلَ)، ولم يُطلَقْ عليهم عنوانُ: (قومُ موسى) إلَّا في مُدَّةِ حياةِ موسى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٥٨، ٤٦٨)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

خاصَّةً؛ فإنَّهم إنَّما صاروا أمَّةً وقومًا بسَبَبِه وشَريعتِه، فأمَّا عيسى عليه السَّلامُ فإنَّما كان مُرسَلًا بتأييدِ شَريعةِ موسى، والتَّذكيرِ بها، وتغييرِ بَعضِ أحكامِها، ولأنَّ عيسى حينَ خاطَبَهم لم يكونوا قد اتَّبَعوه، ولا صَدَّقوه، فلم يكونوا قومًا له خالِصينَ[١]. أو ناداهُم بذلك استمالةً لقُلوبِهم إلى تَصديقِه واستعطافًا، أي: إنِّي أُرسِلْتُ إليكم في حالِ تَصديقي لكتابٍ نَزَلَ إليكم يا بني إسرائيلَ خاصَّةً[٢].

٨- المقصودُ مِن تَنبيهِ عيسى عليه السَّلامُ لبني إسرائيلَ على هذا التَّصديقِ حِينَ ابتَدَأَهم بالدَّعوةِ في قولِه: ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ تَقريبُ إجابتِهم، واسْتِنزالُ طائرِهم؛ لشِدَّةِ تَمسُّكِهم بالتَّوراةِ، واعتقادِهم أنَّ أحكامَها لا تَقبَلُ النَّسخَ، وأنَّها دائمةٌ؛ ولذلك لَمَّا ابتَدَأَهم بهذه الدَّعوةِ لم يَزِدْ عليها ما حُكِيَ عنه في سُورةِ (آلِ عِمرانَ) مِن قولِه: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فيُحمَلُ ما هنالك على أنَّه خِطابٌ واقعٌ بعْدَ أوَّلِ الدَّعوةِ؛ فإنَّ اللهَ لم يُوحِ إليه أوَّلَ مرَّةٍ بنسْخِ بَعضِ أحكامِ التَّوراةِ، ثمَّ أوحاهُ إليه بعْدَ ذلك، فحِينَئذٍ أخْبَرَهم بما أُوحِيَ إليه[٣].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ إنَّما أخْبَرَهم بمَجيءِ رَسولٍ مِن بعْدِه؛ لأنَّ بني إسرائيلَ لم يَزالُوا يَنتظِرون مَجيءَ رسولٍ مِن اللهِ يُخلِّصُهم مِن بَراثِنِ المُتسلِّطين عليهم، وهذا الانتظارُ دَيدَنُهم، وهم مَوعودون بهذا المُخلِّصِ لهم على لِسانِ أنْبيائهم بعْدَ مُوسى عليه السَّلامُ، فكان وَعدُ عِيسى به كوَعْدِ مَن سَبَقَه مِن أنبيائِهم، وفاتَحَهم به في أوَّلِ الدَّعوةِ اعتِناءً بهذه الوصيَّةِ، وفي الابتداءِ بها تَنْبيهٌ على أنْ ليس عِيسى عليه السَّلامُ هو المُخلِّصَ المُنتظَرَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٠).

وأنَّ المُنتظَرَ رسولٌ يأْتي مِن بعْدِه، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ولعِظَمِ شأْنِ هذا الرَّسولِ الموعودِ به، أراد اللهُ أنْ يُقِيمَ للأُمَمِ الَّتي يَظهَرُ فيها عَلاماتٍ ودَلائلَ؛ ليَتبيَّنوا بها شَخْصَه، فيَكونَ انطباقُها فاتحةً لإقبالِهم على تَلقِّي دَعوتِه، وإنَّما يَعرِفُها حقَّ مَعرفتِها الرَّاسِخون في الدِّينِ مِن أهلِ الكتابِ؛ لأنَّهم الَّذين يَرجِعُ إليهم الدَّهْماءُ مِن أهْلِ مِلَّتِهم[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ لم يَقُلْ: «ومُصَدِّقًا»، بل قال: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾، وهذا أبلَغُ؛ لأنَّ المُبَشَّرَ به يكونُ نِعمةً على مَن بُشِّرَ به، فيَكونُ تصديقُه مِن بابِ تصديقِ الخبرِ، وشُكْرِ النِّعَمِ، ومع ذلك رَفَضوا هذه البِشارةَ وأنكَروها، ولم يُؤمِنوا بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، إذَنْ فهم حقيقةً كافِرونَ بعِيسى، وعيسى خَصْمُهم يومَ القيامةِ؛ لأنَّ اللهَ سيَقولُ له: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦] الآياتِ[2]، وحينَئذٍ؛ فلا يَصِحُّ أنْ يَنتسِبَ النَّصارى إلى عيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فيقولوا: إنَّهم مَسيحيُّون؛ إذْ لو كانوا كذلك حقيقةً لَآمَنوا بما بَشَّرَ به المَسيحُ ابنُ مريمَ؛ لأنَّ عيسى ابنَ مريمَ وغيرَه مِن الرُّسُلِ قد أَخَذَ اللهُ عليهم العَهدَ والميثاقَ أنْ يُؤمِنوا بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾[3] [آل عمران: ٨١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ سؤالٌ: كيف الجوابُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٥/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٣٣، ١٣٤).

عن شُبهةِ: أنَّ اسمَ الرَّسولِ المُبَشَّرِ به هو «محمَّدٌ» وليس «أحمدَ»؟!

**الجوابُ**: أنَّ الرَّسولَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ له أسماءٌ مُتعَدِّدةٌ: أحمدُ، محمَّدٌ، العاقِبُ، الحاشِرُ، أسماؤُه كثيرةٌ معروفةٌ، ولا مانعَ مِن أنْ يَتَسَمَّى الواحِدُ بعدةِ أسماءٍ؛ فهو أحمدُ، ومحمَّدٌ، ويدُلُّ على هذا قولُه عزَّ وجلَّ في السُّورةِ نفْسِها: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ يعني: أحمدَ -على قولٍ- ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، و «جاء» فعلٌ ماضٍ يدُلُّ على أنَّ المجيءَ قد سَبَقَ بعدَ البِشارةِ، ولا نَعْلَمُ في التَّاريخِ أنَّ بيْنَ عيسى ومحمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليهما وسلَّم- رَسولًا، وألْهَم اللهُ تعالى عيسى أنْ يقولَ: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾؛ لحِكمةٍ بالغةٍ عظيمةٍ؛ حيثُ جاء باسمِ التَّفضيلِ «أحمدَ» لِيُنَبِّهَ بني إسرائيلَ على أنَّ هذا الرَّسولَ -صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم- أحمدُ النَّاسِ للهِ عزَّ وجلَّ. والثَّاني: أنه أحمدُ مَن حُمِدَ؛ فالنَّاسُ يَحمَدونَ فُلانًا وفُلانًا وفُلانًا، وأحمدُ النَّاسِ، أي: أحقُّ مَن يُحمَدُ هو الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ حتَّى لا يقولَ بنو إسرائيلَ: إنَّ هناك رَسولًا أفضلَ منه[1]!

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

- ومَوقعُ هذه الآيةِ هنا خَفِيُّ المُناسَبةِ؛ فيجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُعترِضةً استِئنافًا ابتدائيًّا، انتُقِلَ به مِن النَّهيِ عن عدَمِ الوفاءِ بما وَعَدوا اللهَ عليه إلى التَّعريضِ بقومٍ آذَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالقولِ أو بالعصيانِ أو نحْوِ ذلك، فيَكونَ الكلامُ مُوجَّهًا إلى المنافِقينَ؛ فقدْ وُسِموا بأذَى الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٠).

وَٱلْأَخِرَةِ ﴾ [الأحزاب: ٥٧] الآيةَ، وقولِه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، وقولِه: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ [التوبة: ٦١]، وعلى هذا الوجْهِ فهو اقتِضابٌ[١] نُقِل به الكلامُ مِن الغرَضِ الَّذي قبْلَه لتَمامِه إلى هذا الغرَضِ[٢].

وقيل: الجملةُ كَلامٌ مُستأنَفٌ مُقرِّرٌ لِما قبْلَه مِن شَناعةِ ترْكِ القتالِ[٣].

أو تَكونَ مُناسَبةُ وَقْعِ هذا الكلامِ في هذا الموقعِ حُدوثَ سَببٍ اقْتَضى نُزولَه مِن أذًى قد حدَثَ، والواوُ على هذا الوجْهِ عطْفُ غرَضٍ على غرَضٍ، وهو المُسمَّى بعطْفِ قِصَّةٍ على قصَّةٍ.

ويجوزُ أنْ تكونَ مِن تَتمَّةِ الكلامِ الَّذي قبْلَها؛ ضرَبَ اللهُ مثلًا للمسلمينَ لتَحذيرِهم مِن إتيانِ ما يُؤذي رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ويَسوؤُه مِن الخُروجِ عن جادَّةِ الكَمالِ الدِّينيِّ، مِثلُ عدَمِ الوفاءِ بوَعْدِهم في الإتيانِ بأحبِّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالَى، وأشْفَقَهم مِن أنْ يكونَ ذلك سَببًا للزَّيغِ والضَّلالِ كما حدَثَ لقومِ مُوسى لَمَّا آذَوْهُ، وعلى هذا الوجْهِ فالمُرادُ بأذَى قومِ مُوسى إيَّاهُ: عدَمُ تَوخِّي طاعتِه ورِضاه، فيَكونُ ذلك مُشيرًا إلى ما حكاهُ اللهُ عنه مِن قولِه: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾، إلى قولِه: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾ [المائدة: ٢١- ٢٤]؛ فإنَّ قولَهم ذلك استِخفافٌ؛ يدُلُّ

---

(١) الاقتِضابُ: هو الانتِقالُ ممَّا افتُتِح به الكلامُ إلى المقصودِ مُباشَرةً بدونِ رابطةٍ بيْنَهما. يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (٣/ ١٣٩)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد الخطيب (١/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٧، ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣).

لذلك قولُه عَقِبَه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، وقد يكونُ وَصْفُهم في هذه الآيةِ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ ناظرًا إلى وَصْفِهم بذلك مرَّتينِ في آيةِ سُورةِ (المائدةِ) في قولِه: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، وقولِه: ﴿فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦]؛ فيَكونُ المقصودُ الأهمُّ مِن القصَّةِ هو ما تَفرَّعَ على ذِكرِها مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾. ويُناسِبُ أنْ تكونَ هذه الآيةُ تَحذيرًا مِن مُخالَفةِ أمْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وعِبرةً بما عَرَضَ لهم مِن الهَزيمةِ يومَ أُحُدٍ لَمَّا خالَفوا أمْرَه مِن عدَمِ ثَباتِ الرُّماة في مَكانِهم، والواوُ على هذا الوجْهِ عطْفُ تَحذيرٍ مأخوذٍ مِن قولِه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾ على النَّهيِ الَّذي في قولِه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢] الآيةَ، ويَتبَعُ ذلك تَسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على ما حصَلَ مِن مُخالَفةِ الرُّماةِ حتَّى تَسبَّبوا في هَزيمةِ النَّاسِ[1].

- ولَمَّا وبَّخَ اللهُ تعالَى المؤمنينَ الَّذين ما وَفَّوا بما عاهَدوا، وأخْلَفوا المواعيدَ تَمهيدًا وبِساطًا لقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ﴾ [الصف: ٤]، حتَّى يَكونوا في اجتِماعِ الكلمةِ كالبُنيانِ المرصوصِ في القِتالِ؛ حذَّرَهم ممَّا لَقِيَ قومُ مُوسى مِن إزاغةِ القُلوبِ، والحِرمانِ مِن التَّوفيقِ بسَببِ الأذى، وممَّا ارتَكَبَ قومُ عِيسى بعْدَ مَجيئِه بالبيِّناتِ، مِن تَكذيبِه وقولِهم فيه: ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [الصف: ٦]، ألَا تَرى كيف جمَعَ الكلَّ في قولِه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الصف: ٧]، أي: قَضيَّةُ الدَّعوى إلى الإسلامِ تَوقيرُ مَن يَدْعو إليه، وتوقيرُ حُرمتِه، وإجابةُ دَعوتِه، والتَّفادي عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٧، ١٧٨).

إخلافِ المواعيدِ، وعمَّا يُؤذِيه مِن القولِ والفعلِ[١]؟

- وابتداءُ كَلامِ مُوسى عليه السَّلامُ بقولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ تَعريضٌ بأنَّ شأْنَ قَومِ الرَّسولِ أنْ يُطِيعوه، بَلْهَ ألَّا يُؤذُوه؛ ففي النِّداءِ بوصْفِ (قَوْم) تَمهيدٌ للإنكارِ في قولِه: ﴿لِمَ تُؤۡذُونَنِي﴾، والاستفهامُ للإنكارِ، أي: إنكارِ أنْ يكونَ للإذايةِ سَببٌ[٢].

- وقد جاءتْ جُملةُ الحالِ مِن قولِه: ﴿وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مُصادِفةً المحلَّ مِن التَّرقِّي في الإنكارِ، وحرْفُ (قَدْ) لتَحقيقِ معْنى الحاليَّةِ، أي: وعِلْمُكم برِسالتي عن اللهِ أمْرٌ مُحقَّقٌ لِمَا شاهَدْتموه مِن دَلائلِ رِسالتِي. وكما أكَّدَ عِلْمَهم بـ (قدْ) أكَّدَ حُصولَ المعلومِ بـ (أنَّ) المفتوحةِ؛ فحصَلَ تأْكيدانِ للرِّسالةِ، والمعْنى: فكيف لا يَجْري أمْرُكم على وَفْقِ هذا العِلمِ[٣]؟!

- والإتيانُ بعْدَ حرْفِ (قدْ) بالمُضارعِ ﴿تَّعۡلَمُونَ﴾ هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّ عِلمَهم بذلك مُجدَّدٌ بتَجدُّدِ الآياتِ والوحْيِ، وذلك أجْدى بدَوامِ امتثالِه؛ لأنَّه لو جِيءَ بفِعلِ المُضِيِّ لَما دلَّ على أكثرَ مِن حُصولِ ذلك العِلمِ فيما مَضى[٤]. وقيل: المضارعُ هنا معْناه المُضِيُّ، أي: وقدْ عَلِمْتم، وعُبِّرَ عنه بالمضارعِ ليَدُلَّ على استِصحابِ الفعلِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٤، ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٨، ١٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٥).

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ مُقرِّرٌ لمَضمونِ ما قبْلَه مِن الإزاغةِ، ومُؤذِنٌ بعِلَّتِه، أيْ: لا يَهدِي القومَ الخارجينَ عن الطَّاعةِ ومِنهاجِ الحقِّ، المُصرِّينَ على الغَوايةِ؛ هِدايةً مُوصِلةً إلى البُغْيةِ، وإلَّا فالهدايةُ إلى ما يُوصِلُ إليها شاملةٌ للكُلِّ، والمُرادُ بهم إمَّا المذكورون خاصَّةً، والإظهارُ في مَوقعِ الإضمارِ لذَمِّهم بالفِسقِ، وتَعليلِ عدَمِ الهدايةِ بهِ، أو المرادُ جِنسُ الفاسِقينَ، وهمْ داخلون في حُكمِه دُخولًا أوَّليًّا، وأيًّا ما كانَ فوَصْفُهم بالفِسقِ ناظرٌ إلى ما في قولِه: ﴿فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾[1] [المائدة: ٢٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذۡ قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ﴾ [الصف: ٥]؛ فعلى الوجْهِ الأوَّلِ في مَوقعِ الَّتي قبْلَها -وهو أنْ تكونَ الجُملةُ مُعترِضةً استِئنافًا ابتدائيًّا، انتُقِلَ به مِن النَّهيِ عن عدَمِ الوفاءِ بما وَعَدوا اللهَ عليه إلى التَّعريضِ بقومٍ آذَوُا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالقولِ أو بالعصيانِ أو نحْوِ ذلك، فيَكونَ الكلامُ مُوجَّهًا إلى المنافقينَ، والواوُ على هذا الوجْهِ عطْفُ غرَضٍ على غرَضٍ، وهو المُسمَّى بعطْفِ قصَّةٍ على قصَّةٍ -؛ فمَوقعُ هذه مُساوٍ له. وأمَّا على الوجْهِ الثَّاني في الآيةِ السَّابقةِ -وهو أنْ تكونَ مِن تَتمَّةِ الكلامِ الَّذي قبْلَها، بضربِ مثلٍ للمسلمينَ لتَحذيرِهم مِن إتيانِ ما يُؤذي رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-؛ فإنَّ هذه مَسوقةٌ مَساقَ التَّتميمِ لقِصَّةِ مُوسى عليه السَّلامُ، بذِكرِ مِثالٍ آخَرَ لقومٍ حادُوا عن طاعةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إليهم، مِن غيرِ إفادةِ تَحذيرٍ للمُخاطَبينَ مِن المسلمينَ، وللتَّخلُّصِ إلى ذِكرِ أخبارِ عِيسى بالرَّسولِ الَّذي يَجيءُ بعْدَه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٧٩، ١٨٠).

- قولُه: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ التَّبشيرُ: الإخبارُ بحادثٍ يَسُرُّ، وأُطلِقَ هنا على الإخبارِ بأمْرٍ عَظيمِ النَّفعِ لهم؛ لأنَّه يَلزَمُه السُّرورُ الحقُّ؛ فإنَّ مَجيءَ الرَّسولِ إلى النَّاسِ نِعمةٌ عَظيمةٌ(١).

- ومَحمَلُ قولِه: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ يَجري على جَميعِ ما يَحمِلُه جُزْءًا هذه الجُملةِ مِن المعاني، والأصلُ حمْلُ ألفاظِ القُرآنِ على جَميعِ المعاني الَّتي يَسمَحُ بها الاستعمالُ الفصيحُ؛ فيُحمَلُ الاسمُ في قولِه: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ على ما يَجمَعُ بيْن هذه الاستِعمالاتِ الثَّلاثةِ؛ أي: مُسمَّاهُ أحمدُ، وذِكرُه أحمَدُ، وعَلَمُه أحمَدُ. ويُحمَلُ لفظُ (أحمد) على ما لا يَأباهُ واحدٌ مِن استعمالاتِ (اسمٍ) الثَّلاثةِ إذا قُرِنَ به؛ وهو أنَّ (أحمد) اسمُ تَفضيلٍ يَجوزُ أنْ يكونَ مَسلوبَ المفاضَلةِ مَعْنيًّا به القوَّةُ فيما هو مُشتقٌّ منه، أي: في الحمدِ، وهو الثَّناءُ؛ فيَكونَ (أحمد) هنا مُستعمَلًا في قوَّةِ مَفعوليَّةِ الحمْدِ، أي: حمْدِ النَّاسِ إيَّاه، وهذا مِثلُ قولِهم: «العَودُ أحمَدُ»، أي: محمودٌ كثيرًا.

فالوصْفُ بـ (أحمد) بالنِّسبةِ للمعْنى الأوَّلِ في (اسم) أنَّ مُسمَّى هذا الرَّسولِ ونفْسَه مَوصوفةٌ بأقْوى ما يُحمَدُ عليه مَحمودٌ، فيَشملُ ذلك جميعَ صِفاتِ الكمالِ النَّفسانيَّةِ والخِلْقيةِ، والخُلُقيَّةِ والنَّسَبيةِ، والقَوميَّةِ، وغير ذلك ممَّا هو مَعدودٌ مِن الكَمالاتِ الذَّاتيَّةِ والعرَضيَّةِ.

ويَصِحُّ اعتبارُ (أحمد) تَفضيلًا حقيقيًّا في كَلامِ عِيسى عليه السَّلامُ، أي: مُسمَّاهُ أحمَدُ منِّي، أي: أفضَلُ، أي: في رِسالتِه وشَريعتِه. وعباراتُ الإنجيلِ تُشعِرُ بهذا التَّفضيلِ، ففي إنجيلِ يُوحنَّا في الإصحاحِ الرَّابعَ عشَرَ: (... يُعطيكم «فارقليطَ»(٢)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨١).

(٢) لفظُ الفارقليط في لغتِهم قيل: إنَّه الحمَّادُ، وقيل: إنَّه الحامِدُ، وقيل: إنَّه الحمدُ، إلى غير ذلك. =

آخَرَ؛ ليَثبُتَ معكم إلى الأبَدِ، رُوح الحقِّ الَّذي لا يَستطيعُ العالَمُ أنْ يَقبَلَه؛ لأنَّه لا يَراهُ ولا يَعرِفُه). ثمَّ قال: (... يُعلِّمُكم كلَّ شَيءٍ، ويُذكِّرُكم بكلِّ ما قُلْتُه لكم)، أي: في جُملةِ ما يُعلِّمُكم أنْ يُذكِّرَكُم بكلِّ ما قُلْتُه لكم. وهذا يُفيدُ تَفضيلَه على عِيسى بفَضيلةِ دَوامِ شَريعتِه المعبَّرِ عنها بقَولِ الإنجيلِ: (ليَثبُتَ معكم إلى الأبَدِ)، وبفَضيلةِ عُمومِ شَرْعِه للأحكامِ المعبَّرِ عنه بقولِه: (يُعلِّمُكم كلَّ شَيءٍ).

والوصْفُ بـ (أحمد) على المعْنى الثَّاني في الاسمِ: أنَّ سُمْعتَه وذِكْرَه في جِيلِه والأجيالِ بعْدَه مَوصوفٌ بأنَّه أشدُّ ذِكرٍ مَحمودٍ وسُمعةٍ مَحمودةٍ، وأنَّ اللهَ يَبعَثُه مَقامًا مَحمودًا.

ووَصْفُ (أحمد) بالنِّسبةِ إلى المعنى الثَّالثِ في الاسمِ رمْزٌ إلى أنَّه اسْمُه العَلَمُ يكونُ بمعْنى (أحمدَ)؛ فإنَّ لفظَ (محمَّد) اسمُ مَفعولٍ مِن حمَّدَ -المضاعَفِ- الدَّالِّ على كَثرةِ حمْدِ الحامِدينَ إيَّاه، كما قالوا: فلانٌ مُمَدَّحٌ؛ إذا تَكرَّرَ مَدْحُه مِن مادِحينَ كَثيرينَ، فاسمُ (محمَّد) يُفيدُ معْنى المحمودِ حمْدًا كثيرًا، ورُمِزَ إليه بـ (أحمدَ).

وهذه الكلمةُ الجامِعةُ الَّتي أَوحى اللهُ بها إلى عِيسى عليه السَّلامُ، أراد اللهُ بها أنْ تكونَ شِعارًا لجِماعِ صِفاتِ الرَّسولِ الموعودِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، صِيغَت بأقْصى صِيغةٍ تدُلُّ على ذلك إجمالًا بحسَبِ ما تَسمَحُ اللُّغةُ بجَمْعِه مِن مَعانٍ، ووُكِلَ تَفصيلُها إلى ما يَظهَرُ مِن شَمائلِه قبْلَ بَعثَتِه وبعْدَها؛ ليَتوسَّمَها المُتوسِّمون، ويَتدبَّرَ مَطاوِيَها الرَّاسِخون عندَ المُشاهَدةِ والتَّجرِبةِ[1].

- وذِكرُ القُرآنِ تَبشيرَ عِيسى بمحمَّدٍ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، إدماجٌ[2] في

---

= يُنظر: ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٣- ١٨٥).

(٢) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ =

خِلالِ المقصودِ الَّذي هو تَنظيرُ ما أُوذِيَ به مُوسى مِن قومِه وما أُوذِيَ به عِيسى مِن قَومِه؛ إدماجًا يُؤيِّدُ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ويُثبِّتُ فُؤادَه، ويَزيدُه تَسليةً. وفيها تَخلُّصٌ إلى أنَّ ما لَقِيَه مِن قَومِه نَظيرُ ما لَقِيَه عِيسى مِن بني إسرائيلَ[1].

- ولَمَّا فرَغَ مِن كَلامِ عِيسى عليه السَّلامُ، تَطرَّقَ إلى الإخبارِ عن أحمَدَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على أحدِ الاحتمالينِ-، فقالَ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ وذلك على سَبيلِ الإخبارِ للمُؤمنينَ، أي: فلمَّا جاء المبشَّرُ به هؤلاء الكفَّارَ بالمُعجِزاتِ الواضحةِ، قالوا: هذا سِحرٌ مُبينٌ[2]. وعلى هذا الاحتمالِ يكونُ ضَميرُ الرَّفعِ عائدًا إلى (رَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي)، وضَميرُ النَّصبِ عائدًا إلى لَفظِ (بَنِي إِسْرَائِيلَ)، أي: بني إسرائيلَ غيرِ الَّذين دَعاهم عِيسى عليه السَّلامُ، مِن بابِ: عِندي دِرهمٌ ونِصفُه، أي: نِصفُ ما يُسمَّى بدِرهمٍ، أي: فلمَّا جاءَهم الرَّسولُ الَّذي دعاهُ عِيسى باسمِ أحمَدَ بالبيِّناتِ

---

= إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْأُولَىٰ وَٱلْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٦).

-أي: دَلائلِ انطباقِ الصِّفاتِ الموعودِ بها- قالوا: هذا سِحرٌ مُبينٌ، ويحتمِلُ أنْ يَعودَ ضَميرُ الرَّفْعِ في قولِه: ﴿جَآءَهُم﴾ إلى عيسَى، وأنْ يعودَ ضميرُ النَّصْبِ إلى الَّذينَ خاطَبَهم عيسَى. والتَّقديرُ: فكَذَّبوه، فلَمَّا جاءَهم بالمُعجزاتِ قالوا: هذا سِحْرٌ مُبينٌ. فيكونَ هذا التَّركيبُ مِن قَبيلِ الكلامِ المُوجَّهِ (أي: يصلحُ لاحتِمالِ معنيَينِ)، وحصَلَ أذاهم بهذا القولِ لِكِلا الرَّسولينِ؛ فالجُملةُ على هذا الاحتِمالِ تُحمَلُ على أنَّها اعتراضٌ بيْن المُتعاطِفاتِ، ومُمهِّدةٌ للتَّخلُّصِ إلى مَذمَّةِ المشرِكين وغيرِهم ممَّن لم يَقبَلْ دَعوةَ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[1].

- وتَسميةُ ما جاء به سِحرًا؛ للمُبالَغةِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤).

## الآيات (٧-٩)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

### غريب الكلمات

﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: أي: اختلَق، والافتراءُ: الاختلاقُ، ومنه قيل: افترَى فُلانٌ على فُلانٍ، إذا قذَفه بما ليس فيه، وأصلُ (فري): قطْعُ الشَّيءِ؛ فالفَرْيُ: قطعُه لإصلاحِه، والإفراءُ: قطعُه للإفسادِ، والافتِراءُ فيهما، وفي الإفسادِ أكثرُ[1].

﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾: أي: لِيُعليَه ويَنصُرَه؛ مِن المُعاوَنةِ والغَلَبةِ، يُقالُ: ظهَرَ على الشَّيءِ؛ إذا غلَبَه وعلاه، ويصحُّ أن يكونَ مِن البُروزِ، وظَهَر الشَّيءُ أصْلُه: أن يَحصُلَ شَيءٌ على ظَهْرِ الأرضِ فلا يخفى، ثمَّ صار مُستعمَلًا في كلِّ بارِزٍ مُبصَرٍ بالبصَرِ والبَصيرةِ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ومَن أشَدُّ ظُلمًا ممَّن اختَلَق على اللهِ الكَذِبَ وهو يُدعَى إلى الدُّخولِ في دِينِ الإسلامِ؟! واللهُ لا يَهْدي القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى غرَضَ هؤلاءِ الظَّالِمينَ مِن وراءِ افتِرائِهم الكذبَ على الدِّينِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢١١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤١)، ((تفسير البغوي)) (٢/ ٣٤٠).

الحقِّ، فيقولُ: يُريدُ الكافِرونَ أن يُبْطِلوا الحَقَّ الَّذي جاءهم مِن عندِ اللهِ بما يَتفَوَّهونَ به مِن أكاذيبَ، واللهُ مُتِمُّ الحَقِّ، ولو كَرِهَ ذلك الكافِرونَ.

ثمَّ يُؤكِّدُ الله تعالى وعْدَه بإتمامِ نورِه، فيقولُ: اللهُ هو الَّذي بَعَث رَسولَه مُحمَّدًا -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بالعِلمِ النَّافِعِ وبدِينِ الإسلامِ؛ ليُعلِيَ اللهُ الإسلامَ على سائِرِ الأديانِ، ولو كَرِهَ المُشرِكونَ ذلك.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه كانتْ دَعوةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُماثِلةً دَعوةَ عِيسى عليه السَّلامُ، وكان جَوابُ الَّذين دَعاهم إلى الإسلامِ مِن أهلِ الكتابَينِ والمشركينَ مُماثلًا لجَوابِ الَّذين دَعاهم عليه السَّلامُ، فلمَّا أُدمِجَ في حِكايةِ دَعوةِ عِيسى بِشارتُه برَسولٍ يَأْتي مِن بَعْدِه، ناسَبَ أنْ يُنقَلَ الكلامُ إلى ما قابَلَ به قومُ الرَّسولِ الموعودِ دَعوةَ رَسولِهم؛ فلذلك ذُكِرَ في دَعوةِ هذا الرَّسولِ دِينُ الإسلامِ[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ﴾.

أي: ولا أحَدَ أشَدُّ ظُلمًا ممَّن اختَلَق على اللهِ الكَذِبَ، والحالُ أنَّه يُدْعَى إلى الدُّخولِ في دِينِ الإسلامِ[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٨، ١٨٩).

قال ابنُ جرير: (هو قَولُ قائِلِهم للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: هو ساحِرٌ، وما جاء به سِحرٌ، فكذلك =

كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٨].

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ لا يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ القومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم، فاختَلَقوا على اللهِ الكَذِبَ، وأصَرُّوا على رَدِّ الحَقِّ مع وُضوحِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾.

أي: يُريدُ الكافِرونَ أن يُبْطِلوا الحَقَّ الَّذي جاء به مُحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن عندِ اللهِ، بما يَتفَوَّهونَ به مِن أكاذيبَ وافتراءاتٍ لا بُرْهانَ عليها[2]!

---

= افتراؤُه على اللهِ الكَذِبَ ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾، يَقولُ: إذا دُعِيَ إلى الدُّخولِ في الإسلامِ قال على اللهِ الكَذِبَ، وافترى عليه الباطِلَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤).

وقال القرطبي: (هذا تعَجُّبٌ ممَّن كَفَر بعيسى ومحمَّدٍ بعدَ المُعجِزاتِ الَّتي ظهَرَت لهما). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٤).

وقال القاسمي: (هذه الآيةُ إمَّا مُستأنَفةٌ لتحقيقِ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، طليعةٌ للآياتِ بَعْدَها، وإمَّا مُتَمِّمةٌ لِما قبْلَها؛ لتقبيحِ ما بَهَت به الإسرائيليُّونَ عيسى عليه السَّلامُ، مع الإشارةِ بعُمومِها إلى ذمِّ كلِّ مَن كان على شاكِلَتِهم. ولا يُقالُ: الإسلامُ يؤيِّدُ الأوَّلَ لأنَّه عُنوانُ المِلَّةِ الحَنيفيَّةِ؛ لأنَّه قد يُرادُ به معناه اللُّغَويُّ، وقد كثُر ذلك في آياتٍ شَتَّى، نعمْ الأقرَبُ الأوَّلُ، واحتِمالُ مِثلِ الآيةِ لهذَينِ الوجهَينِ مِن بدائعِ التَّنزيلِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٢/ ٤٩١)، ((تفسير =

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾.

أي: واللهُ قد تكفَّل بإتمامِ الحَقِّ، وإشاعةِ نُورِه في الآفاقِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢].

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

أي: ولو كَرِهَ ذلك الكافِرونَ باللهِ مِن المُشرِكينَ أو اليَهودِ، أو النَّصارى أو غَيرِهم[٢].

ثمَّ ذكَرَ الله تعالى سببَ الظُّهورِ والانتِصارِ للدِّينِ الإسلاميِّ[٣]، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي بَعَث رَسولَه مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالعِلمِ النَّافِعِ المُشتَمِلِ على الإيمانِ الصَّحيحِ، ومَعرفةِ أحكامِ اللهِ، وبَعَثَه بدِينِ الإسلامِ المُشتَمِلِ على

---

= السعدي)) (ص: ٨٥٩).

قال ابنُ كثير: (أي: يحاوِلونَ أن يَرُدُّوا الحَقَّ بالباطِلِ، ومَثَلُهم في ذلك كمَثَلِ مَن يريدُ أن يُطفِئَ شُعاعَ الشَّمسِ بفِيه! وكما أنَّ هذا مُستحيلٌ، كذلك ذاك مُستحيلٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩، ١٩٠).

وقال ابن جرير: (﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ يعني: بقَولِهم: إنَّه ساحِرٌ، وما جاء به سِحرٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

الأعمالِ الصَّالِحةِ النَّافِعةِ في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

أي: ليُعلِيَ اللهُ الإسلامَ بالغَلَبةِ والانتِصارِ في قِتالِ الكُفَّارِ، ويُعلِيَه بالحُجَّةِ والبُرهانِ على سائِرِ الأديانِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٦)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ: لِيُظهِرَ دِينَه الحَقَّ -الَّذي أرسَلَ به رَسولَه- على كُلِّ دينٍ سِواه، وذلك عندَ نُزولِ عيسى ابنِ مَريمَ، وحينَ تَصيرُ المِلَّةُ واحِدةً، فلا يكونُ دينٌ غيرُ الإسلامِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٥).

وقال ابنُ عاشور: (قد تمَّ وَعدُ اللهِ، وظَهَر هذا الدِّينُ، ومَلَك أهلُه أُممًا كثيرةً، ثمَّ عَرَضَت عوارِضُ مِن تفريطِ المسلمينَ في إقامةِ الدِّينِ على وَجهِه؛ فغلَبَت عليهم أُمَمٌ، فأمَّا الدِّينُ فلم يَزَلْ عاليًا مَشهودًا له مِن علماءِ الأُمَمِ المُنصِفينَ بأنَّه أفضَلُ دينٍ للبَشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٢، ١٩٣).

وقال السَّمْعاني: (مِصداقُ هذه الآيةِ على الكمالِ إنَّما يكونُ عِندَ نُزولِ عيسى ابنِ مَريمَ، حَيثُ لا يَبقى إلَّا دينُ الإسلامِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢٧).

قال ابن جُزَي: (﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ الضَّميرُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم، أو للدِّينِ). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٣٦).

وقال الشنقيطي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ التَّوبةِ (الآية ٣٣): (الضَّميرُ في قولِه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ فيه وجْهانِ للعُلماءِ:

قال بعضُهم -وهو مرويٌّ عن ابنِ عبَّاسٍ-: الضَّميرُ عائدٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. أي: أرسلَه بهذا الهُدى ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ لِيُطلِعَه على جميعِ الأديانِ؛ فيُبيِّنَ لأهلِها حقيقَها مِن باطِلِها، كما ... في قولِه: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [المائدة: ١٥]، ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، وغيرِ ذلك مِن الآياتِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم عَلِم مِن كتابِ الله ما جاء في جميعِ الكُتبِ المُتقدِّمةِ. =

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَذهَبُ اللَّيلُ والنَّهارُ حتَّى تُعبَدَ اللَّاتُ والعُزَّى! فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنْ كُنتُ لَأظُنُّ حينَ أنزَلَ اللهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ أنَّ ذلك تامًّا! قال: إنَّه سيَكونُ مِن ذلك ما شاء اللهُ))[1].

وعن ثَوبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ زَوَى[2] ليَ الأرضَ، فرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ أُمَّتي سيَبلُغُ مُلكُها ما زُوِيَ لي مِنها))[3].

وعن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((شَكَوْنا إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو مُتوَسِّدٌ بُرْدةً[4] له في ظِلِّ الكعبةِ، قُلْنا له: ألا تَستَنصِرُ لنا، ألا تَدْعو اللهَ لنا؟! قال: كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمنشارِ فيُوضَعُ على رأسِه فيُشَقُّ باثنَتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه!

---

= القولُ الثَّاني: -وعليه الأكثرُ- أنَّ الضَّميرَ للدِّينِ ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ أي: لِيُظهِرَ دينَ الإسلامِ، أي: يُعلِيَه على جميعِ الأديانِ كلِّها. وهذا الإعلاءُ يَدخُلُ فيه إظهارُه بالحُجَّةِ والبُرهانِ؛ فبَراهينُه قاطِعةٌ، وحُجَجُه ساطِعةٌ لا شكَّ فيه، وكتابُه محفوظٌ، فلا شَيءَ يُوازيه ولا يُشابِهُه.

قال بعضُ العُلماءِ: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ﴾ أي: يَنصُرَه ويُغَلِّبَه على جميعِ الأديانِ، وقد وفَى اللهُ بهذا فيما مضى، وسيَفِي به أيضًا في المُستقبَلِ. ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ٤٥١).

(١) رواه مسلم (٢٩٠٧).

(٢) زَوَى: أي: طَوى له -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- الأرضَ، وجعَلَها مَجموعةً كهَيئةِ كَفٍّ في مِرآةِ نَظَرِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٦٧٦).

(٣) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٤) أي: كِساءً مُخَطَّطًا، والمعنى: جاعِلٌ البُرْدةَ وِسادةً له، مِن تَوسَّدَ الشَّيءَ: جعَلَه تحتَ رأسِه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٤٧).

ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لَحْمِه[١] مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ[٢]، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه! واللهِ لَيُتِمَّنَّ[٣] هذا الأمرَ حتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنعاءَ إلى حَضْرَمَوتَ، لا يخافُ إلَّا اللهَ أو الذِّئبَ على غَنَمِه، ولكِنَّكم تَستَعجِلونَ!))[٤].

وعن تميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[٥] إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفرَ))[٦].

﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾.

أي: سيُظهِرُ اللهُ تعالى دِينَه على جميعِ الأديانِ، ولو كَرِهَ المُشرِكونَ ذلك[٧].

---

(١) ما دُونَ لَحمِه، أي: تحتَ لَحمِه، أو عندَ لَحمِه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٦/ ١٤٤).

(٢) فيه مِن المُبالَغةِ أنَّ الأمشاطَ تَنفُذُ مِن اللَّحمِ إلى العَظمِ والعَصَبِ؛ لِحِدَّتِها وقوَّتِها. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (١٢/ ٣٧٣٤).

(٣) لَيُتِمَّنَّ: بضَمِّ حرفِ المُضارَعةِ وكسرِ التَّاءِ، على أنَّ الفاعلَ هو الله، أي: لَيُكمِلَنَّ. وفي نسخةٍ بفتحِ الياءِ وكسرِ التَّاءِ وتشديدِ الميمِ، وفي أخرى بصيغةِ المجهولِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٧٤٧).

(٤) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٥) بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ: المَدَرُ: جَمْعُ مَدَرةٍ، وهي: اللَّبِنةُ، والمرادُ به هنا: البُيوتُ المُحكَمةُ المَبنيَّةُ مِن الأحجارِ والطُّوبِ واللَّبِنِ، كبُيوتِ المُدُنِ والقُرى. والوَبَرُ: شَعرُ الإبلِ، والمرادُ به هنا: البُيوتُ غيرُ المُحكَمةِ، كبُيوتِ البوادي وأهلِ الخِيامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦)، ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) لمحمد الأمين الهَرري (٢٦/ ٢٥٩).

(٦) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) واللَّفظُ له، والحاكم (٨٣٢٦)، والبيهقي (١٩٠٩٠).

صحَّحه الحاكِمُ على شرطِ الشَّيخينِ، وقال الألبانيُّ في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): (على شرطِ مُسلمٍ). وصَحَّح إسنادَه على شرط مسلمٍ: شُعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ١٥٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٤٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير الجلالين)) =

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ، وأنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أظْلَمَ كان عن الهدايةِ أبْعَدَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عَلَّقَ نفْيَ الهدايةِ بالظُّلْمِ، وتعليقُ الحُكْمِ بالظُّلمِ يدُلُّ على عِلِّيَّتِه، وكلَّما قَوِيَتِ العِلَّةُ قَوِيَ الحُكْمُ المُعَلَّقُ عليها[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾، أي: لِيُعْلِيَه على سائِرِ الأديانِ بالحُجَّةِ والبُرهانِ، ويُظهِرَ أهْلَه القائِمينَ به بالسَّيفِ والسِّنانِ، فأمَّا نَفْسُ الدِّينِ فهذا الوَصفُ مُلازِمٌ له في كُلِّ وَقتٍ، فلا يُمكِنُ أن يُغالِبَه مغالبٌ، أو يُخاصِمَه مُخاصِمٌ إلَّا فَلَجَه وبَلسَه[٢]، وصار له الظُّهورُ والقَهرُ، وأمَّا المُنتَسِبونَ إليه فإنَّهم إذا قاموا به، واستناروا بنُورِه، واهتَدَوا بهَدْيِه في مصالحِ دِينِهم ودُنياهم؛ فكذلك لا يقومُ لهم أحدٌ، ولا بدَّ أن يَظهَروا على أهلِ الأديانِ، وإذا ضَيَّعوه واكتَفَوا منه بمُجَرَّدِ الانتِسابِ إليه، لم يَنفَعْهم ذلك، وصار إهمالُهم له سَبَبَ تَسليطِ الأعداءِ عليهم[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أنَّه سُبحانَه تَكَفَّلَ لهذا الأمرِ بالتَّمامِ والإظهارِ على جميعِ أديانِ أهلِ الأرضِ؛ ففي هذا تَقويةٌ لقُلوبِ أهلِ الإسلامِ، وبِشارةٌ لهم وتَثبيتٌ، وأنَّه لا بُدَّ أنْ يكونوا على ثِقةٍ مِن هذا الوَعدِ الَّذي لا بُدَّ أنْ يُنْجِزَه سُبحانَه[٤].

---

= (ص: ٧٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٢/ ٤٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٢) وبَلسَه: أي: ظَفِرَ وفاز عليه وكَسَرَه. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٩، ٢٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قولِه تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ ما الجمعُ بَينَ هذه الآيةِ الكريمةِ وبينَ نُصوصٍ أخرى يَرِدُ فيها مِثلُ هذه العبارةِ في ذَنبٍ آخَرَ غيرِ هذا، وتدلُّ أيضًا على أنَّ هذا الفِعلَ أظلمُ شيءٍ؛ مثل قولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [البقرة: ١١٤]، وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: آية ٥٧]؛ فكيفَ نَجمعُ بين هذه النُّصوصِ؟

**والجوابُ مِن أحدِ وجهينِ:**

**الأول**: أنَّ هذه الأشياءَ جميعَها اشتركَتْ في المرتبةِ العُليا من الظُّلمِ؛ فكلُّها في مقامِ الأظلميَّةِ، فأفعلُ التفضيلِ لا تمنعُ التَّساوي ولكنَّها تمنعُ الزِّيادةَ. وعلى ذلك فلا مُعارَضَةَ البتَّةَ بينَ الآياتِ، فهؤلاءِ المذكورونَ لا يُوجَدُ أحدٌ أظلَمُ منهم، وهم متساوونَ في مرتبةِ الظُّلْم.

**الوجه الثاني**: أنَّ هذه المواضعَ تَتخصَّصُ بصِلاتِها. ومعنَى (تتخصصُ بصِلاتِها): أَنَّ كُلَّ واحدٍ منها تُفَسِّرُه صلةُ موصُولِه، أي أنَّ كلَّ واحدةٍ تختصُّ ببابِها، فيكونُ المعنَى: لا أحدَ مِنَ المفْتَرِينَ أظلمُ مِمَّنِ افْتَرَى على اللَّهِ كَذِبًا، ولا أحدَ مِنَ المانِعِينَ أظلمُ مِمَّنْ مَنَعَ مساجدَ اللَّهِ، ولاَ أحدَ مِنَ المعْرِضِينَ أظلمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآياتِ رَبِّه فأعْرَضَ عنها... إلخ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ مَن أَضَلَّه اللهُ فإنَّما ذلك لظُلمٍ منه، وأمَّا مَن طَلَبوا الحقَّ وتَحرَّوه وتَشَوَّفوا له، فإنَّهم جَديرونَ بالهِدايةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٥١٢-٥١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٢٢- ١٢٣). والوجهُ الأوَّل مخرجٌ على قاعدةِ: (نفيُ التفضيلِ لا يستلزمُ نفيَ المساواةِ). يُنظر: ((قواعد التفسير)) لخالد السبت (٢/ ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٧).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزِلةِ والقَدَرِيَّةِ؛ إذْ لو كان كلُّ مَبعوثٍ إليه رَسولًا، وكلُّ مدلولٍ على طريقِ الهدايةِ: يَقْدِرُ بنَفْسِه أنْ يهتديَ مِن غيرِ أنْ يهديَه اللهُ؛ ما كان في ذلك فائِدةٌ، ولا كان ذلك عليهم عُقوبةً[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ اللهَ لا يَمْنَعُ فَضْلَه عن أحدٍ إلَّا إذا كان هذا الممنوعُ هو السَّبَبَ؛ فلِظُلْمِهم لم يَهْدِهم اللهُ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[٢] [الصف: ٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ مَن أخَذَ بالعَدْلِ كان حَرِيًّا بالهدايةِ؛ لمفهومِ المخالفةِ في الآيةِ، فإذا كان الظَّالمُ لا يَهديه اللهُ، فصاحِبُ العَدْلِ حَرِيٌّ بأنْ يَهديَه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ الإنسانَ الَّذي يريدُ الحقَّ ويَتَّبِعُ الحقَّ -والحقُّ هو العَدْلُ- غالبًا يُهْدَى ويُوَفَّقُ للهدايةِ؛ ولهذا قال شَيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ في ((العقيدةِ الواسِطيَّةِ))[٣] عبارةً مِن أحسَنِ العباراتِ؛ قال: (مَن تَدَبَّرَ القرآنَ طالبًا الهُدى منه تَبَيَّنَ له طريقُ الحَقِّ)، وهذه كَلِمةٌ مأخوذةٌ مِن القُرآنِ مَنطوقًا ومَفهومًا[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ فيه سؤالٌ: التَّمامُ لا يكونُ إلَّا عندَ النُّقصانِ، فكيفَ نُقصانُ هذا النُّورِ؟

**الجوابُ**: إتمامُه بحَسَبِ النُّقصانِ في الأَثَرِ، وهو الظُّهورُ في سائِرِ البِلادِ مِن المشارِقِ إلى المغارِبِ؛ إذ الظُّهورُ لا يَظهَرُ إلَّا بالإظهارِ، وهو الإتمامُ، يُؤَيِّدُه قَولُه

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٦).

تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[١] [المائدة: ٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّ رسالةَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم تتضَمَّنُ شيئينِ؛ هما: العِلمُ النَّافِعُ، والعَمَلُ الصَّالحُ؛ فالهُدى هو: العِلمُ النَّافعُ، ودِينُ الحَقِّ هو: العَمَلُ الصَّالحُ الَّذي اشتَمَل على الإخلاصِ للهِ، والمتابعةِ لِرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أنَّه لا هُدَى إلَّا فيما جاء به رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ولا يَقْبَلُ اللهُ مِن أحدٍ دينًا يَدينُه به إلَّا أنْ يكونَ مُوافِقًا لدِينِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد نزَّه سُبحانَه وتعالى نفْسَه عمَّا يَصِفُه به العِبادُ إلَّا ما وصَفَه به المُرسَلونَ، فقال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨١]، وسلَّمَ على المُرسَلينَ؛ لِسَلامةِ ما وصَفُوه به مِن النَّقائِصِ والعُيوبِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أنَّ مَنِ اتَّبَعَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّه غالِبٌ، ومعنى «يُظْهِرُه» يُعْلِيه؛ لأنَّ الظَّهْرَ والظُّهُورَ كلُّه يدُلُّ على الغَلَبةِ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أنَّ الإسلامَ سيَعْلُو على جميعِ الأديانِ[٥]، فتَعليلُ قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ بقولِه: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ إعلامٌ بأنَّ اللهَ أراد ظُهورَ هذا الدِّينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٩٤).

وانتشارَه؛ كيْلَا يَطمَعوا أنْ يَنالَه ما نال دِينَ عِيسى عليه السَّلامُ مِن القمْعِ والخَفْتِ في أوَّلِ أمْرِه، واستمرَّ زَمانًا طويلًا، فلمَّا أخبَرَ اللهُ بأنَّه أراد إظهارَ دِينِ الإسلامِ على جَميعِ الأديانِ، عُلِمَ أنَّ أمْرَه لا يَزالُ في ازديادٍ حتَّى يَتِمَّ المرادُ[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ حُجَّةٌ لأهلِ السُّنَّةِ على كلِّ مَن أسَرَّ دِينًا مِن أهلِ البِدعةِ؛ فإنَّ كلَّ مَن كان على شَيءٍ يَزْعُمُ أنَّه مِن الدِّينِ، وهو يَسْتُرُه ولا يُظْهِرُه خَشيةَ إنكارِه؛ فقد عُرِفَ بُطلانُه قبْلَ أنْ يُسْأَلَ بُرهانَه، واستوى في معرفةِ تزييفِه العالِمُ والجاهِلُ؛ إذْ مِن شَرْطِ الآيةِ أنْ يكونَ بعدَ نزولِها دِينُ الحَقِّ ظاهِرًا، فإنْ كُتِمَ عُدِمَ شَرْطُه المشروطُ فيه، وفي عَدَمِ شَرْطِه دُخولُ الخَلَلِ عليه، وزوالُ الحقِّ عنه[٢].

١٢- كثيرًا ما يجمَعُ سُبحانَه بيْنَ هذينِ الأصلَينِ: (الْهُدَى، ودِينِ الْحَقِّ)؛ لأنَّ بهما تمامَ الدَّعوةِ، وظهورَ دِينِه على الدِّينِ كُلِّه[٣]، وقد بعَثَ اللهُ تعالى مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ إلى النَّاسِ؛ فبالهُدى يُعرَفُ الحقُّ، وبدِيْنِ الحَقِّ يُقصَدُ الخَيرُ ويُعمَلُ به، فلا بُدَّ مِن عِلْمٍ بالحَقِّ، وقَصْدٍ له، وقُدرةٍ عليه، والفِتنةُ تُضادُّ ذلك؛ فإنَّها تمنعُ معرفةَ الحَقِّ؛ لِمَا فيها مِن الشُّبُهاتِ الَّتي تَلبِسُ الحقَّ بالباطِلِ، أو تمنَعُ قصدَ الحَقِّ؛ لِمَا فيها مِن الأهواءِ والشَّهواتِ، أو تمنعُ القُدرةَ على الخَيرِ؛ لِمَا فيها مِن ظُهورِ قُوَّةِ الشَّرِّ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٥٢١-٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٤/ ٥٤٧).

لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وُصِفوا بأنَّهم أظلَمُ النَّاسِ تَشنيعًا لحالِهم؛ فالمرادُ مِن هذا الاستِفهامِ هم الَّذين كذَّبوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ولذلك عُطِفَ هذا الكلامُ بالواوِ ودونَ الفاءِ؛ لأنَّه ليس مُفرَّعًا على دَعوةِ عِيسى عليه السَّلامُ، وقد شَمِلَ هذا التَّشنيعُ جميعَ الَّذين كذَّبوا دَعوةَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أهلِ الكتابَينِ والمشركينَ[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ إنكارٌ، أي: لا أحَدَ أظلَمُ مِن هؤلاء؛ فالمُكذِّبون مِن قبْلِهم إمَّا أنْ يَكونوا أظلَمَ منهم، وإمَّا أنْ يُساوُوهم على كلِّ حالٍ، فالكلامُ مُبالَغةٌ. وإنَّما كانوا أظلَمَ الناسِ؛ لأنَّهم ظَلَموا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بنِسبتِه إلى ما ليس فيه إذْ قالوا: هو ساحرٌ. وظَلَموا أنفُسَهم إذْ لم يَتوخَّوا لها النَّجاةَ، فيَعرِضوا دَعوةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على النَّظَرِ الصَّحيحِ حتَّى يَعلَموا صِدقَه. وظَلَموا النَّاسَ بحَمْلِهم على التَّكذيبِ، وظَلَموهم بإخفاءِ الأخبارِ الَّتي جاءتْ في التَّوراةِ والإنجيلِ مُثبِتةً صِدقَ رسولِ الإسلامِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وكَمَلَ لهم هذا الظُّلمُ بقولِه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فيُعلَمُ أنَّه ظُلمٌ مُستمِرٌّ[2].

- قولُه: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ كان لجُملةِ الحالِ ﴿وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِ﴾ موقعٌ متينٌ هنا، أي: فعَلوا ذلك في حِينِ أنَّ الرسولَ يدْعوهم إلى ما فيه خيرُهم، فعاضُوا الشُّكرَ بالكُفرِ. وإنَّما جُعِلَ افتِراؤهم الكذِبَ على اللهِ؛ لأنَّهم كذَّبوا رَسولًا يُخبِرُهم أنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ، فكانت حُرمةُ هذه النِّسبةِ تَقْتضي أنْ يُقبِلوا على التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ فيما دَعاهم إليه؛ ليَصِلوا إلى التَّصديقِ، فلمَّا بادَرُوها بالإعراضِ وانتَحَلوا للدَّاعي صِفاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٧، ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٨٨).

النَّقصِ، كانوا قد نَسَبوا ذلك إلى اللهِ دونَ تَوقيرٍ؛ فأمَّا أهلُ الكتابِ فجَحَدوا الصِّفاتِ الموصوفةَ في كِتابِهم، كما قال تَعالى فيهم: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وذلك افتراءٌ، وأمَّا المشركون فإنَّهم افتَرَوا على اللهِ؛ إذْ قالوا: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[1] [الأنعام: ٩١].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾، وقال في سُورةِ (الأنعام): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الأنعام: ٢١]، وقال فيها: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وقال في آخِرِ سُورةِ (العَنكبوتِ): ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٨]، وقال في سُورةِ (الأعرافِ): ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الأعراف: ٣٧]، وقال في سُورةِ (يُونسَ): ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧]؛ فاختُصَّ هذا الموضعُ هنا بلَفظِ التَّعريفِ في (الكذِب)، مع أنَّ نَظائرَه في الآيِ المذكورةِ بلَفظِ التَّنكيرِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الكذِبَ مَصدرٌ يُسمَّى به الكلامُ المكذوبُ فيه، وهو في قولِه تَعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ على أصْلِه، مَصدرٌ غيرُ مَنقولٍ، والمصدرُ إذا عُرِّفَ قُصِدَ به الجِنسُ. ولأنَّ ﴿كَذِبًا﴾ بالنَّكرةِ أكثرُ استعمالًا معَ المصدرِ مِن المعرفةِ. وخُصَّت هذه السُّورةُ بالمعرفةِ؛ لأنَّه إشارةٌ إلى ما تقدَّم مِن قولِ اليهودِ والنَّصارى[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٦٩-١٢٧٤)، ((أسرار التكرار في =

- قولُه: ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ، واسمُ (الإسلام) عَلَمٌ للدِّينِ الذي جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ -على قولٍ-، وهو جامِعٌ لِما فيه خَيرُ الدُّنيا والآخرةِ؛ فكان ذِكرُ هذا الاسمِ في الجُملةِ الحاليَّةِ زِيادةً في تَشنيعِ حالِ الَّذين أعْرَضوا عنه، أي: وهو يُدْعى إلى ما فيه خَيرُه، وبذلك حقَّ عليه وَصْفُ (أظْلَم)[1].

- وإيقاعُ الإسلامِ مُقابلًا لافتِراءِ الكذبِ إيذانٌ باتِّصالِ قِصَّةِ عِيسى عليه السَّلامُ بقصَّةِ محمَّدٍ صَلواتُ اللهِ عليه، وأنَّ ذِكرَ الإسلامِ كالتَّخلُّصِ مِن القِصَّةِ إلى القِصَّةِ؛ ولذلك ذُيِّلت الآيةُ بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، كأنَّه قيل: قد عُلِمَ ظُلْمُ أولئك الكفرةِ برُوحِ اللهِ، وما أرادوا به مِن المكْرِ والكَيدِ، وعُرِفَ أنَّ اللهَ ما هَداهم إلى ما أرادوا، بلْ خَذَلَهم اللهُ ونَصَرَ أولياءَه، كما قال تَعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]، فما ظُلْمُ هؤلاء الكفرةِ لحَبيبِ اللهِ؟ وما مَكْرُهم به؟ وكيف يَفعَلُ اللهُ به وبهم؟ قِيل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ إلى آخِرِ الآيتينِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذييلٌ للآيةِ، وهو تَقريرٌ لقولِه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾؛ لأنَّ الظُّلمَ وضْعُ الشَّيءِ في غيرِ مَوضعِه، فالمعْنى: وأيُّ النَّاسِ أشدُّ ظُلمًا ممَّن يَدْعوه ربُّه على لِسانِ نَبيِّه إلى الإسلامِ، فيَجعَلُ إجابتَه افتراءَ الكذبِ على اللهِ؟! يعْني: كان جَزاءُ الدَّاعي القَبولَ والتَّصديقَ، فوَضَعوا مَوضِعَه أنْ كذَّبوه، وسمَّوا ما جاء به سِحرًا[3]!

---

= القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٢، ٤٦٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٥/ ٣٨٥).

وهذه الجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأْييسٌ لهم مِن الإقلاعِ عن هذا الظُّلمِ، أي: إنَّ الَّذين بَلَغوا هذا المَبلَغَ مِن الظُّلمِ لا طَمَعَ في صَلاحِهم؛ لتَمكُّنِ الكفْرِ منهم حتَّى خالَطَ سَجاياهم، وتقوَّمَ مع قَوميَّتِهم؛ ولذلك أُقحِمَ لَفظُ (القوم)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الظُّلمَ بلَغَ حدَّ أنْ صار مِن مُقوِّماتِ قَوميَّتِهم، وهذا يَعُمُّ المُخبَرَ عنهم وأمثالَهم الَّذين افترَوا على عِيسى؛ ففيها معْنى التَّذييلِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبارِ عنهم بأنَّهم افترَوا على اللهِ الكذِبَ في حالِ أنَّهم يُدْعَون إلى الإسلامِ؛ لأنَّه يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عمَّا دَعاهم إلى هذا الافتراءِ، فأُجيبَ بأنَّهم يُريدونَ أنْ يُخْفُوا الإسلامَ عن النَّاسِ، ويَعُوقوا انتشارَه[2].

- ومُثِّلَت حالتُهم بحالةِ نَفَرٍ يَبتَغون الظَّلامَ للتَّلصُّصِ أو غيرِه ممَّا يُرادُ فيه الاختفاءُ، فلاحَتْ لهم ذُبالةٌ[3] مِصباحٍ تُضِيءُ للنَّاسِ، فكَرِهوا ذلك وخَشُوا أنْ يُشَعَّ نُورُه على النَّاسِ فتَفْتضِحَ تُرَّهاتُهم، فعَمَدوا إلى إطفائِه بالنَّفخِ عليه فلمْ يَنطفِئْ، فالكلامُ تَمثيلٌ دالٌّ على حالةِ المُمثَّلِ لهم، والتَّقديرُ: يُريدون عَوقَ ظُهورِ الإسلامِ كمَثَلِ قَومٍ يُريدون إطفاءَ النُّورِ، فهذا تَشبيهُ الهيئةِ بالهيئةِ تَشبيهَ المَعقولِ بالمحسوسِ. ثمَّ إنَّ ما تَضمَّنَه مِن المحاسنِ أنَّه قابلٌ لِتَفرقةِ التَّشبيهِ على أجزاءِ الهَيئةِ؛ فاليهودُ في حالِ إرادتِهم عَوقَ الإسلامِ عن الظُّهورِ مُشبَّهون بقَومٍ يُريدون إطفاءَ نُورِ الإسلامِ، فشُبِّهَ بمِصباحٍ، والمشركون مِثلُهم، ووَصْفهم القرآنَ بأنَّه سِحرٌ ونحْوِ ذلك مِن تَمْويهاتِهم، فشُبِّهَ بنفْخِ النَّافِخينَ على المِصباحِ؛ فكان لذِكرِ ﴿بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ وقْعٌ عَظيمٌ في هذا التَّمثيلِ؛ لأنَّ الإطفاءَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الذُّبَالةُ: الفَتيلةُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١١٢).

قدْ يكونُ بغَيرِ الأفواهِ مِثل المروحةِ والكِيرِ، وهمْ أرادوا إبطالَ آياتِ القرآنِ بزعْمِ أنَّها مِن أقوالِ السِّحرِ[١].

- قولُه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ اللَّامُ مِن قولِه: ﴿لِيُطْفِـُٔواْ﴾ تُسمَّى اللَّامَ الزائدةَ، وتُفيدُ التَّأكيدَ، وأصْلُها لامُ التَّعليلِ، ذُكِرَت عِلَّةُ فِعلِ الإرادةِ عِوَضًا عن مَفعولِه بتَنزيلِ المفعولِ مَنزلةَ العِلَّةِ، والتَّقديرُ: يُريدون إطفاءَ نُورِ اللهِ ليُطْفِئوا. ويَكثُرُ وُقوعُ هذه اللَّامِ بعْدَ مادَّةِ الإرادةِ ومادَّةِ الأمْرِ[٢].

- وإضافةُ ﴿نُورَ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ (الله) إضافةُ تَشريفٍ[٣].

- وإطفاءُ نُورِ اللهِ بأفواهِهم تَهكُّمٌ بهم في إرادتِهم إبطالَ الإسلامِ بقولِهم في القُرآنِ: هذا سِحرٌ، مُثِّلَت حالُهم بحالِ مَن يَنفُخُ في نُورِ الشَّمسِ بفِيهِ ليُطفِئَه[٤].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿يُرِيدُونَ﴾، وهي إخبارٌ بأنَّهم لا يَبلُغون مُرادَهم، وأنَّ هذا الدِّينَ سيَتِمُّ، أي: يَبلُغُ تَمامَ الانتشارِ. والجُملةُ الاسميَّةُ تُفيدُ ثُبوتَ هذا الإتمامِ[٥].

- وجُملةُ ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ حاليَّةٌ، و(لو) وصْليَّةٌ، وهي تدُلُّ على أنَّ مَضمونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٨٩، ١٩٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٠).

شَرْطِها أجدَرُ ما يُظَنُّ ألَّا يَحصُلَ عندَ حُصولِه مَضمونُ الجوابِ، والمعْنى: واللهُ مُتِمُّ نُورِه على فرْضِ كَراهةِ الكافِرينَ، ولَمَّا كانت كَراهةُ الكافِرينَ إتمامَ هذا النُّورِ مُحقَّقةً، كان سِياقُها في صُورةِ الأمْرِ المفروضِ تَهكُّمًا[1].

- وشَمِل لَفظُ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ جَميعَ الكافِرينَ بالإسلامِ مِن المشركينَ وأهلِ الكتابِ وغَيرِهم، ولكنْ غلَبَ اصطلاحُ القُرآنِ على تَخصيصِ وصْفِ الكافرينَ بأهلِ الكِتابِ ومُقابَلتِهم بالمشركينَ أو الظَّالِمين، ويتَّجِهُ على هذا أنْ يكونَ الاهتمامُ بذِكرِ الكافرينَ بعْدَ (لو) الوصْليَّةِ؛ لأنَّ المقامَ لإبطالِ مُرادِهم إطفاءَ نُورِ اللهِ، فإتمامُ اللهِ نُورَه إبطالٌ لمُرادِهم إطفاءَهُ، وسيَرِدُ بعْدَ هذا ما يُبطِلُ مُرادَ غَيرِهم مِن المُعانِدين، وهم المشرِكون[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قالَ هنا: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقال بعْدَه: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾؛ وذلك لأنَّهم أنْكَروا الرَّسولَ، وما أُنزِلَ إليه -وهو الكِتابُ-، وذلك مِن نِعَمِ اللهِ، والكافِرون كلُّهم في كُفرانِ النِّعَمِ سواءٌ، فلهذا قال: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ولأنَّ لَفظَ (الكافر) أعمُّ مِن لَفظِ (المشرِك)، والمرادُ مِن الكافرينَ هاهنا: اليهودُ والنَّصارى والمشركون، وهنا ذَكَر النُّورَ وإطفاءَه، واللَّائقُ به الكُفْرُ؛ لأنَّه السَّترُ والتَّغطيةُ؛ لأنَّ مَن يُحاوِلُ الإطفاءَ إنَّما يُريدُ الزَّوالَ. وفي الآيةِ الثَّانيةِ ذَكَرَ الرَّسولَ والإرسالَ ودِينَ الحقِّ، وذلك مَنزلةٌ عَظيمةٌ للرَّسولِ عليه السَّلامُ، وهي اعتراضٌ على اللهِ تَعالى، والاعتراضُ قَريبٌ مِن الشِّركِ، ولأنَّ الحاسِدينَ للرَّسولِ عليه السَّلامُ كان أكثَرُهم مِن قُريشٍ، وهم المشرِكون، ولَمَّا كان النُّورُ أعمَّ مِن الدِّينِ والرَّسولِ، لا جَرَمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قابَلَه بالكافِرين الَّذين همْ جَميعُ مُخالِفي الإسلامِ، ولَمَّا كان الرَّسولُ والدِّينُ أخصَّ مِن النُّورِ، قابَلَه بالمشْركين الَّذين همْ أخصُّ مِن الكافرينَ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾ زيادةُ تَحدٍّ للمشركين وأحلافِهم مِن أهلِ الكِتابِ، فيه تَقويةٌ لمَضمونِ قولِه: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، وفيه معْنى التَّعليلِ للجُملةِ الَّتي قبْلَه؛ فقدْ أفاد تَعريفُ الجُزأينِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ قصْرًا إضافيًّا[٢]؛ لقلْبِ زعْمِ الكافِرين أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أتى مِن قِبَلِ نفْسِه، أي: اللهُ لا غَيرُه أرسَلَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بالهُدى ودِينِ الحقِّ، وإنَّ شيئًا تَولَّى اللهُ فِعلَه لا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يُزيلَه[٣].

- والتَّعريفُ في قولِه: ﴿ٱلدِّينِ﴾ تَعريفُ الجنسِ المُفيدُ للاستِغراقِ، أي: ليُعلِيَ هذا الدِّينَ الحقَّ على جَميعِ الأديانِ، ويَنصُرَ أهْلَه على أهلِ الأديانِ الأُخرَى الَّذين يَتعرَّضون لأهلِ الإسلامِ[٤].

- وخُصَّ المُشركون بالذِّكرِ هنا؛ إتمامًا للَّذين يَكرَهون إتمامَ هذا النُّورِ، وظُهورَ هذا الدِّينِ على جَميعِ الأديانِ، وليُعلَمَ أنَّ غيرَ المشركين يَكرَهون ظُهورَ هذا الدِّينِ؛ لأنَّهم أرادوا إطفاءَ نُورِ الدِّينِ؛ لأنَّهم يَكرَهون ظُهورَ هذا الدِّينِ، فحصَلَ في الكلامِ احتِباكٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٩٣).
وتقدَّم تعريفُ الاحتباك (ص: ٥٩).

## الآيات (١٠-١٢)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَدۡنٖ﴾: أي: إقامَةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثَباتٍ، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[1].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قولُه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ * تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ * يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ﴾

قَولُه ﴿ تُؤۡمِنُونَ ﴾: جملةٌ تَفسيريَّةٌ لـ ﴿تِجَٰرَةٖ﴾ فلا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ. أو استِئنافٌ بيانيٌّ، كأنَّه قيل: ما هذه التِّجارةُ؟ فقيل: تُؤْمِنُونَ ...، والمُضارِعُ هنا خبَرٌ بمعنى الأمرِ، أي: آمِنوا وجاهِدوا، ويُؤَيِّدُه قِراءةُ عبدِ اللهِ «آمِنُوا ... وجاهِدُوا» بالأمرِ فيهما.

﴿يَغۡفِرۡ﴾: فِعلٌ مُضارِعٌ مَجزومٌ في جوابِ الأمرِ المدلولِ عليه بلَفظِ الخَبرِ ﴿ تُؤۡمِنُونَ ﴾. وقيل: جوابٌ لشَرطٍ أو استفهامٍ مُقَدَّرٍ دَلَّ عليه الكلامُ، والتَّقديرُ: إنْ تُؤمِنوا وتجاهِدوا يَغْفِرْ لكم. أو هل تَقبَلونَ أن أَدُلَّكم؟ أو هل تتَّجِرونَ بالإيمانِ والجهادِ؟ يَغْفِرْ لكم. وقيل: هو جوابٌ للاستِفهامِ المذكورِ، أي: هل أَدُلُّكم...

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

يَغْفِرْ، وتُعُقِّبَ بأنَّ مُجَرَّدَ الدَّلالةِ لا يُوجِبُ المَغفِرةَ، وأُجيبَ بأنَّه لَمَّا كانت الدَّلالةُ مَظِنَّةً لذلك نُزِّلَت مَنزِلةَ المحَقَّقِ، أو لأنَّ مُتعَلَّقَ ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ هو التِّجارةُ المُفَسَّرةُ بالإيمانِ والجِهادِ، فكأنَّه قيل: هل تتَّجِرونَ بالإيمانِ والجِهادِ يَغْفِرْ لكم ذُنوبَكم[1]؟

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُرشدًا المؤمنينَ إلى ما فيه سعادتُهم ونجاتُهم مِن العذابِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا هل أُرشِدُكم إلى تجارةٍ عَظيمةٍ تُخَلِّصُكم مِن عَذابٍ مُؤلِمٍ؟ تلك التِّجارةُ هي تحقيقُ الإيمانِ باللهِ تعالى وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وجهادُ أعدائِه ببَذْلِ الأموالِ والأنفُسِ لإعلاءِ كَلِمتِه ودِينِه، ذلك الأمرُ خيرٌ لكم إنْ كُنتُم تَعْلَمونَ.

ثمَّ يبيِّنُ سبحانَه جزاءَهم وحُسنَ عاقبتِهم، فيقولُ: فإنْ فعَلْتُم ذلك يَغْفِرِ اللهُ ذُنوبَكم، ويُدْخِلْكم جنَّاتٍ تَجْري مِن تَحْتِها الأنهارُ، وقُصورًا حَسَنةً في جناتِ إقامةٍ دائِمةٍ، ذلك الأجرُ هو الفَوزُ العَظيمُ، ولكم في الجِهادِ خَصلةٌ أُخرى محبوبةٌ إليكم؛ حُصولُ نَصرٍ من اللهِ، وفَتحٍ عاجِلٍ، وبَشِّرْ -يا محمَّدُ- المؤمِنينَ بهذا الثَّوابِ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا أنتَج كلُّ ما مضَى نصْرَ رسولِ الله -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على كلِّ

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٥٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤، ١٩٥).

حالٍ، ودمارَ مَن يخالفُ أمرَه؛ أنتَج قطعًا أنَّ الجهادَ معه متجرٌ رابحٌ؛ لأنَّ النَّصرَ مضمونٌ، والموتَ منهلٌ لا بدَّ مِن وُرودِه(١).

وأيضًا فالآيةُ نتيجةُ ما مضَى باعتبارِ أنَّه لَمَّا وبَّخ الله -تعالى- على انحلالِ العزائمِ، وأخبَر بما يجبُ مِن القتالِ، وبكَّت على أذَى الرَّسولِ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- بالمُخالَفةِ، وأخبَر أنَّ مَن خالَفه لا يضُرُّ إلَّا نفْسَه؛ كان موضعَ الاستباقِ في طاعتِه، فرتَّب عليه الاشتياقَ إلى ذِكرِ ثمرتِه، فذَكَرها(٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا هل أُرشِدُكم إلى تجارةٍ عَظيمةٍ نافِعةٍ، تُخَلِّصُكم مِن عذابٍ مُؤلِمٍ مُوجِعٍ(٣)؟

﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١ ﴾.

﴿ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ ﴾.

أي: تلك التِّجارةُ العَظيمةُ هي أنْ تُؤْمِنوا باللهِ تعالى وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيمانًا تامًّا مستلزمًا لأعمالِ الجوارحِ، الَّتي مِن أجَلِّها أنْ تُجاهِدوا أعداءَ الإسلامِ ببَذْلِ الأموالِ والأنفُسِ لإعلاءِ كَلِمةِ الله ونصرِ دِينِه(٤).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٣، ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٦، ٦١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥، ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٣، ١٩٤).

ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ العَمَلِ أفضَلُ؟ قال: إيمانٌ باللهِ، وجِهادٌ في سَبيلِه))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُئِلَ: أيُّ العَمَلِ أفضَلُ؟ فقال: إيمانٌ باللهِ ورَسولِه. قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ. قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: حَجٌّ مَبرورٌ))(٢).

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ قال: الصَّلاةُ على وَقتِها. قُلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ بِرُّ الوالِدَينِ. قلتُ: ثمَّ أيٌّ؟ قال: ثمَّ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ))(٣).

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: ذلك الأمرُ العَظيمُ مِن الإيمانِ باللهِ ورَسولِه، وتَصديقِه بالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ بأموالِكم وأنفُسِكم: خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخِرةِ إنْ كُنتُم تَعْلَمونَ(٤).

---

(١) رواه البخاري (٢٥١٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٨٤).

(٢) رواه البخاري (٢٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٨٣).

(٣) رواه البخاري (٥٢٧)، ومسلم (٨٥) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٦، ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

قال ابنُ عطية: (﴿خَيْرٌ﴾ هنا يحتَمِلُ أن يكونَ للتَّفضيلِ، فالمعنى: مِن كُلِّ عَمَلٍ. ويحتَمِلُ أن يكونَ إخبارًا أنَّ هذا خيرٌ في ذاتِه ونَفْسِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٥). =

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾.

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾.

أي: إنْ آمَنتُم باللهِ ورَسولِه وجاهَدْتُم في سَبيلِ اللهِ بأموالِكم وأنفُسِكم، فإنَّ اللهَ يَمْحو عنكم ذُنوبَكم ويَسترُها ويَقيكم شرَّها؛ فلا يُعَذِّبُكم بها[1].

﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: ويُدْخِلْكُم اللهُ جناتٍ تَجْري الأنهارُ مِن تَحْتِ أشجارِها وقصورِها[2].

﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾.

أي: ويُدخِلْكُم اللهُ مَنازِلَ جمَعتْ كلَّ طيبٍ في بنائِها وسَعتِها وعُلوِّها وبهجةِ

---

= وقال السعدي: (فإنَّ فيه الخيرَ الدُّنيويَّ؛ مِن النَّصرِ على الأعداءِ، والعِزِّ المنافي للذُّلِّ، والرِّزقِ الواسِعِ، وسَعةِ الصَّدرِ وانشِراحِه. وفي الآخرةِ الفَوزُ بثوابِ اللهِ، والنَّجاةُ مِن عِقابِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

وقال الشوكاني: (﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إنْ كنتُم ممَّن يعلمُ فإنَّكم تَعلمونَ أنَّه خيرٌ لكم، لا إذا كنتُم مِن أهلِ الجهلِ، فإنَّكم لا تعلمونَ ذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٥).

وقال ابن جرير: (﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مضارَّ الأشياءِ ومنافعَها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٧).

وقال ابن عثيمين: (كأنَّه يقولُ: فاعلَموا ذلك إنْ كنتم أهلًا للعلمِ). ((شرح رياض الصالحين)) (٥/ ٣٤٩).

وقال ابن المُنَيِّر: (المقصودُ بهذا الشَّرطِ: التَّنبيهُ على المعنى الَّذي يَقتضي الامتِثالَ وإلهابَ الحَميَّةِ للطَّاعةِ، كما تقولُ لِمَن تأمُرُه بالانتِصافِ مِن عدُوِّه: إنْ كنتَ حُرًّا فانتَصِرْ؛ تُريدُ أن تُثيرَ منه حميَّةَ الانتِصارِ لا غيرُ). ((الانتصاف فيما تضمنه الكشاف)) (٤/ ٥٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (١/ ٢٧٥)،((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

مَناظِرِها ودوامِها إلى غيرِ ذلك، في جَنَّاتِ إقامةٍ دائِمةٍ؛ فلا خُروجَ منها، ولا انتِقالَ عنها[١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٨)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧، ٣٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٥).

قال ابن عطية: (طِيبُ المساكِنِ: سَعَتُها وجمالُها. وقيل: طِيبُها: المَعرِفةُ بدوامِ أمْرِها. وهذا هو الصَّحيحُ، وأيُّ طِيبٍ مع الفَناءِ والموتِ؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٤).

وقال العُلَيمي: (طيبتُها بسَعتِها، ودوامِ أمرِها). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٥).

وقال البقاعي: (﴿طَيِّبَةً﴾ أي: في الاتِّساعِ، واختِلافِ أنواعِ المَلاذِّ، وعُلوِّ الأبْنيةِ والأَسِرَّةِ، مع سُهولةِ الوُصولِ إليها، وفي بهجةِ المَناظِرِ، وتيسُّرِ مَجاري الرِّيحِ بانفِساحِ الأبنيةِ، مع طِيبِ الغُرَفِ، لم يُفسِدِ الماءُ الجاري تحتَها شيئًا مِن ريحِها ولا في اعتِدالِها في شيءٍ ممَّا يُرادُ منها). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٧، ٣٨).

وقال السعدي: (﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ أي: جمعَتْ كلَّ طَيِّبٍ؛ مِن علوٍ وارتفاعٍ، وحُسنِ بِناءٍ وزَخرفةٍ، ...، وفيها مِن الطِّيبِ والحُسنِ ما لا يأتي عليه وصفُ الواصِفينَ، ولا خطَرَ على قلبِ أحدٍ مِن العالَمينَ، لا يمكنُ أن يُدرِكوه حتَّى يَرَوْه، ويَتمتَّعوا بحُسنِه، وتَقَرَّ أعيُنُهم به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠، ٨٦١).

وجناتُ عَدْنٍ: قيل: هي جنَّاتٌ مَخصوصةٌ، وهي أشرَفُ الجِنانِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٧).

وقيل: هي اسمٌ لجُملةِ الجنَّاتِ عُمومًا. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ القَيِّم. يُنظر: ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٨).

قال ابن القيِّم في أسماءِ الجنَّةِ: (ولها عِدَّةُ أسماءٍ باعتبارِ صِفاتِها، ومُسمَّاها واحدٌ باعتبارِ الذَّاتِ، فهي مُترادِفةٌ مِن هذا الوجهِ، وتختلِفُ باعتبارِ الصِّفاتِ، فهي مُتباينةٌ مِن هذا الوجهِ) ثمَّ ذكر منها (الاسم السَّادس: جنَّاتُ عَدْنٍ، فقيل: هو اسمُ جَنَّةٍ مِن جملةِ الجنَّاتِ، والصَّحيحُ أنَّه اسمٌ لجملةِ الجِنانِ، وكلُّها جنَّاتُ عَدْنٍ، قال تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [مريم: ٦١]، وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ﴾ [فاطر: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾، والاشتِقاقُ يدُلُّ على أنَّ جميعَها جنَّاتُ عَدْنٍ؛ فإنَّه مِن الإقامةِ والدَّوامِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٩٤، ٩٨).

كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

أي: ذلك الأجرُ والثَّوابُ الجَزيلُ هو وَحْدَه الظَّفَرُ العَظيمُ بالخَيرِ، وحُصولُ النَّجاةِ العَظيمةِ مِن الشَّرِّ(١).

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما يَمنَحُهم مِن الثَّوابِ في الآخِرةِ؛ ذكَرَ ما يَسُرُّهم في العاجِلةِ، وهي ما يفتَحُ عليهم مِنَ البِلادِ(٢)، فقال تعالى:

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾.

أي: ولكم في الجِهادِ خَصلةٌ أُخرى محبوبةٌ إليكم، تَظفَرونَ بها في الدُّنيا، وهي حُصولُ نَصرٍ مِن اللهِ لكم على أعدائِكم، وحُصولُ فَتحٍ عاجِلٍ تتَّسِعُ به بلادُ الإسلامِ، ويَحصُلُ به خيرٌ لكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).
قيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾: فَتحُ مَكَّةَ. وممَّن اختار هذا القَولَ: ابنُ أبي زَمَنِين، والسمعانيُّ، والزمخشري، والرازي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، =

كما قال تعالى: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

أي: وبَشِّرْ -يا محمَّدُ- المؤمِنينَ بالجَزاءِ والثَّوابِ في العاجِلِ والآجِلِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤٧].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ اعلَمْ أنَّ اللهَ تعالى إذا صَدَّرَ الكلامَ بقَولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فإنَّه ينبغي لك أنْ تَستَمِعَ إلى هذا النِّداءِ الموجَّهِ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ إليك؛ لأنَّه إذا ناداك فإمَّا خيرٌ تُؤمَرُ به، وإمَّا شَرٌّ تُنهى عنه، وإمَّا خيرٌ تنتَفِعُ به[٢]. عن ابنِ مسعود رضيَ الله عنه، قال: (إذا

---

= ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٧٩).

وقيل: هو فتحُ فارِسَ والرُّومِ. وممَّن قال بهذا مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، والحسَنُ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣٢). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٣٩٦).

سَمِعتَ اللهَ يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فأَرْعِها سَمْعَك؛ فإنَّه خيرٌ يأمرُ به، أو شرٌّ ينهى عنه)[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ﴾ أنَّه ليس لنا طريقٌ إلى هذه التِّجارةِ إلَّا الطَّريق الذي شَرَعه اللهُ عزَّ وجلَّ، فهو الدَّالُّ على ذلك[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ﴾ دليلٌ على أنَّ الطَّاعةَ تُثمِرُ للمَرءِ مَحابَّ الدُّنيا والآخِرةِ، وأنَّ طَلَبَ الأرباحِ في الدُّنيا والآخِرةِ بالطَّاعةِ أسرَعُ إدراكًا لطالِبِه منه بغَيرِها[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ جُعِل ذلك بمنزلةِ التِّجارةِ؛ لأنَّهم يَربَحونَ فيها رِضا اللهِ، ونَيلَ جَنَّتِه، والنَّجاةَ مِن النَّارِ[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ دليلٌ على أنَّ التِّجارةَ اسمٌ واقِعٌ على طَلَبِ الأرباحِ، ونَماءِ الأموالِ، ومَحَابِّ النُّفوسِ معًا[٥].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ فيه سؤالٌ: الأمرُ بالإيمانِ كيف هو بَعْدَ قَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟

**الجوابُ**: أنَّ الخِطابَ إذا كان للمؤمنينَ الخُلَّصِ فالمرادُ: تَثبُتون وتَدومون

---

(١) أخرجه ابنُ المبارك في ((الزهد والرقائق)) (١/ ١٢)، والقاسم بن سلام في ((فضائل القرآن)) (ص: ٧٤، ٧٥)، وابنُ أبي حاتم في ((تفسيره)) (١/ ١٩٦)، وأبو نُعَيم في ((حلية الأولياء)) (١/ ١٣٠)، وصحَّح إسنادَه أحمدُ شاكر في ((عمدة التفسير)) (١/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨٠).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٤).

على الإيمانِ، أو تَجمَعون بيْن الإيمانِ والجهادِ، أي: بيْن تكميلِ النَّفْسِ وتكميلِ الغيرِ، وإن كان للمؤمنينَ ظاهرًا فالمرادُ: تُخلِصون الإيمانَ(١).

ويُمكِنُ أن يكونَ الخِطابُ لأهلِ الكِتابِ، وهم اليَهودُ والنَّصارى؛ فإنَّهم آمَنوا بالكُتُبِ المتقَدِّمةِ، فكأنَّه قال: يا أيُّها الَّذين آمَنوا بالكُتُبِ المتقَدِّمةِ آمِنوا باللهِ وبمُحَمَّدٍ رَسولِ اللهِ(٢).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فيه أنَّ الإيمانَ باللهِ والجِهادَ في سَبيلِه مُكَفِّرانِ للذُّنوبِ ولو كانت كبائِرَ(٣).

٥- قُطْبُ هذه السُّورةِ الكريمةِ يَدورُ على أمرِ الجِهادِ، ألَا ترَى كيفَ أُعيدَ قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وخُتِمَت بقَولِه تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٢٩/ ٥٣١).

قال ابنُ جريرٍ في تفسيرِ الآيةِ (١٣٦) من سورةِ النِّساءِ: (فإنْ قال قائلٌ: وما وجْهُ دُعاءِ هؤلاء إلى الإيمانِ باللهِ ورسولِه وكُتبِه وقد سمَّاهم مؤمنينَ؟ قيل: إنَّه جلَّ ثناؤُه لم يُسَمِّهم مؤمنينَ، وإنَّما وصَفَهم بأنَّهم آمَنوا، وذلك وصْفٌ لهم بخُصوصٍ مِن التَّصديق؛ وذلك أنَّهم كانوا صِنفَين: أهلُ تَوراةٍ مُصَدِّقينَ بها وبمَن جاء بها، وهم مُكذِّبون بالإنجيلِ والقرآنِ وعيسى ومحمَّدٍ صلَواتُ الله عليهما؛ وصنفٌ أهلُ إنجيل، وهم مُصَدِّقون به وبالتَّوراةِ وسائرِ الكتبِ، مُكذِّبون بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم والفُرقانِ، فقال جلَّ ثناؤُه لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾، يعني: بما هم به مؤمِنون مِن الكُتبِ والرُّسلِ، ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمَّدٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٧/ ٥٩٥) و(٢٢/ ٦١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).

ظَٰهِرِينَ﴾، وفيه دليلٌ ظاهِرٌ على عُلُوِّ شَأنِ الجِهادِ ورِفعةِ مَنزِلتِه عندَ اللهِ تعالى؛ لأنَّه ذُرْوةُ سَنامِ الأمرِ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ تقديمُ المالِ على النَّفْسِ في الجِهادِ، وكذا في غالبِ المواضِعِ، وهذا دليلٌ على وُجوبِ الجِهادِ بالمالِ كما يجِبُ بالنَّفْسِ، فإذا دَهَمَ العَدُوُّ وَجَبَ على القادرِ الخروجُ بنَفْسِه؛ فإنْ كان عاجزًا وَجَبَ عليه أنْ يَكتريَ بمالِه، فتقديمُ المالِ في الذِّكْرِ مُشْعِرٌ بإنكارِ وَهْمِ مَن يَتَوَهَّمُ أنَّ العاجِزَ بنَفْسِه إذا كان قادِرًا على أنْ يَغْزُوَ بمالِه لا يَجِبُ عليه شيءٌ.

وفائدةٌ ثانيةٌ على تقديرِ عدمِ الوُجوبِ، وهي: أنَّ المالَ محبوبُ النَّفْسِ ومَعشوقُها الَّتي تَبذُلُ ذاتَها في تَحصيلِه، وتَرتَكِبُ الأخطارَ وتتعَرَّضُ للمَوتِ في طَلَبِه؛ فنَدَبَ اللهُ تعالى مُحِبِّيه المجاهِدينَ في سَبيلِه إلى بَذْلِ مَعشوقِهم ومَحبوبِهم في مَرْضاتِه، فإنَّ المقصودَ أنْ يكونَ اللهُ هو أَحَبَّ شَيءٍ إليهم، ولا يكونَ في الوُجودِ شيءٌ أحبَّ إليهم منه، فإذا بَذَلوا محبوبَهم في حُبِّه نَقَلَهم إلى مَرتبةٍ أُخرى أَكْمَلَ منها، وهي بَذْلُ نُفوسِهم له، فهذا غايةُ الحُبِّ(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الخَيريَّةَ قد تكونُ في الواجِباتِ، بل قد تكونُ في أصلِ الإيمانِ؛ فالإشارةُ في قولِه: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى الإيمانِ باللهِ ورَسولِه، والجهادِ في سبيلِه، وهذا أصلُ الإيمانِ، وقال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩]، ومعلومٌ أنَّ الذَّهابَ إلى صَلاةِ الجُمُعةِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٧).

ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ١٩٩).

بعدَ الأذانِ الثَّاني واجِبٌ، وقال اللهُ فيه: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، فالخيريَّةُ لا تَختَصُّ بما كان نافِلةً، بل تكونُ بما كان نافِلةً، وبما كان فَريضةً، وتكونُ حتَّى في أصلِ الإيمانِ(١).

٨- عَمَلُ الإنسانِ لا يُنجيه مِن النَّارِ، ولا يُدْخِلُه الجنَّةَ، وإنَّما يَحصُلُ ذلك كلُّه بمَغفِرةِ اللهِ ورَحمتِه، وقد دلَّ القرآنُ العزيزُ على هذا المعنَى في مواضعَ كثيرةٍ، منها قَولُه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، وقولُه: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١]، فقَرَن بيْنَ دُخولِ الجنَّةِ والنَّجاةِ مِن النَّارِ وبينَ المَغفِرةِ والرَّحمةِ؛ فدلَّ على أنَّه لا يُنالُ شَيءٌ مِن ذلك بدُونِ مَغفِرةِ اللهِ ورَحمتِه، والعملُ وإنْ كان سببًا لدُخولِ الجنَّةِ، فإنَّما هو مِن فضلِ الله ورحمتِه(٢).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ هذه الآيةُ مِن مُعجِزاتِ القُرآنِ الرَّاجِعةِ إلى الإخبارِ بالغَيبِ(٣). وذلك على أنَّ المرادَ نصْرُ فتْحِ مكَّةَ؛ فإنَّه كان نصرًا على أشدِّ أعدائِهم.

١٠- الإيمانُ إذا ذُكِرَ وَحْدَه دَخَلَ فيه الإسلامُ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعدَ أنْ ذَكَرَ ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾، وأمَّا إذا ذُكِرا جَميعًا فيَفتَرِقانِ، ويكونُ الإسلامُ بالأعمالِ الظَّاهرةِ مِن أقوالِ اللِّسانِ وعَمَلِ الجَوارحِ، والإيمانُ بالأعمالِ الباطِنةِ مِن اعتِقاداتِ القُلوبِ وأعمالِها(٤).

١١- تَظاهَرَت آياتُ الكِتابِ وتواتَرت نُصوصُ السُّنَّةِ على التَّرغيبِ في

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٩٢، ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٦٠).

الجِهادِ والحَضِّ عليه، ومَدْحِ أهْلِه، والإخبارِ عَمَّا لهم عندَ رَبِّهم مِن أنواعِ الكَراماتِ والعَطايا الجَزيلاتِ، ويَكْفي في ذلك قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾، فتشوَّفت النُّفوسُ إلى هذه التِّجارةِ الرَّابحةِ الدَّالِّ عليها رَبُّ العالَمينَ العَليمُ الحكيمُ، فقال: ﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾، فكأنَّ النُّفوسَ ضَنَّت بحَياتِها وبَقائِها، فقال: ﴿ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ يعني: أنَّ الجِهادَ خَيرٌ لكم مِن قُعودِكم للحياةِ والسَّلامةِ، فكأنَّها قالت: فما لَنا في الجهادِ مِنَ الحَظِّ؟ فقال: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾، مع المغفرةِ ﴿وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾، فكأنَّها قالت: هذا في الآخرةِ، فما لَنا في الدُّنيا؟ فقال: ﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾. فلِلَّه ما أحلى هذه الألفاظَ، وما ألصَقَها بالقُلوبِ! وما أعظَمَها جذبًا لها، وتَسييرًا إلى رَبِّها! وما ألطَفَ مَوقِعَها مِن قَلبِ كُلِّ مُحبٍّ! وما أعظَمَ غِنى القَلبِ وأطيَبَ عَيْشَه حينَ تُباشِرُه معانيها[1]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ * تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ هذا تَخلُّصٌ إلى الغرَضِ الَّذي افتُتِحت به السُّورةُ مِن قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ﴾ [الصف: ٢- ٤]؛ فبعْدَ أنْ ضُرِبَت لهمُ الأمثالُ، وانتَقَل الكلامُ مِن مَجالٍ إلى مَجالٍ، أُعِيدَ خِطابُهم هنا بمِثلِ ما خُوطِبوا به بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، أي: هلْ أدُلُّكم على أحبِّ العملِ إلى اللهِ لتَعمَلوا به كما طلَبْتُم؛ إذ قُلْتُم:

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٣٥٥).

لو نَعلَمُ أيُّ الأعمالِ أحَبُّ إلى اللهِ لَعَمِلْنا به[١]؟ فجاءت السُّورةُ في أُسلوبِ الخَطابةِ[٢].

- وجاء قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ...﴾ الآيَةَ، في أُسلوبِ النِّداءِ والاستِفهامِ؛ لأنَّه أفخَمُ وأشَدُّ تَشويقًا بالأداةِ الَّتي لا يَكونُ ما بعْدَها إلَّا بالِغًا في العِظَمِ إلى النِّهايةِ[٣].

- والاستِفهامُ هنا مُستعمَلٌ في العرْضِ؛ لأنَّ العارضَ قد يَسأَلُ المعروضَ عليه ليَعلَمَ رَغبتَه في الأمرِ المعروضِ، كما يُقالُ: هلْ لك في كذا؟ أو هلْ لك إلى كذا؟ والعرْضُ هنا كِنايةٌ عن التَّشويقِ إلى الأمرِ المعروضِ، وهو دَلالتُه إيَّاهم على تِجارةٍ نافعةٍ[٤]. وقيل: (هَلْ) حرْفُ استِفهامٍ معْناه الإخبارُ والإيجابُ، أي: سأدُلُّكم، وإنَّما أورَدَهُ في صِيغةِ الاستفهامِ؛ تَشويقًا وإلْهابًا للرَّغبةِ[٥].

- وجِيءَ بفِعلِ ﴿أَدُلُّكُمۡ﴾؛ لإفادةِ ما يُذكَرُ بعْدَه مِن الأشياءِ الَّتي لا يُهْتدى إليها بسُهولةٍ[٦].

- وأُطلِقَ على العَملِ الصَّالحِ لفظُ التِّجارةِ؛ لِمُشابَهةِ العملِ الصَّالحِ التِّجارةَ في طلَبِ النَّفعِ مِن ذلك العملِ ومُزاوَلَتِه والكَدِّ فيه. ووصْفُ التِّجارةِ بأنَّها تُنجِي مِن عَذابٍ أليمٍ لقَصْدِ الصَّراحةِ بهذه الفائدةِ لأهمِّيَّتِها[٧].

---

(١) يُنظر ما تقدم في سبب النزول (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٣، ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٨٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجُملةُ ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ذِكرَ الدَّلالةِ مُجمَلٌ، والتَّشويقَ الَّذي سَبَقَها ممَّا يُثيرُ في أنفُسِ السَّامِعينَ التَّساؤُلَ عن هذا الَّذي تَدُلُّنا عليه، وعن هذه التِّجارةِ[1].

- وقولُه: ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ خبَرٌ في معْنى الأمرِ، جِيءَ به على لَفظِ الخبرِ؛ للإيذانِ بوُجوبِ الامتثالِ وكأنَّه امتُثِلَ، فهو يُخبِرُ عن إيمانٍ وجِهادٍ مَوجودَينِ، ونَظيرُه قولُ الدَّاعي: غفَرَ اللهُ لك، ويَغفِرُ اللهُ لك؛ جُعِلَت المغفرةُ -لقوَّةِ الرَّجاءِ- كأنَّها كانت ووُجِدَت[2].

- وفي التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾ إفادةُ الأمرِ بالدَّوامِ على الإيمانِ وتَجديدِه في كلِّ آنٍ، وذلك تَعريضٌ بالمنافِقينَ، وتَحذيرٌ مِن التَّغافُلِ عن مُلازَمةِ الإيمانِ وشُؤونِه، وأمَّا ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ فإنَّه لإرادةِ تَجدُّدِ الجهادِ إذا استُنْفِروا إليه، ومَجِيءُ ﴿يَغْفِرْ﴾ مَجزومًا تَنبيهٌ على أنَّ ﴿ تُؤْمِنُونَ ﴾، ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ وإنْ جاءَا في صِيغةِ الخَبرِ فالمُرادُ الأمْرُ؛ لأنَّ الجزْمَ إنَّما يكونُ في جَوابِ الطَّلبِ، لا في جَوابِ الخبَرِ[3].

- وإذ قدْ كان الخِطابُ لقَومٍ مُؤمنينَ، فإنَّ فِعلَ ﴿ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ مع قولِه: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ﴾ مُرادٌ به: تَجمَعونَ بيْنَ الإيمانِ باللهِ ورسولِه وبيْنَ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ بأمْوالِكم وأنفُسِكم؛ تَنويهًا بشأْنِ الجِهادِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾؛ فقدَّمَ في هذه الآيةِ الكريمةِ الجِهادَ بالمالِ على الجِهادِ بالنَّفْسِ، وفي قولِه تعالَى: ﴿ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]؛ فقدَّمَ النَّفْسَ على المالِ، وفي ذلك سِرٌّ لَطيفٌ؛ أمَّا في آيةِ (الصَّفِّ) فإنَّ المقامَ مَقامُ تَفسيرٍ وبَيانٍ لمعْنى التِّجارةِ الرَّابحةِ بالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ، وحَقيقةُ الجهادِ بذْلُ الجَهدِ والطاقةِ، والمالُ هو عصَبُ الحرْبِ، وهو مَدَدُ الجيشِ، وهو أهمُّ مِن الجِهادِ بالسِّلاحِ؛ فبالمالِ يُشْترى السِّلاحُ، وقدْ تُستأجَرُ الرِّجالُ، كما في الجُيوشِ الحديثةِ مِن الفِرَقِ الأجنبيَّةِ، وبالمالِ يُجهَّزُ الجيشُ، ولذا لَمَّا جاء الإذنُ بالجِهادِ أعذَرَ اللهُ المَرْضى والضُّعفاءَ، وأعذَرَ معهم الفُقراءَ الَّذين لا يَستطيعونَ تَجهيزَ أنفُسِهم، وأعذَرَ معهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ إذ لم يُوجَدْ عندَه ما يُجهِّزُهم به، كما في قولِه تَعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ﴾، إلى قولِه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩١-٩٢]، وكذلك مِن جانبٍ آخَرَ: قدْ يُجاهِدُ بالمالِ مَن لا يَستطيعُ بالسِّلاحِ، كالنِّساءِ والضُّعفاءِ، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ((مَن جهَّزَ غازيًا فقدْ غَزا))[1].

أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ: فهي في مَعرِضِ الاستبدالِ والعرْضِ والطَّلبِ، أو ما يُسمَّى بالمساوَمةِ، فقدَّمَ النَّفْسَ؛ لأنَّها أعزُّ ما يَملِكُ الحيُّ، وجَعَلَ في مُقابِلِها الجنَّةَ، وهي أعزُّ ما يُوهَبُ، فالتِّجارةُ هنا مُعامَلةٌ مع اللهِ إيمانًا باللهِ وبرَسولِه، وجِهادًا

(١) أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٢٨٤٣)، ومسلمٌ (١٨٩٥) واللَّفظُ له مِن حديثِ زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رضيَ الله عنه.

بالمالِ والنَّفْسِ، والعمَلِ الصَّالحِ[١].

وقيل: ذكَرَ الأموالَ أوَّلًا؛ لأنَّها الَّتي يُبدأُ بها في الإنفاقِ[٢]. وقيل: لَمَّا كان الجَمعُ بيْن الرُّوحِ وعديلِها المالِ على وَجهِ الرِّضا والرَّغبةِ أدَلَّ على صِحَّةِ الإيمانِ، قال: ﴿بِأَمْوَٰلِكُمْ﴾، وقَدَّمَها؛ لعِزَّتِها في ذلك الزَّمانِ، ولأنَّها قِوامُ الأنفُسِ والأبدانِ، فمَن بذَلَ مالَه كلَّه لم يَبخَلْ بنفْسِه؛ لأنَّ المالَ قِوامُها. ولَمَّا قدَّمَ القِوامَ أتْبَعَه القائمَ به، فقال: ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾[٣].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ التَّعبيرُ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ وما فيه مِن معْنى البُعدِ مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلوِّ شأْنِه، وكَونِه في الغايةِ القاصيةِ مِن الفضْلِ والشَّرَفِ[٤].

- وقولُه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تَعريضٌ لهم بالعِتابِ على تَولِّيهم يومَ أُحُدٍ بعْدَ أنْ قالوا: لو نَعلَمُ أيَّ الأعمالِ أحبُّ إلى اللهِ لَعَمِلْناه، فنُدِبوا إلى الجِهادِ، فكان ما كان منهم يومَ أُحُدٍ، فنُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يُشَكُّ في عَمَلِهم بأنَّه خيرٌ؛ لعَدَمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ العِلمِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

- قيل: جوابُ ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ ﴿يَغْفِرْ﴾؛ لذا جُزِمَ، أي: لأنَّ مُتعلَّقَ ﴿أَدُلُّكُمْ﴾ هو

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١١٣، ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٥).

التِّجارةُ المُفسَّرةُ بالإيمانِ والجهادِ، فكأنَّه قِيل: هل تتَّجِرون بالإيمانِ والجهادِ يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم[١]؟

- قولُه: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ إنَّما خُصَّت المساكنُ بالذِّكرِ هنا؛ لأنَّ في الجِهادِ مُفارَقةَ مَساكِنِهم، فوُعِدوا على تلك المُفارَقةِ المُوقَّتةِ بمَساكنَ أبَدِيَّةٍ؛ قال تَعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤] الآيةَ[٢].

- قولُه: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عُطِفَ على جُملةِ ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ﴿وَيُدْخِلْكُمْ﴾ [الصف: ١٢] عطْفَ الاسميَّةِ على الفِعليَّةِ، وجِيءَ بالاسميَّةِ لإفادةِ الثُّبوتِ والتَّحقُّقِ[٣].

- وفي ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ تَعريضٌ وتَوبيخٌ على مَحبَّةِ العاجلِ؛ وذلك أنَّه تَعالى عطَفَ (أُخرى) مِن حيثُ المعْنى على النِّعمةِ المذكورةِ مِن المغفرةِ والثَّوابِ، وقيَّدَها بقولِه: ﴿تُحِبُّونَهَا﴾، وفيه إشارةٌ إلى هذا المعْنى؛ لأنَّ الفتْحَ والنُّصرةَ وإنْ كانَا مِن الأُمورِ الدِّينيَّةِ، لكنَّ فيهما حظَّ النفْسِ؛ لأنَّهما بظاهِرِهما ممَّا تَشتهيهِ النَّفْسُ[٤].

أو وُصِفَ لَفظُ ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ بجُملةِ ﴿تُحِبُّونَهَا﴾ إشارةً إلى الامتِنانِ عليهم بإعطائِهِم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٤، ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٥).

ما يُحِبُّون في الحياةِ الدُّنيا قبْلَ إعطاءِ نَعيمِ الآخِرةِ[١]. وقيل: وصَفَها تعالى بأنَّ النُّفوسَ تُحِبُّها من حيثُ هي عاجلةٌ في الدُّنيا، وقد وُكلَتِ النَّفْسُ لحُبِّ العاجِلِ؛ ففي هذا تحريضٌ[٢].

- قولُه: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ذِكرُ اسمِ الجَلالةِ يَجوزُ أنْ يكونَ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ، على احتِمالِ أنْ يكونَ ضَميرُ التَّكلُّمِ في قولِه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ [الصف: ١٠] كَلامًا مِن اللهِ تعالى. ويَجوزُ أنْ يكونَ جاريًا على مُقْتضى الظَّاهرِ، إنْ كان الخِطابُ أُمِرَ به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَقديرِ (قُل)[٣].

- ووَصْفُ الفتْحِ بـ﴿قَرِيبٌ﴾ تَعجيلٌ بالمَسرَّةِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ عطْفًا على مَجموعِ الكلامِ الَّذي قبْلَها، ابتداءً مِن قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ﴾ [الصف: ١٠]، على احتِمالِ أنَّ ما قبْلَها كَلامٌ صادرٌ مِن جانبِ اللهِ تعالَى، عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ؛ فيَكونَ الأمرُ مِن اللهِ لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُبشِّرَ المؤمنينَ. وأمَّا على احتِمالِ أنْ يكونَ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ إلى آخِرِه مَسوقًا لأمْرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ: هلْ أدُلُّكم على تِجارةٍ؟ بتَقديرِ قولٍ مَحذوفٍ، أي: قُلْ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا، هلْ أدُلُّكم... إلى آخِرِه، فيَكونَ الأمرُ في ﴿وَبَشِّرِ﴾ الْتِفاتًا مِن قَبيلِ التَّجريدِ[٥]، والمعْنى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٣).

وأُبَشِّرُ المؤمنينَ[١]. وقيل: قولُه: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَعطوفٌ على ﴿تُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّه في معْنى الأمْرِ، كأنَّه قيل: آمِنوا وجاهِدوا يُثِبْكم اللهُ ويَنصُرْكم، وبشِّرْ يا رسولَ اللهِ المؤمنينَ بذلك، وقولُه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ مُتضمِّنٌ معْنى الأمرِ؛ لقولِه: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾، ولأنَّ سِياقَ الكلامِ عليه؛ فإنَّه تعالَى لَمَّا نَبَّه عِبادَه على ما يُخلِّصُهم ممَّا يُؤذِيهم بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، اتَّجَه لهم أنْ يَتضرَّعوا إليه: نعمْ يا مَولانا وربَّنا، أرْشِدْنا إلى هذه البُغيةِ، فقِيل لهم: آمِنوا باللهِ ورسولِه وجاهِدوا، ثمَّ أمَرَ حَبيبَه بأنْ يُبشِّرَهم بأنَّ اللهَ سيُنجِزُ ما وعَدَ مِن الثَّوابِ العظيمِ في الآخِرةِ، والنَّصرِ القريبِ في الدُّنيا، تَقريرًا أو تَشريفًا؛ ولذلك أُتِيَ بما يدُلُّ على التَّجدُّدِ، ووُضِعَ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مَوضعَ الضَّميرِ؛ للإشعارِ بأنَّ صِفةَ الإيمانِ هي الَّتي تَقْتضي هذه البِشارةَ. ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّه تعالَى لَمَّا أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُخاطِبَ النَّاسَ بقولِه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أرشَدَه إلى ما يَقْتضيهِ مِن الجوابِ، أنَّه اتَّجَه لسائلٍ أنْ يقولَ: بَلى دُلَّنا؟ أي: قُلْ: آمِنوا باللهِ... الآيةَ، وبشِّرْهم بعْدَ ذلك بما لا يُكْتنَهُ كُنْهُه ممَّا يصِحُّ أنْ تُبشِّرَ به؛ لإطلاقِ (بشِّر)؛ فعلى هذه (بشِّر) مَعطوفٌ على (قُلْ) مُرادًا عندَ قولِه: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٦، ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٩٥، ٣٩٦).

## الآية (١٤)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ﴾: همْ أصفياءُ عِيسى عليه السَّلامُ وشِيعتُه وناصِرُوه، وخُلاصةُ أصحابِه، وقيل: الحواريُّونَ: صَفوةُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ، الَّذين خلَصوا وأخلَصوا في التَّصديقِ بهم ونُصرتِهم، قيل: سُمِّيَ أصحابُ عيسى بذلك؛ لأنَّهم كانوا يُحوِّرونَ الثِّيابَ، أي: يُبيِّضونَها، مِن: حُرْتُ الثَّوبَ، أي: أخْلَصْتُ بَياضَه بالغَسْلِ، والحَوَرُ: شِدَّةُ البَياضِ[1]، ثُمَّ قيل لخاصَّةِ الرَّجُلِ مِن أصحابِه وأنصارِه: حَوارِيٌّ. وقيل: هم الَّذين أُخلِصُوا ونُقُّوا مِن كلِّ عَيبٍ[2]، وقيل: اشتِقاقُ الحَواريِّ مِن حارَ يَحورُ إذا رجَع، فكأنَّهم الرَّاجِعونَ إلى الله، أو الحَواريُّ مِن النَّاسِ هو الَّذي إذا رُجِعَ في اختيارِه مرَّةً بعدَ مرَّةٍ وُجِدَ نقيًّا مِنَ العُيُوب. وأصلُ (حور) هنا: لَونٌ، والأصلُ الثَّاني: الرُّجوعُ[3].

﴿فَأَيَّدۡنَا﴾: أي: قَوَّيْنا وأعَنَّا، وأصلُ (أيد): يدُلُّ على القُوَّةِ والحِفظِ[4].

---

(١) ولذلك سُمِّيَ «الحُوَّارَى» مِن الطَّعامِ بذلك؛ لشدَّةِ بَياضِه.

(٢) وسُمِّيَ الدَّقيقُ الحُوَّارَى بذلك لأنَّه يُنَقَّى مِن لُبابِ البُرِّ وخالِصِه.

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٦٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥، ١١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (١/ ٢٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٣)، ((مقاييس =

﴿ظَٰهِرِينَ﴾: أي: غالِبينَ عالِينَ عليهم، مِن قَولِك: ظَهرْتُ على فُلانٍ: إذا عَلَوتَه، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يَدعو الله تعالى المؤمنينَ إلى التَّشبُّهِ بمَنْ قَبْلَهم مِن الصَّالِحينَ الصَّادقينَ، والاقتِداءِ بهم، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا كونوا أنصارَ اللهِ تعالى، كما قال عيسى ابنُ مَريمَ لِخُلَّصِ أصحابِه وخاصَّتِهم: مَن يُعِينُني في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وإقامةِ دِينِه ونُصرتِه؟ قال الحَوارِيُّونَ له: نحنُ أعوانُك على إقامةِ ما أرسَلَك اللهُ به؛ فآمنَت جماعةٌ مِن بني إسرائيلَ بنُبُوَّةِ عيسى، وكفَرَت به طائِفةٌ أُخرى، فقَوَّيْنا المؤمِنينَ مِن بني إسرائيلَ على عَدُوِّهم مِن الكافِرينَ، فأصبَحوا عالِينَ غالِبينَ.

## تَفسيرُ الآيةِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا هزَّ الله سُبحانَه إلى الجهادِ، وشوَّق إليه بأنَّه متجرٌ رابحٌ، ولَوَّح إلى النِّذارةِ بالتَّنشيطِ بالبِشارةِ، فتهيَّأت النُّفوسُ إلى الإقبالِ عليه، وانبعثَتْ أيَّ انبعاثٍ؛ حضَّ عليه بالإيجابِ المقتضي للثَّوابِ أو العِقابِ[٢].

---

= اللغة)) لابن فارس (١/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا كونوا أنصارَ الله، بالأقوالِ والأفعالِ، ونصرِ دينِه والاستجابةِ لله ورسولِه(١).

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

أي: كما قال عيسى ابنُ مَريمَ لخُلَّصِ أصحابِه المؤمِنينَ به، وخاصَّتِهم: مَن يُعِينُني في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وإقامةِ دِينِه ونُصرتِه(٢)؟

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَى مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢](٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٨، ١٩٩).
قال ابنُ عاشور: (النَّصرُ المأمورُ به هنا نَصرُ دينِ اللهِ الَّذي آمَنوا به بأن يَبُثُّوه ويَثْبُتوا على الأخذِ به دونَ اكتراثٍ بما يلاقونَه مِن أذًى مِن المشركينَ وأهلِ الكِتابِ... وهذا هو الَّذي شُبِّه بنَصرِ الحواريِّينَ دينَ اللهِ الَّذي جاء به عيسى عليه السَّلامُ؛ فإنَّ عيسى لم يجاهِدْ مَن عانَدوه، ولا كان الحواريُّونَ مِمَّن جاهَدوا، ولكِنَّه صَبَر وصَبَروا حتَّى أظهَرَ اللهُ دينَ النَّصرانيَّةِ، وانتَشَر في الأرضِ، ثمَّ دبَّ إليه التَّغييرُ، حتَّى جاء الإسلامُ فنسَخَه مِن أصْلِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٨، ١٩٩).
وقال السعدي: (قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾، أي: بالأقوالِ والأفعالِ، وذلك بالقيامِ بدِينِ اللهِ، والحِرصِ على إقامتِه على الغَيرِ، وجِهادِ مَن عانَدَه ونابَذَه؛ بالأبدانِ والأموالِ، ومَن نَصَر الباطِلَ بما يَزعُمُه مِن العِلمِ، ورَدَّ الحَقَّ، بدَحضِ حُجَّتِه، وإقامةِ الحُجَّةِ عليه، والتَّحذيرِ منه. ومِن نَصْرِ دينِ اللهِ: تَعَلُّمُ كِتابِ اللهِ وسُنَّةِ رَسولِه، والحَثُّ على ذلك، والأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المُنكَرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٠).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).
(٣) يُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٢١٥).

وقال سُبحانَه: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: ١١١].

وعن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن يأتيني بخبَرِ القَومِ، يومَ الأحزابِ؟ قال الزُّبَيرُ: أنا. ثمَّ قال: مَن يأتيني بخبَرِ القَومِ؟ قال الزُّبَيرُ: أنا. فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ لكُلِّ نَبيٍّ حَوَاريًّا[١]، وحَوارِيَّ الزُّبَيرُ))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن نَبيٍّ بعَثَه اللهُ في أُمَّةٍ قَبْلي إلَّا كان له مِن أُمَّتِه حَواريُّونَ وأصحابٌ، يأخُذونَ بسُنَّتِه، ويَقتَدونَ بأمْرِه، ثمَّ إنَّها تَخلُفُ مِن بَعْدِهم خُلوفٌ[٣] يَقولونَ ما لا يَفعَلونَ، ويَفعَلونَ ما لا يُؤمَرونَ، فمَن جاهَدَهم بيَدِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بلِسانِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بقَلْبِه فهو مُؤمِنٌ، وليس وراءَ ذلك من الإيمانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ[٤]))[٥].

﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

أي: قال حَوارِيُّو عيسى له: نحنُ أعوانُك على إقامةِ ونَصرِ ما أرسَلَك اللهُ به مِنَ

---

(١) الحَوارِيُّ: ناصِرُ الأنبياءِ وصَفوةُ أَتْباعِهم. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١١/ ١٠٣).

(٢) رواه البخاري (٢٨٤٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٤١٥).

(٣) الخُلُوفُ: الخالِفونَ بعدَ السَّالِفينَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠).

قال النوويُّ: (أمَّا الخُلوفُ فبضَمِّ الخاءِ، وهو جمعُ «خلْف» بإسكانِ اللَّام، وهو الخالفُ بشَرٍّ، وأمَّا بفتحِ اللَّام فهو الخالفُ بخَيرٍ، هذا هو الأشهرُ). ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٢٨).

(٤) الخَردَلُ: نباتٌ يُضرَبُ المثَلُ بحُبوبِه في الشَّيءِ القليلِ البَليغِ في القِلَّةِ والصِّغَرِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١/ ١٧٠)، ((الكوثر الجاري)) للكوراني (١/ ٧٥).

(٥) رواه مسلم (٥٠).

الحَقِّ[١].

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ﴾.

أي: فآمنَت جماعةٌ مِن بني إسرائيلَ بنُبُوَّةِ عيسى وما جاءَهم به مِنَ الحَقِّ، وكفَرَت به طائِفةٌ أُخرى فافتَرَوا عليه كَذِبًا[٢].

﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾.

أي: فقَوَّيْنا المؤمِنينَ مِن بني إسرائيلَ على عَدُوِّهم مِن الكافِرينَ، فأصبَحوا عالِينَ غالِبينَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (لهذا بعَثَهم دُعاةً إلى النَّاسِ في بلادِ الشَّامِ في الإسرائيليِّينَ واليُونانيِّينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).

قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞ﴾، أي: لَمَّا بلَّغَ عيسى ابنُ مَريمَ عليه السَّلامُ رِسالةَ رَبِّه إلى قَومِه، ووازَره مَن وازَرَه مِن الحَواريِّينَ، اهتَدَت طائفةٌ مِن بني إسرائيلَ بما جاءَهم به، وضَلَّت طائفةٌ فخرَجَت عمَّا جاءهم به، وجَحَدوا نبُوَّتَه، ورَمَوه وأمَّه بالعظائِمِ، وهم اليهودُ -عليهم لعائِنُ اللهِ المُتتابِعةُ إلى يومِ القيامةِ- وغَلَت فيه طائِفةٌ مِمَّن اتَّبَعه، حتَّى رَفَعوه فوقَ ما أعطاه اللهُ مِن النُّبُوَّةِ، وافتَرَقوا فِرَقًا وشِيَعًا؛ فمِن قائِلٍ منهم: إنَّه ابنُ اللهِ، وقائِلٍ: إنَّه ثالِثُ ثلاثةٍ: الأبُ، والابنُ، ورُوحُ القُدُسِ، ومِن قائلٍ: إنَّه اللهُ!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦١).

قال ابنُ عطية: (قولُه تعالى: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ﴾ قيل: ذلك قبْلَ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبعدَ فَترةٍ مِن رَفعِ عيسى عليه السَّلامُ، رَدَّ اللهُ تعالى الكَرَّةَ لِمَن آمَنَ به، فغَلَبوا الكافرينَ الَّذين قَتَلوا صاحِبَه الَّذي أُلقِيَ عليه الشَّبَهُ. وقيل: ذلك بمُحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أصبح =

= المؤمِنُ بعيسى ظاهِرًا لإيمانِه بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ وذلك أنَّه لا يُؤمِنُ أحدٌ حَقَّ الإيمانِ بعيسى إلَّا وفي ضِمنِ ذلك الإيمانُ بمحمَّدٍ؛ لأنَّه بَشَّرَ به، وحَرَّض عليه. وقيل: كان المؤمِنونَ به قديمًا ظاهِرينَ بالحُجَّةِ، وإن كانوا مُفَرَّقينَ في البلادِ، مغلوبينَ في ظاهرِ الحياةِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٥).

وممَّن ذهب في الجُملةِ إلى أنَّ المرادَ: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بعيسى ﴿عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ وهم مُخالِفُو عيسى: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والبِقاعي، وابنُ عاشور. ونسَبَه ابنُ الجوزي إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٧٩).

قال الماتُريدي: (هذا يحتملُ أن يكونَ في حياةِ عيسى عليه السَّلامُ حينَ اتَّبَعه الحَواريُّونَ، ثمَّ دعا بعدَ ذلك قومَه إلى دينِه، فآمنتْ طائفةٌ، وكفرتْ طائفةٌ، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ بالبَراهينِ والحُجَجِ على الطَّائفةِ الَّذين كفروا؛ ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ على أعدائِهم بالحُجَجِ والبَراهينِ. ويجوزُ أن يكونَ بعدَ وفاةِ عيسى عليه السَّلامُ حينَ اختلَفوا في ماهيَّتِه: فمِنهم مَن قال: هو الله، ومنهم مَن قال: هو ابنُ الله؛ فكفرتْ به هذه الطَّائفةُ، وآمنتْ به طائفةٌ أخرى، ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ حينَ وقَع لهم قِتالٌ؛ فنُصِروا عليهم وظَفِروا، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير الماتريدي)) (٩/ ٦٣٧).

وقال ابن عرفة: (لعلَّ المرادَ الحَواريُّونَ بالنَّوعِ لا بالشَّخصِ، بأولادِهم أو مَن ينتمي لهم، نُصِروا فانتصَروا). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٢٨).

وقال البِقاعي: (الظَّاهرُ كما هو ظاهرُ قولِه تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥] وغيرِها أنَّ تأييدَ المؤمنينَ به كان بَعْدَ رفْعِه بيَسيرٍ حينَ ظهَر الحَواريُّونَ وانبثُّوا في البلادِ يَدْعون إلى اللهِ بما آتاهم مِن الآياتِ، فاتَّبَعهم النَّاسُ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٢، ٤٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: قوَّيْنا الَّذين آمَنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على عَدُوِّهم فأصبَحوا ظاهِرينَ بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أهلِ الأديانِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣١٨).

وقيل: المعنى: لَمَّا بَعَث اللهُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَزَل تصديقُ مَن آمَنَ بعيسى؛ أصبَحَت حُجَّةُ مَن آمَنَ به ظاهِرةً بتَصديقِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ عيسى كَلِمةُ اللهِ ورُوحُه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جرير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٣-٦٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٧). =

كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أنَّ النَّصرَ والتَّأييدَ الكامِلَ إنَّما هو لأهلِ الإيمانِ الكامِلِ، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١]، فمَن نَقَصَ إيمانُه نَقَصَ نصيبُه مِن النَّصرِ والتَّأييدِ؛ ولهذا إذا أُصِيبَ العَبدُ بمُصيبةٍ في نفْسِه أو مالِه، أو بإدالةِ عَدُوِّه عليه، فإنَّما هي بذُنوبِه؛ إمَّا بتَركِ واجبٍ، أو فِعْلِ مُحرَّمٍ، وهو مِن نَقْصِ إيمانِه، وبهذا يزولُ الإشكالُ الَّذي يُورِدُه كثيرٌ مِن النَّاسِ على قَولِه تعالى: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، ويُجيبُ عنه كثيرٌ منهم بأنَّه لن يَجعَلَ لهم عليهم سَبيلًا في الآخرةِ، ويُجيبُ آخَرونَ بأنَّه لن يَجعَلَ لهم عليهم سَبيلًا في الحُجَّةِ. والتَّحقيقُ: أنَّها مِثلُ هذه الآياتِ، وأنَّ انتفاءَ السَّبيلِ هو عن أهلِ الإيمانِ الكامِلِ، فإذا ضَعُفَ الإيمانُ صار لِعَدُوِّهم عليهم مِن

---

= وقال ابن كثير: (قوله: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي: نصَرْناهم على مَن عاداهم مِن فِرَقِ النَّصارى، ﴿فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: عليهم، وذلك ببَعثةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٣).

وقال الألوسي: (قيل: اقتتَل المؤمنونَ والكفَرةُ بعدَ رفْعِه عليه السَّلامُ، فظهَرَ المؤمنونَ على الكفَرةِ بالسَّيفِ، والمشهورُ أنَّ القتالَ ليس مِن شريعتِه عليه السَّلامُ. وقيل: المرادُ: فآمنتْ طائفةٌ مِن بني إسرائيلَ بمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكفرتْ أخرى به صلَّى الله تعالى عليه وسلَّمَ، فأيَّدْنا المؤمنينَ على الكفَرةِ، فصاروا غالِبينَ. وهو خِلافُ الظَّاهرِ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٦).

السَّبيلِ بحَسَبِ ما نَقَص مِن إيمانِهم، فهم جَعَلوا لهم عليهمُ السَّبيلَ بما تَرَكوا مِن طاعةِ اللهِ تعالى؛ فالمؤمِنُ عزيزٌ غالِبٌ، مُؤَيَّدٌ مَنصورٌ، مُكْفًى مدفوعٌ عنه بالذَّاتِ أين كان، ولو اجتمعَ عليه مَن بأقطارِها، إذا قام بحقيقةِ الإيمانِ وواجباتِه ظاهِرًا وباطِنًا[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ حُجَّةٌ واضِحةٌ في وُجوبِ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عنِ المُنكَرِ؛ إذْ لا يَشُكُّ أحَدٌ أنَّ نَصْرَ اللهِ إنَّما هو نَصْرُ دِينِه، ولا يكونُ نَصْرُه إلَّا بالمعونةِ على إقامةِ أمْرِه ونَهْيِه وعُلُوِّهما، والأخذِ على يَدَيْ مَن يريدُ ذُلَّه وإهانتَه، ولا يكونُ ذُلُّه وإهانتُه إلَّا في تَضييعِ أمْرِه ونَهْيِه اللَّذَينِ قِوامُ الدِّينِ بهما[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ فيه بِشارةٌ للمُؤمِنينَ بالتَّأييدِ الرَّبَّانيِّ لهم ما داموا مُتناصِرينَ على الحَقِّ، مجتَمِعينَ عليه، غيرَ مُتفَرِّقينَ عنه، ولا مُتخاذِلينَ، كما وقَعَ لسَلَفِهم؛ اتَّفَقوا فمَلَكوا، وإلَّا فإذا تفرَّقوا هَلَكوا[٣].

## بلاغةُ الآيةِ:

- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ...﴾ خِطابٌ آخَرُ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٥).

للمؤمنينَ تَكملةً لِما تَضمَّنَه الخِطابُ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ﴾ إلى قولِه: ﴿وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٠، ١١] الآيةَ، الَّذي هو المقصودُ مِن ذلك الخِطابِ، فجاء هذا الخِطابُ الثَّاني تَذكيرًا بأُسوةٍ عَظيمةٍ مِن أحوالِ المُخلِصينَ مِن المؤمنينَ السَّابقينَ -وهم أصحابُ عِيسى عليه السَّلامُ- مع قِلَّةِ عَدَدِهم وضَعْفِهم[١].

- والتَّشبيهُ بدَعوةِ عيسى ابنِ مَريمَ للحواريِّينَ وجَوابِ الحواريِّينَ تَشبيهُ تَمثيلٍ[٢]، أي: كُونوا عندَما يَدْعوكم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى نصْرِ اللهِ كحالةِ قَولِ عيسى ابنِ مَريمَ للحواريِّينَ واستِجابتِهم له. والتَّشبيهُ لقصْدِ التَّنظيرِ والتَّأسِّي؛ فقدْ صَدَقَ الحواريُّون وَعْدَهم وثَبَتوا على الدِّينِ، ولم تُزَعْزِعْهمُ الفِتَنُ والتَّعذيبُ[٣].

- و(ما) في قولِه: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ مَصدريَّةٌ، أي: كَقولِ عيسى وقولِ الحواريِّين. وفيه حذْفُ مُضافٍ تَقديرُه: لكَونِ قولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٨).

(٢) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: إثباتُ حُكمٍ للمُشَبَّهِ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به. وقد اتَّفق الأدباءُ على شَرفِه في أنواعِ البلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادَها كمالًا، وكساها حُلَّةً وجَمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العربِ، بل هو أكثرُ كلامِهم. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ عِدَّةَ تقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ المُفرَدُ. ومنه: التَّشبيهُ المركَّبُ: وهو الَّذي يكونُ وجْهُ الشَّبَهِ فيه مُنتزَعًا مِن متعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ مِن أحوالِ الحِمارِ. وخصَّ البَيانيُّونَ لفظَ «التَّمثيلِ» بالتَّشبيهِ المركَّبِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي، (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ١٩٩، ٢٠٠).

عيسى وقولِ الحواريِّينَ؛ فالتَّشبيهُ بمَجموعِ الأمْرَينِ: قولِ عيسى وجوابِ الحواريِّينَ؛ لأنَّ جَوابَ الحواريِّينَ بمَنزلةِ الكلامِ المُفرَّعِ على دَعوةِ عيسى، وإنَّما تُحذَفُ الفاءُ في مِثلِه مِن المُقاوَلاتِ والمُحاوَراتِ للاختصارِ[١].

- وقولُ عيسى عليه السَّلامُ: ﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ استِفهامٌ؛ لاختبارِ انتِدابِهم إلى نصْرِ دِينِ اللهِ معه[٢]. وإضافةُ (أنصار) إلى ياءِ المُتكلِّمِ -وهو عيسى- مِن إضافةِ أحدِ المُتشاركَينِ إلى الآخَرِ؛ لِما بيْنَهما مِن الاختصاصِ، أي: باعتبارِهم أنصارَ دَعوتِه[٣].

- وإضافةُ ﴿أَنصَارِيٓ﴾ خِلافُ إضافةِ ﴿أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾؛ فالإضافةُ الأُولى مَحْضةٌ، والثَّانيةُ غيْرُ مَحْضةٍ، وفائدةُ هذا الاختلافِ: الإيذانُ بأنَّ الَّذي يُطلَبُ منهمْ هو النُّصرةُ المُعتبَرةُ، وهو اختصاصُهم به وما أخْبَروا به عن أنفُسِهم ليس إنشاءً للنُّصرةِ، بل ادِّعاءً منهم أنَّهم الَّذين يَنصُرون اللهَ، ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾[٤].

- ووُصِلَ وصْفُ ﴿أَنصَارِيٓ﴾ بـ(إلى)؛ إمَّا على تَضمينِ صِفةِ (أنْصار) مَعنى الضَّمِّ، أي: مَن ضامُّون نصْرَهم إيَّايَ إلى نصْرِ اللهِ إيَّايَ الَّذي وَعَدني به؛ إذْ لا بُدَّ لحُصولِ النَّصرِ مِن تَحصيلِ سَببِه، كما هي سُنَّةُ اللهِ؛ قال تعالَى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ [محمد: ٧]، على نحْوِ قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ﴾ [النساء: ٢]، أي: ضامِّينَها، فهو ظَرْفُ لَغوٍ، فالمَعنى: مَن أنْصاري

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٣٩٧).

مع اللهِ، و(إلى) إنَّما قارَبَت مَعنى (مع)؛ لأنَّها إذا عُبِّرَ عنها بها أفادَت مَعناها، لا أنَّ (إلى) بمَعنى (مع)؛ لأنَّ (إلى) لانتهاءِ الغايةِ، و(مع) لضَمِّ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ، فالمعنى: مَن يُضِيفُ نُصْرتَه إيَّايَ إلى نُصرَتِه تعالى، ولِما أنَّ الحُروفَ قدْ تَتقارَبُ في الفائدةِ رُبَّما يُظَنُّ أنَّ مَعناها واحدٌ.

وإمَّا على جَعلِه حالًا مِن ياءِ المتكلِّمِ، والمعنى: في حالِ ذَهابي إلى اللهِ، أي: إلى تَبليغِ شَريعتِه، فيكونُ المجرورُ ظَرْفًا مُستقَرًّا[1]. وعلى كِلا الوجْهينِ فالكونُ الَّذي اقتَضاهُ المجرورُ هو كَونٌ مِن أحوالِ عيسى عليه السَّلامُ، ولذلك لم يَأْتِ الحواريُّونَ بمِثلِه في قولِهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾.

أو يَتعلَّقُ بمَحذوفٍ حالًا مِن الياءِ، أي: مَن أنْصاري ذاهبًا إلى اللهِ مُلتجِئًا إليه، ومعنى ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ﴾: مَن الأنصارُ الَّذين يَختصُّون بي، ويكونونَ معي في نُصرةِ اللهِ[2]؟ وقيل: (إلَى) هاهنا بمَعنى (في) أو اللَّامِ[3].

---

(١) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٢١٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (١/ ٤١٦)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٦٥) و(٤/ ٥٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٤/ ١١٧)، ((إعراب القرآن)) لمحيي الدين درويش (١٠/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٢/ ١٩).

- قيل: شُبِّهَ دُعاؤهم إلى الدِّينِ وتَعليمُهم النَّاسَ ما يَرْضاهُ اللهُ لهم؛ بسَعيِ ساعِينَ إلى اللهِ ليَنصُروه، كما يَسْعى المُستنْجَدُ بهمْ إلى مَكانِ مُستنْجِدِهم لِيَنصُروه على مَن غَلَبَه؛ ولذلك كان الجوابُ المحْكيُّ عن الحواريِّينَ مُطابِقًا للاستفهامِ؛ إذ قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾، أي: نحْنُ نَنصُرُ اللهَ على مَن حادَّه وشاقَّه، أي: نَنصُرُ دِينَه[1].

- ومَقالةُ عيسى عليه السَّلامُ المَحكيَّةُ في هذه الآيةِ ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ غيرُ مَقالتِه المَحكيَّةِ في آيةِ (آلِ عِمرانَ): ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]؛ فإنَّ تلك مُوجَّهةٌ إلى جَماعةِ بَني إسرائيلَ الَّذين أحَسَّ منهم الكفْرَ لَمَّا دَعاهم إلى الإيمانِ به. أمَّا مَقالتُه المَحكيَّةُ هنا فهي مُوجَّهةٌ للَّذين آمَنوا به طالبًا منهم نُصرَتَه؛ لقولِه تعالَى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ الآيةَ؛ فلذلك تَعيَّنَ اختلافُ مُقْتضى الكلامَينِ المُتماثلَينِ. وعلى حسَبِ اختِلافِ المَقامَينِ يَجْري اختِلافُ اعتِبارِ الخُصوصيَّاتِ في الكلامينِ وإنْ كانَا مُتشابهَينِ؛ فإضافةُ ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] هناك إضافةٌ لَفظيَّةٌ، وبذلك لم يكُنْ قولُهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] مُفيدًا للقَصْرِ؛ لانعدامِ تَعريفِ المُسنَدِ، فأمَّا هنا فالأظهَرُ أنَّ كلمةَ ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ اعتُبِرَت لَقبًا للحواريِّينَ، عرَّفوا أنفُسَهم به، وخَلَعوه على أنفُسِهم؛ فلذلك أرادوا الاستِدلالَ به على أنَّهم أحقُّ النَّاسِ بتَحقيقِ مَعْناه؛ ولذلك تكونُ إضافةُ (أنصار) إلى اسمِ الجلالةِ هنا إضافةً مَعنويَّةً مُفيدةً تَعريفًا، فصارت جُملةُ ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ هنا مُشتملةً على صِيغةِ قصْرٍ، على خِلافِ نَظيرتِها التي

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٠).

في سُورةِ (آلِ عمرانِ)، ففي حِكايةِ جَوابِ الحواريِّينَ هنا خُصوصيَّةُ صِيغةِ القصْرِ بتَعريفِ المُسنَدِ إليه والمُسنَدِ، وخُصوصيَّةُ التَّعريفِ بالإضافةِ، فكان إيجازًا في حِكايةِ جَوابِهم بأنَّهم أجابوا بالانتدابِ إلى نصْرِ الرَّسولِ، وبجَعْلِ أنفُسِهم مَحقوقينَ بهذا النَّصرِ؛ لأنَّهم مَحَّضوا أنفُسَهم لنصْرِ الدِّينِ، وعُرِفوا بذلك، وبحصْرِ نَصْرِ الدِّينِ فيهم حصْرًا يُفيدُ المُبالَغةَ في تَمحُّضِهم له، حتَّى كأنَّه لا ناصَرَ للدِّينِ غيرُهم مع قِلَّتِهم، وإفادته التَّعريضَ بكُفْرِ بَقيَّةِ قَومِهم مِن بني إسرائيلَ[١].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ على قولِ الحواريِّينَ: ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ بأنَّ بني إسرائيلَ افترَقوا طائفتَينِ: طائفةٌ آمَنَتْ بعيسى وما جاء به، وطائفةٌ كَفَرَتْ بذلك، وهذا التَّفريعُ يَقْتضي كلامًا مُقدَّرًا، وهو: فَنَصَروا اللهَ بالدَّعوةِ والمُصابَرةِ عليها، فاستجابَ بعضُ بني إسرائيلَ وكفَرَ بعْضٌ، والمَقصودُ مِن قولِه: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ التَّوطئةُ لقولِه: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾[٢].

- وإنَّما قال: ﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ولم يَقُلْ: (فأيَّدْناهم)؛ لأنَّ التَّأييدَ كان لمَجموعِ المؤمنينَ بعيسى، لا لكلِّ فرْدٍ منهم؛ إذ قد قُتِلَ مِن أتْباعِه خلْقٌ كثيرٌ، ومُثِّلَ بهم[٣].

- والمَقصودُ مِن هذا الخبرِ: وَعْدُ المسلِمينَ الَّذين أُمِروا أنْ يَكونوا أنصارًا للهِ بأنَّ اللهَ مُؤيِّدُهم على عَدُوِّهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الجُمُعةِ

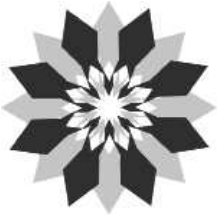

# سُورةُ الجُمُعةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

**سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الجُمُعةِ)[١]، ويدُلُّ لذلك ما يلي:**

١- عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرَأُ في صَلاةِ الفَجْرِ يومَ الجُمُعةِ: ﴿الٓمٓ ۞ تَنزِيلُ﴾ السَّجْدةَ، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾، وأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرَأُ في صلاةِ الجُمُعةِ سُورةَ الجُمُعةِ، والمنافِقينَ))[٢].

٢- وعن الضَّحَّاكِ بنِ قَيسٍ أنَّه كَتَب إلى النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ يَسألُه: ((أيَّ شَيءٍ قَرَأ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الجُمُعةِ سِوى سُورةِ الجُمُعةِ؟ فقال: كان يَقرَأُ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾))[٣].

٣- عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، قال: ((كُنَّا جُلوسًا عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأُنزِلَت عليه سورةُ الجُمُعةِ))[٤].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

**تُسَنُّ قراءتُها في الرَّكعةِ الأُولى مِن صلاةِ الجُمُعةِ:**

عن ابنِ أبي رافعٍ، قال: ((استخلَفَ مَروانُ أبا هُرَيرةَ على المدينةِ، وخرج إلى

---

(١) وَجهُ التَّسْميةِ ذِكرُ لَفظِ الجُمُعةِ فيها؛ في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩]. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (٨٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (٨٧٨).

(٤) أخرجه البخاري (٤٨٩٧) مطوَّلًا ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١).

مكَّةَ، فصلَّى لنا أبو هُرَيرةَ الجُمُعةَ، فقرأ بعدَ سُورةِ الجُمُعةِ في الرَّكعةِ الآخِرةِ: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، قال: فأدركتُ أبا هُريرةَ حينَ انصرَفَ، فقلتُ له: إنَّك قرأتَ بسُورتَينِ كان عليُّ بنُ أبي طالبٍ يَقرأُ بهما بالكُوفةِ، فقال أبو هُرَيرةَ: إنِّي سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ بهما يومَ الجُمُعةِ))[١].

وتقدَّم حَديثُ ابنِ عَبَّاسٍ وحَديثُ النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهم: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرأُ بها في صلاةِ الجُمُعةِ.

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الجُمُعةِ مَدَنيَّةٌ[٢]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

ذِكرُ ما اصطفَى اللهُ به هذه الأُمَّةَ، ومِن ذلك صلاةُ الجُمُعةِ، مع بَيانِ بَعضِ أحكامِها[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- الثَّناءُ على اللهِ عزَّ وجَلَّ، وذِكرُ مَظاهِرِ نِعَمِه على عِبادِه؛ حيثُ أرسَلَ فيهم

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٢٩).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٥).

رَسُولًا؛ لِيُزَكِّيَهم ويُعَلِّمَهم الكِتابَ والحِكْمةَ.

٢- تَوبيخُ اليَهودِ وذَمُّهم؛ لعَدَمِ عَمَلِهم بالكتابِ الَّذي أنزَلَه سُبحانَه لهِدايتِهم، وإصلاحِ حالِهم، وإلزامُ الحُجَّةِ عليهم، وإبطالُ زَعْمِهم أنَّهم أولياءُ اللهِ.

٣- دَعوةُ المؤمِنينَ إلى المحافَظةِ على صلاةِ الجُمُعةِ، والتَّحذيرُ مِنَ التَّخَلُّفِ عنها، والأمرُ بتَرْكِ ما يَشغَلُ عنها في وَقتِ أدائِها، وتوبيخُ قَومٍ انصَرَفوا عنها.

## الآيات (١-٤)

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمَلِكِ﴾: أي: المالِكِ للأشياءِ كلِّها، المُصَرِّفِ لها على إرادتِه، لا يَمتنِعُ عليه منها شَيءٌ، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيءِ وصحَّةٍ[1].

﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾: أي: الطَّاهرِ مِن كلِّ عيبٍ، المُنَزَّهِ عن كُلِّ نَقصٍ، مِن «القُدْس» وهو: الطَّهارةُ، وأصلُ (قدس): يدُلُّ على الطُّهرِ[2].

﴿الْعَزِيزِ﴾: أي: الَّذي اتَّصَف بالعِزَّة التَّامَّةِ: عِزَّةِ القَدْرِ -فهو عظيمُ القَدرِ، لا يَبلُغُ أحدٌ قَدْرَه، فلا مِثلَ له، ولا نَظيرَ-، وعِزَّةِ القَهْرِ -فهو قاهرٌ غالبٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ-، وعِزَّةِ الامتِناعِ، فهو مُمْتَنِعٌ عليه النَّقصُ بأيِّ وجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهما مِن غَلَبةٍ وقَهْرٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٣٠)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٤٣-٤٦)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥١، ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٥١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٤٥).

(٣) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٣٩)، ((شأن الدعاء)) للخَطَّابي (ص: ٤٧)، =

﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾: أي: الموصوفِ بكمالِ الحكمةِ، وهي كمالُ العِلمِ والإرادةِ المُتضَمِّنَينِ اتِّساقَ صُنعِه، وجَرَيانَه على أحسَنِ الوُجوهِ وأكمَلِها، ووَضْعَه الأشياءَ مَواضِعَها، فالحكيمُ فَعيلٌ بمعنَى مُفعِلٍ، مِن الإحكامِ، فهو المُحكِمُ الَّذي يُحكِمُ الأشياءَ كَونًا وشرعًا، ويحكِمُها عمَلًا وصُنعًا، ومنه قيل: بِناءٌ مُحكَمٌ، أي: قد أُتقِنَ وأُحكِمَ.

والحكيمُ الموصوفُ بكمالِ الحُكمِ -فَعيلٌ بمعنَى فاعِلٍ- مِن الحُكمِ، وهو الفصلُ والأمرُ، فهو الحاكمُ الَّذي له الحُكمُ، وأصلُ (حكم): هو المنعُ، مِن حَكَمةِ اللِّجامِ، وهي الحديدةُ الَّتي تَمنَعُ الفَرَسَ وتَرُدُّه إلى مَقصدِ الرَّاكبِ، والحِكمةُ هذا قِياسُها؛ لأنَّها تمنَعُ مِن الجهلِ، وكذلك الحاكمُ بيْن النَّاسِ إنَّما هو الفاصلُ بيْنَهم بعِلمِه، والمُلزِمُ لهم ما لا يُمكِنُهم مُخالَفَتُه، ويَمنعُ المحكومَ عليه الخُروجَ عن حُكمِه[1].

﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾: أي: العربِ، الَّذين لم يكُنْ لهم كتابٌ، والأُمِّيُّ هو الَّذي لا يَكتُبُ ولا يَقرَأُ المكتوبَ، وكان أغلَبُ العرَبِ كذلك، قيل: سُمِّيَ الأُمِّيُّ بذلك نِسبةً إلى ما ولَدَتْه عليه أُمُّه، أو نِسبةً إلى أُمِّه؛ لأنَّ الكتابَ كان في الرِّجالِ دونَ النِّساءِ، وقيل: نِسبةً إلى الأُمَّةِ؛ لأنَّه الأصلُ في جِبِلَّةِ الأمَّةِ، والكِتابةُ لا تكونُ إلَّا

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٦).

ويُنظر ما تقدَّم في سورة (الحشر) (٣٧/ ٥٣٩).

(١) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٦٠)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٦٧)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٨٦)، ((شرح العقيدة الواسطية)) للعثيمين (١/ ١٨٨)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢٢٣).

بتَعَلُّمٍ[١].

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: أي: يُنمِّيهم بالخَيرِ والتَّربيةِ على الأعمالِ الصَّالحةِ، وحثِّهم على الأخلاقِ الجميلةِ، ويُطهِّرُهم مِن الكُفرِ والمَعاصي والرَّذائلِ وسائرِ الخِصالِ الذَّميمةِ، والتَّزكيةُ: التَّطهيرُ، والزَّكاةُ: النَّماءُ والزِّيادةُ، وأصلُ (زكو): يدُلُّ على النَّماءِ والزِّيادةِ والطَّهارةِ[٢].

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: الحِكمةُ هنا: هي السُّنَّةُ، والحِكمةُ: معرفةُ الحقِّ والعملُ به، والإصابةُ في القولِ والعملِ، وأصلُ (حكم): هو المنعُ، والحِكمةُ هذا قِياسُها؛ لأنَّها تمنَعُ مِن الجهلِ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بأنَّه يُنزِّهُه تعالى عن النَّقائصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، وهو سُبحانَه المَلِكُ الحَقُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٢١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٦٦)، ((تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن)) للسعدي (١/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٢)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٤٨).

قال ابنُ القيِّم: (الحِكمةُ هى سُنَّةُ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم، وهى تتضمَّنُ العِلمَ بالحقِّ، والعملَ به، والخبرَ عنه، والأمرَ به). ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٩٣).

المتَّصِفُ بالطُّهرِ التَّامِّ، العَزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ.

ثمَّ يذكرُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ فضْلِه على خَلقِه، فيقولُ: هو الَّذي أرسَلَ في العَرَبِ رَسولًا أُمِّيًّا مِنهم، يَقرَأُ عليهم آياتِ القُرآنِ، ويُطَهِّرُهم مِن الأخلاقِ الرَّذيلةِ والعقائِدِ المُنحَرِفةِ، ويُعَلِّمُهم القُرآنَ الكريمَ والسُّنَّةَ النَّبَويَّةَ، وقد كانوا قبْلَ إرسالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم في انحرافٍ ظاهرٍ عن الحَقِّ، وكذلك بَعَث اللهُ الرَّسولَ في آخَرينَ مِنهم يأتُونَ بَعْدَهم، واللهُ هو العَزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ. وذلك فَضلٌ مِنَ اللهِ يُعطيه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، واللهُ صاحِبُ الفَضلِ العَظيمِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: يُنزِّهُ اللهَ تعالى وَحْدَه عن النَّقائصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وجَميعُ ما في الأرضِ[1].

﴿ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ﴾.

أي: المَلِكُ الحَقِّ، المالِكُ لجَميعِ الأشياءِ، الكاملِ التَّصَرُّفِ في جميعِ خَلْقِه بما يَشاءُ، المتَّصِفِ بالطُّهرِ التَّامِّ والنَّزاهةِ البالِغةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٥).
وتسبيحُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ تسبيحٌ حقيقيٌّ بلِسانِ المقالِ، وأيضًا بلِسانِ الحالِ.
يُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة (الإسراء) الآية (٤٤)، وأوَّل سورة (الحديد).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٥)، ((نظم الدرر)) =

كما قال اللهُ تعالى حاكيًا قولَ الملائِكةِ: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا سلَّمَ مِنَ الوِتْرِ قال: سُبحانَ المَلِكِ القُدُّوسِ -ثلاثَ مرَّاتٍ-، وفي روايةٍ: يُطيلُ في آخِرِهنَّ))[1].

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

أي: العَزيزِ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، فيَنتَقِمُ مِن أعدائِه ويُذِلُّهم، الحَكيمِ فيما خَلَق وشَرَع وقدَّرَ، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به[2].

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾.

---

= للبقاعي (٢٠/ ٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

(١) أخرجه أبو داودَ (١٤٣٠)، والنسائيُّ (١٦٩٩)، وأحمدُ (٢١١٤٢)، وابنُ حِبَّانَ (٢٤٥٠).

صَحَّحه ابنُ القطَّانِ في ((بيان الوهم والإيهام)) (٥/ ٦١٤)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٢١)، والألبانيُّ في ((صحيح أبي داود)) (١٤٣٠).

وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (١٢٠)، وابنُ باز في ((حاشية بلوغ المرام)) (٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى بعدَما فرَغ مِن التَّوحيدِ والتَّنزيهِ؛ شرَع في النُّبوَّةِ[١].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي أرسَلَ في العَرَبِ رَسولًا أُمِّيًّا مِن جملةِ العَرَبِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٥، ٦٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٧٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٥/ ١٦٧-١٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٨).

قال الشنقيطي: (﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: العَرَبُ، بالإجماعِ، والرَّسولُ المذكورُ: نَبيُّنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إجماعًا). ((أضواء البيان)) (١/ ٤٤).

وقال الماوَرْدي: (وفي تسميتِهم أُمِّيِّينَ قَولانِ؛ أحدُهما: لأنَّه لم يَنزِلْ عليهم كتابٌ، قاله ابنُ زَيدٍ. الثَّاني: لأنَّهم لم يَكونوا يَكتُبون، ولا كان فيهم كاتبٌ، قاله قَتادةُ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ تيميَّةَ، والفيروزابادي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٣٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ١٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

قال ابن تيميَّةَ: (الصَّوابُ: أنَّه نِسبةٌ إلى الأُمَّةِ، كما يُقالُ: عامِّيٌّ، نِسبةً إلى العامَّةِ الَّتي لم تَتمَيَّزْ عن العامَّةِ بما تَمتازُ به الخاصَّةُ، وكذلك هذا لم يتميَّزْ عن الأمَّةِ بما يمتازُ به الخاصَّةُ مِن الكتابةِ والقِراءةِ، ويُقالُ الأُمِّيُّ لِمَن لا يَقرَأُ ولا يَكتُبُ كِتابًا، ثمَّ يُقالُ لِمَن ليس لهم كتابٌ مُنزَّلٌ مِن الله يَقرَؤُونه وإن كان قد يكتبُ ويقرأُ ما لم يُنزَّلْ، وبهذا المعنى كان العربُ كلُّهم أُمِّيِّينَ؛ فإنَّه لم يكُنْ عندَهم كتابٌ مُنزلٌ مِن الله، قال الله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ﴾ [آل عمران: ٢٠]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا﴾، وقد كان في العربِ كثيرٌ ممَّن يَكتُبُ ويَقرَأُ المكتوبَ، وكلُّهم أُمِّيُّون، فلمَّا نزَل القرآنُ عليهم لم يَبقوا أُمِّيِّينَ باعتبارِ أنَّهم لا يَقرَؤُون كتابًا مِن حِفظِهم، بل هم يَقرَؤُون القرآنَ مِن حِفظِهم، وأناجيلُهم في صُدورِهم، لكنْ بقُوا أُمِّيِّينَ باعتبارِ أنَّهم لا يَحتاجون إلى كتابةِ دينِهم، بل قرآنُهم محفوظٌ في قُلوبِهم... وبهذا الاعتبارِ فالمسلمونَ أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ بعدَ نُزولِ القرآنِ وحِفظِه...). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٣٥).=

كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾.

أي: يَقرأُ مُحمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على الأُمِّيِّينَ آياتِ القُرآنِ الَّتي أنزَلَها اللهُ عليه، مع كَونِه أُمِّيًّا مِثْلَهم، ويُطَهِّرُهم مِن الأخلاقِ الرَّذيلةِ والعقائِدِ المُنحَرِفةِ، ويُنَمِّيهم بالإيمانِ والأعمالِ الصَّالِحةِ(١).

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

أي: ويُعَلِّمُهم القُرآنَ الكريمَ والسُّنَّةَ النَّبَويَّةَ، فيَفقَهونَ معانيَ كِتابِ اللهِ، وأحكامَ شَرْعِه(٢).

---

= وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: أبو عُبَيدةَ، والبغويُّ، والرَّسْعَني، والبِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٨).

قال السمعاني: (فإن قال قائلٌ: لم يكُنْ كلُّ قُرَيشٍ أُمِّيًّا، وقد قال: ﴿فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾؟ والجوابُ: أنَّ اللهَ تعالَى سمَّاهم أُمِّيِّينَ باعتِبارِ غالِبِ أمْرِهم، وقد كانت الكِتابةُ نادِرةً فيهم). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٠).

وقال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: كانت العربُ أمَّةً لا كِتابَ لهم، ولا يَقرَؤُون كتابًا ولا يَكتُبون). ((البسيط)) (٢١/ ٤٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٧/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

قال ابن تيميَّة: (﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: هو الكلامُ المُنزَّلُ الَّذي يُكتبُ، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: هي السُّنَّةُ؛ وهي معرفةُ الدِّينِ والعملُ به). ((النبوات)) (٢/ ٦٧٢). =

﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾.

أي: وقد كان العَرَبُ الأُمِّيُّونَ مِن قَبلِ إرسالِ مُحمَّدٍ إليهم، وإنزالِ القُرآنِ

---

= وقال ابنُ القيِّم: (﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: هو القُرآنُ، ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: هي السُّنَّةُ، باتِّفاقِ السَّلَفِ، وما أخبَرَ به الرَّسولُ عن اللهِ فهو في وُجوبِ تَصديقِه والإيمانِ به كما أخبَرَ به الرَّبُّ تعالى على لسانِ رَسولِه، هذا أصلٌ مُتَّفَقٌ عليه بيْن أهلِ الإسلامِ، لا يُنكِرُه إلَّا مَن ليس منهم، وقد قال النَّبيُّ: «إنِّي أُوتيتُ الكِتابَ ومِثْلَه معه» [أبو داود «٤٦٠٤»، والترمذي «٢٦٦٤»، وابن ماجه «١٢»، وأحمد «١٧٢١٣» وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» «٤٦٠٤»]). ((الروح)) (ص: ٧٥).

وقال ابنُ رجب: (قَولُه: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾: يعني بالكِتابِ: القُرآنَ، والمرادُ: ويُعَلِّمُهم تلاوةَ ألفاظِه، ويعني بالحِكمةِ: فَهْمَ معاني القرآنِ، والعَمَلَ بما فيه، فالحِكمةُ هي: فَهمُ القُرآنِ، والعَمَلُ به، فلا يَكفي تلاوةُ ألفاظِ الكِتابِ حتَّى يُعلَمَ مَعناه، ويُعمَلَ بمُقتَضاه، فمَن جُمِع له ذلك كُلُّه فقد أُوتيَ الحِكمةَ؛ قال تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [البقرة: ٢٦٩]... ومَن قال: «الْحِكْمَةَ»: السُّنَّةُ، فقَولُه الحَقُّ؛ لأنَّ السُّنَّةَ تُفَسِّرُ القُرآنَ، وتُبَيِّنُ مَعانيَه، وتَحُضُّ على اتِّباعِه والعَمَلِ به، فالحكيمُ هو العالمُ المُستنبِطُ لدقائِقِ العِلمِ، المنتَفِعُ بعِلمِه بالعَمَلِ به). ((لطائف المعارف)) (ص: ٨٤، ٨٥).

وممَّن اختار أيضًا أنَّ المرادَ بالكتابِ: القرآنُ، وبالحِكمةِ: السُّنَّةُ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والزمخشري، وابن عطية، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

قال الماوَرْدي: (﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فيه ثلاثةُ تلأويلاتٍ؛ أحدُها: أنَّه القرآنُ، قاله الحسَنُ. الثَّاني: أنَّه الخطُّ بالقلَمِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ؛ لأنَّ الخطَّ إنَّما فشَا في العربِ بالشَّرعِ لما أُمِروا بتقييدِه بالخطِّ. الثَّالثُ: معرفةُ الخَيرِ والشَّرِّ كما يَعرِفونه بالكتابِ؛ لِيَفعَلوا الخَيرَ، ويَكُفُّوا عن الشَّرِّ، وهذا معنى قولِ محمدِ بنِ إسحاقَ.

﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ فيه ثلاثةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: أنَّ الحِكمةَ السُّنَّةُ، قاله الحسَنُ. الثَّاني: أنَّه الفِقهُ في الدِّينِ، وهو قولُ مالكِ بنِ أنَسٍ. الثَّالثُ: أنَّه الفَهمُ والاتِّعاظُ، قاله الأعمشُ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦).

واختار الرَّازيُّ أنَّ الحِكمةَ: هي الفرائضُ، واختار السَّمَرْقَنْديُّ أنَّها الحلالُ والحرامُ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧).

عليهم: في انحرافٍ ظاهرٍ عن الحَقِّ[١].

﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٣﴾.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾.

أي: وبَعَث اللهُ الرَّسولَ في آخَرينَ مِنهم يأتُونَ بَعْدَهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥١، ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٠).

قال البيضاوي: (هو بيانٌ لشِدَّةِ احتياجِهم إلى نبيٍّ يُرشِدُهم، وإزاحةٌ لِما يُتوهَّمُ أنَّ الرَّسولَ تَعلَّمَ ذلك مِن مُعلِّمٍ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٨، ٦٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٨).

قال السمين الحلبي: (قوله: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ فيه وجهان:

أحدُهما: أنَّه مجرورٌ عطفًا على ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، أي: وبَعَثَ في آخَرينَ مِن الأمِّيِّينَ. و ﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ صفةٌ لـ «آخَرينَ» قبْلُ.

والثَّاني: أنَّه منصوبٌ عَطْفًا على الضَّميرِ المنصوبِ في «يُعَلِّمُهم»، أي: ويُعَلِّمُ آخَرينَ لم يَلْحقوا بهم وسيَلْحقون، وكلُّ مَنْ يَعْلَمُ شريعةَ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى آخِرِ الزَّمانِ فرسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مُعَلِّمُه بالقوَّةِ؛ لأنَّه أصْلُ ذلك الخَيرِ العظيمِ، والفَضلِ الجَسيمِ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٣٢٥).

واختلَف المفسِّرونَ في المرادِ بالآخَرينَ؛ على أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّهم العَجَمُ.

الثَّاني: أنَّهم التَّابعون مِن أبناءِ العَرَبِ.

الثَّالثُ: أنَّهم جميعُ مَن دخَل في الإسلامِ إلى يومِ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨١).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ بالآخَرينَ: الأعاجِمُ، ومَن لم يَتكَلَّمْ بلُغةِ العَرَبِ-: الواحديُّ ونسَبَه إلى قولِ المفسِّرينَ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرَّازيِّ، واختاره القُرطبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) =

= للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٤٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عُمرَ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٠٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨١).

قال الواحدي: (قولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾؛ لأنَّهم إذا أسلَموا صاروا منهم، والمُسلِمونَ كُلُّهم يدٌ واحِدةٌ، وأمَّةٌ واحدةٌ، وإن اختَلَفَت أجناسُهم). ((الوسيط)) (٤/ ٢٩٤).

وقال الواحديُّ أيضًا: (وقولُ المفسِّرينَ: هم الأعاجمُ، يَعنون بالأعاجِمِ مَن ليس مِن العربِ، والعربُ تُسمِّي مَن لا يَتكلَّمُ بلُغَتِهم عجَميًّا، مِن أيِّ جنسٍ كان). ((البسيط)) (٢١/ ٤٤٦).

وخصَّهم ابنُ جُزَي بفارِسَ؛ لِوُرودِ ذلك في الحديثِ الصَّحيحِ: ((أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم سُئل: مَن هؤلاء الآخَرونَ؟ فأخَذ بيَدِ سَلْمانَ الفارِسيِّ، وقال: لو كان العِلمُ بالثُّرَيَّا، لَنالَه رِجالٌ مِن هؤلاء، يعني: فارِسَ)). يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٣).

وقال ابن رجب: (الأُمِّيُّون هم العربُ، والآخَرونَ الَّذين لم يَلحَقوا بهم هم أهلُ فارِسَ والرُّومُ، فكانت أهلُ فارِسَ مجوسًا، والرُّومُ نصارى، فهدى الله تعالى جميعَ هؤلاء برسالةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّمَ إلى التَّوحيدِ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٨٥).

واختار البِقاعي أنَّ المعنى: بَعَثَه في آخَرينَ ﴿مِنْهُمْ﴾ في الأُمِّيَّةِ لا في العَرَبيَّةِ، كعَوامِّ المَجوسِ واليهودِ والنَّصارى والبَرابِرِ، ونحوِهم مِن طوائِفِ العَجَمِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٣).

وذكر ابنُ عطيَّةَ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ بِناءً على القولِ بأنَّهم الأعاجمُ: إنَّما يريدُ في البَشَريَّةِ والإيمانِ، كأنَّه قال: وفي آخَرينَ مِنَ النَّاسِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٧).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أنَّهم التَّابِعونَ مِن هذه الأمَّةِ مِن العربِ ممَّن بَقيَ منهم-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧).

قال ابن عطيَّة: (قال مجاهِدٌ وعِكْرِمةُ ومُقاتِلٌ: أراد التَّابِعينَ مِن أبناءِ العَرَبِ، فقَولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾ يريدُ به النَّسَبَ والإيمانَ). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٧).

وقال الشَّوكاني: (الضَّميرُ في ﴿مِنْهُمْ﴾ و﴿بِهِمْ﴾ راجعٌ إلى الأُمِّيِّينَ، وهذا يؤيِّدُ أنَّ المرادَ بالآخَرينَ: هم مَن يأتي بعدَ الصَّحابةِ مِن العربِ خاصَّةً إلى يومِ القيامةِ، وهو صلَّى اللهُ عليه =

= وسلَّم وإن كان مُرسَلًا إلى جميعِ الثَّقَلَينِ، فتَخصيصُ العرَبِ هاهنا؛ لقَصدِ الامتنانِ عليهم، وذلك لا يُنافي عُمومَ الرِّسالةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّالثِ وقال بالعُمومِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وهو ظاهرُ اختيارِ الزمخشري، والبيضاوي، وأبي السعود، واختاره القاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ، والضَّحَّاكُ، ومقاتلُ بنُ حَيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٠٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٥٣).

قال ابنُ جرير: (عُنيَ بذلك كلُّ لاحِقٍ لَحِقَ بالَّذين كانوا صَحِبوا النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم في إسلامِهم مِن أيِّ الأجناسِ؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ عمَّ بقولِه: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ كلَّ لاحِقٍ بهم مِن آخَرينَ، ولم يَخْصُصْ منهم نَوعًا دونَ نَوعٍ، فكلُّ لاحِقٍ بهم فهو مِن الآخَرينَ الَّذي لم يَكونوا في عِدادِ الأوَّلِينَ الَّذين كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَتلو عليهم آياتِ الله). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣١).

وقال الزَّجَّاجُ: (وبَعَثَ في الَّذين لم يَلحَقوا بهم، أي: في آخَرينَ منهم لَمَّا يَلْحَقوا بهم، فالنَّبيُّ عليه السَّلامُ مَبعوثٌ إلى مَن شاهَدَه، وإلى كلِّ مَن كان بَعْدَهم مِن العربِ والعجَمِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٦٩).

وقال البيضاوي: (وهم الَّذين جاؤُوا بعدَ الصَّحابةِ إلى يومِ الدِّينِ؛ فإنَّ دَعوتَه وتعليمَه يَعُمُّ الجميعَ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١).

وقال ابن عطيَّةَ بِناءً على هذا القولِ: (ويكونُ ﴿مِنْهُمْ﴾ في البَشَريَّةِ والإيمانِ). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٧).

وقال أبو حيَّانَ بعدَ أن ذكر عددًا مِن الأقوالِ في معنى الآيةِ: (ويَنبغي أن تُحملَ هذه الأقوالُ على التَّمثيلِ، كما حمَلوا قولَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّمَ في فارِسَ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١).

قال الواحدي: (جميعُ الأقوالِ في هذا معناها أنَّ المرادَ بالآخَرينَ: كُلُّ مَن دخل في الإسلامِ بعدَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى يومِ القيامةِ). ((البسيط)) (٢١/ ٤٤٦).

واختُلِف في قولِه تعالى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾، قال الرَّسْعَني: (قولُه تعالى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: لم =

= يَلحَقوا بهم بعدُ، أو لم يَلحَقوا بهم في الفضيلةِ والسَّبقِ؛ لأنَّ التَّابعينَ إلى يوم القيامةِ لم يُدرِكوا فضلَ الصَّحابةِ رضيَ الله عنهم أجمعينَ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٢٠).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أي: لم يَكونوا في زمانِهم ولم يُدرِكوهم، وسيَجيئون بعدَهم وسيَلْحَقون بهم-: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والخازن، وابن جُزَي، وأبو حيان، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٤٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٨٩).

قال ابن جُزَي: (﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ بالنَّفي، وسيَلحَقون؛ وذلك أنَّ «لَمَّا» لِذِكْرِ الماضي القريبِ مِن الحالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٣)

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الواحديُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٩).

قال الواحدي: (قولُه: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: في الفضلِ والسَّابقةِ؛ لأنَّ التَّابعينَ لا يُدرِكون شأْوَ الصَّحابةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٩٤).

وقال ابن القيِّم: (الأوَّلونَ: هم الَّذين أدرَكوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصَحِبوه، والآخَرون: هم الَّذين لَمْ يَلحَقوهم، وهم كلُّ مَن بَعْدَهم على مِنهاجِهم إلى يومِ القيامةِ؛ فيكونُ التَّأخُّرُ وعَدَمُ اللَّحاقِ في الزَّمانِ.

وفي الآيةِ قَولٌ آخَرُ: أنَّ المعنى: لَمْ يَلحَقوا بهم في الفَضلِ والمرتَبةِ، بل هم دونَهم؛ فيكونُ عدمُ اللَّحاقِ في الرُّتبةِ، والقَولانِ كالمتلازِمَينِ؛ فإنَّ مَن بَعْدَهم لا يَلحَقونَ بهم لا في الفَضلِ ولا في الزَّمانِ، فهؤلاء الصِّنفانِ هم السُّعَداءُ، وأمَّا مَن لم يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذي بَعَثَ به رَسولَه، ولم يَرْفَعْ به رَأسًا؛ فهو مِن الصِّنفِ الثَّالِثِ، وهم: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾). ((الرسالة التبوكية)) (ص: ٥٤).

وقال السعدي: (﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ أي: وامتَنَّ على آخَرينَ مِن غيرِهم، أي: مِن غيرِ الأُمِّيِّينَ، ممَّن يأتي بعدَهم، ومِن أهلِ الكتابِ، ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾، أي: فيمَن باشَرَ دَعوةَ الرَّسولِ. ويحتملُ أنَّهم لَمَّا يَلحَقوا بهم في الفضلِ، ويحتملُ أن يَكونوا لَمَّا يَلحَقوا بهم في الزَّمانِ، وعلى =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كنَّا جُلوسًا عندَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذ نزَلَت عليه سُورةُ الجُمُعةِ، فلمَّا قرأ: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ قال رجُلٌ: مَنْ هؤلاء يا رَسولَ اللهِ؟ فلم يُراجِعْه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى سأله مرَّةً أو مرَّتَينِ أو ثلاثًا، قال: وفينا سَلْمانُ الفارِسيُّ، فوَضَع النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدَه على سَلْمانَ، ثمَّ قال: لو كان الإيمانُ عِندَ الثُّرَيَّا[1] لَناله رِجالٌ مِن هؤلاء!))[2].

﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو العَزيزُ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، وهو الحكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به[3].

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾.

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾.

أي: ذلك فَضلٌ مِنَ اللهِ تَفَضَّل به، واللهُ يُعطي فَضْلَه مَن يَشاءُ مِن عِبادِه بحَسَبِ

---

= كلٍّ، فكِلا المعنيَينِ صحيحٌ؛ فإنَّ الَّذين بعَثَ الله فيهم رسولَه وشاهَدوه وباشَروا دَعوتَه، حصَل لهم مِن الخصائصِ والفضائلِ ما لا يُمكِنُ أحدًا أن يَلحَقَهم فيها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

(١) الثُّرَيَّا: نَجمٌ معروفٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٤٢).

(٢) رواه البخاري (٤٨٩٧) واللفظُ له، ومسلم (٢٥٤٦).

قال ابنُ عاشور: (اعلَمْ أنَّ قَولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لو كان الإيمانُ بالثُّرَيَّا لَناله رجالٌ مِن هؤلاء»: إيماءٌ إلى مِثالٍ مِمَّا يَشملُه قَولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ﴾؛ لأنَّه لم يُصَرِّحْ في جوابِ سؤالِ السَّائِلِ بلَفظٍ يَقتضي انحصارَ المرادِ بـ «آخَرينَ» في قَومِ سَلْمانَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

ما تَقتَضيه حِكمَتُه سُبحانَه[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ * وَلَا تُؤۡمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمۡ قُلۡ إِنَّ ٱلۡهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤۡتَىٰٓ أَحَدٞ مِّثۡلَ مَآ أُوتِيتُمۡ أَوۡ يُحَآجُّوكُمۡ عِندَ رَبِّكُمۡۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡفَضۡلَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١١٦، ١١٧).

قيل: الإشارةُ إلى ما تقدَّم مِن إرسالِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالآياتِ إلى العربِ ومَن بَعْدَهم، والتَّزكيةِ وتَعليمِ الكِتابِ والحِكمةِ؛ فالإشارةُ إلى جميعِ المذكورِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣).

وقيل: فَضْلُ اللهِ هنا هو: الإسلامُ، يُعطيه اللهُ تعالى لِمَن يشاءُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٩٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٥٣).

وقيل: المرادُ: النُّبُوَّةُ، أي: ذلك الفَضلُ الَّذي أعطاه محمَّدًا، وهو أن يكونَ نبيَّ أبناءِ عَصرِه وأبناءِ العُصورِ التَّاليةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: السمعانيُّ، والزمخشري، والنسفي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٢).

قال ابن كثير: (قوله: ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ يعني: ما أعطاه الله محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن النُّبوَّةِ العظيمةِ، وما خصَّ به أُمَّتَه مِن بَعثتِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ إليهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٧).

وقال البِقاعي: (﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: الأمرُ العظيمُ الرُّتبةِ مِن تَفضيلِ الرَّسولِ وقَومِه، وجَعْلِهم مَتبوعينَ بعدَ أن كان العرَبُ أتْباعًا لا وَزْنَ لهم عندَ غَيرِهم مِن الطَّوائِفِ ﴿فَضۡلُ ٱللَّهِ ﴾). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٥٤).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٣).

بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ۞ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [آل عمران: ٧٢ - ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾.

أي: واللهُ صاحِبُ الفَضلِ العَظيمِ الَّذي يَقِلُّ معه كُلُّ فَضلٍ مِن غَيرِه، فلا يُساويه ولا يُدانيه[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ أنَّ مَن حَصَل له نصيبٌ مِن دِينِ الإسلامِ فقد حَصَل له الفَضلُ العَظيمُ، وقد عَظُمَتْ عليه نِعمةُ اللهِ، فما أحْوَجَه إلى القيامِ بشُكرِ هذه النِّعمةِ، وسؤالِه دوامَها، والثَّباتَ عليها إلى المماتِ، والموتَ عليها؛ فبذلك تَتِمُّ النِّعمةُ[٢]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ فيه سؤالٌ: لم يَقُلْ: (يُسَبِّحُ اللهَ)، فما الفائِدةُ؟

**الجوابُ**: هذا مِن جملةِ ما يَجْري فيه اللَّفظانِ: كشَكَرَه وشكَرَ له، ونصَحَه ونصَحَ له[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٧).

٢- إنْ قيل: لمَ جاز ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، و﴿مَا﴾ إنَّما يقَعُ على ما لا يعقِلُ، والتَّسبيحُ إنَّما هو لمَن يعقِلُ؟

**وعن هذا جوابانِ:**

**أحدُهما:** أنَّ ﴿مَا﴾ هاهنا بمعنى (مَن) فهما يتناوبانِ، بمعنَى أنَّ أحدَهما يقعُ مكانَ الآخَرِ، يدلُّ على ذلك قولُه تعالى هنا: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وفي آيةٍ أُخرَى ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النور: ٤١]، وإن كان الأكثرُ استعمالًا أنَّ (ما) لغيرِ العاقِلِ، و (مَنْ) للعاقلِ.

**والثاني:** أنَّ (ما) أعمُّ مِن (مَن)، وذلك أنَّها تقعُ على ما لا يعقِلُ وعلى صفاتِ مَن يعقِلُ، فقد شاركت (من) فيمَن يعقِلُ، وزادت عليها بكونِها لما لا يعقِلُ، فصارت أعمَّ منها، فجاءَتْ لتدلَّ على أنَّ التَّسبيحَ عامٌّ مِن العاقلِ وغيرِ العاقلِ، ويدلُّ على هذا قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾[1] [الإسراء: ٤٤].

وأيضًا فمجيئُها هنا لغيرِ العاقلِ تغليبًا له؛ لكثرتِه، فتكونُ شاملةً للعاقلِ مِن بابِ أولَى[2].

٣- حيث وقَع في القرآنِ ذِكرُ الأرضِ فإنَّها مُفرَدةٌ ولم تُجمَعْ؛ لِثِقَلِ جَمعِها، وهو أرَضونَ، ولهذا لَمَّا أُريدَ ذِكرُ جميعِ الأرَضينَ قال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وأمَّا السَّماءُ فذُكِرتْ تارةً بصيغةِ الجَمعِ -الدَّالَّةِ على سَعةِ العظَمةِ والكثرةِ- وتارةً بصيغةِ الإفرادِ، وذلك إذا أُريدَ الجهةُ؛ لِنُكَتٍ تليقُ بذلك المحلِّ[3]،

---

(١) يُنظر: ((النكت في القرآن الكريم)) لأبي الحسن القيرواني (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤).

(٣) يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٣٥٥).

فانظُرْ كيف جاءت مجموعةً في قولِه تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ في جميعِ السُّوَرِ، لَمَّا كان المرادُ الإخبارَ عن تَسبيحِ سُكَّانِها -على كَثرتِهم، وتبايُنِ مَراتبِهم- لم يَكُنْ بُدٌّ مِن جَمْعِ مَحَلِّهم، ونظيرُ هذا جَمْعُها في قَولِه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾[1] [الأنبياء: ١٩].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: ما وَجهُ الامتنانِ بأنْ بَعَث نَبيًّا أُمِّيًّا؟

**الجوابُ عنه مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ:** لِمُوافَقتِه ما تقَدَّمَت بِشارةُ الأنبياءِ به.

**الوجهُ الثَّاني:** لمُشاكلةِ حالِه لأحوالِهم، فيكونُ أقرَبَ إلى موافقتِهم.

**الوجهُ الثَّالثُ:** لِيَنتفيَ عنه سوءُ الظَّنِّ في تعَلُّمِه ما دعا إليه مِنَ الكتُبِ الَّتي قرَأَها، والحِكَمِ الَّتي تلاها[2].

٥- الأُمِّيُّونَ هم العَرَبُ، وتخصيصُ ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ بالذِّكْرِ لا يَنفي مَن عَدَاهم، ولكِنَّ المِنَّةَ عليهم أبلَغُ وآكَدُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وهو ذِكرٌ لِغَيرِهم يتَذَكَّرونَ به، وكذا قَولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وهذا وأمثالُه لا يُنافي قَولَه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقَولَه تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقولَه تعالى إخبارًا عن القُرآنِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦).

الدَّالَّةِ على عُمومِ بَعْثَتِه -صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه- إلى جميعِ الخَلْقِ؛ أحمَرِهم وأسْوَدِهم[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ ذِكْرُ الآياتِ الشَّرعيَّةِ -وهي: ما أنْزَلَه اللهُ تعالى على رُسُلِه مِن الشَّرائعِ-، ويقابِلُها الآياتُ الكَونيَّةُ -وهي: مخلوقاتُه، كالشَّمسِ، والقَمَرِ، والنُّجومِ، والإنسانِ، وغيرِ ذلك-، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[٢] [فصلت: ٣٧].

٧- البَعثُ بَعثانِ: كَوْنيٌّ، ودينيٌّ؛ ففي قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ ذِكْرُ البَعثِ الدِّينيِّ، وفي قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥] ذِكرُ البعثِ الكَونيِّ[٣].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ هذه الآيةُ نَصٌّ في أنَّ اللهَ تعالى استجابَ دَعوةَ نَبيِّه إبراهيمَ عليه السَّلامُ فيهم[٤]، وهي قولُه: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

٩- التَّزَكِّي يَحصُلُ بامتِثالِ أمرِ الرَّسولِ، وإن كان صاحِبُه لا يتذكَّرُ عُلومًا عنه، كما قال تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾؛ فالتِّلاوةُ عليهم والتَّزكيةُ عامٌّ لجميعِ المؤمِنينَ، وتعليمُ الكِتابِ والحِكمةِ خاصٌّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (١/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١١٥).

ببَعْضِهم، وكذلك التزكِّي عامٌّ لكلِّ مَنْ آمَنَ بالرَّسولِ، وأمَّا التَّذَكُّرُ فهو مختَصٌّ لِمَن له عُلومٌ يُذَكَّرُها، فعَرَفَ بتَذَكُّرِه ما لم يَعلَمْه غَيرُه مِن تِلْقاءِ نَفْسِه(١).

١٠- قولُه تعالى: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ في وَصْفِ الرَّسولِ الأُمِّيِّ بأنَّه يتْلو على الأُمِّيِّينَ آياتِ اللهِ، أي: وحْيَه، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: يُلقِّنُهم إيَّاه كما كانَتِ الرُّسلُ تُلقِّنُ الأُمَمَ الكتابَ بالكِتابةِ، ويُعلِّمُهُم الحِكمةَ الَّتي علَّمَتْها الرُّسلُ السَّابقونَ أُمَمَهُم -في كلِّ هذِه الأوصافِ تَحَدٍّ بمُعجزةِ الأُمِّيَّةِ في هذا الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: هو مع كَونِه أُمِّيًّا قد أتى أُمَّتَه بجميعِ الفوائدِ الَّتي أتى بها الرُّسُلُ غيرُ الأُمِّيِّينَ أُمَمَهم، ولم يَنقُصْ عنهم شيئًا، فتمَحَّضَتِ الأُمِّيَّةُ للكَونِ مُعجزةً حصَلَ مِن صاحبِها أفضلُ ممَّا حصَلَ مِنَ الرُّسلِ الكاتِبينَ مِثْلِ موسى عليه السَّلامُ(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ الرَّدُّ على قَولِ القائلِ: «إنَّه لا يُتَعَرَّضُ لأحاديثِ الصِّفاتِ وآياتِها عندَ العَوامِّ؛ ولا يُكتَبُ بها إلى البلادِ ولا في الفَتاوى المتعَلِّقةِ بها»؛ فإنَّ ذلك يَتضمَّنُ إبطالَ أعظمِ أصولِ الدِّينِ ودَعائمِ التَّوحيدِ، وإنَّ أسوأَ أحوالِ العامَّةِ أنْ يكونوا أُمِّيِّينَ، فهل يجوزُ أنْ يُنهَى أنْ يُتلى على الأُمِّيِّينَ آياتُ اللهِ، أو عن أنْ يُعَلَّمَ الكِتابُ والحِكمةُ؟! ومَعلومٌ أنَّ جميعَ مَن أُرسِلَ إليه الرَّسولُ مِن العَرَبِ كانوا قبْلَ مَعرفةِ الرِّسالةِ أجهَلَ مِن عامَّةِ المؤمِنينَ اليومَ، فهل كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممنوعًا مِن تلاوةِ ذلك عليهم وتعليمِهم إيَّاه، أو مأمورًا به؟! أَوَليس هذا مِن أعظَمِ الصَّدِّ عن سَبيلِ اللهِ؟! وقد قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٩).

ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ ﴾ [آل عمران: ٩٩] الآيةَ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ تَنبيهٌ للعَرَبِ على قَدْرِ هذه النِّعمةِ وعِظَمِها؛ حيثُ كانوا أُمِّيِّينَ لا كِتابَ لهم، وليس عِندَهم شَيءٌ مِن آثارِ النُّبُوَّاتِ كما كان عندَ أهلِ الكِتابِ، فمَنَّ اللهُ عليهم بهذا الرَّسولِ وبهذا الكِتابِ حتَّى صاروا أفضَلَ الأُمَمِ وأعْلَمَهم، وعَرَفوا ضَلالةَ مَن ضَلَّ مِن الأُمَمِ قَبْلَهم، وفي كَونِه منهم فائِدتانِ:

**إحداهما**: أنَّ هذا الرَّسولَ كان أيضًا أُمِّيًّا كأُمَّتِه المبعوثِ إليهم، لم يَقرأْ كتابًا قَطُّ، ولم يَخُطَّه بيَمينِه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] الآياتِ، ولا خَرَج عن ديارِ قَومِه فأقام عندَ غيرِهم حتَّى تَعَلَّمَ منهم شَيئًا، بل لم يَزَلْ أُمِّيًّا بيْنَ أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ لا يَكتُبُ ولا يَقرأُ، ثُمَّ جاء بعدَ ذلك بهذا الكتابِ المبينِ، وهذه الشَّريعةِ الباهِرةِ، وهذا الدِّينِ القَيِّمِ الَّذي اعترفَ حُذَّاقُ أهلِ الأرضِ ونُظَّارُهم أنه لم يَقْرَعِ العالَمَ ناموسٌ أعظَمُ منه، وفي هذا برهانٌ ظاهرٌ على صِدْقِه.

**والفائدةُ الثَّانيةُ**: التَّنبيهُ على أنَّ المبعوثَ منهم -وهم الأُمِّيُّون خُصوصًا أهلَ مكَّةَ- يَعرِفونَ نَسَبَه وشَرَفَه، وصِدْقَه وأمانتَه وعِفَّتَه، وأنَّه نَشَأَ بيْنَهم مَعروفًا بذلك كُلِّه؛ وأنَّه لم يَكذِبْ قَطُّ؛ فكيف كان يَدَعُ الكَذِبَ على النَّاسِ ثُمَّ يَفتَري الكَذِبَ على اللهِ عزَّ وجلَّ؟! فهذا هو الباطِلُ، ولذلك سألَ هِرَقْلُ عن هذه الأوصافِ، واستَدلَّ بها على صِدْقِه فيما ادَّعاه مِن النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ(٢).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أنَّه إذا قُرِنَتِ الحِكمةُ بالكتابِ،

---

(١) يُنظر: ((التسعينية)) لابن تيمية (١/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٣). ويُنظر البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣).

فالمرادُ بها السُّنَّةُ، لأنَّ السُّنَّةَ أيضًا تتضمَّنُ الحِكمةَ، واللهُ عزَّ وجلَّ لَمْ يَصِفِ السُّنَّةَ بالحِكمةِ لأنَّ القرآنَ ليس فيه حكمةٌ! ولكنْ لَمَّا كان القرآنُ مِن عندِ اللهِ، وكلامَ اللهِ؛ فإنَّ احتمالَ ألَّا يَتضمَّنَ الحِكمةَ بعيدٌ جدًّا، إلَّا أنَّه لَمَّا كانتِ السُّنَّةُ مِن كلامِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فإنَّ كلامَ البشرِ قد يَرِدُ عليه احتمالُ ألَّا يكونَ مُشتَمِلًا على الحِكمةِ؛ فبَيَّنَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّ السُّنَّةَ حِكمةٌ وإنْ كانت مِن كلامِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أو مِن فِعْلِه؛ فإنَّها حِكمةٌ لأنَّها مُوافِقةٌ للصَّوابِ[1].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إشارةٌ إلى ما كان النَّاسُ عليه قبْلَ إنزالِ هذا الكِتابِ مِن الضَّلالِ؛ فإنَّ اللهَ نَظَرَ حينَئذٍ إلى أهلِ الأرضِ فمَقَتَهم، عَرَبَهم وعَجَمَهم، إلَّا بقايا مِن أهلِ الكتابِ[2] تمسَّكوا بدينِهم الَّذي لم يُبَدَّلْ ولم يُغَيَّرْ، وكانوا قليلًا جدًّا، فأمَّا عامَّةُ أهلِ الكِتابِ فكانوا قد بَدَّلُوا كُتُبَهم وغَيَّروها وحَرَّفوها، وأدْخَلوا في دينِهم ما ليس منه، فضَلُّوا وأضَلُّوا، وأمَّا غيرُ أهلِ الكتابِ فكانوا على ضَلالٍ بَيِّنٍ؛ فالأُمِّيُّون أهلُ شِرْكٍ يَعبدونَ الأوثانَ، والمجوسُ يَعبُدونَ النِّيرانَ، ويقولونَ بإلهَينِ اثنَينِ! وكذلك غَيْرُهم مِن أهلِ الأرضِ؛ منهم مَن كان يَعبُدُ النُّجومَ، ومنهم مَن كان يَعبُدُ الشَّمسَ أو القَمَرَ؛ فهدى اللهُ المؤمِنينَ بإرسالِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى ما جاء به مِن الهُدى والدِّينِ الحَقِّ، وأظهَرَ اللهُ دينَه حتَّى بَلَغَ مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها؛ فظَهَرتْ فيها كَلِمةُ التَّوحيدِ والعَمَلُ بالعَدلِ بعدَ أنْ كانتِ الأرضُ كلُّها ممتلئةً مِن الشِّركِ والظُّلمِ، فالأُمِّيُّون همُ العَرَبُ، والآخَرونَ الَّذين لم يَلْحَقوا بهم هم أهلُ فارِسَ والرُّومُ -وذلك على قولٍ-، فكانت أهلُ فارِسَ مجوسًا، والرُّومُ نصارى؛ فهدى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥٢).

(٢) يُنظر الحديثُ الَّذي رواه مسلم (٢٨٦٥) عن عِيَاضٍ المُجاشِعيِّ رضيَ الله عنه.

اللهُ جميعَ هؤلاء برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى التَّوحيدِ[١].

١٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ فيه تفضيلُ الصَّحابةِ على مَن سِواهم[٢]. على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

١٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ قال بعضُ المحَقِّقينَ: (في الآيةِ مُعجِزةٌ مِن مُعجزاتِ النُّبُوَّةِ، وذلك في الإخبارِ عن غَيبٍ وَقَع، والبِشارةِ بدُخولِ أُمَمٍ غيرِ العَرَبِ -على قولٍ- في الإسلامِ قد حصل، فقد صارت تلك الأُمَمُ الَّتي أسلَمَت: مِنَ العَرَبِ؛ لأنَّ بلادَهم صارت بلادَ العَرَبِ، ولُغتُهم لغةَ العَرَبِ، وكذلك دينُهم وعاداتُهم، حتَّى أصبَحوا مِن العَرَبِ جنسًا ودِينًا ولُغةً، وحتَّى صار لفظُ العَرَبِ يُطلَقُ على كلِّ المسلِمينَ مِن جَميعِ الأجناسِ؛ لأنَّهم أمَّةٌ واحِدةٌ ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [المؤمنون: ٥٢]، فصَدَق اللهُ العظيمُ)[٣].

١٧- قَولُ الله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡ﴾ فيه دَلالةٌ على عُمومِ رِسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لجَميعِ الأُمَمِ[٤]، وأنَّه مَبعوثٌ إلى جميعِ الخَلْقِ[٥]، وفي ذلك رَدٌّ على شُبهةِ عَوَامِّ بني إسرائيلَ، وهي أنَّ علماءَهم يقولونَ: «إنَّ محمَّدًا عَرَبيٌّ، واللهُ جلَّ وعلا يقولُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾»، ثُمَّ لا يَذْكرونَ قولَه تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾، فيُشَبِّهُونَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٢٨، ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٥٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٠٧).

١٨ - قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ لذلك فالفَضائِلُ لا يُسْأَلُ عنها؛ لأنَّ الإنسانَ قد يَصِلُ فيها إلى نتيجةٍ، وقد لا يَصِلُ، فكما أنَّ اللهَ تعالى فَضَّل بني آدَمَ بَعْضَهم على بَعضٍ في الرِّزقِ، وفي كمالِ الأخلاقِ والآدابِ، وكذلك فَضَّل بَعْضَهم على بَعضٍ في العِلْمِ، وكذلك في البَدَنِ والفِكْرِ وغَيرِ ذلك؛ فاللهُ تعالى يُؤتي فَضْلَه مَن يَشاءُ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١ - قولُه تعالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالإخبارِ عن تَسبيحِ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ للهِ تعالَى بَراعةُ استِهلالٍ[2]؛ لأنَّ الغرضَ الأوَّلَ مِنَ السُّورةِ التَّحريضُ على شُهودِ الجُمُعةِ، والنَّهيُ عن الأشغالِ الَّتي تَشغَلُ عن شُهودِها، وزَجْرُ فَريقٍ مِنَ المُسلِمينَ انصَرَفوا عن صَلاةِ الجُمُعةِ؛ حِرصًا على الابتياعِ مِن عِيرٍ وردَتِ المدينةَ في وقتِ حُضورِهِم لصلاةِ الجُمُعةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٠٧).

(٢) براعةُ الاستِهلالِ: هي كَونُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بلْ بأَلْطَفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ، ومِن أحسَنِ صُوَرِ براعةِ الاستِهلالِ مَوقِعًا، وأبلَغِها معنًى: فواتحُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، ومنها الحُروفُ المقطَّعةِ؛ فإنَّها تُوقِظُ السَّامِعينَ للإصغاءِ إلى ما يَرِدُ بعدَها؛ لأنَّهم إذا سمِعوها مِن النَّبيِّ الأُمِّيِّ عَلِموا أنَّها والمَتْلُوَّ بعْدَها مِن جِهةِ الوحيِ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ المتلوَّ عليهم مِن جِنسِ ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، مع عجْزِهم عن أنْ يأتوا بمِثلِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (١/ ٥٣)، ((علوم البلاغة)) لأحمد المراغي (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٦).

- وأُوثِرَ المضارعُ في قولِه: ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ أهلَ السَّمواتِ والأرضِ يُجدِّدونَ تَسبيحَ اللهِ، ولا يَفْتُرونَ عنه[1].

- وقيل: جاءَ فِعلُ التَّسبيحِ في هذه السُّورةِ مضارعًا، وجِيءَ به في سِواها -سُورة الحديدِ والحَشرِ والصَّفِّ- ماضيًا؛ لمُناسَبةٍ فيها، وهي: أنَّ الغرَضَ منها التَّنويهُ بصلاةِ الجُمُعةِ، والتَّنديدُ على نَفَرٍ قُطِعوا عن صَلاتِهم وخرَجوا لتجارةٍ أو لَهْوٍ؛ فمُناسِبٌ أنْ يُحكَى تسبيحُ أهلِ السَّمواتِ والأرضِ بما فيه دَلالةٌ على استِمرارِ تسبيحِهم وتجَدُّدِه؛ تَعريضًا بالَّذينَ لم يُتِمُّوا صلاةَ الجُمُعةِ[2].

- قولُه: ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ وصْفُ مُبالَغةٍ. وعُقِّبَ بوَصْفِ ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ وصْفُ ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ للاحتِراسِ؛ إشارةً إلى أنَّه مُنزَّهٌ عن نَقائصِ المُلوكِ المعروفةِ، مِن الغُرورِ، والاسترسالِ في الشَّهواتِ، ونحْوِ ذلك مِن نَقائصِ النُّفوسِ[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ...﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشِئٌ عن إجراءِ الصِّفاتِ المذكورةِ آنِفًا على اسمِ الجلالةِ؛ إذْ يَتساءَلُ السَّامِعُ عن وجهِ تخصيصِ تلك الصِّفاتِ بالذِّكْرِ مِن بَينِ صِفاتِ اللهِ تعالَى، فكان الحالُ مُقتضِيًا أنْ يُبيَّنَ شَيءٌ عظيمٌ مِن تعلُّقِ تلك الصِّفاتِ بأحوالِ خَلْقِه تعالَى؛ إذْ بعَثَ فيهم رسولًا يُطهِّرُ نُفوسَهم ويُزكِّيهم ويُعلِّمُهم، فصِفةُ ﴿ٱلْمَلِكِ﴾ تعلَّقَتْ بأنْ يُدبِّرَ أمْرَ عِبادِه ويُصلِحَ شُؤونَهم، وصِفةُ ﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ تعلَّقَتْ بأنْ يُزكِّيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٢٠).

نُفوسَهم، وصفةُ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ اقتضَتْ أنْ يُلحِقَ الأُمِّيِّينَ مِن عبادِه بمراتبِ أهلِ العِلمِ، ويُخرِجَهُم مِن ذِلَّةِ الضَّلالِ؛ فيَنالوا عِزَّةَ العِلمِ وشرَفَه، وصِفةُ ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ اقتضَتْ أنْ يُعلِّمَهمُ الحِكمةَ والشَّريعةَ[١].

- وابتداءُ الجُملةِ بضميرِ اسمِ الجَلالةِ؛ لتكونَ جُملةً اسميَّةً، فتُفيدَ تقويةَ هذا الحُكمِ وتأكيدَه، أي: إنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مبعوثٌ مِنَ اللهِ لا مَحالةَ[٢].

- حرْفُ (فِي) مِن قولِه: ﴿فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ للظَّرفيَّةِ، أي: ظرفيَّةِ الجماعةِ ولأحَدِ أفرادِها، ويُفهَمُ مِنَ الظَّرفيَّةِ معنى الملازمةِ، أي: رسولًا لا يُفارِقُهم، فليس مارًّا بهم كما يمُرُّ المُرسَلُ بمقالةٍ أو برِسالةٍ يُبلِّغُها إلى القومِ ويُغادِرُهم[٣].

- والمرادُ بـ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ العربُ؛ لأنَّ وصْفَ الأُمِّيَّةِ غالبٌ على الأُمَّةِ العربيَّةِ يومَئذٍ. و﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ صِفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ دلَّ عليه صيغةُ جمْعِ العقلاءِ، أي: في النَّاسِ الأُمِّيِّينَ، وصِيغةُ جمْعِ الذُّكورِ في كلامِ الشَّارِعِ تَشملُ النِّساءَ بطريقةِ التَّغليبِ الاصطلاحيِّ، أي: في الأُمِّيِّينَ والأُمِّيَّاتِ؛ فإنَّ أدِلَّةَ الشَّريعةِ قائمةٌ على أنَّها تعُمُّ الرِّجالَ والنِّساءَ إلَّا في أحكامٍ معلومةٍ[٤].

- وأُوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ هُنا تورُّكًا على اليهودِ؛ لأنَّهم كانوا يَقصِدونَ به الغضَّ مِنَ العربِ، ومِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ جهلًا منهم، فيقولونَ: هو رسولُ الأُمِّيِّينَ، وليس رسولًا إلينا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ووصَفَ الرَّسولَ بأنَّه منهم، أي: لم يكُنْ غريبًا عنهم، وهذه مِنَّةٌ مُوجَّهةٌ للعربِ لِيَشكُروا نعمةَ اللهِ على لُطفِه بهم؛ فإنَّ كَوْنَ رسولِ القومِ منهم نِعمةٌ زائدةٌ على نِعمةِ الإرشادِ والهَدْيِ، وهذا استِجابةٌ لدَعوةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ إذ قال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ فتذكيرُهم بهذه النِّعمةِ استِنزالٌ لطائرِ نُفوسِهم وعنادِهم. وفيه تورُّكٌ عليهم إذْ أعرَضوا عن سَماعِ القُرآنِ؛ فإنَّ كَونَ الرَّسولِ منهم وكِتابَه بلُغَتِهم، هو أعوَنُ على تلَقِّي الإرشادِ منه؛ إذْ يَنطِقُ بلِسانِهم، ويَحمِلُهم على ما يُصلِحُ أخلاقَهُم؛ لِيَكونوا حمَلةَ هذا الدِّينِ إلى غيرِهم[١].

- ووَصْفُ الرَّسولِ بأنَّه منهم -أيْ: مِنَ الأُمِّيِّينَ- شاملٌ لمُماثَلتِه لهم في الأُمِّيَّةِ وفي القَوميَّةِ، وهذا مِن إيجازِ القرآنِ البديعِ[٢].

- وابتُدِئَ بالتِّلاوةِ؛ لأنَّ أوَّلَ تبليغِ الدَّعوةِ بإبلاغِ الوحْيِ، وثُنِّيَ بالتَّزكيةِ؛ لأنَّ ابتداءَ الدَّعوةِ بالتَّطهيرِ مِنَ الرِّجْسِ المعنويِّ، وهو الشِّرْكُ وما يَعْلَقُ به مِن مَساوِي الأعمالِ والطِّباعِ، وعُقِّبَ بذِكْرِ تعليمِهِمُ الكتابَ؛ لأنَّ الكِتابَ بعْدَ إبلاغِه إليهم تُبيِّنُ لهم مَقاصِدُه ومعانيه، وتعليمُ الحِكمةِ هو غايةُ ذلك كلِّه؛ لأنَّ مَنْ تدبَّرَ القُرآنَ وعمِلَ به وفَهِمَ خفاياهُ نالَ الحِكمةَ[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وَسَّطَ بيْنَ التِّلاوةِ وتعليمِهم الكتابَ التَّزكيةَ الَّتي هي عبارةٌ عن تَكميلِ النَّفْسِ بحسَبِ قوَّتِها العمَليَّةِ وتَهذيبِها المُتفرِّعِ على تَكميلِها بحسَبِ القوَّةِ النَّظريَّةِ الحاصلِ بالتَّعليمِ المُترتِّبِ على التِّلاوةِ؛ للإيذانِ بأنَّ كلًّا مِنَ الأمورِ المُترتِّبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نِعمةٌ جليلةٌ على حِيالِها مُستوجِبةٌ للشُّكرِ، فلو رُوعيَ ترتيبُ الوجودِ لَتَبادَرَ إلى الفَهْمِ كَونُ الكلِّ نعمةً واحدةً، وهو السِّرُّ في التَّعبيرِ عن القرآنِ تارةً بالآياتِ، وأخرى بالكتابِ والحِكمةِ؛ رمْزًا إلى أنَّه باعتبارِ كلِّ عُنوانٍ نعمةٌ على حِدَةٍ، ولا يَقدَحُ فيه شُمولُ الحِكمةِ لِما في تضاعيفِ الأحاديثِ النَّبويَّةِ مِنَ الأحكامِ والشَّرائعِ(١).

- قولُه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ بَيانٌ لشِدَّةِ احتياجِهم إلى نبيٍّ يُرشِدُهم، وإزاحةٌ لِمَا يُتَوَهَّمُ أنَّ الرَّسولَ تعلَّمَ ذلك مِن مُعلِّمٍ(٢). وهو في موضِعِ الحالِ مِنَ ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، أي: ليسَتْ نِعمةُ إرسالِ هذا الرَّسولِ إليهم قاصِرةً على رفْعِ النَّقائِصِ عنهم، وعلى تحلِيَتِهم بكمالِ عِلمِ آياتِ اللهِ تعالَى، وزكاةِ أنفُسِهم، وتعليمِهِمُ الكتابَ والحِكمةَ، بل هي أجَلُّ مِن ذلك؛ إذْ كانت مُنقِذةً لهم مِن ضلالٍ مُبينٍ كانوا فيه، وهو ضلالُ الإشراكِ باللهِ، وإنَّما كان ضلالًا مُبينًا؛ لأنَّه أفحَشُ ضلالٍ، وقد قامَتْ على شَناعتِه الدَّلائلُ القاطعةُ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾

- قولُه: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ قيل: مجرورٌ عطفًا على ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾، يعنى: أنَّه بعَثَه في الأُمِّيِّينَ الَّذين على عهدِه، وفي آخَرِينَ مِنَ الأُمِّيِّينَ لم يَلْحَقوا بهم بَعْدُ، وسيَلْحَقونَ بهم -على قولٍ-، وهُمُ الَّذين بَعْدَ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم. ويجوزُ أنْ ينتصِبَ عطفًا على المنصوبِ في ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ﴾، أي: يُعلِّمُهم ويُعلِّمُ آخَرِينَ؛ فأُسنِدَ تعليمُ الآخَرينَ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ لأنَّ التَّعليمَ إذا تناسَقَ إلى آخِرِ الزَّمانِ كان كلُّه مُستنِدًا إلى أوَّلِه، فكأنَّه هو الَّذي تولَّى كلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٠).

ما وُجِدَ منه؛ فصحَّ إسنادُ التَّعليمِ إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للأُمَمِ الفائتةِ للحَصْرِ إلى انقراضِ العالَمِ؛ لأنَّه إذا تَناسَقَت العَنْعنةُ مِن الثِّقاتِ المُتْقنينَ الَّذين حَمَوُا المُتونَ مِن تَحريفِ الزَّائغينَ، والإسنادَ مِن توَلِّي الكاذبينَ؛ صحَّ أنْ يُقالَ: هو الَّذي بَعَثَ في الأُمِّيِّينَ رسولًا منهم يُعلِّمُهم الكِتابَ والحِكمةَ، ويُعلِّمُ آخَرَين منهم لَمَّا يَلحَقوا بهم، وهذا يدُلُّ على جَلالةِ قدْرِ المُحدِّثينَ، وعُلوِّ مَرتبتِهم[1].

وقيل: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ إمَّا معطوفٌ على الضَّميرِ في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ مِن قولِه: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ﴾ [الجمعة: ٢]، والتَّقديرُ: ويَتْلُو على آخَرينَ، وإذا كان يَتْلُو عليهم فقَدْ عُلِمَ أنَّه مُرسَلٌ إليهم؛ لأنَّ تِلاوةَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا تكونُ إلَّا تلاوةَ تبليغٍ لِمَا أُوحِيَ به إليه. وإمَّا أنْ يُجعَلَ ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ مفعولًا معه، والواوُ للمَعيَّةِ، ويَتنازَعه الأفعالُ الثَّلاثةُ، وهي: (يَتْلُو، ويُزكِّي، ويُعلِّمُ)، والتَّقديرُ: يَتْلُو على الأُمِّيِّينَ آياتِنا ويُزكِّيهِمْ ويُعلِّمُهمُ الكتابَ والحِكمةَ مع آخَرينَ، وجُملةُ ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] مُعترِضةٌ بيْنَ المعطوفِ والمعطوفِ عليها، أو بيْنَ الضَّمائرِ والمفعولِ معه[2].

- قولُه: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ يجوزُ جعْلُ (مِن) تَبعيضيَّةً، كما هو المُتبادَرُ مِن مَعانيها، فيكونُ الضَّميرُ المجرورُ بـ (مِن) عائدًا إلى ما عاد إليه ضميرُ ﴿كَانُواْ﴾ مِن قولِه: ﴿وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]؛ فالمعنى: ﴿وَءَاخَرِينَ﴾ مِنَ الضَّالِّينَ يَتْلُو عليهم آياتِ اللَّهِ ويُزكِّيهم ويُعلِّمُهُمُ الكِتابَ والحِكمةَ. ويجوزُ جعْلُ (مِن) اتِّصاليَّةً، والمعنى: وآخَرينَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٠، ٢١١).

يتَّصِلونَ بهِم، ويَصيرونَ في جملتِهِم، ويكونُ قولُه: ﴿مِنْهُمْ﴾ في مَوضعِ الحالِ، وهذا الوجهُ يُناسِبُ قولَه تعالَى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾؛ لأنَّ اللُّحوقَ هو معنى الاتِّصالِ، وموضِعُ جُملةِ ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ﴾ مَوضِعُ الحالِ، ويَنشأُ عن هذا المعنى إيماءٌ إلى أنَّ الأممَ الَّتي تَدخُلُ في الإسلامِ بعْدَ المُسلِمينَ الأوَّلينَ يَصيرونَ مِثلَهُم، ويَنشأُ منه أيضًا رمْزٌ إلى أنَّهم يَتعرَّبونَ لفَهْمِ الدِّينِ، والنُّطقِ بالقرآنِ[1].

- والنَّفيُ بـ﴿لَمَّا﴾ يَقتضي أنَّ المنفيَّ بها مُستمرُّ الانتفاءِ إلى زمَنِ التَّكلُّمِ، فيُشعِرُ بأنَّه مُترقَّبُ الثُّبوتِ، أي: وسَيَلْحَقون، والمعْنى: أنَّ آخَرينَ هُمْ في وقتِ نُزولِ هذه الآيةِ لم يَدخُلوا في الإسلامِ، ولم يَلتحِقوا بمَنْ أسلَمَ مِنَ العَربِ، وسيَدخُلونَ في أزمانٍ أُخرَى[2]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: المبالِغُ في العِزَّةِ والحِكمةِ، وهو تَذييلٌ للتَّعجيبِ مِن هذا التَّقديرِ الإلهيِّ لانتشارِ هذا الدِّينِ في جَميعِ الأممِ؛ فإنَّ العزيزَ لا يَغلِبُ قدرتَهُ شيءٌ، والحكيمَ تأتي أفعالُه عن قدَرٍ مُحكَمٍ[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

- الإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى جَميعِ المذكورِ -على قولٍ-؛ مِن إرسالِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالآياتِ والتَّزكيةِ، وتعليمِ الكِتابِ والحِكمةِ، والإنقاذِ مِنَ الضَّلالِ، ومِن إفاضةِ هذه الكمالاتِ على الأُمِّيِّينَ الَّذين لم تكُنْ لهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١١، ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٧، ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٢).

سابقةُ عِلمٍ ولا كِتابٍ، ومِن لَحاقِ أُمَمٍ آخَرِينَ في هذا الخبرِ، فزال اختِصاصُ اليهودِ بالكِتابِ والشَّريعةِ، وهذا أجدَعُ لأَنْفِهِم؛ إذْ حالوا أنْ يجيءَ رسولٌ أُمِّيٌّ بشريعةٍ إلى أمَّةٍ أُمِّيَّةٍ، فضلًا عن أنْ يَلتحِقَ بها أُممٌ عظيمةٌ كانوا أمكَنَ في المعارفِ والسُّلطانِ، وهذا تَمهيدٌ ومُقدِّمةٌ لقولِه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ [الجمعة: ٥] الآياتِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣٥).

## الآيات (٥-٨)

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ مَثَلُ ﴾: أي: صِفةُ، وشبَهُ، والمَثَلُ عبارةٌ عن تَشبيهِ شَيءٍ بشَيءٍ في حُكمِه، وتقريبِ المعقولِ مِن المحسوسِ، أو أحدِ المحسوسَينِ مِن الآخَرِ، واعتبارِ أحَدِهما بالآخَرِ، وأصلُ (مثل): يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[1].

﴿أَسۡفَارَۢا ﴾: أي: كُتُبًا، واحِدُها: سِفْرٌ، وهو: الكِتابُ الكَبيرُ؛ لأنَّه يُسفِرُ عن المعنى إذا قُرِئَ، وأصلُ (سفر): يدُلُّ على الانكِشافِ والجَلاءِ[2].

﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ ﴾: أي: اليهودُ، والهَودُ: الرُّجوعُ برِفقٍ، قيل: سُمِّيَ اليهودُ مِن: هادَ يَهودُ، إذا تابَ؛ لأنَّهم تابوا عن عِبادةِ العِجلِ، وقالوا: ﴿هُدۡنَآ إِلَيۡكَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، أي: تُبْنَا، وكان اسمَ مَدحٍ، ثمَّ صارَ بعدَ نَسْخِ شَريعتِهم لازمًا لهم، وإنْ لم يكُنْ فيه معنَى المدحِ، وقيل: كانَتِ اليَهُود تُنسَبُ إلى يَهوذا بنِ

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٩)، ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٢/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٤).

يَعقوبَ، فسُمُّوا اليَهودَ، وعُربتْ بالدَّالِ، ويُقالُ: هادَوا: تهَوَّدوا، أي: صاروا يهودًا، وهادَ فُلانٌ: إذا تحرَّى طَريقةَ اليَهودِ في الدِّينِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا بعضَ رذائلِ اليهودِ: مَثَلُ عُلَماءِ اليَهودِ الَّذين كلَّفَهم اللهُ العَمَلَ بالتَّوراةِ، ثمَّ لم يَعمَلوا بها كمَثَلِ الحِمارِ الَّذي يَحمِلُ على ظَهْرِه كُتُبًا لا يَعقِلُ ما فيها، بِئسَ مَثَلًا هذا المَثَلُ المَضروبُ للقَومِ الَّذين كَذَّبوا بآياتِ اللهِ، واللهُ لا يَهْدي القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والتَّكذيبِ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يرُدَّ على مَزاعِمِ اليهودِ الباطِلةِ، وأنْ يتحدَّاهم، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك اليَهودِ: يا أيُّها اليَهودُ، إنْ كُنتُم صادِقينَ في زَعْمِكم أنَّكم أحبابُ اللهِ مِن دُونِ النَّاسِ فتَمَنَّوُا الموتَ؛ لِتَستريحوا مِن تَعَبِ الدُّنيا، وتَنتَقِلوا إلى الجنَّةِ ونَعيمِها!

ولا يَتمَنَّى اليهودُ الموتَ أبَدًا؛ بما قدَّمَتْه أيديهم في الدُّنيا مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ، واللهُ عَليمٌ بالظَّالِمينَ.

ثمَّ يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بأن يُخبِرَهم بأنَّهم لا مفَرَّ لهم مِن الموتِ، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك اليَهودِ: إنَّ الموتَ الَّذي تَهرُبونَ منه فإنَّه مُدرِكُكم لا مَحالةَ، ثمَّ تُرجَعونَ بعْدَ مَوتِكم إلى اللهِ عالِمِ ما غاب عن خَلْقِه، وما هو مُشاهَدٌ لهم، فيُخبِرُكم بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا، ويُجازيكم عليه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (١/ ٨٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مِنَّتَه على هذه الأُمَّةِ الَّذين ابتُعِثَ فيهم النَّبيُّ الأُمِّيُّ، وما خَصَّهم اللهُ به مِن المزايا والمَناقِبِ الَّتي لا يَلحَقُهم فيها أحَدٌ، وهم الأُمَّةُ الأُمِّيَّةُ الَّذين فاقُوا الأوَّلِينَ والآخِرِينَ. حتَّى أهلُ الكِتابِ الَّذين يَزعُمونَ أنَّهم العُلَماءُ الرَّبَّانيُّونَ والأحبارُ المتقَدِّمونَ: ذكَرَ أنَّ الَّذين حَمَّلَهم اللهُ التَّوراةَ مِنَ اليَهودِ وكذا النَّصارى، وأمَرَهم أن يَتعَلَّموها ويَعمَلوا بما فيها، وأنَّهم لم يَحْمِلوها ولم يَقوموا بما حُمِّلوا به: أنَّهم لا فضيلَة لهم، وأنَّ مَثَلَهم كمَثَلِ الحِمارِ الَّذي يَحمِلُ فَوقَ ظَهْرِه أسفارًا مِن كُتُبِ العِلم، فهل يَستفيدُ ذلك الحِمارُ مِن تلك الكُتُبِ الَّتي فوقَ ظَهْرِه؟! وهل يَلحَقُ به فضيلةٌ بسَبَبِ ذلك؟! أو حَظُّه منها حَمْلُها فقط؟ فهذا مَثَلُ عُلَماءِ اليَهودِ الَّذين لم يَعمَلوا بما في التَّوراةِ؛ الَّذي مِن أجَلِّه وأعظَمِه الأمرُ باتِّباعِ محمَّدٍ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- والبِشارةُ به، والإيمانُ بما جاء به مِنَ القُرآنِ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أثبَتَ التَّوحيدَ والنُّبُوَّةَ، وبيَّنَ في النُّبوَّةِ أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بُعِث إلى الأُمِّيِّينَ، واليَهودُ لَمَّا أوردوا تلك الشُّبهةَ -وهي أنَّه عليه الصَّلاةُ السَّلامُ بُعِثَ إلى العَرَبِ خاصَّةً، ولم يُبعَثْ إليهم، بمفهومِ الآيةِ- أتْبَعَه اللهُ تعالى بضَربِ المثَلِ للَّذين أعرَضُوا عن العَمَلِ بالتَّوراةِ، والإيمانِ بالنَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والمقصودُ منه أنَّهم لَمَّا لم يَعمَلوا بما في التَّوراةِ شُبِّهوا بالحِمارِ؛ لأنَّهم لو عَمِلوا بمُقْتَضاها لَانتَفَعوا بها، ولم يُوردوا تلك الشُّبهةَ؛ وذلك لأنَّ فيها نَعْتَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والبِشارةَ بمَقْدَمِه، والدُّخولَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢).

في دِينِه[١].

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ ﴾.

أي: مَثَلُ عُلَماءِ اليَهودِ الَّذين كلَّفَهم اللهُ تعالى العَمَلَ بالتَّوراةِ، ثمَّ لم يَعمَلوا بها، وكَذَّبوا بمُحَمَّدٍ الَّذي أُمِروا في التَّوراةِ بالإيمانِ به واتِّباعِه: كمَثَلِ الحِمارِ الَّذي يَحمِلُ على ظَهْرِه كُتُبًا لا يَعقِلُ ما فيها، ولا ينتَفِعُ بما تَحْويه[٢]!

﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: بِئسَ هذا المَثَلُ المَضروبُ للقَومِ الَّذين كَذَّبوا بآياتِ اللهِ الدَّالَّةِ على صِدقِ رُسُلِه، وما جاؤُوا به مِنَ الحَقِّ؛ فأولئك الأحبارُ مِن اليَهودِ قد ضَمُّوا إلى جَهْلِهم بمعاني التَّوراةِ تَكذيبَهم بالقُرآنِ[٣]!

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

أي: واللهُ لا يُوَفِّقُ لاتِّباعِ الحَقِّ القَومَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ بآياتِه، وتكذيبِ رُسُلِه، وأصَرُّوا على إنكارِ الحَقِّ مع وُضوحِه[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٦].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى أعقَبَ تمثيلَ حالِ جَهْلِهم بالتَّوراةِ بذِكرِ زَعمٍ مِن آثارِ جَهْلِهم بها؛ إبطالًا لِمَفخرةٍ مَزعومةٍ عِندَهم؛ أنَّهم أولياءُ اللهِ، وبَقيَّةُ النَّاسِ لَيسُوا مِثْلَهم! وذلك أصلٌ كانوا يَجعَلونَه حُجَّةً على أنَّ شُؤونَهم أفضَلُ مِن شُؤونِ غَيرِهم[1].

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك اليَهودِ: يا مَن تَدَيَّنوا باليَهوديَّةِ، إنْ كُنتُم صادِقينَ في زَعْمِكم أنَّكم أحبابُ اللهِ مِن دُونِ النَّاسِ، فإنَّ اللهَ يُكرِمُ أحبابَه ولا يُعَذِّبُهم، فتَمَنَّوُا الموتَ لِتَستريحوا مِن تَعَبِ الدُّنيا وهمومِها، وتَنتَقِلوا إلى الجِنانِ ونَعيمِها[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٧، ٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٠، ٢٩١).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي، والألوسي. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال الشنقيطي كما في ((تتمة أضواء البيان)) (٨/ ١٢٠): (لا يَتَمنَّونَه لشِدَّةِ حِرصِهم على الحياةِ، كما بيَّنه تعالى بقولِه: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ [البقرة: ٩٦]، فشِدَّةُ حرصِهم على الحياةِ؛ لِعِلْمِهم أنَّهم إذا ماتوا دخلوا النَّارَ، ولو تَمَنَّوْا لَماتوا مِن حِينِهم).

وقال السعدي: (﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ وهذا أمرٌ خفيفٌ؛ فإنَّهم لو عَلِموا أنَّهم على حقٍّ لَما توَقَّفوا عن هذا التَّحدِّي الَّذي جعله اللهُ دليلًا على صِدقِهم إن تَمَنَّوْه، وكَذِبِهم إن لم يَتَمَنَّوْه، ولَمَّا لم =

= يقَعْ منهم مع الإعلانِ لهم بذلك، عُلِم أنَّهم عالِمون ببُطلانِ ما هم عليه وفَسادِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

وقيل: المرادُ: إنْ كُنتُم تَزعُمونَ أنَّكم على هُدًى، وأنَّ مُحمَّدًا وأصحابَه على ضَلالةٍ؛ فادْعُوا بالموتِ على الضَّالِّ مِن الفِئتَينِ إن كنتم صادِقينَ فيما تَزعُمونَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٨).

وقال ابن كثير عندَ تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤، ٩٥]: (ونظيرُ هذه الآيةِ قولُه تعالى في سورةِ الجُمُعةِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ * قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فهم -عليهم لعائنُ الله- لَمَّا زعَموا أنَّهم أبناءُ الله وأحِبَّاؤُه، وقالوا: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا مَن كان هُودًا أو نَصارى، دُعُوا إلى المُباهَلةِ والدُّعاءِ على أكذَبِ الطَّائفتَينِ منهم، أو مِن المسلمينَ. فلمَّا نَكَلوا عن ذلك عَلِمَ كلُّ أحدٍ أنَّهم ظالِمون؛ لأنَّهم لو كانوا جازمينَ بما هم فيه لَكانوا أقْدَموا على ذلك، فلمَّا تأخَّروا عُلِم كَذِبُهم. وهذا كما دعا رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ وَفْدَ نَجْرانَ مِن النَّصارى بعدَ قيامِ الحُجَّةِ عليهم في المُناظَرةِ، وعُتُوِّهم وعنادهم إلى المباهلة). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٣٣٢).

وذكَر أنَّ المرادَ الدُّعاءُ على أيِّ الفريقَينِ أكذَبُ منهم أو مِن المسلمينَ على وجْهِ المُباهَلةِ، وأنَّ هذا هو الَّذي فسَّر به ابنُ عبَّاسٍ الآيةَ، وأنَّه ثبَت عنه بأسانيدَ صحيحةٍ. يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٣١، ٣٣٢).

وقال ابن عثيمين في آيةِ البقرة: (ذهب بعضُ العلماءِ إلى أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: ٩٤] أي: فباهِلونا، وتمَنَّوُا الموتَ لِمَن هو كاذبٌ مِنَّا؛ فتكونُ هذه مِثلَ قولِه تعالى في سورةِ آلِ عِمْرانَ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]؛ فيكونُ المعنى: تمَنَّوُا الموتَ عن طريقِ المُباهَلةِ؛ ورجَّح هذا ابنُ كثير؛ وضعَّف الأوَّلَ بأنَّه لو كان المرادُ: تمَنَّوْا حُصولَ الموتِ لَكانوا يَحتَجُّون أيضًا علينا نحن، ويَقولونَ: أنتم أيضًا إن كنتم تَقولون: إنَّ الدَّارَ الآخرةَ لكم فتمَنَّوُا الموتَ؛ لأنَّ تَحَدِّيَكم إيَّانا بذلك ليس بأَولى مِن تحَدِّينا إيَّاكم به؛ لأنَّكم أنتم أيضًا تقولون: إنَّ الدَّارَ الآخرةَ لكم، وأنَّ اليهودَ بعدَ بَعثةِ الرَّسولِ صلَّى الله =

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٨].

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾.

أي: ولا يَتمَنَّى اليهودُ الموتَ أبَدًا؛ بسَبَبِ ما قدَّمَتْه أيديهم في الدُّنيا مِن الكُفرِ والتَّكذيبِ، وتحريفِ الحَقِّ، واقترافِ المعاصي[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٩٤ - ٩٦].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بمَن يَظلِمُ نَفْسَه بالكُفرِ والمعاصي مِنَ اليَهودِ وغَيرِهم، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أَمْرِهم، وسيُجازيهم على أعمالِهم[2].

---

= عليه وسلَّمَ في النَّارِ؛ فتمَنَّوُا الموتَ أنتم أيضًا، والجوابُ عن ذلك: أنَّا لم نَدَّعِ أنَّ الدَّارَ الآخرةَ خالِصةٌ لنا مِن دونِ النَّاسِ؛ بل نؤمِنُ بأنَّ الدَّارَ الآخرةَ لكلِّ مَن آمَنَ وعَمِل صالحًا، سواءٌ كان مِن هذه الأمَّةِ أم مِن غيرِها؛ وهذا المعنى الَّذي نحا إليه ابنُ كثير رحمه الله مخالِفٌ لظاهرِ السِّياقِ؛ فلا يُعوَّلُ عليه؛ وقد عرَفْتَ الانفِكاكَ منه). ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال الزَّجَّاج: (أعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ أنَّهم لا يتمَنَّونَه؛ لأنَّهم قد عَلِموا أنَّ النَّبيَّ عليه السَّلامُ حَقٌّ، وأنَّهم إن تمَنَّوه ماتوا؛ فلم يتمَنَّوه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) =

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان عَدَمُ تَمَنِّيهم عَلَمًا مِن أعلامِ نبُوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لِمُوافَقتِه ما أخبَرَ به، وكان ذلك فِعلَ مَن يَعتَقِدُ أنَّ التَّمنِّيَ يُقَدِّمُه عن أجَلِه، وعَدَمَه يُؤَخِّرُه؛ فصاروا بيْنَ التَّكذيبِ بما عِندَهم ونهايةِ البَلادةِ- أمَرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَنبيهِهم على بَلادتِهم؛ تَبكيتًا لهم، فقال[1]:

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك اليَهودِ: إنَّ الموتَ الَّذي تَهرُبونَ منه فتَكرَهونَه وتَأبَونَ تَمنِّيَه: لا بدَّ أن يُدرِكَكم ويَنزِلَ بكم[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

---

= (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٠، ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال الواحدي: (اليهودُ عَلِموا أنَّهم أفسَدوا على أنفُسِهم أمرَ الآخرةِ بتَكذيبِهم مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكانوا يَكرَهونَ الموتَ أشَدَّ الكراهةِ، فقال اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قُلْ لهم: إنَّكم وإن فرَرْتُم مِن الموتِ وكَرِهتُموه، فإنَّه لا بُدَّ يَنزِلُ بكم ويَلْقاكم). ((الوسيط)) (٤/ ٢٩٦).

أي: ثمَّ تُرجَعونَ -أيُّها اليَهودُ- بعدَ مَوتِكم إلى اللهِ الَّذي يَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ، سَواءٌ ما غاب عن خَلْقِه، أو ما هو مُشاهَدٌ لهم، لا يخفَى عليه سُبحانَه شَيءٌ مِن أعمالِكم[1].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢].

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: فيُخبِرُكم اللهُ بما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا، ويُجازيكم عليه[2].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الزمر: ٧].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ قاسَ مَن حَمَّله سُبحانَه كِتابَه؛ لِيُؤمِنَ به ويتدَبَّرَه ويَعمَلَ به ويَدعوَ إليه، ثمَّ خالف ذلك ولم يَحمِلْه إلَّا على ظَهرِ قَلبٍ؛ فقِراءتُه بغيرِ تدَبُّرٍ ولا تفَهُّمٍ ولا اتِّباعٍ ولا تحكيمٍ له وعَمَلٍ بمُوجَبِه: كحِمارٍ على ظَهرِه زامِلةُ أسفارٍ لا يدري ما فيها، وحَظُّه منها حَمْلُها على ظَهرِه ليس إلَّا! فحَظُّه مِن كتابِ اللهِ كحَظِّ هذا الحِمارِ مِن الكُتبِ الَّتي على ظَهْرِه؛ فهذا المَثَلُ وإن كان قد ضُرِبَ لليَهودِ فهو مُتناوِلٌ مِن حيث المعنى لِمَن حُمِّلَ القُرآنَ فتَرَكَ العَمَلَ به، ولم يؤَدِّ حَقَّه، ولم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦١، ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

يَرْعَه حقَّ رعايتِه[١]! ففي هذا تنبيهٌ مِنَ الله تعالى لِمَن حُمِّلَ الكِتابَ أن يَتعلَّمَ مَعانيَه، ويَعلَمَ ما فيه، ويَعمَلَ به؛ لئلَّا يَلحَقَه مِنَ الذَّمِّ ما لَحِقَ هؤلاء[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ أنَّ الإنسانَ لا ينبغي أنْ يَتَشَبَّهَ بالحيوانِ؛ فإنَّ اللهَ لم يَذْكُرْ تشبيهَ الإنسانِ بالحيوانِ إلَّا في مقامِ الذَّمِّ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ التَّحذيرُ مِن الظُّلمِ، وأنَّه كُلَّما كان الإنسانُ أظْلَمَ كان عن الهدايةِ أبْعَدَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى عَلَّقَ نفْيَ الهدايةِ بالظُّلمِ، وتعليقُ الحُكْمِ بالظُّلمِ يدُلُّ على عِلِّيَّتِه، وكُلَّما قَويتِ العلَّةُ قَوِيَ الحُكْمُ المُعَلَّقُ عليها[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ مَن أخَذ بالعَدلِ كان حَرِيًّا بالهدايةِ؛ لمفهومِ المخالفةِ في الآيةِ، فإذا كان الظَّالمُ لا يَهديه اللهُ، فصاحِبُ العدلِ حَرِيٌّ بأنْ يَهديَه اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ الإنسانَ الَّذي يريدُ الحقَّ ويَتَّبِعُ الحقَّ -والحقُّ هو العدلُ- غالبًا يُهْدَى ويُوَفَّقُ للهدايةِ؛ ولهذا قال ابنُ تيميةَ: (مَن تَدَبَّرَ القرآنَ طالبًا الهدى منه تَبَيَّنَ له طريقُ الحقِّ)[٥]، وهذه كَلِمةٌ مأخوذةٌ مِن القُرآنِ مَنطوقًا ومَفهومًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٧٤).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٣/ ٢٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((العقيدة الواسطية)) لابن تيمية (ص: ١٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٦).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ فيه سؤالٌ: ما الحِكمةُ في تعيينِ الحِمارِ مِن بَينِ سائِرِ الحيواناتِ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ اللهَ تعالى خَلَق الخَيلَ والبِغالَ والحَميرَ للرُّكوبِ والزِّينةِ، والزِّينةُ في الخَيلِ أكثَرُ وأظهَرُ بالنِّسبةِ إلى الرُّكوبِ، وحَملِ الشَّيءِ عليه، وفي البِغالِ دونَ الخَيلِ، وفي الحِمارِ دونَ البِغالِ؛ فالبِغالُ كالمتوسِّطِ في المعاني الثَّلاثةِ، وحينَئذٍ يلزَمُ أن يكونَ الحِمارُ في معنى الحَملِ أظهَرُ وأغلَبُ بالنِّسبةِ إلى الخَيلِ والبِغالِ وغَيرِهما من الحيواناتِ.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ هذا التَّمثيلَ لإظهارِ الجَهلِ والبَلادةِ، وذلك في الحِمارِ أظهَرُ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ في الحِمارِ مِن الذُّلِّ والحَقارةِ ما ليس في غيرِه مِن الحيواناتِ، والغَرَضُ مِن الكلامِ في هذا المقامِ تعييرُ القَومِ بذلك وتحقيرُهم، فيكونُ تعيينُ الحِمارِ أليقَ وأَولى.

**الوجهُ الرَّابعُ**: أنَّ حَملَ الأسفارِ على الحِمارِ أتَمُّ وأعَمُّ وأسهَلُ وأسلَمُ؛ لِكَونِه ذَلُولًا سَلِسَ القِيادِ، لَيِّنَ الانقيادِ، يتصَرَّفُ فيه الصَّبيُّ الغَبيُّ مِن غَيرِ كُلْفةٍ ومَشَقَّةٍ، وهذا مِن جُملةِ ما يُوجِبُ حُسنَ الذِّكرِ بالنِّسبةِ إلى غيرِه.

**الوجهُ الخامِسُ**: أنَّ رعايةَ الألفاظِ والمناسَبةَ بيْنَها مِنَ اللَّوازمِ في الكَلامِ، وبيْنَ لَفظَي الأسفارِ والحِمارِ مُناسَبةٌ لَفظيَّةٌ لا تُوجَدُ في الغيرِ مِن الحيواناتِ؛ فيَكونُ ذِكرُه أَولى[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٠).

٢- قَولُه تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ أنَّ مِن جَهْلِ اليهودِ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى شَبَّهَهم في حَمْلِهم التَّوراةَ، وعدَمِ الفِقهِ فيها والعَمَلِ بها: بالحِمارِ يَحمِلُ أسفارًا، وفي هذا التَّشبيهِ مِن النِّداءِ على جَهالتِهم وُجوهٌ متعدِّدةٌ:

منها: أنَّ الحِمارَ مِن أَبْلَدِ الحيواناتِ الَّتي يُضرَبُ بها المَثَلُ في البَلادةِ.

ومنها: أنَّه لو حُمِّلَ غيرَ الأسفارِ مِن طعامٍ أو عَلَفٍ أو ماءٍ لَكان له به شُعورٌ، بخِلافِ الأسفارِ.

ومنها: أنَّهم حُمِّلُوها لا أنَّهم حَمَلُوها طَوعًا واختيارًا، بل كانوا كالمكلَّفِينَ لَمَّا حُمِّلُوه، فلَمْ يَرفعوا به رأسًا!

ومنها: أنَّهم حيثُ حُمِّلُوها تكليفًا وقَهرًا لم يَرضَوا بها، ولم يَحْمِلوها رِضاءً واختيارًا، وقد عَلِموا أنَّهم لا بُدَّ لهم منها، وأنَّهم إنْ حَمَلُوها اختيارًا كانت لهم العاقِبةُ في الدُّنيا والآخِرةِ.

ومنها: أنَّها مُشتَمِلةٌ على مصالحِ معاشِهم ومَعادِهم، وسَعادتِهم في الدُّنيا والآخرةِ؛ فإعراضُهم عن التزامِ ما فيه سَعادتُهم وفلاحُهم إلى ضِدِّه هو مِن غايةِ الجَهلِ والغَباوةِ وعَدمِ الفَطانةِ[1]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنَّ مَن أَضَلَّه اللهُ فإنَّما ذلك لظُلمٍ منه، وأمَّا مَن طَلَبوا الحقَّ وتَحَرَّوه وتشَوَّفوا له فإنَّهم جَديرونَ بالهِدايةِ[2]. فاللهُ سبحانَه لا يَمْنَعُ فَضْلَه عن أحدٍ إلَّا إذا كان هذا الممنوعُ هو السَّبَبَ؛ فلِظُلْمِهم

(١) يُنظر: ((هداية الحيارى)) لابن القيم (٢/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٥١٧).

لم يَهْدِهم اللهُ، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[1] [الصف: ٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ -المُنْكِرينَ أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ-؛ إذْ لو كان كلُّ مَبعوثٍ إليه رَسولًا وكلُّ مَدلولٍ على طريقِ الهدايةِ: يَقدِرُ بنَفْسِه أنْ يَهتديَ مِن غيرِ أنْ يَهديَه اللهُ- ما كان في ذلك فائدةٌ، ولا كان ذلك عليهم عُقوبةً، وهذا لا محالةَ إخبارٌ عن قومٍ حُمِّلُوا التَّوراةَ وبُعِثَ إليهم[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۞ وَلَا يَتَمَنَّوۡنَهُۥٓ أَبَدَۢا﴾ الإخبارُ عن المُستَقبَلاتِ -وهو شَيءٌ كثيرٌ في القرآنِ-، فأَخبرَ سُبحانَه عنِ اليهودِ أنَّهم لن يتمَنَّوُا الموتَ أبدًا، وكان كما أخبَرَ، فلا يتمَنَّى اليهودُ الموتَ أبدًا، وهذا دليلٌ مِن وجهينِ: مِن جِهةِ إخبارِه بأنَّه لا يكونُ أبدًا، ومِن جِهةِ صَرْفِ اللهِ لدواعي اليَهودِ عن تمنِّي الموتِ، مع أنَّ ذلك مَقدورٌ لهم، وهذا مِن أَعْجَبِ الأمورِ الخارقةِ للعادةِ، وهم مع حِرْصِهم على تكذيبِه لم تَنْبَعِثْ دواعيهم لإظهارِ تَكذيبِه بإظهارِ تمنِّي الموتِ[3]! وهذا عَلَمٌ مِن أعلامِ نُبُوَّتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذْ لا يمكنُ الاطِّلاعُ على بواطنِهم إلَّا بأخبارِ الغَيبِ، ولم يُنْطِقِ اللهُ ألسنتَهم بتمَنِّيه أبدًا[4].

٦- قَولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ اسْتدلَّ به مَن جوَّز الدُّعاءَ بالموتِ وتمنِّيَه، فمَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٢٦٤).

كانَ له عملٌ صَالحٌ فإنَّه يتَمَنَّى القدومَ عليه، وكذلك مَن غلَب عليه الشَّوقُ الى لقاءِ الله، وأمَّا مَن تمنَّى الموتَ خوفَ فتنتِه في الدِّينِ فإنَّه يجوزُ بغيرِ خلافٍ[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «فإنَّه يُدرِكُكم»، وما ظَنُّك بشَيءٍ تَفِرُّ منه وهو يُلاقيك؟! إنَّ فِرارَك منه يعني دُنُوَّك منه في الواقِعِ، فلو كنتَ فارًّا مِن شيءٍ وهو يُقابِلُك، فكلمَّا أسرعتَ في الجريِ أسرَعتَ في مُلاقاتِه؛ ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾[2]!

٨- قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ استَشْعَرَ غَيرُ واحِدٍ مِنَ الآيةِ ذَمَّ الفِرارِ مِنَ الطَّاعونِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لضربِ المثَلِ لليهودِ عِندَما ترَكوا العملَ بالتَّوراةِ ولم

---

(١) ينظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١١٢).

قال ابن رجب: (تمنِّي الموتِ يقعُ على وجوهٍ:

منها: تمنِّيه لضُرٍّ دنيويٍّ ينزِلُ بالعبدِ، فيُنهَى حينئذٍ عن تمنِّي الموتِ.

ومنها: تمنِّيه خوفَ الفتنةِ في الدِّينِ فيجوزُ حينئذٍ.

ومنها: تمنِّي الموتِ عندَ حضورِ أسبابِ الشَّهادةِ اغتِنامًا لحضورِها، فيجوزُ ذلك أيضًا.

ومنها: تمنِّي الموتِ لمَن وثِق بعملِه؛ شوقًا إلى لقاءِ الله عزَّ وجلَّ فهذا يجوزُ أيضًا.

ومنها: تمنِّي الموتِ على غيرِ الوجوهِ المتقدِّمةِ، فقد اختَلف العلماءُ في كراهيتِه واستحبابِه، وقد رخَّص فيه جماعةٌ مِن السَّلفِ، وكرِهه آخرونَ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٩٥) بتصرف.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٢).

يُؤمِنوا بمُحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾ حرفُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتْبي؛ فإنَّ عدَمَ وفائِهم بما عُهِدَ إليهم أعجَبُ مِن تحمُّلِهم إيَّاه[٢].

- قولُه: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾ فيه تشبيهٌ تمثيليٌّ؛ فقَدْ شبَّهَ اليهودَ بالحِمارِ الَّذي يَحمِلُ الكُتُبَ ولا يَدْري ما فيها، ووجْهُ الشَّبَهِ عدَمُ الانتفاعِ بما هو حاصلٌ وكائنٌ، فالحِمارُ يمشي في طريقِه وهو لا يُحِسُّ بشيءٍ ممَّا يَحمِلُه على ظَهرِه إلَّا بالكَدِّ والتَّعبِ، وكذلك اليهودُ قَرَؤوا التَّوراةَ وحَفِظوها، ولم يَنتفِعوا بها، ومِن ذلك أنَّهم أشاحوا عمَّا انطَوَتْ عليه مِن دلائلَ وإرهاصاتٍ على نبوَّةِ مُحمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم[٣].

- وهذا التَّمثيلُ مَقصودٌ مِنه تشنيعُ حالِهم؛ ولذلك ذُيِّلَ بذَمِّ حالِهم: ﴿بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾[٤].

- قولُه: ﴿مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ﴾ فاعِلُ ﴿بِئۡسَ﴾، وأغنى هذا الفاعلُ عن ذِكْرِ المخصوصِ بالذَّمِّ؛ لحُصولِ العِلمِ بأنَّ المذمومَ هو حالُ القومِ المُكذِّبينَ، فلَمْ يُسْلَكْ في هذا التَّركيبِ طريقُ الإبهامِ على شرطِ التَّفسيرِ؛ لأنَّه قد سبَقَه ما بَيَّنَه بالمَثَلِ المذكورِ قَبْلَه في قولِه: ﴿كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ﴾، فصارَ إعادةُ لَفظِ المثَلِ ثَقيلًا في الكلامِ أكثَرَ مِن ثلاثِ مرَّاتٍ، وهذا مِن تفنُّناتِ القُرآنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٣، ٢١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٣)، ((تفسير أبي =

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تَذييلٌ؛ إخبارًا عنهم بأنَّ سوءَ حالِهم لا يُرْجى لهم منه انفكاكٌ؛ لأنَّ اللهَ حرَمَهم اللُّطفَ والعِنايةَ بإنقاذِهم لِظُلمِهم بالاعتداءِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّكذيبِ دونَ نظَرٍ، وعلى آياتِ اللهِ بالجَحْدِ دونَ تدبُّرٍ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾

- افتُتِحَ الكلامُ بفِعلِ ﴿قُلۡ﴾؛ للاهتِمامِ[٢].

- ولم يُضِفْ ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾ إلى الله، كما أضافَ في قولِه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]؛ ليُؤْذِنَ بالفَرقِ بيْنَ مَن يَدَّعي أنَّه مِن أولياءِ اللهِ، وبيْنَ مَن يخُصُّه اللهُ بالولايةِ[٣].

- والأمرُ في قولِه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ؛ كِنايةً عن التَّكذيبِ[٤].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ جوابُه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، أي: إنْ كنتُمْ صادِقينَ في زَعْمِكم واثِقينَ بأنَّه حقٌّ؛ فتَمَنَّوُا الموتَ؛ فإنَّ مَنْ أيقَنَ بأنَّه مِن أهلِ الجنَّةِ أحَبَّ أنْ يَتخلَّصَ إليها مِن هذه الدَّارِ الَّتي هي قَرارةُ الأكدارِ[٥].

- قولُه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ جِيءَ بـ (إن) الشَّرطيَّةِ الَّتي الأصلُ

---

= السعود)) (٨/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٤، ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٢).

فيها عدَمُ الجزمِ بوُقوعِ الشَّرطِ مع أنَّ الشَّرطَ هُنا مُحقَّقُ الوُقوعِ -إذْ قدِ اشْتُهِروا بهذا الزَّعمِ-؛ للإشارةِ إلى أنَّ زعْمَهم هذا لَمَّا كان باطلًا بالدَّلائلِ كان بمَنزِلةِ الشَّيءِ الَّذي يُفرَضُ وُقوعُه كما يُفرَضُ المُستبعَدُ وكأنَّه ليس واقعًا، ويُفيدُ ذلك تَوبيخًا بطريقِ الكِنايةِ، وهذا إلجاءٌ لهم حتَّى يَلْزَمَهم ثُبوتُ شكِّهم فيما زعَموه[1].

- ووَجْهُ الملازمةِ بيْنَ الشَّرطِ وجوابِه أنَّ الموتَ رُجوعُ الإنسانِ برُوحِه إلى حياةٍ أبَديَّةٍ تَظهَرُ فيها آثارُ رِضا اللهِ عن العبدِ أو غضَبِه لِيَجزيَه على حسَبِ فِعلِه، والنَّتيجةُ الحاصلةُ مِن هذا الشَّرطِ تُحصِّلُ أنَّهم مِثلُ جميعِ النَّاسِ في الحياتَينِ الدُّنيا والآخِرةِ وآثارِهما، واختلافِ أحوالِ أهلِهما، فيُعلَمُ مِن ذلك أنَّهم ليسوا أفضَلَ مِنَ النَّاسِ، وبهذا يَندفِعُ ما قد يَعرِضُ للنَّاظِرِ في هذه الآيةِ مِنَ المعارضةِ بيْنَها وبيْنَ ما جاء في الأخبارِ الصَّحيحةِ مِنَ النَّهيِ عن تَمنِّي الموتِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جملتَيِ القولَينِ قُصِدَ به تحدِّيهم لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم أنَّهم ليسوا أولياءَ للهِ، وليس المقصودُ مِن هذا مَعذرةً لهم مِن عدَمِ تمنِّيهم الموتَ، وإنَّما المقصودُ زيادةُ الكَشفِ عن بُطلانِ قولِهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]، وإثباتُ أنَّهم في شكٍّ مِن ذلك[3].

- قولُه: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ جاء التَّعبيرُ هنا بحرفِ النَّفيِ (لا)، بيْنَما في سورةِ (البقرةِ) جاء التَّعبيرُ بحرفِ النَّفيِ (لن) في قولِه: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾ [البقرة:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٥، ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢١٧).

٩٥]، وهذا مِن المُناسَباتِ اللَّطيفةِ، ومِن مَحاسِنِ المعاني؛ لأنَّهم في سورةِ (البقرةِ) ادَّعَوْا أنَّ الدَّارَ الآخرةَ خالِصةٌ لهم مِن دونَ النَّاسِ، وهنا في سورةِ (الجمعةِ) ادَّعَوْا أنَّهم أولياءُ لله تعالى مِن دونِ النَّاسِ، والدَّعوى الأُولى أعظَمُ مِن الثَّانيةِ، لأنَّ السَّعادةَ القصوى فوقَ مرتبةِ الولايةِ؛ لأنَّ الثَّانيةَ تُرادُ لحصولِ الأُولى، فبيَّن سبحانَه فسادَ قولِهم بلفظِ: (لن)؛ لأنَّه أقوى الألفاظِ النَّافيةِ، واكتفَى في إبطالِ الثَّانيةِ بلفظِ (لا)؛ لأنَّه ليس في نهايةِ القوَّةِ في إفادةِ معنَى النَّفيِ[1].

وأيضًا لأنَّ آيةَ (البقرةِ) ورَدتْ بعدَ ما تقدَّم منهم مِن الكفرِ والعصيانِ وقتْلِ الأنبياءِ، فناسَب حرفُ المبالَغةِ فى النَّفيِ لتَمنِّيهم الموتَ؛ لِمَا يَعلمونَ ما لَهم بعْدَه مِن العذابِ[2].

وأيضًا في (البقرةِ) لَمَّا كان الشَّرطُ في المغفرةِ مُستقبَلًا، وهو قولُه: ﴿إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً﴾ جاء جوابُه بـ(لن) الَّتي تخصُّ الاستِقبالَ، ولَمَّا كان الشَّرطُ في (الجمعةِ) حالًّا، وهو قولُه: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ جاء جوابُه بـ(لا) الَّتي تدخلُ على الحالِ، أو تدخلُ على المُستقبَلِ[3].

- والباءُ في قولِه تعالَى: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ سَببيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بفعلِ ﴿يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ المَنفيِّ، فما قدَّمَتْ أيديهم هو سبَبُ انتفاءِ تَمنِّيهِمُ الموتَ، ألْقى في نُفوسِهمُ الخَوفَ ممَّا قدَّمَتْ أيديهم؛ فكان سبَبَ صَرْفِهم عن تَمنِّي الموتِ لتقدُّمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٦٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ٤٩٩)، ((تفسير القاسمي)) (١/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((كشف المعانى)) لابن جَمَاعة (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٩١). ويُنظر أيضًا: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (١/ ٤٧).

الحُجَّةِ عليهم[١].

- وفيه نِسبةُ ما قدَّموه مِن المعاصي القَوليَّةِ والفِعليَّةِ والاعتقاديَّةِ إلى الأيدي، على سبيلِ التَّغليب؛ لأنَّ الأيديَ تُزاوِلُ أكثرَ الأعمالِ؛ فكأنَّ كلَّ عمَلٍ واقعٌ بها[٢].

- قولُه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ التَّقديمُ: أصلُه جعْلُ الشَّيءِ مُقدَّمًا، أي: سابقًا غيرَه في مكانٍ يَقْفُوهُ فيه غَيرُه، وهو مُعبَّرٌ به هُنا عمَّا سلَفَ مِنَ العملِ؛ تَشبيهًا له بشَيءٍ يُسَبِّقُه المرءُ إلى مكانٍ قبْلَ وُصولِه إليه[٣].

- قولُه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، أي: بهِم، وإيثارُ الإظهارِ على الإضمارِ لذمِّهم، والتَّسجيلِ عليهم بأنَّهم ظالِمونَ في كلِّ ما يأتونَ وما يَذَرونَ مِنَ الأمورِ الَّتي مِن جُملتِها ادِّعاءُ ما هُم عنه بمَعْزِلٍ[٤].

وقيل: قولُه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، أي: عليمٌ بأحوالِهم وبأحوالِ أمثالِهم مِنَ الظَّالِمينَ، فشَمِلَ لفظُ الظَّالِمينَ اليهودَ؛ فإنَّهم مِنَ الظَّالِمينَ، والمقصودُ أنَّ إحجامَهم عن تمنِّي الموتِ لِما في نفوسِهم مِن خَوفِ العِقابِ على ما فعَلوه في الدُّنيا، فكُنِّيَ بعِلمِ اللهِ بأحوالِهم عن عدمِ انفلاتِهم مِنَ الجزاءِ عليها؛ ففي هذا وعيدٌ لهم[٥].

- والجُملةُ تذييلٌ لِمَا قبْلَها مُقرِّرةٌ لمضمونِه، أي: عليمٌ بهم وبما صدَرَ عنهم مِن فُنونِ الظُّلمِ والمعاصي المُفْضِيَةِ إلى أفانينِ العذابِ، وبما سيَكونُ منهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٩/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي حيَّان)) (٣/ ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٨، ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٨).

مِنَ الاحترازِ عمَّا يؤدِّي إلى ذلك[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

- هو تَصريحٌ بما اقتضاهُ التَّذييلُ مِنَ الوعيدِ وعدمِ الانفلاتِ مِنَ الجزاءِ عن أعمالِهم ولو بعْدَ زمانِ وُقوعِها؛ لأنَّ طولَ الزَّمانِ لا يُؤثِّرُ في عِلمِ اللهِ نسيانًا؛ إذْ هو عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ[٢].

- ووصَفَ الموتَ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ هلَعَهم مِنَ الموتِ خطأٌ[٣].

- قوله: ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ أي: لاحِقٌ بكم لا تَفوتونَه البتَّةَ مِن غَيرِ صارِفٍ يَلويهِ، ولا عاطفٍ يَثنيهِ، والفاءُ لتضمُّنِ الاسمِ معنى الشَّرطِ باعتبارِ الوصفِ، وكأنَّ فِرارَهم يُسرِّعُ لُحوقَه بهِم[٤].

- وقال: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ لأنَّ النَّبأَ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ، ويُطلَقُ على الخبرِ الخطيرِ والأمرِ العظيمِ، فالنَّبأُ أخصُّ مِن الخبرِ، فكلُّ نبأٍ خبرٌ، وليس كلُّ خبرٍ نبأً؛ لأنَّ النَّبأَ لا يُطلَقُ إلَّا على الخبرِ الَّذي له خَطبٌ وشأنٌ[٥]. والإنباءُ ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كِنايةٌ عن الحسابِ عليه، وهو تَعريضٌ بالوعيدِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ٨٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٩).

## الآيات (٩-١١)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَذَرُواْ﴾: أي: اتْرُكوا، ودَعُوا، يُقالُ: فُلانٌ يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يَقذِفُه لقِلَّةِ اعتِدادِه به[1].

﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾: أي: فتفرَّقوا لإقامةِ مَصالِحِكم، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[2].

﴿وَٱبۡتَغُواْ﴾: أي: اطْلُبوا، مِن بغَى الشَّيءَ، أي: طَلَبَه[3].

﴿تُفۡلِحُونَ﴾: أي: تَفوزون بالمطلوبِ، وتَنجون مِن المرهوبِ، وأصلُ الفلاحِ: البقاءُ والفوزُ والظَّفَرُ، وإدراكُ البُغيةِ، ثمَّ قيل لكلِّ مَن عقَل وحزُمَ وتكاملتْ فيه خِلالُ الخَيرِ، والعربُ تقولُ لكلِّ مَن أصاب خيرًا: مُفلِحٌ، وأصلُ (فلح) هنا: يدُلُّ على فَوزٍ وبَقاءٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥، ٨٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٠)، ((الغريبين =

﴿لَهۡوًا﴾: اللَّهْوُ: ما يَشغَلُ الإنسانَ عمَّا يَعْنيه ويُهِمُّه، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بشَيءٍ[1].

﴿ٱنفَضُّوٓاْ﴾: أي: تَفرَّقوا، والفضُّ: كَسْرُ الشَّيءِ، والتَّفريقُ بيْنَ بَعضِه وبَعضِه، وأصلُ (فضض): يدُلُّ على التَّفريقِ والتَّجزئةِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى المؤمنينَ بالمسارعةِ إلى أداءِ فرائضِه، وألَّا تَشغلَهم الدُّنيا عن ذِكْرِه وطاعتِه، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إذا نُودِيَ للصَّلاةِ مِن يَومِ الجُمُعةِ فامضوا إلى الخُطبةِ والصَّلاةِ، واتْرُكوا البَيعَ؛ ذلكم خَيرٌ لكم إنْ كنتُم تَعلَمونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ التَّيسيرِ في شَرعِه، ومُراعاةِ أحوالِ عبادِه، فيقولُ: فإذا فَرَغْتُم مِن صَلاةِ الجُمُعةِ فتفرَّقوا في الأرضِ، واطْلُبوا مِن رِزقِ اللهِ إنْ شِئتُم؛ فلا حَرَجَ عليكم، واذكُروا اللهَ ذِكرًا كَثيرًا؛ لعَلَّكم تُفلِحونَ.

ثمَّ يعاتِبُ اللهُ تعالى بعضَ أصحابِ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ، فيَقولُ: وإذا رَأَوا تجارةً أو لَهْوًا وَقْتَ خُطبةِ الجُمُعةِ، انصَرَفوا إليها، وتَرَكوك -يا محمَّدُ- قائمًا على المِنبَرِ تَخطُبُ. قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: ما عِندَ اللهِ خَيرٌ مِن لذَّةِ اللَّهوِ ومِن رِبحِ التِّجارةِ، واللهُ خيرُ الرَّازِقِينَ.

---

= في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَبَّح اللهُ سُبحانَه المُخالَفةَ بيْن القَولِ والفِعلِ، وصوَّرَ صاحِبَها بصُورةِ الحِمارِ على الهيئةِ السَّابقةِ، وحذَّرَ مِن ذلك بما هيَّأَ به العاقِلَ للإجابةِ إلى دوامِ الطَّاعةِ بعْدَ أن بيَّنَ أنَّ جَميعَ الكائِناتِ تُسبِّحُه، وخَتَم بالتَّحذيرِ مِنَ الإخبارِ يومَ الجَمْعِ الأعظَمِ بجَميعِ الأعمالِ؛ قال على طريقِ الاستنتاجِ مِمَّا مضى مِن التَّرغيبِ والتَّرهيبِ، نادبًا لهم -لِيَكونوا أولياءَ اللهِ- إلى التَّزكيةِ المذكورةِ الَّتي هي ثَمَرةُ الرِّسالةِ بما حاصِلُه الإقبالُ بالكُلِّيَّةِ على اللهِ، والإعراضُ بالكُلِّيَّةِ عن الدُّنيا؛ لِيَجمَعَ المكَلَّفُ بيْن التَّحَلِّي بالمزايا، والتَّخَلِّي عن الدَّنايا، فخَصَّ مِن المزايا أعظَمَ تَسبيحٍ يَفعَلُه العاقِلُ في أيَّامِ الأُسبوعِ، وهو الإسراعُ بالاجتِماعِ العَظيمِ في يومِ الجُمُعةِ الَّذي يُناظِرُ الاجتماعَ لإجابةِ المُنادي في يومِ الجَمعِ الأكبَرِ، ثمَّ الإقبالُ الأعظَمُ بفِعْلِ صَلاةِ الجُمُعةِ الَّتي هي سِرُّ اليومِ الَّذي ضَيَّعَه اليَهودُ، واستَبدَلوا به ما كان سَبَبَ تَعذيبِهم بعذابٍ لم يُعَذَّبْ به أحدٌ مِنَ العالَمينَ[1].

وأيضًا بعدَ أنْ نعَى على اليهودِ فِرارَهم مِن الموتِ حبًّا في الدُّنيا والتَّمتُّعِ بطَيِّباتِها- ذكَرَ هنا أنَّ المؤمنَ لا يُمنَعُ مِن اجتناءِ ثمارِ الدُّنيا وخَيراتِها مع السَّعيِ لِما يَنفَعُه في الآخرةِ، كالصَّلاةِ يومَ الجُمُعةِ في المسجدِ مع الجماعةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٢، ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ١٠١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا[1] إذا أذَّن المؤذِّنُ داعِيًا إلى الصَّلاةِ في يَومِ الجُمُعةِ[2] -وذلك عندَ قُعودِ الإمامِ على المِنبَرِ للخُطبةِ-؛ فامضوا إلى خُطبة الجمعةِ وصَلاتِها مُبادِرينَ مُهْتمِّينَ، واتْرُكوا البَيعَ[3].

---

(١) قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ خِطابٌ للمُكَلَّفينَ بإجماعٍ، ويَخرُجُ منه المَرْضى والزَّمْنى والمسافِرونَ والعَبيدُ والنِّساءُ؛ بالدَّليلِ، والعُمْيانُ والشَّيخُ الَّذي لا يَمشي إلَّا بقائدٍ عندَ أبي حنيفةَ. ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠٣).

(٢) قال الجَصَّاصُ: (قولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ ...﴾ الآيةَ... اتَّفَق المسلمونَ على أنَّ المرادَ الصَّلاةُ الَّتي إذا فعَلَها مع الإمامِ جُمُعةً لم يَلزَمْه فِعلُ الظُّهرِ معها، وهي ركعتانِ بعدَ الزَّوالِ على شرائطِ الجُمُعةِ، واتَّفَق الجميعُ أيضًا على أنَّ المرادَ بهذا النِّداءِ هو الأذانُ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٩٤).

وقال الواحدي: (يعني: النِّداءَ إذا جلس الإمامُ على المِنبَرِ يومَ الجُمُعةِ؛ لأنَّه لم يكُنْ على عهدِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نداءٌ سِواه). ((الوسيط)) (٤/ ٢٩٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٣٧، ٦٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٩٧، ١٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٢-٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال ابن عطية: (السَّعيُ في الآيةِ ليس الإسراعَ في المشيِ كالسَّعيِ بيْنَ الصَّفا والمروةِ، وإنَّما هو بمعنى قَولِه: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، فالقيامُ والوُضوءُ ولُبسُ الثَّوبِ والمَشيُ: سَعيٌ كُلُّه إلى ذِكرِ اللهِ تعالى، قال الحسَنُ وقَتادةُ ومالِكٌ وغيرُهم: إنَّما تُؤتَى الصَّلاةُ بالسَّكينةِ. فالسَّعيُ هو بالنِّيَّةِ والإرادةِ والعمَلِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٩).

وقال ابن رجب: (المرادُ بالسَّعيِ: شِدَّةُ الاهتمامِ بإتيانِها، والمُبادَرةُ إليها؛ فهو مِن سَعيِ القُلوبِ، لا مِن سعيِ الأبدانِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٥٩).

وقال ابن تيميَّةَ: (ليس المرادُ بالسَّعيِ المأمورِ به العَدْوَ؛ فإنَّه قد ثبَتَ في الصَّحيحِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: «إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ فلا تَأتوها وأنتم تَسعَونَ، وأْتُوها وأنتم =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((نحن الآخِرونَ السَّابِقونَ يومَ القيامةِ، بَيْدَ[1] أنَّهم أُوتُوا الكِتابَ مِن قَبْلِنا، وأُوتِيناهُ مِن بَعْدِهم، وهذا يَومُهم الَّذي فُرِضَ عليهم، فاختَلَفوا فيه، فهَدانا اللهُ له، فهُمْ لنا فيه تَبَعٌ، فاليَهودُ غَدًا، والنَّصارى بعدَ غَدٍ))[2].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَنِ اغتَسَل يومَ الجُمُعةِ غُسْلَ الجَنابةِ ثمَّ راح فكأنَّما قَرَّب بَدَنةً[3]، ومَن راح في

---

= تَمشُونَ وعليكم السَّكِينةُ؛ فما أدرَكْتُم فصَلُّوا، وما فاتكم فأَتِمُّوا»[البخاري «٩٠٨»، ومسلم «٦٠٢»]، ورُوِيَ: «فاقْضُوا»[أحمد «٧٢٥٠»، النسائي«٨٦١»]، ولكنْ قال الأئمَّةُ: السَّعْيُ في كتابِ اللهِ هو العمَلُ والفِعلُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٢٥٩).

وأمَّا سببُ تسميةِ هذا اليَومِ بالجُمُعةِ فقد قال فيه البَغَويُّ: (واختلَفوا في تسميةِ هذا اليَومِ جُمُعةً؛ منهم مَن قال: لأنَّ اللهَ تعالَى جمَع فيه خَلْقَ آدَمَ عليه السَّلامُ. وقيل: لأنَّ اللهَ تعالى فرَغَ فيه مِن خَلقِ الأشياءِ، فاجتمعتْ فيه المخلوقاتُ. وقيل: لاجتماعِ الجماعاتِ فيها. وقيل: لاجتماعِ النَّاسِ فيها للصَّلاةِ.

وقيل: أوَّلُ مَن سَمَّاها جُمُعةً كعبُ بنُ لُؤَيٍّ...، وكان يُقالُ له: يومُ العَرُوبةِ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٨٤). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٠٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٣٥٣).

وقال ابن رجب: (أوَّلُ جُمُعةٍ جُمِّعتْ بالمدينةِ في نَقِيعِ الخَضِماتِ، قبْلَ أن يَقْدَمَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ المدينةَ، وقبْلَ أن يَبنيَ مَسجِدَه. يدُلُّ على ذلك: حديثُ كعبِ بنِ مالكٍ، أنَّه كان كلَّما سمِع أذانَ الجُمعةِ استَغفَرَ لِأَسْعَدَ بنِ زُرارةَ، فسأله ابنُه عن ذلك، فقال: كان أوَّلَ مَن صلَّى بنا صلاةَ الجُمعةِ قبْلَ مَقدَمِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن مكَّةَ في نَقيعِ الخَضِماتِ، في هَزْمِ النَّبيتِ، مِن حَرَّةِ بَني بَياضةَ. قيل له: كم كنتُم يومَئذٍ؟ قال: أربعين رجُلًا. خرَّجه... أبو داودَ [١٠٦٩] وابنُ ماجَة مُطوَّلًا [١٠٨٢]). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٣).

(١) بَيْدَ: أي: غَيْرَ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١٠٠٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٨٧٦)، ومسلمٌ (٨٥٥) واللَّفظُ له.

(٣) البَدَنةُ هنا: مِن الإبلِ، ذكرًا أمْ أنثى، والتَّاءُ للوحدةِ لا للتَّأنيثِ، والمرادُ: تصَدَّقُ بها مُتقَرِّبًا إلى الله =

السَّاعةِ الثَّانيةِ فكأنَّما قَرَّب بَقَرةً، ومَن راح في السَّاعةِ الثَّالثةِ فكأنَّما قَرَّب كَبشًا أقرَنَ[١]، ومَن راح في السَّاعةِ الرَّابعةِ فكأنَّما قَرَّب دجاجةً، ومَن راح في السَّاعةِ الخامسةِ فكأنَّما قَرَّب بَيضةً، فإذا خرجَ الإمامُ حَضَرت الملائِكةُ يَستَمِعونَ الذِّكْرَ))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهم، أنَّهما سَمِعا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ على أعوادِ مِنبَرِه: ((لَيَنتَهِيَنَّ أقوامٌ عن وَدْعِهِمُ[٣] الجُمُعاتِ، أو لَيَختِمَنَّ اللهُ على قُلوبِهم، ثمَّ لَيَكُونُنَّ مِن الغافِلينَ))[٤].

﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: السَّعيُ إلى الخُطبةِ والصَّلاةِ يَومَ الجُمُعةِ، وتَركُ البَيعِ: خَيرٌ لكم مِنَ البَيعِ والشِّراءِ في ذلك الوَقتِ إنْ كُنتُم تَعلَمونَ[٥].

---

= تعالى. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٢/ ١٥٩).

(١) الأقرَن مِن الكِباشِ: الَّذي له قَرْنٌ، ووصَفَه بالأقرَنِ؛ لأنَّه أكمَلُ وأحسَنُ صورةً، ولأنَّ قَرنَه يُنتفَعُ به. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٣٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٧٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٨٨١)، ومسلمٌ (٨٥٠).

(٣) وَدْعِهم: أي: تَرْكِهم. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٥٢).

(٤) رواه مسلم (٨٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال ابنُ جرير: (﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ مَصالِحَ أنفُسِكم ومَضارَّها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٣).

وقال البِقاعي: (أي: يتجَدَّدُ لكم عِلْمٌ في يومٍ مِنَ الأيامِ، فأنتم تَرَونَ ذلك خيرًا، فإذا عَلِمتُموه خيرًا أقبَلْتُم عليه، فكان ذلك لكم خيرًا... وإنَّما عَبَّرَ عنها بهذا؛ إشارةً إلى أنَّ عاقِلًا لا يَسَعُه أن يَترُكَ ما يَعلَمُ أنَّه أعلى وُجوهِ الخَيرِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٦٦).

وقال السعدي: (﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ ما عِندَ اللهِ خَيرٌ وأبقى، وأنَّ مَن آثَرَ الدُّنيا على الدِّينِ فقدْ خَسِرَ الخَسارةَ الحقيقيَّةَ؛ مِن حيثُ ظَنَّ أنَّه يَربَحُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا حَثَّ اللهُ تعالى على الصَّلاةِ، وأرشَدَ إلى أنَّ وَقتَها لا يَصلُحُ لطَلَبِ شَيءٍ غَيرِها، وأنَّه متى طُلِبَ فيه شَيءٌ مِن الدُّنيا، مُحِقَت بَرَكتُه، مع ما اكتُسِب مِن الإثمِ- بيَّن وَقْتَ المَعاشِ، فقال مُبيحًا لهم ما كان حُظِرَ عليهم[1]:

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: فإذا فَرَغْتُم مِن صَلاةِ الجُمُعةِ فتفرَّقوا في الأرضِ، واطْلُبوا مِن رِزقِ اللهِ إنْ شِئتُم؛ فلا حَرَجَ عليكم في ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٣، ٦٤٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال ابنُ عطية: (قوله: ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ أجمَعَ النَّاسُ على أنَّ مُقتضى هذا الأمرِ الإباحةُ، وكذلك قَولُه تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه الإباحةُ في طَلَبِ المَعاشِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٩).

وقال ابن الفَرَسِ: (أمْرُ إباحةٍ باتِّفاقٍ). ((أحكام القرآن)) (٣/ ٥٦٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٥).

وقال ابن حجر -بعدَ أن ذكَرَ الإجماعَ على أنَّ الأمرَ المذكورَ للإباحةِ-: (وقد جنَح الدَّاوديُّ إلى أنَّه على الوُجوبِ في حقِّ مَن يَقدِرُ على الكسبِ، وهو قولٌ شاذٌّ نُقِل عن بعضِ الظَّاهريَّةِ). ((فتح الباري)) (٢/ ٤٢٧).

وذكَرَ ابنُ رجب أنَّ بعضَهم قد ذهب إلى أنَّ الأمرَ بالانتشارِ بعدَ الصَّلاةِ للاستِحبابِ، وذكر منهم عِرَاكَ بنَ مالكٍ، وعِمْرانَ بنَ قَيسٍ. ونسَبَ إلى الأكثَرينَ أنَّه ليس بأمرٍ حقيقةً، وإنَّما هو إذْنٌ وإباحةٌ، وذكَرَ منهم عَطاءً، ومُجاهِدًا، والضَّحَّاكَ، ومُقاتِلَ بنَ حَيَّانَ، وابنَ زيدٍ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ٣٣٧). =

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الاشتِغالُ في التِّجارةِ مَظِنَّةَ الغَفْلةِ عن ذِكرِ اللهِ؛ أمرَ اللهُ بالإكثارِ مِن ذِكْرِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان السَّعيُ في طَلَبِ الرِّزقِ مُلْهيًا عن الذِّكْرِ؛ بَيَّن أنَّه أعظَمُ السَّعيِ في المعاشِ، وأنَّ مَن غَفَل عنه لم يَنجَحْ له مَقصَدٌ، وإن تحايَلَ له بكُلِّ الحِيَلِ وغَيرِ ذلك[2].

﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

أي: واذكُروا اللهَ ذِكرًا كَثيرًا في جميعِ أحوالِكم، فلا تُلْهِيَنَّكم تجارةٌ ولا بَيعٌ عن ذِكرِ اللهِ؛ لعَلَّكم تَظفَرونَ بما تَطلُبونَه مِن الخَيرِ، وتَنجون ممَّا تَرهبون[3].

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡ﴾ [النساء: ١٠٣].

---

= وقيل: قولُه: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ليس لطلَبِ الدُّنيا، ولكنْ لعيادةِ مريضٍ، وحُضورِ جنازةٍ، وزيارةِ أخٍ في الله. وممَّن رُويَ عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٦٥).

وقال الحسَنُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومكحولٌ: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾: هو طلَبُ العِلمِ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣)، ((تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن)) للسعدي (١/ ٨٧).

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١﴾.

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾.

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَخطُبُ قائِمًا يومَ الجُمُعةِ، فجاءت عِيرٌ[1] مِن الشَّامِ، فانفتَلَ[2] النَّاسُ إليها، حتَّى لم يَبْقَ إلَّا اثنا عَشَرَ رَجُلًا؛ فأُنزِلَت هذه الآيةُ الَّتي في الجُمُعةِ: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾))[3].

﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾.

---

(١) العِيرُ: الإبلُ بأحْمالِها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٢٩).

(٢) انفَتَل: أي: انصَرَف. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٢/ ٧٧٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٩٣٦)، ومسلمٌ (٨٦٣) واللَّفظُ له.

قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرونَ: كان الَّذي قَدِم بالتِّجارةِ دِحْيةَ بنَ خَليفةَ الكَلْبيَّ، قال مقاتلٌ: وذلك قبْلَ أن يُسْلِمَ. قالوا: قَدِمَ بها مِن الشَّامِ، وضُرِب لها طبلٌ يُؤْذِنُ النَّاسَ بقُدومِها. وهذه كانت عادتُهم إذا قَدِمَتْ عِيرٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢٨).

وقال العُلَيمي: (كان قد أصاب المدينةَ قَحطٌ شديدٌ، وكان دِحْيةُ بنُ خليفةَ الكَلبيُّ يأتيهم بكلِّ ما يَحتاجون إليه مِن بُرٍّ وشَعيرٍ وغيرِهما مِن الشَّامِ، وكان إذا قَدِمَ ضُرِب الطَّبلُ؛ لِيُعلَمَ به، فقَدِمَ يومَ الجُمعةِ -وذلك قبْلَ إسلامِه- والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يَخطُبُ، فضُرِب الطَّبلُ، فخرَج النَّاسُ إليه ومَن في المسجدِ؛ خوفًا أن يُسبَقوا، ولم يَبْقَ عِندَه صلَّى الله عليه وسلَّمَ غيرُ اثنَيْ عَشَرَ رجُلًا وامرأةً). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٥٤).

أي: يقولُ اللهُ تعالى مُعاتِبًا بعضَ أصحابِ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّمَ: وإذا رَأَوا تجارةً أو لَهْوًا وَقْتَ خُطبةِ الجُمُعةِ الَّتي هي جَديرةٌ بشِدَّةِ الإصغاءِ إليها، والاتِّعاظِ بها في صَرْفِ النَّفْسِ عن الدُّنيا، والإقبالِ على الآخِرةِ؛ انصَرَفوا إلى تلك التِّجارةِ مُسرِعينَ، وتَرَكوك -يا محمَّدُ- قائمًا على المِنبَرِ تَخطُبُ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٦٩، ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قيل: المرادُ باللَّهوِ: الطَّبلُ. وممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، والواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والبيضاوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٥٤).

قال ابن عثيمين: (اللَّهوُ: هو الَّذي كان يَصحَبُ التِّجارةَ، وهو أنَّه جرَتِ العادةُ أنَّ الرَّكْبَ إذا جاؤوا وأقْبَلوا إلى المدينةِ جعَلوا يَضرِبون بالدُّفِّ؛ لأجْلِ أن يُفزعوا النَّاسَ ويُنَبِّهوهم على أنَّه قد جاءت عِيرٌ، فلمَّا سمِعوا هذا خرَجوا؛ لأنَّهم في حاجةٍ شديدةٍ، خرَجوا يُريدونَ التِّجارةَ). ((فتح ذي الجلال والإكرام)) (٢/ ٨٦) بتصرُّف.

وممَّن قال: هو الطَّبلُ، وزاد معه التَّصفيقَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والنسفي، والخازن، والنيسابوري، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٦)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٠).

قال الزمخشري: (وكانوا إذا أقبلَتِ العِيرُ استَقبَلوها بالطَّبلِ والتَّصفيقِ، فهو المرادُ باللَّهوِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٦).

وقال الزَّجَّاجُ: (واللَّهوُ هاهنا قيل: الطَّبلُ، وهو -واللهُ أعلَمُ- كلُّ ما يُلْهَى به). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٧٣).

وقال القاسمي: (﴿أَوْ لَهْوًا﴾ أي: ما تَلهو به النَّفْسُ عن الحقِّ والجِدِّ والنَّافعِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣١).

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ فقد قال فيه الواحديُّ: (أجمَعوا على أنَّ هذا القيامَ كان في الخُطبةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٠١).

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لأولئك المُنصَرِفينَ إلى التِّجارةِ أو اللَّهوِ: ما عِندَ اللهِ مِن الأجرِ والثَّوابِ خَيرٌ لِمَن يَسمَعُ خُطبةَ الجُمُعةِ، ويَحضُرُ صَلاتَها، مِن لذَّةِ اللَّهوِ، ومِن رِبحِ التِّجارةِ(١)!

كما قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

أي: واللهُ خيرُ مَن رزَق وأعطَى في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فليس الصَّبرُ على طاعةِ اللهِ مُفَوِّتًا للرِّزقِ، ومَن اتَّقى اللهَ رَزَقَه مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٤).

وممَّن ذهب في الجُملةِ إلى أنَّ المراد به الثَّوابُ: ابنُ جرير، وابن كثير، والعُلَيمي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

قال القاسمي: (﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن الثَّوابِ المَرجُوِّ بسَماعِ الخُطبةِ، والعِظَةِ بها). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣١).

وقال الرَّسْعَني: (﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن ثَوابِ الصَّلاةِ، والثَّباتِ مع نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٣٦). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٥).

وقال السعدي: (﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن الأجرِ والثَّوابِ، لِمَن لازَمَ الخيرَ، وصبر نفْسَه على عبادةِ الله). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

وقال السمعاني: (أي: ذِكرُ اللهِ تعالى والاشتِغالُ في الصَّلاةِ خيرٌ مِن اللَّهوِ والتِّجارةِ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ فيه أنَّه ينبغي للعَبدِ المُقبِلِ على عِبادةِ اللهِ، وَقتَ دَواعي النَّفْسِ لحُضورِ اللَّهوِ والتِّجاراتِ والشَّهَواتِ: أن يُذَكِّرَها بما عندَ اللهِ مِن الخَيراتِ، وما لِمُؤْثِرِ رِضاه على هَواه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ أنَّ الإنسانَ يَنبغي له إذا قَضى مِن العبادةِ ألَّا يَغْفُلَ بَعْدَها عن ذِكْرِ اللهِ[٢]؛ فلا تظُنُّوا أنَّكم إذا فَرَغْتُم مِن ذِكْرِ اللهِ في الخُطبةِ والصَّلاةِ أنَّكم انتَهَيتُم مِن ذِكْرِ اللهِ. لا؛ ذِكْرُ اللهِ في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ مَكانٍ[٣]، فسائرُ العباداتِ تَنقضي ويُفرَغُ منها، وذِكرُ الله باقٍ لا يَنقضي ولا يُفرَغُ منه، بل هو مُستمِرٌّ للمؤمنينَ في الدُّنيا والآخرةِ[٤].

٣- تحقيقُ التَّوكُّلِ لا يُنافي السَّعْيَ في الأسبابِ الَّتي قَدَّر اللهُ سُبحانَه المَقْدوراتِ بها، وجَرَتْ سُنَّتُه في خَلْقِه بذلك؛ فإنَّ اللهَ تعالَى أمَر بتعاطي الأسبابِ معَ أمْرِه بالتَّوكُّلِ، فالسَّعيُ في الأسبابِ بالجَوارحِ طاعةٌ له، والتَّوكُّلُ بالقلبِ عليه إيمانٌ به، كما قال تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النِّسَاء: ٧١]، وقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا

---

= (ص: ٨٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٩٠).

ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ ﴾[١] [الأنفال: ٦٠].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ فيه أنَّ الإكثارَ مِن ذِكرِ اللهِ أكبَرُ أسبابِ الفَلاحِ[٢]؛ فقد علَّق الفَلاحَ بالإكثارِ مِن ذِكْرِ اللهِ تعالى[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ ...﴾ إنَّما سُمِّيَت الجُمُعةُ جُمعةً؛ لأنَّها مُشتقَّةٌ مِنَ الجَمعِ؛ فإنَّ أهلَ الإسلامِ يجتَمِعونَ فيه في كلِّ أُسبوعٍ مَرَّةً بالمعابدِ الكِبارِ، وفيه كَمَل جميعُ الخلائِقِ؛ فإنَّه اليَومُ السَّادِسُ مِن السِّتَّةِ الَّتي خَلَق اللهُ فيها السَّمَواتِ والأرضَ، وفيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه أُدخِلَ الجنَّةَ، وفيه أُخرِجَ منها، وفيه تقومُ السَّاعةُ[٤]، وفيه ساعةٌ لا يُوافِقُها عبدٌ مُؤمِنٌ يَسألُ اللهَ فيها خيرًا إلَّا أعطاه إيَّاه[٥]، كما ثَبَتَت بذلك الأحاديثُ الصِّحَاحُ... وثَبَت أنَّ الأُمَمَ قَبْلَنا أُمِروا به فَضَلُّوا عنه، واختار اليهودُ يومَ السَّبتِ الَّذي لم يقَعْ فيه خَلقٌ، واختار النَّصارى يومَ الأحَدِ الَّذي ابتُدِئَ فيه الخَلْقُ، واختار اللهُ لهذه الأمَّةِ يومَ الجُمُعةِ الَّذي أكمَلَ اللهُ فيه الخليقةَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٤٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٩٧).

(٤) عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((خَيْرُ يَومٍ طَلَعَتْ عليه الشَّمسُ يَومُ الجُمُعةِ، فيه خُلِقَ آدَمُ، وفيه أُدخِلَ الجَنَّةَ، وفيه أُخرِجَ منها، ولا تَقومُ السَّاعةُ إلَّا في يَومِ الجُمُعةِ)). رواه مسلم (٨٥٤).

(٥) عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذَكَرَ يومَ الجُمُعةِ، فقال: فيه ساعةٌ لا يُوافِقُها عبدٌ مسلمٌ وهو قائمٌ يُصلِّي يَسألُ اللهَ شيئًا إلَّا أعطاه إيَّاه، وأشار بيدِه يُقلِّلها)). رواه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١١٩).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ خِطابُ الآيةِ لجَميعِ المؤمِنينَ؛ فدَلَّ على أنَّ الجُمُعةَ واجِبةٌ على الأعيانِ[1] ممَّن تتحقَّقُ فيهم شُروطُها.

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ يدُلُّ على أنَّ الجُمُعةَ لا تَجِبُ إلَّا بالنِّداءِ، والنِّداءُ لا يكونُ إلَّا بدُخولِ الوَقتِ[2].

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ فيه مَشروعيَّةُ الأذانِ لصَلاةِ الجُمُعةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٦).

وممَّن حكى الإجماعَ على فرضيَّةِ الجُمُعةِ: الكاساني، وابن قدامة، وابن تيميَّة. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (١/ ٢٥٦)، ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٣٣٩).

قال ابنُ القيِّم: (أجمَعَ المسلمونَ على أنَّ الجمعةَ فرضُ عَينٍ، إلَّا قولًا يُحكَى عن الشَّافعيِّ أنَّها فرضُ كفايةٍ، وهذا غلَطٌ عليه). ((زاد المعاد)) (١/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٨٨).

مذهبُ الجمهورِ مِن الحَنَفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ: أنَّ وقتَ صلاةِ الجُمعةِ هو وقتُ صلاةِ الظُّهرِ، ولا تصحُّ قبْلَ الزَّوالِ، واختارَه ابنُ حزمٍ، وبه قال أكثرُ العلماءِ. يُنظر: ((مختصر القدوري)) (ص: ٣٩)، ((الكافي)) لابن عبد البر (١/ ٢٥٠)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥١١)، ((المحلى)) لابن حزم (٣/ ٢٤٤)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ١٧٠).

وذهب الحنابلةُ إلى جوازِ صلاةِ الجُمُعةِ قبْلَ الزَّوالِ، واختاره الشَّوكانيُّ، وابنُ باز. يُنظر: ((الإنصاف)) للمرداوي (٢/ ٢٦٣)، ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٣/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٢/ ٣٩١، ٣٩٢).

قال الزَّرْكَشيُّ: (قال أحمدُ: رُويَ عن ابنِ مسعودٍ، وجابرٍ، وسعدٍ، ومُعاويةَ: أنَّهم صلَّوْا قبْلَ الزَّوالِ، وإذا صلَّى هؤلاء مع مَن يَحضُرُهم مِن الصَّحابةِ ولم يُنكَرْ، فهو إجماعٌ). ((شرح الزركشي على مختصر الخرقي)) (٢/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣). =

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ فيه مَشروعيَّةُ صَلاةِ الجُمُعةِ[1].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ استَدَلَّ به مَن قال: إنَّه يَجِبُ إتيانُ مَن هو في مكانٍ يَسمَعُ فيه النِّداءَ[2].

---

= وممَّن نقَل الإجماعَ على مشروعيَّةِ الأذانِ عَقِيبَ صعودِ الإمامِ على المِنبَرِ: ابنُ قُدامةَ. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

قال ابن جُزَي: (حضورُ الجُمعةِ واجبٌ؛ لِحَملِ الأمرِ الَّذي في الآيةِ على الوُجوبِ باتِّفاقٍ، إلَّا أنَّها لا تجبُ على المرأةِ ولا على الصَّبيِّ ولا على المريضِ باتِّفاقٍ، ولا على العبدِ والمسافرِ عندَ مالكٍ والجمهورِ، خِلافًا للظَّاهريَّةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٤).

وممَّن نقَل الإجماعَ على عدَمِ وُجوبِ الجُمعةِ على المرأةِ: ابنُ المُنذِرِ، والخَطَّابي، وابن قُدامة. يُنظر: ((الإجماع)) لابن المنذر (ص: ٤٠)، ((معالم السنن)) للخطابي (١/ ٢٤٣)، ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢٥٠).

وممَّن نقَل الإجماعَ على عدمِ وُجوبِ الجُمعةِ على الصَّبيِّ: ابنُ المنذِر، وابنُ بَطَّال. يُنظر: ((الإجماع)) لابن المنذر (ص: ٤٠)، ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٢/ ٤٧٨).

لكن قال ابنُ قُدامةَ: (أمَّا البُلوغُ فهو شرطٌ أيضًا لوُجوبِ الجُمعةِ وانعِقادِها، في الصَّحيحِ مِن المذهَبِ، وقولِ أكثَرِ أهلِ العِلمِ؛ لأنَّه مِن شرائطِ التَّكليفِ...، وذكَرَ بعضُ أصحابِنا في الصَّبيِّ المُميِّزِ روايةً أخرى: أنَّها واجبةٌ عليه؛ بِناءً على تكليفِه، ولا مُعوَّلَ عليه). ((المغني)) (٢/ ٢٤٣).

وأمَّا المريضُ فقال ابنُ قُدامةَ: (ويُعذَرُ في تَركِهما [أي: الجُمعةِ والجَماعةِ] المريضُ في قولِ عامَّةِ أهلِ العِلمِ). ((المغني)) (١/ ٤٥١).

وقال ابن المنذر: (لا أعلَمُ اختلافًا بيْن أهلِ العِلمِ على أنَّ للمريضِ أن يَتخلَّفَ عن الجَماعاتِ مِن أجْلِ المرَضِ). ((الإشراف على مذاهب العلماء)) (٢/ ١٢٦).

ولا تجبُ الجُمعةُ على المسافرِ باتِّفاقِ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (١/ ٢٢١)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٢/ ١٦٦)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٤٨٥)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣). =

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ استَدَلَّ به مَن قال: لا يُحتاجُ إلى إذْنِ السُّلطانِ؛ لأنَّه تعالى أوجَبَ السَّعيَ، ولم يَشترِطْ إذْنَ أحَدٍ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على اشتِراطِ تَقَدُّمِ الخُطبتَينِ على الصَّلاةِ؛ فقد أَمَرَ سُبحانَه بالسَّعيِ إلى ذِكْرِ اللهِ مِن حينِ النِّداءِ، وبالتَّواتُرِ القَطْعيِّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان إذا أَذَّنَ المؤذِّنُ يومَ الجُمُعةِ خَطَبَ؛ إذَنْ فالسَّعيُ إلى الخُطبةِ واجِبٌ، وما كان السَّعيُ إليه واجِبًا فهو واجِبٌ؛ لأنَّ السَّعيَ وسيلةٌ إلى إدراكِه وتحصيلِه، فإذا وجبتِ الوَسيلةُ وَجَبتِ الغايةُ(٢).

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ

---

= ووُجوبُ الجُمُعةِ على مَن يَسمَعُ النِّداءَ ولو كان خارجَ البَلدِ هو مذهبُ الجمهورِ؛ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ، لكنْ حدَّه المالكيَّةُ والحنابلةُ بمسافةِ فَرسَخٍ [ثلاثةِ أميالٍ، قرابة خمسة كيلو متر]. يُنظر: ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبد البَرِّ (١/ ٢٤٨)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٤٨٨)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ٢٢).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

وصِحَّةُ الجُمعةِ بغيرِ إذْنِ السُّلطانِ وحُضورِه، سواءٌ أكان السُّلطانُ في البَلدِ أم لا، هو مذهبُ الجمهورِ؛ مِن المالِكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحَنابِلَةِ. يُنظر: ((الكافي)) لابن عبد البر (١/ ٢٤٩)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٠٩)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٢/ ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٥/ ٥١).

واشتراطُ تَقَدُّمِ الخُطبتَينِ على الصَّلاةِ متَّفَقٌ عليه بيْن المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ: الحنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحَنابلةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي مع ((حاشية الشِّلْبِي)) (١/ ٢١٩)، ((الشرح الكبير)) للدَّرْدِير، مع ((حاشية الدسوقي)) (١/ ٣٧٨)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥١٤)، ((الإنصاف)) للمَرْادوي (٢/ ٢٧٣).

قال الشربينيُّ: (كَوْنُهما قبْلَ الصَّلاةِ بالإجماعِ، إلَّا مَن شَذَّ). ((مغني المحتاج)) (١/ ٢٨٥).

إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ فيه أنَّ الخُطبَتَينِ يومَ الجُمُعةِ فَريضتانِ يَجِبُ حُضورُهما؛ لأنَّه فُسِّرَ (الذِّكرُ) هنا بالخُطبتَينِ -مع الصَّلاةِ-، فأمَرَ اللهُ بالمُضِيِّ إليه، والسَّعْيِ له[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أنَّ خُطْبَةَ الجُمُعةِ هي مِن ذِكْرِ اللهِ تعالى[2].

١١- أنَّه يَكفي في عَدَدِ الجُمُعةِ ثلاثةٌ؛ فلو فُرِضَ أنَّ قريةً ليس فيها سِوى ثلاثةِ نَفَرٍ فإنَّها تُقامُ الجُمُعةُ؛ لأنَّه يَحصُلُ بهم الجَمعُ: إمامٌ يَخطبُ، ومؤذِّنٌ يَدعو، ومأمومٌ يُجيبُ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، المنادي: المؤذِّنُ، ولا بُدَّ مِن خَطيبٍ، ولا بُدَّ مَن مَدْعُوٍّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٦).
وكون الخُطبة شرطًا في الجُمُعةِ لا تصحُّ بدونِها فذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ: الحنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (١/ ٢١٩)، ((التاج والإكليل)) للمَوَّاق (٢/ ١٥٧)، ((المجموع)) للنَّووي (٤/ ٥١٤)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ٣١).
وأمَّا اشتراطُ كَونِهما خُطبتَينِ فهو مذهبُ الجمهورِ من المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (١/ ٣٧٨)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥١٣)، ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٦/ ١٣).
وهذا القولُ هو روايةٌ عن أحمدَ، وبه قال أبو يُوسُفَ وطائفةٌ مِن السَّلَفِ، واختارَه ابنُ تيميَّةَ وابنُ باز. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٢/ ٢٤٣)، ((المبسوط)) للسرخسي (٢/ ٤٣)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٠٤)، ((الاختيارات الفقهية)) لابن تيمية (ص: ٤٣٩)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣٠/ ٣٣٢).
ومذهبُ أبي حنيفةَ ومحمَّدٍ أنَّ أقَلَّ الجماعةِ فيها ثلاثةٌ سِوى الإمامِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبي)) (١/ ٢٢٠). =

١٢- إنْ قيل: كيف يُفسَّرُ ذِكرُ اللهِ بالخُطْبةِ -مع الصَّلاةِ-، وفي الخُطبةِ ذِكرُ غيرِ اللهِ؟

**فالجوابُ**: أنَّ ما كان مِن ذِكرِ رَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والثَّناءِ عليه وعلى خُلَفائِه الرَّاشِدينَ وأتْقياءِ المؤمِنينَ، والموعِظةِ والتَّذكيرِ: فهو في حُكْمِ ذِكرِ اللهِ[1].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾ فيه النَّهيُ عن البَيعِ والشِّراءِ بعدَ نداءِ الجُمُعةِ، وتحريمُ ذلك؛ وما ذاك إلَّا لأنَّه يفوِّتُ الواجِبَ، ويَشغَلُ عنه، فدَلَّ ذلك على أنَّ كُلَّ أمرٍ ولو كان مُباحًا في الأصلِ، إذا كان يَنشَأُ عنه تفويتُ واجِبٍ؛ فإنَّه لا يجوزُ في تلك الحالِ[2]، وكذلك جميعُ العُقودِ، لا يُستَثنَى مِن ذلك النِّكاحُ ولا القَرْضُ ولا الرَّهنُ، ولا غيرُها، نعم، رُبَّما يقولُ قائلٌ: إنَّ عقودَ التَّبرُّعاتِ -كالهِبَةِ- لا تَضُرُّ؛ لأنَّها لا تُلْهي ولا تُشْغِلُ، فمَثَلًا لو أنَّ رجُلَينِ أقبَلَا على المسجِدِ، وفي حال إقبالِهما أُذِّنَ لصَلاةِ الجُمُعةِ، فوَهَبَ أحدُهما الآخَرَ شيئًا، فهنا قد يُقالُ: إنَّه يَصِحُّ؛ لأنَّه لَمْ يَحصُلْ بذلك إشغالٌ ولا إلْهاءٌ، لكنَّ شيئًا يحتاجُ إلى معالجةٍ، ونقولُ: إنَّه يصحُّ مع أنَّ اللهَ نهى عن البَيعِ! هذا فيه نظرٌ[3].

---

= ومذهبُ الشَّافعيَّةِ والحنابلةِ أنَّه يُشترَطُ أن يكونَ العددُ أربعينَ. يُنظر: ((مغني المحتاج)) للخطيب الشربيني (١/ ٢٨٢)، ((شرح منتهي الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ٣١٣).

ومذهَبُ المالكيَّةِ أنَّه يشترطُ حُضورُ اثنَيْ عشَرَ رجُلًا. يُنظر: ((حاشية الصاوي على الشرح الصغير)) (١/ ٤٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٨/ ١٩٢).

قال ابنُ كثير: (اتَّفَق العُلَماءُ رَضِيَ اللهُ عنهم على تحريمِ البَيعِ بعدَ النِّداءِ الثَّاني. واختلَفوا: هل =

١٤- إنَّ المعاملاتِ الَّتي يُكتسَبُ بها المالُ لا يُنهى عنها مُطلقًا لِكَونِها تَصُدُّ عن ذِكْرِ اللهِ وعنِ الصَّلاةِ، بل يُنهى منها عمَّا يَصُدُّ عن الواجِبِ، كما قال تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾، فمَا كانَ مُلْهِيًا وشاغِلًا عمَّا أمَر اللَّهُ تعالَى به مِن ذِكْرِه والصَّلاةِ له فهو مَنْهِيٌّ عنه، وإنْ لم يَكُنْ جِنسُه مُحَرَّمًا كالبيعِ والعملِ في التِّجارةِ وغيرِ ذلك[1].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ أنَّ التَّفضيلَ لا يدُلُّ على أنَّ المفضولَ جائزٌ؛ فقد جَعَلَ سُبحانَه السَّعيَ إلى الجُمُعةِ خَيرًا مِن البَيعِ. والسَّعيُ واجِبٌ، والبَيعُ حَرامٌ[2].

١٦- قَولُ الله تعالى: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفَرقُ بيْنَ ذِكرِ اللهِ أوَّلًا، وذِكرِ اللهِ ثانيًا؟

---

= يَصِحُّ إذا تعاطاه مُتعاطٍ أم لا؟ على قولَينِ، وظاهِرُ الآيةِ عدَمُ الصِّحَّةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٢).

ممَّن نقَل الإجماعَ على تحريمِ البَيعِ بعدَ النِّداءِ: إسحاقُ بنُ راهَوَيْهِ، وابنُ حزم، وابنُ العربي، وابنُ رُشْد. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ١٩٤)، ((المحلى)) لابن حزم (٧/ ٥١٩)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٤٩)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٣/ ١٨٦).

وأمَّا انعقادُ البيعِ فذهَبَ الحَنَفيَّةُ، والشَّافعيَّةُ، -وهو قولٌ للمالكيَّةِ- إلى أنَّ البيعَ يَنعقِدُ مع كَونِه يَحرُمُ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٥/ ٤٩)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٠١)، ((بداية المجتهد)) لابن رشد (٢/ ١٦٩).

وذهَب المالكيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّه يَحرُمُ، ولا يَنعقِدُ البيعُ. يُنظر: ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٢/ ٥٥٣)، ((الإقناع)) للحَجَّاوي (٢/ ٧٤).

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٤/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٧٤).

**الجوابُ**: الأوَّلُ مِن جُملةِ ما لا يَجتَمِعُ مع التِّجارةِ أصلًا؛ إذ المرادُ منه الخُطبةُ والصَّلاةُ. والثَّاني: ما يجتَمِعُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1] [النور: ٣٧].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الخَيريَّةَ تكونُ في الواجبِ وتكونُ في المستحَبِّ[2].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لا خُطبةَ بعدَ صلاةِ الجُمُعةَ، فليس هناك خُطبةٌ ولا كلامٌ ولا مَوعِظةٌ، فإنَّه تَكفي المواعِظُ الَّتي في الخُطبةِ الَّتي قبْلَ الصَّلاةِ، والَّتي كانت مَشروعةً في هَدْيِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أباح الانتِشارَ عَقِبَ الصَّلاةِ، فيُستفادُ منه تقديمُ الخُطبةِ عليها[4].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنَّ الفرقَ بينَ لَفْظَيِ «القَضاءِ» أوِ «الأداءِ» فَرقٌ اصطلاحيٌّ[5] لا أصلَ له في كلامِ اللهِ ورَسولِه؛ فإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٢/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

(٥) قال ابن تيميَّةَ: (لفظُ «القضاءِ» فإنَّه في كلام الله وكلام الرَّسولِ المرادُ به إتمامُ العبادةِ وإن كان ذلك في وقتِها، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، ثمَّ اصطَلَح طائفةٌ مِن الفُقهاءِ فجعَلوا لفظَ القضاءِ مُختَصًّا بفِعلِها في غيرِ وقتِها، ولَفْظَ الأداءِ مُختصًّا بما يُفعلُ في الوقتِ، وهذا التَّفريقُ لا يُعرَفُ قَطُّ في كلامِ الرَّسولِ، ثمَّ يَقولون: قد يُستعمَلُ لفظُ القضاءِ في الأداءِ، فيَجعلون اللُّغةَ الَّتي نزَل القرآنُ بها مِن النَّادِرِ!). ((مجموعة الرسائل والمسائل)) (٣/ ٨٢). =

اللهَ تعالى سمَّى فِعْلَ العبادةِ في وَقتِها قَضاءً، وكما قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، مع أنَّ هذَينِ يُفعَلانِ في الوَقتِ، فـ «القَضاءُ» في لغةِ العربِ: هو إكمالُ الشَّيءِ وإتمامُه، كما قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢]، أي: أكمَلَهنَّ وأتَمَّهنَّ، فمَن فَعَلَ العبادةَ كاملةً فقد قضاها وإنْ فَعَلَها في وَقْتِها(١).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أنَّه إذا قُضيتِ الصَّلاةُ فلا جلوسَ بعدَها مُلْزِمٌ؛ فاخرُجْ، وابتَغِ الرِّزقَ، وابتَغِ مِن فَضْلِ اللهِ(٢).

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ سؤالٌ: أنَّه في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٠٣] أَمَر بذِكْرِ اللهِ بعدَ انتِهاءِ الصَّلاةِ مُباشَرةً، وهنا جَعَلَها بعدَ الانتِشارِ وابتِغاءِ الفَضلِ.

**الجوابُ**: هو أنَّ لكلِّ مَقامٍ مقالًا؛ ففي سورةِ «الجُمُعةِ» مَنَعَهم اللهُ مِن البَيعِ بعدَ نداءِ الجُمُعةِ حتَّى يُصَلُّوا، فكأنَّ النَّاسَ محبوسون عن البَيعِ والشِّراءِ مُدَّةَ الصَّلاةِ، فكان مِن أهمِّ ما يكونُ عندَهم أنْ يُطْلَقَ حَبْسُهم؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، والأمرُ في قَولِه: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليس للوُجوبِ ولا للاستِحبابِ، ولكنَّه للإباحةِ، وأمَّا الَّذي في سورةِ «النِّساءِ» فليس

---

= يُنظر: ((قواعد الأصول ومعاقد الفصول)) للقَطِيعي (ص: ٦١)، ((تحفة المسؤول)) للرُّهُوني (٢/ ٢٦).

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ١٦١).

هناك أمرٌ بالحُضورِ إلى الصَّلاةِ، وتَرْكِ البَيعِ والشِّراءِ؛ فلهذا بَدَأ بالذِّكْرِ[١].

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أنَّه لا يُشترَطُ في الذِّكْرِ خَلْفَ الصَّلَواتِ أنْ يكونَ في المكانِ، لكِنْ أهمُّ شيءٍ أنْ يكونَ القَلبُ حاضِرًا عندَ الذِّكْرِ[٢].

٢٤- قال تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾، وهذا وإن كان في الجُمُعةِ فمَعناه قائِمٌ في جميعِ الصَّلَواتِ؛ ولهذا -واللهُ أعلَمُ- أمَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي يَدخُلُ المسجِدَ أن يقولَ: ((اللهُمَّ افتَحْ لي أبوابَ رَحمتِك))، وإذا خرَجَ أن يقولَ: ((اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك مِن فَضْلِك))[٣].

٢٥- قَولُه تعالى: ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ ليس بأمرٍ حقيقةً، وإنَّما هو إذْنٌ وإباحةٌ؛ حيثُ كان بعدَ النَّهيِ عن البَيعِ، فهو إطلاقٌ مِن محظورٍ؛ فيفيدُ الإباحةَ خاصَّةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٢).

والحديث أخرجه مسلم (٧١٣).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ٣٣٧).

قال الشنقيطي: (الَّذي يَظهَرُ لي في هذه المسألةِ هو ما يَشهَدُ له القرآنُ العظيمُ، وهو أنَّ الأمرَ بعدَ الحَظرِ يدُلُّ على رُجوعِ الفِعلِ إلى ما كان عليه قبْلَ الحَظرِ؛ فإن كان قبْلَه جائزًا رجَع إلى الجَوازِ، وإن كان قبْلَه واجبًا رجَع إلى الوُجوبِ). ((مذكرة في أصول الفقه)) (ص: ٢٣١).

وقال ابن كثير: (والَّذي يَنهضُ عليه الدَّليلُ أنَّه يُرَدُّ الحُكمُ إلى ما كان عليه الأمرُ قبْلَ النَّهيِ؛ فإن كان واجبًا فواجبٌ، كقولِه تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: ٥]، أو مُباحًا فمُباحٌ، كقولِه تعالى: ﴿ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾، وعلى هذا القولِ تجتمِعُ الأدِلَّةُ، وقد حكاه الغزاليُّ وغيرُه، واختاره بعضُ أئمَّةِ =

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ إجازةُ الحرَكاتِ في التِّجارةِ ولو كانت بعيدةً، خِلافًا لِمَن يَتَنَطَّعُ ولا يَحضُرُ السُّوقَ[١]!

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنسانَ إذا قَدَّمَ الصَّلاةَ على البَيعِ والشِّراءِ، ثُمَّ اشترى وباع بعدَ ذلك؛ فإنَّه يُرْزَقُ[٢]، ويُبارِكُ الله له في بَيعِه، ويُوَسِّعُ له، والعَكسُ بالعَكسِ[٣].

٢٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ يدُلُّ على وُجوبِ حُضورِ الخُطبةِ في صلاةِ الجُمُعةِ؛ إذْ لم يقلْ: وتَرَكوا الصَّلاةَ[٤]. ففيه الأمرُ بحُضورِ الخُطبتَينِ يومَ الجُمُعةِ، وذَمُّ مَن لم يحضُرْهما، ومِن لازِمِ ذلك: الإنصاتُ لهما[٥]؛ لأنَّ الحضورَ إنَّما هو للاستِماعِ[٦].

٢٩- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗا﴾ يدُلُّ على مَشروعيَّةِ القيامِ في الخُطبتَينِ[٧]، وأنَّ الإمامَ يَخطُبُ يومَ الجُمُعةِ قائِمًا[٨].

---

= المتأخِّرينَ، وهو الصَّحيحُ). ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٥٨٧).

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٣).

(٦) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٢/ ٣٢٨).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٠)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٢٩١).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٤). ويُنظر أيضًا: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٠١).

اختُلِف في حُكمِ خُطبةِ الإمامِ قائمًا؛ على أقوالٍ:

منها: أنَّ قِيامَ الخطيبِ حالَ الخُطبةِ شَرطٌ مع القُدرةِ عليه، وهو مذهبُ الشَّافعيَّةِ، وقولُ الأكثَرِ مِن المالكيَّةِ، وهو روايةٌ عن الإمامِ أحمدَ. يُنظر: ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥١٤، ٥١٥)، =

٣٠- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ فيه مَشروعيَّةُ الخُطبةِ[١].

٣١- قَولُ الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ فيه اشتِراطُ الجَماعةِ في صلاةِ الجُمعةِ[٢].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ أنَّ التِّجارةَ وإنْ كانت ممدوحةً باعتبارِ كَونِها مِن المكاسِبِ الحلالِ، فإنها قد تُذَمُّ إذا قُدِّمَتْ على ما يَجِبُ تقديمُه عليها[٣].

٣٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ ۚ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ توبيخٌ لِمَن تَرَكَ الجُمُعةَ أو اشتغلَ عنها بالتِّجارةِ أو باللَّهْوِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا

---

= ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٢/ ٥٣١)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٢/ ١٤٨).
ومنها: أنَّه يُسنُّ أن يَخطُبَ قائمًا، وهو مذهبُ الحَنفيَّةِ، والحَنابِلَةِ، وقولٌ للمالِكيَّةِ. يُنظر: ((البناية)) للعَيْني (٣/ ٥٦)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٢/ ١٤٨)، ((شرح مختصر خليل)) للخرَشي (٢/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
وقد نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحد؛ منهم: ابنُ رُشْدٍ، والكاسانيُّ، والنوويُّ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (١/ ١٥٨)، ((بدائع الصنائع)) للكاساني (١/ ٢٦٦)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٠٨). ويُنظر الخلافُ في العددِ المجزئِ (ص: ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ٤٥٣).

إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

- قيل: هذه الآياتُ هي المقصودُ مِنَ السُّورةِ، وما قبْلَها مُقدِّماتٌ وتَوطِئاتٌ لها، ووَجْهُ اتِّصالِ هذه الآيةِ بالآياتِ الأربعِ الَّتي قبْلَها، فكُنَّ لهذه الآيةِ تمهيدًا وتوطِئةً: أنَّ اليهودَ افتخَروا على المُسلِمينَ بالسَّبتِ، فشرَعَ اللهُ للمُسلِمينَ الجُمُعةَ[1].

- والتَّعريفُ في الصَّلاةِ تَعريفُ العهدِ، وهي الصَّلاةُ المعروفةُ الخاصَّةُ بيومِ الجُمُعةِ[2].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ تبعيضيَّةٌ؛ فإنَّ يومَ الجُمُعةِ زمانٌ تقَعُ فيه أعمالٌ؛ مِنْها الصَّلاةُ المعهودةُ فيه، فنُزِّلَ ما يقَعُ في الزَّمانِ بمنزلةِ أجزاءِ الشَّيءِ، ويجوزُ كَونُ (مِنْ) للظَّرفيَّةِ[3].

- وإيثارُ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ هُنا دونَ أنْ يقولَ: (إلى الصَّلاةِ)، كما قال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾؛ لِتَتأتَّى إرادةُ الأمْرَينِ: الخُطبةِ، والصَّلاةِ[4].

- والمرادُ الأمرُ بتَرْكِ ما يُذهِلُ عن ذِكْرِ اللهِ مِن شَواغلِ الدُّنيا، وكلِّ ما يَشْغَلُ عن السَّعيِ إلى الجُمُعةِ، وإنَّما خَصَّ البيعَ مِن بَيْنِها؛ لأنَّ يومَ الجُمُعةِ يومٌ يَهبِطُ النَّاسُ فيه مِن قُراهُم وبَواديهِم، ويَنصبُّونَ إلى المِصْرِ مِن كلِّ أَوْبٍ، ووقتُ هبوطِهم واجتماعِهم واغتِصاصِ الأسواقِ بهم إذا انتفَخَ النَّهارُ، وتعالى الضُّحى، ودَنا وقتُ الظَّهيرةِ، وحينَئذٍ تَشتَدُّ التِّجارةُ، ويتكاثَرُ البيعُ والشِّراءُ، فلمَّا كان ذلك الوقتُ مَظِنَّةَ الذُّهولِ بالبَيعِ عن ذِكْرِ اللهِ، والمُضِيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٢٦، ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٢٥، ٢٢٦).

إلى المسجدِ، قيل لهم: بادِروا تجارةَ الآخِرةِ، واترُكوا تجارةَ الدُّنيا، واسعَوْا إلى ذِكْرِ اللهِ الَّذي لا شيءَ أنفَعُ منه وأربَحُ، ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ الَّذي نفعُه يَسيرٌ، ورِبحُه مُقارِبٌ(١).

وقيل: خُصَّ البَيعُ مِن جَميعِ الأفعالِ؛ لأنَّه مِن أهَمِّ ما يَشتَغِلُ به المرءُ في النَّهارِ مِن أسبابِ المَعاشِ(٢)، ولأنَّه أكثرُ ما يَقَعُ حينَئذٍ ممَّا يُلهي عن السَّعيِ، فيُشارِكُه في المعنى كلُّ شاغِلٍ(٣)، ولأنَّ سَببَ نُزولِ الآيةِ كان لتَرْكِ فريقٍ منهم الجُمعةَ إقبالًا على عِيرِ تِجارةٍ(٤)، ولأنَّ البيعَ والشِّراءَ في الأسواقِ غالبًا، والغفلةُ على أهلِ السُّوقِ أغلَبُ(٥).

- ولم يَذكُرِ الشِّراءَ؛ لأنَّه لَمَّا ذكَرَ البيعَ فقد دلَّ على الشِّراءِ(٦).

- والإشارةُ بـ ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إلى المذكورِ، أي: ما ذُكِرَ مِن أمرٍ بالسَّعيِ إليها، وأمرٍ بتَرْكِ البيعِ حينَئذٍ، أي: ذلك خَيرٌ لكم ممَّا يَحصُلُ لكم مِنَ البُيوعاتِ؛ فلَفظُ ﴿خَيْرٌ﴾ اسمُ تفضيلٍ أصلُه: أخيَرُ، حُذِفَتْ همزتُه لكثرةِ الاستِعمالِ، والمُفضَّلُ عليه مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليهِ، والمُفضَّلُ: الصَّلاةُ، أي: ثوابُها، والمُفضَّلُ عليه: منافِعُ البَيعِ للبائعِ والمُشتري(٧).

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ جوابُ ﴿إِن﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما قبْلَه، والتَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٥، ٥٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٤٨).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٧).

إنْ كُنتُم تَعلَمونَ الخَيرَ والشَّرَّ الحقيقيَّيْنِ، أو إنْ كنتُم مِن أهلِ العِلمِ(١).

- وفي هذه السُّورةِ مَعانٍ لَطيفةٌ؛ حيثُ أبطَلَ اللهُ قولَ اليهودِ في ثلاثِ آياتٍ مِن هذه السُّورةِ: افتخَروا بأنَّهم أولياءُ اللهِ وأحِبَّاؤُه، فكذَّبَهم في قولِه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]، وبأنَّهم أهلُ الكتابِ والعربُ لا كتابَ لهم، فشبَّهَهُمْ بالحِمارِ يَحمِلُ أسفارًا، وبالسَّبْتِ وأنَّه ليس للمُسلِمينَ مِثلُه، فشرَعَ اللهُ لهم الجُمُعةَ؛ فعلى هذا يكونُ في قولِه: ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ تَعريضٌ باليهودِ، وأنَّهم ما وُفِّقوا لِمَا سُعِدَ به المؤمنونَ، ومِنْ ثَمَّ جُعِلَتِ الصِّلةُ -الَّتي هي ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾- عِلَّةً للسَّعيِ إلى ذِكْرِ اللهِ، كما جُعِلَتِ الصِّلةُ في قولِه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ لأهلِ الكتابِ مُقرِّرًا للتَّمثيلِ في قولِه: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾، وكذا الصِّلةُ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ عُدِلَ فيها مِن لفظِ (اليهودِ) إلى المَوصولِ والصِّلةِ؛ لِيَكونَ ذَريعةً إلى التَّعرُّضِ بدعواهم الكاذبةِ؛ حيثُ سَمَّوْا أنفُسَهم يَهودًا، وهُوَ مِن هادَ، أي: رجَعَ إلى اللهِ تعالَى وتابَ، وإلى تَقريرِ معنى قولِه: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾، كأنَّه قيل: يا أيُّها الَّذينَ ادَّعَوْا أنَّهم رجَعوا إلى اللهِ وتابوا إليهِ، إنْ زعَمْتُم أنَّكم أولياءُ اللهِ؛ لأنَّ التَّائبَ إلى اللهِ وليُّ اللهِ، فتمَنَّوْا لقاءَ اللهِ؛ فإنَّ الحبيبَ لا يَكرَهُ لقاءَ حبيبِه، ففي كلٍّ مِنَ الأحاديثِ الثَّلاثةِ تعريضٌ في غايةِ اللُّطفِ والدِّقَّةِ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤١١، ٤١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢١٥).

وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾

- أُعْقِبَ قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ بقولِه: ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾؛ تَنبيهًا على أنَّ لهم سَعةً مِنَ النَّهارِ يَجعَلونَها للبَيعِ ونَحْوِه مِنِ ابْتِغاءِ أسبابِ المَعاشِ، فلا يأخُذوا ذلك مِن وقتِ الصَّلاةِ، وذِكْرِ اللهِ[١].

- وقولُه: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا﴾ احتِراسٌ مِنَ الانصبابِ في أشغالِ الدُّنيا انصبابًا يُنسِي ذِكْرَ اللهِ، أو يَشغَلُ عن الصَّلَواتِ؛ فإنَّ الفَلاحَ في الإقبالِ على مَرضاةِ اللهِ تعالَى[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾

- عطفٌ على جُملةِ ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩] الآيةَ، عُطِف التَّوبيخُ على تَرْكِ المأمورِ به بعْدَ ذِكْرِ الأمرِ، وسُلِكَتْ في المعطوفةِ طَريقةُ الالتِفاتِ لخِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إيذانًا بأنَّهم أحرياءُ أنْ يُصْرَفَ الخِطابُ عنهم، فحُرِموا مِن عِزِّ الحُضورِ، وأُخْبِرَ عنهم بحالِ الغائبينَ، وفيه تَعريضٌ بالتَّوبيخِ[٣].

- قيل: لعلَّ التَّقسيمَ الَّذي أفادَتْه (أَو) في قولِه: ﴿أَوۡ لَهۡوًا﴾ تقسيمٌ لأحوالِ المُنفضِّينَ، أي: مِنهم مَنِ انفَضَّ مِن أجْلِ التِّجارةِ، ومنهم مَنِ انفضَّ مِن أجْلِ اللَّهوِ[٤]. وقيل: التَّرديدُ بـ (أو)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الانفضاضَ إلى التِّجارةِ مع

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٢٩).

الحاجةِ إليها والانتِفاعِ بها إذا كان مذمومًا، كان الانفضاضُ إلى اللَّهوِ أَوْلَى بذلك[١].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ قال: ﴿إِلَيْهَا﴾ وقد ذكَرَ شيئَيْنِ: ﴿تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا﴾؛ لأنَّ فيه حَذفًا تقديرُه: وإذا رَأَوْا تجارةً انفضُّوا إليها، أو لَهوًا انفضُّوا إليه؛ فحذَفَ الثَّانيَ لدَلالةِ الأوَّلِ عليه[٢]. أو قال: ﴿إِلَيْهَا﴾ ولم يقُلْ: (إلَيهما) تَهمُّمًا بالأهَمِّ؛ إذ كانت سَببَ اللَّهوِ، ولم يكُنِ اللَّهوُ سَببَها؛ فالضَّميرُ لِلتِّجارةِ، وخُصَّتْ بردِّ الضَّميرِ إليها لأنَّها كانت أهَمَّ إليهم؛ فتأنيثُ الضَّميرِ في قولِه: ﴿إِلَيْهَا﴾ تغليبٌ لِلَفْظِ ﴿تِجَٰرَةً﴾؛ لأنَّ التِّجارةَ كانت الدَّاعيَ الأقوى لانفِضاضِهم، أو لأنَّ التِّجارةَ أجذَبُ لقُلوبِ العِبادِ عن طاعةِ الله تعالى مِن اللَّهوِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٢، ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٠)، ((أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل)) لزين الدين الرازي (ص: ١٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٨، ٢٢٩).

قال الشنقيطي: (اللُّغة العرَبيَّة يجوزُ فيها رُجوعُ الضَّميرِ لأحدِ المذكورَينِ قَبْلَه. أمَّا في العَطفِ بـ «أو» فواضِحٌ؛ لأنَّ الضَّميرَ في الحقيقةِ راجِعٌ إلى الحَدِّ الدَّائرِ الَّذي هو واحِدٌ لا بعَينِه، كقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا﴾ [النساء: ١١٢]، وأمَّا الواوُ فهو فيها كثيرٌ، ومِن أمثلتِه في القرآنِ قَولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا﴾ الآيةَ [البقرة: ٤٥]، وقَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا﴾ [التوبة: ٣٤]، وقَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ [الأنفال: ٢٠]). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ٢٣٨).

- وكان مُقتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (وإذا رأَيْتُم تِجارةً أو لَهْوًا فلا تَنفَضُّوا إليها)، ومِن مُقتَضياتِ تَخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ هُنا: أنْ يكونَ هذا التَّوبيخُ غَيرَ شاملٍ لجميعِ المؤمنينَ؛ فإنَّ نفَرًا منهم بَقُوا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ خُطبتِه، ولم يَخرُجوا للتِّجارةِ ولا لِلَّهوِ[1].

- جُملةُ ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ تفظيعٌ لِفعلِهم؛ إذْ فرَّطوا في سماعِ وعْظِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[2].

- قولُه: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ أرشَدَهم بعْدَ التَّوبيخِ والتَّعييرِ إلى تحرِّي الأصوبِ، وتوَخِّي المنهجِ الأقْوَمِ على سبيلِ العُمومِ، قائلًا: ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾، وقدَّمَ ما كان مؤخَّرًا وكرَّرَ الجارَّةَ لإرادةِ الإطلاقِ في كلِّ واحدٍ واستِقلالِه فيما قُصِدَ مِنه التَّخالُفُ السَّابقُ في اتِّحادِ المعنى؛ لأنَّ ذلك في قصَّةٍ مَخصوصةٍ[3].

- إن قيل: لِمَ قدَّم اللَّهوَ هنا على التِّجارةِ، وقدَّم التِّجارةَ قبْلَ هذا على اللَّهوِ؟

**فالجوابُ**: أنَّ كلَّ واحدٍ مِن الموضعَينِ جاء على ما يَنبغي فيه؛ وذلك أنَّ العربَ تارةً يَبتَدِئون بالأكثَرِ ثمَّ يَنزِلون إلى الأقَلِّ، كقَولِك: فُلانٌ يَخونُ في الكثيرِ والقليلِ، فبدَأْتَ بالكثيرِ ثمَّ أردَفْتَ عليه الخيانةَ فيما دُونَه، وتارةً يَبتَدِئون بالأقَلِّ ثمَّ يَرتَقونَ إلى الأكثَرِ، كقَولِك: فُلانٌ أمينٌ على القليلِ والكثيرِ، فبدأْتَ بالقليلِ ثمَّ أردَفْتَ عليه الأمانةَ فيما هو أكثَرُ منه، ولو عكَسْتَ في كلِّ واحدٍ مِن المِثالَينِ لم يكُنْ حسَنًا؛ فإنَّك لو قدَّمْتَ في الخيانةِ القليلَ لَعُلِم أنَّه يَخونُ في الكثيرِ مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٢٧، ٢٢٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٢١).

بابِ أَوْلى وأَحْرَى، ولو قدَّمْتَ في الأمانةِ ذِكرَ الكثيرِ لَعُلِم أنَّه أمينٌ في القليلِ مِن بابِ أَولى وأحرى، فلم يكُنْ لِذِكْرِه بعدَ ذلك فائدةٌ، وكذلك قولُه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾؛ قدَّم التِّجارةَ هنا لِيُبيِّنَ أنَّهم يَنفَضُّون إليها، وأنَّهم مع ذلك يَنفَضُّون إلى اللَّهوِ الَّذي هو دُونَها، وقولُه: ﴿خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ قدَّمَ اللَّهْوَ؛ لِيُبَيِّنَ أنَّ ما عندَ الله خيرٌ مِن اللَّهوِ، وأنَّه أيضًا خيرٌ مِن التِّجارةِ الَّتي هي أعظَمُ منه، ولو عُكِس كلُّ واحدٍ مِن المَوضِعَينِ لم يَحسُنْ[1].

وقيل: إنَّ سببَ تقديمِ التِّجارةِ على اللَّهوِ في قولِه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ أنَّها كانت سببَ ذلك الانفِضاضِ، وليس اللَّهوَ، وإنَّما كان اللَّهوُ والضَّربُ بالدُّفوفِ بسَبَبِها؛ فقدَّمها لذلك.

وأمَّا تقديمُ اللَّهْوِ عليها فيما بَعْدُ في قولِه: ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ فذلك لأنَّ اللَّهوَ أعَمُّ مِن التِّجارةِ، فليس كلُّ النَّاسِ يَشتَغِلونَ في التِّجارةِ، ولكنَّ أكثَرَهم يَلْهُون، فالفقراءُ والأغنياءُ يَلْهون، فكان اللَّهوُ أعَمَّ؛ فقدَّمه لذلك إذ كان حُكمًا عامًّا، فقدَّم التِّجارةَ في الحُكمِ الخاصِّ لأنَّها في حادثةٍ مُعَيَّنةٍ، وقدَّم اللَّهوَ في الحُكمِ العامِّ لأنَّه أعَمُّ، ولأنَّها مُناسِبةٌ لقولِه: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، فالتِّجارةُ مِن أسبابِ الرِّزقِ، وليس اللَّهو؛ فوضَعَها بجَنبِه[2].

وقيل: قُدِّمَت التِّجارةُ على اللَّهوِ في الرُّؤيةِ؛ لأنَّها أهمُّ، وأُخِّرَت مع التَّفضيلِ؛ لتَقَعَ النَّفْسُ أوَّلًا على الأبيَنِ[3].

- وذُيِّلَ الكلامُ بقولِه: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾؛ لأنَّ اللهَ يَرزُقُ الرِّزقَ لِمَن يَرضى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((لمسات بيانية في نصوص من التنزيل)) للسامرائي (ص: ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٦).

عنه سليمًا مِنَ الأكدارِ والآثامِ، ولأنَّه يَرزُقُ خَيرَ الدُّنيا وخَيرَ الآخِرةِ، وليس غَيرُ اللهِ قادرًا على ذلك، والنَّاسُ في هذا المَقامِ درَجاتٌ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ، وهو العالِمُ بالسَّرائِرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٠).

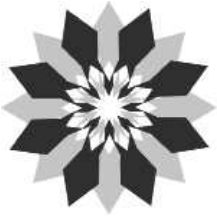

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ المُنافِقونَ

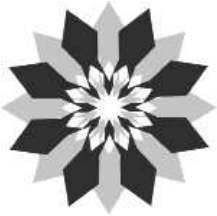

# سُورةُ المُنافِقونَ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المُنافِقونَ)[١].

فعن زَيدِ بنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((... فلمَّا أصبَحْنا قرأ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سورةَ المُنافِقينَ))[٢].

## فضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

**تسنُّ قراءتُها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صَلاةِ الجُمُعةِ:**

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في صلاةِ الجُمُعةِ سورةَ الجُمُعةِ، والمُنافِقينَ))[٣].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ (المُنافِقونَ) مَدَنيَّةٌ[٤]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٥].

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بهذا الاسمِ؛ اعتبارًا بذِكرِ أحوالِ المنافِقينَ وصِفاتِهم فيها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣١).

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٣٣١٣)، والطَّبَرانيُّ (٥/ ١٨٧) (٥٠٤١)، والحاكمُ (٣٨١٢) مطوَّلًا.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣١٣).

(٣) أخرجه مسلم (٨٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٨).

(٥) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والفيروزابادي، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٨٦).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

فَضحُ أحوالِ المُنافِقينَ، والكَشْفُ عن دخائِلِهم، وعن خِسَّةِ نُفوسِهم[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- وَصفُ المنافِقينَ وبَيانُ سَيِّئِ خِصالِهم؛ مِنَ الكَذِبِ، والأيْمانِ الفاجِرةِ، والجُبْنِ.

٢- النَّهيُ عن نِسيانِ ذِكرِ اللهِ تعالى، والغَفلةِ عنه.

٣- حَثُّ المؤمِنينَ على الطَّاعةِ وإنفاقِ المالِ قبْلَ انقِضاءِ الأجَلِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٣٩٨).

## الآيات (١-٢)

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾: المنافِقُ هو مَن يُظهِرُ الإسلامَ ويُبطِنُ الكفرَ، قيل: سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يَستُرُ كُفْرَه، فأشْبَهَ الدَّاخِلَ للنَّفقِ يَستَتِرُ فيه. وقيل: شُبِّهَ باليَرْبُوعِ الَّذي له جُحْرٌ يُقالُ له: النَّافِقاءُ، وآخَرُ يُقالُ له: القاصِعاءُ، فإذا طُلِب مِن القاصِعاءِ خرَج مِن النَّافِقاءِ، وكذلك المنافِقُ يَخرُجُ مِن الإيمانِ مِن غيرِ الوجهِ الَّذي يَدخُلُ فيه. وقيل: شُبِّه باليَربُوعِ مِن جِهةِ أنَّ اليَربُوعَ يَخرِقُ الأرضَ حتَّى إذا كاد يَبلُغُ ظاهِرَها أرَقَّ التُّرابَ، فإذا رابه رَيبٌ دفَع ذلك التُّرابَ برأسِه فخرَج، وأصلُ (نفق) هنا: يدُلُّ على إخفاءِ شَيءٍ وإغْماضِه، ويُمكِنُ أن يكونَ الأصلُ هو الخُروجَ[1].

﴿أَيْمَٰنَهُمْ﴾: أي: حَلِفَهم، واليَمينُ: القَسَمُ، وسُمِّيَ الحَلِفُ يَمينًا -وهو اسمُ اليَدِ-؛ لأنَّهم كانوا يَبْسُطونَ أيْمانَهم إذا حَلَفوا أوْ تحالَفوا، ثمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّيَ الحلفُ والعهدُ نفْسُه يمينًا، وقِيل: يَمينٌ فَعيلٌ مِن اليُمنِ، وهو البَرَكةُ، سَمَّاها اللهُ تعالَى بذلك؛ لأنَّها تحفَظُ الحُقوقَ[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨١٩)، ((المُعْلِم بفوائد مسلم)) للمازَري (١/ ٢٩٥)، ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (١٠/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٠٢).

﴿جُنَّةً﴾: أي: تَقِيَّةً وسُترةً، وأصلُ (جنن): يدُلُّ على سَترٍ[١].

﴿فَطُبِعَ﴾: أي: خُتِمَ ورُبِطَ، أي: فلا يَعي وَعظًا، ولا يُوَفَّقُ لخَيرٍ، وأصلُه يدُلُّ على التَّغطيةِ على الشَّيءِ والاستيثاقِ منه، بألَّا يَدخُلَه شَيءٌ، ولا يَخرُجَ منه شَيءٌ[٢].

﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾: أي: لا يَفهمونَ، والفِقهُ هو مُطلَقُ الفَهمِ، أو: فَهْمُ الأشياءِ الدَّقيقةِ، يُقالُ: فَقِهتُ الكلامَ: إذا فَهِمْتَه حقَّ الفَهمِ، والفِقهُ: التَّوصُّلُ إلى عِلمٍ غائبٍ بعِلمٍ شاهِدٍ، فهو أخصُّ مِن العِلمِ، وأصلُ (فقه): يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ، والعِلمِ به[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بإخبارِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بشأنِ المنافِقينَ قائِلًا: إذا جاءك -يا محمَّدُ- المنافِقونَ الَّذين يُظهِرونَ الإسلامَ ويُبطِنونَ الكُفرَ، قالوا كَذِبًا بألسِنَتِهم: نَشهَدُ إنَّك لَرَسولُ اللهِ. واللهُ يَعلَمُ أنَّك رَسولُه حَقًّا، واللهُ يَشهَدُ إنَّ المنافِقينَ لَكاذِبونَ في دَعْواهمُ الإيمانَ بك رَسولًا.

اتَّخَذوا حَلِفَهم الكاذِبَ سَترًا ووِقايةً لهم مِن القَتْلِ على كُفْرِهم؛ إنَّهم بِئسَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ١١٢) و (٧/ ١٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٥)، ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ١١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٣١).

ما كانوا يَعمَلونَ. ذلك أنَّهم آمَنوا ثمَّ كَفَروا؛ فختَم اللهُ على قُلوبِهم، فصارت لا تَعِي ولا تَهتَدي.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن زَيدِ بنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كُنتُ مع عَمِّي فسَمِعتُ عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ يقولُ: لا تُنفِقوا على مَن عِندَ رَسولِ اللهِ حتَّى يَنفَضُّوا، ولَئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ! فذكرتُ ذلك لعَمِّي، فذكَرَ عَمِّي للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فدعاني فحدَّثْتُه، فأرسَلَ إلى عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ وأصحابِه، فحَلَفوا ما قالوا، وكذَّبَني النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وصدَّقَهم، فأصابني غَمٌّ لم يُصِبْني مِثْلُه قَطُّ، فجَلَسْتُ في بيتي، وقال عَمِّي: ما أردْتَ إلى أن كذَّبَك النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَقَتَك! فأنزل اللهُ تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، وأرسل إلَيَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقَرَأَها، وقال: إنَّ اللهَ قد صدَّقَك!))[1].

وفي روايةٍ: ((فأنزَل الله عزَّ وجلَّ ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾))[2].

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٠٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٧٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٠١).

إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

أي: إذا حَضَر عِندَك -يا محمَّدُ- المنافِقونَ الَّذين يُظهِرونَ الإسلامَ ويُبطِنونَ الكُفرَ، قالوا على وَجهِ التَّأكيدِ والجَزمِ كَذِبًا بألسِنَتِهم: نَشهَدُ إنَّك لَرَسولُ اللهِ[1].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت الشَّهادةُ الإخبارَ عن عِلمِ اليَقينِ؛ لأنَّها مِنَ الشُّهودِ، وهو كمالُ الحُضورِ، وتَمامُ الاطِّلاعِ، ومُواطَأةُ القُلوبِ للألسِنةِ؛ صَدَّقَ سبحانَه المشهودَ به، وكَذَّبَهم في الإقسامِ بالشَّهادةِ، ومُواطأةِ ألسِنَتِهم لقُلوبِهم؛ فقال تعالى[2]:

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: واللهُ الَّذي أرسَلَك -يا محمَّدُ- يَعلَمُ أنَّك رَسولُه حَقًّا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ قَولُهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ مَحكيًّا بالمعنى؛ لأنَّهم يقولونَ عِباراتٍ كثيرةً تُفيدُ معنى أنَّهم يَشهَدونَ بأنَّه رَسولُ اللهِ، مِثلُ نُطقِهم بكَلِمةِ الشَّهادةِ، ويجوزُ أن يكونوا تواطَؤُوا على هذه الكَلِمةِ كُلَّما أعلَنَ أحَدُهم الإسلامَ، وهذا أليَقُ بحكايةِ كَلامِهم بكَلِمةِ ﴿قَالُوا۟﴾ دونَ نَحوِ: زَعَموا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤).

قال ابنُ جُزَي: (قَولُه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ليس مِن كلامِ المنافِقينَ، وإنَّما هو مِن كلامِ اللهِ تعالى، ولو لم يَذكُرْه لَكان يُوهِمُ أنَّ قَولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ إبطالٌ للرِّسالةِ، فوَسَّطه بيْنَ حكايةِ المنافِقينَ وبيْن تكذيبِهم؛ ليُزيلَ هذا الوَهْمَ، ولِيُحَقِّقَ الرِّسالةَ). ((تفسير ابن =

كما قال سُبحانَه: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان رُبَّما ظُنَّ أنَّ هذا تأكيدٌ لكَلامِ المُنافِقينَ، دَلَّ على أنَّه تَحقيقٌ لِمَضمونِ كَلامِهم دونَ شَهادتِهم، فقال[1]:

﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

أي: واللهُ يَشهَدُ إنَّ المنافِقينَ لَكاذِبونَ في دَعْواهمُ الإيمانَ برَسولِ اللهِ؛ فهم يقولونَ ما لا يَعتَقِدونَ صِحَّتَه في قُلوبِهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة: ٨، ٩].

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان المعنى أنَّهم لم يَعتَقِدوا ما شَهِدوا به، وكان كأنَّه قيل: فما الحامِلُ لهم على هذا الكلامِ المؤكَّدِ، والكَذِبُ في غايةِ القباحةِ لا سيَّما عندَ العَرَبِ؟ عَلَّلَه بقَولِه مُسَمِّيًا شَهادتَهم أَيْمانًا؛ لأنَّ الشَّهادةَ تَجري مَجرى القَسَمِ في إرادةِ

---

= جزي)) (٢/ ٣٧٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٥).

قال السمعاني: (هو تطييبٌ لقَلبِ النَّبيِّ وتَسليةٌ له، ومعناه: أنَّ عِلْمي أنَّك رَسولُ اللهِ وشَهادتي لك بذلك: خَيرٌ مِن شَهادتِهم). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٥، ٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).

التَّوكيدِ؛ ولذلك تُتلقَّى بما يُتلَقَّى به القَسَمُ[١]، وذلك على قولٍ:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: جَعَل المُنافِقونَ حَلِفَهم الكاذِبَ للمُؤمِنينَ سَترًا ووِقايةً لهم؛ فيَستُرونَ به نِفاقَهم، ويتَّقونَ القَتْلَ أو العُقوبةَ على كُفْرِهم، ويَصونونَ أنفُسَهم وذَراريَّهم وأموالَهم، فصَدُّوا بذلك عن طَريقِ الحَقِّ والهُدى[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٠، ٦٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).

قال القُرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: أعرَضوا، وهو مِن الصُّدودِ، أو صَرَفوا المؤمِنينَ عن إقامةِ حُكمِ اللهِ عليهم مِن القَتلِ والسَّبْيِ وأخْذِ الأموالِ، فهو مِن الصَّدِّ، أو مَنَعوا النَّاسَ عن الجِهادِ بأن يتخَلَّفوا ويَقتَدِيَ بهم غيرُهم. وقيل: فصَدُّوا اليهودَ والمُشرِكينَ عن الدُّخولِ في الإسلامِ بأن يَقولوا: ها نحن كافِرون بهم، ولو كان محمَّدٌ حَقًّا لَعَرَف هذا مِنَّا، ولَجعَلَنا نَكالًا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٤).

وقال الشنقيطي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ المُجادلةِ الآية (١٦): (قولُه تعالى: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الظَّاهرُ أنَّه مِن «صَدَّ» المُتعدِّيةِ، وأنَّ المفعولَ محذوفٌ، أي: فصَدُّوا غيرَهم ممَّن أطاعهم؛ لأنَّ صُدودَهم في أنفُسِهم دل عليه قولُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾، والحملُ على التَّأسيسِ أَولى مِن الحملِ على التَّأكيدِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٥٣).

وقال ابن عثيمين: (مَن صَدَّ غيرَه فهو عن الحقِّ أصَدُّ، لكنْ مَن صَدَّ بنفْسِه فقد لا يَصُدُّ غيرَه. فالأَولى أن نَحمِلَ ما جاء في القرآنِ مِن ذِكرِ الصَّدِّ على الشَّيءِ المُتعدِّي، لا على اللَّازِمِ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٩٨).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: اتَّقَوُا النَّاسَ بالأيْمانِ الكاذِبةِ، والحَلَفاتِ الآثِمةِ؛ لِيُصَدَّقوا فيما يَقولونَ، فاغتَرَّ بهم مَن لا يَعرِفُ جَلِيَّةَ أمرِهم، فاعتَقَد أنَّهم مُسلِمونَ، فرُبَّما اقتدى بهم فيما يَفعَلونَ، وصَدَّقَهم فيما يقولونَ، وهم مِن شأنِهم أنَّهم كانوا في الباطِنِ لا يَألُونَ الإسلامَ وأهلَه خَبالًا، فحَصَل بهذا القَدْرِ ضَرَرٌ كَبيرٌ على كثيرٍ مِن النَّاسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥).

﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

أي: بِئسَ ما كان يَعمَلُه المنافِقونَ مِن اتِّخاذِهم أيْمانَهم جُنَّةً، فصار ذلك دَيدنًا لهم وطَبْعًا وجِبِلَّةً[1]!

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣﴾.

أي: الَّذي سبَّب جُرْأتَهم على اللهِ ورَسولِه باتِّخاذِهم أيْمانَهم جُنَّةً: أنَّهم عَرَفوا الحَقَّ ثمَّ تَرَكوه، واستَبدلوا الضَّلالةَ بالهُدَى فلم يتَّبِعوه؛ فختَم اللهُ على قُلوبِهم، فصارت لا تَعِي ولا تَهتَدي[2]!

كما قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٣٧].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّ الكَذِبَ ليس مِن خُلُقِ المؤمِنِ، بل هو مِن آياتِ المُنافِقينَ وعلاماتِهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٢)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٢)، ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٧).

قال الشوكاني: (﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ﴾ أي: بسببِ أنَّهم آمَنوا في الظَّاهرِ نِفاقًا، ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ في الباطِنِ، أو أظهَروا الإيمانَ للمؤمنينَ، وأظهَروا الكفرَ للكافِرين). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٤٦٤).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا الَّذي شَهِدوا عليه حَقٌّ؛ لأنَّ رسالةَ نَبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حقٌّ لا شَكَّ فيها، وقد كذَّبَهم اللهُ بقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، مع أنَّ قَولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ كأنَّه تَصديقٌ لهم؟

**الجوابُ**: أنَّ تَكذيبَه تعالى لهم مُنصَبٌّ على إسنادِهم الشَّهادةَ إلى أنفُسِهم في قَولِهم: ﴿نَشْهَدُ﴾، وهم في باطِنِ الأمرِ لا يَشهَدونَ برِسالتِه، بل يَعتَقِدونَ عَدَمَها، أو يَشُكُّونَ فيه، كما يدُلُّ للأوَّلِ قَولُه تعالى عنهم: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣]، ويدُلُّ للثَّاني قَولُه تعالى: ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[1] [التوبة: ٤٥].

٢- قال اللهُ تعالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ قولَ: «أَشْهَدُ» يَمينٌ؛ لأنَّ القومَ قالوا: «نَشْهَدُ»، فجَعَله اللهُ يَمينًا بقولِه: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[2].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص:٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) للجَصَّاص (٣/ ٦٠٣).

قال ابن حجر: (ليس صريحًا؛ لاحتِمالِ أن يكونَ حلَفوا مع ذلك). ((فتح الباري)) (١١/ ٥٤٤).

والقولُ المذكورُ هو مذهبُ الحنَفيَّةِ. يُنظر: ((الهداية شرح البداية)) للمَرْغِيناني (٢/ ٧٣)، ((فتح القدير)) للكمال ابن الهمام (٥/ ٧٢).

ومذهبُ المالكيَّةِ والحنابلةِ أنَّه ليس بيمينٍ، إلَّا إنْ نوى يمينًا فيكونُ يمينًا. يُنظر: ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبد البر (١/ ٤٤٨)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٦/ ٢٣٢).

وقال الشَّافعيَّةُ: إن لم يقُلْ: (بالله)، فليس يمينًا، ولو نوى اليمينَ. يُنظر: ((روضة الطالبين)) للنووي (١١/ ١٥). =

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّه ليس كلُّ مَن أظْهَر الإسلامَ يكونُ مؤمنًا في الباطنِ؛ فقد عُرِفَ في المُظْهِرينَ للإسلامِ المؤمنُ والمُنافقُ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّه سُبحانَه يَشهَدُ على كَذِبِهم، ووجهُه: أنَّ ما يُسِرُّونَه هو في قُلوبِهم، ولا يَعلَمُ ما في القلوبِ إلَّا عَلَّامُ الغُيوبِ؛ فكأنَّ هذا المُضمَرَ في قُلوبِهم بالنِّسبةِ إلى اللهِ أمرٌ مَشهودٌ يُرى بالعَينِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾ دَلالةٌ على أنَّ أحكامَ الإسلامِ تجري على الظَّاهرِ؛ فلَمْ يَجعلِ اللهُ تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَقضيَ عليهم في الدُّنيا بخِلافِ ما أظهَروا، وقد جَعَل اللهُ حُكْمَه عليهم على سرائِرِهم؛ فأعْلَمَ نبيَّه أنَّهم في الدَّرْكِ الأسفَلِ مِن النَّارِ، وجَعَل حُكْمَ نبيِّه عليهم في الدُّنيا على علانيَتِهم بإظهارِ التَّوبةِ وما قامتْ عليه بيِّنَةٌ مِن المُسلِمينَ، وبما أَقَرُّوا بقَولِه، وبما جَحَدوا به[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ المُنافِقينَ كانوا يُرضُونَ المؤمنينَ بالأيْمانِ الكاذِبةِ، ويُنكِرونَ أنَّهم كَفروا، ويَحلِفونَ أنَّهم لم يَتكَلَّموا بكَلِمةِ الكُفْرِ، وذلك دَليلٌ على أنَّ الحاكمَ يَقتُلُهم إذا ثَبَت ذلك

---

= أمَّا إذا قال: (أشهَدُ بالله) فهو يمينٌ، وهو قولُ عامَّةِ أهلِ العِلمِ. يُنظر: ((المغني)) لابن قدامة (٩/ ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٣).

وذهب الشَّافعيَّةُ إلى أنَّه ليس بيَمينٍ إلَّا بنِيَّةٍ. يُنظر: ((نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج)) للرملي (٨/ ١٧٨).

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٧/ ٣١٠)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٨٣).

عليهم بالبيِّنَةِ؛ لوُجوهٍ:

**أحدُها**: أنَّهم لو كانوا إذا أَظهَروا التَّوبةَ قُبِلَ ذلك منهم، لَمْ يَحتاجوا إلى الحَلِفِ والإنكارِ، ولَكانوا يقولونَ: قُلْنا وقد تُبْنا؛ فعُلِمَ أنَّهم كانوا يَخافُونَ إذا ظَهَرَ ذلك عليهم أنَّهم يُعاقَبونَ مِن غيرِ استِتابةٍ.

**الثَّاني**: أنَّه قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ واليَمينُ إنَّما تكونُ جُنَّةً إذا لَمْ نأتِ ببَيِّنَةٍ عادلةٍ تُكَذِّبُها، فإذا كَذَّبَتْها بَيِّنةٌ عادِلةٌ انخرقتِ الجُنَّةُ، فجاز قَتْلُهم، ولا يُمكِنُه أنْ يَجتَنَّ بعدَ ذلك إلَّا بجُنَّةٍ مِن جِنسِ الأُولى، وتلك جُنَّةٌ مَخروقةٌ.

**الثَّالثُ**: أنَّ الآياتِ دليلٌ على أنَّ المُنافِقينَ إنَّما عَصَمَ دماءَهم الكَذِبُ والإنكارُ، ومَعلومٌ أنَّ ذلك إنَّما يَعصِمُ إذا لَمْ تَقُمِ البيِّنَةُ بخِلافِه؛ ولذلك لَمْ يَقتُلْهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ فيه سؤالٌ: المُنافِقونَ لم يَكونوا إلَّا على الكُفرِ الثَّابتِ الدَّائِمِ، فما معنى قَولِه: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾؟

**الجوابُ في ذلك مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ قَولَه: ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: نَطَقوا بكَلِمةِ الشَّهادةِ، وفَعَلوا كما يَفعَلُ مَن يدخُلُ في الإسلامِ، وقَولَه: ﴿ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي: ثمَّ ظَهَر كُفرُهم بعدَ ذلك وتبيَّنَ بما اطُّلِع عليه مِن قَولِهم: (إن كان ما يقولُه محمَّدٌ حَقًّا فنحن حميرٌ!)، وقولِهم في غزوةِ تَبُوكَ: (أيَطمَعُ هذا الرَّجُلُ أن تُفتَحَ له قُصورُ كِسرى وقَيصَرَ؟ هَيْهاتَ!)، ونحوُه قَولُه تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ

(١) يُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٦).

وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٤]، أي: وظَهَر كُفرُهم بعدَ أن أسلَموا، ونحوُه قَولُه تعالى: ﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦].

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ قَولَه ﴿ءَامَنُواْ﴾ أي: نَطَقوا بالإيمانِ عندَ المؤمِنينَ، ثمَّ نَطَقوا بالكُفرِ عِندَ شياطينِهم؛ استِهزاءً بالإسلامِ، كقَولِه تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤].

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أن يُرادَ أهلُ الرِّدَّةِ منهم[١]، فالمُنافِقُ قبْلَ أنْ يُنافِقَ يُمكِنُ أنْ يكونَ قد آمَنَ ثُمَّ كَفَرَ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا لم يكُنْ له إقبالٌ على الحَقِّ، وكان قلْبُه مَريضًا؛ فإنَّه يُعاقَبُ بزيادةِ المَرَضِ[٣].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ فيه سؤالٌ: الطَّبعُ على القُلوبِ لا يكونُ إلَّا مِن اللهِ تعالى، ولَمَّا طَبَع اللهُ على قُلوبِهم فلا يُمكِنُهم أن يَتدَبَّروا ويَستَدِلُّوا بالدَّلائِلِ، ولو كان كذلك لَكان هذا حُجَّةً لهم على اللهِ تعالى، فيَقولونَ: إعراضُنا عن الحَقِّ لغَفْلَتِنا، وغَفْلَتُنا بسَبَبِ أنَّه تعالى طَبَع على قُلوبِنا؟

**الجوابُ**: هذا الطَّبعُ مِن اللهِ تعالى لسُوءِ أفعالِهم، وقَصْدِهم الإعراضَ عن الحَقِّ، فكأنَّه تعالى ترَكَهم في أنفُسِهم الجاهِلةِ، وأهوائِهم الباطِلةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٦).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾

- الغرَضُ مِن هذه الآيةِ التَّعريضُ بكذِبِ عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ وبنِفاقِه؛ فصِيغَ الكلامُ بصيغةٍ تعُمُّ المُنافِقينَ لتجنُّبِ التَّصريحِ بالمقصودِ، على طريقةِ قولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ((ما بالُ أقوامٍ يَشترِطونَ شروطًا ليستْ في كتابِ اللهِ؟!))[١] ومُرادُه مَولى بَريرةَ لَمَّا أراد أنْ يَبيعَها لعائشةَ أمِّ المؤمنينَ، واشتَرَطَ أنْ يكونَ الولاءُ له. وابتُدِئَ بتكذيبِ مَن أُرِيدَ تكذيبُه في ادِّعائِه الإيمانَ بصِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنْ لم يكُنْ ذلك هو المقصودَ؛ إشعارًا بأنَّ اللهَ أطْلَعَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على دخائِلِهم، وهو تَمهيدٌ لِمَا بَعْدَه مِن قولِه: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾؛ لأنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعلَمُ أنَّ المُنافِقينَ قالوا: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾[٢].

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ أكَّدَ المُنافِقونَ كلامَهم بحرفَيْ (إنَّ) واللَّامِ؛ للإيذانِ بأنَّ شهادتَهم هذه صادرةٌ عن صميمِ قلوبِهم، وخُلوصِ اعتقادِهم، ووُفورِ رغبتِهم ونشاطِهم[٣].

- و﴿نَشْهَدُ﴾ خبرٌ مؤكَّدٌ؛ لأنَّ الشَّهادةَ الإخبارُ عن أمْرٍ مقطوعٍ به؛ إذْ هي مُشتقَّةٌ مِنَ المُشاهَدةِ، أي: المُعايَنةِ، والمُعايَنةُ أقوى طُرقِ العِلمِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ مُعترِضةٌ بَينَ الجملتَيْنِ المُتعاطِفتَيْنِ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٧٣٥)، ومسلمٌ (١٥٠٤) مطوَّلًا من حديث عائشةَ رضيَ الله عنها.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٤).

مُقرِّرةٌ لمنطوقِ كلامِهم، وهذا الاعتراضُ لدَفْعِ إيهامِ مَن يسمَعُ جُملةَ ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أنَّه تكذيبٌ لجُملةِ ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾، فلَوْ قال: (قالوا: نَشهَدُ إنَّكَ لَرسولُ اللهِ، واللهُ يَشهَدُ إنَّهم لكاذِبونَ) لَكان يُوهِمُ أنَّ قولَهم هذا كذِبٌ، فوسَّطَ بَيْنَهما قولَه: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾؛ ليُمِيطَ هذا الإيهامَ، فإنَّ المُسلِمينَ كانوا يَومَئذٍ محفوفِينَ بفِئامٍ مِنَ المُنافِقينَ مبثوثِينَ بَيْنَهم، هِجِّيراهم فِتنةُ المُسلِمينَ؛ فكان المَقامُ مُقتضِيًا دفْعَ الإيهامِ، وهذا مِنَ الاحتراسِ[1].

- وفيه تقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿وَٱللَّهُ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَشۡهَدُ﴾؛ لتَقَوِّي الحُكمِ[2].

- وجِيءَ بفِعلِ ﴿يَشۡهَدُ﴾ في الإخبارِ عن تكذيبِ اللهِ تعالَى إيَّاهُم ليُطابِقَ الصِّيغةَ الَّتي عبَّروا بها؛ حتَّى يكونَ إبطالُ خبرِهم مُساوِيًا لإخبارِهم[3].

- وإظهارُ لفظِ (المُنافِقينَ) في موقعِ الإضمارِ -حيثُ قال: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾، ولم يقُلْ: (... إنَّهم لَكاذِبونَ)-؛ لذَمِّهم، والإشعارِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).
والاحتراس: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم: التَّكميلَ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٤٥)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بعِلَّةِ الحُكمِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ تكذيبَ اللهِ تعالَى إيَّاهُم في قولِهم للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] يُثِيرُ في أنفُسِ السَّامِعينَ سؤالًا عن أيْمانِهم لدَى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّهم مُؤمِنونَ به، وأنَّهم لا يُضمِرونَ بُغْضَه؛ فأخبَرَ اللهُ عنهم بأنَّهمُ اتَّخَذوا أيْمانَهم تَقِيَّةً يَتَّقونَ بها[٢].

- قولُه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ يجوزُ أنْ يُرادَ أنَّ قولَهم: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] يَمينٌ مِن أيمانِهِمُ الكاذِبةِ؛ لأنَّ الشَّهادةَ تَجْري مَجْرَى الحَلِفِ فيما يُرادُ به مِنَ التَّوكيدِ، يقولُ الرَّجُلُ: أشهَدُ وأشهَدُ باللهِ، وأعزِمُ وأعزِمُ باللهِ في موضِعِ: أُقسِمُ وأُولِي، فيكونَ قوله: ﴿أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ مَوضوعًا مَوضِعَ المُضمَرِ، أي: اتَّخَذوا شَهادتَهم تلك سُترةً. ويجوزُ أنْ يكونَ وصفًا للمُنافِقينَ في استِجنانِهِم بالأيْمانِ؛ فعلى هذا تكونُ هذه الآيةُ مُستطرِدةً تَعدادًا لقبائِحِهِمْ[٣].

- والجُنَّةُ: ما يُستتَرُ به ويُتَّقى، ومِنهُ سُمِّيَتِ الدِّرعُ جُنَّةً، والمعنى: جعَلوا أيْمانَهُم كالجُنَّةِ يُتَّقى بها ما يَلْحَقُ مِن أذًى، فلمَّا شُبِّهَتِ الأيمانُ بالجُنَّةِ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أُتْبِعَ ذلك بتَشبيهِ الحَلِفِ باتِّخاذِ الجُنَّةِ، أي: اسْتِعمالِها[٤].

- قولُه: ﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تفريعٌ لصدِّهِمْ عن سبيلِ اللهِ على الحَلِفِ الكاذِبِ؛ لأنَّ اليمينَ الفاجِرةَ مِن كبائِرِ الإثمِ؛ لِمَا فيها مِنَ الاسْتِخفافِ بجانِبِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦).

اللهِ تعالَى، ولأنَّهم لَمَّا حَلَفوا على الكذِبِ ظنُّوا أنَّهم قد أَمِنوا اتِّهامَ المُسلِمينَ إيَّاهُم بالنِّفاقِ، فاستمَرُّوا على الكُفرِ والمكرِ بالمُسلِمينَ، وذلك صدٌّ عن سبيلِ اللهِ، أي: إعراضٌ عن الأعمالِ الَّتي أَمَرَ اللهُ بسُلوكِها[١]. وهذا باعتبارِ أنَّ (صد) لازِمةٌ.

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تذييلٌ[٢]؛ لتفظيعِ حالِهِم عِندَ السَّامِعِ[٣].

- وفي ﴿سَآءَ﴾ معنى التَّعجُّبِ الَّذي هو تَعظيمُ أمْرِهِم عِندَ السَّامِعينَ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ جُملةٌ في مَوضعِ العِلَّةِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾[٥].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مِن معنى البُعْدِ مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ لِلإشعارِ ببُعْدِ منزلتِه في الشَّرِّ[٦].

- وحرفُ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ للتَّرتيبِ الإخباريِّ لا الإيجاديِّ، أي: إنَّ المُنافِقينَ آمَنوا، ثُمَّ كفَروا، أي: آمَنوا بألسنتِهِم، وكفَروا بقلوبِهِم[٧]، وذلك على قولٍ. أو هي للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ إبطانَ الكفرِ مع إظهارِ الإيمانِ أعظَمُ مِن الكفرِ الصَّريحِ، وأنَّ كُفْرَهم أرسَخُ فيهم مِن إظهارِ إيمانِهم. ويجوزُ أن يُرادَ مع ذلك التَّراخي في الزَّمنِ، وهو المُهلةُ[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢).

(٧) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٥).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٧).

- وتفريعُ ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ على قولِه: ﴿ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾، فصار كفرُهم بعْدَ الإيمانِ سببًا في سُوءِ أعمالِهم بمُقْتضى باءِ السَّببيَّةِ، وسببًا في انتفاءِ إدراكِهِمُ الحقائقَ النَّظريَّةَ بمُقْتضى فاءِ التَّفريعِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٨).

## الآيات (٤-٦)

﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾: أي: مَنصوبةٌ، مُمالةٌ إلى الجِدارِ، يُقالُ: أسنَدْتُ الشَّيءَ، أي: أمَلْتُه، وأصلُ (سند): يدُلُّ على انضِمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[١].

﴿صَيْحَةٍ﴾: الصَّيحةُ: المَرَّةُ مِن الصِّياحِ، وهو: رَفعُ الصَّوتِ، وأصلُ (صيح): يدُلُّ على الصَّوتِ العالي[٢].

﴿يُؤْفَكُونَ﴾: أي: يُصرَفونَ عن الحَقِّ، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهتِه[٣].

﴿لَوَّوْا﴾: أي: أمالوا؛ إعراضًا واستِكبارًا، وأصلُ (لوي): يدُلُّ على إمالةِ شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٥)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٨)، =

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

﴿عَلَيْهِمْ﴾: شِبهُ جُملةٍ جارٌّ ومَجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ هو المفعولُ الثَّاني لـ ﴿يَحْسَبُونَ﴾، أي: واقِعةً وكائِنةً عليهم، والوَقفُ على ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وَقفٌ تامٌّ. وقَولُه: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾: جُملةٌ مُستأنَفةٌ. وقَولُه: ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾: ﴿أَنَّىٰ﴾: بمعنى «كيف» فهي اسمُ استِفهامٍ في مَحَلِّ نَصبٍ حالٌ، أو بمعنى «مِن أينَ»: فهي اسمُ استفهامٍ في مَحَلِّ نَصبٍ ظَرفُ مكانٍ، وعلى كلِّ تقديرٍ فهي مُتعَلِّقةٌ بـ ﴿يُؤْفَكُونَ﴾، فلا يَعمَلُ فيها ما قبْلَها[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى مِن أوصافِ المنافقينَ ما به يُعرَفونَ، فيقولُ تعالى: وإذا رأيتَ هؤلاء المُنافِقينَ -يا محمَّدُ- تُعجِبُك أبدانُهم، وحُسْنُ هَيئَتِهم، وإن يَتكَلَّموا تُصْغِ لكلامِهم؛ لفَصاحَتِهم وبلاغتِهم، كأنَّهم أخشابٌ أُسنِدَت إلى الجُدُرِ لا مَنفعةَ فيها، يَظُنُّ المُنافِقونَ -مِن جُبنِهم وخَوَرِهم- أنَّ كُلَّ صَيحةٍ واقِعةٌ عليهم.

والمُنافِقونَ هم أعداءُ المُسلِمينَ على الحقيقةِ؛ فاحذَرْهم -يا محمَّدُ- فهم أشَدُّ ضَرَرًا عليكم مِن الكُفَّارِ المجاهِرينَ بالعَداوةِ. لَعَنَهم اللهُ وأخزاهم، كيف يُصرَفونَ عن الحَقِّ مع وُضوحِ دَلائِلِه؟!

وإذا قيل للمُنافِقينَ: تَعالَوا إلى رَسولِ اللهِ؛ لِيَستغفِرَ لكم، أمالوا رُؤوسَهم امتِناعًا مِن ذلك، ورأيتَهم يُعرِضونَ؛ أَنَفةً واستِكبارًا عمَّا دُعُوا إليه.

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٢).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٠٦).

سواءٌ أَسْتَغفَرْتَ لهؤلاء المُنافِقينَ -يا محمَّدُ- أم لم تَستَغفِرْ لهم؛ فإنَّ اللهَ لن يَغفِرَ لهم، إنَّ اللهَ لا يَهدِي القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَصَفَ اللهُ سُبحانَه بواطِنَ المُنافِقينَ بما زهَّدَ فيهم، وكانت لهم أشكالٌ تَغُرُّ ناظِرَها؛ لأنَّ العَرَبَ كانت تقولُ: (جمالُ المنظَرِ يدُلُّ غالبًا على حُسْنِ المَخْبَرِ)، قال تعالى[1]:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

أي: وإذا رأيتَ هؤلاء المُنافِقينَ -يا محمَّدُ- تُعجِبُك أبدانُهم؛ لاستواءِ خَلْقِهم، وحُسْنِ هَيئَتِهم، وجمالِ صُوَرِهم[2]!

﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾.

أي: وإن يَتكَلَّموا تُصْغِ لكلامِهم، وتَستَمِعْ إليه؛ لفصاحَتِهم وبلاغتِهم، وحُسنِ مَنطِقِهم، وحلاوةِ مَعانيه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٩).

قال القرطبي: (﴿مُّسَنَّدَةٌ﴾ للتَّكثيرِ، أي: استَنَدوا إلى الأيمانِ بحَقنِ دِمائِهم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٥).

كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴾ [البقرة: ٢٠٤ - ٢٠٦].

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾.

أي: مَثَلُهم كأخشابٍ قد قُطِعَت من مَغارِسِها، وقُشِرَت وأُسنِدَت إلى الجُدُرِ، فهي تَنالُ إعجابَ ناظِرِها، ولكِنَّها جامِدةٌ لا ثباتَ لها ولا ثَمرةَ، ولا تُسقَى بماءٍ، ولا منفعةَ فيها، وهكذا المُنافِقونَ مجرَّدُ صُوَرٍ لا رُوحَ فيها، وأجسادٍ لا عَقْلَ لها، ولا فِقْهَ، ولا عِلْمَ[1]!

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾.

أي: يَظُنُّ المُنافِقونَ كلَّ صَيحةٍ يَسمَعونَها -كنِداءِ مُنادٍ أو إنشادِ ضالَّةٍ، ونحوِ ذلك- أنَّها نازِلةٌ بهم، وواقِعةٌ عليهم، وأنَّهم يُرادونَ بذلك؛ لِجُبنِهم، وخَوَرِهم، وسوءِ ظنِّهم، وخوفِهم أنْ يَكْشِفَ اللهُ أسرارَهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٣٩٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٠).

قال ابنُ القَيِّم: (الصَّوابُ: أنَّ اللَّفظَ عامٌّ فيمَن اتَّصَف بهذه الصِّفاتِ، وهي صِحَّةُ الجِسمِ وتمامُه، وحُسنُ الكلامِ، وخُلُوُّه مِن رُوحِ الإيمانِ، ومحَبَّةِ الهُدى وإيثارِه، كخُلُوِّ الخُشُبِ المقطوعةِ -الَّتي قد تَسانَدَ بَعضُها إلى بَعضٍ- مِن رُوحِ الحياةِ الَّتي يُعطيها النُّمُوَّ أو الزِّيادةَ والثَّمَرةَ؛ واتصافُهم بالجُبنِ والخَوَرِ الَّذي يَحسَبُ صاحِبُه أنَّ كُلَّ صَيحةٍ عليه؛ فمِن التَّقصيرِ الزَّائدِ أن يُقالَ: إنَّ المرادَ بهذا اللَّفظِ هو عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٢/ ٧٠٢، ٧٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٩٩)، ((منهاج السنة =

كما قال تعالى: ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٩].

﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾.

أي: المُنافِقونَ هم أعداءُ المُسلِمينَ على الحقيقةِ؛ فاحذَرْهم -يا محمَّدُ-، فلا تَثِقْ بأقوالِهم، ولا تَغتَرَّ بصُوَرِهم، ولا تَركَنْ إليهم، ولا تَستَودِعْهم أسرارَكم؛ فهم يُظهِرونَ غيرَ ما يُبطِنونَ، ويُعِينُونَ الكُفَّارَ عليكم سِرًّا، ويَتَرَبَّصونَ بكم الدَّوائِرَ، وهم أشَدُّ ضَرَرًا عليكم مِن الكُفَّارِ المجاهِرينَ بالعَداوةِ(١).

﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

أي: لَعَنَ اللهُ المُنافِقينَ وأخزاهم، كيف يُصرَفونَ عن الحَقِّ مع وُضوحِ دَلائِلِه(٢)؟!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾﴾.

---

= النبوية)) لابن تيمية (٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٠، ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٦)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٢).

قال ابن عاشور: (والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لِيُبلِّغَه المسلمينَ فيَحذَروهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٢، ٢٤٣).

قال الواحدي: (قال ابن الأنباري: المُقاتَلةُ أصلُها مِن القَتلِ، فإذا أُخبِرَ عن اللهِ بها، كانت بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لَعَنَه اللهُ، فهو بمنزلةِ المَقتولِ الهالِكِ). ((الوسيط)) (٢/ ٤٩٠).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾.

أي: وإذا قال المُسلِمونَ للمُنافِقينَ: تَعالَوا إلى رَسولِ اللهِ؛ لِيَطلُبَ مِنَ اللهِ مَغفِرةَ ذُنوبِكم، أمالوا رُؤوسَهم وصَرَفوها إلى جهةٍ أُخرى؛ امتِناعًا مِن ذلك[1].

عن زَيدِ بنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خرَجْنا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في سَفَرٍ أصاب النَّاسَ فيه شِدَّةٌ، فقال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ لأصحابِه: لا تُنفِقوا على مَن عِندَ رَسولِ اللهِ حتَّى يَنفَضُّوا مِن حَولِه، وقال: لَئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ! فأتَيتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأخبَرْتُه، فأرسَلَ إلى عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ فسأَلَه، فاجتَهَد يَمينَه ما فَعَل! قالوا: كَذَبَ زَيدٌ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! فوقَعَ في نَفْسي ممَّا قالوا شِدَّةٌ، حتَّى أنزل اللهُ عَزَّ وجَلَّ تصديقي في: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المُنافِقونَ: ١]، فدعاهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِيَستَغفِرَ لهم، فلَوَّوا رُؤُوسَهم))[2].

﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي: ورأيتَهم يُعرِضونَ؛ أَنَفةً واستِكبارًا عمَّا دُعُوا إليه مِنَ المجيءِ لِرَسولِ اللهِ؛ كي يَستَغفِرَ لهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٣، ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٣، ٢٤٤).

قال ابن عاشور: (وَلَيُّ الرُّؤوسِ: إمالتُها إلى جانبٍ غَيرِ وُجاهِ المُتكلِّمِ؛ إعراضًا عن كلامِه، على سَبيلِ الاستِهزاءِ، أي: أَبَوْا أنْ يَستغفِروا؛ لأنَّهم ثابتونَ على النِّفاقَ، أو لأنَّهم غَيرُ راجِعينَ فيما قالوهُ مِن كلامٍ بذيءٍ في جانبِ المُسلِمينَ، أو لِئَلَّا يُلْزَموا بالاعترافِ بما نُسِبَ إليهم مِنَ النِّفاقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٠٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٤، ٦٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٧)، ((تفسير =

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾.

أي: سواءٌ أَسْتَغفَرْتَ لهؤلاء المُنافِقينَ ذُنوبَهم -يا محمَّدُ- أم لم تَستَغفِرْ لهم؛ فإنَّ اللهَ لن يَغفِرَ لهم ذُنوبَهم، ولن يَترُكَ مُعاقَبتَهم عليها[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

أي: إنَّ اللهَ لا يُوفِّقُ للإيمانِ به وبرَسولِه القَومَ الخارِجينَ عن طاعتِه، المُصِرِّينَ على الكُفرِ به ومَعصِيَتِه[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- الإنسانُ مَدارُ صَلاحِه وفَسادِه على القَلْبِ؛ ولهذا ينبغي للمُسلِمِ أنْ يَعتنيَ بصَلاحِ قَلْبِه؛ فاللهُ تعالى يقولُ عن المُنافِقينَ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ مِن الهيئةِ الحَسَنةِ، وحُسْنِ عمَلِ الجوارحِ، ﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ وإذا قالوا قولًا تَسْمَعُ له مِن حُسْنِه وزَخرفتِه، لكِنَّ قُلوبَهم خَربةٌ -والعياذُ باللهِ- ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ ليس فيها خيرٌ، فعلى المسلمِ أن يَعتنيَ بصَلاحِ قلبِه، وأن يَنظُرَ

---

= ابن كثير)) (٨/ ١٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

هل فيه شيءٌ مِن الأمراضِ كالشِّركِ، وكراهةِ ما أنْزَل اللهُ، والمَيلِ إلى الكُفَّارِ ومُوالاتِهم إلى غيرِ ذلك؟ هل فيه شَيءٌ مِن الحَسَدِ أو الغِلِّ أو الحِقدِ؟ فيُطَهِّرَ قلْبَه منه ويُصلِحَه؛ فإنَّ المدارَ عليه[1].

٢- قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ الجَمالُ في الصُّورةِ واللِّباسِ والهيئةِ ثلاثةُ أنواعٍ: منه ما يُحمَدُ، ومنه ما يُذَمُّ، ومنه ما لا يتعَلَّقُ به مَدحٌ ولا ذَمٌّ:

فالمحمودُ منه: ما كان لله، وأعان على طاعةِ اللهِ، وتنفيذِ أوامِرِه، والاستِجابةِ له، كما كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ يتجَمَّلُ للوُفودِ، وهو نظيرُ لِباسِ آلةِ الحَربِ للقِتالِ، ولِباسِ الحَريرِ في الحَربِ والخُيَلاءِ فيه؛ فإنَّ ذلك محمودٌ إذا تضَمَّن إعلاءَ كَلِمةِ اللهِ، ونَصْرَ دينِه، وغَيْظَ عَدُوِّه.

والمذمومُ منه: ما كان للدُّنيا والرِّياسةِ والفَخْرِ والخُيَلاءِ، والتَّوَسُّلِ إلى الشَّهَواتِ، وأن يكونَ هو غايةَ العَبدِ وأقصى مَطلَبِه؛ فإنَّ كثيرًا مِن النُّفوسِ ليس لها هِمَّةٌ في سِوى ذلك.

وأمَّا ما لا يُحمَدُ ولا يُذَمُّ: فهو ما خلا عن هذَينِ القَصدَينِ، وتجَرَّدَ عن الوصفَينِ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى عن المُنافِقينَ: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أنَّهم لَمَّا أضْمَروا خِلافَ ما أظهَروا خافوا الاطِّلاعَ عليهم؛ فكُلَّما سَمِعوا صَيحةً ظَنُّوا أنَّها عليهم، وهكذا كلُّ مُريبٍ يُظْهِرُ خِلافَ ما يُضْمِرُ؛ فإنَّه يَخافُ مِن أَدنى شَيءٍ ويَحسَبُه عليه[3].

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨٥، ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٢١٧).

ومنه أخَذ جريرٌ قولَه يُخاطِبُ الأخطَلَ:

ما زِلْتَ تَحسَبُ كلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُم ... خَيْلًا تَكُرُّ عَلَيْكُمُ ورِجالَا[١]

وكذا المتنبي قولَه:

وضاقَتِ الأرضُ حتَّى كان هارِبُهُم ... إذا رأى غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَّهُ رَجُلَا[٢]

ومنه قولُ الشَّاعرِ[٣]:

يُرَوِّعُهُ السِّرارُ بكُلِّ أرضٍ ... مَخافَةَ أن يَكونَ به السِّرارُ[٤]

٢- قال الله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾، فالكافرُ المُصَرِّحُ بالكُفرِ أهوَنُ مِن الكافِرِ المُخْفِي للكُفرِ -وهو المُنافِقُ-؛ فقَولُه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ جملةٌ تفيدُ الحصرَ؛ لتعريفِ طَرَفَيها، كأنَّه لا عَدُوَّ للمُسلِمينَ إلَّا المُنافِقُ؛ لأنَّ عداوتَه -والعياذُ باللهِ- لا يمكِنُ أنْ يُطَّلَعَ عليها، ولا يُمكِنُ التَّحَرُّزُ منها[٥]، فهم أهلُ مَكْرٍ وخديعةٍ، وكما في قَولِه تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩][٦]، فكانوا أَولى بالتَّحذيرِ؛ لشِدَّةِ عَداوتِهم، ولِقُوَّةِ مُداخَلتِهم مع المُسلِمينَ؛ مِمَّا يُمكِّنُهم مِن الاطِّلاعِ على جميعِ شُؤونِهم[٧].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ

---

(١) يُنظر: ((ديوان جرير)) (١/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((العَرْف الطَّيِّب)) للبازجي (ص: ١٤).

(٣) هو بشَّارُ بنُ بُرْدٍ. يُنظر: ((الشعر والشعراء)) لابن قتيبة (٢/ ٧٦٠)، ((الكامل في اللغة والأدب)) للمُبَرِّد (٣/ ٣٧)، ((الأغاني)) للأصفهاني (٣/ ١٥٥).

(٤) يُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (٥/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٥١١).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٤١).

(٧) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٩٢).

يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ أنَّ مِن عَلاماتِ النِّفاقِ الاستِكبارَ عن دُعاءِ المؤمِنينَ؛ احتِقارًا وشَكًّا[1]!

٤- قَولُ الله تعالى: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ فيه سؤالٌ: ظاهِرُ هذه الآيةِ الكريمةِ أنَّه لا يُغفَرُ للمُنافِقينَ مُطلَقًا، وقد جاءت آيةٌ تُوهِمُ الطَّمَعَ في غُفرانِه لهم إذا استَغفَرَ لهم رَسولُه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- أكثَرَ مِن سَبعينَ مَرَّةً، وهي قَولُه تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٠].

**الجوابُ**: أنَّ هذه الآيةَ هي الأخيرةُ، بيَّنَت أنَّه لا يُغفَرُ لهم على كُلِّ حالٍ؛ لأنَّهم كُفَّارٌ في الباطِنِ[2].

وأيضًا ذكرَ عدَد السبعينَ قَطْعًا لأطماعِهم عن المغفرةِ على عادةِ العربِ؛ لأنها عندَهم مَثَلٌ لغايةِ الاستِقصاء في العدد[3]. والتَّقديرُ إذا قُصِد به المُبالَغةُ فلا مَفهومَ له، سَواءٌ كان في الكَثْرةِ أو في القِلَّةِ، ومِثالُ الكَثْرةِ: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة: ٨٠]، ولو أكثَرَ مِن سَبعينَ ما يَغفِرُ الله تعالى لهم؛ ولهذا قال تعالى في آية المُنافِقين: ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾، فإذا جاء القَيْدُ للمُبالَغةِ قِلَّةً أو كَثرةً فليس له مَفهومٌ.

ومِثالُ القِلَّةِ: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [سبأ: ٢٢]، ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ﴾ يعني:

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٠/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص:٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٣/ ٢٢١).

ولا ما دُونَها[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ أنَّ دعاءَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، واستغفارَهم وشفاعتَهم: سببٌ يَنفعُ إذا جَعَلَ اللهُ تعالى المَحَلَّ قابلًا له، وإلَّا فلوِ استغفرَ النَّبيُّ للكُفَّارِ والمُنافِقينَ لم يُغفَرْ لهم[٢].

٦- مَن عُلِمَ منه النِّفاقُ والزَّنْدقةُ فإنَّه لا يجوزُ لِمَن عَلِمَ ذلك منه الصَّلاةُ عليه، وإنْ كان مُظْهِرًا للإسلامِ؛ فإنَّ اللهَ نهى نبيَّه عن الصَّلاةِ على المُنافِقينَ فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[٣].

٧- قَولُ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ لم يَقُلِ: (القَومَ الكافِرينَ) أو (المُنافِقينَ) أو (المُستَكبِرينَ)، مع أنَّ كُلَّ واحدٍ مِنهم مِن جملةِ ما سَبَق ذِكرُه؟

**الجوابُ**: كُلُّ أحدٍ مِن تلك الأقوامِ داخِلٌ تحتَ قَولِه: ﴿ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: الَّذين سَبَق ذِكرُهم، وهم الكافِرونَ والمُنافِقونَ والمُستَكبِرونَ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ هذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٨).

انتقالٌ إلى توضيحِ بَعضِ أحوالِ المنافِقِينَ الَّتي لا يُبرِزونها إذا جاؤوا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولكنَّها تَبرُزُ مِن مُشاهَدتِهم؛ وجُملةُ ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، واقِعةٌ موقِعَ الاحتراسِ والتَّتميمِ(١)؛ لدَفْعِ إيهامِ مَن يَغُرُّه ظاهرُ صُوَرِهم، وأُتْبِعَ انتفاءُ فِقهِ عقولِهم بالتَّنبيهِ على عدمِ الاغترارِ بحُسنِ صوَرِهم؛ فإنَّها أجسامٌ خاليةٌ عن كمالِ الأنفُسِ، وتُفيدُ مع الاحتِراسِ تنبيهًا على دخائلِهم، بحيث لو حُذِفَ حرْفُ العطفِ مِن الجُملتَينِ، لَصَحَّ وُقوعُهما مَوقِعَ الاستئنافِ الابتدائيِّ، ولكن أُوثِرَ العطفُ للتَّنبيهِ على أنَّ هاتَيْنِ صِفتانِ تُحسَبانِ كمالًا وهُما نَقيصتانِ؛ لعدمِ تناسُقِهما مع ما شأنُه أنْ يكونَ كمالًا؛ فإنَّ جمالَ النَّفْسِ كجمالِ الخِلقةِ إنَّما يحصُلُ بالتَّناسُبِ بيْنَ المَحاسِنِ، وإلَّا فرُبَّما انقلَبَ الحَسنُ مُوجِبَ نَقْصٍ(٢).

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِقَوْلِهِمْ﴾ لتَضمينِ ﴿تَسْمَعْ﴾ معْنى: تُصِغْ أيُّها السَّامعُ؛ إذ ليس في الإخبارِ بالسَّماعِ للقولِ فائدةٌ لولا أنَّه ضُمِّن معْنى الإصغاءِ لوعْيِ كَلامِهم(٣).

- وجُملةُ ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا جَوابًا عن سُؤالٍ يَنشَأُ عن وصْفِ حُسنِ أجسامِهم وذَلاقةِ كَلامِهم؛ فإنَّه في صُورةِ مدْحٍ، فلا يُناسِبُ ما قبْلَه مِن ذمِّهم، فيَترقَّبُ السَّامعُ ما يَرِدُ بعْدَ هذا الوصفِ. ويجوزُ أنْ تكونَ

---

(١) تقدَّم تعريفُ الاحتراسِ (ص: ٣٢١)، وتعريفُ التَّتميمِ (ص: ٣٥).
والفَرقُ بيْنَ الاحتِراسِ والتَّتميمِ: أنَّ الاحتِراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التَّتميمُ فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنَهما إذَنْ هي التَّبايُنُ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٤٥)، ((خِزانة الأدب)) لابن حِجَّة الحَمَوي (٢/ ٤٨٦)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٣٩).

الجُملةُ حالًا مِن ضَميرَي الغَيبةِ في قولِه: ﴿رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾[١].

- قولُه: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ تشبيهٌ تمثيليٌّ، والمُشبَّهُ به هو الخُشُبُ المنصوبةُ المُسنَدةُ إلى الحائطِ، ووجْهُ الشَّبهِ كَونُ الجانبَيْنِ أشباحًا خاليةً عن العِلمِ والنَّظرِ، ولم يَكتفِ بالتَّشبيهِ بالخُشبِ، بلْ جعَلَها مُسنَدةً إلى الحائطِ، لا انتِفاعَ بها؛ لأنَّها إذا كانت في سقفٍ أو مكانٍ يُنتفَعُ بها، وأمَّا إذا كانت غيرَ مُنتفَعٍ بها فإنَّها تكونُ مُهمَلةً مُسنَدةً إلى الحيطانِ أو مُلقاةً على الأرضِ قد صُفِفَتْ. أو شُبِّهوا بالخُشُبِ الَّتي هي الأصنامُ وقد أُسنِدَتْ إلى الحيطانِ، أو شُبِّهوا بالخُشبِ المُسنَّدةِ في حُسنِ المرْأى وعدَمِ الجَدْوى، أُفيدَ بها أنَّ أجسامَهم المُعجَبَ بها ومَقالَهم المُصغَى إليه خاليانِ عن النَّفعِ كخُلوِّ الخُشبِ المُسنَّدةِ عن الفائدةِ. وقيل: الجملةُ التَّشبيهيَّةُ وصْفٌ لهُمْ بالجُبنِ والخَوَرِ، ويدُلُّ عليه قولُه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾. ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: إنَّ وجْهَ الشَّبهِ هو عُزوبُ أحلامِهم، وفراغُ قلوبِهم مِنَ الإيمانِ[٢]. وقيل غيرُ ذلك[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ تَشبيهٌ تَمثيليٌّ أيضًا، أي: أنَّهم -لجُبنِهم وهَلَعِ نُفوسِهم واضطرابِ قلوبِهم- إذا نادى مُنادٍ في المُعسكَرِ أو انْفلَتَتْ دابَّةٌ أو أُنْشِدَتْ ضالَّةٌ وَجَفَتْ قلوبُهم، وزايَلَهم رُشدُهم، وحَسِبوا أنَّ هناك شرًّا يتربَّصُ بهم، وكيدًا ينتظرُ الإيقاعَ بأرواحِهم[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٩٩، ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٨).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٠).

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ لَمَّا أخبرَه تعالَى بعداوتِهم، أمَرَه بحَذَرِهم، فلا يَثِقُ بإظهارِ موَدَّتِهم، ولا بلِينِ كلامِهم[1].

- يجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ استِئنافًا بيانيًّا ناشِئًا عن جُملةِ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّ تلك الجملةَ لغرابةِ معناها تُثيرُ سؤالًا عن سبَبِ هلَعِهم، وتخوُّفِهم مِن كلِّ ما يُتخيَّلُ منه بأسُ المُسلِمينَ، فيُجابُ بأنَّ ذلك لأنَّهم أعداءٌ أَلِدَّاءُ للمُسلِمينَ، يَنظُرونَ للمُسلِمينَ بمِرآةِ نُفوسِهم، فكما هُمْ يَتربَّصونَ بالمُسلِمينَ الدَّوائرَ، ويَتمنَّوْنَ الوقيعةَ بهم، في حِينِ يُظهِرونَ لهمُ الموَدَّةَ، كذلك يَظنُّونَ بالمُسلِمينَ التَّربُّصَ بهم، وإضمارَ البَطشِ بهم، ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ بمَنزلةِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ على هذا المعنى أيضًا. ويجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا لذِكرِ حالةٍ مِن أحوالِهم تَهُمُّ المسلمينَ مَعرفتُها؛ ليَترتَّبَ عليها تَفريعُ ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾، وعلى كلِّ التَّقاديرِ فنَظْمُ الكلامِ وافٍ بالغرَضِ مِن فَضْحِ دخائلِهم[2].

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ التَّعريفُ في ﴿ٱلْعَدُوُّ﴾ تعريفُ الجِنسِ الدَّالُّ على معْنى كَمالِ حقيقةِ العدُوِّ فيهم؛ فهمُ الكامِلونَ المُبالِغونَ في العَداوةِ، والرَّاسِخونَ فيها؛ لأنَّ أَعْدَى الأعادي العدُوُّ المُتظاهِرُ بالموالاةِ، وهو مدَّاحٌ وتحتَ ضُلوعِه الدَّاءُ الدَّوِيُّ، وعلى هذا المعنى رُتِّبَ عليه الأمْرُ بالحَذَرِ منهم[3].

- قولُه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ تَذييلٌ؛ فإنَّه جمَعَ على الإجمالِ ما يُغْني عن تَعدادِ مَذامِّهم، مَسوقٌ للتَّعجيبِ مِن حالِ تَوغُّلِهم في الضَّلالةِ والجهالةِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

بعُدولِهم عن الحقِّ، فافتُتِحَ التَّعجيبُ منهم بجُملةٍ أصْلُها دُعاءٌ بالإهلاكِ والاستئصالِ، ولكنَّها غَلَبَ استعمالُها في التَّعجُّبِ أو التَّعجيبِ مِن سُوءِ الحالِ الَّذي جرَّه صاحبُه لنفْسِه؛ فإنَّ كثيرًا مِن الكَلِمِ الَّتي هي دُعاءٌ بسُوءٍ تُستعمَلُ في التَّعجيبِ مِن فِعلٍ أو قولٍ مَكروهٍ، مِثلُ قولِهم: ثَكِلَتْه أُمُّه، ووَيْلُ أُمِّه، وتربَتْ يَمينُه. واستعمالُ ذلك في التَّعجُّبِ للمُلازَمةِ بيْن بُلوغِ الحالِ في السُّوءِ وبيْن الدُّعاءِ على صاحبِه بالهلاكِ؛ إذ لا نفْعَ له ولا للنَّاسِ في بَقائِه، ثمَّ الملازمةِ بيْن الدُّعاءِ بالهلاكِ وبيْن التَّعجُّبِ مِن سُوءِ الحالِ، فهي مُلازَمةٌ بمَرتبتَينِ كِنايةٌ رَمزيَّةٌ. و(أنَّى) هنا اسمُ استفهامٍ، والاستفهامُ هنا مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ؛ لأنَّ الأمرَ العجيبَ مِن شأْنِه أنْ يُستفهَمَ عن حالِ حُصولِه، فالاستفهامُ عنه مِن لَوازمِ أُعجوبتِه؛ فجُملةُ ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ بَيانٌ للتَّعجيبِ الإجماليِّ المُفادِ بجُملةِ ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ فهو تعجيبٌ مِن حالِهِم، أي: كيف يُصرَفونَ عن الحقِّ إلى ما هُمْ عليه مِنَ الكفرِ والضَّلالِ[1]؟!

- و﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ كَلمةُ ذمٍّ وتوبيخٍ، وهو دعاءٌ عليهم وطلَبٌ مِن ذاتِه تعالَى أنْ يَلعنَهُم ويُخزيَهُم، أو تَعليمٌ للمُؤمِنينَ أنْ يَدعُوا عليهم بذلك، ومَن قاتَلَه اللهُ فهو مغلوبٌ؛ لأنَّه تعالَى هو القاهِرُ لكلِّ مُعانِدٍ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ هذا حالُ المنافقينَ في العِنادِ، ومُجافاةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والإعراضِ عن التَّفكُّرِ في الآخِرةِ، بَلْهَ الاستِعدادَ للفوزِ فيها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤١).

و﴿تَعَالَوْاْ﴾ طلَبٌ مِنَ المُخاطَبِ بالحضورِ عِندَ الطَّالِبِ، وأصلُه فِعلُ أمْرٍ مِنَ التَّعالي، وهو تكلُّفُ العُلُوِّ، أي: الصُّعودِ، وتُنُوسِيَ ذلك، وصار لِمُجرَّدِ طلَبِ الحضورِ. وهذا الطَّلَبُ يجعَلُ ﴿تَعَالَوْاْ﴾ مُشعِرٌ بأنَّ هذه حالةٌ مِن أحوالِ انفرادِهم في جماعتِهم، فهي ثالثُ الأغراضِ مِن بيانِ مُختلِفِ أنواعِ تلك الأحوالِ، وقدِ ابتُدِئَتْ بـ﴿إِذَا﴾ كما ابتُدِئَ الغرَضانِ السَّابِقانِ بـ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ [المنافقون: ١]، ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾[1] [المنافقون: ٤].

- قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، أي: اذهَبوا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وسَلُوهُ الاستِغفارَ لكم، وهذا يدُلُّ دَلالةَ اقتِضاءٍ[2] على أنَّ المرادَ: تُوبوا مِنَ النِّفاقِ، وأَخْلِصوا الإيمانَ، وسَلُوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِيَستغفِرَ لكم ما فَرَطَ منكم، فكانَ الَّذي قال لهم ذلك مُطَّلِعًا على نِفاقِهم[3].

- قولُه: ﴿لَوَّوْاْ﴾ قُرِئَ بتَشديدِ الواوِ الأولى مُضاعَف (لَوَى)؛ للدَّلالةِ على الكثرةِ؛ فيَقْتَضي كثرةَ اللَّيِّ منهم، أي: لَوَّى جمعٌ كثيرٌ منهم رُؤوسَهم، وقُرِئَ بتَخفيفِ الواوِ الأولى اكتِفاءً بإسنادِ الفِعلِ إلى ضميرِ الجماعةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٣).

(٢) دلالةُ الاقتضاءِ: هي دلالةُ اللفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصدقِ أو الصحةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٤).

قرأ نافعٌ، ورَوْحٌ عن يعقوبَ بتخفيفِ الواوِ الأُولى، وقرأ الباقونَ بتشديدِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٨).

- وجُملةُ ﴿يَصُدُّونَ﴾ جملةٌ حاليَّةٌ، وأُتِيَ بالمضارعِ ليَدُلَّ على استِمرارِهم[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾

- قولُه: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ حِكايةِ أحوالِهم، نشأَتْ لِمُناسَبةِ قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ﴾ [المنافقون: ٥] إلخ[٢].

- وتركيبُ: (سواءٌ عليه أكذا أمْ كذا)، ونَحْوِه ممَّا جَرَى مَجْرَى المَثَلِ، فيَلزَمُ هذه الكلماتِ مع ما يُناسِبُها مِن ضمائرِ المُخبَرِ عنه. ومدلولُه استِواءُ الأمْرَينِ لدَى المجرورِ بحرفِ (على)؛ ولذلك يُعقَبُ بجُملةٍ تُبيِّنُ جِهةَ الاستواءِ؛ كجُملةِ ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾[٣].

- و(على) مِن قولِه: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بمعنى تمكُّنِ الوصفِ؛ فالمعنى: سواءٌ فيهم[٤].

- وهمزةُ ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ﴾ أصلُها همزةُ استفهامٍ، وهو استفهامٌ مُستعمَلٌ كِنايةً عن قِلَّةِ الاعتناءِ بكِلا الحالَيْنِ بقرينةِ لفظِ ﴿سَوَآءٌ﴾، أي: سواءٌ عِندَهمُ استغفارُكَ لهم وعدَمُه، فـ(على) للاستِعلاءِ الَّذي هو التَّمكُّنُ والتَّلبُّسُ؛ فتَؤُولُ إلى معنى (عِندَ)[٥].

- وجُملةُ ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٤٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

استِئنافًا ابتدائيًّا عن حالٍ مِن أحوالِهم[١].

- وجُملةُ ﴿لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ وجُملةِ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟﴾ [المنافقون: ٧]، وهي وعيدٌ لهم، وجزاءٌ على استخفافِهم بالاستغفارِ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تعليلٌ لانتفاءِ مغفرةِ اللهِ لهم بأنَّ اللهَ غضِبَ عليهم، فحرَمَهمُ اللُّطْفَ والعِنايةَ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: الكامِلينَ في الفِسقِ، الخارجينَ عن دائرةِ الاستصلاحِ، المُنهمِكينَ في الكفرِ والنِّفاقِ، والمرادُ: إمَّا هُم بأعيانِهم، والإظهارُ في موقعِ الإضمارِ لبيانِ غُلُوِّهم في الفِسقِ. أوِ الجِنسُ، وهم داخِلونَ في زُمْرَتِهم دُخولًا أوَّليًّا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٣).

## الآيتان (٧-٨)

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَنفَضُّواْ﴾: أي: يَتفرَّقوا، وأصلُ (فضض): يدُلُّ على تفريقٍ وتَجزِئةٍ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ الله سبحانَه عن جانبٍ مِن أقوالِ المنافِقينَ القبيحةِ، فيقولُ: همُ الَّذين يَقولونَ: لا تُنفِقوا على أصحابِ رَسولِ اللهِ حتَّى يَتفرَّقوا عنه. وللهِ خزائِنُ السَّمَواتِ والأرضِ، ولكِنَّ المُنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك. يقولُ المُنافِقونَ: لَئِنْ رَجَعْنا مِن غَزوةِ بَني المُصْطَلِقِ إلى المدينةِ، لَيُخرِجَنَّ الأقوى منها الضَّعيفَ الأذَلَّ. وقد أخطَؤوا مصداقَ الوصفِ، فلِلَّهِ القُوَّةُ والغَلَبةُ ولِرَسولِه وللمُؤمِنينَ، وليست لهم، ولكنَّ المُنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك، فيَظنُّونَ أنَّ العِزَّةَ لهم!

### تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٣٣).

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن زَيدِ بنِ أرْقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا قال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ: لا تُنفِقُوا على مَن عِندَ رَسولِ اللهِ، وقال أيضًا: لَئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ؛ أخبَرَتُ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلامني الأنصارُ، وحَلَفُ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ما قال ذلك، فرجَعْتُ إلى المنزِلِ فنِمْتُ، فدعاني رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فأتَيْتُه، فقال: إنَّ اللهَ قد صَدَّقَك، ونَزَل: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ ...﴾ الآيةَ))[1].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه انتِقالٌ مِن وَصفِ إعراضِهم عن التَّقَرُّبِ مِن الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إلى وَصفِ لَونٍ آخَرَ مِن كُفرِهم، وهو الكَيدُ للدِّينِ في صورةِ النَّصيحةِ[2].

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾.

أي: المُنافِقونَ هم الَّذين يَقولونَ[3]: لا تُنفِقوا على أصحابِ رَسولِ اللهِ حتَّى

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

(٣) قيل: يقولونَ لأصحابِهم وقَومِهم مِن المُنافِقينَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٩، ٦٦٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

قال ابن عاشور: (هذا أيضًا مِن مقالاتِهم في مَجامِعِهم وجماعتِهم، يَقولونَها لإخوانِهم الَّذين كانوا يُنفِقون على فُقراءِ المسلِمينَ تَظاهُرًا بالإسلامِ، كأنَّهم يقولُ بعضُهم لبعضٍ: تظاهَرْ بالإسلامِ بغيرِ الإنفاقِ، مثل قولِهم لِمَن يقولُ لهم: ﴿تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٥]؛ ولذلك عُقِّبَتْ بها. وقد جاء في الأحاديثِ الصَّحيحةِ أنَّ قائلَ هذه المقالةِ عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ ابنُ =

يَتفرَّقوا عنه[١].

﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: ولله جَميعُ ما في السَّمَواتِ والأرضِ مِن الأرزاقِ وغَيرِها، وهو وَحْدَه المتصَرِّفُ في أسبابِ حُصولِ الأرزاقِ بمَشيئتِه؛ فيُعطي مَن يَشاءُ بفَضْلِه، ويَمنَعُ مَن يَشاءُ بحِكْمتِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الشورى: ١٢].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

---

= سَلولَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦٠).

وقيل: يقولونَ للأنصارِ مِن أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: البيضاويُّ، والمراغي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ١١٣). ويُنظر أيضًا: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ١٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ فُقَراءُ المهاجِرينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البيضاوي، والبِقاعي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٣٦).

قال ابنُ عاشور: (هذا كلامُ مَكرٍ؛ لأنَّ ظاهِرَه قَصدُ الرِّفقِ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن كُلْفةِ إنفاقِ الأعرابِ الَّذين أَلَمُّوا به في غَزوةِ بني المُصْطَلِقِ، وباطِنَه إرادةُ إبعادِ الأعرابِ عن تلَقِّي الهَدْيِ النَّبَويِّ، وعن أن يَتقَوَّى بهم المُسلِمونَ، أو تفَرُّقُ فُقَراءِ المهاجِرينَ لتَضعُفَ بتَفَرُّقِهم بعضُ قُوَّةِ المسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

أي: ولكِنَّ المُنافِقينَ لا يُدرِكونَ ذلك، فلا يَعلَمونَ كَمالَ قُدرةِ اللهِ، وأنَّ ما شاء حُصولَه يَسَّرَه، وأنَّه المتصَرِّفُ في الكَونِ بمَشيئتِه، وبيَدِه الأرزاقُ يُقَسِّمُها بيْنَ عِبادِه بحِكْمَتِه(١).

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧].

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر في الآيةِ السَّابِقةِ أنَّهم لا يَفقَهونَ؛ دَلَّ على عَدَمِ فِقْهِهم بقَولِه تعالى(٢): ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾.

أي: يقولُ المُنافِقونَ: لَئِنْ رَجَعْنا مِن غَزوةِ بَني المُصطَلِقِ إلى المدينةِ الَّتي هي بَلدَتُنا، لَيُخرِجَنَّ الأقوى والأشَدُّ فيها الضَّعيفَ الأذَلَّ الَّذي جاء إلى مدينتِنا وسَكَن فيها(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٥٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٩).

قال ابنُ القيِّمِ: (غزوةُ بني المُصطَلِقِ هي غَزوةُ المُرَيْسِيعِ، والجُمهورُ أنَّها كانت بعدَ الخَندَقِ سنةَ سِتٍّ). ((زاد المعاد)) (٣/ ٢٣٧).

قيل: يعني بالأعزِّ نَفْسَه، أي: عبدَ اللهِ بنَ أُبَيٍّ ابنَ سَلولَ، وبالأذَلِّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) =

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كُنَّا في غَزاةٍ، فكَسَعَ[١] رَجُلٌ مِن المهاجِرينَ رَجُلًا من الأنصارِ، فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ! وقال المُهاجِريُّ: يا لَلمُهاجِرينَ! فسَمَّعها اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قال: ما هذا؟! فقالوا: كَسَع رَجُلٌ مِن المهاجِرينَ رَجُلًا مِن الأنصارِ، فقال الأنصاريُّ: يا لَلأنصارِ، وقال المهاجِريُّ: يا لَلمُهاجِرينَ! فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعُوها؛ فإنَّها مُنْتِنةٌ. قال جابرٌ: وكانت الأنصارُ حينَ قَدِمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أكثَرَ، ثمَّ كَثُرَ المهاجِرونَ بَعْدُ، فقال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ: أوَقَد فَعَلوا؟! واللهِ لَئِنْ رجَعْنا إلى المدينةِ لَيُخرِجَنَّ الأعَزُّ منها الأذَلَّ. فقال عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه: دَعْني يا رَسولَ اللهِ أضرِبْ عُنُقَ هذا المُنافِقِ. قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَعْه، لا يَتحدَّثُ النَّاسُ أنَّ محمَّدًا يقتُلُ أصحابَه))[٢].

﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

---

= للزجاج (٥/ ١٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٠٠).

وقيل: أراد أنَّه هو وإخوانَه مِن المُنافِقينَ الأعَزُّونَ، وأراد أنَّ رَسول اللهِ ومَن معه هم الأذَلُّونَ! وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: أبو حيَّان، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

قال الشوكاني: (إنَّما أُسنِدَ القَولُ إلى المُنافِقينَ مع كَونِ القائِلِ هو فَردٌ مِن أفرادِهم، وهو عبدُ اللهِ ابنُ أُبَيٍّ؛ لكَونِه كان رئيسَهم، وصاحِبَ أمْرِهم، وهم راضُونَ بما يقولُه، سامِعونَ له مُطيعونَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧).

وقال ابنُ عاشور: (أراد بالأعَزِّ فريقَ الأنصارِ؛ فإنَّهم أهلُ المدينةِ وأهلُ الأموالِ، وهم أكثَرُ عَدَدًا مِن المهاجِرينَ، فأراد: لَيُخرِجَنَّ الأنصارُ مِن مَدينتِهم مَن جاءَها مِنَ المُهاجِرينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٩).

(١) كَسَعَ: أي: ضَرَب دُبُرَه وعَجِيزتَه بيَدٍ أو رِجلٍ أو سَيفٍ وغَيرِه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٣٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٠٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٨٤).

أي: ولله القُوَّةُ والغَلَبةُ والـمَنَعةُ ولِرَسولِه وللمُؤمِنينَ، أمَّا المُنافِقونَ فهم الأذِلَّاءُ المهانُونَ حقًّا[١].

كما قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [فاطر: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات: ١٨٠].

وعن تميمٍ الدَّاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: ((لَيَبلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بَلَغَ اللَّيلُ والنَّهارُ، ولا يَترُكُ اللهُ بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ[٢] إلَّا أدخَلَه اللهُ هذا الدِّينَ، بعِزِّ عزيزٍ أو بذُلِّ ذَليلٍ؛ عِزًّا يُعِزُّ اللهُ به الإسلامَ، وذُلًّا يُذِلُّ اللهُ به الكُفْرَ))[٣].

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّناءِ والرِّفْعةِ، والنَّصرِ والتَّمكينِ في الأرضِ، فمَن عَمِلَ منهم عَمَلَ الآخِرةِ للدُّنيا، لم يَكُنْ له في الآخِرةِ نَصيبٌ))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٤٠٠)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٧٦-١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧).

(٢) بَيتَ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ: المَدَرُ: جَمعُ مَدَرةٍ، وهي: اللَّبِنةُ، والمرادُ به هنا البُيوتُ المُحكَمةُ المَبنيَّةُ مِن الأحجارِ والطُّوبِ واللَّبِنِ، كبُيوتِ المُدُنِ والقُرى. والوَبَرُ: شَعرُ الإبلِ، والمرادُ به هنا البُيوتُ غيرُ المُحكَمةِ، كبُيوتِ البوادي وأهلِ الخِيامِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١١٦)، ((الكوكب الوهاج)) لمحمد الأمين الهَرري (٢٦/ ٢٥٩).

(٣) أخرجه أحمدُ (١٦٩٥٧) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٨٣٢٦)، والبيهقيُّ (١٩٠٩٠).
صحَّحه الحاكمُ على شرطِ الشَّيخَينِ، وقال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٦/ ١٧): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). وقال الألبانيُّ في ((تحذير الساجد)) (١٥٨): (على شرطِ مُسلمٍ). وصَحَّح إسنادَه على شرط مسلمٍ: شُعَيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ١٥٥).

(٤) أخرجه أحمد (٢١٢٢٠) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٤٠٥)، والحاكمُ (٧٨٦٢).
قال الهيثميُّ في ((مجمع الزوائد)) (١٠/ ٢٢٣): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ). ووثَّق رواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٣٤٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢٨٢٥).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولكنَّ المُنافِقينَ لا يَعلَمونَ ذلك، فيَظنُّونَ أنَّ العِزَّةَ لهم؛ اغترارًا بباطِلِهم[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

يُوجَدُ في المتَّبِعِ هواه مِن ذُلِّ النَّفسِ وضَعْفِها ومَهانتِها ما جعَلَه اللهُ لِمَن عَصاه؛ فإنَّ اللهَ تعالى جَعَل العِزَّةَ لِمَن أطاعَه، والذِّلَّةَ لِمَن عَصاه؛ قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، فجَعَل اللهُ سُبحانَه العِزَّ قَرينَ طاعتِه، والذُّلَّ قَرينَ مَعصِيتِه[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لا ريبَ أنَّ المُنافِقينَ كانوا مَغمورينَ أذِلَّاءَ مَقهورينَ، لا سيَّما في آخرِ أيَّامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفي غَزوةِ تَبُوكَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فأَخبرَ أنَّ العِزَّةَ للمُؤمِنينَ لا للمُنافِقينَ، فعُلِمَ أنَّ العِزَّةَ والقُوَّةَ كانت في المؤمِنينَ، وأنَّ المُنافِقينَ كانوا أذِلَّاءَ بيْنَهم، فيَمْتَنِعُ أنْ يكونَ الصَّحابةُ -الَّذين كانوا أَعَزَّ المُسلِمينَ- مِن المُنافِقينَ، بل ذلك يَقتَضي أنَّ مَن كان أَعَزَّ كان أعظمَ إيمانًا، ومِن المعلومِ أنَّ السَّابِقينَ الأَوَّلينَ مِن المهاجِرينَ والأنصارِ؛ الخُلفاءَ الرَّاشِدينَ وغَيرَهم، كانوا أعَزَّ النَّاسِ، وهذا كلُّه ممَّا يُبَيِّنُ أنَّ المُنافِقينَ كانوا ذَليلينَ في المؤمِنينَ؛ فلا يجوزُ أنْ يكونَ الأعِزَّاءُ مِن الصَّحابةِ منهم، ولكنَّ هذا الوَصفَ مطابِقٌ للمُتَّصِفين به مِن الرَّافضةِ وغيرِهم، والنِّفاقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٧٩).

والزَّنْدقةُ في الرَّافضةِ أكثرُ منه في سائرِ الطَّوائفِ، بل لا بُدَّ لكلٍّ منهم مِن شُعْبةِ نِفاقٍ؛ فإنَّ أساسَ النِّفاقِ الَّذي بُنيَ عليه: الكذبُ، وأنْ يقولَ الرَّجُلُ بلِسانِه ما ليس في قَلْبِه، كما أَخبرَ اللهُ تعالى عن المُنافِقينَ أنَّهم: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1] [الفتح: ١١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ كان المتوقَّعُ أنْ يكونَ الجوابُ: «واللهُ هو الأَعَزُّ ورسولُه والمؤمِنونَ»، لكنْ لو كانتِ العِبارةُ هكذا لَصار للمُنافِقينَ عِزَّةٌ لكنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابَه أَعَزُّ، لكنْ نفى عنهم العِزَّةَ مُطلقًا، وللهِ العِزَّةُ وَحْدَه ولِرَسولِه وللمُؤمِنينَ، وهذا نظيرُ قَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ [غافر: ٢٠] لا حقَّ ولا باطِلَ[2].

٣- لا مُنافاةَ بيْن قَولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبيْن قَولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]؛ فإنَّ العِزَّةَ للهِ أصلًا، ولرَسولِه مِن اللهِ، وللمُؤمِنينَ مِن اللهِ؛ فحينَئذٍ فالعِزَّةُ كلُّها للهِ، كما قال اللهُ تعالى في سورةِ آلِ عِمْرانَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فكلُّ مَن عِندَه عِزَّةٌ فإنَّها ليست عِزَّةً ذاتيَّةً له مِن ذاتِ نفْسِه، ولكِنَّها مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، وبماذا تكونُ العِزَّةُ الَّتي يَكتسبُها الإنسانُ، وهي مِن اللهِ؟ تكونُ بما عَلَّقَ اللهُ العِزَّةَ عليه، وهو الإيمانُ ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فمتى أراد الإنسانُ العِزَّةَ فلْيَكُنْ مُؤمِنًا، وكلَّما كان أكثرَ إيمانًا باللهِ وأقوى إيمانًا باللهِ كان أكثَرَ عِزَّةً

(١) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٢/ ١٣٩).

وأقوى عِزَّةً[١].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إنَّما نُفِيَ عنهُم هنا العِلمُ تجهيلًا بسُوءِ التَّأمُّلِ في أماراتِ الظُّهورِ والانحطاطِ، فلَمْ يَفْطَنُوا للإقبالِ الَّذي في أحوالِ المُسلِمينَ، وازديادِ سُلطانِهم يومًا فيومًا، وتناقُصٍ مِن أعدائِهم؛ فإنَّ ذلك أمْرٌ مُشاهَدٌ، فكيف يظُنُّ المُنافِقونَ أنَّ عزَّتَهُم أقوَى مِن عزَّةِ قبائلِ العربِ الَّذينَ يَسقُطونَ بأيدي المُسلِمينَ كلَّما غَزَوْهم مِن يومِ بدرٍ فما بَعْدَه[٢]؟!

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ لِفسقِهِم، أو لعدَمِ مَغفرتِه تعالَى لَهُم[٣].

- وقد ثبَت أنَّ قائِلَ هذه المقالةِ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنُ سَلولَ؛ فإسنادُ هذا القَولِ إلى ضَميرِ المُنافِقينَ لأنَّهم تَقبَّلوهَ مِنه؛ إذْ هو رأسُ المُنافِقينَ، أو فَشَا هذا القولُ بيْنَ المُنافِقينَ فأخَذوا يَبُثُّونَه في المُسلِمينَ[٤].

- وافتُتِحَتِ الجُملةُ بضميرِهمُ الظَّاهِرِ دونَ الاكتِفاءِ بالمُسْتَتِرِ في ﴿يَقُولُونَ﴾؛ مُعامَلةً لهم بنقيضِ مَقصودِهم؛ فإنَّهم ستَروا كيدَهم بإظهارِ قصْدِ النَّصيحةِ، ففضَحَ اللهُ أمْرَهم بمَزيدِ التَّصريحِ، أي: قد علِمْتُ أنَّكُم تقولونَ هذا. وفي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

إظهارِ الضَّميرِ أيضًا تعريضٌ بالتَّوبيخِ، ولِيَكونَ للجملةِ الاسميَّةِ إفادةُ ثباتِ الخبرِ، وليكونَ الإتيانُ بالموصولِ مُشعِرًا بأنَّهم عُرِفوا بهذه الصِّلةِ[١].

- قولُه: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ صِيغةُ المضارِعِ في ﴿يَقُولُونَ﴾ تُشعِرُ بأنَّ هذه المَقالةَ تتكرَّرُ مِنْهم لقَصْدِ إفشائِها[٢].

- قولُه: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ إنْ كان اللهُ تعالَى حكَى نصَّ كَلامِهم، فقولُهم: ﴿عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ هو على سَبيلِ الهُزءِ، أو لِكَونِه جَرَى عِندَهم مَجْرَى اللَّعِبِ، أي: هو معروفٌ بإطلاقِ هذا اللَّفظِ عليه؛ إذْ لو كانوا مُقِرِّينَ برسالتِه ما صدَرَ منهم ما صدَرَ، فالظَّاهرُ أنَّهم لم يَنطِقوا بنَفْسِ ذلك اللَّفظِ، ولكنَّه تعالَى عبَّرَ بذلك عن رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إكرامًا له وإجلالًا[٣]. وقيل: إنَّه صَدَر مِن عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ ومَن معه مِن المُنافِقين بهذا اللَّفظِ؛ إذا كانوا قالوا ذلك جَهرًا في ملأِ المسلِمينَ؛ إذ هم يَتظاهَرونَ ساعتَئِذٍ بالإسلامِ[٤].

- وحرفُ (حَتَّى) مُستعمَلٌ في التَّعليلِ؛ لأنَّ معنى (حَتَّى) انتهاءُ الفِعلِ المذكورِ قبْلَها، وغايةُ الفِعلِ يَنتهي الفاعِلُ عن الفِعلِ إذا بلَغَها؛ فهي سبَبٌ للانتهاءِ وعِلَّةٌ له، وليس المرادُ: فإذا انفَضُّوا فأنفِقوا عليهِم[٥].

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾، وفيه إبطالٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠١).

لِمَكْرِ المُنافِقينَ، وردٌّ وإبطالٌ لِمَا زعَمُوا مِن أنَّ عدمَ إنفاقِهم يُؤدِّي إلى انفضاضِ الفقراءِ مِن حَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ببيانِ أنَّ خزائنَ الأرزاقِ بيَدِ اللهِ تعالَى خاصَّةً، يُعطِي مَن يشاءُ، ويمنعُ مَن يشاءُ، وهذا جوابٌ مِن بابِ طريقةِ النَّقْضِ لكلامِهم[١].

- قولُه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اللَّامُ في (لِلَّهِ) للمِلْكِ، أي: التَّصرُّفُ في ذلك مِلْكٌ للَّهِ تعالى[٢].

- ولَمَّا كان الإنفاقُ على فُقراءِ المُسلِمينَ ممَّا يُعِينُ على ظُهورِ الدِّينِ الَّذي أرسَلَ اللهُ به رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، كان الإخبارُ بأنَّ الخزائنَ للَّهِ كِنايةً عن تيسيرِ اللهِ تعالَى لرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم حصولَ ما يُنفِقُ منه، وذلك بما يسَّره اللهُ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن زَكَواتِ المُسلِمينَ وغنائمِ الغزَواتِ، وما فتَحَ اللهُ عليه مِنَ البلادِ بخَيْراتِها، وما أفاءَ اللهُ عليه بغَيرِ قتالٍ[٣].

- وتَقديمُ المجرورِ مِن قولِه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لإفادةِ قصْرِ القَلبِ[٤]، وهو قلبٌ للازمِ قولِهم لا لصريحِه؛ لأنَّ المُنافِقينَ لَمَّا قالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٧]، حسِبوا أنَّهم إذا قطَعوا الإنفاقَ على مَن عِندَ رسولِ اللهِ لا يَجِدُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يُنفِقُ مِنه عليهم، فأعلَمَ اللهُ رسولَه مُباشَرةً، وأعلَمَهم تَبَعًا بأنَّ ما عِندَ اللهِ مِنَ الرِّزقِ أعظَمُ وأوسَعُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

- واستِدراكُ قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لرفْعِ ما يُتَوهَّمُ مِن أنَّهم حِينَ قالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ كانوا قالوهُ عن بصيرةٍ ويقينٍ بأنَّ انقطاعَ إنفاقِهم على الَّذينَ يَلُوذونَ برسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقطَعُ رِزقَهُم، فيَنفضُّونَ عنه بِناءً على أنَّ القُدرةَ على الإنفاقِ مُنحصِرةٌ فيهم؛ لأنَّهم أهلُ الأحوالِ -وهذا بِناءً على أنَّ الخِطابَ لأصحابِهم مِن المنافِقينَ-، وقد غفَلوا عن تعدُّدِ أسبابِ الغِنى وأسبابِ الفقرِ، والمعنى: أنَّهم لا يُدرِكونَ دقائقَ المُدرَكاتِ وخَفاياها[1].

- ومَفعولُ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ مَحذوفٌ، أي: لا يَفقَهونَ ذلك، وهو مضمونُ (لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ)، أو نُزِّلَ الفِعلُ مَنزِلةَ اللَّازِمِ؛ مُبالَغةً في انتفاءِ فِقهِ الأشياءِ عنهم في كلِّ حالٍ[2].

- قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث ختَمَه هنا بـ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾، وبَعْدَه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وفي مَعرفتِها غُموضٌ يَحتاجُ إلى فِطْنةٍ وفِقهٍ؛ فناسَبَ نَفْيُ الفِقهِ عنهم، والثَّانيَ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي مَعرفتِها غُموضٌ زائدٌ يَحتاجُ إلى عِلمٍ؛ فناسَبَ نَفْيُ العِلمِ عنهم، فالمعْنى: لا يَعلَمونَ أنَّ اللهَ مُعِزٌّ أولياءَهُ ومُذِلٌّ أعداءَهُ[3]. وقيل: خُصَّ الأوَّلُ بـ﴿لَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٧٥-١٢٧٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٦، ٢٣٧)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٦).

ويُنظر أيضًا: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٧٤).

يَفْقَهُونَ﴾، والثَّاني بـ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ إثباتَ الفِقهِ للإنسانِ أبلَغُ مِن إثباتِ العِلمِ له، فيَكونُ نَفْيُ العِلمِ أبلَغَ مِن نَفْيِ الفِقهِ، فأُوثِرَ ما هو أبلَغُ لِمَا هو أَدْعى له[١]. أو نفيُ العِلمِ فيما ظهرتْ أعلامُه، والفِقهِ فيما خَفيَ أمرُه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ استئنافٌ على أُسلوبِ التَّعدادِ والتَّكريرِ؛ ولذلك لم يُعطَفْ، ومِثلُه يَكثُرُ في مَقامِ التَّوبيخِ، وهذا وصْفٌ لخُبثِ نيَّاتِهم؛ إذْ أرادوا التَّهديدَ وإفسادَ إخلاصِ الأنصارِ وأُخُوَّتِهم مع المُهاجِرينَ بإلْقاءِ هذا الخاطِرِ في نفوسِ الأنصارِ؛ بَذْرًا للفتنةِ والتَّفرِقةِ، وانتهازًا لخصومةٍ طفيفةٍ حدَثَتْ بيْنَ شخصَيْنِ مِن موالي الفريقَيْنِ[٣].

- وصِيغةُ المضارِعِ في حِكايةِ هذه المقالةِ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لاستِحضارِ الحالةِ العجيبةِ[٤].

- وقد أبطَلَ اللهُ كلامَهم بقولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهو جوابٌ بالطَّريقةِ الَّتي تُسمَّى القولَ بالموجَبِ في عِلمِ الجدَلِ، وهي ممَّا يُسمَّى بالتَّسليمِ الجدَلِيِّ في عِلمِ آدابِ البحثِ[٥]، والمعنى: إنْ كان الأعزُّ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١١/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) القولُ بالموجَبِ: هو عبارةٌ عن تسليمِ مقتضَى ما جعَله المستدِلُّ دليلًا لحُكمٍ، مع بقاءِ الخلافِ بيْنَهما فيه. أو: تسليمُ الدَّليلِ معَ بقاء النِّزاعِ، ومعنى ذلك: أن يُسلِّمَ الخَصمُ الدَّليلَ الَّذى استدَلَّ به المُستدِلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدَّليلُ ليس فى محلِّ النِّزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخلافُ =

يُخرِجُ الأذلَّ، فإنَّ المُؤمِنينَ هُمُ الفريقُ الأعزُّ، وعزَّتُهم بكَونِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيهم، وبتأييدِ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأولياءَه؛ لأنَّ عزَّةَ اللهِ هي العزَّةُ الحقُّ المُطلَقةُ، وعزَّةَ غَيرِه ناقِصةٌ، فلا جَرَمَ أنَّ أولياءَ اللهِ هُمُ الَّذينَ لا يُقهَرونَ إذا أراد اللهُ نصرَهُم ووعَدَهُم به؛ فإنْ كان إخراجٌ مِنَ المدينةِ فإنَّما يخرُجُ منها أنتُم يا أهلَ النِّفاقِ[١].

- وتقديمُ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليه في ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾ لقَصْدِ القصْرِ، وهو قصْرُ قلبٍ[٢]، أي: العزَّةُ للَّهِ ولرسولِه وللمُؤمِنينَ، لا لكُمْ كما تَحسَبونَ[٣].

- وإعادةُ اللَّامِ في قولِه: ﴿وَلِرَسُولِهِۦ﴾ مع أنَّ حرفَ العطفِ مُغْنٍ عنها؛ لتأكيدِ عزَّةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّها بسببِ عزَّةِ اللهِ، ووَعْدِه إيَّاه[٤].

- وإعادةُ اللَّامِ أيضًا في قولِه: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ للتَّأكيدِ أيضًا؛ إذْ قد تَخْفى عزَّتُهم، وأكثرُهم في حالِ قِلَّةٍ وحاجةٍ[٥].

- وعُدِلَ عن الإضمارِ في قولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وقد سبَقَ اسمُهم في نظيرِها قبْلَها؛ لتكونَ الجملةُ مُستقِلَّةَ الدَّلالةِ بذاتِها، فتسيرَ سَيْرَ المثَلِ[٦].

---

= بيْنَهما. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٨٩)، ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٣، ١٠٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق))).

## الآيات (٩-١١)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُلۡهِكُمۡ﴾: أي: تَشْغَلْكم، واللَّهْوُ: ما يَشغَلُ الإنسانَ عمَّا يَعْنيه ويُهِمُّه، وأصلُ (لهو): يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بشَيءٍ[1].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

﴿لَوۡلَآ﴾ هي في الأصلِ حَرفُ تَحضيضٍ بمعنى «هَلَّا»، وهي هنا بمعنى التَّمنِّي. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾: الفاءُ: سببيَّةٌ. (أَصَّدَّقَ): فِعلٌ مُضارِعٌ مَنصوبٌ بـ«أن» مُضمَرةً بعدَ فاءِ السَّببيَّةِ في جوابِ التَّمَنِّي. ﴿وَأَكُن﴾ مجزومٌ بالعَطفِ على مَوضِعِ ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ حملًا على المعنى، كأنَّه قال: إنْ أخَّرْتَني أصَدَّقْ وأكنْ مِن الصَّالحينَ؛ لأنَّه لو لم تَدخُلِ الفاءُ لَكان مجزومًا في جوابِ التَّمَنِّي، فعَطَف حملًا على هذا المعنى، واعتقادِ سُقوطِ الفاءِ، ويُقالُ له في غيرِ القُرآنِ: العَطفُ على التَّوَهُّمِ[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٣/ ١٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٤٧٨)، ((شرح المفصل)) =

## المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى المؤمنينَ بالمواظَبةِ على طاعتِه، ويَنهاهم عن أنْ يَشغلَهم عن ذلك شيءٌ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَشْغَلْكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكرِ اللهِ تعالى، ومَن يُشْغَلْ بأموالِه وأولادِه عن ذِكرِ اللهِ تعالى فأولئك هم الخاسِرونَ حَقًّا.

ثمَّ يَحُضُّهم الله سبحانَه على الإنفاقِ قبْلَ فَواتِ الأوانِ، فيقولُ: وتَصَدَّقوا -أيُّها المؤمِنونَ- مِمَّا رَزَقْناكم مِن الأموالِ مِن قَبلِ أن يأتيَ أحَدَكم الموتُ، فيَقولَ عِندَ احتِضارِه: يا رَبِّ هلَّا أمهَلْتَني إلى وَقتٍ قَصيرٍ؛ فأتصدَّقَ وأكونَ مِنَ الصَّالِحينَ! ولن يُؤَخِّرَ اللهُ أحدًا إذا جاء أجَلُه، واللهُ ذو خِبرةٍ تامَّةٍ بجَميعِ أعمالِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان ما حكاه اللهُ سُبحانَه وتعالى عن المُنافِقينَ بحيثُ يُعجَبُ غايةَ العَجَبِ مِن تصَوُّرِ قائِلِه له، فضلًا عن أن يَتفَوَّه به، فكيفَ بأنْ يَعتَقِدَه- نبَّهَ على أنَّ العِلَّةَ المُوجِبةَ له طَمْسُ البصيرةِ، وأنَّ العِلَّةَ في طَمْسِ البصيرةِ الإقبالُ بجَميعِ القَلْبِ على الدُّنيا[1].

وأيضًا فهذا انتِقالٌ مِن كشْفِ أحوالِ المُنافِقينَ المَسوقِ للحذَرِ منهم، والتَّحذيرِ

---

= لابن يعيش (٢/ ١٠٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٤٤)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٥٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩١).

مِن صِفاتِهم، إلى الإقبالِ على خِطابِ المُؤمِنينَ بنَهيِهم عمَّا شأنُه أنْ يَشْغَلَ عن التَّذكُّرِ لِمَا أمَرَ اللهُ ونَهَى، ثُمَّ الأمْرِ بالإنفاقِ في سُبُلِ الخَيرِ في سبيلِ اللهِ، ومَصالِحِ المُسلِمينَ وجماعتِهم، وإسعافِ آحادِهم؛ لِئَلَّا يَستهويَهُم قولُ المُنافِقينَ: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المُنافِقينَ: ٧]، والمُبادَرةِ إلى ذلك قبْلَ إتيانِ الموتِ(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا لا تَشْغَلْكم أموالُكم ولا أولادُكم عن ذِكرِ اللهِ تعالى، كما يَفعَلُ المُنافِقونَ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٤٩، ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

قال القرطبي: (﴿عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عن الحَجِّ والزَّكاةِ. وقيل: عن قِراءةِ القُرآنِ. وقيل: عن إدامةِ الذِّكرِ. وقيل: عن الصَّلَواتِ الخَمسِ. قاله الضَّحَّاكُ. وقال الحَسَنُ: جميعُ الفرائِضِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالذِّكرِ: الصَّلَواتُ المكتوباتُ: مَكِّيُّ بنُ أبي طالب، والواحديُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٨٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الذِّكرَ عامٌّ في جميعِ الطَّاعاتِ: ابنُ عطيَّة، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٢).

وقال أبو حيَّان: (هو عامٌّ في الصَّلاةِ، والثَّناءِ على اللهِ تعالى بالتَّسبيحِ والتَّحميدِ وغيرِ ذلك، والدُّعاءِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٤).

وقال ابنُ عاشور: (ذِكرُ اللهِ ... يَشملُ الذِّكرَ باللِّسانِ؛ كالصَّلاةِ وتِلاوةِ القُرآنِ، والتَّذَكُّرَ بالعَقلِ؛ كالتَّدَبُّرِ في صِفاتِه، واستِحضارِ امتِثالِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الَّذي يَتلَهَّى بذلك عن ذِكرِ اللهِ يَظُنُّ أنَّه يَربَحُ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، يعني: ولو رَبِحوا في دُنياهم[1].

﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

أي: ومَن يُشْغَلْ بأموالِه وأولادِه عن ذِكرِ اللهِ تعالى فأولئك هم الخاسِرونَ حَقًّا[2].

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ [التغابن: ١٥].

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا حَذَّرَ مِنَ الإقبالِ على الدُّنيا؛ رغَّبَ في بَذْلِها؛ مُخالَفةً للمُنافِقينَ[3].

﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾.

أي: وتَصَدَّقوا -أيُّها المؤمِنونَ- مِمَّا رَزَقْناكم مِن الأموالِ، سواءٌ بالزَّكاةِ المفروضةِ، والنَّفَقاتِ الواجِبةِ، أو بالصَّدَقاتِ المُستَحَبَّةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٢٩)، ((الصلاة)) لابن القيم (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن =

﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

أي: أَنفِقُوا مِن قَبلِ أن يَنزِلَ بأحَدِكم أسبابُ الموتِ، ويُشاهِدَ حُضورَ عَلاماتِه، فيَقولَ عِندَ احتِضارِه: يا رَبِّ هلَّا أمهَلْتَني فتُؤخِّرَ مَوتي إلى وَقتٍ قَصيرٍ، فأتصدَّقَ وأكونَ مِنَ العامِلينَ بطاعتِك[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ * وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٤، ٤٥].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠].

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى زاد في الحَثِّ على المُبادَرةِ بالطَّاعاتِ قبْلَ الفَواتِ، فقال[2]:

﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾.

---

= عطية)) (٥/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٢، ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٧).

أي: ولن يُؤَخِّرَ اللهُ أجَلَ أيِّ أحَدٍ، فيَزيدَ في عُمُرِه إذا حَضَرَ وَقتُ مَوتِه[١].

﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

أي: واللهُ ذو خِبرةٍ تامَّةٍ بالِغةٍ بجَميعِ أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها، ظاهِرِها وباطِنِها، ونيَّاتِكم بها، ومَقاصِدِكم منها، لا يَخْفى عليه شَيءٌ مِن ذلك، وسيُجازيكم عليه[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ مُقتضى الإيمانِ ألَّا يُباليَ المؤمِنُ بعِزَّةِ المالِ والوَلَدِ مع عِزَّةِ اللهِ[٣].

٢- ذَمَّ اللهُ تعالى مَن ألهاه مالُه وولدُه عن ذِكْرِه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾[٤].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ فيه تَنبيهٌ على المحافظةِ على الذِّكرِ قبْلَ الموتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٦٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٦).

قال الرازي: (المفسِّرون على أنَّ هذا خِطابٌ جامِعٌ لكُلِّ عَمَلٍ خَيرًا أو شَرًّا). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٠).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٠).

٤- قال أبو حازمٍ: (كلُّ ما شغلَكَ عن اللهِ من مالٍ أو وَلَدٍ، فهو عليك شُؤمٌ)[١].

٥- قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ يأمُرُ اللهُ تعالى عِبادَه المُؤمِنينَ بالإكثارِ مِن ذِكْرِه؛ فإنَّ في ذلك الرِّبحَ والفَلاحَ، والخَيراتِ الكَثيرةَ، ويَنهاهم أن تَشغَلَهم أموالُهم وأولادُهم عن ذِكْرِه؛ فإنَّ محبَّةَ المالِ والأولادِ مَجبولٌ عليها أكثَرُ النُّفوسِ، فتُقَدِّمُها على محبَّةِ اللهِ، وفي ذلك الخَسارةُ العظيمةُ[٢].

٦- قولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ فيه أنَّ الاشتِغالَ بالأموالِ والأولادِ الَّذي لا يُلْهي عن ذِكرِ اللهِ: ليس بمذمومٍ، وله مَراتِبُ[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ أي: العَريقونَ في الخَسارةِ، حتَّى كأنَّهم كانوا مختَصِّينَ بها دونَ النَّاسِ، وذلك ضِدُّ ما أرادوا بتوفيرِ النَّظَرِ إليهم، والإقبالِ عليهم مِن السَّعيِ للتَّكثيرِ والزِّيادةِ والتَّوفيرِ، وفي إفهامِه أنَّ مَن شغَلَه ما يُهِمُّه مِن أمرِ دِينِه الَّذي أمَرَه سبحانه به، ونهاه عن إضاعتِه، وتوَعَّدَه عليها: كفاه سبحانَه أمْرَ دُنياه الَّذي ضَمِنَه له، ونهاه أن يجعَلَه أكبَرَ هَمِّه، وتوعَّدَه على ذلك[٤].

٨- قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا إرشادٌ مِنَ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٧٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص:٨٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٩٣).

تعالى للمُؤمِنينَ لِيَكونوا على استِعدادٍ للمَوتِ في كُلِّ وَقتٍ، فلا يُؤَخِّروا ما يُهِمُّهم عمَلُه ونَيلُ ثَوابِه؛ فما مِن أحَدٍ يُؤَخِّرُ العَمَلَ الَّذي يَسُرُّه أن يَعمَلَه ويَنالَ ثَوابَه إلَّا وهو مُعَرَّضٌ لأن يأتيَه الموتُ عن قَريبٍ أو يفاجِئَه؛ فعليه بالتَّحَرُّزِ الشَّديدِ مِن هذا التَّفريطِ في كُلِّ وَقتٍ وحالٍ، فرُبَّما تعَذَّرَ عليه التَّدارُكُ بفجأةِ الفَواتِ، أو وَهْنِ المقدِرةِ؛ فإنَّه إن كان لم تُطاوِعْه نفْسُه على العَمَلِ الصَّالحِ قبْلَ الفَواتِ، فكيف يتمَنَّى تأخيرَ الأجَلِ المحتومِ[1]؟!

٩- قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ذكَّرَ اللهُ تعالى المُؤمِنينَ بما في الإنفاقِ مِنَ الخَيرِ بأنَّ عليهِم أنْ يُكثِروا مِنه ما داموا مُقتدِرينَ قبْلَ الفَوْتِ، أي: قبْلَ تعذُّرِ الإنفاقِ والإتيانِ بالأعمالِ الصَّالحةِ، وذلك حِينَ يُحِسُّ المرءُ بحالةٍ تُؤذِنُ بقُرْبِ الموتِ، ويُغلَبُ على قُواهُ، فيَسألُ اللهَ أنْ يؤخِّرَ موتَه ويَشفيَه؛ ليأتيَ بكثيرٍ ممَّا فرَّطَ فيه مِنَ الحسناتِ؛ طمَعًا أنْ يُستجابَ له، فإنْ كان في أجَلِه تأخيرٌ فلعلَّ اللهَ أنْ يستجيبَ له، فإنْ لم يكُنْ في الأجَلِ تأخيرٌ أو لم يُقدِّرِ اللهُ له الاستجابةَ، فاته خَيرٌ كثيرٌ[2].

١٠- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ في قَولِه تعالى: ﴿مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإنفاقَ المأمورَ به شُكرٌ للهِ على ما رَزَق المُنفِقَ؛ فإنَّ الشُّكرَ صَرفُ العَبدِ ما أنعَمَ اللهُ به عليه فيما خُلِقَ مِن أجْلِه، ويُعرَفُ ذلك مِن تِلقاءِ الشَّريعةِ[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ حَضٌّ على المبادَرةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥٢).

ومسابَقةِ الأجَلِ بالعَمَلِ الصَّالحِ[١]؛ حِذارًا أن يجيءَ الأجلُ وقد فرَّط ولم يَستعِدَّ للقاءِ الله[٢].

١٢- قال الله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ كُلُّ مُفَرِّطٍ يَندَمُ عندَ الاحتِضارِ، ويَسألُ طُولَ المُدَّةِ ولو شيئًا يسيرًا؛ يَستَعتِبُ ويَستَدرِكُ ما فاته، وهيهاتَ! كان ما كان، وأتَى ما هو آتٍ، وكُلٌّ بحَسَبِ تفريطِه[٣]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إنْ قِيلَ: لِماذا لم يَقُلْ: (لا تَشغَلْكم)؟

**فالجوابُ**: أنَّ مِن الشُّغلِ ما هو محمودٌ؛ فقد يكونُ شُغلًا في حَقٍّ، كما جاء في الحديثِ: ((إنَّ في الصَّلاةِ لَشُغْلًا))[٤]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥]، أمَّا الإلهاءُ فمِمَّا لا خيرَ فيه، وهو مَذمومٌ على وَجهِ العُمومِ، فاختار ما هو أحَقُّ بالنَّهيِ[٥].

٢- المحبَّةُ الطَّبيعيَّةُ وهي: مَيلُ الإنسانِ إلى ما يُلائِمُ طَبْعَه؛ كمَحَبَّةِ العَطشانِ للماءِ، والجائعِ للطَّعامِ، ومحبَّةِ النَّومِ والزَّوجةِ والوَلَدِ؛ فتلك لا تُذَمُّ إلَّا إذا أَلْهَتْ عن ذِكْرِ اللهِ تعالى، وشَغلَتْ عن مَحَبَّتِه، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٣).

(٤) أخرجه البخاريُّ (١٢١٦)، ومسلمٌ (٥٣٨) من حديث عبدِ الله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((لمسات بيانية)) فاضل السامرائي (ص: ١٧٩).

ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[١].

٣- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فيه دليلٌ على قَولِ عُلَماءِ أُصولِ الفِقهِ: (النَّهيُ: اقتِضاءُ كَفٍّ عن فِعلٍ)[٢].

٤- إنَّ كثرةَ ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ أمانٌ مِن النِّفاقِ؛ فإنَّ المُنافِقينَ قليلو الذِّكْرِ للهِ عزَّ وجلَّ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ في المُنافِقينَ: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال كعبٌ: (مَن أكثَرَ ذِكرَ اللهِ عزَّ وجَلَّ بَرِئَ مِنَ النِّفاقِ)؛ ولهذا -واللهُ أعلمُ- خَتَمَ اللهُ تعالى سورةَ (المُنافِقونَ) بقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ فإنَّ في ذلك تحذيرًا مِن فِتنةِ المُنافِقينَ الَّذين غَفَلوا عن ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ، فوَقَعوا في النِّفاقِ. وسُئِلَ بعضُ الصَّحابةِ رضيَ اللهُ عنهم عن الخَوارجِ: (مُنافِقونَ هم؟ قال: لا، المُنافِقونَ لا يَذكُرونَ اللهَ إلَّا قليلًا!)، فهذا مِن علامةِ النِّفاقِ؛ قِلَّةُ ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ. وكثرةُ ذِكْرِه أمانٌ مِن النِّفاقِ، واللهُ عزَّ وجلَّ أكرَمُ مِن أنْ يَبتليَ قلبًا ذاكرًا بالنِّفاقِ، وإنَّما ذلك لقُلوبٍ غَفَلَتْ عن ذِكْرِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٣].

٥- أنَّ دَوامَ الذِّكْرِ لَمَّا كان سببًا لدَوامِ المحبَّةِ، وكان اللهُ سُبحانَه أحقَّ بكمالِ الحُبِّ والعُبوديَّةِ والتَّعظيمِ والإجلالِ؛ كان كثرةُ ذِكْرِه مِن أنْفَعِ ما للعَبدِ، وكان عَدُوُّه حقًّا هو الصَّادَّ له عن ذِكْرِ ربِّه وعبوديَّتِه؛ ولهذا أمَرَ اللهُ سُبحانَه بكَثرةِ ذِكْرِه في القُرآنِ، وجَعَله سببًا للفَلاحِ، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٨٠).

نُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾، وقال تعالى ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ ﴾[1] [البقرة: ١٥٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ -على القولِ بأنَّ المرادَ بـ ﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾: الصَّلاةُ- فيه دَلالةٌ على كُفرِ تاركِ الصَّلاةِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى حَكَمَ بالخُسرانِ المُطْلَقِ لِمَن ألهاه مالُه وولدُه عن الصَّلاةِ، والخُسرانُ المُطْلَقُ لا يَحصُلُ إلَّا للكُفَّارِ؛ فإنَّ المُسلِمَ ولو خَسِرَ بذُنوبِه ومَعاصيه فآخِرُ أمْرِه إلى الرِّبحِ، يُوضِّحُه أنَّه سُبحانَه وتعالى أَكَّدَ خُسرانَ تاركِ الصَّلاةِ في هذه الآيةِ بأنواعٍ مِن التأكيدِ:

**أحدُها**: إتيانُه بلَفظِ الاسمِ الدَّالِّ على ثُبوتِ الخُسرانِ ولُزومِه، دونَ الفِعلِ الدَّالِّ على التَّجَدُّدِ والحُدوثِ.

**الثَّاني**: تصديرُ الاسمِ بالألفِ واللَّامِ المؤدِّيةِ لحصولِ كَمالِ المُسمَّى لهم؛ فإنَّك إذا قُلْتَ: «زيدٌ العالِمُ الصَّالحُ» أفاد ذلك إثباتَ كمالِ ذلك له، بخلافِ قولِك: «عالِمٌ صالحٌ».

**الثالثُ**: إتيانُه سُبحانَه بالمُبتدَأِ والخبرِ مَعْرِفتَينِ، وذلك مِن علاماتِ انحصارِ الخبَرِ في المُبتدَأِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥]، وقَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗا ﴾ [الأنفال: ٤] ونظائِرِه.

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٤٥٠).

**الرَّابعُ**: إدخالُ ضَميرِ الفَصلِ بيْنَ المُبتدَأِ والخبَرِ، وهو يفيدُ مع الفَصلِ فائدتَينِ أُخْرَيَينِ: قُوَّةَ الإسنادِ، واختِصاصَ المسنَدِ إليه بالمُسنَدِ، كقَولِه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الحج: ٦٤]، وقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة: ٧٦]، وقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]، ونظائرِ ذلك الدَّليلِ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ بيانُ أنَّ مَن ألهَتْه هذه الأشياءُ عن ذِكْرِ اللهِ فهو خاسِرٌ مهما رَبِحَ[٢].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يدُلُّ على أنَّ اللهَ تعالى لم يُكَلِّفِ العبادَ مِنَ النَّفَقةِ ما يُعنِتُهم ويَشُقُّ عليهم، بل أمَرَهم بإخراجِ جُزءٍ مِمَّا رزَقَهم اللهُ الَّذي يَسَّرَه لهم، ويَسَّرَ لهم أسبابَه[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ سُؤالٌ: أنَّه يُشْكِلُ على هذا قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن أحبَّ أنْ يُبْسَطَ له في رِزْقِه، ويُنْسَأَ له في أَثَرِه؛ فلْيَصِلْ رَحِمَه))[٤]؛ فإنَّ هذا يُفيدُ بأنَّ الإنسانَ إذا وَصَلَ رَحِمَه زِيدَ في عُمُرِه!

**والجواب**: أنَّ الَّذي سبَقَ في عِلمِ الله لا يَتغيَّرُ ولا يتبدَّلُ، ومِن ذلك العُمُرُ، فالَّذي في علمِ الله لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ، ويُقالُ له: القضاءُ المبرَمُ، والَّذي في علمِ المَلَكِ هو الَّذي يُمكنُ فيه الزِّيادةُ والنَّقصُ، ويُقالُ له القضاءُ المُعلَّقُ، كأن يُقالَ للمَلَكِ مثلًا: إنَّ عُمرَ فُلانٍ مِئةٌ مثلًا إن وصَل رحِمَه، وسِتُّون إن قطَعها، وقد سبَق في عِلمِ الله أنَّه يصِلُ أو يَقْطعُ. فالزِّيادةُ في العُمُرِ والنَّقصِ تتعلَّقُ بما في

---

(١) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٥).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٥٩٨٦)، ومسلمٌ (٢٥٥٧) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

عِلمِ الحَفَظةِ والمُوكَّلينَ بالآدَميِّ، كأعمالِ اليَومِ واللَّيلةِ الَّتي تَكتُبُها الملائِكةُ، ويجعَلُ اللهُ لثُبوتِها أسبابًا ولِمَحوِها أسبابًا، لا تتعَدَّى تلك الأسبابُ ما رُسِمَ في اللَّوحِ المحفوظِ، كما جعَلَ اللهُ البِرَّ والصِّلةَ والإحسانَ مِن أسبابِ طُولِ العُمُرِ وسَعةِ الرِّزقِ، وكما جعَلَ المعاصيَ سَببًا لِمَحقِ بَرَكةِ الرِّزقِ والعُمُرِ، وكما جعَلَ أسبابَ النَّجاةِ مِن المهالِكِ والمعاطِبِ سَببًا للسَّلامةِ، وجعَل التَّعَرُّضَ لذلك سببًا للعَطَبِ؛ فهو الَّذي يدَبِّرُ الأمورَ بحَسَبِ قُدرتِه وإرادتِه، وما يُدَبِّرُه منها لا يخالِفُ ما قد عَلِمَه وكتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ[1].

وقيل: الحديثُ لا يَعدُو أنْ يكونَ بيانًا لسَبَبِ طولِ العُمُرِ، وليس معناه أنَّ الإنسانَ له عُمرانِ: عُمُرٌ عندَ قطيعةِ الرَّحِمِ، وعُمُرٌ عندَ صِلَةِ الرَّحِمِ؛ لأنَّ المعلومَ عندَ اللهِ والمكتوبَ عندَه عُمُرٌ واحدٌ مَقْرونٌ بسَبَبٍ، وهو صِلَةُ الرَّحِمِ، فإذا وَصَلَ الإنسانُ رَحِمَه عَلِمْنا أنَّ له عُمُرًا واحدًا زائدًا مقرونًا بالسَّبَبِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾

- لَمَّا نَهَى المُنافِقونَ عن الإنفاقِ على مَن عِندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأُريدَ الحثُّ على الإنفاقِ بقولِه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ [المنافقون: ١٠] رغمًا لأنوفِهم، وتحرِّيًا لِمَا هو الأصوَبُ والأصلَحُ؛ جُعِلَ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ ...﴾ تَمهيدًا وتوطِئةً

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٥٤٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٤١٦) و(١١/ ٤٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٥٠).

للأمْرِ بالإنفاقِ، وعَمَّ العِلَّةَ والحُكمَ[١].

- ونُودِيَ المُخاطَبونَ بطريقِ الموصولِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لِمَا تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِنَ التَّهَمُّمِ لامتثالِ النَّهيِ[٢].

- وصِيغَ الكلامُ في قالَبِ توجيهِ النَّهيِ عن الإلهاءِ عن الذِّكْرِ، إلى الأموالِ والأولادِ، والمرادُ نهْيُ أصحابِها، وهو استِعمالٌ معروفٌ، وقرينتُه هُنا قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وهو مُبالَغةٌ في نهْيِ أصحابِها عن الاشتِغالِ بسببِها عن ذِكْرِ اللهِ؛ فنُزِّلَ سَببُ الإلهاءِ مَنزِلةَ اللَّاهي للمُلابَسةِ بيْنَهما[٣].

- وخُصَّ الأموالُ والأولادُ بتوجُّهِ النَّهيِ عن الاشتِغالِ بها اشتغالًا يُلْهي عن ذِكْرِ اللهِ؛ لأنَّ الأموالَ ممَّا يكثُرُ إقبالُ النَّاسِ على إنمائِها، والتَّفكيرِ في اكتِسابِها؛ بحيثُ تكونُ أوقاتُ الشُّغلِ بها أكثَرَ مِن أوقاتِ الشُّغلِ بالأولادِ، ولأنَّها كما تَشْغَلُ عن ذِكْرِ اللهِ بصَرْفِ الوقتِ في كَسْبِها ونمائِها، تَشْغَلُ عن ذِكْرِه أيضًا بكَنْزِها؛ بحيثُ يُنسَى ذِكْرُ ما دعا اللهُ إليه مِن إنفاقِها. وأمَّا ذِكْرُ الأولادِ فهو إدماجٌ[٤]؛ لأنَّ الاشتِغالَ بالأولادِ، والشَّفقةَ عليهم، وتدبيرَ شُؤونِهم، وقَضاءَ الأوقاتِ في التَّأنُّسِ بهم؛ مِن شأنِه أنْ يُنسِيَ عن تذكُّرِ أمْرِ اللهِ ونهيِه في أوقاتٍ كثيرةٍ؛ فالشُّغلُ بهذَيْنِ أكثَرُ مِنَ الشُّغلِ بغَيرِهما. ومتى كان اللَّهوُ عن ذِكْرِ اللَّهِ بالاشتِغالِ بغَيرِ الأموالِ وغَيرِ الأولادِ، كان أَوْلَى بحُكمِ

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٦٢).

النَّهيِ، والوعيدِ عليهِ[١].

- و(لا) في قولِه: ﴿وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ نافيةٌ عاطفةٌ ﴿أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ على ﴿أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾، والمعطوفُ عليه مدخولُ (لا) النَّاهيةِ؛ لأنَّ النَّهيَ يتضمَّنُ النَّفيَ؛ إذْ هو طلَبُ عدمِ الفِعلِ، فـ(لا) النَّاهيةُ أصلُها (لا) النَّافيةُ أُشْرِبَتْ معنى النَّهيِ عِندَ قصدِ النَّهيِ، فجزَمَتِ الفِعلَ حملًا على مُضادَّةِ معنى لامِ الأمْرِ، فأُكِّدَ النَّهيُ عن الاشتغالِ بالأولادِ بحرفِ النَّفيِ؛ ليكونَ للاشتغالِ بالأولادِ حظٌّ مِثلُ حظِّ الأموالِ[٢].

- قَولُه تعالى: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ وكذلك في قَولِه: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ﴾ [سبأ: ٣٧] وقولِه: ﴿أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ [الأنفال: ٢٨] تقديمُ المالِ على الولدِ؛ وجاء ذِكْرُ البَنينَ مقدَّمًا في غيرِها كما في قَولِه: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا﴾ [التوبة: ٢٤]، وقولِه: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ﴾ [آل عمران: ١٤]؛ ووجهُ ذلك: أنَّ تقديمَ الأموالِ في تلك المواضعِ الثَّلاثةِ لِأنَّه يَنْتَظِمُها معنًى واحدٌ وهو التَّحذيرُ مِن الاشتغالِ بها، والحرصِ على تحصيلِها حتَّى يَفُوتَه حَظُّه مِن اللهِ والدَّارِ الآخرةِ! فنَهَى في موضعٍ عنِ الالتهاءِ بها، وأخبرَ في موضعٍ أنَّها فِتنةٌ، وأخبرَ في موضعٍ آخَرَ أنَّ الَّذي يُقَرِّبُ عبادَه إليه إيمانُهم وعمَلُهم الصَّالحُ، لا أموالُهم ولا أولادُهم، ففي ضِمْنِ هذا النَّهيُ عن الاشتغالِ بها عمَّا يُقَرِّبُ إليه، ومعلومٌ أنَّ اشتغالَ النَّاسِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥١).

بأموالِهم والتَّلاهيَ بها أعظمُ مِن اشتغالِهم بأولادِهم، وهذا هو الواقعُ، حتَّى إنَّ الرَّجُلَ لَيستغرقُه اشتغالُه بمالِه عن مصلحةِ وَلَدِه وعن معاشرتِه وقُرْبِه، وأمَّا تقديمُهم على الأموالِ في تَيْنك الآيتَين فلِحكمةٍ باهرةٍ؛ وهي أنَّ آيةَ «براءة» متضمِّنةٌ لوعيدِ مَن كانت تلك الأشياءُ المذكورةُ فيها أحَبَّ إليه مِن الجهادِ في سبيلِ اللهِ، ومعلومٌ أنَّ تَصَوُّرَ المجاهدِ فِرَاقَ أهلِه وأولادِه وآبائه وإخوانِه وعشيرتِه تمنعُه مِن الخروجِ عنهم أكثرَ ممَّا يمنعُه مفارقتُه مالَه؛ فإنْ تَصَوَّرَ معَ هذا أنْ يُقتَلَ فيُفَارِقَهم فِراقَ الدَّهرِ؛ نَفَرَتْ نفْسُه عن هذه أكثرَ وأكثرَ، ولا يكادُ عندَ هذا التَّصوُّرِ يَخْطُرُ له مُفارَقةُ مالِه! بل يغيبُ بمُفارَقةِ الأحبابِ عن مفارقةِ المالِ؛ فكان تقديمُ هذا الجنسِ أَولى مِن تقديمِ المالِ.

وأمَّا آيةُ (آل عمران)؛ فإنَّها لما كانت في سياقِ الإخبارِ بما زُيِّن للنَّاسِ مِن الشَّهواتِ التي آثَروها على ما عندَ الله واستَغْنَوا بها، قدَّم ما تَعَلُّقُ الشَّهوةِ به أقوَى، وهو النِّساءُ، التي فتنتُهنَّ أعظمُ فِتنِ الدُّنيا، ثمَّ ذكَر البنينَ المتولِّدينَ منهنَّ، فالإنسانُ يشتهي المرأةَ للَّذةِ والولدِ، وكلاهما مقصودٌ له لذاتِه، ثمَّ ذكَر شهوةَ الأموالِ؛ لأنَّها تُقْصَدُ لغيرِها، فشهوتُها شهوةُ الوسائلِ[1].

وقيل: قدَّمَ ذِكْرَ الأموالِ على ذِكْرِ الأولادِ هنا؛ لأنَّها أهمُّ بحسَبِ السِّياقِ[2].

- قولُه: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في تَخصيصِ ذِكرِ ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ذلك الإيثارَ في معْنى الاستِبدالِ، الَّذي هو بمَنزلةِ البيعِ والشِّراءِ. وفي التَّعريفِ الجنسيِّ في ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وتَوسيطِ ضَميرِ الفصلِ بيْنَه وبيْنَ المبتدأِ؛ إشعارٌ بأنَّ الكاملينَ في الخسارةِ هؤلاء، وأنَّ خَسارَهم

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٠).

فوقَ كلِّ خُسرانٍ؛ حيثُ باعوا العظيمَ الباقيَ بالحقيرِ الفاني، وإنْ رَبِحوا في تجارتِهمُ الظَّاهرةِ، ودخَلَ في هذا العمومِ وعيدُ كلِّ مَن ذَهَلَ عن الجهادِ في سبيلِ اللهِ، وشُغِلَ عن الأمْرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المُنكَرِ، وعن طلَبِ العِلمِ، وعن النَّصيحةِ للمُسلِمينَ؛ بسببِ مُراعاةِ شأنِ الأموالِ والأولادِ[١].

- وأفاد ضميرُ الفَصلِ (هم) في قولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ قَصْرَ صفةِ الخاسرِ على الَّذينَ يَفعلونَ الَّذي نُهُوا عنه، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٢] للمُبالَغةِ في اتِّصافِهِم بالخُسرانِ، كأنَّ خُسرانَ غَيرِهم لا يُعَدُّ خُسرانًا بالنِّسبةِ إلى خُسرانِهم[٣].

- والإشارةُ إليهم بقولِه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ للتَّنبيهِ على أنَّهُمُ اسْتحَقُّوا ما بعْدَ اسمِ الإشارةِ؛ بسببِ ما ذُكِرَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ، أَعْني: اللَّهوَ عن ذِكْرِ اللهِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ هذا إبطالٌ ونقضٌ لكَيدِ المُنافِقينَ حِينَ قالوا: ﴿لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ٧]، وهو يَعُمُّ الإنفاقَ على المُلتفِّينَ حولَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والإنفاقَ على غَيرِهِم؛ فكانت الجملةُ كالتَّذييلِ[٥].

- و(مِن) للتَّبعيضِ، أي: وأنفِقوا بعضَ ما رزَقْناكم، وهذه تَوسعةٌ مِنَ اللهِ على عبادِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٤١).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق))

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥٣).

- قولُه: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ فيه تقديمُ المفعولِ ﴿أَحَدَكُمُ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾؛ لِلاهتمامِ بما قُدِّمَ، والتَّشويقِ إلى ما أُخِّرَ(١).

- قولُه: ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (لولا) حرفُ تَحضيضٍ، والتَّحضيضُ الطَّلَبُ الحَثِيثُ المُضْطَرُّ إليه(٢).

- وحقُّ الفِعلِ بعدَ (لولا) أنْ يكونَ مُضارِعًا، وإنَّما جاء ماضيًا هنا ﴿أَخَّرۡتَنِيٓ﴾؛ لتأكيدِ إيقاعِه في دُعاءِ الدَّاعي حتَّى كأنَّه قد تحقَّقَ، وقرينةُ ذلك ترتيبُ فِعْلَيْ ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ عليهِ(٣).

- ووصْفُ الأجَلِ بـ﴿قَرِيبٖ﴾ تَمهيدٌ لتحصيلِ الاستجابةِ، بِناءً على مُتعارَفِ النَّاسِ أنَّ الأمرَ اليسيرَ أرْجَى لِأنْ يَستجيبَه المسؤولُ، فيغلِبَ ذلك على شعورِهم حِينَ يَسألونَ اللهَ فتَنساقُ بذلك نفوسُهم إلى ما عرَفوا(٤).

- قولُه: ﴿وَأَكُن﴾ مَجزومٌ بسكونِ آخِرِه، على اعتبارِه جوابًا للطَّلَبِ مُباشَرةً؛ لعدمِ وجودِ فاءِ السَّببيَّةِ فيه، واعتبارِ الواوِ عاطفةً جملةً على جملةٍ، وليستْ عاطفةً مفردًا على مفردٍ؛ وذلك لقَصْدِ تَضمينِ الكلامِ معنى الشَّرطِ زِيادةً على معنى التَّسبُّبِ، فيُغْنِي الجزمُ عن فِعلِ شرطٍ، فتقديرُهُ: إنْ تؤخِّرْني إلى أجَلٍ قريبٍ أكُنْ مِنَ الصَّالِحينَ؛ جمعًا بيْنَ التَّسبُّبِ المُفادِ بالفاءِ، والتَّعليقِ الشَّرطيِّ المُفادِ بجزمِ الفِعلِ. وإذْ قد كان الفِعلُ الأوَّلُ هو المُؤثِّرَ في الفِعلَيْنِ الواقِعِ أحَدُهُما بعْدَ فاءِ السَّببيَّةِ، والآخَرُ بعدَ الواوِ العاطفةِ عليهِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فقَدْ أفاد الكلامُ التَّسبُّبَ والتَّعليقَ في كِلا الفِعلَينِ، وذلك يرجِعُ إلى مُحسِّنِ الاحتباكِ[١]، فكأنَّه قيل: لولا أخَّرْتني إلى أجَلٍ قريبٍ فأصَّدَّقَ وأكونَ مِن الصَّالحينَ، إنْ تؤخِّرْني إلى أجَلٍ قريبٍ أصَّدَّقْ وأكُنْ مِنَ الصَّالِحينَ. ومِن لطائفِ هذا الاستعمالِ أنَّ هذا السَّائلَ بعْدَ أنْ بثَّ سؤالَه أعقَبَه بأنَّ الأمْرَ مُمكِنٌ، فقال: إنْ تؤخِّرْني إلى أجَلٍ قريبٍ أصَّدَّقْ وأكُنْ مِنَ الصَّالِحينَ، وهو مِن بَدائعِ الاستِعمالِ القرآنيِّ لقَصْدِ الإيجازِ وتوفيرِ المعاني[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ اعتِراضٌ في آخِرِ الكلامِ؛ فالواوُ اعتراضيَّةٌ تذكيرًا للمُؤمِنينَ بالأجَلِ لكلِّ رُوحٍ عندَ حُلولِها في جسدِها حينَ يُؤمَرُ المَلَكُ الَّذي يَنفُخُ الرُّوحَ بكَتْبِ أجَلِه وعمَلِه ورزقِه، وشقِيٌّ أو سعيدٌ؛ فالأجَلُ هو المُدَّةُ المُعيَّنةُ لحياتِه، لا يُؤَخَّرُ عن أمَدِه، فإذا حضَرَ الموتُ كان دعاءُ المُؤمِنِ اللهَ بتأخيرِ أجَلِه مِنَ الدُّعاءِ الَّذي لا يُستجابُ؛ لأنَّ اللهَ قدَّرَ الآجالَ[٣].

- ﴿وَلَن﴾ لتأكيدِ نفيِ التَّأخيرِ. وعمومُ ﴿نَفۡسًا﴾ في سِياقِ النَّفيِ يَعُمُّ نفوسَ المُؤمِنينَ وغَيرِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ﴾ [المنافقون: ٩]، أو تذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ، ويُفيدُ بِناءُ الخبرِ على

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٥).

الجملةِ الاسميَّةِ تحقيقَ عِلمِ اللهِ بما يعمَلُه المُؤمِنونَ. ولَمَّا كان المُؤمِنونَ لا يُخامِرُهم شكٌّ في ذلك، كان التَّحقيقُ والتَّقَوِّي راجعًا إلى لازمِ الخبرِ، وهو الوعدُ والوعيدُ، والمقامُ هُنا مقامُهما؛ لأنَّ الإنفاقَ المأمورَ به مِنه الواجبُ والمندوبُ، وفِعلُهما يَستحِقُّ الوعْدَ، وترْكُ أوَّلِهما يَستحِقُّ الوعيدَ[1].

- وأيضًا في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ إيثارُ وصْفِ ﴿خَبِيرُۢ﴾ دونَ (عليمٍ)؛ لِمَا تُؤْذِنُ به مادَّةُ خَبيرٍ مِنَ العِلمِ بالأمورِ الخفيَّةِ؛ ليُفِيدَ أنَّه تعالَى عليمٌ بما ظهَرَ مِنَ الأعمالِ وما بَطَنَ؛ مِثلَ أعمالِ القلبِ الَّتي هي العزائمُ والنِّيَّاتُ، وإيقاعُ هذه الجملةِ بعْدَ ذِكْرِ ما يقطَعُه الموتُ مِن ازْديادِ الأعمالِ الصَّالحةِ إيماءٌ إلى أنَّ ما عسى أنْ يقطَعَه الموتُ مِنَ العزمِ على العملِ إذا كان وقتُه المُعيَّنُ له شرعًا مُمْتَدًّا، كالعُمرِ للحجِّ على المُستطيعِ لِمَن لم يتوقَّعْ طُرُوَّ مانعٍ، وكالوقتِ المختارِ للصَّلواتِ؛ أنَّ حَيلولةَ الموتِ دونَ إتْمامِه لا يُرزِئُ المؤمنَ ثَوابَه؛ لأنَّ المؤمنَ إذا اعتادَ حِزبًا، أو عزَمَ على عملٍ صالحٍ، ثمَّ عرَضَ له ما مَنَعَه منه؛ أنَّ اللهَ يُعطِيه أجْرَه[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ التَّغابُنِ

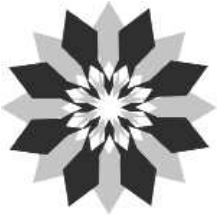

# سورةُ التَّغابُنِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (التَّغابُنِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ التَّغابُنِ مُختَلَفٌ في كَونِها مَدَنيَّةً، أو مَكِّيَّةً، أو مكِّيَّةً مدَنيَّةً[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

بَيانُ حَقيقةِ التَّغابُنِ وأسبابِه وعَواقِبِه، كما تُرشِدُ إلى طريقِ الفَوزِ والفَلاحِ[٣].

---

(١) سُمِّيَت سورةَ التَّغابُنِ؛ لوُقوعِ لَفظِ التَّغابُنِ فيها -ولم يَقَعْ في غيرِها مِنَ القُرآنِ- في قَولِه فيها: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۚ﴾ [التغابن: ٩]، ولا تُعرَفُ بغيرِ هذا الاسمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٨).

قال ابن كثير: (هذه السُّورةُ هي آخرُ المُسبِّحاتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥).

(٢) قال السمعاني: (هي مَدَنيَّةٌ في قولِ الأكْثَرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤٨).

وكذا قال القرطبيُّ، ونسبَ ابنُ الجَوزيِّ وابنُ عاشورٍ هذا القولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٨).

وممَّن اختار أنَّها مكِّيَّةٌ: الرَّازيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٢).

وقيل: مِن قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [التغابن: ١٤] إلى آخِرِ السُّورةِ مَدَنيٌّ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والثعلبي، والفيروزابادي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٢٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٧).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (مدَنيَّةٌ، وفيها مكِّيٌّ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم)) (٧/ ١٨٦، ١٨٩).

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- تسبيحُ المخلوقاتِ للهِ تعالى، وأنَّ المُلْكَ للهِ وَحْدَه، وأنَّه الحقيقُ بإفرادِه بالحَمْدِ، وبيانُ ألوانٍ مِن مَظاهِرِ قُدرتِه، وسَعةِ عِلمِه، ومِنَنِه على خَلْقِه.

٢- إنذارُ المُشرِكينَ بذِكرِ ما حَلَّ بمَن قَبْلَهم مِن الأُمَمِ، مع بيانِ السَّبَبِ فيما نالهم مِن ذلك.

٣- الرَّدُّ على المشركينَ الَّذين زَعَموا أنَّهم لن يُبعَثوا.

٤- المقابَلَةُ بيْنَ حُسنِ عاقبةِ المؤمنينَ، وسُوءِ عاقبةِ الكافِرينَ.

٥- بيانُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ يَقَعُ في هذا الكَونِ هو بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه.

٦- تحريضُ المؤمنينَ على طاعةِ اللهِ تعالى ورَسولِه.

٧- الإخبارُ بأنَّ مِن الأزواجِ والأولادِ أعداءً للمَرءِ، وأنَّ الأموالَ والأولادَ فِتنةٌ.

٨- الحَثُّ على التَّقْوى والإنفاقِ في سبيلِ اللهِ تعالى.

## الآيات (١-٤)

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بالضَّمائِرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها؛ لأنَّها في الصُّدورِ، تَحُلُّها وتُصاحِبُها، وذاتُ: صاحبةُ، مؤنَّثُ (ذو) بمعنى صاحبٍ، وقيل: بحقيقةِ ما في الصُّدورِ، وذاتُ الشَّيءِ: نفْسُه وحَقيقتُه[1].

### المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بأنَّه يُنزِّهُه تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ وما في الأرضِ، وله وَحْدَه المُلْكُ التَّامُّ، وله الحَمدُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه أقسامَ خَلْقِه في هذه الحياةِ، فيقولُ: هو الَّذي أوجَدَكم مِنَ

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٦/ ١٠٠)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٣، ١٣٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥) و(٢٣/ ٣٤٢).

قال ابنُ القَيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليس المرادُ به عليمًا بمُجَرَّدِ الصُّدورِ؛ فإنَّ هذا ليس فيه كَبيرُ أمرٍ، وهو بمنزلةِ أن يُقالَ: عَليمٌ بالرُّؤوسِ والظُّهورِ والأيدي والأرجُلِ، وإنَّما المرادُ به: عليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، أي: بالأسرارِ الَّتي في الصُّدورِ، وصاحِبةِ الصُّدورِ؛ فأضافها إليها بلَفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصُّدورِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٨٤).

العَدَمِ -أيُّها النَّاسُ- فمِنكم كافِرٌ، ومنكم مؤمِنٌ، واللهُ بَصيرٌ بجميعِ أعمالِكم.

ثمَّ يقولُ تعالى: خَلَقَ اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ، وصوَّركم فأحسَنَ صُوَرَكم وأشكالَكم، وإليه مَرجِعُ جَميعِ العِبادِ.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى شُمولَ عِلمِه لكلِّ شيءٍ، فيقولُ: يَعلَمُ سُبحانَه جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، ويَعلَمُ ما تُسِرُّونَه مِنَ الأقوالِ والأعمالِ، وما تُظهِرونَه، واللهُ عليمٌ بما في قُلوبِ عِبادِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١﴾.

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

أي: يُنزِّهُ اللهَ تعالى عن النَّقائِصِ والعُيوبِ جَميعُ ما في السَّمَواتِ، وجَميعُ ما في الأرضِ مِن مخلوقاتِه[1].

﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ﴾.

أي: للهِ وَحْدَه المُلْكُ التَّامُّ المُطلَقُ في الدُّنيا والآخِرةِ، فهو مُتصَرِّفٌ في جميعِ خَلْقِه، ماضٍ فيهم حُكْمُه، نافِذٌ فيهم أمْرُه[2].

﴿وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ﴾.

أي: هو وَحْدَه المحيطُ بصِفاتِ الكَمالِ، وهو المُستَحِقُّ دونَ غَيرِه للثَّناءِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٥٩).

وتسبيحُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ تسبيحٌ حقيقيٌّ بلِسانِ المقالِ، وأيضًا بلِسانِ الحالِ. يُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة (الإسراء) الآية (٤٤)، وأوَّل سورة (الحديد).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

كَمالِ صِفاتِه وأفعالِه، وما يَخلُقُه ويُقَدِّرُه ويَحكُمُ به سُبحانَه[١].

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ ذو قُدرةٍ تامَّةٍ شامِلةٍ على فِعلِ ما يشاءُ، بلا مُمانَعةٍ ولا مُدافَعةٍ، لا يُعجِزُه شَيءٌ سُبحانَه[٢].

ثمَّ ذكَر الله تعالى بعضَ مقدوراتِه، فقال[٣]:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾.

أي: اللهُ هو الَّذي أوجَدَكم مِنَ العَدَمِ -أيُّها النَّاسُ- فمِنكم الكافِرُ الجاحِدُ، ومنكم المؤمِنُ المصَدِّقُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ١١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٧٩)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٤٩٦).

قال السمعاني: (قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ قال عليُّ بنُ أبي طَلْحةَ الوالِبيُّ: خلَقَكم كفَّارًا وخلَقَكم مُؤمنينَ، قاله ابنُ عبَّاسٍ...

والقولُ الثَّاني في الآيةِ أنَّ مَعناها: فمِنكم كافرٌ بأنَّ اللهَ خلَقَه، ومنكم مؤمنٌ ومنكم فاسقٌ. والمعروفُ هو القولُ الأوَّلُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤٨، ٤٤٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المعنى: خَلَقكم كُفَّارًا ومُؤمِنينَ-: الزَّجَّاجُ، والواحدي، وابن كثير، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٧٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، =

= ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ١٩٥). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠٣-١٠٥).

قال ابن جُزَي: (فالإيمانُ والكفرُ على هذا هو ما قضى اللهُ على كلِّ واحدٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٠).

وقال ابنُ كثير: (أي: هو الخالِقُ لكم على هذه الصِّفةِ، وأراد منكم ذلك، فلا بُدَّ مِن وُجودِ مُؤمِنٍ وكافِرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قيل: الفاء في ﴿فَمِنكُمْ﴾ تفصيليَّةٌ؛ فما بعدَ الفاءِ تفصيلٌ لقولِه: ﴿خَلَقَكُمْ﴾، حيث قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، ثمَّ شرَع في البيانِ وقال: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ أي: مُقَدَّرٌ كُفرُه، ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ مُقدَّرٌ إيمانُه. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (٨/ ٥٤٩) و(١٥/ ٤٤٧).

قال الألوسي: (لأنَّ كَوْنَ بعضِهم أو بعضٍ منهم كافرًا، وكونَ بعضِهم أو بعضٍ منهم مؤمنًا مرادٌ منه، فالفاءُ مِثلُها في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ﴾ [النور: ٤٥] إلخ، فيكونُ الكفرُ والإيمانُ في ضِمنِ الخَلقِ، وهو الَّذي تؤيِّدُه الأخبارُ الصَّحيحةُ، كخبَرِ البُخاريِّ «٣٢٠٨» ومسلمٍ «٢٦٤٣» والتِّرمذيِّ «٢١٣٧» وأبي داودَ «٤٧٠٨» عن ابنِ مسعودٍ قال: حدَّثَنا رسولُ الله صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم -وهو الصَّادقُ المصدوقُ-: «إنَّ خَلْقَ أحَدِكم يُجمَعُ في بَطنِ أُمِّه أربعينَ يومًا...» الحديثَ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣١٥).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ في الجملةِ: ابنُ جرير، وابنُ جُزَي، وجوَّزه الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٧٩).

قال ابن جرير: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يقولُ: فمنكم كافرٌ بخالِقه وأنَّه خلَقه. ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ يقولُ: ومنكم مُصَدِّقٌ به، موقنٌ أنَّه خالقُه وبارئُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥).

وقال ابن جزي: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ فكان يجبُ على كلِّ واحدٍ منكم الإيمانُ به، لكنْ مِنكم مَن كفَر ومِنكم مَن آمَنَ، فالكفرُ والإيمانُ على هذا هو مِن اكتسابِ العبدِ...؛ لأنَّ عطْفَه على ﴿خَلَقَكُمْ﴾ بالفاءِ يَقتضي أنَّ الكفرَ والإيمانَ واقِعانِ بعدَ الخِلْقةِ، لا في أصلِ الخِلقةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٠).

قيل: الفاءُ على هذا للتَّرتيبِ، كاللَّامِ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، وهي كالفاءِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ =

كما قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: حدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم -وهو الصَّادِقُ المصدوقُ-: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطنِ أمِّه أربعينَ يَومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَكونُ مُضغةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا فيُؤمَرُ بأربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقيٌّ أو سعيدٌ، ثمَّ يَنفُخُ فيه الرُّوحَ؛ فإنَّ الرَّجُلَ منكم لَيَعمَلُ حتَّى ما يكونُ بيْنَه وبيْنَ الجنَّةِ إلَّا ذِراعٌ، فيَسبِقُ عليه كِتابُه، فيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ النَّارِ، ويَعمَلُ حتَّى ما يكونُ بيْنَه وبيْنَ النَّارِ إلَّا ذِراعٌ، فيَسبِقُ عليه الكِتابُ، فيَعمَلُ بعَمَلِ أهلِ الجنَّةِ))[١].

وعن عَليِّ بنِ أبي طالِبٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((كُنَّا في جِنازةٍ في بَقيعِ الغَرْقَدِ، فأتانا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقَعَد وقعَدْنا حَوْلَه، ومعه مِخْصَرةٌ[٢]، فنَكَّسَ[٣] فجَعَلَ يَنكُتُ[٤] بمِخْصَرتِه، ثمَّ قال: ما مِنْكم مِن أحدٍ، ما مِن نَفْسٍ مَنفُوسةٍ إلَّا وقد كَتَب اللهُ مَكانَها مِنَ الجنَّةِ والنَّارِ، وإلَّا وقد كُتِبَت شَقيَّةً أو سعيدةً! فقال رجُلٌ: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نَمكُثُ على كِتابِنا، ونَدَعُ العَمَلَ؟! فقال: مَن كان مِن أهلِ السَّعادةِ فسيَصيرُ إلى عَمَلِ أهلِ السَّعادةِ، ومَن كان مِن أهلِ الشَّقاوةِ فسيَصيرُ إلى

---

= فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ٢٦]، وليست للتَّفصيلِ. يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٤٦)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٠٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣١٥).

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٤٣).

(٢) المِخْصَرةُ: ما يَختَصِرُه الإنسانُ بيَدِه فيُمسِكُه مِن عَصًا، أو عُكَّازةٍ، أو مِقْرَعةٍ، أو قَضيبٍ، وقد يَتَّكِئُ عليه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٦).

(٣) نَكَّسَ: أي: خَفَض رأسَه وطأطأ إلى الأرضِ على هيئةِ المهمومِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٩٥).

(٤) يَنكُتُ: أي: يَخُطُّ بها خَطًّا يَسيرًا مرَّةً بعدَ مرَّةٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٩٥).

عَمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ، اعمَلوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ؛ أمَّا أهلُ السَّعادةِ فيُيَسَّرونَ لعَمَلِ أهلِ السَّعادةِ، وأمَّا أهلُ الشَّقاوةِ فيُيَسَّرونَ لعمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ، ثمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠]))[١].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: واللهُ الَّذي خلَقَكم بَصيرٌ بجميعِ أعمالِكم؛ خَيرِها وشَرِّها، يَراها ويَعلَمُها، لا يَخْفى عليه شَيءٌ منها، وسيُجازيكم عليها[٢].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى خَلْقَ الإنسانِ المكَلَّفِ المأمورِ المنْهيِّ؛ ذكَرَ خَلْقَ باقي المخلوقاتِ[٣].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: خَلَق اللهُ السَّمَواتِ والأرضَ بالعَدلِ والحِكمةِ، ولم يَخلُقْهما باطِلًا ولا عَبَثًا[٤].

---

(١) رواه البخاريُّ (١٣٦٢)، ومسلمٌ (٢٦٤٧) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١).

قال ابنُ كثير: (هو البَصيرُ بمَن يَستَحِقُّ الهِدايةَ مِمَّن يَستَحِقُّ الضَّلالَ، وهو شَهيدٌ على أعمالِ عِبادِه، وسيَجزيهم بها أتمَّ الجَزاءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٤، ٢٦٥).

قيل: المعنى: خلَقَهما بالعَدلِ والإنصافِ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني. =

كما قال تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾.

أي: وصوَّركم اللهُ فأحسَنَ أشكالَكم، وتخطيطَ خِلقَتِكم، فصِرْتُم ذَوِي شَكلٍ

---

= يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٤٩٩)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٤٩).

وقيل: المعنى: خلَقَهما بالحِكمةِ. وممَّن ذهب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، والبيضاوي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

وممَّن جمَع بيْنَ المعنيينِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥).

وقيل: المعنى: خلَقَهما حقًّا يَقينًا لا رَيبَ فيه. وممَّن ذهب إليه: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤).

وقيل: معنى ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمرِ الَّذي يُطابِقُه الواقِعُ لا زائِدًا عنه ولا ناقِصًا، بل جاء الواقِعُ منها مُطابِقًا لِما أراد سواءً، لا كما يريدُ أحَدُنا الشَّيءَ فإذا أوجَدَه لم يكُنْ على وَفْقِ مُرادِه. قاله البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٠٦، ١٠٧).

والباءُ قيل: هي بمعنى اللَّامِ، أي: خلَق ذلك لإظهارِ الحقِّ، وهو أن يَجزيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه. وقيل: الباءُ للمُلابَسةِ، أي: خلَق ذلك خلْقًا مُلابِسًا للحقِّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٤).

جَميلٍ، ومَنظَرٍ بَهِيٍّ[١].

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤].

﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه مَرجِعُ جَميعِ عِبادِه بعْدَ مَوتِهم[٢].

﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تقرَّر بما مضى إحاطةُ قُدرةِ اللهِ تعالى بما دَلَّ على ذلك مِن إبداعِه للخَلْقِ على هذا الوَجهِ المُحكَمِ، وشَهِدَ البُرهانُ القاطِعُ بأنَّ ذلك صُنعُه وَحْدَه، لا فِعْلَ فيه لطبيعةٍ ولا غَيرِها- دَلَّ على أنَّ ذلك بسَبَبِ شُمولِ عِلْمِه؛ إشارةً إلى أنَّ مَن لم يكُنْ تامَّ العِلمِ فهو ناقِصُ القُدرةِ، فقال[٣]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٥).

قيل: المرادُ: عُمومُ النَّاسِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جريرٍ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كَثيرٍ، واستَظهَرَه الشَّوكانيُّ، وذهب إليه السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وقيل المرادُ: آدَمُ عليه السَّلامُ؛ حيث خلقَه اللهُ تعالى بيَدِه كرامةً له. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠٩).

﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: يَعلَمُ اللهُ جميعَ ما في السَّمواتِ والأرضِ، فلا يَخفَى عليه شَيءٌ مِن خَلْقِه[1].

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

أي: ويَعلَمُ اللهُ ما تُسِرُّونَه فيما بَيْنَكم مِنَ الأقوالِ والأعمالِ، وما تُظهِرونَه منها[2].

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: واللهُ بالِغُ العِلمِ بما في قُلوبِ عِبادِه مِن نيَّاتٍ ومَقاصِدَ، وخَبايا وأسرارٍ، لا يَخفَى عليه شيءٌ مِن ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قال الألوسي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ هودٍ [آية: ٥]: (والمرادُ بذاتِ الصُّدورِ: الأسرارُ المُستَكِنَّةُ فيها، أو القلوبُ الَّتي في الصُّدورِ، ... أي إنَّه تعالى مُبالِغٌ في الإحاطةِ بمُضمَراتِ جميعِ النَّاسِ وأسرارِهم، أو بالقلوبِ وأحوالِها، فلا يَخفى عليه سِرٌّ مِن أسرارِها، فكيف يَخفى عليه ما يُسِرُّونَ وما يُعلِنونَ؟!). ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٩٨).

وقال الرازي في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ آلِ عِمْرانَ [آية: ١٥٤]: (ذاتُ الصُّدورِ هي الأشياءُ الموجودةُ في الصُّدورِ، وهي الأسرارُ والضَّمائرُ، وهي ذاتُ الصُّدورِ؛ لأنَّها حالَّةٌ فيها، مُصاحِبةٌ لها، وصاحبُ الشَّيءِ ذُوه، وصاحِبَتُه ذاتُه). ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٩٧).

وقال ابن جرير: (يقولُ جلَّ ثناؤُه: واللهُ ذو عِلمٍ بضمائرِ صُدورِ عِبادِه، وما تَنطوي عليه نُفوسُهم الَّذي هو أخفى مِن السِّرِّ، لا يَعزُبُ عنه شَيءٌ مِن ذلك. يقولُ تعالى ذِكْرُه لِعِبادِه: احذَروا أن تُسِرُّوا غيرَ الَّذي تُعلِنون، أو تُضْمِروا في أنفُسِكم غيرَ ما تُبْدُونه؛ فإنَّ ربَّكم لا يَخفى عليه مِن ذلك شيءٌ، وهو مُحْصٍ جميعَه، وحافِظٌ عليكم كلَّه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ نَبَّه بعِلْمِه ما في السَّمَواتِ والأرضِ، ثمَّ بعِلْمِه ما يُسِرُّه العِبادُ ويُعلِنونَه، ثمَّ بعِلْمِه ذواتِ الصُّدورِ: أنَّ شَيئًا مِنَ الكُلِّيَّاتِ والجُزئيَّاتِ غَيرُ خافٍ عليه، ولا عازِبٍ عنه؛ فحَقُّه أن يُتَّقى ويُحذَرَ، ولا يُجتَرَأَ على شَيءٍ مِمَّا يُخالِفُ رِضاه[١].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها مِنَ الأسرارِ الطَّيِّبةِ، والخبايا الخَبيثةِ، والنِّيَّاتِ الصَّالِحةِ، والمقاصِدِ الفاسِدةِ، فإذا كان عليمًا بذاتِ الصُّدورِ تَعَيَّنَ على العاقِلِ البَصيرِ أن يَحرِصَ على حِفظِ باطِنِه مِنَ الأخلاقِ الرَّذيلةِ، ويَجتَهِدَ في اتِّصافِه بالأخلاقِ الجَميلةِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ إثباتُ عِلْمِ اللهِ بما في القُلوبِ، ويَتفرَّعُ على هذه الفائدةِ: التَّحذيرُ مِن إضمارِ ما لا يَرضى به اللهُ؛ لأنَّك إذا أَضْمَرْتَ ما لم يَرْضَ به اللهُ فسوف يُحاسِبُك عليه، وإنْ كان لا يبدو للنَّاسِ. فعلى المرءِ أنْ يُحاسِبَ نفْسَه دائمًا، ويَنظُرَ ما في قلْبِه: هل في قلْبِه الخيرُ، وإرادةُ ما يُرضي اللهَ، أو غيرُ ذلك، فعليه أنْ يُطهِّرَ قلبَه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾، وإنَّ كثيرًا ممَّن يكونُ له المُلكُ والغِنَى لا يكونُ محمودًا، بل يكونُ مذمومًا؛ إذِ الحمدُ يتضمَّنُ الإخبارَ عن المحمودِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٤٠).

بمَحاسنِه المحبوبةِ، فيتضَمَّنُ إخبارًا بمَحاسِنِ المحبوبِ محبَّةً له، وكثيرٌ ممَّن له نصيبٌ مِن الحَمدِ والمحبَّةِ يكونُ فيه عَجزٌ وضَعْفٌ وذُلٌّ يُنافي العظَمةَ والغِنى والمُلْكَ؛ فالأوَّلُ يُهابُ ويُخافُ ولا يُحَبُّ، وهذا يُحَبُّ ويُحْمَدُ، ولا يُهابُ ولا يُخافُ! والكمالُ اجتِماعُ الوَصفَينِ[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يدُلُّ على أنَّه خَلَق الكافِرَ كافِرًا، والمؤمِنَ مُؤمِنًا، وهذا مُتَّفَقٌ عليه بيْنَ الصَّحابةِ، وجميعِ أهلِ السُّنَّةِ[٢]، فالله تعالى ذَكَر أنَّه خَلَق العِبادَ، وجَعَل منهم المؤمِنَ والكافِرَ، فإيمانُهم وكُفرُهم كُلُّه بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وهو الَّذي شاء ذلك منهم، بأنْ جَعَل لهم قُدرةً وإرادةً، بها يتمَكَّنونَ مِن كُلِّ ما يُريدونَ مِن الأمرِ والنَّهيِ[٣].

٣- أنَّه لا بُدَّ لبني آدَمَ مِن الاختِلافِ، وهذا هو الواقِعُ، وقد دَلَّت عليه آياتٌ كَثيرةٌ، مِثلُ قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[٤]، وفيه حِكمةُ اللهِ عزَّ وجلَّ في جَعْلِ الخلْقِ يَنقَسِمونَ إلى قِسمَينِ؛ فلولا هذا الانقِسامُ ما ظَهَر فَضْلُ الإيمانِ، ولا شُرِعَ الجهادُ ولا الأمرُ بالمعروفِ والنَّهيُ عن المنكرِ، ولا أُرسِلَتِ الرُّسُلُ، لكنَّ حِكمةَ اللهِ اقتَضَتْ أنْ يكونَ النَّاسُ قِسمَينِ[٥].

٤- قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ وقال: ﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فقسمَ الله سبحانَه النَّاسَ قِسمَينِ،

---

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١٠٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٥٦٤).

ولم يَذكُرْ قِسمًا ثالثًا، وليس فيه دليلٌ على مَذهَبِ الخوارجِ الَّذين يقولونَ: إنَّ النَّاسَ إمَّا مُؤمِنٌ أو كافِرٌ، ولا يمكنُ لأحدٍ أن يَجمَعَ بيْن الإيمانِ والكفرِ؛ لأنَّ المؤمنَ إذا لم يَفعَلْ ما يَخرُجُ به مِن الإيمانِ فإنَّه لا يَصدُقُ عليه وَصفُ الخبيثِ على سَبيلِ الإطلاقِ، بل هو مِن قِسْمِ الطَّيِّبِ، لكِنَّ فيه خُبثًا، وهذا الطِّيبُ غَلَبَ على خُبْثِه، كما أنَّ الكافرَ وإنْ فَعَلَ ما يُحمَدُ عليه كالبرِّ والجُودِ، والشَّجاعةِ وطَلاقةِ الوَجهِ، وما أَشْبَهَ ذلك، هذه خِصالُ إيمانٍ، لكِنَّ خُبْثَه أعظمُ مِن هذه الخِصالِ، فهو مِن قِسْمِ الخُبَثاءِ وليس مِن قِسْمِ الطَّيِّبينَ. إذَن نقولُ: هؤلاء المؤمِنونَ الَّذين عِندَهم صفاتُ كُفْرٍ: مِن قِسْمِ الطَّيِّبِ الَّذي فيه خُبْثٌ، لكِنَّ طِيبَه يَغلِبُ على خُبْثِه، والكُفَّارُ الَّذين فيهم خِصالٌ مِن الطِّيبِ: مِن قِسْمِ الخَبيثِ، لكنَّ الطِّيبَ الَّذي فيهم قدِ انْغَمَرَ في جانبِ الخُبثِ، وعلى هذا فليس هناك قِسْمٌ ثالثٌ، بل هما قِسمانِ[1].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فيه سُؤالٌ: قد كان مِن أفرادِ هذا النَّوعِ مَن كان مُشَوَّهَ الصُّورةِ، سَمِجَ الخِلْقةِ، فكيف أحسَنَ صُوَرَهم؟

**الجوابُ**: أنَّ الحُسنَ كغَيرِه مِن المعاني؛ على طَبَقاتٍ ومراتِبَ؛ فلانحطاطِ بَعضِ الصُّوَرِ عن مراتِبِ ما فَوقَها انحِطاطًا بَيِّنًا، وإضافتِها إلى المُوفي عليها لا تُستملَحُ، وإلَّا فهي داخِلٌ في حَيِّزِ الحُسنِ غَيرُ خارجٍ عن حَدِّه[2]. وقد جعَلَهم أحسَنَ الحيوانِ كُلِّه وأبهاه، بدليلِ أنَّ الإنسانَ لا يتمَنَّى أن تكونَ صُورتُه على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٤٧٦، ٤٧٧).

مِن أُصولِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّه قد يَجتمِعُ في العبدِ بعضُ شُعَبِ الإيمانِ، وبعضُ شُعَبِ الكفرِ أو النِّفاقِ الَّتي لا تُنافي أصْلَ الإيمانِ وحقيقتَه، خِلافًا لِطَوائفِ أهلِ الأهواءِ مِن الخَوارجِ والمُعتزِلةِ والجَهميَّةِ والمُرجئةِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٣٥٣)، ((الإيمان الأوسط)) لابن تيمية (ص: ٣٩٨)، ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٣).

خِلافِ ما يرَى من سائِرِ الصُّوَرِ، ومِن حُسْنِ صُورتِه أنَّه خُلِقَ مُنتَصِبًا غيرَ مُنكَبٍّ، كما قال عزَّ وجَلَّ: ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين: ٤][1]، فصُورةُ الإنسانِ مُستوفيةً الحُسنَ مُتماثِلةً فيه، لا يَعتورُها مِن فَظاعةِ بَعضِ أجزائِها ونُقصانِ الانتفاعِ بها ما يُناكِدُ مَحاسِنَ سائرِها، بخِلافِ مَحاسِنِ أحاسِنِ الحيوانِ مِن الدَّوابِّ والطَّيرِ والحِيتانِ؛ مِن مشْيٍ على أربعٍ، مع انتكاسِ الرَّأسِ غالبًا، أو زحْفٍ، أو وَثْبٍ في المشْيِ في البعضِ، ولا تَعْتَورُ الإنسانَ نقائصُ في صُورتِه إلَّا مِن عوارِضَ تَعْرِضُ في مُدَّةِ تكوينِه، أو مِن عوارِضَ تَعْرِضُ له في مُدَّةِ حياتِه، فتُشوِّهُ بعضَ محاسِنِ الصُّوَرِ، فلا يُعَدُّ ذلك مِن أصلِ تصويرِ الإنسانِ، على أنَّ ذلكَ مع نُدرتِه لا يُعَدُّ فظاعةً، ولكنَّه نَقْصٌ نِسبيٌّ في المحاسنِ[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ تحريمُ التَّصويرِ؛ فإنَّ مَن صَوَّرَ فقد نازعَ اللهَ تعالى فيما هو مِن اختِصاصِه -وهو الخَلْقُ-؛ ولهذا جاء في الحَديثِ أنه يُقالُ للمُصَوِّرينَ يومَ القيامةِ: ((أَحيُوا ما خَلَقْتُم))[3]، وهذا هو الصَّحيحُ: أنَّ التَّصويرَ حرامٌ، بل هو مِن كبائرِ الذُّنوبِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم لَعَنَ فاعِلَه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧، ٥٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٦، ١٠٧).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢١٠٥)، ومسلمٌ (٢١٠٧) مِن حديثِ عائشةَ رضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٤٠).

وحديثُ لعنِ النبيِّ لفاعِلِ التَّصويرِ أخرجه البخاريُّ (٥٣٤٧) مِن حديثِ أبي جُحَيْفَةَ وَهْبِ بنِ عبدِ الله السُّوَائيِّ رضيَ الله عنه.

أمَّا صُوَرُ غَيرِ ذاتِ الأرْواحِ -كالشَّجَرِ ونَحوِه- فهي مباحةٌ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((البناية)) للعيني (٢/ ٤٥٨)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٣٣٧)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٧/ ٣٣٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٢٨٠). =

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ذَكَر تعالى عِلْمَه بما في السَّمَواتِ والأرضِ، فعَمَّ عِظامَ المخلوقاتِ، ثمَّ تدَرَّجَ القَولُ إلى أخفَى مِن ذلك، وهو جميعُ ما يَقولُه النَّاسُ في سِرٍّ وفي عَلَنٍ، ثمَّ تدَرَّج إلى ما هو أخفَى، وهو ما يَهجِسُ بالخواطِرِ[1].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّه تعالى يَعلَمُ الأشياءَ قبْلَ وُجودِها الخارجيِّ، وهذا ممَّا لا يُنكِرُه أحدٌ سِوى شِرْذِمةٍ مِن المُعتزِلةِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

- لَمَّا كان جُلُّ ما اشتمَلَتْ عليه هذِه السُّورةُ الكريمةُ إبطالَ إشراكِ المُشرِكينَ وزجْرَهُم عن دِينِ الإشراكِ بأَسْرِه، وعن تَفاريعِه، الَّتي أعظَمُها إنكارُهمُ البعثَ، وتكذيبُهمُ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وتكذيبُ القرآنِ، وتلك

---

= وأمَّا الصُّوَرُ المُجَسِّمةُ لذواتِ الأرواحِ (التماثيل) فهي محرَّمةٌ بالإجماعِ، وممن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ العربيِّ. يُنظر: ((المسالك في شرح موطأ مالك)) لابن العربي (٧/ ٥٢٢)، ويُنظر: ((عارضة الأحوذي)) (٧/ ٢٥٣)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٣٨٨)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٢/ ٢٦٤).

أمَّا الصُّوَرُ التي ليس لها ظِلٌّ -إذا كانت ذاتَ رُوحٍ، كصورِ الحَيوانِ- فهي محرَّمةٌ، وهذا مذهَبُ الجُمهورِ: الحَنَفيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نُجيم (٢/ ٢٩)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (٣/ ٢٤٧)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٢٨٠).

أمَّا التَّصويرُ بالآلةِ (الكاميرا)، فهذا موضعُ خلافٍ بينَ المتأخرينَ؛ فمِنهم مَن منَعه، ومنهم مَن أجازه. يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٦/ ١٩٨).

أصولُ ضَلالِهم؛ ابتُدِئَتِ السُّورةُ بالإعلانِ بضلالِهِمْ وكُفرانِهمُ المُنعِمَ عليهم؛ فإنَّ ما في السَّمواتِ والأرضِ يُسبِّحُ للهِ تعالَى عن النَّقائصِ، فالمعنى: يُسبِّحُ للهِ ما في السَّمواتِ والأرضِ وأنتم بخِلافِ ذلك، وهذا يُفيدُ ابتِداءً تقريرَ تَنزيهِ اللهِ تعالَى وقوَّةِ سُلطانِه؛ لِيَزدادَ الَّذينَ آمَنوا إيمانًا، ويكونَ لهم تعليمًا وامتِنانًا، ويُفِيدُ ثانيًا بطريقِ الكِنايةِ تعريضًا بالمُشرِكينَ الَّذينَ لم يُنزِّهوهُ ولا وقَّروهُ، فنسَبوا إليه شُركاءَ[1].

- وجِيءَ بفِعلِ التَّسبيحِ مُضارِعًا ﴿يُسَبِّحُ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ ذلك التَّسبيحِ ودوامِه، وجِيءَ بفِعلِ التَّسبيحِ في فواتِحِ سُوَرِ (الحديدِ) و(الحشرِ) و(الصَّفِّ) بصِيغةِ الماضي؛ للدَّلالةِ على أنَّ التَّسبيحَ قد استقرَّ في قديمِ الأزمانِ، فحصَلَ مِن هذا التَّفنُّنِ في فَواتحِ هذه السُّوَرِ كِلا المَعنيَينِ. وما في هاتِهِ السُّورةِ مِنَ المُناسَبةِ بيْنَ تجدُّدِ التَّسبيحِ، والأمْرِ بالعفوِ عن ذَوِي القُرْبى، والأمْرِ بالتَّقْوَى بقَدْرِ الاستِطاعةِ، والسَّمعِ والطاعةِ؛ لكَيْ لا يَكتفيَ المُؤمِنونَ بحُصولِ إيمانِهم، لِيَجتَهِدوا في تعزيزِه بالأعمالِ الصَّالحةِ[2].

- وإعادةُ (ما) الموصولةِ في قولِه: ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ لقَصْدِ التَّوكيدِ اللَّفظيِّ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ كرَّرَ (ما) في افتتاحِ السُّورةِ في قولِه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، وترَكَ ذلك في قولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ثمَّ كرَّر (ما) في قولِه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ ووجْهُ ذلك: أنَّه لَمَّا كان تَسبيحُ ما في السَّمواتِ على خِلافِ تَسبيحِ ما في الأرضِ كَثرةً

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر وجْهُ جمْعِ السَّمواتِ وإفرادِ الأرضِ في تفسيرِ سورةِ الجمعةِ (ص: ٢٣٩).

وقِلَّةً، وبُعدًا وقُربًا مِن المعصيةِ والطَّاعةِ؛ أُعيدَت لَفظةُ (ما) لهذا الاختِلافِ. وكذلك لَفظُ ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾ فإنَّه مُخالِفٌ لـ ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ غايةَ المخالَفةِ، فلمْ يَصلُحْ إلَّا بإعادةِ (ما). ولم تكرَّرْ (ما) معَ ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ الكلَّ بالإضافةِ إلى عِلمِ الله سبحانَه جِنسٌ واحدٌ، لا يخفَى عليه شيءٌ[1].

- وجُملةُ ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ استِئنافٌ واقعٌ موقِعَ التَّعليلِ والتَّسبُّبِ لمضمونِ ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾؛ فإنَّ مُلابَسةَ جميعِ الموجوداتِ لدَلائلِ تَنزيهِ اللهِ تعالَى عن الشُّركاءِ وعن النَّقائصِ لا مُقْتضى لها إلَّا انفِرادُه بتَملُّكِها وإيجادِها وما فيها مِنَ الاحتياجِ إليه، وتصَرُّفِه فيها تصرُّفَ المالِكِ المُتفرِّدِ في مُلكِه[2].

- وفي قولِه: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ قُدِّمَ الخبرُ في الجُملتَينِ -الَّذي هو الجارُّ والمجرورُ (له)- لإفادةِ تَخصيصِه بالمُسنَدِ إليه؛ لِيَدُلَّ بتَقدُّمِهما على معنَى اختِصاصِ المُلكِ والحَمدِ باللهِ عزَّ وجلَّ؛ وذلك لأنَّ المُلكَ على الحَقيقةِ له؛ لأنَّه مُبدئُ كلِّ شيءٍ ومُبدِعُه، والقائمُ به المُهيمِنُ عليه، وكذلك الحمدُ؛ لأنَّ أصولَ النِّعمِ وفُروعَها منه، وأمَّا مُلكُ غيرِه فتسليطٌ منه، وحمدُه اعتدادٌ بأنَّ نِعمةَ اللهِ تعالَى جرَتْ على يدِه، وهو قَصْرٌ ادِّعائيٌّ[3] مبنيٌّ على عدمِ الاعتِدادِ بما

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٧٨-١٢٨٠)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٧)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٧٥)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٧، ٤٦٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٧).

ويُنظر وجْهُ التَّعبيرِ بـ (ما) دونَ (مَن) في تفسيرِ سورةِ الجمعةِ (ص: ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

لغَيرِ اللهِ مِن مُلْكٍ؛ لنَقصِه، بخِلافِ مُلْكِه تعالَى؛ فهو المَلِكُ المُطلَقُ الدَّاخلُ في سُلطانِه كلُّ ذي مُلْكٍ[١].

- ومضمونُ جُملةِ ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ سَببٌ لتسبيحِ اللهِ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ؛ إذِ التَّسبيحُ مِنَ الحمدِ، فلا جَرَمَ أنْ كانَ حَمْدُ ذَوِي الإدراكِ مُختصًّا به تعالَى؛ إذْ هو الموصوفُ بالجَميلِ الاختياريِّ المُطلَقِ، فهو الحقيقُ بالحَمدِ والتَّسبيحِ، فهذا القَصْرُ ادِّعائيٌّ؛ لعدمِ الاعتدادِ بحَمْدِ غَيرِه؛ لنُقصانِ كمالاتِهِم، وإذا أُرِيدَ بالحمدِ ما يَشملُ الشُّكرَ أو يُفْضِي إليه -وهو مُقْتضى المقامِ مِن تَسفيهِ أحلامِ المُشرِكينَ في عبادتِهم غَيرَه- فالشُّكرُ أيضًا مقصورٌ عليه تعالَى؛ لأنَّه المُنعِمُ الحقُّ بنِعَمٍ لا قِبَلَ لغَيرِه بإسدائِها، وهو المُفيضُ على المُنعِمينَ ما يُنعِمونَ به في الظَّاهِرِ[٢].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معطوفةٌ على اللَّتَيْنِ قَبْلَها، وهي بمنزلةِ التَّذييلِ لهُما، والتَّبيينِ لوجْهِ القَصرَيْنِ فيهما؛ فإنَّ القَديرَ على كلِّ شيءٍ هو صاحِبُ المُلْكِ الحقِّ، وهو المُختَصُّ بالحمدِ الحقِّ[٣].

- وهو تَذييلٌ فيه وعدٌ للشَّاكرينَ، ووعيدٌ وترهيبٌ للمُشرِكينَ[٤].

- والاقتِصارُ على ذِكْرِ وصْفِ ﴿قَدِيرٌ﴾ هنا؛ لأنَّ المخلوقاتِ الَّتي تُسبِّحُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اللهَ دالَّةٌ على صِفةِ القُدرةِ أوَّلًا؛ لأنَّ مَن يُشاهِدُ المخلوقاتِ يَعلَمُ أنَّ خالقَها قادرٌ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا تقريرٌ لِمَا أفادَهُ قولُه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التغابن: ١]، وتخلُّصٌ للمَقصودِ منه على وجهِ التَّصريحِ بأنَّ الَّذينَ أشرَكوا باللهِ قد كفَروا بنعمتِه وبخَلْقِهم، زيادةً على جَحْدِهم دَلائلَ تنزُّهِه تعالَى عن النَّقصِ الَّذي اعتقَدوهُ له؛ ولذلك قدَّمَ ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ على ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾؛ لأنَّ الشِّقَّ الأوَّلَ هو المقصودُ بهذا الكلامِ تعريضًا وتصريحًا، وهو الأهمُّ في هذا المقامِ، كما يُشيرُ إليه قولُه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ [التغابن: ٥]. وقيل: قُدِّمَ ذِكْرُ الكافرِ؛ لأنَّه الأغلَبُ عليهم، والأكثرُ فيهم، ومعَ كثرتِه هو الأضعَفُ؛ لأنَّ الله تعالى ليس معه بمعونتِه، وإلَّا لأعدَمَ الصِّنفَ الآخَرَ. وقيل: قُدِّم العدوُّ إشارةً إلى أنَّه عالمٌ به، وقادرٌ عليه، وما كان منه شيءٌ إلَّا بإرادتِه(٢).

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ أفادَ تَعريفُ الجزأَيْنِ مِن جُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ قَصْرَ صِفةِ الخالقيَّةِ على اللهِ تعالَى، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ(٣) قُصِدَ به الإشارةُ بالكِنايةِ بالرَّدِّ على المُشرِكينَ؛ إذْ عَمَدوا إلى عبادةِ أصنامٍ يَعلمونَ أنَّها لم تَخلُقْهم، فما كانتْ مُستحِقَّةً لأنْ تُعبَدَ؛ لأنَّ العبادةَ شُكرٌ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢).

- والفاءُ في ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ عاطفةٌ على جملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾، وليستْ عاطفةً على فعلِ ﴿خَلَقَكُمْ﴾، وهي للتَّفريعُ في الوُقوعِ دونَ تسبُّبٍ، ومِثلُ هذا التفريعُ يَستَتبِعُ التَّعجيبَ مِن جَرْيِ أحوالِ بعضِ النَّاسِ على غَيرِ ما يَقتضيهِ الطَّبعُ، فجُملةُ ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ هي المقصودُ مِنَ التَّفريعِ، وهو تَفريعٌ في الحصولِ[١].

- وجُملةُ ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ تَتميمٌ[٢] وتَنويهٌ بشأنِ أهلِ الإيمانِ، ومُضادَّةِ حالِهم لحالِ أهلِ الكُفرِ، ومُقابَلةِ الحالِ بالحالِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تَتميمٌ، واحتِراسٌ[٤]، واستطرادٌ[٥]؛ فهو تَتميمٌ لِمَا يُكمِلُ المقصودَ مِن تَقسيمِهم إلى فريقَينِ لإبداءِ الفرْقِ بيْنَ الفريقَينِ في الخَيرِ والشَّرِّ، وهو عليمٌ بذلك، وعليمٌ بأنَّه يقَعُ- وليس اللهُ مغلوبًا على وُقوعِه، ولكنَّ حِكمتَه وعِلمَه اقتضَيَا ذلك، وهو احتراسٌ مِن أنْ يُتَوَهَّمَ مِن تقسيمِهم إلى فريقَينِ أنَّ ذلك رِضًا بالحالَينِ، كما حُكِيَ عن المُشرِكينَ: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهو استِطرادٌ بطريقِ الكِنايةِ به عن الوعدِ والوَعيدِ[٦].

- والآياتُ واردةٌ لبَيانِ عَظَمةِ اللهِ في مُلكِه ومَلكوتِه؛ فلمَّا أثبَتَ تعالَى لِذاتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢).

ويُنظر ما تقدَّم مِن الكلامِ عن الفاءِ (ص: ٣٨٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٢١). وتقدَّم بيانُ الفرقِ بيْن التَّتميمِ والاحتراسِ (ص: ٣٣٦).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٢٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٢، ٢٦٣).

الأقدسِ التَّنزيهَ، وأنَّ كلَّ شَيءٍ يُنزِّهُه ويُقدِّسُه عمَّا لا يَليقُ بجَلالِه، ثمَّ خصَّ لها صِفةَ المالكيَّةِ على الإطلاقِ، وخصَّ أنَّ لها كلَّ كمالٍ وجَمالٍ، ومنه كلُّ نِعمةٍ وإفضالٍ، وهو خالقُ كلِّ مُهتدٍ وضالٍّ، ونظَمَ دليلَ الآفاقِ مع دَليلِ الأنفُسِ، وبيَّن أنَّ إليه المصيرَ والمآلَ؛ خَتَمَها بإثباتِ عِلمِ اللهِ الشَّاملِ للكلِّيَّاتِ والجزئيَّاتِ، وكرَّرَه تكريرًا، وأكَّدَه توكيدًا، وكان ذِكْرُ العِلمِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ استطرادًا لذِكْرِ الخَلْقِ وتفصيلِه، ولإثباتِ القضاءِ والقدَرِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞ﴾ [التغابن: ٢]، يُبيِّنُ أنَّ انقِسامَهم إلى قِسمَي الكافِرينَ والمُؤمِنينَ نشَأَ عن حيادِ فريقٍ مِنَ النَّاسِ عن الحقِّ الَّذي أُقِيمَ عليه خَلْقُ السَّمواتِ والأرضِ؛ لأنَّ الحقَّ أنْ يُؤمِنَ النَّاسُ بوُجودِ خالِقِهم، وبأنَّه واحدٌ، وأنْ يُفرِدوهُ بالعبادةِ، فذلك الَّذي أرادَهُ اللهُ مِن خَلْقِهم؛ فمَن حادَ عن الإيمانِ، ومالَ إلى الكفرِ فقدْ حادَ عن الحقِّ والفِطرةِ[2].

- وقولُه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُعترِضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ وجُملةِ ﴿وَصَوَّرَكُمۡ﴾، وفيه إيماءٌ إلى إثباتِ البعثِ والجزاءِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُتعلِّقٌ بفِعلِ ﴿خَلَقَ﴾ تعلُّقَ المُلابَسةِ المُفادَ بالباءِ، أي: خَلقًا مُلابِسًا للحقِّ، والحقُّ ضدُّ الباطلِ، ألَا تَرَى إلى قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، إلى قولِه: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران: ١٩١]؟

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٥١، ٤٥٢).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٤).

والباطلُ ما صَدَقه هُنالِكَ هو العبَثُ؛ لقولِهِ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ * مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩]، فتعيَّنَ أنَّ ما صَدَق الحقِّ في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أنَّه ضِدُّ العبَثِ والإهمالِ. ومُلابَسةُ الحقِّ لخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ يَلزَمُ أنْ تكونَ مُلابَسةً عامَّةً مُطَّرِدةً؛ لأنَّه لو اختَلَّتْ مُلابَسةُ حالٍ مِن أحوالِ مخلوقاتِ السَّمواتِ للحقِّ، لَكانَ ناقضًا لمعنى مُلابَسةِ خَلْقِها للحقِّ، فكان نفْيُ البعثِ للجزاءِ على أعمالِ المخلوقاتِ مُوجِبًا اختلالَ تلك المُلابَسةِ في بعضِ الأحوالِ. وتخلُّفُ الجزاءِ عن الأعمالِ في الدُّنيا مُشاهَدٌ؛ إذْ كثيرًا ما نَرى الصَّالِحينَ في كَرْبٍ، ونَرى أهلَ الفسادِ في نِعمةٍ، فلَوْ كانت هذه الحياةُ الدُّنيا قُصارى حياةِ المُكلَّفينَ، لَكانَ كثيرٌ مِن أهلِ الصَّلاحِ غَيرَ لاقٍ جزاءً على صلاحِه، وانقلَبَ أكثرُ أهلِ الفسادِ مُتمتِّعًا بإرضاءِ خَباثةِ نفْسِه ونَوالِ مُشتهَياتِه، فكان خَلْقُ كِلا هذَينِ الفريقَينِ غَيرَ مُلابِسٍ للحقِّ بالمعنى المُرادِ! ولزِيادةِ الإيقاظِ لهذا الإيمانِ عُطِفَ عليه قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]، وكلُّ ذلك توطِئةٌ لما سيردُ بعدَه مِن قولِه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ [التغابن: ٧] الآيةَ[١].

- وفي قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ رمْزٌ إلى الجزاءِ، وهو وعيدٌ ووعدٌ[٢].

- وفي قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ إلى آخِرِه إظهارٌ أيضًا لعَظَمةِ اللهِ في مَلَكوتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ إدماجُ[١] امتنانٍ على النَّاسِ، وتَعديدٌ للنِّعمةِ في حُسْنِ الخِلقةِ، وبأنَّهم معَ ما خُلِقوا عليه مِن مُلابَسةِ الحقِّ على وجْهِ الإجمالِ، وذلك مِنَ الكمالِ، وهو ما اقتضَتْه الحِكمةُ الإلهيَّةُ، فقَدْ خُلِقوا في أحسَنِ تقويمٍ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ عُطِفَ على جُملةِ ﴿وَصَوَّرَكُمْ﴾؛ لأنَّ التَّصويرَ يَقْتَضي الإيجادَ؛ فأُعْقِبَ بالتَّذكيرِ بأنَّ بَعْدَ هذا الإيجادِ فَناءً، ثمَّ بَعْثًا للجزاءِ[٣].

- وقولُه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ لا إلى غيرِه استِقْلالًا أو اشتِراكًا، وقيل: تَقديمُ ﴿وَإِلَيْهِ﴾ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ، مع إفادةِ الاهتمامِ بتَعلُّقِ ذلك المصيرِ بتَصرُّفِ اللهِ المحضِ، وليس مُرادًا بالتَّقديمِ قَصْرٌ؛ لأنَّ المُشرِكينَ لا يُصدِّقونَ بهذا المصيرِ مِن أصلِه، بَلْهَ أنْ يَدَّعُوا أنَّه مَصيرٌ إلى غَيرِه حتَّى يُرَدَّ عليهم بالقَصْرِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾

- كانوا يَنفُونَ الحشرَ بعِلَّةِ أنَّه إذا تفرَّقَتْ أجزاءُ الجسدِ لا يُمكِنُ جمْعُها، ولا يُحاطُ بها؛ فكان قولُه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ دحْضًا لشُبهتِهم، أي: إنَّ الَّذي يَعلَمُ ما في السَّمواتِ والأرضِ لا يُعجِزُه تفرُّقُ أجزاءِ البدنِ إذا أراد جمْعَها، والَّذي يَعلَمُ السِّرَّ في نفْسِ الإنسانِ -والسِّرُّ أدقُّ وأخْفَى مِن ذرَّاتِ الأجسادِ المُتفرِّقةِ- لا تَخْفى عليه مَواقِعُ تلك الأجزاءِ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٠٦، ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٦).

الدَّقيقةِ، فالمقصودُ هو قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ﴾ كما يَقتضيهِ الاقتصارُ عليه في تَذييلِه بقولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ولم يَذكُرْ أنَّه عليمٌ بأعمالِ الجوارحِ؛ لأنَّ الخِطابَ للمُشرِكينَ في مكَّةَ على الرَّاجِحِ، وذلك قبْلَ ظهورِ المُنافِقينَ؛ فلَمْ يكُنْ قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ تهديدًا على ما يُبطِنُه النَّاسُ مِنَ الكفرِ. وأمَّا عطْفُ ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ فتتميمٌ للتَّذكيرِ بعُمومِ تعلُّقِ عِلمِه تعالَى بالأعمالِ. وتضمَّنَ قولُه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وَعيدًا ووعدًا ناظِرَيْنِ إلى قولِه: ﴿فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، فكانت الجُملةُ لذلك شَديدةَ الاتِّصالِ بجُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[1] [التغابن: ٢].

- وإعادةُ فِعلِ (يَعْلَمُ)؛ للتَّنبيهِ على العنايةِ بهذا التَّعلُّقِ الخاصِّ للعِلمِ الإلهيِّ بعْدَ ذِكْرِ تَعلُّقِه العامِّ في قولِه: ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ تَنبيهًا على الوعيدِ والوعدِ بوَجْهٍ خاصٍّ[2].

- قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، أي: ما تُسِرُّونَه في أنفُسِكم وفيما بَيْنَكم، وما تُظهِرونَه مِنَ الأمورِ، والتَّصريحُ به مع اندراجِه فيما قَبْلَه؛ لأنَّه الَّذي يَدورُ عليه الجزاءُ؛ ففيهِ تأكيدٌ للوعدِ والوعيدِ، وتَشديدٌ لهما[3].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ اعتِراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ لِمَا قَبْلَه مِن شُمولِ عِلمِه تعالَى لسِرِّهم وعلَنِهم، أي: هو محيطٌ بجميعِ المُضمَراتِ المُستكِنَّةِ في صُدورِ النَّاسِ؛ بحيثُ لا تُفارِقُها أصلًا، فكيفَ يَخْفَى عليه ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

يُسِرُّونَه وما يُعلِنونَه[١]؟!

- وإظهارُ الجَلالةِ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ، وتأكيدِ استِقلالِ الجُملةِ[٢].

- وتَقديمُ تَقريرِ القُدرةِ في قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١] على العِلمِ؛ لأنَّ دَلالةَ المخلوقاتِ على قدرتِه بالذَّاتِ، وعلى عِلمِه بما فيها مِنَ الإتقانِ والاختصاصِ ببعضِ الأنحاءِ[٣].

- و(ذاتِ الصُّدورِ) قيل: هي صِفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ، نُزِّلَتْ مَنزِلةَ مَوصوفِها، أي: صاحباتِ الصُّدورِ، أي: المكتومةِ فيها، والتَّقديرُ: بالنِّيَّاتِ والخواطرِ ذاتِ الصُّدورِ[٤].

وقيل: قولُه: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما في القلوبِ الَّتي في الصُّدورِ مِن الضَّمائرِ الخفيَّةِ، ووُصِفَت بذلك؛ لأنَّها لتمكُّنِها مِن الصُّدورِ جُعِلت كأنَّها مالِكةٌ لها، فـ(ذاتُ) بمعنى صاحبة، لا بمعنى ذاتِ الشَّيءِ ونفْسِه، وعُبِّر بذاتِ الصُّدورِ دونَ ذاتِ القُلوبِ مع أنَّ التَّعبيرَ الثَّانيَ أَولى بها؛ لأنَّ القلوبَ محلُّها بلا واسِطةٍ، ومَحَلِّيَّةُ الصُّدورِ لها بحسَبِ الظَّاهِرِ بواسِطةِ القلوبِ؛ لأنَّ (ذاتَ الصُّدورِ) بمعنى الأشياءِ الَّتي لا تَكادُ تُفارِقُ الصُّدورَ لِكَونِها حالَّةً فيها بل تُلازِمُها وتُصاحِبُها أشملُ مِن (ذاتِ القلوبِ)؛ لِصِدْقِ الأُولى على الأسرارِ الَّتي في القلوبِ، وعلى القلوبِ أنفُسِها؛ لأنَّ كُلًّا مِن هذَينِ الأمْرَينِ مُلازِمٌ للصُّدورِ باعتِبارِ كَونِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٧).

حالًّا فيها دونَ الثَّانيةِ؛ لأنَّها لا تَصدُقُ إلَّا على الأسرارِ؛ لأنَّها الحالَّةُ فيها دونَ الصُّدورِ، فحينَئذٍ يُمكِنُ أن يُرادَ مِن ذاتِ الصُّدورِ هذا المعنى الشَّاملُ، ويكونُ التَّعبيرُ بها لذلك. والتَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّه سُبحانَه لم يَزَلْ عالِمًا بذلك[1].

- وقد ابتَدَأَ الله تعالى بالعِلمِ الشَّاملِ للعالَمِ كلِّه، ثُمَّ بخاصِّ العِبادِ مِن سِرِّهم وإعلانِهم، ثُمَّ ما خَصَّ مِنه، وهو ما تَنْطوي عليه صُدورُهم مِن خَفِيِّ الأشياءِ وكامِنِها، وهذا كلُّه في معنى الوعيدِ؛ إذْ هو تعالَى المُجازِي على جميعِ ذلكَ بالثَّوابِ والعِقابِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (٢/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٩).

## الآيات (٥-٨)

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾: أي: جزاءَ ذنْبِهم، وعاقِبةَ أمرِهم مِن الشَّرِّ، والوَبالُ: الوَخامةُ وسُوءُ العاقِبةِ، وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ فِي شَيءٍ، وتجَمُّعٍ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يخبرُ اللهُ تعالى عن الأممِ السَّابقةِ، وما نزَل بهم مِن العذابِ؛ لمخالفتِهم الرُّسلَ وتكذيبِهم بالحقِّ، فيقولُ تعالى: ألم يأتِكم خبَرُ الَّذين كفَروا مِن قَبْلِكم مِنَ الأقوامِ السَّابِقةِ، فذاقَوا عُقوبةَ كُفرِهم، فأهلَكَهم اللهُ في الدُّنيا، ولهم عَذابٌ مُؤلِمٌ في الآخِرةِ؟

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ إلى سوءِ عاقِبةِ هذه الأُممِ، فيقولُ: وقَعَ بهم العذابُ بسَبَبِ أنَّه كانت تأتيهم رُسُلُهم بالحُجَجِ الواضِحةِ فكَذَّبوهم بدَعْوى أنَّهم بشَرٌ مِثلُهم، واستبعَدوا أن يَكونوا هُداةً لهم! فكَفَروا، وأعرَضوا عن اتِّباعِ الحَقِّ، واستَغْنى اللهُ عنهم وعن إيمانِهم، واللهُ غنيٌّ عن جميعِ خَلْقِه، محمودٌ في أقوالِه وأفعالِه وصِفاتِه، حامِدٌ لِمَن يَستحِقُّ الحمدَ مِن عبادِه.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

ثمَّ يخبرُ تعالى عن عِنادِ الكافِرين، وتكذيبِهم بالبعثِ، فيقولُ: زَعَم الكُفَّارُ كَذِبًا أنَّ اللهَ لن يَبعَثَهم! قُلْ -يا محمَّدُ- لهم: بلى، ورَبِّي لَتُبعَثُنَّ، ثمَّ لَتُخبَرُنَّ يومَ القيامةِ بما عَمِلتُم، وذلك أمرٌ سَهلٌ على الله.

ثمَّ يقولُ تعالى آمِرًا عِبادَه بما يَنفَعُهم يومَ القيامةِ: فآمِنوا باللهِ ورَسولِه والقُرآنِ الَّذي أنزَلْناه، واللهُ خَبيرٌ بجَميعِ أعمالِكم، وسيُجازيكم عليها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مِن أوصافِه الكامِلةِ العَظيمةِ ما به يُعرَفُ ويُعبَدُ، ويُبذَلُ الجُهدُ في مَرضاتِه، وتُجتَنَبُ مَساخِطُه؛ أخبَرَ بما فَعَل بالأُمَمِ السَّابِقينَ، والقُرونِ الماضينَ الَّذين لم تزَلْ أنباؤُهم يَتحَدَّثُ بها المتأخِّرونَ، ويُخبِرُ بها الصَّادِقونَ، وأنَّهم حينَ جاءتهم الرُّسُلُ بالحَقِّ كَذَّبوهم وعانَدوهم؛ فأذاقَهم اللهُ وَبالَ أمْرِهم في الدُّنيا، وأخزاهم فيها[1].

وأيضًا لَمَّا فرَغَ مِن ذِكرِ بَيانِ العَظَمةِ له سُبحانه؛ جاء بالتَّهديدِ والوعيدِ، وقال[2]:

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ ﴾.

أي: ألم يَأتِكم خَبَرُ الكافِرينَ مِن قَبْلِكم، كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وغَيرِهم[3]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قيل: الخِطابُ هنا لمُشرِكي قُرَيشٍ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير =

﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾.

أي: فذاقَ كُفَّارُ الأُمَمِ الماضيةِ عُقوبةَ كُفرِهم، فأهلَكَهم اللهُ في الدُّنيا(١).

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: ولهم عَذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ في الآخِرةِ(٢).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما أحَلَّه بالَّذين كَفَروا مِن قَبلُ، وأشار إلى القَطْعِ بأنَّه مِن عِندِه باتِّساقِه في خَرْقِه العوائِدَ بالاستئصالِ لِمَن كَذَّب الرُّسُلَ، والتَّنجيةِ لِمَن صَدَّقهم؛ عَلَّله بقَولِه(٣):

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾.

أي: ذلك الوَبالُ في الدُّنيا والعذابُ في الآخِرةِ لكُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ واقِعٌ بسَبَبِ أنَّه كانت تأتيهم رُسُلُهم بالحُجَجِ الواضِحةِ والدَّلائِلِ الباهِرةِ، فكَذَّبوهم واستَكبَروا

---

= ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤).

ومِمَّن جعَلَه لعُمومِ النَّاسِ: البِقاعي، فقال: (﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ أي: أيُّها النَّاس، ولا سِيَّما الكُفَّار). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٢).

عن اتِّباعِهم بدَعْوَى أنَّهم بشَرٌ مِثلُهم، واسْتَبْعدوا أنْ يَكونوا هُداةً لهم[١]!

كما قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ * قَالَتۡ لَهُمۡ رُسُلُهُمۡ إِن نَّحۡنُ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١، ١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ [الإسراء: ٩٤].

﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾.

أي: فكَفَروا باللهِ ورُسُلِه، وأعرَضوا عن اتِّباعِ الحَقِّ[٢].

﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُ﴾.

أي: واستَغنى اللهُ عنهم وعن إيمانِهم به وبرُسُلِه؛ فليس له حاجةٌ إليهم، ولا يُبالي بهم، ولا يَضُرُّه سُبحانَه كُفرُهم[٣]!

﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

أي: واللهُ غنيٌّ عن جميعِ خَلْقِه، وغيرُ مُحتاجٍ إليهم ولا إلى عِبادتِهم، وهو محمودٌ في أقوالِه وأفعالِه وأوصافِه، ومحمودٌ مِن كلِّ مخلوقاتِه بلِسانِ المقالِ والحالِ، فله الحَمدُ، وهو أيضًا حامِدٌ لِمَن يَستحِقُّ الحمدَ مِن عبادِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٢، ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير الرازي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان: ١٢].

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ هذا ضَربٌ ثالِثٌ مِن ضُروبِ كُفرِ المُشرِكينَ المُخاطَبينَ بقَولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ [التغابن: ٥] الآيةَ، وهو كُفرُهم بإنكارِهم البَعثَ والجَزاءَ(١).

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾.

أي: ادَّعى الكُفَّارُ كَذِبًا أنَّ اللهَ لن يَبعَثَهم بعدَ مَوتِهم للحِسابِ والجَزاءِ(٢).

---

= (٣٠/ ٥٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٤، ١١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٤٠).

قال الرازي: (الحميدُ بمعنى المحمودِ، أي: المُستَحِقِّ للحَمدِ بذاتِه، ويكونُ بمعنى الحامِدِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٣).

وقال ابن عثيمين: («فَعيل» تأتي بمَعنَى «مفعول»، ومنه قَولُهم: قَتيلٌ بمعنى مقتول، وجَريحٌ بمعنى مجروح، لكنَّها تأتي بمَعنَى «الفاعِلِ» أيضًا؛ مِثلُ عَليمٍ بمَعنى عالِمٍ، عَزيزٍ بمعنى عازٍّ، حكيمٍ بمعنى محُكِمٍ، وهكذا تأتي بهذا المعنى.

فإذا كانت تأتي بالوجهَينِ جميعًا، أي: بالفاعِلِ والمَفعولِ؛ فهل الأَوْلى أن نَجعَلَها مَقصورةً على المَفعولِ، أو نَجعَلَها شامِلةً؟ الجوابُ: الأَوْلى أن نَجعلَها شامِلةً؛ فهو عزَّ وجلَّ حميدٌ بمعنى حامدٍ، وبمعنى محمودٍ). ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٦٢).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحديد (٣٤/ ١٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ أي: ظَنُّوا. الزَّعمُ هو القولُ بالظَّنِّ. وقال شُرَيحٌ: لكلِّ شَيءٍ كُنيةٌ، وكنيةُ الكذبِ زعَموا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥). =

﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء المُنكِرينَ للبَعثِ: بلى، أُقسِمُ برَبِّي لَتُخرَجُنَّ مِن قُبورِكم أحياءً[1].

﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡ﴾.

أي: ثمَّ لَتُخبَرُنَّ يومَ القيامةِ بجَميعِ ما عَمِلتُموه في الدُّنيا، وتُجازَونَ عليه[2].

﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾.

أي: وبَعْثُ اللهِ عِبادَه مِن قُبورِهم أحياءً بعْدَ مَوتِهم للحِسابِ والجَزاءِ أمرٌ سَهلٌ عليه[3].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٨﴾.

---

= وقال الراغب: (الزَّعْمُ: حكايةُ قولٍ يكونُ مَظِنَّةً للكذِبِ؛ ولهذا جاء في القرآنِ في كلِّ موضِعٍ ذُمَّ القائلونَ به). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٣٨٠).

وقال محمد رشيد رضا: (الزَّعْمُ في أصلِ اللُّغةِ القولُ والدَّعوَى، سواءٌ أكانَ ذلك حَقًّا أمْ باطلًا... لُغَةُ القرآنِ أنَّ الزَّعْمَ يُستعمَلُ في الباطلِ والكذِبِ، وهو يَرُدُّ على الزَّاعِمينَ، ولا يُقِرُّهم على شيءٍ). ((تفسير المنار)) (٥/ ١٨٢).

وقال النووي: (الزَّعمُ يُطلَقُ على القولِ المُحقَّقِ والكذبِ وعلى المشكوكِ فيه، ويُنزَّلُ في كلِّ موضعٍ على ما يَليقُ به). ((شرح النووي على مسلم)) (٥/ ٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٥، ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تقرَّر الإيمانُ باللهِ تعالى مِن أنَّه الملِكُ الَّذي له وَحْدَه المُلْكُ، وأشار بما يُشاهَدُ مِن انقِسامِ عَبيدِه إلى مؤمِنٍ وكافرٍ إلى أنَّه لا بُدَّ مِن الأخذِ على يدِ الظَّالمِ منهما، كما هي عادةُ الملوكِ، لا يَسوغُ في الحِكمةِ ولا في العادةِ غَيرُ ذلك، وأخبَرَ أنَّ عِلْمَه محيطٌ لِنسبتِه إلى العُلويَّاتِ والسُّفْليَّاتِ والظَّواهِرِ والبواطِنِ على حَدٍّ سواءٍ- أتْبَعَ ذلك وُجوبَ الإيمانِ برُسُلِه؛ لجَمعِ الكَلِمةِ عليه سُبحانَه، لِنُكمِلَ الحياةَ بإصلاحِ ذاتِ البَينِ؛ لئلَّا يقَعَ الخِلافُ فتَفسُدَ الحياةُ، ووُجوبَ الاعتبارِ بمَن مضَى مِن أُمَمِهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى إنكارَ مَن أنكَرَ البَعثَ، وأنَّ ذلك منهم مُوجِبٌ كُفْرَهم باللهِ وآياتِه؛ أمَرَ بما يَعصِمُ مِن الهَلَكةِ والشَّقاءِ، وهو الإيمانُ باللهِ ورَسولِه وكِتابِه[2].

وأيضًا لَمَّا بالَغَ في الإخبارِ عن البَعثِ -والاعترافُ بالبَعثِ مِن لوازمِ الإيمانِ-؛ قال[3]:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾.

أي: فآمِنوا باللهِ ورَسولِه، وآمِنوا بالقُرآنِ الَّذي أنزَلْناه؛ تَهتَدوا به مِن ظُلُماتِ الضَّلالِ[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

قال ابنُ عاشور: (الفاءُ فَصيحةٌ تُفصِحُ عن شَرطٍ مُقَدَّرٍ، والتَّقديرُ: فإذا عَلِمتُم هذه الحُجَجَ، =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء: ١٧٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾ [المائدة: ١٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾.

أي: واللهُ ذو خِبرةٍ بالِغةٍ تامَّةٍ بجَميعِ أعمالِكم، لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن ظَواهِرِها وبَواطِنِها، ونيَّاتِكم فيها، وسيُجازيكم عليها[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ سَمَّاه اللهُ تعالى نورًا؛ فإنَّ النُّورَ ضِدُّ الظُّلمةِ، وما في الكِتابِ الَّذي أنزَلَه اللهُ مِن الأحكامِ والشَّرائِعِ والأخبارِ أنوارٌ يُهتَدى بها في ظُلُماتِ الجَهلِ المُدْلَهِمَّةِ، ويُمشَى بها في ظُلُماتِ اللَّيلِ البَهيمِ، وما سِوى الاهتداءِ بكِتابِ اللهِ فهي علومٌ ضَرَرُها أكثَرُ مِن نَفعِها، وشَرُّها أكثَرُ مِن خَيرِها، بل لا خَيرَ فيها ولا نَفْعَ، إلَّا ما وافَقَ ما جاءت به الرُّسُلُ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ تحذيرُ الإنسانِ مِن المُخالَفةِ؛

---

= وتذَكَّرتُم ما حَلَّ بنُظَرائِكم مِن العِقابِ، وما ستُنَبَّؤونَ به مِن أعمالِكم؛ فآمِنوا باللهِ ورَسولِه والقُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٦).

لأنَّ هذا يُوجِبُ ألَّا نُخالِفَ اللهَ تعالى، ما دُمْنا نَعلَمُ أنَّه خَبيرٌ بما نَعمَلُ فإنَّه لا يُمكِنُ أنْ نخالِفَ اللهَ عزَّ وجلَّ، مِثلَما لو قال رجلٌ لآخرَ: اذهبْ وأنا أعلَمُ ما تَفعَلُ، فالمرادُ: التَّهديدُ والتَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ فكلُّ نَصٍّ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى فيه أنَّه يَعلَمُ ما نَعمَلُ، فهو تحذيرٌ لنا مِن مُخالفتِه(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ هذه هِدايةُ الدَّلالةِ والإرشادِ بكَلامِه وبعِلمِه، وأمْرِه ونَهيِه، وتَرغيبِه وتَرهيبِه، وأمَّا حُصولُ الهُدى في القَلبِ فهذا لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ، باتِّفاقِ المسلمينَ؛ سُنِّيِّهم وقَدَرِيِّهم(٢).

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه تعالى: ﴿فَكَفَرُواْ﴾ تعميمٌ يُفهَمُ منه التَّوَلِّي، فما الحاجةُ إلى ذِكْرِه؟

**الجوابُ**: أنَّهم كَفَروا وقالوا: ﴿أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾، وهذا في معنى الإنكارِ والإعراضِ بالكُلِّيَّةِ، وهذا هو التَّوَلِّي، فكأنَّهم كَفَروا وقالوا قولًا يدُلُّ على التَّوَلِّي؛ فلهذا قال: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾. وقيل: إنَّهم كَفَروا بالرُّسُلِ، وتَوَلَّوا عن البُرهانِ، وأعرَضوا عن الإيمانِ والمَوعِظةِ(٣).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ ذو الغِنى الواسِعِ، ومع ذلك فإنَّ غِناه مَقرونٌ بحَمدِه؛ ولهذا قال: ﴿غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وقال: ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فهو غنيٌّ يُحمَدُ على غِناه؛ لأنَّه يَجُودُ به على غَيرِه، لكِنَّ بني آدمَ قد يكونُ الإنسانُ منهم غنيًّا ولكِنْ ليس حميدًا، فإذا كان غنيًّا وتَسَلَّطَ بغِناه على غَيرِه، وفَخَر به على النَّاسِ، ولم يَقُمْ بما يَجِبُ عليه؛ صار غنيًّا غيرَ حميدٍ، لكنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ٢٥).

(٢) يُنظر: ((الاستغاثة في الرد على البكري)) لابن تيمية (ص: ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٢٨).

اللهَ عزَّ وجلَّ غَنيٌّ حَميدٌ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ أنَّ مُنكِرَ البَعثِ كافِرٌ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ أنَّ الحَلِفَ إذا دَعَتِ الحاجةُ إليه أوِ اقتَضَتْه المصلحةُ، فإنَّه جائزٌ، بل قد يكونُ مَندوبًا إليه[٣].

٦- أمَرَ اللهُ تعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُقسِمَ على الجَزاءِ والمَعادِ في ثلاثِ آياتٍ:

**الأولى**: قولُه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾.

**والثانية**: قولُه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ: ٣].

**والثالثة**: قولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]؛ وهذا لأنَّ المَعادَ إنَّما يَعلَمُه عامَّةُ النَّاسِ بإخبارِ الأنبياءِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ أنَّه يجوزُ للمُفتي والمُناظِرِ أنْ يَحلِفَ على ثُبوتِ الحُكمِ عندَه، وإنْ لم يكُنْ حَلِفُه مُوجِبًا لثُبوتِه عندَ السَّائلِ والمُنازِعِ؛ لِيُشْعِرَ السَّائلَ والمُنازِعَ له أنَّه على ثِقةٍ ويَقينٍ ممَّا قال له، وأنَّه غيرُ شاكٍّ فيه[٥].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يُفيدُ القسَمُ في إخبارِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٤٧٢).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٦).

عن البَعثِ، وهم قد أنكَروا رِسالتَه؟

**الجوابُ**: أنَّهم وإن أنكَروا الرِّسالةَ، لكِنَّهم يَعلَمونَ أنَّه لا يُقدِمُ على القَسَم برَبِّه إلَّا أن يكونَ صِدقُ هذا الإخبارِ أظهَرَ مِن الشَّمسِ عِندَه وفي اعتِقادِه، والفائِدةُ في الإخبارِ مع القَسَمِ ليست إلَّا هذا، ثمَّ إنَّه أكَّدَ الخَبرَ باللَّامِ والنُّونِ، فكأنَّه قَسَمٌ بعْدَ قَسَمٍ[1].

٩- قَولُ الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾، قال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ بطَريقِ الإضافةِ، ولم يَقُلْ: (ونُورِه الَّذي أنزَلْنا) بطَريقِ الإضافةِ، مع أنَّ النُّورَ هاهنا هو القُرآنُ، والقُرآنُ كَلامُه ومُضافٌ إليه؟

**الجوابُ**: الألِفُ واللَّامُ في النُّورِ بمعنى الإضافةِ، كأنَّه قال: (ورَسولِه ونُورِه الَّذي أنزَلْنا)[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ رَدٌّ على المُعتَزِلةِ فيما يَزعُمونَ أنَّ الشَّيءَ إذا سُمِّيَ باسمٍ، ثُمَّ سُمِّيَ به غيرُه؛ لَزِمَ أنْ يُشبِهَه بجَميعِ جِهاتِه! وقد سمَّى اللهُ جلَّ جلالُه القُرآنَ هاهنا نورًا، كما سمَّى نفْسَه نورًا[3].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ إثباتُ عِلْمِ اللهِ عزَّ وجلَّ بالظَّاهرِ والخَفيِّ؛ فالخبيرُ هو العَليمُ ببَواطنِ الأمورِ، ومَن كان عليمًا ببَواطنِ الأمورِ كان عليمًا بظَواهِرِها مِن بابِ أَولى[4].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٥٨).

- هو انتقالٌ مِنَ التَّعريضِ الرَّمزيِّ بالوعيدِ الأخرويِّ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]، إلى قولِه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [التغابن: ٣]، وقولِه: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ [التغابن: ٤]؛ إلى تَعريضٍ أوضَحَ مِنه بطريقِ الإيماءِ إلى وَعيدٍ لعذابٍ دُنيويٍّ وأخرويٍّ معًا؛ فإنَّ ما يُسمَّى في بابِ الكِنايةِ بالإيماءِ أقلُّ لوازِمَ مِنَ التَّعريضِ والرَّمزِ، فهو أقرَبُ إلى التَّصريحِ. وهذا الإيماءُ بضربِ المَثَلِ بحالِ أُمَمٍ تَلَقَّوْا رُسلَهم بمِثْلِ ما تلقَّى به المُشرِكونَ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ تَحذيرًا لهم مِن أنْ يحُلَّ بهم مِثْلُ ما حلَّ بأولئك، فالجُملةُ ابتدائيَّةٌ؛ لأنَّها عَدٌّ لصِنْفٍ ثانٍ مِن أصنافِ كفرِهم، وهو إنكارُ الرِّسالةِ؛ فالخِطابُ لخُصوصِ الفريقِ الكافرِ، بقَرينةِ قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾؛ فهذا الخِطابُ مُوجَّهٌ للمشركينَ الَّذين حالُهم كحالِ مَن لم يَبلُغْهم نَبأُ الَّذين كَفَروا مِثلَ كُفْرِهم، مِثْلُ عادٍ وثمودَ ومَدْينَ وقومِ إبراهيمَ[1].

- قولُه: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ الاستِفهامُ تَقريريٌّ توبيخيٌّ، وأُتِيَ معه بالجُملةِ مَنفيَّةً؛ تَوسِعةً على المُقرَّرِ إنْ كان يُريدُ الإنكارَ، حتَّى إذا أقرَّ لم يَستطِعْ بَعْدَ إقرارِه إنكارًا؛ لأنَّه قد أُعْذِر له مِن قَبْلُ بتَلْقينِه النَّفيَ[2].

- وحُذِفَ ما أُضِيفَ إليه ﴿قَبۡلُ﴾ ونُوِيَ معناهُ، والتَّقديرُ: مِن قَبْلِكم، أي: في الكفرِ، بقرينةِ قولِه: ﴿فَمِنكُمۡ كَافِرٞ﴾ [التغابن: ٢]، والكافِرونَ يَعلَمونَ أنَّهمُ المقصودُ؛ لأنَّهم مُقدِمونَ على الكفرِ، ومُستمِرُّونَ عليهِ[3].

- والذَّوقُ مُعبَّرٌ به عن مُطلَقِ الإحساسِ والوِجدانِ، شُبِّهَ ما حلَّ بهم مِنَ العذابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٧، ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨).

بشَيءٍ ذي طعْمٍ كَريهٍ يَذوقُه مَن حلَّ به ويبتلِعُه؛ لأنَّ الذَّوقَ باللِّسانِ أشدُّ مِنَ اللَّمسِ باليَدِ أو بالجِلدِ، والمعنى: أحَسُّوا العذابَ في الدُّنيا إحساسًا مَكينًا(١).

- قولُه: ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿أَمْرِهِمْ﴾ هو كفرُهُم، وعُبِّرَ عنه بذلكَ؛ للإيذانِ بأنَّه أمْرٌ هائلٌ، وجنايةٌ عظيمةٌ(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ...﴾ ارتقاءٌ في التَّعريضِ إلى ضرْبٍ مِنه قريبٍ مِنَ الصَّريحِ، وهو المسمَّى في الكنايةِ بالإشارةِ؛ كانت مَقالةُ الَّذينَ مِن قبْلُ مُماثِلةً لمَقالةِ المُخاطَبينَ، فإذا كانت هي سبَبَ ما ذاقوهُ مِنَ الوَبالِ، فيُوشِكُ أنْ يَذوقَ مُماثِلوهم في المقالةِ مِثلَ ذلكَ الوَبالِ، فاسمُ الإشارةِ عائدٌ إلى المذكورِ مِن الوَبالِ والعذابِ الأليمِ، فهذا عَدٌّ لكفْرٍ آخَرَ مِن وُجوهِ كفْرِهم، وهو تَكذيبُهمُ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتكذيبُهم بالقرآنِ؛ فإنَّ القرآنَ بيِّنةٌ مِنَ البيِّناتِ؛ لأنَّه مُعجزةٌ(٣).

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ الباءُ للسَّببيَّةِ؛ فالجُملةُ في مَوقعِ العِلَّةِ، أي: ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بسبَبِ أنَّ الشَّأنَ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمُعجزاتِ(٤).

- والضَّميرُ في ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ ضَميرُ الشَّأنِ؛ لقصْدِ تَهويلِ ما يُفسِّرُ الضَّميرَ، وهو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

جُملةُ ﴿كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ إلى آخرِها[١].

- والاستِفهامُ في ﴿أَبَشَرٌ﴾ استِفهامُ إنكارٍ وتَعجُّبٍ وإبطالٍ، فهُمْ أحالوا أنْ يكونَ بشَرٌ مِثلُهم يَهْدُونَ بشَرًا أمثالَهُم، فقالوا على سبيلِ الاستِغرابِ: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؛ وذلكَ أنَّهم يقولونَ: نحنُ مُتساوُونَ في البشَريَّةِ، فأنَّى يكونُ لهؤلاءِ تَمييزٌ علينا بحيثُ يَصيرونَ هُداةً لنا؟! وهذا مِن جَهلِهِم بمَراتبِ النُّفوسِ البشريَّةِ ومَن يَصطفيهِ اللهُ منها، ويَخلُقُه مُضْطَلِعًا بتبليغِ رسالتِه إلى عِبادِه، وجَهِلوا أنَّه لا يَصلُحُ لإرشادِ النَّاسِ إلَّا مَن هو مِن نَوعِهِم، ومِن جَهلِهِم أنَّهم أنكَروا أنْ تكونَ الرُّسلُ بشَرًا، ولم يُنكِروا أنْ يكونَ اللهُ حجَرًا! ولَمَّا أحالوا أنْ يكونَ البشَرُ أهلًا لهدايةِ بشَرٍ مِثلِه، جعَلوا ذلكَ كافيًا في إعراضِهم عن قَبولِ القرآنِ والتَّدبُّرِ فيهِ[٢].

- قولُه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾، أي: قال كلُّ قومٍ مِن المذكورينَ في حقِّ رسولِهم، وقد أُجمِلَ في الحكايةِ، فأُسنِدَ القولُ إلى جميعِ الأقوامِ[٣]. وأُرِيدَ بالبشَرِ الجِنسُ؛ فوُصِفَ بالجَمعِ[٤].

- وتَنكيرُ (بشَرٌ) للنَّوعيَّةِ؛ لأنَّ مَحَطَّ الإنكارِ على كَونِهم يَهدونَهم هو نَوعُ البشريَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه ﴿أَبَشَرٌ﴾ على الخبرِ الفعليِّ ﴿يَهۡدُونَنَا﴾؛ لقَصْدِ تَقَوِّي حُكمِ الإنكارِ، وما قالوا ذلك حتَّى اعتقَدوهُ؛ فلذلك أقدَموا على الكفرِ برُسلِهم؛ إذْ قدِ اعتَقَدوا استِحالةَ إرسالِ اللهِ إيَّاهُم، فجَزَموا بكَذِبهم في دَعوى الرِّسالةِ؛ فلذلك فُرِّعَ عليهِ: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾[1].

- قولُه: ﴿فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ﴾ العطفُ بالفاءِ يدُلُّ على تعقُّبِ كفرِهم مَجيءَ الرُّسلِ بالبيِّناتِ، أي: لم يَنظُروا في تلك البيِّناتِ ولا تأمَّلوها، بل عقَّبوا مَجيئَها بالكفرِ[2].

- وقيلَ: الفاءُ في قولِه: ﴿فَكَفَرُواْ﴾ عاطِفةٌ، وتُفيدُ السَّببيَّةَ لا التَّعقيبَ، أي: فكفَروا بسبَبِ هذا القَولِ[3].

- وقولُه: ﴿وَٱسۡتَغۡنَى﴾ السِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ، والمعنى: غَنِيَ اللهُ عن إيمانِهم. والواوُ واوُ الحالِ، أي: والحالُ أنَّ اللهَ غنيٌّ عنهم مِن زمنٍ مَضَى؛ فإنَّ غِنَى اللهِ عن إيمانِهم مُقرَّرٌ في الأزَلِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ: واستَغْنى اللهُ عن إعادةِ دَعوتِهم؛ لأنَّ فيما أظهَرَ لهم مِنَ البيِّناتِ على أيدي رُسلِهم ما هو كافٍ لحُصولِ التَّصديقِ بدَعوةِ رُسلِهم لولا المُكابَرةُ؛ فلذلك عجَّلَ لهم بالعذابِ، وعلى الوجهَينِ فمُتعلَّقُ (اسْتَغْنَى) مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿فَكَفَرُواْ﴾، وقولُهُ: ﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، والتَّقديرُ: واستَغْنى اللهُ عن إيمانِهم[4]. وقيل: أُطلِقَ الاستغناءُ ليَتناولَ كلَّ شيءٍ، ومِن جملتِه إيمانُهم وطاعتُهم[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٧).

- جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ تَذييلٌ، أي: غنيٌّ عن كلِّ شَيءٍ فيما طلَبَ منهم، حَميدٌ لِمَنِ امْتَثَل وشكَر[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ﴾ هذا ضَرْبٌ ثالثٌ مِن ضُروبِ كفْرِ المُشرِكينَ المُخاطَبينَ بقولِه: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ [التغابن: ٥] إلخ، وهو كفرُهم بإنكارِهمُ البعثَ والجزاءَ، والجملةُ ابتدائيَّةٌ، وهذا الكلامُ مُوجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ بقرينةِ قولِه: ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾، وليس هذا مِنَ الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، ولا مِنَ الالتفاتِ، بل هو ابتداءُ غرَضٍ مُخاطَبٍ به غَيرُ مَن كانَ الخطابُ جاريًا معهم[2].

- واجتلابُ حرفِ ﴿لَّن﴾ لتأكيدِ النَّفيِ، فكانوا مُوقِنينَ بانتفاءِ البعثِ؛ ولذلك جِيءَ إبطالُ زعمِهم مؤكَّدًا بالقسَمِ؛ لِيَنْقُضَ نفيَهم بأشَدَّ منه، فأُمِر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يُبلِّغَهم عن اللهِ أنَّ البعثَ واقعٌ، وخاطَبَهم بذلك تسجيلًا عليهم ألَّا يقولوا ما بُلِّغْنا ذلكَ[3].

- وحرفُ ﴿بَلَىٰ﴾ حرفُ جوابٍ للإبطالِ، خاصٌّ بجوابِ الكلامِ المنفيِّ لإبطالِه[4].

- قولُه: ﴿وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ جملةٌ مُستقِلَّةٌ داخلةٌ تحتَ الأمرِ، واردةٌ لتأكيدِ ما أفادَته كلمةُ (بَلَى) مِن إثباتِ البعثِ، وبيانِ تحقُّقِ أمْرٍ آخَرَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُتفرِّعٍ عليه، مَنُوطٍ به؛ ففيه تأكيدٌ لتحقُّقِ البعثِ بوجهَيْنِ(١).

- وجملة ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ ارتقاءٌ في الإبطالِ. و(ثُمَّ) للتَّراخي الرُّتْبيِّ؛ فإنَّ إنباءَهم بما عمِلوا أهَمُّ مِن إثباتِ البعثِ؛ إذْ هو العِلَّةُ للبعثِ(٢).

- والإنباءُ: الإخبارُ، وإنباؤُهم بما عمِلوا كنايةٌ عن مُحاسَبتِهم عليه، وجزائِهم عمَّا عمِلوه؛ فإنَّ الجزاءَ يَستلزِمُ عِلمَ المُجازَى بعمِلِه الَّذي جُوزِيَ عليهِ، فكان حُصولُ الجزاءِ بمَنزلةِ إخبارِه بما عمِلَه؛ كقولِه تعالى: ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾ [لقمان: ٢٣]. وهذا وعيدٌ وتهديدٌ بجزاءٍ سيِّئٍ؛ لأنَّ المَقامَ دليلٌ على أنَّ عملَهم سيِّئٌ، وهو تكذيبُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وإنكارُ ما دعاهُمْ إليه(٣).

- وجُملةُ ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ تَذييلٌ، والواوُ اعتراضيَّةٌ(٤).

- واسمُ الإشارةِ: إمَّا عائدٌ إلى البعثِ المفهومِ مِن ﴿لَتُبْعَثُنَّ﴾، وإمَّا عائدٌ إلى معنى المذكورِ مِن مَجموعِ ﴿لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾، وأُخبِرَ عنه بـ﴿يَسِيرٌ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (واقعٌ)؛ لأنَّ الكلامَ لردِّ إحالتِهم البعثَ بعِلَّةِ أنَّ أجزاءَ الجسدِ تفرَّقَتْ، فيَتعذَّرُ جَمْعُها، فذُكِّروا بأنَّ العسيرَ في مُتعارَفِ النَّاسِ لا يَعْسُرُ على الله، وقد قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾(٥) [الروم: ٢٧].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٦، ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- الفاءُ فصيحةٌ مُفصِحةٌ عن شرْطٍ قد حُذِفَ؛ ثِقةً في ظُهورِه، أي: إذا كان الأمْرُ كذلكَ، أو إذا علِمْتُم هذِه الحُجَجَ، وتذكَّرْتُم ما حَلَّ بنُظرائِكم مِنَ العِقابِ وما ستُنبَّؤونَ به مِن أعمالِكم، ﴿فَـَٔامِنُواْ ...﴾[1].

- والمرادُ بالنُّورِ الَّذي أنزَلَ اللهُ: القرآنُ، وُصِفَ بأنَّه نُورٌ؛ لأنَّه أشبَهَ النُّورَ في إيضاحِ المطلوبِ باستقامةِ حُجَّتِه، وبلاغةِ كلامِه، وأشبَهَ النُّورَ في الإرشادِ إلى السُّلوكِ القويمِ، وفي هذا الشَّبهِ الثَّاني تُشارِكُه الكتبُ السَّماويَّةُ[2].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ الْتفاتٌ مِنَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ لزِيادةِ التَّرغيبِ في الإيمانِ بالقُرآنِ؛ تَذكيرًا بأنَّه مُنزَّلٌ مِنَ اللهِ؛ لأنَّ ضَميرَ التَّكلُّمِ أشَدُّ دَلالةً على مَعادِه مِن ضَميرِ الغائبِ، ولتقويةِ داعي المأمورِ، كما أنَّ الالتفاتَ إلى نونِ العظَمةِ لإبرازِ كمالِ العِنايةِ بأمْرِ الإنزالِ[3].

- وإنَّما جُعِلَ الإيمانُ بصِدقِ القُرآنِ داخلًا في حَيِّزِ فاءِ التَّفريعِ؛ لأنَّ ما قبْلَ الفاءِ تضمَّنَ أنَّهم كذَّبوا بالقُرآنِ مِن قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التغابن: ٦]، كما قال المُشرِكونَ مِن أهلِ مكَّةَ، والإيمانُ بالقُرآنِ يَشمَلُ الإيمانَ بالبعثِ، فكان قولُه تعالى: ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَا﴾ شاملًا لِمَا سبَقَ الفاءَ مِن قولِه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾ [التغابن: ٧] إلخ[4].

- جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ اعتراضٌ تَذييليٌّ لجُملةِ ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).

مُقرِّرٌ لِما قَبْلَه مِنَ الأمرِ، ويَقتضي وعْدًا إنْ آمَنوا، ووعيدًا إنْ لم يؤمِنوا[١].

- وفي ذِكْرِ اسمِ الجَلالةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لتكونَ الجملةُ مُستقِلَّةً جاريةً مَجْرَى المَثَلِ والكَلِمِ الجوامعِ، ولأنَّ الاسمَ الظَّاهرَ أقوى دَلالةً مِنَ الضميرِ؛ لاستِغنائِه عن تطلُّبِ المَعادِ، وفيه مِن تربيةِ المَهابةِ ما في قولِ الخليفةِ: (أميرُ المُؤمِنينَ يأمُرُكُم بكذا)[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ جِيءَ بصفةِ (الخَبيرِ) دونَ (البصيرِ)؛ لأنَّ ما يَعمَلونَه مِنه مَحسوساتٌ ومنه غَيرُ محسوساتٍ، كالمُعتقَداتِ، ومِنها الإيمانُ بالبعثِ، فعُلِّقَ بالوَصفِ الدَّالِّ على تعلُّقِ العِلمِ الإلهيِّ بالموجوداتِ كلِّها، بخِلافِ قولِه فيما تقدَّمَ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ فإنَّ لكُفرِ الكافِرينَ وإيمانِ المُؤمِنينَ آثارًا ظاهرةً محسوسةً؛ فعُلِّقَتْ بالوصفِ الدَّالِّ على تعلُّقِ العِلمِ الإلهيِّ بالمحسوساتِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أصْلُه: (والله خبيرٌ بما تعملون)، وقَدَّمَ المعمولَ ﴿بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾، وهذا الحصرُ إضافيٌّ[٤]، والغرضُ منه التَّحذيرُ، فإفادةُ الحصرِ هنا لتمامِ التَّحذيرِ، يعني: كأنْ يُقالَ: لو لَمْ يكُنْ خبيرًا بشيءٍ؛ لَكان خبيرًا بأعمالِكم؛ فاحذَروا المُخالَفةَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة لقمان)) (ص: ١٧٧).

## الآيتانِ (٩-١٠)

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾: أي: يومُ القيامةِ الَّذي يَربَحُ فيه المُؤمِنونَ ويَخسَرُ الكافِرونَ، والغَبْنُ: أن يُعطَى البائعُ ثَمَنًا لِمَبيعِه دونَ حَقِّ قِيمتِه الَّتي يُعَوَّضُ بها مِثلُه، ويُطلَقُ على مُطلَقِ الخُسرانِ، وأصلُ (غبن): يدُلُّ على الخَفاءِ، ومنه مَغابِنُ الجَسَدِ، وهي: ما يَخفى عن العَينِ، وسُمِّيَ الغَبْنُ في البَيعِ؛ لخَفائِه عن صاحِبِه[1].

﴿يُكَفِّرْ﴾: أي: يَمحُ ويَستُرْ، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على السَّترِ والتَّغطيةِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى محذِّرًا عبادَه مِن أهوالِ يومِ القيامةِ: يَومَ يَجمَعُكم اللهُ جميعًا ليَومِ القيامةِ، ذلك اليَومُ هو اليَومُ يَغبِنُ فيه بعضُ أهلِ المَحشَرِ بعضًا؛ فيَغبِنُ فيه أهلُ الحقِّ أهلَ الباطِلِ، ويَغبِنُ فيه أهلُ الإيمانِ أهلَ الكفرِ، وأهلُ الطَّاعةِ أهلَ المعصيةِ، وأهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ.

ثمَّ يُفصِّلُ الله تعالى أحوالَ النَّاسِ في هذا اليومِ، فيقولُ: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٤، ١٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٤).

بطاعتِه يَمْحُ اللهُ عنه ذُنوبَه، ويُدخِلْه جَنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ، خالدينَ فيها أبَدًا، ذلك هو الفَوزُ العَظيمُ.

والَّذين كَفَروا باللهِ وكَذَّبوا بآياتِه أولئك أصحابُ النَّارِ، خالدينَ فيها أبَدًا، وبِئْسَ المَرجِعُ هيَ!

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى بالبَعثِ، وأقسَمَ عليه، وأشار إلى دليلِه السَّابِقِ، وسَبَّب عنه ما يُنَجِّي في يَومِه؛ ذكَرَ يَومَه وما يكونُ فيه؛ ليُحذَرَ، فقال تعالى[1]:

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ﴾.

أي: يَومَ يَجمَعُكم اللهُ جميعًا؛ أوَّلَكم وآخِرَكم، وإنْسَكم وجِنَّكم- ليَومِ القيامةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١١٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

قيلَ: ﴿ يَوْمَ ﴾ ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿ خَبِيرٌ ﴾ في قَولِه تعالى السَّابِقِ: ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ أي: هو بما تَعملونَ خَبيرٌ يَومَ يَجمَعُكم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٠٥).

وقيلَ: ﴿ يَوْمَ ﴾ مُتعَلِّقٌ بـ ﴿ لَتُنَبَّؤُنَّ ﴾. أي: لَتُنَبَّؤُنَّ يومَ القيامةِ. وممَّن ذهب إليه: الزَّجَّاجُ، والنَّحَّاسُ، والعُلَيمي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٩٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٤).

وقيلَ: ﴿ يَوْمَ ﴾ مُتعَلِّقٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُروا. وممَّن قال بذلك: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨). =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال الله سُبحانَه: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَجمَعُ

---

= قال الرازي: (وفي تسميتِه بيومِ الجَمعِ وُجوهٌ:

الأوَّلُ: أنَّ الخلائقَ يُجمَعون فيه، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾، فيَجتمِعُ فيه أهلُ السَّمواتِ مع أهلِ الأرضِ.

الثَّاني: أنَّه يجمَعُ بيْن الأرواحِ والأجسادِ.

الثَّالثُ: يجمعُ بيْنَ كلِّ عاملٍ وعمَلِه.

الرَّابعُ: يجمعُ بيْنَ الظَّالمِ والمظلومِ). ((تفسير الرازي)) (٢٧/ ٥٨٠). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ الجمعَ للخلائقِ؛ الأوَّلينَ والآخِرينَ، وأهلِ السَّمَواتِ وأهلِ الأرضِ-: السَّمْعانيُّ، والبَغَوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠).

وممَّن اقتصَر على أنَّ المرادَ جمْعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ: ابنُ كثير، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

قال ابن كثير: (قولُه: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾ وهو يومُ القيامةِ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه يُجمَعُ فيه الأوَّلونَ والآخِرونَ في صعيدٍ واحدٍ، يُسْمِعُهم الدَّاعي، ويَنْفُذُهم البصرُ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧).

وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ الجَمعُ الَّذي في قَولِه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، وهذا زيادةُ تحقيقٍ للبَعثِ الَّذي أنكَروه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٤).

وجمَع الشَّوكانيُّ بيْن بعضِ الأوجُهِ، فقال: (ومعنى ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِ﴾ ليومِ القيامةِ؛ فإنَّه يُجمَعُ فيه أهلُ المَحشَرِ للجزاءِ، ويُجمَعُ فيه بيْنَ كلِّ عامِلٍ وعمَلِه، وبيْن كلِّ نبيٍّ وأمَّتِه، وبيْن كلِّ مَظلومٍ وظالِمِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٣).

اللهُ يومَ القيامةِ الأوَّلِينَ والآخِرينَ في صَعيدٍ واحِدٍ))[١].

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾.

أي: ذلك اليَومُ هو اليَومُ الَّذي يَغبِنُ فيه بعضُ أهلِ المَحشَرِ بعضًا؛ فيَغبِنُ فيه أهلُ الحقِّ أهلَ الباطلِ، ويَغبِنُ فيه أهلُ الإيمانِ أهلَ الكفرِ، وأهلُ الطَّاعةِ أهلَ المعصيةِ، وأهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ[٢].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٧١٢)، ومسلمٌ (١٩٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بيومِ التَّغابُنِ: يوم يَغبِنُ فيه أهلُ الجنَّةِ أهلَ النَّارِ، والمؤمنونَ الفاسِقين، وأهلُ الهدى أهلَ الضَّلالةِ، ومَن ارتفعتْ مَنزِلَتُه في الجنَّةِ مَن كان في دُونِ مَنزِلَتِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّي، وابن عطية، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٨٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

قال الواحدي: (قال المُقاتِلانِ: هو يوم يَغبِنُ فيه أهلُ الحقِّ أهلَ الباطلِ، وأهلُ الهدى أهلَ الضَّلالةِ، وأهلُ الإيمانِ أهلَ الكفرِ، فلا غَبْنَ أبْيَنُ منه، هؤلاء يَدخُلونَ الجنَّةَ، وهؤلاء يدخلون النَّارَ، وهذا معنى قولِ جماعةِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (٢١/ ٤٨٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٥٢).

وقال ابن عطيَّة: (وهو يَومُ التَّغابُنِ؛ وذلك أنَّ كلَّ واحدٍ يَنبعِثُ مِن قبرِه وهو يَرجو حظًّا ومَنزِلةً، فإذا وقَع الجزاءُ غبَنَ المؤمنونَ الكافِرين؛ لأنَّهم يَحوزونَ الجنَّةَ، ويَحصُلُ الكفَّارُ في النَّارِ. نحا هذا المنحى مجاهدٌ وغيرُه، وليس هذا الفِعلُ مِنَ التَّغابُنِ مِن اثنَينِ، بل كتَواضَعَ وتَحامَلَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٩).

وقيل: إنَّ المرادَ: يَغبِنُ بعضُهم بعضًا؛ لِنُزولِ السُّعداءِ مَنازِلَ الأشقياءِ الَّتي كانوا يَنزِلونها لو كانوا سُعداءَ، ونُزولِ الأشقياءِ مَنازِلَ السُّعداءِ الَّتي كانوا يَنزِلونها لو كانوا أشقياءَ. وفيه تهكُّمٌ =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

وقال الله سُبحانَه: ﴿... أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الحاقة: ٤٩، ٥٠].

وعَن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ما مِنكُم مِن أحَدٍ إلَّا له مَنزِلانِ: مَنزِلٌ في الجنَّةِ، ومنزلٌ في النَّارِ، فإذا ماتَ

---

= بالأشقياءِ؛ لأنَّ نُزولَهم ليس بغَبْنٍ. وممَّن اختار هذا القولَ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو حيان، وأبو السعود، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٠٣).

وقيل: يَظهَرُ يومَئذٍ غَبْنُ كلِّ كافرٍ بتَركِه الإيمانَ، ويَظهَرُ غَبْنُ كلِّ مؤمنٍ بتقصيرِه في الإحسانِ. وممَّن اختاره: البغويُّ، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٠٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٧٦).

وقال السمرقندي: (يَغبنُ فيه الكافرُ نفْسَه وأهْلَه ومَنازِلَه في الجنَّةِ، يعني: يكونُ له النَّارُ مكانَ الجنَّةِ، وذلك هو الغَبنُ والخُسرانُ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٦).

وقال القرطبي: (أي: أنَّ أهلَ الجنَّةِ أخَذوا الجنَّةَ، وأخَذَ أهلُ النَّارِ النَّارَ على طريقِ المُبادَلةِ؛ فوَقَع الغَبنُ لأجْلِ مُبادَلتِهم الخَيرَ بالشَّرِّ، والجَيِّدَ بالرَّديءِ، والنَّعيمَ بالعَذابِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٦).

وقال ابنُ عاشور: (وأمَّا صِيغةُ التَّفاعُلِ فحَمَلَها جُمهورُ المفَسِّرينَ على حقيقتِها مِن حُصولِ الفِعلِ مِن جانِبَينِ، ففَسَّروها بأنَّ أهلَ الجنَّةِ غَبَنوا أهلَ النَّارِ؛ إذ أهلُ الجنَّةِ أخَذوا الجنَّةَ، وأهلُ جَهنَّمَ أخَذوا جَهنَّمَ. قاله مجاهدٌ، وقتادةُ، والحَسَنُ. فحَمَل القُرطبيُّ وغَيرُه كلامَ هؤلاء الأئمَّةِ على أنَّ التَّغابُنَ تَمثيلٌ لحالِ الفريقَينِ بحالِ مُتبايعَينِ أخَذ أحدُهما الثَّمَنَ الوافيَ، وأخَذَ الآخَرُ الثَّمَنَ المَغبونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٦). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٧).

فدَخَل النَّارَ، وَرِثَ أهلُ الجنَّةِ مَنزِلَه، فذلك قولُه تَعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]))[١].

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

**مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ الَّذي يَظهَرُ فيه التَّغابُنُ والتَّفاوُتُ بيْن الخلائقِ، ويَغبِنُ المؤمنونَ الفاسِقين، ويَعرِفُ المجرمون أنَّهم هم الخاسِرون؛ فكأنَّه قيل: بأيِّ شَيءٍ يَحصُلُ الفَلاحُ والشَّقاءُ، والنَّعيمُ والعذابُ؟ فذكر تعالى أسبابَ ذلك بقولِه[٢]:

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾.

أي: ومَن يؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ بطاعتِه، يَمْحُ اللهُ عنه ذُنوبَه[٣].

﴿وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: ويُدخِلْه اللهُ جناتٍ تَجري أنهارُها فيها مِن تَحتِ قصورِها وأشجارِها[٤].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ﴾.

---

(١) أخرجه ابنُ ماجه (٤٣٤١)، والبَيْهَقيُّ في ((البعث والنشور)) (٢٤١).
صحَّح إسنادَه القُرطبيُّ في ((التذكرة)) (ص: ٤٣٥)، وابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١١/ ٤٥١)، وقال البوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٢٦٦): (إسنادُه صحيحٌ على شرطِ الشَّيخَينِ)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٥٧٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

أي: لابِثينَ في تلك الجَنَّاتِ أبَدًا، فلا يَموتونَ فيها، ولا يُخرَجونَ منها[١].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾

أي: تكفيرُ السَّيِّئاتِ والخُلودُ في الجنَّاتِ: هو الظَّفَرُ العَظيمُ الجالِبُ للمَسارِّ، والمُنجِي مِن المَضارِّ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الفائِزَ بلُزومِه التَّقوى؛ ترغيبًا- أتْبَعَه الخائِبَ بسَبَبِ إفسادِ القُوَّتَينِ الحاملتَينِ على التَّقْوى: العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ؛ تَرهيبًا[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾.

أي: والَّذين كَفَروا باللهِ وكَذَّبوا بآياتِه أولئك أصحابُ النَّارِ الملازِمونَ لها دَومًا، الماكِثونَ فيها أبَدًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ﴾ [الروم: ١٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٥٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢١، ١٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾.

أي: وبِئسَ المَرجِعُ والمُنقلَبُ الَّذي يَصيرُ إليه الكفَّارُ في الآخِرةِ: النَّارُ[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

اشتَرِ نفْسَك اليَومَ؛ فإنَّ السُّوقَ قائمةٌ، والثَّمنَ موجودٌ، والبضائعَ رخيصةٌ، وسيأتي على تلك السُّوقِ والبضائعِ يومٌ لا تصِلُ فيها إلى قليلٍ ولا كثيرٍ، ذلك يَومُ التَّغابُنِ، يومَ يَعَضُّ الظَّالمُ على يدَيه[2]. وقد أعطى اللهُ تعالى كلَّ إنسانٍ رأسَ مالٍ، وأمَرَه بالتِّجارةِ فيه مع خالِقِه، ورأسُ هذا المالِ هو ساعاتُ العُمُرِ ودقائقُه وثَوانيه، فلا مثيلَ لها في الدُّنيا، ولا يوجَدُ شَيءٌ أكبَرُ منها فائدةً إذا أُعمِلَتْ على الوجهِ الأتَمِّ، هذا رأسُ مالِك أيُّها الإنسانُ، وأنت مأمورٌ بتحريكِه والتِّجارةِ فيه مع الله، فإن كنتَ رجُلًا عاقلًا يُقدِّرُ الأمورَ ويَخافُ العَواقِبَ السَّيِّئةَ حرَّكْتَ عُمُرَك، وتاجَرْتَ فيه مع خالِقِ السَّمواتِ والأرضِ تجارةً، وذلك أن تَصرِفَ ساعاتِ العُمُرَ وأوقاتَه ودقائقَه وثوانيَه فيما يُرضيه، وتَحذَرَ أن تَصرِفَ شيئًا منه فيما يُسخِطُه، فتَنظُرَ في أوقاتِ عُمُرِك الوقتَ الَّذي يَتوجَّهُ إليك فيه أمرٌ مِن السَّماءِ -كأوقاتِ الصَّلَواتِ، وأوقاتِ الصَّومِ، وأوقاتِ الحجِّ، وما جرى مَجرى ذلك- فتُبادِرَ إلى امتِثالِ أمْرِك بنفْسٍ طَيِّبةٍ مُسارِعةٍ راغِبةٍ فيما عندَ الله، والأوقاتُ الَّتي لم يتَوجَّهْ عليك طلبٌ مخصوصٌ فيها تَستزيدُ مِن الخَيرِ، وتَحذَرُ كلَّ الحذَرِ مِن أن تَرتَكِبَ شيئًا يُغضِبُ خالِقَك ويُسخِطُه، فإذا اتَّجَرْتَ مع الله هذه التِّجارةَ رَبِحْتَ رِبحًا عظيمًا؛ رَبِحتَ مُجاوَرةَ ربٍّ غيرِ غَضْبانَ، والنَّظرَ إلى وجْهِه الكريمِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٤٩).

وسُكْنى الجنَّةِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ إنْ قيلَ: فأيُّ مُعامَلةٍ وقَعَت بيْنَهما حتَّى يقَعَ الغَبْنُ فيها؟!

**فالجوابُ**: هو تمثيلُ الغَبْنِ في الشِّراءِ والبَيعِ -على قولٍ-، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٦]، ولَمَّا ذَكَر أنَّ الكُفَّارَ اشتَرَوُا الضَّلالةَ بالهُدى وما رَبِحوا في تجارتِهم بل خَسِروا، وذكَرَ أيضًا أنَّهم غُبِنوا؛ وذلك أنَّ أهلَ الجنَّةِ اشتَرَوُا الآخِرةَ بتَرْكِ الدُّنيا، واشترى أهلُ النَّارِ الدُّنيا بتَرْكِ الآخِرةِ، وهذا نوعُ مُبادَلةٍ، وقد فَرَّق اللهُ سُبحانَه وتعالى الخَلْقَ فَريقَين: فريقًا للجَنَّةِ، وفريقًا للنَّارِ، ومَنازِلُ الكُلِّ مَوضوعةٌ في الجنَّةِ والنَّارِ، فقد يَسبِقُ الخِذْلانُ على العَبدِ فيَكونُ مِن أهلِ النَّارِ، فيَحصُلُ الموفَّقُ على مَنزِلِ المخذولِ، ومَنزِلُ الموفَّقِ في النَّارِ للمَخذولِ، فكأنَّه وقَعَ التَّبادُلُ؛ فحَصَل التَّغابُنُ، والأمثالُ موضوعةٌ للبيانِ في حُكمِ اللُّغةِ والقُرآنِ[٢]، وأيضًا فأهلُ الجنَّةِ بايَعوا على الإسلامِ بالجنَّةِ فرَبِحوا، وأهلُ النَّارِ امْتَنَعوا مِن الإسلامِ فخَسِروا؛ فشُبِّهوا بالمُتبايعَينِ يَغْبِنُ أحدُهما الآخَرَ في بَيعِه، ويُؤَيِّدُ ذلك قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا يَدخُلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا أُرِيَ مَقْعَدَه مِن النَّارِ لو أساءَ؛ لِيَزدادَ شُكرًا، ولا يَدخُلُ أحدٌ النَّارَ إلَّا أُرِيَ مَقْعَدَه مِن الجنَّةِ لو أَحْسَنَ؛ لِيَكونَ عليه حَسْرةً))[٣].

٢- قَولُ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾ استُدِلَّ بقَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٤/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٥٣).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٦٥٦٩) مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ على أنَّه لا يجوزُ الغَبْنُ في مُعاملةِ الدُّنيا؛ لأنَّ اللهَ تعالى خَصَّص التَّغابُنَ بيومِ القيامةِ، فقال: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾، وهذا الاختِصاصُ يُفيدُ أنَّه لا غَبْنَ في الدُّنيا؛ فكُلُّ مَنِ اطَّلَع على غَبْنٍ في مَبيعٍ فإنَّه مردودٌ[1] على خِلافٍ بيْنَ الفُقهاءِ في ذلك[2].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ فيه سُؤالٌ: قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ﴾ بلَفظِ الواحِدِ، و﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ بلَفظِ الجَمعِ؟

**الجوابُ**: أنَّ ذلك بحَسَبِ اللَّفظِ، وهذا بحَسَبِ المعنى[3].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ بلَفظِ المُستَقبَلِ، وفي الكُفْرِ قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بلَفظِ الماضي؛ وذلك أنَّ تقديرَ الكَلامِ: ومَن يؤمِنْ باللهِ مِن الَّذين كَفَروا وكَذَّبوا بآياتِنا، يُدخِلْه جنَّاتٍ، ومَن لم يؤمِنْ منهم فأولئك أصحابُ النَّارِ[4].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ هذان هما الأساسانِ للكُفرِ؛ لأنَّ الكُفرَ يَدورُ على شيئينِ: إمَّا استِكبارٍ، وإمَّا جُحودٍ، فكُفْرُ إبليسَ: كُفْرُ استكبارٍ؛ لأنه مُقِرٌّ باللهِ، لكنَّه استكبَرَ، وكُفْرُ فِرعَونَ وقَومِه: كُفْرُ جُحودٍ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا﴾ [النمل: ١٤]، فَهُمْ في أَلْسِنَتِهم

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦١).

(٢) اتَّفَق الأئمَّةُ الأربعةُ: أبو حنيفةَ ومالكٌ والشَّافعيُّ وأحمدُ على أنَّ الغَبْنَ في البَيعِ بما لا يَفحُشُ لا يؤثِّرُ في صِحَّتِه، ثمَّ اختلَفوا إذا كان الغَبْنُ فيه بما لا يَتغابَنُ النَّاسُ بمِثلِه في العادةِ؛ فقال مالكٌ وأحمدُ: يَثبُتُ الفَسخُ، وقدَّره مالكٌ بالثُّلُثِ ولم يُقَدِّرْه أحمدُ، وقال أبو حَنيفةَ والشَّافِعيُّ: ليس له الفَسخُ. يُنظر: ((اختلاف الأئمة العلماء)) لابن هُبَيْرةَ (١/ ٣٥٦)، ((المغني)) لابن قدامة (٣/ ٤٩٨)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُكَذِّبُون، لكنَّهم في نُفوسِهم مُصَدِّقُون؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[١] [النمل: ١٤].

٦- قَولُ الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيه سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، بعدَ قَولِه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، وذلك بِئسَ المصيرُ؟

**الجوابُ**: ذلك وإن كان في معناه فلا يدُلُّ عليه بطَريقِ التَّصريحِ؛ فالتَّصريحُ مِمَّا يؤَكِّدُه[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: الملازِمون لها؛ ولهذا لا تأتي «أصحابُ النَّارِ» إلَّا في الكُفَّارِ، لا تأتي في المؤمِنينَ أبدًا! لأنَّ المرادَ الَّذين هم مُصاحِبون لها، والمصاحِبُ لا بُدَّ أنْ يُلازِمَ مَن صاحَبَه[٣].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾ إلى قولِه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [التغابن: ١٠] تَفصيلٌ لِما أُجمِلَ في قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [التغابن: ٨] الَّذي هو تَذييلٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

- وانتصَبَ ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ [التغابن: ٩] بقولِه: ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، أو بـ﴿خَيْرٌ﴾ [التغابن: ٨]، بما فيه مِن معنى الوَعيدِ والجزاءِ، أو بمحذوفٍ دلَّ عليه سِياقُ الكلامِ، أي: تَتفاوَتونَ يومَ يَجْمَعُكُم. وقيلَ: هو مفعولٌ به لِفعلٍ محذوفٍ، أي: اذْكُروا[1].

وعلى القولِ بأنَّ قولَه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ مُتعلِّقٌ بفِعلِ ﴿لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ﴾ [التغابن: ٧]، الَّذي هو كِنايةٌ عن «تُجازَوْنَ» على تَكذيبِكُم بالبعثِ، فيكونُ مِن تمامِ ما أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَه لهمُ ابتِداءً مِن قولِه تعالَى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾[2] [التغابن: ٧].

- واللَّامُ في ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ للتَّعليلِ، أي: يَجمَعُكم مِن أجْلِ اليَومِ المعروفِ بالجمعِ المخصوصِ، وهو الَّذي مِن أجْلِ جمْعِ النَّاسِ، أي: يَبعَثُكم مِن أجْلِ أنْ يَجمَعَ النَّاسَ كلَّهم للحسابِ، فمعنى الجمعِ هذا غَيرُ معنى الَّذي في: ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ [التغابن: ٩]، فليس هذا مِن تعليلِ الشَّيءِ بنفْسِه، بل هو مِن قَبيلِ التَّجنيسِ، ويجوزُ أنْ يكونَ اللَّامُ بمعنى (في)، والأحسَنُ أنْ يكونَ اللَّامُ للتَّوقيتِ، وهي الَّتي بمعنى (عِندَ)؛ كالَّتي في قولِهم: كُتِبَ لِكَذا مَضَيْنَ مثلًا، وهو استِعمالٌ يدُلُّ على شدَّةِ الاقترابِ؛ ولذلك فسَّروهُ بمعنى (عِندَ)، ويُفيدُ هُنا أنَّهم مَجموعونَ في الأجَلِ المُعيَّنِ دونَ تأخيرٍ؛ ردًّا على قولِهم: ﴿لَّن يُبْعَثُوا﴾ [التغابن: ٧]، فيَتعلَّقُ قولُه: ﴿لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ بفِعلِ ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾، فيومُ الجَمعِ هو يومُ الحشرِ، جُعِلَ هذا المُركَّبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١١).
ويُنظر ما تقدَّم في حاشية التَّفسير (ص: ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٤).

الإضافيُّ لقبًا ليومِ الحشرِ[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۚ﴾ اعتراضٌ بيْن جُملةِ ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ [التغابن: ٧] بمُتعلَّقِها وبيْن جُملةِ ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ اعتراضًا يُفيدُ تَهويلَ هذا اليَومِ؛ تَعريضًا بوَعيدِ المُشرِكينَ بالخَسارةِ في ذلك اليومِ، أي: بسُوءِ المُنقلَبِ[٢].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۚ﴾ الإتيانُ باسمِ الإشارةِ في مَقامِ الضَّميرِ؛ لقَصْدِ الاهتِمامِ بهذا اليَومِ بتَمييزِهِ أكمَلَ تمييزٍ، مع ما يُفيدُه اسمُ إشارةِ البعيدِ مِن عُلُوِّ المرتبةِ[٣].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۚ﴾ أفادَ تَعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ قصرَ المُسنَدِ على المُسنَدِ إليهِ، أي: قصرَ جنسِ يومِ التَّغابُنِ على يومِ الجَمْعِ المُشارِ إليه باسمِ الإشارةِ، وهو مِن قَبيلِ قصرِ الصِّفةِ على الموصوفِ قصرًا ادِّعائيًّا[٤]، أي: ذلك يومُ الغَبْنِ، لا أيَّامُ أسواقِكم ولا غَيرُها؛ فإنَّ عدمَ أهمِّيَّةِ غَبْنِ النَّاسِ في الدُّنيا جعَلَ غَبْنَ الدُّنيا كالعدمِ، وجعَلَ يومَ القيامةِ مُنحصِرًا فيه جنسُ الغَبْنِ[٥].

- قولُه: ﴿يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۚ﴾ قيل: التَّغابُنُ تَمثيلٌ لحالِ الفريقَينِ بحالِ مُتبايعَيْنِ أخَذَ أحَدُهُما الثَّمَنَ الوافيَ، وأخَذَ الآخَرُ الثَّمَنَ المغبونَ، وأنَّ قولَه عَقِبَه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٤، ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، إلى قولِه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ قَرينةٌ على المرادِ مِنَ الجانبَين، ويكونُ قولُه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، إلى قولِه: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ تفصيلًا للفريقَيْنِ؛ فيكونُ في الآيةِ تَشبيهٌ وتمثيلٌ؛ فالتَّمثيلُ في صِيغةِ التَّغابُنِ، وهو تَشبيهٌ مُركَّبٌ بمنزلةِ التَّشبيهِ البليغِ؛ إذِ التَّقديرُ: ذلكَ يومٌ مِثْلُ التَّغابُنِ[1].

والكلامُ تَهديدٌ للمُشركينَ بسُوءِ حالتِهم في يومِ الجَمعِ؛ إذِ المعنى: ذلك يومُ غَبْنِكم الكثيرِ الشَّديدِ، بقَرينةِ قولِه قَبْلَه: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨]، والغابِنُ لهم هو اللهُ تعالَى، ولولا قَصْدُ ذلك لَمَا اقتُصِرَ على أنَّ ذلكَ يومُ تغابُنٍ؛ فإنَّ فيه رِبحًا عظيمًا للمُؤمنينَ باللهِ ورسولِه والقرآنِ[2].

- قولُه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ الواوُ استئنافيَّةٌ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لبيانِ التَّغابُنِ وتفصيلِه[3].

- قولُه: ﴿يُكَفِّرْ﴾ ﴿وَيُدْخِلْهُ﴾ قُرِئَ بياءِ الغَيْبةِ على مُقْتَضى الظَّاهِرِ؛ لأنَّ ضَميرَ الجَلالةِ يُؤْذِنُ بعِنايةِ اللهِ بهذا الفريقِ، وعلى قِراءةِ ﴿نُكَفِّرْ﴾ ﴿ونُدْخِلْهُ﴾ -بنونِ العظَمةِ[4]- فيَكونُ فيه الْتفاتٌ مِنَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّمِ؛ لأنَّ مَقامَ الوعدِ مَقامُ إقبالٍ، فناسَبَه ضَميرُ التَّكلُّمِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١١).

(٤) قرأهما المَدَنيَّانِ -نافعٌ وأبو جعفرٍ-، وابنُ عامرٍ بالنُّونِ، وقرأهما الباقونَ بالياءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ تَذييلٌ[١]. والإشارةُ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى مَجموعِ الأمْرَينِ -تَكفيرِ السَّيِّئاتِ، وإدْخالِ الجَنَّاتِ-؛ ولذلك جعَلَه الفَوزَ العظيمَ؛ لأنَّه جامعٌ للمَصالحِ: مِن دَفعِ المَضارِّ، وجَلبِ المَنافعِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، وقال في سُورةِ (الطَّلاقِ): ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ [الطلاق: ١١]؛ فخصَّصَ الآيةَ الأُولى بقولِه: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾، وخَلَت الآيةُ الثَّانيةُ منه؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الآيةَ الأُولى جاءتْ بعْدَ قولِه مُخبرًا عن الكفَّارِ: ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ * زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن: ٦، ٧]، فهذه سيِّئاتٌ تَحتاجُ إلى تَكفيرٍ إذا آمَنَ باللهِ بعْدَها، فقال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا﴾ في مُستقبَلِ عُمُرِه، يَمسَحْ عنه ما سبَقَ مِن كُفرِه، ثمَّ يُوجِبْ له جنَّاتٍ، والآيةُ الثَّانيةُ لم يَتقدَّمْها خبَرٌ عن كُفَّارٍ بسيِّئاتٍ فيُوعَدوا بتَكفيرِها إذا أقْلَعوا عنها وتابوا منها وعَمِلوا الصَّالحاتِ مَكانَها، وكان مَضمونًا تَكفيرُ السَّيِّئاتِ عندَ الإيمانِ، وعمَلِ الصَّالحاتِ؛ فلم يُحتَجْ إلى ذِكرِه كما كان الأمرُ في غيرِه[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٨١، ١٢٨٢)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٧)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٧٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٨).

فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾، أي: كفَروا وكذَّبوا مِنْ قَبْلُ، واستمَرُّوا على كفرِهم وتكذيبِهم، فلم يَسْتَجيبوا لهذه الدَّعوةِ، ثَبَت لهم أنَّهم أصحابُ النَّارِ؛ ولذلك جِيءَ في جانبِ الخَبرِ عنهم بالجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ لعَراقتِهم في الكفرِ والتَّكذيبِ[1].

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ جِيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ لتَمييزِهِم تمييزًا لا يَلتبِسُ معه غيرُهم بهم، مع ما يُفيدُه اسمُ الإشارةِ مِن أنَّ استِحقاقَهم لِمُلازَمةِ النَّارِ ناشئٌ عن الكُفرِ والتَّكذيبِ بآياتِ اللهِ، وهذا وعيدٌ[2].

- وجُملةُ ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ اعتِراضٌ تذييليٌّ؛ لزيادةِ تَهويلِ الوعيدِ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١١-١٢)

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا أنَّ كلَّ شيءٍ بقضائِه وقدَرِه: ما أُصيبَ أحدٌ بمُصيبةٍ إلَّا بقَضاءِ اللهِ تعالى ومَشيئتِه، ومَن يُؤمِنْ باللهِ وبأنَّ المصائِبَ بإذْنِه وقَدَرِه، يَهْدِ اللهُ قَلْبَه للحَقِّ، واللهُ بكُلِّ شَيءٍ عليمٌ.

ثمَّ يَحُضُّ الله تعالى عبادَه على طاعتِه والتَّوكُّلِ عليه، فيقولُ: وأطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، فإنْ أعرَضْتُم فإنَّما على رَسولِنا البلاغُ الواضِحُ الَّذي تُقامُ به الحُجَّةُ عليكم، اللهُ لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو، وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمِنونَ.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

هذه الآيةُ تتعَلَّقُ بقَولِه تعالى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [التغابن: ٨]؛ لِما أنَّ مَن يُؤمِنُ باللهِ فيُصَدِّقُه يَعلَمُ أنَّه لا تُصيبُه مُصيبةٌ إلَّا بإذنِ اللهِ[١].

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾.

أي: ما أُصيبَ أحدٌ بأيِّ مُصيبةٍ كانت إلَّا بقَضاءِ اللهِ تعالى وتَقديرِه ومَشيئتِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٩)، ((مجموع الفتاوى)) =

كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

أي: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعلَمْ أنَّ المصائِبَ بإذْنِه وقَدَرِه، يُوَفِّقِ اللهُ قَلْبَه للحَقِّ؛ فيُسلِّمَ لأمْرِه، ويَرْضَى بقَضائِه، فتَهُونَ عليه مُصيبتُه[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

وعن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((عَجَبًا لأمرِ المُؤمِنِ! إنَّ أمْرَه كُلَّه خَيرٌ، وليس ذاك لأحَدٍ إلَّا للمُؤمِنِ؛ إن أصابَتْه سَرَّاءُ شَكَر فكان خيرًا له، وإن أصابَتْه ضَرَّاءُ صَبَر فكان خيرًا له))[2].

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ ذو عِلمٍ تامٍّ بكُلِّ شَيءٍ، فيَعلَمُ أقوالَ خَلْقِه وأفعالَهم، وضَمائِرَهم وأحوالَهم، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ سُبحانَه[3].

---

= لابن تيمية (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(٢) رواه مسلم (٢٩٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٨).

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان تقديرُ ما سَبَق: فاصبِروا عندَ هُجومِ المصائبِ، عَطَف عليه قَولَه؛ تحذيرًا مِن أن يُشتغَلَ بها، فتُوقِعَ في الهلاكِ، وتَقطَعَ عن أسبابِ النَّجاةِ، دالًّا على تعَلُّمِ أُمورِ الدِّينِ، مُشيرًا إلى أنَّ العبادةَ لا تُقبَلُ إلَّا بالاتِّباعِ لا بالابتِداعِ: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ ﴾ الآيةَ[1].

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾.

أي: وأطيعوا اللهَ وأطيعوا رَسولَه، بامتِثالِ ما أمَر الله به ورسولُه، واجتنابِ ما نهَى الله عنه ورسولُه[2].

﴿ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾.

أي: فإنْ أعرَضْتُم عن طاعةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه، فإنَّما على رَسولِنا محمَّدٍ إبلاغُ ما أرسَلَه اللهُ به إبلاغًا واضِحًا تُقامُ به الحُجَّةُ، ويَنقَطِعُ به العُذرُ، وليس عليه حِسابُكم، بل اللهُ تعالى هو الَّذي يتَولَّى ذلك، ويُعاقِبُكم على تولِّيكم[3].

كما قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ [النور: ٥٤].

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٣﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾.

أي: اللهُ لا مَعبودَ بحقٍّ إلَّا هو وَحْدَه؛ فلا تَصلُحُ العِبادةُ لِغَيرِه(١).

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾.

أي: وعلى اللهِ وَحْدَه فلْيَعتَمِدِ المؤمِنونَ، ويُفَوِّضوا جميعَ أُمورِهم إليه(٢).

كما قال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ﴾ [المزمل: ٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ﴾ هذا عامٌّ لجَميعِ المصائِبِ؛ في النَّفْسِ والمالِ، والولَدِ والأحبابِ ونَحوِهم، فجميعُ ما أصاب العبادَ فبِقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه، قد سَبَق بذلك عِلمُ اللهِ تعالى، وجرى به قَلَمُه، ونَفَذَت به مَشيئتُه، واقتَضَتْه حِكمتُه، والشَّأنُ كُلُّ الشَّأنِ: هل يقومُ العَبدُ بالوظيفةِ الَّتي عليه في هذا المقامِ أو لا يقومُ بها؟ فإنْ قام بها فله الثَّوابُ الجَزيلُ، والأجرُ الجَميلُ في الدُّنيا والآخِرةِ، فإذا آمَنَ أنَّها مِن عندِ اللهِ، فرَضِيَ بذلك، وسَلَّم لأمْرِه؛ هدى اللهُ قَلْبَه، فاطمأَنَّ ولم يَنزعِجْ عندَ المصائبِ كما يَجري لِمَن لم يَهْدِ اللهُ قَلْبَه، بل يَرزُقُه الثَّباتَ عندَ وُرودِها، والقيامَ بمُوجَبِ الصَّبرِ؛ فيَحصُلُ له بذلك ثَوابٌ عاجِلٌ، مع ما يَدَّخِرُ اللهُ له يومَ الجَزاءِ مِن الثَّوابِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [الزمر: ١٠]، وعُلِم مِن هذا أنَّ مَن لم يُؤمِنْ باللهِ عِندَ وُرودِ المصائِبِ بأنْ لم يَلحَظْ قَضاءَ اللهِ وقَدَرَه، بل وَقَف مع مجرَّدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

الأسبابِ: أنَّه يُخذَلُ، ويَكِلُه اللهُ إلى نفْسِه، وإذا وُكِلَ العَبدُ إلى نفْسِه فالنَّفسُ ليس عِندَها إلَّا الجَزَعُ والهَلَعُ، الَّذي هو عُقوبةٌ عاجِلةٌ على العبدِ قبْلَ عُقوبةِ الآخِرةِ، على ما فَرَّط في واجِبِ الصَّبرِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ أنَّ مِن الإيمانِ باللهِ الصَّبرَ على أقدارِ اللهِ[٢].

٣- قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ القَصدُ مِن هذا تعليمُ المُسلِمينَ الصَّبرَ على ما يَغلِبُهم مِن مصائِبِ الحوادِثِ؛ لكي لا تُفَلَّ عزائِمُهم، ولا يَهِنوا، ولا يُلهيَهم الحُزنُ عن مُهِمَّاتِ أُمورِهم، وتدبيرِ شُؤونِهم، كما قال تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾[٣] [الحديد: ٢٣].

٤- مِن فوائِدِ الإيمانِ بالقَدَرِ هَونُ المصائبِ على العَبدِ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا عَلِمَ أنَّها مِن عندِ اللهِ هانتْ عليه المُصيبةُ، كما قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾[٤].

٥- قَولُ الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ فيه أنَّ كُلَّ مَنْ آمَنَ الإيمانَ المأمورَ به؛ مِن الإيمانِ باللهِ، ومَلائِكتِه، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، والقَدَرِ؛ خَيرِه وشَرِّه، وصَدَّق إيمانَه بما يَقتَضيه الإيمانُ مِن القيامِ بلَوازِمِه وواجباتِه: أنَّ هذا السَّبَبَ الَّذي قام به العَبدُ أكبَرُ سَبَبٍ لهدايةِ اللهِ له في أحوالِه وأقوالِه وأفعالِه، وفي عِلمِه وعمَلِه. وهذا أفضَلُ جَزاءٍ يُعطيه اللهُ لأهلِ الإيمانِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٥٤١).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

٦- قَولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾ فيه عُمومُ عِلم اللهِ سُبحانَه، وفائدةُ ذِكْرِ عُمومِ العِلمِ: التَّحذيرُ مِن المُخالَفةِ؛ لأنَّ مَن عَلِم بك مُمتثِلًا أو مخالِفًا فسوف يُجازيك على ذلك، فإنْ كان الأمرُ هكذا ففي كلِّ آيةٍ فيها إثباتُ العِلمِ تحذيرٌ مِن مُخالَفةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لئلَّا يَقَعَ الإنسانُ فيما يُسخِطُ اللهَ سُبحانَه وتعالى عليه[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ وُجوبُ طاعةِ اللهِ ورَسولِه[2]، وفيه تحذيرٌ مِن عِصيانِ اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فيه أنَّه بحَسَبِ إيمانِ العَبدِ يكونُ توَكُّلُه؛ فكُلَّما قَوِيَ الإيمانُ قَوِيَ التَّوَكُّلُ[4]، فقد ذَكَر سُبحانَه اسمَ الإيمانِ هاهنا دونَ سائرِ أسمائِهم؛ دَلالةً على استدعاءِ الإيمانِ للتَّوَكُّلِ، وأنَّ قُوَّةَ التَّوَكُّلِ وضَعْفَه بحَسَبِ قُوَّةِ الإيمانِ وضَعْفِه، وكُلَّما قَوِيَ إيمانُ العبدِ كان توكُّلُه أقوى، وإذا ضَعُفَ الإيمانُ ضَعُفَ التَّوكُّلُ، وإذا كان التَّوكُّلُ ضعيفًا فهو دليلٌ على ضَعْفِ الإيمانِ ولا بُدَّ[5].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ ذِكْرُ الإذْنِ الكَونيِّ -وهو المتعلِّقُ بالخَلْقِ والتَّكوينِ- وهذا لا بُدَّ مِن وُقوعِه، ويُقابِلُه الإذْنُ الشَّرعيُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٧).

(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٥).

-وهو ما يَتعَلَّقُ بالشَّرعِ والعِبادةِ-، مثالُه: قولُه تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]، وقولُه تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، والفرقُ بيْنَهما أنَّ المأذونَ به شرعًا قد يقَعُ وقد لا يقعُ، وأمَّا المأذونُ به قَدَرًا فواقِعٌ لا مَحالةَ، ومِن جهةٍ أُخرى: أنَّ المأذونَ به شرعًا محبوبٌ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، والمأذونَ به قَدَرًا قد يكونُ محبوبًا، وقد يكونُ غيرَ محبوبٍ[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ التَّنصيصُ على المُصيبةِ هنا؛ ليَدُلَّ أنَّ كُلَّ شَيءٍ يَنالُ العَبدَ إنَّما هو بإذنِ اللهِ؛ لأنَّ الجِبِلَّةَ تأبَى المصائِبَ وتتَوَقَّاها، ومع ذلك تُصيبُه، وليس في مَقدورِه دَفْعُها، بخِلافِ الخَيرِ؛ قد يدَّعي أنَّه حَصَّله باجتِهادٍ منه، كما قال قارونُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[٢] [القصص: ٧٨].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه رَدٌّ على القَدَريَّةِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أنَّ أسماءَ اللهِ دالَّةٌ على مَعانٍ هي صِفاتُه، فاللهُ تعالى يُعَلِّقُ بأسمائِه المعمولاتِ مِن الظُّروفِ والجارِّ والمجرورِ وغَيرِهما، ولو كانت أعلامًا مَحْضَةً لم يَصِحَّ فيها ذلك[٤]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أنَّ طاعةَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مستقلَّةٌ، بمعنى: أنه إذا أمَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بشَيءٍ، لا نقولُ: هل يوجَدُ في القرآنِ هذا الأمرُ أو لا يوجدُ؟ بل طاعتُه مستقلَّةٌ؛ وجْهُ ذلك: أنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٦).

أعاد فقال: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وإعادةُ الفِعلِ تدُلُّ على أنَّ طاعةَ الرَّسولِ مستقلَّةٌ، بمعنى أنَّنا لا نحتاجُ إلى شاهدٍ مِن القرآنِ فيما أَمَرَ به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم. لكنْ هل يمكنُ أنْ يكونَ أَمْرُ اللهِ وأمْرُ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مُتناقِضَينِ؟

**الجوابُ**: لا يقَعُ التَّناقضُ؛ لأنَّه لو وقَعَ لَكانت طاعةُ الرَّسولِ مَعصيةً للهِ، وطاعةُ اللهِ معصيةً للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم! وهذا تناقُضٌ؛ لأنَّ التَّناقضَ يكونُ النَّقيضُ حُكْمُه ضد حُكْمِ نقيضِه، فلو قُلْنا: إنَّه يَقَعُ التَّناقضُ لَزِمَ مِن ذلك ما تقَدَّمَ مِن أنَّ طاعةَ اللهِ تكونُ معصيةً للرَّسولِ، وطاعةَ الرَّسولِ تكونُ معصيةً للهِ[1]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أنَّ الكتابَ والسُّنَّةَ أصلٌ يُرجَعُ إليه[2].

٧- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾. في قَولِه تعالى: ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ أنَّ الرِّسالةَ مِن أَفْخَرِ الأوصافِ الَّتي يَتَّصِفُ بها العبدُ، ولا شكَّ أنَّ الرَّسولَ يَفْضُلُ ويَشرُفُ بحَسَبِ مَنزِلةِ مُرْسِلِه، لو جاء رسولٌ مِن عندِ رجُلٍ شريفٍ عالي المنزلةِ، فهل يكونُ في نُفوسِنا كرَسولٍ جاء مِن عامَّةِ النَّاسِ؟ الجوابُ: لا، بل يكونُ في نُفوسِنا لهذا الرَّسولِ بمِقدارِ ما يَستَحِقُّه مِن مَنزلةِ مَن أَرْسَله؛ فعليه تكونُ الرِّسالةُ فخرًا لِمَن أُرْسِلَ[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تحريضٌ للمُؤمِنينَ على مُكافَحةِ الكُفَّارِ، والصَّبرِ على دينِ اللهِ[4].

٩- قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فجِيءَ في ذلك بصيغةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٠).

أمْرِ المُؤمِنينَ بالتَّوكُّلِ على اللهِ دونَ غَيرِه؛ ربطًا على قلوبِهِم، وتثبيتًا لنُفوسِهِم؛ كَيْ لا يأسَفوا مِن إعراضِ المُشرِكينَ وما يُصيبُهم منهم، وأنَّ ذلك لنْ يَضُرَّهم، فإنَّ المُؤمِنينَ لا يَعتزُّونَ بهم، ولا يتَقوَّوْنَ بأمثالِهِم؛ لأنَّ اللهَ أمَرَهُم ألَّا يَتوكَّلوا إلَّا عليه، وفيه إيذانٌ بأنَّهم لا يُخالِفونَ أمْرَ اللهِ، وذلك يَغيظُ الكافِرين[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُهُ تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴾ استِئنافٌ انتُقِلَ إليه بعدَ أنْ تُوُعِّدَ المُشرِكونَ بما يَحصُلُ لهم مِن التَّغابُنِ يومَ يَجمَعُ اللهُ النَّاسَ يومَ الحسابِ. ويُشبِهُ أنْ يكونَ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ تَهديدَ المُشرِكينَ بيومِ الحسابِ يُثيرُ في نُفوسِ المُؤمِنينَ التَّساؤُلَ عن الانتصافِ مِنَ المُشرِكينَ في الدُّنيا على ما يَلْقاهُ المُسلِمونَ مِن إضرارِهم بمكَّةَ؛ فإنَّهم لم يَكُفُّوا عن أذى المُسلِمينَ وإصابتِهم في أبدانِهم وأموالِهم، والفِتنةِ بيْنَهم وبيْنَ أزواجِهم وأبنائِهم[٢]. أو هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للرَّدِّ على الكفَّارِ الَّذينَ قالوا: لو كانَ المُسلِمونَ على حقٍّ لَصانَهمُ اللهُ مِنَ المصائِبِ في الدُّنيا[٣].

- قولُه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾، أي: يَهْدِ قلبَه عِندَما تُصيبُه مُصيبةٌ؛ فحَذَف هذا المُتعلَّقَ لظُهورِه مِن السِّياقِ[٤].

- ومفعولُ ﴿أَصَابَ﴾ محذوفٌ، أي: ما أصابَ أحدًا، والفاعلُ ﴿مِن مُّصِيبَةٍ﴾، و(مِنْ) زائدةٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٠).

- قولُه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾، قال ذلك مع أنَّ الهدايةَ سابقةٌ على الإيمانِ؛ لأنَّه ليس المُرادُ ﴿يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ للإيمانِ، بل المرادُ: يَهْدِه لليقينِ عِندَ نُزولِ المصائبِ؛ فيَعلَمْ أنَّ ما أخطأهُ لم يكُنْ لِيُصيبَه، وما أصابَه لم يكُنْ لِيُخْطِئَه، أو يَهْدِه للرِّضا والتَّسليمِ عندَ وُجودِ المصائبِ، أو للاسترجاعِ عندَ نزولِها بأنْ يقولَ: إنَّا لِلهِ وإنَّا إليه راجِعونَ[1].

- والخبرُ في قولِه: ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ إيماءٌ إلى الأمرِ بالثَّباتِ والصَّبرِ عِندَ حلولِ المصائبِ؛ لأنَّه يَلْزَمُ مِن هَدْيِ اللهِ قلْبَ المؤمنِ عندَ المصيبةِ تَرغيبُ المُؤمِنينَ في الثَّباتِ والتَّصبُّرِ عِندَ حلولِ المصائبِ؛ فلذلك ذُيِّلَ بجُملةِ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، فهو تَذييلٌ للجملةِ الَّتي قَبْلَها، وارِدٌ على مُراعاةِ جميعِ ما تضَمَّنَتْه؛ مِن أنَّ المصائبَ بإذْنِ اللهِ، ومِن أنَّ اللهَ يَهْدي قلوبَ المُؤمِنينَ للثَّباتِ عندَ حُلولِ المصائبِ، ومِنَ الأمرِ بالثَّباتِ والصَّبرِ عندَ المصائبِ، أي: يَعلَمُ جميعَ ذلك[2].

- وفي قولِه: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ كِنايةٌ عن مُجازاةِ الصَّابرينَ بالثَّوابِ؛ لأنَّ فائدةَ عِلمِ اللهِ الَّتي تُهِمُّ النَّاسَ هي التَّخلُّقُ، ورجاءُ الثَّوابِ ورفْعِ الدَّرَجاتِ[3].

٢- قولُهُ تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾

- قولُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]؛ لأنَّها تضمَّنَتْ أنَّ المُؤمِنينَ مُتهيِّئونَ لطاعةِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٨، ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فيما يَدْعُوانِهم إليه مِن مصالحِ الأعمالِ، كما يدُلُّ عليه تذييلُ الكلامِ بقولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣]، ولأنَّ طلَبَ الطَّاعةِ فرْعٌ عن تحقُّقِ الإيمانِ(١).

- قولُه: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ كرَّر الأمْرَ بالطَّاعةِ للتَّأكيدِ، والإيذانِ بالفَرقِ بيْنَ الطاعتَيْنِ في الكَيفيَّةِ(٢).

- وتَفريعُ قولِه: ﴿فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ تَحذيرٌ مِن عِصيانِ اللهِ ورسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(٣).

- والتَّعريفُ في قولِه: ﴿رَسُولِنَا﴾ بالإضافةِ؛ لقَصْدِ تعظيمِ شأنِه بأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رسولُ ربِّ العالَمينَ. وهذا الضَّميرُ الْتفاتٌ مِنَ الغَيْبةِ إلى التَّكلُّمِ يُفيدُ تشريفَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعِزِّ الإضافةِ إلى المُتكلِّمِ(٤).

- وأيضًا إظهارُ الرَّسولِ مُضافًا إلى نونِ العظَمةِ في مَقامِ إضمارِه؛ لتشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، والإشعارِ بمَدارِ الحُكْمِ الَّذي هو كَونُ وَظيفتِهِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَحضَ البلاغِ، ولزيادةِ تَشنيعِ التَّولِّي عنه(٥).

- ومعْنى الحَصرِ في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ قصرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على كَونِ واجبِه البلاغَ، قصْرَ مَوصوفٍ على صفةٍ؛ فالرّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مَقصورٌ على لُزومِ البلاغِ له، لا يَعْدُو ذلكَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٨).

لزومِ شَيءٍ آخَرَ، وهو قصرُ قلبٍ[١]؛ تَنزيلًا لهم في حالةِ العِصيانِ المفروضِ مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ اللهَ لو شاءَ لَألجأهم إلى العَملِ بما أمَرَهم به؛ إلْهابًا لنُفوسِهم بالحثِّ على الطَّاعةِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢] وجُملةِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، واسمُ الجَلالةِ مُبتدَأٌ، وجُملةُ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ خَبرٌ، وهذا تَذكيرٌ للمُؤمِنينَ بما يَعلمونَه، أي: مَنْ آمَنَ بأنَّ اللهَ لا إلهَ إلَّا هو، كان حقًّا عليه أنْ يُطِيعَه، وألَّا يَعبَأَ بما يُصيبُه في جانِبِ طاعةِ اللهِ مِن مصائِبَ وأذًى. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في مَوقعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ [التغابن: ١٢]، وتُفيدُ أيضًا تَعليلَ جُملةِ ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [التغابن: ١٢]؛ لأنَّ طاعةَ الرَّسولِ ترجِعُ إلى طاعةِ اللهِ؛ قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾[٣] [النساء: ٨٠].

- وافتتاحُ الجُملةِ باسمِ الجَلالةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ -إذْ لم يقُلْ: (هُوَ لا إلهَ إلَّا هُوَ)-؛ لاستِحضارِ عَظَمةِ اللهِ تعالَى بما يَحْويهِ اسمُ الجَلالةِ مِن معاني الكَمالِ، ولِتَكونَ الجملةُ مُستقِلَّةً بنَفْسِها، فتكونَ جاريةً مَجْرى الأمثالِ والكَلِمِ الجوامِعِ[٤].

- قولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ عطفٌ على ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨١، ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٢).

[التغابن: ١٢]، فهو في معنى: وتوَكَّلوا على الله؛ فإنَّ المُؤمِنينَ يَتوكَّلونَ على اللهِ لا على غَيرِه، وأنتُم مُؤمِنونَ؛ فتَوَكَّلوا عليه[١].

- وتقدُّمُ المجرورِ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: إنَّ المُؤمِنينَ لا يَتوكَّلونَ إلَّا على اللهِ، أي: عليه تعالَى خاصَّةً دُونَ غَيرِه، لا استقلالًا ولا اشتراكًا[٢].

- والإتيانُ باسمِ الجلالةِ في قولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إظهارٌ في موقعِ الإضمارِ؛ لتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً، فتَسيرَ مَسْرى المثَلِ؛ ولذلكَ كان إظهارُ لفظِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، ولم يَقُلْ: وعلى اللهِ فَلْيَتوكَّلوا، ولِمَا في ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ مِنَ العُمومِ الشَّاملِ للمُخاطَبينَ وغَيرِهم؛ لِيَكونَ معنى التَّمثيلِ[٣]. وأيضًا إظهارُ الجلالةِ في مَوضعِ الإضمارِ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ التَّوكُّلِ والأمرِ به؛ فإنَّ الألوهيَّةَ مُقتضيةٌ للتَّبتُّلِ إليه تعالَى بالكلِّيَّةِ، وقطْعِ التَّعلُّقِ عمَّا سِواهُ بالمرَّةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٨).

## الآيات (١٤-١٨)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾: أي: تُعرِضوا، وتَترُكوا التَّثريبَ، يُقالُ: صَفحتُ عنه: إذا أعرضْتَ عنه، وأصلُ (صفح): يدُلُّ على الإعراضِ؛ لأنَّ مَن أعرَضَ عن صاحِبِه ولَّاه صَفحةَ عُنُقِه، وصرَفَ عنه وجْهَه[1].

﴿فِتۡنَةٞ﴾: أي: بلاءٌ واختِبارٌ وامتحانٌ، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ[2].

﴿شُحَّ﴾: الشُّحُّ: بُخلٌ مع حِرصٍ، وأصلُ (شحح): يدُلُّ على مَنعٍ[3].

﴿شَكُورٌ﴾: أي: يَرضى بيَسيرِ الطَّاعةِ، ويَقْبَلُ القليلَ مِن العملِ، ويُثيبُ عليه الكثيرَ مِنَ الثَّوابِ، ويُقالُ: إنَّ حَقيقةَ الشُّكْرِ الرِّضا باليَسيرِ، والشَّكورُ مِن الدَّوابِّ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٦).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسير سورة الحشر (٣٧/ ٤٥٩).

ما يَكفيه العلَفُ القليلُ لِسِمَنِه، فيُظهِرُ مِنَ السمَنِ فوقَ ما يُعطَى مِن العلَفِ، وأصلُ الشُّكْرِ في الكلامِ: الظُّهورُ، يُقالُ: شكَرَ الضَّرعُ: إذا امْتَلأ، وامتِلاؤُه ظُهورُه، وأصلُ (شكر) هنا: الامْتِلاءُ والغُزْرُ في الشَّيءِ[1].

﴿حَلِيمٌ﴾: أي: لا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ، فهو ذو الصَّفحِ والأنَاةِ، الَّذي لا يَستَفِزُّه غضَبٌ، ولا يَستَخِفُّه جَهْلُ جاهِلٍ، ولا عِصيانُ عَاصٍ، يُقالُ: حَلُمَ فُلانٌ عن فُلانٍ: إذا لم يُقابِلْه على إساءتِه ولم يُجازِه عليها، والحِلمُ: الأناةُ والسُّكونُ مع القُدرةِ والقُوَّةِ، وأصلُ (حلم) هنا: يدُلُّ على تَرْكِ العَجَلةِ[2].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾

في نَصبِ ﴿خَيْرًا﴾ وُجوهٌ مِنَ الإعرابِ:

**أحَدُها:** أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بفِعلٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: وأْتُوا خيرًا لأنفُسِكم.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٤٧)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٨٧)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٦)، ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) لابن القيم (ص: ١٤٨).

قال ابن القيِّم بعدَ أن ذكَرَ اشتِقاقَ كلمةِ الشُّكرِ وحقيقتَها في اللُّغةِ: (تأمَّلْ هذا الاشتِقاقَ وطابِقْ بيْنَه وبيْنَ الشُّكرِ المأمورِ به، وبيْنَ الشُّكرِ الَّذي هو جزاءُ الرَّبِّ الشَّكورِ، كيف تجدُ في الجميعِ معنَى الزِّيادةِ والنَّماءِ). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٤٥)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٩٦)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٢٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٤).

**الثَّاني**: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بـ(أنفِقُوا)، على أن يكونَ المرادُ بالخَيرِ المالَ، كقَولِه تعالى: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠].

**الثَّالِثُ**: أنَّه خَبَرُ (يكن) محذوفًا مع اسمِه، أي: أنفِقوا يَكُنِ الإنفاقُ خَيرًا لأنفُسِكم.

**الرَّابعُ**: أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ نائِبٌ عن المَصدَرِ لأنَّه صِفتُه، أي: وأنفِقوا إنفاقًا خَيرًا.

**الخامِسُ**: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن ضَميرِ مَصدَرِ الفِعلِ. أي: أنفِقوا الإنفاقَ خيرًا[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى محذِّرًا مِن فِتنةِ الأزواجِ والأولادِ والأموالِ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إنَّ بَعضَ أزواجِكم وأولادِكم أعداءٌ لكم؛ إذ يُثبِّطونَكم عن طاعةِ اللهِ، أو يَحْمِلونَكم على مَعصيتِه؛ فاحذَروا الوُقوعَ في ذلك، وإنْ تَعْفُوا -أيُّها المؤمِنونَ- عنهم، وتَترُكوا عُقوبتَهم وتأنيبَهم، وتَستُروا عليهم ذُنوبَهم، فإنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ.

إنَّما أموالُكم وأولادُكم بِلاءٌ واختِبارٌ لكم، واللهُ عِندَه ثَوابٌ عظيمٌ لِمَن لم تَشغَلْه أموالُه وأولادُه وأزواجُه عن طاعةِ اللهِ تعالى.

ثمَّ يحضُّ الله تعالى عبادَه على تَقْواه، ويحذِّرُهم مِن البخلِ والشُّحِّ، فيقولُ: فاتَّقوا اللهَ -أيُّها المُؤمِنونَ- قَدْرَ استِطاعتِكم، واسمَعوا ما يأمُرُكم به اللهُ ورَسولُه، وأطيعُوا، وابذُلوا مِن أموالِكم في الزَّكَواتِ والنَّفَقاتِ الواجِبةِ والمُستَحَبَّةِ؛ هو خيرٌ لكم في الدُّنيا والآخِرةِ. ومَن يَقِهِ اللهُ شِدَّةَ حِرصِ نفْسِه على جَمعِ المالِ،

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٢٩٤)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي بن أبي طالب (٢/ ٧٣٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٥٠)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ٨٢٧).

فأولئك هم الفائِزونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مرغِّبًا في النَّفقةِ: إنْ تُنفِقوا مِن طَيِّبِ أموالِكم بلا مَنٍّ ولا أذًى محتَسبينَ للأجرِ عِندَ رَبِّكم، يُضاعِفِ اللهُ لكم الأجرَ، ويَغفِرْ لكم ذُنوبَكم، واللهُ شَكورٌ يجزي بالجزاءِ الكثيرِ على العملِ القليلِ، حَليمٌ على عبادِه؛ فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ على ذُنوبِهم، عالمُ ما يَغيبُ عن عِبادِه وما يُشاهِدونَه؛ فلا يَخفى عليه شَيءٌ، وهو تعالى العَزيزُ الَّذي لا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾، ثمَّ أمرَ بطاعةِ اللهِ وطاعةِ رَسولِه؛ حَذَّر مِمَّا يَلحَقُ الرَّجُلَ مِن امرأتِه ووَلَدِه، بسبَبِ ما يَصدُرُ مِن بَعضِهم مِن العَداوةِ[1].

وأيضًا فالمُناسَبةُ بيْنَها وبيْن الآيةِ الَّتي قَبْلَها أنَّ كِلْتَيْهما تسليةٌ على ما أصاب المؤمِنينَ مِن غَمٍّ مِن مُعاملةِ أعدائِهم إيَّاهم، ومِن انحرافِ بعضِ أزواجِهم وأولادِهم عليهم[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا إنَّ بعضَ أزواجِكم وأولادِكم أعداءٌ لكم؛ إذ يُثَبِّطونَكم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٣).

عن طاعةِ اللهِ، أو يَشغَلونَكم عنها، أو يَحْمِلونَكم على مَعصيتِه؛ فاحذَروا الوُقوعَ في ذلك(١).

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٨، ١٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

قال ابن تيميَّة: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ﴾ مِنْ: للتَّبعيضِ بالاتِّفاقِ). ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ١٤٧).

وقال ابن العربي: (العَدُوُّ لم يكُنْ عَدُوًّا لِذَاتِه، وإنَّما كان عدُوًّا لفِعْلِه؛ فإذا فَعَل الزَّوجُ والوَلَدُ فِعلَ العَدُوِّ كان عَدُوًّا، ولا فِعلَ أقبَحُ مِن الحَيلولةِ بيْن العبدِ وبيْن الطَّاعةِ... عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: «إنَّ الشَّيطانَ قَعَد لابنِ آدَمَ في طريقِ الإيمانِ، فقال له: أتؤمِنُ وتَذَرُ دِينَك ودينَ آبائِك؟ فخالَفَه فآمَنَ. ثمَّ قَعَد له على طريقِ الهِجرةِ، فقال له: أتُهاجِرُ وتَترُكُ أهْلَك ومالَك؟ فخالَفَه فهاجَرَ. فقَعَد له في طريقِ الجِهادِ، فقال: أتُجاهِدُ فتُقْتَلَ نفْسُك وتُنكَحَ نِساؤُك ويُقسَمُ مالُك؟ فخالفه فجاهَدَ فقُتِلَ، فحَقٌّ على اللهِ أن يُدخِلَه الجنَّةَ» [النسائي «٣١٣٤»، وأحمد «١٥٩٥٨»]. وقُعودُ الشَّيطانِ يكونُ بوجهَينِ؛ أحَدُهما: يكونُ بالوَسوَسةِ. والثَّاني: بأن يَحمِلَ على ما يُريدُ مِن ذلك الزَّوجَ والوَلَدَ والصَّاحِبَ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٦٤).

وقال ابنُ القَيِّم: (ليس المرادُ مِن هذه العَداوةِ ما يَفهَمُه كثيرٌ مِن النَّاسِ أنَّها عداوةُ البَغضاءِ والمُحادَّةِ، بل إنَّما هي عداوةُ المحبَّةِ الصَّادَّةِ للآباءِ عن الهِجرةِ والجِهادِ، وتَعَلُّمِ العِلمِ والصَّدَقةِ، وغَيرِ ذلك مِن أمورِ الدِّينِ وأعمالِ البِرِّ... وما أكثَرَ ما فات العَبدَ مِن الكمالِ والفلاحِ بسَبَبِ زَوجتِه ووَلَدِه!). ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ٦٤).

وقال ابن عاشور: (الإخبارُ عن بعضِ الأزواجِ والأولادِ بأنَّهم عدُوٌّ يجوزُ أن يُحمَلَ على الحقيقةِ؛ فإنَّ بعضَهم قد يُضمِرُ عداوةً لِزَوجِه، وبعضَهم لأبوَيه مِن جَرَّاءِ المُعامَلةِ بما لا يَروقُ عِندَه، مع خَباثةٍ في النَّفْسِ، وسوءِ تفكيرٍ، فيصيرُ عدوًّا لِمَن حقُّه أن يكونَ له صديقًا، ويَكثُرُ أن تأتيَ هذه العداوةُ مِن اختلافِ الدِّينِ، ومِن الانتماءِ إلى الأعداءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٤). وأجاز أيضًا أن يكون المعنى على التشبيه أي: أنهم كالعدو. يُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٤٧٦، ٤٧٧).

﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان النَّهيُ عن طاعةِ الأزواجِ والأولادِ فيما هو ضَرَرٌ على العَبدِ، والتَّحذيرُ مِن ذلك: قد يُوهِمُ الغِلْظةَ عليهم وعِقابَهم- أمَرَ تعالى بالحَذَرِ منهم، والصَّفحِ عنهم والعَفوِ؛ فإنَّ في ذلك مِن المصالحِ ما لا يُمكِنُ حَصْرُه، فقال[1]:

﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾.

أي: وإنْ تَعْفوا -أيُّها المؤمِنونَ- عن أزواجِكم وأولادِكم، وتَترُكوا عُقوبتَهم وتأنيبَهم، وتَستُروا عليهم ذُنوبَهم؛ فإنَّ اللهَ غفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رحيمٌ بهم، ويَغفِرُ للَّذينَ يَغفِرونَ، ويَرحَمُ الَّذين يَرحَمونَ[2].

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾.

﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾.

أي: إنَّما أموالُكم وأولادُكم بلاءٌ واختِبارٌ لكم؛ فاحذَروا أن تَقَعوا -بسَبَبِ الشُّغلِ بهم- في المَنهيَّاتِ، أو تَترُكوا امتِثالَ المأموراتِ، أو تُقَصِّروا في أداءِ الطَّاعاتِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥).

قال البقاعي: (لَمَّا كان التَّقديرُ: يَغفِرِ اللهُ لكم؛ سَبَّبَ عنه قَولَه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾... ﴿غَفُورٞ﴾... جزاءً لكم على غُفرانِكم لهم، وهو جديرٌ بأن يُصلِحَهم لكم بسَبَبِ غُفرانِكم لهم؛ فإنَّه ﴿رَّحِيمٞ﴾ يَزيدُكم بعدَ ذلك السَّترِ الإكرامَ بالإنعامِ إن أكرَمْتُموهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٣٠، ١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٣٩)، ((فتح الباري)) =

كما قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١، ٢].

وعن بُرَيدةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَخطُبُ، فجاء الحَسَنُ والحُسَينُ رَضِيَ اللهُ عنهما، وعليهما قَميصانِ أحمرانِ يَعْثُرانِ[١] فيهما، فنَزَل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقَطَع كَلامَه، فحَمَلَهما ثمَّ عاد إلى المِنبَرِ، ثمَّ قال: صَدَقَ اللهُ: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، رأيْتُ هذَينِ يَعثُرانِ في قَميصَيْهما، فلم أَصبِرْ حتَّى قَطعْتُ كَلامي فحَمَلْتُهما!))[٢].

وعن كَعبِ بنِ عِياضٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ لِكُلِّ أمَّةٍ فِتنةً، وفِتنةُ أُمَّتي المالُ))[٣].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الدُّنيا حُلْوةٌ خَضِرَةٌ[٤]، وإنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكم فيها، فيَنظُرُ كيف تَعمَلونَ؛ فاتَّقوا

---

= لابن رجب (٤/ ٢٠٢، ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

(١) يَعثُرانِ: أي: يَسقُطانِ على الأرضِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٩٨١).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١١٠٩)، والترمذيُّ (٣٧٧٤)، والنسائيُّ (١٤١٣) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (٣٦٠٠)، وأحمدُ (٢٢٩٩٥).

صَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصحيح)) (٦٠٣٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٤٢٤) -وقال: (على شرطِ مسلمٍ)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٤١٣)، وصحَّح إسنادَه على شرطِ مُسلِمٍ: الضِّياءُ المَقدِسيُّ في ((السنن والأحكام)) (٢/ ٣٧٥)، والنَّوويُّ في ((الخلاصة)) (٢/ ٨٠٣)، وابنُ عبد الهادي في ((تنقيح تحقيق التعليق)) (٢/ ٨١).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٢٣٣٦) واللَّفظُ له، وأحمدُ (١٧٤٧١).

صحَّحه ابنُ حِبَّان في ((الصحيح)) (٣٢٢٣)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستيعاب)) (٣/ ٣٨١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٣٣٦)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٩/ ١٥).

(٤) حُلْوةٌ خَضِرةٌ: أي: غَضَّةٌ ناعِمةٌ طيِّبةٌ، مُزَيَّنةٌ في عُيونِكم وقُلوبِكم، وإنَّما وَصَفها بالخَضِرةِ؛ لأنَّ العربَ تُسَمِّي الشَّيءَ النَّاعِمَ خَضِرًا، أو لتَشَبُّهِها بالخَضْراواتِ في سُرعةِ زَوالِها. يُنظر: =

الدُّنيا، واتَّقوا النِّساءَ؛ فإنَّ أوَّلَ فِتنةِ بَني إسرائيلَ كانت في النِّساءِ))[١].

وعن يَعْلَى العامِريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: ((جاء الحَسَنُ والحُسَينُ يَسعَيانِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فضَمَّهما إليه، وقال: إنَّ الوَلَدَ مَبْخَلةٌ مَجْبَنةٌ[٢]))[٣].

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

أي: واللهُ عِندَه ثوابٌ عَظيمٌ لِمَن لم تَشغَلْه أموالُه وأولادُه وأزواجُه عن طاعةِ اللهِ تعالى؛ فلا تُؤْثِروهم على ما عِندَه سُبحانَه[٤].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦﴾

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾.

---

= ((المعلم بفوائد مسلم)) للمازَري (٢/ ٣٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٤٤).

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢).

(٢) مَبخَلةٌ مَجْبنةٌ: أي: يَحمِلُ أبَويهِ على البُخلِ والجُبْنِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١٠٣)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٧/ ٢٩٧٠).

(٣) أخرجه ابنُ ماجه (٣٦٦٦) واللَّفظُ له، وأحمدُ (١٧٥٦٢) مطوَّلًا.

صحَّحه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٣/ ١٧٩) -وقال: (على شرطِ مسلمٍ)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٦٦٦)، وقوَّى إسنادَه الذهبيُّ في ((المهذب)) (٨/ ٤٢١٠)، وصحَّح إسنادَه البوصيريُّ في ((مصباح الزجاجة)) (٤/ ٩٩)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في الشَّواهد في تخريج ((شرح السُّنَّة)) (١٣/ ٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

قيل: المرادُ بالأجرِ العَظيمِ: الجنَّةُ. وممَّن نصَّ على ذلك: ابنُ جرير، وابنُ العربي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ١٨٥).

أي: فاتَّقوا اللهَ -أيُّها المُؤمِنونَ- بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه، بقَدْرِ طاقتِكم[١].

كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((دَعُوني ما ترَكْتُكم، إنَّما هَلَك مَن كان قَبْلَكم بسُؤالِهم واختِلافِهم على أنبيائِهم، فإذا نَهَيْتُكم عن شَيءٍ فاجتَنِبوه، وإذا أمَرْتُكم بأمرٍ فأْتُوا منه ما استَطَعْتُم))[٢].

﴿وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾.

أي: واسمَعوا ما يأمُرُكم به اللهُ ورَسولُه، وكونوا مُنقادِينَ له، فلا تَترُكوا ما أُمِرْتُم به، ولا تأتُوا ما نُهيتُم عنه[٣].

﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾.

أي: وابذلُوا مِن أموالِكم بإخراجِ الزَّكَواتِ المفروضةِ، والنَّفَقاتِ الواجِبةِ والمُستَحَبَّةِ؛ فذلك خيرٌ لأنفُسِكم في الدُّنيا والآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٢٨٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٨).

قال ابنُ عاشور: (الأمرُ بالسَّمعِ أمرٌ بتلَقِّي الشَّريعةِ، والإقبالِ على سماعِ مَواعِظِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك وسيلةُ التَّقْوى؛ قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٠٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير =

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

أي: ومَن سلَّمه اللهُ مِن شِدَّةِ حِرصِ النَّفْسِ على جَمعِ المالِ، فخالَفَ هواها في إمساكِ المالِ فأنفَقَ؛ فأولئك هم الفائِزونَ الذينَ أدْرَكوا المطلوبَ، ونَجَوا مِن المَرْهوبِ[١].

عن جابِرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((اتَّقُوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَكَ مَن كان قَبْلَكم؛ حمَلَهم على أن سَفَكوا دِماءَهم، واستحَلُّوا مَحارِمَهم[٢]))[٣].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: خَطَب رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال: ((إيَّاكم والشُّحَّ؛ فإنَّما هَلَك مَن كان قَبْلَكم بالشُّحِّ؛ أمَرَهم بالبُخلِ فبَخِلوا، وأمَرَهم بالقَطيعةِ فقَطَعوا، وأمَرَهم بالفُجورِ ففَجَروا))[٤].

---

= ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٨).

قيل: المرادُ بالخَيرِ هنا: المالُ، فالمعنى: أنفِقوا مالًا مِن أموالِكم لأنفُسِكم تَستَنْقِذوها مِن عذابِ اللهِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥١٤).

وقيل: الخَيرُ هنا مَنصوبةٌ على الخَبَرِيَّةِ بـ (كان) المحذوفةِ، فيكونُ المعنى: أنفِقوا فيكونَ ذلك خيرًا لكم، وإن لم تَفعَلوا يكُنِ امتِناعُكم شَرًّا لكم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الثعلبيُّ، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨). ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٤٥٥، ٤٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٩٤، ٩٥).

(٢) أي: استباحوا نساءَهم، أو ما حرَّم اللهُ مِن أموالِهم وغيرِها، وهذا على سبيلِ الاستئنافِ؛ فإنَّ استِحلالَ المَحارِمِ جامعٌ لجميعِ أنواعِ الظُّلْمِ، وعَطْفُه على سَفكِ الدِّماءِ عطفُ عامٍّ على خاصٍّ. يُنظر: ((فيض القدير)) للمُناوي (١/ ١٣٤).

(٣) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٤) أخرجه من طُرُقٍ: أبو داودَ (١٦٩٨) واللَّفظُ له، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٥٨٣)، وأحمدُ (٦٤٨٧). =

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لا يَجتَمِعُ الشُّحُّ والإيمانُ في قَلبِ عَبدٍ أبَدًا))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلٌ، فقال: يا رسولَ اللهِ، أيُّ الصَّدَقةِ أعظَمُ؟ فقال: أن تَصَدَّقَ وأنت صَحيحٌ شَحيحٌ، تَخشى الفَقرَ، وتأمُلُ الغِنى، ولا تُمهِلُ(٢) حتَّى إذا بلَغَت الحُلْقُومَ قُلتَ: لِفُلانٍ كذا، ولِفُلانٍ كذا(٣)، ألَا وقد كان لِفُلانٍ(٤)!))(٥).

---

= صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصَّحيح)) (٥١٧٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٦٩٨)، وصحَّح إسنادَه الطَّبَريُّ في ((مسند عمر)) (١/ ١٠٦)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١/ ٥٧٦)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٩/ ٢٠١)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٦٩٨).

(١) أخرجه مُطَوَّلًا النَّسائيُّ (٣١١٠) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٩٦٩٣).
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصَّحيح)) (٣٢٥١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن النَّسائي)) (٣١١٠)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ بطُرُقِه وشَواهِدِه في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥/ ٤٣٣)، وصحَّح إسنادَه الطَّبَريُّ في ((مسند عمر)) (١/ ١٠٢).

(٢) مِن الإمهالِ، وهو بالرَّفعِ على أنَّه خبرٌ، ويجوزُ بالنَّصبِ عطفًا على (تَصَدَّقَ)، أو بالجزمِ على النَّهي، أي: ولا تؤخِّرِ الصَّدقةَ، أي: ولا تُمهِلْ نفْسَك. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٢٩١).

(٣) لِفُلانٍ: كِنايةٌ عن الموصَى له (كذا) كِنايةٌ عن الموصَى به. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٢٩١).

(٤) وقد كان لِفُلانٍ: أي: الوارِثِ، قيل: جملةٌ حاليَّةٌ، أي: وقد صار المالُ الَّذي تتصرَّفُ فيه في هذه الحالةِ ثُلُثاهُ حقًّا للوارِثِ وأنت تتصَدَّقُ بجميعِه، فكيف يُقْبَلُ منك؟! وقيل: أي: وقد صار ما أَوصى به للوارِثِ، فيُبطِلُه إن شاء إذا زاد على الثُّلثِ، أو أوصى به لوارِثٍ آخَرَ. وقيل: المعنى: أنَّه قد خرَج عن تصَرُّفِه وكمالِ ملكِه واستِقلالِه بما شاء مِن التَّصرُّفِ، فليس له في وصيَّتِه كبيرُ ثَوابٍ وكثيرُ فضلٍ بالنِّسبةِ إلى صدقةِ الصَّحيحِ الشَّحيحِ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٢٩١).

(٥) رواه البخاريُّ (١٤١٩)، ومسلمٌ (١٠٣٢) واللَّفظُ له.

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ اللهُ تعالى بالإنفاقِ، ورهَّبَ مِن ضِدِّه على وَجْهٍ أعَمَّ، رَغَّب فيه؛ تأكيدًا لأمْرِه لِما فيه مِن الصُّعوبةِ، لا سِيَّما في زمانِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ المالَ فيه كان في غايةِ العِزَّةِ[1].

﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾.

أي: إنْ تُنفِقوا مِن طَيِّبِ أموالِكم احتِسابًا للأجرِ عِندَ رَبِّكم بلا مَنٍّ ولا أذًى، فاللهُ يُثيبُكم على إنفاقِكم هذا بأُجورٍ كَثيرةٍ، قد تَبلُغُ سَبْعَمِئَةِ ضِعفٍ أو أكثَرَ[2].

كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما تَصَدَّقَ أحَدٌ بصَدَقةٍ مِن طَيِّبٍ -ولا يَقْبَلُ اللهُ إلَّا الطَّيِّبَ- إلَّا أخَذَها الرَّحمنُ بيَمينِه، وإن كانت تَمْرةً، فتَربُو في كَفِّ الرَّحمنِ حتَّى تَكونَ أعظَمَ مِن الجَبَلِ، كما يُرَبِّي أحَدُكم فَلُوَّه أو فَصِيلَه[3]))[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٥، ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٣) الفَلُوُّ: المُهْرُ الصَّغيرُ، وهو ولَدُ الفَرَسِ؛ سُمِّيَ بذلك لأنَّه فُلِيَ عن أمِّه، أي: فُصِلَ وعُزِلَ. والفَصيلُ: ولَدُ النَّاقةِ إذا فُصِل مِن إرضاعِ أُمِّه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٧/ ٩٩).

(٤) رواه البخاريُّ (١٤١٠)، ومسلمٌ (١٠١٤) واللَّفظُ له.

وعن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّك لن تُنفِقَ نَفَقةً تَبتَغي بها وَجْهَ اللهِ إلَّا أُجِرْتَ عليها، حتَّى ما تَجعَلُ في فَمِ امْرأتِك))(١).

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

أي: ويَغفِرِ اللهُ لكم ذُنوبَكم، بسَترِها عليكم، ووقايتِكم مِن شرِّها؛ جزاءً لكم على إنفاقِكم(٢).

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: واللهُ ذو شُكرٍ بالِغٍ وكثيرٍ للمُنفِقينَ في سَبيلِه، ويَجزيهم على القَليلِ بالكثيرِ، حَليمٌ على عبادِه؛ فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبةِ على ذُنوبِهم، بل يُمهِلُهم(٣).

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١٨﴾.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾.

أي: عالمُ كُلِّ ما يَغيبُ عن عِبادِه، وجَميعِ ما يُشاهِدونَه؛ فلا يَخفى عليه شَيءٌ(٤).

﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: العَزيزُ الَّذي يَغلِبُ ولا يُغلَبُ، الحَكيمُ الَّذي يَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه

---

(١) رواه البخاريُّ (٥٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٦٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

اللَّائِقِ به[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ هذا تحذيرٌ مِنَ اللهِ تعالى للمُؤمِنينَ مِن الاغترارِ بالأزواجِ والأولادِ؛ فإنَّ بَعضَهم عدُوٌّ لكم، والعَدُوُّ هو الَّذي يُريدُ لك الشَّرَّ، ووظيفتُك الحَذَرُ مِمَّن هذا وَصْفُه، والنَّفسُ مَجبولةٌ على محبَّةِ الأزواجِ والأولادِ؛ فنَصَح اللهُ تعالى عِبادَه أن تُوجِبَ لهم هذه المحبَّةُ الانقيادَ لمطالِبِ الأزواجِ والأولادِ ولو كان فيها ما فيها مِن المحذورِ الشَّرعيِّ، ورَغَّبَهم في امتِثالِ أوامِرِه، وتقديمِ مَرضاتِه بما عِندَه مِن الأجرِ العَظيمِ المُشتَمِلِ على المطالِبِ العاليةِ، والمَحابِّ الغاليةِ، وأن يُؤثِروا الآخِرةَ على الدُّنيا الفانيةِ المُنقَضِيةِ[٢].

٢- علَّم اللهُ تعالى الإنسانَ كيف يُعاشِرُ أقرَبَ النَّاسِ إليه؛ زوجتَه وأبناءَه وأُسرتَه الأدنَيْنَ، أمَرَه أن يَتحفَّظَ منهم غايةَ التَّحفُّظِ لدينِه ودُنياه؛ لأنَّهم رُبَّما أوقعوه فيما لا يَنبغي، ثمَّ أمَرَه إذا وجَد منهم ما لا يُحِبُّ أن يُعامِلَهم باللِّينِ والصَّفحِ والمَغفرةِ، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾، فمِن شدَّةِ حِكمتِه يُعَلِّمُ الإنسانَ كيف يُعاشِرُ أُسرتَه الأدنَينَ، وأن يَحذَرَ مِن شرِّ امرأتِه وأولادِه؛ لئلَّا يُضَيِّعوا عليه دينَه أو دُنياه، ثمَّ إذا عثَر منهم على ما لا يَنبغي أمَرَه ألَّا يُعامِلَهم بالشِّدَّةِ والمكروهِ؛ ولذا قال في هذه الآيةِ: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ ثمَّ قال -إذا رأى منهم ما يَكرَهُ-: ﴿وَإِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٧، ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ ﴾ دليلٌ على تثبيتِ الاحترازاتِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ عزاءٌ لِمَن بُلِيَ بزَوجةٍ مُؤذيَةٍ، أو وَلَدٍ عاقٍّ، فَصَبَرَ على أذاهما، وعفا وصَفَحَ عن زلَّاتِهما، ومكروهٍ يكونُ منهما، وفيما وَعَدَ اللهُ جلَّ جلالُه مِن الغُفرانِ مَن فَعَل ذلك: ما يُهَوِّنُ عليه، ويُعَظِّمُ بِشارتَه إذا احتملَ مَضَضَ غوائلِهما؛ طمَعًا في إنجازِ ما وَعَدَه اللهُ عليه[٣].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾، لأنَّ الجَزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فمَن عفا عفا اللهُ عنه، ومَن صَفَح صَفَح اللهُ عنه، ومَن غَفَر غَفَر اللهُ له، ومَن عامَلَ اللهَ فيما يحِبُّ، وعامَلَ عِبادَه كما يُحِبُّونَ ويَنفَعُهم؛ نال محبَّةَ اللهِ ومحبَّةَ عِبادِه، واستَوثَقَ له أمْرُه[٤].

٦- قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾، قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ تزهيدٌ في الدُّنيا، وترغيبٌ في الآخِرةِ[٥].

٧- النَّاسُ مِنهم مَن يكونُ العِلمُ أيسَرَ عليه مِنَ الزُّهدِ، ومِنهم مَن يكونُ الزُّهدُ أيسَرَ عليه، ومِنهم مَن تكونُ العِبادةُ أيسَرَ عليه منهما؛ فالمشروعُ لكُلِّ إنسانٍ أن يَفعَلَ ما يَقدِرُ عليه مِنَ الخَيرِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾، وإذا

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٢/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢).

ازدحمَت شُعَبُ الإيمانِ قَدَّمَ ما كان أرضى لله، وهو عليه أقدَرُ؛ فقد يكونُ على المفضولِ أقدَرَ منه على الفاضِلِ، ويَحصُلُ له أفضَلُ مِمَّا يَحصُلُ مِن الفاضِلِ؛ فالأفضَلُ لهذا أن يَطلُبَ ما هو أنفَعُ له، وهو في حَقِّه أفضَلُ، ولا يَطلُبَ ما هو أفضَلُ مُطلَقًا إذا كان مُتعَذِّرًا في حَقِّه، أو مُتعَسِّرًا يَفوتُه ما هو أفضَلُ له وأنفَعُ[1].

٨- قَولُ الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ فيه التَّحريضُ على الإنفاقِ بمَرتبَتَيه: الواجِبِ والمندوبِ، وهذا مِن الاهتِمامِ بالنَّزاهةِ عن فِتنةِ المالِ الَّتي ذُكِرَت في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[2].

٩- قال الله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ هذا الوَصفُ داعٍ إلى الإحسانِ؛ مِن حيثُ إنَّه يُوجِبُ للمُؤمِنِ تَرْكَ ظاهِرِ الإثمِ وباطِنِه، وكُلِّ قُصورٍ وفُتورٍ وغَفلةٍ وتَهاوُنٍ، فيَعبُدُ اللهَ كأنَّه يَراه[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ والمعنى: أنَّ مِن الأزواجِ والأولادِ عدوًّا، وليس المرادُ أنَّ كلَّ زوجٍ وولدٍ عدوٌّ؛ فإنَّ هذا ليس هو مدلولَ اللَّفظِ، وهو باطلٌ في نفْسِه؛ فإنَّه سُبحانَه قد قال عن عِبادِ الرَّحمنِ: إنَّهم يقولونَ: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤]، فسَأَلوا اللهَ أنْ يَهَبَ لهم مِن أزواجِهم وأولادِهم قُرَّةَ أعيُنٍ، فلو كان كلُّ زوجٍ وولدٍ عدوًّا، لم يكُنْ فيهم قُرَّةُ أعيُنٍ؛ فإنَّ العدوَّ لا يكونُ قُرَّةَ عَينٍ، بل سُخْنَةُ عَينٍ، وأيضًا فإنَّه مِن المعلومِ أنَّ مِثلَ إسماعيلَ وإسحاقَ ابنَيْ إبراهيمَ،

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٧).

ومِثلَ يحيى بنِ زكريَّا، وأمثالَهم: ليسوا أعداءً[١]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ كما أنَّ الرَّجُلَ يَكونُ له وَلَدُه وزَوجُه عَدُوًّا، كذلك المرأةُ يكونُ لها وَلَدُها وزَوجُها عَدُوًّا بهذا المعنى بعَينِه، وعُمومُ قَولِه: ﴿مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ﴾ يَدخُلُ فيه الذَّكَرُ والأُنثى كدُخولِهما في كُلِّ آيةٍ[٢].

٣- قَولُ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾، لَمَّا أخبَر عن العداوةِ، عبَّر بما قد يُفهِمُ الواحدَ فقط تخفيفًا، ولَمَّا أمَر بالحذرِ جمَع؛ إشارةً إلى زيادةِ التَّحذيرِ والخَوفِ في كلِّ أحدٍ، ولو كان أقربَ الأقرباءِ[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ معناه: على أنفُسِكم. والحذَرُ على النَّفْسِ يكونُ بوجهَينِ: إمَّا لضرَرٍ في البدنِ، وإمَّا لضررٍ في الدِّينِ، وضررُ البدنِ يَتعلَّقُ بالدُّنيا، وضررُ الدِّينِ يتعلَّقُ بالآخرةِ، فحذَّر اللهُ سُبحانَه العبدَ مِن ذلك وأنْذَرَه به[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أنَّه سُبحانَه لم يَجعَلْ على أُمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم في دينِهم مِن حَرَجٍ، بل أراد بهمُ اليُسْرَ، ولم يُرِدْ بهم العُسْرَ؛ ولهذا فإنَّ ما أوجَبَه على عبادِه شَرَطَه بالاستِطاعةِ[٥].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡ﴾ هذه الآيةُ تدُلُّ على أنَّ كُلَّ واجِبٍ عَجَز عنه العَبدُ: أنَّه يَسقُطُ عنه،

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((العقود)) لابن تيمية (١/ ٣٧).

وأنَّه إذا قَدَر على بَعضِ المأمورِ، وعَجَز عن بَعضِه؛ فإنَّه يأتي بما يَقدِرُ عليه، ويَسقُطُ عنه ما يَعجِزُ عنه، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إذا أمَرْتُكم بأمرٍ فأْتُوا منه ما استَطَعتُم))[١]. ويَدخُلُ تحتَ هذه القاعِدةِ الشَّرعيَّةِ مِن الفُروعِ ما لا يَدخُلُ تحتَ الحَصرِ[٢]، فالإنسانُ إذا لم يَستَطِعِ القيامَ بأمرِ اللهِ على وجهِ الكَمالِ، فإنَّه يأتي منه بما قَدَرَ عليه، ومِن ذلك قولُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم لعِمْرانَ ابنِ حُصَينٍ رضيَ الله عنه: ((صَلِّ قائمًا، فإنْ لم تَستَطِعْ فقاعِدًا، فإنْ لم تَستطِعْ فعلى جَنْبٍ))[٣]؛ فرَتَّبَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم الصَّلاةَ بحسَبِ الاستِطاعةِ بأنْ يُصلِّيَ قائمًا، فإنْ لم يَستطِعْ فقاعدًا، فإنْ لم يَستطعْ فعلى جَنْبٍ، وهكذا أيضًا بقيَّةُ الأوامرِ[٤].

٧- قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ فأمَر بتقواه بقَدرِ الاستطاعةِ، فالمجتَهِدُ المُستَدِلُّ؛ مِن إمامٍ وحاكِمٍ، وعالِمٍ وناظِرٍ، ومُفْتٍ وغَيرِ ذلك: إذا اجتَهَد واستَدَلَّ فاتَّقى اللهَ ما استطاعَ؛ كان هذا هو الَّذي كَلَّفَه اللهُ إيَّاه، وهو مُطيعٌ لله مُستَحِقٌّ للثَّوابِ إذا اتَّقاه ما استطاعَ، ولا يُعاقِبُه اللهُ البتَّةَ -خِلافًا للجَهميَّةِ المُجْبِرةِ-، وهو مُصيبٌ، بمعنى: أنَّه مُطيعٌ للهِ، لكِنْ قد يَعلَمُ الحَقَّ في نفْسِ الأمرِ، وقد لا يَعلَمُه، خِلافًا للقَدَريَّةِ والمُعتَزِلةِ في قَولِهم: كُلُّ مَن استَفرَغَ وُسْعَه عَلِمَ الحَقَّ؛ فإنَّ هذا باطِلٌ، بل كُلُّ مَن استَفرَغَ وُسْعَه استَحَقَّ الثَّوابَ، وكذلك الكُفَّارُ؛ مَن بَلَغَه دَعوةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في دارِ الكُفرِ، وعَلِمَ أنَّه رَسولُ اللهِ، فآمَنَ به وآمَنَ بما

---

(١) أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٧٢٨٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٣٣٧) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (١١١٧).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٥١٤).

أُنزِلَ عليه، واتَّقى اللهَ ما استطاع، كما فَعَل النَّجاشيُّ وغَيرُه، ولم تُمكِنْه الهِجرةُ إلى دارِ الإسلامِ، ولا التِزامُ جَميعِ شَرائعِ الإسلامِ؛ لِكَونِه مَمنوعًا مِنَ الهِجرةِ ومَمنوعًا مِن إظهارِ دينِه، وليس عِندَه مَن يُعَلِّمُه جميعَ شَرائِعِ الإسلامِ- فهذا مُؤمِنٌ مِن أهلِ الجنَّةِ، كما كان مُؤمِنُ آلِ فِرعَونَ مع قَومِ فِرعَونَ، وكما كانت امرأةُ فِرعَونَ، بل وكما كان يوسُفُ الصِّدِّيقُ عليه السَّلامُ مع أهلِ مِصرَ؛ فإنَّهم كانوا كُفَّارًا، ولم يُمكِنْه أن يَفعَلَ معهم كلَّ ما يَعرِفُه مِن دينِ الإسلامِ، وكذلك النَّجاشيُّ هو وإن كان مَلِكَ النَّصارى، فلم يُطِعْه قَومُه في الدُّخولِ في الإسلامِ، بل إنَّما دَخَل معه نَفَرٌ منهم. وكثيرًا ما يَتولَّى الرَّجُلُ بيْن المُسلِمينَ والتَّتارِ قاضِيًا، بل وإمامًا، وفي نفْسِه أمورٌ مِن العَدلِ يُريدُ أن يَعمَلَ بها فلا يُمكِنُه ذلك، بل هناك مَن يَمنَعُه ذلك، ولا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها. وعُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ عُودِيَ وأُوذِيَ على بعضِ ما أقامَه مِنَ العَدلِ، وقيل: إنَّه سُمَّ على ذلك؛ فالنَّجاشيُّ وأمثالُه سُعَداءُ في الجنَّةِ وإن كانوا لم يَلتَزِموا مِن شرائِعِ الإسلامِ ما لا يَقدِرونَ على التِزامِه، بل كانوا يَحكُمونَ بالأحكامِ الَّتي يُمكِنُهم الحُكمُ بها[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ وقَولِه: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٣] أنَّه سُبحانَه أثْبَت للعَبدِ مَشيئةً واستِطاعةً -وهي القُدرةُ-؛ إلَّا أنَّهما تابِعتانِ لِمَشيئةِ اللهِ تعالى[2].

٩- قَولُه تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ مُفَسِّرٌ لِقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ورافِعٌ لظَنِّ مَن يظُنُّ أنَّ اللهَ أمرَ النَّاسَ بحَقِّ تُقاتِه الَّذي لا يَستطيعونَه، وهذا هو الَّذي أراده مَن قال مِن المتقَدِّمينَ: إنَّ هذه ناسِخةٌ لتلك، أرادوا أنَّها ناسِخةٌ للظَّنِّ الفاسِدِ مِن معناها، ولم يُريدوا أنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢١٦-٢١٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٣٠١).

أَمَرَ النَّاسَ بما لا يَستطيعونَه مِن تَقْواه، ثمَّ نَسَخ ذلك[١]!

١٠- قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ إضافةُ الشُّحِّ إلى النَّفْسِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الشُّحَّ مِن طِباعِ النفْسِ؛ فإنَّ النُّفوسَ شَحيحةٌ بالأشياءِ المُحبَّبةِ إليها[٢]، وأنَّه شَديدُ التَّمكُّنِ منها.

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾. (مَنْ) اسمُ شَرطٍ، وهي مِن صِيَغِ العُمومِ، أي: كُلُّ مَن يُوقَ شُحَّ نفْسِه، والعُمومُ يدُلُّ على أنَّ (مَن) مُرادٌ بها جِنسٌ لا شَخصٌ مُعَيَّنٌ ولا طائِفةٌ، وهذا حُبٌّ اقتضاه حِرصُ أكثَرِ النَّاسِ على حِفظِ المالِ وادِّخارِه، والإقلالِ مِن نَفعِ الغَيرِ به، وذلك الحِرصُ يُسَمَّى الشُّحَّ. والمعنى: أنَّ الإنفاقَ يَقِي صاحِبَه مِن الشُّحِّ المنهيِّ عنه، فإذا يُسِّرَ على المرءِ الإنفاقُ فيما أَمَر اللهُ به، فقد وُقِيَ شُحَّ نَفْسِه، وذلك مِن الفلاحِ[٣].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ تنبيهٌ للمُعتَزلةِ والقَدَرِيَّةِ -المُنْكِرين أنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ-؛ فالفَلاحُ شَيءٌ مفعولٌ بهم، وتعقيبُه ذلك بفِعلٍ مُضافٍ إليهم مِن إقراضِ القَرْضِ الحَسَنِ، وجَعْلُه كِلَيْهِما في مَدْحِ الموصوفينَ بفِعلينِ مُختَلِفَي اللَّفظِ مُتَّفِقَي المعنى، وهذا نظيرُ الإضلالِ الَّذي يُخْبِرُ به مَرَّةً عن نفْسِه أنَّه فاعِلٌ بهم، ومَرَّةً عنهم أنَّهم يَفعَلونَه بأنفُسِهم[٤].

١٣- قَولُ الله تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيميَّة (٨/ ٤٥٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣١٩، ٣٢٠).

أنَّ الذُّنوبَ يُكَفِّرُها اللهُ بالصَّدَقاتِ والحَسَناتِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ إقبالٌ على خِطابِ المُؤمِنينَ بما يُفيدُهم كمالًا، ويُجنِّبُهم ما يَفتِنُهم؛ فهذه الآيةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتِدائيًّا[٢].

- وإذا كانَتِ السُّورةُ كلُّها مكِّيَّةً كانت الآيةُ ابتِداءَ إقبالٍ على تخصيصِ المُؤمِنينَ بالخِطابِ بعْدَ قَضاءِ حقِّ الغرضِ الَّذي ابتُدِئَتْ به السُّورةُ على عادةِ القُرآنِ في تعقيبِ الأغراضِ بأضْدادِها مِن ترغيبٍ أو ترهيبٍ، وثناءٍ أو مَلامٍ، أو نحوِ ذلك؛ لِيُوفَّى الطَّرَفانِ حَقَّيْهما[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ فيه تَقديمُ خبرِ (إنَّ) على اسمِها؛ للاهتِمامِ بهذا الخبرِ، ولِمَا فيه مِن تَشويقٍ إلى الاسمِ؛ لِيَتمكَّنَ مَضمونُ هذا الخبَرِ في الذِّهنِ أتمَّ تمكُّنٍ؛ لِما فيه مِنَ الغرابةِ والأهمِّيَّةِ[٤].

- ولَمَّا كان الأزواجُ أقرَبَ عَداوةً مِنَ الأولادِ، قَدَّمَهنَّ[٥]. وقيل: قدَّمَهنَّ لِكَونِ العداوةِ تأتي مِن الأزواجِ قبْلَ الأولادِ غالبًا، ثمَّ يتأثَّرُ بهِنَّ الأولادُ[٦].

- والإخبارُ عن بعضِ الأزواجِ والأولادِ بأنَّهم عدُوٌّ يجوزُ أن يُحمَلَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٣، ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الشعراوي)) (٨/ ٤٦٧٢).

الحقيقةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ على معنى التَّشبيهِ البليغِ، أي: كالعدُوِّ في المُعامَلةِ بما هو مِن شأنِ مُعامَلةِ الأعداءِ، كما قيلَ في المثَلِ: يفعَلُ الجاهلُ بنفْسِه ما يفعَلُ العدُوُّ بعدُوِّهِ(١).

- وعُطِفَ على قولِه: ﴿فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾ جُملةُ ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ﴾ إلى آخِرِها عَطْفَ الاحتِراسِ؛ لأنَّه إذا كان العفوُ مطلوبًا محبوبًا إلى اللهِ تعالَى -وهو لا يكونُ إلَّا بعْدَ حصولِ الذَّنْبِ-، فإنَّ عدمَ المؤاخَذةِ على مُجرَّدِ ظنِّ العداوةِ أجدَرُ بالطَّلَبِ، ففُهِمَ النَّهيُ عن مُعامَلةِ الأزواجِ والأبناءِ مُعامَلةَ الأعداءِ مِن أجْلِ إيجاسِ العداوةِ، بلِ المقصودُ مِنَ التَّحذيرِ التَّوقِّي، وأخْذُ الحَيْطةِ، لا ابتِداءُ المؤاخَذةِ(٢).

- قولُه: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ﴾ العفوُ: ترْكُ المُعاقَبةِ على الذَّنْبِ بعْدَ الاستِعدادِ لها، ولو مع توبيخٍ، والصَّفحُ: الإعراضُ عن المذنِبِ، أي: ترْكُ عِقابِه على ذنْبِه دونَ التَّوبيخِ، والغَفْرُ: سترُ الذَّنْبِ، وعدَمُ إشاعتِه، والجمعُ بَيْنَها هنا إيماءٌ إلى تراتُبِ آثارِ هذِه العداوةِ، وما تَقتضيهِ آثارُها مِن هذِه المعامَلاتِ الثَّلاثِ(٣). وقيل: يريدُ بالعفوِ عن الظَّالمِ، وبالصَّفحِ عن الجاهلِ، وبالغُفرانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٩).

قال البِقاعي: (﴿وَإِن تَعۡفُواْ﴾ أي: تُوقِعوا المُجاوَزةَ عن ذُنوبِهم بعدمِ العِقابِ عليها؛ فإنَّه لا فائدةَ في ذلك؛ لأنَّ مَن طُبِع على شيءٍ لا يَرجِعُ، وإنَّما النَّافعُ الحذَرُ الَّذي أرشد إليه سُبحانَه لئلَّا يكونَ سببًا لـ «لو» المَنهيِّ عنه. ولَمَّا كان الرُّجوعُ عن الحُظوظِ صعبًا جدًّا، أكَّد سُبحانَه فقال: ﴿وَتَصۡفَحُواْ﴾ أي: بالإعراضِ عن المُقابَلةِ بالتَّثريبِ باللِّسانِ ﴿وَتَغۡفِرُواْ﴾ أي: بأن تَستُروا ذُنوبَهم سترًا تامًّا شاملًا للعَينِ والأثَرِ، بالتَّجاوُزِ بعْدَ تركِ العِقابِ عن العِتابِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٣٠).

قال الفيروزابادي: (وصَفَحْتُ عنه: أعرَضْتُ عن ذنْبِه وعن تثريبِه، وهو أبلَغُ مِن العفوِ، وقد =

للمُسيءِ[١].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ الأفعالِ الثَّلاثةِ (تعفوا- تصفحوا- تغفروا)؛ لِظُهورِ أنَّ المرادَ مِن أولادِكُم وأزواجِكُم فيما يَصْدُرُ منهم ممَّا يُؤذيكُم. ويجوزُ أنْ يكونَ حذْفُ المتعلَّقِ لإرادةِ عُمومِ التَّرغيبِ في العَفوِ[٢].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ دليلُ جَوابِ الشَّرطِ المحذوفِ المُؤذِنُ بالتَّرغيبِ في العفوِ والصَّفحِ والغَفْرِ؛ فالتَّقديرُ: وإنْ تَعْفوا وتَصْفَحوا وتَغْفِروا يُحِبَّ اللهُ ذلك منكم؛ لأنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ، أي: للَّذينَ يَغفِرونَ ويَرحمونَ، وجمَعَ وَصْفُ ﴿رَّحِيمٌ﴾ الخِصالَ الثَّلاثَ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تَذييلٌ؛ لأنَّ فيه تَعميمَ أحوالِ الأولادِ بعْدَ أنْ ذُكِرَ حالٌ خاصٌّ ببعضِهم. وأُدْمِجَ في هذا التَّذييلِ الأموالُ؛ لأنَّها لم يَشمَلْها طلَبُ الحذَرِ، ولا وصْفُ العداوةِ. ووَجْهُ إدماجِ الأموالِ هنا أنَّ المُسلِمينَ كانوا قد أُصِيبوا في أموالِهم مِن المُشرِكينَ، فغلَبوهُم على أموالِهم، ولم تُذْكَرِ الأموالُ في الآيةِ السَّابقةِ؛ لأنَّ الغرَضَ هو التَّحذيرُ مِن أشدِّ الأشياءِ اتِّصالًا بهم، وهي أزواجُهم وأولادُهم، ولأنَّ فِتنةَ هؤلاءِ مُضاعَفةٌ؛ لأنَّ الدَّاعيَ إليها يكونُ مِن أنفُسِهم، ومِن مَساعي الآخَرينَ وتسويلِهم[٤].

---

= يعفوُ الإنسانُ ولا يَصفَحُ). ((بصائر ذوي التمييز)) (٣/ ٤٢١). ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٨٦).

وقال القرطبي: (العفوُ: ترْكُ المؤاخَذةِ بالذَّنْبِ. والصَّفحُ: إزالةُ أثَرِه مِن النَّفْسِ). ((تفسير القرطبي)) (٢/ ٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥، ٢٨٦).

- وجُرِّدَ التَّذييلُ عن ذِكْرِ الأزواجِ هنا اكتِفاءً[١]؛ لدَلالةِ فِتنةِ الأولادِ عليهنَّ بدَلالةِ فَحْوى الخِطابِ[٢]؛ فإنَّ فِتنتَهنَّ أشدُّ مِن فتنةِ الأولادِ؛ لأنَّ جُرأتَهنَّ على التَّسويلِ لأزواجِهنَّ ما يُحاوِلْنَه منهم أشدُّ مِن جرأةِ الأولادِ[٣]. وقيل: كأنَّه سُبحانَه تَرَكَ ذِكْرَ الأزواجِ في الفِتنةِ؛ لأنَّ مِنهم مَن يكونُ صَلاحًا وعَونًا على الآخِرةِ[٤].

- والقصرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قصْرُ مَوصوفٍ على صفةٍ، أي: ليستْ أموالُكم وأولادُكم إلَّا فِتنةً، وهو قصرٌ ادِّعائيٌّ[٥]؛ للمُبالَغةِ في كثرةِ مُلازَمةِ هذه الصِّفةِ للموصوفِ؛ إذْ يَنْدُرُ أنْ تخلُوَ أفرادُ هذَيْنِ النَّوعَينِ -وهُما أموالُ المُسلِمينَ وأولادُهم- عن الاتِّصافِ بالفِتنةِ لِمَن يتلبَّسُ بهما[٦].

---

(١) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتِفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(٢) فحْوَى الخطابِ: ويسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ، وهو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولى؛ كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جزي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٢).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

- وقُدِّمَ ذِكْرُ الأموالِ على الأولادِ؛ لأنَّ الأموالَ لم يتقدَّمْ ذِكْرُها، بخِلافِ الأولادِ. أو قُدِّمَت الأموالُ على الأولادِ لأنَّها أعظمُ فِتنةً[١]. أو: لأنَّ الأموالَ لا تكادُ تُفارِقُها الفِتنةُ، وليسَتِ الأولادُ في اسْتِلزامِ الفِتنةِ مِثْلَها؛ فكانَ تقديمُها أولى[٢].

- والإخبارُ بـ﴿فِتْنَةٌ﴾ للمُبالَغةِ، والمرادُ: أنَّهم سبَبُ فتنةٍ، سواءً أسَعَوْا في فِعلِ الفَتْنِ أم لم يَسْعَوْا؛ فإنَّ الشُّغلَ بالمالِ والعنايةِ بالأولادِ فيه فِتنةٌ[٣].

- وجاءَ في بابِ العَداوةِ ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ بحَرْفِ (مِنْ) الَّتي تَقْتَضي التَّبعيضَ، وفي الفِتنةِ ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ حكَمَ بها على الأموالِ والأولادِ؛ وذلكَ لِغَلَبةِ الفِتنةِ بهِما[٤]. فلمَّا ذكَرَ اللهُ العداوةَ أدخَلَ فيه (مِن) للتَّبعيضِ؛ لأنَّ كلَّهم ليسوا بأعداءٍ، ولم يَذكُرْ (مِن) في قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ لأنَّها لا تخلو عن الفِتنةِ واشتِغالِ القلبِ[٥].

- وفي هذِه الآيةِ مِن خُصوصيَّاتِ عِلمِ المعاني التَّذييلُ والإدماجُ[٦]، وكِلاهُما مِنَ الإطنابِ[٧]. .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٢٦١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٠٥).

(٦) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٦٢).

(٧) الإطنابُ: هو زيادةُ اللَّفظِ على المعنى لفائدةٍ، أو هو تأديةُ المعنى بعبارةٍ زائدةٍ عن مُتعارَفِ أوساطِ البُلغاءِ؛ لفائدةِ تقويتِه وتوكيدِه. ويَنقسِمُ إلى: إطنابٍ بالبَسطِ، وإطنابٍ بالزِّيادةِ. يُنظر: ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٠١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٦٢).

والاكتفاءُ، وهو مِنَ الإيجازِ. وفيها الإخبارُ بالمصدرِ، وهو فِتنةٌ، والإخبارُ به مِنَ المبالَغةِ؛ فهذِه أربعةٌ مِنَ المُحسِّناتِ البديعيَّةِ. وفيها القَصرُ[١]، وفيها التَّعليلُ، وهو مِن خُصوصيَّاتِ الفصلِ، وقد يُعَدُّ مِن مُحسِّناتِ البَديعِ أيضًا؛ فتلكَ سِتُّ خصوصيَّاتٍ[٢]، على ما سبَق بيانُه.

- وقولُه: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ عطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ كِنايةٌ عن الجزاءِ عن تلكَ الفِتنةِ لِمَن يُصابِرُ نفْسَه على مُراجَعةِ ما تُسوِّلُه مِن الانحِرافِ عن مَرضاةِ اللهِ إنْ كانَ في ذلك تسويلٌ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ الفاءُ فصيحةٌ وتفريعٌ على ما تقدَّمَ، أي: إذا علِمْتُم هذا فاتَّقُوا اللهَ فيما يجِبُ مِنَ التَّقْوى في مُعامَلةِ الأولادِ والأزواجِ، ومصارِفِ الأموالِ، فلا يصُدَّكُم حُبُّ ذلكَ والشغلُ به عن الواجباتِ، ولا يُخرِجْكُم الغضبُ ونَحْوُه عن حدِّ العدلِ المأمورِ به، ولا حُبُّ المالِ عن أداءِ حُقوقِ الأموالِ، وعن طلَبِها مِن وُجوهِ الحلالِ؛ فالأمرُ بالتَّقْوى شامِلٌ للتَّحذيرِ، وللتَّرغيبِ في العفْوِ، ولِما عَدا ذلك[٤].

- وحذْفُ مُتعلَّقِ (اتَّقُوا)؛ لقَصدِ تَعميمِ ما يتعلَّقُ بالتَّقوى مِن جميعِ الأحوالِ،

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وبذلكَ يكونُ هذا الكلامُ كالتَّذييلِ؛ لأنَّ مضمونَه أعمُّ مِن مضمونِ ما قَبْلَه[١].

- و(مَا) في قولِه: ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ مَصدريَّةٌ ظرفيَّةٌ، أي: مُدَّةَ استِطاعتِكُم؛ لِيَعُمَّ الأزمانَ كلَّها، ويعُمَّ الأحوالَ تبعًا لعُمومِ الأزمانِ، ويعُمَّ الاستِطاعاتِ، فلا يَتخَلَّوْا عن التَّقوى في شيءٍ مِنَ الأزمانِ، وجُعِلَتِ الأزمانُ ظرفًا للاستِطاعةِ؛ لئَلَّا يُقصِّروا بالتَّفريطِ في شَيءٍ يَستطيعونَه فيما أُمِروا بالتَّقوى في شأنِه ما لم يَخرُجْ عن حدِّ الاستطاعةِ إلى حدِّ المشَقَّةِ، فليس في قولِه: ﴿مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ تَخفيفٌ ولا تشديدٌ، ولكنَّهُ عدلٌ وإنصافٌ، ففيه ما عليهم، وفيه ما لَهم[٢].

- وعطْفُ ﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ على قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتِمامِ به، ولأنَّ التَّقْوى تَتبادرُ في ترْكِ المنهيَّاتِ؛ فإنَّها مُشتقَّةٌ مِن (وَقَى)، فتَقْوى اللهِ أنْ يَقيَ المرءُ نفْسَه ممَّا نهاهُ اللهُ عنه، ولَمَّا كان ترْكُ المأموراتِ يَؤُولُ إلى إتيانِ المَنهيَّاتِ -لأنَّ ترْكَ الأمرِ منهيٌّ عنه-؛ كان التَّصريحُ به بخُصوصِه اهتمامًا بكِلا الأمْرَينِ لِتَحصُلَ حقيقةُ التَّقوى الشَّرعيَّةِ، وهي اجتِنابُ المنهيَّاتِ، وامتثالُ المأموراتِ[٣].

- وعطْفُ ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ تخصيصٌ بَعْدَ تخصيصٍ؛ فإنَّ الإنفاقَ ممَّا أمَرَ اللهُ به، فهو مِنَ المأموراتِ، وصيغةُ الأمرِ تشمَلُ واجبَ الإنفاقِ والمندوبَ، فلَمَّا كان الإنفاقُ شَديدًا، أكَّدَ أمْرَه بتَخصيصِه بالذِّكرِ[٤].

- و﴿خَيۡرٗا﴾ مَنصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: وأْتُوا خيرًا لأنفُسِكُم، أو على إضمارِ (يَكُنْ) فيكونُ خبرًا، أو على أنَّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ دلَّ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٧، ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٣٣).

(أَنْفِقُوا)، والتَّقديرُ: إنفاقًا خيرًا لأنفُسِكُم، وافعَلوا ما هو خيرٌ لها وأنفَعُ، وهذا تأكيدٌ للحثِّ على امتِثالِ هذِه الأوامِرِ، وبيانٌ لأنَّ هذِه الأمورَ خيرٌ لأنفُسِكُم مِن الأموالِ والأولادِ، وما أنتُم عاكِفونَ عليه مِن حُبِّ الشَّهواتِ وزخارِفِ الدُّنيا؛ فيكونُ كالخاتمةِ لسائرِ الأوامرِ السَّابقةِ، وكالبيانِ للتَّرجيحِ على ما اعتقَدوا فيه الخيرَ مِنَ الأموالِ والأولادِ[1].

- وجُملةُ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ تَذييلٌ[2].

- قولُه: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ لَمَّا كانَ وِقايةُ النَّفْسِ مِن الشُّحِّ فلاحًا عظيمًا، جِيءَ في جانبِه بصيغةِ الحَصرِ بطريقةِ تَعريفِ المسنَدِ، وهو قَصرُ جِنسِ المُفلِحينَ على جِنسِ الَّذينَ وُقُوا شُحَّ أنفُسِهِم، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ[3]؛ للمُبالَغةِ في تَحقيقِ وَصْفِ المُفلِحينَ الَّذينَ وُقُوا شُحَّ أنفُسِهم، نُزِّلَ فلاحُ غيرِهم بمَنزِلةِ العدمِ[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ [التغابن: ١٦]؛ فإنَّ مُضاعَفةَ الجزاءِ على الإنفاقِ مع المغفرةِ خَيرٌ عظيمٌ، وبهذا الموقعِ يعلَمُ السَّامعُ أنَّ القرضِ أُطْلِقَ على الإنفاقِ المأمورِ به، والمقصودُ الاعتناءُ بفَضلِ الإنفاقِ المأمورِ به اهتمامًا مُكرَّرًا، فبَعْدَ أنْ جُعِل خيرًا جُعِل سببَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢١٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٢، ١٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٩).

ويُنظر ما تقدَّم في مُشْكِلِ الإعرابِ (ص: ٤٥٥، ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٩).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٨٩).

الفلاحِ، وعُرِّفَ بأنَّه قرْضٌ مِنَ العبدِ لربِّه، وكفَى بهذا ترغيبًا وتلَطُّفًا في الطَّلبِ والاستِدعاءِ إلى القرضِ؛ إذْ جُعِلَ المُنفِقُ كأنَّه يُعطِي اللهَ تعالَى مالًا، وذلك مِن معنى الإحسانِ في مُعامَلةِ العبدِ ربَّه(١).

- ولَمَّا أمَرَ بالإنفاقِ أكَّدَه بقولِه: ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ورتَّبَ عليه تضعيفَ القَرضِ، وغُفرانَ الذُّنوبِ، وفي لفظِ المُضاعَفةِ تأكيدٌ للبَذْلِ لوجهِ اللهِ تعالَى(٢).

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ الشَّكورُ: فَعولٌ بمعنى فاعِلٍ مُبالَغةً، أي: كثيرُ الشُّكرِ، وأُطْلِقَ الشُّكرُ فيه على الجزاءِ بالخَيرِ على فِعلِ الصَّالحاتِ؛ تشبيهًا لفِعلِ المتفضِّلِ بالجزاءِ بشُكرِ المُنعَمِ عليه على نِعمةٍ، ولا نِعمةَ على اللهِ فيما يفعَلُه عِبادُه مِن الصَّالحاتِ؛ فإنَّما نَفْعُها لأنفُسِهم، ولكنَّ اللهَ تفضَّلَ بذلكَ حثًّا على صلاحِهم، فرتَّبَ لهُمُ الثَّوابَ بالنَّعيمِ على تزكيةِ أنفُسِهم، وتلطَّفَ لهم فسمَّى ذلكَ الثَّوابَ شُكرًا، وجعَلَ نفْسَه شاكرًا، وقد أومَأَ إلى هذا المَقصدِ إتْباعُ صِفةِ ﴿شَكُورٌ﴾ بصِفةِ ﴿حَلِيمٌ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ ذلك مِن حِلْمِه بعبادِه دونَ حقٍّ لهم عليه سُبحانَه(٣).

- وأيضًا أتْبَعَ جوابَي الشَّرطِ بوصفَينِ: ﴿شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾، أحَدُهما عائدٌ إلى المُضاعَفةِ؛ إذْ شُكرُه تعالَى مُقابِلٌ للمُضاعَفةِ، وحِلْمُه مُقابِلٌ للغُفرانِ(٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٠، ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٣).

- وَصْفُ اللهِ بأنَّه ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ تَتميمٌ للتَّذكيرِ بعَظَمةِ اللهِ تعالَى، مع مُناسَبتِها للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ اللَّذَيْنِ اشتمَلَتْ عليهما الآياتُ السَّابقةُ كلُّها؛ لأنَّ العالِمَ بالأفعالِ ظاهِرِها وخَفِيِّها لا يُفِيتُ شيئًا مِنَ الجزاءِ عليها بما رتَّبَ لها، ولأنَّ العزيزَ لا يُعجِزُه شيءٌ[1].

- وقولُه: ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ صِفَتا مُبالَغةٍ، أي: المُبالغُ في القُدرةِ والحِكمةِ[2]؛ فالحَكيمُ: الموصوفُ بالحِكمةِ، لا يَدَعُ مُعامَلةَ النَّاسِ بما تَقتضيهِ الحِكمةُ مِن وَضْعِ الأشياءِ مَواضِعَها، ونَوْطِ الأمورِ بما يُناسِبُ حَقائقَها، والحكيمُ فَعيلٌ بمعنى المُحكِمِ، أي: المُتقِنِ في صُنْعِه ومُعامَلتِه، وهما معًا مِن صِفاتِه تعالَى؛ فهو وصْفٌ جامعٌ للمعنيَيْنِ[3].

**تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الثَّامِنُ والثَّلاثونَ**

**ويليه المجلدُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الطَّلاقِ**

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩١).

# الفهرس

# الفهرس

## سورةُ المُمْتَحَنةِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمدَنِيِّ ..... ٧
مقاصِدُ السُّورةِ ..... ٧
موضوعاتُ السُّورةِ ..... ٨
الآيات (١-٣) ..... ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٠
المعنى الإجماليُّ ..... ١٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٥
الآيات (٤-٦) ..... ٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥١
الآيات (٧-٩) ..... ٦٠

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٦٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٧٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٧٣
الآيتان (١٠-١١) ..... ٧٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٧٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٧٨
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٧٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٨٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٨٨
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٩٧
الآيتان (١٢-١٣) ..... ١٠٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٠٤
المعنى الإجماليُّ ..... ١٠٥
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ١٠٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١١٤
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ١١٧

## سُورةُ الصَّفِّ

أسماءُ السُّورةِ ..... ١٢٧

بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ١٢٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٢٨
موضوعاتُ السُّورةِ ..... ١٢٨
الآيات (١-٤) ..... ١٣٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٣٠
المعنى الإجماليُّ ..... ١٣٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٣١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٣٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٣٨
الآيتان (٥-٦) ..... ١٤٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٤٣
المعنى الإجماليُّ ..... ١٤٣
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ١٤٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٥٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٥١
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ١٥٦
الآيات (٧-٩) ..... ١٦٥
غريب الكلمات ..... ١٦٥
المعنى الإجماليُّ ..... ١٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٦٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٧٢

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٧٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٧٦
الآيات (١٠-١٣) ..... ١٨٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٨٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٨٤
المعنى الإجماليُّ ..... ١٨٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٨٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٩٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٩٦
الآية (١٤) ..... ٢٠٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٠٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٠٥
تَفسيرُ الآيةِ ..... ٢٠٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢١١
بلاغةُ الآيةِ ..... ٢١١

## سُورةُ الجُمُعةِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٢١٩
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ..... ٢١٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٢٢٠
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٢٢٠

مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٢٢٠
الآيات (١-٤) ..... ٢٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٢٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٢٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٢٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٣٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٤٤
الآيات (٥-٨) ..... ٢٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٥٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٦٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٦٥
الآيات (٩-١١) ..... ٢٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٧٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٨٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٩٥

## سُورةُ المُنافِقونَ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٣٠٧
فضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ..... ٣٠٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٣٠٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣٠٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٣٠٨
الآيات (١-٣) ..... ٣٠٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٠٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٣١٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣١٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣١٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٢٠
الآيات (٤-٦) ..... ٣٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٢٥
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٢٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٢٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٢٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٣٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٣٥
الآيتان (٧-٨) ..... ٣٤٣

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٤٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٤٣
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٣٤٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٤٩
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٣٥١
الآيات (٩-١١) ..... ٣٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٥٧
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٥٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٥٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٥٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٦٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٦٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٦٩

## سورةُ التَّغابُنِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٣٧٩
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٣٧٩
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣٧٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٣٨٠
الآيات (١-٤) ..... ٣٨١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٨١
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٨١

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٨٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٩٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٩٤
الآيات (٥-٨) ..... ٤٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٠٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٠٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤١٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤١٦
الآيتانِ (٩-١٠) ..... ٤٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٢٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢٥
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٤٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٣٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٣٣
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٤٣٥
الآيات (١١-١٣) ..... ٤٤١
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٤١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٤١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٤٤

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٤٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤٩
الآيات (١٤-١٨) ..... ٤٥٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٥٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٥٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٥٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٥٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٦٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٧٤
الفهرس ..... ٤٨٥

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(من سورة الطلاق إلى سورة القلم)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد التاسع والثلاثون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة الطلاق إلى سورة القلم)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم – المجلد التاسع والثلاثون – من سورة الطلاق إلى سورة القلم/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٢٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٤-٠٥-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٣/٩١٤٨

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩١٤٨

ردمك: ٤-٠٥-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م**

**(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ الطَّلاقِ

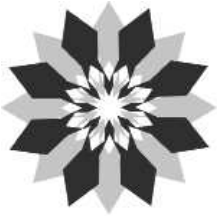

# سُورةُ الطَّلاقِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الطَّلاقِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الطَّلاقِ مَدَنيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**من أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

بيانُ الأحكامِ المتعلِّقةِ بالطَّلاقِ، وما يترتَّبُ عليه[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- ذِكرُ الطَّلاقِ المشروعِ، وما يَعقُبُه مِن العِدَّةِ والإرضاعِ، والإنفاقِ والإسكانِ.

٢- الإشهادُ على الطَّلاقِ، وعلى المراجَعةِ.

٣- النَّهيُ عن الإضرارِ بالمطَلَّقاتِ، والتَّضييقِ عليهنَّ.

---

(١) سُمِّيت بذلك لبيانِها كيفيَّةَ الطَّلاقِ الشَّرعيِّ، وما يترتَّبُ على الطَّلاقِ مِن العِدَّةِ والنَّفَقةِ والسُّكنى. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٤٩).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبيُّ، والفيروزابادي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٢٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٩)، ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٣/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٤/ ٤٣٩).

٤- التَّذكيرُ المتكَرِّرُ بوُجوبِ تقوى اللهِ تعالى، والمحافظةِ على أداءِ تكاليفِه.

٥- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ التَّوكُّلِ على اللهِ.

٦- ذِكرُ سُوءِ عاقبةِ الَّذين فَسَقوا عن أمرِ رَبِّهم، وخالَفوا رُسُلَه.

٧- تذكيرُ الأمَّةِ برحمةِ اللهِ بهم؛ حيثُ أرسلَ إليهم رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم.

٨- بيانُ حُسنِ عاقبةِ المؤمِنينَ الصَّادِقينَ.

٩- خُتِمَت السُّورةُ الكريمةُ بما يدُلُّ على كَمالِ قُدرةِ الله، وسَعةِ عِلمِه.

## الآيات (١-٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾: عِدَّةُ المرأةِ: هي الأيَّامُ الَّتي بانقِضائِها يحلُّ لها التَّزوُّجُ، وأصلُ (عَدد): يدُلُّ على إحصاءٍ[1].

﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾: أي: احفَظوها واضبِطوها، واعرِفوا ابتِداءَها وانتِهاءَها، وأصلُ (حصي): يدُلُّ على عَدٍّ[2].

﴿بِفَٰحِشَةٖ﴾: الفاحِشةُ: الزِّنا، وتُطلَقُ الفاحشةُ أيضًا على كلِّ شَيءٍ مُستقبَحٍ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، وأصلُ (فحش): يدُلُّ على قُبحٍ وشَناعةٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٦٠).

﴿يَتَعَدَّ﴾: أي: يَتجاوَزْ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ[١].

﴿حَسْبُهُۥ﴾: أي: كافِيه، وأصلُ (حسب) هنا: يدُلُّ على كِفايةٍ[٢].

﴿قَدْرًا﴾: أي: حَدًّا مَعلومًا، وأجَلًا مُعَيَّنًا، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلغِ الشَّيءِ ونِهايتِه[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

ابتدَأَ اللهُ تعالى تلك السُّورةَ الكريمةَ بخِطابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائِلًا: يا أيُّها النَّبيُّ، ثمَّ خاطَب أُمَّتَه تبَعًا، فقال: إذا أردْتُم طَلاقَ زَوجاتِكم فطَلِّقوهنَّ لوَقتِ عِدَّتِهنَّ؛ وذلك بأنْ تُطلِّقوهُنَّ في طُهرٍ لم تُجامِعوهنَّ فيه، واحفَظوا -أيُّها الأزواجُ- عِدَّةَ المُطَلَّقاتِ، واضبِطوها، واتَّقوا اللهَ رَبَّكم.

ثمَّ بيَّن الله تعالى حُكمًا آخَرَ يَتعلَّقُ بالأزواجِ والزَّوجاتِ، فقال: لا تُخرِجوا المُطَلَّقاتِ الرَّجْعيَّاتِ مِنَ البُيوتِ، ولا يَخرُجْنَ هُنَّ أنفُسُهنَّ حتَّى تَنقَضِيَ عِدَّتُهنَّ، إلَّا أن يَرتَكِبْنَ فاحِشةً واضِحةً قَبيحةً؛ كالزِّنا، أو أذيَّةِ أقارِبِ الزَّوجِ، وتلك الأحكامُ المذكورةُ حدودُ اللهِ؛ فلا تَعْتَدُوها، ومَن يَتجاوَزْ أحكامَ اللهِ فقد ظَلَم نَفْسَه، لا تَدْري؛ فلَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بعْدَ فِراقِ الزَّوجَينِ أمرًا نافِعًا لهما، ويُصلِحُ ذاتَ بَيْنِهما، فيُراجِعُ الزَّوجُ مَن طلَّقها.

ثمَّ بيَّن الله تعالى حُكمًا يتعلَّقُ بالعِدَّةِ، فقال: فإذا قارَبَ المُطَلَّقاتُ الرَّجْعيَّاتُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٤١).

انتِهاءَ عِدَّتِهنَّ، فارْجِعوهنَّ بالمعروفِ إن شِئتُم، أو فارِقوهنَّ بمَعروفٍ، وأَشهِدوا -أيُّها الأزواجُ- على رَدِّ زَوجاتِكم رَجُلَينِ مِن عُدولِ المُسلِمينَ، وأدُّوا -أيُّها الشُّهَداءُ- الشَّهادةَ على وَجْهِها إذا طُلِبَ منكم أداؤُها؛ إخلاصًا للهِ تعالى، ذلك يتَّعِظُ به مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ.

ثمَّ بشَّر الله تعالى عبادَه الَّذين يتَّقونَه، فقال: ومَنْ يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه؛ يَجعَلْ له مَخرَجًا مِن كُلِّ شِدَّةٍ، ويَرزُقْه مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، ومَن يَعتَمِدْ على اللهِ فهو كافِيه ما أهَمَّه، إنَّ اللهَ مُنفِذٌ أمْرَه، قد جَعَل اللهُ لكُلِّ شَيءٍ حَدًّا ومِقدارًا ووَقتًا مُعَيَّنًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ -وأمَّتُه تبَعٌ له- إذا أردْتُم طَلاقَ زَوجاتِكم فلْيَكُنْ تَطليقُكم لهنَّ مُراعًى فيه زَمَنُ عِدَّتِهنَّ؛ لئلَّا تَطُولَ عليهِنَّ، وذلك بأن تُطلِّقوهُنَّ وَقْتَ طُهرِهنَّ الَّذي لم تُجامِعوهنَّ فيه، فلا تُطَلِّقوهنَّ حالَ حَيضِهنَّ، ولا في زَمَنِ طُهرٍ قد جامَعْتُموهنَّ فيه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٧٠)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٤، ٢٩٥).
قال الرازي: (قَولُه تعالى: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: لِزَمانِ عِدَّتِهنَّ، وهو الطُّهرُ بإجماعِ الأُمَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٥٩).
=

= وقال الواحدي: (الآيةُ دَلَّت على إيقاعِ الطَّلاقِ في الطُّهرِ، ودلَّت السُّنَّةُ على أنَّ ذلك الطُّهرَ يَجِبُ أن يكونَ غيرَ مُجامَعٍ فيه، حتَّى يكونَ الطَّلاقُ سُنِّيًّا). ((التفسير الوسيط)) (٤/ ٣١٠).

وقال ابن العربي: (المعنى فيه: فطَلِّقوهنَّ لعِدَّتِهنَّ الَّتي تُعتَبَرُ. واللَّامُ على أصْلِها، كما تقولُ: افعَلْ كذا لِكَذا، ويكونُ مقصودُ الطَّلاقِ والاعتِدادِ مآلَه الَّذي يَنتهي إليه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٧٠).

وقال البِقاعي: (هذه اللَّامُ للوَقتِ، مِثلُها في: «كُتِبَ هذا لِخَمسٍ بَقِينَ مِن شَهرِ كذا»). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٤١).

قال السعدي: (فهذا الطَّلاقُ هو الَّذي تكونُ العِدَّةُ فيه واضِحةً بَيِّنةً، بخِلافِ ما لو طلَّقها وهي حائضٌ؛ فإنَّها لا تحتسبُ تلك الحيضةَ الَّتي وقَع فيها الطَّلاقُ، وتَطولُ عليها العِدَّةُ بسببِ ذلك، وكذلك لو طلَّقها في طُهرٍ وَطِئ فيه؛ فإنَّه لا يُؤمَنُ حمْلُها، فلا يتبيَّنُ ولا يتَّضحُ بأيِّ عدَّةٍ تعتَدُّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

وقال الرَّسْعَني: (الطَّلاقُ على ضَربَينِ: طلاقُ السُّنَّةِ، وطلاقُ البِدْعةِ. فأمَّا طَلاقُ السُّنَّةِ: فهو أن يُطَلِّقَها في طُهْرٍ لم يُجامِعْها فيه. وأمَّا طلاقُ البدعةِ: فهو أن يُطَلِّقَها في زمَنِ الحَيضِ، أو في طُهرٍ جامَعها فيه، ويقَعُ الطَّلاقُ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمَرَ ابنَ عُمَرَ بمُراجَعةِ زَوجتِه، ويأثَمُ؛ لارتِكابِه ما نُهيَ عنه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٦٠).

وقال ابنُ المُنذِرِ: (أجمَعَ أهلُ العِلمِ على أنَّ مَن طَلَّق زَوجتَه طَلقةً واحِدةً، وهي طاهِرٌ مِن حَيضةٍ لم يُطَلِّقْها فيها، ولم يكُنْ جامَعَها في ذلك الطُّهرِ: أنَّه مُصيبٌ للسُّنَّةِ). ((الإشراف على مذاهب العلماء)) (٥/ ١٨٤). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٣٣).

أمَّا كَوْنُه طَلْقةً واحدةً فقد وقع فيه اختِلافٌ؛ قال أبو حيَّانَ: (قال مالكٌ: لا أعرِفُ طلاقَ السُّنَّةِ إلَّا واحدةً، وكَرِهَ الثَّلاثَ مجموعةً أو مُفَرَّقةً. وأبو حنيفةَ كَرِهَ ما زاد على الواحدةِ في طُهرٍ واحدٍ، فأمَّا مُفَرَّقًا في الأطهارِ فلا. وقال الشَّافِعيُّ: لا بأسَ بإرسالِ الطَّلاقِ الثَّلاثِ، ولا أعرفُ في عدَدِ الطَّلاقِ سُنَّةً ولا بدعةً، وهو مباحٌ. راعى في السُّنَّةِ الوقتَ فقطْ، وأبو حنيفةَ التَّفريقَ والوقتَ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٦). ويُنظر: ((التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد)) لابن عبد البَرِّ (١٥/ ٦٩).

والطَّلاقُ في زمَنِ الحَيضِ، أو في طُهرٍ جامَعها فيه يقعُ باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((شرح مختصر الطَّحاوي)) للجَصَّاص (٥/ ٢٧)، =

عن عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، ((أنَّه طَلَّق امرأتَه وهي حائِضٌ، فذَكَر عُمَرُ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتغَيَّظَ فيه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ قال: لِيُراجِعْها، ثمَّ يُمْسِكْها حتَّى تَطهُرَ، ثمَّ تَحيضَ فتَطهُرَ، فإنْ بدا له أن يُطَلِّقَها فلْيُطَلِّقْها طاهِرًا قبْلَ أن يَمَسَّها؛ فتلك العِدَّةُ كما أمَرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ))[1].

وعن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طلَّقَ حَفْصةَ، ثمَّ راجَعَها))[2].

﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان نَظَرُ الشَّارِعِ إلى العِدَّةِ شَديدًا؛ لِما فيها مِن الحُكمِ بالتَّأنِّي لاحتِمالِ النَّدَمِ، وبالظَّنِّ لبراءةِ الرَّحِمِ احتياطًا للأنسابِ، وبقَطعِ المنازَعاتِ والمُشاجَراتِ المُفْضِيةِ إلى ذَهابِ الأموالِ والأرواحِ، وقد أفهَمَه التَّعبيرُ باللَّامِ- صَرَّح به

---

= ((الكافي)) لابن عبد البَرِّ (٢/ ٥٧٢)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٣٦)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٨/ ٣٣٠).

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٤٧١).

قال القرطبي: (قال عُلماؤنا: طلاقُ السُّنَّةِ ما جمَع شُروطًا سبعةً: وهو أن يُطَلِّقَها واحدةً، وهي ممَّن تَحيضُ، طاهرًا، لم يَمَسَّها في ذلك الطُّهرِ، ولا تَقَدَّمَه طلاقٌ في حَيضٍ، ولا تَبِعَه طلاقٌ في طُهرٍ يَتْلوه، وخلا عن العِوَضِ. وهذه الشُّروطُ السَّبعةُ مِن حديثِ ابنِ عُمَرَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥١). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (١/ ٢٥٨).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٢٢٨٣)، والنَّسائيُّ (٣٥٦٠)، وابنُ ماجه (٢٠١٦) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((الصَّحيح)) (٤٢٧٥)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢/ ٢١٥) -وقال: (على شرط الشَّيخينِ)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٠١٦)، وقال ابن كثير في ((مسند الفاروق)) (١/ ٤٢١): (إسنادُه جَيِّدٌ قَوِيٌّ ثابت). وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٩/ ١٩٧)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٢٨٣).

بصيغةِ الأمرِ؛ فقال[١]:

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾.

أي: واحفَظوا -أيُّها الأزواجُ- عِدَّةَ المُطَلَّقاتِ، فلا تَتهاوَنوا في ضَبطِ أيَّامِها، ومَعرفةِ بدايتِها ونهايتِها[٢].

قال تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الطَّلاقُ على غَيرِ هذا الوَجهِ حَرامًا؛ للضِّرارِ ومُخالَفةِ الأمرِ، وكذا التَّهاوُنُ في الضَّبطِ؛ حتَّى يَحتَمِلَ أن تَنكِحَ المرأةُ قبْلَ الانقِضاءِ- أمَرَ بمُجانَبةِ ذلك كُلِّه بقَولِه[٣]:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾.

أي: واتَّقوا اللهَ الَّذي أحسَنَ إليكم -أيُّها الأزواجُ- فاحذَروا عِصْيانَ أمْرِه، وتَعَدِّيَ حُدودِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ يعني في المَدخولِ بها؛ لأنَّ غَيرَ المدخولِ بها لا عِدَّةَ عليها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٣).

وقال الشنقيطي: (﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ وهي زَمَنُ التَّربُّصِ إجماعًا، وذلك هو المعبَّرُ عنه بثلاثةِ قُروءٍ). ((أضواء البيان)) (١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٢، ١٤٣)، ((تفسير =

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَر بالتَّقْوى، وناطَ بعضَها بصِفةِ الإحسانِ بقولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾؛ فسَّره بقولِه[1]:

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾.

أي: لا تُخرِجوا مَن طلَّقتُم مِن نِسائِكم مِنَ البُيوتِ الَّتي كُنَّ يَسكُنَّ فيها قبْلَ طَلاقِهِنَّ، بل أبقوهنَّ فيها حتَّى تَنتهيَ عِدَّتُهنَّ، ولا يَخرُجْنَ هُنَّ أنفُسُهنَّ حتَّى تَنقَضيَ عِدَّتُهنَّ كذلك[2].

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾.

أي: إلَّا أن يَرتَكِبْنَ فاحِشةً واضِحةً، وشَديدةَ القُبحِ، كبَذاءةِ اللِّسانِ، أو أذيَّةِ أقارِبِ الزَّوجِ، أو الوُقوعِ في مَعصيةٍ عَظيمةٍ كالزِّنا[3].

---

= السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٤)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٩).

ذكَر ابنُ القيِّم أنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ للبائِنِ، وأنْ يكونَ للرجعيَّةِ، وأنْ يكونَ لهما، ورجَّح حملَه على الرجعيَّةِ. يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٨٢).

وقال القاسمي: (هذا إنَّما هو في الطَّلاقِ الرَّجْعيِّ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٥٣). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

ويُنظر تفصيلُ الكلامِ في مسألةِ النَّفقةِ والسُّكنى للمطلَّقاتِ (ص: ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢، ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣، ١٤٤)، ((نظم =

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾.

أي: وتلك الأحكامُ المذكورةُ للطَّلاقِ والعِدَّةِ، والأمرِ ببَقاءِ المُطَلَّقةِ في بَيتِ زَوجِها حتَّى تَنتهيَ عِدَّتُها: قد حدَّدها اللهُ وبيَّنها لكم؛ فَقِفُوا عِندَها، ولا تَعْتَدُوها[1].

---

= الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٠).

قال الواحدي: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالفاحِشةِ هاهنا: الزِّنا، وهو أن تَزنيَ، فتُخرَجَ لإقامةِ الحَدِّ عليها). ((الوسيط)) (٤/ ٣١٢).

واختار السَّمْعانيُّ أنَّ المرادَ بالفاحشةِ هنا الزِّنا، وأنَّه أَولى الأقوالِ، وعلَّل ذلك بقولِه: (لكَثرةِ مَن قال به، ولأنَّه مُوافِقٌ لِقَولِه: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ [النساء: ١٥]، وأجمَعوا على أنَّ المرادَ به الزِّنا). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٥٩، ٤٦٠).

وقال موفَّقُ الدِّينِ ابنُ قُدامةَ: (﴿...بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ وهي أن يَطولَ لِسانُها على أحمائِها، وتُؤذيَهم بالسَّبِّ ونحوِه، رُويَ ذلك عن ابنِ عبَّاسٍ، وهو قولُ الأكثَرينَ). ((المغني)) (٨/ ١٦٠).

وقيل: المرادُ بالفاحشةِ في هذا الموضعِ: كلُّ معصيةٍ لله. وقيل: هي نُشوزُها على زَوجِها. وقيل: هي خُروجُها مِن بَيتِها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ الفاحِشةَ تَشملُ الزِّنا وغَيرَه: ابنُ جرير، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢، ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٣، ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٠).

قال ابنُ عاشور: (الاستِثناءُ في قَولِه: ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ يحتَمِلُ أن يَرجِعَ إلى الجُملَتَينِ اللَّتَينِ قبْلَه، كما هو الشَّأنُ فيه إذا ورَدَ بعْدَ جُمَلٍ على أصَحِّ الأقوالِ لعُلَماءِ الأُصولِ. ويحتمِلُ أن يَرجِعَ إلى الأخيرةِ مِنهما). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٠).

وممَّن قال بأنَّ الاستثناءَ عائِدٌ إلى كِلا النَّهيَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٣).

وقيل: الاستثناءُ عائِدٌ إلى قَولِه تعالى: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾.

أي: ومَن يَتجاوَزْ أحكامَ اللهِ الَّتي شَرَعَها لعِبادِه في الطَّلاقِ وغَيرِه، فقد أضَرَّ نَفْسَه بتَضييعِ مَصلَحتِها في الدُّنيا والآخِرةِ، واكتِسابِها الآثامَ[1].

﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾.

أي: لا تَدْري ما يَحدُثُ في مُستَقبَلِ الأيَّامِ؛ فلَعَلَّ اللهَ يُحدِثُ بعدَ طَلاقِ الرَّجُلِ لزَوجتِه أمرًا نافِعًا لهما، وذلك بأن يُصلِحَ ذاتَ بَيْنِهما، ويُغَيِّرَ ما في قُلوبِهما مِنَ البُغضِ والعَداوةِ إلى المَوَدَّةِ والمَحَبَّةِ؛ فيُراجِعَها[2].

---

= (٨/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٤، ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٥، ١٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦).

قال البقاعي: (﴿لَا تَدۡرِي﴾ -أي: يا أيُّها النَّبيُّ الكريمُ- ما يكونُ عن ذلك مِن الأمورِ الَّتي يُحدِثُها اللهُ؛ لِتُشيرَ على المُطَلِّقِ بشَيءٍ مِمَّا يُصلِحُه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٤٥).

وممَّن اختار أيضًا أنَّ الخِطابَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٧/ ٨٣).

وقيل: الخِطابُ للمُتَعدِّي لحدودِ الله. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١).

وقال النَّسَفي: (﴿لَا تَدۡرِي﴾ أيُّها المُخاطَبُ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٤٩٧).

واختار ابنُ عاشور أنَّ الخِطابَ لِغَيرِ مُعَيَّنٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٧).

قال ابن العربي: (قال جميعُ المفَسِّرينَ: أراد بالأمرِ هاهنا الرَّغبةَ في الرَّجعةِ، ومعنى القَولِ: التَّحريضُ على طلاقِ الواحِدةِ، والنَّهيُ عن الثَّلاثِ؛ فإنَّه إذا طَلَّق ثلاثًا أضَرَّ بنَفْسِه عندَ النَّدمِ على الفِراقِ، والرَّغبةِ في الارتجاعِ، ولا يجِدُ عندَ إرادةِ الرَّجْعةِ سَبيلًا). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٢٧٨). ويُنظر الخلافُ فيمَن طلَّق ثلاثًا (ص: ٣٨).

وقال ابنُ جُزي: (﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ المرادُ به الرَّجعةُ عندَ الجمهورِ). =

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حَدَّ سُبحانَه ما يُفعَلُ في العِدَّةِ؛ أَتْبَعَه ما يُفعَلُ عندَ انقِضائِها[1].

﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ﴾.

أي: فإذا قارَبَ المُطَلَّقاتُ الرَّجْعيَّاتُ انتِهاءَ عِدَّتِهنَّ فارْجِعوهنَّ إن شِئتُم، بشَرطِ إعطائِهنَّ جَميعَ حُقوقِهنَّ؛ كالنَّفَقةِ، والكِسوةِ، والمَسكَنِ، وحُسنِ الصُّحبةِ، مِن غَيرِ قَصدِ الإضرارِ بهِنَّ وحَبْسِهنَّ، أو اترُكوهنَّ حتَّى تَنقَضِيَ عِدَّتُهنَّ فيَصِرْنَ بائِناتٍ مِنكم، بلا تعنيفٍ ولا مُشاتَمةٍ ولا مُخاصَمةٍ، مع إعطائِهنَّ جَميعَ حُقوقِهنَّ أيضًا؛ كبَقيَّةِ المَهرِ، ومُتعةِ الطَّلاقِ، وغَيرِ ذلك[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[البقرة: ٢٣١].

﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾.

أي: وأَشهِدوا -أيُّها الأزواجُ- على رَدِّ زَوجاتِكم المطلَّقاتِ قبْلَ انتِهاءِ عِدَّتِهنَّ،

---

= ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٧، ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦).

قال ابنُ القيم: (الإمساكُ هنا: الرَّجْعةُ. والمُفارَقةُ: تَركُ الرَّجْعةِ، لا إنشاءُ طَلقةٍ ثانيةٍ. هذا ممَّا لا خِلافَ فيه البتَّةَ). ((زاد المعاد)) (٥/ ٢٩٢).

رَجُلَينِ مِن عُدولِ المُسلِمينَ، ممَّن تَرضَونَ دِينَهما وأمانتَهما[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

ممَّن قال بأنَّ المرادَ: الإشهادُ على الرَّجْعةِ: ابنُ جرير، والماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، واستظهره القرطبيُّ، واختاره ابنُ تيميَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥).

قال القرطبي: (فائدةُ الإشهادِ ألَّا يقَعَ بيْنَهما التَّجاحُدُ، وألَّا يُتَّهَمَ في إمساكِها، ولئلَّا يموتَ أحدُهما فيَدَّعيَ الباقي ثُبوتَ الزَّوجيَّةِ لِيَرِثَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٧).

وقال ابنُ تيميَّة: (قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ فأمَرَ بالإشهادِ على الرَّجعةِ. والإشهادُ عليها مأمورٌ به باتِّفاقِ الأمَّةِ. قيل: أمرُ إيجابٍ. وقيل: أمرُ استِحبابٍ ... ومِن حكمةِ ذلك: أنَّه قد يُطَلِّقُها ويَرتَجِعُها، فيُزَيِّنُ له الشَّيطانُ كِتمانَ ذلك حتَّى يُطَلِّقَها بعدَ ذلك طلاقًا مُحرِّمًا ولا يَدري أحدٌ، فتَكونُ معه حرامًا؛ فأمَرَ اللهُ أن يُشهدَ على الرَّجعةِ لِيَظهَرَ أنَّه قد وقعتْ به طَلْقةٌ، كما أمَر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ مَن وجَدَ اللُّقَطةَ أن يُشهِدَ عليها [أحمد «١٧٤٨١»، وأبو داود «١٧٠٩»]؛ لئلَّا يُزيِّنَ الشَّيطانُ كِتمانَ اللُّقطةِ؛ وهذا بخِلافِ الطَّلاقِ؛ فإنَّه إذا طلَّقها ولم يُراجِعْها بل خلَّى سبيلَها فإنَّه يَظهَرُ للنَّاسِ أنَّها ليست امرأتَه، بل هي مُطَلَّقةٌ، بخِلافِ ما إذا بَقيَتْ زوجةً عِندَه؛ فإنَّه لا يَدري النَّاسُ أطَلَّقَها أمْ لم يُطَلِّقْها). ((مجموع الفتاوى)) (٣٣/ ٣٣، ٣٤).

وممَّن قال: المرادُ: الإشهادُ على الرَّجْعةِ والفِراقِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، وابن جُزَي، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ الإشهادَ على الطَّلاقِ والرَّجعةِ: ابنُ عبَّاسٍ، والسُّدِّيُّ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥).

قال ابن جُزَي: (هذا أظهَرُ؛ لأنَّ الإشهادَ به يُرفَعُ الإشكالُ والنِّزاعُ، ولا فرقَ في هذا بيْنَ الرَّجعةِ والطَّلاقِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٥).

قال ابنُ عطية: (وتقييدُ تاريخِ الإشهادِ: مِنَ الإشهادِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤).

واستحبابُ الإشهادِ على الرَّجعةِ هو باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، =

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾.

أي: وأدُّوا -أيُّها الشُّهَداءُ- الشَّهادةَ صَحيحةً على وَجْهِها إذا طُلِبَ منكم أداؤُها، بلا زِيادةٍ ولا نُقصانٍ، ولا تبديلٍ ولا تغييرٍ؛ إخلاصًا للهِ تعالى، وامتِثالًا لأمْرِه[1].

﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾.

أي: ذلك الَّذي بيَّنَّاه لكم، وأمَرْناكم به مِن الأحكامِ: إنَّما يتَّعِظُ ويَعمَلُ به مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ؛ فهو الَّذي يخافُ عِقابَ اللهِ إن خالَفَ شَرْعَه[2].

---

= والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي (٢/ ٢٥٢)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٤٢٤)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢١٦)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٣٤٢، ٣٤٣).
وحُكيَ الإجماعُ على أنَّ الطَّلاقَ بدونِ إشهادٍ جائزٌ. ((تيسير البيان لأحكام القرآن)) لابن نور الدين (٤/ ٢٦٥)، ((سبل السلام)) للصنعاني (٢/ ٢٦٧)، ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٦/ ٣٠٠).
قال ابنُ عبدِ البَرِّ: (والاشهادُ على الطَّلاقِ ليس بواجبٍ فرضًا عندَ جمهورِ أهلِ العِلمِ، ولكنَّه نَدبٌ وإرشادٌ واحتياطٌ للمُطلِّقِ). ((الكافي في فقه أهل المدينة)) (٢/ ٥٧٤).
وقال ابنُ تيميَّةَ: (ظَنَّ بعضُ النَّاسِ... أنَّ الطَّلاقَ الَّذي لا يُشهَدُ عليه لا يَقَعُ! وهذا خِلافُ الإجماعِ، وخِلافُ الكتابِ والسُّنَّةِ، ولم يَقُلْ أحَدٌ مِن العلماءِ المشهورينَ به). ((الفتاوى الكبرى)) (٣/ ٢٩٦).
وقال ابن جرير: (﴿ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ وهما اللَّذانِ يُرْضَى دينُهما وأمانتُهُما). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠، ٤١).
وقال ابنُ عطيَّة: (قال النَّخَعيُّ: العَدلُ: مَن لم تَظهَرْ منه رِيبةٌ، وهذا قَولُ الفُقَهاءِ، والعَدلُ حقيقةً الَّذي لا يَخافُ إلَّا اللهَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).
قيل: المرادُ بـ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الإشارةُ إلى إقامةِ الشَّهادةِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطية، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٥). =

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾.

أي: ومَنْ يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نهى عنه؛ في شأنِ الطَّلاقِ وغَيرِه، يَجعَلِ اللهُ له مَخرَجًا ممَّا وَقَع فيه مِن شِدَّةٍ، فيَدفَعْ عنه ضُرَّه، ويُسَهِّلْ له أمْرَه[1].

﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مِن دَواعي الفِراقِ والخِلافِ بيْنَ الزَّوجَينِ ما هو مِنَ التَّقتيرِ في الإنفاقِ؛ لِضيقِ ذاتِ اليَدِ، فكان الإحجامُ عن المراجَعةِ عارِضًا كثيرًا للنَّاسِ بعْدَ التَّطليقِ- أتْبَعَ الوَعدَ بجَعلِ المَخرَجِ للمُتَّقينَ بالوَعدِ بمَخرَجٍ خاصٍّ، وهو مَخرَجُ التَّوسِعةِ في الرِّزقِ[2].

﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾.

أي: ومَن يتَّقِ اللهَ يُسَهِّلْ له أسبابَ الرِّزقِ مِن خَيرِ الدُّنيا والآخِرةِ؛ مِن جِهةٍ

---

= قال ابنُ عطيَّة: (ذلك أنَّ جميعَ فُصولِ الأحكامِ والأمورِ فإنَّما تدورُ على إقامةِ الشَّهادةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤).

وقال البِقاعي: (﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: الَّذي ذكَرْتُ لكم -أيَّتُها الأُمَّةُ- مِن هذه الأُمورِ البَديعةِ النِّظامِ، العاليةِ المَرامِ، وأَوْلاها بذلك هنا الإشهادُ وإقامةُ الشَّهادةِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠).

وقيل: المرادُ: ما ذُكِرَ مِن أمرِ الطَّلاقِ، والواجِبِ لبَعضِ الأزواجِ على بعضٍ عندَ الفِراقِ والإمساكِ. وممَّن ذهب إلى هذا في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٢).

لا تَخطُرُ ببالِه، وعلى وَجهٍ لا يَشعُرُ به[١]!

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞ﴾ [الزمر: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾.

أي: ومَن يَعتَمِدْ على اللهِ وَحْدَه، ويُفَوِّضْ جميعَ أمرِه إليه في طَلَبِ الخَيرِ أو دَفعِ الشَّرِّ؛ فاللهُ كافِيه ما أهَمَّه مِن أمرِ دِينِه ودُنياه وآخِرتِه[٢].

عن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لو أنَّكم توَكَّلْتُم على اللهِ حَقَّ توَكُّلِه، لَرزَقَكم كما يَرزُقُ الطَّيرَ؛ تَغْدو خِماصًا، وتَرُوحُ بِطانًا[٣]))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

(٣) أي: تَغْدو بُكرةً وهي جِياعٌ، وتَروحُ عِشاءً وهي مُمتَلِئةُ الأجوافِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٨٠).

(٤) أخرجه من طُرُقٍ: الترمذيُّ (٢٣٤٤) باختلافٍ يسيرٍ، وابنُ ماجه (٤١٦٤)، وأحمدُ (٣٧٠) =

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُمْضٍ أمْرَه، فلا بُدَّ مِن نُفوذِ أمْرِ اللهِ وقَضائِه في خَلْقِه بما يَشاؤُه، وإن تأخَّرَ وَقتُه بحَسَبِ ما تَقتَضيه حِكمتُه سُبحانَه[1].

قال تعالى: ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر الله كِفايتَه للمُتوكِّلِ عليه، فرُبَّما أوهَمَ ذلك تعجيلَ الكِفايةِ وَقتَ التَّوَكُّلِ؛ فعَقَّبَه بقَولِه: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾، أي: وَقتًا لا يتعَدَّاه، فهو يَسوقُه إلى وَقتِه الَّذي قَدَّرَه له؛ فلا يَستَعجِلِ المتوكِّلُ ويقولُ: قد توكَّلتُ ودَعَوتُ فلم أرَ شَيئًا، ولم تحصُلْ لي الكفايةُ؛ فاللهُ بالِغُ أمْرِه في وَقتِه الَّذي قَدَّرَه له[2].

﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾.

---

= واللَّفظُ لهما.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ لا نعرِفُه إلَّا مِن هذا الوجهِ). وصحَّحه ابنُ حِبَّان في ((الصَّحيح)) (٧٣٠)، وابنُ العربي في ((أحكام القرآن)) (٢/ ٤٧١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٦٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١/ ٤٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

قال العليمي: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ قرأ حفصٌ عن عاصمٍ: ﴿بَٰلِغُ﴾ بغيرِ تنوينٍ ﴿أَمۡرِهِۦ﴾ بالخَفضِ، بإضافةِ ﴿بَٰلِغُ﴾ إليه، وقرأ الباقونَ: بالتَّنوينِ، ونَصبِ ﴿أَمۡرِهِۦ﴾، والمعنى على القِراءتَينِ: مُنفِذٌ حُكمَه). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٨٥). ويُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٨).

وقال ابن عاشور: (ومعنَى ﴿بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾: واصلٌ إلى مُرادِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٣).

أي: قد جَعَل اللهُ لكُلِّ شَيءٍ ممَّا شَرَعَه وخَلَقَه وقدَّرَه حَدًّا مَعلومًا، ومِقدارًا مُعَيَّنًا، ووقتًا مَضروبًا؛ كالطَّلاقِ والعِدَّةِ، وحالِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، وغيرِ ذلك[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].

وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٦)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٤/ ١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: قد جعَل اللهُ لكلِّ شَيءٍ مِن الطَّلاقِ والعِدَّةِ وغيرِ ذلك حدًّا وأجَلًا وقَدْرًا يُنتهَى إليه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨).

وقيل: المعنى: جعَل لكلِّ شَيءٍ مِن الشِّدَّةِ والرَّخاءِ. وممَّن قاله: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩).

قال الشوكاني: (قد جعَل سُبحانَه للشِّدَّةِ أجَلًا تَنتهي إليه، وللرَّخاءِ أجَلًا يَنتهي إليه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني متى يكونُ هذا الغنيُّ فقيرًا؟ ومتى يكونُ هذا الفقيرُ غنيًّا؟ فقدَّر اللهُ ذلك كلَّه، لا يُقدَّمُ ولا يؤخَّرُ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٤).

وقال أبو السعود: (﴿... قَدْرًا﴾ أي: تقديرًا وتوقيتًا، أو مِقدارًا). ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٢).

وقال السعدي: (﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: وقتًا ومِقدارًا، لا يَتعدَّاه، ولا يَقصُرُ عنه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٠).

وقال البِقاعي: (﴿لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: تقديرًا لا يَتعدَّاه في مِقدارِه وزَمانِه ومَكانِه، وجميعِ عَوارِضِه وأحوالِه، وإن اجتهَد جميعُ الخلائقِ في أن يَتعدَّاه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٥٣).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾. قَولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ تحذيرٌ مِن التَّساهُلِ في أحكامِ الطَّلاقِ والعِدَّةِ، ذلك أنَّ أهلَ الجاهليَّةِ لم يَكونوا يُقيمونَ للنِّساءِ وَزنًا، وكان قَرابةُ المُطَلَّقاتِ قَلَّما يُدافِعونَ عَنهنَّ، فتناسى النَّاسُ تلك الحُقوقَ وغَمِصوها[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ أنَّ مسائلَ الطَّلاقِ يَجِبُ على الإنسانِ أنْ يَعتنِيَ بها ويَعرِفَها؛ وألَّا يَخرُجَ مِن النِّكاحِ إلَّا بحَسَبِ الحُدودِ الشَّرعيَّةِ[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ فيه أنَّ الزَّوجَ له حَقٌّ في بدَنِ الزَّوجةِ، ولها حقٌّ في بَدَنِه وذِمَّتِه، فكُلُّ مَن له دَيْنٌ في ذِمَّةِ غَيرِه، سواءٌ كان مالًا، أو مَنفعةً مِن ثَمَنٍ أو مُثَمَّنٍ أو أُجرةً، أو صَداقًا أو نَفَقةً، أو بَدَلَ مُتلَفٍ، أو ضَمانَ مَغصوبٍ- فعليه أن يؤدِّيَ ذلك الحَقَّ الواجِبَ بإحسانٍ، وعلى صاحِبِ الحَقِّ أن يَتْبَعَ بإحسانٍ، كما قال تعالى في آيةِ القِصاصِ: ﴿فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وكذلك الحَقُّ الثَّابِتُ في بَدَنِه، مِثلُ حَقِّ الاستِمتاعِ، والإجارةِ على عَينِه، ونحوِ ذلك، فالطَّالِبُ يَطلُبُ بمَعروفٍ، والمطلوبُ يُؤدِّي بإحسانٍ[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ فيه حَثٌّ على أداءِ الشَّهادةِ؛ لِما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٥٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣١٣).

فيه مِنَ العُسرِ على الشَّاهِدِ بتَركِ مُهِمَّاتِه، وعُسرِ لقاءِ الحاكِمِ الَّذي يؤدِّي عِندَه، ورُبَّما بَعُدَ مَكانُه، وكان للعَدلِ في الأداءِ عوائِقُ(١).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ فيه أنَّ مَن يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ يُوجِبُ له ذلك أن يتَّعِظَ بمَواعِظِ اللهِ، وأن يُقَدِّمَ لآخِرتِه مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ ما تمكَّنَ منها، بخِلافِ مَن تَرحَّل الإيمانُ عن قَلبِه؛ فإنَّه لا يُبالي بما أقدَمَ عليه مِن الشَّرِّ، ولا يُعَظِّمُ مَواعِظَ اللهِ؛ لعَدَمِ المُوجِبِ لذلك(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾، وقَولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٤] دَلالةٌ على أنَّ الإنسانَ كلَّما اتَّقى اللهَ زالتْ عنه الهُمومُ، وفُرِّجَتْ عنه(٣).

٧- عن عَونِ بنِ عبدِ الله، قال: قيل لرجُلٍ مِن الفُقَهاءِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾، فقال الفقيهُ: واللهِ إنَّه لَيَجعَلُ لنا المَخرجَ وما بلَغْنا مِن التَّقْوى ما هو أهلُه، وإنَّه لَيَرزُقُنا وما اتَّقَيْناه كما يَنبغي، وإنَّه لَيَجعَلُ لنا مِن أمْرِنا يُسرًا وما اتَّقَيناه، وإنَّا لنرجو الثَّالثةَ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾(٤) [الطلاق: ٥].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ يُفهِمُ أنَّ مَن لم يتَّقِ اللهَ يُقَتَّرُ عليه(٥).

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ فيه أنَّ كُلَّ مَن اتَّقى اللهَ تعالى،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (٤/ ٢٤٨، ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٤).

ولازَمَ مَرضاةَ اللهِ في جميعِ أحوالِه؛ فإنَّ اللهَ يُثيبُه في الدُّنيا والآخِرةِ، ومِن جُملةِ ثَوابِه أن يَجعَلَ له فَرَجًا ومَخرَجًا مِن كُلِّ شِدَّةٍ ومَشَقَّةٍ، وكما أنَّ مَن اتَّقى اللهَ جَعَل له فَرَجًا ومَخرَجًا، فمَن لم يتَّقِ اللهَ وَقَع في الشَّدائِدِ والآصارِ والأغلالِ الَّتي لا يَقدِرُ على التَّخَلُّصِ منها، والخُروجِ مِن تَبِعَتِها[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ فيه أنَّ تقوى اللهِ سَبَبُ تَفريجِ الكُرَبِ، والخَلاصِ مِن المَضايِقِ. ومُلاحَظةُ المُسلِمِ ذلك ويَقينُه بأنَّ اللهَ يَدفَعُ عنه ما يَخطُرُ ببالِه مِن الخواطِرِ الشَّيطانيَّةِ الَّتي تُثَبِّطُه عن التَّقوى: يُحَقِّقُ وَعْدَ اللهِ إيَّاه بأن يَجعَلَ له مَخرَجًا، ويَرزُقَه مِن حَيثُ لا يَحتَسِبُ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا أراد بعَمَلِه الحُسْنَيَينِ؛ حُسْنَى الدُّنيا، وحُسْنَى الآخِرةِ، فلا شَيءَ عليه؛ لأنَّ اللهَ رَغَّبَه في التَّقْوى بذِكْرِ المَخْرَجِ مِن كلِّ ضيقٍ، والرِّزقِ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ[٣].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ هذا بَيانٌ لوُجوبِ التَّوَكُّلِ على اللهِ تعالى، وتفويضِ الأمرِ إليه؛ لأنَّه إذا عُلِمَ أنَّ كلَّ شيءٍ مِنَ الرِّزقِ ونَحْوِه لا يكونُ إلَّا بتَقديرِه وتَوقيتِه، لم يَبْقَ إلَّا التَّسليمُ للقَدَرِ، والتَّوكُّلُ[٤].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ يُفهِمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٢).

أنَّ مَن لم يتوكَّلْ لم يُكْفَ شَيئًا مِنَ الأشياءِ[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أنَّه يَجبُ على كلِّ مؤمنٍ إذا أراد أنْ تُقْضى أمورُه وتُسَهَّلَ أنْ يُفَوِّضَ أمْرَه إلى اللهِ[٢].

١٥- قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ والتَّوَكُّلُ على اللهِ هو مِن أقوى الأسبابِ الَّتي يَدْفَعُ بها العَبدُ ما لا يُطيقُ مِن أذى الخَلْقِ وظُلْمِهم وعُدوانِهم؛ فإنَّ اللهَ حَسْبُه، أي: كافيه، ومَن كان اللهُ كافيَه وواقيَه فلا مَطْمَعَ فيه لِعَدُوِّه، ولا يَضُرُّه إلَّا أذًى لا بُدَّ منه؛ كالحَرِّ، والبَرْدِ، والجُوعِ، والعَطَشِ، وأمَّا أنْ يَضُرَّه بما يَبْلُغُ منه مُرادَه فلا يكونُ أبدًا[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أنَّه إذا صَدَقَ العَبدُ في اعتمادِه على اللهِ تعالى، كفاه اللهُ تعالى ما أهَمَّه، ﴿فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيه، ثُمَّ طَمْأَنَ المتوكِّلَ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ فلا يُعْجِزُه شَيءٌ أرادَه[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ دَلالةٌ -بمفهومِ الآيةِ- أنَّ مَن تَوَكَّلَ على غيرِ اللهِ خُذِلَ؛ لأنَّ غيرَ اللهِ لا يكونُ حَسْبًا، فمَن تَوَكَّلَ على غَيرِ اللهِ تَخَلَّى اللهُ عنه، وصار موكولًا إلى هذا الشَّيءِ، ولم يَحْصُلْ له مَقصودُه، وابتعدَ عنِ اللهِ بمقدارِ توكُّلِه على غَيرِ اللهِ[٥].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أنَّه يَنبغي للعَبدِ ألَّا يَستَبطِئَ نَصْرَه ورِزْقَه وعافيتَه؛ فإنَّ اللهَ تعالى بالِغُ أمْرِه، وقد جَعَل لكلِّ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٥٨).

(٥) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٩٥).

شَيءٍ قَدْرًا لا يَتقَدَّمُ عنه ولا يَتأخَّرُ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ أنَّ الخِطابَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم خِطابٌ له ولأُمَّتِه؛ فاللهُ عزَّ وجلَّ يُوَجِّهُ خِطابَه للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ هو والأُمَّةُ، فالخِطابُ مُفْرَدٌ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ وبَعْدَه ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾ ليس النَّبيَّ وحْدَه، بل كلُّ الأُمَّةِ[٢]، فلو لم يكُنْ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ يُقصَدُ منه شُمولُ الحُكمِ لجميعِ الأمَّةِ لَأفرَدَ الخِطاباتِ بعْدَه، ولَقال: (إذا طلَّقْتَ النِّساءَ فطَلِّقْهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وأحْصِ) (واتَّقِ اللهَ) (لا تُخرِجْ)، فلمَّا جاء بها مجموعةً تبيَّن أنَّه أراد إدخالَ الأمَّةِ تحتَ خِطابِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾[٣].

٢- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ﴾، تَعليقُ ﴿طَلَّقۡتُمُ﴾ بـ (إِذَا) الشَّرطيَّةِ مُشعِرٌ بأنَّ الطَّلاقَ خِلافُ الأصلِ في عَلاقةِ الزَّوجَينِ الَّتي قال اللهُ فيها: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً﴾[٤] [الروم: ٢١].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الروم)) (ص: ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (١/ ٤٨٦).

قال ابن عاشور: (تَوجيهُ الخِطابِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أُسلوبٌ مِن أساليبِ آياتِ التَّشريعِ المُهتَمِّ به، فلا يَقْتضي ذلك تَخصيصَ ما يُذكَرُ بعْدَه بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، مِثلُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥]؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الَّذي يَتولَّى تَنفيذَ الشَّريعةِ في أُمَّتِه، وتَبْيينَ أحْوالِها، فإنْ كان التَّشريعُ الوارِدُ يَشملُه ويَشملُ الأُمَّةَ، جاء الخِطابُ مُشتمِلًا على ما يُفيدُ ذلك، مِثلُ صِيغةِ الجمْعِ في قولِه هنا: ﴿إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾، وإنْ كان التَّشريعُ خاصًّا بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جاء بما يَقْتَضي ذلك، نحْوُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[المائدة: ٦٧]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٦).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا عامٌّ يَتناوَلُ المدخولَ بهِنَّ وغَيرَ المدخولِ بهِنَّ مِن ذواتِ الأقراءِ والآيساتِ والصَّغيراتِ والحوامِلِ، فكيف صَحَّ تَخصيصُه بذواتِ الأقراءِ المدخولِ بهِنَّ؟

**الجوابُ**: لا عُمومَ ثَمَّ ولا خُصوصَ، لكِنَّ النِّساءَ اسمُ جِنسٍ للإناثِ مِن الإنسِ، وهذه الجِنسيَّةُ مَعنًى قائِمٌ في كُلِّهنَّ وفي بَعضِهنَّ؛ فجاز أن يُرادَ بالنِّساءِ هذا وذاك، فلمَّا قيل: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ عُلِمَ أنَّه أُطلِقَ على بَعضِهنَّ، وهنَّ المدخولُ بهِنَّ مِن المُعتَدَّاتِ بالحَيضِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أنَّ الطَّلاقَ لا يكونُ بيَدِ المرأةِ[2].

٥- قَولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا نَفَقةَ للمَبتُوتَةِ ولا سُكْنى؛ ووَجْهُه: أنَّ اللهَ سبحانه أمَرَ الأزواجَ الَّذين لهم عندَ بُلوغِ الأجَلِ الإمساكُ والتَّسريحُ بألَّا يُخرِجوا أزواجَهم مِن بُيوتِهم، وأَمَرَ أزواجَهنَّ ألَّا يَخْرُجْنَ؛ فدلَّ على جَوازِ إخراجِ مَن ليس لزَوجِها إمساكُها بعدَ الطَّلاقِ؛ فإنَّه سبحانه ذَكَر لهؤلاءِ المطلَّقاتِ أحكامًا مُتلازِمةً لا يَنْفَكُّ بعضُها عن بعضٍ:

**أحدُها**: أنَّ الأزواجَ لا يُخرِجوهنَّ مِن بُيوتِهنَّ.

**والثَّاني**: أنَّهنَّ لا يَخْرُجْنَ مِن بُيوتِ أزواجِهنَّ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٤).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٧٢).

لا يصحُّ الطَّلاقُ إلَّا مِن زَوجٍ، وذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفِقهيَّةِ الأربعةِ: الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ. يُنظر: ((الهداية)) للمَرْغِيناني (١/ ٢٢٤)، ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٣٦٥)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٢)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٧٤).

**والثَّالثُ**: أنَّ لأزواجِهنَّ إمساكَهنَّ بالمعروفِ قبْلَ انقِضاءِ الأجَلِ، وتَرْكَ الإمساكِ، فيُسَرِّحونَهنَّ بإحسانٍ.

**والرَّابعُ**: إشهادُ ذَوَيْ عَدْلٍ، وهو إشهادٌ على الرَّجْعةِ، وأشار سُبحانَه إلى حِكمةِ ذلك، وأنَّه في الرَّجْعِيَّاتِ خاصَّةً، بقَولِه: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، والأمرُ الَّذي يُرجَى إحداثُه هاهنا هو المُراجَعةُ، هكذا قال السَّلَفُ ومَن بعدَهم. فهذا يدُلُّ على أنَّ الطَّلاقَ المذكورَ هو الرَّجْعِيُّ الَّذي ثَبَتَتْ فيه هذه الأحكامُ، وأنَّ حِكمةَ أَحكَمِ الحاكِمينَ وأرحمِ الرَّاحِمينَ اقْتَضَتْه؛ لعلَّ الزَّوجَ أنْ يَنْدَمَ ويَزولَ الشَّرُّ الَّذي نَزَغَه الشَّيطانُ بيْنَهما، فتَتْبَعَها نفْسُه فيُرَاجِعَها، ثُمَّ ذَكَر سبحانَه الأمرَ بإسكانِ هؤلاء المطلَّقاتِ، فقال: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾ [الطلاق: ٦]؛ فالضَّمائرُ كلُّها يَتَّحِدُ مُفَسِّرُها، وأحكامُها كلُّها مُتلازِمةٌ[١].

٦- الخُلْعُ يجوزُ في حالِ الحَيضِ؛ لأنَّه ليس بطَلاقٍ، واللهُ إنَّما أمَرَ بالطَّلاقِ للعِدَّةِ؛ قال تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، ويجوزُ أنْ يُخالِعَها ولو كان قد جامعَها في الحالِ؛ لأنَّه ليس بطَلاقٍ، بل هو فِداءٌ، ولأنَّ أصلَ مَنْعِ الزَّوجِ مِن التَّطليقِ في حالِ الحَيضِ، أو في حالِ الطُّهْرِ الذي جامعَها فيه: أنَّ فيه إضرارًا بها؛ لتطويلِ العِدَّةِ عليها، فإذا رضيتْ بذلك فقد أسقَطَتْ حقَّها[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٦٩). ويُنظر الخلافُ في هذه المسألةِ (ص: ٨٠).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٢/ ٤٦٩).

وجوازُ الخُلعِ في الحَيضِ، والطُّهرِ الَّذي أصابَها فيه هو مَذهَبُ الجُمهورِ: الحَنَفيَّةِ والشَّافِعيَّةِ والحَنابِلةِ. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٣/ ٤٤١)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٣٦)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٢١٣).

إباحةِ التَّطليقِ بدَلالةِ الإشارةِ[١]؛ لأنَّ القُرآنَ لا يُقَدِّرُ حُصولَ فِعلٍ مُحَرَّمٍ مِن دُونِ أن يُبَيِّنَ مَنْعَه[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ استدَلَّ بهذه الآيةِ مَن ذهَب إلى أنَّ العِدَّةَ بالأطهارِ لا بالحِيَضِ[٣]؛ ووجْهُ الدَّلالةِ أنَّ الآيةَ دَلَّت على أن يكونَ إيقاعُ الطَّلاقِ عِندَ مَبدَأِ الاعتِدادِ، فلو كان مَبدَأُ الاعتِدادِ هو الحَيضَ، لَكانت الآيةُ أمرًا بإيقاعِ الطَّلاقِ في الحَيضِ، ولا خِلافَ في أنَّ ذلك مَنهيٌّ عنه؛ لحديثِ عُمَرَ[٤] في قَضِيَّةِ طَلاقِ ابنِه عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ زَوْجَه وهي حائِضٌ[٥].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ فسَّرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن تُطَلَّقَ في طُهرٍ لم يُجامِعْ فيه[٦]. وفي لفظٍ عندَ مُسلِمٍ أنَّه قرأ: ((فطَلِّقوهنَّ في قُبُلِ عِدَّتِهنَّ))[٧]، فاستدَلَّ الفُقَهاءُ بذلك على أنَّ طَلاقَ السُّنَّةِ ما

---

(١) دَلالةُ الإشارةِ: مِن أنواعِ دَلالةِ المنطوقِ، وهي دَلالةُ اللَّفظِ على معنًى ليس مقصودًا باللَّفظِ في الأصلِ، ولكنَّه لازِمٌ للمَقصودِ، فكأنَّه مقصودٌ بالتَّبَعِ لا بالأصلِ. يُنظر: ((المستصفى)) للغزالي (ص: ٢٦٣، ٢٦٤)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٤٤٤) و (٧/ ٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٥).

(٣) وهذا مذهبُ المالكيَّةِ والشَّافِعيَّةِ، وهو روايةٌ عن أحمدَ، واختيارُ ابنِ حَزْم. يُنظر: ((حاشية الدسوقي على الشرح الكبير للدردير)) (٢/ ٤٦٩)، ((تحفة المحتاج)) لابن حجر الهيتمي (٨/ ٢٣٢)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (٩/ ٢٠٥)، ((المحلى)) لابن حزم (١٠/ ٢٨، ٢٩).

وذهَبَ الحَنَفيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّ العِدَّةَ بالحيضِ، وهو اختيارُ ابنِ تيميَّةَ، وابنِ القيِّم. يُنظر: ((المبسوط)) للسرخسي (٦/ ١٢)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٩/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ٤٧٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٥٨، ٥٥٩).

(٤) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٧).

(٦) أخرجه البخاريُّ (٥٢٥١)، ومسلمٌ (١٤٧١).

(٧) أخرجه مسلم (١٤٧١) (١٤).

ذُكِرَ[١]، وأنَّ الطَّلاقَ في الحَيضِ، أو طُهرٍ جُومِعَت فيه: بِدْعِيٌّ حَرامٌ[٢]، فالحَيضَ يَمنَعُ سُنَّةَ الطَّلاقِ، فإذا طَلَّقَها في حالةِ الحَيْضِ كان مُبتَدِعًا بذلك؛ لِقَولِه تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ يعني: طاهِرًا مِن غَيرِ جِماعٍ[٣]. ووَجهُ الدَّلالةِ على أنَّ الطَّلاقَ يَحرُمُ مع الحَيضِ، أو الطُّهْرِ الَّذي جامَعَها فيه: هو الأمرُ في قَولِه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، والأمرُ للوُجوبِ، لا سِيَّما أنَّه أعْقَبَه بقَولِه: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾، وقال: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾، كلُّ هذا مِمَّا يُؤَكِّدُ أنَّ الأمرَ للوُجوبِ[٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا يجوزُ إردافُ الطَّلاقِ للطَّلاقِ حتَّى تَنقضيَ العِدَّةُ أو يُراجِعَها؛ لأنَّه إنَّما أباح الطَّلاقَ للعِدَّةِ -أي: لاستِقبالِ العِدَّةِ-؛ فمتى طَلَّقَها الثَّانيةَ والثَّالثةَ قبْلَ الرَّجْعةِ بَنَتْ على العِدَّةِ، ولم تَستأنِفْها باتِّفاقِ جماهيرِ المُسلمينَ[٥].

١١- قَولُه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ المطلَّقَةَ حائضًا لا تَعْتَدُّ في عِدَّتِها بالحَيضةِ الَّتي طُلِّقَتْ فيها؛ إذْ لو كانت في كلِّ حالةٍ طُلِّقَتْ فيها دَخَلَتْ في عِدَّتِها مِن فَوْرِ الطَّلاقِ، ما كان في اشتِراطِه وقتًا مَوصوفًا فائدةٌ[٦].

---

(١) وقد نقَل الإجماعَ على أن الطَّلاقَ إذا وقَع في طُهرٍ لم يُجامِعْها فيه، فهو طَلاقٌ مُوافِقٌ للسُّنَّةِ: ابنُ نصرٍ المَرْوَزيُّ، وابنُ المُنْذِرِ، وابنُ عبدِ البَرِّ. يُنظر: ((اختلاف الفقهاء)) لابن نصر المروزي (ص: ٢٣٦)، ((الإشراف على مذاهب العلماء)) لابن المنذر (٥/ ١٨٤)، ((التمهيد)) لابن عبد البر (١٥/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية- كتاب الطهارة)) (ص: ٤٧١).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٧٩).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٢١). =

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أنَّ الصَّغيرةَ والآيسةَ يُطَلِّقُهما في الحالِ ولو كان قد أصابَهما؛ فعِدَّةُ الآيسةِ والصَّغيرةِ ثلاثةُ أشهُرٍ تَبدأُ مِنَ الطَّلاقِ؛ فيكونُ قد طَلَّقَهما للعِدَّةِ(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أنَّه يُستَثنى مِن مَنْعِ طَلاقِ الحائِضِ إذا كان الحَيضُ في حالِ الحَمْلِ؛ لأنَّه لا عِدَّةَ عليها حينَئذٍ(٢). وذلك على القولِ بأنَّ الحاملَ تحيضُ(٣).

١٤- مَن لم يَدخُلْ بزَوجتِه فيَجوزُ له طَلاقُها حائِضًا وطاهرًا، كما قال تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [البقرة: ٢٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩]، وقد دَلَّ على هذا قَولُه تعالى: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾، وهذه لا عِدَّةَ لها(٤).

١٥- الأمرُ في قولِه: ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ لضبْطِ أيَّامِ العِدَّةِ، والإتيانِ على جَميعِها، وعدمِ التَّساهُلِ فيها؛ لأنَّ التَّساهُلَ فيها ذَريعةٌ إلى أحَدِ أمْرَينِ: إمَّا التَّزويجِ قبْلَ انتهائِها، فرُبَّما اختلَطَ النَّسَبُ، وإمَّا تَطويلِ المُدَّةِ على المُطَلَّقةِ في أيَّامِ مَنْعِها مِنَ التَّزوُّجِ، ففي الإحصاءِ فوائدُ مُراعاةِ الرَّجعةِ، وزمانِ النَّفَقةِ والسُّكنى، وتوزيعِ الطَّلاقِ على الأقراءِ، وإذا أراد أنْ يُطلِّقَ ثلاثًا، والعِلمُ بأنَّها قدْ بانَتْ فيَتزوَّجَ بأختِها،

---

= وذلك بناءً على أنَّ القَرْءَ هو الحَيضُ، وأنَّ العِدَّةَ تكونُ به، وهو مذهبُ الحنَفيَّةِ والحنابلةِ، وسبَقَ ذِكرُ الخِلافِ في ذلك (ص: ٣٢). ويُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٦/ ١٥٣)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣١١).

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٣/ ٦٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٣١٥).

(٣) وسيأتي ذِكرُ الخِلافِ في ذلك (ص: ٦٤).

(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٢٠٠).

وبأربعٍ سِواها[١].

١٦- إنَّ مِن الرِّجال مَن إذا طَلَّقَ زوجتَه طَرَدَها مِن البَيتِ، وهذا محرَّمٌ، إلَّا أنْ تأتيَ بفاحشةٍ مُبَيِّنَةٍ، وإنَّ مِن النِّساءِ مَن إذا طُلِّقَتْ ذَهبتْ إلى أهلِها، وهذا محرَّمٌ؛ قال تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، فالمطلَّقةُ الرَّجعيَّةُ تبقَى في بَيتِ زَوجِها[٢].

١٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ فيه سُؤالٌ: ما معنى الجَمعِ بيْن إخراجِهم وخُروجِهنَّ؟

**الجوابُ**: معنى الإخراجِ ألَّا يُخرِجَهنَّ البُعولةُ غَضَبًا عليهنَّ، وكَراهةً لِمُساكَنتِهنَّ، أو لحاجةٍ لهم إلى المساكِنِ، وألَّا تَأذَنوا لهنَّ في الخُروجِ إذا طَلَبْنَ ذلك؛ إيذانًا بأنَّ إذْنَهم لا أثَرَ له في رَفعِ الحَظرِ، ولا يَخرُجْنَ بأنفُسِهنَّ إن أرَدْنَ ذلك[٣].

١٨- قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ في إضافةِ البُيوتِ إلى ضَميرِ النِّساءِ إيماءٌ إلى أنَّهنَّ مُستَحِقَّاتٌ المُكثَ في البُيوتِ مُدَّةَ العِدَّةِ بمَنزِلةِ مالِكِ الشَّيءِ، وهذا ما يُسَمَّى في الفِقهِ مِلْكَ الانتِفاعِ دونَ العَينِ، ولأنَّ بَقاءَ المُطَلَّقاتِ في البُيوتِ اللَّاتي كُنَّ فيها أزواجًا استِصحابٌ لحالِ الزَّوجيَّةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٩).

(٢) يجبُ على المُعتَدَّةِ مِن طلاقٍ رَجعيٍّ أن تبيتَ في بيتِ الزَّوجيَّةِ، وذلك باتِّفاقِ المذاهبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((الهداية)) للمَرْغِيناني (٢/ ٢٧٩)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٥/ ٥١٠)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٥٧)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٢٠٦). ويُنظر تفصيلُ حكمِ خروجِها (ص: ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦١).

إذ الزَّوجةُ هي المتصَرِّفةُ في بَيتِ زَوجِها؛ ولذلك يَدعوها العَرَبُ: رَبَّةَ البَيتِ[١].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ دَليلٌ على أنَّ مَن سَكَنَ دارًا جاز أنْ تُضافَ إليه وإنْ كان مِلْكُها لغَيرِه، ولا يكونُ كَذِبًا؛ إذِ البُيوتُ المضافاتُ إلى الزَّوجاتِ في هذه الآيةِ مِلْكُها لا محالةَ لأزواجِهنَّ؛ إذْ لو كان مِلْكُها لَهُنَّ ما كان لأزواجِهنَّ سَبيلٌ عليهنَّ قبْلَ الطَّلاقِ وبَعْدَه؛ لأنهنَّ أحَقُّ بأملاكِهنَّ ممَّن لا مِلْكَ له، فإنَّما خاطَبَ المطلِّقينَ بفَرضِ سُكْنى مَن طَلَّقوا مِن الزَّوجاتِ دونَ الثَّلاثِ؛ إذْ هُنَّ في معاني الزَّوجاتِ -كما كُنَّ قبْلَ الطَّلاقِ- مِن وُجوبِ السُّكْنى والنَّفَقةِ كما كُنَّ. واستُدِلَّ بجوازِ إضافةِ البُيوتِ إلى مَن مِلْكُها لغَيرِه على أنَّ مَن حَلَفَ مِن السُّكَّانِ ألَّا يَسْكُنَ دارَه، ولا يَدْخُلَ دارَه فلانٌ: حَنَثَ بالسُّكْنى ودُخولِ فُلانٍ الدَّارَ الَّتي هو فيها بكِراءٍ؛ لأنَّها دارُه بالتَّوَطُّنِ والحُلولِ وإنْ كان مِلْكُها لغَيرِه، إلَّا أنْ تكونَ له دارٌ يَمْلِكُها مِلْكَ الرَّقَبةِ، فيَقْصِدُها بيَمينِه، فلا يَحْنُثُ حينَئذٍ في المُكْتَراةِ[٢].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ وُجوبُ السُّكْنَى للمطلَّقةِ ما دامتْ في العِدَّةِ، وتحريمُ إخراجِها وخُروجِها إلَّا أنْ تأتيَ بفاحِشةٍ مُبَيِّنَةٍ، فتُنْقَلَ[٣].

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ أنَّ مُطَلِّقَ الرَّجْعِيَّةِ بَعْلٌ وزَوجٌ حقيقةً؛ فقد أَمَرَ سبحانه بإبقاءِ المطلَّقةِ عندَ الزَّوجِ، ونَسَبَ بَيتَ زوجِها إليها، ولو كانت تَبينُ منه وتَنفَصِلُ ويَنفَصِلُ منها، ما كان بيتُ زَوجِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٢١-٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

وسيأتي تفصيلُ الكلامِ عن حُكمِ السُّكنى للمطلَّقاتِ (ص: ٨٠).

بيتًا لها. إذَنْ هي زَوجةٌ، فتَجِبُ لها النَّفَقةُ، ويَلْزَمُها طاعتُه، ويجوزُ أنْ تَكْشِفَ له، وأنْ يَنْفَرِدَ بها، وأنْ تَتَطَيَّبَ له، وأنْ تُمازِحَه وتَضحَكَ إليه، وأنْ يُسافِرَ بها؛ فكلُّ ما يجوزُ للزَّوجةِ مع الزَّوجِ يجوزُ لها مع زَوجِها، إلَّا في مَسائِلَ قليلةٍ(١).

٢٢- قال اللهُ تعالى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ نهى عن إخراجِهنَّ وعن خُروجِهنَّ، وسُنَّةُ ذلك ألَّا تَبيتَ المرأةُ المُطَلَّقةُ بَعيدًا عن بَيتِها، ولا تَغيبَ عنه نهارًا إلَّا في ضَرورةٍ وممَّا لا خَطْبَ له مِن جائِزِ التَّصَرُّفِ؛ وذلك لحِفظِ النَّسَبِ، والتَّحَرُّزِ بالنِّساءِ(٢).

٢٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ أنَّ اللهَ تعالى قد سمَّى أحكامَه حُدودًا(٣).

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ١٨٦).

مذهبُ الحنفيَّةِ، وظاهرُ مذهبِ الحنابلةِ أنَّه يجوزُ الاستمتاعُ بالرجعيَّةِ، والخلوةُ بها، ولمسُها، والنَّظرُ إليها بنيةِ المراجعةِ، وكذلك بدونِها معَ الكراهةِ التنزيهيَّةِ عندَ الحنفيةِ.

وذهَب المالكيَّةُ والشافعيَّةُ -وهو روايةٌ للحنابلةِ- إلى أنَّه لا يجوزُ للمطلِّقِ لزوجتِه طلاقًا رجعيًّا معاشرتُها ومساكنتُها في الدَّارِ التي تعتدُّ فيها. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٣).

ذهَبَ الحنَفيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى أنَّ المُطلَّقةَ الرَّجعيَّةَ لا يجوزُ لها الخروجُ مِن مَسكَنِ العِدَّةِ لا لَيلًا ولا نَهارًا.

وذهب المالكيَّةُ والحنابلةُ إلى جوازِ خروجِ المطلَّقةِ الرَّجعيَّةِ نَهارًا لقضاءِ حوائجِها، وتَلزَمُ مَنزِلَها باللَّيلِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٤٨).

أمَّا المُعتدَّةُ مِن طلاقٍ بائنٍ فأجاز المالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ والحنابلةُ خُروجَها نهارًا لقضاءِ حوائجِها، وشراءِ ما يَلزَمُها، إلى غيرِ ذلك، خِلافًا للحنَفيَّةِ الَّذين منَعوا خُروجَها لَيلًا أو نهارًا. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٤٩).

والمتوفَّى عنها زَوجُها لا تَخرُجُ لَيلًا، ولها أن تَخرُجَ نهارًا لقضاءِ حوائجِها. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٥/ ٤٢٥).

٢٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ أنَّ كُلَّ مَن خالَفَ أمْرَ اللهِ بفِعلِ مُحَرَّمٍ أو تَرْكِ واجِبٍ، فقد ظَلَمَ نفْسَه؛ فإنَّ النَّفْسَ عندَك أمانةٌ تجِبُ عليك رِعايتُها، وقد أوصاك اللهُ بها فقال: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النساء: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التوبة: ٣٦]، فنهى عن قَتْلِ النَّفْسِ وعن ظُلْمِ النَّفْسِ؛ لأنَّها أمانةٌ عندَك[١].

٢٥- قال الله تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ وقدْ سُلِكَ في هذِه الآيةِ مَسلَكُ التَّرغيبِ في امتثالِ الأحكامِ المُتقدِّمةِ بعْدَ أنْ سُلِكَ في شأنِها مَسلكُ التَّرهيبِ مِن مُخالَفتِها، فمِن مَصالحِ الاعتدادِ ما في مُدَّةِ الاعتِدادِ مِنَ التَّوسيعِ على الزَّوجَيْنِ في مُهلةِ النَّظَرِ في مَصيرِ شأنِهما بعْدَ الطَّلاقِ، والمقصودُ الإشارةُ إلى أهمِّ ما في العِدَّةِ مِنَ المصالحِ، وهو ما يُحْدِثُه اللهُ مِن أمْرٍ بعْدَ الطَّلاقِ[٢].

٢٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ أي: بعْدَ الطَّلاقِ مُراجَعةً، واستُدِلَّ به على كراهيةِ التَّطليقِ ثلاثاً بمرَّةٍ واحدةٍ؛ لأنَّ إحداثَ الرَّجعةِ لا يكونُ بعدَ الثَّلاثِ[٣] -وذلك على القولِ بأنَّ الطَّلاقَ الثَّلاثَ مجموعًا يقَعُ[٤]-،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٠٦).

(٤) وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحَنَفيَّةِ، والمالِكيَّةِ، والشَّافِعيَّةِ، والحَنابِلةِ. يُنظر: ((مختصر القدوري)) (ص: ١٥٤)، ((مواهب الجليل)) للحطاب (٥/ ٣٠١)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٨٢)، ((الإنصاف)) للمرداوي (٨/ ٣٣٤).

واختار ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّمِ، والشَّوْكانيُّ، وابنُ باز، وابنُ عثيمينَ أنَّه يقعُ طلقةً واحدةً، وهو مذهبُ طائفةٍ مِن السَّلفِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٧)، ((إعلام الموقعين)) =

وإنْ طلَّقَها واحدةً يُمكِنُه أن يُراجِعَها[١].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ جوازُ السَّماحةِ في الكَلامِ على مَذهَبِ العَرَبِ فيه، وتَرْكُ التَّنطُّعِ بما يَحسَبُه جُهَّالُ المتنسِّكِين كَذِبًا؛ فإنَّ بُلوغَ الأجَلِ في هذا الموضعِ هو مُقارَبةُ خُلُوِّه لا خُلُوُّه؛ إذْ لو كان خُلُوَّه ما أمكَنَه الإمساكُ بالرَّجْعةِ، ولَاحتاجَ إلى تزوُّجِها، ولا يُقالُ أيضًا للمُتزوِّجِ مُمسِكٌ[٢]!

٢٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ فيه أنَّ الإمساكَ مِن صَرائِحِ الرَّجْعةِ، والفِراقَ مِن صَرائِحِ الطَّلاقِ[٣].

٢٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ استَدَلَّ بظاهِرِ الآيةِ مَن أوجَبَ

---

= لابن القيم (٣/ ٣٤)، ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٦/ ٢٩٠)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن باز (٢١/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٠).

قال القرطبي: (... قولُه بعد ذلك: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾. وهذا يُبطِلُ دُخولَ الثَّلاثِ تحتَ الآيةِ. وكذلك قال أكثرُ العُلَماءِ، وهو بديعٌ لهم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٢٧، ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

قال ابنُ قدامةَ: (أمَّا القولُ فتحصُلُ به الرَّجعةُ بغيرِ خلافٍ، وألفاظُه: راجعْتُك، وارتجَعْتُك، وردَدْتُك، وأمسَكْتُك؛ لأنَّ هذه الألفاظَ ورَد بها الكتابُ والسُّنَّةُ). ((المغني)) (٧/ ٥٢٤). ويُنظر الخلافُ في الإمساكِ؛ هل هو من الصَّريحِ أو الكنايةِ في: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٢/ ١١٠).

أمَّا كونُ الفِراقِ، وما يُشتَقُّ منه: مِن ألفاظِ الطَّلاقِ الصَّريحِ، فهو المَشهورُ عند الشَّافِعيَّةِ، وقَولٌ للمالِكيَّةِ، وقَولٌ عند الحَنابِلةِ. ينظر: ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٣)، ((الكافي)) لابن عبد البر (٢/ ٥٧٢)، ((المبدع)) لبرهان الدين ابن مفلح (٧/ ٢٤٨).

وذهَب الجمهورُ مِن الحَنَفيَّةِ، والمَالِكيَّةِ -على المَشهورِ-، والحَنابِلةِ -وهو قَولٌ عند الشَّافِعيَّةِ- إلى أنَّ لَفظةَ الفِراقِ لا تُعتَبَرُ مِن ألفاظِ الطَّلاقِ الصَّريحِ. ينظر: ((المبسوط)) للسرخسي (٦/ ٦٤)، ((الكافي)) لابن عبد البر (٢/ ٥٧٢)، ((كشاف القناع)) للبهوتي (٥/ ٢٤٥)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٨/ ٢٣).

الإشهادَ على الرَّجعةِ، وإذا وَجَب فيها ففي أصلِ النِّكاحِ أَولى[١].

٣٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فيه أنَّه لا يُقبَلُ في الشَّهادةِ في النِّكاحِ والطَّلاقِ إلَّا الرِّجالُ المَحضُ[٢].

٣١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فيه أنَّه لا يُقبَلُ في الشَّهادةِ إلَّا العَدْلُ[٣].

٣٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ لم يَصِفِ الرَّجُلَينِ نفْسَيهما بأنَّهما عَدْلٌ، بل وَصَفَهما بأنَّهما ذَوَا عَدْلٍ؛ أي: صاحِبا عَدْلٍ، والعَدلُ في المقالِ هو الصِّدقُ والبَيانُ الَّذي هو ضِدُّ الكَذِبِ والكِتمانِ، كما بَيَّنَه تعالى في قَولِه: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، والعدلُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ وفي كلِّ طائفةٍ بحَسَبِه؛ فيكونُ الشَّهيدُ في كلِّ قومٍ مَن كان ذا عَدْلٍ فيهم، وإنْ كان لو كان في غَيرِهم لَكان عَدْلُه على وَجهٍ آخَرَ، وبهذا يُمكِنُ الحُكْمُ بيْنَ النَّاسِ، وإلَّا فلوِ اعْتُبِرَ في شُهودِ كلِّ طائفةٍ ألَّا يَشْهَدَ عليهم إلَّا

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

قال ابن عاشور: (ظاهرُ وُقوعِ هذا الأمرِ بعْدَ ذِكْرِ الإمساكِ أوِ الفِراقِ أنَّه راجعٌ إلى كِلَيْهما؛ لأنَّ الإشْهادَ جُعِلَ تتِمَّةً للمأْمورِ به في معْنى الشَّرطِ للإمساكِ أو الفِراقِ؛ لأنَّ هذا العطفَ يُشبِهُ القَيدَ وإنْ لم يكُنْ قَيدًا، وشأنُ الشُّروطِ الواردةِ بعْدَ جُمَلٍ أنْ تعودَ إلى جَميعِها، وظاهرُ صِيغةِ الأمرِ الدَّلالةُ على الوُجوبِ؛ فيَترَكَّبُ مِن هذَيْنِ أنْ يكونَ الإشهادُ على المراجَعةِ وعلى بَتِّ الطَّلاقِ واجبًا على الأزواجِ؛ لأنَّ الإشهادَ يَرفَعُ أشكالًا مِنَ النَّوازِلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٩).

بيْنَما ذهَب أصحابُ المذاهبِ الفقهيَّةِ الأربعةِ إلى استِحبابِ الإشهادِ على الرَّجعةِ. يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَن يكونُ قائمًا بأداءِ الواجباتِ وتَرْكِ المحَرَّماتِ -كما كان الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم- لَبَطَلَتِ الشَّهاداتُ كُلُّها أو غالِبُها[١].

٣٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ فيه أمرُ الشُّهودِ بتَحريمِ الكِتمانِ[٢].

٣٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ وُجوبُ الإخلاصِ للهِ عزَّ وجلَّ في الشَّهادةِ[٣].

٣٥- قولُه تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ يَقتضي أنَّه يأتي بها تامَّةً مُستقيمةً؛ فإنَّ الشَّاهِدَ قد يَضْعُفُ عن أدائِها وقد يُحَرِّفُها، فإذا أقامَها كان ذلك لِقُوَّتِه واستِقامتِه[٤].

٣٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ في هذه الآيةِ لَطيفةٌ: وهي أنَّ التَّقْوى في رعايةِ أحوالِ النِّساءِ مُفتَقِرةٌ إلى المالِ، وقريبٌ مِن هذا قولُه: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾[٥] [النور: ٣٢].

٣٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ سُؤالٌ: أنَّه قد نرى مَن يتَّقي وهو محرومٌ، ومَن هو بخِلافِ ذلك وهو مَرزوقٌ!

**والجَوابُ**: أنَّ الآيةَ اقتَضَتْ أنَّ المتَّقيَ يُرزَقُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، ولم تَدُلَّ على أنَّ غيرَ المتَّقي لا يُرزَقُ، بل لا بُدَّ لكلِّ مخلوقٍ مِن الرِّزقِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦]، حتَّى إنَّ ما يَتناوَلُه العبدُ مِن

---

(١) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٥/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٢).

الحرام هو داخِلٌ في هذا الرِّزقِ؛ فالكُفَّارُ قد يُرزقَونَ بأسبابٍ مُحَرَّمةٍ، ويُرزَقونَ رِزقًا حَسَنًا، وقد لا يُرزَقونَ إلَّا بتكَلُّفٍ، وأهلُ التَّقوى يَرْزُقُهم اللهُ مِن حيثُ لا يَحتَسِبونَ، ولا يكونُ رزْقُهم بأسبابٍ مُحَرَّمةٍ، ولا يكونُ خَبيثًا، والتَّقيُّ لا يُحرَمُ ما يَحتاجُ إليه مِن الرِّزقِ، وإنَّما يُحْمَى مِن فُضولِ الدُّنيا رَحمةً به، وإحسانًا إليه؛ فإنَّ توسيعَ الرِّزقِ قد يكونُ مَضَرَّةً على صاحِبِه، وتقديرَه يكونُ رَحمةً لصاحِبِه؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]، أي: ليس الأمرُ كذلك، فليس كلُّ مَن وُسِّعَ عليه رِزْقُه يكونُ مُكْرَمًا، ولا كلُّ مَن قُدِرَ عليه رِزْقُه يكونُ مُهانًا، بل قد يُوَسَّعُ عليه رِزْقُه إملاءً واستِدراجًا، وقد يُقْدَرُ عليه رِزْقُه حمايةً وصيانةً له، وضِيقُ الرِّزقِ على عَبدٍ مِن أهلِ الدِّينِ قد يكونُ لِمَا له مِن ذُنوبٍ وخَطايا(١).

٣٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ بيانُ أنَّ المتَّقيَ يَدفَعُ عنه سبحانه المَضَرَّةَ، وهو أنْ يَجعَلَ له مَخْرَجًا ممَّا ضاق على النَّاسِ، ويَجلِبَ له المنفعةَ، ويَرزُقَه مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، وكلُّ ما يَتَغَذَّى به الحَيُّ ممَّا تَستريحُ به النُّفوسُ وتَحتاجُ إليه في طِيبِها وانشِراحِها فهو مِن الرِّزقِ، واللهُ تعالى يَرزُقُ ذلك مَن اتَّقَاه بفِعلِ المأمورِ، وتَرْكِ المحظورِ(٢).

٣٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ أنَّ الدِّينَ عِلْمًا وعَمَلًا إذا صَحَّ، فلا بُدَّ أنْ يُوجِبَ خَرْقَ العادةِ إذا احتاج إلى ذلك صاحِبُه(٣).

٤٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٤/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٤).

جَعَل سُبحانَه للتَّقوى فائِدَتَين: أنْ يَجعلَ له مَخرَجًا، وأنْ يَرزُقَه مِن حيثُ لا يَحتَسِبُ، والمَخْرَجُ هو مَوضِعُ الخُروجِ، وهو الخُروجُ، وإنَّما يُطلَبُ الخُروجُ مِن الضِّيقِ والشِّدَّةِ، وهذا هو الفَرَجُ والنَّصرُ والرِّزقُ؛ فبَيَّنَ أنَّ فيها النَّصرَ والرِّزقَ، كما قال: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]؛ ولهذا قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((وهل تُنصَرونَ وتُرزَقونَ إلَّا بضُعَفائِكم؟!))[١]: بدُعائِهم وصَلاتِهم واستِغفارِهم. فهذا لِجَلْبِ المنفعةِ، وهذا لِدَفْعِ المَضَرَّةِ[٢].

٤١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ ذكَرَ بعضُ أهلِ العِلمِ أنَّ فيه تأكيدًا على أنَّ المُطَلِّقَ ثَلاثًا بكَلِمةٍ واحدةٍ -وإنْ عُدَّ أيضًا عاصيًا- أَشَدُّ ما قيلَ فيه: إنَّ الطَّلاقَ يَقَعُ عليه، وقد فاتَه المَخْرَجُ بالرَّجْعةِ[٣]!

٤٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ بيانُ التَّوكُّلِ على اللهِ؛ مِن حيثُ إنَّ اللهَ يَكفي المتوكِّلَ عليه، كما قال: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، خِلافًا لِمَن قال: ليس في التَّوكُّلِ إلَّا التَّفويضُ والرِّضا[٤]!

٤٣- قال بعضُ السَّلفِ: (جَعَل اللهُ تعالى لكلِّ عَمَلٍ جَزاءً مِن جِنْسِه، وجَعَل جزاءَ التَّوكُّلِ عليه نَفْسَ كفايتِه لعَبْدِه)، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، ولم يَقُلْ: نُؤْتِه كذا وكذا مِن الأجرِ،كما قال في الأعمالِ، بل جَعَل نفْسَه سُبحانَه كافيَ عَبدِه المتوكِّلِ عليه، وحَسْبَه وواقيَه، فلو تَوَكَّلَ العبدُ على اللهِ تعالى حَقَّ تَوَكُّلِه وكادَتْه السَّمَواتُ والأرضُ ومَن فيهنَّ، لَجَعَل له مَخرَجًا مِن ذلك، وكَفاه

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٢٨٩٦) من حديثِ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٣٠).

وتقدَّم ذِكرُ الخِلافِ في المسألة (ص: ٣٨).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٦).

ونَصَره[١].

٤٤- عن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (إنَّ أكبَرَ آيةٍ في القُرآنِ تَفويضًا: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾)[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾

- تَخصيصُ النِّداءِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع عُمومِ الخِطابِ لأُمَّتِه أيضًا؛ لتَشريفِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإظهارِ جَلالةِ مَنصبِه، وتَحقيقِ أنَّه المُخاطَبُ حقَيقةً، ودُخولُهم في الخِطابِ بطَريقِ استِتْباعِه عليه الصَّلاةُ والسلامُ إيَّاهُم، وتَغليبِه عليهم، كما يُقالُ لرَئيسِ القومِ وكَبيرِهم: يا فُلانُ، افعَلوا كَيْتَ وكَيْتَ؛ إظهارًا لتَقدُّمِه، واعتبارًا لِتَرَؤُّسِه، وأنَّه الَّذي يَصْدُرونَ عن رأيِه، ولا يَستبِدُّونَ بأمْرٍ دونَه، فكانَ هو وَحْدَه في حُكْمِ كلِّهم، وسادًّا مَسدَّ جميعِهم، لا لأنَّ نِداءَه كنِدائِهم؛ فإنَّ ذلكَ الاعتبارَ لو كانَ في حيِّزِ الرِّعايةِ لَكانَ الخِطابُ هو الأحقَّ به؛ لشُمولِ حُكمِه للكلِّ قطْعًا. أو معْناه: يا أيُّها النَّبيُّ قلْ لأُمَّتِك: إذا طلَّقْتُم النِّساءَ -أي: أردتُمْ طَلاقَ نِسائِكم- فطلِّقوهن... إلخ[٣]. وقيل: أفرَدَه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٨).

به أوَّلًا؛ لأنَّه إمامُ أُمَّتِه، وسادٌّ مَسَدَّهم[١]. وقيل: الخطابُ للنبيِّ عليه السلامُ بلفظِ الإفرادِ على الحقيقةِ له، وقولُه: ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ خبرٌ عنه على جهةِ التَّعظيمِ بلفظِ الجمعِ[٢].

- ومعْنى ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: إذا أردْتُم تَطليقَهنَّ، وهمَمْتُم به، على تَنزيلِ المُقبِلِ على الأمرِ المُشارِفِ له مَنزِلةَ الشَّارعِ فيه[٣].

- وتَكريرُ فِعلِ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ﴾؛ لمَزيدِ الاهتِمامِ به[٤].

- قولُه: ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ دَلَّ عليه معنى الكلامِ، أي: مُسْتَقْبِلاتٍ لعِدَّتِهنَّ، يُقالُ: أتَيْتُه لِلَيلةٍ بَقِيَتْ مِن المحرَّمِ، أي: مُسْتقبِلًا لها. وقيل: اللَّامُ في ﴿لِعِدَّتِهِنَّ﴾ لامُ التَّوقيتِ، وهي بمعْنى (عِندَ)، ولَمَّا كان مَدخولُ اللَّامِ هنا غيرَ زَمانٍ، عُلِمَ أنَّ المرادَ الوقتُ المُضافُ إلى عِدَّتِهنَّ، أي: وقْتُ الطُّهرِ[٥]. قيل: اختيرَ التَّعبيرُ بلامِ التَّوقيتِ؛ لأنَّها تُفهِمُ أنَّ ما دخَلَت عليه كالعِلَّةِ الحامِلةِ على مُتعَلَّقِها، فصار كأنَّه قيل: طَلِّقوا لأجْلِ العِدَّةِ، وإذا كان لأجْلِها عُلِمَ أنَّ المرادَ تَخفيفُها على المرأةِ بحَسَبِ الطَّاقةِ؛ لأنَّ مبنى الدِّينِ على اليُسرِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٩).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٨، ١١٩).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٤١).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡعِدَّةَ﴾ للعهدِ؛ فإنَّ الاعتِدادَ مَشروعٌ مِنْ قَبْلُ، والكلامُ على تَقديرِ مُضافٍ؛ لأنَّ المُحصَى أيَّامُ العِدَّةِ(١).

- قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ في وَصْفِه تعالَى برُبوبيَّتِه لهم تأكيدٌ للأمرِ؛ لزِيادةِ الحِرصِ على التَّقْوى، وللتَّذكيرِ بأنَّه حَقيقٌ بأنْ يُتَّقَى غَضبُه(٢).

- قولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ اعتِراضٌ بَيْنَ جُملةِ ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ وجُملةِ ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾، وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؛ ليَعُمَّ جميعَ ما يُتَّقى اللهُ فيه، فيَكونَ هذا مِن قَبيلِ الاعتِراضِ التَّذييليِّ، وأوَّلُ ما يُقصَدُ بأنْ يُتَّقَى اللهُ فيه ما سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه من أحكامِ الطَّلاقِ والعِدَّةِ، فقولُه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡ﴾ تَحذيرٌ مِنَ التَّساهُلِ فيها(٣).

- وجُملةُ ﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ﴾، وهو نهْيٌ لهُنَّ عن الخُروجِ؛ فإنَّ المُطلِّقَ قد يُخرِجُها فتَرغَبُ المُطلَّقةُ في الخروجِ؛ لأنَّها تَستثقِلُ البَقاءَ في بَيتٍ زالَتْ عنه سِيادتُها، فنَهاهُنَّ اللهُ عن الخُروجِ. وهذا التَّرتُّبُ بيْن الجُملتَيْنِ يُشعِرُ بالسَّببيَّةِ، وأنَّ لكلِّ امرأةٍ مُعتدَّةٍ حقَّ السُّكْنى في بَيتِ زَوجِها مُدَّةَ العِدَّةِ -على قولٍ-؛ لأنَّها مُعتدَّةٌ مِن أجْلِه، أي: مِن أجْلِ حِفظِ نسَبِه وعِرضِه(٤).

- قولُه: ﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾، قُرِئَ ﴿مُبَيِّنَةٍ﴾ بكَسرِ الياءِ التَّحتيَّةِ، أي: هيَ تُبيِّنُ لِمَن تَبلُغُه أنَّها فاحشةٌ عظيمةٌ؛ فيَكونُ التَّبيينُ مُعبَّرًا به عن الوُضوحِ، أو تُبيِّنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (١٠/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٢٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١١٩).

لوُلاةِ الأُمورِ صُدورَها مِنَ المرأةِ؛ فيكونُ المُبيِّنُ هو مُلابِسَ الفاحِشةِ، وهو الإقرارُ والشَّهادةُ، فيُحمَلُ في كلِّ حالةٍ على ما يُناسِبُ معْنى التَّبيينِ. وقُرِئَ ﴿مُبَيَّنَةٍ﴾ بفتْحِ التَّحتيَّةِ[١]، أي: كانتْ فاحشةً بيَّنَتْها الحُجَّةُ، أو بيَّنَها الخارجُ، ومَحْمَلُ القراءتَيْنِ واحدٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الواوُ اعتِراضيَّةٌ، والجُملةُ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ وجُملةِ ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، أُريدَ بهذا الاعتِراضِ المبادَرةُ بالتَّنبيهِ إلى إقامةِ الأحكامِ المذكورةِ مِن أوَّلِ السُّورةِ إقامةً لا تَقصيرَ فيها، ولا خِيَرةَ لأحَدٍ في التَّسامُحِ بها، وخاصَّةً المُطلَّقةَ والمُطلِّقَ أنْ يَحسَبا أنَّ ذلكَ مِن حقِّهِما انفرادًا أو اشتراكًا[٣].

- قولُه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ بـ (تِلْكَ) إلى ما ذُكِرَ مِنَ الأحكامِ، وما في اسمِ الإشارةِ مِن مَعْنَى البُعْدِ مع قُرْبِ العَهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ بعُلُوِّ دَرَجتِها، وبُعْدِ مَنزلتِها[٤].

- ووُقوعُ ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ خبرًا عن اسْمِ الإشارةِ الَّذي أُشِيرَ به إلى أشياءَ مُعيَّنةٍ يَجعَلُ إضافةَ ﴿حُدُودَ﴾ إلى اسمِ الجلالةِ مُرادًا منها تَشريفُ المضافِ وتَعظيمُه، والمعنى: وتلكَ ممَّا حدَّ اللهُ، فلا تُفيدُ تَعريفَ الجمْعِ بالإضافةِ عُمومًا؛ لصرْفِ القَرينةِ عن إفادةِ ذلكَ؛ لظُهورِ أنَّ تلكَ الأشياءَ المُعيَّنةَ ليستْ جميعَ حُدودِ اللهِ[٥].

---

(١) قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو بكرٍ بفتحِ الياءِ المُشَدَّدةِ، والباقونَ بكَسْرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٠، ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٥).

- قولُه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾، فهو تَتميمٌ[١]، وهو المقصودُ مِنَ التَّذييلِ[٢]، وإذْ قدْ كانَ ﴿حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ جمْعًا مُعرَّفًا بالإضافةِ كان مُفيدًا للعُمومِ؛ إذْ لا صارفَ عن إرادةِ العُمومِ، بخِلافِ إضافةِ ﴿حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ السَّابقِ، والمعنى: مَنْ يَتعدَّ شيئًا مِن حُدودِ اللهِ فقَدْ ظلَمَ نفْسَه[٣].

- قولُه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لاختِلافِ هذَيْنِ المُركَّبَيْنِ بالعُمومِ والخُصوصِ، وجِيءَ بهذا الإطنابِ لتَهويلِ أمْرِ هذا التَّعدِّي[٤]، والإشعارِ بعِلَّةِ الحُكْمِ في قولِه تعالى: ﴿فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾، أي: أضَرَّ بها[٥].

- وأُخْبِرَ عن مُتعدِّي حُدودِ اللهِ بأنَّه ظلَمَ نفْسَه للتَّخويفِ؛ تَحذيرًا مِن تَعدِّي هذه الحُدودِ؛ فإنَّ ظُلمَ النَّفْسِ هو الجَريرةُ عليها بما يَعودُ بالإضرارِ، وذلك مِنه ظُلمٌ لها في الدُّنيا بتَعريضِ النَّفْسِ لعَواقِبَ سيِّئةٍ تَنجَرُّ مِن مُخالَفةِ أحكامِ

---

(١) التَّتميم: هو أن يُؤتى في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المراد بفضلةٍ تُفيد نكتةً. أو بعبارةٍ أخرى هو: الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ متمِّمٍ للمقصودِ؛ لرَفْعِ اللبسِ عنه، وتقريبِه للفَهم، أو لزيادةٍ حسنة، بحيث إذا طُرِح من الكلام نقَص معناه في ذاتِه، أو في صِفاته. يُنظر: ((تفسير أبي حيَّان)) (١/ ١٢٠)، (٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠).

(٢) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٠).

الدِّينِ؛ لأنَّ أحكامَه صَلاحٌ للنَّاسِ، فمَنْ فرَّطَ فيها فاتَتْه المصالحُ المَنطويةُ هي عليها، ومنه ظُلْمٌ للنَّفْسِ في الآخِرةِ بتَعريضِها للعِقابِ المُتوعَّدِ به على الإخلالِ بأحكامِ الدِّينِ؛ فإنَّ للمؤمنينَ حَظًّا مِن هذا الوَعيدِ بمِقدارِ تَفاوُتِ ما بيْنَ الكفْرِ ومُجرَّدِ العِصيانِ(١).

- وجِيءَ في هذا التَّحذيرِ بـ (مَنْ) الشَّرطيَّةِ؛ لإفادةِ عُمومِ كلِّ مَن تعدَّى حُدودَ اللهِ، فيَدخُلُ الَّذين يَتعَدَّونَ أحكامَ الطَّلاقِ وأحكامَ العِدَّةِ في هذا العمومِ(٢).

- وهذه الجُملةُ ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ وما أُلْحِقَ بها ممَّا هو إيضاحٌ لها، وتَفصيلٌ لأحوالِها؛ ولذلكَ جاءَتْ مَفصولةً عن الجُمَلِ الَّتي قَبْلَها(٣). ويَجوزُ كَونُها بدَلًا مِن جُملةِ ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، بدَلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّ ظُلْمَ النَّفْسِ بَعضُه حاصلٌ في الدُّنيا، وهو مُشتمِلٌ على إضاعةِ مصالحِ النَّفْسِ عنها(٤).

- وتَنكيرُ كَلمةِ ﴿أَمۡرٗا﴾ للتَّنويعِ، أي: أمرًا مَوصوفًا بصِفةٍ مَحذوفةٍ، أي: أمرًا نافعًا لهُما(٥).

- قولُه: ﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ الخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ جارٍ على طَريقةِ القصدِ بالخِطابِ إلى كلِّ مَن يَصلُحُ للخِطابِ، ويُهِمُّه أمرُ الشَّيءِ المُخاطَبِ به مِن كلِّ مَن قصُرَ بصَرُه إلى حالةِ الكراهيةِ الَّتي نشَأَ عليها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الطَّلاقُ، ولم يَتدبَّرْ في عَواقبِ الأمورِ، ولا أحاطَ فِكْرُه بصُوَرِ الأحوالِ المُختلِفةِ المُتقلِّبةِ، ولعلَّ كَلمةَ ﴿لَا تَدْرِى﴾ تَجْري مَجْرى المثَلِ، فلا يُرادُ ممَّا فيها مِن عَلامةِ الخِطابِ ولا مِن صِيغةِ الإفرادِ إلَّا الجرْيُ على الغالبِ في الخِطابِ، وهو مَبنيٌّ على تَوجيهِ الخِطابِ لغَيرِ مُعيَّنٍ(١).

وقيل: قولُه: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ خِطابٌ للمُتعدِّي بطَريقِ الالْتفاتِ؛ لمَزيدِ الاهتِمامِ بالزَّجرِ عن التَّعدِّي(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ...﴾ تَفريعٌ على جميعِ ما تقدَّمَ مِن أحكامِ العِدَّةِ، مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]؛ لأنَّ إحصاءَها بحفْظِ مُدَّتِها، واستيعابِ أيَّامِها، فإذا انتهَتِ المدَّةُ فقَدْ أعذَرَ اللهُ لهُما، والزِّيادةُ عليها إضرارٌ بأحَدِهما أو بكِلَيْهما، وفائدةُ الآجالِ الوُقوفُ عِندَ انتهائِها(٣).

- والإمساكُ: اعتزامُ المراجَعةِ، وعُبِّرَ عنه بالإمساكِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ المُطلَّقةَ الرَّجعيَّةَ لها حُكمُ الزَّوجةِ فيما عدا الاستِمتاعَ -على قولٍ(٤)-، فكأنَّه لَمَّا راجَعَها قدْ أمسَكَها ألَّا تُفارِقَه، فكأنَّه لم يُفارِقْها؛ لأنَّ الإمساكَ هو الضَّنُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٧).

(٤) ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٧).

بالشَّيءِ وعدَمُ التَّفريطِ فيه، وأنَّه إذا لم يُراجِعْها فكأنَّه قد أعادَ فِراقَها وقَسَا قلْبُه، ومِن أجْلِ هذِه النُّكْتةِ جُعِلَ عدَمُ الإمساكِ فِراقًا جَديدًا في قولِه: ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[١].

- والأمرُ في ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ للإباحةِ، و(أَوْ) فيه للتَّخييرِ، والباءُ في ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ للمُلابَسةِ، أي: مُلابَسةِ كلٍّ مِنَ الإمساكِ والفِراقِ للمعروفِ[٢].

- وتَقديمُ الإمساكِ -وهو المراجَعةُ- على إمْضاءِ المفارَقةِ، إيماءٌ إلى أنَّه أرضى للهِ تعالَى، وأوفَقُ بمَقاصِدِ الشَّريعةِ؛ ففُهِمَ أنَّ المراجَعةَ مَندوبٌ إليها[٣].

- ولَمَّا قُيِّدَ أمْرُ الإباحةِ مِن قولِه: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ﴾ بقَيْدِ (بالمعروفِ)، فُهِمَ مِنه أنَّه إنْ كانَ إمساكٌ دونَ المعروفِ فهو غَيرُ مأْذونٍ فيهِ[٤].

- وقولُه: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ عطفٌ على ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، والخِطابُ مُوجَّهٌ لكلِّ مَن تَتعلَّقُ به الشَّهادةُ مِنَ المشهودِ عليهِم والشُّهودِ، كلٌّ يَأْخُذُ بما هو حظُّهُ مِن هذَينِ الخِطابَينِ، وتَعريفُ الشَّهادةِ للاستِغراقِ، أي: كلَّ شَهادةٍ، وهو استِغراقٌ عُرفيٌّ؛ لأنَّ المأمورَ به الشَّهادةُ الشرعيَّةُ[٥].

- ومعْنى إقامةِ الشَّهادةِ: إيقاعُها مُستقيمةً لا عِوَجَ فيها؛ فالإقامةُ مُعبَّرٌ بها عن إيقاعِ الشَّهادةِ على مُسْتَوْفِيها ما يجِبُ فيها شرْعًا ممَّا دلَّتْ عليه أدلَّةُ الشَّريعةِ[٦].

- وفي قولِه: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ خصَّ بالذِّكرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣١٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مَن كان يُؤمِنُ باللهِ واليومِ الآخِرِ؛ إذْ هو المُنتفِعُ به، والمَقصودُ تَذكيرُه[١].

- وقولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ اعتراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ وجُملةِ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ﴾ [الطلاق: ٤] الآيةَ؛ فإنَّ تلكَ الأحكامَ لَمَّا اعْتُبِرَتْ مَوعِظةً بقولِه: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، أُعقِبَ ذلكَ بقَضيَّةٍ عامَّةٍ؛ وهي أنَّ تلكَ مِن تَقوى اللهِ تعالَى، وبِما لِتَقوى اللهِ مِن خَيرٍ في الدُّنيا والآخِرةِ، على عادةِ القُرآنِ مِن تَعقيبِ الموعظةِ والتَّرهيبِ بالبِشارةِ والتَّرغيبِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ جُملةٌ اعتراضيَّةٌ مُؤكِّدةٌ لِمَا سبَقَ بالوعدِ على الاتِّقاءِ عمَّا نُهِيَ عنه صَريحًا أو ضِمْنًا مِنَ الطَّلاقِ في الحَيضِ، والإضرارِ بالمعتَدَّةِ، وإخراجِها مِنَ المسكنِ، وتَعدِّي حُدودِ اللهِ، وكِتمانِ الشَّهادةِ، وتَوقُّعِ جُعْلٍ على إقامتِها بأنْ يَجعَلَ اللهُ له مَخرَجًا ممَّا في شأنِ الأزواجِ مِنَ المَضايقِ والغُمومِ، ويَرزُقَه فرَجًا وخلفًا مِن وجْهٍ لم يَخطُرْ ببالِه. أو بالوعدِ لعامَّةِ المتَّقينَ بالخَلاصِ عن مَضارِّ الدَّارَيْنِ، والفوزِ بخَيرِهما مِن حيثُ لا يَحتَسِبونَ. ويَجوزُ أنْ يُجاءَ بهذه الجُملةِ على سَبيلِ الاستِطرادِ عِندَ ذِكرِ قولِه -قبْلَها-: ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾، يعني: لَمَّا أمَرَ المُؤمِنينَ بأُمورٍ تَتعلَّقُ بالنِّساءِ مِنَ المُجامَلةِ معهُنَّ في الفِراقِ والطَّلاقِ والإمساكِ، وأتَى باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ فَذْلَكةً[٣]، وأنَّ المذكورَ تَذكيرٌ مِنَ اللهِ ومَوعظةٌ للمتَّقينَ مِنَ المُؤمِنينَ؛ أتَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١١).

(٣) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ =

بكلامٍ جامعٍ مَنوطٍ به أمورُ الدِّينِ ظاهِرِه وباطنِه. وفائدةُ الإشارةِ إلى أنَّ أُمورَ النِّساءِ مِن عَظائمِ الشُّؤونِ في الدِّينِ، لا سِيَّما المُفارَقةِ بعْدَ العُلْقَةِ التَّامَّةِ، فيَجِبُ على المُتَّقي أنْ يكونَ على حذَرٍ مِن جانبِهِنَّ، وألَّا يُقصِّرَ في المجامَلةِ معهُنَّ، ومَعْنى الكلامِ: ومَن يتَّقِ اللهَ في كلِّ ما يأتي وما يَذَرُ، يَجعَلْ له مَخرَجًا ومَخْلَصًا مِن غُمومِ الدُّنيا والآخِرةِ[1].

- ولَمَّا كان أمرُ الطَّلاقِ غَيرَ خالٍ مِن حرَجٍ وغَمٍّ يَعرِضُ للزَّوجَيْنِ، وأمْرُ المراجعةِ لا يَخلو في بعضِ أحوالِه مِن تَحمُّلِ أحَدِهما لبَعضِ الكُرهِ مِنَ الأحوالِ الَّتي سبَّبَتِ الطَّلاقَ؛ أعلَمَهُما اللهُ بأنَّه وعَدَ المتَّقينَ الواقِفينَ عِندَ حُدودِه بأنْ يَجعَلَ لهم مَخرجًا مِنَ الضَّائقاتِ، شبَّهَ ما هم فيه مِنَ الحرَجِ بالمكانِ المُغلَقِ على الحالِّ فيه، وشبَّهَ ما يَمنَحُهمُ اللهُ به مِنَ اللُّطفِ، وإجراءِ الأُمورِ على ما يُلائِمُ أحوالَهم بجَعْلِ مَنْفَذٍ في المكانِ المُغلَقِ يَتخلَّصُ مِنه المُتضائقُ فيه، وشَمِلَ المَخرَجُ ما يحُفُّ مِنَ اللُّطفِ بالمتَّقينَ في الآخِرةِ أيضًا بتَخليصِهِم مِن أهوالِ الحسابِ والانتِظارِ، فالمَخرَجُ لهم في الآخِرةِ هو الإسراعُ بهم إلى النَّعيمِ[2].

---

= بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١١).

- قولُه: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ احتِراسٌ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ أحَدٌ أنَّ طُرقَ الرِّزقِ مُعطَّلةٌ عليه، فيَستبعِدَ ذلكَ فيُمسِكَ عن مُراجَعةِ المُطلَّقةِ؛ لأنَّه لا يَستقبِلُ مالًا يُنفِقُ مِنه، فأعْلمَه اللهُ أنَّ هذا الرِّزقَ لُطْفٌ مِنَ اللهِ، واللهُ أعلَمُ كيفَ يُهيِّئُ له أسبابًا غيرَ مُرتقَبةٍ؛ فمعْنى ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾: مِن مَكانٍ لا يَحتسِبُ مِنه الرِّزقَ، أي: لا يظُنُّ أنَّه يُرزَقُ مِنه[1].

- وقد ذُكِرَ قولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ، وختَمَ الأوَّلَ بقولِه: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، والثَّانيَ بقولِه: ﴿يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾، والثَّالثَ بقولِه: ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾؛ إشارةً إلى تَعدادِ النِّعَمِ المُترتِّبةِ على التَّقوى، مِن أنَّ اللهَ يَجعَلُ لِمَنِ اتَّقاهُ في دُنياهُ مَخرَجًا مِن كُرَبِ الدُّنيا والآخِرةِ، ويَرزُقُه مِن حيثُ لا يَخطُرُ ببالِه، ويَجعَلُ له في دُنياهُ وآخِرتِه مِن أمرِه يُسْرًا، ويُكفِّرُ عنه في آخِرتِه سيِّئاتِه، ويُعظِمُ له أجْرًا[2].

أو إنَّما اقتَرَنَ بالطَّلاقِ والعِدَّةِ هذا الوعظُ؛ لأنَّ الطَّلاقَ رفْضُ حالٍ مُتمهِّدةٍ، وقطْعُ آمالٍ مُتأكِّدةٍ، والعِدَّةُ باستيفائِها يَخلُصُ النَّسبُ، ويَصِحُّ للزَّوجِ الثَّاني الولدُ، ولو لم يكُنْ هذا الحدُّ الَّذي حدَّه اللهُ تَعالى، لَكان الفسادُ مُتَّصلًا في انقضاءِ الدُّنيا، فهو أحقُّ الأشياءِ بالمُراعاةِ، وتَأكيدِ المَقالِ فيه والوَصاةِ. وأمَّا قولُه بعْدَ ذِكرِ عِدَّةِ الحاملِ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾، أي: مَن لَزِمَ التُّقى، سهَّلَ اللهُ عليه الصَّعبَ مِن أمْرِه، كما يَجعَلُ أمْرَ الولادةِ سهْلًا إذا قامتِ الأُمُّ عن وَلَدِها سُرُحًا[3]، ثمَّ عقَّبَ حالَ الدُّنيا بذِكرِ ما يَفعَلُه في الآخرةِ؛ مِن تَكفيرِ سيِّئاتِه، وإعظامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٧، ٢٣٨)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٦٩، ٥٧٠).

(٣) السُّرُحُ: السَّهلُ السَّريعُ؛ يُقالُ: ناقةٌ سُرُحٌ، ومِشيةٌ سُرُحٌ، أي: سَهلةٌ، وإذا سهُلتْ وِلادةُ المَرأةِ =

أجْرِه. فكلُّ شَرْطٍ مِن (تُقى اللهِ) قُرِنَ إليه مِن الجزاءِ ما لاقَ بمَكانِه الَّذي ذُكِرَ فيه. والأخيرُ لَمَّا كان مُقدَّمًا على أحوالٍ احتاجَتْ إلى غايةِ التَّرغيبِ، وإلى المبالَغةِ في التَّرهيبِ، وُعِدَ عليه أفضلُ الجزاءِ، وهو ما يكونُ في الآخرةِ مِن النَّعماءِ[1].

- وجُملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾، أي: لا تَستَبعِدوا وُقوعَ ما وعَدَكم اللهُ حِينَ تَرَوْنَ أسبابَ ذلكَ مَفقودةً؛ فإنَّ اللهَ إذا وعَدَ وعْدًا فقَدْ أرادَه، وإذا أرادَ اللهُ أمرًا يسَّرَ أسبابَه، ولعلَّ قولَه: ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ إشارةٌ إلى هذا المعنى، أي: عَلِم اللهُ أنْ يَكفيَ مَن يَتوكَّلُ عليه مُهمَّه، فقدَّرَ لذلكَ أسبابَه، كما قدَّرَ أسبابَ الأشياءِ كلِّها، فلا تشُكُّوا في إنْجازِ وَعْدِه؛ فإنَّه إذا أرادَ أمرًا يسَّرَ أسبابَه مِن حيثُ لا يَحتسِبُ النَّاسُ، وتَصاريفُ اللهِ تعالَى خفِيَّةٌ عَجيبةٌ[2].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ هو تَقريرٌ لِمَا تقدَّمَ مِن تأْقيتِ الطَّلاقِ بزَمانِ العِدَّةِ والأمرِ بإحصائِها، وتَمهيدٌ لِمَا سيأتي مِن مَقاديرِها[3].

- ولهذِه الجُملةِ ﴿قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ مَوقعٌ تَتجلَّى فيه صُورةٌ مِن صُوَرِ إعجازِ القُرآنِ في تَرتيبِ مَواقعِ الجُمَلِ بَعضِها بعْدَ بَعضٍ؛ فهذه الجُملةُ لها مَوقعُ الاستِئنافِ البيانيِّ النَّاشِئِ عمَّا اشتمَلَتْ عليه جُمَلُ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾، إلى قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦ﴾؛ لأنَّ استِعدادَ السَّامِعينَ لليقينِ بما تَضمَّنَتْه تلكَ الجُمَلُ مُتفاوِتٌ، فقَدْ يَستبعِدُ بَعضُ السَّامعينَ تحقُّقَ الوعدِ

---

= قِيل: ولَدَت سُرُحًا. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٨٣-١٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٢، ٣١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٢).

لأمثالِه بما تَضمَّنَتْه تلكَ الجُمَلُ بعرْضِها على ارتباكِ أحوالِه، أو يَتردَّدُ يَقينُه فيَقولُ: أينَ أنا مِن تَحصيلِ هذا؟! حينَ يُتبِعُ نَظرَه فيَرى بَوْنًا عن حُصولِ الموعودِ بسَببِ انعدامِ وَسائلِه لَديه، فيَتملَّكُه اليأسُ، فهذا الاستئنافُ البَيانيُّ وقَعَ عَقِبَ الوعدِ تَذكيرًا بأنَّ اللهَ عَلِم مَواعيدَه وهيَّأ لها مَقاديرَ حُصولِها؛ لأنَّه جعَلَ لكلِّ شَيءٍ قَدْرًا. ولها مَوقعُ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ [الطلاق: ١]؛ فإنَّ العِدَّةَ مِنَ الأشياءِ، فلمَّا أمَرَ اللهُ بإحصاءِ أمْرِها علَّلَ ذلكَ بأنَّ تقديرَ مُدَّةِ العِدَّةِ جعَلَهُ اللهُ، فلا يَسُوغُ التَّهاوُنُ فيه. ولها مَوقعُ التَّذييلِ لجُملةِ ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١]، أي: الَّذي وضَعَ تلكَ الحدودَ قدْ جعَلَ لكلِّ شَيءٍ قدْرًا لا يَعْدُوهُ كما جعَلَ الحُدودَ. ولها مَوقعُ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾؛ لأنَّ المعنى: إذا بلَغْنَ القَدْرَ الَّذي جعَلَه اللهُ لِمُدَّةِ العِدَّةِ، فقدْ حصَلَ المَقصدُ الشَّرعيُّ الَّذي أشار إليه قولُه: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١]؛ فالمعْنى: فإنْ لم يُحدِثِ اللهُ أمْرَ المراجَعةِ فقَدْ رفَقَ بكُمْ، وحطَّ عنكُمُ امتِدادَ العِدَّةِ. ولها مَوقعُ التَّعليلِ لجُملةِ ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢]؛ فإنَّ اللهَ جعَلَ الشَّهادةَ قدْرًا لرفْعِ النِّزاعِ. فهذِه الجملةُ جُزءُ آيةٍ، وهي تَحتوي على حقائقَ مِنَ الحِكمةِ[1]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٣، ٣١٤).

## الآيتان (٤-٥)

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿أَجَلُهُنَّ﴾: أي: عِدَّتُهنَّ. والأجَلُ: غايةُ الوَقتِ في الموتِ وغَيرِه، والمُدَّةُ المَضروبةُ للشَّيءِ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يذكرُ الله تعالى أحكامًا أخرى تتعلَّقُ بعِدَّةِ النِّساءِ على اختِلافِ أحوالِهنَّ، فيقولُ: والمُطَلَّقاتُ اللَّائي انقَطَع حَيضُهنَّ انقِطاعًا لا يُرجَى رُجوعُه إنْ شكَكْتُم في عِدَّتِهنَّ فلم تَدْرُوا ما هي؛ فاعلَموا أنَّها ثلاثةُ أشهُرٍ، والمُطَلَّقاتُ اللَّائي لم يَحِضْنَ مِن قَبْلُ؛ لِصِغَرِ سِنِّهنَّ أو لِغَيرِه، فعِدَّتُهنَّ ثلاثةُ أشهُرٍ كذلك، والمُطَلَّقاتُ الحوامِلُ عِدَّتُهنَّ تَنقَضِي بوضعِ ما في بُطونِهنَّ مِن حَملٍ.

ثمَّ كرَّر الله تعالى الأمرَ بتَقْواه، وبشَّر المتَّقينَ، فقال: ومَن يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، يُسَهِّلْ عليه جميعَ أُمورِه.

ذلك الَّذي بَيَّنَّاه لكم أمْرُ اللهِ أنزَلَه إليكم؛ لتَعمَلوا به، ومَن يتَّقِ اللهَ يَمْحُ عنه سيِّئاتِه، ويُكَثِّرْ له ثَوابَ أعمالِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٤/ ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣١).

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ٤ ﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أمْرَ الطَّلاقِ والرَّجعةِ في الَّتي تَحيضُ، وكانوا قد عَرَفوا عِدَّةَ ذواتِ الأقراءِ؛ عرَّفَهم في هذه السُّورةِ عِدَّةَ الَّتي لا ترى الدَّمَ[1].

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ ﴾.

أي: إنْ شكَكْتُم في عِدَّةِ أزواجِكم المُطَلَّقاتِ اللَّاتي انقَطَع حَيضُهنَّ انقِطاعًا لا يُرجَى رُجوعُه، فلم تَدْرُوا ما هي؛ فاعلَموا أنَّها ثلاثةُ أشهُرٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩، ٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

ذهب بعضُ المفَسِّرينَ إلى أنَّ المرادَ بـ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ ﴾: اللَّاتي انقَطَع حَيضُهنَّ؛ لكِبَرِ سِنِّهنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٠٢).

وقيل: هُنَّ اللَّاتي انقَطَع حَيضُهنَّ عُمومًا؛ سواءٌ لكِبَرِ سِنٍّ أو لغيرِه مِن الأسبابِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

قال ابنُ القيِّم: (قال آخَرونَ؛ منهم شيخُ الإسلامِ ابنُ تيميَّةَ: اليأسُ يختلِفُ باختِلافِ النِّساءِ، وليس له حدٌّ يتَّفِقُ فيه النِّساءُ. والمرادُ بالآيةِ أنَّ يأسَ كُلِّ امرأةٍ مِن نَفسِها؛ لأنَّ اليأسَ ضِدُّ الرَّجاءِ، فإذا كانت المرأةُ قد يَئِسَت مِن الحَيضِ ولم تَرْجُه فهي آيِسةٌ وإن كان لها أربعونَ أو نحوُها، وغيرُها لا تيأسُ منه وإن كان لها خمسونَ). ((زاد المعاد)) (٥/ ٥٨٤). =

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾.

أي: والمُطَلَّقاتُ اللَّاتي لم يَحِضْنَ مِن قَبْلُ؛ لِصِغَرِ سِنِّهنَّ أو لِغَيرِه كمرضٍ ونحوِه، فعِدَّتُهنَّ أيضًا ثلاثةُ أشهُرٍ(١).

= قال الزَّجَّاجُ: (الَّذي يَذهَبُ إليه مالِكٌ، واللُّغةُ تدُلُّ عليه: أنَّ معناه: إن ارتَبْتُم في حَيضِها وقد انقَطَع عنها الحَيضُ، وكانت ممَّن يَحيضُ مِثلُها، فعِدَّتُها ثلاثةُ أشهُرٍ، وذلك بعدَ أن تُترَكَ تِسعةَ أشهُرٍ بمِقْدارِ الحَملِ، ثمَّ تعتَدَّ بعدَ ذلك ثلاثةَ أشهُرٍ، فإن حاضتْ في هذه الثَّلاثةِ الأشهُرِ تمَّت ثلاث حِيَضٍ. وجائزٌ أن يتأخَّرَ هذا الحَيضُ فيكونَ كلَّما قاربت أن تخرُجَ مِن الثَّلاثةِ حاضت، فهذا مَذهَبُ مالكٍ، وهو الَّذي يُروَى عن عُمَرَ رحمه اللهُ.

وقال أهلُ العِراقِ: تُترَكُ ولو بلَغَت في ذلك أكثَرَ مِن ثلاثينَ سَنةً، ولو بلَغَت إلى السَّبعينَ، يَعْنُون حتَّى تبلُغَ مَبلَغَ مَن لا يَحيضُ، وقالوا: ولو شاء اللهُ لَابتلاها بأكثَرَ مِن ذلك). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٨٥).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ في تفسيرِ قَولِه تعالى: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: ابنُ جرير، ونسَبَه الواحديُّ إلى الأكثرينَ، واختاره ابنُ جُزَي، وابنُ القيِّم، واستظهره ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩، ٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كان المُوجِبُ للعِدَّةِ إنَّما هو الدُّخولُ لا مُجَرَّدُ الطَّلاقِ، قال: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ بأن أجَلْتُم النَّظَرَ في أمْرِهنَّ، فأدَّاكم إلى رَيبٍ في: هل هنَّ حامِلاتٌ أم لا، وذلك بالدُّخولِ عليهِنَّ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٥٥).

وقيل: ﴿إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ﴾: أي: إن رأَيْنَ دمًا وشكَكْتُم في كَونِه حَيضًا أو استِحاضةً، وارتبتُم فيه. وهو قولُ طائفةٍ مِن السَّلفِ؛ كمُجاهِدٍ، والزُّهْريِّ، وابنِ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهرُ أنَّ قَولَه: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ يَشمَلُ مَن لم يَحِضْنَ لِصِغَرٍ، ومَن لا يكونُ لها حَيضٌ البتَّةَ، وهو موجودٌ في النِّساءِ، وهو أنَّها تعيشُ إلى أن تموتَ ولا تحيضُ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٠).

وقال الشَّوكاني: (هذه الَّتي انقَطَع حَيضُها قبْلَ عِدَّتِها أو حالَ عِدَّتِها مُندَرِجةٌ تحتَ قَولِه: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾؛ فإنَّها يَصدُقُ عليها عندَ هذا الانقِطاعِ أنَّها مِن اللَّائي لم يحِضْنَ، فتكونُ عِدَّتُها =

﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾.

أي: وأمَّا المُطَلَّقاتُ الحوامِلُ فإنَّ عِدَّتَهنَّ تَنقَضِي بوضعِ ما في بُطونِهنَّ مِن حَملٍ(١).

= كعِدَّتِهنَّ، وليس في الآيةِ ما يدُلُّ على أنَّ المرادَ أنَّهنَّ لم يَحِضْنَ أصلًا، بل المرادُ عدَمُ وُجودِ الحَيضِ عندَ العِدَّةِ... وقد وقع الاتِّفاقُ على أنَّ الصَّغيرةَ الَّتي لم تَبلُغِ التَّكليفَ هي مِنَ اللَّائي لم يحِضْنَ، ومعلومٌ أنَّه لا يُرادُ عَدَمُ حَيضِها في جميعِ الأزمِنةِ ماضيها ومُستَقبَلِها؛ للقَطعِ بأنَّها إذا بلَغَت وحاضت لم يكُنْ ذلك مُبطِلًا لعِدَّتِها الَّتي اعتَدَّتْها حالَ صِغَرِها بالأشهُرِ، ومعلومٌ أيضًا أنَّ المرأةَ إذا حاضت مرَّةً واحدةً صَدَق عليها أنَّها حاضت، فإذا تخَلَّف عنها الحَيضُ يَصدُقُ عليها أنَّها لم تَحِضْ، وإذا عَرَفْتَ هذا عَلِمْتَ أنَّ المرأةَ إذا وَجَبَت عليها العِدَّةُ وحَيضُها مُنقَطِعٌ لعارِضٍ، فهي مِن اللَّائي لم يَحِضْنَ، وهكذا إذا انقَطَع عنها وهي في وَسَطِ عِدَّتِها فهي مِن اللَّائي لم يحِضْنَ، فعِدَّتُها ثلاثةُ أشهُرٍ كعِدَّةِ اللَّائي لم يحِضْنَ). ((السيل الجرار)) (ص: ٤٢٤، ٤٢٥).
ويُنظر: ((الإشراف على مذاهب العلماء)) لابن المنذر (٥/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤، ٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٢٧، ٥٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩)، ((السيل الجرار)) للشوكاني (ص: ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).
قال ابنُ القيِّم: (كان بيْنَ السَّلَفِ نِزاعٌ في المتوفَّى عنها أنَّها تتربَّصُ أبْعَدَ الأجَلَينِ، ثمَّ حَصَل الاتِّفاقُ على انقِضائِها بوَضعِ الحَملِ). ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) (٢/ ٥١).
وقال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ يقولُ تعالى: ومَن كانت حامِلًا فعِدَّتُها بوَضعِه، ولو كان بعدَ الطَّلاقِ أو الموتِ بفُواقِ ناقةٍ [ما بيْنَ الحَلْبَتينِ مِن الوَقتِ؛ لأنَّ النَّاقةَ تُحلَبُ ثمَّ تُترَكُ سُويعةً يَرضَعُها الفَصيلُ]، في قَولِ جُمهورِ العُلَماءِ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ، كما هو نَصُّ هذه الآيةِ الكريمةِ، وكما ورَدَت به السُّنَّةُ النَّبَويَّةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٤٩).
قال السعدي: (﴿يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ أي: جميعَ ما في بُطونِهنَّ، مِن واحدٍ ومُتعَدِّدٍ، ولا عِبرةَ حينَئذٍ بالأشهُرِ ولا غيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).
وقال النَّيسابوري: (ووضْعُ الحَملِ لا يَتفاوَتُ بكَونِه حيًّا أو مَيتًا أو سِقْطًا أو مُضْغةً لا صورةَ فيها). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣١٥).
وسيأتي تفصيلُ الكلامِ في السِّقْطِ والعَلَقةِ، والخِلافُ في بعضِ الصُّورِ (ص: ٦٦).

عن سُبَيعةَ الأسلَمِيَّةِ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّها كانت تحتَ سَعدِ بنِ خَولةَ، وهو في بَني عامِرِ بنِ لُؤَيٍّ، وكان ممَّن شَهِدَ بَدرًا، فتُوفِّيَ عنها في حَجَّةِ الوداعِ وهي حامِلٌ، فلم تَنشَبْ[١] أن وَضَعت حَمْلَها بعدَ وَفاتِه، فلمَّا تَعَلَّتْ[٢] مِن نِفاسِها تجمَّلَت[٣] للخُطَّابِ، فدَخَل عليها أبو السَّنابِلِ بنُ بَعْكَكٍ -رجُلٌ مِن بني عبدِ الدَّارِ- فقال لها: ما لي أَراكِ مُتجَمِّلةً؟! لعلَّكِ تُرَجِّينَ النِّكاحَ! إنَّكِ -واللهِ- ما أنتِ بناكِحٍ حتَّى تَمُرَّ عليكِ أربَعةُ أشهُرٍ وعَشرٌ! قالت سُبَيعةُ: فلمَّا قال لي ذلك جَمَعْتُ علَيَّ ثيابي حينَ أمسَيْتُ، فأتَيْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فسألْتُه عن ذلك، فأفتاني بأنِّي قد حلَلْتُ حينَ وَضَعْتُ حَملي، وأمَرَني بالتَّزَوُّجِ إنْ بدا لي))[٤].

وعن سُلَيمانَ بنِ يَسارٍ أنَّ أبا سَلَمةَ بنَ عبدِ الرَّحمنِ وابنَ عبَّاسٍ اجتَمَعا عندَ أبي هُرَيرةَ، وهما يَذكُرانِ المرأةَ تُنفَسُ[٥] بعدَ وَفاةِ زَوجِها بلَيالٍ، فقال ابنُ عبَّاسٍ: عِدَّتُها آخِرُ الأجَلَينِ، وقال أبو سَلَمةَ: قد حلَّتَ، فجَعَلا يَتنازَعانِ ذلك، فقال أبو هُرَيرةَ: أنا مع ابنِ أخي -يعني: أبا سَلَمةَ- فبَعَثوا كُرَيبًا مَولَى ابنِ عبَّاسٍ إلى أمِّ سَلَمةَ يَسألُها عن ذلك، فجاءَهم فأخبَرَهم أنَّ أمَّ سَلَمةَ قالت: ((إنَّ سُبَيعةَ الأسلَمِيَّةَ نُفِسَت بعدَ وَفاةِ زَوجِها بلَيالٍ، وإنَّها ذَكَرَت ذلك لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأمَرَها أن تتَزَوَّجَ))[٦].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾.

---

(١) لم تَنشَبْ: أي: لم تمكُثْ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١١٠).

(٢) تعَلَّتْ: أي: طَهُرَت. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١٠٩).

(٣) تجَمَّلت: أي: تزَيَّنَت وتحَسَّنَت. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١١٠).

(٤) رواه البخاريُّ (٣٩٩١)، ومسلمٌ (١٤٨٤) واللَّفظُ له.

(٥) تُنفَسُ: أي: تَلِدُ وتضَعُ حَمْلَها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ٩٥)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ١١١).

(٦) رواه البخاريُّ (٤٩٠٩)، ومسلمٌ (١٤٨٥) واللَّفظُ له.

أي: ومَن يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، يُسَهِّلْ عليه جميعَ أُمورِ دِينِه ودُنياه وآخِرَتِه[1].

قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ٥﴾.

﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾.

أي: ذلك الَّذي بَيَّنَّاه لكم وأمَرْناكم به مِنَ الأحكامِ السَّابِقةِ: أمْرُ اللهِ أنزَلَه اللهُ إليكم؛ لتَعمَلوا به، وتُعَظِّموه ولا تُخالِفوه[2].

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾.

أي: ومَن يتَّقِ اللهَ بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه، يَمْحُ اللهُ عنه سيِّئاتِه، ويُكَثِّرْ له ثوابَ أعمالِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

وقال الشوكاني: (﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرًا﴾ أي: مَن يتَّقِه في امتثالِ أوامرِه، واجتنابِ نواهيه يُسهِّلْ عليه أمرَه في الدُّنيا والآخرةِ. وقال الضحَّاكُ: مَن يتَّقِ الله فليُطلِّقْ للسُّنةِ يجعَلْ له مِن أمرِه يسرًا في الرَّجعةِ. وقال مقاتلٌ: مَن يتَّقِ الله في اجتنابِ معاصيه يجعلْ له مِن أمرِه يسرًا في توفيقِه للطَّاعةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٢)، =

كما قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ: ((الصَّلَواتُ الخَمْسُ، والجُمُعةُ إلى الجُمُعةِ، ورَمَضانُ إلى رَمَضانَ: مُكَفِّراتٌ ما بيْنَهنَّ إذا اجْتَنَبَ الكبائِرَ))(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- لَمَّا كانت أمورُ النِّساءِ في المعاشَرةِ والمُفارَقةِ مِنَ المعاسَرةِ والمُياسَرةِ في غايةِ المشَقَّةِ، فلا يَحمِلُ على العَدلِ فيها والعِفَّةِ إلَّا خَوفُ اللهِ؛ كرَّر بالحثِّ على التَّقْوى إشارةً إلى ذلك، وترغيبًا في لُزومِ ما حدَّه سُبحانَه، فقال عاطفًا على ما تقديرُه: فمَن لم يحفَظْ هذه الحدودَ عسَّرَ الله عليه أمورَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ دليلٌ على أنَّ كلَّ عسيرٍ مِن الأمورِ يَتيَسَّرُ بالتَّقوى، حتَّى عُسْرُ تقتيرِ الرِّزقِ، وشِفاءُ الدَّاءِ العَسِرِ العِلاجِ،

---

= ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٣٤).

قال ابن القيِّم: (الذُّنوبُ: المرادُ بها الكبائرُ، والمرادُ بالسَّيِّئاتِ: الصَّغائرُ، وهي ما تَعمَلُ فيه الكفَّارةُ مِن الخَطأِ وما جَرى مَجراه، ولهذا جُعِل لها التَّكفيرُ... والدَّليلُ على أنَّ السَّيِّئاتِ هي الصَّغائرُ والتَّكفيرَ لها قولُه تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٨).

(١) رواه مسلم (٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣١٧).

والخَلاصُ مِن المَحْبِسِ؛ مِن الفِكاكِ مِن الأَسْرِ، وأشباهِ ذلك(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ ﴾ أنَّ اليأسَ مَنُوطٌ بالحالِ لا بالزَّمَنِ، وأنَّ ذلك يَختَلِفُ باختِلافِ النِّساءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ما قَيَّدَها بالسِّنِّ(٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الأقراءَ الحِيَضُ؛ لِذِكْرِه المَحِيضَ بلَفْظِه، وجَعْلِه الأشهُرَ الثَّلاثَ عِوَضًا منه(٣).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾، استُدِلَّ به على أنَّ الحامِلَ لا تحيضُ؛ إذ لو حاضت لَكانت عِدَّتُها ثلاثَ حِيَضٍ -على قولٍ-، وهذه عِدَّةُ المطَلَّقةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٣٦٢).

ولاختلافِ الفُقهاءِ في تقديرِ سنِّ الإياسِ يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٣٣).

وقيل أيضًا في وجهِ الدَّلالةِ: إنَّ الأصلَ أنَّ الشَّيءَ متى ذُكِر باسمٍ مُشتركٍ، ثمَّ جرى البيانُ له عندَ ذِكرِ البدَلِ باسمٍ خاصٍّ؛ دل على أنَّ المرادَ مِن الاسمِ المشتركِ هذا الاسمُ الخاصُّ المذكورُ عندَ البدَلِ؛ ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ [المائدة: ٦]، فاسمُ الغسلِ مشتركٌ يَتناوَلُ الماءَ وكلَّ مائعٍ، فلمَّا قال عندَ ذِكرِ البَدَلِ: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ ﴾ [المائدة: ٦]؛ تبيَّن أنَّ المرادَ مِن ذلك الاسمِ المشتركِ هو هذا الاسمُ الخاصُّ المذكورُ عندَ البدَلِ، فكذلك الأوَّلُ. ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٥٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٢).

(٤) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٩).

القولُ بأنَّ الحاملَ لا تَحيضُ هو مذهبُ الحنفيَّةِ والحنابلةِ، وهو قولُ ابنِ حزم. يُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نُجَيم (١/ ٢٠١)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ١١٠)، ((المحلى)) =

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ دليلٌ واضِحٌ على أنَّ طَلاقَ الحامِلِ واقِعٌ، وهو أوسَعُ ما يكونُ مِن الطَّلاقِ؛ ولهذا يَحِلُّ للإنسانِ أنْ يُطَلِّقَ الحامِلَ وإنْ كان قد جامَعَها قريبًا، بخلافِ غيرِ الحامِلِ؛ فإنَّه إذا جامعَها يجبُ عليه أنْ يَنتَظِرَ حتَّى تَحيضَ ثُمَّ تَطْهُرَ، أو يَتبَيَّنَ حَمْلُها[1].

٥- العِدَّةُ واجبةٌ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقولِه: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾. قال أهلُ العِلمِ: إنَّ هذا خبَرٌ بمعنى الأمرِ، وإنَّما جاء بصِيغةِ الخَبَرِ؛ لإقرارِه وتثبيتِه، كأنَّه أمرٌ مَفروغٌ منه[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ أنَّ عِدَّةَ الحامِلِ لا تنقضي إلَّا بوَضعِ الحَملِ، سَواءٌ أكانت تحيضُ أمْ لا[3]، بائنةً كانت أو رَجْعيَّةً، مُفارِقةً في الحياةِ أو مُتَوَفًّى عنها، ففي الآيةِ الكريمةِ عمومٌ مِن ثلاثِ جهاتٍ:

**أحدُها**: عمومُ المُخْبَرِ عنه، وهو أولاتُ الأحمالِ؛ فإنَّه يَتناوَلُ جميعَهنَّ.

**الثَّاني**: عُمومُ الأجَلِ؛ فإنَّه أضافَه إليهنَّ، وإضافةُ اسمِ الجَمعِ إلى المعرفةِ يَعُمُّ،

---

= لابن حزم (١/ ٤٠٤).

وذهَبَ المالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى أنَّ الحاملَ يُمكِنُ أن تَحيضَ، وهو اختيارُ ابنِ تيميَّةَ، وابنِ عُثيمينَ. يُنظر: ((الشرح الكبير للدردير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٤٥٩)، ((المجموع)) للنووي (٢/ ٣٤٧)، ((الاختيارات الفقهية)) (ص: ٣٠)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٢٧٠، ٢٧١).

وذكَرَ ابنُ عثيمينَ أنَّ إلغاءَ الاعتدادِ بالحَيضِ بالنِّسبةِ للحاملِ ليس مِن أجْلِ أنَّ ما يُصيبُ المرأةَ مِن الدَّمِ ليس حيضًا، ولكن لأنَّ الحَيضَ لا يصِحُّ أن يكونَ عِدَّةً مع الحملِ؛ لأنَّ الحملَ يَقضي على ما عَداه. يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) (١/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١١/ ٣٠٤).

فجَعَلَ وَضْعَ الحَمْلِ جميعَ أجَلِهنَّ، فلو كان لبَعضِهنَّ أجلٌ غَيرُه لم يكُنْ جميعَ أجَلِهنَّ.

**الثَّالثُ**: أنَّ المبتدأَ والخبرَ مَعرِفتانِ؛ أمَّا المبتدأُ فظاهِرٌ، وأمَّا الخَبرُ وهو قولُه تعالى: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ففي تأويلِ مَصدَرٍ مُضافٍ، أي: أجَلُهنَّ وَضْعُ حمْلِهنَّ، والمبتدأُ والخبرُ إذا كانا مَعرِفَتَينِ اقتضى ذلك حَصْرَ الثَّاني في الأوَّلِ، كقَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]. وبهذا احتَجَّ جمهورُ الصَّحابةِ على أنَّ الحامِلَ المتوفَّى عنها زَوجُها عِدَّتُها وَضْعُ حمْلِها، ولو وضعَتْه والزَّوجُ على المُغتَسَلِ، كما أفتى به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لِسُبَيعَةَ الأسْلَمِيَّةِ، وكان هذا الحُكْمُ والفَتوى منه مُشتَقًّا مِن كتابِ اللهِ، مُطابِقًا له[١].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ دليلٌ على أنَّ للمَرءِ أن يُنكِحَ وَلَدَه الصِّغارَ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جَعَل عِدَّةَ مَن لم يَحِضْ مِنَ النِّساءِ ثلاثةَ أشهُرٍ، ولا تكونُ عليها عِدَّةٌ إلَّا أن يكونَ لها نِكاحٌ؛ فدَلَّ ذلك على هذا الغَرَضِ، وهو بديعٌ في فَنِّه[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ شامِلٌ للوَلَدِ، والعَلَقةِ، والمُضْغَةِ[٣]، ومفيدٌ أنَّ العِدَّةَ لا تَنقَضي بأوَّلِ التَّوْءَمَينِ؛ لأنَّه بَعضُ حَمْلِهنَّ

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٥٢٧).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٨٥).

(٣) تنقَضي العِدَّةُ بوَضعِ الحَملِ الَّذي تبَيَّنَ فيه خَلقُ إنسانٍ، وإن كان سِقْطًا. نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ المنذِرِ، وابنُ قُدامةَ. يُنظر: ((الإشراف)) لابن المنذر (٥/ ٣٥٢)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ١١٩).

أمَّا إذا ألقَتِ المرأةُ نُطفةً أو عَلَقةً أو دمًا، أو وضعتْ مُضْغةً لا صورةَ فيها؛ فلا تَنقضي العدَّةُ بالوضعِ عندَ جمهورِ الفُقهاءِ مِن الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ.

وصرَّح المالكيَّةُ بأنَّه إن كان الحملُ دمًا اجتمَع تَنقضي به العدَّةُ، وعلامةُ كَونِه حملًا أنَّه إذا صُبَّ عليه الماءُ الحارُّ لم يَذُبْ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣١٨). =

لا حَمْلُهُنَّ[١]. وقولُه: ﴿حَمْلَهُنَّ﴾ مُفرَدٌ مضافٌ؛ فيَشملُ كلَّ حَمْلِها، وعلى هذا فلا بُدَّ أنْ تَضَعَ جميعَ الحَمْلِ، ولو فُرِضَ أنَّ المرأةَ مات زوجُها وهي تُطْلَقُ وقد ظَهَرَ رأسُ الحَملِ، ثُمَّ خَرَجَ بقيَّتُه، فتَنقَضي العِدَّةُ؛ لأنَّه قبْلَ أنْ يَخْرُجَ كامِلًا لم تكُنْ وَضَعَتْ حَمْلَها[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ استَدَلَّ بعُمومِه مَن قال: إنَّ الحامِلَ مِنَ الزِّنا تَعتَدُّ به[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ﴾ حُجَّةٌ في أنَّ القرآنَ غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ اللهَ سمَّاه بالأمرِ، والأمرُ لا يكونُ إلَّا كلامًا مُتكَلَّمًا به، وكلامُ الآمِرِ نَعْتٌ مِن نَعْتِه، ونُعُوتُ الخالقِ غيرُ مخلوقةٍ، وهو مِثْلُ قَولِه تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[٤] [الأعراف: ٥٤].

---

= قال الشنقيطي: (إذا كانت المرأةُ مُعتدَّةً مِن طلاقٍ أو وفاةٍ، وكانت حاملًا، فألقَتْ حَمْلَها عَلَقةً، هل تَنقضي بذلك عِدَّتُها أو لا؟

فمذهبُ مالكٍ رحمه الله: أنَّها تَنقضي عِدَّتُها بإسقاطِ العَلَقةِ المذكورةِ. واحتجَّ المالكيَّةُ: بأنَّ العَلَقةَ المذكورةَ يَصدُقُ عليها أنَّها حملٌ، فتَدخُلُ في عُمومِ قولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]. وقال ابنُ العربيِّ المالكيُّ: لا يَرتبطُ بالجنينِ شَيءٌ مِن هذه الأحكامِ إلَّا أن يكونَ مُخَلَّقًا -يعني: مُصَوَّرًا-. وذهب جمهورُ أهلِ العِلمِ -منهم الأئمَّةُ الثَّلاثةُ وغيرُهم- إلى أنَّ وضْعَ العَلَقةِ لا تَنقضي به العدَّةُ، قالوا: لأنَّها دمٌ جامدٌ، ولا يُتحقَّقُ كَوْنُه جَنينًا). ((أضواء البيان)) (٤/ ٢٧٥). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٣/ ٢٧٤) و(٤/ ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١٣/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

واعتدادُ المَزنيِّ بها عدَّةَ المطلَّقةِ هو المعتمدُ لدى المالكيَّةِ، ومذهبُ الحنابلةِ، خِلافًا للحنَفيَّةِ والشَّافعيَّةِ؛ فمذهبُهم أنَّ الزَّانيةَ لا عدَّةَ عليها، حاملًا كانت أو غيرَ حامِلٍ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٩/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٠).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ رَدٌّ على مَن لا يُقِرُّ أنَّ اللهَ سبحانَه بنَفْسِه في السَّماءِ[١]؛ فإنَّ النُّزولَ والتَّنزيلَ الَّذي تَعقِلُه العُقولُ وتَعرِفُه الفِطرُ هو وُصولُ الشَّيءِ مِن أعلَى إلى أسفلَ، والرَّبُّ تعالى إنَّما يُخاطِبُ عِبادَه بما تَعرِفُه فِطَرُهم، وتَشهَدُ به عُقولُهم[٢].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ دَليلٌ على أنَّ التَّوبةَ مع ما تَحُطُّ مِن السَّيِّئاتِ تُنْمِي له أجرًا برَأسِه، وهو مِثلُ قولِه تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وهذه الغَنيمةُ الباردةُ لِمَن عَقَلَها، وتَيَقَّظَ لها[٣].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَ﴾ عطفٌ على قولِه: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]؛ فإنَّ العِدَّةَ هنالكَ أُرِيدَ بها الأقراءُ، فأشعَرَ ذلكَ أنَّ تلكَ المُعتدَّةَ ممَّنْ لها أقراءٌ، فبقِيَ بَيانُ اعتدادِ المرأةِ الَّتي تَجاوَزَتْ سِنَّ المَحِيضِ، أو الَّتي لم تَبلُغْ سِنَّ مَن تَحيضُ، وهيَ الصَّغيرةُ. والآيةُ مُخصِّصةٌ لعُمومِ قولِه: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، وقد نزلَتْ سورةُ (الطَّلاقِ)

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤١).

بعدَ سورةِ (البقرةِ)[١].

- وجُملةُ ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۖ﴾؛ فهي إتمامٌ لأحوالِ العِدَّةِ المُجمَلِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ﴾ [الطلاق: ١]، وتقديرُ الكلامِ: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ﴾ مِنْهنَّ، أي: مِنَ المُطلَّقاتِ، ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾، فحصَلَ بهذِه الآيةِ مع الَّتي قَبْلَها تَفصيلٌ لأحوالِ المُطلَّقاتِ، وحصَلَ أيضًا منها بيانٌ لإجمالِ الآيةِ الَّتي في سُورةِ (البقرةِ)[٢].

- قولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ۞ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ تَكريرٌ للمَوعظةِ، وهو اعتِراضٌ، والمقصودُ مَوعظةُ الرِّجالِ والنِّساءِ على الأخْذِ بما في هذِه الأحكامِ ممَّا عسى أنْ يكونَ فيه مشقَّةٌ على أحَدٍ بأنَّ على كلٍّ أنْ يَصبِرَ لذلكَ امتثالًا لأمرِ اللهِ؛ فإنَّ المُمتثِلَ -وهو مُسمَّى المُتَّقِيَ- يَجعَلُ اللهُ له يُسْرًا فيما لَحِقَه مِن عُسْرٍ، والمقصودُ: يَجعَلْ له مِن أمْرِه العَسيرِ في نظرِه يُسْرًا؛ بقرينةِ جَعْلِ اليُسْرِ لأمرِه، والمقصودُ مِن هذا تَحقيقُ الوعدِ باليُسرِ فيما شأنُه العُسرُ؛ لِحَثِّ الأزواجِ على امتثالِ ما أمَرَ اللهُ به الزَّوجَ مِنَ الإنفاقِ في مُدَّةِ العِدَّةِ، ومِنَ المراجَعةِ، وترْكِ مَنزِلِه مِن أجْلِ سُكْناها إذا كانَ لا يَسَعُهما، وما أمَرَ به المرأةَ مِن تَربُّصِ أمَدِ العِدَّةِ، وعدَمِ الخروجِ، ونحوِ ذلك[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣١٥، ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٢٤).

لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾

- قولُه: ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِنَ الأحكامِ، وما فيه مِن معْنى البُعْدِ مع قُرْبِ العهدِ بالمُشارِ إليه؛ للإيذانِ ببُعْدِ مَنزلتِه في الفَضلِ. وإفرادُ الكافِ مع أنَّ الخِطابَ للجمْعِ كما يُفصِحُ عنه قولُه: ﴿أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾؛ لِما أنَّها لمُجرَّدِ الفَرْقِ بيْنَ الحاضرِ والمُنْقَضِي، لا لتَعيُّنِ خُصوصيَّةِ المُخاطَبينَ[1].

- قولُه: ﴿ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡ﴾ كِنايةٌ عن الحثِّ على التَّهَمُّمِ برِعايةِ حُكْمِ اللهِ وما شرَعَه، والعَملِ به، وبَعْثِ النَّاسِ على التَّنافُسِ في العِلمِ به؛ إذْ قَدِ اعْتَنى اللهُ بالنَّاسِ؛ حيثُ أنزَلَ إليهم ما فيه صلاحُهم[2].

- وفي قولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴾ أُعِيدَ التَّحريضُ على العَملِ بما أمَرَ اللهُ بالوعدِ بما هو أعظَمُ مِنَ الأرزاقِ، وتَفريجِ الكُرَبِ، وتَيسيرِ الصُّعوباتِ في الدُّنيا، وذلك هو تَكفيرٌ للسَّيِّئاتِ، وتَوفيرٌ للأُجورِ، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُملةِ المُعترِضةِ؛ فلها حكْمُ الاعتراضِ[3].

- لَمَّا كانَ الكلامُ في أمْرِ المُطلَّقاتِ وأحكامِهنَّ مِنَ العِدَدِ وغيرِها، وكُنَّ لا يُطلِّقُهنَّ أزواجُهنَّ إلَّا عن بُغضٍ لهُنَّ وكَراهةٍ؛ جاءَ عَقيبَ بَعضِ الجُمَلِ الأمرُ بالتَّقوى مِن حيثُ المعنى، مُبرَزًا في صُورةِ شَرْطٍ وجَزاءٍ في قولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾؛ إذِ الزَّوجُ المُطلِّقُ قد يَنسُبُ إلى مُطلَّقتِه بعضَ ما يَشِينُها به، ويُنفِّرُ الخُطَّابَ عنها، ويُوهِمُ أنَّه إنَّما فارَقَها لأمرٍ ظهَرَ له منها؛ فلذلكَ تَكرَّرَ قولُه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ في العمَلِ بما أنْزَلَه مِن هذِه الأحكامِ، وحافَظَ على الحُقوقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٢٤، ٣٢٥).

الواجبةِ عليه مِن ترْكِ الضِّرارِ والنَّفقةِ على المُعتدَّاتِ، وغيرِ ذلكَ ممَّا يلزمُه؛ يُرتِّبْ له تَكفيرَ السَّيِّئاتِ، وإعظامَ الأجرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠١).

## الآيتان (٦-٧)

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وُجْدِكُمْ﴾: أي: سَعَتِكم ومَقدِرَتِكم، والوُجْدُ: المَقدِرةُ والسَّعَةُ[1].

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾: أي: ولا تُؤذُوهنَّ، وأصلُ (ضرر) هنا: يدُلُّ على خِلافِ النَّفعِ[2].

﴿وَأْتَمِرُوا۟﴾: أي: لِيَأمُرْ كُلُّ واحِدٍ صاحِبَه بخَيرٍ، أو: تَشاوَرُوا، والائتِمارُ: التَّشاوُرُ والتَّداوُلُ في النَّظَرِ، وأصلُه مُطاوِعُ: أَمَرَه؛ لأنَّ المُتشاوِرَينِ يأمُرُ أحَدُهما الآخَرَ، فيَأْتَمِرُ الآخَرُ بما أمَرَه[3].

﴿تَعَاسَرْتُمْ﴾: أي: اشتَدَّ الخِلافُ بَيْنَكم، ولم تَرجِعوا إلى وِفاقٍ، والتَّعاسُرُ: صُدورُ العُسرِ مِن الجانِبَينِ، وهو تَفاعُلٌ، مِن قَولِهم: عَسَرْتُ فُلانًا: إذا أخَذْتَه على عُسْرِه، ويُقالُ: تعاسَرَ البَيِّعانِ: إذا لم يتَّفِقا، وأصلُ (عسر): يدُلُّ على صُعوبةٍ وشِدَّةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٠).

﴿سَعَةٍ﴾: أي: طاقةٍ وقُدرةٍ وغِنًى، والسَّعَةُ: هي الجِدَةُ مِنَ المالِ أو الرِّزقِ، وأصلُ (وسع): يدُلُّ على خِلافِ الضِّيقِ والعُسرِ(١).

﴿قُدِرَ﴾: أي: ضُيِّق وقُتِّر، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايتِه(٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى الرِّجالَ بإسكانِ المطلَّقاتِ، وأن يُحسِنوا معامَلتَهنَّ، ويَنهاهم عن الإساءةِ إليهنَّ، فيقول: أسْكِنوا -أيُّها الأزواجُ- نِساءَكم المُطَلَّقاتِ مِمَّا توفَّرَ لَدَيكم وتيسَّرَ وُجودُه مِن مَساكِنِكم، إلى أن تَنتَهيَ عِدَّتُهنَّ، ولا تَضُرُّوهنَّ لتُضَيِّقوا عَليهِنَّ فتَضطرُّوهنَّ للخُروجِ من السَّكَنِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى أحكامَ المطلَّقاتِ الحواملِ، وما يجِبُ لهنَّ بعْدَ الوضعِ، فيقولُ: وإنْ كانت المُطلَّقاتُ حواملَ فأنفِقوا عليهِنَّ إلى أن تَنتهِيَ عِدَّتُهنَّ بولادتِهنَّ، فإنْ أرضَعْنَ لكم أولادَكم فأعطوهنَّ أُجرةَ الرَّضاعةِ، وتَشاوَروا فيما بيْنَكم بالمعروفِ وبما هو خيرٌ للطِّفلِ الرَّضيعِ، وإن اختَلَفتُم في شأنِ الرَّضاعِ فلْيَستأجِرِ الأبُ لوَلَدِه مُرضِعةً أُخرى.

ثمَّ يُقدِّرُ الله تعالى النَّفقةَ، بحسَبِ حالِ الزَّوجِ، فيقولُ: لِيُنفِقْ مَن وَسَّعَ اللهُ عليه على مُطَلَّقتِه ووَلَدِه الرَّضيعِ، ويُوَسِّعْ عليهم في النَّفَقةِ، ومَن كان فقيرًا قد ضُيِّقَ عليه رِزقُه فلْيُنفِقْ مِمَّا أعطاه اللهُ على قَدْرِ سَعَتِه، لا يُكَلِّفُ اللهُ أحَدًا إلَّا بقَدْرِ ما أعطاه، بحَسَبِ حالِه مِن الغِنى والفَقرِ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى الآيةَ ببشارةٍ لِمَن يتَّبِعُ أمْرَه، فيقولُ: سيَجعَلُ اللهُ بعْدَ الفَقرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٠، ٨٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢، ٦٣).

والشِّدَّةِ والضِّيقِ غِنًى ورَخاءً وسَعَةً.

## تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تقدَّم أنَّ اللهَ نهى عن إخراجِ المطَلَّقاتِ مِن البُيوتِ، وهنا أمَرَ بإسكانِهنَّ[1].

وأيضًا فإنَّ قولَه تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ وما بَعْدَه بيانٌ لِما شُرِطَ مِن التَّقوى في قَولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الطلاق: ٤]، كأنَّه قيل: كيف تكونُ التَّقوَى في شأنِ المعتَدَّاتِ؟ فقيل[2]:

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾.

أي: أسْكِنوا -أيُّها الأزواجُ- نِساءَكم المُطَلَّقاتِ في المكانِ الَّذي تَسكُنونَ فيه مِمَّا توفَّرَ لَدَيكم، وتيسَّرَ وُجودُه لكم إلى أن تَنتَهيَ عِدَّتُهنَّ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠١)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٧٥٦)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٦٩، ٤٧٠، ٤٨١، ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

ذكَر ابنُ القيِّم أنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ للبائنِ، وأنْ يكونَ للرجعيَّةِ، وأنْ يكونَ لهما، ورجَّح حملَه على الرجعيَّةِ، فقال: (حملُه على الرجعيَّةِ هو المتعيِّنُ لتتَّحِدَ الضَّمائرُ ومفسِّرُها، فلو حُمِل على غيرِها لزِم اختلافُ الضَّمائرِ ومفسِّرُها وهو خلافُ الأصلِ، والحملُ على الأصلِ أولَى). ((زاد المعاد)) (٥/ ٤٨٢). =

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّ﴾.

أي: ولا تَضُرُّوهنَّ -أيُّها الأزواجُ- بأيِّ ضَرَرٍ؛ مِن أجْلِ أن تُضَيِّقوا عَليهِنَّ في مَسكَنِكم، فتَضطرُّوهنَّ للخُروجِ منه قبْلَ انتِهاءِ عِدَّتِهنَّ(١).

﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾.

أي: وإنْ كانت المُطلَّقاتُ حوامِلَ فأنفِقوا عليهِنَّ إلى أن تَنتهِيَ عِدَّتُهنَّ بوِلادتِهنَّ(٢).

---

= وقيل: الضَّميرُ في قوله: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ﴾ يَعودُ إلى النِّساءِ المُطَلَّقاتِ كُلِّهنَّ، فيَشملُ المُطَلَّقةَ الرَّجعيَّةَ والبائِنَ والحامِلَ، وانعقَد الإجماعُ على وُجوبِ السُّكْنى للمطلَّقةِ الرَّجعيَّةِ والحامِلِ، وذهَبَ جمهورُ أهلِ العِلمِ إلى وُجوبِ السُّكنى حتَّى للبائِنِ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٥، ٣٢٦).

وسيأتي تفصيلُ الكلامِ عن هذه المسألةِ (ص: ٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٥٩، ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

قال القرطبي: (لا خِلافَ بيْن العُلَماءِ في وُجوبِ النَّفَقةِ والسُّكنى للحامِلِ المُطَلَّقةِ ثلاثًا أو أقلَّ مِنهنَّ حتَّى تَضَعَ حَمْلَها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨).

قال الشوكاني: (فأمَّا الحامِلُ المُتوَفَّى عنها زَوجُها؛ فقال عليٌّ، وابنُ عُمَرَ، وابنُ مَسعودٍ، وشُرَيحٌ، والنَّخَعيُّ، والشَّعْبيُّ، وحمَّادٌ، وابنُ أبي لَيلى، وسُفيانُ وأصحابُه: يُنفَقُ عليها مِن جميعِ المالِ حتَّى تَضَعَ. وقال ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ الزُّبَيرِ، وجابِرُ بنُ عبدِ اللهِ، ومالِكٌ، والشَّافِعيُّ، وأبو حَنيفةَ وأصحابُه: لا يُنفَقُ عليها إلَّا مِن نَصيبِها. وهذا هو الحَقُّ؛ للأدِلَّةِ الواردةِ في ذلك مِنَ السُّنَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٣). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٨٢).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ قال كثيرٌ مِن العلماءِ -منهم ابنُ عبَّاسٍ، وطائفةٌ مِن السَّلفِ، وجماعاتٌ مِن الخلَفِ-: هذه في البائنِ، إن كانت حاملًا أنفَق عليها حتَّى تَضَعَ حمْلَها، قالوا: بدليلِ أنَّ الرَّجعيَّةَ تجبُ نفقتُها، سواءٌ كانت حاملًا أو حائلًا. وقال آخَرون: بل السِّياقُ كلُّه في الرَّجعيَّاتِ، وإنَّما نصَّ على الإنفاقِ على الحامِلِ وإن كانت =

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانَ الحَمْلُ يَنْتهي بالوَضْعِ، انتُقِلَ إلى بَيانِ ما يجِبُ لهُنَّ بعْدَ الوضْعِ؛ فإنَّهُنَّ بالوضْعِ يَصِرْنَ بائناتٍ، فتَنقطِعُ أحكامُ الزَّوجيَّةِ، فكان السَّامعُ بحيثُ لا يَدْري هلْ يكونُ إرضاعُها ولَدَها حقًّا عليها كما كان في زمَنِ العِصمةِ، أو حقًّا على أبيهِ فيُعْطِيها أجْرَ إرْضاعِها كما كان يُعْطيها النَّفقةَ مِن أجْلِ ذلك الولَدِ حينَ كان حَمْلًا[1]؟

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾.

أي: فإنْ أرضَعَ نِساؤُكم المطلَّقاتُ أولادَكم فأعطوهنَّ أُجرةَ الرَّضاعةِ[2].

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾.

أي: ولْيَتَشاوَرْ كلٌّ مِنَ الزَّوجِ ومُطلَّقتِه، ويأمُرْ بَعضُهم بعضًا بما هو خيرٌ للطِّفلِ الرَّضيعِ، بلا ضررٍ ولا ضِرارٍ، ويَقبَلوا ذلك، ويَعمَلوا به، فلا يُقَصِّرُ الوالِدُ في النَّفَقةِ، ولا تُقَصِّرُ المُرضِعةُ في القيامِ بشَأنِ الرَّضيعِ[3].

---

= رجعيَّةً؛ لأنَّ الحملَ تطولُ مدَّتُه غالبًا، فاحتيج إلى النَّصِّ على وُجوبِ الإنفاقِ إلى الوضعِ؛ لئلَّا يتوهَّمَ أنَّه إنَّما تجبُ النَّفقةُ بمِقدارِ مدَّةِ العدَّةِ.

واختلَف العُلماءُ: هل النَّفقةُ لها بواسِطةِ الحملِ، أم للحملِ وحْدَه؟ على قولَينِ مَنصوصَينِ عن الشَّافعيِّ وغيرِه، ويتفرَّع عليها مسائلُ مذكورةٌ في علمِ الفروعِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨)، ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٦)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٦)، =

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾.

أي: وإن اختَلَف الزَّوجُ ومُطَلَّقتُه في شأنِ رَضاعِ وَلَدِها منه، فلم يتَّفِقَا على الأُجرةِ أو امتَنَعَت الأمُّ عنَ الرَّضاعِ، فلا تُكرَهُ على إرضاعِه، ولْيَستأجِرِ الأبُ لوَلَدِه مُرضِعةً أُخرى[1].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت المُعاسَرةُ في الغالِبِ في تَركِ السَّماحِ، وكان تَركُ السَّماحِ مِن خَوفِ الإعدامِ؛ نَبَّه اللهُ سبحانه على أنَّ ذلك ليس بعُذرٍ، بتَقسيمِ النَّاسِ إلى مُوَسَّعٍ عليه وغَيرِه، ولأنَّ الأليَقَ بالمُوَسَّعِ عليه أن يُوَسِّعَ ولا يُسيءَ الظَّنَّ برَبِّه وقد جَرَّبَ رِفْدَه، وأنَّ المُقَتَّرَ عليه لا ينبغي أن يَفعَلَ فِعلَ مَن يخافُ أن يُخلِفَ وَعْدَه[2].

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾.

أي: على مَن وَسَّعَ اللهُ عليه أن يُوَسِّعَ في النَّفَقةِ على مُطَلَّقتِه ووَلَدِه الرَّضيعِ[3].

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾.

---

= ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٠، ١٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٨)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

أي: ومَن كان فقيرًا قد ضُيِّقَ عليه رِزقُه فلْيُنفِقْ مِمَّا أعطاه اللهُ مِنَ الرِّزقِ، على قَدْرِ مالِه[1].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾.

أي: لا يُكَلِّفُ اللهُ أحَدًا مِن النَّفَقةِ الواجِبةِ عليه إلَّا بقَدْرِ ما أعطاه مِنَ الرِّزقِ؛ كُلٌّ بحَسَبِ حالِه مِن الغِنى والفَقرِ، فلا يُكَلِّفُ اللهُ الفَقيرَ أن يُنفِقَ مِثلَ نَفَقةِ الغَنيِّ[2].

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾

أي: سيَجعَلُ اللهُ للفَقيرِ بعدَ الفَقرِ والشِّدَّةِ والضِّيقِ غِنًى ورَخاءً وسَعَةً[3].

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: ولْيَأمُرْ كُلُّ واحِدٍ مِنَ الزَّوجَينِ

---

(١) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣١).

قال القرطبي: (تُقَدَّرُ النَّفَقةُ بحَسَبِ الحالةِ مِن المُنفِقِ، والحاجةِ مِن المنفَقِ عليه، بالاجتِهادِ على مَجرى العادةِ، فيَنظُرُ المُفتي إلى قَدرِ حاجةِ المنفَقِ عليه، ثمَّ يَنظُرُ إلى حالةِ المُنفِقِ؛ فإن احتَمَلَت الحالةُ [الحاجةَ] أمْضاها عليه، فإن قصَّرتْ حالتُه عن حاجةِ المنفَقِ عليه رَدَّها إلى قَدْرِ احتِمالِه). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧١)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

ومِن غَيرِهما الآخَرَ بالمَعروفِ، وهو كُلُّ ما فيه مَنفعةٌ ومَصلحةٌ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فإنَّ الغَفلةَ عن الائتِمارِ بالمَعروفِ يَحصُلُ بها مِن الشَّرِّ والضَّرَرِ ما لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، وفي الائتِمارِ تعاوُنٌ على البِرِّ والتَّقْوى[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ فيه تنبيهٌ صَريحٌ بألَّا يُضارَّ أحَدُ الوالِدَينِ بوَلَدِه، وأن تكونَ المفاهمةُ بيْن الزَّوجَينِ بعْدَ الفُرقةِ في جميعِ الأُمورِ -سواءٌ في خُصوصِ الرَّضاعِ أو غَيرِه- مَبناها على المعروفِ والتَّسامُحِ والإحسانِ؛ وفاءً لحَقِّ العِشْرةِ السَّابِقةِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ استِحبابُ مُراعاةِ الإنسانِ حالَ نفْسِه في النَّفَقةِ والصَّدَقةِ[٣].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾. قَولُه ﴿قُدِرَ﴾ بناه للمَفعولِ؛ تعليمًا للأدَبِ معه سُبحانَه وتعالى[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ استُدِلَّ به على وُجوبِ السُّكْنى للمُطَلَّقاتِ كُلِّهنَّ، وللبَوائِنِ؛ لتَقَدُّمِ سُكْنى الرَّجْعيَّاتِ، ولِقَولِه بَعْدُ: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾؛ فإنَّه خاصٌّ بالبوائِنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٣).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧). =

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ تعميمُ المُطَلَّقاتِ بالسُّكْنى، وتخصيصُ أُولاتِ الأحمالِ بالنَّفَقةِ: استُدِلَّ به على أنَّ غيرَها مِنَ المُطَلَّقاتِ لا يُشارِكُها في النَّفَقةِ، وتُشارِكُهنَّ في السُّكْنى[1]. فقولُه: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟

---

= ويُنظر تفصيلُ مسألةِ النَّفقةِ والسُّكْنى في حاشيةِ الفائدةِ التَّاليةِ.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٢).

قال ابن عاشور: (ظاهِرُ نَظْمِ الآيةِ يَقْتضي أنَّ الحواملَ مستحِقَّاتُ الإنفاقِ دونَ بعضِ المطلَّقاتِ؛ أخْذًا بمفهومِ الشَّرطِ، وقد أخَذ بذلك الشَّافعيُّ والأوزاعيُّ وابنُ أبي ليلَى. ولكنَّ المفهومَ مُعَطَّلٌ في المطَلَّقاتِ الرَّجعيَّاتِ؛ لأنَّ إنفاقَهنَّ ثابتٌ بأنَّهنَّ زوجاتٌ. ولذلك قال مالكٌ: إنَّ ضميرَ ﴿أَسْكِنُوهُنَّ﴾ للمطلَّقاتِ البوائِنِ... ومَن لم يأخُذْ بالمفهومِ قالوا: الآيةَ تعرَّضَتْ للحواملِ تأكيدًا للنَّفقةِ عليهنَّ؛ لأنَّ مُدَّةَ الحملِ طويلةٌ، فرُبَّما سَئِم المطَلِّقُ الإنفاقَ، فالمقصودُ مِن هذه الجملةِ هو الغايةُ الَّتي بقولِه: ﴿حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، وجعلوا للمطلَّقةِ غيرِ ذاتِ الحملِ الإنفاقَ. وبه أخذ أبو حنيفةَ والثَّوريُّ. ونُسِب إلى عُمَرَ بنِ الخطَّابِ وعبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهما). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٨).

أمَّا نَفَقةُ المُطَلَّقةِ الرَّجعيَّةِ وسُكْناها في العِدَّةِ فهو واجبٌ بالإجماعِ، وممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الشَّافعيُّ، وابنُ حَزمٍ، وابنُ قُدامةَ. يُنظر: ((الأم)) للشافعي (٥/ ٢٥٣)، ((مراتب الإجماع)) لابن حزم (ص: ٧٨)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٣٣).

أمَّا المُعتَدَّةُ البائِنُ الحائِلُ (غيرُ الحامِلِ) ففيها خِلافٌ: فمَذهَبُ الحَنابِلةِ والظَّاهريَّةِ أنَّه لا يَجِبُ لها السُّكْنى ولا النَّفَقةُ، واختاره ابنُ القيِّمِ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٥/ ٤٦٥)، ((المحلى)) لابن حزم (١٠/ ٧٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٦٦)، ((نيل الأوطار)) للشوكاني (٦/ ٣٥٧-٣٥٩).

قال القاسمي: (أمَّا البائِنُ فلا سُكنى لها ولا نَفَقةَ؛ لِسُنَّةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الصَّحيحةِ الَّتي لا يُطعَنُ في صِحَّتِها الصَّريحةِ الَّتي لا شُبهةَ في دَلالتِها). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٥٣).

وقال السعدي: (أمَّا البائِنُ فليس لها سُكنى واجبةٌ؛ لأنَّ السَّكَنَ تَبَعٌ للنَّفَقةِ، والنَّفَقةُ تَجِبُ للرَّجعيَّةِ دونَ البائِنِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٦٩).

ومذهبُ الحنَفيَّةِ أنَّ لها النَّفَقةَ والسُّكْنى. يُنظر: ((الهداية شرح البداية)) للمَرْغِيناني (٢/ ٤٤).=

عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ استُدِلَّ بمَفهومِه على أنَّ غيرَ الحامِلِ لا نَفَقةَ لها[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيه أنَّ الإسكانَ يُعتَبَرُ بحالِ الزَّوجِ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ فيه تحريمُ المُضارَّةِ بها، وإلجائِها إلى الخُروجِ[٣].

٥- (مِنْ) الواقعةُ في قولِه: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ للتَّبعيضِ، أي: في بعضِ ما سكَنْتُم. ويُؤخَذُ منه أنَّ المسكنَ صالحٌ للتَّبعيضِ بحسَبِ عُرْفِ السُّكنى، مع تَجنُّبِ التَّقارُبِ في المَبيتِ إنْ كانتْ غيرَ رَجعيَّةٍ، فيُؤخَذُ منه أنَّه إنْ لم يَسَعْهُما خرَجَ الزَّوجُ المُطلِّقُ، كأنَّه قيلَ: أسكِنوهُنَّ مكانًا مِنْ مَسكنِكم ممَّا تُطيقونَه[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فيه وُجوبُ الإنفاقِ على البائِنِ الحامِلِ حتَّى تَنقَضِيَ عِدَّتُها[٥].

٧- إنْ قيل: فما الفائدةُ في تخصيصِ نفَقةِ الرَّجعيَّةِ بكونِها حاملًا؟

---

= ومَذهَبُ المالِكيَّةِ والشَّافِعيَّةِ أنَّه يجبُ لها السُّكْنى، لا النَّفَقةُ. يُنظر: ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٥/ ٥٥٣)، ((العزيز شرح الوجيز)) للرافعي (١٠/ ٤٠).

وأمَّا البائنُ الحاملُ فلها النَّفَقةُ والسُّكْنى بالإجماعِ، وممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الكاساني، وابنُ قدامة، والقرطبي. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٣/ ٢٠٩)، ((المغني)) لابن قدامة (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٦٨).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧). وذلك بالإجماعِ كما تقدَّم.

قيل: ليس في الآيةِ ما يقتضي أنَّه لا نفقةَ للرَّجعيَّةِ الحائلِ، بل الرَّجعيَّةُ نَوعانِ قد بيَّن الله حُكمَهما في كتابِه: حائلٌ: فلها النَّفقةُ بعَقدِ الزَّوجيَّةِ؛ إذ حُكمُها حُكمُ الأزواجِ، أو حاملٌ: فلها النَّفقةُ بهذه الآيةِ إلى أنْ تضَع حملَها، فتصيرَ النَّفقةُ بعدَ الوضعِ نفقةَ قريبٍ لا نفقةَ زوجٍ، فيُخالِفَ حالُها قبْلَ الوضعِ حالَها بعْدَه؛ فإنَّ الزَّوجَ يُنفِقُ عليها وحْدَه إذا كانت حاملًا، فإذا وضَعت صارتْ نفقتُها على مَن تجبُ عليه نفقةُ الطِّفلِ، ولا يكونُ حالُها في حالِ حملِها كذلك، بحيث تجبُ نفقتُها على مَن تجبُ عليه نفقةُ الطِّفلِ؛ فإنَّه في حالِ حملِها جزءٌ مِن أجزائِها، فإذا انفَصل كان له حُكمٌ آخَرُ، وانتقلت النَّفقةُ مِن حُكمٍ إلى حكمٍ، فظهَرت فائدةُ التَّقييدِ، وسرُّ الاشتراطِ، واللهُ أعلمُ بما أراد مِن كلامِه[1].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ استَدَلَّ بعُمومِه مَن أوجَبَ النَّفَقةَ للحامِلِ المُتوفَّى عنها[2].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ فائِدةُ ذِكرِ الغايةِ فيه: رَفْعُ توَهُّمِ أنَّ النَّفَقةَ تَتقَيَّدُ بمُضِيِّ مِقدارِ عِدَّةِ الأقراءِ، أو أنَّه إذا طالت

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٥/ ٤٨٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

وهو قولُ شُرَيحٍ، وابنِ سِيرينَ، والشَّعْبيِ، وأبي العاليةِ، والنَّخَعيِّ، وجُلاس بنِ عَمرٍو، وحمَّادِ ابنِ أبي سُلَيمانَ، وأيُّوبَ السَّخْتِيانيِّ، وسُفْيانَ الثَّوريِّ، وأبي عُبَيدٍ، ورُوِيَ عن عليٍّ، وعبدِ الله بن مسعود، وابنِ عُمَرَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٨٥).

واتَّفقَتِ المَذاهِبُ الفقهيَّةُ الأربَعةُ على أنَّ المُعتَدَّةَ مِن وَفاةِ زَوجِها لا نَفَقةَ لها حتَّى لو كانت حامِلًا. يُنظر: ((البحر الرائق)) لابن نُجَيم (٤/ ٢١٧)، ((منح الجليل)) لِعُلَيْش (٤/ ٣١٩)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٩/ ٦٨)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٢٣٢).

وهو قولُ سعيدِ بنِ المُسَيِّبِ، وعَطاءٍ، والحسَنِ، وعِكْرِمةَ، وعبدِ الملكِ بنِ يَعْلَى، ويحيى الأنصاريِّ، ورَبيعةَ، وإسحاقَ، ورُوِيَ عن جابرِ بنِ عبدِ الله، وابنِ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٨٥).

مُدَّةُ الحَملِ لا تَجِبُ النَّفَقةُ؛ مِن الإطالةِ[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يَعني حَقَّ الرَّضاعِ وأُجرتَه، واستُدِلَّ به على أنَّ اللَّبَنَ وإنْ خُلِقَ لمَكانِ الوَلَدِ فهو مِلْكٌ لها، وإلَّا لم يكُنْ لها أن تأخُذَ الأجْرَ[٢].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ حَقَّ الرَّضاعِ والنَّفَقةِ: على الأزواجِ في حَقِّ الأولادِ[٣]. فقد أوْجَب الله تعالى نَفَقةَ الولدِ حَملًا ورَضيعًا بواسِطةِ الإنفاقِ على الحاملِ والمُرْضِعِ؛ فإنَّه لا يُمكِنُ رَزْقُه بدونِ رَزْقِ حامِلِه ومُرْضِعِه، وفي ذلك تنبيهٌ على أنَّ نفقةَ الوَلَدِ على أبيه أيضًا بعدَ فِطامِه؛ فإنَّه إذا كان في حالِ اختِفائِه وارتضاعِه أوجَبَ نفقةَ مَن تَحمِلُه وتُرضِعُه -إذْ لا يُمكِنُ الإنفاقُ عليه إلَّا بذلك- فالإنفاقُ عليه بعدَ فِصالِه إذا كان يُباشِرُ الارتِزاقَ بنَفْسِه: أَولى وأَحرى. وهذا مِن حُسْنِ الاستِدلالِ؛ فقد تَضَمَّنَ الخِطابُ التَّنبيهَ بأنَّ الحُكْمَ في المسكوتِ أَولى منه في المنطوقِ، وتَضَمَّنَ تعليلَ الحُكْمِ بكَونِ النَّفَقةِ إنَّما وَجَبَتْ على الأبِ لأنَّه هو الَّذي له الوَلَدُ دونَ الأمِّ، ومَن كان الشَّيءُ له كانت نَفَقتُه عليه؛ ولذا سُمِّيَ الوَلَدُ كَسْبًا في قَولِه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ [المسد: ٢]، وفي قَولِه: ((إنَّ أطْيَبَ ما أكَلَ الرَّجُلُ مِن كَسْبِه، وإنَّ ولدَه مِن كَسْبِه))[٤].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٤/ ١٠٦).

والحديث أخرجه مِن طُرقٍ: أبو داودَ (٣٥٢٨) باختلافٍ يسيرٍ، والنَّسائيُّ (٤٤٥٢)، وابنُ ماجه (٢١٣٧)، وأحمدُ (٢٤٠٣٢) واللَّفظُ لهم مِن حديثِ عائشةَ رضيَ الله عنها.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٢٦٠)، وابنُ حزم في ((المحلى)) (٨/ ١٠٢)، وابن =

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فيه أنَّ الأُمَّ إذا طَلَبَت إرضاعَه بأُجرةِ مِثْلٍ، وَجَب على الأبِ دَفْعُها إليها، وليس له أن يَستَرضِعَ غَيْرَها[١].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ فيه دَليلٌ على أنَّ الأُمَّ أَولى بالحَضانةِ[٢].

١٤- قال اللهُ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ بيَّن أنَّ النَّسَبَ للرِّجالِ، بقَولِه تعالى: ﴿لَكُمْ﴾[٣].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأُجرةَ إنَّما تُستَحَقُّ بالفَراغِ مِن العَمَلِ[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّ ما لا يُمكِنُ تَعريتُه مِن المجهولِ، ولا يُضْبَطُ بالتَّسميةِ في الإجاراتِ: جائزٌ[٥].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ ثُبوتُ عِوَضِ الإجارةِ بالمَعروفِ؛ فقد أمَرَ بإيتائِهنَّ أجورَهنَّ بمُجَرَّدِ الإرضاعِ[٦].

١٨- مَذهَبُ مالِكٍ وأحمَدَ بنِ حَنبَلٍ المشهورُ عنه، وغَيرِهما: أنَّ كُلَّ مَن

---

= الملقِّن في ((البدر المنير)) (٨/ ٣٠٨)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢١٣٧)، وحسَّنه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٠/ ٣٤).

وقال ابن كثير في ((إرشاد الفقيه)) (٢/ ٤١٩): (له طُرقٌ مُتعدِّدةٌ، بعضُها على شرطِ الصَّحيحَينِ).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٢٣).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقَصَّاب (٤/ ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ١٦٤).

أدَّى عن غَيرِه واجِبًا فله أن يَرجِعَ به عليه إذا لم يكُنْ مُتبَرِّعًا بذلك، وإن أدَّاه بغيرِ إذْنِه؛ مِثلُ مَن قَضى دَيْنَ غَيرِه بغَيرِ إذْنِه، سواءٌ كان قد ضَمِنَه بغَيرِ إذنِه وأدَّاه بغَيرِ إذنِه، أو أدَّاه عنه بلا ضَمانٍ، وكذلك مَنِ افْتَكَّ أسيرًا مِن الأَسْرِ بغيرِ إذْنِه يَرْجِعُ عليه بما افْتَكَّه به، وكذلك مَن أدَّى عن غَيرِه نَفَقةً واجِبةً عليه، مِثلُ أنْ يُنفِقَ على ابنِه أو زَوجتِه أو بهائِمِه، لا سيَّما إذا كان للمُنفِقِ فيها حقٌّ، مِثلُ أنْ يكونَ مُرتَهِنًا أو مُستأجِرًا، أو كان مُؤتَمَنًا عليها، مِثلُ المُودِعِ، ومِثلُ رادِّ العَبدِ الآبِقِ، ومِثلُ إنفاقِ أحدِ الشَّريكَينِ على البهائِمِ المُشتَرَكةِ، وقد دلَّ على هذا الأصلِ قَولُه تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾، فأمَرَ سُبحانَه بإيتاءِ الأجرِ بمُجَرَّدِ إرضاعِهنَّ، ولم يَشتَرِطْ عَقْدَ استِئجارٍ، ولا إذْنَ الأبِ لها في أنْ تُرْضِعَ بالأجرِ، بل لَمَّا كان إرضاعُ الطِّفلِ واجِبًا على أبيه فإنْ أرضَعَتْه المرأةُ استحَقَّتِ الأجرَ بمُجَرَّدِ إرضاعِها[1].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أنَّ الإجارةَ تكونُ على كلِّ ما يُستوفَى مع بقاءِ أصْلِه، سواءٌ كانت عَينًا أو مَنفَعةً، فلمَّا كان لَبَنُ المُرضِعِ يُستوفَى مع بَقاءِ الأصلِ، ونَقْعُ البِئرِ[2] يُستوفَى مع بقاءِ الأصلِ؛ جازتِ الإجارةُ عليه كما جازتْ على المنفعةِ؛ فإنَّ هذه الأعيانَ يُحْدِثُها اللهُ شيئًا بعدَ شيءٍ وأصلُها باقٍ، كما يُحْدِثُ اللهُ المنافعَ شيئًا بعدَ شيءٍ وأَصْلُها باقٍ؛ ولهذا جاز وَقْفُ هذه الأصولِ لاستِمرارِ هذه الفوائدِ؛ أعيانِها ومَنافِعِها[3].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٣٤٩). ويُنظر أيضًا: ((الذخيرة)) للقرافي (٩/ ٢٠٣)، ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ٢٢٨).

(٢) نَقْعُ البِئْرِ: ما اجتَمَع في البِئرِ مِن الماءِ، أو فَضلُ مائِها. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٠/ ٢٣٠).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ صِحَّةُ المعاوَضةِ بثَمَنِ المِثْلِ[١].

٢١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ الائتِمارُ بمَعروفٍ يُشعِرُ بأنَّ للعُرفِ دَخلًا في ذلك[٢].

٢٢- قولُه تعالى: ﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ قيَّدَ الائتمارَ بالمعروفِ، أي: ائتمارًا مُلابِسًا لِمَا هو المعروفُ في مِثْلِ حالِهِمْ وقَومِهم، أي: مُعتادٌ مَقبولٌ، فلا يَشتَطُّ الأبُ في الشُّحِّ، ولا تَشتَطُّ الأمُّ في الحِرصِ[٣].

٢٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأُمَّ لا تُجبَرُ على الرَّضاعِ حيثُ يُوجَدُ غيرُها، وقَبِلَ الصَّبيُّ ثَدْيَها، وإلَّا أُجبِرَت عليه[٤].

٢٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أصلٌ في وُجوبِ النَّفَقةِ للوَلَدِ على الوالِدِ دونَ الأُمِّ[٥].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ أنَّ الأمَّ إذا أرادتِ الإجحافَ بالأبِ في إغلاءِ أُجرةِ الرَّضاعِ كان للأَبِ دَفْعُه إلى أجنبيَّةٍ، ولم يُجبَرِ الأبُ على أكثَرَ مِن أُجرةِ مِثْلِها في إرضاعِها[٦].

٢٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ فيه أنَّ النَّفَقةَ يُراعَى فيها حالُ المُنفِقِ يَسارًا وإعسارًا، وأنَّ نَفَقةَ المُعسِرِ

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٩١).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٦).

أَقَلُّ مِن نَفَقةِ المُوسِرِ[١].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أنَّ الزَّوجَ يَجِبُ عليه أنْ يُنْفِقَ على زَوجتِه ولو كانت غَنيَّةً، ولِقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((لَهُنَّ عليكم رِزْقُهنَّ وكِسْوَتُهنَّ بالمعروفِ))[٢]، لكنْ ينبغي للزَّوجةِ إذا كان زوجُها فقيرًا وليس ذا سَعَةٍ مِن المالِ؛ ينبغي لها أنْ تُساعِدَه على مَؤونةِ البيتِ، ومَؤونةِ العيالِ، ومَؤونةِ نَفْسِها أيضًا[٣].

٢٨- قولُه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ هو حَثٌّ على التَّوسُّعِ في النَّفَقةِ لِمَن وَسَّع اللهُ عليه[٤]، فالمؤمِنُ في حالِ غِناه يَزيدُ على نَفَقتِه في حالِ فَقْرِه، كما قال بَعضُ السَّلَفِ: (إنَّ المؤمِنَ يأخُذُ عن اللهِ أدَبًا حَسَنًا؛ إذا وسَّعَ اللهُ عليه وسَّع على نَفْسِه، وإذا ضَيَّقَ عليه ضَيَّق على نَفْسِه)، ثمَّ تلا قَولَه تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، لكِنْ يَكونُ في حالِ غِناه مُقتَصِدًا غَيرَ مُسرِفٍ[٥].

٢٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾ أنَّ نَفْسَ المالِ يُسَمَّى رِزْقًا، لا أنَّ اسمَ الرِّزقِ لا يقعُ إلَّا على ما استُهْلِك بالأكلِ واللِّباسِ وما أشبَهَهما[٦].

٣٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ استَدَلَّ به مَن قال: لا فَسْخَ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٨).

(٢) أخرجه مسلمٌ (١٢١٨) مطوَّلًا مِن حديثِ جابرٍ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٦).

(٥) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٨).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٧).

بالعَجزِ عن الإنفاقِ للزَّوجةِ[١].

٣١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ أنَّ مَن وَجَبَ عليه نَفَقةُ قَوم فلَمْ يَقْدِرْ على تمامِها، لم يَلْزَمْه الإقحامُ على ما لا يَحِلُّ له، ووَجَبَ عليه الاقتِصارُ على ما أُوتيَ مِن الرِّزقِ، وعلى مَن يَعولُهم الصَّبرُ معه على انتِقالِ حالِه مِن العُسْرِ إلى اليُسْرِ الَّذي وَعَدَه اللهُ في هذه الآيةِ[٢].

٣٢- قال اللهُ تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ هذا مُناسِبٌ للحِكمةِ والرَّحمةِ الإلهيَّةِ؛ حيثُ جَعَل كُلًّا بحَسَبِه، وخَفَّف عن المُعسِرِ، وأنَّه لا يُكَلِّفُه إلَّا ما آتاه، فلا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها في بابِ النَّفَقةِ وغَيرِها[٣].

٣٣- قولُه تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ فيه تطييبٌ لقلْبِ المُعسِرِ، وتَرغيبٌ له في بذْلِ مجهودِه[٤].

٣٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ هذه بِشارةٌ للمُعسِرينَ أنَّ اللهَ تعالى سيُزيلُ عنهم الشِّدَّةَ، ويَرفَعُ عنهم المَشقَّةَ[٥].

٣٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ لا يُنافي قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٨).

مذهبُ الحنفيَّةِ أنَّ مَن أعسَر بنفقةِ امرأةٍ لم يُفرَّقْ بيْنَهما. يُنظر: ((العناية شرح الهداية)) للبابَرْتي (٤/ ٣٨٩).

ومذهبُ الجمهورِ مِن المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ -في الأظهرِ-، والحنابلةِ أنَّه إذا أعسَرَ الزَّوجُ بالنَّفَقةِ ولم تَصبِرِ الزَّوجةُ، فلها الفَسخُ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير (٢/ ٥١٨)، ((منهاج الطالبين)) للنووي (ص: ٢٦٥)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧١).

مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا﴾ [الشرح: ٦]؛ لأنَّ (مع) بمعنى (بَعْدَ)، وإلَّا فيَلزَمُ اجتِماعُ الضِّدَّينِ، وهو مُحالٌ[١].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ ممَّا قَبْلَه مِنَ الحثِّ على التَّقوى؛ كأنَّه قيلَ: كيفَ نَعمَلُ بالتَّقْوى في شأنِ المُعتدَّاتِ؟ فقيلَ: أسكِنوهُنَّ مَسْكنًا مِن حيثُ سكَنْتُم، أي: بعضَ مكانِ سُكْناكُم[٢].

- وهذِه الجملةُ وما أُلْحِقَ بها مِنَ الجُمَلِ إلى قولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ ...﴾ [الطلاق: ٨] إلخ؛ تَشريعٌ مُستأنَفٌ، فيه بَيانٌ لِما أُجْمِلَ في الآياتِ السَّابقةِ مِن قولِه: ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١]، وقولِه: ﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ [الطلاق: ٢]، وقولِه: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]؛ فتَتنزَّلُ هذِه الجُمَلُ مِنَ اللَّاتي قَبْلَها مَنزِلةَ البَيانِ لبَعضٍ، وبدَلِ الاشتِمالِ لبَعضٍ، وكلُّ ذلكَ مُقتضًى للفَصْلِ -أي: عدمِ العَطفِ بالواوِ-، وابْتُدِئَ ببَيانِ ما في ﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ [الطلاق: ١] مِن إجمالٍ[٣].

- وقولُه: ﴿مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾، أي: في البُيوتِ الَّتي تَسكُنونَها، أي: لا يُكلَّفُ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٥).

المُطلِّقُ بمَكانٍ للمُطلَّقةِ غيرَ بَيتِه، ولا يَمنَعُها السُّكنى ببَيتِه، وهذا تأْكيدٌ لقولِه: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾[1] [الطلاق: ١].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ بدَلٌ مُطابِقٌ، وهو بَيانٌ لقولِه: ﴿مِّنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾؛ فإنَّ مَسكَنَ المرْءِ هو وُجْدُه الَّذي وجَدَهُ غالبًا لِمَن لم يكُنْ مُقتِّرًا على نفْسِه[2].

- قولُه: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ المُضارَّةُ: الإضرارُ القويُّ، فكأنَّ المُبالَغةَ راجعةٌ إلى النَّهيِ، لا إلى المَنهيِّ عنه، أي: هو نهْيٌ شديدٌ[3].

- واللَّامُ في ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيْهِنَّ﴾ لتَعليلِ الإضرارِ، وهو قَيْدٌ جَرَى على غالِبِ ما يَعرِضُ للمُطلِّقينَ مِن مَقاصِدِ أهلِ الجاهليَّةِ، والإضرارُ بالمُطلَّقاتِ مَنْهيٌّ عنه، وإنْ لم يكُنْ لقصْدِ التَّضييقِ عليهِنَّ[4].

- وقولُه: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ خصَّ الأُمَّ بالمُعاتَبةِ؛ لأنَّ المَبذولَ مِن جِهَتِها هو لَبَنُها لوَلَدِها، وهو غيرُ مُتموَّلٍ ولا مَضْنونٍ به في العُرفِ، وخُصوصًا في الأُمِّ على الولَدِ، ولا كذلك المَبذولُ مِن جِهَةِ الأبِ؛ فإنَّه المالُ المَضنونُ به عادةً، فالأُمُّ إذَنْ أجْدرُ باللَّومِ، وأحقُّ بالعَتْبِ[5].

- وقولُه: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ عِتابٌ ومَوعظةٌ للأبِ والأمِّ بأنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٥٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣).

يُنزِلَ كلٌّ مِنْهُما نفْسَه مَنزلةَ ما لَو اجْتُلِبَتْ للطِّفلِ ظِئْرٌ[١]، فلا تَسألُ الأمُّ أكثرَ مِن أجْرِ أمثالِها، ولا يَشِحُّ الأبُ عمَّا يَبلُغُ أجرَ أمثالِ أمِّ الطِّفلِ. وسِينُ الاستِقبالِ مُستعمَلٌ في معْنى التَّأكيدِ، وهذا المعنى ناشئٌ عن جَعْلِ علامةِ الاستِقبالِ كِنايةً عن تجدُّدِ ذلك الفِعلِ في أزمنةِ المُستقبَلِ تَحقيقًا لتحصيلِه، وهذا الخبرُ مُستعمَلٌ كِنايةً أيضًا عن أمرِ الأبِ باستئجارِ ظِئْرٍ للطِّفلِ، بقَرينةِ تعليقِ ﴿لَهُۥ﴾ بقولِه: ﴿فَسَتُرۡضِعُ﴾، فاجتمَعَ فيه ثلاثُ كِناياتٍ: كِنايةٌ عن مَوعظةِ الأبِ، وكِنايةٌ عن مَوعظةِ الأمِّ، وكِنايةٌ عن أمْرِ الأبِ بالاسترضاعِ لولَدِه[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ تَذييلٌ لِمَا سبَقَ مِن أحكامِ الإنفاقِ على المُعتدَّاتِ والمُرضِعاتِ بما يَعُمُّ ذلك، ويعُمُّ كلَّ إنفاقٍ يُطالَبُ به المسلِمُ مِن مَفروضٍ ومَندوبٍ، أي: الإنفاقُ على قدْرِ السَّعَةِ[٣].

- ومعنى ﴿قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ جُعِلَ رِزقُه مقدورًا، أي: محدودًا بقدْرٍ مُعيَّنٍ، وذلك كنايةٌ عن التَّضييقِ، أي: مَن كانَ في ضيقٍ مِنَ المالِ فَلْيُنْفِقْ بما يَسمَحُ به رِزقُه بالنَّظرِ إلى الوفاءِ بالإنفاقِ، ومَراتبِه في التَّقديمِ[٤].

- قولُه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ تَعليلٌ لقولِه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ﴾، والمقصودُ مِنه إقناعُ المُنفَقِ عليه بألَّا يَطلُبَ مِنَ المُنفِقِ أكثرَ مِن مَقدرتِه[٥].

---

(١) هي المُرْضِعةُ غَيرَ ولَدِها. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَأكيدِ الوَعدِ للفُقراءِ بفتحِ أبوابِ الرِّزقِ، عاجِلًا أو آجِلًا، وهو وعْدٌ مِن اللهِ تعالَى للمُنفِقِ بعْدَ أنْ أمَرَه بالإنفاقِ في قولِه: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، فإذا قُيِّدَ مُطلَقُ الأمْرِ بما سبَقَ، وأنَّه حديثٌ مِن شأْنِ المُطلَّقاتِ والمُرضِعاتِ، يُقال: إنَّه لفُقراءِ الأزواجِ، وإذا تُرِكَ على إطلاقِه -ليكونَ استطرادًا في الكلامِ، على منوالِ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]-؛ يُقال: إنَّه موعدٌ لفُقراءِ ذلك الوقتِ، فيَدخُلُ فيه فُقراءُ الأزواجِ دُخولًا أوَّليًّا، وهذا أوفَقُ لتأليفِ النَّظمِ؛ ليَكونَ تخلُّصًا إلى قولِه: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطلاق: ٨]؛ لأنَّها كالخاتمةِ للتَّحريضِ على تَقوى اللهِ، وحِفظِ حُدودِه، والتَّفادي عن التَّجاوُزِ عنها. وقيل: لا يختصُّ هذا الوعدُ بفقراءِ ذلكَ الوقتِ، ولا بفقراءِ الأزواجِ مُطلَقًا، بل مَنْ أنفَقَ ما قَدَرَ عليه ولم يُقصِّرْ[1].

- وأيضًا قولُه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ تكملةٌ للتَّذييلِ؛ فإنَّ قولَهُ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ يُناسِبُ مضمونَ جُملةِ ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، وقولَه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ يُناسِبُ مضمونَ: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ ...﴾ إلخ، وهذا الكلامُ خبرٌ مُستعمَلٌ في بعثِ التَّرجِّي، وطرْحِ اليأسِ عن المُعسِرِ مِن ذَوي العِيَالِ، ومعناهُ: عسى أنْ يجعَلَ اللهُ بعدَ عُسْرِكم يُسْرًا لكم؛ فإنَّ اللهَ يجعَلُ بعدَ عُسرٍ يُسرًا، وهذا الخبرُ لا يَقْتَضي إلَّا أنَّ مِن تصرُّفاتِ اللهِ أنْ يجعَلَ بَعْدَ عُسرِ قومٍ يُسرًا لهم، فمَن كان في عُسرٍ رجَا أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٨٢، ٤٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٥).

يكونَ ممَّن يَشملُه فضلُ اللهِ، فيُبدِّلُ عُسرَه باليُسرِ[١].

- والإتيانُ بكلمتَيْ ﴿عُسْرٍ﴾ و﴿يُسْرًا﴾ نكرتَيْنِ غيرَ مُعرَّفتَيْنِ باللَّامِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ مِنَ التَّعريفِ معنى الاستِغراقِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٣٣).

## الآيات (٨-١٢)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَكَأَيِّن ﴾: بمعنى كَمْ، ويُرادُ بها التَّكثيرُ، وهي لَفْظةٌ مركَّبةٌ مِن كافِ التَّشبيهِ، و(أيٍّ)، والنُّونُ هي التَّنوينُ، أُثْبِتتْ في الخطِّ على غيرِ القياسِ[١].

﴿عَتَتْ ﴾: أي: تكبَّرَت، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على الاستِكبارِ[٢].

﴿نُّكْرًا ﴾: أي: مُنكَرًا فَظيعًا، وأصْلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ الَّتي يَسكُنُ إليها القَلبُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٩)، ((تفسير الرازي)) (٩/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٢/ ٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٤/ ١١٦، ١١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٣٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾: أي: جزاءَ ذَنْبِها، وعاقِبةَ ما عمِلتْ، أو ثقلَ عاقبةِ أمرِها، والوَبالُ: الوخامةُ، وسوءُ العاقبةِ، وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شيءٍ، وتجمُّعٍ[١].

﴿عَقِبَةُ﴾: عاقبةُ كلِّ شيءٍ: آخِرُه، أو: ما يُؤدِّي إليه السَّببُ المتقدِّمُ، والعاقبةُ تختصُّ بالثَّوابِ إذا أُطْلِقتْ، وقد تُستعمَلُ في العقوبةِ إذا أُضيفَتْ -كما هنا-، وأصلُ (عقب): تأخيرُ شيءٍ، وإتيانُه بعدَ غيرِه[٢].

﴿خُسْرًا﴾: أي: هَلاكًا وخُسْرانًا، وأصلُ (خسر): يدُلُّ على النَّقصِ[٣].

﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أي: العُقولِ، وأصْلُ (لبب) هنا: يدُلُّ على الخُلُوصِ والجَودةِ[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾

قَولُه: ﴿رَّسُولًا﴾ في نَصبِه أوجُهٌ مِنَ الإعرابِ:

**أحَدُها**: أنَّه بَدَلٌ مِن ﴿ذِكْرًا﴾ بدَلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّ بيْن القُرآنِ والرَّسولِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُلازَمةً ومُلابَسةً؛ فإنَّ الرِّسالةَ تحَقَّقَت له عندَ نُزولِ القُرآنِ عليه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٥١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٢).

**الثَّاني**: أنَّه بدَلُ كُلٍّ مِن كُلٍّ؛ جُعِلَ الرَّسولُ نَفْسَ الذِّكرِ مُبالَغةً فأُبدِلَ منه، أو يكونُ التَّقديرُ: ذِكرًا شَرَفَ رَسولٍ، أو ذِكرًا ذِكْرَ رَسولٍ، ويكونُ المرادُ بالذِّكرِ الشَّرفَ، وقد أقام المُضافَ إليه مُقامَ المُضافِ.

**الثالِثُ**: أنَّه مَفعولٌ به لِفعلٍ محذوفٍ، أي: أرسَلَ أو بَعَث رَسولًا، ودلَّ عليه ما تقدَّمَ مِن الكَلامِ.

**الرَّابِعُ**: أنَّه مَنصوبٌ على الإغراءِ، أي: اتَّبِعوا أو الْزَموا رَسولًا.

**الخامِسُ**: أنَّه مَفعولٌ به مَنصوبٌ بالمَصدَرِ ﴿ذِكْرًا﴾ في الآيةِ السَّابِقةِ. وقيلَ غَيرُ ذلك[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى متوعِّدًا مَنْ خالَف أمْرَه، وكذَّب رُسلَه، ومخبِرًا عمَّا حلَّ بالأُممِ السَّالفةِ بسببِ ذلك: وكَثيرٌ مِن القُرى الَّتي طغى أهلُها وتَكَبَّروا عن أمْرِ اللهِ ورُسُلِه، فحاسَبَهم اللهُ حِسابًا شَديدًا، وعذَّبَهم عَذابًا عَظيمًا مُنكَرًا، فذاقوا بذلك العَذابِ العاقِبةَ الوَخيمةَ، وكان آخِرُ أمْرِهم خُسْرانًا.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى ما أعدَّه لهم في الآخرةِ مِن عذابٍ، فيقولُ: هَيَّأَ اللهُ تعالى لهم عَذابًا شَديدًا في الآخِرةِ، فخافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه، يا أصحابَ العُقولِ، الَّذين آمَنوا.

ثمَّ يُذكِّرُ المؤمنينَ بكتابِه الَّذي أنزَله عليهم، ورسولِه الَّذي أرسَله إليهم، فيقولُ: قد أنزَلَ اللهُ إليكم -أيُّها المؤمِنونَ- القُرآنَ العَظيمَ، وأرسَلَ رَسولَه

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).

مُحمَّدًا يتلو عليكم آياتِ القُرآنِ المُوضِّحاتِ للهُدى والحَقِّ؛ ليُخرِجَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ الصَّادقينَ، فيقولُ: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ عَمَلًا صالِحًا يُدخِلْه اللهُ جنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ، ماكِثينَ فيها أبَدًا، قد وسَّع الله لِمَنْ آمَنَ به وعمِل صالحًا في الجنَّةِ رِزقَه مِن المَطاعِمِ والمَشارِبِ، وسائرِ ما أعدَّه لأوليائِه فيها.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، وسَعةِ عِلمِه، فيقولُ: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي خَلَق سَبْعَ سَمواتٍ، وخَلَق مِنَ الأرضِ مِثلَ عدَدِ السَّمَواتِ؛ سَبْعَ أَرَضينَ، يَتَنزَّلُ أمْرُ اللهِ لخَلْقِه بيْن السَّمَواتِ والأرَضِينَ؛ لِيَعلَمَ العِبادُ كَمالَ قُدرةِ اللهِ تعالى، وكَمالَ عِلْمِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى الأحكامَ والمواعِظَ، والتَّرغيبَ لِمن أطاع؛ حذَّر مَن خالَفَ، فقال تعالى[1]:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا ﴾.

أي: وما أكثَرَ القُرى الَّتي طغى أهلُها، فتَجاوَزوا أمْرَ اللهِ ورُسُلِه، وخالَفوا شَرْعَه، وتعَدَّوا حُدودَه، وبالَغوا في مَعصيتِه؛ فحاسَبَهم اللهُ حِسابًا أحصى عليهم فيه جميعَ ذُنوبِهم، فلم يَعْفُ لهم عن شَيءٍ منها[2]!

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣١٩). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٤، ١٦٥).
(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧١، ٧٢)، =

كما قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧].

---

= ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٤-١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٣، ٣٣٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالحِسابِ الشَّديدِ: الَّذي ليس فيه عَفوٌ ولا تجاوُزٌ عن الذُّنوبِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، وابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧).

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القَولُ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٢).

وقيل: المرادُ بالحِسابِ: العذابُ في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤).

قال أبو حيَّان: (والظَّاهرُ في ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ الجُمَلُ الأربعةُ، أنَّ ذلك في الدُّنيا؛ لقولِه بعدَها: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، وظاهرُه أنَّ المُعَدَّ عذابُ الآخرةِ، والحسابُ الشَّديدُ هو الاستِقصاءُ والمُناقَشةُ، فلم تُغتفَرْ لهم زَلَّةٌ، بل أُخِذوا بالدَّقائقِ مِن الذُّنوبِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٣).

وقيل: المرادُ بالحِسابِ: الاستِقصاءُ والمناقَشةُ في الآخِرةِ. وممَّن قال بهذا: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٥، ١٦٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ قال بعضُ المتأوِّلينَ: الآيةُ في الآخِرةِ، أي: ثَمَّ هو الحِسابُ والتَّعذيبُ والذَّوقُ وخَسارُ العاقِبةِ. وقال آخَرونَ: ذلك في الدُّنيا، ومعنى: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾، أي: لم نَغتفِرْ لها زَلَّةً، بل أُخِذَت بالدَّقائِقِ مِنَ الذُّنوبِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧).

وقال البِقاعي: (﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ أي: فتسَبَّبَ عن عَدَمِ شُكرِهم للإحسانِ أنْ أحصَيْنا أعمالَها. ولَمَّا كان ذلك على وَجهِ المُناقَشةِ على النَّقيرِ والقِطْميرِ بالمُجازاةِ على كُلِّ فِعلٍ بما يَليقُ به، قال: ﴿حِسَابًا شَدِيدًا﴾ بمعناه المُطابقيِّ مِن ذِكرِ الأعمالِ كُلِّها، والمجازاةِ عليها، وهذا هو المناقَشةُ، وهي أنَّ العامِلَ إذا أثَّرَ أثرًا بعَمَلِه هو كالنَّقشِ في الجامِدِ أثَّرَ المجازي له فيه أثَرًا بحَسَبِ عَمَلِه على سَبيلِ الاستِقصاءِ، وأمَّا الحِسابُ اليسيرُ فهو عَرْضُ الأعمالِ فقط من غيرِ جَزاءٍ على قَبيحِها، فهو دَلالةُ تَضَمُّنٍ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٦٥، ١٦٦).

وقال سبحانه: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٨، ٥٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٣].

﴿ وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾.

أي: وعذَّبْناهم عَذابًا عَظيمًا فَظيعًا مُنكَرًا(١).

قال تعالى حكايةً عن ذي القَرنَين: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧].

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴾.

أي: فذاقوا بذلك العَذابِ العاقِبةَ الوَخيمةَ؛ لِعُتُوِّهم عن أمرِ اللهِ ورُسُلِه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤، ٣٣٥).

قيل: المرادُ: عذابُ الآخِرةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣).

وقيل: المرادُ: الإهلاكُ في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرٗا﴾.

أي: وكان آخِرُ أمْرِهم الخَسارةَ في الدُّنيا والآخِرةِ[١].

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ١٠﴾.

﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾.

أي: هَيَّأَ اللهُ تعالى لهم عَذابًا شَديدًا في الآخِرةِ[٢].

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ ما حَلَّ بهذِه القريةِ العاتيةِ؛ أمَرَ المُؤمِنينَ بتَقْوى اللهِ تَحذيرًا مِن عِقابِه، ونبَّهَ على ما يحُضُّ على التَّقوى، وهو إنزالُ الذِّكْرِ؛ فقال[٣]:

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: فخافُوا اللهَ واحذَروا سَخَطَه وعَذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه، واجتِنابِ نَواهيه -يا أصحابَ العُقولِ الصَّافيةِ والأفهامِ المُستَقيمةِ، الَّذين آمَنوا باللهِ ورُسُلِه-، ولا تكونُوا مِثلَ كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ؛ فيُهلِكَكم اللهُ كما أهلَكَهم[٤].

﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

أي: قد أنزَلَ اللهُ إليكم -أيُّها المؤمِنونَ- القُرآنَ الَّذي يُذَكِّرُكم اللهُ به، ويُنَبِّهُكم على الإيمانِ باللهِ، والقيامِ بطاعتِه[١].

﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ ﴾.

أي: أرسَلَ اللهُ رَسولَه مُحمَّدًا يَتلو عليكم -أيُّها المؤمِنونَ- آياتِ القُرآنِ المُوضِّحاتِ للهُدى والحَقِّ على نحوٍ لا لَبْسَ فيه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٥، ٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).
وممَّن قال بأنَّ الذِّكرَ هنا بمعنى التَّذكيرِ: ابنُ جرير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).
وقال البِقاعي: (﴿ ذِكْرًا ﴾ أي: كاملًا، مذكورًا فيه غايةُ الشَّرفِ لكلِّ مَن يَقْبَلُه، بل تشرَّفت الأرضُ كلُّها بنُزولِه، ورُفع عنها العذابُ، وعمَّها النُّورُ والصَّوابُ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٣، ١٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).
قال ابن جُزَي: (الذِّكرُ هنا هو القرآنُ، والرَّسولُ هو محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإعرابُ ﴿ رَّسُولًا ﴾ مفعولٌ بفِعلٍ مُضمَرٍ تقديرُه: أرسَل رسولًا. وهذا الَّذي اختاره ابنُ عطيَّةَ، وهو أظهَرُ الأقوالِ. وقيل: إنَّ الذِّكْرَ والرَّسولَ معًا يُرادُ بهما القرآنُ، والرَّسولُ على هذا بمعنى الرِّسالةِ. وقيل: إنَّهما يُرادُ بهما القرآنُ على حذفِ مُضافٍ، تقديرُه: ذِكْرًا ذا رسولٍ. وقيل: ﴿ رَّسُولًا ﴾ مفعولٌ بالمصدرِ الَّذي هو الذِّكْرُ. وقال الزمخشريُّ: الرَّسولُ هو جبريلُ، بدَلٌ مِن الذِّكْرِ؛ لأنَّه نزَل به، أو سُمِّيَ ذِكْرًا لكثرةِ ذِكْرِه لله. وهذا كلُّه بعيدٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧). ويُنظر أيضًا ما تقدَّم في مُشكِلِ الإعرابِ (ص: ٩٥).

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾.

أي: ليُخرِجَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا بطاعةِ اللهِ مِن ظُلُماتِ الكُفرِ والجَهلِ والمعصيةِ إلى نورِ الإيمانِ والعِلمِ والطَّاعةِ(١).

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: ومَن يُؤمِنْ باللهِ ويَعمَلْ عَمَلًا صالِحًا بإخلاصٍ لله تعالى ووَفْقًا لشَرعِه، فإنَّ اللهَ يُدخِلُه في الآخِرةِ جَنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ أشجارِها، وقُصورِها(٢).

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

قال البِقاعي: (ذلك بأنْ يُصيِّرَهم مُتخَلِّقينَ بالقُرآنِ؛ لِيَكونوا مَظهَرًا له في حَرَكاتِهم وسَكَناتِهم، وأقوالِهم وأفعالِهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٩١).

أي: ماكِثينَ في تلك الجنَّاتِ أبَدًا، فلا يموتونَ فيها، ولا يُخرَجونَ منها[١].

﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾.

أي: قد وسَّع الله لِمَنْ آمَنَ به وعمِل صالحًا في الجنَّةِ رِزقَه مِن المَطاعِمِ والمَشارِبِ، وسائرِ ما أعدَّه لأوليائِه فيها، وطيَّبه لهم[٢].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الَّذي أوجَدَ مِنَ العَدَمِ بقُدْرتِه التَّامَّةِ سَبْعَ سَمواتٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا﴾ [الملك: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾.

أي: وخَلَق اللهُ مِنَ الأرضِ مِثلَ عَدَدِ السَّمَواتِ، فجَعَلَهنَّ سَبْعَ أَرَضينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٧٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٦). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يأخُذُ أحَدٌ شِبرًا مِن الأرضِ بغَيرِ حَقِّه إلَّا طَوَّقَه اللهُ إلى سَبْعِ أرَضِينَ يومَ القيامةِ))(١).

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾.

أي: يتنزَّلُ أمرُ اللهِ بيْن السَّمَواتِ والأَرَضِينَ(٢).

---

= قال ابنُ عطية: (لا خلافَ بينَ العلماءِ أنَّ السَّمواتِ سبعٌ...، وأمَّا الأرضُ فالجمهورُ على أنَّها سبعُ أرَضينَ، وهو ظاهرُ هذه الآيةِ، وأنَّ المماثلةَ إنَّما هي في العددِ، ويُستدلُّ بقولِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم: «مَن غصَب شبرًا مِن أرضٍ طُوِّقه مِن سبعِ أرَضينَ»، إلى غير هذا ممَّا ورَدت به روايات، ورُوي عن قومٍ مِن العلماءِ أنَّهم قالوا: الأرضُ واحدةٌ، وهي مماثِلةٌ لكلِّ سماءٍ بانفرادِها في ارتفاعِ جرمِها، وفي أنَّ فيها عالَمًا يَعبُدُ كما في كلِّ سماءٍ عالَمٌ يَعبُدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٧).

قيل: هي سَبعُ أَرَضِينَ طِباقٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، وممن اختاره: القرطبيُّ -ونسَبَه للجُمهورِ-، وابنُ كثير، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٤، ١٧٥)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٥).

قال ابنُ كثير: (واختَلَفوا هل هنَّ مُتراكِماتٌ بلا تفاصُلٍ، أو بيْن كُلِّ واحدةٍ والَّتي تليها خَلاءٌ؟ على قولَينِ. وهذا الخِلافُ جارٍ في الأفلاكِ أيضًا، والظَّاهِرُ أنَّ بيْن كُلِّ واحدةٍ مِنهنَّ وبيْن الأخرى مسافةً). ((البداية والنهاية)) (١/ ٣٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٢).

وقيل: هي سَبعُ أرَضِينَ مُطبَقةٌ بَعضُها على بَعضٍ مِن غَيرِ فُتوقٍ، بخِلافِ السَّمواتِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٥). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٦).

(١) رواه مسلم (١٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨١)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤١).

ممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المعنى: يَتنزَّلُ أمرُ الله بيْنَ السَّماءِ السَّابعةِ والأرضِ السَّابعةِ. أو: مِن السَّماءِ العُلْيا إلى الأرضِ السُّفْلى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والبَغَويُّ، والخازنُ. يُنظر: =

﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾.

أي: إنَّ الغايةَ المقصودةَ مِن الخَلقِ والأمرِ هي أن يَعلَمَ العِبادُ كَمالَ قُدرةِ اللهِ تعالى، وكَمالَ عِلْمِه؛ فهو بالِغُ القُدرةِ على فِعْلِ كُلِّ شَيءٍ، مُحيطٌ عِلمًا بكُلِّ شَيءٍ؛ فيَعبُدوه العِبادةَ الجامِعةَ لخَشيتِه ورَجائِه، والذُّلِّ والإخلاصِ له، وتَعظيمِه ومَحَبَّتِه(١).

---

= ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣١٠).

قال ابن جزي: (﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يحتملُ أن يريدَ بالأمرِ الوحيُ، أو أحكامُ الله وتقديرُه لخلقِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٨).

ممَّن اختار أنَّه الوحيُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثَّعْلَبي، والبَغَوي، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٥).

قال القصَّاب: (والأمرُ في هذا الموضِعِ -واللهُ أعلَمُ- إخبارٌ عن كلامِه جلَّ وعلا في كلِّ ما يُنزِلُه ممَّا يَتعبَّدُهم به مِن أمرٍ ونهْيٍ). ((النكت الدالة على البيان)) (٤/ ٣٥١).

ونسَبَ الماوَرْديُّ وابنُ الجَوزيِّ والقُرطبيُّ إلى الأكثَرينَ القولَ بأنَّ الأمرَ قضاءُ الله وقَدَرُه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٦).

قال أبو السُّعود والألوسيُّ: يَجْرِي أمْرُه وقضاؤُه بيْنَهنَّ، ويَنفُذُ ملكُه فيهنَّ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٤٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٦٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٨٣).

وقال السعدي: (أُنزِلَ الأمرُ، وهو الشَّرائِعُ والأحكامُ الدِّينيَّةُ الَّتي أوحاها إلى رُسُلِه؛ لتذكيرِ العِبادِ ووَعظِهم، وكذلك الأوامِرُ الكَونيَّةُ والقَدَريَّةُ الَّتي يُدَبِّرُ بها الخَلقُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٦)، ((الجواب =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ بيانٌ لأصحابِ الرِّئاسةِ ورِجالِ السِّياسةِ: أنَّ هَلاكَ الدُّنيا بفَسادِ الدِّينِ، وأنَّ أمْنَ القُرى وطُمأنينةَ العالَمِ بالحِفاظِ على الدِّينِ(١).

٢- قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في نِداءِ المُؤمِنينَ بوصْفِ (أُولِي الْأَلْبَابِ) إيماءٌ إلى أنَّ العقولَ الرَّاجحةَ تَدْعو إلى تَقْوى اللهِ؛ لأنَّها كَمالٌ نَفْسانيٌّ، ولأنَّ فَوائِدَها حَقيقيَّةٌ دائمةٌ، ولأنَّ بها اجتِنابَ المَضارِّ في الدُّنيا والآخِرةِ، وهذا الاتِّباعُ يُومِئُ إلى أنَّ قَبولَهمُ الإيمانَ عُنوانٌ على رَجاحةِ عُقولِهم(٢).

٣- قال الله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ فممَّا أرادَه اللهُ مِن خَلْقِه السَّمواتِ والأرضَ أنْ يَعْلَمَ النَّاسُ قُدرةَ اللهِ على كلِّ شيءٍ، وإحاطةَ عِلْمِه بكلِّ شيءٍ؛ لأنَّ خَلْقَ تلكَ المخلوقاتِ العظيمةِ، وتَسخيرَها، وتَدبيرَ نِظامِها في طُولِ الدَّهرِ؛ يدُلُّ أفكارَ المتأمِّلينَ على أنَّ مُبدِعَها يَقدِرُ على أمثالِها، فيَستَدِلُّوا بذلك على أنَّه قديرٌ على كلِّ شيءٍ؛ لأنَّ دَلالتَها على إبداعِ ما

---

= الصحيح)) لابن تيمية (١/ ٤٢٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٨)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٧٦-١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

قال الطوفي: (هذا تعليلٌ لخلقِ السَّمواتِ والأرضِ بعِلمِ المكلَّفينَ كمالَ قُدرةِ الله عزَّ وجلَّ وعِلمِه، أي: خلق ذلك لِتَعلَموا، فإن يكُنِ الأمرُ كذلك فتَحْتَه سرٌّ عجيبٌ، وإلَّا فاللَّامُ للعاقِبةِ، أو للأمرِ، أي: اعلَموا ذلك، أو خلقهُنَّ لِتَكونَ عاقبتُكم العِلمَ بكمالِ القُدرةِ بواسطةِ النَّظرِ، والأشْبَهُ الأوَّلُ). ((الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية)) (ص: ٦٤٥).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٦).

هو دونَها ظاهِرةٌ، ودَلالتَها على ما هو أعظمُ منها وإنْ كانت غيرَ مُشاهَدةٍ؛ فقياسُ الغائِبِ على الشَّاهِدِ يدُلُّ على أنَّ خالِقَ أمثالِها قادِرٌ على ما هو أعظَمُ، وأيضًا فإنَّ تدبيرَ تلكَ المخلوقاتِ بمِثْلِ ذلكَ الإتقانِ المُشاهَدِ في نظامِها، دليلٌ على سَعةِ عِلْمِ مُبدِعِها، وإحاطتِه بدقائقِ ما هو دونَها، وأنَّ مَن كان عِلْمُه بتلكَ المثابةِ لا يُظَنُّ بعِلْمِه إلَّا الإحاطةُ بجميعِ الأشياءِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ فيه تَذكيرٌ للمُسلِمينَ بوعْدِ اللهِ بنَصرِهم، ومَحْقِ عدُوِّهم[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فيه سؤالٌ: الإيمانُ هو التَّقوى في الحقيقةِ، وأُولو الألبابِ الَّذين آمَنوا كانوا مِن المتَّقينَ بالضَّرورةِ، فكيف يُقالُ لهم: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾؟

**الجوابُ**: للتَّقوى دَرَجاتٌ ومَراتِبُ؛ فالدَّرَجةُ الأُولى هي التَّقوى مِنَ الشِّركِ، والبَواقي هي التَّقوى مِنَ المعاصي الَّتي هي غيرُ الشِّركِ، فأهلُ الإيمانِ إذا أُمِروا بالتَّقوى كان ذلك الأمرُ بالنِّسبةِ إلى الكبائِرِ والصَّغائِرِ، لا بالنِّسبةِ إلى الشِّركِ[٣]. وكذلك التَّقوى بفِعلِ الطَّاعاتِ، مِن الواجباتِ والمُستحبَّاتِ، وقد يكونُ المرادُ طلبَ المداومةِ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾ حُجَّةٌ في أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى بنَفْسِه في السَّماءِ[٤]، ففيه دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى؛ مِن جهةِ ذِكْرِ نزولِ الأشياءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤١، ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٥٠).

مِن عِندِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا * رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ معلومٌ أنَّ الرَّسولَ نفْسَه لم يُنْزَلْ، بل أُبدِلَ الرَّسولُ مِن الذِّكْرِ؛ لأنَّ الرَّسولَ جاء بالذِّكْرِ، ولَمَّا كان الرَّسولُ المَلَكيُّ والرَّسولُ البَشَريُّ والذِّكْرُ المُنْزَلُ أُمورًا متلازِمةً يَلْزمُ مِن ثُبوتِ واحدٍ ثُبوتُ الآخَرَينِ، ومِن الإيمانِ بواحدٍ الإيمانُ بالآخَرَينِ؛ فيَلْزَمُ مِن كَونِ القرآنِ حقًّا كونُ جبريلَ ومحمَّدٍ حقًّا، وكذلك يَلْزَمُ مِن كونِ محمَّدٍ حقًّا كونُ جبريلَ والقُرآنِ حقًّا، ويَلْزَمُ مِن كونِ جبريلَ حقًّا كونُ القرآنِ ومحمَّدٍ حقًّا؛ ولهذا جَمَعَ اللهُ بيْنَ الإيمانِ بالملائكةِ والكُتُبِ والرُّسُلِ في مِثلِ قولِه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[٢] [البقرة: ٢٨٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ فيه سؤالٌ: كُلُّ مَنْ آمَنَ باللهِ فقد خَرَج مِن الظُّلُماتِ إلى النُّورِ، وإذا كان كذلك فحَقُّ هذا الكلامِ -وهو قَولُه تعالى: ﴿لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾- أن يُقالَ: (لِيُخْرِجَ الَّذينَ كَفَروا)؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: يمكِنُ أن يكونَ المرادُ: لِيُخرِجَ الَّذين يُؤمِنونَ، على ما جاز أن يُرادَ مِن الماضي المُستَقبَلُ، كما في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران: ٥٥]، أي: وإذ يقولُ اللهُ.

**الوَجهُ الثَّاني**: يُمكِنُ أن يكونَ المرادُ: لِيُخرِجَ الَّذين آمَنوا مِن ظُلُماتٍ تَحدُثُ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٣١٣).

لهم بعْدَ إيمانِهم[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فيه سُؤالٌ: أفردَ الضَّميرَ في هذه الآيةِ في قَولِه: ﴿يُؤْمِنۢ﴾، وقَولِه: (يَعْمَلْ)، وقَولِه: ﴿يُدْخِلْهُ﴾، وقَولِه: ﴿لَهُۥ﴾، وجمعَ في قَولِه: ﴿خَٰلِدِينَ﴾.

**والجوابُ**: أنَّ الإفرادَ باعتبارِ لَفظِ: (مَن)، والجَمْعَ باعتبارِ مَعناها، وهو كثيرٌ في القُرآنِ العَظيمِ. وفي هذه الآيةِ الكريمةِ رَدٌّ على مَن زَعَم أنَّ مُراعاةَ المعنى لا تجوزُ بَعْدَها مُراعاةُ اللَّفظِ؛ لأنَّه في هذه الآيةِ راعى المعنى في قَولِه: ﴿خَٰلِدِينَ﴾، ثمَّ راعى اللَّفظَ في قَولِه: ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾[٢]. فاللُّغةُ العَربيَّةُ يجوزُ فيها أنْ يَتعدَّدَ مَرجِعُ الضَّميرِ؛ فمَرَّةً يعودُ بالإفرادِ، ومَرَّةً يعودُ بالجَمعِ، بشَرطِ أنْ يكونَ مَرْجِعُ الضَّميرِ صالِحًا للإفرادِ والجَمعِ؛ ففي الآيةِ هنا عاد الضَّميرُ أوَّلًا باعتِبارِ اللَّفظِ، ثُمَّ باعتبارِ المعنى، ثُمَّ باعتبارِ اللَّفظِ[٣].

٧- الجَنَّةُ والنَّارُ موجودتانِ الآنَ؛ ولن تَفْنَيا أبَدَ الآبِدِينَ؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾[٤] [الأحزاب: ٦٤ - ٦٦].

٨- إنْ قلتَ: لِمَ جمَعوا السَّماءَ، فقالوا: (سمواتٍ)، وهلَّا راعَوْا فيها ما راعَوْا في الأرضِ، فإنَّها مقابلةٌ، فما الفرقُ بيْنَهما؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٢١).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٢٥٣).

**والجوابُ**: بيْنَهما فرقانِ: فرقٌ لفظيٌّ، وفرقٌ معنويٌّ؛ أمَّا اللَّفظيُّ فإنَّهم لو جمَعوا أرضًا على قياسِ جموعِ التَّكسيرِ لقالوا: آرُضٌ كأفلُسٍ، أو: آراضٌ كأجمالٍ، أو: أُرُوضٌ كفُلوسٍ، فاستَثقَلوا هذا اللَّفظَ؛ إذ ليس فيه مِن الفصاحةِ والحُسنِ والعُذُوبةِ ما في لفظِ السَّمواتِ، وأنت تجدُ السَّمعَ يَنبو عنه بقَدرِ ما يُستحسَنُ لفظُ السَّمواتِ، ولفظُ السَّمواتِ يَلِجُ في السَّمعِ بغيرِ استئذانٍ؛ لنصاعتِه وعذوبتِه، ولفظُ الأراضي لا يأذنُ له السَّمعُ إلَّا على كُرهٍ، ولهذا تفادَوْا مِن جمعِه إذا أرادوه بثلاثةِ ألفاظٍ تدُلُّ على التَّعدُّدِ، كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، كلُّ هذا تفاديًا مِن أن يُقالَ: أراض وآرُض.

وأمَّا الفرقُ المعنويُّ فإنَّ الكلامَ متى اعتمد به على السَّماءِ المحسوسةِ الَّتي هي السَّقفُ، وقُصِد به إلى ذاتِها دونَ معنى الوصفِ صحَّ جمعُها جمعَ السَّلامةِ؛ لأنَّ العددَ قليلٌ، وجمْعَ السَّلامةِ بالقليلِ أَولى؛ لقُربِه مِن التَّثنيةِ القريبةِ مِن الواحدِ، ومتى اعتَمد الكلامُ على الوصفِ ومعنى العُلا والرِّفعةِ جرَى اللَّفظُ مجرَى المصدرِ الموصوفِ به في قولِك: قَومٌ عَدْلٌ وزَورٌ، وأمَّا الأرضُ فأكثرُ ما تجيءُ مقصودًا بها معنَى التَّحتِ والسُّفلِ دونَ أن يُقصَدَ ذواتُها وأعدادُها، وحيثُ جاءت مقصودًا بها الذَّاتُ والعددُ أُتيَ بلفظٍ يدُلُّ على العددِ، كقولِه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾. وفرقٌ ثانٍ وهو أنَّ الأرضَ لها نسبةٌ لا إلى السَّمواتِ وسَعتِها، بل هي بالنِّسبةِ إليها كحَصاةٍ في صَحْراءَ، فهي وإنْ تعدَّدتْ فهي بالنِّسبةِ إلى السَّماءِ كالواحدِ القليلِ؛ فاختِير لها اسمُ الجنسِ[1]. وقيل: في إفرادِ لَفظِ (الأرضِ) دونَ أنْ يُؤْتَى به جمعًا كما أُتِيَ بلَفظِ السَّمواتِ؛ إيذانٌ بالاختلافِ بيْنَ حالَيْهِما[2].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١١٤، ١١٥). ويُنظر أيضًا: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ١٢١، ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٠). =

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ ليس في القُرآنِ آيةٌ تدُلُّ على عَدَدِ الأرَضِينَ بسَبعٍ مِثلِ عَدَدِ السَّمَواتِ سِوى هذه الآيةِ[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الأرضَ سَبْعٌ؛ فإنَّ المِثْلِيَّةَ هنا بالكيفيَّةِ مُتعذِّرةٌ، وإذا تَعَذَّرَت المِثْليَّةُ في الكيفيَّةِ لَزِمَ أنْ تكونَ المِثْليَّةُ في العَدَدِ، كما نقولُ: «سبحانَ اللهِ عَدَدَ خَلْقِه، والحَمدُ للهِ مِثْلَ ذلك» يعني: عَدَدَ خلْقِه[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ أنَّ صفةَ الخَلْقِ تدُلُّ على صِفاتٍ أُخرى لازِماتٍ لذلك، وهي: العِلمُ والقُدرةُ[٣]، فلا يمكنُ أن يكونَ خالقًا إلَّا أن يكونَ عالمًا قادرًا؛ لأنَّه لا يَخلُقُ مَن لا يَقدِرُ، ولا يَخلُقُ مَن لا يَعلَمُ، فلا بُدَّ أن يكونَ عالمًا قادرًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾؛ فذكَرَ العِلمَ والقُدرةَ بعْدَ أنْ ذكَرَ أنَّه خلَقَ، ولا يُمكِنُ أن يكونَ هناك خلْقٌ إلَّا أن يَعلَمَ كيف يَخلُقُ، ويَقدِرُ على ذلك[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ دَليلٌ على أنَّه سُبحانَه في السَّماءِ بنَفْسِه، وأنَّ الأمرَ يَنزِلُ منه إلى الأرَضينَ؛ فلولا ذلك ما كان لِلَفْظِ «التَّنزيلِ» مَعنًى[٥]!

---

= ويُنظر ما تقدَّم (٣٨/ ٢٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٨١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٥٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٦٥).

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٥٢).

١٣- قولُه تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ فيه تَنويهٌ بالقُرآنِ؛ لأنَّه مِن جُملةِ الأمرِ الَّذي يَتنزَّلُ بيْن السَّماءِ والأرضِ(١).

١٤- العِلمُ باللهِ وأسمائِه وصِفاتِه هو أشرَفُ العُلومِ على الإطلاقِ، وهو مَطلوبٌ لِنَفسِه، مُرادٌ لذاتِه؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾؛ فقد أخبَرَ سُبحانَه أنَّه خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ، ونزَّل الأمرَ بيْنَهنَّ؛ لِيَعلَمَ عِبادُه أنَّه بكُلِّ شَيءٍ عَليمٌ، وعلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ، فهذا العِلمُ هو غايةُ الخَلقِ المَطلوبةُ(٢).

١٥- اللهُ تعالى خَلَق الخَلْقَ وأوجَدَهم لِعبادتِه الجامِعةِ لخَشيتِه ورَجائِه ومحَبَّتِه، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وإنَّما يُعبَدُ اللهُ سُبحانَه بعْدَ العِلْمِ به ومَعرفتِه، فبذلك خَلَق السَّمَواتِ والأرضَ وما فيهما؛ للاستِدلالِ بهما على توحيدِه وعَظَمتِه، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾(٣).

١٦- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ فأخبَرَ عن قُدرتِه التَّامَّةِ؛ وسُلطانِه العظيمِ؛ لِيَكونَ ذلك باعثًا على تعظيم ما شرَعَ مِن الدِّينِ القَويمِ، كقولِه تعالى إخبارًا عن نوحٍ عليه السَّلامُ أنَّه قال لقَومِه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾(٤) [نوح: ١٥].

١٧- كثيرًا ما يَقرنُ اللهُ تعالى بيْن الخَلقِ والأمرِ، كما في قولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٢٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥٦).

سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ ﴾، وكما في قولِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤]؛ وذلك أنَّه الخالقُ الآمِرُ النَّاهي، فكما أنَّه لا خالقَ سِواه، فليس على الخَلقِ إلزامٌ ولا أمرٌ ولا نهْيٌ إلَّا مِن خالِقِهم، وأيضًا فإنَّ خَلْقَه للخَلقِ فيه التَّدبيرُ القَدَريُّ الكَونيُّ، وأمْرَه فيه التَّدبيرُ الشَّرعيُّ الدِّينيُّ، فكما أنَّ الخلقَ لا يَخرُجُ عن الحِكمةِ، فلم يَخلُقْ شيئًا عبَثًا؛ فكذلك لا يأمُرُ ولا يَنهى إلَّا بما هو عدلٌ وحِكمةٌ وإحسانٌ(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴾

- لَمَّا شُرِعَتْ للمُسلِمينَ أحكامٌ كثيرةٌ مِنَ الطلاقِ ولَواحِقِه، وكانتْ كلُّها تَكاليفَ قدْ تُحجِمُ بعضُ الأنفُسِ عن إيفاءِ حقِّ الامتثالِ لها تَكاسُلًا أو تَقصيرًا؛ رغَّبَ في الامتثالِ لها بقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴾ [الطلاق: ٢]، وقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤]، وقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ [الطلاق: ٥]، وقولِه: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧]، وحذَّرَ اللهُ النَّاسَ في خِلالِ ذلك مِن مُخالَفتِها بقولِه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق: ١]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ﴾ [الطلاق: ٢]؛ أعْقَبها بتَحذيرٍ عَظيمٍ مِنَ الوُقوعِ في مُخالَفةِ أحكامِ اللهِ ورُسلِه؛ لأنَّ الصَّغيرَ يُثيرُ الجليلَ، فذكَّرَ المُسلِمينَ -وليسوا ممَّنْ يَعْتُوا على أمرِ ربِّهم- بما حلَّ بأقوامٍ مِن عِقابٍ عَظيمٍ على قِلَّةِ اكتراثِهم بأمْرِ اللهِ ورُسلِه؛ لئلَّا يَسلُكوا سَبيلَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٥٠٢).

التَّهاوُنِ بإقامةِ الشَّريعةِ، فيُلْقي بهم ذلك في مَهْواةِ الضَّلالِ، وهذا الكلامُ مُقدِّمةٌ لِمَا يأتي مِن قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ الآياتِ؛ فالجُملةُ مَعطوفةٌ على مَجموعِ الجُمَلِ السَّابقةِ عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ[١].

- (كَأَيِّنْ) اسمٌ لعددٍ كثيرٍ مُبهَمٍ يُفسِّرُه ما يُميِّزُه بَعْدَه مِن اسمٍ مَجرورٍ بـ(مِنْ)، و(كَأَيِّنْ) بمعْنى (كم) الخبريَّةِ، والمقصودُ مِن إفادةِ التَّكثيرِ هنا تَحقيقُ أنَّ العذابَ الَّذي نالَ أهلَ تلكَ القُرى شَيءٌ مُلازِمٌ لجَزائِهم على عُتُوِّهم عن أمْرِ ربِّهم ورُسلِه، فلا يَتوهَّمُ مُتوهِّمٌ أنَّ ذلكَ مُصادَفةٌ في بَعضِ القُرى، وأنَّها غَيرُ مُطَّرِدةٍ في جَميعِهم، والمعنى: الإخبارُ بكَثرةِ ذلكَ باعتبارِ ما فُرِّعَ عليه مِن قولِه: ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا﴾؛ فالمُفرَّعُ هو المقصودُ مِنَ الخبرِ[٢].

- وإنَّما أُوثِرَ لفظُ (القريةِ) هنا دونَ الأُمَّةِ ونَحْوِها؛ لأنَّ في اجتِلابِ هذا اللَّفظِ تَعريضًا بالمُشرِكينَ مِن أهلِ مكَّةَ، ومُشايَعةً لهم بالنِّذارةِ؛ ولذلكَ كثُرَ في القرآنِ ذِكْرُ أهلِ القُرَى في التَّذكيرِ بعَذابِ اللهِ[٣].

- قولُه: ﴿عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا﴾ ضُمِّن معنى أعرَضَ، كأنَّه قيل: أعْرَضَتْ بسببِ عُتُوِّها[٤].

- والمُحاسَبةُ مُستعمَلةٌ في الجَزاءِ على الفِعلِ بما يُناسِبُ شِدَّتَه مِن شَديدِ العِقابِ؛ تَشبيهًا لتَقديرِ الجَزاءِ بإجراءِ الحِسابِ بيْن المُتعامِلينَ، قيل: هو الحِسابُ في الدُّنيا؛ ولذلكَ جاءَ ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا﴾ ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا﴾ بصِيغةِ الماضي،

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٣، ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤). ويُنظر أيضًا: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٦).

(٤) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٣٥٨).

والمعنى: فجازَيْناها على عُتُوِّها جزاءً يُكافِئُ طُغيانَها[١]. وقيل: الحِسابُ والعذابُ في قولِه: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾ في الآخِرةِ، وأتَى بذلك على لَفظِ الماضي تَحقيقًا له وتَقريرًا؛ لأنَّ المُنتظَرَ مِن وَعْدِ اللهِ ووَعيدِه آتٍ لا مَحالةَ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾

- قولُه: ﴿وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ إضافةُ الوبالِ إلى الأمرِ مِن إضافةِ المُسبَّبِ إلى السَّببِ، أي: ذاقوا الوبالَ الَّذي تسبَّبَ لهم فيه أمرُهم وشأنُهمُ الَّذي كانوا عليهِ[٣].

- وجِيءَ بفِعلِ (كانِ) بصِيغةِ المُضِيِّ؛ لأنَّ الحديثَ عن عاقبتِها في الدُّنيا تَغليبًا[٤].

- وفيه تَفظيعٌ لِمَا لَحِقَهم؛ مُبالَغةً في التَّحذيرِ ممَّا وقَعوا فيهِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾

- جُملةُ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بدَلُ اشتمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خُسْرًا ﴾، أو بدَلُ بعضٍ مِن كُلٍّ، والمرادُ عذابُ الآخِرةِ؛ لأنَّ الإعدادَ التَّهيئةُ، وإنَّما يُهَيَّأُ الشَّيءُ الَّذي لم يَحصُلْ، وإنْ جعَلْتَ الحسابَ والعذابَ المذكورَيْنِ آنِفًا حِسابَ الآخِرةِ وعذابَها، فجُملةُ ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ استِئنافٌ لبَيانِ أنَّ ذلكَ مُتزايدٌ غَيرُ مُخفَّفٍ مِنه؛ كقولِه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾[1] [النبأ: ٣٠].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ تَكريرٌ للوعيدِ، وبيانٌ لكَونِه مُترقَّبًا، كأنَّه قال: أعَدَّ اللهُ لهم هذا العذابَ؛ فلْيَكُنْ لكم ذلكَ يا أُولِي الألْبابِ مِنَ المُؤمِنينَ لُطْفًا في تَقْوى اللهِ وحَذَرِ عقابِه[2].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ هي الفصيحةُ، أي: إنْ عرَفْتُم ذلكَ فاتَّقوا اللهَ، وهذا التَّفريعُ المقصودُ على التَّكاليفِ السَّابقةِ، وخاصَّةً على قولِه: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق: ١]، وهو نَتيجةُ ما مُهِّدَ له به مِن قولِه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ ﴾[3].

- والإتيانُ بصِلةِ المَوصولِ ﴿ءَامَنُواْ ﴾ إشعارٌ بأنَّ الإيمانَ سَببٌ للتَّقوى، وجامِعٌ لمُعظمِها، ولكنَّ للتَّقوى دَرجاتٍ هي التي أُمِروا بأنْ يُحيطوا بها[4].

- وفي هذِه الجُملةِ ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا * رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ معْنى العِلَّةِ للأمرِ بالتَّقوى؛ لأنَّ إنزالَ الكِتابِ نَفْعٌ عظيمٌ لهم، مُستحِقٌّ شُكرَهُم عليه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٦، ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وتأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (قَدْ)؛ للاهتِمامِ به، وبَعْثِ النُّفوسِ على تَصفُّحِ هذا الكتابِ، ومُتابَعةِ إرشادِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[١].

- قولُه: : ﴿ذِكْرًا﴾ الذِّكْرُ هنا: هو القُرآنُ، وقد سُمِّيَ بالذِّكْرِ في آياتٍ كثيرةٍ؛ لأنَّه يَتضمَّنُ تَذكيرَ الناسِ بما هُمْ في غفْلةٍ عنه مِن دَلائلِ التوحيدِ وما يتفرَّعُ عنها مِن حُسْنِ السُّلوكِ، ثُمَّ تَذكيرَهم بما تَضمَّنَه مِنَ التَّكاليفِ. وقيل: قولُه: ﴿ذِكْرًا﴾ المرادُ به النبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، فعُبِّرَ عنه بالذِّكرِ؛ لمُواظَبتِه على تِلاوةِ القُرآنِ، أو تَبليغِه والتَّذكيرِ به، وعُبِّرَ عن إرسالِه بالإنزالِ؛ لأنَّه مُسبَّبٌ عن إنزالِ الوَحيِ إليه، وأُبدلَ منهُ ﴿رَّسُولًا﴾ للبيانِ. وقيل: ﴿ذِكْرًا﴾ المرادُ به جبريلُ سمِّي به لكثرةِ ذكرِه، أو لنزولِه بالذِّكرِ الذي هو القرآنُ، كما يُنبئُ عنه إبدالُ قولِه تعالَى ﴿رَّسُولًا﴾ منْهُ، أو لأنَّه مذكورٌ في السَّمواتِ وفي الأممِ. وقد يُفسَّرُ الذِّكرُ حينئذٍ بالشَّرفِ كأنَّ جبريلَ في نفسِه شرفٌ، إمَّا لأنَّه شرفٌ للمنزَلِ عليه، وإما لأنَّه ذو مجدٍ وشرفٍ عند الله، كقولِه تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[٢] [التكوير: ٢٠].

- وجُعِلَ إنزالُ الذِّكْرِ إلى المُؤمِنينَ؛ لأنَّهُمُ الَّذينَ انتفَعوا بهَ، وعمِلوا بما فيه، فخُصِّصوا هنا مِن بيْنِ جَميعِ الأُمَمِ؛ لأنَّ القُرآنَ أُنزِلَ إلى النَّاسِ كلِّهِم[٣].

- قولُه: ﴿رَّسُولًا﴾ مَفعولٌ لفِعلٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾، وتَقديرُه: وأرسَلَ إليكم رَسولًا، ويكونَ حذْفُه إيجازًا. وقيل: هو بدَلٌ مِن ﴿ذِكْرًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٠، ٥٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).

بدَلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ بَيْنَ القُرآنِ والرسولِ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُلازَمةً ومُلابَسةً؛ فإنَّ الرِّسالةَ تحقَّقَتْ له عِندَ نُزولِ القرآنِ عليهِ، فقَدْ أُعْمِلَ فِعلُ ﴿أَنزَلَ﴾ في ﴿رَّسُولًا﴾ تبَعًا لإعمالِه في المُبدَلِ مِنه باعتبارِ هذِه المقارَنةِ، واشتمالِ مَفهومِ أحَدِ الاسمَيْنِ على مَفهومِ الآخَرِ[1].

- وفي قولِه: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ جُعِلَتْ عِلَّةُ إنزالِ الذِّكْرِ إخراجَ المُؤمِنينَ الصَّالِحينَ مِنَ الظلماتِ إلى النُّورِ، وإنْ كانتْ عِلَّةُ إنزالِه إخراجَ جَميعِ النَّاسِ مِن ظُلماتِ الكفْرِ وفَسادِ الأعمالِ إلى نُورِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحاتِ؛ نظَرًا لخُصوصِ الفريقِ الَّذي انتفَعَ بهذا الذِّكْرِ اهتمامًا بشَأنِهم، وليس ذلك بِدالٍّ على أنَّ العِلَّةَ مَقصورةٌ على هذا الفريقِ، ولكنَّه مُجرَّدُ تَخصيصٍ بالذِّكْرِ[2].

- قولُه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ عُطِفَ على الأمرِ بالتَّقوى والتَّنويهِ بالمتَّقينَ والعِنايةِ بهم هذا الوعدُ على امتثالِهم بالنَّعيمِ الخالدِ بصِيغةِ الشَّرطِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلكَ نَعيمٌ مُقيَّدٌ حُصولُه لراغبِيه بأنْ يُؤمِنوا ويَعمَلوا الصَّالحاتِ[3].

- قولُه: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ عائدٌ إلى اسمِ الجَلالةِ مِن قولِه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾، وعلى قِراءةِ ﴿نُدْخِلْهُ﴾[4] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧).

ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٧، ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٣٨).

(٤) قرأ المَدَنيَّانِ نافعٌ وأبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ: بالنُّونِ، وقرأ الباقونَ بالياءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٤٨).

- بنُونِ العظَمةِ- فيَكونُ فيه الْتفاتٌ[١].

- وجُملةُ ﴿قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾ حالٌ مِنَ الضَّميرِ المنصوبِ في ﴿يُدۡخِلۡهُ﴾؛ ولذلكَ فذِكرُ اسمِ الجَلالةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لتَكونَ الجُملةُ مُستقِلَّةً بنفْسِها[٢].

- وتَنكيرُ ﴿رِزۡقًا﴾ فيه معْنى التَّعجُّبِ والتَّعظيمِ لِمَا رُزِقَ المؤمِنُ مِنَ الثَّوابِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾

- قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ اسمُ الجَلالةِ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: هُوَ اللهُ، وهذا مِن حذْفِ المُسنَدِ إليه لمُتابَعةِ الاستِعمالِ[٤]؛ فإنَّه بعْدَ أنْ جَرَى ذِكْرُ شؤونٍ مِن عَظيمِ شُؤونِ اللهِ تعالَى ابتِداءً مِن قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۚ﴾ [الطلاق: ١] إلى هُنا، فقَدْ تكرَّرَ اسمُ الجلالةِ وضميرُه والإسنادُ إليه زُهاءَ ثلاثينَ مرَّةً؛ فاقْتَضى المَقامُ عَقِبَ ذلكَ أنْ يُزادَ تَعريفُ النَّاسِ بهذا العَظيمِ، ولَمَّا صارَ البِساطُ مَليئًا بذِكْرِ اسمِه، صَحَّ حذْفُه عِندَ الإخبارِ عنه إيجازًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٨).

(٤) وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٩).

- والموصولُ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ صِفةٌ لاسمِ الجلالةِ، وقدْ ذُكِرَتْ هذِه الصِّلةُ لِمَا فيها مِنَ الدَّلالةِ على عَظيمِ قُدرتِه تعالَى، وعلى أنَّ النَّاسَ -وهُمْ مِن جُملةِ ما في الأرضِ- عَبيدُه؛ فعَليهم أنْ يتَّقُوه، ولا يَتعدَّوْا حُدودَه، ويُحاسِبوا أنفُسَهم على مَدى طاعتِهِمْ إيَّاه؛ فإنَّه لا تَخْفَى عليه خافيةٌ، وأنَّه قديرٌ على إيصالِ الخَيرِ إليهم إنْ أطاعوهُ، وعِقابِهم إنْ عَصَوْه[1].

- قولُه: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿خَلَقَ﴾ أو بـ﴿يَتَنَزَّلُ﴾، أو بمُضْمَرٍ يَعُمُّهما؛ فإنَّ كُلًّا مِنهما يدُلُّ على كَمالِ قُدرتِه وعِلْمِه، أي: فعَلَ ذلكَ لتعلَمُوا أنَّ مَن قَدَرَ على ما ذُكِرَ قادرٌ على كلِّ شيءٍ. ويجوزُ أن يكونَ العاملُ في اللَّامِ بيانَ ما ذُكِرَ مِنَ الخَلْقِ وتنزُّلِ الأمرِ، أي: أوْحَى ذلكَ وبيَّنَه لتعلَمُوا بما ذكرَ مِنَ الأمورِ الَّتي تُشاهِدونَها والَّتي تتَلقَّوْنَها مِنَ الوحيِ مِن عَجائبِ المصنوعاتِ أنَّه لا يَخرُجُ عن قُدرتِه وعِلْمِه شيءٌ ما أصلًا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٥).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ التَّحريمِ

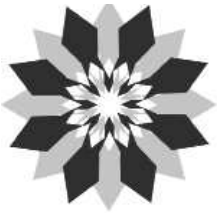

# سورةُ التَّحريمِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (التَّحريمِ)[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ التَّحريمِ مَدَنيَّةٌ[٢]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

بَيانُ مَعالِمَ وهداياتٍ تتعلَّقُ بالأُسرةِ[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- حِكايةُ جانبٍ مِمَّا دار بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وبَعضِ زَوجاتِه، وعتابُ اللهِ تعالى له، وعِتابُ الأزواجِ الطَّاهِراتِ، ودفاعُ اللهِ عن نبيِّه.

٢- توجيهُ النِّداءِ إلى المؤمِنينَ، وأمْرُهم بوقايةِ أنفُسِهم وأهليهم مِن جَهنَّمَ.

---

(١) سُمِّيَتِ السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِه تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٢).

(٣) ممَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم)) (٨/ ٢٤٥).

٣- الأمرُ بالتَّوبةِ النَّصوحِ، وبَيانُ آثارِها الحَسَنةِ مِن تكفيرِ السَّيِّئاتِ، ودُخولِ الجنَّاتِ.

٤- الأمرُ بجِهادِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ.

٥- خُتِمت السُّورةُ بضَربِ مَثَلينِ؛ أحَدُهما للَّذين آمنوا، ويَتمَثَّلُ في امرأةِ فِرعَونَ وفي مَريمَ ابنةِ عِمْرانَ، والآخَرُ للَّذين كَفَروا، ويتمثَّلُ في امرأةِ نُوحٍ وامرأةِ لُوطٍ عليهما السَّلامُ.

## الآيات (١-٥)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ٥﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَرَضَ﴾: أي: بيَّن وشَرَع، وقيل: أوجَبَ، والفَرضُ: قَطعُ الشَّيءِ الصُّلبِ، والتَّأثيرُ فيه، والفَرضُ كالإيجابِ، لكِنَّ الإيجابَ يُقالُ اعتِبارًا بوُقوعِه وثباتِه، والفَرضَ بقَطعِ الحُكمِ فيه[1].

﴿تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾: أي: كفَّارتَها؛ لأنَّ عُقدةَ اليمينِ تنحَلُّ بها، أو لأنَّه يتَحَلَّلُ بها عن اليمينِ أي: يخرجُ، وأصلُ (حلل): يدُلُّ على فَتحِ الشَّيءِ، والأيْمانُ جمْعُ يمينٍ، وهو: القَسَمُ، وسُمِّيَ الحَلِفُ يَمينًا -وهو اسمُ اليَدِ-؛ لأنَّهم كانوا يَبْسُطونَ أيْمانَهم إذا حَلَفوا أو تحالَفوا، ثمَّ كثُر ذلك حتَّى سُمِّيَ الحلفُ والعهدُ نفْسُه يمينًا، وقِيل: يَمينٌ فَعيلٌ مِن اليُمنِ، وهو البَرَكةُ، سَمَّاها اللهُ تعالَى بذلك؛ لأنَّها

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٤٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠).

تحفَظُ الحُقوقَ[١].

﴿مَوْلَىٰكُمَا﴾: أي: ناصِرُكم، وأصلُ هذه المادَّةِ يدُلُّ على القُرْبِ؛ سواءٌ مِن حيثُ المكانُ، أو النِّسبةُ، أو الدِّينُ، أو الصَّداقةُ، أو النُّصرةُ، أو الاعتِقادُ[٢].

﴿صَغَتْ﴾: أي: مالت عن الحَقِّ، وأصلُ (صغو): يدُلُّ على المَيلِ[٣].

﴿تَظَٰهَرَا﴾: أي: تَعاوَنَا، والظَّهيرُ: العَونُ، وأصلُ التَّظاهُرِ مِنَ الظَّهرِ، فكأنَّ التَّظاهُرَ: أن يَجعَلَ كُلُّ واحدٍ مِن الرَّجُلَينِ أو مِن القَومِ الآخَرَ له ظَهرًا يتقَوَّى به، ويَستَنِدُ إليه، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[٤].

﴿ظَهِيرٌ﴾: أي: مُساعِدون ومُعينونَ، وأصلُ (ظهر): يدُلُّ على قُوَّةٍ وبُروزٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠) و (٦/ ١٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨٣) و (١٠/ ٣١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (١/ ٣٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٣/ ١٠٢) و(١٨/ ١٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩٠).

قال الواحدي: (﴿تَحِلَّةَ﴾ على وزنِ تَفعِلةٍ، وأصلُه تَحْلِلةٌ، فأُدغِمَتْ، وتَفعِلةٌ مِن مَصادِرِ فعَّلَ، كالتَّوصيةِ، والتَّسميةِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٩٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٨٠).

﴿قَٰنِتَٰتٖ﴾: أي: مُطيعاتٍ خاضِعاتٍ، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعةِ مع الخُضوعِ، أو الطَّاعةُ الدَّائِمةُ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ[1].

﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾: أي: صائِماتٍ أو مُهاجِراتٍ، قيل: سُمِّيَ الصِّيامُ سياحةً؛ تشبيهًا بالسَّائحِ الَّذي لا زاد معه، وأصلُ (سيح): يدُلُّ على استِمرارِ شَيءٍ وذَهابِه[2].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ على نَفْسِك ما أحلَّه اللهُ لك مُبتَغيًا بتَحريمِه رِضا بَعضِ أزواجِك، واللهُ غَفورٌ رَحيمٌ؟!

ثم بيَّن سبحانَه جانبًا مِن مَظاهِرِ رحمتِه، فقال: قد شرَعَ اللهُ لكم تحليلَ أيْمانِكم بكَفَّارةِ اليَمينِ، واللهُ وَلِيُّكم وناصِرُكم -أيُّها المؤمِنونَ- وهو العَليمُ الحَكيمُ.

واذكُرْ حينَ أسَرَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى زَوجتِه حَفْصةَ حَديثًا، فلمَّا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٠، ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٦٩١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٨).

قال ابن القيِّم: (القُنوتُ يُفسَّرُ بأشياءَ كلُّها تَرجِعُ الى دَوامِ الطَّاعةِ). ((مفتاح دار السعادة)) (١/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٩، ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣١).

قال الفرَّاءُ: (نرى أنَّ الصَّائمَ إنَّما سُمِّيَ سائحًا لأنَّ السَّائحَ لا زادَ معه، وإنَّما يأكُلُ حيثُ يَجِدُ [الطَّعامَ]، فكأنَّه أُخِذَ مِن ذلك. واللهُ أعلَمُ). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٦٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٢).

أخبَرَت به حَفْصةُ عائِشةَ، وأطْلَعَ اللهُ نبيَّه على إفشائِها سِرَّه؛ أخبَرَها الرَّسولُ ببَعضِ ما أفشَتْه مُؤَنِّبًا لها، وتَرَك إخبارَها ببَقيَّةِ كَلامِها؛ كَرَمًا منه وحِلْمًا، فلمَّا أخبَرَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإفشائِها سِرَّه إلى عائِشةَ، قالت له حَفصةُ: مَنْ أخبَرَك بذلك؟! قال لها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أخبَرَني بذلك العَليمُ الخَبيرُ.

ثمَّ وجَّهَ اللهُ تعالى خِطابَه إلى حفصةَ وعائشةَ، فأمَرهما بالتَّوبةِ، فقال: إنْ تَتُوبَا -يا حَفْصةُ وعائِشةُ- إلى اللهِ، فقد صدَر منكما ما يُوجِبُ التَّوبةَ؛ فقد مالَت قُلوبُكما عمَّا يَنبغي عليكُما مِن الأدَبِ مع النَّبيِّ.

ثمَّ قال محذِّرًا لهما: وإنْ تَتعاوَنا على إيذاءِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّ اللهَ ناصِرُه عليكما، وجِبريلُ وخِيارُ المؤمِنينَ -كأبي بَكرٍ وعُمَرَ-، والمَلائِكةُ مع ذلك أعوانٌ له أيضًا.

ثمَّ خوَّفهما أيضًا بحالةٍ تشُقُّ على النِّساءِ غايةَ المشَقَّةِ، وهي الطَّلاقُ، فقال: عسى ربُّه إنْ طَلَّقَكنَّ -يا نِساءَ النَّبيِّ- أن يُبدِلَه أزواجًا خيرًا مِنكُنَّ مُسلِماتٍ مُؤمِناتٍ، مُطيعاتٍ للهِ على الدَّوامِ، تائِباتٍ، عابداتٍ للهِ، صائِماتٍ، ثَيِّباتٍ وأبكارًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَمكُثُ عندَ زَينبَ بنتِ جَحشٍ فيَشرَبُ عِندَها عَسَلًا، فتواطَأتُ أنا وحَفصةُ أنَّ أيَّتَنا ما دَخَل

عليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلْتَقُلْ: إنِّي أَجِدُ منك رِيحَ مَغافيرَ[١]، أكَلْتَ مَغافيرَ؟! فدَخَل على إحداهما فقالت ذلك له، فقال: بل شَرِبتُ عَسَلًا عندَ زَينبَ بنتِ جَحشٍ، ولن أعودَ له، فنَزَل: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى قَولِه: ﴿إِن تَتُوبَآ﴾ لعائِشةَ وحَفْصةَ ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ [التحريم: ٣]؛ لِقَولِه: بل شَرِبتُ عَسَلًا))[٢].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كانت له أَمَةٌ يَطَؤُها، فلم تَزَلْ به عائِشةُ وحَفصةُ حتَّى حَرَّمَها على نَفْسِه، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ))[٣].

---

(١) مَغافير: جمعُ مُغْفورٍ، وهو صَمْغٌ حُلْوٌ له رائِحةٌ كَريهةٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٣٧٧).
قال الألوسي: (وكان صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم يحِبُّ الطِّيبَ جدًّا، ويكرهُ الرَّائحةَ الكريهةَ؛ للطافةِ نفسِه الشَّريفةَ، ولأنَّ الملَكَ يأتيه وهو يكرهُها، فشقَّ عليه صلَّى الله تعالى عليه وسلَّم ما قيل، فجرَى ما جرَى). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٤٢).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩١٢)، ومسلمٌ (١٤٧٤) واللَّفظُ له.

(٣) أخرجه النسائيُّ (٣٩٥٩) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٣٨٢٤)، والبيهقيُّ (١٥٤٧٢).
صحَّحه الحاكِمُ، وقال: (على شرطِ مُسلمٍ)، والوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٢٥٣)، وصحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٩/ ٢٨٨)، والصنعانيُّ في ((سبل السلام)) (٣/ ٢٧٨)، والشوكاني في ((الدراري المضية)) (٢٢٥)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (٣٩٥٩).
ممَّن رجَّح أنَّ سَبَب النُّزولِ هو قِصَّةُ الجاريةِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ حجر، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٠)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٢٩٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٦٨).
ويُنظر أيضًا: ((المحرر في أسباب نزول القرآن)) للمزيني (٢/ ١٠٣٨).
قال ابن عطية: (القولُ الأوَّلُ أنَّ الآيةَ نَزَلت بسَبَبِ ماريةَ: أصَحُّ وأوضَحُ، وعليه تفقَّهَ النَّاسُ في الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٠).
وقال ابن حجر: (الرَّاجِحُ مِن الأقوالِ كُلِّها قِصَّةُ ماريةَ؛ لاختِصاصِ عائِشةَ وحَفصةَ بها، بخِلافِ العَسَلِ؛ فإنَّه اجتَمَع فيه جماعةٌ مِنهنَّ، ويحتَمِلُ أن تكونَ الأسبابُ جميعُها اجتمعت، فأُشيرَ =

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحرِّمُ على نَفْسِك ما أحلَّه اللهُ لك مُلتَمِسًا بتَحريمِه رِضا بَعضِ أزواجِك[1]؟

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [المائدة: ٨٧].

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

أي: واللهُ غَفورٌ لذُنوبِ عِبادِه، رَحيمٌ بهم، وقد غَفَر لك -يا محمَّدُ- تحريمَك على نَفْسِك ما أحلَّه اللهُ لك، ورَحِمَك[2].

---

= إلى أهمِّها، ويؤيِّدُه شُمولُ الحَلِفِ للجَميعِ). ((فتح الباري)) (٩/ ٢٩٠).

وقال القاسمي: (الَّذي يَظهَرُ لي هو ترجيحُ رواياتِ تحريمِ الجاريةِ في سَبَبِ نُزولِها). ثمَّ ذكر وُجوهَ ترجيحِ هذا القولِ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٦٨).

ورجَّح ابنُ العَرَبي، والقرطبيُّ، والنوويُّ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور أنَّ الآيةَ نَزَلت بسَبَبِ قِصَّةِ العَسَلِ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٢٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٧٩)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٠/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٤).

قال ابنُ كثير: (قد يُقالُ: إنَّهما واقِعتانِ، ولا بُعْدَ في ذلك، إلَّا أنَّ كَونَهما سببًا لنُزولِ هذه الآيةِ فيه نظَرٌ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٢).

وقال الشوكاني: (هذان سَبَبانِ صَحيحانِ لِنُزولِ الآيةِ، والجَمعُ مُمكِنٌ بوُقوعِ القِصَّتَينِ: قِصَّةِ العَسَلِ، وقِصَّةِ ماريةَ، وأنَّ القُرآنَ نَزَل فيهما جميعًا، وفي كُلِّ واحدٍ منهما أنَّه أسَرَّ الحَديثَ إلى بَعضِ أزواجِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠٠). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٨٣، ٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٤-٣٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٧).

قال البِقاعي: (قد جَعَل مِن رَحمتِه لعبادِه لأَيْمانِهم كفَّارةً). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٨٢). =

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

أي: قد بيَّن اللهُ لكم تحليلَ جَميعِ أيْمانِكم -إذا أحبَبْتُم استِباحةَ المحلوفِ عليه- بالكَفَّارةِ الَّتي شَرَعها وبَيَّنَها لكم مِن قَبْلُ في سورةِ المائِدةِ[1].

---

= وقال السعدي: (صار ذلك التَّحريمُ الصَّادِرُ منه سَبَبًا لشَرعِ حُكمٍ عامٍّ لجَميعِ الأمَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٣/ ٥٠، ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

قال السمعاني: (والفرْضُ هاهنا بمعنى البيانِ والتَّسميةِ، ويُقالُ: بمعنى التَّقديرِ؛ لأنَّ الكفَّاراتِ مقدَّرةٌ مَعْدودَةٌ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧١).

وقال ابن عاشور: (تَحِلَّةُ اليَمينِ هي الكَفَّارةُ عندَ الجَميعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٨).

وقال السمعاني: (وعن بعضِهم: أن تَحِلَّةَ اليمينِ هو الاستِثناءُ؛ لأنَّه يخرجُ به عن اليمينِ. والأوَّلُ هو المعروفُ [أي: أنَّه الكفَّارةُ]). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧١).

وقال ابن جُزَي: (التَّحِلَّةُ هي الكفَّارةُ، وأحال تعالى هنا على ما ذكر في سورةِ المائدةِ [٨٩] مِن صِفَتِها. واختُلِف في المرادِ بها هنا؛ فأمَّا على قولِ مَن قال: إنَّ الآيةَ نزلتْ في تحريمِ الجاريةِ فاختُلِف في ذلك؛ فمَن قال: إنَّ التَّحريمَ يَلزَمُ فيه كفَّارةُ يمينٍ استدَلَّ بها، ومَن قال: إنَّ التَّحريمَ يَلزَمُ فيه طلاقٌ قال: إنَّ الكفَّارةَ هنا إنَّما هي لأنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّمَ حلَفَ، وقال: واللهِ لا أطَؤُها أبدًا.

وأمَّا على القولِ بأنَّ الآيةَ نزلتْ في تحريمِ العسلِ فاختُلِف أيضًا؛ فمَن أوجَبَ في تحريمِ الطَّعامِ كفَّارةً قال: هذه الكفَّارةُ للتَّحريمِ، ومَن قال: لا كفَّارةَ فيه قال: إنَّما هذه الكفَّارةُ لأنَّه حلَف ألَّا يَشرَبَه، وقيل: هي في يمينِه عليه السَّلامُ ألَّا يَدخُلَ على نسائِه شهرًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٠).

وقال الشوكاني: (واختلَف العُلماءُ: هل مجرَّدُ التَّحريمِ يمينٌ يوجِبُ الكفَّارةَ أم لا؟ وفي ذلك خِلافٌ، وليس في الآيةِ ما يدُلُّ على أنَّه يمينٌ؛ لأنَّ اللهَ سبحانه عاتَبَه على تحريمِ ما أحلَّه له، ثمَّ قال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾، وقد ورد في القصَّةِ الَّتي ذهب أكثَرُ المفسِّرينَ إلى أنَّها سببُ نُزولِ الآيةِ أنَّه حرَّم أوَّلًا، ثمَّ حلَف ثانيًا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٨). =

كما قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

وعن أبي موسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنِّي واللهِ -إن شاء اللهُ- لا أحلِفُ على يمينٍ، فأرى غَيرَها خَيرًا منها، إلَّا أتيتُ الَّذي هو خيرٌ وتحَلَّلْتُها))(١).

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾.

أي: واللهُ وَلِيُّكم وناصِرُكم -أيُّها المؤمِنونَ- ويتولَّى أُمورَكم بما فيه صَلاحُكم(٢).

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

أي: واللهُ هو البالِغُ العِلمِ بمَصالِحِ عِبادِه وغَيرِها، الحَكيمُ في خَلْقِه وشَرْعِه، وقَدَرِه وتَدبيرِ عِبادِه؛ فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه اللَّائِقِ به؛ فلذلك شَرَع لكم مِنَ الأحكامِ ما هو مُوافِقٌ لمصالِحِكم، ومُناسِبٌ لأحوالِكم(٣).

---

= وقال البِقاعي: (قد قيل: إنَّ تحريمَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هنا كان بيَمينٍ حَلَفَها، وحينَئذٍ لا يكونُ فيه حُجَّةٌ لِمَن رأى أنَّ «أنتِ عليَّ حرامٌ» يمينٌ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٨٤).

وقد ورد في روايةٍ عندَ البخاري (٤٩١٢) عن عائشةَ، قالت: كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يشربُ عسلًا عندَ زينبَ... قال: ((لا، ولكنِّي كنتُ أشربُ عسلًا عندَ زينبَ بنتِ جحشٍ، فلنْ أعودَ له، وقد حلفْتُ، لا تُخبري بذلك أحدًا)).

(١) رواه البخاريُّ (٧٥٥٥)، ومسلمٌ (١٦٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، =

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾؛ ساقَ ما هو كالدَّليلِ على عِلمِه، فقال[1]:

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾.

أي: واذكُرْ[2] حينَ أخفى النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى زَوجتِه حَفْصةَ كلامًا -وهو تحريمُ ما حرَّمه على نفْسِه- وأمَرها ألَّا تُخبِرَ به أحدًا[3].

---

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٨/ ١٥٧).

(٢) قيل: المعنى: واذكُرْ إذ أسرَّ النَّبيُّ... وممَّن نصَّ عليه: الزَّجَّاجُ، والقرطبي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ١٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٤٥).

وقيل: المعنى: اذكُرْ -يا محمَّدُ- ذلك على وَجهِ التَّأنيبِ والعَتبِ لزَوجاتِك. وممَّن قال بهذا: ابنُ عطيَّة، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٩٦).

وقيل: المعنى: واذكروا أيُّها المؤمنونَ إذ أسرَّ النَّبيُّ. وممَّن اختاره: مكِّي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٦٥).

وقيل: المعنى: اذكُروا كريمَ أخلاقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وطاهِرَ شمائِلِه في عِشرتِهنَّ حينَ أسَرَّ إلى بَعضِ أزواجِه حديثًا. قالَه البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

ذكر ابنُ الجوزي وابنُ عاشور: أنه لم يختَلِفْ أهلُ العِلمِ في أنَّ الَّتي أسَرَّ إليها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الحَديثَ هي حَفصةُ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥١).

قال ابنُ عطية: (قال الجُمهورُ: الحَديثُ: هو قَولُه في أمرِ مارِيةَ، وقال آخَرونَ: بل هو قَولُه: «إنَّما شَرِبتُ عَسَلًا»). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٠). =

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾.

أي: فلمَّا أخبَرَت حَفْصةُ عائِشةَ بما أسَرَّ إليها النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن تَحريمِه ما حرَّم على نَفْسِه، وأطْلَعَ اللهُ نبيَّه على إفشائِها سِرَّه؛ أخبَرَها الرَّسولُ ببَعضِ ما أفشَتْه مُؤَنِّبًا لها، وتَرَك إخبارَها ببَقيَّةِ كَلامِها؛ كَرَمًا منه وحِلْمًا[1].

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾.

أي: فلمَّا أخبَرَ نَبيُّ اللهِ حَفْصةَ بإفشائِها سِرَّه إلى عائِشةَ، قالت له حَفصةُ مُتعَجِّبةً مِن مَعرِفتِه: مَنْ أخبَرَك بذلك[2]؟!

﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

---

= وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ -المنسوبِ إلى الجُمهورِ-: القرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥١).

قال ابن الجوزي: (وفي هذا السِّرِّ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه قال لها: إنِّي مُسِرٌّ إليك سِرًّا فاحفظيه، سُرِّيَّتي هذه علَيَّ حرامٌ. رواه العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال عَطاءٌ، والشَّعبيُّ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُه، والسُّدِّيُّ.

والثَّاني: أنَّه قال لها: أبوكِ، وأبو عائشةَ، والِيا النَّاسِ مِن بَعدي، فإيَّاكِ أن تُخبِري أحدًا. ورواه سعيدُ بنُ جُبَيرٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.

والثَّالثُ: أنَّه أسَرَّ إليها أنَّ أبا بكرٍ خليفتي مِن بَعدي. قاله ميمونُ بنُ مِهْرانَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٠٧).

وقال الواحديُّ: (قال جماعةٌ مِن المفسِّرينَ: إنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لَمَّا رأى الغَيرةَ والكراهيةَ في وجْهِ حفصةَ أراد أن يَترضَّاها، فأسَرَّ إليها بشيئينِ: تحريمِ الأمَةِ على نفْسِه، وبشَّرها بأنَّ الخِلافةَ بعْدَه في أبي بكرٍ وأبيها عُمَرَ. وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ، والكلبيِّ، وسعيدِ ابنِ جُبَيرٍ، ومقاتلٍ). ((البسيط)) (٢٢/ ١٢، ١٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٨/ ٤٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩١، ٩٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٤).

أي: قال لها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أخبَرَني بذلك العَليمُ بكُلِّ شَيءٍ، الخَبيرُ الَّذي لا تَخفى عليه خافِيةٌ(١).

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾.

أي: إنْ تَتُوبَا إلى اللهِ -يا حَفْصةُ وعائِشةُ- فقد صدَر منكما ما يُوجِبُ التَّوبةَ؛ فقد مالَت قُلوبُكما عن الحقِّ والصَّوابِ، وعمَّا يَنبغي عليكُما مِن الأدَبِ مع النَّبيِّ، وحُبِّ ما يُحبُّه، وكراهةِ ما يَكرَهُه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

قيل: جوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ، على تقديرِ: فقد وُجِد مِنكما ما يُوجِبُ التَّوبةَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الزمخشريُّ، وابنُ عطية، والبَيضاوى، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير البيضاوى)) (٥/ ٣٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٨).

وقيل: تقديرُه: كان خيرًا لكما. أي: إنْ تَتوبَا إلى اللهِ كان خيرًا لكما. وممَّن ذهب إلى هذا القول: الواحديُّ، والرَّازيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٠).

قال الألوسي: (التَّقديرُ: إنْ تَتوبا فلِتَوبَتِكما موجبٌ وسببٌ ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾، أو فحقَّ لكما ذلك فقد صدَر ما يَقْتضيها، وهو على معنى: فقد ظهَر أنَّ ذلك حقٌّ... وقيل: الجوابُ محذوفٌ، تقديرُه: يَمْحُ إثمَكما، وقَولُه تعالى: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ﴾ إلخ: بيانٌ لسَبَبِ التَّوبةِ. وقيل: التَّقديرُ: فقد أدَّيتُما ما يجبُ عليكما، أو أتَيتُما بما يَحِقُّ لكما، وما ذُكِرَ دَليلٌ على ذلك. قيل: وإنَّما لم يُفَسِّروا: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ بـ «مالَتْ إلى الواجِبِ أو الحَقِّ أو الخَيرِ»؛ حتَّى يَصِحَّ جَعْلُه جوابًا مِن =

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾.

أي: وإنْ تَتعاوَنا -يا حَفصةُ وعائِشةُ- على إيذاءِ رَسولِ اللهِ، فإنَّ اللهَ ناصِرُه عليكما، وجِبريلُ وخِيارُ المؤمِنينَ -كأبي بَكرٍ وعُمَرَ- أولياءُ له أيضًا يَتوَلَّونَه ويَنصُرونَه؛ فلا يَضُرُّ الرَّسولَ تعاوُنُكما عليه[1]!

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (مَكَثْتُ سَنةً أُريدُ أن أسأَلَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ عن آيةٍ، فما أستطيعُ أن أسألَه؛ هَيْبةً له، حتَّى خَرَج حاجًّا فخَرَجتُ معه، فلمَّا رَجَعْنا وكُنَّا ببَعضِ الطَّريقِ عَدَل إلى الأراكِ[2] لحاجةٍ له، فوقَفْتُ له حتَّى فَرَغ، ثمَّ سِرتُ معه، فقُلتُ: يا أميرَ المؤمِنينَ، مَنِ اللَّتانِ تَظاهرَتَا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أزواجِه؟ فقال: تلك حَفصةُ وعائِشةُ)[3].

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

أي: والمَلائِكةُ مع نَصرِ اللهِ وجِبريلَ وصالِحِ المُؤمِنينَ أعوانٌ أيضًا لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَن يُريدُ أذاه ومَساءتَه[4].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٖ

---

= غَيرِ احتياجٍ إلى نحوِ ما تقَدَّمَ؛ لأنَّ صيغةَ الماضي و«قَدْ»، وقراءةَ ابنِ مَسعودٍ: «فَقَدْ زَاغَتْ قُلُوبُكُمَا»، وتكثيرَ المعنى مع تقليلِ اللَّفظِ: تقتضي ما سَلَف). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٤، ٩٧، ٩٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ١٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٧، ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٢) أي: مالَ عن الطَّريقِ إلى شَجَرِ الأَراكِ الَّتي يُتَّخَذُ مِنها المَساويكُ، وهي كثيرةُ الوَرَقِ والأغصانِ؛ مال لقضاءِ الحاجةِ. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٩/ ٢٥١).

(٣) رواه البخاريُّ (٤٩١٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٤٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٩).

عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا ﴿٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حذَّر اللهُ تعالى بما تقدَّمَ، زاد في التَّحذيرِ ما يُقَطِّعُ القُلوبَ؛ لأنَّ أشَدَّ ما على المرأةِ أن تُطَلَّقَ، ثمَّ إذا طُلِّقَت أن يُستبدَلَ بها، ثمَّ أن يكونَ البَدَلُ خيرًا منها[1].

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾.

أي: عسى ربُّ محمَّدٍ إنْ طَلَّقَكنَّ -يا نِساءَ النَّبيِّ- أن يُبدِلَه أزواجًا أفضَلَ مِنكُنَّ[2].

عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (اجتَمَع نِساءُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الغَيرةِ عليه، فقُلتُ لهُنَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾، فنزَلَت هذه الآيةُ)[3].

وعن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال عُمَرُ: (وافَقتُ اللهَ في ثلاثٍ، أو وافَقَني رَبِّي في ثلاثٍ؛ قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، لو اتَّخَذتَ مَقامَ إبراهيمَ مُصَلًّى. وقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، يَدخُلُ عليك البَرُّ والفاجِرُ؛ فلو أمَرْتَ أمَّهاتِ المؤمِنينَ بالحِجابِ، فأنزل اللهُ آيةَ الحِجابِ. قال: وبلَغَني مُعاتَبةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعضَ نِسائِه، فدَخَلْتُ عليهنَّ، قُلتُ: إنِ انتَهَيتُنَّ أو لَيُبدِّلَنَّ اللهُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خيرًا مِنكنَّ! حتَّى أتيتُ إحدى نِسائِه، قالت: يا عُمَرُ، أمَا في رَسولِ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٠).

(٣) رواه البخاري (٤٠٢).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يَعِظُ نِساءَه حتَّى تَعِظَهنَّ أنت؟! فأنزل اللهُ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ﴾ الآيةَ)[١].

﴿مُسۡلِمَٰتٖ﴾.

أي: مُخلِصاتٍ للهِ، خاضِعاتٍ لطاعتِه، قائماتٍ بالشَّرائعِ الظَّاهرةِ[٢].

﴿مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾.

أي: قائِماتٍ بالشَّرائعِ الباطنةِ مِنَ العَقائِدِ الصَّحيحةِ وأعمالِ القُلوبِ[٣].

﴿قَٰنِتَٰتٖ﴾.

أي: مُطيعاتٍ للهِ ورَسولِه على الدَّوامِ، قائِماتٍ بها أحسَنَ قِيامٍ[٤].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ [النساء: ٣٤].

﴿تَٰٓئِبَٰتٖ﴾.

أي: مُقلِعاتٍ عن الذُّنوبِ إذا وقَعْنَ فيها[٥].

﴿عَٰبِدَٰتٖ﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١).

أي: مُتذَلِّلاتٍ للهِ بعِبادتِه[١].

﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾.

أي: صائِماتٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩).

قال ابنُ الجوزي: (﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ فيه قَولانِ؛ أحَدُهما: صائِماتٍ. قاله ابنُ عبَّاسٍ والجمهورُ... والثَّاني: مُهاجِراتٍ. قاله زَيدُ بنُ أسْلَمَ وابنُه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٠).

ممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالسَّائِحاتِ: الصَّائِماتُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابن عطية، والرَّسْعَني، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٥، ١٦٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٢٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو هُرَيرةَ، وعائشةُ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومُجاهِدٌ، وسعيدُ ابنُ جُبَيرٍ، وعَطاءٌ، ومحمَّدُ بنُ كعبٍ القُرَظيُّ، وأبو عبدِ الرَّحمنِ السُّلَميُّ، وأبو مالكٍ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والرَّبيعُ بنُ أنَسٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٥).

ويُنظر ما تقدَّم في سببِ تسميةِ الصَّائمِ سائحًا (ص: ١٢٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ السَّائِحاتِ هُنَّ: المهاجِراتُ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: زَيدُ بنُ أسلَمَ، وابنُه، ويَمَان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٢)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٥).

وقال القاسمي: (معنى قَولِه تعالى: ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ مُسافِراتٌ؛ سواءٌ كان السَّفَرُ لهِجرةٍ، أو اطِّلاعٍ على آثارِ الأُمَمِ البائدةِ، وقد خَصَّصَت السُّنَّةُ عُمومَ سَفَرِهنَّ بكَونِه مع زَوجٍ أو مَحرَمٍ لهنَّ؛ حِفظًا لهنَّ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٧٦).

وقال الثعلبي: (﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾ يَسِحْنَ معه حيثُ ما ساحَ). ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٤٩). =

﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾.

أي: بَعضُهنَّ ثَيِّباتٌ قد تزَوَّجْنَ مِن قَبلُ، وبَعضُهنَّ أبكارٌ عَذارَى لم يتزوَّجْنَ مِن قَبلُ(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ فيه أنَّ أحَدًا لا يُحَرِّمُ على نَفْسِه ما أحَلَّ اللهُ له؛ لإرضاءِ أحَدٍ؛ إذ ليس

---

= وقال ابنُ القيِّم في قوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾[التوبة: ١١٢]: (فُسِّرَت السِّياحةُ بالصِّيام، وفُسِّرَت بالسَّفَرِ في طَلَبِ العِلم، وفُسِّرَت بالجِهادِ، وفُسِّرَت بدوامِ الطَّاعةِ. والتَّحقيقُ فيها: أنَّها سياحةُ القَلبِ في ذِكرِ اللهِ ومَحبَّتِه، والإنابةِ إليه والشَّوقِ إلى لقائِه، ويترتَّبُ عليها كُلُّ ما ذُكِرَ مِن الأفعالِ؛ ولذلك وَصَف اللهُ سُبحانَه نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اللَّاتي لو طَلَّق أزواجَه بَدَّلَه بهنَّ: بأنَّهنَّ سائِحاتٌ، وليست سياحتُهنَّ جِهادًا، ولا سَفَرًا في طَلَبِ عِلمٍ، ولا إدامةَ صِيامٍ، وإنَّما هي سياحةُ قُلوبِهنَّ في محبَّةِ اللهِ تعالى وخشيتِه، والإنابةِ إليه وذِكرِه. وتأمَّلْ كيف جَعَل اللهُ سُبحانَه التَّوبةَ والعبادةَ قرينتَين: هذه تَرْكُ ما يَكرَهُ، وهذه فِعلُ ما يُحِبُّ؛ والحَمدَ والسِّياحةَ قرينَين: هذا الثَّناءُ عليه بأوصافِ كَمالِه، وسياحةُ اللِّسانِ في أفضَلِ ذِكرِه، وهذه سِياحةُ القَلبِ في حُبِّه وذِكرِه وإجلالِه، كما جَعَل سُبحانَه العبادةَ والسِّياحةَ قَرينتَينِ في صِفةِ الأزواجِ؛ فهذه عبادةُ البَدَنِ، وهذه عبادةُ القَلبِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ٨٥).

وذهب البِقاعي إلى أنَّ معنى ﴿سَٰٓئِحَٰتٖ﴾: متَّصِفاتٌ بصِفاتِ الملائكةِ؛ مِنَ التخَلِّي عن الدُّنيا، والاستغراقِ في الآخِرةِ بما أدناه الصِّيامُ، ماضياتٌ في ذلك غايةَ المَضاءِ؛ لِيَتِمَّ الانقيادُ لله ولرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ مَن كان هكذا لم يكُنْ له مرادٌ، فكان تابِعًا لرَبِّه في أمرِه دائمًا، ويَصيرُ لَطيفَ الذَّاتِ حُلوَ الشَّمائِلِ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢٠/ ١٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

قال الماوَرْدي: (أمَّا الثَّيِّبُ فإنَّما سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها راجِعةٌ إلى زَوْجِها إن أقام معها، أو إلى غيرِه إن فارَقَها. وقيل: لأنَّها ثابَتْ إلى بَيتِ أبَوَيها، وهذا أصَحُّ؛ لأنَّه ليس كلُّ ثيِّبٍ تعودُ إلى زَوجٍ. وأمَّا البِكرُ فهي العَذراءُ، سُمِّيَت بِكْرًا؛ لأنَّها على أوَّلِ حالتِها الَّتي خُلِقَت بها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٤٢).

ذلك بمَصلحةٍ له ولا للَّذي يَستَرضيه، وإنَّما صَلاحُ كُلِّ جانِبٍ فيما يعودُ بنَفعٍ على نَفْسِه، أو بنَفعٍ على غَيرِه نفعًا مَرْضِيًّا عندَ اللهِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾، أي: ليسَتْ غَيرتُهنَّ ممَّا تجِبُ مُراعاتُه في المعاشَرةِ إنْ كانتْ فيما لا هَضْمَ فيه لحُقوقِهنَّ، ولا هي مِن إكرامِ إحداهنَّ لزَوجِها إن كانتِ الأخرى لم تتمكَّنْ مِن إكرامِه بمِثلِ ذلكَ الإكرامِ في بعضِ الأيامِ، وهذا يُومِئُ إلى ضبْطِ ما يُراعَى مِنَ الغَيرةِ وما لا يُراعَى[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ فيه أنَّه لا بأسَ بإسرارِ الحَديثِ إلى مَن يُركَنُ إليه مِن زَوجةٍ أو صَديقٍ، وأنَّه يَلزَمُه كَتمُه[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖ﴾ فيه حُسنُ العِشرةِ مع الزَّوجاتِ، والتَّلَطُّفُ في العَتْبِ، والإعراضُ عن استِقصاءِ الذَّنْبِ. قال الحَسَنُ: (ما استَقصى كَريمٌ قَطُّ)[٤]، وإنَّ مِن عادةِ الفُضلاءِ التَّغافُلَ عن الزَّلَّاتِ[٥]. وقيل: (ما زال التَّغافُلُ مِن فِعلِ الكِرامِ)[٦].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١١٨)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٠).

(٦) يُنظر: (( تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٥).

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ فيه تعليمُ الأزواجِ ألَّا يُكثِرْنَ مِن مُضايَقةِ أزواجِهنَّ؛ فإنَّه رُبَّما أدَّت إلى المَلالِ، فالكَراهيةِ، فالفِراقِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ والمرادُ به الرَّسولُ، واللهُ تعالى يُخاطِبُ رسولَه بوَصفِ النُّبوَّةِ أحيانًا، وبوَصفِ الرِّسالةِ أحيانًا، فحينَما يأمرُه أنْ يُبَلِّغَ يُناديه بوَصفِ الرِّسالةِ، وأمَّا في الأحكامِ الخاصَّةِ فالغالبُ أنْ يناديَه بوَصفِ النُّبُوَّةِ، كالآيةِ هنا[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ أنَّ المؤمِنَ ليس له أنْ يُحَرِّمَ الحَلالَ بيَمينٍ ولا غَيرِها[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الشَّيءَ إذا حُرِّمَ، وقَصَد به الإنسانُ الامتِناعَ عنه؛ صار بمنزلةِ اليَمينِ، فجَعَلَ اللهُ تعالى هذا التَّحريمَ يمينًا، وقال: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾[٤]. فقد نَزَلت الآيةُ في تَحريمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سُرِّيَّتَه ماريةَ، أو شُربَ العَسَلِ، فاستُدِلَّ به على أنَّ مَن حرَّمَ على نَفْسِه أَمَةً أو طعامًا أو زَوجةً، لم تَحرُمْ عليه، وتَلزَمُه كَفَّارةُ يَمينٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٩٣).

(٣) يُنظر: ((نظرية العقد)) لابن تيمية (١/ ٢٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٢٢٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٩).

قال ابن جُزَي: (ولْنَتكلَّمْ على فِقهِ التَّحريمِ: فأمَّا تحريمُ الطَّعامِ والمالِ وسائرِ الأشياءِ ما عدا =

= النِّساءَ، فلا يَلزَمُ، ولا شَيءَ عليه عندَ مالكٍ، وأوجَبَ عليه أبو حنيفةَ الكفَّارةَ. وأمَّا تحريمُ الأمَةِ فإنْ نوى به العِتقَ لَزِمَ، وإن لم يَنوِ به ذلك لم يَلزَمْ، وكان حُكمُه ما ذكَرْنا في الطَّعامِ)). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٩).

اختلف العلماءُ فيمن حرَّم على نفْسِه شيئًا ممَّا أحلَّ اللهُ -ما عدا النِّساءَ- فذهب الحَنفيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّه تَلزَمُه كفَّارةُ يمينٍ. يُنظر: ((تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبي)) (٣/ ١١٤)، ((شرح منتهي الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٤٤٥).

وذهب المالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى أنَّه لا تَلزَمُه كفَّارةٌ. يُنظر: ((الكافي في فقه أهل المدينة)) لابن عبدِ البَرِّ (١/ ٤٥٠)، ((مغني المحتاج)) للخطيب الشربيني (٣/ ٢٨٣).

قال ابن جُزَي: (وأمَّا تحريمُ الزَّوجةِ فاختلَف النَّاسُ فيه على أقوالٍ كثيرةٍ؛ فقال أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ وعمرُ بنُ الخطَّابِ وابنُ عبَّاسٍ وعائشةُ وغيرُهم: إنَّما يَلزَمُ فيه كفَّارةُ يمينٍ. وقال مالكٌ في المشهورِ عنه: ثلاثُ تطليقاتٍ في المدخولِ بها، ويُنَوَّى في غيرِ المدخولِ بها، فيُحكَمُ بما نَوى مِن طَلْقةٍ أو اثنتَينِ أو ثلاثٍ. وقال ابنُ الماجِشونِ: هي ثلاثٌ في الوجهَينِ. ورُوِيَ عن مالكٍ أنَّها طلقةٌ بائنةٌ، وقيل: طلقةٌ رجعيَّةٌ)). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٨٩). ويُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٧/ ٢٦١) و(١٠/ ٢٠٧).

وقد بلغتِ الأقوالُ في تحريمِ الزَّوجةِ خمسةَ عشَرَ قولًا، وأوصَلها بعضُهم إلى ثمانيةَ عشَرَ قولًا. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٨٠)، ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٤/ ٤٥١).

قال ابن حجر: (قال القرطبيُّ: قال بعضُ علمائِنا: سببُ الاختلافِ أنَّه لم يقَعْ في القرآنِ صريحًا ولا في السُّنَّةِ نصٌّ ظاهرٌ صحيحٌ يُعتمَدُ عليه في حُكمِ هذه المسألةِ، فتَجاذَبَها العلماءُ؛ فمَن تمسَّكَ بالبراءةِ الأصليَّةِ قال: لا يَلزَمُه شيءٌ. ومَن قال: إنَّها يمينٌ، أخَذَ بظاهِرِ قولِه تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ بعْدَ قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾. ومَن قال: تجبُ الكفَّارةُ وليستْ بيَمينٍ، بَناهُ على أنَّ معنى اليمينِ التَّحريمُ، فوقعَتِ الكفَّارةُ على المعنى. ومَن قال: تقَعُ به طَلْقةٌ رجعيَّةٌ، حمَلَ اللَّفظَ على أقلِّ وُجوهِه الظَّاهِرةِ، وأقلُّ ما تُحرَّمُ به المرأةُ طَلْقةٌ تُحرِّمُ الوَطْءَ ما لم يَرتَجِعْها. ومَن قال: بائنةٌ؛ فلاستِمرارِ التَّحريمِ بها ما لم يُجدِّدِ العقدَ. ومَن قال: ثلاثٌ، حمَل اللَّفظَ على مُنتهى وُجوهِه. ومَن قال: ظِهارٌ، نظَر إلى معنى التَّحريمِ، وقطَعَ النَّظرَ عن الطَّلاقِ، فانحصَر الأمرُ عندَه في الظِّهارِ، واللهُ أعلَمُ)). ((فتح الباري)) (٩/ ٣٧٢). ويُنظر: ((المفهم لِما أَشْكَلَ من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٤/ ٢٥٠). =

٤- لو قال قائلٌ: هل الأنبياءُ مَعصومونَ مُطلَقًا؟

**فالجوابُ**: لا شَكَّ أنَّ الأنبياءَ لا يُعصَمونَ مِمَّا لا يُخِلُّ بالرِّسالةِ مِنَ الذُّنوبِ؛ فالَّذي لا يُخِلُّ بالرِّسالةِ والشَّرَفِ والمُروءةِ لا يُعصَمونَ منه، لكِنَّهم يُعصَمونَ مِنَ الإقرارِ عليه، فلا بُدَّ أن يُوَفَّقوا للتَّوبةِ. وهذا هو الفَرقُ بيْنَهم وبيْن غَيرِهم؛ فإنَّه يُفَرَّقُ بيْنهم وبيْن غَيرِهم مِن وَجهَينِ، في مَسألةِ الذُّنوبِ والمعاصي:

**أوَّلًا**: أنَّه لا يُمكِنُ أن يَصدُرَ منهم ما يُخِلُّ بالرِّسالةِ، مِثلُ: الكَذِبِ، والخيانةِ، ولا بالشَّرَفِ والمروءةِ، كالزِّنا وما أشبَهَه.

**ثانيًا**: أنَّه إذا وَقَع منهم ما يُمكِنُ وُقوعُه مِن المعاصي أو الخطأِ فإنَّهم لا يُقَرُّونَ عليه، لا بُدَّ أن يَحصُلَ لهم ما يُوجِبُ تَركَهم لهذا الشَّيءِ؛ لأنَّهم رُسُلٌ قُدوةٌ، ولو أُقِرُّوا على ما وقَع منهم مِن ذلك لَكان مِن شَرائِعِهم، فقَولُه تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ

---

= أمَّا تحريمُ الزَّوجةِ فمذهبُ الحنفيَّةِ أنَّه إن أراد بالتَّحريمِ الطَّلاقَ فيقَعُ عليه واحدةٌ بائنةٌ، لا يَملِكُ رَجعتَها، وإن نوى طلاقَ الثَّلاثِ فثلاثٌ، وإن أراد الظِّهارَ فظِهارٌ، وإن أراد الكذبَ فباطلٌ، وإن أراد مجرَّدَ التَّحريمِ أو لم يُرِدْ شيئًا فإيلاءٌ. يُنظر: ((الدر المختار وحاشية ابن عابدين)) (٣/ ٤٣٣)، ((العناية شرح الهداية)) للبابَرْتي (٤/ ٢٠٧).

وذهب المالكيَّةُ إلى أنَّه طلاقٌ ثلاثٌ في المدخولِ بها، وغيرِ المدخولِ بها إلَّا إن نوى أقلَّ فحسَب نيَّتِه. ((حاشية الصاوي على الشرح الصغير)) (٢/ ٥٦٢).

وذهب الشَّافعيَّةُ إلى أنَّه إن نوى طلاقًا فعلى ما نوى مِن العدَدِ، وإن نوى ظِهارًا كان ظِهارًا، وإن نوى الطَّلاقَ والظِّهارَ معًا أو مُتعاقِبَينِ بأنْ نوى أحدَهما في أوَّلِ اللَّفظِ والآخَرَ في آخِرِه؛ تخيَّر أحدَهما، وإن نوى التَّحريمَ أو أطلَق ففيه كفَّارةُ يمينٍ على الأظهَرِ. يُنظر: ((أسنى المطالب)) لزكريا الأنصاري (٣/ ٢٧٢).

وذهب الحنابلةُ إلى أنَّه ظِهارٌ ولو نوى طلاقًا أو يمينًا. يُنظر: ((شرح منتهي الإرادات)) للبُهُوتي (٣/ ٨٨).

وذهب الظَّاهريَّةُ إلى أنَّه لَغوٌ باطلٌ، لا يترتَّبُ عليه شيءٌ. يُنظر: ((المحلى بالآثار)) لابن حزم (٩/ ٣٠٢)، ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٣/ ٨١).

عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٣]، وقولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [التحريم: ١] هذا ممَّا يدُلُّ على أنَّ الأمرَ قد وَقَع مِنَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، لكِنَّه غُفِرَ له، وما أُقِرَّ عليه(١).

٥- في قَولِه: ﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ﴾ عُذرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما فعَلَه مِن أنَّه أراد به خَيرًا، وهو جَلبُ رِضا الأزواجِ؛ لأنَّه أعوَنُ على مُعاشَرتِه، مع الإشعارِ بأنَّ مِثلَ هذه المرضاةِ لا يُعبَأُ بها؛ لأنَّ الغَيرةَ نشَأَت عن مجَرَّدِ مُعاكَسةِ بَعضِهنَّ بَعضًا، وذلك ممَّا يَختَلُّ به حُسنُ المعاشَرةِ بيْنَهنَّ؛ فأنبأه اللهُ أنَّ هذا الاجتهادَ مُعارَضٌ بأنَّ تَحريمَ ما أحَلَّ اللهُ له يُفضي إلى قَطعِ كَثيرٍ مِن أسبابِ شُكرِ اللهِ عِندَ تَناوُلِ نِعَمِه، وأنَّ ذلك ينبغي إبطالُه في سِيرةِ الأُمَّةِ(٢).

٦- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ﴾ إلى قَولِه: ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ اليَمينَ بالعِتْقِ والطَّلاقِ في اللَّجاجِ والغضَبِ: مثل أن يقصِدَ بها حضًّا أو منعًا أو تصديقًا أو تكذيبًا، كقولِه: الطَّلاقُ يلزمُني لأفعلَنَّ كذا، أو: لا فعلتُ كذا، و: إنْ فعلْتُ كذا فعبيدي أحرارٌ، أو: إن لم أفعلْه فعبيدي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٦٩).

قال ابن عثيمين عن الأنبياءِ عليهم السَّلامُ: (إنَّهم ليسوا معصومينَ مِن صغائرِ الإثمِ، لكنَّهم معصومونَ مِن إرادةِ المخالفةِ، ومِن الإصرارِ على المعصيةِ...؛ لأنَّ الذي يقعُ منهم يكونُ عن قصدٍ أخطؤوا فيه الصوابَ، فمثلًا:... قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم حرَّم ما أحلَّ الله له طلبًا لمرضاةِ زوجاتِه، وتأليفِ قلوبِهنَّ، ولكنَّه لم يحرِّمْه حكمًا شرعيًّا، إنَّما حرَّمه امتناعًا، يعني حرَّمه على نفسِه... فالحاصلُ أنَّهم عليهم الصلاةُ والسَّلامُ لا يُمنعونَ مِن وقوعِ صغائرِ الذنوبِ، لكنَّهم لا يفعلونَها كما يفعلُها غيرُهم تعمدًا للمخالفةِ، ولا يُقرُّونَ عليها أيضًا، بل لابدَّ أنْ يُنبَّهوا عليها حتَّى يرجِعوا إلى الصوابِ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (ص: ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٧).

أحرارٌ- يُشْرَعُ فيها التَّحَلُّلُ بالكفَّارةِ؛ وجْهُ ذلك: أنَّ قولَه تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ نصٌّ عامٌّ في كلِّ يمينٍ يَحلِفُ بها المُسلِمونَ؛ فإنَّ اللهَ قد فَرَضَ لها تَحِلَّةً، وذَكَره سُبحانَه بصِيغةِ الخِطابِ للأُمَّةِ بعدَ تَقَدُّمِ الخِطابِ بصيغةِ الإفرادِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع عِلْمِه سُبحانَه بأنَّ الأُمَّةَ يَحلِفونَ بأيمانٍ شَتَّى؛ فلو فُرِضَ يمينٌ واحدةٌ ليس لها تَحِلَّةٌ لَكان مخالِفًا للآيةِ، كيف وهذا عامٌّ لم تُخَصَّ فيه صورةٌ واحدةٌ لا بنَصٍّ ولا بإجماعٍ، بل هو عامٌّ عُمومًا مَعنويًّا مع عُمومِه اللَّفظيِّ؟! فإنَّ اليَمينَ معقودٌ يُوجِبُ مَنْعَ المكلَّفِ مِن الفِعلِ، فشَرْعُ التَّحِلَّةِ لهذه العُقدةِ مُناسِبٌ لِمَا فيه مِن التَّخفيفِ والتَّوسعةِ، وهذا موجودٌ في اليَمينِ بالعِتْقِ والطَّلاقِ أكثرَ منه في غَيرِهما مِن أيْمانِ نَذْرِ اللَّجاجِ والغَضَبِ، وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وذلك يقتَضي أنَّه ما مِن تحريمٍ لِمَا أَحَلَّ اللهُ إلَّا واللهُ غَفورٌ لفاعِلِه رحيمٌ به، وأنَّه لا عِلَّةَ تقتضي ثُبوتَ ذلك التَّحريمِ؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِمَ﴾ لأيِّ شَيءٍ؟ استفهامٌ في معنى النَّفيِ والإنكارِ، والتَّقديرُ: «لا سببَ لتحريمِك ما أَحَلَّ اللهُ لك، واللهُ غفورٌ رحيمٌ»، فلو كان الحالِفُ بالنَّذرِ والعِتاقِ والطَّلاقِ على أنَّه لا يَفعلُ شَيئًا: لا رخصةَ له، لَكان هنا سَبَبٌ يقتضي تحريمَ الحَلالِ؛ ولا يبقى مُوجَبُ المَغفرةِ والرَّحمةِ على هذا الفاعِلِ[1]!

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ عبَّرَ بالفَرضِ؛ حَثًّا على قَبولِ الرُّخصةِ؛ إشارةً إلى أنَّ ذلك لا يَقدَحُ في الوَرَعِ، ولا يُخِلُّ بحُرمةِ اسمِ اللهِ؛ لأنَّ أهلَ الهِمَمِ العَوالي لا يُحِبُّونَ النُّقْلَةَ مِن عَزيمةٍ إلى رُخصةٍ، بل مِن رُخصةٍ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٢٦٨، ٢٦٩).

إلى عزيمةٍ، أو عزيمةٍ إلى مِثلِها[١].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ فيه أنَّ مَن حَلَف على يمينٍ، فرأى حِنْثَها خيرًا مِن بِرِّها: أن يُكَفِّرَ عنها، ويَفعَلَ الَّذي هو خَيرٌ[٢].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ ذُكِرَت حَفْصةُ بعُنوانِ بَعضِ أزواجِه؛ للإشارةِ إلى أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَضَع سِرَّه في مَوضِعِه؛ لأنَّ أَولى النَّاسِ بمَعرفةِ سِرِّ الرَّجُلِ زَوْجُه، وفي ذلك تَعريضٌ بمَلامِها على إفشاءِ سِرِّه؛ لأنَّ واجِبَ المرأةِ أن تحفَظَ سِرَّ زَوجِها إذا أمَرَها بحِفْظِه، أو كان مِثْلُه ممَّا يَجِبُ حِفْظُه[٣].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ جعَلَه في سِياقِ حِكايةٍ؛ لأنَّه أستَرُ لحَرَمِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيثُ لم يَقُلْ: (فنَبَّأَت به)، ولا قال: (أساءَت بالإنباءِ به)، ونحوَ ذلك ممَّا يُفهِمُ أنَّه مَقصودٌ بالذَّاتِ[٤].

١١- قال تعالى: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ إنَّما عرَّفها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلكَ لِيُوقِفَها على مُخالَفتِها واجبَ الأدبِ مِن حِفظِ سِرِّ زَوجِها، وإعراضُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن تعريفِ زَوجِه ببعضِ الحديثِ الَّذي أفشَتْه مِن كرَمِ خُلُقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مُعاتَبةِ المُفْشِيَةِ وتأديبِها؛ إذْ يحصُلُ المقصودُ بأنْ يُعلِمَ بعضَ ما أفشَتْه، فتُوقِنَ أنَّ اللهَ يَغارُ عليه[٥].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أنَّ الأنبياءَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٣).

لا يَعلَمونَ الغَيبَ، إلَّا ما أطلَعَهم اللهُ عليه[١].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ هذا تنبيهٌ إلى عنايةِ اللهِ برَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وانتِصارِه له؛ لأنَّ إطْلاعَه على ما لا عِلْمَ له به ممَّا يُهِمُّه: عنايةٌ ونُصحٌ له[٢]، وقد حصَلَ مِن هذا الجوابِ تَعليمُها بأنَّ اللهَ يُطْلِعُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ما غابَ إنْ شاءَ، وتَنبيهُها على ما أبطَنَتْه مِنَ الأمرِ[٣].

١٤- قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ إنَّما نبَّأَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه عَلِمَ إفشاءَها الحديثَ بأمْرٍ مِنَ اللهِ لِيَبْنِيَ عليه الموعظةَ والتَّأديبَ؛ فإنَّ اللهَ ما أطْلَعَه على إفشائِها إلَّا لغرَضٍ جليلٍ[٤].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ ذُكِرَتِ «القلوبُ» بالجمعِ مع أنَّ الواحدةَ لها قلبٌ واحدٌ؛ لأنَّ الأفصحَ في اللُّغةِ العربيَّةِ أنَّه إذا أُضِيفَ المُثَنَّى إلى ما يُفيدُ التَّعدُّدَ فإنَّه يُجْمَعُ؛ لأنَّ التَّثنيةَ جَمعٌ في المعنى؛ كراهةَ أنْ تجتمِعَ تَثْنِيَتانِ فيما هو كالكلمةِ الواحدةِ؛ لأنَّ المضافَ والمضافَ إليه كأنَّهما كلمةٌ واحدةٌ، فيُجمَعُ؛ طلَبًا لخِفَّةِ اللَّفظِ عِندَ إضافتِه إلى ضَميرِ المُثَنَّى؛ فإنَّ صِيغةَ التَّثنيةِ ثَقيلةٌ؛ لقِلَّةِ دَورانِها في الكلامِ، فلمَّا أُمِنَ اللَّبْسُ ساغَ التَّعبيرُ بصِيغةِ الجمعِ عن التَّثنيةِ، وهذا استعمالٌ للعربِ غيرُ جارٍ على القياسِ، وذلك في كلِّ اسمٍ مُثَنًّى أُضيفَ إلى اسمٍ مُثنى فإنَّ المضافَ يَصيرُ جمعًا كما في هذه الآيةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣٤٧). =

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ دَليلٌ على أنَّ إفشاءَ السِّرِّ ذَنبٌ مِن مُفْشِيه، لولا ذلك ما دُلَّتا -واللهُ أعلَمُ- على التَّوبةِ منه، وهما وإنْ كانتا أفْشَتا سِرَّ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ ما أُمِرَتا بالتَّحَفُّظِ به، وكِتمانِه، وطاعتُه فرضٌ في حالٍ، ونَدْبٌ في أخرى، لا يُشارِكُه فيهما أحدٌ مِن أُمَّتِه؛ فمَن دونَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أيضًا مِن المؤمِنينَ إذا ائْتَمَنَ إنسانًا بوَضعِ سِرِّهِ عندَه، فخانَه بإفْشَائِه عليه، فهو لا مَحالةَ آثِمٌ؛ إذ لو لم يَكُنْ آثِمًا إلَّا بإبدائِه لَكفاه عمَّا سِواه[1].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ﴾ بعدَ ذِكْرِ التَّظاهُرِ دَليلٌ واضِحٌ على أنَّ المولَى هو النَّاصِرُ لا المالِكُ؛ إذْ لو كان مالِكًا لَمَا شارَكَه فيه جِبريلُ وصالِحُ المؤمِنينَ؛ فهو الآنَ ردٌّ على الرَّافضةِ فيما يَحْمِلونَ عليه قَولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

---

= قال الشنقيطي: (المثنَّى إذا أُضِيف إليه شيئانِ هما جزآه جاز في ذلك المضافِ -الذي هو شيئانِ- الجمعُ، والتثنيةُ، والإفرادُ، وأفصحُها الجمعُ، فالإفرادُ، فالتثنيةُ على الأصحِّ). ((أضواء البيان)) (٤/ ١١٥).

وقال الفرَّاءُ: (إنَّما اختير الجمعُ على التَّثنيةِ؛ لأنَّ أكثرَ ما تكونُ عليه الجوارحُ اثنينِ في الانسانِ: اليدينِ والرِّجلينِ والعَينينِ، فلمَّا جرَى أكثرُه على هذا ذهب بالواحدِ منه إذا أُضيفَ إلى اثنينِ مذهبَ التثنيةِ). ((معاني القرآن)) (١/ ٣٠٦). ويُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٣/ ٦٢١، ٦٢٢)، ((المفصل في صنعة الإعراب)) للزمخشري (ص: ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٦٤).

قال ابن حجر: (قال ابنُ بطَّالٍ: الَّذي عليه أهلُ العِلمِ أنَّ السِّرَّ لا يُباحُ به إذا كان على صاحبِه منه مَضَرَّةٌ، وأكثرُهم يقولُ: إنَّه إذا مات لا يَلزَمُ مِن كِتمانِه ما كان يَلزَمُ في حياتِه، إلَّا أن يكونَ عليه فيه غَضاضةٌ. قلتُ: الَّذي يَظهَرُ انقِسامُ ذلك بعدَ الموتِ إلى ما يُباحُ وقد يُستحَبُّ ذِكرُه ولو كَرِهَه صاحبُ السِّرِّ، كأن يكونَ فيه تزكيةٌ له مِن كرامةٍ أو مَنقبةٍ أو نحوِ ذلك، وإلى ما يُكرَهُ مُطلقًا وقد يَحرُمُ، وهو الَّذي أشار إليه ابنُ بطَّالٍ، وقد يجبُ كأن يكونَ فيه ما يجبُ ذِكرُه، كحقٍّ عليه كان يُعذَرُ بتركِ القيامِ به، فيُرجى بعدَه إذا ذُكِرَ لِمَن يقومُ به عنه أن يفعلَ ذلك). ((فتح الباري)) (١١/ ٨٢). ويُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٩/ ٦٤).

وسلَّم: ((مَن كُنْتُ مَوْلاه فعَليٌّ مَولاه))[١] وأنَّها وِلايةُ التَّمليكِ، لا وَلايةُ النُّصرةِ، وهذا مِن حَماقاتِ الرَّافِضةِ الَّتي لا تُشْكِلُ على عالِمٍ ولا جاهِلٍ؛ فلِمَ ابتاعَ إذَنْ -ليتَ شِعْري- الجواريَ والمماليكَ بالأثمانِ الغاليةِ إنْ كان -على زعْمِهم- مالِكَهم ومالِكَ ساداتِهم؟! بل لِمَ أصدَقَ حرائرَه إنْ كُنَّ بالمِلْكِ جواريَه؟! أمْ لِمَ فَعلَه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَبْلَه، الَّذي وَرِثَ الوَلايةَ عنه، واستحَقَّها به؟! إنَّ هذا لأقبَحُ مَقالٍ، وأجدَرُه بطُرُقِ المُحالِ. نعوذُ باللهِ مِن الضَّلالِ[٢].

١٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ فيه سؤالٌ: إن كان المرادُ بـ (صَالِحُ) الفَردَ، فأيُّ فَردٍ هو؟ مع أنَّه لا يُناسِبُ جَمْعَ الملائِكةِ بَعْدَه؟ أو الجَمْعَ، فهلا كُتِبَ في المُصحَفِ بالواوِ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** هو فَردٌ أُريدَ به الجَمعُ، كقَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ [الحاقة: ١٧]، وقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧].

**الوَجهُ الثَّاني:** هو جَمعٌ، لكِنَّه كُتِبَ في المُصحَفِ بغَيرِ (واوٍ) على اللَّفظِ[٣]، أي: حُذِفَتْ منه الواوُ خطًّا؛ لحذْفِها لَفظًا.

---

(١) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨١٤٥)، وأحمدُ (٢٢٩٤٥) مِن حديثِ بُرَيدةَ الأسْلَميِّ رضيَ الله عنه.

جوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((البداية والنهاية)) (٥/ ٦٧٦)، وصحَّح إسنادَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٢١١)، والألبانيُّ على شرطِ الشَّيخَينِ أو مسلمٍ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤/ ٣٣٦)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ على شرطِ الشَّيخَينِ في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٨/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٢).

١٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ في هذا أكبَرُ فَضيلةٍ وشَرَفٍ لسيِّدِ المُرسَلينَ؛ حيثُ جَعَل الباري نَفْسَه الكريمةَ وخواصَّ خَلْقِه أعوانًا لهذا الرَّسولِ الكَريمِ(١).

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ جوازُ إطلاقِ المَولَى على بني آدمَ، وأنْ تقولَ: «هذا فُلانٌ مَولايَ» وما أشْبَهَ ذلك، لكنَّ إطلاقَها على المخلوقِ ليس كإطلاقِها على اللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى له الوَلايةُ المُطلَقةُ، وأمَّا الإنسانُ فوَلايتُه مُقيَّدةٌ(٢).

٢١- مَن نَصَرَ رسولَ اللهِ، وذَبَّ عنه أعداءَه، ونافَحَ عنه؛ كان جبريلُ معه ومؤَيِّدًا له كما قال الله تعالى لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣).

٢٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أنَّ أفضلَ الأولياءِ مِن هذه الأُمَّةِ هم صالِحو المؤمِنينَ الَّذين صَحِبوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٤).

٢٣- قال الله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ...﴾ لَمَّا سمِعْنَ -رضيَ اللهُ عنهنَّ- هذا التَّخويفَ والتَّأديبَ، بادَرْنَ إلى رضا رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان هذا الوصفُ منطبقًا عليهنَّ، فصِرْنَ أفضلَ نساءِ المؤمنينَ، وفي هذا دليلٌ على أنَّ الله لا يختارُ لرسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا أكملَ الأحوالِ، وأعلى الأمورِ، فلَمَّا اختار اللهُ تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٣/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (١/ ٢٤٧).

وسلَّم بَقاءَ نِسائِه المذكوراتِ معه، دَلَّ على أنَّهنَّ خَيرُ النِّساءِ وأكمَلُهنَّ[١].

٢٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يكونُ المُبدَلاتُ خَيرًا مِنهنَّ، ولم يكُنْ على وَجهِ الأرضِ نِساءٌ خَيرٌ مِن أمَّهاتِ المؤمِنينَ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** إذا طلَّقَهنَّ الرَّسولُ لعِصيانِهنَّ له، وإيذائِهنَّ إيَّاه، لم يَبقَينَ على تلك الصِّفةِ، وكان غيرُهنَّ مِن الموصوفاتِ بهذه الأوصافِ مع الطَّاعةِ لرَسولِ اللهِ خيرًا مِنهنَّ[٢].

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّ اللهَ تعالى كان عالِمًا بأنَّه لا يُطَلِّقُهنَّ، ولكِنْ أخبَرَ عن قُدرتِه على أنَّه إن طلَّقَهنَّ أبدَلَه خيرًا مِنهنَّ؛ تخويفًا لهنَّ، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ [محمد: ٣٨]، وهو إخبارٌ عن القُدرةِ وتخويفٌ لهم، لا أنَّ في الوُجودِ مَن هو خيرٌ مِن أصحابِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

**الوَجهُ الثَّالثُ:** هذا على سَبيلِ الفَرْضِ، وعامٌّ في الدُّنيا والآخِرةِ، فلا يَقتضي وُجودَ مَن هو خيرٌ منهنَّ مُطلَقًا، وإنْ قيل بوُجودِه في خديجةَ رَضِيَ اللهُ عنها؛ لِمَا جَرَّب مِن تحامُلِها على نَفْسِها في حَقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبُلوغِها في حُبِّه والأدَبِ معه ظاهِرًا وباطِنًا النِّهايةَ القُصوى، ومَريمَ عليها السَّلامُ الَّتي أحصَنَت فَرْجَها حتَّى كانت مِن القانِتينَ، وذلك في الآخِرةِ، والكَلامُ خارِجٌ مَخرَجَ الشَّرطِ بالطَّلاقِ، وقد عَلِمَ سُبحانَه أنَّه لا يَقَعُ، لكِنَّه سُبحانَه عَلِمَ أنَّه لو وَقَع أبدَلَه صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢٠٢).

عليه وسلَّم مَن هو بالصِّفاتِ المذكورةِ المقتَضِيةِ للإخلاصِ[١].

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ﴾ دليلٌ على المُرجئةِ -فيما يَزعُمونَ أنَّ الإيمانَ لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ-؛ إذ لا يَشُكُّ أحَدٌ أنَّ نِساءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كُنَّ لا محالةَ مُسلِماتٍ مُؤمِناتٍ، ولم يَكُنَّ كوافِرَ، فهل تكونُ المفضَّلاتُ عليهنَّ بالإسلامِ والإيمانِ -إنْ طُلِّقْنَ- خَيرًا مِنهنَّ إلَّا بزيادةٍ في الإيمانِ والإسلامِ[٢]؟!

٢٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا﴾ سَوقُ هذه الأوصافِ هذا السِّياقَ في عِتابِ مَن هو متَّصِفٌ بها: مُعَرِّفٌ أنَّ المرادَ منها التَّمامُ، لا سِيَّما وهي لا يُوجَدُ وَصفٌ منها على سَبيلِ الرُّسوخِ إلَّا كان مُستلزِمًا لسائِرِها؛ فلذلك لم يُحتَجْ في تَعدادِها إلى العَطفِ بالواوِ، والتَّجريدُ عنه أقعَدُ في الدَّلالةِ على إرادةِ اجتِماعِها كُلِّها[٣].

٢٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا﴾ تَذكيرٌ لهنَّ بأنَّهنَّ ما اكْتَسَبْنَ التَّفضيلَ على النِّساءِ إلَّا مِن فضْلِ زَوجِهِنَّ عِندَ اللهِ[٤].

٢٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٣).

قال السعدي: (وهذا مِن بابِ التَّعليقِ الَّذي لم يُوجَدْ، ولا يَلزمُ وُجودُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٠).

قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ فيه بيانُ أنَّ الخَيريَّةَ الَّتي يَختارُها اللهُ لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النِّساءِ: هي تلك الصِّفاتُ مِن الإيمانِ والصَّلاحِ[١].

٢٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٖ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف أثبَتَ الخَيريَّةَ لهُنَّ بالصِّفاتِ المذكورةِ بقَولِه ﴿مُسۡلِمَٰتٖ﴾ إلى آخِرِه، مع اتِّصافِ أزواجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بها أيضًا؟

**الجوابُ**: المرادُ ﴿خَيۡرٗا مِّنكُنَّ﴾ في حِفظِ قَلْبِه، ومُتابَعةِ رِضاه، مع اتِّصافِهنَّ بهذه الصِّفاتِ المُشتَرَكةِ بيْنَكنَّ وبيْنَهنَّ[٢]. أو لزيادتهنَّ عليهنَّ في بعضِها كما تقدَّم.

٣٠- في قَولِه تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ إدخالُ الثَّيِّبِ مع البِكْرِ في مَوضعِ المدحِ مِمَّا يدُلُّ على أنَّها ممدوحةٌ أيضًا، وإنْ كانتِ البِكرُ أفضَلَ منها[٣].

٣١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ فيه سُؤالٌ: ذِكرُ الثَّيِّباتِ في مَقامِ المدحِ، وهنَّ مِن جُملةِ ما يقِلُّ رَغبةُ الرِّجالِ فيهنَّ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: يُمكِنُ أن يكونَ البَعضُ مِنَ الثَّيِّبِ خَيرًا بالنِّسبةِ إلى البَعضِ مِنَ الأبكارِ؛ لاختِصاصِهنَّ بالمالِ والجَمالِ أو النَّسَبِ، أو المجموعِ مَثَلًا، وإذا كان كذلك فلا يَقدَحُ ذِكرُ الثَّيِّبِ في المدحِ؛ لجوازِ أن يكونَ المرادُ مِثلَ ما ذكَرْناه مِن الثَّيِّبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٢١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٢، ٥٧٣). ويُنظر الفائدةُ (٢٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧١، ٥٧٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٣٠).

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ الثَّيِّبَ تُمدَحُ مِن جِهةِ أنَّها أكثَرُ تَجرِبةً وعَقلًا، وأسرَعُ حَبَلًا غالِبًا، وأرْعى لواجباتِ الزَّوجِ، وأميَلُ مع أهوائِه، وأقوَمُ على بَيتِه، والبِكرُ تُمدَحُ مِن جِهةِ أنَّها أطهَرُ وأطيَبُ، وأكثَرُ مُداعَبةً ومُلاعَبةً غالِبًا، وأشدُّ حَياءً، وأكثرُ غَرارةً ودَلًّا؛ فوَجْهُ التَّفصيلِ في الزَّوجاتِ المقدَّراتِ أنَّ لِكِلْتا الصِّفتينِ مَحاسِنَها عِندَ الرِّجالِ[١].

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّه جمَع بيْنَهما في مَوضِعِ الامتِنانِ على الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لئلَّا تُصرَفَ كلُّ الرَّغبةِ إلى الأبكارِ، بل يَتزَوَّجونَ الثَّيِّباتِ كما يَتزَوَّجونَ الأبكارَ[٢].

٣٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ تَزَوُّجَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس على حسَبِ الشَّهوةِ والرَّغبةِ، بل على حسَبِ ابتِغاءِ مَرضاتِ اللهِ تعالى[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ افتِتاحُ السُّورةِ بخِطابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنِّداءِ تَنبيهٌ على أنَّ ما سيُذْكَرُ بَعْدَه ممَّا يَهتَمُّ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والأُمَّةُ، ولأنَّ سبَبَ النُّزولِ كان مِن عَلائقِه[٤].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ نِداءُ إقبالٍ وتَشريفٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٧).

- قولُه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ سُؤالُ تَلطُّفٍ؛ ولذلكَ قُدِّمَ قَبْلَه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾[١]. وهذا الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في معْنى النَّفيِ، أي: لا يُوجدُ ما يَدْعو إلى أنْ تُحرِّمَ على نفْسِكَ ما أحلَّ اللهُ لكَ؛ ذلك أنَّه لَمَّا الْتزَمَ عدَمَ العَودِ إلى ما صدَرَ مِنه الْتزامًا بيَمينٍ أو بدونِ يمينٍ، أرادَ الامتناعَ مِنه في المستقبَلِ، قاصدًا بذلكَ تَطمينَ أزواجِه اللَّائي تَمالَأْنَ عليه لفَرْطِ غَيرَتِهنَّ[٢].

- وجاءَ قولُه: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ﴾ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لأنَّه أوقَعَ تَحريمًا مُتجدِّدًا[٣].

- وفي الإتيانِ بالموصولِ في قولِه: ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ لِمَا في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى تَعليلِ الحُكْمِ هو أنَّ ما أحلَّه اللهُ لعبْدِه يَنْبَغي له أنْ يتمتَّعَ به ما لم يَعرِضْ له ما يُوجِبُ قطْعَه مِن ضُرٍّ أو مرَضٍ؛ لأنَّ تَناولَه شُكرٌ للهِ، واعتِرافٌ بنِعمتِه، والحاجةِ إليه[٤].

- وجُملةُ ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ إمَّا تَفسيرٌ لـ ﴿تُحَرِّمُ﴾، أو حالٌ مِن فاعلِه، أو استِئنافٌ ببَيانِ ما دَعاه إليه، مُؤْذِنٌ بعدَمِ صَلاحيتِكَ لذلكَ[٥].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تَذييلٌ، وفيه استِئناسٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن وَحشةِ هذا المَلامِ، أي: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لكَ[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، بيَّنَ اللهُ به لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما شرَعَه مِن كفَّارةِ اليمينِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٤٦، ٣٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٧).

وأفْتاهُ بأنْ يأخُذَ برُخصتِه في كفَّارةِ اليمينِ المشروعةِ للأمَّةِ كلِّها[١].

- وافتتاحُ الخبرِ بحرْفِ التَّحقيقِ (قدْ)؛ لتَنزيلِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَنزلةَ مَن لا يعلَمُ أنَّ اللهَ فرَضَ تَحِلَّةَ الأيْمانِ بآيةِ الكفَّارةِ، بناءً على أنَّه لم يأخُذْ بالرُّخصةِ تَعظيمًا للقسَمِ، فأعلَمَه اللهُ أنَّ الأخْذَ بالكفَّارةِ لا تَقصيرَ عليه فيه؛ فإنَّ في الكَفَّارةِ ما يَكفي للوَفاءِ بتَعظيمِ اليمينِ باللهِ تعالَى[٢].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾، والمولى: الوليُّ، وهو النَّاصرُ ومُتولِّي تَدبيرِ ما أُضيفَ إليه، وهو هُنا كِنايةٌ عن الرَّؤوفِ والمُيسِّرِ[٣].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ هذا تَذكيرٌ ومَوعظةٌ بما جَرَى في خِلال تَيْنِكَ الحادثتَيْنِ -أنَّه الْتزَم ألَّا يعودَ لشُربِ ما شَربه، أو كان وعَدَ أنْ يُحرِّمَ ماريةَ على نفْسِه-، ثُنِيَ إليه عِنانُ الكلامِ بعْدَ أنْ قُضِيَ ما يُهِمُّ مِنَ التَّشريعِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما حرَّمَ على نفْسِه مِن جرَّائِهما[٤]. وذُكِرَ ذلكَ على سَبيلِ التَّأنيبِ لِمَن أسَرَّ له فأفشاهُ[٥].

- وقد أُعيدَ ما دلَّتْ عليه الآيةُ السَّابقةُ ضِمْنًا بما تَضمَّنَتْه هذه الآيةُ بأُسلوبٍ آخَرَ؛ لِيُبْنَى عليه ما فيه مِن عِبَرٍ ومَواعِظَ، وأدَبٍ ومكارِمَ، وتَنبيهٍ وتحذيرٍ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٠٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٠).

- قولُه: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ المقصودُ ببعضِ أزواجِه هي حَفصةُ بنتُ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رَضيَ اللهُ عنهما، وعُدِلَ عن ذِكْرِ اسمِها؛ تَرفُّعًا عن أنْ يكونَ القصدُ مَعرفةَ الأعيانِ، وإنَّما المرادُ العِلمُ بمَغزى القِصَّةِ، وما فيها ممَّا يُجتنَبُ مِثْلُه أو يُقْتدَى به، وكذلكَ طَيُّ تَعيينِ المُنبَّأةِ بالحديثِ، وهي عائشةُ رَضيَ اللهُ عنها[1]. وقيل: أبهَمَ الزَّوجةَ ولم يُعَيِّنْها سُبحانَه؛ تشريفًا له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولها رَضِيَ اللهُ عنهنَّ[2].

- وكان القياسُ أنْ يُقالَ: (نبَّأَتْ به بعضَهُنَّ) بدَلَ ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾؛ لأنَّ حَفصةَ نبَّأَتْ بالحديثِ الَّذي أسرَّها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعضَ أزواجِه، يعني: عائشةَ، وأنْ يُقالَ: (عرَّفَها بَعضَه)؛ لأنَّه عرَّفَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعضَ الحديثِ لحَفصةَ، وعُدِلَ عن ذلك؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ ليس في شأنِ المُذاعِ إليه -أيْ: عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها- وفي شأنِ المُعرِّفِ -أي: حفصةَ رَضِيَ اللهُ عنها- ليَذْكُرَهما، بلْ في مُعاتَبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وابتغائِه مَرْضاةَ أزواجِه، وفي شأنِ جِنايةِ حَفصةَ، ثُمَّ في حُكْمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وإعراضِه عن بَعضِ جِنايتِها، فلمَّا دلَّ قولُه: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ على الجنايةِ، وقولُه: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ على الإعراضِ عن البعضِ؛ أتَى بهما، وترَكَ ذِكْرَهما، ويَعْضُدُه إتيانُ ضَميرِ المُنبَّأِ به في قولِه: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، مع الاستِغناءِ عنه بقَرينةِ الأحوالِ؛ لأنَّه هو المقصودُ في الذِّكْرِ[3].

- وضَميرُ ﴿عَلَيْهِ﴾ عائدٌ إلى الإنباءِ المأخوذِ مِن ﴿نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، أو على الحديثِ، بتَقديرِ مُضافٍ يدُلُّ عليه قولُه: ﴿نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾، تَقديرُه: أظْهَرَه اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٤٩٩).

على إفشائِه[١].

- ومَفعولُ ﴿عَرَّفَ﴾ الأوَّلُ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه، أي: عرَّفَها بَعضَه، أي: بعضَ ما أطْلَعَه اللهُ عليه، وأعرَضَ عن تَعريفِها ببَعضِه[٢].

- قولُه: ﴿عَرَّفَ﴾ قُرِئ ﴿عَرَفَ﴾ -بتَخفيفِ الرَّاءِ[٣]، أي: عَلِمَ بعضَه-؛ فذلك كِنايةٌ عن المُجازاةِ، أي: جازَى عن بعضِه الَّتي أفشَتْه باللَّومِ والعَتْبِ، وقدْ يُكنَّى عن التَّوعُّدِ بفِعلِ العِلمِ[٤].

- قولُه: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ الاستِفهامُ هنا حَقيقيٌّ. ويجوزُ جعْلُه للتَّعجُّبِ مِن عِلمِه بذلكَ، وفي هذا كِنايةٌ عن تَيقُّظِ حَفصةَ بأنَّ إفشاءَها سِرَّ زَوجِها زلَّةٌ خُلقيَّةٌ عظيمةٌ حجَبَها عن مُراعاتِها شِدَّةُ الصَّفاءِ لعائشةِ، وفرْطُ إعجابِها بتَحريمِ ماريةَ مِن أجْلِها -على أحدِ القولَينِ-، فلَمْ تَتمالَكْ عن أنْ تُبشِّرَ به خليلتَها ونصيرتَها، ولو تَذكَّرَتْ لتَبيَّنَ لها أنْ مُقتضَى كتْمِ سِرِّ زَوجِها أقوى مِن مُقتضى إعلامِها خليلتَها؛ فإنَّ أواصِرَ الزَّوجيَّةِ أقْوى مِن أواصِرِ الخُلَّةِ، وواجبَ الإخلاصِ لرَسولِ اللهِ أعْلى مِن فَضيلةِ الإخلاصِ للخلائلِ[٥].

- وإيثارُ وصْفَي ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ في قولِه: ﴿قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ دونَ الاسمِ العَلَمِ (الله)؛ لِمَا فيهما مِنَ التَّذكيرِ بما يجِبُ أنْ يَعْلَمَه النَّاسُ مِن إحاطةِ اللهِ تعالَى عِلْمًا وخُبْرًا بكلِّ شَيءٍ. وفي إتْباعِ وصْفِ العليمِ بوَصْفِ الخَبيرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٢).

(٣) قرأ الكِسائيُّ: ﴿عَرَفَ﴾ بتخفيفِ الرَّاءِ، وقرأ الباقونَ بتشديدِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٤).

إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ عَلِمَ دَخيلةَ المُخاطَبةِ وما قصَدَتْه مِن إفشاءِ السِّرِّ للأُخرَى[١]، ولِما في اسمِ الله (الخبيرِ) مِن المُبالَغةِ ما ليس في (العليم)[٢].

- فإنْ قِيل: لِمَ تُرِكَ الضَّميرُ في قولِه: ﴿نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾؟

**فالجوابُ**: لكونِه جوابًا عن قولِها: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾، وقد اعتُمِدَ في السُّؤالِ عن المُنْبِئِ، وأُوقِعَ المنبَّأُ به فضْلةً في الكلامِ، ولأنَّ في تَرْكِه إفادةَ الشُّمولِ والتَّفخيمِ؛ لذلك أُردِفَ بالعليمِ الخَبيرِ، أي: العليمُ بكُلِّيَّاتِ الأحوالِ، والخبيرُ بجُزئيَّاتِها[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الْتِفاتٌ مِن ذِكْرِ القصَّتَيْنِ إلى مَوعظةِ مَن تعلَّقَتْ بهما؛ فهو استِئنافُ خِطابٍ وجَّهَه اللهُ إلى حَفصةَ وعائشةَ رَضيَ اللهُ عنهما؛ لأنَّ إنباءَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعِلْمِه بما أفشَتْه، القصدُ منه المُبالَغةُ في المُعاتَبةِ، مع المَوعظةِ والتَّحذيرِ والإرشادِ إلى رَأْبِ ما انْثَلَمَ مِن واجبِها نحوَ زَوجِها، وإذْ قدْ كانَ ذلكَ إثمًا -لأنَّه إضاعةٌ لحُقوقِ الزَّوجِ، وخاصَّةً بإفشاءِ سرِّه- ذكَّرَها بواجبِ التَّوبةِ منه[٤].

- وجُملةُ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ قائمةٌ مِن مَقامِ جوابِ الشَّرطِ معنًى؛ لأنَّها تُفيدُ معْنى: يَتولَّى جَزاءَكُما على المُظاهَرةِ عليه؛ لأنَّ اللهَ مَولاهُ، وفي هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٦).

الحَذفِ مَجالٌ تَذهَبُ فيه نفْسُ السامعِ كلَّ مَذهبٍ مِنَ التَّهويلِ[١].

- وضَميرُ الفصلِ (هُوَ) في جُملةِ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ يُفيدُ القَصرَ على تَقديرِ حُصولِ الشَّرطِ، أي: إنْ تظاهَرْتُما مُتناصِرَتَيْنِ عليه فإنَّ اللهَ هو ناصرُه لا أنتُما، أي: وبطَلَ نصْرُكما الَّذي هو واجبُكما؛ إذ أخلَلْتُما به على هذا التَّقديرِ، وفي هذا تَعريفٌ بأنَّ اللهَ ناصرٌ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لئلَّا يقَعَ أحَدٌ مِن بعْدُ في مُحاولةِ التَّقصيرِ مِن نَصرِه[٢].

- وبُدِئَ بجِبريلَ عليه السَّلامُ، وأُفرِدَ بالذِّكْرِ؛ تَعظيمًا له، وإظهارًا لمَكانتِه عِندَ اللهِ، ويكونُ قدْ ذُكِرَ مرَّتَينِ: مرَّةً بالنَّصِّ، ومرَّةً في العمومِ في قولِه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[٣].

- واكتَنَفَ صالِحَ المُؤمِنينَ جِبريلُ والملائكةُ؛ تَشريفًا لهُم، واعتِناءً بهِم؛ إذْ جعلَهم بيْنَ الَّذينَ يُسبِّحونَ اللَّيلَ والنَّهارَ لا يَفْتُرونَ[٤].

- وقولُه: ﴿وَصَٰلِحُ﴾ مُفرَدٌ أُريدَ به معْنى الفَريقِ الصَّالحِ، أو الجِنسِ الصَّالحِ مِنَ المُؤمِنينَ؛ ولذلكَ عُمِّمَ بالإضافةِ[٥]. وقيل: أرادَ بصالحِ المُؤمِنينَ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، وهو اللَّائقُ بتَوسُّطِه بيْنَ جِبريلَ والملائكةِ عليهِمُ السَّلامُ؛ فإنَّه جمْعٌ بيْن الظَّهيرِ المعنويِّ والظَّهيرِ الصُّوريِّ، كيفَ لا وإنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٨).

جبريلَ ظَهيرٌ له، يُؤيِّدُه بالتَّأييداتِ الإلهيَّةِ، وهُما وَزيراه وظَهيراه في تَدبيرِ أُمورِ الرِّسالةِ، وتمشيةِ أحكامِها الظَّاهرةِ، ولأنَّ بَيانَ مُظاهَرتِهما له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أشدُّ تأثيرًا في قُلوبِ بنتَيْهِما، وتَوهينًا لأمرِهما؛ فكان حقيقًا بالتَّقديمِ، بخِلافِ ما إذا أُريدَ به جِنسُ الصَّالِحينَ كما هو المشهورُ[1].

- قولُه: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ عطفُ جملةٍ على الَّتي قبْلَها، والمقصودُ منه تَعظيمُ هذا النَّصرِ بوَفرةِ النَّاصرينَ؛ تَنويهًا بمَحبَّةِ أهلِ السَّماءِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحُسْنِ ذِكْرِه بيْنَهُم؛ فإنَّ ذلكَ ممَّا يَزيدُ نصْرَ اللهِ إيَّاهُ شأنًا[2].

وفائدةُ ذِكْرِ الملائكةِ بعْدَ ذِكْرِ تأْييدِ اللهِ وجِبريلَ وصالحِ المُؤمِنينَ: أنَّ المذكورينَ قَبْلَهم ظاهرةٌ آثارُ تأْييدِهم بوحْيِ اللهِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بواسطةِ جِبريلَ، ونصْرِه إيَّاه بواسِطةِ المُؤمِنينَ؛ فنبَّهَ اللهُ المرأتَيْنِ على تأْييدٍ آخَرَ غيرِ ظاهرةٍ آثارُه، وهو تأْييدُ الملائكةِ بالنَّصرِ في يومِ بدْرٍ، وغيرِ النَّصرِ مِنَ الاستِغفارِ في السَّمواتِ، فلا يَتوهَّمْ أحَدٌ أنَّ هذا يَقتضي تَفضيلَ نُصرةِ الملائكةِ على نُصرةِ جِبريلَ، بَلْهَ نُصرةَ اللهِ تعالى[3].

- قولُه: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾: أي: بعدَ نُصرةِ الله عزَّ وجلَّ وجبريلَ وصالحِ المؤمنينَ، ومظاهرةُ الملائكةِ مِن جملةِ نصرةِ الله، قيل: فكأنَّه فضَّل نصرتَه تعالى بهم وبمظاهرتِهم على غيرِها مِن وجوهِ نصرتِه تعالى؛ لفضلِهم على جميعِ خلقِه، وقيل: الأنسَبُ أنْ يُجعَلَ ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى مُظاهَرةِ صالحِ المُؤمِنينَ خاصَّةً، ويكونَ بيانُ بَعْديَّةِ مُظاهَرةِ الملائكةِ تَدارُكًا لِمَا يُوهِمُه التَّرتيبُ الذِّكْريُّ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٥٨، ٣٥٩).

أفضليَّةِ المُقدَّم، فكأنَّه قيلَ بعْدَ ذِكْرِ مُظاهَرةِ صالحِ المُؤمِنينَ: وسائرُ الملائكةِ بَعْدَ ذلكَ ظَهيرٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ إيذانًا بعُلُوِّ رُتبةِ مُظاهَرتِهم، وبُعْدِ مَنزلتِها، وجبْرًا لفصْلِها عن مُظاهَرةِ جبريلَ عليه السَّلامُ(١).

- وأُفْرِدَ الظَّهيرُ؛ لأنَّ المُرادَ فَوجٌ ظهيرٌ، وكثيرًا ما يأتي فَعِيلٌ نَحْوُ هذا للمُفرَدِ والمُثنَّى والمجموعِ بلَفظِ المفرَدِ، كأنَّهم في المُظاهَرةِ يَدٌ واحدةٌ على مَن يُعاديهِ، فما قَدْرُ تظاهُرِ امرأتَيْنِ على مَن هؤلاءِ ظُهراؤُه(٢)؟!

٥- قولُه تعالَى: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا﴾

- قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ عُدِلَ به إلى تَذكيرِ جَميعِ أزواجِه عليه السَّلامُ بالحذَرِ مِن أنْ يَضيقَ صَدْرُه عن تحمُّلِ أمثالِ هذا الصَّنيعِ، فيُفارِقَهنَّ؛ لتُقلِعَ المُتلبِّسةُ، وتَحذَرَ غيرُها مِن مِثلِ فِعلِها، فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا عُقِّبَتْ بها جُملةُ ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، الَّتي أفادَتِ التَّحذيرَ مِن عِقابٍ في الآخِرةِ إنْ لم يَتُوبَا ممَّا جَرَى مِنهما في شأْنِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أفادَ هذا الإيماءُ إلى التَّحذيرِ مِن عُقوبةٍ دُنيويَّةٍ لهُنَّ يأمُرُ اللهُ فيها نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهي عُقوبةُ الطَّلاقِ، على ما يَحصُلُ مِنَ المؤاخَذةِ في الآخِرةِ إنْ لم يَتُوبا؛ ولذلكَ فُصِلتْ عن الَّتي قَبْلَها -أي: لم تُعطَفْ عليها- لاختِلافِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٦، ٥٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٧).

الغرَضَيْنِ[١].

- قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ...﴾ ﴿عَسَىٰ﴾ هُنا مُستعمَلةٌ في التَّحقيقِ، وإيثارُها هنا؛ لأنَّ هذا التَّبديلَ مُجرَّدُ فرْضٍ، وليس بالواقِعِ؛ لأنَّهنَّ لا يُظَنُّ بهِنَّ عدَمُ الارْعِواءِ عمَّا حُذِّرْنَ منه[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ فيه إيجازٌ بحذْفِ ما يَترتَّبُ عليه إبدالُهنَّ مِن تَقديرِ: إنْ فارَقكنَّ، فالتَّقديرُ: عسى أنْ يُطلِّقَكنَّ هو -وإنَّما يُطَلِّقُ بإذنِ ربِّه- أنْ يُبدِلَه ربُّه بأزواجٍ خيرٍ مِنكُنَّ[٣].

- قولُه: ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ إجراءُ الأوصافِ المُفصَّلةِ بعْدَ الوصفِ المُجمَلِ -وهو ﴿خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾-؛ للتَّنبيهِ على أنَّ أصولَ التَّفضيلِ مَوجودةٌ فيهِنَّ، فيَكمُلُ للَّائي يَتزوَّجُهنَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فضْلٌ على بَقيَّةِ النِّساءِ بأنَّهنَّ صِرْنَ أزواجًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤].

- وفي هذا الوصفِ ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ إشعارٌ بأنَّهنَّ مُديماتٌ لطاعةِ اللهِ ورسولِه؛ ففيه تعريضٌ لِمَا وقَعَ مِن تقصيرِ إحداهُنَّ في ذلكَ، فعاتَبَها اللهُ وأيقَظَها للتَّوبةِ[٥].

- قولُه: ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ التَّائباتُ: المُقلِعاتُ عن الذَّنْبِ إذا وقَعْنَ فيه، وفيه تَعريضٌ بإعادةِ التَّحريضِ على التَّوبةِ مِن ذنْبِهما الَّتي أُمِرتَا بها بقولِه: ﴿إِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٦١).

نَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] [التحريم: ٤].

- وانتَصَبَتْ هذه الصِّفاتُ على أنَّها نُعوتٌ لـ ﴿أَزْوَٰجًا﴾، ولم يُعطَفْ بعضُها على بعضٍ بالواوِ؛ مِن أجْلِ التَّنصيصِ على ثُبوتِ جَميعِ تلكَ الصِّفاتِ لكلِّ واحدةٍ مِنهُنَّ، ولو عُطِفَت بالواوِ لاحتَمَلَ أنْ تكونَ الواوُ للتَّقسيمِ، أي: تَقسيمِ الأزواجِ إلى مَن يَثبُتُ لهُنَّ بعضُ تلك الصِّفاتِ دونَ بعضٍ، ألَا تَرى أنَّه لَمَّا أُريدَتْ إفادةُ ثُبوتِ إحْدى صِفتَينِ دونَ أُخرى مِن النَّعتَينِ الواقعَينِ بعْدَ ذلك، كيف عُطِفَ بالواوِ قولُه: ﴿وَأَبْكَارًا﴾؛ لأنَّ الثَّيِّباتِ لا يُوصَفْنَ بأبكارٍ، والأبكارَ لا يُوصَفْنَ بالثَّيِّباتِ[2]، فالثُّيُوبةُ والبَكارةُ لا يَجتمعانِ، فلذلكَ عطَفَ أحَدَهما على الآخَرِ، ولو لم يأْتِ بالواوِ لاختلَّ المعنى، وذكَرَ الجِنسَيْنِ؛ لأنَّ في أزواجِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَن تزوَّجَها بِكرًا، ومَن تزوَّجَها ثيِّبًا، فدخولُ الواوِ هاهنا مُتعيِّنٌ. وقيل: وُسِّط العاطفُ بين الصِّفتينِ ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ لأنَّهما في حُكمِ صِفةٍ واحدةٍ؛ إذِ المعنى: مُشتمِلاتٌ على الثَّيِّباتِ والأبكارِ، فالمقصودُ أنَّه يُزوِّجُه بالنَّوعَينِ: الثَّيِّباتِ والأبكارِ[3].

- وتَقديمُ وصْفِ ﴿ثَيِّبَٰتٍ﴾؛ لأنَّ أكثَرَ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا تزوَّجَهُنَّ كُنَّ ثيِّباتٍ، ولعلَّه إشارةٌ إلى أنَّ المَلامَ الأشدَّ مُوَجَّهٌ إلى حَفصةَ قبْلَ عائشةَ، وكانتْ حَفصةُ ممَّن تزوَّجَهُنَّ ثيِّباتٍ، وعائشةُ هي الَّتي تزوَّجَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٧، ٥٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦١، ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٥٤).

بِكرًا، وهذا التَّعريضُ أُسلوبٌ مِن أساليبِ التَّأديبِ، كما قيل: الحُرُّ تكفيه الإشارةُ[١]. وقيل: إنَّ هذا للتَّنويعِ فقط. وقيل: إنَّه قَدَّم الثَّيِّباتِ؛ ليُبَيِّنَ أنَّ الخَيريَّةَ فيهنَّ بحسَبِ العِشرةِ ومحاسِنِ الأخلاقِ[٢]. وقيل: بَدَأَ بالثَّيِّباتِ؛ لِيُشيرَ إلى أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَتزوَّجُ المرأةَ لِبَكارَتِها، ولكنْ للمعاني الجليلةِ ولو كانت ثَيِّبًا[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((جلسات رمضانية)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٣).

## الآيات (٦-٩)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَّصُوحًا﴾: أي صادِقةً بالِغةً في النُّصحِ، خالِصةً، عامَّةً مِن جميعِ الذُّنوبِ، يَنوي التَّائبُ فيها عَدَمَ مُعاوَدةِ المعصيةِ، وأصلُ (نصح): يدُلُّ على مُلاءَمةٍ بيْن شَيئَينِ وإصلاحٍ لهما[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يُوجِّهُ اللهُ تعالى النِّداءَ للمؤمنينَ، آمِرًا لهم أن يُؤَدُّوا واجبَهم نحوَ أنفُسِهم ونحوَ أهليهم، حتَّى يَنجوا مِن عذابِ النَّارِ، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا قُوا أنفُسَكم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٨).

قال ابن القيم: (أصلُ مادَّةِ «ن ص ح» لِخَلاصِ الشَّيءِ مِن الغِشِّ والشَّوائبِ الغريبةِ، وهو مُلاقٍ في الاشتِقاقِ الأكبَرِ لِنَصَحَ إذا خلَصَ، فالنُّصحُ في التَّوبةِ والعبادةِ والمَشورةِ: تخليصُها مِن كلِّ غِشٍّ ونَقصٍ وفَسادٍ، وإيقاعُها على أكملِ الوُجوهِ، والنُّصحُ ضِدُّ الغِشِّ). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٦).

-بالعِلمِ النَّافِعِ، والعَمَلِ الصَّالحِ-، وأهلِيكم -بتعليمِهم وتأديبِهم- نارًا حَطَبُها الَّذي تُوقَدُ به الكُفَّارُ والحِجارةُ، عليها مَلائِكةٌ وكَّلَهم اللهُ بها، غِلاظٌ شِدادٌ، لا يُخالِفونَ أمْرَ اللهِ، ويَفعَلونَ ما يُؤمَرونَ بفِعْلِه.

ثمَّ يَذكرُ الله تعالى ما يُقالُ للكافرينَ في الآخرةِ توبيخًا لهم، وبيانًا لسوءِ عاقبتِهم، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين كَفَروا لا تَعتَذِروا اليَومَ عن كُفرِكم؛ إنَّما تَنالونَ جَزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَ في الدُّنيا.

ثمَّ يُوجِّهُ النِّداءَ إلى المؤمنينَ آمِرًا لهم بالتَّوبةِ، ومبيِّنًا حُسنَ عاقبتِها، فيقولُ: يا أيُّها الَّذين آمَنوا تُوبوا مِن ذُنوبِكم تَوبةً صادِقةً خالِصةً؛ عسى اللهُ أن يَمحوَ عنكم ذُنوبَكم، ويُدخِلَكم جنَّاتٍ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ يومَ لا يُهينُ اللهُ النَّبيَّ والمُؤمِنينَ معه ولا يَفضَحُهم، نُورُهم يَمضي معهم يومَ القيامةِ؛ مِن أمامِهم وبأيْمانِهم، يقولونَ: ربَّنا زِدْ لنا نُورَنا وأتِمَّه، وامْحُ عنَّا ذُنوبَنا، وقِنا شرَّها؛ إنَّك على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ.

ثمَّ يوجِّهُ اللهُ سُبحانَه النِّداءَ إلى نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ والمُنافِقينَ، واغلُظْ عليهم بالقَولِ والفِعلِ، ومَأْواهم في الآخِرةِ نارُ جَهنَّمَ، وبِئسَ المَرجِعُ هي!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وعَظَ اللهُ عزَّ وجلَّ أزواجَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَوعظةً خاصَّةً،

أتْبَعَ ذلكَ بمَوعظةٍ عامَّةٍ للمُؤمِنينَ وأهليهِم؛ إذْ كانَتْ موعظةُ نِساءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُناسِبةً لتَنبيهِ المُؤمِنينَ لعَدَمِ الغفلةِ عن مَوعظةِ أنفُسِهم، ومَوعظةِ أهليهِم، وألَّا يَصُدَّهم اسْتِبقاءُ الوُدِّ بيْنَهم عن إسداءِ النُّصحِ لهم، وإنْ كانَ في ذلك بَعضُ الأذى[1].

وأيضًا لَمَّا أبلَغَ اللهُ سُبحانَه في عِتابِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وعَلِمَ اتِّصافَهنَّ بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ على سَبيلِ الرُّسوخِ؛ مِن دَوامِ صُحبتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهنَّ، وكان اتِّصافُهنَّ بذلك الَّذي أدَّاهنَّ إلى السَّعادةِ العُظمى إنَّما هو بحُسْنِ تأديبِ أوليائِهنَّ لهُنَّ، وإكمالِ ذلك الأدَبِ بحُسنِ عِشرتِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتأدُّبِهنَّ بكريمِ أخلاقِه- أثمَرَ ذلك أمْرَ الأُمَّةِ بالتَّأسِّي به في هذه الأخلاقِ الكامِلةِ، والتَّأسِّي بأوليائِهنَّ في ذلك؛ لِيَعرِفْنَ حَقَّ اللهِ وحَقَّ الأزواجِ، فيَحصُلَ بذلك صلاحُ ذاتِ البَينِ، المثْمِرُ للخَيرِ كُلِّه[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا اجعَلوا بيْن أنفُسِكم وأهليكم وبيْن النَّارِ حاجِزًا يَقيكم منها؛ بتَعليمِ أنفُسِكم العِلمَ النَّافِعَ، وقيامِكم بالعَمَلِ الصَّالحِ، وتعليمِ أهليكم وتأديبِهم، وأمْرِهم بالمعروفِ، ونَهْيِهم عن المُنكَرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٣)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٤، ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال السعدي: (وقايةُ الأنفُسِ بإلزامِها أمْرَ الله، والقيامِ بأمْرِه امتثالًا، ونَهْيِه اجتنابًا، والتَّوبةِ عمَّا يُسخِطُ اللهَ ويوجِبُ العذابَ، ووقايةُ الأهلِ [والأولادِ] بتأديبِهم وتعليمِهم، وإجبارِهم على أمرِ الله، فلا يَسْلَمُ العبدُ إلَّا إذا قام بما أمَرَ اللهُ به في نفْسِه، وفيمَنْ يَدخُلُ تحتَ ولايتِه مِن =

كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وعنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((ألَا كُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رعيَّتِه؛ فالأميرُ الَّذي على النَّاسِ راعٍ، وهو مَسؤولٌ عن رعيَّتِه، والرَّجُلُ راعٍ على أهلِ بَيتِه، وهو مَسؤولٌ عنهم، والمرأةُ راعيةٌ على بَيتِ بَعْلِها ووَلَدِه، وهي مَسؤولةٌ عنهم، والعَبدُ راعٍ على مالِ سَيِّدِه، وهو مَسؤولٌ عنه، ألَا فكُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((دخَلَ علَيَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وفي البَيتِ قِرامٌ[٢] فيه صُوَرٌ، فتلَوَّنَ وَجْهُه، ثمَّ تناوَلَ السِّتْرَ فهتَكَه[٣]! وقالت: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّ مِن أشَدِّ النَّاسِ عذابًا يومَ القيامةِ الَّذين يُصوِّرونَ هذه الصُّوَرَ))[٤].

---

= الزَّوجاتِ والأولادِ وغيرِهم ممَّن هو تحتَ ولايتِه وتصَرُّفِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال الألوسي: (المرادُ بالأهلِ على ما قيل: ما يَشملُ الزَّوجةَ والولدَ، والعبدَ والأمَةَ). ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٥١).

وقيل: أهلُ الرَّجُلِ في الأصلِ: مَن يَجمَعُه وإيَّاهم مسكنٌ واحدٌ، فأهلُ الرَّجُلِ امرأتُه وولدُه والَّذين في عيالِه ونفَقَتِه، وكذا كلُّ أَخٍ وأُختٍ أو عمٍّ أو ابنِ عمٍّ أو صبيٍّ أجنبيٍّ يَقوتُه في مَنزِلِه. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٩٦)، ((المغرب في ترتيب المعرب)) للمُطَرِّزي (ص: ٣١).

(١) رواه البخاريُّ (٧١٣٨)، ومسلمٌ (١٨٢٩) واللَّفظُ له.

(٢) قِرامٌ: أي: سِتْرٌ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٩/ ٦٧).

(٣) فهَتَكه: أي: جَذَبه فقَطَعَه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٩/ ٦٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٦١٠٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢١٠٧).

﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾.

أي: حَطَبُ النَّارِ الَّذي يُلقَى فيها فتُوقَدُ به: هو الكُفَّارُ والحِجارةُ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ [الجن: ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (١/ ١٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٧).

قيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَٱلۡحِجَارَةُ﴾: حِجارةُ الكِبْريتِ. وممَّن قال بهذا القَولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والخازنُ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٦٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٧٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣١٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٠٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهِدٌ، وأبو جعفرٍ الباقِرُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٧).

قال ابن رجب: (وأكثرُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالحِجارةِ... حِجارةُ الكِبْريتِ توقدُ بها النَّارُ، ويقالُ: إنَّ فيها خمسةَ أنواعٍ مِن العذابِ ليس في غيرِها مِن الحِجارةِ: سرعةُ الإيقادِ، ونتنُ الرَّائحةِ، وكثرةُ الدُّخَانِ، وشدَّةُ الالتِصاقِ بالأبدانِ، وقوَّةُ حرِّهَا إذا أُحمِيَتْ). ((التخويف من النار)) (ص: ١٣٦).

وقال الشربيني والقِنَّوْجي: ﴿وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ كأصنامِهم منها. يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير القنوجي)) (١٤/ ٢١٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٤٤).

قال ابن كثير: (قيل: المرادُ بها الأصنامُ الَّتي تُعبَدُ؛ لقولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٧).

﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾.

أي: على النَّارِ مَلائِكةٌ وكَّلَهم اللهُ بالعَذابِ، غِلاظٌ لا يَرحَمونَ، شِدادٌ أقوِياءُ[1]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المدثر: ٣٠، ٣١].

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾.

أي: لا يُخالِفونَ أمْرَ اللهِ الَّذي يأمُرُهم به، ولا يَمتَنِعونَ عن طاعتِه[2].

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

أي: ويَفعَلونَ كُلَّ ما يُؤمَرونَ بفِعْلِه؛ فهم قادِرونَ على تَنفيذِه[3].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

ذِكرُ هذه المقالةِ هنا استِطرادٌ يُفيدُ التَّنفيرَ مِن جَهنَّمَ بأنَّها دارُ أهلِ الكُفرِ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، وإلَّا فإنَّ سِياقَ الآيةِ تَحذيرٌ للمُؤمِنينَ مِن المُوبِقاتِ في النَّارِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٦١) و(٧/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٧٤) و(١٣/ ٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦، ٣٦٧).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ ﴾.

أي: يُقالُ لأهلِ النَّارِ في الآخِرةِ[1]: يا أيُّها الَّذين كَفَروا لا تَعتَذِروا في هذا اليَومِ -يومِ القيامةِ- عن كُفرِكم؛ فقد فات وقتُ قَبولِ الاعتِذارِ، وزالَ نَفعُه[2]!

قال تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعۡذِرَتُهُمۡ وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴾ [الروم: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر: ٥٢].

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

أي: إنَّما تَنالونَ اليَومَ جَزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي، وقد نُهيتُم عنها؛ فلا تَعتَذِروا عن أعمالِكم[3].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ

---

(١) قال ابنُ جزي: (يحتمِلُ أن يكونَ هذا خِطابًا مِنَ اللهِ للكُفَّارِ، أو خِطابًا مِنَ الملائِكةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦).

قال البيضاوي: (النَّهيُ عن الاعتذارِ؛ لأنَّه لا عُذْرَ لهم، أو العُذرُ لا يَنفَعُهم). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال السعدي: (أي: يُوَبَّخُ أهلُ النَّارِ يومَ القيامةِ بهذا التَّوبيخِ، فيُقالُ لهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ أي: فإنَّه ذَهَب وقتُ الاعتذارِ، وزال نَفعُه، فلم يَبْقَ الآنَ إلَّا الجزاءُ على الأعمالِ، وأنتم لم تُقَدِّموا إلَّا الكُفرَ باللهِ، والتَّكذيبَ بآياتِه، ومحاربةَ رُسُلِه وأوليائِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٨﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى نبَّهَهم على دَفعِ العَذابِ يومَ القيامةِ بالتَّوبةِ في الدنيا؛ إذ في ذلك اليَومِ لا تُفيدُ[1].

وأيضًا لَمَّا أفهَمَ الأمرُ بالوِقايةِ والمَدْحُ للمَلائكةِ أنَّ المأمورينَ بالوِقايةِ مُقَصِّرونَ، قال مُرشِدًا إلى دواءِ التَّقصيرِ[2]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾.

أي: يا أيُّها الَّذين آمَنوا تُوبوا مِن جميعِ ذُنوبِكم تَوبةً صادِقةً بنِيَّةٍ خالِصةٍ، مع إقلاعٍ عنها، ونَدَمٍ عليها، وعَزمٍ على عَدَمِ العَودةِ إليها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (قال العُلَماءُ: التَّوبةُ النَّصوحُ هو أن يُقلِعَ عن الذَّنْبِ في الحاضِرِ، ويَندَمَ على ما سَلَف منه في الماضي، ويَعزِمَ على ألَّا يَفعَلَ في المُستقبَلِ، ثمَّ إنْ كان الحَقُّ لآدَميٍّ رَدَّه إليه بطريقِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٦٩).

وقال ابن القيِّم: (نُصْحُ التَّوبةِ الصِّدقُ فيها، والإخلاصُ، وتعميمُ الذُّنوبِ بها). ((مدارج السالكين)) (١/ ٣١٧).

وقال السعدي: (المرادُ بها: التَّوبةُ العامَّةُ الشَّاملةُ للذُّنوبِ كلِّها، الَّتي عقَدها العبدُ لله، لا يُريدُ بها إلَّا وجْهَه والقُربَ منه، ويَستمِرُّ عليها في جميعِ أحوالِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

أي: عسى اللهُ إنْ تُبتُم توبةً نَصوحًا أن يَمحوَ عنكم ذُنوبَكم، ويَقيَكم سُوءَها[1].

كما قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾.

أي: ويُدخِلَكم اللهُ في الآخِرةِ جنَّاتٍ تَجري الأنهارُ مِن تَحتِ قُصورِها وأشجارِها[2].

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾.

أي: يومَ[3] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠١).

عن ابنِ عبَّاسٍ قال: (عسى مِن الله واجبٌ). يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٦٥١).

قال الرازي: (اتَّفق المفسِّرونَ على أنَّ كلمةَ عَسَى مِن الله واجبٌ، قال أهلُ المعاني: لأنَّ لفظةَ «عسى» تُفيدُ الإطماعَ، ومَن أطمَع إنسانًا في شيءٍ ثمَّ حرَمه كان عارًا، والله تعالى أكرَمُ مِن أن يُطمعَ أحدًا في شيءٍ ثمَّ لا يُعطيه ذلك). ((تفسير الرازي)) (٢١/ ٣٨٧).

وقال الشنقيطي: (جماهيرُ العُلماءِ يقولون: «عسى» مِن اللهِ واجبةٌ؛ لأنَّ اللهَ كريمٌ، لا يُطمِعُ في شيءٍ إلَّا هو فاعِلُه؛ لشِدَّةِ كرَمِه جلَّ وعلا وفَضْلِه). ((العذب النمير)) (٥/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣٤٤).

(٣) قال ابن جُزَي: (﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ العامِلُ في ﴿يَوْمَ﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ ما قَبْلَه، أو ما بَعْدَه، أو محذوفٌ تَقديرُه: اذكُرْ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٢).

وممَّن قال بأنَّ العامِلَ هو قَولُه تعالى: (يُدْخِلَكم) أي: يُدخِلَكم جنَّاتٍ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ في اليَومِ الَّذي لا يُخزي فيه اللهُ النَّبيَّ والَّذين آمَنوا معه: الزمخشريُّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ عاشور. =

لا يُعَذِّبُ اللهُ مُحمَّدًا والمُؤمِنينَ معه، ولا يُهينُهم ولا يَفضَحُهم[1].

قال تعالى حكايةً عن قَولِ المؤمِنينَ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ * رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ * رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٢ - ١٩٤].

وقال سُبحانَه وتعالى حكايةً عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧].

---

= يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿يَوۡمَ﴾ مَنصوبٌ بقَولِه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ﴾، أي: في هذا اليَومِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٩٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠١).

وممَّن قال بأنَّ العامِلَ مَحذوفٌ تَقديرُه: اذكُرْ: ابنُ عرفة. يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

قال ابنُ عطية: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ مَعطوفًا على ﴿ٱلنَّبِيَّ﴾، فيَخرجُ المؤمنونَ مِن الخِزْيِ. ويحتمِلُ أن يكونَ ابتِداءً و﴿نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ﴾ جملةٌ هي خبرُه، ويَبقى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مخصوصًا مُفَضَّلًا بأنَّه لا يُخزَى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٤).

وقال البِقاعي: (ولا يُخْزي الَّذين ﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ وهم الصَّحابةُ رَضِيَ الله تعالى عنهم إن كان المرادُ المَعِيَّةَ في مُطلَقِ الزَّمانِ، وسابِقوهم إن كان المرادُ في الوصفِ أو زمانٍ مخصوصٍ كبَدْرٍ وبَيعةِ الرِّضوانِ... ونساؤُه رضيَ الله عنهُنَّ أحَقُّ بأن يَكُنَّ أوَّلَ راغبٍ في الكَونِ معه في الإيمانِ لِيبعدْنَ عن النِّيرانِ... ويجوزُ أن يكونَ «الَّذين» مُبتدَأً خبرُه ﴿نُورُهُمۡ﴾، أو يكونَ الخبرُ ﴿مَعَهُۥ﴾ إشارةً إلى أنَّ جميعَ الأنبياءِ وصالِحي أُمَمِهم مِن أمَّتِه، وتحتَ لِوائِه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾.

أي: نُورُهم يَمضي معهم يومَ القيامةِ؛ مِن أمامِهم وبأيْمانِهم[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٢، ١٣].

﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١).

قيل: ذلك يكونُ على الصِّراطِ. وممَّن نصَّ على هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٢٤٨، ٢٥٦، ٣٢٢).

قال الواحديُّ: (يعني: على الصِّراطِ يومَ القيامةِ، وهو دليلُهم إلى الجنَّةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٢٤٨).

وممَّن رُويَ عنه هذا القولُ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعود، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٥).

وقال ابن عاشور: (النُّورُ المذكورُ هنا نورٌ حقيقيٌّ، يَجعَلُه اللهُ للمؤمنينَ في مَسيرِهم مِن مكانِ الحَشرِ؛ إكرامًا لهم، وتنويهًا بهم في ذلك المَحشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠) و(٢٨/ ٣٧١).

والمرادُ بقولِه تعالى: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ قيل: أي: مِن الجِهةِ اليُمنى. وممَّن قال به: البِقاعي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٩/ ٢٧٢) و(٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٣٨٠) و(٢٨/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الحديد)) (ص: ٣٨٦).

وقيل: المرادُ: ﴿وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ كُتُبُ أعمالِهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٣٩٨، ٣٩٩) و(٢٣/ ١٠٩).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٠٩).

ونسَبَ ابنُ عطيَّةَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ أنَّ المرادَ: وبأيْمانِهم أصلُ النُّورِ، أي: يكونُ النُّورُ بأيْمانِهم، ومنه يَنبسِطُ نورٌ مِن أمامِهم. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٢٦١، ٣٣٤).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ الحديدِ، الآية (١٢).

أي: يقولونَ: ربَّنا زِدْ لنا نُورَنا حتَّى يكونَ في غايةِ التَّمامِ[١].

﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَآ﴾.

أي: وامْحُ ذُنوبَنا، وقِنا شرَّها، وأزِلْ أثرَها[٢].

﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

أي: إنَّك وَحْدَك بالِغُ القُدرةِ على فِعْلِ كُلِّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُك شَيءٌ[٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى ما تقدَّمَ مِن لِينِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأضعَفِ النَّاسِ؛ النِّساءِ، وحُسْنِ أدَبِه وكَريمِ عِشْرتِه؛ لأنَّه مَجبولٌ على الشَّفَقةِ على عِبادِ اللهِ، والرَّحمةِ لهم، وخَتَم بما للمؤمِنينَ مِنَ الشَّرَفِ، ولله مِن تمامِ القُدرةِ؛ أنتَجَ ذلك القَطْعَ بإذلالِ أعدائِهم، وإخزائِهم[٤].

وأيضًا لَمَّا أبلَغَ الكفَّارَ ما سيَحُلُّ بهِم في الآخِرةِ تَصريحًا بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال المفسِّرون: إذا رأى المؤمِنونَ نورَ المنافِقينَ يُطفَأُ سألوا اللهَ أن يُتِمَّ لهم نُورَهم، ويُبَلِّغَهم به الجنَّةَ). ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٠)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٥).

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [التحريم: ٧]، وتَعريضًا بقولِه: ﴿يَوۡمَ لَا يُخۡزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ [التحريم: ٨]؛ أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمَسْمَعٍ مِنْهم بأنْ يُجاهِدَهم، ويُجاهِدَ المُسْتَتِرينَ لكفرِهم بظاهرِ الإيمانِ نِفاقًا، حتَّى إذا لم تُؤثِّرْ فيهِمُ الموعظةُ بعِقابِ الآخِرةِ يَخْشَوْنَ أنْ يُسلِّطَ عليهم عذابَ السَّيفِ في العاجِلةِ، فيُقلِعونَ عن الكُفرِ، فيُصلِحُ نُفوسَهم، وإنَّما أمَرَ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذلكَ؛ لأنَّ الكفَّارَ تألَّبُوا مع المُنافِقينَ بعْدَ هِجرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فاتَّخَذوهُم عُيونًا لهُم وأيديَ يَدُسُّونَ بها الأذى للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُؤمِنينَ، فهذا نِداءٌ ثانٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُه بإقامةِ صلاحِ عُمومِ الأمَّةِ بتَطهيرِها مِنَ الخُبَثاءِ، بَعْدَ أنْ أمَره بإفاقةِ مَنْ عليهما الغفلةُ عن شَيءٍ مِن واجبِ حُسْنِ المُعاشَرةِ مع الزَّوجِ(١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾.

أي: يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ المحارِبينَ بالسَّيفِ، وغيرَ المحارِبينَ منهم بالحُجَّةِ والمَوعِظةِ، وجاهِدِ المُنافِقينَ بالسَّيفِ إن أظهَروا كُفْرَهم، وبالحُجَّةِ لرَدِّ شُبُهاتِهم، أو بإقامةِ الحُدودِ على مَن يقَعُ فيها منهم، وكُنْ غليظًا على الكافِرينَ والمنافِقينَ بالقَولِ والفِعلِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠١)، ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٣٤٧، ٣٤٨)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٠، ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٢).

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا * مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

وقال جلَّ شأنُه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ [محمد: ٤].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِن نَبيٍّ بعَثَه اللهُ في أُمَّةٍ قَبْلي إلَّا كان له مِن أمَّتِه حَواريُّونَ[1] وأصحابٌ، يأخُذونَ بسُنَّتِه، ويَقتَدونَ بأمْرِه، ثمَّ إنَّها تَخلُفُ مِن بَعْدِهم خُلوفٌ[2]، يَقولونَ ما لا يَفعَلونَ، ويَفعَلونَ ما لا يُؤْمَرونَ؛ فمَنْ جاهَدَهم بيَدِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بلِسانِه فهو مُؤمِنٌ، ومَن جاهَدَهم بقَلْبِه فهو مُؤمِنٌ، وليس وراءَ ذلك

(١) الحواريُّونَ: الخواصُّ الأصفِياءُ. وقيل: هم النَّاصِرونَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠).

(٢) الخُلُوفُ: الخالِفونَ بعدَ السَّالِفينَ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (١/ ٣٢٠). قال النوويُّ: (أمَّا الخُلوفُ فبضَمِّ الخاءِ، وهو جمعُ «خَلْف» باسكانِ اللَّامِ، وهو الخالفُ بشَرٍّ، وأمَّا بفتحِ اللَّامِ فهو الخالفُ بخيرٍ، هذا هو الأشهرُ). ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ٢٨).

مِن الإيمانِ حَبَّةُ خَردلٍ))[١].

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

أي: ومَساكِنُ الكُفَّارِ والمنافِقينَ في الآخِرةِ نارُ جَهنَّمَ، وهي مَثْواهم، وبِئسَ المرجِعُ الَّذي يَصيرونَ إليه جَهنَّمُ[٢]!

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ على الرَّجُلِ أن يُصلِحَ نَفْسَه بالطَّاعةِ، ويُصلِحَ أهْلَه إصلاحَ الرَّاعي للرَّعيَّةِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ فيه أنَّ الرَّجُلَ يَجِبُ عليه تَعلُّمُ ما يجِبُ عليه مِنَ الفرائضِ، وتعليمُه زَوجَه ووَلدَه، وعَبْدَه وأمَتَه[٤]، فالآيةُ دلَّت على أنَّ علينا تعليمَهم الدِّينَ والخَيرَ، وما لا يُستغنَى عنه مِنَ الأدَبِ[٥]؛ إذْ لا يَقْدِرُ أحدٌ يَقي غيرَه النَّارَ -وهو لا يَمْلِكُها-

---

(١) رواه مسلم (٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٦٩).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٢٦).

إلَّا بما يدُلُّه على ما يُباعِدُه منها مِن العَمَلِ الصَّالحِ، واجتِنابِ الطَّالحِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ وَجَّهَ اللهُ تعالى الخِطابَ إلى المؤمِنينَ باسمِ الإيمانِ؛ ممَّا يدُلُّ على أنَّ مُقتَضى إيمانِهم أنْ يَقوموا بهذه المَسؤوليَّةِ العظيمةِ، وأنَّ عدَمَ قيامِهم بها نَقْصٌ في إيمانِهم؛ فتوجيهُ الخِطابِ بوَصفِ الإيمانِ يقتَضي مع ذلك الحَثَّ والإغراءَ على القيامِ بما وُجِّهَ إليه المرءُ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ فيه أنَّه لا يَسْلَمُ العَبدُ إلَّا إذا قام بما أَمَر اللهُ به في نَفْسِه وفيما يَدخُلُ تحتَ وِلايتِه مِن الزَّوجاتِ والأولادِ، وغَيرِهم ممَّن هو تحت وِلايتِه وتصَرُّفِه[٣].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ مَنْ أَهملَ تَعليمَ وَلَدِه ما يَنفَعُه وتَرَكَه سُدًى، فقد أساء إليه غايةَ الإساءةِ، وأكثَرُ الأولادِ إنَّما جاء فَسادُهم مِن قِبَلِ الآباءِ، وإهمالِهم لهم، وتَرْكِ تَعليمِهم فرائِضَ الدِّينِ وسُنَنَه؛ فأضاعوهم صِغارًا، فلم يَنتَفِعوا بأنفُسِهم، ولم يَنفَعوا آباءَهم كِبارًا[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ دليلٌ على وُجوبِ التَّوبةِ[٥].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ النُّصحُ في التَّوبةِ يتضمَّنُ ثلاثةَ أشياءَ:

**الأوَّلُ**: تعميمُ جميعِ الذُّنوبِ واستِغراقُها بها، بحيثُ لا تَدَعُ ذَنْبًا إلَّا تناولَتْه.

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(٤) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (ص: ٣٧٩).

**والثَّاني**: إجماعُ العَزمِ والصِّدقِ بكُلِّيَّتِه عليها، بحيثُ لا يَبقى عندَه تَرَدُّدٌ ولا تَلَوُّمٌ ولا انتِظارٌ، بل يَجمَعُ عليها كُلَّ إرادتِه وعزيمتِه مُبادِرًا بها.

**الثَّالثُ**: تخليصُها مِن الشَّوائبِ والعِلَلِ القادِحةِ في إخلاصِها، ووُقوعُها لِمَحْضِ الخَوفِ مِن اللهِ وخَشيتِه والرَّغبةِ فيما لديه، والرَّهبةِ ممَّا عِندَه، لا كَمَن يَتوبُ لحِفْظِ جاهِهِ وحُرمَتِه، ومَنصِبِه ورياستِه، ولحِفْظِ حالِه، أو لحِفْظِ قوَّتِه ومالِه، أو لاستِدعاءِ حَمْدِ النَّاسِ، أو الهَربِ مِن ذَمِّهم، أو لِئَلَّا يَتسَلَّطَ عليه السُّفَهاءُ، أو لقَضاءِ نَهمتِه مِن الدُّنيا، أو لإفلاسِه وعَجْزِه، ونحوِ ذلك مِن العِلَلِ الَّتي تَقدَحُ في صحَّتِها وخُلوصِها للهِ عزَّ وجلَّ؛ فالأوَّلُ يَتعلَّقُ بما يَتوبُ منه، والثَّالثُ يَتعلَّقُ بمَن يتوبُ إليه، والأوسَطُ يَتعلَّقُ بذاتِ التَّائبِ ونَفْسِه. ولا رَيبَ أنَّ هذه التَّوبةَ تَستَلزِمُ الاستِغفارَ وتتضَمَّنُه، وتَمْحو جميعَ الذُّنوبِ، وهي أكمَلُ ما يكونُ مِن التَّوبةِ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الملائِكةَ مُكَلَّفونَ في الآخِرةِ بما أمَرَهم اللهُ تعالى به وبما يَنهاهم عنه، والعِصيانُ منهم مخالَفةٌ للأمرِ والنَّهيِ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فيه مَدحٌ للمَلائِكةِ الكِرامِ، وانقيادِهم لأمرِ اللهِ، وطاعتِهم له في كُلِّ ما أمَرَهم به[3].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ليس توكيدًا لقولِه: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

أَمَرَهُمْ ﴾، وإنَّما فيه بيانُ أنَّهم قادِرونَ على فِعْلِ ما أُمِروا به، فهُم لا يَتركُونَه لا عَجزًا ولا مَعصيةً. والمأمورُ إنَّما يَترُكُ ما أُمِرَ به لأحدِ هذَينِ؛ إمَّا ألَّا يكونَ قادِرًا، وإمَّا أنْ يكونَ عاصيًا لا يريدُ الطَّاعةَ، فإذا كان مطيعًا يريدُ طاعةَ الآمِرِ -وهو قادِرٌ- وَجَبَ وُجودُ فِعْلِ ما أُمِرَ به؛ فكذلك الملائكةُ المذكورونَ لا يَعصُونَ اللهَ ما أَمَرَهم، ويَفعَلونَ ما يُؤْمَرونَ[1]. وقيل: معنى الأُولى: أنَّهم يَتقبَّلونَ أوامِرَه ويَلتَزِمونَها، ولا يأبَونَها، ولا يُنكِرونَها. ومعنى الثَّانيةِ: أنَّهم يُؤَدُّونَ ما يُؤمَرونَ به، لا يَتثاقَلونَ عنه، ولا يَتوانَونَ فيه[2]. وقيل: يجوزُ جعْلُ مَرجِعِ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ أنَّهم لا يَعْصُونَ فيما يُكلَّفونَ به مِن أعمالِهمُ الخاصَّةِ بهم، ومَرجِعِ ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ إلى ما كُلِّفوا بعمَلِه في العُصاةِ في جَهَنَّمَ. وقيل: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ فيما مَضَى، ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ فيما يُستقبَلُ[3]. وقيل: فائِدةُ ذِكْرِ قولِه: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ بعْدَ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ ﴾ التَّأكيدُ؛ لاتِّحادِهما صِدْقًا[4].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾، لم يَقُلْ: (نَصُوحةً)؛ لأنَّ (فَعولًا) يَستوي فيه المذكَّرُ والمؤنَّثُ، كقَولِهم: (امرأةٌ صَبورٌ وشَكورٌ)[5].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ ﴾ فيه سؤالٌ: اللهُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣، ٥٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٥٧٤).

تعالى لا يُخزي النَّبيَّ في ذلك اليَومِ، ولا الَّذين آمَنوا، فما الحاجةُ إلى قَولِه: ﴿مَعَهُۥ﴾؟

**الجوابُ**: هي إفادةُ الاجتِماعِ، يعني: لا يُخزي اللهُ المجموعَ الَّذي يَسعى نُورُهم، وهذه فائِدةٌ عظيمةٌ؛ إذ الاجتِماعُ بيْن الَّذين آمَنوا وبيْن نَبيِّهم تشريفٌ في حَقِّهم وتعظيمٌ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يَدخُلُ في ظاهِرِ الكلامِ الصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم، ويَستَوجِبونَ ما وَعَدَهم اللهُ جلَّ جلالُه في الآيةِ؛ فمَن تَنَقَّصَ واحِدًا منهم، أو أَخْرَجَه ممَّا وَعَدَه اللهُ، فقد رَدَّ على اللهِ! ويُرجَى أنْ يكونَ سائِرُ المؤمِنينَ داخِلينَ معهم في ذلك؛ لأنَّ مَنْ آمَنَ بعدَه فقد دَخَل في الاسمِ معه، وإنْ لم يكُنْ في الرُّؤيةِ والفَضيلةِ أُسوةَ الصَّحابةِ[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ في هذه الآيةِ دليلٌ على المَغفِرةِ لجَميعِ أصحابِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٨- النُّورُ الَّذي يكونُ للمُؤمِنِ في الدُّنيا على حُسْنِ عَمَلِه واعتِقادِه يَظهَرُ في الآخِرةِ، كما قال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾؛ فذَكَرَ سُبحانَه النُّورَ هنا عَقِيبَ أَمْرِه بالتَّوبةِ[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أنَّ تقييدَ القُدرةِ بالمَشيئةِ هو خِلافُ ما كان عليه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتْباعُه؛ فهُم لم يقولوا: «إنَّك

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٤).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٨٥).

على ما تَشاءُ قديرٌ». وخيرُ الطَّريقِ طريقُ الأنبياءِ وأتْباعِهم؛ فإنَّهم أهدى عِلْمًا، وأقوَمُ عَمَلًا. فالآيةُ عامَّةٌ؛ فهو قديرٌ على كلِّ شيءٍ، على ما شاءَه وما لم يَشَأْهُ. فتقييدُ بعضِ النَّاسِ القُدرةَ بالمشيئةِ خطأٌ؛ لأنَّ اللهَ قادرٌ على ما يَشاءُ وعلى ما لا يَشاءُ. وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] فالمشيئةُ هنا ليست عائدةً على القُدرةِ، ولكنَّها عائدةٌ على الجَمعِ؛ يعني: إذا أراد جَمْعَهم، وشاء جَمْعَهم، فهو قديرٌ عليه، لا يَعجِزُ عنه[١].

١٠- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فخاطَبه هنا بوَصْفِه، وهو (النَّبيُّ)، كما في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١]، لا باسْمِه، كقَولِه لآدَمَ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٣]، ولِموسى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: ٥٥]، ولعيسى: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران: ٥٥]؛ وذلك ليَدُلَّ على فَضْلِه عليهم[٢].

١١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُعارِضُ قولَه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]؛ لأنَّ النَّفيَ محمولٌ على طَبْعِه الَّذي جُبِلَ عليه، والأمرَ مَحمولٌ على المعالَجةِ، أو أنَّ النَّفيَ هو بالنِّسبةِ للمُؤمِنينَ، والأمرَ هو بالنِّسبةِ للكُفَّارِ والمنافِقينَ، كما هو مُصَرَّحٌ به في الآيِ نفْسِها[٣].

١٢- اللهُ سُبحانَه يُحِبُّ صِفاتِ الكَمالِ، مِثلُ: العِلمِ والقُدرةِ والرَّحمةِ، ونَحوِ ذلك؛ فعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال:

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٤).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٥٨٦).

((المؤمِنُ القَويُّ خَيرٌ وأحَبُّ إلى اللهِ مِن المؤمِنِ الضَّعيفِ، وفي كُلٍّ خَيرٌ))[١]، وفي الصَّحيحِ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((لا يَرحَمُ اللهُ مَن لا يَرحَمُ النَّاسَ))[٢]، وفي الصَّحيحِ أيضًا قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((إنَّما يَرحَمُ اللهُ مِن عِبادِه الرُّحَماءَ))[٣]، وفي السُّنَنِ حَديثٌ ثابتٌ عنه: ((الرَّاحِمونَ يَرحَمُهم الرَّحمنُ، ارحَموا مَن في الأرضِ يَرحَمْكم مَن في السَّماءِ))[٤]، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، وقال تعالى في حَدِّ الزَّاني والزَّانيةِ: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [النور: ٢]، وهذا في الحَقيقةِ مِن رَحمةِ اللهِ بعِبادِه؛ فإنَّ اللهَ إنَّما أرسَلَ مُحمَّدًا رَحمةً للعالَمينَ، وهو سُبحانَه أرحَمُ بعِبادِه مِن الوالِدةِ بوَلَدِها، لكِنْ قد تكونُ الرَّحمةُ المطلوبةُ لا تَحصُلُ إلَّا بنَوعٍ مِن ألَمٍ وشِدَّةٍ تَلحَقُ بَعضَ النُّفوسِ[٥].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾ فيه سُؤالٌ: فيه الأمرُ بقِتالِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ، والغِلظةِ عليهم، ومعلومٌ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قاتَلَ الكُفَّارَ، ولم يُعلَمْ أنَّه قاتَلَ المُنافِقينَ قِتالَه للكُفَّارِ، فما نوعُ قِتالِه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٧٣٧٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٣١٩) مِن حديثِ جَريرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنه.

(٣) أخرجه البخاريُّ (٧٤٤٨)، ومسلمٌ (٩٢٣) مِن حديثِ أُسامةَ بنِ زَيدٍ رضيَ الله عنهما.

(٤) أخرجه أبو داودَ (٤٩٤١) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (١٩٢٤)، وأحمدُ (٦٤٩٤) مطوَّلًا مِن حديثِ عبدِ الله بنِ عَمرٍو رضيَ الله عنهما.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١٢٧)، والعراقيُّ في ((الأربعون العشارية)) (١٢٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٤١)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((الإمتاع)) (١/ ٦٢)، وقال السخاويُّ في ((البلدانيات)) (٤٧): (حسَنٌ، بل صحَّحه غيرُ واحدٍ).

(٥) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٤٤٠).

صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للمُنافِقينَ؟

**الجوابُ**: قَولُه تعالى: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢]، أي: بالقُرآنِ؛ لِقَولِه تعالى قَبْلَه: ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَٰهُ بَيۡنَهُمۡ لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا * وَلَوۡ شِئۡنَا لَبَعَثۡنَا فِي كُلِّ قَرۡيَةٖ نَّذِيرٗا * فَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٠ - ٥٢]. ومعلومٌ أنَّ المنافِقينَ كافِرونَ، فكان جِهادُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للكُفَّارِ بالسَّيفِ، ومع المنافِقينَ بالقُرآنِ، كما جاء عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في عَدَمِ قَتْلِهم؛ لئلَّا يتحَدَّثَ النَّاسُ أنَّ مُحمَّدًا يَقتُلُ أصحابَه[1]، ولكِنْ كان جِهادُهم بالقُرآنِ لا يَقِلُّ شِدَّةً عليهم مِنَ السَّيفِ؛ لأنَّهم أصبَحوا في خَوفٍ وذُعرٍ، يَحسَبونَ كُلَّ صَيحةٍ عليهم، وأصبَحَت قلوبُهم خاويةً كأنَّهم خُشُبٌ مُسَنَّدةٌ، وهذا أشَدُّ عليهم مِنَ المُلاقاةِ بالسَّيفِ[2].

وقيل: جِهادُ الكفَّارِ ظاهرٌ، وأمَّا عطفُ (المُنافِقينَ) على (الكُفَّارِ) المفعولِ لـ﴿جَٰهِدِ﴾، فيَقْتضي أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مأمورٌ بجهادِ المُنافِقينَ، وكان حالُ المُنافِقينَ مُلتبِسًا؛ إذْ لم يكُنْ أحَدٌ مِنَ المُنافِقينَ مُعلِنًا بالكفرِ، ولا شُهِدَ على أحَدٍ منهم بذلكَ، ولم يُعيِّنِ اللهُ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُنافِقًا يُوقِنُ بنِفاقِه وكفْرِه، أو أطْلَعَه إطْلاعًا خاصًّا، ولم يَأمُرْه بإعلانِه بيْنَ المُسلِمينَ، كما يُؤخَذُ ذلكَ مِن أخبارٍ كثيرةٍ في الآثارِ، فتَعيَّنَ تأْويلُ عطفِ المُنافِقينَ على الكُفَّارِ إمَّا بأنْ يكونَ فِعلُ ﴿جَٰهِدِ﴾ مُستعمَلًا في الجِهادِ بالسَّيفِ، والجِهادِ بإقامةِ الحُجَّةِ، والتَّعريضِ للمُنافِقِ بنِفاقِه. وقيل: الأقرَبُ في تأْويلِ هذا العَطفِ أنْ يكونَ المرادُ مِنه إلْقاءَ الرُّعبِ في قُلوبِ المُنافِقينَ؛ ليَشعُروا بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

(١) الحديث أخرجه البخاريُّ (٣٥١٨)، ومسلمٌ (٢٥٨٤) مِن حديثِ جابرِ بنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما.

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٢٣، ٢٢٤).

والمُؤمِنينَ بالمِرْصادِ بهم، فلوْ بَدَتْ مِن أحَدِهم بادِرةٌ يُعلَمُ منها نِفاقُه، عُومِلَ مُعامَلةَ الكافرِ في الجِهادِ بالقَتلِ والأسْرِ، فيَحْذَروا ويَكُفُّوا عن الكَيدِ للمُسلِمينَ؛ خشيةَ الافتِضاحِ، فتكُونُ هذِه الآيةُ مِن قَبيلِ قَولِه تبارك وتعالَى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا * مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾[1] [الأحزاب: ٦٠، ٦١].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَصيرَهم بِئسَ المصيرُ، فما فائِدةُ التَّصريحِ بذلك؟

**الجوابُ**: أنَّ مَصيرَهم بِئسَ المصيرُ مُطلَقًا، والمُطلَقُ يَدُلُّ على الدَّوامِ، وغَيرُ المُطلَقِ لا يدُلُّ على الدَّوامِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

- هذا نِداءٌ ثانٍ مُوجَّهٌ إلى المُؤمِنينَ بعْدَ اسْتِيفاءِ المقصودِ مِن النِّداءِ الأوَّلِ؛ نِداءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، ووُجِّهَ الخِطابُ إلى المُؤمِنينَ ليأتَسوا بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مَوعظةِ أهليهم[3].

- وعُبِّرَ عن الموعظةِ والتَّحذيرِ بالوِقايةِ مِنَ النارِ؛ لأنَّ الموعظةَ سببٌ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٥).

تَجنُّبِ ما يُفْضِي إلى عَذابِ النَّارِ، أو على تَشبيهِ المَوعظةِ بالوِقايةِ مِنَ النارِ على وجْهِ المُبالَغةِ في الموعظةِ(١).

- وعُطِفَ ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ على ﴿أَنفُسَكُمْ﴾؛ لأنَّ رَبَّ المنزلِ راعٍ، وهو مَسؤولٌ عن أهلِه، ودخلَ الأولادُ في ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾، وقيلَ: دخَلوا في ﴿أَنفُسَكُمْ﴾؛ لأنَّ الولَدَ بعضٌ مِن أبيهِ، فيُعلِّمُه الحَلالَ والحرامَ، ويُجنِّبُه المعاصي(٢).

- وتَنكيرُ ﴿نَارًا﴾ للتَّعظيمِ. وأُجْرِيَ عليها وصْفٌ بجُملةِ ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ زِيادةً في التَّحذيرِ؛ لئلَّا يَكونوا مِن وَقودِ النَّارِ، وتَذكيرًا بحالِ المُشرِكينَ، وتَفظيعًا للنَّارِ؛ إذْ يكونُ الحجَرُ عِوَضًا لها عن الحطَبِ(٣).

- ومعنى ﴿عَلَيْهَا﴾ أنَّهم مُوَكَّلونَ بها؛ فالاستِعلاءُ المُفادُ مِن حرْفِ (على) مُعبَّرٌ به عن التَّمكُّنِ(٤).

- قولُه: ﴿غِلَاظٌ﴾ صِفةٌ مُشبَّهةٌ مُعبَّرٌ بها عن قَساوةِ المُعامَلةِ(٥).

- وجُملةُ ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ ثَناءٌ عليهِم أُعْقِبَ به وصْفُهم بأنَّهم ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾؛ تَعديلًا لِمَا تَقتَضِيانِه مِن كَراهيةِ نُفوسِ النَّاسِ إيَّاهُم، وهذا مُؤْذِنٌ بأنَّهم مأْمورونَ بالغِلظةِ والشِّدَّةِ في تَعذيبِ أهلِ النَّارِ، هذا زِيادةٌ في تَهويلِ النَّارِ بأنَّ عليها ملائكةً غِلاظًا شِدادًا(٦).

- على القولِ بأنَّ فائِدةَ ذِكْرِ قولِه: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ بَعْدَ ﴿لَّا يَعْصُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٦٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ﭐللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ التَّأكيدُ[١]، فقولُه: ﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ تَصريحٌ بمَفهومِ ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ﴾ دعا إليه مَقامُ الإطنابِ في الثَّناءِ عليهم، معَ ما في هذا التَّصريحِ مِن استحضارِ الصُّورةِ البديعةِ في امتثالِهم لِما يُؤمَرون به. وقد عُطِفَ هذا التَّأكيدُ عطفًا يَقْتضي المُغايَرةَ تَنويهًا بهذِه الفضيلةِ؛ لأنَّ فِعلَ المأمورِ أوضَحُ في الطَّاعةِ مِن عدَمِ العِصيانِ، واعتبارٌ لِمُغايَرةِ المعنيَيْنِ وإنْ كانَ قالَهُما واحدٌ[٢].

- وفي قولِه: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالسَّلْبِ والإيجابِ، وهو فنٌّ عجيبٌ[٣]، وهو في الآيةِ ظاهرٌ؛ فقَدْ سلَبَ عزَّ وجلَّ عن هؤلاءِ الموصوفينَ العِصيانَ، وأوجَبَ لهمُ الطَّاعةَ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ﴾ مَقولٌ لقولٍ قد حُذِفَ؛ ثِقةً بدَلالةِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣، ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٦٨، ٥٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٣، ٥٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٦).

(٣) السَّلْب والإيجاب: هو بِناءُ الكلام على نفْيِ الشَّيءِ مِن جِهةٍ، وإثباتِه مِن جِهةٍ أخرى، أو الأمْرِ به في جِهةٍ، والنَّهيِ عنه في جِهةٍ، وما يَجري مَجرَى ذلك، كأنْ يَقصِدَ المادِحُ أنْ يُفرِدَ ممدوحَه بصِفةِ مدحٍ لا يَشرَكُه فيها غيرُه، فيَنفيها في أوَّلِ كلامِه عن جميعِ النَّاسِ، ويُثبتُها لِمَمْدوحِه بعدَ ذلك، ومثالُ ذلك قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ﴾ [المجادلة: ٢]؛ فهو نفْيٌ لصيرورةِ المرأةِ أُمًّا بالظِّهارِ، وإثباتُ الأمومةِ للَّتي ولدَتِ الولدَ. يُنظر: ((الصناعتين: الكتابة والشعر)) للعسكري (ص: ٤٠٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٩٣)، ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٩).

الحالِ عليه، أي: يُقالُ لهم ذلكَ عِندَ إدْخالِ الملائكةِ إيَّاهمُ النَّارَ حَسبَما أُمِروا به[١].

- قولُه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ الاعتِذارُ: افتِعالٌ مُشتَقٌّ مِنَ العُذْرِ، ومادَّةُ الافتِعالِ فيه دالَّةٌ على تَكلُّفِ الفِعلِ؛ مِثلَ الاكتِسابِ والاختِلاقِ[٢].

- وأفادَتْ (إنَّما) في قولِه: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾ قصْرَ الجَزاءِ على مُماثَلةِ العملِ المُجْزَى عليه قصْرَ قلْبٍ[٣]؛ لتَنزيلِهِم مَنزِلةَ مَنِ اعتَذَرَ وطلَبَ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٧).

(٣) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

جَزاؤُه أهْوَنَ ممَّا شاهَدَه[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أُعيدَ خِطابُ المُؤمنينَ، وأُعِيدَ نِداؤُهُم، وهو نِداءٌ ثالثٌ في هذِه السُّورةِ، والَّذي قَبْلَه نِداءٌ للواعِظينَ، وهذا نِداءٌ للمَوعوظينَ، أُمِرَ المُؤمِنونَ بالتَّوبةِ مِن الذُّنوبِ إذا تَلبَّسوا بها؛ لأنَّ ذلكَ مِن إصلاحِ أنفُسِهم، بعْدَ أنْ أُمِروا بأنْ يُجَنِّبوا أنفُسَهم وأهلِيهم ما يَزُجُّ بهم في عذابِ النَّارِ؛ لأنَّ اتِّقاءَ النَّارِ يَتحقَّقُ باجتِنابِ ما يَرْمي بهم فيها، وقدْ يَذْهَلُونَ عمَّا فَرَطَ مِن سيِّئاتِهم، فهُدُوا إلى سَبيلِ التَّوبةِ الَّتي يَمْحُونَ بها ما فَرَطَ مِن سيِّئاتِهم، وهذا ناظِرٌ إلى ما ذُكِرَ مِن مَوعظةِ امْرأتَيِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقولِه عز وجل: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[٢] [التحريم: ٤].

- قولُه: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ...﴾ وُرودُ صِيغةِ الإطماعِ ﴿عَسَىٰ﴾؛ للجَريِ على سَنَنِ الكِبرياءِ، والإشعارِ بأنَّه تَفضُّلٌ، والتَّوبةُ غيرُ مُوجِبةٍ له، وأنَّ العبْدَ يَنْبغي أنْ يكونَ بيْنَ خوفٍ ورجاءٍ، وإنْ بالَغَ في إقامةِ وظائفِ العِبادةِ؛ فالرَّجاءُ المُستفادُ مِن فِعلِ (عَسَى) مُستعمَلٌ في الوعدِ الصَّادرِ عن المُتفضِّلِ، وذلكَ التَّائبُ لا حقَّ له في أنْ يُعفَى عنه ما اقترفَه؛ لأنَّ العصيانَ قد حصَلَ، وإنَّما التَّوبةُ عزْمٌ على عدَمِ العَودةِ إلى الذَّنْبِ، ولكنْ ما لصاحبِها مِنَ النَّدمِ والخَوفِ الَّذي بعَثَ على العزْمِ دلَّ على زَكاءِ النَّفْسِ؛ فجعَلَ اللهُ جزاءَهُ أنْ يَمحوَ عنه ما سلَفَ مِنَ الذُّنوبِ تفضُّلًا مِنَ اللهِ، فذلكَ معنى الرَّجاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المُستفادِ مِن (عَسَى)[١].

- قولُه: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾: ﴿يَوْمَ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ﴾ -على قولٍ-، وهو تَعليقُ تخلُّصٍ إلى الثَّناءِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمُؤمِنينَ معه، وهو يومُ القِيامةِ، وهذا الثَّناءُ عليهِم بانتفاءِ خِزْيِ اللهِ عنهم تَعريضٌ بأنَّ الَّذينَ لم يُؤمِنوا معه يُخْزيهمُ اللهُ يومَ القِيامةِ. وفيه استحمادٌ إلى المُؤمِنينَ على أنَّه عصَمَهم مِن مِثلِ حالِهم، وذِكْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مع الَّذينَ آمَنوا لتَشريفِ المُؤمِنينَ، ولا عَلاقةَ له بالتَّعريضِ[٢].

- وفي صِلةِ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ إيذانٌ بأنَّ سبَبَ انتفاءِ الخزيِ عنهم هو إيمانُهم[٣].

- و(مَعَ) في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ يَجوزُ تعلُّقُها بمَحذوفٍ حالٍ مِنَ (الَّذينَ آمَنوا)، أي: حالَ كَونِهم مع النَّبيِّ في انتفاءِ خزيِ اللهِ عنهم؛ فيَكونُ عُمومُ (الَّذينَ آمَنوا) مَخصوصًا بغيرِ الَّذينَ يَتحقَّقُ فيهم خزْيُ الكفرِ، وهمُ الَّذينَ ارتدُّوا وماتوا على الكفْرِ. ويَجوزُ تعلُّقُ (مَعَ) بفِعلِ (آمَنوا)، أي: الَّذينَ آمَنوا به وصَحِبوه؛ فيكونُ مُرادًا به أصحابُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذينَ آمَنوا به ولم يَرتَدُّوا بَعْدَه، فتكونُ الآيةُ مُؤْذِنةً بفضيلةٍ للصَّحابةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)). =

- قولُه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ إضافةُ (نُور) إلى ضَميرِ (هم) مع أنَّه لم يَسبِقْ إخبارٌ عنهم بنُورٍ لهم ليسَتْ إضافةَ تَعريفٍ؛ إذْ ليس المقصودُ تعريفَ النُّورِ وتَعيينَه، ولكنَّ الإضافةَ مُستعمَلةٌ هنا في لازمِ مَعناها، وهو اختِصاصُ النُّورِ بهم في ذلكَ اليومِ؛ بحيثُ يُميِّزُه النَّاسُ مِن بيْنِ الأنوارِ يومَئِذٍ[1].

- وقدَّمَ النُّورَ هنا في قولِه تعالَى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ لأنَّ السِّياقَ لتَعظيمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بخِلافِ ما في سُورةِ (الحديدِ): ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾[2] [الحديد: ١٢]. وقيل: أُخِّرَ الفعلُ في قولِه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾، وقُدِّمَ في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾؛ لأنَّ قولَه في سُورةِ (التَّحريم): ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ﴾ يُفهِمُ -مِن حيث المعيَّةُ- قُرْبَ المَنزلةِ، وعُلوَّ الحالِ، فتَقدَّمَ ثُبوتُه، فناسَبَ ذلك وُرودُ الجُملةِ الاسميَّةِ هنا؛ لِما تَقْتضيه مِن الثَّباتِ وتَقدُّمِه واستحكامِه، أمَّا قولُه في سُورةِ (الحديدِ): ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ فبِشارةٌ للمؤمنينَ، ولم يأْتِ هنا كونُهم مع نَبيِّهم، فلمْ يَتحصَّلْ ما يُفهِمُ تَمكُّنَ المنزلةِ وثُبوتَها ما تَحصَّلَ في آيةِ (التَّحريمِ)، إنَّما هذه بِشارةٌ؛ فناسَبَها التَّجدُّدُ والحدوثُ، فناسَبَ ذلك الفعلُ بما يُعطِيه مِن المعْنى، فقيلَ: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾؛ ليُفهَمَ التَّكرُّرُ وحُدوثُ الشَّيءِ بعْدَ الشَّيءِ، فوَرَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُ[3].

- وسَعْيُ النُّورِ: امتِدادُه وانتِشارُه، شُبِّهَ ذلكَ باشتِدادِ مَشْيِ الماشي، وذلك أنَّه يَحُفُّ بهم حيثُما انتقَلوا؛ تَنويهًا بشَأنِهم، كما تُنشَرُ الأعلامُ بيْنَ يَدَيِ

---

= ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٧٦ و١٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل) للغرناطي (٢/ ٤٦٨).

الأميرِ والقائدِ، وكما تُساقُ الجِيادُ بيْنَ يَدَيِ الخَليفةِ[١].

- وإنَّما خُصَّ بالذِّكْرِ مِنَ الجِهاتِ: الأمامُ واليمينُ؛ لأنَّ النُّورَ إذا كان بيْنَ أيديهم تَمتَّعوا بمُشاهَدتِه، وشعَروا بأنَّه كَرامةٌ لهم، ولأنَّ الأيديَ هي الَّتي تُمسَكُ بها الأمورُ النَّفيسةُ، وبها بايَعوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الإيمانِ والنَّصرِ[٢]، والتَّقييدُ بالأيْمانِ؛ لأنَّهم إمَّا مِنَ السَّابِقينَ، وإمَّا مِن أهلِ اليَمينِ؛ فهم يَمشُونَ في هاتَينِ الجِهتَينِ، ويُؤتَونَ صَحائِفَ أعمالِهم منهما[٣].

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ إتمامُ النُّورِ إدامتُه أو الزِّيادةُ منه، وكذلك الدُّعاءُ بطلَبِ المغفرةِ لهُم هو لطلَبِ دَوامِ المغفرةِ، وذلك كلُّهُ أدبٌ مع اللهِ وتَواضُعٌ له، مِثلَ ما قيلَ في استِغفارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في اليومِ سَبعينَ مرَّةً[٤]، ويَظهَرُ بذلكَ وجْهُ التَّذييلِ بقولِهم: ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ المُشعِرِ بتَعليلِ الدُّعاءِ كِنايةً عن رَجاءِ إجابتِه لهُم[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾

- قولُه: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ الغِلْظةُ: صَلابةُ الشَّيءِ، وهي مُعبَّرٌ بها هنا عن المُعامَلةِ بالشِّدَّةِ بدونِ عَفوٍ ولا تَسامُحٍ، أي: كُنْ غليظًا، أي: شَديدًا في إقامةِ ما أمَرَ اللهُ به معَ أمثالِهم[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٣٣).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديثِ أبي هريرةَ رضِي الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٣).

## الآيات (١٠-١٢)

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَحۡصَنَتۡ﴾: أي: حَفِظَت، وأصلُ (حصن): يدُلُّ على حِفظٍ وحِياطةٍ[1].

﴿ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾: أي: المُطيعينَ الخاضِعينَ، والقُنوتُ: لُزومُ الطَّاعةِ مع الخُضوعِ، أو الطَّاعةُ الدَّائمةُ، وأصلُ (قنت): يدُلُّ على طاعةٍ وخَيرٍ في دِينٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يَضرِبُ الله تعالى المثَلَ مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ الكافرِ بالمؤمنِ وقُرْبَه منه لا يُفيدُه شيئًا، فيقولُ: ضَرَب اللهُ مَثَلًا للَّذين كفَروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ كانَتا زَوجتَينِ لعَبدَينِ صالِحَينِ مِن عِبادِ اللهِ تعالى، فخانَتاهما ولم يُؤْمِنا برِسالَتِهما؛ فلم يَدفَعْا عن امرأتَيهما شَيئًا مِن عَذابِ اللهِ، وقيل لامرأتَيْ نُوحٍ ولُوطٍ: ادخُلا النَّارَ مع غَيرِكما مِنَ الدَّاخِلينَ فيها.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٦/ ٥٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٤)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٥، ٧).

ثمَّ يضربُ الله تعالى مثَلًا آخَرَ مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ المؤمنِ بالكافرِ لا يَضُرُّه شيئًا معَ قيامِه بالواجبِ عليه، فيقولُ: وضَرَب اللهُ مثَلًا للَّذين آمَنوا امرأةَ فِرعَونَ حينَ قالت: يا ربِّ ابنِ لي في جِوارِك بَيتًا في الجنَّةِ، وخَلِّصْني مِن فِرعَونَ وتَسَلُّطِه وكُفْرِه، وخَلِّصْني مِن قَومِ فِرعَونَ المُشرِكينَ، ومريمَ بِنتَ عِمْرانَ الَّتي حَفِظَت فَرْجَها، فنفَخَ جِبريلُ بأَمْرِنا في فَرْجِها، فحَمَلَت بابنِها عيسى عليه السَّلامُ، وآمَنَت بكَلِماتِ اللهِ وكُتُبِه، وكانت مِنَ المُطيعينَ للهِ، المواظِبينَ على طاعتِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أمْرُ الاستِئصالِ في الإنجاءِ والإهلاكِ أشْبَهَ شَيءٍ بحالِ أهلِ الآخِرةِ في الدَّينونةِ بالعَدْلِ والفَضْلِ، وكان المفتَتَحُ به السُّورةُ عِتابَ النِّساءِ، ثمَّ أُتْبِعَ بالأمْرِ بالتَّأديبِ لجَميعِ الأمَّةِ، إلى أنْ خُتِم بهلاكِ المخالِفِ في الدَّارَينِ، وكان للكُفَّارِ قَراباتٌ بالمُسلِمينَ، وكانوا يَظُنُّونَ أنَّها رُبَّما تَنفَعُهم، وللمُسلِمينَ قَراباتٌ بالكُفَّارِ، وكانوا رُبَّما توَهَّموا أنَّها تضُرُّهم- قال مُجيبًا لِما يُتخَيَّلُ مِن ذلك؛ تأديبًا لِمَن يُنكِرُ عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ النِّساءِ وغَيرِهنَّ[1]:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖ﴾.

أي: جَعَل اللهُ مَثَلًا للَّذين كَفَروا امرأةَ نُوحٍ وامرأةَ لُوطٍ، مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ الكافرِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

بالمؤمنِ، ومعاشرتَه له، وقُربَه منه؛ لا يُفيدُه شيئًا، ولا يَنفَعُه عندَ الله[١]!

﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾.

أي: كانت امرأةُ نُوحٍ وامرأةُ لُوطٍ زَوجتَينِ لعَبدَينِ صالِحَينِ مِن عِبادِ اللهِ تعالى، وهما نوحٌ ولُوطٌ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، فخانتاهما ولم يُؤْمِنا برِسالَتِهما، ويَتْبَعاهما على دينِهما[٢]!

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾.

أي: فلم يَدفَعْ نُوحٌ ولوطٌ عن امرأتَيْهما شَيئًا مِن عَذابِ اللهِ، ولم يَنفَعاهما؛ لكُفْرِهما[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٣، ٣٧٤).

قال الواحدي: (خوَّفَ عائِشةَ وحَفْصةَ في تظاهُرِهما على الرَّسولِ، وذكَرَ أنَّهما إن عَصَتا ربَّهما لم يُغْنِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عنهما شيئًا، وضرَبَ لهما امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لُوطٍ مَثَلًا!). ((الوسيط)) (٤/ ٣٢٢).

وقال القرطبي: (ضرَبَ اللهُ تعالى هذا المثَلَ تنبيهًا على أنَّه لا يُغْني أحدٌ في الآخرةِ عن قريبٍ ولا نَسيبٍ إذا فرَّق بيْنَهما الدِّينُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

قال ابن كثير: (خانَتاهما في الدِّين فلمْ تَتْبَعاهما فيه، وليس المرادُ أنَّهما كانتَا على فاحشةٍ -حاشا وكلَّا-؛ فإنَّ اللهَ لا يُقَدِّرُ على نبيِّه أن تَبغيَ امرأتُه، كما قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه مِن أئمَّةِ السَّلفِ والخلَفِ: «ما بَغَتِ امرأةُ نبيٍّ قَطُّ». ومَن قال خِلافَ هذا فقد أخطأ خطأً كبيرًا). ((البداية والنهاية)) (١/ ٤٢٢).

وقال ابنُ تيميةَ عن امرأةِ لوطٍ عليه السلامُ: (كانت في الظَّاهرِ مسلمةً على دينِ زوجِها لوطٍ، وفي الباطنِ منافقةً على دينِ قومِها لا تقلي عملَهم كما قلاه لوطٌ؛ فإنَّه أنكَره ونهاهم عنه وأبغَضه). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ أُنزِلَ عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]: ((يا مَعشَرَ قُرَيشٍ اشتَرُوا أنفُسَكم مِنَ اللهِ لا أُغْني عنكم مِنَ اللهِ شَيئًا، يا بَني عبدِ المُطَّلِبِ لا أُغْني عنكم مِنَ اللهِ شَيئًا، يا عبَّاسُ بنَ عبدِ المطَّلِبِ لا أُغْني عنكَ مِنَ اللهِ شَيئًا، يا صَفيَّةُ عَمَّةَ رَسولِ اللهِ لا أُغني عنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا، يا فاطِمةُ بِنتَ رَسولِ اللهِ سَلِيني بما شِئْتِ، لا أُغني عنكِ مِنَ اللهِ شَيئًا!))[1].

﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

أي: وقيل لامرأتَيْ نُوحٍ ولُوطٍ: ادخُلا النَّارَ مع غَيرِكما مِنَ الدَّاخِلينَ فيها[2].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أتَمَّ مَثَلَ النِّذارةِ بأنَّ طاعةَ المُطيعِ لا تَنفَعُ العاصيَ، وإنْ كان أقرَبَ النَّاسِ إلى المُطيعِ، إلَّا إن كان له أساسٌ يَصِحُّ البِناءُ عليه، ويجوزُ الاعتدادُ به والنَّظَرُ

---

= كثير)) (٨/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٦).

(١) رواه البخاريُّ (٢٧٥٣)، ومسلمٌ (٢٠٦) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧١).

قال البيضاوي: (﴿وَقِيلَ﴾ أي: لهما عندَ مَوتِهما، أو يومَ القيامةِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠٤).

إليه؛ أتْبَعَه مَثَلَ البِشارةِ، بأنَّ عِصيانَ العاصي لا يَضُرُّ المُطيعَ[١].

وأيضًا لَمَّا ضُرِبَ المثَلُ للَّذينَ كفَروا، أُعْقِبَ بضَرْبِ مَثَلٍ للَّذينَ آمَنوا؛ لتَحصُلَ المُقابَلةُ، فيتَّضِحَ مَقصودُ المثَلَيْنِ معًا، وجَرْيًا على عادةِ القُرآنِ في إتْباعِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ[٢].

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾.

أي: وجَعَل اللهُ مَثَلًا للَّذين آمَنوا امرأةَ فِرعَونَ، مبيِّنًا أنَّ اتِّصالَ المؤمنِ بالكافرِ لا يَضُرُّه شيئًا معَ قيامِه بالواجبِ عليه[٣].

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾.

أي: حينَ قالت امرأةُ فِرعَونَ: يا ربِّ ابنِ لي في جِوارِك بَيتًا في الجنَّةِ[٤].

عن سَلْمانَ الفارسيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (كانت امرأةُ فِرعَونَ تُعذَّبُ بالشَّمسِ، فإذا انصَرَفوا عنها أظلَّتْها الملائِكةُ بأجنِحَتِها، وكانت ترى بَيْتَها في الجنَّةِ)[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٣-٣٧٧).

قال السمعاني: (هي آسيةُ بِنتُ مُزاحِمٍ، وكانت آمَنَت باللهِ وبموسى عليه السَّلامُ سِرًّا ثمَّ أظهَرَت). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧٩).

وقال القرطبي: (قال يحيى بنُ سلامٍ: قَولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مثَّلَ ضرَبَه اللهُ يحَذِّرُ به عائِشةَ وحَفصةَ في المخالفةِ حينَ تَظاهرَتَا على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ ضَرَب لهما مَثَلًا بامرأةِ فِرعَونَ، ومريمَ بنتِ عِمرانَ؛ ترغيبًا في التَّمَسُّكِ بالطَّاعةِ، والثَّباتِ على الدِّينِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٢). ويُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٥) أخرجه الحاكمُ (٣٨٣٤)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١٦٣٧). =

﴿وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾.

أي: وخَلِّصْني مِن صُحْبةِ فِرعَونَ وتَسَلُّطِه، ومِن كُفْرِه وضَلالِه[1].

﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

أي: وخَلِّصْني مِن قَومِ فِرعَونَ المُشرِكينَ[2].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أتَمَّ المثَلَ بمَن أساءَتا الأدَبَ، فلم تَنفَعْهما الوُصلةُ بالأولياءِ، بل زادَتْهما ضَرَرًا؛ للإعراضِ عن الخَيرِ مع قُرْبِه وتَيسُّرِه، وبمَنْ أحسَنَت الأدَبَ فلم تَضُرَّها الوُصلةُ بأعدى الأعداءِ، بل زادَتْها خَيرًا- ضَرَب مثَلًا بقَرينتِها، ومع مُقارَنتِها لها في الكَمالِ فبيْنَ حالَيهما في الثُّيوبةِ والبُكورةِ طِباقٌ، فلم يَبْتَلِها سُبحانَه بخُلْطةِ زَوجٍ؛ جمعًا بيْن ما تقدَّمَ مِن صِنْفَي الثَّيِّباتِ والأبكارِ، اللَّاتي يُعْطيهما لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأحسَنَت الأدَبَ في نَفْسِها مع اللهِ، ومع سائِرِ مَن لَزِمَها الأدَبُ

---

= صحَّحه على شَرطِ الشَّيخَينِ: الحاكمُ، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ٣٦)، ووثَّق رُواتَه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٧/ ٢٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٧).

قال ابن عطية: (قولُها: ﴿وَعَمَلِهِۦ﴾ معناه: وكُفْره، وما هو عليه مِن الضَّلالةِ، وهذا قولُ كافَّةِ المفسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٥).

وقال القرطبي: (وقيل: مِن عمَلِه: مِن عذابِه وظُلمِه وشماتتِه). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٧).

معه مِن عِبادِه؛ فأحسَنَ إليها رعايةً لها[١].

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

أي: وضرَب اللهُ مَثَلًا للَّذين آمَنوا مريمَ بِنتَ عِمْرانَ الَّتي حَفِظَت فَرْجَها وصانَته مِنَ الفاحِشةِ؛ لكَمالِ عِفَّتِها وصَلاحِها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وعن أبي مُوسى الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لم يَكمُلْ مِنَ النِّساءِ إلَّا مَريمُ بِنتُ عِمرانَ، وآسيةُ امرأةُ فِرعَونَ))[٣].

وعن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دعا فاطِمةَ عامَ الفَتحِ فناجاها فبَكَت، ثمَّ حَدَّثَها فضَحِكَت! قالت: فلمَّا تُوُفِّيَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سألْتُها عن بُكائِها وضَحِكِها. قالت: أخبَرَني رَسولُ اللهِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

قال السمعاني في قولِه تعالى: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾: (أشهَرُ القَولَينِ أنَّه الفَرْجُ بعَينِه. والعَرَبُ تَقولُ: أحصَنَت فُلانةُ فَرْجَها: إذا عَفَّت عن الزِّنا. والقَولُ الثَّاني: أنَّ الفَرْجَ هاهنا: هو الجَيبُ). ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٧٩).

والقَولُ الأوَّلُ: استظهره أبو حيَّانَ، وذهب إليه ابنُ جُزَي، والألوسيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (٧/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٤/ ٣٥٨، ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّاني: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٥).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٤٣٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٤٣١).

صلَّى اللهُ عليه سلَّم أنَّه يَموتُ، فبَكَيتُ، ثمَّ أخبَرَني أنِّي سَيِّدةُ أهلِ الجنَّةِ إلَّا مَريمَ بِنتَ عِمرانَ، فضَحِكتُ))[1].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أفضَلُ نِساءِ أهلِ الجنَّةِ: خَديجةُ بِنتُ خُوَيلدٍ، وفاطِمةُ بِنتُ مُحمَّدٍ، وآسِيةُ بِنتُ مُزاحِمٍ؛ امرأةُ فِرعَونَ، ومَريمُ ابنةُ عِمرانَ))[2].

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾.

أي: فنفَخَ جِبريلُ بأَمْرِنا في فَرْجِها، فحَمَلَت بابنِها عيسى عليه السَّلامُ[3].

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا * فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٦، ١٧].

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٨٩٣) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨٥١٣).
قال الترمذي: (حسَنٌ غَريبٌ مِن هذا الوَجهِ). وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٨٩٣).

(٢) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨٣٥٥)، وأحمدُ (٢٦٦٨) واللَّفظُ له.
صحَّحه ابنُ حبَّانَ في ((الصحيح)) (٧٠١٠)، والألباني فيُّ ((صحيح الجامع)) (١١٣٥)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٣٩)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٣٢)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٤/ ٤٠٩)، وحسَّن إسنادَه النَّوويُّ في ((تهذيب الأسماء واللغات)) (٢/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٥، ١٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).
قال ابن كثير: (﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أي: بواسِطةَ الملَكِ، وهو جِبريلُ؛ فإنَّ اللهَ بَعَثه إليها فتمثَّلَ لها في صُورةِ بَشَرٍ سَوِيٍّ، وأمَرَه اللهُ تعالى أن يَنفُخَ بفِيه في جَيبِ دِرعِها، فنزلت النَّفخةُ فوَلَجت في فَرْجِها؛ فكان منه الحَملُ بعيسى عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٣).

أي: وآمَنَت مَريمُ بكَلِماتِ اللهِ، وآمَنَت بكُتُبِه، كالتَّوراةِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٣).

قيل: المرادُ بالكَلِماتِ هنا: عيسى عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٢).

وقيل: المرادُ بالكَلِماتِ: الشَّرائِعُ الَّتي شرَعَها اللهُ للعبادِ بكَلِماتِه المُنزَّلةِ في كُتُبِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠٥).

وقيل: الكَلِماتُ هي قَولُ جِبريلَ لمَريمَ عليهما السَّلامُ: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٤).

وقيل: الكَلِماتُ تَشملُ كَلِماتِ اللهِ الشَّرعيَّةَ والقَدَريَّةَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

وقال ابن كثير: (...﴿بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ أي: بقَدَرِه وشَرعِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٣).

وأمَّا قَولُه تعالى: ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ فقيل: المرادُ: الإنجيلُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٨٠).

وقيل: المرادُ: التَّوراةُ والإنجيلُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٦).

وقيل: المرادُ: التَّوراةُ والزَّبورُ والإنجيلُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: السَّمْعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٥/ ٤٨٠).

وقال ابنُ عاشور: (آمَنَت بالكتُبِ الَّتي أُنزِلَت قبْلَ عيسى، وهي «التَّوراةُ» و«الزَّبُورُ»، وكُتبُ الأنبياءِ مِن بني إسرائيلَ، و«الإنجيلُ» إن كان قد كَتَبه الحَواريُّونَ في حَياتِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٩).

وقال ابن جُزَي: (﴿وكِتَابِهِ﴾ بالإفرادِ يحتملُ أن يُريدَ به التَّوراةَ أو الإنجيلَ أو جِنسَ الكُتبِ، وقرأ أبو عَمرٍو وحفصٌ [ويعقوبُ] بالجمعِ يعني: جميعَ كُتبِ الله). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣). =

كما قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٥].

﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴾.

أي: وكانت مَريمُ مِن جُملةِ القَومِ المُطيعينَ للهِ، المواظِبينَ على طاعتِه[1].

قال تعالى: ﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [آل عمران: ٤٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ فيه أنَّ الرَّجُلَ وإن كان في غايةِ الصَّلاحِ فلا يَأمَنُ المرأةَ، ولا يأمَنُ نَفْسَه، كالصَّادِرِ مِن امرأتَيْ نُوحٍ ولُوطٍ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ﴾ أنَّ الكافِرَ يُعاقَبُ على كُفْرِه وعداوتِه للهِ ورَسولِه وأوليائِه، ولا يَنفَعُه مع كُفْرِه ما كان بيْنه وبيْن المؤمِنينَ مِن لُحْمَةِ نَسَبٍ، أو صِلَةِ صِهْرٍ، أو سَبَبٍ مِن أسبابِ الاتِّصالِ؛ فإنَّ الأسبابَ كلَّها تَنقَطِعُ يومَ القيامةِ إلَّا ما كان منها مُتَّصِلًا باللهِ وَحْدَه على أيدي رُسُلِه، فلو نَفَعَتْ وُصلةُ القَرابةِ والمُصاهَرةِ أو النِّكاحِ مع عَدَمِ الإيمانِ، لنَفَعَتِ

---

= وقراءةُ الإفرادِ قرأ بها الباقونَ. يُنظر: ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) للبناء (ص: ٥٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

قال الواحدي: (يجوزُ أن يُريدَ بالقانِتينَ: رَهطَها وعَشيرتَها الَّذين كانت منهم مَريمُ، وكانوا مُطيعينَ لله، أهلَ بَيتِ صلاحٍ وطاعةٍ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٢٤).

وقال ابن عاشور: (المرادُ بالقانِتينَ: المُكثِرونَ مِن العبادةِ، والمعنى أنَّها كانت سليلةَ قَومٍ صالحينَ، أي: فجاءت على طريقةِ أُصولِها في الخَيرِ والعَفافِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٦).

الوُصلةُ الَّتي كانت بيْن لُوطٍ ونُوحٍ وامرأتَيْهما! فلمَّا لم يُغْنيا عنهما مِن اللهِ شيئًا ﴿وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ قَطَعَتِ الآيةُ حينَئذٍ طَمَعَ مَن رَكِبَ معصيةَ اللهِ، وخالَفَ أمْرَه، ورجا أنْ يَنفعَه صلاحُ غيرِه مِن قريبٍ أو أجنبيٍّ، ولو كان بيْنَهما في الدُّنيا أشدُّ الاتِّصالِ، وهذا أصلُ ضَلالِ بني آدمَ وشِرْكِهم، وهو الشِّركُ الَّذي لا يَغفِرُه اللهُ، وهو الَّذي بَعَثَ اللهُ جميعَ رُسُلِه وأنزَلَ جميعَ كُتُبِه بإبطالِه، ومُحارَبةِ أهْلِه ومُعاداتِهم[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ أنَّ اتِّصالَ المؤمِنِ بالكافِرِ لا يَضُرُّه شَيئًا إذا فارَقَه في كُفْرِه وعَمَلِه؛ فمَعصيةُ الغيرِ لا تَضُرُّ المؤمِنَ المطيعَ شيئًا في الآخِرةِ، وإنْ تَضَرَّرَ بها في الدُّنيا بسَبَبِ العُقوبةِ الَّتي تَحُلُّ بأهلِ الأرضِ إذا أضاعوا أَمْرَ اللهِ، فتأتي عامَّةً؛ فلَمْ يَضُرَّ امرأةَ فِرعونَ اتِّصالُها به وهو مِن أكْفَرِ الكافِرينَ، ولم يَنفَعِ امرأةَ نوحٍ ولوطٍ اتِّصالُهما بهما وهما رَسُولا ربِّ العالَمينَ[٢]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ طلَبَتْ كَوْنَ البَيتِ عندَه قبْلَ طَلَبِها أنْ يكونَ في الجنَّةِ؛ فإنَّ «الجارَ قبْلَ الدَّارِ»[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيه دَليلٌ على الالتِجاءِ إلى اللهِ تعالى عندَ المِحَنِ، وسؤالِ الخَلاصِ منها، وأنَّ ذلك مِن سُنَنِ الصَّالِحينَ والأنبياءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(٣) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٦).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ ذَكَر سُبحانَه ثلاثةَ أصنافٍ مِن النِّساءِ: المرأةِ الكافرةِ الَّتي لها وُصلةٌ بالرَّجُلِ الصَّالحِ، والمرأةِ الصَّالحةِ الَّتي لها وُصلةٌ بالرَّجُلِ الكافِرِ، والمرأةِ العَزَبِ الَّتي لا وُصلةَ بيْنَها وبيْنَ أحَدٍ؛ فالأُولى لا تَنفَعُها وُصْلتُها وسَبَبُها، والثَّانيةُ لا تَضُرُّها وُصْلتُها وسَبَبُها، والثَّالِثةُ لا يَضُرُّها عدَمُ الوُصلةِ شَيئًا[1].

٢- في قَولِه تعالى ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ في هذه الأمثالِ مِن الأسرارِ البَديعةِ ما يُناسِبُ سِياقَ السُّورةِ؛ فإنَّها سِيقَت في ذِكرِ أزواجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّحذيرِ مِن تَظاهُرِهنَّ عليه، وأنَّهن إنْ لم يُطِعْنَ اللهَ ورَسولَه ويُرِدْنَ الدَّارَ الآخِرةَ، لم يَنفَعْهنَّ اتِّصالُهنَّ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما لم يَنفَعِ امرأةَ نُوحٍ ولوطٍ اتِّصالُهما بهما؛ ولهذا إنَّما ضُرِبَ في هذه السُّورةِ مَثَلُ اتِّصالِ النِّكاحِ دونَ القَرابةِ.

وفي ضَرْبِ المَثَلِ للمُؤمِنينَ بمريمَ -باعتِبارٍ آخَرَ- وهو أنَّها لم يَضُرَّها عندَ اللهِ شيئًا قَذْفُ أعداءِ اللهِ اليهودِ لها، ونِسبَتُهم إيَّاها وابنَها إلى ما بَرَّأَهما اللهُ عنه، مع كَونِها الصِّدِّيقةَ الكُبرى المُصطفاةَ على نساءِ العالَمينَ! فلا يَضُرُّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ قَدْحُ الفُجَّارِ والفُسَّاقِ فيه، وفي هذا تَسليةٌ لعائِشةَ أمِّ المؤمِنينَ، إنْ كانتِ السُّورةُ نَزَلَتْ بعدَ قِصَّةِ الإفكِ، وتوطينُ نَفْسِها على ما قال فيها الكاذِبونَ، إنْ كانت قَبْلَها، كما في ذِكْرِ التَّمثيلِ بامرأةِ نُوحٍ ولوطٍ تحذيرٌ لها ولحَفصةَ ممَّا تعَمَّدَتاه في حَقِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فتَضمَّنَتْ هذه الأمثالُ التَّحذيرَ لهنَّ

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٥).

والتَّخويفَ، والتَّحريضَ لهنَّ على الطَّاعةِ والتَّوحيدِ، والتَّسليةَ وتوطينَ النَّفْسِ لِمَن أُوذِيَ مِنهنَّ وكُذِبَ عليه، وأسرارُ التَّنزيلِ فوقَ هذا وأَجَلُّ منه، ولا سيَّما أسرارِ الأمثالِ الَّتي لا يَعْقِلُها إلَّا العالِمونَ[1]!

٣- قد وقَع في القرآنِ الإخبارُ عن أهلِ الإيمانِ بلَفظِ الزَّوْجِ مُفرَدًا وجَمعًا، كما في قولِه تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، وقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٥٩]، وقال في حقِّ آدَمَ: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] [الأعراف: ١٩]، ووقَع الإخبارُ عن أهلِ الشِّركِ بلَفظِ المَرأةِ، كما في قولِه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾، فلَمَّا كانَتا مُشرِكتَينِ أوقَع عليهما اسمَ المرأةِ، وقال في فِرعونَ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ لَمَّا كان هو المُشرِكَ وهي مؤمنةٌ لم يُسَمِّها زَوجًا له، وقال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ١ - ٤].

والسِّرُّ في ذِكْرِ المؤمنينَ ونِسائِهم بلَفظِ «الأزواجِ» أنَّ هذا اللَّفظَ مُشْعِرٌ بالمُشاكَلةِ والمجانَسةِ والاقترانِ -كما هو المفهومُ مِن لَفظِه-؛ فإنَّ الزَّوجَينِ هما الشَّيئانِ المُتشابِهانِ المُتشاكِلانِ أو المتَساويانِ، ولا ريبَ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قَطَع المُشابَهةَ والمُشاكَلةَ بيْنَ الكافِرِ والمؤمنِ؛ قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقَطَع المُقارَنةَ سُبحانَه بيْنَهما في أحكامِ الدُّنيا، فلا يَتوارَثانِ ولا يَتناكَحانِ، ولا يتَولَّى أحدُهما صاحبَه، فكما انقَطَعتِ الوُصلةُ بيْنَهما في المعنى انقطَعتْ في الاسمِ، فأضاف فيها «المرأةَ» بلَفظِ الأنوثةِ المجرَّدِ دونَ لفظِ المشاكَلةِ والمشابَهةِ، وهذا المعنى أشدُّ مُطابَقةً

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٤٥).

لألفاظِ القُرآنِ ومعانيه؛ ولهذا وَقَع على المُسلِمةِ امرأةِ الكافرِ، وعلى الكافرةِ امرأةِ المؤمِنِ لفظُ «المرأةِ» دونَ «الزَّوجةِ»؛ تحقيقًا لهذا المعنى، واللهُ أعلمُ.

وتأمَّلْ في هذا المعنى في آيةِ المواريثِ وتعليقِه سُبحانَه التَّوارُثَ بلَفظِ الزَّوجةِ دونَ المرأةِ -كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢]- إيذانًا بأنَّ هذا التَّوارثَ إنَّما وَقَعَ بالزَّوجيَّةِ المقتَضِيةِ للتَّشاكُلِ والتَّناسُبِ، والمؤمنُ والكافرُ لا تَشاكُلَ بيْنَهما ولا تَناسُبَ؛ فلا يَقَعُ بيْنَهما التَّوارُثُ، وأسرارُ مُفرَداتِ القرآنِ ومُرَكَّباتِه فوقَ عُقولِ العالَمِينَ.

وأمَّا قولُ زكريَّا عليه السَّلامُ: ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥]، وقولُه تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ﴾ [الذاريات: ٢٩]، فجَوابُه: أنَّ ذِكْرَ «المرأةِ» أَلْيَقُ في هذه المواضعِ؛ لأنَّه في سياقِ ذِكْرِ الحَمْلِ والولادةِ، فذِكْرُ «المرأةِ» أَولى به؛ لأنَّ الصِّفةَ -الَّتي هي الأُنوثةُ- هي المقتَضِيةُ للحَمْلِ والوَضعِ لا مِن حيثُ كانت زَوْجًا[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ أنَّ أنكِحةَ الكُفَّارِ صَحيحةٌ؛ حيثُ سمَّاها سُبحانَه «امرأتَه»، والصَّحابةُ رَضِيَ اللهُ عنهم غالبُهم إنَّما وُلِدوا مِن نكاحٍ كان قبْلَ الإسلامِ في حالِ الشِّركِ، وهم يُنسَبون إلى آبائِهم انتِسابًا لا رَيْبَ فيه عندَ أحدٍ مِن أهلِ الإسلامِ، وقد أسْلَمَ الجَمُّ الغفيرُ في عَهدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلَمْ يأمُرْ أحدًا منهم أنْ يُجَدِّدَ عقْدَه على امرأتِه، فلو كانت أنكِحةُ الكُفَّارِ باطِلةً لأمَرَهم بتَجديدِ أنكحتِهم[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ شَهادةُ اللهِ لها

---

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٦١٤).

بإحصانِ الفَرْجِ، وعليه فمَنْ رماها بما رماها به اليهودُ؛ حيث قالوا: إنَّها زانيةٌ! فإنَّه كافِرٌ مُكَذِّبٌ للهِ عزَّ وجلَّ[١].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ عطفٌ على ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾، فجمَعَ في التَّمثيلِ بيْنَ الَّتي لها زَوجٌ، والَّتي لا زَوجَ لها؛ تَسليةً للأراملِ، وتطْييبًا لأنفُسِهنَّ[٢].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ دَليلٌ على أنَّ اسمَ الإحصانِ يقَعُ على العَفافِ، وأنَّ المرأةَ إذا صانتْ فَرْجَها عن الفاحِشةِ فهي مُحصَنةٌ؛ فالإحصانُ اسمٌ جامِعٌ يَقعُ على هذا، وعلى الإسلامِ والتَّزويجِ، وجِماعُه الحَبْسُ عن الشَّيءِ بالحائلِ دُونَه، فكأنَّها تَحْبِسُ نَفْسَها عن الفاحِشةِ بحاجِزِ الإسلامِ، والتَّعَفُّفِ بالزَّواجِ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ أنَّ الرُّوحَ في الجَسَدِ تُنفَخُ نفخًا، ولكِنْ لا نَعلَمُ الكيفيَّةَ[٤].

٩- قال تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ الروحُ المضافةُ إلى الربِّ هي روحٌ مخلوقةٌ أضافَها إلى نفسِه إضافةَ تخصيصٍ وتشريفٍ. والمضافُ إلى الله سبحانَه نوعانِ:

**الأول**: صفاتٌ لا تقومُ بأنفسِها، كالعِلمِ والقُدرةِ والكلامِ والسَّمعِ والبصرِ، فهذه إضافةُ صفةٍ إلى الموصوفِ بها، فعلمُه وكلامُه وإرادتُه وقدرتُه وحياتُه صفاتٌ له

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٢/ ٤٧٠).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٩٢).

غيرُ مخلوقةٍ، وكذلك وجهُه ويدُه سبحانَه.

**والثاني**: إضافةُ أعيانٍ منفصلةٍ عنه، كالبيتِ والنَّاقةِ والعبدِ والرَّسولِ والرُّوحِ، فهذه إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقِه، ومصنوعٍ إلى صانعِه، لكنَّها إضافةٌ تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميَّزُ به المضافُ عن غيرِه، كبيتِ الله، وإن كانت البيوتُ كلُّها مِلكًا له، وكذلك ناقةُ الله، والنُّوقُ كلُّها مِلكُه وخلقُه، لكنْ هذه إضافةٌ إلى إلهيتِه تقتضي محبتَه لها وتكريمَه وتشريفَه، بخلافِ الإضافةِ العامَّةِ إلى ربوبيتِه حيثُ تقتضي خلقَه وإيجادَه[1].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ اجتَمَع نَوعا كَلِماتِ اللهِ الدِّينيَّةِ والكَونيَّةِ؛ فـ «كُتُبُه» كلماتُه الَّتي يأمُرُ بها ويَنهى، ويُحِلُّ ويُحَرِّمُ، و«كَلِماتُه» هي الَّتي يَخْلُقُ بها ويُكَوِّنُ -وذلك على قولٍ-؛ فأَخبرَ أنَّ مَرْيَمَ ليست جَهميَّةً تُنْكِرُ كَلِماتِ دِينِه وكَلِماتِ تكوينِه، وتجعلُها خَلْقًا مِن جملةِ مَخلوقاتِه[2]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ وكذلك قوله: ﴿لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠] أنَّ الإيمانَ والكَمالَ في الرِّجالِ أكثرُ، لأنَّه لم يَقُلْ: مِن القانتاتِ. ولا: مِن المؤمِناتِ، ولهذا جاء في الحديثِ: ((كَمَلَ مِن الرِّجالِ كثيرٌ، ولم يَكمُلْ مِن النِّساءِ إلا آسيةُ امرأةُ فِرعونَ، ومريمُ بنتُ عِمْرانَ))[3]!

١٢- في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ﴾ إيماءٌ إلى تَبْرئةِ مريمَ ممَّا رَماها به

---

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٤- ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٤٩).
والحديث رواه البخاريُّ (٣٤٣٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٤٣١).
ويُنظر الأوجهُ الأخرى في البلاغة (ص: ٢١٨).

القومُ البُهْتُ[١].

١٣- قال تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾، في ذِكْرِ القانتينَ إيماءٌ إلى ما أوصَى اللهُ به أُمَّهاتِ المُؤمِنينَ بقولِه تعالَى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ [الأحزاب: ٣١] الآيةَ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ أُعْقِبَتْ جُملةُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التحريم: ٩] الآيةَ -المقصودُ منها تَهديدُهم بعَذابِ السَّيفِ في الدُّنيا، وإنذارُهم بعَذابِ الآخِرةِ، وما قارَنَ ذلكَ مِن مُقابَلةِ حالِهم بحالِ المُؤمِنينَ-؛ بأنْ ضرَب مَثلَيْنِ للفريقَيْنِ بنظيرَيْنِ في حالَيْهما؛ لتَزدادَ الموعظةُ وُضوحًا، ويَزدادَ التَّنويهُ بالمُؤمِنينَ استِنارةً؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا[٣].

- قولُه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فيه تَقديمُ المجرورِ باللَّامِ على المفعولِ؛ للاهتمامِ بإيقاظِ الَّذينَ كفَروا[٤].

- ومِن لَطائفِ التَّقييدِ بقولِه تعالَى: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: أنَّ المقصدَ الأصليَّ هو ضَرْبُ المثَلِ ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، وذلكَ مِنَ الاحتراسِ مِن أنْ يُحمَلَ التَّمثيلُ على المُشابَهةِ مِن جَميعِ الوُجوهِ، والاحتراسُ بكَثرةِ التَّشبيهاتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ﴾ مُناسَبةُ ضَرْبِ المثَلِ بامرأةِ نوحٍ وامرأةِ لوطٍ دونَ غيرِهما مِن قَرابةِ الأنبياءِ، نَحْو أبي إبراهيمَ وابنِ نوحٍ عليهما السَّلامُ؛ لأنَّ ذِكْرَ هاتَينِ المرأتَينِ لم يَتقدَّمْ، وقد تَقدَّمَ ذِكْرُ أبي إبراهيمَ وابنِ نوحٍ؛ لتَكونَ في ذِكْرِهما فائدةٌ مُستجَدَّةٌ، ولِيَكونَ في ذِكْرِهما عَقِبَ ما سبَقَ مِن تَمالُؤِ أُمَّي المُؤمِنينَ على زَوجِهما صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَعريضٌ لَطيفٌ بالتَّحذيرِ مِن خاطرِ الاعتزازِ بغَناءِ الصِّلةِ الشَّريفةِ عنهما في الوَفاءِ بحقِّ ما يجِبُ مِنَ الإخلاصِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ليَكونَ الشَّبهُ في التَّمثيلِ أقوى؛ ففي ضَرْبِ هذا المثَلِ: تَعريضٌ بحَفصةَ وعائشةَ رَضيَ اللهُ عنهما المذكورتَينِ في أوَّلِ السُّورةِ، وما فَرَطَ مِنهما مِنَ التَّظاهُرِ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما كَرِهَه، وتَحذيرٌ لهما على أغلَظِ وَجْهٍ وأشَدِّه؛ لِمَا في التَّمثيلِ مِن ذِكْرِ الكُفرِ ونَحْوِه، وإشارةٌ إلى أنَّ مِن حقِّهما أنْ تَكونَا في الإخلاصِ والكِتمانِ فيه كمِثْلِ هاتَينِ المؤمنتَيْنِ، وألَّا تتَّكِلَا على أنَّهما زَوْجَتا رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ ذلكَ الفضلَ لا يَنفَعُهما إلَّا مع كَونِهما مُخلِصتَينِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٣).

قال ابنُ عطيَّة: (وقال بعضُ النَّاسِ: إنَّ في المثَلَينِ عِبرةً لزَوجاتِ النَّبيِّ محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ تقَدَّم عِتابُهنَّ، وفي هذا بُعْدٌ؛ لأنَّ النَّصَّ أنَّه للكُفَّارِ يُبعِدُ هذا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٥).

وقال ابنُ عاشور مُعَقِّبًا: (ويَدفَعُ اسْتِبعادَه أنَّ دَلالةَ التَّعريضِ لا تُنافي اللَّفظَ الصَّريحَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٤).

وقال السعدي: (فكأنَّ في ذلك إشارةً وتحذيرًا لزَوجاتِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم عن =

- وفي قولِه: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ فائدةُ قولِه: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ بعْدَ ﴿عَبْدَيْنِ﴾ مَدْحُهما والثَّناءُ عليهما، بإضافتِهما إليه إضافةَ التَّشريفِ والتَّخصيصِ والتَّعظيمِ، وفي ذلكَ مُبالَغةٌ في المعْنى المقصودِ، وهو أنَّ الإنسانَ لا يَنْفَعُه عادةً إلَّا صلاحُ نفْسِه، لا صَلاحُ غَيرِه، وإنْ كانَ ذلكَ الغَيرُ في أعلى المراتِبِ[1].

- وجاءتِ الكِنايةُ عن اسْمِهما العَلَمينِ بقولِه: ﴿عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ لِما في ذلك مِن التَّشريفِ بالإضافةِ إليه تَعالى، ولم يأْتِ التَّركيبُ بالضَّميرِ عنهما، فيَكون (تحْتَهما)؛ لِما قُصِدَ مِن ذِكرِ وصْفِهما بقولِه: ﴿صَالِحَيْنِ﴾؛ لأنَّ الصَّلاحَ هو الوصفُ الَّذي يَمتازُ به مَن اصطفاهُ اللهُ تعالَى، كقولِه في حقِّ إبراهيمَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠]، وفي قولِ يوسفَ عليه السَّلامُ: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وقولِ سُلَيمانَ عليه السَّلامُ: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [النمل: ١٩][2]، ولأنَّ ذلك أفخَمُ، فيكونُ أشَدَّ تأثيرًا للمَوعوظِ وأعظَمَ، ودَفعًا لأن يَتوهَّمَ أحَدٌ بشَيءٍ لا يَليقُ بمَقامِهما عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ[3].

- وأيضًا خَصَّ نوحًا ولُوطًا بوَصْفِ عبدَيْنِ صالحَينِ، مع أنَّ وصْفَ النُّبوَّةِ أخصُّ مِن وصْفِ الصَّلاحِ؛ تَنويهًا بوصْفِ الصَّلاحِ، وإيماءً إلى أنَّ النُّبوَّةَ صَلاحٌ؛ ليَعْظُمَ بذلكَ شأنُ الصَّالِحينَ، ولتَكونَ المَوعظةُ ساريةً إلى نِساءِ

---

= المعصيةِ، وأنَّ اتِّصالَهنَّ به صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَنفَعُهنَّ شيئًا مع الإساءةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٤).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٠٨).

المُسلِمينَ في مُعامَلتِهنَّ أزواجَهنَّ؛ فإنَّ وصْفَ النُّبوَّةِ قد انْتهَى بالنِّسبةِ للأمَّةِ الإسلاميَّةِ، مع ما في ذلكَ مِن تَهويلِ الأذى لعبادِ اللهِ الصَّالِحينَ، وعِنايةِ ربِّهم بهم، ومُدافَعتِه عنهم(١).

- قولُه: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بَيانٌ لِما صدَرَ عنهُما مِن الجِنايةِ العَظيمةِ مع تَحقيقِ ما يَنْفِيها مِن صُحبةِ النَّبيِّ، أي: خانَتاهُما بالكُفْرِ والنِّفاقِ، وهذا تَصويرٌ لحالِهما المُحاكيةِ لحالِ هؤلاءِ الكَفرةِ في خِيانتِهم لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالكفْرِ والعِصيانِ، مع تَمكُّنِهمُ التَّامِّ مِنَ الإيمانِ والطَّاعةِ(٢). وليست هي الخيانةَ بمعنى الزِّنا؛ فإنَّ اللهَ تعالى قد صان أنبياءَه وعصَمَهم عن تلبُّسِ زَوجاتِهم بالزِّنا.

- قولُه: ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فيه تَنكيرُ ﴿شَيْـًٔا﴾ للتَّحقيرِ، أي: أقلَّ غِنًى وأجحَفَه، بَلْهَ الغِنَى المُهِمَّ(٣).

- قولُه: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ زِيادةُ ﴿مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ لإفادةِ مُساواتِهما في العذابِ لغيرِهما مِنَ الكَفرةِ الخوَنةِ، وذلكَ تأْييسٌ لهُما مِن أنْ تَنْتَفِعا بشَيءٍ مِن حُظوةِ زَوجَيْهما(٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جُعِلَ المثَلُ للَّذينَ آمَنوا بحالِ امرأتَيْنِ لتَحصُلَ المُقابَلةُ للمَثلَينِ السَّابقَينِ؛ فهذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن مُراعاةِ النَّظيرِ في المثلَيْنِ. وجاءَ أحَدُ المَثلَيْنِ للَّذينَ آمَنوا مَثَلًا لإخلاصِ الإيمانِ، والمَثَلُ الثَّاني لشِدَّةِ التَّقْوى؛ فكانَتِ امْرأةُ فِرعونَ مَثَلًا لِمَتانةِ إيمانِ المُؤمِنينَ، ومَريمُ مَثَلًا للقانتِينَ؛ لأنَّ المُؤمِنينَ تَبرَّؤُوا مِن ذَوِي قَرابتِهِمُ الَّذينَ بَقُوا على الكفرِ بمَكَّةَ(١).

- وأرادَتْ بعمَلِ فِرعونَ ظُلْمَه -على قولٍ في التَّفسيرِ-، أي: نجِّني مِن تَبِعَةِ أعمالِه؛ فيكونُ معنى (نَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ) مِن صُحبتِه، طلَبَتْ لنفْسِها فرَجًا، وهو مِن عطفِ الخاصِّ على العامِّ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾

- وُصِفَتْ مريمُ بالمَوصولِ وصِلتِه ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾؛ لأنَّها عُرِفَتْ بتلكَ الصِّلةِ مِن قصَّتِها المعروفةِ مِن تَكرُّرِ ذِكْرِها فيما نزَلَ مِنَ القرآنِ قبْلَ هذه السُّورةِ(٣).

- وتَفريعُ ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ تَفريعُ العَطيَّةِ على العَملِ لأجْلِه، أي: جَزَيْناها على إحصانِ فرْجِها، أي: بأنْ كوَّنَ اللهُ فيه نبيًّا بصِفةٍ خارقةٍ للعادةِ؛ فخلَّدَ بذلكَ ذِكْرَها في الصَّالِحاتِ(٤).

- قَولُه: ﴿فَنَفَخْنَا﴾ أضاف اللهُ النَّفخَ إليه؛ لأنَّه فِعْلُ رَسولِه الَّذي أرسَلَه لِيَنفُخَ في فَرْجِها، وإضافةُ النَّفخِ إلى اللهِ مع أنَّه كان مِن جبريلَ: كإضافةِ القِراءةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ٣٧٨).

إلى اللهِ مع أنَّه كان مِن جِبريلَ في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]؛ فالَّذي يقرأُ جبريلُ، والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يتَّبِعُه(١).

- قولُه: ﴿رُّوحِنَا﴾ أضاف اللهُ تعالى الرُّوحَ إلى نَفْسِه إضافةَ مخلوقٍ إلى خالِقِه، وفي ذلك تَشريفٌ له(٢).

وقيل: إضافةُ الرُّوحِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ؛ لأنَّ تكوينَ المخلوقِ الحيِّ في رَحِمِها كان دونَ الأسبابِ المعتادةِ، أو أُرِيدَ بالرُّوحِ المَلَكُ الَّذي يُؤْمَرُ بنَفخِ الأرواحِ في الأجِنَّةِ؛ فعلى الأوَّلِ تكونُ ﴿مِن﴾ تَبعيضيَّةً، وعلى الثَّاني تكونُ ابتدائيَّةً(٣).

- قولُه: ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ عطفٌ على مَحذوفٍ مُقدَّرٍ مُناسِبٍ للسِّياقِ، أي: فحمَلَتْ بعيسى وصدَّقَتْ(٤).

- قولُه: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ (مِن) للابتِداءِ، والمعْنى: أنَّها كانت سَليلةَ قومٍ صالحينَ، أي: فجاءتْ على طَريقةِ أُصولِها في الخيرِ والعَفافِ. ويجوزُ جعْلُ (مِن) للتَّبعيضِ، أي: هي بَعضُ مَن قَنَتَ للهِ. وغُلِّبَت صِيغةُ جمْعِ الذُّكورِ، ولم يُقَلْ: مِن القانتاتِ، جرْيًا على طَريقةِ التَّغليبِ، لإطباقِ أهلِ اللِّسانِ العَربيِّ على تغليبِ الذَّكَرِ على الأُنثى في الجَمعِ، وهو مِن تَخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتضَى الظَّاهِرِ، ونُكْتَتُه هنا الإشارةُ إلى أنَّها في عِدادِ أهلِ الإكثارِ مِنَ العبادةِ، وأنَّ طاعتَها لم تَقْصُرْ عن طاعةِ الرِّجالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (٢/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٨).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٣).

الكامِلينَ حتَّى عُدَّتْ مِن جملتِهِم، وأنَّ شأنَ ذلكَ أنْ يكونَ للرِّجالِ؛ لأنَّ نساءَ بَنِي إسرائيلَ كُنَّ مَعْفِيَّاتٍ مِن عِباداتٍ كثيرةٍ، وأيضًا لرِعايةِ الفواصلِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢١٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٤، ٥٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٨/ ٣٧٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٦١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٣).

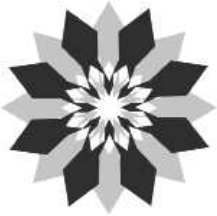

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ المُلْكِ

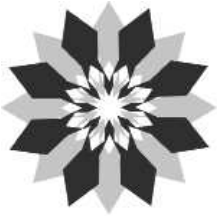

# سورةُ المُلْكِ

## أسماءُ السُّورةِ:

**سُمِّيَت هذه السُّورةُ بعِدَّةِ أسماءٍ؛ منها:**

١- سُورةُ المُلْكِ[١]: فعن ابنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه، قال: (يُؤتَى الرَّجُلُ في قبرِه فتُؤتَى رِجْلاه فتقولُ رِجْلاه: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقومُ يقرأُ بي سورةَ المُلْكِ...)[٢].

٢- سُورةُ ﴿تَبَٰرَكَ﴾: فعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سورةُ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ هي المانِعةُ مِن عذابِ القَبْرِ))[٣].

---

(١) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بذلك؛ لِمُفتَتَحِها به في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٣).

قال ابن عاشور: (الشَّائِعُ في كُتُبِ السُّنَّةِ وكُتُبِ التَّفسيرِ وفي أكثرِ المصاحفِ تَسْميةُ هذه السُّورةِ «سورةَ المُلْكِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦).

(٢) أخرجه الطَّبَرانيُّ (٩/ ١٤١) (٨٦٥١)، والحاكمُ (٣٨٣٩) واللَّفظُ له، وأبو نُعَيمٍ في ((حلية الأولياء)) (٧/ ٢٤٨).

صحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّن الأثرَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب والترهيب)) (١٤٧٥)، وحسَّن سندَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٣/ ٣٥٤)، وفي تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (٣/ ٦٨).

قال شعيبٌ الأرناؤوط: (مِثلُ هذا لا يُقالُ مِن قِبَلِ الرَّأيِ، فيَكونُ له حُكمُ الرَّفعِ). تحقيق ((صحيح ابن حبان)) (٣/ ٦٨).

(٣) أخرجه أبو الشَّيخِ في ((طبقات المحَدِّثين)) (٤/ ١١)، والشَّجَريُّ، كما في ((ترتيب الأمالي)) (٥٦٩).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٣٦٤٣)، وحسَّن سندَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٣/ ٦٨).

٣- سُورةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾[١]: فعن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ سورةً مِن القُرآنِ ثلاثونَ آيةً، شفعتْ لرجُلٍ حتَّى غُفِر له، وهي سورةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾))[٢].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

عن ابنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه، قال: (يُؤْتَى الرَّجُلُ في قبرِه، فتُؤتى رِجْلاه فتقولُ رِجْلاه: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقومُ يقرأُ بي سورةَ المُلكِ، ثمَّ يُؤتَى مِن قِبَلِ صدرِه أو قال بَطنِه، فيقولُ: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقرأُ بي سورةَ الملكِ، ثمَّ يؤتَى رأسُه فيقولُ: ليس لكم على ما قِبَلي سبيلٌ؛ كان يقرأُ بي سورةَ الملكِ، قال: فهي المانِعةُ؛ تمنعُ مِن عذابِ القبرِ، وهي في التَّوراةِ سورةُ الملكِ، ومَن قرأها في ليلةٍ فقد أكثَرَ وأطنَبَ)[٣].

وعن ابنِ مَسعودٍ رضيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((سورةُ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ هي المانِعةُ مِن عذابِ القَبرِ))[٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((إنَّ

---

(١) قال ابن عاشور: (فهذا تسميةٌ للسُّورةِ بأوَّلِ جُمْلةٍ وَقَعتْ فيها، فتكونُ تَسْميةً بجُملةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥).

وسُمِّيَتِ السُّورةُ بغيرِ ذلك. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لأبي الحسن السخاوي (ص: ٩٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١٤٠٠)، والترمذيُّ (٢٨٩١)، وأحمدُ (٧٩٧٥).

قال الترمذي: (حسَنٌ)، وحسَّنه لغيرِه الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (١٤٧٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٣/ ٣٥٣).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٢٢٣).

(٤) تقدَّم تخريجُه (ص: ٢٢٣).

سورةً مِن القُرآنِ ثلاثونَ آيةً شفعتْ لِرَجُلٍ حتَّى غُفِر له، وهي سورةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾))[1].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ المُلْكِ مَكِّيَّةٌ[2]، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[3].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

بيانُ عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى، وكَمالِ مُلْكِه الدَّالِّ على وَحدانيَّتِه[4].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- التَّعريفُ بعَظَمةِ اللهِ تعالى، وانفِرادِه بالمُلْكِ، وقُدرتِه على كُلِّ شَيءٍ.

٢- بيانُ الحِكمةِ مِن خَلْقِ الموتِ والحياةِ.

٣- ذِكرُ بَعضِ مَظاهِرِ قُدرتِه سُبحانَه، وانفِرادِه بخَلْقِ العوالِمِ العُلْيا خَلْقًا بالِغًا غايةَ الإتقانِ.

٤- بيانُ سُوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ وما أعَدَّه اللهُ لهم مِن عذابٍ، وبيانُ حُسنِ عاقبةِ

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٤).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٣/ ١٠٣)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٦).

المؤمِنينَ.

٥- بيانُ سَعةِ عِلمِ اللهِ تعالى وأنَّه لا يخفى عليه شَيءٌ، سواءٌ كان سرًّا أو علانيةً.

٦- التَّذكيرُ بمِنَّةِ خَلْقِ هذه الأرضِ، وجَعْلِها مُلائِمةً لحياةِ النَّاسِ، وأمْرُهم بالسَّعيِ فيها، والانتِفاعِ بما فيها مِن وُجوهِ النِّعَمِ.

٧- التَّحذيرُ مِن بَطشِ اللهِ وعِقابِه، والتَّذكيرُ بما جرى للكافِرينَ السَّابِقينَ.

٨- الدَّعوةُ إلى التَّأمُّلِ والتَّفَكُّرِ في مَشهدِ الطَّيرِ صافَّاتٍ في الجَوِّ، وفي أحوالِ أنفُسِهم، وأنَّه لا ناصِرَ مِن دونِ اللهِ، وأنَّه إنْ أمْسَكَ رِزقَه فلا رازِقَ لهم غَيرُه سُبحانَه وتعالى.

٩- ضَربُ المثَلِ لأهلِ الإيمانِ وأهلِ الكُفرِ، وأهلِ الحَقِّ وأهلِ الباطِلِ.

١٠- توبيخُ المُشرِكينَ على كُفْرِهم نِعمةَ اللهِ تعالى، واستِخفافِهم بوَعيدِه، وأمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يُذَكِّرَهم بنِعَمِ اللهِ عليهم، وأن يَرُدَّ على شُبُهاتِهم وأكاذيبِهم بما يَدحَضُها، وأن يَكِلَ أمْرَه وأمْرَهم إليه وَحْدَه.

## الآيات (١-٥)

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَٰرَكَ﴾: أي: تعاظَمَ وتقَدَّسَ، وكثُر خَيرُه، وعمَّ إحسانُه، مِن البَرَكةِ: وهي الزِّيادةُ والنَّماءُ، والكثرةُ والاتِّساعُ، وأصلُ (برك): ثَباتُ الشَّيءِ[1].

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: أي: لِيَختَبِرَكم ويَمتحِنَكم، وأصلُه: يدُلُّ على الامتِحانِ والاختِبارِ[2].

﴿طِبَاقًا﴾: أي: مُتَطابِقةً بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، والمُطابَقةُ: أن تَجعَلَ الشَّيءَ فَوقَ آخَرَ بقَدْرِه، وأصلُ (طبق): يدُلُّ على وَضعِ شَيءٍ مَبسوطٍ على مِثْلِه حتَّى يُغَطِّيَه[3].

﴿تَفَٰوُتٍ﴾: أي: اضْطِرابٍ واختِلافٍ أو عَيبٍ، وتفاوَتَ الشَّيئانِ: تباعَدَ ما

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣١)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٨).

بيْنَهما، وأصلُه مِنَ «الفَوتِ» وهو: أن يَفوتَ شَيءٌ شيئًا، فيقَعَ الخَلَلُ[١].

﴿فُطُورٍ﴾: أي: صُدوعٍ وشُقوقٍ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[٢].

﴿كَرَّتَيْنِ﴾: أي: رَجْعتَينِ؛ مرَّةً بعدَ أُخرى، وأصلُ (كرر): يدُلُّ على تَرديدٍ[٣].

﴿يَنقَلِبْ﴾: أي: يرجِعْ، وأصْلُ (قلب) هنا: صرْفُ الشَّيءِ عن وجْهٍ إلى وجْهٍ، أو ردُّه مِن جِهةٍ إلى جهةٍ[٤].

﴿خَاسِئًا﴾: أي: صاغِرًا، ذَليلًا، مُبْعَدًا، لم يَرَ ما يَهْوَى، وأصلُ (خسأ): يدُلُّ على الطَّردِ والإبعادِ[٥].

﴿حَسِيرٌ﴾: أي: كَليلٌ، مُعْيٍ، مُنقَطِعٌ، لم يُدرِكْ ما طَلَب، وهو فَعيلٌ بمعنى فاعِلٍ، مِنَ الحُسورِ الَّذي هو الإعياءُ، يُقالُ: حَسَرَ بَصَرُه: إذا كَلَّ وانقَطَع، وذلك انْكِشافُ حالِه في قِلَّةِ بَصَرِه وضَعْفِه، وأصلُ (حسر): كَشْفُ الشيءِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٧)، ((مقاييس اللغة)) (٤/ ٤٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٩/ ١٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٦) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((البسيط)) =

﴿رُجُومًا﴾: أي: يُرْجَمُ بها، والرُّجومُ جمعُ رَجْمٍ، وهو مصدرٌ سُمِّيَ به ما يُرجَمُ به، وأصلُ (رجم): يدُلُّ على رَميٍ بالحِجارةِ[1].

﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: هو اسْمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ، يُقالُ: سَعرْتُ النَّارَ، إذا ألهَبْتَها، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه[2].

## المعنى الإجماليُّ:

افتتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالثَّناءِ على ذاتِه قائِلًا: تعاظَمَ الله وكثُرَ خَيرُه الَّذي بيَدِه المُلْكُ، وهو على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ.

ثمَّ ذكر الله تعالى ما يدُلُّ على حِكمتِه، وشُمولِ قُدرتِه، فقال: الَّذي خَلَق الموتَ والحياةَ؛ لِيَختَبِرَكم -أيُّها النَّاسُ- فيَنظُرَ أيُّكم خَيرٌ وأفضَلُ عَمَلًا، وهو الغالِبُ القاهِرُ، الغَفورُ لذُنوبِ عبادِه.

ثمَّ بيَّن سبحانَه مَظهَرًا آخَرَ مِن مَظاهِرِ قُدرتِه، فقال: هو الَّذي خَلَق سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، لا تَرى في خَلْقِ السَّمَواتِ الَّتي أبدَعَها الرَّحمنُ مِن اختِلافٍ أو خَلَلٍ، فأعِدْ بَصَرَك إلى السَّماءِ مُتأمِّلًا فيها، فهل ترى فيها مِن شُقوقٍ أو صُدوعٍ؟! ثمَّ كرِّرِ النَّظَرَ إلى السَّماءِ مَرَّةً بَعْدَ أُخرى، يَرجِعْ إليك بَصَرُك صاغِرًا ذليلًا قد بلَغَ الغايةَ في التَّعَبِ والإعياءِ.

ثمَّ ذكَر تعالى أدِلَّةً أخرَى على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، فقال: ولقد زَيَّنَّا السَّماءَ

---

= للواحدي (٢٢/ ٤٥)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧٢).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

القَريبةَ للأرضِ بنُجومٍ مُضيئةٍ، وجعَلْنا تلك النُّجومَ رُجومًا للشَّياطينِ الَّتي تَستَرِقُ السَّمْعَ، وأعدَدْنا لهم في الآخِرةِ أشَدَّ الحَريقِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾.

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾.

أي: تعاظَمَ وكثُرَ خَيرُ اللهِ الَّذي بيَدِه مُلْكُ العالَمِ أجمَعَ؛ فهو وَحْدَه مَن يتصَرَّفُ فيه كيفَ يَشاءُ بما يَشاءُ[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الزخرف: ٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَدُ اللهِ مَلْأَى لا تَغيضُها[2] نَفَقةٌ، سَحَّاءُ[3] اللَّيلَ والنَّهارَ، أرَأَيْتُم ما أنفَقَ مُنذُ خَلَقَ السَّماءَ والأرضَ؟! فإنَّه لم يَغِضْ ما في يَدِه، وكان عَرشُه على الماءِ، وبيَدِه الميزانُ، يَخفِضُ ويَرفَعُ))[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٢) لا تَغيضُها: أي: لا تَنقُصُها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (١/ ١٦٦).

(٣) سَحَّاءُ: أي: دائِمةُ الصَّبِّ والهَطْلِ بالعَطاءِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١٠/ ٣٨٦).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٦٨٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩٩٣).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه ذو القُدرةِ التَّامَّةِ البالِغةِ على فِعلِ كُلِّ شَيءٍ، فلا يَمنَعُه أو يُعجِزُه شَيءٌ[1].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها شُروعٌ في تَفصيلِ بَعضِ أحكامِ المُلكِ وآثارِ القُدرةِ، وبَيانِ ابتنائِهما على قَوانينِ الحِكَمِ والمَصالحِ، واستِتباعِهما لغاياتٍ جَليلةٍ[2].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾.

أي: هو الَّذي خلَقَ موتَ الخَلْقِ وحياتَهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٤).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (فيُميتُ الأحياءَ، ويُحيي المَوتى مِن نُطْفةٍ، ثمَّ عَلَقةٍ، ثمَّ يَنفُخُ فيه الرُّوحَ فيَصيرُ حيًّا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٨٩).

وقال ابن جرير: (فأماتَ مَن شاء وما شاء، وأحْيا مَنْ أراد وما أراد إلى أجَلٍ معلومٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨).

وقال ابن كثير: (معنى الآيةِ: أنَّه أوجَد الخلائقَ مِن العدَمِ؛ لِيَبلُوَهم ويَختَبِرَهم أيُّهم أحسَنُ عمَلًا؟ كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، فسَمَّى الحالَ الأوَّلَ -وهو العدَمُ- مَوتًا، وسمَّى هذه النَّشأةَ حياةً؛ ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦).

وقال الزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، وأبو حيَّانَ، والألوسيُّ: خَلَق مَوْتَكم وحَياتَكم أيُّها المكَلَّفونَ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٦). =

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

أي: لِيَختَبِرَكم -أيُّها النَّاسُ- بالأوامِرِ والنَّواهي والشَّهَواتِ والمصائِبِ، فيَنظُرَ أيُّكم خَيرٌ وأفضَلُ عَمَلًا -وذلك أخْلَصُه للهِ تعالى، وأصْوَبُه بأدائِه وَفْقَ شَرْعِه-، ثمَّ يُجازيَكم على أعمالِكم[1].

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧، ٨].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾.

أي: وهو الغالِبُ الَّذي لا يُغلَبُ، المَنيعُ الجَنابِ، القاهِرُ لجَميعِ المخلوقاتِ، الغَفورُ لذُنوبِ عبادِه، فيَستُرُها عليهم، ويَقيهم عُقوبتَها[2].

---

= وقال السعدي: (و﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ أي: قدَّر لعِبادِه أن يُحيِيَهم ثمَّ يُميتَهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

وقال البيضاوي: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قدَّرَهما، أو أوجَد الحياةَ وأزالَها حسبَما قدَّره). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨).

وقال البِقاعي: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي: قدَّر وأوجَد). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢١٩).

وقال القرطبي: (قال العُلَماءُ: الموتُ ليس بعَدَمٍ مَحضٍ، ولا فَناءٍ صِرفٍ، وإنَّما هو انقِطاعُ تعَلُّقِ الرُّوحِ بالبَدَنِ، ومُفارقتُه، وحَيلولةٌ بيْنَهما، وتبَدُّلُ حالٍ، وانتِقالٌ مِن دارٍ إلى دارٍ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٠، ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير))

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ كَوْنَ اللهِ عَزيزًا غَفورًا لا يَتِمُّ إلَّا بَعْدَ كَونِه قادِرًا على كُلِّ المقدوراتِ، عالِمًا بكُلِّ المعلوماتِ، أمَّا أنَّه لا بُدَّ مِن القُدرةِ التَّامَّةِ؛ فمِن أجْلِ أن يتمكَّنَ مِن إيصالِ جزاءِ كُلِّ أحدٍ بتَمامِه إليه، سواءٌ كان عِقابًا أو ثوابًا، وأمَّا أنَّه لا بُدَّ مِن العِلمِ التَّامِّ؛ فمِن أجْلِ أن يَعلَمَ أنَّ المطيعَ مَن هو، والعاصيَ مَن هو، فلا يقَعَ الخطَأُ في إيصالِ الحَقِّ إلى مُستحِقِّه، فثَبَت أنَّ كَونَه عزيزًا غَفورًا لا يمكِنُ ثُبوتُها إلَّا بعْدَ ثُبوتِ القُدرةِ التَّامَّةِ والعِلمِ التَّامِّ؛ فلهذا السَّبَبِ ذَكَر اللهُ الدَّليلَ على ثُبوتِ هاتَينِ الصِّفَتينِ في هذا المقامِ، ولَمَّا كان العِلمُ بكَونِه تعالى قادِرًا: متقَدِّمًا على العِلمِ بكَونِه عالِمًا؛ لا جَرَمَ ذَكَر أوَّلًا دلائِلَ القُدرةِ، وثانيًا دلائِلَ العِلمِ[1].

وأيضًا لَمَّا أثبَتَ اللهُ سُبحانَه لنَفْسِه صِفتَيِ العِزِّ والغَفْرِ على أبلَغِ ما يكونُ؛ دَلَّ على ذلك بقَولِه[2]:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾.

أي: هو الَّذي خَلَق سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ[3].

---

(٨/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥، ١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

قال الماوَرْدي: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ فيه وَجهانِ: =

كما قال تعالى حِكايةً عن قَولِ نُوحٍ عليه السَّلامُ لِقَومِه المُشرِكينَ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [نوح: ١٥].

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾.

---

= أحَدُهما: أي: مُتَّفِقٌ مُتشابِهٌ، مأخوذٌ مِن قَولِهم: هذا مُطابِقٌ لهذا، أي: شَبيهٌ له. قاله ابنُ بحرٍ. الثَّاني: يعني: بَعضُهنَّ فَوقَ بَعضٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٠، ٥١).

قال ابن جُزَي: (الطِّباقُ مصدرٌ وُصِفَتْ به السَّمواتُ، أو على حذفِ مُضافٍ تقديرُه: ذواتِ طِباقٍ. وقيل: إنَّه جمعُ طبقةٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٤).

وقال ابنُ عاشور: (الطِّباقُ يجوزُ أن يكونَ مَصدَرَ «طابَقَ»، وُصِفَت به السَّمَواتُ للمُبالغةِ، أي: شديدةَ المطابقةِ، أي: مُناسَبة بَعضِها لبعضٍ في النِّظام. ويجوزُ أن تكونَ ﴿طِبَاقًا﴾ جمْعَ طَبَقٍ، والطَّبَقُ: المُساوي في حالةٍ ما، ومنه قَولُهم في المثَلِ: «وافَقَ شَنٌّ طَبَقَه». والمعنى: أنَّها مُرتفِعٌ بَعضُها فوقَ بعضٍ في الفَضاءِ السَّحيقِ، أو المعنى: أنَّها مُتماثِلةٌ في بعضِ الصِّفاتِ...، وليس في قَولِه: ﴿طِبَاقًا﴾ ما يقتضي أنَّ بَعضَها مظروفٌ لبعضٍ؛ لأنَّ ذلك ليس مِن مُفادِ مادَّةِ الطِّباقِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦، ١٧).

وقال ابن جرير: (﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ طَبَقًا فوقَ طبَقٍ، بعضُها فوقَ بعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩).

وقال ابن كثير: (قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: طبَقةً بعْدَ طبَقةٍ، وهل هنَّ مُتَواصِلاتٌ -بمعنى: أنَّهُنَّ علويَّاتٌ بَعضُهُنَّ على بعضٍ- أو مُتفاصِلاتٌ بيْنَهنَّ خَلاءٌ؟ فيه قَولانِ، أصَحُّهما الثَّاني، كما دلَّ على ذلك حديثُ الإسراءِ وغيرُه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦). ويُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٣٩).

وقال أبو السعود: (مُتطابِقةٌ بَعضُها فوقَ بَعضٍ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٩).

وقال البِقاعي: (كُلُّ واحِدةٍ مِنها كأنَّها لشِدَّةِ مُطابَقتِها للأُخرى طالِبةٌ مُطابَقتَها بحيثُ يكونُ كُلُّ جزءٍ منها مُطابِقًا لجُزءٍ مِن الأخرى، ولا يكونُ جُزءٌ منها خارِجًا عن ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٢٣).

وقال ابن عادل: (لا خِلافَ في أنَّ السَّمَواتِ سَبْعٌ بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، بدليلِ حديثِ الإسراءِ وغَيرِه). ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ١٨٠).

أي: لا ترى[١] في خَلْقِ السَّمَواتِ الَّتي أبدَعَها الرَّحمنُ مِن اختِلافٍ أو خَلَلٍ[٢]!

قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾.

أي: فأعِدْ بَصَرَك إلى السَّماءِ مُتأمِّلًا فيها، فهل ترى فيها أيَّ شُقوقٍ أو صُدوعٍ[٣]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾.

أي: ثمَّ كرِّرِ النَّظَرَ إلى السَّماءِ مَرَّةً بَعْدَ أُخرى[٤].

---

(١) قال الرازي: (الخِطابُ في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ إمَّا للرَّسولِ، أو لكلِّ مُخاطَبٍ، وكذا القولُ في قولِه: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧).

قال ابنُ جُزَي: (المعنى: أنَّ خِلقةَ السَّمَواتِ في غايةِ الإتقانِ... ولا شَكَّ أنَّ جَميعَ المخلوقاتِ مُتقَنةٌ، ولكِنْ تخصيصُ الآيةِ بخِلْقةِ السَّمَواتِ أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٤). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) =

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

أي: يَرجِعْ إليك بَصَرُك صاغِرًا ذليلًا؛ لعَجْزِه عن العُثورِ على أيِّ شُقوقٍ في السَّماءِ، والحالُ أنَّ بَصَرَك قد بلَغَ الغايةَ في التَّعَبِ، وانقطَع مِن الإعياءِ مِن كثرةِ تَكرارِ النَّظَرِ للبَحثِ عن أيِّ تصَدُّعاتٍ فيها[1]!

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ هذا هو الدَّليلُ الثَّاني على كَونِ اللهِ تعالى قادِرًا عالِمًا؛ وذلك لأنَّ هذه الكواكِبَ -نَظَرًا إلى أنَّها مُحْدَثةٌ ومختصَّةٌ بمِقدارٍ خاصٍّ، ومَوضِعٍ مُعَيَّنٍ، وسَيرٍ مُعَيَّنٍ- تدُلُّ على أنَّ صانِعَها قادِرٌ، ونظرًا إلى كَونِها مُحكَمةً مُتقَنةً مُوافِقةً لِمَصالِحِ العبادِ

---

= (٢٩/ ١٩، ٢٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: كَثرةُ التَّكريرِ، أي: مرَّةً بعدَ أُخرى: الرَّازيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ جُزَي، وابن القيم، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣/ ٥٤٢) و(٣٠/ ٥٨٢) و(٣٢/ ٢٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩).

وقيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾: أي: مرَّتَينِ. وممَّن قال بهذا: الواحديُّ، وابنُ عطية، والنسفي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١١٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٩، ٢١٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

مِن كَونِها زينةً لأهلِ الدُّنيا، وسببًا لانتفاعِهم بها، تدُلُّ على أنَّ صانِعَها عالِمٌ[١].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه وتعالى عن بديعِ هذا الخَلْقِ، ونَبَّه على بعضِ دقائِقِه، وأمَرَ بالإبصارِ وتكريرِه، وكان السَّامعُ أوَّلَ ما يُصَوِّبُ نَظَرَه إلى السَّماءِ؛ لشَرَفِها، وغَريبِ صُنْعِها، وبديعِ وَضْعِها، ومَنيعِ رَفْعِها، فكان بحيثُ يُتوقَّعُ الإخبارُ عن هذه الزِّينةِ الَّتي رُصِّعَت بها- قال في جوابِ مَن توقَّعَه، مؤكِّدًا بالقَسَمِ، إعلامًا بأنَّه ينبغي أن يَبعُدَ العاقِلُ عن إنكارِ شَيءٍ ممَّا يُنسَبُ إلى صاحِبِ هذا الخَلْقِ من الكَمالِ، عاطِفًا على ما تقديرُه: لقد كفى هذا القَدْرُ في الدَّلالةِ على عَظَمةِ مُبدِعِ هذا الصُّنعِ وتمامِ قُدْرتِه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ الآيةَ[٢].

وأيضًا فقد انتقَلَ مِن دَلائلِ انتفاءِ الخَلَلِ عن خِلقةِ السَّمواتِ، إلى بَيانِ ما في إحدى السَّمواتِ مِن إتقانِ الصُّنعِ[٣]، فلَمَّا نفى عنها في خَلْقِها النَّقصَ، بيَّن كمالَها وزينتَها، فقال[٤]:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾.

أي: ولقد جمَّلْنا السَّماءَ القَريبةَ للأرضِ بنُجومٍ مُضيئةٍ[٥].

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

أي: ورجَمْنا بتلك النُّجومِ الشَّياطينَ الَّتي تَستَرِقُ السَّمْعَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢٩، ٢٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

---

= (٤/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٠، ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال الشوكاني: (الرُّجومُ: جمعُ رَجْم بالفتحِ، وهو في الأصلِ مصدرٌ أُطلِقَ على المَرجومِ به، كما في قولِهم: الدِّرهمُ ضَربُ الأميرِ، أي: مَضروبُه. ويجوزُ أن يكونَ باقيًا على مَصدريَّتِه، ويُقدَّرَ مُضافٌ محذوفٌ، أي: ذاتَ رَجم، وجُمِع المصدرُ باعتبارِ أنواعِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٠).

وقال ابنُ كثير: (عاد الضَّميرُ في قَولِه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ على جِنسِ المصابيحِ لا على عَينِها؛ لأنَّه لا يُرمى بالكواكِبِ الَّتي في السَّماءِ، بل بشُهُبٍ مِن دُونِها، وقد تكونُ مُستمَدَّةً منها. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧)، ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٧).

وقال الشوكاني: (﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ أي: وجَعَلْنا المصابيحَ رُجومًا يُرْجَمُ بها الشَّياطينُ، وهذه فائدةٌ أخرَى غيرُ الفائدةِ الأولَى وهي كَونُها زينةً لِلسَّماءِ الدُّنيا... وقيل: إنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ راجعٌ إلى المصابيحِ على حذفِ مُضافٍ، أي: شُهُبَها، وهي نارُها المُقتبَسةُ منها، لا هي أنفُسُها؛ لقولِه: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠]، ووجْهُ هذا أنَّ المصابيحَ الَّتي زَيَّن اللهُ بها السَّماءَ الدُّنيا لا تَزولُ ولا يُرْجَمُ بها، كذا قال أبو عليٍّ الفارسيُّ جوابًا لِمَن سأله: كيفَ تكونُ المصابيحُ زينةً وهي رُجومٌ؟...). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٠).

ويُنظر: ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي عليٍّ الفارسي (٥/ ٣٤٧).

وقال ابن عطيَّة: (﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ معناه: وجعَلْنا منها، وهذا كما تقولُ: أكرمْتُ بني فُلانٍ، وصنعتُ بهم، وأنتَ إنَّما فعلتَ ذلك ببعضِهم دونَ بعضٍ، ويُوجِبُ هذا التَّأويلَ في الآيةِ أنَّ الكواكبَ الثَّابتةَ والبُروجَ، وكلَّ ما يُهتدى به في البَرِّ والبحرِ فليست بِرَواجِمَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٩). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ الصَّافاتِ؛ الآياتِ (٧- ٩).

أي: وهيَّأْنا للشَّياطينِ في الآخِرةِ عذابَ النَّارِ، وأشَدَّ الحَريقِ[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ مَن تأمَّلَ الآيةَ عَرَف أنَّ الدُّنيا مزرعةٌ، وأنَّ الآخِرةَ مَحصَدةٌ، فيَصيرُ مِن نَفْسِه على بصيرةٍ، وثارت إرادتُه لِمَا خُلِقَ له؛ تارةً بالنَّظَرِ إلى جمالِ رَبِّه مِن حُسنٍ وإحسانٍ، وأُخرى إلى جلالِه مِن قُدرةٍ وإمكانٍ، وتارةً بالنَّظَرِ لنَفْسِه بالشَّفَقةِ عليها مِن خِزْيِ الحِرْمانِ، فيَجتَهِدُ في رِضا رَبِّه، وصَلاحِ نَفْسِه؛ خوفًا مِن عاقبةِ هذه البَلوى[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنَّ تَرَقُّبَ الموتِ أكبرُ مَواعِظِ اللهِ جلَّ جلالُه، وأجدَرُ بالمعونةِ على العَمَلِ الصَّالحِ؛ إذ تَرَقُّبُه مُقَصِّرٌ للأمَلِ، ومُهَوِّنٌ مَضَضَ المصائبِ، ويُزَهِّدُ في شَهَواتِ النَّفْسِ إذا اتَّصَلَ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلَصُه وأصوَبُه؛ فإنَّ اللهَ خَلَق عِبادَه، وأخرَجَهم لهذه الدَّارِ، وأخبَرَهم أنَّهم سيُنقَلونَ منها، وأمَرَهم ونَهاهم، وابتلاهم بالشَّهَواتِ المعارِضةِ لأمْرِه؛ فمَن انقاد لأمرِ اللهِ وأحسَنَ العَمَلَ، أحسَنَ اللهُ له الجزاءَ في الدَّارَينِ، ومَن مال مع شَهَواتِ النَّفْسِ ونَبَذ أمْرَ اللهِ، فله شَرُّ الجزاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٢، ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٢٦٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

٤- إنَّ جِماعَ الدِّينِ: ألَّا يَعبُدَ النَّاسُ إلَّا اللهَ، وأنْ يَعبُدوه بما شَرَع، لا يَعبُدوه بالبِدَعِ، كما قال الفُضَيلُ بنُ عِياضٍ في قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: (أخلَصُه وأصوَبُه)، قالوا: يا أبا عَليٍّ، ما أخلَصُه، وما أصوَبُه؟ قال: (إنَّ العَمَلَ إذا كان خالِصًا ولم يكُنْ صَوابًا لم يُقبَلْ، وإذا كان صَوابًا ولم يكُنْ خالِصًا لم يُقبَلْ، حتَّى يكونَ خالِصًا صَوابًا، والخالِصُ: أنْ يكونَ للهِ، والصَّوابُ: أنْ يكونَ على السُّنَّةِ)[1]، فالعَمَلُ الأحسَنُ هو الأخلَصُ والأصوَبُ، وهو الموافِقُ لِمَرضاتِه تعالى ومحبَّتِه، دونَ الأكثَرِ الخالي مِن ذلك؛ فهو سُبحانَه وتعالى يحِبُّ أن يُتعَبَّدَ له بالأرضَى له وإن كان قليلًا، دونَ الأكثَرِ الَّذي لا يُرضِيه، والأكثَرِ الَّذي غيرُه أَرضَى له منه؛ ولهذا يكونُ العَمَلانِ في الصُّورةِ واحِدًا، وبيْنَهما في الفَضلِ، بل بيْنَ قليلِ أحَدِهما وكثيرِ الآخَرِ في الفَضلِ: أعظَمُ مِمَّا بيْنَ السَّماءِ والأرضِ، ولهذا قال اللهُ تبارك وتعالَى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]، فهو سُبحانَه وتعالى إنَّما خلَق السَّمواتِ والأرضَ والموتَ والحياةَ، وزيَّن الأرضَ بما عليها؛ لِيَبْلُوَ عبادَه أيُّهم أحسَنُ عملًا، لا أكثرُ عملًا[2]، فالعِبرةُ بالأحسَنِ لا بالأكثَرِ[3]. ولَمَّا كان الإحسانُ هو الَّذي خُلِقْنا مِن أجْلِه، أراد جِبريلُ أن يُنَبِّهَ الصَّحابةَ على الطَّريقِ إليه، فقال:

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٧/ ٤٣٠، ٤٣١).

وكلامُ الفُضَيلِ بنِ عياضٍ رواه ابن أبي الدُّنيا في ((الإخلاص والنية)) (٢٢)، وأبو نُعَيم في ((حلية الأولياء وطبقات الأصفياء)) (٨/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((المنار المُنيف)) لابن القيم (ص: ٣٠، ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الكهف)) (ص: ١٩).

((يا محمَّدُ، أخبِرْني عن الإحسانِ))، فبَيَّن له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ طريقَ الإحسانِ محصورةٌ في هذا الزَّاجِرِ الأكبَرِ، والواعِظِ الأعظَمِ، وهو أن يَعلَمَ العَبدُ الضَّعيفُ الذَّليلُ المِسكينُ أنَّ جَبَّارِ السَّمَواتِ والأرضِ مُطَّلِعٌ عليه، حاضِرٌ لا يَغِيبُ عن شَيءٍ مِن فِعْلِه، يَعلَمُ كُلَّ ما يَفعَلُ؛ ولذا قال: ((الإحسانُ أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنَّك تَراه، فإنْ لم تَكُنْ تَراه فإنَّه يَراكَ))[١].

٥- قولُه تعالى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فيه مِن التَّرغيبِ في التَّرقِّي إلى مَعارجِ العلومِ ومَدارِجِ الطَّاعاتِ، والزَّجرِ عن مُباشَرةِ نَقائِضِها؛ ما لا يَخْفى[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ كلمةُ: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ لاستِقلالِها بالدَّلالةِ على غايةِ الكمالِ، وإنبائِها عن نِهايةِ التَّعظيمِ، لم يَجُزِ استِعمالُها في حقِّ غَيرِه سُبحانَه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ سُؤالٌ: أنَّ صِفةَ اليَدينِ للهِ سُبحانَه جاءتْ هنا على الإفرادِ، وجاءتْ أيضًا على التَّثنيةِ، كقَولِه تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، وجاءتْ على الجَمعِ، كقَولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا﴾ [يس: ٧١]، فما التَّوفيقُ بيْنَها؟

**الجوابُ**: أنَّ الوَجهَ الأوَّلَ مُفرَدٌ مُضافٌ، فيَشمَلُ كلَّ ما ثَبَتَ للهِ مِن يدٍ، ولا يُنافي الثِّنْتَينِ، وأمَّا الجَمْعُ فهو للتَّعظيمِ لا لحقيقةِ العَدَدِ الَّذي هو ثلاثةٌ فأكثَرُ،

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٣/ ٦٦).

والحديث أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٤٧٧٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٩) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٩/ ٢).

وحينَئذٍ لا يُنافي التَّثنيةَ.

على أنَّه قد قيل: إنَّ أقلَّ الجَمْعِ اثنانِ، فإذا حُمِلَ الجَمْعُ على أَقَلِّه فلا مُعارَضةَ بيْنَه وبيْنَ التَّثنيةِ أصلًا[1]. ثمَّ إنَّ المرادَ باليَدِ في قَولِه: ﴿عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ نفْسُ الذَّاتِ الَّتي لها يَدٌ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] أي: بما كَسَبوا، سواءٌ كان مِن كَسْبِ اليَدِ أو الرِّجْلِ أو اللِّسانِ أو غَيرِها مِن أجزاءِ البَدَنِ، لكِنْ يُعَبَّرُ بمِثلِ هذا التَّعبيرِ عن الفاعِلِ نفْسِه؛ ولهذا نقولُ: إنَّ الأنعامَ الَّتي هي الإبِلُ لم يخلُقْها اللهُ تعالى بيَدِه، وفَرْقٌ بيْن قَولِه: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ وبيْن قَولِه: ﴿لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]؛ فـ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ﴾ كأنَّه قال: مِمَّا عَمِلْنا؛ لأنَّ المرادَ باليَدِ ذاتُ اللهِ الَّتي لها يدٌ، والمرادُ بـ ﴿بِيَدَيَّ﴾: اليدانِ دونَ الذَّاتِ[2].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ إفرادُ اللهِ تعالى بالمُلْكِ، فالمالِكُ المُلْكَ المُطلَقَ العامَّ الشَّامِلَ هو اللهُ سُبحانَه وتعالى وَحْدَه، وإنَّ نِسبةَ المُلْكِ إلى غَيرِه هي نِسبةٌ إضافيَّةٌ؛ فقد أثبَتَ اللهُ عزَّ وجلَّ لغيرِه المُلْكَ، كما في قَولِه تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، وقولِه: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ [المؤمنون: ٦] إلى غيرِ ذلك مِن النُّصوصِ الدَّالَّةِ على أنَّ لغيرِ اللهِ تعالى مُلْكًا، لكنَّ هذا المُلْكَ ليس كمُلْكِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فهو مُلْكٌ قاصِرٌ لا يَشْمَلُ؛ فالبَيتُ الَّذي لِزَيدٍ لا يَملِكُه عَمرٌو، والبَيتُ الَّذي لعمرٍو لا يَملِكُه زَيدٌ، ثُمَّ هذا المُلْكُ مُقَيَّدٌ بحيثُ لا يَتصَرَّفُ الإنسانُ فيما مَلَكَ إلَّا على الوجهِ الَّذي أَذِنَ اللهُ فيه؛ ولهذا نهى النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن إضاعةِ المالِ[3]، وقال اللهُ

(١) يُنظر: ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) لابن عثيمين (ص: ٥٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٥٤).

(٣) أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٦٤٧٣)، ومسلمٌ (٥٩٣) مِن حديثِ المغيرةِ بنِ شُعبةَ رضيَ الله عنه.

تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]، أمَّا مُلْكُ اللهِ سُبحانَه وتعالى فهو مُلْكٌ عامٌّ شامِلٌ ومُلْكٌ مُطْلَقٌ، يَفعلُ اللهُ سُبحانَه وتعالى ما يَشاءُ، ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾[١] [الأنبياء: ٢٣].

٤- الموتُ صِفةٌ وُجوديَّةٌ، خِلافًا للفلاسِفةِ ومَن وافَقَهم؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فأخبَر أنَّه خَلَق الموتَ كما خَلَق الحياةَ، والعدَمُ لا يُوصَفُ بكَونِه مَخلوقًا[٢]، فمُفارَقةُ الرُّوحِ الجَسَدَ مَوتٌ، وليس عَدَمًا، بل مُفارَقةٌ تُفقَدُ بها الحياةُ[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أنَّ شرائِعَ اللهِ وأحكامَ اللهِ القَدَرِيَّةَ كلَّها: ابتِلاءٌ، أي: اختبارٌ، وليستِ ابتلاءً مِن البَلاءِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ «أحسَنُ»: اسمُ تفضيلٍ، وهذا دليلٌ على أنَّ الأعمالَ تتفاضَلُ بالحُسْنِ[٥].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يَنقَلِبُ البَصَرُ خاسِئًا حَسيرًا برَجْعِه كرَّتَينِ اثنتَينِ؟

**الجوابُ**: التَّثنيةُ للتَّكرارِ بكَثرةٍ، كقَولِهم: (لبَّيك وسَعْدَيك)، يريدُ: إجاباتٍ مُتواليةً[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (١/ ٩٣). ويُنظر أيضًا: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٢/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٤٧٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٢٦٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٣).

٨- عن قَتادةَ، قال: (إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤه إنَّما خَلَق هذه النُّجومَ لثلاثِ خِصالٍ: خلَقَها زينةً للسَّماءِ الدُّنيا، ورُجومًا للشَّياطينِ، وعلاماتٍ يُهتدَى بها، فمَن يتأوَّلْ منها غيرَ ذلك فقد قال برأيِه، وأخطأَ حَظَّه، وأضاع نَصيبَه، وتكَلَّف ما لا عِلْمَ له به)[1].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيه سؤالٌ: إذا كان الجِنُّ مِن نارٍ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن: ١٥]، فكيف تُحرِقُه النَّارُ؟

**الجوابُ مِن وجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ اللهَ تعالى أضاف الشَّياطينَ والجنَّ إلى النَّارِ حسَبَ ما أضاف الإنسانَ إلى التُّرابِ والطِّينِ والفَخَّارِ، والمرادُ به في حقِّ الانسانِ أنَّ أصْلَه الطِّينُ، وليس الآدميُّ طينًا حقيقةً، لكنَّه كان طينًا، كذلك الجانُّ كان نارًا في الأصلِ[2].

**الثَّاني**: أنَّ النَّارَ يكونُ بَعضُها أقوى مِن بَعضٍ، فالأقوى يُؤثِّرُ على الأضعَفِ، وممَّا يَشهَدُ له قَولُه تعالى بَعْدَه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]، والسَّعيرُ: أشَدُّ النَّارِ. ومعلومٌ أنَّ النَّارَ طَبَقاتٌ بَعضُها أشَدُّ مِن بَعضٍ، وهذا أمرٌ مَلموسٌ؛ فقد تكونُ الآلةُ مَصنوعةً مِن حَديدٍ، وتُسَلَّطُ عليها آلةٌ مِن حديدٍ أيضًا أقوى منها فتَكسِرُها. كما قيل: (لا يَفُلُّ الحديدَ إلَّا الحديدُ)، فلا يَمنَعُ كَونُ أصْلِه مِن نارٍ ألَّا يَتعذَّبَ بالنَّارِ، كما أنَّ أصلَ الإنسانِ مِن طِينٍ مِن حَمَأٍ مَسنونٍ، ومِن صَلصالٍ كالفَخَّارِ، وبَعْدَ خَلْقِه فإنَّه لا يَحتَمِلُ التعذيبَ بالصَّلصالِ ولا بالفخَّارِ؛

---

(١) علَّقه البخاريُّ في ((صحيحه)) (٤/ ١٠٧) بصيغةِ الجَزمِ، ورواه ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((آكام المرجان في أحكام الجان)) للشبلي (ص: ٣١).

فقد يُقضَى عليه بضَربةٍ مِن قِطعةٍ مِن فَخَّارٍ[١]!

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ احتُجَّ به على أنَّ النَّارَ مَخلوقةٌ الآنَ؛ لأنَّ قَولَه: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ إخبارٌ عن الماضي[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ ابتُدِئَت السُّورةُ بتَعريفِ المؤمنينَ مَعانيَ مِن العِلمِ بعَظَمةِ اللهِ تعالَى، وتَفرُّدِه بالملْكِ الحقِّ، والنَّظَرِ في إتقانِ صُنعِه الدَّالِّ على تَفرُّدِه بالإلهيَّةِ، فبذلك يكونُ في تلك الآياتِ حَظٌّ لعِظَةِ المشرِكين[٣].

- وفي افتتاحِ السُّورةِ بما افتُتِحتْ به بَراعةُ الاستهلالِ[٤]، فقد افتُتِحَت بما يدُلُّ على مُنْتهى كَمالِ اللهِ تَعالى، افتتاحًا يُؤْذِنُ بأنَّ ما حَوَتْه يَحومُ حولَ تَنزيهِ اللهِ تعالَى عن النَّقصِ الَّذي افتراهُ المشرِكون لَمَّا نَسَبوا إليه شُركاءَ في الرُّبوبيَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣١، ٢٣٢). وينظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧).

(٤) براعةُ الاستِهلالِ: هي كَونُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بلْ بألْطَفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ، ومِن أحسَنِ صُوَرِ براعةِ الاستِهلالِ مَوقِعًا، وأبلَغِها معنًى: فواتحُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، ومنها الحُروفُ المقطَّعةُ؛ فإنَّها تُوقِظُ السَّامِعينَ للإصغاءِ إلى ما يَرِدُ بعدَها؛ لأنَّهم إذا سمِعوها مِن النَّبيِّ الأُمِّيِّ علِموا أنَّها والمَتْلوَّ بعدَها مِن جِهةِ الوحيِ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ المتلوَّ عليهم مِن جِنسِ ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، مع عجْزِهم عن أنْ يأتوا بمِثلِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (١/ ٥٣)، ((علوم البلاغة)) لأحمد المراغي (ص: ٣٧٨).

والتَّصرُّفِ معه، والتَّعطيلِ لبَعضِ مُرادِه[١].

- وهذا الكلامُ يَجوزُ أنْ يكونَ مُرادًا به مُجرَّدُ الإخبارِ عن عَظَمةِ اللهِ تعالَى وكَمالِه، ويَجوزُ أنْ يكونَ مع ذلك إنشاءُ ثَناءٍ على اللهِ أثناهُ على نفْسِه، وتَعليمًا للنَّاسِ كيف يُثْنون على اللهِ ويَحمَدونه؛ إمَّا على وَجْهِ الكِنايةِ بالجُملةِ عن إنشاءِ الثَّناءِ، وإمَّا باستعمالِ الصِّيغةِ المشتركةِ بيْن الإخبارِ والإنشاءِ في مَعنيَيها، ولو صِيغَ بغَيرِ هذا الأُسلوبِ لَما احتَمَلَ هذَينِ المعْنيَينِ[٢].

- قولُه: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ - وإسنادُ ﴿تَبَٰرَكَ﴾ إلى المَوصولِ؛ للاستِشهادِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ على تَحقُّقِ مَضمونِها[٣].

وجُعِلَ المسنَدُ إليه اسمَ مَوصولٍ؛ للإيذانِ بأنَّ معْنى الصِّلةِ ممَّا اشتُهِرَ به -كما هو غالبُ أحوالِ الموصولِ-، فصارتِ الصِّلةُ مُغْنيةً عن الاسمِ العَلَمِ؛ لاستِوائِهما في الاختِصاصِ به؛ إذ يَعلَمُ كلُّ أحدٍ أنَّ الاختِصاصَ بالمُلْكِ الكاملِ المطلَقِ ليس إلَّا للهِ[٤].

- وتَقديمُ المسنَدِ -وهو ﴿بِيَدِهِ﴾- على المسنَدِ إليه ﴿ٱلْمُلْكُ﴾؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: المُلْكُ بيَدِه لا بيَدِ غيرِه. وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ[٥] مَبنيٌّ على عدَمِ الاعتدادِ بمُلْكِ غيرِه، ولا بما يَتراءى مِن إعطاءِ الخلفاءِ والملوكِ الأصقاعَ للأمراءِ والسَّلاطينِ ووُلاةِ العهدِ؛ لأنَّ كلَّ ذلك مُلكٌ غيرُ تامٍّ؛ لأنَّه لا يَعُمُّ المملوكاتِ كلَّها، ولأنَّه مُعرَّضٌ للزَّوالِ، ومُلكُ اللهِ هو الملكُ الحقيقيُّ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤]، فالنَّاسُ يَتوهَّمون أمثالَ ذلك مُلْكًا، وليس كما يَتوهَّمون(١).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ الَّتي هي صِلةُ الموصولِ، وهي تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصٍ؛ لتَكميلِ المقصودِ مِن الصِّلةِ؛ إذ أفادتِ الصِّلةُ عُمومَ تَصرُّفِه في الموجوداتِ، وأفادتْ هذه عُمومَ تَصرُّفِه في الموجوداتِ والمعدوماتِ؛ بالإعدامِ للموجوداتِ، والإيجادِ للمعدوماتِ، فيكونُ قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مُفيدًا مَعنًى آخَرَ غيرَ ما أفادَهُ قولُه: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، تَفاديًا مِن أنْ يكونَ معْناه تأْكيدًا لمعْنى ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، وتكونُ هذه الجُملةُ تَتميمًا للصِّلةِ وفي معْنى صِلةٍ ثانيةٍ، ثمَّ عُطِفَت ولم يُكرَّرْ فيها اسمُ مَوصولٍ، بخِلافِ قولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ [الملك: ٢]، وقولِه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾(٢) [الملك: ٣].

- وتَقديمُ المجرورِ في قولِه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ للاهتمامِ بما فيه مِن التَّعميمِ، ولإبطالِ دَعوى المشرِكين نِسبَتَهم الإلهيَّةَ لأصنامِهم مع اعترافِهم بأنَّها لا تَقدِرُ على خلْقِ السَّمواتِ والأرضِ، ولا على الإحياءِ والإماتةِ(٣).

٢- قوله تعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ صِفةٌ لقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٢٦، ٥٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١).

[الملك: ١]، فلمَّا شَمِلَ قولُه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] تَعلُّقَ القُدرةِ بالموجودِ والمعدومِ؛ أُتبِعَ بوَصْفِه تعالَى بالتَّصرُّفِ الَّذي منه خلْقُ المخلوقاتِ وأعراضِها؛ لأنَّ الخلْقَ أعظَمُ تَعلُّقِ القدرةِ بالمَقدورِ؛ لدَلالتِه على صِفةِ القدْرةِ وعلى صِفةِ العِلمِ(١).

- وأُوثِرَ بالذِّكرِ مِن المخلوقاتِ الموتُ والحياةُ؛ لأنَّهما أعظَمُ العوارضِ لجِنسِ الحيوانِ الَّذي هو أعجَبُ الموجودِ على الأرضِ، والَّذي الإنسانُ نوعٌ منه، وهو المقصودُ بالمخاطَبةِ بالشَّرائعِ والمواعظِ، فالإماتةُ تَصرُّفٌ في الموجودِ بإعدادِه للفَناءِ، والإحياءُ تَصرُّفٌ في المعدومِ بإيجادِه، ثمَّ إعطائِه الحياةَ ليَستكمِلَ وُجودَ نَوعِه، فليس ذِكرُ خلْقِ الموتِ والحياةِ تَفصيلًا لمعْنى الملْكِ، بلْ هو وصْفٌ مُستقِلٌّ. والاقتصارُ على خلْقِ الموتِ والحياةِ؛ لأنَّهما حالتانِ هما مَظهَرَا تَعلُّقِ القدرةِ بالمقدورِ في الذَّاتِ والعرَضِ؛ لأنَّ الموتَ والحياةَ عرَضانِ، والإنسانُ مَعروضٌ لهما، والعرَضُ لا يَقومُ بنفْسِه، فلمَّا ذُكِرَ خلْقُ العرَضِ عُلِمَ مِن ذِكرِه خلْقُ مَعروضِه بدَلالةِ الاقتضاءِ(٢).

- وأُوثِرَ ذِكرُ الموتِ والحياةِ لِما يَدُلَّانِ عليه مِن العِبرةِ بتَداوُلِ العرَضينِ المُتضادَّينِ على مَعروضٍ واحدٍ، وللدَّلالةِ على كَمالِ صُنْعِ الصَّانعِ؛ فالموتُ والحياةُ عرَضانِ يَعرِضانِ للموجودِ مِن الحيوانِ، والموتُ يُعِدُّ الموجودَ للفناءِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ودَلالةُ الاقتِضاءِ: هي دَلالةُ اللَّفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحَّةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

والحياةُ تُعِدُّ الموجودَ للعمَلِ للبقاءِ مُدَّةً[١].

- وفي ذِكرِ الموتِ والحياةِ تَخلُّصٌ إلى ما يَترتَّبُ عليهما مِن الآثارِ، الَّتي أعظَمُها العملُ في الحياةِ، والجزاءُ عليه بعْدَ الموتِ، وذلك ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ فإنَّ معْنى الابتلاءِ مُشعِرٌ بتَرتُّبِ أثَرٍ له، وهو الجزاءُ على العمَلِ؛ للتَّذكيرِ بحِكمةِ جَعْلِ هذَينِ النَّاموسَينِ البَديعَينِ في الحيوانِ؛ لتَظهَرَ حِكمةُ خلْقِ الإنسانِ، ويُفْضِيَا به إلى الوجودِ الخالدِ[٢].

- وقُدِّمَ الموتُ على الحياةِ؛ لأنَّ الموتَ أقْوى الدَّواعي إلى العمَلِ، فقُدِّمَ ليَتبيَّنَ أنَّ الَّذي سِيقَ له الآيةُ البعثُ على العمَلِ، والإخلاصُ فيه، وتَحرِّي الصَّوابِ له[٣]. أو قُدِّمَ الموتُ؛ لأنَّه هو المخلوقُ أوَّلًا؛ لقولِه تعالَى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨][٤]. أو قُدِّمَ الموتُ؛ لأنَّه أهيَبُ في النُّفوسِ[٥]. أو: قدَّم الموتَ على الحياةِ؛ لأنَّ الموتَ إلى القَهرِ أقرَبُ[٦].

- قولُه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ هذا التَّعليلُ مِن قَبيلِ الإدماجِ[٧]، وفيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢، ٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٠٦).

(٧) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ =

استدلالٌ على الوَحدانيَّةِ بدَلالةٍ في أنفُسِهم، قال تعالَى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، والمعْنى: أنَّه خلَقَ الموتَ والحياةَ؛ ليكونَ منكم أحياءٌ يَعمَلونَ الصَّالحاتِ والسَّيِّئاتِ، ثمَّ أمواتًا يَخلُصونَ إلى يومِ الجزاءِ، فيُجْزَونَ على أعمالِهم بما يُناسِبُها؛ فالتَّعريفُ في ﴿ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾ تَعريفُ الجنسِ، وفي الكلامِ تَقديرٌ: هو الَّذي خلَقَ الموتَ والحياةَ لتَحْيَوا، فيَبْلُوَكم أيُّكم أحسَنُ عملًا، وتَموتوا فتُجْزَوا على حسَبِ تلك البَلْوى، ولِكَونِ هذا هو المقصودَ الأهمَّ مِن هذا الكلامِ قُدِّمَ الموتُ على الحياةِ[1].

- قولُه: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ﴿خَلَقَ﴾، أي: خَلَق مَوتَكم وحياتَكم... على أنَّ الألِفَ واللَّامَ -في ﴿ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ﴾- عِوَضٌ عن المضافِ إليه[2].

- وجُملةُ ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ إلى آخِرِها، مُعترِضةٌ بيْن الموصولَينِ، واللَّامُ في ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: في خلْقِ الموتِ والحياةِ حِكمةُ أنْ يَبْلوَكم، فقولُه تعالَى: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ تَعليلٌ لفِعلِ ﴿خَلَقَ﴾ باعتبارِ المعطوفِ على

---

= بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٤٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (٢/ ٤٨٤)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣).

مَفعولِه، وهو ﴿وَٱلْحَيَوٰةَ﴾؛ لأنَّ حياةَ الإنسانِ حياةٌ خاصَّةٌ تُصحِّحُ للمَوصوفِ بمَن قامتْ به الإدراكَ الخاصَّ الَّذي يَندفِعُ به إلى العمَلِ باختيارِه، وذلك العمَلُ هو الَّذي يُوصَفُ بالحُسنِ والقبْحِ، وهو ما دلَّ عليه بالمنطوقِ والمفهومِ قولُه تعالَى: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: وأيُّكم أقبَحُ عمَلًا، ولذلك فذِكْرُ خلْقِ الموتِ إتمامٌ للاستدلالِ على دَقيقِ الصُّنعِ الإلهيِّ، وهو المسوقُ له الكلامُ، وذِكرُ خلْقِ الحياةِ إدماجٌ للتَّذكيرِ[١].

- وجُملةُ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً، فيُوقَفَ على قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، ويكونَ الاستفهامُ مُستعمَلًا في التَّحضيضِ على حُسْنِ العمَلِ[٢].

- قولُه: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إيرادُ صِيغةِ التَّفضيلِ معَ أنَّ الابتلاءَ شاملٌ لهم باعتبارِ أعمالِهم المنقسمةِ إلى الحسَنِ والأحسنِ فقطْ؛ للإيذانِ بأنَّ المرادَ بالذَّاتِ والمَقصدَ الأصليَّ مِن الابتلاءِ هو ظُهورُ كَمالِ إحسانِ المحسنينَ[٣].

- وقولُه: ﴿أَحْسَنُ﴾ تَفضيلٌ، أي: أحسَنُ عمَلًا مِن غيرِه، فالأعمالُ الحَسَنةُ مُتفاوِتةٌ في الحُسنِ إلى أدْناها، فأمَّا الأعمالُ السَّيِّئةُ فإنَّها مَفهومةٌ بدَلالةِ الفحْوى[٤]؛ لأنَّ البَلوى في أحسَنِ الأعمالِ تَقْتضي البَلْوى في السَّيِّئاتِ بالأَولى؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣)، ((تفسير الألوسي)) (٨/ ١٩٨).

(٤) فحْوَى الخطابِ: ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ، وهو إثباتُ حكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولى، كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كانَ دونَ القنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم =

لأنَّ إحْصاءَها والإحاطةَ بها أَولى في الجزاءِ؛ لِما يَترتَّبُ عليها مِن الاجتراءِ على الشَّارعِ، ومِن الفسادِ في النَّفْسِ، وفي نِظامِ العالَمِ، وذلك أَولى بالعِقابِ عليه؛ ففي قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ إيجازٌ(١).

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ تَذييلٌ لجُملةِ ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ إشارةً إلى أنَّ صِفاتِه تعالَى تَقْتضي تَعلُّقًا بمُتعلَّقاتِها؛ لئلَّا تكونَ مُعطَّلةً في بعضِ الأحوالِ والأزمانِ فيُفْضيَ ذلك إلى نَقائضِها، فأمَّا العزيزُ فهو الغالبُ الَّذي لا يَعجزُ عن شَيءٍ، وذِكرُه مُناسِبٌ للجزاءِ المستفادِ مِن قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: ليَجزِيَكم جَزاءَ العزيزِ، فعُلِمَ أنَّ المرادَ الجزاءُ على المُخالفاتِ والنُّكولِ عن الطَّاعةِ، وهذا حظُّ المشرِكينَ الَّذين شَمِلَهم ضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾، وأمَّا الغفورُ فهو الَّذي يُكرِمُ أولياءَهُ، ويَصْفَحُ عن فَلتاتِهم، فهو مُناسِبٌ للجزاءِ على الطَّاعاتِ وكِنايةٌ عنه؛ قال تعالَى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، فهو إشارةٌ إلى حظِّ أهلِ الصَّلاحِ مِن المُخاطَبينَ(٢).

٣- قوله تعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾، أُعقِبَ التَّذكيرُ بتَصرُّفِ اللهِ بخلْقِ الإنسانِ وأهمِّ أعراضِه بذِكرِ خلْقِ أعظَمِ الموجوداتِ

---

= الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٥، ١٦).

غيرِ الإنسانِ، وهي السَّمواتُ، ومُفيدةٌ وصْفًا مِن عَظيمِ صِفاتِ الأفعالِ الإلهيَّةِ، ولذلك أُعِيدَ فيها اسمُ الموصولِ؛ لتَكونَ الجُمَلُ الثَّلاثُ جاريةً على طَريقةٍ واحدةٍ[١].

وقيلَ: هو نعتٌ لـ ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، أو بَيانٌ، أو بدَلٌ، أو أنَّه نُصِب أو رُفِع على المدحِ، مُتعلِّقٌ بالموصولَينِ السَّابقَينِ مَعْنًى وإنْ كانَ مُنقطِعًا عنهما إعرابًا، مُنتظِمٌ معهما في سلكِ الشَّهادةِ بتَعالِيه سُبحانَه، ومع الموصولِ الثَّاني في كَونِه مَدارًا للْبَلوى، كما نطَقَ به قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٢] [هود: ٧].

- وانتصَبَ ﴿طِبَاقًا﴾ على الوصْفِ لـ ﴿سَبْعَ﴾؛ فإمَّا أنْ يكونَ مَصدَرَ: طابَقَ مُطابَقةً وطِباقًا، كقولِهم: طابَقَ النَّعلَ: خَصَفَها طبَقًا على طَبَقٍ، وُصِفَ به على سَبيلِ المُبالَغةِ، أو على حذْفِ مُضافٍ، أي: ذاتَ طِباقٍ، أو مَصدرُه مُؤكِّدٌ لمَحذوفٍ هو صِفتُها، أي: طُوبِقتْ طباقًا[٣].

- قولُه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ قيل: كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَوكيدِ استقامةِ خَلْقِه تَعالى[٤].

وقيل: هو صِفةٌ أُخرى لـ ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، وُضِعَ فيها ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مَوضوعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٦).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٧).

وقال السمينُ الحلبي عن القولِ بأنَّه استئنافٌ: (وليس بظاهرٍ؛ لانفلاتِ الكلامِ بعضِه مِن بعضٍ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٣٧٩).

الضَّميرِ؛ للتَّعظيمِ، والإشعارِ بعِلةِ الحُكْمِ، وبأنَّه تعالَى خلَقَها بقُدرتِه القاهرةِ رَحمةً وتَفضُّلًا، وبأنَّ في إبداعِها نِعَمًا جَليلةً(١).

- وجاءتْ جُملةُ ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ تقريرًا لقولِه: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾؛ فإنَّ نفْيَ التَّفاوُتِ يُحقِّقُ معْنى التَّطابُقِ، أي: التَّماثُلِ، والمعْنى: ما تَرَى في خلْقِ اللهِ السَّمواتِ تَفاوُتًا، وأصلُ الكلامِ: ما تَرى فِيهنَّ ولا في خلْقِ الرَّحمنِ مِن تَفاوُتٍ؛ فعُبِّرَ بخلْقِ الرَّحمنِ لتَكونَ الجُملةُ تَذْييلًا لمَضمونِ جُملةِ ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾؛ لأنَّ انتفاءَ التَّفاوُتِ عمَّا خَلَقه اللهُ مُتحقِّقٌ في خلْقِ السَّمواتِ وغَيرِها، أي: كانت السَّمواتُ طِباقًا؛ لأنَّها مِن خلْقِ الرَّحمنِ، وليس فيما خلَق الرَّحمنُ مِن تَفاوُتٍ، ومِن ذلك نِظامُ السَّمواتِ(٢).

- قولُه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ الخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ -على قولٍ-، أي: لا تَرى أيُّها الرَّائي تَفاوُتًا، والمقصودُ منه التَّعريضُ بأهلِ الشِّركِ؛ إذ أضاعوا النَّظرَ والاستدلالَ بما يدُلُّ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالَى بما تُشاهِدُه أبصارُهم مِن نِظامِ الكواكبِ، وذلك مُمكنٌ لكلِّ مَن يُبصِرُ؛ قال تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، فكأنَّه قال: ما تَرَون في خلْقِ الرَّحمنِ مِن تَفاوُتٍ، فيَجوزُ أنْ يكونَ ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بمعْنى المفعولِ، ويُرادَ منه السَّمواتُ، والمعنى: ما تَرى في السَّمواتِ مِن تَفاوُتٍ؛ فيَكونَ العُدولُ عن الضَّميرِ لتَتأتَّى الإضافةُ إلى اسمِه الرَّحمنِ المُشعِرِ بأنَّ تلك المخلوقاتِ فيها رحمةٌ بالنَّاسِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿خَلْقِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣، ٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧).

مَصدرًا، فيَشملَ خلْقَ السَّمواتِ وخلْقَ غيرِها؛ فإنَّ صُنْعَ اللهِ رحمةٌ للنَّاسِ لو استَقاموا كما صَنَعَ لهم وأوصاهم، فتُفيدُ هذه الجُملةُ مُفادَ التَّذييلِ في أثناءِ الكلامِ على وجْهِ الاعتراضِ، ولا يكونُ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ[١].

- والتَّعبيرُ بوصْفِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دونَ اسمِ الجلالةِ إيماءٌ إلى أنَّ هذا النِّظامَ ممَّا اقتَضَتْه رَحمتُه تعالى بالناسِ؛ لتَجرِيَ أُمورُهم على حالةٍ تُلائِمُ نِظامَ عَيشِهم؛ لأنَّه لو كان فيما خلَقَ اللهُ تَفاوُتٌ لَكان ذلك التَّفاوُتُ سَببًا لاختلالِ النِّظامِ، فيَتعرَّضُ النَّاسُ بذلك لأهوالٍ ومَشاقَّ؛ قال تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءً وَٱلۡقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٥]. وأيضًا في ذلك الوصْفِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تَورُّكٌ على المشركين؛ إذ أنْكروا اسْمَه تعالَى الرَّحمنَ؛ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورًا﴾[٢] [الفرقان: ٦٠].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِن تَفَٰوُتٖ﴾ لتأْكيدِ النَّفيِ[٣].

- والتَّفاوُتُ بوزْنِ التَّفاعُلِ: شدَّةُ الفَوتِ، والفَوتُ: البُعدُ، وليستْ صِيغةُ التَّفاعُلِ فيه لحُصولِ فِعلٍ مِن جانبينِ، ولكنَّها مُفيدةٌ للمُبالَغةِ[٤].

- والتَّفاوتُ مُعبَّرٌ به عن التَّخالُفِ وانعدامِ التَّناسُقِ؛ لأنَّ عدَمَ المُناسَبةِ يُشبِهُ البُعدَ بيْن الشَّيئينِ تَشبيهَ مَعقولٍ بمَحسوسٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧، ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾، والتَّفريعُ للتَّسبُّبِ، أي: انتفاءُ رُؤيةِ التَّفاوُتِ جُعِلَ سببًا للأمْرِ بالنَّظرِ؛ ليَكونَ نفْيُ التَّفاوُتِ مَعلومًا عن يقينٍ[1].

- والاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ تَقريريٌّ، ووقَعَ بحرْفِ (هل)؛ لأنَّ (هل) تُفيدُ تأكيدَ الاستفهامِ؛ إذ هي بمعْنى (قد) في الاستفهامِ[2]، وفي ذلك تأكيدٌ وحثٌّ على التَّبصُّرِ والتَّأمُّلِ، أي: لا تَقتنِعْ بنَظْرةٍ ونَظرتَينِ، فتقولَ: لمْ أجِدْ فُطورًا، بلْ كرِّرِ النَّظَرَ وعاوِدْه باحثًا عن مُصادَفةِ فُطورٍ؛ لعلَّك تَجِدُه، أي: لا يَسَعُك إلَّا أنْ تَعترِفَ بانتفاءِ الفُطورِ في نِظامِ السَّمواتِ فتَراها مُلتئمةً مَحبوكةً، لا تَرى في خِلالِها انشقاقًا، ولذلك كان انفطارُ السَّماءِ وانشقاقُها علامةً على انقراضِ هذا العالَمِ ونِظامِه الشَّمسيِّ؛ قال تعالَى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩]، وقال: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾[3] [الانفطار: ١].

- وعطْفُ ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ دالٌّ على التَّراخي الرُّتبيِّ، كما هو شأْنُ (ثُمَّ) في عطْفِ الجُمَلِ؛ فإنَّ مَضمونَ الجُملةِ المعطوفةِ بحرْفِ (ثُمَّ) هنا أهَمُّ وأدخَلُ في الغرَضِ مِن مَضمونِ الجُملةِ المعطوفِ عليها؛ لأنَّ إعادةَ النَّظَرِ تَزيدُ العِلمَ بانتفاءِ التَّفاوُتِ في الخلْقِ رُسوخًا ويَقينًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ١٠٠) و(٣/ ١٨٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٢/ ٣٥٢) و(٤/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- و﴿كَرَّتَيْنِ﴾ تَثنيةُ كرَّةٍ، وهي المرَّةُ، وعُبِّرَ عنها هنا بالكَرَّةِ -مُشتقَّةٌ مِن الكَرِّ، وهو العَودُ-؛ لأنَّها عَودٌ إلى شَيءٍ بعدَ الانفصالِ عنه، ككَرَّةِ المقاتلِ يَحمِلُ على العدوِّ بعدَ أنْ يَفِرَّ فرارًا مَصنوعًا. وإيثارُ لَفظِ ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ في هذهِ الآيةِ دونَ مُرادِفِه، نحْو مرَّتَين وتارَتَينِ؛ لأنَّ كَلمةَ (كرَّة) لم يَغلِبْ إطلاقُها على عدَدِ الاثنينِ، فكان إيثارُها في مَقامٍ لا يُرادُ فيه (اثنينِ) أظهَرَ في أنَّها مُستعمَلةٌ في مُطلَقِ التَّكريرِ دونَ عدَدِ اثنينِ أو زَوجٍ، وهذا مِن خَصائصِ الإعجازِ؛ ألَا تَرى أنَّ مَقامَ إرادةِ عدَدِ الزَّوجِ كان مُقتضيًا تَثنيةَ مرَّةٍ في قولِه تعالَى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]؛ لأنَّه أظهَرُ في إرادةِ العدَدِ؛ إذ لَفظُ (مرَّة) أكثَرُ تَداوُلًا[١].

فـ﴿كَرَّتَيْنِ﴾، أي: كرَّةً بعدَ كرَّةً، لا كرَّتَينِ اثنتينِ؛ فالتَّثنيةُ فيها بمعنى التَّكريرِ بكَثرةٍ أو مُطلَقِ التَّكريرِ؛ فإنَّ مِن استِعمالاتِ صِيغةِ التَّثنيةِ في الكلامِ أنْ يُرادَ بها التَّكريرُ، وذلك كما في قولِهم: لبَّيك وسَعدَيك، يُريدون تَلبياتٍ كثيرةً، وإسعادًا كثيرًا، وقولِهم: دَواليك[٢].

- قولُه: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ الانقلابُ: الرُّجوعُ، يُقالُ: انقلَبَ إلى أهْلِه، أي: رجَعَ إلى مَنزلِه، وإيثارُ فِعلِ ﴿يَنقَلِبْ﴾ هنا دونَ (يَرجِعُ)؛ لئلَّا يَلتبِسَ بفِعلِ ﴿ٱرْجِعِ﴾ المذكورِ قبْلَه، وهذا مِن خَصائصِ الإعجازِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ﴾ وضْعُ الظَّاهرِ مَوضِعَ المُضمَرِ، وفيه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩، ٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠).

الفائدةِ التَّنبيهُ على أنَّ الَّذي يَرجِعُ خاسئًا حسيرًا غيرُ مُدرِكٍ الفُطورَ، هو الآلةُ الَّتي يُلتمَسُ بها إدراكُ ما هو كائنٌ، فإذا لم يُدرَكْ شَيءٌ دلَّ على أنَّه لا شَيءَ[١].

٤- قوله تعالَى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ...﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في ذِكرِ دَلائلَ أُخرى على تَمامِ قُدرتِه سُبحانه[٢]. وهو بَيانٌ لكَونِ خلْقِ السَّمواتِ في غايةِ الحُسنِ والبهاءِ، إثْرَ بَيانِ خُلوِّها عن شائبةِ القُصورِ[٣].

- بيَّن ما في إحدى السَّمواتِ مِن إتقانِ الصُّنعِ، وهو ممَّا شَمِلَه عُمومُ الإتقانِ في خلْقِ السَّمواتِ السَّبعِ، وذِكْرُه مِن ذِكرِ بَعضِ أفرادِ العامِّ، كذِكرِ المثالِ بعْدَ القاعدةِ الكُلِّيَّةِ، فدَقائقُ السَّماءِ الدُّنيا أوضَحُ دَلالةً على إتقانِ الصُّنعِ؛ لكَونِها نُصْبَ أعيُنِ المخاطَبين، ولأنَّ مِن بَعضِها يَحصُلُ تَخلُّصٌ إلى التَّحذيرِ مِن حِيَلِ الشَّياطينِ، وسُوءِ عَواقبِ أتْباعِهم[٤].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ فيه تَصديرُ الجُملةِ بالقَسَمِ؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بمَضمونِها[٥].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بـ(قدْ)؛ لأنَّه نَتيجةُ الاستِفهامِ التَّقريريِّ المؤكَّدِ بـ(هل) أُخْتِ (قدْ) في الاستفهامِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٥٧٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١). =

- وسُمِّيَت النُّجومُ هنا مَصابيحَ على التَّشبيهِ في حُسنِ المنظَرِ؛ فهو تَشبيهٌ بَليغٌ[١].

- وعُدِلَ عن تَعريفِ (مَصابيح) باللَّامِ إلى تَنكيرِه؛ لِما يُفيدُه التَّنكيرُ مِن التَّعظيمِ[٢].

- وذِكرُ التَّزيينِ إدماجٌ[٣] للامتِنانِ في أثناءِ الاستدلالِ، أي: زيَّنَّاها لكم، مِثل الامتنانِ في قولِه: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ ﴾ [النحل: ٦]، والمَقصدُ: التَّخلُّصُ إلى ذِكرِ رَجْمِ الشَّياطينِ؛ ليُتخلَّصَ منه إلى وَعيدِهم، ووَعيدِ مُتَّبِعيهم[٤].

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ ضَميرُ الغائبةِ في (جَعَلْنَاهَا) المتبادِرُ أنَّه عائدٌ إلى المصابيحِ، أي: أنَّ المصابيحَ رُجومٌ للشَّياطينِ. ومعْنى جَعْلِ المصابيحِ رُجومًا جارٍ على طَريقةِ إسنادِ عمَلِ بَعضِ الشَّيءِ إلى جَميعِه، مِثل إسنادِ الأعمالِ إلى القبائلِ؛ لأنَّ العاملينَ مِن أفرادِ القبيلةِ[٥]. أو نُسِبَ الرَّجْمُ إلى المصابيحِ؛ لأنَّ الشِّهابَ المُتَّبِعَ للمُسْتَرِقِ مُنفصِلٌ مِن نارِها، والكوكبُ قارٌّ في فَلَكِه على حالِه، فالشِّهابُ كقبَسٍ يُؤخَذُ مِن النَّارِ، والنَّارُ

---

= قال ابن عاشور: («هَلْ»... بمعنَى «قَدْ»، فلَمَّا كَثُرَ دُخولُ همزةِ الاستفهامِ عليه حَذَفوا الهمزةَ لكثرةِ الاستعمالِ، فأصْلُ هَلْ فَعَلْتَ: أَهَلْ فعلتَ؟). ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٥٩٦). ويُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (١/ ١٠٠) و(٣/ ١٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

باقيةٌ لا تَنقُصُ[١]. أو الضَّميرُ المنصوبُ في ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾ عائدٌ إلى السَّماءِ الدُّنيا، على تَقديرِ: وجَعَلْنا منها رُجومًا؛ إمَّا على حذْفِ حرْفِ الجرِّ، وإمَّا على تَنزيلِ المكانِ الَّذي صدَرَ منه الرُّجومُ مَنزلةَ نفْسِ الرُّجومِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣٨).

## الآيات (٦-١١)

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿شَهِيقًا﴾: الشَّهيقُ: أقبحُ ما يكونُ مِن صَوتِ الحِمارِ، قيل: هو أوَّلُ نَهيقِ الحِمارِ، وقيل: هو آخِرُه، أو هو الصَّوتُ الَّذي يَخرُجُ مِن الجَوفِ بشِدَّةٍ كصَوتِ الحِمارِ، والشَّهيقُ: رَدُّ النَّفَسِ، ضِدُّ الزَّفيرِ وهو إخراجُ النَّفَسِ، وأصلُ (شهق): يدُلُّ على عُلُوٍّ[1].

﴿تَفُورُ﴾: أي: تَغْلي، وأصلُ (فور): يدُلُّ على غَلَيانٍ[2].

﴿تَمَيَّزُ﴾: أي: تتقَطَّعُ وتتفرَّقُ، وأصلُ (ميز): يدُلُّ على انفِصالِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[3].

﴿فَوْجٌ﴾: أي: فِرقةٌ وجماعةٌ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجمُّعٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ١٠٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٥٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

﴿خَزَنَتُهَآ﴾: أي: الملائكةُ الموكَلُ إليهم أمرُ جهنَّمَ، والخازنُ: الموكَلُ بالحفظِ، والخَزْنُ: حِفظُ الشَّيء في الخِزانةِ، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ حِفْظٍ، وأصلُ (خزن): يدلُّ على صيانةِ الشَّيءِ[1].

﴿فَسُحْقًا﴾: أي: بُعْدًا، وأصلُ (سحق): يدُلُّ على بُعدٍ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا ما أعدَّه لكلِّ كافرٍ: وللَّذين كَفَروا برَبِّهم عذابُ جَهنَّمَ في الآخِرةِ، وبِئسَ المُنقَلَبُ والمَرجِعُ: جَهنَّمُ!

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حالَهم حينَما يُلْقَونَ جميعًا في النَّارِ، فيقولُ: إذا أُلقِيَ فيها الكُفَّارُ سَمِعوا لها صَوتًا فَظيعًا كأقبَحِ ما يكونُ مِن صوتِ الحميرِ، وهي تَغْلي؛ مِن شِدَّةِ لهيبِها. تُوشِكُ أن تَتقَطَّعَ؛ مِن غَيظِها على أهلِها! كُلَّما أُلقِيَ فيها جماعةٌ مِن الكافِرينَ قال لهم خَزنَتُها: ألَمْ يَأتِكم في الدُّنيا نذيرٌ يُنذِرُكم عَذابَ اللهِ تعالى؟! قالوا: بلى، قد جاءَنا نذيرٌ فكذَّبْنا، وقُلْنا: ما نزَّلَ اللهُ على أحدٍ مِن شَيءٍ مِنَ الوَحيِ، ما أنتُم إلَّا في ذَهابٍ بَعيدٍ عن الحَقِّ والصَّوابِ!

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى حسرتَهم في هذا اليومِ، فيقولُ: وقال الكافِرونَ: لو كُنَّا في الدُّنيا نَسمَعُ أو نَعقِلُ سَمعًا أو عَقلًا يُنتفَعُ به، ما كنَّا اليَومَ في جُملةِ المُخَلَّدينَ في النَّارِ، فأقَرُّوا بذَنْبِهم، فبُعْدًا لهم مِن رَحمةِ اللهِ تعالى!

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ اللهُ سُبحانَه عن تهيئتِه العذابَ للشَّياطينِ بالخُصوصِ؛ أخبَرَ أيضًا عن تهيئتِه لكُلِّ عامِلٍ بأعمالِهم، على وَجهٍ اندَرَجوا هم فيه[1].

وأيضًا أنَّ اللهَ تعالى بيَّن في أوَّلِ السُّورةِ أنَّه قادِرٌ على جميعِ المُمكِناتِ، ثمَّ ذَكَر بَعْدَه أنَّه وإن كان قادِرًا على الكُلِّ، فإنَّما خَلَق ما خَلَق لا للعَبَثِ والباطِلِ، بل مِن أجْلِ الابتلاءِ والامتحانِ، وبيَّن أنَّ المقصودَ مِن ذلك الابتلاءِ أن يكونَ عزيزًا في حَقِّ المصِرِّينَ على الإساءةِ، غَفورًا في حَقِّ التَّائبينَ، ومِن ذلك كان كونُه عزيزًا وغفورًا لا يَثْبُتانِ إلَّا إذا ثبت كَونُه تعالى كامِلًا في القُدرةِ والعِلمِ- بيَّن ذلك بالدَّلائِلِ المذكورةِ، وحينَئذٍ ثَبت كَونُه قادِرًا على تعذيبِ العُصاةِ، فقال[2]:

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾.

أي: ولِجَميعِ الَّذين كَفَروا برَبِّهم عذابُ جَهنَّمَ في الآخِرةِ[3].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣).

أي: وبِئسَ المُنقَلَبُ والمَرجِعُ: جَهنَّمُ[١]!

﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾؛ وصَفَ ذلك العذابَ، فقال[٢]:

﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧﴾.

أي: إذا أُلقِيَ فيها الكُفَّارُ سَمِعوا لها صَوتًا عاليًا فَظيعًا كأقبَحِ ما يكونُ مِن صوتِ الحميرِ، وهي تَغْلي؛ مِن شِدَّةِ تلَهُّبِها وتوَقُّدِها[٣]!

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨﴾.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾.

أي: تُوشِكُ جَهنَّمُ أن تَتقَطَّعَ وتَنفَصِلَ بَعضُ أجزائِها عن بَعضٍ؛ لشِدَّةِ غَيظِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٣، ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال البِقاعي: (فهم لا يَزالونَ فيها صاعِدينَ هابِطينَ كالحُبِّ [وعاءِ الماءِ] إذا كان الماءُ يَغْلي به، لا قرارَ لهم أصلًا). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٣٤).

وقال ابن جُزَي: (يعني به هنا: ما يُسمَعُ مِن صوتِ جهنَّمَ لشِدَّةِ غَلَيانِها وهولِها، أو شهيق أهلِها، والأوَّلُ أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٥).

وقال الواحدي: (قال عَطاءٌ: يريدُ: سمِعوا لأهلِها شهيقًا، فجعَل الشَّهيقَ لأهلِ جهنَّمَ دونَها. والقولُ هو الأوَّلُ [أي: أنَّ الصوتَ لجهنَّمَ]). ((البسيط)) (٢٢/ ٤٧).

على أهلِها[١]!

كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

أي: كُلَّما أُلقِيَ في جَهنَّمَ جماعةٌ مِن الكافِرينَ، قال لهم خَزنَتُها مِن الملائِكةِ مُوَبِّخينَ: ألمْ يَأتِكم في الدُّنيا نذيرٌ يُنذِرُكم عَذابَ اللهِ تعالى[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾.

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾.

أي: قال الكافِرونَ لخَزَنةِ جَهنَّمَ: بلى، قد جاءَنا نذيرٌ يُنذِرُنا عذابَ اللهِ، ولكِنَّنا كذَّبْنا[٣].

﴿وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٤، ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٦، ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١١).

أي: وقُلْنا للمُنذِرينَ: ما نزَّل اللهُ على أحدٍ مِن الخَلْقِ أيَّ شَيءٍ مِنَ الوَحيِ[١]!

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

أي وقال الكافِرونَ أيضًا لِمَن أنذَروهم: ما أنتُم إلَّا في ذَهابٍ بَعيدٍ عن الحَقِّ والصَّوابِ[٢]!

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حكى اللهُ سُبحانَه ما قاله أهلُ النَّارِ للخَزَنةِ تحَسُّرًا على أنفُسِهم، حكى ما قالوه بَعْدَ ذلك فيما بيْنَهم -على قول-؛ زيادةً في التَّحَزُّنِ، ومَقتًا لأنفُسِهم بأنفُسِهم[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١١).

قال ابنُ عطية: (﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ مِن قَولِ الملائكةِ للكُفَّارِ حينَ أخبَروا عن أنفُسِهم أنَّهم كذَّبوا النُّذُرَ، ويحتمِلُ أن يكونَ مِن كَلامِ الكُفَّارِ للنُّذُرِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨).

ممَّن ذهَب إلى الاحتمالِ الأوَّلِ: المهدوي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((التحصيل لفوائد كتاب التفصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦).

قال ابنُ عاشور: (الأظهَرُ أنَّها بَقيَّةُ كَلامِ خَزَنةِ جَهنَّمَ... ويجوزُ أن تكونَ جُملةُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ مِن تمامِ كَلامِ كُلِّ فَوجٍ لنذيرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦).

وممَّن ذهب إلى الاحتِمالِ الثَّاني: الزَّمخشريُّ، واستظهره الرَّازيُّ، وذهب إليه القُرطبيُّ، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٧).

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

أي: وقال الكافِرونَ: لو كُنَّا في الدُّنيا نَسمَعُ أو نَعقِلُ سَمعًا أو عَقلًا يُنتفَعُ به، ما كنَّا اليَومَ في عِدادِ أهلِ النَّارِ، ومِن جُملةِ المُخَلَّدينَ في عَذابِها[1].

كما قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

وممَّن قال بأنَّ هذا مِن قَولِ الكُفَّارِ للخَزَنةِ: ابنُ جرير، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠).

وقيل: هو مِن قَولِ الكُفَّارِ فيما بيْنَهم في النَّارِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧).

قال ابنُ عاشور: (أُعيدَ فِعلُ القَولِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ هذا كلامٌ آخَرُ غَيرُ الَّذي وقع جوابًا عن سُؤالِ خَزَنةِ جَهنَّمَ، وإنَّما هذا قَولٌ قالوه في مَجامِعِهم في النَّارِ؛ تحَسُّرًا وتنَدُّمًا، أي: وقال بَعضُهم لبعضٍ في النَّارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧).

قولُه تعالى: ﴿أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: قال الألوسي: (المرادُ بهم قيل: الشَّياطينُ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ٥]. وقيل: الكفَّارُ مُطلقًا). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٣).

﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾.

أي: فأقَرُّوا بذَنْبِهم الَّذي استَوجَبَ لهم الخُلودَ في السَّعيرِ[1].

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

أي: فبُعْدًا لأهلِ النَّارِ الملازِمينَ لها مِن رَحمةِ اللهِ تعالى[2]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٠).

قيل: المرادُ بالذَّنْبِ هنا: الشِّركُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٥).

وقيل: هو تكذيبُهم للرُّسُلِ عليهم السَّلامُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الواحديُّ، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والقاسمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٠).

وقيل: هو الكفرُ وتكذيبُ الأنبياءِ. وممَّن اختار هذا القولَ: أبو السعود، والشوكانيُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال الرازي: (قال المفسِّرون: فبُعدًا لهم اعترَفوا أو جَحَدوا؛ فإنَّ ذلك لا يَنفَعُهم). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يُرادَ مِن هذا الدُّعاءِ التَّعجيبُ مِن حالِهم... أي: فهم جَديرون بالدُّعاءِ عليهم بالإبعادِ، أو جديرونَ بالتَّعجيبِ مِن بُعْدِهم عن الحَقِّ، أو عن رحمةِ اللهِ تعالى. ويحتَمِلُ أيضًا أن يُقالَ لهم يومَ الحِسابِ عَقِبَ اعترافِهم؛ تنديمًا يَزيدُهم ألَمًا في نفوسِهم، فوقَ ألمِ الحَريقِ في جُلودِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فيه أعظَمُ فضيلةٍ للعَقلِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ نَفَوا عن أنفُسِهم طُرُقَ الهُدى، وهي السَّمعُ لِما أنزَلَ اللهُ وجاءت به الرُّسُلُ، والعَقلُ الَّذي يَنفَعُ صاحِبَه، ويَقِفُه على حقائِقِ الأشياءِ، وإيثارِ الخَيرِ، والانزِجارِ عن كُلِّ ما عاقِبتُه ذَميمةٌ؛ فلا سَمْعَ لهم ولا عَقْلَ. وهذا بِخِلافِ أهلِ اليَقينِ والعِرفانِ، وأربابِ الصِّدقِ والإيمانِ؛ فإنَّهم أيَّدوا إيمانَهم بالأدِلَّةِ السَّمْعيَّةِ، فسَمِعوا ما جاء مِن عندِ اللهِ وجاء به رَسولُ اللهِ، عِلمًا ومَعرِفةً وعَمَلًا؛ والأدِلَّةِ العَقليَّةِ المُعَرِّفةِ للهُدى مِن الضَّلالِ، والحسنِ مِن القَبيحِ، والخَيرِ مِنَ الشَّرِّ، وهم في الإيمانِ بحَسَبِ ما مَنَّ اللهُ عليهم به مِن الاقتِداءِ بالمَعقولِ والمنقولِ؛ فسُبحانَ مَن يختَصُّ بفَضلِه مَن يَشاءُ، ويَمُنُّ على مَن يَشاءُ مِن عبادِه، ويَخذُلُ مَن لا يَصلُحُ للخَيرِ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ أنَّ قِوامَ الصَّلاحِ في حُسنِ التَّلَقِّي وحُسنِ النَّظَرِ، وأنَّ الأثَرَ والنَّظَرَ -أي: القياسَ- هما أصلَا الهُدى[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ذكَر الله تعالى عن أهلِ النَّارِ في عددٍ مِن الآياتِ ما يدُلُّ على أنَّهم يَسمعونَ ويُبصِرونَ ويَتكلَّمونَ؛ كقَولِه: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾، وقولِه: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾، وقولِه تعالى: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ [مريم: ٣٨]، وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾[السجدة: ١٢]، وقولِه: ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ ﴾[الكهف: ٥٣]. مع أنَّه جلَّ وعلا ذكَر في قولِه: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴾[الأنبياء: ١٠٠] أنَّ أهلَ النَّارِ لا يَسمَعونَ فيها، وبيَّن أنَّهم لا يَتكلَّمونَ، ولا يُبصِرونَ في مواضعَ أخرى؛ كقولِه تبارك وتعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ﴾ [الإسراء: ٩٧]، وقولِه: ﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤]، وقولِه: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾ [النمل: ٨٥]؟

**والجوابُ عن هذا مِنْ أوجُهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنْ يكونَ المرادُ مِمَّا ذُكِر -مِن العمَى، والصَّممِ، والبَكَمِ- حقيقتَه، ويكونُ ذلك في مبدَأِ الأمرِ، ثُمَّ يَرُدُّ اللهُ تعالَى إليهم أبصارَهم ونُطْقَهم وسَمْعَهم، فيَرَونَ النَّارَ، ويَسمَعونَ زَفيرَها، ويَنطِقُونَ بما حَكَى اللهُ تعالى عنهم في غيرِ مَوضِعٍ.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّهم لا يَرَونَ شيئًا يَسُرُّهم، ولا يَسمَعونَ كذلك، ولا يَنطِقونَ بحُجَّةٍ، كما أنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يَسْتَبْصِرونَ، ولا يَنطِقونَ بالحقِّ، ولا يَسْمَعونَه، فنُزِّلَ ما يَقولونَه ويَسْمَعونَه ويُبْصِرونَه مَنزِلةَ العَدَمِ؛ لعَدَمِ الانتِفاعِ به، والعربُ في كلامِها تُطلِقُ الصَّمَمَ على السَّماعِ الَّذي لا فائدةَ فيه. وكذلك الكلامُ الَّذي لا فائدةَ فيه، والرُّؤيةُ الَّتي لا فائدةَ فيها.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ اللهَ تعالى إذا قال لهم: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون: ١٠٨]، وَقَع بهم ذاك العمَى والصَّمَمُ والبَكَمُ مِن شِدَّةِ الكربِ واليأْسِ مِنَ الفَرَجِ، قال تعالَى: ﴿ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴾[1] [النمل: ٨٥].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ١٢٨، ٢٤٧)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات =

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ فيه إثباتُ أنَّ للنَّارِ حِسًّا وإدراكًا وإرادةً، وقد أثبَتَ القرآنُ للنَّارِ أنَّها تَغتاظُ وتُبصِرُ، وتتكَلَّمُ وتَطلُبُ المزيدَ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ * قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا﴾ أنَّ اللهَ تعالى لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بعدَ بُلوغِ الرِّسالةِ؛ فقد أَخبرَ أنَّه كُلَّما أُلقِيَ في النَّارِ فوجٌ، أَقَرُّوا بأنَّهم جاءَهم النَّذيرُ فكذَّبوه؛ فدلَّ ذلك على أنَّه لا يُلقَى فيها فَوجٌ إلَّا مَن كذَّبَ النَّذيرَ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ يدُلُّ على أنَّ أهلَ النَّارِ يَدخُلونَها جماعةً بعْدَ جَماعةٍ، كما في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾[٣] [الأعراف: ٣٨].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾، وقولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا تزالُ جهَنَّمُ يُلْقى فيها، وتَقولُ: هَلْ مِنْ مَزيدٍ ...))[٤] دليلٌ على أنَّ أهلَ النَّارِ -والعياذُ باللهِ- يُلْقَون فيها إلقاءً؛ لا يَدخلون مُكَرَّمينَ! بل يُدَعُّون إلى نارِ جهنَّمَ دَعًّا[٥].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا﴾ فيه دَليلٌ على جوازِ الجَمعِ بيْن حَرفِ الجَوابِ ونَفْسِ الجُملةِ المُجابِ بها؛ إذ لو قالوا: (بلى)، لَفُهِمَ المعنى[٦].

---

= الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٤٣).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٢).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٧٣٨٤)، ومسلمٌ (٢٨٤٨) -واللَّفظُ له- مِن حديثِ أنسٍ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٣٠).

(٦) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢٣٩).

ويُنظر ما سيأتي في البلاغة (ص: ٢٧٦، ٢٧٧).

٧- في قَولِ الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ جَمعٌ بيْن السَّمعِ والعَقلِ؛ لأنَّ مَدارَ التَّكليفِ على أدِلَّةِ السَّمعِ والعَقلِ[١].

٨- السَّمعُ والعَقلُ هما أصلُ العِلمِ، وبهما يُنالُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[٢].

٩- قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هم يَسمَعونَ، ولكن لا يَسمَعونَ ما يَنفَعُهم في الآخرةِ، ويَعقِلونَ، ولكن لا يَعقِلونَ ما يَنفَعُهم في الآخرةِ؛ لأنَّ اللهَ قال: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾[الكهف: ٥٧][٣]. فأهلُ النَّارِ ذَكَروا ما يدُلُّ على انتفاءِ السَّمعِ والعقلِ عنهم في الدُّنيا، وهم يُريدون سمعًا خاصًّا وعقلًا خاصًّا؛ فانتفاءُ السَّمعِ بإعراضِهم عن تَلقِّي دَعوةِ الرُّسلِ، وانتفاءُ العقلِ بتَرْكِ التَّدبُّرِ في آياتِ الرُّسلِ ودَلائلِ صِدقِهم فيما يَدْعون إليه[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ احتَجَّ به مَن فَضَّل السَّمعَ على البصَرِ؛ فقد دَلَّت الآيةُ على أنَّ للسَّمعِ مَدْخلًا في الخَلاصِ مِن النَّارِ والفَوزِ بالجنَّةِ، والبصَرُ ليس كذلك؛ فوَجَب أن يكونَ السَّمعُ أفضَلَ[٥].

١١- العقلُ يدُلُّ على صِحَّةِ السَّمعِ، والسَّمعُ يُبيِّنُ صِحَّةَ العقلِ، وأنَّ مَن سلَك أحدَهما أفْضَى به إلى الآخرِ، وأنَّ الَّذين يَستحِقُّونَ العَذابَ هم الَّذين لا يَسمَعونَ ولا يَعقِلونَ، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٣)، وهذه الفائدة من إملاء الشنقيطي.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٠).

وقال تعالَى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وقالَ تعالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧]. فقد بَيَّنَ القرآنُ أنَّ مَن كان يَعقِلُ أو كان يَسمَعُ فإنَّه يكونُ ناجيًا وسعيدًا، ويكونُ مُؤمِنًا بما جاءتْ به الرُّسُلُ(١).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ أنَّ عَلامةَ العَقلِ الصَّريحِ مُتابَعةُ ما جاءتْ به الرُّسُلُ عنِ اللهِ تعالى؛ فإنَّ العَقلَ الصَّريحَ لا يُخالِفُ ذلك قَطُّ، بل لو وُجِدَ لَوُجِدَ الإيمانُ؛ ففي الآياتِ أنَّهم أخبَروا أنَّه أيُّ الأمْرَينِ وُجِدَ منَعَهم العَذابَ، وقد قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(٢) [الحج: ٤٦].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالَى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ تَتميمٌ(٣)؛ لئلَّا

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ١٥٩).

(٣) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةِ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ من الكلام نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ. ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: =

يُتوهَّمَ أنَّ العذابَ أُعِدَّ للشَّياطينِ خاصَّةً، والمعْنى: ولجَميعِ الَّذين كَفَروا باللهِ عَذابُ جهنَّمَ، فالمرادُ عامَّةُ المشركين، ومِن أجْلِ ما في الجُملةِ مِن زِيادةِ الفائدةِ غايَرَت الجُملةَ الَّتي قبْلَها؛ فلذلك عُطِفَت عليها[١].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ للاهتمامِ بتَعلُّقِه بالمسنَدِ إليه، والمبادَرةِ به[٢].

- وجُملةُ ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ حالٌ أو مُعترِضةٌ لإنشاءِ الذَّمِّ، وحُذِفَ المخصوصُ بالذَّمِّ؛ لدَلالةِ ما قبْلَ (بِئس) عليه، والتَّقديرُ: وبِئسَ المصيرُ عَذابُ جهنَّمَ[٣].

٢- قوله تعالَى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾ مُستأنَفٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لبَيانِ ذمِّ مَصيرِهم في جهنَّمَ، أي: مِن جُملةِ مَذامِّ مَصيرِهم مَذمَّةُ ما يَسمَعونه فيها مِن أصواتٍ مُؤلمةٍ مُخيفةٍ[٤].

- و(إذا) ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ﴿سَمِعُوا﴾، يدُلُّ على الاقترانِ بيْن زمَنِ الإلقاءِ وزمَنِ سَماعِ الشَّهيقِ[٥].

وجملةُ ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ حاليَّةٌ، أي: والحالُ أنَّها تَغلي بهم غَلَيانَ المِرْجَلِ بما فيه، وترتفعُ أَلْسِنةُ لَهيبِها[٦].

---

= ((تحرير التَّحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٢٧)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدِّين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التَّفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣).

٣- قوله تعالَى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ * قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾

- قولُه: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ قيل: الجُملةُ مُستأنَفةٌ، كأنَّها وَقَعَت جَوابًا لسُؤالِ سائلٍ[١].

- قولُه: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أُتبِعَ وصْفُ ما يَجِدُه أهلُ النَّارِ عندَ إلْقائِهم فيها مِن فَظائعِ أهْوالِها، بوصْفِ ما يَتلقَّاهم به خَزَنةُ النَّارِ، فالجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ، أثارَه وصْفُ النَّارِ عندَ إلقاءِ أهلِ النَّارِ فيها؛ إذ يَتساءَلُ السَّامعُ عن سَببِ وُقوعِ أهلِ النَّارِ فيها، فجاء بَيانُه بأنَّه تَكذيبُهم رُسلَ اللهِ الَّذين أُرسِلوا إليهم، مع ما انضمَّ إلى ذلك مِن وصْفِ نَدامةِ أهلِ النَّارِ على ما فرَطَ منهم مِن تَكذيبِ رُسلِ اللهِ، وعلى إهمالِهم النَّظَرَ في دَعوةِ الرُّسلِ والتَّدبُّرَ فيما جاؤوهم به[٢].

- واكتسَبَ التَّركيبُ معْنى الشَّرطِ باتِّصالِ (كلّ) بحرْفِ (ما) المصدريَّةِ الظَّرفيَّةِ، وشابَهَ أدواتِ الشَّرطِ في الاحتياجِ إلى جُملتَينِ مُرتَّبةٍ إحْداهما على الأُخرى. وجِيءَ بفِعلَيْ ﴿أُلْقِىَ﴾ و﴿سَأَلَهُمْ﴾ ماضيَينِ؛ لأنَّ أكثَرَ ما يقَعُ الفِعلُ بعْدَ (كُلَّما) أنْ يكونَ بصِيغةِ المُضيِّ؛ لأنَّها لَمَّا شابَهَت الشَّرطَ اسْتَوى الماضي والمضارعُ معها؛ لظُهورِ أنَّه للزَّمنِ المُستقبَلِ، فأُوثِرَ فِعلُ المُضيِّ؛ لأنَّه أخفُّ[٣].

- والفَوجُ: الجماعةُ، أي: جَماعةٌ ممَّن حقَّ عليهم الخُلودُ، وجِيءَ بالضَّمائرِ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٥).

العائدةِ إلى الفَوجِ ضَمائرَ جمْعٍ في قولِه: ﴿سَأَلَهُمْ﴾ إلخ؛ لتَأويلِ الفَوجِ بجَماعةِ أفرادِه[١].

- والمرادُ أفواجُ أهلِ النَّارِ مِن جَميعِ الأُمَمِ الَّتي أُرسِلَت إليهم الرُّسلُ، فتكونُ جُملةُ ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ ...﴾ إلخ بمعْنى التَّذييلِ[٢].

- والاستفهامُ في ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ استفهامٌ تَقريريٌّ للتَّوبيخِ والتَّنديمِ والتَّقريعِ؛ ليَزْدادوا به عذابًا إلى عَذابِهم، وحسْرةً إلى حسْرتِهم[٣].

- جُملةُ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ قيل: هي مُعترضةٌ بيْنَ كَلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ اعتراضًا يُشيرُ إلى أنَّ الفَوجَ قاطَعَ كلامَ الخَزَنةِ بتَعجيلِ الاعترافِ بما وبَّخوهم عليه؛ وذلك مِن شِدَّةِ الخوفِ، وفُصِلَت الجُملةُ لوَجْهَين: لأنَّها اعتِراضٌ، ولوُقوعِها في سِياقِ المحاوَرةِ[٤]. وذلك على القولِ بأنَّ جُمْلَةَ: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ مِن بَقِيَّةِ كلامِ خَزَنَةِ جَهنَّمَ.

أو الجُملةُ مُستأنَفةٌ جَوابُ سُؤالٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قِيل: فماذا قالوا بعْدَ السُّؤالِ؟ فقال: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾[٥].

- قولُه: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ قاله الكُفَّارُ اعترافًا بأنَّه تعالَى قد أزاحَ عِلَلَهم بالكُلِّيَّةِ، جامِعينَ بيْنَ حرفِ الجوابِ ونفْسِ الجُملةِ المُجابِ بها؛ مُبالَغةً في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٤٩).

الاعترافِ بمَجيءِ النَّذيرِ، وتحسُّرًا على ما فاتَهم مِن السَّعادةِ في تَصديقِهم، وتَمهيدًا لبَيانِ ما وقَعَ منهم مِن التَّفريطِ تَندُّمًا واغتمامًا على ذلك[١]. فجاء جوابُهم جَوابَ المُتحسِّرِ المُتندِّمِ؛ فابْتَدؤوا الجوابَ دَفْعةً بحرْفِ (بلى) المُفيدِ نَقيضَ النَّفيِ في الاستفهامِ، فهو مُفيدُ معْنى: جاءنا نَذيرٌ؛ ولذلك كان قولُهم: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ مُوكِّدًا لِما دلَّت عليه ﴿بَلَىٰ﴾، فلو قالوا: (بلى)، لَفُهِمَ المعنى، ولكِنَّهم أظهَروه تحَسُّرًا، وزيادةً في تغميمِهم على تفريطِهم في قَبولِ قَولِ النَّذيرِ، فهو مِن تَكريرِ الكلامِ عندَ التَّحسُّرِ، مع زِيادةِ التَّحقيقِ بحرْفِ (قدْ)، وذلك التَّأكيدُ هو مَناطُ النَّدامةِ والاعترافِ بالخطَأِ[٢].

- والنَّذيرُ إمَّا بمعْنى الجمْعِ؛ لأنَّه فَعيلٌ، أو مَصدرٌ مُقدَّرٌ بمُضافٍ، أي: أهلُ إنذارٍ، أو مَنعوتٌ به للمُبالَغةِ، كأنَّ الرُّسلَ عَينُ الإنذارِ، أو المرادُ الواحدُ، والخِطابُ له ولأمثالِه على التَّغليبِ، أو إقامةُ تَكذيبِ الواحدِ مُقامَ تَكذيبِ الكلِّ[٣].

- جُملةُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ مِن تَمامِ كَلامِ كلِّ فَوجٍ لنَذيرِهم. وأُتِيَ بضَميرِ جمْعِ المُخاطَبينَ معَ أنَّ لكلِّ قومٍ رسولًا واحدًا في الغالبِ -باستثناءِ مُوسى وهارونَ، وباستثناءِ رُسلِ أصحابِ القريةِ المذكورةِ في سُورةِ (يس)- إمَّا على اعتبارِ الحِكايةِ بالمعنى؛ بأنْ جُمِعَ كلامُ جَميعِ الأفواجِ في عبارةٍ واحدةٍ، فجِيءَ بضَميرِ الجمْعِ، والمرادُ التَّوزيعُ على الأفواجِ، أي: قال

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥، ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٤٥).

جَميعُ الأفواجِ: بلى قدْ جاءنا نَذيرٌ إلى قولِه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾، على طَريقةِ المثالِ المشهورِ: (رَكِبَ القومُ دَوابَّهم)، وإمَّا على إرادةِ شُمولِ الضَّميرِ للنَّذيرِ وأتْباعِه الَّذين يُؤمِنون بما جاء به. وعُمومُ (شَيء) في قولِه: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ المرادُ منه شَيءٌ مِن التَّنزيلِ، يدُلُّ على أنَّهم كانوا يُحيلون أنْ يُنزِّلَ اللهُ وحْيًا على بشَرٍ، وهذه عادةُ أهلِ الكفرِ؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، أو جُمِعَ ضَميرُ الخِطابِ مع أنَّ مُخاطَبَ كلِّ فَوجٍ نَذيرُه؛ لتَغليبِه على أمثالِه مُبالَغةً في التَّكذيبِ، وتَماديًا في التَّضليلِ، كما يُنبِئُ عنهُ تَعميمُ المُنزَّلِ مع تَرْكِ ذِكرِ المُنزَّلِ عليهِ؛ فإنَّه مُلوِّحٌ بعُمومِه حتْمًا. وقيل: جُملةُ ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ هي بَقيَّةُ كَلامِ خَزَنةِ جهنَّمَ، فَصَلَ بيْنهما وبيْن ما سَبَقَها مِن كَلامِهم اعتراضُ جَوابِ الفَوجِ المُوجَّهِ إليهم الاستفهامُ التَّوبيخيُّ، أرادوا حِكايةَ ما كانوا عليه مِن ضَلالِهم في الدُّنيا، إخبارًا لهم وتَقريعًا، أو أرادوا بالضَّلالِ: الهلاكَ الَّذي همْ فيه، أو سَمَّوا عِقابَ الضَّلالِ باسمِه ضَلالًا لمَّا كان ناشئًا عن الضَّلالِ تَسميةً لهُ باسمِ سَببِه، ويُؤيِّدُ هذا إعادةُ فِعلِ القولِ في حِكايةِ بَقيَّةِ كَلامِ الفوجِ في قولِه تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ...﴾ [الملك: ١٠] إلخ؛ لانقطاعِه بالاعتراضِ الواقعِ خِلالَ حِكايتِه[1].

- قولُه: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ وصْفُ الضَّلالِ بالكبيرِ معْناه شَديدٌ بالغٌ غايةَ ما يَبلُغُ إليه جِنسُه، ومعْنى القصْرِ المُستفادِ مِن النَّفيِ والاستثناءِ قصْرُ قلْبٍ[2]، أي: ما حالُكم الَّتي أنتم مُتلبِّسون بها إلَّا الضَّلالُ، وليس الوحْيَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٨، ٥٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

الإلهيَّ والهُدى كما تَزعُمون[١].

- والظَّرفيَّةُ ﴿فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ لتَشبيهِهم تَمحُّضَهم للضَّلالِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمظروفِ[٢].

٤- قوله تعالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قيل: أُعِيدَ فِعلُ القولِ للإشارةِ إلى أنَّ هذا كلامٌ آخَرُ غيرُ الَّذي وقَعَ جوابًا عن سُؤالِ خَزنةِ جهنَّمَ، وإنَّما هذا قولٌ قالُوه في مَجامعِهم في النَّارِ تحسُّرًا وتَندُّمًا، أي: وقال بَعضُهم لبَعضٍ في النَّارِ، فهو مِن قَبيلِ قولِه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا ...﴾ إلخ [الأعراف: ٣٨]؛ لتَأكيدِ الإخبارِ على حسَبِ الوجْهَين المتقدِّمينِ في مَوقعِ جُملةِ ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾[٣].

وقيل: كأنَّ الخزَنةَ قالوا لهم في تَضاعيفِ التَّوبيخِ: ألَمْ تَسمَعوا آياتِ ربِّكم ولم تَعقِلوا مَعانيَها حتَّى لا تُكذِّبوا بها؟ فأجابوا بذلك[٤].

- وحرْفُ (أو) للتَّقسيمِ، وهو تَقسيمٌ باعتبارِ نَوعَيِ الأحوالِ الَّتي تَقْتضي حُسنَ الاستماعِ تارةً إذا أُلْقِيَ إليها إرشادٌ، وحُسْنَ التَّفهُّمِ والنَّظرِ تارةً إذا دُعِيَت إلى النَّظرِ مِن داعٍ غيرِ أنفُسِها، أو مِن دَواعي أنفُسِها[٥].

- ووَجْهُ تَقديمِ السَّمعِ على العقلِ أنَّ العقلَ بمَنزلةِ الكُلِّيِّ، والسَّمعَ بمَنزلةِ الجُزئيِّ، ورَعْيًا للتَّرتيبِ الطَّبيعيِّ؛ لأنَّ سمْعَ دَعوةِ النَّذيرِ هو أوَّلُ ما يَتلقَّاهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

المُنذَرون، ثمَّ يُعمِلون عُقولَهم في التَّدبُّرِ فيها[١]، فالمدعوُّ إذا لَقِيَ الرَّسولَ فأوَّلُ المراتبِ أنَّه يَسمَعُ كلامَه، ثمَّ إنَّه يَتفكَّرُ فيه، فلمَّا كان السَّمعُ مُقدَّمًا بهذا السَّببِ على التَّعقُّلِ والتَّفهُّمِ لا جَرَمَ قُدِّم عليه في الذِّكْرِ[٢].

٥- قوله تعالَى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ﴾ فَصيحةٌ تُفصِحُ عن كلامٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذ قالوا بذلك فقدْ تبيَّنَ أنَّهم اعترَفوا هنالك بذَنْبِهم، أي: فهمْ مَحقوقون بما هم فيه مِن العذابِ[٣].

- ولم يُجمَعِ الذَّنْبُ؛ لأنَّه في الأصلِ مَصدرٌ، أو المرادُ به الكُفرُ[٤].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَسُحۡقٗا﴾ للتَّسبُّبِ[٥]، والسُّحقُ: اسمُ مَصدرٍ معْناه البُعدُ، أي: أسْحَقَهم اللهُ إسحاقًا؛ أبْعَدَهم مِن رَحمتِه. ويَجوزُ أنْ يُرادَ مِن هذا الدُّعاءِ التَّعجيبُ مِن حالِهم، كما يُقال: قاتَلَه اللهُ، ووَيلٌ له، في مَقامِ التَّعجُّبِ. وقِيل: هو مَفعولٌ به لِفعلٍ مَحذوفٍ، أي: ألْزَمَهم اللهُ سُحقًا[٦].

- واللَّامُ الدَّاخلةُ على (أصحابِ) لامُ التَّقويةِ إنْ جُعِلَ (سُحقًا) دُعاءً عليهم بالإبعادِ؛ لأنَّ المصدَرَ فرْعٌ في العملِ عن الفِعلِ. ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ لامَ التَّبيينِ لتأْكيدِ تَعلُّقِ العاملِ بمَعمولِه، كقولِهم: شُكرًا لك، فكلٌّ مِن (سُحقًا)

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٠).

واللَّامِ المُتعلِّقةِ به مُستعمَلٌ في مَعنيَيْه[١].

- و﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يَعُمُّ المُخاطَبينَ بالقرآنِ وغيرَهم، فكان هذا الدُّعاءُ بمَنزلةِ التَّذييلِ؛ لِما فيه مِن العُمومِ تَبَعًا للجُمَلِ الَّتي قبْلَه[٢]. وقيل: قولُه: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ المرادُ بهم الشَّياطينُ والدَّاخِلونَ في عِدادِهم بطَريقِ التَّغليبِ[٣]. والتَّغليبُ في قولِه: ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للإيجازِ والمُبالَغةِ والتَّعليلِ؛ فأصحابُ السَّعيرِ -وهم الشَّياطينُ- غُلِّبوا على الكفَرةِ؛ إذ الظَّاهرُ أنْ يُقال: فسُحْقًا لهم، أي: للقائلينَ: بلى قدْ جاءَنا... إلخ، ولأصحابِ السَّعيرِ الَّذين هم الشَّياطينُ، فغُلِّبَ للإيجازِ، والمُبالَغةِ في إبعادِ الأوَّلينَ؛ إذ لو أُفرِدَ كلٌّ مِن الفريقَينِ بالذِّكْرِ لَأمكَنَ أن يُتَوهَّمَ تَفاوُتُ الإبعادِ بأنْ يكونَ إبعادُ الكفَرةِ دونَ إبعادِ الشَّياطينِ؛ لجَعْلِهم الشَّياطينَ أصلًا، وأنفُسَهم مُلحقةً بهم في ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، فلمَّا ضُمُّوا إليهم في الحُكمِ دلَّ على أنَّ إبعادَهم لا يَقصُرُ عن إبعادِ أولئك. وأيضًا لَمَّا غُلِّب أصحابُ السَّعيرِ -وهم الشَّياطينُ- على الكفَّارِ، فقد جُعِل الكفَّارُ مِن قَبيلِ الشَّياطينِ، فكأنَّهم هُم بأعيانِهم، وفيه مِن المُبالَغةِ ما لا يَخفى. وأمَّا التَّعليلُ فإنَّ ترَقُّبَ الحُكمِ على الوصفِ -وكذا تَعَلُّقَه به- يُشعِرُ بعِلِّيَّتِه له، فيُشعِرُ ذلك بأنَّ الإبعادَ حصَل لهم مِن أجْلِ كَونِهم أصحابَ السَّعيرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨، ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٢٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤).

## الآيات (١٢-١٥)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخۡشَوۡنَ﴾: الخَشيةُ: خَوفٌ يَشوبُه تَعظيمٌ، وهي: أشدُّ مِن الخَوفِ وأَخَصُّ منه؛ فهي خَوفٌ مَقرونٌ بمعرفةٍ، وأكثرُ ما تكونُ الخَشيةُ عن عِلمٍ بالمَخوفِ منه، وأصلُ (خشِي): يدُلُّ على خَوفٍ وذُعْرٍ[1].

﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: أي: بالضَّمائِرِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ؛ خَيرِها وشَرِّها؛ لأنَّها في الصُّدورِ، تَحُلُّها وتُصاحِبُها، وذاتُ: صاحبةُ، مؤنَّثُ (ذو) بمعنى صاحبٍ، وقيل: حاجةِ الصُّدورِ، وقيل: بخَفِيَّاتِ القلوبِ، وقيل: بحقيقةِ ما في الصُّدورِ، وذاتُ الشَّيءِ: نفْسُه وحَقيقتُه[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٦/ ١٠٠)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٤/ ١٣٨٣، ١٣٨٤)، ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٢١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٢٥) و (٢٣/ ٣٤٢).

قال ابنُ القَيِّم: (قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ليس المرادُ به عليمًا بمُجَرَّدِ الصُّدورِ؛ فإنَّ هذا ليس فيه كَبيرُ أمرٍ، وهو بمنزلةِ أن يُقالَ: عَليمٌ بالرُّؤوسِ والظُّهورِ والأيدي والأرجُلِ، وإنَّما المرادُ به: عليمٌ بما تُضمِرُه الصُّدورُ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، أي: بالأسرارِ الَّتي في الصُّدورِ، وصاحِبةِ =

﴿ٱللَّطِيفُ﴾: أي: العالِمُ بدقائقِ الأمورِ، الَّذي أحاط عِلمُه بالسَّرائرِ والخفايا، الرَّفيقُ بالعبادِ، اللَّطيفُ بهم في مَعايِشِهم، وأرزاقِهم، وهدايتِهم، الموصلُ إليهم مَصالِحَهم بلُطفِه وإحسانِه مِن طُرقٍ خفيَّةٍ لا يَشعُرون بها، وأصل (لطف): يدُلُّ على رِفْقٍ، وعلى صِغَرٍ في الشَّيء[١].

﴿ٱلْخَبِيرُ﴾: أي: الَّذي انتهَى عِلمُه إلى الإحاطةِ ببَواطِنِ الأشياءِ وخَفاياها، كما أحاطَ بظَواهِرِها، والخُبْرُ: العِلمُ بالشَّيءِ، أو: هو العِلمُ بكُنْهِ المَعلوماتِ على حقائقِها، وأصلُ (خبر) هنا: يدُلُّ على عِلمٍ[٢].

﴿ذَلُولًا﴾: أي: سَهلةً لَيِّنةً لا يَمتَنِعُ المَشيُ عليها؛ مِنَ الذِّلِّ: وهو اللِّينُ والانقيادُ، وأصلُ (ذلل): يدُلُّ على الخُضوعِ واللِّينِ[٣].

﴿مَنَاكِبِهَا﴾: أي: أطرافِها ونواحيها وطُرُقِها وفِجاجِها، وأصلُ (نكب): يدُلُّ على مَيلٍ في شَيءٍ[٤].

---

= الصُّدورِ؛ فأضافها إليها بلَفظٍ يَعُمُّ جميعَ ما في الصُّدورِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((الصواعق المرسلة)) (٤/ ١٣٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٤٤)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ١٣٨)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٩)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٩٣)، ((الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة)) لابن القيم (٢/ ٤٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((غريب =

﴿ٱلنُّشُورُ﴾: أي: البَعثُ والمَرجِعُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ: إنَّ الَّذين يَخافونَ رَبَّهم، والحالُ أنَّهم لم يَرَوه، ويُطيعونَه، ويَترُكونَ مَعصيتَه حتَّى في خَلَواتِهم: لهم مَغفِرةٌ وثوابٌ عَظيمٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُنَبِّهًا على أنَّه مُطَّلِعٌ على الضَّمائرِ والسَّرائرِ: وأخْفُوا كَلامَكم -أيُّها النَّاسُ- أو أظْهِروه؛ إنَّ اللهَ عليمٌ بما في قُلوبِ العِبادِ.

ثمَّ يَستَدِلُّ تعالى على عِلمِه بدليلٍ عقليٍّ، فيقولُ: مَن خلَق الخَلْقَ، كيفَ لا يَعلَمُه، وكيف يَخفى عليه سبحانَه، وهو العالِمُ بدقائِقِ الأشياءِ وخَباياها، فلا تخفى عليه خافِيةٌ؟!

ثُمَّ يذكرُ تعالى نِعمتَه على خَلقِه في تسخيرِه لهم الأرضَ، فيقولُ: هو الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُذَلَّلةً مُوطَّأةً؛ فامشُوا في جوانبِها ونواحيها، وكُلُوا مِن رِزقِ اللهِ، وإليه تعالى وَحْدَه المرجِعُ والبَعثُ بعْدَ المَوتِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ وَعيَد الكُفَّارِ؛ أتْبَعَه بوَعدِ المؤمِنينَ[٢]، ولَمَّا ذكَرَ حالةَ

---

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٨).

الأشقياءِ الفُجَّارِ؛ ذكَرَ حالةَ السُّعَداءِ الأبرارِ[١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾.

أي: إنَّ الَّذين يخافُونَ اللهَ وهم لم يَرَوه في الدُّنيا، ولم يَرَوا عذابَه، فيُطيعونَه ويَترُكونَ مَعصيتَه حتَّى في خَلَواتِهم حيثُ لا يَراهم النَّاسُ: لهم مَغفِرةٌ مِنَ اللهِ لِذُنُوبِهم، وثوابٌ عَظيمٌ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٠ - ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قيل: معنى قولِه: ﴿يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: في خَلَواتهم إذا غابوا عن النَّاسِ، حيث لا يَطَّلِعُ عليهم ولا يَراهم إلَّا اللهُ. وممَّن اختاره في الجملةِ: ابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

وقيل: المعنى: يَخافون ربَّهم وهم لم يَرَوْه. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والخازنُ، ونسَبه ابنُ الجوزيِّ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٥٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٣/ ١٩٣).

قال الشوكاني: (﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ حالٌ مِن الفاعلِ أو المفعولِ، أي: غائبينَ عنه، أو غائبًا عنهم، والمعنى: أنَّهم يَخْشَون عذابَه ولم يَرَوه، فيُؤمِنونَ به خَوفًا مِن عذابِه. ويجوزُ أن يكونَ المعنى: يَخشون ربَّهم حالَ كَونِهم غائبينَ عن أعيُنِ النَّاسِ، وذلك في خَلَواتِهم. أو المرادُ بالغَيبِ كَوْنُ العذابِ غائبًا عنهم؛ لأنَّهم في الدُّنيا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

وقال البِقاعي جامعًا بيْن معاني هذه الآيةِ: (﴿بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: حالَ كَونِهم غائبينَ عنه سُبحانَه، ووعيده غائبًا عنهم، وهم غائبونَ عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد ملأ الخَوفُ ما غاب منهم عن النَّاسِ وهي قُلوبُهم، فهم مع النَّاسِ يَتكلَّمونَ، وقُلوبُهم تَتلَظَّى بنِيرانِ الخَوفِ، وتُكلَمُ بسيوفِ الهَيبةِ، فيَترُكونَ المعصيةَ حيث لا يَراهم أحدٌ مِن النَّاسِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٤٠).

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت الخَشيةُ مِن الأفعالِ الباطنةِ، وكان كلُّ أحدٍ يَدَّعي أنَّه يَخشى اللهَ؛ قال مخوِّفًا لهم بعِلمِه، نادبًا إلى مُراقَبتِه لئلَّا يَغتَرُّوا بحِلمِه، عاطفًا على ما تقديرُه لإيجابِ المراقبةِ: فأبطَنوا أفعالَهم وأظْهَروها[1]:

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾.

أي: وأخفُوا كَلامَكم -أيُّها النَّاسُ- أو أظْهِروه؛ فكِلا الأمْرَينِ سَواءٌ عِندَ اللهِ، فلا يَخفى عليه شَيءٌ ممَّا تُسِرُّونَه أو تَجهَرونَ به مِن أقوالٍ[2].

كما قال تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

أي: إنَّ اللهَ ذو عِلمٍ بالِغٍ تامٍّ بما في قُلوبِ العِبادِ مِن العقائِدِ والنِّيَّاتِ والأسرارِ والخواطِرِ الَّتي لم يُتكلَّمْ بها، فما تكَلَّم به الإنسانُ سِرًّا أو نطَقَ به جهرًا أَولى وأحرى أن يَعلَمَه اللهُ سُبحانَه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

وقيل: هذه الآيةُ خِطابٌ للكفَّارِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

والمعنَى: إنْ أخفَيْتُم كلامَكم أو جهَرْتُم به في أمرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم، فكلُّ ذلك يَعلَمُه اللهُ، لا تَخفَى عليه منه خافِيةٌ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٠)، ((شفاء العليل)) =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر كَونَه عالِمًا بالجَهرِ وبالسِّرِّ، وبما في الصُّدورِ؛ ذكَرَ الدَّليلَ على كَونِه عالِمًا بهذه الأشياءِ[1].

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وكيف يَخفى عليه سبحانَه ما في الصُّدورِ مِنْ أسرارٍ هو خلَقها، وهو العالِمُ بدقائِقِ الأشياءِ، فيُدَبِّرُها ويَسوقُها لعبادِه برِفقٍ وخَفاءٍ مِن حيثُ لا يَشعُرونَ؛ فهو سُبحانَه عالِمٌ بما بَثَّه في القُلوبِ، وهو العالِمُ ببواطِنِ الأشياءِ وخباياها، فلا تخفَى عليه خافيةٌ[2]؟!

---

= لابن القيم (ص: ٥٥، ٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال ابن القيِّم: (ذاتُ الصُّدورِ كلمةٌ جامعةٌ لِما يَشتمِلُ عليه الصَّدرُ مِن الاعتقاداتِ والإراداتِ، والحُبِّ والبُغضِ، أي: صاحبةُ الصُّدورِ؛ فإنَّها لَمَّا كانت فيها قائمةً بها نُسِبَتْ إليها نِسبةَ الصُّحبةِ والمُلازَمةِ). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه بعْدَ ذلك: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ مِن بابِ التَّنبيهِ بالأدنى على الأعلى؛ فإنَّه إذا كان عليمًا بذاتِ الصُّدورِ، فعِلْمُه بالقَولِ المُسَرِّ والمَجهورِ به أَولى). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١١٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٤)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ١١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٢١١) و(١٦/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢)، ((تفسير =

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

---

= السعدي)) (ص: ٨٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

قال ابن جُزَي: (يحتمِلُ أن يكونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعلًا يُرادُ به الخالقُ، والمفعولُ محذوفٌ تقديرُه: ألَا يعلمُ الخالقُ خَلْقَه؟! أو يكونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ مفعولًا، والفاعلُ مُضمَرٌ تقديرُه: ألَا يَعلَمُ اللهُ مَن خَلَق؟!). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٦).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ قولَه: ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعِلٌ يُرادُ به الخالِقُ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والرَّسْعَني، والقرطبي، وابن جُزَي، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٦).

قال ابن جُزَي: (لأنَّ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ إذا كان مفعولًا اختصَّ بمَن يعقِلُ، والمعنى الأوَّلُ يَعُمُّ مَن يَعقِلُ ومَن لا يعقِلُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٦).

وقال الرَّسْعَني: (﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: ألَا يَعلَمُ ما في الصُّدورِ مَنْ خَلَقَها، و﴿مَنْ خَلَقَ﴾ في محلِّ الرَّفعِ بإسنادِ الفِعلِ إليه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٠٥).

وقال الشَّوْكاني: (المعنى: ألَا يَعلَمُ السِّرَّ ومُضْمَراتِ القُلوبِ مَن خلَقَ ذلك وأوجَده، فالمَوصولُ عِبارةٌ عن الخالق). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أنَّ قوله: ﴿مَنْ﴾ مفعولٌ-: ابنُ جرير، واستظهره أبو حيَّان، واستَحسَنه البِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٣).

قال ابن القيِّم: (وقد اختُلِف في إعرابِ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ هل هو النَّصبُ أو الرَّفعُ؟ فإن كان مرفوعًا فهو استِدلالٌ على عِلمِه بذلك لِخَلْقِه له، والتَّقديرُ: أنَّه يَعلَمُ ما تَضَمَّنَتْه الصُّدورُ، وكيف لا يَعلَمُ الخالقُ ما خلَقَه؟! وهذا الاستِدلالُ في غايةِ الظُّهورِ والصِّحَّةِ؛ فإنَّ الخَلقَ يَستلزِمُ حياةَ الخالقِ وقُدرتَه، وعِلمَه ومَشيئتَه. وإن كان منصوبًا فالمعنى: ألَا يَعلَمُ مَخلوقَه؟! وذكَر لَفظةَ «مَنْ» تغليبًا؛ لِيَتناوَلَ العِلمُ العاقلَ وصِفاتِه). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٦).

لمَّا ضرَبَ الله سبحانَه لهم بخلْقِ أنفُسِهم دَليلًا على عِلمِه الدَّالِّ على وَحدانيَّتِه؛ شَفَعَه بدَليلِ خلْقِ الأرضِ الَّتي همْ عليها، مع المِنَّةِ بأنَّه خَلَقَها هيِّنةً لهم، صالحةً للسَّيرِ فيها، مُخرِجةً لأرزاقِهم[1]، فقال:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾.

أي: هو الَّذي جَعَل لكم الأرضَ مُذَلَّلةً مُوطَّأةً بحيثُ تَتمكَّنونَ مِن الانتفاعِ بها، بالوطْءِ عليها، والمشْيِ فَوقَها إلى غيرِ ذلك، ولم يَجعَلْها مُستصعَبةً ومُمتَنِعةً على مَن أراد ذلك منها[2]!

﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾.

أي: فامشُوا في جوانبِها ونواحيها، وسافِروا حيثُ شئتُم مِن أقطارِها لطلبِ الرِّزقِ والمَكاسِبِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٤، ٢١٥)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قال القرطبي: (هو أمرُ إباحةٍ، وفيه إظهارُ الامتِنانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥).

واختلف المفسِّرون في معنى ﴿مَنَاكِبِهَا﴾؛ على أقوالٍ:

فقيل: المرادُ: طُرُقاتُها وفِجاجُها. وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٥٩).

قال ابن عطيَّة: (قال مجاهِدٌ: هي الطُّرُقُ والفِجاجُ. وهذا قَولٌ جارٍ مع اللُّغةِ؛ لأنَّها تُنكَبُ يَمنةً ويَسرةً، ويَنكُبُ الماشي فيها في مَناكِبَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤١). ويُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨).

وقال ابنُ القيِّم: (حسُنَ التَّعبيرُ بمَناكِبِها عن طُرُقِها وفِجاجِها؛ لِما تقَدَّم مِن وَصفِها بكَونِها =

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾.

أي: وكُلُوا مِن رِزقِ اللهِ الحَلالِ الَّذي أودَعَه فيها، وأقْدَرَكم على إخراجِه منها[1].

= ذَلولًا؛ فالماشي عليها يطَأُ على مَناكِبِها، وهو أعلى شَيءٍ فيها؛ ولهذا فُسِّرَت المَناكِبُ بالجبالِ، كمَناكِبِ الإنسانِ، وهي أعاليه. قالوا: وذلك تنبيهٌ على أنَّ المَشيَ في سُهولِها أيسَرُ. وقالت طائفةٌ: بل المناكِبُ الجوانِبُ والنَّواحي، ومنه مَناكِبُ الإنسانِ لِجَوانبِه. والَّذي يَظهَرُ أنَّ المُرادَ بالمناكِبِ الأعالي، وهذا الوَجهُ الَّذي يَمشي عليه الحيوانُ هو العالي مِن الأرضِ دونَ الوَجهِ المقابِلِ له؛ فإنَّ سَطحَ الكُرةِ أعلاها، والمَشيُ إنَّما يقعُ في سَطحِها، وحَسُنَ التَّعبيرُ عنه بالمَناكِبِ؛ لِما تقدَّمَ مِن وَصفِها بأنَّها ذَلولٌ). ((الفوائد)) (ص: ١٨).

وقيل: المرادُ: جِبالُها. ومِمَّن ذهب إلى هذا: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ١٩٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠).

وقيل: المرادُ: جوانِبُها ونواحيها. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وأبو عُبَيدةَ، وابنُ قُتَيبةَ، وابن جرير، والسمعاني، والخازن، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧١)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٥).

ونسَبَ ابنُ كثيرٍ إلى ابنِ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٍ، وقَتادةَ، والسُّدِّيِّ أنَّ معنى ﴿مَنَاكِبِهَا﴾: أطرافُها وفِجاجُها ونواحيها. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠).

وقال الزمخشري: (المشيُ في مَناكِبِها: مَثَلٌ لِفَرطِ التَّذليلِ ومُجاوَزَتِه الغايةَ؛ لأنَّ المَنكِبَينِ ومُلتقاهما مِن الغارِبِ أرَقُّ شَيءٍ مِن البعيرِ، وأنباه عن أن يَطأَه الرَّاكِبُ بقَدَمِه ويعتَمِدَ عليه، فإذا جعَلَها في الذِّلِّ بحيثُ يُمشى في مَناكِبِها لم يَترُكْ [شَيئًا منها إلَّا قد ذَلَّلَه]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٠).

وقيل المرادُ: أطرافُها ونواحيها وجبالُها. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٦).

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾.

أي: وإلى اللهِ وَحْدَه لا إلى غَيرِه المرجِعُ بعْدَ مَوتِكم، فتُبعَثونَ مِن قُبورِكم يومَ القيامةِ للجَزاءِ على أعمالِكم[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- خَشيةُ اللهِ تعالى في الغَيبِ والشَّهادةِ المعنيُّ بها أنَّ العَبدَ يَخشى اللهَ سِرًّا وإعلانًا، وظاهِرًا وباطِنًا؛ فإنَّ أكثَرَ النَّاسِ يرى أنَّه يخشى اللهَ في العَلانيةِ وفي الشَّهادةِ، ولكِنَّ الشَّأنَ في خشيتِه اللهَ في الغَيبِ إذا غاب عن أعيُنِ النَّاسِ، وقد مدَحَ اللهُ مَن يَخافُه بالغَيبِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[2] [المائدة: ٩٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ خِطابٌ عامٌّ لجميعِ الخَلقِ في جميعِ الأعمالِ، والمرادُ أنَّ قَولَكم وعمَلَكم على أيِّ سَبيلٍ وُجِدَ، فالحالُ واحِدٌ في عِلْمِه تعالى بهذا؛ فاحذَروا من المعاصي سِرًّا كما تحتَرِزونَ عنها جَهرًا؛ فإنَّه لا يتفاوَتُ ذلك بالنِّسبةِ إلى عِلمِ اللهِ تعالى[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ تحذيرٌ للإنسانِ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٧٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قال القُرطبيُّ: (قيل: معناه: أنَّ الَّذي خلَقَ السَّماءَ لا تَفاوُتَ فيها، والأرضَ ذَلولًا: قادِرٌ على أن يَنشُرَكم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٨٩).

يَعمَلَ بما يُسْخِطُ اللهَ تعالى؛ لا تَعمَلْ بما يُسْخِطُ اللهَ لا بالقَولِ ولا بالفِعلِ ولا بالاعتِقادِ؛ لأنَّ اللهَ عليمٌ به، احْذَرْ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥ﴾[1] [آل عمران: ٢٨].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يأكُلَ مِن عَمَلِ يدِه، ويَتعفَّفَ عن السُّؤالِ، وأنْ يَكتَسِبَ ويَتَّجِرَ[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ الأمرُ للإباحةِ، ولكِنَّ التَّقديمَ لهذا الأمرِ بقَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ فيه امتِنانٌ مِنَ اللهِ تعالى على خَلْقِه، مِمَّا يُشعِرُ أنَّ في هذا الأمرِ مع الإباحةِ توجيهًا وحَثًّا للأمَّةِ على السَّعيِ، والعَمَلِ والجِدِّ، والمَشيِ في مَناكِبِ الأرضِ مِن كُلِّ جانِبٍ؛ لِتَسخيرِها وتَذليلِها؛ ممَّا يَجعَلُ الأمَّةَ أحَقَّ بها مِن غيرِها، وعليه فقد وَضَع القُرآنُ الأمَّةَ الإسلاميَّةَ في أعزِّ مَواضِعِ الغِنى والاستِغناءِ والاستِثمارِ والإنتاجِ، فما نَقَص عليها مِن أمورِ دُنياها إلَّا بقَدْرِ ما قصَّرَت هي في القيامِ بهذا العَمَلِ، وأضاعت مِن حَقِّها في هذا الوُجودِ[3]. فما حَصَلَ في الدُّولِ الغربيَّةِ الكافِرةِ المُلْحِدةِ مِن التَّقَدُّمِ في الصِّناعاتِ وغَيرِها؛ فإنَّ دِينَنا لا يَمنَعُ منه -لو أنَّنا التفَتْنا إليه- لكنْ مع الأسفِ ضَيَّعْنا هذا وهذا؛ ضَيَّعْنا دِينَنا، وضَيَّعْنا دُنْيانا، وإلَّا فإنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ لا يُعارِضُ هذا التَّقدُّمَ، بل قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾[4] [الأنفال: ٦٠].

---

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٤٩).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أنَّ الإسلامَ يأمُرُ بكلِّ تَقدُّمٍ نافعٍ؛ فقد أُمِرْنا بالمشيِ في مناكِبِ الأرضِ -أي: جِهاتِها- ثُمَّ أُمِرْنا بالأكلِ مِن رِزْقِه، ومعنى ذلك أنْ نسعَى بطَلَبِ هذا الرِّزقِ؛ إذْ لا يُمكِنُ تحصيلُه إلَّا بأسبابِه، والنَّاسُ يَختَلِفونَ في سُلوكِ ما يُلائِمُهم مِن أسبابِ الرِّزقِ؛ فمِنهم مَن يُحَصِّلُه بالتِّجارةِ، ومِنهم مَن يُحَصِّلُه بالصِّناعةِ، ومِنهم مَن يُحَصِّلُه بالزِّراعةِ، ومِنهم مَن يُحَصِّلُه بالعَمَلِ، إلى غيرِ ذلك مِن أسبابِ الرِّزقِ[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ حُجَّةٌ في السَّعيِ والحَركةِ في طَلَبِ الرِّزقِ، والتِماسِه بالمكاسِبِ في الأسفارِ والحَضَرِ[2].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، يعني: يَنبغي أن يكونَ مُكْثُكم في الأرضِ، وأكْلُكم مِن رِزقِ اللهِ: مُكْثَ مَن يَعلَمُ أنَّ مَرجِعَه إلى اللهِ، وأكْلَ مَن يتيَقَّنُ أنَّ مَصيرَه إلى اللهِ، والمرادُ تحذيرُهم عن الكُفرِ والمعاصي في السِّرِّ والجَهرِ[3].

وأيضًا فقولُه تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه تنبيهٌ على أنَّا في هذا المسكَنِ غيرُ مُستَوطِنينَ ولا مُقيمينَ، بل دخَلْناه عابِري سَبيلٍ؛ فلا يَحسُنُ أنْ نَتَّخِذَه وطَنًا ومُستقَرًّا، وإنَّما دخَلْناه لِنَتزَوَّدَ منه إلى دارِ القَرارِ، فهو مَنزِلُ عُبورٍ، لا مُستقَرُّ حُبُورٍ، ومَعْبَرٌ ومَمَرٌّ، لا وطَنٌ ومُستَقَرٌّ.

فتضمَّنَتِ الآيةُ التَّحذيرَ مِن الرُّكونِ إلى الدُّنيا، واتِّخاذِها وطَنًا ومُستقَرًّا، بل نُسرِعُ فيها السَّيرَ إلى الجَنَّةِ ودارِ القرارِ. فلِلَّهِ ما في ضِمنِ هذه الآيةِ مِن معرفتِه

---

(١) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (١/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩١).

وتوحيدِه، والتَّذكيرِ بنِعَمِه، والحثِّ على السَّيرِ إليه، والاستِعدادِ لِلِقائِه والقُدومِ عليه، والإعلامِ بأنَّه سُبحانَه يَطوي هذه الدَّارَ كأنْ لم تكُنْ، وأنَّه يُحْيي أهْلَها بعدَ ما أماتَهم وإليه النُّشورُ[١]!

وأيضًا فقولُه: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه تحذيرٌ مِن اللهِ لعبادِه أنْ يَسْلُكوا في تحصيلِ رِزْقِهم سُبُلًا حَرَّمَها اللهُ عليهم؛ فإنَّهم راجِعونَ إليه، ومُحاسِبُهم عليها[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ السِّرَّ والجَهرَ عندَ الله وفي عِلمِ اللهِ على حَدٍّ سَواءٍ؛ لأنَّه عَليمٌ بذاتِ الصُّدورِ، يَعلَمُ خائِنةَ الأعيُنِ وما تُخفِي الصُّدورُ[٣].

٢- مِن صِفاتِ اللهِ تعالى ما قد يُعلَمُ بالعَقلِ، كما يُعْلَمُ أنَّه عالِمٌ، وأنَّه قادرٌ، وأنَّه حيٌّ؛ كما أرْشَد إلى ذلك قولُه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّه سُبحانَه خالِقُ أقوالِ العِبادِ وما في صُدورِهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨).

(٢) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (١/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣٦).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٨٨).

(٥) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ١١٧).

قال ابن القيِّم: (على التَّقديرَينِ [أي: كونِ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعلًا أو مفعولًا] فالآيةُ دالَّةٌ على خَلقِ ما في الصُّدورِ كما هي دالَّةٌ على عِلْمِه سُبحانَه به...، فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أي: كيف يَخفى عليه ما في الصُّدورِ وهو الَّذي خلَقه، فلو كان ذلك غيرَ مخلوقٍ له لَبَطَلَ الاستِدلالُ به على العِلمِ، فخَلْقُه سُبحانَه للشَّيءِ مِن أعظَمِ الأدِلَّةِ على عِلمِه به، فإذا انتفَى الخَلقُ انتفى دليلُ العِلمِ، فلم يَبْقَ ما يدُلُّ على عِلمِه بما يَنطوي عليه الصَّدرُ إذا كان غيرَ خالِقٍ لذلك، وهذا مِن أعظَمِ =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ أنَّ كُلَّ مخلوقٍ للهِ فهو مَعلومٌ له[١].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ له سُبحانه صِفَتا اللُّطفِ والخُبْرِ اللَّتانِ شَأنُهما إدراكُ البواطِنِ إدراكًا لا يكونُ مِثلُه؛ لأنَّ الغَرَضَ إثباتُ العِلمِ لِما أخفَوه؛ لظَنِّهم أنَّهم إذا أسَرُّوا يَخفى، لا إثباتُ مُطلَقِ العِلمِ؛ فإنَّهم لم يُنكِروه[٢]. على القولِ بأنَّ الخطابَ للكفَّارِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أنَّه سُبحانَه عالِمٌ بالجُزئيَّاتِ، وذلك مِن طُرُقٍ؛ أحَدُها: مِن جهةِ كَونِ الخَلْقِ يَستَلزِمُ العِلمَ بالمخلوقِ. والثَّاني: مِن جهةِ كَونِه في نفْسِه «لطيفًا خبيرًا»، وذلك يُوجِبُ عِلْمَه بدقيقِ الأشياءِ وخَفِيِّها. ثُمَّ يُقالُ: ﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ عِلْمُه بنَفْسِه أَولى مِن عِلْمِه بغَيرِه، وعِلْمُه بنَفْسِه مُستَلزِمٌ لعِلْمِه بلَوازِمِ ذاتِه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أنَّه سُبحانَه يَجعَلُ أسماءَه دليلًا على ما يُنكِرُه الجاحِدونَ مِن صِفاتِ كَمالِه[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ

---

= الكفرِ برَبِّ العالَمينَ، وجَحْدٌ لِما اتَّفقَتْ عليه الرُّسلُ مِن أوَّلِهم إلى آخِرِهم، وعُلِم بالضَّرورةِ أنَّهم أَلْقَوْه إلى الأُمَمِ كما أَلْقَوْا إليهم أنَّه إلهٌ واحدٌ لا شريكَ له). ((شفاء العليل)) (ص: ٥٦).

لكِنْ قال ابنُ عاشور: (الآيةُ دليلٌ على عُمومِ عِلْمِه تعالى، ولا دَلالةَ فيها على أنَّه تعالى خالِقُ أفعالِ العبادِ؛ للانفِكاكِ الظَّاهرِ بيْن تعَلُّقِ العِلمِ وتعَلُّقِ القُدرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١٠/ ١١٧).

(٤) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٦).

وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ فيه الأمرُ بالتَّسَبُّبِ والكَسبِ[١].

٩- قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أخبَر سُبحانَه أنَّه جعَل الأرضَ ذَلولًا مُنقادةً لِلْوَطْءِ عليها وحَفرِها وشَقِّها والبناءِ عليها، ولم يَجعَلْها مُستصعَبةً مُمتَنِعةً على مَن أراد ذلك منها، والمقصودُ أنَّه سُبحانَه جعَل لنا الأرضَ كالجَمَلِ الذَّلولِ، الَّذي كَيْفَما يُقادُ يَنقادُ، ثمَّ أمَرَهم أن يأكُلوا مِن رِزقِه الَّذي أودعه فيها، فذَلَّلها لهم ووَطَّأها، وفَتَقَ فيها السُّبُلَ والطُّرُقَ الَّتي يَمشون فيها، وأودعها رِزقَهم، فذكَرَ تهيئةَ المَسكَنَ للانتِفاعِ والتَّقلُّبِ فيه بالذَّهابِ والمجيءِ، والأكلِ ممَّا أودع فيها للسَّاكنِ؛ فتضَمَّنَتِ الآيةُ الدَّلالةَ على رُبوبيَّتِه ووحدانيَّتِه وقُدرتِه وحِكمتِه ولُطفِه، والتَّذكيرَ بنِعَمِه[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ اعتِراضٌ -وذلك على القولِ بأنَّ الخطابَ في قولِه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ ...﴾ للكفَّارِ- يُفيدُ استئنافًا بيانيًّا جاء على سَنَنِ أساليبِ القرآنِ مِن تَعقيبِ الرَّهبةِ بالرَّغبةِ، فلمَّا ذَكَر ما أعدَّ للكافِرين المعرِضينَ عن خَشيةِ اللهِ، أعقَبَه بما أعدَّ للَّذين يَخشَون ربَّهم بالغَيبِ مِن المغفرةِ والثَّوابِ؛ للعِلمِ بأنَّهم يَترقَّبون ما يُميِّزُهم عن أحوالِ المشرِكين[٣].

- وفي قولِه: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ قدَّمَ المغفرةَ تَطمينًا لقُلوبِ الَّذين يَخشَون ربَّهم بالغَيبِ؛ لأنَّهم يَخشَون المؤاخَذةَ على ما فرَطَ منهم مِن الكفْرِ قبْلَ الإسلامِ، ومِن اللَّمَمِ ونحْوِه، ثمَّ أُعقِبَت بالبِشارةِ بالأجْرِ العظيمِ، فكان الكلامُ جاريًا

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩).

على قانونِ تَقديمِ التَّخليةِ على التَّحليةِ، أو تَقديمِ دفْعِ الضُّرِّ على جلْبِ النَّفْعِ[١].

- وتَنكيرُ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ للتَّعظيمِ؛ بقَرينةِ مُقارَنتِه بـ(أَجْرٌ كَبِيرٌ)، وبقَرينةِ التَّقديمِ[٢].

- وتَقديمُ المسنَدِ ﴿لَهُم﴾ على المسنَدِ إليه ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾؛ لإفادةِ الاهتمامِ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ عطْفٌ على الجُمَلِ السَّابقةِ عطْفَ غرَضٍ على غرَضٍ، وهو انتقالٌ إلى غرَضٍ آخَرَ لمُناسَبةِ حِكايةِ أقوالِهم في الآخرةِ بذِكرِ أقوالِهم في الدُّنيا، وهي الأقوالُ الَّتي كانت تَصدُرُ منهم بالنَّيلِ مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤]. وذلك على القولِ بأنَّ الخطابَ للكفَّارِ.

- وصِيغةُ الأمرِ في ﴿وَأَسِرُّواْ﴾ و﴿ٱجْهَرُواْ﴾ مُستعمَلةٌ في التَّسويةِ بيْن السِّرِّ والجَهرِ بالنِّسبةِ إلى عِلمِه تَعالى[٥].

- وتَقديمُ السِّرِّ على الجَهرِ؛ للإيذانِ بافتضاحِهم، ووُقوعِ ما يَحذَرونه مِن أوَّلِ الأمرِ، والمُبالَغةِ في بَيانِ شُمولِ عِلمِه عزَّ وجلَّ المحيطِ لجَميعِ المعلوماتِ، كأنَّ عِلمَه تعالَى بما يُسِرُّونه أقدَرُ منهُ بما يَجهَرونَ به، مع كَونِهما في الحقيقةِ على السَّويَّةِ؛ فإنَّ عِلمَه تعالَى بمَعلوماتِه ليس بطريقِ حُصولِ صُوَرِها، بلْ وُجودُ كلِّ شَيءٍ في نفْسِه عِلْمٌ بالنِّسبةِ إليه تعالَى. أو لأنَّ مَرتبةَ السِّرِّ مُتقدِّمةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩، ٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠).

على مَرتبةِ الجَهرِ؛ إذْ ما مِن شَيءٍ يُجهَرُ به إلَّا وهو أو مَباديهِ مُضْمَرٌ في القلبِ يَتعلَّقُ بهِ الإسرارُ غالبًا، فتَعلُّقُ عِلمِه تعالَى بحالَتِه الأُولى مُتقدِّمٌ على تَعلُّقِهِ بحالتِه الثَّانيةِ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تَعليلٌ لِما قبْلَه، وتَقريرٌ لهُ. وفي صِيغةِ الفَعيلِ، وتَحليةِ الصُّدورِ بلامِ الاستِغراقِ، ووصْفِ الضَّمائرِ بصاحِبيَّتِها؛ مِن الجَزالةِ ما لا غايةَ وَراءَه، كأنَّه قيلَ: إنَّه عزَّ وجلَّ مُبالِغٌ في الإحاطةِ بمُضْمَراتِ جَميعِ النَّاسِ وأسرارِهم الخفيَّةِ المُستكِنَّةِ في صُدورِهم، بحيثُ لا تَكادُ تُفارِقُها أصلًا، فكيفَ يَخْفَى عليه ما تُسِرُّونَه وتَجْهرونَ به[2]؟!

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣]؛ بأنْ يَسأَلَ سائلٌ منهم: كيف يَعلَمُ ذاتَ الصُّدورِ، والمعروفُ أنَّ ما في نفْسِ المرءِ لا يَعلَمُه غيرُ نفْسِه؟ فأُجِيبوا بإنكارِ انتفاءِ عِلمِه تعالَى بما في الصُّدورِ؛ فإنَّه خالِقُ أصحابِ تلك الصُّدورِ، فكما خَلَقَهم وخلَقَ نُفوسَهم، جعَلَ اتِّصالًا لتَعلُّقِ عِلمِه بما يَختلِجُ فيها، وليس ذلك بأعجَبَ مِن عِلمِ أصحابِ الصُّدورِ بما يَدورُ في خَلَدِها؛ فالإتيانُ بـ(مَن) الموصولةِ لإفادةِ التَّعليلِ بالصِّلةِ[3].

- يَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ مَفعولَ ﴿يَعْلَمُ﴾، فيكونَ ﴿يَعْلَمُ﴾ و﴿خَلَقَ﴾ رافعَينِ ضَميرينِ عائدينِ إلى ما عاد إليه ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠).

فيكونَ (مَن) الموصولةُ صادقةً على المخلوقينَ، وحُذِفَ العائدُ مِن الصِّلةِ؛ لأنَّه ضَميرُ نصْبٍ يَكثُرُ حذْفُه، والتَّقديرُ: مَن خَلَقَهم. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ فاعلَ ﴿يَعْلَمُ﴾، والمرادُ اللهُ تَعالى، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَعْلَمُ﴾؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾، والتَّقديرُ: ألَا يَعلَمُ خالِقُكم سِرَّكم وجَهْرَكم، وهو الموصوفُ بلطيفٍ خبيرٍ[1]؟!

- وتَخصيصُ ذِكرِ الخالِقِ دونَ سائرِ الأسماءِ في مَقامِ إثباتِ العِلمِ، إشعارٌ بأنَّ الخالقَ يَنْبغي أنْ يكونَ عالِمًا بما يَخلُقُه وبتَفاصيلِه. وفيه إدماجٌ لمعْنى أنَّ العبْدَ غيرُ خالقٍ لأفعالِه؛ لأنَّه لا يَعلَمُها في الأزَلِ[2].

- وجُملةُ ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ الأحسَنُ أنْ تُجعَلَ عطْفًا على جُملةِ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ لتُفيدَ تَعليمًا للنَّاسِ بأنَّ عِلمَ اللهِ تعالى مُحيطٌ بذَواتِ الكائناتِ وأحوالِها؛ فبَعْدَ أنْ أنكرَ ظنَّهم انتفاءَ عِلمِ اللهِ بما يُسِرُّون، أعلَمَهم أنَّه يَعلَمُ ما هو أعمُّ مِن ذلك، وما هو أخْفَى مِن الإسرارِ مِن الأحوالِ[3].

- أو هي حالٌ مِن فاعلِ ﴿يَعْلَمُ﴾ مُؤكِّدةٌ للإنكارِ والنَّفي، أي: ألَا يَعلَمُ ذلكَ والحالُ أنَّه المُتوصِّلُ عِلمُه إلى ما ظهَرَ مِن خلْقِه وما بطَنَ؟! أو المعنَى: ألَا يَعلَمُ اللهُ مَنْ خلَقَه؛ والحالُ أنَّه بهذه المثابةِ مِن شُمولِ العلمِ، على القولِ بأنَّ ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ مَنصوبًا، وقيل: هي حالٌ مِن فاعلِ ﴿خَلَقَ﴾[4]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠، ٣١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٥٠، ٥٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٧٩، ٥٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((حاشية الطيبي)) (١٥/ ٥٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥).

٤- قولُه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ استئنافٌ فيه عَودٌ إلى الاستِدلالِ، وإدماجٌ[1] للامتنانِ؛ فإنَّ خلْقَ الأرضِ الَّتي تَحْوي النَّاسَ على وَجْهِها أدلُّ على قُدرةِ اللهِ تعالَى وعِلمِه مِن خلْقِ الإنسانِ؛ إذ ما الإنسانُ إلَّا جُزءٌ مِن الأرضِ، أو كجُزْءٍ منها، قال تعالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ﴾ [طه: ٥٥]، وامتنَّ عليهم بأنَّه خَلَقَ الأرضَ هيِّنةً لهم، صالحةً للسَّيرِ فيها، مُخرِجةً لأرزاقِهم، وذيَّلَ ذلك بأنَّ النُّشورَ منها، وأنَّ النُّشورَ إليه لا إلى غيرِه[2].

- والقصْرُ المستفادُ مِن تَعريفِ جُزأي ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ قصْرُ قلْبٍ[3] بتَنزيلِ المخاطَبين مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ الأصنامَ خَلَقَت الأرضَ؛ لأنَّ اعتقادَهم إلهيَّتَها يَقْتضي إلزامَهم بهذا الظَّنِّ الفاسدِ وإنْ لم يَقولوه[4].

- وتَقديمُ ﴿لَكُمُ﴾ على مَفعُولَي الجَعْلِ مع أنَّ حقَّه التَّأخُّرُ عنهُما؛ للاهتمامِ بما قُدِّمَ، والتَّشويقِ إلى ما أُخِّرَ؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّرَ -لا سيَّما عندَ كَونِ المقدَّمِ ممَّا يدُلُّ على كَونِ المؤخَّرِ مِن مَنافعِ المخاطَبينَ- تَبقَى النَّفْسُ مُترقِّبةً لِوُرودِه، فيَتمكَّنُ لَديها عِندَ ذِكرِه فضْلَ تَمكُّنٍ[5].

- والذَّلولُ فَعولٌ للمُبالَغةِ، مِن ذلك تقولُ: دابَّةٌ ذَلولٌ: بيِّنةُ الذِّلِّ، ورجُلٌ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧).

ذَليلٌ: بيِّنُ الذُّلِّ[١].

- قولُه: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ الفاءُ الفصيحةُ لتَرتيبِ الأمْرِ على الجَعْلِ المذكورِ، أي: إنْ عرَفْتُم ذلك فامْشُوا في...[٢].

- قولُه: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أمرُ إباحةٍ. وقيل: هو خبرٌ بلَفظِ الأمرِ[٣]. وقيل: صِيغةُ الأمرِ ﴿فَٱمۡشُواْ﴾ مُستعمَلةٌ في معْنى الإدامةِ؛ تَذكيرًا بما سخَّرَ اللهُ لهم مِن المشْيِ في الأرضِ امتنانًا بذلك[٤].

- ومُناسَبةُ قولِه: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ أنَّ الرِّزقَ مِن الأرضِ، والأمْرُ قيل: هو مُستعمَلٌ في الإدامةِ أيضًا؛ للامتنانِ[٥].

- قولُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ تَذكيرٌ بشَواهدِ الرُّبوبيَّةِ والإنعامِ؛ ليَتدبَّروا فيَترُكوا العِنادَ[٦].

- وعطْفُ جُملةِ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ على ما قبْلَها تَتميمٌ[٧] واستِطرادٌ لمُناسَبةِ ذِكرِ الأرضِ؛ فإنَّها مَثوى النَّاسِ بعْدَ الموتِ، والمعْنى: إليه النُّشورُ منها، وذلك يَقْتضي حذْفًا، أي: وفيها تَعودون[٨]. أو مُناسَبةُ ذِكرِ النُّشورِ هو ذِكرُ خلْقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٨).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

الأرضِ؛ فإنَّ البعثَ يكونُ مِن الأرضِ[١].

- وتَعريفُ النُّشورِ تَعريفُ الجِنسِ؛ فيَعُمُّ، أي: كلُّ نُشورٍ، ومنه نُشورُ المخاطَبينَ، فكان قولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ بمَنزلةِ التَّذييلِ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: المرجِعُ بعدَ البعثِ لا إلى غيرِه، فبالِغُوا في شُكرِ نِعَمِه وآلائِه[٣]. وقيل: تَقديمُ المجرورِ في جُملةِ ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ للاهتمامِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢).

## الآيات (١٦-١٩)

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾: أي: يُغَيِّبَكم فيها، يُقالُ: خسَفَ اللهُ به الأرضَ، أي: غيَّبَه فيها، وأصلُ (خسف): يدُلُّ على ذَهابٍ وغُؤورٍ[١].

﴿تَمُورُ﴾: أي: تَدورُ وتتحَرَّكُ وتَضطَرِبُ، وأصلُ (مور): يدُلُّ على تَرَدُّدٍ[٢].

﴿حَاصِبٗا﴾: أي: حِجارةً أو ريحًا عاصِفًا تَرمي بالحَصْباءِ، وهي الحَصَى الصِّغارُ، وأصلُ (حصب): يدُلُّ على الرَّميِ[٣].

﴿نَكِيرِ﴾: أي: إنكاري، وأصلُ (نكر): يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفةِ[٤].

﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾: أي: باسِطاتٍ أجنِحتَها، وأصلُ (صفف): يدُلُّ على استِواءٍ في

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٥٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٥٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٧).

شَيءٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مهدِّدًا مَن استمرَّ في طغيانِه وكفرِه، ومحذِّرًا مِن عِقابِه: أأَمِنتُم -أيُّها الكافِرونَ- اللهَ الَّذي في العُلُوِّ فوقَ سَمواتِه؛ أن يَخسِفَ بكم الأرضَ عُقوبةً لكم على كُفرِكم به، فإذا بها تَضطَرِبُ بكم، أمْ أَمِنتُم اللهَ الَّذي في العُلُوِّ فوقَ السَّماءِ؛ أن يُرسِلَ عليكم حِجارةً يَرميكم بها؟! فستَعلَمونَ حينَها كيف يكونُ إنذاري وعاقِبةُ مَن كذَّبَ به!

ثمَّ يُذكِّرُهم سبحانَه بما جرَى للكافِرينَ السَّابقينَ، فيقولُ: ولقد كذَّب الكُفَّارُ الَّذين مِن قَبلِكم -يا مُشرِكي قُرَيشٍ- رُسُلَهم، فكيف كان إنكاري عليهم!

ثمَّ يَدْعوهم الله تعالى إلى التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ بعدَ هذا التَّهديدِ والإنذارِ، فيقولُ: أوَلَم يَرَ هؤلاء المُشرِكون المكَذِّبونَ إلى الطَّيرِ فَوقَهم ناشِراتٍ أجنِحتَهنَّ، ويَجمَعْنَها أحيانًا، ما يُمسِكُ تلك الطُّيورَ عن السُّقوطِ مِنَ السَّماءِ إلَّا الرَّحمنُ سُبحانَه؛ إنَّه بكُلِّ شَيءٍ بَصيرٌ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى بيَّن أنَّ بقاءَ الخَلْقِ مع هذه السَّلامةِ في الأرضِ إنَّما كان بفَضْلِه ورَحمتِه، وأنَّه لو شاء لقَلَب الأمرَ عليهم[٢].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٢٨٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩١).

وأيضًا لَمَّا لم يكُنْ بعدَ ما ذكَر الله تعالى إلَّا الإنذارُ؛ هدَّد اللهُ تعالى المكَذِّبينَ بعذابٍ دونَ عذابِ جَهنَّمَ، مُنكِرًا عليهم الأمانَ بعدَ إقامةِ الدَّليلِ على أنَّ بيَدِه المُلْكَ، وأنَّه قادِرٌ على ما يُريدُ منه بأسبابِ جُنودِه وبغيرِ سَبَبٍ، مقَرِّرًا بَعْدَ تقريرِ حاجةِ الإنسانِ وعَجْزِه أنَّه لا حِصْنَ له ولا مانِعَ له بوَجهٍ مِن عذابِ اللهِ؛ فهو دائِمُ الافتقارِ، ملازِمٌ للصَّغارِ[1]. فهو انتقالٌ مِن الاستدلالِ إلى التَّخويفِ؛ لأنَّه لَمَّا تَقرَّرَ أنَّه سُبحانَه خالقُ الأرضِ ومُذلِّلُها للنَّاسِ، وتَقرَّر أنَّهم ما رَعَوا خالِقَها حقَّ رِعايتِه؛ فقدِ استَحقُّوا غَضَبَه وتَسليطَ عِقابِه، بأنْ يَصيرَ مَشْيُهم في مَناكِبِ الأرضِ إلى تَجلجُلٍ في طَبقاتِ الأرضِ[2].

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾.

أي: أأَمِنتُم -أيُّها الكافِرونَ- اللهَ الَّذي هو في العُلُوِّ مُستَوٍ على عَرشِه فوقَ سَمواتِه؛ أن يَخسِفَ بكم الأرضَ عُقوبةً لكم على كُفرِكم به، فإذا بها تَضطَرِبُ بكم ذَهابًا وإيابًا[3]؟!

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾ [الأنعام: ٦٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٦٠٠)، ((الأسماء والصفات)) للبيهقي (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير القِنَّوْجي)) (١٤/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قال ابنُ قُدامةَ: (اللهُ تعالى وَصَف نَفْسَه بالعلُوِّ في السَّماءِ، ووصَفَه بذلك محمَّدٌ خاتَمُ الأنبياءِ، وأجمَعَ على ذلك جميعُ العُلَماءِ مِن الصَّحابةِ الأتقياءِ، والأئمَّةِ مِن الفُقَهاءِ، وتواتَرَت الأخبارُ بذلك على وَجهٍ حَصَل به اليقينُ، وجمَعَ اللهُ تعالى عليه قلوبَ المسلمينَ، وجعَلَه مغروزًا في طِباعِ الخَلقِ أجمَعينَ). ((إثبات صفة العلو)) (ص: ٦٣).

وقال سُبحانَه: ﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخۡسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [النحل: ٤٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ أَفَأَمِنتُمۡ أَن يَخۡسِفَ بِكُمۡ جَانِبَ ٱلۡبَرِّ أَوۡ يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمۡ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٨].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ألَا تَأْمَنوني وأنا أمينُ مَن في السَّماءِ؟!))[1].

وعن مُعاويةَ بنِ الحَكَمِ السُّلَميِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه لطَم جارِيةً له، وأتَى بها النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُريدُ عِتقَها، فسألَها النبيُّ: ((أينَ اللهُ؟ قالت: في السَّماءِ. قال: مَن أنا؟ قالت: أنت رَسولُ اللهِ. قال: أَعْتِقْها؛ فإنَّها مُؤمِنةٌ))[2].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((الرَّاحِمونَ يَرحَمُهمُ الرَّحمنُ، ارحَموا مَن في الأرضِ يَرحَمْكم مَن في السَّماءِ))[3].

﴿ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧ ﴾.

﴿ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗا ﴾.

أي: أمْ أَمِنتُم اللهَ الَّذي هو في العُلُوِّ فوقَ السَّماءِ؛ أن يُرسِلَ عليكم حِجارةً

---

(١) رواه البخاري (٤٣٥١)، ومسلم (١٠٦٤).

(٢) رواه مسلم (٥٣٧).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٤٩٤١) واللَّفظُ له، والترمذيُّ (١٩٢٤)، وأحمدُ (٦٤٩٤) مُطوَّلًا.

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (١٢٧)، والعراقيُّ في ((الأربعون العشارية)) (١٢٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٩٤١)، وحَسَّنه ابنُ حجر في ((الإمتاع)) (١/ ٦٢)، وقال السخاوي في ((البلدانيات)) (٤٧): (حسَنٌ، بل صحَّحه غيرُ واحدٍ).

يَرميكم بها[١]؟!

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

أي: فستَعلَمونَ حينَ يَحُلُّ العذابُ كيف يكونُ إنذاري، وعاقِبةُ مَن كذَّبَ به[٢]!

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾.

أي: ولقد كذَّب الكُفَّارُ الَّذين مِن قَبلِ مُشرِكي قُرَيشٍ رُسُلَهم؛ كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ، وقَومِ لُوطٍ، وقَومِ شُعَيبٍ، وقَومِ فِرعَونَ، وغَيرِهم مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ الَّتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤)، ((الأسماء والصفات)) للبيهقي (٢/ ٢٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قيل: الحاصِبُ: حِجارةٌ مِنَ السَّماءِ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧).

وقيل: الحاصِبُ هو التُّرابُ فيه الحَصباءُ الصِّغارُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، ومكِّي، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٢٩، ١٣٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٠١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٢).

وقيل: المرادُ: ريحٌ ذاتُ حجارةٍ. وممن اختاره: الثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٦٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

أهلكَها اللهُ بعَذابِه في الدُّنيا[١].

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

أي: فكيف كان إنكاري عليهم تَكذيبَهم حينَ عَذَّبْتُهم[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٢ - ٤٤].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْأَيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص: ١٢ - ١٤].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه انتُقِلَ مِن دَلالةِ أحوالِ البشَرِ وعالَمِهم إلى دَلالةِ أعجَبِ أحوالِ العَجْماواتِ، وهي أحوالُ الطَّيرِ في نِظامِ حَرَكاتِها في حالِ طَيَرانِها؛ إذ لا تَمْشي على الأرضِ كما هو في حَرَكاتِ غَيرِها على الأرضِ، فحالُها أقوى دَلالةً على عَجيبِ صُنْعِ اللهِ المنفرِدِ به[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧).

وأيضًا لَمَّا حذَّرَهم ما يُمكِنُ إحلالُه بهم مِن الخَسْفِ وإرسالِ الحاصِبِ؛ نبَّهَهم على الاعتبارِ بالطَّيرِ وما أُحكِمَ مِن خَلْقِها، وعلى عَجْزِ آلهتِهم عن شَيءٍ مِن ذلك، وناسَبَ ذلك الاعتبارُ بالطَّيرِ؛ إذ قدْ تَقدَّمَه ذِكرُ الحاصِبِ، وقد أهلَكَ اللهُ أصحابَ الفيلِ بالطَّيرِ والحاصِبِ الَّذي رمَتْهم به، ففيهِ إذكارُ قُرَيشٍ بهذه القصَّةِ، وأنَّه تعالَى لو شاءَ لأَهْلَكَهم بحاصِبٍ تَرْمي به الطَّيرُ، كما فَعَلَ بأصحابِ الفيلِ[1].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾.

أي: أوَلَم يَرَ هؤلاء المُشرِكون المكَذِّبونَ إلى الطَّيرِ وهي تطيرُ فَوقَهم في الجَوِّ ناشِراتٍ أجنِحتَهنَّ غالِبًا، ويَجمَعْنها أحيانًا حينَ يُدنينَها مِن جُنوبِهنَّ؛ للازديادِ مِن تَحريكِ الهواءِ للاستِمرارِ في الطَّيرانِ[2]؟

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩].

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

أي: ما يُمسِكُ تلك الطُّيورَ عن السُّقوطِ مِنَ السَّماءِ إلَّا الرَّحمنُ سُبحانَه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩).

قال القرطبي: (﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي: باسِطاتٍ أجنِحَتَهُنَّ في الجوِّ عندَ طَيَرانِها؛ لأنَّهنَّ إذا بَسَطْنَها صَفَفْنَ قَوادِمَها صفًّا. و﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: يَضرِبْنَ بها جُنوبَهُنَّ... وقيل: ويَقبِضْنَ أجنِحَتَهُنَّ بعْدَ بَسْطِها إذا وَقَفْنَ مِن الطَّيَرانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧).

وقال أيضًا: (كما ذَلَّل الأرضَ للآدميِّ، ذلَّل الهواءَ للطُّيورِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير =

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ بكُلِّ شَيءٍ مِن مخلوقاتِه بَصيرٌ، وكُلُّها تحتَ تَدبيرِه بما تَقتَضيه حِكمتُه(١).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أنَّ الإنسانَ إذا عَلِم بأنَّ اللهَ تعالى فوقَ كلِّ شيءٍ، فإنَّه يَعْرِفُ مِقدارَ سُلطانِه، وسيطرتِه على خَلْقِه، وحينَئذٍ يَخافُه ويُعَظِّمُه، وإذا خاف الإنسانُ ربَّه وعَظَّمَه فإنَّه يتَّقيه، ويقومُ بالواجِبِ، ويَدَعُ المُحَرَّمَ(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ هذا عِتابٌ وحَثٌّ على النَّظَرِ إلى حالةِ الطَّيرِ الَّتي سَخَّرَها اللهُ، وسَخَّر لها الجَوَّ والهواءَ، تَصُفُّ فيه أجنِحتَها، وتَقبِضُها، فتظَلُّ سابِحةً في الجَوِّ، مُترَدِّدةً فيه بحَسَبِ إرادتِها وحاجتِها؛ فمَن نَظَر في حالةِ الطَّيرِ واعتبَرَ فيها، دلَّتْه على قُدرةِ

---

= القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

قال السعدي: (﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ فإنَّه الَّذي سخَّر لهنَّ الجَوَّ، وجعَلَ أجسادَهنَّ وخِلقتَهنَّ في حالةٍ مُستعِدَّةٍ للطَّيرانِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

وقال ابنُ عاشور: (معنى إمساكِ اللهِ إيَّاها: حِفظُها مِن السُّقوطِ على الأرضِ بما أودع في خِلقَتِها مِن الخصائصِ في خِفَّةِ عِظامِها، وقوَّةِ حركةِ الجَوانحِ، وما جعل لهنَّ مِن القَوادِمِ، وهي ريشاتٌ عَشْرٌ هي مَقاديمُ ريشِ الجَناحِ، ومِن الخَوافي، وهي ما دُونَها مِن الجَناحِ إلى منتهى ريشِه، وما خلَقَه مِن شكلِ أجسادِها المُعينِ على نُفوذِها في الهواءِ؛ فإنَّ ذلك كلَّه بخَلقِ اللهِ إيَّاها مانعًا لها مِن السُّقوطِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩، ٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٤٠).

الباري، وعنايتِه الرَّبَّانيَّةِ، وأنَّه الواحِدُ الأحَدُ الَّذي لا تَنبغي العِبادةُ إلَّا له[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى بذاتِه فوقَ خَلْقِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ كَنَّى سُبحانَه عن نفْسِه بهذا؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ إظهارِ عَظَمتِه، وأنَّه فَوقَكم، قادِرٌ عليكم، مُسيطِرٌ عليكم، مُهيمِنٌ عليكم؛ لأنَّ العاليَ له سُلطةٌ على مَن تحْتَه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ سؤالٌ: أنَّ «في» للظَّرفيَّةِ، فإذا كان اللهُ تعالى في السَّماءِ، و«في» للظَّرفيَّةِ؛ فإنَّ الظَّرفَ مُحيطٌ بالمَظروفِ! أرأَيْتَ لو قُلتَ: «الماءُ في الكأسِ»، فالكأسُ مُحيطٌ بالماءِ، وأوسَعُ مِن الماءِ، فإذا كان اللهُ يقولُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فهذا ظاهرُه أنَّ السَّماءَ محيطةٌ باللهِ تعالى. وهذا الظَّاهِرُ باطِلٌ، وإذا كان الظَّاهِرُ باطِلًا فإنَّنا نَعلَمُ عِلمَ اليقينِ أنَّه غيرُ مرادٍ للهِ؛ لأنَّه لا يمكنُ أنْ يكونَ ظاهِرُ الكِتابِ والسُّنَّةِ باطِلًا.

**الجوابُ**: أنْ نَسْلُكَ أحدَ طريقَينِ: فإمَّا أنْ نَجعَلَ السَّماءَ بمعنى العُلُوِّ، والسَّماءُ بمعنى العُلُوِّ: واردٌ في اللُّغةِ، بل في القُرآنِ؛ قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، والمرادُ بالسَّماءِ العُلُوُّ؛ لأنَّ الماءَ يَنزِلُ مِن السَّحابِ لا مِن السَّماءِ الَّتي هي السَّقفُ المحفوظُ، والسَّحابُ في العُلُوِّ بيْن السَّماءِ والأرضِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٩٦).

فيكونَ معنى: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مَن في العُلُوِّ، ولا يُوجَدُ إشكالٌ بعْدَ هذا، فهو في العُلُوِّ، ليس يُحاذيه شَيءٌ، ولا يكونُ فَوقَه سُبحانَه شَيءٌ!

الطَّريقُ الثَّاني: أنْ نَجعَلَ «في» بمعنى «على»، ونَجعَلَ السَّماءَ هي السَّقفَ المحفوظَ المرفوعَ، يعني: الأجرامَ السَّماويَّةَ، وتأتي «في» بمعنى «على» في اللُّغةِ العربيَّةِ، بل في القُرآنِ الكريمِ؛ قال فِرعَونُ لقَومِه السَّحَرةِ الَّذين آمَنوا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، أي: على جُذوعِ النَّخلِ، فيكونَ معنى ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مَن على السَّماءِ، ولا إشكالَ بعْدَ هذا(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ سُؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْن هذه الآيةِ وبيْن قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقَولِه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٣]؟

**الجوابُ**: أمَّا الآيةُ الأُولى فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ فالظَّرفُ هنا لألوهيَّتِه، يعني: أنَّ ألوهيَّتَه ثابتةٌ في السَّماءِ وفي الأرضِ، كما تقولُ: فلانٌ أميرٌ في المدينةِ ومكَّةَ، فهو نفْسُه في واحِدةٍ منهما، وفيهما

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (مَن توهَّم أنَّ مُقتضى هذه الآيةِ أن يكونَ اللهُ في داخِلِ السَّمَواتِ، فهو جاهِلٌ ضالٌّ بالاتِّفاقِ، وإن كنَّا إذا قُلْنا: إنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ في السَّماءِ يَقتضي ذلك؛ فإنَّ حرف «في» متعلِّقٌ بما قبْلَه وما بعْدَه، فهو بحَسَبِ المضافِ والمضافِ إليه؛ ولهذا يُفرَّقُ بيْن كَونِ الشَّيءِ في المكانِ، وكَونِ الجِسمِ في الحَيِّزِ، وكونِ العَرَضِ في الجِسمِ، وكونِ الوَجهِ في المرآةِ، وكونِ الكلامِ في الورَقِ، فإنَّ لكُلِّ نَوعٍ مِن هذه الأنواعِ خاصِّيَّةً يتميَّزُ بها عن غيرِه، وإن كان حرفُ «في» مُستعمَلًا في ذلك كُلِّه؛ فلو قال قائِلٌ: العَرشُ في السَّماءِ أم في الأرضِ؟ لقيل: في السَّماءِ. ولو قيل: الجنَّةُ في السَّماءِ أم في الأرضِ؟ لقيل: الجنَّةُ في السَّماءِ، ولا يلزَمُ مِن ذلك أن يكونَ العَرشُ داخِلَ السَّمَواتِ، بل ولا الجنَّةُ). ((التدمرية)) (ص: ٨٥، ٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٤٢٦، ٤٢٧)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ١٨-٣٢).

جميعًا بإمارتِه وسُلطتِه؛ فاللهُ تعالى ألوهيَّتُه في السَّماءِ وفي الأرضِ، وأمَّا هو عزَّ وجلَّ ففي السَّماءِ.

أمَّا الآيةُ الثَّانيةُ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ فنَقولُ فيها كما قُلْنا في الَّتي قَبْلَها: وهو اللهُ، أي: وهو الإلهُ الَّذي ألوهيَّتُه في السَّمَواتِ وفي الأرضِ، أمَّا هو نفْسُه ففي السَّماءِ، فيكونُ المعنى: هو المألوهُ في السَّمَواتِ، المألوهُ في الأرضِ، فألوهيَّتُه في السَّمَواتِ وفي الأرضِ، فتُخَرَّجُ هذه الآيةُ كتَخريجِ الَّتي قَبْلَها[١]، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ فقد ذَكَر سُبحانَه السَّماءَ دونَ الأرضِ، ولم يُعَلِّقْ بذلك ألوهيَّةً أو غيرَها كما ذَكَرَ في الآيتينِ السَّابقَتَينِ[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فيه سُؤالٌ: هل تدُلُّ هذه الآيةُ على أنَّ الأفعالَ الاختياريَّةَ للعَبدِ مخلوقةٌ للهِ؟

**الجوابُ**: نعم؛ وذلك لأنَّ استِمساكَ الطَّيرِ في الهواءِ فِعلٌ اختياريٌّ للطَّيرِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ حُجَّةٌ على المعتَزِلةِ في بابِ الاستِطاعةِ؛ إذ قد أخبَرَ بإمساكِهنَّ عن نَفْسِه، ولم يَقُلْ: «يَسْتَمْسِكْنَ بالَّذي جَعَلَه في استِطاعَتِهنَّ مِن سُلطانِ الطَّيرانِ بالأجنحةِ والقَبضِ والبَسْطِ بهنَّ»، كما جَعَل للنَّاس سُلطانَ الحرَكاتِ والأعمالِ بالجَوارحِ الَّتي في أدواتِ الأفعالِ، وهم لا يَستطيعونَها إلَّا به سُبحانَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٥/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٧٦).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ الجُملةُ مُعترِضةٌ، والاستفهامُ إنكارٌ وتَوبيخٌ وتَحذيرٌ[١].

- والباءُ في قولِه: ﴿بِكُمُ﴾ للمُصاحَبةِ، أي: يَخسِفَ الأرضَ مُصاحِبةً لذَواتِكم[٢].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ فُرِّعَ على الخسْفِ المُتوقَّعِ المهدَّدِ به أنْ تَمورَ الأرضُ تَفريعَ الأثرِ على المؤثِّرِ؛ لأنَّ الخسْفَ يُحدِثُ المَورَ، فإذا خُسِفَت الأرضُ فاجَأَها المَورُ لا مَحالةَ، لكنَّ نظْمَ الكلامِ جَرى على ما يُناسِبُ جَعْلَ التَّهديدِ بمَنزلةِ حادثٍ وقَعَ؛ فلذلك جِيءَ بعْدَه بالحرفِ الدَّالِّ على المفاجأةِ؛ لأنَّ حقَّ المفاجأةِ أنْ تكونَ حاصِلةً زمَنَ الحالِ لا الاستقبالِ، فإذا أُريدَ تَحقيقُ حُصولِ الفِعلِ المستقبَلِ نُزِّلَ مَنزلةَ الواقعِ في الحالِ، فكان قولُه: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ مُؤذِنًا بتَشبيهِ حالةِ الخسْفِ المتوقَّعِ المهدَّدِ به بحالةِ خسْفٍ حصَلَ بجامعِ التَّحقُّقِ، وحُذِفَ المركَّبُ الدَّالُّ على الحالةِ المشبَّهِ بها، ورُمِزَ إليه بما هو مِن آثارِه ويَتفرَّعُ عنه[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ﴾

- (أم) لإضرابِ الانتِقالِ مِن غرَضٍ إلى غرَضٍ، وهو انتِقالٌ مِن الاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّعجيبيِّ إلى آخَرَ مِثلِه، باعتبارِ اختلافِ الأثَرَين الصَّادِرَين عن مَفعولِ الفعلِ المُستفهَمِ عنه اختلافًا يُوجِبُ تَفاوُتًا بيْن كُنْهَيِ الفِعلَين، وإنْ كانَا مُتَّحِدَينِ في الغايةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٤، ٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٥).

- وهو إضرابٌ عن التَّهديدِ بما ذُكِرَ، وانتقالٌ إلى التَّهديدِ بوجْهٍ آخرَ[١].

- وتَفريعُ جُملةِ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ على الاستفهامِ الإنكاريِّ كتَفريعِ جُملةِ ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]، أي: فحِينَ يُخسَفُ بكم أو يُرسَلُ عليكم حاصِبٌ تَعلَمون كيف نَذِيري، وحرْفُ التَّنفيسِ حقُّه الدُّخولُ على الأخبارِ الَّتي ستَقَعُ في المستقبَلِ، وإرسالُ الحاصِبِ غيرُ مُخبَرٍ بحُصولِه، وإلَّا لَما تَخلَّفَ؛ لأنَّ خبَرَ اللهِ لا يَتخلَّفُ، وإنَّما هو تَهديدٌ وتَحذيرٌ؛ فإنَّهم ربَّما آمَنوا وأقْلَعوا فسَلِموا مِن إرسالِ الحاصبِ عليهم، ولكنْ لَمَّا أُرِيدَ تَحقيقُ هذا التَّهديدِ، شُبِّهَ بالأمْرِ الَّذي وَقَعَ، فكان تَفريعُ صِيغةِ الإخبارِ على هذا مُؤذِنًا بتَشبيهِ المهدَّدِ به بالأمْرِ الواقعِ، و﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ استفهامٌ مُعلِّقٌ فِعلَ (تَعلَمون) عن العملِ، وهو استفهامٌ للتَّهديدِ والتَّهويلِ، والجُملةُ مُستأنَفةٌ[٢].

- قولُه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦] ليس بتَكرارٍ مع قولِه تعالَى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ في تَخويفِهم بخسْفِ الأرضِ بهم، والثَّانيَ في تَخويفِهم بالحصْبِ مِن السَّماءِ. وقُدِّمَ الأوَّلُ؛ لأنَّه لَمَّا كانت الأرضُ الَّتي خَلَقَها اللهُ تعالَى لهم ومهَّدَها لاستِقرارِهم، يَعبُدون عليها غيرَ خالقِها، ويُعظِّمون فيها الأصنامَ الَّتي هي مِن شَجَرِها وحَجَرِها -خوَّفهم بما هو أقرَبُ إليهم مِن الأشياءِ الَّتي أهلَكَ بها مَن كان قبْلَهم. والآيةُ الثَّانيةُ تَخويفٌ بالحاصِبِ مِن السَّماءِ، وهي الَّتي لا يَصعَدُ إليها الطَّيِّبُ مِن كَلامِهم، ولا الحسَنُ مِن عَمَلِهم، إلَّا سيِّئاتِ أفعالِهم، ونَتائجَ ما كُتِبَ عليهم، وتلك حالٌ ثانيةٌ، فذُكِرَ في الثَّانيةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٨٨، ١٢٨٩)، ((حاشية الطيبي على =

أو قُدِّمَ التَّهديدُ بالخسْفِ على التَّهديدِ بالحاصبِ؛ لأنَّ الخسْفَ مِن أحوالِ الأرضِ، والكلامُ على أحوالِها أقرَبُ هنا، فسُلِكَ شِبْهُ طَريقِ النَّشرِ المعكوسِ(١)، ولأنَّ إرسالَ الحاصبِ عليهم جَزاءٌ على كُفْرِهم بنِعمةِ اللهِ، الَّتي منها رِزْقُهم في الأرضِ المشارُ إليه بقولِه: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥]؛ فإنَّ مَنشأَ الأرزاقِ الأرضيَّةِ مِن غُيوثِ السَّماءِ(٢).

---

= الكشاف)) (١٥/ ٥٥٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٦).

(١) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو أن يُذكَرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرَ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضَ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلِّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفْقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوسِ»- هو: أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرَتَّبٍ؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى، ومتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ، ومُتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ، ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣ - ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦).

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه لَمَّا تَقدَّمَ ما اتَّصلَ به التَّوعُّدُ مِن قولِه تعالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، فحضَرَ في النُّفوسِ عندَ ذلك، وتَقرَّرَ تَذكرةُ هذه النِّعمةِ، وجَليلُ الامتِنانِ بها، شاهدًا حاضرًا للمُتذكِّرِ، وعليها قَرارُه حالَ تَذكُّرِه وتَنعُّمِه بالتَّقلُّبِ فيها حِين خِطابِه، متَّصلًا غيرَ مُنفصِلٍ، ومُلتصِقًا غيرَ مُتباعِدٍ -كان أنسَبُ شَيءٍ لهذه في الموعظةِ تَذكيرَه؛ اتِّعاظًا بخَسْفِها مِن تَحتِه، حتَّى كأنَّ ذلك الأمرَ جاء منه، لا مِن خارجٍ عنه[1].

- ومِن المُناسَبةِ أيضًا قولُه تعالَى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾، ووَرَدَ في سُورةِ (الأنعامِ): ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]؛ وذلك لأنَّ آيةَ (الأنعامِ) تَقدَّمَها قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ [الأنعام: ٦١]، فصَرَف هذا الخِطابُ تَفكُّرَ النَّفْسِ في عَينِ الجِهةِ الَّتي ذُكِرَ منها القهْرُ، فكان أنسَبُ شَيءٍ ذِكرَ التَّخويفِ مِن تلك الجِهةِ، بخِلافِ آيةِ (الملْكِ)، فكلُّ آيةٍ مِن هاتَينِ الآيتَينِ تُبيِّنُ حالَ الأُخرى، وإنَّ التَّناسُبَ إنَّما هو فيما وَرَدَت عليه كلُّ آيةٍ منهما[2].

- وحُذِفَت ياءُ المتكلِّمِ مِن (نَذيري)؛ تَخفيفًا، وللرَّعْيِ على الفاصِلةِ[3].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فيهِ مِن المبالَغةِ في

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦).

تَسليةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَشديدِ التَّهديدِ لقَومِه ما لا يَخْفَى[١].

- قولُه: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، أي: مِن قبْلِ كفَّارِ مكَّةَ مِن كفَّارِ الأُمَمِ السَّالفةِ، كقومِ نوحٍ وعادٍ وأضرابِهم، والالتفاتُ إلى الغَيبةِ لإبرازِ الإعراضِ عنهم[٢].

- بعْدَ أنْ وجَّهَ اللهُ إليهم الخِطابَ تَذكيرًا واستدلالًا وامتنانًا وتَهديدًا وتَهويلًا، ابتداءً مِن قولِه: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ [الملك: ١٣]؛ الْتَفَتَ عن خِطابِهم إلى الإخبارِ عنهم بحالةِ الغَيبةِ؛ تَعريضًا بالغضَبِ عليهم بما أَتَوه مِن كلِّ تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكانوا جَديرين بإبعادِهم عن الحُضورِ للخِطابِ، فلذلك لم يَقُلْ: ولقد كذَّب الَّذين مِن قبْلِكم، ولم يَقطَعْ تَوجيهَ التَّذكيرِ إليهم والوعيدِ؛ لعلَّهم يَتدبَّرون في أنَّ اللهَ لم يَدَّخِرْهم نُصحًا، فالجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الملك: ١٧]؛ لِمُناسَبةِ أنَّ ممَّا عُوقِبَ به بعضُ الأُمَمِ المكذِّبينَ الخسْفَ، وإرسالَ حِجارةٍ مِن السماءِ. ولك أنْ تَجعَلَ الواوَ للحالِ، أي: كيف تَأْمَنون ذلك عندَما تُكذِّبون الرَّسولَ في حالِ أنَّه قدْ كذَّبَ الَّذين مِن قبْلِكم، فهل عَلِمْتم ما أصابَهم على تَكذيبِهم الرُّسلَ؟! ضَرَب اللهُ لهم مَثَلًا بأُمَمٍ مِن قبْلِهم؛ كذَّبوا الرُّسلَ، فأصابَهم مِن الاستئصالِ ما قد عَلِموا أخبارَه؛ لعلَّهم أنْ يتَّعِظوا بقِياسِ التَّمثيلِ إنْ كانت عُقولُهم لم تَبلُغْ دَرجةَ الانتفاعِ بأقيسةِ الاستنتاجِ؛ فإنَّ المشركين مِن العرَبِ عَرَفوا آثارَ عادٍ وثَمودَ، وتَناقَلوا أخبارَ قومِ نُوحٍ وقومِ لُوطٍ[٣].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ استِفهامًا تَقريريًّا، وهو كِنايةٌ عن تَحقيقِ وُقوعِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧، ٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦).

وأنَّه وَقَع في حالِ فَظاعةٍ[١].

- وقد أُكِّدَ الخبَرُ بـ(اللَّام) و(قدْ)؛ لتَنزيلِ المُعرَّضِ بهم مَنزِلةَ مَن يظُنُّ أنَّ اللهَ عاقَبَ الَّذين مِن قبْلِهم لغيرِ جُرمٍ، أو لجُرمٍ غيرِ التَّكذيبِ، فهو مُفرَّغٌ على المؤكَّدِ، فالمعْنى: لقد كذَّبَ الَّذين مِن قبْلِهم، ولقد كان نَكيري عليهم بتلك الكيفيَّةِ[٢].

- و﴿نَكِيرِ﴾ أصْلُه نَكيري، بالإضافةِ إلى ياءِ المتكلِّمِ المحذوفةِ تَخفيفًا[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ [الملك: ١٥]؛ استِرسالًا في الدَّلائلِ على انفرادِ اللهِ تعالَى بالتَّصرُّفِ في الموجوداتِ[٤].

- قولُه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ ...﴾ الهمزةُ للاستِفهامِ، والواوُ للعطفِ على مُقدَّرٍ، أي: أغفَلوا ولم يَنظُروا[٥]. والاستِفهامُ إنكاريٌّ، ونُزِّلوا مَنزِلةَ مَن لم يَرَ هاتِه الأحوالَ في الطَّيرِ؛ لأنَّهم لم يَعتبِروا بها، ولم يَهتَدوا إلى دَلالتِها على انفرادِ خالِقِها بالإلهيَّةِ[٦].

- واشتَمَلَ التَّذكيرُ بعَجيبِ خِلقةِ الطَّيرِ في طَيرانِها على ضَرْبٍ مِن الإطنابِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٧).

لأنَّ الأوصافَ الثَّلاثةَ المُستفادةَ مِن قولِه: ﴿فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ تُصَوِّرُ صُورةَ حَرَكاتِ الطَّيَرانِ للسَّامِعينَ، فتُنبِّهُهم لدَقائقَ رُبَّما أغفَلَهم عن تَدقيقِ النَّظَرِ فيها نَشأتُهم بيْنَها مِن وَقتِ ذُهولِ الإدراكِ في زمَنِ الصِّبا، وكمْ غَفَلَ النَّاسُ عن دَقائقَ في المخلوقاتِ مِن الحيوانِ والجَمادِ ما لو تَتبَّعوه لتَجلَّى لهم منها ما يَملأُ وَصْفُه الصُّحفَ!

وهذا الإطنابُ في هذه السُّورةِ مُخالِفٌ لِما في نَظيرِ هذه الآيةِ مِن سُورةِ (النَّحلِ) في قولِه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩]، وذلك بحسَبِ ما اقتضاهُ اختلافُ المَقامَينِ؛ فسُورةُ (النَّحلِ) واقعةٌ قبْلَ سُورةِ (المُلْكِ)، فلمَّا أوقَظَت عُقولَهم فيها للنَّظَرِ إلى ما في خِلقةِ الطَّيرِ مِن الدَّلائلِ فلم يَتفطَّنوا، سُلِكَ في هذه السُّورةِ مَسلَكُ الإطنابِ بزيادةِ ذِكرِ أوصافٍ ثلاثةٍ: فالوصفُ الأوَّلُ: ما أفادَهُ قولُه: ﴿فَوْقَهُمْ﴾؛ فإنَّ جَميعَ الدَّوابِّ تَمْشي على الأرضِ، والطَّيرُ كذلك، فإذا طار الطَّائرُ انتَقَلَ إلى حالةٍ عَجيبةٍ مُخالِفةٍ لبَقيَّةِ المخلوقاتِ، وهي السَّيرُ في الجوِّ بواسطةِ تَحريكِ جَناحيْه، وذلك سِرُّ قولِه تعالَى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]؛ لقصْدِ تَصويرِ تلك الحالةِ.

والوصْفُ الثَّاني: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾، وهو وصْفٌ بوزْنِ اسمِ الفاعلِ مُشتقٌّ مِن الصَّفِّ، وهو كَونُ أشياءَ مُتعدِّدةٍ مُتقاربةَ الأمكنةِ وباستواءٍ، وهو قاصرٌ ومُتعدٍّ، والمرادُ هنا أنَّ الطَّيرَ صافَّةٌ أجْنحتَها، فحُذِفَ المفعولُ لعِلمِه مِن الوصفِ الجاري على الطَّيرِ؛ إذ لا تَجعَلُ الطَّيرُ أشياءَ مَصفوفةً إلَّا رِيشَ أجْنحتِها عندَ الطَّيَرانِ، فالطَّائرُ إذا طار بَسَطَ جَناحَيْه -أي: مدَّهما- فصَفَّ رِيشَ الجَناحِ، فإذا تَمدَّدَ الجَناحُ ظَهَر رِيشُه مُصطفًّا، فكان ذلك الاصطفافُ مِن أثَرِ فِعلِ الطَّيرِ، فوُصِفَت به، وبَسْطُ

الجَناحَينِ يُمكِّنُ الطَّائرَ مِن الطَّيَرانِ، فهو كمَدِّ اليَدينِ للسَّابحِ في الماءِ.

والوصْفُ الثَّالثُ: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾، وهو عطْفٌ على ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ مِن عطْفِ الفِعلِ على الاسمِ الشَّبيهِ بالفِعلِ في الاشتقاقِ، وإفادةِ الاتِّصافِ بحُدوثِ المصدَرِ في فاعِلِه، فلم يَفُتْ بعَطْفِه تَماثُلُ المعْطوفينِ في الاسميَّةِ والفِعليةِ الذي هو مِن مُحسِّناتِ الوصْلِ[١].

- والقبْضُ: ضِدُّ البَسطِ، والمرادُ به هنا ضِدُّ الصَّفِّ المذكورِ قبْلَه؛ إذ كان ذلك الصَّفُّ صادقًا على معْنى البَسطِ، ومَفعولُه المحذوفُ هنا هو عَينُ المحذوفِ في المعطْوفِ عليه، أي: قابضاتٍ أجْنِحتَهنَّ حينَ يُدْنِينَها مِن جُنوبِهنَّ للازديادِ مِن تَحريكِ الهواءِ للاستِمرارِ في الطَّيَرانِ[٢].

- وأُوثِرَ الفعلُ المضارعُ في ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾؛ لاستحضارِ تلك الحالةِ العجيبةِ، وهي حالةُ عكْسِ بَسْطِ الجناحَينِ؛ إذ بذلك العكْسِ يَزدادُ الطَّيَرانُ قوَّةَ امتدادِ زَمانٍ[٣].

- وجِيءَ في وصْفِ الطَّيرِ بـ﴿صَٰٓفَّٰتٖ﴾ بصِيغةِ الاسمِ؛ لأنَّ الصَّفَّ هو أكثرُ أحوالِها عِندَ الطَّيَرانِ، فناسَبَه الاسمُ الدَّالُّ على الثَّباتِ، وجِيءَ في وصْفِهنَّ بالقبْضِ بصِيغةِ المضارعِ؛ لدَلالةِ الفِعلِ على التَّجدُّدِ، أي: ويُجدِّدْنَ قبْضَ أجْنِحَتِهنَّ في خِلالِ الطَّيَرانِ للاستِعانةِ بقبْضِ الأجنحةِ على زِيادةِ التَّحرُّكِ عندَما يَحْسُسْنَ بتَغلُّبِ جاذبيَّةِ الأرضِ على حَرَكاتِ الطَّيرانِ[٤]. فالطَّيَرانُ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧، ٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٧، ٢٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩)، =

الهواءِ كالسِّباحةِ في الماءِ، والأصلُ في السِّباحةِ مَدُّ الأطرافِ وبَسْطُها، وأمَّا القَبضُ فطارِئٌ على البَسطِ للاستِظهارِ به على التَّحَرُّكِ؛ فجِيءَ بما هو طارِئٌ غيرُ أصليٍّ بلَفظِ الفِعلِ، على معنى: أنَّهنَّ صافَّاتٌ، ويكونُ مِنهنَّ القَبضُ تارةً بعدَ تارةٍ، كما يكونُ مِن السَّابحِ[1].

- جُملةُ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾، وما فيها مِن استفهامِ إنكارٍ، أي: كان حقُّهم أنْ يَعلَموا أنَّهنَّ ما يُمسِكُهنَّ إلَّا الرَّحمنُ؛ إذ لا مُمسِكَ لها تَرَونَه، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ الَّذي أمسَكَ الطَّيرَ عن الهُوِيِّ المُفْضي إلى الهلاكِ هو الَّذي أهْلَكَ الأُمَمَ الَّذين مِن قبْلِ هؤلاء، فلو لم يُشْرِكوا به ولو استَعْصَموا بطاعتِه، لَأنْجاهم مِن الهلاكِ كما أنْجى الطَّيرَ مِن الهُوِيِّ[2]. وقيل: هذه الجملةُ مستأنَفةٌ أو حالٌ من الضميرِ في (يقبضنَ)[3].

- قولُه: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لعلَّ إيثارَ اسمِ الرَّحمنِ هنا دونَ الاسمِ العَلَمِ (الله)؛ لأنَّ مِن جُملةِ عِنادِهم إنكارَهم اسمَ (الرَّحمن)، فلمَّا لم يَرْعَوُوا عمَّا هم عليه ذُكِرَ وصْفُ الرَّحمنِ في هذه السُّورةِ أربَعَ مرَّاتٍ[4].

وقيل: ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ حيثُ برَأَهنَّ عزَّ وجلَّ على أشكالٍ وخصائصَ، وألهمَهنَّ حركاتٍ قد تأتَّى منها الجريُ في الهواءِ[5].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ تَعليلٌ لمَضمونِ ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾[6].

---

= ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠).

- وتَقديمُ ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ على مُتعلَّقِه لإفادةِ القَصرِ الإضافيِّ، وهو قصْرُ قلْبٍ[١] ردًّا على مَن يَزعُمون أنَّه لا يَعلَمُ كلَّ شَيءٍ[٢]! وكذلك للرِّعايةِ على الفاصلةِ.

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠).

## الآيات (٢٠-٢٢)

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غُرُورٍ﴾: أي: باطِلٍ، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقظةِ، يقال: غَرِرْتُ فلانًا: أصبتُ غِرَّتَهُ ونِلتُ منه ما أُريدُه، وأصلُ ذلك مِن الغَرِّ، وهو الأثَرُ الظَّاهرُ مِن الشَّيءِ، والغَرورُ: كلُّ ما يَغُرُّ الإنسانَ مِن مالٍ وجاهٍ وشهوةٍ وشيطانٍ[١].

﴿لَّجُّوا۟﴾: أي: تَمادَوْا واستمَرُّوا، واللَّجاجُ: التَّمادي والعِنادُ في تعاطي الفِعلِ المَزجورِ عنه، وأصلُ (لجج): يدُلُّ على تردُّدِ الشَّيءِ بَعضِه على بَعضٍ[٢].

﴿عُتُوٍّ﴾: أي: طُغيانٍ ومُعانَدةٍ واستِكبارٍ، والعُتُوُّ: الخُروجُ عن الطَّاعةِ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ[٣].

﴿وَنُفُورٍ﴾: أي: ذَهابٍ، وبُعدٍ عن الحَقِّ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَجافٍ وتَباعُدٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣، ٦٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((العين)) للخليل (٢/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٤/ ٦٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٧).

﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾: أي: لا يُبصِرُ يمينًا ولا شمالًا، ولا ما بيْنَ يدَيْه، والكَبُّ: إسقاطُ الشَّيءِ على وجهِه، وأصلُ (كبب): يدُلُّ على جمعٍ وتجَمُّعٍ[١].

﴿سَوِيًّا﴾: أي: مُنتصبَ القامةِ، مُعتدلًا، ناظرًا إلى ما بيْنَ يدَيْه، سالمًا مِن العُثُورِ والخُرورِ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بيْنَ شَيئيْنِ[٢].

﴿صِرَٰطٍ﴾: أي: طريقٍ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى للمشركينَ الَّذينَ عَبَدوا غيرَه، يَبْتَغونَ عندَهم نصرًا ورزقًا، مُنكِرًا عليهم: أمْ مَن هذا الَّذي هو عَونٌ وناصِرٌ لكم -أيُّها الكافِرونَ- يَدفَعُ عنكم العذابَ مِن دُونِ الرَّحمنِ؟! ما الكافِرونَ باللهِ إلَّا في غُرورٍ!

أمْ مَن هذا الَّذي يأتيكم بالرِّزقِ إنْ منَعَه اللهُ عنكم؟! بل استَمَرَّ -هؤلاء الكافِرون- وتمادَوا في طُغيانِهم وتكَبُّرِهم، ونُفورِهم عن الحَقِّ!

ثمَّ يضربُ الله تعالى المثَلَ للمؤمنِ والكافرِ، فيقولُ: أفمَن يَمشي مُنكِّسًا رأسَه لا يُبصِرُ طَريقَه، فيَخِرُّ على وَجهِه: أهدَى أمِ الَّذي يَمشي مُعتَدِلًا سالِمًا مِن التَّعثُّرِ مُبصِرًا طَريقَه؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الكُفَّارُ يمتَنِعونَ عن الإيمانِ ويُنكِرونَ التَّوحيدَ مع وُضوحِ الأدِلَّةِ، صاروا كأنَّهم يمتَنِعونَ مِن عذابِ اللهِ بجُندٍ، وأشبَهَت حالُهم مَن يملِكُ دَفْعَ العذابِ إن أتاه؛ فقال اللهُ تعالى مُنكِرًا عليهم أن يكونَ لهم امتناعٌ مِن عَذابِه[1]:

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

أي: أم مَن هذا الَّذي هو عَونٌ وناصِرٌ لكم -أيُّها الكافِرونَ- يَدفَعُ عنكم العذابَ غَيرُ الرَّحمنِ[2]؟!

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ * أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢، ٤٣].

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾.

أي: ما الكافِرونَ باللهِ إلَّا في غُرورٍ عَظيمٍ قد أحاط بهم، فلا خَلاصَ لهم منه، وذلك باستِمرارِهم على كُفرِهم الَّذي يتَوهَّمونَه صَوابًا، وتوَهُّمِهم أنَّ آلهتَهم تَنفَعُهم[3].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥٨، ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) =

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه لَمَّا قدَّم أعظَمَ الرَّحمةِ بالحِياطةِ والنُّصرةِ المُوجِبةِ للبقاءِ؛ أتْبَعَه ما يَتِمُّ به البقاءُ[1].

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾.

أي: أم مَن هذا الَّذي يأتيكم بالرِّزقِ -أيُّها الكافِرونَ- إنْ منَعَه اللهُ عنكم[2]؟!

كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣].

﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾.

أي: لم يَرجِعوا عن تكذيبِهم وكُفْرِهم مع ما ذُكِرَ مِن دلائِلَ وحُجَجٍ، بل استَمَرُّوا وتمادَوا في طُغيانِهم وعِنادِهم وتكَبُّرِهم، ونُفورِهم عن الحَقِّ، وهُروبِهم منه[3].

كما قال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

---

= للبقاعي (٢٠/ ٢٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢، ٤٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤).

وقال سُبحانَه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٤٩ - ٥١].

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَفَهم بالعُتُوِّ والنُّفورِ؛ نبَّه على ما يدُلُّ على قُبحِ هذَينِ الوَصفَينِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان ذلك فِعلَ مَن لا بَصَرَ له ولا بصيرةَ؛ سَبَّبَ عنه قَولَه مُمثِّلًا للمُوَحِّدِ والمُشرِكِ بسالكَينِ، ولدِينَيْهما بمَسْلَكينِ[2].

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: أفمَن يَمشي مُنكِّسًا رأسَه لا يُبصِرُ طَريقَه، فيَسقُطُ مُتعَثِّرًا ويَخِرُّ على وَجهِه: أهْدَى أمِ الَّذي يَمشي مُعتَدِلًا قائمًا، رافِعًا رأسَه ناصِبًا وَجْهَه، سالِمًا مِن التَّعثُّرِ مُبصِرًا طَريقَه، سائِرًا على دَربٍ مُستَوٍ واضِحٍ لا اعوِجاجَ فيه[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٧).

قال ابنُ عاشور: (هذا مَثَلٌ ضرَبه اللهُ للكافِرينَ والمؤمِنينَ، أو لِرَجُلَينِ: كافرٍ ومُؤمِنٍ... وذلك ممَّا اتَّفَق عليه المفسِّرونَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ ضرَبَ الله مثَلًا للمؤمنِ والكافرِ ﴿مُكِبًّا﴾ أي: مُنكِّسًا رأسَه، لا يَنظُرُ أمامَه ولا يمينَه ولا شِمالَه، فهو لا يأمَنُ مِن العُثورِ والانكبابِ على وجْهِه؛ كمَنْ يَمشي سَويًّا مُعتَدِلًا ناظِرًا ما بيْنَ يدَيْه وعن يمينِه وعن شِمالِه؟!). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٩). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ * أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ جَمَعَ سُبحانَه بيْن النَّصرِ والرِّزقِ؛ فإنَّ العَبدَ مُضطَرٌّ إلى مَن يَدفَعُ عنه عَدُوَّه بنَصرِه، ويَجلِبُ له مَنافِعَه برِزقِه؛ فلا بُدَّ له مِن ناصرٍ ورازقٍ، واللهُ وحْدَه هو الَّذي يَنصُرُ ويَرزُقُ، فهو الرَّزَّاقُ ذو القُوَّةِ المتينُ[1]، فالنَّصرُ يتضمَّنُ دفْعَ الضَّررِ؛ والرِّزقُ يتضمَّنُ حُصولَ المنفعةِ[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ مَثَلُ الكافِرِ؛ حالُه في سَيرِه إلى اللهِ حالُ المُكِبِّ، أي: الَّذي كَبَّ نَفْسَه بغايةِ الشَّهوةِ على وَجْهِه، لا يرى ما حَوْلَه، ولا يَشعُرُ بما أحاط به، ولا يَنظُرُ في الآياتِ، ولا يَعتَبِرُ بالمسموعاتِ، فهو اليَومَ شَيءٌ باطِنٌ يظهرُ يومَ القيامةِ، فيُحشَرُ على وَجْهِه إلى النَّارِ؛ جزاءً لرِضاه بحالتِه هذه في هذه الدَّارِ، فيُظهِرُ له سُبحانَه ما أبطَنَ له اليومَ، والمؤمِنُ بخِلافِ ذلك، فقَولُه تعالى: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا مَثَلُ مَن رَضِيَ باللهِ رَبًّا، وبالإسلامِ دِينًا، فإنَّه يَتبَعُ الفِطرةَ الأُولى، السَّليمةَ عن شَهوةٍ أو غَضَبٍ

---

= وقال الشوكاني: (قيل: هو الَّذي يَكُبُّ رأسَه فلا يَنظُرُ يمينًا ولا شِمالًا ولا أمامًا،... وقيل: أرادَ به الأعمَى الَّذي لا يَهتدي إلى الطَّريقِ، فلا يَزالُ مَشْيُه يُنَكِّسُه على وجهِه. قال قَتادةُ: هو الكافرُ يَكُبُّ على معاصي اللهِ في الدُّنيا، فيَحشُرُه اللهُ يومَ القيامةِ على وجْهِه... وقيل: أراد بمَنْ يَمشي مُكِبًّا على وجْهِه: مَن يُحشَرُ على وجْهِه إلى النَّارِ، ومَن يَمشي سَوِيًّا: مَن يُحشَرُ على قدَمَيْه إلى الجنَّةِ، وهو كقَولِ قَتادةَ الَّذي ذَكَرْناه، ومِثلُه قولُه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٤).

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ٣١).

أو شائبةِ حَظٍّ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ المخلوقَ ليس عندَه للعبدِ نفعٌ ولا ضرٌّ، ولا عطاءٌ ولا منْعٌ، ولا هُدًى ولا ضلالٌ، ولا نصرٌ ولا خِذلانٌ، ولا خَفضٌ ولا رفعٌ، ولا عِزٌّ ولا ذُلٌّ، بلِ اللهُ وحْدَه هو الَّذي يَملِكُ له ذلك كلَّه؛ قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ * أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، وقال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، إلى غيرِ ذلك[٢].

٢- مِن القواعدِ الَّتي يَكثُرُ ذِكرُها في القرآنِ في المقاماتِ المُهِمَّةِ -كالمُقابَلةِ بيْنَ الإيمانِ والكفرِ، والتَّوحيدِ والشِّركِ- قاعدةُ: (ذِكْر الأوصافِ المُتقابِلاتِ يُغْني عن التَّصريحِ بالمُفاضَلةِ إذا كان الفرقُ معلومًا). فيَذكُرُ تَبايُنَ الأوصافِ الَّتي يَعرِفُ العقلاءُ بالبداهةِ التَّفاوُتَ بيْنَها، ويَدَعُ التَّصريحَ بالمُفاضَلةِ للعقلاءِ، وهو مِن بلاغةِ القرآنِ وأسلوبِه العجيبِ، ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

٣- الكُفرُ هو التَّأخُّرُ والرَّجعيَّةُ والانقِلابُ على العَقِبِ، وأمَّا الإسلامُ فإنَّه التَّقدُّمُ والمُضيُّ إلى الأمامِ فيما يَنفَعُ الإنسانَ في دِينِه ودُنياه، يَشهَدُ لهذا قَولُه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٣).

(٣) يُنظر: ((القواعد الحسان لتفسير القرآن)) للسعدي (ص: ١٦٢، ١٦٣).

تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عَديلٌ لقولِه تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ على معْنى: أوَلَمْ تَنظُروا في أمثالِ هذه الصَّنائعِ، فلم تَعلَموا قُدرتَنا على تَعذيبِهم بنحْوِ خَسفٍ وإرسالِ حاصبٍ، أمْ لكم جُندٌ يَنصُرُكم مِن دونِ اللهِ إنْ أرسَلَ عليكم عَذابَه، فهو كقولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣]، إلَّا أنَّه أُخرِجَ مُخرَجَ الاستِفهامِ لنُكتةٍ؛ وهو أنَّهم لاعتِقادِهم نصْرَ آلهتِهم لهم أتى باسمِ الاستفهامِ بعْدَها تهكُّمًا بهم، كأنَّ النُّصرةَ مُقرَّرةٌ، وإنَّما الكلامُ في تَعيينِ النَّاصرِ لهم[2].

- وقيل: مَساقُ هذه الآيةِ إمَّا لإنكارِ أنْ يكونَ للمُخاطَبينَ ناصرٌ ورازقٌ سِوى الرَّحمنِ، وإمَّا لإنكارِ كَونِ الأصنامِ تَنصُرُهم وتَرزُقُهم، وعلى الأوَّلِ الاستِفهامُ للإنكارِ، ويُقدَّرُ بعْدَه: يُقالُ:...، وعلى الثَّاني للتَّحقيرِ[3].

- وقيل: إنَّ قولَه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ تَبْكيتٌ لهم بنفْيِ أنْ يكونَ لهم ناصرٌ غيرُ الله تعالَى كما يُلوِّحُ به التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرَّحمانيَّةِ، ويَعضُدُه قولُه تعالَى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، أو ناصرٌ مِن عَذابِه تعالَى،

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣١)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٢٣).

كما هو الأنسَبُ بما سَيأتي مِن قولِه تعالَى: ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾، كقولِه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] في المعنيينِ معًا، خَلا أنَّ الاستفهامَ هُناكَ مُتوجِّهٌ إلى نفْسِ المانعِ وتَحقُّقِه، وهاهُنا إلى تَعيينِ النَّاصرِ؛ لتَبكيتِهم بإظهارِ عَجزِهم عن تَعيينِه له[1]. فالاستفهامُ هنا مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ عن التَّعيينِ، فيَؤولُ إلى الانتفاءِ، والإشارةُ مُشارٌ بها إلى مَفهومِ جُندٍ مَفروضٍ في الأذهانِ استُحضِرَ للمُخاطَبينَ، فجُعِلَ كأنَّه حاضرٌ في الخارجِ يُشاهِدُه المخاطَبونَ، فيَطلُبُ المُتكلِّمُ منهم تَعيينَ قَبيلةٍ بأنْ يَقولوا: بنو فُلانٍ، ولَمَّا كان الاستفهامُ مُستعمَلًا في التَّعجيزِ استَلزَمَ ذلك أنَّ هذا الجندَ المفروضَ غيرُ كائنٍ[2]. ويَجوزُ أنْ يكونَ اسمُ الإشارةِ مُشارًا به إلى جَماعةِ الأصنامِ المعروفةِ عِندَهم الموضوعةِ في الكعبةِ وحوْلَها الَّذي اتَّخذْتُموه جُندًا، فمَن هو حتَّى يَنصُرَكم مِن دونِ اللهِ؟! فتَكونَ (مَن) استفهاميَّةً مُستعمَلةً في التَّحقيرِ والتَّقريعِ والتَّوبيخِ، أي: مَن هذا الجندُ؟! فإنَّه أحقَرُ مِن أنْ يُعرَفَ، واسمُ الإشارةِ صِفةٌ لاسمِ الاستفهامِ مُبيِّنةٌ له، و﴿ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ صِفةٌ لاسمِ الإشارةِ، وجُملةُ ﴿يَنصُرُكُم﴾ خبَرٌ عن اسمِ الاستفهامِ، أي: هو أقَلُّ مِن أنْ يَنصُرَكم مِن دونِ الرَّحمنِ[3]. وإيثارُ (هذا) لتَحقيرِ المُشارِ إليه[4].

- و(أم) في ﴿أَمَّنْ﴾ مُنقطِعةٌ، وهي للإضرابِ الانتقاليِّ مِن غرَضٍ إلى غرَضٍ، مُقدَّرةٌ بـ (بل) المُفيدةِ للانتقالِ مِن تَوبيخِهم على ترْكِ التَّأمُّلِ فيما يُشاهِدونَه مِن أحوالِ الطَّيرِ المُنبئةِ عن تَعاجيبِ آثارِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجلَّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١، ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١).

إلى التَّبكيتِ بما ذُكِرَ؛ فبَعْدَ استيفاءِ غرَضِ إثباتِ الإلهيَّةِ الحقِّ للهِ تعالَى بالوَحدانيَّةِ وتَذكيرِهم بأنَّهم مُفتقِرونَ إليه، انتُقِلَ إلى إبطالِ أنْ يكونَ أحدٌ يَدفَعُ عنهم العذابَ الَّذي تَوعَّدَهم اللهُ به، فوُجِّهَ إليهم استفهامٌ أنْ يَدُلُّوا على أحدٍ مِن أصنامِهم أو غيرِها يُقالُ فيه: هذا هو الَّذي يَنصُرُ مِن دونِ اللهِ؛ فإنَّهم غيرُ مُستطيعينَ تَعيينَ أحدٍ لذلك إلَّا إذا سَلَكوا طَريقَ البُهتانِ، وما هم بسالِكيه في مِثلِ هذا؛ لافتِضاحِ أمْرِه، وهذا الكلامُ ناشئٌ عن قولِه تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦] الآيةَ، فهو مِثلُه مُعترِضٌ بيْنَ حُجَجِ الاستِدلالِ[١].

- وقولُه: ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ فيه الْتِفاتٌ، ونُكتَتُه المُبالَغةُ في التَّهديدِ، والتَّشديدُ في التَّبكيتِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ جيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿ٱلَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾؛ لدَلالتِها على الدَّوامِ والثُّبوتِ؛ لأنَّ الجُندَ يكونُ على استعدادٍ للنَّصرِ إذا دُعِيَ إليه، سواءٌ أقاتَلَ أمْ لم يُقاتِلْ؛ لأنَّ النَّصرَ يَحتاجُ إلى استعدادٍ وتَهيُّؤٍ؛ فالمعنى: يَنصرُكم عِندَ احتياجِكم إلى نَصرِه؛ فهذا وجْهُ الجمْعِ بيْنَ جُملةِ ﴿هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ وجُملةِ ﴿يَنصُرُكُم﴾، ولم يَستغنِ بالثَّانيةِ عن الأُولَى[٣].

- قولُه: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لِما قبلَه، ناعٍ عليهم ما هُم فيه مِن غايةِ الضَّلالِ، أي: ما هُم في زعْمِهم أنَّهم مَحفوظونَ مِن النَّوائبِ بحِفظِ آلهتِهم لا بحِفظِه تعالَى فقطْ، أو أنَّ آلهتَهم تَحفَظُهم مِن بأْسِ اللهِ؛ إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠، ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢).

في غُرورٍ عَظيمٍ وضَلالٍ فاحشٍ مِن جِهةِ الشَّيطانِ، ليس لهم في ذلك شَيءٌ يُعتَدُّ به في الجُملةِ، والالتفاتُ إلى الغَيبةِ؛ للإيذانِ باقتضاءِ حالِهم للإعراضِ عنهم، وبَيانِ قَبائحِهم لغيرِهم، والإظهارُ في مَوقعِ الإضمارِ لذَمِّهم بالكُفرِ، وتَعليلِ غُرورِهم به[1].

وقيل: قولُه: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ اعتِراضٌ تَذييليٌّ، أي: ذلك شأْنُ الكافرينَ كلِّهم، وهم أهلُ الشِّركِ مِن المخاطَبينَ وغيرِهم، فتَعريفُ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ للاستِغراقِ، وليس المرادُ به كافِرينَ معهودينَ حتَّى يكونَ مِن وضْعِ المظهَرِ مَوضعَ الضَّميرِ[2].

- والظَّرفيَّةُ في قولِه: ﴿فِى غُرُورٍ﴾ مُستعمَلةٌ في شِدَّةِ التَّلبُّسِ بالغُرورِ، حتَّى كأنَّ الغُرورَ مُحيطٌ بهم إحاطةَ الظَّرفِ، والمعْنى: ما الكافِرونَ في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ الغرورِ، وهذا قصْرٌ إضافيٌّ[3] لقلْبِ اعتقادِهم أنَّهم في مأْمنٍ مِن الكوارثِ بحِمايةِ آلهتِهم[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ انتقالٌ آخَرُ، وهذا الكلامُ ناظِرٌ إلى قولِه: ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ[5].

- وجِيءَ بالصِّلةِ فِعلًا مُضارعًا ﴿يَرْزُقُكُمْ﴾؛ لدَلالتِه على التَّجدُّدِ؛ لأنَّ الرِّزقَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واللَّف والنَّشْر تقدَّم تعريفُه (ص: ٣١٦).

يَقْتضي التَّكرارَ؛ إذ حاجةُ البشرِ إليه مُستمرَّةٌ[١].

- قولُه: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ ناشئٍ عن الدَّلائلِ والقَوارعِ، والزَّواجرِ والعِظاتِ، والعِبَرِ المتقدِّمةِ، فيَتَّجِهُ للسَّائلِ أنْ يقولَ: لعلَّهم نفَعَتَ عِندَهم الآياتُ والنُّذُرُ، واعتَبَروا بالآياتِ والعِبَرِ، فأُجِيبَ بإبطالِ ظنِّه بأنَّهم لَجُّوا في عُتوٍّ ونُفورٍ[٢].

أو: أنَّ قولَه: ﴿بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ مُنبئٌ عن مُقدَّرٍ يَستدعيهِ المقامُ، كأنَّه قيلَ: إثرَ تَمامِ التَّبكيتِ والتَّعجيزِ لمْ يَتأثَّروا بذلكَ، ولم يُذعنُوا للحقِّ، بلْ لجُّوا وتَمادَوا في عُتوٍّ ونُفورٍ[٣].

- وحرْفُ (بَل) للإضرابِ أو الإبطالِ عمَّا تَضمَّنه الاستِفهامانِ السَّابقانِ، أو للانتقالِ مِن غرَضِ التَّعجيزِ إلى الإخبارِ عن عِنادِهم[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

- الفاءُ الَّتي في صدْرِ الجُملةِ للتَّفريعِ على جميعِ ما تَقدَّمَ مِن الدَّلائلِ والعِبَرِ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا، والاستفهامُ تَقريريٌّ تَوبيخيٌّ[٥].

- وهذا مَثَلٌ للمُؤمنِ والكافرِ؛ فالكافرُ في اضطرابِه وتَعسُّفِه في عَقيدتِه، وتَشابُهِ الأمرِ عليه، كالماضي في انخفاضٍ وارتفاعٍ، كالأعمى يَتعثَّرُ كلَّ ساعةٍ فيَخِرُّ لوَجْهِه، وأمَّا المؤمنُ فإنَّه لطُمأنينةِ قلْبِه بالإيمانِ، وكَونِه قد وَضَحَ له الحقُّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٨).

كالماشي صَحيحَ البصرِ، مُستويًا، لا يَنحرِفُ، على طَريقٍ واضحِ الاستِقامةِ، لا حُزونَ[١] فيها؛ فآلةُ نَظَرِه صَحيحةٌ، ومَسلكُه لا صُعوبةَ فيه[٢]؛ فهذا مَثَلٌ ضَرَبَه اللهُ للكافرين والمؤمنينَ، أو لرُجَلينِ: كافرٍ ومؤمنٍ؛ لأنَّه جاء مُفرَّعًا على قولِه: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ [الملك: ٢٠]، وقولِه: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢١]، وما اتَّصَلَ ذلك به مِن الكلامِ الَّذي سِيقَ مَساقَ الحُجَّةِ عليهم بقولِه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ [الملك: ٢٠] ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ [الملك: ٢١]. والتَّمثيلُ جَرى على تَشبيهِ حالِ الكافرِ والمؤمنِ بحالةِ مَشْيِ إنسانٍ مُختلفةٍ، وعلى تَشبيهِ الدِّينِ بالطَّريقِ المَسلوكةِ، كما يَقْتضيهِ قولُه: ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، فلا بُدَّ مِن اعتبارِ مشْيِ المُكِبِّ على وَجْهِه مَشيًا على صِراطٍ مُعْوجٍّ، وتَعيَّنَ أنْ يكونَ في قولِه: ﴿مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ تَشبيهُ حالِ السَّالكِ صِراطًا مُعْوجًّا في تَأمُّلِه وتَرسُّمِه آثارَ السَّيرِ في الطَّريقِ غيرِ المستقيمِ خَشيةَ أنْ يَضِلَّ فيه؛ بحالِ المُكِبِّ على وَجْهِه يَتوسَّمُ حالَ الطَّريقِ، وقَرينةُ ذلك مُقابَلتُه بقولِه: ﴿سَوِيًّا﴾ المُشعِرِ بأنَّ ﴿مُكِبًّا﴾ أُطلِقَ على غيرِ السَّويِّ، وهو المُنْحني المُطأْطِئُ يَتوسَّمُ الآثارَ اللَّائحةَ مِن آثارِ السَّائرينَ؛ لعلَّه يَعرِفُ الطَّريقَ المُوصِلةَ إلى المقصودِ، فالمُشرِكُ يَتوجَّهُ بعِبادتِه إلى آلهةٍ كَثيرةٍ لا يَدْري لعلَّ بَعضَها أقْوى مِن بَعضٍ، وأعطَفُ على بَعضِ القبائلِ مِن بَعضٍ؛ فقد كانت ثَقيفٌ يَعْبُدون اللَّاتَ، وكان الأوسُ والخزرجُ يَعبُدون مَناةَ، ولكلِّ قَبيلةٍ إلهٌ أو آلهةٌ، فتَقسَّموا الحاجاتِ عِندَها، واستَنصَرَ كلُّ قومٍ

---

(١) الحُزُون: جمعُ الحَزْنِ، وهو ما غَلُظ مِن الأرضِ، وهو خِلافُ السَّهلِ. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٥٩).

بآلهتِهم، وطَمِعوا في غَنائها عنهم، وهذه حالةٌ يَعرِفونَها، فلا يَمتَرُون في أنَّهم مَضربُ المَثَلِ الأوَّلِ، وكذلك حالُ أهلِ الإشراكِ في كلِّ زَمانٍ؛ ألَا تَسمَعُ ما حَكاهُ اللهُ عن يُوسُفَ عليه السَّلامُ مِن قولِه: ﴿ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

وقولُه: ﴿أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا﴾ تَشبيهٌ لحالِ الَّذي آمَنَ بربٍّ واحدٍ، الواثقِ بنصْرِ ربِّه وتأْييدِه، وبأنَّه مُصادِفٌ للحقِّ؛ بحالِ الماشي في طَريقٍ جادَّةٍ واضحةٍ، لا يَنظُرُ إلَّا إلى اتِّجاهِ وَجْهِه، فهو مُستوٍ في سَيرِه. وقد حصَلَ في الآيةِ إيجازُ حذْفٍ؛ إذ استُغْنِيَ عن وصْفِ الطَّريقِ بالالتواءِ في التَّمثيلِ الأوَّلِ؛ لدَلالةِ مُقابَلتِه بالاستِقامةِ في التَّمثيلِ الثَّاني[١].

- و﴿أَهۡدَىٰٓ﴾ مُشتَقٌّ مِن الهُدى، وهو مَعرفةُ الطَّريقِ، وهو اسمُ تَفضيلٍ مَسلوبُ المُفاضَلةِ؛ لأنَّ الَّذي يَمْشي مُكِبًّا على وَجْهِه لا شَيءَ عندَه مِن الاهتداءِ، ومِثلُ هذا لا يَخلُو مِن تَهكُّمٍ أو تَمْليحٍ بحسَبِ المقامِ[٢].

- والآيةُ فيها احتِباكٌ[٣]؛ فذَكَر (الكَبَّ) أوَّلًا دليلًا على ضِدِّه ثانيًا، و(المستقيمَ) ثانيًا دليلًا على المُعوَجِّ أوَّلًا، وسِرُّه أنَّه ذَكَر أنكَأَ ما للمُجرِمِ، وأسَرَّ ما للمُسلِمِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤ - ٤٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٦).

(٣) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن أَلْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٨).

## الآيات (٢٢-٢٧)

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾: جمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[١].

﴿ذَرَأَكُمْ﴾: أي: خلَقَكم وكَثَّرَكم، والذَّرْءُ: بَثُّ الخَلقِ وتَكثيرُه، وأصلُ (ذرأ) هنا: يدُلُّ على بَذْرٍ وزَرعٍ[٢].

﴿زُلْفَةً﴾: أي: قَريبًا، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تَقدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[٣].

﴿سِيٓـَٔتْ﴾: أي: ظهَر فيها السُّوءُ لما حلَّ بها، وقبُحَتْ بالسَّوادِ وأثرِ الكآبةِ، يُقالُ: ساء الشيءُ يسوءُ، فهو سيِّئٌ: إذا قبُح، وسِيء يُساءُ: إذا قبُح، والسُّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ مِن الأمورِ الدُّنيويَّةِ، والأُخرويةِ، وأصلُ السُّوءِ: القُبحُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٦٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٦٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٦٢)، ((المفردات =

﴿تَدَّعُونَ﴾: أي: تَطلُبونَ وتَستعجِلونَ؛ (تفتعلونَ) مِن الدُّعاءِ، أو تَدَّعونَ أن لا بعثَ، فهو مِن الدَّعوَى، وأصلُ (دعو) أنْ تُميلَ الشَّيءَ إليكَ بصَوتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنكَ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا بنِعَمِه، ومبيِّنًا أنَّه المعبودُ وحْدَه، وداعيًا عِبادَه إلى شُكرِه، وإفرادِه بالعبادةِ: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ المكَذِّبينَ: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ أوجَدَكم مِنَ العَدَمِ، وجعَلَ لكم السَّمعَ والأبصارَ والأفئِدةَ، قليلًا ما تَشكُرونَ اللهَ تعالى على ما آتاكم!

قُلْ -يا محمَّدُ-: اللهُ هو الَّذي نشَرَكم في أقطارِ الأرضِ وأرجائِها، وإليه وَحْدَه تُجمَعونَ.

ثُمَّ يخبِرُ الله تعالى عن الكفَّارِ المُنكِرينَ للمَعادِ، المُستبعِدينَ وُقوعَه، فيقولُ: ويقولُ المُشرِكونَ تكذيبًا واستِهزاءً: متى يكونُ ما تَعِدُونَنا به مِنَ الحَشرِ إلى اللهِ إنْ كُنتُم صادِقينَ؟ قُلْ لهم: إنَّما عِلْمُ ذلك عِندَ اللهِ وَحْدَه، وما أنا إلَّا مُنذِرٌ لكم عَذابَ اللهِ!

ثمَّ يذكرُ حالَهم عندَما يرَونَ العذابَ، فيقولُ: فلمَّا رأى أولئك الكافِرونَ ما وُعِدُوا به قريبًا منهم وعايَنوه، ساءهم وأفزَعَهم؛ فتغيَّرَت وُجوهُهم وقَبُحَت، وقِيلَ لهم يومَ القيامةِ تَوبيخًا: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَطلُبونَه وتَسألُونَ تَعجيلَه في الدُّنيا!

---

= في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٧).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٧).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أورد البُرهانَ أوَّلًا مِن حالِ سائرِ الحيواناتِ، وهو وُقوفُ الطَّيرِ في الهواءِ؛ أورد البُرهانَ بَعْدَه مِن أحوالِ النَّاسِ، وهو هذه الآيةُ، وذكَرَ مِن عجائِبِ ما فيه حالَ السَّمعِ والبَصَرِ والفُؤادِ[1].

وأيضًا لَمَّا كان العرَبُ المَوعوظونَ بهذا الذِّكْرِ يَتغالَونَ في التَّفاخُرِ بالهدايةِ في الطُّرُقِ المحسوسةِ، وعدَمِ الإخلالِ بشُكرِ المعروفِ لِمُسْديه ولو قَلَّ، فنفَى عنهم الأوَّلَ بقِيامِ الأدِلَّةِ على خَطَئِهم الفاحِشِ في كُلِّ ما خالَفوا فيه الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن طريقِهم المعنويِّ الَّذي اتَّخَذوه دِينًا؛ فهو أشرَفُ مِن الطَّريقِ المحسوسِ- أتْبَعَه بيانَ انسِلاخِهم مِنَ الثَّاني مع التأكيدِ؛ لانسلاخِهم مِنَ الأوَّلِ[2].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ المكَذِّبينَ: اللهُ وَحْدَه هو مَنْ أوجَدكم مِنَ العَدَمِ[3].

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾.

أي: وهو الَّذي جعَلَ لكم السَّمعَ لِتَسمَعوا آياتِ اللهِ تعالى، والأبصارَ لِتَنظُروا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

خَلْقَ اللهِ عزَّ وجلَّ، والأفئِدةَ لِتتفكَّروا وتَعتَبِروا فيما سَمِعتُم وشاهَدتُم[١].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

أي: قليلًا ما تَشكُرونَ اللهَ تعالى على ما آتاكم مِنَ السَّمعِ والأبصارِ والأفئِدةِ[٢].

قال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى استدَلَّ بأحوالِ الحيَواناتِ أوَّلًا، ثمَّ بصِفاتِ الإنسانِ ثانيًا، وهي السَّمعُ والبصَرُ والعَقلُ، ثمَّ بحُدوثِ ذاتِ هذا الإنسانِ ثالثًا، وهو قَولُه[٣]:

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ-: اللهُ هو الَّذي نشَرَكم في أقطارِ الأرضِ وأرجائِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٥٩، ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢١٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢).

قال النسفي: (﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذه النِّعَمَ؛ لأنَّكم تُشرِكونَ باللهِ، ولا تُخلِصونَ له العِبادةَ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٦).

وقال ابنُ كثير: (﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: ما أقَلَّ ما تَستَعمِلونَ هذه القُوى الَّتي أنعَمَ اللهُ بها عليكم في طاعتِه، وامتِثالِ أوامِرِه وتَركِ زَواجِرِه!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

﴿وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾.

أي: وإلى اللهِ تُجمَعونَ بعْدَ هذا التَّفرُّقِ والشَّتاتِ، فيَبعَثُكم مِن قُبورِكم للحِسابِ والجَزاءِ[1].

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٥﴾.

أي ويقولُ المُشرِكونَ: متى يكونُ ما تَعِدُونَنا مِنَ الحَشرِ إلى اللهِ إنْ كُنتُم صادِقينَ في وَعْدِكم هذا[2]؟

﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٢٦﴾.

﴿قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاءِ السَّائِلينَ: إنَّما عِلْمُ وقتِ مجيءِ القيامةِ عِندَ اللهِ وَحْدَه، لا يَعلَمُه أحدٌ سِواه[3].

كما قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾.

أي: وما أنا إلَّا مُنذِرٌ لكم عَذابَ اللهِ إنْ كفَرْتُم إنذارًا بيِّنًا واضِحًا تُقامُ به الحُجَّةُ عليكم[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

أي: فلمَّا رأى أولئك الكافِرونَ ما وُعِدُوا به شَديدَ القُربِ منهم وعايَنوه، ساءهم وأفزَعَهم، وأقلَقَ أفئِدتَهم؛ فتغيَّرَت وُجوهُهم وقَبُحَت، وعَلَتْها الكآبةُ[1]!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ * وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ﴾ [الشورى: ٤٤، ٤٥].

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ ﴿تَدْعُونَ﴾ أي: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَدْعُون اللهَ لِيَأتيَكم به[2].

٢- قِراءةُ ﴿تَدَّعُونَ﴾: أي: تَطلبونَ، وقيل: المعنى: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم به تُكَذِّبونَ، فتَدَّعونَ أنَّكم إذا مُتُّم لا تُبعَثونَ. وقيل: معنى ﴿تَدَّعُونَ﴾:

---

= (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

قال البغوي: (﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ يعني: العذابَ في الآخرةِ، على قولِ أكثرِ المفسِّرينَ. وقال مجاهدٌ: يعني: العذابَ ببَدرٍ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٧).

(٢) قرأ بها يعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨١).

تَمْتَرونَ. وقيل: المعنى: تتَمَنَّونَ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ، وهو الدُّعاءُ[١].

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾.

أي: وقِيلَ لهم يومَ القيامةِ تَقريعًا وتَوبيخًا: هذا هو العَذابُ الَّذي كُنتُم تَطلُبونَه وتَسألُونَ تَعجيلَه؛ تكذيبًا واستِبعادًا لوُقوعِه[٢]!

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٩٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٥، ٢٦٦).

قال الماوَرْدي: (في قَولِه: ﴿كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أربعةُ أوجُهٍ:

أحَدُها: تَمتَرونَ فيه وتختَلِفونَ. قاله مقاتِلٌ.

الثَّاني: تَشُكُّونَ في الدُّنيا وتَزعمونَ أنَّه لا يكونُ. قاله الكَلْبيُّ.

الثَّالثُ: تَستَعجِلونَ مِن العَذابِ. قاله زيدُ بنُ أسْلَمَ.

الرَّابعُ: أنَّه دُعاؤُهم بذلك على أنفُسِهم، وهو افتِعالٌ مِن الدُّعاءِ. قاله ابنُ قُتيبةَ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٧). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٥).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تَطلُبون وتَستعجِلونَ به: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، وأبو السعود، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٦).

قال القرطبي: (قال الفرَّاءُ: «﴿تَدَّعُونَ﴾ تَفْتَعِلونَ مِن الدُّعاءِ». وهو قولُ أكثرِ العُلماءِ، أي: تَتمَنَّونَ وتَسألونَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفرَّاء (٣/ ١٧١).

وقال الزجاج: (أمَّا ﴿تَدَّعُونَ﴾ فجاء في التَّفسيرِ: تُكَذِّبونَ. وتأويلُه في اللُّغةِ: هذا الَّذي كنتم مِن أجْلِه تَدَّعُونَ الأباطيلَ والأكاذيبَ، أي: تَدَّعونَ أنَّكم إذا مِتُّم وكنتُم تُرابًا وعِظامًا أنَّكُم لا تُخرَجُونَ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٠١).

قال البِقاعي: (﴿تَدَّعُونَ﴾ أي: تَطلُبون وتُوقِعونَ الطَّلَبَ له طلبًا شديدًا، تَبلُغون فيه غايةَ =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ أنَّه يَنبغي للإنسانِ أنْ يكونَ شُكرُه على حَسَبِ النِّعمةِ؛ ففي السَّمعِ: يَستعمِلُ السَّمعَ فيما يُقَرِّبُ إلى اللهِ، ويَمنَعُه عمَّا حَرَّمَ اللهُ، وكذلك في البَصَرِ، أمَّا القَلبُ: فيَجِبُ عليه أنْ يُعرِضَ بقَلبِه عن كُلِّ ما حَرَّمَ اللهُ، وأنْ يُقْبِلَ بقَلبِه على كُلِّ ما أَمَرَ اللهُ به[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ في ذِكرِ السَّمعِ والبَصَرِ والفُؤادِ هاهنا تَنبيهٌ على دقيقةٍ لَطيفةٍ، كأنَّه تعالى قال: أعطيتُكم هذه الإعطاءاتِ الثَّلاثةَ، معَ ما فيها مِن القُوى الشَّريفةِ، لكِنَّكم ضيَّعتُموها، فلم تَقبَلوا ما سَمِعتُموه، ولا اعتبَرْتُم بما أبصَرْتُموه، ولا تأمَّلْتُم في

---

= الجهدِ على وجهِ الاستعجالِ أن يَستنزِلَ بكم مَكروهَه فِعلَ مَن لا يبالي به بوجهٍ، وتُكرِّرون ذلك الطَّلَبَ، وتَعودون إليه في كلِّ وقتٍ مُعرِضينَ عن السَّعيِ في الخلاصِ فيه مِن عدوانِ العذابِ، ونَيلِ الوعدِ الحسَنِ بجزيلِ الثَّوابِ؛ لبيانِ قوَّةِ طلَبِهم له، وتَداعيهم إليه استِهزاءً به، حتَّى كأنَّهم لا مطلوبَ لهم غيرُه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٦٦).

وقال الواحديُّ: (معناه: كنتُم به تستعجِلونَ، وتَدْعونَ الله بتعجيلِه). ((البسيط)) (٢٢/ ٦٣).

وممَّن قال بأنَّ المعنى: تُكَذِّبونَ: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

قيل: قائِلُ هذا هو اللهُ سبحانَه. ومِمَّن ذهب إلى ذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٠٦).

وقيل: القائِلُ هم خَزَنَةُ جَهنَّمَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والماوَرْدي، والبَغَوي، والزمخشري، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٦١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٧).

وقال ابنُ عاشور: (القائِلُ لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾: ملائِكةُ المحشَرِ، أو خَزَنَةُ جَهنَّمَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠، ٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٥٠).

عاقبةِ ما عَقَلْتُموه، فكأنَّكم ضيَّعتُم هذه النِّعَمَ، وأفسَدْتُم هذه المَواهِبَ؛ فلهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ شُكرَ نِعمةِ اللهِ تعالى هو أن يَصرِفَ تلك النِّعمةَ إلى وَجهِ رِضاه، وأنتم لَمَّا صَرَفتُم السَّمعَ والبَصَرَ والعَقلَ لا إلى طَلَبِ مَرضاتِه، فأنتم ما شكَرْتُم نِعمتَه البتَّةَ[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ذَمُّ مَن لا يَشكُرُ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ بيانُ نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى على الإنسانِ بجَعلِ السَّمعِ والأبصارِ والأفئدةِ الَّتي بها إدراكُ المعقولِ وعَقْلُه؛ فإدراكُ المعقولِ بالسَّمعِ والبَصَرِ، وعقْلُه بالقَلبِ ووَعيُه[٣].

٢- قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ الأفئدةُ: القُلوبُ، وقد ذكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ طريقَ الفَهْمِ ومكانَ الفَهمِ؛ فطريقُ الفَهمِ هو السَّمعُ والبَصَرُ، ومَحَلُّ الفَهمِ والوَعيِ هو القلبُ؛ ولهذا يكونُ السَّمعُ والبصَرُ كقَناتَينِ تَصُبَّانِ في القَلبِ، فيَتلقَّى ما يُسمَعُ أو يُبصَرُ، ثمَّ يَصُبَّانِ في القَلبِ، وهو محلُّ الوَعيِ والإدراكِ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ بيانُ الأساليبِ الَّتي يقومُ بها دُعاةُ الباطلِ؛ حيثُ يَتَحَدَّونَ أهلَ الحقِّ بمِثْلِ هذا التَّحَدِّي، مع العِلمِ بأنَّ الوَعيدَ بالعَذابِ أو نَحوِه هو كالآياتِ تمامًا، والآياتُ عندَ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٥٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٤٧).

٥٠]، وكذلك العَذابُ الَّذي وَعَدَتْ به الرُّسُلُ ليس هو بأيديهم حتَّى يقولوا: أرُونا العَذابَ! وإنَّما العَذابُ عندَ اللهِ تعالى؛ ولهذا كان جوابُ الرُّسُلِ بأمرِ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، فالأمرُ ليس كُلَّما طلَبْتُم أعطَيْناكم، وإنَّما اللهُ عزَّ وجلَّ هو الَّذي يُقَدِّرُ هذه الأشياءَ، فكما أنَّ المشركينَ إذا طَلَبوا آياتٍ يُقالُ لهم: ﴿إِنَّمَا ٱلْأَيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]، فإذا طلبوا نُزولَ العَذابِ نقولُ: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠]، وليس الأمرُ إلينا، وهم لا يقولون ذلك إلَّا تمويهًا على النَّاسِ وتغريرًا بالعامَّةِ، فيقولون: انظرْ هؤلاء يتَوعَّدونَنا إذا كَفَرنا بهم بالعَذابِ، فأين العذابُ؟! فيُؤخَذُ مِن ذلك: بيانُ أساليبِ دُعاةِ الضَّلالِ حيث يُنَوِّعونَها بكلِّ ما يستطيعونَ مِن الشِّدَّةِ لإضلالِ الخَلْقِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّه لا يَجِبُ على مَن بَلَّغَ عنِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا الإنذارُ؛ فأهلُ العِلمِ الَّذين هم وَرَثةُ الأنبياءِ لا يَملِكونَ هدايةَ الخَلْقِ، لكنْ عليهم الإنذارُ والتَّبليغُ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وظيفتُه الإنذارُ لا الهِدايةُ[٣]!

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ المنْقَبةُ للمُنْذِرِ إذا كان مُبينًا في إنذارِه، فيَكونُ فيه مَدْحٌ للفَصاحةِ والبلاغةِ، وقد قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((إنَّ مِن البَيانِ لَسِحْرًا))[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٠). =

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ هذا انتِقالٌ مِن تَوجيهِ اللهِ تعالَى الخِطابَ إلى المشرِكينَ للتَّبصيرِ بالحُجَجِ والدَّلائلِ، وما تَخلَّلَ ذلك مِن الوعيدِ أو التَّهديدِ؛ إلى خِطابِهم على لِسانِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يقولَ لهم ما سيُذكَرُ؛ تَفنُّنًا في البَيانِ، وتَنشيطًا للأذهانِ، حتَّى كأنَّ الكلامَ صَدَرَ مِن قائلَينِ، وتَرفيعًا لقدْرِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإعطائِه حظًّا مِن التَّذكيرِ مَعه. والانتقالُ هنا إلى الاستِدلالِ بفُروعِ المخلوقاتِ بعْدَ الاستدلالِ بأُصولِها، ومِن الاستِدلالِ بفُروعِ أعراضِ الإنسانِ بعْدَ أصْلِها، ومِن الاستِدلالِ بخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ والموتِ والحياةِ إلى الاستِدلالِ بخلْقِ الإنسانِ ومَداركِه، وقد أُتبِعَ الأمرُ بالقولِ بخَمْسةٍ مِثلِه بطَريقةِ التَّكريرِ بدُونِ عاطفٍ؛ اهتِمامًا بما بعْدَ كلِّ أمْرٍ مِن مَقالةٍ يُبلِّغُها إليهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(١).

- وإنَّما أُفرِدَ السَّمعُ ولم يُجمَعْ كما جُمِعَ الأفئدةُ والأبصارُ؛ إمَّا لأنَّه أُريدَ منه المَصدرُ الدَّالُّ على الجِنسِ؛ إذ لا يُطلَقُ على الآذانِ سمْعٌ؛ ألَا تَرى أنَّه جَمَعَ لَمَّا ذَكَرَ الآذانَ في قولِه: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم﴾ [البقرة: ١٩] وقولِه: ﴿وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ [فصلت: ٥]، فلمَّا عبَّرَ بالسَّمعِ أُفرِدَ؛ لأنَّه مَصدرٌ، بخِلافِ الأفئدةِ والأبصارِ؛ فإنَّ الأفئدةَ مُتعدِّدةٌ، والأبصارَ جمْعُ بَصَرٍ الَّذي هو اسمٌ لا مَصدرٌ، وإمَّا لتَقديرِ مَحذوفٍ، أي: حواسَّ سَمْعِهم أو جَوارحَ

---

= والحديث أخرجه البخاريُّ (٥٧٦٧) من حديثِ عبدِ الله بنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما.
وأخرجه مسلمٌ (٨٦٩) مطوَّلًا من حديثِ عمَّارِ بنِ ياسرٍ رضيَ الله عنهما.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٦، ٤٧).

سَمْعِهم. وقد تكونُ في إفرادِ السَّمعِ لَطيفةٌ رُوعِيَت مِن جُملةِ بَلاغةِ القرآنِ؛ هي أنَّ الأفئدةَ كانت مُتفاوِتةً، واشتِغالَها بالتَّفكُّرِ في أمْرِ الإيمانِ والدِّينِ مُختلِفٌ باختلافِ وُضوحِ الأدِلَّةِ، وبالكثرةِ والقِلَّةِ، وتَتلقَّى أنواعًا كثيرةً مِن الآياتِ، فلِكُلِّ عقْلٍ حظُّه مِن الإدراكِ، وكانت الأبصارُ أيضًا مُتفاوِتةَ التَّعلُّقِ بالمَرئيَّاتِ الَّتي فيها دَلائلُ الوَحدانيَّةِ في الآفاقِ، وفي الأنفُسِ الَّتي فيها دَلالةٌ، فلِكُلِّ بصَرٍ حَظُّه مِن الالتِفاتِ إلى الآياتِ المُعجِزاتِ والعِبَرِ والمواعظِ، فلمَّا اختَلَفَت أنواعُ ما تَتعلَّقانِ به جُمِعَت. وأمَّا الأسماعُ فإنَّما كانت تَتعلَّقُ بسَماعِ ما يُلْقى إليها مِن القرآنِ، فالجماعاتُ إذا سَمِعوا القرآنَ سَمِعوه سَماعًا مُتساويًا، وإنَّما يَتفاوَتون في تَدبُّرِه، والتَّدبُّرُ مِن عمَلِ العقولِ، فلمَّا اتَّحَدَ تَعلُّقُها بالمسموعاتِ جُعِلَت سَمْعًا واحدًا[1]. فوحَّدَ السَّمْعَ لِقلَّةِ التَّفاوُتِ فيه؛ لِيَظهَرَ سِرُّ تصَرُّفِه سُبحانَه في القُلوبِ بغايةِ المُفاوَتةِ، مع أنَّه أعظَمُ الطُّرُقِ المُوصِلةِ للمَعاني إليها، وجمَعَ الأبصارَ والأفئِدةَ لكَثرةِ التَّفاوُتِ في نُورِ الأبصارِ، وإدراكِ الأفكارِ[2].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ بَدَأَ بالسَّمعِ لأنَّه أشمَلُ وأعمُّ؛ لأنَّك تَسمَعُ ما لا تَراه، ولَمَّا كان أشمَلَ وأعمَّ كان الابتِلاءُ به -والحمدُ للهِ- أقلَّ، لو نَسَبْتَ الصُّمَّ إلى العُمْيِ لَوجدْتَ النِّسبةَ قليلةً؛ لأنَّ الصَّمَمَ أشدُّ، فوُجودُ السَّمعِ أهمُّ. ولم يَذْكُرْ سُبحانَه «الشَّمَّ والذَّوقَ واللَّمْسَ»؛ لأنَّ الاتِّعاظَ بالآياتِ يكونُ بالسَّمعِ والبَصَرِ[3].

- والقصْرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ المسنَدِ إليه والمسنَدِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٥٥، ٢٥٦) و (٢٩/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٧).

أَنشَأَكُمْ﴾ إلى آخِرِه قصْرُ إفرادٍ[١]؛ بتَنزيلِ المخاطَبين -لشِرْكِهم- مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ الأصنامَ شارَكَت اللهَ في الإنشاءِ، وإعطاءِ الإحساسِ والإدراكِ[٢].

- قولُه: ﴿قَلِيلًا﴾ نَعتٌ لمحذوفٍ، و(ما) مَزيدةٌ لتأْكيدِ القِلَّةِ، أي: شُكرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تَشْكرونَ. أو استُعمِلَ ﴿قَلِيلًا﴾ في معْنى النَّفيِ والعدَمِ، وهذا الإطلاقُ مِن ضُروبِ الكِنايةِ والاقتصادِ في الحكْمِ على طَريقةِ التَّمليحِ القَريبِ مِن التَّهكُّمِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

- إعادةُ فِعلِ ﴿قُلْ﴾ مِن قَبيلِ التَّكريرِ المُشعِرِ بالاهتمامِ بالغرَضِ المَسوقةِ فيه تلك الأقوالُ[٤].

---

(١) القَصرُ أو الحَصرُ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّرِكةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحيي المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْران، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).

- والقصْرُ المُستفادُ مِن تَعريفِ المسنَدِ إليه والمسنَدِ في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قصْرُ إفرادٍ بتَنزيلِ المخاطَبين -لشِرْكِهم- مَنزلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ الأصنامَ شارَكَتَ اللهَ في ذَرْءِ الخَلْقِ في الأرضِ[١].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، قيل: المعنى: بعْدَ أنْ أكثَرَكم في الأرضِ، فهو يُزيلُكم بمَوتِ الأجيالِ، فكُنِّيَ عن الموتِ بالحشرِ؛ لأنَّهم قد عَلِموا أنَّ الحشرَ الَّذي أُنذِروا به لا يكونُ إلَّا بعْدَ البعثِ، والبعثُ بعدَ الموتِ، فالكِنايةُ عن الموتِ بالحشْرِ بمَرتبتَينِ مِن الملازَمةِ، وقد أُدمِجَ في ذلك تَذكيرُهم بالموتِ الَّذي قدْ عَلِموا أنَّه لا بُدَّ منه، وإنذارُهم بالبعثِ والحشْرِ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على عامِلِه للحصرِ[٣]. وقيل: تَقديمُ المعمولِ في ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للاهتِمامِ، والرِّعايةِ على الفاصلةِ، وليس للاختِصاصِ؛ لأنَّهم لم يَكونوا يَدَّعون الحشْرَ أصلًا، فضْلًا عن أنْ يَدَّعوه لغيرِ اللهِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لَمَّا لم تكُنْ لهم مُعارَضةٌ للحُجَّةِ الَّتي في قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ [الملك: ٢٣] إلى ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الملك: ٢٤]؛ انحصَرَ عِنادُهم في مَضمونِ قولِه: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الملك: ٢٤]؛ فإنَّهم قدْ جَحَدوا البعثَ وأعْلَنوا بجَحْدِه، وتَعجَّبوا مِن إنذارِ القرآنِ به، وقال بَعضُهم لبعضٍ: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٧، ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٣/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).

يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [سبأ: ٧، ٨]، وكانوا يَقولون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، واستَمرُّوا على قولِه؛ فلذلك حكاهُ اللهُ عنهم بصِيغةِ المضارعِ المُقتضيةِ للتَّكريرِ[١].

- والاستِفهامُ بقولِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ لأنَّ مِن عادتِهم أنْ يَستهزِئوا بذلك، وأَتَوا بلَفظِ ﴿ٱلْوَعْدُ﴾ استنجازًا له؛ لأنَّ شأْنَ الوعدِ الوفاءُ[٢].

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ جَوابُ الشَّرطِ مَحذوفٌ، أي: إنْ كنتُم صادِقينَ فيما تُخبِرونَه مِن مَجيءِ السَّاعةِ والحشرِ، فبيِّنُوا وقتَهُ[٣].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أمَرَ اللهُ رسولَه بأنْ يُجِيبَ سُؤالَهم بجُملةٍ على خِلافِ مُرادِهم، بلْ على ظاهرِ الاستِفهامِ عن وقْتِ الوعدِ على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ[٤]؛ بأنَّ وقْتَ هذا الوعدِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، فقولُه: ﴿قُلْ﴾ هنا أمْرٌ بقولٍ يَختَصُّ بجَوابِ كَلامِهم، وفُصِلَ دونَ عطْفٍ لجريانِ المَقولِ في سِياقِ المُحاوَرةِ، فلم يُعطَفْ فِعلُ (قُل) بالفاءِ جرْيًا على سَننِ أمثالِه الواقعةِ في المُجاوَبةِ والمحاوَرةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦١).

(٤) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩).

- ولامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْعِلْمُ﴾ للعهْدِ، أي: العِلمُ بوقْتِ هذا الوعدِ، وهذه هي اللَّامُ الَّتي تُسمَّى عِوَضًا عن المُضافِ إليه، وهذا قصْرٌ حَقيقيٌّ[١].

- والقصْرُ في قولِه: ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ قصْرٌ إضافيٌّ[٢]، أي: ما أنا إلَّا نَذيرٌ بوُقوعِ هذا الوعدِ، لا أتجاوَزُ ذلك إلى كَوني عالِمًا بوقْتِه[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ؛ لأنَّها اقتَضَت جُملةً مَحذوفةً تَقديرُها: فحلَّ بهم الوعدُ، فلمَّا رَأَوه... إلخ. أو جُملتَينِ مُقدَّرتينِ، كأنَّه قِيل: وقدْ أتاهم ما وُعِدوا به، فرَأَوه، فلمَّا رَأَوه...[٤].

- وفِعلُ ﴿رَأَوْهُ﴾ مُستعمَلٌ في المُستقبَلِ، وجِيءَ به بصِيغةِ الماضي لشَبَهِه بالماضي في تَحقُّقِ الوُقوعِ؛ لأنَّه صادرٌ عمَّن لا إخلافَ في أخبارِه، وأصلُ المعْنى: فإذا يَرَونه تُساءُ وُجوهُ الَّذين كَفَروا... إلخ، فعُدِلَ عن ذلك إلى صَوغِ الوعيدِ في صُورةِ الإخبارِ عن أمْرٍ وقَعَ، فجِيءَ بالأفعالِ الماضيةِ[٥].

- وقولُهُ: ﴿زُلْفَةً﴾ حالٌ مِن مَفعولِ ﴿رَأَوْهُ﴾؛ إمَّا بتَقديرِ المُضافِ، أيْ: ذا زُلفةٍ وقُرْبٍ، أو على أنَّه مَصدرٌ بمعْنى الفاعلِ، أي: مُزدَلِفًا، أو على أنَّه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩).
والقصر تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٩، ٥٠).

مَصدرٌ نُعِتَ بهِ مُبالَغةً، أي: رَأَوه شَديدَ القُربِ منهم، أي: أخَذَ يَنالُهم، أو ظَرْفٌ، أيْ: رَأَوهُ في مكانٍ ذِي زُلفةٍ(١).

- قولُه: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أُسنِدَ حُصولُ السُّوءِ إلى الوُجوهِ؛ لتَضمينِه معْنى (كَلَحَت)، أي: لأنَّه سُوءٌ شديدٌ تَظهَرُ آثارُ الانفعالِ منه على الوُجوهِ(٢).

- قولُه: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، أي: سِيئَتْ وُجوهُهم، ووُضِعَ الموصولُ مَوضعَ ضَميرِهم؛ لذمِّهم بالكُفرِ، وتَعليلِ المَساءةِ بهِ(٣).

- وقد حُذِفَ مَفعولُ ﴿تَدَّعُونَ﴾؛ لظُهورِه مِن قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الملك: ٢٥]، أي: تَدَّعون أنَّه لا يكونُ، وذلك على قولٍ. والجارُّ والمجرورُ ﴿بِهِۦ﴾ مُتعلِّقٌ بفِعلِ ﴿تَدَّعُونَ﴾؛ لأنَّه ضُمِّن معْنى (تُكذِّبون)؛ فإنَّه إذا ضُمِّن عاملٌ معْنَى عاملٍ آخَرَ يُحذَفُ مَعمولُ العاملِ المذكورِ، ويُذكَرُ مَعمولُ ضِمْنِه؛ لِيَدُلَّ المذكورُ على المحذوفِ، وذلك ضرْبٌ مِن الإيجازِ(٤).

- وتَقديمُ المجرورِ على العاملِ؛ للاهتمامِ بإخطارِه، وللرِّعايةِ على الفاصلةِ(٥).

- قولُه: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ عُدِلَ عن تَعيينِ القائلِ؛ إذ المقصودُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المقولُ دونَ القائلِ، فحذْفُ القائلِ مِن الإيجازِ[١].

- والقصْرُ المستفادُ مِن تَعريفِ جُزأيِ الإسنادِ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى﴾ تَعريضٌ بهم بأنَّهم مِن شِدَّةِ جُحودِهم بمَنزِلةِ مَن إذا رَأَوُا الوعدَ حَسِبوه شيئًا آخَرَ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٨-٣٠)

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يُجِيرُ﴾: أي: يَمنَعُ ويُغيثُ، يُقالُ: أجَرْتُ فُلانًا: أي: حَميتُه ومنَعْتُه[1].

﴿غَوْرًا﴾: أي: غائِرًا ذاهِبًا في الأرضِ لا تَنالُه الدِّلاءُ، وأصلُ (غور): يدُلُّ على خُفوضٍ في الشَّيءِ وانحِطاطٍ[2].

﴿مَّعِينٍ﴾: أي: جارٍ ظاهِرٍ على وَجهِ الأرضِ، يُقالُ: مَعَنَ الماءُ: إذا جرى. والمَعينُ: السَّهلُ الَّذي يَنقادُ ولا يَعتاصُ (يصعبُ إخراجُه)، ومُعنانُ الماءِ: مَسايِلُه ومَجاريه، وأصلُ (معن): يدُلُّ على سُهولةٍ في جَرَيانٍ، وقيل: هو مشتقٌّ مِن العينِ، ووزنُه مفعولٌ، فالميمُ زائدةٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٩١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٩٩، ٦٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٩)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

وقال النَّحَّاس: (﴿مَّعِينٍ﴾ يكونُ فَعيلًا مِن مَعَنَ الماءُ إذا كثُر، ويجوزُ أن يكونَ مفعولًا، ويكونَ الأصل فيه مَعْيونًا، مثل مَبيعٍ، ويكونَ معناه على هذا: الماءُ يُرى بالأعيُنِ). ((إعراب القرآن)) (٤/ ٣١١). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (١٥/ ٥٩٩). =

## المعنى الإجماليُّ:

يأمرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يرُدَّ على ما كان المشركونَ يَتمَنَّوْنَه بالنِّسبةِ له ولأصحابِه، فيقولُ: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الكافِرينَ: أرأَيْتُم إن أماتَنيَ اللهُ ومَن مَعيَ مِن المؤمِنينَ بعذابٍ أو بغيرِه أو رَحِمَنا؛ فمَن يُجيرُكم أنتم مِن عَذابِه الأليمِ ما دُمتُم مُصِرِّينَ على الكُفرِ به؟!

قُلْ لهم: هو ربُّنا الرَّحمنُ آمَنَّا به، وعليه وَحْدَه اعتمَدْنا، فستَعلَمونَ عِندَ مَجيءِ العَذابِ مَن هو في ذَهابٍ بيِّنٍ عن الحَقِّ!

ثمَّ يخبرُ تعالى عن انفِرادِه بالنِّعَمِ، ومنها نِعمةُ الماءِ الَّذي يَشرَبونَه، فيقولُ: وقُلْ لهم: أَرأيتُم إن أصبَحَ ماؤُكم غائِرًا في الأرضِ، فمَن يأتيكم بماءٍ ظاهرٍ جارٍ على وَجْهِ الأرضِ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مِن بَذاءةِ المشرِكين أنْ يَجهَروا بتَمنِّي هَلاكِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهلاكِ مَن معه مِن المسلمينَ، وكانوا يَتآمَرون على قتْلِه؛ أمَرَه اللهُ بأنْ

---

= وقال ابن عطية: (المَعِين: فَعيلٌ مِن مَعَنَ الماءُ إذا كثُر، أو مفعولٌ من العَينِ، أي: جارٍ كالعَينِ، أصلُه مَعْيونٌ، وقيل هو مِن العَينِ، لكنْ مِن حيثُ يُرى بعينِ الإنسانِ، لا مِن حيثُ يُشبَّهُ بالعَينِ الجاريةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٤).

وقال الأصبهاني: (المَعِينُ: الَّذي تَراه العُيونُ، وقيل المَعِينُ: الجاري، وهو قولُ قَتادةَ والضَّحَّاكِ؛ فعلى القولِ الأوَّلِ يكونُ مفعولًا مِن العَينِ، كمَبِيعٍ مِن البَيعِ ومَكيلٍ مِن الكَيلِ، وعلى القولِ الثَّاني يكونُ في تقديرِ الفاعلِ، وتكونُ ميمُه أصليَّةً، ويكونُ مِن الإمعانِ في الجَري. ويجوزُ أن يكونَ في معنَى مفعولٍ، فتكونَ الميمُ زائدةً، كأنّه قد أُجريَ عُيونًا). ((إعراب القرآن)) (ص: ٤٥٨).

يُعرِّفَهم حَقيقةً تَدحَضُ أمانِيَّهم، وهي أنَّ موتَ أحدٍ أو حياتَه لا يُغْني عن غيرِه ما جرَّه إليه عمَلُه، وقد جرَّت إليهم أعمالُهم غضَبَ اللهِ ووَعيدَه، فهو نائلُهم حَيِيَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو بادَرَه المَنونُ[1]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لهؤلاء الَّذين يتضَجَّرونَ مِنك، ويَتمَنَّونَ هَلاكَك والمؤمِنينَ معك: أرأيتُم إن أماتَنيَ اللهُ ومَن معيَ مِن المؤمِنينَ بعَذابٍ أو غيرِه، أو رَحِمَنا[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

قال ابن جُزَي: (الهلاكُ هنا يحتملُ أن يُرادَ به الموتُ أو غيرُه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٧).

وقال الشَّوكاني: (أخبِروني إن أهلَكنيَ الله بموتٍ أو قتلٍ، ومَن مَعيَ مِن المؤمنينَ، أو رَحِمَنا بتأخيرِ ذلك إلى أجَلٍ. وقيل: المعنى: إنْ أهلَكنيَ اللهُ ومَن معي بالعذابِ، أو رَحِمَنا فلمْ يُعَذِّبْنا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإهلاكِ: الإماتةُ، وبالرَّحمةِ: التَّأخيرُ في الأجَلِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والقرطبي، والبيضاوي، والنَّسَفي، والعُلَيمي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإهلاكِ: العذابُ، وبالرَّحمةِ: عدمُ العذابِ -وبعضُهم قال: المغفرةُ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، وابن الجوزي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٦١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٧).

وقال البِقاعي: (﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ﴾ أي: أماتَني بعذابٍ أو غيرِه، ... ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بالنُّصرةِ وإظهارِ الإسلامِ كما نرجو، فأنجانا بذلك مِن كلِّ سوءٍ، ووَقانا كلَّ مَحذورٍ، وأنالَنا كلَّ سرورٍ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٦٨).

﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أي: لا يَنفَعُكم وُقوعُ ما تَتمَنَّونَ لنا مِنَ الهَلاكِ؛ فسَواءٌ أهلَكَنا اللهُ أو رَحِمَنا، فلا نجاةَ لكم مِن عَذابِه الأليمِ ما دُمتُم مُصِرِّينَ على الكُفرِ به[١].

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: هو ربُّنا الرَّحمنُ آمَنَّا به، وعليه وَحْدَه اعتمَدْنا[٢].

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

أي: فستَعلَمونَ عِندَ مَجيءِ العَذابِ مَن هو في خَطَأٍ واضِحٍ وذَهابٍ بيِّنٍ عن الحَقِّ: أنحن أم أنتم[٣]؟!

قال تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه يَجِبُ أن يُتوكَّلَ عليه لا على غَيرِه؛ ذكَرَ الدَّليلَ عليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٦٨، ٢٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٢، ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٧).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى العَذابَ، وهو مُطلَقٌ؛ ذكَرَ فَقْدَ ما به حياةُ النُّفوسِ، وهو الماءُ، وهو عذابٌ مَخصوصٌ(١).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾.

أي: قُلْ لهم -يا محمَّدُ-: أَرأيتُم إن أصبَحَ ماؤُكم غائِرًا في الأرضِ بحيثُ لا تَقدِرونَ على تناوُلِه أو استِخراجِه(٢).

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾.

أي: فمَن يأتيكم إذَنْ بماءٍ ظاهرٍ جارٍ على وَجْهِ الأرضِ تراه العُيونُ؟! لا يَقدِرُ على ذلك أحدٌ غيرُ اللهِ عزَّ وجلَّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿مَّعِينٍۭ﴾ أي: ظاهِرٍ تَراه العُيونُ، وتَنالُه الأيدي والدِّلاءُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والواحديُّ -ونسَبَه لقولِ المفسِّرينَ-، والبَغَويُّ، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والخازن، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٧٩)، ((تفسير الثعلبي)) (٩/ ٣٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٦٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٥٩٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٦). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾، فإذا كانت هذه حالَ الرَّسولِ وحالَ مَنِ اتَّبعَه، وهي الحالُ الَّتي تتعيَّنُ للفلاحِ، وتتوقَّفُ عليها السَّعادةُ، وحالةُ أعدائِه بضِدِّها، فلا إيمانَ لهم ولا توَكُّلَ؛ عُلِم بذلك مَن هو على هدًى، ومَن هو في ضلالٍ مبينٍ[1].

٢- عن صالحِ بنِ أحمَدَ، قال: (كان أبي لا يَدَعُ أحدًا يَستقي له الماءَ لِوُضوئِه إلَّا هو، وكان إذا خَرجَت الدَّلوُ مَلْأَى، قال: الحمدُ لله! قُلتُ: يا أبَتِ، أيُّ شَيءٍ الفائِدةُ في هذا؟! فقال: يا بُنيَّ، أمَا سَمِعتَ اللهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾؟!)[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ فيه إفرادُ الله تعالى بالتَّوكُّلِ، ويُؤخَذُ مِن تقديمِ المعمولِ على عامِلِه؛ لأنَّ تقديمَ ما حقُّه التَّأخيرُ يُفيدُ الحصرَ، وهذه قاعِدةٌ، فلا يجوزُ التَّوكُّلُ إلَّا على اللهِ، كما قال تعالى أيضًا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

---

= وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ معنى ﴿مَّعِينٍ﴾: ظاهرٌ: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٩).

وممَّن اختار أنَّ معنى ﴿مَّعِينٍ﴾ جارٍ: النَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥١٧).

وممَّن قال به مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٣٩).

وقال جلال الدين المحلِّي: (جارٍ تَنالُه الأيدي والدِّلاءُ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٧).

وقال ابن كثير: (﴿مَّعِينٍ﴾ أي: نابعٌ سائحٌ جارٍ على وجهِ الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٣).

وقال العُلَيمي: (﴿مَّعِينٍ﴾ جارٍ ظاهرٍ تَراه العُيونُ، وتَنالُه الأيدي). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

(٢) يُنظر: ((مناقب الإمام أحمد)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٢).

ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم: ١٢]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[١] [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠].

٢- قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ التَّوكُّلُ هو الحامِلُ للأعمالِ كُلِّها، فلا تُوجَدُ ولا تَكمُلُ إلَّا به، قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: (التَّوكُّلُ على اللهِ جِماعُ الإيمانِ)[٢].

٣- قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ إنَّ التَّوكُّلَ مِن لوازِمِ الإيمانِ ومُقتَضياتِه، وإنَّ قوَّةَ التَّوكُّلِ وضَعْفَه بحسَبِ قوَّةِ الإيمانِ وضَعفِه، وكلَّما قَوِيَ إيمانُ العبدِ كان تَوكُّلُه أقوى، وإذا ضَعُفَ الإيمانُ ضعُف التَّوكُّلُ، وإذا كان التَّوكُّلُ ضعيفًا فهو دليلٌ على ضَعفِ الإيمانِ ولا بُدَّ، واللهُ تعالى يَجمَعُ بيْنَ التَّوكُّلِ والإيمانِ، كما في قولِه أيضًا: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: ٢٣]، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٣] [آل عمران: ١٢٢، ١٦٠].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾، لَمَّا افتتَح -سُبحانَه- السُّورةَ بعظيمِ بَرَكَتِه، وتمامِ قُدرتِه، وتفرُّدِه في مملكتِه، ودلَّ على ذلك بتفرُّدِه بالإماتةِ والإحياءِ، ختَم بمثلِ ذلك: بالماءِ الَّذي وُجودُه هو سببٌ للحياةِ، وعدمُه سببٌ للموتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٣١٥).

وأثرُ سعيدِ بنِ جُبيرٍ أخرجه ابنُ أبي شيبةَ في ((المصنف)) (٣٦٤٩٠)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٤/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٧١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

- الاستِفهامُ في ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ إنكاريٌّ؛ أنكَرَ اندفاعَهم إلى أُمنيَّاتٍ ورغائبَ لا يَجتَنون منها نفْعًا، ولكنَّها ممَّا تُمْليه عليهم النُّفوسُ الخبيثةُ مِن الحقدِ والحسَدِ. والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ، وفِعلُها مُعلَّقٌ عن العملِ؛ فلذلك لم يَرِدْ بعْدَه مَفعولاهُ، وهو مُعلَّقٌ بالاستِفهامِ الَّذي في جُملةِ جَوابِ الشَّرطِ، فتَقديرُ الكلامِ: أرأَيْتُم أنفُسَكم ناجينَ مِن عذابٍ أليمٍ إنْ هلَكْتُ وهلَكَ مَن معي؟! فهَلاكُنا لا يَدفَعُ عنكمُ العذابَ المُعَدَّ للكافِرين، وأُقحِمَ الشَّرطُ بيْن فِعلِ الرُّؤيةِ وما سدَّ مَسدَّ مَفعولَيْه[1].

- قولُه: ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾، قيل: أي: أماتَني، والإهلاكُ: الإماتةُ، والتَّعبيرُ عنه بالإهلاكِ لِما كانُوا يَدْعون عليه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وعلى المؤمنينَ بالهلاكِ، وعلى هذا القولِ فمُقابَلةُ ﴿أَهْلَكَنِيَ﴾ بـ ﴿رَحِمَنَا﴾ يدُلُّ على أنَّ المرادَ: أو رَحِمَنا بالحياةِ، فيُفيدُ أنَّ الحياةَ رحمةٌ، وأنَّ تأْخيرَ الأجَلِ مِن النِّعَمِ[2]. وأيضًا على هذا القولِ إنَّما سمَّى الحياةَ رحمةً للرَّسولِ ولِمَن معه؛ لأنَّ في حَياتِه نِعمةً له وللنَّاسِ ما دام اللهُ مُقدِّرًا حياتَه، وحياةُ المؤمنِ رحمةٌ؛ لأنَّه تَكثُرُ له فيها بَرَكةُ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ[3].

- والاستفهامُ بقولِه: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ إنكاريٌّ، أي: لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٢).

يُجيرُهم منه مُجيرٌ، أي: أظنَنْتُم أنْ تَجِدوا مُجيرًا لكم إذا هَلَكْنا؟! فذلك مُتعذِّرٌ، فماذا يَنفَعُكم هَلاكُنا[١]؟!

- والمرادُ بالكافِرين جميعُ الكافرينَ، فيَشملُ المُخاطَبينَ. والكلامُ بمَنزِلةِ التَّذييلِ، وفيه حذْفٌ، تَقديرُه: مَن يُجيرُكم مِن عذابٍ؛ فإنَّكم كافِرون، ولا مُجيرَ للكافِرين. وذُكِرَ وصْفُ الكافرين؛ لِما فيه مِن الإيماءِ إلى عِلَّةِ الحكْمِ؛ لأنَّه وصْفٌ إذا عُلِّقَ به حكْمٌ أفاد تَعليلَ ما منه اشتقاقُ الوصْفِ[٢].

وقيل: قولُه: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: فمَن يُجيرُكم، ووُضِعَ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مَوضِعَ ضَميرِهم؛ للتَّسجيلِ عليهِم بالكفرِ، وتَعليلِ نَفيِ الإنجاءِ به[٣].

- وتَنكيرُ ﴿عَذَابٍ﴾ للتَّهويلِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

- قولُه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ جاء الأمرُ بقولٍ يَقولُه لهم بمُناسَبةِ قولِه: ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ [الملك: ٢٨]؛ فإنَّه بعْدَ أنْ سوَّى بيْن فرْضِ إهلاكِ المسلمينَ وإحيائِهم في أنَّ أيَّ الحالينِ فُرِضَ لا يُجيرُهم معه أحدٌ مِن العذابِ؛ أعقَبَهُ بأنَّ المسلمينَ آمَنوا بالرَّحمنِ، فهم مَظِنَّةُ أنْ تَتعلَّقَ بهم هذه الصِّفةُ، فيَرحَمَهم اللهُ في الدُّنيا والآخرةِ، فيَعلَمَ المشرِكون عِلمَ اليقينِ أيُّ الفريقينِ في ضَلالٍ حينَ يَرَون أثَرَ الرَّحمةِ على المسلمينَ، وانتِفاءَه عن المشرِكين في الدُّنيا، وخاصةً في الآخرةِ، وضَميرُ ﴿هُوَ﴾ عائدٌ إلى اللهِ تعالَى الواقعِ في الجُملةِ قبْلَه، أي: اللهُ هو الَّذي وَصْفُه الرَّحمنُ فهو يَرحَمُنا، وإنَّكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٣).

أنْكَرْتُم هذا الاسمَ، فأنتم أحرياءُ بأنْ تُحرَموا آثارَ رَحمتِه، ونحن تَوكَّلْنا عليه دونَ غيرِه، وأنتم غَرَّكم عِزُّكم، وجعَلْتُم الأصنامَ مُعتمَدَكم ووُكلاءَكم. وبهذه التَّوطئةِ يقَعُ الإيماءُ إلى الجانبِ المهْتدي والجانبِ الضَّالِّ مِن قولِه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّه يَظهرُ بَداءَ تأمُّلٍ أنَّ الَّذين في ضَلالٍ مُبينٍ هم الَّذين جَحَدوا وصْفَ الرَّحمنِ، وتَوكَّلوا على الأوثانِ[1].

- وخَصَّ اللهُ التَّوكُّلَ مِن بيْنِ سائرِ الأعمالِ، معَ أنَّه داخِلٌ في الإيمانِ، ومِن جُملةِ لَوازِمِه؛ لأنَّ وُجودَ الأعمالِ وكَمالَها مُتوَقِّفٌ على التَّوكُّلِ[2].

- وتَقديمُ مَعمولِ ﴿تَوَكَّلْنَا﴾ عليه؛ لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: تَوكَّلْنا عليه دونَ غيرِه؛ تَعريضًا بمُخالَفةِ حالِ المشركينَ؛ إذ تَوكَّلوا على أصنامِهم، وأشْرَكوها في التَّوكُّلِ مع اللهِ، أو نَسُوا التَّوكُّلَ على اللهِ باشتغالِ فِكرتِهم بالتَّوجُّهِ إلى الأصنامِ. وإنَّما لم يُقدَّمْ مَعمولُ ﴿ءَامَنَّا﴾ عليه، فلم يُقَلْ: (به آمَنَّا)؛ لمُجرَّدِ الاهتمامِ إلى الإخبارِ عن إيمانِهم باللهِ؛ لوُقوعِه عقِبَ وصْفِ الآخَرينَ بالكفْرِ في قولِه: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨]؛ فإنَّ هذا جوابٌ آخَرُ عن تَمنِّيهم له الهلاكَ سُلِكَ به طَريقُ التَّبكيتِ، أي: هو الرَّحمنُ يُجيرُنا مِن سُوءٍ تَرُومُونه لنا؛ لأنَّنا آمَنَّا به، ولم نَكفُرْ به كما كفَرْتُم، فلمْ يكُنِ المقصودُ في إيرادِه نفْيَ الإشراكِ وإثباتَ التَّوحيدِ؛ إذ الكلامُ في الإهلاكِ والإنجاءِ المعبَّرِ عنه بـ ﴿رَحِمَنَا﴾ [الملك: ٢٨]، فجِيءَ بجُملةِ ﴿ءَامَنَّا﴾ على أصلِ مُجَرَّدِ معْناها دونَ قصْدِ الاختصاصِ، بخِلافِ قولِه: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾؛ لأنَّ التَّوكُّلَ يَقْتضي مُنجيًا وناصرًا، والمشركون مُتوكِّلون على أصنامِهم وقوَّتِهم وأموالِهم، فقيل: نحنُ لا نتَّكِلُ على ما أنتُم مُتَّكِلون عليه، بلْ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

الرَّحمنِ وحْدَه تَوكَّلْنا[١].

- قولُه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (مَن) مَوصولةٌ، وماصَدَقَ[٢] (مَن) فريقٌ مُبهَمٌ مُتردِّدٌ بيْن فَريقَينِ تَضمَّنَهما قولُه: ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ [الملك: ٢٨]، وقولُه: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الملك: ٢٨]؛ فأحدُ الفريقَينِ فريقُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَن معه، والآخرُ فريقُ الكافِرين، أي: فسَتعْلَمون اتِّضاحَ الفريقِ الَّذي هو في ضَلالٍ مُبينٍ[٣].

- قولُه: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ قُرِئَ بياءِ الغائبِ[٤]، على أنْ يكونَ إخبارًا مِن اللهِ لرسولِه بأنَّه سيُعاقِبُهم عِقابَ الضَّالِّينَ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ هذا إيماءٌ إلى أنَّهم يَترقَّبُهم عَذابُ الجُوعِ بالقحْطِ والجَفافِ؛ فإنَّ مكَّةَ قَليلةُ المياهِ، ولم تكُنْ بها عُيونٌ ولا آبارٌ قبْلَ زَمزمَ[٦].

- وأصْلُ الغَورِ: ذَهابُ الماءِ في الأرضِ، مَصدرُ: غار الماءُ؛ إذا ذهَبَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٤، ٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٢).

(٢) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يُقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٤).

(٤) وهي قِراءةُ الكِسائيِّ، وقرأها الباقونَ بالتَّاءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الأرضِ، والإخبارُ به عن الماءِ مِن بابِ الوصْفِ بالمصدَرِ للمُبالَغةِ[١].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ استفهامٌ إنكاريٌّ، أي: لا يأْتِيكم أحدٌ بماءٍ مَعينٍ، أي: غيرُ اللهِ، واكْتُفِيَ عن ذِكرِه؛ لظُهورِه مِن سِياقِ الكلامِ، ومِن قولِه قبْلَه: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الملك: ٢٠] الآيتَينِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

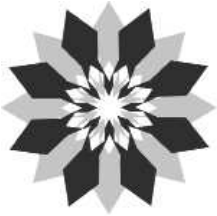

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ القَلَمِ

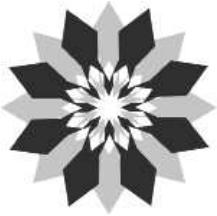

# سورةُ القَلَمِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القَلَم)[١].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

سُورةُ القَلَمِ مِن أوائلِ ما نزَلَ مِن القرآنِ الكريمِ[٢].

وهي آخِرُ سورةٍ في ترتيبِ المُصحَفِ افتُتِحَتْ بواحدٍ مِن هذه الحروفِ المُقطَّعةِ[٣].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ القَلَمِ مكِّيَّةٌ[٤]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٥].

---

(١) اشتُهِرت تَسميةُ هذه السُّورةِ بسُورةِ (القَلَم)؛ لافتتاحِها بما أقسَمَ اللهُ به، وهو قولُه: ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾، وتُسمَّى سُورةَ ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ﴾ على حِكايةِ اللَّفظَينِ الواقِعَينِ في أوَّلِها، وتُسمَّى سُورةَ (ن) اقتِصارًا على الحرفِ المفردِ. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: ٩٢)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٦).

(٤) وقيل: مِن قولِه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ ...﴾ آية (١٧) إلى قولِه: ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ آية (٣٣)، ومِن قولِه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ آية (٤٨) إلى قولِه: ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ آية (٥٠) مَدَنيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١).

(٥) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣١٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١١٠).

وقال السمعاني: (هي مكِّيَّةٌ في قولِ الأكثَرينَ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

١- إبطالُ مَطاعِنِ المشركينَ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبَيانُ ضَلالِهم[١].

٢- إثباتُ كَمالاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدُّنيا والآخِرةِ، وتَثبيتُه[٢].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- تَحدِّي المشركينَ بهذا القُرآنِ الكريمِ.

٢- الثَّناءُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأفضَلِ أنواعِ الثَّناءِ، وتَسليتُه عمَّا أصابَه مِن أعدائِه.

٣- نهْيُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن مُداهَنةِ المشركينَ، أو مُلاينَتِهم، أو مُوافَقتِهم على مُقترَحاتِهم الماكرةِ.

٤- بَيانُ سُوءِ أخلاقِ بَعضِ الكُفَّارِ وجَزائِهم.

٥- ضَرْبُ المثَلِ لأهلِ مكَّةَ بأصحابِ الجنَّةِ؛ لَعلَّهم يَعتبِرونَ.

٦- الموازنةُ بيْن عاقِبةِ الأخيارِ والأشرارِ.

٧- تَسفيهُ المشركينَ وتَوبيخُهم، وإقامةُ الحُجَجِ عليهم، وتَهديدُهم.

٨- تُختَتَمُ السُّورةُ بتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمْرِه بالصَّبرِ على أذى أعدائِه.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١-٧)

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَسۡطُرُونَ﴾: أي: يَكتُبونَ ويَخُطُّونَ، والسَّطرُ: الصَّفُّ مِن الكِتابةِ، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ شَيءٍ[1].

﴿مَمۡنُونٖ﴾: أي: مَقطوعٍ مَنقوصٍ، وأصلُ (منن): يدُلُّ على قَطعٍ[2].

﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾: أي: الَّذي فُتِنَ بالجُنونِ، وقيل: مَفتونٌ: بمعنى فِتنةٍ، كما يُقالُ: ليس له معقولٌ، أي: عقلٌ، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختبارٍ وامتحانٍ[3].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾

قَولُه تعالى: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾: في تعَلُّقِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أَنْ تكونَ الباءُ سَببيَّةً،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤).

وتتعلَّقُ حينَئذٍ بمَضمونِ الجُملةِ المنفيَّةِ، والمعنى: انتفَى عنك الجُنونُ؛ بسَبَبِ نِعمةِ اللهِ عليك. الثَّاني: أنَّ الباءَ للمُلابَسةِ، تتعَلَّقُ بمحذوفٍ في مَوضِعِ نَصبٍ على الحالِ اللَّازِمةِ، والتَّقديرُ: ما أنت مجنونًا مُتلبِّسًا بنِعمةِ ربِّك الَّتي هي النُّبوَّةُ. الثَّالثُ: أنَّه مُقْسَمٌ به متوسِّطٌ بيْن اسمِ (ما) وخبَرِها، وجَوابُ القَسَمِ مَحذوفٌ لِدَلالةِ هذا المذكورِ عليه، والتَّقديرُ: ونِعمةِ ربِّك ما أنتَ بمجنونٍ[1].

٢- قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾

فيه أوجُهٌ مِنَ الإعرابِ: الأوَّلُ: ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ خَبَرٌ مقدَّمٌ. ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾: مبتدَأٌ مُؤخَّرٌ. والباءُ: ظَرفيَّةٌ بمعنى «في»، والمعنى: في أيِّ فِرقةٍ وطائفةٍ منكم المفتونُ، والمَفْتونُ: مصدرٌ جاء على مَفْعولٍ، بمعنى الفِتنةِ، أي: بأيِّكم الفِتنةُ والفَسادُ. الثَّاني: ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾: الباءُ: حرفُ جَرٍّ زائدٌ. و«أَيِّكُم»: مبتدأٌ مجرورٌ لَفظًا مرفوعٌ محَلًّا. ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾: خبَرٌ مرفوعٌ، والمعنى: أيُّكم المفتونُ. وزِيدَت الباءُ في المُبتدَأِ كما زِيدَت في قَولِه: «بحَسْبِك دِرهَمٌ». والجملةُ كلُّها في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ لـ «يُبْصِرُون»، ولا يُوقَفُ على (يُبْصِرونَ). أو الكَلامُ تمَّ عندَ «يُبْصِرُونَ»، ثمَّ استأنفَ: ﴿بِأَيِّيكُمُ﴾. والجُملةُ استئنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِن الإعرابِ. الثَّالثُ: أن تكونَ «أيُّكم» مَوصولةً لا استِفهاميَّةً، وتكونَ مَفعولًا به للفِعلِ قَبْلَها، والباءُ زائِدةٌ في المفعولِ، وصدرُ الصِّلةِ محذوفٌ، والتَّقديرُ: فستُبصِرُ ويُبصِرونَ الَّذي هو المفتونُ منكم[2].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١١٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٥، ٣٩٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٩/ ٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧)، ((التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل)) لأبي حيان (٦/ ٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٠١)، ((مغني اللبيب)) لابن هشام (ص: ١٤٨).

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأحَدِ الحُروفِ المُقَطَّعةِ ﴿نٓ﴾، ثمَّ أقسَمَ اللهُ سبحانَه بالقَلَمِ وما يَكتُبونَ على نَفيِ الجُنونِ عن نَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتَلَبُّسِه بنِعمةِ رَبِّه عليه مِنَ الهُدى والوَحيِ، ثمَّ أخبَرَ نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ له ثَوابًا عظيمًا غيرَ مَقطوعٍ أو مَنقوصٍ، وأثنَى عليه بأجمَلِ ثَناءٍ وأطْيَبِه بأنَّه على خُلُقٍ كَريمٍ، وأدَبٍ عَظيمٍ.

ثمَّ خاطَبَه تعالى قائلًا: فستَرى وتَعلَمُ -يا محمَّدُ- ويَرى كُفَّارُ قُرَيشٍ ويَعلَمونَ: أيُّكم المَفتونُ بالجُنونِ، والضَّلالِ عن الحَقِّ؟! إنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن طريقِ الحَقِّ، وهو أعلَمُ بالمهتَدينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾.

﴿نٓ﴾.

افتُتِحَت هذه السُّورةُ بهَذا الحرْفِ مِن الحُروفِ المقطَّعةِ التي تُستفتَحُ بها كَثيرٌ مِن سُوَرِ القرآنِ؛ لبَيانِ إعجازِه، حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن مُعارَضتِه بمِثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحُروفِ العربيَّةِ التي يَتحدَّثونَ بها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (١/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن عُثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٢٤).

قال ابنُ عطية: (﴿نٓ﴾ حرفٌ مُقَطَّعٌ في قولِ الجُمهورِ مِن المفَسِّرينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٥).

وقال ابنُ القيِّمِ: (الصَّحيحُ أنَّ «ن» و«ق» و«ص» مِن حروف الهجاءِ الَّتي يَفتتِحُ بها الرَّبُّ سُبحانَه بعضَ السُّوَرِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٠٣). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٤).

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾.

أي: أُقسِمُ بالقَلَمِ وما يَكتُبونَ(١).

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٤، ٥].

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾.

أي: لستَ -يا محمَّدُ- بسَبَبِ ما أنعَمَ اللهُ به عليك مِنَ الهُدى والوَحيِ والنُّبوَّةِ؛ بمَجنونٍ كما يَزعُمُ المُشرِكونَ(٢)!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٥-١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٤، ٢٢٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٦-٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٠).

والقَلَمُ المذكورُ هنا: قيل: هو الَّذي خلَقَه اللهُ تعالى فأمَرَه فجرى بكتابةِ جميعِ ما هو كائِنٌ إلى يومِ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٥).

قالَ الواحديُّ: (... جميع المفسِّرينَ قالوا: هو القلمُ الَّذي كُتِب به اللَّوحُ المحفوظُ). ((البسيط)) (٢٢/ ٧٣).

وقيل: المرادُ: جِنسُ القلمِ الَّذي يُكتَبُ به، فهو عامٌّ في كُلِّ قَلَمٍ مِمَّا يَكتُبُ به مَن في السَّماءِ ومَن في الأرضِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٧).

قال الماوَرْدي: (أمَّا ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ ففيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه القَلَمُ الَّذي يَكتُبونَ به؛ لأنَّه نِعمةٌ عليهم، ومَنفعةٌ لهم، فأقسَمَ بما أنعَمَ. قاله ابنُ بحر. الثَّاني: أنَّه القَلَمُ الَّذي يُكتَبُ به الذِّكرُ على اللَّوحِ المحفوظِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٠).

وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾: ما تَكتُبُ الملائكةُ الحَفَظةُ مِن أعمالِ بني آدمَ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: =

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ثبَّتَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فدفَعَ بُهتانَ أعدائِه؛ أعقَبَه بإكرامِه بأجْرٍ عظيمٍ على ما لَقِيَه مِن المشرِكينَ مِن أذًى بقولِه[1]:

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾.

أي: وإنَّ لك -يا محمَّدُ- لَثَوابًا عظيمًا غيرَ مَقطوعٍ أو مَنقوصٍ[2].

---

= ٢١٣-٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٦٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

قال الواحديُّ: (هذا جوابٌ لِقَولِهم: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]، فأقسَمَ اللهُ بنُون، وبالقَلَم، وبأعمالِ بني آدمَ، فقال: ما أنت -يا محمَّدُ- بنِعمةِ رَبِّك، أي: بإنعامِه عليك بالإيمانِ والنُّبُوَّة؛ بمَجنونٍ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٣٣). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦١).

وقال ابنُ القيِّم: (المُقسَمُ عليه بالقَلَم والكتابةِ في هذه السُّورةِ تنزيهُ نَبيِّه ورَسولِه عمَّا يقولُ فيه أعداؤُه، وهو قَولُه تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وأنت إذا طابَقْتَ بيْنَ هذا القسَم والمقسَم به وجَدْتَه دالًّا عليه أظهَرَ دَلالةٍ وأبْيَنَها؛ فإنَّ ما سَطَر الكاتِبُ بالقلَمِ مِن أنواعِ العُلومِ الَّتي يتلقَّاها البشَرُ بَعضُهم عن بعضٍ لا تَصدُرُ مِن مجنونٍ، ولا تَصدُرُ إلَّا مِن عَقلٍ وافرٍ، فكيف يَصدُرُ ما جاء به الرَّسولُ مِن هذا الكتابِ الَّذي هو في أعلى دَرَجاتِ العُلومِ، بل العلومُ الَّتي تضمَّنَها ليس في قُوى البشَرِ الإتيانُ بها، ولا سيَّما مِن أُمِّيٍّ لا يقرأُ كِتابًا ولا يخُطُّ بيَمينِه؟! مع كَونِه في أعلى أنواعِ الفصاحةِ، سليمًا مِن الاختلافِ، بَريًّا مِن التَّناقُضِ، يَستحيلُ مِن العقلاءِ كلِّهم لو اجتمَعوا في صعيدٍ واحدٍ أنْ يأتوا بمِثْلِه ولو كانوا في عَقلِ رجُلٍ واحدٍ منهم، فكيف يَتأتَّى ذلك مِن مجنونٍ لا عَقْلَ له يُمَيِّزُ به ما عسى كثيرٌ مِن الحيوانِ أنْ يُمَيِّزَه؟! وهل هذا إلَّا مِن أقْبَحِ البُهتانِ، وأظْهَرِ الإفكِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير =

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ هذا كالتَّفسيرِ لِما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٢]، وتَعريفٌ لِمَن رماهُ بالجنونِ بأنَّ ذلك كذِبٌ وخطأٌ؛ وذلك لأنَّ الأخلاقَ الحميدةَ، والأفعالَ المَرْضيَّةَ كانت ظاهرةً منه، ومَن كان موصوفًا بتلك الأخلاقِ والأفعالِ لم يَجُزْ إضافةُ الجنونِ إليه؛ لأنَّ أخلاقَ المجانينِ سيِّئةٌ[١].

فبَعْدَ أنْ آنَسَ اللهُ سُبحانَه نفْسَ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالوعْدِ، عاد إلى تَسفيهِ قولِ الأعداءِ، فحقَّقَ أنَّه مُتلبِّسٌ بخُلقٍ عَظيمٍ، وذلك ضِدُّ الجُنونِ[٢].

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

أي: وإنَّك -يا محمَّدُ- لَعلى طَبعٍ كَريمٍ، وأدَبٍ عَظيمٍ بهذا الدِّينِ القويمِ، والقُرآنِ الكَريمِ[٣].

---

= القرطبي)) (١٨/ ٢٢٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

قال الشوكاني: (﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: غيرَ مَقطوعٍ، يُقالُ: مَنَنْتُ الحبْلَ: إذا قطَعْتَه. وقال مجاهدٌ: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: غيرَ محسوبٍ. وقال الحسَنُ: ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾: غيرَ مُكَدَّرٍ بالمَنِّ. وقال الضَّحَّاكُ: أجرًا بغيرِ عمَلٍ. وقيل: غيرَ مُقَدَّرٍ. وقيل: غيرَ مَمنونٍ به عليك مِن جِهةِ النَّاسِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦١).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: وإنَّك يا محمَّدُ لَعلَى أدبٍ عظيمٍ، وذلك أدبُ القرآنِ الَّذي أدَّبه اللهُ به، وهو الإسلامُ وشرائعُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٠). =

كما قال تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعن سَعدِ بنِ هِشامِ بنِ عامِرٍ، أنَّه قال لعائشةَ رضيَ الله عنها: ((يا أمَّ المؤمنينَ، أنبئِيني عن خُلُقِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. قالت: ألَسْتَ تَقرَأُ القُرآنَ؟ قُلتُ: بلى. قالت: فإنَّ خُلُقَ نَبيِّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان القُرآنَ))[1].

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خدَمْتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَشْرَ سِنينَ، واللهِ ما قال لي أُفًّا قَطُّ، ولا قال لي لشَيءٍ: لِمَ فَعَلْتَ كذا؟ وهلَّا فعَلْتَ كذا!))[2].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((ما ضرَبَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

---

= قال الشوكاني: (﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ قيل: هو الإسلامُ والدِّينُ، حكى هذا الواحديُّ عن الأكثَرينَ. وقيل: هو القرآنُ، رُويَ هذا عن الحسَنِ والعَوْفيِّ. وقال قَتادةُ: هو ما كان يأتَمِرُ به مِن أمرِ اللهِ، ويَنْتَهي عنه مِن نَهيِ اللهِ. قال الزَّجَّاجُ: المعنَى: إنَّك على الخُلُقِ الَّذي أمَرَكَ اللهُ به في القُرآنِ. وقيل: هو رِفْقُه بأُمَّتِه، وإكرامُه إيَّاهم. وقيل: المعنَى: إنَّك على طبعٍ كريمٍ. قال الماوَرْديُّ: وهذا هو الظَّاهرُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣١٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٤).

قال الرَّسْعَني: (أقوالُ المفسِّرينَ فيه [أي: الخُلُقِ] تَرجِعُ إلى معنًى واحدٍ، وهو: الأخْذُ بما أُمِر به). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢١٨).

وقال الماوَرْدي: (حقيقةُ الخُلُقِ في اللُّغةِ هو ما يأخُذُ به الإنسانُ نفْسَه مِن الآدابِ، سُمِّيَ خُلُقًا؛ لأنَّه يَصيرُ كالخِلقةِ فيه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦١).

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٨)، ومسلم (٢٣٠٩) واللَّفظُ له.

وسلَّم شيئًا قَطُّ بيَدِه، ولا امرأةً، ولا خادِمًا، إلَّا أن يُجاهِدَ في سَبيلِ اللهِ))[١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لم يكُنْ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فاحِشًا ولا مُتفَحِّشًا، وإنَّه كان يقولُ: إنَّ خيارَكم أحاسِنُكم أخلاقًا))[٢].

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

أي: فستَرى وتَعلَمُ -يا محمَّدُ-، ويرى كُفَّارُ قُرَيشٍ ويَعلَمونَ يَقينًا: مَن مِنكم المفتونُ بالجُنونِ، والضَّلالِ عن الحَقِّ[٣]؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٢٨).

(٢) رواه البخاري (٦٠٣٥) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٣٢١).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٥-٦٧).

قال الرَّسْعَني: (﴿بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ قال الحسَنُ: المفتونُ: الضَّالُّ. وقال مجاهدٌ: الشَّيطانُ. وقال الضَّحَّاكُ: المجنونُ.

والباءُ زائدةٌ في قول أبي [عُبَيدةَ] وابنِ قُتَيْبَةَ... وأصليَّةٌ في قولِ الفرَّاءِ والزَّجَّاجِ، وقولِ الضَّحَّاكِ... فإن قُلْنا: الباءُ زائدةٌ، فيكونُ التَّقديرُ: أيُّكم المجنونُ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنَّه مُجِنَ بالجنونِ، أو لِكَونِه مِن تخييلِ الجِنِّ، وهم الفُتَّانُ.

وإن قُلْنا: الباءُ أصليَّةٌ، كان «المَفْتونُ» مصدرًا، [كمَعْقُودٍ] ومَعْقُولٍ... فيكونُ التَّقديرُ: بأيِّكم الفُتُونُ، أي: الجنونُ.

وقيل: الباءُ بمعنى «في»، تقديرُه: في أيِّكم، أي: في [أيِّ] الفريقَينِ المجنونُ؛ في [فريقِك]، أو في فريقِهم؟ ومَن يَستحِقُّ هذا الاسمَ، أنتم أم هم؟). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢١٩). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٢).

ممَّن اختار أنَّ الباءَ زائدةٌ: أبو عُبَيْدةَ، والأخفشُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والواحديُّ -ونسَبَه إلى أكثَرِ المفسِّرينَ وأهلِ المعاني-، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٤)، ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٤٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((الوسيط)) =

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان قولُه تعالى: ﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ إخبارًا بجُنونِهم المُستلزِمِ لضَلالِهم على هذا الوجْهِ المتَّصفِ، وكان مِثلُ هذا قدْ يَقَعُ في مُحاوَراتِ النَّاسِ بضَرْبٍ مِن الظَّنِّ؛ استأنَفَ تعالَى ما هو كالتَّعليلِ لِما أفادَه السِّياقُ مِن هذا الحُكمِ عليهم، إعلامًا بأنَّه ناشئٌ عن عِلمٍ قَطعيٍّ لا مِرْيَةَ فيه بوَجْهٍ، فقال مُؤكِّدًا مِن أجْلِ إنكارِهم

---

= للواحدي (٤/ ٣٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٢٩).

وممَّن اختار أنَّ الباءَ ليست زائدةً وأنَّها أصليَّةٌ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٤).

وقيل: في الكلامِ تقديرُ حذفِ مضافٍ، والمعنى: بأيِّكم فتنةُ المفتونِ. وقيل: فيه تقديرُ حذفِ فعلٍ، والمعنى: بأيِّكم فُتِن المفتونُ. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٥١).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمَفْتونِ المجنونُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨١).

وممَّن اختار أنَّ المفتونَ مصدرٌ، أي الجنونُ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، وجلال الدين المحلِّي، والعُلَيمي. ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٤).

وقال ابن كثير: (معنى المَفْتونِ ظاهرٌ، أي: الَّذي قد افتُتِنَ عن الحقِّ وضلَّ عنه، وإنَّما دخلَتِ الباءُ في قولِه: ﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ لتدُلَّ على تضمينِ الفعلِ في قولِه: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾، وتقديرُه: فسَتَعلَمُ ويَعلَمونَ، أو: فسَتُخبَرُ ويُخبَرونَ بأيِّكم المَفْتونُ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠).

وقال ابنُ عاشور: (المفتونُ: ... يجوزُ أن يرادَ بها هنا الجنونُ...، ويجوزُ أن يرادَ ما يَصدُقُ على المضطربِ في أمرِه، المفتونِ في عَقْلِه حَيرةً وتقلقلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٦).

وقال البِقاعي: (﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ أي: بالضَّلالِ والجُنونِ، حتَّى صدَّ عن الهُدى ودينِ الحقِّ، أو بأيِّكم الفِتنةُ بالجُنونِ وغيرِه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٩٥).

لأنْ يكونَ الأمْرُ على ما أفادَهَ ما تَقدَّمَ[١]:

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

أي: إنَّ رَبَّك -يا مُحمَّدُ- هو أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن طريقِ الحَقِّ، فلم يتَّبِعْ دِينَ اللهِ تعالى[٢].

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

أي: واللهُ أعلَمُ بالَّذين اهتَدَوا، فأقَرُّوا بالحَقِّ واتَّبَعوه[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قد أُمِرْنا بالتَّأسِّي بالنَّبيِّ صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه، فكان مِن أهَمِّ ما يجِبُ على الأُمَّةِ مَعرفةُ تَفصيلِ إجمالِ هذه الآيةِ؛ ليَتِمَّ التَّأسِّي المطلوبُ[٤].

٢- حُسنُ الخُلُقِ قد يُرادُ به التَّخَلُّقُ بأخلاقِ الشَّريعةِ، والتَّأدُّبُ بآدابِ اللهِ الَّتي أدَّبَ بها عبادَه في كتابِه، كما قال تعالى لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، وقالت عائِشةُ رضيَ الله عنها: ((كان خُلُقُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القُرآنَ))[٥]، يعني: أنَّه يتأدَّبُ بآدابِه، فيَفعَلُ أوامِرَه، ويتجَنَّبُ نواهيَه،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٥، ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠).

قال الزمخشري: (إنَّ رَبَّك هو أعلَمُ بالمجانينِ على الحقيقةِ، وهم الَّذين ضلُّوا عن سبيلِه، وهو أعلَمُ بالعُقلاءِ، وهم المهتَدونَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٤٨).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٧٩).

فصار العَمَلُ بالقرآنِ له خُلُقًا كالجِبِلَّةِ والطَّبيعةِ لا يُفارِقُه، وهذا أحسَنُ الأخلاقِ وأشرَفُها وأجمَلُها. وقد قيل: إنَّ الدِّينَ كُلَّه خُلُقٌ[١].

٣- ينبغي لطالبِ العِلمِ أن يحرِصَ كلَّ الحرصِ على حُسنِ الخُلقِ، وأن يتخلَّقَ بالأخلاقِ الفاضلةِ؛ لأنَّه لا فائدةَ للعلمِ إلَّا أنْ يعمَلَ به، ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، وهذا العلم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٢].

٤- حُسنُ الخُلقِ لا تخفَى في الدِّين فضيلتُه، وهو الذي مدَح الله سبحانَه به نبيَّه عليه السَّلامُ، إذ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٣]. والله لا يمدحُ إلَّا على الشيءِ العظيمِ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فيه تهديدٌ للضَّالِّينَ، ووعدٌ للمُهتَدينَ، وبيانٌ لحِكمةِ اللهِ تعالى؛ حيثُ كان يَهدي مَن يَصلُحُ للهِدايةِ دونَ غَيرِه[٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿نٓ﴾ وغيرِها مِن حروفِ الهجاءِ الَّتي يَفتَتِحُ بها الرَّبُّ سُبحانَه بعضَ السُّوَرِ: تنبيهٌ على شَرَفِ هذه الحُروفِ، وعِظَمِ قَدْرِها وجلالتِها؛ إذْ هي مباني كلامِه وكُتُبِه الَّتي تَكَلَّمَ سُبحانَه بها، وأنزَلَها على رُسُلِه، وهَدَى بها عبادَه، وعَرَّفَهم بواسِطتِها نفْسَه، وأسماءَه وصِفاتِه، وأفعالَه، وأَمْرَه ونهيَه،

---

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٩٩).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (رقم اللقاء: ٦٧).

(٣) يُنظر: ((إحياء علوم الدين)) للغزالي (٢/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار)) لعبد العزيز السلمان (٢/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٨).

ووعيدَه ووعْدَه، وعَرَّفَهم بها الخيرَ والشَّرَّ، والحَسَنَ والقَبيحَ، وأقْدَرَهم على التَّكلُّمِ بها بحيثُ يَبلُغونَ بها أقصى ما في أنفُسِهم بأسهَلِ طريقٍ، وقِلَّةِ كُلْفَةٍ ومَشَقَّةٍ، وأوصَلِه إلى المقصودِ، وأدَلِّه عليه، وهذا مِن أعظَمِ نِعَمِه عليهم، كما هو مِن أعظَمِ آياتِه؛ ولهذا عاب سُبحانَه على مَن عَبَدَ إلهًا لا يَتكلَّمُ، وامْتَنَّ على عبادِه بأنْ أقدَرَهم على البيانِ بها بالتَّكَلُّمِ، فكان في ذِكْرِ هذه الحُروفِ التَّنبيهُ على كَمالِ ربوبيَّتِه، وكمالِ إحسانِه وإنعامِه، وهي دالَّةٌ أظْهَرَ دَلالةٍ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه، وحِكمتِه وكَمالِه، وكَلامِه وصِدْقِ رُسُلِه[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ مِن فوائدِ هذا القَسَمِ أنَّ هذا القُرآنَ كِتابُ الإسلامِ، وأنَّه سيكونُ مَكتوبًا مقروءًا بيْنَ المسلمينَ؛ ولهذا كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يأمُرُ أصحابَه بكتابةِ ما يُوحَى به إليه[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ أُوثِرَ القَسَمُ بالقَلَمِ والكتابةِ؛ للإيماءِ إلى أنَّ باعِثَ الطَّاعنينَ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، واللَّامِزينَ له بالمجنونِ: إنَّما هو ما أتاهم به مِن الكتابِ[3]!

٤- حُروفُ الهِجاءِ الَّتي يَفتَتِحُ بها الرَّبُّ سُبحانه بعضَ السُّوَرِ، وهي أُحاديَّةٌ وثُنائيَّةٌ، وثُلاثيَّةٌ ورُباعيَّةٌ، وخُماسيَّةٌ، ولم تُجاوِزِ الخَمْسةَ، ولم تُذكَرُ قَطُّ في أوَّلِ سُورةٍ إلَّا وعقَّبَها بذِكرِ القرآنِ؛ إمَّا مُقسَمًا به، وإمَّا مُخبَرًا عنه، ما خَلا سُورتَينِ: سُورةَ (مريم) و(القلم)[4]، أمَّا غيرُ ذلك فلا تُذكَرُ الحروفُ المقطَّعةُ إلَّا ذُكِرَ بعْدَها التَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ، والرَّفعُ مِن أمْرِه؛ قال في (البقرةِ): ﴿الٓمٓ﴾ فأتْبَعَه

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٣).

بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقال في (آل عِمران): ﴿الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ فأتْبَعَه بقولِه: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١ - ٣]، وقال في الأعرافِ: ﴿الٓمٓصٓ﴾ ثمَّ أتْبَعَه بقولِه: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١، ٢]، وقال في سُورةِ (يُونَس): ﴿الٓر﴾، ثمَّ أتْبَعَه بقولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال في سُورةِ (يُوسف): ﴿الٓر﴾ ثمَّ قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]، وقال في (الرَّعد): ﴿الٓمٓر﴾ ثمَّ قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ الآيةَ [الرعد: ١]، وقال في سُورةِ (إبراهيم): ﴿الٓر﴾ ثمَّ قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال في سُورةِ (الحِجْر): ﴿الٓر﴾ ثمَّ قال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ١]، وهكذا في سائرِ القُرآنِ، إلَّا في سُورةِ (مَريمَ) و(القَلَم)، حيث أُتبِعَ الحروفُ المقطَّعةُ في سُورةِ (مريم) في قولِه: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ بقولِه: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾ [مريم: ١، ٢]، وقال في (القَلَم): ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، مع أنَّ هذه يَحتمِلُ أنَّ المرادَ بـ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ هو هذا القرآنُ العظيمُ؛ لأنَّه أعظَمُ ما يُسطَرُ، فيكونُ في (مَريم) فقطْ[1].

٥- قال تعالى: ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، فأقسَمَ بالقلمِ في كتابِه المنزَّلِ، على نبيِّه المرسَلِ، ووضَعه في المكانِ الرَّفيعِ، ونوَّه بذكرِه في المنصبِ الشَّريفِ، أقسَم بالقلمِ كما أقسَم بما يخطُّ بالقلمِ، وقد ذكَر الله عزَّ وجلَّ في كتابِه مِن فضيلةِ الخطِّ والإنعامِ بمنافعِ الكتابِ، ومِن ذلك قولُه لنبيِّه عليه السَّلامُ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ * ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ * عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٣ - ٥] ولذلك قالوا:

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧، ٨).

القلمُ أحدُ اللسانين. وقالوا: القلمُ أبقَى أثرًا، واللِّسانُ أكثرُ هذرًا[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ فيه تنزيهُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن رذائِلِ المُشرِكينَ ونقائِصِهم، وبيانُ الفَرقِ والبَونِ الشَّاسِعِ بيْنَه وبيْنَهم؛ ففي الوَقتِ الَّذي وصَفَه بأنَّه على خُلُقٍ عَظيمٍ، وصَفَهم بعكسِ ذلك؛ مِن كَذِبٍ، ومُداهَنةٍ، وكَثرةِ حَلِفٍ ومَهانةٍ، وهَمزٍ، ومَشْيٍ بنَميمةٍ، ومَنعٍ للخَيرِ، وعَتْلٍ، وتجبُّرٍ، واعتداءٍ وظُلمٍ، وانقِطاعِ زَنيمٍ؛ عَشرُ خِصالٍ ذَميمةٌ[٢]!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على خُلُقٍ عظيمٍ، فما الفائِدةُ مِن قَولِه في الحَديثِ الشَّريفِ: ((اهْدِني لأحسَنِ الأخلاقِ))[٣]؟

**الجوابُ مِن وجهَينِ:**

**أوَّلًا:** أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذا الحَديثِ دعا إلى ما هو أكمَلُ ممَّا أخْبَر اللهُ به عنه: «لأحسَنِ الأخلاقِ».

**ثانيًا:** أنَّ الدُّعاءَ قد يكونُ المرادُ به الثَّباتَ على أحسَنِ الأخلاقِ، وإنْ كان في الدَّاعي أصْلُ الخُلُقِ الحَسَنِ، لكنْ يَسأَلُ اللهَ أنْ يُثبِّتَه[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إثباتُ صيغةِ «أفضَل» في عِلْمِ اللهِ تعالى، ومِن الخطأِ تفسيرُ بعضِهم لـ «أعلَم»

---

(١) يُنظر: ((البيان والتبين)) للجاحظ (١/ ٨٥)، ((الحيوان)) للجاحظ (١/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٥٣).

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١) مطوَّلًا من حديث عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٢/ ٣٨).

في القرآنِ بـ «عالِم». والرَّدُّ عليهم مِن جهتَينِ:

**الجهةُ الأُولى**: أنَّ هذا إبطالٌ لِمَا دلَّ عليه القرآنُ، والقرآنُ نزَلَ باللُّغةِ العربيَّةِ، واللُّغةُ العربيَّةُ تُفرِّقُ بيْن «أعلَم» و «عالِم».

**الجهةُ الثَّانيةُ**: أنَّك إذا جاءتك آيةٌ بمعنى «عالِم» فقد أثْبَتَّ العِلمَ للهِ ولغيرِه على حدٍّ سواءٍ؛ لأنَّ اللهَ عالِمٌ، ونحن أيضًا عالِمون؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، لكنْ إذا قلتَ: اللهُ أعلَمُ، فحينَئذٍ تَمَيَّزَ الخالِقُ مِن المخلوقِ، وأنَّه أعلَمُ -عزَّ وجلَّ- وهذا هو الأكمَلُ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]؛ ولهذا نقولُ: اللهُ أعلَمُ وأقدَرُ وأبصَرُ وأقوى... إلى آخِرِه في الصِّفاتِ الَّتي يَشترِكُ في أصْلِها الخالِقُ والمخلوقُ، فله منها أكمَلُها وأعلاها. هذه قاعِدةٌ معروفةٌ عندَ الَّذين يَتكلَّمونَ في أسماءِ اللهِ وصِفاتِه[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿نٓۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ جاء في هذه السُّورةِ الإيماءُ بالحَرفِ الَّذي في أوَّلِها إلى تَحدِّي المُعانِدينَ بالتَّعجيزِ عن الإتيانِ بمِثلِ سُوَرِ القرآنِ، وهذا أوَّلُ التَّحدِّي الواقعِ في القُرآنِ نُزولًا؛ إذ ليس في سُورةِ (العلَقِ)، ولا في (المُزَّمِّلِ)، ولا في (المُدَّثِّرِ) إشارةٌ إلى التَّحدِّي ولا تَصريحٌ[2].

- وقدْ أقسَمَ اللهُ تعالَى بالقلَمِ تَعظيمًا له؛ لِما في خلْقِه وتَسويتِه مِن الدَّلالةِ على الحِكمةِ العظيمةِ، ولِما فيه مِن المنافعِ والفوائدِ الَّتي لا يُحيطُ بها الوصْفُ[3].

---

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام)) لابن عثيمين (٦/ ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٤).

- قولُه: ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ الضَّميرُ لأصحابِ القَلمِ المدلولِ عليهم بذِكرِه. وقيل: للقلَمِ على أنَّ المُرادَ به أصحابُه، كأنَّه قيلَ: وأصحابِ القلَمِ ومَسْطوراتِهم، على أنَّ (ما) مَوصولةٌ، أو وسَطْرِهم، على أنَّها مَصدريَّةٌ. وقيل: للقَلَم نفْسِه بإسنادِ الفعلِ إلى الآلةِ، وإجرائِه مُجْرَى العُقلاءِ؛ لإقامتِه مُقامَهم. وقيل: المُرادُ بالقلَمِ ما خَطَّ اللَّوحَ خاصَّةً، والجمْعُ للتَّعظيمِ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أُجيبَ قولُهم وتأْكيدُهم ذلك بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١]؛ بمُؤكِّداتٍ أقْوى ممَّا في كَلامِهم؛ إذ أُقسِمَ عليه، وجِيءَ بعْدَ النَّفيِ بالباءِ الَّتي تُزادُ بعْدَ النَّفيِ لتَأكيدِه، وبالجُملةِ الاسميَّةِ مَنفيَّةً؛ لدَلالةِ الجُملةِ الاسميَّةِ على ثَباتِ الخبَرِ، أي: تَحقُّقِه، فهذه ثلاثةُ مُؤكِّداتٍ[2].

- قولُه: ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ قيل: هو قسَمٌ اعتُرِضَ به بيْن المحكومِ عليه والحُكْمِ على سَبيلِ التَّوكيدِ والتَّشديدِ والمُبالَغةِ في انتفاءِ الوصْفِ الذَّميمِ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

- والتَّعرُّضُ لوصْفِ الرُّبوبيَّةِ المُنبئةِ عن التَّبليغِ إلى مَعارجِ الكَمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتَشريفِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والإيذانِ بأنَّه تعالَى يُتِمُّ نِعمتَه عليه، ويُبلِّغُه مِن العُلوِّ إلى غايةٍ لا غايةَ وَراءَها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص ٣٧٣ و٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١).

- والمُقسَمُ عليه نفْيُ أنْ يكونَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَجنونًا، والخِطابُ له بهذا تَسليةٌ له؛ لئلَّا يَحزُنَه قولُ المشركين لَمَّا دَعاهم إلى الإسلامِ: هو مَجنونٌ، وذلك ما شافَهُوا به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحَكاهُ اللهُ عنهم في آخِرِ السُّورةِ: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ [القلم: ٥١]، وهكذا كلُّ ما ورَدَ فيه نفْيُ صِفةِ الجُنونِ عنه، فإنَّما هو ردٌّ على أقوالِ المشركين، كقولِه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ [التكوير: ٢٢]، والمقصودُ مِن نفْيِ الجُنونِ عنه إثباتُ ما قصَدَ المشركون نفْيَه؛ وهو أنْ يكونَ رسولًا مِن اللهِ؛ لأنَّهم لَمَّا نَفَوا عنه صِفةَ الرِّسالةِ وَضَعوا مَوضعَها صِفةَ الجنونِ، فإذا نُفِيَ ما زَعَموه فقدْ ثَبَتَ ما ادَّعاهُ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾

- أكَّد ذلك بحرْفِ (إنَّ)، وبلامِ الابتِداءِ، وبتَقديم المجرورِ، وهو في قولِه: ﴿لَكَ﴾[2].

- قولُه: ﴿مَمۡنُونٖ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مُشتقًّا مِن: مَنِّ المُعطِي على المُعطَى: إذا عَدَّ عليه عَطاءَه وذكَرَه له، أو افتَخَرَ عليه به؛ فإنَّ ذلك يَسوءُ المُعطَى. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مَمۡنُونٖ﴾ مُشتقًّا مِن قولِهم: مَنَّ الحبْلَ؛ إذا قَطَعَه، أي: أجْرًا غيرَ مَقطوعٍ عنك، وهو الثَّوابُ المُتزايدُ كلَّ يومٍ، أو أجْرًا أبدِيًّا في الآخرةِ، ولهذا كان لإيثارِ كَلمةِ ﴿مَمۡنُونٖ﴾ هنا مِن الإيجازِ بجمْعِ مَعنيينِ، بخِلافِ قولِه: ﴿عَطَآءً غَيۡرَ مَجۡذُوذٖ﴾ في سُورةِ (هودٍ) [١٠٨]؛ لأنَّ ما هنا تَكرِمةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦١، ٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦٣).

- في قولِه: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿غَيۡرَ مَمۡنُونٖ﴾ فَنُّ المُناسَبةِ اللَّفظيَّةِ، وهي عبارةٌ عن الإتيانِ بلَفظاتٍ مُتَّزِناتٍ مُقفَّاتٍ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾

- أكَّد ذلك بثَلاثةِ مُؤكِّداتٍ -القَسَم، و(إنَّ)، واللَّام- مِثلَ ما في الجُملةِ قبْلَه[٢].

- و(على) للاستعلاءِ المُرادِ به التَّمكُّنُ، فالرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتمكِّنٌ منه الخُلقُ العظيمُ في نفْسِه، ومُتمكِّنٌ منه في دَعوتِه الدِّينيَّةِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۞ بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾

- قولُه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ٢] باعتبارِ ما اقتَضاهُ قولُه: ﴿بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ﴾ [القلم: ٢] مِن إبطالِ مَقالةٍ قِيلَت في شأْنِه قالَها أعداؤُه في الدِّينِ؛ ابتَدَأَ بإبطالِ بُهتانِهم، وفرَّعَ عليه أنَّهم إذا نَظَروا الدَّلائلَ، وتَوسَّموا الشَّمائلَ، عَلِموا أيُّ الفريقَينِ المَفْتونُ؛ أهمْ مَفْتونون بالانصِرافِ عن الحقِّ والرُّشدِ، أمْ هو باختلالِ العقْلِ كما اختَلَقوا! والمقصودُ هو ما في قولِه: ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾، ولكنْ أُدمِجَ فيه قولُه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾؛ ليَتأتَّى بذِكرِ الجانبَينِ إيقاعُ كَلامٍ مُنصِفٍ -أي: داعٍ إلى الإنصافِ- على طَريقةِ قولِه: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]؛ لأنَّ القرآنَ يَبلُغُ مَسامِعَهم، ويُتْلَى عليهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٥٩)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ٣٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦٣، ٦٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٦٥).

- إنْ كان البصَرُ هنا بمعْنى العِلم، فالسِّينُ في قولِه: ﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ للتَّأكيدِ، وأمَّا المشرِكون فسَيَرَوْن ذلك، أي: يَعلَمون آثارَ فُتونِهم، وذلك فيما يَرَونَه يومَ بدْرٍ ويومَ الفتحِ، وإنْ كان بمعْنى البصَرِ الحسِّيِّ، فالسِّينُ والتَّاءُ في كِلا الفِعلينِ للاستِقبالِ[1].

- وضَميرُ ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾ عائدٌ إلى مَعلومٍ مُقدَّرٍ عندَ السَّامعِ، وهم المشرِكون القائلون: هو مَجْنونٌ[2].

- قيل: تمَّ الكلامُ في قولِه: ﴿وَيُبْصِرُونَ﴾، ثمَّ استأْنَفَ قوله: ﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، فالاستفهامُ في قولِه: ﴿بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ استفهامٌ يُرادُ به التَّردادُ بيْنَ أمْرَينِ، ومَعلومٌ نفْيُ الحكْمِ عن أحَدِهما، ويُعيِّنُه الوجودُ، وهو المؤمنُ، ليس بمَفتونٍ ولا به فُتونٌ[3].

- والمفتونُ: اسمُ مَفعولٍ، وهو الَّذي أصابَتْه فِتنةٌ، فيَجوزُ أنْ يُرادَ بها هنا الجنونُ؛ فإنَّ الجُنونَ يُعَدُّ في كَلامِ العربِ مِن قَبيلِ الفِتنةِ؛ يَقولونَ للمَجنونِ: فتَنَتْه الجِنُّ، ويَجوزُ أنْ يُرادَ ما يَصدُقُ على المُضطربِ في أمْرِه المَفتونِ في عَقْلِه حَيرةً وتَقلقلًا، وإيثارُ هذا اللَّفظِ دونَ لَفظِ (المَجنونِ) مِن الكلامِ المُوجَّهِ (الصالح لاحتمال معنيين) أو التَّوريةِ؛ ليَصِحَّ فَرْضُه للجانبَينِ، فإنْ لم يكُنْ بَعضُ المشرِكينَ بمَنزلةِ المجانينِ الَّذين يَندفِعون إلى مُقاوَمةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بدُونِ تَبصُّرٍ يَكُنْ في فِتنةٍ واضطرابِ أقوالِه وأفعالِه، كأبي جَهلٍ والوليدِ بنِ المُغيرةِ وأضْرابِهما الَّذين أغْرَوُا العامَّةَ بالطَّعنِ في النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأقوالٍ مُختلِفةٍ. والباءُ على هذا الوجْهِ مَزيدةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧).

لتَأكيدِ تَعلُّقِ الفِعلِ بمَفعولِه، والأصلُ: أيُّكم المفتونُ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الباءُ للظَّرفيَّةِ، والمعْنى: في أيِّ الفريقينِ منكم يُوجَدُ المَجنونُ، أي: مَن يَصدُقُ عليه هذا الوصفُ؟ فيَكونَ تَعريضًا بأبي جَهلِ بنِ هشامٍ والوليدِ بنِ المُغيرةِ وأضرابِهما مِن مُدَبِّري السُّوءِ على دَهْماءِ قُريشٍ بهذه الأقوالِ الشَّبيهةِ بأقوالِ المجانينِ؛ ذلك أنَّهم وَصَفوا رجُلًا مَعروفًا بيْن العقلاءِ، مَذكورًا برَجاحةِ العقلِ والأمانةِ في الجاهليَّةِ، فوَصَفُوه بأنَّه مَجنونٌ، فكانوا كمَن زعَمَ أنَّ النَّهارَ لَيلٌ، ومَن وصَفَ اليومَ الشَّديدَ البرْدِ بالحرارةِ، فهذا أشبهُ بالمجنونِ، ولذلك يُجعَلُ المَفتونُ في الآيةِ وصْفًا ادِّعائيًّا على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ مَصدرًا على وزْنِ المفعولِ، مِثل المعقولِ بمعْنى العقلِ، والمَجلودِ بمعْنى الجَلْدِ، والميسورِ لليُسْرِ، والمعسورِ لضِدِّه، وفي المَثَلِ (خُذْ مِن مَيسورِه، ودَعْ مَعسورَه). والباءُ على هذا للمُلابَسةِ في مَحلِّ خبَرٍ مُقدَّمٍ على ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾، وهو مُبتدَأٌ. ويُضمَّنُ فِعلُ (تُبصِر ويُبصِرون) معْنى: تُوقِنُ ويُوقِنونَ، على طَريقِ الكِنايةِ بفِعلِ الإبصارِ عن التَّحقُّقِ؛ لأنَّ أقْوى طُرقِ الحِسِّ البصَرُ، ويكون الإتيانُ بالباءِ للإشارةِ إلى هذا التَّضمينِ، والمعْنى: فسَتعلَمُ يَقينًا ويَعلَمون يَقينًا بأيِّكم المفتونُ، فالباءُ على أصْلِها مِن التَّعديةِ مُتعلِّقةٌ بـ (تُبصِر ويُبصِرون)[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

- تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥، ٦]، باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه مِن التَّعريضِ بأنَّ الجانبَ المفتونَ هو الجانبُ القائلُ له: ﴿إِنَّكَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٥، ٥٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٦، ٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٦٥).

لَمَجۡنُونٌ ﴾[الحجر: ٦]، وأنَّ ضِدَّه بضِدِّه هو الرَّاجحُ العقلِ، أي: الَّذي أخْبَرَك بما كنَّى عنه قولُه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ﴾ [القلم: ٥] مِن أنَّهم المجانينُ، هو الأعلَمُ بالفريقَينِ، وهو الَّذي أنْبَأَك بأنْ سيَتَّضِحُ الحقُّ لأبصارِهم، فتَعيَّنَ أنَّ المفتونَ هو الفريقُ الَّذين وَسَمُوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه مَجنونٌ، المَردودُ عليهم بقولِه تعالَى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم: ٢]؛ إذ همُ الضَّالُّون عن سَبيلِ ربِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا مَحالةَ، ويَنتظِمُ بالتَّدرُّجِ مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا أقْيسةُ مُساواةٍ مُندرِجٌ بَعضُها في بَعضٍ، تَقْتضي مُساواةَ حَقيقةِ مَن ضلَّ عن سبيلِ ربِّ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحَقيقةِ المَفتونِ، ومُساواةَ حَقيقةِ المَفتونِ بحَقيقةِ المَجنونِ، فتُنتِجُ أنَّ فَريقَ المشرِكين هم المتَّصِفون بالجُنونِ، بقاعدةِ قِياسِ المُساواةِ: أنَّ مُساويَ المُساوي لشَيءٍ مُساوٍ لذلك الشَّيءِ. وهذا الانتقالُ تَضمَّنَ وعْدًا ووَعيدًا؛ بإضافةِ السَّبيلِ إلى اللهِ، ومُقابَلةِ مَن ضلَّ عنه بالمُهتدِينَ[١].

- وقولُه: ﴿أَعۡلَمُ﴾ قيل: هو كِنايةٌ عن جَزاءِ الفريقَينِ[٢].

- وإعادةُ ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ لزِيادةِ التَّقريرِ[٣].

- وعُمومُ (مَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ) وعُمومُ (الْمُهْتَدِينَ) يَجعَلُ هذه الجُملةَ مع كَونِها كالدَّليلِ هي أيضًا مِن التَّذييلِ، وهو بعْدَ هذا كلِّه تَمهيدٌ وتَوطئةٌ لقولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾[٤] [القلم: ٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٧، ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٨).

## الآيات (٨-١٦)

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ وَدُّوا۟ ﴾: أي: تَمَنَّوا، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محبَّةِ الشَّيءِ، وتمنِّي كَونِه[1].

﴿ تُدْهِنُ ﴾: أي: تَلينُ لهم، وتوافِقُهم، وتُصانِعُهم على باطِلِهم، والإدهانُ: اللِّينُ والمُصانَعةُ. والمُداهَنةُ: عِبارةٌ عن المُداراةِ والمُلايَنةِ، مَأخوذةٌ مِنَ الدُّهنِ؛ لِلِينِه وإملاسِه، وأصلُ (دهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[2].

﴿ هَمَّازٍ ﴾: أي: عَيَّابٍ، مُغتابٍ للنَّاسِ، وهمزُ الإنسانِ: اغتيابُه، وأصلُ (همز): يدُلُّ على ضَغطٍ وعَصرٍ[3].

﴿ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾: أي: كثيرِ المَشيِ بالنَّميمةِ، نقَّالٍ للحَديثِ على وَجهِ الإفسادِ، والنَّمُّ: إظهارُ الحَديثِ بالوِشايةِ، ونميمٌ ونميمةٌ بمعنًى واحدٍ، وقيل: النَّميمُ جمعُ نميمةٍ، وأصلُ (مشي) هنا: يدُلُّ على حركةِ الإنسانِ وغيرِه، وأصلُ (نمم): يدُلُّ على الهَمسِ والحَركةِ الخفيفةِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٦، ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥)، ((تفسير ابن =

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: فاجرٍ كثيرِ الإثمِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ، واشتُقَّ الإثمُ مِن ذلك؛ لأنَّ ذا الإثمِ بطيءٌ عن الخَيرِ، مُتأخِّرٌ عنه[١].

﴿عُتُلٍّ﴾: أي: فَظٍّ، غليظٍ، جافي الخُلُقِ، وأصلُ (عتل): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ في شَيءٍ[٢].

﴿زَنِيمٍ﴾: أي: دَعِيٍّ مُلصَقٍ بالقَومِ، وليس منهم، وأصلُ (زنم): يدُلُّ على تعليقِ شَيءٍ بشَيءٍ[٣].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ، جمعُ أُسطُورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلِينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ[٤].

﴿سَنَسِمُهُۥ﴾: أي: نُعَلِّمُه بعَلامةٍ يُعرَفُ بها، وأصلُ (وسم): يدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَمٍ[٥].

---

= جزي)) (٢/ ٣٩٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠، ٣٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢١).

﴿ٱلْخُرْطُومِ﴾: أي: الأنْفِ. والرَّاءُ فيه زائِدةٌ، والأصلُ فيه الخَطْمُ، وأصلُ (خطم): يدُلُّ على تقَدُّمِ شَيءٍ في نُتُوٍّ يكونُ فيه(١).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

في المصدَرِ المؤَوَّلِ ﴿أَن كَانَ﴾ أوجُهٌ:

أحَدُها: أنَّه مَفعولٌ مِن أجْلِه مجرورٌ بلامٍ مُقَدَّرةٍ، واللَّامُ متعلِّقةٌ بفِعلِ النَّهيِ: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ في الآياتِ السَّابِقةِ، أي: ولا تُطِعْ مَنْ هذه صِفاتُه؛ لأَنْ كان ذا مالٍ وبَنينَ.

الثَّاني: أنَّها مُتعَلِّقةٌ بـ﴿عُتُلٍّ﴾.

الثَّالِثُ: أنَّها مُتعَلِّقةٌ بـ﴿زَنِيمٍ﴾.

الرَّابعُ: أنَّها مُتعَلِّقةٌ بمحذوفٍ يدُلُّ عليه ما بعْدَه مِنَ الجُملةِ الشَّرطيَّةِ الدَّالَّةِ على معنى التَّكذيبِ، تقديرُه: لِكَونِه مُتمَوِّلًا مُستَظْهِرًا بالبنينَ كَذَّبَ بآياتِنا(٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يحذِّرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن طاعةِ المشركينَ، مبيِّنًا بعضَ صِفاتِهم القبيحةِ، فيقولُ: فلا تُطِعِ المكذِّبينَ -يا محمَّدُ- لقد تَمَنَّوا لو تَلينُ لهم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨، ٢٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٣٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٠٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢).

قال الألوسي: (ولم يُجوِّزْ تعَلُّقَه بـ﴿قَالَ﴾ المذكورِ بَعْدُ؛ لأنَّ ما بعْدَ الشَّرطِ لا يَعمَلُ فيما قَبْلَه، ولعَلَّ مَن يقولُ باطِّرادِ التَّوَسُّعِ في الظَّرفِ يُجَوِّزُ ذلك، وكذا مَن يَجعَلُ ﴿إِذَا﴾ هنا ظَرفيَّةً). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢).

في الدِّينِ وتُوافِقُهم وتُصانِعُهم على باطِلِهم، فيَلِينونَ لك، ويُصانِعونَك، ولا تُطِعْ -يا مُحمَّدُ- كلَّ حلَّافٍ ضَعيفٍ حَقيرٍ، عيَّابٍ للنَّاسِ طَعَّانٍ فيهم، نقَّالٍ للكَلامِ السَّيِّئِ للإفسادِ بيْنَ النَّاسِ، مَنَّاعٍ لكلِّ خَيرٍ وللمالِ عن إنفاقِه في الخَيرِ، مُتَجاوزٍ للحَدِّ، كَثيرِ الإثمِ، فَظٍّ، غَليظٍ في خَلقِه وخُلُقِه، جافٍ شَديدٍ، بعْدَ ذلك الَّذي وصَفْناه به، دَعِيٍّ مُلصَقٍ في قَومٍ ليس منهم، مِن أجْلِ أنَّه كان صاحِبَ مالٍ كثيرٍ وأبناءٍ، إذا تُتلَى عليه آياتُ القُرآنِ قال مُكذِّبًا: تلك أكاذيبُ الأوَّلينَ وخُرافاتُهم!

ثمَّ توعَّد الله تعالى مَن هذه صِفاتُه، فقال: سنَجعَلُ له على أنْفِه علامةً يُعرَفُ بها بيْنَ النَّاسِ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ ما عليه الكفَّارُ في أمرِ الرَّسولِ، ونِسبته إلى الجنونِ، مع الَّذي أنعَمَ الله به عليه مِن الكمالِ في أمرِ الدِّينِ والخُلقِ؛ أتْبَعه بما يَدْعوه إلى التَّشدُّدِ مع قَومِه، وقوَّى قلبَه بذلك، مع قلَّةِ العددِ، وكثرةِ الكفَّارِ، وذلك أنَّهم دَعَوْه إلى دينِ آبائِه، فنَهاه الله أن يُطيعَهم، وهذا مِن الله إلهابٌ وتهييجٌ للتَّشدُّدِ في مُخالَفَتِهم[1].

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: فكما أنعَمْنا عليك -يا مُحمَّدُ- بالدِّينِ المستقيمِ والخُلُقِ العَظيمِ، لا تُطِعِ المكذِّبينَ بالحَقِّ؛ فليسُوا أهلًا لأن يُطاعوا؛ إذ لا يَأمُرونَ إلَّا بما يُوافِقُ أهواءَهم،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٣).

ولا يُريدونَ سِوى الباطِلِ[١].

كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩﴾.

أي: أحَبَّ مُشرِكو قُرَيشٍ -يا مُحمَّدُ- وتَمَنَّوا لو تَلينُ لهم في الدِّينِ وتُوافِقُهم وتُصانِعُهم على باطِلِهم؛ كتَرْكِ النَّهيِ عن الشِّركِ، أو السُّكوتِ عن عَيبِ آلهتِهم، وتَسفيهِ آبائِهم، أو الرُّكونِ إلى آلهتِهم، فيَلينونَ لك أيضًا، ويُصانِعونَك فيما تَدْعوهم إليه مِنَ الحَقِّ؛ كتَركِ الطَّعنِ فيه، أو موافقَتِه، وامتِثالِ بَعْضِه[٢].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

قال القرطبي: (نَهاه عن مُمايَلةِ المشرِكينَ، وكانوا يَدْعونَه إلى أن يَكُفَّ عنهم لِيَكُفُّوا عنه، فبَيَّن اللهُ تعالى أنَّ مُمايلتَهم كُفرٌ!). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٧٩، ٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٧، ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٩).

قال ابنُ جرير: (شبَّه التَّليينَ في القَولِ بتَليينِ الدُّهنِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٧).

وقال الواحديُّ: (قال الكلبيُّ: لو تُصانِعُهم في الدِّينِ فيُصانِعونَك. والمعنى: تَترُكُ بعضَ ما أنت عليه ممَّا لا يَرضَونَه؛ مُصانَعةً لهم، فيَفعَلوا مِثلَ ذلك، ويَترُكوا بعضَ ما لا تَرضى، فتَلينُ لهم ويَلينونَ. وهذا قولُ مجاهدٍ: تَركَنُ إليهم وتَترُكُ ما أنت عليه مِن الحَقِّ، فيُمالِئونَك. وهذا قولُ أكثَرِ المفَسِّرينَ، ومعنى روايةِ الوالبي عن ابنِ عبَّاسٍ). ((البسيط)) (٢٢/ ٨٠).

وقال البِقاعي: (قال ابن بَرَّجان: «والإدهانُ: مُلايَنةٌ وانجِرارٌ بالباطِلِ، وإغماضٌ عن الحَقِّ مع المعرفةِ بذلك»). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٢٩٨).

[الإسراء: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١].

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نهَى اللهُ تعالى رَسولَه عن طاعةِ المكَذِّبِ وعَلَّلَه، وكان مِن النَّاسِ مَن يُخفي تكذيبَه؛ أظهَر علاماتِ المكَذِّبِ، فقال تعالى[1]:

﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠﴾

أي: ولا تُطِعْ -يا مُحمَّدُ- كلَّ مُكثِرٍ للحَلِفِ، ضَعيفٍ حَقيرٍ، خَسيسِ النَّفْسِ، ناقِصِ الهِمَّةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٢).

قال ابن جرير: (ولا تُطِعْ -يا محمَّدُ- كُلَّ ذي إكثارٍ للحَلِفِ بالباطِلِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٧).

وقال الزمخشري: (﴿حَلَّافٖ﴾ كثيرِ الحَلِفِ في الحَقِّ والباطِلِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (مَن كان كثيرَ الحَلِفِ كان كثيرَ الكَذِبِ في العَهدِ، مُحتاجًا إلى النَّاسِ؛ فهو مِن أذَلِّ النَّاسِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٦٦).

وقال ابن عاشور: (قال جمْعٌ مِن المفسِّرينَ: المرادُ بالحلَّافِ المَهينِ: الوليدُ بنُ المُغيرةِ. وقال بعضُهم: الأخنسُ بنُ شَريقٍ. وقال آخَرونَ: الأسودُ بنُ عبدِ يَغوثَ. ومِن المفسِّرينَ مَن قال: المرادُ: أبو جهلٍ. وإنَّما عَنَوْا أنَّ المرادَ التَّعريضُ بواحدٍ مِن هؤلاءِ، وإلَّا فإنَّ لفظَ ﴿كُلَّ﴾ المفيدَ للعمومِ لا يَسمَحُ بأنْ يُرادَ النَّهيُ عن واحدٍ مُعَيَّنٍ، أمَّا هؤلاء فلعلَّ أربعتَهم اشترَكوا في مُعظَمِ هذه الأوصافِ، فهم ممَّن أُريدَ بالنَّهيِ عن إطاعتِه، ومَن كان على شاكلتِهم مِن أمثالِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧١). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢).

﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾.

﴿ هَمَّازٍ ﴾.

أي: كَثيرِ العَيبِ للنَّاسِ، والطَّعنِ فيهم حالَ غَيبتِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ * ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ * يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ١ - ٣].

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾.

أي: نقَّالٍ للكَلامِ السَّيِّئِ مِن بَعضِ النَّاسِ إلى بَعضٍ، بغَرَضِ الإفسادِ بيْنَهم[٢].

عن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَدخُلُ الجنَّةَ نمَّامٌ))[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((مرَّ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحائطٍ[٤] مِن حيطانِ المدينةِ أو مكَّةَ، فسَمِعَ صَوتَ إنسانَينِ يُعذَّبانِ في قُبورِهما، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: يُعَذَّبانِ، وما يُعذَّبانِ في كبيرٍ! ثمَّ قال: بلى؛ كان أحدُهما لا يَستَتِرُ مِن بَولِه، وكان الآخَرُ يمشي بالنَّميمةِ. ثمَّ دعا بجَريدةٍ، فكسَرَها كِسرَتينِ، فوضَعَ على كُلِّ قبرٍ منهما كِسْرةً، فقيل له: يا رَسولَ اللهِ، لِمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

(٣) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) واللَّفظُ له.

(٤) بحائطٍ: أي: بُستانٍ مِن النَّخلِ عليه جِدارٌ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١/ ٢٨٦).

فَعلْتَ هذا؟ قال: لعَلَّه أن يُخَفِّفَ عنهما ما لم تَيْبَسا، أو إلى أن يَيْبَسا))[١].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾.

أي: شَديدِ المَنعِ لكلِّ خَيرٍ، بخيلٍ بالمالِ عن إنفاقِه في وُجوهِه المطلوبةِ[٢].

---

(١) رواه البخاري (٢١٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٣).

قال الرَّازيُّ في قولِه تعالى: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾: (فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ المرادَ أنَّه بخيلٌ، والخَيرُ المالُ. والثَّاني: كان يَمنعُ أهْلَه مِن الخَيرِ، وهو الإسلامُ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ: بخيلٌ بالمالِ-: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أي: أنَّه كان يَمنعُ أهْلَه مِن الخَيرِ وهو الإسلامُ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٥).

وقال البيضاوي: (﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يَمنَعُ النَّاسَ عن الخَيرِ مِن الإيمانِ والإيقانِ والعمَلِ الصَّالحِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤).

وقال ابن عطيَّة: (وقال آخَرون: بل هو على عُمومِه في المالِ والأفعالِ الصَّالحةِ، ومَن يَمنع إيمانَه وطاعتَه لله تعالى فقد منَع الخيرَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٧).

وقال العُلَيمي: (﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ شَحيحٍ بالمالِ، والأفعالِ الصَّالحةِ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٦).

وممَّن جمَع بيْن المعاني السَّابقةِ: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠١)، ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ١٩ - ٢١].

﴿مُّعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾.

أي: مُتَجاوزٍ للحُدودِ(١)، كثيرِ الإثمِ والذُّنوبِ(٢).

---

= قال البِقاعي: (﴿مَّنَّاعٍ﴾ أي: كثيرِ المَنْعِ شَديدِه ﴿لِّلْخَيْرِ﴾ أي: كلِّ خَيرٍ؛ مِن المالِ والإيمانِ وغيرِهما، مِن نفْسِه ومِن غيرِه، مِن الدِّينِ والدُّنيا، إلى غيرِ ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠١).

وذكر ابنُ عثيمين في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ (ق) الآية (٢٥) أنَّ قولَه: ﴿لِّلْخَيْرِ﴾ لفظٌ يَشملَ كلَّ خيرٍ؛ فيَمنعُ الدَّعوةَ إلى الله، ويمنعُ بَذْلَ أموالِه فيما يُرضي اللهَ، ويَمنعُ كلَّ خَيرٍ، وكأنَّه يَلتَمِسُ كلَّ خيرٍ فيَمْنَعُه. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: سورة الحجرات - الحديد)) (ص: ١٠٠).

(١) مِن المفسِّرينَ مَن قال: ﴿مُّعْتَدٍ﴾: أي: مُتجاوِزٍ في الظُّلْمِ. ومنهم: الزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ، والشَّوكاني. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١).

ومنهم مَن قال: المعتدي: المُتجاوِزُ لحدودِ الأشياءِ. ومنهم: ابنُ عطيَّة، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٦).

ومنهم مَن قال: المرادُ: مُعتَدٍ على النَّاسِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

ممَّن قال: إنَّ معنى الأثيم: كثير الإثمِ: السَّمْعانيُّ، والرَّسْعَني، والشوكاني، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٤).

وقريبٌ مِن القولِ السَّابقِ قولُ مَن قال مِن المفسِّرينَ: إنَّ الأثيمَ: الفاجرُ. وممَّن قال بهذا: السمرقنديُّ، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٥).

وقال ابن كثير: (﴿مُّعْتَدٍ﴾ في تَناوُلِ ما أحلَّ اللهُ له، يَتجاوَزُ فيه الحدَّ المشروعَ. ﴿أَثِيمٍ﴾: =

﴿ عُتُلٍّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ ﴾.

﴿ عُتُلٍّۭ ﴾.

أي: فَظٍّ غَليظٍ في خَلقِه وخُلُقِه، شديدِ الخصومةِ، جافٍ شَديدٍ[1].

= يَتناوَلُ المُحرَّماتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٤).

قال الرازي: (الصِّفةُ الثَّامِنةُ: العُتُلُّ. وأقوالُ المفسِّرينَ فيه كثيرةٌ، وهي محصورةٌ في أمْرَينِ: أحدُهما: أنَّه ذمٌّ في الخَلْقِ. والثَّاني: أنَّه ذَمٌّ في الخُلُقِ، وهو مأخوذٌ مِن قَولِك: عتَلَه: إذا قاده بعُنفٍ وغِلظةٍ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ [الدخان: ٤٧].

أمَّا الَّذين حَمَلوه على ذَمِّ الخَلْقِ، فقال ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ: يُريدُ: قَوِيٌّ ضَخمٌ. وقال مقاتِلٌ: واسِعُ البَطنِ، وثيقُ الحلقِ. وقال الحسَنُ: الفاحِشُ الخَلْقِ، اللَّئيمُ النَّفْسِ. وقال عُبَيْدُ بنُ عُمَيرٍ: هو الأكولُ الشَّروبُ، القَويُّ الشَّديدُ. وقال الزَّجَّاج: هو الغليظُ الجافي.

أمَّا الَّذين حمَلوه على ذمِّ الأخلاقِ، فقالوا: إنَّه الشَّديدُ الخُصومةِ، الفَظُّ العَنيفُ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٨٤).

قال الواحدي: (المفسِّرون يقولونَ: هو الشَّديدُ الخَلْقِ، الفاحِشُ الخُلُقِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٣٥).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى أنَّ قوله: ﴿ عُتُلٍّۭ ﴾ أي: جافٍ غليظٌ قاسٍ سيِّئُ الخُلقِ: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والعُلَيمي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

قال ابنُ تيمية: (أمَّا العُتُلُّ...: فهو الجبَّارُ الفَظُّ الغليظُ، الَّذي قد صار مِن شِدَّةِ تجَبُّرِه وغِلظِه معروفًا بالشَّرِّ، مَشهورًا به). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٦٧).

وذهب ابنُ جريرٍ والقرطبيُّ إلى أنَّه هو الجافي الشَّديدُ في كُفرِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٢). =

عن حارِثةَ بنِ وَهبٍ الخُزاعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((ألَا أُخبِرُكم بأهلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ[١] مُسْتَكْبِرٍ))[٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال عندَ ذِكرِ أهلِ النَّارِ: ((كُلُّ جَعْظَرِيٍّ[٣] جَوَّاظٍ، مُستَكْبِرٍ، جَمَّاعٍ مَنَّاعٍ))[٤].

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾.

---

= قال الزَّجاجُ: (جاء في التَّفسيرِ أنَّ العُتُلَّ هاهنا الشَّديدُ الخُصومةِ، وجاء في التَّفسيرِ أنَّه الجافي الخُلقِ اللَّئيمُ الضَّريبةِ، وهو في اللُّغةِ الغَليظُ الجافي). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٠٦).

وقال البِقاعي: (﴿عُتُلٍّ﴾ أي: أَكُولٍ، شديدِ الخُصومةِ، جافٍ غليظٍ في خَلْقِه وخُلُقِه، ثقيلٍ مرٍّ، كأنَّه قِطعةُ جبَلٍ قد انقطَع عن سائرِه، لا يَنجَرُّ إلى خيرٍ إلا بعُسرٍ وصُعوبةٍ وعُنفٍ، مِن عَتَلَه: إذا قاده بغِلظةٍ، فهو في غايةِ ما يكونُ مِن يبسِ الطِّباعِ، وعدَمِ الطَّواعيةِ في الخيرِ والانطباعِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٢).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (العُتلُّ: القَويُّ البِنيةِ، الغليظُ الأعضاءِ، المُصَحَّحُ، القاسي القلْبِ، البَعيدُ الفَهمِ، الأَكُولُ الشَّروبُ، الَّذي هو باللَّيلِ جِيفةٌ، وبالنَّهارِ حِمارٌ؛ فكلُّ ما عبَّر به المفسِّرون عنه مِن خِلالِ النَّقصِ، فعنْ هذه الَّتي ذَكَرْتُ تَصدُرُ، وقد ذكَرَ النَّقَّاشُ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فسَّر العُتُلَّ بنحْوِ هذا، وهذه الصِّفاتُ كثيرةُ التَّلازُمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٧).

(١) الجَوَّاظُ: قيل: هو الكثيرُ اللَّحمِ المختالُ في مَشْيِه. وقيل: هو الأكولُ. وقيل: الفاجرُ. وقيل: الجَوَّاظُ: الفَظُّ الغليظُ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٦٣).

(٢) رواه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣).

(٣) الجَعْظَريُّ: قيل: هو الفَظُّ الغليظُ. وقيل: الذي لا يَمرَضُ. وقيل: الذي يُتمدَحُ بما ليس فيه أو عندَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٦٣).

(٤) أخرجه أحمد (٦٥٨٠) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٣٨٤٤)، والبَيْهَقيُّ في ((شعب الإيمان)) (٨١٧٢). صحَّحه الحاكمُ، وقال: (على شرطِ مُسلمٍ). وصحَّح إسنادَه ابنُ القيِّم في ((حادي الأرواح)) (١١٢)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ٨٦)، والألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٤/ ٣٢١).

أي: بعدَ ذلك الَّذي وصَفْناه به: دَعِيٍّ، مُلصَقٍ في قَومٍ ليس منهم[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩، ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٥).

قيل: معنى ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: مع ذلك. وممن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٥).

وقيل: المعنى: بعْدَ ما عُدَّ له مِن المَعايبِ والنَّقائصِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسَفي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١).

قال الشوكاني: (﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي: هو بعدَ ما عُدَّ مِن معايبِه زَنِيم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١).

وقال الكوراني: (﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ بعدَ ما ذُكر مِن المثالبِ دعيٌّ، لا نسبَ له، وهذا كما إذا عدَّدتَ مثالبَ إنسانٍ، ثمَّ تقولُ: وبعدَ ذلك لا يحبُّ أبا بكرٍ وعمرَ رضِي اللَّه عنهما). ((تفسير الكوراني (ص: ٢٠٨).

وقال الرازي: (قول: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ معناه: أنَّه بعْدَ ما عدَّ له مِن المَثالِبِ والنَّقائصِ فهو عُتُلٌّ زَنيمٌ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٥). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٤).

وممَّن قال بالمعنى المذكور للزَّنيمِ في الجُملةِ: الفرَّاءُ، والزمخشريُّ، والقرطبي، والبيضاوي، وأبو حيَّان، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩، ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ المُسَيِّبِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣). =

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: مِن أجْلِ أنَّه صاحِبُ مالٍ كثيرٍ وأبناءٍ، فيَتقَوَّى بهم ويتجَبَّرُ ويتكَبَّرُ(١)!

---

= قال ابنُ تيميَّةَ: (له زَنَمةٌ مِن الشرِّ أي: علامةٌ يُعرفُ بها). ((الجواب الصحيح)) (٦/ ٤٨٦).

وقال ابنُ كثير: (الزَّنيمُ هو: المشهورُ بالشَّرِّ، الَّذي يُعرَفُ به مِن بيْنِ النَّاسِ، وغالِبًا يكونُ دَعِيًّا ولَدَ زِنًا؛ فإنَّه في الغالبِ يَتسَلَّطُ الشَّيطانُ عليه ما لا يتسَلَّطُ على غيرِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٤).

وقال البِقاعيُّ: (﴿زَنِيمٍ﴾ أي: صارتْ له عَلامةُ سُوءٍ وشَرٍّ، وثَناءٌ قَبيحٌ، ولَأْمةٌ بيِّنةٌ، ومَعرِفةٌ يُعرَفُ بها كما تُعرَفُ الشَّاةُ بزَنَمتِها -وهي الجِلدةُ الَّتي تكونُ تحتَ حَلْقِها مُدلاةً تَنوسُ [أي: تتحرَّكُ]-، والعبدُ بمَعايبِه وسَفسافِ أخْلاقِه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٢، ٣٠٣).

وقال القرطبي: (مُعظَمُ المفسِّرينَ على أنَّ هذا نزل في الوليدِ بنِ المُغيرةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٥).

وقال ابنُ عاشور: (قيل: أُريدَ بالزَّنيمِ الوَليدُ بنُ المغيرةِ؛ لأنَّه ادَّعاه أبوه بعدَ ثمانِي عَشْرةَ سَنةً مِن مَولِدِه. وقيل: أُريدَ الأخنَسُ بنُ شَريقٍ؛ لأنَّه كان مِن ثَقيفٍ، فحالَف قُرَيشًا وحَلَّ بيْنَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٩)، ((الهداية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٦٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

قال ابنُ جُزَي: (﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ في موضِعِ مَفعولٍ مِن أجْلِه يتعَلَّقُ بقَولِه: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾، أي: لا تُطِعْه بسَبَبِ كَثرةِ مالِه وبَنِيه. ويجوزُ أن يتعَلَّقَ بما بَعْدَه، والمعنى على هذا أنَّه قال في القرآنِ: أساطيرُ الأوَّلينَ؛ لأنَّه ذو مالٍ وبَنينَ، يتكبَّرُ بمالِه وبَنِيه... والأوَّلُ أظهَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٣٩٩، ٤٠٠).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: الزَّجَّاجُ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٦، ٧٩).

قال السعدي: (هذه الآياتُ وإن كانت نزَلَت في بعضِ المشركينَ، كالوليدِ بنِ المُغيرةِ أو غيرِه؛ لِقَولِه عنه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۞ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: لأجْلِ كَثرةِ مالِه ووَلَدِه، طغى واستكبَرَ عن الحَقِّ، ودفَعَه حين جاءَه، وجعَلَه مِن جملةِ أساطيرِ الأوَّلينَ- =

كما قال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴾ [المدثر: ١١ - ١٦].

﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: إذا تُتلَى على هذا الكافِرِ آياتُ القُرآنِ قال مُكذِّبًا: تلك أكاذيبُ الأوَّلينَ وخُرافاتُهم الَّتي سَطَروها في كُتُبِهم[١].

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾.

لَمَّا ذَكَر قَبائحَ أفعالِه وأقوالِه؛ ذَكَر ما يُفعَلُ به على سَبيلِ التَّوعُّدِ، فقال[٢]:

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾.

أي: سنَجعَلُ له على أنْفِه علامةً يُعرَفُ بها بيْن النَّاسِ[٣]!

---

= فإنَّها عامَّةٌ في كُلِّ مَنِ اتَّصَف بهذا الوَصفِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

وقال ابنُ عطية: (العامِلُ في ﴿ أَن كَانَ ﴾ فِعلٌ مُضمَرٌ تَقديرُه: كفَرَ أو جَحَد أو عَنَدَ، وتفسيرُ هذا الفِعلِ قولُه: ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ... ﴾ الآيةَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٨).

وقال القرطبي: (قال ابنُ الأنباري: ومَن قرَأَ بلا استِفهامٍ لم يحسُنْ أن يَقِفَ على ﴿ زَنِيمٍ ﴾؛ لأنَّ المعنى: لِأَنْ كان وبأنْ كان، فـ﴿ أَن ﴾ مُتعَلِّقةٌ بما قَبْلَها. قال غيرُه: يجوزُ أن يتعلَّقَ بقَولِه: ﴿ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾، والتَّقديرُ: يَمشي بنَميمٍ لأنْ كان ذا مالٍ وبنينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٦).

ويُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) لابن الأنباري (٢/ ٩٤٤).

وقولُه ﴿ أَن ﴾ قرأَه بهمزةٍ واحدةٍ على الخبرِ نافعٌ، وابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو والكِسائيُّ وخَلَفٌ، وحفصٌ، وقرأه الباقونَ (ابنُ عامِرٍ وحمزةُ وأبو جَعفرٍ، ويعقوبُ، وأبو بكرٍ) بهمزتيْنِ على الاستفهامِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (١/ ٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٠، ١٧١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٦)، ((الوجيز)) =

= للواحدي (ص: ١١٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٥، ٣٠٦).

قال أبو السعود: (﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ بالْكَيِّ على أكرمِ مَواضِعِه؛ لغايةِ إهانتِه وإذلالِه، قيلَ: أصابَ أنْفَ الوليدِ جراحةٌ يومَ بدرٍ فبقيتْ علامتُها، وقيلَ: معناهُ: سنعلِّمُه يومَ القيامةِ بعلامةٍ مشوِّهةٍ يُعلَمُ بها عن سائرِ الكفرةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤)، ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢١).

قيل: المراد: نُسَوِّدُ وجْهَه يومَ القيامةِ، فعبَّر عن الوجهِ بالأنفِ؛ لأنَّه منه. وممَّن قال بهذا في الجملة: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمعاني، والخازن، ونسَبَه الواحديُّ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو العاليةِ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٧).

قال السمرقندي: (﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ يعني: سنَضربُه على الوجهِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٢).

وقيل: سنَجعَلُ على أنفِه علامةً باقيةً في الدُّنيا بأن نَخطِمَ أنْفَه بالسَّيفِ يومَ بَدرٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الواحديُّ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٥٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٠).

وقال ابن قُتَيْبَةَ: (أُلحِقُ به عارًا لا يُفارِقُه في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ كالوسمِ على الخُرطومِ، وأبْيَنُ ما يكونُ الوَسمُ في الوجهِ). ((تأويل مُشْكِل القرآن)) (ص: ١٠٢)، ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٢٩٨).

وقال ابن جرير: (معنى ذلك: سنُبَيِّنُ أمْرَه بيانًا واضِحًا حتَّى يَعرِفوه، فلا يَخفى عليهم، كما لا تَخفى السِّمةُ على الخُرطومِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٠، ١٧١).

وقال ابنُ عاشور: (الوَسْمُ للإبلِ ونَحوِها: جَعلُ سِمةٍ لها أنهَّا مِن مملوكاتِ القَبيلةِ أو المالِكِ المعَيَّنِ؛ فالمعنى: سنُعامِلُه مُعامَلةً يُعرَفُ بها أنَّه عَبدُنا، وأنَّه لا يُغْني عنه مالُه وولدُه مِنَّا شَيئًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٧).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كان هذا المذكورُ قد أغرَقَ في الشَّرِّ، فتَوقَّعَ السَّامعُ جَزاءَه؛ قال مُعلِمًا =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١ - في قَولِه تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ أنَّه لا يجوزُ للمُؤمنِ أنْ يُدَاهِنَ، والمُدَاهَنةُ في الحقيقةِ أشْبَهُ ما تكونُ في وقتِنا الحاضرِ بما يُسمُّونَه بالعَلمَنةِ؛ فإنَّ العَلمانيِّينَ يقولونَ: دَعْ كلَّ إنسانٍ وشأنَه؛ الدَّولةُ دولةٌ، والدِّينُ دِينٌ؛ فالدَّولةُ لا بُدَّ أنْ تَتَّحِدَ، وأمَّا الدِّينُ فلكُلٍّ دِينُه، فلا تُنْكِرْ على الكافرِ ولا على الفاسِقِ! دَعْ كلَّ إنسانٍ يَعْمَلُ ما شاء! وهذه الآيةُ صريحةٌ في وُجوبِ الإنكارِ على الكافِرينَ كُفْرَهم، وألَّا نُداهِنَهم[1].

---

= أنَّه يَجعَلُ له مِن الخزْيِ والفضائحِ ما يَصيرُ به شُهرةً بيْنَ الخلائقِ في الدُّنيا والآخرةِ: ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾، أي: نَجعَلُ ما يَلحَقُ به مِن العارِ في الدَّارَينِ كالوسْمِ الَّذي لا يَنْمحي أثَرُه... وَسْمًا مُستعليًا عليه بوُضوحٍ جدًّا؛ لِيَكونَ هُتْكةً بيْنَ النَّاسِ، وفَضيحةً لقَومِه وذُلًّا وعارًا، وكذا كان -لَعَمْري- له بهذا الذِّكرِ الشَّنيعِ والذَّنْبِ القبيحِ مِن الكفْرِ وما معه، وسيَكونُ له يومَ الجَمْعِ الأعظَمِ ما هو أشنَعُ مِن هذا، على أنَّه قد حُقِّقَ في الدُّنيا هذا الخَطْمُ حِسًّا بأنَّه ضُرِبَ يومَ بدْرٍ ضَربةً خَطَمَتْ أنْفَه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٥، ٣٠٦).

وقال ابن تيمية: (وقولُه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ فيه إطلاقٌ يتضمَّنُ الوسمَ في الآخرةِ وفي الدُّنيا أيضًا). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٨).

قال ابن القيِّم: (المُداراةُ صِفةُ مدحٍ، والمُداهَنةُ صِفةُ ذمٍّ، والفرقُ بيْنَهما أنَّ المُداريَ يَتلطَّفُ بصاحِبِه حتَّى يَستَخرِجَ منه الحقَّ، أو يَرُدَّه عن الباطِلِ، والمُداهِنَ يَتلطَّفُ به لِيُقِرَّه على باطِلِه، ويَترُكَه على هَواه، فالمُداراةُ لأهلِ الإيمانِ، والمُداهَنةُ لأهلِ النِّفاقِ، وقد ضُرِب لذلك مثَلٌ مُطابِقٌ، وهو حالُ رجُلٍ به قَرْحةٌ قد آلَمَتْه، فجاءه الطَّبيبُ المداوي الرَّفيقُ فتَعرَّفَ حالَها، ثمَّ أخَذ في تليينِها، حتَّى إذا نَضِجَتْ أخَذ في بَطِّها بِرِفْقٍ وسُهولةٍ حتَّى أخرَج ما فيها، ثمَّ وضع على مكانِها مِن الدَّواءِ والمرهمِ ما يَمنَعُ فَسادَها، ويَقطَعُ مادَّتَها، ثمَّ تابَع عليها بالمراهِمِ الَّتي تُنبِتُ اللَّحمَ، ثمَّ يَذُرُّ عليها بعْدَ نباتِ اللَّحمِ ما يُنشفُ رُطوبتَها، ثمَّ يَشُدُّ عليها الرِّباطَ، ولم يَزَلْ يُتابِعُ ذلك حتَّى صلَحَتْ. والمُداهنُ قال لصاحِبِها: لا بأْسَ عليك منها، وهذه لا شيء، فاستُرْها عن العُيوبِ بخِرقةٍ ثمَّ الْهُ عنها، فلا تَزالُ مِدَّتُها تَقْوى وتَستَحْكِمُ حتَّى عَظُمَ فَسادُها). ((الروح)) (ص: ٢٣١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ الحَلَّافُ مَن كان كثيرَ الحَلِفِ في الحَقِّ والباطِلِ -على قولٍ-، وكفى به مَزجَرةً لِمَن اعتاد الحَلِفَ[١]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ أنَّ مَن أكثَرَ الأيْمانَ، هان على الرَّحمنِ، واتَّضَعتْ مرتبتُه عندَ النَّاسِ[٢]. فلا يَنبغي للإنسانِ أنْ يُكثِرَ مِن الأيْمانِ؛ فإنَّ اللهَ ذَكَر الإكثارَ مِن الأيْمانِ بصيغةِ الذَّمِّ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۞ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ حاصِلُه أنَّ اللهَ تعالى نهى عن طاعةِ كُلِّ حَلَّافٍ كَذَّابٍ، خَسيسِ النَّفْسِ، سَيِّئِ الأخلاقِ، خُصوصًا الأخلاقَ المُتضَمِّنةَ للإعجابِ بالنَّفْسِ، والتَّكبُّرِ على الحَقِّ وعلى الخَلْقِ، والاحتِقارِ للنَّاسِ؛ كالغِيبةِ والنَّميمةِ، والطَّعنِ فيهم، وكثرةِ المعاصي، وهذه الآياتُ وإن كانت نزَلَت في بعضِ المُشرِكينَ فإنَّها عامَّةٌ في كُلِّ مَنِ اتَّصَف بهذا الوَصفِ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ التَّحذيرُ مِن النَّمَّامِ وإنْ حَلَفَ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وقَولِه: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ نَهاه عن طاعةِ هذَينِ الضَّربينِ، فكان فيه فوائِدُ:

منها: أنَّ النَّهيَ عن طاعةِ المرءِ نهيٌ عنِ التَّشَبُّهِ به بالأَولى، فلا يُطاعُ المُكَذِّبُ والحَلَّافُ، ولا يُعْمَلُ بمِثْلِ عَمَلِهما، كقَولِه: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٣، ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨٠).

(٣) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٧٩).

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٦٨٠).

[الأحزاب: ١] وأمثالِه؛ فإنَّ النَّهيَ عن قَبولِ قولِ مَن يأمُرُ بالخُلُقِ النَّاقِصِ أبلَغُ في الزَّجرِ مِن النَّهيِ عن التَّخَلُّقِ به.

ومنها: أنَّ ذلك أبلغُ في الإكرامِ والاحترامِ؛ فإنَّ قولَه: «لا تَكْذِبْ، ولا تَحْلِفْ، ولا تَشْتِمْ، ولا تَهْمِزْ» ليس هو مِثلَ قَولِه: «لا تُطِعْ مَن يكونُ مُتَلَبِّسًا بهذه الأخلاقِ»؛ لِمَا فيه مِن تشريفِه وبراءتِه.

ومنها: أنَّ الأخلاقَ مُكتَسَبةٌ بالمعاشَرةِ؛ ففيه تحذيرٌ عنِ اكتسابِ شيءٍ مِن أخلاقِهم بالمُخالَطةِ لهم، فلْيأخُذْ حِذْرَه؛ فإنَّه مُحتاجٌ إلى مُخالَطَتِهم مِن أجْلِ دَعوتِهم إلى اللهِ تعالى.

ومنها: أنَّهم يُبدونَ مَصالحَ فيما يأمُرونَ به؛ فلا تُطِعْ مَن كان هكذا ولو أَبْداها؛ فإنَّ الباعثَ لهم على ما يأمُرونَ به هو ما في نُفوسِهم مِن الجَهلِ والظُّلمِ، وإذا كان الأصلُ المقتضي للأمرِ فاسِدًا لم يُقبَلْ مِن الآمِرِ؛ فإنَّ الأمرَ مَدَارُه على العِلمِ بالمصلحةِ وإرادتِها، فإذا كان جاهِلًا لم يَعلَمِ المصلحةَ، وإذا كان الخُلُقُ فاسِدًا لم يُرِدْها، وهذا مَعنًى بليغٌ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، أي: بعَدْ ما عُدَّ له مِن المَثالِبِ والنَّقائِصِ؛ فهو عُتُلٌّ زَنيمٌ -على قولٍ-، وهذا يدُلُّ على أنَّ هذَينِ الوصفَينِ -وهو كَونُه عُتُلًّا زَنيمًا- أشَدُّ مَعايبِه؛ لأنَّه إذا كان جافيًا غليظَ الطَّبعِ، قَسا قَلْبُه، واجترَأَ على كُلِّ مَعصيةٍ، ولأنَّ الغالبَ أنَّ النُّطفةَ إذا خبُثَتْ خبُثَ الولَدُ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ أنَّه سبحانَه لا بُدَّ أنْ يَسِمَ صاحِبَ هذه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٥).

الأخلاقِ الخَبيثةِ على خُرطومِه -وهو أنْفُه الَّذي هو عُضوه البارزُ الَّذي يَسبقُ البصرُ إليه عندَ مُشاهَدتِه-؛ لِتَكونَ السِّيما ظاهِرةً مِن أوَّلِ ما يُرَى، وهذا ظاهِرٌ في الفَجَرةِ الظَّلَمةِ الَّذين وَدَعَهم النَّاسُ اتِّقاءَ شَرِّهم وفُحْشِهم؛ فإنَّ لهم سِيما مِن شَرٍّ يُعرَفونَ بها، وكذلك الفَسَقةُ وأهلُ الرِّيبِ[1].

٣- قال الله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ لَمَّا كان الوَسمُ مُنكِئًا، وكان جَعْلُه في موضِعٍ لا يُستَرُ أنكأَ، وكان الوَجهُ أشرَفَ ما في الإنسانِ، وكان أظهَرُ ما فيه وأكرَمُه الأنفَ؛ ولذلك جَعَلوه مكانَ العِزِّ والحَمِيَّةِ، واشتَقُّوا منه الأَنَفةَ- قال: ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ الخُرْطومُ: الأنفُ، وإنَّما ذُكِرَ هذا اللَّفظُ على سَبيلِ الاستِخفافِ به؛ لأنَّ التَّعبيرَ عن أعضاءِ النَّاسِ بالأسماءِ الموضوعةِ لأشباهِ تلك الأعضاءِ مِن الحيواناتِ: يكونُ استِخفافًا! كما يُعبَّرُ عن شِفاه النَّاسِ بالمشافِرِ، وعن أيديهم وأرجُلِهم بالأظلافِ والحوافِرِ[3].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾، استُدِلَّ به على ضَعفِ القَولِ بـ (واوِ الثَّمانيةِ)، فقد وصَفَه بأوصافٍ تِسعةٍ، ولم يُدخِلْ بيْنَها واوَ العَطفِ، ولا بعْدَ السَّابعِ[4].

٦- قال اللهُ تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ فذكَرَ أرْبَعَ آياتٍ، كُلُّ آيَتيْنِ جَمَعَت نَوعًا مِن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٠٧-٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٦).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٩). ويُنظر أيضًا: ((مغني اللبيب عن كتب الأعاريب)) لابن هشام (ص: ٤٧٤-٤٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١١/ ٤٢) و(٢٨/ ٣٦٢-٣٦٤).

الأخْلاقِ الفاسِدةِ المَذمُومةِ، وجَمَعَ في كُلِّ آيةٍ بيْنَ النَّوعِ المُتَشابِه خَبرًا وطَلبًا؛ فالحَلَّافُ مَقْرونٌ بالمَهينِ؛ لأنَّ الحَلَّافَ هو كثيرُ الحَلِفِ، وإنَّما يكونُ على الخَبَرِ أو الطَّلَبِ، فهو إمَّا تَصْديقٌ أو تَكْذيبٌ، أو حَضٌّ أو مَنْعٌ، وإنَّما يُكثِرُ الرَّجلُ ذلك في خَبَرِه إذا احتاج أنْ يُصَدَّقَ ويُوثَقَ بخَبَرِه. ومَن كان كثيرَ الحَلِفِ كان كثيرَ الكذِبِ في العَهدِ مُحتاجًا إلى النَّاسِ؛ فهو مِن أذَلِّ النَّاسِ ﴿حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾؛ حَلَّافٌ في أقْوالِه، مَهينٌ في أفْعالِه. وأمَّا الهَمَّازُ المَشَّاءُ بِنَمِيمٍ: فالهَمْزُ أقْوَى مِن اللَّمْزِ وأشدُّ -سَواءٌ كان هَمْزَ الصَّوتِ أو هَمْزَ حَرَكةٍ-. فالهَمَّازُ المُبالِغُ في العَيبِ نَوعًا وقَدْرًا. والمَشَّاءُ بِنَمِيمٍ هو مِن العَيبِ، ولكنَّه عَيبٌ في القَفَا، فهو عَيبُ الضَّعيفِ العاجِزِ؛ فذَكَر العَيَّابَ بالقُوَّةِ، والعَيَّابَ بالضَّعْفِ، والعَيَّابَ في مَشهَدٍ، والعَيَّابَ في مَغيبٍ.

وأمَّا ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ فإنَّ الظُّلْمَ نَوعانِ: تَرْكُ الواجِبِ، وهو مَنْعُ الخَيرِ وتَعَدٍّ على الغَيرِ، وهو المُعْتَدِي. وأمَّا الأثيمُ مع المُعْتَدِي فكقَولِه: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢].

وأمَّا العُتُلُّ الزَّنيمُ: فهو الجَبَّارُ الفَظُّ الغَليظُ الَّذي قدْ صار مِن شِدَّةِ تجَبُّرِه وغِلَظِهِ مَعْروفًا بالشَّرِّ مَشهُورًا به لهُ زَنَمةٌ كزَنَمةِ الشَّاةِ. ويُشْبِهُ -واللهُ أعلَمُ- أنْ يكونَ الحَلَّافُ المَهينُ الهَمَّازُ المَشَّاءُ بِنَمِيمٍ مِن جِنْسٍ واحدٍ، وهو في الأقوالِ وما يَتْبَعُها مِن الأفْعالِ، والمَنَّاعُ المُعْتَدِي الأثيمُ العُتُلُّ الزَّنيمُ مِن جِنْسٍ، وهو في الأفعالِ وما يَتبَعُها مِن الأقوالِ. فالأوَّلُ الغالِبُ على جانِبِ الأعْراضِ، والثَّاني الغالِبُ على جانِبِ الحُقُوقِ في الأحوالِ والمَنافِعِ، ونَحوِ ذلك. ووَصَفَه بالظُّلْمِ والبُخلِ والكِبْرِ كما في قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ﴿ٱلَّذِينَ

يَبۡخَلُونَ﴾ الآيةَ[١] [النساء: ٣٦، ٣٧].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ * وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ لتَرتيبِ النَّهْيِ على جَميعِ ما فُصِّلَ مِن أوَّلِ السُّورةِ، أو على ما يُنبِئُ عنه ما قبْلَه مِن اهتدائِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وضَلالِهم[٢]. فهو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [القلم: ٧] إلى آخِرِها، باعتبارِ ما تَضمَّنَتْه مِن أنَّه على الهُدى، وأنَّ الجانبَ الآخَرَ في ضَلالِ السَّبيلِ؛ فإنَّ ذلك يَقْتضي المُشادَّةَ معهم، وألَّا يَلينَ لهم في شَيءٍ؛ فإنَّ أذاهُم إيَّاه آلَ إلى مُحارَبةِ الحقِّ والهُدى، وتَصلُّبٍ فيما همْ عليه مِن الضَّلالِ عن سَبيلِ اللهِ، فلا يَستأهِلونَ به لِينًا، ولكنْ يَستأهِلون إغلاظًا، وليس المرادُ أنَّهم وَدُّوا ذلك في نُفوسِهم فأطْلَعَ اللهُ عليه رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لعدَمِ مُناسَبتِه لقولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، وقد ورَدَ أنَّ المشركينَ تقدَّموا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمِثلِ هذا العرْضِ، ووسَّطوا في ذلك عمَّه أبا طالبٍ وعُتبةَ بنَ رَبيعةَ، فيَنتظِمُ مِن هذا أنَّ قولَه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ نهْيٌ عن إجابتِهم إلى شَيءٍ عَرَضُوه عليه عندَ ما قَرَعَهم بأوَّلِ هذه السُّورةِ، وبخاصَّةٍ مِن وقْعِ معْنى التَّعريضِ البديعِ المَمزوجِ بالوعيدِ بسُوءِ المُستقبَلِ مِن قولِه: ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ إلى قولِه: ﴿بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[٣] [القلم: ٥- ٧].

- وهو تَهييجٌ وإلهابٌ للتَّصميمِ على مُعاصاتِهم، أيْ: دُمْ على ما أنت عليه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٨).

مِن عدَمِ طاعتِهم وتَصلَّبْ في ذلك، أو نهْيٌ عن مُداهنَتِهم ومُداراتِهم بإظهارِ خِلافِ ما في ضَميرِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم استجلابًا لقُلوبِهم لا عن طاعتِهم، كما يُنبِئُ عنه قولُه تعالَى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ﴾؛ فإنَّه تَعليلٌ للنَّهي أو الانتهاءِ، وإنَّما عبَّر عنها بالطَّاعةِ؛ للمُبالَغةِ في الزَّجرِ والتَّنفيرِ، أيْ: أحَبُّوا لو تُلاينُهم وتُسامِحُهم في بَعضِ الأمورِ فيُدهِنون[1].

- ووُقوعُ فِعلِ ﴿تُطِعِ﴾ في حيِّزِ النَّهيِ يَقْتضي النَّهيَ عن جِنسِ الطَّاعةِ لهم، فيَعُمُّ كلَّ إجابةٍ لطَلَبٍ منهم[2].

- واختِيرَ تَعريفُهم بوصْفِ ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ دونَ غيرِه مِن طُرقِ التَّعريفِ؛ لأنَّه بمَنزلةِ الموصولِ في الإيماءِ إلى وجْهِ بِناءِ الحُكمِ، وهو حُكمُ النَّهيِ عن طاعتِهم؛ فإنَّ النَّهيَ عن طاعتِهم لأنَّهم كذَّبوا رِسالتَه، ومِن هنا يتَّضِحُ أنَّ جُملةَ ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ بَيانٌ لمُتعلَّقِ الطَّاعةِ المَنهيِّ عنها؛ ولذلك فُصِلَت ولم تُعطَفْ[3].

- وحرْفُ (لو) يَحتمِلُ أنْ يكونَ شَرطيًّا، ومَفعولُ (وَدَّ) مَحذوفًا، ويكونَ فِعلُ ﴿تُدۡهِنُ﴾ شَرْطًا، وأنْ يكونَ جَوابُ الشَّرطِ مَحذوفًا، ويكونَ التَّقديرُ: ودُّوا إدْهانَكَ، لو تُدهِنُ لحَصَل لهم ما يَوَدُّون، أو لَسُرُّوا بذلك. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ (لوْ) حَرفًا مَصدريًّا مِثلَ (أنْ)، فيكونَ التَّقديرُ: وَدُّوا إدهانَك، فهم الآنَ يُدهِنونَ لطمعِهم في إدهانِك[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢، ١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٧، ٢٣٨)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٠٧)، ((تفسير =

- والفاءُ في ﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾ للعطْفِ والتَّسبُّبِ عن جُملةِ ﴿لَوۡ تُدۡهِنُ﴾ جَوابًا لمعْنى التَّمنِّي المدلولِ عليه بفِعلِ ﴿وَدُّواْ﴾، لقَصدِ بَيانِ سَببِ وَدادتِهم ذلك، فلذلك لم يُنصَبِ الفعلُ بعْدَ الفاءِ بإضمارِ (أنْ)؛ لأنَّ فاءَ السَّببيَّةِ كافيةٌ في إفادةِ ذلك، فالكلامُ بتَقديرِ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: فهمْ يُدهِنونَ، وسُلِكَ هذا الأسلوبُ ليَكونَ الاسمُ المقدَّرُ مُقدَّمًا على الخبرِ الفِعليِّ، فيُفيدَ معْنى الاختصاصِ، أي: فالإدهانُ منهم لا منك، أي: فاتْرُكِ الإدهانَ لهم، ولا تَتخلَّقْ أنت به، وهذه طَريقةٌ في الاستِعمالِ إذا أُريدَ بالتَّرتُّباتِ أنَّه ليس تَعليقَ جَوابٍ، وقدْ يُفيدُ مَوقعُ الفاءِ تَعليلًا لمَودَّتِهم منه أنْ يُدهِنَ، أي: وَدُّوا ذلك منك لأنَّهم مُدهِنون، وصاحبُ النِّيَّةِ السَّيِّئةِ يَوَدُّ أنْ يكونَ النَّاسُ مِثلَه[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۞ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۞ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۞ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ﴾ إعادةُ فِعلِ النَّهيِ عن الطَّاعةِ لِمَن هذه صِفاتُهم؛ للاهتمامِ بهذا الأدَبِ، فلم يُكتَفَ بدُخولِ أصحابِ هذه الأوصافِ في عُمومِ المكذِّبين، ولا بتَخصيصِهم بالذِّكرِ بمُجرَّدِ عطْفِ الخاصِّ على العامِّ، بأنْ يُقالَ: ولا كلَّ حلَّافٍ، بل جِيءَ في جانبِهم بصِيغةِ نهْيٍ أُخرى مُماثِلةٍ للأُولى، وليُفيدَ تَسليطَ الوعيدِ الخاصِّ -وهو في مَضمونِ قولِه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلۡخُرۡطُومِ﴾ [القلم: ١٦]- على أصحابِ هذه الصِّفاتِ الخاصَّةِ

---

= أبي السعود)) (٩/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٩، ٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٦٩، ٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧١).

زِيادةً على وَعيدِ المُكذِّبين[١].

- وكَلمةُ (كُلّ) مَوضوعةٌ لإفادةِ الشُّمولِ والإحاطةِ لأفرادِ الاسمِ الَّذي تُضافُ هي إليه، فهي هنا تُفيدُ النَّهيَ العامَّ عن طاعةِ كلِّ فرْدٍ مِن أفرادِ أصحابِ هذه الصِّفاتِ الَّتي أُضِيفَ إليها (كُلّ) بالمباشَرةِ وبالنُّعوتِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ تَقديمُ هذا الوصْفِ على سائرِ الأوصافِ الزَّاجرةِ عن الطاعةِ؛ لِكَونِه أدخلَ في الزَّجرِ[٣]، وكَفى بكَثرةِ الحلِفِ سُوءَ خُلقٍ وعَيبًا أنَّه قدَّمَه على جَميعِ العيوبِ، وفيه تَعظيمٌ للحَلِفِ، وبيانُ أنَّها أقبَحُ مَعايِبِه وأعظَمُها[٤].

- وقيل: أُريدَ بقولِه: ﴿كُلَّ حَلَّافٍ﴾ الكِنايةُ عن عَدَمِ المُبالاةِ بالكذِبِ وبالأيْمانِ الفاجرةِ، فجُعِلَت صِيغةُ المُبالَغةِ كِنايةً عن تَعمُّدِ الحِنثِ، وإلَّا لم يكُنْ ذَمُّه بهذه المَثابةِ[٥].

- والهمَّازُ كثيرُ الهمْزِ. وصِيغةُ المُبالَغةِ راجعةٌ إلى قوَّةِ الصِّفةِ، فإذا كان أذًى شَديدًا فصاحِبُه همَّازٌ، وإذا تَكرَّرَ الأذى فصاحِبُه همَّازٌ[٦].

- المشَّاءُ بالنَّميمِ: الَّذي يَنُمُّ بيْن النَّاسِ، ووَصْفُه بالمشَّاءِ للمُبالَغةِ[٧].

- وذِكرُ المشْيِ لتَشويهِ حالِه بأنَّه يَتجشَّمُ المَشقَّةَ مِن أجْلِ النَّميمةِ، مِثلُ ذِكرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٢).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السَّعي في قولِه تعالَى: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٦٤]؛ ذلك أنَّ أسماءَ الأشياءِ المحسوسةِ أشدُّ وقْعًا في تَصوُّرِ السَّامعِ مِن أسماءِ المعقولاتِ، فذِكرُ المشْيِ بالنَّميمةِ فيه تَصويرٌ لحالِ النَّمَّامِ(١).

- قولُه: ﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ مَذمَّتانِ قُرِنَ بيْنَهما لمُناسَبةِ الخُصوصِ والعُمومِ. والاعتِداءُ: مُبالَغةٌ في العُدوانِ، فالافتِعالُ فيه للدَّلالةِ على الشِّدَّةِ، والأثيمُ: كثيرُ الإثمِ، وهو فَعيلٌ مِن أمثلةِ المُبالَغةِ(٢).

- على تَفسيرِ العُتُلِّ بالشَّديدِ الخِلقةِ والرَّحيبِ الجَوفِ، يكونُ وجْهُ ذِكرِه أنَّ قَباحةَ ذاتِه مُكمِّلةٌ لِمَعايبِه؛ لأنَّ العَيبَ المُشاهَدَ أجلَبُ إلى الاشمئزازِ، وأوغَلُ في النَّفرةِ مِن صاحِبِه(٣).

- ومَوقعُ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ مَوقعُ الجُملةِ المُعترِضةِ، والظَّرفُ خبَرٌ لمَحذوفٍ تَقديرُه: هو بعْدَ ذلك. ويجوزُ اتِّصالُ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بقولِه: ﴿زَنِيمٍ﴾، على أنَّه حالٌ مِن ﴿زَنِيمٍ﴾(٤).

- وقيل: قولُه: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾، أي: عِلاوةً على ما عُدِّدَ له مِن الأوصافِ هو سَيِّئُ الخِلقةِ، سَيِّئُ المُعامَلةِ، فالبَعديَّةُ هنا بَعديَّةٌ في الارتقاءِ في دَرَجاتِ التَّوصيفِ المذكورِ، فمُفادُها مُفادُ التَّراخي الرُّتبيِّ(٥).

- والزَّنيمُ: اللَّصيقُ، وهو مَن يكونُ دَعيًّا في قَومِه ليس مِن صَريحِ نَسَبِهم:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٧٣، ٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٧٤، ٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧١).

إمَّا بمَغمزٍ في نَسَبه، وإمَّا بكونِه حليفًا في قومٍ أو مَولًى، وأيًّا ما كان المرادُ به فإنَّ المرادَ به خاصٌّ، فدُخولُه في المعطوفِ على ما أُضِيفَ إليه ﴿كُلَّ﴾ إنَّما هو على فرْضِ وُجودِ أمثالِ هذا الخاصِّ، وهو ضرْبٌ مِن الرَّمزِ، كما يُقالُ: ما بالُ أقوامٍ يَعمَلونَ كذا، ويُرادُ واحدٌ مُعيَّنٌ[1].

- قولُه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ في مَجيءِ هذه الصِّفاتِ مَسرودةً على نَمَطٍ عَجيبٍ خلَّابٍ فنُّ المُناسَبةِ؛ فجاء ﴿حَلَّافٍ﴾ وبعْدَه ﴿مَّهِينٍ﴾؛ لأنَّ النُّونَ فيها مع الميم تَراخٍ، ثمَّ جاء ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ بصِفتَي المُبالَغةِ، ثمَّ جاء ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾، وبعْدَ ما عَدَّ له مِن المَثالبِ والنَّقائصِ أتى بصِفتَينِ مِن أشدِّ مَعايِبه، وقد جاءتِ البَعديَّةُ لتَدُلَّ على ذلك[2]. وذلك على قولٍ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ المرادُ: كلُّ مَن كان ذا مالٍ وبَنينَ مِن كُبراءِ المشركين، كقولِه تعالَى: ﴿وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ﴾ [المزمل: ١١]. وقيل: أُريدَ به الوليدُ بنُ المغيرةِ؛ إذ هو الَّذي اختَلَقَ أنْ يقولَ في القرآنِ: أساطيرُ الأوَّلينَ. والوجهُ ألَّا يَختَصَّ هذا الوصْفُ به، وأنْ يكونَ تَعريضًا به[3].

- قولُه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استِئنافٌ جارٍ مَجْرَى التَّعليلِ للنَّهي، وقيلَ: مُتعلِّقٌ بما دلَّ عليهِ الجُملةُ الشَّرطيَّةُ مِن معْنى الجُحودِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٦).

والتَّكذيبِ لا بجَوابِ الشَّرطِ، كأنَّه قيلَ: لِكَونِه مُستظهِرًا بالمالِ والبنينَ كذَّبَ بآياتِنا، وفيه أنَّه يدُلُّ أنَّ مَدارَ تَكذيبِه كونُه ذا مالٍ وبَنينَ، مِن غيرِ أنْ يكونَ لسائرِ قَبائِحِه دخْلٌ في ذلك[1].

- قولُه: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ خُتِمَت الأوصافُ المُحذَّرُ عن إطاعةِ أصحابِها بوصْفِ التَّكذيبِ؛ ليَرجِعَ إلى صِفةِ التَّكذيبِ الَّتي انتَقَلَ الأُسلوبُ منها مِن قولِه: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[2] [القلم: ٨].

٤- قولُه تعالَى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابًا لسُؤالٍ يَنشَأُ عن الصِّفاتِ الذَّميمةِ الَّتي وُصِفوا بها، أنْ يَسأَلَ السَّامعُ: ما جَزاءُ أصحابِ هذه الأوصافِ مِن اللهِ على ما أَتَوه مِن القبائحِ، والاجتراءِ على ربِّهم[3]؟

- والوسْمُ: كِنايةٌ عن التَّمكُّنِ منه وتَمامِ الغَلَبةِ، وإظهارِ عَجْزِه عن المُقاوَمةِ، وذِكرُ الخُرطومِ والتَّعبيرُ به عن الأنفِ فيه جمْعٌ بيْن التَّشويهِ والإهانةِ؛ فإنَّ الوسْمَ يَقْتضي التَّمكُّنَ، وكَونُه في الوجْهِ إذلالٌ وإهانةٌ، وكونُه على الأنْفِ أشدُّ إذلالًا؛ لأنَّ الأنْفَ أبرَزُ ما في الوجْهِ، وهو مَجرى النَّفَسِ، ولذلك غَلَبَ ذِكرُ الأنفِ في التَّعبيرِ عن إظهارِ العِزَّةِ في قولِهم: شَمَخَ بأنْفِه، وهو أشَمُّ الأنْفِ، وهم شُمُّ العَرانينِ، وعُبِّرَ عن ظُهورِ الذِّلَّةِ والاستكانةِ بكسْرِ الأنْفِ، وجَدْعِه، ووُقوعِه في التُّرابِ في قولِهم: رَغِمَ أنْفُه، وعلى رَغْمِ أنْفِه[4]، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٧، ٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٢).

على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قيل: هذا وَعيدٌ بتَشويه أنْفِه يومَ القيامةِ، مِثل قولِه: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾[آل عمران: ١٠٦]، وجُعِلَ تَشويهُه يومَئذٍ في أنْفِه؛ لأنَّه إنَّما بالَغَ في عَداوةِ الرَّسولِ والطَّعنِ في الدِّينِ بسَبَبِ الأنَفةِ والكِبرياءِ، وقد كان الأنْفُ مَظهَرَ الكِبرِ، فجُعِلَت شَوهَتُه في مَظهَرِ آثارِ كِبريائِه[1].

- وفي قولِه تعالَى: ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ إلى قولِه: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ قال في سُورةِ (المُطفِّفينَ): ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴾[المطففين: ١٠ - ١٦]، فانقَطَعَت الآيةُ الأُولى إلى الجَزاءِ في الدُّنيا -وذلك على قولٍ- والآيةُ الثَّانيةُ إلى الجزاءِ في الآخِرةِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الموصوفَ في الآيةِ الأُولى مَوصوفٌ بجامعةٍ لخِصالِ الذَّمِّ، فاضحةٍ، وهي الحَلِفُ بالكذِبِ، والنَّميمةُ، والبُخلُ، والاعتداءُ؛ فلمَّا وَصَفَه بهذه الأشياءِ الظَّاهِرةِ القُبحِ، جَعَلَ في مُقابلتِها نَكالًا ظاهرًا يَبينُ على الوجْهِ، فقال: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾، أي: نُشهِّرُه بعلامةٍ تُنبئُ عن قَبائحِه وفَضائحِه. وأمَّا الآيةُ الأخيرةُ في (المُطفِّفين) فإنَّ قبْلَها: ﴿ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[المطففين: ١١-١٣]، فأخبَرَ عنهم أنَّهم لا يُؤمِنونَ بالبَعثِ، وأنَّ الذُّنوبَ الَّتي قارَفوها غَلَبَت على قُلوبِهم، حتَّى كأنَّها تَنكَّرَت لها؛ فلمَّا لم يَنعَتْهم إلَّا بالكُفْرِ، أخبَرَ عن جَزائِهم في الآخِرةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٨).

فأتْبَعَ كُلًّا مِن المكانَينِ ما لاقَ به، وصَلَحَ في مُقابِلِه ما تَقدَّمَ عليه[١].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّ آيةَ (القلَمِ) نَزَلَتْ في شَخصٍ بعَينِه، قيل: هو الأخنسُ بنُ شَرِيقٍ، وقيل: الوليدُ بنُ المُغيرةِ، وكان مُظهِرًا لعَداوةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو القائلُ: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩٣]، وكان مِن أكثَرِ قريشٍ مالًا ووَلدًا، فلهذا قِيل فيه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [القلم: ١٤]؛ ففي هذا نَزَلَت الآيةُ مِن قولِه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١٢] إلى آخِرِها، فأغْنى استيفاءُ صِفاتِه المذمومةِ عن تَعيينِ اسمِه بقولِه سُبحانَه: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾، إخبارٌ منه تعالَى بأوَّلِ عِقابٍ يَنزِلُ بعدُوِّ اللهِ المذكورِ، فهذا وَعيدٌ لخاصٍّ مُعيَّنٍ أُنزِلَ به مُعجَّلًا، ولَعذابُ الآخِرةِ أكبَرُ. وأمَّا آيةُ (المُطفِّفينَ) فليستْ في مُعيَّنينَ بغيرِ مُرتكباتِهم؛ فقال تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، أي: إنَّ المانعَ لهم مِن فَهمِ الوحْيِ بأنَّه مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ ما غطَّى قُلوبَهم مِن الرَّينِ، وهو ما يَغشى القلبَ، ويَمنَعُه مِن الوصولِ إلى ما يَنفَعُه، وأعاد الضَّميرَ في ﴿قُلُوبِهِم﴾ على المعْنى مِن حيثُ إنَّ المرادَ هنا جَميعُ مَن وَقَعَ عليهم (كلّ)، بخِلافِ آيةِ (القلَم)؛ فإنَّ (كلّ) فيها واقعةٌ على مُفرَدٍ، وعُبِّرَ بـ (كلّ) ليَعُمَّ المقصودُ بذلك المرادَ، ومَن كان على صِفتِه إبلاغًا في ذَمِّه، والضَّميرُ في ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ لمُفرَدٍ، ولَفظُ (كلّ) مُطابِقٌ بمعناه[٢].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٩٠-١٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٨٠، ٤٨١).

## الآيات (١٧-٢٢)

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَلَوْنَٰهُمْ﴾: أي: امتَحَنَّاهم واختَبَرْناهم، والبلاءُ: الاختبارُ والامتحانُ، وأصلُ (بلو) هنا: نوعٌ مِن الاختبارِ[1].

﴿لَيَصْرِمُنَّهَا﴾: أي: لَيَجتَنُونَها، ويَقطَعونَ ثَمَرَها، وأصلُ (صرم): يدُلُّ على قَطعٍ[2].

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾: أي: ولا يَقولونَ: إن شاء اللهُ. يُقالُ: حلَفَ فُلانٌ يمينًا ليس فيها ثُنْيا ولا ثَنْوَى ولا ثَنِيَّةٌ ولا مَثْنَوِيَّةٌ ولا استِثناءٌ، كلُّه واحدٌ، وأصلُ هذا كلِّه مِن الثَّنْيِ، وهو الكفُّ والرَّدُّ؛ وذلك أنَّ الحالِفَ إذا قال: واللهِ لَأفعَلَنَّ كذا إلَّا أن يَشاءَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٧).

قال الراغب: (يُقالُ: بَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلَقَ، ومنه قيل لِمَن سافَر: بِلْوُ سَفَرٍ وبِلْيُ سفَرٍ، أي: أبلاه السَّفرُ، وبَلَوْتُه: اختَبَرْتُه، كأنِّي أخلَقْتُه مِن كثرةِ اختباري له). ((المفردات)) (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٠).

اللهُ غَيْرَه، فقد ردَّ ما قاله بمشيئةِ الله غيرَه[١].

﴿طَآئِفٌ﴾: أي نارٌ أو عَذابٌ، وأصلُ (طوف): يدُلُّ على دَوَرانِ الشَّيءِ على الشَّيءِ، وإحاطتِه به[٢].

﴿كَٱلصَّرِيمِ﴾: أي: كاللَّيلِ المُظلِمِ البَهيم، أو كالمَصرومةِ المقطوعةِ لهلاكِ ثَمَرِها. وكُلُّ شَيءٍ قُطِعَ فهو صَريمٌ، وأصلُ (صرم): يدُلُّ على قَطعٍ[٣].

﴿ٱغْدُواْ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾: أي: أقبِلُوا على ثِمارِكم وزُروعِكم باكِرينَ، أو: اخرُجوا غُدوةً، يقالُ: غَدا يَغْدو غُدُوًّا، والغُدُوُّ: سيرُ أوَّلِ النَّهارِ، وأصلُ (غدو): يدُلُّ على زمانٍ، وأصلُ (حرث) هنا: يدُلُّ على الجمعِ والكسبِ[٤].

﴿صَٰرِمِينَ﴾: أي: حاصِدينَ زَرْعَكم أو عازِمينَ، وأصلُ (صرم): يدُلُّ على قَطعٍ[٥].

﴿يَتَخَٰفَتُونَ﴾: أي: يَتهامَسونَ بيْنَهم، ويُسِرُّ بَعضُهم إلى بعضٍ، وأصلُ (خفت):

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ١٠٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩) و(٤/ ٤١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٩٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٨)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٣٤٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٤).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٧).

يدُلُّ على إسرارٍ وكِتمانٍ[١].

﴿حَرْدٍ﴾: الحَرْدُ: المَنعُ مِن حِدَّةٍ وغَضَبٍ، ويُطلَقُ الحرْدُ على القَصدِ والغَضَبِ والمَنْعِ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى ضاربًا المثَلَ للمشركينَ بقصَّةِ أصحابِ الجنَّةِ: إنَّا امتَحَنَّا أهلَ مكَّةَ كما امتحَنَّا أصحابَ البُستانِ حينَ حَلَفوا فيما بيْنَهم على قَطْعِ ثمارِ بُستانِهم أوَّلَ النَّهارِ قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه؛ لِيَحرِموا المساكينَ مِن ثمارِ بُستانِهم، ولم يَسْتَثْنوا في قَسَمِهم بقَولِهم: إنْ شاء اللهُ. فنَزَل على بُستانِهم ليلًا وهم نائمونَ عَذابٌ مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- فأهلَكَه وأباده، فصار مُحترقًا، أسْوَدَ كسَوادِ اللَّيلِ المُظلِمِ!

فنادى أصحابُ البُستانِ بَعضُهم بَعضًا في أوَّلِ الصَّباحِ؛ لِيَذهَبوا لقَطعِ ثَمَرِهم: بَكِّروا في الخُروجِ إلى بُستانِكم إنْ كُنتُم اليومَ عازِمينَ على قَطعِ ثَمَرِه قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه! فانطَلَقوا إلى بُستانِهم وهم يُسِرُّونَ الحديثَ فيما بيْنَهم: لا يَدخُلَنَّ اليومَ بُستانَكم أحدٌ مِن المساكينِ. وخَرَجوا في أوَّلِ الصَّباحِ قاصِدينَ في غَضَبٍ مَنْعَ المساكينِ مِن ثمارِهم، قادِرينَ على ما عَزَموا عليه مِن قَطْعِ الثِّمارِ ومَنْعِ المساكينِ، فلمَّا رأَوا بُستانَهم أنكَروا أن يكونَ هو! وقال

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ١٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٠، ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ١٩٦).

بعضُهم لبَعضٍ: إنَّا قد ضلَلْنا الطَّريقَ إلى بُستانِنا! وقالوا: لا، لم نَضِلَّ الطَّريقَ، بل حُرِمْنا مِن ثَمَرِه!

قال أعدَلُهم وأعقَلُهم: ألمْ أقُلْ لكم ناصِحًا: هلا نزَّهتُم اللهَ عن السُّوءِ بقَولِكم: سُبْحانَ اللهِ؟! فقالوا مُعترِفينَ بخَطَئِهم: نُنَزِّهُ ربَّنا عن أن يكونَ ظالِمًا فيما فَعَل ببُسْتانِنا، بل كنَّا نحن الظَّالِمينَ. فأقْبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ لائِمينَ أنفُسَهم، قالوا: يا حَسْرَتَنا وهَلاكَنا، إنَّا قد تجاوَزْنا حدودَ اللهِ تعالى، نَرجو مِن ربِّنا بَعْدَ أن تُبْنا إليه أن يُعوِّضَنا خيرًا مِن بُستانِنا الَّذي هلَك، إنَّا إلى رَبِّنا وَحْدَه راغِبونَ وراجُونَ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى قصَّتَهم بقولِه: مِثلَ هذا العذابِ الدُّنيويِّ الَّذي حَلَّ بأصحابِ البُستانِ يُعَذِّبُ اللهُ تعالى أيضًا كُلَّ مَن خالَفَ أمْرَه، فبَخِلَ بما أنعَمَ به عليه، ومَنَع المحتاجينَ، ولَعَذابُ اللهِ في الآخِرةِ لِمَن يَستَحِقُّه أكبَرُ مِن عذابِ الدُّنيا لو كان الكُفَّارُ يَعلَمونَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا قال: مِن أجْلِ أنْ كان ذا مالٍ وبَنينَ جَحَد وكفَرَ وعَصى وتمرَّدَ؟! وكان هذا استِفهامًا على سَبيلِ الإنكارِ -على قولٍ-؛ بيَّن في هذه الآيةِ أنَّه تعالَى إنَّما أعطاهُ المالَ والبَنينَ على سَبيلِ الابتلاءِ والامتحانِ، وليَصرِفَه إلى طاعةِ اللهِ، وليُواظِبَ على شُكرِ نِعَمِ اللهِ، فإنْ لم يَفعَلْ ذلك فإنَّه تعالَى يَقطَعُ عنه تلك النِّعَمَ، ويَصُبُّ عليه أنواعَ البلاءِ والآفاتِ، فقال: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾، أي: كلَّفْنا هؤلاء أنْ يَشكُروا على النِّعَمِ، كما كلَّفْنا أصحابَ الجنَّةِ ذاتِ

الثِّمارِ أنْ يَشكُروا ويُعطُوا الفُقراءَ حُقوقَهم[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانه المتَّصِفينَ بتِلك الأوصافِ الذَّميمةِ -وهم كُفَّارُ قُريشٍ- أخبَرَ تعالَى بما حلَّ بهم مِن الابتلاءِ بالقحْطِ والجُوعِ بدَعوةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اللَّهُمَّ اشدُدْ وَطْأَتَك على مُضَرَ، واجْعَلَها عليهم سِنينَ كَسِنِي يُوسفَ))[٢].

﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾.

أي: إنَّا امتحَنَّا أهلَ مَكَّةَ كما امتحَنَّا أصحابَ البُستانِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤١).

والحديث أخرجه مطوَّلًا البخاريُّ (٨٠٤) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٦٧٥) من حديث أبي هريرةَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٦، ٣٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٩).

قيل: المرادُ أنَّ اللهَ تعالى أنعَمَ على أهلِ مكَّةَ كما أنعَمَ على أصحابِ الجنَّةِ بجَنَّتِهم، ثمَّ اختَلَفوا في النِّعَمِ الَّتي أُعطِيَها أهلُ مكَّةَ؛ فقيل: هي نبُوَّةُ مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٥).

وقيل: هي الأموالُ. والمعنى: أعطَيْناهم أموالًا ليَشكُروا لا ليَبطَروا، فلمَّا بَطِروا وعادَوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ابتَلَيْناهم بالجُوعِ والقَحْطِ كما بَلَونا أهلَ الجنَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٣).

وقال السعدي: (يقولُ تعالى: إنَّا بَلَونا هؤلاء المكَذِّبينَ بالخَيرِ وأمهَلْناهم، وأمدَدْناهم بما شِئْنا مِن مالٍ ووَلَدٍ، وطولِ عُمُرٍ، ونحوِ ذلك ممَّا يُوافِقُ أهواءَهم، لا لكرامتِهم علينا، بل رُبَّما يكونُ استدراجًا لهم مِن حيثُ لا يَشعُرونَ؛ فاغترارُهم بذلك نظيرُ اغترارِ أصحابِ الجنَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠). =

كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ * فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٢ - ١١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ * يَغْشَى ٱلنَّاسَ ۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ * أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ * ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ * إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ * يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠ - ١٧].

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾.

---

= وذكَر ابنُ عاشور أنَّ البلوى هنا بالخيرِ، وأنَّ اللهَ أمدَّ أهلَ مكَّةَ بنعمةِ الأمنِ، والرِّزقِ الذي يأتيهم مِن كلِّ جهةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٦، ٣٠٧).

وقيل: المرادُ: إنَّا ابتَلَيْنا أهلَ مكَّةَ بالجُوعِ كما ابتَلَيْنا أصحابَ الجنَّةِ حينَ هلَكَت جَنَّتُهم. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والزمخشريُّ، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن حيان)) (١٠/ ٢٤١).

قال ابنُ عطية: (قال كثيرٌ مِن المفسِّرينَ: السِّنُونَ السَّبْعُ التي أصابت قُرَيشًا هي بمثابةِ ما أصاب أولئك في جنَّتِهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٩).

وقال البِقاعي: (﴿أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ عرَّفَها؛ لأنَّها كانت شهيرةً عِندَهم... كان صاحِبُه يُنادي الفُقَراءَ وقْتَ الصِّرامِ، ويَترُكُ لهم ما أخطَأَ المِنجَلَ [ما يُحْصَدُ به]، أو ألقَتْه الرِّيحُ، أو بَعُدَ عن البِساطِ الَّذي يُبسَطُ تحت النَّخلةِ، فلمَّا مات شَحَّ بنوه بذلك، فحَلَفوا على أن يَجُذُّوها قبْلَ الشَّمسِ؛ حتَّى لا يأتيَ الفُقَراءُ إلَّا بعْدَ فَراغِهم!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٧).

أي: حينَ حَلَف أصحابُ البُستانِ فيما بيْنَهم على جَذِّ ثِمارِ بُستانِهم في أوَّلِ الصَّباحِ قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه؛ لئلَّا يَعلَموا بهم، فتتوفَّرَ ثمارُه عليهم بالكامِلِ، ولا يتصَدَّقوا منه بشَيءٍ[1]!

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ولم يَسْتَثْنِ أصحابُ الجَنَّةِ في قَسَمِهم، ولم يَقولوا: إنْ شاء اللهُ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٠، ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

قال الماوَرْدي: (﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: لا يَستَثنونَ حقَّ المساكينِ. قاله عِكْرِمةُ. الثَّاني: استثناؤُهم: قَولُ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾. قاله أبو صالحٍ. الثَّالثُ: قَولُ: إن شاء اللهُ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٧).

وممَّن نَصَّ على أنَّ المرادَ أنَّهم لم يقولوا: إنْ شاء اللهُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، ونسَبَه الرَّازيُّ إلى الأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٧).

قال الرَّسْعَني: (وقال جمهورُ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ: لا يَقولون: إن شاء اللهُ. وسُمِّيَ استثناءً؛ لأنَّه يؤدِّي مؤدَّى الاستثناءِ، مِن حيث إنَّ قولَك: لَأخرجَنَّ إن شاء الله، في معنى: لا أخرجُ إلَّا أن يشاءَ اللهُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٣١).

وقال البِقاعي: (والحالُ أنَّهم لا ﴿يَسْتَثْنُونَ﴾، أي: لا يَطلُبونَ ولا يُوجِدونُ ثُنْيَا -أي: عَودًا- إلى ما قبْلَ اليَمينِ بقَولِهم: «إنْ شاء اللهُ» أو غيرَ ذلك مِن الألفاظِ المُوجِبةِ لأنْ يكونَ شَيءٌ مِن جَنَّتِهم مُطلَقًا غيرَ ممنوعٍ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٠٨).

وممَّن قال بأنَّهم لا يَستَثنُونَ مِن الثَّمَرةِ شَيئًا للمَساكينِ، أي: أقسَموا لَيَصرِمُنَّ جميعَ الثَّمَرِ، ولا يَترُكونَ منه شيئًا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٤).

قال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولا يَتوقَّفونَ في ذلك، أو ولا يَثنَونَ عن رأيِ مَنْعِ المساكينِ. وقال مجاهدٌ: معناه: لا يَقولونَ: إن شاء اللهُ، بل عَزَموا على ذلك عَزْمَ مَن يَملِكُ =

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

أي: فوَقَع على بُستانِهم ليلًا عَذابٌ مِن رَبِّك -يا مُحمَّدُ- فأهلَكَه وأباده ودَمَّرَه كلَّه، وأصحابُه نائِمونَ، وعمَّا أصابه غافِلونَ[1]!

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: فصار ذلك البُستانُ مُحترقًا، أسْوَدَ كسَوادِ اللَّيلِ المظلمِ[2]!

---

= أمْرَه!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

ممَّن قال: المرادُ بالطَّائفِ: العذابُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والبغوي، والرازي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

قيل: كان نارًا أحرَقتِ الجنَّةَ، وممن نصَّ على ذلك: الواحديُّ، والسمعانيُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٨).

قال القرطبي: (قيل: الطَّائِفُ جبريلُ عليه السَّلامُ...، وقال ابنُ عبَّاسٍ: أمرٌ مِن رَبِّك. وقال قتادةُ: عذابٌ مِن رَبِّك. [وقال] ابنُ جُرَيجٍ: عُنُقٌ مِن نارٍ خَرَج من وادي جهنَّمَ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤١).

وقال ابنُ عاشور: (لم يُعَيِّنْ جِنسَ الطَّائِفِ؛ لظُهورِ أنَّه مِن جِنسِ ما يُصيبُ الجنَّاتِ مِن الهلاكِ، ولا يتعلَّقُ غَرَضٌ بتَعيينِ نَوعِه؛ لأنَّ العِبرةَ في الحاصِلِ به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨١).

وقال ابن كثير: (أصابَتْها آفةٌ سماويَّةٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦).

وقال الفرَّاءُ، وابنُ جريرٍ: الطَّائِفُ لا يكونُ إلَّا باللَّيلِ، ولا يكونُ نَهارًا. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨١).

قال ابن جُزَي: (﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ فيه أربعةُ أقوالٍ: =

= الأوَّل: أصبحتْ كاللَّيلِ؛ لأنَّها اسوَدَّتْ لِما أصابها، والصَّريمُ في اللُّغةِ اللَّيلُ.
الثَّاني: أصبحتْ كالنَّهارِ؛ لأنَّها ابيضَّتْ كالحَصيدِ، ويُقالُ: «صَريمٌ» لِلَّيلِ والنَّهارِ.
الثَّالثُ: أنَّ الصَّريمَ: الرَّمادُ الأسْوَدُ بلُغةِ بعضِ العربِ.
الرَّابعُ: أصبحت كالمَصرومةِ، أي: المقطوعةِ. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٠). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٣).
وممَّن ذهب إلى القَولِ الأوَّلِ -أي: أنَّها أصبحتْ كاللَّيلِ سَوْداءَ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٩)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٥/ ٢٠٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٣/ ٣٤٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٥١).
قيل: سُمِّيَ اللَّيلُ صَريمًا؛ لأنَّه يَقطَعُ بظُلمتِه عن التَّصرُّفِ، وعلى هذا هو فَعِيلٌ بمعنى فاعِل. وقيل: سُمِّيَتِ اللَّيلةُ بالصَّريمِ؛ لأنَّها تَصرِمُ نورَ البصرِ وتَقطَعُه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٨).
وممَّن قال في الجُملةِ بالقَولِ الرَّابعِ -أي: أنَّها صارت كالمَصرومةِ، أي المقطوعةِ المَجذوذةِ، قد ذهَبَ ما فيها مِن الثَّمَرِ، فكأنَّه قد قُطِع لهَلاكِه-: ابنُ أبي زَمَنِين، والزمخشريُّ، والبِقاعي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٤). ويُنظر أيضًا: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٧).
وممَّن قال بنحوِ ذلك مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، والثَّوريُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦).
وقال القرطبيُّ بعدَ أنْ ذكَر أنَّه يُقالُ أيضًا للنَّهارِ: صَرِيمٌ: (إنْ كان أراد بالصَّريمِ النَّهارَ فلِذَهابِ الشَّجرِ والزَّرعِ ونقاءِ الأرضِ منه. وكان الطَّائفُ الَّذي طاف عليها جبريلُ عليه السَّلامُ =

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فنادى أصحابُ الجنَّةِ بَعضُهم بَعضًا في أوَّلِ الصَّباحِ؛ لِيَذهَبوا لجَذاذِ ثَمَرِهم[1].

﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: قالوا: بَكِّروا في الخُروجِ إلى بُستانِكم إنْ كُنتُم اليومَ عازِمينَ على قَطعِ ثَمَرِه قبْلَ مَجيءِ المساكينِ إليه[2]!

﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فانطَلَق أصحابُ البُستانِ إلى بُستانِهم وهم يَتناجَونَ فيما بَيْنَهم بحيثُ لا يَسمَعُ حَديثَهم أحدٌ[3].

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾﴾.

---

= فاقتَلَعها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٣٩).

وقال ابن قُتَيْبَةَ: (يُقالُ للصُّبحِ: صَريمٌ، ولِلَّيلِ: صَريمٌ...؛ لأنَّ اللَّيلَ يَنصَرِمُ عن النَّهارِ، والنَّهارَ يَنصرِمُ عن اللَّيلِ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١١٩).

قال الرَّازيُّ: (وعلى هذا الصَّريمُ بمعنى الصَّارِم). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٣)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٦٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

أي: قال بَعضُهم لبَعضٍ سِرًّا: لا يَدخُلَنَّ بُستانَكم أحدٌ مِن المساكينِ في هذا اليَومِ[١]!

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وخَرَجوا في أوَّلِ الصَّباحِ وهم قاصِدونَ بإرادةٍ جازِمةٍ وغَضَبٍ وحِدَّةٍ مَنْعَ المساكينِ مِن ثمارِهم، وقادِرونَ على ما عَزَموا عليه مِن قَطْعِ الثِّمارِ، ومَنْعِ المساكينِ[٢].

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: فلمَّا رأى أصحابُ البُستانِ بُستانَهم أنكَروا أن يكونَ هو! وقال بعضُهم لبَعضٍ: إنَّا قد ضلَلْنا وأخطَأْنا الطَّريقَ إلى بُستانِنا[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٧، ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٣-١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٤، ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٢/ ٥٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ للضَّلالِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن كثير، والبقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

وقال ابنُ عاشورٍ: (معنى ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أنَّهم عَلِموا أنَّهم كانوا في ضَلالٍ، أي: عن طريقِ الشُّكرِ، أي: كانوا غيرَ مُهتَدينَ...، ويحتَمِلُ أن يكونَ الضَّلالُ حقيقيًّا، أي: ضلالُ طريقِ الجنَّةِ، أي: قالوا: إنَّا أخطَأْنا الطَّريقَ في السَّيرِ إلى جنَّتِنا؛ لأنَّهم توَهَّموا أنَّهم شاهَدوا جنَّةً أُخرى غيرَ جَنَّتِهم الَّتي عَهِدوها، قالوا ذلك تحيُّرًا في أمرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٥، ٨٦).

﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: قالوا: كلَّا، لم نَضِلَّ الطَّريقَ إليه، وإنَّما حقيقةُ الأمرِ أنَّنا حُرِمْنا الانتِفاعَ به، فلا حظَّ لنا في شَيءٍ مِن ثمارِهِ[1]!

﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: قال أعدَلُهم وأعقَلُهم وأفضَلُهم: ألم أَقُلْ لكم ناصِحًا: هلا نزَّهتُم اللهَ عن السُّوءِ بقَولِكم: سبحانَ اللهِ[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٠-١٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٥، ٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦).

قال الثعلبي: (﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أعدلُهم وأعقلُهم وأفضلُهم). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧).

قيل: المعنى: أنَّه أمَرَهم مِن قَبْلُ بذِكرِ اللهِ وتَنزيهِه عن السُّوءِ. وممَّن استظهر هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جُزَي، وذهب إليه أبو حيَّان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦).

قال أبو حيان: (أنَّبَهم ووبَّخَهم على تَرْكِهم ما حَضَّهم عليه مِن تسبيحِ اللهِ، أي: ذِكْرِه وتنزيهِه عن السُّوءِ، ولو ذكَروا اللهَ وإحسانَه إليهم لَامتَثَلوا ما أَمَر به مِن مُواساةِ المساكينِ، واقتَفَوا سُنَّةَ أبيهم في ذلك. فلمَّا غَفَلوا عن ذِكرِ اللهِ تعالى وعَزَموا على مَنعِ المساكينِ، ابتلاهم اللهُ، وهذا يدُلُّ على أنَّ أوسَطَهم كان قد تقَدَّمَ إليهم وحرَّضَهم على ذِكرِ اللهِ تعالى). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٣).

وقال ابن عاشور: (المرادُ بـ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ تنزيهُ اللهِ عن أن يُعصى أمرُه في شأنِ إعطاءِ زكاةِ ثمارِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦).

وقيل: المرادُ: هلَّا قُلْتُم: إنْ شاء اللهُ، فأنكر عليهم تَرْكَ الاستِثناءِ في قَولِه: ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾، فسَمَّى الاستِثناءَ تَسبيحًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والسعدي، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى =

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أنَّبَهم، رَجَعوا إلى ذِكرِ اللهِ تَعالى، واعتَرَفوا على أنفُسِهم بالظُّلمِ، وبادَروا إلى تَسبيحِ اللهِ تعالَى[1].

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

أي: قالوا مُعتَرِفينَ بخَطَئِهم: نُنَزِّهُ ربَّنا عن أن يَكونَ ظالِمًا فيما فَعَل ببُسْتانِنا، وإنَّما نحن الَّذين وقَعْنا في الظُّلمِ فجَنَيْنا على أنفُسِنا[2]!

---

= الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وأبو صالحٍ، والسُّدِّيُّ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٦).

قيل: سُمِّيَ الاستثناءُ تسبيحًا؛ لأنَّه تعظيمٌ لله، وإقرارٌ بأنَّه لا يَقدِرُ أحدٌ أن يَفعلَ شيئًا إلَّا بمشيئةِ الله تعالى، وكلُّ تعظيمٍ لله فهو تسبيحٌ له. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨).

قال الشوكاني: (وهذا يدُلُّ على أنَّ أوْسَطَهم كان أمَرَهم بالاستثناءِ فلم يُطيعوه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٥).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كان منْعُ الخَيرِ -ولا سيَّما في مِثلِ هذا- مُستلزِمًا لظنِّ النَّقصِ في اللهِ تعالى: إمَّا بأنَّه سُبحانَه لا يُخلِفُ ما حصَلَ التَّصدُّقُ به، وإمَّا أنَّه لا يَقدِرُ على إهلاكِ ما شحَّ الإنسانُ به؛ قال مُستأنِفًا: ﴿لَوْلَا﴾ أي: هَلَّا ولِمَ لا ﴿تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تُوقِعونَ التَّنزيهَ لله سُبحانَه وتعالى عمَّا أوهَمَه فِعلُكم، وأقَلُّ التَّسبيحِ الاستِثْناءُ عندَ الإقسامِ شكًّا في قُدرةِ الإنسانِ، وإثباتًا لقدرةِ الملِكِ الدَّيَّانِ؛ استِحضارًا لعَظَمَتِه سُبحانَه وتعالى). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣١٢).

وقال الشوكاني: (قيل: المعنَى: هَلَّا تَستَغفِرونَ اللهَ مِن فِعْلِكم، وتَتوبونَ إليه مِن هذه النِّيَّةِ الَّتي عَزَمْتُم عليها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير =

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: فأقبَلَ بَعضُهم على بَعضٍ لائِمينَ أنفُسَهم على ما وَقَع منهم مِن ظُلمٍ[1]!

﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾﴾.

أي: قالوا: يا حَسْرَتَنا وهَلاكَنا، إنَّا قد اعتَدَيْنا وبَغَيْنا وتَجاوَزْنا حدودَ اللهِ تعالى حتَّى أصابَنا ما أصابَنا[2].

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾.

أي: نَرجو مِن ربِّنا بَعْدَ أن تُبْنا إليه أن يُعوِّضَنا خيرًا مِن بُستانِنا الَّذي هلَك[3].

---

= القرطبي)) (١٨/ ٢٤٤، ٢٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٧).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: قال أصحابُ الجنَّةِ: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ في تَرْكِنا الاستثناءَ في قَسَمِنا، وعَزْمِنا على تَركِ إطعامِ المساكينِ مِن ثَمَرِ جَنَّتِنا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٣).

قال ابنُ عاشور: (﴿يَتَلَاوَمُونَ﴾: أيْ: يَلومُ بعضُهم بعضًا... واللَّوْمُ: إنكارٌ مُتَوسِّطٌ على فِعلٍ أوْ قولٍ، وهو دونَ التَّوبيخِ، وفوقَ العِتابِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٣، ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٨).

قال البِقاعي: (أي: هذا وَقتُ حُضورِك -أيُّها الوَيلُ- إيَّانا، ومُنادَمَتِك لنا؛ فإنَّه لا نديمَ لنا إلَّا أنت، والوَيلُ هو الهَلاكُ والإشرافُ عليه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٤، ٣١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾.

أي: إنَّا إلى رَبِّنا وَحْدَه راغِبونَ وراجُونَ؛ فلذا نَطمَعُ أن يُبْدِلَنا خيرًا مِن بُستانِنا[1].

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾.

أي: مِثلَ هذا العذابِ الدُّنيويِّ الَّذي حَلَّ بأصحابِ البُستانِ يُعَذِّبُ اللهُ تعالى أيضًا كُلَّ مَن خالَفَ أمْرَه، فبَخِلَ بما أنعَمَ به عليه ومَنَع المحتاجينَ، فبَدَّلَ نِعمةَ اللهِ كُفرًا، وطغى وبغى وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَسلُبُه نِعمتَه ويُزيلُها عنه[2].

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: ولَعَذابُ اللهِ في الآخِرةِ لِمَن يَستَحِقُّه أكبَرُ مِن عذابِ الدُّنيا، فلو كان الكُفَّارُ يَعلَمونَ ذلك لَتابُوا، وانتَهَوا عن كُلِّ سَبَبٍ يُوجِبُ عَذابَهم، ولكِنَّهم لا يَعلَمونَ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٧).

قال الشوكاني: (﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ أي: طالِبونَ منه الخيرَ، راجُون لِعَفوِه، راجِعونَ إليه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٦).

وقال أبو السعود: (﴿إِلَىٰ﴾ لانتِهاءِ الرَّغبةِ، أو لتَضَمُّنِها معنى الرُّجوعِ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٣، ١٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٠).

قال الواحدي: (تمَّت قِصَّةُ أصحابِ الجنَّةِ، ثمَّ قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: =

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ إلى آخرِ السِّياقِ: بَيانُ حالِ البُخَلاءِ وما يُعاقَبونَ به في الدُّنيا قبْلَ الآخرةِ مِن تَلَفِ الأموالِ؛ إمَّا إغراقًا وإمَّا إحراقًا، وإمَّا نهبًا وإمَّا مصادَرةً، وإمَّا في شَهواتِ الغَيِّ، وإمَّا في غيرِ ذلك ممَّا يُعاقَبُ به البُخلاءُ الَّذين يَمنعونَ الحَقَّ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ عِظَةٌ شديدةٌ، وتنبيهٌ لِمَن يُرسِلُ كلامَه ولا يُقَيِّدُه بالاستِثناءِ الَّذي هو سَبَبُ النَّجاحِ والظَّفَرِ بالحاجةِ، ومُخْرِجٌ مِن المآثمِ، ومُؤَمِّنٌ دَرَكَ العُقوبةِ، وقد عَلَّمَ اللهُ نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأدَّبَه ألَّا يَقولَ لِفعلِ شَيءٍ: هو فاعِلُه، إلَّا مَقرونًا بالاستِثناءِ(٢). فالآيةُ فيها حَثٌّ على الاستثناءِ في اليَمينِ، وذَمُّ تَرْكِه، وأنَّ تَرْكَه سبَبٌ للحِنْثِ(٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ عَجَّل العِقابَ لهم قبْلَ التَّلَبُّسِ بمَنعِ الصَّدَقةِ؛ لأنَّ عَزْمَهم على المَنعِ، وتقاسُمَهم عليه حَقَّق أنَّهم مانِعونَ صَدَقاتِهم، فكانوا مانِعينَ. ويُؤخَذُ مِن الآيةِ مَوعِظةٌ للَّذين لا يُواسُونَ بأموالِهم(٤).

٤- قال الله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ أرسَلَ

---

= المُشرِكينَ). ((التفسير الوسيط)) (٤/ ٣٣٨).

وقال ابنُ عطية: (﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ﴾ ابتداءُ مُخاطَبةٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في أمرِ قُريشٍ، والإشارةُ بذلك إلى العَذابِ الَّذي نَزَل بالجنَّةِ، أي: ذلك العذابُ هو العذابُ الَّذي يَنزِلُ بقُرَيشٍ بَغتةً، ثمَّ عَذابُ الآخرةِ بَعْدَ ذلك أشَدُّ عليهم مِن عذابِ الدُّنيا!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٢).

اللهُ على جنَّتِهم طائِفًا وهم نائِمونَ، فأصبَحَت كالصَّريم؛ عُقوبةً على احتيالِهم لِمَنعِ الحَقِّ الَّذي كان للمَساكينِ في أموالِهم، فكان في ذلك عِبرةٌ لكُلِّ مَن احتالَ لِمَنعِ حقٍّ لله أو لعِبادِه؛ مِن زَكاةٍ أو شُفعةٍ(١).

٥- قال الله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ لَمَّا كان هذا مَقْتًا في الصُّورةِ أخبَرَ بأنَّه لُطفٌ وتربيةٌ في المعنى بقَولِه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: المعروفِ بالعَظَمةِ الَّتي لا تُحَدُّ، وبالإحسانِ إليك؛ فهو جديرٌ بأن يؤدِّبَ قَومَك؛ ليَقبَلوا منك، كما أدَّبَ أصحابَ الجنَّةِ بما أوجَبَ تَوبتَهم، وهو الحَقيقُ بتربيةِ العِبادِ ليَعقِلوا عنك، ويكونوا خليقينَ بالتَّجنُّبِ للدُّنيا، والإقبالِ على المعالي(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ الشَّيءَ المُتَقَرَّبَ به إلى اللهِ -فرضًا كان أو نَدبًا- إذا فُرِّطَ فيه: تُلوفي؛ فنَفَعَ، إذْ تسبيحُ القومِ بعدَ وقتِه -الَّذي كان موضِعُه- نَفَعَهم تَدارُكُه(٣).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ دليلٌ على أنَّ المذنِبَ الظَّالِمَ لنَفْسِه مُحتاجٌ مع ربِّه إلى الاعترافِ بذَنْبِه وسوءِ صَنيعِه بلِسانِه، وإنْ كان نادِمًا عليه بقَلْبِه، وكذا كان نبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ في دُعاءِ الاستِفتاحِ: ((ظَلَمْتُ نفْسي، واعترَفْتُ بذَنْبي))(٤) فكان هذا الاعترافُ مِن تمامِ التَّوبةِ، وتحقيقِ الاستكانةِ والتَّواضُعِ(٥).

٨- قال تعالى: ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ تَضمَّنَ جَوابُهم إقرارًا بأنَّ

---

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨٣).

(٤) أخرجه مسلم (٧٧١) مطوَّلًا من حديث عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨٣).

أوسَطَهم وعَظَهم فعَصَوه، ودلُّوا على ذلك بالتَّسبيحِ حِين نَدَمِهم على عدَمِ الأخْذِ بنَصيحتِه فقالوا: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾؛ أرادوا إجابةَ تَقريرِه بإقرارٍ بتَسبيحِ اللهِ عن أنْ يُعصى أمْرُه في إعطاءِ حقِّ المساكينِ؛ فإنَّ مِن أُصولِ التَّوبةِ تَدارُكَ ما يُمكِنُ تَدارُكُه، واعترافُهُم بظُلمِ المساكينِ مِن أُصولِ التَّوبةِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ مُقدِّمةُ الاستغفارِ مِن الذَّنْبِ؛ قال تعالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[1] [النصر: ٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۞ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۞ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ مَن نَقَص مِن النِّصابِ قبْلَ الحَولِ قَصْدَ الفِرارِ مِن الزَّكاةِ، أو خالَطَ غَيرَه، أو فارَقَه بعْدَ الخُلْطةِ؛ فإنَّ ذلك لا يُسقِطُ الزَّكاةَ عنه[2]، خِلافًا للشَّافِعيِّ. ووَجْهُ الاستدلالِ بالآيةِ أنَّهم قَصَدوا بقَطعِ الثِّمارِ إسقاطَ حَقِّ المساكينِ، فعاقَبَهم اللهُ سُبحانه وتعالى بإتلافِ ثمارِهم[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ دلَّ القُرآنُ على أنَّ المقاصِدَ والنِّيَّاتِ مُعتبَرةٌ في التَّصَرُّفِ والعاداتِ، كما هي مُعتبَرةٌ في القُرُباتِ والعِباداتِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦، ٨٧).

(٢) وهذا مذهَبُ المالكيَّةِ والحنابلةِ. يُنظر: ((الشرح الكبير)) للدردير و((حاشية الدسوقي)) (١/ ٤٣٧)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ١٧٩).

وذهب الحنفيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى أنَّ المالكَ إنْ فعَلَ ما تَسقُطُ به الزَّكاةُ عنه -ولو بنيَّةِ الفِرارِ منها- سقطَتْ. يُنظر: ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٢/ ١٥)، ((فتح القدير)) لابن الهُمَام (٢/ ١٦٢)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٢/ ١٩٠)، ((مغني المحتاج)) للشربيني (١/ ٣٧٩)، ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٣/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٩٢).

فتَجْعَلُ الفِعلَ حلالًا أو حَرامًا، وصَحيحًا أو فاسِدًا، وصَحيحًا مِن وجهٍ، فاسدًا مِن وَجهٍ، كما أنَّ القَصدَ والنِّيَّةَ في العباداتِ تَجْعَلُها كذلك، ومِن ذلك: أنَّ جَدادَ النَّخلِ عَمَلٌ مُباحٌ أيَّ وقتٍ شاء صاحِبُه، لكنْ لَمَّا قَصَد به أصحابُه في اللَّيلِ حِرمانَ الفُقَراءِ عاقبَهم اللهُ تعالى بإهلاكِه[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ إلى آخرِ السِّياقِ: استدلَّ به بعضُهم على كَراهةِ الجَدادِ والحَصادِ باللَّيلِ[٢]. فقولُه: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: لأوَّلِ وقتٍ يُنسَبُ إلى الصَّباحِ، وذلك يكونُ في آخِرِ اللَّيلِ، كما يُقالُ: مُمْسِينَ، لأوَّلِ وقتٍ يُنسَبُ إلى المساءِ، وإذا كان كذلك فالانصرامُ يقَعُ باللَّيلِ؛ ألَا ترى إلى قولِه: ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾، وهم لا يَملِكونَ بعدَ مُضيِّ اللَّيلِ منْعَ المَساكينِ عن الدُّخولِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ بعْدَ أنْ قال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾: عِبرةٌ لِمَن مَنَعَ الخيرَ، فإنْ كان هؤلاء عُوقِبوا على قَصْدِ مَنْعِ الخَيرِ المُستحَبِّ، فكيف بمَنْ قَصَدَ مَنْعَ الواجِبِ؟! وإنْ كانوا إنَّما قَصَدوا مَنْعَ واجبٍ -وهو الصَّوابُ- فهُم لم يَمنَعوه بعدَ وُجوبِه؛ لأنَّه لو كان قد وَجَبَ لم يكُنْ فَرْقٌ بيْنَ صَرْمِه باللَّيلِ وصَرْمِه بالنَّهارِ، وإنَّما قَصَدوا بالصَّرْمِ لَيلًا الفِرارَ ممَّا كان للمَساكينِ فيه مِن اللُّقاطِ؛ فعُلِمَ أنَّ الأمرَ -كما ذَكَره المفَسِّرون- مِن أنَّ حقَّ المساكينِ كان فيما يَتساقَطُ، ولم يكُنْ شَيئًا مُوَقَّتًا، ووُجوبُ هذا مَشروطٌ بسُقوطِه وحُضورِ مَن يأخُذُه مِن المساكينِ، كأنَّ السَّاقِطَ عَفْوُ المالِ وفَضْلُه، وحُضورَ أهلِ الحاجةِ

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٧٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٤٥).

بمنزلةِ السُّؤالِ والفاقةِ، ومِثْلُ هذه الحالِ يجِبُ فيها ما لا يجِبُ في غيرِها، كما يَجِبُ قِرَى الضَّيفِ، وإطعامُ المضطرِّ، ونَفَقةُ الأقاربِ، وحَمْلُ العَقلِ، ونحوُ ذلك، فيكونُ هذا فِرارًا مِن حقٍّ قدِ انعقَدَ بسببِ وُجوبِه قبْلَ وقتِ وجوبِه، فهو مِثلُ الفِرارِ مِن الزَّكاةِ قبْلَ حُلولِ الحَولِ بعدَ مِلْكِ النِّصابِ، والفِرارِ مِن الشُّفعةِ بعدَ إرادةِ البَيعِ قبْلَ تمامِه، والفِرارِ مِن قِرَى الضَّيفِ قبْلَ حُضورِه، ونحوِ ذلك[1].

٥- يَنبغي لصاحبِ الحائطِ إذا أراد الجِذاذَ ألَّا يَمنَعَ المساكينَ مِن الدُّخولِ، وأن يَتصدَّقَ عليهم؛ لقولِ الله تعالى في ذمِّ أصحابِ الجنَّةِ: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ...﴾، والعِلمُ عندَ الله تعالى[2].

٦- قال الله تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ فلمَّا عزَموا على ما عزَموا عليه عُوقِبوا بنقيضِ قصدِهم، فأذْهَب الله ما بأيديهم بالكُليَّةِ؛ رأسَ المالِ، والرِّبحَ، والصَّدقةَ، فلم يَبْقَ لهم شيءٌ[3]، وقد استقرَّتْ سُنَّةُ الله في خلقِه شرعًا وقدرًا على معاقبةِ العبدِ بنقيضِ قصدِه، فمَن كاد كيدًا محرَّمًا فإنَّ الله يَكيدُه، ويُعامِلُه بنقيضِ قصدِه، وبمِثلِ عملِه، وهذه سنَّةُ الله في أربابِ الحيلِ المحرَّمةِ؛ أنَّه لا يُبارِكُ لهم فيما نالوه بهذه الحيلِ، كما هو الواقعُ، ويُهيِّئُ لهم كيدًا على يدِ مَن يشاءُ مِن خلقِه يُجزَوْنَ به مِن جنسِ كيدِهم وحِيلِهم[4].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ العَزمَ ممَّا يُؤاخَذُ به الإنسانُ؛ لأنَّهم عَزَموا على أن يَفعَلوا، فعُوقِبوا

---

(١) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٥٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٥/ ١٦١، ١٩٥).

قبْلَ فِعْلِهم[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ دليلٌ على أنَّ الشَّيءَ يُسمَّى باسم غَيرِه وإنْ لَمْ يُشْبِهْه بجَميعِ صِفاتِه؛ ألَا ترى أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه قد جَمَعَ بيْن جَنَّةِ الدُّنيا الَّتي هي بُستانٌ، وجَنَّةِ الآخِرةِ بالاسمِ، وهما لا يجتَمِعانِ في جميعِ صِفاتِهما؟! وهذا رَدٌّ على المعتزلةِ -فيما يَزعُمونَ أنَّ اللهَ جلَّ جلالُه لا يجوزُ أنْ يُوصَفَ بشَيءٍ ممَّا يَقَعُ اسمُه مُوافِقًا لاسمِ ما في المخلوقِ- وأغفَلوا مِثلَ هذا وأشباهَه، وما هو أعظمُ مِن هذا، وهو الجَمعُ بيْن أسمائِه سبحانَه وأسماءِ خلْقِه، مِثلُ: «المَلِكِ» و«الجبَّارِ» و«العزيزِ» و«العظيمِ» و«الكريمِ» وما ضاهاها! فلَمْ يُوجِبْ ذلك أنْ يُساويَ خلْقَه في جميعِ صِفاتِه، ولا على خلْقِه أنْ يُساوُوه في جميعِ صِفاتِهم، وإذا كان هذا غيرَ ضَيِّقٍ في الاسمِ وَجَبَ ألَّا يَضِيقَ فيما وَقَعَ عليه الاسمُ[٢].

٩- قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾، قَولُه: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾، أي: الدُّنيويُّ، لِمَن أتَى بأسبابِ العَذابِ؛ أن يَسلُبَ اللهُ العَبْدَ الشَّيءَ الَّذي طغى به وبغى، وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا، وأن يُزيلَه عنه أحوَجَ ما يكونُ إليه[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾

- جُملةُ ﴿ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا دَعَت إليه مُناسَبةُ قولِه: ﴿ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[القلم: ١٤-١٥]؛ فإنَّ الازدهاءَ والغُرورَ بسَعةِ الرِّزقِ المُفضِيَينِ إلى الاستِخفافِ بدَعوةِ الحقِّ، وإهمالِ النَّظَرِ في كُنْهِها ودَلائلِها؛ قدْ أوقَعَا مِن قَديمِ الزَّمانِ أصحابَهما في بَطَرِ النِّعمةِ، وإهمالِ الشُّكرِ، فجَرَّ ذلك عليهم شَرَّ العواقبِ، فضَرَبَ اللهُ للمشركينَ مَثَلًا بحالِ أصحابِ هذه الجنَّةِ؛ لعلَّهم يَستفيقونَ مِن غَفْلتِهم وغُرورِهم، كما ضُرِبَ المثَلُ بقَريبٍ منه في سُورةِ (الكهْفِ)، وضُرِبَ مَثَلًا بقارونَ في سُورةِ (القَصصِ)[1].

- والبَلْوى: الاختبارُ، وهي هنا تَمثيلٌ بحالِ المُبتلَى في إرخاءِ الحبْلِ له بالنِّعمةِ ليَشكُرَ أو يَكفُرَ، فالبَلْوى المذكورةُ هنا بَلوى بالخَيرِ -على قولٍ-؛ فإنَّ اللهَ أمدَّ أهلَ مكَّةَ بنِعمةِ الأمْنِ، ونِعمةِ الرِّزقِ، وجَعَل الرِّزقَ يأْتِيهم مِن كلِّ جِهةٍ، ويسَّرَ لهم سُبلَ التِّجارةِ في الآفاقِ بنِعمةِ الإيلافِ برِحلةِ الشِّتاءِ ورِحلةِ الصَّيفِ، فلمَّا أكمَلَ لهم النِّعمةَ بإرسالِ رَسولٍ منهم ليُكمِلَ لهم صَلاحَ أحوالِهم، ويَهْدِيَهم إلى ما فيه النَّعيمُ الدائمُ، فدَعاهم وذكَّرهم بنِعَمِ اللهِ؛ أعْرَضوا وطَغَوا، ولم يَتوجَّهوا إلى النَّظَرِ في النِّعَمِ السَّالفةِ، ولا في النِّعمةِ الكاملةِ الَّتي أكْمَلَت لهم النِّعَمَ، ووَجْهُ المُشابَهةِ بيْنَ حالِهم وحالِ أصحابِ الجنَّةِ المذكورةِ هنا هو الإعراضُ عن طَلَبِ مَرضاةِ اللهِ، وعن شُكرِ نِعمتِه. وهذا التَّمثيلُ تَعريضٌ بالتَّهديدِ بأنْ يَلحَقَ قُريشًا ما لَحِقَ أصحابَ الجنَّةِ مِن البُؤسِ بعْدَ النَّعيمِ، والقحْطِ بعْدَ الخِصبِ، وإنِ اختَلَفَ السَّببُ في نَوعِه فقدِ اتَّحَدَ جِنسُه[2]. وأهلُ هذه الجنَّةِ لم يَكونوا كُفَّارًا، فوَجْهُ الشَّبَهِ بيْنَهم وبيْنَ المشرِكينَ المَضروبِ لهم هذا المَثَلُ هو بَطَرُ النِّعمةِ، والاغترارُ بالقوَّةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨١).

- قولُه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ معناه: لا يَسْتثنُون لأيْمانِهم، بأنْ يَقولوا: إنْ شاء اللهُ، وعلى هذا التَّفسيرِ يكونُ قولُه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ مِن قَبيلِ الإدماجِ[١]، أي: لِمَبلَغِ غُرورِهم بقوَّةِ أنفُسِهم صاروا إذا عَزَموا على فِعلِ شَيءٍ لا يَتوقَّعون له عائقًا[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ التَّعبيرُ بالفِعلِ المضارعِ لاستحضارِ حالتِهم العجيبةِ مِن بُخْلِهم على الفُقراءِ والأيتامِ[٣]. وذلك على أنَّ المرادَ أنَّهم لا يَسْتَثْنونَ مِن الثَّمرةِ شيئًا للمساكينِ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ الطَّوافُ: المشْيُ حولَ شَيءٍ مِن كلِّ جَوانبِه، يُقالُ: طاف بالكَعبةِ، وأُريدَ به هنا تَمثيلُ حالةِ الإصابةِ لشَيءٍ كلِّه بحالِ مَن يَطوفُ بمَكانٍ[٤].

- إسنادُ فِعلِ (طاف) إلى (طائف) بمَنزلةِ إسنادِ الفِعلِ المَبنيِّ للمَجهولِ، كأنَّه قِيل: فطِيفَ عليها وهمْ نائِمون، فلا يَتعلَّقُ غرَضٌ بتَعيينِ نَوعِ الطَّائفِ؛ لأنَّ العِبرةَ في الحاصلِ به[٥].

- وتَنكيرُ (طائف) وتَنوينُه الفائدةُ منه الإبهامُ؛ تَعظيمًا لِما أصاب جنَّتَهم، أي: أمْرٌ عَظيمٌ أصابَها، وقد بيَّنَه بقولِه: ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾، فهو طائفُ سَوءٍ[٦].

- قولُه: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ تَقييدٌ لوقْتِ الطائفِ -إذا كان تَمثيلًا لحالةِ الإصابةِ لشَيءٍ كلِّه بحالِ مَن يطوفُ بمكانٍ-، وهو تَأْكيدٌ لمعْنى (طائف) -إنْ كان

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨١، ٨٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٨).

الطائفُ لا يكونُ إلَّا باللَّيلِ-، وفائدتُه تَصويرُ الحالةِ[١].

- والصَّريمُ قِيل: هو اللَّيلُ، والصَّريمُ مِن أسماءِ اللَّيلِ، ومِن أسماءِ النَّهارِ، كما سُمِّيَ كلٌّ مِن اللَّيلِ والنَّهارِ مَلًا، فيُقال: المَلَوَانِ، وعلى هذا فَفي الجمْعِ بيْنَ (أصبَحَت) و(الصَّريم) مُحسِّنُ الطِّباقِ، وقيل: الصَّريمُ: الرَّمادُ الأسْوَدُ بلُغةِ جَذِيمةَ أو خُزَيمةَ، وقيل: الصَّريمُ: اسمُ رَمْلةٍ مَعروفةٍ باليمَنِ لا تُنبِتُ شيئًا، وإيثارُ كَلمةِ (الصَّريم) هنا لكَثرةِ مَعانِيها، وصَلاحيةِ جَميعِ تلك المعاني لأنْ تُرادَ في الآيةِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على ﴿أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾، أي: فلمَّا أصْبَحوا تَنادَوا لإنجازِ ما بيَّتوا عليه أمْرَهم[٣].

- والتَّنادي: أنْ يُناديَ بَعضُهم بعضًا، وهو مُشعِرٌ بالتَّحريضِ على الغُدُوِّ إلى جنَّتِهم مُبكِّرينَ[٤].

- قولُه: ﴿اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ يجوزُ أنْ يُضمَّنَ الغُدُوُّ معْنى الإقبالِ، كقولِهم: يُغدَى عليه بالجَفنةِ ويُراحُ، أي: فأقْبِلوا على حَرْثِكم باكِرينَ، ويجوزُ أنْ تكونَ (على) مُستعمَلةً في تَمكُّنِ الوُصولِ إليه، كأنَّه قِيل: اغْدُوا تَكونوا على حَرْثِكم، أي: مُستقرِّينَ عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨٢، ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣)، ((إعراب =

- قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ (إنْ) شَرطيَّةٌ، وجَوابُها مَحذوفٌ، أي: إنْ كُنتُم صارمينَ فاغْدُوا[١]. وقيل: ليس قولُه: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ بشَرطِ تَعليقٍ، ولكنَّه مُستعمَلٌ في الاستبطاءِ، فكأنَّهم لإبطاءِ بَعضِهم في الغُدُوِّ قد عَدَلَ عن الجِذاذِ ذلك اليومَ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ فيه تأْكيدُ فِعلِ النَّهيِ ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ بنُونِ التَّوكيدِ؛ لزِيادةِ تَحقيقِ ما تَقاسَموا عليه[٣].

- وأُسنِدَ إلى ﴿مِّسْكِينٌ﴾ فِعلُ النَّهيِ عن الدُّخولِ، والمرادُ نهْيُ بَعضِهم بعضًا عن دُخولِ المسكينِ إلى جنَّتِهم، أي: لا يَترُكْ أحدٌ مِسكينًا يَدخُلُها، وهذا مِن قَبيلِ الكِنايةِ، فالمرادُ بنهْيِ المسكينِ عن الدُّخولِ المُبالَغةُ في النَّهيِ عن تَمكينِه مِن الدُّخولِ، كقولِهم: لا أرَيَنَّك هاهنا[٤].

- وجُملةُ ﴿وَغَدَوْاْ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ﴾ في مَوضعِ الحالِ بتَقديرِ (قد)، أي: انْطَلَقوا في حالِ كَونِهم غادِينَ قادِرينَ على حَرْدٍ. وذُكِرَ فِعلُ ﴿وَغَدَوْاْ﴾ في جُملةِ الحالِ؛ لقصْدِ التَّعجيبِ مِن ذلك الغُدُوِّ النَّحسِ[٥].

- والحرْدُ: يُطلَقُ على المنْعِ، وعلى القصْدِ القويِّ، أي: السُّرعةِ، وعلى الغضَبِ، وفي إيثارِ كَلمةِ ﴿حَرْدٍ﴾ في الآيةِ نُكتةٌ مِن نُكَتِ الإعجازِ المُتعلِّقِ

---

= القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٤).

بشَرَفِ اللَّفظِ ورَشاقتِه مِن حيثُ المعْنى، ومِن جِهةِ تَعلُّقِ المجرورِ به بما يُناسِبُ كلَّ معْنًى مِن مَعانِيه، أي: بأنْ يَتعلَّقَ ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾، أو بقولِه: (غَدَوْا)؛ فإذا عُلِّقَ بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ فتَقديمُ المُتعلَّقِ يُفيدُ تَخصيصًا، أي: قادرينَ على المنْعِ، أي: منْعِ الخيرِ، أو منْعِ ثَمَرِ جَنَّتِهم غيرَ قادرينَ على النَّفعِ. والتَّعبيرُ بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ على ﴿حَرۡدٖ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (وَغَدَوا حارِدينَ) تَهكُّمٌ؛ لأنَّ شأْنَ فِعلِ القدرةِ أنْ يُذكَرَ في الأفعالِ الَّتي يشُقُّ على الناسِ إتيانُها، فقولُه: ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ على هذا الاحتمالِ مِن بابِ قَولِهم: فلانٌ لا يَملِكُ إلَّا الحرمانَ، أو لا يَقدِرُ إلَّا على الخَيبةِ! وإذا حُمِلَ الحرْدُ على معْنى السُّرعةِ والقصْدِ، كان ﴿عَلَىٰ حَرۡدٖ﴾ مُتعلِّقًا بـ (غَدَوْا) مُبيِّنًا لنَوعِ الغُدُوِّ، أي: غَدَوا غُدُوَّ سُرعةٍ واعتناءٍ، فتَكون (على) بمعْنى باءِ المصاحَبةِ، والمعْنى: غَدَوا بسُرعةٍ ونَشاطٍ، ويَكون ﴿قَٰدِرِينَ﴾ حالًا مِن ضَميرِ (غَدَوْا) حالًا مُقدَّرةً، أي: مُقدِّرينَ أنَّهم قادِرونَ على تَحقيقِ ما أرادوا، وفي الكلامِ تَعريضٌ بأنَّهم خابُوا، دلَّ عليه قولُه بعْدَه: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم: ٢٦]، وقولُه قبْلَه: ﴿فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ﴾ [القلم: ١٩]. وإذا أُريدَ بالحرْدِ الغضَبُ والحَنَقُ؛ فإنَّه يُقالُ: حَرَدٌ بالتَّحريكِ، وحرْدٌ بسُكونِ الرَّاءِ، ويَتعلَّقُ المجرورُ بـ ﴿قَٰدِرِينَ﴾، وتَقديمُه للحصْرِ، أي: غَدَوا لا قُدرةَ لهم إلَّا على الحَنَقِ والغضَبِ على المساكينِ، فتَحيَّلوا عليهم بالتَّبكيرِ إلى جِذاذِها، أي: لم يَقدِروا إلَّا على الغضَبِ والحَنَقِ، ولم يَقدِروا على ما أرادُوه مِن اجتناءِ ثَمَرِ الجنَّةِ(١).

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۞ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ أفادتْ (لَمَّا) اقترانَ جَوابِها بشَرْطِها بالفَورِ والبَداهةِ، والمقصودُ مِن هذا التَّعريضُ للمشركينَ بأنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٤، ٨٥).

يكونَ حالُهم في تَدارُكِ أمْرِهم، وسُرعةِ إنابتِهم كحالِ أصحابِ هذه الجنَّةِ؛ إذ بادَرُوا بالنَّدمِ، وسَأَلوا اللهَ عِوَضَ خَيرٍ(١).

- وإسنادُ هذه المَقالةِ إلى ضَميرِ أصحابِ الجنَّةِ يَقْتضي أنَّهم قالوه جَميعًا، أي: اتَّفَقوا على إدراكِ سَببِ ما أصابَهم(٢).

- قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾، أي: قالوا: إنَّا أخْطَأْنا الطَّريقَ في السَّيرِ إلى جنَّتِنا، ويكون الإضرابُ في قولِه: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ إبطاليًّا، أي: أبْطَلوا أنْ يَكونوا ضَلُّوا طَريقَ جَنَّتِهم، وأثْبَتوا أنَّهم مَحرومونَ مِن خَيرِ جَنَّتِهم، فيكون المعنى: أنَّها هي جَنَّتُهم، ولكنَّها هَلَكَت فحُرِموا خَيراتِها بأنْ أتلَفَها اللهُ(٣).

وعلى القولِ بأن معْنى ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: عن طَريقِ الشُّكرِ، أي: كانوا غيرَ مُهتدِينَ، فهو كِنايةٌ عن كَونِ ما أصابَهم عِقابًا على إهمالِ الشُّكرِ، وأكَّدوا الكلامَ لتَنزيلِ أنفُسِهم مَنزلةَ مَن يشُكُّ في أنَّهم ضالُّون طَريقَ الخيرِ؛ لقُرْبِ عَهْدِهم بالغَفلةِ عن ضَلالِهم، ففيه إيذانٌ بالتَّحسُّرِ والتَّندُّمِ(٤). وقولُه: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ إضرابٌ للانتقالِ إلى ما هو أهمُّ بالنَّظَرِ لحالِ تَبْييتِهم؛ إذ بَيَّتوا حِرمانَ المساكينِ مِن فُضولِ ثَمرتِهم، فكانوا همُ المَحرومينَ مِن جَميعِ الثِّمارِ، فالحِرمانُ الأعظمُ قدِ اختَصَّ بهم؛ إذْ ليس حِرمانُ المساكينِ بشَيءٍ في جانبِ حِرمانِهم، والكلامُ يُفيدُ ذلك إمَّا بطَريقِ تَقديمِ المُسنَدِ إليه، بأنْ أُتيَ به ضَميرًا بارزًا مع أنَّ مُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يكونَ ضَميرًا مُستترًا في اسمِ المفعولِ، مُقدَّرًا مُؤخَّرًا عنه؛ لأنَّه لا يُتصوَّرُ إلَّا بعْدَ سَماعِ مُتحمَّلِه، فلمَّا أُبرِزَ الضَّميرُ وقُدِّمَ، كان تَقديمُه مُؤذِنًا بمعْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الاختصاصِ، أي: القصرِ، وهو قصْرٌ إضافيٌّ[١]، وهذا مِن مُستتبَعاتِ التَّراكيبِ والتَّعويلِ على القرائنِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ * قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ حُكِيَ هذا القولُ بدُونِ عاطفٍ؛ لأنَّه قولٌ في مَجرى المُحاوَرةِ جوابًا عن قولِهم: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: ٢٧]، قالهُ لهم على وَجْهِ تَوقيفِهم على تَصويبِ رأْيِه، وخَطَلِ رَأْيِهم[٣].

- والاستِفهامُ ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ تَقريريٌّ، أو إنكاريٌّ[٤].

- و﴿تُسَبِّحُونَ﴾ مَفعولُه مَحذوفٌ، أي: تُسبِّحون اللهَ[٥].

- قولُه: ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّندُّمِ[٦].

- قيل: جُعِلَ التَّسبيحُ مَوضعَ الاستثناءِ بقولِ: إنْ شاء اللهُ؛ لأنَّ المعْنى تَنزيهُ اللهِ أنْ يكونَ شَيءٌ إلَّا بمَشيئتِه، أو لالتِقائِهما في معْنى التَّعظيمِ للهِ؛ لأنَّ الاستثناءَ تَفويضٌ إليه، والتَّسبيحَ تَنزيهٌ له، وكلُّ واحدٍ مِن التَّفويضِ والتَّنزيهِ تَعظيمٌ له[٧]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ التَّسبيحِ هنا.

- وجُملةُ ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ إقرارٌ بالذنْبِ، والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) لتَحقيقِ الإقرارِ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٧).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٦، ٨٧).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦).

والاهتمامِ به، ويُفيدُ حرْفُ (إنَّ) مع ذلك تَعليلًا للتَّسبيحِ والتَّنزيهِ الَّذي قبْلَه[١].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿ظَٰلِمِينَ﴾؛ ليَعُمَّ ظُلْمَهم أنفُسَهم بما جَرُّوه على أنفُسِهم مِن سَلْبِ النِّعمةِ، وظُلْمَ المساكينِ بمَنْعِهم مِن حقِّهم في المالِ[٢].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ لَمَّا استَقرَّ حالُهم على المُشارَكةِ في منْعِ المساكينِ حقَّهم، أخَذَ بعضُهم يَلومُ بَعضًا على ما فَرَطَ مِن فِعلِهم، كلٌّ يَلومُ غيرَه بما كان قدْ تَلبَّسَ به في هذا الشَّأنِ؛ مِن ابتكارِ فِكرةِ منْعِ المساكينِ ما كان حقًّا لهم مِن حياةِ الأبِ، ومِن المُمالأةِ على ذلك، ومِن الاقتناعِ بتَصميمِ البقيَّةِ، ومِن تَنفيذِ جَميعِهم ذلك العزْمَ الذَّميمَ، فصَوَّرَ قولُه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ هذه الحالةَ، والتَّقاذُفَ الواقعَ بيْنَهم بهذا الإجمالِ البالغِ غايةَ الإيجازِ؛ ألَا تَرى أنَّ إقبالَ بَعضِهم على بَعضٍ يُصوِّرُ حالةً تُشبِهُ المُهاجَمةَ والتَّقريعَ، وأنَّ صِيغةَ التَّلاوُمِ مع حذْفِ مُتعلَّقِ التَّلاوُمِ تُصوِّرُ في ذِهنِ السَّامعِ صُوَرًا مِن لَومِ بَعضِهم على بَعضٍ[٣].

- وأُسنِدَ هذا القولُ إلى جَميعِهم؛ لأنَّه قد تلقَّى كلُّ واحدٍ منهم لَومَ غَيرِه عليه بإحقاقِ نفْسِه بالمَلامةِ، وإشراكِ بَقيَّتِهم فيها[٤].

- الإقبالُ: المَجيءُ إلى الغيرِ مِن جِهةِ وَجْهِه، وهو مُشتَقٌّ مِن القُبُلِ، وهو ما يَبْدو مِن الإنسانِ مِن جِهةِ وَجْهِه، ضِدُّ الإدبارِ، وهو هنا تَمثيلٌ لحالِ العِنايةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

باللَّومِ[١].

٨- قولُه تعالَى: ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۞ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾

- جُملةُ ﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ إلى آخِرِها يجوزُ أنْ تكونَ مُبيِّنةً لجُملةِ ﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾، أي: يَلومُ بَعضُهم بَعضًا بهذا الكلامِ، فتَكونَ خبَرًا مُستعمَلًا في التَّقريعِ على طَريقةِ التَّعريضِ بغَيرِه، والإقرارِ على نفْسِه، مع التَّحسُّرِ والتَّندُّمِ بما أفادهُ ﴿يَٰوَيۡلَنَآ﴾، وذلك كَلامٌ جامعٌ للمَلامةِ كلِّها، ولم تُعطَفِ الجُملةُ؛ لأنَّها مُبيِّنةٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ جَوابَ بَعضِهم بَعضًا عن لَومِه غيرَه؛ فكما أجْمَعوا على لَومِ بَعضِهم بَعضًا، كذلك أجْمَعوا على إجابةِ بَعضِهم بَعضًا عن ذلك المَلامِ، فقال كلُّ مَلومٍ لِلائمِه: ﴿يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ...﴾ إلخ، جَوابًا بتَقريرِ مَلامِه، والاعترافِ بالذَّنْبِ، ورَجاءِ العفْوِ مِن اللهِ، وتَعويضِهم عن جنَّتِهم خَيرًا منها إذا قَبِلَ توبتَهم، وجَعَلَ لهم ثَوابَ الدُّنيا مع ثَوابِ الآخرةِ، فيكونُ تَرْكُ العطْفِ؛ لأنَّ فِعلَ القولِ جَرى في طَريقةِ المُحاوَرةِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ بدَلٌ مِن جُملةِ الرَّجاءِ، أي: هو رَجاءٌ مُشتمِلٌ على رَغبةٍ إليه بالقَبولِ والاستجابةِ، والتأْكيدُ في ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ للاهتمامِ بهذا التَّوجُّهِ[٣].

- والمقصودُ مِن الإطنابِ في قولِهم بعْدَ حُلولِ العذابِ بهم، تَلقينُ الَّذين ضُرِبَ لهم هذا المَثَلُ بأنَّ في مُكْنتِهم الإنابةَ إلى اللهِ بنَبْذِ الكُفرانِ لنِعمتِه؛ إذ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨٧، ٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٨٨).

أشْرَكوا به مَن لا إنعامَ لهم عليه[١].

٩- قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ هذا رُجوعٌ إلى تَهديدِ المشرِكين المَبدوءِ مِن قولِه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ [القلم: ١٧]، فالكلامُ فَذْلَكةٌ[٢] وخُلاصةٌ لِما قبْلَه، وهو استئنافٌ ابتدائيٌّ[٣].

- وقولُه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مُسنَدٌ مُقدَّمٌ، و﴿ٱلْعَذَابُ﴾ مُسنَدٌ إليه، وتَقديمُ المُسنَدِ للاهتِمامِ بإحضارِ صُورتِه في ذِهنِ السَّامعِ، ولإفادةِ القَصرِ. والتَّعريفُ في ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وفيه تَوجيهٌ بالعهْدِ الذِّهنيِّ، أي: عَذابُكم الموعودُ مِثلُ عَذابِ أولئك[٤].

- والمُماثَلةُ في إتلافِ الأرزاقِ والإصابةِ بقطْعِ الثَّمراتِ؛ فالمُماثَلةُ بيْنَ المُشبَّهِ والمُشبَّهِ به مُماثَلةٌ في النَّوعِ، وإلَّا فإنَّ ما تُوُعِّدوا به مِن القحْطِ أشدُّ ممَّا أصاب أصحابَ الجنَّةِ وأطولُ[٥].

وقيل: تَشبيهُ بَلاءِ قُريشٍ ببَلاءِ أصحابِ الجنَّةِ هو أنَّ أصحابَ الجنةِ عَزَموا على الانتفاعِ بثَمَرِها، وحِرمانِ المساكينِ، فقَلَبَ اللهُ تعالَى عليهم وحَرَمَهم، وأنَّ قُريشًا حينَ خَرَجوا إلى بدْرٍ حَلَفوا على قتْلِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، فإذا فَعَلوا ذلك رَجَعوا إلى مكَّةَ، وطافوا بالكعبةِ، وشَرِبوا الخُمورَ، فقَلَبَ اللهُ عليهم بأنْ قُتِلوا، وأُسِروا[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٨).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٨٩، ٩٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٤)

- قولُه: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ جوابُ (لو) مَحذوفٌ دلَّ عليه سِياقُ الكلامِ، تَقديرُه: لَمَا فَرَط منهم ما سَلَف مِن ظُلمٍ وإحجامٍ عن الاستثناءِ[1].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٨).

## الآيات (٣٤-٤١)

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زَعِيمٌ﴾: أي: كَفيلٌ وضَمينٌ، وأصْلُ (زعم): يدُلُّ على تكفُّلٍ بالشَّيءِ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ: إنَّ للمتَّقينَ عِندَ رَبِّهم جنَّاتِ النَّعيمِ الدَّائمِ الَّذي لا يَنقَضي.

ثمَّ يسألُ المشركينَ السُّؤالَ تلوَ السُّؤالِ؛ إلزامًا لهم بالحجةِ، وتقريعًا لهم على غفلتِهم: أفنُساوي بيْنَ المُسلِمينَ الَّذين خَضَعوا لله تعالى وانقادُوا لأمْرِه، والمجرِمينَ الَّذي اكتَسَبوا الذُّنوبَ؟! ما لَكم -أيُّها المُشرِكونَ- كيف تَحكُمونَ بمُساواةِ المسلمينَ والمُجرِمينَ؟

أَلكم كِتابٌ منزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تَقرَؤونَ فيه أنَّ لكم فيه ما تختارونَه مِن أحكامٍ؟!

أمْ لكم -أيُّها المُشرِكونَ- عُهودٌ ومواثيقُ مُؤبَّدةٌ مُستَمِرَّةٌ إلى يومِ القيامةِ بأنَّ لكم حُكمَكم الَّذي تَختارونَه؟!

سَلْ -يا محمَّدُ- مُشرِكي قَومِك: مَن الضَّامِنُ المتكَفِّلُ بصِحَّةِ ذلك؟

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٤).

أمْ للكُفَّارِ شُرَكاءُ لله في استِحقاقِ العبادةِ؟ فلْيَأتوا بهم إن كانوا صادِقينَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٣٤﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى حالَ أهلِ الجنَّةِ الدُّنيويَّةِ، وما أصابهم فيها مِن النِّقمةِ حينَ عصَوُا اللهَ عزَّ وجلَّ وخالَفوا أمْرَه؛ بيَّن أنَّ لِمَنِ اتَّقاه وأطاعه في الدَّارِ الآخرةِ جنَّاتِ النَّعيمِ الَّتي لا تَبيدُ ولا تفرغُ ولا يَنقضي نعيمُها[1].

وأيضًا لَمَّا فَرَغ سبحانَه مِن ذِكرِ حالِ الكفَّارِ، وتشبيهِ ابتلائِهم بابتلاءِ أصحابِ الجنَّةِ المذكورةِ؛ ذَكَر حالَ المتَّقينَ، وما أعدَّه لهم مِن الخيرِ، فقال[2]:

﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٣٤﴾.

أي: إنَّ الذين اتَّقَوُا اللهَ تعالى بامتِثالِ أوامِرِه واجتِنابِ نَواهيه: لهم في الآخِرةِ عِندَ رَبِّهم جنَّاتُ النَّعيمِ الدَّائمِ الَّذي لا يَبيدُ ولا يَنقَضي، الخالي مِن كُلِّ ما يُنغِّصُه ويُكَدِّرُه[3].

﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥﴾.

أي: أفنُساوي بيْنَ المُسلِمينَ الَّذين خَضَعوا لله تعالى، وانقادُوا لأمْرِه، واجتَنَبوا نَهْيَه، وذَلُّوا بالطَّاعةِ والعُبوديَّةِ له وَحْدَه، والمجرِمينَ الَّذي اكتَسَبوا الذُّنوبَ، ورَكِبوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩١).

المعاصيَ، وخالَفوا أمْرَ اللهِ ونَهْيَه؟! كَلَّا؛ فإنَّما يُثيبُ اللهُ المسلِمينَ، ويُعَذِّبُ المُجرِمينَ، كما تَقتَضيه حِكمتُه سُبحانَه[1].

كما قال تعالى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ * أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ﴾ [السجدة: ١٨ - ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [الحشر: ٢٠].

﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾.

أي: أيُّ شيءٍ حصَل لكم مِن خللِ الفكرِ وفسادِ الرَّأيِ، كيف تَحكُمونَ هذا الحُكمَ الجائرَ، كأنَّ أمرَ الجزاءِ في الآخرةِ مفوَّضٌ إليكم، تَحكمونَ فيه بما شِئْتُم[2]!

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٤)، ((منهاج السنة)) لابن تيمية (٣/ ٨٨، ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٨).
قال البقاعي: (﴿ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ أي: أيُّ عَقلٍ دعاكم إلى هذا الحُكمِ الَّذي يتضَمَّنُ التَّسويةَ مِنَ السَّيِّدِ بيْنَ المحسِنِ مِن عبيدِه والمُسيءِ؟!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣١٩).

أي: أَلكم كتابٌ منزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تَقرَؤونَ فيه مِرارًا حتَّى تَحفَظوا أنَّ لكم فيه ما تختارونَه مِن أحكامٍ حتَّى تُساووا بيْنَ المسلمينَ والمُجرِمينَ[1]؟!

كما قال تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ [فاطر: ٤٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ * فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الصافات: ١٥٦، ١٥٧].

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: أمْ لكم -أيُّها المُشرِكونَ- عُهودٌ ومواثيقُ مُؤكَّدةٌ قد أقسَمْنا عليها، وهي مُؤبَّدةٌ مُستَمِرَّةٌ إلى يومِ القيامةِ، بأنَّ لكم حُكمَكم الَّذي تَختارونَه[2]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٦، ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣١٩، ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٣، ٩٤).

قال ابن عطية: (قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ قال بعضُ المتأوِّلينَ: هذا استئنافُ قولٍ، على معنَى: إن كان لكم كتابٌ، فلَكم فيه مُتخَيَّرٌ. وقال آخَرون: «إنَّ» معمولةٌ لـ ﴿تَدْرُسُونَ﴾، أي: تَدرُسونَ في الكتابِ إنَّ لكم ما تَختارونَ مِن النَّعيمِ، وكُسِرت الألِفُ مِن «إنَّ» لِدُخولِ اللَّامِ في الخبَرِ، وهي في معنَى «أنَّ» بفتحِ الألِفِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٤، ٩٥).

قال الزمخشري: (﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جوابُ القسَمِ؛ لأنَّ معنى ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا﴾: أمْ أقْسَمْنا لكم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٣).

وقال الشوكاني: (﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ أي: عهودٌ مؤكَّدةٌ موثَّقةٌ مُتناهيةٌ، والمعنى: أمْ لكم أيْمانٌ على الله استَوثَقْتُم بها في أنْ يُدخِلَكم الجنَّةَ، ... وجوابُ القسَمِ قولُه: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾؛ =

﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لمُشرِكي قَومِك هؤلاء: مَن الضَّامِنُ المتكَفِّلُ الملتَزِمُ بادِّعائِه صِحَّةَ ذلك[1]؟

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نَفى اللهُ تعالى أن يكونَ للمُجرِمينَ مِنه في تَسويتِهم بالمُسلِمينَ دَليلٌ عَقليٌّ أو نقليٌّ أو عَهدٌ وَثيقٌ على هذا التَّرتيبِ المحكَمِ، والمِنهاجِ الأقوَمِ؛ أتْبَعَه ما يكونُ مِن عندِ غَيرِه إن كان ثَمَّ غَيرٌ على ما ادَّعَوا[2]!

﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ ﴾.

أي: أم للكُفَّارِ شُرَكاءُ لله في استِحقاقِ العبادةِ؟ فلْيَأتوا بهم إذَن ليَجعَلوا لهم نصيبًا مِن ثوابِ اللهِ تعالى أو يَجعلوهم مِثلَ المسلمينَ في الآخرةِ، إن كانوا صادِقينَ في زَعْمِهم أنَّهم شُرَكاءُ للهِ سُبحانَه[3]!

---

= لأنَّ معنى ﴿ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ ﴾ أي: أمْ أقْسَمْنا لكم. قال الرازي: والمعنى: أمْ ضَمِنَّا لكم وأقسَمْنا لكم بأيْمانٍ مُغَلَّظةٍ مُتناهيةٍ في التَّوكيدِ. وقيل: قد تمَّ الكلامُ عندَ قولِه: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾، ثمَّ ابتدأ فقال: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴾، أي: ليس الأمرُ كذلك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

قال السعدي: (أي: أيُّهم الكفيلُ بهذه الدَّعوى الفاسِدةِ؛ فإنَّه لا يمكِنُ التَّصَدُّرُ بها، ولا الزَّعامةُ فيها؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أنَّ مِن السَّفَهِ ومِن الخَطَأِ في الحُكْمِ أنْ نَجعَلَ المسلِمَ كالمجرمِ، أوِ الفاسِقَ كالمؤمِنِ[1]! فاللهُ تعالى يُخبِرُ أنَّ حِكمتَه لا تَقتَضي أن يَجعَلَ المُسلِمينَ القانِتينَ لرَبِّهم، المُنقادِينَ لأوامِرِه، المتَّبِعينَ لمَراضِيه؛ كالمجرِمينَ الَّذين أسرَعوا في مَعاصيه، والكُفرِ بآياتِه، ومُعانَدةِ رُسُلِه، ومُحارَبةِ أوليائِه، وأنَّ مَن ظَنَّ أنَّه يُسَوِّيهم في الثَّوابِ فإنَّه قد أساء الحُكمَ، وأنَّ حُكمَه حُكمٌ باطِلٌ، ورأيَه فاسِدٌ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أضاف ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لأنَّ النَّعيمَ لا يُفارِقُها، إذ ليس فيها إلَّا هو، فلا يَشوبُه كَدَرٌ كما يَشوبُ

---

= كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معنى الشُّرَكاءِ هنا: الشُّرَكاءُ لله تعالى في العبادةِ بحَسَبِ زَعمِ عابِدِيها: الواحديُّ، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٦).

وقيل: شُرَكاءُ، أي: شُهداءُ مِن غَيرِهم يَشهَدونَ لهم بما يَدَّعونَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٨).

وقيل: المرادُ: ناسٌ يُشارِكونَهم في هذا القَولِ، ويوافِقونَهم عليه، ويَذهَبونَ مَذهَبَهم فيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشري، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٠).

جَنَّاتِ الدُّنيا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ بيانُ أنَّه لا يَجوزُ لأحدٍ أنْ يُعارِضَ كِتابَ اللهِ بغيرِ كِتابٍ، فمَن عارَضَ كتابَ اللهِ، وجادَلَ فيه بما يُسمِّيه مَعقولاتٍ وبَراهينَ وأقْيِسةً، أو ما يُسمِّيه مُكاشَفاتٍ[٢] ومَواجيدَ[٣] وأذواقًا[٤]، مِن غيرِ أنْ يأتيَ على ما يقولُه بكتابٍ مُنَزَّلٍ- فقد جادَلَ في آياتِ اللهِ بغَيرِ سُلطانٍ. هذه حالُ الكُفَّارِ الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: ٤]، فهذه حالُ مَن يُجادِلُ في آياتِ اللهِ مُطلقًا[٥].

٣- يُبَيِّنُ الله تعالى الحَقائقَ بالمَقاييسِ العَقليَّةِ والأمثالِ المَضروبةِ، ويُبَيِّنُ طُرُقَ التَّسويةِ بيْن المتماثِلَينِ، والفَرْقِ بيْن المختلِفَينِ، ويُنكِرُ على مَن يَخرُجُ عن ذلك؛ كما في قولِه تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ * مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، أي: هذا حُكمٌ جائرٌ لا عادلٌ؛ فإنَّ فيه تسويةً بيْنَ المختلِفَينِ. ففيه التَّنبيهُ أنَّ الميزانَ العَقليَّ حقٌّ كما ذَكَر اللهُ تعالى في كتابِه، وليس هو مختصًّا بمنطقِ اليُونانِ، بل هي الأقيسةُ الصَّحيحةُ المتضَمِّنةُ للتَّسويةِ بيْن المتماثلَينِ، والفَرقِ بيْن المختلِفَينِ، سواءٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥).

(٢) الكشفُ عندَ الصوفيَّةِ: هو الاطِّلاعُ على ما وراءَ الحِجابِ مِن المعاني الغَيبيَّةِ، والأمورِ الحقيقيَّةِ وُجودًا وشُهودًا. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٨٤)، ((التوقيف على مهمات التعاريف)) للمُناوي (ص: ٢٨٢)، ((جامع العلوم في اصطلاحات الفنون)) للتهانوي (٣/ ٨٩).

(٣) الوجْدُ عندَ الصوفيَّةِ: ما يُصادِفُ القلبَ ويَرِدُ عليه بلا تكلُّفٍ وتصَنُّعٍ. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٢٥٠)، ((التوقيف)) للمُناوي (ص: ٣٣٤)، ((جامع العلوم)) للتهانوي (٣/ ٣١٠).

(٤) الذَّوقُ عندَ الصُّوفيَّةِ: عبارةٌ عن نورٍ عرفانيٍّ يَقذِفُه الحقُّ بتجلِّيه في قلوبِ أوليائِه، يُفرِّقونَ به بيْن الحقِّ والباطلِ، مِن غيرِ أن يَنقُلوا ذلك مِن كتابٍ ولا غيرِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ١٠٧)، ((التوقيف)) للمناوي (ص: ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((الاستقامة)) لابن تيمية (١/ ٢٢).

صِيغَ ذلك بصيغةِ قياسِ الشُّمولِ، أو بصيغةِ قياسِ التَّمثيلِ[١]، وصِيَغُ التَّمثيلِ هي الأصلُ، وهي أكمَلُ، والميزانُ هو القَدْرُ المُشتَرَكُ، وهو الجامِعُ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴾ أصلٌ في مَشروعيَّةِ الضَّمانِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ مِن شأْنِ ما ذُكِرَ مِن عذابِ الآخِرةِ للمُجرمينَ أنْ يَنشَأَ عنه سُؤالٌ في نفْسِ السَّامعِ يقولُ: فما جَزاءُ المتَّقينَ؟ وهو كَلامٌ مُعترِضٌ بيْنَ أجزاءِ الوَعيدِ والتَّهديدِ، وبيْن قولِه: ﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴾ [القلم: ١٦]، وقولِه: ﴿ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ﴾ [القلم: ٣٣]، وقد أشعَرَ بتَوقُّعِ هذا السُّؤالِ قولُه بعْدَه: ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥][٤]؛ فالجُملةُ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ لبَيانِ ما أعدَّ اللهُ للمتَّقينَ يومَ القيامةِ، وللرَّدِّ على صَناديدِ قُريشٍ الَّذين كانوا يَقولون: إنْ صحَّ أنَّا نُبعَثُ لم تكُنْ حالُنا وحالُ المؤمنينَ إلَّا مِثلَ ما هي في الدُّنيا[٥].

- وتَقديمُ المُسنَدِ ﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ على المُسنَدِ إليه ﴿ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ للاهتِمامِ بشأْنِ المُتَّقينَ؛ ليَسبِقَ ذِكرُ صِفتِهم العَظيمةِ ذِكرَ جَزائِها، واللَّامُ للاستحقاقِ،

---

(١) قياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشتَرَكَ الكُلِّيَّ، مثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ (إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما). يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٩).

و(عِندَ) ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بمعْنى الكَونِ الَّذي يَقْتضيهِ حرْفُ الجرِّ، ولذلك قُدِّمَ مُتعلَّقُه معه على المُسنَدِ إليه؛ مِن أجْلِ ذلك الاهتمامِ، وقد حصَلَ مِن تَقديمِ المسنَدِ بما معه طُولٌ يُثيرُ تَشويقَ السَّامعِ إلى المُسنَدِ إليه(١).

- وإضافةُ جنَّاتٍ إلى النَّعيمِ تُفيدُ أنَّها عُرِفَت به، فيُشارُ بذلك إلى مُلازَمةِ النَّعيمِ لها؛ لأنَّ أصلَ الإضافةِ أنَّها بتَقديرِ لامِ الاستِحقاقِ، فـ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ مُفيدٌ أنَّها استَحقَّها النَّعيمُ؛ لأنَّها ليس في أحوالِها إلَّا حالُ نَعيمِ أهلِها، وأنَّ النَّعيمَ لا يُفارِقُها، فلا يكونُ فيها ما يكونُ في جنَّاتِ الدُّنيا مِن المتاعِبِ، مِثل الحرِّ في بَعضِ الأوقاتِ، أو شِدَّةِ البرْدِ، أو مِثل الحشراتِ والزَّنانيرِ، أو ما يُؤذي، مِثلُ شَوكِ الأزهارِ والأشجارِ، ورَوَثِ الدَّوابِّ، وذَرْقِ الطَّيرِ(٢).

فأفاد التَّركيبُ اختصاصَ الجنَّاتِ بالتَّنعُّمِ الخالصِ؛ إذ ليس فيها إلَّا هو، فلا يَشوبُه كَدَرٌ كما يشوبُ جنَّاتِ الدُّنيا، وجاء هذا التَّخصيصُ مِن جانبِ المقامِ التَّعريضيِّ؛ مِن تَقديمِ الخبَرِ -﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾- على المبتدَأِ، ومَجيءِ الآيةِ بعْدَ ذِكرِ أصحابِ الجنَّةِ وأحوالِ قُريشٍ، وإردافِه بقولِه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ فاءُ التَّفريعِ في ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ تَقْتضي أنَّ هذا الكلامَ مُتفرِّعٌ على ما قبْلَه مِن استحقاقِ المتَّقينَ جنَّاتِ النَّعيمِ، ومُقابَلتِه بتَهديدِ المشركينَ بعَذابِ الدُّنيا والآخرةِ، ولكنَّ ذلك غيرُ مُصرَّحٍ فيه بما يُناسِبُ أنْ يَتفرَّعَ عليه هذا الإنكارُ والتَّوبيخُ، فتَعيَّنَ تَقديرُ إنكارٍ مِن المُعرَّضِ بهم؛ ليَتوجَّهَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٩١).

إليهم هذا الاستفهامُ المُفرَّعُ[١].

وقيل: جُملةُ ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ مَعطوفةٌ على مُقدَّرٍ يَقْتضيهِ السِّياقُ، أي: أنَحِيفُ في الحكْمِ فنَجعَلُ المسلمين كالكافرينَ[٢]؟! وهي تَقريرٌ لِما قبْلَه مِن فَوزِ المُتَّقينَ بجنَّاتِ النَّعيمِ، ورَدٌّ لِما يَقولُه الكَفَرةُ عندَ سَماعِهم بحديثِ الآخرةِ وما وَعَدَ اللهُ المسلمينَ فيهَا؛ فإنَّهم كانُوا يقولونَ: إنْ صحَّ أنَّا نُبعَثُ كما يَزعُمُ محمَّدٌ ومَنْ معَه، لم يكُنْ حالُنَا وحالُهُم إلَّا مِثلَ ما هيَ في الدُّنيا، وإلَّا لم يَزِيدُوا علينَا ولم يَفضُلونَا، وأقْصى أمْرِهِم أنْ يُساوونَا[٣].

- وقولُه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قيل: هو كَلامٌ مُوجَّهٌ إلى المشركين، وهم المقصودُ بالمُجرِمين، عُبِّرَ عنهم بطَريقِ الإظهارِ دونَ ضَميرِ الخِطابِ؛ لِما في وصْفِ المجرمينَ مِن المُقابَلةِ؛ ليَكونَ في الوصفَينِ إيماءٌ إلى سَببِ نفْيِ المُماثَلةِ بيْنَ الفريقينِ، فلذلك لم يكُنْ ضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ الْتفاتًا عن ضَمائرِ الغَيبةِ مِن قولِه: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، وقولِه: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾[٤] [القلم: ١٧].

- والهمزةُ في ﴿أَفَنَجْعَلُ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّقريعيِّ؛ فُرِّعَ إنكارُ التَّساوي بيْنَ المسلِمينَ والكافرينَ على ما سَبَق مِن اختلافِ جَزاءِ الفَريقينِ؛ فالإنكارُ مُتسلِّطٌ على ما دارَ بيْنَ المشرِكينَ مِن القولِ عندَ نُزولِ الآيةِ السَّابقةِ، أو عندَ نُزولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٢).

ما سَبَقَها مِن آيِ القُرآنِ الَّتي قابَلَت بيْن جَزاءِ المؤمنينَ وجَزاءِ المشرِكين، كما يَقتضيهِ صَريحًا قولُه: ﴿مَا لَكُمْ﴾، إلى قولِه: ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٩]، والاستِفهامُ وما بعْدَه مِن التَّوبيخِ، والتَّخطئةِ، والتَّهكُّمِ على إدْلالِهم الكاذبِ؛ مُؤذِنٌ بأنَّ ما أُنكِرَ عليهم ووُبِّخوا عليه وسُفِّهوا على اعتقادِه، كان حَديثًا قدْ جَرى في نَوادِيهم، أو استَسْخَروا به على المسلِمينَ في مَعرضِ جُحودِ أنْ يكونَ بَعثٌ، وفرْضِهم أنَّه على تَقديرِ وُقوعِ البعثِ والجزاءِ لا يكونُ للمُسلِمينَ مَزيةٌ وفضْلٌ عندَ وُقوعِه(١).

- وإنكارُ جَعْلِ الفَريقينِ مُتشابهَينِ كِنايةٌ عن إعطاءِ المسلمينَ جَزاءَ الخَيرِ في الآخرةِ، وحِرمانِ المشرِكين منه؛ لأنَّ نفْيَ التَّساوي واردٌ في معْنى التَّضادِّ في الخيرِ والشَّرِّ في القرآنِ وكَلامِ العرَبِ، وإذا انْتَفى أنْ يكونَ للمشركينَ حظٌّ في جَزاءِ الخَيرِ انْتَفى ما قالُوه مِن أنَّهم أفضَلُ حظًّا في الآخرةِ مِن المسلمينَ كما هو حالُهم في الدُّنيا، بطَريقِ فَحوى الخِطابِ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾

- قولُه: ﴿مَا لَكُمْ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ لحالةِ حُكْمِهم، و﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ ثانٍ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿لَكُمْ﴾، أي: انْتَفى أنْ يكونَ لكم شَيءٌ في حالِ حُكْمِكم، أي: فإنْ ثَبَتَ لهم كان مُنكَرًا باعتبارِ حالةِ حُكْمِهم، والمعْنى: لا تَحكُمون أنَّكم مُساوُونَ للمسلمينَ في جَزاءِ الآخرةِ، أو مُفضَّلون

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٢).

وتقدَّم تعريفُ فحوى الخِطابِ (ص: ٢٥١).

عليهم[١].

- قيل: الالْتفاتُ مِن الغائبِ ﴿كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إلى الخِطابِ في قولِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فيه تَعجُّبٌ مِن حُكْمِهم، واستبعادٌ له، وإشعارٌ بأنَّه صادرٌ مِن اختلالِ فِكرٍ، واعوجاجِ رأْيٍ[٢].

٤- قولُه تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ إضرابُ انتقالٍ مِن تَوبيخٍ إلى احتجاجٍ على كَذِبِهم، والاستفهامُ المُقدَّرُ مع (أَمْ) إنكارٌ لأنْ يكونَ لهم كتابٌ إنكارًا مَبنيًّا على الفرْضِ، وإنْ كانوا لم يَدَّعوه، وحاصلُ هذا الانتقالِ والانتقالاتِ الثَّلاثةِ بعْدَه -وهي ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا ...﴾ [القلم: ٣٩] إلخ، ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ ...﴾ [القلم: ٤١] إلخ- أنَّ حُكْمَكم هذا لا يَخلو مِن أنْ يكونَ سَنَدُه كتابًا سَماويًّا نزَلَ مِن لَدُنَّا، وإمَّا أنْ يكونَ سَنَدُه عهْدًا منَّا بأنَّا نُعطِيكم ما تَقترِحون، وإمَّا أنْ يكونَ لكمْ كَفيلٌ علينا، وإمَّا أنْ يكونَ تَعويلًا على نصْرِ شُركائِكم[٣].

- وضَميرُ ﴿فِيهِ﴾ عائدٌ إلى الحُكْمِ المُفادِ مِن قولِه: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٦]، أي: كِتابٌ في الحكْمِ. و(في) للتَّعليلِ أو الظَّرفيةِ، كما تقولُ: وَرَدَ كتابٌ في الأمْرِ بكذا، أو في النَّهيِ عن كذا، فيَكونُ ﴿فِيهِ﴾ ظَرفًا مُستقَرًّا[٤]

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٧٩، ١٨٠).

(٤) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ =

صِفةً لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى ﴿كِتَٰبٌ﴾، ويَتعلَّقُ المجرورُ بفِعلِ ﴿تَدۡرُسُونَ﴾؛ جُعِلَت الدِّراسةُ العميقةُ بمَزيدِ التَّبصُّرِ في ما يَتضمَّنُه الكتابُ بمَنزلةِ الشَّيءِ المظروفِ في الكتابِ، كما تقولُ: لنا درْسٌ في كِتابِ سِيبويْهِ. وفي هذا إدماجٌ بالتَّعريضِ بأنَّهم أُمِّيُّونَ لَيسوا أهلَ كتابٍ، وأنَّهم لَمَّا جاءهم كتابٌ لهَدْيِهم وإلْحاقِهم بالأُمَمِ ذاتِ الكتابِ، كَفَروا نِعمتَه وكذَّبوه[1].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ في مَوضعِ مَفعولِ ﴿تَدۡرُسُونَ﴾، على أنَّها مَحكيٌّ لَفْظُها، أي: تَدرُسونَ هذه العبارةَ، أي: تَدرُسون جُملةَ ﴿إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾، ويكونُ ﴿فِيهِ﴾ تَوكيدًا لفظيًّا لنَظيرِها مِن قولِه: ﴿فِيهِ تَدۡرُسُونَ﴾، قُصِدَ مِن إعادتِها مَزيدُ ربْطِ الجُملةِ بالَّتي قبْلَها[2].

- و﴿تَخَيَّرُونَ﴾ أصْلُه تَتخيَّرون بتاءينِ، حُذِفَت إحداهما تَخفيفًا[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ﴾

- قولُه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ (أم) للانتقالِ إلى دَليلٍ آخَرَ،

---

= فيه؛ وبسببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّي ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٩٣، ٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٩٤).

وهو نفْيُ أنْ يكونَ مُستنَدُ زَعْمِهم عهْدًا أخَذوه على اللهِ لأنفُسِهم؛ أنْ يُعامِلَهم يومَ القيامةِ بما يَحكُمونَ به لأنفُسِهم، فالاستفهامُ اللَّازمُ تَقديرُه بعْدَ (أَمْ) إنكاريٌّ تَقريعيٌّ(١).

- وقولُه: ﴿عَلَيْنَا﴾ صِفةٌ ثانيةٌ لـ﴿أَيْمَٰنٌ﴾، أي: أقَسَمْناها لكم لإثباتِ حقِّكم علينا؟ و﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ صِفةٌ ثالثةٌ لـ﴿أَيْمَٰنٌ﴾، أي: أيْمانٌ مُؤبَّدةٌ لا تَحِلَّةَ منها؛ فحَصَل مِن الوصفينِ أنَّها عُهودٌ مُؤكَّدةٌ ومُستمرَّةٌ طولَ الدَّهرِ، فليس يومُ القيامةِ مُنْتهى الأخْذِ بتلك الأيْمانِ، بلْ هو تَنصيصٌ على التَّأبيدِ(٢).

٧- قولُه تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ عن جُملةِ ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ﴾ [القلم: ٣٩]؛ لأنَّ الأيْمانَ -وهي العهودُ- تَقْتضي الكُفلاءَ عادةً، فلمَّا ذُكِرَ إنكارُ أنْ يكونَ لهم عُهودٌ، كُمِّلَ ذلك بأنْ يُطلَبَ منهم أنْ يُعَيِّنوا مَن هم الزُّعماءُ بتلك الأيْمانِ(٣).

- وفي ﴿سَلْهُمْ﴾ تَلوينٌ للخِطابِ، وتَوجيهٌ لهُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإسقاطِهم عن رُتبةِ الخِطابِ(٤).

- قولُه: ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ؛ زِيادةً على الإنكارِ عليهم، والزَّعيمُ: الكفيلُ، وقد جُعِلَ الزَّعيمُ أحدًا منهم زِيادةً في التَّهكُّمِ(٥).

٨- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾

- (أم) إضرابٌ انتقاليٌّ ثالثٌ إلى إبطالِ مُستنَدٍ آخَرَ مَفروضٍ لهم في سَنَدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٥).

قولِهم: إنَّا نُعطى مِثلَ ما يُعطى المسلِمونَ، أو خيرًا ممَّا يُعطَونه، وهو أنْ يُفرَضَ أنَّ أصنامَهم تَنصُرُهم، وتَجعَلُ لهم حظًّا مِن جَزاءِ الخَيرِ في الآخرةِ، والمعْنى: بلْ أثبَتَتْ لهم -أي: مِن أجْلِهم ونفْعِهم- شُركاءُ، أي: شُركاءُ لنا في الإلهيَّةِ في زَعْمِهم! فحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ لشُهرتِه عِندهم، فصار ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ بمَنزلةِ اللَّقَبِ، أي: أمْ آلِهَتُهم لهم؟! فلْيَأتوا بهم ليَنفَعوهم يومَ القيامةِ، واللَّامُ في ﴿لَهُمْ﴾ لامُ الأجْلِ، أي: لأجْلِهم بتَقديرِ مُضافٍ، أي: لأجْلِ نَصْرِهم[1].

- وتَنكيرُ ﴿شُرَكَٰٓؤُاْ﴾ في حيِّزِ الاستِفهامِ المُستعمَلِ في الإنكارِ يُفيدُ انتفاءَ أنْ يكونَ أحدٌ مِن الشُّركاءِ -أي: الأصنامِ- لهم، أي: لنَفْعِهم، فيَعُمُّ أصنامَ جَميعِ قَبائلِ العرَبِ: المُشترَكَ في عِبادتِها بيْن القبائلِ، والمَخصوصةَ ببَعضِ القبائلِ[2].

- وقد نُقِلَ أُسلوبُ الكلامِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ لمُناسَبةِ وُقوعِه بعْدَ: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠]؛ لأنَّ أخصَّ النَّاسِ بمَعرفةِ أحقِّيَّةِ هذا الإبطالِ هو النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك يَستتبِعُ تَوجيهَ هذا الإبطالِ إليهم بطَريقةِ التَّعريضِ[3].

- والتَّفريعُ في قولِه: ﴿فَلْيَأْتُواْ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ تَفريعٌ على نفْيِ أنْ تَنفَعَهم آلهتُهم؛ فتَعيَّنَ أنَّ أمْرَ ﴿فَلْيَأْتُواْ﴾ أمْرُ تَعجيزٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وإضافةُ (شُركاء) إلى ضَميرِهم لإبطالِ صِفةِ الشَّرِكةِ في الإلهيَّةِ عنهم، أي: لَيسوا شُركاءَ في الإلهيَّةِ إلَّا عندَ هؤلاء؛ فإنَّ الإلهيَّةَ الحقَّ لا تكونُ نِسبيَّةً بالنِّسبةِ إلى فَريقٍ أو قَبيلةٍ(١).

- قولُه: ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ (إنْ) شَرطيَّةٌ، والجوابُ مَحذوفٌ دلَّ عليه ما تَقدَّمَ، أي: فلْيَأتوا بشُركائِهم(٢).

- مِن قولِه: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ الاستِفهاماتُ الَّتي وَرَدَت في هذه الآياتِ سَبْعةٌ، وقد خَرَجَت عن معْناها الأصليِّ إلى الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّقريعِ على ما أرْجَفُوا به مِن زَعْمِهم أنَّ اللهَ فضَّلنا عليكم في الدُّنيا، فلا بُدَّ مِن أنْ يُفضِّلَنا عليكم في الآخرةِ، أو على الأقلِّ إنْ لم يَحصُلِ التَّفضيلُ فلا أقلَّ مِن المُساواةِ؛ ففنَّد اللهُ مَزاعِمَهم مُقرِّعًا وموبِّخًا، وجاءت مُتعاقِبةً: أوَّلُها ﴿أَفَنَجۡعَلُ﴾، والثَّاني ﴿مَا لَكُمۡ﴾، والثَّالثُ ﴿كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾، والرَّابعُ ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ﴾، والخامسُ ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ﴾، والسَّادسُ ﴿أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾، والسَّابعُ ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ﴾، وقد انتَظَمَت في سِلكٍ مِن الفصاحةِ والبَيانِ يَعْنو له كلُّ بَيانٍ(٣).

- مِن قولِه: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ نَبَّه سُبحانه وتَعالى في هذه الآياتِ على نفْيِ جَميعِ ما يُمكِنُ أنْ يَتشبَّثوا به مِن عقْلٍ -بقولِه تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾- أو نقْلٍ -بقولِه سبحانَه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٌ ...﴾ إلخ- أو وعْدٍ -بقولِه سبحانَه: ﴿أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٠/ ١٨١، ١٨٢).

عَلَيْنَا ...﴾ إلخ-، أو مَحضِ تَقليدٍ -بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾؛ على القولِ بأنَّ المرادَ مَن شارَكهم في هذه المقالةِ، وسبَقهم لها، فنبَّه على مَراتبِ النَّظرِ، وزيف ما لا سَنَدَ له[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٦، ٢٣٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٥٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩).

## الآيات (٤٢-٤٧)

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَٰشِعَةً﴾: أي: ذليلةً خاضِعةً، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[1].

﴿تَرْهَقُهُمْ﴾: أي: تَغشاهم وتَلحَقُهم، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[2].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾: أي: سنأخُذُهم قليلًا قليلًا، درجةً فدرجةً، ولا نُباغِتُهم، وأصلُه مِنَ الدَّرْجِ: وهو لفُّ الشَّيءِ وطَيُّه، والاستِدراجُ هو طَيٌّ مَنزلةٍ بعْدَ مَنزلةٍ، ويجوزُ أن يكونَ مِنَ الدَّرَجةِ، فيكونَ معنى الاستدراجِ في الأمرِ: أن يُحَطَّ دَرَجةً بعدَ دَرَجةٍ حتَّى يَنتهيَ إلى مَقصودِه[3].

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾: أي: أؤَخِّرُهم وأُمْهِلُهم؛ وأطيلُ لهم المدَّةَ، وأترُكُهم مُلاوةً مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧، ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٦٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١١).

الدَّهْرِ، أي: حِينًا مِن الدَّهرِ، والمُلاوةُ المُدَّةُ مِن الدَّهرِ، وأصلُ (ملي): الزَّمَنُ الطَّويلُ[١].

﴿مَتِينٌ﴾: أي: قَويٌّ شَديدٌ، وأصلُ (متن): يدُلُّ على صَلابةٍ في الشَّيءِ[٢].

﴿مَّغْرَمٍ﴾: أي: غُرمٍ، وهو: ما يَنوبُ الإنسانَ في مالِه مِن ضَرَرٍ لغَيرِ جِنايةٍ منه أو خيانةٍ، والغرمُ أداءُ كلِّ شيءٍ يَلزَمُ، وأصلُ (غرم): يدُلُّ على مُلازَمةٍ[٣].

﴿مُّثْقَلُونَ﴾: أي: مُجهَدونَ لِما كلَّفْتَهم به، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا جانبًا مِن مَشاهِدِ يومِ القيامةِ: يَوْمَ يَكشِفُ الرَّبُّ سُبحانَه وتعالى عن ساقِه الكريمةِ يومَ القِيامةِ، ويُدْعَون إلى السُّجودِ لله تعالى فلا يَستطيعونَ، خاضِعةً ساكِنةً أبصارُهم تَغشاهم ذِلَّةٌ، وقد كانوا في الدُّنيا يُؤمَرونَ بالسُّجودِ للهِ، وهم أصِحَّاءُ مُعافَونَ!

ثمَّ يقولُ تعالى مهدِّدًا: فدَعْني -يا مُحمَّدُ- ومَن يُكذِّبونَ بهذا القُرآنِ، ولا

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥، ٤٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٦٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٩)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٣٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ٧٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

تَستَعجِلْ هَلاكَهم، سنُقَرِّبُهم مِن هَلاكِهم شَيئًا فشَيئًا مِن حيثُ لا يَعلَمونَ، وأُمهِلُهم ولا أُعاجِلُهم بالعُقوبةِ؛ إنَّ مَكرِي وكَيدِي بهم قَويٌّ شَديدٌ!

ثمَّ يُبطِلُ الله تعالى حُجَجَهم، فيقولُ: أم تَسألُ قَومَك -يا مُحمَّدُ- مالًا لإبلاغِهم دعوتي، فيُثقِلُهم ويَشُقُّ عليهم ذلك، فلا يَستجيبونَ لك؟!

أم عِندَ أولئك المُشرِكينَ عِلمُ الغَيبِ فهم يَكتُبونَه؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالى أنَّ للمتَّقينَ عِندَه جَنَّاتِ النَّعيمِ؛ بَيَّنَ متى ذلك كائِنٌ وواقِعٌ[1].

وأيضًا لَمَّا نَفى اللهُ تعالَى جَميعَ شُبَهِ المشركينَ الَّتي يُمكِنُ أنْ يَتشبَّثوا بها، مع البيانِ لقُدرتِه على ما يُريدُ مِن تَفتيقِ الأدِلَّةِ، وتَشقيقِ البَراهينِ، الدَّالِّ على تَمامِ العِلمِ اللَّازمِ منه كَمالُ القُدرةِ، فأوصَلَهم مِن وُضوحِ الأمرِ إلى حدٍّ لم يَبْقَ معه إلَّا العِنادُ؛ أتْبَعَ ذلك تَهديدَهم بما يُثبِتُ قُدرتَه عليه؛ مِن يومِ الفصْلِ، ومُعاملَتِهم فيه بالعدْلِ[2].

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾.

أي: يَوْمَ[3] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٣) قال الألوسي: (﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾... ويجوزُ تعلُّقُه بمُقدَّرٍ، كاذْكُرْ، أو يكونُ كَيْتَ وكَيْتَ. وقيل: بـ﴿خَٰشِعَةً﴾. وقيل: بـ﴿تَرْهَقُهُمْ﴾. وأيًّا ما كان فالمرادُ بذلك اليومِ عندَ الجمهورِ: يومُ القيامةِ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) =

يَكشِفُ الرَّبُّ سُبحانَه عن ساقِه الكريمةِ، وذلك يومَ القِيامةِ[١].

= (١٨/ ٢٤٨).

ممَّن اختار أنَّه متعلِّقٌ بقولِه: ﴿فَلْيَأْتُوا﴾: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ الجوزي، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩).

وممَّن اختار أنَّه متعلِّقٌ بمُقدَّرٍ تقديرُه: اذكُرْ: السمرقنديُّ، ومكِّي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٤).

(١) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣١، ٣٣٢).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ رُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ وطائفةٍ أنَّ المرادَ به الشِّدَّةُ؛ أنَّ اللهَ يَكشِفُ عن الشِّدَّةِ في الآخِرةِ. وعن أبي سعيدٍ وطائفةٍ: أنَّهم عَدُّوها في الصِّفاتِ). ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ٣٩٤، ٣٩٥). ويُنظر: ((الرد على الجهمية)) لابن منده (ص: ١٥).

وقال أيضًا: (الصَّحابةُ قد تَنازَعوا في تفسيرِ الآيةِ: هل المرادُ به الكشفُ عن الشِّدَّةِ، أو المرادُ به أنه يَكشِفُ الرَّبُّ عن ساقِه ... وذلك أنَّه ليس في ظاهرِ القرآنِ أنَّ ذلك صِفةٌ لله تعالى؛ لأنَّه قال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، ولم يقُلْ: «عن ساقِ الله»، ولا قال: «يَكشِفُ الرَّبُّ عن ساقِه». وإنَّما ذكَر ساقًا مُنكَّرةً غيرَ مُعرَّفةٍ ولا مُضافةٍ، وهذا اللَّفظُ بمُجَرَّدِه لا يدُلُّ على أنَّها ساقُ الله، والَّذين جعَلوا ذلك مِن صفاتِ الله تعالى أثبتوه بالحديثِ الصَّحيحِ المفسِّرِ للقرآنِ، وهو حديثُ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ المُخَرَّجُ في الصَّحيحَينِ، الَّذي قال فيه: «فيَكشِفُ الرَّبُّ عن ساقِه»). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٥/ ٤٧٢ - ٤٧٤).

وقال ابنُ عثيمين: (يحتَمِلُ أنْ يُرادَ بذلك ساقُ اللهِ تعالى، ويحتَمِلُ أن يُرادَ بالسَّاقِ الشِّدَّةُ، وقد قال السَّلَفُ بهذين القَولَينِ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (١/ ٢٦٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ في الآيةِ: ساقُ الرَّبِّ سبحانه وتعالى: ابنُ جُزَي في ظاهرِ اختيارِه، واختاره الشوكاني، وابن باز، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٤/ ١٣١) و(٢٤/ ٣١٩)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢٦٣). ويُنظر أيضًا: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٧٣، ٤٧٤)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (١/ ٢٥٢، ٢٥٣).

وعقد البخاريُّ في صحيحه في كتاب (تفسير القرآن): باب ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وأورد تحتَه =

= حديثَ أبي سعيدٍ (٤٩١٩)، وفيه: ((يَكْشِفُ رَبُّنا عن ساقِه...)).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٥٤).

قال الرَّسْعَنيُّ: (وذهَبَ جماعةٌ مِن عُلماءِ السُّنَّةِ إلى إلْحاقِ هذا بنظائرِه مِن آياتِ الصِّفاتِ وأخبارِ الصِّفاتِ...). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٤١).

قال الشوكاني: (قد أغنانا اللهُ سبحانه في تفسيرِ هذه الآيةِ بما صَحَّ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم...، وذلك لا يَستلزِمُ تَجسيمًا ولا تشبيهًا؛ فليس كمِثْلِه شَيءٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣١، ٣٣٢).

وقال ابن عثيمين: (سياقُ الحديثِ يجاري سياقَ الآيةِ تمامًا، فتُحمَلُ الآيةُ على ما جاء في الحديثِ، وتكونُ إضافتُنا السَّاقَ لله في الآيةِ بناءً على الحديثِ، ومِن المعلومِ أنَّ الحديثَ يفسِّرُ القرآنَ، وبهذا تكونُ القاعدةُ مُطَّردةً ليس فيها نقصٌ). ((شرح العقيدة السفارينية)) (١/ ٢٦٣).

وقال ابنُ تَيميَّةَ: (وقد يُقالُ: إنَّ ظاهرَ القُرآنِ يدُلُّ على ذلك مِن جِهةِ أنَّه أخبَرَ أنه يُكشَفُ عن ساقٍ، ويُدْعَون إلى السُّجودِ، والسُّجودُ لا يَصلُحُ إلَّا للهِ، فعُلِمَ أنَّه هو الكاشفُ عن ساقِه، وأيضًا فحَمْلُ ذلك على الشِّدَّةِ لا يصِحُّ؛ لأنَّ المستعمَلَ في الشِّدَّةِ أنْ يُقال: كَشَفَ اللهُ الشِّدَّةَ، أي: أزالها، كما قال: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٠]، وقال: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ ﴾ [الأعراف ١٣٥]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [المؤمنون ٧٥]، وإذا كان المعروفُ مِن ذلك في اللُّغةِ أنَّه يُقال: كشَفَ الشِّدَّةَ، أي: أزالها، فلَفظُ الآيةِ: ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ ﴾، وهذا يُرادُ به الإظهارُ والإبانةُ، كما قال: ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمُ ﴾، وأيضًا فهناك تَحدُثُ الشِّدَّةُ ولا يُزيلُها، فلا يَكشِفُ الشِّدَّةَ يومَ القيامةِ، لكنَّ هذا الظَّاهرَ ليس ظاهرًا مِن مُجرَّدِ لَفظِ «ساقٍ»، بلْ بالتَّركيبِ والسِّياقِ وتَدبُّرِ المعنى المقصودِ). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٥/ ٤٧٢ - ٤٧٤).

وقال ابنُ القيِّمِ: (قالوا: وحمْلُ الآيةِ على الشِّدَّةِ لا يصِحُّ بوجْهٍ؛ فإنَّ لُغةَ القومِ في مِثلِ ذلك أنْ يُقال: كُشِفَت الشِّدَّةُ عن القومِ، لا: كُشِفَ عنها، كما قال اللهُ تَعالى: ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ ﴾ [المؤمنون: ٧٥]، فالعذابُ والشِّدَّةُ هو المكشوفُ لا المكشوفُ عنه، وأيضًا فهناك تَحدُثُ الشِّدَّةُ وتَشتَدُّ، ولا تُزالُ إلَّا بدُخولِ الجنَّةِ، وهناك لا يُدْعَون إلى السُّجودِ، وإنَّما يُدعَون إليه أشَدَّ ما كانت الشِّدَّةُ). ((الصواعق المرسلة)) (١/ ٢٥٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالسَّاقِ الشِّدَّةُ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والواحديُّ، والقرطبي، وذهب إليه البِقاعي، =

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقولُ: ((يَكشِفُ رَبُّنا عن ساقِه، فيَسجُدُ له كُلُّ مُؤمِنٍ ومُؤمِنةٍ، فيَبقى كُلُّ مَن كان يَسجُدُ في الدُّنيا رِياءً وسُمعةً، فيَذهَبُ ليَسجُدَ، فيَعودُ ظَهرُه طَبَقًا واحِدًا!))[1].

---

= وابنُ عاشور. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٧، ٩٨).

ونُسِب هذا القولُ إلى جمهورِ أهلِ اللُّغةِ والمفسِّرينَ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ، وعَطاءٌ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٥٦).

وقال السعدي: (أي: إذا كان يومُ القيامةِ، وانكشَفَ فيه مِنَ القلاقِلِ والزَّلازِلِ والأهوالِ ما لا يدخُلُ تحتَ الوَهمِ، وأتى الباري لفَصلِ القَضاءِ بيْن عِبادِه ومجازاتِهم، فكَشَف عن ساقِه الكريمةِ الَّتي لا يُشبِهُها شَيءٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(١) رواه البخاري (٤٩١٩) واللَّفظُ له، ومسلم (١٨٣).

وممَّا يُستأنسُ به حديثُ أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سمِعتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((إذا جمَع الله العبادَ بصعيدٍ واحدٍ نادَى مُنادٍ: يَلحَقُ كلُّ قَومٍ بما كانوا يَعبُدونَ، ويبقَى النَّاسُ على حالِهم، فيأتيهم فيقولُ: ما بالُ النَّاسِ ذهَبوا وأنتم هاهنا؟ فيَقولونَ: نَنتَظِرُ إلهَنا، فيقولُ: هل تَعرِفونَه؟ فيقولونَ: إذا تعرَّف إلينا عرَفْناه، فيَكشِفُ لهم عن ساقِه، فيَقَعونَ سُجَّدًا، وذلك قولُ الله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾، ويبقَى كلُّ منافقٍ، فلا يستطيعُ أن يَسجُدَ، ثمَّ يَقودُهم إلى الجنَّةِ)). أخرجه الدَّارِميُّ (٢٨٠٣) واللَّفظُ له، وابنُ أبي عاصم في ((السُّنة)) (٧٣٢).

حسَّن إسنادَه الألبانيُّ في تخريج ((كتاب السنة)) (٧٣٢)، وجوَّده في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٥٨٤). وقال أيضًا (٢/ ١٢٩): (وهو نصٌّ في الخِلافِ السَّابقِ في «السَّاق»، وإسنادُه قويٌّ).

وأخرجه مِن طريقٍ آخَرَ ابنُ مَنْدَه في ((الإيمان)) (٨١١)، وقال: (مقبولٌ، رُواتُه مَشاهيرُ).

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

أي: ويُدْعَونَ إلى السُّجودِ لله تعالى في ذلك اليَومِ، فلا يَقدِرونَ على ذلك[1].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه -في حديثِ الرُّؤيةِ والشَّفاعةِ الطَّويلِ- أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... فيُكشَفُ عن ساقٍ، فلا يبقَى مَن كان يَسجُدُ للهِ مِن تِلْقاءِ نَفْسِه إلَّا أَذِنَ اللهُ له بالسُّجودِ، ولا يَبقى مَن كان يَسجُدُ اتِّقاءً ورياءً إلَّا جَعَل اللهُ ظَهْرَه طَبقةً واحِدةً، كلَّما أراد أن يَسجُدَ خَرَّ على قفاه!))[2].

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٨، ٩٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ المنافِقون: الزَّجَّاجُ، ومكِّي، والسمعاني، وابن الجوزي، وابن جُزَي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٠)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٦٤٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٨).

قال ابن جُزَي: (وفي الحديثِ الصَّحيحِ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «... فيكشفُ لهم عن ساقٍ، فيَقولون: نعَمْ أنت ربُّنا، ويَخِرُّونَ للسُّجودِ، فيَسجُدُ كلُّ مؤمنٍ، وتَرجِعُ أصلابُ المنافِقين عَظمًا واحدًا، فلا يَستَطيعونَ سُجودًا»، وتأويلُ الحديثِ كتأويلِ الآيةِ. ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ تفسيرُه في الحديثِ الَّذي ذَكَرْنا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٢).

وذكر ابن عاشور أنَّ قولَه: ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ لا يعودُ إلى المشرِكينَ؛ لقولِه بعدَ ذلك: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ فإنَّ المشرِكين لم يَكونوا في الدُّنيا يُدْعَون إلى السُّجودِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٨).

وقيل: المرادُ: الكفَّارُ. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٥).

وقيل: المرادُ: الكفَّارُ والمنافِقونَ. وممَّن اختاره: الواحديُّ -ونسَبَه لجميعِ المفسِّرينَ-، والبغويُّ، والخازنُ، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيِّمِ، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٠)، ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٤).

(٢) رواه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) واللَّفظُ له.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ ٤٣﴾.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾.

أي: تكونُ أبصارُهم يومَ القيامةِ خاضِعةً ساكِنةً[1].

قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥].

﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾.

أي: تَغشاهم ذِلَّةٌ شديدةٌ[2].

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾.

أي: وقد كانوا في الدُّنيا يُؤمَرونَ بالسُّجودِ للهِ، وهم أصِحَّاءُ، مُعافَونَ، لا يَمنَعُهم

---

(١) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٤، ٣٢٥).
قال ابنُ تيميَّة: (... إنَّ الخُشوعَ يَجمَعُ مَعنيَينِ؛ أحدُهما: الذُّلُّ والخُضوعُ والتَّواضُعُ. والثَّاني: السُّكونُ والثَّباتُ. ومنه قَولُه تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾، وقَولُه: ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥]، وهو الانخفاضُ والسُّكونُ. ومنه خُشوعُ الأرضِ، وهو سُكونُها وانخفاضُها، فإذا أُنزِلَ عليها الماءُ اهتَزَّت بَدَلَ السُّكونِ، ورَبَتْ بَدَلَ الانخفاضِ). ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) (١/ ٤٢٦، ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٩).
قال البِقاعي: (﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾ أي: تَغشاهم وتَقهَرُهم ﴿ذِلَّةٞ﴾ أي: عَظيمةٌ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٢٥).
وقال ابن عاشور: (﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾: تحُلُّ بهم وتقتَرِبُ منهم بحِرصٍ على التَّمكُّنِ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٩).

شَيءٌ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالَى لَمَّا خوَّفَ الكفَّارَ بعَظَمةِ يومِ القيامةِ، زاد في التَّخويفِ، فخوَّفَهم بما عندَه، وفي قُدرتِه مِن القهْرِ[(٢)].

وأيضًا بعْدَ أنِ استُوفِيَ الغرَضُ مِن مَوعظتِهم، ووَعيدِهم، وتَزْييفِ أوهامِهم؛ أُعقِبَ بهذا الاعتراضِ تَسليةً للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ تَكفَّلَ بالانتِصافِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٦ - ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٩).

قال الواحدي: (قولُه: ﴿وَقَدۡ كَانُواْ يُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمۡ سَٰلِمُونَ﴾ يعني: في الدُّنيا، حينَ كانوا يُدْعَون إلى الصَّلاةِ المكتوبةِ ويُؤمَرون بها وهم مُعافَون، ليس في أصلابِهم مِثلُ سَفافيدِ الحديدِ. ومعنى قولِه: ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾ أي: بالأذانِ والإقامةِ. وهذا الَّذي ذكَرْنا قولُ ابنِ عبَّاسٍ، ومُقاتلٍ، وإبراهيمَ التَّيْميِّ. قال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: كانوا يَسمَعونَ «حيَّ على الفلاحِ» فلا يُجيبونَ). ((البسيط)) (٢٢/ ١١٧). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٠٨، ٤٠٩).

وقال السمعاني: (وظاهرُ الآيةِ أنَّ مَعْناها السُّجودُ في الصَّلاةِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠).

وقال الشوكاني: (وقيل: يُدْعَونَ بالتَّكليفِ المُتَوجِّهِ عليهم بالشَّرعِ فلا يُجيبون). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٩).

وقال القاسمي: (والمرادُ مِن السُّجودِ: عبادةُ الله وحْدَه، وإسلامُ الوجهِ له، والعملُ بما أمَر به مِن الصَّالحاتِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٥).

مِن المُكذِّبينَ ونصْرِه عليهم[١].

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾.

أي: فدَعْني -يا مُحمَّدُ- ومَن يُكذِّبونَ بالقُرآنِ، فخَلِّ بيْني وبيْنَهم، وفوِّضْ أمْرَهم إلَيَّ؛ فإنِّي أكفيكَهم، فلا تَستَعجِلْ هَلاكَهم، ولا يَنشَغِلْ قَلْبُك بهم[٢]!

كما قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا * وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١٠، ١١].

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

أي: سنُقَرِّبُ هؤلاء المكَذِّبينَ بالقُرآنِ مِن عَذابِهم شَيئًا فشَيئًا بالتَّدريجِ مِن جِهاتٍ وأسبابٍ لا يتفَطَّنونَ إلى أنَّها مُفضِيةٌ بهم إلى الهلاكِ؛ حيثُ يَزيدُهم اللهُ تعالى مِن مَتاعِ الدُّنيا، فيَحسَبونَ ذلك خَيرًا لهم[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالحديثِ هنا: القرآنُ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والزمخشري، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عاشور: (وتَسميتُه حديثًا؛ لِما فيه مِن الإخبارِ عن اللهِ تعالى، وما فيه مِن أخبارِ الأُمَمِ، وأخبارِ المغَيَّباتِ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠).

وقيل: ﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني: يومَ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥١، ٢٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠١).

قال الشوكاني: (المعنى: سنأخُذُهم بالعذابِ على غَفلةٍ، ونَسوقُهم إليه دَرَجةً فدَرَجةً حتَّى =

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٤ - ٥٦].

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾.

أي: وأُمهِلُهم، ولا أعاجِلُهم بالعُقوبةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وعن أبي موسى الأشعريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُملي للظَّالم حتَّى إذا أخَذَه لم يُفلِتْه، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]))[2].

﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾.

أي: ذلك مِن مَكرِي وكَيدِي بهم، ومَكري قَويٌّ شَديدٌ[3]!

---

= نوقِعَهم فيه مِن حيثُ لا يَعلَمونَ أنَّ ذلك استِدراجٌ؛ لأنَّهم يَظُنُّونَه إنعامًا، ولا يُفَكِّرونَ في عاقبتِه، وما سيَلقَونَ في نهايتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (٩/ ٤٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٨).

قال ابن جرير: (لِتَتكامَلَ حُجَجُ اللهِ عليهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨).

وقال الواحدي: (لِيَتَمادَوا في المعاصي). ((البسيط)) (٩/ ٤٨٧).

(٢) رواه البخاري (٤٦٨٦) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٥٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن =

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعْدَ أنْ نَفى أنْ تكونَ لهم حُجَّةٌ تُؤيِّدُ صَلاحَ حالِهم، أو وعْدٌ لهم بإعطاءِ ما يَرغَبون، أو أولياءُ يَنصُرونهم؛ عَطَفَ الكلامَ إلى نفْيِ أنْ يكونَ عليهم ضُرٌّ في إجابةِ دَعوةِ الإسلامِ؛ استِقصاءً لقطْعِ ما يُحتملُ مِن المَعاذيرِ بافتراضِ أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَأَلَهم أجْرًا على هَدْيِه إيَّاهم، فصَدَّهم عن إجابتِه ثِقَلُ غُرمِ المالِ على نُفوسِهم[1].

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: أم تَسألُ قَومَك مالًا -يا مُحمَّدُ- مُقابِلَ إبلاغِهم الحَقَّ، فيُثقِلُهم ويَشُقُّ عليهم ذلك فيَمتَنِعون عن قَبولِ نَصيحتِك، والاستِجابةِ لك[2]؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾

---

= كثير)) (٨/ ٢٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

قال البِقاعي: (﴿إِنَّ كَيْدِى﴾ أي: سَتْري لأسبابِ الهَلاكِ عمَّن أُريدُ إهلاكَه، وإبدائي ذلك له في مَلابِسِ الإحسانِ، وخِلَعِ البِرِّ والامتِنانِ ﴿مَتِينٌ﴾ أي: في غايةِ القوَّةِ؛ حيثُ كان حامِلًا للإنسانِ على إهلاكِ نَفْسِه باختيارِه، وسيَعلَمُ عندَ الأخذِ أنِّي لَمَّا أمهَلْتُه ما أهمَلْتُه، وأنَّ إمهالي إنَّما كان استِدراجًا). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٢٨، ٣٢٩).

وقال الشنقيطي: (الكَيدُ في لُغةِ العَرَبِ معناه: المكرُ، وهو أن يكونَ الفاعِلُ يُبطِنُ غَيرَ ما يُظهِرُ، وسَمَّى اللهُ هذا الاستدراجَ كَيدًا؛ لأنَّ ظاهِرَه إنعامٌ وإغداقُ نِعَمٍ، وباطِنَه استِدراجٌ يَستَدنيهم به، ويَستَدرِجُهم إلى الموتِ والعذابِ الدَّائمِ الَّذي يُخلَّدونَ فيه). ((العذب النمير)) (٤/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢، ١٠٣).

[ص: ٨٦، ٨٧].

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نفَى اللهُ تعالى أن يكونَ تَكذيبُ المُشرِكينَ بشَهوةٍ دَعَتْهم إلى ذلك؛ نفَى أن يكونَ لهم في ذلك شُبهةٌ مِن شَكٍّ في الذِّكرِ، أو حَيفٍ في المذَكِّرِ، وأن يَكونوا على ثِقةٍ أو ظَنٍّ مِن سلامةِ العاقِبةِ[1].

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾﴾

أي: أم عِندَ أولئك المُشرِكينَ عِلمُ ما غاب عن الخَلقِ، فهم يَكتُبونَه[2]؟!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ هذا الجزاءُ مِن جِنسِ عَمَلِهم؛ فإنَّهم كانوا يُدْعَونَ في الدُّنيا إلى السُّجودِ لله وتوحيدِه وعبادتِه وهم سالِمونَ، لا عِلَّةَ فيهم، فيَستَكبِرونَ عن ذلك ويأبَونَ، فلا تَسأَلْ يَومَئذٍ عن حالِهم وسُوءِ مآلِهم؛ فإنَّ اللهَ قد سَخِطَ عليهم، وحَقَّت عليهم كَلِمةُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٩، ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٣).

قال القرطبي: (﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أي: عِلمُ ما غاب عنهم ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾. وقيل: أيَنزِلُ عليهم الوَحيُ بهذا الَّذي يَقولونَ. وعن ابنِ عبَّاسٍ: الغَيبُ هنا: اللَّوحُ المحفوظُ، فهم يكتُبونَ مِمَّا فيه يخاصِمونَك به، ويَكتُبونَ أنَّهم أفضَلُ منكم، وأنَّهم لا يُعاقَبونَ. وقيل: ﴿يَكْتُبُونَ﴾ يَحكُمونَ لأنفُسِهم بما يُريدونَ!). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٢).

وقال السعدي: (﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ ما كان عِندَهم مِن الغُيوبِ، وقد وَجَدوا فيها أنَّهم على حَقٍّ، وأنَّ لهم الثَّوابَ عِندَ اللهِ، فهذا أمرٌ ما كان، وإنَّما كانت حالُهم حالَ مُعانِدٍ ظالِمٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

العذابِ، وتقطَّعَت أسبابُهم، ولم تنفَعْهم النَّدامةُ، ولا الاعتِذارُ يومَ القيامةِ؛ ففي هذا ما يُزعِجُ القُلوبَ عن المُقامِ على المعاصي، ويُوجِبُ التَّدارُكَ مُدَّةَ الإمكانِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ حمَلَه بعضُهم على أنَّ ذلك يَعني: حينَ كانوا يُدْعَونَ إلى الصَّلَواتِ بالأذانِ والإقامةِ، وكانوا سالِمينَ قادِرينَ على الصَّلاةِ، وأنَّ فيه وَعيدًا لِمَن قَعَد عن الجَماعةِ، ولم يُجِبِ المؤذِّنَ إلى إقامةِ الصَّلاةِ في الجَماعةِ[٢]! قال كعبُ الأحبارِ: (واللهِ ما نزلَتْ هذه الآيةُ إلَّا عن الَّذين يَتخلَّفونَ عن الجَماعاتِ)[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد يُكَلِّفُ في الآخرةِ امتِحانًا، وإنْ كانت ليست دارَ تكليفٍ، بل هي دارُ جزاءٍ[٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ استدَلَّ به بعضُهم على أنَّ صلاةَ الجَماعةِ فَرْضٌ على الأعيانِ[٥]، ووَجْهُ الاستِدلالِ: أنَّه سُبحانَه عاقَبَهم يومَ القيامةِ بأنْ حالَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٦). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٤).

(٥) وهو مذهبُ الحنابلةِ، واختاره عددٌ مِن المحقِّقينَ؛ كالبخاريِّ، وابنِ المُنذِرِ، وممَّن اختاره مِن المعاصِرينَ: ابنُ باز، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٤٥٤، ٤٥٥)، ((صحيح البخاري)) (١/ ١٣١) (باب وجوب صلاةِ الجماعةِ)، قبلَ حديثِ (٦٤٤)، ((الأوسط)) =

بيْنَهم وبيْنَ السُّجودِ لَمَّا دعاهم إلى السُّجودِ في الدُّنيا فأَبَوا أنْ يُجيبوا الدَّاعيَ، إذا ثَبَتَ هذا فإجابةُ الدَّاعي هي إتيانُ المَسجدِ بحُضورِ الجَماعةِ؛ لا فِعْلُها في بَيْتِه وَحْدَه، هكذا فَسَّر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الإجابةَ في قولِه صلَّى الله عليه وسلَّم للرَّجُلِ الأعمَى: ((هل تَسمَعُ النِّداءَ)). قال: نعَمْ. قال: ((فأجِبْ))[1]. فلم يُجعَلْ مُجيبًا له بصَلاتِه في بيتِه إذا سمِع النِّداءَ؛ فدلَّ على أنَّ الإجابةَ المأمورَ بها هي إتيانُ المسجدِ للجَماعةِ[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ بعْدَ قولِه: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]: استُدِلَّ به على كُفرِ تارِكِ الصَّلاةِ[3]، ووجْهُ الدَّلالةِ مِن الآيةِ أنَّه سُبحانَه أَخبرَ أنَّه لا يَجعَلُ المُسلِمينَ كالمُجرِمينَ، وأنَّ هذا الأمرَ لا يَليقُ بحِكْمتِه ولا بحُكْمِه، ثُمَّ ذَكَرَ أحوالَ المجرِمينَ الَّذين هم ضِدُّ المُسلِمينَ، فقال: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، وأنَّهم يُدْعَونَ إلى السُّجودِ لربِّهم تبارك وتعالى فيُحالُ بيْنَهم وبيْنَه، فلا يَستطيعونَ السُّجودَ مع المسلمينَ؛ عقوبةً لهم على تَركِ السُّجودِ

---

= لابن المنذر (٤/ ١٤٨)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (١٢/ ١٣)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٥/ ١٨).

(١) أخرجه مسلم (٦٥٣) من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ١٠٠).

(٣) وهذا مذهبُ الحنابلةِ أنَّ تارِكَ الصَّلاةِ تَهاوُنًا، كافرٌ كفرًا مُخرِجًا مِن المِلَّةِ. يُنظر: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١/ ٢٨٦)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٢٢٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وتكفيرُ تارِكِ الصَّلاةِ هو المشهورُ المأثورُ عن جمهورِ السَّلَفِ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٠/ ٩٧).

ومذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والمالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ أنَّه لا يكفرُ. يُنظر: ((حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح)) (ص: ١١٦)، ((مواهب الجليل)) للحَطَّاب (٢/ ٥٢)، ((روضة الطالبين)) للنووي (٢/ ١٤٦). ويُنظر أيضًا: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢٧/ ٥٣).

له مع المصَلِّينَ في دارِ الدُّنيا، ولو كانوا مِن المسلِمينَ لَأُذِنَ لهم بالسُّجودِ كما أُذِنَ للمُسلِمينَ[١]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ بيانُ أنَّ جِنسَ السُّجودِ أفضَلُ مِن جِنسِ القيامِ والقِراءةِ؛ فقد أُمِروا بالسُّجودِ في عَرَصاتِ القيامةِ دونَ غَيرِه مِن أجزاءِ الصَّلاةِ؛ فعُلِمَ أنَّه أفضَلُ مِن غَيرِه[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي: صَحيحونَ، فإنْ قيل: الصِّحَّةُ ليست شَرطًا في وُجوبِ الصَّلاةِ؟

**الجوابُ**: المرادُ: الخُروجُ إلى الصَّلاةِ في جماعةٍ مَشروطٌ بالصِّحَّةِ[٣].

أو يُجابُ بأنَّه تعليلٌ لعدمِ استِطاعتِهم السُّجودَ في الآخرةِ[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ يدُلُّ على أنَّه لم يَسأَلْهم أجرًا على دَعوتِه إيَّاهم، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، فالأجرُ المَسؤولُ المُستَفهَمُ عنه هو الأجرُ المادِّيُّ بالمالِ ونَحوِه[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾

- على القولِ بأنَّ قولَه: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ [القلم: ٤١]، أي: فلْيَأتوا بالمَزعومينَ يومَ القِيامةِ، فهذا مِن حُسنِ التَّخلُّصِ إلى ذِكرِ

---

(١) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٧).

(٤) يُنظر: ((التفسير المظهري)) (١٠/ ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٥٤).

أهوالِ القِيامةِ عليهم. وعلى القولِ بأنَّه استئنافٌ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ، ويُدْعَون إلى السُّجودِ... إلخ؛ للتَّذكيرِ بأهوالِ ذلك اليومِ. أو يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ كان كَيْتَ وكَيتَ، فإنَّه حُذِفَ للتَّهويلِ البليغِ، وأنَّ ثَمَّ مِن الكَوائنِ ما لا يُوصَفُ لِعِظَمِه(١).

- على القولِ بأنَّ الكشفَ عن ساقٍ مَثَلٌ لشِدَّةِ الحالِ وصُعوبةِ الخَطْبِ والهَولِ، فأصْلُه أنَّ المرءَ إذا هَلَعَ أنْ يُسرِعَ في المشْيِ ويُشمِّرَ ثِيابَه، فيَكشِفَ عن ساقِه، كما يُقالُ: شمَّرَ عن ساعدِ الجِدِّ، وأيضًا كانوا في الرَّوعِ والهزيمةِ تُشمِّرُ الحرائرُ عن سُوقِهنَّ في الهرَبِ أو في العمَلِ، فتَنكشِفُ سُوقُهنَّ بحيث يَشغَلُهنَّ هَولُ الأمرِ عن الاحترازِ مِن إبداءِ ما لا تُبْدينَه عادةً، فيُقالُ: كَشَفَت عن ساقِها، أو شمَّرَت عن ساقِها، أو أبْدَتْ عن ساقِها، فإذا قالوا: كَشَفَ المرْءُ عن ساقِه، فهو كِنايةٌ عن هَولٍ أصابَه وإنْ لم يَكُنْ كشَفَ ساقَه(٢).

- قيل: تَنكيرُ السَّاقِ إبهامٌ للمُبالَغةِ في الدَّلالةِ على أنَّه أمْرٌ مُبهَمٌ في الشِّدَّةِ، مُنكَرٌ خارجٌ عن المألوفِ المُعتادِ(٣).

- قيل: جُملةُ ﴿وَيُدْعَوْنَ﴾ ليس عائدًا إلى المشرِكينَ؛ إذ لا يُساعِدُ قولُه: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾؛ فإنَّ المشرِكين لم يَكونوا في الدُّنيا يُدْعَون إلى السُّجودِ، فالوجهُ أنْ يكونَ عائدًا إلى غيرِ مَذكورٍ، أي: ويُدْعى مَدْعُوُّون،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٣، ٥٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٣).

فيَكونَ تَعريضًا بالمنافِقينَ بأنَّهم يُحشَرونَ معَ المسلمينَ ويُمتحَنُ النَّاسُ بدُعائِهم إلى السُّجودِ؛ ليَتميَّزَ المؤمنونَ الخُلَّصُ عن غَيرِهم تَميُّزَ تَشريفٍ، فلا يَستطيعُ المنافِقون السُّجودَ، فيُفتضَحُ كُفْرُهم، فيكون قولُه تعالَى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ إدماجًا[1] لذِكرِ بَعضِ ما يَحصُلُ مِن أحوالِ ذلك اليومِ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ خُشوعُ الأبصارِ: هَيئةُ النَّظَرِ بالعَينِ بذِلَّةٍ وخَوفٍ، عُبِّرَ عنه بوصْفِ ﴿خَٰشِعَةً﴾؛ لأنَّ الخاشعَ يكونُ مُطَأطِئًا مُختفيًا[3].

- وخَصَّ الأبصارَ بالخُشوعِ، وإنْ كانتْ الجوارحُ كلُّها خاشِعةً؛ لأنَّ الخُشوعَ أبْيَنُ في البصرِ منه في كلِّ جارحةٍ، ولأنَّ ما في القلْبِ يُعرَفُ مِن العَينِ[4].

- وجُملةُ ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ ما قبْلَها وما تَفرَّعَ عنها، أي: كانوا في الدُّنيا يُدْعَون إلى السُّجودِ للهِ وحْدَه وهم سالِمون مِن مِثلِ الحالةِ الَّتي همْ عليها في يومِ الحشرِ، والواوُ للحالِ وللاعتِراضِ[5].

- قولُه: ﴿ٱلسُّجُودِ﴾ قيل: هو عِبارةٌ عن جَميعِ الطَّاعاتِ، وخُصَّ بالذِّكرِ مِن حيثُ هو أعظَمُ الطَّاعاتِ، ومِن حيثُ امتُحِنوا به في الآخِرةِ[6].

- وفي قولِه: ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ إظهارٌ في مَوضعِ الإضمارِ -حيثُ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٩٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨).

لم يُقَلْ: (يُدْعَونَ إليهِ)-؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، أو لأنَّ المرادَ بهِ الصَّلاةُ، أو ما فيها مِن السُّجودِ[١].

- قولُه: ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾، أي: فلا يُجيبونَ إليهِ ويأبَونَه، وإنَّما تُرِكَ ذِكرُه؛ ثِقةً بظُهورِه[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

- الفاءُ في ﴿فَذَرْنِي﴾ لتَفريعِ الكلامِ الَّذي عطَفَتْه على الكلامِ الَّذي قبْلَه؛ لِكَونِ الكلامِ الأوَّلِ سببًا في ذِكرِ ما بعْدَه. ويجوزُ أنْ تكونَ فَصيحةً؛ لأنَّها جَوابُ شَرطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا كانتْ أحوالُهم كذلك فذَرْني[٣].

- ويَتضمَّنُ هذا تَعريضًا بالتَّهديدِ للمُكذِّبين؛ لأنَّهم يَسمَعون كَلامَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وهذا وعْدٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالنَّصرِ، ووَعيدٌ لهم بانتقامٍ في الدُّنيا؛ لأنَّه تَعجيلٌ لتَسليةِ الرَّسولِ[٤].

- قولُه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ ...﴾ أفرَدَ الضَّميرَ؛ نصًّا على تهديدِ كلِّ واحدٍ مِن المكذِّبين[٥].

- قولُه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ الحديثُ: القرآنُ، واسمُ الإشارةِ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٢٦).

هذا للإشارةِ إلى مُقدَّرٍ في الذِّهنِ ممَّا سَبَق نُزولُه مِن القرآنِ. ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالحديثِ الإخبارَ عن البعثِ، وهو ما تَضمَّنَه قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ الآيةَ [القلم: ٤٢]، ويكونَ اسمُ الإشارةِ إشارةً إلى ذلك الكلامِ، والمعْنى: حسْبُك إيقاعًا بهم أنْ تَكِلَ أمْرَهم إلَيَّ؛ فأنا أعلَمُ كيف أنْتصِفُ منهم، فلا تَشغَلْ نفْسَك بهم، وتوكَّلْ علَيَّ[١].

- وقولُه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لمَضمونِ ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ﴾ باعتبارِ أنَّ الاستدراجَ والإملاءَ يَعقُبُهما الانتقامُ، فكأنَّه قال: سنَأخُذُهم بأعمالِهم، فلا تَستبطِئِ الانتقامَ؛ فإنَّه مُحقَّقٌ وُقوعُه، ولكنْ يُؤخَّرُ لحِكمةٍ تَقْتضي تأْخيرَه[٢].

- والضَّميرُ في ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ لـ (مَنْ)، والجمْعُ باعتبارِ معناها، كما أنَّ الإفرادَ في ﴿يُكَذِّبُ﴾ باعتبارِ لَفظِها[٣].

- ومَوقعُ (إنَّ) مَوقعُ التَّسبُّبِ والتَّعليلِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ إضرابٌ آخَرُ للانتقالِ إلى إبطالٍ آخَرَ مِن إبطالِ مَعاذيرِهم في إعراضِهم عن استِجابةِ دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُبتدِئِ مِن قولِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ * أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ [القلم: ٣٦، ٣٧]، ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ﴾ [القلم: ٣٩]، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾[٥] [القلم: ٤١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢).

- والاستِفهامُ الَّذي تُؤذِنُ به (أَمْ) استِفهامُ إنكارٍ، لفرْضِ أنْ يكونَ ذلك ممَّا يُخامِرُ نُفوسَهم فرْضًا اقتضاهُ استِقراءُ نيَّاتِهم مِن مَواقعِ الإقبالِ على دَعوةِ الخَيرِ والرُّشدِ[١].

- قولُه: ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ الفاءُ في ﴿فَهُم﴾ للتَّفريعِ والتَّسبُّبِ، أي: فيَتسبَّبُ على ذلك أنَّك شَقَقْتَ عليهم، فيكونُ ذلك اعتِذارًا منهم عن عَدَمِ قَبولِ ما تَدْعوهم إليه[٢].

- و﴿مِّن مَّغْرَمٍ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿مُّثْقَلُونَ﴾، و(مِن) ابتدائيَّةٌ، وهو ابتداءٌ بمعْنى التَّعليلِ، وتَقديمُ المعمولِ على عامِلِه للاهتِمامِ بمُوجِبِ المَشقَّةِ قبْلَ ذِكرِها، مع الرِّعايةِ على الفاصلةِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ إضرابٌ آخَرُ انتُقِلَ به مِن مَدارجِ إبطالِ مَعاذيرَ مَفروضةٍ لهم أنْ يَتمسَّكوا ببَعضِها تَعِلَّةً لإعراضِهم عن قَبولِ دَعوةِ القرآنِ، قطْعًا لِما عَسى أنْ يَنتحِلوه مِن المعاذيرِ على طَريقةِ الاستقراءِ، ومنْعِ الخُلوِّ[٤].

- وقد جاءتِ الإبطالاتُ السَّالفةُ مُتعلِّقةً بما يُفرَضُ لهم مِن المعاذيرِ الَّتي هي مِن قَبيلِ مُستنَداتٍ مِن المُشاهَداتِ، وانتُقِلَ الآنَ إلى إبطالٍ مِن نَوعٍ آخَرَ، وهو إبطالُ حُجَّةٍ مَفروضةٍ يَستنِدونَ فيها إلى عِلمِ شَيءٍ مِن المعلوماتِ المُغيَّباتِ عن النَّاسِ، وهي ممَّا استَأْثَر اللهُ بعِلمِه، وهو المُعبَّرُ عنه بالغَيبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والكلامُ هنا على حذْفِ مُضافٍ، أي: أعِندَهم عِلمُ الغَيبِ؟! فالمرادُ بقولِه: ﴿عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ أنَّه حصَلَ في عِلمِهم ومُكْنَتِهم، أي: باطِّلاعِ جَميعِهم عليه، أو بإبلاغِ كُبرائِهم إليهم، وتَلقِّيهم ذلك منهم[1].

- وتَقديمُ ﴿عِندَهُمُ﴾ على المبتدأِ وهو مَعرِفةٌ؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: صار عِلمُ الغيبِ عندَهم لا عندَ اللهِ[2]!

- ومَجيءُ جُملةِ ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ مُتفرِّعةً عن جُملةِ ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾، بِناءً على أنَّ ما في الغيبِ مَفروضٌ كَونُه شاهدًا على حُكْمِهم لأنفُسِهم المشارِ إليه بقولِه: ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[3] [القلم: ٣٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٤).

## الآيات (٤٨-٥٢)

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَكۡظُومٞ﴾: مَكروبٌ، مُمتَلِئٌ خَوفًا وحُزنًا، والكَظْمُ: تَرَدُّدُ الغَيظِ والخَوفِ والحُزنِ في القَلبِ حتَّى يَضيقَ به، وأصلُ (كظم): يدُلُّ على إمساكٍ وجَمعٍ للشَّيءِ[1].

﴿لَنُبِذَ﴾: أي: لأُلقِيَ وطُرِحَ، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على إلقاءِ الشَّيءِ وطَرْحِه؛ لقِلَّةِ الاعتِدادِ به[2].

﴿بِٱلۡعَرَآءِ﴾: أي: المكانِ الخالي، لا يَتوارى فيه بشَجَرٍ ولا غَيرِه، وأصلُه: يدُلُّ على خُلُوٍّ ومُفارَقةٍ[3].

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ﴾: أَي: اصطَفاه واختارَه، والاجتِباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصْلُ (جبي): يدُلُّ على جَمعِ الشَّيءِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٣/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٦٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٣٣).

﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾: أي: لَيَرمُونَك، ويُزيلونَك عن مَوضِعِك؛ مِن حِدَّةِ نَظَرِهم إليك بأبصارِهم، كما يُقالُ: كاد يَصرَعُني لشِدَّةِ نَظَرِه إلَيَّ؛ مِنْ: أزلَقَه عن مَوضِعِه: إذا رماه ونحَّاه، وأصلُ (زلق): يدُلُّ على تزلُّجِ الشَّيءِ عن مَقامِه[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- لِما حكَمَ اللهُ به شرعًا وقدَرًا، ولا تَكُنْ -يا مُحمَّدُ- في الغَضَبِ والعَجَلةِ على قَومِك كيُونُسَ الَّذي حُبِسَ في بَطنِ الحُوتِ، حينَ نادى رَبَّه قائِلًا: «لا إلهَ إلَّا أنتَ سُبحانَك إنِّي كُنتُ مِن الظَّالِمينَ»، وصَدْرُه مَملوءٌ غَيظًا وغَمًّا.

لولا أنْ أدرَكَتْ يُونُسَ رَحمةٌ عَظيمةٌ مِن رَبِّه لَطُرِحَ بالأرضِ الخاليةِ مِن كلِّ شَيءٍ وهو يُذَمُّ ويُلامُ بالذَّنْبِ، فاصطفاه رَبُّه وجعَلَه مِن عِبادِه الصَّالِحينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله سبحانَه شدَّةَ عداوةِ الكفَّارِ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: ولقد كاد الَّذين كَفَروا أن يُسقِطوك ويَصرَعوك -يا مُحمَّدُ- مِن إحدادِ نَظَرِهم إليك؛ عَداوةً وغَيظًا وحَسَدًا، ويقولونَ: إنَّ محمَّدًا لَمجنونٌ! وما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ وعِظةٌ للعالَمينَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بالَغَ اللهُ تعالَى في تَزييفِ طَريقةِ الكفَّارِ، وفي زَجْرِهم عمَّا همْ عليه؛ قال

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٢).

لنبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١]:

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾.

أي: فاصبِرْ -يا مُحمَّدُ- لِما حكَمَ اللهُ به شرعًا وقدَرًا: بتبليغِ رِسالتِه، والانقيادِ التَّامِّ لأمرِه، وتحمُّلِ أذى الكُفَّارِ والمُشرِكينَ في سَبيلِ ذلك دونَ سخطٍ أو جزَعٍ لإمهالِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا ...﴾ [الطور: ٤٨].

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾.

أي: ولا تَكُنْ -يا مُحمَّدُ- في الضَّجَرِ والغَضَبِ، والعَجَلةِ وقِلَّةِ الصَّبرِ على قَومِك؛ كيُونُسَ الَّذي حُبِسَ بسَبَبِ ذلك في بَطنِ الحُوتِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

قال الرازي: (فيه وَجهانِ؛ الأوَّلُ: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ في إمهالِهم، وتأخيرِ نُصرتِك عليهم. والثَّاني: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ في أنْ أوجَبَ عليك التَّبليغَ والوَحيَ وأداءَ الرِّسالةِ، وتحمَّلْ ما يَحصُلُ بسَبَبِ ذلك مِنَ الأذى والمحنةِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٦).

ممَّن ذهب إلى الوجهِ الأوَّلِ: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو حيَّان، وأبو السعود، والألوسي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٦).

وممَّن ذهب إلى الوَجهِ الثَّاني: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١).

وقال السعدي: (﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾: أي: لمَا حكَم به شرعًا وقدرًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن =

﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾.

أي: حينَ نادى رَبَّه قائِلًا: «لا إلهَ إلَّا أنتَ سُبحانَك إنِّي كُنتُ مِن الظَّالِمينَ»، وصَدْرُه مَملوءٌ غَيظًا وغَمًّا وهَمًّا[1].

قال الله سُبحانَه: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ * فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ٤٩﴾.

أي: لولا أنْ أدرَكَتْ يُونُسَ رَحمةٌ عَظيمةٌ مِن رَبِّه لَطُرِحَ بالأرضِ الخاليةِ مِنَ النَّاسِ والأشجارِ والبِناءِ، وهو يُذَمُّ ويُلامُ بالذَّنْبِ[2]!

---

= عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

قيل: العامِلُ في ﴿إِذْ﴾ معنى قَولِه: ﴿كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾، أي: لا تَكُنْ كمَن صَحِبَ الحُوتَ حالَ نِدائِه؛ وذلك لأنَّه في ذلك الوَقتِ كان مكظومًا، فكأنَّه قيل: لا تكُنْ مَكظومًا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٦). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١٨، ١١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤١٩)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢١٦).

وقيل: المعنى: لا تكُنْ مُشابِهًا ليُونُسَ في الحالِ الَّتي أفضَت به إلى صُحبةِ الحُوتِ وحُصولِ النِّداءِ منه، وهي: ضَعفُ العزيمةِ والصَّبرِ لحُكمِه تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ القيِّم. يُنظر: ((عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين)) (ص: ٣٤، ٣٥).

وقيل: ﴿إِذْ﴾ مُتعَلِّقةٌ بفِعلٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: اذكُرْ. وممَّن ذهب إلى هذا: مكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١١٩، ١٢٠)، =

كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٞ * وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ [الصافات: ١٤٥، ١٤٦].

﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٥٠﴾.

---

= ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٦، ١٠٧).

قال القرطبي: (والعراءُ: الأرضُ الواسعةُ الفضاءُ، الَّتي ليس فيها جبلٌ ولا شجرٌ يَستُرُ. وقيل: ولولا فضلُ الله عليه لَبَقِيَ في بطنِ الحوتِ إلى يومِ القيامةِ، ثمَّ نُبِذ بعراءِ القيامةِ مذمومًا. يدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٤).

قال الألوسي عن القولِ الثَّاني: (ولا يخفَى بُعْدُه). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿نِّعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ﴾: رحمةٌ مِن الله أدرَكَتْه فرَحِمَه، وتاب عليه: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٧).

وقيل: المرادُ: أنَّ اللهَ أنعَمَ عليه بالتَّوفيقِ للتَّوبةِ، وقَبِلَها منه، وتاب عليه. وهو قريبٌ مِن القولِ السَّابقِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرازي، والبيضاوي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢).

قال الشوكاني: (قال الضَّحَّاكُ: النِّعمةُ هنا النُّبُوَّةُ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: عبادتُه الَّتي سلَفَت. وقال ابنُ زَيدٍ: هي نداؤُه بقَولِه: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٠).

أي: فاصطفَى اللهُ يُونُسَ، وجعَلَه مِن عِبادِه الطَّائِعينَ الَّذين فَضَّلَهم؛ ممَّن صَلَحَت أعمالُهم، وأقوالُهم، ونيَّاتُهم، وأحوالُهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٨٥ - ٨٧].

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما يَنبغي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

قال الرازي: (في الآيةِ وجهانِ؛ أحدُهما: قال ابنُ عبَّاسٍ: رَدَّ اللهُ إليه الوَحيَ وشَفَّعَه في قَومِه. والثَّاني: قال قومٌ: ولعَلَّه ما كان رَسولًا صاحِبَ وَحيٍ قبْلَ هذه الواقِعةِ، ثمَّ بعْدَ هذه الواقِعةِ جَعَله اللهُ رسولًا، وهو المرادُ مِن قَولِه: ﴿فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٠).

وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذِكْرُه: فاجتَبى صاحِبَ الحوتِ ربُّه، يعني: أنَّه اصطفاه واختاره لِنُبُوَّتِه ﴿فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: مِن المُرسَلينَ، العامِلينَ بما أمَرَهم به ربُّهم، المُنتَهينَ عمَّا نهاهم عنه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠١، ٢٠٢).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ ﴿الصَّالِحِينَ﴾ المفَضَّلونَ مِن الأنبياءِ، وقد قال إبراهيمُ عليه السَّلامُ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

وقيل: المرادُ بالصَّالحينَ: الأنبياءُ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والخازن، وأبو حيَّان، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٣٧).

قال الألوسي: (وهو مبنيٌّ على أنَّه لم يكُنْ قبْلَ الواقعةِ نبيًّا). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢).

وقيل: المرادُ بالصَّالحينَ: الكامِلونَ في الصَّلاحِ. وممَّن اختاره: النَّسَفيُّ، والشَّوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢).

لعبدٍ أن يقولَ: أنا خيرٌ مِن يُونُسَ بنِ مَتَّى[١]))[٢].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ٥١﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَه تعالَى بالصَّبرِ لِما أرادهُ تعالَى ونَهاهُ عمَّا نَهاهُ؛ أخبَرَ بشِدَّةِ عَداوةِ الكفَّارِ؛ ليَتلقَّى ذلك بالصَّبرِ[٣].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾.

أي: ولقد أوشَكَ الَّذين كَفَروا أن يُسقِطوك ويَصرَعوك -يا مُحمَّدُ- مِن إحدادِ نَظَرِهم إليك نَظَرَ عَداوةٍ وغَيظٍ منك، وحَسَدٍ لك، وذلك لَمَّا سَمِعوا كلامَ اللهِ يُتلَى عليهم[٤]!

---

(١) قوله: ((أنا)) يَحتمِلُ أنْ يكونَ المرادُ به رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال ذلك تواضُعًا إنْ كان قالَه بعْدَ أنْ عَلِمَ أنَّه سيِّدُ البشَرِ. وقيل: هو عبارةٌ عن كلِّ قائلٍ يقولُ ذلك؛ كي لا يُفضِّلَ أحدٌ نفْسَه على يُونسَ عليه السَّلامُ. قيل: وخَصَّ يُونسَ بالذِّكرِ؛ لِما يُخْشى على مَن سَمِعَ قِصَّتَه أنْ يَقَعَ في نفْسِه تَنقيصٌ له، فبالَغَ في ذِكرِ فضْلِه لسَدِّ هذه الذَّريعةِ. وقد وَرَدَ ما يُؤيِّدُ هذا القولَ ويدُلُّ عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ١٣٢)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٢٦٧)، ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري (١/ ٤٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٣٠)، ومسلم (٢٣٧٧).

وأخرجه البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦) أيضًا من حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٨، ١٠٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٢ - ٢٠٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

قيل: المعنى: يَنظُرونَ إليك نَظَرًا شَديدًا بالعَداوةِ، يَكادُ يُزيلُ قدَمَك ويُسقِطُك ويَصرَعُك؛ لأنَّهم يَكرَهونَ سَماعَ القُرآنِ أشدَّ الكراهةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الحج: ٧٢].

﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾.

أي: ويقولونَ: إنَّ محمَّدًا لَمجنونٌ، وهذا الَّذي جاءَنا به هَذَيانٌ يَهذِي به في جُنونِه[1]!

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

---

= وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الرَّسْعَني: (ويدُلُّ على صحَّةِ هذا المعنى: أنَّ اللهَ تعالى قرَن هذا النَّظرَ بسَماعِ القرآنِ، وهو قولُه تعالى: ﴿لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾، وهم كانوا يَكرَهون ذلك أشدَّ الكراهةِ، فيُحِدُّونَ النَّظرَ إليه بالبَغضاءِ، والإصابةُ بالعَينِ تكونُ مع الإعجابِ والاستِحسانِ، ولا تكونُ مع البُغضِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٤٥).

وذهب الفرَّاءُ، والسَّمينُ الحلبيُّ، وابنُ كثير، والسعديُّ: إلى أنَّ المعنى: وإن يَكادُ الَّذين كفروا لَيَعينُونَك بأبصارِهم؛ لحَسَدِهم لك، فلولا وقايةُ اللهِ لك مِن أعيُنِهم الخبيثةِ لأصابوك بها. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٧٩)، ((الدر المصون)) للسَّمين الحلبي (١٠/ ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

قال ابنُ القيِّم: (فالكُفَّارُ كانوا يَنظُرونَ إليه نَظَرَ حاسِدٍ شَديدِ العدواةِ، فهو نظرٌ يكادُ يُزْلِقُه لولا حِفظُ اللهِ وعِصمتُه، فهذا أشدُّ مِن نظَرِ العائِنِ، بل هو جِنسٌ من نظَرِ العائِنِ، فمَن قال: إنَّه مِن الإصابةِ بالعَينِ، أراد هذا المعنى، ومَن قال: ليسَ به، أراد أنَّ نَظَرَهم لم يكُنْ نَظَرَ استِحسانٍ وإعجابٍ؛ فالقَولانِ حقٌّ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٣٢).

قال الرَّسْعَني: (وعباراتُ العلماءِ مُتقاربةُ المعنى: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾ أي: لَيَنفُذونَك بأبصارِهم، ... وقال الكلبيُّ: يَصْرَعُونك. ورُويَ عنه: يَصرِفونَك عمَّا أنت عليه مِن تبليغِ الرِّسالةِ. وقال المُؤَرِّجُ: يَرْمُونَك. وقال ابنُ كَيْسانَ: يَقتُلونَك. ورُويَ عن الحسَنِ أيضًا مِثلُه. وقال قَتادةُ: يُزهِقونك). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها إبطالٌ لِقَولِ المُشرِكينَ: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾؛ لأنَّهم قالوه في سِياقِ تَكذيبِهم بالقُرآنِ، فإذا ثَبَت أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ، بَطَل أن يكونَ مُبَلِّغُه مَجنونًا(١).

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٥٢﴾.

أي: وما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ وعِظةٌ مِنَ اللهِ لجَميعِ الإنْسِ والجِنِّ(٢).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تَسۡـَٔلُهُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [يوسف: ١٠٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُتَكَلِّفِينَ ٨٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [ص: ٨٦، ٨٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٨).

قال البقاعي: (﴿وَمَا﴾ أي: والحالُ أنَّ هذا القُرآنَ أو الرَّسولَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ﴿هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ﴾ أي: مَوعِظةٌ وشَرَفٌ ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: كُلِّهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٣٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿وَمَا هُوَ﴾ القرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، الواحدي، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والقرطبي، وأبو حيَّان، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم: ابنُ جرير، والثعلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٤).

وقال ابنُ عاشور: (أي: ما القُرآنُ إلَّا ذِكرٌ للنَّاسِ كُلِّهم، وليس بكَلامِ المجانينِ، وينتقلُ مِن ذلك إلى أنَّ النَّاطِقَ به ليس مِن المجانينِ في شَيءٍ. والذِّكرُ: التَّذكيرُ باللهِ والجَزاءِ، وهو أشرَفُ أنواعِ الكلامِ؛ لأنَّ فيه صلاحَ النَّاسِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٨).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: لِمَا حَكَم به شَرعًا وقَدَرًا، فالحُكمُ القَدَريُّ يُصبَرُ على المؤذِي منه، ولا يُتلقَّى بالسَّخَطِ والجَزَعِ، والحُكمُ الشَّرعيُّ يُقابَلُ بالقَبولِ والتَّسليمِ، والانقيادِ التَّامِّ لأمْرِه[1].

٢- خَتَمَ اللهُ تعالَى السُّورةَ بالأمرِ بالصَّبرِ الَّذي هو جِماعُ الخُلُقِ العَظيمِ في قَولِه: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، وذلك نصٌّ في الصَّبرِ على ما يَنالُه مِن أذَى الخلْقِ، وعلى المصائبِ السَّماويَّةِ، والصَّبرُ على الأوَّلِ أشَدُّ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ إلخ، والإزْلاقُ بالبَصَرِ هو الغايةُ في البُغْضِ والغَضَبِ والأذَى. فالصَّبرُ على ذلك نَوعٌ مِن الحِلْمِ، وهو احتِمالُ أذَى الخَلقِ، وفي ذلك ما يَدْفَعُ كَيدَهم وشَرَّهم. وما ذَكَره في قِصَّةِ أهْلِ الجَنَّةِ مِن أمْرِ السَّخاءِ والجُودِ، وما ذَكَرَه هنا مِن الحِلْمِ والصَّبرِ: هو جِماعُ الخُلُقِ الحَسَنِ، كما جَمَعَ بيْنَهما في قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، كما قِيل:

بِحِلْمٍ وبَذْلٍ سادَ في قَومِه الفَتَى ... وكَونُك إيَّاه عليْكَ يَسِيرُ

فالإحسانُ إلى النَّاسِ بالمَالِ والمَنفَعةِ، واحتِمالُ أذَاهُم مِن الخُلُقِ المَحمودِ، وجَمَع بيْنَهما أيضًا في قَولِه: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾[2] [الأعراف: ١٩٩].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ يدُلُّ على

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٧٠).

أنَّه لا يَتِمُّ شَيءٌ مِنَ الصَّالِحاتِ والطَّاعاتِ إلَّا بتوفيقِ اللهِ تعالى وهدايتِه[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ: (لولا أنْ تدارَكَتْه نِعمةٌ مِن رَبِّه)؟

**الجوابُ**: إنَّما حَسُنَ تذكيرُ الفِعلِ؛ لِفَصلِ الضَّميرِ (الهاءِ) في ﴿تَدَٰرَكَهُۥ﴾[٢]، ولأنَّ تأنيثَ النِّعمةِ غيرُ حقيقيٍّ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ احتُجَّ به على أنَّ فِعلَ العَبدِ خَلقُ اللهِ تعالى؛ فالآيةُ تدُلُّ على أنَّ ذلك الصَّلاحَ إنَّما حَصَل بجَعلِ اللهِ وخَلْقِه[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أصلٌ في أنَّ العَينَ حَقٌّ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ تَفريعٌ على ما تَقدَّمَ مِن إبطالِ مَزاعِمِ المشرِكين ومَطاعِنِهم في القرآنِ والرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما تَبِعَه مِن تَكفُّلِ اللهِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعاقبةِ النَّصرِ؛ وذلك أنَّ شِدَّتَه على نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن شأْنِها أنْ تُدخِلَ عليه يَأْسًا مِن حُصولِ رَغبتِه، ونَجاحِ سَعْيِه، ففرَّعَ عليه تَثبيتَه وحثَّه على المُصابَرةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦١٧).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٢).

العينُ حقٌّ ولها تأثيرٌ، لكن لا تأثيرَ لها إلَّا بإذْنِ الله عزَّ وجلَّ؛ عن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، قال: قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((العينُ حقٌّ)) [البخاري (٥٧٤٠) ومسلم (٢١٨٧)]. وعن عائشةَ رضيَ الله عنها، قالت: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، أوْ أمَر أنْ يُسْتَرْقَى مِن العَيْنِ)) [البخاري (٥٧٣٨) ومسلم (٢١٩٥)]. يُنظر: ((معارج القبول)) للحكمي (٢/ ٥٠١).

واستِمرارِه على الهُدى، وتَعريفَه بأنَّ ذلك التَّثبيتَ يَرفَعُ دَرَجتَه في مَقامِ الرِّسالةِ ليَكونَ مِن أُولي العزْمِ، فذَكَّرَه بمَثَلِ يُونسَ عليه السَّلامُ؛ إذ استَعجَلَ عن أمْرِ ربِّه، فأدَّبَه اللهُ ثمَّ اجتباهُ وتاب عليه، وجَعَلَه مِن الصَّالحينَ تَذكيرًا مُرادًا به التَّحذيرُ(١).

- قولُه: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ العاملُ في (إذْ) هو المحذوفُ المُضافُ، أي: كحالِ، أو كقصَّةِ صاحبِ الحوتِ وقتَ نِدائِه(٢).

- جُملةُ ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ حالٌ مِن ضَميرِ ﴿نَادَىٰ﴾، وعليها يَدورُ النَّهيُ لا على النِّداءِ؛ فإنَّه أمْرٌ مُستحسَنٌ، ولذلكَ لم يُذكَرِ المُنادَى(٣).

- قولُه: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ جِيءَ بهذه الحالِ جُملةً اسميَّةً؛ لدَلالتِها على الثَّباتِ، أي: هو في حَبْسٍ لا يُرجَى لمِثلِه سَراحٌ، وهذا تَمهيدٌ للامتِنانِ عليه بالنَّجاةِ مِن مِثلِ ذلك الحبْسِ(٤). وذلك على أنَّ معنَى ﴿مَكْظُومٌ﴾: مَحبوسٌ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن مَضمونِ النَّهيِ مِن قولِه: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ﴾ إلخ؛ لأنَّه يَتضمَّنُ التَّحذيرَ مِن الوُقوعِ في كَرْبٍ مِن قَبيلِ كَرْبِ يُونسَ، ثمَّ لا يَدْري كيف يكونُ انفراجُه(٥).

- واعتُمِدَ في جَوابِ (لولا) على الحالِ -أي: ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾-، فلَولاهُ لم يكُنْ لقولِه: ﴿لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾ فائدةٌ؛ لأنَّه نُبِذَ فيه، يعني أنَّ حالَه كانت على خِلافِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٥).

الذَّمِّ حِينَ نُبِذَ بالعَراءِ، ولولا تَوبتُه لَكانت حالُه على الذَّمِّ[١].

- أو جَوابُ (لَولا) مَحذوفٌ، دلَّ عليه قولُه: ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، مع ما تُفيدُه صِيغةُ الجُملةِ الاسميَّةِ مِن تَمكُّنِ الكظْمِ، فتلك الحالةُ إذا استَمرَّت لم يَحصُلْ نَبْذُه بالعَراءِ، ويكونُ الشَّرطُ بـ (لَوْلَا) لاحقًا لجُملةِ ﴿إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، أي: لَبَقِيَ مَكظومًا، أي: مَحبوسًا في بطْنِ الحوتِ أبدًا -على قولٍ-، وهو معْنى قولِه في سُورةِ (الصافاتِ): ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤]، وتُجعَلُ جُملةُ ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ استئنافًا بيانيًّا ناشئًا عن الإجمالِ الحاصلِ مِن مَوقعِ (لولا)، واللَّامُ فيها لامُ القسَمِ للتَّحقيقِ؛ لأنَّه خارقٌ للعادةِ، والمعْنى: لقدْ نُبِذَ بالعَراءِ وهو مَذمومٌ. والمذمومُ: إمَّا بمعْنى المُذْنِبِ؛ لأنَّ الذَّنْبَ يَقْتضي الذَّمَّ في العاجِلِ والعِقابَ في الآجِلِ، وهو معْنى قولِه في آيةِ (الصَّافَّاتِ): ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]، وإمَّا بمعْنى العَيبِ، وهو كونُه عاريًا جائعًا، فيكونُ في معْنى قولِه: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٥]؛ فإنَّ السَّقَمَ عَيبٌ أيضًا[٢]. وفيه بُعْدٌ.

- والتَّدارُكُ: تَفاعُلٌ مِن الدَّرَكِ -بالتَّحريكِ-، وهو اللَّحاقُ، أي: أنْ يَلحَقَ بَعضُ السَّائرينَ بَعضًا، وهو يَقْتضي تَسابُقَهم، وهو هنا مُستعمَلٌ في مُبالَغةِ إدراكِ نِعمةِ اللهِ إيَّاهُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٦، ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٥).

- إنَّ اللهَ أنْعَمَ على يونسَ عليه السَّلامُ بأنْ أنْبَتَ عليه شَجرةَ اليَقطينِ، كما في سُورةِ (الصَّافَّاتِ). وأُدمِجَ في ذلك فضْلُ التَّوبةِ والضَّراعةِ إلى اللهِ، وأنَّه لولا تَوبتُه، وضَراعتُه إلى اللهِ، وإنعامُ اللهِ عليه نِعمةً بعْدَ نِعمةٍ؛ لَقَذَفَه الحوتُ مِن بَطْنِه مَيِّتًا، فأخْرَجه الموجُ إلى الشَّاطِئِ، فلَكانَ مُثلةً للنَّاظِرينَ، أو حيًّا مَنبوذًا بالعَراءِ لا يَجِدُ إسعافًا، أو لَنَجَا بعْدَ شدَّةٍ وجهدٍ واللهُ غاضبٌ عليه، فهو مَذمومٌ عندَ اللهِ مَسخوطٌ عليه، وهي نِعَمٌ كثيرةٌ عليه؛ إذ أنْقَذَه مِن هذه الوَرَطاتِ كلِّها إنقاذًا خارقًا للعادةِ، وهذا المعْنى طُوِيَ طيًّا بَديعًا، وأُشِيرَ إليه إشارةٌ بَليغةٌ بجُملةِ ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾[١].

- وتَنكيرُ ﴿نِعْمَةٌ﴾ للتَّعظيمِ؛ لأنَّها نِعمةٌ مُضاعَفةٌ مُكرَّرةٌ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ عطفٌ على مُقدَّرٍ، أي: فتَداركَتْه نِعمةٌ مِن ربِّه، فاجْتَباهُ[٣].

- وفُرِّع على النَّفيِ في قولِه: ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ الإخبارُ بأنَّ اللهَ اجتباهُ، وجَعَلَه مِن الصَّالحينَ، وذلك إيماءٌ إلى أنَّ الصَّلاحَ هو أصلُ الخَيرِ، ورفْعِ الدَّرجاتِ[٤].

- وتَعريفُ ﴿ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ يُفيدُ أنَّه جَعَلَه مِن الكامِلينَ في الصَّلاحِ[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩).

- هو عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ [القلم: ٤٤]؛ عرَّفَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعضَ ما تَنْطوي عليه نُفوسُ المشركين نحْوَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مِن الحِقدِ والغَيظِ وإضمارِ الشَّرِّ عندَما يَسمَعون القرآنَ[١].

- قولُه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ جاء ﴿يَكَادُ﴾ بصِيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ ذلك في المُستقبَلِ. وجاء فِعلُ ﴿سَمِعُواْ﴾ ماضيًا؛ لوُقوعِه مع (لَمَّا)، وللإشارةِ إلى أنَّه قد حَصَل منهم ذلك، وليس مُجرَّدَ فرْضٍ[٢].

- ولَمَّا كان الزَّلَقُ يُفْضي إلى السُّقوطِ غالبًا، أُطلِقَ الزَّلَقُ وما يُشتَقُّ منه على السُّقوطِ والاندحاضِ على وَجْهِ الكِنايةِ، ومنه قولُه هنا: ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾، أي: يُسقِطونك ويَصرَعونك[٣]. على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ﴾ ﴿لَمَّا﴾ ظرْفٌ، العاملُ فيه ﴿لَيُزْلِقُونَكَ﴾، والجوابُ مَحذوفٌ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه، أي: لَمَّا سَمِعوا الذِّكرَ كادُوا يُزلِقونك[٤].

- وفي قولِه: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ مع قولِه في أوَّلِ السُّورةِ: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] مُحسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ حيثُ كانُ مَدارُ حُكمِهم الباطلِ ما سَمِعُوه منه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، رُدَّ ذلك ببَيانِ عُلوِّ شَأنِه، وسُطوعِ بُرهانِه؛ فقيل: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾، على أنَّه حالٌ مِن فاعلِ (يَقولونَ)، مُفيدةٌ لغايةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٨). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٧٠).

بُطلانِ قولِهم، وفيه تَعجيبٌ للسَّامعينَ مِن جُرأتِهم على تَفَوُّهِ تلكَ العَظيمةِ، أي: يقولونَ ذلكَ والحالُ أنَّه ذِكرٌ للعالَمينَ[١]!

- وهو إبطالٌ لقولِهم: ﴿إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾؛ لأنَّهم قالوهُ في سِياقِ تَكذيبِهم بالقرآنِ، فإذا ثبَتَ أنَّ القُرآنَ ذِكرٌ بَطَلَ أنْ يكونَ مُبلِّغُه مَجنونًا، وهذا مِن قَبيلِ الاحتباكِ[٢]؛ إذ التَّقديرُ: ويقولون: إنَّه لَمجنونٌ، وإنَّ القرآنَ كَلامُ مَجنونٍ، وما القرآنُ إلَّا ذِكرٌ، وما أنتَ إلَّا مُذكِّرٌ[٣].

**تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ**

**ويليه المجلدُ الأربعونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ الحاقَّةِ**

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٠٩).

# الفهرس

# الفهرس

## سُورةُ الطَّلاقِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٧
الآيات (١-٣) ..... ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩
المعنى الإجماليُّ ..... ١٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤
الآيتان (٤-٥) ..... ٥٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٥٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٥٧
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٥٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٤
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٦٨

الآيتان (٦-٧) ..... ٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٧٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٧٣
تَفسيرُ الآيتَينِ ..... ٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٧٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٧٩
بلاغةُ الآيتَينِ ..... ٨٩
الآيات (٨-١٢) ..... ٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٩٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٩٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٩٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٠٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ١١٣

## سورةُ التَّحريمِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ١٢٣
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ١٢٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٢٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ١٢٣

الآيات (١-٥) ..... ١٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٢٥
المعنى الإجماليُّ ..... ١٢٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٢٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٤٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٥٥
الآيات (٦-٩) ..... ١٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٦٧
المعنى الإجماليُّ ..... ١٦٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٦٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٨١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٨٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٨٩
الآيات (١٠-١٢) ..... ١٩٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٩٧
المعنى الإجماليُّ ..... ١٩٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٩٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٠٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٠٨

بلاغةُ الآياتِ ..... ٢١٣

## سورةُ المُلْكِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٢٢٣
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ..... ٢٢٤
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٢٢٥
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٢٢٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٢٢٥
الآيات (١-٥) ..... ٢٢٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٢٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٢٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٣٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٤١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٤٥
الآيات (٦-١١) ..... ٢٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٦١
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٦٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٦٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٦٩

بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٧٣
الآيات (١٢-١٥) ..... ٢٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٨٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٨٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٨٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٩٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٩٦
الآيات (١٦-١٩) ..... ٣٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٠٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٠٤
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٠٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣١٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣١١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣١٤
الآيات (٢٠-٢٢) ..... ٣٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٢٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٢٩

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٣٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٣١
الآيات (٢٣-٢٧) ..... ٣٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٣٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٣٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٤٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٤٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٤٨
الآيات (٢٨-٣٠) ..... ٣٥٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٥٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٥٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٥٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٦١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٦٣

## سورةُ القَلَمِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٣٧١
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ..... ٣٧١
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٣٧١

مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣٧٢
مَوضوعاتُ السُّورةِ..... ٣٧٢
الآيات (١-٧) ..... ٣٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٣٧٣
مُشكِلُ الإعرابِ..... ٣٧٣
المعنى الإجماليُّ..... ٣٧٥
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٧٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٣٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٣٨٣
بلاغةُ الآياتِ..... ٣٨٧
الآيات (٨-١٦)..... ٣٩٤
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٣٩٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٩٦
المعنى الإجماليُّ..... ٣٩٦
تَفسيرُ الآياتِ..... ٣٩٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٤٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٤١١
بلاغةُ الآياتِ..... ٤١٤
الآيات (١٧-٣٣)..... ٤٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٤٢٣

المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٤٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤٣
الآيات (٣٤-٤١) ..... ٤٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٥٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٥٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٥٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٦٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٦٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٦٢
الآيات (٤٢-٤٧) ..... ٤٧٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٧٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٧٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٨٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٨٧
الآيات (٤٨-٥٢) ..... ٤٩٤

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٩٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٩٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٩٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٠٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٠٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٠٤
الفهرس ..... ٥١١

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة

الدُّرَر السَّنِيَّة

www.dorar.net

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(من سورة الحاقة إلى سورة الجن)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد الأربعون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة الحاقة إلى سورة الجن)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم – من سورة الحاقة إلى سورة الجن – المجلد الأربعون/ القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية – ط١– الظهران، ١٤٤٣ هـ

٤١٦ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ١-٠٦-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١– القرآن– التفسير الحديث أ– العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/٩٦٥٦

رقم الإيداع: ١٤٤٣/٩٦٥٦

ردمك: ١-٠٦-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

**جميع الحقوق محفوظة**

**الطبعة الأولى**

**١٤٤٤ هـ – ٢٠٢٢ م**

**(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)**

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية

nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣

dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الحاقَّةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ الحاقَّةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الحاقَّة)[١].

**بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:**

سُورةُ (الحاقة) مكِّيَّةٌ[٢]، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

١- الحديثُ عن يومِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه[٤].

٢- إقامةُ الأدِلَّةِ على صِدقِ الرَّسولِ، وأنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ تَعالى[٥].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- افتُتِحَت السُّورةُ بتَهويلِ شَأنِ يومِ القيامةِ، والتَّعظيمِ لأمْرِه.

٢- التَّذكيرُ بما حلَّ بالأُمَمِ الَّتي كذَّبَت بالقيامةِ.

---

(١) وجْهُ التَّسميةِ وُقوعُ هذه الكلمةِ في أوَّلِها، ولم تقَعْ في غيرِها مِن سُوَرِ القرآنِ الكريمِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٣٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١١٥).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- وصْفُ أهوالِ يومِ القيامةِ، وبيانُ حالِ السُّعداءِ ممَّن يُؤتَونَ كُتُبَهم بأيْمانِهم، وحالِ الأشقياءِ الَّذين يُؤتَون كُتبَهم بشَمائلِهم.

٤- التَّنويهُ بالقرآنِ الكريمِ، وتَأكيدُ نُزولِه مِن عندِ اللهِ، وصِدقِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما يُبلِّغُه عن ربِّه.

٥- بَيانُ أنَّ القرآنَ تَذكِرةٌ للمؤمنِ، وحَسرةٌ على الكافرِ.

٦- خُتِمَت السُّورةُ بالأمرِ بتَسبيحِ اللهِ تَعالى.

## الآيات (١-٨)

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ۝٥ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾: أي: القيامةُ الصَّادِقةُ، الواجِبةُ الوُقوعِ، سُمِّيَت بذلك؛ لأنَّ فيها حواقَّ الأُمورِ. وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[1].

﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾: أي: القيامةِ الَّتي تَقرَعُ قُلوبَ العِبادِ بالمَخافةِ، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَقرَعُ النَّاسَ بالأهوالِ الشَّديدةِ، وأصلُ (قرع): يدُلُّ على ضَربِ الشَّيءِ[2].

﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾: أي: بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ الَّتي جاوَزَت مِقدارَ الصِّياحِ. والطَّاغي مِن كُلِّ شَيءٍ: ما تجاوَزَ القَدْرَ، وأصلُ (طغي): يدُلُّ على تجاوُزِ الحَدِّ[3].

﴿صَرْصَرٍ﴾: أي: شَديدةِ البَردِ والصَّوتِ، والصَّرصَرُ: الرِّيحُ العاصِفةُ الَّتي يكونُ لها صَرصَرةٌ، أي: دَوِيٌّ في هُبوبِها؛ مِن شِدَّةِ سُرعةِ تنقُّلِها، والتَّضعيفُ فيه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٣).

للمُبالَغةِ في شِدَّتِها، والصَّرصرُ: الباردةُ تُهلِكُ بشدَّةِ بردِها، مأخوذٌ مِن الصِّرِّ: وهو البَردُ الَّذي يَصُرُّ، أي: يَجمَعُ ويَقبِضُ(١).

﴿عَاتِيَةٍ﴾: أي: قاهِرَةٍ، بالِغةٍ مُنتهاها في القُوَّةِ والشِّدَّةِ، والعُتُوُّ: الخروجُ عن الطَّاعةِ، وأصلُ (عتو): يدُلُّ على استِكبارٍ(٢).

﴿سَخَّرَهَا﴾: أي: سلَّطها وأرْسَلها، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغَرَضِ المختصِّ قَهرًا، أو: استِعمالُ الشَّيءِ على وجهِ الاستِعلاءِ والاقتِدارِ، وأصلُ (سخر): يدُلُّ على استِذلالٍ(٣).

﴿حُسُومًا﴾: أي: تِباعًا، مُتوالِيةً، مَشائِيمَ، قاطِعةً لهم، والحُسومُ: التَّتابُعُ؛ إذا تتابَعَ الشَّيءُ فلم يَنقَطِعْ أوَّلُه عن آخِرِه، قيل له: حُسومٌ، والحَسمُ كذلك: القَطعُ بالاستِئصالِ، وأصلُ (حسم): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيء عن آخِرِه(٤).

﴿صَرْعَىٰ﴾: مَوْتى، وأصلُ (صرع): يدُلُّ على سُقوطِ شَيءٍ إلى الأرضِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (١٠/ ٢٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٧/ ١٣٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٣٩، ١٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٣).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٥، ٥٦٧).

﴿أَعۡجَازُ﴾: أي: أصولُ، وأصلُ (عجز) هنا: يدُلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيءِ[١].

﴿خَاوِيَةٍ﴾: أي: ساقِطةٍ، خالِيةِ الأجوافِ، وأصلُ (خوي): يدُلُّ على الخُلُوِّ والسُّقوطِ[٢].

﴿بَاقِيَةٍ﴾: أي: بقاءٍ أو أثَرٍ، وأصلُ (بقي): يدُلُّ على دَوامٍ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بذِكرِ القيامةِ، فقال: القيامةُ الصَّادِقةُ الوُقوعِ، الَّتي تَظهَرُ فيها الحقائِقُ، أيُّ شَيءٍ هِي؟ وما حالُها وصِفتُها؟ وما أدراك ما الحاقَّةُ وصِفَتُها وحالُها وأهوالُها؟!

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى مَن كَذَّبَ بالقيامةِ، وما حَلَّ بهم بسَبَبِ التَّكذيبِ، فقال: كذَّبت ثَمودُ قَومُ صالحٍ، وعادٌ قَومُ هودٍ؛ بالقيامةِ!

فأمَّا ثَمودُ فأُهلِكوا بصَيحةٍ فَظيعةٍ تجاوَزَ صَوتُها مِقدارَ كُلِّ صَوتٍ، وأمَّا عادٌ فأُهلِكوا بريحٍ باردةٍ شَديدةِ الصَّوتِ، قد تجاوَزَت شِدَّتُها في ذلك كُلَّ عاصِفةٍ، فدمَّرَتْهم تَدميرًا، سلَّط اللهُ تلك الرِّيحَ عليهم سَبْعَ لَيالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ مُتتابِعةً عليهم، فهلكوا! فتَرى قومَ عادٍ فيها ساقِطينَ على الأرضِ مَوتى، كأنَّهم جُذوعُ نَخلٍ ساقِطةٍ خالِيةِ الأجوافِ، فهل ترى لهم مِن بقاءٍ بعْدَ أن أبادَهم اللهُ تعالى؟!

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٧٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ١﴾.

أي: القيامةُ الثَّابِتةُ المَجيءِ، الصَّادِقةُ الوُقوعِ، الَّتي تَظهَرُ فيها الحقائِقُ، ويتحَقَّقُ فيها وَعدُ اللهِ تعالى ووَعيدُه(١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

قال الواحدي: (﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ يعني: القيامةَ، في قَولِ جميعِ المفَسِّرينَ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٤٣).

وقال الزمخشري: (﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ السَّاعةُ الواجِبةُ الوُقوعِ، الثَّابتةُ المَجيءِ، الَّتي هي آتيةٌ لا ريْبَ فيها. أو الَّتي فيها حَواقُّ الأمورِ مِن الحِسابِ والثَّوابِ والعِقابِ. أو الَّتي تحقُّ فيها الأمورُ، أي: تُعرَفُ على الحقيقةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨).

وقال الشوكاني: (قوله: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ هي القيامةُ؛ لأنَّ الأمرَ يحِقُّ فيها، وهي تحِقُّ في نفْسِها مِن غيرِ شكٍّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٣).

وقال الثعلبي: (سُمِّيَتْ حاقَّةً؛ لأنَّها حقَّتْ فلا كاذِبةَ لها، ولأنَّ فيها حَواقَّ الأمورِ وحقائقَها، ولأنَّ فيها يحقُّ الجزاءُ على الأعمالِ، أي: يجِبُ). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٥).

وقال البقاعي: (﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ أي: السَّاعةُ الَّتي يُكذِّبُ بها هؤلاء وهي أثبَتُ الأشياءِ وأجلاها، فلا كاذِبةَ لها، ولا لشَيءٍ عنها، فلا بُدَّ مِن حُقوقِها؛ فهي ثابتةٌ في نفْسِها، ومِن إحضارِ الأمورِ فيها بحقائقِها، والمُجازاةِ عليها بالحقِّ الَّذي لا مِرْيةَ فيه لأحدٍ مِن الخَلقِ، فهي فاعِلةٌ بمعنَى مفعولٍ فيها، وهي فاعلةٌ أيضًا لأنَّها غالبةٌ لكلِّ خصْمٍ، مِن حاقَقْتُه فحَقَقْتُه أَحُقُّه، أي غالَبْتُه في الحقِّ فغَلَبْتُه فيه، فهي تحِقُّ الحقَّ ولا بُدَّ، فتَعلو الباطِلَ فتَدْمَغُه وتُزهِقُه، فتُحِقُّ العذابَ للمجرِمينَ، والثَّوابَ للمُسلمينَ، وكلُّ ما فيها دائرٌ على الثَّباتِ والبيانِ؛ لأنَّ ذلك مُقتضى الحِكمةِ، ولا يُرضى لأحدٍ مِن الحُكَّامِ تركُ رعيَّتِه بغيرِ إنصافٍ بيْنَهم على زعمِه، فكيف بالحكيمِ العليمِ؟!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٣٨، ٣٣٩).

وعنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا تهجَّدَ مِنَ اللَّيلِ قال: ((اللَّهمَّ رَبَّنا لك الحَمدُ، أنت قَيِّمُ السَّمَواتِ والأرضِ، ولك الحَمدُ أنت رَبُّ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فيهِنَّ، ولك الحَمدُ أنت نُورُ السَّمَواتِ والأرضِ ومَن فِيهِنَّ، أنت الحَقُّ، وقَولُك الحَقُّ، ووعَدُك الحَقُّ، ولِقاؤك الحَقُّ، والجنَّةُ حَقٌّ، والنَّارُ حَقٌّ، والسَّاعةُ حَقٌّ))[1].

﴿مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٢﴾.

أي: أيُّ شَيءٍ تلك السَّاعةُ الحاقَّةُ، العَظيمةُ الشَّأنِ؟ وما حالُها وصِفتُها[2]؟

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ٣﴾.

أي: وما الَّذي يُعَرِّفُك ما الحاقَّةُ وصِفتُها وحالُها وأهوالُها[3]؟!

---

(١) رواه البخاري (٧٤٤٢) واللَّفظُ له، ومسلم (٧٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٦).

قيل: الخِطابُ هنا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٧).

وقيل: الخِطابُ لغَيرِ مُعَيَّن. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

أمَّا معنى الآيةِ فقيل: المرادُ: كأنَّك لَسْتَ تَعلَمُها؛ إذ لم تُعاينْها حقيقةً، ولم تَرَ ما فيها مِن أهوالٍ. وممَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٣).

قال الزمخشري: (يعني: أنَّك لا عِلمَ لك بكُنْهِها ومدى عِظَمِها، على أنَّه مِن العِظَمِ والشِّدَّةِ بحيث لا يَبلُغُه دِرايةُ أحدٍ ولا وَهمُه، وكيفما قدَّرْتَ حالَها فهي أعظَمُ مِن ذلك!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨).

وقال القاسمي: (﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ قال بعضُهم: مِن عوائدِ العَربِ في مُحاوَراتِهم اللَّطيفةِ، =

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكَرَ الحاقَّةَ وفخَّمَها؛ أتْبَعَ ذِكرَ ذلك ذِكرَ مَن كذَّب بها، وما حلَّ بهم بسَببِ التَّكذيبِ؛ تَذكيرًا لأهلِ مكَّةَ، وتخويفًا لهم مِن عاقبةِ تَكذيبِهم(١).

وأيضًا فإنَّ اللهَ تَعالى ذكَرَ نَموذجًا مِن أحوالِ القيامةِ الموجودةِ في الدُّنيا المشاهَدةِ فيها، وهو ما أحلَّه مِن العُقوباتِ البَليغةِ بالأُمَمِ العاتيةِ(٢).

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ ٤﴾.

أي: كذَّبت قَبيلةُ ثَمودَ قَومِ صالحٍ، وقبيلةُ عادٍ قَومِ هودٍ؛ بالقيامةِ، فأنكَروا بَعْثَ النَّاسِ بعْدَ مَوتِهم، وقيامَهم للحِسابِ والجَزاءِ(٣)!

---

= إذا أرادوا تشويقَ المُخاطَبِ في مَعرفةِ شَيءٍ ودِرايتِه، أتَوا بإجمالٍ وتفصيلٍ، أيْ: أيُّ شَيءٍ أعلَمَ المُخاطَبَ ما هي؟ تأكيدًا لتَفخيمِ شأنِها، حتَّى كأنَّها خرَجَت مِن دائرةِ عِلمِ المُخاطَبِ، على معنَى: أنَّ عِظَمَ شَأنِها وما اشتمَلَت عليه مِن الأوصافِ: مِمَّا لم تَبلُغْه درايةُ أحدٍ مِن المُخاطَبينَ، ولم تَصِلْ إليه مَعرفةُ أحدٍ مِن السَّامِعينَ، ولا أدركَه وَهمُه، وكيفما قَدَّرَ حالَها فهي وراءَ ذلك وأعظَمُ. ومنه يُعلَمُ أنَّ الاستفهامَ كِنايةٌ عن لازِمِه، مِن أنَّها لا تُعلَمُ، ولا يَصِلُ إليها دِرايةُ دارٍ، ولا تَبلُغُها الأفكارُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٥).

قال ابن جرير: (القارعةُ أيضًا اسمٌ مِن أسماءِ القيامةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٧).

وقال البِقاعي: (﴿بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ أي: الَّتي تَقرَعُ، أي: تَضرِبُ ضَربًا قويًّا، وتَدُقُّ دقًّا عنيفًا شديدًا للأسماعِ وجميعِ العالَمِ، بانفِطارِ السَّمَواتِ، وتناثُرِ النَّيِّراتِ، ونَسْفِ الجِبالِ الرَّاسياتِ، فلا يَثبُتُ لذلك الهَولِ شَيءٌ!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٤٢).

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾.

أي: فأمَّا ثَمودُ فأُهلِكوا بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ الفَظيعةِ الَّتي تجاوَزَ صَوتُها مِقدارَ كُلِّ صَوتٍ مُرتَفِعٍ، فرجَفَت منها الأرضُ والقُلوبُ، وماتوا مِن شِدَّتِها[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ * فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٣، ٤٤].

﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٨، ٢٠٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

قال ابن الجوزي: (فأمَّا ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ ففيها ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها طُغيانُهم وكُفرُهم، قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، ومقاتلٌ، وأبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبَةَ. قال الزَّجَّاجُ: ومعنَى الطَّاغيةِ عندَ أهلِ اللُّغةِ: طُغيانُهم. و «فاعِلة» قد يأتي بمعنَى المصادرِ، نحو: عاقِبة، وعافِيَة. والثَّاني: بالصَّيحةِ الطَّاغيةِ، قاله قَتادةُ؛ وذلك أنَّها جاوزَتْ مِقْدارَ الصِّياحِ، فأهلَكَتْهم. والثَّالثُ: أنَّ الطَّاغيةَ: عاقِرُ النَّاقةِ، قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالطَّاغيةِ: الصَّيحةُ: ابنُ جرير، وابنُ عطية، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ بالطَّاغيةِ: بطُغْيانِهم وكُفرِهم وعِصْيانِهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وأبو عُبَيْدةَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والثعلبي، والبغوي، والخازن. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٣).

وقال الواحدي: (أكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ والعربيَّةِ على أنَّ الطَّاغيةَ هاهنا بمعنى الطُّغْيانِ). ((البسيط)) (٢٢/ ١٣٤).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المُهلَكينَ بالصَّيحةِ مِن أجْلِ التَّكذيبِ بالقارعةِ؛ تحذيرًا لِمَن يكَذِّبُ بها؛ أتْبَعَه المُهلَكينَ بما هو سَبَبٌ لإنفاذِ الصَّيحةِ وتَقويتِها؛ دَلالةً على تمامِ القُدرةِ على كُلِّ نَوعٍ مِن العذابِ بالاختيارِ[1].

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾.

أي: وأمَّا عادٌ فأُهلِكوا بريحٍ عَظيمةٍ باردةٍ شَديدةِ الصَّوتِ، قد تجاوَزَتْ شِدَّتُها في ذلك كُلَّ عاصِفةٍ أُخرَى، فدمَّرَتْهم تَدميرًا[2]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

قال ابن عطية: («الصَّرْصَرُ» يحتَمِلُ أن يكونَ مِنَ الصِّرِّ، أي: البَردِ، وهو قَولُ قَتادةَ. ويحتمِلُ أن يكونَ مِن صَرَّ الشَّيءُ: إذا صَوَّتَ، فقال قومٌ: صَوتُ الرِّيحِ صَرصَرٌ، كأنَّه يَحكي هذَينِ الحَرفَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧).

وممَّن قال بالمعنى الأوَّلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسَّمرقندي، والقُرطبي، وابنُ كثير، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وعِكْرِمةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٦٥).

وممَّن قال بالمعنى الثَّاني: الرازيُّ، والخازن، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٧). =

= وقال ابنُ جَريرٍ، ومكِّيٌّ، والقاسميُّ: هي شديدةُ العُصوفِ، مع شِدَّةِ بَرْدِها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٩).

وقال البِقاعي: (هي في غايةِ ما يكونُ مِن شِدَّةِ البرْدِ والصَّوتِ، كأنَّه كُرِّرَ فيها البرْدُ حتَّى صار يحرِقُ بشِدَّتِه، والصَّوتُ حتَّى صار يُصِمُّ بقُوَّتِه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٤٣).

وجمَعَ ابنُ كثيرٍ بيْن المعاني السَّابقةِ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ [فصلت: ١٦]، فقال: (والحقُّ أنَّها متَّصِفةٌ بجَميعِ ذلك [أي: كَونِها شَديدةَ الهُبوبِ، باردةً، لها صَوتٌ]؛ فإنَّها كانت رِيحًا شَديدةً قويَّةً؛ لِتَكونَ عُقوبتُهم مِن جنسِ ما اغتَرُّوا به مِن قُواهم، وكانت باردةً شديدةَ البرْدِ جِدًّا، كقولِه تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، أي: باردةٍ شَديدةٍ، وكانت ذاتَ صَوتٍ مُزعِجٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١٦٩).

والعاتِية: الَّتي جاوَزَتِ المِقْدارَ. قاله ابنُ الجوزيِّ، والرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥١).

وقال الزمخشري: (﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدةِ العَصفِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩).

وقال القاسمي: (﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي: مُتجاوِزةٍ الحدَّ المعروفَ في الهُبوبِ والبُرودةِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٩).

قال مكِّي: (وقولُه: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ ليس هو مِن العُتُوِّ الَّذي هو العِصيانُ، إنَّما هو مِن العُتوِّ الَّذي هو بُلوغُ الشَّيءِ وانتهاؤُه في قوَّتِه وقَدْرِه). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٢/ ٧٦٦٢، ٧٦٦٣).

وقال الماوَرْدي: (وفي تسميتِها عاتيةً وجْهانِ؛ أحدُهما: لأنَّها عتَتْ على القَومِ بلا رحمةٍ ولا رأفةٍ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: لأنَّها عتتْ على خُزَّانِها بإذْنِ الله). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٧).

ممَّن قال الوجهِ الأوَّلِ: ابنُ جُزَي، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

وممَّن قال بالوجهِ الثَّاني: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٠٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤١).

وقال ابن عطيَّة: («العاتية» معناه: الشَّديدةُ، المُخالِفةُ، فكانت الرِّيحُ عتَتْ على الخُزَّانِ بخِلافِها، وعتت على قومٍ عادٍ بشِدَّتِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧).

كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [فصلت: ١٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ * تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨ - ٢١].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبورِ[١]))[٢].

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾.

أي: سلَّط اللهُ تلك الرِّياحَ العاصِفةَ على عادٍ، وأرسَلَها عليهم سَبْعَ لَيالٍ وثمانيةَ أيَّامٍ كَوامِلَ، مَشائيمَ، تتابَعَت عليهم حتَّى هَلَكوا[٣]!

---

(١) الصَّبا: هي الرِّيحُ الشَّرقيَّةُ، والدَّبورُ: هي الرِّيحُ الغَربيَّةُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ١٩٧).

(٢) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١١ - ٢١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٤، ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٧).

قال الرازي: (قولُه تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ قال مقاتلٌ: سلَّطها عليهم. وقال الزَّجَّاجُ: أقامها عليهم. وقال آخَرونَ: أرسَلَها عليهم. هذه هي الألفاظُ المنقولةُ عن المفسِّرينَ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٤).

وقال الثعلبيُّ، والسمعانيُّ، وابن الجوزيِّ، والقرطبيُّ: ﴿سَخَّرَهَا﴾: أرسَلَها وسلَّطها. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٩)، =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [القمر: ١٩].

﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ﴾.

أي: فترى قومَ عادٍ في تلك اللَّيالي والأيَّامِ مَطروحينَ على الأرضِ مَوتى[1]!

---

= ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٩).

قال البِقاعي: (قد لَزِمَ مِن زيادةِ عَدَدِ الأيَّامِ أنَّ الابتداءَ كان بها قَطْعًا، وإلَّا لم تكن اللَّيالي سَبْعًا؛ فتأمَّلْ ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٤٥).

وقال الماوَرْديُّ: (وفي قولِه: ﴿حُسُومًا﴾ أربعةُ تَأويلاتٍ؛ أحدُها: مُتتابِعاتٍ. قاله ابنُ عباسٍ، وابنُ مسعودٍ، ومجاهدٌ، والفرَّاءُ... الثَّاني: مَشائيمَ. قاله عِكْرِمةُ والرَّبيعُ. الثَّالثُ: أنَّها حَسَمَت اللَّياليَ والأيَّامَ حتَّى استَوفَتْها؛ لأنَّها بدَأَت طُلوعَ الشَّمسِ مِن أوَّلِ يومٍ، وانقطَعَت مع غُروبِ الشَّمسِ مِن آخِرِ يومٍ. قالَه الضَّحَّاكُ. الرَّابعُ: لأنَّها حَسَمَتْهم ولم تُبْقِ منهم أحدًا. قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٧). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٠).

ونسَبَ الواحديُّ والرَّازيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ أنَّ ﴿حُسُومًا﴾ أي: مُتتابِعةً. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٣٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢).

قال الرازي: (وعلى هذا القولِ: حُسومٌ جمْعُ حاسمٍ، كشُهودٍ وقُعودٍ، ومعنى الحَسمِ في اللُّغةِ: القطعُ بالاستِئْصالِ... فلمَّا كانت تلك الرِّياحُ مُتتابِعةً ما سكنَتْ ساعةً حتَّى أتتْ عليهم، أشْبَهَ تَتابُعُها عليهم تَتابُعَ فِعلِ الحاسِمِ في إعادةِ الكَيِّ على الدَّاءِ كَرَّةً بعدَ أخرى حتَّى يَنحسِمَ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢).

وقال ابنُ فارسٍ: (أمَّا قولُه تعالى: ﴿وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ فيُقالُ: هي المتتابعةُ. ويُقالُ: الحسومُ الشؤمُ. ويُقالُ: سُمِّيتْ حسومًا؛ لأنَّها حسَمت الخيرَ عن أهلِها. وهذا القولُ أقيسُ). ((مقاييس اللغة)) (٢/ ٥٧).

وقال ابن كثير: (﴿... حُسُومًا﴾ أي: كَوامِلَ، مُتَتابِعاتٍ، مَشائيمَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٨).

وقيل: الحُسومُ مَصدَرٌ، كالشُّكورِ والكُفورِ، وعلى هذا التَّقديرِ فإمَّا أن يَنتصِبَ بفِعلِه مُضمَرًا، والتَّقديرُ: تَحسِمُ حُسومًا، يعني: تَستأصِلُ استِئْصالًا، أو يكونَ صِفةً، كقولِك: ذاتُ حُسومٍ، أو يكونَ مفعولًا له، أي: سخَّرَها عليهم للاستِئْصالِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢). ويُنظر ما يأتي (ص: ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦١)، =

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾.

أي: صارت جُثَثُهم بعْدَ هَلاكِهم مِثلَ جُذوعِ نَخلٍ ساقِطةٍ خالِيةِ الأجوافِ[1].

---

= ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٥).

قيل: الخِطابُ في قَولِه تعالى: ﴿فَتَرَى﴾: لمحمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٧).

وقِيل: الخِطابُ لكلِّ مَن يَصلُحُ له، على تَقديرِ: أنَّه لو كان حاضرًا حينَئذٍ لَرأى ذلك، أي: فيَرى الرَّائي لو كان راءٍ. وممَّن اختار هذا المعنى في الجُملةِ: الشَّوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

ممَّن اختار أنَّ الأعجازَ هي الأصولُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، وابن الجوزي، والرازي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢).

قيل: المعنى: أنَّها صارت جُذوعًا باليةً لَيستْ لها رُؤوسٌ، قد بَقِيَت أصولُها، وذهَبَت أعناقُها. وممَّن ذهَبَ إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢).

وممَّن قال بنحْوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٦٦).

وممَّن قال في الجُملةِ: إنَّ ﴿خَاوِيَةٍ﴾ أي: مُنقلِعةٍ ساقِطةٍ، قد اجتُثَّتْ مِن أُصولِها: السَّمرقنديُّ، والثَّعلبي، والبَغَوي، والخازنُ، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥).

وقيل: المعنى: كأنَّهم أصولُ نَخلٍ خاليةِ الأجوافِ لا شَيءَ فيها. وممَّن قال بهذا: الرازيُّ، =

كما قال تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

أي: فهل تَرى لكُفَّارِ عادٍ مِن بقاءٍ بعْدَ أن أبادَهم اللهُ تعالى(١)؟

---

= والبيضاوي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢). ويُنظر أيضًا: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٧).

وقيل: الخاويةُ: الفارغةُ السَّاقطةُ، مُتآكِلةُ الأجوافِ، الَّتي قد خَلَت أعجازُها بِلًى وفَسادًا. وممَّن قال بهذا في الجُملةِ: ابنُ عطيَّةَ، والبِقاعيُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤١).

قال الماوَرْدي: (في تَشبيهِهم بالنَّخلِ الخاويةِ ثَلاثةُ أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّ أبدانَهم خَوَت مِن أرواحِهم، مِثلُ النَّخلِ الخاويةِ. قاله يحيى بنُ سلَّامٍ. الثَّاني: أنَّ الرِّيحَ كانت تَدخُلُ في أجوافِهم مِن الخَيْشومِ، وتَخرُجُ من أدبارِهم، فصاروا كالنَّخلِ الخاويةِ. حكاه ابنُ شَجَرةَ. الثَّالثُ: أنَّ الرِّيحَ قَطَعَت رُؤوسَهم عن أجسادِهم، فصاروا بقَطْعِها كالنَّخلِ الخاويةِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

الخِطابُ في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ﴾ قيل: هو لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٦٨).

وقيل: هو لغيرِ مُعَيَّنٍ. وممَّن ذهب إلى هذا: البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: مِن بقاءٍ. قاله الفرَّاءُ.

والثَّاني: مِن بَقيَّةٍ. قاله أبو عُبَيْدةَ. قال: وهو مَصدَرٌ، كالطَّاغيةِ.

والثَّالثُ: هل ترَى لهم مِن أثَرٍ. قاله ابنُ قُتَيْبةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٩).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والغَزْنَوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني =

كما قال تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣] عظَّم تعالى شأنَ القيامةِ وفَخَّمَه؛ فإنَّ لها شأنًا عَظيمًا، وهَولًا جَسيمًا[١].

٢- عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أخْبَره)[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾، ولم يقُلْ: (صَرصَرةٍ)، كما قال: ﴿عَاتِيَةٍ﴾، مع أنَّ الرِّيحَ مُؤنَّثةٌ؛ لأنَّ (الصَّرصَرَ) وَصفٌ مُختَصٌّ بالرِّيحِ،

---

= القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٩٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٧)، ((باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن)) للغزنوي (٣/ ١٥٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: أبو عُبَيْدةَ، وابنُ أبي زَمَنِين، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: مِن نفْسٍ باقِيَةٍ: السَّمْعانيُّ، والبغوي، والواحدي، والخازن. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٤).

ويجوزُ أنْ تكونَ بمعنى: فرقةٍ باقيةٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧).

ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٢٦).

فأشبَهَ بابَ (حائِضٍ، وطامثٍ، وحامِلٍ)، بخِلافِ (عاتيةٍ)؛ فإنَّ غيرَ الرِّيحِ مِن الأسماءِ المُؤنَّثةِ يُوصَفُ به[1].

٤- قولُه تَعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ فيه أنَّه لم يَبْقَ لهم نَسْلٌ يُذْكَرون بهم، بلْ أُهلِكوا بأجْمَعِهم، وانقَطَعَ نَسْلُهم، وانقَطَعَ عنهم الذِّكرُ إلَّا بالسُّوءِ، وإلَّا كان يُرى لهم باقيةٌ، ففيه أنَّهم استُؤصِلوا، وعمَّ العَذابُ الكبيرَ والصَّغيرَ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾

- قولُه: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ هو صِيغةُ فاعِلٍ مِن: حقَّ الشَّيءُ؛ إذا ثبَتَ وُقوعُه، والهاءُ فيها لا تَخْلو عن أنْ تكونَ هاءَ تأنيثٍ؛ فتكونَ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ وصْفًا لِمَوصوفٍ مُقدَّرٍ مُؤنَّثِ اللَّفظِ، أو أنْ تكونَ هاءَ مَصدرٍ، على وزْنِ (فاعِلةٍ)، مِثلُ الكاذِبةِ للكذِبِ، والخاتمةِ للختْمِ، والباقيةِ للبقاءِ، والطَّاغيةِ للطُّغيانِ، والنَّافلةِ، والخاطئةِ، وأصلُها تاءُ المرَّةِ، ولكنَّها لَمَّا أُريدَ المصدرُ قُطِعَ النَّظرُ عن المرَّةِ، مِثلُ كثيرٍ مِن المصادرِ الَّتي على وزْنِ فَعلةٍ غيرُ مُرادٍ به المرَّةُ، مِثلُ قولِهم: ضَربةُ لازِبٍ. فالحاقَّةُ إذنْ بمعنى الحقِّ، كما يُقالُ: مِن حاقِّ كذا، أي: مِن حقِّه. وعلى الوجهَينِ فيَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالحاقَّةِ المعنى الوَصْفيَّ، أي: حادِثةٌ تَحِقُّ، أو حقٌّ يَحِقُّ. ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بها لَقبًا ليومِ القيامةِ، فلُقِّبَ بذلك يومُ القيامةِ؛ لأنَّه يومٌ مُحقَّقٌ وُقوعُه، كما قال تعالَى: ﴿وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الشورى: ٧]، أو لأنَّه تَحِقُّ فيه الحقوقُ، ولا يُضاعُ الجزاءُ عليها؛ قال تعالَى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٦٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٣).

ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وإيثارُ هذه المادَّةِ وهذه الصِّيغةِ يَسمَحُ باندراجِ مَعانٍ صالحةٍ بهذا المقامِ، فيكونُ ذلك مِن الإيجازِ البديعِ؛ لتَذهَبَ نُفوسُ السَّامِعينَ كلَّ مَذهبٍ ممْكنٍ مِن مَذاهبِ الهَولِ والتَّخويفِ بما يحِقُّ حُلولُه بهم، فيَجوزُ أيضًا أنْ تكونَ ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ وصْفًا لِمَوصوفٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: السَّاعةُ الحاقَّةُ، أو الواقعةُ الحاقَّةُ؛ فيَكونَ تَهديدًا بيومٍ أو وقْعةٍ يكونُ فيها عِقابٌ شَديدٌ للمُعرَّضِ بهم، مِثْلُ يومِ بدْرٍ أو وَقْعتِه، وأنَّ ذلك حقٌّ لا رَيبَ في وُقوعِه، أو وصْفًا للكلمةِ، أي: كلمةُ الله الَّتي حقَّت على المشركين مِن أهلِ مكَّةَ، ويجوزُ أنْ تكونَ مَصدرًا بمعْنى الحقِّ، فيَصِحُّ أنْ يكونَ وصْفًا ليومِ القيامةِ بأنَّه حقٌّ، كقولِه تعالَى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧]، أو وصْفًا للقرآنِ، كقولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢]، أو أُريدَ به الحقُّ كلُّه ممَّا جاء به القرآنُ مِن الحقِّ؛ قال تعالَى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾[1] [الأحقاف: ٣٠]. وقيل: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ وصْفٌ حُذِف مَوصوفُه؛ للإيذانِ بكَمالِ ظُهورِ اتِّصافِه بهذه الصِّفةِ، وجَرَيانِها مجرَى الاسمِ[2].

- وافتتاحُ السُّورةِ بهذا اللَّفظِ تَرويعٌ للمشركين[3].

- والاستِفهامُ ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ مُستعمَلٌ في التَّهويلِ والتَّعظيمِ والتَّفخيمِ لشأنِها؛ لأنَّ الأمرَ العظيمَ مِن شأْنِه أنْ يُستفهَمَ عنه، فصار التَّعظيمُ والاستفهامُ مُتلازِمَين. ولك أنْ تَجعَلَ الاستِفهامَ إنكاريًّا، أي: لا يَدْري أحدٌ كُنْهَ هذا الأمرِ، والمقصودُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١١ - ١١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

مِن ذلك على كِلا الاعتبارَينِ هو التَّهويلُ[١].

- وفي قولِه: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ وضْعُ الظاهرِ مَوضعَ المضمَرِ، فلمْ يقُلْ: ما هي؟ والفائدةُ منه زِيادةُ التَّهويلِ والتَّفخيمِ لشَأنِها[٢].

- والاستِفهامُ في قولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ مُكنًّى به عن تَعذُّرِ إحاطةِ عِلمِ النَّاسِ بكُنْهِ الحاقَّةِ ببَيانِ خُروجِها عن دائرةِ عُلومِ المخلوقاتِ؛ لأنَّ الشَّيءَ الخارجَ عن الحدِّ المألوفِ لا يُتصوَّرُ بسُهولةٍ، فمِن شأْنِه أنْ يُتساءلَ عن فَهْمِه[٣].

- جُملةُ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ مَعطوفةٌ على ما قبْلَها مِن الجُملةِ الواقعةِ خبَرًا لقولِه تعالَى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾، مُؤكِّدةٌ لهَولِها[٤].

- ويجوزُ أنْ تكونَ مُعترِضةً بيْنَ جُملةِ ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ وجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤]، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٥].

- وتَركيبُ (ما أدراكَ كذا) ممَّا جَرَى مَجرى المثَلِ، فلا يُغيَّرُ عن هذا اللَّفظِ، وأصلُ الكلامِ قبْلَ التَّركيبِ بالاستِفهامِ أنْ تقولَ: دريتُ الحاقَّةَ أمرًا عظيمًا،

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣، ١١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

ثمَّ صار: أدراني فُلانٌ الحاقَّةَ أمْرًا عظيمًا[١].

- واستِعمالُ (ما أدْراك) غيرُ استعمالِ (ما يُدْريك) في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشُّورى: ١٧]، فمَفعولُ (ما أدراك) مُحقَّقُ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للتَّهويلِ، ومَفعولُ (ما يُدْريك) غيرُ مُحقَّقِ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للإنكارِ، وهو في معْنى نفْيِ الدِّرايةِ. وكلُّ مَوضعٍ ذُكِرَ في القرآنِ (وما أدراك) فقدْ عُقِّبَ ببَيانِه؛ نحوُ قولِ الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٢، ٣]، ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [الانفطار: ١٨، ١٩]، ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ * كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾[٢].

- ولَمَّا كان ذلك كلُّه أمرًا رائعًا للعقولِ، هازًّا للقلوبِ، مُزعِجًا للنُّفوسِ، وكان رُبَّما توقَّفَ فيه الجِلْفُ الجافي؛ أكَّدَ أمْرَه وزادَ في تَهويلِه، وأطْنَبَ في تَفخيمِه وتَبجيلِه؛ إشارةً إلى أنَّ هَوْلَه يَفوتُ الوصفُ بقولِه، مُعلِمًا أنَّه ممَّا يَحِقُّ له أنْ يُستفهَمَ عنه، سائقًا له بأداةِ الاستفهامِ مُرادًا بها التَّعظيمُ للشَّأنِ، وأنَّ الخبَرَ ليس كالعِيانِ ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾؛ فأداةُ الاستفهامِ مُبتدأٌ أُخبِرَ عنه بالحاقَّةِ، وهما خبَرٌ عن الأُولى، الرَّابطُ تَكريرُ المُبتدَأِ بلَفْظِه، وأكثَرُ ما يكونُ ذلك إذا أُرِيدَ معْنى التَّعظيمِ والتَّهويلِ[٣].

وقيل: مُقتضَى التَّحقيقِ أنْ تكونَ (ما) الاستِفهاميَّةُ في قولِه: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ خبَرًا لِما بعْدَها؛ فإنَّ مَناطَ الإفادةِ بَيانُ أنَّ الحاقَّةَ أمْرٌ بَديعٌ، وخَطْبٌ فَظيعٌ، كما يُفيدُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٣٩).

كونُ (مَا) خبَرًا، لا بَيانُ أنَّ أمرًا بَديعًا الحاقَّةُ، كما يُفيدُه كونُها مُبتدَأً، وكونُ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ خبرًا[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ * فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾

- قولُه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لإعلامِ بَعضِ أحوالِ الحاقَّةِ لهُ -عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ- إثرَ تَقريرِ أنَّه ما أدْراهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بها أحدٌ[2]. فعلى أنَّ قولَه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣] نِهايةُ كَلامٍ؛ فمَوقعُ قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾ وما اتَّصَلَ به استِئنافٌ، وهو تَذكيرٌ بما حَلَّ بثَمودَ وعادٍ لتَكذيبِهم بالبعثِ والجزاءِ؛ تَعريضًا بالمشركينَ مِن أهلِ مكَّةَ بتَهديدِهم أنْ يَحِقَّ عليهم مِثلُ ما حلَّ بثَمودَ وعادٍ؛ فإنَّهم سواءٌ في التَّكذيبِ بالبعثِ، وعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١] إلخ تَوطئةً له وتمْهيدًا لهذه الموعظةِ العظيمةِ؛ استِرهابًا لنُفوسِ السَّامعينَ. وإنْ جعَلْتَ الكلامَ مُتَّصلًا بجُملةِ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ وَعَادُۢ بِٱلۡقَارِعَةِ﴾، وعيَّنْتَ لَفظَ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١] ليومِ القيامةِ؛ كانت هذه الجُملةُ خبَرًا ثالثًا عن ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١]، والمعنى: الحاقَّةُ كذَّبَتْ بها ثَمودُ وعادٌ، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُؤتَى بضَميرِ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١]، فيُقالُ: كذَّبَتْ ثَمودُ وعادٌ بها، فعُدِلَ إلى إظهارِ اسمِ (القارعةِ)؛ لأنَّ (القارعة) مُرادِفةُ الحاقَّةِ -في أحدِ مَحملَي لَفظِ ﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾-، وهذا كالبَيانِ للتَّهويلِ الَّذي في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾[الحاقة: ٣]، ولتَدُلَّ (القارعة) على معْنى القرْعِ، زِيادةً في وصْفِ شِدَّتِها، وتَشديدًا لِهَوْلِها[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) =

- قولُه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ ابتُدِئَ بثَمودَ وعادٍ في الذِّكرِ مِن بيْنِ الأُمَمِ المكذِّبةِ؛ لأنَّهما أكثرُ الأُمَمِ المكذِّبةِ شُهرةً عندَ المشركينَ مِن أهلِ مكَّةَ؛ لأنَّهما مِن الأُمَمِ العربيَّةِ، ولأنَّ دِيارَهما مُجاورةٌ شمالًا وجنوبًا[١].

- القارعةُ، أي: الَّتي تُصيبُ النَّاسَ بالأهوالِ والأفزاعِ، أو الَّتي تُصيبُ الموجوداتِ بالقَرْعِ؛ مِثلُ دكِّ الجبالِ، وخسْفِ الأرض، وطمْسِ النُّجومِ، وكُسوفِ الشَّمسِ كُسوفًا لا انجلاءَ له، فشُبِّهَ ذلك بالقرْعِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ ابتُدِئَ بذِكرِ ثَمودَ مِن حيثُ إنَّ بلادَهم أقرَبُ إلى قُرَيشٍ، وواعظُ القُربِ أكبَرُ، وإهلاكهم بالصَّيحةِ، وهي أشْبَهُ بصَيحةِ النَّفخِ في الصُّورِ، المُبَعْثِرِ لِما في القُبورِ[٣]. أو لأنَّ العذابَ الَّذي أصابَهم مِن قَبيلِ القَرْعِ؛ إذ أصابَتْهم الصَّيحةُ الَّتي أُطلِق عليها الصَّاعِقةُ في بعضِ الآياتِ، ولأنَّ الكلامَ على مَهلكِ عادٍ أنسَبُ، فأُخِّرَ لذلك أيضًا[٤]، فاللهُ تعالى ذكَرَ تفصيلَ إهلاكِ عادٍ بخِلافِ ثَمودَ، فلعلَّ تأخيرَ ذِكْرِهم لِما تَبِعَه مِن تفصيلٍ.

- وجِيءَ في الخبرِ عن هاتَينِ الأُمَّتينِ -ثَمودَ وعادٍ- بطَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ[٥]؛

---

= (٩/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٤، ١١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

(٥) اللَّف والنَّشْر: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلَفظٍ يشتملُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّم، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا. والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، =

لأنَّهما اجتَمَعتا في مُوجِبِ العُقوبةِ، ثمَّ فُصِّلَ ذِكرُ عَذابِهما[١].

- وإنَّما سُمِّيت الصَّيحةُ بالطَّاغيةِ؛ لأنَّها كانتْ مُتجاوِزةً الحالَ المُتعارَفَ في الشِّدَّةِ، فشُبِّهَ فِعلُها بفِعلِ الطَّاغي المُتجاوِزِ الحدَّ في العُدوانِ والبطْشِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾

- قولُه: ﴿عَاتِيَةٍ﴾ أصْلُ العُتُوِّ والعُتِيِّ: شِدَّةُ التَّكبُّرِ، فعُبِّرَ به عن الشَّيءِ المُتجاوِزِ الحدَّ المعتادَ؛ تَشبيهًا بالتَّكبُّرِ الشَّديدِ في عدَمِ الطَّاعةِ، والجرْيِ على المعتادِ[٣].

قيل: عَتَتْ على خُزَّانِها، فخَرَجَت بلا كيلٍ ولا وزْنٍ، وهذا كِنايةٌ عن الشِّدَّةِ والإفراطِ فيها، لا أنَّها عَتَت على الخُزَّانِ حقيقةً[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾

---

= أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى، وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ. واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَين؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المرتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبدالرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢).

- قولُه: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ استِئنافٌ جِيءَ به بَيانًا لكَيفيَّةِ إهلاكِهم بالرِّيحِ. وقيل: هو استِئنافٌ أو صِفةٌ جِيءَ به لنفْيِ ما يُتوهَّمُ مِن أنَّها كانتْ مِن اتِّصالاتٍ فَلَكيَّةٍ؛ إذ لو كانتْ لَكان هو المقدِّرَ لها والمسبِّبَ[1].

- والتَّسخيرُ: الغصْبُ على عمَلٍ، وعُبِّرَ به عن تَكوينِ الرِّيحِ الصَّرصرِ تَكوينًا مُتجاوِزًا المُتعارَفَ في قوَّةِ جِنسِها، فكأنَّها مُكرَهةٌ عليه، وعُلِّقَ به ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ لأنَّه ضُمِّنَ معْنى أرْسَلَها[2].

- و(حُسومٌ) يَجوزُ أنْ يكونَ جمْعَ حاسمٍ، مِثلُ قُعودٍ جمْعُ قاعدٍ، وشُهودٍ جمْعُ شاهدٍ، غُلِّبَ فيه الأيَّامُ على اللَّيالي؛ لأنَّها أكثَرُ عَددًا؛ إذ هي ثَمانيةُ أيَّامٍ، وهذا له مَعانٍ؛ أحدُها: أنْ يكونَ المعنى: يُتابِعُ بعضُها بعضًا، أي: لا فصْلَ بيْنَها. وقيل: الحُسومُ مُشتَقٌّ مِن حَسْمِ الدَّاءِ بالمِكواةِ؛ إذ يُكوى ويُتابَعُ الكَيُّ أيَّامًا. المعْنى الثَّاني: أنْ يكونَ مِن الحسْمِ، وهو القطْعُ، أي: حاسِمةً مُستأصِلةً. ومنه سُمِّيَ السَّيفُ حُسامًا؛ لأنَّه يَقطَعُ، أي: حسَمَتْهم فلم تُبْقِ منهم أحدًا، وعلى هذَينِ المعْنيَينِ فهو صِفةٌ لـ ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ﴾، أو حالٌ منها. المعْنى الثَّالثُ: أنْ يكونَ حُسومٌ مَصدرًا، كالشُّكورِ والدُّخولِ، فيَنتصِبَ على المفعولِ مِن أجْلِه، وعامِلُه ﴿سَخَّرَهَا﴾، أي: سخَّرَها عليهم لاستِئْصالِهم، وقطْعِ دَابِرِهم. وكلُّ هذه المعاني صالحٌ لأنْ يُذكَرَ مع هذه الأيَّامِ، فإيثارُ هذا اللَّفظِ مِن تَمامِ بَلاغةِ القرآنِ وإعجازِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٥٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٠).

- قولُه: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ الرُّؤيةُ عِلميَّةٌ لا بَصريَّةٌ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما أبْصَرَهم صَرْعى فيها ولا رآهُم، فصار المعْنى: فتَعلَمُهم صَرعى فيها بإعلامِنا حتَّى كأنَّك تُشاهِدُهم[١].

أو الخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ، أي: فيَرى الرَّائي لو كان راءٍ، وهذا أُسلوبٌ في حِكايةِ الأمورِ العظيمةِ الغائبةِ؛ تُستحضَرُ فيه تلك الحالةُ كأنَّها حاضرةٌ، ويُتخيَّلُ في المقامِ سامعٌ حاضرٌ شاهدٌ مُهْلَكَهم أو شاهَدَهم بعْدَه، وكِلا المُشاهدتَينِ مُنتَفٍ في هذه الآيةِ، فيُعتبَرُ خِطابًا فَرَضيًّا، فليس هو بالْتِفاتٍ[٢]، ولا هو مِن خِطابِ غيرِ المعيَّنِ[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ للعهْدِ الذِّكريِّ. والقومُ: القَبيلةُ، وهذا تَصويرٌ لهلاكِ جَميعِ القبيلةِ[٤].

- قولُه: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ[٥]؛ فقد شبَّهَهم بالجُذوعِ لطُولِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٨، ٥٧٩).

(٢) الالتفات: هو نقلُ الكلامِ مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخَرَ؛ تطريةً واستِدرارًا للسَّامعِ، وتجديدًا لنَشاطِه، وصيانةً لخاطِرِه مِن المَلالِ والضَّجرِ بدَوامِ الأسلوبِ الواحدِ على سمعِه؛ كالانتقالِ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، أو تغييرِ ضميرِ المتكلِّمِ نفْسِه: تارةً بجَعلِه تاءً على جهةِ الإخبارِ عن نفْسِه، وتارةً يجعله كافًا، فيجعلُ نفْسَه مُخاطَبًا، وتارةً يجعلُه هاءً، فيُقيمُ نفْسَه مُقامَ الغائبِ. وشرطُه أن يكونَ الضَّميرُ في المُتنقَلِ إليه عائدًا في نفْسِ الأمرِ إلى الملتفِّ عنه، وللمُتكلِّمِ والخِطابِ والغَيبةِ مقاماتٌ، والمشهورُ أنَّ الالتفاتَ هو الانتقالُ مِن أحَدِها إلى الآخَرِ بعدَ التَّعبيرِ بالأوَّلِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٠٠، ٢٠١)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٣١٤)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

(٥) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ مِن أحكامِ المُشبَّهِ =

قاماتِهم[١].

أو وجْهُ التَّشبيهِ بها: أنَّ الَّذين يَقطَعون النَّخلَ إذا قَطَعوه للانتِفاعِ بأعوادِه في إقامةِ البيوتِ للسُّقُفِ والعِضاداتِ، انْتَقَوا منه أصولَه؛ لأنَّها أغلَظُ وأملأُ، وتَرَكوها على الأرضِ حتى تَيبَسَ وتَزولَ رُطوبتُها، ثمَّ يَجعَلوها عَمَدًا وأساطينَ[٢].

- ووصْفُ نَخْلٍ بأنَّها خاويةٌ باعتِبارِ إطلاقِ اسمِ النَّخلِ على مكانِه بتَأويلِ الجنَّةِ أو الحديقةِ، ففيه استِخدامٌ[٣]، والمعْنى: خاليةٌ مِن النَّاسِ، وهذا الوصْفُ لتَشويهِ المشبَّهِ به بتَشويهِ مكانِه، ولا أثَرَ له في المشابَهةِ، وأحسَنُه ما كان فيه مُناسَبةٌ للغرَضِ مِن التَّشبيهِ كما في الآيةِ؛ فإنَّ لهذا الوصْفِ وقْعًا في التَّنفيرِ مِن حالتِهم؛ ليُناسِبَ الموعظةَ والتَّحذيرَ مِن الوُقوعِ في مِثلِ أسبابِها[٤].

---

= به للمُشبَّهِ. ويَنقسِمُ التشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّة؛ فمنه: التَّشبيهُ البليغُ: وهو ما كانتْ أداةُ التَّشبيهِ فيه مَحذوفةً. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ باعتبارٍ آخَرَ إلى مُؤكَّدٍ: وهو ما حُذِفتْ فيه الأداةُ، نحو: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مرِّ السحابِ. ومُرْسَلٍ: وهو ما لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٨).

(٣) الاستخدام: هو ذِكرُ اللَّفظِ بمعنًى وإعادةُ ضميرٍ أو إشارةٍ عليه بمعنًى آخَرَ، أو إعادةُ ضَميرَينِ عليه تُريدُ بثانيهما غيرَ ما تُريدُ بأوَّلِهما. يُنظر: ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٠١)، ((علوم البلاغة: البيان، المعاني، البديع)) للمراغي (ص: ٢٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٧/ ٤٩٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩).

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ تَفريعٌ على مَجموعِ قِصَّتَيْ ثَمودَ وعادٍ، فهو فَذْلَكةٌ[١] لِما فُصِّلَ مِن حالِ إهلاكِهما، وذلك مِن قَبيلِ الجمْعِ بعْدَ التَّفريقِ، فيكونُ في الآياتِ جمْعٌ، ثمَّ تَفريقٌ، ثمَّ جمْعٌ[٢].

- والاستِفهامُ معْناهُ النَّفيُ، أي: لا تَرى لهم[٣].

- والباقيةُ: إمَّا اسمُ فاعلٍ على بابِه، والهاءُ: إمَّا للتَّأنيثِ بتأْويلِ (نفْسٍ)، أي: فما تُرى منهم نفْسٌ باقيةٌ، أو بتأْويلِ (فِرقةٍ)، أي: ما تُرى فِرقةٌ منهم باقيةٌ. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿بَاقِيَةٍ﴾ مَصدرًا على وزْنِ فاعلةٍ، أي: فما ترَى لهم بَقاءً، أي: هَلَكوا على بَكرةِ أبِيهم[٤].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لَهُم﴾ يَجوزُ أنْ تُجعَلَ لشِبْهِ المِلْكِ، أي: باقيةٍ مِن أجْلِ النَّفعِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اللَّامُ بمعْنى (مِن)، مِثلُ قولِهم: سمِعْتُ له صُراخًا. ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامَ الَّتي تُنْوى في الإضافةِ إذا لم تكُنِ الإضافةُ على معْنى (مِن)، والأصلُ: فهلْ تَرى باقيَتَهم، فلمَّا قُصِدَ التَّنصيصُ على عُمومِ النَّفيِ،

---

(١) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أَنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. و(الفَذْلَكةُ) كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤه، والفراغُ منه. يُنظر: ((تاج العروس)) (٢٧/ ٢٩٣) للزَّبيدي، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١).

واقْتَضى ذلك جلْبَ (مِن) الزَّائدةِ؛ لَزِمَ تَنكيرُ مَدخولِ (مِن) الزَّائدةِ، فأُعطِيَ حقُّ معْنى الإضافةِ بإظهارِ اللَّامِ الَّتي الشَّأنُ أنْ تُنْوى، كما في قولِهِ تعالَى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ [الإسراء: ٥]؛ فإنَّ أصْلَه: عِبادَنا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٩، ١٢٠).

## الآيات (٩-١٢)

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾: أي: مَدائِنُ قَومِ لُوطٍ؛ ائتَفَكَت بهم، أي: انقَلَبَت، وأصلُ (أفك): يدُلُّ على قَلبِ الشَّيءِ، وصَرفِه عن جِهَتِه[١].

﴿رَّابِيَةً﴾: أي: شديدةً، زائِدةً، عاليةً، وأصلُ (ربو): يدُلُّ على عُلُوٍّ[٢].

﴿طَغَا﴾: أي: كثُر، وتَجاوَزَ في الارتفاعِ والعُلوِّ، وخرَج عن الحدِّ حتَّى علا كلَّ شَيءٍ، وارتفَع فوقَه، وأصلُ الطُّغْيانِ: مُجاوَزةُ الحدِّ[٣].

﴿ٱلۡجَارِيَةِ﴾: أي: السَّفينةِ الَّتي تَجري في البَحرِ، وأصلُ (جري): يدُلُّ على انسياحِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٣).

﴿وَتَعِيَهَآ﴾: أي: تَحفَظَها، والوعيُ: حِفظُ الحديثِ ونحوِه، وأصلُ (وعي): يدُلُّ على ضمِّ شَيءٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى عاقبةَ أقوامٍ آخَرينَ كفَروا وكذَّبوا، فيقولُ: وجاء فِرعَونُ ومَنْ قَبْلَه مِن الكُفَّارِ، وقَومُ لُوطٍ؛ أصحابُ القُرى الَّتي انقَلَبَت بهم؛ جاؤُوا جميعًا بالفَعْلةِ الخاطِئةِ مِنَ الكُفرِ والشِّركِ، والتَّكذيبِ والظُّلمِ، فعَصَوا رَسولَ رَبِّهم الَّذي أُرْسِل إليهم، فأهلَكهم اللهُ إهلاكًا عَظيمًا زائِدًا عن الحَدِّ.

ثمَّ يُشيرُ سُبحانَه إلى ما جرَى لقومِ نوحٍ عليه السَّلامُ، فيقولُ: إنَّا لَمَّا كَثُرَ الماءُ، وتَجاوَزَ حَدَّه المعروفَ؛ لإغراقِ قَومِ نُوحٍ، حمَلْنا آباءَكم في سَفينةِ نوحٍ؛ لِنَجعَلَها لكم -أيُّها المؤمِنونَ- تَذكيرًا ومَوعِظةً، وتَحفَظَها أُذنٌ مِن شأنِها أن تَحفَظَ وتَعقِلَ عن الله ما سمِعَتْ، وتَنتفِعَ به.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿قِبَلَهُۥ﴾ أي: ومَن عِندَ فِرعَونَ مِنَ الأتْباعِ مِن كُفَّارِ القِبطِ[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿قَبْلَهُۥ﴾ أي: ومَن تَقَدَّمَه مِن الكُفَّارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢١).

(٢) قرأ بها أبو عَمرٍو، والكِسائيُّ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٥١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٨٩). =

﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ٩﴾.

أي: وجاء فِرعَونُ مَلِكُ مِصرَ، ومَنْ كان قَبْلَه مِن الكُفَّارِ[1]، وقَومُ لُوطٍ؛ أصحابُ القُرى الَّتي انقَلَبَت بهم، حتَّى صار عاليها سافِلَها[2]، كلُّ هؤلاءِ قد جاؤُوا بالفَعْلةِ الخاطِئةِ مِنَ الكُفرِ والشِّركِ، والتَّكذيبِ والظُّلمِ، وما انضَمَّ إلى ذلك مِن أنواعِ

= ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٥١)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

(١) قيل: المرادُ: عُمومُ الكُفَّارِ الَّذين سَبَقوا فِرعَونَ، كقَومِ عادٍ وثمودَ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢).

وقال ابن جُزَي: (﴿وَمَن قَبۡلَهُۥ﴾ يريدُ: مَن تقَدَّمَ قَبْلَه مِنَ الأُمَمِ الكافِرةِ، وأقرَبُهم إليه قومُ شُعَيبٍ، والظَّاهِرُ أنَّهم المرادُ؛ لأنَّ عادًا وثمودَ قد ذُكِرَا، وقومَ لُوطٍ هم المؤتَفِكاتُ، وقَومَ نُوحٍ قد أُشيرَ إليهم في قَولِه: ﴿لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

وقال ابن كثير: (أي: ومَن قَبْلَه مِنَ الأُمَمِ المُشبِهينَ له). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

(٢) وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ بالمؤتَفِكاتِ قَومُ لوطٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، وابن جُزَي، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ٤٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢١).

ونسَبَ ابنُ الجَوزيِّ هذا القولَ للأكثرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٦٦).

وقال الزَّجَّاج: (﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ الَّذين ائتَفَكوا بذُنوبِهم، أي: أُهْلِكوا بذُنوبِهم الَّتي أعظَمُها الإفكُ، وهو الكَذِبُ في أمرِ اللهِ، بأنَّهم كفروا وكَذَّبوا بالرُّسُلِ؛ فلذلك قيل لهم: مؤتَفِكونَ، وكذلك الَّذين ائتَفَكت بهم الأرضُ، أي: خُسِفَ بهم، إنَّما معناه: انقَلَبَت بهم كما يَقلِبُ بهم الكذَّابُ الحَقَّ إلى الباطِلِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢١٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ﴾ وهم: المكَذِّبونَ بالرُّسُلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٠٩).

الفواحِشِ والفُسوقِ؛ فأهلَكَهم اللهُ تعالى[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ * فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ﴾ [الذاريات: ٣٨ - ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ * فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٣، ٥٤].

﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠﴾.

﴿فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: فخالَفَ كلٌّ مِن فِرعَونَ ومَن قَبْلَه وقَومُ لُوطٍ: رَسولَ رَبِّهم الَّذي أرسَلَه إليهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ * وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ [ق: ١٢ - ١٤].

﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾.

أي: فأهلَكْنا كُلَّ أمَّةٍ مِنهم إهلاكًا شَديدًا عَظيمًا زائِدًا عن الحَدِّ؛ لزيادةِ أعمالِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

قال ابنُ جُزَي: (إنْ عاد الضَّميرُ على فِرعَونَ وقَومِه، فالرَّسولُ مُوسى عليه السَّلامُ، وإن عاد على ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ فالرَّسولُ لوطٌ عليه السَّلامُ، وإن عاد على الجَميعِ: فالرَّسولُ اسمُ جِنسٍ أو بمعنى الرِّسالةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

وممَّن ذهَب إلى العمومِ: ابنُ جرير، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

في السُّوءِ والقُبْحِ[١].

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾.

أي: إنَّا لَمَّا كَثُرَ الماءُ وارتفَعَ حتَّى تجاوَزَ حَدَّه المعروفَ؛ لإغراقِ قَومِ نُوحٍ، حمَلْنا آباءَكم في سَفينةِ نوحٍ الجاريةِ على الماءِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٤٩).

قال القرطبي: (﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ أي: عاليةً زائدةً على الأخَذَاتِ، وعلى عذابِ الأُمَمِ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢).

وقال البِقاعي: (فأغرَق فِرعونَ وجُنودَه، وأغرَق كلَّ مَن كذَّب نوحًا عليه السَّلامُ، وهم كلُّ أهلِ الأرضِ غيرَ مَن ركِب معه في السَّفينةِ، وحمَل مدائنَ لُوطٍ عليه السَّلامُ بعدَ أنْ نَتَقَها مِن الأرضِ على مَتنِ الرِّيحِ بواسِطةِ مَن أمَره بذلك مِن الملائكةِ ثمَّ قلَبَها، وأتْبَعها الحِجارةَ، وخسَف بها، وغمَرَها بالماءِ المُنتِنِ الَّذي ليس في الأرضِ ما يُشبِهُه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٤٩).

وقال ابن عاشور: (﴿أَخْذَةً﴾: واحدة مِن الأخْذِ، فيُرادُ بها أخْذُ فِرعَونَ وقَومِه بالغرَقِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]. وإذا أُعيدَ ضميرُ الغائبِ إلى فِرعونَ ومَن قَبْلَه والمؤتَفِكاتِ كان إفرادُ الأخْذةِ كإفرادِ رسولِ ربِّهم، أي: أخَذْنا كلَّ أمَّةٍ منهم أَخْذةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣).

قال الرازي: (سائرُ المفَسِّرينَ قالوا: ﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ أي: تَجاوَزَ حَدَّه حتَّى علا كلَّ شَيءٍ، وارتَفَع فَوقَه). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٣).

وقال القرطبي: (مَنَّ عليهم بأنْ جعَلَهم ذُرِّيَّةَ مَن نجا مِن الغَرَقِ، بقَولِه: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي: حمَلْنا آباءَكم، وأنتم في أصلابِهم. ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي: في السُّفُنِ الجاريةِ، والمحمولُ في الجاريةِ نوحٌ وأولادُه، وكُلُّ مَن على وجهِ الأرضِ: مِن نَسلِ أولئك). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠).

﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ ١٢﴾.

﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ﴾.

أي: لِنَجعَلَها لكم[1] -أيُّها المؤمِنونَ- تَذكيرًا ومَوعِظةً، فتَتَذكَّروا أنَّ اللهَ أهلَك الكافِرينَ، وأنجَى المؤمِنينَ، وتَستَدِلُّوا بذلك على كَمالِ قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه، وقَهْرِه لأعدائِه، ورحمتِه بأوليائِه[2].

---

(١) قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿لِنَجۡعَلَهَا﴾ يعودُ إلى سفينةِ نوحٍ عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، ومكِّي، وهو ظاهرُ اختيارِ القرطبيِّ، واختاره أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيج. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١).

وقيل: المرادُ: لِنَجعَلَ تلك الفَعْلةَ، وهي إنجاءُ المؤمِنينَ وإغراقُ الكافِرينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، والبيضاوي، والنَّسَفي، والخازن. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٤).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَين: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٥١).

وقيل: المرادُ: جِنسُ السُّفُنِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

قال الشوكاني: (﴿لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ﴾ أي: لِنَجعَلَ هذه الأمورَ المذكورةَ لكم، يا أمَّةَ محمَّدٍ، عِبْرةً ومَوعظةً تَستَدِلُّونَ بها على عظيمِ قُدرةِ الله، وبديعِ صُنعِه. أو لِنَجعلَ هذه الفَعلةَ الَّتي هي عبارةٌ عن إنجاءِ المؤمنينَ وإغراقِ الكافِرينَ لكم تَذكِرةً). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٦).

وقال ابنُ جزي: (الضَّميرُ للفعلةِ، وهي الحملُ في السَّفينةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣).

كما قال تعالى: ﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ * إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ﴾ [الشعراء: ١١٩ - ١٢١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ١٥].

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾.

أي: تَحفَظَها أُذنٌ مِن شأنِها أن تَحفَظَ وتَعقِلَ عن الله ما سمِعَتْ، وتَنتفِعَ به، ولا تُضَيِّعَه بتَرْكِ العملِ به[1].

كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ١٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً * إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴾ المقصودُ مِن قَصَصِ هذه الأُمَمِ، وذِكرِ ما حَلَّ بهم مِنَ العَذابِ: زَجرُ هذه الأُمَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٦)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٦).

قال ابن جُزَي: (الضَّميرُ [أي: في ﴿وَتَعِيَهَآ﴾] يعودُ على ما عاد عليه ضميرُ ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥).

وقال ابنُ عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ عبارةٌ عن الرَّجُلِ الفَهِمِ المنوَّرِ القَلبِ، الَّذي يَسمَعُ القَولَ فيَتلَقَّاه بفَهمٍ وتدَبُّرٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨).

وقال البيضاوي: (﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ مِن شأْنِها أن تحفَظَ ما يجِبُ حِفظُه؛ بتذكُّرِه، وإشاعتِه، والتَّفكُّرِ فيه، والعمَلِ بمُوجَبِه). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠).

عن الاقتِداءِ بهم في مَعصيةِ الرَّسولِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فيه تذكيرٌ بنِعمةِ اللهِ على البَشَرِ؛ إذ أبقَى نَوعَهم بالإنجاءِ مِن الطُّوفانِ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾، أي: ليَعقِلَها أولو الألبابِ، ويَعرِفوا المقصودَ منها، ووَجْهَ الآيةِ بها، وهذا بخِلافِ أهلِ الإعراضِ والغَفلةِ، وأهلِ البَلادةِ وعَدَمِ الفِطنةِ؛ فإنَّهم ليس لهم انتِفاعٌ بآياتِ اللهِ؛ لعَدَمِ وَعْيِهم عن اللهِ، وفِكْرِهم بآياتِ اللهِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

جعَل الله سبحانَه مصالحَ العبادِ في معاشِهم ومعادِهم، والثوابَ والعقابَ، والحدودَ والكفَّاراتِ، والأوامرَ والنواهيَ، والحلَّ والحرمةَ؛ كلَّ ذلك مرتبطًا بالأسبابِ، قائمًا بها، بل العبدُ نفسُه وصفاتُه وأفعالُه سببٌ لما يصدُرُ عنه، بل الموجوداتُ كلُّها أسبابٌ ومُسبَّباتٌ، والشَّرعُ كلُّه أسبابٌ ومُسبَّباتٌ، والمقاديرُ أسبابٌ ومُسبَّباتٌ، والقدرُ جارٍ عليها، متصرِّفٌ فيها، فالأسبابُ محلُّ الشرعِ والقدَرِ، والقرآنُ مملوءٌ مِن إثباتِ الأسبابِ، كقولِه تعالى: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾، وقولِه: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠]، وقولِه: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقوله: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ: ٢٦]، وقولِه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٢).

أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۞ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠]، إلى غيرِ ذلك وهذا أكثرُ مِن أنْ يُستوعَبُ(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ [الحاقة: ٤]، وقد جُمِعَ في الذِّكرِ هنا عدَّةُ أُمَمٍ تقدَّمَت قبْلَ بَعثةِ مُوسى عليه السَّلامُ إجمالًا وتَصريحًا، وخُصَّ منهم بالتَّصريحِ قومُ فِرعونَ والمؤتفكاتُ؛ لأنَّهم مِن أشهَرِ الأُمَمِ ذِكرًا عندَ أهلِ الكتابِ المختلِطينَ بالعرَبِ والنَّازِلينَ بجِوارِهم، فمِنَ العرَبِ مَن يَبلُغُه بعضُ الخبَرِ عن قِصَّتِهم(٢).

- وفي عطْفِ هؤلاء على ثَمودَ وعادٍ في سِياقِ ذِكرِ التَّكذيبِ بالقارعةِ إيماءٌ إلى أنَّهم تَشابَهوا في التَّكذيبِ بالقارعةِ، كما تَشابَهوا في المجيءِ بالخاطئةِ، وعِصيانِ رُسلِ ربِّهم، فحَصَل في الكلامِ احتِباكٌ(٣).

- والمرادُ بفِرعونَ: فِرعونُ الَّذي أُرسِلَ إليه مُوسى عليه السَّلامُ، وإنَّما

---

(١) ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

قال ابنُ القيِّمِ: (وقد جاء التعليلُ في الكتابِ العزيزِ بالباءِ تارةً، وباللامِ تارةً، وبـ «أنْ» تارةً، وبمجموعِهما تارةً، وبـ «كي» تارةً، ومِن أجلِ تارةً، وترتيبِ الجزاءِ على الشَّرطِ تارةً، وبالفاءِ المؤذنةِ بالسَّببيةِ تارةً، وترتيبِ الحكمِ على الوصفِ المقتضِي له تارةً، وبـ «لمَّا» تارةً، وبـ «أنَّ» المشددةِ تارةً، وبـ «لعلَّ» تارةً، وبالمفعولِ له تارةً). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٥١).

وذكَر مِن أمثلةِ الفاءِ المؤذنةِ بالسببيةِ قولَه تعالى: ﴿فَعَصَوْاْ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والاحتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نَظائرُ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

أُسنِدَ الخِطْءُ إليه؛ لأنَّ مُوسى أُرسِلَ إليه ليُطلِقَ بني إسرائيلَ مِن العُبوديَّةِ؛ قال تعالَى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧]، فهو المؤاخَذُ بهذا العِصيانِ، وتَبِعَه القِبطُ امتِثالًا لأمْرِه، وكذَّبوا مُوسى، وأعْرَضوا عن دَعوتِه[١].

- قولُه: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتَ﴾ قُرى لوطٍ الثَّلاثُ، وأُرِيدَ بالمؤتَفِكاتِ سُكَّانُها، وهم قومُ لُوطٍ، وخُصُّوا بالذِّكرِ؛ لشُهرةِ جَريمتِهم، ولِكَونِهم كانوا مَشهورينَ عندَ العرَبِ؛ إذ كانت قُراهم في طَريقِهم إلى الشَّامِ؛ قال تعالَى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا﴾ [الفرقان: ٤٠]. ووُصِفتْ قُرى قَومِ لوطٍ بالمؤتَفِكاتِ، جمعُ مؤتَفِكةٍ، اسمُ فاعِلٍ: ائْتَفَك، مُطاوِعُ أفَكَه، إذا قَلَبَه، فهي المُنقَلِباتُ، أي: قلَبَها قالِبٌ، أي: خُسِف بها؛ قال تعالى: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾[٢] [هود: ٨٢].

- والخاطئةُ: إمَّا مَصدرٌ بوزْنِ (فاعِلةٍ)، وهاؤُه هاءُ المرَّةِ الواحدةِ، فلمَّا استُعمِلَ مَصدرًا قُطِعَ النَّظَرُ عن المرَّةِ، فهو مَصدرُ (خَطِئَ)، إذا أذْنَبَ، والذَّنْبُ: الخِطْءُ. وإمَّا اسمُ فاعِلٍ (خَطِئَ)، وتأنيثُه بتأويلِ الفِعلةِ ذاتِ الخِطْءِ، فهاؤُه هاءُ تأْنيثٍ. والتَّعريفُ فيه تَعريفُ الجِنسِ على كِلا الوجهَينِ، فالمعْنى: جاء كلٌّ منهم بالذَّنْبِ المستحِقِّ للعِقابِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ تَفريعٌ على ذنْبِهم المعبَّرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢١).

عنه بالخاطئةِ تَفريعَ بَيانٍ على المبيَّنِ[١].

- يَجوزُ أنْ يَرجِعَ ضَميرُ (عَصَوا) إلى ﴿فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾. و﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ هو الرَّسولُ المرسَلُ إلى كلِّ قومٍ مِن هؤلاء؛ فإفرادُ ﴿رَسُولَ﴾ مُرادٌ به التَّوزيعُ على الجماعاتِ، أي: رسول اللهِ لكلِّ جماعةٍ منهم، والقرينةُ ظاهرةٌ، وهو أجْمَلُ نظْمًا مِن أنْ يُقالَ: (فعَصَوا رُسلَ ربِّهم)؛ لِما في إفرادِ رسولٍ مِن التَّفنُّنِ في صِيَغِ الكَلِمِ مِن جمْعٍ وإفرادٍ تَفاديًا مِن تَتابُعِ ثلاثةِ جُموعٍ؛ لأنَّ صِيغَ الجمْعِ لا تَخلو مِن ثِقَلٍ؛ لِقلَّةِ استعمالِها، وعكْسُه قولُه في سُورةِ (الفرقانِ) [الآية: ٣٧]: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ﴾، وإنَّما كذَّبوا رسولًا واحدًا، وقولُه: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وما بعْدَه في سُورةِ (الشُّعراءِ) [الآية: ١٠٥].

ويجوزُ أنْ يَرجِعَ ضَميرُ (عَصَوْا) إلى فرعونَ باعتبارِه رأسَ قومِه، فالضَّميرُ عائِدٌ إليه وإلى قَوْمِه، وعلى هذا الاعتبارِ في مَحَلِّ ضَميرِ (عَصَوْا) يكونُ المرادُ بـ﴿رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ مُوسى عليه السَّلامُ، وتَعريفُه بالإضافةِ لِما في لَفظِ المضافِ إليه مِن الإشارةِ إلى تَخطئتِهم في عِبادةِ فِرعونَ، وجَعْلِهم إيَّاهُ إلهًا لهم[٢].

- والرَّابيةُ: اسمُ فاعلٍ مِن رَبَا يَرْبو؛ إذا زاد، وعُبِّرَ بها عن الشِّدَّةِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ۝ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ لَمَّا شَمِلَ قولُه تعالَى: ﴿وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ [الحاقة: ٩] قومَ نوحٍ عليه السَّلامُ -وهم أوَّلُ الأُمَمِ كذَّبوا الرُّسلَ-، حسَّن اقتِضابَ التَّذكيرِ بأخْذِهم؛ لِما فيه مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢١، ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٢).

إدماجِ امتِنانٍ على جَميعِ النَّاسِ الَّذين تَناسَلوا مِن الفئةِ الَّذين نَجَّاهم اللهُ مِن الغَرَقِ؛ ليُتَخلَّصَ مِن كَونِه عِظةً وعِبرةً إلى التَّذكيرِ بأنَّه نِعمةٌ، وهذا مِن قَبيلِ الإدماجِ[1]، وقد بُنِيَ على شُهرةِ مُهْلَكِ قومِ نوحٍ اعتِبارُه كالمذكورِ في الكلامِ، فجُعِل شَرْطًا لـ﴿لَمَّا﴾ في قولِه: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، أي: في ذلك الوقتِ المعروفِ بطُغيانِ الطُّوفانِ[2].

- وطُغيانُ الماءِ مُعبَّرٌ به عن شِدَّتِه الخارقةِ للعادةِ، تَشبيهًا لها بطُغيانِ الطَّاغي على النَّاسِ تَشبيهَ تَقريبٍ؛ فإنَّ الطُّوفانَ أقوى شِدَّةً مِن طُغيانِ الطَّاغي[3].

- قولُه: ﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾، أي: حمَلْنا آباءَكُم في السَّفينةِ الجاريةِ؛ لأنَّهم إذا كانوا مِن نَسْلِ المحمولينَ النَّاجينَ، كان حمْلُ آبائِهم مِنَّةً عليهم، وكأنَّهم هم المحمولونَ؛ لأنَّ نَجاتَهم سَببُ وِلادتِهم[4].

- والمرادُ بحمْلِهم فيها رفعُهم فوقَ الماءِ إلى انقضاءِ أيَّامِ الطُّوفانِ، لا مُجرَّدُ رَفْعِهم إلى السَّفينةِ، كما يُعرِبُ عنهُ كلمةُ (في)؛ فإنَّها ليستْ بصِلةٍ للحمْلِ، بلْ مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ هو حالٌ مِن مَفعولِه، أي: رفَعْناكُم فوقَ الماءِ،

---

(١) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعَينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المَسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمَعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٢، ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠).

وحفِظْناكُم حالَ كونِكُم في السَّفينةِ الجاريةِ بأمْرِنَا وحِفْظِنا[١].

- والجاريةُ: صِفةٌ لمَحذوفٍ، وهو السَّفينةُ[٢].

- قولُه: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ فيه ذِكْرُ إحْدى الحِكَمِ والعِلَلِ لهذا الحمْلِ، وهي حِكمةُ تَذكيرِ البشَرِ به على تَعاقُبِ الأعصارِ؛ لِيَكونَ لهم باعثًا على الشُّكرِ، وعِظةً لهم مِن أسواءِ الكُفْرِ، ولِيُخبرَ بها مَن عَلِمَها قَومًا لم يَعلَموها، فتَعِيَها أسماعُهم[٣].

- قولُه: ﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ هذا تَعريضٌ بالمشركين؛ إذ لم يتَّعِظوا بخبَرِ الطُّوفانِ والسَّفينةِ الَّتي نَجَا بها المؤمنونَ، فتَلقَّوه كما يَتلقَّون القصصَ الفُكاهيَّةَ[٤].

- وقيل: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ على التَّوحيدِ والتَّنكيرِ؛ للإيذانِ بأنَّ الوُعاةَ فيهم قِلَّةٌ، ولتَوبيخِ النَّاسِ بقِلَّةِ مَن يَعِي منهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣).

## الآيات (١٢ - ١٨)

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ١٨﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرنِ الَّذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ[١].

﴿فَدُكَّتَا﴾: أي: فُتِّتَتَا وكُسِرَتا، وأصلُ (دكك): يدُلُّ على تَطامُنٍ وانسِطاحٍ[٢].

﴿وَاهِيَةٞ﴾: أي: ضعيفةٌ، يُقالُ: وهَى البِناءُ يَهِي وَهْيًا فهو واهٍ: إذا ضَعُف جدًّا. ويُقالُ: كلامٌ واهٍ، أي: ضعيفٌ. أو المعنى: مُنشَقَّةٌ مُتصَدِّعةٌ، يُقال: وهَى الشَّيءُ: إذا انخرَق، والوَهْيُ: شقٌّ في الأديمِ والثَّوبِ ونحوِهما. أو المعنى: مُسترخيةٌ ساقطةُ القوَّةِ، وكلُّ شيءٍ استرخى رِباطُه فقد وَهِيَ[٣].

﴿أَرۡجَآئِهَا﴾: أي جوانبِها ونواحيها، وأصلُ (رجو) هنا: يدُلُّ على ناحيةِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ٢٠٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٧، ٨٨٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مفصِّلًا أهوالَ يومِ القيامةِ: فإذا نَفَخ المَلَكُ يومَ القيامةِ في القَرْنِ الموَكَّلِ به نفخةً واحدةً، ورُفِعَت الأرضُ والجِبالُ وأُزيلَتا مِن أماكنِهما، فدُقَّتا دَقَّةً واحِدةً؛ فيَومَئذٍ تَقَعُ السَّاعةُ، وتتصَدَّعُ السَّماءُ وتَنشَقُّ، فتكونُ يومَ القيامةِ ضَعيفةً لا قُوَّةَ لها، مُتشَقِّقةً، لا تتماسَكُ، والملائِكةُ على أطرافِ السَّماءِ وحافَاتِها، ويَحمِلُ عَرْشَ رَبِّك فَوقَ رُؤوسِهم يومَئذٍ ثمانيةٌ مِنَ الملائِكةِ! يَومَئذٍ تُعرَضُونَ -أيُّها النَّاسُ- على اللهِ تعالى؛ لِمُحاسَبتِكم، ولا يَخفى عليه سُبحانَه أيُّ شَيءٍ مِن أُمورِكم!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تَعالى ما فَعَله بالمكذِّبين لرُسلِه، وكيف جازاهُم، وعجَّلَ لهم العُقوبةَ في الدُّنيا، وأنَّ اللهَ نجَّى الرُّسلَ وأتْباعَهم؛ كان هذا مُقدِّمةً لِذِكرِ الجزاءِ الأُخرويِّ، وتَوفيةِ الأعمالِ كاملةً يومَ القيامةِ، فذكَرَ أمْرَ الآخرةِ وما يَعرِضُ فيها لأهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاوةِ، وبدَأَ بالأمورِ الهائلةِ الَّتي تَقَعُ أمامَ القيامةِ، وأوَّلُ ذلك: أنَّه يَنفُخُ إسرافيلُ في الصُّورِ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تَعالى لَمَّا حكَى هذه القَصصَ السَّابقةَ، ونبَّهَ بها على ثُبوتِ القُدرةِ والحِكمةِ له سُبحانَه؛ فحينَئذٍ ثَبَت بثُبوتِ القُدرةِ إمكانُ القِيامةِ، وثَبَت بثُبوتِ الحِكمةِ إمكانُ وُقوعِ القيامةِ. ولَمَّا ثَبَت ذلك؛ شَرَع سُبحانَه في تَفاصيلِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

أحوالِ القيامةِ، فذَكَر أوَّلًا مُقدِّماتِها[١].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣﴾.

أي: فإذا نَفَخ المَلَكُ في القَرنِ الموَكَّلِ به، نفخةً واحدةً لا يُحتاجُ لحُصولِ المُرادِ منها إلى تَكَرُّرِها؛ فأمْرُ الله لا يُخالَفُ ولا يُمانَعُ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٥).

قيل: المرادُ: النَّفخةُ الأولى. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والبيضاوي، والخازن، وابن جُزَي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣).

قال الرَّسْعَني: (قال عَطاءٌ: هي النَّفخةُ الأولى؛ لأنَّ عندَها خرابُ هذا العالَمِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥٦).

وقال القرطبي: (قال ابنُ عبَّاسٍ: هي النَّفخةُ الأولى لقيامِ السَّاعةِ، فلم يَبْقَ أحدٌ إلَّا مات). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٤).

ممَّن نص على أنَّها نفخةُ الفزَعِ: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان، والكوراني. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٧)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٢١).

قال أبو حيَّان: (هذه النَّفخةُ نفخةُ الفزَعِ. قال ابنُ عبَّاسٍ: وهي النَّفخةُ الأولى الَّتي يَحصُلُ عنها خرابُ العالَمِ، ويؤيِّدُ ذلك قولُه: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٧).

وقال ابن عطيَّة: (والنَّفخةُ المُشارُ إليها في هذه الآيةِ: نفخةُ القيامةِ الَّتي للفزَعِ، ومعها يكونُ الصَّعقُ، ثمَّ نفخةُ البعثِ، وقيل: هي نفَخاتٌ ثلاثةٌ: نفخةُ الفزَعِ، ونفخةُ الصَّعقِ، ثمَّ نفخةُ البعثِ، والإشارةُ بآياتنا هذه إلى نفخةِ الفزَعِ؛ لأنَّ حمْلَ الجبالِ هو بَعْدَها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٨).

=

عن عَبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قَرنٌ يُنفَخُ فيه))(١).

---

= وقال النَّسَفي: (هي النَّفخةُ الأولى، ويموتُ عندَها النَّاسُ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٠). ويُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (١/ ٥٧٩).

وقيل: هي النَّفْخةُ الآخِرةُ نفخةُ البعثِ والنُّشورِ والقيامِ لرَبِّ العالَمينَ؛ للفصلِ بيْن الخلائقِ. وممَّن ذهب إلى هذا في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنِين، والطُّوفي، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢٨)، ((الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية)) للطوفي (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

قال أبو حيَّان: (وعلى هذا لا يكونُ الدَّكُّ بعدَ النَّفخِ، والواوُ لا ترتِّبُ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٧).

لكنْ قال الألوسي بعدَ أنْ ذكَر أنَّ القولَ الأوَّلَ هو المناسِبُ لمَا بَعْدُ: (وإن كانت الواوُ لا تدُلُّ على التَّرتيبِ، لكنْ مُخالَفةُ الظَّاهرِ مِن غيرِ داعٍ ممَّا لا حاجةَ إليه). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٩).

وقال الطوفي: (هذه نفخةُ البعثِ في وقتِها الخاصِّ، بدليلِ تنزيلِ الملائكةِ، وظُهورِ عرشِ الرَّحمنِ جلَّ جلالُه). ((الإشارات الإلهية إلي المباحث الأصولية)) (ص: ٦٥٤).

وقال الرَّسْعَني: (قال ابنُ السَّائبِ ومقاتلٌ: هي النَّفخةُ الثَّانيةُ؛ لقولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨] عَقِيبَ ذِكرِ النَّفخةِ.

ويُجابُ عن هذا بأن يقالَ: المرادُ بقولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الحينُ الواسعُ الَّذي يقعُ فيه [النَّفختانِ] والنُّشورُ والحسابُ، كما تقولُ: رأيتُه في عامِ كذا، أو في يومِ كذا، وإنَّما كانت رؤيتُك إيَّاه في جزءٍ منه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٢).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥).

وقد اختلَف العلماءُ في عددِ النَّفخِ في الصُّورِ. يُنظر ما تقدَّم في هذا التَّفسيرِ: (٢٢/ ٣٨٠).

(١) أخرجه أبو داودَ (٤٧٤٢)، وأحمدُ (٦٥٠٧) باختلافٍ يسيرٍ، والترمذيُّ (٢٤٣٠)، والنسائيُّ (١١٤٥٦) واللَّفظُ لهما.

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، وذكر ثبوتَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠).

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كيف أنعَمُ وقد التَقَم صاحِبُ القَرنِ القَرْنَ، وحنَى جَبهتَه، وأصغى سَمْعَه، ينتَظِرُ أن يُؤمَرَ أن يَنفُخَ، فيَنفُخُ. قال المسلِمونَ: فكيف نقولُ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ رَبِّنا))(١).

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾﴾.

أي: وإذا رُفِعَت الأرضُ والجِبالُ وأُزيلَتا مِن أماكِنِهما، فدُقَّتا دَقَّةً واحِدةً شَديدةً حتَّى تفتَّتتا وكُسِرتا(٢).

كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١].

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٢٤٣) واللَّفظُ له، وأحمدُ (١١٠٣٩).

حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٥).

قال أبو حيَّان: (المرادُ جملةُ الأرضِ وجُملةُ الجِبالِ، أي: ضُرِبَ بَعضُها ببعضٍ حتَّى تفتَّتَت). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٨).

وقال البِقاعي: (﴿فَدُكَّتَا﴾ أي: مُسِحَت الجُمْلَتانِ؛ الأرضُ وأوتادُها، وبُسِطَتا ودُقَّ بَعضُها ببعضٍ ﴿دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: فصارَتا كَثِيبًا مَهيلًا، وسُوِّيَتا بأيسَرِ أمرٍ، فلم يُمَيَّزْ شَيءٌ منهما مِن الآخَرِ، بل صارَا في غايةِ الاستواءِ، مِن قولِهم: ناقةٌ دكَّاءُ، أي: لا سَنامَ لها، وأرضٌ دكَّاءُ، أي: مُتَّسِعةٌ مُستويةٌ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٥٣).

قال السمعاني: (﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ أي: زُلْزِلَتا زَلْزَلةً واحدةً. وَيُقَال: فُتَّتَا فتةً واحدةً. وقيل: ضُرِب أحَدُهما بالآخَرِ فانهَدَمَتا وهلَكَتا). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٧).

وقال ابنُ كثير بِناءً على تفسيرِه للنَّفخةِ بأنَّها نفخةُ البعثِ والنُّشورِ: (﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾، أي: فمُدَّتْ مَدَّ الأديمِ العُكاظي [نسبة الى عُكاظ]، وتَبَدَّلت الأرضُ غيرَ الأرضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١).

وقيل: بُسِطَتا بسطةً واحدةً، فصارَتا أرضًا لا تَرى فيها عِوَجًا ولا أَمْتًا، مِن قولِك: اندَكَّ السَّنامُ، إذا انفَرَش. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١).

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾﴾.

أي: فيومَ يُنفَخُ في الصُّورِ، وتُدَكُّ الأرضُ والجِبالُ، تَقَعُ السَّاعةُ، وتقومُ القيامةُ حينَئذٍ[١].

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ اللهُ تعالى تأثيرَ النَّفخةِ في العالَمِ السُّفليِّ؛ ذكَر العلويَّ، فقال[٢]:

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

أي: وتتصَدَّعُ السَّماءُ وتَنشَقُّ، فتكونُ يومَ القيامةِ مُتشَقِّقةً ضَعيفةً خَفيفةً لا تتماسَكُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

ممَّن اختار أنَّ ﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: ضعيفةٌ: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والسمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: ٣٧].

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾.

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾.

أي: ويكونُ الملائِكةُ على أطرافِ السَّماءِ وحافَاتِها حينَ تَنشَقُّ، خاضِعينَ للهِ، مُستَكينينَ لعَظَمتِه(١).

---

= الرسعني)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٩٤).

ممَّن اختار أنَّ ﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: مُتشَقِّقةٌ مُتصَدِّعةٌ: الفرَّاءُ، وابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٧٣).

وقال السمرقندي: (ضعيفةٌ مُنشَقَّةٌ متمَزِّقةٌ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٠).

وقال ابن عبَّاس: متمزِّقةٌ ضعيفةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٥).

وقيل: المعنى: ضعيفةٌ، ساقطةُ القوَّةِ، مسترخيةٌ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرازي، والبيضاوي، والنَّسَفي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٧).

وقال البِقاعي: (﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: ضعيفةٌ مُتساقِطةٌ، خفيفةٌ لا تَتماسَكُ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٧).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾ معنى الأرجاءِ في اللُّغةِ: النَّواحي... والمفسِّرون يَقولون: على حَافَاتِها وأطرافِها ونَواحيها وأقطارِها. كلُّ هذا مِن ألفاظِهم). ((البسيط)) (٢٢/ ١٥٦).

وقال ابن عطية: (قال جمهورُ المفسِّرينَ: الضَّميرُ في ﴿أَرۡجَآئِهَا﴾ عائدٌ على السَّماءِ، أي: الملائكةُ على نَواحيها وما لم يَهِ منها ... وقال الضَّحَّاكُ أيضًا وابنُ جُبَيرٍ: الضَّميرُ في ﴿أَرۡجَآئِهَا﴾ عائدٌ على الأرضِ وإن كان لم يتقدَّمْ لها ذِكرٌ قريبٌ؛ لأنَّ القصَّةَ واللَّفظَ يَقتضي إفهامَ ذلك). =

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴾.

أي: ويَحمِلُ عَرْشَ رَبِّك فَوقَ رُؤوسِهم يومَ القيامةِ ثمانيةٌ مِنَ الملائِكةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر: ٧].

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن ملَكٍ مِن ملائكةِ اللهِ مِن حَمَلةِ العَرشِ، إنَّ ما بيْنَ شَحْمةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةَ سبعِمِئةِ عامٍ!))[2].

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾.

أي: يَومَ القيامةِ الَّذي تقَعُ فيه جميعُ تلك الأمورِ تُعرَضُونَ -أيُّها النَّاسُ- على

---

= ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ بالثَّمانيةِ الَّذين يحمِلونَ العَرشَ: ثمانيةٌ مِن الملائِكةِ؛ فقيل: ثمانيةُ شُخوصٍ. وقيل: ثمانيةُ صُفوفٍ... وهذا مِن أحوالِ الغَيبِ الَّتي لا يتعَلَّقُ الغَرَضُ بتَفصيلِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٧).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٧٢٧) واللَّفظُ له، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٤٤٢١) بلفظ: ((سبعين))، والبيهقيُّ في ((الأسماء والصفات)) (٨٤٦).

صحَّح إسنادَه الذَّهبيُّ في ((العلو)) (ص: ٩٧)، وجوَّد إسنادَه ابنُ كثير في ((تفسير القرآن)) (٨/ ٢٣٩)، وقال ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٣٣): (إسنادُه على شرطِ الصَّحيحِ)، وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٧٢٧).

اللهِ تعالى؛ لِمُحاسَبتِكم دونَ أن يَخفى عليه أيُّ شَيءٍ مِنكم[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا * وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ﴾ [الكهف: ٤٧، ٤٨].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ سؤالٌ: أنَّه ليس في القرآنِ لفظةٌ زائدةٌ لا تُفيدُ معنًى، ولا كلمةٌ قد فُهِمَ معناها ممَّا قَبْلَها فأُعِيدتْ لا لمعنًى، أو لمجرَّدِ التَّأكيدِ المَحْضِ دونَ فائدةٍ جديدةٍ! فما وجْهُ ذِكْرِ النَّفخةِ الواحدةِ والدَّكَّةِ الواحدةِ؟

**الجوابُ**: أنَّ ذلك ليس على وجهِ التَّأكيدِ المُجَرَّدِ، بلِ المرادُ: التَّقييدُ بالمَرَّةِ الواحدةِ، ولَمَّا كانتِ النَّفخةُ قد يُرادُ بها الواحدةُ مِن الجنسِ، وقد يُرادُ بها مُطْلَقَة -كما في البقلةِ، وحَبَّةِ الحِنطةِ، واللَّعْنةِ، والهِمَّةِ، ونحوِها- وكان المرادُ التَّقييدَ بالمَرَّةِ الواحدةِ مِن هذا الجنسِ؛ أتَى بالواحدةِ لِيَدُلَّ على هذا المعنى، أي: أنَّ النَّفخَ لم يكنْ نفختَينِ، ولم يَكُ دَكُّ الأرضِ والجبالِ بعْدَ حمْلِهما دكَّتَينِ، بل واحِدةً فقط؛ فِعْلَ المُقْتَدِرِ على الشَّيءِ المتمكِّنِ منه، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ [يس: ٢٩] أي: لم يُتابِعْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٢، ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).
قال السعدي: (﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ على الله ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ لا مِن أجسامِكم وأجسادِكم، ولا مِن أعمالِكم وصِفاتِكم؛ فإنَّ اللهَ تعالى عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ، ويَحشُرُ العِبادَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا، في أرضٍ مستويةٍ، يُسْمِعُهم الدَّاعي، ويَنْفُذُهم البصرُ، فحينَئذٍ يُجازيهم بما عَمِلوا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

عليهمُ الصَّيحةَ، بل أهلكَهم مِن صَيحةٍ واحِدةٍ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَا﴾ فيه سُؤالٌ: الملائِكةُ يموتونَ في الصَّعقةِ الأُولى؛ لقَولِه تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٦٨] -وذلك على القول بأنَّ المرادَ بالنَّفخةِ: الأولى-، فكيف يُقالُ: إنَّهم يَقِفونَ على أرجاءِ السَّماءِ؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّهم يَقِفونَ لحظةً على أرجاءِ السَّماءِ، ثمَّ يموتونَ.

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّ المرادَ الَّذين استثناهم اللهُ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢] [الزمر: ٦٨].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ رَدٌّ على مَن يَزْعُمُ -مِن المعتزلةِ- أنَّ العَرشَ مُلْكُه، فكيف يكونُ مُلْكُه محمولًا؟! أَمْ كيف يكونُ الملائكةُ خارجينَ مِن المُلْكِ؟! فقد بان بغيرِ إشكالٍ أنَّه السَّريرُ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾

- هو شُروعٌ في بَيانِ نفْسِ الحاقَّةِ، وكَيفيَّةِ وُقوعِها، إثرَ بَيانِ عِظَمِ شأْنِها بإهلاكِ مُكذِّبيها[٤].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٣).
ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٥٨، ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٤).

- والفاءُ في ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ لتَفريعِ ما بعْدَها على التَّهويلِ الَّذي صُدِّرت به السُّورةُ مِن قولِه: ﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١- ٣]، فعُلِمَ أنَّه تَهويلٌ لأمْرِ العذابِ الَّذي هُدِّد به المشركون مِن أمثالِ ما نال أمْثالَهم في الدُّنيا ومِن عَذابِ الآخرةِ الَّذي يَنتظِرُهم، فلمَّا أتمَّ تَهديدَهم بعَذابِ الدُّنيا؛ فرَّعَ عليه إنْذارَهم بعَذابِ الآخرةِ الَّذي يحُلُّ عندَ القارعةِ الَّتي كذَّبوا بها كما كذَّبت بها ثَمودُ وعادٌ، فحَصَل مِن هذا بَيانٌ للقارعةِ بأنَّها ساعةُ البعثِ، وهي الواقعةُ[1]. وهذا على القولِ بأنَّ المرادَ بالنَّفخةِ نفخةُ البعثِ والنُّشورِ.

- وإنَّما حسُنَ إسنادُ الفِعلِ ﴿نُفِخَ﴾ إلى المصدرِ ﴿نَفْخَةٌ﴾؛ لتَقيُّدِه بالوحدةِ والمرَّةِ لا نفخًا مجرَّدًا مبهَمًا، وحسُنَ تَذكيرُه؛ للفصْلِ؛ ولأنَّ تأنيثَ النَّفخِ غيرُ حقيقيٍّ[2].

- قولُه: ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ وصْفُ النَّفخةِ بواحدةٍ تأكيدٌ لإفادةِ الوَحدةِ مِن صِيغةِ الفَعلةِ؛ تَنْصيصًا على الوَحدةِ المفادةِ مِن التَّاءِ، والتَّنصيصُ على هذا للتَّنبيهِ على التَّعجيبِ مِن تأثُّرِ جَميعِ الأجسادِ البشريَّةِ بنَفخةٍ واحدةٍ دَونَ تَكريرٍ؛ تَعجيبًا من عَظيمِ قُدرةِ الله ونُفوذِ أمْرِه؛ لأنَّ سِياقَ الكلامِ مِن مَبدأِ السُّورةِ تَهويلُ يَومِ القيامةِ، فتَعدادُ أهوالِه مَقصودٌ، ومِن أجْلِ القصدِ إليه هنا لم يُذكَرْ وصْفُ واحدٍ في قولِه تعالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ في سُورةِ (الرُّوم) [الآية: ٢٥]، فحصَلَ مِن ذِكرِ ﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ تأْكيدُ معْنى النَّفخِ، وتأْكيدُ معْنى الوَحدةِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير الخلوتي)) (١٠/ ١٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٠).

فليس المرادُ بوَصْفِها بواحدةٍ أنَّها غيرُ مُتْبَعةٍ بثانيةٍ؛ فقد جاء في آياتٍ أُخرى أنَّهما نَفختانِ، بل المرادُ أنَّها غيرُ مُحتاجٍ حُصولُ المرادِ منها إلى تَكرُّرِها؛ كِنايةً عن سُرعةِ وُقوعِ الواقعةِ، أي: يومِ الواقعةِ. وأمَّا ذِكرُ كَلمةِ ﴿نَفۡخَةٞ﴾ فلِيَتأتَّى إجراءُ وصْفِ الوَحدةِ عليها، فذِكرُ ﴿نَفۡخَةٞ﴾ تَبَعٌ غيرُ مَسوقٍ له الكلامُ، فتَكونُ هذه النَّفخةُ هي الأُولى -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهي المؤْذِنةُ بانقراضِ الدُّنيا، ثمَّ تقَعُ النَّفخةُ الثَّانيةُ الَّتي تكونُ عندَ بَعثِ الأمواتِ[١].

- وقد أكَّد النَّفخةَ بأنَّها ﴿وَٰحِدَةٞ﴾؛ لأنَّ أمرَ الله لا يُخالَفُ ولا يُمانَعُ، ولا يحتاجُ إلى تَكرارٍ وتأكيدٍ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾

- بُنِيَت أفعالُ ﴿نُفِخَ﴾، ﴿وَحُمِلَتِ﴾، و﴿فَدُكَّتَا﴾ للمجهولِ؛ لأنَّ الغرَضَ مُتعلِّقٌ ببَيانِ المفعولِ لا الفاعلِ، أو للعِلمِ بالفاعلِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾

- قولُه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ﴾ تأْكيدٌ لمعْنى ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ...﴾ إلخ؛ لأنَّ تَنوينَ (يومَئذٍ) عِوَضٌ عن جُملةٍ تدُلُّ عليها جُملةُ ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ إلى قولِه: ﴿دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾، أي: فيومَ إذ نُفِخَ في الصُّورِ... إلى آخِرِه، وَقَعَت الواقعةُ، وهو تأْكيدٌ لَفظيٌّ بمُرادِفِ المؤكَّدِ؛ فإنَّ المُرادَ بـ (يوم) مِن قولِه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ مُطلَقُ الزَّمانِ، كما هو الغالبُ في وُقوعِه مُضافًا إلى (إذا)[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٥، ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٦).

- قولُه: ﴿وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾، أي: تَحقَّقَ ما كان مُتوقَّعًا وُقوعُه؛ لأنَّهم كانوا يُتوعَّدون بواقعةٍ عَظيمةٍ، فيومَئذٍ يَتحقَّقُ ما كانوا يُتوعَّدون به، فعُبِّرَ عنه بفِعلِ المُضيِّ؛ تَنبيهًا على تَحقيقِ حُصولِه، والمعْنى: فحينَئذٍ تقَعُ الواقعةُ[1].

- والواقعةُ: مُرادِفةٌ للحاقَّةِ والقارعةِ، فذِكرُها إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ التَّهويلِ، وإفادةِ ما تَحْتوي عليه مِن الأحوالِ الَّتي تُنبِئُ عنها مَواردُ اشتِقاقِ أوصافِ الحاقَّةِ والقارعةِ والواقعةِ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مَعطوفًا على جُملةِ ﴿نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، فيكونَ مُلحَقًا بشرْطِ (إذا)، وتأْخيرُ عطْفِه مِن أجْلِ ما اتَّصَلَ بهذا الانشقاقِ مِن وصْفِ الملائكةِ المحيطينَ بها، ومِن ذِكرِ العرشِ الَّذي يُحيطُ بالسَّمواتِ، وذِكرِ حَمَلتِه[3].

- وتَقييدُ الوَهْيِ بـ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يُفيدُ أنَّ الوَهْيَ طرَأَ عليها بعْدَ أنْ كانتْ صُلْبةً بتَماسُكِ أجْزائِها، أي: فهي يومَئذٍ مَطروقةٌ مَسلوكةٌ[4].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ المَلَكُ: أصْلُه الواحدُ مِن الملائكةِ، وتَعريفُه هنا تَعريفُ الجِنسِ، وهو في معْنى الجمْعِ، أي: جِنسُ المَلَكِ، أي: جَماعةٌ مِن الملائكةِ، أو جميعُ الملائكةِ إذا أُريدَ الاستِغراقُ، والمَلَكُ أعمُّ مِن الملائكةِ، ألَا تَرى أنَّ قولَك: ما مِن مَلَكٍ إلَّا وهو شاهدٌ، أعمُّ مِن قولِك: ما مِن ملائكةٍ، واستِغراقُ المفردِ أصرَحُ في الدَّلالةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢٧).

الشُّمولِ[١]. أو إنَّما جِيءَ به مُفرَدًا؛ لأنَّه أخفُّ[٢].

- ويَتعلَّقُ ﴿فَوْقَهُمْ﴾ بقولِه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ﴾، وهو تأْكيدٌ لِما دلَّ عليه (يَحْمِلُ) مِن كونِ العرْشِ عاليًا[٣].

- قولُه: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ كأنَّ الدَّاعيَ إلى ذِكرِ الحَمَلةِ إجْمالًا هو الانتِقالُ إلى الإخبارِ عن عرْشِ اللهِ؛ لئلَّا يكونَ ذِكرُه اقتِضابًا بعْدَ ذِكرِ الملائكةِ[٤].

- إضافةُ عرْشٍ إلى اللهِ تعالَى في قولِه: ﴿عَرْشَ رَبِّكَ﴾ إضافةُ تَشريفٍ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾

- جُملةُ ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ مُستأنَفةٌ، أو هي بَيانٌ لجُملةِ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾، أو بدَلُ اشتِمالٍ منها[٦].

- والعرْضُ: إمرارُ الأشياءِ على مَن يُريدُ التَّأمُّلَ منها، مِثلُ عرْضِ السِّلعةِ على المشتري، وعرْضِ الجَيشِ على أميرِه، وأُطلِقَ هنا كِنايةً عن لازِمِه، وهو المحاسَبةُ، مع جَوازِ إرادةِ المعْنى الصَّريحِ[٧].

- وتأْنيثُ ﴿خَافِيَةٌ﴾؛ لأنَّه وصْفٌ لموصوفٍ مُؤنَّثٍ يُقدَّرُ بالفَعلةِ مِن أفعالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢٩).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٢٨).

العِبادِ، أو يُقدَّرُ بنفْسٍ، أي: لا تَختبِئُ مِن الحسابِ نفْسٌ، أي: أحدٌ، ولا يَلتبِسُ كافرٌ بمؤمنٍ، ولا بارٌّ بفاجرٍ[1].

- وتَكريرُ لَفظِ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ لتَهويلِ ذلك اليومِ الَّذي مَبْدؤُه النَّفخُ في الصُّورِ، ثمَّ يَعقُبُه ما بعْدَه ممَّا ذُكِر في الجُمَلِ بعْدَه، فقدْ جَرى ذِكرُ ذلك اليوم خمْسَ مرَّاتٍ؛ لأنَّ ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ تَكريرٌ لـ (إذا) مِن قولِه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾؛ إذ تَقديرُ المضافِ إليه في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ هو مَدلولُ جُملةِ ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، فقدْ ذُكِرَ زَمانُ النَّفخِ أوَّلًا، وتَكرَّرَ ذِكرُه بعْدَ ذلك أربعَ مرَّاتٍ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٩-٢٤)

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَآؤُمُ﴾: أي: خُذُوا أو تعالَوا[١].

﴿قُطُوفُهَا﴾: جمعُ قِطْفٍ، أي: ثَمَرُها، وأصلُ (قطف): يدُلُّ على أخذِ ثَمرةٍ مِن شَجرةٍ[٢].

﴿دَانِيَةٌ﴾: أي: قريبَةُ المتناوَلِ، تُنالُ على كلِّ حالٍ مِن قيامٍ وقعودٍ واضطجاعٍ، ولا يَمنَعُ منها بُعْدٌ ولا شوكٌ، والدُّنوُّ: القُربُ بالذَّاتِ، أو بالحُكمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمنزلةِ، وأصلُ (دنو): المُقارَبةُ[٣].

﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾: أي: لا تكديرَ عليكم، ولا تنغيصَ، والهَنيءُ: كلُّ ما لا يَلحَقُ فيه مَشَقَّةٌ، ولا يُعقِبُ وخامةً، وأصلُه في الطَّعامِ، يُقالُ: هَنِئَ الطَّعامُ فهو هَنِيءٌ، وأصلُ (هنأ): يدُلُّ على إصابةِ خَيرٍ مِن غيرِ مشَقَّةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤، ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير السمعاني)) (١/ ٣٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٦).

﴿أَسۡلَفۡتُمۡ﴾: أي: قدَّمْتُم، والسَّلَفُ: المتقدِّمُ، وأصلُ (سلف): يدُلُّ على تَقَدُّمٍ وسَبْقٍ[١].

﴿ٱلۡخَالِيَةِ﴾: أي: الماضيةِ في الدُّنيا، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تعَرِّي الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى ما أعدَّه لِمَن أُوتيَ كتابَه بيَمينِه في هذا اليَومِ، فيقولُ: فأمَّا مَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بيَمينِه فيَقولُ مُستَبشِرًا فَرِحًا: خُذُوا اقرؤُوا كتابي، وانظُروا ما فيه مِن حَسَناتي! إنِّي تيَقَّنْتُ في الدُّنيا أنِّي سأُبعَثُ وأَلْقَى حِسابي يومَ القيامةِ؛ فهو في عِيشةٍ حَسَنةٍ، في جنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، عاليةِ المباني والقُصورِ والأشجارِ، ثمارُها قَريبةٌ، يَسهُلُ تَناوُلُها، يُقالُ لهم: كُلُوا واشرَبوا مُتهَنِّئينَ بسببِ ما قدَّمْتُموه مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ في أيَّامِ الدُّنيا الماضيةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أنْ ذكَر الله تعالى أنَّهم يُعرَضونَ عليه، ولا يَخفَى عليه شيءٌ مِن أعمالِهم- فصَّل أحكامَ هذا العرضِ[٣]، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٩/ ٥٦).

أي: فأمَّا مَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بيَدِه اليُمنى -وذلك دليلُ نَجاتِه- فإنَّه يقولُ فَرِحًا مُستَبشِرًا: خُذُوا اقرؤُوا كتابي، وانظُروا ما فيه مِن حَسَناتي[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧ - ٩].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٠، ١٣١).

قال البِقاعي: (خُذُوا أيُّها الحاضِرونَ مِنَ الخَلائِقِ الملائِكةُ وغَيرُهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٦٠).

وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ في قولِه: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟﴾ للصَّالحينَ مِن أهلِ المَحشَرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣١).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿هَآؤُمُ﴾: خُذُوا: الزمخشريُّ، والرازي، والرَّسْعَني، والبيضاوي، وابن كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، وجلال الدين المحلي، ونسَبَه الواحديُّ إلى أهلِ اللُّغةِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٦).

وقيل: معنى قَولِه: ﴿هَآؤُمُ﴾: تعالَوا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣١).

وقال ابنُ عاشور: (﴿هَآؤُمُ﴾ بتَصاريفِه مُعَتَبرٌ اسمَ فِعلِ أمرٍ، بمعنى: خُذْ... وبمعنى: تعالَ أيضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣١).

وقال السعدي: (﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: دُونَكم كِتابي فاقرَؤُوه؛ فإنَّه يُبشِّرُ بالجنَّاتِ، وأنواعِ الكراماتِ، ومَغفرةِ الذُّنوبِ، وسَترِ العُيوبِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْني المؤمِنَ، فيَضَعُ عليه كَنَفَه[١] ويَستُرُه، فيقولُ: أتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذا؟ أتعرِفُ ذَنبَ كَذا؟ فيقولُ: نعم، أيْ رَبِّ! حتَّى إذا قرَّرَه بذُنوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هَلَك، قال: سترْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ، فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه))[٢].

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ٢٠﴾.

أي: إنِّي كُنتُ قد عَلِمتُ وأيقَنْتُ في الدُّنيا أنِّي سأُبعَثُ، وألْقَى حِسابي يومَ القيامةِ، فحرَصْتُ على القيامِ بالصَّالحاتِ؛ تأهُّبًا لذلك اليَومِ[٣].

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١﴾.

أي: فهو في عِيشةٍ حَسَنةٍ، شَديدُ الرِّضا بها، قد وَجَد فيها عظيمَ الثَّوابِ، والأمنَ والسَّلامةَ مِن العِقابِ[٤].

---

(١) كَنَفَه: سَتْرَه. يُنظر: ((خلق أفعال العباد)) للبخاري (ص: ٧٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٧).

(٢) رواه البخاري (٢٤٤١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

قال ابنُ عطية: (﴿ظَنَنتُ﴾ هنا واقِعةٌ موقِعَ تيقَّنْتُ، وهي في متيقَّنٍ لم يقَعْ بَعدُ ولا خرجَ إلى الحِسِّ، وهذا هو بابُ الظَّنِّ الَّذي يوقَعُ مَوقِعَ اليَقينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣١، ١٣٢).

قال القرطبي: (﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ أي: أيقَنْتُ وعَلِمتُ، عن ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه. وقيل: أي: إنِّي ظننتُ إنْ يؤاخِذْني اللهُ بسَيِّئاتي عذَّبَني، فقد تفضَّل علَيَّ بعَفوِه ولم يؤاخِذْني بها). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٢، ١٣٣). =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن يَدخُلُ الجنَّةَ يَنْعَمُ لا يَبْأَسُ، لا تَبْلى ثيابُه، ولا يَفْنى شَبابُه))(١).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُنادي مُنادٍ: إنَّ لكم أن تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبَدًا، وإنَّ لكم أن تَحْيَوا فلا تَموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهرَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأَسوا أبدًا))(٢).

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾﴾.

---

= ممَّن اختار أنَّ ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ بمعنى مَرْضيَّة: الفرَّاءُ، وأبو عُبَيدةَ، وابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنين، والثعلبيُّ، والماوَرْدي، والبغوي، وابنُ كثير، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٢/ ١٦)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٤٦).

قال ابن جرير: (في عِيشةٍ مَرْضيَّةٍ، أو عيشةٍ فيها الرِّضا، فوُصِفَتِ العيشةُ بالرِّضا وهي مَرْضيَّةٌ؛ لأنَّ ذلك مدحٌ للعِيشةِ، والعربُ تفعلُ ذلك في المدحِ والذَّمِّ، فتقولُ: هذا لَيلٌ نائم، وسرٌّ كاتمٌ، وماءٌ دافِقٌ، فيُوَجِّهونَ الفعلَ إليه، وهو في الأصلِ مفعولٌ؛ لِما يُرادُ مِن المدحِ أو الذَّمِّ. ومَن قال ذلك لم يَجُزْ له أن يقولَ للضَّاربِ مَضروبٌ، ولا للمَضروبِ ضارِبٌ؛ لأنَّه لا مدحَ فيه ولا ذَمَّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣).

وقال السَّمعانيُّ وأبو حيَّانَ: ذات رضا. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١).

وقال الزَّجَّاجُ في نظيرِ هذه الآيةِ مِن سورةِ القارعة الآية (٧): (معنى ﴿فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾: ذاتِ رِضًا، يَرضاها مَن يعيشُ فيها. وقال قومٌ: معناه: مَرْضيَّةٍ، وهو يعودُ إلى هذا المعنى في التَّفسيرِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٥٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٣).

ويُنظر ما سيأتي في البلاغةِ (ص: ٧٦).

(١) رواه مسلم (٢٨٣٦).

(٢) رواه مسلم (٢٨٣٧).

أي: في جنَّةٍ مُرتَفِعةِ المكانِ، عاليةِ المباني والقُصورِ والأشجارِ[١].

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَصَفَها بالعُلُوِّ، وشأنُ المكانِ العالي أن تكونَ أشجارُه كذلك، فأزال ذلك بأنَّها مع عُلُوِّها فثِمارُها قريبةُ التَّناوُلِ، سَهلةُ المأخَذِ[٢].

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ثمارُ أشجارِ تلك الجنَّةِ قَريبةٌ، يَسهُلُ تَناوُلُها لِمَن يُريدُ قَطْفَها؛ فلا كُلْفةَ ولا مَشقَّةَ عليهم في أخْذِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمن: ٥٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

قال الزمخشري: (﴿عَالِيَةٍ﴾ مُرتفعةِ المكانِ في السَّماءِ، أو رفيعةِ الدَّرَجاتِ، أو رفيعةِ المباني والقُصورِ والأشجارِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٣).

وقال السعدي: (﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ المنازلِ والقصورِ، عاليةِ المحلِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

وقال البقاعي: (﴿عَالِيَةٍ﴾ أي: في المكانِ والمكانةِ والأبنيةِ والدَّرَجاتِ والأشجارِ، وكُلِّ اعتبارٍ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٨١). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٣).

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ ٢٤﴾.

أي: يُقالُ لأهلِ الجنَّةِ: كُلُوا مِن طعامِ الجنَّةِ، واشرَبوا مِن شَرابِها، مُتهَنِّئينَ في أكْلِكم وشُربِكم بالطَّيِّبِ اللَّذيذِ الَّذي لا يَصحَبُه أذًى ولا تكديرٌ ولا تنغيصٌ، وهذا الجزاءُ المقدَّمُ لكم؛ بسَبَبِ ما قدَّمْتُموه مِن الأعمالِ الصَّالحةِ في أيَّامِ الدُّنيا الماضيةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ * لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢، ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- يُستحَبُّ تقديمُ اليمينِ في كلِّ ما هو مِن بابِ التَّكريمِ؛ كالوُضوءِ، والغُسلِ، والتَّيمُّمِ، ولُبسِ الثَّوبِ والنَّعلِ والخُفِّ والسَّراويلِ، ودُخولِ المَسجِدِ، والسِّواكِ، والاكتِحالِ، وتقليمِ الأظفارِ، وقَصِّ الشَّارِبِ، ونَتْفِ الإبْطِ، وحَلْقِ الرَّأسِ، والسَّلامِ مِنَ الصَّلاةِ، والأكلِ والشُّربِ، والمصافَحةِ، واستِلامِ الحَجَرِ الأسوَدِ، والخُروجِ مِنَ الخَلاءِ، والأخْذِ والعَطاءِ، وغيرِ ذلك ممَّا هو في معناه؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ * وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ [الواقعة: ٨، ٩]، وعن عائشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعجِبُه التَّيَمُّنُ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).
قال ابن عطيَّة: (قال وكيعٌ وابنُ جُبَيرٍ وعبدُ العزيزِ بنُ رُفَيْعٍ: المرادُ: بما أسْلَفْتُم مِن الصَّومِ. وعُمومُها في كلِّ الأعمالِ أَوْلى وأحسَنُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠).

في طُهورِه، وترَجُّلِه، وتنَعُّلِه، في شأنِه كُلِّه))[١]. وعنها رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كانت يدُ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اليُمنى لطُهورِه وطعامِه، وكانت اليُسْرى لخَلائِه وما كان مِن أذًى))[٢].

٢- عن الحسنِ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ قال: (إنَّ المؤمنَ أحسَنَ الظنَّ بربِّه فأحسَنَ العملَ، وإنَّ المنافقَ أساء الظنَّ فأساء العملَ)[٣].

وكان بعضُ أهلِ العلمِ يقولُ: (إنِّي وجدْتُ أكيسَ النَّاسِ مَن قال: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ ظنَّ ظنًّا يقينًا فنفَعه الله بظنِّه)[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ أي: مِنَ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ مِن صَلاةٍ، وصِيامٍ، وصَدَقةٍ، وحَجٍّ، وإحسانٍ إلى الخَلقِ، وذِكرٍ للهِ، وإنابةٍ إليه؛ فالأعمالُ جعَلَها اللهُ تعالى سَبَبًا لدُخولِ الجنَّةِ، ومادَّةً لنَعيمِها، وأصلًا لسعادتِها[٥].

٤- قَولُه تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ خرَج ابنُ عُمَرَ في بعضِ نواحي المَدينةِ ومعه أصحابٌ له، ووضَعوا سُفرةً لهم، فمَرَّ بهم راعي

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((رياض الصالحين)) للنووي (ص: ٢٤١).

والحديث أخرجه أبو داودَ (٣٤)، وأحمدُ (٢٦٢٨٣) واللَّفظُ له.

صحَّحه النوويُّ في ((المجموع)) (٢/ ١٠٨)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٤)، وحسَّنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ١٤٤)، وصحَّح إسنادَه العراقيُّ في ((طرح التثريب)) (٢/ ٧١)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٣٤).

(٣) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٣).

غَنَمٍ، فَسلَّمَ، فقال ابنُ عُمَرَ: هَلُمَّ يا راعي، هَلُمَّ فأصِبْ مِن هذه السُّفرةِ، فقال له: إنِّي صائمٌ، فقال ابنُ عُمَرَ: أتصومُ في مِثلِ هذا اليومِ الحارِّ الشَّديدِ سَمومُه، وأنت في هذه الجبالِ ترعى هذه الغنَمَ؟! فقال له: إنِّي واللهِ أبادِرُ أيَّامي الخاليةَ[١]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ دليلٌ على أنَّه لا يدعو إلى قراءةِ كِتابِه إلَّا وقد مُحِيَتْ منه سيِّئاتُه، وبَقِيَتْ حَسَناتُه؛ فقَرَّت بذلك عيْنُه، فعَرَضه على مَن يَقْرَؤُه وهو قريرُ العَينِ؛ إذ مُحالٌ أنْ يَعرِضَ عليهم قِراءةَ سيِّئاتِه[٢]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾، فيه سُؤالٌ: كيف عبَّرَ بأنَّه يَظُنُّ ذلك مع أنَّه يَعلَمُه؟

**الجوابُ**: أنَّ الظَّنَّ يكونُ بمعنَى اليقينِ، فمعنى قولِه: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي: استَيقَنْتُ[٣]، قال الضَّحَّاكُ: (كلُّ ظنٍّ في القرآنِ مِن المؤمنِ فهو يقينٌ، ومِن الكافرِ فهو شكٌّ)[٤].

**وللفرقِ بينَهما في القرآنِ ضابطان:**

**أحدُهما**: أنَّه حيثُ وُجِد الظَّنُّ محمودًا مثابًا عليه فهو اليقينُ، وحيثُ وُجِد مذمومًا متوعَّدًا بالعقابِ عليه فهو الشَّكُّ.

**الثَّاني**: أنَّ كلَّ ظنٍّ يتَّصِلُ بعدَه «أنْ» الخفيفةُ فهو شكٌّ، كقولِه: ﴿إِن ظَنَّآ أَن

---

(١) أخرجه البيهقي في ((شعب الإيمان)) (٤٩٠٨).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (١/ ٧٥). وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٣).

﴿يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، وقوله تعالى: ﴿بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ [الفتح: ١٢]. وكلَّ ظنٍّ يتَّصِلُ به «أنَّ» المشدَّدةُ فالمرادُ به اليقينُ، كقولِه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٠] ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ [القيامة: ٢٨]، والمعنى فيه أنَّ المشددةَ للتأكيدِ فدخَلتْ على اليقينِ، وأنَّ الخفيفةَ بخلافِها فدخَلتْ في الشكِّ، مثال الأوَّلِ قولُه سبحانَه: ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفًا﴾ [الأنفال: ٦٦] ذُكِر بـ «أنَّ»، وقولُه: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، ومثالُ الثَّاني: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ﴾ [المائدة: ٧١] والحسبانُ الشَّكُّ.

فإنْ قِيل: يَرِدُ على هذا الضابطِ قولُه تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ﴾ [التوبة: ١١٨].

قيل: لأنَّها اتَّصَلتْ بالاسمِ. فتمسَّكْ بهذا الضابطِ فإنَّه مِن أسرارِ القرآنِ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ فيه سؤالٌ: أليس أنَّ مَنازِلَ البَعضِ فَوقَ مَنازِلِ الآخَرينَ، فهؤلاء الَّذين تكونُ مَنازِلُهم أدنَى مِن غيرِهم لا يكونونَ في الجنَّةِ العاليةِ؟

**الجوابُ**: أنَّ كَونَ بَعضِها دونَ بَعضٍ لا يَقدَحُ في كَونِها عاليةً، وفوق السَّمَواتِ، وإن أُريدَ العُلُوُّ في الدَّرَجةِ والشَّرَفِ فالأمرُ كذلك، وإن أُريدَ به كونُ تلك الأبنيةِ عاليةً مُشرِفةً فالأمرُ أيضًا كذلك(٢).

٤- قَولُه تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ هل يُنافي ما ثَبَتَ في الصَّحيحِ عنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال: ((لا يَدخُلُ أحدٌ منكم

---

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ١٥٦، ١٥٧)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٢٩).

الجنَّةَ بعَمَلِه. قالوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللهِ؟! قال: ولا أنا إلَّا أنْ يَتغمَّدَنِيَ اللهُ منه برَحمةٍ وفَضْلٍ))[١]!

**والجوابُ**: أنَّ هذا لا يُنافيه؛ فإنَّ القرآنَ أثبَتَ «باءَ» السَّبَبِ، والرَّسولَ صلَّى الله عليه وسلَّم نفى «باءَ» المقابَلةِ والمعادَلةِ[٢]، والتَّقديرُ: لن يَستَحِقَّ أحدٌ دُخولَ الجَنَّةِ بعَمَلٍ يَعمَلُه، فأزال بذلك تَوَهُّمَ مَن يَتَوَهَّمُ أنَّ الجَنَّةَ ثَمَنُ الأعمالِ، وأنَّ صاحِبَ العَمَلِ يَستحِقُّ على اللهِ دُخولَ الجَنَّةِ كما يَستحِقُّ مَن دَفَع ثمَنَ سِلعةٍ إلى صاحبِها تسليمَ سِلْعَتِه، فنَفَى بذلك هذا التَّوَهُّمَ، وبَيَّنَ أنَّ العمَلَ وإنْ كان سببًا لدخولِ الجَنَّةِ فإنَّما هو مِن فَضْلِ اللهِ ورحمتِه، فصار الدُّخولُ مُضافًا إلى فَضْلِ اللهِ ورَحمتِه ومغفرتِه؛ لأنَّه هو المُتَفَضِّلُ بالسَّبَبِ والمسبَّبِ المرتَّبِ عليه، ولم يَبْقَ الدُّخولُ مُرَتَّبًا على العَمَلِ نَفْسِه[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ إثباتُ الأسبابِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ الفاءُ في ﴿فَأَمَّا﴾ تَفصيلٌ لِما يَتضمَّنُه ﴿تُعْرَضُونَ﴾ [الحاقة: ١٨]؛ إذ العرْضُ عرْضٌ للحسابِ والجزاءِ، فإيتاءُ الكتابِ هو إيقافُ كلِّ واحدٍ على صَحيفةِ أعمالِه[٥].

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦)، وأحمدُ (٧٤٧٩) واللَّفظُ له، مِن حديث أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير أبي =

- ودلَّ قولُه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ على كَلامٍ مَحذوفٍ للإيجازِ، تَقديرُه: فيُؤتى كلُّ أحدٍ كِتابَ أعمالِه؛ فأمَّا مَن أُوتِيَ كِتابَه... إلخ[١].

- قولُه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ قاله بالفاءِ، وبعْدَه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥] بالواوِ؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصلٌ بأحوالِ القيامةِ وأهْوالِها، فاقْتَضى الفاءَ للتَّعقيبِ، والثَّانيَ مُتَّصلٌ بالأوَّلِ، فأُدخِلَ الواوُ؛ لأنَّه للجمْعِ[٢].

- وإيتاءُ الكتابِ باليمينِ عَلامةٌ على أنَّه إيتاءُ كَرامةٍ وتَبشيرٍ، والعرَبُ يَذْكُرون التَّناوُلَ باليمينِ كِنايةً عن الاهتِمامِ بالمأخوذِ، والاعتِزازِ به[٣].

- قولُه: ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ جَوابُ شرْطِ (أمَّا)، وهو مُغْنٍ عن خبَرِ المُبتدَأِ، وهذا القولُ قولُ ذي بَهجةٍ وحُبورٍ يَبعثانِ على إطْلاعِ النَّاسِ على ما في كِتابِ أعمالِهِ مِن جَزاءٍ في مَقامِ الاغتِباطِ والفَخَارِ، ففيه كِنايةٌ عن كَونِه في حُبورٍ ونَعيمٍ؛ فإنَّ المعنى الكِنائيَّ هو الغرَضُ الأهمُّ مِن ذِكرِ العَرْضِ[٤].

- والهاءُ في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ ونَظائرِها للسَّكتِ حينَ الوقْفِ، وحَقُّ هذه الهاءِ أنْ تَثبُتَ في الوقْفِ وتَسقُطَ في الوصْلِ، وقدْ أُثبِتَتْ في هذه الآيةِ في الحالَينِ عندَ جُمهورِ القُرَّاءِ[٥]، وكُتِبَت في المصاحفِ، فعُلِمَ أنَّها للتَّعبيرِ عن الكلامِ

---

= حيان)) (١٠/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٢٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٣٩، ٢٤٠)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ١٤٢).

المحكيِّ بلُغةِ ذلك القائلِ بما يُرادِفُه في الاستِعمالِ العربيِّ؛ لأنَّ الاستِعمالَ أنْ يَأتِيَ القائلُ بهذه الهاءِ بالوقْفِ على كِلْتا الجُملتَينِ، ولأنَّ هذه الكلماتِ وقَعَت فَواصِلَ، والفواصلُ مِثلُ الأسجاعِ تُعتبَرُ بحالةِ الوقْفِ، مِثلُ القَوافي، فلو قِيل: (اقْرؤوا كِتابِيَ؛ إنِّي ظَنَنتُ أنِّي مُلاقٍ حِسابِيَ) سقَطَت فاصِلَتانِ، وذلك تَفريطٌ في مُحسِّنَينِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ في مَوقعِ التَّعليلِ للفرَحِ والبَهجةِ الَّتي دلَّ عليهما قولُه: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾، وبذلك يكونُ حرْفُ (إنَّ) لمجرَّدِ الاهتِمامِ، وإفادةِ التَّسبُّبِ[٢].

- وقولُه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ كِنايةً عن استِعدادِه للحسابِ بتَقديمِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ ممَّا كان سبَبَ سَعادتِه[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾

- مَوقعُ قولِه: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ مَوقعُ التَّفريعِ على ما تَقدَّمَ مِن إيتائِه كِتابَه بيَمينِه، وما كان لذلك مِن أثَرِ المَسرَّةِ والكرامةِ في المَحشرِ؛ فتَكونُ الفاءُ لتَفريعِ ذِكرِ هذه الجُملةِ على ذِكرِ ما قبْلَها. ولك أنْ تَجعَلَها بدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾؛ فإنَّ ذلك القولَ اشتَمَلَ على أنَّ قائلَه في نَعيمٍ، وإعادةُ الفاءِ مع الجُملةِ مِن إعادةِ العاملِ في المبدَلِ منه مع البدَلِ للتَّأكيدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣١، ١٣٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٢).

- قولُه: ﴿رَاضِيَةٍ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ؛ الأوَّلُ: أنَّها على النَّسبِ، أي: ذاتِ رِضًا، نحوُ (لابِنٌ وتامرٌ)؛ لصاحبِ اللَّبنِ والتَّمرِ، أي: ثابتٌ لها الرِّضا ودائمٌ لها؛ لأنَّها في غايةِ الحُسنِ والكمالِ، والعرَبُ لا تُعبِّرُ عن أكثرِ السَّعاداتِ بأكثرَ مِن العِيشةِ الرَّاضيةِ، بمعْنى أنَّ أهلَها راضُون بها، والمُعتبَرُ في كَمالِ اللَّذَّةِ الرِّضا. الثَّاني: أنَّها على إظهارِ جَعْلِ المعيشةِ راضيةً لمَحلِّها، وحُصولِها في مُستحقِّها، وأنَّه لو كان للمَعيشةِ عقْلٌ لَرَضِيَت لنفْسِها بحالتِها. الثَّالثُ: أنَّ هذا ممَّا جاء فيه فاعِلٌ بمعْنى مَفعولٍ، بمعْنى أنَّ صاحبَها يَرْضى بها ولا يَسخَطُها[1].

- والعُلوُّ: الارتفاعُ، وهو مِن مَحاسِنِ الجنَّاتِ؛ لأنَّ صاحبَها يُشرِفُ على جِهاتٍ مِن مُتَّسعِ النَّظرِ، ولأنَّه يَبدو له كثيرٌ مِن مَحاسِنِ جنَّتِه حينَ يَنظُرُ إليها مِن أعْلاها أو وَسَطِها ممَّا لا يَلوحُ لنَظَرِه لو كانت جنَّتُه في أرضٍ مُنبسِطةٍ، وذلك مِن زِيادةِ البهجةِ والمَسرَّةِ؛ لأنَّ جَمالَ المَناظرِ مِن مَسرَّاتِ النَّفْسِ ومِن النِّعَمِ. وجُوِّزَ أنْ يُرادَ أيضًا بالعُلوِّ عُلوُّ القَدْرِ، مِثلُ: فلانٌ ذو دَرجةٍ رفيعةٍ، وبذلك كان للَفْظِ ﴿عَالِيَةٍ﴾ هنا ما ليس لقولِه: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]؛ لأنَّ المرادَ هنالك جنَّةٌ مِن الدُّنيا[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، وهو ومَقولُه في مَوضعِ صِفةٍ لـ ﴿جَنَّةٍ﴾؛ إذ التَّقديرُ: يُقالُ للفريقِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٢، ١٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٣).

الَّذين يُؤتَون كُتبَهم بأيْمانِهم حينَ يَستقِرُّون في الجنَّةِ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ...﴾ إلخ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ خبَرًا ثانيًا عن الضَّميرِ في قولِه: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ﴾[1].

- وإنَّما أُفرِدَت ضَمائرُ الفريقِ الَّذي أُوتِيَ كِتابَه بيَمينِه فيما تَقدَّمَ، ثمَّ جاء الضَّميرُ ضَميرَ جمْعٍ عندَ حِكايةِ خِطابِهم؛ لأنَّ هذه الضَّمائرَ السَّابقةَ حُكِيَت معها أفعالٌ ممَّا يَتلبَّسُ بكلِّ فرْدٍ مِن الفريقِ عندَ إتمامِ حِسابِه. وأمَّا ضَميرُ ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ فهو خِطابٌ لجَميعِ الفريقِ بعْدَ حُلولِهم في الجنَّةِ، كما يَدخُلُ الضُّيوفُ إلى المأْدُبةِ، فيُحيِّي كلُّ داخلٍ منهم بكلامٍ يَخُصُّه، فإذا استَقرُّوا أقبَلَ عليهم مُضيِّفُهم بعِباراتِ الإكرامِ[2].

وأيضًا لَمَّا كان كونُ الثِّمارِ بهذه الصِّفةِ دالًّا على كَثرةِ الريِّ، وكَثرةُ الريِّ دالَّةً على المشربِ، وكانت مِن مُفرَداتِ اللَّفظِ عامَّةَ المعنى، فكان قدْ أُفرِدَ الضَّمائرُ باعتبارِ لَفْظِها تَنصيصًا على كلِّ فرْدٍ فرْدٍ، جَمَعَ باعتبارِ المعنى إعلامًا باشتراكِ جَميعِ أهْلِها في النِّعَمِ حالَ الانفرادِ والاجتماعِ، فقال: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾[3].

- قولُه: ﴿هَنِيٓـٔٗا﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ فَعيلًا بمعْنى فاعلٍ؛ إذا ثَبَتَ له الهناءُ، فيكونَ مَنصوبًا على النِّيابةِ عن المفعولِ المطلَقِ؛ لأنَّه وصْفُه، وإسنادُ الهناءِ للأكْلِ والشُّربِ؛ لأنَّهما مُتلبِّسانِ بالهناءِ للآكِلِ والشَّارِبِ. ويجوزُ أنْ يكونَ اسمَ فاعلٍ مِن غيرِ الثُّلاثيِّ بوزْنِ ما للثُّلاثيِّ، والتَّقديرُ: مُهنِّئًا، أي: سَببَ هَناءٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ فَعيلًا بمعْنى مَفعولٍ، أي: مَهْنِئيًا به. وعلى الاحتِمالاتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٣، ١٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٤).

كلِّها فإفرادُ ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ في حالِ أنَّه وصْفٌ لشَيئينِ بِناءٌ على أنَّ فَعيلًا بمعْنى فاعلٍ لا يُطابِقُ مَوصوفَه، أو على أنَّه إذا كان صِفةً لمصدرٍ فهو نائبٌ عن مَوصوفِه، والوصفُ بالمصدرِ لا يُثنَّى ولا يُجمَعُ ولا يُؤنَّثُ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٤).

## الآيات (٢٥ - ٢٧)

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَغُلُّوهُ﴾: أي: فشُدُّوه بالأغلالِ، واجعَلوها في عُنقِه، وقَيِّدوه، أو: اجمَعوا يدَه إلى عُنقِه بالأغلالِ، وأصلُ (غلل): يدُلُّ على تخَلُّلِ شَيءٍ وثَباتِ شَيءٍ[1].

﴿صَلُّوهُ﴾: أي: اغمُروه فيها وأَورِدُوه، يُقالُ: أصلَيْتُه النَّارَ وصلَّيتُه: إذا أورَدْتَه إيَّاها، وصَلِيَ النَّارَ وصَلِيَ بها صُلِيًّا، وصِلِيًّا، وصلَّى: قاسَى حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦).

قال البخاريُّ في ((صحيحه)) عقبَ حديث (٧٠١٧): (لا تَكونُ الأغلالُ إلَّا في الأعناقِ).

قال ابن حجر: (كأنَّه يُشيرُ إلى الرَّدِّ على مَن قال: قد يكونُ الغُلُّ في غيرِ العُنقِ كاليَدِ والرِّجْلِ، والغُلُّ بضَمِّ المُعجَمةِ وتشديدِ اللَّامِ: واحدُ الأغلالِ، قال: وقد أطلَق بعضُهم الغُلَّ على ما تُربَطُ به اليدُ، وممَّن ذكره أبو عليٍّ القالي وصاحِبُ «المُحكَمِ» وغيرُهما، قالوا: الغُلُّ جامعةٌ تُجعلُ في العُنقِ أو اليدِ، والجمعُ أغلالٌ، ويدٌ مَغلولةٌ: جُعِلت في الغُلِّ، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، كذا استشهد به الكرمانيُّ، وفيه نظرٌ؛ لأنَّ اليدَ تُغَلُّ في العُنقِ). ((فتح الباري)) (١٢/ ٤٠٩). ويُنظر: ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (٥/ ٣٧٠)، ((الكواكب الدراري)) للكرماني (٢٤/ ١٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٢) و(٢٢/ ١٧٧)، =

﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾: أي: فاجْعَلُوه فيها، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ[١].

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: قَريبٌ مُشفِقٌ، وحميمُ الرَّجُلِ: خاصَّتُه، مِنْ (حَمَّ): إذا دنا وقَرُبَ، فهو أخصُّ مِن الصَّديقِ، وأصلُ (حمم) هنا: الدُّنوُّ والحُضورُ[٢].

﴿غِسۡلِينٍ﴾: أي: غُسالةِ أهلِ النَّارِ مِن قَيحِهم وصَديدِهم، سُمِّيَ غِسْلِينًا؛ لسَيَلانِه مِن أبدانِهم، كأنَّه يَنغَسِلُ منهم، وأصلُ (غسل): يدُلُّ على تطهيرِ الشَّيءِ وتَنقيتِه[٣].

﴿ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾: أي: الآثِمونَ أصحابُ الخَطايا، وهم الكافِرون، والخاطِئُ هو القاصدُ الذَّنْبِ، يُقالُ: خَطِئ الرَّجُلُ: إذا تعمَّدَ الذَّنْبَ، وأخْطَأَ: إذا لم يَتعمَّدْ، وقيل غيرُ ذلك. وأصلُه يدُلُّ على تَعَدِّي الشَّيءِ، والذَّهابِ عنه[٤].

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٠).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٣)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٢)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٤٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٥٣).

## المعنى الإجماليُّ:

يُبيِّنُ الله تعالى عاقِبةَ مَن أُوتيَ كتابَه بشِمالِه يومَ القيامةِ، وشدَّةَ ندَمِه، فيقولُ: وأمَّا مَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بشِمالِه فيَقولُ نادِمًا مُتحَسِّرًا: يا لَيْتَني لم أُعْطَ كتابَ أعمالِي السَّيِّئةِ! ولم أعلَمْ ما حِسابي؟! يا لَيْتَ مَوْتَتي في الدُّنيا كانت نهايةَ حَياتي، ما دفَعَ عنِّي مالي الَّذي جمَعْتُه في الدُّنيا! زال عنِّي مُلْكي وجاهي، وذهَبَتْ حُجَّتي!

ويأتي الأمرُ مِن الله تعالى بإنزالِ العذابِ به، فيقولُ لمَلائكتِه: خُذُوا هذا الكافِرَ فضَعُوا القَيدَ في عُنُقِه، ثمَّ اغمِسُوه في النَّارِ، ثمَّ اجعَلوه في سِلْسلةٍ طُولُها سَبعونَ ذِراعًا.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى الأسبابَ الَّتي أدَّت بهذا الشَّقيِّ إلى هذا العذابِ، فيقول: إنَّه كان في الدُّنيا لا يُؤمِنُ باللهِ العَظيمِ، ولا يَحُثُّ غَيرَه على إطعامِ المساكينِ؛ فليس لهذا الكافِرِ في هذا اليَومِ قَريبٌ يَنفَعُه، ولا طَعامٌ إلَّا مِن صَديدِ أهلِ النَّارِ، لا يأكُلُ هذا الطَّعامَ إلَّا الواقِعونَ في الخَطايا عَمْدًا مِن الكافرينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت العادةُ جاريةً بأنَّ أهْلَ العرْضِ يَنقَسِمونَ إلى قِسمَينِ: مَقبولٍ ومَردودٍ، وذَكَر اللهُ سُبحانَه وتَعالى المقبولَ بادئًا به؛ تَشويقًا إلى حالِه، وتَغبيطًا بعاقبتِه، وحُسنِ مآلِه- أتْبَعَه المردودَ؛ تَنفيرًا عن أعمالِه، بما ذُكِرَ مِن قَبائحِ أحوالِه[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٦).

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥﴾.

أي: وأمَّا مَن أُعطِيَ كِتابَ أعمالِه بيَدِه الشِّمالِ، فإنَّه يَقولُ نادِمًا مُتحَسِّرًا: يا ليتَني لم أُعْطَ كتابَ أعمالِي السَّيِّئةِ[1]!

﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦﴾.

أي: ولم أعلَمْ ما حِسابي[2]؟!

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧﴾.

أي: يا ليتَ مَوْتَتي في الدُّنيا كانت نهايةَ حَياتي، ولم أُبعَثْ للحِسابِ والجَزاءِ[3]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧).

قيل: هذه الجُملةُ جاءت عَطفًا على التَّمَنِّي، أي: يا لَيْتَني لم أدْرِ ما حِسابِيَه، أي: لم أعرِفْ حقيقتَه أو نتيجتَه. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٦).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٤).

وقيل: هذه الجُملةُ في موضعِ الحالِ مِن ضميرِ (ليتني)، والمعنى: أنَّه كان مكَذِّبًا بالحِسابِ. وذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

قال الشوكانيُّ: (﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾، أي: لَيتَ المَوتةَ الَّتي مِتُّها كانت القاضيةَ، ولم أُحْيَ بعْدَها، ومعنى ﴿ٱلْقَاضِيَةَ﴾: القاطِعةَ للحياةِ، والمعنى: أنَّه تَمنَّى دَوامَ الموتِ، وعدَمَ البعثِ لِما شاهَدَ مِن سُوءِ عَمَلِه وما يَصيرُ إليه مِن العذابِ، فالضَّميرُ في «لَيْتَهَا» يَعودُ إلى المَوتةِ الَّتي قد كان ماتَها وإنْ لم تكُنْ مَذكورةً؛ لأنَّها -لظُهورِها- كانت كالمذكورةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠). =

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ٢٨﴾.

أي: لم يَدفَعْ عنِّي مالي الَّذي جمَعْتُه في الدُّنيا شيئًا مِن عذابِ الآخِرةِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ١١].

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡۜ ٢٩﴾.

أي: زال عنِّي مُلْكي وجاهي، وذهَبَتْ حُجَّتي[2]!

---

= وممَّن قال بنحْوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، ومحمدُ بنُ كعبٍ، والرَّبيعُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٥).

والوجهُ الثَّاني في تفسيرِ الآيةِ: أنَّه تمنَّى أنْ يموتَ في الحالِ، ولم يكُنْ في الدُّنيا أكرهُ إليه مِن الموتِ، قاله قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٥)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

قال ابن عطية: (﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾ يحتَمِلُ أن يريدَ الاستفهامَ على معنى التَّقريرِ لِنَفْسِه والتَّوبيخِ، ويحتَمِلُ أن يريدَ النَّفيَ المحضَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٦).

وممَّن ذهَبَ في الجُملةِ إلى أنَّ معْنى ﴿سُلۡطَٰنِيَهۡۜ﴾: مُلْكي وجاهي وقُدْرتي وتَسلُّطي على النَّاسِ: الزمخشريُّ، والنَّسفيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٢).

وذهَبَ مُقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمرقنديُّ، وأبو حيان، ونسَبَه الثَّعلبيُّ =

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: يقولُ اللهُ تعالى لمَلائكتِه: خُذُوا هذا الكافِرَ فضَعُوا القَيدَ في عُنُقِه[1].

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤].

﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾﴾.

---

= لأكثَرِ المفسِّرينَ: أنَّ المرادَ: ذهَبَت عنِّي حُجَّتي، فلا حُجَّةَ لي يومَ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكرمةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٢).

قال أبو حيان: (الراجحُ قولُ ابنِ عباسٍ ومَن ذُكِر معه: أنَّ السلطانَ هنا هو الحجةُ التي كان يحتجُّ بها في الدُّنيا؛ لأنَّ ﴿مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ ليس مختصًّا بالملوكِ، بل هو عامٌّ في جميعِ أهلِ الشَّقاوةِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢).

وجمَعَ الواحديُّ وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ بيْن القولَينِ؛ فقال الواحديُّ: (ذهَبَ عنِّي حُجَّتي، وزال عنِّي مُلْكي وقُوَّتي). ((الوجيز)) (ص: ١١٢٩).

وقال جلالُ الدِّين المحلِّي: (﴿سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾: قُوَّتي وحُجَّتي). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٣).

ويُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٠).

وقال ابن عطيَّة: (سلطانُ كُلِّ أحدٍ ما لَه في الدُّنيا مِن عَدَدٍ وعُدَدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧).

قال الواحدي: (﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾: اجمَعوا يَدَه إلى عُنُقِه). ((الوسيط)) (٤/ ٣٤٧).

وقال البِقاعي: (اجمَعوا يَدَيه إلى عُنُقِه ورِجْلَيه مِن وراءِ قَفاه إلى ناصيتِه!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٦٨).

وقال السعدي: (اجعَلوا في عُنُقِه غُلًّا يَخنُقُه!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

أي: ثمَّ اغمِسُوه واغْمُروه في النَّارِ[١].

﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: ثمَّ اجعَلوه في سِلْسلةٍ طُولُها سَبعونَ ذِراعًا، فيتعَذَّبُ بها[٢]!

كما قال تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٦٨، ٣٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٢٩)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧).

قال الشوكاني: (السِّلْسِلةُ: حِلَقٌ مُنتَظِمةٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٠).

قيل: إنَّها تدخُلُ في دُبُرِه، ثمَّ تَخرُجُ مِن مَنخِرَيه. وقيل: تدخُلُ في فيه، وتخرجُ مِن دُبُرِهِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧).

قال الفرَّاءُ: (والمعنى: ثمَّ اسْلُكوا فيه سِلسلةً، ولكنَّ العرَبَ تَقولُ: أدخَلْتُ رَأسي في القَلَنْسُوةِ، وأدخَلْتُها في رَأْسي، والخاتَمِ؛ يُقالُ: الخاتمُ لا يَدخُلُ في يَدي، واليدُ هي الَّتي فيه تَدخُلُ). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٨٢).

وقيل: معنى سَلْكِه فيها: أن تُلَفَّ عليه مع ذلك الطُّولِ المُفرِطِ؛ مُبالَغةً في التَّضييقِ عليه. يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٠).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِفَ في هذا الذِّراعِ؛ فقيل: إنَّه الذِّراعُ المعروفُ، وقيل: بذِراعِ الملَكِ، وقيل: في الذِّراعِ سَبعونَ باعًا، كلُّ باعٍ ما بيْن مكَّةَ والكوفةِ، ولله دَرُّ الحسَنِ البصريِّ في قولِه: اللهُ أعلَمُ بأيِّ ذِراعٍ هي. وجَعَلَها سَبعينَ ذِراعًا لإرادةِ وَصْفِها بالطُّولِ؛ فإنَّ السَّبعينَ مِن الأعدادِ الَّتي تَقصِدُ بها العرَبُ التَّكثيرَ. ويَحتمِلُ أنْ تكونَ هذه السِّلسلةُ لكلِّ واحدٍ مِن أهلِ النَّارِ، أو تكونَ بيْنَ جَميعِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٧).

وقال ابن جرير: (ثمَّ اسلُكوه في سِلسلةٍ ذَرْعُها سَبعونَ ذراعًا، بذِراعِ اللهُ أعلَمُ بقدرِ طُولِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٧).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تَعالى لَمَّا شرَحَ هذا العذابَ الشَّديدَ؛ ذكَرَ سَببَه[1]، فقال:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ٣٣﴾.

أي: استَحَقَّ هذا الكافِرُ ذلك العذابَ الشَّديدَ؛ لأنَّه كان في الدُّنيا لا يُؤمِنُ باللهِ ذي العَظَمةِ التَّامَّةِ الكامِلةِ[2].

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ٣٤﴾.

أي: ولأنَّه كان لا يَحُثُّ غَيرَه على إطعامِ المحتاجِينَ[3].

كما حكى اللهُ تعالى سؤالَ أصحابِ اليَمينِ للمُجرِمينَ: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ * وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٤].

﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ٣٥﴾.

أي: فليس لهذا الكافِرِ في هذا اليَومِ في الدَّارِ الآخِرةِ أيُّ قَريبٍ يَنفَعُه، فيَدفَعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٢، ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩).

قال ابنُ عاشور: (نفْيُ حَضِّه على طعامِ المِسكينِ يَقتَضي بطريقِ الفَحوى أنَّه لا يُطعِمُ المِسكينَ مِن مالِه؛ لأنَّه إذا كان لا يأمُرُ غَيرَه بإطعامِ المسكينِ فهو لا يُطعِمُه مِن مالِه، فالمعنى: لا يُطعِمُ المِسكينَ ولا يأمُرُ بإطعامِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧١).

عَذابَ اللهِ عنه[١]!

كما قال تعالى: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾.

أي: وليس لهذا الكافِرِ طَعامٌ إلَّا مِن صَديدِ أهلِ النَّارِ[٢].

﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ۝٣٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٩، ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧).

قال القُرطبي: (الحميمُ هاهنا القريبُ، أي: ليس له قَريبٌ يَرِقُّ له، ويدفَعُ عنه، وهو مأخوذٌ مِن الحَميمِ، وهو الماءُ الحارُّ، كأنَّه الصَّديقُ الَّذي يَرِقُّ ويحتَرِقُ قَلبُه له). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧).

ممَّن قال بأنَّ الغِسلينَ هو صديدُ أهلِ النَّارِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والقرطبي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٢، ٣٧٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، والكلْبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٨٣).

قال القرطبي: (الغِسْلِينُ: فِعْلِينٌ مِنَ الغَسلِ، فكأنَّه يَنغَسِلُ مِن أبدانِهم، وهو صديدُ أهلِ النَّارِ، السَّائِلُ مِن جروحِهم وفُروجِهم!). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣).

وقال السعدي: (هو في غايةِ الحَرارةِ، ونَتْنِ الرِّيحِ، وقُبحِ الطَّعمِ ومَرارتِه!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

وقال الضَّحَّاكُ، والرَّبيعُ: (شجرٌ يأكُلُه أهلُ النَّارِ). يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٧٥). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٥).

وقال ابن عاشور: (الغِسْلِينُ -بكَسرِ الغَينِ-: ما يَدخُلُ في أفواه أهلِ النَّارِ مِن الموادِّ السَّائِلةِ مِنَ الأجسادِ، وماءِ النَّارِ، ونحوِ ذلك ممَّا يَعلَمُه اللهُ!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٠).

أي: لا يأكُلُ هذا الطَّعامَ إلَّا الواقِعونَ في الخَطايا عَمْدًا، مِنَ الكافِرينَ باللهِ تعالى والمُشرِكينَ به[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ للهِ على العِبادِ أن يُوحِّدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا، وللعبادِ بَعضِهم على بَعضٍ حَقُّ الإحسانِ والمُعاوَنةِ على البِرِّ والتَّقْوى[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ ۝ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ عن أبي الدَّرْداءِ رَضِي اللهُ عنه: (أنَّه كان يحُضُّ امرأتَه على تكثيرِ المَرَقِ لأجْلِ المساكِينِ، وكان يقولُ: خلَعْنا نِصفَ السِّلسِلةِ بالإيمانِ، أفلا نخلَعُ نِصفَها الآخَرَ؟!)[٣].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٠).

وقال القرطبي: (ويجوزُ أن يُرادَ الَّذين يتخَطَّونَ الحَقَّ إلى الباطِلِ، ويتعَدَّونَ حُدودَ اللهِ عزَّ وجَلَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٤).

وقال السعدي: (لا يأكُلُ هذا الطَّعامَ الذَّميمَ ﴿إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ الَّذين أخطَؤوا الصِّراطَ المستقيمَ، وسَلَكوا سُبُلَ الجَحيمِ؛ فلذلك استحَقُّوا العذابَ الأليمَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

وقال ابن عاشور: (أي: المُرتَكِبونَ أشَدَّ الخطَأِ، وهو الإشراكُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٠).

وقال ابن عطيَّة: (الخاطِئُ: الَّذي يفعلُ ضدَّ الصوابِ متعمِّدًا، والمُخطِئُ الَّذي يفعلُه غيرَ متعمِّدٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((الدر المنثور في التفسير بالمأثور)) للسيوطي (٨/ ٢٧٤).

إشارةٌ إلى أنَّ شَرَّ الخِصالِ بعْدَ الكُفرِ: البُخلُ، وقَسوةُ القَلبِ[١].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ مدارُ السَّعادةِ ومادَّتُها أمْرانِ: الإخلاصُ للهِ -الَّذي أصلُه الإيمانُ باللهِ-، والإحسانُ إلى الخَلقِ بوُجوهِ الإحسانِ الَّتي مِن أعظَمِها دَفعُ ضَرورةِ المحتاجِينَ بإطعامِهم[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ فيه دليلانِ قَويَّانِ على عِظَمِ الجُرمِ في حِرمانِ المساكينِ:

**أحَدُهما**: عَطْفُه على الكُفرِ، وجَعْلُه قرينةً له!

**والثَّاني**: ذِكرُ الحَضِّ دونَ الفِعلِ؛ لِيُعلَمَ أنَّ تارِكَ الحَضِّ بهذه المنزلةِ، فكيف بمَن يترُكُ الفِعلَ[٣]؟!

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ فيه مَوعِظةٌ للمُؤمِنينَ زاجِرةٌ عن مَنعِ المساكينِ حَقَّهم في الأموالِ، وهو الحَقُّ المعروفُ في الزَّكاةِ والكفَّاراتِ وغَيرِها[٤].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ سؤالٌ: أنَّ في سورةِ (الانشقاقِ) يقولُ اللهُ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ [الانشقاق: ١٠]، فكيف يمكنُ الجَمعُ بيْن قَولِه: ﴿كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾، وقولِه: ﴿كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾؟

**الجوابُ**: أنَّه يأخُذُه بشِمالِه، لكنْ تُخْلَعُ الشِّمالُ إلى الخَلفِ مِن وراءِ ظهْرِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩).

والجزاءُ مِن جنسِ العملِ، فكما أنَّ هذا الرَّجُلَ جَعَل كتابَ اللهِ وراءَ ظهْرِه، أُعطيَ كتابَه يومَ القيامةِ مِن وراءِ ظهْرِه؛ جزاءً وِفاقًا(١)!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ بيَّن أنَّه لَمَّا نَظَر في كتابِه، وتذكَّرَ قبائِحَ أفعالِه، خَجِلَ منها، وصار العذابُ الحاصِلُ مِن تلك الخَجالةِ أَزْيَدَ مِن عَذابِ النَّارِ، فقال: لَيْتَهم عذَّبوني بالنَّارِ، وما عَرَضوا هذا الكتابَ الَّذي ذكَّرَني قبائِحَ أفعالي؛ حتَّى لا أَقَعَ في هذه الخَجالةِ، وهذا يُنَبِّهُ على أنَّ العذابَ الرُّوحانيَّ أشَدُّ مِن العذابِ الجُسمانيِّ(٢).

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الكافرَ يُحاسَبُ؛ لقَولِه في آخِرِ الكلامِ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أنَّه قد يُنْفَى الشَّيءُ الَّذي نَفْيُه يَستلزِمُ نفْيَ غيرِه، لكنْ تُذكَرُ تلك اللَّوازمُ على سبيلِ التَّصريحِ؛ للفَرقِ بيْن دَلالةِ اللَّوازِمِ ودلالةِ المُطابَقةِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٩٦).

قال ابنُ تَيميَّةَ -بعْدَ أنْ ذكَرَ الخلافَ في الكفَّارِ هل يُحاسَبون يومَ القيامةِ أو لا-: (وفصْلُ الخِطابِ: أنَّ الحِسابَ يُرادُ به عَرْضُ أعمالِهم عليهم، وتَوبيخُهم عليها، ويُرادُ بالحِسابِ مُوازَنةُ الحَسَناتِ بالسَّيِّئاتِ. فإنْ أُريدَ بالحِسابِ المعنى الأوَّلُ، فلا رَيبَ أنَّهم يُحاسَبون بهذا الاعتبارِ. وإنْ أُريدَ المعنى الثَّاني؛ فإنْ قُصِدَ بذلك أنَّ الكُفَّارَ تَبْقى لهم حَسناتٌ يَستحِقُّون بها الجنَّةَ، فهذا خطَأٌ ظاهرٌ. وإنْ أُريدَ أنَّهم يَتفاوَتون في العِقابِ؛ فعِقابُ مَن كَثُرَت سيِّئاتُه أعظَمُ مِن عِقابِ مَن قلَّت سَيِّئاتُه، ومَن كان له حَسناتٌ خُفِّفَ عنه العذابُ... فإذا كان بعضُ الكفَّارِ عَذابُه أشدَّ عَذابًا مِن بَعضٍ -لكَثرةِ سيِّئاتِه وقِلَّةِ حَسَناتِه- كان الحِسابُ لبَيانِ مَراتبِ العَذابِ، لا لأجْلِ دُخولِهم الجنَّةَ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٠٥).

تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ [البقرة: ٤٢]؛ فإنَّ كلَّ مَن لَبَّسَ بالباطلِ فلا بُدَّ أنْ يَكتُمَ بعضَ الحقِّ، وهذا ليس مِن بابِ النَّهيِ عنِ المجموعِ المقتضِي لجوازِ أحدِهما! ولا مِن بابِ النَّهيِ عن فِعلَينِ مُتباينَينِ حتَّى لا يُعادَ فيه حرفُ النَّفيِ، بل هو مِن بابِ النَّهيِ عنِ المتلازِماتِ،كما يُقالُ: لا تَكْفُرْ وتُكَذِّبْ بالرَّسولِ، ولا تُجادِلْ في اللهِ بغيرِ عِلْمٍ ولا هدًى ولا كتابٍ منيرٍ[1]!

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ دَلَّت الآيةُ على أنَّ الكُفَّارَ يُعاقَبونَ على تَركِ الصَّلاةِ والزَّكاةِ، وهو المرادُ مِن قَولِ: إنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّرائعِ[2]، فقد عطَف عدمَ الحضِّ على طعامِ المسكينِ، على عدمِ الإيمانِ باللهِ العظيمِ، مِمَّا يُشيرُ إلى أنَّ الكافرَ يُعَذَّبُ على الفروعِ؛ فالإيمانُ يَزيدُ بالطَّاعةِ، والمؤمنُ يُثابُ على إيمانِه وعلى طاعتِه، وكذلك الكفرُ يَزدادُ بالمعاصي، ويُجازَى الكافرُ على كفرِه وعلى عصيانِه[3].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴾ فيه سؤالٌ: ما التَّوفيقُ بيْنه وبيْن قَولِه تعالى: ﴿ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴾ [الغاشية: ٦]، وفي آخَرَ: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴾ [الدخان: ٤٣، ٤٤]، وفي آخَرَ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٢).

والمرادُ أنَّهم يُعاقَبون عليها إذا ماتوا على الكفرِ، لا أنَّهم مُلزَمون بها في حالِ الكفرِ؛ لأنَّنا نَدْعوهم أوَّلًا إلى الإسلامِ، ثمَّ نُلزِمُهم بأحكامِه. وأيضًا ليس معنى كَونِهم مُخاطَبينَ بها أنَّهم يُؤْمَرونَ بقضائِها. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٤٩) و(٢/ ٢٣٥).

قال ابن عاشور: (معنَى قولِ مَن قال مِن العلماءِ بأنَّ الكفَّارَ مُخاطَبونَ بفروعِ الشَّريعةِ يَعْنونَ خِطابَ المُؤاخَذةِ على ما نُهُوا عن ارتكابِه، وليس المرادُ أنَّهم يُطلَبُ منهم العملُ؛ إذْ لا تُقْبَلُ منهم الصَّالحاتُ بدونِ الإيمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٦١).

بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ ﴾ [البقرة: ١٧٤]؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ؛ منها:**

**الأوَّلُ**: لا مُنافاةَ؛ إذ يجوزُ أن يكونَ طعامُهم جميعَ ذلك.

**الثَّاني**: أنَّ العذابَ أنواعٌ، والمعذَّبينَ طَبَقاتٌ؛ فمنهم أكَلَةُ غِسلِينٍ، ومنهم أكَلَةُ الضَّريعِ، ومنهم أكَلَةُ الزَّقُّومِ، ومنهم أكَلَةُ النَّارِ؛ لكُلِّ بابٍ مِنهم جزءٌ مَقسومٌ[١]. فالاختِلافُ بحسَبِ مَن يَطْعَمُ مِن أهلِ النَّارِ؛ فمَنِ اتَّصَفَ بالصِّفةِ الأُولى فطَعامُه مِن غِسْلِينٍ، ومَنِ اتَّصَف بالثَّانيةِ فطعامُه مِن ضَريعٍ[٢]. وقيل غيرُ ذلك[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۞ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۞ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۞ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾

- جُملةُ ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾ قيل: هي في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ (لَيتني)، والمعْنى: أنَّه كان مُكذِّبًا بالحسابِ، وهو مُقابلُ قولِ الَّذي أُوتِيَ كتابَه بيَمينِه: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٠]، وجُملةُ الحالِ مُعترِضةٌ بيْن جُملتَي التَّمنِّي. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفًا على التَّمنِّي، أي: يا لَيتني لم أدْرِ ما حِسابِيَهْ، أي: لم أعرِفْ كُنْهَ حِسابي، أي: نَتيجتَه، وهذا وإنْ كان في معْنى

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٣١).

قال ابنُ قُتَيبة: (النَّارُ دَرَكاتٌ، والجنَّةُ دَرَجاتٌ، وعلى قَدْرِ الذُّنوبِ والحَسَناتِ تَقَعُ العُقوباتُ والمَثوباتُ؛ فمِن أهلِ النَّارِ مَن طَعامُه الزَّقُّومُ، ومنهم مَن طعامُه غِسلينٌ!). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٤٨).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٤).

التَّمنِّي الَّذي قبْلَه فإعادتُه تَكريرٌ مِن أجْلِ التَّحسُّرِ والتَّحزُّنِ[١].

- والاستِفهامُ في ﴿مَا حِسَابِيَهْ﴾ معْناهُ التَّعظيمُ والتَّهويلُ[٢].

- وقوله: ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ تمَنٍّ آخَرُ، ولم يُعطَفْ على التَّمنِّي الأوَّلِ؛ لأنَّ المقصودَ التَّحسُّرُ والتَّندُّمُ[٣].

- وجُملةُ ﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ مِن الكلامِ الصَّالحِ لأنْ يكونَ مَثلًا؛ لإيجازِه، ووَفْرةِ دَلالتِه، ورَشاقةِ معْناه، عبَّرَ بها عمَّا يقولُه مَن أُوتِيَ كتابَه بشِمالِه مِن التَّحسُّرِ بالعبارةِ الَّتي يَقولُها المتحسِّرُ في الدُّنيا بكلامٍ عَربيٍّ يُؤدِّي المعْنى المقصودَ[٤].

- قولُه: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ نفْيًا مَحضًا، ومَفعولُ ﴿أَغۡنَىٰ﴾ مَحذوفٌ للتَّعميمِ؛ أخبَرَ بذلك مُتأسِّفًا على مالِه حيثُ لم يَنفَعْه. ويجوزُ أنْ يكونَ استِفهامًا للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ وبَّخَ به نفْسَه، وقرَّرها عليه[٥].

- قولُه: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ يقولُ ذلك مَن كان ذا مالٍ وذا سُلطانٍ مِن ذلك الفريقِ مِن جميعِ أهلِ الإشراكِ والكفْرِ، فما ظنُّك بحسرةِ مَنِ اتَّبَعوهم واقتَدَوا بهم إذا رَأَوهم كذلك؟! وفي هذا تَعريضٌ بسادةِ مُشرِكي العرَبِ مِثلِ أبي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠١، ٢٠٢).

جَهلٍ وأُميَّةَ بنِ خلَفٍ؛ قال الله تبارك وتعالَى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾[1] [المزمل: ١١].

- وضُمِّنَ (هَلَكَ) معْنى (غاب)؛ فعُدِّيَ بـ (عن)، أي: لم يَحْضُرني سُلْطاني الَّذي عهِدْتُه[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۞ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ۞ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾

- قولُه: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ مَقولٌ لقولٍ مَحذوفٍ مَوقعُه في مَوقعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥]، والتَّقديرُ: يُقالُ: خُذُوه. ومَعلومٌ مِن المقامِ أنَّ المأمورينَ بأنْ يَأخُذوه هم الملائكةُ الموكَّلونَ بسَوقِ أهلِ الحسابِ إلى ما أُعِدَّ لهم[3]. أو جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ للإجابةِ عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ؛ كأنَّه قِيل: وما يُفعَلُ به بعْدَ هذا التَّحسُّرِ الصَّادرِ عنه؟ فقِيل: يُقالُ: خُذُوه[4].

- وقولُه: ﴿فَغُلُّوهُ﴾ عُطِفَ بفاءِ التَّعقيبِ؛ لإفادةِ الإسراعِ بوَضْعِه في الأغلالِ عَقِبَ أخْذِه[5].

- قولُه: ﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ فيه تَقديمُ الجحيمِ على عامِلِه؛ لتَعجيلِ المَساءةِ، مع الرِّعايةِ على الفاصلةِ، وكذلك تَقديمُ ﴿فِي سِلۡسِلَةٖ﴾ على عامِلِه[6]. أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٨).

تَقديمُ الجَحيمِ للدَّلالةِ على التَّخصيصِ، والاهتِمامِ بذِكرِ أنواعِ ما يُعذَّبُ به، وكذلك تَقديمُ ﴿فِي سِلْسِلَةٍ﴾، أي: لا تَسلُكوه إلَّا في هذه السِّلسلةِ[1].

-و﴿ثُمَّ﴾ مِن قولِه: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ بالنِّسبةِ لمَضمونِ الجُملتينِ قبْلَها؛ لأنَّ مَضمونَ ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أعظَمُ مِن مَضمونِ ﴿فَغُلُّوهُ﴾، ومَضمونَ ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ دلَّ على إدخالِه الجحيمَ، فكان إسلاكُه في تلك السِّلسلةِ أعظَمَ مِن مُطلَقِ إسلاكِه الجحيمَ[2].

- أو يُمكِنُ بَقاءُ (ثُمَّ) على مَوضوعِها مِن الدَّلالةِ على المهْلةِ الزَّمانيَّةِ، وأنَّه أوَّلًا يُؤخَذُ فيُغَلُّ، ولَمَّا لم يُعذَّبْ بالعَجَلةِ، صارت له استراحةٌ، ثمَّ جاء تَصليةُ الجَحيمِ، فكان ذلك أبلَغَ في عَذابِه؛ إذ جاءَه ذلك وقد سَكَنَت نفْسُه قليلًا، ثمَّ جاء سَلْكُه بعْدَ ذلك بعْدَ كَونِه مَغلولًا مُعذَّبًا في النَّارِ، لكنَّه كان له انتقالٌ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، فيَجِدُ بذلك بَعضَ تَنفُّسٍ، فلمَّا سُلِكَ في السِّلسلةِ كان ذلك أشدَّ ما عليه مِن العذابِ، حيثُ صار لا حِراكَ له ولا انتقالَ، وأنَّه يُضيَّقُ عليه غايةً، فهذا يَصِحُّ فيه أنْ تكونَ (ثُمَّ) على مَوضوعِها مِن المهْلةِ الزَّمانيَّةِ[3].

- وجُملةُ ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ صِفةُ ﴿سِلْسِلَةٍ﴾، وهذه الصِّفةُ وَقَعَت مُعترِضةً بيْن المجرورِ ومُتعلَّقِه؛ للتَّهويلِ على المشرِكين المكذِّبين بالقارعةِ، وليست

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٤، ٦٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢).

الجُملةُ ممَّا خُوطِبَ الملائكةُ الموكَّلونَ بسَوقِ المجْرِمين إلى العَذابِ؛ قيل: ولذلك فعَدَدُ السَّبعينَ مُستعمَلٌ في معْنى الكثرةِ على طَريقةِ الكِنايةِ(١).

- قيل: وفي تَخصيصِ الطُّولِ بسَبعينَ ذِراعًا مُبالَغةٌ في إرادةِ الوصْفِ بالطُّولِ؛ لأنَّ السِّلسلةَ كلَّما طالت كان الإرهاقُ أشَدَّ، والعذابُ أمَضَّ، كأنَّ السِّلسةَ أفظَعُ مِن سائرِ أدواتِ الإرهاقِ؛ لأنَّها لَمَّا الْتَفَّت عليه تَضاعيفُها، صارت كأنَّها وِعاءٌ له(٢).

- واقترانُ فِعلِ ﴿فَٱسۡلُكُوهُ﴾ بالفاءِ؛ إمَّا لتَأكيدِ الفاءِ الَّتي اقترَنَت بفِعلِ ﴿فَغُلُّوهُ﴾، وإمَّا للإيذانِ بأنَّ الفِعلَ مُنزَّلٌ مَنزلةَ جَزاءِ شرْطٍ مَحذوفٍ، وهذا الحذْفُ يُشعِرُ به تَقديمُ المعمولِ غالبًا، كأنَّه قِيل: مهْما فعَلْتُم به شَيئًا فاسْلُكوه في سِلسلةٍ، أو مهْما يكُنْ شَيءٌ فاسْلُكوه، والمقصودُ تأْكيدُ وُقوعِ ذلك، والحثُّ على عدَمِ التَّفريطِ في الفعلِ، وأنَّه لا يُرْجى له تَخفيفٌ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ۞ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ۞ فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ ۞ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ ۞ لَّا يَأۡكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ بدَأَ بأقْوى أسبابِ تَعذيبِه، وهو كفْرُه باللهِ، وهو في مَوضعِ العِلَّةِ للأمْرِ بأخْذِه وإصلائِه الجحيمَ على طَريقةِ الاستِئنافِ للمُبالَغةِ -لأنَّ السُّؤالَ المقدَّرَ فيه تَكثيرٌ للمعْنى مع تَقليلِ لَفظِه-، كأنَّ قائلًا قال: لِمَ يُعذَّبُ هذا العذابَ البليغَ الشَّديدَ؟ فأُجِيبَ وقيل: إنَّه كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨).

لا يُؤمِنُ[١].

- ووصْفُ اللهِ سُبحانَه بالعظيمِ هنا إيماءٌ إلى مُناسَبةِ عِظَمِ العذابِ للذَّنْبِ؛ إذ كان الذَّنْبُ كُفرانًا بعَظيمٍ، فكان جَزاءً وِفاقًا[٢].

- وقدْ جُعِل عدَمُ الحضِّ على طَعامِ المسكينِ مُبالَغةً في شُحِّ هذا الشَّخصِ عن المساكينِ بمالِ غيرِه، وكِنايةً عن الشُّحِّ عنهم بمالِه[٣].

- ولعلَّ تَخصيصَ الأمْرَينِ بالذِّكرِ؛ لأنَّ أقبحَ العقائدِ الكفرُ باللهِ تَعالى، وأشنعَ الرَّذائلِ البُخلُ وقَسوةُ القلبِ[٤].

- وأضافَ الطَّعامَ إلى المسكينِ مِن حيث لم يَنسُبْه إليه؛ إذ يَستحِقُّ المسكينُ حقًّا في مالِ الغنيِّ الموسِرِ ولو بأدْنى يَسارٍ[٥].

- قولُه: ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ مِن تَمامِ الكلامِ الَّذي ابتُدِئَ بقولِه: ﴿خُذُوهُ﴾، وتَفريعٌ عليه، والمقصودُ منه أنْ يَسمَعَه مَن أُوتِيَ كِتابَه بشِمالِه، فيَيأَسَ مِن أنْ يَجِدَ مُدافِعًا يَدفَعُ عنه بشفاعةٍ، وتَنديمٌ له على ما أضاعَهُ في حَياتِه مِن التَّزلُّفِ إلى الأصنامِ وسَدَنتِها، وتَمويهِهم عليه أنَّه يَجِدُهم عندَ الشَّدائدِ وإلْمامِ المصائبِ، وهذا وجْهُ تَقييدِ نفْيِ الحميمِ باليومِ؛ تَعريضًا بأنَّ أحِمَّاءَهُم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٢، ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٣).

الدُّنيا لا يَنفَعونَهم اليومَ، كما قال تعالَى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٢٢]، وقولُه عنهم: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وغيرُ ذلك ممَّا تفرَّقَ في آيِ القرآنِ الكريمِ(١).

- والحميمُ: القريبُ، قيل: هو هنا كِنايةٌ عن النَّصيرِ؛ إذ المتعارَفُ عندَ العرَبِ أنَّ أنصارَ المرْءِ هم عَشيرتُه وقَبيلتُه(٢).

- وتَعريفُ ﴿ٱلْخَٰطِـِٔينَ﴾ للدَّلالةِ على الكَمالِ في الوَصْفِ، أي: المرْتَكِبون أشدَّ الخطَأِ، وهو الإشراكُ(٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٣٨-٥٢)

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ٤٨ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَاهِنٖ﴾: الكاهِنُ: الَّذي يتعاطى الخَبَرَ عمَّا يكونُ في مُستَقبَلِ الزَّمانِ بضَربٍ مِنَ الظَّنِّ، ويدَّعي مَعرِفةَ الأسرارِ(٥).

﴿ٱلۡوَتِينَ﴾: أي: نِياطَ القَلبِ، وهو عِرقٌ يَجري في الظَّهرِ حتَّى يتَّصِلَ بالقَلبِ، فإذا انقَطَع بطَلَت القُوى، ومات صاحِبُه، وأصلُ (وتن): يدُلُّ على ثباتٍ ومُلازَمةٍ(٢).

﴿لَحَسۡرَةٌ﴾: الحَسْرةُ هي أشدُّ النَّدامةِ على ما فاتَ ولا يُمكنُ ارتجاعُه؛ والغمُّ عليه، وأصلُ (حسر): كَشْفُ الشَّيءِ؛ ومِنه الحَسرةُ، وهي انكشافٌ عن حالِ النَّدامةِ(٣).

﴿ٱلۡيَقِينِ﴾: أي: الخَبَرِ الصِّدقِ الحَقِّ الَّذي لا مِرْيةَ فيه ولا شَكَّ، وأصلُ (وقن):

---

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٢٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٣/ ٤٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥).

يدُلُّ على زَوالِ الشَّكِّ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقرِّرُ الله تعالى صِدقَ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: فأُقسِمُ بجَميعِ ما تَرَونَه وتُشاهِدونَه -أيُّها النَّاسُ- وما لا تَرَونَه؛ إنَّ هذا القُرآنَ لَقولُ رَسولٍ كَريمٍ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتْلوه عليكم، وما هذا القُرآنُ بكَلامِ شاعرٍ، قليلًا ما تُؤمِنونَ، وما هو بكَلامِ كاهنٍ كاذِبٍ يدَّعِي عِلمَ الغَيبِ، قليلًا ما تتذَكَّرونَ.

ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه سبحانَه، فيقولُ: هذا القُرآنُ تَنزيلٌ مِن عِندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ.

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى ما يَحدُثُ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم لو أنَّه غيَّر أو بدَّل شيئًا مِن القرآنِ -على سبيلِ الفرضِ-، فيقولُ: ولو ادَّعى محمَّدٌ على اللهِ تعالى بعضَ الأقاويلِ الكاذِبةِ، لَانتَقَمَ الله منه بقوَّتِه وقُدرتِه، ثمَّ لَقَطَعَ اللهُ تعالى مِن محمَّدٍ عِرقَ قَلْبِه، فأماتَه! فلا أحَدَ منكم -أيُّها النَّاسُ- يمنَعُه مِن عُقوبةِ اللهِ إن كَذَبَ على ربِّه، وإنَّ القُرآنَ مُذَكِّرٌ للمُتَّقينَ، وإنَّا لَنَعلَمُ أنَّ مِنكم مُكَذِّبينَ بهذا القُرآنِ، وإنَّ القُرآنَ لحَسْرةٌ على الكافِرينَ، يَندَمونَ على تَركِ الإيمانِ به، وإنَّ القُرآنَ لَهُوَ الحَقُّ الثَّابِتُ المؤكَّدُ، ولا شكَّ في نُزولِه مِن عِندِ اللهِ؛ فنَزِّهْ ربَّك المتَّصِفَ بكَمالِ العَظَمةِ -يا محمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦ / ١٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٩).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تَعالى لَمَّا أقام الدَّلالةَ على إمكانِ القِيامةِ، ثمَّ على وُقوعِها، ثمَّ ذَكَرَ أحوالَ السُّعداءِ وأحوالَ الأشقياءِ؛ ختَمَ الكلامَ بتَعظيمِ القرآنِ(١).

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨﴾.

أي: فلا أُقسِمُ بجَميعِ ما تَرَونَه وتُشاهِدونَه -أيُّها النَّاسُ- من الأشياءِ كُلِّها؛ كَبيرِها وصَغيرِها(٢).

﴿وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩﴾.

أي: وجَميعِ ما لا تَرَونَه وما غاب عنكم(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

قيل: المرادُ: أُقسِمُ، و(لا) صِلةٌ. وممَّن اختارَه: مكِّيٌّ، والسَّمعاني، والقُرطبي. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٤).

وقيل: (لا) جاءت في هذا القَسَمِ؛ ردًّا لكلامِ المشركينَ، كأنَّه قيل: ليس الأمرُ كما يقولُ المشركونَ. وممَّن ذهَبَ إلى هذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جَريرٍ، والواحديُّ، والبَغَوي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٤٩).

وقال ابن عاشور: (مِن المفسِّرينَ مَن جَعَل حرفَ «لا» في هذا القَسَمِ إبطالًا لكلامٍ سابقٍ، وأنَّ فِعلَ أُقسِمُ بعدَها مُستأنَفٌ، ونُقِضَ هذا النَّوعُ بوُقوعِ مِثْلِه في أوائِلِ السُّوَرِ، مِثلُ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ١]، ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

وقيل: المعنى: لا أُقسِمُ بذلك؛ لأنَّ الأمرَ أوضَحُ مِن أن يحتاجَ إلى إقسامٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١). =

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠﴾.

أي: إنَّ هذا القُرآنَ لَقولُ رَسولٍ كَريمٍ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَتلوه على عبادِ اللهِ، ويُبَلِّغُهم إيَّاه(١).

= قال ابنُ القيِّم: (هذا أعَمُّ قَسَمٍ وَقَع في القرآنِ؛ فإنَّه يَعُمُّ العُلويَّاتِ والسُّفْليَّاتِ، والدُّنيا والآخِرةَ، وما يُرى وما لا يُرى، ويدخُلُ في ذلك الملائِكةُ كُلُّهم، والجِنُّ والإنسُ، والعَرشُ والكُرسيُّ، وكُلُّ مخلوقٍ، وكُلُّ ذلك مِن آياتِ قُدرتِه ورُبوبيَّتِه... ففي ضِمنِ هذا القَسَمِ أنَّ كُلَّ ما يُرى وما لا يُرى آيةٌ ودليلٌ على صِدقِ رسولِه، وأنَّ ما جاء به هو مِن عندِ اللهِ، وهو كلامُه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٧٥).

وقال السعدي: (أقسَمَ تعالى بما يُبصِرُ الخَلقُ مِن جَميعِ الأشياءِ، وما لا يُبصِرونَه؛ فدخَلَ في ذلك كُلُّ الخلقِ، بل يَدخُلُ في ذلك نفْسُه المقدَّسةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٣)، ((الإخنائية)) لابن تيمية (ص: ٤٨٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

وممَّن قال بأنَّ الرَّسولَ هنا: هو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ تيميَّةَ -ونسَبَه لعامَّةِ العُلَماءِ-، وابنُ القيِّم، وابن كثير، وابن عاشور، ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: المصادر السابقة.

قال القرطبي: (ليس القُرآنُ قَولَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إنَّما هو مِن قَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ونُسِب القَولُ إلى الرَّسولِ؛ لأنَّه تالِيه، ومُبَلِّغُه، والعامِلُ به). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٤).

وقال ابنُ القيِّم: (وفي إضافتِه إليه باسمِ الرِّسالةِ أبيَنُ دَليلٍ أنَّه كَلامُ المُرسِلِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٧٦).

وقيل: المرادُ بالرَّسولِ هنا: جبريلُ عليه السَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والكرمانيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٨).

قال ابنُ تيميَّة: (وقد غَلِطَ بعضُ مَن شذَّ، فزَعَم أنَّه جِبريلُ). ((الإخنائية)) (ص: ٤٨٢).

وقال البِقاعي: (﴿كَرِيمٖ﴾ أي: هو في غايةِ الكرمِ الَّذي هو البُعدُ عن مساوئِ الأخلاقِ بإظهارِ =

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾.

أي: وما هذا القُرآنُ بكَلامِ شاعرٍ كما يَزعُمُ كُفَّارُ قُرَيشٍ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ * بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٦، ٣٧].

﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾.

أي: يقولُ اللهُ لِمُشرِكي قُرَيشٍ: قليلٌ هو إيمانُكم بما وجَبَ عليكم الإيمانُ به[2].

---

= مَعاليها؛ لشَرَفِ النَّفْسِ وشَرَفِ الآباءِ؛ فهو لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، وكرمُ الشَّيءِ اجتِماعُ الكَمالاتِ اللَّائِقةِ به فيه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤١).

قال ابنُ عَطيَّةَ: (﴿مَا﴾ يَحتمِلُ أنْ تكونَ نافيةً، فيَنْتفي إيمانُهم الْبتَّةَ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ مَصدريَّةً، ويتَّصِفُ بالقِلَّةِ؛ إمَّا الإيمانُ، وإمَّا العددُ الَّذي يُؤمِنونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢).

ممَّن اختار أنَّه أُريدَ بالقِلَّةِ العدَمُ، وأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿قَلِيلًا﴾ نفْيُ إيمانِهم أصلًا: مُقاتلُ بنُ سُليمانَ، والواحديُّ، والسَّمعاني، والزَّمخشري، والخازنُ، والشَّوكاني، والقاسميُّ، وهو ظاهرُ اختيارِ السعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

وممَّن اختار أنَّ القِلَّةَ بمعْناها الظَّاهرِ، أي: تُؤمِنون إيمانًا قليلًا، أو قَليلًا تُؤمِنونَ، ونحْو ذلك: =

كما قال تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦].

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾.

أي: وما هذا القُرآنُ بكَلامِ كاهنٍ كاذِبٍ يدَّعِي عِلمَ الغَيبِ كما يَزعُمُه الكُفَّارُ[1]!

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ [الطور: ٢٩].

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

---

= ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبيضاوي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي، والنيسابوريُّ، وأبو السُّعودِ، والألُوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٢/ ١٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٩).

قيل: وذلك القليلُ مِن إيمانِهم هو أنَّهم إذا سُئِلوا مَن خَلَقهم قالوا: اللهُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٥).

وقيل: لأنَّهم -لظُهورِ صِدقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- لَزِمَ تَصديقُهم له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في الجُملةِ، وإنْ أظْهَروا خِلافَه عِنادًا، وأبَوْه تَمرُّدًا بألْسنتِهم. يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٩).

وقيل: لأنَّهم آمَنوا بأشياءَ يسيرةٍ وتَذَكَّروها؛ مِمَّا أتى به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الخَيرِ والصِّلةِ والعَفافِ، فلم تُغْنِ عنهم شيئًا. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٤).

وقال مكِّي: (أي: إيمانًا قليلًا إيمانُكم، أو وقتًا قليلًا). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٢/ ٧٦٨٩).

وقال ابن أبي زَمَنِين: (أقَلُّكم مَن يُؤمنُ). حملًا على وصفِ العددِ الَّذي يؤمنُ بالقِلَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٢).

قال البِقاعي: (﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ وهو المنجِّمُ الَّذي يخبِرُ عن أشياءَ يُوهِمُها لرَئِيٍّ يُخبِرُه بذلك، وأغلَبُها ليس لها صِحَّةٌ، وعبارتُه عن ذلك بالسَّجعِ المتكَلَّفِ المقصودِ كَونُه سَجعًا، الَّذي يكونُ المعنى فيه تابِعًا للَّفْظِ؛ للتَّحليةِ بمُشاكلةِ المقاطِعِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٧٧).

أي: يَقولُ اللهُ تعالى لكُفَّارِ قُرَيشٍ: قليلًا ما تتذَكَّرونَ، فتَعتَبِرونَ وتتَّعِظونَ[١].

كما قال تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر: ٥٨].

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: هذا القُرآنُ تَنزيلٌ مِن عِندِ اللهِ رَبِّ العالَمينَ على عَبدِه ورَسولِه محمَّدٍ، فهو كلامُ اللهِ حقًّا، وليس قَولَ شاعرٍ ولا قَولَ كاهِنٍ، كما يَزعُمُ المُشرِكونَ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [السجدة: ٢].

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: ولو ادَّعى محمَّدٌ على اللهِ تعالى بعضَ الأقاويلِ الكاذِبةِ، فنَسَب إليه شيئًا لم يَقُلْه[٣].

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: لَعاجَلْناه بالعقوبةِ، وانتَقَمْنا منه بقوَّتِنا وقُدرتِنا[٤]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال ابن الجوزي: (أي: لو تكلَّف محمَّدٌ أن يقولَ علينا ما لم نَقُلْه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٣).

وقال الشوكاني: (التَّقَوُّلُ: تكلُّفُ القولِ، والمعنى: لو تكلَّف ذلك وجاء به مِن جهةِ نفْسِه، وسُمِّيَ الافتِراءُ تقَوُّلًا؛ لأنَّه قولٌ متكلَّفٌ، وكلُّ كاذِبٍ يَتكلَّفُ ما يَكذِبُ به). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٢). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٢)، =

= ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال البِقاعي: (﴿بِٱلۡيَمِينِ﴾ أي: الَّتي هي العُضوُ الأقوى منه؛ فبها يكونُ بَطشُه، فنُذهِبُه بشِدَّةِ بَطشِنا، أو اليمينُ مِنَّا، فيكونُ كِنايةً عن أخْذِنا له بغايةِ القُوَّةِ؛ فإنَّ قُوَّةَ كُلِّ شَيءٍ في مَيامنِه. وقيل: إذا أراد المَلِكُ إهانةَ شَخصٍ قال: خُذْه يا فُلانُ، فيأخُذُه بيَمينِه، فهو كنايةٌ عن الإذلالِ. وقيل: هذا تصويرُ قَتلِ الصَّبرِ بأشنَعِ صُورةٍ؛ فإنَّ المَلِكَ إذا أراد التَّخفيفَ على مَن يَقتُلُه أمَرَ السَّيَّافَ فأخَذ يَسارَه بيَسارِه، وضَرَبَ بالسَّيفِ مِن ورائِه؛ لأنَّ العُنُقَ مِن خَلفٍ أوسَعُ، فيكونُ أسرعَ قَطعًا، ولا يرى المقتولُ لَمْعَ السَّيفِ، وإن أراد التَّعذيبَ والمُبالَغةَ في الإهانةِ أخَذَ يَدَه اليُمنى بيَدِه اليُسرى، وضرَبَه وهو مُستقبِلٌ له، يرى لَمْعَ السَّيفِ! ورُبَّما وقعت الضَّربةُ -لضِيقِ المجالِ مِن قُدَّامٍ- في حَنَكِه، فيحتاجُ إلى ثانيةٍ وثالثةٍ، فهو أفحَشُ!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٨٠، ٣٨١). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٦، ٨٧).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: لَأخَذْناه بقُوَّتِنا وقُدرتِنا: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحديُّ، ونسَبَه للمُبَرِّدِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفَرَّاء (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣)، ((معاني القرآن)) للزَّجَّاج (٥/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٥، ١٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٦).

قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (قال ابنُ عبَّاسٍ: اليمينُ هاهنا: القوَّةُ. وإنَّما أقام اليمينَ مُقامَ القوَّةِ؛ لأنَّ قوَّةَ كلِّ شَيءٍ في مَيامِنِه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٩٩).

وقيل: المرادُ: لَأخَذْنا بيَمينِه. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٤)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٢).

قال الزمخشري: (والمعنى: ولو ادَّعى علينا شيئًا لم نقُلْه، لَقتَلْناه صَبرًا، كما يَفعَلُ الملوكُ بمَن يتكذَّبُ عليهم...، وهو أن يُؤخَذَ بيَدِه، وتُضرَبَ رَقبتُه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧). ويُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٩٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣١٥).

قال أبو حيَّان: (وهو قولٌ للمُتقدِّمينَ... قالوا: المعْنى: لَأخَذْنا بيَدِه الَّتي هي اليمينُ على جِهةِ =

﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦﴾.

أي: ثمَّ لقَطَعْنا مِن محمَّدٍ عِرقَ قَلْبِه، فأمَتْناه[1]!

﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ٤٧﴾.

أي: فلا أحَدَ منكم -أيُّها النَّاسُ- بقادِرٍ على مَنْعِ اللهِ تعالى مِن عُقوبةِ محمَّدٍ إن كَذَب على ربِّه[2]!

---

= الإذلالِ والصَّغارِ، كما يقولُ السُّلطانُ إذا أراد عُقوبةَ رجُلٍ: يا غُلامُ، خُذْ بيَدِه، وافعَلْ كذا. قاله أو قَريبًا منه الطبَريُّ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣).

وقال ابن تيميَّة: (قوله: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾: قيل: لَأخَذْنا بيَمينِه، كما يُفعلُ بمَن يُهانُ عندَ القتلِ، فيُقالُ: خُذْ بيَدِه، فيُجَرُّ بيَدِه، ثمَّ يُقتلُ، فهذا هلاكٌ بعِزَّةٍ وقُدرةٍ مِن الفاعلِ، وإهانةٍ وتعجيلِ [هلاكٍ] للمقتولِ. وقيل: لَأخَذْنا منه باليمينِ؛ أي: بالقوَّةِ، والقُدرةِ؛ فإنَّ المَيامِنَ أقوى ممَّن يأخذُ بشِمالِه، كما قال: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، وكما قال: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]. لكنَّه قال: «أَخَذْنَا مِنْهُ»، ولم يقلْ: لَأخَذْناه. فهذا يُقوِّي القولَ الأوَّلَ). ((النبوات)) (٢/ ٨٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣، ٢٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٦).

قال ابنُ القيِّم: (﴿ٱلۡوَتِينَ﴾: نِياطُ القَلبِ، وهو عِرقٌ يَجْري في الظَّهرِ حتَّى يتَّصِلَ بالقَلبِ، إذا انقَطَع بطَلَت القُوى، ومات صاحِبُه، هذا قَولُ جميعِ أهلِ اللُّغةِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٨٤). ويُنظر: ((الزاهر)) لابن الأنباري (٢/ ٣٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩).

ونسَبَ الواحديُّ والبغويُّ القولَ بأنَّ ﴿ٱلۡوَتِينَ﴾ نِياطُ القَلبِ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ، وقال الواحديُّ: (وهذا قولُ جميعِ أهلِ اللُّغةِ). يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ١٩١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وابنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، ومسلمٌ البَطِينُ، وغيرُهم. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨).

وقال محمَّدُ بنُ كعبٍ: (هو القلبُ ومَراقُّه وما يَليه). يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الأحقاف: ٨].

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تَعالى لَمَّا بيَّن أنَّ القرآنَ تَنزيلٌ مِن اللهِ الحقِّ، بواسِطةِ جِبريلَ، على محمَّدٍ الَّذي مِن صِفتِه أنَّه ليس بشاعرٍ ولا كاهنٍ؛ بيَّن بعْدَ ذلك أنَّ القرآنَ ما هو[1].

وأيضًا لَمَّا أُبطِلَ طَعْنُهم في القرآنِ بأنَّه قولُ شاعرٍ، أو قولُ كاهنٍ؛ أُعقِبَ ببَيانِ شَرَفِه ونفْعِه، إمعانًا في إبطالِ كَلامِهم بإظهارِ الفرْقِ البَيِّنِ بيْنه وبيْن شِعرِ الشُّعراءِ وزَمزمةِ الكُهَّانِ؛ إذ هو تَذكرةٌ، وليس ما أَلْحَقوه به مِن أقوالِ أولئك مِن التَّذكيرِ في شَيءٍ[2].

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ مُذَكِّرٌ للمُتَّقينَ الَّذين يَمتَثِلونَ أوامِرَ اللهِ تعالى، ويَجتَنِبونَ نواهيَه، فيَعتَبِرونَ به ويتَّعِظونَ[3].

---

= جزي)) (٢/ ٤٠٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٨٢).

قال السعدي: (وقولُه: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أي: لو أهلَكه ما امتَنَع هو بنفسِه، ولا قدَر أحدٌ أنْ يمنعَه مِن عذابِ الله). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: وإنَّا لَنعلَمُ أنَّ مِنكم مُكَذِّبينَ بهذا القُرآنِ معَ وُضوحِ الحَقِّ فيه، وسنُجازيهم على تَكذيبِهم[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦].

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ لحَسْرةٌ على الكافِرينَ، فيَندَمونَ على تَركِ الإيمانِ به[2]!

---

= عاشور)) (٢٩/ ١٤٨).

قال السعدي: (يتذَكَّرونَ به مصالحَ دينِهم ودُنياهم، فيَعرِفونَها، ويَعمَلونَ عليها، يُذَكِّرُهم العقائِدَ الدِّينيَّةَ، والأخلاقَ المَرْضيَّةَ، والأحكامَ الشَّرعيَّةَ، فيَكونونَ مِن العُلَماءِ الرَّبَّانيِّينَ، والعبادِ العارفينَ، والأئمَّةِ المَهْديِّينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قيل: الضَّميرُ راجِعٌ إلى النَّاسِ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والزمخشريُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٣).

وقيل: الضَّميرُ في ﴿مِنكُم﴾ راجِعٌ إلى المؤمِنينَ، فيكونُ المرادُ بالمكذِّبينَ منهم: المنافِقينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٣).

وقيل: الخِطابُ للمُسلِمينَ، والمعنى: أنَّ منهم ناسًا سيَكفُرونَ بالقرآنِ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧).

قال ابن عرفة: (قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ إن كان الخِطابُ للكفَّارِ، فـ «مِن» لبيانِ الجنسِ، وليس هو إخبارًا بالمعلومِ؛ لأنَّه على جهةِ التَّهديدِ والوعيدِ. وإن كان الخِطابُ لعُمومِ النَّاسِ، فالمرادُ مَن سيُكَذِّبُ منهم في المُستقبَلِ). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن =

= عطية)) (٥/ ٣٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال الرازي: (الضَّميرُ في قولِه: «إِنَّهُ» إلى ماذا يعودُ؟ فيه وجهانِ:

الأوَّلُ: أنَّه عائِدٌ إلى القرآنِ، فكأنَّه قيلَ: وإنَّ القرآنَ لَحسرةٌ على الكافرينَ. إمَّا يومَ القيامةِ إذا رَأَوْا ثوابَ المصدِّقينَ به، أو في دارِ الدُّنيا إذا رَأَوْا دولةَ المؤمنينَ.

والثَّاني: قال مقاتلٌ: وإنَّ تكذيبَهم بالقرآنِ لَحسرةٌ عليهم، ودلَّ عليه قولُه: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: ٤٩]). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٦).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: «إِنَّهُ» يعودُ على القُرآنِ: السَّمرقنديُّ، والرَّسْعني، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٧١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٢).

وممَّن اختار أنَّه يعودُ على التَّكذيبِ: ابنُ جريرٍ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧).

قال الواحديُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ: القرآنُ حَسرةٌ على الكافرين يومَ القيامةِ. يعني: ندامةً؛ إذ لم يُؤمِنوا به. والكنايةُ في «إِنَّهُ» -على هذا القولِ- للتَّكذيبِ. ودلَّ عليه قولُه: ﴿أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾). ((البسيط)) (٢٢/ ١٩٥).

وقال ابن عطية: (يَرَونَ مَن آمَنَ به يُنَعَّمُ، وهم يُعذَّبونَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٣).

وقال ابن عاشور: (الحَسْرةُ: النَّدَمُ الشَّديدُ المتكَرِّرُ على شَيءٍ فائتٍ مَرغوبٍ فيه... فالقرآنُ حَسرةٌ على الكافِرينَ، أي: سَبَبُ حَسرةٍ عليهم في الدُّنيا والآخرةِ، فهو حَسرةٌ عليهم في الدُّنيا؛ لأنَّه فَضَح تُرَّهاتِهم، ونَقَض عِمادَ دِينِهم الباطِلِ، وكَشَف حقارةَ أصنامِهم، وهو حَسرةٌ عليهم في الآخِرةِ؛ لأنَّهم يَجِدونَ مخالفتَه سببَ عَذابِهم، ويَقِفونَ على اليَقينِ بأنَّ ما كان يدعوهم إليه هو سَبَبُ النَّجاحِ لو اتَّبَعوه، لا سيَّما وقد رأَوا حُسنَ عاقبةِ الَّذين صَدَّقوا به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٩).

وقال ابن القيِّم: (أخبَر سبحانه أنَّ رَسولَه وكلامَه حَسْرةٌ على الكافِرينَ، إذا عايَنوا حقيقةَ ما أخبَرَ به كان تكذيبُهم عليهم مِن أعظمِ الحَسَراتِ حينَ لا يَنفَعُهم التَّحَسُّرُ! وهكذا كلُّ مَن كَذَّبَ بحَقٍّ، وصَدَّقَ بباطِلٍ؛ فإنَّه إذا انكشَفَ له حقيقةُ ما كَذَّبَ به وصَدَّقَ به، كان تكذيبُه وتصديقُه حَسْرةً عليه، كمَن فَرَّطَ فيما يَنفَعُه وقتَ تحصيلِه، حتَّى إذا اشتَدَّتْ حاجتُه إليه، وعايَنَ فوزَ المحصِّلينَ؛ صار تفريطُه عليه حَسْرةً). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٩١).

كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٥، ٥٦].

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ٥١﴾.

أي: وإنَّ القُرآنَ لَهُو الحَقُّ الثَّابِتُ المؤكَّدُ الَّذي لا شَكَّ فيه، ولا في نُزولِه مِن عِندِ اللهِ تعالى[١].

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ٥٢﴾.

أي: فنَزِّهْ ربَّك المتَّصِفَ بكَمالِ العَظَمةِ -يا محمَّدُ- عن كُلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، قائِلًا: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يجبُ علينا أنْ نَعمَلَ بالقُرآنِ؛ لأنَّ الَّذي أنزَلَه هو الرَّبُّ المُطاعُ الخالقُ الرَّازقُ، الَّذي يجبُ أنْ نُطيعَه بما أمَرَ، ونَنتهيَ عمَّا نهى عنه وزَجَرَ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ * لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).
وقيل: يَحتمِلُ أنْ يكونَ الضَّميرُ في قولِه: «إِنَّهُ» عائدًا على كَوْنِ القرآنِ حَسرةً على الكافرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٤٩).

ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أنَّ الواجبَ على المسلمِ ألَّا يُقْدِمَ على الفُتيا إلَّا بعلمٍ يُواجِهُ به اللهَ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه في مَقامِ المُبَلِّغِ عنِ اللهِ تعالى، القائلِ عنه[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ اليَقينُ مراتِبُه ثلاثةٌ: عِلمُ اليَقينِ: وهو العِلمُ المستفادُ مِن الخبرِ، ثمَّ عَينُ اليَقينِ: وهو العِلمُ المُدرَكُ بحاسَّةِ البصَرِ، ثمَّ حَقُّ اليقينِ: وهو العِلمُ المُدرَكُ بحاسَّةِ الذَّوقِ والمباشَرةِ، وهذا القُرآنُ الكريمُ بهذا الوَصفِ؛ فإنَّ ما فيه مِنَ العُلومِ المؤيَّدةِ بالبراهينِ القَطعيَّةِ، وما فيه مِن الحقائِقِ والمعارفِ الإيمانيَّةِ: يَحصُلُ به لِمَن ذاقه حَقُّ اليقينِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾ جمَعَ اللهُ في هذا القسَمِ كلَّ ما الشَّأنُ أنْ يُقسَمَ به مِن الأمورِ العظيمةِ مِن صِفاتِ اللهِ تَعالى، ومِن مَخلوقاتِه الدَّالَّةِ على عَظيمِ قُدرتِه؛ إذ يَجمَعُ ذلك كلَّه الصِّلَتانِ ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾، فمِمَّا يُبصِرون: الأرضُ والجبالُ، والبحارُ والنُّفوسُ البشريَّةُ، والسَّمواتُ والكواكبُ، وما لا يُبصِرون: الأرواحُ، والملائكةُ، وأُمورُ الآخرةِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ نِسبةُ الشَّيءِ إلى مَن بَلَّغَه، ومِثْلُه أنَّ اللهَ نَسَبَ القرآنَ أيضًا إلى جِبريلَ؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: ١٩، ٢٠]، فنِسْبَةُ الشَّيءِ إلى المُبَلِّغِ سائغةٌ شَرعًا ولُغةً[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢٤/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤). ويُنظر أيضًا: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩١-١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

(٤) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٣/ ٣٩٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يدُلُّ على أنَّ الرَّسولَ أحْدَثَ الكلامَ العَربيَّ!

**الجوابُ**: هذا باطِلٌ؛ وذلك لأنَّ اللهَ تعالى ذَكَرَ هذا في القُرآنِ في موضِعَينِ، والرَّسولُ في أحدِ الموضِعَينِ: مُحمَّدٌ، والرَّسولُ في الآيةِ الأخرى: جِبريلُ؛ قال تعالى هنا: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ * وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فالرَّسولُ هنا محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقال في سورةِ (التكويرِ): ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ [التكوير: ١٩ - ٢١] فالرَّسولُ هنا جِبريلُ، فلو كان أضافَه إلى الرَّسولِ لكَونِه أحدَثَ حروفَه أو أَحْدَثَ منه شيئًا، لَكان الخبَرانِ مُتناقِضَينِ؛ فإنَّه إنْ كان أحدُهما هو الَّذي أحدَثَها امتنَعَ أنْ يكونَ الآخَرُ هو الَّذي أحدَثَها، وأيضًا فإنَّه قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ ولم يَقُلْ: «لَقولُ مَلَكٍ ولا نبيٍّ»! ولفظُ «الرَّسولِ» يَستلزِمُ مُرسِلًا له، فدلَّ ذلك على أنَّ الرَّسولَ مُبَلِّغٌ له عن مُرْسِلِه، لا أنَّه أنشأَ منه شيئًا مِن جهةِ نفْسِه! وهذا يدُلُّ على أنَّه أضافه إلى الرَّسولِ؛ لأنَّه بَلَّغَه وأدَّاه، لا لأنَّه أنشأَ منه شَيئًا وابتَدَأَه، وأيضًا فإنَّ اللهَ قد كَفَّرَ مَن جَعَلَه قولَ البشَرِ، بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ * فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ * إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ١٨ - ٢٥]، ومحمَّدٌ بَشَرٌ؛ فمَن قال: إنَّه قَولُ محمَّدٍ، فقد كَفَرَ، ولا فَرْقَ بيْن أنْ يقولَ: هو قَولُ بَشَرٍ، أو جِنِّيٍّ، أو مَلَكٍ، فمَن جَعَلَه قولًا لأحَدٍ مِن هؤلاءِ فقد كَفَر، ومع هذا فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖ﴾، فجَعَله قولَ الرَّسولِ البَشَريِّ مع تكفيرِه مَن يقولُ: إنَّه قَولُ البَشَرِ، فعُلِمَ أنَّ المرادَ بذلك أنَّ الرَّسولَ بَلَّغَه عن مُرْسِلِه، لا أنَّه قَولٌ له مِن تِلْقاءِ نفْسِه، وهو كَلامُ اللهِ الَّذي أرسَلَه، كما قال تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ

مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فالَّذي بَلَّغَه الرَّسولُ هو كلامُ اللهِ، لا كَلامُ الرَّسولِ(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القُرآنَ نازِلٌ لجَميعِ الخَلْقِ؛ ففيه دليلٌ على عُمومِ رسالةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القرآنَ نازِلٌ مِن ربِّهم، وإذا كان كذلك فهو الحَكَمُ بيْنَهم، الحاكِمُ عليهم(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ نزولَ القُرآنِ هو مِن كَمالِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالى، فإذا أُضِيفَ إلى هذه الآيةِ قولُه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [فصلت: ٢، ٣] عُلِمَ أنَّ القرآنَ رحمةٌ للعِبَادِ أيضًا، وربوبيَّةُ اللهِ مَبنيَّةٌ على الرَّحمةِ؛ قال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ٢، ٣]، وكلُّ ما أمَرَ اللهُ به عبادَه أو نهاهم عنه، فهو رَحمةٌ بهم(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ؛ لأنَّه إذا كان اللهُ أنزَلَه فهو كلامُه لا كلامُ غيرِه -كما قاله السَّلَفُ رَحِمَهم اللهُ-، وهو غيرُ مخلوقٍ؛ لأنَّ جميعَ صِفاتِ اللهِ -حتَّى الصِّفاتِ الفِعليَّةَ- ليست مخلوقةً(٥).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أخبَرَ سُبحانَه أنَّه تنزيلٌ مِن رَبِّ العالَمينَ، وذلك يتضَمَّنُ أمورًا:

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٢/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٩).

**أحدُها**: أنَّه تعالى فوقَ خَلْقِه كُلِّهم، وأنَّ القُرآنَ نَزَل مِن عِندِه.

**والثَّاني**: أنَّه تكَلَّمَ به حقيقةً[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ ربوبيَّةَ اللهِ الكامِلةَ لِخَلْقِه تأبى أنْ يَتْرُكَهم سُدًى؛ لا يأمرُهم ولا يَنهاهُم، ولا يُرشِدُهم إلى ما يَنفَعُهم، ويُحَذِّرُهم ما يَضُرُّهم، بل يَترُكُهم هَمَلًا بمنزلةِ الأنعامِ السَّائمةِ! فمَن زَعَم ذلك لم يَقْدُرْ ربَّ العالَمينَ قَدْرَه، ونَسَبَه إلى ما لا يَليقُ به تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾[٢] [المؤمنون: ١١٦].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ أنَّه سُبحانَه لا يُؤَيِّدُ الكذَّابَ عليه، بل لا بُدَّ أنْ يُظْهِرَ كَذِبَه، وأنْ يَنتَقِمَ منه؛ فقد ذَكَر هذا بَعْدَ قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ثُمَّ قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾، هذا بتقديرِ أنْ يَتَقَوَّلَ بعضَ الأقاويلِ، فكيفَ بمَن يَتَقَوَّلُ الرِّسالةَ كلَّها[٣]؟! فحِكمتُه تعالى تَقتضي ألَّا يُمهِلَ الكاذِبَ عليه، الَّذي يَزعُمُ أنَّ اللهَ أباح له دِماءَ مَن خالَفَه وأموالَهم، وأنَّه هو وأتْباعَه لهم النَّجاةُ، ومَن خالفَه فله الهلاكُ، فإذا كان اللهُ قد أيَّدَ رَسولَه بالمعجزاتِ، وبَرْهَنَ على صِدقِ ما جاء به بالآياتِ البَيِّناتِ، ونَصَره على أعدائِه، ومكَّنَه مِن نواصيهم؛ فهو أكبَرُ شَهادةٍ منه على رِسالتِه[٤]، ولو قُدِّرَ أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ غَيَّرَ الرِّسالةَ، لَانْتَقَمَ منه، والمقصودُ نفْيُ هذا التَّقديرِ؛

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٤).

لانتفاءِ لازِمِه[١]. فالآياتُ فيها دليلٌ على أنَّ الله تعالى لا يُبقي أحدًا يدَّعي أنَّ اللهَ أوحى إليه كلامًا يُبَلِّغُه إلى النَّاسِ، وأنَّه يُعجِّلُ بهلاكِه، فأمَّا مَن يدَّعي النُّبوَّةَ دونَ ادِّعاءِ قَولٍ أُوحِيَ إليه، فإنَّ اللهَ قد يُهلِكُه بَعْدَ حِينٍ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معصومٌ مِن أنْ يَتَقَوَّلَ على اللهِ، فإذا لم يَأْذَنْ له اللهُ في تحليلِ شيءٍ أو تحريمِه، فلن يحَلِّلَه ولن يحَرِّمَه[٣].

١٢- خَتَم سُبحانَه السُّورةَ بقَولِه: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، وهي جديرةٌ بهذه الخاتمةِ؛ لِمَا تَضَمَّنَتْه مِن الإخبارِ عن عَظَمةِ الرَّبِّ -تعالى- وجلالِه، وذِكْرِ عِظَمِ مُلْكِه، وجرَيانِ حُكْمِه بالعَدلِ على عبادِه في الدُّنيا والآخرةِ، وذِكْرِ عظَمتِه تعالى في إرسالِ رَسولِه، وإنزالِ كتابِه، وأنَّه تعالى أعظمُ وأَجَلُّ وأكبرُ عندَ أهلِ سمَواتِه والمؤمِنينَ مِن عبادِه مِن أنْ يُقِرَّ كَذِبًا مُتَقَوَّلًا عليه، مُفترًى عليه؛ يُبَدِّلُ دِينَه، ويَنسَخُ شرائعَه، ويَقتُلُ عبادَه، ويُخبِرُ عنه بما لا حقيقةَ له، وهو سُبحانَه مع ذلك يؤيِّدُه ويَنصُرُه، ويُجيبُ دعواتِه، ويأخُذُ أعداءَه، ويَرفَعُ قَدْرَه، ويُعْلِي ذِكْرَه! فهو سُبحانَه العظيمُ الَّذي تأبى عَظَمتُه أنْ يَفعلَ ذلك بمَن أَتَى بأقبَحِ أنواعِ الكَذِبِ والظُّلمِ، فسُبحانَ ربِّنا العَظيمِ وتعالى عمَّا يَنسُبُه إليه الجاهِلونَ عُلُوًّا كبيرًا[٤]!

١٣- إنَّ بَرَكةَ الاسمِ تابِعةٌ لبَرَكةِ المسمَّى؛ فقولُه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ دليلٌ على الأمرِ بتسبيحِ الرَّبِّ بطريقِ الأَولى؛ فإنَّ تنزيهَ الاسمِ مِن توابعِ

---

(١) يُنظر: ((تلخيص كتاب الاستغاثة لابن تيمية)) لابن كثير (٢/ ٤٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (١/ ١٠٤).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٣).

تنزيهِ المسمَّى[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ سؤالٌ: ما الفائدةُ في دُخولِ الباءِ في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، ولم تَدخُلْ في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١]؟

**الجوابُ**: التَّسبيحُ يُرادُ به التَّنزيهُ، والذِّكْرُ المُجَرَّدُ دونَ معنًى آخَرَ، ويُرادُ به ذلك معَ الصَّلاةِ، وهو ذِكْرٌ وتنزيهٌ مع عَمَلٍ؛ ولهذا تُسَمَّى الصَّلاةُ تسبيحًا؛ فإذا أُريدَ التَّسبيحُ المُجَرَّدُ فلا معنى للباءِ؛ لأنَّه لا يَتعدَّى بحَرفِ جَرٍّ، لا تَقولُ: سَبَّحْتُ باللهِ، وإذا أَرَدْتَ المقرونَ بالفعلِ -وهو الصَّلاةُ- أَدْخَلْتَ الباءَ؛ تنبيهًا على ذلك المرادِ، كأنَّك قُلْتَ: سَبِّحْ مُفتَتِحًا باسمِ ربِّك، أو ناطِقًا باسمِ ربِّك، كما تقولُ: صَلِّ مُفتَتِحًا أو ناطِقًا باسمِه؛ ولهذا السِّرِّ -واللهُ أعلمُ- دخَلَتِ اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمرادُ: التَّسبيحُ الَّذي هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، ولم يَقُلْ في موضع: «سَبَّحَ اللهَ ما في السَّمواتِ والأرضِ»، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]! وتأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، كيف قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ لَمَّا ذَكَرَ السُّجودَ باسمِه الخاصِّ؛ فصار التَّسبيحُ ذِكْرَهم له، وتنزيهَهم إيَّاه[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فائدةٌ في ذِكْرِ الاسمِ: وهو أنْ يكونَ التَّسبيحُ باللِّسانِ؛ إذْ لا يمكنُ تسبيحُ اللهِ باللِّسانِ إلَّا بذكرِ اسمِه، أمَّا إذا لم تَذْكُرِ اسمَ اللهِ؛ فإنَّ التَّسبيحَ يكونُ بالقلبِ؛ ولهذا تقولُ: «سُبْحانَ رَبِّيَ العظيمِ»،

(١) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٠).

«سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه»، «سبحانَ اللهِ العظيم» تَذْكُرُ الاسمَ، فيكونُ فائدةُ ذِكْرِ الاسمِ هنا: الدَّلالةَ على أنَّ المرادَ التَّسبيحُ باللِّسانِ، وهذا لا يمكِنُ إلَّا بذِكْرِ الاسمِ، فتكونُ هنا إذَن فائدةُ ذِكْرِ الاسمِ عَظيمةً جِدًّا؛ لئلَّا يَقتَصِرَ الإنسانُ على التَّسبيحِ بقَلبِه، الَّذي لا يَظْهَرُ معه الاسمُ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ﴾ الفاءُ هنا لتَفريعِ إثباتِ أنَّ القرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ، ونفْيِ ما نسَبَه المشرِكون إليه، تَفريعًا على ما اقتضاهُ تَكذيبُهم بالبعثِ مِن التَّعريضِ بتَكذيبِ القرآنِ الَّذي أخبَرَ بوُقوعِه، وتَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم القائلَ: إنَّه مُوحًى به إليه مِن اللهِ تَعالى[٢].

- وابتُدِئَ الكلامُ بالقسَمِ تَحقيقًا لمَضمونِه على طَريقةِ الأقسامِ الواردةِ في القرآنِ، و(لا أُقسِمُ) صِيغةُ تَحقيقِ قَسَمٍ، وأصْلُها أنَّها امتِناعٌ مِن القسَمِ امتناعَ تَحرُّجٍ مِن أنْ يَحلِفَ بالمقسَمِ به خَشيةَ الحِنثِ، فشاع استِعمالُ ذلك في كلِّ قسَمٍ يُرادُ تَحقيقُه، واعتُبِرَ حرْفُ (لا) كالمزيدِ[٣]. وذلك على قولٍ.

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾

- ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ المفهومِ مِن ذِكرِ الحَشْرِ والبعثِ؛ فإنَّ ذلك ممَّا جاء به القُرآنُ، ومَجيئُه بذلك مِن أكبرِ أسبابِ تَكذيبِهم به، على أنَّ

---

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٢/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠١).

إرادةَ القُرآنِ مِن ضَمائرِ الغَيبةِ الَّتي لا معادَ لها قدْ تَكرَّرَ غيرَ مرَّةٍ فيه. وتأْكيدُ الخبرِ بحرْفِ (إنَّ) واللَّامِ؛ للرَّدِّ على الَّذين كذَّبوا أنْ يكونَ القرآنُ مِن كَلامِ الله، ونَسَبوه إلى غيرِ ذلك[١].

- وإضافةُ (قول) إلى (رسول)؛ لأنَّه الَّذي بلَّغَه، فهو قائلُه، والإضافةُ لأدْنى مُلابَسةٍ، وإلَّا فالقُرآنُ جَعَلَه اللهُ تعالَى وأجْراهُ على لِسانِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما صدَرَ مِن جِبريلَ بإيحائِه بواسطتِه[٢].

- وفي لَفظِ (رَسول) إيذانٌ بأنَّ القولَ قولُ مُرسِلِه -وهو اللهُ تعالى-، وقد أُكِّدَ هذا المعْنى بقولِه عَقِبَه: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٣].

- ووصْفُ الرَّسولِ بـ﴿كَرِيمٍ﴾؛ لأنَّه الكريمُ في صِنفِه، أي: النَّفيسُ الأفضلُ، فأُثبِتَ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الفضلُ على غيرِه مِن الرُّسلِ بوصْفِ ﴿كَرِيمٍ﴾[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾

- عُطِفَ قولُه: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ على جُملةِ الخبرِ في قولِه: ﴿بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾، و(لا) النَّافيةُ تأْكيدٌ لنفْيِ (ما)[٥].

- وكُنِّيَ بنفْيِ أنْ يكونَ قولَ شاعرٍ، أو قولَ كاهنٍ عن تَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن أنْ يكونَ شاعرًا أو كاهنًا؛ ردًّا لقولِهم: هو شاعرٌ، أو هو كاهنٌ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وإنَّما خُصَّ هذانِ بالذِّكرِ دونَ قولِهم: افتراهُ، أو هو مَجنونٌ؛ لأنَّ الوصفَ بـ﴿كَرِيمٍ﴾ كافٍ في نفْيِ أنْ يكونَ مَجنونًا أو كاذبًا؛ إذ ليس المجنونُ ولا الكاذبُ بكريمٍ، فأمَّا الشَّاعرُ والكاهنُ فقدْ كانَا مَعدودَينِ عِندَهم مِن أهلِ الشَّرَفِ(١).

- قولُه: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما أغْفَلَكم! تَتميمٌ(٢) للمعْنى السَّابقِ، وفيه معْنى التَّعجُّبِ(٣).

- و﴿قَلِيلًا﴾ في قولِه: ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ قيل: المُرادُ به انتِفاءُ ذلك مِن أصْلِه على طَريقةِ التَّمليحِ القَريبِ مِن التَّهكُّمِ(٤).

- وانتصَبَ ﴿قَلِيلًا﴾ في المَوضعَينِ على الصِّفةِ لمصدرٍ مَحذوفٍ أو زمانٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ و﴿تَذَكَّرُونَ﴾، أي: تُؤمِنون إيمانًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا، وتَذَكَّرون تَذكُّرًا قليلًا، أو زَمانًا قليلًا(٥).

- و(ما) يَحتمِلُ أنْ تكونَ نافيةً؛ فيَنْتفي إيمانُهم ألبَتَّةَ، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٢).

(٢) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ٤٩ - ٥١، ٢٤٠، ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٤، ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٥).

مَصدريَّةً، والمتَّصِفُ بالقِلَّةِ هو الإيمانُ اللُّغويُّ، ويكونَ المصدرُ المؤوَّلُ في مَوضعِ رفْعٍ على الفاعليَّةِ بـ﴿قَلِيلًا﴾، أي: قَليلًا إيمانُكم، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ زائدةً مُؤكِّدةً، ولعلَّ هذا الوجهَ أصوَبُ الوُجوهِ؛ لأنَّه المناسِبُ لتأْكيدِ القِلَّةِ[1].

- قولُه: ﴿مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، و﴿مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ على قِراءةِ ﴿مَا يُؤْمِنُونَ﴾، و﴿مَا يَذَكَّرُونَ﴾ بالياءِ التَّحتيَّةِ[2]، فيكونُ فيهما التِفاتٌ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ، وحسَّنَ ذلك كَونُهما مُعترِضتَينِ[3].

- قولُه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث خَتَم الأُولى بـ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾، والثَّانيةَ بـ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، فأُوثِرَ نفْيُ الإيمانِ عنهم -على قولٍ- في جانبِ انتِفاءِ أنْ يكونَ قولَ شاعرٍ، ونَفْيُ التَّذكُّرِ -على قولٍ- في جانبِ انتِفاءِ أنْ يكونَ قولَ كاهنٍ؛ لأنَّ نفْيَ كَونِ القرآنِ قولَ شاعرٍ بَديهيٌّ؛ إذ ليس فيه ما يُشبِهُ الشِّعرَ مِن اتِّزانِ أجزائِه في المتحرِّكِ والسَّاكنِ والتَّقفيةِ المُتماثِلةِ في جَميعِ أواخِرِ الأجزاءِ، فادِّعاؤهم أنَّه قولُ شاعرٍ بُهتانٌ مُتعمَّدٌ، يُنادي على أنَّهم لا يُرْجى إيمانُهم، وأمَّا انتفاءُ كَونِ القرآنِ قولَ كاهنٍ فمُحتاجٌ إلى أدْنى تَأمُّلٍ؛ إذْ قد يُشبَّهُ في بادئِ الرَّأيِ على السَّامعِ مِن حيث إنَّه كلامٌ مَنثورٌ مُؤلَّفٌ على فواصِلَ، ويُؤلَّفُ كلامُ الكهَّانِ على أسجاعٍ مُثنَّاةٍ مُتماثِلةٍ زَوجَينِ زَوجَينِ، فإذا تأمَّلَ السَّامعُ فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) قرأها ابنُ كثيرٍ ويعقوبُ وهشامٌ بالياءِ التَّحتيَّةِ، والباقون بالتَّاءِ، واختُلِف عن ذَكْوانَ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٣).

بأدْنى تَفكُّرٍ في نَظْمِه ومَعانيه، عَلِمَ أنَّه ليس بقولِ كاهنٍ[١]؛ فنَظْمُه مُخالِفٌ لنظْمِ كَلامِ الكُهَّانِ؛ إذ ليست فِقراتُه قصيرةً، ولا فواصِلُه مُزدوجةً، مُلتزَمٌ فيها السَّجعُ، ومَعانيه ليست مِن مَعاني الكِهانةِ الرَّاميةِ إلى الإخبارِ عمَّا يَحدُثُ لبعضِ النَّاسِ مِن أحداثٍ، أو ما يُلِمُّ بقومٍ مِن مَصائبَ مُتوقَّعةٍ ليَحذَروها؛ فلذلك كان المخاطَبون بالآيةِ مُنتفيًا عنهم التَّذكُّرُ والتَّدبُّرُ، وإذا بطَلَ هذا وذاك بطَل مُدَّعاهم؛ فحقَّ أنَّه تَنزيلٌ مِن ربِّ العالَمينَ، كما ادَّعاهُ الرَّسولُ الكريمُ عليه الصَّلاةُ والتَّسليمُ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ خبرًا ثانيًا عن اسمِ (إنَّ)، وهو تَصريحٌ بعْدَ الكِنايةِ، ويجوزُ أنْ يكونَ خبرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ جَرى حذْفُه على النَّوعِ المسمَّى عِندَ بعضِ البلاغيِّين بمُتابَعةِ الاستِعمالِ[٣] في أمثالِه، وهو كثيرٌ في الكَلامِ البليغِ، وتكونَ الجُملةُ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ القرآنَ لَمَّا وُصِفَ بأنَّه ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، ونُفِيَ عنه أنْ يكونَ قولَ شاعرٍ أو قولَ كاهنٍ؛ تَرقَّبَ السَّامعُ مَعرفةَ كُنْهِه، فبُيِّنَ بأنَّه مُنزَّلٌ مِن ربِّ العالَمينَ على الرَّسولِ الكريمِ؛ ليَقولَه للنَّاسِ ويَتْلوَه عليهم[٤].

- وقولُه: ﴿تَنزِيلٌ﴾ وصْفٌ بالمصدَرِ؛ للمُبالَغةِ[٥].

---

(١) قال أبو السعود: (وأنت خبيرٌ بأنَّ ذلك أيضًا ممَّا لا يتوقَّفُ على تأمُّلٍ قطعًا). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٣).

(٣) العرَبُ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٥/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٤).

- وعُبِّرَ عن الجَلالةِ بوصْفِ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ دونَ اسْمِه العَلَمِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه رَبُّ المخاطَبينَ، ورَبُّ الشُّعراءِ والكُهَّانِ الَّذين كانوا بمَحلِّ التَّعظيمِ والإعجابِ عندَهم(١).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ هذه الجُملةُ عطْفٌ على جُملةِ ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ﴾؛ فهي مَشمولةٌ لِما أفادَتْه الفاءُ مِن التَّفريعِ على ما اقتضاهُ تَكذيبُهم بالبعثِ مِن تَكذيبِهم القرآنَ، ومَن جاء به وقال: إنَّه وحْيٌ مِن اللهِ تَعالى، وهذه الجُملةُ مَعطوفةٌ عطْفَ اعتِراضٍ، فلك أنْ تَجعَلَ الواوَ اعتراضيَّةً؛ فإنَّه لا معْنى للواوِ الاعتراضيَّةِ إلَّا ذلك(٢).

- ومُفادُ هذه الجُملةِ: استِدلالٌ ثانٍ على أنَّ القُرآنَ مُنزَّلٌ مِن عندِ اللهِ تعالى بعْدَ الاستِدلالِ الأوَّلِ المستنِدِ إلى القسَمِ والمؤكِّداتِ، وهو استِدلالٌ بما هو مُقرَّرٌ في الأذهانِ مِن أنَّ اللهَ تعالى واسعُ القُدرةِ، وأنَّه سُبحانَه عليمٌ، فلا يُقْرِرُ أحدًا على أنْ يقولَ عنه كلامًا لم يَقُلْه، أي: لو لمْ يكُنِ القرآنُ مُنزَّلًا مِن عندِنا ومحمَّدٌ ادَّعى أنَّه مُنزَّلٌ مِنَّا، لَما أقرَرْناهُ على ذلك، ولعَجَّلْنا بإهلاكِه، فعَدَمُ هَلاكِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم دالٌّ على أنَّه لم يَتقوَّلْه على اللهِ؛ فإنَّ (لو) تَقْتضي انتِفاءَ مَضمونِ شَرْطِها لانتِفاءِ مَضمونِ جَوابِها، فحَصَل مِن هذا الكلامِ غَرَضانِ مُهمَّانِ؛ أحدُهما: يَعودُ إلى ما تَقدَّمَ، أي: زيادةُ إبطالٍ لمَزاعمِ المشركين أنَّ القرآنَ شِعرٌ أو كِهانةٌ؛ إبطالًا جامعًا لإبطالِ النَّوعَينِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٤٤، ١٤٥).

أي: ويُوضِّحُ مُخالَفةَ القُرآنِ لهذَينِ النَّوعَينِ مِن الكلامِ أنَّ الآتيَ به يَنسُبُه إلى وحْيِ اللهِ، وما عَلِمْتُم شاعرًا ولا كاهنًا يَزعُمُ أنَّ كلامَه مِن عندِ اللهِ. وثانيهما: إبطالُ زعْمٍ لهم لم يَسبِقِ التَّصريحُ بإبطالِه، وهو قولُ فَريقٍ منهم ﴿ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: ٣٨]، أي: نَسَبَه إلى اللهِ افتراءً، وتقَوَّلَه على اللهِ؛ قال تعالَى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣]، فبيَّنَ لهم أنَّه لو افْتَرى على اللهِ لَما أقَرَّه على ذلك. ثمَّ إنَّ هذا الغرَضَ يَستتبِعُ غَرَضًا آخَرَ؛ وهو تأْييسُهم مِن أنْ يأتيَ بقُرآنٍ لا يُخالِفُ دِينَهم، ولا يُسَفِّهُ أحلامَهم وأصنامَهم؛ قال تبارك تعالَى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا ٱئۡتِ بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾[1] [يونس: ١٥].

- والتَّقوُّلُ: نِسبةُ قولٍ لِمَن لم يَقُلْه، وهو تَفعُّلٌ مِن القولِ، صِيغَت هذه الصِّيغةُ الدَّالَّةُ على التَّكلُّفِ؛ لأنَّ الَّذي يَنسُبُ إلى غَيرِه قولًا لم يَقُلْه يَتكلَّفُ ويَختلِقُ ذلك الكلامَ. ولِكَونِه في معْنى (كَذَبَ) عُدِّيَ بـ (على)[2].

- والأقاويلُ: جمْعُ أقوالٍ، الَّذي هو جمْعُ قولٍ، أي: بعضًا مِن جِنسِ الأقوالِ الَّتي هي كثيرةٌ، فلِكَثرتِها جِيءَ لها بجمْعِ الجمْعِ الدَّالِّ على الكثرةِ[3].

أو سمَّى الأقوالَ المتقوَّلةَ أقاويلَ؛ تَصغيرًا لها وتَحقيرًا، كقولِك: الأعاجيبُ والأضاحيكُ، كأنَّها جمْعُ أُفْعولةٍ مِن القَولِ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٤، ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٦، ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٧).

- قولُه: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، قيل: المعنى: لَقَتَلْناه صَبْرًا، كما تَفعَلُ الملوكُ بمَن يَتكذَّبُ عليهم؛ مُعاجَلةً بالسَّخطِ والانتقامِ، فصُوِّرَ قتْلُ الصَّبرِ بصُورتِه ليَكونَ أهوَلَ؛ وهو أنْ يُؤخَذَ بيَدِه وتُضرَبَ رَقبتُه، وخصَّ اليمينَ على اليسارِ؛ لأنَّ القَتَّالَ إذا أراد أنْ يُوقِعَ الضَّربَ في قفاهُ أخَذَ بيَسارِه، وإذا أراد أنْ يُوقِعَه في جِيدِه وأنْ يُلحِقَه بالسَّيفِ -وهو أشدُّ على المصبورِ؛ لنَظَرِه إلى السَّيفِ-؛ أخَذَ بيَمينِه[1].

- قولُه: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾، أي: لَأخَذْناه أخْذًا عاجلًا فقَطَعْنا وَتينَه، وفي هذا تَهويلٌ لصُورةِ الأخْذِ؛ فلذلك لم يُقتصَرْ على نحْوِ: لأهْلَكْناهُ[2].

- واليمينُ: اليدُ اليُمنى، كُنِّيَ بها عن الاهتِمامِ بالتَّمكُّنِ مِن المأخوذِ؛ لأنَّ اليمينَ أقوى عمَلًا مِن الشِّمالِ؛ لكَثرةِ استِخدامِها، فنِسبةُ التَّصرُّفِ إليها شَهيرةٌ[3].

- و﴿مِنْهُ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿أَخَذْنَا﴾ تَعلُّقَ المفعولِ بعامِلِه. و(مِن) زائدةٌ في الإثباتِ، وفائدةُ (مِن) الزَّائدةِ في الكلامِ أنَّ أصْلَها التَّبعيضُ على وَجْهِ التَّمليحِ، كأنَّه يقولُ: نأخُذُ بَعضَه[4].

- والوَتينُ: عِرقٌ مُعلَّقٌ به القلبُ، ويُسمَّى النِّياطُ، وهو الَّذي يَسقي الجسَدَ بالدَّمِ؛ ولذلك يُقالُ له: نَهرُ الجسدِ، وهو إذا قُطِعَ مات صاحبُه، وهو يُقطَعُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عندَ نحْرِ الجَزورِ، فقَطْعُ الوَتينِ مِن أحوالِ الجَزورِ ونحْرِها؛ فشُبِّهَ عِقابُ مَن يُفرَضُ تَقَوُّلُه على اللهِ بجَزورٍ تُنحَرُ فيُقطَعُ وَتينُها[١]، واختير التَّعبيرُ به؛ لأنَّ مادَّتَه بهذا الترتيبِ تدورُ على المتانةِ والدَّوامِ، فلذا كان يفوتُ صاحبُه بفواتِه[٢].

- ومَوقعُ تَفريعِ قولِه: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ شَديدُ الاتِّصالِ بما استَتْبَعَه فرْضُ التَّقوُّلِ مِن تَأْييسِهم مِن أنْ يَتقوَّلَ على اللهِ كَلامًا لا يَسُوؤهم؛ ففي تلك الحالةِ مِن أحوالِ التَّقوُّلِ لو أخَذْنا منه باليمينِ فقَطَعْنا منه الوتينَ، لا يَستطيعُ أحدٌ منكم أو مِن غيرِكم أنْ يَحجُزَ عنه ذلك العِقابَ. وكَلمةُ (أَحَد) هو اسمٌ يقَعُ في النَّفيِ العامِّ مُستويًا فيه الواحدُ والجمْعُ، والمذكَّرُ والمؤنَّثُ، وبدونِ هذا الاتِّصالِ لا يَظهَرُ معْنى تَعجيزِهم عن نصْرِه؛ إذ لَيسوا مِن الولاءِ له بمَظِنَّةِ نصْرِه، فمعْنى هذه الآيةِ يَحومُ حولَ معْنى قولِه تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا * إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[٣] [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

- وإنَّما أُخبِرَ عن (أَحَد) وهو مُفرَدٌ بـ﴿حَٰجِزِينَ﴾ جمْعًا؛ لأنَّ (أحدًا) هنا وإنْ كان لَفظُه مُفرَدًا فهو في معْنى الجمْعِ؛ لأنَّ (أحدًا) إذا كان بمعْنى ذاتٍ أو شخصٍ لا يقَعُ إلَّا في سِياقِ النَّفيِ -مِثلَ عَريبٍ ودَيَّارٍ ونحوِهما مِن النَّكراتِ الَّتي لا تُستعمَلُ إلَّا مَنْفيَّةً-؛ فيُفيدُ العمومَ، أي: كلُّ واحدٍ لا يَستطيعُ الحجْزَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)) للبقاعي (٢٠/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٧).

عنه، ويَسْتوي في لَفظِه الواحدُ والجمْعُ، والمذكَّرُ والمؤنَّثُ[١].

- و(مِنْ) في قولِه: ﴿مِّنْ أَحَدٍ﴾ مَزيدةٌ؛ لتَأكيدِ النَّفيِ، وللتَّنصيصِ على العُمومِ[٢].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ عطْفٌ على ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٤٠]، والضَّميرُ عائدٌ إلى القرآنِ الَّذي تَقدَّمَ ضَميرُه في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[٣].

- والإخبارُ بقولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ﴾ إخبارٌ بالمَصدَرِ؛ للمُبالَغةِ في الوَصفِ، والمعنى: أنَّه مُذكِّرٌ للنَّاسِ بما يَغفُلون عنه مِن العِلمِ باللهِ وما يَليقُ بجَلالِه؛ ليَنتشِلَهم مِن هُوَّةِ التَّمادي في الغَفلةِ حتَّى يَفوتَ الفواتُ، فالقرآنُ في ذاتِه تَذكرةٌ لِمَن يُريدُ أنْ يَتذكَّرَ، سواءٌ تَذكَّرَ أو لم يَتذكَّرْ[٤].

- والقُرآنُ تَذكرةٌ للمُتَّقينَ في الماضي والحالِ والمُستقبَلِ؛ فإنَّ الإخبارَ عنه باسمِ المَصدَرِ يَتحمَّلُ الأزمنةَ الثَّلاثةَ؛ إذ المصدرُ لا إشعارَ له بوقْتٍ، بخِلافِ الفعلِ وما أشْبَهَه[٥].

- وإنَّما عُلِّقَ ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ بكونِه تَذكرةً؛ لأنَّ المتَّقينَ هم الَّذين أدْرَكوا مَزيَّتَه، وهم المنتَفِعونَ به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٤٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٩).

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هاتانِ جُملتانِ مُرتبطتانِ، وأُولاهما تَمهيدٌ وتَوطئةٌ للثَّانيةِ، وهي مُعترِضةٌ بيْن الَّتي قبْلَها والَّتي بعْدَها، والثَّانيةُ منهما مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، فكان تَقديمُ الجُملةِ الأُولى على الثَّانيةِ اهتِمامًا بتَنبيهِ المكذِّبين إلى حالِهم، وكانت أيضًا بمَنزلةِ التَّتميمِ لجُملةِ ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]، والمعْنى: إنَّا بَعَثْنا إليكم الرَّسولَ بهذا القرآنِ، ونحن نَعلَمُ أنَّه سيكونُ منكم مُكذِّبون له وبه، وعِلْمُنا بذلك لم يَصْرِفْنا عن تَوجيهِ التَّذكيرِ إليكم وإعادتِه عليكم؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]؛ فقُوبِلَت صِفةُ القرآنِ الَّتي تَنفَعُ المتَّقينَ بصِفتِه الَّتي تَضُرُّ بالكافرينَ على طَريقةِ التَّضادِّ، فبيْن الجُملتَينِ المُتعاطفتَينِ مُحسِّنُ الطِّباقِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٩).

والطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ معَ مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بيْنَ الضَّحكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقونَ. ومنه: طباق ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خَفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةٌ، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً؛ لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يقابلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ، كقولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القصاصِ: القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أملَحِ الطِّباقِ وأخفاه. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٦).

- وفي قولِه: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ إيعادٌ على التَّكذيبِ[١].

- والمكذِّبونَ: هم الكافِرونَ، وإنَّما عُدِلَ عن الإتيانِ بضَميرِهم إلى الاسمِ الظَّاهرِ ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ لأنَّ الحسرةَ تَعُمُّ المكذِّبين يومَئذٍ والَّذين سيَكفُرون به مِن بعْدُ[٢].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ عطْفٌ على ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الحاقة: ٥٠]، فيَحتمِلُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا على القرآنِ؛ لأنَّ هذه مِن صِفاتِ القرآنِ، ويَحتمِلُ أنْ يكونَ مُرادًا به المذكورُ، وهو كَوْنُ القرآنِ حَسرةً على الكافرينَ، أي: إنَّ ذلك حقٌّ لا مَحالةَ، أي: هو جالبٌ لحسْرتِهم في الدُّنيا والآخرةِ[٣].

- وإضافةُ حقٍّ إلى يَقينٍ يَجوزُ أنْ يكونَ مِن إضافةِ الموصوفِ إلى الصِّفةِ، أي: إنَّه لَلْيَقينُ الحقُّ الموصوفُ بأنَّه يَقينٌ لا يَشُكُّ في كونِه حقًّا إلَّا مَن غُشِيَ على بَصيرتِه، أي: لَلْيقينُ الحقُّ، أي: الَّذي لا تَعترِيه شُبهةٌ[٤].

وقيل: ليست هذه الإضافةُ مِن بابِ إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه، بل مِن بابِ إضافةِ الجِنْسِ إلى نوعِه؛ فإنَّ «الحقَّ» -وكذلك «العلمُ» و«العينُ»- أعمُّ مِن كونِها يقينًا، فأُضيف العامُّ إلى الخاصِّ، مثل: بعضِ المتاعِ، وكُلِّ الدَّراهمِ.

ولما كان المضافُ والمضافُ إليه في هذا البابِ يَصْدُقانِ على ذَاتٍ واحدةٍ -بخلافِ قولِك: دارُ عمروٍ، وثوبُ زيدٍ- ظَنَّ مَنْ ظَنَّ أنَّها مِن إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه؛ وليس كذلك، بل هي مِن بابِ إضافةِ الجِنْسِ إلى نوعِه، كـ: ثوبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

خَزٍّ، وخاتَمِ فضَّةٍ. فالمضافُ إليه قد يكونُ مغايرًا للمضافِ، لا يَصْدُقانِ على ذاتٍ واحدةٍ، وقد يُجانسه فَيَصْدُقانِ على مسمًّىً واحدٍ(١).

وعندَ الكوفيينَ هذا مِن إضافةِ الشيءِ إلى نفسِه، وأصلُه عندَهم: «الحقُّ اليقينُ» على النَّعتِ، ثمَّ أُضيف (المنعوت) إلى نعتِه، والنعتُ هو المنعوتُ في المعنى، فقد صار مِن إضافةِ الشيءِ إلى نفسِه(٢).

٩- قولُه تعالَى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ تَفريعٌ على جميعِ ما تَقدَّمَ مِن وصْفِ القرآنِ وتَنزيهِه عن المطاعِنِ، وتَنزيهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا افتراهُ عليه المشركون، وعلى ما أيَّدَه اللهُ به مِن ضرْبِ المثَلِ للمكذِّبين به بالأُمَمِ الَّتي كذَّبَت الرُّسلَ؛ فأُمِر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُسبِّحَ اللهَ تَسبيحَ ثَناءٍ وتَعظيمٍ شُكرًا له على ما أنْعَمَ به عليه مِن نِعمةِ الرِّسالةِ وإنزالِ هذا القرآنِ عليه(٣).

- والتَّسبيحُ: التَّنزيهُ عن النَّقائصِ بالاعتِقادِ والعِبادةِ والقولِ؛ فتَعيَّنَ أنْ يَجريَ في التَّسبيحِ القَوليِّ اسمُ المنزَّهِ؛ فلذلك قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾، ولم يَقُلْ: فسبِّحْ ربَّك العظيمَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أيمان القرآن)) لابن القيم (١/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٦٩٣).

قال الشنقيطي: (والحقُّ هو اليقينُ. وإضافةُ الشيءِ إلى نفسِه معَ اختلافِ اللفظينِ أسلوبٌ عربيٌّ، وقد كثُر ورودُه في القرآنِ وفي كلامِ العربِ، ومنه في القرآنِ قولُه تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلْآخِرَةِ﴾ [يوسف: ١٠٩]، و«لدار» هي الآخرةُ، وقولُه: ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ [فاطر: ٤٣]، والمكرُ هو السيئُ بدليلِ قولِه بعدَه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾، وقولُه: ﴿مِنْ حَبْلٍ ٱلْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، والحبلُ هو الوريدُ، وقولُه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، والشَّهرُ هو رمضانُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥٣٧) بتصرف.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ١١٧).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ المعارجِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ المعارجِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (المعارِج)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ المعارِجِ مكِّيَّةٌ[٢]؛ نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

التَّذكيرُ بيَومِ القِيامةِ وشَدائدِه، وما فيه مِن حِسابٍ وجَزاءٍ، وثَوابٍ وعِقابٍ[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- بَيانُ جُرأةِ الكافرِ في استِعجالِ العذابِ، وتَهديدُ الكافِرينَ بعَذابِ يومِ القِيامةِ.

٢- التَّأكيدُ على أنَّ يومَ القيامةِ حقٌّ، وأنَّه واقعٌ، وذِكرُ شَيءٍ مِن أهوالِه الشَّديدةِ.

---

(١) لم يَرِدْ فيها نصٌّ صريحٌ، لكن اشتَهَرت في كُتبِ التَّفسيرِ والمصاحفِ تَسميتُها بسُورة (المعارج). وسُمِّيَتْ بـ(المعارج)؛ لوُقوعِ هذه الكلمةِ في أوَّلِها. وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾؛ لمفتتحِها، وسورةَ (الواقع)؛ لقولِه: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٨)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٤٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٨).

(٣) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزيِّ، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٧٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١١٨).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٩٠).

٣- ذِكرُ جَهنَّمَ وأسبابِ استِحقاقِ عَذابِها، ومُقابَلةُ ذلك بأعمالِ المؤمنينَ الَّتي أدَّت بهم إلى الجنَّةِ.

٤- تَوبيخُ الكافِرينَ، وبَيانُ ذُلِّهم في يومِ القيامةِ.

٥- تَثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَسليتُه على ما يَلْقاهُ مِن المشرِكينَ.

## الآيات (١-٧)

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ۝٣ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝٧﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمَعَارِجِ﴾: أي: الدَّرَجاتِ، أو المصاعِدِ؛ لأنَّ العُرُوجَ: ذَهابٌ في صُعودٍ، أو السَّمَواتِ؛ لأنَّ الملائِكةَ تَعرُجُ فيها، وأصلُ (عرج): يدُلُّ على سُمُوٍّ وارتقاءٍ[1].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾

- قَولُه تعالى: ﴿سَأَلَ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحدُهما: أنْ يكونَ قد ضُمِّنَ معنى «دعا»؛ فلذلك تعدَّى بالباءِ؛ مِنْ قولِك: دعا بكَذا: إذا استَدْعاه وطَلَبه، ومنه قَولُه تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ [الدخان: ٥٥]، والمعنى: دعا داعٍ بعذابٍ. والثَّاني: أَنْ يكونَ على أصلِه، والباءُ بمعنى (عن).

- قولُه تعالى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾: فيه أوجهٌ؛ أحدُها: أَنْ يتعلَّقَ بـ ﴿سَأَلَ﴾ مُضَمَّنًا معنى «دَعا»، أي: دعا للكافِرينَ بعَذابٍ واقعٍ. الثَّاني: أَنْ يتعلَّقَ بـ ﴿وَاقِعٍ﴾، واللَّامُ للعِلَّةِ، أي: نازِلٍ مِن أجْلِهم، أو تكونُ اللَّامُ بمعنى «على»، أي: واقعٍ على الكافِرينَ. الثَّالثُ: أن يتعلَّقَ بمحذوفٍ صفةً ثانيةً لـ «عَذَابٍ»، أي: كائنٍ للكافِرينَ. الرَّابعُ: أَنْ يكونَ جوابًا للسَّائلِ، فيكونَ خبرَ مُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: هو للكافِرينَ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٧).

- قوله: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنْ يكونَ نعتًا آخَرَ لـ «عذابٍ». الثَّاني: أنْ يكونَ مُستأنَفًا. الثَّالثُ: أنْ يكونَ حالًا مِن «عذابٍ»؛ لتخصُّصِه بالعملِ أو الصِّفةِ.

- قَولُه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: في تعَلُّقِه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنْ يتعلَّقَ بـ﴿دَافِعٌ﴾، بمعنى: ليس له دافِعٌ مِنْ جهتِه تعالى إذا جاء وَقتُه. الثَّاني: أنْ يتعلَّقَ بـ﴿وَاقِعٍ﴾، أي: واقِعٍ مِن عندِه تعالى[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ اللهُ تعالى في مَطلَعِ هذه السُّورةِ الكريمةِ مبيِّنًا جهْلَ المعاندينَ، واستعجالَهم لعذابِ الله: دعا داعٍ مِنَ الكُفَّارِ بعَذابِ اللهِ مُتعَجِّلًا له، وهو واقِعٌ بالكُفَّارِ لا محالةَ! وليس له دافعٌ يَدفَعُه عنهم، وهذا العذابُ واقعٌ عليهم مِنَ اللهِ ذي العلُوِّ والدَّرجاتِ والفواضِلِ والنِّعَمِ، فلا يمكِنُ لأحَدٍ دَفْعُه. تَصعَدُ الملائكةُ وجِبريلُ عليهم السَّلامُ إليه سُبحانَه وتعالى في يومٍ قَدْرُه خمسونَ ألْفَ سَنَةٍ!

فاصبِرْ -يا محَمَّدُ- على تكذيبِ المُشرِكينَ بك صَبرًا جَميلًا؛ إنَّ الكافِرينَ يَرَونَ عَذابَ الآخِرةِ بعيدًا وُقوعُه؛ لعَدَمِ إيمانِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ، ونحن نَراه قريبَ الوُقوعِ؛ فكلُّ آتٍ قَريبٌ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٣٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٤٥ - ٤٤٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٦٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٩/ ٧٧).

قال ابن جُزَي: (﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحتَمِلُ أن يتعلَّقَ بـ﴿وَاقِعٍ﴾ أي: واقِعٍ مِن عِندِ اللهِ، أو بـ﴿دَافِعٌ﴾ أي: ليس له دافِعٌ مِن عندِ اللهِ، أو يكونُ صِفةً للعَذابِ، أو مُستأنَفًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩).

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿سَالَ﴾ بالألِفِ مِن غيرِ هَمزٍ، قيل: هو مِن السَّيَلانِ، على معنى: جرى وادٍ في جهنَّمَ بعَذابٍ واقِعٍ[١]، وقيل: (سَالَ) بمعنى (سَأَلَ)، تُرِكت الهَمزةُ تَخفيفًا، فتكونُ القِراءتانِ بمعنًى واحدٍ[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿سَأَلَ﴾ بهمزةٍ مَفتوحةٍ؛ مِنَ السُّؤالِ، على معنى: دعا داعٍ بعَذابٍ واقِعٍ، أي: طَلَبه. وقيل: المعنى: سأل سائِلٌ عن عذابٍ واقِعٍ[٣].

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١﴾.

أي: دعا داعٍ مِنَ الكُفَّارِ بعَذابِ اللهِ مُتعَجِّلًا له، وهو واقِعٌ بالكُفَّارِ لا محالةَ[٤]!

---

(١) قرأ بها نافعٌ، وابنُ عامرٍ، وأبو جعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٥٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٠، ٧٢١).

(٢) قال الأزهري: (وجائِزٌ أن يكونَ ﴿سَالَ﴾ غيرَ مهموزٍ، ويكونَ بمعنى «سأل»، فَخُفِّفَ همزُه. وهو أَحَبُّ إلَيَّ من قَولِ مَن ذهب به إلى سَيْلِ الوادي؛ لتتَّفِقَ القِراءتانِ). ((معاني القراءات)) (٣/ ٨٨).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٥٢)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٨)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢١).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).
قوله: ﴿سَأَلَ﴾ اختُلِف فيه على قولَينِ:
أحدُهما: أن يكونَ السُّؤالُ بمعنَى الدُّعاءِ، أي: دعا داعٍ بعذابٍ واقِعٍ.
والآخَرُ: أن يكونَ السُّؤالُ بمعنَى الاستِخبارِ، أي: سأَلَ سائلٌ عن عذابٍ واقِعٍ، والباءُ على هذا بمعنَى (عن). يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٨٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٤). =

= ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢١٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال ابن جُزَي: (وقد تكونُ الإشارةُ إلى قولِ الكفَّارِ: «أَمْطِرْ علينا حِجارةً مِن السَّماءِ»، وكان الَّذي قالها النَّضرُ بنُ الحارثِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩).

وقال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: نزلَت في النَّضرِ بنِ الحارثِ حينَ قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، وهذا مذهبُ الجمهورِ؛ منهم ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ. وقال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: هو أبو جهلٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٥).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ أي أنَّ السُّؤالَ بمعنى الاستخبارِ: ابنُ جرير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٤).

قال ابن جُزَي: (وتكونُ الإشارةُ إلى قولِه: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾، وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩).

وقال ابن كثير: (﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ فيه تضمينٌ دلَّ عليه حرفُ الباءِ، كأنَّه مقدَّر: يَستَعجِلُ سائلٌ بعذابٍ واقعٍ، كقولِه: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الحج: ٤٧]، أي: وعذابُه واقعٌ لا مَحالةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠).

وقال الرازي: (قال بعضُهم: هذا السَّائلُ هو رسولُ الله، استعجَل بعذابِ الكافِرين، فبَيَّن اللهُ أنَّ هذا العذابَ واقعٌ بهم، فلا دافِعَ له. قالوا: والَّذي يدُلُّ على صحَّةِ هذا التَّأويلِ قولُه تعالى في آخرِ الآيةِ: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، وهذا يدُلُّ على أنَّ ذلك السَّائلَ هو الَّذي أمَره بالصَّبرِ الجميلِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٣٧).

وقال ابن عاشور: (كان كفَّارُ قُرَيشٍ يَستَهزِئون فيَسألونَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم: متى هذا العذابُ الَّذي تَتوعَّدُنا به؟ ويَسألونَه تعجيلَه؛ قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ [الحج: ٤٧]، وكانوا أيضًا يَسألونَ اللهَ أن يوقِعَ عليهم عذابًا إن كان القرآنُ حقًّا مِن عندِه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. =

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢﴾.

أي: ليس للعَذابِ الواقعِ على الكافِرينَ أيُّ دافعٍ يَدفَعُه عنهم[1].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الملك: ٢٨].

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾.

أي: وهذا العذابُ واقعٌ مِنَ اللهِ ذي العلُوِّ والدَّرجاتِ والفواضِلِ والنِّعَمِ، فلا يمكِنُ لأحَدٍ دَفْعُه[2].

---

= وقيل: إنَّ السَّائلَ شخصٌ معيَّنٌ، هو النَّضرُ بنُ الحارثِ، قال: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا﴾ أي: القرآنُ ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَسألُ اللهَ أن يُعِينَه على المشركينَ بالقَحطِ، فأشارت الآيةُ إلى ذلك كلِّه، ولذلك فالمرادُ بـ﴿سَآئِلٌ﴾ فريقٌ أو شخصٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠).

قال السعدي: (أي: ليس لهذا العذابِ الَّذي استعجَلَ به مَن استعجلَ مِن مُتمَرِّدي المشركينَ أحدٌ يَدفَعُه قبْلَ نُزولِه، أو يَرفَعُه بعدَ نُزولِه... فالعذابُ لا بدَّ أن يقَعَ عليهم مِن الله؛ فإمَّا أن يُعَجَّلَ لهم في الدُّنيا، وإمَّا أنْ يُؤخَّرَ عنهم إلى الآخِرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال ابن الجوزي: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ فيه قولانِ؛ أحدُهما: أنَّها السَّمواتُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. وقال مجاهدٌ: هي مَعارِجُ الملائكةِ. قال ابنُ قُتَيْبَةَ: وأصلُ «المعارج» الدَّرَجُ، وهي مِن عَرَجَ: إذا صَعِدَ. قال الفرَّاءُ: لَمَّا كانت الملائكةُ تَعْرُجُ إليه، وصَف نفْسَه بذلك). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٦). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾: ذو السَّمَواتِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٥). =

كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ [غافر: ١٥].

﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ٤﴾.

﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾.

أي: تَصعَدُ الملائِكةُ وجِبريلُ عليهم السَّلامُ إليه سُبحانَه وتعالى[1].

---

= قال السمعاني: (وسُمِّيت السَّمواتُ مَعارِجَ؛ لأنَّ الملائكةَ يَعْرُجونَ إليها). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٥).

وممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾: أي: ذي المَصاعِدِ: ابنُ أبي زَمَنِين، والزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والنَّسَفي، وابنُ جُزَي، والنيسابوري، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكانيُّ، وعبَّر بعضُهم بقولِه: مَصاعِدِ الملائكةِ، وبعضُهم قال: المَراقي إلى السَّماءِ، وبعضُهم قال: الدَّرجاتِ الَّتي تَصعَدُ فيها الملائكةُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٠٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٥٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٥).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ يعني: ذا العُلوِّ والدَّرَجاتِ، والفواضِلِ والنِّعَمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٠).

وقال السعدي: (ذو العُلوِّ والجَلالِ والعَظَمةِ، والتَّدبيرِ لسائرِ الخَلقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

قال ابنُ كثيرٍ: (... عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ قال: ذو الدَّرَجاتِ. وقال عليُّ بنُ أبي طَلْحةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ يعني: العلو والفواضل. وقال مجاهدٌ: ﴿ذِي ٱلۡمَعَارِجِ﴾ مَعارِجِ السَّماءِ. وقال قَتادةُ: ذي الفواضِلِ والنِّعَمِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٠). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٠، ٢٥١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٣٥٤).

قال ابنُ كثير في «الرُّوح»: (يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ به جِبريلَ، ويكونَ مِن بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، ويحتَمِلُ أن يكونَ اسمَ جِنسٍ لأرواحِ بني آدمَ؛ فإنَّها إذا قُبِضَت يُصعَدُ بها إلى السَّماءِ كما دَلَّ عليه حديثُ البَراءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢١). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣].

وقال سبحانه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

أي: في يومٍ واحدٍ قَدْرُه خمسونَ ألْفَ سَنةٍ[1]!

---

= وممَّن ذهب إلى أنَّ الرُّوحَ هنا جِبريلُ عليه السَّلامُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والقرطبي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٧).

قال ابنُ عطيَّة: (الرُّوحُ عندَ جُمهورِ العُلَماءِ: هو جِبريلُ عليه السَّلامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٥).

ونسَبَه ابنُ الجَوزيِّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الرُّوحَ اسمُ جِنسٍ لأرواحِ بني آدمَ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٥).

وذكر الماوَرْديُّ عن قَبِيصةَ بنِ ذُؤَيْبٍ أنَّ المرادَ: رُوحُ الميِّتِ حينَ يُقبَضُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٠).

قال القرطبي: (﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي: تَصعَدُ في المعارجِ الَّتي جعَلَها اللهُ لهم). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨١).

وقال العُلَيمي: (﴿تَعْرُجُ﴾ أي: تَصعَدُ ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ الحَفَظةُ بأعمالِ بني آدمَ كُلَّ يومٍ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥١)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

قال ابن جُزَي: (اختُلِف في هذا اليومِ على قولَينِ؛ أحدُهما: أنَّه يومُ القيامةِ، والآخَرُ: أنَّه في الدُّنيا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

وقال ابن الجَوزيِّ: (﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه قَولانِ: =

= أحدُهما: أنَّه يومُ القيامةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والقُرَظيُّ، وهذا هو مِقدارُ يومِ القيامةِ مِن وقتِ البَعثِ إلى أن يُفصَلَ بيْن الخَلقِ...

وقيل: بل لو وَلِيَ حِسابَ الخَلقِ سِوى اللهِ عزَّ وجلَّ لم يَفرُغْ منه في خمسينَ ألْفَ سَنةٍ! والحقُّ يَفرُغُ منه في ساعةٍ مِن نهارٍ. وقال عطاءٌ: يَفرُغُ اللهُ مِن حِسابِ الخَلقِ في مِقدارِ نِصفِ يومٍ مِن أيَّامِ الدُّنيا. فعلى هذا يكونُ المعنى: ليس له دافِعٌ مِنَ اللهِ في يومٍ كان مِقدارُه خمسينَ ألْفَ سَنةٍ... والثَّاني: أنَّه مِقدارُ صُعودِ الملائكةِ مِن أسفَلِ الأرضِ إلى العَرشِ لو صَعِدَه غيرُهم قَطَعه في خمسينَ ألْفَ سنةٍ. وهذا معنى قولِ مُجاهِدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٧).

ونسَبَ الرَّسْعَنيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ أنَّه يومُ القيامةِ. ثمَّ قال: (وهذا مِقْدارُ ما بيْن البَعثِ إلى الفَصلِ بيْن الخلائقِ، وإلَّا فهو يومٌ لا آخِرَ له، فعلى هذا القولِ: يتعلَّقُ قولُه: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ بقولِه: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ [المعارج: ٢]، أي: ليس له دافِعٌ مِن الله في ذلك اليومِ. أو بقولِه: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، على معنى: سأل سائلٌ بعذابٍ واقِعٍ في ذلك اليومِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٧٦، ٢٧٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مِقدارُ يومِ القيامةِ على الكافِرِ: القرطبيُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٥).

قال ابن جُزَي: (اختُلِف هل مِقْدارُه [أي: اليومِ] خمسونَ ألْفَ سنةٍ حقيقةً؟ وهذا هو الأظهَرُ، أو هل وُصِف بذلك لشِدَّةِ أهوالِه؟ كما يُقالُ: يومٌ طويلٌ، إذا كان فيه مَصائبُ وهُمومٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

وقال القرطبي: (قيل: في الكلامِ تقديمٌ وتأخيرٌ، والمعنى: سأل سائلٌ بعذابٍ واقِعٍ للكافِرينَ ليس له مِن الله دافِعٌ، في يومٍ كان مِقْدارُه خمسينَ ألْفَ سنةٍ تَعرُجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليه. وهذا القولُ هو معنى ما اختَرْناه). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ أنَّه لو وَلِيَ حِسابَ الخَلقِ أحدٌ سِوى الله عزَّ وجلَّ لم يَفرُغْ منه إلَّا في خمسينَ ألْفَ سَنةٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٤). ويُنظر أيضًا: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٧١).

وممَّن قال بأنَّ مِقدارَ صُعودِ الملائكةِ مِن أسفَلِ الأرضِ إلى العَرشِ مَسافةُ خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ لو قطَعَها غيرُهم: ابنُ جريرٍ، والبغويُّ، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) =

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن صاحِبِ ذَهَبٍ ولا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنها حَقَّها إلَّا إذا كان يومُ القيامةِ صُفِّحَت له صفائِحُ[1] مِن نارٍ، فأُحمِيَ عليها في نارِ جَهنَّمَ، فيُكوى بها جَنْبُه وجَبينُه وظَهرُه، كُلَّما بَرُدَت أُعيدَت له في يَومٍ كان مِقدارُه خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ، حتَّى يُقضَى بيْن العِبادِ، فيَرى سَبيلَه؛ إمَّا إلى الجنَّةِ، وإمَّا إلى النَّارِ))[2].

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾.

---

= (٢٣/ ٢٥١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٦).

قال العُلَيمي: (﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ مِن سِنِي الدُّنيا، لو صَعِد فيه غيرُ المَلَكِ؛ لأنَّ المَلَكَ يَصعَدُ مِن مُنتهى أمرِ الله مِن أسفلِ السُّفلِ إلى منتهى أمرِه مِن فَوقِ السَّماءِ السَّابعةِ في يومٍ واحدٍ، ولو صَعِد فيه بنو آدَمَ لَصَعِدوه في خمسينَ ألْفَ سَنةٍ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٦).

وقال السعدي: (ذكَرَ المسافةَ الَّتي تَعرُجُ إلى اللهِ فيها الملائكةُ والأرواحُ، وأنَّها تَعرُجُ في يومٍ بما يسَّر لها مِن الأسبابِ، وأعانها عليه مِن اللَّطافةِ والخِفَّةِ وسرعةِ السَّيرِ، مع أنَّ تلك المسافةَ على السَّيرِ المُعتادِ مِقْدارُ خمسينَ ألْفَ سَنةٍ، مِن ابتِداءِ العُروجِ إلى وُصولِها ما حُدَّ لها، وما تَنتهي إليه مِن المَلأِ الأعلى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

وقيل: المرادُ بذلك: مُدَّةُ بقاءِ الدُّنيا منذُ خلَقَ اللهُ هذا العالَمَ إلى قيامِ السَّاعةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٢).

قال ابن جُزَي: (إذا قُلْنا: إنَّه [أي: اليومَ] في الدُّنيا، فالمعنى: أنَّ الملائكةَ والرُّوحَ يَعرُجونَ في يومٍ لو عرَج فيه النَّاسُ لَعَرَجوا في خمسينَ ألْفَ سَنةٍ، وقيل: الخَمسونَ ألْفَ سَنةٍ هي مُدَّةُ الدُّنيا، والملائكةُ تَعرُجُ وتَنزِلُ في هذه المُدَّةِ. وهذا كلُّه على أن يكونَ قولُه: ﴿فِي يَوۡمٖ﴾ يتعلَّقُ بـ﴿تَعۡرُجُ﴾. ويحتملُ أن يكونَ ﴿فِي يَوۡمٖ﴾ صِفةً للعذابِ، فيتعيَّن أن يكونَ اليومُ يومَ القيامةِ، والمعنى على هذا مستقيمٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

(١) صُفِّحَت له صفائِحُ: أي: جُعِلَت لِصاحبِها (صَفائحَ)، أي: كأمثالِ الألواحِ، جمْع صَفيحةٍ، وهي ما طُبِعَ عَريضًا. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٦/ ٩).

(٢) رواه مسلم (٩٨٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الكفَّارُ قد سألوا استِعجالَ العذابِ، وكان السُّؤالُ على سبيلِ الاستهزاءِ والتَّكذيبِ، وكانوا قد وُعِدوا به؛ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ[١].

﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ٥﴾.

أي: فاصبِرْ -يا محَمَّدُ- على تكذيبِ المُشرِكينَ بك، وأذاهم لك، صَبرًا جَميلًا لا جَزَعَ فيه ولا شِكايةَ، ولا قِلَّةَ رِضًا ولا تعجُّلَ؛ فلا تَستعجِلْ عَذابَهم والنَّصرَ عليهم، وتحمَّلْ مَشاقَّ دَعوتِهم إلى اللهِ بلا ضَجَرٍ ولا مَلَلٍ[٢]!

﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ٦﴾.

أي: إنَّ الكافِرينَ يَرَونَ عَذابَ الآخِرةِ غَيرَ كائنٍ وُقوعُه؛ لعَدَمِ إيمانِهم بالبَعثِ بعدَ المَوتِ[٣].

﴿وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ٧﴾.

أي: ونحن نَرى العذابَ النَّازِلَ بهم قريبَ الوُقوعِ؛ لأنَّ ما أخبَرَ اللهُ بوُقوعِه فهو آتٍ لا محالةَ، وكلُّ آتٍ قَريبٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

أَمَرَ الله تعالى نَبيَّه بالهجْرِ الجميلِ، والصَّفحِ الجَميلِ، والصَّبرِ الجَميلِ؛ فالهجْرُ الجميلُ هجْرٌ بلا أذًى، والصَّفحُ الجَميلُ صَفحٌ بلا عِتابٍ، والصَّبرُ الجميلُ صَبْرٌ بلا شَكوَى[1].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۞ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ قد يُدفعُ العذابُ عن المسلمينَ مِن وُجوهٍ: إمَّا برحمةِ الله تعالى، أو بشفاعةِ الرُّسلِ والأخيارِ، وإمَّا بحسناتٍ سبَقت منهم، تُوجِبُ تكفيرَ سَيِّئاتِهم. فأمَّا الكفَّارُ فلا تَنالُهم رحمتُه، ولا شفاعةُ أحدٍ مِن الخلائقِ، وليست لهم حسناتٌ تُكفِّرُ سيِّئاتِهم، فليس لهم ما يَدفَعُ عنهم العذابَ[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ دليلٌ على أنَّ اللهَ جلَّ جَلالُه بنَفْسِه في السَّماءِ؛ لأنَّ «الهاءَ» في «إليه» راجِعةٌ على اللهِ ذي المَعارِجِ، فلو كان معهم في الأرضِ -كما يَزعُمونَ ويَفتَرونَ به عليه- ما كان لِذِكْرِ العُروجِ إليه معنًى[3]!

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ فيه سؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْن هذه الآيةِ وبيْن قَولِه تعالى في سورة

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣٩٩).

(السجدة): ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة: ٥]؟

**الجوابُ مِن أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ آيةَ السَّجدةِ في الدُّنيا؛ فإنَّه سبحانه وتعالى يُدَبِّرُ الأمرَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ، ثُمَّ يَعرُجُ إليه في يومٍ كان مِقدارُ هذا اليَومِ الَّذي يَعرُجُ إليه الأمرُ ألْفَ سَنةٍ ممَّا نَعُدُّ، لكِنَّه يكونُ في يومٍ واحدٍ، ولو كان بحسَبِ ما نَعُدُّ مِن السِّنينَ لَكان عنْ ألْفِ سَنَةٍ، فإذا نَزَلَ مِن السَّماءِ ثُمَّ عَرَجَ مِن الأرضِ فهذا ألْفُ سَنَةٍ، وأمَّا الآيةُ الَّتي في سورةِ (المعارجِ) فإنَّ ذلك يومُ القيامةِ -على قولٍ-، وقد ثَبَتَ في صحيحِ مسلمٍ[١] مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه في قِصَّةِ مانعِ الزَّكاةِ: أنَّه يُحْمَى عليها في نارِ جهنَّمَ، ((فيُكوى بها جنْبُه وجَبينُه وظَهْرُه، كُلَّما بَرُدَتْ أُعِيدَتْ في يومٍ كان مِقْدارُه خمسينَ ألْفَ سَنَةٍ))، فتبيَّن بهذا أنَّه ليس بيْن الآيتَينِ شَيءٌ مِن التَّعارُضِ؛ لاختِلافِ مَحَلِّهما[٢].

**الثَّاني**: أنَّ الأيَّامَ مُختَلِفةٌ؛ ففي سورةِ (المعارجِ): هو يومُ عُروجِ الرُّوحِ والملائِكةِ، وفي سورةِ (السَّجْدةِ): هو يومُ عُروجِ الأمرِ؛ فلا مُنافاةَ[٣].

**الثَّالثُ**: يحتَمِلُ أنَّه مِن أسفَلِ العالَمِ إلى أعلى العَرشِ مسافةُ خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ، ومِن أعلى سماءِ الدُّنيا إلى الأرضِ مسافةُ ألْفِ سَنةٍ؛ لأنَّ عَرضَ كُلِّ سَماءٍ خَمسُمِئةٍ، وما بيْن أسفَلَ إلى قرارِ الأرضِ خَمسُمئةٍ، فقَولُه: ﴿فِي يَوْمٍ﴾، أي: مِن أيَّامِ الدُّنيا، وهو مِقدارُ ألْفِ سَنةٍ لو صَعِدوا فيه إلى سماءِ الدُّنيا، ومِقدارُ خَمسينَ ألْفَ سَنةٍ لو صَعِدوا إلى أعلى العَرشِ[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٩٨٧).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٨٢).

٤- قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا﴾ ليس في أمرِ الله تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الصَّبرِ الجميلِ على أذَى المشركينَ ما يُوجِبُ أن يكونَ ذلك أمرًا منه له به في بعضِ الأحوالِ، بل كان ذلك أمرًا مِن الله له به في كلِّ الأحوالِ؛ لأنَّه لم يَزَلْ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن لَدُنْ بعَثه الله إلى أنْ اخترمه في أذًى منهم، وهو في كلِّ ذلك صابرٌ على ما يلقَى منهم مِن أذًى قبْلَ أن يأذَنَ الله له بحربِهم، وبَعْدَ إذْنِه له بذلك[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾

- قولُه: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ بمَنزلةِ (سُئِلَ)؛ لأنَّ مَجيءَ فاعلِ الفِعلِ اسمَ فاعلٍ مِن لَفظِ فِعلِه لا يُفيدُ زِيادةَ عِلمٍ بفاعلِ الفِعلِ ما هو؛ فالعُدولُ عن أنْ يقولَ: (سُئِلَ بعَذابٍ) إلى قولِه: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ﴾ لزِيادةِ تَصويرِ هذا السُّؤالِ العجيبِ[2].

- والسُّؤالُ مُستعمَلٌ في معْنى الاستِفهامِ عن شَيءٍ، والدُّعاءِ، على أنَّ استِفهامَهم مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ والتَّعجيزِ، ومِن بَلاغةِ القرآنِ تَعديةُ ﴿سَأَلَ﴾ بالباءِ؛ ليَصلُحَ الفعلُ لمعْنى الاستفهامِ والدُّعاءِ والاستعجالِ؛ لأنَّ الباءَ تَأتي بمعْنى (عن)، وهو مِن مَعاني الباءِ الواقعةِ بعْدَ فِعلِ السُّؤالِ[3].

- ووَصْفُ العَذابِ بأنَّه واقعٌ، وما بعْدَه مِن أوصافِه إلى قولِه: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٤، ١٥٥).

بَعِيدًا﴾[المعارج: ٦]، إدْماجٌ[١] مُعترِضٌ؛ ليُفيدَ تَعجيلَ الإجابةِ عمَّا سَأَل عنه سائلٌ بكِلا مَعْنيَي السُّؤالِ؛ لأنَّ السُّؤالَ لم يُحْكَ فيه عَذابٌ مُعيَّنٌ، وإنَّما كان مُجمَلًا لأنَّ السَّائلَ سأَلَ عن عَذابٍ غيرِ مَوصوفٍ، أو الدَّاعيَ دَعا بعَذابٍ غيرِ مَوصوفٍ، فحُكِيَ السُّؤالُ مُجمَلًا؛ ليُرتَّبَ عليه وَصْفُه بهذه الأوصافِ والتَّعلُّقاتِ، فيُنتقَلَ إلى ذِكرِ أحوالِ هذا العذابِ وما يَحُفُّ به مِن الأهوالِ. وقد طُوِيَت في مَطاوي هذه التَّعلُّقاتِ جُمَلٌ كثيرةٌ، كان الكلامُ بذلك إيجازًا؛ إذ حَصَل خِلالَها ما يُفهَمُ منه جَوابُ السَّائلِ، واستجابةُ الدَّاعي، والإنباءُ بأنَّه عَذابٌ واقعٌ عليهم مِن اللهِ، لا يَدفَعُه عنهم دافعٌ، ولا يَغُرُّهم تَأخُّرُه. وهذه الأوصافُ مِن قَبيلِ الأُسلوبِ الحكيمِ[٢]؛ لأنَّ ما عُدِّدَ فيه مِن أوصافِ العذابِ وهَولِه ووَقْتِه، هو الأَولى لهم أَنْ يَعلَموه؛ ليَحذَروه، دونَ أنْ يَخوضوا في تَعيينِ وَقْتِه، فحصَلَ مِن هذا كلِّه معْنى: أنَّهم سَأَلوا عن العَذابِ الَّذي هُدِّدوا به عن وَقتِه ووَصْفِه سُؤالَ استهزاءٍ، ودَعَوُا اللهَ أنْ يُرسِلَ عليهم عذابًا إنْ كان القرآنُ حقًّا؛ إظهارًا لقِلَّةِ اكتِراثِهم بالإنذارِ بالعذابِ، فأعْلَمَهم أنَّ العذابَ الَّذي استَهْزؤوا به واقعٌ، لا يَدفَعُه عنهم تَأخُّرُ وقْتِه، فإنْ أرادوا النَّجاةَ فلَيحْذَروه[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٢) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مُرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأَولى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظَّاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٥، ١٥٦).

- قولُه: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ قيل: مُتعلِّقٌ بـ ﴿سَأَلَ﴾، مُضمَّنًا معنَى: دعا، أي: دعا لهم. وقيل: مُتعلِّقٌ بـ ﴿وَاقِعٍ﴾، واللَّامُ للعِلَّةِ، أي: نازلٌ مِن أجْلِهم. ويجوزُ أن تكونَ اللَّامُ بمعنى (على)، أي: واقِعٍ على الكافِرين[١]. واللَّامُ في قولِه: ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ لِشِبْهِ المِلْكِ، أي: عَذابٌ مِن خَصائصِهم[٢].

- وقولُه: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ...﴾ قيل: هو استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ وُقوعِ المسؤولِ عنهُ لا مَحالةَ[٣]. وقيل: هو نعتٌ ثانٍ لـ(عَذَابٍ)، أو حالٌ من (عَذَابٍ)؛ لأنَّه وصْفٌ[٤]. وقيل: قولُه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿وَاقِعٍ﴾، وقولُه: ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ جُملةُ اعتراضٍ بيْن العاملِ والمعمولِ[٥].

- وإجْراءُ وَصْفِ ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ على اسمِ الجَلالةِ؛ لاستِحضارِ عَظَمةِ جَلالِه، ولإدماجِ الإشعارِ بكَثرةِ مَراتبِ القُربِ مِن رِضاهُ وثَوابِه؛ فإنَّ المَعارجَ مِن خَصائصِ مَنازلِ العُظَماءِ؛ قال تعالَى: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣]، ولكلِّ دَرجةٍ من المَعارجِ قومٌ عَمِلوا لنَوالِها؛ قال تعالَى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وليَكونَ مِن هذا الوصْفِ تَخلُّصٌ إلى ذِكرِ يومِ الجزاءِ الَّذي يكونُ فيه العذابُ الحقُّ للكافِرين[٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٦).

سَنَةٍ﴾

- قولُه: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المرادُ به يومُ القيامةِ -على قولٍ-، واستِطالتُه إمَّا لأنَّه كذلكَ في الحقيقةِ -وهو ظاهر الآيةِ-، أو لشِدَّته على الكفَّارِ، أوْ لكَثرةِ ما فيهِ مِن الحالاتِ والمُحاسَباتِ، وأيًّا ما كانَ فذلكَ في حقِّ الكافرِ، وأمَّا في حقِّ المؤمنِ فلا[1].

- والرُّوحُ: هو جِبريلُ عليه السَّلامُ، وتَخصيصُه بالذِّكرِ؛ لتَمييزِه بالفضْلِ على الملائكةِ، وتشريفًا[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ اعتِراضٌ مُفرَّعٌ: إمَّا على ما يُومِئُ إليه ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ [المعارج: ١] مِن أنَّه سُؤالُ استِهزاءٍ؛ فهذا تَثبيتٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وإمَّا على ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ بمعْنى: دعا داعٍ؛ فالفاءُ لتَفريعِ الأمرِ بالصَّبرِ على جُملةِ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ﴾ إذْ كان ذلك السُّؤالُ بمَعْنيَيه استهزاءً وتَعريضًا بالتَّكذيبِ، فشَأنُه ألَّا تَصبرَ عليه النُّفوسُ في العُرفِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ تَعليلٌ لجُملتَيْ ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ [المعارج: ١]، ولجُملةِ ﴿فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ [المعارج: ٥]، أي: سَألوا استهزاءً؛ لأنَّهم يَرَونه مُحالًا، وعليك بالصَّبرِ؛ لأنَّا نَعلَمُ تَحقُّقَه، أي: وأنتَ تَثِقُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٧، ١٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠).

بأنَّه قريبٌ، أي: مُحقَّقُ الوقوعِ، وأيضًا هو تَجهيلٌ لهم؛ إذ اغتَرُّوا بما هم فيه مِن الأمْنِ ومُسالَمةِ العرَبِ لهم، ومِن الحياةِ النَّاعمةِ، فرَأَوُا العذابَ الموعودَ بعيدًا؛ إنْ كان في الدُّنيا فلِأَمْنِهم، وإنْ كان في الآخرةِ فلإنْكارِهم البعثَ، والمعْنى: وأنت لا تُشبِهُ حالَهم، وذلك يُهوِّنُ الصَّبرَ عليك، فهو مِن بابِ ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ [المائدة: ٤٨]، ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾[١] [الكهف: ٢٨].

- و﴿بَعِيدًا﴾ هنا كِنايةٌ عن معْنى الإحالةِ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون بوُقوعِ العذابِ الموعودِ به، ولكنَّهم عبَّروا عنه بـ (بَعيدٍ)؛ تَشكيكًا للمؤمنينَ[٢].

- واستُعمِلَ ﴿بَعِيدًا﴾ كِنايةً عن تَحقُّقِ الوقوعِ على طَريقِ المُشاكَلةِ[٣] التَّقديريَّةِ، والمبالَغةِ في التَّحقُّقِ، وبينَ ﴿بَعِيدًا﴾ و﴿قَرِيبًا﴾ محسِّنُ الطِّباقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٨).

(٣) المُشاكَلة: هي ذِكرُ الشَّيءِ بلَفظِ غيرِه لوُقوعِه في صُحبتِه تَحقيقًا أو تقديرًا. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٥/ ١٧٣٧)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٢، ٣٢٣)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٩)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٢٤، ٣٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٨). وتقدَّم تعريفُ الطِّباقِ (ص: ١٢٨).

## الآيات (٨ - ١٨)

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ ۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾: المُهلُ: نَوعٌ مِن القَطِرانِ شَبيهٌ بعَكَرِ الزَّيتِ قد انتهى حَرُّه، وما أُذيبَ مِن الذَّهَبِ والفِضَّةِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ، وأصلُ (مهل): يدُلُّ على جِنسٍ مِن الذَّائباتِ[١].

﴿كَٱلْعِهْنِ﴾: أي: الصُّوفِ المصبوغِ، وأصلُ (عهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[٢].

﴿حَمِيمٌ﴾: أي: قَريبٌ مُشفِقٌ، وحميمُ الرَّجُلِ: خاصَّتُه، مِنْ (حَمَّ): إذا دنا وقَرُبَ، فهو أخصُّ مِن الصَّديقِ[٣].

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾: أي: يُعَرَّفونَهم، أي يُعرَّفُ الحميمُ حميمَه حتَّى يعرِفَه، يُقالُ: بصَّرْتُ زيدًا بكذا، وبصَّرتُه كذا: إذا عرَّفْتَه إياه، وأصلُ (بصر) هنا: العلمُ بالشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ١٩٧)، ((الغريبين)) للهروي (٢/ ٤٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، =

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾: أي: عَشيرتِه وأقاربِه، وفَصيلةُ الرَّجُلِ: رَهْطُه الأدْنَوْنَ، والفَصيلةُ أقرَبُ وأخَصُّ في النَّسَبِ مِنَ القَبيلةِ، والفَصيلةُ: القِطْعةُ مِن أعضاءِ الجَسَدِ، وسُمِّيتْ عشيرةُ الرَّجُلِ فَصيلةً؛ تَشبيهًا بالبَعضِ منه، وأصلُ (فصل): يدُلُّ على تمييزِ الشَّيءِ مِنَ الشَّيءِ، وإبانتِه عنه[1].

﴿لَظَىٰ﴾: هي اسمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ، عَلَمٌ مَنقولٌ مِن اسمِ اللَّهبِ، لا تَنصَرِفُ؛ فلذلك لا تُنَوَّنُ، واللَّظى: اللَّهَبُ الخالِصُ، يُقالُ: تلَظَّت النَّارُ تتلَظَّى تَلَظِّيًا: أي: توقَّدَت وتوهَّجَت وتلَهَّبَت[2].

﴿لِّلشَّوَىٰ﴾: أي: الأطرافِ -اليَدينِ والرِّجْلينِ- وجِلْدِ الرَّأسِ، وأصلُ (شوي): يدُلُّ على الأمرِ الهَيِّنِ؛ مِن حيثُ إنَّ الشَّوى ليس بمَقْتَلٍ[3].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مبينًا جانبًا مِن أهوالِ يومِ القيامةِ: يومَ تكونُ السَّماءُ كالشَّيءِ المائعِ الَّذي بَلَغ أقصَى الغايةِ في شِدَّةِ الحرارةِ، وتكونُ الجِبالُ يَومَ القيامةِ كالصُّوفِ المصبوغِ، ولا يَسأَلُ يومَ القيامةِ قَريبٌ قَريبًا عن حالِه وشأنِه؛ لشِدَّةِ ما

---

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٦).

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥٠٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٢).

يَعتريه مِن الهَولِ والفَزَعِ!

يُعرَّفُ كُلُّ حميمٍ بحَميمِه، ومع ذلك لا يَسأَلُ عن حالِه وشأنِه!

ثمَّ يُبيِّنُ الله تعالى حالةَ المجرمينَ في هذا اليومِ، فيقولُ: يَتمنَّى الكافِرُ في ذلك اليومِ أن يَفتديَ مِن عذابِ اللهِ تعالى ذلك اليومَ بأبنائِه، وزَوجتِه، وإخوانِه، وعَشيرتِه الَّتي كانت تَنصُرُه وتُعينُه، ومَن في الأرضِ جميعًا، ثمَّ ينجُو هو بنفْسِه!

كلَّا! ذلك أمرٌ بعيدٌ! إنَّها نارٌ مُتلَهِّبةٌ مُتوَقِّدةٌ شَديدةُ الحرارةِ، تَنزِعُ أطرافَ الأبدانِ وجِلدةَ الرُّؤوسِ!

تدعو تلك النَّارُ إليها كلَّ مَنْ أدْبرَ في الدُّنيا عن الحَقِّ، وتولَّى عنه إلى الباطِلِ، وجمَعَ الأموالَ فكَنَزَها، ومَنَع حَقَّ اللهِ فيها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى عن يومِ القيامةِ ما يَبعَثُ على السُّؤالِ عنه؛ استأنَفَ بَيانَه مُبيِّنًا عظَمَتَه[1]، فقال:

﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ٨﴾.

أي: يومَ[2] تكونُ السَّماءُ كالشَّيءِ المائعِ الَّذي بَلَغ أقصَى الغايةِ في شِدَّةِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤).

(٢) في مُتعَلَّقِ ﴿يَوۡمَ﴾ هنا أوجُهٌ:

أحدُها: أنَّه متعلِّقٌ بـ﴿قَرِيبًا﴾، والتقديرُ: ونراه قَريبًا يومَ تكونُ السَّماءُ كالمُهْلِ.

وثانيها: أنَّه متعلِّقٌ بمضمَرٍ يدُلُّ عليه ﴿وَاقِعٖ﴾ وهو يقعُ، أي: يقعُ يومَ تكونُ كالمُهْلِ.

والثَّالثُ: أنَّه متعلِّقٌ بمحذوفٍ مقدَّرٍ بعدَه، أي: يومَ تكونُ السَّماءُ كالمُهْلِ كان كذا وكذا. =

الحرارةِ[١].

= والرَّابعُ: أن يكونَ بدَلًا مِن «يَوْمٍ»، والتَّقديرُ: سأل سائِلٌ بعذابٍ واقعٍ في يومٍ كان مِقدارُه خمسينَ ألْفَ سَنةٍ يومَ تكونُ السَّماءُ كالمُهْلِ.

وقيل: يَتعَلَّقُ بفعلِ ﴿تَعْرُجُ﴾، وقيل: يَتعَلَّقَ بـ ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾ وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٤٨-٢٥١) و(٢٣/ ٢٥٦)، ((الزاهر)) لابن الأنباري (٢/ ١١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

قيل: المرادُ بالمُهْلِ: عَكَرُ الزَّيتِ [أي: ما غلُظَ ورَسَب منه]. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والسمعاني، وابن عطية، وابن جُزَي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عُمَرَ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧) و(٢٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨١).

قيل: المرادُ بهذا أنَّ السَّماءَ تكونُ كذلك؛ لسَوادِها وانكِدارِ أنوارِها يومَ القيامةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦).

وقيل: المرادُ: تشبيهُ السَّماءِ في انحلالِ أجزائِها بالزَّيتِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالمُهْلِ في الجملةِ: ما أُذيب مِن النُّحاسِ والرَّصاصِ والفِضَّةِ: الشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الله بنُ مسعودٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٧) و(٢٣/ ٢٥٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٢).

قال السعدي: (هو الرَّصاصُ المُذابُ مِن تشَقُّقِها، وبُلوغِ الهَولِ منها كُلَّ مَبلَغٍ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

وقيل: المُهلُ: ما أُذيبَ مِن فِضَّةٍ ونَحوِها، فيَجيءُ له ألوانٌ وتمَيُّعٌ مُختَلِطٌ، فالسَّماءُ تصيرُ مِثلَ ذلك؛ للأهوالِ الَّتي تُصيبُها. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦). =

﴿وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ۝٩﴾.

أي: وتكونُ الجِبالُ يَومَ القيامةِ كالصُّوفِ المصبوغِ[1].

---

= قال ابن جرير: (يَقولُ تعالى ذِكْرُه: يومَ تكونُ السَّماءُ كالشَّيءِ المُذابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٦).

وقال أيضًا بعدَ أن ذكَرَ الخِلافَ في تفسيرِ المُهلِ في سورةِ (الكهفِ): (وهذه الأقوالُ وإنِ اختلَفَتْ بها ألفاظُ قائِليها، فمُتَقارباتُ المعنَى؛ وذلك أنَّ كلَّ ما أُذيبَ مِن رَصاصٍ أو ذهَبٍ أو فِضَّةٍ فقد انْتَهى حَرُّه، وأنَّ ما أُوقِدَتْ عليه مِن ذلك النَّارُ حتَّى صار كدُرْدِيِّ الزَّيْتِ، فقد انْتَهى أيضًا حَرُّه... فالمُهْلُ إذًا هو كلُّ مائِعٍ قد أُوقِدَ عليه حتَّى بَلَغ غايةَ حَرِّه، أو لم يَكُنْ مائِعًا فانْماع بالوَقودِ عليه، وبَلَغ أقصَى الغايةِ في شِدَّةِ الحرِّ). ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٠، ٢٥١).

وقد تقدَّمَ الكلامُ عن المُهْلِ في تفسير سورةِ (الكهف) من هذا ((التفسير المحرَّر)) الآية (٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤، ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّ العِهْنَ هو الصُّوفُ المصبوغُ: أبو عُبَيْدَةَ، وابنُ فارس، والواحديُّ، والسمعاني، والراغب، والزمخشري، والقرطبي، والبِقاعي، وابن عاشور. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٠٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

قال السمعاني: (العِهْنُ: الصُّوفُ المصبوغُ، وشبَّهه به في ضَعفِه وَلِينِه). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٦).

وقال ابنُ عاشور: (العِهنُ: الصُّوفُ المصبوغُ؛ قيل: المصبوغُ مُطلَقًا، وقيل: المصبوغُ ألوانًا مختَلِفةً). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩). و يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦).

وممَّن نصَّ على تخصيصِه بالمصبوغِ ألوانًا: أبو عُبَيْدَةَ، والزمخشريُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤).

وقال الحسَنُ: كالصُّوفِ الأحمَرِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿وَلَا يُسْأَلُ﴾ على معنى: لا يُسأَلُ قَريبٌ عن قريبِه، أو على معنى: لا يُقالُ لحَميمٍ: أينَ حَميمُك؟ أي: لا يُطالَبُ قَريبٌ بأن يُحضِرَ قَريبَه؛ لأنَّه لا جَوْرَ هناك، بخِلافِ ما يُفعَلُ في الدُّنيا أحيانًا بأن يُؤخَذَ الجارُ بالجارِ، والحَميمُ بالحَميمِ[1].

٢- قراءةُ: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ﴾ على معنى: لا يَسألُ قَريبٌ قريبَه عن حالِه وشأنِه[2].

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾﴾.

أي: ولا يَسأَلُ يومَ القيامةِ قَريبٌ في غايةِ القُربِ والصَّداقةِ قَريبًا مِثْلَه عن حالِه وشأنِه؛ لشُغلِ كلِّ إنسانٍ بنَفْسِه عن غيرِه؛ لشِدَّةِ ما يَعتريه مِن الهَولِ والفَزَعِ[3]!

---

= وقيل: العِهنُ هو الصُّوفُ، دونَ تقييدٍ. وممَّن اختاره: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

قال ابن جُزَي: (العِهنُ هو الصُّوفُ، شبَّه الجبالَ به في انتِفاشِه وتخلخلِ أجزائِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٠).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ العِهْنَ هو الصُّوفُ: مجاهدٌ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨١).

(١) قرأ بها: أبو جعفر. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٨٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال سبحانه: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧].

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾﴾.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾.

أي: يُعرَّفُ كُلُّ حميمٍ بحَميمِه حتَّى يَعرِفَه، ويَرى ما فيه مِن كَربٍ وشِدَّةٍ، ومع ذلك لا يَسأَلُ عن حالِه وشأنِه؛ لشدَّةِ انشِغالِه بنَفْسِه[1]!

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾﴾.

أي: يَرغَبُ الكافِرُ في ذلك اليومِ ويتمَنَّى أن يُقبَلَ منه تقديمُ أبنائِه وزَوجتِه وإخوانِه؛ لإنقاذِ نَفْسِه مِنَ العَذابِ، فيُعذَّبون عِوَضًا عنه، ويَسلَمُ هو[2]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٦].

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾.

---

= كثير)) (٨/ ٢٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠، ١٦١).

قال ابنُ عطيةَ: (المجرِمُ في هذه الآيةِ: الكافِرُ؛ بدليلِ شِدَّةِ الوَعيدِ، وذِكرِ لَظَى، وقد يَدخُلُ مُجرِمُ المعاصي فيما ذُكِرَ مِنَ الافتداءِ!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٧). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٥).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مَن بَقِيَ مِن الأقاربِ مُتقاربينَ في الرُّتبةِ؛ ذَكَر أقرَبَهم، فقال: ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾، أي: عَشيرتِه الَّذين هم أقرَبُ مَن فُصِلَ عنه[1].

﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ويَوَدُّ أن يُقبَلَ مِنه تقديمُ عَشيرتِه الَّتي كانت في الدُّنيا تضُمُّه وتَنصُرُه وتُعينُه، فتُعذَّبُ هي عِوَضًا عنه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٦، ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

قال ابنُ عاشور: (الفصيلةُ: الأقرباءُ الأَدْنَونَ مِنَ القَبيلةِ، وهم الأقرباءُ المفصولُ منهم، أي: المُستَخرَجُ منهم، فشَمِلَت الآباءَ والأمَّهاتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦١).

وقال القَلْقَشَنْدي: (قد عدَّ أهلُ اللُّغةِ طبَقاتِ الأنسابِ ستَّ طبَقاتٍ:

الطَّبقةُ الأولى: الشَّعبُ، بفتحِ العَينِ، وهو النَّسبُ الأبعَدُ؛ كعَدْنانَ مثلًا...

الطَّبقةُ الثَّانيةُ: القَبيلةُ، وهي ما انقسَمَ فيه الشَّعبُ؛ كرَبيعةَ ومُضَرَ...

الطَّبقةُ الثَّالثةُ: العِمارةُ، بكسرِ العَينِ المُهمَلةِ، وهي ما انقسَم فيه أنسابُ القَبيلةِ؛ كقُرَيشٍ وكِنانةَ. وتُجمَعُ على عِماراتٍ، وعَمائرَ.

الطَّبقةُ الرَّابعةُ: البَطنُ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ العِمارةِ؛ كبَني عبدِ مَنافٍ، وبَني مَخزومٍ. ويُجمعُ: على بُطونٍ، وأبْطُنٍ.

الطَّبقةُ الخامِسةُ: الفَخِذُ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ البَطنِ؛ كبَني هاشمٍ، وبني أُمَيَّةَ. وتُجمعُ على: أفخاذٍ.

الطَّبقةُ السَّادسةُ: الفَصيلةُ، بالصَّادِ المُهمَلةِ، وهي ما انقسَم فيه أقسامُ الفَخِذِ؛ كبَني العبَّاسِ... وبالجُملةِ فالفَخِذُ يَجمَعُ الفصائلَ، والبطنُ يجمعُ الأفخاذَ، والعِمارةُ يجمعُ البُطونَ، والقَبيلةُ تَجمعُ العَمائرَ، والشَّعبُ يجمعُ القبائلَ ... وزاد بعضُهم العَشيرةَ قبْلَ الفَصيلةِ). ((قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان)) (ص: ١٤). ويُنظر: ((الأحكام السلطانية)) للماوَرْدي (ص: ٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٤). =

﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ١٤﴾.

أي: ويَرغَبُ في تقديمِ جَميعِ مَن في الأرضِ مِن أصدقائِه وغَيرِهم، فيُعذَّبون بَدَلًا منه، وينجُو بذلك مِن عَذابِ اللهِ[1].

﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ١٥﴾.

أي: لن يكونَ للمُجرِمِ ما تمَنَّاه مِنَ الافتداءِ مِن عَذابِ اللهِ، فليس يُنجِيه مِن النَّارِ شَيءٌ؛ إنَّها نارٌ مُتلَهِّبةٌ مُتوَقِّدةٌ شَديدةُ الحرارةِ[2]!

كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ١٦﴾.

أي: تَنزِعُ تلك النَّارُ أطرافَ أبدانِ المجرِمينِ -كاليَدينِ والرِّجْلينِ-، وجِلدةَ

---

= وقال الشنقيطي: (ولم يُذكَرْ مِن هذه السِّتِّ في القرآنِ إلَّا ثلاثٌ: الشُّعوبُ والقَبائلُ...، والفَصيلةُ في «المَعارِجِ»، في قولِه: ﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ﴾). ((أضواء البيان)) (٧/ ٤١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

قال الزمخشري: (﴿ثُمَّ﴾ لاستبعادِ الإنجاءِ، يعني: تمنَّى لو كان هؤلاء جميعًا تحتَ يَدِه، وبَذَلَهم في فِداءِ نَفْسِه، ثمَّ يُنجِيه ذلك، وهَيْهاتَ أن يُنْجِيَه!). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

قال الواحدي: (لَظَى: مِن أسماءِ النَّارِ، ومَعناها في اللُّغةِ: اللَّهَبُ الخالِصُ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٥٢). ويُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٤/ ٢٨٤).

وقال الشوكاني: (﴿كَلَّآ﴾ يأتي بمعنى: «حقًّا»، وبمعنى: «لا»، مع تضَمُّنِها لمعنى الزَّجْرِ والرَّدْعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٤٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٧).

رُؤوسِهم[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥).

قال ابنُ القيِّم: (في الآيةِ تفسيرانِ مَشهورانِ؛ أحَدُهما: أنَّ الشَّوى: الأطرافُ الَّتي ليست مَقاتِلَ؛ كاليَدينِ، والرِّجْلَينِ، تَنزِعُها عن أماكِنِها... التَّفسيرُ الثَّاني: أنَّ الشَّوى جمعُ شَواةٍ، وهي جِلدةُ الرَّأسِ وفَروتُه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١١٤، ١١٥).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ -أنَّ الشَّوى: الأطرافُ الَّتي ليست مَقاتِلَ؛ كاليدَينِ والرِّجلَينِ-: الراغبُ، والبَغَويُّ، والخازن، وابن جُزَي. يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٧١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٤١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١١).

قال السَّمْعانيُّ: (الأكثَرونَ أنَّ الشَّوى هو الأطرافُ؛ مِثلُ اليَدينِ، والرِّجلَينِ، وغَيرِ ذلك). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو صالحٍ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨٢).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: ابنُ قُتَيْبَةَ، والغَزْنَوي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((باهر البرهان)) للغزنوي (٣/ ١٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٨)، ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٨٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٨).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وسعيدُ ابنُ جُبَيرٍ، وقُرَّةُ بنُ خالدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨٢).

قال البقاعي: (﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ أي: هي شديدةُ النَّزعِ لجُلودِ الرُّؤوسِ، بليغَتُه، فما الظَّنُّ بغيرِه مِن الجِلدِ؟! وقال في القاموس: الشَّوى: اليَدانِ والرِّجلانِ والأطرافُ، وقِحْفُ الرَّأسِ وما كان غيرَ مَقْتَلٍ. انتهى. وقيل: والجِلدُ كُلُّه واللَّحمُ. تَنزِعُ ذلك، ثمَّ يعودُ كما كان في الحالِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٣٩٨، ٣٩٩).

وقال ابن جرير جامعًا بيْن القولَينِ: (تَنْزِعُ جِلدةَ الرَّأسِ، وأطرافَ البدنِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦١).

=

﴿تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ١٧﴾.

أي: تدعو تلك النَّارُ إليها كلَّ مَنْ أدْبرَ في الدُّنيا عن الحَقِّ، وتولَّى عنه إلى الباطِلِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ١٨﴾.

أي: وجمَعَ الأموالَ فكَنَزَها، ومَنَع حَقَّ اللهِ فيها، فلم يُنفِقْ منها فيما أمَرَه[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ * يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ

---

= وقال العُلَيميُّ: (وهي جِلدةُ الرَّأسِ وما ليست مَقتَلًا، كالأطرافِ، تَلخيصُه: تَقتلِعُ النَّارُ منهم كلَّ عُضْوٍ غير مَقتَلٍ، ثمَّ يَعودُ هكذا أبدًا). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٥٩).

وقال قَتادةُ: ﴿نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ﴾ أي: نَزَّاعةً لهامَتِه، ومَكارِمِ خَلقِه وأطرافِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥).

قال ابنُ كثير: (أي: تَدعو النَّارُ إليها أبناءَها الَّذين خلَقَهم اللهُ لها، وقدَّرَ لهم أنَّهم في الدَّارِ الدُّنيا يَعمَلونَ عمَلَها، فتَدْعوهم يومَ القيامةِ بلِسانٍ طَلْقٍ ذَلْقٍ، ثمَّ تَلتَقِطُهم مِن بيْنِ أهلِ المحشَرِ، كما يلتَقِطُ الطَّيرُ الحَبَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٥).

تَكۡنِزُونَ ﴾ [التوبة: ٣٤، ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ۞ يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ۞ كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: ٢ - ٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۞ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ إذا كان هذا القَلَقُ والانزعاجُ لهذه الأجرامِ الكبيرةِ الشَّديدةِ، فما ظَنُّك بالعَبدِ الضَّعيفِ الَّذي قد أثقَلَ ظَهْرَه بالذُّنوبِ والأوزارِ؟ أليس حقيقًا أن ينخَلِعَ قَلبُه، ويَنزَعِجَ لُبُّه، ويَذهَلَ عن كلِّ أحَدٍ[1]؟!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا﴾؛ لأنَّه قد كُشِفَ لهم أنَّه لا تُغْني نَفْسٌ عن نفْسٍ شيئًا، وأنَّه قد تقطَّعَت الأسبابُ، وتلاشت الأنسابُ، لَمَّا كَشَفَ الابتلاءُ عن أنَّه لا عِزَّ إلَّا بالتَّقوى[2]!

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ فيه إشارةٌ إلى حُبِّ الدُّنيا؛ فـ(جَمَع) إشارةٌ إلى الحِرصِ، و(أوعى) إشارةٌ إلى الأمَلِ، ولا شَكَّ أنَّ مَجامِعَ آفاتِ الدِّينِ ليست إلَّا هذه[3]!

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- لم يُخبِرِ اللهُ تعالى أنَّ العالَمَ في يومِ القيامةِ يُعْدَمُ ويَفْنَى بحيثُ لا يبقَى شَيءٌ، بل أخبَر باستحالةِ العالَمِ؛ قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۞ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦).

ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۞ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۞ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۞ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾ [الواقعة: ٤ - ٧]، وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۞ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [القارعة: ٤-٥]، وأمثال هذه النُّصوصِ الَّتي تُبيِّنُ الاستِحالةَ والتَّغيُّرَ على السَّمَواتِ والأرضِ والجِبالِ، وأنَّها تستحيلُ أنواعًا مِنَ الاستحالةِ؛ لتعَدُّدِ الأوقاتِ[1]. وذلك بِناءً على القولِ بأنَّ التَّبديلَ للسَّمواتِ والأرضِ تبديلُ صِفاتٍ لا ذاتٍ.

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴾ بدأ جَلَّ ثناؤُه بذِكرِ البَنينَ، ثمَّ الصَّاحِبةِ، ثمَّ الأخِ؛ إعلامًا منه عِبادَه أنَّ الكافِرَ مِن عَظيمِ ما يَنزِلُ به يومَئِذٍ مِنَ البَلاءِ يَفْتَدي نَفْسَه -لو وجَدَ إلى ذلك سبيلًا- بأحَبِّ النَّاسِ إليه[2]!

٣- قولُه تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ...﴾ الآياتِ: فيه أنَّ غيرَ المجرمِ لا يَوَدُّ ذلك؛ لأنَّه قد افتدَى في الدُّنيا مِن عذابِ يومئذٍ بالتَّقوَى والإيمانِ، وإنَّما هو في هذا اليومِ لا يَحزُنُه الفزعُ الأكبرُ، ويُؤمِّلُ اجتماعَه بمَن صلَح مِن آبائِه وأبنائِه وأحبابِه في جنَّاتِ النَّعيمِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۞ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴾ يَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بـ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ ﴾؛ قُدِّمَ عليه

(١) يُنظر: ((الصفدية)) لابن تيمية (٢/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((المواهب الربانية من الآيات القرآنية)) للسعدي (ص: ١٥).

للاهتِمامِ بذِكرِ اليَومِ، فيَكونَ قولُه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ ابتِداءَ كَلامٍ، والجُملةُ المَجعولةُ مَبدأَ كَلامٍ تُجعَلُ بدَلَ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، ويَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بفِعلِ ﴿تَعْرُجُ﴾[1].

- وفي قولِه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ[2]، ووَجْهُ الشَّبهِ التَّلوُّنُ، والمعْنى: تَشبيهُ السَّماءِ في انْحلالِ أجْزائِها بالزَّيتِ، أو كالفِضَّةِ المُذابةِ في تَلوُّنِها[3]. وذلك على أحدِ الأقوالِ.

- وكذلك في قولِه: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ تَشبيهٌ مُرسَلٌ، ووَجْهُ الشَّبَهِ تَفرُّقُ أجزاءِ الصُّوفِ المَصبوغِ ألْوانًا، فإيثارُ العِهنِ بالذِّكرِ لإكمالِ المُشابَهةِ؛ لأنَّ الجِبالَ ذاتُ ألْوانٍ؛ فمنها جُدَدٌ بيضٌ، وحُمْرٌ مُختلِفٌ ألوانُها، وغَرابيبُ سُودٌ، فإذا بُسَّت وطُيِّرت في الجوِّ؛ أشْبَهَت العِهنَ المَنفوشَ إذا طيَّرَتْه الرِّيحُ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).
ويُنظر ما تقدَّم: (ص: ١٥٤).

(٢) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذِي وصْفٍ في وَصْفِه. وقيل: هو إثباتُ حُكمٍ مِن أحكامِ المُشبَّهِ به للمُشبَّهِ. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ عِدَّةَ تَقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ البليغُ: وهو ما كانتْ أداةُ التَّشبيهِ فيه مَحذوفةً. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ باعتبارٍ آخَرَ إلى مُؤكَّدٍ: وهو ما حُذِفتْ فيه الأداةُ، نحو: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مرِّ السَّحابِ. ومُرْسَلٍ: وهو ما لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾

- قولُه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾، أي: لشِدَّةِ ما يَعْتري النَّاسَ مِن الهَولِ، فمِن شِدَّةِ ذلك أنْ يَرى الحميمُ حَميمَه في كَرْبٍ وعَناءٍ، فلا يَتفرَّغَ لسُؤالِه عن حالِه؛ لأنَّه في شاغلٍ عنه، فحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يَسْـَٔلُ﴾؛ لظُهورِه مِن المَقامِ ومِن قولِه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾، أي: يُبصَّرُ الأخِلَّاءُ أحوالَ أخِلَّائِهم مِن الكَرْبِ، فلا يَسأَلُ حَميمٌ حَميمًا[1].

- و﴿حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ نَكِرتانِ في سِياقِ النَّفيِ؛ فيَعُمَّانِ، ولذلك جُمِعَ الضَّميرُ في ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾[2].

- قيل: مَوقعُ قولِه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ مَوقعُ الاستئنافِ البيانيِّ؛ لدفْعِ احتمالِ أنْ يَقَعَ في نفْسِ السَّامعِ أنَّ الأَحِمَّاءَ لا يَرى بَعضُهم بعضًا يَومَئذٍ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ في شاغلٍ، فأُجيبَ بأنَّهم يُكشَفُ لهم عنْهم ليَرَوا ما هم فيه مِن العذابِ، فيَزْدادوا عذابًا فوقَ العذابِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ صِفةً، أي: حَميمًا مُبصَّرين مُعرَّفين إيَّاهم، وقيل غير ذلك[3].

- قولُه: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ مُضارِعُ (بَصَّرَه بالأمرِ)؛ إذا جَعَلَه مُبصِرًا له، أي: ناظرًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٠٩، ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

فأصْلُه: يُبصَّرون بهم، فوَقَعَ فيه حذْفُ الجارِّ، وتَعديةُ الفعلِ[١].

- قولُه: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ حالٌ مِن أحَدِ الضَّميرين؛ المرفوعِ أو المنصوبِ مِن ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾، أو استئنافٌ يدُلُّ على أنَّ اشتغالَ كلِّ مُجرِمٍ بنفْسِه بحيثُ يَتمنَّى أنْ يَفتديَ بأقرَبِ النَّاسِ إليه، وأعْلَقِهم بقَلْبِه، فَضلًا أنْ يَهتَمَّ بحالِه ويَسأَلَ عنها[٢].

- والتَّنوينُ في قولِه: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن جُمَلٍ مَحذوفةٍ، والتَّقديرُ: يوم إذ تكونُ السَّماءُ كالمُهلِ، وتكونُ الجبالُ كالعِهنِ، ولا يَسأَلُ حَميمٌ حَميمًا[٣]. فـ ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ هو ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾؛ فإنْ كان قولُه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿يَوَدُّ﴾، فقولُه: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ تأكيدٌ لـ ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾، وإنْ كان مُتعلِّقًا بقولِه: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [المعارج: ٤]، فقولُه: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ إفادةٌ لكونِ ذلك اليومِ هو يَومَ يَودُّ المجرِمُ لو يَفْتدي مِن العذابِ بمَن ذُكِرَ بعْدَه[٤].

- والفَصيلةُ: الأقرباءُ الأدْنَون مِن القَبيلةِ، وهم الأقرباءُ المَفصولُ منهم، أي: المُستخرَجُ منهم؛ فشَمِلَتِ الآباءَ والأُمَّهاتِ؛ فالفصيلةُ دلَّت على الآباءِ باللَّفظِ، وتُستفادُ الأُمَّهاتُ بدَلالةِ لَحنِ الخِطابِ[٥]. وقيل: الفصيلةُ هي أُمُّه، ويُفهَمُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٠).

(٥) لحنُ الخِطابِ: هو أن يكونَ المَسكوتُ عنه موافِقًا للمَنطوقِ في الحُكمِ، ويُسمَّى أيضًا: فَحْوى الخِطابِ. وقيل: إنْ كان أَوْلى بالحُكمِ مِن المنطوقِ به فيُسَمَّى فَحْوى الخِطابِ، وإن كان مساويًا فيُسَمَّى لحنَ الخطابِ. وقيلَ غيرُ ذلك. يُنظر: ((شرح تنقيح الفصول)) للقرافي (ص: ٥٣)، ((نفائس الأصول)) للقرافي (٢/ ٦٤١)، ((المختصر في أصول الفقه)) لابن اللحام (ص: ١٣٢)، ((إرشاد الفحول)) للشوكاني (٢/ ٣٧).

منها الأبُ بطَريقِ لحْنِ الخِطابِ؛ فيَكونُ قدِ استَوفى ذِكرَ أقرَبِ القَرابةِ بالصَّراحةِ والمَفهومِ(١).

- وقد رُتِّبَت الأقرباءُ على حسَبِ شِدَّةِ المَيلِ الطَّبيعي في العُرْفِ الغالبِ؛ لأنَّ المَيلَ الطَّبيعيَّ يَنشَأُ عن المُلازَمةِ وكَثرةِ المُخالَطةِ، ولم يُذكَرِ الأبَوانِ لدُخولِهما في الفصيلةِ؛ قَصْدًا للإيجازِ(٢).

فلـمَّا ذكَر ألصقَ النَّاسِ بالفؤادِ، وأعزَّ مَن يلزمُه نصرُه والذَّبُّ عنه؛ أتبعَه ما يَليه في الرُّتبةِ والمودَّةِ، وما الافتداءُ به -لا سيَّما عندَ العربِ- مِن أقبحِ العارِ، فقال: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾، ولَمَّا ذَكَر الصَّاحِبةَ لِما لها مِن تمامِ الوُصْلةِ؛ أتْبَعَها الشَّقيقَ الَّذي لا يَلزَمُ مِنَ الذَّبِّ عنه ما يلزَمُ مِنَ الذَّبِّ عن الحريمِ، ورُبَّما كان مُباينًا، ولما كان مَن بقِي مِن الأقاربِ بعدَ ذلك متقاربينَ في الرُّتبةِ؛ ذكَر أقربَهم، فقال: ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ أي: عشيرتِه، ولما خصَّ هنا عمَّ فقال: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾(٣).

- وفي قولِه: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّه هنا لَمَّا كان السِّياقُ للافتِداءِ، بدَأَ بأعَزِّهم في ذلك، بخِلافِ ما في سُورةِ (عَبَسَ)، فقال: ﴿بِبَنِيهِ﴾؛ لشِدَّةِ ما يَرى. ولَمَّا كانت هذه الآيةُ في الفِديةِ، قدَّمَ الأبعَدَ عن ذلك فالأبعَدَ مِن جِهةِ النَّفعِ والمَعرَّةِ. ولَمَّا كانتْ آيةُ سُورةِ (عَبَسَ) في الفِرارِ والنَّفرةِ، قدَّمَ الألْصَقَ فالألْصَقَ، والأعلَقَ في الأُنسِ فالأعلَقَ(٤).

- والإيواءُ: الضَّمُّ والانحيازُ، و﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾: إنْ كانت القبيلةَ، فالإيواءُ عُبِّر به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٠/ ٣٩٦، ٣٩٧).

عن الحِمايةِ والنَّصرِ، أي: ومع ذلك يَفْتدي بها؛ لعِلمِه بأنَّها لا تُغْني عنه شيئًا يَومَئذٍ، وإنْ كانت الأُمَّ فالإيواءُ باعتبارِ الماضي، وصِيغةُ المُضارِعِ لاستِحضارِ الحالةِ، أي: يَوَدُّ لو يَفْتدي بأُمِّه مع شِدَّةِ تَعلُّقِ نفْسِه بها؛ إذ كانت تُؤوِيه، فإيثارُ لَفظِ (فَصِيلَتِهِ) وفِعلِ ﴿تُؤْوِيهِ﴾ هنا مِن إيجازِ القرآنِ وإعجازِه؛ ليَشملَ هذه المعانيَ[1].

- قولُه: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، أي: ومَن له في الأرضِ ممَّا يَعِزُّ عليه مِن أخِلَّاءَ، وقَرابةٍ، ونَفائسِ الأموالِ، ممَّا شأْنُ النَّاسِ الشُّحُّ ببَذْلِه، والرَّغبةُ في استبقائِه، و(مَن) المَوصولةُ لتَغليبِ العاقلِ على غَيرِه؛ لأنَّ منهم الأخِلَّاءَ[2].

- وحرْفُ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ، أي: يَوَدُّ بَذْلَ ذلك، وأنْ يُنجيَه الفِداءُ مِن العذابِ، فالإنجاءُ مِن العذابِ هو الأهمُّ عندَ المُجرِمِ في وِدادتِه[3]. وقيل: (ثُمَّ) تُفيدُ استبعادَ الإنجاءِ لشِدَّةِ الهَولِ، يعْنى: تَمنَّى لو كان هؤلاء جميعًا تحتَ يَدِه وبَذَلَهم في فِداءِ نفْسِه، ثمَّ يُنجيه ذلك، وهَيهاتَ[4]!

- والمَعطوفُ بـ(ثُمَّ) هو المُسبَّبُ عن الوِدادةِ، فلذلك كان الظاهرُ أنْ يُعطَفَ بالفاءِ، وهو الأكثَرُ في مِثلِه، كقولِه تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [النساء: ٨٩]، وقولِه: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ [القلم: ٩]، فعُدِلَ عن عطْفِه بالفاءِ هنا إلى عطْفِه بـ (ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على شِدَّةِ اهتمامِ المُجرِمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦١، ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

بالنَّجاةِ بأيَّةِ وَسيلةٍ[١].

- ومُتعلَّقُ ﴿يُنجِيهِ﴾ مَحذوفٌ، يدُلُّ عليه قولُه: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ * تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ﴾ حرْفُ رَدْعٍ وإبطالٍ لكلامٍ سابقٍ، ولا يَخْلو مِن أنْ يُذكَرَ بعْدَه كَلامٌ، وهو هنا لإبطالِ ما يُخامِرُ نُفوسَ المُجرِمِ مِن الوِدادةِ، وتَصريحٌ بامتناعِ إنجاءِ الافتداءِ، نُزِّلَ مَنزلةَ الكلامِ؛ لأنَّ اللهَ مطَّلِعٌ عليه، أو لإبطالِ ما يَتفوَّهُ به مَن تَمنَّى ذلك؛ قال تعالَى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[٣] [النبأ: ٤٠].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عمَّا أفادَهُ حرْفُ (كلَّا) مِن الإبطالِ[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ الضَّميرُ للنَّارِ، ولم يَجْرِ لها ذِكرٌ؛ لأنَّ ذِكرَ العذابِ دلَّ عليها، أو مُبهَمٌ يُفسِّرُه ﴿لَظَىٰ﴾[٥].

- والمَقصودُ التَّعريضُ بأنَّ النَّارَ أُعِدَّت له، أي: أنَّها تُحرِقُك وتَنزِعُ شَواكَ، وقدْ صُرِّحَ بما وَقَعَ التَّعريضُ به في قولِه: ﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٧، ١٨]، أي: تَدْعوك يا مَن أدْبَرَ عن دَعوةِ التَّوحيدِ، وتَولَّى عنها، ولم يَعبَأْ إلَّا بجمْعِ المالِ. وحرْفُ (إنَّ) إمَّا للتَّوكيدِ مُتوجِّهًا إلى المعْنى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٣).

التَّعريضيِّ، وإمَّا لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالجُملةِ الَّتي بعْدَه؛ لأنَّ الجُمَلَ المُفتتَحةَ بضَميرِ الشَّأنِ مِن الأخبارِ المُهتَمِّ بها[١].

- والنَّزَّاعةُ: مُبالَغةٌ في النَّزعِ، وهو الفصْلُ والقطْعُ[٢].

- قولُه: ﴿نَزَّاعَةً﴾ قُرِئَ ﴿نَزَّاعَةٌ﴾ بالرَّفعِ على التَّهويلِ، أي: هي نَزَّاعةٌ، وقُرِئَ بالنَّصبِ[٣] على الحالِ المُؤكِّدةِ، أو المُتنقِّلةِ على أنَّ ﴿لَظَىٰ﴾ بمعنى مُتلظِّية، أو على الاختِصاصِ للتَّهويلِ[٤].

- والشَّوى: اسمُ جمْعِ شَوَاةٍ، وهي العضْوُ غيرُ الرَّأسِ، مِثلُ اليدِ والرِّجْلِ؛ فالجمْعُ باعتبارِ ما لكلِّ أحدٍ مِن شَوى. وقيل: الشَّوَاةُ: جِلدةُ الرَّأسِ، فالجمْعُ باعتِبارِ كَثرةِ النَّاسِ[٥].

- والإدبارُ: ترْكُ شَيءٍ في جِهةِ الوَراءِ؛ لأنَّ الدُّبُرَ هو الظَّهرُ، فأدْبَر: جَعَل شيئًا وَراءَه بألَّا يُعرِّجَ عليه أصْلًا، أو بأنْ يُقبِلَ عليه ثمَّ يُفارِقَه. والتَّولِّي: الإدبارُ عن شَيءٍ والبُعدُ عنه، وأصْلُه مُشتَقٌّ مِن الوَلايةِ، وهي المُلازَمةِ، ثمَّ قالوا: ولَّى عنه، أرادوا: اتَّخَذ غيرَه وليًّا، أي: ترَكَ وَلايتَه إلى ولايةِ غيرِه، ففي التَّولِّي معْنى إيثارِ غيرِ المُتولَّى عنه؛ ولذلك يكونُ بيْن التَّولِّي والإدبارِ فرْقٌ، وباعتبارِ ذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٦٤).

(٣) قرأ حفص ﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنَّصبِ، وقرأ الباقونَ بالرَّفعِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٤، ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٢، ٢١٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٤).

الفرْقِ عُطِفَ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ على ﴿أَدۡبَرَ﴾، أي: تَدْعو مَن ترَكَ الحقَّ، وتَولَّى عنه إلى الباطلِ. وهذه دَقيقةٌ مِن إعجازِ القُرآنِ؛ بأنْ يكونَ الإدبارُ إدْبارَ غَيرِ تَوَلٍّ، أي: إدبارًا مِن أوَّلِ وَهْلةٍ، ويكونَ التَّولِّي مُرادًا به الإعراضُ بعْدَ مُلابَسةٍ؛ ولذلك يكونُ الإدبارُ مُعبَّرًا به عن عدَمِ قَبولِ القُرآنِ، ونفْيِ استماعِ دَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو حالُ الَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [فصلت: ٢٦]، والتَّولِّي مُعبَّرًا به عن الإعراضِ عن القُرآنِ بعْدَ سَماعِه، وللنُّفورِ عن دَعوةِ الرَّسولِ، كما قال تعالَى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، وكِلا الحالَينِ حالُ كفْرٍ، ومُحِقَّةٌ للعِقابِ، وهما مُجتَمِعَتانِ في جَميعِ المُشرِكين، والمقصودُ مِن ذِكرِهما معًا تَفظيعُ أصحابِهما[1].

- يجوزُ أن يكونَ متعلَّقُ ﴿أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ متحدًا يَتنازَعُه كِلا الفِعلَينِ، ويُقدَّرُ بنحوِ: عن الحقِّ؛ إذ العِبرةُ باختلافِ معنَيَي الفِعلَينِ، وإن كان متعلَّقُهما متَّحدًا. ويجوزُ أن يُقدَّرَ لكلِّ فعلٍ متعلَّقٌ هو أشدُّ مُناسَبةً لمعناه، فقيل: أدبَر عن الحقِّ، وتولَّى عن الطَّاعةِ، أي: لم يَقبَلِ الحقَّ، وهو الإيمانُ مِن أصلِه، وأعرَض عن طاعةِ الرَّسولِ بعدَ سماعِ دعوتِه. وقيل عكسُه: أدبَر عن طاعةِ الله، وتولَّى عن كتابِ الله[2].

- والجمْعُ والإيعاءُ في قولِه: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ مُرتَّبٌ ثانيهما على أوَّلِهما، فيدُلُّ تَرتُّبُ الثَّاني على الأوَّلِ أنَّ مَفعولَ (جَمَعَ) المحذوفَ هو شَيءٌ ممَّا يُوعَى، أي:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُجعَلُ في وِعاءٍ[١].

- وقيل: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾، أي: كان جَموعًا للخَبيثِ، فيُقدَّرُ لـ (جَمَعَ) مَفعولٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: وزادَ على إدبارِه وتَولِّيه أنَّه جَمَع الخبائثَ، وعليه يكونُ ﴿فَأَوْعَىٰٓ﴾ مُعبَّرًا به عن مُلازَمتِه ما فيه مِن خِصالِ الخَبائثِ واستِمرارِه عليها، فكأنَّها مُختزَنةٌ لا يُفرِّطُ فيها[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٩-٢٥)

﴿ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ
وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ
غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿هَلُوعًا﴾: أي: شَديدَ الحِرصِ، قَليلَ الصَّبرِ، والهَلَعُ: جَزَعٌ واضطِرابٌ يَعتَري الإنسانَ عِندَ المَخاوِفِ وعندَ المَطامِعِ، وأصلُ (هلع): يدُلُّ على سُرعةٍ وحِدَّةٍ[١].

﴿جَزُوعًا﴾: أي: كثيرَ الجَزَعِ، والجَزَعُ: نَقيضُ الصَّبرِ، وهو انقِطاعُ القُوَّةِ عن حَملِ ما نزَلَ، وأصلُ (جزع): يدُلُّ على انقِطاعٍ[٢].

﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: أي: يومِ الجزاءِ والحسابِ، وهو يومُ القيامةِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازيتُه، وأصلُ (دين) جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[٣].

﴿مُّشۡفِقُونَ﴾: أي: خائِفونَ حَذِرونَ، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٦٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٥٦)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٥٣)، ((غريب =

﴿ٱلۡعَادُونَ﴾: أي: المُعْتَدونَ المُجاوِزونَ ما أحَلَّ اللهُ لهم إلى ما حَرَّمَ عليهم، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تَجاوُزٍ في الشَّيءِ وتقَدُّمٍ لِما ينبغي أن يُقتَصَرَ عليه[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾

قوله تعالى: ﴿جَزُوعًا﴾ و﴿مَنُوعًا﴾ في نَصبِهما وَجهانِ؛ أحدُهما: أنَّهما مَنصوبانِ على الحالِ مِنَ الضَّميرِ في ﴿هَلُوعًا﴾، وهو العامِلُ فيهما، والتَّقديرُ: هَلُوعًا حالَ كونِه جَزُوعًا وقتَ مَسِّ الشَّرِّ، ومَنوعًا وقتَ مسِّ الخَيرِ. والظَّرفانِ مَعمولانِ لهاتَيْنِ الحالَيْنِ. الثَّاني: أنْ يَكونا خبَرَينِ لـ «كان» أو «صار» مُضمَرةً، أي: إذا مَسَّه الشَّرُّ كان أو صار جَزوعًا، وإذا مَسَّه الخيرُ كان أو صار مَنوعًا[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ الله تعالى مُبيِّنًا طبائِعَ النَّفْسِ البشَريَّةِ، وما جُبِلت عليه: إنَّ الإنسانَ طُبِعَ على شدَّةِ الحِرصِ؛ إذا أصابه بلاءٌ جَزِعَ ولم يَصبِرْ، وإذا أصابه الخَيرُ بَخِلَ بمالِه، ومَنعَه عن المحتاجينَ، إلَّا المصَلِّينَ؛ فهم صابِرونَ في الضَّرَّاءِ، شاكِرونَ في السَّرَّاءِ.

ثمَّ يَصِفُ الله تعالى هؤلاء المصلِّينَ -الَّذين اسْتَثْناهم- ببعضِ الصِّفاتِ، فيقولُ:

---

= القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٤٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٥٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٠)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٩/ ٨٣).

أولئك المصَلُّونَ هم الَّذين يُواظِبونَ على أداءِ صَلَواتِهم.

والَّذين في أموالِهم نَصيبٌ معلومٌ للسَّائِلِ، والمتعفِّفِ الَّذي لا يَسألُ.

والَّذين يُصَدِّقونَ بمَجيءِ يومِ الحِسابِ والجَزاءِ.

والَّذين هم مِن عَذابِ رَبِّهم وَجِلُونَ حَذِرونَ؛ إنَّ عذابَ اللهِ غيرُ مأمونٍ لأحَدٍ.

والَّذين هم صائِنونَ لِفُروجِهم ممَّا حرَّمه اللهُ تعالى، إلَّا مِن زَوجاتِهم أو مِن إمائِهم اللَّاتي يَملِكونَهنَّ؛ فإنَّهم لا يُلامُونَ على وَطْئِهنَّ على الوَّجهِ المَشروعِ، فمَنِ التَمَس التَّمَتُّعَ بفَرْجِه فيما سِوى زَوجتِه وأمَتِه، فأولئك هم المُعتَدونَ حُدودَ اللهِ، المُجاوِزونَ ما أحلَّه لهم إلى ما حرَّمَه عليهم.

والَّذين هم لِأماناتِهم ولعُهودِهم مع اللهِ وعِبادِه: مُراعونَ قائِمونَ بحِفظِها.

والَّذين هم قائِمونَ بأداءِ الشَّهادةِ المطلوبةِ منهم دونَ تبديلٍ أو كِتمانٍ.

والَّذين هم يُحافِظونَ على أداءِ صَلاتِهم وإقامتِها؛ أولئِك المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ في جنَّاتٍ يُكرِمُهم اللهُ تعالى فيها بأنواعِ الكَراماتِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن أعجَبِ العجَبِ أنْ يُقبِلَ على الدُّنيا أحدٌ يَسمَعُ التَّهديدَ بالعرْضِ بيْن يَدَيِ اللهِ، والعِقابَ لِمَن لم يُقبِلْ على عِبادتِه سُبحانَه؛ بيَّنَ أنَّ ذلك لِما جَبَلَه عليه سُبحانَه، وأنَّ الإنسانَ مَقهورٌ مع جِبِلَّتِه، إلَّا مَن حَفِظَه اللهُ[1].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٠).

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾.

أي: طُبِعَ النَّاسُ ورُكِّبوا على شدَّةِ الحِرصِ الَّذي يترتَّبُ عليه الجزَعُ والمنْعُ، فلا يَشكُرونَ اللهَ على النَّعْماءِ، ولا يَصبِرونَ على الضَّرَّاءِ(١).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٧١٢)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦-١٦٨).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ: جِنسُ الإنسانِ بوَصفِ طبيعتِه الأصليَّةِ: النَّسَفي، وابنُ جُزَي، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: الكافِرُ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٨٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٦)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٤).

قال ابنُ عطيَّةَ: (وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ عُمومٌ لاسمِ الجِنسِ، لكنَّ الإشارةَ هنا إلى الكُفَّارِ؛ لأنَّ الأمْرَ فيهم وَكيدٌ كَثيرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨).

وقال ابن عاشور: (الَّذي استخلَصْتُه مِن تتَبُّعِ استِعمالاتِ كَلِمةِ الهَلَعِ: أنَّ الهَلَعَ قِلَّةُ إمساكِ النَّفْسِ عندَ اعتراءِ ما يَحزُنُها أو ما يَسُرُّها، أو عندَ توَقُّعِ ذلك والإشفاقِ منه، وأمَّا الجزَعُ فمِن آثارِ الهلَعِ، وقد فَسَّر بعضُ أهلِ اللُّغةِ الهَلَعَ بالشَّرَهِ، وبعضُهم بالضَّجَرِ، وبَعضُهم بالشُّحِّ، وبعضُهم بالجُوعِ، وبعضُهم بالجُبنِ عندَ اللِّقاءِ، وما ذكَرْناه في ضَبطِه يجمَعُ هذه المعانيَ، ويُريك أنَّها آثارٌ لِصِفةِ الهلَعِ. ومعنى ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾: أنَّ الهلَعَ طَبيعةٌ كامِنةٌ فيه معَ خَلْقِه، تظهَرُ عندَ ابتداءِ شُعورِه بالنَّافِعِ والضَّارِّ؛ فهو مِن طِباعِه المخلوقةِ كغَيرِها مِن طِباعِه البَشَريَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٧، ١٦٨).

وقال الرَّسْعَني: (قال المفسِّرون: ما بَعْدَ الهلوعِ تفسيرٌ له). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٢٨٤).

يقولُ: ((شَرُّ ما في رجُلٍ: شُحٌّ هالِعٌ، وجُبنٌ خالِعٌ[١]))[٢].

وعن عَمرِو بنِ تَغلِبَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنِّي أُعطي الرَّجُلَ، وأدَعُ الرَّجُلَ، والَّذي أدَعُ أحَبُّ إلَيَّ مِن الَّذي أُعطِي؛ أُعطي أقوامًا لِما في قُلوبِهم مِنَ الجَزَعِ والهَلَعِ، وأَكِلُ أقوامًا إلى ما جَعَل اللهُ في قُلوبِهم مِنَ الغِنى والخَيرِ))[٣].

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: إذا أصاب الإنسانَ بلاءٌ -كفَقرٍ، أو مَرَضٍ، أو فَقْدِ حَبيبٍ- فإنَّه يَجزَعُ بشِدَّةٍ، ولا يَصبِرُ[٤].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾.

أي: وإذا أصاب الإنسانَ خَيرٌ ونِعمةٌ، فصار غَنِيًّا كَثيرَ المالِ؛ فإنَّه يَغْدُو شديدَ البُخلِ بمالِه، فلا يُنفِقُه في طاعةِ اللهِ، ولا يُعطي منه ذَوِي الحاجةِ مِن عِبادِ اللهِ[٥].

﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾﴾.

---

(١) الجُبْنُ الخالعُ: هو الشَّديدُ، كأنَّه يَخلَعُ قلبَه مِن شِدَّةِ خَوفِه، والمرادُ به: ما يَعرِضُ مِن نَوازِعِ الأفكارِ، وضَعفِ القلبِ عندَ الخَوفِ. يُنظر: ((غريب الحديث)) للقاسم بن سلَّام (٢/ ٦٥١)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٦٥).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٢٥١١)، وأحمدُ (٨٠١٠)، وابن حبَّانَ (٣٢٥٠).
صحَّحه ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٢٨/ ٤٣٧)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٢٥١١)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٢٥١١).

(٣) رواه البخاري (٧٥٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

أي: إلَّا المصَلِّينَ المتَّصِفينَ بالأوصافِ الآتيةِ، فليسوا كذلك؛ فهم صابِرونَ في الضَّرَّاءِ، شاكِرونَ في السَّرَّاءِ[١].

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣﴾.

أي: الَّذين يُواظِبونَ على أداءِ صَلَواتِهم المفروضةِ على الوَجهِ الصَّحيحِ، فلا يتخَلَّفونَ عنها، ولا يَترُكونَها[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ زكاةَ الرُّوحِ، أتْبَعَه زكاةَ عَديلِها؛ المالِ[٣].

﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤﴾.

أي: والَّذين في أموالِهم نَصيبٌ معلومٌ لِذَوي الحاجةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

قيل: الحَقُّ المعلومُ في الآية هو الزَّكاةُ المفروضةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، واستظهره الشوكاني، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ في روايةٍ، والكلبيُّ، وابنُ سِيرينَ. يُنظر: =

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: في أموالِهم حقٌّ معلومٌ للسَّائِلِ الَّذي يَسأَلُ النَّاسَ الصَّدَقاتِ، والمتعفِّفِ الَّذي لا يَسألُ النَّاسَ رَغمَ حاجتِه وفَقْرِه الشَّديدِ(١).

= ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٢٨).

قال ابنُ جريرٍ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾: (حَقٌّ مُؤَقَّتٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩).

وقال القرطبي: (وصَفَ الحقَّ بأنَّه معلومٌ، وسِوى الزَّكاةِ ليس بمعلومٍ، إنَّما هو على قَدرِ الحاجةِ، وذلك يَقِلُّ ويَكثُرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣).

وقيل: الحَقُّ المعلومُ في الآيةِ ما سِوى الزَّكاةِ؛ لأنَّ الآيةَ مَكِّيَّةٌ، فنُزولُها قبْلَ فَرضِ مَقاديرِ الزَّكاةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، والألوسيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عُمَرَ، وابنُ عبَّاسٍ، والشَّعبيُّ، وإبراهيمُ النخعي في روايةٍ، ومجاهِدٌ، وعَطاءٌ، والحسَنُ في روايةٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٢٨).

قال ابن عطيَّة: (قال الحسَنُ، ومجاهدٌ، وابنُ عبَّاسٍ: هذه الآيةُ في الحقوقِ الَّتي في المالِ سِوى الزَّكاةِ، وهي ما نَدَبَت الشَّريعةُ إليه مِن المواساةِ، وقد قال ابنُ عُمَرَ، ومجاهِدٌ، والشَّعبيُّ، وكثيرٌ مِن أهلِ العِلمِ: إنَّ في المالِ حَقًّا سِوى الزَّكاةِ، وهذا هو الأصَحُّ في هذه الآيةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨).

وقال الألوسي: (﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾، أي: نَصيبٌ مُعَيَّنٌ يَستوجِبونَه على أنفُسِهم؛ تقَرُّبًا إلى اللهِ تعالى، وإشفاقًا على النَّاسِ، وهو... ما يُوظِّفُه الرَّجُلُ على نفْسِه يؤدِّيه في كلِّ جُمُعةٍ أو كُلِّ شَهرٍ مَثَلًا). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧١).

وقال ابن عاشور: (معنى كونِ الحَقِّ مَعلومًا أنَّه يَعلَمُه كُلُّ واحدٍ منهم، ويَحسِبونَه، ويَعلَمُه السَّائِلُ والمحرومُ بما اعتاد منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

وقيل: الحقُّ المعلومُ أي: مِن الزَّكَواتِ والصَّدَقاتِ الموَظَّفةِ. وممَّن قال بذلك في الجملةِ: البيضاويُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٣، ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢). =

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٢٦﴾.

أي: والَّذين يُقِرُّونَ بمَجيءِ يومِ القيامةِ الَّذي يقَعُ فيه الحِسابُ والجَزاءُ[1].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الدِّينُ معْناه الجزاءُ مِن الثَّوابِ والعِقابِ، وكان رُبَّما صَرَفه صارفٌ إلى الثَّوابِ فقطْ -للعِلمِ بعُمومِ رَحمتِه سُبحانه، وأنَّ رَحمتَه غَلَبَت غَضَبَه-؛ صرَّحَ بالعِقابِ[2].

---

= وممَّن قال بهذا المعنى للسَّائلِ والمحرومِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٤/ ٢٨٥).

قال ابن جرير: (وهو الزَّكاةُ لِلسَّائلِ الَّذي يَسألُه مِن مالِه، والمحرومِ الَّذي قد حُرِمَ الغِنَى، فهو فقيرٌ لا يَسألُ... وأجْمَعوا على أنَّ السَّائلَ هو الَّذي وصفْتُ صِفتَه، واختَلَفوا... في معنَى المحرومِ في هذا الموضعِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٦٩، ٢٧١).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (السَّائلُ: المتكفِّفُ، والمحرومُ: الَّذي قد ثَبَتَ فَقْرُه، ولم تَنجَحْ سِعاياتُه لدُنياهُ، قالت عائشةُ: هو الَّذي لا يَكادُ يَتيسَّرُ له مَكسَبُه. وقال بعضُ أهلِ العِلمِ: المحرومُ: مَن احتَرَقَ زَرعُه. وقال بعضُهم: المحرومُ: مَن ماتَتْ ماشيتُه. وهذه أنواعُ الحِرمانِ؛ لا أنَّ الاسمَ يَستلزِمُ هذا خاصَّةً. وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: المحرومُ: الكلْبُ. أراد -واللهُ أعلمُ- أنْ يُعطِيَ مِثالًا مِن الحيوانِ ذي الكَبِدِ الرَّطْبةِ؛ لِما فيه مِن الأجْرِ حسَبَ الحديثِ المأثورِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٤، ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٥).

﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧﴾.

أي: والَّذين هم مِن عَذابِ رَبِّهم وَجِلُونَ حَذِرونَ؛ فهم لذلك حَريصونَ على امتِثالِ أوامِرِ اللهِ تعالى، واجتِنابِ نَواهيه(١).

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وقال سبحانه: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۞ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۞ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٥ - ٢٧].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨﴾.

أي: إنَّ عذابَ اللهِ غيرُ مأمونٍ لأحَدٍ؛ فوَجَب الخَوفُ والحَذَرُ منه، بتَركِ مُخالَفةِ أمرِ اللهِ ونَهْيِه(٢).

كما قال تعالى: ﴿يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [السجدة: ١٦].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر التَّحَلِّيَ بتَطهيرِ النَّفْسِ بالصَّلاةِ، وتزكيةِ المالِ بالصَّدَقةِ؛ نَدَب إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

والعذابُ هنا: قيل هو عذابُ الآخرةِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧١٦).

وقال البِقاعي: (خائفونَ في هذه الدَّارِ خَوفًا عَظيمًا هو في غايةِ الثَّباتِ مِن أنْ يُعذِّبَهم في الآخرةِ، أو الدُّنيا، أو فيهما). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٣).

التَّخَلِّي عن أمرٍ جامِعٍ بيْنَ تدنيسِ المالِ والنَّفْسِ، وهو الزِّنا الحامِلُ عليه شَهوةُ الفَرجِ، الَّتي هي أعظَمُ الشَّهَواتِ حملًا للنَّفْسِ على المُهلِكاتِ[١].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩﴾.

أي: والَّذين هم صائِنونَ لِفُروجِهم من كُلِّ ما حرَّمه اللهُ تعالى عليهم بشَأنِها[٢].

﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠﴾.

أي: هم يَحفَظونَ فُروجَهم إلَّا مِن زَوجاتِهم أو مِن إمائِهم اللَّاتي يَملِكونَهنَّ، فلا حَرَجَ عليهم في وَطْئِهنَّ، والاستِمتاعِ بهِنَّ على الوَجهِ المشروعِ، ولا يُلامُون على ذلك[٣].

﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١﴾.

أي: فمَن طَلَب الاستِمتاعَ بغَيرِ زَوجتِه وجاريتِه فهم المُعتَدونَ، المُجاوِزونَ ما أحلَّه اللهُ تعالى إلى ما حَرَّمه[٤].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٨/ ١٣).

قال السعدي: (فلا يَطَؤونَ بها وطْأً مُحَرَّمًا؛ مِن زنًا، أو لِواطٍ، أو وَطءٍ في دُبُرٍ أو حَيضٍ، ونحوِ ذلك، ويحفَظونَها أيضًا مِن النَّظَرِ إليها ومَسِّها ممَّن لا يجوزُ له ذلك، ويَترُكونَ أيضًا وسائِلَ المحرَّماتِ الدَّاعيةَ لِفعلِ الفاحِشةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦، ٤٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٧، ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعالى العادِيَ؛ أَتْبَعه الواقفَ عندَ الحُدودِ[١].

وأيضًا ذِكرُ رَعْيِ الأماناتِ والعهْدِ لمُناسَبةِ وَصْفِ ما يَوَدُّ الكافرُ يومَ الجزاءِ أنْ يَفتدِيَه مِن العذابِ بفَصيلَتِه الَّتي تُؤْويه، فيَذهَبُ منه رَعْيُ العُهودِ الَّتي يَجِبُ الوفاءُ بها للقَبيلةِ، وحسْبُك مِن تَشويهِ حالِه أنَّه قدْ نَكَثَ العُهودَ الَّتي كانت عليه لقَومِه مِن الدِّفاعِ عن حَقيقتِهم بنفْسِه، وكان يَفدِيهم بنفْسِه، والمُسلِمُ لَمَّا كان يَرْعى العهدَ بما يُمْليه عليه دِينُه، جازاهُ اللهُ بأنْ دَفَعَ عنه خِزْيَ وِدادةِ فِدائِه نفْسَه بمَوالِيه وأهلِ عَهْدِه[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢﴾.

أي: والَّذين هم لِمَا ائْتَمَنَهم اللهُ والنَّاسُ عليه، ولعُهودِهم مع اللهِ وعِبادِه: مُراعونَ قائِمونَ بحِفظِها، فلا يَخونونَ الأماناتِ، ولا يَنقُضونَ العُهودَ[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لما كان أجلُّ العهودِ والأماناتِ ما كان بإشهادٍ؛ بيَّن فضلَ الشَّهادةِ[١].

وأيضًا ذُكِرَ لمُناسَبةِ ذِكرِ رَعْيِ الأماناتِ؛ إذ الشَّهادةُ مِن جُملةِ الأماناتِ؛ لأنَّ حقَّ المَشهودِ له وَديعةٌ في حِفظِ الشَّاهدِ، فإذا أدَّى شَهادتَه فكأنَّه أدَّى أمانةً لصاحبِ الحقِّ المشهودِ له كانت في حِفظِ الشَّاهدِ[٢].

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣﴾.

أي: والَّذين هم قائِمونَ بأداءِ الشَّهادةِ المطلوبةِ منهم شَرعًا، ولو على أقارِبِهم، فيَتحَمَّلونَها، ويهتَمُّونَ بها، ويَحفَظونَها حتَّى يؤَدُّوها في غايةِ التَّمامِ دونَ زيادةٍ أو نُقصانٍ، ودونَ تبديلٍ أو كِتمانٍ[٣].

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾ [النساء: ١٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ [الطلاق: ٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩١، ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

وعن زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ألَا أُخبِرُكم بخَيرِ الشُّهَداءِ؟ الَّذي يأتي بشَهادتِه قبل أن يُسأَلَها))(١).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤﴾.

أي: والَّذين هم يُحافِظونَ على أداءِ صَلاتِهم، وإقامتِها على الوَجهِ الصَّحيحِ المطلوبِ منهم شَرْعًا(٢).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أُجرِيَت على المؤمِنينَ هذه الصِّفاتُ الجليلةُ؛ أخبَرَ عن جزائِهم عليها، بأنَّهم مُكْرَمونَ في الجنَّةِ(٣).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾.

أي: أولئِك المتَّصِفونَ بتلك الصِّفاتِ: في جنَّاتٍ يُكرِمُهم اللهُ تعالى فيها بأنواعِ الكَراماتِ، وأصنافِ المسَرَّاتِ(٤).

كما قال تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ * أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ * فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكۡرَمُونَ * فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ * يُطَافُ عَلَيۡهِم بِكَأۡسٖ مِّن مَّعِينِۭ * بَيۡضَآءَ لَذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ

---

(١) رواه مسلم (١٧١٩). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧)

وقال ابنُ عاشور: (الإكرامُ: التَّعظيمُ وحُسنُ اللِّقاءِ، أي: هم مع جزائِهم بنَعيمِ الجنَّاتِ، يُكرَمونَ بحُسنِ اللِّقاءِ والثَّناءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۞ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات: ٤٠ - ٤٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أي: مُبالِغًا في الإمساكِ عمَّا يَلزَمُه مِنَ الحُقوقِ؛ للانهِماكِ في حُبِّ العاجِلِ، وقُصورِ النَّظَرِ عليه، وُقوفًا معَ المحسوسِ؛ لغَلَبةِ الجُمودِ والبَلادةِ، وهذا الوَصفُ ضِدُّ الإيمانِ؛ لأنَّ الإيمانَ نِصفانِ: صَبرٌ، وشُكرٌ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، و﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦] الإنسانُ هنا هو الإنسانُ مِن حيثُ هو، مِن غيرِ اخْتِصاصٍ بواحِدٍ بعَيْنِه، فهذا شأنُ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وخروجُه عن هذه الصِّفاتِ بفضلِ ربِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه، فليس له مِن ذاتِه إلَّا هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نِعمةٍ فمِنَ اللهِ وحْدَه، فهو الَّذي حبَّب إلى عبدِه الإيمانَ وزَيَّنَه في قلبِه، وكَرَّهَ إليه الكفرَ والفُسوقَ والعِصيانَ، وهو الَّذي كتَب في قلبِه الإيمانَ، وهو الَّذي يُثَبِّتُ أنبياءَه ورُسُلَه وأولياءَه على دينِه، وهو الَّذي يَصرِفُ عنهم السُّوءَ والفَحْشاءَ؛ قال تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]، وقال تعالَى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٦]، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، فهو رَبُّ جميعِ العالَمِ رُبوبيَّةً شامِلةً لجميعِ ما في

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠١).

العالَمِ مِن ذَواتٍ وأفعالٍ وأحوالٍ(١).

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى هذه الأخلاقَ على وَجهِ الذَّمِّ، واستثنَى منهم المصَلِّينَ؛ لأنَّ صَلاتَهم تَحمِلُهم على قِلَّةِ الاكتِراثِ بالدُّنيا، فلا يَجزَعونَ مِن شَرِّها، ولا يَبخَلونَ بخَيرِها(٢).

٤- قال تعالى: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ * إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ وإذْ ذَكَر اللهُ الهَلَعَ هنا عَقِبَ مَذمَّةِ الجمْعِ والإيعاءِ، فقدْ أشعَرَ بأنَّ الإنسانَ يَستطيعُ أنْ يَكُفَّ عن هَلَعِه إذا تَدبَّرَ في العواقبِ(٣).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى الصَّلاةَ في أوَّلِ الأوصافِ الحَميدةِ وفي آخِرِها، وبهذا يُعْرَفُ أنَّ الصَّلاةَ أعظمُ الأعمالِ بعدَ شهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ(٤)، وأنَّ الصَّلاةَ أصْلٌ لكُلِّ خَيرٍ، ومَبدَأٌ لهذا المذكورِ كُلِّه؛ لِقَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]؛ فهي عَونٌ على كُلِّ خَيرٍ(٥).

٦- قَولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ فيه إشارةٌ إلى فضلِ المداومةِ على العِبادةِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٨٤).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٦٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٠).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ فيه حَثٌّ على تفَقُّدِ أربابِ الضَّروراتِ مِمَّن لا كسْبَ له، ومَنِ افتَقَر بعدَ الغِنى[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ الثَّناءُ على مَن خاف مِن عذابِ اللهِ؛ لأنَّ مَن خاف مِن شيءٍ اتَّقاه، فإذا خاف مِن عذابِ اللهِ فلا بُدَّ أنْ يَتَّقِيَ أسبابَ العَذابِ[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ أي: لا يَنبغي لأحَدٍ أنْ يأمَنَه، بل يجوزُ أن يَحُلَّ به[٣]، وإنْ بالَغَ في الطَّاعةِ[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ فيه وُجوبُ أداءِ كُلِّ أمانةٍ، والوفاءِ بكُلِّ عَهدٍ، والقيامِ بكُلِّ شَهادةٍ تحَمَّلَها الإنسانُ[٥].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ فيه ثَناءٌ عليهم بعنايتِهم بالصَّلاةِ مِن أن يَعتَرِيَها شَيءٌ يُخِلُّ بكَمالِها؛ فالمحافظةُ راجِعةٌ إلى استِكمالِ أركانِ الصَّلاةِ وشُروطِها وأوقاتِها[٦].

١٢- في هذه الآياتِ وصَفَ اللهُ تعالى أهلَ السَّعادةِ والخَيرِ بهذه الأوصافِ الكاملةِ، والأخلاقِ الفاضِلةِ؛ مِن العباداتِ البدَنيَّةِ كالصَّلاةِ والمُداوَمةِ عليها، والأعمالِ القلبيَّةِ كخَشيةِ الله الدَّاعيةِ لكلِّ خَيرٍ، والعباداتِ الماليَّةِ، والعقائدِ النَّافِعةِ،

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٣).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

والأخلاقِ الفاضِلةِ، ومُعامَلةِ الله، ومُعامَلةِ خَلقِه أحسَنَ مُعامَلةٍ مِن إنصافِهم وحِفظِ عُهودِهم وأسرارِهم، والعِفَّةِ التَّامَّةِ بحِفظِ الفُروجِ عمَّا يَكْرَهُ اللهُ تعالى[١].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ أنَّ اللهَ تعالى خَلَق الإنسانَ على هذه الصِّفةِ[٢]؛ ففيه دَلالةٌ على قولِ جماهيرِ المُثبِتينَ للقَدَرِ القائِلينَ بأنَّ اللهَ تعالى خالِقُ أفعالِ العِبَادِ؛ فإنَّهم يقولونَ: إنَّ اللهَ تعالى خالِقُ العَبدِ وجميعِ ما يقومُ به؛ مِن إرادتِه وقدرتِه، وحرَكاتِه وغيرِ ذلك[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فيه سؤالٌ: ما الحِكمةُ في خَلقِ الإنسانِ على مَساوي الأخلاقِ؟

**الجوابُ**: الحِكمةُ في خَلقِ شَهوةِ القَبيحِ: ليُمانِعَ نَفْسَه إذا نازَعَتْه نحوَه، ويحارِبَ شيطانَه عندَ تزيينِه مَعصيةً، فيَستَحِقَّ مِنَ الله تعالى مَثوبتَه وجنَّتَه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ أنَّ الإنسانَ خُلِقَ على هذه الصِّفةِ، وأنَّ مَن كان على غَيرِها فمِن أجْلِ ما زَكَّاه اللهُ به مِن فَضْلِه وإحسانِه[٥].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٢/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٠٤).

(٥) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٠٧).

مَنُوعًا﴾ فيه سُؤالٌ: حاصِلُ هذا الكلامِ أنَّه نُفورٌ عن المَضارِّ طَلَبًا للرَّاحةِ، وهذا هو اللَّائِقُ بالعَقلِ، فلِمَ ذَمَّه اللهُ عليه؟

**الجوابُ**: إنَّما ذَمَّه عليه؛ لأنَّه قاصِرُ النَّظَرِ على الأحوالِ الجُسمانيَّةِ العاجِلةِ، وكان مِنَ الواجِبِ عليه أن يكونَ مَشغولًا بأحوالِ الآخِرةِ، فإذا وقَعَ في مَرَضٍ أو فَقرٍ، وعَلِمَ أنَّه فِعلُ اللهِ تعالى، كان راضيًا به؛ لعِلْمِه أنَّ اللهَ يَفعَلُ ما يَشاءُ، ويَحكُمُ ما يُريدُ، وإذا وَجَد المالَ والصِّحَّةَ، صرَفَهما إلى طلَبِ السَّعاداتِ الأُخرويَّةِ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ هذا شامِلٌ لجَميعِ الأماناتِ الَّتي بيْنَ العبدِ وبيْنَ رَبِّه، كالتَّكاليفِ السِّرِّيَّةِ الَّتي لا يطَّلِعُ عليها إلَّا اللهُ؛ والأماناتِ الَّتي بيْنَ العَبدِ وبيْنَ الخَلقِ في الأموالِ والأسرارِ، وكذلك العَهدُ؛ شامِلٌ للعَهدِ الَّذي عاهَدَ عليه اللهَ، والعَهدِ الَّذي عاهَدَ عليه الخَلقَ؛ فإنَّ العَهدَ يُسأَلُ عنه العَبدُ: هل قام به ووفَّاه، أو رفَضَه وخانه، فلمْ يَقُمْ به[٢]؟

٦- قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ ذِكرُ القِيامِ بالشَّهادةِ إتمامٌ لخِصالِ أهلِ الإسلامِ، فلا يُتطلَّبُ له مُقابلٌ مِن خِصالِ أهلِ الشِّركِ المَذكورةِ فيما تَقدَّمَ[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أنَّ كلَّ ما أعَدَّه الإنسانُ للتِّجارةِ والتَّكَسُّبِ ففيه الزَّكاةُ؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٨/ ٢٥٢).

والزَّكاةُ في عُروضِ التِّجارةِ واجبةٌ، وذلك باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق للزَّيْلَعي مع حاشية الشِّلْبي)) (١/ ٢٧٩)، ((الشرح الكبير للدردير مع حاشية الدسوقي)) (١/ ٤٧٢)، ((المجموع)) للنووي (٦/ ٤٧)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ٢٤٠). =

٨- مِن السُّؤالِ ما لا يكونُ مأمورًا به، والمسؤولُ مأمورٌ بإجابةِ السَّائلِ، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾، وقال: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾[1] [الضحى: ١٠].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أنَّ مَن سَأَلَ وظَهَرَ صِدْقُه، وَجَبَ إطعامُه[2].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ أنَّ الزَّكاةَ تُجْعَلُ في صِنفٍ واحدٍ وصِنفَين، فتُجْزِئُ، وليس بحَتم أنْ تُجعَلَ في الثَّمانيةِ الأصنافِ كلِّها[3]! على القَولِ بأنَّ الحقَّ المعلومَ هو الزَّكاةُ المفروضةُ.

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ دلَّت هذه الآيةُ على تحريمِ نِكاحِ المُتعةِ؛ لكَونِها غيرَ زَوجةٍ مَقصودةٍ، ولا مِلكَ يَمينٍ[4].

١٢- إنَّ ظاهرَ عُمومِ قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ يَقتضي جوازَ أنْ يَستَمتعَ الرَّجُلُ بزَوجتِه فيما

---

= قال ابنُ المُنذِرِ: (أجمَعَ أهلُ العِلمِ على أنَّ في العُروضِ الَّتي يُرادُ بها التِّجارةُ الزَّكاةَ، إذا حال عليها الحَوْلُ). ((الإشراف)) (٣/ ٨١).

وقال ابنُ عبدِ البَرِّ: (وقد شذَّ داودُ، فلم يَرَ الزَّكاةَ في العُروضِ، وإنْ نوى بها صاحِبُها التِّجارةَ). ((التمهيد)) (١٧/ ١٢٦).

وقال الخطَّابي: (وُجوبُ الزَّكاة في الأموالِ الَّتي تُرصَدُ للتِّجارةِ، وهو كالإجماعِ مِن أهلِ العِلمِ. وزعَم بعضُ المتأخِّرينَ مِن أهلِ الظَّاهرِ أنَّه لا زكاةَ فيها، وهو مَسبوقٌ بالإجماعِ). ((معالم السنن)) (٢/ ٥٣).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٧).

شاء، ما عدا الدُّبُرَ؛ فإنَّه لا يجوزُ للرَّجُلِ أنْ يجامعَ زوجتَه فيه[١].

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ قال ابنُ عُيَيْنَةَ: (مَن لامَ أحدًا فيما ملَكَت يمينُه وإن كثُرَ، أو لامَه في نسائِه إذا بلغ الأربعَ، فقد عصى اللهَ تعالى؛ لقَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾). وقال أيضًا: (مَن تزوَّجَ بأربَعِ نِسوةٍ، أو تسَرَّى بمَماليكَ؛ فلا خلَلَ في زُهدِه في الدُّنيا)[٢].

١٤- ظاهِرُ عُموم قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ إباحةُ وَطْءِ الإماءِ بمِلْكِ اليمينِ مُطلَقًا على أيِّ دِينٍ كُنَّ، إلَّا ما استَثناه الدَّليلُ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ تحريمُ الاستِمناءِ باليدِ، فهذا الصَّنيعُ خارجٌ عن هذَينِ القِسمَينِ: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ دليلٌ على أنَّ إتيانَ البهيمةِ

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٤٩، ٥٠).

(٣) يُنظر: ((مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية)) للبعلي (ص: ٤٢٧).

وذهَب جمهورُ الفقهاءِ إلى أنَّ الأَمَةَ إذا كانت مجوسيَّةً أو وَثنيةً لم تحلَّ لسيدِها المسلم بملكِ اليمينِ، كما لا تحلُّ له بالزَّواجِ لو كانت حرَّةً. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١١/ ٢٩٨).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير السمعاني)) (٣/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٥/ ٤٦٣).

معصيةٌ؛ فأيُّ شيءٍ وراءَ الأزواجِ ومِلْكِ اليمينِ يُعتبرُ عُدوانًا وظُلمًا[١].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ أنَّ التَّعرِّيَ عندَ الجِماعِ لا حَرَجَ فيه؛ لأنَّه إذا كان لا مَلامةَ في عدَمِ سَتْرِ الفَرجِ فما سِواه مِن بابِ أَوْلى[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ سؤالٌ: كيف الجمعُ بيْنَ كَونِ اللهِ تعالى مُنْفَرِدًا بالمِلْكِ وبيْنَ إثباتِ المِلْكِ للمخلوقينَ -كالآيةِ هنا-، ومِثْلِ قَولِه تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]؟

**الجوابُ: أنَّ الجَمعَ بيْنَهما مِن جِهاتٍ:**

**الأُولى**: أنَّ مِلْكَ الإنسانِ للشَّيءِ ليس عامًّا شاملًا! لأنه يَمْلِكُ ما تحتَ يدِه، ولا يمْلِكُ ما تحتَ يدِ غيرِه! والكلُّ مِلْكٌ للهِ عزَّ وجلَّ، فمِن حيثُ الشُّمولُ: مِلْكُ اللهِ عزَّ وجلَّ أشملُ وأوسعُ، وهو مِلْكٌ تامٌّ.

**الثاني**: أنَّ مِلْكَ الإنسان لشَيءٍ ما ليس مِلْكًا حقيقيًّا يتَصَرَّفُ فيه كما يَشاءُ! وإنما يتَصَرَّفُ فيه كما أَمَر الشَّرعُ؛ وكما أَذِن المالكُ الحقيقيُّ -وهو اللهُ عزَّ وجلَّ-، فإذًا مِلْكُ الإنسانِ قاصرٌ.

وأيضًا لا يمْلِكُ فيه شيئًا مِن النَّاحيةِ القَدَرِيَّةِ؛ لأنَّ التَّصرُّفَ للهِ، فلا يستطيعُ أنْ يقولَ لعبدِه المريضِ: ابْرَأْ؛ فيَبْرَأُ! ولا يستطيعُ أنْ يقولَ لعبدِه الصَّحيحِ: امرَضْ؛ فيَمْرَضُ! لكنَّ التَّصرُّفَ الحقيقيَّ للهِ عزَّ وجلَّ، فلو قال له: ابْرَأْ؛ بَرَأ، ولو قال: امْرَضْ؛ مَرِضَ، فإذًا لا يمْلِكُ التَّصرُّفَ المطلقَ شرعًا وقَدَرًا، فمِلْكُه هنا قاصرٌ

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (١٤/ ٢٤٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٤/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٠/ ٣٢٤).

مِن حيثُ التَّصرُّفُ، وقاصرٌ مِن حيثُ الشُّمولُ والعُمومُ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٧، ١٨] وبيْنَ الاستِثناءِ ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ...﴾ [المعارج: ٢٢]، وهي تَذييلٌ لجُملةِ ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨]؛ تَنبيهًا على خَصلةٍ تُخامِرُ نُفوسَ البشَرِ، فتَحمِلُهم على الحِرصِ لنَيلِ النَّافعِ، وعلى الاحتفاظِ به خَشيةَ نَفادِه؛ لِما فيهم مِن خُلُقِ الهَلَعِ، وهذا تَذييلُ لَومٍ، وليس في مَساقِه عُذْرٌ لِمَن جَمَع فأَوعَى، ولا هو تَعليلٌ لفِعلِه. ومَوقعُ حرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ) ما تَتضمَّنُه الجُملةُ مِن التَّعجيبِ مِن هذه الخَصلةِ البشَريَّةِ، فالتَّأكيدُ لمُجرَّدِ الاهتمامِ بالخبَرِ، ولَفْتِ الأنظارِ إليه، والتَّعريضِ بالحذَرِ منه، والمقصودُ مِن التَّذييلِ هو قولُه: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: ٢١]، وأمَّا قولُه: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: ٢٠] فتَمهيدٌ وتَتْميمٌ لِحالتَيْهِ[٢].

- وقيل: الجُملةُ كالتَّعليلِ لِما تقدَّمَ[٣].

- وهَلوعٌ: فَعولٌ، مِثالُ مُبالَغةٍ للاتِّصافِ بالهَلَعِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٦٧).

- قولُه: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ قيل: استثناءٌ منقطِعٌ، لمَّا وصَف مَن أدبَر وتولَّى بالهلعِ قال: لكنِ المصلِّينَ في مقابلةِ أولئكَ[1]، وقيل: هو استِثناءٌ مُنقطِعٌ ناشئٌ عن الوعيدِ المبتدَأِ به مِن قولِه: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ ...﴾ [المعارج: ١١]؛ فالمعْنى على الاستدراكِ، والتَّقديرُ: لكنَّ المصلِّين الموصوفينَ بكَيتَ وكَيْتَ أولئك في جنَّاتٍ مُكرَمونَ؛ فجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ حيث وَقَعَت بعْدَ (إلَّا) المنقطِعةِ -وهي بمعْنى (لكنَّ)- فلَها حكْمُ الجُملةِ المخبَرِ بها عن اسمِ (لكنَّ) المشدَّدةِ، أو عن المبتدَأِ الواقعِ بعْدَ (لكِنْ) المخفَّفةِ. والكلامُ استِئنافٌ بَيانيٌّ لمُقابَلةِ أحوالِ المؤمنينَ بأحوالِ الكافرينَ، ووَعْدِهم بوَعيدِهم، على عادةِ القرآنِ في أمثالِ هذه المُقابَلةِ[2].

وقيل: هو استثناءٌ متَّصِلٌ أي: إنَّ الإنسانَ خُلِق هلوعًا واستمرَّ ذلك عليه، ولم يفارِقْه إلَّا المصلِّينَ الموصوفينَ بالصفاتِ الآتيةِ، فإنَّهم خلَعوا ربقةَ الهلعِ عن أعناقِهم[3].

- وهذه صِفاتٌ ثمانٍ هي مِن شِعارِ المسلمينَ؛ فعُدِلَ عن إحضارِهم بوَصْفِ المسلِمينَ إلى تَعدادِ خِصالٍ مِن خِصالِهم إطنابًا في الثَّناءِ عليهم؛ لأنَّ مَقامَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٠).

قال البيضاوي: (﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ استِثناءٌ للمَوصوفينَ بالصِّفاتِ المذكورةِ بَعدُ مِن المَطبوعينَ على الأحوالِ المذكورةِ قبْلُ؛ لِمُضادَّةِ تلك الصِّفاتِ لها مِن حيثُ إنَّها دالَّةٌ على الاستغراقِ في طاعةِ الحقِّ، والإشفاقِ على الخلْقِ، والإيمانِ بالجَزاءِ، والخَوفِ مِن العُقوبةِ، وكسْرِ الشَّهوةِ، وإيثارِ الآجِلِ على العاجِلِ، وتلك ناشئةٌ مِن الانهماكِ في حُبِّ العاجِلِ، وقُصورِ النَّظرِ عليها). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦).

الثَّناءِ مَقامُ إطنابٍ، وتَنْبيهًا على أنَّ كلَّ صِلةٍ مِن هذه الصِّلاتِ الثَّمانِ هي مِن أسبابِ الكَونِ في الجَنَّاتِ[١].

- ولَمَّا كان وصْفُ المصلِّينَ غَلَب على المسلِمينَ -كما دلَّ عليه قولُه تعالَى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ الآية [المدثر: ٤٢، ٤٣]-، أُتْبِع وصْفُ المصلِّينَ في الآيةِ هذه بوَصْفِ ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، أي: مُواظِبونَ على صَلاتِهم، لا يَتخلَّفونَ عن أدائِها ولا يَترُكونَها[٢]. وكذلك في إضافةِ (صلاة) إلى ضَميرِ ﴿الْمُصَلِّينَ﴾ تَنويهٌ باختِصاصِها بهم، وهذا الوصفُ للمُسلِمينَ مُقابِلُ وَصْفِ الكافرينَ في قولِه: ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ﴾[٣] [المعارج: ١، ٢].

- ومَجيءُ الصِّلةِ جُملةً اسميَّةً ﴿هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (الَّذين يَدُومون)؛ لقصْدِ إفادتِها الثَّباتَ تَقويةً كمُفادِ الدَّوامِ[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ ختَم قولَه: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ هنا بقولِه: ﴿دَائِمُونَ﴾، وختَمَه بعْدُ بقولِه: ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ وفيه وَجْهانِ: الأوَّلُ: أنَّ المُرادَ بدَوامِهم عليها: ألَّا يَتْرُكوها في وقْتٍ مِن أوقاتِها، وبمُحافَظتِهم عليها: أنْ يَأتُوا بها على أكمَلِ أحوالِها؛ مِن الإتيانِ بها بجَميعِ واجِباتِها وسُنَنِها، ومنها الاجتهادُ في تَفريغِ القلْبِ عن الوَسوسةِ، والرِّياءِ، والسُّمعةِ. الثَّاني: أنَّ الدَّيمومةَ على الشَّيءِ والمحافَظةَ عليه شَيءٌ واحدٌ، لكنَّه لَمَّا كانت الصَّلاةُ هي عَمودَ الإسلامِ، بُولِغَ في التَّوكيدِ فيها، فذُكِرَت أوَّلَ خِصالِ الإسلامِ المذكورةِ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هذه السُّورةِ وآخِرَها؛ ليُعلَمَ مَرتبتُها في الأركانِ الَّتي بُنِيَ الإسلامُ عليها[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ فيه إعادةُ اسمِ المَوصولِ مع الصِّلاتِ المَعطوفةِ على قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾؛ لمَزيدِ العِنايةِ بأصحابِ تلك الصِّلاتِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ فيه تَسميةُ ما يُعطُونَه مِن أموالِهم مِن الصَّدقاتِ باسمِ ﴿حَقّٞ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّهم جَعَلوا السَّائلَ والمَحرومَ كالشُّركاءِ لهم في أموالِهم، مِن فَرْطِ رَغبتِهم في مُواساةِ إخوانِهم؛ إذْ لم تكُنِ الصَّدقةُ يَومَئذٍ واجبةً، ولم تكُنِ الزَّكاةُ قد فُرِضَت[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ومَجيءُ الصِّلةِ جُملةً اسميَّةً لإفادةِ ثَباتِ هذه الخَصلةِ فيهم، وتَمكُّنِها منهم؛ دفْعًا لتَوهُّمِ الشُّحِّ في بعضِ الأحيانِ لِما هو مَعروفٌ بيْنَ غالبِ النَّاسِ مِن مُعاوَدةِ الشُّحِّ للنُّفوسِ[٤].

- وهذه الصِّفةُ للمؤمنينَ مُضادَّةُ صِفةِ الكافرينَ المُتقدِّمةِ في قولِه: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾[٥] [المعارج: ١٨].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أُوثِرَ فيها الفِعلُ المضارعُ؛ لدَلالتِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨١، ٥٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على الاستِمرارِ[١].

- وهذا الوصفُ مُقابِلُ وصْفِ الكافرينَ بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا﴾[٢] [المعارج: ٦].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ وَصْفُ المؤمنينَ بأنَّهم ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ مُقابِلُ قولِه في حقِّ الكافرينَ: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [المعارج: ١، ٢]؛ لأنَّ سُؤالَهم سُؤالُ مُستخِفٍّ بذلك ومُحيلِه[٣].

- وصَوغُ الصِّلةِ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ لتَحقيقِ ثَباتِ اتِّصافِهم بهذا الإشفاقِ؛ لأنَّه مِن المُغيَّباتِ، فمِن شأْنِ كَثيرٍ مِن الناسِ التَّردُّدُ فيه[٤].

٦- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ، أي: غيرُ مأمونٍ لهم، وهذا تَعريضٌ بزَعْمِ المشركينَ الأمْنَ منه[٥].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾ قيل: وَصْفُهم بأنَّهم لفُروجِهم حافِظونَ مُقابِلُ قولِه في تَهويلِ حالِ المشركينَ يومَ الجزاءِ بقولِه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ [المعارج: ١٠]؛ إذ أخصُّ الأحِمَّاءِ بالرَّجُلِ زَوجُه؛ فقُصِدَ التَّعريضُ بالمشركينَ بأنَّ هذا الهَولَ خاصٌّ بهم بخِلافِ المسلمينَ؛ فإنَّهم هم وأزواجَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٧٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يُحْبَرونَ؛ لأنَّهم اتَّقوا اللهَ في العِفَّةِ عن غيرِ الأزواجِ، قال تعالَى: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧]، أي: ليس في المسلمينَ سِفاحٌ، ولا زِنًا، ولا مُخالَّةٌ، ولا بِغاءٌ؛ ولذلك عُقِّبَ بالتَّفريعِ بقولِه: ﴿ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴾(١).

٨- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾

- صَوغُ الصِّلةِ بالجُملةِ الاسميَّةِ ﴿ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾؛ لتَحقيقِ ثَباتِ اتِّصافِهم بهذا الوصْفِ(٢).

٩- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾

- تَخصيصُ الشَّهادةِ بالذِّكرِ معَ اندراجِها في الأماناتِ؛ لإبانةِ فضْلِها؛ لأنَّ في إقامتِها إحياءَ الحقوقِ وتَصحيحَها، وفي مَنْعِها تَضييعَها وإبطالَها(٣).

- وجاءت جُملةُ الصِّلةِ ﴿ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴾ اسميَّةً؛ لتَحقيقِ ثَباتِ اتِّصافِهم بهذا الوَصْفِ؛ لأنَّ أداءَ الشَّهادةِ يَشُقُّ على النَّاسِ؛ إذ قد يكونُ المَشهودُ عليه قَريبًا أو صَديقًا، وقد تُثيرُ الشَّهادةُ على المَرْءِ إحْنةً منه وعَداوةً(٤).

- قولُه: ﴿ بِشَهَٰدَٰتِهِمْ ﴾ قُرِئَ ﴿ بِشَهَادَتِهِمْ ﴾ بصِيغةِ الإفرادِ، وهو اسمُ جِنسٍ يعُمُّ جَميعَ الشَّهاداتِ الَّتي تَحمَّلوها. وقُرِئَ ﴿ بِشَهَٰدَٰتِهِمْ ﴾ بصِيغةِ الجمْعِ(٥)، وذلك

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٥) قرأ يعقوبُ وحفصٌ ﴿ بِشَهَٰدَٰتِهِمْ ﴾ بصِيغةِ الجمْعِ، وقرأ الباقونَ بصِيغةِ الإفرادِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩١).

على اعتِبارِ جمْعِ المُضافِ إليه[١].

١٠- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ ثَناءٌ عليهم بعِنايتِهم بالصَّلاةِ مِن أنْ يَعترِيَها شَيءٌ يُخِلُّ بكَمالِها؛ لأنَّ مادَّةَ المُفاعَلةِ هنا للمُبالَغةِ في الحِفظِ[٢].

- وإيثارُ الفِعلِ المضارِعِ ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ لإفادةِ تَجدُّدِ ذلك الحِفاظِ، وعدَمِ التَّهاوُنِ به، وبذلك تَعلَمُ أنَّ هذه الجُملةَ ليسَتْ مُجرَّدَ تأْكيدٍ لجُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾، بل فيها زِيادةُ معنًى معَ حُصولِ الغرَضِ مِن التَّأكيدِ بإعادةِ ما يُفيدُ عِنايتَهم بالصَّلاةِ في كِلْتا الجُملتَينِ[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ يُفيدُ تَقويةَ الخبَرِ، مع إفادةِ التَّجدُّدِ مِن الفِعلِ المُضارِعِ[٤].

- وقدْ حَصَل بيْنَ أُخرى هذه الصِّلاتِ -﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾- وبيْن أُولاها -﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾- مُحسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قال الشوكاني: (كرَّر ذِكرَ الصَّلاةِ لاختلافِ ما وصَفهم به أوَّلًا، وما وصَفهم به ثانيًا؛ فإنَّ معنَى الدَّوامِ: هو أن لا يشتغِلَ عنها بشيءٍ مِن الشَّواغِلِ...، ومعنى المحافظةِ: أنْ يُراعي الأمورَ التي لا تكونُ صلاةً بدونِها، وقيل: المرادُ يُحافِظونَ عليها بعدَ فعلِها مِن أنْ يفعَلوا ما يُحبِطُها، ويُبطِلُ ثوابَها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ورَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ، أو المُتجانِسَينِ، أو المُلحَقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ =

- وفي تَكريرِ الصَّلاةِ مُبالَغةٌ لا تَخْفى؛ اهتمامًا بشَأْنِها، وتَنويهًا بفضْلِها، ويُضافُ إلى التَّكريرِ تَصديرُ الجُملةِ بالضَّميرِ، وبِناءُ الجُملةِ عليه، وتَقديمُ الجارِّ والمجرورِ على الفِعلِ، وفِعليَّةُ الخبَرِ، فتُفيدُ الجُملةُ الاسميَّةُ الدَّوامَ والاستِمرارَ، وتُفيدُ الجُملةُ الفِعليَّةُ التَّجدُّدَ مع الاستِمرارِ، وهذا نمَطٌ عَجيبٌ انفرَدَ به كِتابُ اللهِ تعالى[1].

- ومِن قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ تَكريرُ المَوصولاتِ لتَنزيلِ اختِلافِ الصِّفاتِ مَنزلةَ اختلافِ الذَّواتِ؛ إيذانًا بأنَّ كلَّ واحدٍ من الأوصافِ المذكورةِ نعْتٌ جَليلٌ على حِيالِه، له شأنٌ خَطيرٌ مُستتبِعٌ لأحكامٍ جَمَّةٍ، حَقيقٌ بأنْ يُفرَدَ له مَوصوفٌ مُستقِلٌّ، ولا يُجعَلَ شَيءٌ منها تَتِمةً للآخَرِ[2].

- ومِن قولِه: ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكۡرَمُونَ﴾، وقال قبْلَه في سُورةِ (المؤمنينَ): ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ

---

= آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤).

هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ * ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ [المؤمنون: ٤-١١]، تَجاوَبَت الآياتُ في السُّورتينِ لفْظًا ومعْنًى، واختَصَّت سُورةُ (المعارجِ) بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾، وحُذِفَ مِن سُورةِ (المؤمنين)؛ وذلك لمُناسَبةٍ حَسَنةٍ، وهي أنَّ آياتِ سُورةِ (المعارجِ) مَبْنيَّةٌ على التَّأكيدِ والمُبالَغةِ، فلمَّا قال: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾، أكَّد ذلك في آخرِ هذه الآياتِ كرًّا عليها بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]. ووصَفَ المزكِّين بأنَّهم ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾، وبعْدَه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، ثمَّ أتْبَعَ ذلك التَّوكيدَ بقولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، وبعْدَه: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾، ثمَّ بالَغَ في تَحذيرِهم فقال: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾. وهذه الآيةُ جاءت في سُورةِ (المؤمنينَ). وبعْدَها في السُّورتينِ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾، ثمَّ خصَّ الآيةَ في سُورةِ (المعارجِ) بما أجْرَى عليه الآياتِ قبْلَها مِن المبالَغةِ في الطَّاعاتِ الَّتي تَضمَّنَت ذِكْرَها، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾؛ فكان مِن المبالَغةِ الَّتي تَقْتضيها الآياتُ المتقدِّمةُ ذِكرُ الشَّهاداتِ عَقِيبَ أداءِ الأماناتِ[1].

١١- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾

- جَيءَ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم استَحقُّوا ما بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ ما سبَقَ قبْلَ اسمِ الإشارةِ[2]. وما فيه مِن معْنى البُعدِ، مع قُربِ العهْدِ

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٢٩٧-١٣٠٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤١)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

بالمُشارِ إليهِم؛ للإيذانِ بعُلوِّ شأْنِهم، وبُعدِ مَنزلَتِهم في الفضلِ[١].

- وتقديمُ ﴿فِي جَنَّتٍ﴾ على الخَبرِ ﴿مُّكْرَمُونَ﴾؛ للاهتِمامِ، مع مُراعاةِ الفَواصِلِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٧٢).

## الآيات (٣٦-٤٤)

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ
مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ
إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ
ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٤٢ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ
ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿قِبَلَكَ﴾: أي في جهتِك، وما يَليك، وأصلُ (قبل): يدُلُّ على مُواجَهةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[1].

﴿مُهۡطِعِينَ﴾: أي: مُسرِعينَ مُقبِلينَ، وأصلُ (هطع): يدُلُّ على إقبالٍ على الشَّيءِ، وانقيادٍ[2].

﴿عِزِينَ﴾: أي: جماعاتٍ مُتفَرِّقةً، واحِدُها: عِزَةٌ، وهي: العُصبةُ مِنَ النَّاسِ، وهو مِن المنقوصِ الَّذي جاز جمعُه بالواوِ والنُّونِ عِوَضًا مِنَ المحذوفِ، وأصلُها عِزْوَةٌ، وأصلُه مِن: عَزَوتُه فاعتَزَى: أي: نسَبْتُه فانتسَبَ؛ لأنَّ كُلَّ فِرقةٍ تَعتَزي -تنتَسِبُ- إلى غَيرِ ما تعتَزي إليه الفِرقةُ الأُخرى، وأصلُ (عزو): يدُلُّ على انتِماءٍ واتِّصالٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٣، ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:٣٤٧)، =

﴿ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾: أي: القُبورِ، واحِدُها: الجَدَثُ[١].

﴿نُصُبٖ﴾: واحِدُ الأنصابِ: وهي حِجارةٌ كانت حوْلَ الكَعبةِ تُنصَبُ، فيُهَلُّ عليها، ويُذبَحُ عليها لغيرِ اللهِ تعالى، وقد كَثُرَ استِعمالُ هذا الاسمِ في الأصنامِ حتَّى قيلَ لها: الأنصابُ، ووَجهُ تَسميتِها نُصُبًا أنَّها تُنصَبُ للعِبادةِ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ[٢].

﴿يُوفِضُونَ﴾: أي: يُسرِعُونَ، يُقالُ: أوْفَضَ إيفاضًا: أَسْرَعَ[٣].

﴿خَٰشِعَةً﴾: أي: ذليلةً خاضِعةً، وأصلُ (خشع): يدُلُّ على التَّطامُنِ[٤].

﴿تَرۡهَقُهُمۡ﴾: أي: تَغشاهم وتَلحَقُهم، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[٥].

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٢٦).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُنْكِرًا على الكفَّارِ الَّذين كانوا في زَمَنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: فما لكُفَّارِ قُرَيشٍ -يا محَمَّدُ- يُسرِعونَ نَحوَك مُتطَلِّعةً أبصارُهم إليك، مُتفرِّقينَ عن يمينِك وعن شِمالِك؟! أيطمَعُ كلُّ واحدٍ منهم أن يُدخِلَه اللهُ جَنَّةَ نَعيمٍ؟! كلَّا! ليس الأمرُ كما يَطمَعونَ، إنَّا خلَقْناهم مِن نُطفةٍ كما يَعلَمونَ.

ثمَّ يذكرُ الله تعالى ما يدُلُّ على كمالِ قدرتِه، مهدِّدًا الكافِرينَ، ومحقِّرًا مِن شأنِهم، فيقولُ: فلا أُقسِمُ برَبِّ المشارِقِ والمغارِبِ، إنَّا لَقادِرونَ على إهلاكِ المُشرِكينَ، والإتيانِ بقَومٍ خَيرٍ مِنهم، وما يَفوتُنا منهم أحَدٌ، فيُعجِزَنا هَرَبًا؛ فاترُكِ المُشرِكينَ -يا محَمَّدُ- يخوضُوا في باطِلِهم، ويَلعَبوا حتَّى يُلاقُوا يومَ القيامةِ الَّذي فيه عَذابُهم؛ يومَ يَخرُجونَ مِن قُبورِهم مُسرِعينَ نَحوَ مَوقِفِ الحِسابِ، كأنَّهم يَسْعَونَ مُتعَجِّلينَ إلى أصنامِهم المَنصوبةِ الَّتي كانوا يتقَرَّبونَ إليها بالعِبادةِ وغَيرِها في الدُّنيا؛ خاضِعةً ساكِنةً أبصارُهم، وتَغْشاهم ذِلَّةٌ.

ذلك اليَومُ الموصوفُ بتلك الشَّدائِدِ هو اليومُ الَّذي كانوا يُوعَدونَ به في الدُّنيا!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦﴾.

أي: فما شأنُ كُفَّارِ قُرَيشٍ -يا محَمَّدُ- يُسرِعونَ نَحوَك ويُقبِلونَ عليك وأبصارُهم مُتطَلِّعةٌ إليك[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قيل: ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ بمعنى: مُسرِعينَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: =

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧﴾.

أي: عن يمينِك وعن شِمالِك -يا محمَّدُ- مُتفرِّقينَ[1].

---

= الشوكانيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٠).

وقيل: مُسرِعينَ نافِرينَ منه. وممَّن نصَّ على هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٨).

وقيل المعنى: يُديمونَ النَّظرَ إليك، ويَتطَلَّعونَ نحوَك. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٣).

وقيل: هذا النَّظرُ نظَرُ تعجُّبٍ. نسَب الماوَرْديُّ هذا المعنى إلى الكلبيِّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٦).

وقيل: هو نظرُ عداوةٍ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن قال بهذا: الزَّجَّاجُ، وابنُ الجَوزيِّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٣٩). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٣٣).

قال ابن جرير: (والإهطاعُ في كلامِ العربِ بمعنَى الإسراعِ أشهَرُ منه بمعنَى إدامةِ النَّظرِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٣/ ٧٠٧).

وممَّن جمَع بيْنَ معنَيَي السُّرعةِ وإدامةِ النَّظرِ: العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦٤).

وقال ابن عطيَّة: (المُهطِعُ: الَّذي يَمشي مُسرِعًا إلى شيءٍ، قد أقبَل عليه ببصَرِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠).

وقال الواحديُّ بعد أن ذكر أقوالَ العلماءِ: (والجامعُ لهذه الأقوالِ قولُ مَن قال: الإهطاعُ: إسراعٌ مع إدامةِ نظرٍ). ((البسيط)) (١٢/ ٤٩٨).

وقال ابن عاشور: (الإهطاعُ: مَدُّ العُنقِ عندَ السَّيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٦).

وممَّن جمَع بيْن المعاني الثَّلاثةِ -وهي: الإسراعُ، وتصويبُ النَّظرِ، ومَدُّ العُنُقِ-: البغويُّ، والزمخشري، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١٢).

وقال القرطبي: (المعنى: ما بالُهم يُسرِعون إليك، ويَجلِسونَ حَوَالَيْك، ولا يَعمَلونَ بما تأمُرُهم؟). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٣). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

عباراتُ المفسِّرينَ في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿عِزِينَ﴾ مُتقارِبةٌ؛ فقيل: ﴿عِزِينَ﴾، أي: حِلَقًا حِلَقًا، =

﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨﴾.

أي: أيطمَعُ كلُّ واحدٍ مِن أولئكَ المُشرِكينَ أن يُدخِلَه اللهُ جَنَّةَ نَعيمٍ يومَ القيامةِ[1]؟!

﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا احتَجَّ على صِحَّةِ البعثِ، دلَّ على أنَّهم كانوا مُنكِرين للبَعثِ، فكأنَّه قِيل لهم: كلَّا إنَّكم مُنكِرونَ للبعثِ، فمِن أينَ تَطمَعونَ في دُخولِ الجنَّةِ[2]؟!

وأيضًا فإنَّ المستهزِئينَ كانوا يَستحقِرونَ المؤمنينَ، فأخبَرَ تعالَى أنَّ هؤلاء

---

= فلا يَدنُونَ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيَنتَفِعونَ بمَجلِسِه. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٧٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٠).

وقيل: ﴿عِزِينَ﴾ أي: فِرَقًا شَتَّى. وممَّن قاله: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، والنيسابوري، والعُلَيمي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٥٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤).

وقال الواحدي: (﴿عِزِينَ﴾ جماعاتٍ حِلَقًا حِلَقًا، وذلك أنَّهم كانوا يَجتَمِعونَ عندَه، ويَستهزِئونَ به وبأصحابِه، ويقولونَ: لئنْ دخَل هؤلاء الجنَّةَ فلَندخُلَنَّها قبْلَهم). ((الوجيز)) (ص: ١١٣٤).

وقال ابنُ كَثيرٍ: (﴿عِزِينَ﴾ واحدُها عِزَةٌ، أي: مُتفرِّقينَ. وهو حالٌ مِن ﴿مُهۡطِعِينَ﴾، أي: في حالِ تَفرُّقِهم واختلافِهم، كما قال الإمامُ أحمدُ في أهلِ الأهواءِ: فهُمْ مُخالِفون للكِتابِ، مُختلِفون في الكِتابِ، متَّفِقون على مُخالَفةِ الكِتابِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٨). ويُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٥٦).

وقال البِقاعي: (﴿عِزِينَ﴾ أي: حالَ كَونِهم جماعاتٍ جماعاتٍ، وحِلَقًا حِلَقًا، متفرِّقينَ فِرَقًا شتَّى أفواجًا يتمهَّلونَ ليأتوا جميعًا). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٧).

المسْتهزِئين مَخلوقونَ ممَّا خُلِقوا؛ فكيف يَليقُ بهم هذا الاحتقارُ[١]؟!

﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَطمَعون، فليس لهم أن يَدخُلوا الجنَّةَ مع كُفرِهم باللهِ وإشراكِهم به، إنَّا خلَقْناهم مِن نُطفةٍ كما يَعلَمونَ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال ابن جُزَي: (وفي المقصودِ بهذا الكلامِ ثلاثةُ أوجُهٍ:

أحدُها: تحقيرُ الإنسانِ، والرَّدُّ على المتكبِّرينَ.

الثَّاني: الرَّدُّ على الكُفَّارِ في طمَعِهم أن يَدخُلوا الجنَّةَ، كأنَّه يقولُ: إنَّا خلَقْناكم ممَّا خلَقَنا منه النَّاسَ، فلا يَدخُلُ أحدٌ الجنَّةَ إلَّا بالعملِ الصَّالحِ؛ لأنَّكم سواءٌ في الخِلقةِ.

الثَّالث: الاحتِجاجُ على البعثِ بأنَّ الله خلَقهم مِن ماءٍ مَهينٍ، فهو قادرٌ على أن يُعيدَهم، كقولِه: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧] إلى آخرِ السُّورةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٢).

ممَّن قال بنحوِ القولِ الأوَّلِ: الشوكانيُّ، والسعديُّ.

قال الشوكاني: (﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: مِنَ القَذَرِ الَّذين يَعلَمونَ به؛ فلا يَنبغي لهم هذا التَّكَبُّرُ!). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٢).

وقال السعدي: (﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: مِن ماءٍ دافِقٍ، يَخرُجُ مِن بيْنِ الصُّلْبِ والتَّرائبِ، فهم ضُعفاءُ، لا يَملِكونَ لأنفُسِهم نفعًا ولا ضرًّا، ولا مَوتًا ولا حياةً ولا نُشورًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

وممَّن قال بمعنى القولِ الثَّاني: ابنُ جرير، والسَّمعانيُّ، والبغوي، وابن عطية، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٤).

وممَّن قال بمعنى القولِ الثَّالثِ: الرازيُّ، وأبو حيَّان، وابن كثير، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٨).

وقيل: المعنى: أنَّهم خُلِقوا مِن نُطفةٍ، فمَن قدَرَ على ذلك فلا يُعجِزُه إهلاكُهم؛ فلْيَحذَروا عاقِبةَ =

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾.

أي: فلا أُقسِمُ بخالِقِ ومُدَبِّرِ المشارِقِ والمغارِبِ، إنَّا لَقادِرونَ(١).

---

= البَغيِ والفَسادِ. قاله القاسمي. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٠).

وقيل: المعنى: إنَّا خَلَقْناهم مِن أجْلِ ما يَعلَمونَ، وهو امتِثالُ الأمرِ والنَّهيِ، وتعرُّضِهم للثَّوابِ والعِقابِ، كما في قولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٣).

قال ابن كثير: (وتقديرُ الكلامِ: ليسَ الأمرُ كما يَزعمونَ أنْ لا معادَ ولا حسابَ، ولا بعثَ ولا نشورَ، بل كلُّ ذلك واقعٌ وكائنٌ لا مَحالةَ. ولهذا أتى بـ «لا» في ابتداءِ القسَمِ؛ لِيدُلَّ على أنَّ المُقْسَمَ عليه نفيٌ، وهو مضمونُ الكلامِ، وهو الرَّدُّ على زعمِهم الفاسِدِ في نفْيِ يومِ القيامةِ، وقد شاهَدوا مِن عظيمِ قدرةِ اللهِ تعالَى ما هو أبلغُ مِن إقامةِ القيامةِ، وهو خلقُ السَّمواتِ والأرضِ، وتسخيرُ ما فيهما مِن المخْلوقاتِ مِن الحيواناتِ والجماداتِ، وسائرِ صنوفِ الموجوداتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩).

وقال الشوكاني: (قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ «لا» زائدةٌ...، والمعنَى: فأُقسِمُ برَبِّ المشارِقِ والمغارِبِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٣).

وقال ابنُ القيِّم: (أقسَمَ سُبحانَه برَبِّ المشارِقِ والمغارِبِ، وهي إمَّا مَشارِقُ النُّجومِ ومَغارِبُها، أو مَشارِقُ الشَّمسِ ومَغارِبُها، أو أنَّ كُلَّ مَوضعٍ مِنَ الجِهةِ مَشرِقٌ ومَغرِبٌ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٩٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مَشارِقُ الكواكِبِ، كالشَّمسِ والقَمَرِ وغَيرِهما: ابنُ عطية، وابن كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: مَشارِقُ الشَّمسِ ومَغارِبُها: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمعانيُّ، والقرطبي، وابن عاشور، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٥).

وممَّن قال بمعنى هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ. يُنظر: =

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١﴾.

﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾.

أي: إنَّا لَقادِرونَ على إهلاكِ المُشرِكينَ، والإتيانِ بقَومٍ خَيرٍ مِنهم يُطيعونُ رَبَّهم، ويَتَّقونَه(١).

---

= ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨٦).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (هو مِئةٌ وثمانون مَشرِقًا، ومِئةٌ وثمانون مَغرِبًا، في كُلِّ مَنزلةٍ تَطلُعُ يومَينِ في السَّنةِ، تطلُعُ فيها الشَّمسُ، وتَغرُبُ فيها). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٩).

وقيل: المرادُ: مَشارِقُ ومغاربُ الشَّمسِ والقَمَرِ. وممَّن قال بهذا: الزَّجَّاجُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٢٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٨٦).

قال ابنُ القيِّم: (أقسَمَ سُبحانَه على عُمومِ قُدرتِه وكَمالِها وصِحَّةِ تعَلُّقِها بإعادتِهم بعدَ العدَمِ، فذكرَ المَشارِقَ والمغارِبَ بلَفظِ الجَمعِ؛ إذ هو أدَلُّ على المقسَمِ عليه، سواءٌ أُريدَ مَشارِقُ النُّجومِ ومَغارِبُها، أو مَشارِقُ الشَّمسِ ومَغارِبُها، أو كُلُّ جزءٍ مِن جهتَي المشرِقِ والمغرِبِ؛ فكُلُّ ذلك آيةٌ ودَلالةٌ على قُدرتِه تعالى على أن يُبَدِّلَ أمثالَ هؤلاء المكَذِّبينَ، ويُنشِئَهم فيما لا يَعلَمونَ، فيأتيَ بهم في نَشأةٍ أُخرى كما يأتي بالشَّمسِ كُلَّ يومٍ مِن مَطلَعٍ، ويَذهَبُ بها في مَغرِبٍ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٩٥).

وقيل: المرادُ: مَشارِقُ الأرضِ ومَغارِبُها. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٣).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، وابن القيِّم، والشوكاني. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابن كثير: (أيْ: يومَ القيامةِ نُعيدُهم بأبدانٍ خيرٍ مِن هذه، فإنَّ قدرَتَه صالِحةٌ لذلك... كما =

كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾.

أي: وما يَفوتُنا منهم أَحَدٌ، فيُعجِزَنا هَرَبًا؛ فاللهُ تعالى قادِرٌ على الإتيانِ بخَيرٍ منهم؛ إذ لا يمتَنِعُ عليه شَيءٌ سُبحانَه[1].

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ثبَت أنَّ لله سُبحانَه العَظَمةَ البالِغةَ الباهِرةَ، مِن شُمولِ العِلمِ، وتمامِ القُدرةِ، فأنتَج اعتِمادَ أهلِ حِزْبِه عليه، وإعراضَهم عن كلِّ ما سِواه؛ سبَّب عن ذلك قولَه تهديدًا للمُخالِفينَ، وتسليةً للمؤالِفينَ[2]:

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

---

= قال تعالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣، ٤]، وقال تعالَى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]). وذكر أنَّ هذا القولَ (أظهرُ؛ لدَلالةِ الآياتِ الأُخَرِ عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٢٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (يحتَمِلُ مَعنَيينِ؛ أوَّلُهما -وهو المناسِبُ للسِّياقِ-: أن يكونَ المعنى: على أن نُبَدِّلَهم خَيرًا منهم، أي: نُبدِّلَ ذَواتِهم خَلقًا خَيرًا مِن خَلْقِهم الَّذي هم عليه اليومَ... والمعنى الثَّاني: أن نُبدِّلَ هؤلاء بخيرٍ منهم، أي: بأمَّةٍ خَيرٍ منهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤١٨).

أي: فاترُكِ المُشرِكينَ -يا محمَّدُ- يَخوضُوا في باطِلِهم، ويَلعَبوا في دُنياهم بشَهَواتِهم، إلى أن يُلاقُوا يومَ القيامةِ الَّذي فيه عَذابُهم(١)!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا ﴾.

أي: يومَ يخرُجُ المشركون مِن قُبورِهم مُسرِعينَ نَحوَ مَوقِفِ الحِسابِ(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال القرطبي: (أي: اترُكْهم يَخوضوا في باطِلِهم، ويَلعَبوا في دُنياهم، على جِهةِ الوَعيدِ، واشتَغِلْ أنت بما أُمِرْتَ به، ولا يَعظُمَنَّ عليك شِركُهم؛ فإنَّ لهم يومًا يَلقَونَ فيه ما وُعِدوا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (الخَوضُ: الكلامُ الكثيرُ، والمرادُ: خَوضُهم في القرآنِ، وشأنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمسلِمينَ. واللَّعِبُ: الهَزْلُ والهُزْءُ، وهو لَعِبُهم في تلقِّي الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، وخُروجُهم عن حدودِ التَّعَقُّلِ والجِدِّ في الأمرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ ﴾ بيانٌ وتوجيهٌ عن اليومِ الأوَّلِ الَّذي في قولِه: ﴿ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٢]، وتأويلُ الكلامِ: حتَّى يُلاقوا يومَهم الَّذي يُوعَدونَه ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٤).

ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ [القمر: ٧، ٨].

﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿نُصُبٍ﴾ بضَمِّ النُّونِ والصَّادِ. قيل: بمعنى الأصنامِ المَنصوبةِ[١].

٢- قراءةُ: ﴿نَصْبٍ﴾ بفَتحِ النُّونِ. قيل: بمعنى: العَلَمِ المَنصوبِ. وقيل: القِراءتانِ بمعنًى واحِدٍ[٢].

﴿كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾.

أي: يَخرُجونَ مِن قُبورِهم كأنَّهم يَسعَونَ مُتعَجِّلينَ مُسرِعينَ إلى أصنامِهم الَّتي نصَبوها للعبادةِ يَبْتَدِرونَ، أيُّهم يَسْتَلِمُه أوَّلَ[٣].

---

(١) قرأ بها ابنُ عامرٍ، وحفصٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٢٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٥٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٤، ٧٢٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩١).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٢٤)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٥٣)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٢)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٢٤، ٧٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٥)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٣).
قال ابنُ القيِّم: (المقصودُ: أنَّ النُّصُبَ كُلُّ شَيءٍ نُصِبَ؛ مِن خَشَبةٍ، أو حَجَرٍ، أو عَلَمٍ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٢٠٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢١).
وقال ابن عطية: (النُّصُبُ: ما نُصِبَ للإنسانِ، فهو يَقصِدُ مُسرِعًا إليه؛ مِن عَلَمٍ، أو بِناءٍ، أو صَنَمٍ لأهلِ الأصنامِ. وقد كثُر استِعمالُ هذا الاسمِ في الأصنامِ حتَّى قيل لها: الأنصابُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧١). =

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ٤٤﴾.

﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾.

أي: تكونُ أبصارُهم يومَ القيامةِ خاضِعةً ساكِنةً، وتَغْشاهم ذِلَّةٌ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثۡلِهَا وَتَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرۡفٍ خَفِيّٖ﴾ [الشورى: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ * أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ [النازعات: ٨، ٩].

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

أي: ذلك اليَومُ الموصوفُ بتلك الشَّدائِدِ هو يومُ القيامةِ الَّذي كان الكُفَّارُ يُوعَدونَ به في الدُّنيا على ألسِنةِ الرُّسُلِ عليهم السَّلامُ، وكانوا به يُكذِّبونَ[2]!

---

= وقال ابن كثير: (أي: كأنَّهم في إسْراعِهم إلى الموقفِ كما كانوا في الدُّنيا يُهَرْوِلونَ إلى النُّصُبِ إذا عايَنوه ﴿يُوفِضُونَ﴾: يَبْتَدِرونَ، أيُّهم يَسْتَلِمُه أوَّلَ. وهذا مرويٌّ عن مُجاهدٍ، ويحيى بنِ أبي كثيرٍ، ومُسلمٍ البَطينِ، وقَتادةَ، والضَّحَّاكِ، والرَّبيعِ بنِ أنسٍ، وأبي صالحٍ، وعاصمِ بنِ بَهْدلةَ، وابنِ زَيدٍ، وغيرِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال السعدي: (ذلك أنَّ الذِّلَّةَ والقَلَقَ قد مَلَك قُلوبَهم، واستَولى على أفئِدتِهم؛ فخشَعَت منهم الأبصارُ، وسكَنَت منهم الحَرَكاتُ، وانقطَعَت الأصواتُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٤).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يُوعَدُونَ فيه في الدُّنيا العَذابَ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال تعالى: ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾، وهذا تهديدٌ شديدٌ يتضمَّنُ: اتْرُكْ هؤلاءِ الَّذين قامَت عليهم حُجَّتي فلم يَقْبَلوها، ولم يَخافوا بَأْسي، ولا صَدَّقوا رسالاتي في خَوضِهم بالباطلِ ولَعِبِهم، فالخَوضُ بالباطلِ ضِدُّ التَّكلُّمِ بالحقِّ، واللَّعِبُ ضِدُّ السَّعْيِ الَّذي يَعودُ نَفْعُه على ساعيه، فالأوَّلُ ضِدُّ العِلمِ النَّافعِ، والثَّاني ضدُّ العملِ الصَّالحِ؛ فلا تَكَلَّمَ بالحقِّ، ولا عَمِل بالصَّوابِ! وهذا شأنُ كلِّ مَن أعرَض عمَّا جاء به الرَّسولُ، لا بُدَّ له مِن هذَينِ الأمْرَينِ[1].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِىٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴾ إذا تأمَّلْتَ ارتباطَ إحدى الجُملتَينِ بالأُخرى وجدْتَ تحتَها كَنزًا عظيمًا مِن كنوزِ المعرفةِ والعلمِ؛ فأشار سُبحانَه بمَبدَأِ خلْقِه ممَّا يَعلَمونَ مِن النُّطفةِ وما بعدَها إلى موضِعِ الحُجَّةِ والآيةِ الدَّالَّةِ على وُجودِه ووحدانيَّتِه وكَمالِه، وتَفَرُّدِه بالرُّبوبيَّةِ والإلهيَّةِ، وأنَّه لا يَحْسُنُ به مع ذلك أنْ يَترُكَهم سُدًى، لا يُرسِلُ إليهم رَسولًا، ولا يُنزِلُ عليهم كِتابًا، وأنَّه لا يَعْجِزُ مع ذلك أنْ يَخْلُقَهم -بعدَ ما أماتَهم- خَلْقًا جديدًا، ويَبعَثَهم إلى دارٍ يُوَفِّيهم فيها أعمالَهم مِن الخَيرِ والشَّرِّ، فكيف يَطْمَعونَ في دُخولِ الجنَّةِ وهم يَكْذِبونَ ويُكَذِّبون رُسُلِي، ويَعْدِلُون بي خَلْقي وهم يَعلمونَ مِن أيِّ شَيءٍ خَلَقْتُهم؟! ويُشْبِهُ هذا قولَه تعالى: ﴿ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴾ [الواقعة: ٥٧]، وهم كانوا مُصَدِّقينَ بأنَّه خالِقُهم، ولكنِ

---

= (٤/ ٤٣٩).

وقال ابنُ جريرٍ: (يُوعَدونَ في الدُّنيا أنَّهم لاقُوه في الآخِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٧).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٠٠).

احتجَّ عليهم بخَلْقِه لهم على تَوحيدِه ومعرفتِه وصِدْقِ رُسُلِه، والإيمانِ بالمَعادِ، وهو سُبحانَه يُذَكِّرُ عبادَه بنِعَمِه عليهم، ويَدعوهم بها إلى مَعرفتِه ومحبَّتِه، وتصديقِ رُسُلِه، والإيمانِ بلِقائِه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ جاء المشرقُ والمغربُ في القرآنِ: تارةً مجموعَينِ، وتارةً مُثَنَّيَينِ، وتارةً مُفرَدينِ، ووجْهُ ذلك: اختِصاصُ كلِّ محَلٍّ بما يَقتضيه مِن ذلك؛ فالأوَّلُ: كقولِه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾، والثَّاني: كقولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧، ١٨]، والثَّالثُ: كقولِه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]، فتأمَّلْ هذه الحكمةَ البالغةَ في تغايُرِ هذه المواضعِ في الإفرادِ والجمعِ والتَّثنيةِ بحسَبِ مواردِها يُطْلِعْك على عظَمةِ القرآنِ الكريمِ وجلالتِه؛ وأنه تنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ، فحيثُ جُمِعَتْ كان المرادُ بها مَشارِقَ الشَّمسِ ومَغارِبَها في أيَّامِ السَّنَةِ -وهي متعدِّدةٌ-، وحيثُ أُفْرِدَتْ كان المرادُ أُفُقَي المشرقِ والمغربِ، وحيثُ ثُنِّيَا كان المرادُ مَشرِقَيْ صُعودِها وهُبوطِها ومَغرِبَيْهِما؛ فإنَّها تَبْتَدِئُ صاعدةً حتَّى تنتهيَ إلى غايةِ أَوْجِها وارتفاعِها؛ فهذا مَشْرِقُ صُعودِها، ويَنْشَأُ منه فصْلَا الخريفِ والشِّتاءِ؛ فجَعَلَ مَشْرِقَ صُعودِها بجملتِه مَشرِقًا واحدًا؛ ومَشرِقَ هُبوطِها بجملتِه مَشرِقًا واحدًا، ويُقابِلُها مَغْرِباها، فهذا وجهُ اختلافِ هذه في الإفرادِ والتَّثنيةِ والجمعِ(٢). وذلك على قولٍ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾ مُناسَبةٌ في ذِكْرِ مجيئِهما مجموعَينِ: أنَّه لَمَّا كان هذا القَسَمُ في سياقِ سَعَةِ رُبوبيَّتِه، وإحاطةِ قدرتِه،

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٦).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١١).

والمُقْسَمُ عليه إذهابُ هؤلاءِ والإتيانُ بخيرٍ منهم؛ ذَكَر المَشارِقَ والمغاربَ لِتَضمُّنِهما انتِقالَ الشَّمسِ -الَّتي هي أحدُ آياتِه العظيمةِ الكبيرةِ- ونَقْلَه سُبحانَه لها وتصريفَها كلَّ يومٍ في مشرقٍ ومغربٍ -وذلك على قولٍ-؛ فمَن فَعَلَ هذا كيف يُعجِزُه أنْ يُبَدِّلَ هؤلاء، ويَنقُلَ إلى أمكنتِهم خيرًا منهم؟! وأيضًا فإنَّ تأثيرَ مَشارِقِ الشَّمسِ ومَغاربِها في اختلافِ أحوالِ النَّباتِ والحيوانِ أمْرٌ مشهودٌ؛ وقد جَعَل اللهُ تعالى ذلك بحِكمتِه سببًا لِتَبَدُّلِ أجسامِ النَّباتِ وأحوالِ الحيواناتِ، وانتقالِها مِن حالٍ إلى غيرِه، ويُبَدِّلُ الحَرَّ بالبردِ والبردَ بالحَرِّ، والصَّيفَ بالشِّتاءِ والشِّتاءَ بالصَّيفِ؛ إلى سائرِ تَبَدُّلِ أحوالِ الحيوانِ والنَّباتِ والرِّياحِ والأمطارِ والثُّلوجِ وغيرِ ذلك مِن التَّبدُّلاتِ والتَّغيُّراتِ الواقعةِ في العالَمِ بسببِ اختلافِ مَشارِقِ الشَّمسِ ومَغاربِها، كلُّ ذلك تقديرُ العزيزِ العليمِ؛ فكيف لا يَقدِرُ -مع ما يَشْهَدونَه مِن ذلك- على أنْ يُبَدِّلَ خيرًا منهم؟! وأَكَّدَ هذا المعنى بقولِه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾، فلا يليقُ بهذا الموضعِ سِوى لفظةِ الجَمعِ[1].

٤- قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾، إنَّ تَعدُّدَ مَطالعِ الشَّمسِ ومَغاربِها في فُصولِ السَّنةِ مَظهَرٌ عَجيبٌ مِن مَظاهرِ القُدرةِ الإلهيَّةِ والحِكمةِ الرَّبَّانيَّةِ؛ لدَلالتِه على عَظيمِ صُنعِ اللهِ مِن حيث إنَّه دالٌّ على الحرَكاتِ الحافَّةِ بالشَّمسِ الَّتي هي مِن عَظيمِ المَخلوقاتِ؛ ولذلك لم يُذكَرْ في القرآنِ قَسَمٌ بجِهةٍ غيرِ المشرِقِ والمغربِ، دونَ الشَّمالِ والجنوبِ، مع أنَّ الشَّمالَ والجنوبَ جِهتانِ مَشهورتانِ عندَ العرَبِ[2]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ سُؤالٌ: أنَّ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٩).

في الآيةِ الكريمةِ أنَّهم كأنَّهم يَعرِفونَ طريقَهم بلا علاماتٍ يَذهَبونَ إليها. فما الجَمعُ مع قَولِه تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]؟

**الجوابُ**: أنَّ يومَ القيامةِ خمسونَ ألْفَ سَنةٍ، وأنَّ الأحوالَ تتغيَّرُ؛ فهم كأنَّهم جرادٌ مُنتَشِرٌ، ثُمَّ بعدَ ذلك يَهتَدونَ إلى الطَّريقِ ويَسعَونَ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ في خِتامِ السُّورةِ الكريمةِ بهذا الوَصفِ والوعيدِ الشَّديدِ: تأييدٌ للقَولِ بأنَّ سُؤالَهم في أوَّلِها ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ إنَّما هو استِخفافٌ واستِبعادٌ، فبيَّن لهم تعالى بعدَ عَرضِ السُّورةِ نهايةَ ما يُستَقبَلونَ به؛ لِيَأخُذوا حِذْرَهم، ويَرجِعوا إلى رَبِّهم؛ فارتبَطَ آخِرُ السُّورةِ بأوَّلِها(٢)!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ * عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ فُزِّعَ استِفهامٌ إنكاريٌّ وتَعجيبيٌّ مِن تَجمُّعِ المشرِكين إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُستهزِئينَ بما يَسمَعون مِن وَعْدِ المؤمِنينَ بالجنَّةِ، ووَعيدِ المشركينَ بعَذابِ جهنَّمَ؛ فُزِّعَ ذلك على ما أفادَه في قولِه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٥]، والمعْنى: أنَّ الَّذين كَفَروا لا مَطمَعَ لهم في دُخولِ الجنَّةِ، فماذا يُحاوِلون بتَجمُّعِهم حولَك بمَلامحِ استِهزائِهم(٣)؟!

- وتَقديمُ الظَّرفِ ﴿قِبَلَكَ﴾ على ﴿مُهْطِعِينَ﴾ للاهتِمامِ به؛ لأنَّ التَّعجيبَ مِن حالِهم في حَضْرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أقْوى؛ لِما فيهم مِن الوَقاحةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٧٦).

- والمَقصودُ مِن ذِكرِ اليمينِ الإحاطةُ بالجِهاتِ، فاكتُفِيَ بذِكرِ اليمينِ والشِّمالِ؛ لأنَّهما الجِهتانِ اللَّتانِ يَغلِبُ حُلولُهما[١].

- قولُه: ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ شُبِّهَ حالُهم في إسراعِهم إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ مَن يُظَنُّ بهم الاجتِماعُ لطَلَبِ الهُدى والتَّحصيلِ على المَغفرةِ؛ ليَدخُلوا الجنَّةَ؛ لأنَّ الشَّأنَ ألَّا يَلتَفَّ حوْلَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَّا طالِبو الاهتداءِ بهَدْيِه، والاستِفهامُ على هذا مُستعمَلٌ في أصلِ معْناهُ. ويجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ استِفهامًا مُستعمَلًا في التَّعجيبِ مِن حالِ إسراعِهم ثمَّ تَكذيبِهم واستهزائِهم[٢].

- وجُملةُ ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بدَلُ اشتمالٍ عن جُملةِ ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ الآيةَ؛ لأنَّ الْتِفافَهم حوْلَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ شأْنُه أنْ يكونَ لطلَبِ الهُدى والنَّجاةِ؛ فشُبِّه حالُهم بحالِ طالِبي النَّجاةِ والهُدى، فأُورِدَ استِفهامٌ عليه[٣].

- قولُه: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ قال المشرِكون مُستهزِئينَ: نحن نَدخُلُ الجنَّةَ قبْلَ المسلِمينَ، فجاز أنْ يكونَ الاستفهامُ إنكارًا لتَظاهُرِهم بالطَّمَعِ في الجنَّةِ بحمْلِ استهزائِهم على خِلافِ مُرادِهم، على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ[٤]، أو بالتَّعبيرِ بفِعلِ (يَطمَعُ) عن التَّظاهُرِ بالطَّمَعِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٧، ١٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٨).

- وأُسنِدَ الطمعُ إلى ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٕ﴾ منهم دونَ أنْ يُقالَ: (أيطْمَعون أنْ يَدخُلوا الجنَّةَ؟!) تَصويرًا لحالِهم بأنَّها حالُ جَماعةٍ يُريدُ كلُّ واحدٍ منهم أنْ يَدخُلَ الجنَّةَ، لتَساويهم يَرَون أنفُسَهم سَواءً في ذلك، ففي قولِه: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ﴾ تَقويةُ التَّهكُّمِ بهم[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ بُنِيَ على التَّهكُّم في قولِه: ﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ ما يُبطِلُ ما فُرِضَ لحالِهم بما بُنِيَ عليه بكَلمةِ الرَّدْعِ، وهي ﴿كَلَّآ﴾، أي: لا يكونُ ذلك، وذلك انتقالٌ مِن التَّهكُّم بهم إلى تَوبيخِهم؛ دفْعًا لتَوهُّمِ مَن يَتوهَّمُ أنَّ الكلامَ السابقَ لم يكُنْ تَهكُّمًا[2].

- قولُه: ﴿كَلَّآ﴾ ردْعٌ لهم عن طَمَعِهم في دُخولِ الجنَّةِ، ثم عَلَّلَ ذلك بقولِه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ، وهو كلامٌ دالٌّ على إنكارِهم البعثَ، فكأنَّه قال: كلَّا إنَّهم مُنكِرونَ للبَعثِ والجَزاءِ، فمِن أين يَطمَعون في دُخولِ الجنَّةِ[3]؟!

- قولُه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ استِئنافًا ابتدائيًّا للانتقالِ مِن إثباتِ الجَزاءِ إلى الاحتجاجِ على إمكانِ البعثِ؛ إبطالًا لشُبْهتِهم الباعثةِ على إنكارِه، وهو الإنكارُ الذي ذُكِرَ إجمالًا بقولِه المتقدِّمِ آنِفًا: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾ [المعارج: ٦، ٧]، فاحتجَّ عليهم بالنَّشأةِ الأُولى، فالخبَرُ بقولِه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ مُستعمَلٌ في لازِمِ معْناهُ، وهو إثباتُ إعادةِ خلْقِهم بعْدَ فَنائِهم، فهذا مِن تَمامِ الخِطابِ المُوجَّهِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢١٨).

وسلَّمَ، والمقصودُ منه أنْ يُبلَّغَ إلى أسماعِ المشركينَ[١].

- ويجوزُ أنْ يُرادَ: إنَّا خلَقْناهم ممَّا يَعلَمون، أي: مِن النُّطفةِ المَذِرةِ، وهي مَنصبُهم الذي لا مَنصِبَ أوضَعُ منه؛ ولذلك أُبهِمَ وأُخفِيَ؛ إشعارًا بأنَّه مَنصِبٌ يُسْتحيا مِن ذِكرِه، فمِن أينَ يَتشرَّفون ويدَّعون التَّقدُّمَ، ويَقولونَ: لنَدخُلَنَّ الجنَّةَ قبْلَهم[٢]؟!

- وفيه مَناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ عُدِلَ هنا عن أنْ يُقالَ: (إنَّا خلَقْناهم مِن نُطفةٍ)، كما قال في آياتٍ أُخرى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٧، ٧٨]، وغيرِها مِن آياتٍ كثيرةٍ؛ عُدِلَ عن ذلك إلى الموصولِ في قولِه: ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ تَوجيهًا للتَّهكُّمِ بهم؛ إذ جادَلوا وعانَدوا، وعِلْمُ ما جادَلوا فيه قائمٌ بأنفُسِهم وهم لا يَشعُرون! ومنه قولُه تعالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]. وكان في قولِه تعالَى: ﴿مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ إيماءٌ إلى أنَّهم يُخلَقونَ الخلْقَ الثَّانيَ ممَّا لا يَعلَمونَ، كما قال في الآيةِ الأُخرى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، وقال: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦١]، فكان في الخلْقِ الأوَّلِ سِرٌّ لا يَعلَمونَه[٣].

- ومَجيءُ ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ مُؤكَّدًا بحرْفِ التَّأكيدِ؛ لتَنزيلِهم فيما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٩).

صَدَر منهم مِن الشُّبهةِ الباطلةِ مَنزلةَ مَن لا يَعلَمون أنَّهم خُلِقوا مِن نُطفةٍ وكانوا مَعدومين؛ فكيف أحالوا إعادةَ خلْقِهم بعْدَ أنْ عُدِمَ بَعضُ أجزائِهم، وبقِيَ بَعضُها[1]؟!

- وأُتبِعَ الكنايةُ عن إمكانِ إعادةِ الخلْقِ بالتَّصريحِ بذلك بقولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ مُفرَّعًا على قولِه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾، والتَّقديرُ: فإنَّا لَقادِرون... الآيةَ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾

- قولُه: (لَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ) مُعترِضٌ بيْنَ الفاءِ وما عطَفَتْه، والقسَمُ باللهِ بعُنوانِ رُبوبيَّتِه المَشارقَ والمغاربَ معْناه: رُبوبيَّتُه العالَمَ كلَّه؛ لأنَّ العالَمَ مُنحصِرٌ في جِهاتِ شُروقِ الشَّمسِ وغُروبِها[3].

- وفي إيثارِ المشارقِ والمغاربِ بالقسَمِ بربِّها رَعْيٌ لمُناسَبةِ طُلوعِ الشَّمسِ بعْدَ غُروبِها؛ لتَمثيلِ الإحياءِ بعْدَ الموتِ[4].

- وقولُه: ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ﴾ يَحتمِلُ مَعنيينِ؛ أوَّلُهما: أنْ يكونَ المعْنى: على أنْ نُبدِّلَهم خيرًا منهم، أي: نُبدِّلَ ذَواتِهم خلْقًا خيرًا مِن خلْقِهم الَّذي هم عليه اليومَ. والخيريَّةُ في الإتقانِ والسُّرعةِ ونحْوِهما، وإنَّما كان خلْقًا أتقَنَ مِن النَّشأةِ الأُولى؛ لأنَّه خلْقٌ مُناسِبٌ لعالَمِ الخُلودِ، وكان الخلْقُ الأوَّلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مُناسِبًا لعالَمِ التَّغيُّرِ والفَناءِ، وعلى هذا الوجْهِ يكونُ ﴿نُبَدِّلَ﴾ مُضمَّنًا معْنى: نُعوِّضُ، ويكونُ المفعولُ الأوَّلُ لـ﴿نُبَدِّلَ﴾ ضَميرًا مِثلَ ضَميرِ ﴿مِّنْهُمْ﴾، أي: نُبدِّلَهم، والمفعولُ الثَّاني ﴿خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾، و(مِن) تَفضيليَّةً، أي: خيرًا في الخِلْقةِ، والتَّفضيلُ باعتبارِ اختلافِ زَمانَيِ الخلْقِ الأوَّلِ والخلْقِ الثَّاني، أو اختلافِ عالَمَيْهما. والمعْنى الثَّاني: أنْ نُبدِّلَ هؤلاء بخَيرٍ منهم، أي: بأُمَّةٍ خيرٍ منهم، والخيريَّةُ في الإيمانِ، فيكونُ (نُبدِّل) على أصلِ معْناهُ، ويكونُ مفعولُه مَحذوفًا مِثلَ ما في المعْنى الأوَّلِ، ويكونُ ﴿خَيْرًا﴾ مَنصوبًا على نَزْعِ الخافضِ، وهو باءُ البَدليَّةِ، ويكونُ هذا تَهديدًا لهم بأنْ سيَستَأْصِلَهم، ويأتِيَ بقومٍ آخَرينَ، وفي هذا تَثبيتٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتَذكيرٌ بأنَّ اللهَ عالِمٌ بحالِهم[1].

- قولُه: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ تَذييلٌ[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ تَفريعٌ على ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾ [المعارج: ٣٦] مِن إرادتِهم بفِعلِهم ذلك وقولِهم: إنَّنا نَدخُلُ الجنَّةَ، الاستهزاءَ بالقُرآنِ والنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. وبعْدَ إبطالِه إجْمالًا وتَفصيلًا فُرِّعَ عن ذلك أمْرُ اللهِ رسولَه بتَرْكِهم؛ للعِلمِ بأنَّهم لم يُجْدِ فيهم الهدْيُ والاستِدلالُ، وأنَّهم مُصِرُّون على العِنادِ والمُناوأةِ[3].

- ومعْنى الأمْرِ بالتَّركِ في قولِه: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ أنَّه أمْرٌ بتَرْكِ ما أهمَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن عِنادِهم وإصرارِهم على الكُفْرِ معَ وُضوحِ الحُجَجِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨١).

إثباتِ البعثِ، ولَمَّا كان أكبَرُ أسبابِ إعراضِهم وإصرارِهم على كُفْرِهم هو خَوضَهم ولَعِبَهم؛ كُنِّيَ به عن الإعراضِ بقولِه: ﴿يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾[١].

- وتَعديةُ فِعلِ (ذَرْ) إلى ضَميرِهم مِن قَبيلِ تَوجُّهِ الفِعلِ إلى الذَّاتِ، والمرادُ تَوجُّهُه إلى بَعضِ أحوالِها الَّتي لها اختصاصٌ بذلك الفِعلِ، وقد يُتوسَّلُ مِن الأمْرِ بالتَّركِ إلى الكِنايةِ عن التَّحقيرِ، وقِلَّةِ الاكتِراثِ، وما في هذه الآيةِ مِن ذلك الأُسلوبِ، أي: لا تَكترِثْ بهم؛ فإنَّهم دونَ أنْ تَصرِفَ هِمَّتَك في شأْنِهم[٢].

- وجُزِمَ ﴿يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ في جَوابِ الأمْرِ للمُبالَغةِ في ارتباطِ خَوضِهم ولَعِبِهم بقِلَّةِ الاكتراثِ بهم؛ إذْ مُقْتضى جَزْمِه في الجوابِ أنْ يُقدَّرَ: إنْ تَذَرْهم يَخوضوا ويَلْعَبوا، أي: يَستمِرُّوا في خَوضِهم ولَعِبِهم، وذلك لا يَضِيرُك[٣].

- و(حتَّى) مُتعلِّقةٌ بـ(ذَرْهُم) لِما فيه مِن معْنى: أمْهِلْهم وانتظِرْهم؛ فإنَّ اليومَ الَّذي وُعِدوه هو يومُ النُّشورِ حينَ يُجازَون على استهزائِهم وكُفْرِهم، فلا يكونُ غايةً لـ﴿يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾، والغايةُ هنا كِنايةٌ عن دَوامِ تَرْكِهم[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾

- لَفظُ ﴿يُوفِضُونَ﴾ مُضارِعُ (أوفَضَ)؛ إذا أسرَعَ وعَدَا في سَيرِه، أي: كأنَّهم ذاهِبون إلى صَنَمٍ، شُبِّه إسراعُهم يومَ القِيامةِ إلى الحشرِ بإسراعِهم في الدُّنيا إلى الأصنامِ لزِيارتِها؛ لأنَّ لهذا الإسراعِ اختصاصًا بهم، وفي هذا التَّشبيهِ إدماجٌ[٥] لتَفظيعِ حالِهم في عِبادةِ الأصنامِ، وإيماءٌ إلى أنَّ إسراعَهم يومَ القيامةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨١، ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨٣).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

إسراعُ دَعٍّ ودفْعٍ؛ جَزاءً على إسراعِهم للأصنامِ[١].

٦- قولُه تعالَى: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾

- قولُه: ﴿خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ وُصِفَتْ أبصارُهم بالخُشوعِ معَ أنَّه وَصْفُ الكلِّ؛ لغايةِ ظُهورِ آثارِه فيها[٢].

- وجُملةُ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ فَذْلَكةٌ[٣] لِما تَضمَّنتْه السُّورةُ في أوَّلِ أغراضِها مِن قولِه: ﴿بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ [المعارج: ١] إلى قولِه: ﴿فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾ الآياتِ [المعارج: ١- ٤]، وهي مُفيدةٌ معَ ذلك تأْكيدَ جُملةِ ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢]. وفيها مُحسِّنُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٤).

رَدُّ العَجُز على الصَّدرِ تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٠١).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ نوحٍ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ نوحٍ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (نوحٍ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ (نوح) مكِّيَّةٌ، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

ضَرْبُ المَثَلِ للمشركينَ بقَومِ نُوحٍ، وهمْ أوَّلُ المشركينَ[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ المَوضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- ذِكرُ دَعوةِ نوحٍ عليه السَّلامُ قومَه وما قالَه لهم.

٢- ذِكرُ الطُّرقِ الَّتي سَلَكَها نوحٌ عليه السَّلامُ مع قَومِه في دَعوتِهم؛ كالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ، وتَذكيرِهم بخَلْقِهم، ودَعوتِهم إلى التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ في نِعَمِ اللهِ عليهم، والاستِدلالِ ببَدائعِ صُنْعِ اللهِ تَعالى، والتَّذكيرِ بيَومِ البعْثِ.

---

(١) سُمِّيت السُّورةُ بذلك؛ لذِكرِ نُوحٍ عليه السَّلامُ في مُفتتَحِها ومُختتَمِها، وذِكرِ قصَّتِه مع قَومِه، ودَعْوتِه لهم. ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٢).

قال السعديُّ: (لم يَذكُرِ اللهُ في هذه السُّورةِ سِوى قصَّةِ نوحٍ وحْدَها؛ لطُولِ لُبْثِه في قَومِه، وتَكرارِ دَعوتِه إلى التَّوحيدِ، ونَهْيِه عن الشِّركِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٥).

٣- بَيانُ مَوقفِ قومِ نوحٍ عليه السَّلامُ مِن دَعوتِه، وتَصميمِهم على عِصيانِه، وتَمسُّكِهم بشِرْكِهم، وعِقابِهم في الدُّنيا والآخِرةِ.

٤- دُعاءُ نُوحٍ عليه السَّلامُ على قَومِه بالاستِئصالِ.

٥- دُعاءُ نُوحٍ عليه السَّلامُ بالمغفرةِ له ولِوالِدَيه وللمؤمِنينَ، وبالتَّبَارِ للكافِرين.

## الآيات (١-٤)

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ٢ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ٣ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نَذِيرٞ﴾: أي: مُنذِرٌ مُخَوِّفٌ، وأصلُ (نذر): يدُلُّ على تخويفٍ[1].

﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾: أي: مُعَيَّنٍ، مَعلومٍ سَمَّاهُ اللهُ للأعمارِ، والأجَلُ: غايةُ الوَقتِ، والمدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ في الموتِ وغَيرِه[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مخبرًا عن نبيِّه نوحٍ عليه السَّلامُ: إنَّا أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ بأنْ حذِّرْ قَومَك مِنَ الاستِمرارِ على شِرْكِهم، مِن قبْلِ أن يأتيَهم عذابٌ أليمٌ.

ثمَّ يَحكي سُبحانَه بعْدَ ذلك ما قاله نوحٌ عليه السَّلامُ لقَومِه، فيقولُ: قال نوحٌ مُبَلِّغًا رِسالةَ رَبِّه: يا قَومِ، إنِّي نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، آمُرُكم بعِبادةِ اللهِ وَحْدَه، وعَدَمِ الإشراكِ به شَيئًا، وآمُرُكم أن تتَّقُوه وتُطيعوني؛ فإنَّكم إنْ فعَلْتُم ذلك يَغفِرْ لكم مِن ذُنوبِكم، ولا يُعاجِلْكم بعذابِ الاستِئصالِ، وإنَّما يُعافيكم إلى منتَهَى آجالِكم المُقَدَّرةِ، إنْ آمَنْتُم وأطَعْتُم، إنَّ أجَلَ اللهِ الَّذي حَدَّده لِمَوتِ كُلِّ أحدٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ٨٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠، ١٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٣، ٤٠٦، ٤١٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩ - ٥٠، ٨٨٢).

خَلْقِه: لا يُؤخَّرُ عن وَقتِه، لو كنتُم تَعلَمونَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١﴾.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾.

أي: إنَّا أرسَلْنا نوحًا إلى قَومِه المُشرِكينَ بأنْ حذِّرْ قَومَك مِنَ الاستِمرارِ على شِرْكِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ٥٩].

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

أي: مِن قبْلِ أن يأتيَهم عذابٌ مُؤلِمٌ في غايةِ الإيلامِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٤٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((الفواتح الإلهية)) لعلوان (٢/ ٤٤٦).

قال ابن عرفة: (﴿يَأۡتِيَهُمۡ﴾ ولم يقُلْ: يَنزِلَ بهم؛ إمَّا إشارةٌ إلى أنَّه يَقصِدُهم ويَنزِلُ بسَبَبِهم، أو أنَّه يأتيهم مِن كُلِّ الجهاتِ). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٩٣).

قال الماوَرْدي: (﴿عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: يعني: عذابَ النَّارِ في الآخرةِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: عذابُ الدُّنيا، وهو ما يَنزِلُ عليهم بعْدَ ذلك مِن الطُّوفانِ، قاله الكلبيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٩٨).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالعَذابِ هنا: الطُّوفانُ الَّذي غرَّقَهم اللهُ تعالى به: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، وابن عطية، والخازن، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ اللهُ تعالى عن رسالةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ ومَضمونِها، بما أعلَمَ مِن أنَّ الفَسادَ كان غالِبًا عليهم؛ بيَّنَ امتِثالَه[1].

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢﴾.

أي: قال نوحٌ مُمتَثِلًا ما أمَرَه اللهُ تعالى به: يا قَومِ، إنِّي نَذيرٌ لكم ظاهِرُ النِّذارةِ، أُخَوِّفُكم عذابَ اللهِ إن عبَدْتُم غيرَه، وأُبَيِّنُ لكم ما أرسَلَني اللهُ به[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥، ٢٦].

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان تَركُ ما أنذَرَهم بسَبَبِه مِنَ الكُفرِ لا يُغْنِيهم إلَّا إن آمَنوا، وكان الإيمانُ

---

= وممَّن اختار أنَّه عذابُ النَّارِ: الشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٥).

وقال العُلَيمي: (عذابُ الآخرةِ والطُّوفانُ إن لم يؤمِنوا). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٦٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

مُخلِّصًا مِن عواقِبِ الإنذارِ؛ لأنَّه لا يَصِحُّ إلَّا معَ تركِ جَميعِ أنواعِ الكُفرِ؛ فَسَّرَ الإنذارَ بقَولِه(١):

﴿ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: آمُرُكم بعبادةِ اللهِ وَحْدَه، وعَدَمِ الإشراكِ به شَيئًا(٢).

كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾.

أي: وآمُرُكم بأن تَجعَلوا بيْنَكم وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعِقابِه حاجِزًا يَقيكم ذلك؛ بامتِثالِ ما أمَرَ به، واجتِنابِ ما نهَى عنه، وآمُرُكم بطاعتي(٣).

كما قال تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ * فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [الشعراء: ١٠٦ - ١٠٨].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤].

﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤ ﴾.

﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾.

أي: فإنَّكم إنْ عَبَدْتُم اللهَ وَحْدَه واتَّقَيْتُموه وأطَعْتُموني، يَمْحُ مِن ذُنوبِكم فلا

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٥).

يُؤاخِذْكم بها[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٢٢).

اختلَف المفَسِّرون في معنى ﴿مِن﴾؛ فقيل: هي صِلةٌ للتَّأكيدِ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والواحديُّ. وضَعَّفَ هذا القولَ: مكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ كثيرٍ؛ لأنَّ زيادتَها في غيرِ النَّفيِ قليلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٤٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٥)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٧٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

وقيل: هي بمعنى: عن. وهو ظاهرُ اختيارِ الفرَّاءِ، وذهب إليه: ابنُ جريرٍ، ومكِّيٌّ. والمعنى: يَصفَحْ لكم عن ذُنوبِكم. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٨٩)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٧٢٩).

قال ابن عطيَّة: (وهذا غيرُ معروفٍ في أحكامِ «مِن»). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢).

وقيل: هي لبيانِ الجنسِ، واختاره القُشَيْريُّ، وردَّه الزَّجَّاجُ، وضعَّفه مكيُّ بنُ أبي طالبٍ، والقُرطبيُّ؛ لكَونِه لم يَتقدَّمْ جِنسٌ يليقُ به بحيث تُبَيِّنُه «مِن» بما بَعْدَه. يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٣٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٨)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٧٧٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّها للتَّبعيضِ: ابنُ عطيَّة، وصحَّحه ابنُ جُزَي، واختاره أبو حيَّانَ، والشَّوكانيُّ، والمعنى: يَغفِرْ لكم ذُنوبَكم الماضيةَ قبْلَ الإسلامِ؛ فهي بعضُ ذُنوبِهم، ولم يَضمَنِ اللهُ لهم مغفرةَ ذُنوبِهم المتأخِّرةِ بعْدَ إسلامِهم؛ فهي تحتَ مشيئةِ اللهِ تعالى. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٦).

وقيل: المرادُ بالبعضِ: ما لا يتعلَّقُ بحُقوقِ العبادِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٦).

وقيل: المعنى على ذلك القولِ: يَغفِرْ لكم الذُّنوبَ العِظامَ الَّتي وَعَدكم على ارتِكابِكم إيَّاها الانتِقامَ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

قال ابن كثير: (و«مِن» هاهنا قيل: إنَّها زائدةٌ. ولكنَّ القولَ بزيادتِها في الإثباتِ قليلٌ. ومنه قولُ بعضِ العربِ: «قد كان مِن مَطَرٍ». وقيل: إنَّها بمعنَى «عن» تقديرُه: يَصْفَحْ لكم عن ذُنوبِكم، واختارَه ابنُ جريرٍ. وقيل: إنَّها للتَّبعيضِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

أي: ولا يُعاجِلْكم اللهُ تعالى بعذابِ الاستِئصالِ الَّذي تَستَحِقُّونَه؛ بسَبَبِ شِرْكِكم، وإنَّما يُعافيكم إلى منتَهَى آجالِكم المُقدَّرةِ، إن آمَنْتُم وأطَعْتُم(١).

كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [إبراهيم: ١٠].

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: إنَّ الأجَلَ الَّذي كتَبَه اللهُ لِمَوتِ كُلِّ أحدٍ مِن خَلْقِه: لا يُؤخَّرُ عن وَقتِه، فلو كنتُم تَعلَمونَ ذلك لَتُبْتُم إلى اللهِ سُبحانَه مِمَّا أنتم عليه مِنَ الشِّركِ به(٢).

كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٢).

وقال البِقاعي: (﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: قدْ سمَّاه اللهُ وعَلِمه قبْلَ إيجادِكم، فلا يُزادُ فيه ولا يُنقَصُ منه، فيكونُ مَوتُكم على العادةِ مُتفرِّقًا، وإلَّا أخَذَكم جَميعًا بعَذابِ الاستئصالِ. فهذا مِن عِلمِ ما لا يكونُ لو كان كيف يكونُ؛ وذلك أنَّه عَلِم أنَّهم إنْ أطاعوا نُوحًا عليه السَّلامُ كان مَوتُهم على العادةِ، وإلَّا هَلَكوا هَلاكَ نفْسٍ واحدةٍ، وعَلِم أنَّهم لا يُطِيعونه، وأنَّ مَوتَهم إنَّما يكونُ بعَذابِ الاستئصالِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٢٨، ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

قال الواحدي: (﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ يقولُ: آمِنوا قبْلَ الموتِ تَسْلَموا مِن العُقوباتِ؛ فإنَّ أجَلَ الموتِ إذا حَلَّ لم يُؤخَّرْ، فلا يُمكِنُكم الإيمانُ إذا جاء الأجَلُ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٥٦).

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وعدٌ بخَيرٍ دُنْيويٍّ يَستوي النَّاسُ في رغبتِه، وهو طولُ البَقاءِ؛ فإنَّه مِنَ النِّعَمِ العظيمةِ؛ لأنَّ في جِبِلَّةِ الإنسانِ حُبَّ البقاءِ في الحياةِ، على ما في الحياةِ مِن عوارِضَ ومُكَدِّراتٍ، وهذا ناموسٌ جعَلَه اللهُ تعالى في جبِلَّةِ الإنسانِ؛ لتَجريَ أعمالُ النَّاسِ على ما يُعِينُ على حِفظِ النَّوعِ(١).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟

**الجوابُ**: الغَرَضُ: الزَّجرُ عن حُبِّ الدُّنيا، وعن التَّهالُكِ عليها، والإعراضِ عن الدِّين بسبَبِ حُبِّها، يعني: أنَّ غُلُوَّهم في حُبِّ الدُّنيا، وطَلَبِ لذَّاتِها بَلَغ إلى حيثُ يدُلُّ على أنَّهم شاكُّونَ في المَوتِ(٢)!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾ رِسالةُ نُوحٍ عليه السَّلامُ مَقصورةٌ على قَومِه، ومَن قال بعُمومِها فهي للإنسِ فقطْ، وأمَّا الرِّسالةُ العامَّةُ فخاصَّةٌ بنبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والفرْقُ بيْنَهما أيضًا: أنَّ رِسالةَ نُوحٍ عليه السَّلامُ أتَتْ لجَميعِ أهْلِ زَمانِه دونَ مَن بَعْدَهم، ونبيُّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا تَزالُ شَريعتُه ورِسالتُه إلى يومِ قِيامِ السَّاعةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٩٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ﴾ ذِكْرُ نوعِ الإرسالِ الدِّينيِّ، ويُقابِلُه الإرسالُ الكَونيُّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾[1] [مريم: ٨٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ أنَّ أعمالَ المُشرِكينَ كانت ذُنوبًا قَبْلَ إنذارِ الرُّسُلِ إيَّاهم[2].

٤- إن قيل: كيف قال تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾، فإن كان المرادُ به تأخيرَهم عن الأجَلِ المُقدَّرِ لهم في الأزَلِ فهو مُحالٌ؛ لقولِه تعالى: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ [المنافقون: ١١]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، وإن كان المرادُ به تأخيرَهم إلى مجيءِ الأجَلِ المُقدَّرِ لهم في الأزَلِ فما فائدةُ تخصيصِهم بهذا وهُم وغيرُهم في ذلك سَواءٌ، على تقديرِ وُجودِ الإيمانِ منهم وعدمِ وُجودِه؟

**والجوابُ**: أنَّ معناه: ويُؤَخِّرْكم عن العذابِ إلى مُنتهى آجالِكم على تقديرِ الإيمانِ، فلا يُعذِّبْكم في الدُّنيا كما عذَّب غيرَكم مِن الأُمَمِ الكافرةِ.

وقيل: إنَّه سُبحانَه قضى أنَّهم إن آمَنوا عمَّرَهم ألْفَ سَنةٍ، وإن لم يؤمِنوا أهلَكهم بالعذابِ لتَمامِ خَمْسِمِئةِ سَنةٍ، فقيل لهم: آمِنوا يؤَخِّرْكم إلى ذلك الأجَلِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١١/ ٦٧٩).

(٣) يُنظر: ((أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل)) لزين الدين الرازي (ص: ٥٤٠). قال الكوراني: (﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ والتَّوفيقُ بينَه وبينَ تأخيرِ الأجلِ: أنَّ القضاءَ مُعلَّقٌ ومُبرَمٌ، فالتَّأخيرُ بالنَّظرِ إلى الأوَّلِ، وعدمُه بالنَّظرِ إلى الثَّاني. أي: لو آمَنوا عاشوا كذا، وإنْ لم يُؤمِنوا فكذا). ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٣٦). =

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ قد يَستَدِلُّ بهذه الآيةِ مَن يَقولُ: إنَّ البِرَّ وصِلةَ الرَّحِمِ: يُزادُ بها في العُمُرِ حقيقةً، كما ورَد به الحديثُ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَريَّةِ فيما يَزعُمونَ: أنَّ المقتولَ ميِّتٌ بغيرِ أَجَلِه! فالأَجَلُ المُؤَجَّلُ مِن الموتِ لا تَقَدُّمَ فيه ولا تأخُّرَ(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ

---

= وقال ابن عاشور: (لا تعارُضَ بيْنَ قَولِه: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وبيْن قَولِه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؛ إمَّا لاختِلافِ المرادِ بلَفظَيِ «الأجَلِ» في قَولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وقَولِه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾، وإمَّا لاختلافِ معنَيَيِ المجيءِ ومَعنَيَيِ التَّأخيرِ في قَولِه: ﴿إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾؛ فانفَكَّت جِهةُ التَّعارُضِ). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣١).

قال القَصَّاب: (معناه: تَزيدُ في الأجَلِ الَّذي أُجِّل بغيرِ صِلهِ الرَّحمِ، كأنَّه قد سبَق في القضاءِ أن يُوهبَ لواصِلي الأرحامِ عُمُرًا يكونُ زيادةً في أعمارِهم). ((النكت الدالة على البيان)) (٤/ ٤٠٩).

وقد أخرج البخاريُّ (٢٠٦٧)، ومسلمٌ (٢٥٥٧) مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه، أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن سرَّه أن يُبسَطَ له في رِزْقِه، أو يُنْسَأَ له في أثَرِه، فلْيَصِلْ رَحِمَه)).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٠٩).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (وقولُه تَعالى: ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ممَّا تَعلَّقَ المعتزلةُ به في قولِهم: إنَّ للإنسانِ أجَلَين؛ وذلك أنَّهم قالوا: لو كان واحدًا مَحدودًا لَما صحَّ التَّأخيرُ إنْ كان الحدُّ قدْ بَلَغ، ولا المُعاجَلةُ إنْ كان الحدُّ لم يَبلُغْ. وليس لهم في الآيةِ تَعلُّقٌ؛ لأنَّ المعنى: أنَّ نُوحًا عليه السَّلامُ لم يَعلَمْ هلْ همْ ممَّن يُؤخَّرُ أو ممَّن يُعاجَلُ؟ ولا قال لهم: إنَّكم تُؤخَّرون عن أجَلٍ قد حانَ لكم، لكنْ قد سَبَق في الأزَلِ أنَّهم إمَّا ممَّن قُضِيَ لهم بالإيمانِ والتَّأخيرِ، وإمَّا ممَّن قُضِيَ عليه بالكفْرِ والمعاجَلةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٣).

أَلِيمٌ﴾

- افتتاحُ الكلامِ بالتَّوكيدِ بـ (إنَّ) للاهتمامِ بالخبَرِ؛ إذ ليس المَقامُ لرَدِّ إنكارِ مُنكِرٍ، ولا دفْعِ شَكٍّ عن مُتردِّدٍ في هذا الكلامِ(١).

- وإضافةُ (قوم) إلى ضَميرِ نُوحٍ عليه السَّلامُ؛ لأنَّه أُرسِلَ إليهم، فلَهم مَزيدُ اختصاصٍ به، ولأنَّه واحدٌ منهم، وهمْ بيْن أبناءٍ له وأنسباءَ، فإضافتُهم إلى ضَميرِه تَعريفٌ لهم؛ إذ لم يكُنْ لهم اسمٌ خاصٌّ مِن أسماءِ الأُمَمِ الواقعةِ مِن بعْدُ(٢).

- وعُدِلَ عن أنْ يُقالَ له: (أنذِرِ النَّاسَ) إلى قولِه: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾؛ إلْهابًا لنفْسِ نُوحٍ؛ ليكونَ شَديدَ الحرْصِ على ما فيه نَجاتُهم مِن العذابِ؛ فإنَّ فيهم أبناءَه وقَرابتَه وأحبَّتَه(٣).

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ ﴿أَنذِرْ﴾؛ لدَلالةِ ما يأْتي بعْدَه مِن قولِه: ﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾(٤) [نوح: ٣].

- وحرْفُ (مِن) صِلةٌ للتَّوكيدِ، أي: قبْلَ أنْ يَأتِيَهم عَذابٌ، فهي قبْليَّةٌ مُؤكَّدةٌ، وتأْكيدُها باعتبارِ تَحقيقِ ما أُضِيفَ إليه (قبْل)(٥).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

- لم تُعطَفْ جُملةُ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ بالفاءِ التَّفريعيَّةِ على جُملةِ ﴿أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قَوۡمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١]؛ لأنَّها في معْنى البَيانِ لجُملةِ ﴿أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾ [نوح: ١]؛ لدَلالتِها على أنَّه أنذَرَ قَومَه بما أمَرَه اللهُ أنْ يَقولَه لهم، وإنَّما أُدمِجَ فيه فِعلُ قَولِ نوحٍ؛ للدَّلالةِ على أنَّه أُمِرَ أنْ يقولَ فقال، تَنْبيهًا على مُبادَرةِ نوحٍ عليه السَّلامُ لإنذارِ قَومِه في حِينِ بُلوغِ الوحْيِ إليه مِن اللهِ بأنْ يُنذِرَ قَومَه. ولك أنْ تَجعَلَها استئنافًا بَيانيًّا لجوابِ سُؤالِ السَّامعِ أنْ يَسألَ: ماذا فَعَلَ نوحٌ حينَ أرسَلَ اللهُ إليه ﴿أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ﴾؟ وهما مُتقارِبانِ[١].

- قولُه: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾ افتتاحُ دَعوتِه قَومَه بالنِّداءِ؛ لطَلَبِ إقبالِ أذْهانِهم. ونِداؤُهم بعُنوانِ أنَّهم قَومُه تَمهيدٌ لقَبولِ نُصْحِه؛ إذ لا يُريدُ الرَّجلُ لقَومِه إلَّا ما يُريدُ لنفْسِه. وتَصديرُ دَعوتِه بحرْفِ التَّوكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّ المخاطَبينَ يَتردَّدونَ في الخبَرِ[٢].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿نَذِيرٞ﴾؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ عليه، والتَّقديرُ: إنِّي لكم نَذيرٌ بعَذابٍ أليمٍ إنْ لم تَعبُدوا اللهَ ولم تتَّقُوه ولم تُطِيعوني[٣].

- وتَقديمُ ﴿لَكُمۡ﴾ على عامِلِه -وهو ﴿نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾-؛ للاهتِمامِ بتَقديمِ ما دلَّت عليه اللَّامُ مِن كَونِ النِّذارةِ لفائدتِهم لا لِفائدتِه[٤].

- وقدْ جمَعَ في صَدْرِ دَعوتِه خَمسةَ مُؤكِّداتٍ؛ وهي: النِّداءُ، وجَعْلُ المُنادى لَفظَ (يا قومِ) المُضافَ إلى ضَميرِه، وافتتاحُ كَلامِه بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٧، ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

واجتلابُ لامِ التَّعليلِ، وتَقديمُ مَجرورِها[١].

- وأمَرَهم بعِبادةِ اللهِ؛ لأنَّهم أعْرَضوا عنها ونَسُوها بالتَّمحُّضِ لأصنامِهم، وكان قومُ نوحٍ مُشرِكين، كما دلَّ عليه قولُه تَعالى: ﴿فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ﴾ [يونس: ٧١]، وبذلك كان تَمثيلُ حالِ المشركين مِن العرَبِ بحالِ قومِ نُوحٍ تَمثيلًا تامًّا[٢].

- قولُه: ﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾ قيل: حرْفُ (مِنْ) صِلةٌ للتَّوكيدِ، وهذا مِن زيادةِ (مِن) في الإيجابِ، فيُفيدُ أنَّ الإيمانَ يَجُبُّ ما قبْلَه في شَريعةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ مِثلَ شَريعةِ الإسلامِ. ويجوزُ أنْ تكونَ (مِنْ) للتَّبعيضِ، أي: يَغفِرْ لكم بعضَ ذُنوبِكم، أي: ذُنوبَ الإشراكِ وما معه، فيَكون الإيمانُ في شرْعِ نُوحٍ عليه السَّلامُ لا يَقْتضي مَغفرةَ جَميعِ الذُّنوبِ السَّابقةِ، وليس يَلزَمُ تَماثُلُ الشَّرائعِ في جَميعِ الأحكامِ الفرعيَّةِ، ومَغفرةُ الذُّنوبِ مِن تَفاريعِ الدِّينِ وليست مِن أُصولِه، أو معْنى التَّبعيضِ: مَغفرةُ الذُّنوبِ السَّابقةِ دونَ ما يُذنِبون مِن بعْدُ. وهذا يَتِمُّ ويَحسُنُ إذا قدَّرنا أنَّ شَريعةَ نوحٍ عليه السَّلامُ تَشتمِلُ على أوامرَ ومَنهيَّاتٍ عمَليَّةٍ، فيَكونُ ذِكرُ (مِن) التَّبعيضيَّةِ اقتصادًا في الكلامِ بالقدْرِ المُحقَّقِ، أو هي لابتداءِ الغايةِ، كأنَّه يقولُ: يَبتدِئُ الغُفرانُ مِن هذه الذُّنوبِ العِظامِ الَّتي لهم[٣].

- قولُه: ﴿وَيُؤَخِّرۡكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى﴾، الأجلُ المُسمَّى: هو الأجَلُ المُعيَّنُ بتَقديرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٨٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٢).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٣٧).

اللهِ عِندَ خَلْقِه كلَّ أحدٍ منهم؛ فالتَّنوينُ في ﴿أَجَلٍ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: الجنسِ، وهو صادقٌ على آجالٍ مُتعدِّدةٍ بعدَدِ أصحابِها، ومعْنى ﴿مُّسَمًّى﴾ أنَّه مُحدَّدٌ مُعيَّنٌ، وعُبِّرَ عن التَّعيينِ بالتَّسميةِ؛ لشَبَهِ عَدَمِ الاختلاطِ بيْنَ أصحابِ الآجالِ[1].

- قولُه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ يَحتمِلُ أنْ تكونَ الجُملةُ استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن تَحديدِ غايةِ تأْخيرِهم إلى أجَلٍ مُسمًّى، أي: دونَ تأْخيرِهم تأخيرًا مُستمِرًّا، فيَسألُ السَّامعُ في نفْسِه عن عِلَّةِ تَنْهيةِ تأخيرِهم بأجَلٍ آخَرَ، فيكونَ ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ غيرَ الأجَلِ الَّذي في قولِه: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ تَعليلًا لِكِلا الأجَلَينِ: الأجَلِ المُفادِ مِن قولِه تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [نوح: ١]؛ فإنَّ لَفظَ (قبْل) يُؤذِنُ بأنَّ العذابَ مُوقَّتٌ بوقْتٍ غيرِ بَعيدٍ، فله أجَلٌ مُبهَمٌ غيرُ بعيدٍ، والأجَلِ المذكورِ بقولِه: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فيَكونَ ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ صادقًا على الأجَلِ المُسمَّى، وهو أجَلُ كلِّ نفْسٍ مِن القومِ، وقيل غيرُ ذلك[2].

- قوله: ﴿أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أضاف الأجَلَ إليه سُبحانَه؛ لأنَّه الَّذي أثبَتَه، فالإضافةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٠، ١٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٢٣).

قال أبو السعود: (﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ أي: ما قدَّرَ لكُم على تقديرِ بقائِكم على الكُفرِ... ويجوزُ أن يُرادَ بهِ وقْتُ إتْيانِ العذابِ المذكورِ في قولِه تعالَى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾؛ فإنَّه أجَلٌ مُؤقَّتٌ له حَتْمًا، وحمْلُه على الأجَلِ الأطولِ ممَّا لا يُساعدُه المَقامُ، كيفَ لا والجُملةُ تَعليلٌ للأمرِ بالعِبادةِ المُستتبِعةِ للمَغفرةِ والتأْخيرِ إلى الأجَلِ المسمَّى، فلا بُدَّ أنْ يكونَ المَنفيُّ عندَ مَجيءِ الأجَلِ هو التَّأخيرَ الموعودَ، فكيفَ يُتصوَّرُ أنْ يكونَ ما فُرِضَ مَجيئُه هو الأجلُ المسمَّى؟!). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٧).

إضافةُ كشْفٍ، أي: الأجَلُ الَّذي عيَّنه اللهُ وقدَّره لكلِّ أحدٍ. وقد يُضافُ إلى القَومِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ﴾ [النحل: ٦١]؛ لأنَّه مَضروبٌ لهم[١].

- وفي مجيءِ فِعلِ ﴿كُنتُمۡ﴾ قبْلَ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ إيذانٌ بأنَّ عِلمَهم بذلك المنتفيَ -لوُقوعِه شَرْطًا لحرْفِ (لو)- مُحقَّقٌ انتفاؤُه[٢].

- وجَوابُ (لو) مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾، والتَّقديرُ: لَأيقنْتُم أنَّه لا يُؤخَّرُ، أو لآمَنْتُم. وأيضًا حُذِفَ مَفعولُ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾، أي: لو كُنتُم تَعلَمون ذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٢٩٩، ٣٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٠، ١٩١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٣).

## الآيات (٥-١٢)

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ
لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾
ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ
إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ
وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾: أي: تغطَّوْا بها، وجَعَلوها غِشاوةً على أسماعِهم وأبصارِهم، وذلك عبارةٌ عن الامتِناعِ عن الإصغاءِ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[1].

﴿مِّدْرَارًا﴾: أي: مُتتابِعًا غَزيرًا، والدَّرُّ: تحلُّبُ الشَّيءِ حالًا بعدَ حالٍ، وأصلُه مِنَ الدَّرِّ، أي: اللَّبَنِ، ويُستعارُ ذلك للمَطَرِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى شكوى نوحٍ -عليه السَّلامُ- إليه مِن إعراضِ قومِه، فيقولُ: قال نوحٌ: رَبِّ إنِّي دَعَوتُ قَومي لَيلًا ونهارًا إلى توحيدِك، فلم يَزِدْهم دُعائي لهم إلَّا هَرَبًا وإعراضًا! وإنِّي كُلَّما دَعوتُهم إلى الإيمانِ بك لكي تَغفِرَ لهم ذُنوبَهم،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٢٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٨٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٥).

جَعَلوا أصابِعَهم في آذانِهم؛ كي لا يَسمَعوا كَلامي، وتغَطَّوا بثِيابِهم؛ لئَلَّا يَرَوني، واستَمَرُّوا على شِرْكِهم ولم يَتوبوا، وتكبَّروا عن قَبولِ الحقِّ.

ثمَّ يذكرُ اللهُ تعالى ما أخبَر به نوحٌ عليه السَّلامُ عن طُرقِه في دعوةِ قَومِه، وتوجيهاتِه ونصائحِه لهم، فيقولُ: ثمَّ إنِّي دَعَوتُ قَومي إلى الحَقِّ مجاهرًا، ثمَّ إنِّي أظهَرتُ دَعوتي لهم ونشَرْتُها بيْنَهم، ودَعَوتُهم سِرًّا فيما بيْني وبيْنَهم، فقُلْتُ لهم: استَغفِروا رَبَّكم؛ إنَّه سُبحانَه متَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بكَمالِ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه؛ فإنَّكم إنِ استَغْفَرتُم رَبَّكم يُرسِلْ عليكم أمطارًا مُتتابِعةً مُتواصِلةً، ويُعْطِكم أموالًا وأبناءً، ويجعَلْ لكم في الدُّنيا بَساتينَ فيها أنواعُ الثِّمارِ، ويَجعَلْ لكم أنهارًا جارِيةً.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ ﴾.

أي: قال نوحٌ مُشتَكِيًا إلى رَبِّه طُغيانَ قَومِه: رَبِّ إنِّي دَعَوتُ قَومي في اللَّيلِ والنَّهارِ إلى توحيدِك، وحذَّرْتُهم مِنَ الشِّركِ بك ومَعصيتِك[1].

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ ﴾.

أي: فلم يَزِدْهم دُعائي لهم إلى الحقِّ ليتَّبِعوه إلَّا هَرَبًا منه، وإعراضًا عنه[2]!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ﴾ [القمر: ٩].

﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٤).

وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ﴿٧﴾﴾.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾.

أي: وإنِّي كُلَّما دَعوتُهم إلى سَبَبِ المَغفِرةِ -وهو الإيمانُ بك، وتوحيدُك وطاعتُك- لِتَمحوَ بذلك ذُنوبَهم، وتتجاوَزَ عن مؤاخَذتِهم بها؛ جَعَلوا أصابِعَهم في آذانِهم، فسَدُّوها؛ كي لا يَسمَعوا كَلامي[1].

﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾.

أي: وتغَطَّوا بثِيابِهم لئَلَّا يَرَوني؛ مُبالَغةً منهم في الإعراضِ عَنِّي[2].

﴿وَأَصَرُّواْ﴾.

أي: واستَمَرُّوا على شِرْكِهم ولم يَتوبوا[3].

﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾.

أي: وتعاظَموا وتكبَّروا عن قَبولِ الحقِّ، وعن اتِّباعِه[4].

كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣١، ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

قال الشوكاني: (وقيل: جَعلوا ثيابَهم على رؤوسِهم لئلَّا يَسْمَعوا كلامي، فيَكونُ استِغشاءُ الثِّيابِ على هذا زيادةً في سَدِّ الآذانِ. وقيلَ: هو كنايةٌ عن العداوةِ، يُقالُ: لَبِس فُلانٌ ثيابَ العداوةِ. وقيل: استَغشَوْا ثيابَهم؛ لئلَّا يَعْرِفَهم فيَدْعُوهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ [هود: ٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١].

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ نُوحًا عليه السَّلامُ ارتقى في شَكواه واعتِذارِه بأنَّ دَعوتَه كانت مختَلِفةَ الحالاتِ في القَولِ؛ مِن جَهرٍ وإسرارٍ[١].

﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ﴾.

أي: ثمَّ إنِّي دَعَوتُ قَومي إلى الحَقِّ بمَسمَعٍ منهم، مجاهِرًا بالدَّعوةِ[٢].

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ ﴾.

أي: ثمَّ إنِّي أظهَرتُ دَعوتي لهم، وأشَعْتُها ونشَرْتُها بيْنَهم[٣].

﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾.

أي: ودَعَوتُهم سِرًّا فيما بيْني وبيْنَهم في الخَفاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٥، ٤٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ نوحٌ عليه السَّلامُ أنَّه بالَغَ في الدَّعوةِ إلى حَدٍّ لا مَزيدَ عليه، فلم يَدَعْ مِنَ الأوقاتِ ولا مِن الأحوالِ شَيئًا؛ سَبَّبَ عنه بيانَ ما قال في دَعوتِه، وهو التَّسَبُّبُ في السَّعادةِ كُلِّها بدَفعِ المَضارِّ، وجَلبِ المسارِّ[1].

﴿ فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ﴾.

أي: فقُلْتُ لهم: اطلُبوا مِن رَبِّكم أن يَغفِرَ لكم ذُنوبَكم، فيَمحوَها عنكم، ويَتجاوَزَ عن مؤاخَذتِكم بها[2].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ﴾.

أي: إنَّ اللهَ متَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بكَمالِ المَغفِرةِ لذُنوبِ عِبادِه[3].

---

= (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٦).

قال الماوَرْدي: (فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّه دعاهم في وقتٍ سرًّا، وفي وقتٍ جهرًا. الثَّاني: دعا بعضَهم سرًّا، وبعضَهم جهرًا). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠١).

وقال الزمخشري: (فإنْ قُلْتَ: ذَكَر أنَّه دعاهم لَيلًا ونَهارًا، ثمَّ دعاهم جِهارًا، ثمَّ دعاهم في السِّرِّ والعَلَنِ، فيَجِبُ أن تكونَ ثلاثَ دَعَواتٍ مُختَلِفاتٍ حتَّى يَصِحَّ العَطفُ. قلتُ: قد فَعَل عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كما يَفعَلُ الَّذي يأمُرُ بالمعروفِ ويَنهى عن المنكَرِ: في الابتداءِ بالأهوَنِ، والتَّرَقِّي في الأشَدِّ فالأشَدِّ؛ فافتَتَح بالمناصَحةِ في السِّرِّ، فلمَّا لم يَقبَلوا ثَنَّى بالمجاهَرةِ، فلمَّا لم تؤثِّرْ ثَلَّث بالجَمعِ بيْن الإسرارِ والإعلانِ. ومعنى ﴿ ثُمَّ ﴾ الدَّلالةُ على تباعُدِ الأحوالِ؛ لأنَّ الجِهارَ أغلَظُ من الإسرارِ، والجَمعَ بيْن الأمْرَينِ أغلَظُ مِن إفرادِ أحَدِهما). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠١)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٧، ٤٣٨)، =

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾.

أي: فإنَّكم إنِ استَغْفَرْتُم رَبَّكم يُرسِلْ عليكم أمطارًا مُتتابِعةً مُتواصِلةً[١].

كما قال هودٌ عليه السَّلامُ لقومِه: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾.

أي: ويُعْطِكم رَبُّكم أموالًا وأبناءً، ويُكَثِّرْ ذلك لكم[٢].

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ﴾.

أي: ويجعَلْ لكم في الدُّنيا بساتينَ فيها أنواعُ الثِّمارِ[٣].

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

أي: ويَجعَلْ لكم أنهارًا جارِيةً[٤].

---

= ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٧).

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ جَمَع بيْنَ الجَهرِ والإسرارِ؛ لأنَّ الجَمعَ بيْنَ الحالتَينِ أقوى في الدَّعوةِ وأغلَظُ من إفرادِ إحداهما[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ حَثٌّ على الاستِغفارِ، وإشارةٌ إلى وُقوعِ المغفرةِ لِمَنِ استغفَرَ[2].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ في هذه الآيةِ دَليلٌ على أنَّ الاستِغفارَ يُستَنزَلُ به الرِّزقُ والأمطارُ[3]. ففيها استِحبابُ الاستِغفارِ عِندَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٧). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٢).

الجَدْبِ وضِيقِ الرِّزقِ، وأنَّه مَجلَبَةٌ له[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ دليلٌ على تكثيرِ الأولادِ بالعَمَلِ الصَّالحِ؛ لأنَّ نوحًا عليه السَّلامُ وَعَدَ قومَه على الاستِغفارِ إمدادًا بالبَنينَ[٢]، ولو أنَّ رجُلًا ممَّن لا يُولَدُ له اشْتَهَى أنْ يكونَ له ولدٌ فاستَغفَرَ محتَسِبًا مُستعطِفًا به أولادًا، لَوُلِدَ له، وإنْ كان مِئْنَاثًا[٣] فأَحَبَّ الذُّكورَ مِن الأولادِ لم يَعْدَمْهم؛ فإنَّ اللهَ صادقٌ في قَولِه، لا يُخْلِفُ مِيعادَه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ أنَّ مَن أراد أنْ تُرفَعَ عنه العقوبةُ فَلْيَتُبْ إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ التَّوبةَ مِن أسبابِ رَفْعِ العُقوبةِ، وجَلْبِ المَثُوبةِ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ أنَّه لا بأسَ مِن مُلاحظةِ الأمورِ الدُّنيويَّةِ في الاستِقامةِ، وأنَّ مُلاحظتَها لا تَضُرُّه؛ فالرُّسُلُ يأمُرون أقوامَهم بالطَّاعةِ، ثُمَّ يَذكُرونَ المصالحَ الدُّنيويَّةَ، فقولُ نوحٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ هذه المصلحةُ الدِّينيَّةُ، و﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ هذه

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤١٦).

(٣) مِئناث -على وزن مِفْعال- مِن الأبنيةِ الدَّالَّةِ على الكثرةِ، يُقالُ: امرأةٌ مِذْكارٌ، إذا كانت تلِدُ الذُّكورَ، وكذلك «مِئناثٌ» في الإناثِ. يُنظر: ((الصاحبي)) لابن فارس (ص: ١٧٠).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (١/ ٦٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٢٥٨).

مصلحةٌ دُنيويَّةٌ، ولولا أنَّ الإنسانَ لا يَضُرُّه إذا لاحظَها ما ذَكَرَها الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّ اسمَ «القومِ» واقِعٌ على الرِّجالِ والنِّساءِ، وأنَّه لا يُفْرَدُ به الرِّجالُ إلَّا بإرادةِ ذلك وإضمارِه، لا أنَّه اسمٌ لا يَقَعُ إلَّا على الرِّجالِ فقط؛ لإحاطةِ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ دَعَا الرِّجالَ والنِّساءَ إلى دِينِه[٢].

٢- قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾، جَعَل دَعوتَه مَظروفةً في زَمنَيِ اللَّيلِ والنَّهارِ؛ للدَّلالةِ على عدَمِ الهوادةِ في حِرْصِه على إرشادِهم، وأنَّه يَترصَّدُ الوقتَ الَّذي يَتوسَّمُ أنَّهم فيه أقرَبُ إلى فَهْمِ دَعوتِه منهم في غيرِه مِن أوقاتِ النَّشاطِ، وهي أوقاتُ النَّهارِ، ومِن أوقاتِ الهُدوِّ وراحةِ البالِ، وهي أوقاتُ اللَّيلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (١/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤١٥).

قيل: القَوْمُ: الجماعةُ مِن الرِّجالِ والنِّساءِ معًا؛ لأنَّ قَومَ كلِّ رجُلٍ شِيعَتُه وعَشِيرتُه، ولأنَّ في التَّنزيلِ: ﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ١١]، و﴿قَوْمَ نُوحٍ﴾ و﴿قَوْمَ هُودٍ﴾ و﴿قَوْمَ صَالِحٍ﴾ و﴿قَوْمُ لُوطٍ﴾ [هود: ٨٩]، وهو اسمٌ يَجمَعُ الرِّجالَ والنِّساءَ.

وقيل: القَومُ هم الرِّجالُ خاصَّةً، ولا يقعُ على النِّساءِ إلَّا على وجْهِ التَّبعِ، واستدَلُّوا بقولِه تعالَى: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات: ١١]؛ أي: رِجالٌ مِن رِجالٍ، ولا نِساءٌ مِن نِساءٍ، فلو كانت النِّساءُ مِن القَومِ لم يَقُلْ: ولا نِساءٌ مِن نِساءٍ. يُنظر: ((جمهرة اللغة)) لابن دُرَيْد (٢/ ٩٧٧، ٩٧٨)، ((الفروق اللغوية)) للعسكري (ص: ٢٨٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ١٢٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/ ٥٠٥)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٣/ ٣٠٥، ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٤).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا﴾ يدُلُّ على أنَّ جميعَ الحوادِثِ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه؛ وذلك لأنَّا نرى إنسانَينِ يَسمَعانِ دَعوةَ الرَّسولِ في مجلِسٍ واحِدٍ بلَفظٍ واحِدٍ، فيَصيرُ ذلك الكلامُ في حَقِّ أحدِهما سَبَبًا لحُصولِ الهِدايةِ، والمَيلِ والرَّغبةِ، وفي حَقِّ الثَّاني سَبَبًا لِمَزيدِ العُتُوِّ والتَّكَبُّرِ، ونهايةِ النَّفرةِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ أنَّه سُبحانَه يُعَلِّلُ أحكامَه وأفعالَه بأسمائِه؛ فليست أسماؤُه ألفاظًا مُجَرَّدةً لا مَعانيَ لها! ولو لَمْ يكُنْ لها معنًى لَمَا كان التَّعليلُ صحيحًا[2]!

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، فيه سؤالٌ: نوحٌ عليه السَّلامُ أمَر الكفَّارَ قبْلَ هذه الآيةِ بالعبادةِ والتَّقْوى والطَّاعةِ، فأيُّ فائدةٍ في أنْ أمَرهم بعدَ ذلك بالاستِغفارِ؟

**الجوابُ**: كأنَّهم لَمَّا أمَرَهم بالعبادةِ قالوا: إنْ كنَّا على حقٍّ فلا نَترُكُه، وإنْ كنَّا على باطلٍ، فكيف يَقبَلُنا ويَلطُفُ بنا مَن عَصَيْناهُ؟ فأمَرَهم بما يَجُبُّ مَعاصيَهم، ويَجلِبُ إليهم المِنَحَ، ولذلك وَعَدَهم عليه بما هو أوقَعُ في قُلوبِهم[3].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾، ولم يقُلْ: (إنَّه غَفَّارٌ)؟

**الجوابُ**: أنَّ المرادَ: أنَّه كان غَفَّارًا في حَقِّ كُلِّ مَن استَغفَروه، كأنَّه يقولُ: لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٠).

(٢) يُنظر: ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٨).

تظُنُّوا أنَّ مَغفِرتَه إنَّما حَدَثَت الآنَ، بل هو أبدًا هكذا كان[١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ فيه دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى يُجازي عِبادَه الصَّالِحينَ بطِيبِ العَيشِ؛ قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾[٢] [الجن: ١٦].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا﴾

- قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ جُرِّدَ فِعلُ (قال) مِن العاطفِ؛ لأنَّه حِكايةُ جَوابِ نوحٍ عن قولِ اللهِ له: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ﴾، عُومِلَ مُعامَلةَ الجوابِ الَّذي يُتلقَّى به الأمْرُ على الفورِ على طَريقةِ المُحاوَراتِ؛ تَنبيهًا على مُبادَرةِ نُوحٍ عليه السَّلامُ بإبلاغِ الرِّسالةِ إلى قَومِه، وتَمامِ حِرصِه في ذلك كما أفادَه قولُه: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، وحُصولِ يأْسِه منهم، فجَعَل مُراجَعتَه ربَّه بعْدَ مُهلةٍ مُستفادةٍ مِن قولِه: ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ بمَنزلةِ المراجَعةِ في المقامِ الواحدِ بيْنَ المُتحاورَيْنِ. ولك أنْ تَجعَلَ جُملةَ ﴿قَالَ رَبِّ﴾ إلخ مُستأنَفةً استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ السَّامعَ يَترقَّبُ مَعرفةَ ماذا أجاب قومُ نُوحٍ دَعوتَه؟ فكان في هذه الجُملةِ بَيانُ ما يَترقَّبُه السَّامعُ مع زِيادةِ مُراجَعةِ نُوحٍ ربَّه تَعالى[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٢).

ويُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٣).

- وهذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في لازِمِ معْناه، وهو الشِّكايةُ والتَّمهيدُ لطلَبِ النَّصرِ عليهم؛ لأنَّ المخاطَبَ به عالِمٌ بمَدلولِ الخبَرِ، وذلك ما سيُفْضي إليه بقولِه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآياتِ[1].

- وفائدةُ حِكايةِ ما ناجَى به نوحٌ ربَّه إظهارُ تَوكُّلِه على اللهِ، وانتصارُ اللهِ له، والإتيانُ على مُهِمَّاتٍ مِن العِبرةِ بقصَّتِه، بتَلوينٍ لحِكايةِ أقوالِه، وأقوالِ قَومِه، وقَولِ اللهِ له، وتلك ثَمانِ مَقالاتٍ؛ هي:

أ- ﴿أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ...﴾ إلخ [نوح: ١].

ب- ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ...﴾ إلخ [نوح: ٢].

ج- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي ...﴾ إلخ [نوح: ٥].

د- ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ...﴾ إلخ [نوح: ١٠].

هـ- ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ...﴾ إلخ [نوح: ٢١].

و- ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ...﴾ إلخ [نوح: ٢٤].

ز- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ ...﴾ إلخ [نوح: ٢٦].

ح- ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي ...﴾ إلخ[2] [نوح: ٢٨].

- قولُه: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا﴾ فيه تأْكيدٌ للمدْحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ، أو تأْكيدُ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه، وهو هنا تأْكيدُ إعراضِهم المُشبَّهِ بالابتعادِ بصُورةٍ تُشبِهُ ضِدَّ الإعراضِ، ولَمَّا كان فِرارُهم مِن التَّوحيدِ ثابتًا لهم مِن قبْلُ، كان قولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٣، ١٩٤).

﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴾ مِن تأْكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه[١].

- وتَصديرُ كلامِ نُوحٍ بالتَّأكيدِ؛ لإرادةِ الاهتِمامِ بالخبرِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾

- قولُه: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ ﴾ جاء بكَلمةِ (كلَّما) الدَّالَّةِ على شُمولِ كلِّ دَعوةٍ مِن دَعَواتِه مُقترِنةً بدَلائلِ الصَّدِّ عنها؛ لأنَّ المعنى: أنَّهم لم يُظهِروا مَخيلةً مِن الإصغاءِ إلى دَعوتِه، ولم يَتخلَّفوا عن الإعراضِ والصُّدودِ عن دَعوتِه طَرْفةَ عَينٍ[٣].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿دَعَوْتُهُمْ﴾؛ لدَلالةِ ما تَقدَّمَ عليه مِن قولِه: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ [نوح: ٣]، والتَّقديرُ: كلَّما دَعوتُهم إلى عِبادتِك وتَقْواك وطاعَتي فيما أمَرْتُهم به[٤].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِتَغْفِرَ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: دَعوتُهم بدَعوةِ التَّوحيدِ، فهو سبَبُ المغفرةِ، فالدَّعوةُ إليه مُعلَّلةٌ بالغُفرانِ. وجُعِلَت الدَّعوةُ مُعلَّلةً بمَغفرةِ اللهِ لهم؛ لأنَّها دَعوةٌ إلى سَببِ المغفرةِ، وهو الإيمانُ باللهِ وحْدَه وطاعةُ أمْرِه على لِسانِ رَسولِه، وفي ذلك تَعريضٌ بتَحميقِهم، وتَعجُّبٌ مِن خُلُقِهم؛ إذ يُعرِضون عن الدَّعوةِ لِما فيه نَفْعُهم، فكان مُقْتضى الرَّشادِ أنْ يَسمَعوها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويَتدبَّرُوها[١].

- قولُه: ﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ كِنايةً عن المُبالَغةِ في إعراضِهم عمَّا دَعاهم إليه، فهمْ بمَنزلةِ مَن سَدَّ سَمْعَه، ومنَعَ بَصَرَه[٢]. ويجوزُ أنْ يكونَ تَمثيلًا لحالِهم في الإعراضِ عن قَبولِ كَلامِه، ورُؤيةِ مَقامِه بحالِ مَن يسُكُّ سمْعَه بأُنملتَيْه، ويَحجُبُ عَينَيه بطَرَفِ ثَوبِه[٣].

- وعُبِّرَ عن الأناملِ بالأصابعِ؛ للمُبالَغةِ في إرادةِ سَدِّ المَسامِعِ، بحيث لو أمكَنَ لأدْخَلوا الأصابعَ كلَّها[٤].

- والسِّينُ والتَّاءُ في (اسْتَغْشَوْا) للمُبالَغةِ[٥].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿وَأَصَرُّواْ﴾؛ لظُهورِه، أي: أصَرُّوا على ما هُمْ عليه مِن الشِّركِ[٦].

- قولُه: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارًا﴾ (اسْتَكْبَرُوا) مُبالَغةٌ في تَكبَّروا، أي: جَعَلوا أنفُسَهم أكبَرَ مِن أنْ يَأْتمِروا لواحدٍ منهم. وتأْكيدُ ﴿وَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ بمَفعولِه المُطلَقِ ﴿ٱسۡتِكۡبَارًا﴾؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ الاستِكبارِ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٥، ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

- وتَنوينُ ﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ للتَّعظيمِ، أي: استِكبارًا شَديدًا، لا يَفُلُّه حدُّ الدَّعوةِ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا * ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ عُطِفَ الكلامُ بـ (ثُمَّ) الَّتي تُفيدُ في عَطْفِها الجُمَلَ أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المعطوفةِ أهمُّ مِن مَضمونِ المعطوفِ عليها؛ لأنَّ اختِلافَ كَيفيَّةِ الدَّعوةِ أَلْصَقُ بالدَّعوةِ مِن أوقاتِ إلْقائِها؛ لأنَّ الحالةَ أشدُّ مُلابَسةً بصاحِبِها مِن مُلابَسةِ زَمانِه، فذَكَر أنَّه دَعاهم جِهارًا، أي: عَلَنًا، ثمَّ ارْتَقى فذَكَرَ أنَّه جمَعَ بيْن الجَهرِ والإسرارِ؛ لأنَّ الجمْعَ بيْنَ الحالتَينِ أقْوى في الدَّعوةِ، وأغلَظُ مِن إفرادِ إحْداهما، فقولُه: ﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ﴾ تأْكيدٌ لقولِه: ﴿دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا﴾؛ ذُكِرَ ليُبْنى عليه عطْفُ ﴿وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾، والمعْنى: أنَّه تَوخَّى ما يَظُنُّه أوْغَلَ إلى قُلوبِهم مِن صِفاتِ الدَّعوةِ؛ فجَهَر حينَ يكونُ الجهرُ أجْدى مِثلُ مَجامعِ العامَّةِ، وأسرَّ للَّذين يَظُنُّهم مُتجَنِّبينَ لَوْمَ قَومِهم عليهم في التَّصدِّي لسَماعِ دَعوتِه، وبذلك تكونُ ضَمائرُ الغَيبةِ في قولِه: ﴿دَعَوۡتُهُمۡ﴾، وقولِه: ﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ﴾ مُوزَّعةً على مُختَلِفِ النَّاسِ[٢].

- وانتصَب ﴿جِهَارٗا﴾ بالنيابةِ عن المفعولِ المطلقِ المبيِّنِ لنوعِ الدعوةِ، وانتصَبَ ﴿إِسۡرَارٗا﴾ على أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ مُفيدٌ للتَّوكيدِ، أي: إسرارًا خَفيًّا[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا * يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ فصَّل دَعوتَه بفاءِ التَّفريعِ فقال: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾؛ فهذا القولُ هو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٨، ٢٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٦، ١٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٧).

الَّذي قالَه لهم ليلًا ونهارًا، وجِهارًا وإسرارًا[١].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ تعليلٌ لقولِه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ﴾؛ علَّلَ لهم بأنَّ اللهَ مَوصوفٌ بالغُفرانِ صِفةً ثابتةً تَعهَّدَ اللهُ بها لعِبادِه المستغفرينَ، فأفادَ التَّعليلَ بحرْفِ (إنَّ)، وأفاد ثُبوتَ الصِّفةِ للهِ بذِكرِ فِعلِ (كان)، وأفاد كَمالَ غُفرانِه بصِيغةِ المُبالَغةِ بقولِه: ﴿غَفَّارًا﴾، وهذا وعْدٌ بخَيرِ الآخِرةِ. ورتَّبَ على الوعْدِ بخيرِ الآخرةِ وعْدًا بخيرِ الدُّنيا بطَريقِ جَوابِ الأمرِ، وهو ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم ...﴾ الآيةَ[٢].

- قولُه: ﴿غَفَّارًا﴾ صيغةُ مبالغةٍ، وهو أبلغُ في المغفرةِ مِن (غافر)؛ لأنَّ (فعَّالًا) يدلُّ على كثرةِ صدورِ الفعلِ، و(فاعلًا) لا يدلُّ على الكثرةِ، وقوَّةُ اللفظِ تدلُّ على قوةِ المعنَى، فالألفاظُ أدلةٌ على المعاني، وأمثلةٌ للإبانةِ عنها[٣].

- وقدَّمَ إليهم الموعدَ بما هو أوقَعُ في نُفوسِهم وأحَبُّ إليهم؛ مِن المنافعِ الحاضرةِ، والفوائدِ العاجلةِ؛ تَرغيبًا في الإيمانِ وبَرَكاتِه، والطَّاعةِ ونَتائجِها مِن خَيرِ الدَّارَينِ[٤].

- قولُه: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ الإرسالُ: مُعبَّرٌ به عن الإيصالِ والإعطاءِ، وتَعديتُه بـ ﴿عَلَيْكُم﴾ لأنَّه إيصالٌ مِن عُلوٍّ. والمِدرارُ: الكثيرةُ الدَّرِّ والدُّرورِ، وهو السَّيَلانُ، ومعْنى ذلك: أنْ يَتبَعَ بَعضُ الأمطارِ بَعضًا، ومِدرارٌ زِنةُ مُبالَغةٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ١٩٧، ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((المثل السائر)) لابن الأثير (٢/ ١٩٧، ١٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٨).

٤- قولُه تعالَى: ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ فيه إعادةُ فِعلِ (يَجعَل) بعْدَ واوِ العطفِ في قولِه: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾ للتَّوكيدِ؛ اهتمامًا بشأْنِ المعطوفِ؛ لأنَّ الأنهارَ قِوامُ الجنَّاتِ، وتَسْقي المزارعَ والأنعامَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٨).

## الآيات (١٢-٢٠)

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَقَارًا﴾: أي: عَظَمةً مُقتَضِيةً للإجلالِ، وأصلُ (وقر): يدُلُّ على ثِقلٍ في الشَّيءِ[١].

﴿أَطْوَارًا﴾: أي: تاراتٍ، حالًا بَعْدَ حالٍ؛ نُطفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى تمامِ الخَلقِ، وأصلُ (طور): يدُلُّ على امتِدادٍ في شَيءٍ مِن مكانٍ أو زمانٍ[٢].

﴿طِبَاقًا﴾: أي: مُتَطابِقةً بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، والمُطابَقةُ: أن تَجعَلَ الشَّيءَ فَوقَ آخَرَ بقَدْرِه، وأصلُ (طبق): يدُلُّ على وَضعِ شَيءٍ مَبسوطٍ على مِثْلِه حتَّى يُغَطِّيَه[٣].

﴿بِسَاطًا﴾: أي: مَبسوطةً، مُتَّسِعةً، مُمهَّدةً كالفِراشِ، وأصلُ (بسط): يدُلُّ على امتِدادِ الشَّيءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٦).

﴿فِجَاجًا﴾: أي: مَسالِكَ وطُرُقًا، الواحِدُ فَجٌّ، والفَجُّ: الطَّريقُ الواسِعُ، وكلُّ فَتحٍ بيْنَ جَبَلينِ أو شَيئَينِ، وأصلُ (فجج): يدُلُّ على تفتُّحٍ وانفِراجٍ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى إنكارَ نوحٍ عليه السَّلامُ على قَومِه سوءَ أدبِهم معَ الله، واستِخفافَهم بما يَدعوهم إليه، وأنَّه قال لهم: ما لَكم لا تُعَظِّمونَ اللهَ تعالى حقَّ عَظَمتِه، وقد خلَقَكم حالًا بعْدَ حالٍ، فكُنتُم نُطْفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى تمامِ خَلْقِكم؟!

قال نوحٌ لِقَومِه داعيًا لهم إلى التَّأمُّلِ في عجائبِ خَلقِ الله: ألَم تَرَوا كيفَ خَلَق اللهُ سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، وجَعَل القَمَرَ في السَّمَواتِ نُورًا، وجعَلَ الشَّمسَ مِصباحًا مُضيئًا؛ فتَستَدِلُّوا بذلك على كَمالِ قُدرةِ اللهِ تعالى، واستِحقاقِه للعبادةِ دونَ ما سِواه؟!

ثمَّ دعاهم إلى التَّأمُّلِ في خَلقِ أنفُسِهم، وفي مَبدئِهم ومعادِهم، فقال: واللهُ ابتدَأَ خَلْقَ أبيكم آدَمَ مِن تُرابِ الأرضِ، فأصلُ نَشأتِكم منها، ثمَّ يُعيدُكم اللهُ في الأرضِ بعْدَ مَوتِكم، ويُخرِجُكم منها يَومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ.

ثمَّ دعاهم إلى التَّأمُّلِ في خَلقِ الأرضِ الَّتي يعيشونَ عليها، فقال: واللهُ جعَل لكم الأرضَ مَبسوطةً ممهَّدةً كالفِراشِ؛ لتتَّخِذوا منها طُرُقًا واسِعةً مُيَسَّرةً للسَّيرِ فيها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٣٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

أي: قال نوحٌ لِقَومِه مُعاتِبًا لهم على كُفْرِهم: ما لَكم لا تُعَظِّمونَ اللهَ تعالى حقَّ عَظَمتِه؛ فتُوحِّدوه وتُطيعوه[1]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٨)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال الماوَرْدي: (﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ فيه خمسةُ تأويلاتٍ:

أحدُها: ما لَكم لا تَعرِفونَ للهِ عَظَمةً. قاله مجاهِدٌ، وعِكرِمةُ.

الثَّاني: لا تَخشَونَ للهِ عِقابًا وتَرجُونَ منه ثوابًا. قاله ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ ابنِ جُبَيرٍ.

الثَّالثُ: لا تَعرِفونَ للهِ حَقَّه، ولا تَشكُرونَ له نِعَمَه. قاله الحَسَنُ.

الرَّابعُ: لا تؤَدُّونَ للهِ طاعةً. قاله ابنُ زَيدٍ.

الخامِسُ: أنَّ الوَقارَ: الثَّباتُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] أي: اثبُتْنَ، ومعناه: لا تُثبِتونَ وحدانيَّةَ اللهِ، وأنَّه إلهُكم الَّذي لا إلهَ لكم سِواه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠١).

وقال ابن القيِّم: (وهذه الأقوالُ تَرجِعُ إلى معنًى واحدٍ، وهو أنَّهم لو عَظَّموا اللهَ وعَرَفوا حقَّ عظَمتِه وحَّدُوه وأطاعوه وشَكَروه). ((الفوائد)) (ص: ١٨٧، ١٨٨).

وممَّن قال: إنَّ الرَّجاءَ هنا بمعنى الخَوفِ، أي: ما لَكم لا تَخافونَ للهِ عظَمةً: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، والأخفش، وابن قُتَيبة، وابن جرير، والواحديُّ، والسمعاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥٠)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٨٨)، ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٥٠)، ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

وقد ردَّ الرَّازيُّ هذا القولَ ولم يُجَوِّزْه. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٣).

وقال ابن القيِّم: (قال كثيرٌ مِن المفسِّرينَ: المعنى: ما لَكم لا تَخافونَ للهِ عَظَمةً؟ قالوا: والرَّجاءُ بمعنى الخَوفِ، والتَّحقيقُ أنَّه ملازِمٌ له؛ فكُلُّ راجٍ خائِفٌ مِن فواتِ مَرجُوِّه. والخوفُ بلا رجاءٍ يأسٌ وقُنوطٌ. وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] قالوا في تفسيرِها: لا يَخافُونَ وقائعَ اللهِ بهم، كوقائِعِه بمَن قَبْلَهم مِنَ الأُمَمِ). ((مدارج السالكين)) (٢/ ٥١).

وقيل: المعنى: ما لَكم لا تَكونونَ على حالٍ تأمُلونَ فيها تعظيمَ الله إيَّاكم في دارِ الثَّوابِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٣٩٢). =

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ نُوحٌ عليه السَّلامُ بتَعظيمِ اللهِ؛ استَدَلَّ على التَّوحيدِ بوُجوهٍ مِنَ الدَّلائِلِ[1]، فقال:

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: كيف تَترُكونَ تَعظيمَ اللهِ تعالى وإجلالَه، وقد جَعَل لكم في أنفُسِكم آيةً تدُلُّ على توحيدِه، وتَحمِلُ على تَعظيمِه، وهي خلْقُه إيَّاكم حالًا بعدَ حالٍ، فكُنتُم نُطْفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى تمامِ خَلْقِكم[2]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ

---

= وقال البِقاعي: (﴿وَقَارًا﴾ أي: ثوابًا يوقِّرُكم فيه ولو قَلَّ؛ فإنَّ قليلَه أكثرُ مِن كثيرِ غيرِه، ولا تَخافونَ له إهانةً بالعِقابِ بأن تعلَموا أنَّه لا بدَّ مِن أن يُحاسِبَكم بعدَ البعثِ، فيُثيبَ الطَّائعَ، ويُعاقبَ العاصيَ... ولأجْلِ أنَّ المطلوبَ تحصيلُ الأعمالِ الَّتي هي أسبابٌ ظاهريَّةٌ، عبَّر بالرَّجاءِ؛ ليَسُرَّهم بأنَّ أعمالَهم مؤثِّرةٌ، وعبَّر بالطَّمعِ في غيرِ هذه الآيةِ؛ تنبيهًا على أنَّه لا سببَ في الحقيقةِ إلَّا رحمةُ الله لحالٍ دعا إلى ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٣٩، ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال الزجَّاج: (خلَقَكم مِن تُرابٍ، ثمَّ مِن نُطفةٍ، ثمَّ مِن عَلَقةٍ، ثمَّ مِن مُضغةٍ، ثمَّ جَعَل المُضغةَ عَظمًا، وكَسا العَظمَ لَحمًا). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٢٩).

وقال السعدي: (أي: خَلْقًا مِن بَعدِ خَلْقٍ، في بَطنِ الأُمِّ، ثمَّ في الرَّضاعِ، ثمَّ في سِنِّ الطُّفوليَّةِ، ثمَّ التَّمييزِ، ثمَّ الشَّبابِ، إلى آخِرِ ما يَصِلُ إليه الخَلْقُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠١).

عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم: ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نبَّهَهم نُوحٌ عليه السَّلامُ على الفِكرِ في أنفُسِهم، وكيف انْتَقَلوا مِن حالٍ إلى حالٍ، وكانتِ الأنفُسُ أقرَبَ ما يُفكِّرون فيه منهم؛ أرشَدَهُم إلى الفِكرِ في العالَمِ عُلْوِه وسُفلِه، وما أودَعَ تعالَى فيه، أي: في العالَمِ العُلويِّ مِن هذَينِ النَّيِّرَينِ اللَّذَينِ بهما قِوامُ الوُجودِ(١).

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ ﴾.

أي: قال نوحٌ لِقَومِه: ألَم تَرَوا كيف خَلَق اللهُ سَبْعَ سَمَواتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ؛ فتَستَدِلُّوا بذلك على كَمالِ قُدرةِ اللهِ، واستِحقاقِه للعبادةِ دونَ ما سِواه(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢).

قال ابنُ عرفة: (وهذه الآيةُ مِن كلامِ نوحٍ عليه السَّلامُ لقومِه). ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٢٩٦).

وقال القرطبي: (وقولُه: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ ﴾ على جهةِ الإخبارِ لا المُعايَنةِ، كما تقولُ: ألم تَرَني كيفَ صنعتُ بفُلانٍ كذا). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٤). =

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾.

أي: وجَعَل اللهُ القَمَرَ في السَّمَواتِ السَّبعِ نُورًا[1].

---

= قال ابنُ عجيبة: (والرُّؤيةُ هنا علميَّةٌ؛ إذ لا يُرَى بالبصرِ إلَّا واحدةٌ). ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ١٤٦).
وقيل: الرُّؤيةُ بصَريَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).
قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ يقولُ: وجَعَل القمرَ في السَّمواتِ السَّبعِ نورًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٩٩).
قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ﴾: أنَّ القَمَر في بَعضِها؛ لأنَّه في السَّماءِ الدُّنيا، كما يُقالُ: فلانٌ في المدينةِ، وهو في بعضِ نواحيها. وممَّن قال بهذا المعنى: الأخفشُ، والسمرقندي، والزمخشري، وابن عطية، والرازي، وابن جُزَي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٥).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٧).
قال الشوكاني: (وجعْلُ القمرِ في السَّمواتِ على كَونِه في سماءِ الدُّنيا؛ لأنَّه إذا كان في إحداهنَّ، فهو فيهنَّ، كذا قال ابنُ كَيْسانَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٥٨).
وقيل: المرادُ أنَّ أحَدَ وَجهَيِ القَمَرِ يُضيءُ السَّمَواتِ، والوَجهَ الآخَرَ يُضيءُ الأرضَ. وممَّن ذهب إليه: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٣). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٠).
وممَّن رُوِيَ عنه نحوُ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: عبدُ الله بنُ عَمرِو بنِ العاص، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٢٩١).
وقيل: الألِفُ واللَّامُ في القَمَرِ للجنسِ، لا للعَهدِ؛ فليس القَمَرُ خاصًّا بالأرضِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: القاسميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (١/ ٢١٠). ويُنظر أيضًا: ((مجلة المنار)) لمحمد رشيد رضا (١٤/ ٥٧٧).

كما قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾.

أي: وجعل اللهُ الشَّمسَ مِصباحًا مُضيئًا(١).

كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها رُجوعٌ إلى دَلائلِ الأنفُسِ، وهي كالتَّفسيرِ لقَولِه تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤]؛ فإنَّه بيَّنَ أنَّه تَعالى خَلَقَهم مِن الأرضِ، ثمَّ يَرُدُّهم إليها، ثمَّ يُخرِجُهم منها مرَّةً أُخرى(٢).

وأيضًا لَمَّا دلَّ اللهُ تعالَى على كَمالِ عِلمِه وتَمامِ قُدرتِه بخلْقِ الإنسانِ، ثمَّ بخلْقِ ما هو أكبَرُ منه؛ أعاد الدَّلالةَ بخَلْقِ الإنسانِ؛ لأنَّه أعظَمُ المُحدَثاتِ، وأدَلُّها على اللهِ سُبحانَه وتعالَى على وجْهٍ آخَرَ(٣).

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾﴾.

أي: واللهُ ابتدَأَ خَلْقَ أَبيكم آدَمَ مِن تُرابِ الأرضِ، فأصلُ نَشأتِكم منها(٤).

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٤). =

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾.

أي: ثمَّ يُعيدُكم اللهُ في الأرضِ بعْدَ مَوتِكم، فتُدفَنونَ فيها، وتَصيرونَ تُرابًا كما كُنتُم قبْلَ خَلْقِكم[1].

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾.

أي: ويُخرِجُكم اللهُ مِنَ الأرضِ يَومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ، فتَخرُجونَ مِن قُبورِكم أحياءً[2].

كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ٢٢].

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾﴾.

أي: واللهُ جعَل لكم الأرضَ مَبسوطةً ممهَّدةً كالفِراشِ[3].

---

= قال الرازي: (في هذه الآيةِ وَجهانِ:

أحَدُهما: معنى قَولِه: ﴿أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: أنبَتَ أباكم مِن الأرضِ، كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والثَّاني: أنَّه تعالى أنبَتَ الكُلَّ مِنَ الأرضِ؛ لأنَّه تعالى إنَّما يَخلُقُنا مِنَ النُّطَفِ، وهي متوَلِّدةٌ مِنَ الأغذيةِ المتولِّدةِ مِن النَّباتِ المتولِّدِ مِنَ الأرضِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٢٣٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: ١٠].

﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: لتتَّخِذوا منها طُرُقًا واسِعةً سَهلةً مُيَسَّرةً للسَّيرِ فيها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ١٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- ممَّا يَستقيمُ به القَلبُ تَعظيمُ الأمرِ والنَّهيِ، وهو ناشِئٌ عن تَعظيمِ الآمِرِ النَّاهي؛ فإنَّ اللهَ تعالى ذَمَّ مَن لا يُعَظِّمُ أمْرَه ونَهْيَه، قال سُبحانَه وتعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[2].

٢- قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ ومِن وقارِ الله تعالى أن لا تعدِلَ به شيئًا مِن خلقِه لا في اللَّفْظ -بِحَيْثُ تَقولُ: والله، وحياتِك، ما لي إلَّا الله وأنت، وما شاءَ الله وشئتَ- ولا في الحبِّ والتَّعظيمِ والإجلالِ، ولا في الطَّاعةِ، ولا في الخوفِ والرجاءِ، ولا يجعلَه أهْونَ النَّاظرينَ إليه، ولا يستهينَ بحقِّه، ويَقولَ:

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٥، ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٥).

قال ابنُ عاشور: (الفَجُّ: الطَّريقُ الواسِعُ، وأكثَرُ ما يُطلَقُ على الطَّريقِ بيْن جَبَلينِ؛ لأنَّه يكونُ أوسَعَ مِن الطَّريقِ المعتادِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٨).

هو مَبْنِيٌّ على المُسامحَةِ، ولا يجعلَه على الفضلةِ، ويقدِّمَ حقَّ المخلوقِ عليه، ولا يَجعلَ مُرادَ نَفسِه مقدَّمًا على مُرادِ ربِّه، فهذا كلُّه مِن عدمِ وقارِ الله في القلبِ، وَمن وقارِ الله أن يستحيَ من اطِّلاعِه على سرِّه وضميرِه فيرَى فيه ما يكرهُ، ومِن وقارِه أنْ يستحيَ منه فِي الخلْوَةِ أعظمَ مِمَّا يستحي مِن أكابرِ النَّاسِ. وإنَّ مِن أعظمِ الظُّلمِ والجهلِ أن تطلبَ التَّعظيمَ والتَّوقيرَ مِن النَّاسِ وقلبُك خالٍ مِن تعظيمِ الله وتوقيرِه[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ فيه تَنبيهٌ على عِظَمِ خَلقِ هذه الأشياءِ، وكَثرةِ المنافِعِ في الشَّمسِ والقَمَرِ، الدَّالَّةِ على رحمةِ الله، وسَعةِ إحسانِه؛ فالعظيمُ الرَّحيمُ يَستَحِقُّ أن يُعظَّمَ، ويُحَبَّ، ويُعبَدَ، ويُخافَ، ويُرجَى[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ فيه مِن شُعَبِ الإيمانِ: الرَّجاءُ والخَشيةُ، على القَولَينِ في تَفسيرِه[٣].

٢- قال تعالَى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾؛ فالَّذي انفرَدَ بالخَلقِ والتَّدبيرِ البديعِ مُتعيِّنٌ أنْ يُفرَدَ بالعِبادةِ والتَّوحيدِ. وفي ذِكرِ ابتِداءِ خَلْقِهم تَنبيهٌ لهم على الإقرارِ بالمَعادِ، وأنَّ الَّذي أنْشَأَهُم مِن العدَمِ قادرٌ على أنْ يُعيدَهم بعْدَ مَوتِهم[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ فيه سُؤالٌ، وهو:

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

كيف قِيل لهم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ﴾، و(الكَيفُ) للحالةِ والهيئةِ، وهمْ لم يُشاهِدوها، كما قال تعالَى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ [الكهف: ٥١]؟

**والجوابُ**: حيثُ إنَّ اللهَ خاطَبَهم هنا ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ﴾؛ فكان هذا أمْرًا -لِفَرْطِ صِدقِ الإخبارِ به- كالمُشاهَدِ المحسوسِ المُلزِمِ لهم. وقيل غيرُ ذلك[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ فيه سؤالٌ: كيف قال ذلك، والقَمَرُ ليس فيها بأسْرِها، بل في السَّماءِ الدُّنيا؟

**الجوابُ**: هذا كما يُقالُ: (السُّلطانُ في العراقِ) ليس المرادُ أنَّ ذاتَه حاصِلةٌ في جميعِ أحيازِ العِراقِ، بل إنَّ ذاتَه في حَيِّزٍ مِن جملةِ أحيازِ العِراقِ، فكذا هاهنا[٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ في جَعلِ القَمَرِ نُورًا إيماءٌ إلى أنَّ ضَوءَ القَمَرِ ليس مِن ذاتِه؛ فإنَّ القَمَرَ مُظلِمٌ، وإنَّما يَستضيءُ بانعكاسِ أشِعَّةِ الشَّمسِ على ما يَستَقبِلُها من وَجهِه بحَسَبِ اختلافِ ذلك الاستِقبالِ مِن تبَعُّضٍ وتمامٍ[٣]، وأيضًا جَعْلُ الشَّمسِ سِراجًا: فيه إشارةٌ إلى أنَّ نُورَ القَمَرِ مِنَ الشَّمسِ مُكتَسَبٌ، حيث جَعَل الشَّمسَ بمنزلةِ نَفسِ السِّراجِ، والقمَرَ بمنزلةِ ضَوئِه ونُورِه[٤].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ مِن أدَلِّ الأدلَّةِ على الحُدوثِ؛ لأنَّهم إذا كانوا نَباتًا كانوا مُحْدَثينَ -لا مَحالةَ- حُدوثَ النَّباتِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٠-٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٤).

(٤) يُنظر: ((باهر البرهان)) لبيان الحق الغزنوي (٣/ ١٥٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي =

٧- لطيفة: أجسامُ بني آدَمَ بل وسائِرِ الحيواناتِ: كنَباتِ الأرضِ، تَنقَلِبُ مِن حالٍ إلى حالٍ، ثمَّ تجِفُّ وتصيرُ تُرابًا؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا * ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا * وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾ بدَّلَ نوحٌ عليه السَّلامُ خِطابَه مع قَومِه مِن طَريقةِ النُّصحِ والأمرِ إلى طَريقةِ التَّوبيخِ بقولِه: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾، وهو استِفهامٌ صُورتُه صُورةُ السُّؤالِ عن أمْرٍ ثبَتَ لهم في حالِ انتفاءِ رَجائِهم تَوقيرَ اللهِ، والمقصودُ أنَّه لا شَيءَ يَثبُتُ لهم صارِفٌ عن تَوقيرِ اللهِ؛ فلا عُذْرَ لكم في عدَمِ تَوقيرِه[2].

- قولُه: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا﴾ اختُلِفَ في معناه وفي تَعلُّقِ مَعمولاتِه بعوامِلِه على أقوالٍ: فإذا حُمِلَ الرَّجاءُ على معْنى تَرقُّبِ الأمرِ، وحُمِلَ الوَقارُ على معْنى العَظَمةِ المُقتضيةِ للإجلالِ؛ فالمعْنى: ما لَكمْ لا تَرجُون ثَوابًا مِن اللهِ، ولا تَخافون عِقابًا، أي: فتَعْبُدوه راجينَ أنْ يُثيبَكم على عِبادتِكم وتَوقيرِكم إيَّاه، وهذا التَّفسيرُ يَنْحو إلى أنْ يكونَ في الكلامِ اكتِفاءٌ[3]، أي: ولا تَخافون

---

= السعود)) (٩/ ٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٩).

(١) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٩).

(٣) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ، على سبيلِ الاكتفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

عِقابًا، وإنَّ نُكتةَ الاكتِفاءِ بالتَّعجُّبِ مِن عدَمِ رَجاءِ الثَّوابِ: أنَّ ذلك هو الَّذي يَنْبغي أنْ يَقصِدَه أهلُ الرَّشادِ والتَّقوى، والتَّقديرُ: ما لَكمْ لا تَكونونَ على حالٍ تأمُلونَ فيها تَعظيمَ اللهِ إيَّاكم في دارِ الثَّوابِ. وهذا يَقْتضي أنْ يكونَ الكلامُ كِنايةً تَلويحيَّةً عن حَثِّهم على الإيمانِ باللهِ الَّذي يَستلزِمُ رَجاءَ ثَوابِه، وخَوفَ عِقابِه؛ لأنَّ مَن رَجا تَعظيمَ اللهِ إيَّاه آمَنَ به، وعبَدَه، وعمِلَ الصَّالحاتِ.

وعلى أنَّ الرَّجاءَ بمَعْنى الاعتقادِ، و﴿لَا تَرْجُونَ﴾ حالٌ من ضَميرِ المُخاطَبينَ، والعاملُ فيها مَعْنى الاستقرارِ في ﴿لَكُمْ﴾، على أنَّ الإنكارَ مُتوجِّهٌ إلى السَّببِ فقَطْ مع تَحقُّقِ مَضمونِ الجُملةِ الحاليَّةِ لا إليهما معًا؛ فيكونُ قولُه إنكارًا لأنْ يكونَ لهُم سَببٌ ما في عدَمِ رَجائِهم للهِ تعالَى وَقارًا؛ فقولُه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾، أي: لا تَعتَقِدون له عَظَمةً، فتَخافوا عِصيانَه؟! وإنَّما عبَّرَ عن الاعتقادِ بالرَّجاءِ التَّابعِ لأدْنى الظَّنِّ مُبالَغةً.

وعلى القَولِ بأنَّ معنى الوَقارِ: العاقبةُ، أي: ما لَكمْ لا تَرْجُون للهِ عاقبةً، أي: عاقبةَ الإيمانِ؛ فيكونُ الكلامُ كِنايةً عن التَّوبيخِ على تَرْكِهم الإيمانَ باللهِ تعالَى[1].

- وجُملةُ ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ حالٌ مُقرِّرةٌ للإنكارِ مِن حيثُ إنَّها مُوجِبةٌ للرَّجاءِ؛ فهي حالٌ مِن ضَميرِ ﴿لَكُمْ﴾ أو ضَميرِ ﴿تَرْجُونَ﴾، أي: في حالِ تَحقُّقِكم أنَّه خَلَقَكم أطْوارًا، فأمَّا أنَّه خَلَقَهم فمُوجِبٌ للاعترافِ بعَظَمتِه؛ لأنَّه مُكوِّنُهم وصانعُهم، فحقَّ عليهم الاعترافُ بجَلالِه، وأمَّا كونُ خلْقِهم أطوارًا؛ فلأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٧، ٦١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤، ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٩٩، ٢٠٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٩، ٢٣٠).

الأطوارَ الَّتي يَعلَمونها دالَّةٌ على رِفقِه بهم في ذلك التَّطوُّرِ، فهذا تَعريضٌ بكُفْرِهم النِّعمةَ، ولأنَّ الأطوارَ دالَّةٌ على حِكمةِ الخالِقِ وعِلمِه وقُدرتِه؛ فإنَّ تَطوُّرَ الخلْقِ مِن طَورِ النُّطفةِ، إلى طَورِ الجنينِ، إلى طَورِ خُروجِه طِفلًا، إلى طَورِ الصِّبا، إلى طَورِ بُلوغِ الأشُدِّ، إلى طَورِ الشَّيخوخةِ، وطُروِّ الموتِ على الحياةِ، وطُروِّ البِلى على الأجسادِ بعدَ الموتِ؛ كلُّ ذلك والذَّاتُ واحدةٌ، فهو دَليلٌ على تَمكُّنِ الخالِقِ مِن كَيفيَّاتِ الخلْقِ والتَّبديلِ في الأطوارِ، وهم يُدرِكون ذلك بأدْنى الْتِفاتِ الذِّهنِ، فكانوا مَحقوقينَ بأنْ يَتوصَّلوا به إلى مَعرفةِ عَظَمةِ اللهِ تعالى، وتَوقُّعِ عِقابِه؛ لأنَّ الدَّلالةَ على ذلك قائمةٌ بأنفُسِهم، وهل التَّصرُّفُ فيهم بالعِقابِ والإثابةِ إلَّا دونَ التَّصرُّفِ فيهم بالكَونِ والفسادِ[1]؟

- قَولُه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ بدَأَ بدَلائلِ الأنفُسِ، وبعْدَها بدَلائلِ الآفاقِ؛ لأنَّها مع شَرَفِها أقرَبُ مَنظورٍ إليه لهم، فنفْسُ الإنسانِ أقرَبُ الأشياءِ إليه، فلا جَرَمَ بدَأَ بالأقرَبِ، وثَنَّى بالعُلويِّ؛ لأنَّه يليها في الشَّرَفِ ووُضوحِ الآياتِ. وتارَّةً يَبدَأُ بدَلائلِ الآفاقِ، ثمَّ بدَلائلِ الأنفُسِ؛ إمَّا لأنَّ دَلائلَ الآفاقِ أبهَرُ وأعظَمُ، فوَقَعَت البدايةُ بها لهذا السَّببِ، أو مِن أجْلِ أنَّ دَلائلَ الأنفُسِ حاضرةٌ، لا حاجةَ بالعاقلِ إلى التَّأمُّلِ فيها، إنَّما الَّذي يَحتاجُ إلى التَّأمُّلِ فيه دَلائلُ الآفاقِ؛ لأنَّ الشُّبَهَ فيها أكثَرُ، فلا جَرَمَ تَقَعُ البدايةُ بها[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾

- هذا الكلامُ إنْ كان هذا مِن حِكايةِ كَلامِ نوحٍ عليه السَّلامُ لقومِه، كان تَخلُّصًا مِن التَّوبيخِ والتَّعريضِ إلى الاستدلالِ عليهم بآثارِ وُجودِ اللهِ ووَحدانيَّتِه

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٤). ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤١، ٤٤٢).

وقُدرتِه، ممَّا في أنفُسِهم مِن الدَّلائلِ إلى ما في العالَمِ منها؛ لِما في قولِه: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] مِن تَذكيرٍ بالنِّعمةِ وإقامةٍ للحُجَّةِ، فتَخلَّصَ منه لذِكرِ حُجَّةٍ أُخرى، فكان قد نبَّهَهم على النَّظَرِ في أنفُسِهم أولًا؛ لأنَّها أقرَبُ ما يُحِسُّونه ويَشعَرون به، ثمَّ على النَّظَرِ في العالَمِ وما سُوِّيَ فيه مِن العجائبِ الشَّاهدةِ على الخالقِ العليمِ القديرِ. وإنْ كان مِن خطابِ اللهِ تعالَى للأُمَّةِ -وهو ما يَسمَحُ به سِياقُ السُّورةِ مِن الاعتبارِ بأحوالِ الأُمَمِ الماضيةِ المُساويةِ لأحوالِ المشركينَ- كان هذا الكلامُ اعتراضًا للمُناسَبةِ[١].

- والهمزةُ في ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ للاستِفهامِ التَّقريريِّ مُكنًّى به عن الإنكارِ عن عدَمِ العِلمِ بدَلائلِ ما يَرَونه، والمعْنى: ألَسْتُم تَرَون هَيئةَ وحالةَ خلْقِ اللهِ السَّمواتِ[٢]؟!

- وقولُه: ﴿سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ وصْفُ سبْعٍ مَعلومًا للمُخاطَبينَ مِن قومِ نوحٍ، أو مِن أُمَّةِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ؛ بأنْ يَكونوا عَلِموا ذلك مِن قبْلُ، فيكون ممَّا شَمِلَه فِعلُ ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾، ويجوزُ أنْ يكونَ تَعليمًا للمخاطَبينَ على طَريقةِ الإدماجِ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ الإخبارُ عن القمرِ بأنَّه نورٌ مُبالَغةٌ في وصْفِه بالإنارةِ بمَنزلةِ الوصْفِ بالمَصدرِ[٤].

- قَولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ بدَأَ به؛ لقُربِه، وسُرعةِ حَرَكتِه، وقَطعِه جميعَ البروجِ في كُلِّ شَهرٍ مَرَّةً، وغَيبتِه في ليالي السِّرارِ[٥]، ثمَّ ظُهورِه، وذلك أعجَبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٠٣).

(٥) السِّرارُ: يومَ يَستَسِرُّ فيه الهلالُ آخِرَ يومٍ مِن الشَّهرِ أو قبْلَه، ورُبَّما استَتَر لَيلتَينِ اذا تَمَّ الشَّهرُ. =

في القُدرةِ[١].

- والسِّراجُ: المِصباحُ الزَّاهرُ نُورُه، الَّذي يُوقَدُ بفَتيلةٍ في الزَّيتِ يُضِيءُ الْتهابُها المُعدَّلُ بمِقدارِ بَقاءِ مادَّةِ الزَّيتِ تَغمُرُها، والإخبارُ به عن الشَّمسِ مِن التَّشبيهِ البليغِ، والقصدُ منه تَقريبُ المُشبَّهِ مِن إدراكِ السَّامعِ؛ فإنَّ السِّراجَ كان أقْصى ما يُستضاءُ به في اللَّيلِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ لم يُخبَرْ هنا عن الشَّمسِ بالضِّياءِ، كما في آيةِ سُورةِ (يُونسَ) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾ [يونس: ٥]، والمعنى واحدٌ، وهو الإضاءةُ، ولعلَّ إيثارَ السِّراجِ هنا لمُقارَبةِ تَعبيرِ نُوحٍ في لُغتِه، مع ما فيه مِن الرِّعايةِ على الفاصلةِ؛ لأنَّ الفواصلَ الَّتي قبْلَها جاءتْ على حُروفٍ صَحيحةٍ، ولو قِيل: (ضِياءً) لَصارتِ الفاصلةُ هَمزةً، والهمزةُ قريبةٌ مِن حُروفِ العِلةِ، فيَثقُلُ الوقفُ عليها[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ أنشَأَ الاستدلالُ بخلْقِ السَّمواتِ حُضورَ الأرضِ في الخَيالِ؛ فأعقَبَ نوحٌ عليه السَّلامُ به دَليلَه السَّابقَ، استِدلالًا بأعجَبِ ما يَرَونه مِن أحوالِ ما على الأرضِ، وهو حالُ الموتِ والإقبارِ، ومهَّدَ لذلك بما يَتقدَّمُه مِن إنشاءِ النَّاسِ، وأُدمِجَ في ذلك تَعليمُهم بأنَّ الإنسانَ مَخلوقٌ مِن عناصرِ الأرضِ مِثلَ النَّباتِ، وإعلامُهم بأنَّ بعْدَ الموتِ حياةً أخرى[٤].

---

= يُنظر: ((العين)) للخليل (٧/ ١٨٧)، ((السنن الكبرى)) للبيهقي (٤/ ٣٥٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٠٤).

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ التَّقديرُ: أنشأَ آدَمَ مِن الأرضِ، وصارتْ ذُرِّيَّتُه منه، فصَحَّ نِسبتُهم كلِّهم إلى أنَّهم أُنبِتوا منها، وأُطلِقَ على معْنى (أنشأَكُم) فِعلُ ﴿أَنۢبَتَكُم﴾؛ للمُشابَهةِ بيْنَ إنشاءِ الإنسانِ وإنباتِ النَّباتِ مِن حيثُ إنَّ كِلَيهما تكوينٌ، كما قال تعالَى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، أي: أنْشَأَها، وكما يَقولون: زَرَعَك اللهُ للخَيرِ، ويَزيدُ وَجْهَ الشَّبَهِ هنا قُربًا مِن حيث إنَّ إنشاءَ الإنسانِ مُركَّبٌ مِن عناصرِ الأرضِ[1].

- ولَفظُ ﴿نَبَاتًا﴾ اسمٌ مِن (أنْبَتَ)، عُومِلَ مُعامَلةَ المصدرِ، فوَقَع مَفعولًا مُطلقًا لـ ﴿أَنۢبَتَكُم﴾، ولم يَجْرِ على قِياسِ فِعلِه فيُقال: (إنْباتًا)؛ لأنَّ (نَباتًا) أخفُّ، فلمَّا تَسنَّى الإتيانُ به -لأنَّه مُستعمَلٌ فَصيحٌ- لم يُعدَلْ عنه إلى الثَّقيلِ كَمالًا في الفَصاحةِ، بخِلافِ قولِه بعْدَه: ﴿إِخۡرَاجًا﴾؛ فإنَّه لم يُعدَلْ عنه إلى (خروجًا)؛ لعدَمِ مُلاءَمتِه لألفاظِ الفواصلِ قبْلَه المَبْنيَّةِ على ألِفٍ مِثلِ ألِفِ التَّأسيسِ[2]، فكما تُعَدُّ مُخالفتُها في القافيةِ عَيبًا، كذلك تُعَدُّ المُحافَظةُ عليها في الأسجاعِ والفواصلِ كَمالًا. ويجوزُ أن يكونَ الأصلُ (أنبَتَكُم مِن الأرضِ إنباتًا، فنبَتُّم نباتًا)، فحُذِفَ مِن الجُملةِ الأُولى المصدرُ، ومِن الثَّانيةِ الفعلُ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٢٩).

(٢) ألِفُ التَّأسيسِ: مِن مُصطَلحاتِ عِلمِ العَروضِ والقافيةِ، وهو كلُّ ألِفٍ وقعَتْ في القافيةِ وبيْنَها وبيْن الرَّويِّ حرفٌ مُتحرِّكٌ يُسمَّى هذا الحَرْفُ المتحرِّكُ الدَّخيلَ، والتَّأسيسُ يَلزَمُ ذلك الموضِعَ في القَصيدةِ كُلِّها؛ ففي قولِ زيادِ بنِ مُعاويةَ الذُّبْيانيِّ -وهو في ((ديوانه)) (ص: ٤٧)-:

كِلِينـــي لِهَـــمٍّ يـــا أُمَيْمَـــةَ ناصِـــبِ ... ولَـيْـلٍ أُقـاسِـيـهِ بَـطـيءِ الـكـواكِـبِ

الألِفُ مِن «كواكِبِ» تأسِيسٌ، والكافُ دَخيلٌ، والباءُ رَويٌّ، والياءُ المتولِّدةُ مِن كَسْرةِ الباءِ وصْلٌ. يُنظر: ((القوافي)) للأخفش الأوسط (ص: ٢٨)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٤٩١)، ((العِقد الفريد)) لابن عبد ربه (٦/ ٣٤٣)، ((عِلم العَروض والقافية)) لعبد العزيز عتيق (ص: ١٣٦).

اكتِفاءً في كلٍّ منهُمَا بما ذُكِرَ في الأُخرى[١].

وهذا مِن بَديعِ القُرآنِ، لا تَرى العُدولَ مِن لَفظٍ إلى آخَرَ إلَّا لمعْنًى، والنَّحْويُّ يقولُ: أُجريَ المصدَرُ على غيرِ فِعلِه، وصاحبُ المعاني يقولُ: له فائدةٌ في التَّحقيقِ وراءَ هذا؛ وهو التَّنبيهُ على تَحتُّمِ القُدرةِ، وسُرعةِ نَفاذِ حُكْمِها، حتَّى كأنَّ إنباتَ اللهِ تعالَى نفْسُ نَباتِهم، أي: إذا وُجِدَ مِن اللهِ الإنباتُ وُجِدَ لهم النَّباتُ حتْمًا، فكان أحدُ الأمْرَينِ عيْنَ الآخَرِ، فقُرِنَ به[٢].

- وقد أُدمِجَ الإنذارُ بالبعثِ في خلالِ الاستِدلالِ، ولِكَونِه أهَمَّ رُتبةً مِن الاستدلالِ عليهم بأصلِ الإنشاءِ، عُطِفَتِ الجُملةُ بحرْفِ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ على التَّراخي الرُّتبيِّ في قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾؛ لأنَّ المقصودَ مِن الجُملةِ هو فِعلُ (يُخرِجُكم)، وأمَّا قولُه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ﴾ فهو تَمهيدٌ له[٣].

- وأُكِّدَ (يُخْرِجُكُمْ) بالمفعولِ المُطلَقِ ﴿إِخْرَاجًا﴾؛ لرَدِّ إنكارِهم البعثَ[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ استِدلالٌ وامتِنانٌ؛ ولذلك عُلِّقَ بفِعلِ ﴿جَعَلَ﴾ مَجرورٌ بلامِ التَّعليلِ، وهو ﴿لَكُمُ﴾، أي: لأجْلِكم[٥].

- وتَوسيطُ ﴿لَكُمُ﴾ بيْن الجَعْلِ ومَفعولَيهِ في قولِه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري - حاشية ابن المُنَيِّر)) (٢/ ٣٣١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بِسَاطًا﴾ مع أنَّ حقَّه التَّأخيرُ؛ للاهتِمامِ ببَيانِ كَونِ المَجعولِ مِن مَنافِعِهم، والتَّشويقِ إلى المؤخَّرِ؛ فإنَّ النَّفْسَ عندَ تأخيرِ ما حقُّه التَّقديمُ -ولا سِيَّما عندَ كَونِ المُقدَّمِ مُلوِّحًا بكَونِه مِن المنافعِ- تَبْقَى مُترقِّبةً له، فيَتمكَّنُ عندَ وُرودِه لها فضْلَ تَمكُّنٍ[1].

- والبِساطُ: ما يُفرَشُ للنَّومِ عليه، والجلوسِ؛ مِن ثَوبٍ أو زَرْبيَّةٍ[2]؛ فالإخبارُ عن الأرضِ ببِساطٍ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: كالبِساطِ، ووَجْهُ الشَّبَهِ: تَناسُبُ سطْحِ الأرضِ في تَعادُلِ أجزائِه بحيث لا يُوجِعُ أرجُلَ الماشينَ، ولا يُقِضُّ جُنوبَ المُضطجعينَ[3].

- وليس المرادُ أنَّ اللهَ جَعَلَ حجْمَ الأرضِ كالبِساطِ؛ لأنَّ حجْمَ الأرضِ كُرَويٌّ، وقد نبَّهَ على ذلك بالعِلَّةِ الباعثةِ في قولِه: ﴿لَكُمُ﴾، والعِلَّةِ الغائيَّةِ في قولِه: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا﴾، وحَصَلَ مِن مَجموعِ العِلَّتينِ الإشارةُ إلى جَميعِ النِّعَمِ الَّتي تَحصُلُ للنَّاسِ مِن تَسويةِ سطْحِ الأرضِ مِثل الحرْثِ والزَّرعِ، وإلى نِعمةٍ خاصَّةٍ، وهي السَّيرُ في الأرضِ، وخُصَّت بالذِّكرِ؛ لأنَّها أهمُّ؛ لاشتِراكِ كلِّ الناسِ في الاستفادةِ منها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٣٩، ٤٠).

(٢) الزَّرْبيَّة: الوِسادةُ تُبسَطُ للجُلوسِ عليها، والجمع: زَرابيُّ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/ ٤٤٧)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢١-٢٥)

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿خَسَارًا﴾: أي: خُسْرانًا، والخُسْرانُ في البيعِ: انتِقاصُ رأسِ المالِ، وأصلُ (خَسِرَ): يدُلُّ على النَّقصِ[1].

﴿كُبَّارًا﴾: أي: كَبيرًا عَظيمًا، يُقالُ: كَبِيرٌ، وكُبَارٌ: بالتَّخفيفِ، وكُبَّارٌ: بالتَّشديدِ؛ كُلُّها بمعنًى واحِدٍ، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[2].

﴿لَا تَذَرُنَّ﴾: أي: لا تَدَعُنَّ، فهو بوَزْنِ وَدَعَ الشَّيءَ يَدَعُه وَدْعًا، ومَعْناه، والمُضارِعُ منه: يَذَرُ، والأمْرُ منه: ذَرْ، ولم يَرِدْ في اللُّغةِ استِعْمالُ ماضِيه ولا مَصْدَرِه، وهو بمعنَى التَّرْكِ والإهمالِ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى تضَرُّعَ نُوحٍ إليه، وشَكْواه مِن تعنُّتِ قَومِه، فيقولُ: قال نوحٌ: ربِّ إنَّ قَومي عَصَوني، واتَّبَعوا المُبطِلينَ الَّذين لم تَزِدْهم كَثرةُ أموالِهم وأولادِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٤٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٨١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٣٢).

(٣) يُنظر: ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٦٨).

إلَّا هَلاكًا وضَلالًا، ومَكَروا مَكْرًا كبيرًا جدًّا، وقال بعضُهم لبَعضٍ: لا تَترُكوا أصنامَكم الَّتي يَنْهاكم نوحٌ عن عبادتِها، ولا تَترُكوا وَدًّا، ولا سُواعًا، ولا يَغُوثَ ويَعوقَ ونَسْرًا!

وقد أضَلُّوا كثيرًا مِنَ النَّاسِ عن طَريقِ الحَقِّ، ولا تَزِدْ -يا رَبِّ- هؤلاءِ الظَّالِمينَ بالشِّركِ والتَّكذيبِ إلَّا ضَلالًا عن الحَقِّ.

ثمَّ يذكُرُ سبحانَه عقوبةَ قومِ نوحٍ الدُّنيويَّةَ والأخرويَّةَ، فيقولُ: بسَبَبِ ذُنوبِهم أغرَقَهم اللهُ، فأُدخِلوا نارًا يُعذَّبونَ فيها، فلم يَجِدوا حينَها مَن يَنصُرُهم، ويَمنَعُهم مِن عذابِ اللهِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لَمَّا دعا قَومَه إلى اللهِ، ونَبَّهَهم على هذه الدَّلائِلِ الظَّاهِرةِ؛ حكَى عنهم أنواعَ قَبائِحِهم وأقوالِهم وأفعالِهم[1].

﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾.

أي: قال نُوحٌ: ربِّ إنَّ قَومي خالَفوا ما أمَرْتُهم به، ورَدُّوا ما دعَوتُهم إليه، فلم يتَّبِعوني على الحَقِّ[2].

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ٩، ١٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾.

أي: واتَّبَعوا على الباطِلِ أبناءَ الدُّنيا الَّذين لم تَزِدْهم كَثرةُ أموالِهم وأولادِهم إلَّا هَلاكًا وبُعْدًا مِن اللهِ، وضَلالًا عن الحَقِّ[1].

﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا كُبَّارًا ٢٢﴾.

أي: ومَكَروا مكرًا كبيرًا جدًّا بنوحٍ والَّذينَ آمَنوا معه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦].

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرًا ٢٣﴾.

﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ﴾.

أي: وقال بعضُهم لبَعضٍ: لا تَترُكوا أصنامَكم الَّتي يَنهاكم نوحٌ عن عبادتِها[3]!

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٤٧، ٤٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

قال البغوي: (واختَلَفوا في مَكرِهم. قال ابنُ عبَّاسٍ: قالوا قولًا عظيمًا. قال الضَّحَّاكُ: افتَرَوْا على الله كَذِبًا، وكذَّبوا رُسُلَه. وقيل: مَنَع الرُّؤساءُ أتْباعَهم عن الإيمانِ بنوحٍ، وحَرَّضوهم على قتلِه). ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٧).

وقال ابن كثير: (والمعنَى في قولِه: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرًا كُبَّارًا﴾ أي: بأتْباعِهم في تَسويلِهم لهم بأنَّهم على الحقِّ والهدَى، كما يقولونَ لهم يومَ القيامةِ: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ [سبأ:٣٣]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

أي: ولا تَترُكوا عِبادةَ الصَّالِحينَ: وَدٍّ، وسُواعٍ، ويَغُوثَ، ويَعوقَ، ونَسرٍ[١]!

قال عَطاءٌ: عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما: (صارت الأوثانُ الَّتي كانت في قَومِ نوحٍ في العَرَبِ بَعْدُ؛ أمَّا وَدٌّ كانت لكَلبٍ بدَومةِ الجَنْدلِ، وأمَّا سُواعٌ كانت لهُذَيلٍ، وأمَّا يَغُوثُ فكانت لِمُرادٍ، ثمَّ لبَني غُطَيفٍ بالجَوفِ عندَ سَبَإٍ، وأمَّا يَعوقُ فكانت لهَمْدانَ، وأمَّا نَسْرٌ فكانت لِحِمْيَرٍ؛ لآلِ ذي الكَلاعِ؛ أسماءُ رِجالٍ صالحينَ مِن قَومِ نُوحٍ، فلمَّا هَلَكوا أوحى الشَّيطانُ إلى قَومِهم: أنِ انصِبوا إلى مجالِسِهم الَّتي كانوا يَجلِسونَ أنصابًا، وسَمُّوها بأسمائِهم، ففعَلوا، فلم تُعبَدْ، حتَّى إذا هلَكَ أولئك، وتنَسَّخَ[٢] العِلمُ، عُبِدَت!)[٣].

﴿ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗاۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا ٢٤ ﴾.

﴿ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا ﴾.

أي: وقد أضَلُّوا كثيرًا مِنَ النَّاسِ عن طَريقِ الحَقِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٨).

(٢) وتنَسَّخَ: أي: تغيَّر العِلمُ بها، وزالت المعرفةُ بحالِها. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٧/ ٤٠١).

وفي رواية أبي ذَرٍّ والكُشْمِيهَني: (ونُسِخ العِلمُ)، أي: عِلمُ تلك الصُّوَرِ بخُصوصِها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٦٩).

(٣) رواه البخاري (٤٩٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٥٩، ٣٦٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال ابنُ الجوزي: (قولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَقَدۡ أَضَلُّواْ كَثِيرٗا ﴾ فيه قولانِ؛ أحَدُهما: وقد أضَلَّت الأصنامُ كثيرًا مِن النَّاسِ، أي: ضَلُّوا بسبَبِها. والثَّاني: وقد أضَلَّ الكُبَراءُ كَثيرًا مِنَ النَّاسِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٤).

=

كما قال تعالى حكايةً عن دُعاءِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلٗا﴾.

أي: ولا تَزِدْ هؤلاءِ الظَّالِمينَ بالشِّركِ والكُفرِ والتَّكذيبِ إلَّا ضَلالًا عن الحَقِّ؛ حتَّى يَموتوا على ضلالِهم، ويَزدادوا إثمًا وعُقوبةً على باطِلِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۚ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠].

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمۡ أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا فَلَمۡ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارٗا ٢٥﴾.

---

= وممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، واختاره ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٢).

وممَّن ذَهَب إلى القَولِ الثَّاني: ابنُ عطيَّةَ، والقُرطبيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

وممَّن جمَع بيْن القولَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٤٦)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٠).

قال الواحدي: (هذا دعاءٌ عليهم بعدَ أن أعلَمَه اللهُ أنَّهم لا يُؤمِنونَ، وهو قَولُه: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]). ((الوسيط)) (٤/ ٣٦٠). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٢٣٥).

وقال ابن كثير: (دعاءٌ منه على قَومِه؛ لتمَرُّدِهم وكُفرِهم وعِنادِهم، كما دعا موسى على فِرعَونَ ومَلَئِه في قولِه: ﴿رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٠).

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾.

أي: بسَبَبِ ذُنوبِهم أغرَقَهم اللهُ، فأُدخِلوا نارًا يُعذَّبونَ فيها(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢).

قال ابنُ عاشور: (جَمعُ الخَطيئاتِ مرادٌ بها: الإشراكُ، وتكذيبُ الرَّسولِ، وأذاه، وأذى المؤمِنينَ معه، والسُّخْريةُ منه حينَ توَعَّدَهم بالطُّوفانِ، وما يَنطوي عليه ذلك كُلُّه مِن الجرائمِ والفواحِشِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢).

وقال الزمخشري: (جَعَل دُخولَهم النَّارَ في الآخِرةِ كأنَّه مُتعَقِّبٌ لإغراقِهم؛ لاقترابِه، ولأنَّه كائنٌ لا مَحالةَ، فكأنَّه قد كان، أو أُريدَ عَذابُ القَبرِ، ومَن مات في ماءٍ أو في نارٍ أو أكلَتْه السِّباعُ والطَّيرُ: أصابه ما يُصيبُ المقبورَ مِنَ العَذابِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالنَّارِ المذكورةِ هنا: نارُ جهنَّمَ: مقاتلُ بنُ سُليمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: عَذابُهم بالنَّارِ في قبورِهم: النَّسَفيُّ، والخازنُ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٨٨).

ويُنظر ما يأتي (ص: ٢٩٠).

وقال البِقاعي: (﴿فَأُدْخِلُوا۟﴾ أي: بقَهرِ القَهَّارِ في الآخرةِ الَّتي أوَّلُها البَرزَخُ يُعرضَونَ فيه على النَّارِ بُكْرةً وعَشِيًّا ﴿نَارًا﴾ أي: عَظيمةً جِدًّا أخَفُّها ما يكونُ مِن مبادِئِها في البَرزخِ، قال الشَّيخُ وليُّ الدِّينِ المَلَّويُّ: فعُذِّبوا في الدُّنيا بالغَرَقِ، وفي الآخِرةِ بالحَرقِ، والإياسِ مِن الرَّحمةِ، وأيُّ عذابٍ أشدُّ مِن ذلك؟!). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٥٣، ٤٥٤).

﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾.

أي: فلم يَجِدْ قَومُ نوحٍ حينَ أُغرِقوا وأُدخِلوا النَّارَ أعوانًا ومُغيثِينَ يَنصُرونَهم، ويَمنَعونَ عنهم عذابَ اللهِ(١).

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ ابنِ نُوحٍ: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ هذه الآيةُ حُجَّةٌ على كُلِّ مَن عَوَّلَ على شَيءٍ غَيرِ اللهِ تعالى(٢).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ نَصَّ تعالى هنا على أنَّ قَومَ نُوحٍ اتَّبَعوا مَن هذا وَصْفُه، مع أنَّ المالَ يَزيدُ الإنسانَ نَفعًا، وقد بيَّنَ تعالى أنَّ المالَ قد يُورِثُ خَسارةً وهَلاكًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾(٣) [العلق: ٦، ٧].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن أصولِ الشِّركِ باللهِ: اتِّخاذُ القُبورِ مَساجِدَ، كما قال طائفةٌ مِن السَّلَفِ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾: (هؤلاء كانوا قومًا صالِحينَ في قومِ نُوحٍ، فلمَّا ماتوا عَكَفوا على قُبورِهم، ثُمَّ صَوَّرُوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٢).

على صُوَرِهم تماثيلَ، ثُمَّ طال عليهم الأَمَدُ، فعبَدوها!)، وقد ذكر البُخاريُّ في صَحيحِه هذا المعنى عن ابنِ عَبَّاسٍ[١]، وذكره محمَّدُ بنُ جريرٍ الطَّبَريُّ وغيرُه في التَّفسيرِ[٢]، عن غيرِ واحدٍ مِنَ السَّلَفِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا نَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ حُجَّةٌ على المعتزلةِ والقَدَرِيَّةِ -المُنْكِرينَ أنَّ الهِدايةَ والإضلالَ بيَدِ اللهِ-؛ مِن أَجْلِ أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ لا يجوزُ عليه أنْ يَدعوَ بالباطِلِ، ولا اللهُ تبارك وتعالى يُسْأَلُ باطِلًا، وقد سَأَلَه أنْ يَزيدَ الظَّالِمينَ ضَلالًا؛ فدلَّ على أنَّ الكفرَ الَّذي فيهم، والزَّائدَ بدُعائِه معًا: هو مِن عندِ رَبِّه[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ استُدِلَّ به على إثباتِ عَذابِ القَبرِ؛ وذلك مِن وجهَينِ:

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ الفاءَ في قَولِه: ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ تدُلُّ على أنَّه حَصَلت تلك الحالةُ عَقِيبَ الإغراقِ، فلا يمكِنُ حَملُها على عذابِ الآخِرةِ، وإلَّا بطَلَت دَلالةُ هذه الفاءِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّه قال: ﴿فَأُدْخِلُواْ﴾ على سَبيلِ الإخبارِ عن الماضي[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ دليلٌ على أنَّ اسمَ «الخطيئةِ» واقِعٌ على الكُفرِ، ومعناها أنَّها ضِدُّ الصَّوابِ، فمَن خالَفَ اللهَ سُبحانَه وتعالى في الإيمانِ الَّذي آمَنَ به، أو واقَعَ ما نهَى عنه مِن كُفْرٍ أو مَعصيةٍ؛ فهو

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٩).

مُخطئٌ غيرُ مُصيبٍ، وإنَّما تَختَلِفُ عُقوبةُ الفِعلَينِ فقط، فليس لِتَعَلُّقِ المُعتَزِلةِ في بابِ الوعيدِ باسمِ «خطيئةٍ ذُكِرَ في عقوبتِها خُلودٌ»: وَجهٌ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ هذه الجُملةُ بدَلٌ مِن جُملةِ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ [نوح: ٥] بدَلَ اشتِمالٍ؛ لأنَّ حِكايةَ عِصيانِ قومِه إيَّاه ممَّا اشتَمَلَت عليه حِكايةُ أنَّه دَعاهم، فيَحتمِلُ أنْ تكونَ المَقالتانِ في وقْتٍ واحدٍ جاء فيه نُوحٌ إلى مُناجاةِ ربِّه بالجوابِ عن أمْرِه له بقولِه: ﴿أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١]، فتَكونَ إعادةُ فِعلِ (قال) مِن قَبيلِ ذِكرِ عاملِ المُبدَلِ منه في البدَلِ؛ للرَّبطِ بيْنَ كَلامَيه؛ لطُولِ الفصلِ بيْنَهما، ويَحتمِلُ أنْ تكونَ المَقالتانِ في وَقتينِ جَمَعَها القرآنُ حِكايةً لجَوابَيه لربِّه، فتَكونَ إعادةُ فِعلِ (قال)؛ للإشارةِ إلى تَباعُدِ ما بيْن القولينِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُستأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ ما سَبَقَها مِن قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي﴾ إلى هنا، ممَّا يُثيرُ عَجَبًا مِن حالِ قومِه المَحكيِّ بحيث يَتساءَلُ السَّامعُ عن آخِرِ أمْرِهم، فابتُدِئَ ذِكرُ ذلك بهذه الجُملةِ وما بعْدَها إلى قولِه: ﴿أَنصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، وتأْخيرُ هذا عن قولِه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥] ارتقاءٌ في التَّذمُّرِ منهم؛ لأنَّ هذا حِكايةُ حُصولِ عِصيانِهم بعدَ تَقديمِ الموعظةِ إليهم بقولِه: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ إلى قولِه: ﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾[2] [نوح: ١١- ٢٠].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَ تعالَى هنا: (قَالَ نُوحٌ) بغيرِ واوٍ، ثمَّ قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ﴾ [نوح: ٢٦]، بزِيادةِ الواوِ؛ لأنَّ الأوَّلَ ابتداءُ دُعاءٍ، والثَّانيَ عُطِفَ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٦).

عليه[١].

- وإظهارُ اسمِ نُوحٍ مع القولِ الثَّاني دونَ إضمارٍ؛ لبُعدِ مَعادِ الضَّميرِ لو تَحمَّلَه الفعلُ[٢].

- قولُه: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ...﴾ هذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في لازِمِ معناه، وهو الشِّكايةُ والتَّمهيدُ لطَلَبِ النَّصْرِ عليهم؛ لأنَّ المُخاطَبَ به عالِمٌ بمَدْلولِ الخبَرِ. وذلك ما سَيُفْضي إليه بقولِه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ...﴾ الآياتِ [نوح: ٢٦]. وتأْكيدُ الخبرِ بـ(إنَّ)؛ للاهتمامِ بما استُعمِلَ فيه مِن التَّحسُّرِ والاستِنْصارِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ عَدَلَ عن التَّعبيرِ عن الكافِرينَ بالكُبراءِ ونحْوِه إلى المَوصولِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن بَطَرِهم نِعمةَ اللهِ عليهم بالأموالِ والأولادِ، فقَلَبوا النِّعمةَ عندَهم مُوجِبَ خَسارٍ وضَلالٍ[٤].

- وأُدمِجَ في الصِّلةِ أنَّهم أهلُ أموالٍ وأولادٍ؛ إيماءً إلى أنَّ ذلك سَببُ نَفاذِ قولِهم في قَومِهم، وائتمارِ القَومِ بأمْرِهم؛ فأمْوالُهم إذ أنْفَقوها لتأْليفِ أتْباعِهم؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦]، وأولادُهم أرْهَبوا بهم مَن يُقاوِمُهم[٥]. ففي وصْفِهم بذلكَ إشعارٌ بأنَّهم إنَّما اتَّبَعوهم لوَجاهتِهم الحاصِلةِ لهم بسَببِ الأموالِ والأولادِ، لا لِما شاهَدُوا

---

(١) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤١)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٠٦، ٢٠٧).

فيهم مِن شُبهةٍ مُصحِّحةٍ للاتِّباعِ في الجُملةِ[١].

- وجَعَل أموالَهم وأولادَهم الَّتي لم تَزِدْهم إلَّا وَجاهةً ومَنفعةً في الدُّنيا زائدةً خَسارًا في الآخرةِ، وأجْرى ذلك مُجرى صِفةٍ لازمةٍ لهم، وسِمةٍ يُعرَفون بها؛ تَحقيقًا له وتَثبيتًا، وإبطالًا لِما سِواه؛ فكنَّى عن الرُّؤساءِ بقولِه: ﴿مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾، كما يُكنَّى عن الإنسانِ بقولِهم: حَيٌّ مُستوي القامةِ، عَريضُ الأظفارِ؛ لأنَّه صِفةٌ لازِمةٌ، أي: كاشِفةٌ مُوضِّحةٌ، فنَفى عنهم جَميعَ وُجوهِ الأرباحِ والمنافعِ، وأثبَتَ لهم الخَسارَ[٢].

- والخَسارُ: مُعبَّرٌ به عن حُصولِ الشَّرِّ مِن وَسائلَ شأْنُها أنْ تكونَ سَببَ خيرٍ، كخَسارةِ التَّاجِرِ مِن حيثُ أرادَ الرِّبحَ، فإذا كان هؤلاء خاسِرينَ فالَّذين يَتْبَعونهم يَكونونَ مِثلَهم في الخسارةِ، وهم يَحسَبون أنَّهم أرْشَدوهم إلى النَّجاحِ[٣].

- وماصَدَقَ[٤] (مَن) فريقٌ مِن القومِ أهلُ مالٍ وأولادٍ ازْدادوا بذلك بَطَرًا دونَ الشُّكرِ، وهم سادَتُهم؛ ولذلك أُعيدَ عليه ضَميرُ الجمْعِ في قولِه: ﴿وَمَكَرُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَقَالُواْ﴾، وقولِه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾[٥] [نوح: ٢٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

(٤) الماصَدَق -عند المناطقة-: الأفرادُ الَّتي يتحقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ، ويُقابِلُه: المفهومُ، وهو: مجموعُ الصِّفاتِ والخصائصِ الموضحةِ لمعنًى كلِّيٍّ. يُنظر: ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١) و(٢/ ٧٠٤). ويُنظر أيضًا: ((ضوابط المعرفة)) لحبنكة (ص: ٤٥، ٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

- قولُه: ﴿كُبَّارًا﴾ مُبالَغةٌ، أي: كبيرًا جدًّا[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ يَحتمِلُ أنْ يكونَ لقومِ نوحٍ أصنامٌ كثيرةٌ جَمَعَها قولُ كُبرائِهم: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، ثمَّ خَصُّوا بالذِّكرِ أعظَمَها، وهي هذه الخمسةُ، فيَكونَ ذِكرُها مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتِمامِ به. ويَحتمِلُ ألَّا يكونَ لهم غيرُ تلك الأصنامِ الخَمسةِ؛ فيَكونَ ذِكرُها مُفصَّلةً بعْدَ الإجمالِ؛ للاهتِمامِ بها، ويكونَ العطْفُ مِن قَبيلِ عطْفِ المُرادِفِ، ولقصْدِ التَّوكيدِ أُعِيدَ فِعلُ النَّهيِ ﴿وَلَا تَذَرُنَّ﴾، ولم يُسلَكْ طَريقُ الإبدالِ، والتَّوكيدُ اللَّفظيُّ قدْ يُقرَنُ بالعاطِفِ كقولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾[٢] [الانفطار: ١٧، ١٨].

- وتَكريرُ (لا) النَّافيةِ في قولِه: ﴿وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ﴾ لتَأكيدِ النَّفيِ الَّذي في قولِه: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾، وعدَمُ إعادةِ (لا) مع قولِه: ﴿وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾؛ لأنَّ الاستِعمالَ جارٍ على ألَّا يُزادَ في التَّأكيدِ على ثلاثِ مرَّاتٍ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾

- يَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ تَتمَّةَ كلامِ نوحٍ، مُتَّصِلةً بحِكايةِ كَلامِه السَّابقِ، فتَكونَ الواوُ عاطفةً جُزءَ جُملةٍ مَقولةٍ لفِعلِ ﴿قَالَ﴾ [نوح: ٢١] على جُزئِها الَّذي قبْلَها عطْفَ المَفاعيلِ بَعضِها على بَعضٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ غيرَ مُتَّصلةٍ بحِكايةِ كَلامِه في قولِه: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٠٩، ٢١٠).

عَصَوْنِي﴾ [نوح: ٢١]، بلْ هو حِكايةُ كلامٍ آخَرَ له صدَرَ في مَوقفٍ آخَرَ؛ فتَكونَ الواوُ عاطفةً جُملةَ مَقولةِ قولٍ على جُملةِ مَقولةِ قولٍ آخَرَ، أي: نائبةٍ عن فِعلِ ﴿قَالَ﴾[1]. ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةً مُعترِضةً، وهي مِن كَلامِ اللهِ تعالَى لنوحٍ عليه السَّلامُ، فتَكونَ الواوُ اعتراضيَّةً، ويُقدَّرُ قولٌ مَحذوفٌ: وقُلْنا: لا تَزِدِ الظَّالِمينَ، والمعنى: ولا تَزِدْ في دُعائِهم؛ فإنَّ ذلك لا يَزيدُهم إلَّا ضَلالًا، فالزِّيادةُ منه تَزيدُهم كُفرًا وعِنادًا. وبهذا يَبْقى الضَّلالُ مُستعمَلًا في معْناه المشهورِ في اصطلاحِ القُرآنِ، فصِيغةُ النَّهيِ مُستعمَلةٌ في التَّأييسِ مِن نفْعِ دَعوتِه إيَّاهم[2].

- والمرادُ بالظَّالِمينَ: قومُه الَّذين عَصَوه، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ التَّعبيرَ عنهم بالضَّميرِ عائدًا على ﴿قَوْمِي﴾ مِن قولِه: ﴿دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: ٥]، فعُدِلَ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ؛ لِما يُؤذِنُ به وصْفُ الظَّالِمينَ مِن استِحقاقِهم الحِرمانَ مِن عِنايةِ اللهِ بهم لظُلْمِهم، أي: إشراكِهم باللهِ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾، وقال في آخِرِ السُّورةِ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾؛ فاختَصَّ الأوَّلَ بالإضلالِ، والثَّانيَ بالإهلاكِ الَّذي هو التَّبارُ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ الأوَّلَ جاء بعْدَ قولِه: ﴿وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣]. وأمَّا الآخَرُ فخَتَمَه بقولِه: ﴿تَبَارًا﴾، أي: هَلاكًا؛ مُوافَقةً لقولِه قبْلُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٠، ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٠، ٢١١).

(٤) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٠٥، ١٣٠٦)، ((أسرار التكرار في =

٥- قولُه تعالَى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْنَ مَقالاتِ نوحٍ عليه السَّلامُ، وليستْ مِن حِكايةِ قولِ نوحٍ عليه السَّلامُ؛ فهي إخبارٌ مِن اللهِ تعالَى لرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه قدَّرَ النَّصرَ لنُوحٍ والعِقابَ لِمَن عَصَوه مِن قَومِه قبْلَ أنْ يَسألَه نوحٌ استِئصالَهم، فإغراقُ قومِ نُوحٍ مَعلومٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإنَّما قُصِدَ إعلامُه بَسببِه. والغرَضُ مِن الاعتراضِ بها التَّعجيلُ بتَسليةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ما يُلاقِيه مِن قَومِه ممَّا يُماثِلُ ما لاقاهُ نوحٌ عليه السَّلامُ مِن قَومِه. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُتَّصِلةً بجُملةِ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَـٰلًا﴾ [نوح: ٢٤] على وَجْهِ أنْ تكونَ مِن كَلامِ اللهِ تعالَى الموجَّهِ إلى نوحٍ عليه السَّلامُ، بتَقديرِ: وقُلْنا: لا تَزِدِ الظَّالمينَ إلَّا ضَلالًا، وتَكونَ صِيغةُ المُضِيِّ في قولِه: ﴿أُغْرِقُواْ﴾ مُستعمَلةً في تَحقُّقِ الوعدِ لنُوحٍ بإغراقِهم، وكذلك قولُه: ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾[1].

وقيل: هو اعتراضٌ وُسِّطَ بيْنَ دُعائِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ ما أصابَهم مِن الإغراقِ والإحراقِ لم يُصِبْهم إلَّا مِن أجْلِ خَطيئاتِهم الَّتي عدَّدَها نوحٌ عليه السَّلامُ، وأشارَ إلى استحقاقِهم للإهلاكِ مِن أجْلِها، لا أنَّها حِكايةٌ لنفْسِ الإغراقِ والإحراقِ على طَريقةِ حِكايةِ ما جَرى بيْنَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وبيْنَهم مِن الأحوالِ والأقوالِ، وإلَّا لأُخِّرَ عن حِكايةِ دُعائِه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[2].

---

= القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤١)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٤٨٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١).

- وقُدِّمَ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ﴾ على عامِلِه لإفادةِ القصْرِ[١]، أي: أُغرِقوا فأُدخِلوا نارًا مِن أجْلِ مَجموعِ خَطيئاتِهم، لا لمُجرَّدِ استجابةِ دَعوةِ نوحٍ عليه السَّلامُ الَّتي ستُذكَرُ عقِبَ هذا؛ ليُعلَمَ أنَّ اللهَ لا يُقِرُّ عِبادَه على الشِّركِ بعْدَ أنْ يُرسِلَ إليهم رَسولًا، وإنَّما تأخَّرَ عَذابُهم إلى ما بعْدَ دَعوةِ نوحٍ عليه السَّلامُ؛ لإظهارِ كَرامتِه عندَ ربِّه بيْنَ قومِه، ومَسرَّةً له وللمؤمنينَ معه، وتَعجيلًا لِما يَجوزُ تأْخيرُه. و(مِن) تَعليليَّةٌ، و(ما) مُؤكِّدةٌ لمعْنى التَّعليلِ، والتَّفخيمِ[٢].

- قولُه: ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ المرادُ عَذابُ القَبرِ، أو عذابُ الآخِرةِ، والتَّعقيبُ بالفاءِ علَى الأوَّلِ ظاهرٌ، وهو على هذا لعَدَمِ الاعتِدادِ بما بيْنَ الإغراقِ والإدخالِ، فكأنَّه شبَّه تخلُّلَ ما لا يُعتَدُّ به بعدَمِ تَخلُّلِ شيءٍ أصلًا. أو لأنَّ المُسبَّبَ كالمُتعقِّبِ للسَّببِ وإنْ تَراخَى عنه لفَقْدِ شَرطٍ، أو وُجودِ مانعٍ، كما أنَّه عبَّر عن المُستقبَلِ بالماضي لتَحقُّقِه. ولا يَخفَى ما في ﴿أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ مِن الحُسنِ الذي لا يُجارَى، وللهِ تعالَى درُّ التَّنزيلِ[٣].

- قوله: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] فيه ما يعرف بالطباق الخفي، وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متَوهَّمةً، فتَبدو المُطابَقةُ خفيَّةً لتعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ[٤].

---

(١) سيأتي تعريفُه (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠، ٦٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((خزانة الأدب)) للحموي =

- وتَنكيرُ النَّارِ إمَّا لتَعظيمِها وتَهويلِها، أو لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أعدَّ لهم على حسَبِ خَطيئاتِهم نَوعًا مِن النارِ[1].

- وتَفريعُ ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ تَعريضٌ بالمشرِكين مِن العرَبِ الَّذين كانوا يَزعُمون أنَّ الأصنامَ تَشفَعُ لهم، وتَدفَعُ عنهم الكَوارثَ -أي: في الدُّنيا؛ لأنَّهم لا يُؤمِنون بالبعثِ-، وتَهكُّمٌ بهم، كأنَّه قال: فلمْ يَجِدوا لهم مِن دونِ اللهِ آلهةً يَنصُرونهم، ويَمنَعونهم مِن عَذابِ اللهِ[2].

---

= (١/ ١٥٩، ١٦٠)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٠، ٦٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٢، ٢١٣).

## الآيات (٢٦-٢٨)

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دَيَّارًا﴾: أي: أحَدًا يَدورُ فيها، وهو مِن ألفاظِ العُمومِ الَّتي تُستَعمَلُ في النَّفيِ العامِّ، وهو فَيْعالٌ مِنَ الدَّوَرانِ، وقيل: مِن الدَّارِ، أي: نازِلَ دارٍ، وأصلُ (دور): يدُلُّ على إحداقِ الشَّيءِ بالشَّيءِ مِن حوالَيه[1].

﴿تَبَارًا﴾: أي: هَلاكًا وخُسرانًا، وأصلُ (تبر) هنا: الهلاكُ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى ما دعا به نوحٌ عليه السَّلامُ على قومِه -بعْدَ أنْ يئِس مِن إيمانِهم-، وما دعا به للمؤمِنينَ، فيقولُ: وقال نوحٌ: رَبِّ لا تُبْقِ على الأرضِ أحَدًا حيًّا مِنَ الكافِرينَ.

ثمَّ ذكَر نوحٌ عليه السَّلامُ السَّببَ في ذلك، فقال: إنَّك إنْ أبقَيْتَهم أحياءً يُضِلُّوا عِبادَك المؤمِنينَ، ولا يَلِدوا إلَّا مَن سيَكونُ فاجِرًا شديدَ الفَسادِ، وكثيرَ الكُفرِ برَبِّه.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٨).

ثمَّ ختَم نوحٌ عليه السَّلامُ دعاءَه بقولِه: رَبِّ اغفِرْ لي ولوالِدَيَّ، ولِمَن دَخَل مَنزِلي مِنَ المُؤمِنينَ، واغفِرْ للمُؤمِنينَ والمؤمِناتِ، ولا تَزِدِ الظَّالِمينَ أنفُسَهم بكُفرِهم إلَّا هَلاكًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: وقال نوحٌ: رَبِّ لا تُبْقِ على الأرضِ أحَدًا حيًّا مِنَ الكافِرينَ[1].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣).

قال الأُلوسيُّ: (الدَّيَّارُ مِن الأسماءِ الَّتي لا تُستعمَلُ إلَّا في النَّفْيِ العامِّ؛ يُقالُ: ما بالدَّارِ دَيَّارٌ أو دَيُّورٌ -كقَيَّامٍ وقيُّومٍ- أي: ما بها أحدٌ، وهو فَيْعالٌ؛ مِن الدَّارِ أو مِن الدَّوْرِ، كأنَّه قِيل: لا تَذَرْ على الأرضِ مِنَ الكافِرينَ مَن يَسكُنُ دارًا، أو لا تَذَرْ عليها منهم مَن يَدورُ ويَتحرَّكُ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٨٨).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ -أي: أنَّ الدَّيَّارَ مأخوذٌ مِن الدَّارِ، والمعنى: الَّذي يَنزِلُ ويحلُّ بالدِّيارِ-: ابنُ قُتَيْبَةَ، والواحديُّ، وجلال الدين المحلي، والشنقيطي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٦٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٣).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ في الجملةِ -أي: أنَّ الدَّيَّارَ مأخوذٌ مِن الدَّوَرانِ، والمعنى: الَّذي يَدورُ في الأرضِ فيَذهَبُ ويَجيءُ-: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، وابن عطية، والنسفي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

قال البِقاعي: (﴿دَيَّارًا﴾ أي: أحدًا يَدورُ فيها، وهو مِن ألفاظِ العُمومِ الَّتي تُستَعمَلُ في النَّفيِ العامِّ، فيُقالُ مِن الدَّورِ أو الدَّارِ، لا فَعَّالٌ، وإلَّا لَكان دَوَّارًا، ويجوزُ -وهو أقرَبُ- أن يكونَ هذا الدُّعاءُ عندَ رُكوبِه السَّفينةَ، وابتِداءِ الإغراقِ فيهم، يريدُ به العُمومَ؛ كراهيةَ أن يبقى أحدٌ منهم =

كما قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦].

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الرُّسُلُ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ لا يَقولونَ ولا يَفعَلونَ إلَّا ما فيه مَصلحةُ الدِّينِ؛ عَلَّل نوحٌ عليه السَّلامُ دُعاءَه بقَولِه[1]:

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾.

أي: إنَّك إنْ أبقَيْتَهم أحياءً يُضِلُّوا عِبادَك المؤمِنينَ، فيَصُدُّوهم عن الحَقِّ، ويُزَيِّنوا لهم الباطِلَ[2].

﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

أي: ولا يَلِدوا إلَّا مَن سيَكونُ فاجِرًا شديدَ الفَسادِ، وكثيرَ الكُفرِ برَبِّه[3].

---

= على ذِروةِ جَبَلٍ أو نحوِه، لا أصل الإغراقِ، وأن يكونَ معنى ما قَبْلَه الحُكمَ بإغراقِهم، وتحتُّمَ القَضاءِ به، أو الشُّروعَ فيه). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٥٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٧)، ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ١١٠٩، ١١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

قال السعدي: (أي: بَقاؤُهم مَفسَدةٌ مَحْضةٌ لهم ولِغَيرِهم، وإنَّما قال نوحٌ عليه السَّلامُ ذلك؛ لأنَّه مع كثرةِ مخالطتِه إيَّاهم، ومُزاوَلَتِه لأخلاقِهم، عَلِمَ بذلك نتيجةَ أعمالِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٨٩).

وقال ابنُ عاشور: (عَلِمَ نُوحٌ أنَّهم لا يَلِدونَ إلَّا فاجِرًا كَفَّارًا بأنَّ أولادَهم يَنشَؤونَ فيهم، فيُلَقِّنونَهم دينَهم، ويَصُدُّونَ نُوحًا عن أن يُرشِدَهم، فحَصَل له عِلمٌ بهذه القِضيَّةِ بدَليلِ التَّجرِبةِ). =

﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا ٢٨﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا دعا نوحٌ عليه السَّلامُ على الكُفَّارِ، استَغفَرَ للمُؤمِنينَ؛ فبدأ بنَفْسِه، ثمَّ بمَن وجَبَ بِرُّه عليه، ثمَّ للمُؤمِنينَ[1].

﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾.

أي: وقال نوحٌ: رَبِّ امْحُ الذُّنوبَ عنِّي وعن والِدَيَّ، واسْتُرْها علينا، ولا تُؤاخِذْنا بها[2].

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا﴾.

أي: واغفِرْ لِمَن دَخَل مَنزِلي مِنَ المُؤمِنينَ[3].

---

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

واستظهَر البِقاعي أنَّ هذا الكلامَ لا يَقولُه إلَّا عن وَحيٍ، كما في سورةِ هودٍ عليه السَّلامُ، مِن قَولِه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٣)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ ﴿بَيۡتِيَ﴾: مَنْزلي: الثعلبيُّ، والبغوي، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والعليمي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٥٩). =

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

أي: واغفِرْ ذُنوبَ جَميعِ المُؤمِنينَ والمؤمِناتِ[١].

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾

أي: ولا تَزِدِ الظَّالِمينَ أنفسَهم بكُفرِهم إلَّا هَلاكًا[٢].

---

= وقال ابنُ كثير: (ولا مانِعَ مِن حَملِ الآيةِ على ظاهِرِها، وهو أنَّه دعا لكُلِّ مَن دَخَل مَنزِلَه وهو مُؤمِنٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧).

وذهب ابن عاشور إلى أنَّ المرادَ أهلُه وذَووه المؤمِنونَ، فدَخَل أولادُه وبَنوهم والمؤمِناتُ مِن أزواجِهم الَّذين يَسكُنون معه، فالمرادُ بالدُّخولِ في الآيةِ دُخولٌ مخصوصٌ، وهو الدُّخولُ المتكَرِّرُ الملازِمُ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٥).

وقيل: المرادُ: مَسْجِدي. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والقرطبي، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٥٨).

وقريبٌ مِن هذا القولِ قولُ مَن قال: ﴿دَخَلَ بَيْتِيَ﴾: أي: دخَل شريعتي، واختاره ابنُ عرفة، ورُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ ﴿دَخَلَ بَيْتِيَ﴾، أي: في ديني، وهو قولُ جُوَيْبِرٍ؛ وذلك لأنَّ مَن دخَل مَسجِدَه مؤمِنًا، فقد دخل في دينِه. يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٣٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٧٥)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٠٦).

وقيل: المرادُ: سَفينتي. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧).

قال القرطبي: (﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عامَّةً إلى يومِ القيامةِ. قاله الضَّحَّاكُ. وقال الكلبيُّ: مِن أمَّةِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم. وقيل: مِن قَومِه. والأوَّلُ أظهَرُ). ((تفسير القرطبي)) (١٨/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ في كَلامِ نُوحٍ عليه السَّلامُ دَلالةٌ على أنَّ المُصلِحينَ يَهتَمُّونَ بإصلاحِ جِيلِهم الحاضِرِ، ولا يُهمِلونَ تأسيسَ أُسُسِ إصلاحِ الأجيالِ الآتيةِ؛ إذ الأجيالُ كُلُّها سواءٌ في نَظَرِهم الإصلاحيِّ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ فيه أدَبٌ عَظيمٌ مِن آدابِ الدُّعاءِ، وهو جَمعُ الوالِدَينِ والمؤمِنينَ في الدُّعاءِ، والابتِداءُ بنَفْسِه[٢]، فيُؤخَذُ مِنه: أنَّ سُنَّةَ الدُّعاءِ أنْ يُقدِّمَ الإنسانُ الدُّعاءَ لنفْسِه على الدُّعاءِ لغَيرِه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ دعا نوحٌ عليه السَّلامُ على الكافِرينَ أجمَعينَ، ودعا النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَن تحزَّبَ على المؤمِنينَ، وألَّبَ عليهم[٤]، وكان هذا أصلًا في الدُّعاءِ على الكُفَّارِ في الجُملةِ[٥].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ ردٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ شَديدٌ؛ وذلك أنَّ نوحًا عليه السَّلامُ مع نُبُوَّتِه جَمَع في دُعائِه بيْنَ إضلالِهم للعِبادِ وإيلادِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٦).

(٤) يُنظر ما أخرجه البخاري (٢٩٣٣)، ومسلم (١٧٤٢).

(٥) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣١٢).

الفُجَّارَ والكُفَّارَ؛ فلم يُنكِرْه عليه ربُّه، ثُمَّ أنزَلَه على نبيِّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في كتابِه مَدْحًا للدَّاعي، وذَمًّا للمَدعُوِّ عليه، وأخبَرَ نصًّا بغَيرِ تفسيرٍ ولا تأويلٍ أنَّ المولودَ مِن قَومِه يُولَدُ فاجِرًا كافِرًا قبْلَ أنْ يَكتَسِبَهما كَبيرًا بسَيِّئِ عَمَلِه[١]!

فإن قيل: ما الجمعُ بيْنَ هذا وبيْن حديثِ: ((كُلُّ مَولودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ))[٢]؟

**فالجوابُ**: أنَّه يولَدُ على الفِطرةِ، ثمَّ يَصيرُ في ثاني حالٍ فاجِرًا كَفَّارًا[٣].

وأيضًا فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ مُختَصٌّ بِمَن عاشَ منهم إلى أن بلَغ، بدليلِ حديثِ الفِطرةِ السَّابقِ[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف دعا نوحٌ على قَومِه بذلك، مع أنَّه أُرسِلَ إليهم؛ لِيَهدِيَهم ويُرشِدَهم؟

**والجوابُ**: أنَّه لم يَدْعُ عليهم هذا الدُّعاءَ إلَّا بَعْدَ أن تحَدَّوه، ويَئِسَ منهم؛ أمَّا تحَدِّيهم ففي قَولِهم: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [هود: ٣٢]، وقَولِه: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٨٥) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الحديثية)) لابن حجر الهيتمي (ص: ٧٨).

وقال ابن القيِّم: (إن قيل: فالغلامُ الَّذي قتَلَه الخَضِرُ طُبِع يومَ طُبِع كافرًا، وقال نوحٌ عن قومِه: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾... قيل: هذا لا يُناقِضُ كونَه مولودًا على الفِطرةِ؛ فإنَّه طُبِع وَوُلِد مُقدَّرًا كُفْرُه إذا عقَلَ، وإلَّا ففي حالِ ولادتِه لا يَعرِفُ كفرًا ولا إيمانًا، فهي حالٌ مُقدَّرةٌ لا مُقارِنةٌ للعامِلِ، فهو مولودٌ على الفِطرةِ ومولودٌ كافرًا باعتِبارَينِ صحيحَينِ ثابتَينِ له، هذا بالقَبولِ وإيثار الإسلامِ لو خُلِّيَ، وهذا بالفعلِ والإرادةِ إذا عقَلَ. فإذا جمَعْتَ بيْن الفِطرةِ السَّابقةِ والرَّحمةِ السَّابقةِ العاليةِ والحِكمةِ البالغةِ والغِنى التَّامِّ، وقرَنْتَ بيْن فِطرتِه ورحمتِه وحكمتِه وغِناهُ؛ تبيَّنَ لك الأمرُ). ((شفاء العليل)) (ص: ٢٦٢).

مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ [القمر: ٩، ١٠]. وأمَّا يأسُه منهم فلِقَولِه تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾[1] [هود: ٣٦].

٤- قولُه تعالَى حكايةً عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ احتَجَّ به الخوارجُ على أنَّ أطْفالَ المشركينَ كُفَّارٌ، في النَّارِ. ولا حُجَّةَ لهم في هذه الآيةِ؛ لأنَّ نُوحًا عليه السَّلامُ إنَّما أرادَ قَومَه خاصَّةً؛ لأنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قال له: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فأيْقَنَ نوحٌ بهذا؛ أنَّه لنْ يُؤمِنَ منهم أحَدٌ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ جوازُ الدُّعاءِ على القومِ إذا أيِسَ مِن صلاحِهم، وتَمَرَّدوا تَمَرُّدًا بالِغًا[3].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ إنْ قيلَ: كيف عَرَف نوحٌ عليه السَّلامُ ذلك؟

**الجوابُ**: بالنَّصِّ والاستِقراءِ؛ أمَّا النَّصُّ فقَولُه تعالى: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٣)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٣).

(٢) يُنظر: ((الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل)) لابن حزم (٤/ ٦١)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٥٩٧).

وأطفالُ المشركين الَّذين ماتوا قبلَ أن يُمَيِّزوا شيئًا قد اختلَفوا في حُكمِهم اختلافًا كثيرًا، وذكر ابنُ القيِّم في هذه المسألةِ ثمانيةَ مَذاهِبَ، والمذهبُ الثَّامنُ: أنَّهم يُمتحَنونَ في عَرْصةِ القيامةِ، ويُرسَلُ إليهم هناك رسولٌ، وإلى كلِّ مَن لم تَبْلُغْه الدَّعوةُ، فمَن أطاع الرَّسولَ دخل الجنَّةَ، ومَن عصاه أدخله النَّارَ. قال: (وعلى هذا فيكونُ بعضُهم في الجنَّةِ، وبعضُهم في النَّارِ. وبهذا يتألَّفُ شملُ الأدِلَّةِ كلِّها، وتَتوافَقُ الأحاديثُ). ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) (ص: ٣٨٧-٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٤٩).

إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ ﴾ [هود: ٣٦]، وأمَّا الاستِقراءُ فهو أنَّه لَبِثَ فيهم ألْفَ سَنةٍ إلَّا خَمسينَ عامًا، فعرَف طِباعَهم وجَرَّبَهم، وكان الرَّجُلُ منهم يَنطَلِقُ بابنِه إليه، ويقولُ: (احذَرْ هذا؛ فإنَّه كَذَّابٌ! وإنَّ أبي أوصاني بمِثلِ هذه الوَصيَّةِ!)، فيموتُ الكبيرُ، ويَنشأُ الصَّغيرُ على ذلك[1]!

فلا تَعارُضَ بيْن هذه الآيةِ والآياتِ الأُخَرِ الَّتي تدُلُّ على أنَّ الغَيبَ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، كقولِه: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، وكقولِ نوحٍ نفْسِه فيما ذَكَرَه اللهُ عنه في سُورةِ (هودٍ): ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ [هود: ٣١] الآيةَ؛ لأنَّه عَلِم ذلك بوَحْيٍ مِن اللهِ أنَّ قومَه لا يُؤمِنُ منهم أحدٌ إلَّا مَنْ آمَنَ[2].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ سُؤالٌ: هل يُخبِرُ نوحٌ اللهَ تعالى بالواقِعِ، أَليسَ اللهُ تعالى عالِمًا به؟!

**الجوابُ**: بلى، هو عالِمٌ به، لكِنَّ قَصْدَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بيانُ الحاملِ له على هذا الدُّعاءِ، وهو أنَّه يَعتَقِدُ أنَّه إذا أبقاهم فإنَّهم لا يَلِدونَ إلَّا فاجِرًا كفَّارًا، وإلَّا فاللهُ تعالى عليمٌ به؛ فيكونُ هذا كالاعتِذارِ عن هذا السُّؤالِ العامِّ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[3].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ خَصَّ نَفْسَه أوَّلًا بالدُّعاءِ، ثمَّ المتَّصِلينَ به؛ لأنَّهم أَولى وأحَقُّ بدُعائِه[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٥٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٠).

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ هذا يدُلُّ على أنَّ أبوَيْ نُوحٍ عليه السَّلامُ كانا مُؤمِنَينِ(١).

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ بِشارةٌ لكلِّ مُؤمِنٍ ومُؤمِنةٍ تَكونُ إلى يومِ القيامةِ؛ لأنَّ نوحًا عليه السَّلامُ نبيٌّ، ودُعاؤُه مُستقيمٌ(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الميِّتَ يَنتَفِعُ بدُعاءِ الخَلْقِ له(٣).

١٢- قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارٗا﴾ فيه سُؤالٌ: ما جُرْمُ الصِّبيانِ حِين أُغرِقوا؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ:** قال الحسَنُ: (عَلِمَ اللهُ بَراءةَ الصِّبيانِ، فأهْلَكَهم بغَيرِ عَذابٍ).

**الوجهُ الثَّاني:** غَرِقوا معهم لا علَى وجْهِ العِقابِ، بلْ كما يَموتون بالغَرَقِ والحَرْقِ، وكان ذلك زِيادةً في عَذابِ الآباءِ والأمَّهاتِ إذا أبْصَروا أطْفالَهم يَغرَقون.

**الوجهُ الثَّالثُ:** أنَّه قيل: إنَّ اللهَ تعالَى أيْبَسَ أصلابَ آبائِهم، وأعْقَمَ أرحامَ نِسائِهم قبْلَ الطُّوفانِ بأربعينَ سَنةً أو تِسعينَ، فلم يكُنْ معهم صَبيٌّ حينَ أُغرِقوا، ويدُلُّ عليه قولُه: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ إلى قولِه: ﴿وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وهذا يدُلُّ -بحسَبِ المفهومِ- على أنَّهم إذا لم يَستغفِروا فإنَّه تَعالى لا يُمْدِدُهم

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٩/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٣٠٦).

بالبَنينَ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾

- قولُه: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ عطْفٌ على ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ [نوح: ٢١]؛ أعْقَبَه بالدُّعاءِ عليهم بالإهلاكِ والاستئصالِ بألَّا يُبقِيَ منهم أحَدًا، أي: لا تُبْقِ منهم أحدًا على الأرضِ. وأُعِيدَ فِعلُ (قال)؛ لوُقوعِ الفَصلِ بيْن أقوالِ نُوحٍ عليه السَّلامُ بجُملةِ ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ ...﴾[نوح: ٢٥] إلخ، أو بها وبجُملةِ ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ [نوح: ٢٤]. وقُرِنَت بواوِ العطْفِ لتَكونَ مُستقِلَّةً فلا تَتبَعَ جُملةَ ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ دَعوةَ نُوحٍ عليه السَّلامُ حَصَلَت بعْدَ شِكايتِه بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾[٢].

- و﴿دَيَّارًا﴾: اسمٌ مَخصوصٌ بالوُقوعِ في النَّفيِ يَعُمُّ كلَّ إنسانٍ، ومعْنى دَيَّارٍ: مَن يحُلُّ بدارِ القَومِ، كِنايةً عن إنسانٍ[٣].

- وجُملةُ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ﴾ تَعليلٌ لسُؤالِه ألَّا يَترُكَ اللهُ على الأرضِ أحدًا مِن الكافِرين، يُريدُ أنَّه خَشِيَ أنْ يُضِلُّوا بعضَ المؤمنينَ، وأنْ يَلِدوا أبناءً يَنْشَؤون على كُفْرِهم[٤].

- و(الكَفَّارُ): مُبالَغةٌ في الموصوفِ بالكُفْرِ، أي: إلَّا مَن يَجمَعُ بيْنَ سُوءِ الفِعلِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٣).

وسُوءِ الاعتقادِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ جَعَل الدُّعاءَ لنفْسِه ووالِدَيْه خاتمةَ مُناجاتِه؛ فابْتَدَأَ بنَفْسِه، ثمَّ بأقرَبِ النَّاسِ به -وهما والِداهُ-؛ لأنَّهم أَولى وأحقُّ بدُعائِه، ثمَّ عمَّمَ أهْلَه وذَوِيه المؤمنينَ، فدَخَل أولادُه وبَنُوهم والمؤمناتُ مِن أزواجِهم، وعبَّرَ عنهم بمَن دَخَلَ بَيْتَه كِنايةً عن سُكْناهم معه -على قولٍ-؛ فالمُرادُ بقولِه: ﴿دَخَلَ بَيْتِيَ﴾ دُخولٌ مَخصوصٌ، وهو الدُّخولُ المُتكرِّرُ الملازِمُ، ثمَّ عمَّمَ المؤمنينَ والمؤمناتِ، ثمَّ عاد بالدُّعاءِ على الكَفَرةِ بأنْ يَحرِمَهم اللهُ النَّجاحَ؛ فختَم الكلامَ مرَّةً أُخرى بالدُّعاءِ على الكافِرينَ، وهو على حدِّ قولِه المُتقدِّمِ: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾[٢] [نوح: ٢٤].

- و(التَّبارُ): الهَلاكُ والخَسارُ؛ فهو تَخصيصٌ للظَّالِمينَ مِن قَومِه بسُؤالِ استِئصالِهم بعْدَ أنْ شَمِلَهم وغيرَهم بعُمومِ قولِه: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]؛ حِرصًا على سَلامةِ المجتمَعِ الإنسانيِّ مِن شَوائبِ المَفاسِدِ، وتَطهيرِه مِن العناصرِ الخبيثةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٥).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الجِنِّ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ الجِنِّ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (الجِنِّ)[١].

## بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الجِنِّ مكِّيَّةٌ، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

ذِكرُ ما يتَّصِلُ بخبرِ الجنِّ، واستِماعِهم القرآنَ، وما كان مِن مَردودِ ذلك عليهم، وما للمُستَجيبينَ لأمرِ الله والمُعرِضينَ عنه[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- سَماعُ جَماعةٍ مِن الجِنِّ للقرآنِ، وإيمانُهم به، وحِكايةُ ما صَدرَ منهم مِن أقوالٍ.

٢- استِراقُ الجِنِّ للسَّمعِ، ثمَّ مَنْعُهم مِن ذلك.

٣- ذِكرُ انقِسامِ الجِنِّ إلى صالِحينَ وغيرِ صالِحينَ.

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ سورةَ الجنِّ؛ لاشتِمالِها على خبَرِ الجِنِّ وذِكرِ أحْوالِهم. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٤).

(٢) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ١٢٧).

٤- جَزاءُ المُسْتقيمينَ على أمْرِ اللهِ والمُعْرِضينَ عنه.

٥- ذِكرُ ما أُمِرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَبْليغِه.

٦- ذِكرُ اختِصاصِ اللهِ بعِلمِ الغَيبِ.

## الآيات (١-٧)

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَفَرٌ﴾: أي: جماعةٌ ما بيْنَ الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ، والنَّفَرُ: اسْمُ جَمْعٍ، يَقَعُ على جماعةٍ مِن الرِّجالِ خاصَّةً، ولا واحدَ له مِن لَفظِه. والنَّفْرُ: الانْزِعاجُ عن الشَّيءِ وإلى الشَّيءِ، كالفَزَعِ إلى الشَّيءِ وعن الشَّيءِ، والنَّفَرُ والنَّفيرُ والنَّفَرَةُ: عِدَّةُ رِجالٍ يُمْكِنُهم النَّفْرُ[1].

﴿جَدُّ﴾: أي: عَظَمةُ وجلالُ، وأصلُ (جدد) هنا: يدُلُّ على العَظَمةِ[2].

﴿سَفِيهُنَا﴾: أي: إبليسُ أو مَرَدةُ الجِنِّ، أو جاهِلُنا، والسَّفَهُ: الخِفَّةُ، والجهلُ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٩٣).

قال الكفوي: (النَّفَرُ: مِن الثَّلاثةِ إلى التِّسعةِ، ولا يُستعمَلُ فيما فَوقَ العَشَرةِ، ولا في طائفةِ النِّساءِ، وإذا استُعْمِلَ فيما فَوْقَها أو في طائفةِ الرِّجالِ والنِّساءِ يُفَسَّرُ حِينَئذٍ بالنَّفسِ). ((الكليات)) (ص: ٦٨٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩، ٤٨٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨).

والسَّفيهُ: الخفيفُ العَقلِ، وأصلُ (سفه): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسَخافةٍ[١].

﴿شَطَطًا﴾: أي: كَذِبًا وجَوْرًا، ومعنى الشَّطَطِ في اللُّغةِ: مُجاوَزةُ القَدْرِ، وأصلُ (شطط): يدُلُّ على الإفراطِ في البُعدِ والمَيلِ[٢].

﴿يَعُوذُونَ﴾: أي: يَلجَؤُونَ ويَستَجيرونَ. والعَوذُ: الالتِجاءُ إلى الغَيرِ، والتَّعَلُّقُ به، وأصلُ (عوذ): يدُلُّ على الالتِجاءِ إلى الشَّيءِ[٣].

﴿رَهَقًا﴾: أي: ضَلالًا وإثْمًا وظُلْمًا، والرَّهَقُ: الإثمُ وغِشْيانُ المَحارِمِ، وأصلُ (رهق) هنا: يدُلُّ على غِشْيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۞ وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَـٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾

قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَـٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قُرِئَت هذه الآيةُ بفَتحِ إنَّ وكَسْرِها[٥]:

فمَن كسَرَها عَطَفَها على قَولِ الجِنِّ: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾، فيَكونُ التَّقديرُ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٠، ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٩)، ((التفسير البسيط)) للواحدي (٢/ ١٦٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٤).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩، ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠).

(٥) قرأها أبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ، وحفصٌ بفتحِ الهمزةِ، والباقونَ بكَسْرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩١).

وقالوا: إنَّه تعالى جَدُّ رَبِّنا.

ومَن فَتَح الهمزةَ عَطَفَها على (الهاءِ) في قَولِ الجِنِّ: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾، فيكونُ التَّقديرُ: وآمَنَّا بأنَّه تعالى جَدُّ رَبِّنا. بتقديرِ الجارِّ؛ لاطِّرادِ حَذْفِه قبْلَ (أنْ) و(أنَّ). وقيل غيرُ ذلك[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يَبتدِئُ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأمرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يحَدِّثَ بما حصَل مِن سماعِ بعضِ الجنِّ للقرآنِ، وما قالوه، فيقولُ سُبحانَه: قُلْ -يا مُحَمَّدُ-: أوحَى اللهُ إلَيَّ أنَّه استمَعَ جماعةٌ مِن الجِنِّ للقُرآنِ، فقالوا: إنَّا سَمِعْنا قرآنًا عجيبًا يدُلُّ على الحَقِّ والهُدى، فآمَنَّا به، ولن نُشرِكَ برَبِّنا أحَدًا مِن خَلْقِه، وأنَّه تعالَت عَظَمةُ ربِّنا لم يتَّخِذْ زَوجةً ولا وَلَدًا، وأنَّه كان يقولُ جاهِلُنا على اللهِ كَذِبًا، وأنَّا كُنَّا نَظُنُّ أنَّ الإنسَ والجِنَّ صادِقونَ في ادِّعاءاتِهم، وأنَّهم لن يَجرُؤوا على الكَذِبِ على اللهِ تعالى، وأنَّه كان رِجالٌ مِن الإنسِ إذا نَزَلوا مَنزِلًا يَستَعيذونَ ويَستَجيرونَ بعظيمِ ذلك المكانِ مِنَ الجِنِّ، فزاد الإنسُ الجِنَّ طُغْيانًا وكِبْرًا، وأنَّ كُفَّارَ الجِنِّ ظَنُّوا -كما ظَنَّ كُفَّارُ الإنسِ- أنَّ اللهَ لن يَبعَثَ أحدًا يومَ القيامةِ للحِسابِ والجزاءِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١﴾.

﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٦، ٩٧)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٧٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٨١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٤).

## سَبَبُ النُّزولِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((انطلَقَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في طائفةٍ مِن أصحابِه عامِدينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ، وقد حِيلَ بيْنَ الشَّياطينِ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وأُرسلَت عليهم الشُّهُبُ، فرجَعَت الشَّياطينُ إلى قَومِهم، فقالوا: ما لَكم؟! فقالوا: حِيلَ بيْنَنا وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ، وأُرسِلَت علينا الشُّهُبُ! قالوا: ما حالَ بيْنَكم وبيْنَ خبَرِ السَّماءِ إلَّا شَيءٌ حَدَث؛ فاضرِبوا مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها، فانظُروا ما هذا الَّذي حالَ بيْنَكم وبيْنَ خبرِ السَّماءِ؟! فانصرَف أولئك الَّذين توَجَّهوا نحوَ تِهامةَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو بنَخْلةَ[1] عامِدينَ إلى سوقِ عُكاظٍ، وهو يُصلِّي بأصحابِه صلاةَ الفَجرِ، فلمَّا سَمِعوا القرآنَ استَمَعوا له، فقالوا: هذا -واللهِ- الَّذي حال بيْنَكم وبيْنَ خبرِ السَّماءِ، فهنالك حينَ رَجَعوا إلى قومِهم، وقالوا: يا قَومَنا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]، فأنزل اللهُ على نبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، وإنَّما أُوحِيَ إلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ))[2].

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

أي: قُلْ -يا مُحَمَّدُ-: أوحَى اللهُ إلَيَّ أنَّه استمَعَ جماعةٌ مِن الجِنِّ للقُرآنِ[3].

---

(١) نخلة: موضعٌ بيْن مكَّةَ والطَّائفِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٧٤).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٧٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٠).

قال الزمخشري: (﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ جماعةٌ منهم ما بيْنَ الثَّلاثةِ إلى العَشَرةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣).

=

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا﴾.

أي: فقال أولئك النَّفَرُ مِنَ الجِنِّ: إنَّا سَمِعْنا قرآنًا عجيبًا بديعًا خارِجًا عن العادةِ، فلا حديثَ مِثلُه[1].

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنوا فَضْلَ القرآنِ مِن جِهةِ الإعجازِ وغَيرِه؛ بيَّنوا المقصودَ بالذَّاتِ الدَّالَّ على غَوصِهم على المعاني، بَعْدَ عِلْمِهم بحُسنِ المباني[2].

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾.

أي: قالوا: وهذا القُرآنُ يدُلُّ على الحَقِّ والخَيرِ والصَّوابِ والهُدى، فآمَنَّا به[3].

---

= وقال الكرماني: (والنَّفَرُ دونَ العَشَرةِ. قيل: كانوا تِسعةً، وقيل: سَبعةً). ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٢٥٩).

وقال البِقاعي: (وهل هذا الاستماعُ هو المذكورُ في «الأحقافِ» أو غَيرُه، قال أبو حيَّانَ: المشهورُ أنَّه هو. وقيل: هو غيرُه، والجِنُّ الَّذين أتَوَه بمكَّةَ جِنُّ نَصِيبينَ، والَّذين أتوه بنَخلةَ جِنُّ نِينَوى، والسُّورةُ الَّتي استَمَعوها قال عِكرِمةُ: العَلَقُ. وقيل: الرَّحمنُ. ولم يُذكَرْ هنا ولا في الأحقافِ أنَّه رآهم، ويَظهَرُ مِن الحديثِ تعدُّدُ الواقعةِ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٦٣). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١).

ويُنظر ما تقدَّم في سورة الأحقاف الآية (٢٩) (٣٣/ ٣٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٤٨، ٥٤٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢١). =

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾.

أي: ولن نَجعَلَ أحَدًا مِن خَلْقِه شَريكًا له[١].

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا سَمِعُوا القرآنَ، ووُفِّقُوا للتَّوحيدِ والإيمانِ؛ تَنبَّهوا للخطأِ فيما اعتَقَده كفَرةُ الجنِّ مِن تَشبيهِ الله تعالَى بخَلْقِه في اتِّخاذِ الصَّاحبةِ والولدِ، فاستَعْظَموه ونزَّهُوه تعالَى عنه[٢].

---

= قال السعدي: (الرُّشدُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُرشدُ النَّاسَ إلى مصالحِ دينِهم ودُنياهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(١) وقال ابن القيِّم: (أعظَمُ الرُّشدِ والحَقِّ الَّذي يَهدي إليه: مَعرِفةُ اللهِ سُبحانَه، وإثباتُ صِفاتِه، وعُلُوِّه على خَلْقِه ومُبايَنتِه لهم؛ إذ بذلك يتِمُّ الاعترافُ به وإثباتُه، ونَفْيُ ذلك نَفيٌ له ولصِفاتِه). ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) (٢/ ٣٢٦).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨١).

قال الشوكاني: (﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ مِن خَلْقِه، ولا نتَّخِذَ معه إلهًا آخَرَ؛ لأنَّه المتفرِّدُ بالرُّبوبيَّةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٤).

وقال الواحدي: (﴿وَلَن نُّشْرِكَ ﴾: لن نَعدِلَ ﴿بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ يعنون: إبليسَ، أي: لا نُطيعُه في الشِّركِ باللهِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣).

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾.

أي: وأنَّه تعالَت عَظَمةُ ربِّنا وجَلالُه[١].

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَصَفوه بهذا التَّعالي الأعظَمِ المستلزِمِ للغِنى المطلَقِ، والتَّنزُّهِ عن كلِّ شائبةِ نقْصٍ؛ بَيَّنوه بنَفْيِ ما يُنافِيه بقولِهم إبطالًا للباطلِ[٢]:

﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾.

أي: لم يتَّخِذِ اللهُ تعالى زَوجةً له، ولم يتَّخِذْ وَلَدًا[٣].

كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٢).

قال ابنُ عطية: (قرأ جمهورُ النَّاسِ ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ -بفتحِ الجيم، وضمِّ الدَّالِ- وإضافتِه إلى الرَّبِّ، وقال جمهورُ المفَسِّرينَ: معناه: عَظَمتُه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩).

ومِن المفسِّرينَ مَنْ جعَل: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ مُفَسَّرًا بما بَعْدَه على معنى: تعالت عَظَمةُ ربِّنا عن اتِّخاذِ الصَّاحبةِ والولَدِ. وممَّن نصَّ على هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

أي: وأنَّه كان يقولُ جاهِلُنا -الملازِمُ للطَّيشِ والغَيِّ- على اللهِ كَذِبًا وجَورًا بعيدًا عن العَدلِ والصَّوابِ، ومِن ذلك ادِّعاءُ الشَّريكِ والزَّوجةِ والولَدِ لله سُبحانَه وتعالى[1].

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نَّقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَروا ما هُدُوا إليه مِنَ الحَقِّ في اللهِ، وفيمَن كان يَحمِلُهم على الباطِلِ؛ ذكَروا عُذْرَهم في اتِّباعِهم للسَّفيهِ، وفي وُقوعِهم في مَواقِعِ التُّهَمِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٠، ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

قال ابن عطية: (لا خِلافَ أنَّ هذا مِن قَولِ الجِنِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩).

قيل: المرادُ بالسَّفيهِ هنا: إبليسُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، ونسَبَه الألوسيُّ وغيرُه إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥٠).

وقيل: السَّفيهُ هنا: اسمُ جِنسٍ، فيَعُمُّ إبليسَ وغيرَه. واستحسَنَ ابنُ عطيَّةَ هذا القولَ، واختاره البِقاعيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

قال ابن عطيَّة: (السَّفيهُ المذكورُ قال جميعُ المفسِّرينَ: هو إبليسُ لعنه الله. وقال آخَرونَ: هو اسمُ جِنسٍ لكلِّ سفيهٍ منهم. ولا مَحالةَ أنَّ إبليسَ صدرٌ في السُّفهاءِ، وهذا القولُ أحسَنُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٠).

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نَّقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

أي: وأنَّا قبْلَ سَماعِنا للقُرآنِ وإيماننا باللهِ كُنَّا نَظُنُّ أنَّ الإنسَ والجِنَّ صادِقونَ في ادِّعاءاتِهم، وأنَّهم لن يَجرُؤوا على الكَذِبِ على اللهِ تعالى، فيَدَّعُوا له الشَّريكَ والصَّاحِبةَ والوَلَدَ كَذِبًا وزُورًا[1]!

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

أي: وأنَّه كان رجالٌ مِن الإنسِ إذا نَزَلوا مَنزِلًا يَستَعيذونَ ويَستَجيرونَ بعظيمِ ذلك المكانِ وسَيِّده مِنَ الجِنِّ؛ طلبًا للأمانِ والسَّلامةِ مِمَّا يخافونَ ويَحذَرونَ[2]!

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

أي: فزاد الإنسُ الجِنَّ طُغْيانًا وكِبرًا حينَ رأَوُا الإنسَ يَستَعيذونَ بهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

قال ابن جرير: (كانوا يحسَبونَ أنَّ إبليسَ صادِقٌ فيما يَدعو بَني آدمَ إليه مِن صُنوفِ الكُفرِ؛ فلمَّا سَمِعوا القرآنَ أيْقَنوا أنَّه كان كاذِبًا في كلِّ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٢).

وقال السعدي: (أي: كنَّا مغترِّينَ قبلَ ذلك، وغَرَّنا القادةُ والرُّؤساءُ مِن الجِنِّ والإنسِ، فأحسَنَّا بهم الظَّنَّ، وظنَنَّاهم لا يتجرَّؤونَ على الكذِبِ على الله؛ فلذلك كنَّا قبْلَ هذا على طريقِهم، فاليومَ إذْ بانَ لنا الحَقُّ، رجَعْنا إليه، وانقَدْنا له، ولم نُبالِ بقولِ أحدٍ مِنَ النَّاسِ يُعارِضُ الهُدى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٤-٣٢٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠). =

= قال السمعاني: (فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّ الإنسَ زادوا الجِنَّ رَهَقًا، أي: عَظَمةً في أنفُسِهم، كأنَّ الإنسَ لَمَّا استعاذوا بالجِنِّ ازداد الجِنُّ في أنفُسِهم عَظَمةً.

والقولُ الثَّاني: هو أنَّ الإنسَ ازدادوا رهقًا بالاستعاذةِ مِنَ الجِنِّ. ومعناه: طُغْيانًا وإثمًا، كأنَّ الإنسَ لَمَّا استعاذوا بالجِنِّ وأمِنوا على أنفُسِهم ازدادوا كُفرًا، وظَنُّوا أنَّ أَمْنَهم كان مِنَ الجِنِّ. وقيل: رَهقًا أي: غِشيانًا للمَحارِمِ. وقيل: مُقارَفةً للْإثمِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: زاد الإنسُ الجنَّ بهذا التَّعوُّذ طُغيانًا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّمِ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٩/ ٣٣، ٣٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٠٩).

قال السعدي: (كان الإنسُ يَعبُدونَ الجِنَّ، ويَستعيذونَ بهم عندَ المَخاوِفِ والأفزاعِ، فزاد الإنسُ الجِنَّ رهَقًا، أي: طغيانًا وتكَبُّرًا لَمَّا رأَوُا الإنسَ يَعبُدونَهم، ويَستعيذونَ بهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

وقال الرازي (قولُه: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ قال المفسِّرونَ: معناه: زادوهم إثمًا وجُرْأةً وطُغْيانًا وخطيئةً وغَيًّا وشرًّا، كلُّ هذا مِن ألفاظِهم). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨).

وقيل: المرادُ: أنَّ الجِنَّ زادَتِ الإنسَ -لَمَّا استعاذوا بهم- إثمًا، واستِحلالًا للمَحارِمِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والرَّازيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٨).

وقيل: المرادُ: أنَّ الجِنَّ زادَت الإنسَ -لَمَّا استعاذوا بهم- خوفًا وذُعرًا منهم؛ فاشتَدَّ خَوفُهم منهم، وصاروا أكثَرَ تعوُّذًا بهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، وجعله السعديُّ احتمالًا في معنى الآيةِ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

قال ابنُ جُزَي: (ضَميرُ الفاعلِ للجِنِّ، وضَميرُ المفعولِ للإنسِ، والمعْنى: أنَّ الجنَّ زادُوا الإنسَ ضَلالًا وإثمًا لَمَّا عاذُوا بهم، أو زادُوهم تَخويفًا لَمَّا رَأَوْا ضَعْفَ عُقولِهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٨).

وقال ابنُ عاشور: (الَّذي أختارُه في معنى الآيةِ: أنَّ العَوْذَ هنا هو الالتجاءُ إلى الشَّيءِ، والالتِفافُ =

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾.

أي: وأنَّ كُفَّارَ الجِنِّ ظَنُّوا -كما ظَنَّ كُفَّارُ الإنسِ- أنَّ اللهَ لن يبعَثَ أحدًا يومَ القيامةِ للحِسابِ والجزاءِ[1].

---

= حَوْلَه، وأنَّ المرادَ: أنَّه كان قومٌ مِن المشركينَ يَعبُدونَ الجِنَّ؛ اتقاءَ شَرِّها. ومعنى ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: فزادَتْهم عبادتُهم إيَّاهم ضَلالًا. والرَّهَقُ: يُطلَقُ على الإثمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٥).

وقال البِقاعي: (﴿فَزَادُوهُمْ﴾ أي: الإنسُ الجنَّ باستِعاذتِهم هذه المُرَتَّبِ عليها إعاذتُهم، والجنُّ الإنسَ بترئيسِ الإنسِ لهم وخَوفِهم منهم ﴿رَهَقًا﴾ أي: ضيقًا وشدَّةً وغِشْيانًا لِما هم فيه مِن أحوالِ الضَّلالِ، الَّتي يَلزَمُ منها الضِّيقُ والشِّدَّةُ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٧٢، ٤٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٤-٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٠، ٣٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قولُهم: ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ يحتَمِلُ معنيَينِ؛ أحدُهما: بعْثُ الحَشرِ مِن القبورِ. والآخَرُ: بعْثُ آدميٍّ رَسولًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨١).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ -أي: أنَّه البعثُ بعدَ الموتِ-: السمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والرَّسْعَني، والنَّسَفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وأبو حيَّانَ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠).

واختلَف المفسِّرونَ في قائلِ هذا الكلام: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾؛ فقيل: هو مِن قَولِ اللهِ تعالى مخاطِبًا كُفَّارَ الإنسِ؛ لإخبارِهم بأنَّ كُفَّارَ الجِنِّ قد ظنُّوا كما ظَنَنْتُم في شأنِ =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا ۞ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ جَعَلوا السَّبَبَ الدَّاعيَ لهم إلى الإيمانِ وتوابِعِه: ما عَلِموه مِن إرشاداتِ القُرآنِ، وما اشتَمَل عليه مِن المصالِحِ والفوائِدِ، واجتنابِ المَضارِّ؛ فإنَّ ذلك آيةٌ عظيمةٌ وحُجَّةٌ قاطِعةٌ لِمَنِ استنارَ به، واهتَدى بهَدْيِه، وهذا هو الإيمانُ النَّافعُ، المُثمِرُ لكُلِّ خَيرٍ، المبنيُّ على هدايةِ القُرآنِ، بخِلافِ إيمانِ العوائِدِ والمَرْبَى والإلْفِ ونَحوِ ذلك؛ فإنَّه إيمانُ تقليدٍ تحتَ خَطَرِ الشُّبُهاتِ والعوارِضِ الكَثيرةِ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبًا﴾، يَقتضي أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لم يَعلَمْ بحُضورِ الجِنِّ لاستِماعِ القُرآنِ قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ[2].

---

= بَعثِ الرُّسُلِ أو العِبادِ. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٨).

وقيل: هو مِن قَولِ الجِنِّ بَعضِهم لبعضٍ، أي: ظَنَّ كُفَّارُ الإنسِ في ذلك كما ظَنَنْتُم يا مَعشَرَ الجِنِّ. وممَّن ذهب إلى هذا: الرازيُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٨).

قال الرازي: (حَمْلُه على كلامِ الجنِّ أَولى؛ لأنَّ ما قبْلَه وما بعدَه كلامُ الجنِّ، فإلقاءُ كلامٍ أجنبيٍّ عن كلامِ الجنِّ في البَيْنِ غيرُ لائقٍ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨).

وقال الشوكاني: (هذا مِن قولِ الجنِّ للإنسِ، أي: وإنَّ الجنَّ ظَنُّوا كما ظننتُم أيُّها الإنسُ أنَّه لا بعثَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٩).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ في هذا توبيخٌ للكُفَّارِ مِن بني آدَمَ؛ حيث آمَنَت الجِنُّ بسَماعِ القرآنِ مرَّةً واحدةً، وانتَفَعوا بسَماعِ آياتٍ يسيرةٍ منه، وأدركوا بعُقولِهم أنَّه كلامُ اللهِ، وآمَنوا به، ولم ينتَفِعْ كفَّارُ الإنسِ -ولا سيَّما رؤساؤُهم وعُظَماؤُهم- بسَماعِه مرَّاتٍ متعدِّدةً، وتِلاوتِه عليهم في أوقاتٍ مختلِفةٍ، مع كَونِ الرَّسولِ منهم، يَتلوه عليهم بلِسانِهم[١]!

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ فيه أنَّ النَّبيَّ -عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- كما بُعِثَ إلى الإنسِ، فقد بُعِثَ إلى الجِنِّ[٢]. فهو رسولٌ إلى الجِنِّ، كما هو رسولٌ إلى الإنسِ؛ فإنَّ اللهَ صَرَف نَفَرَ الجنِّ لِيَستَمِعوا ما يُوحَى إليه، ويُبلِّغوا قومَهم[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ فيه أنَّ الجِنَّ مكَلَّفونَ كالإنسِ[٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ فيه أنَّ الجِنَّ يَستَمِعونَ كَلامَنا، ويَفهَمونَ لُغاتِنا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٥).

قال تقيُّ الدِّينِ السُّبكي: (إنَّ قوةَ هذا الكلامِ تَقْتضي أنَّهم انقادوا له، وآمَنوا بعدَ شِركِهم، وذلك يَقْتضي أنَّهم فهِموا أنَّهم مُكلَّفونَ به، وكذلك كثيرٌ مِن الآياتِ التي في هذه السُّورةِ التي خاطَبوا بها قومَهم). ((فتاوى السبكي)) (٢/ ٥٩٥)

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٥).

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فيه أنَّ المؤمِنَ مِنَ الجِنِّ يدعو غيرَه مِن قبيلتِه إلى الإيمانِ[1].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فيه سؤالٌ: الَّذين رُمُوا بالشُّهُبِ هم الشَّياطينُ، والَّذين سَمِعوا القرآنَ هم الجِنُّ، فكيف وَجهُ الجَمعِ؟

**الجوابُ مِن وجهَينِ:**

**الوجهُ الأولُ:** أنَّ الَّذين رُمُوا بالشُّهُبِ كانوا مِنَ الجِنِّ، إلَّا أنَّه قيل لهم: شياطينُ، كما قيل: (شياطينُ الجِنِّ والإنسِ)؛ فإنَّ الشَّيطانَ: كلُّ مُتمَرِّدٍ بعيدٍ عن طاعةِ اللهِ تعالى.

**الوجهُ الثَّاني:** أنَّ الجِنَّ كانوا مع الشَّياطينِ، فلمَّا رُمِيَ الشَّياطينُ أخَذ الجِنُّ الَّذين كانوا معهم في تجَسُّسِ الخبرِ[2].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۞ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ فيه بيانُ ذكاءِ الجِنِّ، ومعرفتِهم بالحَقِّ، وأنَّ الَّذي ساقَهم إلى الإيمانِ هو ما تحَقَّقوه مِن هدايةِ القرآنِ؛ وحُسنِ أدَبِهم في خِطابِهم[3].

٩- إذا تُلِيَ القرآنُ على إنسانٍ فقد قامتْ عليه الحُجَّةُ، ولهذا فإنَّ الجنَّ ولَّوْا إلى قَومِهم مُنذِرينَ بمُجرَّدِ سماعِهم القُرآنَ، قال تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۞ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾، وقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. فقراءةُ القرآنِ مُلْزِمةٌ، لكنْ إذا كان الشَّخصُ لا يَفهمُ لغةَ القرآنِ فلا تكونُ مُلْزِمةً؛ لقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ﴾ [إبراهيم: ٤]، ولا يَحصُلُ البيانُ وهو لا يَدري لُغةَ القُرآنِ(١)!

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾، أي: ولن نَعودَ إلى ما كنَّا عليه مِنَ الإشراكِ به، وهذا يدُلُّ على أنَّ أولئك الجِنَّ كانوا مِن المُشرِكينَ(٢).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ حُجَّةٌ على تسميةِ المخلوقينَ بأسماءِ الخالقِ عزَّ وجلَّ؛ إذِ «الأحَدُ» اسمٌ مِن أسماءِ اللهِ تبارك وتعالى(٣).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ دليلٌ على أنَّ العربَ تُسمِّي بالاسمِ الواحدِ المعانيَ الكثيرةَ؛ إذِ «الجَدُّ» في هذا الموضعِ: العَظَمةُ والجلالُ، وفي غيرِه: «البختُ»، و«أبو الأبِ»، وفيه أيضًا رَدٌّ على المعتزلةِ -فيما يَزعُمونَ-: أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٦).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٨).

لكنْ في ذلك تفصيلٌ؛ فقد جاء في فتاوى اللَّجنةِ الدَّائمةِ: (ما كان مِن أسماءِ الله تعالى عَلَم شَخصٍ، كلَفظِ «الله»: امتنع تسميةُ غيرِ الله به؛ لأنَّ مُسمَّاه مُعيَّنٌ لا يَقبَلُ الشَّركةَ، وكذا ما كان مِن أسمائِه في معناه في عدَمِ قَبولِ الشَّركةِ، كالخالقِ والبارئِ؛ فإنَّ الخالقَ: مَن يُوجِدُ الشَّيءَ على غيرِ مثالٍ سابقٍ، والبارئَ: مَن يوجِدُ الشَّيءَ بريئًا مِن العَيبِ، وذلك لا يكونُ إلَّا مِن الله وحْدَه؛ فلا يُسمَّى به إلَّا اللهُ تعالى. أمَّا مَا كان له معنًى كُلِّيٌّ تَتفاوَتُ فيه أفرادُه مِن الأسماءِ والصِّفاتِ، كالمَلِكِ، والعزيزِ، والجبَّارِ، والمتكبِّرِ؛ فيجوزُ تسميةُ غيرِه بها؛ فقد سمَّى الله نفْسَه بهذه الأسماءِ، وسمَّى بعضَ عبادِه بها). ((فتاوى اللجنة الدائمة- المجموعة الثانية)) (٢/ ٣٦٨).

الشَّيءَ إذا سُمِّيَ باسمٍ، ثمَّ سُميَّ به غيرُه لزِم أنْ يُشبِهَه بجميعِ جِهاتِه[١]!

١٣- قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، فعَلِموا مِن جَدِّ اللهِ وعَظَمتِه ما دَلَّهم على بُطلانِ قولِ مَن يَزعُمُ أنَّ له صاحبةً أو ولَدًا؛ لأنَّ له العَظَمةَ والكَمالَ في كلِّ صِفةِ كَمالٍ، واتِّخاذُ الصَّاحبةِ والولَدِ يُنافي ذلك؛ لأنَّه يُضادُّ كَمالَ الغِنى[٢]، ولأنَّ الصَّاحبةَ إنَّما تكونُ للضَّعيفِ العاجزِ الَّذي تَضْطَرُّه الشَّهوةُ الباعثةُ إلى اتِّخاذِها له، وأنَّ الولَدَ إنَّما يكونُ عن شَهوةٍ أزعَجَتْه إلى الوِقاعِ الَّذي يَحدُثُ منه الولَدُ، فقال النَّفَرُ مِن الجِنِّ: عَلا مُلْكُ ربِّنا وسُلطانُه وقُدرتُه وعَظَمتُه أنْ يكونَ ضَعيفًا ضَعْفَ خَلْقِه الَّذين تَضطَرُّهم الشَّهوةُ إلى اتِّخاذِ صاحبةٍ، أو وِقاعِ شَيءٍ يكونُ منه ولَدٌ[٣].

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ فيه دليلٌ على المنعِ مِن أكثَرِ الرُّقى والعزائِمِ[٤].

١٥- الاستِعاذةُ بالأمواتِ أو الأحياءِ غيرِ الحاضِرينَ القادِرينَ على العَوذِ: شِركٌ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[٥].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أنَّ الاستِعاذةَ بالجِنِّ حرامٌ؛ لأنَّها لا تفيدُ المُستعيذَ، بل تَزيدُه رَهَقًا -أي: خَوفًا وضَعفًا-، فعُوقِبَ بنَقيضِ قَصْدِه، وهذا على اعتبارِ أنَّ «الواوَ» ضميرُ الجِنِّ، و«الهاءَ»

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٣١٧، ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٥).

(٥) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٦٤).

ضميرُ الإنسِ[١].

١٧- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الإنسُ سُمُّوا إنسًا لأنَّهم يؤنَسونَ، أي: يُرَونَ. كما قال تعالى حكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: ١٠]، أي: رأيتُها، والجِنُّ سُمُّوا جِنًّا لاجتِنانِهم، يجتَنُّونَ عن الأبصارِ، أي: يَستَتِرونَ، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦]، أي: استولى عليه، فغَطَّاه وستَرَه[٢].

١٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ تسميتُه الجِنَّ رجالًا، إلَّا أنَّه لم يُطْلِقْ عليهم: الرِّجالَ، بل هي تسميَّةٌ مقيَّدةٌ بقَولِه: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، فهم رجالٌ مِن الجِنِّ، ولا يَستَلزِمُ ذلك دُخولَهم في الرِّجالِ عندَ الإطلاقِ، كما تقولُ: «رجالٌ مِن حِجارةٍ» و «رِجالٌ مِن خشَبٍ» ونحوَه؛ وعليه فلا يُشْكِلُ هذا مع قولِه سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩] في أنَّه لم يُرْسِلْ جِنِّيًّا، ولا امرأةً، ولا بَدَويًّا[٣].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أنَّ للجِنِّ رجالًا، ولهم إناثٌ[٤].

٢٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ يدُلُّ على أنَّ الجِنَّ كما أنَّهم كان فيهم مُشرِكٌ ويَهودِيٌّ ونَصرانيٌّ، ففيهم مَن يُنكِرُ البَعثَ[٥]. على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٦٥).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (١/ ٢٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٨).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالأمرِ بالقولِ يُشيرُ إلى أنَّ ما سيُذكَرُ بعْدَه حدَثٌ غَريبٌ، وخاصَّةً بالنِّسبةِ للمشرِكينَ الَّذين همْ مَظِنَّةُ التَّكذيبِ به، كما يَقتضيهِ قولُه: ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾[1] [الجن: ٧].

- قولُه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الَّذين أُمِرَ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بأنْ يقولَ لهم: إنَّه أُوحِيَ إليه بخبَرِ الجنِّ؛ همْ جميعُ النَّاسِ الَّذين كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُبلِّغُهم القُرآنَ مِن المسلمينَ والمشرِكين، أراد اللهُ إبلاغَهُم هذا الخبَرَ؛ لِما له مِن دَلالةٍ على شرَفِ هذا الدِّينِ، وشرَفِ كِتابِه، وشرَفِ مَن جاء به، وفيه إدخالُ مَسرَّةٍ على المسلِمينَ، وتَعريضٌ بالمُشرِكين؛ إذ كان الجنُّ قدْ أدْرَكوا شرَفَ القُرآنِ وفَهِموا مَقاصِدَه وهمْ لا يَعرِفون لُغتَه، ولا يُدرِكون بَلاغتَه، فأقْبَلوا عليه، والَّذين جاءهُم بلِسانِهم وأدْرَكوا خَصائصَ بَلاغتِه أنْكَروه وأعْرَضوا عنه[2]!

- وفي الإخبارِ هنا عن استِماعِ الجنِّ للقُرآنِ بأنَّه أُوحِيَ إليه ذلك إيماءٌ إلى أنَّه ما عَلِمَ بذلك إلَّا بإخبارِ اللهِ إيَّاهُ بوُقوعِ هذا الاستماعِ، فالآيةُ تَقْتضي أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لم يَعلَمْ بحُضورِ الجنِّ لاستماعِ القُرآنِ قبْلَ نُزولِ هذه الآيةِ، وأمَّا في قولِه: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ...﴾ [الأحقافِ: ٢٩] الآياتِ؛ فتَذكيرٌ بما في هذه الآيةِ، أو هي إشارةٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢١٩).

إلى قصَّةٍ أُخرى رَواها عبدُ اللهِ بنُ مَسعودٍ[١]، ولا عَلاقةَ لها بهذه الآيةِ[٢]. وذلك على قولٍ.

- وتأْكيدُ الخبَرِ المُوحَى بحرْفِ (أنَّ)؛ للاهتِمامِ به؛ لغَرابتِه[٣].

- وضَميرُ ﴿أَنَّهُۥ﴾ ضَميرُ الشَّأنِ، وخبَرُه جُملةُ ﴿ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، وفي ذلك زِيادةُ اهتمامٍ بالخبَرِ المُوحى به[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ فيه تأْكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)؛ لأنَّهم أخْبَروا به فَريقًا منهم يَشُكُّون في وُقوعِه، فأَتَوا في كَلامِهم بما يُفيدُ تَحقيقَ ما قالُوه[٥].

- ووَصْفُ القُرآنِ بالعجَبِ وَصْفٌ بالمَصدرِ على سبيلِ المُبالَغةِ، أي: هو عجبٌ في نفسِه؛ لفَصاحةِ كَلامِه، وحُسنِ مَبانيه، ودِقَّةِ مَعانيه، وغَرابةِ أُسلوبِه، وبَلاغةِ مَواعظِه، وكَونِه مُباينًا لسائرِ الكُتبِ[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾

- قولُه: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾، أي: بالقُرآنِ؛ لَمَّا كان الإيمانُ بالقرآنِ يَقْتضي الإيمانَ بمَن جاء به وبمَن أنْزَلَه، قالوا: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾؛ فعطْفُ: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ مِن بابِ عطْفِ المُسبَّبِ على السَّببِ، وحرْفُ الجمْعِ

---

(١) يُنظر ما أخرجه مسلم (٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢١٩، ٢٢٠).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣١٩)، وما تقدَّم في تفسيرِ سورةِ الأحقافِ (٣٣/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢١).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢١).

يُفوِّضُ التَّرتيبَ إلى ذِهنِ السَّامعِ، وهو أبلَغُ مِن الفاءِ. ويُمكنُ أنْ يُقالَ: إنَّ مَجموعَ قولِهم: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ مُسبَّبٌ عن مَجموعِ قولِهم: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۞ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾؛ فكَوْنُه قُرآنًا عجَبًا -أي: مُعجِزًا بَديعًا- يُوجِبُ الإيمانَ به، وكَونُه يَهدي إلى الرُّشدِ مُوجِبٌ قلْعَ الشِّركِ مِن أصْلِه، والدُّخولَ في دِينِ اللهِ كلِّه[1].

- وقولُ الجنِّ: ﴿وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾، أي: يَنْتفي ذلك في المُستقبَلِ، وهذا يَقْتضي أنَّهم كانوا مُشرِكين، ولذلك أكَّدوا نفْيَ الإشراكِ بحرْفِ (لن)؛ فكما أُكِّدَ خبَرُهم عن القرآنِ والثَّناءِ عليه بحرْفِ (إنَّ)، أُكِّدَ خبَرُهم عن إقلاعِهم عن الإشراكِ بحرْفِ (لنْ)[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾

- الجَدُّ -بفتْحِ الجيمِ-: العَظَمةُ والجَلالُ، وهذا تَمهيدٌ وتَوطئةٌ لقولِه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾؛ لأنَّ اتِّخاذَ الصاحبةِ للافتقارِ إليها؛ لأُنْسِها وعَونِها والالتِذاذِ بصُحبتِها، وكلُّ ذلك مِن آثارِ الاحتياجِ، وللهِ تعالَى الغِنَى المُطلَقُ، وتعالَى جَدُّه بغِناهُ المطلَقِ، والولدُ يُرغَبُ فيه للاستِعانةِ والأُنسِ به، مع ما يَقتضيهِ مِن انفصالِه مِن أجزاءِ والِدَيْه؛ وكلُّ ذلك مِن الافتِقارِ والانتقاصِ[3].

- وتأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (أنَّ)؛ لأنَّه مَسوقٌ إلى فَريقٍ يَعتقِدون خِلافَ ذلك مِن الجنِّ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٨، ٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٣، ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢٣).

- وضَميرُ الجَماعةِ في قولِه: ﴿رَبِّنَا﴾ عائدٌ إلى كلِّ مُتكلِّمٍ مع تَشريكِ غيرِه؛ فعلَى تَقديرِ أنَّه مِن كَلامِ الجِنِّ، فهو قولُ كلِّ واحدٍ منهم عن نفْسِه ومَن معَه مِن بَقيَّةِ النَّفَرِ(١).

- وقولُه: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بَيانٌ لِحُكْمِ تَعالِي جَدِّه سُبحانَه(٢).

- والاقتِصارُ في بَيانِ تَعالِي جَدِّ الله على انتفاءِ الصَّاحبةِ عنه والولَدِ يُنبِئُ بأنَّه كان شائعًا في عِلمِ الجنِّ ما كان يَعتقِدُه المشرِكون أنَّ الملائكةَ بَناتُ اللهِ مِن سَرَواتِ -أي ساداتِ وأشرافِ وخَواصِّ- الجنِّ، وما اعتقادُ المشركينَ إلَّا ناشئٌ عن تَلقينِ الشَّيطانِ، وهو مِن الجنِّ، ولأنَّ ذلك ممَّا سَمِعوه مِن القرآنِ، مِثل قولِه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾(٣) [الأنعام: ١٠١].

- وإعادةُ (لا) النَّافيةِ مع المَعطوفِ للتَّأكيدِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ المعطوفَ مَنفيٌّ باستِقلالِه؛ لدَفْعِ توهُّمِ نفْيِ المجموعِ(٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾

- تأْكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (أنَّ)؛ لأنَّه مَسوقٌ إلى فَريقٍ يَعتقِدون خِلافَ ذلك مِن الجنِّ(٥).

- قولُه: ﴿شَطَطًا﴾ نعْتٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: قولًا شَططًا، وهو البُعدُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ومُجاوَزةُ الحدِّ، أوْ هُو شطَطٌ في نفْسِه؛ لفَرْطِ بُعدِه عن الحقِّ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نَّقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ اعتِذارٌ عمَّا اقتَضاهُ قولُهم: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢] مِن كَونِهم كانوا مُشرِكينَ لجَهْلِهم، وأخْذِهم قولَ سُفهائِهم يَحسَبونَهم لا يَكذِبون على اللهِ تعالَى[٢].

- والتَّأكيدُ بحرْفِ (أنَّ)؛ لقصْدِ تَحقيقِ عُذرِهم فيما سلَفَ مِن الإشراكِ[٣].

- وتأْكيدُ المَظنونِ بحرْفِ (لنْ) يُفيدُ أنَّهم كانوا مُتوغِّلينَ في حُسنِ ظَنِّهم بمَن ضَلَّلوهم، ويدُلُّ على أنَّ الظَّنَّ هنا بمعْنى اليقينِ، وهو يَقينٌ مُخطِئٌ[٤].

- قولُه: ﴿كَذِبًا﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لـ ﴿نَّقُولَ﴾؛ لأنَّه نَوعٌ مِن القولِ، أو وصْفٌ لمَصدرِه المحذوفِ، أيْ: قولًا كذِبًا، أيْ: مَكذوبًا فيهِ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ التَّأكيدُ بـ (أنَّ) راجِعٌ إلى ما تَفرَّعَ على خبَرِها مِن قَولِهم: ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾[٦].

٧- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٥).

- التَّأكيدُ بحرْفِ (أنَّ) للاهتِمامِ بالخبَرِ؛ لغَرابتِه[١].

- وجُملةُ ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ ﴿ظَنُّوا﴾ ومَعمولِه، فيَجوزُ أنْ تكونَ مِن القولِ المَحكيِّ، يقولُ الجنُّ بَعضُهم لبعضٍ؛ يُشبِّهونَ كُفَّارَهم بكفَّارِ الإنسِ، وقيل غيرُ ذلك[٢].

- و﴿كَمَا﴾ نعْتٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: ظنُّوا ظنًّا مِثلَ ظَنِّكم[٣].

- قولُه: ﴿لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ فيه التَّعبيرُ بحرْفِ (لن)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كانوا غيرَ مُتردِّدينَ في إحالةِ ذلك[٤].

- والإخبارُ عن هذا فيه تَعريضٌ بالمشركينَ بأنَّ فَسادَ اعتقادِهِم تَجاوَزَ عالَمَ الإنسِ إلى عالَمِ الجنِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٨-١٠)

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَشُهُبًا﴾: أي: نارًا ساطِعةً مُحرِقةً يُرجَمُ بها مَن استَرَق السَّمعَ، والشِّهابُ: الشُّعلةُ السَّاطِعةُ مِن النَّارِ المُوقَدةِ، وأصلُ (شهب): يدُلُّ على بياضٍ في شَيءٍ مِن سَوادٍ[1].

﴿رَّصَدًا﴾: أي: أُرْصِدَ وأُعِدَّ له؛ لِيُرْمَى به، وهو فَعَلٌ بمعنى مَفعولٍ، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على تهيُّؤٍ لِرقبةِ شَيءٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله سبحانَه عن هؤلاء الجنِّ ما قالوه عندَ اقترابِهم مِن السَّماءِ؛ طلَبًا لمعرفةِ أخبارِها، وذلك قبْلَ أنْ يؤمِنوا، وأنَّهم قالوا: وأنَّا أتَيْنا السَّماءَ لِنَستَمِعَ فيها بعضًا مِن أخبارِ الغَيبِ، كما كنَّا نَصنَعُ، فوجَدْناها مملوءةً بحُرَّاسٍ أشِدَّاءَ مِن الملائكةِ، وشُهُبٍ مُحرِقةٍ لِمَن يُريدُ استِراقَ السَّمعِ، وأنَّا كُنَّا فيما مضَى نَقعُدُ في مَواضِعَ مِنَ السَّماءِ؛ مِن أجْلِ استِماعِ بَعضِ ما تتحَدَّثُ به الملائِكةُ ممَّا هو كائِنٌ، فمَنْ أراد مِن الشَّياطينِ الاستِماعَ الآنَ لأخبارِ السَّماءِ، فإنَّه يُرمَى بشِهابٍ

(١) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٢٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٣٩).

مِن نارٍ أُرصِدَ وأُعِدَّ له، وأنَّا لا نَدري الغايةَ مِمَّا يَحدُثُ في السَّماءِ: أهو عَذابٌ أُرِيدَ بأهلِ الأرضِ، أمْ أراد بهم رَبُّهم هُدًى وخَيرًا؟

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾.

أي: وأنَّا أتَيْنا السَّماءَ لِنَستَمِعَ فيها بعضًا مِن أخبارِ الغَيبِ كما جَرَت عادتُنا، فوجَدْناها مملوءةً بحُرَّاسٍ أشِدَّاءَ مِن الملائكةِ يَحفَظونَها مِن الشَّياطينِ، ومملوءةً بشُهُبٍ تَرجُمُهم وتُحرِقُهم إن أرادوا استِراقَ السَّمعِ[1].

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾.

أي: وأنَّا كُنَّا فيما مضَى نَقعُدُ في مواضِعَ مِنَ السَّماءِ؛ مِن أجْلِ استِماعِ بَعضِ ما تتحَدَّثُ به الملائِكةُ ممَّا هو كائِنٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

قال ابن عاشور: (الشُّهُبُ: جمعُ شِهابٍ، وهو القِطعةُ الَّتي تنفَصِلُ عن بعضِ النُّجومِ، فتَسقُطُ في الجوِّ أو في الأرضِ أو البَحرِ، وتكونُ مُضاءةً عندَ انفصالِها، ثمَّ يزولُ ضَوؤُها ببُعدِها عن مُقابلةِ شُعاعِ الشَّمسِ، ويُسَمَّى الواحِدُ منها عندَ علماءِ الهيئةِ نَيْزَكًا، باسمِ الرُّمحِ القصيرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

قال البِقاعي: (قد جاء في الخبَرِ أنَّ صِفةَ قُعودِهم هي أن يكونَ الواحِدُ منهم فوقَ الآخَرِ حتَّى يَصِلوا إلى السَّماءِ، قال أبو حيَّانَ: فمتى احترقَ الأعلى كان الَّذي تحتَه مكانَه، فكانوا =

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾.

أي: فمَنْ أراد مِن الشَّياطينِ الاستماعَ الآنَ لأخبارِ السَّماءِ، فإنَّه يُرمَى بشِهابٍ مِن نارٍ مُرصَدٍ له؛ لِمَنعِه مِنَ الاستِماعِ، أو إحراقِه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ * وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ * إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٦ - ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ مَّارِدٍ * لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٦ - ١٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضي الله عنه، قال: إنَّ نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا قضَى اللهُ الأمرَ في السَّماءِ ضَرَبت الملائِكةُ بأجنِحَتِها خُضْعانًا لِقَولِه، كأنَّه سِلسلةٌ على صَفوانٍ[2]، فإذا فُزِّعَ[3] عن قُلوبِهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للَّذي قال: الحَقَّ، وهو العَليُّ الكبيرُ، فيَسمَعُها مُستَرِقُ السَّمعِ، ومُستَرِقُ السَّمعِ هكذا بعضُه فوقَ بَعضٍ -ووصَفَ سُفْيانُ بكَفِّه فحَرَفَها وبَدَّد بيْنَ أصابِعِه- فيسمَعُ الكَلِمةَ فيُلْقيها إلى مَن تحتَه، ثمَّ يُلقيها الآخَرُ إلى مَن تحتَه، حتَّى يُلقيَها على لسانِ الساحِرِ أو الكاهِنِ، فرُبَّما أدرَكَ الشِّهابُ قبْلَ أن يُلقِيَها، ورُبَّما ألْقاها قبْلَ

---

= يَستَرِقونَ الكَلِمةَ فيُلْقونَها إلى الكُهَّانِ، فيَزيدونَ معها الكَذِبَ). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٧٧). ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٧، ٤٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

قال ابنُ كثير: (لا يتخَطَّاه ولا يتعَدَّاه، بل يَمحَقُه ويُهلِكُه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠).

(٢) صَفوانٍ: هو الحَجَرُ الأملَسُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٧/ ١٩٢).

(٣) فُزِّعَ أي: أُزيلَ الخَوفُ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٧/ ١٩٢).

أن يُدرِكَه، فيَكذِبُ معها مِئةَ كَذْبةٍ، فيُقالُ: أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا: كذا وكذا؟! فيُصَدَّقُ بتلك الكَلِمةِ التي سَمِعَ مِنَ السَّماءِ))[١].

وعن عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها، قالت: ((سَأل أُناسٌ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الكُهَّانِ، فقال لهم رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ليسُوا بشَيءٍ، قالوا: يا رَسولَ اللهِ، فإنَّهم يحَدِّثونَ أحيانًا بالشَّيءِ يكونُ حَقًّا! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: تلك الكَلِمةُ مِنَ الحَقِّ يَخطَفُها الجِنِّيُّ، فيَقُرُّها في أُذُنِ وليِّه قَرَّ الدَّجاجةِ[٢]، فيَخلِطون فيها أكثَرَ مِن مِئةِ كَذْبةٍ))[٣].

وعن عائشةَ رَضيَ الله عنها، أنَّها سَمِعَت رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ الملائِكةَ تَنزِلُ في العَنانِ -وهو السَّحابُ-، فتذكُرُ الأمرَ قُضِي في السَّماءِ، فتَستَرِقُ الشَّياطينُ السَّمعَ فتَسمَعُه، فتُوحيه إلى الكُهَّانِ، فيَكذِبون معها مِئةَ كَذبةٍ مِن عندِ أنفُسِهم))[٤].

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

أي: وأنَّا لا نَدري الغايةَ مِن وَراءِ حِراسةِ السَّماءِ بالملائِكةِ والشُّهُبِ: أهي إنزالُ عذابٍ بأهلِ الأرضِ، أمْ أرادَ ربُّهم بهم هُدًى وخَيرًا وصَلاحًا[٥]؟

---

(١) رواه البخاري (٤٨٠٠).

(٢) القَرُّ: ترديدُك الكلامَ في أُذُنِ المخاطَبَ حتى يفهَمَه، وقَرُّ الدجاجةِ: صَوتُها إذا قطَّعَتْه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦٢١٣) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢٨).

(٤) رواه البخاري (٣٢١٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

وقال ابنُ عاشور: (فحاصلُ المعْنى: إنَّا الآنَ لا نَدْري ماذا أُرِيدَ بأهلِ الأرضِ مِن شَرٍّ أو خيرٍ بعْدَ أنْ كنَّا نَتجسَّسُ الخبَرَ في السَّماءِ... وهي مِن قَبيلِ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ =

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أَدَبٌ عالٍ للجِنِّ؛ حيثُ قالوا في الشَّرِّ: ﴿أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ولم يُضيفوه إلى الله، وفي الرَّشَدِ قالوا: ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ ولم يقولوا: «أمْ أُريدَ بهم رَشَدٌ»[1].

فاختِلافُ صُورةِ الكلامِ في قولِه: ﴿أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ لاختِلافِ الأحوالِ؛ فإنَّ ما قبْلَ (أَمْ) صُورةٌ مِن الكلامِ تُخالِفُ صُورةَ ما بعْدَها؛ لأنَّ الأُولى فيها فِعلُ الإرادةِ مَبنيٌّ للمَجهولِ، والثَّانيةَ فيها فِعلُ الإرادةِ مَبنيٌّ للمعلومِ، والحالُ الدَّاعي لذلك نِسبةُ الخَيرِ إليه سُبحانَه في الثَّانيةِ، ومَنْعُ نِسبةِ الشَّرِّ إليه في الأُولى؛ جَرْيًا على واجِبِ الأدبِ مع اللهِ تعالَى في تَحاشي إسنادِ الشَّرِّ إليه[2]، وهذه طَريقةُ القرآنِ، ومنه قَولُ الخَضِرِ في شَأنِ الجِدارِ واليَتيمَينِ: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال في خرْقِ السَّفينةِ: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، ثمَّ قال بعْدَ ذلك: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِي﴾[3] [الكهف: ٨٢].

---

= [الأحقاف: ٩]. وليس المرادُ منها -فيما نَرى- أنَّهم يَنْفُون أنْ يَعلَموا ماذا أرادَ اللهُ بهذه الشُّهبِ؛ فإنَّ ذلك لا يُناسِبُ ما تَقدَّمَ مِن أنَّهم آمَنوا بالقرآنِ؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، وقولُهم: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ فذلك صَريحٌ في أنَّهم يَدْرون أنَّ اللهَ أراد بمَن في الأرضِ خَيرًا بهذا الدِّينِ، وبصَرْفِ الجِنِّ عن استراقِ السَّمعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٢٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٦٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٤).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٦٢).

٢- لَمَّا أخْبَروا عن إيمانِهم أنَّه كان عَقِبَ سَماعِهم مِن غيرِ تَوقُّفٍ، ثمَّ ذَكَروا منْعَهم مِن الاستراقِ؛ ذَكَروا أنَّه اشتَبَهَ عليهم المنْعُ، فلمْ يَعلَموا سِرَّه، فقالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ دَلالةً على أنَّ جَهْلَ بَعضِ المسائلِ الفرعيَّةِ لا يَقدَحُ، ونَدْبًا إلى رفْعِ الهِمَّةِ عن الخَوضِ في شَيءٍ بغيرِ عِلمٍ، وحثًّا على التَّفويضِ إلى علَّامِ الغُيوبِ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ يؤخَذُ منه أنَّ الشُّهُبَ تكاثرَت في مدَّةِ الرِّسالةِ المُحَمَّديَّةِ؛ حِفظًا للقُرآنِ مِن دسائِسِ الشَّياطينِ، كما دَلَّ عليه قَولُه عَقِبَه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[2] [الجن: ٩].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ فيه سؤالٌ: هذه الشُّهُبُ كانت موجودةً قبْلَ المَبعَثِ، فما معنى تخصيصِها بمُحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؟

**الجوابُ مبنيٌّ على مقامينِ:**

**المقامُ الأوَّلُ**: أنَّ هذه الشُّهُبَ ما كانت موجودةً قبْلَ المبعَثِ، وهذا قولُ ابنِ عبَّاسٍ وأُبَيِّ بنِ كَعبٍ رضيَ الله عنهم.

**المقامُ الثَّاني**: أنَّ هذه الشُّهُبَ كانت موجودةً قبلَ المبعَثِ، إلَّا أنَّها زِيدَت بعدَ المبعَثِ، وجُعِلَت أكمَلَ وأقوى، وهذا هو الَّذي يدُلُّ عليه لفظُ القُرآنِ؛ لأنَّه قال: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ الحادِثَ هو المَلءُ والكثرةُ، وكذلك قَولُه: ﴿نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ﴾، أي: كُنَّا نجِدُ فيها بعضَ المقاعِدِ خاليةً مِن الحَرَسِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٧٨، ٤٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

والشُّهُبِ، والآنَ مُلِئَت المقاعِدُ كُلُّها؛ فعلى هذا: الَّذي حَمَل الجِنَّ على الضَّربِ في البلادِ، وطَلَبِ السَّبَبِ: إنَّما هو كثرةُ الرَّجمِ، ومَنْعُ الاستراقِ بالكُلِّيَّةِ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ لو قال قائلٌ: كيف تتعَرَّضُ الجِنُّ لإحراقِ نَفْسِها بسَبَبِ استماعِ خبَرٍ بعدَ أن صار ذلك معلومًا لهم؟

**فالجوابُ**: أنَّ الْجِنَّ لَا تنكَفُّ عن ذلك؛ لأنَّهم مُنساقونَ إليه بالطَّبعِ -معَ ما ينالُهم مِن أذَى الرَّجمِ والاحتراقِ-، شأنَ انسياقِ المخلوقاتِ إلى ما خُلِقَتْ له، مثلَ تهافُتِ الفَراشِ على النَّارِ، لاحتمالِ ضَعفِ القوَّةِ المُفكِّرةِ في الجنِّ، بحيثُ يغلِبُ عليها الشَّهوةُ، ونحنُ نرَى البشرَ يقتَحِمونَ الأخطارَ والمهالِكَ تَبَعًا للهوَى(٢). وقيل: إنَّ اللهَ تعالى يُنسِيهم ذلك حتَّى تَعظُمَ المحنةُ(٣).

٤- مِن آياتِ النَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم ودلائلِ نُبوَّتِه الَّتي في القرآنِ ما ذكَره مِن أنَّ السَّماءَ مُلِئت حرَسًا شديدًا وشُهُبًا، بخِلافِ ما كانت العادةُ جاريةً به، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢]، وهذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرؤُه على النَّاسِ، وهم يقرؤونه؛ ولم يُنكِرْه أحدٌ، ولا ارتابَ به مؤمنٌ، ولا احتجَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٦٩، ٦٧٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨١).

وعن عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((أخبَرني رجلٌ مِن أصحابِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِن الأنصارِ، أنَّهم بينَما هم جلوسٌ ليلةً معَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم رُمِي بنَجمٍ فاستَنار، فقال لهم رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ماذا كنتُم تقولونَ في الجاهليَّةِ إذا رُمِي بمثلِ هذا؟...)). أخرجه مسلمٌ (٢٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤)، ونسَبَه للجاحظ. ويُنظر: ((الحيوان)) للجاحظ (٦/ ٤٥٦).

به عليه كافرٌ؛ فدلَّ أنَّ النَّاسَ عَلِموا صِدْقَ ما أَخبرتْ به الجِنُّ مِن أنَّ السَّماءَ مُلِئَتْ حرسًا شديدًا وشُهُبًا؛ وأنَّهم لم يَتَمَكَّنوا حينَئذٍ ممَّا كانوا يَتمَكَّنُون منه قبْلَ ذلك مِن الاستماعِ، ومعلومٌ أنَّ هذا أمْرٌ يَراه النَّاسُ بأبصارِهم؛ فإنَّ امتلاءَ السَّماءِ بالشُّهُبِ أمرٌ يراه النَّاسُ كلُّهم، فلو لَمْ يكُنْ كذلك لَكان النَّاسُ يُكَذِّبون بهذا -مؤمنُهم، وكافرُهم-، فإنَّ الجماعةَ العظيمةَ -الَّذين لم يَتواطَؤوا- يَمتَنِعُ اتِّفاقُهم على الكذبِ، وعلى التَّصديقِ بما يَعلمون أنَّه كذبٌ، وعلى كِتمانِ ما يَعلَمونه، وعلى تَركِ إنكارِ ما يَعلمون أنَّه كَذِبٌ. وقد سَمِع القرآنَ ألوفٌ مؤلَّفةٌ أَدركوا مَبْعَثَه، وشاهَدوا أحوالَ السَّماءِ؛ ولم يُنكِرْ ذلك أحدٌ، بل تظاهرتِ الأخبارُ بمِثْلِ ما أَخْبَر به القرآنُ مِن الرَّميِ العظيمِ بالشُّهُبِ الَّذي لم يُعهَدْ مِثلُه[1].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ فيه نَصٌّ على أنَّ الجِنَّ لا تَعلَمُ الغَيبَ[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ قد يَبدو مِن هذه الآيةِ إشكالٌ؛ حيث قالوا أوَّلًا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١، ٢]، ثمَّ يقولون: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾، والواقِعُ أنَّهم تساءَلوا لَمَّا لَمَسوا السَّماءَ فمُنِعوا منها لشِدَّةِ حِراستِها، وأقَرُّوا أخيرًا لَمَّا سَمِعوا القرآنَ، وعَلِموا السَّبَبَ في تشديدِ حِراسةِ السَّماءِ؛ لأنَّهم لَمَّا مُنِعوا ما كان يخطُرُ ببالِهم أنَّه مِن أجْلِ الوَحيِ؛ لِقَولِه: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾[3] [الجن: ٧]. وذلك على قولٍ في معنى البعثِ.

---

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ حُجَّةٌ على المعتزِلةِ والقَدَريَّةِ؛ لإخبارِ اللهِ جلَّ جلالُه عن الجِنِّ بإرادتِه سبحانَه الشَّرَّ بمَن في الأرضِ كإرادتِه بهم الرَّشَدَ؛ ولم يُنكِرْه مِن قَولِهم، ولا نَسَبَهم إلى الكَذِبِ عليه فيه، بل أنزَلَه في جملةِ القرآنِ العَجَبِ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾

- التَّأكيدُ في قولِه: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ بحرْفِ (أنَّ)؛ لغَرابةِ الخبَرِ، باعتبارِ ما يَلِيه مِن قولِه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ...﴾ إلخ[2].

- واللَّمسُ مُعبَّرٌ به عن اختبارِ أمْرٍ؛ لأنَّ إحساسَ اليدِ أقْوى إحساسٍ، فشُبِّهَ به الاختبارُ[3]. أو عُبِّر به عن الطَّلَبِ، أي: طَلَبْنا بُلوغَ السَّماءِ أو خبَرَها[4].

- وقولُه: ﴿شَدِيدًا﴾ صِفةٌ للحرَسِ على اللَّفظِ؛ لأنَّه اسمُ جمْعٍ، ولو لُحِظَ المعْنى لَقال: (شِدادًا) بالجمْعِ[5].

- وأيضًا هذا الكلامُ: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ تَوطئةٌ وتَمهيدٌ لقولِهم بعْدَه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ إلى آخِرِه؛ إذ المَقصودُ أنْ يُخبِروا مَن لا خبَرَ عندَه مِن نَوعِهم بأنَّهم قدْ تَبيَّنوا سَببَ شِدَّةِ حِراسةِ السَّماءِ، وكَثرةِ الشُّهبِ، وأمَّا نفْسُ الحِراسةِ وكَثرةِ الشُّهبِ فإنَّ المُخبَرينَ -بفتحِ الباءِ- يُشاهِدونَه[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ مِن تَمامِ قولِهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾، وإنَّما أُعِيدَ معه كَلمةُ ﴿وَأَنَّا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الخبَرَ الَّذي تَضمَّنَه هو المقصودُ، وأنَّ ما قبْلَه كالتَّوطئةِ له، فإعادةُ ﴿وَأَنَّا﴾ تَوكيدٌ لَفظيٌّ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ (مِن) في قولِه: ﴿مِنْهَا﴾ تَبعيضيَّةٌ، أي: مِن ساحاتِها، وهو مُتعلِّقٌ بـ﴿نَقْعُدُ﴾، وليس المَجرورُ حالًا مِن ﴿مَقَٰعِدَ﴾ مُقدَّمًا على صاحِبِه؛ لأنَّ السِّياقَ في الكَلامِ على حالِهم في السَّماءِ؛ فالعِنايةُ بمُتعلَّقِ فِعلِ القُعودِ أَوْلى[٣].

- والمقاعِدُ: جمْعُ مَقعَدٍ، وهو مَفعَلٌ للمكانِ الَّذي يقَعُ فيه القعودُ، وأُطلِقَ هنا على مَكانِ المُلازَمةِ؛ فإنَّ القُعودَ يُطلَقُ على مُلازَمةِ الحُصولِ[٤].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِلسَّمْعِ﴾ لامُ العِلَّةِ، أي: لأجْلِ السَّمعِ[٥].

- وفي ﴿مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ مَبحَثٌ في مَباحثِ فَصاحةِ الكلِماتِ، حيثُ جاءت هذه اللَّفظةُ ﴿مَقَٰعِدَ﴾ في القُرآنِ حَسنةً مَرْضيَّةً، غيرَ مُضافةٍ إلى مَن تَقبُحُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

إضافتُها إليه، وهذا بخِلافِ قولِ الرَّضيِّ في رِثاءِ أبي إسحاقَ الصَّابئِ[١]:

أعْـزِزْ علَـيَّ بـأنْ أراك وقـدْ خـلا ... عـن جانِبَيْـك مَقاعِـدُ العُـوَّادِ

فإنَّ إيرادَ هذه اللَّفظةِ (أي: مَقاعد) في هذا الموضعِ صَحيحٌ، إلَّا أنَّه يُوافِقُ ما يُكرَهُ ذِكرُه، لا سيَّما وقدْ أضافَه إلى مَن يُحتمَلُ (أي: ما يكْرَه) إضافتُه إليه، وهمُ العُوَّادُ، ولو انفرَدَ لَكان الأمْرُ فيه سهْلًا، ولو قال الشاعرُ بدَلًا مِن (مَقاعِد العُوَّادِ): (مَقاعِدُ الزِّيارةِ) لَزالَت تلك الهُجنةُ؛ فإنَّ لِمُصطلحاتِ النَّاسِ في استِعمالِ الكَلِماتِ أثرًا في وَقْعِ الكلِماتِ عندَ الأفهامِ[٢].

- وقولُه: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ تفريعٌ على مَحذوفٍ دلَّ عليه فِعلُ ﴿كُنَّا﴾ وتَرتُّبُ الشَّرطِ وجَزائِه عليه، وتَقديرُه: كنَّا نَقعُدُ منها -أي: مِن السَّماءِ- مَقاعِدَ للسَّمعِ، فنَستمِعُ أشياءَ، ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[٣].

- قيل: جِيءَ بصِيغةِ الشَّرطِ وجَوابِه؛ لأنَّ الغرَضَ تَحذيرُ إخوانِهم مِن التَّعرُّضِ للاستِماعِ؛ لأنَّ المُستمِعَ يَتعرَّضُ لِأذى الشُّهبِ[٤]. أو يكونُ ذلك لِمُجَرَّدِ أنَّهم يُخبِرونَ عن الحالِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ نَتيجةٌ ناتجةٌ عن قولِهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩] إلخ؛ لأنَّ ذلك

---

(١) يُنظر: ((ديوان الرضي)) (ص: ٢٩٥)، وفيه (مقاود) بدلًا من (مقاعد).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٨، ٢٢٩).

ويُنظر أيضًا: ((سر الفصاحة)) للخفاجي (ص: ٨٥)، ((المثل السائر)) لابن الأثير (١/ ٢٠٢)؛ فالشَّرطُ السَّادسُ عندَ الخفاجيِّ في الكلمةِ الفصيحةِ: ألَّا تكونَ الكلمةُ قد عُبِّرَ بها عن أمْرٍ آخَرَ يُكرَه ذِكرُه، فإذا أُورِدَت وهي غيرُ مَقصودٍ بها ذلك المعْنى، قَبُحَت.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

السَّمعَ كان لمَعرفةِ ما يَجْري به الأمرُ مِن اللهِ للملائكةِ، وممَّا يُخبِرُهم به ممَّا يُريدُ إعلامَهم به، فكانوا على عِلمٍ مِن بَعضِ ما يَتلقَّفونه، فلمَّا مُنِعوا السَّمعَ صاروا لا يَعلَمون شيئًا مِن ذلك، فأخْبَروا إخوانَهم بهذا؛ عَساهم أنْ يَعتبِروا بأسبابِ هذا التَّغيُّرِ، فيُؤمِنوا بالوحْيِ الَّذي حرَسَه اللهُ مِن أنْ يطَّلِعَ عليه أحدٌ قبْلَ الَّذي يُوحَى به إليه والَّذي يَحمِلُه إليه. وهذا تَمهيدٌ لِما سَيَقولونه مِن قولِه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ثمَّ قولِهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الجن: ١٢]، ثمَّ قولِهم: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾، إلى قولِه: ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾[1] [الجن: ١٣ - ١٥].

- وتَكريرُ (أنَّ) واسْمِها للتَّأكيدِ؛ لِكَونِ هذا الخبَرِ مُعرَّضًا لشَكِّ السَّامِعينَ مِن الجنِّ الَّذين لم يَختبِروا حِراسةَ السَّماءِ[2].

- والرَّشَدُ: إصابةُ المَقصودِ النَّافعِ، وهو وَسيلةٌ للخَيرِ؛ فلهذا الاعتبارِ جُعِلَ مُقابِلًا للشَّرِّ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٤).

## الآيات (١١-١٢)

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ﴿١٣﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾: أي: أصنافًا وضُروبًا وفِرَقًا مُختَلِفةً، والطَّرائِقُ جمعُ طَريقةٍ، وهي طَريقةُ الرَّجُلِ ومَذْهَبُه، والقِدَدُ هي الضُّروبُ والأجناسُ المُختَلِفةُ، جمع قِدَّةٍ: وهي القِطعةُ مِن الشَّيءِ، يُقالُ: صَار القَومُ قِدَدًا: إذا تفرَّقَت أحوالُهم وأهواؤُهم، وقيل: القِدَدُ نحوُ الطَّرائِقِ، وهو تأكيدٌ لها هاهنا، يُقالُ لكُلِّ طَريقةٍ: قِدَّةٌ، والطَّرِيقُ: السَّبيلُ الَّذي يُطْرَقُ بالأرجُلِ، ثمَّ استُعمِلَ في كلِّ مَسلَكٍ يَسلُكُه الإنسانُ في فِعْلٍ، محمودًا كان أو مذمومًا، وأصلُ (قدد): يدُلُّ على قَطعِ الشَّيءِ طُولًا[1].

﴿بَخۡسٗا﴾: أي: نَقْصًا مِن عَمَلِه وثَوابِه، وأصلُ (بخس): يدُلُّ على نَقصٍ[2].

﴿رَهَقٗا﴾: أي: ظُلْمًا أو مَكروهًا يَغْشاه، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٠٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٨، ٦٥٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٩، ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٠).

## المعنى الإجماليُّ:

يحكي الله تعالى ما قالَه هؤلاء الجنُّ يَصِفُونَ به حالَهم وواقعَهم، وأنَّهم قالوا: وأنَّا مِنَّا المُطيعونَ للهِ، ومِنَّا مَنْ هم دُونَهم، كنَّا فِرَقًا ومَذاهِبَ مُتفرِّقةً، وأنَّا عَلِمْنا يقينًا أنَّنا في سُلطانِ اللهِ وقَبضتِه، ولن نَنجُوَ مِن العذابِ إذا أراده بنا في الأرضِ، وإن هرَبْنا منه لم نَنْجُ، فلَنْ نُعْجِزَه إنْ طَلَبَنا، وأنَّا لَمَّا سَمِعْنا القُرآنَ آمَنَّا به، فمَن يؤمِنْ بربِّه فلا يَخافُ أن يَنقُصَ اللهُ شَيئًا مِن حَسَناتِه، ولا أن يَزيدَ شيئًا في سيِّئاتِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

أي: وأنَّا مِنَّا المُطيعونَ للهِ، ومِنَّا مَنْ هم دُونَهم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال ابنُ جُزَي في قولِه: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾: (أراد به الَّذين ليس صلاحُهم كاملًا، أو الَّذين ليس لهم صلاحٌ؛ فإنَّ «دُونَ» قد تكونُ بمعنَى «أقَلّ»، أو بمعنى «غَيْر»). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٨).

قيل: المرادُ بمَن هم دونَ ذلك: الكُفَّارُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٠٤).

وقيل: المرادُ: مَن هم أقلُّ مرتبةً منهم في الصَّلاحِ. وقد مال إليه القرطبيُّ، وذهب إليه ابنُ القيِّم، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥)، ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤١٥، ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٢).

قال ابنُ القيِّم: (تضَمَّنت هذه الآياتُ انقسامَهم إلى ثلاثِ طَبَقاتٍ: صالحينَ، ودونَ الصَّالِحين، وكُفَّارٍ. وهذه الطَّبقاتُ بإزاءِ طبَقاتِ بني آدمَ؛ فإنَّها ثلاثةٌ: أبرارٌ، ومُقتَصِدونَ، وكُفَّارٌ. فالصَّالحونَ بإزاءِ الأبرارِ، ومَنْ دونَهم بإزاءِ المقتَصِدينَ، والقاسِطون بإزاءِ الكُفَّارِ). ((طريق الهجرتين =

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾.

أي: كنَّا مَذاهِبَ مُتعَدِّدةً، وآراءً مُتفرِّقةً، وأهواءً مختلِفةً[١].

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ١٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا كان شأْنُ الصَّلاحِ أنْ يكونَ مَرْضيًّا عندَ اللهِ تعالَى، وشأْنُ ضِدِّه بعكْسِ ذلك؛ أعْقَبوا لتَعريضِ الإقلاعِ عن ضِدِّ الصَّلاحِ بما يَقْتضي أنَّ اللهَ قدْ أعدَّ لغيرِ الصَّالحينَ عِقابًا، فأيْقَنوا أنَّ عِقابَ اللهِ لا يُفلِتُ منه أحدٌ استَحقَّه[٢].

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا ١٢﴾.

أي: وأنَّا عَلِمْنا يقينًا أنَّنا في سُلطانِ اللهِ وقَبضتِه وتحتَ قُدرتِه، فلا يُمكِنُنا الإفلاتُ منه في الأرضِ والنَّجاةُ مِن السُّوءِ والعذابِ إذا أراده بنا، وإنْ هَرَبْنا منه لم نَنْجُ، فلَنْ نُعجِزَه إنْ طَلَبَنا[٣].

---

= وباب السعادتين)) (ص: ٤١٥، ٤١٦).

وقال السعدي: (أي: فُسَّاق، وفُجَّار، وكُفَّار). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال ابن تيمية: (أي: على مَذاهِبَ شتَّى، كما قال العُلماءُ: منهم المسلِمُ، والمشرِكُ، والنَّصرانيُّ، والسُّنِّيُّ، والبِدْعيُّ). ((مجموع الفتاوى)) (١١/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٢)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٤). =

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه بعدَ أن ذكَّروا قَومَهم بعذابِ اللهِ في الدُّنيا؛ عادوا إلى ترغيبِهم في الإيمانِ

---

= قال السمعاني: (معنى الظَّنِّ هاهُنا: اليقينُ، أي: أيقَنَّا أن لن نُعجِزَه في الأرضِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٨).

وقال الرازي: (و﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿هَرَبًا﴾ فيه وجهان:

الأوَّلُ: أنَّهما حالانِ، أي: لن نُعجِزَه كائنينَ في الأرض أيْنَما كُنَّا فيها، ولن نُعجِزَه هارِبينَ منها إلى السَّماءِ.

والثَّاني: لن نُعجِزَه في الأرضِ إن أراد بنا أمرًا، ولن نُعجِزَه هرَبًا إن طَلَبَنا). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٠).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الزمخشريُّ، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٥١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٩).

قال الألوسي: (لن نُعجِزَ اللهَ تعالى كائنينَ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: أيْنَما كُنَّا مِن أقطارِها ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي: هارِبينَ منها إلى السَّماءِ، فالأرضُ محمولةٌ على الجملةِ. ولَمَّا كان ﴿وَلَن ...﴾ إلخ في مُقابَلةِ ما قَبْلُ، لَزِمَ أن يكونَ الهرَبُ إلى السَّماءِ، وفيه تَرَقٍّ ومُبالَغةٌ، كأنَّه قيل: لن نُعجِزَه سُبحانَه في الأرضِ ولا في السَّماءِ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٩٩).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، الواحدي، والبغوي، والخازن، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٣٣).

قال ابن عاشور: (ذِكرُ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يؤذِنُ بأنَّ المرادَ بالهرَبِ في قَولِه: ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ الهرَبُ مِن الرَّجمِ بالشُّهبِ، أي: لا تَطمَعوا أن تَستَرِقوا السَّمعَ؛ فإنَّ رَجْمَ الشُّهُبِ في السَّماءِ لا يُخطِئُكم...، ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿نُّعْجِزَهُۥ﴾ الأوَّلُ بمعْنى نُغالِبَ...، أيْ: لا يَغْلِبونَ قُدْرَتَنا، ويكونَ ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مَقصودًا به تَعميمُ الأمكنةِ...، والمرادُ: أنَّا لا نَغلِبُ اللهَ بالقوَّةِ، ويكونَ «نُعجِز» الثَّاني بمعْنى الإفلاتِ، ولذلك بُيِّنَ بـ﴿هَرَبًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٤).

باللهِ وَحْدَه، وتحذيرِهم مِن الكُفرِ بطريقِ المفهومِ[١].

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾.

أي: وأنَّا لَمَّا سَمِعْنا القُرآنَ الَّذي يَهدِي إلى الحَقِّ، آمَنَّا به دونَ تردُّدٍ[٢].

﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾.

أي: فمَن يؤمِنْ بربِّه فلا يَخافُ أن يَنقُصَ اللهُ شَيئًا مِن حَسَناتِه، ولا أن يَزيدَ شيئًا في سيِّئاتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢).

ممَّن ذهب إلى القولِ المذكورِ في قولِه تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾: ابنُ جرير، ومكِّي، والسمعاني، وابن القيم، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٨)، ((طريق الهجرتين وباب السعادتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٨).

قال ابن كثير: (﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، وغيرُهما: فلا يَخافُ أن ينقصَ مِن حسناتِه، أو يُحمَلَ عليه غيرُ سيِّئاتِه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢).

وقال الشوكاني: (﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: لا يخافُ نقصًا في عمَلِه وثَوابِه، ولا ظُلْمًا ومكروهًا يَغشاه، والبَخْسُ: النُّقصانُ، والرَّهَقُ: العُدوانُ والطُّغيانُ، والمعنى: لا يخافُ أن ينقصَ مِن حسناتِه، ولا أن يُزادَ في سيِّئاتِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٨).

وقال الواحدي: (﴿وَلَا رَهَقًا﴾ ظُلْمًا، بأن يَذهَبَ عمَلُه كلُّه. قاله الكلبيُّ ومقاتلٌ. وقال عَطاءٌ: ﴿رَهَقًا﴾: عذابًا. قال المُبَرِّدُ: البَخسُ: الظُّلمُ، والرَّهقُ: ما يَغشاه مِن المكروهِ، فيَدخُلُ فيه العذابُ، ونُقصانُ الحسناتِ والثَّوابِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٣٠٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٣).

=

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ يَعنُونَ بالصَّالحينَ: أنفُسَهم، وبمَن دونَ الصَّلاحِ: بَقيَّةَ نَوعِهم، فلمَّا قاموا مَقامَ دَعوةِ إخوانِهم إلى اتِّباعِ طَريقِ الخَيرِ، لم يُصارِحوهم بنِسبتِهم إلى الإفسادِ، بل أبهَموا وقالوا: ﴿مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾، ثمَّ تلَطَّفوا فقالوا: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ الصَّادِقُ بمراتبَ مُتفاوِتةٍ في الشَّرِّ والفَسادِ؛ لِيَتطَلَّبَ المُخاطَبونَ دلائِلَ التَّمييزِ بيْنَ الفريقَينِ، على أنَّهم ترَكوا لهم احِتمالَ أن يُعنى بالصَّالحينَ الكامِلونَ في الصَّلاحِ، فيَكونَ المعنيُّ بمَن دونَ ذلك: مَن هم دونَ مَرتبةِ الكمالِ في الصَّلاحِ، وهذا مِن بليغِ العباراتِ في الدَّعوةِ والإرشادِ إلى الخيرِ[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، وإذا سَلِمَ مِنَ الشَّرِّ حصَلَ له الخيرُ، فالإيمانُ سَبَبٌ داعٍ إلى حصولِ كُلِّ خَيرٍ، وانتِفاءِ كُلِّ شَرٍّ[٢].

٣- قال تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾؛ لأنَّه لم يَبخَسْ أحدًا حقًّا، ولا ظلَم أحدًا، فلا يَخافُ جزاءَهما، وفيه دَلالةٌ على أنَّ مِنْ حقِّ مَنْ آمَنَ باللهِ تعالَى أنْ يَجتنِبَ المَظالِمَ[٣].

---

= وقال السعدي: (﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾، أي: لا نَقْصًا، ولا طُغيانًا، ولا أذًى يَلحَقُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٨).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، وقَولُه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدًا * وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٤، ١٥]، وقَولُه: ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ فيه أنَّ الجِنَّ مكلَّفونَ بطاعةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، مأمورونَ مَنهيُّونَ، مُجازَونَ بأعمالِهم، وأنَّ منهم المسلِمَ والكافرَ، والصَّالحَ ودونَ ذلك[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أنَّ اللهَ قادِرٌ على العِبَادِ حيثُ كانوا[2].

٣- قال تعالى حكايةً عن الجنِّ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ فذكروا ما يَقْتضي أنَّ اللهَ قدْ أعدَّ لغيرِ الصَّالحينَ عِقابًا، فأيْقَنوا أنَّ عِقابَ اللهِ لا يُفلِتُ منه أحدٌ استَحقَّه، وقَدَّموه على الأمرِ بالإيمانِ الَّذي في قَولِه: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ [الجن: ١٣] الآيَةَ؛ لأنَّ دَرءَ المفاسدِ مُقَدَّمٌ على جَلبِ المصالحِ، والتَّخليةَ مُقَدَّمةٌ على التَّحْليةِ، وقدِ استَفادوا عِلمَ ذلك ممَّا سَمِعوا مِن القُرآنِ، ولم يَكونوا يَعلَمون ذلك مِن قبْلُ؛ إذ لم يَكونوا مُخاطَبينَ بتَعليمٍ في أُصولِ العقائدِ، فلمَّا أَلْهَمَهم اللهُ لاستِماعِ القرآنِ، وعَلِموا أُصولَ العقائدِ؛ حذَّروا إخوانَهم اعتقادَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ١٩١).
قال ابنُ تَيميَّةَ: (لا رَيبَ أنَّهم مَأمورونَ بأعمالٍ زائدةٍ على التَّصديقِ، ومَنْهيُّون عن أعمالٍ غيرِ التَّكذيبِ؛ فهم مأمورونَ بالأصولِ والفُروعِ بِحَسَبِهم؛ فإنَّهم لَيسوا مُماثِلي الإنسِ في الحدِّ والحقيقةِ، فلا يكونُ ما أُمِروا به ونُهُوا عنه مُساويًا لِما على الإنسِ في الحدِّ، لكنَّهم مُشارِكونَ الإنسَ في جِنسِ التَّكليفِ بالأمرِ والنَّهيِ والتَّحليلِ والتَّحريمِ. وهذا ما لم أعلَمْ فيه نِزاعًا بيْن المسلمينَ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٠٦).

الشِّركِ ووَصْفَ اللهِ بما لا يَليقُ به؛ لأنَّ الاعتقادَ الباطلَ لا يُقِرُّه الإدراكُ المستقيمُ بعْدَ تَنبيهِه؛ لبُطلانِه[١].

٤- قولُه تعالى: ﴿فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِۦ﴾، أي: بوُجودِه وانفرادِه بالإلهيَّةِ، كما يُشعِرُ به إحضارُ اسمِه بعُنوانِ الرَّبِّ؛ إذِ الرَّبُّ هو الخالقُ، فما لا يَخلُقُ لا يُعبَدُ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنْ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ أنَّ مُحْسِني الجِنِّ في الجَنَّةِ، كما أنَّ مُسيئَهم في النَّارِ. ووَجهُ الاحتجاجِ بالآيةِ أنَّ البَخْسَ المَنْفِيَّ هو نُقصانُ الثَّوابِ، والرَّهَقَ: الزِّيادةُ في العُقوبةِ على ما عَمِلَ؛ فلا يُنْقَصُ مِن ثوابِ حَسَناتِه، ولا يُزادُ في سيِّئاتِه، ونظيرُ هذا قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]، أي: لا يَخافُ زيادةَ سيِّئاتِه، ولا نُقصانَ حَسَناتِه[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾

- قولُه: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾، أي: كنَّا ذَوي مَذاهبَ مُفترِقةٍ مُختلِفةٍ، أو كُنَّا في اختلافِ أحوالِنا مِثلَ الطَّرائقِ المُختلِفةِ، على حذْفِ المُضافِ مِن ﴿طَرَآئِقَ﴾، وإقامةِ المُضافِ إليه (ذَوِي أو مِثْل) مُقامَه، أو كانتْ طَرائقُنا طَرائقَ قِدَدٍ، على حذْفِ المُضافِ -الَّذي هو الطَّرائقُ- وإقامةِ الضَّميرِ المُضافِ إليه مُقامَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٢).

- وقيل: قولُه: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ؛ شُبِّهَ تَخالُفُ الأحوالِ والعقائدِ بالطَّرائقِ تُفْضي كلُّ واحدةٍ منها إلى مَكانٍ لا تُفْضي إليه الأُخرى[١].

- ووُصِفَت ﴿طَرَآئِقَ﴾ بـ ﴿قِدَدًا﴾؛ لدَلالتِها على معْنى التَّقطُّعِ والتَّفرُّقِ[٢]؛ فالقِدَّةُ: القِطعةُ مِن جِلْدٍ ونحْوِه، المَقطوعةُ طُولًا كالسَّيرِ، شُبِّهَت الطَّرائقُ في كَثرتِها بالقِدَدِ المُقتطَعةِ مِن الجِلْدِ يُقطِّعُها صانعُ حِبالِ القِدِّ، كانوا يُقيِّدون بها الأسْرى[٣].

- وأيضًا هذا الخبَرُ مُستعمَلٌ في التَّعريضِ بذَمِّ الاختِلافِ بيْن القَومِ، وأنَّ على القَومِ أنْ يَتَّحِدوا، ويَتطلَّبوا الحقَّ؛ لِيَكونَ اتِّحادُهم على الحقِّ، وليس المقصودُ منه فائدةَ الخبَرِ؛ لأنَّ المُخاطَبينَ يَعلَمون ذلك، والتَّوكيدُ بـ (أنَّ) مُتوجِّهٌ إلى المعْنى التَّعريضيِّ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ عطْفٌ على المجرورِ في قولِه: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ٢]، والتَّقديرُ: وآمنَّا بأنْ لنْ نُعجِزَ اللهَ في الأرضِ. وذِكرُ فِعلِ ﴿ظَنَنَّآ﴾ تأْكيدٌ لَفظيٌّ لِفعلِ (آمَنَّا) المُقدَّرِ بحرْفِ العَطْفِ؛ لأنَّ الإيمانَ يَقينٌ، وأُطلِقَ الظَّنُّ هنا على اليقينِ، وهو إطلاقٌ كثيرٌ[٥]، وقرينةُ استعمالِ الظَّنِّ هنا في اليَقينِ هي تأْكيدُ المَظنونِ بحرْفِ (لَنْ)[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٤، ٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٣). ويُنظر ما تقدَّم في غريبِ الكلماتِ (ص: ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٤).

- قولُه: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ الإعجازُ هنا كِنايةٌ عن الإفلاتِ والنَّجاةِ(١).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ عطْفٌ على المَجرورِ في قولِه: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ٢]، والمقصودُ بالعطْفِ قولُه: ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾، وأمَّا جُملةُ ﴿لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فتَوطئةٌ لذلك(٢).

- وأُريدَ بالهُدى القُرآنُ؛ إذ هو المَسموعُ لهم، ووَصَفوه بالهُدى للمُبالَغةِ في أنَّه هادٍ(٣).

- وجُملةُ ﴿فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مِن القولِ المَحكيِّ عن الجنِّ، ويجوزُ أنْ تكونَ كَلامًا مِن اللهِ مُوجَّهًا للمشركينَ، وهي مُعترِضةٌ بيْنَ الجُملتينِ المُتعاطفَتَينِ(٤).

- وجُملةُ ﴿فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾ جَوابٌ لشَرْطِ (مَن)، جُعِلَت بصُورةِ الجُملةِ الاسميَّةِ فقُرِنَت بالفاءِ مع أنَّ ما بعْدَ الفاءِ فِعلٌ، وشأْنُ جَوابِ الشَّرطِ ألَّا يَقترِنَ بالفاءِ إلَّا إذا كان غيرَ صالحٍ لأنْ يكونَ فِعلَ الشَّرطِ، فكان اقترانُه بالفاءِ وهو فِعلٌ مُضارِعٌ مُشيرًا إلى إرادةِ جَعْلِه خبَرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ بحيث تكونُ الجُملةُ اسميَّةً، والاسميَّةُ تَقترِنُ بالفاءِ إذا وَقَعَت جَوابَ شَرْطٍ، فكان التَّقديرُ هنا: (فهو لا يَخافُ)؛ ليَكونَ دالًّا على تَحقيقِ سَلامتِه مِن خَوفِ البَخسِ والرَّهَقِ، وليَدُلَّ على اختصاصِه بذلك دونَ غيرِه الَّذي لا يُؤمِنُ برَبِّه، فتَقديرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٤، ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المُسنَدِ إليه قبْلَ الخبَرِ الفِعليِّ هنا يَقْتضي التَّخصيصَ والتَّقَوِّيَ. وقد يُقالُ: إنَّ العُدولَ عن تَجريدِ الفعلِ مِن الفاءِ وعن جَزْمِه؛ لدفْعِ إيهامِ أنْ تكونَ (لا) ناهيةً، فهذا العُدولُ صَراحةٌ في إرادةِ الوعْدِ، دونَ احتمالِ إرادةِ النَّهيِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٥).

## الآيات (١٤-١٧)

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾: أي: الظَّالِمونَ الَّذين كفَروا، العادِلُونَ عن الحَقِّ إلى الباطِلِ، يُقالُ: قَسَط: أي: جارَ. وأقسَطَ: إذا عَدَلَ، والقَسْطُ -بفتحِ القافِ-: الجَورُ، والقُسوطُ: العُدولُ عن الحَقِّ[1].

﴿تَحَرَّوْا۟﴾: أي: تَوخَّوا وقَصَدوا، والتَّحَرِّي: القَصدُ للشَّيءِ، مِن قَولِهم: ذلك أحْرَى، أي: أحَقُّ وأقرَبُ، وأصلُه يدُلُّ على القُربِ والقَصدِ[2].

﴿رَشَدًا﴾: الرَّشَدُ والرُّشْدُ: نقيضُ الضَّلالِ، وهو الاهتِداءُ والدَّيمومةُ عليه، وأصلُ (رشد): يدُلُّ على استِقامةِ الطَّريقِ[3].

﴿حَطَبًا﴾: أي: وَقودًا للنَّارِ، وأصلُ (حطب): يدُلُّ على وَقودٍ[4].

﴿غَدَقًا﴾: أي: كثيرًا غَزيرًا، يُقالُ: غَدِقَت العَينُ تَغدَقُ، فهي غَدِقةٌ: إذا كَثُرَ ماؤُها،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٥٣٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

وأصلُ (غدق): يدُلُّ على غُزْرٍ وكَثرةٍ[١].

﴿لِّنَفْتِنَهُمْ﴾: أي: لِنَختبِرَهم، والفِتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ، والابتلاءُ، مأخوذةٌ مِن الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهبِ النَّارَ؛ لِتَظهَرَ جَودتُه مِن رداءَتِه[٢].

﴿يَسْلُكْهُ﴾: أي: يُدْخِلْه، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريقِ، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ أسْلُكُه. وسَلَكْتُ الشَّيءَ في الشَّيءِ: أنْفَذْتُه، وأصلُ (نفذ): يدُلُّ على نُفوذِ شيءٍ في شيءٍ[٣].

﴿صَعَدًا﴾: أي: شَديدًا شاقًّا، والصَّعَدُ: المشَقَّةُ، تقولُ: تصَعَّدَني الأمرُ: إذا شَقَّ عليك، وهو مَصدَرُ صَعِدَ، يُقالُ: صَعِدَ صَعَدًا وصُعودًا، فوُصِفَ به العَذابُ؛ لأنَّه يتصَعَّدُ المعَذَّبَ، أي: يَعْلوه ويَغلِبُه فلا يُطيقُه، وأصلُ (صعد): يدُلُّ على ارتفاعٍ ومشَقَّةٍ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى حكايةً عن الجنِّ: وأنَّا مِنَّا المُسلِمونَ المُطِيعونَ للهِ، ومِنَّا الجائِرونَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩).

عن طريقِ الحَقِّ، فمَنْ أسلَمَ للهِ تعالى بالتَّوحيدِ، وخَضَع له بالطَّاعةِ، فأولئك قصَدُوا الحَقَّ والصَّوابَ، وأمَّا الجائِرونَ عن الإسلامِ فكانوا وَقُودًا لجهنَّمَ.

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى سُنَّةً مِن سُنَنِه في عبادِه، فيقولُ: وأنْ لو استقام الظَّالِمونَ على طريقةِ الحَقِّ، لَأَسْقاهم اللهُ ماءً كثيرًا غَزيرًا، وأرغَدَ لهم العَيشَ؛ لِيَختَبِرَهم اللهُ فيما وسَّعَ عليهم مِنَ الرِّزقِ، ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ الكريمِ يُدخِلْه اللهُ عَذابًا شَديدًا شاقًّا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾.

أي: وأنَّا مِنَّا المُسلِمونَ المُطِيعونَ لله، السَّائِرونَ على صِراطِه المستقيمِ، ومِنَّا الجائِرونَ العادِلونَ عن طريقِ الحَقِّ القَويمِ[1].

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾.

أي: فمَنْ أسلَمَ للهِ تعالى بالتَّوحيدِ، وخَضَع له بالطَّاعةِ؛ فأولئك الَّذين توَخَّوا وقصَدُوا الحَقَّ والصَّوابَ، وسَلَكوا طريقَه الموصِلَ إلى الجنَّةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).
قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ أي: وأنَّا بعدَ استماعِ القُرآنِ مُختَلِفونَ؛ فمِنَّا مَن أسلَمَ، ومِنَّا مَن كَفَر). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٤، ٤٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).
ممَّن اختار أنَّ هذا مِن كلامِ الجنِّ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّي، وابن الجوزي، وأبو حيَّان. =

﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

أي: وأمَّا الجائِرونَ عن الإسلامِ، العادِلونَ باللهِ تعالى غَيرَه؛ فكانوا وَقُودًا لجهنَّمَ، تتوقَّدُ بهم؛ جزاءً على أعمالِهم(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾.

أي: وأنْ لو عَدَل الظَّالِمونَ إلى طريقِ الصَّوابِ، واستقاموا على طريقةِ الحَقِّ، لَأسْقَيْناهم ماءً كثيرًا غَزيرًا عظيمَ النَّفعِ، نُكثِّرُ به الرِّزقَ، ونُزَيِّنُ به الأرضَ، ونُرغِدُ به العَيشَ(٢).

---

= يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٧١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٩).

وممَّن اختار أنَّ هذا مِن كلامِ الله تعالى، لا الجِنِّ: ابنُ عطيَّة، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال القرطبي: (قوله: ﴿فَكَانُوا۟﴾ أي: في عِلمِ اللهِ تعالى). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧).

وقال البِقاعي: (﴿فَكَانُوا۟﴾ بجِبِلَّاتِهم). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧-١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٦، ٤٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٧، ٢٣٨). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

= وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الاستِقامةُ على طريقةِ الحَقِّ والهُدى: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وسعيدُ بنُ المُسيِّبِ، وعَطاءٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥٣).

وقيل: المرادُ: طريقةُ الكُفرِ والضَّلالةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (١/ ٣٣٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو مِجْلَزٍ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٥٣).

قال ابنُ كثير: (القَولُ الثَّاني: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ الضَّلالةِ ﴿لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ أي: لَأوسَعْنا عليهم الرِّزقَ؛ استِدراجًا... وله اتِّجاهُ، ويتأيَّدُ بقَولِه: ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٣).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (وقال مُقاتلٌ وجُمهورُ المفسِّرينَ: هذا إخبارٌ عن أهْلِ مكَّةَ. المعنى: وأنْ لو استَقاموا على طَريقةِ الهُدى.

وذهَبَ قومٌ إلى أنَّ المرادَ بها: طَريقةُ الكفْرِ. وهو قولُ محمَّدِ بنِ كعْبٍ، والرَّبيعِ، والفَرَّاءِ، وابنِ قُتَيْبَةَ.

فعلى الأوَّلِ يكونُ المعنى: لو آمَنوا لَوسَّعْنا عليهم؛ ﴿لِنَفْتِنَهُمْ﴾ لِنَختَبِرَهم فنَنظُرَ كيف شُكْرُهم.

وعلى الثَّاني يكونُ المعنى: وأنْ لو استَقاموا على طَريقتِهم في الكفْرِ لَوسَّعْنا عليهم؛ لنُوقِعَهم في الفِتنةِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣١٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤).

وهذه الجملةُ مِن قولِ الله تعالى، لا الجِنِّ. وممَّن نصَّ على ذلك: مكِّيٌّ، والقرطبيُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٦٩).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطۡغَوۡاْ﴾ [هود: ١١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وقال تبارك وتعالى حكايةً عن نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا * يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا * وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

وعن سُفيانَ بنِ عَبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رَسولَ اللهِ، قُلْ لي في الإسلامِ قَولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعْدَك. قال: قُلْ: آمَنْتُ باللهِ، فاستَقِمْ))(١).

﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا ١٧﴾.

﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾.

أي: لِنَختَبِرَهم فيما وسَّعْنا عليهم مِنَ الرِّزقِ، فيَنكَشِفَ الشَّاكِرُ مِن غَيرِه، ويَظهَرَ مَن يَستَمِرُّ منهم على الهِدايةِ، ومَن يَرتَدُّ إلى الغَوايةِ(٢)!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧، ٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

---

(١) رواه مسلم (٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال ابنُ جُزَي: (﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِ﴾ إنْ كانت الطَّريقةُ الإيمانَ والطَّاعةَ، فمعْنى الفِتنةِ: الاختبارُ، هلْ يُسلِمون أمْ لا؟ وإنْ كانت الطَّريقةُ الكفْرَ، فمعْنى الفِتنةِ: الإضلالُ والاستدراجُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٩).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن: ١٥].

وعن عَمرِو بنِ عَوفٍ البَدْريِّ رَضِيَ الله عنه: أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((واللهِ ما الفَقرَ أَخشَى عليكم، ولكِنِّي أخشَى أن تُبسَطَ عليكم الدُّنيا كما بُسِطَت على مَن كان قَبْلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، وتُهلِكَكم كما أهلَكَتْهُم!))[1].

﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾.

أي: ومَن يُعرِضْ عن القُرآنِ -فلا يتَّبِعُه ولا يعمَلُ به-؛ يُدخِلْه اللهُ عَذابًا شَديدًا شاقًّا لا يُطيقُه[2].

---

(١) رواه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩، ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾: القرآنُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، وابن الجوزي، وجلال الدين المحلي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٧٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١١٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣١٢).

ومِن المفسِّرينَ مَن قال: إنَّ المرادَ: توحيدُ ربه، كالسَّمَرْقَنْديِّ. ومنهم مَن قال: الإيمانُ بربِّه، كالسَّمْعانيِّ. ومنهم مَن قال: عبادةُ ربِّه، كالخازِنِ، والعُلَيميِّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٦).

قال الألوسي: (الذِّكرُ مصدرٌ مُضافٌ لمفعولِه تُجُوِّزَ به عن العبادةِ. أو هو بمعنى التَّذكيرِ مُضافٌ لفاعِلِه، ويُفسَّرُ بالموعظةِ. وقال بعضُهم: المرادُ بالذِّكْرِ: الوحيُ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٠١). ويُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٥٨).

قال الماوَرْدي: (﴿وَمَن يُعۡرِضۡ عَن ذِكۡرِ رَبِّهِۦ﴾ قال ابنُ زَيدٍ: يعني: القرآنَ. وفي إعراضِه عنه =

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ فيه أنَّ مَنْ آمَنَ باللهِ فقد توخَّى سَبَبَ النَّجاةِ، وما يحصُلُ به الثَّوابُ؛ لأنَّ الرَّشَدَ سَبَبُ ذلك(١).

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، فكُلُّها نصوصٌ على أنَّ الأمَّةَ إذا استقامت على الطَّريقةِ القويمةِ؛ شِرعةِ اللهِ، فَتَح عليهم بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ والأرضِ، ومفهومُ ذلك: أنَّ مَن لم يَستَقِمْ على الطَّريقةِ فقد يكونُ انحرافُه أو شِرْكُه مُوجِبًا لحِرمانِه مِن نعمةِ اللهِ -تعالى- عليه(٢).

٣- مَن أحَبَّ تَصفيةَ الأحوالِ، فلْيَجتَهِدْ في تصفيةِ الأعمالِ؛ قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾(٣).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ أنَّ مُؤْمِني الجِنِّ في الجَنَّةِ؛ فالرَّشَدُ هو الهُدى والفَلاحُ، وهو الَّذي يَهدي إليه القُرآنُ، ومَن لم يَدْخُلِ الجَنَّةَ لم

---

= وجهانِ؛ أحدُهما: عن القَبولِ، إنْ قيلَ: إنَّها في أهلِ الكُفرِ. الثَّاني: عن العَمَلِ، إنْ قيلَ: إنَّها في المؤمنينَ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١١٨). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((صيد الخاطر)) لابن الجوزي (ص: ٣١).

يَنَلْ غايةَ الرَّشَدِ، بل لم يَحصُلْ له مِن الرَّشَدِ إلَّا مجَرَّدُ العِلمِ[١]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ ذكَرَ عِقابَ القاسِطينَ، ولم يذكُرْ ثوابَ المُسلِمينَ؟

**الجوابُ**: بل ذكَرَ ثوابَ المؤمِنينَ، وهو قَولُه تعالى: ﴿تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٤]، أي: توَخَّوا رشَدًا عَظيمًا لا يَبلُغُ كُنْهَه إلَّا اللهُ تعالى، ومِثلُ هذا لا يتحَقَّقُ إلَّا في الثَّوابِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ أنَّ كافِرَ الجِنِّ في النَّارِ ككافِرِ الإنسِ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ فيه سؤالٌ: الجِنُّ مخلوقون مِن النَّارِ، فكيف يَكونونَ حَطَبًا للنَّارِ، وكيفَ يُعَذَّبون بها؟

**الجوابُ**: أنَّهم وإن خُلِقوا مِنَ النَّارِ لكِنَّهم تغَيَّروا عن تلك الهيئةِ، وصاروا خَلْقًا آخَرَ[٤]. فالإنسانُ أصلُه الطِّينُ، وليس طينًا حقيقةً، لكنَّه كان طينًا، كذلك الجانُّ كان نارًا في الأصلِ[٥]. وأيضًا فإنَّ النَّارَ يكونُ بَعضُها أقوى مِن بَعضٍ، فالأقوى يُؤثِّرُ على الأضعَفِ، ومعلومٌ أنَّ النَّارَ طَبَقاتٌ بَعضُها أشَدُّ مِن بَعضٍ، وهذا أمرٌ مَلموسٌ؛ فقد تكونُ الآلةُ مَصنوعةً مِن حَديدٍ، وتُسَلَّطُ عليها آلةٌ مِن حديدٍ أيضًا أقوى منها فتَكسِرُها. كما قيل: (لا يَفُلُّ الحديدَ إلَّا الحديدُ)، فلا

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧١).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((آكام المرجان في أحكام الجان)) للشبلي (ص: ٣١).

يَمنَعُ كَونُ أصلِه مِن نارٍ ألَّا يتعذَّبَ بالنَّارِ، كما أنَّ أصلَ الإنسانِ مِن طِينٍ مِن حَمَأٍ مَسنونٍ، ومِن صَلصالٍ كالفَخَّارِ، وبَعْدَ خَلْقِه فإنَّه لا يَحتَمِلُ التَّعذيبَ بالصَّلصالِ ولا بالفخَّارِ؛ فقد يُقضَى عليه بضَربةٍ مِن قِطعةٍ مِن فَخَّارٍ(١). واللهُ تعالى قادرٌ أن يعذِّبَ النَّارَ بالنَّارِ(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ لا يُعارِضُ قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]؛ لأنَّ القاسِطَ هو الجائِرُ، والمُقسِطَ هو العادِلُ، فهما ضِدَّانِ(٣).

٦- مِن عُقوباتِ المعاصي: أنَّها تَمحَقُ بَرَكةَ العُمُرِ، وبَرَكةَ الرِّزقِ، وبرَكةَ العِلمِ، وبرَكةَ العمَلِ، وبَركةَ الطَّاعةِ، وبالجُملةِ فإنَّها تَمحَقُ بَركةَ الدِّينِ والدُّنيا، فلا تجِدُ أقَلَّ بَرَكةً في عُمُرِه ودِينِه ودُنياه ممَّن عصى اللهَ، وما مُحِقَت البَركةُ مِنَ الأرضِ إلَّا بمعاصي الخَلْقِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، وإنَّ العَبدَ لَيُحرَمُ الرِّزقَ بالذَّنْبِ يُصيبُه(٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا * لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أنَّ الإعطاءَ قد يكونُ فِتنةً(٥).

٨- قَولُه تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ هذا وَعْدٌ بالجزاءِ

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٨٤).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٠/ ١٥٤).

على الاستِقامةِ في الدِّينِ جَزاءً حَسنًا في الدُّنيا، يكونُ عُنوانًا على رِضا اللهِ تعالَى، وبِشارةً بثَوابِ الآخِرةِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۞ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾

- قولُه: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ عطْفٌ على المَجرورِ بالباءِ في قولِه: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ٢]، والمَقصودُ بالعطْفِ قولُه: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾، وما قبْلَه تَوطئةٌ له، وهذا تَفصيلٌ لقولِهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الجن: ١١]؛ لأنَّ فيه تَصريحًا بأنَّ دونَ ذلك هو ضِدُّ الصَّلاحِ[٢].

- وقدْ جاء هذا التَّقسيمُ وإنْ كان قدْ تقدَّمَ ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ ليُذكَرَ حالُ الفريقينِ مِن النَّجاةِ والهَلَكةِ، ويُرغَّبَ مَن يَدخُلُ في الإسلامِ[٣].

- قولُه: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ۞ وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ على القولِ بأنَّ هذا خارجٌ عن الكَلامِ المَحكيِّ عن الجنِّ، وأنَّه كَلامٌ مِن جانبِ اللهِ تعالَى لمَوعظةِ المشرِكينَ مِن النَّاسِ فهو في معْنى التَّذييلِ، وإنَّما قُرِنَ بالفاءِ لتَفريعِه على القِصَّةِ؛ لاستخلاصِ العِبرةِ منها، فالتَّفريعُ تَفريعُ كَلامٍ على كَلامٍ، وليس تَفريعَ معْنى الكلامِ على معْنى الكلامِ الَّذي قبْلَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

- وتَنوينُ ﴿رَشَدًا﴾؛ للتَّعظيمِ[١].

- وإقحامُ فِعلِ (كانوا)؛ لتَحقيقِ مَصيرِهم إلى النَّارِ، حتَّى كأنَّهم كانوا كذلك مِن زمَنٍ مَضى[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾

- الضميرُ في قولِه: ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ يجوزُ أنْ يعودَ إلى القاسِطينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ عائِدًا إلى غيرِ مذكورٍ في الكلامِ، ولكِنَّه معروفٌ مِن المقامِ؛ إذِ السُّورةُ مَسوقَةٌ للتَّنبيهِ على عنادِ المُشْركينَ وطَعْنِهم في القرآنِ، فضميرُ ﴿ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ عائدٌ إلى المشْرِكينَ[٣].

- الاستقامةُ على الطَّريقةِ تَمثيلٌ لهَيئةِ المُتَّصِفِ بالسُّلوكِ الصَّالحِ، والاعتقادِ الحقِّ، بهَيئةِ السَّائرِ سَيرًا مُستقيمًا على طَريقةٍ؛ ولذلك فالتَّعريفُ في الطَّريقةِ للجِنسِ لا للعهْدِ[٤].

- قولُه: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾، أيْ: لَوسَّعْنا عليهم الرِّزقَ. وتَخصيصُ الماءِ الغَدَقِ -وهو الكثيرُ- بالذِّكرِ؛ لأنَّه أصلُ المَعاشِ والسَّعةِ، ولعِزَّةِ وُجودِه بيْن العرَبِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٥).

وفي هذا إنذارٌ بأنَّه يُوشِكُ أنْ يُمسَكَ عن أهلِ مكَّةَ المطرُ- وذلك على قولٍ-، فيَقَعوا في القحْطِ والجُوعِ، وهو ما حَدَثَ عليهم بعْدَ هِجرةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المدينةِ ودُعائِه عليهم بسِنينَ كسِنِي يُوسُفَ[1]؛ فإنَّه دَعا بذلك في المدينةِ في القُنوتِ، وقدْ كانوا يومَ نُزولِ هذه الآيةِ في بُحبُوحةٍ مِن العيشِ وفي نَخيلٍ وجنَّاتٍ، فكان جعْلُ تَرتُّبِ الإسقاءِ على الاستقامةِ على الطَّريقةِ -كما اقتضاهُ الشَّرطُ بحَرْفِ (لَو)- مُشيرًا إلى أنَّ المرادَ: لأَدَمْنا عليهم الإسقاءَ بالماءِ الغَدَقِ، وإلى أنَّهم لَيسوا بسالِكِينَ سَبيلَ الاستقامةِ، فيُوشِكُ أنْ يُمسَكَ عنهم الرِّيُّ، ففي هذا إنذارٌ بأنَّهم إنِ استَمَرُّوا على اعوِجاجِ الطَّريقةِ أُمسِكَ عنهم الماءُ، وبذلك يَتناسَبُ التَّعليلُ بالإفتانِ في قولِه: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ مع الجُملةِ السَّابقةِ؛ إذ يكونُ تَعليلًا لِما تَضمَّنَه معْنى إدامةِ الإسقاءِ؛ فإنَّه تَعليلٌ للإسقاءِ الموجودِ حِينَ نُزولِ الآيةِ، ولَيس تَعليلًا للإسقاءِ المفروضِ في جَوابِ (لَو)؛ لأنَّ جَوابَ (لَو) مُنتَفٍ، فلا يَصلُحُ لأنْ يُعلَّلَ به، وإنَّما هم مَفْتونونَ بما همْ فيه مِن النِّعمةِ، فأراد اللهُ أنْ يُوقِظَ قُلوبَهم بأنَّ استمرارَ النِّعمةِ عليهم فِتنةٌ لهم، فلا تَغُرَّنَّهم[2].

- وجُملةُ ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ إدماجٌ[3]، فهي مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ وبيْنَ جُملةِ ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾[4].

- وأُكِّدَت الكنايةُ عن الإنذارِ المأخوذةُ مِن قولِه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ بصَريحِ الإنذارِ بقولِه: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠٦)، ومسلم (٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٩).

صَعَدًا﴾، أي: فإنْ أعْرَضوا انقَلَبَ حالُهم إلى العذابِ، فسَلَكْنا بهم مَسالِكَ العَذابِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ فيه العُدولُ عن الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (عن ذِكْرِنا)، أو (عن ذِكْري)؛ لاقتضاءِ الحالِ الإيماءَ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ؛ فإنَّ المُعرِضَ عن ربِّه الَّذي خلَقَه وأنشَأَه ودبَّرَه حَقيقٌ بأنْ يُسلَكَ عَذابًا صَعَدًا[٢].

- قولُهص: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ على قِراءةِ ﴿نَسْلُكْه﴾ بنُونِ العظَمةِ، ففيهِ الْتفاتٌ[٣].

- قولُه: ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ الأصلُ: يَسْلُكْه في عَذابٍ، كقولِه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ [المدثر: ٤٢]، فعُدِّيَ إلى مَفعولينِ: إمَّا بحذْفِ الجارِّ وإيصالِ الفِعلِ، كقولِه: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، وإمَّا بتَضمينِه معْنى (نُدخِلْه)[٤]، وعلى القولِ بأنَّ ﴿عَذَابًا﴾ انتَصَبَ على نزْعِ الخافضِ، وهو حرْفُ الظَّرفيَّةِ (في)، فهي ظَرفيَّةٌ تدُلُّ على أنَّ العَذابَ إذا حلَّ به يُحيطُ به إحاطةَ الظَّرفِ بالمَظروفِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٤٠).

قرَأ الكوفِيُّونَ (عاصمٌ وحمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ) ويعقوبُ: ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بالياءِ، وقرأها الباقونَ بالنُّونِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٩).

- وقولُه: ﴿صَعَدًا﴾، أي: شاقًّا صَعْبًا يَعلُو المُعذَّبَ ويَغلِبُه، على أنَّه مَصدرٌ وُصِفَ به مُبالَغةً[١].

- واستُعمِلَ السَّلكُ هنا في معْنى شِدَّةِ وُقوعِ الفعلِ، والمعْنى: نُعذِّبْه عَذابًا لا مَصرِفَ عنه[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٣٩).

## الآيات (١٨-٢٤)

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِبَدًا﴾: أي: جماعاتٍ بَعضُها فوقَ بَعضٍ، شُبِّهَت بالشَّيءِ المتلَبِّدِ بعضُه فوقَ بَعضٍ، وهو مِن: تلَبَّدَ الشَّيءُ على الشَّيءِ: أي تجَمَّعَ، وأصلُ (لبد): يدُلُّ على تكَرُّسِ الشَّيءِ بَعضِه فوقَ بَعضٍ[1].

﴿يُجِيرَنِى﴾: أي: يَنصُرَني، وَيدفَعَ عنِّي، وأصلُه مِنَ الجِوارِ بمعنى التَّأمينِ[2].

﴿مُلْتَحَدًا﴾: أي: مَلجأً أمِيلُ إليه، وأصلُ (لحد): يدُلُّ على مَيلٍ[3].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا * إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾

---

(١) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣).

قَولُه: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾: فيه أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه استِثناءٌ مُنقَطِعٌ، أي: لكِنْ إنْ بَلَّغْتُ عن اللهِ رَحِمني. الثَّاني: أنَّه مُتَّصِلٌ، وتأويلُه: أنَّ الإجارةَ مُستعارةٌ للبلاغِ، إذ هو سَبَبُها، وسببُ رحمتِه تعالى، والمعنى: ولن أجِدَ مِن دُونِه مَنجًى إلَّا بلاغًا، أي: لا يُنجِيني إلَّا أن أُبلِّغَ عن اللهِ ما أُرسِلْتُ به، وعليه يكونُ بدلًا مِنْ ﴿مُلْتَحَدًا﴾؛ لأنَّ الكلامَ غيرُ موجَبٍ. أو يكونُ مَنصوبًا على الاستثناءِ. الثَّالثُ: أن يكونَ مُستثنًى مُنقَطِعًا مِن قَولِه: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ [الجن: ٢١]، فقال: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ استِثناءً منه، أي: لا أملِكُ إلَّا أنْ أُبَلِّغَكم ما أُرْسِلْتُ به. وقولُه: ﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي ...﴾ جملةٌ اعتُرِضَ بها؛ لتأكيدِ نَفيِ الاستِطاعةِ عن نَفْسِه.

﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ فيه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّها مَنصوبةٌ عطفًا على ﴿بَلَٰغًا﴾، كأنَّه قال: لا أملِكُ لكم إلَّا التَّبليغَ والرِّسالةَ. والثَّاني: أنَّها مجرورةٌ عَطْفًا على ﴿ٱللَّهِ﴾، أي: إلَّا أن أُبلِّغَ عن اللهِ وعن رِسالاتِه[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا عِبادَه أنْ يُوَحِّدوه في مَحالِّ عبادتِه: وأنَّ المساجِدَ لله تعالى وَحْدَه؛ فلا تُشرِكوا باللهِ فيها أحدًا مِن خَلْقِه.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه حالَ الجنِّ مِن الصَّالحينَ معَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: وأنَّه لَمَّا قام محمَّدٌ يدعو اللهَ، كاد الجنُّ يَكونونَ عليه جماعاتٍ.

ثمَّ يأمُرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ يبيِّنَ حقيقةَ ما يدعو إليه، فيقولُ: قلْ -يا محمَّدُ-: إنَّما أدْعُو ربِّي وَحْدَه، ولا أُشرِكُ به أحدًا مِن خَلْقِه. قُلْ: إنِّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا نَفعًا، ولا ضَلالةً ولا صوابًا. قُلْ: إنِّي لن يُنقِذَني مِن اللهِ أحدٌ

(١) يُنظَر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٠٠).

إنْ أرادني بسُوءٍ، ولن أَجِدَ مِن دونِ اللهِ مَلْجأً ألجَأُ إليه، إلَّا أن أبَلِّغَ عنه ما أُرسِلْتُ به.

ثمَّ يُبيِّنُ سبحانَه سوءَ عاقبةِ مَن يُخالِفُ أمْرَه، فيقولُ: ومَن يَعْصِ اللهَ ورسولَه في التَّوحيدِ والعبادةِ؛ فإنَّ له نارَ جهنَّمَ خالِدًا فيها أبدًا.

ثمَّ يهدِّدُ الله الكافرينَ بسببِ استهزائِهم بالمؤمنينَ، فيقولُ: حتَّى إذا رأى الكُفَّارُ ما وعَدَهم اللهُ به مِنَ العَذابِ، فسيَعلَمونَ حِينَها مَنِ الأضعَفُ ناصِرًا والأقَلُّ عددًا: هم أو المُؤمِنونَ؟

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾.

أي: وأنَّ جميعَ المساجِدِ الَّتي هي بيوتٌ لعِبادةِ اللهِ تعالى: هي له وَحْدَه؛ فلا تُشرِكوا باللهِ فيها أحدًا مِن خَلْقِه، وأفرِدوه وَحْدَه بالسُّؤالِ والعبادةِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال الرازي: (التَّقديرُ: قُلْ: أُوحِيَ إلَيَّ أنَّ المساجِدَ للهِ. ومذهبُ الخليلِ أنَّ التَّقديرَ: ولأنَّ المساجِدَ لله فلا تدعوا، فعلى هذا اللَّامُ مُتعلِّقةٌ بـ﴿فَلَا تَدْعُواْ﴾، أي: فلا تدعوا مع اللهِ أحدًا في المساجِدِ؛ لأنَّها لله خاصَّةً). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٣).

ممَّن ذهب إلى التَّقديرِ الأوَّلِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٨٩).

وممَّن ذهب إلى التَّقديرِ الثَّاني، أي: ولأنَّ المساجِدَ لله: الخليلُ -كما نسَبَه إليه سيبويه- وذهب إليه ابنُ أبي زَمَنِين، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((الكتاب)) لسيبويه (٣/ ١٢٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٧٠).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ يعني: الكنائِسَ والبِيَعَ والمساجِدَ، للهِ ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾؛ وذلك أنَّ اليهودَ والنَّصارى يُشرِكونَ في صلاتِهم في البِيَعِ والكنائِسِ، فأمَرَ اللهُ المؤمِنينَ أن يوحِّدوه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٤).

وقال القرطبي: (وقيل: المعنى: أفرِدوا المساجِدَ لذِكرِ اللهِ، ولا تتَّخِذوها هُزُوًا ومَتجَرًا =

كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

أي: وأنَّه لَمَّا قام محمَّدٌ يدعو اللهَ، كاد الجنُّ يَكونون عليه جماعاتٍ يَتراكَمُ بَعضُها على بَعضٍ(١).

---

= ومَجلِسًا، ولا طُرُقًا، ولا تجعلوا لغيرِ اللهِ فيها نصيبًا. وفي الصَّحيح: «مَن نَشَد ضالَّةً في المسجدِ، فقولوا: لا ردَّها اللهُ عليك؛ فإنَّ المساجِدَ لم تُبْنَ لهذا» [أخرجه مسلم (٥٦٨)]). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢).

وقيل: معنى قولِه: ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ الصَّلواتُ للَّه، وقيل: الأعضاءُ التي يُسجَدُ عليها للَّه، وقيل: هي كلُّ موضعٍ صلَّى فيه الإنسانُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١١٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٢-٣٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤١، ٢٤٢).

قيل: المعنى: كاد الجِنُّ مِن تكاثُرِهم على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ سمِعوه يقرأُ القُرآنَ يَكونونَ عليه متراكِمينَ ومُقتَرِبينَ منه؛ مِن ازدحامِهم عليه؛ حرصًا ورغبةً منهم في استماعِ القرآنِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والواحديُّ، والرَّسْعَني، والعُلَيمي، والشَّوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

وقيل: المرادُ: لَمَّا قام محمَّدٌ يدعو النَّاسَ إلى توحيدِ الله تعالى، كاد المشرِكونَ أن يَكونوا عليه جَميعًا؛ ليُطفِئُوا نورَ اللهِ تعالى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، واستظهره =

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا ٢٠﴾.

أي: قلْ -يا محمَّدُ-: إنَّما أدْعُو ربِّي وَحْدَه، ولا أُشرِكُ به أحدًا مِن خَلْقِه[1].

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه انتِقالٌ مِن ذِكرِ ما أُوحِيَ به إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إلى تَوجيهِ خِطابٍ مُستأنَفٍ إليه؛ فبَعْدَ أنْ حُكِيَ في هذه السُّورةِ ما أوحَى اللهُ إلى رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ممَّا خَفِيَ عليه مِن الشُّؤونِ المُتعلِّقةِ به مِن اتِّباعِ مُتابِعينَ، وإعراضِ مُعرِضين؛ انتُقِلَ إلى تَلقينِه ما يَرُدُّ به على الَّذين أظْهَروا له العِنادَ، ولبَيانِ عَجْزِه عن شُؤونِ نفْسِه، وأنَّ الأمرَ كلَّه بيَدِ اللهِ[2].

﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ٢١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ-: إنِّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا نَفعًا، ولا ضَلالةً ولا صوابًا

---

= ابنُ كثير، وذهب إليه ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤١، ٢٤٢).

وقال البِقاعي: (﴿كَادُواْ﴾ أي: قَرُبَ القاسِطونَ مِن الفريقَينِ الجنِّ والإنسِ، ﴿يَكُونُونَ عَلَيۡهِ﴾ أي: على عبْدِ اللهِ، ﴿لِبَدٗا﴾ أي: مُتراكِمينَ بعضُهم على بعضٍ مِن شِدَّةِ ازدحامِهم، حتَّى كان ذلك جِبِلَّةً لهم؛ تَعجُّبًا ممَّا رَأَوا منه مِن عِبادتِه، وإرادةً لِرَدِّه عن ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٠/ ٤٩١).

قال الواحدي: (قوله: ﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ يعني: النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِ الجميعِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٣١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال ابنُ جرير: (قُلْ -يا محمَّدُ- للنَّاسِ الَّذين كادوا يَكونونَ عليك لِبَدًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣).

وسَدادًا؛ فإنَّما المرجِعُ في ذلك كُلِّه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وإنَّما أنا عبدٌ ليس لي مِنَ الأمرِ شَيءٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۗ﴾ [الفتح: ١١].

﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا ٢٢﴾.

﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ-: إنِّي لن يُنقِذَني مِن اللهِ أحدٌ إنْ أراد أن يُصيبَني بضُرٍّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨].

﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾.

أي: ولن أَجِدَ مِن دونِ اللهِ مَلجَأً ألجَأُ إليه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦)، ((الروح)) لابن =

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ٢٣﴾.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾.

أي: لن أجِدَ مِن دونِ اللهِ مَلجَأً إلَّا أن أبَلِّغَ عنه ما أُرسِلْتُ به؛ فإنَّ فيه الأمانَ والنَّجاةَ(١).

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

**مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان قولُه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٠] إلى هنا، كَلامًا مُتضمِّنًا أنَّهم أشْرَكوا وعانَدوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حينَ دَعاهم إلى التَّوحيدِ، واقتَرَحوا عليه ما تَوهَّموه -تَعجيزًا له- مِن ضُروبِ الاقتراحِ؛ أُعقِبَ ذلك بتَهْديدِهم ووَعيدِهم بأنَّهم إنْ دامُوا على عِصيانِ اللهِ ورَسولِه سيَلْقَون نارَ جهنَّمَ؛ لأنَّ كلَّ مَن يَعْصي اللهَ ورسولَه كانت له نارُ جهنَّمَ(٢).

﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

---

= القيم (ص: ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٦٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦)، ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٤٣٢).

وممَّن قال بهذا المعنى المذكورِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: إنِّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا رشَدًا، ولكنِّي أُبلِّغُ عن اللهِ، فأمَّا الرَّشَدُ والخِذْلانُ فبِيَدِ اللهِ، هو مالِكُه وَحْدَه، فيَهدي مَن يَشاءُ، ويَخذُلُ مَن يشاءُ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٤٩، ٣٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٥).

أي: ومَن يعْصِ اللهَ تعالى ورَسولَه في التَّوحيدِ والعبادةِ، فقد استحَقَّ الخُلودَ الأبَديَّ في نارِ جهنَّمَ[١].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرٗا وَأَقَلُّ عَدَدٗا ٢٤﴾.

أي: حتَّى إذا رأَى الكُفَّارُ ما وعَدَهم اللهُ مِن العذابِ وشاهَدوه عِيانًا، وأيْقَنوا بوُقوعِه؛ فسيَعلَمونَ حِينَها مَنِ الأضعَفُ ناصِرًا ومانِعًا لهم مِن العَذابِ، ومَن الأقَلُّ عددًا: هم أو المؤمِنونَ الموَحِّدونَ لله تعالى[٢]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦، ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال السِّعديُّ: (وهذا المرادُ به المعصيةُ الكُفْريَّةُ، كما قيَّدَتْها النُّصوصُ الأُخَرُ المُحكَمةُ. وأمَّا مُجرَّدُ المعصيةِ فإنَّه لا يُوجِبُ الخلودَ في النَّارِ، كما دَلَّت على ذلك آياتُ القرآنِ، والأحاديثُ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأجْمَعَ عليه سَلَفُ الأُمَّةِ وأئمَّةُ هذه الأُمَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٠، ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: يوعَدون في الدُّنيا وفي الآخرةِ: السمرقنديُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والقرطبي، وابنُ جُزَي، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٤٩٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٧٢).

وممَّن قال بأنَّ المراد: ما يُوعَدونَ يومَ القيامةِ: البَغَويُّ، والخازن، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٦).

قال الزَّمخشريُّ: (فإنْ قلتَ: بِمَ تَعلَّق ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وجُعِلَ ما بعْدَه غايةً له؟ قلتُ: بقولِه: ﴿يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾، على أنَّهم يَتظاهَرونَ عليه بالعَداوةِ، ويَستضعِفون أنْصارَه، ويَستقلُّون عَدَدَهم، حتَّى إذا رَأَوا ما يُوعَدون مِن يومِ بدْرٍ وإظهارِ اللهِ له عليهم، أو مِن يومِ القيامةِ؛ فسَيعلَمون حينَئذٍ أنَّهم أضعَفُ ناصرًا وأقلُّ عدَدًا. ويجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بمَحذوفٍ دلَّت عليه الحالُ: مِن استضعافِ =

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلۡعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضۡعَفُ جُندٗا﴾ [مريم: ٧٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَيَعۡلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٖ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا * قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾ فيه بيانُ حالةِ الخَلقِ، وأنَّ كُلَّ أحدٍ منهم لا يستَحِقُّ مِن العبادةِ مِثقالَ ذَرَّةٍ؛ لأنَّ الرَّسولَ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا كان لا يملِكُ لأحدٍ نَفعًا ولا ضَرًّا، بل ولا يملِكُ لِنَفْسِه، عُلِمَ أنَّ الخَلْقَ كُلَّهم كذلك، فمِنَ الخطَأِ والغَلَطِ اتِّخاذُ مَن هذا وَصْفُه إلهًا آخَرَ مع اللهِ[1]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ فيه أنَّ المساجِدَ الَّتي هي أعظَمُ محالِّ العبادةِ مَبنيَّةٌ على الإخلاصِ للهِ، والخُضوعِ لعَظَمتِه، والاستِكانةِ لعِزَّتِه[2].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ قولُه: ﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ في ضِمْنِه أمرٌ بذِكرِ اللهِ وبدُعائِه[3].

---

= الكفَّارِ له، واستِقلالِهم لعَدَدِه، كأنَّه قال: لا يَزالون على ما هم عليه حتَّى إذا رَأَوا ما يُوعَدون)). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٤).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ أضاف تعالى المساجِدَ لنَفْسِه تَشريفًا، فاستُدِلَّ به على تنزيهِها عن غيرِ العباداتِ؛ مِنَ البَيعِ، والخُصوماتِ، وإقامةِ الحُدودِ[1].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ قيل: المساجِدُ هنا هي جَمعُ (مَسجَدٍ) بالفتحِ، وهي الأعضاءُ السَّبعةُ الَّتي يَسجُدُ عليها الإنسانُ: الجبهةُ، واليَدانِ، والرُّكبتانِ، والقَدَمانِ، أي: هي للهِ؛ فلا تَسجُدوا بها لغَيرِه؛ ففيه رَدٌّ على مَن خَصَّ السُّجودَ بالجَبهةِ فقط دونَ السِّتَّةِ الباقيةِ[2].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّه لا يجوزُ إضافةُ المساجدِ إلى مخلوقٍ إضافةَ مِلْكٍ واختِصاصٍ، وأنَّه لا يجوزُ نِسبةُ شيءٍ مِن المساجدِ إلى بعضِ طوائفِ المُسلمينَ للاختِصاصِ بها، فيُقالُ: هذه

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٥).

اتَّفق الفُقهاءُ على أنَّه تَحرُمُ إقامةُ الحدودِ في المساجدِ، أمَّا البَيعُ والشِّراءُ فقد اتَّفَق الفقهاءُ على مَنعِه، لكنْ ذهب الحَنَفيَّةُ والمالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ إلى الكراهةِ، وذهب الحنابلةُ إلى التَّحريمِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٧/ ١٤٨، ١٧٩).

قال العُلَيمي: (وأمَّا حُكمُ القاضي في المسجدِ؛ فقال أبو حنيفةَ ومالكٌ وأحمدُ: يجوزُ؛ لأنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَقضي بيْن الخُصومِ في المسجدِ، وكذا الخُلفاءُ الرَّاشِدونَ بعْدَه. ومذهبُ الشَّافِعيِّ: يُكرَهُ كَراهةَ تنزيهٍ، فلو اتَّفقَتْ قضيَّةٌ أو قضايا وقتَ حُضورِه في المسجدِ لصلاةٍ أو غيرِها، فلا بأسَ بفَصلِها. وأمَّا الحدودُ فلا تُقامُ في المساجدِ بالاتِّفاقِ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٨٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٥).

قال أبو حيَّانَ: (وأبعَدَ ابنُ عطاءٍ في قولِه: إنَّها الآرابُ الَّتي يُسجَدُ عليها، واحدُها مَسجَدٌ؛ بفتْح الجيمِ، وهي الجَبْهةُ والأنفُ، واليَدانِ، والرُّكبتانِ، والقَدَمانِ؛ عدَّ الجَبْهةَ والأنفَ واحدًا. وأبعَدَ أيضًا مَن قال: المسجدُ الحرامُ؛ لأنَّه قِبلةُ المساجدِ، ومَن قال: إنَّه جمْعُ مَسجَدٍ، وهو السُّجودُ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٠).

المساجِدُ للطَّائفةِ الفُلانيةِ، وهذه للطَّائفةِ الأُخرى؛ فإنَّها مُشتَرَكةٌ بيْن المسلمينَ عُمومًا[١].

٦- قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ المساجدُ وإن كانت لله مِلْكًا وتشريفًا، فإنَّها قد تُنسبُ إلى غيرِه تعريفًا، فيقالُ: مَسجِدُ فُلانٍ[٢].

٧- أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لا يَرضى أنْ يُشْرَكَ معه في عبادتِه أحدٌ، بل هو وحْدَه المستحِقُّ للعبادةِ، ودليلُ ذلك قَولُه تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، فنهى اللهُ تعالى أنْ يَدْعُوَ الإنسانُ مع اللهِ أحدًا، واللهُ لا يَنْهَى عن شَيءٍ إلَّا وهو لا يَرضاه سُبحانَه[٣].

٨- اتَّفَق أئِمَّةُ الإسلامِ على أنَّه لا يُشْرَعُ بناءُ المشاهِدِ على القُبورِ، ولا يُشْرَعُ اتِّخاذُها مَساجِدَ، ولا يُشْرَعُ الصَّلاةُ عندَها، ولا يُشْرَعُ قصدُها لأجلِ التَّعَبُّدِ عندَها بصلاةٍ أوْ اعتكافٍ أوْ استغاثةٍ أوْ ابتهالٍ أوْ نحوِ ذلك، فهذا ليس مِن دينِ الله، إنَّما دِينُ اللهِ تَعظيمُ بُيوتِ اللهِ وحْدَه لا شَريكَ له، وهي المساجدُ الَّتي تُشرَعُ فيها الصَّلَواتُ جَماعةً وغيرَ جماعةٍ، والاعتكافُ، وسائرُ العِباداتِ البَدَنيَّةِ والقلْبيَّةِ؛ مِن القراءةِ والذِّكرِ والدُّعاءِ للهِ؛ قال تَعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٢/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١).

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رضِيَ الله عنهما، ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سابَق بيْنَ الخَيلِ الَّتي أُضْمِرَتْ مِن الحَفْياءِ، وأمَدُها ثَنِيَّةُ الوَداعِ، وسابَق بيْنَ الخيلِ الَّتي لم تُضْمَرْ مِن الثَّنِيَّةِ إلى مَسجِدِ بني زُرَيْقٍ...)). أخرجه البخاريُّ (٤٢٠)، وترجم له: (بابٌ: هل يُقالُ: مَسجِدُ بَني فُلانٍ؟).

(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٣٣).

مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ * رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ * لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾[1] [النور: ٣٦ - ٣٨].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ سَمَّى محمَّدًا بـ (عبدِ اللهِ)، وما ذكَرَه بـ (رَسولِ اللهِ) أو (نبيِّ اللهِ)؟

**الجوابُ**: لأنَّه إن كان هذا الكلامُ مِن جُملةِ المُوحَى، فاللَّائِقُ بتواضُعِ الرَّسولِ أن يَذكُرَ نَفْسَه بالعُبوديَّةِ[2]، وإنْ كان مِن كلامِ الجِنِّ، كان المعنى: أنَّ عبْدَ اللهِ لَمَّا اشتَغَل بعبوديَّةِ اللهِ فهؤلاء الكُفَّارُ لِمَ اجتَمَعوا ولِمَ حاوَلوا مَنْعَه منه، مع أنَّ ذلك هو الموافِقُ لقانونِ العَقلِ[3]؟! فالمعنى: أنَّ عبادةَ عبْدِ اللهِ للهِ ليست بأمرٍ مُستبعَدٍ عن العقلِ ولا مُستنكَرٍ حتَّى يَكونوا عليه لِبَدًا[4] -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، أو لأنَّ العبوديَّةَ مِن أشرَفِ الخِصالِ[5]. فقد وَصَف اللهُ تعالى أكرَمَ خَلْقِه عليه، وأعلاهم عِندَه مَنزِلةً بالعُبوديَّةِ في أشرَفِ مَقاماتِه؛ فوَصَفه بالعُبوديَّةِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٧/ ٤٤٩).

(٢) قال ابن جُزَي بعدَ أن ذكَر هذا الوجهَ مِن كلامِ الزمخشريِّ: (وهذا الَّذي قاله بعيدٌ، مع أنَّه إنَّما يُمكِنُ على قراءةِ: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ﴾ بفتحِ الهمزةِ، فيكونُ عطفًا على ﴿أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾ [الجن: ١]. وأمَّا على القِراءةِ بالكسرِ على الاستِئنافِ فيَكونُ إخبارًا مِن الله، أو مِن جملةِ كلامِ الجِنِّ، فيَبطُلُ ما قاله). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ١٥٩).

في مقامِ الدعوةِ إليه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ وذكره بالعُبوديَّةِ في مقامِ الإسراءِ، فقال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١]، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ إنزالِ الكِتابِ عليه، فقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وقال سُبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١]، وذَكَره بالعُبوديَّةِ في مَقامِ التحَدِّي بأن يأتُوا بمِثْلِه في قَولِه: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾[1] [البقرة: ٢٣].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ فيه شِدَّةُ حِرصِ الجِنِّ لاستِماعِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتراكُمِهم عليه[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا * قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَملِكُ لنَفْسِه نَفْعًا ولا ضَرًّا؛ فكيف يَمْلِكُ لغيرِه؟! فالنَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لو أراد اللهُ به ما يُريدُ، ما استطاع أحدٌ مِن النَّاسِ أنْ يَمْنعَ إرادةَ اللهِ فيه، وإذا كان كذلك فمِن الضَّلالِ البَيِّنِ أنْ يَستغيثَ أحدٌ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بل هذا مِن الشِّركِ[3].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ ردٌّ واضحٌ على مَن قال: إنَّ عذابَ النَّارِ غيرُ مُؤَبَّدٍ[4]!

١٣- إذا أُطْلِقَتِ المعصيةُ للهِ ورَسولِه دَخَلَ فيها الكُفرُ والفُسوقُ، كقَولِه

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٢٢، ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٣) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٠).

تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾[1].

١٤- قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ الآيةُ في الكفَّارِ، وحمَلها المعتزلةُ على عصاةِ المؤمنينَ؛ لأنَّ مذهبَهم خلودُهم في النَّارِ. والدَّليلُ على أنَّها في الكفَّارِ وجْهانِ؛ أحدُهما: أنَّها مكِّيَّةٌ، والسُّورةُ المكِّيَّةُ إنَّما الكلامُ فيها معَ الكفَّارِ. والآخَرُ: دَلالةُ ما قبْلَها وما بعْدَها على أنَّ المرادَ بها الكفَّارُ[2]، فالعِصيانُ في الآيةِ هو عِصيانُ الكُفرِ، لا عِصيانُ الذَّنْبِ، فمَن شُبِّهَ عليه مِن المعتزِلةِ، وتعلَّقَ بظاهِرِ لَفظِ العِصيانِ، نبَّهَه عليه قَولُه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾؛ لأنَّ المسلِمَ -عاصيًا كان أو غيرَ عاصٍ- لم يَنْسُبْ قَطُّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى أنَّه لا ناصرَ له، ولا كَثرةَ عددٍ يَغْلِبُ بها! وإنَّما كان يَنْسُبُه إلى ذلك الكُفَّارُ، ويَرَونَ أنَّه مَغلوبٌ لِقلَّةِ عددِه وأنصارِه، وكانوا يَعصُونَه ولا يُطيعونَه، ويَتربَّصونَ به رَيْبَ المَنونِ، وكانت مَعصيتُهم للرَّسولِ مَعصيةً للهِ تبارك وتعالى؛ فأنزَلَ اللهُ هذه الآيةَ فيهم، وأخبَرَ أنَّهم إذا أَفْضَوا إلى الخُلودِ في النَّارِ عَرَفوا أنَّهم كانوا هم الأَقَلِّينَ عدَدًا وأنصارًا، لا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾

- فُرِّعَ على اختِصاصِ كَونِ المساجِدِ للهِ النَّهيُ عن أنْ يَدْعوَ المشرِكون مع اللهِ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٢٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٨٣).

أحَدًا، وهذا إلْزامٌ لهم بالتَّوحيدِ بطَريقِ القَولِ بالمُوجَبِ[١]؛ لأنَّهم كانوا يَزعُمون أنَّهم أهلُ بَيتِ اللهِ، فعِبادتُهم غيرَ اللهِ مُنافيةٌ لزَعْمِهم ذلك[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ۞ قُلۡ إِنَّمَآ أَدۡعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِهِۦٓ أَحَدٗا﴾

- قولُه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ هو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وُضِعَ الاسمُ الظَّاهرُ مَوضعَ المُضمَرِ؛ إذ مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: وأنَّه لَمَّا قُمتَ تَدْعو اللهَ كادُوا يَكونون عليك، أو لَمَّا قُمتُ أدْعو اللهَ كادوا يَكونون علَيَّ؛ ولكنْ عُدِلَ إلى الاسمِ الظَّاهرِ لقَصْدِ تَكريمِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بوَصْفِ ﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾؛ لِما في هذه الإضافةِ مِن التَّشريفِ مع وَصْفِ (عبْدٍ)[٣].

- قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ مِن جُملةِ المُوحَى في قولِه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، ومَعطوفٌ على قولِه: ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾، فيَكونُ قولُه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ مِن تَتِمَّةِ كَلامِه صَلَواتُ اللهِ عليه؛ لأنَّه هو المأمورُ بقولِه: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، فكان الأصلُ: قُل: أُوحِيَ إلَيَّ أنَّه لَمَّا قُمتَ تَدْعو؛ فوُضِعَ مَوضعَ الضَّميرِ ﴿عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾ للإشعارِ بما هو المُقتضي لِقيامِه، وتَواضُعًا للهِ تعالَى، وتَذلُّلًا لجَلالِه؛ تَعليمًا مِن اللهِ، وتأْديبًا له. أو يكونُ نقْلًا لكلامِ اللهِ

---

(١) القولُ بالموجَبِ: هو عبارةٌ عن تسليمِ مقتضَى ما جعَله المستدلُّ دليلًا لحُكمٍ، مع بقاءِ الخِلافِ بيْنَهما فيه. أو: تسليمُ الدَّليلِ معَ بقاءِ النِّزاعِ، ومعنى ذلك: أن يُسلِّمَ الخَصمُ الدَّليلَ الَّذي استدَلَّ به المُستَدِلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدَّليلُ ليس فى محلِّ النِّزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخِلافُ بيْنَهما. يُنظر: ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٨٩)، ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ٣٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٣/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٤٢).

تعالَى المُوحَى إليه؛ فتَخصيصُ ذِكرِ العبدِ إدماجٌ[١] لمعْنى أنَّ العِبادةَ مِن العبدِ غيرُ مُستبعَدةٍ، فلا يَنْبغي أنْ نَتعجَّبَ منه[٢].

- قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ، وهو مِن تَمامِ ما أُوحِيَ به إليه[٣].

- ويُفيدُ قولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ قصْرًا[٤]، أي: لا أدْعو غيرَه، أي: لا أعبُدُ غيرَه دُونَه، وعُطِفَ عليه ﴿وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ تأْكيدًا لمَفهومِ القصْرِ، وأصْلُه ألَّا يُعطَفَ، فعَطْفُه لمُجرَّدِ التَّشريكِ؛ للعِنايةِ باستِقلالِهِ بالإبلاغِ[٥].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٦).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٦).

(٤) القَصرُ أو الحَصرُ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ الشَّرِكةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقدُ اشتراكَ اللهِ والأصنام في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نَمرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحيي المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْران، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ. وقولُه: ﴿وَلَا رَشَدًا﴾ تَتميمٌ(١).

- وأيضًا في قولِه: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ احتباكٌ(٢)؛ لأنَّ الضَّرَّ يُقابِلُه النَّفعُ، والرَّشَدُ يُقابِلُه الضَّلالُ، فالتَّقديرُ: لا أمْلِكُ لكم ضَرًّا ولا نفْعًا، ولا ضَلالًا ولا رَشَدًا، فحُذِفَ مِن كلٍّ ما يدُلُّ عليه مُقابِلُه. أو جُعِلَ الضَّرُّ مُقابِلًا للرَّشدِ تَعبيرًا به عن الْغَيِّ؛ إذِ الْغَيُّ ثَمَرتُه الضَّررُ(٣).

٤- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾

- قولُه: ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ مُعترِضٌ بيْن المُسْتثنى منه ﴿لَآ أَمْلِكُ﴾ والمُسْتثنى ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾(٤). قيل: هو اعتِراضٌ لتَأْكيدِ نفْيِ الاستِطاعةِ عن نفْسِه، وبَيانِ عَجْزِه، على معْنى: أنَّ اللهَ إنْ أرادَ به سُوءًا -مِن مرَضٍ، أو مَوتٍ، أو غَيرِهما- لم يَصِحَّ أنْ يُجيرَه منه أحدٌ، أو يَجِدَ مِن دُونِه مَلاذًا يَأْوي إليه(٥).

- قولُه: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾، أي: لنْ أجِدَ مَكانًا يَعصِمُني كائنًا مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٧). وتقدَّم تعريفُ التَّتميم (ص: ١٢٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٦).

دونِ اللهِ، أي: بَعيدًا عن اللهِ غيرَ داخلٍ مِن مَلكوتِه؛ ولهذا جاء لنَفْيِ وِجْدانِه حرْفُ (لنْ)[١].

- قولُه: ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ قيل: هو استِثناءٌ مُنقطِعٌ مِن ﴿ضَرًّا﴾ و﴿رَشَدًا﴾، وليس مُتَّصلًا؛ لأنَّ الضَّرَّ والرَّشدَ المَنفيَّينِ في قولِه: ﴿لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ هما الضَّرُّ والرَّشدُ الواقعانِ في النَّفْسِ بالإلجاءِ. ويجوزُ أنْ يكونَ مع ذلك استثناءً مُتَّصِلًا مِن ﴿مُلۡتَحَدًا﴾، أي: بتَأويلِ ﴿مُلۡتَحَدًا﴾ بمعْنى مَخلَصٍ أو مَأمَنٍ، وهذا الاستثناءُ مِن أُسلوبِ تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه. وقيل: ﴿إِلَّا﴾ في تَقديرِ الانفصالِ: (إنْ) شَرطيَّةٌ و(لا) نافيةٌ، وحُذِفَ فِعلُها لدَلالةِ المَصدرِ عليه، والتَّقديرُ: إنْ لمْ أُبَلِّغْ بلاغًا مِن اللهِ ورِسالتِه...، وهذا كما تَقولُ: إنْ لا قِيامًا فقُعودًا، أي: إنْ لم تقُمْ قِيامًا فاقعُدْ قُعودًا، وحَذْفُ هذا الفِعلِ قد يكونُ لدَلالةٍ عليه بعْدَه أو قبْلَه[٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوۡاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعۡلَمُونَ مَنۡ أَضۡعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ كانوا إذا سَمِعوا آياتِ الوعْدِ بنَصْرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمسلِمينَ في الدُّنيا والآخِرةِ، وآياتِ الوعيدِ للمُشركين بالانهزامِ وعَذابِ الآخِرةِ وعذابِ الدُّنيا؛ استَسْخَروا مِن ذلك، وقالوا: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡفَتۡحُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [السجدة: ٢٨]، إلى غيرِ ذلك؛ فهُم مَغرورونَ بالاستِدراجِ والإمهالِ؛ فلذلك عُقِّبَ وَعيدُهم بالغايةِ المُفادةِ مِن (حتَّى)، فالغايةُ هنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٨).

ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ٣٧٧).

مُتعلِّقةٌ بمَحذوفٍ يدُلُّ عليه الكلامُ مِن سُخريةِ الكفَّارِ مِن الوعيدِ، واستِضعافِهم المسلِمينَ في العَدَدِ والعُدَدِ؛ فإنَّ ذلك يُفهَمُ منه أنَّهم لا يَزالون يَحسَبون أنَّهم غالِبون فائِزون، حتَّى إذا رَأَوْا ما يُوعَدون تَحقَّقوا إخفاقَ آمالِهم(١).

- وجِيءَ بالجُملةِ المُضافِ إليها (إذا) فِعلًا ماضيًا فقال: ﴿رَأَوْاْ﴾؛ للتَّنبيهِ على تَحقيقِ وُقوعِه(٢).

- قولُه: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ السِّينُ هنا للتَّأكيدِ المُجرَّدِ، لا للاسْتِقبالِ؛ لأنَّ السِّينَ حرْفُ استِقبالٍ، ووَقْتُ رُؤيةِ العذابِ يَحصُلُ فَورَ عِلمِ الضَّعيفِ مِن القَويِّ، والسِّينُ تَقْتضي أنَّه يَتأخَّرُ عنه(٣).

- والاستِفهامُ بما فيه مِن الإبهامِ يَكونُ كِنايةً عن الغَرابةِ، بحيث يَسأَلُ النَّاسُ عن تَعيينِ الشَّيءِ بعْدَ البحثِ عنه(٤).

- وضَعْفُ الناصرِ وَهَنٌ لهم مِن جِهةِ وَهَنِ أنْصارِهم، وقِلَّةُ العَددِ وَهَنٌ لهم مِن جانبِ أنفُسِهم، وهذا وَعيدٌ لهم بخَيبةِ غُرورِهم بالأمْنِ مِن غَلَبِ المسلمينَ في الدُّنيا؛ فإنَّهمْ كانوا يَقولونَ: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ [القمر: ٤٤]، وقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾(٥) [سبأ: ٣٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٩).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٤٩، ٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٥-٢٨)

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَمَدًا﴾: أي: غايةً وبُعدًا، والأَمَدُ: مُدَّةٌ لها حَدٌّ مجهولٌ إذا أُطلِقَ[1].

﴿رَصَدًا﴾: أي: حَرَسًا وحَفَظةً مِنَ الملائكةِ، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على تهيُّؤٍ لرِقْبةِ شَيءٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكين: لا أدري أَقَريبٌ الوَقتُ الَّذي وعَدَكم اللهُ بوُقوعِ العَذابِ فيه، أم يَجعَلُه ربِّي بعْدَ أَمَدٍ بَعيدٍ؟ هو وَحْدَه عالِمُ ما غاب عن خَلْقِه، فلا يُطلِعُ على غَيبِه أحدًا مِن خَلْقِه إلَّا مَنِ ارتضاه مِن رُسُلِه؛ فإنَّ اللهَ يُرسِلُ مِن أمامِ الرَّسولِ -الَّذي يُطلِعُه على بَعضِ الغَيبِ- ومِن خَلْفِه حَرَسًا مِن الملائكةِ يَحفَظونَه مِنَ الشَّياطينِ؛ لِيَعلَمَ سُبحانَه -عِلمَ وُجودٍ وظُهورٍ- أنَّ الرُّسُلَ قد تمَكَّنوا مِن تبليغِ رِسالاتِه كما هي، وأحاط عِلْمُ اللهِ تعالى بما عندَ الرُّسُلِ، وعَلِمَ تعالى عدَدَ كُلِّ شيءٍ وأحصاه.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٥/ ٣٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٠).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

كان المُشرِكون يُكثِرونَ أنْ يَسأَلوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [النمل: ٧١]، وعن السَّاعةِ ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وتكرَّرتْ نِسبةُ ذلك إليهم في القُرآنِ، فلمَّا قال اللهُ تعالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا﴾ [الجن: ٢٤] الآيةَ، عُلِمَ أنَّهم سيُعِيدون ما اعْتادوا قولَه مِن السُّؤالِ عن وقْتِ حُلولِ الوعيدِ، فأمَرَ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنْ يُعِيدَ عليهم ما سَبَقَ مِن جَوابِه(١).

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ٢٥﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- للمُشرِكينَ: لا أدري أقَريبٌ الوَقتُ الَّذي وعَدَكم اللهُ بوُقوعِ العَذابِ فيه، أمْ يَجعَلُه ربِّي بعدَ مُدَّةٍ طويلةٍ؟ فذلك غَيبٌ يَعلَمُه اللهُ تعالى ولا أعلَمُه(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩].

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦﴾.

أي: هو وَحْدَه عالِمُ ما غاب عن خَلْقِه، فلا يُطلِعُ على عِلمِ الغَيبِ الَّذي اختَصَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

قال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ يعني: قيامَ السَّاعةِ. وقيل: عذابُ الدُّنيا). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧).

به أحدًا مِن خَلْقِه[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال جلَّ جلالُه: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَفاتيحُ الغَيبِ خَمْسٌ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ: لا يَعلَمُ ما تَغيضُ الأرحامُ إلَّا اللهُ، ولا يَعلَمُ ما في غدٍ إلَّا اللهُ، ولا يَعلَمُ متى يأتي المطَرُ أحَدٌ إلَّا اللهُ، ولا تَدري نَفْسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ إلَّا اللهُ، ولا يَعلَمُ متى تقومُ السَّاعةُ إلَّا اللهُ))[٢].

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ٢٧﴾.

﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

قال ابنُ عاشور: (﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾: خبرُ مُبتدَأٍ مَحذوفٍ، أي: هو عالِمُ الغَيبِ، والضَّميرُ المحذوفُ عائدٌ إلى قَولِه ﴿رَبِّيٓ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٥).

(٢) رواه البخاري (٧٣٧٩).

أي: لا يُظهِرُ اللهُ على الغَيبِ أحَدًا إلَّا مَنِ ارتضاه مِن رُسُلِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى يُطلِعُه على ما شاء منه[1].

﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾.

أي: فإنَّ اللهَ يُرسِلُ مِن أمامِ الرَّسولِ الَّذي يُطلِعُه على بَعضِ الغَيبِ ومِن خَلْفِه حَرَسًا مِن الملائكةِ يَحفَظونَه مِنَ الشَّياطينِ، فلا يَستطيعونَ تخليطَ الوَحيِ عليه، أو استِراقَ شَيءٍ منه[2].

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾.

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءة: ﴿لِيُعْلَمَ﴾ بضَمِّ الياءِ مبنيًّا للمفعولِ، ونائِبُ الفاعِلِ محذوفٌ يُفهَمُ مِنَ السِّياقِ، والتَّقديرُ: ليُعلَمَ النَّاسُ -أي: المُرسَلُ إليهم- أنَّ الرُّسُلَ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم. وقيل: هي بمعنى القراءةِ الأخرى: أي: ليَعلَمَ اللهُ أنَّ الرُّسُلَ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٨، ٢٤٩).

قال ابن كثير: (هذا يعُمُّ الرَّسولَ المَلَكِيَّ والبَشَريَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩)، ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٨٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٩).

قال ابن قُتَيْبَةَ: (أي: يجعَلُ بيْنَ يَدَيه وخَلْفَه رَصَدًا مِن الملائكةِ، يَحُوطونَ الوَحيَ مِن أن تَستَرِقَه الشَّياطينُ، فتُلْقِيَه إلى الكَهَنةِ، حتَّى تُخبِرَ به الكَهَنةُ إخبارَ الأنبياءِ، فلا يكونُ بيْنَهم وبيْنَ الأنبياءِ فَرْقٌ، ولا يكونُ للأنبياءِ دَلالةٌ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ٢٤٤).

(٣) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٢). =

٢- قِراءةُ: ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ بفتحِ الياءِ، أي: ليَعلَمَ اللهُ -عِلْمَ ظُهورٍ- أنَّ الرُّسُلَ قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم. وقيل: لِيَعلَمَ الرَّسولُ أنَّ الرُّسُلَ قَبْلَه قد أبلغوا رسالاتِ ربِّهم. وقيل: لِيَعلَمَ الرَّسولُ أنَّ الملائكةَ قد أبلَغوا رِسالاتِ ربِّهم. وقيل غيرُ ذلك[1].

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾.

أي: حَفِظَ اللهُ رسُلَه بملائكتِه؛ لِيَعلَمَ -عِلمَ وُجودٍ وظُهورٍ- أنَّ الرُّسُلَ قد تمكَّنوا مِن تبليغِ رسالاتِه كما هي، دونَ أن يُخالِطَها ما يُلبِّسُ عليها أو يُبدِّلُها[2].

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾.

---

= ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥١).

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٢).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٤-٣٥٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٤، ٢٤٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٠٣، ٥٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ ضَميرَ ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ يعودُ إلى الله تعالى -أي: ليعلَمَ اللهُ أنَّ الرُّسُلَ قد أبلَغوا رسالاتِ رَبِّهم-: ابنُ قُتَيْبَةَ، واستظهره ابنُ جُزَي، وذهب إليه البِقاعي، وابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

قال الزَّجَّاج: (يجوزُ أن يكونَ: لِيَعلَمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ الرِّسالةَ أتَتْه ولم تصِلْ إلى غيرِه، ويجوزُ أن يكونَ -واللهُ أعلمُ-: ليعلمَ اللهُ أنْ قد أبلَغوا رِسالاتِه، وما بَعْدَه يدُلُّ على هذا، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدٗا﴾). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٣٨).

وممَّن رجَّح أنَّ المعنى: ليعلَمَ الرَّسولُ أنَّ الرُّسُلَ قَبْلَه قد أبلغوا رسالاتِ رَبِّهم: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، وهو ظاهرُ اختيارِ القرطبيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٠).

**مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان ما سَبَقَ رُبَّما أوهَمَ أنَّه مُحتاجٌ في الحِفظِ إلى الرَّصَدِ؛ أزال ذلك بقَولِه تعالى[1]:

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾.

أي: وقد أحاط عِلْمُ اللهِ تعالى بكلِّ ما عندَ الرُّسُلِ[2].

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

**مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان ما سَبَق كافيًا في المقصودِ، لكِنَّه قاصِرٌ على محلِّ الحاجةِ؛ عَمَّ تعريفًا بالأمرِ على ما هو عليه، فقال حامِلًا على شِدَّةِ الوُثوقِ بما تقولُه الرُّسُلُ عن رَبِّهم، وأنَّه لا لَبْسَ فيه ولا غائِلَةَ بوَجهٍ[3]:

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

أي: وعَلِمَ اللهُ سُبحانَه عددَ كُلِّ شيءٍ مِن خَلْقِه، فلا يَخفى عليه شَيءٌ مِن ذلك[4].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾ فيه

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣١).

سُؤالٌ: أليس أنَّ النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ قال: ((بُعِثْتُ أنا والسَّاعةَ كهاتَين))[١]، فكان عالِمًا بقُربِ وُقوعِ القيامةِ، فكيف قال هاهنا: ﴿وَإِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ﴾؟

**الجوابُ**: المرادُ بقُربِ وُقوعِه هو أنَّ ما بَقِيَ مِنَ الدُّنيا أقَلُّ مِمَّا انقَضى، فهذا القَدْرُ مِنَ القُربِ معلومٌ، وأمَّا معنى معرفةِ القُربِ القريبِ وعَدَمِ ذلك: فغيرُ مَعلومٍ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ردٌّ على المنجِّمينَ وعلى كلِّ مَن يَدَّعي أنَّه يَطَّلِعُ على ما سيَكونُ مِن حياةٍ أو موتٍ أو غيرِ ذلك! لأنه مُكَذِّبٌ للقرآنِ، وهم أبْعَدُ شيءٍ مِن الارتِضاءِ مع سَلْبِ صِفةِ الرسليَّةِ عنهم[٣]. فمَنِ ادَّعى أنَّ النُّجومَ تَدُلُّه على ما يكونُ مِن حياةٍ أو موتٍ أو غيرِ ذلك، فقد كَفَر بما في القُرآنِ الكريمِ[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ فيه أنَّ عُلومَ الغُيوبِ قد انفَرَد اللهُ بعِلْمِها، فلا يَعلَمُها أحدٌ مِنَ الخَلقِ إلَّا مَن ارتضاه اللهُ، وخَصَّه بعِلمِ شَيءٍ منها[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ ردٌّ على مَن يَزعُمُ مِن الشِّيعةِ أنَّ الإمامَ يَعلَمُ الغَيبَ، وهذا مِن كِبارِ حماقاتِهم، وقد أَخبَرَ اللهُ جلَّ جلالُه أنَّه لا يُظْهِرُ عليه إلَّا مَنِ ارتضاه رَسولًا، والإمامُ ليس برَسولٍ[٦]!

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٦)، ومسلم (٢٩٥٠) مِن حديثِ سهلِ بنِ سعدٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٨).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٦٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٧٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩١).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٣٠).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ أنَّ سائرَ ما كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخبِرُ به مِن الغُيوبِ هو بإعلامِ اللهِ تعالى إيَّاه؛ لا أنَّه يَستَقِلُّ بعِلْمِ ذلك[١]!

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بالجُزئيَّاتِ[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدًا﴾ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بجميعِ الموجوداتِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ جُملةُ ﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ القولَ المأمورَ بأنْ يَقولَه جَوابٌ لسُؤالِهم المُقدَّرِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِما قبْلَه مِن عدَمِ الدِّرايةِ[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ في مَوضعِ العِلَّةِ لجُملةِ ﴿إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ﴾ الآيةَ[٦].

- وتَعريفُ المُسنَدِ ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ مع تَعريفِ المُسنَدِ إليه المُقدَّرِ (هو)

---

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٦، ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

يُفيدُ القصْرَ[١]، أي: هو عالِمُ الغيبِ لا أنا. وتَعريفُ الغيبِ تَعريفُ الجِنسِ[٢].

- وإضافةُ صِفةِ ﴿عَٰلِمُ﴾ إلى ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ تُفيدُ العِلمَ بكلِّ الحقائقِ المُغيَّبةِ، سواءٌ كانت ماهيَّاتٍ أو أفرادًا، فيَشملُ المعْنى المَصدريَّ للغَيبِ، مِثلَ عِلمِ اللهِ بِذاتِه وصِفاتِه، ويَشملُ الأُمورَ الغائبةَ بذاتِها، مِثلَ الملائكةِ والجنِّ، ويَشملُ الذَّواتِ المُغيَّبةَ عن عِلمِ النَّاسِ، مِثلَ الوقائعِ المُستقبَلةِ الَّتي يُخبَرُ عنها أو الَّتي لا يُخبَرُ عنها؛ فإيثارُ المَصدرِ هنا لأنَّه أشمَلُ لإحاطةِ عِلمِ اللهِ بجَميعِ ذلك[٣].

- وفُرِّع على معْنى تَخصيصِ اللهِ تعالَى بعِلمِ الغيبِ جُملةُ ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾؛ فالفاءُ لتَفريعِ حُكْمٍ على حُكْمٍ، والحُكمُ المُفرَّعُ إتمامٌ للتَّعليلِ، وتَفصيلٌ لأحوالِ عدَمِ الاطِّلاعِ على غَيبِه[٤].

- ومعْنى ﴿فَلَا يُظۡهِرُ﴾، أي: فلا يُطْلِعُ ولا يُنبِئُ به، وهو أقْوى مِن (يُطلِعُ)؛ لأنَّ (يُظهِرُ) جاء مِن الظُّهورِ، وهو المُشاهَدةُ، ولتَضمينِه معْنى (يُطلِعُ) عُدِّي بحرْفِ (على)[٥].

- ووُقوعُ الفِعلِ ﴿يُظۡهِرُ﴾ في حيِّزِ النَّفيِ يُفيدُ العُمومَ، وكذلك وُقوعُ مَفعولِه ﴿أَحَدًا﴾ وهو نَكرةٌ في حيِّزِه يُفيدُ العُمومَ[٦].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٤٨).

- وحرْفُ (على) مُستعمَلٌ في التَّمكُّنِ مِن الاطِّلاعِ على الغيبِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ تَقريرٌ وتَحقيقٌ للإظهارِ المُستفادِ مِن الاستثناءِ، وبَيانٌ لكَيفيَّتِه[٢].

- والإتيانُ بالمَوصولِ والصِّلةِ في قولِه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ لقَصْدِ ما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن الإيماءِ إلى تَعليلِ الخبَرِ، أي: يُطلِعُ اللهُ بَعضَ رُسلِه مِن أجْلِ ما أرادهُ اللهُ مِن الرِّسالةِ إلى النَّاسِ[٣].

- والسَّلكُ: الإدخالُ، وأُطلِقَ السَّلْكُ على الإيصالِ المباشِرِ تَشبيهًا له بالدُّخولِ في الشَّيءِ بحيث لا مَصرِفَ له عنه، أي: يُرسِلُ إليه مَلائكةً مُتَّجِهينَ إليه لا يَبتعِدونَ عنه حتَّى يَبْلُغَ إليه ما أُوحِيَ إليه مِن الغَيبِ، كأنَّهم شُبِّهَ اتِّصالُهم به وحراستُهم إيَّاه بشَيءٍ داخلٍ في أجزاءِ جِسمٍ، وهذا مِن جُملةِ الحِفظِ الَّذي حَفِظَ اللهُ به ذِكْرَه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٤] [الحجر: ٩].

- والمُرادُ بقَولِه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ الكِنايةُ عن جَميعِ الجِهاتِ، ومِن تلك الكِنايةِ يُنتقَلُ إلى كِنايةٍ أُخرى عن السَّلامةِ مِن التَّغييرِ والتَّحريفِ[٥].

وقيل: خَصَّ هاتَينِ الجِهتَينِ؛ لأنَّ العَدُوَّ متى أُعرِيَت واحدةٌ منهما أَتى منها، ومتى حُفِظَتَا لم يأتِ مِن غَيرِهما[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٠/ ٥٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤١٠).

٤- قولُه تعالَى: ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾

- قولُه: ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ يَتعلَّقُ بقولِه: ﴿يَسۡلُكُ﴾، أي: يَفعَلُ اللهُ ذلك ليُبلَّغَ الغَيبُ إلى الرَّسولِ كما أُرسِلَ إليه، لا يُخالِطُه شَيءٌ ممَّا يَلبسُ عليه الوحيَ، فيَعلَمَ اللهُ أنَّ الرُّسلَ أبْلَغوا ما أُوحِيَ إليهم كما بَعَثَهم دونَ تَغييرٍ، فلمَّا كان عِلمُ اللهِ بتَبْليغِ الرَّسولِ الوحيَ مُفرَّعًا ومُسبَّبًا عن تَبليغِ الوحْيِ كما أنْزَلَ اللهُ، جُعِلَ المُسبَّبُ عِلَّةً، وأُقِيمَ مُقامَ السَّببِ إيجازًا في الكلامِ؛ لأنَّ عِلمَ اللهِ بذلك لا يكونُ إلَّا على وَفْقِ ما وَقَعَ، وهذه العِلَّةُ هي المَقصَدُ الأهمُّ مِن إطْلاعِ مَنِ ارْتَضى مِن رَسولٍ على الغيبِ، وذِكرُ هذه العِلَّةِ لا يَقْتضي انحصارَ عِلَلِ الإطْلاعِ فيها[1]. وقيل: فيه حَذْفٌ تَتعلَّقُ به اللَّامُ، أي: أخبَرْناه بحِفْظِنا الوحيَ؛ ليَعلَمَ أنَّ الرُّسلَ قبْلَه قدْ أبْلَغوا الرِّسالةَ كما بَلَّغَ الرِّسالةَ[2].

- وإيرادُ عِلْمِهِ تعالَى؛ لإبرازِ اعتِنائِه تعالَى بأمْرِ الإبلاغِ، والإشعارِ بتَرتيبِ الجَزاءِ عليه، والمُبالَغةِ في الحَثِّ عليه، والتَّحذيرِ مِن التَّفريطِ فيه[3].

- وجِيءَ بضَميرِ الإفرادِ في قولِه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ مُراعاةً للَفظِ ﴿رَّسُولٖ﴾، ثمَّ جِيءَ له بضَميرِ الجمْعِ في قولِه: ﴿أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ﴾ مُراعاةً لمعْنى ﴿رَّسُولٖ﴾، وهو الجِنسُ، أي: الرُّسلِ[4].

- والواوُ في قولِه: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ واوُ الحالِ أو اعتراضيَّةٌ؛ لأنَّ مَضمونَها

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ١٥١، ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٠).

تَذييلٌ لجُملةِ ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾، أي: أحاطَ بجَميعِ ما لَدى الرُّسلِ مِن تَبليغٍ وغيرِه، وأحاط بكلِّ شَيءٍ ممَّا عدا ذلك، فقولُه: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ تَعميمٌ بعْدَ تَخصيصِ ما قبْلَه بعِلمِه بتَبليغِهم ما أرسَلَ إليهم، وقولُه: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدٗا﴾ تَعميمٌ أشمَلُ بعْدَ تَعميمِ (ما)[1].

- وفائدةُ قولِه: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدٗا﴾ بَيانُ أنَّ عِلمَه تعالَى بالأشياءِ ليس على وجْهٍ كُلِّيٍّ إجماليٍّ، بلْ على وَجْهٍ جُزئيٍّ تَفصيليٍّ؛ فإنَّ الإحصاءَ قد يُرادُ به الإحاطةُ الإجماليَّةُ، كما في قولِه تعالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، أي: لا تَقدِروا على حصْرِها إجمالًا فضْلًا عن التَّفصيلِ[2].

- وعُبِّرَ عن العِلمِ بالإحصاءِ؛ تَشبيهًا لعِلمِ الأشياءِ بمَعرفةِ الأعدادِ؛ لأنَّ مَعرفةَ الأعدادِ أقْوى[3].

**تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الأربعونَ**

**ويليه المجلدُ الحادي والأربعونَ**

**وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ المُزَّمِّلِ**

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥١).

# الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# الفهرس

## سورةُ الحاقَّةِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٧
الآيات (١-٨) ..... ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩
المعنى الإجماليُّ ..... ١١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٣
الآيات (٩-١٢) ..... ٣٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٣
الآيات (١٣ - ١٨) ..... ٤٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٩

تَفسيرُ الآياتِ..... ٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٥٦
بلاغةُ الآياتِ..... ٥٧
الآيات (١٩-٢٤)..... ٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٦٣
المعنى الإجماليُّ..... ٦٤
تَفسيرُ الآياتِ..... ٦٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٦٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٧١
بلاغةُ الآياتِ..... ٧٣
الآيات (٢٥ - ٣٧)..... ٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٧٩
المعنى الإجماليُّ..... ٨١
تَفسيرُ الآياتِ..... ٨١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٨٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٨٩
بلاغةُ الآياتِ..... ٩٢
الآيات (٣٨-٥٢)..... ٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٩٩
المعنى الإجماليُّ..... ١٠٠
تَفسيرُ الآياتِ..... ١٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ١١١

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١١٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ١١٨

## سورةُ المعارجِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ١٣٣
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ١٣٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٣٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ١٣٣
الآيات (١-٧) ..... ١٣٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٣٥
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٣٥
المعنى الإجماليُّ ..... ١٣٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٣٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٤٥
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٤٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٤٧
الآيات (٨ - ١٨) ..... ١٥٢
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٥٢
المعنى الإجماليُّ ..... ١٥٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٥٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٦٣
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٦٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٦٤

الآيات (١٩-٣٥) ..... ١٧٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٧٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٧٥
المعنى الإجماليُّ ..... ١٧٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٧٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٨٧
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٩٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٩٥
الآيات (٣٦-٤٤) ..... ٢٠٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٠٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٠٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢١٧
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢١٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٢٠

## سورةُ نوحٍ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٢٣١
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٢٣١
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٢٣١
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٢٣١
الآيات (١-٤) ..... ٢٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٣٣

المعنى الإجماليُّ ..... ٢٣٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٣٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٣٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٤١
الآيات (٥-١٢) ..... ٢٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٤٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٤٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٥٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٥٧
الآيات (١٣-٢٠) ..... ٢٦٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٦٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٦٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٦٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٧٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٧٥
الآيات (٢١-٢٥) ..... ٢٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٨٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٨٣

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٨٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٨٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٩١
الآيات (٢٦-٢٨) ..... ٢٩٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٩٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٩٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٠٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٠٩

## سورةُ الجِنِّ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٣١٣
بيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٣١٣
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣١٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٣١٣
الآيات (١-٧) ..... ٣١٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣١٥
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣١٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣١٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣١٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٢٦

الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٢٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٣٢
الآيات (٨-١٠) ..... ٣٣٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٣٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٣٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٤٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٤٦
الآيات (١١-١٣) ..... ٣٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٥٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٥١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٥١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٥٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٥٧
الآيات (١٤-١٧) ..... ٣٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٦١
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٦٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٦٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٦٨

بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٧١
الآيات (١٨-٢٤) ..... ٣٧٦
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٧٦
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٧٦
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٧٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٧٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٨٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٨٩
الآيات (٢٥-٢٨) ..... ٣٩٥
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٣٩٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٩٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٩٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٠٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٠٢
الفهرس ..... ٤٠٨

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

(من سورة المزمل إلى سورة المرسلات)


إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشراف العامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقَّاف


**المجلد الواحد والأربعون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة المزمل إلى سورة المرسلات)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - من سورة المزمل إلى سورة المرسلات - المجلد الواحد والأربعون - القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١

الظهران، ١٤٤٣ هـ

٥٢٨ ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٥-٠٨-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- التفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٣/١١٣٢٢

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١١٣٢٢

ردمك: ٥-٠٨-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ المُزَّمِّلِ

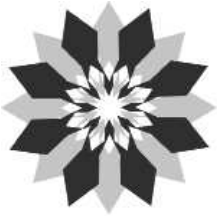

# سورةُ المُزَّمِّلِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المزَّمِّلِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ المزَّمِّلِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

التَّوجيهُ إلى ما يُتزوَّدُ به؛ لتحَمُّلِ ثِقلِ أعباءِ الدَّعوةِ[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقيامِ اللَّيلِ.

٢- تثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتحمُّلِ إبلاغِ الوَحيِ.

٣- الأمرُ بالصَّبرِ على جفاءِ الكُفَّارِ.

---

(١) وجهُ تسميةِ السُّورةِ بهذا الاسم: افتِتاحُها بهذا اللَّفظِ الواقِعِ في أوَّلِها في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٢).

(٢) وقيل: السُّورةُ مَكِّيَّةٌ إلَّا آيتَينِ منها؛ قولَه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ...﴾ [المزمل: ١٠] والَّتي بعدها، فمَدَنيَّتانِ. وقيل: إلَّا قولَه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ﴾ [المزمل: ٢٠] إلى آخرِ السُّورةِ؛ فإنَّ ذلك نزَل بالمدينةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٥٦).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٢).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٥٩). ويُنظر أيضًا: ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٣/ ١٣١).

٤- تهديدُ الكافِرينَ، وبيانُ بَعضِ ما أعَدَّه اللهُ لهم مِن عذابٍ.

٥- وعْظُ الكافِرينَ بما حَلَّ بقَومِ فِرعَونَ لَمَّا كَذَّبوا رسولَ اللهِ إليهم.

٦- ذِكرُ يومِ القيامةِ، ووَصفُ أهوالِه.

٧- التَّسهيلُ والمسامحةُ في قيامِ اللَّيلِ.

٨- الأمرُ بإدامةِ إقامةِ الصَّلاةِ، وأداءِ الزَّكاةِ، وإعطاءِ الصَّدَقاتِ، والأمرُ بالاستغفارِ مِن الذُّنوبِ والعِصيانِ.

## الآيات (١-٩)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾: أي: المتَلَفِّفُ في ثيابِه، وأصلُه: المتَزَمِّلُ: أُدغِمَت التَّاءُ في الزَّاي، والتَّزَمُّلُ: الالتِفافُ في الثِّيابِ بضَمٍّ وتشميرٍ، وأصلُ التَّزَمُّلِ مُشتَقٌّ مِنَ الزَّمْلِ: وهو الإخفاءُ، وقيل: المزَّمِّلُ: الَّذي زُمِّلَ أمْرًا عظيمًا هو أمرُ النُّبوَّةِ، أي: حُمِّلَه، والزِّمْلُ: الحِمْلُ، وازْدَمَلَه أي: احتمَلَه، وأصلُ (زمل) على ذلك: يدُلُّ على حَمْلِ ثِقْلٍ مِن الأثْقالِ[1].

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾: أي: بَيِّنْه تبيينًا، واقرَأْهُ على تمهُّلٍ، والتَّرتيلُ في القراءةِ: التَّبْيينُ لها، وإشباعُ الحرَكاتِ، وبيانُ الحروفِ، كأنَّه يَفْصِلُ بيْنَ الحرفِ والحرفِ، ومنه قيل: ثَغْرٌ رَتِلٌ ورَتَلٌ، إذا كان مُفَلَّجًا لا يَركَبُ بعضُه بعضًا، والرَّتَلُ: اتِّساقُ الشَّيءِ وانتِظامُه على استِقامةٍ، والتَّرتيلُ: إرسالُ الكلمةِ مِن الفَمِ بسُهولةٍ واستِقامةٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٧١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٥١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٠).

﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾: أي: آناءَ اللَّيلِ وساعاتِه، مأخوذةٌ مِن: نَشَأَتْ نَشْأً، أي: ابتَدَأَتْ، وأقبَلَت شيئًا بعدَ شَيءٍ. وقيل: النَّاشِئةُ: القيامُ، مَصدَرٌ جاء على فاعِلةٍ، كالعافيةِ بمعنى العَفوِ. فهي بمعنى: قيامِ اللَّيلِ، والنَّاشِئةُ إنَّما تكونُ بعدَ النَّومِ، يُقالُ: نشَأَ: إذا قام بعدَ النَّومِ، وأصلُ (نشأ): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ[١].

﴿وَطۡـًٔا﴾: أي: كُلْفةً ومَشَقَّةً، مِن قَولِك: اشتَدَّت على القَومِ وَطْأَةُ سُلْطانِهم: إذا ثَقُل عليهم ما يُلزِمُهم ويأخُذُهم به. وقيل: أي: أوطَأُ للقيامِ، وأسهَلُ للمُصَلِّي مِن ساعاتِ النَّهارِ، وأصلُ (وطأ): يدُلُّ على تمهيدِ شَيءٍ وتَسهيلِه[٢].

﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾: أي: أصْوَبُ قِراءةً، وأصحُّ قولًا، وأسَدُّ مقالًا، وقيل: أخلَصُ للقَولِ وأسمَعُ له، وأصل (قوم) هنا: يدُلُّ على انْتِصابٍ أو عَزْمٍ[٣].

﴿سَبۡحًا﴾: أي: تصَرُّفًا وتقلُّبًا في مُهمَّاتِك وحَوائجِك وأشغالِك، أو: فراغًا طويلًا، وسَعةً لتصَرُّفِك، وقضاءِ حوائجِك، قيل: أصلُ السَّبْحِ: سُرعةُ الذَّهابِ، وقيل: السَّبْحُ: التَّباعُدُ، فالمعنى: مُتباعَدًا في المَذهبِ والمُدَّةِ لِما تُريدُ مِن قضاءِ حوائجِك، وأصلُ (سبح) هنا: جِنْسٌ مِن السَّعْيِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٣٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٠)، =

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾: أي: انقَطِعْ إليه في العبادةِ انقِطاعًا، والتَّبَتُّلُ: الانقِطاعُ، وهو تفَعُّلٌ مِنَ البَتلِ: وهو القَطعُ، ومِنه سُمِّيَت مَريمُ: البَتُولَ؛ لانقِطاعِها عن الأزواجِ، وأصلُ (بتل): يدُلُّ على إبانةِ الشَّيءِ مِن غَيرِه[1].

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾: أي: حافِظًا ومُدَبِّرًا لأمورِك كلِّها، قائمًا بها، ففَوِّضْها إليه، والوكيلُ هو القائمُ بالأمورِ، والَّذي تُوكَلُ إليه الأشياءُ، فَعيلٌ بمعنى المفعولِ، والتَّوكيلُ: أن تَعتمِدَ على غيرِك وتَجعَلَه نائبًا عنك، وأصلُ (وكل): يدُلُّ على اعتِمادِ غيرِك في أمرِك[2].

## المعنى الإجماليُّ:

افتتح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بنِداءِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نِداءً مِلْؤُه التَّلَطُّفُ والتَّحَبُّبُ إليه، قائِلًا له: يا أيُّها الَّذي التَفَّ بالثِّيابِ وضَمَّها عليه، قُمْ كلَّ اللَّيلِ للصَّلاةِ فيه إلَّا قَليلًا منه، أو قُمْ نِصْفَ اللَّيلِ، أو انقُصْ مِنَ النِّصفِ قَليلًا، أو زِدْ على نِصفِ اللَّيلِ؛ فلا حَرَجَ عليك فيما فعَلْتَ، واقرَأِ القُرآنَ بتمَهُّلٍ وتُؤَدَةٍ وتَبيينٍ لحُروفِه؛ إنَّا سنُنزِلُ عليك قُرآنًا عظيمًا ثقيلًا لرَزانةِ ألفاظِه؛ لامتِلائِها بالمعاني مع جلالتِها، ولِما فيه مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ على النَّفْسِ -لِمُخالَفتِها هواها-، ولِما

---

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٣/ ٢٤٦) و(٢٢/ ٣٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩٥، ١٩٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٥٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٦/ ٢٠٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

له مِن قَدْرٍ عَظيمٍ، وهو ثقيلٌ في الميزانِ، ولا يَقدِرُ الكافرُ على رَدِّه، أو الطَّعنِ فيه بوجهٍ.

ثمَّ يُبيِّنُ -سُبحانَه- الحِكمةَ مِن أمْرِه النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقيامِ اللَّيلِ إلَّا قليلًا منه، فيقولُ: إنَّ ساعاتِ اللَّيلِ بعدَ القيامِ مِنَ النَّومِ: أثْقَلُ على المصَلِّي وأشَقُّ مِن صلاةِ النَّهارِ -لأنَّ اللَّيلَ وقتُ النَّومِ والرَّاحةِ والسُّكونِ- وأصْوَبُ قِراءَةً وأصحُّ قَولًا؛ لهدوءِ النَّاسِ، وسُكونِ الأصواتِ.

ثمَّ يقولُ تعالى مقرِّرًا للأمرِ بقيامِ اللَّيلِ إلَّا قليلًا منه: إنَّ لك -يا محمَّدُ- في النَّهارِ سَعَةً مِنَ الوَقتِ وفَراغًا طويلًا تتقلَّبُ فيه في شُؤونِ حَياتِك.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالإكثارِ مِن ذِكْرِه، والانقطاعِ إليه، والتَّوكُّلِ عليه، فيقولُ: واذْكُرِ اسمَ ربِّك في كُلِّ وَقتٍ، وانقَطِعْ على عِبادتِه انقِطاعًا تامًّا، هو سُبحانَه ربُّ المشرِقِ والمغرِبِ، لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا هو سُبحانَه؛ فاتَّخِذْه قائمًا بأمورِك، وفَوِّضْها إليه وَحْدَه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١﴾.

أي: يا أيُّها الَّذي التَفَّ بالثِّيابِ وضَمَّها عليه، يعني: النَّبيَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٦).

قال البِقاعي: (مَدلولُه التَّلَفُّفُ في الثَّوبِ على جميعِ البدَنِ، والاختفاءُ ولُزومُ مكانٍ واحِدٍ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢).

قيل: المرادُ بنِدائِه بالمزَّمِّلِ: طلَبُ تَركِ التَّزَمُّلِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٩). =

= قال ابنُ كثير: (يأمُرُ تعالى رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يترُكَ التَّزَمُّلَ، وهو: التَّغَطِّي في اللَّيلِ، ويَنهَضَ إلى القيامِ لرَبِّه عزَّ وجَلَّ، كما قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]، كذلك كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممتَثِلًا ما أمَرَه اللهُ تعالى به مِن قيامِ اللَّيلِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٤٩).

وقيل: المرادُ وَصْفُه بالتَّزَمُّلِ بالثِّيابِ للصَّلاةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٤٩).

قال الزمخشري: (وقيل: كان متزَمِّلًا في مِرْطٍ لعائِشةَ يُصَلِّي، فهو... ثَناءٌ عليه، وتحسينٌ لحالِه الَّتي كان عليها، وأَمْرٌ بأن يَدومَ على ذلك ويواظِبَ عليه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قال قَتادةُ: كان تزمَّلَ في ثيابِه للصَّلاةِ واستعَدَّ، فنُوديَ على معنى: يا أيُّها المُستَعِدُّ للعبادةِ المتزَمِّلُ لها. وهذا القَولُ مدحٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ أيضًا: (وقال جمهورُ المفسِّرينَ والزُّهْريُّ بما في البخاريِّ [«٣، ٤» ومسلم «١٦٠، ١٦١»] مِن أنَّه عليه السَّلامُ لَمَّا جاءه المَلَكُ في غارِ حِراءٍ وحاوَرَه بما حاوره، رجَع رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى خديجةَ فقال: زَمِّلوني زَمِّلوني: فنزلتْ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، وعلى هذا نزَلَت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٦).

قال السَّخاوي: (والعلماءُ على أنَّه إنَّما نزَل عليه مِن ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] إلى قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ٥]، ثمَّ نزَل باقيها بعدَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾. وقال جابرُ بنُ عبدِ الله: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ أوَّلُ القرآنِ نُزولًا». والأكثرُ على ما قدَّمْتُه، وليس في قولِ جابرٍ ما يُناقِضُه؛ لأنَّ المُدَّثِّرَ مِن جملةِ ما نزَل أوَّلَ القرآنِ). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (١/ ١٠٥). ويُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٢/ ١٩٩، ٢٠٧-٢٠٨).

وقال السيوطي: (وقد ذُكِر عن ابنِ عبَّاسٍ في ترتيبِ نُزولِ السُّورِ: أنَّ المُدَّثِّرَ نزلتْ عَقِبَ المُزَّمِّلِ [كذا] أخرجه ابنُ الضُّرَيْسِ، وأخرجه غيرُه عن جابرِ بنِ زَيدٍ). ((أسرار ترتيب القرآن)) (ص: ١٤٩). يُنظر: ((فضائل القرآن)) لابن الضُّرَيْسِ (١٧) (ص: ٣٣).

وقال ابن عاشور: (الأصَحُّ الَّذي تَضافَرَتْ عليه الأخبارُ الصَّحيحةُ: أنَّ أوَّلَ ما نزَل سورةُ العَلَقِ، واختُلِفَ فيما نزَل بعدَ سورةِ العَلَقِ؛ فقيل: سورةُ ن والقلمِ، وقيل: نزَل بعدَ العَلَقِ سورةُ المدَّثِّرِ، =

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢﴾.

أي: قُمْ -يا محمَّدُ- كلَّ اللَّيلِ للصَّلاةِ فيه إلَّا قَليلًا منه، فاجعَلْه للرَّاحةِ والنَّومِ(١).

= ويَظهَرُ أنَّه الأرجحُ. ثُمَّ قيل: نَزَلتْ سورةُ المزَّمِّلِ بعدَ القلمِ، فتكونُ ثالثةً، وهذا قولُ جابرِ ابنِ زيدٍ في تَعدادِ نُزولِ السُّوَرِ. وعلى القولِ بأنَّ المدَّثِّرَ هي الثَّانيةُ يحتمِلُ أنْ تكونَ القلمُ ثالثةً والمزَّمِّلُ رابعةً، ويحتمِلُ أنْ تكونَ المزَّمِّلُ هي الثَّالثةَ والقلمُ رابعةً، والجمهورُ على أنَّ المدَّثِّرَ نَزَلتْ قبْلَ المُزَّمِّلِ، وهو ظاهرُ حديثِ عُروةَ بنِ الزُّبَيْرِ عن عائشةَ في بَدْءِ الوحيِ مِن «صحيح البُخاريِّ»[٣]). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٤).

وقال ابن حجر: (نُزولُها [أي: المزَّمِّلِ] تأخَّر عن نُزولِ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ بالاتِّفاقِ؛ لأنَّ أوَّلَ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ الأمرُ بالإنذارِ، وذلك أوَّلَ ما بُعِث، وأوَّلَ المُزَّمِّلِ الأمرُ بقيامِ اللَّيلِ وترتيلِ القرآنِ، فيَقتضي تقَدُّمَ نُزولِ كثيرٍ مِن القرآنِ قبْلَ ذلك). ((فتح الباري)) (٨/ ٧٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩).

قال الماوَرْدي: (في فَرْضِه [أي: قيامِ اللَّيلِ] على مَنْ سِواه مِن أُمَّتِه قولان:

أحدُهما: فُرِض عليه دونَهم؛ لتوَجُّهِ الخِطابِ إليه، ويُشبِهُ أن يكونَ قَولَ سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ.

الثَّاني: أنَّه فُرِض عليه وعليهم، فقاموا حتَّى وَرِمَت أقدامُهم. قاله ابنُ عبَّاسٍ وعائشةُ. وقال ابنُ عبَّاسٍ: كانوا يقومون نحوَ قيامِه في شهرِ رمضانَ، ثمَّ نُسِخَ فَرضُ قيامِه على الأمَّةِ. واختُلِفَ بماذا نُسِخَ عنهم؛ على قولَينِ: أحدُهما: بالصَّلَواتِ الخَمسِ، وهو قولُ عائشةَ. الثَّاني: بآخِرِ السُّورةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٢٥). ويُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٣).

والقَولُ بأنَّ أوَّلَ السُّورةِ مَنسوخٌ بآخِرِها نسَبَه ابنُ سلامةَ إلى مُعظَمِ المفسِّرينَ، وهو ظاهرُ اختيارِ: ابنِ جرير، وابنِ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن سلامة (ص: ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدٌ، وعِكْرِمةُ، والحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٠).

قال السخاوي: (قلتُ: إنَّ ذلك ليس بنَسخٍ، وإنَّما هو تخفيفٌ مِن المِقْدارِ؛ لأنَّهم لا يُحصُونَه). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦].

﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾.

أي: قُمْ نِصْفَ اللَّيلِ، أو انقُصْ مِنَ النِّصفِ قَليلًا، فتُصَلِّي نحوَ ثُلُثِ اللَّيلِ[1].

---

= ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٧٩).

وقال الشنقيطي: (الأخيرُ ناسخٌ للأوَّلِ، ثمَّ نُسِخ الأخيرُ أيضًا بالصَّلَواتِ الخَمْسِ). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: ٢٤٦).

وممَّن قال بأنَّ فَرْضَ قيامِ اللَّيلِ مَنسوخٌ بالصَّلَواتِ الخَمسِ: الواحديُّ. يُنظر: ((الوجيز)) (ص: ١١٤٤).

وقيل: نُسِخَ قيامُ اللَّيلِ في حَقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، ونُسِخَ في حقِّ المؤمنينَ بالصَّلَواتِ الخَمسِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٣).

وقال ابن تيميَّةَ: (نقَلَهم عندَ نَسخِ وُجوبِ قيامِ اللَّيلِ إلى القِراءةِ، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ الآيةَ [المزمل: ٢٠]، واللهُ أعلَمُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٦٠).

وقال أيضًا: (لَمَّا نسَخَ ما كان افترَضَه مِن قيامِ اللَّيلِ، فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فأمَرهم بقِراءةِ ما تيسَّر مِن القُرآنِ؛ فإنَّ مِن المُسلِمينَ المعذورَ بالمرَضِ، ومنهم التَّاجرَ الضَّاربَ في الأرضِ يَطلُبُ فضْلَ اللهِ، ومنهم المقاتِلَ في سبيلِ الله). ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٨٤).

وقال السَّخاوي: (وقيل: كان [أي: قيامُ اللَّيلِ] نَدْبًا، وهو الصَّوابُ إن شاء اللهُ تعالى، والقولُ بأنَّه كان تطَوُّعًا أوضَحُ منه. وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾: أي دُمْ على ما تطَوَّعْتَ به؛ مدحًا لحالِه، وتحسينًا لها). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧١)، ((تفسير ابن =

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤﴾.

﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾.

أي: أو زِدْ في صَلاتِك على نِصفِ اللَّيلِ، فتُصَلِّي ثُلُثَيْه؛ فلا حَرَجَ عليك في قيامِ نِصفِ اللَّيلِ، أو أقَلَّ مِنَ النِّصفِ بقَليلٍ، أو أكثَرَ مِنَ النِّصفِ[1].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ نَبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقومُ مِنَ اللَّيلِ حتَّى تتفَطَّرَ قَدَماه، فقالت عائِشةُ: لِمَ تَصنَعُ هذا يا رَسولَ اللهِ، وقد غَفَرَ اللهُ لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِك وما تأخَّرَ؟! قال: أفلا أُحِبُّ أن أكونَ عَبدًا شَكورًا؟!))[2].

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾.

أي: واقرَأِ القُرآنَ بتمَهُّلٍ وتُؤَدَةٍ وتَبيينٍ لحُروفِه بلا عَجَلةٍ؛ فيَكونَ ذلك عَونًا على التَّفَكُّرِ فيه، وفَهْمِ مَعانيه[3].

---

= كثير)) (٨/ ٢٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٥٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: أو انقُصْ مِنَ النِّصفِ قليلًا إلى الثُّلُثِ، أو زِدْ على النِّصفِ قليلًا إلى الثُّلُثَينِ، جَعَل له سَعةً في مدَّةِ قيامِه في اللَّيلِ، وخَيَّرَه في السَّاعاتِ للقيامِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٧١).

(٢) رواه البخاري (٤٨٣٧) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

قال الداني: (أي: تلَبَّثْ في قراءتِه، وافصِلِ الحَرفَ مِنَ الحَرفِ الَّذي بعْدَه، ولا تَستَعجِلْ؛ فتُدخِلَ بَعضَ الحُروفِ في بَعضٍ). ((التحديد في الإتقان والتجويد)) (ص: ٧١). ويُنظر: ((الأم)) للشافعي (١/ ١٣٢)، ((التمهيد في علم التجويد)) لابن الجزري (ص: ٤٨، ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٠).

عن حَفْصةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بالسُّورةِ فيُرَتِّلُها حتَّى تكونَ أطْوَلَ مِن أطْوَلَ مِنها))(١).

وعن قَتادةَ، قال: ((سألْتُ أنَسَ بنَ مالِكٍ عن قِراءةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: كان يَمُدُّ مَدًّا))(٢).

وعن عبدِ الله بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُقالُ لصاحِبِ القُرآنِ: اقرَأْ وارتَقِ، ورَتِّلْ كما كُنتَ تُرَتِّلُ في الدُّنيا؛ فإنَّ مَنزِلَتَك عندَ آخِرِ آيةٍ تَقرَأُ بها))(٣).

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

وَجهُ النَّظْمِ أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَه بصَلاةِ اللَّيلِ، فكأنَّه قال: إنَّما أمَرْتُك بصلاةِ اللَّيلِ؛ لأنَّا سنُلْقي عليك قولًا ثَقيلًا، فلا بدَّ أن تَسعى في صَيرورةِ نَفْسِك مُستَعِدَّةً لذلك القَولِ الثَّقيلِ، ولا يَحصُلُ ذلك الاستِعدادُ إلَّا بصلاةِ اللَّيلِ(٤)، فالجملةُ كالعلةِ لقيامِ الليلِ؛ فإنَّ الطاعةَ -سيَّما في اللَّيلِ- تُعينُ الرَّجلَ على نوائبِه، وتُسهِّلُ عليه المصائبَ(٥).

---

(١) رواه مسلم (٧٣٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٤٥).

(٣) أخرجه أبو داودَ (١٤٦٤)، والترمذيُّ (٢٩١٤) واللَّفظُ له، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٨٠٥٦)، وأحمدُ (٦٧٩٩).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٩١٤). وصَحَّحَه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٧٦٦)، وصحَّحَه لغيرِه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٤٦٤)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١١/ ٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٣، ٦٨٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٣٩٦).

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾.

أي: إنَّا سنُنزِلُ عليك -يا محمَّدُ- قُرآنًا ثقيلًا لِما فيه مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ، ورَزانةِ ألفاظِه؛ لامتلائِها بالمعاني مع جلالتِها، وما له مِن قَدْرٍ عَظيمٍ، وهو ثقيلٌ في الميزانِ، ولا يَقدِرُ الكافرُ على رَدِّه، أو الطَّعنِ فيه بوجهٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦١، ٢٦٢).

اختلَف المفسِّرونَ في معنى تسميةِ القرآنِ بالقَولِ الثَّقيلِ؛ فقيل: المرادُ: ثقيلٌ لِما فيه مِن الأوامرِ والنَّواهي، والحدودِ، والتَّكاليفِ الشَّاقَّةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والزمخشري، وأبو حيَّان، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٩٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ في روايةٍ عنه، وأبو العاليةِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥١).

وقيل: المرادُ: كَونُه رَصينًا رزينًا، ليس بالسَّفسافِ والخفيفِ؛ لأنَّه كلامُ اللهِ تعالى. وممَّن قال بهذا القولِ: الفرَّاءُ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٥).

وقيل: المرادُ مِن كَونِه ثقيلًا: عِظَمُ قَدْرِه، وجلالةُ خَطَرِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

قال ابنُ جُزَي: (واختُلِف في وَصفِه بالثِّقَلِ؛ على خمسةِ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه سُمِّيَ ثقيلًا؛ لِما كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم يَلْقاه مِن الشِّدَّةِ عندَ نُزولِ الوَحيِ عليه، حتَّى إنَّ جَبينَه لَيَتفَصَّدُ عَرَقًا في اليومِ الشَّديدِ البَردِ، وقد كان يَثقُلُ جِسمُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بذلك، حتَّى إنَّه إذا أُوحِيَ إليه وهو على ناقتِه برَكَت به، وأُوحيَ إليه وفَخِذُه على فَخِذِ زَيدِ بنِ ثابتٍ، فكادت أن تَرُضَّ فَخِذَ زَيدٍ، والثِّقلُ على هذا حقيقةٌ. =

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قراءةُ: ﴿وِطَاءً﴾ أي: أشَدُّ مُوافَقةً، والمعنى: أنَّ القراءةَ في اللَّيلِ يَتواطَأُ فيها قَلبُ المصَلِّي ولسانُه وسَمعُه على التَّفَهُّمِ والأداءِ أكثَرَ ممَّا يتواطَأُ عليه ذلك في النَّهارِ[1].

٢- قِراءةُ: ﴿وَطْئًا﴾ قيل: المعنى: أشدُّ مُكابَدةً؛ فقيامُ اللَّيلِ أشَدُّ على الإنسانِ وأثقَلُ مِنَ القيامِ بالنَّهارِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى جعَلَ اللَّيلَ سكنًا وراحةً. وقيل: معناه: أبيَنُ في القَولِ. وقيل: أثبَتُ في الحِفظِ. وقيل: معناه: أبلَغُ في الثَّوابِ[2].

---

= الثَّاني: أنَّه ثقيلٌ على الكُفَّارِ بإعجازِه ووعيدِه.

الثَّالثُ: أنَّه ثقيلٌ في الميزانِ.

الرَّابعُ: أنَّه كلامٌ له وَزنٌ ورُجحانٌ.

الخامسُ: أنَّه ثقيلٌ لِما تضَمَّن مِن التكاليفِ والأوامِرِ والنَّواهي). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٣).

وقد ذهب البِقاعي إلى العُموم، فقال: (﴿ثَقِيلًا﴾ أي: لِما فيه مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ مِن جِهةِ حَمْلِها وتحميلِها للمَدعُوِّينَ؛ لأنَّها تُضادُّ الطَّبعَ، وتُخالِفُ النَّفْسَ، ومِن جهةِ رَزانةِ لَفظِه؛ لامتِلائِه بالمعاني مع جلالةِ معناه، وتَصاعُدِه في خفاءٍ، فلا يَفهَمُه المتأمِّلُ ويَستَخرِجُ ما فيه مِن الجواهِرِ إلَّا بمَزيدِ فِكرٍ، وتصفيةِ سِرٍّ، وتجريدِ نَظَرٍ؛ فهو ثقيلٌ على الموافقِ مِن جميعِ هذه الوجوهِ وغَيرِها، وعلى المخالِفِ مِن جِهةِ أنَّه لا يَقدِرُ على رَدِّه، ولا يتمكَّنُ مِن طَعنٍ فيه بوجهٍ، مع أنَّه ثقيلٌ في الميزانِ، وعندَ تلَقِّيه، وله وزنٌ وخطرٌ وقَدْرٌ عَظيمٌ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٠).

(١) قرأ بها أبو عَمرٍو، وابنُ عامرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٩)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٣٠).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ٩٩، ١٠٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٣٠، ٧٣١).

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ٦﴾.

أي: إنَّ ساعاتِ اللَّيلِ بعدَ القيامِ مِنَ النَّومِ: أثْقَلُ على المصَلِّي وأشَقُّ مِن صلاةِ النَّهارِ -لأنَّ اللَّيلَ وقتُ النَّومِ والرَّاحةِ والسُّكونِ- وأصْوَبُ قِراءةً وأصحُّ قَولًا؛ لهدوءِ النَّاسِ، وسُكونِ الأصواتِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦، ٣٧٠، ٣٧٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٩-٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٢، ٢٦٣).

وممَّن قال بأنَّ ناشِئةَ اللَّيلِ تكونُ بعدَ نَومٍ: ابنُ الأعرابيِّ، وأحمدُ بنُ حَنْبَلٍ، ورجَّحه ابنُ تيميَّةَ، ونسَبَه لأكثرِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٩٥)، ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٣٣).

قال ابن الجوزي: (... الثَّاني: أنَّها القيامُ بعدَ النَّومِ، وهذا قولُ عائشةَ، وابنِ الأعرابيِّ. وقد نصَّ عليه الإمامُ أحمدُ في روايةِ المَرُّوذي). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٤).

وقال ابن تيميَّةَ: (﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ في أصَحِّ القولَينِ: إنَّما تكونُ بعدَ النَّومِ، يُقالُ: نشَأَ: إذا قام بعدَ النَّومِ؛ فإذا قام بعدَ النَّومِ كانت مواطأةُ قَلبِه لِلسانِه أشَدَّ؛ لعدمِ ما يَشغَلُ القَلبَ، وزَوالِ أثَرِ حركةِ النَّهارِ بالنَّومِ، وكان قَولُه أقوَمَ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٤٩٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ أيضًا: (قَولُه تعالى: ﴿نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ عندَ أكثَرِ العلماءِ: هو إذا قام الرَّجُلُ بعدَ نَومٍ ليس هو أوَّلَ اللَّيلِ، وهذا هو الصَّوابُ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم هكذا كان يُصَلِّي، والأحاديثُ بذلك متواترةٌ عنه؛ كان يقومُ بعدَ النَّومِ، لم يكُنْ يقومُ بيْن العِشاءَينِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٤٧٤).

وقيل: المرادُ بناشئةِ اللَّيلِ: جميعُ ساعاتِه وأوقاتِه، فهي تنشأُ وقتًا بعدَ آخَرَ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ الزُّبَيرِ، وابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٦٦).

قال ابنُ جُزَي: (﴿أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ يحتَمِلُ معنيَينِ؛ أحَدُهما: أثقَلُ وأصعَبُ على المصَلِّي...، والأثقَلُ =

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بَيَّن اللهُ سُبحانَه مِن أوَّلِ السُّورةِ إلى هنا ما به صلاحُ الدِّينِ، وأظهَرَ ما

---

= أعظَمُ أجرًا، فالمعنى تحريضٌ على قيامِ اللَّيلِ؛ لكثرةِ الأجرِ. الثَّاني: أشدُّ ثبوتًا مِن أجْلِ الخَلوةِ، وحُضورِ الذِّهنِ، والبُعدِ عن النَّاسِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٤).

ممَّن ذهب إلى القولِ الأوَّلِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والسمرقنديُّ، والسمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٠).

وقال ابن جرير: (أشدُّ ثباتًا مِن النَّهارِ، وأثْبَتُ في القلبِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٠).

وقال ابن كثير: (﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: أجمَعُ للخاطرِ في أداءِ القراءةِ وتَفَهُّمِها مِن قيامِ النَّهارِ؛ لأنَّه وقتُ انتِشارِ النَّاسِ، ولَغَطِ الأصواتِ، وأوقاتُ المعاشِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٢).

وقال السعدي: (ذكَرَ الحِكمةَ في أمرِه بقيامِ اللَّيلِ، فقال: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي: الصَّلاةَ فيه بعدَ النَّومِ ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: أقرَبُ إلى تحصيلِ مقصودِ القُرآنِ، يتَواطأُ على القرآنِ القَلبُ واللِّسانُ، وتَقِلُّ الشَّواغِلُ، ويفهمُ ما يقولُ، ويستقيمُ له أمرُه، وهذا بخِلافِ النَّهارِ؛ فإنَّه لا يحصُلُ به هذا المقصودُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٣).

وممَّن اختار المعنى المذكورَ في قولِه: ﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٦١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٩٥).

قال القرطبي: (﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: القراءةُ باللَّيلِ أقومُ منها بالنَّهارِ، أي: أشدُّ استِقامةً واستِمرارًا على الصَّوابِ؛ لأنَّ الأصواتَ هادئةٌ، والدُّنيا ساكنةٌ، فلا يَضْطَرِبُ على المصَلِّي ما يَقرَؤُه). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤١).

وقيل: المعنى: أخلَصُ للقَولِ، وأسمَعُ له. وممَّن اختاره: ابنُ قُتَيْبَةَ، والسمرقنديُّ، وابنُ الجوزي. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٤).

للتَّهجُّدِ مِن الفَضائلِ؛ فكان التَّقديرُ حَتمًا: فواظِبْ عليه لتَنالَ هذه الثَّمَراتِ- قال معلِّلًا مُحَقِّقًا له، مُبَيِّنًا ما به صلاحُ الدُّنيا الَّتي هي فيها المَعاشُ، وصلاحُها وسيلةٌ إلى صلاحِ المقصودِ، وهو الدِّينُ، وهو الَّذي ينبغي له؛ لئلَّا يكونَ كَلًّا على النَّاسِ، ليحصلَ مِن الرِّزقِ ما يُعينُه على دينِه، ويوسِّعُ به على عيالِ اللهِ مِن غيرِ مَلَلٍ ولا ضَجَرٍ، ولا كَسَلٍ ولا مُبالَغةٍ[1]:

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ٧﴾.

أي: إنَّ لك -يا محمَّدُ- في النَّهارِ سَعَةً مِنَ الوَقتِ وفَراغًا طويلًا تتقلَّبُ فيه بالذَّهابِ والمجيءِ؛ لقَضاءِ حوائجِك وللنَّومِ؛ فتفرَّغْ في اللَّيلِ لقِيامِه[2].

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ٨﴾.

أي: واذكُرْ -يا محمَّدُ- اسمَ ربِّك في كُلِّ وقْتٍ، وانقَطِعْ إليه مِن كُلِّ شَيءٍ يُلهيك عن طاعتِه انقِطاعًا تامًّا بالعبادةِ له وَحْدَه، وطَلَبِ الحاجاتِ منه دونَ غيرِه[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢، ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٧٧)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٣، ٤٤)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣١، ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

قال السعدي: (﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ شامِلٌ لأنواعِ الذِّكرِ كُلِّها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٢).

وقال القرطبي: (﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ أي: ادعُه بأسمائِه الحُسنى، لِيَحصُلَ لك مع الصَّلاةِ محمودُ العاقبةِ. وقيل: أي: اقصِدْ بعمَلِك وجْهَ رَبِّك. وقال سهلٌ: اقرَأْ بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ في ابتداءِ صَلاتِك تُوصِلْك بَرَكةُ قراءتِها إلى رَبِّك، وتقطَعْك عمَّا سِواه. وقيل: اذكُرِ اسمَ رَبِّك في وَعْدِه ووعيدِه؛ لتَوَفَّرَ على طاعتِه، وتَعدِلَ عن معصيتِه. وقال الكلبيُّ: صَلِّ لرَبِّك، أي: بالنَّهارِ. قلتُ: =

= وهذا حَسَنٌ؛ فإنَّه لَمَّا ذكَرَ اللَّيلَ ذَكَر النَّهارَ؛ إذ هو قَسيمُه، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾ [الفرقان: ٦٢]. ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٣).

وقال ابن كثير: (قولُه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾ أي: أكثِرْ مِن ذِكْرِه، وانقطِعْ إليه، وتفرَّغْ لعِبادتِه إذا فرَغْتَ مِن أشغالِك، وما تحتاجُ إليه مِن أمورِ دُنياكَ، كما قال: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ [الشرح: ٧]، أي: إذا فرَغْتَ مِن مهامِّك فانصَبْ في طاعتِه وعبادتِه؛ لِتَكونَ فارغَ البالِ. قاله ابنُ زَيدٍ بمعناهُ أو قريبٍ منه.

وقال ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وأبو صالحٍ، وعطيَّةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾ أي: أخلِصْ له العبادةَ.

وقال الحسَنُ: اجتَهِدْ وبَتِّلْ إليه نفْسَك). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٥).

وقال الواحدي: (جميعُ المفسِّرينَ فَسَّروا التَّبَتُّلَ بالإخلاصِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٣٦٦).

وقال أيضًا: (قال أبو إسحاقَ [الزَّجَّاجُ]: انقطِعْ إليه في العبادةِ. وقال الفرَّاءُ: يُقالُ للعابدِ إذا ترَكَ كلَّ شيءٍ، وأقبَلَ على العبادةِ: قد تَبَتَّلَ، أي: قطَعَ كلَّ شيءٍ إلَّا أمْرَ اللهِ وطاعتَه. وهذا يؤدِّي معنى الإخلاصِ الَّذي ذكَر أهلُ التَّفسيرِ. وقال زَيدُ بنُ أسْلَمَ: التَّبَتُّلُ: رفْضُ الدُّنيا وما فيها، والتِماسُ ما عندَ الله. وقال ابنُه: «تَبَتَّلْ إليه»: تفرَّغْ لعبادتِه. وهذا كلُّه يَرجِعُ إلى معنى الانقطاعِ إليه عمَّا سِواه). ((البسيط)) (٢٢/ ٣٦٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٨).

وقال ابن عاشور: (المرادُ بالانقطاعِ المأمورِ به انقطاعٌ خاصٌّ، وهو الانقطاعُ عن الأعمالِ الَّتي تَمنَعُه مِن قيامِ اللَّيلِ، ومَهامِّ النَّهارِ في نشرِ الدَّعوةِ ومُحاجَّةِ المشركين؛ ولذلك قيل: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى الله، فكلُّ عمَلٍ يقومُ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أعمالِ الحياةِ فهو لدينِ الله؛ فإنَّ طَعامَه وشَرابَه ونَومَه وشُؤونَه للاستِعانةِ على نشرِ دينِ الله، وكذلك مُنعشاتُ الرُّوحِ البريئةُ مِن الإثمِ؛ مِثلُ الطِّيبِ، وتزَوُّجِ النِّساءِ، والأُنْسِ إلى أهلِه وأبنائِه وذَويه، وقد قال: «حُبِّبَ إلَيَّ مِن دُنياكم النِّساءُ والطِّيبُ»، وليس هو التَّبَتُّلَ المُفْضي إلى الرَّهبانيَّةِ، وهو الإعراضُ عن النِّساءِ، وعن تدبيرِ أمورِ الحياةِ؛ لأنَّ ذلك لا يُلاقي صِفةَ الرِّسالةِ... ومِن أكبَرِ التَّبَتُّلِ إلى الله الانقطاعُ عن الإشراكِ، وهو معنى الحَنيفيَّةِ؛ ولذلك عُقِّب قولُه: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾ بقولِه: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩]. وخُلاصةُ المعنى: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مأمورٌ ألَّا تَخلوَ أوقاتُه عن إقبالٍ على عبادةِ الله ومُراقَبَتِه، والانقطاعِ للدَّعوةِ لدينِ الحقِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٦).

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا * وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤١، ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الإنسان: ٢٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أمَرَ النَّبيَّ عليه السَّلامُ بالذِّكرِ أوَّلًا، ثمَّ بالتَّبتُّلِ ثانيًا؛ ذكَرَ السَّبَبَ فيه[١].

وأيضًا فوَصْفُ اللهِ بأنَّه رَبُّ المشرقِ والمغرِبِ؛ لِمُناسَبةِ الأمرِ بذِكْرِه في اللَّيلِ وذِكْرِه في النَّهارِ، وهما وَقْتَا ابتِداءِ غيابِ الشَّمسِ وطُلوعِها[٢].

﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾.

أي: هو خالِقُ ومالِكُ ومُدَبِّرُ المشرِقِ والمغرِبِ[٣].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: لا مَعبودَ بحَقٍّ إلَّا اللهُ سُبحانَه وَحْدَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾.

أي: فاتَّخِذِ اللهَ قائمًا بأمورِك، وفوِّضْها إليه، واعتَمِدْ عليه وَحْدَه دونَ مَنْ سِواه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُ ٱلۡأَمۡرُ كُلُّهُۥ فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ [هود: ١٢٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ في خِطابِه بهذا الاسمِ فائدتانِ:

**إحداهما**: الملاطَفةُ؛ فإنَّ العَرَبَ إذا قصَدَت ملاطَفةَ المخاطَبِ، وتَرْكَ المُعاتَبةِ، سَمَّوْه باسمٍ مُشتَقٍّ مِن حالتِه الَّتي هو عليها، كقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لعليٍّ حينَ غاضَبَ فاطِمةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، فأتاه وهو نائِمٌ، وقد لَصِقَ بجَنْبِه التُّرابُ، فقال له: ((قُمْ يا أبا تُرابٍ))[٢]؛ إشعارًا له أنَّه غيرُ عاتِبٍ عليه، ومُلاطَفةً له، وكذلك قَولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لحُذَيفةَ: ((قُمْ يا نَوْمانُ))[٣]، وكان نائِمًا؛ مُلاطَفةً له،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٧).

قال الشوكاني: (﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ أي: إذا عرَفْتَ أنَّه المُختَصُّ بالرُّبوبيَّةِ ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾، أي: قائمًا بأمورِك، وعَوِّلْ عليه في جميعِها. وقيل: كفيلًا بما وعَدَك مِن الجزاءِ والنَّصرِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨١).

وقال الواحديُّ: (قولُه: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ قال الكلبيُّ: يقولُ: اتَّخِذْه يا محمَّدُ كفيلًا على ما قال لك إنَّه سيَفعَلُه بك. وهذا المعنى أراد الزَّجَّاجُ بقولِه: اتَّخِذْه كفيلًا بما وعَدَك. وهو قولُ الفرَّاءِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٣٦٩، ٣٧٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ١٩٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩) من حديث سَهلِ بنِ سعدٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨٨) من حديث حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رضيَ الله عنهما.

وإشعارًا لتَركِ العَتْبِ والتَّأنيبِ، فقَولُ اللهِ تعالى لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ * قُمِ﴾ فيه تأنيسٌ وملاطَفةٌ؛ ليَستَشعِرَ أنَّه غيرُ عاتبٍ عليه.

**الفائدةُ الثَّانيةُ**: التَّنبيهُ لكُلِّ مُتزمِّلٍ راقدٍ لَيلَه لِيَتنبَّهَ إلى قيامِ اللَّيلِ، وذِكْرِ اللهِ تعالى فيه؛ لأنَّ الاسمَ المشتَقَّ مِن الفِعلِ يَشتَرِكُ فيه مع المُخاطَبِ كُلُّ مَن عَمِل ذلك العَمَلَ، واتَّصَف بتلك الصِّفةِ[1].

٢- اللهُ سُبحانَه وتعالى خاطَبَ الأنبياءَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ بأسمائِهم، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ * إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١، ١٢]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ولَمَّا خاطَبَ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، فنحن أحقُّ أن نتأدَّبَ في دُعائِه وخِطابِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

وأمَّا إذا كان في مقامِ الإخبارِ عنه، قُلْنا: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وقُلْنا: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ وخاتَمُ النَّبيِّينَ، فنُخبِرُ عنه باسمِه كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه لَمَّا أخبَرَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ [محمد: ٢]؛ فالفَرقُ بيْن

(١) يُنظر: ((التعريف والإعلام بما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام)) للسهيلي (ص: ١٣٦، ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٣)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٤٥١).

مَقامِ المُخاطَبةِ ومَقامِ الإخبارِ فَرقٌ ثابتٌ بالشَّرعِ والعقلِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ فيه أمرٌ بترتيلِ القُرآنِ؛ حتَّى يَتمكَّنَ الخاطِرُ مِن التَّأمُّلِ في حقائقِ تلك الآياتِ ودقائِقِها، فعندَ الوُصولِ إلى ذِكرِ اللهِ يَستَشعِرُ عَظَمتَه وجلالتَه، وعندَ الوُصولِ إلى الوَعدِ والوعيدِ يَحصُلُ الرَّجاءُ والخَوفُ، وحينَئذٍ يَستنيرُ القَلبُ بنورِ مَعرفةِ اللهِ. والإسراعُ في القراءةِ يدُلُّ على عدَمِ الوُقوفِ على المعاني؛ لأنَّ النَّفْسَ تَبتَهِجُ بذِكرِ الأمورِ الإلهيَّةِ الرُّوحانيَّةِ، ومَنِ ابتَهَج بشَيءٍ أحَبَّ ذِكْرَه، ومَن أحَبَّ شَيئًا لم يَمُرَّ عليه بسرعةٍ، فالمقصودُ مِن التَّرتيلِ إنَّما هو حُضورُ القَلبِ، وكَمالُ المعرفةِ[٢]، وأنْ يجِدَ الفِكرُ فُسحةً للنَّظرِ، وفهمِ المعاني، وبذلك يرِقُّ القلبُ، ويَفيضُ عليه النُّورُ والرَّحمةُ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ فيه استِحبابُ ترتيلِ القِراءةِ، وأنَّه أفضَلُ مِنَ السُّرعةِ في قِراءتِه[٤]. قال الشَّافعيُّ: (أقلُّ التَّرتيلِ تَركُ العَجَلةِ في القرآنِ عن الإبانةِ، وكُلَّما زاد على أقَلِّ الإبانةِ في القراءةِ كان أحَبَّ إلَيَّ، ما لم يَبلُغْ أن تكونَ الزِّيادةُ فيها تمطيطًا. وأُحِبُّ ما وصَفْتُ لكلِّ قارئٍ في صلاةٍ وغَيرِها، وأنا له في المصَلِّي أشَدُّ استِحبابًا منه للقارئِ في غيرِ صلاةٍ)[٥].

٥- كان جُملةُ القُرآنِ حينَ نُزولِ هذه السُّورةِ سُورتَينِ أو ثلاثَ سُوَرٍ، بِناءً

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٧).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٦).

قال النووي: (وقد اتَّفَق العلماءُ رضيَ الله عنهم على استحبابِ التَّرتيلِ؛ قال الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾). ((التبيان في آداب حملة القرآن)) (ص: ٨٨).

(٥) يُنظر: ((الأم)) للشافعي (١/ ١٣٢).

على أصَحِّ الأقوالِ في أنَّ هذا المِقْدارَ مِنَ السُّورةِ مَكِّيٌّ، وفي أنَّ هذه السُّورةَ مِن أوائِلِ السُّوَرِ، وهذا مِمَّا أشعَرَ به قَولُه تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، أي: سنُوحي إليك قُرآنًا[١].

٦- كان مالكٌ رحمه الله يقولُ: (مَن سُئِلَ عن مسألةٍ فيَنبغي له قبْلَ أن يُجيبَ فيها أن يَعرِضَ نفْسَه على الجنَّةِ والنَّارِ، وكيف يكونُ خلاصُه في الآخرةِ، ثمَّ يجيب فيها)، وسُئِلَ عن مسألةٍ، فقال: (لا أدري. فقيل له: إنَّها مسألةٌ خفيفةٌ سهلةٌ! فغَضِبَ، وقال: ليس في العِلمِ شيءٌ خفيفٌ؛ أمَا سَمِعتَ قولَ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾)، فالعِلمُ كلُّه ثقيلٌ، وخاصَّةً ما يُسأَلُ عنه يومَ القيامةِ[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ فيه إرشادٌ إلى ما يُقابِلُ هذا الثِّقْلَ فيما سيُلْقى على النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِنَ القَولِ، فهو كالتَّوجيهِ إلى ما يتزوَّدُ به لتحَمُّلِ ثِقْلِ أعباءِ الدَّعوةِ والرِّسالةِ[٣].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ دَلَّ به على أنَّ قيامَ اللَّيلِ مِن التَّكاليفِ الشَّاقَّةِ الَّتي ورد بها القرآنُ؛ لأنَّ اللَّيلَ محَلُّ الرَّاحةِ، فإحياؤُه بالعبادةِ مُضادٌّ للطَّبعِ، وفيه إيقاظٌ له على التَّشَمُّرِ لتحَمُّلِه، وتوطُّن النَّفْسِ على المُكابَدةِ في تبليغِه وتحميلِه[٤].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ بيَّن تعالى في هذه الآيةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٠).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٣).

(٢) يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٤/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٦١).

فضْلَ صلاةِ اللَّيلِ على صلاةِ النَّهارِ، وأنَّ الاستِكثارَ مِن صلاةِ اللَّيلِ بالقراءةِ فيها ما أمكَنَ: أعظَمُ للأجرِ، وأجلَبُ للثَّوابِ[١].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ فيه أنَّ صَلاةَ اللَّيلِ أعوَنُ على تذَكُّرِ القُرآنِ، والسَّلامةِ مِن نِسيانِ بَعضِ الآياتِ، وأعوَنُ على المزيدِ مِن التَّدَبُّرِ[٢].

١١- قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ وإنَّ مِن شرطِ هذا الاتِّخاذِ أنَّه إذا قضَى لعبدِه قضاءً يكونُ راضيًا بالقضاءِ في تلك الوكالةِ محسنًا ظنًّا غيرَ مسيءٍ له؛ فإنَّ الله تعالى لا يختارُ له إذا اتَّخذَه وكيلًا إلَّا الأفضلَ والأجودَ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- ليس المزَّمِّلُ باسمٍ مِن أسماءِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولم يُعرَفْ به كما ذهَبَ إليه بعضُ النَّاسِ وعَدُّوه في أسمائِه عليه السَّلامُ! وإنَّما المزَّمِّلُ اسمٌ مُشتَقٌّ مِن حالتِه الَّتي كان عليها حينَ الخِطابِ، وكذلك المُدَّثِّرُ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۞ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فيه سُؤالٌ: هذا الكلامُ، مع قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ [المزمل: ٢٠] إلى قوله: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠] يدُلُّ على وُجوبِ قيامِ اللَّيلِ على الأُمَّةِ؛ لأنَّ أمْرَ القُدوةِ أمْرٌ لأتْباعِه. وقَولُه: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ [المزمل: ٢٠] دليلٌ على عدمِ الخُصوصِ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقد ذَكَر اللهُ ما يدُلُّ على خِلافِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هبيرة (٣/ ٢١٥).

(٤) يُنظر: ((التعريف والإعلام)) للسهيلي (ص: ١٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٣٣).

ذلك، في قَولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [المزمل: ٢٠]، وقَولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ [المزمل: ٢٠]!

**الجوابُ**: أنَّ الأخيرَ ناسِخٌ للأوَّلِ، ثمَّ نُسِخَ الأخيرُ أيضًا بالصَّلَواتِ الخَمسِ(١). وذلك على قولٍ.

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ تخصيصُ اللَّيلِ بالصَّلاةِ فيه؛ لأنَّه وقتُ النَّومِ عادةً، فأمْرُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقيامِ فيه زيادةٌ في إشغالِ أوقاتِه بالإقبالِ على مُناجاةِ اللهِ، ولأنَّ اللَّيلَ وَقتُ سُكونِ الأصواتِ، فتكونُ نفْسُ القائمِ فيه أقوى استِعدادًا لتلَقِّي الفَيضِ الرَّبَّانيِّ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أنَّه سُبحانَه لَمَّا سمَّى الصَّلاةَ قيامًا؛ دلَّ على وُجوبِ القيامِ فيها، وذلك: أنَّ تسميتَها بهذا الفعلِ دليلٌ على أنَّ هذا الفعلَ لازِمٌ لها، فإذا وُجِد هذا الفعلُ فيكونُ مِن الأبعاضِ اللَّازمةِ، كما أنَّهم يُسمُّونَ الإنسانَ بأبعاضِه اللَّازمةِ له، فيُسمُّونَه رقبةً ورأسًا ووجهًا ونحوَ ذلك، كما في قولِه تعالى: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾(٣) [المجادلة: ٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ يدُلُّ على أنَّ أكثرَ المقاديرِ الواجِبةِ: الثُّلُثانِ، فهذا يدُلُّ على أنَّ نومَ الثُّلُثِ جائِزٌ، وإذا كان كذلك وجَبَ أن يكونَ المرادُ في قَولِه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ هو الثُّلُثَ(٤).

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٦).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ إلى ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ وسائرِ السُّورةِ: أنَّ الصَّلاةَ لا بُدَّ فيها مِن القراءةِ؛ فإنَّه يُعَبَّرُ عن الشَّيءِ باسمِ بعضِه إذا كان رُكنًا فيه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ أنه يُستَحَبُّ أنْ يَقْرَأَ القارئُ قِراءةً مُرَتَّلةً يُمَكِّنُ فيها حَرْفَ المَدِّ مِن غَيرِ تمطيطٍ، ويَقِفُ عندَ كلِّ آيةٍ[٢].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ في هذه الآيةِ تَنبيهٌ على نومِ القائِلةِ الَّذي يَستريحُ به العَبدُ مِن قيامِ اللَّيلِ في الصَّلاةِ، أو في العِلمِ[٣]. وفيه إرشادٌ إلى أنَّ النَّهارَ ظرْفٌ واسعٌ لإيقاعِ ما عسَى أنْ يُكلفَه قِيامُ اللَّيلِ مِن فُتورٍ بالنَّهارِ؛ ليَنامَ بَعضَ النَّهارِ، وليَقومَ بمَهامِّه فيه[٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ فَضْلُ العِبادةِ باللَّيلِ[٥].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أنَّ نَفْلَ اللَّيلِ أفضلُ مِن نَفْلِ النَّهارِ[٦].

١١- قال تعالَى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ فتارةً يأمُرُ بذِكْرِ اسْمِه، وتارةً يأمُرُ بذِكْرِه كما قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١] ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]؛ كما يأمُرُ بتَسبيحِه تارةً، وتسبيحِ اسْمِه تارةً. فقولُه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾ يَقتضي أن يَذْكُرَه بلِسانِه، وأمَّا قولُه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾ فقد

---

(١) يُنظر: ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٨٩).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٤).

(٥) يُنظر: ((الكلم الطيب)) لابن تيمية (ص: ٣٤).

(٦) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٦).

يَتناوَلُ ذِكرَ القلبِ، وقولُه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] هو كقولِ الآكِلِ: باسْمِ اللهِ، وقولِ الذَّابِحِ: باسْمِ اللهِ. وأمَّا التَّسبيحُ فقد قال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وقال: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١]، وقال: ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦] [الحاقة: ٥٢]. وفي الدُّعاءِ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]؛ فقولُه: ﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ﴾ يَقتضي تَعدُّدَ المَدْعُوِّ؛ لقولِه ﴿أَيّٗا مَّا﴾، وقولُه: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ يَقتضي أنَّ المَدْعُوَّ واحدٌ له الأسماءُ الحُسنى، وقولُه: ﴿ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ -ولم يقلْ: ادعوا باسْمِ اللهِ أو باسْمِ الرَّحمنِ- يَتضَمَّنُ أنَّ المَدْعوَّ هو الرَّبُّ الواحدُ بذلك الاسمِ. فقد جعَل الاسمَ تارةً مَدْعُوًّا، وتارةً مَدعوًّا به في قولِه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ فهو مَدْعُوٌّ به باعتبارِ أنَّ المَدْعُوَّ هو المُسمَّى، وإنَّما يُدْعى باسْمِه. وجعَل الاسمَ مَدْعُوًّا باعتبارِ أنَّ المقصودَ به هو المُسمَّى وإن كان في اللَّفظِ هو المَدعوَّ المُنادَى، كما قال: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، أي: ادعوا هذا الاسمَ أو هذا الاسمَ، والمرادُ إذا دَعَوْتَه هو المُسمَّى؛ أيَّ الاسْمَيْنِ دَعَوْتَ ومُرادُك هو المُسمَّى: ﴿فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾. فمَن تدَبَّرَ هذه المعانيَ اللَّطيفةَ تبيَّن له بعضُ حِكَمِ القرآنِ وأسرارِه[1].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ فيه أنَّ التَّبَتُّلَ مأمورٌ به في القُرآنِ، وهو مَنهيٌّ عنه في السُّنَّةِ[2]، إلَّا أن مُتعَلَّقَ الأمرِ غيرُ مُتعَلَّقِ النَّهيِ؛ فلا يَتناقَضانِ، والتَّبَتُّلُ المأمورُ به: الانقِطاعُ إلى اللهِ بإخلاصٍ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٢١٠ - ٢١٢).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاري (٥٠٧٣)، ومسلم (١٤٠٢).

مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة: ٥]، والتَّبَتُّلُ المَنهيُّ عنه: سُلوكُ مَسلَكَ النَّصارى في تَرْكِ النِّكاحِ، والتَّرَهُّبِ في الصَّوامِعِ، لكِنْ عندَ فَسادِ الزَّمانِ يكونُ خَيرُ مالِ المسلِمِ غَنَمًا يَتْبَعُ بها شَعَفَ الجِبالِ ومواقِعَ القَطْرِ، يَفِرُّ بدينِه مِنَ الفِتَنِ(١).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ جاء المشرِقُ والمغرِبُ في القرآنِ: تارةً مجموعَينِ، وتارةً مُثَنَّيَينِ، وتارةً مُفرَدينِ؛ ووجْهُ ذلك: اختِصاصُ كلِّ مَحَلٍّ بما يَقتضيه مِن ذلك؛ فالأوَّلُ: كقَولِه تبارك وتعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، والثَّاني: كقَولِه: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٧، ١٨]، والثَّالثُ: كقولِه هنا: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾، فتأمَّلْ هذه الحِكمةَ البالغةَ في تغايُرِ هذه المواضعِ في الإفرادِ والجَمعِ والتَّثنيةِ بحسَبِ مَوارِدِها، يُطْلِعْك على عظَمةِ القرآنِ الكريمِ وجلالتِه، وأنَّه تنزيلٌ مِن حكيمٍ حميدٍ؛ فحيثُ جُمِعَتْ كان المرادُ بها مَشارِقَ الشَّمسِ ومَغارِبَها في أيَّامِ السَّنةِ، وهي متعدِّدةٌ، وحيثُ أُفْرِدَتْ كان المرادُ أُفُقَيِ المشرقِ والمغربِ، وحيثُ ثُنِّيَا كان المرادُ مَشرِقَيْ صُعودِها وهبوطِها ومَغْرِبَيْهِما؛ فإنَّها تَبتَدِئُ صاعِدةً حتَّى تنتهيَ إلى غايةِ أَوْجِها وارتفاعِها؛ فهذا مَشْرِقُ صُعودِها، ويَنْشَأُ منه فَصْلَا الخريفِ والشِّتاءِ؛ فجَعَلَ مَشْرِقَ صُعودِها بجُملتِه مَشرِقًا واحدًا، ومَشرِقَ هبوطِها بجُملتِه مَشرِقًا واحدًا، ويُقابِلُها مَغْرِباها، فهذا وجهُ اختلافِ هذه في الإفرادِ والتَّثنيةِ والجَمعِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٤)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٤٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٦).

ويُنظر ما أخرجه البخاري (١٩) من حديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٢١).

وقيل غيرُ ذلك، يُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ الآية (٤٠) من سورةِ المعارجِ، وتفسيرِ الآيةِ (١٧) مِن سورةِ الرَّحمنِ.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾

- هذا الافتِتاحُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ يدُلُّ على الاعتناءِ بما سيُلْقَى؛ لأنَّ افتِتاحَ الكلامِ بالنِّداءِ إذا كان المُخاطَبُ واحدًا ولم يكُنْ بَعيدًا، يدُلُّ على الاعتِناءِ بما سيُلْقَى إلى المُخاطَبِ مِن كَلامٍ[1].

- والأصلُ في النِّداءِ أنْ يكونَ باسمِ المُنادَى العَلَمِ إذا كان مَعروفًا عندَ المُتكلِّمِ، فلا يُعدَلُ مِن الاسمِ العَلَمِ إلى غيرِه مِن وصْفٍ أو إضافةٍ إلَّا لغرَضٍ يَقصِدُه البُلغاءُ؛ فنِداءُ النبيِّ بـ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ نِداءُ تَلطُّفٍ وتأْنيسٍ وارتفاقٍ، ومِثلُه قولهُ تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾[2] [المدثر: ١]. أو نِداؤه بالمُزمِّلِ وغيرِ ذلك مِن صِفاتِه تَشريفًا له وإكرامًا؛ إذ لم يُنادِه اللهُ تعالَى باسمِه[3]. وقيل غير ذلك[4].

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ قيل: معْناه يا أيُّها الَّذي زُمِّلَ أمْرًا عظيمًا هُو أمرُ النُّبوَّةِ، أي: حُمِّلَه، فالتَّعرُّضُ للوَصْفِ حِينَئذٍ للإشعارِ بعِلِّيَّتِه للقِيامِ أو للأمْرِ به؛ فإنَّ تَحميلَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأعباءِ النُّبوَّةِ ممَّا يُوجِبُ الاجتهادَ في العبادةِ. ويَكونُ قولُه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ مع قولِه: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ [المزمل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٥، ٢٥٦).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٦٣٤)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٦/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٥).

٧]؛ تَحريضًا على استِفراغِ النَّبيِّ جُهْدَه في القِيامِ بأمْرِ التَّبليغِ في جَميعِ الأزمانِ مِن لَيلٍ ونَهارٍ إلَّا قَليلًا مِن اللَّيلِ، وهو ما يُضطَرُّ إليه مِن الهُجوعِ فيه(١).

- وفِعلُ (قُم) مُنزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ، فلا يَحتاجُ إلى تَقديرِ مُتعلَّقٍ؛ لأنَّ القِيامَ مُرادٌ به الصَّلاةُ(٢).

- قولُه: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ استِثناءٌ مِن اللَّيلِ، أي: إلَّا قَليلًا منه، فلمْ يَتعلَّقْ إيجابُ القِيامِ عليه بأوقاتِ اللَّيلِ كلِّها، و﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ بدَلٌ مِن ﴿قَلِيلًا﴾ بدَلًا مُطابِقًا، وهو تَبيينٌ لإجمالِ ﴿قَلِيلًا﴾، فجُعِلَ القليلُ هنا النِّصفَ أو أقلَّ منه بقَليلٍ. وفائدةُ هذا الإجمالِ الإيماءُ إلى أنَّ الأَولى أنْ يكونَ القيامُ أكثَرَ مِن مُدَّةِ نِصفِ اللَّيلِ، وأنَّ جَعْلَه نِصفَ اللَّيلِ رَحمةٌ ورُخصةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويدُلُّ لذلك تَعقيبُه بقولِه: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾، أي: انقُصْ مِن النِّصفِ قَليلًا، فيَكونُ زمَنُ قِيامِ اللَّيلِ أقَلَّ مِن نِصفِه، وهو حينَئذٍ قليلٌ، فهو رُخصةٌ في الرُّخصةِ(٣).

- وفي إبدال ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾ مِن ﴿قَلِيلًا﴾ إشارةً إلى أنَّ ما نامَ فيه مِن اللَّيلِ وإنْ كان نِصفًا منه، فهو بالإضافةِ إلى النِّصفِ القائمِ قَليلٌ؛ لأنَّ النِّصفَ القائمَ يُضاعَفُ إلى العشَرةِ، والنِّصفَ النَّائمَ لاستِراحةِ النَّفْسِ، وإنْ كان لا يَخْلو مِن أنْ يَدخُلَ في العِبادةِ، مِن حيث إنَّه استعدادٌ لها، ويدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]. ويُمكِنُ أنْ يُقالَ: القِلَّةُ في الحَقيقةِ صِفةٌ للحاصلِ في النِّصفِ، ثمَّ اعتُبِرَت صِفةً للنِّصفِ، كقَولِهم: نَهارُه صائمٌ ولَيلُه قائمٌ؛ فعلى هذا: النِّصفُ النَّائمُ قليلٌ بالإضافةِ إلى النِّصفِ القائمِ، بالنَّظَرِ إلى ما في كلِّ واحدٍ منهما، أي: مِن الثَّوابِ؛ فجُعِلَ القليلُ مُبدَلًا منه، والنِّصفُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩).

بدَلًا؛ تَنبيهًا على هذا المعْنى الدَّقيق. وأمَّا التَّخييرُ فليُعْلَمَ أنَّ هذا ليس ممَّا لا يَزيدُ ولا يَنقُصُ، بلْ ممَّا يَحتمِلُ الزِّيادةَ والنُّقصانَ، أي: ذِكرَ النِّصفِ أوَّلًا، فلو اقتُصِرَ عليه ظُنَّ أنَّ الزِّيادةَ والنُّقصانَ لا يَتطرَّقانِ إليه، كرَكَعاتِ الصَّلاةِ المفروضةِ، وكأوقاتِ الصَّلاةِ، وكالحُدودِ، ولأنَّ في ترْكِ التَّخييرِ تَعسيرًا، وفي وُجودِه تَيسيرًا.

ويحتملُ أن يكونَ ﴿نِّصۡفَهُۥٓ﴾ بدَلًا مِن ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، كما تقولُ: ضرَبْتُ زَيدًا رأْسَه؛ فإنَّما ذكَرْتَ (زيدًا) لتَوكيدِ الكلامِ، فهو أوكَدُ مِن قولِك: ضَرَبْتُ رأْسَ زَيدٍ، فالمعْنى: قُمْ نِصفَ اللَّيلِ إلَّا قليلًا، أو انقُصْ مِن النِّصفِ، أو زِدْ على النِّصفِ كَثيرًا، أو انقُصْ منه قليلًا؛ كُرِّرَ ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾؛ ليُؤذِنَ بأنَّ الأوَّلَ عَزيمةٌ، والثَّانيَ رُخصةٌ، كما تقولُ: جالِسِ الحسَنَ أو ابنَ سِيرينَ، تُريدُ أنَّ مُجالَسةَ الحسَنِ لا بُدَّ منها، فإنْ لَزِمَتْك ضَرورةً فأنتَ بالخيارِ بيْن مُجالَسَتِه ومُجالَسةِ ابنِ سِيرينَ[1]. والتَّعبيرُ عن النِّصفِ المُخرَجِ بالقَليلِ لإظهارِ كَمالِ الاعتِدادِ بشَأنِ الجُزءِ المُقارِنِ للقيامِ، والإيذانِ بفَضْلِه، وكَونِ القِيامِ فيهِ بمَنزلةِ القِيامِ في أكثَرِه في كَثرةِ الثَّوابِ، واعتبارُ قِلَّتِه بالنِّسبةِ إلى الكُلِّ -مع عَرائِه عن الفائدةِ- خِلافُ الظَّاهرِ[2].

- قولُه: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ عَودٌ إلى التَّرغيبِ في أنْ تكونَ مُدَّةُ القِيامِ أكثَرَ مِن نِصفِ اللَّيلِ؛ ولذلك لم يُقيَّدْ ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ بمِثلِ ما قُيِّدَ به ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾؛ لتَكونَ الزِّيادةُ على النِّصفِ مُتَّسِعةً، والتَّخييرُ المُستفادُ مِن حرْفِ (أوْ) مَنظورٌ فيه إلى تَفاوُتِ اللَّيالي بالطُّولِ والقِصَرِ؛ لأنَّ لذلك ارتباطًا بسَعةِ النَّهارِ للعمَلِ،

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٨٣، ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٤٩).

ولأخْذِ الحظِّ الفائتِ مِن النَّوم، وبعْدُ فذلك تَوسيعٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لرفْعِ حرَجِ تَحديدِه لزمَنِ القِيامِ، فسُلِكَ به مَسلَكَ التَّقريبِ[١].

- قولُه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ فيه تأكيدُ الأمرِ بالتَّرتيلِ بالمفعولِ المُطلَقِ؛ لإفادةِ تَحقيقِ صِفةِ التَّرتيلِ؛ فقولُه: ﴿تَرْتِيلًا﴾ تَأكيدٌ على أنَّه ممَّا لا بُدَّ منه للقارئِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ تَعليلٌ للأمرِ بقِيامِ اللَّيلِ، وَقَعَ اعتراضًا بيْنَ جُملةِ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢] وجُملةِ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ [المزمل: ٦]، وهو جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا لحِكمةِ الأمرِ بقِيامِ اللَّيلِ بأنَّها تَهيئةُ نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليَحمِلَ شِدَّةَ الوحْيِ؛ فإنَّ التَّهجُّدَ يُعِدُّ للنَّفْسِ ما به تُعالِجُ ثِقَلَه، وفي هذا إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ يسَّرَ عليه ذلك، كما قال تعالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٧]، ويدُلُّ على أنَّ التَّهجُّدَ شاقٌّ، مُضادٌّ للطَّبْعِ، مُخالِفٌ للنَّفْسِ، فتلك مُناسَبةُ وُقوعِ هذه الجُملةِ عقِبَ جُملةِ ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٢]؛ فهذا إشعارٌ بأنَّ نُزولَ هذه الآيةِ كان في أوَّلِ عهْدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنُزولِ القرآنِ، فلمَّا قال له: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤] أعقَبَ ببَيانِ عِلَّةِ الأمرِ بتَرتيلِ القرآنِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ وُصِفَ القُرآنُ بالثِّقَلِ؛ قيل: لثِقَلِه بنُزولِ الوحْيِ على نَبيِّه، حتَّى كان يَعرَقُ في اليَومِ الشَّاتي، أو لثِقَلِ العمَلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٧، ٦٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦١).

بما فيهِ، أو لِثِقَلِه في الميزانِ، أو لِثِقَلِه على المنافِقين والكافِرين، أو رَصينٌ لرَزانةِ لفْظِهِ ومَتانةِ معناهُ، أو ثَقيلٌ على المُتأمِّلِ فيهِ؛ لافتِقارِه إلى مَزيدِ تَصفيةٍ للسِّرِّ، وتَجْريدٍ للنَّظرِ[١]. وقيل: وَصْفُ القُرآنِ بالثِّقلِ كِنايةٌ عن بَقائِه على وَجْهِ الدَّهرِ؛ لأنَّ الثَّقيلَ مِن شأْنِه أنْ يَبْقى في مَكانِه[٢].

- وأشعَرَ قولُه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ أنَّ ثِقَلَه مُتعلِّقٌ ابتداءً بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه مُتحمِّلُه بنفْسِه، ومُحمِّلُه أُمَّتَه، فهو أثقَلُ عليه، وأبهَظُ له[٣].

- وتَأكيدُ هذا الخبَرِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ به، وإشعارِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتَأكيدِ قُرْبِه واستِمرارِه؛ ليكونَ وُرودُه أسهَلَ عليه مِن وُرودِ الأمْرِ المُفاجِئِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ الَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ تَعليلٌ لتَخصيصِ زمَنِ اللَّيلِ بالقِيامِ فيه؛ فهي مُرتبِطةٌ بجُملةِ ﴿قُمِ الَّيْلَ﴾ [المزمل: ٢]، أي: قُمِ اللَّيلَ لأنَّ ناشئتَه أشَدُّ وطْأً وأقوَمُ قِيلًا[٥].

- و﴿نَاشِئَةَ﴾ وصْفٌ مِن النَّشْءِ، وهو الحُدوثُ. وقدْ جَرى هذا الوصفُ هنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٤).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦١).

على غَيرِ مَوصوفٍ، وأُضِيفَ إلى اللَّيلِ إضافةً على معْنى (في)، مِثْلُ مَكرِ اللَّيلِ، وجُعِلَ مِن أقومِ القِيلِ، فعُلِمَ أنَّ فيه قَولًا، وقدْ سَبَقَه الأمرُ بقِيامِ اللَّيلِ وتَرتيلِ القرآنِ؛ فتَعيَّنَ أنَّ مَوصوفَه المَحذوفَ هو صَلاةٌ، أي: الصَّلاةُ الناشئةُ في اللَّيلِ؛ فإنَّ الصَّلاةَ تَشتمِلُ على أفعالٍ وأقوالٍ، وهي قِيامٌ[١].

- ووَصْفُ الصَّلاةِ بالنَّاشئةِ؛ لأنَّها أنْشَأَها المُصلِّي، فنَشَأَت بعْدَ هَدْأةِ اللَّيلِ، فأشْبَهَت السَّحابةَ الَّتي تَنشَأُ مِن الأُفقِ بعْدَ صَحْوٍ، وإذا كانت الصَّلاةُ بعْدَ نَومٍ، فمعْنى النَّشْءِ فيها أقْوى، وإيثارُ لَفظِ ﴿نَاشِئَةَ﴾ في هذهِ الآيةِ دونَ غيرِه مِن نحْوِ: قِيامٍ أو تَهجُّدٍ؛ مِن أجْلِ ما يَحتمِلُه مِن المعاني؛ ليَأخُذَ النَّاسُ فيه بالاجتهادِ[٢].

- وضَميرُ الفصْلِ (هِيَ) في قولِه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا﴾ لتَقويةِ الحُكْمِ، لا للحصْرِ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ فصْلُ هذه الجُملةِ دونَ عطْفٍ على ما قبْلَها يَقْتضي أنَّ مَضمونَها ليس مِن جِنسِ حُكْمِ ما قبْلَها، فليس المقصودُ تَعيينَ صَلاةِ النَّهارِ؛ إذ لم تكُنِ الصَّلواتُ الخَمسُ قدْ فُرِضَت يَومَئذٍ -على المشهورِ-، ولم يُفرَضْ حينَئذٍ إلَّا قِيامُ اللَّيلِ، فالَّذي يَبْدو أنَّ مَوقعَ هذه الجُملةِ مَوقعُ العِلَّةِ لشَيءٍ ممَّا في جُملةِ ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦]، وذلك دائرٌ بيْن أنْ يكونَ تَعليلًا لاختيارِ اللَّيلِ لفرْضِ القيامِ عليه فيه، فيُفيدُ تَأكيدًا للمُحافَظةِ على قِيامِ اللَّيلِ؛ لأنَّ النَّهارَ لا يُغني غَناءَهُ، فيَتحصَّلُ مِن المعْنى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٦٣).

قُمِ اللَّيلَ؛ لأنَّ قِيامَه أشدُّ وقْعًا وأرسَخُ قَولًا؛ لأنَّ النَّهارَ زمَنٌ فيه شُغلٌ عَظيمٌ، لا يَترُكُ لك خَلوةً بنفْسِك، وشُغلُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النَّهارِ بالدَّعوةِ إلى اللهِ، وإبلاغِ القرآنِ، وتَعليمِ الدِّينِ، ومُحاجَّةِ المشرِكين، وافتقادِ المؤمنينَ المُستضعَفين؛ فعُبِّرَ عن جَميعِ ذلك بالسَّبْحِ الطَّويلِ. وبيْن أنْ يكونَ تلطُّفًا واعتذارًا عن تَكليفِه بقِيامِ اللَّيلِ، ويجوزُ أنْ يكونَ تَعليلًا لِما تَضمَّنَه ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ٣]، أي: إنْ نَقَصْتَ مِن نِصفِ اللَّيلِ شيئًا لا يَفُتْك ثَوابُ عَمَلِه؛ فإنَّ لك في النَّهارِ مُتَّسعًا للقيامِ والتِّلاوةِ. ويَظهَرُ أنْ يكونَ كلُّ هذا مَقصودًا؛ لأنَّه ممَّا تَسمَحُ به دَلالةُ كَلمةِ ﴿سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾، وهي مِن بَليغِ الإيجازِ[1].

- والسَّبْحُ مُعبَّرٌ به عن التَّصرُّفِ السَّهلِ المتَّسَعِ الَّذي يُشبِهُ حَرَكةَ السَّابحِ في الماءِ؛ فإنَّه لا يَعترِضُه ما يَعوقُ جَوَلانَه على وجْهِ الماءِ، ولا إعياءُ السَّيرِ في الأرضِ[2].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ عطْفٌ على قوله: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ﴾ [المزمل: ٢]، وقُصِدَ بإطلاقِ الأمرِ عن تَعيينِ زَمانٍ إلى إفادةِ تَعميمِه، أي: اذكُرِ اسمَ ربِّك في اللَّيلِ وفي النَّهارِ[3].

- قولُه: ﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ﴾ التَّبتُّلُ: شِدَّةُ البَتْلِ، وهو مَصدَرُ (تَبتَّلَ) القاصرِ الَّذي هو مُطاوِعُ (بَتَلَه فتَبتَّلَ)، وهو هنا للمُطاوَعةِ الَّتي يُقصَدُ مِن صِيغتِها المُبالَغةُ في حُصولِ الفِعلِ، حتَّى كأنَّه فَعَلَه غيرُه به، فطاوَعَه، والتَّبتُّلُ: الانقطاعُ، قيل: هو هنا بمعْنى تَفرُّغِ البالِ والفِكرِ إلى ما يُرْضي اللهَ، فكأنَّه انقَطَعَ عن النَّاسِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٣، ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٥).

وانحازَ إلى جانبِ اللهِ، فعُدِّي بـ (إلى) الدَّالَّةِ على الانتهاءِ[١].

- وفي قَولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلٗا﴾ جاء مصدرُ «تَبَتَّلَ» «تبَتُّلًا» -كالتَّعَلُّمِ والتَّفَهُّمِ- على التَّفعيلِ مَصْدَرِ «فَعَّلَ»؛ لِسِرٍّ لطيفٍ؛ فإنَّ في هذا الفعلِ إيذانًا بالتَّدريجِ والتَّكَلُّفِ والتَّعَمُّلِ والتَّكَثُّرِ والمُبالَغةِ، فأتَى بالفعلِ الدَّالِّ على أحدِهما، وبالمصدرِ الدَّالِّ على الآخَرِ، فكأنَّه قيل: «بَتِّلْ نفْسَك إلى اللهِ تبتيلًا، وتَبَتَّلَ إليه تبَتُّلًا»، ففُهِمَ المعنيان مِن الفعلِ ومَصدَرِه، وهذا كثيرٌ في القرآنِ، وهو مِن أحسنِ الاختِصارِ والإيجازِ[٢].

أو بعبارةٍ أخرى: لَمَّا كان معْنى «تَبَتَّلْ إليه»: انقطِعْ إليه، أُقيمَ التَّبتيلُ مُقامَه، وأُكِّد ليَدُلَّ على أنَّ ذلك الانقطاعَ إلى الرَّبِّ لا يَحصُلُ إلَّا بتَكرارِ التَّبتُّلِ؛ فالتَّبتيلُ يدُلُّ على حُصولِ الشِّدَّةِ، والتَّبتُّلُ على التَّكرارِ؛ لأنَّ التَّفعيلَ لتَكثيرِ الفعلِ[٣].

وقيل: قولُه: ﴿تَبۡتِيلٗا﴾ التَّبتيلُ: مَصدَرُ (بتَّل) المُشدَّدِ الَّذي هو فِعلٌ مُتعَدٍّ، مِثلُ التَّقطيعِ، وجِيءَ بهذا المصدرِ عِوَضًا عن (التَّبتُّل)؛ للإشارةِ إلى أنَّ حُصولَ التَّبتُّلِ -أي: الانقطاعِ- يَقْتضي التَّبتيلَ -أي: القطْعَ-، ولَمَّا كان التَّبتيلُ قائمًا بالمُتبتِّلِ، تعيَّنَ أنَّ تَبتيلَه قَطْعُه نفْسَه عن غَيرِ مَن تَبَتَّلَ هو إليه، فالمقطوعُ عنه هنا هو مَن عَدا الله تعالَى، فالجمْعُ بيْن (تَبَتَّلْ) و﴿تَبۡتِيلٗا﴾ مُشيرٌ إلى إراضةِ النَّفْسِ على ذلك التَّبتُّلِ، مع ما فيهِ مِن رِعايةِ الفواصلِ[٤].

- ولَمَّا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قبْلُ غيرَ غافلٍ عن هذا الانقطاعِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٦).

بإرشادٍ مِن اللهِ، كما أَلْهَمَه التَّحنُّثَ في غارِ حِراءٍ، ثمَّ بما أفاضَهُ عليه مِن الوحْيِ والرِّسالةِ؛ فالأمرُ في قولِه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ﴾ مُرادٌ به الدَّوامُ على ذلك؛ فإنَّه قدْ كان يَذكُرُ اللهَ فيما قبْلُ[1].

٦- قولُه تعالَى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾

- قدْ وُصِفَ اللهُ تعالَى بأنَّه رَبُّ المشرقِ والمَغربِ؛ لمُناسَبةِ الأمْرِ بذِكرِه في اللَّيلِ وذِكرِه في النَّهارِ، وهما وَقْتا ابتداءِ غِيابِ الشَّمسِ وطُلوعِها، وذلك يُشعِرُ بامتدادِ كلِّ زمانٍ منهما إلى أنْ يَأتِيَ ضِدُّه، فيَصِحُّ أنْ يكونَ المشرقُ والمغربُ جِهتَيِ الشُّروقِ والغروبِ، فيكونَ لاستِيعابِ جِهاتِ الأرضِ، أي: ربُّ جَميعِ العالَمِ، وذلك يُشعِرُ بوَقتَيِ الشُّروقِ والغروبِ، ويَصِحُّ أنْ يُرادَ بهما وَقْتا الشُّروقِ والغروبِ، أي: مَبدَأُ ذَينِك الوقتينِ ومُنْتهاهما، كما يُقالُ: سَبِّحوا للهِ كلَّ مَشرِقِ شمْسٍ، وكما يُقالُ: صَلاةُ المغرِبِ[2].

- وعُقِّبَ وَصْفُ اللهِ سُبحانَه بأنَّه ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ بالإخبارِ عنه أو بوَصْفِه بأنَّه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾؛ لأنَّ تَفرُّدَه بالإلهيَّةِ بمَنزلةِ النَّتيجةِ لرُبوبيَّةِ المَشرقِ والمغربِ، فلمَّا كانتْ رُبوبيَّتُه للعالَمِ لا يُنازِعُ فيها المشرِكون، أُعقِبَت بما يَقْتضي إبطالَ دَعوى المشرِكين تَعدُّدَ الآلهةِ بقولِه: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، تَعريضًا بهم في أثناءِ الكلامِ وإنْ كان الكلامُ مَسوقًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ولذلك فُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾، وإذ كان الأمرُ باتِّخاذِه وَكيلًا مُسبَّبًا عن كونِهِ ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، كان ذلك في قُوَّةِ النَّهيِ عن اتِّخاذِ وَكيلٍ غيرِه؛ إذ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٦٧).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٤).

ليس غيرُه بأهلٍ لاتِّخاذِه وَكيلًا؛ فهو وَحْدَه الَّذي يَجِبُ -لتَوحُّدِه بالرُّبوبيَّةِ- أنْ تُوكَلَ إليه الأُمورُ[1].

- وفي قولِه: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ أمَرَه اللهُ بألَّا يَعتمِدَ إلَّا عليه، وهذا تَكفُّلٌ بالنَّصرِ؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[2] [المزمل: ١٠].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٧).

## الآيات (١٠-١٤)

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ١٢ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ١٣ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ١٤﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَذَرۡنِي﴾: أي: دَعْني، بوَزْنِ وَدَعَ الشَّيءَ يَدَعُه وَدْعًا، ومَعْناه، والمُضارِعُ منه: يَذَرُ، والأمْرُ منه: ذَرْ، ولم يَرِدْ في اللُّغةِ اسْتِعْمالُ ماضِيه ولا مَصْدَرِه[1].

﴿ٱلنَّعۡمَةِ﴾: أي: الغِنى، وكَثرةِ الأموالِ، وحُسْنِ العَيْشِ، ولِينِه ورَغَدِه، والنِّعْمةُ -بكَسرِ النُّونِ- أعمُّ مِن هذا؛ لأنَّها بمعنى المِنَّةِ والعَطاءِ، فالنَّعْمةُ -بالفَتحِ- هي مِن جُملةِ النِّعْمةِ -بالكَسرِ-، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيشٍ وصلاحٍ[2].

﴿أَنكَالٗا﴾: أي: قُيودًا وأغلالًا، وأصلُ (نكل): يدُلُّ على مَنعٍ، وأصلُ ذلك النِّكْلُ: القيْدُ؛ لأنَّه يَنْكُلُ: أيْ: يَمْنَعُ[3].

﴿وَجَحِيمٗا﴾: أي: نارًا، والجُحْمةُ: شِدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، والجاحِمُ: المكانُ الشَّديدُ الحرِّ، وبذلك سُمِّيت الجحيمُ، وأصْلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٦٠)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٩/ ٣٦٨).

(٢) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ١٠٩) و(٢٢/ ٣٧١)، ((تفسير البغوي)) (٧/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٦/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((مجمل اللغة)) لابن فارس (ص: ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

﴿غُصَّةٍ﴾: أي: لا يَسُوغُ في الحَلْقِ، والغُصَّةُ: ما يَغَصُّ به الإنسانُ، و(غصص): أصلٌ ليس فيه إلَّا الغَصَصُ بالطَّعامِ[1].

﴿تَرْجُفُ﴾: أي: تَتزَلْزَلُ وتَتحَرَّكُ وتَضْطَرِبُ بمَنْ عليها، والرَّجفةُ: حَرَكةُ الأرضِ، أو الزَّلزلةُ الشَّديدةُ، والرَّجْفُ: الاضْطِرابُ الشَّديدُ، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على اضطرابٍ[2].

﴿كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾: أي: رَمْلًا سائِلًا مَنثورًا، والكَثيبُ: القِطعةُ العَظيمةُ مِنَ الرَّملِ، وسُمِّيَ الكثيبُ كَثيبًا؛ لأنَّ تُرابَه دُقاقٌ، كأنَّه مكثوبٌ مَنثورٌ بَعضُه على بَعضٍ لرَخاوتِه. والمهيلُ: السَّائلُ الذي قد سُيِّلَ، وهو اسمُ مفعولٍ مِن هالَ الشَّيءَ هَيلًا: إذا نَثَره وصبَّه، يُقالُ: تُرابٌ مَهيلٌ، أي: مَصْبوبٌ مُسيَّلٌ، ويُقالُ: أهَلْتُ الرَّملَ: إذا حرَّكْتَ أسفَلَه حتَّى انهالَ مِن أعلاه، وأصلُ (كثب): يدُلُّ على تجمُّعٍ وعلى قُربٍ، وأصلُ (هيل): يدُلُّ على دَفْعِ شيءٍ[3].

## المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ على أذى قَومِه، وهَجرِهم،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

ومَهيلٌ أصلُه مَهْيُولٌ، اسْتُثْقِلَت الضَّمَّةُ على الياءِ، فنُقِلَتْ إلى السَّاكِنِ قبْلَها، فالْتَقَى ساكِنانِ، فحُذِفَت الواوُ؛ لأنَّها زائِدةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

فيقولُ: واصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يَقولُه مُشرِكو قَومِك؛ مِن التَّكذيبِ والاستِهزاءِ بك، واهجُرْهم هَجْرًا جميلًا لا عِتابَ معه ولا أذى.

ثمَّ يقولُ تعالى متوعِّدًا ومهدِّدًا الكافِرين: ودَعْني -يا مُحمَّدُ- والمكَذِّبينَ بالحَقِّ أهلَ التَّنَعُّمِ والتَّرَفُّهِ في الدُّنيا، ولا تهتَمَّ بهم، وأمهِلْهم وَقتًا قليلًا.

ثمَّ يَذكُرُ سُبحانَه ما عندَه مِن العِقابِ، فيقولُ: إنَّ عِندَنا في الآخِرةِ لهم قُيودًا وأغلالًا، ونارًا حاميةً، وطعامًا غَيرَ سائغٍ، وعَذابًا مُؤلِمًا؛ يومَ تتزَلْزَلُ الأرضُ والجِبالُ، وتصيرُ الجِبالُ رَمْلًا سائِلًا مُتناثِرًا!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ مُهِمَّاتِ العِبادِ مَحصورةٌ في أمْرَينِ: كيفيَّةِ معامَلتِهم مع الله، وكيفيَّةِ مُعاملتِهم مع الخَلْقِ، والأوَّلُ أهَمُّ مِنَ الثَّاني، فلمَّا ذكَرَ تعالى في أوَّلِ هذه السُّورةِ ما يتعلَّقُ بالقِسمِ الأوَّلِ؛ أتْبَعَه بما يتعَلَّقُ بالقِسمِ الثَّاني[1].

وأيضًا لَمَّا أمَرَ اللهُ نبيَّه عليه السَّلامُ بالصَّلاةِ خُصوصًا، وبالذِّكرِ عُمومًا، وبذلك يحصلُ للعبدِ مَلَكةٌ قَوِيَّةٌ في تحمُّلِ الأثقالِ، وفِعلِ الثَّقيلِ مِن الأعمالِ- أمَرَه بالصَّبرِ على ما يقولُ فيه المعانِدونَ له ويسُبُّونَه ويَسُبُّونَ ما جاء به، وأن يَمضيَ على أمرِ اللهِ، لا يَصُدُّه عنه صادٌّ، ولا يرُدُّه رادٌّ، وأن يَهجُرَهم هَجرًا جميلًا[2].

وأيضًا فهو عطْفٌ على قولِه: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]، والمُناسَبةُ أنَّ الصَّبرَ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

على الأذَى يُستعانُ عليه بالتَّوكُّلِ على الله[١].

وأيضًا لَمَّا كانت الوكالةُ لا تكونُ إلَّا فيما يُعجِزُ، وكان الأمرُ بها مشيرًا إلى أنَّه لا بدَّ أن يكونَ عن هذا القَولِ الثَّقيلِ خُطوبٌ طِوالٌ، وزلازِلُ وأهوالٌ؛ قال[٢]:

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾.

أي: واصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يقولُه مُشرِكو قَومِك؛ مِن التَّكذيبِ أو الاستِهزاءِ بك[٣].

﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾.

## النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

هذه الآيةُ مُحكَمةٌ غَيرُ مَنسوخةٍ[٤].

وقيل: هي مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ في سورةِ التَّوبةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨).

ويُنظر ما تقدَّم في آخر بلاغةِ الآياتِ السابقةِ (ص: ٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦).

(٤) وممَّن ذهب إلى ذلك: الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((المصفى بأكف أهل الرسوخ)) لابن الجوزي (ص: ٥٨).

قال الرازي: (قال المفسِّرون: هذه الآيةُ إنَّما نزلتْ قبْلَ آيةِ القتالِ، ثمَّ نُسِخَت بالأمرِ بالقتالِ. وقال آخَرونَ: بل ذلك هو الأخْذُ بإذنِ الله فيما يكونُ أدعى إلى القَبولِ، فلا يَرِدُ النَّسخُ في مِثْلِه، وهذا أصَحُّ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩).

(٥) وممَّن ذهب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ حزم، والواحديُّ، وابنُ عطية، وابنُ الفَرَس، ونسَبَ ابنُ الجوزيِّ إلى الأكثَرِ أنَّها منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٦)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٦٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٨)، ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٠١)، ((المصفى =

﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾.

أي: واهجُرْ -يا مُحمَّدُ- قَومَك المُشرِكينَ في ذاتِ اللهِ هَجْرًا جميلًا لا عِتابَ معه ولا أذًى، وأعرِضْ عن الانتِقامِ منهم، فلا تُقابِلْهم بمِثلِ ما يقولونَ ويَفعَلونَ[1].

كما قال تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النساء: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ [النجم: ٢٩].

---

= بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ)) لابن الجوزي (ص: ٥٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣١٨).

ومِن أهلِ العلمِ مَن ذهب إلى أنَّ آيةَ السَّيفِ ناسخةٌ لجميع الآياتِ الَّتي فيها الصَّفحُ والكَفُّ عمَّن لم يقاتِلْ مِن المشركين، ومنهم مَن ذهب إلى أنَّها ليست ناسخةً، ولكنَّ الأحوالَ تختلِفُ؛ فإذا قوِيَ المسلمونَ وصارت لهم السُّلطةُ والقُوَّةُ والهَيبةُ استَعمَلوا آيةَ السَّيفِ وما جاء في معناها وعمِلوا بها، وإذا ضَعُفَ المسلمونَ ولم يَقْوَوا على قتالِ الجميعِ فلا بأسَ أن يُقاتِلوا بحسَبِ قُدرتِهم، ويَكُفُّوا عمَّن كفَّ عنهم إذا لم يَستطيعوا ذلك، فيكونُ الأمرُ إلى وليِّ الأمرِ؛ إن شاء قاتَلَ، وإن شاء كفَّ، وإن شاء قاتلَ قومًا دون قومٍ، على حسَبَ القوَّةِ والقدرةِ والمصلحةِ للمسلمينَ، لا على حسَبِ هواه وشَهوتِه، ولكنْ يَنظُرُ لحالِ المسلمينَ وقوَّتِهم. قال ابن باز: (وهذا القولُ أظهَرُ وأبْيَنُ في الدَّليلِ؛ لأنَّ القاعدةَ الأصوليَّةَ أنَّه لا يُصارُ إلى النَّسخِ إلَّا عندَ تعذُّرِ الجمعِ بيْنَ الأدِلَّةِ، والجمعُ هنا غيرُ متعَذِّرٍ). ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣/ ١٩٤).

وقال الزَّرْكَشيُّ بعدَ أنْ بيَّنَ ضَعفَ القولِ بأنَّ الآيَاتِ الآمِرةَ بالتَّخفيفِ منسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ، وأنَّها ليست كذلك فـ: (كلُّ أمرٍ ورد يجبُ امتِثالُه في وقتٍ ما لعلَّةٍ توجِبُ ذلك الحُكمَ، ثمَّ يُنتقَلُ بانتِقالِ تلك العلَّةِ إلى حُكمٍ آخَرَ، وليس بنَسخٍ، إنَّما النَّسخُ الإزالةُ حتَّى لا يجوزَ امتثالُه أبدًا). ((البرهان في علوم القرآن)) (٢/ ٤٢). ويُنظر: ((الصارم المسلول)) لابن تيمية (ص: ٢٢١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨، ٢٦٩).

﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١ ﴾.

﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ ﴾.

أي: ودَعْني -يا مُحمَّدُ- والمكَذِّبينَ بالحَقِّ ذوي الغِنى والثَّراءِ، وأهلَ التَّنَعُّمِ والتَّرَفُّهِ في الدُّنيا، فاترُكْ شَأنَ عُقوبتِهم إلَيَّ، ولا تهتَمَّ بتَكذيبِهم، ولا تنشَغِلْ بالانتِقامِ منهم[1].

كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعۡجَلۡ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمۡ عَدّٗا ﴾ [مريم: ٨٤].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾.

أي: وانتَظِرْ -يا مُحمَّدُ- وَقتًا قليلًا؛ ليأتيَ مِيعادُ عَذابِهم، وننتَصِرَ لك منهم؛ فلا تَستَعجِلْ عِقابَهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٩).

قال علَمُ الدِّينِ السَّخاويُّ: (وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴾ الآيةَ، قالوا: نُسِخَتْ بآيةِ السَّيفِ. وهذا تهديدٌ ووعيدٌ غيرُ منسوخٍ بها). ((جمال القراء وكمال الإقراء)) (٢/ ٨٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٠).

قال الرازي: (﴿ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحدُهما: المرادُ مِن القليلِ: الحياةُ الدُّنيا. والثَّاني: المرادُ مِن القليلِ: تلك المدَّةُ القليلةُ الباقيةُ إلى يومِ بَدرٍ؛ فإنَّ اللهَ أهلكهم في ذلك اليومِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٣، ٢٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: إنَّ عِندَنا في الآخِرةِ للمُكَذِّبينَ بآياتِنا قُيودًا وأغلالًا ثقيلةً، ونارًا حاميةً شديدةَ الاتِّقادِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴾[إبراهيم: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [سبأ: ٣٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ [الإنسان: ٤].

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾﴾.

---

= وقال البِقاعي: (﴿قَلِيلًا﴾ أي: مِنَ الزَّمانِ، والإمهالُ: إلى مَوتِهم، أو الإيقاعِ بهم قَبْلَه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٢، ٣٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أتَمَّ ما يُقابِلُ تَكذيبَهم؛ أتْبَعَه ما يقابِلُ النِّعمةَ، فقال[١]:

﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾.

أي: وعِندَنا لهم طعامٌ غَيرُ سائغٍ، يَعلَقُ في حَلْقِ آكِلِه، فلا يَنزِلُ عنه، ولا يَخرُجُ منه[٢]!

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وعِندَنا لهم عَذابٌ مُؤلِمٌ مُوجِعٌ شَديدٌ[٣].

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى هذا العذابَ؛ ذكَرَ ظَرْفَه[٤].

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾.

أي: ذلك واقِعٌ بهم يومَ تتزَلْزَلُ الأرضُ والجِبالُ وتَضطَرِبُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٦، ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١). =

كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ [الفجر: ٢١].

وقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢].

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾.

أي: وتصيرُ الجِبالُ رَمْلًا مجتَمِعًا مُنصَبًّا رِخْوًا مُتناثِرًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ [المرسلات: ١٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ جَمَع الله سُبحانَه كلَّ ما يُحتاجُ إليه مِن كيفيَّةِ المُعامَلةِ معَ الخَلْقِ في هاتينِ الكَلِمتَينِ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إمَّا أن يكونَ مخالِطًا للنَّاسِ، أو مجانِبًا عنهم؛ فإنْ خالطَهم فلا بدَّ له مِن المصابَرةِ على إيذائِهم وإيحاشِهم، فإنَّه إنْ كان يطمَعُ منهم في الخَيرِ والرَّاحةِ لم يجِدْ، فيَقَعُ في الغُمومِ والأحزانِ، فثَبَت أنَّ مَن أراد مُخالَطةً مع الخَلْقِ فلا بُدَّ له

---

= قال ابنُ عاشور: (المرادُ: الرَّجفُ المتكَرِّرُ المستَمِرُّ، وهو الَّذي يكونُ به انفراطُ أجزاءِ الأرضِ وانحلالُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١-٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

مِن الصَّبرِ الكثيرِ، فأمَّا إن ترَكَ المخالطةَ فذاك هو الهَجرُ الجَميلُ؛ فثَبتَ أنَّه لا بُدَّ لكُلِّ إنسانٍ مِن أحَدِ هذَينِ الأمْرَينِ[١].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ فيه بِشارةٌ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالبقاءِ بعدَ أخْذِهم كما كان، وأنَّه ليس محتاجًا في أمرِهم إلى غيرِ وَكْلِهم إليه سُبحانَه وتعالى بإلقائِهم عن بالِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتفريغِ ظاهِرِه وباطِنِه لِما هو مأمورٌ به مِنَ الله سُبحانَه وتعالى مِن الإقبالِ على اللهِ سُبحانَه؛ ففي الآيةِ أنَّ مَن اشتَغَل بعَدُوِّه وَكَلَه اللهُ إلى نَفْسِه، فكان ذلك كالمانعِ مِن أخْذِ اللهِ له، فإذا توكَّلَ عليه فقد أزال ذلك المانِعَ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾ الهجْرُ الجَميلُ: هو الَّذي يَقتصِرُ صاحبُه على حَقيقةِ الهجْرِ، وهو ترْكُ المُخالَطةِ فلا يَقرِنُها بجَفاءٍ آخَرَ أو أذًى، ولَمَّا كان الهجْرُ يَنشَأُ عن بُغضِ المهجورِ، أو كَراهيةِ أعمالِه؛ كان مُعرَّضًا لأنْ يَتعلَّقَ به أذًى؛ مِن سَبٍّ، أو ضرْبٍ، أو نحْوِ ذلك، فأمَرَ اللهُ رسولَه بهَجْرِ المشرِكين هجْرًا جَميلًا، أي: أنْ يَهجُرَهم ولا يَزيدَ على هَجْرِهم سبًّا أو انتقامًا[٣].

٢- الهجرُ الشَّرعيُّ نَوعانِ:

**الأوَّلُ**: هجرُ تَركٍ، وقد دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾، وقولُه: ﴿وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ﴾ [النساء: ١٤٠]. فهذا يُرادُ به أنَّه لا يَشهَدُ المُنكَراتِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨، ٢٦٩).

لغيرِ حاجةٍ، مثلَ قومٍ يَشرَبونَ الخمرَ يَجلِسُ عندَهم، وقومٍ دَعَوْا إلى وليمةٍ فيها خمرٌ وزَمرٌ لا يُجيبُ دعوتَهم، وأمثال ذلك. بخِلافِ مَن حضَر عندَهم للإنكارِ عليهم، أو حضر بغيرِ اختيارِه. ومِن هذا البابِ: هِجرةُ المسلمِ مِن دارِ الحربِ. فالمقصودُ بهذا أن يَهجُرَ المسلمُ السَّيِّئاتِ، ويَهجُرَ قُرناءَ السُّوءِ الَّذين تَضُرُّه صُحبتُهم، إلَّا لحاجةٍ، أو مصلحةٍ راجحةٍ.

**الثَّاني**: هجرةٌ بمعنى العقوبةِ والتَّعزيرِ على وجهِ التَّأديبِ، وهو هَجْرُ مَن يُظهِرُ المُنكَراتِ، فيُهجَرُ حتَّى يَتوبَ منها، مِثلُ هجرِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابِه الثَّلاثةَ الَّذين خُلِّفوا، وذلك حينَ ظهَر منهم تركُ الجهادِ المُتعيِّنِ عليهم بغيرِ عذرٍ[1].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ جَعْلُهم ذَوي النِّعمةِ للإشارةِ إلى أنَّ قُصارَى حَظِّهم في هذه الحياةِ هي النِّعمةُ -أي: الانطلاقُ في العَيشِ بلا ضيقٍ، والاستِظلالُ بالبيوتِ والجنَّاتِ، والإقبالُ على لَذيذِ الطُّعومِ، ولَذائذِ الانبساطِ إلى النِّساءِ والخمْرِ والمَيسرِ- وهم مُعرِضون عن كَمالاتِ النَّفْسِ، ولَذَّةِ الاهتداءِ والمعرفةِ؛ قال تعالَى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾[2] [الفرقان: ٤٤].

٤- بيَّن الله جلَّ وعلا الأحوالَ الَّتي تصيرُ إليها الجبالُ يومَ القيامةِ في آياتٍ مِن كتابِه:

فبيَّن أنَّه يَنزِعُها مِن أماكِنِها، ويَحمِلُها فيَدُكُّها دَكًّا، وذلك في قولِه: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢١٦).

ويُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٤٤١٨)، ومسلمٌ (٢٧٦٩) من حديث كعبِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٠).

ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۞ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ﴾ [الحاقة: ١٣، ١٤].

ثمَّ بيَّن أنَّه يُسَيِّرُها في الهواءِ بيْن السَّماءِ والأرضِ، وذلك في قولِه تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوۡمَ نُسَيِّرُ ٱلۡجِبَالَ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ بَارِزَةٗ ﴾ الآيةَ [الكهف: ٤٧]، وقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴾ [التكوير: ٣]، وقولِه تعالى: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴾ [النبأ: ٢٠]، وقولِه تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا ۞ وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا ﴾ [الطور: ٩، ١٠].

ثمَّ بيَّن أنَّه يُفتِّتُها ويَدُقُّها، كقولِه: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ﴾ [الواقعة: ٥].

وبيَّن أنَّه يَنسِفُها نَسْفًا في قولِه تعالى: ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا ﴾ [طه: ١٠٥].

ثمَّ بيَّن أنَّه يُصَيِّرُها كالرَّملِ المُتهايلِ، وكالعِهْنِ المَنفوشِ، وذلك في قولِه: ﴿ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا ﴾، وقولِه تعالى: ﴿ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ۞ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴾ [المعارج: ٨، ٩].

ثمَّ بيَّن أنَّها تصيرُ كالهباءِ المُنْبَثِّ، في قولِه: ﴿ وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا ۞ فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا ﴾ [الواقعة: ٥، ٦].

ثمَّ بيَّن أنَّها تصيرُ سَرابًا، وذلك في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا ﴾ [النبأ: ٢٠]، وقد بيَّن في موضعٍ آخَرَ أنَّ السَّرابَ لا شيءَ، وذلك قولُه تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾[1] [النور: ٣٩].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٤/ ٩٧).

- ضَميرُ ﴿يَقُولُونَ﴾ عائدٌ إلى المشركينَ، ولم يَتقدَّمْ له مُعادٌ، فهو مِن الضَّمائرِ الَّتي استُغْنِيَ عن ذِكرِ مُعادِها بأنَّه مَعلومٌ للسَّامِعينَ، ولأنَّه سَيَأتي عَقِبَه قولُه: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: ١١]، فيُبيِّنُ المرادَ مِن الضَّميرِ[١].

- ومُناسَبةُ أمْرِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم بالصَّبرِ هنا: أنَّه قدْ مَضَى في السُّورِ الَّتي نَزَلَت قبْلَ سُورةِ (المُزمِّلِ) مَقالاتُ أذًى مِن المُشركين لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ ففي سُورةِ (العلَقِ) [٩، ١٠]: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾، وفيها: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، وفي سُورةِ (القلَمِ) [٢ - ١٥]: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ إلى قولِه: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾، وقولِه: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ إلى قولِه: ﴿قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ رَدًّا لمَقالاتِهم، وفي سُورةِ المدَّثِّرِ [١١-٢٥] -إنْ كانت نزَلَت قبْلَ سُورةِ المزمِّلِ[٢]- ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ إلى قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾؛ فلذلك أمَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالصَّبرِ على ما يقولونَ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ مِن بابِ الكِنايةِ، قَريبٌ مِن نحْوِ قولِك: لا أَرَيَنَّك هاهنا، يعني: أنَّه تعالَى أنْهَى إلى رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه طَلَبَ منْعَه أنْ يُوقِعَ بالمُكذِّبين، وأنَّه صَلواتُ اللهِ عليه ما طَلَبَ المنْعَ، بلْ شُوهِدَ منه ما نُزِّلَ مَنزِلةَ المنْعِ؛ مِن تَرْكِ الاستكفاءِ، وتَفويضِ الأمْرِ إليه تعالَى، المعْنى: ما لَكَ لا تَستكْفِينِيه، ولا تُفوِّضُ أمْرَك إلَيَّ حتَّى أستَكْفِيَكَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٨).

وأنْتقِمَ لكَ منه؟ ويَجوزُ أنْ يكونَ مِن بابِ التَّهييجِ والالتِفاتِ[١].

- والمُكذِّبون همْ مَن عَناهم بضَميرِ ﴿يَقُولُونَ﴾ ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ﴾ [المزمل: ١٠]، وهم المُكذِّبون للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ مكَّةَ؛ فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لإفادةِ أنَّ التَّكذيبَ هو سَببُ هذا التَّهديدِ[٢].

- ووَصَفَ المُكذِّبين بوَصْفِ ﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ تَوبيخًا لهم بأنَّهم كذَّبوا لغُرورِهم وبَطَرِهم بسَعةِ حالِهم، وتَهديدًا لهم بأنَّ الَّذي قال: (ذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ) سيُزيلُ عنهم ذلك التَّنعُّمَ. وفي هذا الوصْفِ تَعريضٌ بالتَّهكُّمِ؛ لأنَّهم كانوا يَعُدُّون سَعةَ العيشِ ووَفرةَ المالِ كَمالًا، وكانوا يُعيِّرون الَّذين آمَنوا بالخَصاصةِ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ﴾ الآياتِ [المطففين: ٢٩، ٣٠]، وقال تعالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾[٣] [محمد: ١٢].

- قولُه: ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ وَعيدٌ لهم بسُرعةِ الانتقامِ منهم[٤]. وهو مُترتِّبٌ في المعْنى على قولِه: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾، أي: وانتظِرْ أنْ نَنتصِرَ لك. و﴿قَلِيلًا﴾ وصْفٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ، أي: تَمهيلًا قليلًا[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا * وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ تَعليلٌ لجُملةِ ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل: ١١]، أي: لأنَّ لَدَيْنا ما هو أشدُّ عليهم مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٠).

رَدِّك عليهم، وهذا التَّعليلُ أفادَ تَهديدَهم بأنَّ هذه النِّقَمَ أُعِدَّت لهم؛ لأنَّها لَمَّا كانتْ مِن خَزائنِ نِقمةِ اللهِ تعالَى كانتْ بحيثُ يَضَعُها اللهُ في المواضِعِ المُستأْهِلةِ لها، وهمُ الَّذين بدَّلوا نِعمةَ اللهِ كُفرًا، فأعَدَّ اللهُ لهم ما يكونُ عليهم في الحَياةِ الأبَديَّةِ ضِدًّا لأُصولِ النِّعمةِ الَّتي خُوِّلوها، فبَطِروا بها، وقابَلَوا المُنعِمَ بالكُفْرانِ؛ فالأنكالُ مُقابِلُ كُفرانِهم بنِعمةِ الصِّحَّةِ والمَقدِرةِ؛ لأنَّ الأنكالَ القُيودُ، والجحيمُ -وهو نارُ جَهنَّمَ- مُقابِلُ ما كانُوا عليه مِن لَذَّةِ الاستظلالِ والتَّبرُّدِ، والطَّعامُ ذُو الغُصَّةِ مُقابِلُ ما كانُوا مُنهمِكين فيه مِن أطعِمتِهم الهَنيئةِ؛ مِن الثَّمراتِ والمَطبوخاتِ والصَّيدِ، والعذابُ الأليمُ مُقابِلُ ما في النِّعمةِ مِن مَلاذِّ البشرِ، وقدْ جَمَعَ الأخيرُ جَميعَ ما يُضادُّ معْنى النِّعمةِ[1].

- وتَنكيرُ هذه الأجناسِ الأربعةِ ﴿أَنكَالًا﴾، ﴿وَجَحِيمًا﴾، ﴿وَطَعَامًا﴾، ﴿وَعَذَابًا﴾؛ لقصْدِ تَعظيمِها وتَهويلِها[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ يَتعلَّقُ بالاستِقرارِ الَّذي يَتضمَّنُه خبرُ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾. وقيلَ: هو مُتعلِّقٌ بمُضمَرٍ محذوفٍ، هو صِفةٌ لـ (عَذَابًا)، أي: عذابًا واقعًا يومَ ترجُفُ[3].

- وجِيءَ بفِعلِ (كانت) في قولِه: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾؛ للإشارةِ إلى تَحقيقِ وُقوعِه حتَّى كأنَّه وَقَعَ في الماضي. ووَجْهُ مُخالَفتِه لأُسلوبِ ﴿تَرْجُفُ﴾ أنَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٢).

صَيرورةَ الجبالِ كُثبًا أمْرٌ عَجيبٌ غيرُ مُعتادٍ، فلَعلَّه يَستبْعِدُه السَّامعونَ، وأمَّا رَجْفُ الأرضِ فهو مَعروفٌ، إلَّا أنَّ هذا الرَّجفَ الموعودَ به أعظَمُ ما عُرِفَ مِن جِنسِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

## الآيات (١٥-١٩)

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا ١٦ فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَبِيلًا﴾: أي ثَقيلًا شَديدًا، وأصلُ (وبل): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شَيءٍ[1].

﴿ٱلۡوِلۡدَٰنَ﴾: أي: صِغارَ الأطفالِ، جمعُ وليدٍ، وهو الطِّفلُ الصَّغيرُ، والوَليدُ يُقالُ لِمَن قَرُبَ عهْدُه بالوِلادةِ وإن كان في الأصلِ يَصِحُّ لِمَن قَرُبَ عَهْدُه أو بَعُدَ، فإذا كبِر الوَلَدُ سقَط عنه هذا الاسمُ[2].

﴿مُنفَطِرُۢ﴾: الانفِطارُ: التَّصَدُّعُ والانشِقاقُ على غيرِ نِظامٍ، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذَكِّرًا بما حلَّ بالمكذِّبين مِن قَبْلِهم: إنَّا أرسَلْنا إليكم رَسولًا شاهِدًا على مَنِ اتَّبَعَه وآمَنَ به، ومَنْ خالَفَه وكفَر به -وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم-، كما أرسَلْنا إلى فِرعَونَ رَسولًا، وهو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٩).

فعصَى فِرعَونُ موسى عليه السَّلامُ، فلم يُؤمِنْ به، فأهلَكْنا فِرعَونَ وجُنْدَه إهلاكًا ثَقيلًا بإغراقِهم أجمَعينَ.

ثم يُذكِّرُ -سُبحانَه- بأهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: فكيف تتَّقونَ -إنْ بَقِيتُم على الكُفرِ- أهوالَ القيامةِ الَّتي يَشيبُ منها الوِلْدانُ، السَّماءُ مُتشَقِّقةٌ فيه؛ مِن شِدَّتِه وعِظَمِ أهوالِه، كان وَعْدُ اللهِ مَفعولًا لا محالةَ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى هذه التَّهديداتِ، فيقولُ: إنَّ هذه تَذكِرةٌ يَتذَكَّرُ بها المتَّقونَ، فمَن شاء اتَّخَذ إلى رَبِّه طَريقًا بالإيمانِ به وطاعتِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا هدَّدَ المكذِّبين بأهوالِ القِيامةِ؛ ذكَّرَهم بحالِ فِرعونَ وكيفَ أخَذَه اللهُ تعالَى؛ إذ كَذَّب مُوسى عليه السَّلامُ، وأنَّه إنْ دامَ تَكذيبُهم أهْلَكَهم اللهُ تعالَى[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر العذابَ ووَقْتَه، وقدَّمَهما؛ لِيَكونَ السَّامِعُ أقبَلَ لِما يُطلَبُ منه- أتْبَعَهما السَّبَبَ فيه، مُشيرًا إلى ما به إصلاحُ أمرِ الآخرةِ الَّتي فيها المَعادُ، وإليها المنتهى والمآبُ، فقال[2]:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: إنَّا أرسَلْنا إليكم محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شاهِدًا على إيمانِ مَن استجابَ له منكم فاتَّبَعَه، وكُفْرِ مَن خالفَه وعَصاه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((الوسيط)) =

كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾.

أي: مِثْلَ ما أرسَلْنا إلى فِرعَونَ رَسولًا يَدْعوه إلى الحَقِّ، وهو موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ(١).

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾.

أي: فعصى فِرعَونُ موسى عليه السَّلامُ، فلم يُؤمِنْ به وبما جاء به(٢).

﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾.

أي: فأهلَكْنا فِرعَونَ وجُنْدَه إهلاكًا ثَقيلًا غليظًا بإغراقِهم أجمَعينَ؛ فاحذَروا أن تَعصُوا رَسولَكم مُحمَّدًا، فيُهلِكَكم اللهُ كما أهلك فِرعَونَ وقَومَه حينَ عَصَوا رَسولَهم(٣).

---

= للواحدي (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣).

قال ابنُ كثير: (قال مخاطِبًا لكُفَّارِ قُرَيشٍ، والمرادُ سائِرُ النَّاسِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣).

قال الشوكاني: (المعنى: إنَّا أرسَلْنا إليكم رَسولًا فعَصَيتُموه، كما أرسَلْنا إلى فِرعَونَ رَسولًا فعَصاه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٣). =

كما قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [الذاريات: ٤٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ۞ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٤١، ٤٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴾ [النازعات: ٢٥].

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا عُلِمَ أنَّ اللهَ سُبحانَه شديدُ الأخْذِ، وأنَّه لا يُغْني ذا الجَدِّ منه الجَدُّ؛ سَبَّبَ عن ذلك قَولَه محَذِّرًا لهم مِن الاقتِداءَ بفِرعَونَ[1]:

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: فكيف تَحصُلُ لكم الوِقايةُ والنَّجاةُ مِن كُرَبِ يومِ القيامةِ الَّذي يَشيبُ فيه الوِلْدانُ مِن فَزَعِه وشِدَّةِ أهوالِه، إنْ بَقِيتُم على الكُفرِ فلم تُؤمِنوا وتَعمَلوا صالِحًا[2]؟!

---

= قال ابنُ القيِّم: (أي: كيف يقَعُ الإنكارُ منكم، وقد تقدَّم قَبْلَكم رُسُلٌ منِّي مُبَشِّرينَ ومُنذِرينَ؟ وقد عَلِمتُم حالَ مَن عصى رُسُلي كيف أخَذْتُهم أخذًا وَبيلًا؟). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥، ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦، ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال ابنُ كثيرٍ: (قولُه: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ ﴿ يَوْمًا ﴾ معمولًا لـ ﴿ تَتَّقُونَ ﴾... ويحتمِلُ أنْ يكونَ معمولًا لـ ﴿ كَفَرْتُمْ ﴾، فعلى الأوَّلِ: كيفَ يحصُلُ لكم أمانٌ مِن يومِ هذا الفزعِ العظيمِ إنْ كفرْتُم؟ وعلى الثَّاني: كيفَ يحصُلُ لكم تقوى إنْ كفرْتُم =

عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِي الله عنه، أنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((يقولُ اللهُ تعالى: يا آدمُ، فيقول: لبَّيكَ وسَعْدَيكَ، والخيرُ في يدَيكَ، فيقولُ: أَخرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قال: وما بَعْثُ النَّارِ؟ قال: مِن كلِّ ألفٍ تِسعَمائةٍ وتسعةً وتسعينَ، فعنده يَشيبُ الصَّغيرُ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها[1]، وترى النَّاسَ سُكارَى وما هم بسُكارَى، ولكنَّ عذابَ اللهِ شديدٌ))[2].

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ١٨﴾.

---

= يومَ القيامةِ وجحَدْتُموه؟ وكلاهما معنى حسنٌ، ولكنَّ الأوَّلَ أولَى، والله أعلمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٦).

وقال القرطبي: (والولدانُ: الصِّبيانُ. وقال السدِّيُّ: هم أولادُ الزِّنا. وقيل: أولادُ المشركينَ. والعمومُ أصحُّ، أي: يشيبُ فيه الصَّغيرُ مِن غيرِ كبرٍ، وذلك حينَ يُقالُ: «يا آدمُ قمْ فابعَثْ بعثَ النَّارِ»). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٠)

وقال ابنُ جزي: (﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾... المعنى أنَّ الأطفالَ يَشيبونَ يومَ القيامةِ، فقيل: إنَّ ذلك حقيقةٌ، وقيل: إنَّه عبارةٌ عن هولِ ذلك اليومِ، وقيل: إنَّه عبارةٌ عن طولِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥).

(١) قال ابنُ حجر: (وقد استُشكِلَ بأنَّ ذلك الوقتَ لا حملَ فيه ولا وضعَ ولا شيبَ، ومِن ثَمَّ قال بعضُ المفسرينَ: إنَّ ذلك قبلَ يومِ القيامةِ، لكنَّ الحديثَ يردُّ عليه، وأجاب الكرمانيُّ بأنَّ ذلك وقَع على سبيلِ التَّمثيلِ والتَّهويلِ، وسبَق إلى ذلك النووي، فقال: فيه وجهانِ للعلماءِ فذكرهما، وقال: التَّقديرُ أنَّ الحالَ يَنتهي إلى أنَّه لو كانَت النِّساءُ حينئذٍ حواملَ لوضَعتْ، كما تقولُ العربُ أصابَنا أمرٌ يشيبُ منه الوليدُ.

وأقولُ: يحتمِلُ أن يُحملَ على حقيقتِه؛ فإنَّ كلَّ أحدٍ يُبعَثُ على ما مات عليه، فتُبعَثُ الحامِلُ حامِلًا، والمرضعُ مرضعةً، والطفلُ طِفلًا، فإذا وقَعت زلزلةُ السَّاعةِ، وقيل ذلك لآدمَ، ورأَى النَّاسُ آدمَ، وسمِعوا ما قيل له؛ وقَع بهم مِن الوَجلِ ما يَسقُطُ معه الحملُ ويَشيبُ له الطِّفلُ، وتذهلُ به المرضعةُ...). ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ٣٩٠). ويُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (١٤/ ١٠)، ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٩٧).

(٢) رواه البخاري (٣٣٤٨) واللفظ له، ومسلم (٢٢٢).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان أمرُ القيامةِ أمرًا عَظيمًا، صوَّرَ بَعضَ أهوالِه؛ زيادةً في عِظَمِه[١]، فقال:

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾.

أي: السَّماءُ مُتشَقِّقةٌ يومَ القيامةِ؛ مِن شِدَّتِه وعِظَمِ أهوالِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١].

وقال سُبحانَه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١].

﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾.

أي: ما وَعَد اللهُ به خَلْقَه مِن مَجيءِ القيامةِ أمرٌ واقِعٌ لا محالةَ؛ فاللهُ تعالى لا يُخلَفُ وَعْدُه[٣].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ١٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى بدأ في أوَّلِ السُّورةِ بشَرحِ أحوالِ السُّعَداءِ، وأمَّا الأشقياءُ فقد بدأ بتهديدِهم على سَبيلِ الإجمالِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المزمل:١١]، ثمَّ ذَكَر بَعْدَه أنواعَ عذابِ الآخرةِ، ثمَّ ذَكَر بعدَه عذابَ الدُّنيا، وهو الأخذُ الوَبيلُ في الدُّنيا، ثمَّ وَصَف بعدَه شِدَّةَ يومِ القيامةِ، فعندَ هذا تمَّ البيانُ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٧).

بالكُلِّيَّةِ؛ فلا جَرَم خَتَم ذلك الكلامَ بقَولِه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾[1].

وأيضًا لَمَّا كان ما مضى مِن هذه السُّورةِ مِن الأحكامِ والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ: مُرشِدًا إلى معالي الأخلاقِ، مُنقِذًا مِن كُلِّ سوءٍ؛ قال مُستأنِفًا مؤكِّدًا تنبيهًا على عِظَمِها، وأنَّها ممَّا يَنبغي التَّنبيهُ عليه[2]:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾.

أي: إنَّ هذه تَذكِرةٌ يَتذَكَّرُ بها المتَّقونَ، وعِظةٌ وعِبرةٌ[3].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال ابنُ عطية: (الإشارةُ بـ﴿هَٰذِهِۦ﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ إلى ما ذُكِرَ مِن الأنكالِ والجَحيمِ والأخذِ الوَبيلِ ونَحوِه، ويحتَمِلُ أن تكونَ إلى السُّورةِ بأجمَعِها، ويحتَمِلُ أن تكونَ إلى القُرآنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الإشارةُ إلى هذه السُّورةِ الكريمةِ: السمرقنديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الإشارةُ إلى جميعِ آياتِ القُرآنِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبغويُّ، والخازنُ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٥).

وممَّن قال في الجملة بأنَّ المرادَ: الآياتُ النَّاطِقةُ بالوعيدِ، وما تقدَّم مِن المَواعِظِ: البيضاويُّ، وابنُ جُزَي، والقاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال ابنُ عاشور: (الإشارةُ بـ﴿هَٰذِهِۦ﴾ إلى الآياتِ المتقدِّمةِ مِن قَولِه: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٧).

أي: فمَن شاء مِنَ النَّاسِ اتَّخَذ إلى رَبِّه طَريقًا بالإيمانِ به وطاعتِه؛ لِيَظفَرَ برِضاه ورَحمتِه[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ هذا تَنويهٌ بآياتِ القُرآنِ، وتجديدٌ للتَّحريضِ على التَّدَبُّرِ فيه والتَّفَكُّرِ على طَريقةِ التَّعريضِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ ذِكْرُ الإرسالِ الدِّينيِّ، ويقابلُه ذِكْرُ الإرسالِ الكَونيِّ في قَولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا﴾ [مريم: ٨٣]، وقولِه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾[٣] [الفرقان: ٤٨].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا * فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ فيه سُؤالٌ: هل يمكِنُ التَّمَسُّكُ بهذه الآيةِ في إثباتِ أنَّ القِياسَ حُجَّةٌ؟

**الجوابُ**: نعم؛ لأنَّ الكلامَ إنَّما ينتَظِمُ لو قِسْنا إحدى الصُّورتَينِ على الأُخرى[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ﴾ إثباتُ الأسبابِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٢، ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥١)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٩/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩١).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٨٨).

ويُنظر ما تقدَّم في سورة الحاقة (٤٠/ ٤٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾ التَّحذيرُ مِن يومِ القيامةِ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ في هذا دَليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى أقدَرَ العبادَ على أفعالِهم، ومكَّنَهم منها، لا كما يَقولُه الجَبْريَّةُ: (إنَّ أفعالَهم تقَعُ بغَيرِ مَشيئتِهم!)؛ فإنَّ هذا خِلافُ النَّقلِ والعَقلِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ إثباتُ مَشيئةِ العِبادِ[٣]؛ لكنَّ مشيئةَ العبدِ داخلةٌ تحتَ مشيئةِ الله وتابعةٌ لها، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٤] [الإنسان: ٣٠].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ۝ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾

- نُقِلَ الكلامُ إلى مُخاطَبةِ المشركينَ بعْدَ أنْ كان الخِطابُ مُوجَّهًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. والمُناسَبةُ لذلك التَّخلُّصُ إلى وَعيدِهم؛ بعْدَ أنْ أمَرَه بالصَّبرِ على ما يَقولون وهَجْرِهم هَجْرًا جَميلًا؛ إذ قال له: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [المزمل: ١١- ١٣]؛ فالكلامُ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، ولا يُعَدُّ هذا الخِطابُ مِن الالتفاتِ؛ لأنَّ الكلامَ نُقِلَ إلى غرَضٍ غيرِ الغرَضِ الَّذي كان قبْلَه[٥]. وقيل: هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لخِطابِ أهْلِ مكَّةَ على طَريقِ الالْتفاتِ مِن الغَيبةِ في قولِه: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزمل: ١٠]، وقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ١٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

﴿وَٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[١] [المزمل: ١١].

- والمَقصودُ مِن هذا الخبَرِ التَّعريضُ بالتَّهديدِ أنْ يُصيبَهم مِثلُ ما أصابَ أمْثالَهم ممَّن كذَّبوا الرُّسلَ، فهو مَثَلٌ مَضروبٌ للمُشرِكين[٢].

- وأُكِّدَ الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾؛ لأنَّ المُخاطَبينَ مُنكِرونَ أنَّ اللهَ أرسَلَ إليهم رَسولًا[٣].

- وتَنكيرُ ﴿رَسُولًا﴾ المُرسَلِ إلى فِرعونَ؛ لأنَّ الاعتبارَ بالإرسالِ لا بشَخصِ المُرسَلِ؛ إذ التَّشبيهُ تَعلَّقَ بالإرسالِ في قولِه: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾؛ إذ تَقديرُه: كإرْسالِنا إلى فِرعونَ رسولًا[٤]. وقيل: لعَلَّه نكَّرَه؛ للتَّنبيهِ على أنَّه ليس مِن قومِ فِرعَونَ، فلا مانِعَ له منه مِن حميمٍ ولا شَفيعٍ يُطاعُ؛ ليُعلَمَ أنَّه مَن كانت له قبيلةٌ تُحامي عنه، أَولى بالنُّصرةِ[٥].

- وأُدمِجَ في التَّنظيرِ والتَّهديدِ وصْفُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بكَونِه شاهِدًا عليهم، والمُرادُ بالشَّهادةِ هنا: الشَّهادةُ بتَبليغِ ما أرادَهُ اللهُ مِن النَّاسِ، وبذلك يكونُ وَصْفُ ﴿شَٰهِدًا﴾ مُوافقًا لاستِعمالِ الوصْفِ باسمِ الفاعلِ في زمَنِ الحالِ، أي: هو شاهدٌ عليكم الآنَ بمُعاوَدةِ الدَّعوةِ والإبلاغِ، وأمَّا شَهادةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ القِيامةِ فهي شَهادةٌ بصِدقِ المسلِمينَ في شَهادتِهم على الأُمَمِ بأنَّ رُسلَهم أبْلَغوا إليهم رِسالاتِ ربِّهم،

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥).

وذلك قولُه تعالَى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾(١) [البقرة: ١٤٣].

- قولُه: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ... ﴾ اختيرَ للمُشركينَ ضَرْبُ المَثَلِ بفِرعونَ مع مُوسى عليه السَّلامُ؛ لأنَّ الجامعَ بيْنَ حالِ أهلِ مكَّةَ وحالِ أهلِ مِصرَ في سبَبِ الإعراضِ عن دَعوةِ الرَّسولِ، هو مَجموعُ ما همْ عليه مِن عِبادةِ غيرِ اللهِ، وما يَملأُ نُفوسَهم مِن التَّكبُّرِ والتَّعاظُمِ على الرَّسولِ المَبعوثِ إليهم بزَعْمِهم أنَّ مِثلَهم لا يُطِيعُ مِثلَه، كما حَكَى اللهُ تعالَى عنهم بقولِه: ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقدْ قال أهلُ مكَّةَ: ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقدْ حَكَى اللهُ عنهم أنَّهم قالوا: ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢١]، ولأنَّ أخبارَ مُوسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ كانت مُنتشِرةً بمَكَّةَ(٢).

- والكافُ في قولِه: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَآ ﴾ في محلِّ النَّصبِ على أنَّها صفةٌ لمصدرٍ محذوفٍ، على تقديرِ اسميتِها، أي: إرسالًا مثلَ إرسالِنا، أو الجارُّ والمجرورُ في موضعِ الصِّفةِ على تقديرِ حرفيتِها، أي: إرسالًا كائنًا كما، والمعنى: أرسَلْنا إليكم رسولًا شاهدًا عليكم فعصَيْتُموه، كما أرْسَلْنا إلى فرعونَ رسولًا فعَصاه(٣).

- وتَفريعُ ﴿ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ ذلك هو الغرَضُ مِن هذا الخبَرِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٧).

وهو التَّهديدُ بأنْ يَحُلَّ بالمُخاطَبينَ لَمَّا عَصَوُا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِثْلُ ما حلَّ بفِرعونَ[١].

- وفي إعادةِ فرعونَ والرَّسولِ مظهرينِ تفظيعٌ لشأنِ عصيانِه، وأنَّ ذلك لكونِه عصيانَ الرسولِ، لا لكونِه عصيانَ موسى[٢].

- وفي قولِه: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا * فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ لَمَّا جرَى ذِكرُ الرَّسولِ المُرسَلِ إلى فِرعونَ أوَّلَ مَرَّةٍ نَكِرةً ﴿رَسُولٗا﴾، جِيءَ به في ذِكرِه ثانيَ مرَّةٍ ﴿ٱلرَّسُولَ﴾ مُعرَّفًا بلامِ العَهدِ، وهو العهدُ الذِّكريُّ، أي: الرَّسولَ المذكورَ آنفًا؛ فإنَّ النَّكرةَ إذا أُعيدتْ مُعرَّفةً باللَّامِ كان مدلولُها عينَ الأُولَى، فلمَّا أعادَه وهو مَعهودٌ بالذِّكرِ، أدخَلَ لامَ التَّعريفِ إشارةً إلى المَذكورِ بَعينِه[٣].

- قولُه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ الأخْذُ مُعبَّرٌ به عن الإهلاكِ؛ لأنَّه لَمَّا أزالَهم مِن الحياةِ أشْبَهَ فِعلُه أخْذَ الآخِذِ شيئًا مِن مَوضِعِه، وجَعْلَه عندَه[٤].

- قولُه: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ خارجٌ مِن التَّشبيهِ؛ جِيءَ به للتَّنبيهِ على أنَّه سيَحيقُ بهؤلاءِ ما حاقَ بأولئكَ لا مَحالةَ[٥].

- والوَبيلُ مُعبَّرٌ به عن سَيِّئِ العاقِبةِ، شَديدِ السُّوءِ[٦].

٢- قوله تعالَى: ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤).

- الاستفهامُ بـ(كيف) هنا مُستعمَلٌ في التَّعجيزِ والتَّوبيخِ، وهو مُتفرِّعٌ بالفاءِ على ما تَضمَّنَه الخِطابُ السَّابقُ مِن التَّهديدِ على تَكذيبِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما أُدمِجَ فيه مِن التَّسجيلِ بأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم شاهدٌ عليهم، فليس بعدَ الشَّهادةِ إلَّا المُؤاخَذةُ بما شَهِدَ به، وقدِ انتَقَل بهم مِن التَّهديدِ بالأخْذِ في الدُّنيا، المُستفادِ مِن تَمثيلِ حالِهم بحالِ فِرعونَ مع مُوسى، إلى الوَعيدِ بعِقابٍ أشدَّ، وهو عَذابُ يومِ القِيامةِ، وقدْ نشَأَ هذا الاستِفهامُ عن اعتبارِهم أهلَ اتِّعاظٍ وخَوفٍ مِن الوَعيدِ بما حلَّ بأمْثالِهم، ممَّا شَأنُه أنْ يُثيرَ فيهم تَفكيرًا في النَّجاةِ مِن الوُقوعِ فيما هُدِّدوا به، وأنَّهم إنْ كانوا أهلَ جَلادةٍ على تَحمُّلِ عَذابِ الدُّنيا؛ فماذا يَصنَعون في اتِّقاءِ عَذابِ الآخرةِ؟! فدَلَّت فاءُ التَّفريعِ واسمُ الاستفهامِ على هذا المعْنى، فالمعْنى: هَبْكم أقدَمْتُم على تَحمُّلِ عَذابِ الدُّنيا، فكيفَ تَتَّقون عَذابَ الآخرةِ[1]؟!

- وفِعلُ الشَّرطِ مِن قولِه: ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ مُستعمَلٌ في معْنى الدَّوامِ على الكُفْرِ؛ لأنَّ ما يَقْتضيهِ الشَّرطُ مِن الاستِقبالِ قَرينةٌ على إرادةِ معْنى الدَّوامِ مِن فِعلِ ﴿كَفَرْتُمْ﴾، وإلَّا فإنَّ كُفْرَهم حاصلٌ مِن قبْلِ نُزولِ هذه الآيةِ[2].

وقيل: في ذكرِ ﴿إِن﴾ التي للشَّكِّ إشعارٌ بأنَّه لا ينبغي الشكُّ معَ إرسالِ هذا الرَّسولِ النُّورِ المبينِ[3].

- ووَصْفُ اليومِ بأنَّه ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ وصْفٌ له باعتبارِ ما يقَعُ فيه مِن الأهوالِ والأحزانِ؛ لأنَّه شاع أنَّ الهمَّ ممَّا يُسرِعُ به الشَّيبُ، فلمَّا أُريدَ وصْفُ هَمِّ ذلك اليومِ بالشِّدَّةِ البالغةِ، أُسنِدَ إليه شَيبُ الولدانِ الَّذين شَعرُهم في أوَّلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٣٩٨).

سَوادِه، وهذه مُبالَغةٌ عَجيبةٌ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٣- قولُه تعالَى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾

- جُملةُ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ، والباءُ بمعْنى (في)، وهو ارتقاءٌ في وصْفِ اليومِ بحُدوثِ الأهوالِ فيه؛ فإنَّ انفطارَ السَّماءِ أشدُّ هَولًا ورُعبًا ممَّا كُنِّيَ عنه بجُملةِ ﴿يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا﴾، أي: السَّماءُ على عِظَمِها وسُمْكِها تَنفطِرُ لذلك اليومِ، فما ظنُّكُم بأنفُسِكم وأمثالِكم مِن الخَلائقِ فيه؟! فذِكرُ انفطارِ السَّماءِ في ذلك اليومِ زِيادةٌ في تَهويلِ أحوالِه؛ لأنَّ ذلك يَزيدُ المُهدَّدينَ رُعبًا وإنْ لم يكُنِ انفطارُ السَّماءِ مِن آثارِ أعمالِهم، ولا له أثَرٌ في زِيادةِ نَكالِهم[٢].

- ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ جُملةُ ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ مُستأنَفةً مُعترِضةً بيْنَ جُملةِ ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ ...﴾ إلخ، وجُملةِ ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾. ويجوزُ أنْ يكونَ الإخبارُ بانفطارِ السَّماءِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: كالمُنفطِرِ به، فيَكونَ المعْنى كقولِه تبارك وتعالَى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدًا ۞ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدًّا ۞ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا﴾[٣] [مريم: ٨٨ - ٩٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤١، ٦٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧١).

قال البقاعي: (﴿شِيبًا﴾ جمعُ أَشيَبَ، وهو مَنِ ابيَضَّ شَعْرُه، وذلك كنايةٌ عن كثرةِ الهُمومِ فيه؛ لأنَّ العادةَ جاريةٌ بأنَّها إذا تفاقَمَت أسرَعَت بالشَّيبِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٦).

- وتَذكيرُ قولِه: ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾؛ لإجرائِه على مَوصوفٍ مَحذوفٍ مُذكَّرٍ، أي: شَيءٌ مُنفطِرٌ، عُبِّرَ عنها بذلك للتَّنبيهِ على أنَّه تَبدَّلتْ حَقيقتُها، وزالَ عنها اسْمُها ورسْمُها، ولم يَبْقَ منها إلَّا ما يُعبَّرُ عنه بالشَّيءِ. وقيل: لتَأويلِ السَّماءِ بمعْنى السَّقفِ، تقولُ: هذا سَماءُ البيتِ، أي: سَقْفُه، قال تعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، أو لأنَّها تُذكَّرُ وتُؤنَّثُ، أو جاء ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾ على النَّسَبِ، أي: ذاتُ انفطارٍ، كامرأةٍ مُرضِعٍ وحائضٍ، أي: ذاتُ إرضاعٍ وذاتُ حَيضٍ(١).

وقيل: لَمَّا كان المرادُ الجِنسَ الشَّاملَ للكلِّ ذَكَّرَ فقال: ﴿مُنفَطِرٌۢ﴾، أي: مُنشَقٌّ مُتزايلٌ مِن هَيبةِ الرَّبِّ تَزايُلَ المُتفرِّطِ مِن السِّلكِ، ولو أنَّثَ لَكان ظاهرًا في واحدةٍ مِن السَّمواتِ، وفي اختيارِ التَّذكيرِ أيضًا لَطيفةٌ أُخرى؛ وهي إفهامُ الشِّدَّةِ الزَّائدةِ في الهولِ المؤدِّي إلى انفطارِه ما هو في غايةِ الشِّدَّةِ؛ لأنَّ الذَّكَرَ في كلِّ شَيءٍ أشدُّ مِن الأُنثى، وذلك كلُّه تَهويلًا لليومِ المذكورِ(٢). أو: لعلَّ العُدولَ في الآيةِ عن الاستعمالِ الشَّائعِ في الكلامِ الفصيحِ في إجْراءِ السَّماءِ على التَّأنيثِ إلى التَّذكيرِ؛ إيثارًا لتَخفيفِ الوصْفِ؛ لأنَّه لَمَّا جِيءَ به بصِيغةِ (مُنفعِلٍ) بحَرْفَي زِيادةٍ -وهما الميمُ والنُّونُ- كانت الكلمةُ مُعرَّضةً للثِّقَلِ إذا أُلحِقَ بها حرْفٌ زائدٌ آخَرُ ثالثٌ، وهو هاءُ التَّأنيثِ، فيَحصُلُ فيها ثِقَلٌ يُجنِّبُه الكلامُ البالغُ غايةَ الفصاحةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧).

ألَا تَرى أنَّها لم تَجْرِ على التَّذكيرِ في قولِه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١]؛ إذ ليس في الفِعلِ إلَّا حرْفٌ مَزيدٌ واحدٌ، وهو النُّونُ؛ إذْ لا اعتدادَ بهَمزةِ الوصْلِ؛ لأنَّها ساقطةٌ في حالةِ الوصْلِ، فجاءتْ بعْدَها تاءُ التَّأنيثِ(١).

وقيل: إذا كان الاسمُ غيرَ حقيقيِّ التأنيثِ جاز إجراءُ وصفِه على التَّذكيرِ، فلا تلحَقُه هاءُ التَّأنيثِ قياسًا على الفعلِ المسندِ للمؤنثِ غيرِ حقيقيِّ التأنيثِ في جوازِ اقترانِه بتاءِ التَّأنيثِ وتجريدِه منها؛ إجراءً للوصفِ مجرى الفعلِ(٢).

- وجُملةُ ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ صِفةٌ أُخرى لكَلمةِ ﴿يَوۡمًا﴾، وهذا الوصْفُ إدماجٌ(٣) للتَّصريحِ بتَحقيقِ وُقوعِ ذلك اليومِ بعْدَ الإنذارِ به الَّذي هو مُقتَضٍ لوُقوعِه بطَريقِ الكِنايةِ؛ استقصاءً في إبلاغِ ذلك إلى عِلمِهم، وفي قطْعِ مَعذرتِهم(٤).

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ تَذييلٌ(٥)،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧٦).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلاَّ أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٧).

(٥) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ =

أي: تَذكرةٌ لِمَن يَتذكَّرُ؛ فإنْ كان مِن مُنكِري البَعثِ آمَنَ به، وإنْ كان مُؤمنًا استَفاقَ مِن بَعضِ الغفْلةِ الَّتي تَعرِضُ للمُؤمنِ، فاستدْرَكَ ما فاتَه، وبهذا العُمومِ الشَّاملِ لأحْوالِ المُتحدَّثِ عنهم وأحوالِ غيرِهم كانت الجُملةُ تَذْييلًا[1].

- وتَأْكيدُ الكلامِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّ المُواجَهينَ به ابتِداءً هم مُنكِرون كَونَ القُرآنِ تَذكرةً وهُدًى؛ فإنَّهم كذَّبوا بأنَّه مِن عندِ اللهِ، ووَسَموه بالسِّحرِ وبالأساطيرِ، وذلك مِن أقوالِهم الَّتي أُرشِدَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى الصَّبرِ عليها؛ قال تعالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾[2] [المزمل: ١٠].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ فُرِّعَ على التَّحريضِ التَّعريضيِّ تَحريضٌ صَريحٌ على الإيمانِ، أي: مَن كان يُريدُ أنْ يتَّخِذَ إلى ربِّه سَبيلًا، فقدْ تَهيَّأَ له اتِّخاذُ السَّبيلِ إلى اللهِ بهذه التَّذكرةِ، فلم تَبْقَ للمُتغافِلِ مَعذِرةٌ[3].

- والإتيانُ بمَوصولِ ﴿فَمَن شَآءَ﴾ مِن قَبيلِ التَّحريضِ؛ لأنَّه يَقْتضي أنَّ هذا السَّبيلَ مُوصِلٌ إلى الخَيرِ، فلا حائلَ يَحولُ بيْن طالِبِ الخَيرِ وبيْنَ سُلوكِ هذا السَّبيلِ إلَّا مَشيئتُه؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾ قَرينةٌ على ذلك، فليستِ المَشيئةُ هنا على معْنى الإباحةِ، بلْ تَتضمَّنُ معْنى الوعدِ والوعيدِ[4].

---

= السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٧٨).

- ومَفعولُ ﴿شَآءَ﴾ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه الشَّرطُ؛ لأنَّ (مَن) شَرطيَّةٌ، أي: فمَن شاء أنْ يتَّخِذَ سَبيلًا اتَّخَذه إلى ربِّه، أو فمَن شاء النَّجاةَ اتَّخَذ إلى ربِّه سَبيلًا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٨).

## الآية (٢٠)

﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿٢٠﴾ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَطَآئِفَةٞ﴾: أي: جماعةٌ، والطَّائِفةُ: جماعةٌ مِن النَّاسِ؛ وتُطلَقُ على الواحدِ فما فَوْقَه، وأصلُ (طوف): دَوَرانُ الشَّيءِ على الشَّيءِ، قيل: سُمِّيَت الجماعةُ بذلك؛ لِتَصَرُّفِها في الإقبالِ والإدبارِ كأنَّها تَطوفُ[1].

﴿يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾: أي: يَعلَمُ مَقاديرَهما على الحقيقةِ، أو: يَخلُقُهما مُقدَّرَينِ، ويَجعَلُهما على مَقاديرَ يَجريانِ عليها، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه[2].

﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾: أي: لن تُطيقوه؛ قيل: لن تُطيقوا قِيامَه، وقيل: لن تَقدِروا على تقديرِ الأوقاتِ، ولن تَستطيعوا ضبطَ السَّاعاتِ، وأصلُه هنا: العَدُّ والإطاقةُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ١٤٩)، ((الصَّحاح)) للجوهري (٤/ ١٣٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٥/ ٣٤٠، ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣١، ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣).

﴿يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: أي: يَسِيرونَ في الأرضِ، ويُسافِرونَ للتِّجارةِ وغَيرِها، والضَّرْبُ في الأَرضِ: الذَّهابُ فيها، وضَربُها بالأرجُلِ[1].

﴿وَأَقۡرِضُواْ﴾: أي: تَصَدَّقوا وأَنْفِقوا، والقَرْضُ: ما يُدفَعُ مِن المالِ بشَرْط ردِّ بَدَلِه، وأصلُ القَرْضِ: القَطْعُ؛ ومنه سُمِّيَ القَرْض؛ فكأنَّه شيءٌ قد قَطَعْتَه مِن مالِكَ[2].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا﴾

قَولُه: ﴿هُوَ خَيۡرٗا﴾ ﴿هُوَ﴾: توكيدٌ للهاءِ في ﴿تَجِدُوهُ﴾، أو ضَميرُ فَصلٍ لا محَلَّ له مِن الإعرابِ، وإنْ لم يقَعْ بيْنَ معرفتَينِ؛ فإنَّ أفعَلَ -خَيْر- في حُكْمِ المعرفةِ. ﴿خَيۡرٗا﴾: مَفعولٌ به ثانٍ لـ (تجِدُ)[3].

## المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى أنَّ نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم وطائفةً مِن المؤمنينَ قد امتثلَوا ما أمَرهم به مِن قيامِ اللَّيلِ، فيقولُ: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- يَعلَمُ أنَّك تُصَلِّي في اللَّيلِ وجَماعةٌ مِن أصحابِك المؤمِنينَ: أقَلَّ مِن ثُلُثَي اللَّيلِ، وتارةً تُصَلِّي نِصْفَه، وتارةً أُخرى تصَلِّي ثُلُثَه، واللهُ وَحْدَه هو الَّذي يُقدِّرُ ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ويَعلَمُ مقاديرَهما، عَلِمَ اللهُ سُبحانَه -أيُّها المؤمِنونَ- أنَّكم لن تَستطيعوا تقديرَ ساعاتِه تقديرًا دقيقًا؛ فتاب عليكم وخفَّف عنكم في أمرِ القيامِ؛ فصَلُّوا ما تيسَّرَ لكم مِنَ

---

(١) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧١، ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٦).

(٣) يُنظَر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٤٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢٦).

اللَّيلِ دونَ تَحديدٍ.

ثمَّ يذكُرُ سُبحانَه بعضَ الأسبابِ المُناسِبةِ للتَّخفيفِ، فيقولُ: عَلِمَ اللهُ أنَّه سيَكونُ مِنكم مَرْضَى يَضعُفونَ عن الصَّلاةِ في اللَّيلِ، وآخَرونَ يُسافِرونَ في الأرضِ؛ طَلَبًا للرِّزقِ، وآخَرونَ يُجاهِدونَ الكُفَّارَ؛ نُصْرةً لدِينِ اللهِ تعالى؛ فصَلُّوا ما تيسَّرَ لكم مِن اللَّيلِ.

ثمَّ يأمُرُ سبحانَه المؤمنينَ بإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وعُمومِ فعلِ الخَيرِ، فيقولُ: وحافِظُوا على إقامةِ الصَّلَواتِ المفروضةِ عليكم، وأَعطوا الزَّكاةَ لِمُستَحِقِّيها مِن الفُقَراءِ والمساكينِ، وتَصَدَّقوا مِن طَيِّبِ أموالِكم بإخلاصٍ للهِ تعالى، وما تَفعَلوه في الدُّنيا مِن خَيرٍ تَجِدوا ثوابَه عِندَ اللهِ تعالى يومَ القيامةِ مُضاعَفًا، واستَغفِروا اللهَ؛ إنَّ اللهَ غَفورٌ رَحيمٌ.

## تَفسيرُ الآيةِ:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ ٢٠﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

ذَكَر اللهُ تعالى في أوَّلِ هذه السُّورةِ أنَّه أمَرَ رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بقيامِ نِصفِ اللَّيلِ أو ثُلُثِه أو ثُلُثَيه، والأصلُ أنَّه أُسوةٌ لأُمَّتِه في الأحكامِ، وذكَرَ في هذا الموضِعِ أنَّه امتَثَل ذلك هو وطائِفةٌ معه مِن المؤمِنينَ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ قِراءتانِ:

١- قراءةُ: ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ أي: تقومُ نِصفَ اللَّيلِ وثُلُثَه[١].

٢- قراءةُ: ﴿وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ﴾ عَطفًا على ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾، والمعنى: تقومُ أقَلَّ مِن نِصفِه، وأقَلَّ مِن ثُلُثِه[٢].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

أي: إنَّ ربَّك -يا مُحمَّدُ- يَعلَمُ أنَّك تُصَلِّي في اللَّيلِ تارةً أقَلَّ مِن ثُلُثَيه، وتارةً تصَلِّي نِصْفَه، وتارةً أُخرى تصَلِّي ثُلُثَه، ويُصَلِّي ذلك المِقدارَ أيضًا جَماعةٌ مِن أصحابِك المؤمِنينَ[٣].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ نَبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقومُ مِنَ اللَّيلِ حتَّى تتفَطَّرَ[٤] قَدَماه، فقالت عائِشةُ: لِمَ تصنَعُ هذا يا رَسولَ اللهِ، وقد غَفَرَ اللهُ

(١) قرأ بها ابنُ كثير، والكوفيُّون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٥٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٠٠، ١٠١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٣١).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٥٥)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٠١)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩، ٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨١).

(٤) تتفَطَّرَ: أي: تتشقَّقَ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٧/ ٣٤٧).

لك ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِك وما تأخَّرَ؟! قال: أفلا أُحِبُّ أن أكونَ عَبدًا شَكُورًا؟!))[١].

وعن زَيدِ بنِ خالِدٍ الجُهَنيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَأَرْمُقَنَّ[٢] صَلاةَ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم اللَّيلةَ، فصَلَّى ركعتينِ خفيفتَينِ، ثمَّ صلَّى ركعتينِ طويلتينِ طويلتينِ طويلتينِ، ثمَّ صلَّى ركعتينِ، وهما دونَ اللَّتَينِ قَبْلَهما، ثمَّ صلَّى ركعتينِ، وهما دونَ اللَّتينِ قَبْلَهما، ثمَّ صلَّى ركعتينِ، وهما دونَ اللَّتَينِ قَبْلَهما، ثمَّ صلَّى ركعتينِ، وهما دونَ اللَّتَينِ قَبْلَهما، ثمَّ أوتَرَ، فذلك ثلاثَ عَشْرَةَ رَكعةً))[٣].

وعن حُذَيفةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((صلَّيتُ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذاتَ ليلةٍ، فافتَتَح البَقَرةَ، فقُلتُ: يركَعُ عند المئةِ! ثمَّ مضَى، فقُلْتُ: يصَلِّي بها في رَكعةٍ! فمضَى، فقُلتُ: يركَعُ بها! ثمَّ افتَتَح النِّساءَ فقَرَأَها، ثمَّ افتَتَح آلَ عِمرانَ فقَرَأها، يَقرَأُ مُترَسِّلًا[٤]؛ إذا مَرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سَبَّح، وإذا مَرَّ بسؤالٍ سألَ، وإذا مرَّ بتعَوُّذٍ تعَوَّذَ، ثمَّ ركَعَ، فجَعَل يقولُ: سُبحانَ رَبِّيَ العَظيمِ، فكان رُكوعُه نَحوًا مِن قِيامِه! ثمَّ قال: سَمِعَ اللهُ لِمَن حَمِدَه، ثمَّ قام طويلًا قريبًا مِمَّا ركَعَ! ثمَّ سَجَد، فقال: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى، فكان سجودُه قَريبًا مِن قيامِه))[٥].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صلَّيْتُ مع رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأطال حتَّى هَمَمْتَ بأمرِ سَوْءٍ! قيل: وما هَمَمْتَ به؟ قال: هَمَمْتُ أن أجلِسَ وأدَعَه!))[٦].

---

(١) رواه البخاري (٤٨٣٧) واللفظ له، ومسلم (٢٨٢٠).

(٢) لأَرمُقَنَّ: أي: لأنظُرَنَّ وأتأمَّلَنَّ وأحفَظَنَّ وأرقُبَنَّ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ٩٠٦).

(٣) رواه مسلم (٧٦٥).

(٤) مُترَسِّلًا: أي: مرتلًا بتبيينِ الحروفِ وأداءِ حقِّها، يُقالُ: ترسَّلَ الرجُلُ في كلامِه ومَشْيِه: إذا لم يَعجَلْ. يُنظر: ((شرح السيوطي لسنن النسائي)) (٣/ ٢١٩)، ((دليل الفالحين)) لابن علان (٢/ ٣٢٠).

(٥) رواه مسلم (٧٧٢).

(٦) رواه البخاريُّ (١١٣٥)، ومسلمٌ (٧٧٣) واللفظ له.

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان تحريرُ الوَقتِ المأمورِ به مَشَقَّةً على النَّاسِ؛ أخبَرَ أنَّه سَهَّل عليهم في ذلك غايةَ التَّسهيلِ، فقال: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: يَعلَمُ مَقاديرَهما وما يَمضي منهما ويَبقَى[1].

وأيضًا لَمَّا كان القيامُ -على هذا التَّفاوتِ مع الاجتهادِ في السَّبقِ في العبادةِ- دالًّا على عدمِ العِلمِ بالمقاديرِ ما هي عليه، قال تعالى[2]:

﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾.

أي: واللهُ وَحْدَه هو الَّذي يُقدِّرُ ساعاتِ اللَّيلِ والنَّهارِ وأوقاتَهما، ويَعلَمُ مقاديرَهما[3].

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾.

أي: عَلِمَ اللهُ سُبحانَه -أيُّها المؤمِنونَ- أنَّكم لن تُطيقوا تقديرَ ما طُلِبَ منكم عِلمًا وعَمَلًا مِن غيرِ زيادةٍ ولا نَقصٍ، فذاك يَستدعي انتباهًا وعَناءً زائدًا؛ فلذا تاب عليكم لعَجزِكم وضَعْفِكم، وخفَّف عنكم بالتَّرخيصِ في تركِ القيامِ المقَدَّرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال الواحدي: (﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ قال عَطاءٌ: يريدُ: لا يَفوتُه عِلْمُ ما يَفعلونَ، أي: أنَّه يعلَمُ مقاديرَ اللَّيلِ والنَّهارِ، فيَعلَمُ القَدْرَ الَّذي يَقومونَه مِنَ اللَّيلِ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٧٧).

وقال القرطبيُّ: (أي: يَعلَمُ مَقاديرَ اللَّيلِ والنَّهارِ على حقائقِها، وأنتم تَعلَمونَ بالتَّحَرِّي والاجتهادِ الَّذي يقعُ فيه الخطأُ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣).

أوَّلَ السُّورةِ، ورَفَع عنكم التَّبِعةَ في ذلك، وأمَرَكم بفِعلِ ما تيسَّرَ لكم منه، سَواءٌ زاد على الوَقتِ المقدَّرِ أو نَقَصَ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: لن تُطيقوا قيامَ اللَّيلِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، وابنُ عطية. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: لن تُطيقوا تقديرَ الأوقاتِ، ولن تستطيعوا ضبطَ السَّاعاتِ: السمعاني، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، وابن جُزَي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ١٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٥).

قال الزمخشري: (والضَّميرُ في ﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾ لِمَصدرٍ يُقدَّرُ، أي: عَلِم أنَّه لا يصحُّ منكم ضبطُ الأوقاتِ، ولا يتأتَّى حِسابُها بالتَّعديلِ والتَّسويةِ، إلَّا أن تأخُذوا بالأوسَعِ للاحتياطِ، وذلك شاقٌّ عليكم، بالِغٌ منكم ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ عبارةٌ عن التَّرخيصِ في تركِ القيامِ المُقدَّرِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣).

وقال السمعاني: (المعنى: أنَّه يَشُقُّ عليكم مَعرِفةُ مِقدارِ المفروضِ، والقيامُ بالأمرِ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ إذا نام ثمَّ استيقظ، لا يَدري: كم نام، وكم بَقِيَ مِنَ اللَّيلِ، وقد كان اللهُ تعالى فَرَض قيامَ اللَّيلِ على مِقدارٍ معلومٍ، وهو لا يَنقُصُ عن الثُّلُثِ، ويَبلُغُ الثُّلُثَينِ إن أراد). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٨٤).

وقال القرطبي: (أي: لن تُطيقوا معرفةَ حقائقِ ذلك، والقيامَ به. وقيل: أي: لن تُطيقوا قيامَ اللَّيلِ. والأوَّلُ أصحُّ؛ فإنَّ قيامَ اللَّيلِ ما فُرِض كلُّه قطُّ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣).

وقال ابن جُزَي: (﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ الضَّميرُ يعودُ على ما يُفهَمُ مِن سياقِ الكلامِ، أي: لن تُحصوا تقديرَ اللَّيلِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٥).

وقال النَّسَفي: (لن تُطيقوا قيامَه على هذه المقاديرِ إلَّا بشِدَّةٍ ومشَقَّةٍ، وفي ذلك حرَجٌ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٥٩).

وقال القرطبي: (قولُه تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: فعاد عليكم بالعفوِ، وهذا يدُلُّ على أنَّه كان =

كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾.

أي: فصَلُّوا -أيُّها المؤمِنونَ- ما تيسَّرَ لكم مِنَ اللَّيلِ دونَ تَحديدٍ[1].

---

= فيهم مَن ترَكَ بعضَ ما أُمِر به. وقيل: أي: فتاب عليكم مِن فرضِ القيامِ إذ عجَزْتُم. وأصلُ التَّوبةِ: الرُّجوعُ...، فالمعنى: رجَع لكم مِن تثقيلٍ إلى تخفيفٍ، ومِن عُسْرٍ إلى يُسرٍ، وإنَّما أُمِروا بحِفظِ الأوقاتِ على طريقِ التَّحَرِّي، فخَفَّف عنهم ذلك التَّحَرِّيَ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣).

تقدَّم ذكر الخِلافِ في النَّسخِ (ص: ١٤)، فإن حُمِلَ أوَّلُ السُّورةِ على التَّطوُّعِ أو على النَّدبِ، وآخِرُها على تركِ المؤاخَذةِ بالمِقدارِ؛ كانت الآيتانِ مُحْكَمتَينِ. وإنْ حُمِل أوَّلُها على الوُجوبِ؛ كان آخِرُها ناسِخًا لأوَّلِها، وكانوا في آخِرِها مأمورينَ بأن يُصَلُّوا ما تيسَّر لهم، ثمَّ كان آخِرُها أيضًا منسوخًا بالصَّلَواتِ الخَمْسِ. يُنظر: ((جمال القراء)) للسخاوي (٢/ ٨٨٢).

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣، ٢٨٤).

قال ابن العربي: (قولُه: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فيه قولان:

أحدُهما: أنَّ المرادَ به نفْسُ القراءةِ.

الثَّاني: أنَّ المرادَ به الصَّلاةُ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٣٤).

وممَّن رجَّح أنَّ المرادَ: الصَّلاةُ، أي: فصَلُّوا ما تيسَّر لكم مِن صلاةِ اللَّيلِ: ابنُ العربي، والرَّسْعَنيُّ، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي، وإليه ذهب ابن عاشور. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٣٤، ٣٣٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣، ٢٨٤).

قال ابن العربي: (لأنَّه عن الصَّلاةِ أخبر، وإليها رجَع القولُ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٣٥). =

= وقال الرَّسْعَني: (وعبَّر عن الصَّلاةِ بالقراءةِ؛ لاشتِمالِها عليها، كما عبَّر عنها بالرُّكوعِ والسُّجودِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٤٣).

وقال ابن كثير: (كما قال في سورةِ سُبْحانَ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: بقِراءتِك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨).

قال الماوَرْدي: (فعلى هذا يحتملُ في المراد بما تيسَّر مِن الصَّلاةِ وجهان:

أحدُهما: ما يتطوَّعُ به مِن نوافِلِه؛ لأنَّ الفرضَ المقدَّرَ لا يُؤْمَرُ فيه بما تيسَّر.

الثَّاني: أنَّه محمولٌ على فُروضِ الصَّلَواتِ الخَمسِ؛ لانتقالِ النَّاسِ مِن قيامِ اللَّيلِ إليها، ويكونُ قولُه: ﴿مَا تَيَسَّرَ﴾ محمولًا على صفةِ الأداءِ في القوَّةِ والضَّعفِ، والصِّحَّةِ والمرضِ، ولا يكونُ محمولًا على العددِ المقدَّرِ شرعًا). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٣٢).

والقولُ الثَّاني: أنَّ المراد: نفْسُ القراءةِ. وذلك حملًا للخِطابِ على ظاهِرِ اللَّفظِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣).

قال الماوَرْديُّ: (فعلى هذا فيه وجهانِ:

أحدُهما: أنَّ المرادَ به: قراءةُ القرآنِ في الصَّلاةِ، فيكونُ الأمرُ به واجبًا؛ لوُجوبِ القراءةِ في الصَّلاةِ. واختُلِف في قَدرِ ما يَلزَمُه أن يَقرأَ به مِن الصَّلاةِ...

والوجهُ الثَّاني: أنَّ المرادَ به: قراءةُ القرآنِ من غيرِ الصَّلاةِ، فعلى هذا يكونُ مُطلَقُ هذا الأمرِ محمولًا على الوُجوبِ أو على الاستِحبابِ؟ على وجهَينِ؛ أحدُهما: أنَّه محمولٌ على الوُجوبِ؛ لِيَقِفَ بقِراءتِه على إعجازِه، ودلائلِ التَّوحيدِ فيه، وبعثِ الرُّسلِ، ولا يَلزَمُه إذا قرأه وعرَف إعجازَه ودلائلَ التَّوحيدِ منه أن يَحفَظَه؛ لأنَّ حِفظَ القرآنِ مِن القُرَبِ المُستحَبَّةِ دونَ الواجبةِ. الثَّاني: أنَّه محمولٌ على الاستحبابِ دونَ الوُجوبِ، وهذا قولُ الأكثَرينَ؛ لأنَّه لو وجَب عليه أن يَقرأَه وجَب عليه أن يَحفظَه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٣٢).

ذَهبَ مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ والبَغَويُّ إلى أنَّ المرادَ: قراءةُ القرآنِ في الصَّلاةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٠).

قال الرَّسْعَنيُّ: (وذهب كثيرٌ مِن المفسِّرينَ إلى أنَّ المعنى: فاقرَؤوا في الصَّلاةِ ما تيسَّر مِن القرآنِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٤٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: قراءةُ القرآنِ في صلاةِ اللَّيلِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والقرطبي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٥)، ((تفسير القاسمي)) =

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾.

أي: عَلِمَ اللهُ -أيُّها المؤمِنونَ- أنَّه سيكونُ مِنكم مَرْضَى يَضعُفونَ عن الصَّلاةِ في اللَّيلِ[1].

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

**مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَر عُذْرَ المريضِ، وبدأَ به لكَونِه أعَمَّ، ولا قُدرةَ للمَريضِ على دَفْعِه- أتْبَعَه السَّفَرَ للتِّجارةِ؛ لأنَّه يليه في العُمومِ[2].

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾.

---

= (٩/ ٣٤٤).

وقال ابن تيميَّةَ: (أمَّا قولُه: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فليس المرادُ به القِراءةَ المفروضةَ في الصَّلاةِ؛ بدَليلِ قَولِه بعدَ ذلك: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ولأنَّ هذه السُّورةَ نَزَلَتْ بمكَّةَ في أوَّلِ الأمرِ قبْلَ أنْ تُفْرَضَ الصَّلواتُ الخَمسُ، وكان وُجوبُ الفاتحةِ بالمدينةِ، وإنَّما المرادُ به -واللهُ أعلمُ-: التِّلاوةُ المأمورُ بها عِوَضًا عن قيامِ اللَّيلِ؛ فإنَّ حافِظَ القُرآنِ يَنبغي له أنْ يَتلوَه، وإذا نَسِيَه فإنَّه يجبُ عليه أنْ يَتلوَه بحيثُ لا يَنْساه، وسياقُ الآيةِ يدُلُّ على هذا، حيث قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ...﴾. وقد قيل: إنَّ المرادَ به قراءةُ ما تيسَّر بعدَ الفاتحةِ). ((شرح العمدة لابن تيمية- كتاب الصلاة)) (ص: ١٧٤). ويُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

قال السعدي: (ذَكَر بعضَ الأسبابِ المناسِبةِ للتَّخفيفِ، فقال: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ يشُقُّ عليهم صلاةُ ثُلُثَي اللَّيلِ أو نِصفِه أو ثُلُثِه، فلْيُصَلِّ المريضُ المتسَهَّلَ عليه، ولا يكونُ أيضًا مأمورًا بالصلاةِ قائِمًا عندَ مشقَّةِ ذلك، بل لو شَقَّت عليه الصَّلاةُ النَّافِلةُ فله تَرْكُها، وله أجرُ ما كان يَعمَلُ صحيحًا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣).

أي: وعَلِمَ اللهُ أنَّه سيَكونُ مِنكم آخَرونَ يُسافِرونَ في الأرضِ؛ طَلَبًا للرِّزقِ، فيَضعُفونَ عن قيامِ اللَّيلِ(١).

﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

أي: وآخَرونَ يُجاهِدونَ الكُفَّارَ؛ نُصْرةً لدِينِ اللهِ تعالى، وإعلاءً لكَلِمتِه، فيَشُقُّ عليهم قيامُ اللَّيلِ(٢).

﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾.

أي: فصَلُّوا -بعدَ أن خفَّفَ اللهُ عليكم في قيامِ اللَّيلِ- ما تيسَّرَ لكم مِن صلاةِ اللَّيلِ(٣).

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وحافِظُوا -أيُّها المسلِمونَ- على إقامةِ الصَّلَواتِ المفروضةِ، بأركانِها وشُروطِها وواجِباتِها، وأعْطوا الزَّكاةَ الواجِبةَ عليكم في أموالِكم أهلَها المستَحِقِّينَ لها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

قال ابنُ عاشور: (لأنَّ السَّيرَ في الأسفارِ يكونُ في اللَّيلِ كثيرًا، ويكونُ في النَّهارِ، فيَحتاجُ المسافِرُ للنَّومِ في النَّهارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: كان هذا في صَدْرِ الإسلام، ثمَّ نُسِخَ بالصَّلَواتِ الخَمْسِ عن المؤمِنينَ، وثَبَت على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خاصَّةً). ((الوسيط)) (٤/ ٣٧٨). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣، ٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

**مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المرادُ بقولِه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبَ المعروفَ؛ أَتْبَعَه سائِرَ الإنفاقاتِ المفروضةِ والمندوبةِ -على قولٍ-، فقال[1]:

﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾.

أي: وتَصَدَّقوا مِن طَيِّبِ أموالِكم بإخلاصٍ للهِ تعالى، ودونَ مَنٍّ ولا أذًى[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

أي: وما تَفعَلوه في الدُّنيا مِن أيِّ وَجهٍ مِن وُجوهِ الخَيرِ؛ لِنَفعِ أنفُسِكم في الآخِرةِ،

---

= (٨/ ٢٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٧، ٢٨٨).

قيل: يَدخُلُ في هذا: الصَّدَقةُ الواجِبةُ والمستحَبَّةُ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

وقيل: المرادُ: الصَّدَقاتُ غَيرُ الواجِبةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٧).

وقال العُلَيمي: (هو الإنفاقُ في سُبُلِ الخَيرِ غير المفروضِ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٠٠).

وقال أبو حيَّان: (﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ العطْفُ يُشعِرُ بالتَّغايُرِ؛ فقولُه: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أمْرٌ بأداءِ الواجبِ، ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أمْرٌ بأداءِ الصَّدَقاتِ الَّتي يُتطوَّعُ بها). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢١).

قال ابنُ عبَّاسٍ: (يُريدُ: سِوى الزَّكاةِ؛ مِن صِلَةِ الرَّحمِ، وقِرَى الضَّيفِ). يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٣٨٨).

فإنَّكم تَجِدونَه يومَ القيامةِ مَحفوظًا لكم عِندَ اللهِ بأفضَلَ مِمَّا قدَّمْتُم، وأعظَمَ ثوابًا ممَّا عَمِلْتُم[١].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيما يَروي عن ربِّه عزَّ وجلَّ قال: ((إنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ، ثمَّ بيَّنَ ذلك، فمَنْ هَمَّ بحَسَنةٍ فلم يَعمَلْها، كتَبَها اللهُ له عندَه حَسَنةً كامِلةً، فإنْ هو هَمَّ بها فعَمِلَها، كتَبَها اللهُ له عِندَه عَشْرَ حَسَناتٍ، إلى سَبْعِمئةِ ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ))[٢].

﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾.

أي: واسألوا اللهَ أن يَمحُوَ عنكم ذُنوبَكم؛ عَيْنَها وآثارَها، فيَتجاوَزَ عنها ويَستُرَها[٣].

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦].

وعن أبي ذَرٍّ الغِفاريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فيما روى عن اللهِ تبارك وتعالى أنَّه قال: ((يا عِبادي، إنَّكم تُخطِئُونَ باللَّيلِ والنَّهارِ، وأنا

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٨، ٢٨٩).

(٢) رواه البخاري (٦٤٩١) واللفظ له، ومسلم (١٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤١).

أغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا؛ فاستَغفِروني أغفِرْ لكم))[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

أي: إنَّ اللهَ عَظيمُ المغفرةِ لذُنوبِ عِبادِه، بليغُ الرَّحمةِ بهم[٢].

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١١٠].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((قال اللهُ تبارك وتعالى: يا ابنَ آدمَ، إنَّك ما دعَوْتَني ورَجَوْتَني غفَرْتُ لك على ما كان فيك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ، لو بلَغَت ذُنوبُك عَنانَ السَّماءِ، ثمَّ استَغفَرْتَني، غَفَرْتُ لك ولا أُبالي، يا ابنَ آدَمَ، إنَّك لو أتَيْتَني بقُرابِ الأرضِ خَطايا، ثمَّ لَقِيتَني لا تُشرِكُ بي شيئًا، لَأَتَيْتُك بقُرابِها مَغفِرةً))[٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ لَمَّا كان رُبَّما تغالى بعضُ النَّاسِ في العبادةِ، وشَقَّ على نَفْسِه، ورُبَّما شَقَّ على غَيرِه؛ أشار سُبحانَه وتعالى إلى الاقتصادِ؛ تخفيفًا لِما يَلحَقُ الإنسانَ مِنَ النَّصَبِ[٤].

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٣٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٨٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٣٠٥)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٢/ ٢٣١).

صحَّحه ابنُ القيِّم في ((أعلام الموقعين)) (١/ ٢٠٤)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٥٤٠)، وقال ابن رجب في ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٤٠٠): (إسنادُه لا بأسَ به). وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((رياض الصالحين)) (٤٤٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨، ٢٩).

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ سَوَّى اللهُ تعالى في هذه الآيةِ بيْنَ دَرَجةِ المجاهِدينَ، والمكتسِبينَ المالَ الحلالَ للنَّفَقةِ على نَفْسِه وعيالِه، والإحسانِ، فكان هذا دليلًا على أنَّ كَسْبَ المالِ بمنزلةِ الجِهادِ؛ لأنَّ جَمْعَه مِن الجهادِ في سَبيلِ اللهِ[1]. وقدْ كان بَعضُ الصَّحابةِ يَتأوَّلُ مِن هذه الآيةِ فَضيلةَ التِّجارةِ والسَّفرِ للتَّجْرِ؛ حيث سوَّى اللهُ بيْن المجاهِدين والمُكتسِبينَ المالَ الحلالَ، يعني أنَّ اللهَ ما ذَكَرَ هذَين السَّببينِ لنسْخِ تَحديدِ القيامِ إلَّا تَنويهًا بهما؛ لأنَّ في غَيرِهما مِن الأعذارِ ما هو أشبَهُ بالمرَضِ، ودَقائقُ القرآنِ ولَطائفُه لا تَنحصِرُ[2].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ هذا تذكيرٌ بأنَّ الصَّلَواتِ الواجبةَ هي الَّتي تَحرِصونَ على إقامتِها وعدَمِ التَّفريطِ فيها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]، وفي هذا التَّعقيبِ بعَطفِ الأمرِ بإقامةِ الصَّلاةِ إيماءٌ إلى أنَّ في الصَّلَواتِ الخَمسِ ما يَرفَعُ التَّبِعةَ عن المؤمِنينَ، وأنَّ قيامَ اللَّيلِ نافِلةٌ لهم، وفيه خيرٌ كثيرٌ[3].

٤- قال الله تعالى: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وصْفُ القَرْضِ بالحُسنِ يُفيدُ الصَّدقةَ المُرادَ بها وَجْهُ اللهِ تعالَى، والسَّالِمةَ مِن المَنِّ والأذى، والحُسنُ مُتفاوِتٌ[4].

٥- قال تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ الحَسَنةُ بعَشْرِ أمثالِها إلى سَبْعِمئةِ ضِعفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ، ولْيُعلَمْ أنَّ مِثقالَ ذَرَّةٍ مِنَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٥)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٤٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٥، ٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨٨).

الخَيرِ في هذه الدَّارِ يُقابِلُه أضعافُ أضعافِ الدُّنيا وما عليها في دارِ النَّعيمِ المقيمِ مِنَ اللَّذَّاتِ والشَّهَواتِ، وأنَّ الخيرَ والبرَّ في هذه الدُّنيا مادَّةُ الخيرِ والبرِّ في دارِ القرارِ، وبَذْرُه وأصلُه وأساسُه، فوا أَسَفاه على أوقاتٍ مَضَت في الغَفَلاتِ! وواحَسْرَتاه على أزمانٍ تقَضَّت بغيرِ الأعمالِ الصَّالحاتِ! وواغَوْثاه من قلوبٍ لم يؤثِّرْ فيها وعظُ بارئِها، ولم يَنجَعْ فيها تشويقُ مَن هو أرحَمُ بها منها! فلك اللَّهمَّ الحمدُ، وإليك المشتكى، وبك المستغاثُ، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بك[1]!

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ في الأمرِ بالاستِغفارِ بعدَ الحَثِّ على أفعالِ الطَّاعةِ والخَيرِ: فائِدةٌ كبيرةٌ؛ وذلك أنَّ العَبدَ ما يخلو مِن التَّقصيرِ فيما أُمِرَ به؛ إمَّا ألَّا يَفعَلَه أصلًا، أو يَفعَلَه على وجهٍ ناقِصٍ، فأُمِرَ بترقيعِ ذلك بالاستِغفارِ؛ فإنَّ العبدَ يُذنِبُ آناءَ اللَّيلِ والنَّهارِ، فمتى لم يتغَمَّدْه اللهُ برَحمتِه ومَغفِرتِه فإنَّه هالِكٌ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ لَمَّا كان أكثَرُ أحوالِ الصَّلاةِ القِيامَ، عَبَّر به عنها[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ فيه وُجوبُ القِيامِ في الصَّلاةِ؛ فإنَّ العبادةَ إذا سُمِّيَتْ بما يُفْعَلُ فيها، دَلَّ على أنَّه واجِبٌ فيها[4].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾ احتَجَّ بَعْضُهم على تكليفِ ما لا يُطاقُ بأنَّه تعالى قال: ﴿لَّن تُحۡصُوهُ﴾ أي: لن تُطيقُوه، ثمَّ إنَّه كان قد كَلَّفَهم به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩).

(٤) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية- كتاب الحج)) (٢/ ٥٤٢).

ويمكِنُ أن يُجابَ عنه بأنَّ المرادَ صُعوبتُه، لا أنَّهم لا يَقدِرونَ عليه، كقَولِ القائِلِ: ما أُطيقُ أن أنظُرَ إلى فُلانٍ، إذا استثقَلَ النَّظَرَ إليه(١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ التَّعبيرُ عن النَّسخِ بالتَّوبةِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه لولا النَّسخُ لَكان الإنسانُ آثِمًا؛ إمَّا بفِعلِ مُحَرَّمٍ، أو بتركِ واجِبٍ(٢).

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الآيةُ صالِحةٌ لأن تكونَ أصلًا للتَّعليلِ بالمَظِنَّةِ، وصالِحةٌ لأن تكونَ أصلًا تُقاسُ عليه الرُّخَصُ العامَّةُ الَّتي تُراعَى فيها مَشقَّةُ غالِبِ الأُمَّةِ، مِثلُ رُخصةِ بَيعِ السَّلَمِ، دونَ الأحوالِ الفَرديَّةِ والجُزئيَّةِ(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ أنَّ قيامَ اللَّيلِ بالصَّلاةِ أفضَلُ مِن مجَرَّدِ قِراءةِ القُرآنِ والذِّكْرِ فيه؛ ولهذا نَقَلَهم سُبحانَه عندَ نَسْخِ وُجوبِ قيامِ اللَّيلِ إلى القِراءةِ(٤). وذلك على قولٍ.

٧- قال الله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٧).

وقال في قولِه تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]: (كانوا في أوَّلِ الأمرِ إذا صلَّى أحدُهم العِشاءَ الآخِرةَ، أو إذا نام قبْلَ العِشاءِ الآخرةِ فإنَّه يَحرُمُ عليه الاستِمتاعُ بالمرأةِ والأكلِ والشُّربِ إلى غروبِ الشَّمسِ مِن اليومِ التَّالي؛ فشَقَّ عليهم ذلك مشَقَّةً عظيمةً، حتَّى إنَّ بعضَهم لم يَصبِرْ؛ فبيَّن اللهُ عزَّ وجلَّ حِكمتَه، ورحمتَه بنا، حيث أحلَّ لنا هذا الأمرَ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]: أي تاب عليكم بنَسخِ الحُكمِ الأوَّلِ الَّذي فيه مشَقَّةٌ؛ والنَّسخُ إلى الأسهلِ تَوبةٌ). ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٧).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٠).

سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يُؤخَذُ مِن الآيةِ أنَّ المريضَ والمسافِرَ والمجاهِدَ يُكْتَبُ له مِثْلُ ما كان يَعمَلُ[١].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مِن حِكَمِ نَسخِ تحديدِ الوَقتِ في قيامِ اللَّيلِ -وذلك على قولٍ-: مراعاةُ أحوالٍ طرَأَت على المسلِمينَ مِن ضُروبٍ ما تدعو إليه حالةُ الجماعةِ الإسلاميَّةِ، وذكَرَ مِن ذلك ثلاثةَ أضرُبٍ هي أصولُ الأعذارِ:

**الضَّربُ الأوَّلُ**: أعذارُ اختِلالِ الصِّحَّةِ، وقد شَمِلَها قَولُه تعالى: ﴿أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾.

**الضَّربُ الثَّاني**: الأشغالُ الَّتي تدعو إليها ضَرورةُ العَيشِ مِن تجارةٍ وصِناعةٍ وحِراثةٍ وغَيرِ ذلك، وقد أشار إليها قَولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، وفَضْلُ اللهِ هو الرِّزقُ.

**الضَّربُ الثَّالثُ**: أعمالٌ لِمَصالحِ الأمَّةِ، وأشار إليها قَولُه تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ودخل في ذلك حِراسةُ الثُّغورِ والرِّباطُ بها، وتدبيرُ الجُيوشِ، وما يَرجِعُ إلى نَشرِ دَعوةِ الإسلامِ مِن إيفادِ الوُفودِ، وبَعْثِ السُّفَراءِ، وهذا كُلُّه مِن شُؤونِ الأمَّةِ على الإجمالِ[٢].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أصلٌ في التِّجارةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٧٩). ويُنظر ما أخرَجه البخاري (٢٩٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٦).

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ هذه الآيةُ -بل السُّورةُ كُلُّها- مَكِّيَّةٌ، ولم يكُنِ القِتالِ شُرِعَ بَعْدُ، فهي مِن أكبَرِ دَلائِلِ النُّبُوَّةِ؛ لأنَّه مِن بابِ الإخبارِ بالمُغَيَّباتِ المُستقبَلةِ(١).

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ جوازُ قراءةِ المصلِّي أواخِرَ السُّوَرِ، وأواسِطَها، وأوائِلَها في الفَرضِ والنَّفْلِ(٢). وجوازُ قراءةِ المصلِّي بعدَ الفاتحةِ سورتَينِ أو ثلاثًا، وله أنْ يَقْتَصِرَ على سُورةٍ واحدةٍ، أو يَقْسِمَ السُّورةَ إلى نِصفَينِ، وكلُّ ذلك جائزٌ؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ(٣). وأنَّه لا بأسَ مِن إعادةِ السُّورةِ مرَّةً أو مرَّتَينِ؛ سواءٌ في ركعةٍ أو في ركعتَينِ، وسواءٌ كان سَهوًا أو عَمدًا؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ(٤). وذلك على أنَّ المرادَ بالآيةِ قراءةُ ما تيسَّر بعدَ الفاتحةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٣/ ٢٦١).

قال ابن القيِّم: (وكان مِن هَدْيِه قِراءةُ السُّورةِ كاملةً، ورُبَّما قرأها في الرَّكعتَينِ، ورُبَّما قرأ أوَّلَ السُّورةِ. وأمَّا قِراءةُ أواخِرِ السُّوَرِ وأوساطِها فلم يُحفَظْ عنه). ((زاد المعاد)) (١/ ٢٠٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٣/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٤/ ٤٤١).

قال ابن كثير: (وقد استدَلَّ أصحابُ الإمامِ أبي حنيفةَ رحمه الله بهذه الآيةِ، وهي قولُه: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ على أنَّه لا يتعيَّنُ قراءةُ الفاتحةِ في الصَّلاةِ، بل لو قرأ بها أو بغيرِها مِن القرآنِ ولو بآيةٍ، أجْزَأَه. واعتضَدوا بحديثِ المُسيءِ صلاتَه الَّذي في الصَّحيحَينِ: «ثمَّ اقرَأْ ما تيسَّر معك مِن القرآنِ». وقد أجابهم الجمهورُ بحديثِ عُبادةَ بنِ الصَّامتِ، وهو في الصَّحيحَينِ أيضًا: أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّمَ قال: «لا صَلاةَ لِمَن لم يَقرَأْ بفاتحةِ الكِتابِ»، وفي صحيحِ مسلمٍ عن أبي هُرَيرةَ أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قال: «كلُّ صلاةٍ لا يُقرأُ فيها بأمِّ الكِتابِ فهي خِداجٌ، فهي خِداجٌ، فهي خِداجٌ، غيرُ تمامٍ». وفي صحيحِ ابنِ خُزَيْمةَ عن أبي هُرَيرةَ مرفوعًا: «لا تُجزئُ صلاةُ مَن لم يَقرَأْ بأمِّ القرآنِ»). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٨). ويُنظر: ((أحكام القرآن)) للجصَّاص (١/ ٢٠)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٦).

قال ابن عاشور: (لا دَلالةَ في هذه الآيةِ على مِقْدارِ ما يُجزئُ مِن القراءةِ في الصَّلاةِ؛ إذْ ليسَ =

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ أنَّه ليس على الإمامِ في صلاةِ التَّراويحِ في رمضانَ أنْ يَخْتِمَ القرآنَ؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ، ولكِنْ إنْ خَتَمَه مِن أجْلِ أنْ تكونَ الجماعةُ الَّذين وراءَه يَستَمِعونَ إلى كتابِ اللهِ سُبحانَه وتعالى مِن أوَّلِه إلى آخِرِه، كان خَيرًا، وإنْ لم يَفْعَلْ فلا حَرَجَ[١]، وأيضًا أنَّه لا حَرَجَ أنْ يَقْرَأَ الإمامُ أجزاءً مُتفرِّقةً في قيامِ رمضانَ في التَّراويحِ؛ لعُمومِ الآيةِ الكريمةِ[٢]. وذلك على أنَّ المرادَ بالآيةِ قِراءةُ ما تيسَّر بعدَ الفاتحةِ.

١٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: أقيمُوا صَلاتَكم الواجِبةَ عليكم، وآتُوا الزَّكاةَ المفروضةَ. وهذا يدُلُّ لِمَن قال: إنَّ فَرْضَ الزَّكاةِ نَزَل بمكَّةَ، لكِنَّ مَقاديرَ النُّصُبِ والمُخْرَجِ لم تُبَيَّنْ إلَّا بالمدينةِ. واللهُ أعلمُ[٣].

١٤- إذا كانتْ هذه الآيةُ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ ...﴾ ممَّا نزَلَ بمكَّةَ ففيها بِشارةٌ بأنَّ أمْرَ المسلمينَ صائرٌ إلى استِقلالٍ وقَترةٍ على أعدائِهم، فيُقاتِلون في سَبيلِ اللهِ، وإنْ كانت مَدَنيَّةً فهو عذْرٌ لهم عن صَلاةِ القيامِ بسَببِ ما ابتَدؤوا فيه مِن السَّرايا والغزَواتِ[٤].

## بلاغةُ الآيةِ:

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ مَسوقةٌ

---

= سِياقُها في هذا المَهْيَعِ، ولَئِنْ سَلَّمْنا، فإنَّ ما تَيسَّر مُجمَلٌ، وقد بَيَّنَه قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لا صلاةَ لِمَن لم يَقْرَأْ بفاتحةِ الكتابِ». ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٤).

وقد ذهب المالكيَّةُ والشَّافعيَّةُ والحنابلةُ إلى أنَّ قراءةَ الفاتحةِ ركنٌ مِن أركانِ الصَّلاةِ، وفي قراءةِ المأمومِ خلفَ الإمامِ خلافٌ بينهم. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٣٣/ ٤٧، ٥٢).

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٥/ ٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٥).

لإيضاحِ ما أُجمِلَ في أوَّلِ السُّورةِ[١].

- وافتِتاحُ الكلامِ بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ يُشعِرُ بالثَّناءِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لوَفائِه بحَقِّ القيامِ الَّذي أُمِرَ به، وأنَّه كان يَبسُطُ إليه، ويَهتَمُّ به، ولم يَقتصِرْ على القدْرِ المُعيَّنِ فيه؛ النِّصفِ، أو أنقَصَ منه قليلًا، أو زائدٍ عليه، بلْ أخَذَ بالأقْصى، وذلك ما يَقرُبُ مِن ثُلُثي اللَّيلِ، كما هو شأْنُ أُولي العزْمِ[٢].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) للاهتمامِ به، وهو كِنايةٌ عن أنَّه أرْضَى ربَّه بذلك، وتَوطئةٌ للتَّخفيفِ الَّذي سيُذكَرُ في قولِه: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾؛ ليُعلَمَ أنَّه تَخفيفُ رَحمةٍ وكَرامةٍ، ولإفراغِ بَعضِ الوقتِ مِن النَّهارِ للعمَلِ والجِهادِ[٣].

- وإيثارُ المُضارِعِ في قولِه: ﴿يَعْلَمُ﴾؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ ذلك العِلمِ وتَجدُّدِه، وذلك إيذانٌ بأنَّه بمَحلِّ الرِّضا منه، وفي ضِدِّه قولُه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٨]؛ لأنَّه في مَعرِضِ التَّوبيخِ، أي: لمْ يَزَلْ عالِمًا بذلك حِينًا فحِينًا، لا يَخْفَى عليه منه حِصَّةٌ[٤].

- وإنَّما عُبِّرَ بالأدْنى -وهو الأقربُ- عن الأقلِّ؛ لأنَّ المسافةَ إذا دَنَت بيْنَ الشَّيئينِ قلَّ ما بيْنَهما مِن الأحيازِ، وإذا بعُدَت كثُرَ ذلك[٥].

- وقُرِئَ ﴿ونِصفِه وثُلثِه﴾ بخفْضِهما عطْفًا على ﴿ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾، أي: أدْنى مِن

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٦٩).

نِصفِه، وأدْنى مِن ثُلثِه. وقُرِئَ بنصْبِ ﴿وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾[1]، على أنَّهما مَنصوبانِ على المفعولِ لـ ﴿تَقُومُ﴾، أي: تَقومُ ثُلُثَي اللَّيلِ، وتَقومُ نِصفَ اللَّيلِ، وتَقومُ ثُلثَ اللَّيلِ، بحيث لا يَنقُصُ عن النِّصفِ وعن الثُّلثِ. وهذه أحوالٌ مُختلِفةٌ في قِيامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باللَّيلِ، تابعةٌ لاختلافِ أحوالِ اللَّيالي والأيَّامِ في طُولِ بَعضِها وقِصَرِ بَعضٍ، وكلُّها داخلةٌ تحتَ التَّخييرِ الَّذي خيَّرَه اللهُ في قولِه: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [المزمل: ٢] إلى قولِه: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: ٤]، وبه تَظهَرُ مُناسَبةُ تَعقيبِ هذه الجُملةِ بالجُملةِ المُعترِضةِ، وهي جُملةُ ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: قدْ عَلِمَها اللهُ كلَّها، وأنْبَأَه بها، فلا يَختلِفُ المقصودُ باختلافِ القراءاتِ[2].

- قولُه: ﴿وَطَآئِفَةٞ﴾ عطْفٌ على اسمِ (إنَّ) بالرَّفعِ، وهو وجْهٌ جائزٌ إذا كان بعْدَ ذِكرِ خبَرِ (إنَّ)؛ لأنَّه يُقدَّرُ رفْعُه حِينَئذٍ على الاستِئنافِ، كما في قولِه تعالَى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٣]، وهو مِن اللَّطائفِ إذا كان اتِّصافُ الاسمِ والمعطوفِ بالخبَرِ مُختلِفًا؛ فإنَّ بيْنَ قِيامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقِيامِ الطَّائفةِ الَّتي معه تَفاوُتًا في الحكْمِ والمِقدارِ، وكذلك بَراءةُ اللهِ مِن المُشرِكينَ وبَراءةُ رَسولِه؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَدْعوهم، ويَقرَأُ عليهم القُرآنَ، ويُعامِلُهم، وأمَّا اللهُ فغاضِبٌ عليهم ولاعِنُهُم، وهذا وجْهُ العُدولِ عن أنْ يقولَ: إنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّكم تَقومون، إلى قولِه: ﴿أَنَّكَ تَقُومُ﴾، ثمَّ قولِه: ﴿وَطَآئِفَةٞ ...﴾ إلخ[3].

- وصدْرُ هذه الآيةِ إيماءٌ إلى الثَّناءِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في وَفائِه

---

(١) يُنظر ما تقدَّم (ص: ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨١، ٢٨٢).

بقِيامِ اللَّيلِ حقَّ الوفاءِ، وعلى الطَّائفةِ الَّذين تابَعُوه في ذلك؛ فالخبَرُ بأنَّ اللهَ يَعلَمُ أنَّك تَقومُ مُرادٌ به الكِنايةُ عن الرِّضا عنهم فيما فَعَلوا، والمَقصودُ التَّمهيدُ لقولِه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ إلى آخِرِ الآيةِ، ومِن أجْلِ هذا الاعتبارِ أُعِيدَ فِعلُ (عَلِمَ) في جُملةِ ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ...﴾ إلخ، ولم يقُلْ: (وأنْ سيَكونُ منكم مَرْضى) بالعطْفِ[1].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: ولا يَقدِرُ على تَقديرِ اللَّيلِ والنَّهارِ ومَعرفةِ مَقاديرِ ساعاتِهما إلَّا اللهُ وحْدَه. وتَقديمُ اسمِه تعالَى مُبتدأً مَبنيًّا عليه ﴿يُقَدِّرُ﴾ يُشعِرُ بالاختِصاصِ، ويُؤيِّدُه قولُه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾، أي: لنْ تُحْصوا تَقديرَ الأوقاتِ، ولن تَستطيعوا ضَبْطَ السَّاعاتِ. أو إنَّما استُفِيدَ الاختِصاصُ مِن سِياقِ الكلامِ، لا مِن تَقديمِ المُبتدأِ. أو إفادةُ الاختِصاصِ مِن خُصوصيَّةِ الاسمِ الجامعِ مع التَّركيبِ؛ لِما تَجِدُ التَّفاوُتَ بيْن ما عليه التِّلاوةُ وقولِنا: يُقدِّرُ اللهُ اللَّيلَ[2].

- وجُملةُ ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ خبَرًا ثانيًا عن (إنَّ) بعْدَ الخبَرِ في قولِه: ﴿يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ ...﴾ إلخ. ويَجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا بَيانيًّا لِما يَنشَأُ عن جُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾؛ مِن تَرقُّبِ السَّامعِ لمَعرفةِ ما مُهِّدَ له بتلكَ الجُملةِ؛ فبعْدَ أنْ شَكَرَهم على عَمَلِهم، خفَّفَ عنْهم منه[3].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿تُحْصُوهُ﴾ وما بَعْدَه مُوجَّهٌ إلى المسلمينَ الَّذين كانوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٠٣، ١٠٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣).

يَقومونَ اللَّيلَ: إمَّا على طَريقةِ الالْتفاتِ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ بعْدَ قولِه: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾. وإمَّا على طَريقةِ العامِّ المُرادِ به الخُصوصُ؛ بقَرينةِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُظَنُّ تعذُّرُ الإحصاءِ عليه، وبقَرينةِ قولِه: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ إلخ[1].

- وقولُه: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾؛ لعدَمِ المُؤاخَذةِ قبْلَ حُصولِ التَّقصيرِ؛ لأنَّ التَّقصيرَ مُتوقَّعٌ، فشابَهَ الحاصلَ، فعُبِّرَ عن عدَمِ التَّكليفِ بما يُتوقَّعُ التَّقصيرُ فيه بفِعلِ (تاب) المُفيدِ رفْعَ المُؤاخَذةِ بالذَّنْبِ بعْدَ حُصولِه[2].

- ومعنى قولِه: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فصَلُّوا ما تيسَّرَ لكم، لَمَّا كانت الصَّلاةُ لا تَخْلو عن قِراءةِ القُرآنِ، عُبِّر عنها بالقِراءةِ؛ لأنَّها بَعضُ أركانِها؛ فقِيل: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، أي: صَلُّوا، كقولِه تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي: صلاةَ الفَجرِ[3].

- وفي الكِنايةِ عن الصَّلاةِ بالقُرآنِ جمْعٌ بيْن التَّرغيبِ في القِيامِ، والتَّرغيبِ في تِلاوةِ القُرآنِ فيه بطَريقةِ الإيجازِ[4].

- قولُه: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ استِئنافٌ يُبيِّنُ حِكمةً أُخرى مُقتضيةً للتَّرخيصِ والتَّخفيفِ، وهي تَعذُّرُ القِيامِ على المَرْضى، والضَّاربينَ في الأرضِ للتِّجارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٤).

وللأشغالِ الَّتي تَدْعو إليها ضَرورةُ العَيشِ، والمُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ؛ ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾ كُرِّرَ ذلك على سَبيلِ التَّوكيدِ[١].

- أو استِئنافٌ على تَقديرِ السُّؤالِ عن وَجْهِ النَّسخِ وحِكمتِه[٢].

- وهذه الجُملةُ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾، وهذا تَخفيفٌ آخَرُ مِن أجْلِ أحوالٍ أُخرى اقتَضَت التَّخفيفَ[٣].

- وقدْ سوَّى اللهُ بيْن المُجاهِدينَ والمسافِرينَ لكسْبِ الحَلالِ؛ وذلك أنَّه أُعيدَ ذِكْرُ ﴿وَءَاخَرُونَ﴾، وقُوبِلَ ﴿يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾ بقولِه: ﴿يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثمَّ جُمِعَا في قولِه: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُ﴾، لفْظًا مِن حيثُ الضَّميرُ، وحُكمًا في الأمْرِ بالقراءةِ على سَبيلِ التَّيسيرِ، وكان أصلُ الكلامِ: عَلِمَ أنْ سيَكونُ منْكم مَرْضَى ومُسافِرون، فقَسَمَهم قِسمَين: المُبتغينَ مِن فضْلِ اللهِ والمُجاهِدينَ، ولم يَكتَفِ بذلك، بل قدَّمَ المسافرينَ على المجاهِدينَ[٤].

- وسُمِّيَ السَّيرُ في الأرضِ ضَرْبًا في الأرضِ؛ لتَضمينِ فِعلِ ﴿يَضۡرِبُونَ﴾ معْنى يَسيرون؛ فإنَّ السَّيرَ ضرْبٌ للأرضِ بالرِّجلَينِ، لكنَّه تُنُوسِيَ منه معْنى الضَّربِ وأُريدَ المشْيُ، فلذلك عُدِّيَ بحرْفِ (فِي)؛ لأنَّ الأرضَ ظرْفٌ للسَّيرِ، كما قال تعالَى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[٥] [آل عمران: ١٣٧].

- وفُرِّعَ على الابتغاءِ مِن فضْلِ اللهِ مِثلُ ما فُرِّعَ على الَّذي قبْلَه فقال: ﴿فَٱقۡرَءُواْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٧، ٢٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٠٥، ١٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾، أي: مِن القرآنِ، وقد نِيطَ مِقدارُ القيامِ بالتَّيسيرِ على جَميعِ المسلمينَ وإنِ اختَلَفَت الأعذارُ[١].

- وفي قولِه: ﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ شُبِّهَ إعطاءُ الصَّدقةِ للفَقيرِ بقرْضٍ يُقرِضُه اللهَ؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَ على الصَّدقةِ بالثَّوابِ الجزيلِ، فشابَهَ حالُ مُعْطي الصَّدقةِ مُستجيبًا رَغبةَ اللهِ فيه، بحالِ مَن أقرَضَ مُستقرِضًا في أنَّه حَقيقٌ بأنْ يُرجِعَ إليه ما أقْرَضَه، وذلك في الثَّوابِ الَّذي يُعطاهُ يومَ الجَزاءِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ تَذْييلٌ لِما سَبَقَ مِن الأمْرِ في قولِه: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾؛ فإنَّ قولَه: ﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ يعُمُّ جَميعَ فِعلِ الخيرِ[٣].

- وفي الكلامِ إيجازُ حَذْفٍ، وتَقديرُ المحذوفِ: وافْعَلوا الخيرَ وما تُقدِّمُوا لأنفُسِكم منه تَجِدوه عندَ اللهِ، فاستُغْنِيَ عن المحذوفِ بذِكرِ الجزاءِ على الخيرِ[٤].

- ومعْنى تَقديمِ الخيرِ: فِعلُه في الحياةِ؛ شُبِّهَ فِعلُ الخَيرِ في مُدَّةِ الحياةِ -لرَجاءِ الانتفاعِ بثَوابِه في الحياةِ الآخِرةِ- بتَقديمِ العازمِ على السَّفرِ ثَقَلَه -وهو متاعُ المُسافِرِ وحَشَمُه- وأدواتِه وبَعضَ أهْلِه إلى المحلِّ الَّذي يَرومُ الانتهاءَ إليه؛ ليَجِدَ ما يَنتفِعُ به وقْتَ وُصولِه[٥].

- و﴿مِّنْ خَيْرٍ﴾ بَيانٌ لإبهامِ (ما) الشَّرطيَّةِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٨).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ومعنى ﴿تَجِدُوهُ﴾ تَجِدوا جَزاءَه وثَوابَه، وهو الَّذي قَصَدَه فاعلُه، فكأنَّه وَجَدَ نفْسَ الَّذي قدَّمَه، وهذا استعمالٌ كَثيرٌ في القرآنِ والسُّنَّةِ؛ أنْ يُعبَّرَ عن عِوَضِ الشَّيءِ وجَزائِه باسمِ المُعوَّضِ عنه والمُجازى به(١).

- وأفاد ضَميرُ الفصْلِ (هو) مُجرَّدَ التَّأكيدِ لتَحقيقِه(٢).

- ويَجوزُ أنْ تكونَ الواوُ في قولِه: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ للعطْفِ، فيَكونَ مَعطوفًا على جُملةِ ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم ...﴾ إلخ، فيَكونَ لها حُكمُ التَّذييلِ؛ إرشادًا لتَدارُكِ ما عَسى أنْ يَعرِضَ مِن التَّفريطِ في بَعضِ ما أمَرَه اللهُ بتَقديمِه مِن خَيرٍ؛ فإنَّ ذلك يَشملُ الفرائضَ الَّتي يَقْتضي التَّفريطُ في بَعضِها تَوبةً منه. ويَجوزُ أنْ يكونَ استِئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن التَّرخيصِ في ترْكِ بَعضِ القيامِ؛ إرشادًا مِن اللهِ لِما يَسُدُّ مَسدَّ قِيامِ اللَّيلِ الَّذي يَعرِضُ ترْكُه بأنْ يَستغفِرَ المُسلِمُ ربَّه إذا انتَبَهَ مِن أجزاءِ اللَّيلِ(٣).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ تَعليلٌ للأمرِ بالاستِغفارِ، أي: لأنَّ اللهَ كَثيرُ المغفرةِ، شَديدُ الرَّحمةِ(٤). والمَقصودُ مِن هذا التَّعليلِ التَّرغيبُ والتَّحريضُ على الاستِغفارِ بأنَّه مَرجوُّ الإجابةِ. فقَرْنُ الحُكْمِ بالعِلَّةِ في مِثْلِ هذا يفيدُ الإقدامَ والنَّشاطَ على استِغفارِ اللهِ عزَّ وجلَّ. وفي الإتيانِ بالوصفَينِ الدَّالَّينِ على المُبالَغةِ في الصِّفةِ إيماءٌ إلى الوعْدِ بالإجابةِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٤٣١).

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ المُدَّثِّرِ

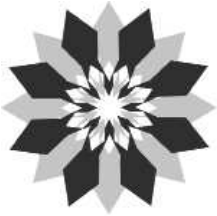

# سورةُ المُدَّثِّرِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (المدَّثِّرِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ المدَّثِّرِ مكيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

الأمرُ بالنُّهوضِ بالدَّعوةِ ومُقَوِّماتِها[٣].

## موضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- تكريمُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأمْرُه بتبليغِ رسالةِ الله إلى النَّاسِ.

٢- تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا أصابه مِن أذًى، وتهديدُ أعدائِه

---

(١) سُمِّيَت السورةُ بذلك؛ لافتتاحِها بلفظ (المدَّثِّرِ) في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، وهو وصفٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩١).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٥٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٣٤).

(٣) قال البِقاعي: (مقصودُها: الجِدُّ والاجتهادُ في الإنذارِ بدارِ البوارِ لأهلِ الاستكبارِ، وإثباتُ البعثِ في أنفُسِ المكَذِّبينَ الفُجَّارِ، والإشارةُ بالبِشارةِ لأهلِ الادِّكارِ، بحُكمِ العزيزِ الغَفَّارِ). ((مصاعد النظر)) (٣/ ١٣٥).

بأشَدِّ ألوانِ العِقابِ.

٣- بيانُ حُسنِ عاقبةِ المؤمِنينَ، وسوءِ عاقبةِ المكَذِّبينَ.

٤- الرَّدُّ على الكافِرينَ بما يُبطِلُ دعاواهم.

## الآيات (١-١٠)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ٨ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ٩ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ١٠﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾: أي: المُشتَمِلُ بثيابِه إذا نام، يقالُ: تدَثَّرَ بالثَّوبِ: إذا اشتَمَل به داخِلًا فيه وتلَفَّف. والدِّثارُ: هو الثَّوبُ الَّذي يُستدفَأُ به مِن فوقِ الشِّعارِ الملاصِقِ للبَدَنِ، وأصلُ (دثر): يدُلُّ على تضاعُفِ شَيءٍ وتَناضُدُه بَعْضِه على بعضٍ[1].

﴿وَٱلرُّجۡزَ﴾: أي: الأوثانَ والأصنامَ، والرِّجزُ: العَذابُ، وسمُّيتَ الأوثانُ رجزًا؛ لأنَّها تؤدِّي إلى العَذابِ، والرُّجزُ: اسمٌ للقبيحِ المستقذَر، والرُّجْزُ والرِّجْزُ لغتانِ، وقيل: الرُّجْزُ بالضَّمِّ: الصَّنَمُ، وبالكسرِ: النَّجاسَةُ، والمعصيةُ، والعذابُ[2].

﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾: أي: لا تُعْطِ عَطاءً لِتُعْطَى أكْثَرَ منه، مِن قَولِهم: مَنَّ: إذا أعطى. أو: لا تَمنُنْ بعَمَلِك مُستَكثِرًا له؛ مِنَ المَنِّ: الَّذي هو تعديدُ النِّعمةِ وذِكْرُها. وأصلُ (منن): يدُلُّ على اصطناعِ خَيرٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٨)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١١/ ٢٧٢).
و﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ بتشديد الدَّالِ، وأصْلُه المُتَدَثِّرُ، فأُدغِمَتِ التَّاءُ في الدَّالِ؛ لتَقارُبِ مَخرجَيْهِما. يُنظر: ((مشارق الأنوار على صحاح الآثار)) لعياض (١/ ٢٥٣)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩، ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٧٧).

﴿ٱلنَّاقُورِ﴾: أي: الصُّورِ، وأصلُ (نقر): يدُلُّ على قَرعِ شَيءٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

افتتح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بنداءِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نِداءً مِلْؤُه التَّلَطُّفُ والتَّحَبُّبُ إليه، قائِلًا له: يا أيُّها الَّذي التَفَّ بالثِّيابِ وضَمَّها عليه؛ خَوفًا وفَزَعًا، قُمْ فحَذِّرِ المُشرِكينَ عَذابَ اللهِ إنْ لم يُوَحِّدوه، وعَظِّمْ رَبَّك ونَزِّهْه عن النَّقائصِ، وطَهِّرْ ثِيابَك مِنَ النَّجاساتِ، ونَفْسَك مِن دَنَسِ الذُّنوبِ، وأعمالَك مِن الشِّركِ والمعاصي، واترُكْ عِبادةَ الأوثانِ، ولا تُعْطِ شَيئًا رجاءَ أن تُعطى أكثَرَ منه، واصبِرْ على ما تَلْقَى مِن أذًى ومَكروهٍ في سبيلِ اللهِ، واصبِرْ على غيرِ ذلك مِن أقدارِ الله المؤلِمةِ، وعلى طاعةِ الله وعن معصيتِه.

ثمَّ يَذكُرُ الله تعالى جانبًا مِن أهوالِ يومِ القيامةِ، فيقولُ: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ يومَ القيامةِ لِبَعثِ النَّاسِ للحِسابِ، فذلك يَومٌ صَعْبٌ شديدٌ على الكافِرين، غَيرُ سَهلٍ ولا هَيِّنٍ عليهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((جاوَرْتُ بحِراءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيتُ جِواري، نَزَلْتُ فاستَبطَنْتُ بَطْنَ الوادِي، فَنُودِيتُ فَنَظَرْتُ أمامي وخَلفي، وعنْ يَميني، وعنْ شِمالي، فلمْ أرَ أحَدًا، ثُمَّ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٤).

نُودِيتُ فنَظَرْتُ فلمْ أرَ أحَدًا، ثُمَّ نُودِيتُ فَرَفَعْتُ رَأْسي، فإذا هو على العَرشِ في الهواءِ -يعني: جِبريلَ عليه السَّلامُ-، فأخَذَتْني رَجْفَةٌ شَديدةٌ! فأتَيتُ خَديجةَ، فَقُلتُ: دَثِّروني، فدَثَّروني، فصَبُّوا علَيَّ ماءً، فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ * قُمۡ فَأَنذِرۡ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ [المدثر: ١ - ٤]))[١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١﴾.

أي: يا أيُّها المتغَطِّي بالثِّيابِ خَوفًا وفَزَعًا[٢].

﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾.

أي: قُمْ فخَوِّفِ المُشرِكينَ وحَذِّرْهم عَذابَ اللهِ إنْ لم يُوَحِّدوه[٣].

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٢٤)، ومسلمٌ (١٦١) واللَّفظُ له.

قال القَسْطَلَّاني: (وليس في هذا الحديثِ أنَّ أوَّلَ ما نزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾، وإنَّما استخرَج ذلك جابرٌ باجتهادِه وظنِّه فلا يُعارِضُ الحديثَ الصَّحيحَ الصَّريحَ ... أنَّه ﴿ٱقۡرَأۡ﴾). ((إرشاد الساري)) (٧/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤).

قال الزمخشري: (المُدَّثِّرُ: لابِسُ الدِّثارِ، وهو ما فوقَ الشِّعارِ، وهو الثَّوبُ الَّذي يلي الجسَدَ، ومنه قولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «الأنصارُ شِعارٌ، والنَّاسُ دِثارٌ» [البخاري «٤٣٣٠» ومسلم «١٠٦١»]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٤).

وقال الرازي: (أجمَعوا على أنَّ ﴿ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ هو رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٦).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: يا أيُّها المدَّثِّرُ مِن الرُّعبِ لرؤيةِ مَلَكِ الوَحيِ، لا تَخَفْ، وأقبِلْ على الإنذارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤، ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥).

قال الرازي: (في قولِه: ﴿قُمۡ﴾ وجهان: أحدُهما: قمْ مِن مضجعِك، والثاني: قُمْ قيامَ عزمٍ وتصميمٍ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٧)

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنذارُ يتضَمَّنُ مواجهةَ النَّاسِ بما يَكرَهون، وذلك عظيمٌ على الإنسانِ، وكان المُفَتِّرُ عن اتِّباع الدَّاعي أحدَ أمْرَينِ: ترْكَه ما يؤمَرُ به، وطَلَبَه عليه الأجرَ، كما أنَّ الموجِبَ لاتِّباعِه: عمَلُه بما دعا إليه، وبُعدُه عن أخذِ الأجرِ عليه- أمَرَه بتعظيمِ مَن أرسَلَه سُبحانَه؛ فإنَّه إذا عُظِّمَ حَقَّ تعظيمِه، صَغُرَ كُلُّ شيءٍ دونَه، فهان عليه الدُّعاءُ، وكان له مُعينًا على القَبولِ، فقال[1]:

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣﴾.

أي: وعَظِّمْ رَبَّك قَولًا -ومِن ذلك قولُ: الله أكبرُ- واعتقادًا، ومِن ذلك: عِبادتُه وَحْدَه، وتنزيهُه عن النَّقائصِ، ووَصْفُه بصِفاتِ الكَمالِ، ودَعوةُ النَّاسِ إلى توحيدِه وتَعظيمِه[2].

كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ [الإسراء: ١١١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٥، ٢٩٦).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي: عظِّمْه. ويحتَمِلُ أن يريدَ قولَ: اللهُ أكبَرُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٣٩).

وقال ابن عاشور: (مَعْنَى ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾: صِفْ رَبَّك بصِفاتِ التَّعظيمِ، وهذا يَشمَلُ تَنْزيهَه عن النَّقائصِ، فيَشمَلُ توحيدَه بالإلَهيَّةِ، وتنزيهَه عن الولدِ، ويَشمَلُ وَصْفَه بصفاتِ الكمالِ كُلِّها. ومعْنى «كبِّرْ»: كبِّرْه في اعتِقادِك، وكبِّرْه بقولِك تَسبيحًا وتَعليمًا، ويَشمَلُ هذا المعْنى أنْ يقولَ: «اللهُ أكبَرُ»؛ لأنَّه إذا قال هذه الكلمةَ أفاد وصْفَ اللهِ بأنَّه أكبَرُ مِن كلِّ كبيرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٦).

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان تنزيهُ العبدِ عن الأدناسِ مِن أجْلِ تنزيهِ المعبودِ؛ أمَرَ اللهُ تعالى بتطهيرِ الظَّاهِرِ والباطِنِ[١]، فقال:

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤﴾.

أي: وطَهِّرْ ثِيابَك مِنَ النَّجاساتِ، وطهِّرْ نَفْسَك مِن دَنَسِ الذُّنوبِ، وطهِّرْ أعمالَك مِن الشِّركِ والمعاصي[٢].

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَ بمُجانَبةِ القَذَرِ في الثِّيابِ، وجَعَل ذلك كنايةً عن تجنُّبِ الأقذارِ كُلِّها؛ لأنَّ مَن جَنَّب ذلك مَلْبَسَه أبعَدَه عن نَفْسِه مِن بابِ الأَولى- حَقَّق العُمومَ وأكَّده، فقال[٣]:

﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾.

أي: واترُكْ عِبادةَ الأوثانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((شرح العمدة- كتاب الصلاة)) لابن تيمية (ص: ٤٠٤-٤٠٨)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٥٢، ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٢-٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٣، ٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠].

﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بدأ بأحَدِ سَبَبَيِ القَبولِ، أتْبَعَه الثَّانيَ المُبعِدَ عن قاصمةِ العَمَلِ؛ مِن الإعجابِ والرِّياءِ والمَلَلِ، فقال: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾[1]، وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

وأيضًا فمُناسَبةُ عطْفِه على الأمرِ بهَجْرِ الرُّجْزِ: أنَّ المَنَّ في العطيَّةِ كَثيرٌ مِن خُلقِ أهلِ الشِّركِ، فلمَّا أمَرَه اللهُ بهَجْرِ الرُّجْزِ نَهاهُ عن أخلاقِ أهلِ الرُّجْزِ[2]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦﴾.

أي: لا تُعْطِ شيئًا رجاءَ أن تُعطَى أكثرَ منه[3].

---

= (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٨).

قال الواحدي: (قال جماعةُ المفَسِّرينَ: يريدُ: عِبادةَ الأوثانِ فاهجُرْ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٨٠، ٣٨١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٨).

(٣) ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزجاجُ، والسمرقندي، والسمعاني، والواحدي، واستظهره القرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٤/ ٢١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤).

وممَّن نسَب هذا القولَ إلى أكثرِ المفسِّرينَ وجمهورِهم: مكِّيٌّ، والرَّسْعَنيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٢٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٥٢).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لا تُعْطِ العَطِيَّةَ تَلتَمِسُ أكثرَ منها. وكذا =

= قال عِكْرِمةُ، ومجاهِدٌ، وعطاءٌ، وطاوُسٌ، وأبو الأحوصِ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ يحتَمِلُ قولُه: ﴿تَمْنُن﴾ أن يكونَ بمعنى العطاءِ، أو بمعنى المَنِّ، وهو ذِكرُ العطاءِ وشِبْهِه، أو بمعنى الضَّعْفِ؛ فإن كان بمعنَى العطاءِ ففيه وجهانِ؛ أحدُهما: أنَّ معناه: لا تُعْطِ شيئًا لتأخُذَ أكثَرَ منه. قال بعضُهم: هذا خاصٌّ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومباحٌ لأُمَّتِه، والآخَرُ: لا تُعْطِ النَّاسَ عطاءً وتَستَكْثِره؛ لأنَّ الكريمَ يَستقِلُّ ما يُعطي وإنْ كان كثيرًا. وإن كان مِن المَنِّ بالشَّيءِ ففيه وجهانِ؛ الأوَّلُ: لا تَمْنُنْ على النَّاس بنُبوَّتِك تَستكثِرُ بأجرٍ أو مَكسَبٍ تَطلُبُه. الثَّاني: لا تمنُنْ على الله بعَمَلِك تستكثِرُ أعمالَك ويقَع لك بها إعجابٌ. وإن كان مِن الضَّعفِ فمعناه: لا تَضعُفْ عن تبليغِ الرِّسالةِ، وتَستكثِرْ ما حمَّلْناك مِن ذلك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٧).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: ولا تَمنُنْ بعمَلِكَ الصَّالحِ فتَستَكْثِرَه على ربِّك: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٦).

وقيل: المعنى: لا تَمنُنْ على النَّاسِ بما قدَّمْتَ لهم مِن خيرٍ، وتَعُدَّ ما أعطَيْتَه كثيرًا. ومِمَّن ذهب إليه في الجملةِ: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٨).

قال السعدي: (لا تَمنُنْ على النَّاسِ بما أسدَيْتَ إليهم مِن النِّعَمِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ، فتَتكثَّرَ بتِلكَ المِنَّةِ، وتَرى لك الفضلَ عليهم بإحسانِك المِنَّةَ، بل أحسِنْ إلى النَّاسِ مهما أمكَنَك، وانْسَ عِندَهم إحسانَك، ولا تطلُبْ أجْرَه إلَّا مِن اللهِ تعالى، واجعَلْ مَن أحسَنْتَ إليه وغَيْرَه على حَدٍّ سواءٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥).

وقال الجصَّاصُ: (قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ وإبراهيمُ ومجاهدٌ وقَتادةُ والضَّحَّاكُ: لا تُعطِ عَطيَّةً لِتُعطَى أكثَرَ منها. وقال الحسَنُ والرَّبيعُ بنُ أنسٍ: لا تَمنُنْ حسَناتِك على الله مُستكثِرًا لها فيَنقُصَك ذلك عندَ الله. وقال آخَرون: لا تَمنُنْ بما أعطاك الله مِن النُّبوَّةِ والقرآنِ مُستكثِرًا به الأجرَ مِن النَّاسِ. وعن مُجاهِدٍ أيضًا: لا تَضعُفْ في عمَلِك مُستكثِرًا لطاعتِك.

وقال أبو بكرٍ [الجصَّاص]: هذه المعاني كلُّها يَحتمِلُها اللَّفظُ، وجائزٌ أن يكونَ جميعُها مرادًا به، فالوجهُ حمْلُه على العُمومِ في سائرِ وُجوهِ الاحتمالِ). ((أحكام القرآن)) (٥/ ٣٦٨).

وقال ابن العربي: (المَنُّ... يُطلَقُ على معنيَينِ؛ أحدُهما: العطاءُ.

والثَّاني: التَّعدادُ على المُنعَمِ عليه بالنِّعَمِ... والآيةُ تَتناوَلُ المعنيَينِ كِلَيْهِما). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٤٣).

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الإنذارُ شديدًا على النُّفوسِ يَحصُلُ به مِن المعالَجاتِ ما الموتُ دونَه؛ لأنَّ تَرْكَ المألوفاتِ أصعَبُ شَيءٍ على النُّفوسِ، وكذا تركُ العوائِدِ- قال آمِرًا بالتَّحَلِّي بالعاصِمِ بعدَ التَّخَلِّي عن القاصِمِ، مُعْلِمًا بأنَّ الأذَى مِن المُنذَرِينَ أمرٌ لا بدَّ منه، فيَدخُلُ في الطَّاعةِ على بصيرةٍ[1]:

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾.

أي: واصبِرْ مِن أجْلِ رَبِّك وَحْدَه على ما تَلْقَى مِن أذًى ومَكروهٍ في سبيلِ دَعوةِ الخَلْقِ إلى اللهِ تعالى، وتبليغِ رِسالتِه، واصبِرْ على غيرِ ذلك مِن أقدارِ الله المؤلِمةِ، وعلى طاعةِ الله وعن معصيتِه[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٩، ٣٠٠).

ومِمَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ أمرُه بالصَّبرِ على الأذى والمكروهِ مِنَ المُشرِكينَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٩).

وقيل: المعنى: اصبِرْ لرَبِّك على طاعتِه، وأداءِ فرائِضِه. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٩).

ومِمَّن ذهب إلى العُموم: ابنُ عطيَّةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥).

قال ابنُ عطية: (﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ أي: لوَجهِ رَبِّك وطَلَبِ رِضاه، كما تقولُ: فعَلْتُ للهِ تعالى، والمعنى: على الأذى مِن الكُفَّارِ، وعلى العبادةِ، وعن الشَّهَواتِ، وعلى تكاليفِ النُّبُوَّةِ). =

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا تَمَّمَ ما يتعَلَّقُ بإرشادِ قُدوةِ الأنبياءِ، وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ عَدَل عنه إلى شَرحِ وَعيدِ الأشقياءِ(١)، فقال:

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾.

أي: فإذا نُفِخَ في الصُّورِ يومَ القيامةِ لِبَعثِ النَّاسِ أحياءً مِن قُبورِهم للحِسابِ والجَزاءِ(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

---

= ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٣).

وقال السعدي: (﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي: احتَسِبْ بصَبْرِك، واقصِدْ به وَجْهَ اللهِ تعالى، فامتَثَلَ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم لأمرِ رَبِّه، وبادَرَ إليه، فأنذَرَ النَّاسَ، وأوضَحَ لهم بالآياتِ البيِّناتِ جميعَ المطالِبِ الإلهيَّةِ، وعَظَّم اللهَ تعالى، ودعا الخَلْقَ إلى تعظيمِه، وطهَّر أعمالَه الظَّاهِرةَ والباطِنةَ مِن كُلِّ سُوءٍ، وهَجَر كُلَّ ما يُبعِدُ عن اللهِ مِن الأصنامِ وأهلِها، والشَّرِّ وأهلِه، وله المِنَّةُ على النَّاسِ، بَعْدَ مِنَّةِ اللهِ تعالى، مِن غيرِ أن يَطلُبَ منهم على ذلك جزاءً ولا شُكورًا، وصَبَر للهِ أكمَلَ صَبرٍ؛ فصَبَرَ على طاعةِ اللهِ، وعن معاصي اللهِ، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ، حتَّى فاق أُولي العَزمِ مِنَ المُرسَلينَ، صلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه وعليهم أجمَعينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥، ٨٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

قال النيسابوري: (النَّاقورُ ما يُنقَرُ به، وهو الصُّورُ باتِّفاقِ المفَسِّرينَ، فكأنَّه آلةُ النَّقْرِ، أي: النَّفخِ). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٣٨٨).

وقال ابنُ عاشور: (النَّاقورُ: البُوقُ الَّذي يُنادَى به الجَيشُ، ويُسَمَّى الصُّورَ، وهو قَرنٌ كبيرٌ أو شِبْهُه يَنفُخُ فيه النَّافِخُ لنداءِ ناسٍ يَجتَمِعونَ إليه مِن جيشٍ ونحوِه... قَولُه: ﴿نُقِرَ﴾ أي: صُوِّتَ، أي: صوَّتَ مُصَوِّتٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٠، ٣٠١).

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨].

﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩﴾.

أي: فذلك يَومٌ صَعْبٌ شديدٌ، بالغُ العُسْرِ، عظيمُ الأهوالِ[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَجمَعُ اللهُ النَّاسَ الأوَّلِينَ والآخِرينَ في صعيدٍ واحدٍ، يُسمِعُهم الدَّاعي، ويَنفُذُهم البَصَرُ، وتَدْنو الشَّمسُ، فيَبلُغُ النَّاسَ مِنَ الغَمِّ والكَرْبِ ما لا يُطيقونَ، ولا يَحتَمِلونَ))[٢].

﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

أي: وهو يومٌ شديدٌ على الكافِرينَ باللهِ ورُسُلِه، غَيرُ سَهلٍ ولا هَيِّنٍ عليهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٧، ٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- اللهُ سُبحانَه وتعالى خاطَبَ الأنبياءَ بأسمائِهم، فقال ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [طه: ١١، ١٢]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ولَمَّا خاطَبَ نبيَّنا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٢) رواه البخاري (٤٧١٢) واللَّفظُ له، ومسلم (١٩٤).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥).

[المائدة: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١] ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، فنحن أحقُّ أن نتأدَّبَ في دُعائِه وخِطابِه صلَّى الله عليه وسلَّم.

وأمَّا إذا كان في مقامِ الإخبارِ عنه، قُلْنا: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأشهَدُ أنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ، وقُلْنا: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ وخاتَمُ النَّبيِّينَ، فنُخبِرُ عنه باسمِه كما أخبَرَ اللهُ سُبحانَه لَمَّا أخبَرَ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ﴾ [محمد: ٢]، فالفَرقُ بيْن مَقامِ المُخاطَبةِ ومَقامِ الإخبارِ فَرقٌ ثابتٌ بالشَّرعِ والعقلِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۞ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ أنَّه واجِبٌ على الأُمَّةِ أنْ يُبَلِّغوا ما أُنْزِلَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويُنْذِروا كما أنْذَرَ(٢).

٣- الآمِرُ بالمعروفِ والنَّاهي عن المنكرِ يجِبُ أنْ يكونَ حليمًا صبورًا على الأذَى؛ فإنَّه لا بدَّ أنْ يحصُلَ له أذًى؛ فإنْ لم يحلمْ ويصبرْ كان ما يُفسِدُ أكثرَ ممَّا يُصلِحُ، ولهذا أمَر الله الرُّسلَ -وهم أئمةُ الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكرِ- بالصبرِ، بل قرَنه بتبليغِ الرِّسالةِ، كقولِه لخاتمِ الرُّسلِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۞ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ إلى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ فافتتَحَ آياتِ الإرسالِ إلى الخَلْقِ بالأمرِ بالنِّذارةِ، وخَتَمَها بالأمرِ بالصَّبرِ، ونَفْسُ الإنذارِ أمرٌ بالمعروفِ ونهيٌ عنِ المُنكَرِ؛ فعُلِمَ أنَّه يجبُ بعدَ ذلك الصَّبرُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٨/ ١٣٧).

٤- قولُه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فيه الأمرُ بالتَّطَهُّرِ الحِسِّيِّ والمعنويِّ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ يدُلُّ على وُجوبِ الاحترازِ عن كُلِّ المعاصي -وذلك بِناءً على أنَّ الرجزَ هو العذابُ-، وعلى أنَّه اسمٌ للقبيحِ فهو كلامٌ جامعٌ في مكارمِ الأخلاقِ؛ كأنَّه قيل له: اهجُرْ كلَّ شيءٍ قبيحٍ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ نَهْيُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن دَناءاتِ الأخلاقِ والمطامعِ، وقد حَثَّ اللهُ تعالى على التَّأسِّي برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تأسِّيًا عامًّا في قَولِه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣] [الأحزاب: ٢١].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ هذه سِتُّ وصايا أوصى اللهُ بها رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في مبدأِ رِسالتِه، وهي مِن جوامِعِ القُرآنِ، أراد اللهُ بها تزكيةَ رَسولِه، وجعلَه قُدوةً لأمَّتِه[٤]. ونبَّه الله تعالى في هذه الآياتِ على حالِ رسولِه وكمالِه، وإتمامِ نعمةِ الله عليه، وكم بينَ ابتداءِ أمرِه وانزعاجِه مِن الوحيِ، وتدثُّرِه مِن شدَّةِ ما لقِي، وبينَ آخرِ أمرِه حينَ أتمَّ الله أمورَه كلَّها؛ ولهذا أمرَه بتكميلِ نفسِه وتكميلِ غيرِه، وأرشَده إلى ما ينالُ به ذلك: وهو القيامُ التامُّ على وجهِ النَّشاطِ والتَّعظيمِ لربِّه، وتكبيرُه في باطنِه، وتطهيرُ أعمالِه وثيابِه الظَّاهرةِ، وتركُ كلِّ شرٍّ ودَنَسٍ، واستعمالُ رُوحِ الأعمالِ، وهو الإخلاصُ في كلِّ شيءٍ، حتى في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٦٩٩).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٣/ ٦١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٠).

العطاءِ، فلهذا قال: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾، ثمَّ أرشَده إلى ما يُعينُه على كلِّ الأمورِ، وهو الصبرُ لوجهِ الله، فقال: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾، ثمَّ تكفَّل له بحفظِه مِن الأعداءِ، وحفظِ ما جاء به، بتوعُّدِهم بالعذابِ، خصوصًا لأكبرِهم عنادًا وأعظمِهم عداوةً، وهذا تمامُ النِّعمةِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قيل: إنَّ أوَّلَ ما أُنزِلَ مِنَ القُرآنِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ وقد رُوِيَ ذلك عن جابرِ ابنِ عبدِ الله رضيَ الله عنهما[٢]، والأصحُّ أنَّ أوَّلَ ما أُنزِلَ مِنَ القُرآنِ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، وهو قولُ جماهيرِ العُلَماءِ؛ فإنَّ حديثَ عائِشةَ رضيَ الله عنها الَّذي في الصَّحيحَينِ[٣] يُبَيِّنُ أنَّ أوَّلَ ما نَزَل: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، نزَلَت عليه وهو في غارِ حِراءٍ، وأنَّ (المُدَّثِّرَ) نزلت بَعْدُ. وهذا هو الَّذي يَنبغي؛ فإنَّ قَولَه: ﴿ٱقْرَأْ﴾ أمرٌ بالقراءةِ، لا بتبليغِ الرِّسالةِ، وبذلك صار نَبيًّا، وقَولَه: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أمرٌ بالإنذارِ، وبذلك صار رسولًا مُنذِرًا[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ جُعِلَت هذه الكلمةُ (اللهُ أكبَرُ) افتتاحًا للصَّلاةِ، ولعلَّ في ذِكرِ التَّكبيرِ إيماءً إلى شَرعِ الصَّلاةِ الَّتي أوَّلُها التَّكبيرُ، وخاصَّةً اقترانُه بقولِه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾؛ فإنَّه إيماءٌ إلى شَرعِ الطَّهارةِ؛ فلعَلَّ ذلك إعدادٌ

---

(١) يُنظر: ((المواهب الربانية)) للسعدي (ص: ١٥، ١٦)، ويُنظر أيضًا: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٢٤)، ومسلم (١٦١).

والمرادُ بالأوَّليَّةِ فيما رُوِيَ عن جابرٍ رضيَ الله عنه أوَّليَّةٌ مخصوصةٌ بما بعدَ فَترةِ الوحيِ، أو مخصوصةٌ بالأمرِ بالإنذارِ، لا أنَّ المرادَ أنَّها أوَّليَّةٌ مُطلَقةٌ، وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٥٤).

لشَرعِ الصَّلاةِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أمرٌ بتطهيرِ الثِّيابِ مِنَ النَّجاساتِ، ويَقبُحُ أن تكونَ ثيابُ المؤمِنِ نَجِسةً[٢]. ففيه وُجوبُ غَسلِ النَّجاسةِ، وإزالتِها مِن الثَّوبِ[٣].

٤- على القولِ بأنَّ معنى قَولِه تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ هو أنْ تُهْدِيَ لِيُهْدَى إليك أكثرَ مِن هَديَّتِك فهذا يدُلُّ على أنَّ صُوَرَ العُقودِ غيرُ كافيةٍ في حِلِّها وحُصولِ أحكامِها إلَّا إذا لم يَقصِدْ بها قَصْدًا فاسِدًا، وكلُّ ما لو شَرَطَه في العقدِ كان عِوَضًا فاسدًا فقَصْدُه فاسِدٌ؛ لأنَّه لو كان صالِحًا لم يَحْرُمِ اشْتِراطُه[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ تثبيتٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على تحَمُّلِ ما يَلْقاه مِن أذى المُشرِكينَ، وعلى مَشاقِّ الدَّعوةِ[٥].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ فيه بِشارةٌ للمُؤمِنينَ كبيرةٌ؛ إذْ لا يكونُ ذلك اليَومُ على الكافِرينَ غيرَ يَسيرٍ إلَّا وهو على المؤمِنينَ يسيرٌ[٦]. قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (لَمَّا قال: إنَّه غيرُ يَسيرٍ على الكافِرينَ، كان يسيرًا على المؤمِنينَ)، فبَعضُ مَن قال بدليلِ الخِطابِ[٧] قال: لولا أنَّ دَليلَ الخِطابِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٧). ويُنظر أيضًا: ((الأم)) للشافعي (١/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٦/ ١٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٣٦).

(٧) دَليلُ الخِطابِ -أو مفهومُ المُخالَفةِ-: هو ما يُفهَمُ مِن الكلامِ بطَريقِ الالْتزامِ. وقيل: هو أنْ يَثبُتَ الحُكمُ في المسكوتِ على خِلافِ ما ثبَتَ في المنطوقِ، ومِنه الاحتِجاجُ بقولِه تعالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] على رُؤيةِ المُؤمِنين لربِّهم يومَ القِيامةِ، وهو احتِجاجٌ =

حُجَّةٌ وإلَّا لَمَا فَهِمَ ابنُ عبَّاسٍ مِن كَونِه غيرَ يَسيرٍ على الكافِرِ: كَونَه يَسيرًا على المؤمِنِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ۝ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ۝ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾

- النِّداءُ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ نِداءُ تَكرمةٍ وتَلطُّفٍ[٢].

- قوله: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ قيل: القِيامُ المأمورُ به هنا مُستعمَلٌ في الأمْرِ بالمُبادَرةِ والإقبالِ والتَّهمُّمِ بالإنذارِ كِنايةً، واستعمالُ فِعلِ القِيامِ في معنَى الشروعِ قدْ يكونُ كِنايةً عن لازمِ القِيامِ مِن العَزمِ والتَّهمُّمِ، أي: قُمْ قِيامَ عَزْمٍ وَتصميمٍ فحَذِّرْ مِن عذابِ اللهِ مَن لم يُؤمنوا، وقدْ يُرادُ المعنى الصَّريحُ مع المعنَى الكنائيِّ[٣].

- وأيضًا في قولِه: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ ابتُدِئَ بالأمْرِ بالإنْذارِ؛ لأنَّ الإنذارَ يَجمَعُ مَعانيَ التَّحذيرِ مِن فِعلِ شَيءٍ لا يَليقُ وعَواقبِه، فالإنذارُ حَقيقٌ بالتَّقديمِ قبْلَ الأمرِ بمَحامدِ الفِعالِ؛ لأنَّ التَّخليةَ مُقدَّمةٌ على التَّحليةِ، ودَرْءَ المَفاسدِ مُقدَّمٌ على جلْبِ المصالحِ، ولأنَّ غالبَ أحوالِ النَّاسِ يَومَئذٍ مُحتاجةٌ إلى الإنذارِ

---

= مِن جِهةِ دَليلِ الخِطابِ، وإلَّا فلو حُجِبَ الكلُّ لَما أغْنَى هذا التَّخصيصُ؛ قال الشَّافعيُّ: (لَمَّا حَجَب قومًا بالسَّخَطِ، دلَّ على أنَّ قومًا يَرَوْنَه بالرِّضا). يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٩)، ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٢٢٤).

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤).

والتَّحذيرِ[١].

- وأفادتْ فاءُ ﴿فَأَنذِرْ﴾ تَعقيبَ إفادةِ التَّحفُّزِ والشُّروعِ بالأمرِ بإيقاعِ الإنذارِ، ففِعلُ ﴿قُمْ﴾ مُنزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازمِ، وتَفريعُ ﴿فَأَنذِرْ﴾ عليه يُبيِّنُ المرادَ مِن الأمرِ بالقِيامِ[٢].

- ومَفعولُ (أنذِرْ) مَحذوفٌ؛ لإفادةِ العُمومِ، أي: أنذِرِ النَّاسَ كلَّهم، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: ٢٨]، أو المفعولُ مُقدَّرٌ بمَفعولٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾[٣] [الشعراء: ٢١٤].

- واقتَصر على الإنذارِ هنا معَ أنَّه أيضًا بُعِث مُبشِّرًا؛ لأنَّ ذلك كان أوَّلَ الإسلامِ، فمتعلَّقُ الإنذارِ محقَّقٌ، فلمَّا أطاعَ مَن أطاعَ نزَلتْ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾[٤] [الأحزاب: ٤٥] [الفتح: ٨].

- قولُه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ انتَصَب (ربَّك) على المفعوليَّةِ للفِعلِ (كبِّرْ)، وقُدِّمَ على عامِلِه لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: لا تُكبِّرْ غيرَه، وهو قصْرُ إفرادٍ، أي: دونَ الأصنامِ[٥].

- قولُه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ دخَلَت الفاءُ على (كبِّر) إيذانًا بشَرْطٍ مَحذوفٍ يكونُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٥).

(كبِّر) جَوابَه، وهو شرْطٌ عامٌّ؛ إذ لا دَليلَ على شَرطٍ مَخصوصٍ، وهُيِّئَ لتَقديرِ الشَّرطِ بتَقديمِ المفعولِ؛ لأنَّ تَقديمَ المعمولَ قدْ يُنزَّلُ مَنزِلةَ الشَّرطِ، فالتَّقديرُ: مهْما يكُنْ شَيءٌ فكبِّرْ ربَّك، والمعْنى: ألَّا يَفتُرَ عن الإعلانِ بتَعظيمِ اللهِ وتَوحيدِه في كلِّ زمانٍ وكلِّ حالٍ، وهذا مِن الإيجازِ. أوْ للدَّلالةِ على أنَّ المقصودَ الأوَّلَ مِن الأمرِ بالقيامِ أنْ يُكبِّرَ رَبَّه، ويُنزِّهَه مِن الشِّركِ[1].

- قولُه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ دخَلَتِ الفاءُ على (طَهِّر) إيذانًا بشَرْطٍ مَحذوفٍ يكونُ (طهِّر) جَوابَه، وهو شرْطٌ عامٌّ؛ إذ لا دَليلَ على شَرطٍ مَخصوصٍ، وهُيِّئَ لتَقديرِ الشَّرطِ بتَقديمِ المفعولِ؛ لأنَّ تَقديمَ المعمولِ قدْ يُنزَّلُ مَنزِلةَ الشَّرطِ، فالتَّقديرُ: مهْما يكُنْ شَيءٌ فلا تَترُكْ تَطهيرَ ثِيابَك[2].

- قولُه: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ للثِّيابِ إطلاقٌ صَريحٌ، وهو ما يَلبَسُه اللَّابسُ، وإطلاقٌ كِنائيٌّ، فيُكنَّى بالثِّيابِ عن ذاتِ صاحبِها وقلْبِه، وللتَّطهيرِ إطلاقٌ بمعْنى التَّنظيفِ وإزالةِ النَّجاساتِ، وإطلاقٌ بمعْنى التَّزكيةِ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٣]، والمَعنيانِ صالحانِ في الآيةِ، فتُحمَلُ عليهما معًا، فتَحصَّلُ أربعةُ مَعانٍ؛ لأنَّه مَأمورٌ بالطَّهارةِ الحقيقيَّةِ لثِيابِه؛ إبطالًا لِما كان عليه أهلُ الجاهليَّةِ مِن عدَمِ الاكتراثِ بذلك، والطَّهارةُ لجسَدِه بالأَولى[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٨٦).

وقيل: هو كِنايةٌ عن طَهارةِ العَملِ، والمعنى: وعمَلَك فأصْلِحْ؛ فالرَّجلُ إذا كان خَبيثَ العَملِ قالوا: فلانٌ خَبيثُ الثِّيابِ، وإذا كان حَسَنَ العَملِ قالوا: فلانٌ طاهرُ الثِّيابِ. وقيل: كنَّى بالثيابِ عن الجسْمِ. وقيل: هي كِنايةٌ عن الأهْلِ؛ قال تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧]، والتَّطهُّرُ فيهنَّ اختيارُ المؤمناتِ العَفائفِ. وقيل: ووَطْؤهنَّ في القُبلِ لا في الدُّبرِ، في الطُّهرِ لا في الحَيضِ. وقيل: كِنايةٌ عن الخُلُقِ، أي: وخُلقَك فحسِّنْ[١].

- وتَقديمُ (ثِيَابَكَ) على فِعلِ (طهِّرْ)؛ للاهتمامِ به في الأمرِ بالتَّطهيرِ[٢].

- قولُه: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فيه تَقديمُ الرُّجْزِ على فِعلِ (اهجُرْ)؛ للاهتمامِ في مَهْيعِ الأمرِ بتَرْكِه[٣].

- والهَجرُ هنا كِنايةٌ عن تَرْكِ التَّلبُّسِ بالأحوالِ الخاصَّةِ بأنواعِ الرُّجْزِ لكلِّ نوعٍ بما يُناسِبُه في عُرفِ النَّاسِ، والأمرُ بهَجرِ الرُّجزِ يَستلزِمُ ألَّا يَعبُدَ الأصنامَ، وأنْ يَنفِيَ عنها الإلهيَّةَ[٤].

- وأيضًا الأمرُ في قولِه: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ مُستعمَلٌ في معْنى الثَّباتِ والدَّوامِ على هجْرِ الرُّجزِ؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان بَريئًا منه[٥].

- وكذلك في قولِه: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ دخَلَت الفاءُ على (اهْجُرْ) إيذانًا بشَرْطٍ مَحذوفٍ يكونُ (اهْجُرْ) جَوابَه، وهو شرْطٌ عامٌّ؛ إذ لا دَليلَ على شَرطٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٤).

مَخصوصٍ، وهُيِّئَ لتَقديرِ الشَّرطِ بتَقديمِ المفعولِ؛ لأنَّ تَقديمَ المعمولِ قدْ يُنزَّلُ مَنزِلةَ الشَّرطِ، فالتَّقديرُ: مَهْما يكُنْ شَيءٌ فاهْجُرِ الرُّجزَ[١].

- قولُه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ قيل: لمَّا أمَرَه اللهُ بهَجْرِ الرُّجْزِ نَهاهُ عن أخلاقِ أهلِ الرُّجْزِ نَهْيًا يَقْتضي الأمرَ بالصَّدقةِ، والإكثارَ منها بطَريقِ الكِنايةِ، فكأنَّه قال: وتَصدَّقْ وأكثِرْ مِن الصَّدقةِ ولا تَمنُنْ، ففي هذه الآيةِ إيماءٌ إلى التَّصدُّقِ، كما كان فيها ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ إيماءٌ إلى الصَّلاةِ، ومِن عادةِ القُرآنِ الجمْعُ بيْن الصَّلاةِ والزَّكاةِ، والسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿تَسْتَكْثِرُ﴾ للعَدِّ، أي: بعَدِّ ما أعطَيْتَه كثيرًا -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهذا مِن بَديعِ التَّأكيدِ لحُصولِ المأمورِ به جُعِلَت الصَّدقةُ كالحاصلةِ، أي: لأنَّها مِن خُلُقِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إذ كان أجوَدَ النَّاسِ، وقد عُرِفَ بذلك مِن قَبلِ رِسالتِه؛ لأنَّ اللهَ هيَّأَه لمَكارِمِ الأخلاقِ[٢].

- قولُه: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ الاستِكثارُ: عَدُّ الشَّيءِ كثيرًا، أي: لا تَستعظِمْ ما تُعطِيه -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وهذا النَّهيُ يُفيدُ تَعميمَ كلِّ استكثارٍ كيْفما كان ما يُعطِيه مِن الكثرةِ[٣].

- قولُه: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ فيه تَقديمُ ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ على (اصبِرْ)؛ للاهتمامِ بالأُمورِ الَّتي يُصبَرُ مِن أجْلِها، مع الرِّعايةِ على الفاصلةِ[٤].

- وفِعلُ الصَّبرِ يُعدَّى إلى اسمِ الَّذي يَتحمَّلُه الصَّابرُ بحرْفِ (على)، يُقالُ: صبَرَ على الأذى، ويَتضمَّنُ معْنى الخُضوعِ للشَّيءِ الشَّاقِّ، فيُعدَّى إلى اسمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٦، ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩٨، ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٢٩٩، ٣٠٠).

ما يَتحمَّلُه الصَّابرُ باللَّام، ومُناسَبةُ المقامِ تُرجِّحُ إحْدى التَّعديتَين، فلا يُقالُ: اصبرْ على اللهِ، ويُقالُ: اصبرْ على حُكمِ اللهِ، أو لحُكْمِ اللهِ، فيجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ في قولِه: (لِرَبِّكَ) لتَعديةِ فِعلِ الصَّبرِ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: اصبرْ لأمْرِ اللهِ وتَكاليفِ وَحْيِه، وهذا يُناسِبُ نِداءَه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]؛ لأنَّه تَدثَّرَ مِن شِدَّةِ وَقْعِ رُؤيةِ المَلَكِ، وتَرْكُ ذِكرِ المُضافِ لتَذهَبَ النَّفْسُ إلى كلِّ ما هو مِن شأْنِ المُضافِ إليه ممَّا يَتعلَّقُ بالمُخاطَبِ. ويجوزُ أنْ تكونَ اللَّامُ في (لِرَبِّكَ) للتَّعليلِ، وحُذِفَ مُتعلَّقُ فِعلِ الصَّبرِ، أي: اصبرْ مِن أجْلِ ربِّك على كلِّ ما يَشُقُّ عليك[١]. ويجوزُ أن يُضَمَّنَ (اصْبِرْ) معنى: أذْعِنْ لربِّك، وسَلِّمْ له أمْرَك صابرًا[٢].

- وأُطلِقَ الصَّبرُ، وتُرِك ذِكرُ المصبورِ عليه والمصبورِ عنه؛ للعِلمِ بهما، ولِيَتناوَلَ كلَّ مصبورٍ عليه ومَصبورٍ عنه، ويَدخُلُ فيه الصَّبرُ على أذَى المشرِكينَ؛ لأنَّه فردٌ مِن أفرادِ العامِّ، لا لأنَّه وحْدَه هو المرادُ[٣].

- وفي التَّعبيرِ عن اللهِ بوَصْفِ (ربِّك) إيماءٌ إلى أنَّ هذا الصَّبرَ برٌّ بالمَولَى، وطاعةٌ له[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾

- الفاءُ في ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ للتَّسبيبِ، كأنَّه قال: اصبرْ على أذاهُم؛ فبيْنَ أيدِيهم يومٌ عَسيرٌ يَلْقَون فيه عاقبةَ أذاهُم، وتَلْقى فيه عاقبةَ صَبرِك عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٩، ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٥، ١٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾ الفاءُ في ﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ لجزاءِ (إذا)؛ لأنَّ (إذا) يَتضمَّنُ معْنى شَرطٍ، والشَّرطُ والجزاءُ إذا اتَّحَدا معنًى دلَّ على فَخامةِ الجَزاءِ، وكان الجزاءُ مُتضمِّنًا للإخبارِ أو التَّوبيخِ، وهاهنا المشارُ إليه بقولِه: ﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ -الَّذي هو الجزاءُ- نفْسُ الشَّرطِ -الَّذي هو وقْتُ النَّقرِ-، وانضَمَّ معه تَكريرُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ و﴿يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾؛ فدلَّ على التَّنبيهِ على الخطْبِ الجَليلِ، والأمْرِ العظيمِ[1].

- وما في اسمِ الإشارةِ ﴿ فَذَٰلِكَ ﴾ مِن معْنى البُعدِ -مع قُربِ العهدِ بالمُشارِ إليه-؛ للإيذانِ ببُعدِ مَنزلتِه في الهَولِ والفَظاعةِ[2].

- وفائدةُ قولِه ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ -مع أنَّ الظاهرَ أنَّ قولَه: ﴿عَسِيرٌ﴾ مُغْنٍ عنه-: أنَّه لَمَّا قال: ﴿ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ فخَصَّصَ إيقاعَ ذِكرِ العُسرِ عليهم، قال: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾؛ ليُؤذِنَ بأنَّه لا يكونُ عليهم كما يكونُ على المؤمِنينَ يَسيرًا هيِّنًا؛ ليَجمَعَ بيْن وَعيدِ الكافِرين، وزِيادةِ غَيظِهم، وبِشارةِ المؤمِنينَ وتَسليتِهم. ويَجوزُ أنْ يُرادَ أنَّه عَسيرٌ لا يُرْجى أنْ يَرجِعَ يَسيرًا، كما يُرْجى تَيسيرُ العَسيرِ مِن أُمورِ الدُّنيا[3].

- وأيضًا لَمَّا كان العُسرُ قد يُطلَقُ على الشَّيءِ، وفيه يُسْرٌ مِن بَعضِ الجِهاتِ،

---

= حيان)) (١٠/ ٣٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١١٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠١، ٣٠٢).

أو يُعالَجُ فيَرجِعُ يَسيرًا، بيَّن أنَّه ليس كذلك بقولِه: ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾، فجَمَع فيه بيْنَ إثباتِ الشَّيءِ، ونفْيِ ضدِّه؛ تَحقيقًا لأمْرِه، ودفعًا للمَجازِ عنه، وتَأييدًا لكونِه غيرَ مُنقطِعٍ بوجْهٍ، وتَقييدُه بالكافِرينَ يُشعِرُ بتَيسُّرِه على المؤمنينَ[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٧).

## الآيات (١١-٢٠)

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّمْدُودًا﴾: أي: كثيرًا مَبْسوطًا، وأصلُ (مدد): يدُلُّ على جَرِّ شيءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ في اسْتِطالةٍ[١].

﴿شُهُودًا﴾: أي: حُضورًا، لا يَغيبونَ عنه، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ[٢].

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾: أي: بَسَطْتُ له في العيشِ بَسْطًا، يُقالُ: مَهَّدْتُ لك كذا: هيَّأْتُه وسوَّيْتُه، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على تَوْطِئَةٍ وتَسْهيلٍ للشَّيءِ[٣].

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾: أي: سأُحَمِّلُه مَشَقَّةً شديدةً مِنَ العَذابِ، والإرهاقُ: أن

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ١٠٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٥).

يُحمَلَ الإنسانُ على الشَّيءِ لا يُطيقُه، يُقالُ: فلانٌ رَهِقَه الأمرُ يَرهَقُه: إذا حَلَّ به بقَهرٍ ومَشَقَّةٍ لا قُدرةَ له على دَفْعِه، والصَّعودُ: العَقَبةُ الشَّاقَّةُ، مِن قَولِهم: عَقَبةٌ صَعودٌ وكَؤُودٌ، أي: شاقَّةُ المَصعَدِ، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشْيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ، وأصلُ (صعد): يدُلُّ على ارتفاعٍ ومَشقَّةٍ[1].

﴿فَقُتِلَ﴾: أي: لُعِنَ وأُهلِكَ، وأصلُ (قتل): يدُلُّ على إذلالٍ وإماتةٍ[2].

﴿عَبَسَ وَبَسَرَ﴾: أي: قَطَّبَ وَجْهَه، وقَبَضَ ما بيْنَ عينَيه، واسوَدَّ وَجْهُه، ونَظَر بكراهيةٍ شَديدةٍ كالمُهْتَمِّ المتفكِّرِ في شَيءٍ، والعُبُوسُ: تَقطُّبُ الوَجهِ عندَ كراهيةِ أمرٍ، وأصلُ (عبس): يدُلُّ عَلَى تَكَرُّهٍ، والبُسُورُ: أشَدُّ العُبوسِ، وهو هَيئةٌ في الوَجهِ تدُلُّ على تحَزُّنٍ في القَلبِ، يُقالُ: وَجْهٌ باسِرٌ: إذا تَغَيَّرَ[3].

﴿يُؤْثَرُ﴾: أي: يأثُرُه عن غيرِه، ويَرويه عنه، وأصلُه مِن قولِهم: أَثَرْتُ الحديثَ أثرًا، إذا حدَّثْتَ به عن قَومٍ في آثارِهم، أي: بعدَ ما ماتوا. ثمَّ صار بمعنَى الرِّوايةِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩١، ٤٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١) و(٣/ ٢٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٥٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٩).

قال الواحدي: (قال ابن الأنباري: والقَتلُ إذا أُخبِرَ عن اللهِ به كان بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لعَنَه الله كان بمنزلةِ المقتولِ الهالكِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٧٤). ويُنظر: ((الزاهر الزاهر في معاني كلمات الناس)) لابن الأنباري (١/ ٢٩٣).

ويُنظر ما تقدَّم في تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ من سورةِ الذَّاريات (٣٥/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٥، ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٤).

عمَّن كان، والإخبارِ، وأصلُ (أثر) هنا: ذِكْرُ الشَّيءِ[١].

﴿سَأُصْلِيهِ﴾: أي: سَأُورِدُه، وأُدخِلُه، يُقالُ: صَلِيَ النَّارَ وصَلِيَ بها صُلِيًّا، وصِلِيًّا، وصلًى: دخَلها وقاسَى حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ[٢].

﴿سَقَرَ﴾: أي: جَهنَّمَ، وهي عَلَمٌ مُشتَقٌّ مِنَ السَّقْرِ: وهو التِهابُ النَّارِ، وأصلُ (سقر): يدُلُّ على إحراقٍ[٣].

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾: أي: مُغَيِّرةٌ للبَشَراتِ، مُحرِقةٌ للجُلودِ مُسَوِّدةٌ لها، و«البَشَرُ» جَمعُ بَشَرةٍ، تقولُ العَرَبُ: لاحتِ النَّارُ الشَّيءَ: إذا أحرَقَتْه وسوَّدَتْه. وقيل: ﴿لِّلْبَشَرِ﴾ أي: للنَّاسِ. وقيل: ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ بناءُ مُبالغةٍ مِن: لاحَ يَلُوحُ: إذا ظَهَرَ، والمعنى أنَّها تَظهَرُ للنَّاسِ حتَّى يَرَوها عِيانًا؛ لِعظَمِها وهَولِها[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى متوعِّدًا أحدَ زعماءِ المشرِكين، معَدِّدًا ما أنعَمَ به عليه مِن نِعَمِ الدُّنيا: دَعْني -يا محمَّدُ- وهذا الكافِرَ الَّذي خلَقْتُه مُنفَرِدًا دونَ مالٍ أو وَلَدٍ، وجعَلْتُ له مالًا كثيرًا وأبناءً حاضِرينَ معه في كُلِّ مَشهَدٍ، وبَسَطْتُ له في العَيشِ بَسْطًا، ثمَّ يَرْجو مِن شِدَّةِ حِرْصِه وطَمَعِه أن أَزيدَه مِنَ المالِ والوَلَدِ مع كُفْرِه بي!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٣١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٢) و(٢٢/ ١٧٧، ٤٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٣٩).

كلَّا، لن أَزيدَ هذا الكافِرَ كما يأمُلُ، بل سأُكَلِّفُه في جَهنَّمَ عذابًا شاقًّا.

ثمَّ يُعلِّلُ اللهُ تعالى هذا الوعيدَ مقرِّرًا استِحقاقَه له، فيقولُ: إنَّه أعمَلَ فِكْرَه في شأنِ القُرآنِ، وأوقَعَ في نَفْسِه تقديرًا للصِّفاتِ الباطِلةِ الَّتي يَطعَنُ بها فيه، فهَلَك ولُعِنَ هذا الكافِرُ! كيفَ أوقَعَ هذا التَّقديرَ في نَفْسِه لإلصاقِ الأوصافِ الباطِلةِ بالقُرآنِ؟! ثمَّ هَلَك ولُعِنَ! كَيفُ قدَّر في نَفْسِه ذلك؟! ثمَّ نَظَر هذا الكافِرُ في أمرِ القُرآنِ بحثًا عن وَصْفٍ باطلٍ يَطعَنُ به فيه، ثمَّ قطَّب وجْهَه، وقبَض ما بيْنَ عينَيْه، وتغيَّر لَونُه، ثمَّ تولَّى وتكبَّرَ عن قَبولِ الحَقِّ، فقال: ما هذا القرآنُ إلَّا سِحرٌ يَرْويه محمَّدٌ عن غَيرِه مِنَ السَّحَرةِ! ما هذا القُرآنُ إلَّا حَديثٌ مِن أحاديثِ البَشَرِ، وليس بكَلامٍ للهِ تعالى!

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى ما أعدَّه له مِن عذابٍ أليمٍ، فيقولُ: سأُدخِلُه النَّارَ المُلتَهِبةَ، وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ سَقَرُ؟!

لا تُبقِي مَن دَخَل فيها حَيًّا، ولا تَترُكُه مَيِّتًا؛ فيَستريحَ مِن عَذابِها، وهي نارٌ مُحْرِقةٌ لبَشَرةِ أهْلِها، فتُحَوِّلُ لَونَ جُلودِهم إلى السَّوادِ، وعلى تلك النَّارِ تِسعَةَ عَشَرَ مَلَكًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا جَرى ذِكرُ الكافِرينَ في قولِه: ﴿ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴾ [المدثر: ٩، ١٠]، وأُشِيرَ إلى ما يَلقاهُ الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن الكافِرين بقولِه: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ [المدثر: ٧]؛ انتَقَلَ الكلامُ إلى ذِكرِ زَعيمٍ مِن زُعماءِ

الكافرينَ ومُدبِّرِ مَطاعنِهم في القرآنِ ودَعوةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

وأيضًا لَمَّا آذَنَ ما سبق بأنَّ أكثَرَ الخَلْقِ يُوافى يومَ القيامةِ على كُفْرِه، وخُبثِ طَويَّتِه، وسوءِ أمْرِه، وكان ذلك ممَّا يُهِمُّ؛ لشَفَقتِه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- على الخَلْقِ، ولِما يَعلَمُ مِن نَصْبِهم للعداوةِ- هوَّن أمْرَهم عليه، وحقَّر شَأْنَهم لديه، بوَعْدِه بالكفايةِ، بقولِه[٢]:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ ﴾.

أي: دَعْني -يا محمَّدُ- وهذا الكافِرَ الَّذي خلَقْتُه مُنفَرِدًا دونَ مالٍ أو وَلَدٍ، وكِلْ أمْرَه إلَيَّ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٧، ٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿وَحِيدًا﴾ ... هو على وجهَينِ:

أحدُهما: أن يكون وحيدًا مِن صفةِ الله عزَّ وجلَّ، المعنى: ذَرْنِي ومَن خلَقْتُه وَحْدي، لم يَشرَكْني في خَلقِه أحدٌ.

[أو] يكونَ ﴿وَحِيدًا﴾ مِن صفةِ المخلوقِ، ويكونُ المعنى: ذَرْني ومَن خلَقْتُه وحْدَه؛ لا مالَ له ولا ولَدَ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٤٦). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤١٧).

ممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وأبو حيان، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦). =

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: وجعَلْتُ له مالًا واسِعًا كثيرًا يَزدادُ ويَنمو فلا يَنقَطِعُ عنه خَيرُه[1].

---

= ونسَبَه الواحديُّ إلى أكثرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤١٧).

واختار القُشَيْريُّ القولَ الأوَّلَ، فقال في معنى الآية: (أي: لا تَهتَمَّ بشأنِهم ولا تَحتفِلْ؛ فإنِّي أَكفيك أمْرَهم، إنِّي خَلَقْتُه وحْدي لم يُشارِكْني في خَلْقي إيَّاه أحدٌ). ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٤٩).

وقال البِقاعي جامعًا بيْن المعنيَين السَّابقَين: (﴿خَلَقْتُ﴾ أي: أَوجَدْتُ مِنَ العَدَم، وأنشأْتُ في أطوارِ الخِلْقةِ، حالَ كَونِه ﴿وَحِيدًا﴾ لا مالَ له ولا ولَدَ ولا شَيءَ، وحالَ كَوْني أنا واحِدًا شديدَ الثَّباتِ في صِفةِ الوَحدانيَّةِ، لم يُشارِكْني في صُنعِه أحدٌ، فلم يَشكُرْ هذه النِّعمةَ، بل كفَرَها بالشِّركِ باللهِ سُبحانَه القادِرِ على إعدامِه بعدَ إيجادِه!). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٤٨).

ويحتملُ على القولِ الأوَّلِ أن يكونَ المعنى: ذَرْني وحْدي معه، فأنا أَجزيك في الانتقامِ منه عن كلِّ مُنتقِمٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٧).

قال ابن عطيَّة: (لا خِلافَ بيْن المفسِّرينَ أنَّ هذه الآيةَ نَزَلت في الوليدِ بنِ المُغيرةِ المَخْزُوميِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٤). ويُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٣).

وممَّن نقل أيضًا اتِّفاقَ المفسِّرينَ وإجماعَهم على أنَّ هذه الآياتِ نزلت في الوليدِ بنِ المُغيرةِ: الواحديُّ، والرازي، والقاسمي. يُنظر: ((البسيط) للواحدي (٢٢/ ٤١٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٥).

ونسَبَه السَّمعانيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩١).

وقال القرطبيُّ: (المفسِّرون على أنَّه الوليدُ بنُ المُغيرةِ المَخْزُوميُّ، وإن كان النَّاسُ خُلِقوا مِثلَ خَلْقِه، وإنَّما خُصَّ بالذِّكرِ؛ لاختِصاصِه بكُفرِ النِّعمةِ، وإيذاءِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكان يُسَمَّى الوَحيدَ في قَومِه!). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧١). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٣٩).

وقال ابنُ عاشور: (كان الوَليدُ بنُ المغيرةِ يُلقَّبُ في قُريشٍ بالوَحيدِ؛ لتَوَحُّدِه وتفَرُّدِه باجتماعِ مزايا له لم تجتَمِعْ لِغَيرِه مِن طَبَقتِه؛ وهي: كثرةُ الوَلَدِ، وسَعةُ المالِ، ومَجْدُه ومجدُ أبيه مِن قَبْلِه، وكان مَرجِعَ قُرَيشٍ في أُمورِهم؛ لأنَّه كان أسَنَّ مِن أبي جهلٍ وأبي سُفْيانَ، فلَمَّا اشتَهَر بلقَبِ الوحيدِ كان هذا الكلامُ إيماءً إلى الوليدِ بنِ المغيرةِ المُشتَهِرِ به). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٨).

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أوَّلَ ما تمتَدُّ إليه النَّفْسُ بعدَ كثرةِ المالِ الوَلَدُ، وكان أحَبَّ الوَلَدِ الذَّكَرُ؛ قال[1]:

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾.

أي: وجعَلْتُ له أبناءً حاضِرينَ معه، لا يَغِيبونَ عنه ولا يُفارِقونَه، فهو يَستأنِسُ بهم ويَفتَخِرُ، ويَستعينُ بهم على قَضاءِ حوائِجِه[2].

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا ﴿١٤﴾﴾.

أي: وبَسَطْتُ له في العَيشِ بَسْطًا، فأقام ببَلدتِه مُطْمَئِنًّا مُتَرَفِّهًا، له الرِّياسةُ والتَّقَدُّمُ، والجاهُ العَريضُ، فلا يَعْسُرُ عليه أمرٌ، ولا يَستعْصي عليه شأنٌ[3]!

﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني: حُضورًا لا يَغِيبونَ أبدًا عنه في تجارةٍ ولا غَيرِها؛ لكثرةِ أموالِهم بمكَّةَ، وكُلُّهم رجالٌ؛ منهم: الوليدُ بنُ الوليدِ، وخالدُ بنُ الوليدِ، وهو سَيفُ اللهِ، أسلَمَ بعدَ ذلك، وعُمارةُ بنُ الوليدِ، وهِشامُ بنُ الوليدِ، والعاصِ بنُ الوليدِ، وقَيسُ بنُ الوليدِ، وعبدُ شمسِ بنُ الوليدِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

أي: ثمَّ يَرْجو مِن شِدَّةِ حِرْصِه وطَمَعِه أن أَزيدَه مِنَ المالِ والوَلَدِ مع كُفرانِه للنِّعَمِ، وإشراكِه باللهِ تعالى[1]!

﴿كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا ١٦﴾.

أي: لن أَزيدَ هذا الكافِرَ كما يأمُلُ؛ فلا يكونُ له ما يَطمَعُ فيه مِن زيادةِ النِّعَمِ، مع مُعانَدتِه البالِغةِ لآياتِ اللهِ تعالى الَّذي أنعَمَ عليه بما أنعَمَ، ثمَّ لا يَنقادُ للحَقِّ ويَتَّبِعُه مع عِلْمِه به[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥).

قال الماوَرْدي: (﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ فيه وَجهانِ:

أحدُهما: ثمَّ يَطمَعُ أن أُدخِلَه الجنَّةَ...

الثَّاني: أن أَزيدَه مِن المالِ والولَدِ...

ويحتَمِلُ وَجهًا ثالثًا: ثمَّ يَطمَعُ أن أنصُرَه، على كُفرِه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٠).

ومِمَّن ذهب إلى الوجهِ الأوَّلِ وأنَّ المرادَ النَّعيمُ الأخرويُّ: القاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٢).

ومِمَّن ذهب إلى الوجهِ الثَّاني: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وأبو مالكٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٢، ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧﴾.

أي: سأُكَلِّفُ هذا الكافِرَ في جَهنَّمَ عذابًا شاقًّا لا راحةَ له منه[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨﴾.

أي: إنَّ هذا الكافِرَ قد أعمَلَ فِكْرَه، وأدارَ رأيَه في شأنِ القُرآنِ، وأوقَعَ في نَفْسِه تقديرًا للصِّفاتِ الباطِلةِ الَّتي يَطعَنُ بها في القُرآنِ؛ لِيَعلَمَ أيُّها أقرَبُ إلى قَبولِ النَّاسِ له[٢].

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ١٩﴾.

أي: فهَلَك ولُعِنَ هذا الكافِرُ! وعَجَبًا له؛ إذ كيفَ أوقَعَ هذا التَّقديرَ في نَفْسِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٢).

قال الرَّسْعَني: (﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أي: سأحملُه على مشَقَّةٍ مِن العذابِ، أو سأُغَشِّيه عَقَبةً شاقَّةَ المَصعدِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٦٠).

وقال البيضاوي: (﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ سأُغشيهِ عَقَبةً شاقَّةَ المَصعدِ، وهو مَثَلٌ لِما يَلقى مِن الشَّدائدِ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠).

وقال البِقاعي: (﴿سَأُرْهِقُهُۥ﴾ أي: أُلحِقُه بعُنفٍ وغِلظةٍ وقَهرٍ إلحاقًا يَغْشاه ويُحيطُ به، بوعيدٍ لا خُلْفَ فيه ﴿صَعُودًا﴾ أي: شيئًا مِن الدَّواهي والأنكادِ كأنَّه عَقَبةٌ؛ فإنَّ الصَّعودَ لُغةً: العَقَبةُ شاقةُ المَصعدِ جدًّا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٤، ٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٢، ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٧، ٣٠٨).

قال ابنُ كثير: (أي: إنَّما أرهَقْناه صَعُودًا، أي: قرَّبْناه مِن العذابِ الشَّاقِّ؛ لبُعْدِه عن الإيمانِ؛ لأنَّه ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أي: ترَوَّى ماذا يقولُ في القرآنِ حينَ سُئِلَ عن القرآنِ، ففكَّرَ ماذا يَختَلِقُ مِن المقالِ، ﴿وَقَدَّرَ﴾ أي: ترَوَّى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦).

لإلصاقِ الأوصافِ الباطِلةِ بالقُرآنِ[١]؟!

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ثمَّ هَلَك ولُعِنَ مرَّةً أُخرى! وعَجَبًا له ثانيةً؛ إذ كَيفَ قدَّرَ في نَفْسِه ذلك[٢]؟!

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ثمَّ نَظَر هذا الكافِرُ في أمرِ القُرآنِ بحثًا عن وَصْفٍ باطلٍ يَطعَنُ به فيه؛ لِيَصُدَّ النَّاسَ عنه[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٠٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٤).

قال الواحدي: (قال صاحِبُ النَّظمِ [أبو عليٍّ الجُرْجاني]: معناه: لُعِنَ على أيِّ حالٍ قَدَّر ما قَدَّر مِن الكلامِ، كما يُقالُ في الكلامِ: لَأَضْرِبَنَّه كيف صنَع، أي: على أيِّ حالٍ كانت منه). ((الوسيط)) (٤/ ٣٨٣).

وقال القاسمي: (كيف قَدَّر ذلك الافتراءَ الباطِلَ، واختَلَق ما يُكَذِّبُه وِجدانُه فيه؟!). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥).

قال السعدي: (﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾؛ لأنَّه قَدَّر أمرًا ليس في طَورِه، وتسوَّرَ على ما لا يَنالُه هو ولا أمثالُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦).

وممَّن قال في الجملةِ بالمعنى المذكورِ: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦).

قال الرازي: (المعنى: أنَّه أوَّلًا: فكَّر، وثانيًا: قدَّرَ، وثالثًا: نَظَر في ذلك المُقدَّرِ؛ فالنَّظَرُ السَّابِقُ للاستخراجِ، والنَّظَرُ اللَّاحِقُ للتَّقديرِ، وهذا هو الاحتياطُ؛ فهذه المراتِبُ الثَّلاثةُ متعلِّقةٌ بأحوالِ قَلْبِه). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٦). =

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: ثمَّ قطَّب وجْهَه، وقبَض ما بيْنَ عينَيْه، وتغيَّر لَونُه حينَ لم يَجِدْ وَصْفًا صَحيحًا يَطعَنُ به في القُرآنِ[1].

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ثمَّ تولَّى وتكبَّرَ عن قَبولِ الحَقِّ مع تبيُّنِه كمالَ القُرآنِ في ألفاظِه ومَعانيه، وخُلُوَّه مِن أيِّ باطِلٍ[2]!

---

= وقال ابنُ عاشور: (النَّظَرُ هنا: نَظَرُ العَينِ؛ لِيَكونَ زائدًا على ما أفاده فكَّر وقَدَّر. والمعنى: نَظَر في وجوهِ الحاضِرينَ يَستخرِجُ آراءَهم في انتحالِ ما يَصِفونَ به القُرآنَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٢٨)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩).

قال الشوكاني: (والعَبْسُ: مَصْدَرُ عَبَسَ مُخَفَّفًا يَعْبِسُ عَبْسًا وعُبوسًا إذا قَطَّبَ. وقيل: عَبَسَ في وُجُوهِ المؤمِنينَ. وقيل: عَبَسَ في وَجْهِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كَلَحَ وَجْهُه وَتَغَيَّرَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٢).

وقيل: البُسُورُ: هو تقطيبُ الوَجهِ، وهو أشدُّ مِن العُبوسِ. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٩).

وقيل: هما بمعنًى واحدٍ. واختاره: السمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٣).

قال القرطبي: (والعَبْسُ -مُخَفَّفًا-: مصدَرُ عَبَس يَعبِسُ عَبْسًا وعُبوسًا: إذا قَطَّب... ﴿وَبَسَرَ﴾ أي: كَلَح وَجْهُه وتغيَّرَ لَونُه. قاله قَتادةُ والسُّدِّيُّ،... وقيل: إنَّ ظُهورَ العُبوسِ في الوَجهِ بعدَ المحاورةِ، وظُهورَ البُسورِ في الوجهِ قبْلَ المحاورةِ. وقال قومٌ: بَسَرَ: وقَفَ لا يَتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ... والعرَبُ تقولُ: وَجهٌ باسِرٌ بَيِّنُ البُسورِ: إذا تغيَّرَ واسْوَدَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥).

قال ابنُ جُزَي: (فَعَل ذلك مِن حَسَدِه للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: عبَسَ في وَجْهِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أو عَبَس لَمَّا ضاقت عليه الحِيَلُ ولم يَدْرِ ما يقولُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن =

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: فقال: ما هذا القرآنُ إلَّا سِحرٌ يَرْويه محمَّدٌ عن غَيرِه مِنَ السَّحَرةِ[١]!

﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: قال: ما هذا القُرآنُ إلَّا حَديثٌ بَشَريٌّ، وليس بكلامٍ للهِ تعالى، فلا ينبغي لأحدٍ أن يَغتَرَّ به أو يُعَوِّلَ عليه[٢]!

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: قال اللهُ تعالى: سأُدخِلُه النَّارَ وأغْمُرُه فيها، فتُحيطُ به مِن جميعِ جوانِبِه، لِيُقاسيَ شدَّتَها وحرَّها[٣].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ سَقَرُ[٤]؟!

---

= كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩، ٣١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٥، ٥٦).

قال ابن عاشور: (وصَفَ هذا السِّحرَ بأنَّه مَأثورٌ -أي: مَرويٌّ عن الأقدَمينَ- يقولُ هذا ليَدفَعَ به اعتراضًا يَرِدُ عليه: أنَّ أقوالَ السَّحرةِ وأعمالَهم لَيست مُماثِلةً للقرآنِ ولا لأحوالِ الرَّسولِ، فزَعَمَ أنَّه أقوالٌ سِحريَّةٌ غيرُ مَألوفةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٧).

قال الواحديُّ: (سَقَرُ: اسمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٨٤). ويُنظر: ((الزاهر)) لابن الأنباري (٢/ ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: لا تُبقِي مَن دَخَل فيها حَيًّا، ولا تَتْرُكُه مَيِّتًا؛ فيَستريحَ مِن عَذابِها، بل تُبدَّلُ أجسادُ أهلِها كلَّما احترَقَت، فيَستَمِرُّ عَذابُها[1]!

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾.

---

= (١٩/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

قال البِقاعي: (لَمَّا أثبَتَ له هذا العذابَ عظَّمه وهوَّله بقَولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ أي: أعلَمَك وإنِ اجتَهَدْتَ في البَحثِ ﴿مَا سَقَرُ﴾ يعني: أنَّ عِلْمَ هذا خارِجٌ عن طَوقِ البشَرِ، لا يُمكِنُ أن يَصِلَ إليه أحدٌ منهم إلَّا بإعلامِ اللهِ له؛ لأنَّه أعظَمُ مِن أن يَطَّلِعَ عليه بَشَرٌ!). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٥٩).

وقال الشوكاني: (العَرَبُ تقولُ: وما أدراك ما كذا؟ إذا أرادوا المبالَغةَ في أمْرِه، وتعظيمَ شَأنِه، وتهويلَ خَطْبِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٥٩، ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

قال السمرقندي: (قال: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ يعني: لا تُبقي لحمًا إلَّا أكلَتْه، ولا تذَرُهم إذا أُعيدوا فيها خَلقًا جديدًا. ويُقالُ: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ يعني: لا تُميتُ ولا تُحْيي. ويُقالُ: لا تُبقي اللَّحمَ ولا العَظمَ ولا الجِلْدَ إلَّا أحرَقَتْه، ولا تذَرُ لَحمًا ولا عَظمًا ولا جِلدًا، أي: تدَعُه مُحرقًا، بل تجدُه خَلقًا جديدًا!). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٧).

وقال الشَّوكاني: (قال السُّدِّيُّ: لا تُبقي لهم لحمًا، ولا تذَرُ لهم عَظْمًا. وقال عطاءٌ: لا تُبقي مَن فيها حيًّا، ولا تذَرُه مَيِّتًا. وقيل: هما لفظانِ بمعنًى واحدٍ، كُرِّرا للتَّأكيدِ، كقولِك: صَدَّ عنِّي، وأعرَضَ عنِّي). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٣).

وقال ابنُ كثير: (﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: تأكُلُ لُحومَهم وعُروقَهم وعَصَبَهم وجُلودَهم، ثمَّ تُبَدَّلُ غَيرَ ذلك، وهم في ذلك لا يَموتونَ ولا يَحيَونَ. قاله ابنُ بُرَيدةَ، وأبو سِنانٍ، وغيرُهما). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

أي: تلك النَّارُ مُحْرِقةٌ لبَشَرةِ أهْلِها، فتُحَوِّلُ لَونَ جُلودِهم إلى السَّوادِ[1]!

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٧، ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

قال ابن الجوزي: (في «البَشَرِ» قولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه جَمعُ بَشَرةٍ، وهي جِلدةُ الإنسانِ الظَّاهِرةُ. وهذا قول مُجاهِدٍ، والفرَّاءِ، والزَّجَّاجِ. والثَّاني: أنَّهم الإنسُ مِن أهلِ النَّارِ. قاله الأخفَشُ، وابنُ قُتَيْبَةَ في آخَرينَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٤).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والرَّسْعَني، والنسفي، وابن جُزَي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وأبو السعود. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٥٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٢٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨).

ونسَبَ ابنُ عطيَّةَ هذا القولَ إلى الجمهورِ، ونسَبَه الشَّوكانيُّ للأكثَرِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وأبو رَزِينٍ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: الأخفشُ -كما نسَبَه إليه الماوَرْديُّ وغيرُه-، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وقال الثعلبيُّ: (وقال الحسَنُ وابنُ كَيْسانَ: يعني: تَلوحُ لهم جهنَّمُ حتَّى يَرَوْها عِيانًا. نظيرُه: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٤).

وقال الواحديُّ: (وقال عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ: تَلوحُ لأهلِها مِن مسيرةِ خَمسِمئةِ عامٍ). ((البسيط)) (٢٢/ ٤٣٥).

كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾.

أي: على تلك النَّارِ تِسعةَ عَشَرَ مَلَكًا(١).

كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

قال تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ﴾ في هذا الإبطالِ والرَّدعِ إيذانٌ بأنَّ كُفرانَ النِّعمةِ سَببٌ لقَطْعِها؛ قال تعالَى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولهذا قيل: (مَن لمْ يَشكُرِ النِّعَمِ فقدْ تَعرَّضَ لِزَوالِها،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

قال الثعلبي: (يحتَمِلُ أن يَكونوا تِسعةَ عَشَرَ مَلَكًا بأعيانِهم، وعلى هذا أكثَرُ المفَسِّرينَ). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٤).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: يقولُ: على النَّارِ تِسعةَ عَشَرَ مِنَ الملائكةِ، هم خَزَنَتُها: مالِكٌ ومعه ثمانيةَ عَشَرَ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٨٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (لا خِلافَ بيْن العُلَماءِ أنَّهم خَزَنَةُ جَهنَّمَ المحيطونَ بأمْرِها، الَّذين إليهم جِماعُ أمرِ زبانِيَتِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٦).

وقال القرطبي: (الصَّحيحُ -إن شاء اللهُ- أنَّ هؤلاء التِّسعةَ عَشَرَ هم الرُّؤساءُ والنُّقَباءُ، وأمَّا جُملتُهم فالعِبارةُ تَعجِزُ عنها، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٠). ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٨).

ومَن شَكَرَها فقدْ قيَّدَها بعِقالِها)[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ اللهَ تعالى لَمْ يَزَلْ بأسمائِه وصِفاتِه، أمَّا زَعْمُ الجَهميَّةِ أنَّ مَن قال بهذا فقد قال بقولِ النَّصارى؛ حيثُ جَعَلوا معه غيرَه!

**فالجوابُ عنه**: أنَّ أهلَ السُّنَّةِ والجماعةِ يقولونَ: إنَّه واحدٌ بأسمائِه وصِفاتِه؛ فلا يَصِفونَ إلَّا واحدًا بصِفاتِه، كما قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ وَصَفَه بالوحدةِ؛ مع أنَّه كان له لِسانٌ وعَيْنانِ وأُذُنانِ وسمعٌ وبصَرٌ؛ ولم يَخْرُجْ بهذه الصِّفاتِ عن كَونِه واحدًا! وللهِ المَثَلُ الأعلى[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ هذا جزاءُ كُلِّ مَن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ١٤١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٨١). ويُنظر أيضًا: ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (ص: ٧٩).

والمقصودُ مِن ضَربِ الوحيدِ مثلًا؛ أنَّ الذَّاتَ المُتَّصِفةَ بصِفاتٍ تَتَّصِفُ بالوَحدانيَّةِ؛ لأنَّ الصِّفاتِ لا تَستَقِلُّ بنفْسِها، ولا يُمكِنُ انفِكاكُها عن الذَّاتِ إلَّا في الذِّهنِ، واعتراضُ الجَهميَّةِ الَّذين يَنفون الصِّفاتِ لا يَرِدُ على أهلِ السُّنَّةِ، ومذهبُ النَّصارى لا يَصلُحُ نقضًا؛ فإنَّهم أثبتوا الأقانيمَ الثَّلاثةَ وكلٌّ منها مُستَقِلٌّ، فالتَّعدُّدُ مُتحَقِّقٌ، وأمَّا المُثبِتونَ للصِّفاتِ فعندَهم أنَّ الذَّاتَ لا تَنفَكُّ عنها أصلًا، والتَّعدُّدَ مُنتَفٍ. يُنظر: ((غاية الأماني في الرد على النبهاني)) للألوسي (٢/ ٢٢).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (والَّذين قالوا مِن نُفاةِ الصِّفاتِ المعتزلةِ والجَهميَّةِ: إنَّ مَن أثبَت الصِّفاتِ فقد قال بقولِ النَّصارى، هو مُتَوَجِّهٌ على مَن جعَل الصِّفاتِ جَواهرَ، وهؤلاء هم النَّصارى يَزعُمون أنَّ الصِّفاتِ جواهرُ آلهةٍ... وأمَّا الرُّسلُ وأتْباعُهم فنَطَقوا أنَّ لله عِلمًا وقُدرةً وغيرَ ذلك مِن الصِّفاتِ، وثبتوا أنَّ الإلهَ إلهٌ واحدٌ. فإذا قال القائلُ: عبَدْتُ اللهَ ودَعَوْتُ اللهَ؛ فإنَّما دعا وعبَدَ إلهًا واحدًا، وهو ذاتٌ مُتَّصِفةٌ بصِفاتِ الكمالِ، لم يَعبُدْ ذاتًا لا حياةَ لها ولا عِلمَ ولا قُدرةَ، ولا عبَدَ ثلاثةَ آلهةٍ ولا ثلاثةَ جواهرَ، بل نفْسُ اسمِ الله يَتضَمَّنُ ذاتَه المُقَدَّسةَ المُتَّصِفةَ بصِفاتِه سُبحانَه، وليست صِفاتُه خارجةً عن مُسمَّى اسمِه، ولا زائدةً على مُسمَّى اسمِه). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) (٥/ ١٥، ١٦).

عانَدَ الحَقَّ ونابَذَه: أنَّ له الخِزْيَ في الدُّنيا، ولَعَذابُ الآخرةِ أخْزى(١).

٣- أنَّ كثرةَ الأموالِ والأولادِ لا تَستلزِمُ القُربَ إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ مِنَ النَّاسِ مَن يكونُ كثيرَ المالِ والولَدِ، وهو مِن أبعَدِ النَّاسِ عن اللهِ سُبحانَه وتعالى، ومِنَ النَّاسِ مَن يكونُ قليلَ المالِ والولَدِ، وهو مِن أقربِ النَّاسِ إلى اللهِ تعالى؛ فهذا النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ليس هو مِن أكثَرِ النَّاسِ أموالًا وأولادًا، ومع ذلك فهو أقرَبُ النَّاسِ إلى اللهِ سُبحانَه وتعالى، والرَّجُلُ الَّذي افتخَرَ بمالِه ووَلَدِه، قال اللهُ -تعالى- في شَأنِه: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]، إذا آتاه اللهُ المالَ والولَدَ فإنَّه لا ينفَعُه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا * إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾، فالأموالُ والأولادُ لا تُقَرِّبُ إلى اللهِ تعالى(٢).

٤- قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أزال كلَّ لَبْسٍ عن أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ؛ لتوَعُّدِه مَن نسَب هذا القرآنَ إلى قَولِ البشَرِ، وإذا لم يكُنْ قَولَ البشَرِ فلا يكونُ إلَّا قولَ الخالِقِ، وإن تلاه البَشَرُ أيضًا فلا يكونُ قَولَه، بل يكونُ قَولَ مَن بدأ به، وهو اللهُ جَلَّ جلالُه، فلم يَصِرْ بتلاوةِ جِبريلَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مخلوقًا، وجِبريلُ مخلوقٌ، ولا بتلاوةِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على أصحابِه مخلوقًا، ورَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مخلوقٌ، ولا بتلاوةِ التَّالِينَ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة سبأ)) (ص: ٢٣٣).

إلى يومِ القيامةِ مخلوقًا، وإن كان التَّالونُ له مخلوقينَ[١].

٥- قد تَوَعَّدَ اللهُ تعالى مَن قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾، فمَن قال: إنَّ هذا القرآنَ قولُ البَشَرِ، فقد كَفَرَ، وقال بقَولِ الوَحيدِ الَّذي أوعَدَه اللهُ سَقَرَ، ومَن قال: إنَّ شيئًا منه قولُ البَشَرِ، فقد قال ببعضِ قولِه، ومَن قال: إنَّه ليس بقَولِ رَسولٍ كريمٍ، وإنَّما هو قولُ شاعرٍ أو مجنونٍ أو مُفْتَرٍ، أو قال: هو قولُ شيطانٍ نَزَلَ به عليه، ونحوَ ذلك- فهو أيضًا كافرٌ ملعونٌ، وقد عَلِمَ المسلمون الفرقَ بيْنَ أنْ يُسْمَعَ كلامُ المتكلِّمِ، منه، أو مِن المُبَلِّغِ عنه، وأنَّ موسى عليه السَّلامُ سَمِع كلامَ اللهِ مِن اللهِ بلا واسِطةٍ، وأنَّا نحن إنَّما نسمعُ كلامَ اللهِ مِن المُبَلِّغينَ عنه، وإذا كان الفَرقُ ثابتًا بيْنَ مَن سَمِع كلامَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منه، وبيْن مَن سَمِعَه مِن الصَّاحبِ المُبَلِّغِ عنه، فالفَرْقُ هنا أَولى؛ لأنَّ أفعالَ المخلوقِ وصِفاتِه أشْبَهُ بأفعالِ المخلوقِ وصفاتِه، مِن أفعالِه وصفاتِه بأفعالِ اللهِ وصِفاتِه[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ أنْكَر اللهُ تعالى قولَ المُشرِكينَ هذا، ولا يُعترَضُ بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]؛ لأنَّ معناه: قولٌ تَلَقَّاه عن رَسولٍ كريمٍ، كقَولِه تعالى: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ولا يُعترَضُ أيضًا بقولِه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]؛ لأنَّ معناه: سمَّيْناه قُرآنًا، وهو كقَولِه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، وقَولِه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: ٦٢]، ولا يُعترَضُ أيضًا بقَولِه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]. فالمرادُ: أنَّ تنزيلَه إلينا هو المُحْدَثُ، لا الذِّكْرُ نَفْسُه، وبهذا احْتَجَّ الإمامُ أحمدُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٣٧، ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (١/ ٢٥٨، ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((الاعتقاد)) للبيهقي (ص: ٩٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٤٥٤).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ آيةٌ مِن آياتِ نُبُوَّةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّتي في القرآنِ؛ فإنَّ الكُفَّارَ -مع حِرْصِهم على تكذيبِه- لم تَنْبَعِثْ دواعيهم لإظهارِ تَكذيبِه، وكان كما أخبَرَ به صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ مات الوليدُ كافِرًا، وكذا مات أبو لَهَبٍ كافرًا، مع قَولِه تعالى عنه: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[1] [المسد: ٣]!

٨- قد وُزِّعَ وَعيدُ هذا الكافرِ على ما تَقتضيه أعمالُه؛ فإنَّه لَمَّا ذُكِرَ عِنادُه -وهو مِن مَقاصِدِه السَّيِّئةِ النَّاشئةِ عن مُحافَظتِه على رِئاستِه وعن حَسَدِه النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وذلك مِن الأغراضِ الدُّنيويَّةِ- عُقِّبَ بوَعيدِه بما يَشملُ عَذابَ الدُّنيا ابتداءً، ولَمَّا ذُكِرَ طَعْنُه في القرآنِ بقولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، وأنْكَر أنَّه وَحْيٌ مِن اللهِ بقولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾، أُرْدِفَ بذِكرِ عَذابِ الآخرةِ بقولِه: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾

- قولُه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ...﴾ إلخ، استِئنافٌ يُؤذِنُ بأنَّ حدَثًا كان سَببًا لنُزولِ هذه الآيةِ عَقِبَ الآياتِ الَّتي قبْلَها؛ وهو أنَّ الوليدَ بنَ المُغيرةِ نصَحَ قُريشًا أنْ يَقولوا عن النَّبيِّ والقرآنِ: ساحِرٌ جاء بقولٍ هو سِحرٌ، يُفرِّقُ به بيْنَ المَرْءِ وأبيه، وبيْنَ المَرْءِ وأخيهِ، وبيْنَ المَرْءِ وزَوجتِه، وبيْنَ المَرْءِ وعَشيرتِه، فأنزَلَ اللهُ في الوليدِ بنِ المُغيرةِ قولَه: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ الآياتِ -وذلك على قول جماهيرِ المفسِّرينَ-، فإنْ كان قولُ الوليدِ صدَرَ منه بعْدَ

(١) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٧).

نُزولِ صدْرِ هذه السُّورةِ؛ فجُملةُ ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا، والمُناسَبةُ ظاهرةٌ، وإنْ كان قولُ الوليدِ هو سبَبَ نُزولِ السُّورةِ، كان مُتَّصِلًا بقولِه: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ [المدثر: ٧]، على أنَّه تَعليلٌ للأمْرِ بالصَّبرِ بأنَّ اللهَ يَتولَّى جَزاءَ هذا القائلِ، وما بيْنَهما اعتراضٌ(١).

- وتَصديرُ الجُملةِ بفِعلِ ﴿ ذَرۡنِي ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان مُهتمًّا ومُغتمًّا ممَّا اختَلَقَه الوليدُ بنُ المُغيرةِ؛ فاتِّصالُه بقولِه: ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ﴾ [المدثر: ٧] يَزدادُ وُضوحًا(٢).

- وتَركيبُ (ذَرْني وكذا) يُفيدُ تَهديدًا ووَعيدًا للمَذكورِ بعْدَ واوِ المَعيَّةِ(٣).

- وجِيءَ بالموصولِ وصِلَتِه في قولِه: ﴿ وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ لإدماجِ(٤) تَسجيلِ كُفرانِ الوليدِ بنِ المُغيرةِ المَخزوميِّ النِّعمةَ في الوَعيدِ والتَّهديدِ؛ فقد كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٢، ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

(٤) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيق لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿ لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٤٩)، ((خِزانة الأدب)) لابن حِجَّةَ الحَمَوي (٢/ ٤٨٤)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

الوليدُ بنُ المُغيرةِ يُلقَّبُ في قُريشٍ بالوحيدِ، فلمَّا اشتَهَرَ بلَقبِ الوحيدِ كان هذا الكلامُ إيماءً إلى الوليدِ بنِ المُغيرةِ المُشتهرِ به، وجِيءَ بَلفظِ ﴿وَحِيدًا﴾ تَهكُّمًا به وبلَقبِه، وهو تَغييرٌ له عن الغرَضِ الَّذي كانوا يَؤُمُّونه -مِن مَدْحِه، والثَّناءِ عليه بأنَّه وَحيدُ قَومِه لرِياستِه ويَسارِه وتَقدُّمِه في الدُّنيا- إلى وَجْهِ الذَّمِّ والعَيبِ، وهو أنَّه خُلِقَ وَحيدًا لا مالَ له ولا ولَدَ، فآتاهُ اللهُ ذلك، فكَفَرَ بنِعمةِ اللهِ وأشْرَكَ به واستَهْزَأَ بدِينِه[1]!

- والمَمدودُ: اسمُ مَفعولٍ مِن (مَدَّ) الَّذي بمعْنى: أطال؛ بأنْ شُبِّهَت كَثرةُ المالِ بسَعةِ مَساحةِ الجِسمِ. أو مِن (مَدَّ) الَّذي بمعْنى: زاد في الشَّيءِ مِن مِثلِه، كما يُقالُ: مَدَّ الوادي النَّهرَ، أي: مالًا مَزيدًا في مِقدارِ ما يَكتسِبُه صاحبُه مِن المكاسبِ[2].

- قولُه: ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدًا﴾ التَّمهيدُ هنا مُعبَّرٌ به عن تَيسيرِ أُمورِه، ونَفاذِ كَلمتِه في قَومِه، بحيث لا يَعسُرُ عليه مطلَبٌ، ولا يَستعصي عليه أمْرٌ[3].

- وأُكِّدَ (مَهَّدْتُ) بمَصدرِه ﴿تَمۡهِيدًا﴾ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ؛ ليُتوسَّلَ بتَنكيرِه لإفادةِ تَعظيمِ ذلك التَّمهيدِ[4].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ وُصِفَ الوليدُ في هذه الآيةِ بما لَه مِن النِّعمةِ والسَّعةِ؛ لأنَّ الآيةَ في سِياقِ الامتِنانِ عليه تَوطئةً لتَوبيخِه وتَهديدِه بسُوءٍ في الدُّنيا، وبعَذابِ النَّارِ في الآخِرةِ، فأمَّا في آيةِ سُورةِ (القلَمِ) فقدْ وَصَفَه بما فيه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٣، ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٠٥).

مِن النَّقائصِ في قولِه تعالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ...﴾ [القلم: ١٠] إلخ -بِناءً على أنَّ المرادَ به الوليدُ بنُ المُغيرةِ-؛ لأنَّ تلك الآيةَ في مَقامِ التَّحذيرِ مِن شَرِّه وغدْرِه[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ حرْفُ (ثُم) للتَّراخي الرُّتبيِّ، أي: وأعظَمُ مِن ذلك أنَّه يَطمَعُ في الزِّيادةِ مِن تلك النِّعَمِ! وذلك بما يُعرَفُ مِن يُسْرِ أُمورِه، وهذا مُشعِرٌ باستِبعادِ حُصولِ المَطموعِ فيه، واستِنكارِ طَمَعِه وحِرصِه، وقد صُرِّح به في قولِه: ﴿كَلَّا﴾[٢] [المدثر: ١٦].

- وجُعِلَ مُتعلَّقُ طَمَعِه زِيادةً ممَّا جعَلَ اللهُ له؛ لأنَّهم لم يَكونوا يُسنِدونَ الرِّزقَ إلى الأصنامِ، أو لأنَّه طَمِعَ في زِيادةِ النِّعمةِ غيرَ مُتذكِّرٍ أنَّها مِن عندِ اللهِ؛ فيَكونُ إسنادُ الزِّيادةِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ إدماجًا[٣] بتَذكيرِه بأنَّ ما طَمِعَ فيه هو مِن عندِ الَّذي كفَرَ هو بنِعمتِه، فأشْرَكَ به غيرَه في العِبادةِ! ولهذه النُّكتةِ عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (يَطمَعُ في الزِّيادةِ)، أو (يَطمَعُ أنْ يُزادَ)[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ ردْعٌ وإبطالٌ لطَمَعِه في الزِّيادةِ مِن النِّعمِ، وقطْعٌ لرَجائِه، والمَقصودُ إبلاغُ هذا إليه، مع تَطمينِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ الوليدَ سيُقطَعُ عنه مَدَدُ الرِّزقِ؛ لِئلَّا تكونَ نِعمتُه فِتنةً لغيرِه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٧، ٢٧٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥).

المُعانِدين، فيُغْرِيَهم حالُه بأنَّ عِنادَهم لا يَضُرُّهم؛ لأنَّهم لا يَحسِبون حياةً بعْدَ هذه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ تَعليلٌ للرَّدعِ على وجْهِ الاستئنافِ؛ كأنَّ قائلًا قال: لِمَ لا يُزادُ[٢]؟

- قولُه: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ قيل: هو مُعترِضٌ بيْن ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ وبيْن ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]، قُصِدَ بهذا الاعتِراضِ تَعجيلُ الوَعيدِ له مَساءةً له، وتَعجيلُ المَسَرَّةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

- والصَّعودُ: العَقَبةُ الشَّديدةُ التَّصعُّدِ الشَّاقَّةُ على الماشِي، وهي فَعولٌ مُبالَغةٌ مِن (صَعِدَ)؛ فإنَّ العَقَبةَ صَعْدةٌ، فإذا كانتْ عَقَبةٌ أشَدَّ تَصعُّدًا مِن العَقَباتِ المُعتادةِ قِيل لها: صَعودٌ، وكأنَّ أصْلَ هذا الوَصفِ أنَّ العقَبةَ وُصِفَت بأنَّها صاعِدةٌ، ثمَّ جُعِلَ ذلك الوصفُ اسمَ جِنسٍ لها[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ [المدثر: ١٦]؛ فهي تَكمِلةٌ وتَبيينٌ لها[٥]. وقيل: قولُه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ تَعليلٌ للوَعيدِ المَعنيِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٠٦).

بقولِه: ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ [المدثر: ١٧]؛ فجَمَع له عَذابَ الدَّارَين[١].

- وقد وُصِفَ حالُ الوليدِ بنِ المُغيرةِ في تَردُّدِه وتَأمُّلِه بأبلَغِ وصْفٍ؛ فابتُدِئَ بذِكرِ تَفكيرِه في الرَّأيِ الَّذي سيَصدُرُ عنه وتَقديرِه[٢].

- وقولُه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كَلامٌ مُعترِضٌ بيْن ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ وبيْن ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾، وهو إنشاءُ شَتْمٍ مُفرَّعٍ على الإخبارِ عنه بأنَّه ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾؛ لأنَّ الَّذي ذُكِرَ يُوجِبُ الغضَبَ عليه، فالفاءُ لتَفريعِ ذمِّه عن سيِّئِ فِعلِه، والدَّاعي إلى الاعتراضِ هو التَّعجيلُ بفائدةِ الكلامِ؛ للاهتمامِ بها[٣].

- قولُه: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قيل: هو دُعاءٌ مُقتضاهُ الاستحسانُ والتَّعجُّبُ؛ فقِيل: ذلك لمَنزعِه الأوَّلِ في مَدْحِه القُرآنَ، وفي نَفْيِه الشِّعرَ والكهانةَ والجُنونَ عنه. وقيل: ذلك لإصابتِه ما طَلَبَت قُريشٌ منه. وقيل: ذلك ثَناءٌ عليه على جِهةِ الاستِهزاءِ[٤]. وقيل: إنَّ (قُتِلَ): دُعاءٌ عليه بأنْ يَقتُلَه قاتلٌ، أي: دُعاءٌ عليه بتَعجيلِ مَوتِه؛ لأنَّ حَياتَه حَياةٌ سيِّئةٌ. وهذا الدُّعاءُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن حالِه والرِّثاءِ له، كقولِه: ﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقولِهم: عَدِمْتُك، وثَكِلَتْه أُمُّه. وهو كِنايةٌ عن سُوءِ حالِه؛ لأنَّ ما قدَّرَه ليس ممَّا يُغتبَطُ ذَوو الألْبابِ على إصابتِه؛ إذ هو قد ناقَضَ قولَه ابتِداءً؛ إذ قال: ما هو بعَقْدِ السَّحرةِ ولا نفْثِهم،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٨، ٦٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٩).

وبعْدَ أنْ فكَّرَ قال: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾، فناقَضَ نفْسَه[١]!

- قولُه: ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ استِفهامٌ على طَريقِ التَّعجُّبِ المَشوبِ بالإنكارِ، وهو مُوجَّهٌ إلى سامِعٍ غيرِ مُعيَّنٍ يَستفهِمُ المتكلِّمُ سامِعَه استِفهامًا عن حالةِ تَقديرِه. وهو في معْنى: ما أعجَبَ تَقديرَه وما أغْرَبَه! كقولِهم: أيُّ رجُلٍ زَيدٌ! أي: ما أعظَمَه[٢]!

- وفي قولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ قيل: ذَكَر ﴿قَدَّرَ﴾ ثَلاثَ مرَّاتٍ، و﴿قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ مرَّتَينِ؛ لأنَّ المعْنى: أنَّ الوليدَ فكَّرَ في شأْنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وما أتى به، وقدَّر ماذا يُمكِنُه أنْ يقولَ فيهما، فقال اللهُ: ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، أي: على أيِّ حالٍ كان تَقديرُه، فالتَّقديرُ الأوَّلُ مُغايرٌ للثَّاني والثَّالثِ؛ لاختلافِ المُقدَّرِ[٣].

وقيل: كرَّرَ قولَه: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ للمُبالَغةِ، فهو تَأكيدٌ، ولَزِمَ منه أنَّ ﴿قَدَّرَ﴾ الثَّالثَ تَأكيدٌ للثَّاني، وأنَّ ﴿قُتِلَ﴾ الثَّانيَ تَأكيدٌ للأوَّلِ[٤]؛ فقولُه: ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تَأكيدٌ لنَظيرِه المُفرَّعِ بالفاءِ. والعطْفُ بـ(ثُمَّ) يُفيدُ أنَّ جُملتَها أرْقى رُتبةً مِن الَّتي قبْلَها في الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ، فإذا كان المعطوفُ بها عينَ المعطوفِ عليه أفادَتْ أنَّ معْنى المعطوفِ عليه ذُو دَرَجاتٍ مُتفاوتةٍ، مع أنَّ التَّأكيدَ يَكسِبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٨، ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٧، ٥٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٢).

الكلامَ قوَّةً[١]. فجِيءَ بـ(ثُمَّ) للدَّلالةِ على أنَّ مَدخولَها أبلَغُ ممَّا قبْلَها، كأنَّه دُعِيَ عليْه أوَّلًا ورُجِيَ أنْ يُقلِعَ عمَّا كان يَرومُه، فلم يَفعَلْ، فدُعِيَ عليه ثانيًا[٢].

- وأيضًا هو تَعجيبٌ أبلَغُ مِن الأوَّلِ؛ لأنَّه صَدَر عن رَويَّةٍ، بخِلافِ الأوَّلِ؛ فإنَّه نَشَأَ عن النَّظرةِ الأُولى، وهي حَمقاءُ. وفي هذا التَّرقِّي غايةُ تَهكُّمٍ به وبمَن اغترَّ بما تَفوَّهَ به[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ عطْفٌ على ﴿وَقَدَّرَ﴾، وهي ارتقاءٌ مُتَوالٍ فيما اقْتَضَى التَّعجيبَ مِن حالِهِ والإنكارَ عليه، فالتَّراخي تَراخي رُتبةٍ، لا تَراخي زمَنٍ؛ لأنَّ نَظَرَه وعُبوسَه وبَسْرَه وإدبارَه واستكبارَه مُقارِنةٌ لتَفكيرِه وتَقديرِه[٤].

- وقدْ وصَفَت الآيةُ أشكالَ الوليدِ بنِ المغيرةِ الَّتي تَشكَّلَ بها لَمَّا أجْهَدَ نفْسَه لاستنباطِ ما يَصِفُ به القرآنَ، وذلك تَهكُّمٌ بالوليدِ واستِهزاءٌ به، وبيانُ أنَّ ما يَقولُه كذِبٌ وافتراءٌ؛ إذ لو كان مُمكِنًا لَكان له هَيئاتٌ غيرُ هذه؛ مِن فرَحِ القلْبِ، وظُهورِ السُّرورِ والجَذلِ والبِشرِ في وَجْهِه، ولو كان حقًّا لم يَحتَجْ إلى هذا الفِكرِ؛ لأنَّ الحقَّ أبلَجُ يتَّضِحُ بنفْسِه مِن غيرِ إكدادِ فِكرٍ ولا إبطاءِ تأمُّلٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٧، ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ كان العطْفُ في ﴿وَبَسَرَ﴾ وفي ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾؛ لأنَّ البُسورَ قَريبٌ مِن العُبوسِ، فهو كأنَّه على سَبيلِ التَّوكيدِ، والاستكبارَ يَظهَرُ أنَّه سَببٌ للإدبارِ؛ إذ الاستكبارُ معنًى في القلْبِ، والإدبارُ حَقيقةٌ مِن فِعلِ الجِسمِ، فهما سَببٌ ومُسبَّبٌ، فلا يُعطَفْ بـ(ثُمَّ)، وقُدِّمَ المسَّببُ على السَّبَبِ؛ لأنَّه الظَّاهرُ للعَينِ، وناسَبَ العطفُ بالواوِ[1].

- وقيل: العطْفُ بحرْفِ (ثُمَّ) هنا؛ للدَّلالةِ على أنَّه قدْ تأنَّى في التَّأمُّلِ، وتمهَّلَ، وكان بيْن الأفعالِ المُتناسقةِ تراخٍ وتباعُدٌ[2].

- وقولُه: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ﴾ قالَه بالفاءِ بعْدَ عطْفِ ما قبْلَه بحرْفِ (ثُم)؛ لأنَّ الكلمةَ لَمَّا خَطَرَت ببالِه بعْدَ التَّطلُّبِ، لم يَتمالَكْ أنْ نَطَقَ بها مِن غيرِ تَلبُّثٍ وتفكُّرٍ، فكان نُطقُه بها حَقيقًا بأنْ يُعطَفَ بحرْفِ التَّعقيبِ[3].

- وصِيغةُ الحصْرِ في قولِه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ مُشعِرةٌ بأنَّ استِقراءَ أحوالِ القُرآنِ بعْدَ السَّبرِ والتَّقسيمِ[4] أنتَجَ له أنَّه مِن قَبيلِ السِّحرِ، فهو قصْرُ تَعيينٍ لأحدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٤) السَّبرُ والتَّقسيمُ: يُقصَدُ بالتَّقسيم عندَ الأصوليِّين: حصْرُ الأوصافِ الَّتي تَحتمِلُ أنْ يُعَلَّلَ بها حُكمُ الأصلِ في عدَدٍ مُعيَّنٍ، والسَّبرُ: هو الاختبارُ لكلِّ الأوصافِ الَّتي قدْ جُمِعَت، فيُستبْعَدُ منها ما لا يَصلُحُ أنْ يكون عِلَّةً يُعلَّلُ بها الحُكمُ، ويُستبقَى ما يَصلُحُ أن يكونَ عِلَّةً، مثالُ ذلك أنْ يقولَ المجتهِدُ: تَحريمُ الرِّبا في «البُرِّ» ثبَتَ لعِلَّةٍ، والعِلَّةُ هذه هي إمَّا لِكَونِه مَكيلًا، وإمَّا لكَونِه مَطْعومًا، وإمَّا لكونِه قوتًا مُدَّخرًا، وإمَّا لكونِه مَوْزونًا، وإمَّا لكونِه مالًا. فهذا يُسمَّى «التَّقسيمَ»، ثمَّ يَختبِرَ هذه العِلَلَ ويَختارَ ما يَراهُ صَحيحًا ويُهمِلَ ما عداهُ، والتَّقسيمُ مُقدَّمٌ على السَّبْرِ في التَّطبيقِ. يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٢٧)، ((الإحكام في أصول الأحكام)) =

الأقوالِ الَّتي جالَتْ في نفْسِه؛ لأنَّه قال: ما هو بكلامِ شاعرٍ، ولا بكَلامِ كاهنٍ، ولا بكَلامِ مَجنونٍ[١].

- قولُه: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[٢] مِن جُملةِ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ بأنَّ السِّحرَ يكونُ أقوالًا وأفعالًا، فهذا مِن السِّحرِ القَوليِّ، وهذه الجُملةُ بمَنزلةِ النَّتيجةِ لِما تَقدَّمَ؛ لأنَّ مَقصودَ الوليدِ مِن ذلك كلِّه أنَّ القرآنَ ليس وَحيًا مِن اللهِ[٣].

وقيل: لم يُوسَّطْ حرْفُ العطْفِ بيْن الجُملتَينِ ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾؛ لأنَّ الأُخرى ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ جَرَت مِن الأُولى ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ مَجرى التَّوكيدِ مِن المُؤكَّدِ[٤].

- وجاء النَّظمُ على السَّننِ المألوفِ مِن التَّنزيلِ؛ وذلك أنَّه تعالَى لَمَّا حسَمَ طمَعَ الوليدِ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا﴾، وبيَّن عِنادَه بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، دَعا عليه بالدُّعاءَينِ بتَقديرِه مرَّتينِ: قدَّرَ أوَّلًا أنَّه شاعرٌ ثمَّ نَفاه حِيلةً، وقدَّرَ ثانيًا أنَّه كاهنٌ كذلك، ثمَّ بعْدَ ذلك نظَرَ في طلَبِ ما يَدفَعُ به ويَرُدُّه، ثمَّ عبَس وبسَرَ كالمُهتَمِّ المُتفكِّرِ في شَيءٍ، ثمَّ أدبَرَ عن الحقِّ، واستكبَرَ عن اتِّباعِه،

---

= للآمدي (٣/ ٢٦٤)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٤٩١، ٤٩٢)، ((التعريفات الفقهية)) للبركتي (ص: ١١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ (خُلُقُه) بَدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بَدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٩).

فقال: ما هذا الَّذي يَقرَؤُه محمَّدٌ إلَّا سِحرٌ يُؤثَرُ. واللهُ أعلَمُ[١].

٥- ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾

- جُملةُ ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن قولِه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨] إلى آخِرِ الآياتِ، فذَكَر وَعيدَه بعَذابِ الآخِرةِ[٢]. وقيل: هي بدَلٌ مِن ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾، ويَظهَرُ أنَّهما جُملَتانِ اعتَقَبَت كلُّ واحدةٍ منهما على سَبيلِ التَّوعُّدِ للعِصيانِ الَّذي قبْلَ كلِّ واحدةٍ منهما؛ فتُوُعِّدَ على كَونِه عَنيدًا لآياتِ اللهِ بإرهاقِ صَعودٍ، وعلى قولِه بأنَّ القرآنَ سِحرٌ يُؤثَرُ بإصلائِه سَقَرَ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ تَفخيمٌ وتَفظيعٌ وتَهويلٌ لشَأنِها[٤].

- قولُه: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ بَيانٌ لوصفِها وحالِها، وإنجازٌ للوعيدِ الضِّمنيِّ الَّذي يَلوحُ به ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾[٥].

- وقيل: حُذِفَ مَفعولُ ﴿تُبْقِي﴾ لقَصْدِ العُمومِ، أي: لا تُبقِي منهم أحدًا، أو لا تُبْقي مِن أجْزائِهم شيئًا[٦].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: (تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: (تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

- وجُملةُ ﴿وَلَا تَذَرُ﴾ عطْفٌ على ﴿لَا تُبْقِي﴾، فهي في معْنى الحالِ، ومعنى (لَا تَذَرُ)، أي: لا تَترُكُ مَن يُلْقى فيها، أي: لا تَترُكُه غيرَ مَصلِيٍّ بعَذابِها، وهذه كِنايةٌ عن إعادةِ حَياتِه بعْدَ إهلاكِه، كما قال تعالَى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦][1]. وذلك على قولٍ.

- وقولُه: ﴿لَوَّاحَةٌ﴾ بِناءُ مُبالَغةٍ[2].

- قولُه: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ معْنى ﴿عَلَيْهَا﴾ على حِراستِها، فـ(على) للاستعلاءِ بتَشبيهِ التَّصرُّفِ والوِلايةِ بالاستعلاءِ، كما يُقالُ: فلانٌ على الشُّرطةِ، أو على بَيتِ المالِ، أي: يَلي ذلك[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٢).

## الآية (٣١)

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فِتْنَةً﴾: أي: اختِبارًا، وابتِلاءً، وامتِحانًا، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على اختِبارٍ وابتِلاءٍ[1].

﴿يَرْتَابَ﴾: أي: يشُكَّ، والرَّيبُ مصدرُ: رابَني الشَّيءُ: إذا حصَل فيه الرِّيبةُ، وهي قلَقُ النَّفْسِ واضطرابُها، وسُمِّيَ به الشَّكُّ؛ لأنَّه يُقلِقُ النَّفْسَ ويُزيلُ الطُّمأنينةَ، وأصلُ (ريب): يدُلُّ على شَكٍّ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى ردًّا على المشرِكين، ومُبيِّنًا الحكمةَ مِن ذِكرِ عددِ خَزَنةِ النَّارِ: وما جعَلْنا خَزَنةَ النَّارِ التِّسعةَ عَشَرَ إلَّا ملائِكةً، وما جعَلْنا ذِكْرَ عَدَدِهم إلَّا فِتنةً للكُفَّارِ؛ لِيَستيقِنَ الَّذين أُوتُوا التَّوراةَ والإنجيلَ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ، ويَزدادَ المؤمِنونَ إيمانًا بتَصديقِهم بهذا الخَبَرِ، ولا يَشُكَّ أهلُ التَّوراةِ والإنجيلِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧٦، ١٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٩، ١٣٩- ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٦٣)، ((تفسير الزمخشري)) (١/ ٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (١/ ٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١١٧).

والمؤمِنونَ بما أخبَرَ اللهُ به من عَدَدِ خَزَنةِ النَّارِ، ولِيَقولَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ، والكافِرونَ باللهِ ورَسولِه: ما الحِكمةُ مِن هذا العَدَدِ؟

كما أضَلَّ اللهُ تعالى الكفَّارَ بهذا العَدَدِ، وهَدى المؤمِنينَ لقَبولِه، يُضِلُّ أيضًا مَن يَشاءُ ويَهْدي مَن يَشاءُ سُبحانَه وتعالى، وما يَعلَمُ جُنودَ رَبِّك وكَثْرتَهم إلَّا اللهُ وَحْدَه، وما هي إلَّا تَذكِرةٌ للنَّاسِ؛ لِيَتَّعِظوا بها ويَنزَجِروا.

## تَفسيرُ الآيةِ:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سَبَق غيرَ مُمَيِّزٍ للمعدودِ، وكانت الحِكمةُ في تعيينِ هذا العدَدِ غيرَ ظاهرةٍ، وكان هذا العَدَدُ مِمَّا يَستقِلُّه المتعَنِّتُ، فيَزيدُه كُفرًا- قال تعالى مُبيِّنًا ذلك[1]:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾.

أي: وما جعَلْنا خَزَنةَ النَّارِ التِّسعةَ عَشَرَ إلَّا ملائِكةً[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٤).

قال ابنُ كثير: (ذلك ردٌّ على مُشركي قُرَيشٍ حينَ ذكَرَ عدَدَ الخَزَنةِ، فقال أبو جَهلٍ: يا معشَرَ قُرَيشٍ، أمَا يَستطيعُ كُلُّ عَشَرةٍ منكم لواحِدٍ منهم فتَغلِبونَهم؟! فقال اللهُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: شَديدي الخَلْقِ، لا يُقاوَمونَ، ولا يُغالَبونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩).

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

أي: وما جعَلْنا ذِكْرَ عَدَدِهم إلَّا فِتنةً للكُفَّارِ، ومِحنةً لهم[1].

﴿لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

أي: ذكَرْنا ذلك العَدَدَ؛ لِيَستيقِنَ الَّذين أُوتُوا التَّوراةَ والإنجيلَ بأنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وأنَّ محمَّدًا رَسولُ اللهِ؛ لِمُوافَقةِ كُتُبِهم للقُرآنِ بأنَّ عدَدَهم تِسْعةَ عَشَرَ[2].

﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩).

قال الزَّجَّاج: (لأنَّ بَعْضَهم قال: بَعضُنا يكفي هؤلاء!). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٤٨).

وقال البيضاوي: (افتِتانُهم به: استِقلالُهم، واستهزاؤُهم به، واستبعادُهم أن يتولَّى هذا العَدَدُ القليلُ تعذيبَ أكثَرِ الثَّقَلينِ!). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالَّذين أُوتُوا الكِتابَ: اليهودُ والنَّصارى: ابنُ جرير، وابنُ عطية، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٦).

وقال ابنُ عاشور: (المرادُ بـ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾: اليهودُ حينَ يَبلُغُهم ما في القرآنِ مِن مِثْلِ ما في كُتُبِهم أو أخبارِهم، وكان اليهودُ يترَدَّدونَ على مكَّةَ في التِّجارةِ، ويتردَّدُ عليهم أهلُ مكَّةَ للمِيرةِ في خَيبَرَ وقُرَيظةَ ويَثرِبَ، فيَسألُ بَعضُهم بعضًا عمَّا يقولُه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويوَدُّ المُشرِكونَ لو يَجِدونَ عندَ اليَهودِ ما يكَذِّبونَ به أخبارَ القُرآنِ، ولكِنَّ ذلك لم يَجِدوه، ولو وَجَدوه لَكان أيسَرَ ما يَطعَنونَ به في القُرآنِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٥). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٧، ٤٩٨).

أي: وذَكَرْنا ذلك العَدَدَ؛ لِيَزدادَ المؤمِنونَ إيمانًا بتَصديقِهم بهذا الخَبَرِ[١].

﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: ولا يَشُكَّ أهلُ التَّوراةِ والإنجيلِ والمؤمِنونَ باللهِ ورَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما أخبَرَ اللهُ به مِن عَدَدِ خَزَنةِ النَّارِ[٢].

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾.

أي: ولِيَقولَ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضُ الشَّكِّ والنِّفاقِ، والكافِرونَ باللهِ ورَسولِه: ما الحِكمةُ مِن وراءِ هذا العَدَدِ[٣]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال البِقاعي: (﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أي: أوجَدوا هذه الحقيقةَ ولو على أدنى الوُجوهِ إلى ما عِندَهم مِن الإيمانِ ﴿إِيمَٰنًا﴾ بتَصديقِ ما لم يَعلَموا وَجهَ حِكمتِه، لا سِيَّما مع افتِتانِ غَيرِهم به، وكثرةِ كلامِهم فيه؛ فإنَّ الإيمانَ بمِثْلِ ذلك يكونُ أعظَمَ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٦٣).

وقال السعدي: (المؤمِنونَ كُلَّما أنزَلَ اللهُ آيةً، فآمَنوا بها وصَدَّقوا؛ ازداد إيمانُهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٣، ٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٧).

قال الواحدي: (معنى المثَلِ هاهنا: الحديثُ نَفْسُه، ومنه قَولُه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥]، أي: حَديثُها والخَبَرُ عنها). ((البسيط)) (٢٢/ ٤٤١).

وقال الرازي: (لَمَّا كان هذا العدَدُ عَدَدًا عَجيبًا، ظَنَّ القَومُ أنَّه رُبَّما لم يكُنْ مُرادُ اللهِ منه ما أشعَرَ به ظاهِرُه، بل جعَلَه مَثَلًا لشَيءٍ آخَرَ، وتنبيهًا على مقصودٍ آخَرَ- لا جَرَم سَمَّوْه مَثَلًا). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٢).

وقال أبو حيَّان: (لَمَّا سَمِعوا هذا العَدَدَ لم يَهتَدوا وحارُوا، فاستفهَمَ بعضُهم بعضًا عن ذلك؛ =

= استِبعادًا أن يكونَ هذا مِن عندِ اللهِ، وسَمَّوْه مَثَلًا استِعارةً مِنَ المثَلِ المَضروبِ؛ استِغرابًا منهم لهذا العَدَدِ، والمعنى: أيَّ شيءٍ أراد اللهُ بهذا العَدَدِ العَجيبِ؟! ومُرادُهم: إنكارُ أصْلِه، وأنَّه ليس مِن عندِ اللهِ!). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٤). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٢).

وقال ابن الجوزي: (﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وفيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه النِّفاقُ، ذكره الأكثَرونَ.

والثَّاني: أنَّه الشَّكُّ. قاله مُقاتلٌ، وزَعَم أنَّهم يهودُ أهلِ المدينةِ، وعِندَه أنَّ هذه الآيةَ مَدَنيَّةٌ.

والثَّالثُ: أنَّه الخِلافُ. قاله الحُسَينُ بنُ الفَضلِ. وقال: لم يكُنْ بمكَّةَ نِفاقٌ. وهذه مكِّيَّةٌ. فأمَّا «الكافرون» فهم مُشركو العَرَبِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ: أي نِفاقٌ، وأنَّ المرادَ المنافِقونَ: السمرقنديُّ، ومكِّي، والزمخشري، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٣٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٦٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٦).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ بالمرضِ النِّفاقُ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٣٤).

قال النسفي: (فإنْ قُلتَ: النِّفاقُ ظَهَر في المدينةِ، والسُّورةُ مَكِّيَّةٌ؟ قلتُ: معناه: ولِيَقولَ المنافِقونَ الَّذين يَظهَرونَ في المستقبَلِ بالمدينةِ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٦٦).

وقال الإيجي: (وفي الآيةِ إخبارٌ عن الغيبِ؛ لأنَّها مكيَّةٌ، فظهَر النِّفاقُ في المدينةِ). ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٤٠٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّهم اليهودُ مِن أهلِ المدينةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٨).

قال ابن عاشور: (المَرَضُ في القلوبِ: هو سُوءُ النِّيَّةِ في القُرآنِ والرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهؤلاء هم الَّذين لم يَزالوا في تَرَدُّدٍ بيْن أن يُسلِموا وأن يَبقَوا على الشِّركِ، مِثلُ الأخنَسِ بنِ شَريقٍ، والوليدِ بنِ المُغيرةِ، وليس المرادُ بالَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ: المنافِقينَ؛ لأنَّ المنافِقينَ ما ظهَروا إلَّا في المدينةِ بعدَ الهجرةِ، والآيةُ مَكِّيَّةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٧).

قال ابن تيميَّةَ: (إنَّ مكَّةَ لم يكُنْ بها نِفاقٌ؛ بل إمَّا مؤمنٌ، وإمَّا كافرٌ). ((مجموع الفتاوى)) (٢٧/ ٢٧٤). =

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾.

أي: كما أضَلَّ اللهُ تعالى الكفَّارَ بهذا العَدَدِ، وهَدى المؤمِنينَ لقَبولِه، يُضِلُّ بما يُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ أيضًا مَن يَشاءُ، فيَخذُلُه عن اتِّباعِ الحَقِّ، ويَهْدي مَن يَشاءُ، فيُوَفِّقُه لاتِّباعِ الحَقِّ، ولله الحِكمةُ البالِغةُ(١).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

---

= وقال أيضًا: (أمَّا حينَ كان [أي: النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم] بمكَّةَ، وكان المؤمنونَ مُستَضْعَفينَ، فلم يكنْ أحدٌ يحتاجُ إلى النِّفاقِ، بل كان مِن المؤمنينَ مَن يَكتُمُ إيمانَه من كثيرٍ مِن النَّاسِ، ومنهم مَن يَتكلَّمُ بالكفرِ مُكرَهًا مع طُمأنينةِ قلبِه بالإيمانِ، وهذا مؤمنٌ باطنًا وظاهرًا... ولهذا قال العلماءُ -منهم أحمدُ بنُ حَنبلٍ-: لم يَكُنْ يُمكِنُهم نِفاقٌ، إنَّما كان النِّفاقُ بالمدينةِ. ولكنْ كان بمكَّةَ مَن في قلبِه مرضٌ، كما قال في السُّورةِ المكِّيَّةِ: ﴿وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ﴾ [المدثر: ٣١]). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٠٤).

وممَّن قال بأنَّ الكافِرينَ هم كُفَّارُ مكَّةَ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والزمخشري، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١٠).

وقيل: الكافِرونَ هنا هم اليهودُ والنَّصارى. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال ابنُ عاشور: (أي: مِثلَ ذلك الضَّلالِ الحاصِلِ للَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ وللكافِرينَ، والحاصِلِ للَّذين أوتوا الكتابَ بعدَ أن استيقَنوا، فلم يُؤمِنوا؛ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاءُ أن يُضِلَّه مِن عِبادِه، ومِثلَ ذلك الهُدى الَّذي اهتداه المؤمِنونَ فزادهم إيمانًا مع إيمانِهم؛ يَهدي اللهُ مَن يَشاءُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٨).

## مُناسَبَتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ما سَبَق مِمَّا يُوهِمُ قِلَّةَ جُنودِه تعالى؛ أَتْبَعَه ما يُزيلُ ذلك، فقال:

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾.

أي: وما يَعلَمُ عَدَدَ جُنودِ رَبِّك وكَثْرتَهم مِن الملائِكةِ أو غَيرِهم إلَّا اللهُ وَحْدَه[1].

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾.

أي: وما هي إلَّا تَذكِرةٌ عظيمةٌ للنَّاسِ؛ لِيَتَّعِظوا بها ويَنزَجِروا عن مُخالَفةِ الحَقِّ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال القرطبي: (أي: وما يَدري عَدَدَ مَلائكةِ رَبِّك الَّذين خلَقَهم لتعذيبِ أهلِ النَّارِ ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أي: إلَّا اللهُ جَلَّ ثناؤُه). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٢).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: ما يَعلَمُ عَدَدَهم وكَثْرَتَهم إلَّا هو تعالى؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوَهِّمٌ أنَّهم تِسعةَ عَشَرَ فقط، كما قد قاله طائفةٌ مِن أهلِ الضَّلالةِ والجَهالةِ ومِن الفلاسفةِ اليونانيِّينَ، ومَن تابَعَهم مِن المِلَّتَينِ، الَّذين سمِعوا هذه الآيةَ، فأرادوا تنزيلَها على العُقولِ العَشَرةِ والنُّفوسِ التِّسعةِ الَّتي اختَرَعوا دعواها، وعَجَزوا عن إقامةِ الدَّلالةِ على مُقتضاها، أَفَهِموا صَدْرَ هذه الآيةِ وقد كَفَروا بآخِرِها؟! وهو قَولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٠).

وقال السعدي: (الواجِبُ أن يُتلقَّى ما أخبَرَ اللهُ به ورسولُه بالتَّسليمِ؛ فإنَّه لا يعلَمُ جنودَ رَبِّك مِن الملائكةِ وغَيرِهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾، فإذا كنتُم جاهِلينَ بجُنودِه، وأخبَرَكم بها العليمُ الخبيرُ؛ فعليكم أن تُصَدِّقوا خبَرَه، مِن غيرِ شَكٍّ ولا ارتيابٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وقال ابنُ عاشور: (نَفْيُ العِلمِ هنا نَفيٌ للعِلمِ التَّفصيليِّ بأعدادِها وصِفاتِها وخصائصِها، بقرينةِ المقامِ؛ فإنَّ العِلمَ بعَدَدِ خَزَنةِ جَهنَّمَ قد حَصَل للنَّاسِ بإعلامٍ مِنَ اللهِ، لكِنَّهم لا يَعلَمونَ ما وراءَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٧).

قيل: المرادُ بقَولِه تعالى: ﴿هِيَ﴾: النَّارُ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبَغَوي، =

كما قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٥، ٣٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ فيه بيانُ أنَّ الواجِبَ على المؤمِنِ المُبادَرةُ بالتَّصديقِ والانقيادِ، ولو لم يَعلَمِ الحِكمةَ أو السِّرَّ أو الغَرَضَ، بِناءً على أنَّ الخبَرَ مِنَ اللهِ تعالى[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ هذه مَقاصِدُ جَليلةٌ يعتني بها أولو الألبابِ، وهي السَّعيُ

---

= والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، ومجاهدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٣٤).

وقيل: المرادُ: الدَّلائِلُ والحُجَجُ في القرآنِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: السمرقنديُّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٣).

وقال الزَّجَّاجُ: (جاء في التَّفسيرِ: أنَّ النَّارَ في الدُّنيا تُذَكِّرُ بالنَّارِ في الآخِرةِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٤٨). قال الشوكاني: (وهو بعيدٌ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧).

وذهب السعديُّ إلى أنَّ المعنى: وما المقصودُ بهذه الموعِظةِ العبثَ، وإنَّما المقصودُ بها أن يَتذَكَّرَ البَشَرُ ما ينفَعُهم فيَفعَلوه، وما يَضُرُّهم فيتَرُكوه. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال الشوكاني: (﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: وما سَقَرُ وما ذُكِر مِن عَدَدِ خَزَنَتِها إلَّا تَذْكِرَةٌ وموعِظَةٌ للعالَمِ، وقيل: ﴿وَمَا هِيَ﴾ أي: الدَّلائلُ والحُجَجُ والقرآنُ إلَّا تذكِرَةٌ للبشرِ... وقيلَ: ما هي أي عِدَّةُ خزنةِ جهنَّمَ إلَّا تذكِرَةٌ للبشَرِ لِيَعْلَموا كمالَ قُدْرَةِ اللَّهِ وأنَّه لا يَحْتاجُ إلى أعْوانٍ وأنصارٍ. وقِيلَ: الضَّميرُ في ﴿وَمَا هِيَ﴾ يَرْجِعُ إلى الجنودِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩-٣٢٠).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٦٥).

في اليقينِ، وزيادةِ الإيمانِ في كُلِّ وَقتٍ، وكُلِّ مسألةٍ مِن مسائِلِ الدِّينِ، ودَفعِ الشُّكوكِ والأوهامِ الَّتي تَعرِضُ في مقابلةِ الحَقِّ، فجَعَل ما أنزلَه اللهُ على رَسولِه مُحَصِّلًا لهذه الفوائِدِ الجليلةِ، ومميِّزًا للكاذِبينَ مِنَ الصَّادِقينَ[1].

٣- إنَّ القلوبَ تمرضُ كغيرِها مِن الأعضاءِ، وعلاجُها في كتبِ الأطباء. وتمرضُ بالشُّبهاتِ والشُّكوكِ؛ لقولِه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وتمرضُ القلوبُ بالشَّهواتِ لقولِه تعالى ﴿فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أي: فجورٌ، وهو شهوةُ الزِّنا، وعلاجُ ذلك اتباعُ كتابِ الله وسنَّةِ رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم، والاجتهادُ في الطَّاعاتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ، وتركُ المحرَّماتِ الظَّاهرةِ والباطنةِ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ جعَلَهم ملائِكةً؛ لوُجوهٍ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: لِيَكونوا بخِلافِ جِنسِ المعَذَّبينَ؛ لأنَّ الجِنسيَّةَ مَظِنَّةُ الرَّأفةِ والرَّحمةِ؛ ولذلك بَعَث الرَّسولَ المبعوثَ إلينا مِن جِنْسِنا؛ ليكونَ له رأفةٌ ورَحمةٌ بنا.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّهم أبعَدُ الخَلقِ عن معصيةِ اللهِ تعالى، وأقواهم على الطَّاعاتِ الشَّاقَّةِ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ قُوَّتَهم أعظَمُ مِن قوَّةِ الجِنِّ والإنسِ[3].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٦).

(٢) يُنظر: ((الآداب الشرعية)) لابن مفلح (٣/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٩).

لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ فيه سُؤالٌ: ما وجْهُ تأثيرِ إنزالِ هذا المُتشابِهِ في استيقانِ أهلِ الكِتابِ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ هذا العددَ لَمَّا كان موجودًا في كتابِهم، ثمَّ إنَّه عليه السَّلامُ أخبَرَ على وَفقِ ذلك مِن غَيرِ سابِقةِ دِراسةٍ وتعَلُّمٍ، فظَهَر أنَّ ذلك إنَّما حَصَل بسبَبِ الوَحيِ مِنَ السَّماءِ، فالَّذين آمَنوا بمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أهلِ الكتابِ يَزدادونَ به إيمانًا.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ التَّوراةَ والإنجيلَ كانا محَرَّفَينِ، فأهلُ الكِتابِ كانوا يَقرَؤونَ فيهما أنَّ عَدَدَ الزَّبانيةِ هو هذا القَدْرُ، ولكِنَّهم ما كانوا يُعَوِّلون على ذلك كلَّ التعويلِ؛ لعِلْمِهم بتطَرُّقِ التَّحريفِ إلى هذينِ الكتابينِ، فلمَّا سَمِعوا ذلك مِن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قَوِيَ إيمانُهم بذلك، واستيقَنوا أنَّ ذلك العَدَدَ هو الحَقُّ والصِّدقُ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَعلَمُ مِن حالِ قُرَيشٍ أنَّه متى أخبَرَهم بهذا العَدَدِ العَجيبِ فإنَّهم يَستَهزِئونَ به ويَضحَكونَ منه؛ لأنَّهم كانوا يَستَهزِئونَ به في إثباتِ التَّوحيدِ والقُدرةِ والعِلمِ، مع أنَّ تلك المسائِلَ أوضَحُ وأظهَرُ، فكيف في ذِكرِ هذا العددِ العجيبِ؟! ثمَّ إنَّ استهزاءَهم برَسولِ الله وشِدَّةَ سُخريَتِهم به ما منَعَه مِن إظهارِ هذا الحَقِّ، فعندَ هذا يَعلَمُ كُلُّ أحَدٍ أنَّه لو كان غَرَضُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم طلَبَ الدُّنيا والرِّياسةِ، لَاحتَرَز عن ذِكرِ هذا العَدَدِ العَجيبِ، فلمَّا ذكَرَه مع عِلْمِه بأنَّهم لا بدَّ أن يَستَهْزِئُوا به، عَلِمَ كُلُّ عاقلٍ أنَّ مَقصودَه منه إنَّما هو تبليغُ الوَحيِ، وأنَّه ما كان يُبالي في ذلك

لا بتَصديقِ المصَدِّقينَ، ولا بتكذيبِ المكَذِّبين[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ إثباتُ زيادةِ الإيمانِ[٢]، فالمؤمِنُ كُلَّما جاءه أمرٌ عن اللهِ وصَدَّقَه ولو لم يَعلَمْ حَقيقتَه؛ اكتِفاءً بأنَّه مِن اللهِ، ازداد بهذا التَّصديقِ إيمانًا، وهي مسألةُ ازديادِ الإيمانِ بالطَّاعةِ والتَّصديقِ[٣]. وفيه دليلٌ أيضًا على النَّقصِ؛ لأنَّه لا تُتَصَوَّرُ زيادةٌ إلَّا بما نَقَصَ عنها[٤]، وما جاز عليه الزِّيادةُ، جاز عليه النُّقصانُ[٥].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾ فيه سؤالٌ: القَومُ كانوا يُنكِرونَ كَونَ القُرآنِ مِن عندِ اللهِ، فكيف قالوا: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾؟

**الجوابُ**: أمَّا الَّذين في قُلوبِهم مَرَضٌ، وهم المنافِقونَ، فكانوا في الظَّاهِرِ مُعتَرِفينَ بأنَّ القُرآنَ مِن عندِ اللهِ، فلا جَرَمَ قالوا ذلك باللِّسانِ، وأمَّا الكُفَّارُ فقالوه على سَبيلِ التَّهَكُّمِ، أو على سَبيلِ الاستِدلالِ بأنَّ القُرآنَ لو كان مِن عندِ اللهِ لَمَا قال مِثلَ هذا الكلامِ[٦].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ حُجَّةٌ على المُعتزلةِ والقَدَرِيَّةِ في نِسبةِ الإضلالِ، والمشيئةِ منه سُبحانَه فيه[٧]. فالهدايةُ والإضلالُ بيدِ الله؛ يهدي مَن يشاءُ بفضلِه، ويُضِلُّ مَن يشاءُ بعدلِه، وهو أعلمُ بمواقعِ فضلِه

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١١).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (٢/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٦٦).

(٥) يُنظر: ((الغنية لطالبي طريق الحق)) للجيلاني (١/ ١٣٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٢).

(٧) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٤١).

وعدلِه ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠]، وله في ذلك الحكمةُ البالغةُ، والحجَّةُ الدَّامغةُ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا ينبغي استصغارُ شيءٍ مِن خلقِ الله تعالى إلَّا مِن حيثُ أذِن الله في استصغارِه؛ فإنَّ الله تعالى إذا سلَّط أضعفَ خلقِه على أشدِّهم أهلَكه، كما سلَّط البعوضَ على نمرودَ فأهلَكه بها، وكما سلَّط الجرادَ والقمَّلَ والضَّفادعَ على فرعونَ وقومِه(٢).

## بلاغةُ الآيةِ:

قولُه تعالَى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ صِيغةُ القصْرِ (ما... إلَّا) تُفيدُ قلْبَ اعتِقادِ أبي جَهْلٍ وغيرِه ما تَوهَّموه أو تَظاهَروا بتَوهُّمِه أنَّ المُرادَ تِسعةَ عشَرَ رجُلًا، فطَمِعَ أنْ يَخلُصَ منهم هو وأصحابُه بالقوَّةِ(٣).

- قولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تَتميمٌ في إبطالِ تَوهُّمِ المشركينَ حَقارةَ عدَدِ خزَنةِ النارِ، وهو كَلامٌ جارٍ على تَقديرِ الأُسلوبِ الحَكيمِ(٤)؛ إذ

---

(١) يُنظر: ((أعلام السنة المنشورة)) للحكمي (ص: ٩٢).

(٢) يُنظر: ((حسن التنبه لما ورد في التشبه)) لنجم الدين الغزي (٧/ ٢٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٤).

(٤) الأسلوبُ الحكيمُ: هو تلقِّي المُخاطَبِ بغيرِ ما يترقَّبُ بحملِ كلامِه على غيرِ مرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه هو الأَولَى بالقصدِ، وكذلك أيضًا تلقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يتطلَّبُ؛ تنبيهًا على ما هو الأولَى بحالِه وبالسُّؤالِ عنه، وهو مِن خلافِ مقتضَى الظاهرِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: =

الكلامُ قدْ أثار في النُّفوسِ تَساؤلًا عن فائدةِ جَعْلِ خَزَنةِ جهنَّمَ تِسعةَ عشَرَ، وهلَّا كانوا آلافًا؛ ليكونَ مَرآهُم أشدَّ هَولًا على أهلِ النَّارِ؟ أو هلَّا كانوا مَلَكًا واحدًا؛ فإنَّ قُوَى الملائكةِ تَأتي كلَّ عمَلٍ يُسخِّرُها اللهُ له؟ فكان جَوابُ هذا السُّؤالِ: أنَّ هذا العدَدَ قدْ أظهَرَ لأصنافِ النَّاسِ مَبلَغَ فَهْمِ الكفَّارِ للقُرآنِ، وإنَّما حصَلَت الفِتنةُ مِن ذِكرِ عَددِهم في الآيةِ السَّابقةِ، فقولُه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ﴾ تَقديرُه: وما جَعَلْنا ذِكرَ عِدَّتِهم إلَّا فِتنةً...[1].

- والقصرُ في قولِه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قَصْرُ قلْبٍ[2] للرَّدِّ

---

= ٣٢٧)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٤/ ٤٢، ٤٣)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (١/ ١٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٤).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقَصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) =

على الَّذين كَفَروا؛ إذِ اعتَقَدوا أنَّ عِدَّتَهم أمْرٌ هيِّنٌ، والتَّقديرُ: ما جعَلْنا ذِكرَ عِدَّتِهم لعِلَّةٍ وغرَضٍ إلَّا لغَرضِ فِتنةِ الَّذين كَفروا[1].

- وقيل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وما جَعَلْنا عَدَدَهم إلَّا العددَ الَّذي اقْتَضى فِتنتَهم، وهو التِّسعةَ عشَرَ، فعُبِّرَ بالأثَرِ عن المُؤثِّرِ؛ تَنبيهًا على أنَّه لا يَنفَكُّ منه[2].

- والاستِيقانُ: قُوَّةُ اليقينِ؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للمُبالَغةِ[3].

- قولُه: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ المَقصودُ مِن ذِكرِه التَّمهيدُ لذِكرِ مُكابَرةِ الَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ والكافِرينَ في سُوءِ فَهْمِهم لهذه العِدَّةِ؛ تَمْهيدًا بالتَّعريضِ قبْلَ التَّصريحِ؛ لأنَّه إذا قِيل: ﴿وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ شَعَرَ الَّذين في قُلوبِهم مرَضٌ والكافِرون بأنَّهم لَمَّا ارْتابُوا في ذلك فقدْ كانوا دونَ مَرتبةِ الَّذين أُوتوا الكِتابَ؛ لأنَّهم لا يُنازِعون في أنَّ الَّذين أُوتوا الكِتابَ أرجَحُ منهم عُقولًا، وأسَدُّ قَولًا؛ ولذلك عُطِفَ عليه ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾، أي: لِيَقولوا هذا القولَ إعرابًا عمَّا في نُفوسِهم مِن الطَّعنِ في القرآنِ غيرَ عالِمِينَ بتَصديقِ الَّذين أُوتوا

---

= للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٥).

الكِتابَ[١].

- فإنْ قِيل: لِمَ قال: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ والاستِيقانُ وازديادُ الإيمانِ دالَّانِ على انتفاءِ الارتيابِ؟

**فالجوابُ**: لأنَّه إذا جَمَع لهم إثباتَ اليقينِ ونفْيَ الشَّكِّ، كان آكَدَ وأبلَغَ لوَصْفِهم بسُكونِ النَّفْسِ، وثَلَجِ الصَّدرِ، فالمقصودُ مِن إعادةِ هذا الكلامِ هو أنَّه حَصَل لهم يقينٌ جازمٌ، بحيثُ لا يحصُلُ عَقِيبَه البتَّةَ شَكٌّ ولا رَيبٌ، ولأنَّ فيه تَعريضًا بحالِ مَن عَداهم، كأنَّه قال: ولِتُخالِفَ حالُهم حالَ الشَّاكِّينَ المُرتابينَ مِن أهلِ النِّفاقِ والكُفْرِ[٢].

- وإنَّما لم يُنظَمِ المؤمنونَ في سَلْكِ أهلِ الكِتابِ في نفْيِ الارتيابِ، حيث لم يُقَلْ: ولا يَرْتابوا؛ للتَّنبيهِ على تَبايُنِ النَّفيَينِ حالًا، فإنَّ انتفاءَ الارتيابِ مِن أهلِ الكتابِ مُقارِنٌ لِما يُنافيهِ مِن الجُحودِ، ومِن المؤمنينَ مُقارِنٌ لِما يَقتضيهِ مِن الإيمانِ، وكَمْ بيْنَهما! والتَّعبيرُ عن المؤمنينَ باسمِ الفاعلِ في قولِه: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بعْدَ ذِكرِهم بالموصولِ والصِّلةِ الفِعليَّةِ المُنبئةِ عن الحُدوثِ؛ للإيذانِ بثَباتِهم على الإيمانِ بعدَ ازديادِه، ورُسوخِهم في ذلك[٣].

- قولُه: ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ إفرادُ قَولِهم هذا بالتَّعليلِ مع كَونِه مِن بابِ فِتنتِهم؛ للإشعارِ باستقلالِه في الشَّناعةِ[٤].

- وقولُهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ استِفهامٌ إنكاريٌّ، وتَقديرُ الكلامِ: ما الأمْرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٦، ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١١، ٧١٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

الَّذي أراده اللهُ بهذا الكلامِ في حالِ أنَّه مَثَلٌ؟! والمعنى: لم يُرِدِ اللهُ هذا العددَ المُمثَّلَ به، وقدْ كُنِّيَ بنَفْيِ إرادةِ اللهِ العدَدَ عن إنكارِ أنْ يكونَ اللهُ قال ذلك، فكَنَّوْا بنَفْيِ إرادةِ اللهِ وصْفَ هذا العدَدِ عن تَكذيبِهم أنْ يكونَ هذا العدَدُ مُوافقًا للواقعِ؛ لأنَّهم يَنْفُونَ فائدتَه، وإنَّما أرادوا تَكذيبَ أنْ يكونَ هذا وَحْيًا مِن عندِ اللهِ[1].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ تَشبيهٌ، الغرَضُ منه تَقريبُ المعْنى المعقولِ إلى المعْنَى المحسوسِ المعروفِ في واقعةِ الحالِ، فمِثلَ ذلك المذكورِ مِن الإضلالِ والهُدى يُضِلُّ الكافِرينَ ويَهْدي المؤمنينَ، وقاله تَعليمًا للمُسلمينَ، وتَنبيهًا للنَّظَرِ في تَحصيلِ ما يَنفَعُ نُفوسَهم. ووَجْهُ الشَّبهِ هو السَّببيَّةُ في اهتداءِ مَن يَهْتدي، وضَلالِ مَن يَضِلُّ، في أنَّ كُلًّا مِن المُشبَّهِ والمُشبَّهِ به جَعَلَه اللهُ سَببًا وإرادةً لِحكمةٍ اقْتَضاها عِلمُه تعالَى، فتَفاوَتَ النَّاسُ في مَدَى أفهامِهم فيه بيْن مُهتدٍ ومُرتابٍ مُختلِفِ المَرتبةِ في رَيبِه، ومُكابرٍ كافرٍ، وسيِّئِ فَهْمٍ كافرٍ. وهذه كَلمةٌ عَظيمةٌ في اختِلافِ تَلقِّي العُقولِ للحَقائقِ وانتفاعِهم بها أو ضِدِّه، بحسَبِ اختلافِ قَرائحِهم وفُهومِهم وتَراكيبِ جِبلَّاتِهم المُتسلسلةِ مِن صَوابٍ إلى مِثلِه، أو مِن تَردُّدٍ واضطرابٍ إلى مِثلِه، أو مِن حَنَقٍ وعِنادٍ إلى مِثلِه، فانْطَوى التَّشبيهُ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ على أحوالٍ وصُوَرٍ كثيرةٍ تَظهَرُ في الخارجِ[2].

- قولُه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ مَحلُّ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ نصْبٌ بالنِّيابةِ عن المفعولِ المُطلَقِ؛ لأنَّ الجارَّ والمجرورَ هنا صِفةٌ لمَصدرٍ مَحذوفٍ دلَّت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٧).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٦٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٨).

عليه الصِّفةُ، والتَّقديرُ: يُضِلُّ اللهُ مَن يشاءُ، ويَهْدي مَن يشاءً إضلالًا وهَدْيًا كذلك الإضلالِ والهَدْي. وقُدِّمَ وصْفُ المفعولِ المُطلَقِ على الفِعلِ؛ للاهتمامِ بهذا التَّشبيهِ؛ لِما يُرشِدُ إليه مِن تَفصيلٍ عندَ التَّدبُّرِ فيه، وحصَل مِن تَقديمِه أيضًا مُحسِّنُ الجمْعِ، ثمَّ التَّقسيمِ[1]؛ إذ جاء تَقسيمُه بقولِه: ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾[2]. فحُذِفَ المَصدرُ، وأُقيمَ وصْفُه مُقامَه، ثمَّ قُدِّمَ على الفِعلِ لإفادةِ القَصرِ، فصارَ النَّظمُ: مِثلَ ذلكَ الإضلالِ وتلك الهِدايةِ يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاءُ إضلالَه؛ لصَرفِ اختيارِه حسَبَ استِعدادِه السَّيِّئِ إلى جانبِ الضَّلالِ عندَ مُشاهَدتِه لآياتِ الله تعالى النَّاطِقةِ بالهُدى، ويَهْدي مَن يَشاءُ هِدايتَه لصَرفِ اختيارِه حسَبَ استِعدادِه الحسَنِ عندَ مُشاهَدةِ تلك الآياتِ إلى جانبِ الهُدى، لا إضلالًا وهِدايةً أدْنَى منهما[3].

- قولُه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ كَلمةٌ جامعةٌ لإبطالِ التَّخرُّصاتِ الَّتي يَتخرَّصُها الضَّالُّون ومَرضَى القُلوبِ عندَ سَماعِ الأخبارِ عن عالَمِ الغَيبِ وأُمورِ الآخِرةِ، مِن نحْوِ ما هَذَى به أبو جهْلٍ في أمْرِ خَزَنةِ جَهنَّمَ، يَشملُ ذلك وغيرَه؛ فلذلك كان لهذه الجُملةِ حُكْمُ التَّذييلِ[4].

- قولُه: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ إضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إضافةُ تَشريفٍ، وتَعريضٌ بأنَّ مِن شأْنِ تلك الجُنودِ أنَّ بَعضَها يكونُ

---

(١) الجمعُ والتَّقسيمُ: هو جمْعُ متعدِّدٍ تحتَ حُكمٍ، ثمَّ تقسيمُه، كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [فاطر: ٣٢]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (ص: ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩).

به نصْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[١].

- قولُه: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ فيه مَعانٍ كَثيرةٌ، أعْلاها أنْ يكونَ هذا تَتِمَّةً لقولِه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾، على أنْ يكونَ جاريًا على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ[٢]، أي: أنَّ النَّافِعَ لكم أنْ تَعلَموا أنَّ الخبرَ عن خَزَنةِ النَّارِ بأنَّهم تِسعةَ عشَرَ -وذلك على قولٍ-، فائدتُه أنْ يكونَ ذِكرَى للبشَرِ؛ ليَتذكَّروا دارَ العِقابِ بتَوصيفِ بَعضِ صِفاتِها؛ لأنَّ في ذِكرِ الصِّفةِ عَونًا على زِيادةِ استِحضارِ الموصوفِ، فغرَضُ القُرآنِ الذِّكرى، وقدِ اتَّخَذه الضَّالُّون ومَرضَى القُلوبِ لَهوًا وسُخريةً ومِراءً بالسُّؤالِ عن جَعْلِهم تِسعةَ عَشَرَ ولم يَكونوا عِشرينَ، أو مِئاتٍ، أو آلافًا[٣]!

- وقيل: قولُه: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ القصْرُ مُتوجِّهٌ إلى مُضافٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: وما ذِكْرُها أو وَصْفُها، أو نحْوُ ذلك[٤].

- وإنَّما حَمَلَتِ الآيةُ المعانيَ الكثيرةَ بحُسنِ مَوقعِها في هذا الموضِعِ، وهذا مِن بَلاغةِ نظْمِ القُرآنِ، ولو وَقَعَت إثرَ قولِه: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٩] لَتمحَّضَ ضَميرُ ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ﴾ للعَودِ إلى سَقَرَ، وهذا مِن الإعجازِ بمَواقعِ جُمَلِ القرآنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣١٩، ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٢٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٣٢-٣٧)

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسْفَرَ﴾: أي: أضاء وانتَشَر ضَوؤُه، وأصلُ (سفر): يدُلُّ على انكِشافٍ وجَلاءٍ[1].

﴿ٱلْكُبَرِ﴾: أي: العَظائِمِ، وهي جمعُ «الكُبْرى»، وأصلُ (كبر): يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[2].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿نَذِيرًا﴾: في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّه حالٌ ممَّا دلَّت عليه الجُملةُ، أي: كَبُرَت مُنذِرةً، فـ ﴿نَذِيرًا﴾ وَصفٌ بمعنى «مُنذِرةً»، وإنَّما لم يُؤَنِّثْ ﴿نَذِيرًا﴾ وهو حالٌ مِن مُؤَنَّثٍ «سَقَر»؛ لأنَّها بمعنى «ذاتَ إنذارٍ» على معنى النَّسَبِ. الثَّاني: أنَّه حالٌ مِنْ «إحْدَى»، أي: إنَّها لكبيرةٌ في حالِ الإنذارِ، والهاءُ في ﴿إِنَّهَا﴾ تعودُ إلى «سَقَر» النَّارِ، وذُكِّرَ الحالُ؛ لأنَّ النَّارَ في معنى «العذابِ». الثَّالثُ: أنَّه تمييزٌ عن «إحدى»؛ لِما تضَمَّنه مِن معنى التَّعظيمِ، كأنَّه قيل: أعظَمُ الكُبَرِ إنذارًا، فـ «نذير» بمعنى الإِنذارِ، كالنَّكيرِ بمعنى الإِنكارِ. وقيل غَيرُ ذلك[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٩)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٥٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٥٩).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ليس الأمرُ كما يظُنُّ المُشرِكونَ في شأنِ عِدَّةِ خَزَنةِ النَّارِ.

وأُقسِم بالقَمَرِ، وباللَّيلِ وَقتَ ذَهابِه، وبالصُّبحِ إذا ابتدَأَ ظُهورُ ضَوئِه؛ إنَّ النَّارَ لإِحْدى الأُمورِ الكُبْرى الَّتي لا نَظيرَ لها، مُنْذِرةً للنَّاسِ؛ لِمَن شاء أن يَقبَلَ النِّذارةَ ويَهتَدِيَ للحَقِّ، فيتقَدَّمَ إلى الإيمانِ، ولِمَن شاء أن يتأَخَّرَ عن الإيمانِ، فلا يَرْعويَ بنِذارتِها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢﴾.

﴿كَلَّا﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يظُنُّ المُشرِكونَ في شأنِ عِدَّةِ خَزَنةِ النَّارِ(١).

﴿وَٱلْقَمَرِ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧).

وهذا المعنى المذكورُ لـ﴿كَلَّآ﴾ ذهب إليه في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، واستظهره الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧).

قال الشوكاني: (قال ابنُ جرير: والمعنى: ردٌّ زعْم مَنْ زعَمَ أنَّه يُقاوِمُ خَزَنةَ جَهنَّمَ، أي: ليس الأمرُ كما يقولُ، ثمَّ أقسَمَ على ذلك بالقَمَرِ وبما بَعْدَه. وهذا هو الظَّاهِرُ مِن معنى الآيةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧).

وقيل: ﴿كَلَّآ﴾ هنا بمعنى: حَقًّا. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، والبغويُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٥).

أي: وأُقسِم بالقَمَرِ[١].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ٣٣﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ وَقتَ ذَهابِه وانصِرافِه[٢].

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ٣٤﴾.

أي: وأُقسِمُ بالصُّبحِ إذا ابتدَأَ ظُهورُ ضَوئِه عندَ الفَجرِ[٣].

﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ٣٥﴾.

أي: إنَّ النَّارَ لَإِحْدى الأُمورِ الكُبْرى الَّتي لا نَظيرَ لها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٤)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٤٤١).

قال ابن عطية: («أسفَرَ الصُّبحُ»: أضاء وانتَشَر ضَوؤُه قبلَ طُلوعِ الشَّمسِ بكثيرٍ، والإسفارُ رُتَبٌ: أوَّلُ، ووسَطٌ، وآخِرٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿إِنَّهَا﴾ يعودُ إلى سَقَرَ الَّتي جرى ذِكرُها، وهي النَّارُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والنسفي، والخازن، وأبو حيَّان، والعُليمي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٤)، ((تفسير الرسعني)) =

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: مُنْذِرةً للنَّاسِ، فتُخَوِّفُهم وتحَذِّرُهم تحذيرًا بالِغًا[1].

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: لِمَن شاء أن يَقبَلَ النِّذارةَ، ويَهتَدِيَ للحَقِّ، فيتقَدَّمَ إلى الإيمانِ والخَيرِ، ولِمَن شاء أنْ يتأخَّرَ عن الإيمانِ والخيرِ، فلا يَرْعويَ بنِذارتِها[2].

---

= (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ -أي: أنَّ المرادَ النَّارُ-: ابنُ عبَّاسٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو رَزِينٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣).

قال الماوَرْدي: (﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ فيها ثلاثةُ تأويلاتٍ:

أحدُها: أي أنَّ تكذيبَهم بمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم لَإِحْدى الكُبَرِ، أي: الكبيرةُ مِن الكبائرِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أي أنَّ هذه النَّارَ لَإِحْدى الكُبَرِ، أي: لَإِحْدى الدَّواهي.

الثَّالثُ: أنَّ هذه الآيةَ لَإِحْدى الكُبَرِ، حكاه ابنُ عيسى.

ويحتمِلُ رابعًا: أنَّ قيامَ السَّاعةِ لَإِحْدى الكُبَرِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (يحتمِلُ أن يكونَ الضَّميرُ للنِّذارةِ وأمرِ الآخِرةِ، فهو للحالِ والقِصَّةِ، وتكونَ هذه الآيةُ مِثلَ قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالنَّذيرِ هنا: النَّارُ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

قال ابنُ عاشور: (أي: إنَّها لَعُظمى العَظائمِ في حالِ إنذارِها للبَشَرِ، وكفى بها نذيرًا!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٤)، ((تفسير ابن =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

إنَّ إضاعةَ الوَقتِ الصَّحيحِ يَدْعو إلى دَرَكِ النَّقيصةِ؛ إذ صاحِبُ حِفْظِه مُتَرَقٍّ على دَرَجاتِ الكمالِ، فإذا أضاعه لم يقِفْ مَوضِعَه، بل يَنزِلُ إلى دَرَجاتٍ مِنَ النَّقصِ، فإنْ لَمْ يكنْ في تَقَدُّمٍ فهو مُتَأَخِّرٌ ولا بُدَّ، فالعبدُ سائرٌ لا واقفٌ؛ فإمَّا إلى فوقٍ وإمَّا إلى أسفلَ، إمَّا إلى أمامٍ وإمَّا إلى وراءٍ، وليس في الطبيعةِ ولا في الشَّريعةِ وُقوفٌ البَتَّةَ، ما هو إلَّا مراحِلُ تُطْوَى أسرعَ طيٍّ إلى الجنَّةِ أو النَّارِ، فمُسْرِعٌ ومُبْطِئٌ، ومُتَقَدِّمٌ ومُتَأَخِّرٌ، وليس في الطَّريقِ واقفٌ البَتَّةَ! وإنَّما يَتخالَفونَ في جهةِ المسيرِ، وفي السُّرعةِ والبُطءِ ﴿ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ۝ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدثر: ٣٥ - ٣٧]، فلَمْ يَذْكُرْ واقفًا؛ إذْ لا مَنْزِلَ بيْن الجنَّةِ والنَّارِ، ولا طريقَ لسالكٍ إلى غيرِ الدَّارَينِ البَتَّةَ، فمَن لم يَتَقَدَّمْ إلى هذه بالأعمالِ الصَّالحةِ، فهو متأخِّرٌ إلى تلك بالأعمالِ السَّيِّئةِ[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

في قَولِه تعالى: ﴿ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴾ أقْسَم سُبحانَه بهذه الأشياءِ الثَّلاثةِ -وهي: القمرُ، واللَّيلُ إذا أدْبَر، والصُّبحُ إذا أسْفَر- على المَعادِ؛ لِمَا في القَسَمِ مِن الدَّلالةِ على ثُبوتِ المُقْسَمِ عليه؛ فإنَّه يَتضمَّنُ كمالَ قدرتِه وحكمتِه وعنايتِه بخَلْقِه، وإبداءَ الخَلْقِ وإعادتَه، كما هو مشهودٌ في إبداءِ النَّهارِ واللَّيلِ وإعادتِهما، وفي إبداءِ النُّورِ وإعادتِه في القمرِ، وفي إبداءِ الزَّمانِ

---

= عطية)) (٥/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٧٨).

وإعادتِه -الَّذي هو حاصلٌ بسَيرِ الشَّمسِ والقمرِ-، وإبداءِ الحيوانِ والنَّباتِ وإعادتِهما، وإبداءِ فصولِ السَّنَةِ وإعادتِها، وإبداءِ ما يَحْدُثُ في تلك الفصولِ وإعادتِه، فكلُّ ذلك دليلٌ ظاهرٌ على المبدأِ والمعادِ الَّذي أخْبَرَتْ به الرُّسُلُ كلُّهم عنه؛ فصَرَّفَ سُبحانَه الآياتِ الدَّالَّةَ على صِدْقِ رُسُلِه، ونَوَّعَها، وجَعَلها للفِطَرِ تارةً، والسَّمعِ تارةً، والمُشاهَدةِ تارةً، فجَعَلها آفاقيَّةً ونفْسيَّةً، ومنقولةً ومعقولةً، ومشهودةً بالعيَانِ ومذكورةً بالجَنانِ؛ فأبَى الظَّالِمونَ إلَّا كُفورًا! ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا وَلَا يَمۡلِكُونَ مَوۡتٗا وَلَا حَيَوٰةٗ وَلَا نُشُورٗا﴾[1] [الفرقان: ٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ۝ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ۝ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ﴾ (كلَّا) حرْفُ رَدْعٍ وإبطالٍ، وهو رَدْعٌ لقَولِ مَن قالوا: إنَّهم يَقدِرونَ على مُقاوَمةِ خَزَنةِ جَهنَّمَ[2]. ويحتمِلُ أنْ يكونَ إبطالًا لِما قبْلَه مِن قولِهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗا﴾، فيَكونَ ما بيْنَهما اعتراضًا، ويكونَ قولُه: ﴿وَٱلۡقَمَرِ﴾ ابتداءَ كَلامٍ، فيَحسُنُ الوقفُ على ﴿كَلَّا﴾. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ حرْفَ إبطالٍ مُقدَّمًا على الكلامِ الَّذي بعْدَه مِن قولِه: ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ۝ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣٥، ٣٦] تَقديمَ اهتِمامٍ لإبطالِ ما يَجِيءُ بعْدَه مِن مَضمونِ قولِه: ﴿نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ﴾، أي: مِن حقِّهم أنْ يَنتذِروا بها، فلمْ يَنتذِرْ أكثَرُهم، على نحْوِ معْنى قولِه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣]، فيَحسُن أنْ تُوصَلَ في القراءةِ بما

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٥).

بعْدَها[١].

- الواوُ في ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾ واوُ القسَمِ، وهذا القسَمُ يجوزُ أنْ يكونَ تَذييلًا لِما قبْلَه مُؤكِّدًا لِما أفادَتْه ﴿كَلَّا﴾ مِن الإنكارِ والإبطالِ لمَقالتِهم في شأْنِ عِدَّةِ خَزَنةِ النارِ؛ فتَكونَ جُملةُ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ تَعليلًا للإنكارِ الَّذي أفادَتْه ﴿كَلَّا﴾، ويكونَ ضَميرُ ﴿إِنَّهَا﴾ عائدًا إلى ﴿سَقَرَ﴾ [المدثر: ٢٦]، أي: هي جَديرةٌ بأنْ يُتذكَّرَ بها؛ فلذلك كان مَن لم يَتذكَّرْ بها حَقيقًا بالإنكارِ عليه ورَدْعِه، وجُملةُ القَسَمِ على هذا الوجْهِ مُعترِضةٌ بيْن الجُملةِ وتَعليلِها. ويَحتمِلُ أنْ يكونَ القسَمُ صَدْرًا للكلامِ الَّذي بعْدَه، وجُملةُ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ جَوابَ القسَمِ[٢].

- قولُه: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ هذه ثلاثةُ أيْمانٍ لزِيادةِ التَّأكيدِ؛ فإنَّ التَّأكيدَ اللَّفظيَّ إذا أُكِّد بالتَّكرارِ يُكرَّرُ ثلاثَ مرَّاتٍ غالبًا، أقسَمَ بمَخلوقٍ عَظيمٍ، وبحالَينِ عَظيمَينِ مِن آثارِ قُدرةِ اللهِ تعالَى[٣].

- ومُناسَبةُ القسَمِ بـ ﴿وَٱلْقَمَرِ * وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ أنَّ هذه الثَّلاثةَ تَظهَرُ بها أنوارٌ في خِلالِ الظَّلامِ، فناسَبَت حالَي الهُدى والضَّلالِ مِن قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [المدثر: ٣١]، ومِن قولِه: ﴿وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١]؛ ففي هذا القسَمِ تَلويحٌ إلى تَمثيلِ حالِ الفَريقَينِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

مِن النَّاسِ عندَ نُزولِ القُرآنِ بحالِ اختراقِ النُّورِ في الظُّلمةِ[١].

- وأقسَمَ تعالَى بهذه الأشياءِ تَشريفًا لها، وتَنبيهًا على ما يَظهَرُ بها وفيها مِن عَجائبِ اللهِ وقُدرتِه، وقِوامِ الوُجودِ بإيجادِها[٢].

قولُه: ﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ أقسَمَ باللَّيلِ في حالةِ إدْبارِه الَّتي مضَتْ، وهي حالةٌ مُتجدِّدةٌ تَمضي وتَحْضُرُ وتُستقبَلُ، فأيُّ زَمنٍ اعتُبِرَ معها فهي حقيقةٌ بأنْ يُقسَمَ بكَونِها فيه؛ ولذلك أقْسَمَ بالصُّبحِ إذا أسفَرَ مع اسمِ الزَّمنِ المستقبَلِ، فحصَل تفنُّنٌ في القَسمِ[٣].

- وقد أُجرِيَت جُملةُ ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾ [المدثر: ٣٥] مُجْرى المثَلِ، ومعنَى (إحْدَى) أنَّها المتوحدِّةُ المتميِّزةُ مِن بيْنِ الكُبَرِ في العِظَمِ لا نظيرةَ لها، كما يُقالُ: هو أحدُ الرِّجالِ، لا يُرادُ: أنَّه واحدٌ منهم، بل يُرادُ: أنَّه مُتوحِّدٌ فيهم بارزٌ ظاهرٌ[٤].

- قولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ بدَلٌ مُفصَّلٌ مِن مُجمَلٍ مِن قولِه: ﴿لِّلْبَشَرِ﴾، وأُعِيدَ حرْفُ الجرِّ مع البدَلِ للتَّأكيدِ، والمعْنى: أنَّها نَذيرٌ لِمَن شاء أنْ يَتقدَّمَ إلى الإيمانِ والخَيرِ ليَنتذِرَ بها، ولِمَن شاء أنْ يَتأخَّرَ عن الإيمانِ والخَيرِ فلا يَرْعوي بنِذارتِها؛ لأنَّ التَّقدُّمَ مشْيٌ إلى جِهةِ الأمامِ، فكأنَّ المُخاطَبَ يَمْشي إلى جِهةِ الدَّاعي إلى الإيمانِ، وهو كِنايةٌ عن قَبولِ ما يَدْعو إليه، وبعكْسِه التَّأخُّرُ، فحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يَتَقَدَّمَ﴾ و﴿يَتَأَخَّرَ﴾ لظُهورِه مِن السِّياقِ. ويَجوزُ أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٢).

يُقدَّرَ: لِمَن شاء أنْ يَتقدَّمَ إليها، أي: إلى سَقَرَ؛ بالإقدامِ على الأعمالِ الَّتي تُقدِّمُه إليها، أو يَتأخَّرَ عنها؛ بتَجنُّبِ ما مِن شَأنِه أنْ يُقرِّبَه منها[١].

- وتَعليقُ ﴿نَذِيرًا﴾ بفِعلِ المشيئةِ إنذارٌ لِمَن لا يَتذكَّرُ بأنَّ عدَمَ تَذكُّرِه ناشئٌ عن عدَمِ مَشيئتِه، فتَبعَتُه عليه؛ لتَفريطِه، على نحْوِ قولِ المثَلِ: «يَداكَ أَوْكَتَا، وفُوكَ نَفَخ»[٢].

- وذُكِّر ﴿نَذِيرًا﴾؛ لأنَّ معناه معنَى العذابِ، أو أرادَ ذاتَ إنذارٍ على معنَى النَّسَبِ، كقولِهم: امرأةٌ طالِقٌ وطاهِرٌ، أو لأنَّ النَّذيرَ مصدرٌ كالنَّكيرِ؛ ولذلك يُوصَفُ به المؤَنَّثُ[٣].

- وفي ضَميرِ ﴿مِنكُمْ﴾ الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ لأنَّ مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: لِمَن شاء مِنْهم، أي: مِن البشَرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٤).

## الآيات (٣٨-٤٨)

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿رَهِينَةٌ﴾: أي: محبوسةٌ بكَسْبِها، مأخوذةٌ بعمَلِها، ومُرتَهَنةٌ به غيرُ مفكوكةٍ، وكلُّ ما احتُبِس به شيءٌ فرهينُه ومُرْتهَنُه، والرَّهينةُ اسمٌ بمعنى الرَّهنِ، كالشَّتيمةِ بمعنى الشَّتمِ، وأصلُ (رهن): يدُلُّ على ثباتِ شيءٍ يُمْسَكُ بحقٍّ أو غيرِه[1].

﴿سَلَكَكُمْ﴾: أي: أدخلَكم، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريقِ، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ أسْلُكُه، وسَلَكْتُ الشَّيءَ في الشَّيءِ: أنْفَذْتُه، وأصلُ (سلك): يدُلُّ على نُفوذِ شيءٍ في شيءٍ[2].

﴿ٱلْخَآئِضِينَ﴾: أي: الغاوِينَ الكاذِبينَ أهلِ الباطِلِ، والخَوضُ: الشُّروعُ في الماءِ والمرورُ فيه، ويُستعمَلُ في الدُّخولِ في الأمرِ بالقَولِ، وأكثَرُ ما وردَ في القُرآنِ فيما يُذَمُّ الشُّروعُ فيه، وأصلُ (خوض): يدُلُّ على توسُّطِ شَيءٍ ودُخولٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٨٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٦٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٩)، ((تفسير =

﴿بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾: أي: يومِ الجزاءِ والحسابِ، وهو يومُ القيامةِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازيتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[١].

﴿ٱلۡيَقِينُ﴾: أي: الموتُ المُوقَنُ به؛ فإنَّه أمرٌ متيقَّنٌ لا شكَّ في إتيانِه، واليَقينُ: اسمُ مصدَرِ يَقِنَ -كفَرِحَ-، إذا عَلِم عِلْمًا لا شَكَّ معه ولا تَرَدُّدَ، وأصلُ اليقينِ: زوالُ الشَّكِّ[٢].

﴿شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾: الشَّفاعةُ: الانضِمامُ إلى آخَرَ؛ نُصرةً له، وسؤالًا عنه، يُقالُ: شفَع لفُلانٍ إذا جاء مُلتَمِسًا مَطلبَه، ومُعينًا له، وأصْلُ الشَّفْعِ: ضمُّ الشَّيءِ إلى مِثلِه[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ اللهُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ عدلِه، والأسباب الَّتي أدَّتْ إلى دُخولِ الكافِرينَ النَّارَ، فيقولُ: كلُّ نَفْسٍ بما عَمِلَت في الدُّنيا مِن سَيِّئاتٍ وذُنوبٍ: مَحبوسةٌ بها في النَّارِ، إلَّا المؤمِنينَ الَّذين يُعطَونَ كُتُبَ أعمالِهم بأيْمانِهم؛ فإنَّهم تُغفَرُ ذُنوبُهم، ولا يُحبَسُونَ في النَّارِ بها.

إنَّ أصحابَ اليَمينِ في جَنَّاتِ النَّعيمِ يَسألونَ عن أصحابِ النَّارِ، يقولونَ لهم: ما الَّذي أوجَبَ دُخولَكم النَّارَ؟ قالوا لهم: لم نكُنْ في الدُّنيا مِنَ المصَلِّينَ،

---

= القرطبي)) (١٩/ ٨٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٥٦)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٧)، ((تفسير الخلوتي)) (١٠/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٧).

ولم نكُنْ نُطعِمُ المِسكِينَ، وكنَّا نخوضُ في الباطِلِ مع مَن يَخوضونَ فيه، وكُنَّا نُكذِّبُ بيومِ الحِسابِ والجَزاءِ، حتَّى أتانا الموتُ. فما تَنفَعُ أولئك الكافِرينَ شَفاعةُ الشَّافِعينَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: كلُّ نَفْسٍ بما عَمِلَت في الدُّنيا مِن سَيِّئاتٍ وذُنوبٍ: مَحبوسةٌ بها في النَّار[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٢/ ١١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

ممَّن اختار المعنى المذكورَ لقولِه تعالى: ﴿رَهِينَةٌ﴾ في الجملةِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والبغوي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١٢).

وقال السعدي: (﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ مِن أعمالِ السُّوءِ، وأفعالِ الشَّرِّ ﴿رَهِينَةٌ﴾ بها، موثَقةٌ بسَعْيِها، قد أُلزِمَ عُنُقَها، وغُلَّ في رقبتِها، واستوجَبَتْ به العذابَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ يقولُ: كلُّ كافرٍ مُرتَهَنٌ بذُنوبِه في النَّارِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٩).

قال الماوَرْدي: (﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ:

أحَدُها: أنَّ كُلَّ نفْسٍ مُرتَهَنةٌ مُحتبَسةٌ بعَمَلِها؛ لِتُحاسَبَ عليه، إلَّا أصحابَ اليمينِ، وهم أطفالُ المسلِمينَ؛ فإنَّه لا حسابَ عليهم؛ لأنَّه لا ذُنوبَ لهم. قاله عليٌّ رضيَ الله عنه.

الثَّاني: كلُّ نفْسٍ مِن أهلِ النَّارِ مُرتَهَنةٌ في النَّارِ، إلَّا أصحابَ اليمينِ، وهم المسلِمون؛ فإنَّهم لا يُرتَهَنونَ، وهم إلى الجنَّةِ يُسارِعونَ. قاله الضَّحَّاكُ.

الثَّالثُ: كُلُّ نفْسٍ بعَمَلِها مُحاسَبةٌ، إلَّا أصحابَ اليمينِ، وهم أهلُ الجنَّةِ؛ فإنَّهم لا يُحاسَبونَ. قاله ابنُ جُرَيجٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٨).

كما قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: إلَّا المؤمِنينَ الَّذين يُعطَونَ كُتُبَ أعمالِهم بأيْمانِهم؛ فإنَّهم لا يُحبَسُونَ في النَّارِ بذُنوبِهم؛ لأنَّ اللهَ يَغفِرُها لهم[1].

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ۞ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۞ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۞ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٢].

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْني المؤمِنَ، فيَضَعُ عليه كَنَفَه[2] ويَستُرُه، فيقولُ: أتعرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنْبَ كذا؟ فيقولُ: نَعَمْ، أيْ رَبِّ! حتَّى إذا قَرَّره بذُنوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هلَك، قال: سَتَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليومَ، فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه))[3].

﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٤٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧١).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ الَّذين أُعطوا كُتُبَهم بأيْمانِهم، لا يُرتَهنون بذُنوبِهم في النَّارِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٤٩٩).

وقال البغوي: (لا يُرتَهنونَ بذُنوبِهم في النَّارِ، ولكنْ يَغفِرُها اللهُ لهم). ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٧٩).

وقال جلال الدِّين المحلِّي: (﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ وهم المؤمنونَ؛ فناجُونَ منها). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٧).

(٢) كَنَفَه: سَتْرَه وعَفْوَه. يُنظر: ((خلق أفعال العباد)) للبخاري (ص: ٧٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٧).

(٣) رواه البخاريُّ (٢٤٤١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٦٨).

أي: إنَّ أصحابَ اليَمينِ في جَنَّاتِ النَّعيمِ يَسألونَ عن أصحابِ النَّارِ المُجرِمينَ[١].

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: يَقولونَ لهم: ما الَّذي أوجَبَ دُخولَكم النَّارَ[٢]؟

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: قال المجرِمونَ لهم: الَّذي أدخَلَنا النَّارَ هو أنَّنا لم نكُنْ في الدُّنيا مِنَ المصَلِّينَ للهِ وَحْدَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

قال الشوكاني: (قولُه: ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ يجوزُ أن يكونَ على بابِه، أي: يَسألُ بعضُهم بعضًا، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى: يَسألون، أي: يَسألون غيرَهم، نحو دَعَيْتُه وتَداعَيْتُه؛ فعلى الوجهِ الأوَّلِ يكونُ ﴿عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ مُتعلِّقًا بـ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: يَسألُ بعضُهم بعضًا عن أحوالِ المجرِمين، وعلى الوجهِ الثَّاني تكونُ «عن» زائدةً، أي: يَسألونَ المجرِمين). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٩٩).

وقال ابن عاشور: (إنْ كان السُّؤالُ على حقيقَتِه والاستفهامُ مُستعمَلًا في أصلِ معناه كانَ الباعِثُ على السُّؤالِ: إمَّا نسيانُ الَّذي كانوا عَلِموه في الدُّنيا مِن أسبابِ الثَّوابِ والعقابِ فيَبقَى عُمومُ ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾ الرَّاجعُ إلى أصحابِ اليمينِ وعُمومُ ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ على ظاهِرِه، فكلُّ مِن أصحابِ اليمينِ يُشرِفُ على المجرِمينَ مِن أعالي الجنَّةِ، فيَسألُهم عن سببِ وُلُوجِهم النَّارَ، فيحصلُ جوابُهم، وذلك إلهامٌ مِن الله لِيَحمَدَه أهلُ الجنَّةِ على ما أخَذوا به مِن أسبابِ نجاتِهم ممَّا أصاب المجرِمينَ، ويَفرَحوا بذلك. وإمَّا أن يكونَ سؤالًا موَجَّهًا مِن بعضِ أصحابِ اليمينِ إلى ناسٍ كانوا يَظُنُّونَهم مِن أهلِ الجنَّةِ فرَأَوْهم في النَّارِ مِن المُنافقينَ أو المرتَدِّينَ بعدَ موتِ أصحابِهم، فيكونَ المرادُ بأصحابِ اليمينِ بعضَهم، وبالمجرِمينَ بعضَهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٥٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٧).

﴿وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: ولم نكُنْ نُطعِمُ المِسكِينَ؛ بُخلًا بما أعطانا اللهُ، ومَنْعًا لِما أوجَبَ علينا مِن الزَّكَواتِ والصَّدَقاتِ(١).

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: وكنَّا في الدُّنيا نَخوضُ في الباطِلِ مع مَن يَخوضونَ فيه، فنُخالِطُهم في باطِلِهم(٢).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣].

﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾.

أي: وكُنَّا في الدُّنيا نُكذِّبُ بيومِ الحِسابِ والجَزاءِ، فلا نُصدِّقُ بالقيامةِ ولا بالجنَّةِ والنَّارِ(٣).

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣).

قال ابنُ كثير: (أي: ما عبَدْنا رَبَّنا، ولا أحسَنَّا إلى خَلْقِه مِن جِنْسِنا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٧).

قال البِقاعي: (﴿مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ بحيث صار لنا هذا وَصفًا راسِخًا، فنَقولُ في القُرآنِ: إنَّه سِحرٌ، وإنَّه شِعرٌ، وإنَّه كِهانةٌ، وغيرَ هذا مِن الأباطيلِ، لا نتورَّعُ عن شيءٍ مِن ذلك، ولا نَقِفُ مع عَقلٍ، ولا نرجِعُ إلى صحيحِ نَقلٍ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٧).

أي: فاستَمرَرْنا على كُفْرِنا وضَلالِنا حتَّى أتانا الموتُ[١].

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: فما تَنفَعُ الكافِرينَ شَفاعةُ الشَّافِعينَ؛ مِنَ الملائكةِ والأنبياءِ، والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ، حينَ يَقبَلُ اللهُ شفاعتَهم في المُذنِبينَ الموَحِّدينَ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال سُبحانَه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أنَّه لا أحدَ يُعطَى مِن عَمَلِ أحَدٍ، ولا يُؤْخَذُ منه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٨)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٣/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

قال ابن تيمية: (المرادُ به ما يُوقَنُ به من الموتِ وما بَعْدَه، باتِّفاقِ السَّلَفِ). ((الرد على الشاذلي)) (ص: ٥١).

وقال ابن القيم: (اليقينُ هاهنا هو الموتُ، بإجماعِ أهلِ التَّفسيرِ). ((مدارج السالكين)) (١/ ١٢٤). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٧).

وقال الشوكاني: (هو الموتُ، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٠). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٦).

قال ابنُ جزي: (أجمعَ العُلَماءُ أنَّه لا يَشفَعُ أحَدٌ في الكُفَّارِ، وجَمْعُ ﴿ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ دليلٌ على كثرتِهم، كما ورد في الآثارِ؛ تَشفَعُ الملائكةُ والأنبياءُ، والعُلَماءُ والشُّهَداءُ والصالحونَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٠-٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٨٢).

٢- قولُه تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: كلُّ نفسٍ مرتهنَةٌ محبوسةٌ وموثقةٌ بكسبِها السيئِ، وحبسُها في العذابِ السيئِ؛ وذلك لأنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العملِ، فكما حبَس المجرمونَ ما لديهم لله ولخلقِه مِن الحقوقِ اللَّازمةِ؛ فلم يُؤدُّوا الصَّلاةَ التي هي أكبرُ العباداتِ المتضمِّنةِ للإخلاصِ للمعبودِ، ولا أطعَموا المساكينَ مِن الحقِّ الذي أوجَبه الله لهم في أموالِهم، ولا حبَسوا نفوسَهم على ما شرَع، وقيَّدوها بقيودِ الدين، بل أطلَقوها فيما شاؤوا مِن المراداتِ الفاسدةِ، فخاضوا بالباطلِ معَ الخائضينَ، ولا صدَّقوا ربَّهم ورسلَه معَ تواترِ الآياتِ، بل كانوا يُكذِّبونَ بيومِ الدِّينِ؛ فلذلك حُبِسوا في هذا المحبسِ الفظيعِ، وأُدخِلوا في سقرَ. ولمَّا كان أصحابُ اليمينِ قد حبَسوا نفوسَهم في الدُّنيا على شرعِ الله تصديقًا وعملًا، وأطلَقوا ألسنتَهم وجوارحَهم في طاعةِ الله ومرضاتِه؛ أطلَق الله إسارَهم، وفكَّ رهنَهم، فلم يكونوا في ذلك اليومِ مرتهنينَ، بل كانوا مطلَقينَ فيما اشتَهتْ أنفسُهم، ولذَّت عيونُهم.

فعملُ العبدِ في الدُّنيا إمَّا أنْ يكونَ سببًا لارتهانِه، أو سببًا لخلاصِه، بل الأصلُ أنَّ الإنسانَ في حبسٍ، وأنَّ عملَه سيُرتهَنُ؛ لأنَّه ظلومٌ وجهولٌ طبعًا، إلَّا مَن خلَّصه الله مِن هذا، ومَنَّ عليه بالصبرِ وعملِ الصالحاتِ، فلهذا جعَل الارتهانَ، واستثنَى منه أصحابَ اليمينِ، فقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾[1].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ﴾ هذا تنبيهٌ على أنَّ رُسوخَ القَدَمِ في الصَّلاةِ مانِعٌ مِن مِثْلِ حالِهم، وعلى أنَّ الصَّلاةَ أعظَمُ الأعمالِ، وأنَّ الحِسابَ

(١) يُنظر: ((المواهب الربانية)) للسعدي (ص: ٨٢، ٨٣).

بها يُقَدَّمُ على غَيرِها[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ * فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ سُؤالٌ: أنَّه قال تعالى أيضًا: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٣٩]!

**الجوابُ**: أنَّه لا يُسأَلُ عن ذنْبِه سؤالَ استِرشادٍ واستِعلامٍ، وإنَّما يُسألونَ سؤالَ تبكيتٍ وتوبيخٍ، وما جاء مِن سؤالِ الإنسِ والجِنِّ عن ذُنوبِهم: هل أنت عَمِلْتَ أو لم تَعمَلْ؟ فهو سؤالُ تبكيتٍ وتوبيخٍ، وهناك فرقٌ بيْن سؤالِ الاسترشادِ وسؤالِ التَّوبيخِ؛ فلا تَتناقَضُ الآياتُ[٢].

وقيل: إنَّ في القيامةِ مواقِفَ مُتعدِّدةً؛ ففي بعضِها يُسألونَ، وفي بعضها لا يُسألونَ.

وقيل: إنَّ إثباتَ السُّؤالِ مَحمولٌ على السُّؤالِ عن التَّوحيدِ، وتَصديقِ الرُّسلِ، وعدَمَ السُّؤالِ مَحمولٌ على ما يَستلزِمُه الإقرارُ بالنُّبوَّاتِ مِن شرائِعِ الدِّينِ وفُروعِه[٣]، وقيل غيرُ ذلك[٤].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ * قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ * وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ الظَّاهِرُ أنَّ مَجموعَ ما ذَكَروه سَبَبٌ لدُخولِ مَجموعِهم النَّارَ، فلا يَضُرُّ في ذلك أنَّ مِن

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١٠٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٠/ ٦٠، ٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (١٤/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٨-ب/ ٢٨).

أهلِ النَّارِ مَن لم يكُنْ وَجَب عليه إطعامُ مِسْكينٍ، كفُقَراءِ الكَفَرةِ المُعْدِمينَ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ أنَّ الكافرَ يُعاقَبُ على أصلِ الكفرِ وعلى المعاصي أيضًا الَّتي عَمِلَها؛ فالمُشرِكُ إذا زنا وسَرَق وشَرِب الخَمْرَ يُعاقَبُ على ذلك، فيُعاقَبُ على الأصلِ والفرعِ، فالصَّدَقةُ ليست مِن الأُصولِ، وكذلك الزَّكاةُ -على القَولِ الصَّحيحِ- لا يَكْفُرُ تارِكُها، ومع ذلك ذَكَروا أنَّها مِن أسبابِ دُخولِهم النَّارَ، ولولا أنَّ لها تأثيرًا في الجزاءِ ما صارتْ مِن الأسبابِ، أمَّا الصَّلاةُ فمِن أهلِ العِلمِ مَن ذهَب إلى أنَّها مِن الأُصولِ، وأنَّ تارِكَها يَكْفُرُ[٢]، فالآيةُ احتُجَّ بها على أنَّ الكُفَّارَ يُعَذَّبونَ بتَرْكِ فُروعِ الشَّرائِعِ[٣]، وإن كانت لا تَصِحُّ منهم، فلو فَعَلوها قبْلَ الإيمانِ لم يُعْتَدَّ بها[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾، استُدِلَّ به على أنَّ الكفارَ مكلَّفونَ بالفُروعِ[٥]. ففي الآيةِ التَّصريحُ بأنَّ مِن الأسبابِ الَّتي سلَكَتْهم في سَقَرَ عدَمَ إطعامِ المسكينِ، وهو فرعٌ مِن الفُروعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: ٥١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٥).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٧).

(٦) يُنظر: ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٤٠).

قال ابن عاشور: (معنَى قولِ مَن قال مِن العلماءِ بأنَّ الكفَّارَ مُخاطَبونَ بفروعِ الشَّريعةِ يَعْنونَ خِطابَ المُؤاخَذةِ على ما نُهُوا عن ارتكابِه، وليس المرادُ أنَّهم يُطلَبُ منهم العملُ؛ إذْ لا تُقْبَلُ منهم الصَّالحاتُ بدونِ الإيمانِ). ((تفسير ابن عاشور)) (١٩/ ٧٥).

وقال ابن عثيمين: (الكفَّارُ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّريعةِ... ولكن ليس معنَى خِطابِهم بها أنَّهم =

٥- في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ دليلٌ على توكيدِ حُرْمةِ المسكينِ حينَ قَرَنَ تضييعَه بتَركِ الصَّلاةِ، وخَوضِ الخائِضينَ، وتَكذيبِ يومِ الدِّينِ! وكما قال تبارك وتعالى في سورةِ (الحاقَّةِ): ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الحاقة: ٣٣، ٣٤]، وكقَولِه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[1] [الماعون: ١ - ٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ المسلِمَ الَّذي أضاع إقامةَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ مُستَحِقٌّ حَظًّا مِن سَقَرَ على مِقدارِ إضاعتِه، وعلى ما أراد اللهُ مِن مُعادَلةِ حسَناتِه وسَيِّئاتِه، وظَواهِرِه وسَرائِرِه، وقبْلَ الشَّفاعةِ وبَعْدَها[2].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ أخَّرَ التَّكذيبَ، وهو أفحَشُ تلك الخِصالِ الأربَعةِ؟

**الجوابُ**: أُريدَ أنَّهم بعدَ اتِّصافِهم بتلك الأُمورِ الثَّلاثةِ كانوا مُكَذِّبينَ بيَومِ الدِّينِ، والغَرَضُ تعظيمُ هذا الذَّنْبِ، كقَولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[3] [البلد: ١٧].

---

= مُلزَمونَ بها في حالِ الكفرِ؛ لأنَّنا نَدْعوهم أوَّلًا إلى الإسلامِ، ثمَّ نُلزِمُهم بأحكامِه، وليس معنَى كَونِهم مُخاطَبينَ بها أنَّهم يُؤْمَرونَ بقضائِها... والفائدةُ مِن قولِنا: إنَّهم مُخاطَبونَ بها -كما قال أهلُ العِلمِ-: زيادةُ عُقوبتِهم في الآخرةِ، وهذا يدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ * فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾). ((تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٣٥).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٦).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ احتُجَّ على ثُبوتِ الشَّفاعةِ للفُسَّاقِ بمفهومِ هذه الآيةِ؛ فإنَّ تخصيصَ هؤلاء بأنَّهم لا تَنفَعُهم شَفاعةُ الشَّافِعينَ يدُلُّ على أنَّ غيرَهم تَنفَعُهم شفاعةُ الشَّافِعينَ[١]، وأنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه مُشَفِّعٌ بَعْضَ خَلْقِه في بَعْضٍ[٢]. ووردت أحاديثُ في صِحَّةِ ذلك[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾

- قولُه: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ يُبيِّنُ للسَّامعِ عُقْبَى الاختيارِ الَّذي في قولِه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾[٤] [المدثر: ٣٧].

- قولُه: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ﴾ مُرادٌ به خُصوصُ أنفُسِ المُنذَرينَ مِن البشَرِ؛ فهو مِن العامِّ المرادِ به الخُصوصُ بالقَرينةِ، أي: قَرينةُ ما تُعْطيهِ مادَّةُ رَهينةٍ مِن معْنى الحبْسِ والأسْرِ[٥].

- و﴿رَهِينَةٌ﴾: مَصدرٌ بوَزنِ فَعيلةٍ، كالشَّتيمةِ، والإخبارُ بالمَصدرِ للمُبالَغةِ[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ * قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ * حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ * فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾

- قولُه: ﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ مُتعلِّقًا بقولِه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، قُدِّمَ للاهتِمامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٤).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٢٥).

و﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ حالٌ مِن أصحابِ اليمينِ، وهو مَناطُ التَّفصيلِ الَّذي جِيءَ مِن أجْلِه بالاستثناءِ المُنقطِعِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿فِي جَنَّٰتٍ﴾ خبَرَ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: همْ في جنَّاتٍ، والجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ لمَضمونِ جُملةِ الاستثناءِ، والتَّقديرُ: فما شَأنُهم وحالُهم[1]؟

- ومعْنى ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ على ظاهرِ صِيغةِ التَّفاعُلِ؛ للدَّلالةِ على صُدورِ الفِعلِ مِن جانبَينِ، أي: يَسأَلُ أصحابُ اليمينِ بعضُهم بعضًا عن شأْنِ المُجرمين، وتكونَ جُملةُ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ بيانًا لجُملةِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾. وضَميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿سَلَكَكُمْ﴾ يُؤذِنُ بمَحذوفٍ، والتَّقديرُ: فيَسْأَلون المُجرِمين: ما سلَكَكُم في سَقَرَ؟ وليس الْتِفاتًا، أو يقولُ بعضُ المَسؤولينَ لأصحابِهم جَوابًا لِسائليهم: قُلْنا لهم: ما سَلَكَكم في سَقَرَ؟ ويجوزُ أنْ تكونَ صِيغةُ التَّفاعُلِ مُستعمَلةً في معْنى تَكريرِ الفِعلِ، أي: يَكثُرُ سُؤالُ كلِّ أحدٍ منهم سُؤالًا مُتكرِّرًا، أو هو مِن تَعدُّدِ السُّؤالِ مِن أجْلِ تَعدُّدِ السَّائلينَ، وعلى هذا يكونُ مَفعولُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ مَحذوفًا يدُلُّ عليه قولُه: ﴿عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، والتَّقديرُ: يَتساءلون المُجرِمين عنهم، أي: عن سَببِ حُصولِهم في سَقَرَ، ويدُلُّ عليه بَيانُ جُملةِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ بجُملةِ ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾؛ فإنَّ ﴿مَا سَلَكَكُمْ﴾ فيه بَيانٌ للتَّساؤُلِ[2].

وقيل: قولُه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: يَسألونَهم عن أحوالِهم، وقد حُذِفَ المَسؤولُ لكَونِه عينَ المسؤولِ عنه، وقولُه تعالَى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ مُقدَّرٌ بقَولٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٥، ٣٢٦).

هو حالٌ مِن فاعلِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، أيْ: يَسأَلونَهم قائلينَ: أيُّ شَيءٍ أدْخَلَكم فيها[١]؟

- قولُه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ يَسأَلونهم وهم عالِمونَ بحالِهم؛ تَوبيخًا لهم وتَحسيرًا، وليكونَ حِكايةُ اللهِ ذلك في كِتابِه تَذكرةً للسَّامعينَ[٢].

- و(ما) الاستفهاميةُ مُحتمِلةٌ للتَّوبيخِ والتَّعجيبِ[٣].

- قولُه: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ إيمانِهم، وسَلَكوا بها طَريقَ الإطنابِ المناسِبَ لمَقامِ التَّحسُّرِ والتَّلهُّفِ على ما فاتَ، فكأنَّهم قالوا: لأنَّا لم نكُنْ مِن المؤمنينَ؛ لأنَّ أهلَ الإيمانِ اشتَهَروا بأنَّهم أهلُ الصَّلاةِ، وبأنَّهم في أموالِهم حقٌّ مَعلومٌ للسَّائلِ والمَحرومِ، وبأنَّهم يُؤمِنون بالآخِرةِ وبيَومِ الدِّينِ، ويُصدِّقون الرُّسلَ[٤].

- قولُه: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾، أي: بيَومِ الجَزاءِ، أضافُوه إلى الجزاءِ مع أنَّ فيه مِن الدَّواهِي والأهوال ما لا غايةَ له؛ لأنَّه أدْهاهَا وأهْوَلُها، وأنَّهم مُلابِسوه[٥].

- قولُه: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ تَأخيرُ جِنايتِهم هذه مع كَونِها أعظَمَ مِنَ الكُلِّ؛ لتَفخيمِها، كأنَّهم قالُوا: وكنَّا بعْدَ ذلكَ كلِّه مُكذِّبينَ بيَومِ الدِّينِ، ولبَيانِ كَونِ تَكذيبِهم به مُقارنًا لسائرِ جِناياتِهم المَعدودةِ مُستمِرًّا إلى آخِرِ عُمرِهم، حسبَما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦١، ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٢).

نطَقَ به قولُهم: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾[١].

- وفي الأفعالِ المُضارِعةِ في قولِه: ﴿لَمۡ نَكُ﴾، و﴿نَخُوضُ﴾، و﴿نُكَذِّبُ﴾ إيذانٌ بأنَّ ذلك دَيدنُهم، ومُتجدِّدٌ منهم طُولَ حَياتِهم[٢].

- وفاءُ ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾، أي: فهمْ دائِمون في الارتهانِ في سَقَرَ[٣].

- وفي قولِه تعالَى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بنفْيِ الشَّيءِ بإيجابِه[٤]؛ فهنا ليس المعْنى أنَّهم يُشفَعُ لهم فلا تَنفَعُهم شفاعةُ مَن يَشفَعُ لهم، وإنَّما المعْنى نفْيُ الشَّفاعةِ، فانْتَفى النَّفعُ، أي: لا شَفاعةَ شافِعينَ لهم فتَنفَعَهم، مِن بابِ «على لاحِبٍ لا يُهتَدى بمَنارِهِ»[٥]، أي: لا مَنارَ له فيُهتَدى به[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) نفْي الشَّيءِ بإيجابِه: هو أنْ يكونَ الكلامُ ظاهِرُه إيجابُ الشَّيءِ وباطنُه نفْيُه، بأنْ يُنفَى ما هو مِن سببِه وهو المنفيُّ في الباطِنِ، أو أنْ يُذكرَ كَلامٌ يدُلُّ ظاهِرُه أنَّه نفْيٌ لصِفةِ مَوصوفٍ، وهي نفْيٌ للمَوصوفِ أصْلًا، وهو مِن مَحاسِنِ الكلامِ، فإذا تأمَّلْتَه وجَدْتَ باطنَه نفيًا، وظاهِرَه إيجابًا. يُنظر: ((العمدة في محاسن الشعر وآدابه)) لابن رَشِيق (٢/ ٨٠)، ((المثل السائر)) للضياء ابن الأثير (٢/ ٢٠٣)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٧٧)، ((خزانة الأدب)) لابن حِجَّة الحَمَوي (٢/ ٢٤)، ((شرح عقود الجُمَان)) للسيوطي (ص: ١٣٤)، ((أنوار الربيع)) لابن معصوم (٤/ ٣٦٤).

(٥) القائلُ هو امرُؤ القَيس. يُنظر: ((ديوان امرئ القيس)) (ص: ٩٦).
واللَّاحبُ: الطَّريقُ الواضحُ، ولم يُرِدْ أن فيه منارًا لا يُهتدَى به، ولكنَّه نفَى أن يكون به منارٌ. والمعنى: لا منارَ فيه فيُهتدَى به. يُنظر: ((خِزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٣).

## الآيات (٤٩-٥٦)

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾: أي: نافِرةٌ هارِبةٌ، وأصلُ (نفر): يدُلُّ على تَباعُدٍ[1].

﴿قَسْوَرَةٍ﴾: أي: رُماةٍ، أو أَسَدٍ؛ مِنَ «القَسْرِ» وهو: القَهْرُ، وسُمِّيَ الأسدُ بذلك؛ لأنَّه يَقهَرُ السِّباعَ، وأصلُ (قسر): يدُلُّ على الغَلَبةِ والقَهْرِ[2].

﴿مُّنَشَّرَةً﴾: أي: مَنشورةً مفتوحةً غيرَ مَطويَّةٍ، تُنشَرُ وتُقرأُ، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتَشَعُّبِه[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا شدَّةَ إعراضِ المشرِكينَ وعِنادِهم: فما لِهؤلاء المُشرِكينَ عن القُرآنِ مُعرِضينَ؟! كأنَّهم في إعراضِهم عنه حَميرُ وَحْشٍ هارِبةٌ، هرَبَت مِن أَسَدٍ أو رُماةٍ!

إنَّ هؤلاء المُشرِكينَ لا يَكْتَفونَ بتلك التَّذكِرةِ، ولا يَرضَونَ بها، بل يُريدُ كُلُّ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٥٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٠).

واحدٍ مِنهم أن يُنزِلَ اللهُ عليه كِتابًا مِن السَّماءِ مَفتوحًا يأمُرُه باتِّباعِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم! كلَّا لن نُجيبَهم إلى مُقترَحاتِهم؛ فهم قومٌ لا يخافُونَ عَذابَ اللهِ في الآخِرةِ، ولا يُؤمِنونَ ببَعثٍ ولا جنَّةٍ ولا نارٍ، وليس الأمرُ كما يَزعُمُ هؤلاء المُشرِكونَ في القُرآنِ مِن أنَّه سِحرٌ يُؤثَرُ، وأنَّه قَولُ البَشَرِ، وإنَّما هو تَذكِرةٌ بليغةٌ مِنَ اللهِ تعالى، فمَن شاء مِن العِبادِ تذَكَّرَ بهذا القُرآنِ واتَّعَظَ، وما يَذكُرونَ بهذا القُرآنِ ويتَّعِظونَ إلَّا أن يَشاءَ اللهُ لهم ذلك؛ هو سُبحانَه أهْلٌ لِأَنْ يَخافَه عِبادُه ويَحذَروا سَخَطَه وعِقابَه، وهو وَحْدَه أهْلٌ لِأَنْ يَغفِرَ ذُنوبَ عِبادِه، ويَرحَمَهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

أي: فما لِهؤلاء المُشرِكينَ عن القُرآنِ الَّذي يُذكَّرونَ به مُعرِضينَ، فلا يُؤمِنونَ به ولا يتَّبِعونَه[1]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾﴾.

أي: كأنَّ المُشرِكينَ في إعراضِهم عن القُرآنِ ونُفورِهم مِن الحَقِّ: حَميرُ وَحْشٍ هارِبةٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٤٨)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾.

أي: هرَبَت أشدَّ الهرَبِ ممَّن يُريدُ صَيْدَها مِن أَسَدٍ أو رُماةٍ(١).

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾﴾.

---

= (١٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٧).

وقال ابنُ عاشور: (الحُمُرُ: جمعُ حِمارٍ، وهو الحِمارُ الوَحْشيُّ، وهو شديدُ النِّفارِ إذا أحَسَّ بصَوتِ القانِصِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩).

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿قَسْوَرَةٍ﴾: الرُّماةُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزمخشريُّ، ونسَبَه ابنُ كثيرٍ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو موسى الأشعريُّ، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والضَّحَّاكُ، وابنُ كَيْسانَ. وقال سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحسَنُ: القُنَّاصُ، وهو روايةٌ عن ابنِ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٧٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بـ﴿قَسْوَرَةٍ﴾: الأسدُ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو هُرَيرةَ، وعَطاءٌ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُه، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٥٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا وأبو هُرَيرةَ وجمهورٌ مِنَ اللُّغَويِّينَ: القَسْوَرةُ: الأسَدُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٩).

وقيل: القَسْوَرةُ: حِبالُ الصَّيَّادينَ. وقيل: النَّبْلُ. وقيل: أصواتُ النَّاسِ. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٦).

أي: لا يَكْتَفون بتلك التَّذكِرةِ ولا يَرضَونَ بها، بل[١] يُريدُ كُلُّ واحدٍ مِنَ المُشرِكينَ أن يُنزِلَ اللهُ عليه كِتابًا مِن السَّماءِ مَفتوحًا غيرَ مَطْوِيٍّ[٢]!

كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها رَدعٌ للكافِرينَ عن تلك الإرادةِ، وزَجرٌ عن اقتِراحِ الآياتِ؛ فإنَّه لَمَّا حَصَلَت

---

(١) قال الشَّوكاني: (عطفٌ على مُقدَّرٍ يَقتضيه المَقامُ، كأنَّه قيل: لا يَكتَفون بتلك التَّذكرةِ، ﴿ بَلْ يُرِيدُ ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٠). ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٤٨).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكرُه: ما بهؤلاء المشرِكين في إعراضِهم عن هذا القرآنِ أنَّهم لا يَعلَمون أنَّه مِن عندِ الله، ولكنْ كلُّ رجُلٍ منهم يُريدُ أن يُؤتَى كتابًا مِن السَّماءِ يَنزِلُ عليه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٠، ٤٦١).

وقال البِقاعي: (لَمَّا كان الجوابُ قَطعًا: لا شَيءَ لهم في إعراضِهم هذا، أضرَبَ عنه بقَولِه: ﴿ بَلْ يُرِيدُ ﴾). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٧٨).

وقال السعدي: (ومع هذا الإعراضِ وهذا النُّفورِ يَدَّعونَ الدَّعاوى الكِبارَ؛ فـ ﴿ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾ نازِلةً عليه مِن السَّماءِ، يَزعُمُ أنَّه لا يَنقادُ للحَقِّ إلَّا بذلك!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٤).

قال الواحدي: (قال المفسِّرونَ: وذلك أنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ قالوا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لِيُصبِحْ عندَ رأسِ كلٍّ مِنَّا كتابٌ مَنشورٌ مِنَ اللهِ: أنَّ آلهتَنا باطِلةٌ، وأنَّ إلهَك حَقٌّ، وأنَّك رسولُه، نُؤمَرُ فيه باتِّباعِك! كقَولِه تعالى: ﴿ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ﴾ [الإسراء: ٩٣]). ((البسيط)) (٢٢/ ٤٦٤).

وقال ابنُ جُزَي: (معنى ﴿ مُّنَشَّرَةً ﴾: منشورةً غيرَ مَطويَّةٍ، أي: طريَّةً كما كُتِبَت، لم تُطْوَ بَعْدُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣١).

وقال ابنُ عاشور: (المُنَشَّرةُ: المفتوحةُ المقروءةُ، أي: لا نَكتفي بصَحيفةٍ مَطويَّةٍ لا نَعلَمُ ما كُتِب فيها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

المُعجزاتُ الكثيرةُ كَفَت في الدَّلالةِ على صِحَّةِ النُّبُوَّةِ، فطَلَبُ الزِّيادةِ يكونُ مِن بابِ التَّعَنُّتِ[١].

﴿كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾﴾.

أي: لن نُعطِيَ كُلَّ واحدٍ منهم كتابًا خاصًّا، وليس الأمرُ كما زَعَموا أنَّهم سيُؤمِنونَ لو أتَتْهم صُحُفٌ مُنَشَّرةٌ، وإنَّما هم قومٌ لا يَخافونَ عذابَ اللهِ في الآخِرةِ؛ لأنَّهم لا يؤمِنونَ بالبَعثِ والجنَّةِ والنَّارِ، فأعرَضوا بسَبَبِ ذلك عن القُرآنِ، وامتَنَعوا عن اتِّباعِ الحَقِّ، واغتَرُّوا بالدُّنيا حتَّى هَلَكوا[٢].

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ هؤلاء المُشرِكونَ في القُرآنِ مِن أنَّه سِحرٌ يُؤْثَرُ، وأنَّه قَولُ البَشَرِ، وإنَّما هو تَذكِرةٌ بليغةٌ مِنَ اللهِ تعالى لخَلْقِه، يُذَكِّرُهم به[٣].

كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٥٢).

وقال البِقاعي: (﴿كَلَّآ﴾ أي: ليس الأمرُ قَطْعًا كما تَزعُمونَ مِن أنَّ هذا القُرآنَ لا يَستَحِقُّ الإقبالَ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٧٩).

أي: فمَن شاء مِن العِبادِ تذكَّرَ بهذا القُرآنِ واتَّعظَ، وعَمِلَ بما فيه مِن أوامِرَ ونَواهٍ(١).

كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ [المزمل: ١٩].

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ ٥٦﴾.

﴿وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: وما يَذكُرونَ بهذا القُرآنِ ويتَّعِظونَ به ويَعمَلونَ، إلَّا أن يَشاءَ اللهُ لهم ذلك(٢).

كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧ - ٢٩].

﴿هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾.

أي: اللهُ وَحْدَه هو الحقيقُ بأن يَخافَه عِبادُه، ويَحذَروا سَخَطَه وعِقابَه؛ بفِعلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

قال الزمخشري: (فمَن شاء أن يَذكُرَه ولا يَنساه، ويَجعَلَه نُصْبَ عَيْنِه، فَعَل؛ فإنَّ نَفْعَ ذلك راجِعٌ إليه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٧).

وقال السعدي: (﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ لأنَّه قد بُيِّن له السَّبيلُ، ووُضِّحَ له الدَّليلُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقال ابن الجوزي: (﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ الهاءُ عائدةٌ على القرآنِ، فالمعنى: فمَن شاء أن يذكرَ القرآنَ ويتَّعِظَ به ويَفْهَمَه، ﴿ذَكَرَهُۥ﴾). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٦٧).

وقيل: الضَّميرُ الظَّاهرُ في ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى الله تعالى. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

أوامِرِه، واجتِنابِ نواهيه، وهو وَحْدَه الحقيقُ بأن يَغفِرَ ذُنوبَ عِبادِه، ويَرحَمَهم[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ذَمُّ المُعْرِضينَ عن سَماعِ القُرآنِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ هذا تعريضٌ بالتَّحريضِ للعُصاةِ أن يُقلِعوا عن الذُّنوبِ[٣].

٣- أصلُ التَّقوَى أنْ يجعلَ العبدُ بينَه وبينَ ما يخافُه ويحذرُه وقايةً تَقيه منه، فتقوَى العبدِ لربِّه أنْ يجعَلَ بينَه وبينَ ما يخشاه مِن ربِّه مِن غضبِه وسخطِه وعقابِه وقايةً تقيه مِن ذلك، وهو فعلُ طاعتِه، واجتنابُ معاصيه.

والتَّقوى تارةً تُضافُ إلى اسمِ الله عزَّ وجلَّ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة: ٩٦]، فإذا أُضيفَت التَّقوَى إليه سبحانَه وتعالى، فالمعنى: اتَّقوا سخطَه وغضبَه، وهو أعظمُ ما يُتقَّى، وعن ذلك ينشأُ عقابُه الدُّنيويُّ والأخرويُّ، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾، فهو سبحانَه أهلٌ أنْ يُخشَى ويُهابَ ويجلَّ ويعظَّمَ في صدورِ عبادِه حتَّى يَعبدوه ويُطيعوه، لما يستحقُّه مِن الإجلالِ والإكرامِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٠، ٨١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٤).

قال ابنُ جُزَي: (أي: هو أهلٌ لأن يُتَّقى؛ لشِدَّةِ عِقابِه، وهو أهلٌ لأن يَغفِرَ الذُّنوبَ؛ لكَرَمِه، وسَعةِ رَحمتِه وفَضْلِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٤).

وصفاتِ الكبرياءِ والعظمةِ وقوةِ البطشِ، وشدةِ البأس...

وتارةً تُضافُ التَّقوَى إلى عقابِ الله وإلى مكانِه كالنَّارِ، أو إلى زمانِه كيومِ القيامةِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾[1] [البقرة: ٢٨١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ﴾ سؤالٌ: أنَّه في قَولِه سُبحانَه: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ [التوبة: ١٢٧] أنَّه إذا كان هو الَّذي صَرَفهم وجَعَلهم مُعْرِضِينَ ومأفوكِينَ، فكيف يَنبغي إنكارُ ذلك عليهم؟!

قيل: هم دائِرونَ بيْنَ عَدْلِه وحُجَّتِه عليهم، فمَكَّنَهم، وفَتَح لهم البابَ، ونَهَج لهم الطَّريقَ، وهَيَّأَ لهم الأسبابَ؛ فأرْسَلَ إليهم رُسُلَه، وأنْزَل عليهم كُتُبَه، ودعاهم على ألْسِنَةِ رُسُلِه، وجَعَل لهم عقولًا تُمَيِّزُ بيْنَ الخَيرِ والشَّرِّ، والنَّافعِ والضَّارِّ، وأسبابِ الرَّدَى وأسبابِ الفلاحِ، وجَعَل لهم أسماعًا وأبصارًا؛ فآثَروا الهوى على التَّقْوى، واستَحَبُّوا العَمَى على الهُدَى، وقالوا: مَعصيتُك آثَرُ عندَنا مِن طاعتِك! والشِّرْكُ أحَبُّ إلينا مِن توحيدِك! وعبادةُ سِواك أنْفَعُ لنا في دُنيانا مِن عبادتِك! فأَعْرَضَتْ قلوبُهم عن ربِّهم وخالقِهم ومَليكِهم، وانصرفَتْ عن طاعتِه ومحبَّتِه، فهذا عَدْلُه فيهم، وتلك حُجَّتُه عليهم، فهم سَدُّوا على أنفُسِهم بابَ الهدَى إرادةً منهم واختيارًا، فسَدَّه عليهم اضطرارًا، فخَلَّاهم وما اختاروا لأنْفُسِهم، ووَلَّاهم ما تَوَلَّوه، ومَكَّنَهم فيما ارتَضَوه، وأدْخَلَهم مِن البابِ الَّذي اسْتَبَقُوا إليه، وأَغْلَقَ عنهم البابَ الَّذي تَوَلَّوا عنه وهم مُعْرِضُون، فلا أقْبَحَ مِن

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٣٩٨، ٣٩٩).

فِعْلِهم، ولا أحسَنَ مِن فِعْلِه[١]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ فيها رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين لا يُدخِلونَ أفعالَ العِبادِ تحتَ مَشيئةِ اللهِ، والجَبْريَّةِ الَّذين يَزعُمونَ أنَّه ليس للعَبدِ مَشيئةٌ، ولا فِعلٌ حَقيقةً، وإنَّما هو مجبورٌ على أفعالِه! فأثبت تعالى للعِبادِ مَشيئةً حَقيقةً وفِعلًا، وجَعَل ذلك تابعًا لمَشيئتِه[٢]. ومَشيئتُه جَلَّ وتعالى مُتقَدِّمةٌ على مَشيئةِ العَبدِ، لولا ذلك ما استطاعَ العبدُ فِعْلَ شَيءٍ، ولا كانت مَشيئةٌ في شَيءٍ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ لم يَقُلْ سُبحانَه: «أهلٌ للتَّقْوى»، بل قال: ﴿أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ فهو وَحْدَه أهلٌ أنْ يُتَّقَى فيُعْبَدَ دونَ ما سِواه، ولا يَستَحِقُّ غيرُه أنْ يُتَّقَى، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾[٤] [النحل: ٥٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ تَفريعٌ للتَّعجيبِ مِن إصرارِهم على الإعراضِ عمَّا فيه تَذكرةٌ[٥]؛ فالفاءُ لتَرتيبِ إنكارِ إعْراضِهم عنِ القُرآنِ بغيرِ سَببٍ على ما قبْلَها مِن مُوجباتِ الإقبالِ عليه، والاتِّعاظِ به مِن سُوءِ حالِ المُكذِّبينَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٢).

- وجِيءَ باسمِ التَّذكرةِ الظَّاهرِ دونَ أنْ يُؤتَى بضَميرٍ، نحْو أنْ يُقالَ: (عنها مُعرِضينَ)؛ لئلَّا يَختصَّ الإنكارُ والتَّعجيبُ بإعراضِهم عن تَذكرةِ الإنذارِ بسَقَرَ، بلِ المقصودُ التَّعميمُ لإعراضِهم عن كلِّ تَذكرةٍ، وأعظَمُها تَذكرةُ القُرآنِ، كما هو المناسِبُ للإعراضِ؛ قال تبارك وتعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[1] [التكوير: ٢٧].

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ والتَّعجيبِ مِن غَرابةِ حالِهم، بحيث تَجدُرُ أنْ يَستفهِمَ عنها المُستفهِمون، أيْ: فإذَا كان حالُ المُكذِّبينَ به على ما ذُكِرَ، فأيُّ شَيءٍ حصَلَ لهم مُعرِضينَ عن القُرآنِ مع تَعاضُدِ مُوجباتِ الإقبالِ عليه، وتآخُذِ الدَّواعِي إلى الإيمانِ به[2]؟!

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ * فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ شَبَّهَهم في إعراضِهم ونُفورِهم عن القُرآنِ بحُمُرٍ رأت الأسَدَ أو الرُّماةَ ففرَّت منه، وهذا مِن بديعِ التَّمثيلِ؛ فإنَّ القَومَ مِن جَهْلِهم بما بعَثَ اللهُ سبحانه رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: كالحُمُرِ، فهي لا تَعقِلُ شَيئًا، فإذا سَمِعَت صوتَ الأسَدِ أو الرَّامي نفَرَت منه أشَدَّ النُّفورِ، وهذا غايةُ الذَّمِّ لهؤلاء؛ فإنَّهم نَفَروا عن الهدى الَّذي فيه سعادتُهم وحياتُهم كنُفورِ الحُمُرِ عمَّا يُهلِكُها ويَعقِرُها، وتحتَ المُستَنفِرةِ معنًى أبلَغُ مِنَ النَّافِرةِ؛ فإنَّها لشِدَّةِ نُفورِها قد استنفَرَ بَعضُها بعضًا، وحَضَّه على النُّفورِ، فكأنَّها تواصت بالنُّفورِ، وتواطأَت عليه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٩)، ((إعراب =

- والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ للمُبالَغةِ في الوصْفِ، مِثلُ: استَكمَلَ واستجابَ، واستعْجَبَ واستَسخَرَ، واستَخرَجَ واستَنبَطَ، أي: نافرةٌ نِفارًا قويًّا، فهي تَعْدو بأقْصى سُرعةِ العَدْوِ[١].

- وقولُه: ﴿مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ قُرِئَ ﴿مُسْتَنْفَرَةٌ﴾ بفتْحِ الفاءِ[٢]، أي: استَنفَرَها مُستنفِرٌ، أي: أنْفَرَها، فهو مِن (استَنْفَره) المُتعدِّي بمعْنى أنْفَرَه، وبِناءُ الفعلِ للنَّائبِ يُفيدُ الإجمالَ ثمَّ التَّفصيلَ بقولِه: ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾، وقُرِئَ بكسْرِ الفاءِ، أي: استَنْفَرَت، هي مِثلُ: استجابَ، فيكونُ جُملةُ ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ بَيانًا لسَببِ نُفورِها[٣].

- و﴿قَسْوَرَةٍ﴾ قِيل: هو اسمُ جمْعِ قَسْوَرٍ، وهو الرَّامي؛ فيَكونُ التَّشبيهُ جاريًا على مُراعاةِ الحالةِ المشهورةِ في كَلامِ العرَبِ. وقيل: القَسورةُ مُفرَدٌ، وهو الأسَدُ، وعلى هذا فهو تَشبيهٌ مُبتكَرٌ لحالةِ إعراضٍ مَخلوطٍ برُعْبٍ ممَّا تَضمَّنَتْه قَوارعُ القرآنِ. وإيثارُ لَفظِ قَسورةٍ هنا لصَلاحيتِه للتَّشبيهَينِ، مع الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ لذِكرِ حالةٍ أُخرى مِن أحوالِ عِنادِهم[٥]، قيل: هو إضرابٌ انتقاليٌّ عن مَحذوفٍ

---

= القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٠).

(٢) قرأها نافعٌ وابنُ عامرٍ وأبو جعفرٍ بفتحِ الفاءِ، والباقونَ بكسرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٣١).

هو جَوابُ الاستفهامِ السَّابقِ، كأنَّه قِيل: فلا جَوابَ لهم عن هذا السُّؤالِ -أي: لا سبَبَ لهم في الإعراضِ- ﴿بَلۡ يُرِيدُ﴾[1].

وقيل: هو عطْفٌ على مُقدَّرٍ يَقتضيهِ المقامُ، كأنَّه قيل: لا يَكتفونَ بتلك التَّذكرةِ ولا يَرْضَون بها، بلْ يُريدُ كلُّ واحدٍ منهم...[2].

- قيل: جَمَعَ ﴿صُحُفٗا﴾؛ إمَّا لأنَّهم سَأَلوا أنْ يكونَ كلُّ أمرٍ أو نهْيٍ تَأتي الواحدَ منهم في شأنِه صَحيفةٌ، وإمَّا لأنَّهم لَمَّا سَأَلوا أنْ تَأتيَ كلَّ واحدٍ منهم صَحيفةٌ باسمِه، وكانوا جَماعةً مُتَّفِقينَ جُمِعَ لذلك، فكأنَّ الصُّحفَ جَميعُها جاءت لكلِّ امرئٍ منهم[3].

- و﴿مُّنَشَّرَةٗ﴾ مُبالَغةٌ في مَنْشورةٍ، والمُبالَغةُ واردةٌ على ما يَقتضيهِ فِعلُ (نَشَرَ) المُجرَّدِ مِن كَونِ الكتابِ مَفتوحًا واضحًا مِن الصُّحفِ المُتعارَفةِ[4].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾

- ﴿كَلَّاۖ﴾ إبطالٌ لظاهرِ كَلامِهم ومُرادِهم منه، وردْعٌ عن إرادتِهم تلك، وزَجْرٌ لهم عن اقتِراحِ الآياتِ، أي: لا يكونُ لهم ذلك[5].

- ثمَّ أضرَبَ على كَلامِهم بإبطالٍ آخَرَ بحرْفِ الإضرابِ، فقال: ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، أي: ليس ما قالوه إلَّا تَنصُّلًا، فلو أُنزِلَ عليهم كِتابٌ ما

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٦، ٦٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

آمَنوا، وهم لا يَخافون الآخرةَ، أي: لا يُؤمِنون بها، فكُنِّيَ عن عدَمِ الإيمانِ بالآخرةِ بعدَمِ الخَوفِ منها؛ لأنَّهم لو آمَنوا بها لَخافوها؛ إذ الشَّأنُ أنْ يُخافَ عَذابُها إذ كانت إحالتُهم الحياةَ الآخرةَ أصْلًا لتَكذيبِهم بالقرآنِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ (كَلَّا) ردْعٌ ثانٍ مُؤكِّدٌ للرَّدعِ الَّذي قبْلَه، أي: لا يُؤتَون صُحفًا مَنشورةً، ولا يُوزَعون إلَّا بالقرآنِ[٢].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ تَعليلٌ للرَّدعِ عن سُؤالِهم أنْ تُنزَّلَ عليهم صُحُفٌ مُنشَّرةٌ، بأنَّ هذا القرآنَ تَذكرةٌ عَظيمةٌ[٣].

- وتَنكيرُ ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ للتَّعظيمِ، يعْني أنَّه تَذكرةٌ بَليغةٌ كافيةٌ، مُبهَمٌ أمْرُها في الكِفايةِ[٤].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ تَفريعٌ على ﴿إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾، وهذا تَعريضٌ بالتَّرغيبِ في التَّذكُّرِ، أي: التَّذكُّرُ طَوعُ مَشيئتِكم، فإنْ شِئتُم فتَذَكَّروا[٥].

- والضَّميرُ الظَّاهرُ في ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ يجوزُ أنْ يعودَ إلى ما عاد إليه ضَميرُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

﴿إِنَّهُۥ﴾ -وهو القرآنُ- فيكونَ على الحَذْفِ والإيصالِ[١]، وأصْلُه: ذَكَر به. ويجوزُ أنْ يعودَ إلى اللهِ تعالَى وإنْ لم يَتقدَّمْ لاسْمِه ذِكرٌ في هذه الآياتِ؛ لأنَّه مُستحضَرٌ مِن المَقامِ[٢].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ إنذارٌ للنَّاسِ بأنَّ التَّذكُّرَ بالقرآنِ يَحصُلُ إذا شاؤوا التَّذكُّرَ به، والمشيئةُ تَستدعي التَّأمُّلَ فيما يُخلِّصُهم مِن المؤاخَذةِ على التَّقصيرِ، وهمْ لا عُذْرَ لهم في إهمالِ ذلك[٣]!

- ومَفعولُ ﴿شَآءَ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: أنْ يَذكُرَه[٤].

- قولُه: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ مُعترِضةٌ في آخِرِ الكلامِ؛ لإفادةِ تَعلُّمِهم بهذه الحَقيقةِ، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٥].

- وجُملةُ ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ واقعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ [المدثر: ٥٥]؛ تَقويةً للتَّعريضِ بالتَّرغيبِ في التَّذكُّرِ،

---

(١) الحذفُ والإيصالُ: هو حذْفُ حرفِ الجرِّ لتضمُّنِ الفِعلِ معنى فِعلٍ مُتعَدٍّ، وهو ما يُعرَفُ عندَ النُّحاةِ بنزْعِ الخافِضِ، وهذا مِن أَسَدٍّ وأَدمثِ مذاهبِ العربيَّةِ؛ وذلك أنَّه موضعٌ يَملِكُ فيه المعنى عِنانَ الكلامِ فيأخُذُه إليه، ويُصرِّفُه بحسَبِ ما يُؤثِرُه عليه، مِثلُ قولِه تعالَى: ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ [يس: ٦٦]؛ فتعديةُ فِعلِ الاستباقِ إليه على حذْفِ (إلى) بطريقةِ الحذفِ والإيصالِ، أو على تَضمينِ (استبَقوا) معنى (ابْتَدَروا)، أي: ابتَدَروا الصِّراطَ مُتسابقينَ، أي: مُسرِعينَ لِمَا دهمَهم؛ رجاءَ أن يَصِلوا إلى بُيوتِهم قبْلَ أنْ يَهلِكوا فلمْ يُبصِروا الطَّريقَ، ومِثلُ قولِه عزَّ اسمُه: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: مِن قومِه. يُنظر: ((المحتسب)) لابن جِنِّي (١/ ٥١)، ((الإيضاح)) للقزويني (٢/ ١٧٣)، ((السماع والقياس)) لأحمد تَيْمور باشا (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢) و(٢٧/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٢).

والتَّذكُّرُ يُفْضي إلى التَّقْوى، فالمعْنى: فعليكمْ بالتَّذكُّرِ، واتَّقوا اللهَ تعالَى؛ لأنَّ اللهَ هو أهلٌ للتَّقوى[١].

- وتَعريفُ جُزأَيِ الجُملةِ في قولِه: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ يُفيدُ قصْرَ مُستحِقِّ اتِّقاءِ العِبادِ إيَّاه على اللهِ تعالَى، وأنَّ غيرَه لا يَستحِقُّ أنْ يُتَّقى ويُتجنَّبَ غضَبُه، كما قال: ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. فإمَّا أنْ يكونَ القصرُ قصْرًا إضافيًّا[٢] للرَّدِّ على المشرِكين الَّذين يَخشَون غضَبَ الأصنامِ، ويَطلُبون رِضاها، أو يكونَ قصْرًا ادِّعائيًّا[٣] لتَخصيصِه تعالَى بالتَّقْوى الكاملةِ الحقِّ؛ وإلَّا فإنَّ بعضَ التَّقْوى مأمورٌ بها، كتَقْوى حُقوقِ ذوي الأرحامِ في قَولِه تعالَى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]. وقد يُقالُ: إنَّ ما ورَدَ الأمرُ به مِن التَّقوى في الشَّريعةِ راجِعٌ إلى تَقْوى اللهِ، وهذا مِن مُتمِّماتِ القصْرِ الادِّعائيِّ[٤].

- وهذا تَعريضٌ بالتَّحريضِ للمشرِكين أنْ يُقلِعوا عن كُفْرِهم بأنَّ اللهَ يَغفِرُ لهم ما أسْلَفوه؛ قال تعالَى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، وبالتَّحريضِ للعُصاةِ أنْ يُقلِعوا عن الذُّنوبِ؛ قال تعالَى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٥] [الزمر: ٥٣].

- وأُعِيدَت كَلمةُ ﴿أَهْلُ﴾ في الجُملةِ المعطوفةِ دونَ أنْ يُقالَ: (والمَغفرةِ)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٣).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للإشارةِ إلى اختلافِ المعْنى بيْن (أهْلٍ) الأوَّلِ و(أهْلٍ) الثَّاني، على طَريقةِ إعادةِ فِعلِ ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ في قولِه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾[1] [النساء: ٥٩].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٥).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ القيامةِ

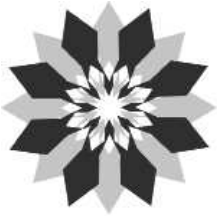

# سورةُ القيامةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (القيامةِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ القيامةِ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

وصْفُ يومِ القِيامةِ، والحديثُ عن أهوالِه، وعن أحوالِ النَّاسِ فيه[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- التَّذكيرُ بيومِ القيامةِ وما يكونُ فيه.

٢- بيانُ إمكانيَّةِ البَعثِ، وحَتميَّةِ وُقوعِه والجزاءِ فيه على الأعمالِ.

٣- ذِكرُ آدابِ سَماعِ الوَحيِ.

٤- ذِكرُ اختلافِ أحوالِ أهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاءِ، وتكريمِ أهلِ السَّعادةِ ووَعْدِهم برؤيةِ اللهِ تعالى.

٥- التَّذكيرُ بالموتِ، وأنَّه أوَّلُ مَراحِلِ الآخِرةِ.

---

(١) سُمِّيَت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ بيومِ القيامةِ، ولم يُقسَمْ به فيما نَزَل قَبْلَها مِن السُّوَرِ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٦).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤٣٦٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ١٩٥).

## الآيات (١-٦)

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ٦﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُّسَوِّيَ﴾: أي: نُتقِنَها سَويَّةً، والتَّسويةُ: تَقويمُ الشَّيءِ، وإتقانُ الخَلْقِ، وقيل: نَجعَلَها شيئًا واحدًا، مُستويةً كخُفِّ البعيرِ ونحوِه، وأصْلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ[1].

﴿بَنَانَهُۥ﴾: البَنانُ: الأصابِعُ أو أطرافُها، وهو جَمعُ «بَنَانةٍ»، قيل: سُمِّيَت بَنانًا مِن قولِهم: أبَنَّ بالمكانِ: إذا أقامَ؛ فالبَنانُ به يُعتمَلُ كلُّ ما يكونُ للإقامةِ والحياةِ[2].

﴿لِيَفۡجُرَ﴾: أي: يَعْصيَ ويُخالِفَ، والفُجُورُ: الانبِعاثُ في المعاصي، وأصلُ (فجر): يدُلُّ على تفَتُّحٍ في شَيءٍ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالقَسَمِ بيَومِ القيامةِ الَّذي يقومُ النَّاسُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٩٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ٤٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/ ٣٣٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩١).

فيه للحِسابِ والجَزاءِ، والقَسَمِ بالنَّفْسِ الَّتي تَلُومُ صاحِبَها، ثمَّ قال تعالى: أَيَظُنُّ الإنسانُ أَنَّنا لن نَجمَعَ عِظامَه بعدَ تفَتُّتِها وتفَرُّقِها؛ لإحيائِه وبَعْثِه مِن قَبْرِه؟! بلى نحن نَقدِرُ على جَمعِ عِظامِه، ونَقدِرُ على ما هو أعظَمُ، وذلك بتسويةِ أصابِعِه بعدَ ما تفَرَّقَت وتفتَّتَت في التُّرابِ، فمَن قَدَر على جمعِ صِغارِ العِظامِ، كان على جَمعِ كِبارِها أقدَرَ!

بل يُريدُ الإنسانُ أن يَعصيَ في مُستَقبَلِ أيَّامِه، يَسألُ: متى يومُ القيامةِ؟

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بيومِ القيامةِ الَّذي يقومُ النَّاسُ فيه للحِسابِ والجَزاءِ[1].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠١، ١٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

حكى الإجماعَ على أنَّ المعنى: أُقسِمُ بيومِ القيامةِ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٨).

قال الزَّجَّاج: (لا اختِلافَ بيْن النَّاسِ أنَّ معناه: أُقسِمُ بيومِ القيامةِ، واختَلَفوا في تفسيرِ «لا»). ((معاني القرآن)) (٥/ ٢٥١). ويُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٨، ٢٦٣).

واختلَف المفسِّرونَ في «لا» المذكورةِ هنا قبلَ القَسَمِ؛ فقيل: هي نافيةٌ لكلامٍ محذوفٍ تقديرُه: ما الأمرُ كما تقولون -أيُّها النَّاسُ- مِن أنَّ اللهَ لا يَبعَثُ عِبادَه بعدَ مماتِهم أحياءً. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٨).

قال ابن كثير: (المُقسَمُ عليه إذا كان مُنتفيًا، جاز الإتيانُ بـ «لا» قبْلَ القسَمِ لتأكيدِ النَّفيِ. والمقسومُ عليه هاهنا هو إثباتُ الميعادِ، والرَّدُّ على ما يَزعُمُه الجهلةُ مِن العبادِ مِن عدمِ بعثِ الأجسادِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٥). =

كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ * يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤ - ٦].

﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالنَّفْسِ الَّتي تَلُومُ صاحِبَها[1].

---

= وقيل: دخلت توكيدًا للكلام. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤).

وقيل: «لا» هنا للتَّنبيهِ. وممَّن اختاره: ابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ١١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠١).

قال السعدي: (ليست ﴿لَآ﴾ هاهنا نافيةً ولا زائدةً، وإنَّما أُتِيَ بها للاستِفتاحِ والاهتمامِ بما بعدَها، ولكثرةِ الإتيانِ بها مع اليمينِ لا يُستغرَبُ الاستفتاحُ بها، وإن لم تكُنْ في الأصل موضوعةً للاستفتاحِ، فالمقسَمُ به في هذا الموضِعِ هو المقسَمُ عليه، وهو البعثُ بعدَ الموتِ، وقيامُ النَّاسِ مِن قُبورِهم، ثمَّ وُقوفُهم يَنتظِرونَ ما يَحكُمُ به الرَّبُّ عليهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقال الرازي: (﴿لَآ﴾ هاهنا لنَفْيِ القَسَم، كأنَّه قال: لا أُقسِمُ عليكم بذلك اليوم وتلك النَّفْس، ولكنِّي أسألُك غيرَ مُقسِمٍ: أتحسَبُ أنَّا لا نَجمَعُ عِظامَك إذا تفرَّقَت بالموتِ؟ فإن كنتَ تحسَبُ ذلك، فاعلَمْ أنَّا قادِرونَ على أن نفعلَ ذلك. وهذا القولُ اختيارُ أبي مسلمٍ، وهو الأصَحُّ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٠).

وقال البِقاعي: (أشار سُبحانَه وتعالى إلى أنَّ الأمرَ قد صار غنيًّا عن الإقسام؛ لِما له مِن الظُّهورِ الَّذي لا يُنكِرُه إلَّا معانِدٌ، فقال مشيرًا إلى تعظيمِها، والتَّهويلِ في أمرِها، بذِكْرِها، وإثباتِ أمْرِها بعدَمِ الإقسامِ، أو تأكيدِه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: لا أُوقِعُ الإقسامَ، أو أُوقِعُه مُؤَكَّدًا ﴿بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على وُجودِ يومِ القيامةِ، أو بسبَبِ وُجودِه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٨٤). ويُنظر في الخلافِ في (لا) المذكورةِ قبلَ القَسَم: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٨٠)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٢/ ٢٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢٢٥، ٢٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

قال ابنُ جرير: (إنَّ الجميعَ مِن الحُجَّةِ مُجْمِعونَ على أنَّ قَولَه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قَسَمٌ، =

= فكذلك قَولُه: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾، إلَّا أن تأتيَ حُجَّةٌ تدُلُّ على أنَّ أحَدَهما قَسَمٌ، والآخَرَ خَبَرٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (جمهورُ المتأوِّلينَ على أنَّ اللهَ تعالى أقسَمَ بالأمْرَينِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢).

وقال الماوَرْدي: (﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ فيه وجْهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه تعالى أقسَمَ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ كما أقسَمَ بيومِ القيامةِ، فيَكونانِ قَسَمَينِ. قاله قَتادةُ. الثَّاني: أنَّه أقسَمَ بيومِ القيامةِ، ولم يُقسِمْ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ. قاله الحسَنُ. ويكونُ تقديرُ الكلامِ: أُقسِمُ بيومِ القيامةِ، ولا أُقسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥١).

وقال البِقاعي: (لا أُقسِمُ على ذلك بهذا الَّذي هو مِن أدَلِّ الأمورِ على عَظَمتِه سُبحانَه؛ فإنَّ الأمرَ في ذلك غَنِيٌّ عن القَسَمِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٨٧).

وأمَّا جوابُ القَسَمِ فقيل: هو ما دَلَّ عليه قَولُه تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾، وهو: لَتُبعَثُنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٥).

وقال أبو حيَّان: (قولُ مَن قال: جوابُ القسَمِ هو: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ [القيامة: ٣]، وما رُويَ عن الحسَنِ أنَّ الجوابَ: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ﴾ [القيامة: ٤]، وما قيل: إنَّ «لا» في القَسَمَينِ لِنَفْيِهما، أي: لا أُقسِمُ على شَيءٍ، وأنَّ التَّقديرَ: ولكنِّي أسألُك أَيَحْسَبُ الإنسانُ؟ أقوالٌ لا تَصلُحُ أن تُرَدَّ، بل تُطرَحُ ولا يُسَوَّدُ بها الورَقُ، ولولا أنَّهم سرَدوها في الكتبِ لم أُنَبِّهْ عليها). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٤).

وقال ابنُ القيِّم في جوابِ القسَمِ: (يجوزُ أن يكونَ مِمَّا حُذِفَ لدَلالةِ السِّياقِ عليه، والعِلمِ به، ويجوزُ أن يكونَ مِن القَسَمِ المقصودِ به التَّنبيهُ على دَلالةِ المُقسَمِ به، وكَونِه آيةً، ولم يَقصِدْ به مُقسَمًا عليه مُعَيَّنًا، فكأنَّه يقولُ: أذكُرُ يومَ القيامةِ والنَّفْسَ اللَّوَّامةَ مُقسِمًا بها؛ لكَونِها مِن آياتِنا، وأدِلَّةِ ربُوبيَّتِنا). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٤٧).

واختُلِف في المرادِ بالنَّفْسِ اللَّوَّامةِ؛ فقيل: هي النَّفْسُ المؤمِنةُ، تَلومُ نَفْسَها في الدُّنيا وتُحاسِبُها. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: السمعانيُّ، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨، ٣٣٩).

وقيل: المرادُ: النَّفسُ المتَّقِيَةُ الَّتي تَلومُ صاحِبَها يومَ القيامةِ على تقصيرِها في التَّقْوى. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٩). =

= ومِنهم مَن خَصَّص النَّفْسَ هنا بالكافِرةِ، وبوُقوعِ ذلك في الآخِرةِ. وممَّن ذهب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٠٩).

ومِنهم مَن عَمَّم، فأدخَل في ذلك كلَّ نَفْسٍ، ولكِنْ خَصَّص بوُقوعِ ذلك في الآخِرةِ. كـ: الزَّجَّاج، والواحدي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٣).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (وقد قيل: إنَّ النَّفْسَ تكونُ لَوَّامةً وغَيرَ لَوَّامةٍ، وليس كذلك. بل نَفْسُ كُلِّ إنسانٍ لَوَّامةٌ؛ فإنَّه ليس بَشَرٌ إلَّا يَلومُ نَفْسَه ويَندَمُ؛ إمَّا في الدُّنيا، وإمَّا في الآخرةِ). ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٦٤).

وقال العُلَيمي: (والنَّفْسُ في الآيةِ اسمُ جنسٍ لِنُفوسِ البشَرِ). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢١٩).

وقال السمرقنديُّ: (هي نفْسُ ابنِ آدَمَ، يَلومُ نفْسَه، كما رُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ وعن عُمَرَ رضيَ الله عنهم: ما مِن نَفْسٍ بَرَّةٍ وفاجِرةٍ إلَّا تَلومُ نفْسَها؛ إن كانت مُحْسِنةً تقولُ: يا لَيْتَني زِدْتُ إحسانًا، وإن كانت سَيِّئةً تقولُ: يا لَيْتَني ترَكْتُ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٠).

وقال السعدي: (﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ وهي جميعُ النُّفوسِ الخَيِّرةِ والفاجِرةِ، سُمِّيَت لَوَّامةً؛ لكثرةِ تَرَدُّدِها وتلَوُّمِها، وعدَمِ ثبوتِها على حالةٍ مِن أحوالِها، ولأنَّها عندَ الموتِ تَلومُ صاحِبَها على ما عَمِلَتْ، بل نفْسُ المؤمنِ تَلومُ صاحِبَها في الدُّنيا على ما حصَل منه؛ مِن تفريطٍ، أو تقصيرٍ في حقٍّ مِنَ الحقوقِ، أو غفلةٍ؛ فجَمَع بيْن الإقسامِ بالجزاءِ، وعلى الجزاءِ، وبيْن مُستَحِقِّ الجزاءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقال البِقاعي: (﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾ أي: الَّتي تَلومُ صاحِبَها، وهي خَيِّرةٌ وشِرِّيرةٌ؛ فالخَيِّرةُ تكونُ سببًا للنَّجاةِ فيه، والأُخرى تكون سببًا للهلاكِ فيه، فإنْ لامَتْ على الشَّرِّ أو على التَّهاوُنِ بالخَيرِ أنجَتْ، وإن لامتْ على ضِدِّ ذلك أهلَكَت، وكيفما كانت لا بُدَّ أن تَلومَ، وهي بيْن الأمَّارةِ والمُطمَئِنَّةِ، فما غلَب عليها منهما كانت في حَيِّزِه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٨٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقال البِقاعي أيضًا: (واللَّوَّامةُ يَشتَدُّ لَومُها في ذلك اليَومِ على عَدَمِ الخيرِ، أو عَدَمِ الزِّيادةِ منه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٨٧).

وقال ابن جرير: (اختَلَف أهلُ التَّأويلِ في تأويلِ قولِه: ﴿ٱللَّوَّامَةِ﴾؛ فقال بعضُهم: معناه: ولا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ الَّتي تَلومُ على الخَيرِ والشَّرِّ... وقال آخَرونَ: بل معنَى ذلك: أنَّها تَلومُ على ما فاتَ وتَندَمُ... وقال آخَرونَ: بل اللَّوَّامةُ: الفاجِرةُ... وقال آخَرونَ: بل هي المَذْمومةُ... وهذه =

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣﴾.

أي: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّنا لن نَجمَعَ عِظامَه الباليَةَ، فتَعودَ كما كانت بعدَ تمَزُّقِها وتفَتُّتِها وتفَرُّقِها؛ لإحيائِه وبَعْثِه مِن قَبْرِه[1]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الواقعة: ٤٧، ٤٨].

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤﴾.

أي: نحن نَقدِرُ على جَمعِ عِظامِه، ونَقدِرُ على ما هو أعظَمُ، وذلك بتسويةِ أصابِعِه مع أنَّ عِظامَها أكثَرُ العِظامِ تفَرُّقًا، وأصغَرُها وأدَقُّها أجزاءً، فنَرُدُّها ونُؤَلِّفُ بيْنَها كما كانت في حياةِ صاحِبِها، بعد ما تفَرَّقَت وتفتَّتَت في التُّرابِ، فمَن قَدَر على جمعِ صِغارِ العِظامِ، كان على جَمعِ كِبارِها أقدَرَ[2]!

---

= الأقوالُ الَّتي ذَكَرْناها عمَّنْ ذَكَرْناها عنه وإنِ اختَلَفَتْ بها ألفاظُ قائِليها، فمُتَقارِباتُ المعاني. وأشْبَهُ القولِ في ذلك بظاهِرِ التَّنْزيلِ أنَّها تَلومُ صاحِبَها على الخَيرِ والشَّرِّ، وتَندَمُ على ما فات). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٦٩-٤٧١).

وقال الشوكاني: (ومعنى النَّفْسِ اللَّوَّامةِ: النَّفسُ الَّتي تَلومُ صاحِبَها على تقصيرِه، أو تَلومُ جميعَ النُّفوسِ على تقصيرِها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٣).

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

(٢) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٦، ٢٠٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج =

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ٥﴾.

أي: بل يريدُ الإنسانُ أنْ يَعصيَ اللهَ في مُستقبَلِ أيَّامِه وطوالَ عُمُرِه، دونَ أن يَتوبَ[1].

---

= (٥/ ٢٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٨، ٨٩).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ قُتَيْبةَ، والزَّجَّاجُ، واختاره ابنُ عطيَّة، والقرطبيُّ، واستظهره أبو حيَّان، ورجَّحه ابنُ القيِّم، وذهب إليه البِقاعي. يُنظر: المصادر السابقة. ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦).

قال السعدي: (استبعَدَ مِن جَهلِه وعُدوانِه قُدرةَ الله على خَلْقِ عِظامِه الَّتي هي عِمادُ البَدَنِ، فرَدَّ عليه بقَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾، أي: أطرافَ أصابعِه وعِظامِه، المُستلزِم ذلك لخَلْقِ جميعِ أجزاءِ البدَنِ؛ لأنَّها إذا وُجِدَت الأنامِلُ والبَنانُ، فقد تمَّت خِلقةُ الجسَدِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وقد اكتشف العلماءُ أنَّ لكلِّ إنسانٍ في أطرافِ أصابِعِه بَصماتٍ تُميِّزُه عن غيرِه، وتختلِفُ مِن شخصٍ لآخَرَ، وهي الخطوطُ الدقيقةُ الموجودةُ فيها. يُنظر: ((فوائد المجاميع)) للمعلمي (٢٤/ ٧٥).

وقيل: المرادُ بتَسويةِ بَنانِه: جَعْلُ أصابعِ يَدَيه وقدَمَيه في الدُّنيا شيئًا واحدًا مِثلَ خُفِّ البعيرِ، أو حافِرِ الحِمارِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ وغيرُه إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢).

قال ابنُ جرير: (فكان لا يأخُذُ ما يأكُلُ إلَّا بفيه كسائِرِ البهائِمِ، ولكِنَّه فَرَّق أصابعَ يَدَيه يأخُذُ بها ويتناوَلُ، ويَقبِضُ إذا شاء ويَبسُطُ، فحَسَّن خَلْقَه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٢).

ممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابن عطية، وابن القيم، والبِقاعي، =

﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦﴾.

أي: يَسألُ هذا الإنسانُ: متى يومُ القيامةِ[١]؟

---

= وجوَّزه ابنُ عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦).

وقيل: المرادُ: أنَّ الإنسانَ يريدُ أن يُكذِّبَ بما أمامَه مِن البعثِ ويومِ القيامةِ. واستحسن هذا المعنى: ابنُ قُتَيْبةَ، وجوَّزه الزَّجَّاجُ، وابنُ القيِّمِ وذكر أنَّه قولٌ قويٌّ، واستظهره ابنُ كثير، وذهب إليه السعديُّ. يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧، ٢٠٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦).

قال ابن جُزَي: (وفي معنى ﴿أَمَامَهُۥ﴾ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه عبارةٌ عمَّا يستقبلُ مِن الزَّمانِ، أي: يَفجُرَ بقيَّةَ عُمُرِه.

الثَّاني: أنَّه عبارةٌ عن اتِّباعِ أغراضِه وشَهَواتِه، يُقالُ: مشى فُلانٌ قُدَّامَه، إذا لم يَرجِعْ عن شَيءٍ يُريدُه. والضَّميرُ على هذَينِ القولَينِ يعودُ على الإنسانِ.

الثَّالثُ: أنَّ الضَّميرَ يعودُ على يومِ القيامةِ، والمعنى: يريدُ الإنسانُ أن يَفجُرَ قبلَ يومِ القيامةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٦، ٢٧٧).

قيل: المعنى: يَسألُ ابنُ آدَمَ السَّائِرُ في معصيةِ اللهِ قُدُمًا: متى يومُ القيامةِ؟ تسويفًا منه للتَّوبةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٨٦٣).

وقيل المراد: سؤالُ الكافِرِ عن موعِدِ يومِ القيامةِ على جهةِ التَّكذيبِ والاستبعادِ والاستهزاءِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عطيَّة، وأبو حيَّان، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۞ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ فيه أنَّ كُلَّ نَفْسٍ مُتوسِّطةٍ ليست بمُطمَئِنَّةٍ ولا أمَّارةٍ بالسُّوءِ، فإنَّها لَوَّامةٌ في الطَّرَفينِ؛ مرَّةً تَلومُ على تَركِ الطَّاعةِ، ومرَّةً تَلومُ على فَوتِ ما تَشتهي، فإذا اطمأَنَّت خلَصَت وصَفَت[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۞ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ جَمَعَ سُبحانَه في القَسَمِ بيْن مَحَلِّ الجزاءِ -وهو يومُ القيامةِ-، ومَحَلِّ الكَسْبِ -وهو النَّفْسُ اللَّوَّامةُ-، ونَبَّهَ سُبحانَه بكَونِها لَوَّامةً على شِدَّةِ حاجتِها وفاقتِها وضَرورتِها إلى مَن يُعَرِّفُها الخَيرَ والشَّرَّ، ويَدُلُّها عليه، ويُرْشِدُها إليه، ويُلْهِمُها إيَّاه، فيَجْعَلُها مُريدةً للخَيرِ مُؤْثِرةً له، كارِهةً للشَّرِّ مُجانِبةً له؛ لِتَخْلُصَ مِن اللَّومِ ومِن شَرِّ ما تَلُومُ عليه، ولأنَّها مُتَلَوِّمةٌ مُتَرَدِّدةٌ لا تَثْبُتُ على حالٍ واحدةٍ، فهي مُحتاجةٌ إلى مَن يُعَرِّفُها ما هو أنفَعُ لها في مَعاشِها ومَعادِها، فتُؤْثِرُه وتَلُومُ نفْسَها عليه إذا فاتَها، فتَتُوبُ منه إنْ كانت سعيدةً، ولِتَقومَ عليها حُجَّةُ عَدْلِه، فيَكونَ لَومُها في القيامةِ لنَفْسِها عليه لومًا بحقٍّ قد أَعْذَرَ اللهُ خالقُها وفاطرُها إليها فيه، ففي صِفةِ اللَّومِ تنبيهٌ على ضرورتِها إلى التَّصديقِ بالرِّسالةِ والقرآنِ، وأنَّها لا غِنَى لها عن ذلك، ولا صلاحَ ولا فلاحَ بدونِه البَتَّةَ، ولَمَّا كان يومُ مَعادِها هو مَحَلَّ ظهورِ هذا اللَّومِ، وتَرَتُّبِ أَثَرِه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣).

عليه؛ قَرَنَ بينهما في الذِّكْرِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ فيه تنبيهٌ على التَّأمُّلِ في لُطفِ تَفصيلِ الأنامِلِ، وبَديعِ صُنْعِها؛ الموجِبِ للقَطعِ بأنَّ صانِعَها قادِرٌ على كُلِّ ما يُريدُ[٢].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ ألَا يُعارِضُ إقسامَه تعالى به في قَولِه: ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢]؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ (لا) نافيةٌ لكلامِ الكُفَّارِ.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّها صِلةٌ، وذلك على عادة العرب؛ فإنَّها رُبَّما لَفَظَتْ (لا) مِن غيرِ قصدِ معناها الأصليِّ، بل لِمُجَرَّدِ تقويةِ الكلامِ وتوكيدِه[٣].

٢- في ذِكْرِ البَنَانِ في قَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ لطيفةٌ، وهي أنَّها أطرافُه، وآخِرُ ما يَتِمُّ به خَلْقُه، فمَن قَدَرَ على جَمْعِ أطرافِه وآخِرِ ما يَتِمُّ به خَلْقُه -مع دِقَّتِها وصِغَرِها ولطافتِها- فهو على ما دونَ ذلك أَقْدَرُ؛ فالقومُ لَمَّا استبعَدوا جَمْعَ العظامِ بعدَ الفناءِ والإرمامِ، قيل: إنَّا نَجْمَعُ ونُسَوِّي أكثرَها تفرُّقًا وأَدَقَّها أجزاءً، وآخِرَ أطرافِ البدنِ، وهي عظامُ الأناملِ ومَفاصِلُها[٤].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٨، ٢٦٣). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٨).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۞ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالقسَمِ مُؤذِنٌ بأنَّ ما سيُذكَرُ بعْدَه أمْرٌ مُهِمٌّ؛ لتَستشرِفَ به نفْسُ السَّامعِ[١].

- وكَوْنُ القسَمِ بيومِ القِيامةِ بَراعةُ استِهلالٍ؛ لأنَّ غرَضَ السُّورةِ وصْفُ يومِ القِيامةِ. وفيه أيضًا كونُ المقسَمِ به يومَ القِيامةِ، وهو المقسَمُ على أحوالِه؛ تَنبيهًا على زِيادةِ مَكانتِه عندَ المقسِمِ[٢].

- وصِيغةُ ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ صِيغةُ قسَمٍ، أُدخِلَ حرْفُ النَّفيِ على فِعلِ ﴿أُقۡسِمُ﴾؛ لقصْدِ المبالَغةِ في تَحقيقِ حُرمةِ المقسَمِ به إعظامًا له، بحيث يُوهِمُ للسَّامعِ أنَّ المُتكلِّمَ يَهُمُّ أنْ يُقسِمَ به، ثمَّ يَترُكُ القسَمَ مَخافةَ الحِنثِ بالمقسَمِ به، فيقولُ: لا أُقسِمُ به، أي: ولا أُقسِمُ بأعزَّ منه عِندي، وذلك كِنايةٌ عن تأكيدِ القسَمِ[٣]. وذلك على قولٍ.

- وقيل: (لا) للنَّفيِ، والمعْنى في ذلك أنَّه لا يُقسِمُ بالشَّيءِ إلَّا إعظامًا له، فكأنَّه بإدخالِ حرْفِ النَّفيِ يقولُ: إنَّ إعْظامي له بإقْسامي به كَلا إعظامٍ، يعْني أنَّه يَستأهِلُ فوقَ ذلك[٤]. أو يُقالُ: كأنَّه تعالَى يقولُ: لا أُقسِمُ بهذه الأشياءِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٨، ٦٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٥، ٢٩٦).

على إثباتِ هذا المطلوبِ؛ فإنَّه أعظَمُ وأجَلُّ مِن أنْ يُقسَمَ عليه بهذه الأشياءِ، والغرَضُ تَعظيمُ المُقسَمِ عليه. أو يُقالُ: لا أُقسِمُ بهذه الأشياءِ على إثباتِ هذا المطلوبِ؛ فإنَّه أظهَرُ وأجْلى أنْ تُحاوِلَ إثباتَه بمِثلِ هذا القسَمِ[١].

- وفيه مُحسِّنٌ بَديعيٌّ مِن قَبيلِ ما يُسمَّى تَأكيدَ المدْحِ بما يُشبِهُ الذَّمَّ[٢].

- والقسَمُ بيومِ القِيامةِ باعتبارِه ظَرفًا لِما يَجْري فيه مِن عدْلِ اللهِ وإفاضةِ فضْلِه، وما يَحضُرُه مِن الملائكةِ والنُّفوسِ المبارَكةِ[٣].

- وفي الإقسامِ على تَحقُّقِ البعثِ بيومِ القِيامةِ مِن الجَزالةِ ما لا مَزيدَ عليهِ[٤].

- وأيضًا في قولِه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بصِحَّةِ الأقسامِ، أو التَّناسُبِ بيْن المعاني[٥]، وهذه الآيةُ تُعَدُّ مِن

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤).

(٥) التَّقسيمُ أو صحَّةُ الأقسامِ: هو عبارةٌ عن استيفاءِ المتكلِّمِ جميعَ أقسامِ المعنى الَّذي هو آخِذٌ فيه، بحيث لا يُغادِرُ منه شيئًا، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾ [يونس: ١٢]، فقولُه: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ قَاعِدًا أَوۡ قَآئِمًا﴾ استوفى جميعَ الهيئاتِ الَّتي يكونُ عليها الإنسانُ. وفي قولِه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [الرعد: ١٢]، استوفى قِسمَيْ رؤيةِ البَرقِ؛ إذ ليس فيها إلَّا الخَوفُ مِنَ الصَّواعقِ والطَّمعُ في الأمطارِ، ولا ثالثَ لهذين القِسْمَينِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٧٣)، ((نهاية الأرب)) للنويري (٧/ ١٣٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ٢١٤).

والتَّناسُبُ بيْنَ المعاني -وسمَّاهُ بعضُهم: صحَّةَ التَّفسيرِ والتَّبيينِ-: هو أن يأتيَ المتكلِّمُ في أوَّلِ كلامِه بمعنًى لا يستقِلُّ الفَهمُ بمعرفةِ فَحْواهُ؛ إمَّا أن يكونَ مُجمَلًا يحتاجُ الى تفصيلٍ، أو موَجَّهًا يفتقرُ إلى توجيهٍ، أو محتملًا يحتاجُ المرادُ منه إلى ترجيحٍ لا يحصُلُ إلَّا بتفسيرِه وتبيينِه. يُنظر: ((الصناعتين)) لأبي هلال العسكري (ص: ٣٤٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: =

مَحاسِنِ التَّقسيمِ؛ لتَناسُبِ الأمْرَينِ المقسَمِ بهما؛ فقدْ أقسَمَ بيَومِ البَعثِ أوَّلًا، ثمَّ أقسَمَ بالنُّفوسِ المَجْزيَّةِ فيه على حَقيقةِ البَعثِ والجَزاءِ، فسُبحانَ المتكلِّمِ بهذا الكلامِ[١]!

- وجَوابُ القسَمِ محذوفٌ يدُلُّ عليه يومُ القِيامةِ المُقسَمُ به وما بَعْدَه مِن قولِه ﴿أَيَحْسَبُ ...﴾ الآيةَ، وتقديرُه: لَتُبعَثُنَّ، فيُؤخَذُ الجوابُ مِن قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؛ لأنَّه دَليلُ الجوابِ، وهو لَنجمَعَنَّ عِظامَكم ولنَبْعثَنَّكم لِلحِسابِ[٢]. وذلك على قولٍ.

- وعُطِفَ قولُه: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ﴾ تَأكيدًا للجُملةِ المعطوفِ عليها[٣].

- وتَعريفُ النَّفْسِ في قولِه: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، أي: الأنفُسُ اللَّوَّامةُ، قيل: المرادُ نُفوسُ المؤمنينَ[٤]، ومُناسَبةُ القسَمِ بها مع يومِ القيامةِ أنَّها النُّفوسُ ذاتُ الفَوزِ في ذلك اليومِ[٥]. وقيل: المناسَبةُ بيْنَ القسَمينِ مِن حيثُ أحوالُ النَّفسِ مِن سَعادتِها وشَقاوتِها، وظُهورُ ذلك في يومِ القِيامةِ[٦]. أو ضَمَّ النَّفسَ اللَّوَّامةِ إلى يومِ القِيامةِ؛ لأنَّ المقصودَ مِن إقامتِها

---

= ١٨٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٦/ ٦٣١) و(٨/ ١٩٧، ١٩٨).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨، ٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٣).

مُجازاتُها[١].

- ووصْفُ اللَّوَّامةِ مُبالَغةٌ؛ لأنَّها تُكثِرُ لَومَ صاحبِها[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾

- قولُه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ الاستِفهامُ للتَّقريرِ والتَّوبيخِ، ولإنكارِ الواقعِ واستِقباحِه؛ حيث يُنكِرُ الإنسانُ قُدرةَ اللهِ تعالَى على إعادةِ المعدومِ[٣]!

- وتَعريفُ الإنسانِ في قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ تَعريفُ الجنسِ، ووُقوعُه في سِياقِ الإنكارِ الَّذي هو في معْنى النَّفيِ يَقْتضي العُمومَ، وهو عُمومٌ عُرفيٌّ مَنظورٌ فيه إلى غالِبِ النَّاسِ يَومَئذٍ؛ إذ كان المؤمِنون قليلًا؛ فالمعنى: أيحسَبُ الإنسانُ الكافرُ المكذِّبُ بالبَعثِ[٤]. وإسنادُ الفِعلِ إلى جِنسِ الإنسانِ؛ لأنَّ فيهم مَن يَحسَبُ، وقيل غيرُ ذلك[٥].

- والهَمزةُ في قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ لإنكارِ الواقعِ واستِقباحِه[٦].

- وجِيءَ بحرْفِ (لن) الدَّالِّ على تَأكيدِ النَّفيِ، لحِكايةِ اعتِقادِ المشْرِكين استِحالةَ جمْعِ العِظامِ بعْدَ رِمامِها وتَشتُّتِها[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٣٩).

- والعِظامُ هنا: كِنايةٌ عن الجسَدِ كلِّه، وإنَّما خُصَّت بالذِّكرِ لحِكايةِ أقوالِهم، مِثلِ: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ﴾ [يس: ٧٨]؛ فهم احتَجُّوا باستِحالةِ قَبولِ العِظامِ للإعادةِ بعْدَ البِلى، على أنَّ استِحالةَ إعادةِ اللَّحمِ والعصَبِ والفؤادِ بالأَولى، فإثباتُ إعادةِ العِظامِ اقْتَضى أنَّ إعادةَ بَقيَّةِ الجسْمِ مُساوٍ لإعادةِ العَظْمِ، وفي ذلك كِفايةٌ مِن الاستِدلالِ مع الإيجازِ[١].

وأيضًا ذِكرُ العِظامِ، وإنْ كان المعنى إعادةَ الإنسانِ وجمْعَ أجزائِه المتفرِّقةِ؛ لأنَّ العِظامَ هي قالَبُ الخلْقِ[٢].

- قولُه: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ ﴿بَلَىٰ﴾ حرْفُ إبطالٍ للنَّفيِ الَّذي دلَّ عليه ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾؛ فمَعْناهُ: بلْ تُجمَعُ عِظامُه[٣].

- و﴿قَٰدِرِينَ﴾ حالٌ مُقرِّرةٌ لِما أُوجِبَ بعْدَ النَّفيِ: إمَّا مُكمِّلةٌ له على سَبيلِ التَّرقِّي، أي: نَجمَعُ العِظامَ قادِرينَ على تَأليفِ جَميعِها، وإعادتِها إلى التَّركيبِ الأوَّلِ إلى أنْ نُسوِّيَ بَنانَه، أو واردةٌ مُبالَغةً، أي: فكيف بكِبارِ العِظامِ؟ أو مُوبِّخةٌ، أي: نَجعَلها مُستويةً كخُفِّ البَعيرِ، وحافِرِ الحِمارِ، على أُسلوبِ قولِه تعالَى: ﴿قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ﴾ [الصافات: ١٨]، في جَوابِ قولِه: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا﴾ [الصافات: ١٦] الآيةَ[٤].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿بَلَىٰ﴾ إبطالًا للنَّفيَينِ: النَّفيِ الَّذي أفادَه الاستِفهامُ الإنكاريُّ مِن قولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، والنَّفيِ الَّذي في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٤، ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٥٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٠).

مَفعولِ (يَحسَبُ)، وهو إبطالٌ بزَجْرٍ، أي: بلْ لِيَحسَبْنا قادِرين؛ لأنَّ مُفادَ ﴿أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ ألَّا نَقدِرَ على جمْعِ عِظامِه، فيكونُ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ مَفعولًا ثانيًا لـ (يَحسَبْنا) المقدَّرِ[١].

- وعُدِلَ في مُتعلقِ ﴿قَٰدِرِينَ﴾ عن أنْ يُقالَ: قادِرين على جمْعِ عِظامِه إلى ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]؛ لأنَّه أوفَرُ معنًى، وأوفَقُ بإرادةِ إجمالِ كَيفيَّةِ البَعثِ والإعادةِ، ولمُراعاةِ هذه المعاني عُدِل عن رفْعِ (قادِرون)، بتَقديرِ: نحْنُ قادِرون، فلمْ يُقرَأْ بالرَّفعِ[٢].

- والتَّسويةُ: تَقويمُ الشَّيءِ وإتقانُ الخلْقِ، وأُريدَ بالتَّسويةِ إعادةُ خلْقِ البَنانِ مُقوَّمةً مُتقَنةً؛ فالتَّسويةُ كِنايةٌ عن الخلْقِ؛ لأنَّها تَستلزِمُه؛ فإنَّه ما سُوِّيَ إلَّا وقد أُعِيدَ خلْقُه[٣].

- والبَنانُ: أصابعُ اليَدينِ والرِّجلينِ، أو أطرافُ تلك الأصابعِ، وإذ كانتْ هي أصغَرَ الأعضاءِ الواقعةِ في نِهايةِ الجسَدِ كانتْ تَسويتُها كِنايةً عن تَسويةِ جَميعِ الجَسدِ؛ لظُهورِ أنَّ تَسويةَ أطرافِ الجسَدِ تَقْتضي تَسويةَ ما قبْلَها[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ ﴿بَلۡ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ مِن كَلامٍ إلى كَلامٍ مِن غيرِ إبطالٍ، وإلى ذِكرِ حالٍ آخَرَ مِن أحوالِ فُجورِهم؛ فمَوقعُ الجُملةِ بعْدَ ﴿بَلۡ﴾ بمَنزلةِ الاستِئنافِ الابتدائيِّ؛ للمُناسَبةِ بيْنَ معْنى الجُملتَينِ، أي: لَمَّا دُعُوا إلى الإقلاعِ عن الإشراكِ وما يَسْتدعِيه مِن الآثامِ، وأُنْذِروا بالعِقابِ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٤١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يومَ القِيامةِ؛ كانوا مُصمِّمينَ على الاسترسالِ في الكُفْرِ[١].

- قولُه: ﴿يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ إخبارًا عمَّا في نُفوسِ أهْلِ الشِّركِ مِن مَحبَّةِ الاسترسالِ فيما همْ عليه مِن الفِسقِ والفُجورِ، ويجوزُ أنْ يكونَ استفهامًا إنكاريًّا مُوافقًا لسِياقِ ما قبْلَه مِن قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾[٢] [القيامة: ٣].

- ومَفعولُ ﴿يُرِيدُ﴾ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه التَّعليلُ في ﴿لِيَفْجُرَ﴾، والمعْنى: بلْ يُريدُ الإنسانُ الثَّباتَ والدَّيمومةَ على ما هو عليه مِن عدَمِ التَّقيُّدِ بقَيدِ الإيمانِ؛ ليَسترسِلَ على فُجورِه، ويَدومَ على غيِّهِ[٣].

- وأُعِيدَ لَفظُ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ لأنَّ المَقامَ لتَقريعِه، والتَّعجيبِ مِن ضَلالِه، وكُرِّرَ لَفظُ الإنسانِ في هذه السُّورةِ خمْسَ مرَّاتٍ لذلك، مع زِيادةِ ما في تَكرُّرِه في المرَّةِ الثَّانيةِ والمرَّتينِ الرَّابعةِ والخامسةِ مِن خُصوصيَّةٍ؛ لِتَكونَ تلك الجُمَلُ الثَّلاثُ الَّتي ورَدَ ذِكرُه فيها مُستقِلَّةً بمُفادِها[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مُتَّصِلةً بالَّتي قبْلَها على أنَّها بدَلُ اشتِمالٍ منها؛ لأنَّ إرادةَ الإنسانِ الاسترسالَ على الفُجورِ يَشتمِلُ على التَّهكُّمِ بيَومِ البعثِ، أو على أنَّها بدَلٌ مُطابقٌ على تَفسيرِ ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٥] بالتَّكذيبِ بيَومِ البَعثِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً للتَّعجيبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٢).

مِن حالِ سُؤالِهم عن وقْتِ يومِ القيامةِ، وهو سُؤالُ استِهزاءٍ لاعتِقادِهم استحالةَ وُقوعِه[١]. ويجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ استئنافًا بيانيًّا جيء به تعليلًا لإرادةِ الدَّوامِ على الفجورِ، فكأنَّه قيل: لِمَ يريدُ الدَّوامَ على الفُجورِ؟ قيل: لأنَّه أنكَر البعثَ واستهزَأ به. وقيل غير ذلك[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥٣).

## الآيات (٧-١٥)

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَرِقَ﴾: أي: شَخَصَ فلا يَطرِفُ، وفَزِعَ وتحَيَّرَ؛ وبَرَقَ وبَرِقَ: يُقالُ في العَينِ إذا اضطَرَبَتْ وجالتْ مِن خَوفٍ، والإنسانُ إذا بَقِيَ كالمُتَحَيِّرِ قيل: بَرِقَ بَصَرُه بَرَقًا، وأصلُ (برق) هنا: يدُلُّ على لَمعانٍ في شَيءٍ[1].

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾: أي: ذهَب ضَوؤُه، وقيل: غاب القَمَرُ وذهب، قيل: خسَف وكسَف واحدٌ، وقيل: إذا ذَهَب بعضُه فهو الكُسوفُ، وإذا ذَهَب كلُّه فهو الخُسوفُ، وقيل: الخُسوفُ للقَمَرِ، والكُسوفُ للشَّمسِ، وأصل (خسف): يدُلُّ على غُموضٍ وغُؤورٍ[2].

﴿وَزَرَ﴾: أي: مَلْجَأَ، والوَزَرُ: الملجأُ الَّذي يُلتجَأُ إليه مِن الجَبَلِ ونحوِه، وأصلُ (وزر) هنا: يدُلُّ على مَلجَأٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٢١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٩)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٦)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١١٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) =

﴿بَصِيرَةٌ﴾: أي: شاهدٌ، وأصلُ (بصر) هنا: العِلمُ بالشَّيءِ[١].

﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾: أي: ما اعتَذر به، أو اعتذارَه، جمعُ مَعْذرةٍ، والعُذْرُ هو رَوْمُ الإنسانِ إصْلاحَ ما أُنْكِر عليه بكَلامٍ، أو: تحرِّيه ما يمحو به ذُنوبَه[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يَذكُرُ الله تعالى أحوالَ القيامةِ، فيقولُ: فإذا لَمَع بَصَرُ الإنسانِ وشَخَصَ مَبهوتًا متحَيِّرًا فلم يَطرِفْ، وذَهَب ضَوءُ القَمَرِ وجُمِع بيْنَ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ يقولُ الإنسانُ يَومَئِذٍ: أين المَهرَبُ والخَلاصُ؟! كَلَّا لا مَلجَأَ مِنَ اللهِ! إلى ربِّك في ذلك الوَقتِ المرجِعُ والاستِقرارُ، يُخبَرُ الإنسانُ يَومَئذٍ بما قدَّمَه أو أخَّرَه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، بل الإنسانُ شاهِدٌ على نَفْسِه فيما عَمِل، فلا تخفَى عليه أعمالُه، ولو اعتَذَر أو جادَل بالباطِلِ عن كُفْرِه أو مَعاصيه، فهو يَعلَمُ أنْ لا عُذرَ له!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧﴾.

أي: فإذا لَمَع بَصَرُ الإنسانِ وشَخَصَ مَبهوتًا متحَيِّرًا فلم يَطرِفْ[٣]!

---

= للراغب (ص: ٨٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٠)، ((ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن)) لغلام ثعلب (ص: ٥٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٢).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٧٨)، ((ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن)) لغلام ثعلب (ص: ٥٤٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٥٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٧٨، ٤٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٤).

﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨﴾.

أي: وإذا ذَهَب ضَوءُ القَمَرِ[١]!

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾.

أي: وإذا جُمِع بيْنَ الشَّمسِ والقَمَرِ[٢]!

عن أبي هُرَيْرةَ رَضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الشَّمْسُ والقَمَرُ مُكَوَّرانِ[٣] يومَ القِيامةِ))[٤].

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

قال ابن عاشور: (خُسوفُ القمَرِ أُريدَ به انطِماسُ نُورِه انطماسًا مُستَمِرًّا... فهذا خُسوفٌ ليس هو خُسوفَه المعتادَ عندَ ما تَحُولُ الأرضُ بيْن القَمَرِ وبيْن مُسامتَتِه الشَّمسَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

قال الرَّسْعَني: (قال الفرَّاءُ والزَّجَّاجُ: المعنى: جُمِع بيْنَهما في ذَهابِ نُورِهما. وقال جمهورُ المفسِّرينَ: جُمِع بيْن ذاتَيْهِما). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٨٣). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٢). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥٣).

(٣) مُكَوَّرانِ: أي: مطويَّانِ ذاهِبا الضَّوءِ، وقيل: يُلَفَّانِ ويُجْمَعانِ، ويُلْقَيانِ في النار. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ٢٠٨)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٢٠).

قال القَسْطَلَّاني: (لأنَّهما عُبِدا مِن دونِ الله، وليسَ المرادُ مِن تكويرِهما فيها تعذيبَهما بذلك، لكنَّه زيادةُ تبكيتٍ لمَن كان يعبدُهما في الدُّنيا؛ ليَعْلموا أنَّ عبادتَهم لهما كانتْ باطِلةً). ((إرشاد الساري)) (٥/ ٢٥٩).

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٠).

أي: إذا بَرِقَ البَصَرُ وخَسَف القَمَرُ وجُمِعَ الشَّمسُ والقَمَرُ، يقولُ الإنسانُ: أين المَهرَبُ والخَلاصُ[(١)]؟!

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾.

أي: ليس ثَمَّةَ مكانٌ يومَئذٍ تَلجَؤون إليه، وتَعتَصِمونَ به[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ﴾ [العنكبوت: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا لَكُم مِّن مَّلۡجَإٖ يَوۡمَئِذٖ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٖ﴾ [الشورى: ٤٧].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ۝١٢﴾.

أي: إلى ربِّك في ذلك الوَقتِ المرجِعُ والاستقرارُ: إمَّا في الجنَّةِ، وإمَّا في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

قال الماوَرْدي في جملةِ ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾: (يحتَمِلُ وجهَينِ؛ أحدُهما: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ مِنَ اللهِ؛ استحياءً منه. الثَّاني: ﴿أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ﴾ مِن جهنَّمَ؛ حَذَرًا منها. ويحتَمِلُ هذا القَولُ مِنَ الإنسانِ وجهَينِ؛ أحدُهما: أن يكونَ مِن الكافِرِ خاصَّةً مِن عَرَصةِ القيامةِ دون المؤمِنِ؛ لِثِقَةِ المؤمِنِ ببُشْرى رَبِّه. الثَّاني: أن يكونَ مِن قَولِ المؤمِنِ والكافِرِ عندَ قيامِ السَّاعةِ؛ لِهَولِ ما شاهَدوه منها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

قال ابنُ عاشور: (يجوزُ أن يكونَ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ كلامًا مُستأنَفًا مِن جانبِ اللهِ تعالى جوابًا لِمَقالةِ الإنسانِ، أي: لا وَزَرَ لك... ويجوزُ أن يكونَ مِن تمامِ مقالةِ الإنسانِ، أي: يقولُ: أين المفَرُّ؟ ويُجيبُ نَفْسَه بإبطالِ طَمَعِه، فيقولُ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، أي: لا وَزَرَ لي!). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٣).

النَّارِ[١].

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: يُخبَرُ الإنسانُ يومَئذٍ بجَميعِ عَمَلِه الَّذي قدَّمَه أو أخَّرَه؛ مِن خَيرٍ أو شَرٍّ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

قيل: هذا خِطابٌ مِن الله تعالى للإنسانِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٨).

وقيل: هي حكايةٌ لِقَولِ الإنسانِ ذلك لنَفْسِه. واستظهَر هذا القولَ أبو حيَّان. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٦).

وقيل: هو كلامُ اللهِ تعالى خاطَبَ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في الدُّنيا، بقرينةِ قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٧).

قيل: معنى: ما قدَّم وأخَّرَ: ما قَدَّمَ لآخِرتِه، وما أَخَّرَ مِن خَيرٍ أو شرٍّ بعدَ مَوتِه في دنياه، فاستَنَّ به قومٌ بَعْدَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥١١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٢٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وابنُ مسعودٍ، وأبو صالحٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٨٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٤٦).

قال ابن جرير: (والصَّوابُ مِن القولِ في ذلك عندَنا، أنَّ ذلك خَبَرٌ مِن اللهِ أنَّ الإنسانَ يُنَبَّأُ بكلِّ ما قَدَّم أمامَه مِمَّا عَمِل مِن خيرٍ أو شَرٍّ في حياتِه، وأخَّر بعدَه مِن سُنَّةٍ حسَنةٍ أو سَيِّئةٍ مِمَّا قَدَّم وأخَّر، كذلك ما قَدَّمَ مِن عمَلٍ عَمِلَه مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وأخَّر بعدَه مِن عمَلٍ كان عليه فضَيَّعه، فلم يَعمَلْه مِمَّا قَدَّم وأخَّر، ولم يَخُصِّصِ اللهُ مِن ذلك بعضًا دونَ بعضٍ، فكلُّ ذلك مِمَّا يُنَبَّأُ به الإنسانُ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩١).

وقيل: المرادُ بـ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾: بأوَّلِ عَمَلِه وآخِرِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٧٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، وإبراهيمُ النَّخَعيُّ، وعَطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ [الانفطار: ٥].

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى أخبَرَ في الآيةِ الأولى أنَّ الإنسانَ يُخبَرُ يومَ القيامةِ بأعمالِه، ثمَّ ذَكَر في هذه الآيةِ أنَّه شاهِدٌ على نَفْسِه بما عَمِلَ(١).

﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ شاهِدٌ على نَفْسِه فيما عَمِلَ، فلا تَخفى عليه أعمالُه الَّتي استحَقَّ

---

= جرير)) (٢٣/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٤).

وقيل: المعنى: أنَّه يُخبَرُ بجميعِ أعمالِه؛ قديمِها وحديثِها، أوَّلِها وآخِرِها، صغيرِها وكبيرِها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٦٢).

وقيل: المعنى: ما قدَّمَه مِن عَمَلِه الَّذي يوجِبُ نجاتَه وثوابَه؛ مِن الخَيراتِ والصَّالحاتِ، وما أَخَّره منه ففرَّط وقصَّر فيه ولم يَعمَلْه. وممَّن ذهب إليه: القاسميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٦٤).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٢).

وقيل: المرادُ بما قَدَّم: ما فعَلَه الكافِرُ مِن سُوءٍ، وبما أَخَّرَ: ما ترَكَه ممَّا أُمِرَ بفِعْلِه أو نُهِيَ عن فِعْلِه في الحالَينِ، فخالَف ما كُلِّف به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٧). وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٤٩٤).

عليها العِقابَ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٣).

قال الماتُريدي: (جائزٌ أن يكونَ أرادَ بهذا في الدُّنيا: أنَّ الإنسانَ بَصيرٌ بعَمَلِ نَفْسِه، وإن جادَل عنها أنَّه لم يَفعَلْ ذلك، وأسَرَّ ذلك عن النَّاسِ...

والوجهُ الثَّاني: أن يكونَ في الآخرةِ، وهو يحتَمِلُ وَجهَينِ:

أحدُهما: أنَّ الإنسانَ وإن كان يَعتَذِرُ يومَ القيامةِ بقَولِه: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقال: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ [المجادلة: ١٨]، فيُقْدِمون على الحَلِفِ؛ اعتِذارًا منهم، على العِلمِ منهم أنَّهم مُبطِلونَ في جدالِهم.

والثَّاني: أن يكونَ معنى البصيرةِ: الشَّاهِدَ، أي: أنَّ الإنسانَ على نَفْسِه شاهدٌ يومَ القيامةِ بسُوءِ أفعالِه، ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾، أي: وإنْ سَتَرَ على نَفْسِه شهَدتَ عليه جَوارِحُه). ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٣٤٣).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: أنَّ جوارِحَه تَشهَدُ عليه يومَ القيامةِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((تأويل مُشْكِل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٠).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

وقال ابنُ كثير: (أي: هو شَهيدٌ على نَفْسِه، عالِمٌ بما فعَلَه، ولو اعتَذَر وأنكَرَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧).

وممَّن جمَع بيْن المعاني السَّابقةِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٥، ٩٦).

أي: ولو اعتَذَر أو جادَلَ بالباطِلِ عن كُفْرِه أو مَعاصيه، فهو يَعلَمُ أنْ لا عُذرَ له[١]!

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ فيه سؤالٌ: طَعَنَت الملاحِدةُ في الآيةِ، وقالوا: خُسوفُ القَمَرِ لا يَحصُلُ حالَ اجتماعِ الشَّمسِ والقَمَرِ!

**الجوابُ**: اللهُ تعالى قادِرٌ على أن يجعَلَ القَمَرَ مُنخَسِفًا، سواءٌ كانت الأرضُ متوسِّطةً بيْنَه وبيْن الشَّمسِ، أو لم تكُنْ، واللهُ قادِرٌ على كلِّ الممكِناتِ، فوجَبَ أن يَقدِرَ على إزالةِ الضَّوءِ عن القَمَرِ في جميعِ الأحوالِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ ردٌّ على مَن يَقولُ بالدَّهرِ، وقِدَمِ العالَمِ، ومَن يقولُ: إنَّ المعتادَ مِن مجاري اللَّيلِ والنَّهارِ والشَّمسِ والقَمَرِ: لا يَتَغَيَّرُ! وقد أخْبَرَ اللهُ تعالى نصًّا -كما ترى- أنَّ الشَّمسَ والقَمَرَ يُجْمَعُ بيْنَهما، وفي الجَمعِ بيْنَهما ذَهابُ المعتادِ مِن مَجاريهما[٣].

٣- قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ جُمِع الشَّمسُ والقَمَرُ ولم يَجتَمِعا قبْلَ ذلك، بل يَجمَعُهما الَّذي يجمَعُ عِظامَ الإنسانِ بعدَ ما فَرَّقها البِلَى ومَزَّقها[٤].

٤- قولُه سُبحانَه: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ غَلَّب المذكَّرَ على المؤنَّثِ؛ لاجتِماعِهما، ولو قُلتَ: طلَع الشَّمسُ والقَمَرُ، لَقَبُحَ ذلك، كما يَقبُحُ: قام هندٌ وزَيدٌ، إلَّا أن تريدَ الواوَ الجامِعةَ لا العاطفةَ، وأمَّا في الآيةِ فلا بُدَّ أن تكونَ الواوُ جامِعةً، ولَفظُ الفِعلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٤٩٣، ٤٩٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٧، ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٦، ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٤، ٧٢٥).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٠).

(٤) ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٢).

-﴿وَجُمِعَ﴾- يَقتضي ذلك[١].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ دليلٌ على قَبولِ إقرارِ المرءِ على نَفْسِه؛ لأنَّها شَهادةٌ منه عليها؛ قال اللهُ سُبحانَه: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، ولا خِلافَ فيه؛ لأنَّه إخبارٌ على وَجهٍ تَنتفي التُّهمةُ عنه؛ لأنَّ العاقِلَ لا يَكْذِبُ على نفْسِه. وقولُه: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ أي: لو اعتذرَ بعدَ الإقرارِ لم يُقْبَلْ منه؛ ففيه دليلٌ على أنَّ الرُّجوعَ عن الإقرارِ لا يُقْبَلُ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ الفاءُ لتَفريعِ الجَوابِ عن السُّؤالِ، وعُدِلَ عن أنْ يُجابوا بتَعيينِ وقْتٍ ليومِ القِيامةِ إلى أنْ يُهدَّدوا بأهوالِه؛ لأنَّهم لم يَكونوا جادِّينَ في سُؤالِهم؛ فكان مِن مُقتَضى حالِهم أنْ يُنذَروا بما يقَعُ مِن الأهوالِ عندَ حُلولِ هذا اليومِ مع تَضمينِ تَحقيقِ وُقوعِه؛ فإنَّ كَلامَ القُرآنِ إرشادٌ وهدْيٌ، ما يَترُكُ فُرصةً للهدْيِ والإرشادِ إلَّا انتَهَزَها، وهذا تَهديدٌ في ابتدائِه جاء في صُورةِ التَّعيينِ لوقْتِ يومِ القِيامةِ إيهامًا بالجوابِ عن سُؤالِهم، كأنَّه حمْلٌ لِكلامِهم على خِلافِ الاستِهزاءِ، على طَريقةِ الأُسلوبِ الحكيمِ[٣]. وفيه تَعريضٌ بالتَّوبيخِ على

---

(١) يُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ١٩٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٤٤ - ٣٤٦)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

والإقرارُ إن كان بحقٍّ مِن حقوقِ الله التي تسقطُ بالشُّبهةِ كالزِّنا، فمذهبُ جمهورِ الفقهاءِ: الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ -في المشهورِ عندَهم- والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ؛ على أنَّ الرُّجوعَ في إقرارِه يُعتبَرُ، ويسقُطُ الحدُّ عنه. أمَّا مَن أقرَّ بحقٍّ مِن حقوقِ العبادِ أو بحقٍّ لله تعالى لا يسقطُ بالشُّبهةِ -كالقصاصِ وحدِّ القذفِ وكالزكاةِ والكفَّاراتِ- ثمَّ رجَع في إقرارِه فإنَّه لا يُقبَلُ رجوعُه عنها مِن غيرِ خلافٍ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٦/ ٧٢، ٧٣).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٢).

أنْ فرَّطوا في التَّوقِّي مِن ذلك اليومِ، واشتَغَلوا بالسُّؤالِ عن وقْتِه، وقَريبٌ منه ما جاء في الحديثِ أنَّ رجُلًا مِن المسلمينَ سأَلَ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((متى السَّاعةُ؟ فقال له: ماذا أعدَدْتَ لها؟))[١]؛ فإنَّ هذه الأحوالَ المذكورةَ في الآيةِ ممَّا يقَعُ عندَ حُلولِ السَّاعةِ وقِيامِ القِيامةِ، فكان ذلك شيئًا مِن تَعيينِ وقْتِه بتَعيينِ أشراطِه[٢].

- قولُه: ﴿بَرِقَ﴾ معْناه: دُهِشَ وبُهِتَ، وإنَّما أُسنِدَ في الآيةِ إلى البصَرِ تَنزيلًا له مَنزِلةَ مَكانِ البَرْقِ؛ لأنَّه إذا بُهِتَ شخَصَ بَصَرُه. وعلى قراءةِ «بَرَقَ» بفتْحِ الرَّاءِ[٣]، مِن البريقِ بمعْنى اللَّمَعانِ، أي: لَمَعَ البصَرُ مِن شِدَّةِ شُخوصِه، ومآلُ معْنى القِراءتينِ واحدٌ، وهو كِنايةٌ عن الفزَعِ والرُّعبِ[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ للجِنسِ المرادِ به الاستغراقُ، أي: أبصارُ النَّاسِ كلِّهم مِن الشِّدَّةِ الحاصلةِ في ذلك الوقتِ، على أنَّهم مُتفاوِتون في الرُّعبِ الحاصِلِ لهم على تَفاوتِهم فيما يُعرَضونَ عليه مِن طَرائقِ مَنازِلِهم[٥].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [القيامة: ١٠]، وإنَّما قُدِّمَ على عامِلِه للاهتِمامِ بالظَّرفِ؛ لأنَّه المقصودُ مِن سِياقِ مُجاوَبةِ قولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦]. وطُوِيَ التَّصريحُ بأنَّ ذلك حُلولُ يومِ القِيامةِ اكتِفاءً بذِكْرِ ما يدُلُّ عليه، وهو قولُهم: ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [القيامة: ١٠]،

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٦٨٨)، ومسلمٌ (٢٦٣٩) من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٣، ٣٤٤).

(٣) قرأ نافعٌ وأبو جعفرٍ بفتحِ الرَّاءِ، والباقون بكَسْرِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فكأنَّه قِيل: حلَّ يومُ القِيامةِ، وحَضَرَت أهوالُه، يقولُ الإنسانُ يومئذٍ... ثمَّ تأكَّدَ بقولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[1] [القيامة: ١٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ * وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، أُعِيدَ لَفظُ (القمَر) في الفاصلتَينِ المُتواصلَتينِ؛ لأنَّ ذلك لبَيانِ أهوالِ القِيامةِ وتَعظيمِها، والعرَبُ تَستعمِلُ هذا فيما تَقصِدُ به التَّهويلَ والتَّعظيمَ، وقدِ اجتَمَعَ هنا قصْدُ التَّعظيمِ، ورَعْيُ الأسجاعِ، فتَأكَّدَ الحاملُ على التَّكريرِ، وإذا تَكرَّرَ أحدُ النَّيِّرينِ المرادُ اجتماعُهما أغْنى عن تَكرُّرِ الآخَرِ، وطَلَبَت الفواصلُ منها ما يُناسِبُ، فجاء على أتمِّ وَجهٍ في البلاغةِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرْفٌ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يَقُولُ﴾ أيضًا، أي: يومَ إذْ يَبرُقُ البصَرُ، ويَخسِفُ القمَرُ، ويُجمَعُ الشَّمسُ والقمَرُ؛ فتَنوينُ (إذْ) تَنوينُ عِوَضٍ عن الجُملِ المحذوفةِ الَّتي دلَّت عليها الجُملةُ الَّتي أُضِيفَ إليها (إذ)[3].

- وذِكرُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ معَ أنَّ قولَه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ...﴾ إلخ مُغْنٍ عنه؛ للاهتِمامِ بذِكرِ ذلك اليومِ الَّذي كانوا يُنكِرون وُقوعَه، ويَستهْزِئون فيَسأَلون عن وقْتِه، وللتَّصريحِ بأنَّ حُصولَ هذه الأحوالِ الثلاثةِ في وقْتٍ واحدٍ[4].

- والاستِفهامُ ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ مُستعمَلٌ في التَّمنِّي، أي: لَيْتَ لي فِرارًا في مكانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣١٢، ١٣١٣)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٣)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٩٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نَجاةٍ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ وإبطالٌ لِما تَضمَّنَه ﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ مِن الطَّمَعِ في أنْ يَجِدَ للفِرارِ سَبيلًا[٢].

- والوَزَرُ: المكانُ الَّذي يُلجَأُ إليه للتَّوقِّي مِن إصابةِ مَكروهٍ، مِثلُ الجِبالِ والحُصونِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ كلامًا مُستأنَفًا مِن جانبِ اللهِ تعالَى جوابًا لمَقالةِ الإنسانِ، أي: لا وَزَرَ لك. ويجوزُ أنْ يكونَ مِن تَمامِ مَقالةِ الإنسانِ، أي يقولُ: أين المفرُّ؟ ويُجيبُ نفْسَه بإبطالِ طَمَعِه فيقولُ: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، أي: لا وَزَرَ لي، وذلك بأنْ نظَرَ في جِهاتِه فلم يَجِدْ إلَّا النَّارَ، كما ورَدَ في الحَديثِ[٣].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ كَلامٌ مِن جانبِ اللهِ تعالَى خاطَبَ به النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في الدُّنيا؛ بقَرينةِ قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، فهو اعتراضٌ وإدماجٌ[٤] للتَّذكيرِ بمُلكِ ذلك اليومِ، وذلك على قولٍ. وإضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إيماءٌ إلى أنَّه ناصِرُه يَومَئذٍ بالانتقامِ مِن الَّذين لم يَقبَلوا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).
ويُنظر ما أخرجه البخاري (٧٥١٢)، ومسلم (١٠١٦).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

دَعوتَه[١].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ لإفادةِ الحَصْرِ[٢].

- والمُستقَرُّ: مَصدرٌ مِيميٌّ مِن استقرَّ، إذا قَرَّ في المكانِ ولم يَنتقِلْ، والسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ في الوصْفِ[٣].

- وجُملةُ ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ مُستأنَفةٌ استِئنافًا بَيانيًّا أثارَه قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾، أو بدَلُ اشتِمالٍ مِن مَضمونِ تلك الجُملةِ، أي: إلى اللهِ مَصيرُهم، وفي مَصيرِهم يُنبَّؤون بما قدَّموا وما أخَّروا[٤].

- وتَنْبئةُ الإنسانِ بما قدَّمَ وأخَّرَ كِنايةٌ عن مُجازاتِه على ما فَعَلَه: إنْ خيرًا فخَيرٌ، وإنْ سُوءًا فسُوءٌ؛ إذ يُقالُ له: هذا جَزاءُ الفعلةِ الفُلانيَّةِ، فيَعلَمُ مِن ذلك فِعلتَه، ويَلْقى جَزاءَها، فكان الإنباءُ مِن لَوازمِ الجزاءِ، ويَحصُلُ في ذلك الإنباءِ تَقريعٌ وفضْحٌ لحالِه[٥].

- قولُه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ، وهو للتَّرقِّي مِن مَضمونِ ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] إلى الإخبارِ بأنَّ الكافرَ يَعلَمُ ما فَعَلَه؛ لأنَّهم تَشهَدُ عليهم ألْسنتُهم وأيْديهم وأرْجُلُهم بما كانوا يَعمَلون[٦].

- ونظْمُ قولِه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ صالحٌ لإفادةِ مَعنيَينِ؛ أوَّلُهما: أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٤٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

يكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ بمعْنى مُبصِرٍ شَديدِ المُراقَبةِ، فيكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ خبَرًا عن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿بَصِيرَةٌ﴾، أي: الإنسانُ بَصيرٌ بنفْسِه، وعُدِّيَ بحرْفِ (على) لتَضمينِه معْنى المُراقَبةِ، وهو معْنى قولِه في الآيةِ الأُخرى: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]، وهاءُ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ تكونُ للمُبالَغةِ، مِثلُ هاءِ علَّامةٍ ونسَّابةٍ، أي: الإنسانُ عليمٌ بَصيرٌ قويُّ العِلمِ بنفْسِه يومَئذٍ. والمعْنى الثَّاني: أنْ يكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ مُبتدأً ثانيًا، والمرادُ به قَرينُ الإنسانِ مِن الحفَظةِ، ويكونَ ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ خبَرَ المبتدأِ الثَّاني مُقدَّمًا عليه، ومَجموعُ الجُملةِ خبرًا عن ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، و﴿بَصِيرَةٌ﴾ حِينَئذٍ يَحتمِلُ أنْ يكونَ بمعْنى بَصيرٍ، أي: مُبصِرٍ، والهاءُ للمُبالَغةِ، وتكونَ تَعديةُ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ بـ﴿عَلَىٰ﴾ لتَضمينِه معْنى الرَّقيبِ.

ويَحتمِلُ أنْ تكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ صِفةً لمَوصوفٍ مَحذوفٍ، تَقديرُه: حُجَّةٌ بَصيرةٌ، أو عينٌ بَصيرةٌ، وتكونَ ﴿بَصِيرَةٌ﴾ معبَّرًا بها عن كَونِها بيِّنةً، والتَّأنيثُ لتَأنيثِ الموصوفِ. وقد جَرَت هذه الجُملةُ مَجرى المثَلِ؛ لإيجازِها ووَفْرةِ مَعانيها[1].

- و﴿مَعَاذِيرَهُۥ﴾: جمْعٌ مُعرَّفٌ بالإضافةِ، يدُلُّ على العُمومِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٦٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٧، ٣٤٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٨).

## الآيات (١٦-١٩)

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

## المعنى الإجماليُّ:

يُوجِّهُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ما يَنبغي أنْ يكونَ عليه عندَ تلَقِّي القرآنِ، فيقولُ: لا تُحرِّكْ بالقُرآنِ لِسانَك -يا محمَّدُ- مُتعَجِّلًا بأخْذِه قبْلَ أن يَفرُغَ جِبريلُ مِن قراءَتِه عليك؛ إنَّ علينا أن نجْمَعَ هذا القُرآنَ في صَدْرِك، وأن تَقرَأَه بعْدَ ذلك؛ فلَسْتَ بحاجةٍ إلى تحريكِ شَفَتَيك عندَ نُزولِه، فإذا قرأ جِبْريلُ عليك القُرآنَ فاستَمِعْ لِقراءتِه حتَّى يَفرُغَ، ثمَّ اقْرَأْه كما أقرَأَك، ثمَّ إنَّ علينا أن نُبَيِّنَ لك معانيَ القُرآنِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ مُنكِرَ القِيامةِ والبَعثِ مُعرِضًا عن آياتِ اللهِ تعالَى ومُعجزاتِه، وأنَّه قاصرٌ شَهَواتِه على الفُجورِ، غيرُ مُكترِثٍ بما يَصدُرُ منه- ذكَرَ حالَ مَن يُثابِرُ على تَعلُّمِ آياتِ اللهِ وحِفظِها وتَلقُّفِها، والنَّظَرِ فيها وعَرْضِها على مَن يُنكِرُها؛ رَجاءَ قَبولِه إيَّاها، فظَهَرَ بذلك تَبايُنُ مَن يَرغَبُ في تَحصيلِ آياتِ اللهِ ومَن يَرغَبُ عنها، وبضِدِّها تَتميَّزُ الأشياءُ. ولَمَّا كان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -لِمُثابَرتِه على ذلك- كان يُبادِرُ للتَّحفُّظِ بتَحريكِ لِسانِه، أخبَرَه تعالَى أنَّه يَجمَعُه له ويُوضِّحُه[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٠). =

وقيل: هذه الآيةُ وما بعدَها نَزَلَتْ في خلالِ توبيخِ المشركينَ على إنكارِهم البعثَ ووصْفِ يومِ الحشرِ وأهوالِه، وليسَتْ لها مناسبةٌ بذلك، ولكنْ سَبَبُ نُزولِها حَصَل في خلالِ ذلك[1].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

## سبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعالِجُ مِن التَّنزيلِ شِدَّةً، وكان مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيه، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ قال: جَمْعَه لك في صَدْرِك وتَقرَأَه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] قال: فاستَمِعْ له وأنصِتْ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٩]: ثمَّ إنَّ علينا أن تقرَأَه، فكان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعْدَ ذلك إذا أتاه جِبريلُ استَمَعَ، فإذا انطَلَق جِبريلُ قَرَأَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما قَرَأَه))[2].

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾.

أي: لا تُحرِّكْ بالقُرآنِ لِسانَك -يا محمَّدُ- مُتعَجِّلًا بحَمْلِه وأخْذِه قبْلَ أن يَفرُغَ جِبريلُ مِن قراءتِه عليك[3].

---

= وذكر الرازيُّ وُجوهًا أخرى. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٦، ٧٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٨٠).

قال الإيجي: (قولُه: ﴿لَا تُحَرِّكْ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ اعتراضٌ بذِكرِ ما اتفقَ في أثناءِ نزولِ هذه الآياتِ). ((تفسير الإيجي)) (٤/ ٤١٣). ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦).

(٢) رواه البخاري (٥) واللفظ له، ومسلم (٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [طه: ١١٤].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه عَلَّل النَّهيَ عن العَجَلةِ بقَولِه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾ في صَدْرِك، وإثباتَ قِراءتِه في لسانِك[1].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

أي: إنَّ علينا -يا محمَّدُ- أن نجْمَعَ هذا القُرآنَ في صَدْرِك، فنُثْبِتَه فيه، وأن تَقرَأَه بعْدَ ذلك؛ فلَسْتَ بحاجةٍ إلى تحريكِ شَفَتَيك عندَ نُزولِه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦].

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾.

أي: فإذا قرأ جِبْريلُ عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- فاستَمِعْ لِقراءتِه حتَّى يَفرُغَ، ثمَّ اقْرَأْه كما أقرَأَك[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧١)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٤٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (مَذهَبُ سَلَفِ الأمَّةِ وأئمَّتِها وخَلَفِها: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سَمِع =

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّ علينا أن نُبَيِّنَ لك -يا محمَّدُ- معانيَ القُرآنِ[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ...﴾ فيه التوبيخُ على حُبِّ العَجلةِ؛ لأنَّ العَجلةَ إذا كانتْ مذمومةً فيما هو أهمُّ الأمورِ، وأصلُ الدِّينِ، فكيفَ بها في غيرِه[٢]؟ فالنَّهيُ عن العجلةِ في هذا يَقتضي النهيَ فيما عداه على آكدِ وجهٍ، ومِن

---

= القرآنَ مِن جِبريلَ، وجِبريلَ سَمِعَه مِنَ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأمَّا قَولُه: ﴿نَتْلُوا۟﴾ [القصص: ٣] و﴿نَقُصُّ﴾ [يوسف: ٣] ونحوه؛ فهذه الصِّيغةُ في كلامِ العَرَبِ للواحِدِ العظيمِ الَّذي له أعوانٌ يُطيعونَه، فإذا فعَل أعوانُه فِعلًا بأمْرِه، قال: نحنُ فَعَلْنا، كما يقولُ الملِكُ: نحنُ فَتَحْنا هذا البَلَدَ... قولُه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ هو قراءةُ جبريلَ له عليه، واللهُ قرَأَه بواسِطةِ جِبريلَ كما قال: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورى: ٥١]؛ فهو مكَلِّمٌ لمحمَّدٍ بلِسانِ جِبريلَ وإرسالِه إليه). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ١٢٨، ٢٣٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بيانُ معاني القُرآنِ: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: المصدران السابقان.

وقيل: المرادُ: بيانُ أحكامِه وحلالِه وحَرامِه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وعطيَّةُ العَوْفيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩).

وقيل: البيانُ هنا بيانُ ألفاظِه، وليس بيانَ معانيه. وممَّن ذهب إليه: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٠).

وقيل: بيانُ ألفاظِه ومعانيه. وممَّن ذهب إليه: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦).

محبةِ العاجلِ وايثارِه على الآجلِ تقديمُ الدُّنيا الحاضرةِ على الآخرةِ[١].

٢- مِن الأسرارِ الَّتي تَضَمَّنَها قولُه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ التَّأنِّي والتَّثَبُّتُ في تلَقِّي العِلمِ، وألَّا يَحْمِلَ السَّامِعَ شِدَّةُ محبَّتِه وحِرْصِه وطَلَبِه على مُبادَرةِ المعلِّمِ بالأخذِ قبْلَ فراغِه مِن كلامِه، بل مِن آدابِ الرَّبِّ الَّتي أَدَّبَ بها نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أَمْرُه بتركِ الاستعجالِ على تلَقِّي الوَحيِ، بل يَصبِرُ إلى أنْ يَفْرُغَ جبريلُ مِن قراءتِه، ثُمَّ يَقرؤُه بعدَ فراغِه عليه، فهكذا يَنبغي لطالبِ العلمِ ولسامعِه أنْ يَصبِرَ على مُعَلِّمِه حتَّى يَقضيَ كلامَه، ثُمَّ يُعيدَه عليه، أو يَسألَ عمَّا أَشْكَلَ عليه منه، ولا يُبادِرَه قبْلَ فراغِه[٢]؛ فإنَّ الإنسانَ إذا تَسَرَّعَ في تلَقِّي العِلمِ، فرُبَّما يَتلقَّاه على غيرِ ما ألقاه إليه شَيخُه[٣]!

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ دليلٌ إلى الإشارةِ إلى المعنى وإنْ لم يَجْرِ لفْظُه في أوَّلِ الكلامِ؛ لأنَّ «الهاء» في ﴿بِهِۦ﴾ راجعةٌ على القُرآنِ، ولم يُذْكَرْ قَبْلَها؛ فاستغنى بما دلَّ عليه آخرُ الكلامِ؛ إذْ يقولُ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، وهو مِن المواضعِ الَّتي يُبينُ آخِرُ اللَّفظِ فيه عن أَوَّلِه[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ أنَّ القرآنَ المسموعَ مِن لسانِ العِبادِ هو كلامُ اللهِ، غيرُ مخلوقٍ، ولم يَصِرْ لفظًا ولا حِكايةً، وأنَّه القرآنُ المَحْضُ الَّذي تَكَلَّمَ اللهُ به، وليس للعِبادِ به لفظٌ أصلًا، إنَّما حَمَلُوه حَملًا، وأَدَّوه أداءً كما يَحمِلُه الكاتبُ بكتابتِه مِن غيرِ أنْ يكونَ له فيه ممازَجةُ لَفظٍ، فليس

(١) يُنظر: ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٩).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٣٩٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٢).

للتَّالي، ولا للكاتبِ، ولا للحافظِ، ولا للسَّامعِ صنعٌ في اللَّفظِ، ولا في الحكايةِ؛ لأنَّ اللَّفظَ لا يكونُ مِن لافظَينِ في حالٍ واحدةٍ، ولا الكلامُ يكون حكايةً ومحكيًّا مِن واحدٍ في حالٍ واحدةٍ؛ إذ لا بدَّ مِن عدمِ أحدِهما بوجودِ الآخَرِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّ القُرآنَ نَزَل مُفَرَّقًا، وإشارةٌ إلى أنَّ جَمْعَه على هذا النَّحوِ الموجودِ برعايةٍ وعنايةٍ مِنَ اللهِ تعالى، وتحقيقًا لقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، ويَشهَدُ لذلك أنَّ هذا الجَمعَ الموجودَ مِن وسائِلِ حِفْظِه، كما تعَهَّدَ تعالى بذلك[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ سؤالٌ: أنَّ المرادَ هنا قراءةُ جبريلَ القرآنَ على رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّ اللهَ تعالى أضاف القراءةَ إليه!

**الجوابُ**: لَمَّا كان جبريلُ يَقْرَؤُه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأمرِ اللهِ تعالى، صَحَّتْ إضافةُ القراءةِ إليه تعالى، وكذلك جاء في قَولِه تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]، وإبراهيمُ إنَّما كان يجادِلُ الملائكةَ الَّذين هم رُسُلُ اللهِ تعالى[٣]. وأيضًا فقد جعَل قراءةَ جبريلَ قراءةَ الله؛ لأنَّها مِن عندِه[٤]. وأيضًا فما يُسنِدُه سُبحانَه إلى نفْسِه بصيغةِ ضَميرِ الجَمعِ قد يريدُ به ملائكتَه، كقَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾، وقَولِه: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٣] ونَظائِرِه؛ فتأمَّلْه[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ احتَجَّ مَن جوَّزَ تأخيرَ البيانِ عن وَقتِ

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٢، ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٤).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٦).

الخِطابِ بهذه الآيةِ[١]، فـ﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّراخي، فدلَّت على تراخي البيان عن وقتِ الخِطابِ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ أنَّه سُبحانَه تَكَفَّلَ بأنْ يُبَيِّنَ هذا القرآنَ لعبادِه لفظًا ومعنًى؛ ولهذا لا يوجَدُ في القرآنِ كلمةٌ لا يَفْهَمُ أحدٌ معناها، بمعنى: أنَّ الأُمَّةَ كلَّها تُطْبِقُ على عدمِ معرفتِها! هذا لا يمكنُ، صحيحٌ أنَّ مِن القرآنِ ما يَخفى على بعضِ النَّاسِ دونَ بعضٍ، وهذا واضحٌ. لكنْ لا يمكِنُ أنْ يوجَدَ في القرآنِ شيءٌ لا تَفْهَمُه الأُمَّةُ كلُّها أبدًا[٣].

٧- قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ إنَّ الله سُبحانَه وتعالى لم يُخْفِ على العِبادِ ما يُكَلِّفُهم به، فإنَّ رحمتَه وحِكمتَه تأبى ذلك؛ ولهذا قال اللهُ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾، فاللهُ تعالى قد بَيَّنَ للخَلْقِ، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وينبني على هذه الفائدةِ -وهي فائدةُ البيانِ-: أهمِّيَّةُ التَّرجمةِ، وأنَّ على المسلمينَ أنْ يُترجِموا الشَّريعةَ إلى لغةِ مَن يُخاطِبونَهم بها حتَّى تَتِمَّ الحُجَّةُ؛ لأنَّك لو أَتيتَ إلى قومٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٢٩).

(٢) يُنظر: ((روضة الناظر وجنة المناظر)) لابن قدامة (١/ ٥٣٦)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٢٣).

لكن قال ابنُ عاشور: (قد احتجَّ بهذه الآيةِ بعضُ علمائِنا الذين يرونَ جوازَ تأخيرِ البيانِ عن المبينِ متمسكينَ بأنَّ ﴿ ثُمَّ ﴾ للتَّراخي، وهو متمسكٌ ضعيفٌ؛ لأنَّ التَّراخيَ الذي أفادَتْه ﴿ ثُمَّ ﴾ إنَّما هو تراخٍ في الرُّتبةِ، لا في الزَّمنِ، ولأنَّ ﴿ ثُمَّ ﴾ قد عطَفت مجموعَ الجملةِ، ولم تعطِفْ لفظَ ﴿ بَيَانَهُۥ ﴾ خاصَّةً، فلو أُرِيد الاحتجاجُ بالآيةِ للزِم أنْ يكونَ تأخيرُ البيانِ حقًّا لا يخلو عنه البيانُ، وذلك غيرُ صحيحٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٣).

عَجَمٍ وتكلَّمْتَ عندَهم بأبلَغِ الكلامِ العربيِّ وأفصَحِه، ما استفادوا مِن هذا شيئًا، ولا يَدرون ما تقولُ، وعليه فمَن أراد أنْ يَذهبَ إلى قومٍ يَدْعوهم إلى اللهِ لا بُدَّ أنْ يَتَعَلَّمَ لُغتَهم؛ حتَّى يَتمكَّنَ مِن دَعوتِهم، أو يَصْطَحِبَ شخصًا يُترجِمُ له يكونُ عالِمًا باللُّغَتَينِ الأصليَّةِ والفَرعيَّةِ، ويكونُ له إلمامٌ بموضوعِ ما يُتَرْجِمُه، فإذا أراد أن يُترجِمَ في الكلامِ على التَّوحيدِ -مثلًا- فلا بُدَّ أنْ يكونَ عندَه إلمامٌ بذلك؛ لئلَّا يُفْهِمَ الأمرَ على خِلافِه[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: فإذا أتْمَمْنا قِراءتَه عليكَ بلسانِ جِبريلَ عليه السَّلامُ، فكُنْ مُتَّبِعًا له ولا تُسابِقْه، وإسنادُ القِراءةِ إلى نُونِ العَظَمةِ للمُبالَغةِ في إيجابِ التَّأنِّي[2].

- وتقديمُ شِبه الجُملةِ ﴿عَلَيْنَا﴾ على اسم (إنَّ) في ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ﴾، و﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾: أسلوبُ قَصرٍ[3] يُفيدُ أنَّ اللهَ تعالَى المتولِّي مُهمَّةَ الحِفظِ والبَيانِ، لم يَكِلْ ذلك إلى بَشرٍ، وبهذا سَلِم مِن التَّغييرِ والنَّقْصِ والتَّحريفِ[4].

- لَفظُ ﴿عَلَيْنَا﴾ في الموضعَينِ للتَّكفُّلِ والتَّعهُّدِ[5].

- و(ثُمَّ) في ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ قيل: للتَّراخي في الرُّتبةِ، أي: التَّفاوتِ بيْن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٥٧).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٨٣).

(٤) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٨٧٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٠).

رُتبةِ الجُملةِ المعطوفِ عليها -وهي قولُه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾- وبيْن رُتبةِ الجُملةِ المعطوفةِ، وهي ﴿إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، أي: ليس فقط علينا حِفظُه وجَمْعُه وقِراءتُه عليك، وتَثبيتُ حِفظِه في قلبِكَ، بلْ فوقَ ذلك بَيانُه لك، وتفسيرُ معانِيه، وشرْحُ أحكامِه، وتَفصيلُ مُجمَلِه، وتَيسيرُ تِبيانِه للنَّاسِ على لِسانِك بما أُوتيتَ مِن جَوامِعِ الكَلِمِ وفَصْلِ الخِطابِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٠).

## الآيات (٢٠-٢٥)

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نَّاضِرَةٌ﴾: أي: مُشرِقةٌ مُتهَلِّلةٌ حَسَنةٌ؛ يقالُ: نَضَرَ وَجهُ فلانٍ: إذا حَسُنَ مِن النِّعمةِ، وأصلُ (نضر): يدُلُّ على حُسنٍ وجمالٍ[1].

﴿بَاسِرَةٌ﴾: أي: كَئيبةٌ مُتكَدِّرةٌ عابِسةٌ مُسْوَدَّةٌ[2].

﴿فَاقِرَةٌ﴾: أي: داهِيةٌ عظيمةٌ تَكسِرُ فَقَارَ الظَّهرِ، وأصلُ (فقر): يدُلُّ على انفِراجٍ في شَيءٍ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ليس الأمرُ كما تَزعُمونَ مِن إنكارِ البَعْثِ أو غيرِه مِنَ الحَقِّ، وإنَّما الَّذي دعاكم لذلك حُبُّكم للدُّنيا، وتَرْكُكم للآخِرةِ وإعراضُكم عنها.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٥، ٥٠٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٩).
قال الخليل: (عَبَسَ يَعْبِسُ عُبوسًا فهو عابِسُ الوجهِ غَضْبانُ. فإنْ أبدى عن أسنانِه في عُبوسِه قلتَ: كَلَحَ. وإنِ اهتَمَّ لذلك وفكَّر فيه، قلتَ: بَسَرَ). ((العين)) (١/ ٣٤٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٩).

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى أحوالَ النَّاسِ يومَ القيامةِ، وتَفاوُتَهم فيه، فيقولُ: وُجوهٌ يومَ القيامةِ حَسَنةٌ مُشرِقةٌ ناظِرةٌ إلى رَبِّها سُبحانَه وتعالى في الآخِرةِ، ووُجوهٌ مُظلِمةٌ مُتجَهِّمةٌ كَئيبةٌ مِن شَقاءِ أصحابِها وبُؤسِهم، يَظُنُّ الكُفَّارُ أن تُصيبَهم داهِيةٌ عَظيمةٌ تَقصِمُ ظُهورَهم في ذلك اليَومِ العَصيبِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا فرَغَ مِن خِطابِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ رجَعَ إلى حالِ الإنسانِ السَّابقِ ذِكرُه المنكِرِ البَعثَ، وأنَّ همَّه إنَّما هو في تَحصيلِ حُطامِ الدُّنيا الفاني، لا في تَحصيلِ ثَوابِ الآخرةِ؛ إذ هو مُنكِرٌ لذلك[1]، فقال تعالى:

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كما تَزعُمونَ مِن إنكارِ البَعْثِ أو غيرِه مِنَ الحَقِّ، وإنَّما الَّذي دعاكم لذلك: هو أنَّكم تُحِبُّونَ الدُّنيا، وتَنشَغِلونَ بها[2]!

﴿وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وتَترُكونَ الآخِرةَ، وتُعرِضُونَ عنها[3].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩).

ثَقِيلًا ﴾ [الإنسان: ٢٧].

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر الآخِرةَ الَّتي أعرَضوا عنها، ذكَرَ ما يكونُ فيها؛ بيانًا لِجَهْلِهم وسَفَهِهم وقِلَّةِ عُقولِهم، وترهيبًا لِمَن أدبَرَ عنها، وترغيبًا لِمَن أقبَلَ عليها؛ لُطفًا بهم، ورحمةً لهم(١).

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ ﴾.

أي: وُجوهٌ يومَ القيامةِ حَسَنةٌ بَهِيَّةٌ مُشرِقةٌ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٤].

﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: تَنظُرُ إلى رَبِّها سُبحانَه وتعالى في الآخِرةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٢).

قال مكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ: (أي: حَسَنةٌ ناعِمةٌ جميلةٌ؛ مِنَ السُّرورِ والغِبْطةِ، هذا قولُ جميعِ أهلِ التَّفسيرِ). ((الهداية)) (١٢/ ٧٨٧٨).

(٣) يُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) لأحمد بن حنبل (ص: ٧٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٦، ٥٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٢).

قال أبو الحَسَنِ الأشعريُّ: (أجمَعوا على أنَّ المؤمنينَ يَرَونَ اللهَ عزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ بأعيُنٍ =

كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [يونس: ٢٦].

عن صُهَيب رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا دَخَل أهلُ الجنَّةِ الجَنَّةَ يقولُ اللهُ تبارك وتعالى: تُريدونَ شَيئًا أَزيدُكم؟ فيقولونَ: ألَمْ تُبَيِّضْ وُجوهَنا؟! ألم تُدخِلْنا الجنَّةَ، وتُنَجِّنا مِنَ النَّارِ؟! قال: فيَكشِفُ الحِجابَ، فما أُعطُوا شيئًا أَحَبَّ إليهم مِن النَّظَرِ إلى رَبِّهم عزَّ وجَلَّ!))، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[1] [يونس: ٢٦].

وعن أبي هُرَيرةَ وأبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّاسَ قالوا: يا رَسولَ اللهِ، هل نرى رَبَّنا يومَ القيامةِ؟ قال: هل تُمارُونَ[2] في القَمَرِ لَيلةَ البَدْرِ ليس دُونَه سَحابٌ؟ قالوا: لا يا رَسولَ اللهِ. قال: فهل تمارُونَ في الشَّمسِ ليس

---

= وُجوهِهم، على ما أخبَرَ به تعالى في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾). ((رسالة إلى أهل الثغر)) (ص: ١٣٤).

وقال ابنُ جُزَي: (هذا مِنَ النَّظَرِ بالعَينِ، وهو نَصٌّ في نظرِ المؤمنينَ إلى اللهِ تعالى في الآخرةِ، وهو مَذهَبُ أهلِ السُّنَّةِ، وأنكَرَه المعتَزِلةُ، وتأوَّلوا ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بأنَّ معناه: مُنتَظِرةٌ! وهذا باطِلٌ؛ لأنَّ «نَظَر» بمعنى «انتَظَر» يَتعدَّى بغيرِ حرفِ جَرٍّ، تقولُ: نظَرْتُك، أي: انتَظَرْتُك، وأمَّا المتعدِّي بـ«إلى» فهو مِن نَظَرِ العَينِ، ومنه قولُه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٣]... وقد جاء عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في النَّظَرِ إلى اللهِ أحاديثُ صَحيحةٌ مُستفيضةٌ صريحةُ المعنى، لا تحتَمِلُ التَّأويلَ، فهي تفسيرٌ للآيةِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٤). ويُنظر: ((الإبانة عن أصول الديانة)) للأشعري (ص: ٣٥-٤٠)، ((تمهيد الأوائل)) للباقلاني (ص: ٣٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٣).

(١) رواه مسلم (١٨١).

(٢) تُمارُونَ: أي: تَشُكُّون، والمِرْيةُ: الشَّكُّ. ويحتملُ أن يكونَ المرادُ: هل يَحصُلُ لكم تَمارٍ واختِلافٌ في رؤيتِهما؟ فكما لا يَحصُلُ لكم في رؤيتِهما تَمارٍ واختِصامٌ، فكذلك رؤيةُ اللهِ عزَّ وجل. والتَّماري والتَّنازُعُ إنَّما يقعُ مِن الشَّكِّ وعدمِ اليقينِ، كما يقعُ في رؤيةِ الأهِلَّةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٤/ ٤١٥).

دُونَها سَحابٌ؟ قالوا: لا. قال: فإنَّكم تَرَونَه كذلك))[١].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَرَ أهلَ النِّعْمةِ؛ أتْبَعَه أضْدادَهم مِن أهلِ النِّقْمةِ[٢].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: ووُجوهٌ يومَ القيامةِ مُظلِمةٌ مُتجَهِّمةٌ كَئيبةٌ مُتكَدِّرةٌ؛ مِن شَقاءِ أصحابِها وبُؤسِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧].

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: يَظُنُّ الكُفَّارُ أنَّ داهِيةً عَظيمةً وعُقوبةً شَديدةً ستُصيبُهم؛ فلذلك تغَيَّرتْ وُجوهُهم[٤]!

---

(١) رواه البخاري (٨٠٦) واللفظ له، ومسلم (١٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

قال الواحدي: (قولُه تعالى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرونَ: كالِحةٌ، عابسةٌ، كاشِفةٌ، كئيبةٌ، مُصْفَرَّةٌ، مُتغيِّرةُ اللَّونِ، كريهةٌ، مُقطبةٌ؛ كلُّ هذا مِن ألفاظِهم). ((البسيط)) (٢٢/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٤، ٣٩٥)، ((تفسير =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ ذَمُّ مَن يُحِبُّ الدُّنيا ويُؤْثِرُها على الآخِرةِ(١).

٢- قَال الله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، الكلامُ مُشعِرٌ بالتَّوبيخِ، ومَناطُ التَّوبيخِ هو حُبُّ العاجلةِ مع نَبْذِ الآخرةِ، فأمَّا لو أحَبَّ أحَدٌ العاجلةَ وَراعى الآخرةَ -أي: جَرى على الأمرِ والنَّهيِ الشَّرعيَّينِ- لم يكُنْ مَذمومًا؛ قال تعالَى فيما حَكاهُ عن الَّذين أُوتوا العِلمَ مِن قومِ قارونَ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾(٢) [القصص: ٧٧].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ جُمِعَ الضَّميرُ، وإن كان مبنى الخِطابِ مع الإنسانِ؛ نظَرًا للمعنى، إشارةً إلى أنَّه لا يَسلَمُ مِنَ العَجَلةِ المذمومةِ إلَّا أفرادٌ حَفِظَهم اللهُ بقُدرتِه الباهِرةِ(٣).

---

= القرطبي)) (١٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

ذهب كثيرٌ مِنَ المفَسِّرينَ إلى أنَّ الظَّنَّ هنا بمعنى اليقينِ. ومنهم: الواحديُّ، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٦).

وقيل: هو على بابِه بمعنى التَّوقُّعِ. وممَّن قال بهذا: البِقاعي، قال: (﴿تَظُنُّ﴾ أي: تتوَقَّعُ بما تَرى مِنَ المخايِلِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٠٧).

وقال البِقاعي أيضًا في معنى ﴿فَاقِرَةٌ﴾: (داهِيةٌ تَكْسِرُ الفَقارَ: وهو عَظمُ سِلسلةِ الظَّهرِ الَّذي هو أصلَبُ ما في العِظامِ، فتكونُ قاصِمةَ الظَّهرِ!). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٠٧).

(١) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٤).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أنَّ النَّفْسَ مُولَعةٌ بحُبِّ العاجِلِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ إثباتُ رؤيةِ المؤمنينَ لربِّهم في الآخِرةِ[٢]، وفيه ردٌّ على المعتَزلةِ في إنكارِهم الرُّؤْيةَ[٣]. وإضافةُ النَّظَرِ إلى الوجهِ -الَّذي هو مَحَلُّه- في هذه الآيةِ، وتعديتُه بأداةِ «إلى» الصَّريحةِ في نَظَرِ العَينِ، وإخلاءُ الكلامِ مِن قرينةٍ تدُلُّ على أنَّ المرادَ بالنَّظَرِ المضافِ إلى الوجهِ، المُعَدَّى بـ«إلى»: خِلافُ حقيقتِه ومَوضوعِه- صريحٌ في أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أراد بذلك نَظَرَ العَينِ الَّتي في الوجهِ، إلى نَفْسِ الرَّبِّ جلَّ جلالُه؛ فإنَّ النَّظَرَ له عِدَّةُ استعمالاتٍ بحَسَبِ صِلاتِه وتَعَدِّيه بنَفْسِه؛ فإنْ عُدِّيَ بنَفْسِه فمعناه التَّوقُّفُ والانتِظارُ، كقَولِه: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]، وإنْ عُدِّيَ بـ«في» فمعناه التَّفَكُّرُ والاعتِبارُ، كقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وإنْ عُدِّيَ بـ«إلى» فمعناه المُعاينةُ بالأبصارِ، كقولِه: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]، فكيف إذا أُضيفَ إلى الوَجهِ الَّذي هو مَحَلُّ البَصَرِ[٤]؟!

٤- قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ﴾ إنَّما ذكر تعالى الوُجوهَ؛ لأنَّه فيها يَظهَرُ ما في النَّفْسِ مِن سُرورٍ أو غَمٍّ[٥].

٥- عن الحَسَنِ، في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ قال: (حَسَنةٌ). ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: (تَنظُرُ إلى الخالِقِ، وحُقَّ لها أن تَنضُرَ وهي تنظُرُ إلى الخالِقِ!)[٦].

---

(١) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٠٧).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ جَمَعَ سُبحانَه بيْن الجمالَين؛ فالنَّضْرةُ تُزَيِّنُ ظواهِرَهم، والنَّظَرُ يُجَمِّلُ بواطِنَهم[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ رُجوعٌ إلى مَهيعِ (طريقِ) الكلامِ الَّذي بُنِيَت عليه السُّورةُ، كما يَرجِعُ المتكلِّمُ إلى وصْلِ كَلامِه بعْدَ أنْ قَطَعَه عارضٌ أو سائلٌ[2].

- وكَلمةُ ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ وإبطالٌ؛ يَجوزُ أنْ يكونَ إبطالًا لِما سبَقَ مِن قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣] إلى قولِه: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ٣- ١٥]، فأُعِيدَ ﴿كَلَّا﴾ تَأكيدًا لنَظيرِه، ووصْلًا للكلامِ بإعادةِ آخِرِ كَلمةٍ منه، والمعْنى: أنَّ مَزاعمَهم باطلةٌ. وقولُه: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ إضرابٌ إبطاليٌّ يُفصِّلُ ما أجْمَلَه الرَّدعُ بـ ﴿كَلَّا﴾ مِن إبطالِ ما قبْلَها وتَكذيبِه، أي: لا مَعاذيرَ لهم في نفْسِ الأمرِ، ولكنَّهم أحَبُّوا العاجلةَ، أي: شَهَواتِ الدُّنيا، وتَرَكوا الآخرةَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ إبطالًا لِما تَضمَّنَه قولُه: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ [القيامة: ١٥]؛ فهو استِئنافٌ ابتدائيٌّ، والمعْنى: أنَّ مَعاذيرَهم باطلةٌ، ولكنَّهم يُحِبُّون العاجلةَ، ويَذَرون الآخرةَ، أي: آثَروا شَهَواتِهم العاجلةَ، ولم يَحسَبوا للآخرةِ حِسابًا[3].

- وقيل: ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن عادةِ العجَلةِ، وإنكارٌ لها عليه، وحثٌّ على الأناةِ والتُّؤدَةِ، وقد بالَغَ في ذلك بإتْباعِه قولَه: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلْعَاجِلَةَ﴾[١].

- قولُه: ﴿تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ تَعميمٌ للخِطابِ؛ إشعارًا بأنَّ بَني آدَمَ مَطبوعونَ على الاستِعجالِ، وإنْ كان الخِطابُ للإنسانِ، والمرادُ به الجِنسَ، فجُمِع الضَّميرُ للمعْنى[٢].

- قولُه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ ﴿تُحِبُّونَ﴾ ﴿وَتَذَرُونَ﴾ بتاءٍ فَوقيَّةٍ على الالْتِفاتِ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ في مَوعظةِ المشْركين مُواجهةً بالتَّفريعِ؛ لأنَّ ذلك أبلَغُ فيه، وقُرِئَ بياءٍ تَحتيَّةٍ على نسَقِ ضَمائرِ الغَيبةِ السَّابقةِ، والضَّميرُ عائدٌ إلى الإنسانِ في قولِه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، جاء ضَميرَ جمْعٍ؛ لأنَّ الإنسانَ مُرادٌ به النَّاسُ المشْركون[٣]. وعلى قِراءةِ ﴿يُحِبُّونَ﴾ ﴿وَيَذَرُونَ﴾ بالياءِ[٤]، قيل: هو أبلَغُ؛ للالْتفاتِ بعْدَ تَعميمِ الخِطابِ؛ قال: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾، ثمَّ عمَّ وقال: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾، وعلى الغَيبةِ يَعْني مِن شأْنِ بني آدَمَ العَجَلةُ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ لَمَّا وبَّخهم بحُبِّ العاجِلةِ، وترْكِ الاهتِمامِ بالآخِرةِ، تَخلَّصَ إلى شَيءٍ مِن أحوالِ الآخِرةِ؛ فقدْ تَخلَّصَ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦١، ٦٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٦، ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥١).

(٤) قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو وابنُ عامرٍ ويعقوبُ بالياءِ فيهما، وقرأ الباقونَ بالتَّاءِ فيهما. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٦٥).

إجمالِ حالِ النَّاسِ يومَ القِيامةِ بيْن أهلِ سَعادةٍ وأهْلِ شَقاوةٍ(١).

- وتَنكيرُ ﴿وُجُوهٌ﴾ للتَّنويعِ والتَّقسيمِ(٢).

- وكُنِّيَ بنَضْرةِ الوُجوهِ عن فرَحِ أصحابِها ونَعيمِهم؛ قال تعالَى في أهلِ السَّعادةِ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]؛ لأنَّ ما يَحصُلُ في النَّفْسِ مِن الانفِعالاتِ يَظهَرُ أثَرُه(٣).

- قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ظاهرُ لَفظِ (ناظِرة) أنَّه مِن (نَظَرَ) بمعْنى: عايَنَ ببَصرِه، إعلانًا بتَشريفِ تلك الوُجوهِ أنَّها تَنظُرُ إلى اللهِ تعالَى نظَرًا خاصًّا لا يُشارِكُها فيه مَن يكونُ دونَ رُتَبِهم(٤).

- وتَقديمُ المجرورِ مِن قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ على عامِلِه؛ للاهتِمامِ بهذا العَطاءِ العَجيبِ، وليس للاختِصاصِ؛ لأنَّهم يَرونَ بهَجاتٍ كثيرةً في الجنَّةِ(٥).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾

- قولُه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أُعِيدَ لَفظُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ تَأكيدًا للاهتِمامِ بالتَّذكيرِ بذلك اليومِ(٦).

- قولُه: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لبَيانِ سَببِ بُسُورِها(٧).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٢، ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٥٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٥٦).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- و﴿فَاقِرَةٌ﴾، أي: داهيةٌ عَظيمةٌ، وإفرادُها إفرادُ الجِنسِ، أي: نوعًا عظيمًا مِن الدَّاهيةِ[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٦).

## الآيات (٢٦-٣٥)

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾: جمعُ تَرْقُوةٍ: وهي ثُغْرةُ النَّحرِ، أو عَظْمٌ يَصِلُ ما بيْن ثُغْرةِ النَّحرِ والعاتِقِ، ولكُلِّ إنسانٍ تَرْقُوتانِ عن يمينِه وعن شمالِه، ويُكْنَى ببُلوغِ النَّفْسِ التَّراقيَ عن الإشفاءِ على الموتِ[1].

﴿مَنۡۜ رَاقٖ﴾: أي: مَنْ صاحِبُ رُقيةٍ أو طَبيبٌ يَرقِيه فيَشفِيه برُقْيَتِه أو دَوائِه؟ يُقالُ: رَقاه يَرْقِيه رُقْيةً: إذا عَوَّذَه بما يَشْفِيه، كأنَّهم طَلَبوا له الرُّقْيةَ والشِّفاءَ. وقيل: مَن يَرْقَى ويَصعَدُ برُوحِه مِن الملائِكةِ؟ مِن رَقِيَ يَرْقَى رُقِيًّا. وأصلُ (رقي) هنا: يدُلُّ على عُوذةٍ يُتعَوَّذُ بها، ويدُلُّ على الصُّعودِ[2].

﴿ٱلۡمَسَاقُ﴾: أي: المَرجِعُ والمآبُ، وأصلُ (سوق): يدُلُّ على حَدْوِ الشَّيءِ[3].

﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾: أي: يَتبختَرُ ويَختالُ في مِشْيَتِه؛ مِنَ المَطَا، وهو الظَّهرُ، فيَلْوي ظَهْرَه تبختُرًا. أو مِنَ المطِّ: وهو المَدُّ؛ لأنَّه يتبَختَرُ ويمُدُّ يَدَيه في المشْيِ، وأصلُه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥١٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥١٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢).

«يَتمَطَّطُ»، فجُعِلَت الطَّاءُ الثَّالثةُ ياءً؛ للتَّخفيفِ[١].

﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾: أي: وَلِيَكَ المكروهُ، وقارَبَك ما يُهلِكُك، وهو أفعَلُ، مِنَ الوَلْيِ: وهو القُربُ، ومَعناه التَّوَعُّدُ والتَّهَدُّدُ. وقيل: وَعيدٌ بمعنى: وَيْلٌ لك، وأصلُ أَوْلى: أَوْيَلُ، أي: أشَدُّ وَيْلًا، فوقَعَ فيه قَلبٌ، ووَزْنُه أفلَعُ، مأخوذٌ مِنَ الوَيلِ[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾

قَولُه تعالى: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾: فيه عِدَّةُ أوجُهٍ:

**أحَدُها**: أنَّه مُبتدَأٌ مَرفوعٌ. و ﴿لَكَ﴾: جارٌّ ومجرورٌ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ خبَرٌ، وهي كَلِمةُ تهديدٍ ووعيدٍ، أي: وَيلٌ لك، أو هَلاكٌ لك، وسَوَّغ الابتداءَ بالنَّكرةِ كَونُه دُعاءً.

**الثَّاني**: أنَّ ﴿أَوْلَىٰ﴾ خبرٌ لِمُبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: فالعِقابُ أو الهلاكُ أَولى لك، أي: أقرَبُ وأَدنى.

**الثَّالِثُ**: أنَّ ﴿أَوْلَىٰ﴾: فِعلٌ ماضٍ، وفاعِلُه مُضمَرٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: قاربَك ووَلِيَك ما يُهلِكُك، واللَّامُ في ﴿لَكَ﴾ زائِدةٌ في المفعولِ.

**الرَّابعُ**: أنَّه فِعلٌ ماضٍ، وفاعِلُه ضَميرُ اللهِ عزَّ وجلَّ، واللَّامُ مَزيدةٌ في المفعولِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٢/ ٥٢٦).

(٢) يُنظَر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٤١)، ((المحكم والمحيط الأعظم)) لابن سِيدَه (١٠/ ٤٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٠/ ٢٥٠) و(٢٢/ ٥٢٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٢٤)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٥/ ٤١١)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٤٠/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٦/ ١٠٩).

الأوَّلِ، والمفعولُ الثَّاني محذوفٌ، والتَّقديرُ: أَوْلاكَ اللهُ تعالى ما تَكرَهُه. أو اللَّامُ غيرُ مَزيدةٍ، والمفعولُ محذوفٌ، والتَّقديرُ: أدنَى اللهُ عزَّ وجلَّ الهلاكَ لك.

وقولُه تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالةَ الاحتضارِ، وما يَعتريها مِن الأهوالِ: كَلَّا إذا بلَغَت الرُّوحُ العِظامَ الموجودةَ عندَ ثُغْرةِ النَّحرِ في أعلى الصَّدرِ وبدايةِ الحُلْقومِ، وذلك عندَ مَوتِ الإنسانِ، وقيلَ: هل مِن راقٍ يَرْقِيه، وطبيبٍ يُداويه؛ فيَشفى مِمَّا هو فيه؟ وظنَّ ذلك المُحتَضَرُ أنَّه مُفارِقٌ للدُّنيا وما فيها، وتتابَعَتْ عليه الشَّدائِدُ، إلى رَبِّك المَساقُ والمرجِعُ.

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ تعالى عن حالِ الكافرِ في الدُّنيا، فيقولُ: فلمْ يُصَدِّقْ بما وجَبَ عليه التَّصديقُ به، ولا صلَّى ما أُمِرَ بأدائِه مِنَ الصَّلَواتِ، ولكِنْ كذَّبَ بالحَقِّ فلم يُؤمِنْ به، وأعرَضَ عنه فلم يَعمَلْ به، ثمَّ مَضَى إلى أهلِه مُتبَختِرًا مُختالًا في مِشْيَتِه.

ثمَّ يتوَعَّدُ اللهُ -تعالى- ويُهَدِّدُ هذا الكافِرَ فيقولُ: وَلِيَك الهَلاكُ، وقَرُبَ منك المكروهُ! ثمَّ وَلِيَكَ الهلاكُ، وقَرُبَ منك المكروهُ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن تعظيمَ أحوالِ الآخِرةِ؛ بيَّن أنَّ الدُّنيا لا بدَّ فيها مِن الانتهاءِ والنَّفادِ،

---

(١) يُنظَر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٥٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٩/ ٦٩٨) و (١٠/ ٥٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٤).

والوُصولِ إلى تجَرُّعِ مرارةِ الموتِ[١].

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ٢٦﴾.

أي: كَلَّا[٢] إذا بلَغَت الرُّوحُ العِظامَ الموجودةَ عندَ ثُغْرةِ النَّحرِ في أعلى الصَّدرِ، وبدايةِ الحُلقومِ، وذلك عندَ مَوْتِ الإنسانِ[٣].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٤).

(٢) قيل: ﴿كَلَّآ﴾ هنا نافيةٌ لِما يظُنُّه المشركون مِن أنَّهم لا يُعاقَبونَ على شِرْكِهم ومَعصِيتِهم رَبَّهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمعانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٨).

وقيل: معناها: استبعادُ إيمانِ الكافرِ بيومِ القيامةِ، أي: بعيدٌ أن يؤمِنَ الكافرُ بيومِ القيامةِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، وابنُ عادل، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١١)، ((تفسير ابن عادل)) (١٩/ ٥٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠).

وقيل: ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وزجرٌ وتنبيهٌ، ومعناه: ارتَدِعوا عمَّا يؤدِّي إلى العذابِ، وعن إيثارِ الدُّنيا على الآخرةِ، وتنبَّهوا على ما بيْن أيديكم مِن الموتِ. وممَّن قال بهذا في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٦، ٣٥٧).

وقيل: المرادُ: نَفيُ استمرارِ محبَّةِ الدُّنيا، بل لا بُدَّ أن ينقَطِعَ ذلك انقِطاعًا قَبيحًا جِدًّا. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٨).

قال ابنُ عاشور: (جمعُ تَرْقُوَةٍ: وهي ثُغْرةُ النَّحرِ، ولكُلِّ إنسانٍ تَرْقُوَتانِ عن يمينِه وعن شِمالِه. ومعنى: ﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾: أنَّ الرُّوحَ بَلَغَت الحَنجَرةَ حيثُ تَخرجُ الأنفاسُ الأخيرةُ، فلا يُسمَعُ صَوتُها إلَّا في جهةِ التَّرْقُوةِ، وهي آخِرُ حالاتِ الاحتضارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٨).

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧].

﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ ٢٧﴾.

أي: وقيلَ: هل مِن راقٍ يَرْقِيه، وطبيبٍ يُداويه؛ فيَشفَى مِن مَرَضِه[1]؟

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ٢٨﴾.

أي: وأيقَن المُحتَضَرُ أنَّه مُفارِقٌ الدُّنيا والأموالَ والأولادَ، والأهلَ والأحبابَ[2].

﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ٢٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٨).

قال السعدي: (أي: مَن يَرْقِيه؟ مِنَ الرُّقْيةِ؛ لأنَّهم انقَطَعت آمالُهم مِن الأسبابِ العاديَّةِ، فلم يَبْقَ إلَّا الأسبابُ الإلهيَّةُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

وقال الشوكاني: (وقالَ أبو الجوزاءِ: هو مِن رَقَى يَرْقَى إذا صَعِد، والمعنَى: مَن يَرْقَى برُوحِه إلى السَّماءِ: أمَلائكةُ الرَّحمةِ أم ملائِكَةُ العذابِ؟ وقيلَ: إنَّه يقولُ ذلك مَلَكُ الموتِ؛ وذلك أنَّ نفْسَ الكافرِ تكرَهُ الملائِكَةُ قُرْبَها). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩).

قال جمْعٌ مِن المفسِّرينَ: الظَّنُّ هنا بمعنى اليقينِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، وابن الجوزي، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٢).

قال ابن عطيَّة: (وهذا يقينٌ فيما لم يَقَعْ بَعْدُ؛ ولذلك استُعمِلَت فيه لفظةُ الظَّنِّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٦).

وقال ابن عاشور: (الظَّنُّ: العِلمُ المقارِبُ لليَقينِ، وضميرُ ﴿أَنَّهُ﴾ ضميرُ شأنٍ، أي: وأيْقَنَ أنَّه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩).

أي: وتتابَعَتْ على المُحتَضَرِ الشَّدائِدُ[١]!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥١٥، ٥٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

قال الماوَرْدي: (﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ فيه أربعةُ أوجُهٍ:

أحدُها: اتِّصالُ الدُّنيا بالآخِرةِ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: الشِّدَّةُ بالشِّدَّةِ، والبلاءُ بالبلاءِ، وهو شِدَّةُ كُرَبِ الموتِ، بشِدَّةِ هَولِ المَطلَعِ. قاله عِكْرِمةُ، ومجاهِدٌ.

الثَّالثُ: التفَّت ساقاه عندَ الموتِ. وحكى ابنُ قُتَيْبةَ عن بعضِ المفسِّرينَ أنَّ التفافَ السَّاقِ بالسَّاقِ عندَ السِّياقِ. قال الحسَنُ: ماتت رِجْلاه فلم تَحمِلاه، وقد كان عليهما جَوَّالًا.

الرَّابعُ: أنَّه اجتمَع أمْرانِ شديدانِ عليه: النَّاسُ يُجَهِّزونَ جَسَده، والملائِكةُ يُجَهِّزونَ رُوحَه. قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٥٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: شِدَّةُ الدُّنيا بشِدَّةِ الآخرةِ: السمعانيُّ، وابنُ الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٢٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٢٦).

قال الخازن: (﴿ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: الشِّدَّةُ بالشِّدَّةِ، يعني: شِدَّةَ مُفارَقةِ الدُّنيا، مع شدَّةِ الموتِ وكربِه). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٤).

وقال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصِّحَّةِ عندي قولُ مَن قال: معنَى ذلك: والْتَفَّتْ ساقُ الدُّنيا بساقِ الآخرةِ، وذلك شِدَّةُ كربِ الموتِ بشِدَّةِ هولِ المَطْلَعِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني: التفَّ أمرُ الدُّنيا بالآخرةِ، فصار واحدًا كِلاهما). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥١٣).

قال الواحديُّ: (قال المفسِّرونَ: تتابعَتْ عليه الشَّدائدُ). ((الوسيط)) (٤/ ٣٩٥). ونسَبَه الشَّوكانيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠).

قال الواحديُّ أيضًا: (قال ابنُ عبَّاسٍ في روايةِ عطاءٍ: يريدُ شدَّةَ الموتِ، بشِدَّةِ الآخرةِ. وهو قولُ الكلبيِّ، ومقاتلٍ، وقَتادةَ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، والسُّدِّيِّ، قالوا: معناه: تتابعَتْ عليه الشَّدائدُ: شدَّةُ بُعْدِ مُفارَقةِ الوطَنِ مِن الدُّنيا والأهلِ، وشدَّةُ القُدومِ على ربِّه، فالتقَتْ آخِرُ شِدَّةِ الدُّنيا، بأوَّلِ شدَّةِ الآخرةِ). ((البسيط)) (٢٢/ ٥١٩، ٥٢٠). =

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا صَوَّر وَقتَ تأسُّفِه على الدُّنيا وإعراضِه عنها؛ ذكَرَ غايةَ ذلك[1]، فقال:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠﴾.

أي: إلى رَبِّك يومَئذٍ المرجعُ[2].

---

= وممَّن ذهَب إلى المعنى الثَّالثِ: أي: التفَّت ساقاه عندَ الموتِ: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والزمخشري، والنسفي، وابن جُزَي، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٦٩).

قال القاسمي: (أي: الْتَوَت ساقُه بساقِه، فلا يَقدِرُ على تحريكِها). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٦٩).

وقال ابن جُزَي: (هذا عبارةٌ عن شدَّةِ كُرَبِ الموتِ وسَكَراتِه، أي: التفَّتْ ساقُه على الأخرى عندَ السِّياقِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٥).

وقيل: المرادُ: لَفُّ ساقَيِ الميِّتِ في كَفَنِه. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩).

قال ابن عاشور: (قولُه: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ إن حُمِلَ على ظاهِرِه، فالمعنى: التِفافُ ساقَيِ المحتَضَرِ بعدَ موتِه؛ إذ تُلَفُّ الأكفانُ على ساقَيه، ويُقرَنُ بيْنَهما في ثوبِ الكَفَنِ، فكُلُّ ساقٍ منهما مُلتفَّةٌ صُحبةَ السَّاقِ الأخرى، فالتَّعريفُ عِوَضٌ عن المضافِ إليه، وهذا نهايةُ وصفِ الحالةِ الَّتي تهيَّأَ بها لمصيرِه إلى القَبرِ الَّذي هو أوَّلُ مَراحِلِ الآخرةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٠، ١١١).

قال ابن كثير: (وذلك أنَّ الرُّوحَ تُرفَعُ إلى السَّمَواتِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: رُدُّوا عبدي إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢). =

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ * ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبْدَ المؤمِنَ إذا كانَ في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كَأنَّ وُجوهَهُمُ الشَّمْسُ، معَهُم كَفَنٌ مِن أَكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنوطٌ[1] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجْلِسوا منه مَدَّ البَصَرِ، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ، حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأْسِه، فيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مَغْفرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ. فتَخْرُجُ تَسيلُ كما تَسيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقَاءِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَأْخُذوها، فيَجْعَلوها

---

= قيل: ضميرُ المخاطَبِ في قَولِه تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ عائدٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٠).

وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ التِفافِ السَّاقِ بالسَّاقِ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢).

وقال البقاعي: (﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: إذ وقَع هذا الأمرُ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١١٠).

وقال مكِّي: (أي: إلى ربِّك مَساقُه إذا اشتدَّ كربُه، وحَشرَجَتْ نفْسُه). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (١٢/ ٧٨٩٣).

وقيل: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ القيامةِ. وممَّن اختاره: الرَّسْعَني، والقرطبيُّ، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٣٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٠).

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦).

في ذلك الكَفَنِ، وفي ذلك الحَنُوطِ، ويَخرُجُ منها كأَطْيَبِ نَفْحةِ[١] مِسْكٍ وُجِدَت على وَجْهِ الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ المَلائِكَةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحْسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَسْتَفتِحون له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنْتَهى به إلى السَّماءِ السَّابِعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ[٢]، وأَعِيدُوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخْرِجُهم تارةً أُخرى...

وإنَّ العَبدَ الكافِرَ إذا كان في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا، وإقبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نَزَل إليه مِن السَّماءِ مَلائكةٌ سُودُ الوُجوهِ، مَعَهمُ المُسُوحُ[٣]، فيَجْلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ، ثُمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ حتَّى يَجلِسَ عِندَ رَأسِه، فيَقولُ: أَيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخْرُجي إلى سَخَطٍ مِن اللهِ وغَضَبٍ! فتَفَرَّقُ في جسَدِه، فيَنتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ[٤] مِنَ الصُّوفِ المَبْلولِ، فيَأْخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَجْعَلوها في تِلك المُسوحِ، ويَخْرُجُ منها كأَنْتَنِ رِيحِ جِيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ. فيَصْعَدونَ بها، فَلا يَمُرُّون بها على مَلأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الخبيثُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فلانٍ؛ بأقبَحِ أسمائِه الَّتي كان يُسمَّى بها في الدُّنيا، حتَّى يُنتَهى به إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيُستَفتَحُ له، فلا يُفتَحُ له، ثمَّ قرَأ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عَلَيه وسلَّم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]. فيَقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكْتُبوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ

---

(١) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٢) عِلِّيِّينَ: هو دِيوانُ المُقَرَّبينَ. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٦).

(٣) المُسوحُ: جمعُ الْمِسحِ: وهو اللِّباسُ الخَشِنُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٩).

(٤) السَّفُّودُ: الحديدةُ الَّتي يُشوى بها اللَّحمُ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٤٨٩).

السُّفْلى، فتُطْرَحُ رُوحُه طَرحًا. ثمَّ قرَأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]...))[١].

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾.

أي: فلم يُصَدِّقْ بما وجب عليه التَّصديقُ به، ولا صلَّى ما أُمِرَ بأدائِه مِنَ الصَّلَواتِ[٢].

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نفى عنه أفعالَ الخَيرِ؛ أثبَتَ له أفعالَ الشَّرِّ، فقال[٣]:

---

(١) أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمدُ (١٨٥٣٤)، والطيالسيُّ (٧٨٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقارِبةٍ.
صحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقيُّ في ((شعب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابنُ مَنْدَه في ((الإيمان)) (٣٩٨): (إسنادُه مُتَّصِلٌ مَشهورٌ ثابتٌ على رَسمِ الجَماعةِ). وصَحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦١).
قال الزمخشري: (فلا صَدَّق بالرَّسولِ والقُرآنِ، ولا صَلَّى. ويجوزُ أن يرادَ: فلا صَدَّق مالَه، بمعنى: فلا زكَّاه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٤).
وقال البِقاعي: (﴿فَلَاصَدَّقَ﴾ أي: هذا الإنسانُ الَّذي الكلامُ فيه: الرَّسولَ فيما أخبَرَه بما كان يعمَلُ مِن الأعمالِ الخبيثةِ، ولا إيمانَه بالإنفاقِ في وُجوهِ الخَيرِ الَّتي نُدِبَ إليها واجِبةً كانت أو مَسنونةً، وحُذِفَ المفعولُ؛ لأنَّه أبلَغُ في التَّعميمِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١١١).
وقال الخطابي: (قد يُوضَعُ «لا» بمعنى «لم»، كقولِه تعالى: ﴿فَلَاصَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، أي: لم يُصَدِّقْ ولم يُصَلِّ). ((معالم السنن)) (٢/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١١).

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: ولكِنْ كذَّبَ بالحَقِّ فلم يُؤمِنْ به، وأعرَضَ عنه فلم يَعمَلْ به[١].

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ثمَّ مَضَى إلى أهلِه مُتبَختِرًا مُعْجَبًا بنَفْسِه، غيرَ مُبالٍ بكُفْرِه ومَعاصيه[٢].

﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: قال اللهُ تعالى مُتوَعِّدًا ومُهَدِّدًا هذا الكافِرَ: وَلِيَك الهَلاكُ، وقَرُبَ منك المكروهُ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٢).

قال ابنُ عطية: (قال جمهورُ المتأوِّلينَ: هذه الآيةُ كُلُّها إنَّما نزلت في أبي جَهلِ بنِ هِشامٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٦).

وقال ابن عاشور: (المرادُ: كُلُّ إنسانٍ كافرٍ، كما يَقتضيه أوَّلُ الكلامِ مِن قَولِه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ إلى قَولِه: ﴿بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ﴾ [القيامة: ٣ - ١٤]، وما أبو جَهلٍ إلَّا مِن أوَّلِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٣).

قال ابنُ عطيَّة: (المعنى: أَولى لك الازدِجارُ والانتهاءُ، وهو مأخوذٌ مِن «وَلِيَ»، والعرَبُ تَستَعمِلُ هذه الكَلِمةَ زَجرًا، ومنه قَولُه تعالى: ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ * طَاعَةٞ﴾ [محمد: ٢٠، ٢١]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٧).

وقال الرَّاغبُ الأصفهانيُّ: (قولُه تعالى: ﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ﴾ كَلِمةُ تهديدٍ وتخويفٍ يُخاطَبُ بها مَن أشرَفَ على هلاكٍ، فيُحَثُّ بها على التَّحَرُّزِ، أو يُخاطَبُ بها مَن نجا ذليلًا منه، فيُنهى عن مِثْلِه ثانيًا، وأكثَرُ ما يُستَعمَلُ مُكَرَّرًا، وكأنَّه حَثٌّ على تأمُّلِ ما يَؤُولُ إليه أمرُه؛ ليتنَبَّهَ للتَّحَرُّزِ منه). =

﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ٣٥﴾.

أي: ثمَّ وَلِيَكَ الهلاكُ، وقَرُبَ منك المكروهُ[١]!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: يتبختَرُ، وفيه ذمُّ هذه المِشْيةِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ تضَمَّنَت هذه الآيةُ وَصْفَ الرُّوحِ بأنَّها جِسمٌ يَنتَقِلُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ؛ فتُجْمَعُ مِن تَفاريقِ البَدَنِ حتَّى تَبلُغَ التَّراقيَ[٣]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ لعَلَّه إنَّما سُمِّيَ اليقينُ هاهنا بالظَّنِّ؛ لأنَّ الإنسانَ ما دام يبقى رُوحُه مُتعَلِّقًا ببَدَنِه فإنَّه يَطمَعُ في الحياةِ؛ لشِدَّةِ حُبِّه لهذه الحياةِ العاجلةِ، على ما قال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، ولا ينقَطِعُ رَجاؤُه عنها، فلا يَحصُلُ له يقينُ الموتِ، بل الظَّنُّ الغالِبُ مع رجاءِ الحياةِ.

---

= ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ١٠٠).

وقال ابنُ كثير: (هذا تهديدٌ ووعيدٌ أكيدٌ منه تعالى للكافِرِ به المتبختِرِ في مِشْيَتِه، أي: يحِقُّ لك أن تَمشِيَ هكذا وقد كفَرْتَ بخالِقِك وبارئِك! كما يُقالُ في مِثْلِ هذا على سبيلِ التَّهَكُّمِ والتَّهديدِ، كقَولِه: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٤)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

قال البِقاعي: (﴿فَأَوْلَىٰ﴾ أي: ابتلاكَ اللهُ بداهيةٍ عَقِبَ داهيةٍ، وأبلَغ ذلك التَّأكيدَ إشارةً إلى أنَّه يَستَحِقُّه على مَدى الأعصارِ، فقال مُشيرًا بأداةِ التَّراخي إلى عَظيم ما ارتكب وقُوَّةِ استِحقاقِه لهذا التأكيدِ: ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ﴾ أي: أيُّها الَّذي قد أحَلَّ نَفْسَه بالغَفلةِ دونَ مَحَلِّ البَهائِمِ ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ أي: وصَلْتَ إلى هذا الهلاكِ بداهيةٍ تَعقُبُها تارةً متواليًا، وتارةً مُتراخِيًا، وبَعضُها أعظَمُ مِن بعضٍ، لَحِقَكَ ذلك لا محالةَ؛ فإنَّ هذا دعاءٌ مِمَّن بيَدِه الأمرُ كُلُّه!). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٥٣).

وفيه وَجهٌ آخَرُ: لعَلَّه سَمَّاه بالظَّنِّ على سَبيلِ التَّهَكُّمِ[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ يدُلُّ على أنَّ الرُّوحَ قائِمةٌ بنَفْسِها باقيةٌ بعدَ موتِ البَدَنِ؛ لأنَّه تعالى سَمَّى الموتَ فِراقًا، والفِراقُ إنَّما يكونُ لو كانت الرُّوحُ باقيةً؛ فإنَّ الفِراقَ والوِصالَ صِفةٌ، والصِّفةُ تَستدعي وُجودَ الموصوفِ[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ الكافِرَ يَستَحِقُّ الذَّمَّ والعِقابَ بتَرْكِ الصَّلاةِ، كما يَستَحِقُّهما بتَرْكِ الإيمانِ[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ يُؤَيِّدُ أنَّ تَرْكَ الصَّلاةِ كُفْرٌ؛ إذْ قَرَنَه جلَّ جلالُه مع تكذيبِ الرُّسُلِ وتَرْكِ تصديقِهم[٤].

٦- استُدِلَّ بقولِه سبحانَه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ...﴾ إلخ على أنَّ الكفَّارَ مُخاطَبونَ بالفروعِ[٥].

٧- قال الله تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾، وكلُّ مَن لم يُصَدِّقْ لم يُصَلِّ؛ ففيه أنَّه قد يُنْفَى الشَّيءُ الَّذي نَفْيُه يَستَلزِمُ نفْيَ غيرِه، لكنْ تُذْكَرُ تلك اللَّوازمُ على سبيلِ التَّصريحِ؛ للفَرقِ بيْن دَلالةِ اللَّوازمِ ودَلالةِ المُطابَقةِ، كما في قَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٧٣٦).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٥).

مذهبُ الحنابلةِ أنَّ تاركَ الصَّلاةِ بالكلِّيَّةِ يكفُرُ، وهو اختيارُ ابنِ تيميَّةَ، وابنِ القيِّمِ، وابنِ عُثيمينَ. يُنظر: ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١/ ٢٨٥)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (١/ ٢٢٩)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيميَّة (٢/ ٢٤)، ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٦٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٢/ ٥١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٥).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٩٧).

﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ ﴾ [البقرة: ٤٢]، وأنَّ كلَّ مَن لَبَّسَ بالباطلِ فلا بُدَّ أنْ يَكْتُمَ بعضَ الحقِّ، وهذا ليس مِن بابِ النَّهي عنِ المجموعِ المقتَضي لجوازِ أحَدِهما، ولا مِن بابِ النَّهي عن فِعلَينِ مُتباينَينِ حتَّى لا يُعادَ فيه حرفُ النَّفي، بل هو مِن بابِ النَّهي عنِ المُتلازِماتِ، كما يُقالُ: لا تَكفُرْ وتُكَذِّبْ بالرَّسولِ، ولا تُجادِلْ في اللهِ بغيرِ عِلْمٍ ولا هُدًى ولا كتابٍ مُنيرٍ[١]!

## بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ * وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ * أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ * ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ ردْعٌ ثانٍ على قَولِ الإنسانِ: ﴿أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦]، وهو مُؤكِّدٌ للرَّدعِ الَّذي قبْلَه في قولِه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، ومعْناهُ زجْرٌ عن إحالةِ البَعثِ؛ فإنَّه واقعٌ غيرُ بَعيدٍ؛ فكلُّ أحَدٍ يُشاهِدُه حينَ الاحتِضارِ للموتِ، كما يُؤذِنُ به قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠]، وأُتبِعَ تَوصيفُ أشراطِ القِيامةِ المباشِرةِ لحُلولِه بتَوصيفِ أشْراطِ حُلولِ التَّهيُّؤِ الأوَّلِ لِلقائِه مِن مُفارَقةِ الحياةِ الأُولى[٢]. أو هو ردْعٌ عن إيثارِ الدُّنيا على الآخِرةِ، كأنَّه قِيل: ارتَدِعوا وتَنبَّهوا على ما بيْنَ أيْدِيكم مِن الموتِ الَّذي عندَه تَنقطِعُ العاجِلةُ، وتَنتَقِلون إلى الآجِلةِ، فيكونُ ردْعًا على مَحبَّةِ العاجِلةِ، وترْكِ العِنايةِ بالآخِرةِ، فليس مُؤكِّدًا للرَّدعِ الَّذي في قولِه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]، بل هو ردْعٌ على ما تَضمَّنَه ذلك الرَّدعُ مِن إيثارِ العاجلةِ على الآخِرةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي =

- وجَوابُ (إذا) مَحذوفٌ، تَقديرُه: وجَدَ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ[١].

- وضَميرُ ﴿بَلَغَتِ﴾ راجعٌ إلى غيرِ مَذكورٍ في الكلامِ، ولكنَّه مَعلومٌ مِن فِعلِ (بَلَغَت)، ومِن ذِكرِ التَّراقي؛ فإنَّ فِعلَ ﴿بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ يدُلُّ أنَّها رُوحُ الإنسانِ، والتَّقديرُ: إذا بَلَغَت الرُّوحُ أو النَّفْسُ[٢].

- والتَّراقي: جمْعُ تَرْقُوةٍ، وهي ثُغرةُ النَّحرِ، ولكلِّ إنسانٍ تَرقوتانِ عن يَمينِه وعن شِمالِه؛ فالجمْعُ هنا مُستعمَلٌ في التَّثنيةِ لقَصْدِ تَخفيفِ اللَّفظِ، وقد أُمِنَ اللَّبْسُ؛ لأنَّ في تَثنيةِ «تَرْقوةٍ» شَيئًا مِن الثِّقَلِ لا يُناسِبُ أفصَحَ كَلامٍ[٣].

- قيل: اللَّامُ في ﴿ٱلتَّرَاقِيَ﴾ -مِثلُ اللَّامِ في ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾-: عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: بَلَغَت رُوحُه تَراقِيَه[٤].

- قولُه: ﴿وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ﴾ قيل: هو استِفهامُ إبعادٍ وإنكارٍ، أي: قد بَلَغَ مَبلَغًا لا أحدَ يَرْقِيه، كما يقولُ القائلُ عندَ اليأسِ: مَن ذا الَّذي يَقدِرُ أنْ يَرقِيَ هذا المُشرِفَ على الموتِ[٥]؟!

- قولُه: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ ذلك تَمثيلًا؛ فإنَّ العرَبَ يَستعمِلون السَّاقَ مثَلًا في الشِّدَّةِ وجِدِّ الأمرِ تَمْثيلًا بساقِ السَّاعي أو النَّاهضِ

---

= حيان)) (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥١).

لعمَلٍ عَظيمٍ، يَقولون: قامتِ الحربُ على ساقٍ[١].

- قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ بَيانٌ للرَّدعِ، وتَقريبٌ لإبطالِ الاستبعادِ المحْكيِّ عن مُنكِري البَعثِ بقولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٢] [القيامة: ٦].

- وتَقديمُ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على مُتعلَّقِه -وهو ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾- للاهتِمامِ به؛ لأنَّه مَناطُ الإنكارِ منهم[٣].

- والتَّنوينُ في قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ عِوَضٌ عن جُمَلٍ أربعٍ؛ هي: بلَغَت الرُّوحُ التَّراقيَ، وقِيل مَن راقٍ، وظنَّ أنَّه الفِراقُ، والتفَّتِ السَّاقُ بالسَّاقِ[٤].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الْتفاتٌ عن طَريقِ خِطابِ الجَماعةِ في قولِه: ﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [القيامة: ٢٠]؛ لأنَّه لَمَّا كان خِطابًا لغيرِ مُعيَّنٍ حَسُنَ التَّفنُّنُ فيه[٥].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ تَعريفُ الجِنسِ الَّذي يعُمُّ النَّاسَ كلَّهم، بما فيهم الإنسانُ الكافرُ المردودُ عليه. ويجوزُ التَّعبيرُ عن اللَّامِ بأنَّها عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: مَساقُ الإنسانِ الَّذي يَسأَلُ: ﴿أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٦] [القيامة: ٦].

- وسُلِكَ في الجُمَلِ الَّتي بعْدَ ﴿إِذَا﴾ مَسلَكُ الإطنابِ؛ لتَهويلِ حالةِ الاحتِضارِ على الكافِرِ، وفي ذلك إيماءٌ إلى أنَّ الكافرَ يَتراءَى له مَصيرُه في حالةِ احتِضارِه[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٣، ٦٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٥٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ قيل: عُطِفَ على قولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، تَعجُّبًا مِن حالِ الإنسانِ، يعْني: سأَلَ أيَّانَ يومُ القِيامةِ، ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: يَسأَلُ وما استَعدَّ له إلَّا ما يُوجِبُ دَمارَه وهَلاكَه. وأمَّا قولُه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ فجَوابٌ عن السُّؤالِ، وقولُه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ يَخْلصُ إلى ما استُطْرِدَ مِن أحوالِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، أُقحِمَ الجوابُ بيْن المعطوفِ والمعطوفِ عليه؛ لشِدَّةِ الاهتمامِ[1].

وقيل: قولُه: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٦]، فالضَّميرُ عائدٌ إلى الإنسانِ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، أي: لجَهْلِه البَعثَ لم يَستعِدَّ له. ويَجوزُ أنْ يكونَ الفاءُ تَفريعًا وعطْفًا على قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ [القيامة: ٣٠]، أي: فقدْ فارَقَ الحياةَ وسِيقَ إلى لِقاءِ اللهِ خاليًا مِن العُدَّةِ لذلك اللِّقاءِ. وفي الكَلامِ على كِلا الوَجهينِ حَذْفٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، تَقديرُه: فقدْ عَلِمَ أنَّه قد خسِرَ وتَندَّمَ على ما أضاعَهُ مِن الاستِعدادِ لذلك اليومِ[2].

- وعُطِفَ ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ على نفْسِ التَّصديقِ؛ تَشويهًا له بأنَّ حالَه مُباينٌ لأحوالِ أهْلِ الإسلامِ[3].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿كَذَّبَ﴾ لِيَشملَ كلَّ ما كذَّبَ به المشرِكون، والتَّقديرُ: كذَّبَ الرَّسولَ والقرآنَ وبالبعثِ، وتولَّى عن الاستجابةِ لشَرائعِ الإسلامِ[4].

- وأفادتْ جُملةُ ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ مَعنيَينِ؛ أحدُهما: تَوكيدُ قولِه: ﴿فَلَا

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٠، ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٦١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

صَدَّقَ ﴾ بقولِه: ﴿كَذَّبَ﴾. وثانيهما: زِيادةُ بَيانِ معْنى ﴿فَلَاصَدَّقَ﴾ بأنَّه تولَّى عمْدًا؛ لأنَّ عدَمَ التَّصديقِ له أحوالٌ[١].

- و(ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ حرْفُ عطْفٍ للتَّرتيبِ مع التَّراخي، والسِّرُّ الاستِبعادُ؛ لأنَّ مَن صدَرَ عنه مِثلُ ذلك يَنْبغي أنْ يَخافَ مِن حُلولِ غضَبِ اللهِ، ولكنَّ هذا يَمْشي مُتبختِرًا مُتعجْرِفًا، يُطاوِلُ أعنانَ السَّماءِ، وهو أهوَنُ قدْرًا، وأخسُّ مكانًا[٢]!

- قولُه: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ كَلمةُ توعُّدٍ تَجْري مَجرى المثَلِ في لُزومِ هذا اللَّفظِ[٣].

- والكافُ في قولِه: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ خِطابٌ للإنسانِ المصرَّحِ به غيرَ مرَّةٍ في الآياتِ السَّابقةِ بطَريقِ الغَيبةِ إظهارًا وإضمارًا، وعُدِلَ هنا عن الغَيبةِ إلى الخِطابِ على طَريقةِ الالْتفاتِ؛ لمُواجَهةِ الإنسانِ بالدُّعاءِ؛ لأنَّ المُواجَهةَ أوقَعُ في التَّوبيخِ، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: أَولى له[٤].

- وجِيءَ بفاءِ التَّعقيبِ في قولِه: ﴿فَأَوْلَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه يُدْعى عليه بأنْ يَعقُبَه المكروهُ، ويعقبَ بدُعاءٍ آخَرَ[٥].

- وكرَّر ﴿أَوْلَىٰ﴾ بقولِه: ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ مُبالَغةً في التَّهديدِ والوعيدِ، فهو تَهديدٌ بعْدَ تَهديدٍ، ووَعيدٌ بعْدَ وَعيدٍ، أي: فهو وعيدُ أربعةٍ لأربعةٍ... فتَرْكُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٢).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٨٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

التَّصديقِ: خَصْلةٌ، والتَّكذيبُ: خَصلةٌ، وتَرْكُ الصَّلاةِ: خَصْلةٌ، والتَّوَلِّي عن اللهِ تعالى: خَصلةٌ؛ فجاء الوعيدُ أربعةً مُقابَلةً لتَركِ الخِصالِ الأربَعةِ(١).

وأيضًا التَّكريرُ تَأكيدٌ للدُّعاءِ عليه ﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾، ولتَأكيدِه السَّابقِ ﴿فَأَوْلَىٰٓ﴾(٢).

وقيل: بلْ كرَّرَها أربعَ مرَّاتٍ؛ فإنَّ قولَه ﴿أَوْلَىٰ﴾ تامٌّ في الذَّمِّ، وإنَّما كرَّرَها؛ لأنَّ المعْنى: أَولى لك الموتُ، فأَولى لك العذابُ في القبْرِ، ثمَّ أَولى لك أهوالُ القيامةِ، وأَولى لك عَذابُ النَّارِ(٣)، أو هو وعيدٌ ودُعاءٌ، يعني: قَرُبَ منك ما يُهْلِكُ قُرْبًا بعدَ قُرْبٍ، كما تقولُ: غَفَرَ اللهُ لك ثُمَّ غَفَرَ اللهُ لك، أي: غَفَرَ لك مَغفِرةً بعدَ مغفرةٍ، فليس هذا بتَكرارٍ مَحْضٍ، ولا مِن بابِ التَّأكيدِ اللَّفظيِّ، بل هو تَعَدُّدُ الطَّلبِ لتعدُّدِ المطلوبِ، ونظيرُه: اضرِبْه ثُمَّ اضرِبْه(٤).

- وجِيءَ بحرْفِ (ثُمَّ) لعطْفِ الجُملةِ دَلالةً على أنَّ هذا التَّأكيدَ ارتقاءٌ في الوعيدِ، وتَهديدٌ بأشدَّ ممَّا أفادَه التَّهديدُ الأوَّلُ وتَأكيدُه، والمرادُ: تَهديدُ كلِّ إنسانٍ كافرٍ، كما يَقتضيهِ أوَّلُ الكلامِ مِن قولِه ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣] إلى قولِه: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾(٥) [القيامة: ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣١٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٣، ٢٤٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٩٥، ٤٩٦)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٢٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٠).

(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

## الآيات (٣٦-٤٠)

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سُدًى﴾: أي: هَمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنْهَى، وأصلُ (سدو): يدُلُّ على إهمالٍ وذَهابٍ على وَجهٍ[1].

﴿نُطْفَةً﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[2].

﴿عَلَقَةً﴾: العَلَقةُ: الدَّمُ الجامِدُ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ[3].

﴿فَسَوَّىٰ﴾: عدَّل، وأتقَن، والتَّسويةُ: جعلُ الشَّيءِ سواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، وأصْلُ (سوي): يَدُلُّ على استقامةٍ واعْتِدالٍ بينَ شيئَيْنِ[4].

### المعنى الإجماليُّ:

يُشيرُ الله تعالى إلى الحكمةِ مِن البَعثِ والجزاءِ، ويُبيِّنُ جانبًا مِن مَظاهِرِ قُدرتِه،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

فيقولُ: أيَظُنُّ الإنسانُ أن يَترُكَه اللهُ في الدُّنيا مُهمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى، ولا يُبعَثُ بعدَ موتِه للثَّوابِ أو العِقابِ؟! ألم يكُنْ هذا الإنسانُ في أوَّلِ أمْرِه ماءً قَليلًا مَهينًا مِن مَنيٍّ يُراقُ؟! ثمَّ صار قِطْعةَ دَمٍ جامِدةً، فخَلَقَه اللهُ وسَوَّاه، فجَعَل منه الصِّنفَينِ: الذُّكورَ والإناثَ، أليس الَّذي فَعَل ذلك كُلَّه بقادِرٍ على إحياءِ الموتى، وإعادتِهم كما كانوا؟! سُبحانَك اللَّهُمَّ فبَلَى!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ حالَ الإنسانِ في الموتِ وما كان مِن حالِه في الدُّنيا؛ قرَّرَ له أحوالَه في بِدايتِه ليَتأمَّلَها، فلا يُنكِرَ معها جَوازَ البَعثِ مِن القبورِ[1].

وأيضًا فإنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَر في أوَّلِ السُّورةِ قَولَه: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، أعاد في آخِرِ السُّورةِ ذلك، وذكَرَ في صِحَّةِ البَعثِ والقيامةِ دَليلَينِ؛ الأوَّلُ[2]:

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦﴾.

أي: أيظُنُّ الإنسانُ أن يَترُكَه اللهُ في الدُّنيا مُهمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى، ولا يُبعَثُ بعدَ موتِه للثَّوابِ أو العِقابِ[3]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٩)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٥، ٣٦٦). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها الدَّليلُ الثَّاني على صِحَّةِ القَولِ بالحَشْرِ: الاستِدلالُ بالخِلْقةِ الأُولى على الإعادةِ[1].

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: ألم يكُنْ في أوَّلِ أمْرِه ماءً قَليلًا مِن مَنيٍّ يُراقُ[2]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨، ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾

---

= قال الشَّافعيُّ: (لم يختَلِفْ أهلُ العِلمِ بالقُرآنِ -فيما عَلِمْتُ- أنَّ السُّدَى: الَّذي لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى). ((الأم)) (٧/ ٣١٣). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ١٧٤).

قال ابن كثير: (قولُه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ قال السُّدِّيُّ: يعني: لا يُبعَثُ. وقال مجاهدٌ، والشَّافعيُّ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ: يعني: لا يُؤْمَرُ ولا يُنهَى. والظَّاهرُ أنَّ الآيةَ تعُمُّ الحالَينِ، أي: ليس يُترَكُ في هذه الدُّنيا مُهمَلًا لا يُؤمَرُ ولا يُنهى، ولا يُترَكُ في قبرِه سُدًى لا يُبعَثُ، بل هو مأمورٌ مَنهيٌّ في الدُّنيا، مَحشورٌ إلى الله في الدَّارِ الآخرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٧).

[المرسلات: ٢٠ - ٢٢].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٥، ٦].

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨)﴾.

أي: ثمَّ صار الإنسانُ بعدَ النُّطفةِ قِطْعةَ دَمٍ جامِدةً، فخَلَقَه اللهُ وسَوَّاه، فأتقَنَه وأحكَمَه، فصار في غايةِ الاعتدالِ[1]!

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧].

﴿فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣٩)﴾.

أي: فجَعَل اللهُ منه الصِّنفَينِ: الذُّكورَ والإناثَ[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ (٤٠)﴾.

أي: أليس الَّذي فَعَل ذلك كُلَّه بقادِرٍ على إحياءِ الموتى، وإعادتِهم كما كانوا؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٧، ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٢).

قال البِقاعي: (﴿فَجَعَلَ﴾ أي: بسَبَبِ النُّطفةِ ﴿مِنْهُ﴾ أي: هذا الماءِ الدَّافِقِ، أو المخلوقِ المسَوَّى، وهما شيءٌ واحِدٌ ﴿الزَّوْجَيْنِ﴾ أي: القرينَينِ اللَّذَينِ لا يمكِنُ الانتفاعُ بأحَدِهما إلَّا بالآخَرِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١١٧).

سُبحانَك اللَّهُمَّ فبلَى[١]!

كما قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٧٨ - ٨٢].

وعن بُسرِ بنِ جِحاشٍ القُرَشيِّ رَضِيَ الله عنه، ((أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بزَقَ يومًا في كَفِّه، فوضع عليها أُصبُعَه، ثمَّ قال: قال الله: ابنَ آدمَ، أنَّى تُعجِزُني، وقد خلقتُك مِن مِثلِ هذه؟! حتى إذا سَوَّيتُك وعَدَّلتُك، مَشَيتَ بينَ بُردَينِ[٢] وللأرضِ مِنك وَئيدٌ[٣]، فجَمَعْتَ ومَنَعْتَ، حتى إذا بلَغَتِ التَّراقيَ، قلتَ: أتصَدَّقُ! وأنَّى أوانُ الصَّدَقةِ؟!))[٤].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما: (أنَّه كان إذا قرأ: ﴿ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٤٠] قال: سُبحانَك اللَّهُمَّ بلَى، وإذا قرأ: ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٢) البُرْدُ: نوعٌ من الثيابِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ١١٦).

(٣) الوئيدُ: صوتُ شِدَّةِ الوطءِ على الأرضِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٥/ ١٤٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٧٠٧)، وأحمد (١٧٨٤٤)، والطبراني في ((المعجم الكبير)) (٢/ ٣٢) (١١٩٣)، والحاكم في ((المستدرك)) (٣٨٥٥).

صحَّح إسنادَه الحاكم، والبوصيري في ((مصباح الزجاجة)) (٣/ ١٤٣)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح الجامع)) (٨١٤٤).

[الأعلى: ١] قال: سبحانَ ربِّيَ الأعلَى)[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤] وهذا كثيرٌ في القرآنِ؛ يدعو العبدَ إلى النَّظَرِ والفِكْرِ في مبدأِ خَلْقِه ووَسَطِه وآخِرِه، إذْ نَفْسُه وخَلْقُه مِن أعظمِ الدَّلائلِ على خالقِه وفاطرِه، وأقربُ شَيءٍ إلى الإنسانِ نفْسُه، وفيه مِن العجائبِ الدَّالَّةِ على عَظَمةِ اللهِ ما تنقضي الأعمارُ في الوقوفِ على بَعضِه، وهو غافلٌ عنه، مُعْرِضٌ عن التَّفَكُّرِ فيه! ولو فَكَّرَ في نفْسِه لَزَجَرَه ما يَعْلَمُ مِن عجائبِ خَلْقِها عن كُفْرِه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ * مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ * ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ * ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ * ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢]، فلَمْ يُكَرِّرْ سُبحانَه على أسماعِنا وعقولِنا ذِكْرَ هذا لِنَسمَعَ لفظَ النُّطْفةِ والعَلَقةِ والمُضغةِ والتُّرابِ، ولا لِنتكَلَّمَ بها فقط، ولا لمجرَّدِ تَعريفِنا بذلك، بل لأمرٍ وراءَ

---

(١) أخرجه عبد الرَّزَّاق (٤٠٥١) واللَّفظُ له، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٢١٠٠).

صحَّحه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٤٨)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صفة الصلاة)) (ص: ١٠٥).

ذلك كلِّه هو المقصودُ بالخِطابِ، وإليه جرى ذلك الحديثُ[١].

٢- تأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۞ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فمَن لَمْ يَتْرُكِ الإنسانَ -وهو نُطفةٌ- سُدًى، بل قَلَّبَ النُّطفةَ وصَرَّفَها حتَّى صارتْ أكمَلَ ممَّا هي، وهي العَلَقةُ، ثُمَّ قَلَّبَ العَلَقةَ حتَّى صارتْ أكملَ ممَّا هي، حتَّى خَلَقَها فسَوَّى خَلْقَها، فدَبَّرَها بتصريفِه وحِكمتِه في أطوارِ كَمالاتِها، حتَّى انتهَى كَمالُها بَشَرًا سَوِيًّا! فكيف يَترُكُه سُدًى لا يَسُوقُه إلى غايةِ كمالِه الَّذي خُلِقَ له؟! فإذا تأمَّلَ العاقلُ البصيرُ أحوالَ النُّطفةِ مِن مَبدَئِها إلى منتهاها دَلَّتْه على المَعادِ والنُّبُوَّاتِ، كما تدُلُّه على إثباتِ الصَّانعِ وتوحيدِه وصفاتِ كمالِه، فكما تدُلُّ أحوالُ النُّطفةِ مِن مَبدَئِها إلى غايتِها على كَمالِ قدرةِ فاطرِ الإنسانِ وبارئِه، فكذلك تدُلُّ على كمالِ حِكمتِه وعِلْمِه ومُلْكِه، وأنَّه المَلِكُ الحقُّ المتعالي عن أنْ يَخْلُقَها عَبَثًا، ويَترُكَها سُدًى بعدَ كَمالِ خَلْقِها[٢]!

## الفَوائدُ العِلْميَّةُ واللَّطائفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ أنَّ هذا مُنافٍ لكَمالِ حكمةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ ربوبيَّتَه وعِزَّتَه وحِكمتَه تأبى ذلك؛ ولهذا أخْرَجَ الكلامَ مُخرَجَ الإنكارِ على مَن زَعَمَ ذلك، وهو يدُلُّ على أنَّ قُبْحَ تَرْكِه سُدًى مُعَطَّلًا مُستقِرٌّ في الفِطَرِ، فكيف يُنْسَبُ الى الرَّبِّ ما قُبْحُه مُستقِرٌّ في فِطَرِكم وعُقولِكم[٣]؟!

فإنَّ الَّذي خلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ، وأبدَعَ تَركيبَه، ووَهَبَه القُوى العَقليَّةَ الَّتي لم يُعْطِها غيرَه مِن أنواعِ الحيوانِ؛ لِيَستعمِلَها في مَنافِعَ لا تَنحصِرُ، أو في

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٧).

ضِدِّ ذلك مِن مَفاسِدَ جَسيمةٍ؛ لا يَليقُ بحِكمتِه أنْ يُهمِلَه مِثلَ الحيوانِ، فيَجعَلَ الصَّالحينَ كالمُفسِدين، والطَّائعينَ لربِّهم كالمُجْرِمين، وهو العليمُ القديرُ المتمكِّنُ بحِكمتِه وقُدرتِه أنْ يَجعَلَ إليه المصيرَ، فلو أهْمَلَه لَفاز أهلُ الفَسادِ في عالَمِ الكَسادِ، ولم يُلاقِ الصَّالِحونَ مِن صَلاحِهم إلَّا الأنكادَ، ولا يُناسِبُ حِكمةَ الحكيمِ إهمالُ النَّاسِ يَهيمون في كلِّ وادٍ[1]. فتَرْكُ الإنسانِ كالبهائمِ مُهمَلًا مُعَطَّلًا مُضادٌّ للحِكمةِ؛ فإنَّه خُلِق لغايةِ كمالِه، وكمالُه أن يكونَ عارفًا برَبِّه، محِبًّا له، قائمًا بعُبوديَّتِه[2].

٢- قولُه تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ تضمَّن الدَّلالةَ على وُقوعِ الحشرِ؛ مِن حيث إنَّ الحِكمةَ تَقْتضي الأمرَ بالمحاسِنِ، والنَّهيَ عن القَبائحِ، والتَّكليفُ لا يَتحقَّقُ إلَّا بالمُجازاةِ، وهي قدْ لا تكونُ في الدُّنيا، فتَكونُ في الآخِرةِ[3].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ إلى قَولِه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أنَّ الَّذي خَلَقَ الإنسانَ على هذه الصِّفةِ أَولى بأنْ يكونَ قادِرًا على إحيائِه، وذلك معلومٌ بالفِطرةِ الضَّروريَّةِ العَقْليَّةِ[4].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في ﴿يُمْنَىٰ﴾؟

**الجوابُ**: فيه إشارةٌ إلى حَقارةِ حالِه، كأنَّه قيل: إنَّه مخلوقٌ مِن المنِيِّ الَّذي جرى على مَخرَجِ النَّجاسةِ؛ فلا يليقُ بمِثلِ هذا الشَّيءِ أن يتمَرَّدَ عن طاعةِ اللهِ تعالى، إلَّا أنَّه عَبَّرَ عن هذا المعنى على سبيلِ الرَّمزِ، كما في قَولِه تعالى في عيسى ومَريمَ عليهما السَّلامُ: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٥/ ٤٢٩).

والمرادُ منه قضاءُ الحاجةِ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الخُنْثَى أحَدُهما، لا صِنفٌ ثالِثٌ[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أنَّه سُبحانَه خَلَقَ الزَّوجَينِ مِن شَيءٍ واحدٍ، وهذا يدُلُّ على كَمالِ قُدرتِه جلَّ وعلا؛ إذْ إنَّه خَلَقَ صِنفَينِ مُختَلِفَينِ في كلِّ الأحوالِ: في القوَّةِ البدنيَّةِ، والعَقليَّةِ، والفِكريَّةِ، والتَّنظيميَّةِ، يختلِفُ الذَّكَرُ عن الأنثى، وبذلك نَعرِفُ ضلالَ أولئك القَومِ الَّذين يُريدون أنْ يُلْحِقوا المرأةَ بالرَّجُلِ في أعمالٍ تختصُّ بالرَّجُلِ؛ فإنَّهم سُفَهاءُ العُقولِ، ضُلَّالُ الأديانِ، فكيف يمكنُ أنْ نسَوِّيَ بيْن صِنفَينِ فَرَّقَ اللهُ بيْنَهما خِلْقةً وشَرعًا؟! فهناك أحكامٌ يُطالَبُ بها الرَّجُلُ، ولا تُطالَبُ بها المرأةُ، وأحكامٌ تُطالَبُ بها المرأةُ، ولا يُطالَبُ بها الرَّجُلُ، وأمَّا قَدَرًا وخِلْقةً فالأمرُ واضحٌ؛ لكنَّ هؤلاء الَّذين لم يُوَفَّقوا -وسَلَبَ اللهُ عقولَهم، وأَضْعَفَ أديانَهم- يُحاوِلونَ الآنَ أنْ يُلْحِقوا النِّساءَ بالرِّجالِ، وهذه لا شكَّ أنَّها فكرةٌ خاطئةٌ مُخالِفةٌ للفِطرةِ، ومخالِفةٌ للطَّبيعةِ، كما أنَّها مخالِفةٌ للشَّريعةِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

قولُه تعالَى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ، عاد به الكلامُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٧).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٤٩).

الاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ، وهو ما ابتُدِئَ به، فارتبَطَ بقولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، فكأنَّه قِيل: أيحسَبُ أنْ لن نَجمَعَ عِظامَه؟! ويَحسَبُ أنْ نَترُكَه في حالةِ العدَمِ؟! وزِيدَ هنا أنَّ مُقْتضى الحكمةِ الإلهيَّةِ إيقاعُه بقولِه: ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾(١).

- والاستفهامُ إنكاريٌّ(٢).

- وعُدِلَ عن بِناءِ فِعلِ ﴿يُتْرَكَ﴾ للفاعلِ، فبُنِيَ للنَّائبِ إيجازًا؛ مِن أجْلِ العِلمِ بالفاعلِ مِن قولِه السَّابقِ: ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، فكأنَّه قال: أيحسَبُ الإنسانُ أنْ نَترُكَه دونَ بَعثٍ، وأنْ نُهمِلَ أعْمالَه سُدًى؟! فجاء ذِكرُ ﴿سُدًى﴾ هنا على طَريقةِ الإدماجِ(٣) فيما سِيقَ له الكلامُ، إيماءً إلى أنَّ مُقْتضى حِكمةِ خلْقِ الإنسانِ ألَّا يَترُكَه خالقُه بعْدَ الموتِ، فلا يُحْيِيَه ليُجازِيَه على ما عَمِلَه في حَياتِه الأُولى(٤).

- وفي إعادةِ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تَهيئةٌ لِما سيُعقَبُ مِن دَليلِ إمكانِ البعثِ مِن جانبِ المادَّةِ بقولِه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ، فقولُه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ تَكريرٌ وتَعدادٌ للإنكارِ على الكافِرين تَكذيبَهُم بالبعثِ؛ ألَا تَرى أنَّه وقَعَ بعْدَ وصْفِ يومِ القيامةِ وما فيه مِن الحِسابِ على ما قدَّمَ الإنسانُ وأخَّرَ(٥)؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٦).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وقولُه: ﴿أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ كِنايةٌ عن الجزاءِ؛ لأنَّ التَّكليفَ في الحياةِ الدُّنيا مَقصودٌ منه الجَزاءُ في الآخرةِ(١).

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ استِئنافٌ واردٌ لإبطالِ الحِسبانِ المذكورِ؛ فإنَّ مَدارَه لَمَّا كان استِبعادَهم للإعادةِ استُدِلَّ على تَحقُّقِها ببَدْءِ الخلْقِ. واستئنافٌ هو عِلَّةٌ وبَيانٌ للإنكارِ المَسوقِ للاستدلالِ بقولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ الَّذي جُعِلَ تَكريرًا وتَأييدًا لمَضمونِ قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣]، أي: أنَّ خلْقَ الإنسانِ مِن مادَّةٍ ضَعيفةٍ، وتَدرُّجَه في أطوارِ كِيانِه: دَليلٌ على إثباتِ القُدرةِ على إنشائِه إنشاءً ثانيًا بعْدَ تَفرُّقِ أجزائِه واضْمحلالِها، فيَتَّصِلُ معْنى الكلامِ هكذا: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ ويَعُدُّ ذلك مُتعذِّرًا؟! ألَمْ نَبدَأْ خَلْقَه؛ إذ كَوَّنَّاهُ نُطفةً، ثمَّ تَطوَّرَ خَلْقُه أطوارًا، فماذا يُعجِزُنا أنْ نُعيدَ خلْقَه ثانيًا كذلك(٢)؟!

- وهذه الجُمَلُ ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ تَمهيدٌ لقولِه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، وهذا البَيانُ خاصٌّ بأحَدِ مَعْنَيَي التَّركِ في الآيةِ، وهو تَرْكُه دونَ إحياءٍ، واكْتُفِيَ ببَيانِ هذا عن بَيانِ المعنى الآخَرِ الَّذي قيَّدَه قولُه: ﴿سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، أي: تَرْكُه بدونِ جزاءٍ على أعمالِه؛ لأنَّ فائدةَ الإحياءِ أنْ يُجازى على عمَلِه، والمعنى: أيحسَبُ أنْ يُترَكَ فانيًا ولا تُجدَّدَ حَياتُه(٣)؟!

- ووقَعَ وصْفُ ﴿سُدًى﴾ في خِلالِ ذلك مَوقعَ الاستِدلالِ على لُزومِ بَعثِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٦، ٣٦٧).

النَّاسِ مِن جانبِ الحِكمةِ، وانتُقِلَ بعْدَه إلى بَيانِ إمكانِ البَعثِ مِن جانبِ المادَّةِ؛ فكان وُقوعُه إدماجًا[١].

- قولُه: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ الهمزةُ للاستِفهامِ التَّقريريِّ الإنكاريِّ[٢].

- وعُطِفَ فِعلُ ﴿كَانَ عَلَقَةً﴾ بحرْفِ (ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على التَّراخي الرُّتبيِّ؛ فإنَّ كَوْنَه عَلَقةً أعجَبُ مِن كَونِه نُطفةً؛ لأنَّه صار عَلَقةً بعْدَ أنْ كان ماءً، فاختَلَطَ بما تُفرِزُه رَحِمُ الأُنثى مِن البُويضاتِ، فكان مِن مَجموعِهما عَلَقةً، ولَمَّا كان تَكوينُه عَلَقةً هو مَبدَأَ خلْقِ الجسْمِ، عُطِفَ عليه قولُه: ﴿فَخَلَقَ﴾ بالفاءِ؛ لأنَّ العلَقةَ يَعقُبُها أنْ تَصيرَ مُضغةً إلى أنْ يَتِمَّ خلْقُ الجسَدِ وتُنفَخَ فيه الرُّوحُ[٣].

- ومَفعولُ (خلَقَ) ومَفعولُ (سَوَّى) مَحذوفانِ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليهما، أي: فخلَقَه فسوَّاه[٤].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿يُمْنَىٰ﴾ إلى المَجهولِ؛ لأنَّ النُّطفةَ تَدفَعُها قوَّةٌ طَبيعيَّةٌ في الجِسمِ خَفيَّةٌ، فكان فاعلُ الإمناءِ مَجهولًا؛ لعدَمِ ظُهورِه[٥]. أو لأنَّه وقتَ صَبِّها في الرَّحمِ تَنصَبُّ منه بغيرِ اختيارِه، حتَّى كأنَّه لا فِعلَ له فيها أصلًا[٦].

- قولُه: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِۦَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تَوقيفٌ وتَوبيخٌ لمنكِرِ البَعثِ[٧].

- والاستِفهامُ إنكارٌ للمَنفيِّ إنكارَ تَقريرٍ بالإثباتِ. وهذا غالِبُ استِعمالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٧، ٣٦٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٧/ ١٤٦) و (٢٩/ ٣٦٨).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١١٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٤).

الاستفهامِ التَّقريريِّ؛ أنْ يقَعَ على نفْيِ ما يُرادُ إثباتُه؛ لِيَكونَ ذلك كالتَّوسعةِ على المقرَّرِ إنْ أراد إنكارًا؛ كِنايةً عن ثِقةِ المتكلِّمِ بأنَّ المخاطَبَ لا يَستطيعُ الإنكارَ[١].

- وهذه الجُملةُ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ واقعةٌ مَوقعَ النَّتيجةِ مِن الدَّليلِ؛ لأنَّ خلْقَ جِسمِ الإنسانِ مِن عدَمٍ -وهو أمرٌ ثابتٌ بضَرورةِ المُشاهَدةِ- أحقُّ بالاستبعادِ مِن إعادةِ الحَياةِ إلى الجِسمِ بعْدَ الموتِ، سواءٌ بقِيَ الجِسمُ غيرَ ناقصٍ، أو نقَصَ بَعضُه أو مُعظَمُه، فهو إلى بَثِّ الحياةِ فيه، وإعادةِ ما فَنِيَ مِن أجزائِه أقرَبُ مِن إيجادِ الجِسمِ مِن عدَمٍ[٢].

- وتَعميمُ الموتى بعْدَ جَرَيانِ أُسلوبِ الكلامِ على خُصوصِ الإنسانِ الكافرِ أو خُصوصِ كافرٍ مُعيَّنٍ؛ يَجعَلُ جُملةَ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ تَذييلًا[٣].

- وقدْ جاء في هذا الخِتامِ ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ بمُحسِّنِ رَدِّ العجُزِ على الصَّدرِ[٤]؛ فإنَّ السُّورةَ افتُتِحت بإنكارِ أنْ يَحسَبَ المشركون استحالةَ البَعثِ، وتَسلسَلَ الكلامُ في ذلك بأفانينَ مِن الإثباتِ والتَّهديدِ والتَّشريطِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ: هو جَعْلُ أحدِ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ -المتَّفِقَينِ في اللَّفظِ والمعنَى، أو المُتجانِسَينِ المُتَّفِقَينِ في اللَّفظِ دون المعنى، أو المُلحقَينِ بهما، بأنْ جمَعَهما اشتِقاقٌ أو شبهُه- في أوَّلِ الكلامِ، ثمَّ إعادةُ ذلك في آخِرِ الكلامِ، كقولِه تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقولِه تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، وهو مِن جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٣٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٥٨).

والاستدلالِ، إلى أنْ أفْضى إلى استِنتاجِ أنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُحيِيَ الموتى، وهو المطلوبُ الَّذي قُدِّمَ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ * بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[1] [القيامة: ٣، ٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الإنسانِ

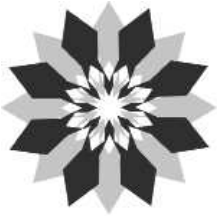

# سورةُ الإنسانِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الإنسانِ)[١].

وسُمِّيَتْ أيضًا بسورةِ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾[٢]؛ فعن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ في الجُمُعةِ في صَلاةِ الفَجرِ: ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾ السَّجدةَ، و﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾))[٣].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

**أنَّه يُستحَبُّ القِراءةُ بها في صلاةِ الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ في الرَّكعةِ الثَّانيةِ**[٤].

فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ الله عنه ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرأُ في الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ: بِـ﴿الٓمٓ * تَنزِيلُ﴾ فِي الرَّكعةِ الأُولَى، وفي الثَّانيةِ ﴿هَلۡ أَتَىٰ

---

(١) سُمِّيَت السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بذِكرِ الإنسانِ وخَلْقِه. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٣).

(٢) قال ابنُ عاشور: (وسُمِّيَت في زَمَنِ أصحابِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سورةَ: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٩).

وتُسمَّى أيضًا سورةَ (الدَّهرِ) و(الأبرارِ) و(الأمْشاجِ). يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٠٦٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٨٨٠).

(٤) والحِكمةُ في استحبابِ قراءة سورةِ (الإنسانِ) في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صلاةِ الصُّبحِ يومَ الجُمُعةِ وقِراءةِ سُورةِ (السَّجدةِ) في الرَّكعةِ الأُولى؛ لِما اشتملت عليه هاتان السُّورتانِ ممَّا كان ويكونُ مِن المبدأِ والمَعادِ، وحَشرِ الخلائقِ، وبَعْثِهم مِن القُبورِ إلى الجنَّةِ أو النَّارِ؛ ففيهما بَدْءُ خَلقِ الإنسانِ، وآدمُ خُلِق يومَ الجُمُعةِ، وفيهما ذِكرُ القيامةِ، وفي يومِ الجُمُعةِ تقومُ السَّاعةُ؛ فاستُحِبَّ قراءةُ هاتَينِ السُّورتَينِ في هذا اليومِ؛ تذكيرًا للأمَّةِ بما كان فيه ويكونُ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٤/ ٢٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٤/ ٦٣)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٠٨).

عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾))[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الإنسانِ مَكِّيَّةٌ[٢]. وقيل: مَدَنِيَّةٌ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

ذِكْرُ خَلْقِ بني آدمَ، وانقِسامِهم، ومآلِهم يومَ القيامةِ[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- تذكيرُ الإنسانِ بنِعَمِ اللهِ تعالى عليه؛ حيث خلَقَه سُبحانه مِن نُطفةٍ أَمْشاجٍ، وجعَلَه سميعًا بصيرًا، وهداه السَّبيلَ.

٢- ذِكرُ ما أعَدَّ اللهُ تعالى مِن النَّعيمِ لِمَن أطاعه واتَّقاه.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٩١)، ومسلمٌ (٨٨٠) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٩)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩).

وحكى ابنُ تيميَّةَ اتِّفاقَ النَّاسِ على كَونِها مَكِّيَّةً، نزلت قبْلَ الهِجرةِ. يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٨/ ٥٥٣).

قال ابنُ عاشور: (الأصَحُّ أنَّها مَكِّيَّةٌ؛ فإنَّ أُسلوبَها ومعانيَها جاريةٌ على سَنَنِ السُّوَرِ المكِّيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٠).

(٣) وقيل: السُّورةُ مدنيةٌ إلَّا قولَه: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]؛ فمَكِّيٌّ. وقيل: مِن قَولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٣] إلى آخِرِها مَكِّيٌّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٤/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٦٩).

٣- إنذارُ الكافِرينَ بسُوءِ العاقِبةِ.

٤- إثباتُ أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِ اللهِ تعالى.

٥- ذِكرُ المِنَّةِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإنزالِ القُرآنِ عليه، وأمْرُه بالصَّبرِ وذِكرِ اللهِ تعالى، والسُّجودِ له وتسبيحِه.

٦- بيانُ أنَّ مَشيئةَ اللهِ تعالى فوقَ كُلِّ مَشيئةٍ.

## الآيات (١-٢)

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾.

### غَرِيبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلدَّهۡرِ﴾: الدَّهْرُ اسمٌ للزَّمانِ الطَّويلِ ومُدَّةِ الحياةِ الدُّنيا، وهو في الأصلِ: اسمٌ لِمُدَّةِ العالَمِ مِن مَبدأِ وُجودِه إلى انقضائِه، ثمَّ يُعبَّرُ به عن كلِّ مُدَّةٍ كثيرةٍ، بخِلافِ الزَّمانِ؛ فإنَّه يقَعُ على المدَّةِ القليلةِ والكثيرةِ، وأصلُ (دهر): هو الغلَبةُ والقَهرُ، وسُمِّيَ الدَّهْرُ دَهْرًا؛ لأنَّه يأتي على كلِّ شيءٍ ويَغْلِبُه[1].

﴿نُّطۡفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[2].

﴿أَمۡشَاجٖ﴾: أي: أَخلاطٍ؛ مِن مَشَجْتُ الشَّيءَ: إذا خلَطْتَه؛ لأنَّ النُّطْفةَ مِن مَنِيِّ الرَّجُلِ ومَنِيِّ المرأةِ، وأصلُ (مشج): يدُلُّ على خَلْطٍ[3].

﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾: أي: نَختَبِرُه ونَمتَحِنُه، والبلاءُ يكونُ في الخَيرِ والشَّرِّ، وأصلُ (بلي) هنا: الاختِبارُ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٩)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٩٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٥). =

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ بأنَّه قد مَرَّ على الإنسانِ قبْلَ أن يُخلَقَ زَمَنٌ طَويلٌ لم يكُنْ فيه شَيئًا مَذكورًا.

ثمَّ ذكرَ اللهُ سُبحانَه أطوارَ خَلقِ الإنسانِ، فقال: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ إنسانٍ مِن ماءٍ قَليلٍ مكوَّنٍ مِن اختِلاطِ ماءِ الرَّجُلِ بماءِ المرأةِ؛ مِن أجْلِ أن نَختَبِرَه في الدُّنيا، فجَعَلْناه سَميعًا بَصيرًا.

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى أنَّه بيَّن للنَّاسِ طريقَ الحقِّ، وأنَّهم انقسَموا إلى قِسمَينِ، فقال: إنَّا هدَيْنا كُلَّ إنسانٍ، وبَيَّنَّا له طريقَ الحَقِّ الَّذي يُوصِلُه إلى رِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه؛ فإمَّا أن يَسلُكَه فيَكونَ شاكِرًا، وإمَّا أن يَترُكَه فيَكونَ كَفُورًا لنِعَمِ اللهِ عليه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾.

أي: قد مَرَّ على الإنسانِ قبْلَ أن يُخلَقَ زَمَنٌ طَويلٌ لم يكُنْ فيه شَيئًا يُذكَرُ[1]!

---

= وقال الرَّاغب: (يُقالُ: بَلِيَ الثَّوبُ بِلًى وبَلَاءً، أي: خَلَقَ، ومنه قيل لِمَن سافر: بِلْوُ سفرٍ وبِلْيُ سفَرٍ، أي: أبلاه السَّفرُ، وبَلَوْتُه: اختَبَرْتُه، كأنِّي أخلَقْتُه مِن كثرةِ اختباري له). ((المفردات)) (ص: ١٤٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٢).

حكى الرازي الاتِّفاقَ على أنَّ ﴿هَلۡ﴾ هاهنا بمعنى: قَدْ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٣٩).

ويُنظر أيضًا: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨).

ونَسَبه ابنُ عَطيَّةَ إلى أكثَرِ المتأوِّلينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨).

قيل: المرادُ بالإنسانِ المذكورِ في هذه الآيةِ: آدَمُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والمهدوي، والواحدي، والسَّمْعاني، والبَغَوي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٢٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ =

﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ۝٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مُطْلَقَ خَلْقِ الإنسانِ، وأنَّه قد كان لا شيءَ، ثمَّ أنعَم الله عليه بنعمةِ الإيجادِ؛ شَرَع يَذكُرُ كيفيَّةَ خَلْقِه، فقال[1]:

﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ﴾.

أي: إنَّا خَلَقْنا كُلَّ إنسانٍ مِن ماءٍ قَليلٍ مكوَّنٍ مِن اختِلاطِ ماءِ الرَّجُلِ بماءِ المرأةِ؛ مِن أجْلِ أن نختَبِرَه في الدُّنيا[2].

---

= ٥٢٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٦٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٩٣)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٣١).

ونسَبَ السَّمْعانيُّ هذا القولَ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ، ونسَبَه ابنُ الجَوزيِّ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٤).

وقيل: الإنسانُ هنا اسمُ جِنسٍ، يَعُمُّ كُلَّ إنسانٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٢).

قال أبو حيَّان: (الإنسانُ هنا جِنسُ بني آدَمَ، والحِينُ الَّذي مَرَّ عليه إمَّا حِينُ عَدَمِه، وإمَّا حينُ كَونِه نُطفةً، وانتِقالِه مِن رُتبةٍ إلى رُتبةٍ حتَّى حينِ إمكانِ خِطابِه؛ فإنَّه في تلك المدَّةِ لا ذِكْرَ له، وسُمِّيَ إنسانًا باعتبارِ ما صار إليه). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣١، ٥٣٥، ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٥، ٢٨٦).

وقد حكى الماوَرْديُّ وابنُ عطيَّةَ اتِّفاقَ المفَسِّرينَ على أنَّ الإنسانَ في هذا الموضِعِ هو كُلُّ إنسانٍ مِن بني آدَمَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨).

قال ابن جزي: (قولُه: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ﴾ وهو هنا جنسٌ باتِّفاقٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٦). =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

أي: فجَعَلْنا للإنسانِ سَمْعًا يَسمَعُ به الأصواتَ، وجعَلْنا له بَصَرًا يُبصِرُ به المَرئيَّاتِ(١).

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أخبَرَ تعالى أنَّه بعدَ أن ركَّبَ الإنسانَ، وأعطاه الحواسَّ الظَّاهِرةَ والباطِنةَ؛ بيَّنَ له سَبيلَ الهُدى والضَّلالِ(٢).

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

أي: إنَّا بَيَّنَّا للإنسانِ وعرَّفْناه طريقَ الحَقِّ الَّذي يُوصِلُه إلى رِضوانِ اللهِ وجَنَّتِه؛ فإمَّا أن يَسلُكَه فيكونَ شاكِرًا لنِعَمِ اللهِ مُوَحِّدًا طائِعًا، وإمَّا أن يَترُكَه فيكونَ كَفُورًا

---

= وقال البِقاعي: (ولَمَّا كان خَلْقُه على طبائِعَ مختَلِفةٍ وأمزِجةٍ مُتفاوِتةٍ أعظَمَ لأجْرِه إنْ جاهد ما يَتنازَعُه مِن المختَلِفاتِ بأمرِ رَبِّه الَّذي لا يختَلِفُ، وكانت أفعالُه تابِعةً لأخلاقِه، وأخلاقُه تابعةً لجِبِلَّتِه؛ قال: ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاطٍ... مِن قولِك: مَشَجْتُ الشَّيءَ: إذا خلَطْتَه؛ لأنَّه مِن مَنِيِّ الرَّجُلِ ومَنِيِّ المرأةِ، وكُلٌّ منهما مختَلِفُ الأجزاءِ، مُتباينُ الأوصافِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٦).

قال الرَّازي: (أعطاه ما يَصِحُّ معه الابتلاءُ، وهو السَّمعُ والبَصَرُ، فقال: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾، والسَّمعُ والبَصَرُ كِنايَتانِ عن الفَهْمِ والتَّمييزِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤١).

وقال البِقاعي: (ليتمَكَّنَ مِن مُشاهَدةِ الدَّلائِلِ ببَصَرِه، وسَماعِ الآياتِ بسَمْعِه، ومَعرفةِ الحُجَجِ ببَصيرتِه؛ فيَصِحَّ تَكليفُه وابتِلاؤُه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤١).

لنِعَمِ اللهِ مُشرِكًا عاصيًا[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ تَعريفُ الإنسانِ بحالِه، وابتِداءِ أمْرِه؛ لِيَعلَمَ أنْ لا طريقَ له للكِبْرِ، واعتِقادِ السِّيادةِ لِنَفْسِه، وألَّا يُغْلِطَه ما اكتنَفَه مِنَ الألطافِ الرَّبانيَّةِ، والاعتناءِ الإلهيِّ، والتَّكْرِمةِ، فيَعتَقِدَ أنَّه يَستَوجِبُ ذلك ويَستَحِقُّه[٢]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ في هذا نِداءٌ على أنَّ اللهَ تعالى أرشَدَ الإنسانَ إلى الحَقِّ، وأنَّ بعضَ النَّاسِ أدخَلوا على أنفُسِهم ضلالَ الاعتِقادِ، ومَفاسِدَ الأعمالِ، فمَن بَرَّأَ نَفْسَه مِن ذلك فهو الشَّاكِرُ، وغَيرُه الكَفورُ[٣].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- سورةُ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ سورةٌ عجيبةُ الشَّأنِ مِن سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، على اختِصارِها؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه ابتدأَها بذِكْرِ كيفيَّةِ خَلْقِ الإنسانِ مِن النُّطْفةِ ذاتِ الأمشاجِ والأخلاطِ الَّتي لَمْ يَزَلْ بقُدرتِه ولُطْفِه وحِكمتِه يُصَرِّفُه عليها أطوارًا، ويَنْقُلُه مِن حالٍ إلى حالٍ إلى أنْ تَمَّتْ خِلْقَتُه، وكَمَلَتْ صورتُه؛ فأخْرَجه إنسانًا سَوِيًّا سميعًا بصيرًا، ثُمَّ لَمَّا تكامَلَ تمييزُه وإدراكُه هَداه طريقَيِ الخَيرِ والشَّرِّ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٨، ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٥، ٣٧٦).

قال ابن كثير: (أي: بَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ وطريقَ الشَّرِّ. وهذا قولُ عِكْرِمةَ، وعطيَّةَ، وابنِ زَيدٍ، ومجاهِدٍ -في المشهورِ عنه- والجمهورِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((البرهان في تناسب سور القرآن)) لأبي جعفر الغرناطي (ص: ٣٥٢، ٣٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٥، ٣٧٦).

والهُدى والضَّلالِ، وأنَّه بعدَ هذه الهدايةِ إمَّا أنْ يَشْكُرَ ربَّه وإمَّا أنْ يَكْفُرَه، ثُمَّ ذَكَرَ مآلَ أهلِ الشُّكرِ والكُفرِ وما أعَدَّ لهؤلاء وهؤلاء، وبَدَأَ أوَّلًا بذِكْرِ عاقِبةِ أهلِ الكفرِ ثُمَّ عاقبةِ أهلِ الشُّكرِ، وفي آخرِ السُّورةِ ذَكَر أوَّلًا أهلَ الرَّحمةِ ثُمَّ أهلَ العذابِ، فبَدَأَ السُّورةَ بأوَّلِ أحوالِ الإنسانِ -وهي النُّطْفةُ-، وخَتَمَها بآخِرِ أحوالِه -وهي كَونُه مِن أهلِ الرَّحمةِ أو العذابِ-، ووَسَّطَها بأعمالِ الفريقَينِ، فذَكَرَ أعمالَ أهلِ العذابِ مُجْمَلةً في قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [الإنسان: ٤]، وأعمالَ أهلِ الرَّحمةِ مُفَصَّلةً، وجزاءَهم مُفَصَّلًا[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ أنَّ رُوحَ الإنسانِ مخلوقةٌ، وليست قَديمةً، فلو كانت رُوحُه قديمةً لَكان الإنسانُ لَمْ يَزَلْ شيئًا مذكورًا؛ فإنَّه إنَّما هو إنسانٌ برُوحِه، لا ببَدَنِه فقط[٢]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ أنَّ الاشتراكَ في الأسماءِ والصِّفاتِ لا يَستَلزِمُ تَماثُلَ المُسَمَّياتِ والمَوصوفاتِ؛ فقد نفَى سُبحانَه أنْ يكونَ السَّميعُ كالسَّميعِ، والبصيرُ كالبَصيرِ، فقال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١][٣]، وفيه حُجَّةٌ على الجَهميَّةِ شَديدةٌ خانِقةٌ، ألَا تَراه كيف وصَفَ الإنسانَ بما وَصَف به نَفْسَه مِن السَّمعِ والبَصَرِ؛ إذ يقولُ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾، فسَوَّى بيْن الصِّفَتينِ، ولم يُخالِفْ بيْن اللَّفظَينِ، فأخبَر بذلك؛ لأنَّ اللهَ سميعٌ بسَمعٍ وبصيرٌ ببَصَرٍ غيرِ مخلوقَينِ، ومَن نفى عن اللهِ جَلَّ جلالُه حقائِقَ وَصْفِه، أو حقائِقَ فِعلِه فقد عطَّلَه، وإن لم يُثبِتْ وأخَذَ بالسَّميعِ والبَصيرِ إلى معنى الإدراكِ خَوفًا مِن التَّشبيهِ، لم يسلَمْ مِن التَّشبيهِ، وكيف يَسلَمُ مِن التَّشبيهِ؟! أليس للمخلوقِ

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ١١٧).

أيضًا إدراكٌ لأشياءَ، وإن لم يُدرِكْ جميعَها، كما يُدرِكُ الله جميعَها؟! وأيضًا فالإنسانُ يُسمَّى عالِمًا وعليمًا، ويُسَمَّى اللهُ عالِمًا وعليمًا، فلا يكونُ تشبيهًا؛ لأنَّ عِلمَ المخلوقِ الَّذي سُمِّيَ به عالِمًا وعليمًا مُستفادٌ مُتعَلَّمٌ، وعِلمُه سُبحانَه أزَليٌّ صِفةٌ مِن صفاتِه، غيرُ مُتعَلَّمٍ ولا مُستفادٍ، كذلك سَمْعُ المخلوقِ مَصنوعٌ فانٍ، وبَصَرُه مِثلُه، يُفنيهما اللهُ إذا شاء، ثمَّ يُعيدُهما إذا أحياه كما ابتدأهما بقدرتِه، وكذلك بَصَرُه. وسَمْعُ اللهِ وبَصَرُه كائنان أزَليَّانِ فيه، بلا إحداثِ مُحدِثٍ، ولا صُنعِ صانعٍ، حقيقيَّانِ غيرُ مَجازيَّينِ، معروفٌ عندَنا حقيقتُهما، مَسكوتٌ عن كَيفيَّتِهما، كهيئةِ ما هما عندَه سُبحانَه[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ أنَّ مِن أسماءِ اللهِ تعالى ما لا يَختَصُّ به، مِثلُ: السَّميعِ، البصيرِ، العليمِ، الرَّحيمِ، وقال تعالى عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2] [التوبة: ١٢٨].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ استِفهامٌ تَقريريٌّ تَوبيخيٌّ، وهو هنا مُوجَّهٌ إلى غيرِ مُعيَّنٍ، ومُستعمَلٌ في تَحقيقِ الأمْرِ المُقرَّرِ به على طَريقِ الكِنايةِ؛ لأنَّ الاستفهامَ طَلَبُ الفَهمِ، والتَّقريرُ يَقْتضي حُصولَ العِلمِ بما قُرِّرَ به، وذلك إيماءٌ إلى استِحقاقِ اللهِ أنْ يَعترِفَ الإنسانُ له بالواحدانيَّةِ في الرُّبوبيَّةِ، إبطالًا لإشراكِ المشْركين، والمعْنى: هلْ يُقِرُّ كلُّ إنسانٍ مَوجودٍ أنَّه كان مَعدومًا زَمانًا طَويلًا، فلمْ يكُنْ شَيئًا يُذكَرُ؟ أي: لم يكُنْ يُسمَّى ولا يُتحدَّثُ عنه بذاتِه، وهمْ لا يَسَعُهم إلَّا الإقرارُ بذلك؛ فلذلك اكتُفِيَ بتَوجيهِ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢٦٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٩، ٥٥٠).

هذا التَّقريرِ إلى كلِّ سامعٍ[١].

- وتَقديمُ هذا الاستفهامِ؛ لِما فيه مِن تَشويقٍ إلى مَعرفةِ ما يَأْتي بعْدَه مِن الكلامِ؛ فجُملةُ ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ ...﴾ تَمهيدٌ وتَوطئةٌ للجُملةِ الَّتي بعْدَه، وهي ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ﴾ [الإنسان: ٢] إلخ[٢].

٢- قوله تعالَى: ﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لقولِه: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١]؛ لبَيانِ كَيفيَّةِ خلْقِ الإنسانِ؛ لِما فيه مِن التَّشويقِ، والتَّقريرُ يَقْتضي الإقرارَ بذلك لا مَحالةَ؛ لأنَّه مَعلومٌ بالضَّرورةِ، فالسَّامعُ يَتشوَّفُ لِما يَرِدُ بعْدَ هذا التَّقريرِ، فقِيل له: إنَّ اللهَ خَلَقَه بعْدَ أنْ كان مَعدومًا، فأوجَدَ نُطفةً كانت مَعدومةً، ثمَّ استَخرَجَ منها إنسانًا، فثَبَتَ تَعلُّقُ الخلْقِ بالإنسانِ بعْدَ عَدَمِه[٣].

- وتَأكيدُ الكلامِ بحرْفِ (إنَّ) لتَنزيلِ المشْرِكين مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ أنَّ اللهَ خلَقَ الإنسانَ؛ لعَدَمِ جَرْيِهم على مُوجَبِ العِلمِ؛ حيث عَبَدوا أصنامًا لم يَخلُقوهم[٤].

- وإظهارُ لَفظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنِ﴾ لزِيادةِ التَّقريرِ[٥].

- وأُدمِجَ في ذلك كَيفيَّةُ خلْقِ الإنسانِ مِن نُطفةِ التَّناسُلِ؛ لِما في تلك الكيفيَّةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧١، ٣٧٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٠).

مِن دَقائقِ العِلمِ الإلهيِّ والقُدرةِ والحِكمةِ[١].

- على القولِ بأنَّ ﴿أَمْشَاجٍ﴾ جمْعٌ، فيكونُ وَصَف النُّطفةَ -مع أنَّها مُفرَدٌ- بلَفظِ ﴿أَمْشَاجٍ﴾، وهو جمْعٌ؛ لأنَّها أُريدَ بها الجِنسُ، كقولِه: ﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦]، أو لتَنزيلِ كلِّ جُزءٍ مِن النُّطفةِ نُطفةً[٢]. أو وَصَفَ النُّطفةَ بالجمْعِ باعتِبارِ ما تَشتمِلُ عليه النُّطفةُ مِن أجزاءٍ مُختلِفةِ الخواصِّ؛ فلذلك يَصيرُ كلُّ جُزءٍ مِن النُّطفةِ عضْوًا، فوَصْفُ النُّطفةِ بجمْعِ الاسمِ للمُبالَغةِ، أي: شَديدةُ الاختلاطِ[٣]. أو وصَفَ النُّطفةَ بـ﴿أَمْشَاجٍ﴾ وهو جمْعٌ؛ لِما أنَّ المُرادَ بها مَجموعُ الماءَينِ مِن الرَّجُلِ والأُنثى، ولكلٍّ منهُما أوصافٌ مُختلِفةٌ مِن اللَّونِ والرِّقَّةِ والغِلَظِ، وخَواصُّ مُتباينةٌ[٤].

- وقد وقَعَت هذه الحالُ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ مُعترِضةً بيْن جُملةِ ﴿خَلَقْنَا﴾ وبيْن ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾؛ لأنَّ الابتلاءَ -أي: التَّكليفَ الَّذي يَظهَرُ به امتِثالُه أو عِصيانُه- إنَّما يكونُ بعْدَ هِدايتِه إلى سَبيلِ الخَيرِ، فكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يَقَعَ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ بعْدَ جُملةِ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٣]، ولكنَّه قُدِّمَ؛ للاهتِمامِ بهذا الابتلاءِ الَّذي هو سَببُ السَّعادةِ والشَّقاوةِ. وجِيءَ بجُملةِ ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ بَيانًا لجُملةِ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾؛ تَفنُّنًا في نظْمِ الكلامِ[٥].

- وقد نُزِّلَت الكَلِمتانِ ﴿سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ مَنزِلةَ الكَلِمةِ الواحدةِ؛ لأنَّهما كِنايةٌ عن التَّمييزِ والفَهمِ؛ إذْ آلَتُهما سَببٌ لذلك، وهما أشرَفُ الحواسِّ، تُدرَكُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٤، ٣٧٥).

بهما أعظَمُ المُدرَكاتِ، أي: جَعَلْناه بسَببِ الابتلاءِ حينَ تَأهُّلِه له سَميعًا بَصيرًا؛ ليَتمكَّنَ مِن مُشاهَدةِ الدَّلائلِ، واستِماعِ الآياتِ؛ فالعطفُ على إرادةِ الابتلاءِ لا الابتلاءِ فيه، فلا يَرِدُ السُّؤالُ الآتي: كيف عُطِفَ على ﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ ما بعْدَه بالفاءِ مع أنَّ الابتلاءَ مُتأخِّرٌ عنه[١]؟

- وحَقيقةُ الابتلاءِ: الاختِبارُ لِتُعرَفَ حالُ الشَّيءِ، وهو هنا كِنايةٌ عن التَّكليفِ بأمْرٍ عَظيمٍ؛ لأنَّ الأمْرَ العظيمَ يُظهِرُ تَفاوُتَ المكلَّفينَ به في الوفاءِ بإقامتِه[٢].

- وفُرِّعَ على خلْقِه مِن نُطفةٍ أنَّه جَعَلَه سَميعًا بَصيرًا، وذلك إشارةٌ إلى ما خَلَقَه اللهُ له مِن الحواسِّ الَّتي كانت أصلَ تَفكيرِه وتَدبيرِه؛ ولذلك جاء وصْفُه بالسَّميعِ البصيرِ بصِيغةِ المُبالَغةِ، ولم يقلْ: فجَعَلْناه سامعًا مُبصِرًا؛ لأنَّ سمْعَ الإنسانِ وبصَرَه أكثَرُ تَحصيلًا وتَمييزًا في المسموعاتِ والمُبصَراتِ مِن سمْعِ وبصَرِ الحيوانِ؛ فبِالسَّمعِ يَتلقَّى الشَّرائعَ ودَعوةَ الرُّسلِ، وبالبصَرِ يَنظُرُ في أدِلَّةِ رُبوبيَّةِ الله تعالى ووحدانيَّتِه[٣].

- وهذا تَخلُّصٌ إلى ما ميَّزَ اللهُ به الإنسانَ مِن جَعْلِه تُجاهَ التَّكليفِ واتِّباعِ الشَّرائعِ، وتلك خَصِيصةُ الإنسانِ الَّتي بها ارتَكَزَت مَدنيَّتُه، وانتَظَمَت جامعاتُه؛ ولذلك أُعقِبَت هذه الجُملةُ بقولِه: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ الآياتِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لبَيانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٥٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما نشَأَ عن جُملةِ ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان: ٢]، ولتَفصيلِ جُملةِ ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، وتَخلُّصٌ إلى الوعيدِ على الكفْرِ، والوعْدِ على الشُّكرِ(١).

فقولُه: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ رُتِّب على قولِه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]؛ لأنَّه جملةٌ مُستأنَفةٌ تعليليَّةٌ في معنى: لأنَّا هدَيْناه، أي: دلَلْناه على ما يُوصِلُه مِن الدَّلائلِ السَّمعيَّةِ كالآياتِ التَّنزيليَّةِ، والعَقليَّةِ كالآياتِ الآفاقيَّةِ والأنفُسيَّةِ، وهو إنَّما يكونُ بعدَ التَّكليفِ والابتلاءِ(٢).

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) في ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ ...﴾ للرَّدِّ على المشرِكين الَّذين يَزعُمون أنَّ ما يَدْعوهم إليه القرآنُ باطلٌ(٣).

- ولَمَّا كان الشُّكرُ قَلَّ مَن يتَّصِفُ به، قال: ﴿شَاكِرًا﴾، فعبَّرَ عنه باسمِ الفاعلِ؛ للدَّلالةِ على قِلَّتِه، ولَمَّا كان الكفْرُ كثيرًا مَن يَتَّصِفُ به، ويَكثُرُ وُقوعُه مِن الإنسانِ، قال: ﴿كَفُورًا﴾؛ فعبَّرَ عنه بصِيغةِ المُبالَغةِ(٤).

أو: أنَّه عَبَّرَ باسمِ الفاعِلِ الخالي مِن المُبالَغةِ في ﴿شَاكِرًا﴾؛ لأنَّه لا يَقدِرُ أحدٌ أن يَشكُرَ جميعَ النِّعَمِ، فلا يُسَمَّى شَكورًا إلَّا بتفَضُّلٍ مِن رَبِّه عليه، ولَمَّا كان الإنسانُ لِما له مِن النُّقْصانِ لا يَنفَكُّ غالبًا عن كُفْرٍ ما، أتى بصيغةِ المُبالَغةِ؛ تنبيهًا له على ذلك(٥)، وإشعارًا بأنَّ الإنسانَ لا يَخْلو عن كُفرانٍ غالبًا، وإنَّما المُؤاخَذُ به التَّوغُّلُ فيه، أو لم يقُلْ: (كافرًا) ليُطابِقَ قَسيمَه؛ مُحافَظةً على الفواصلِ(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٢٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩).

## الآيات (٤-١٢)

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ١٢﴾.

### غَرِيبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَغۡلَٰلٗا﴾: جَمعُ غُلٍّ، وهو طَوقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنُقِ، وأصلُ (غلل): يدُلُّ على إحاطةٍ وثَباتٍ[1].

﴿وَسَعِيرًا﴾: أي: نارًا تُسَعَّرُ عليهم فتَتَوَقَّدُ، والسَّعيرُ اسْمٌ مِن أسماءِ جَهَنَّمَ، يُقال: سَعرْتُ النَّارَ، إذا ألهَبْتَها، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه[2].

﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾: أي: المؤمنينَ الصَّادقينَ في إيمانِهم، المُطيعينَ لربِّهم، جمعُ: بَرٍّ وبَارٍّ، وأصلُ (برر) هنا: الصِّدْقُ، يُقالُ: يَبَرُّ رَبَّه، أي: يُطيعُه، وهو مِنَ الصِّدقِ. وقيل: لَمَّا كان البَرُّ خِلافَ البحرِ، وتُصُوِّرَ منه التَّوسُّعُ، اشتُقَّ منه البِرُّ، وهو التَّوسُّعُ في فِعلِ الخَيرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٦/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣ / ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، =

﴿مِزَاجُهَا﴾: أي: ما يُمازِجُها، يُقالُ: مَزَجَ الشَّرابَ: خلَطَه، وأصلُ (مزج): يدُلُّ على خَلْطِ الشَّيءِ بغَيرِه(١).

﴿يُفَجِّرُونَهَا﴾: أي: يُجْرُونها ويُصَرِّفونَها ويَقودُونَها إلى حيث شاؤوا، والتَّفجيرُ: الإسالةُ والإجراءُ، والفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسعًا، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ(٢).

﴿مُسْتَطِيرًا﴾: أي: فاشِيًا مُنتَشِرًا، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصْطِفافِ شَيءٍ(٣).

﴿عَبُوسًا﴾: أي: تَعبَسُ وتَنقَبِضُ فيه الوُجوهُ مِن هَولِه وشِدَّتِه، نُسِبَ العُبُوسُ إلى اليومِ، كما يُقالُ: يَومٌ صائِمٌ، ولَيلٌ قائِمٌ، والعُبُوسُ: تَقطُّبُ الوَجهِ عندَ كراهيةِ أمرٍ، وأصلُ (عبس): يدُلُّ على تَكَرُّهٍ(٤).

﴿قَمْطَرِيرًا﴾: أي: شَديدًا صَعْبًا، والقَمْطَريرُ: أشَدُّ ما يكونُ مِنَ الأيَّامِ وأطوَلُه في البلاءِ، يُقالُ: يومٌ قَمطَرِيرٌ وقُماطِرٌ: إذا كان شَديدًا كريهًا(٥).

---

= ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٠٤).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٤/ ٤٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٠)، ((تفسير البغوي)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠، ٣٨٠)، =

﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾: أي: آتاهم، وأعْطاهم حينَ لَقُوه، وأصلُ (لقي) هنا: يدُلُّ على تَوافي شَيئَيْنِ[١].

﴿نَضۡرَةٗ﴾: أي: حُسْنًا وإشراقًا وبَهْجةً، يُقالُ: نَضَرَ وَجهُ فُلانٍ: إذا حَسُنَ مِن النِّعمةِ، وأصلُ (نضر): يدُلُّ على حُسنٍ وجمالٍ[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿عَيۡنٗا﴾ منصوبةٌ مِن أوجُهٍ؛ أحَدُها: أنَّه بَدَلٌ مِن ﴿كَافُورًا﴾؛ لأنَّ ماءَها في بياضِ الكافورِ، وفي رائحتِه وبَرْدِه. والثَّاني: أنَّها بَدَلٌ مِن محلِّ ﴿مِن كَأۡسٖ﴾ على تقديرِ مُضافٍ، أي: يَشرَبونَ خَمرًا خَمْرَ عَينٍ. الثَّالثُ: أنَّها مفعولٌ بـ ﴿يَشۡرَبُونَ﴾، أي: يَشرَبونَ عَينًا مِن كأسٍ. الرَّابعُ: أن يَنتصِبَ على الاختِصاصِ بإضمارِ «أعني» أو «أَخُصُّ». الخامسُ: أنَّه مَفعولٌ به ثانٍ لِفِعلٍ محذوفٍ تقديرُه: «يُعْطَونَ». وقيلَ غَيرُ ذلك.

قَولُه تعالى: ﴿يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ في الباءِ أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه على تَضمينِ

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٤)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤١).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٣٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٤).

«يَشْرَبُ» معنى: «يَلْتَذُّ» أو «يَرْوَى»، وهما يَتعَدَّيانِ بالباءِ. الثَّاني: أنَّها مَزيدةٌ، أي: يَشرَبُها. الثَّالثُ: أنَّها بمعنى «مِنْ». الرَّابعُ: أنَّ الباءَ للإلصاقِ مُتعَلِّقةٌ بمحذوفٍ حال، أي: يَشرَبُ الخَمْرَ ممزوجةً بها، أي: بالعَينِ(١).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما أعَدَّه للكافِرين: إنَّا هَيَّأْنا للكافِرينَ سلاسِلَ يُقادُونَ بها، وقُيودًا في أعناقِهم، ونارًا حاميةً، ثم يبينُ ما أعدَّه للشَّاكرينَ، فيقولُ: إنَّ الطَّائِعينَ الأبرارَ يَشرَبونَ مِن كأسٍ مُمتَزِجٍ شَرابُها بالكافورِ، وهذا الكافُورُ هو عَينٌ جاريةٌ يَرتَوي بها عِبادُ اللهِ، يتصرَّفُون في تلك العَينِ بإنباعِها وإجرائِها حيث شاؤُوا!

ثمَّ يبيِّنُ الله تعالى الأسبابَ الَّتي أوصلَتِ الشَّاكرينَ إلى هذا النَّعيمِ، ويذكُرُ جملةً مِن أعمالِهم، فيقولُ: أولئك الأبرارُ كانوا يُوفُونَ في الدُّنيا بنُذورِهم، ويَخافُونَ يومَ القيامةِ ذا الشَّرِّ المنتَشِرِ، ويُطْعِمونَ الطَّعامَ -مع محَبَّتِهم إيَّاه- المِسكينَ، واليتيمَ، والأسيرَ، قائِلينَ: إنَّما نُطعِمُكم لوَجْهِ اللهِ تعالى، ورجاءَ رِضاه وثَوابِه، لا نَطلُبُ منكم مُكافأةً على ذلك، ولا شُكْرًا، إنَّا نَخافُ مِن رَبِّنا يومَ القيامةِ ذا الأهوالِ العظيمةِ، والضِّيقِ والشِّدَّةِ، فدَفَع اللهُ عنهم شرَّ ذلك اليَومِ، وأعطاهم حُسْنًا في وُجوهِهم، وفَرَحًا في قُلوبِهم، وجَزاهم اللهُ تعالى بسَبَبِ صَبْرِهم جَنَّةً وحريرًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤﴾.

---

(١) يُنظَر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٦٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٥٩٩، ٦٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٧٠).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا قَسَّمَهم اللهُ تعالى إلى القِسمَينِ؛ ذكَرَ جزاءَ كُلِّ قِسمٍ[١].

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤﴾.

أي: إنَّا هَيَّأْنا للكافِرينَ سلاسِلَ يُقادُونَ أو يُوثَقونَ بها، وقُيودًا في أعناقِهم، ونارًا حاميةً تتوقَّدُ ويَشتَدُّ التِهابُها[٢].

قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ﴾ [غافر: ٧١].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

هو شُروعٌ في بيانِ حُسنِ حالِ الشَّاكرينَ، إثرَ بَيانِ سُوءِ حالِ الكافرينَ[٣]، فلَمَّا أوجز اللهُ تعالى في جزاءِ الكافِرِ؛ أتْبَعَه جزاءَ الشَّاكِرِ وأطنَبَ فيه؛ تأكيدًا للتَّرغيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٤، ١٣٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٧).

قال القرطبي: (قال الحَسَنُ: إنَّ الأغلالَ لم تُجعَلْ في أعناقِ أهلِ النَّارِ لأنَّهم أعجَزوا الرَّبَّ سُبحانَه، ولكِنْ إذلالًا). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٤).

قيل: الأغلالُ تكونُ بجَمْعِ الأيدي إلى الأعناقِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥).

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥﴾.

أي: إنَّ الطَّائِعينَ الصَّادِقينَ الَّذين يَسعَونَ في أعمالِ البِرِّ والخَيرِ يَشرَبونَ مِن كأسٍ(١) مُمتَزِجٍ شَرابُها بالكافورِ(٢).

---

(١) قال الزَّجَّاجُ: (الكأسُ في اللُّغةِ: الإناءُ إذا كان فيه الشَّرابُ، فإذا لم يكُنْ فيه الشَّرابُ لم يُسَمَّ كأسًا). ((معاني القرآن)) (٥/ ٢٥٨).

قيل: المرادُ بقوله: ﴿مِن كَأۡسٖ﴾ أي: مِن إناءٍ فيه شرابٌ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والخازن، وابن عادل. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ١٦).

وقيل: المرادُ بالكأسِ هنا: الخَمرُ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبي، والماوَرْدي، والبيضاوي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٢٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٩٥)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨١).

قال جلال الدين المحلي: (المرادُ: مِن خَمرٍ، تسميةً للحالِّ باسمِ المَحَلِّ). ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨١).

وقال الماوَرْدي: (قال الضَّحَّاكُ: كلُّ كأسٍ في القرآنِ فإنَّما عنى به الخمرَ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥٣١).

وقال أبو السعود: (﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ﴾ هي الزُّجاجةُ إذا كانت فيها خَمرٌ، وتُطلَقُ على نفْسِ الخَمرِ أيضًا؛ فـ «مِنْ» على الأوَّلِ ابتدائيَّةٌ، وعلى الثَّاني تبعيضيَّةٌ أو بيانيَّةٌ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال البغوي: (﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ يعني: المؤمنينَ الصَّادقينَ في إيمانِهم، المُطيعينَ لربِّهم واحدُهم بارٌّ، مثل شاهدٍ وأشهادٍ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٩). =

= وقال السعدي: (﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ وهم الَّذين بَرَّتْ قلوبُهم بما فيها مِن محبَّةِ الله ومعرفتِه، والأخلاقِ الجميلةِ، فبَرَّتْ جَوارِحُهم، واستعمَلوها بأعمالِ البِرِّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال ابن الجوزي: (﴿كَافُورًا﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّه الكافورُ المعروفُ، قاله مجاهدٌ، ومقاتلٌ. فعلى هذا في المرادِ بالكافورِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحدُها: بَردُه، قاله الحسَنُ. والثَّاني: ريحُه، قاله قَتادةُ. والثَّالثُ: طَعمُه، قاله السُّدِّيُّ.

والثَّاني: أنَّه اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ، قاله عَطاءٌ، وابنُ السَّائبِ.

والثَّالثُ: أنَّ المعنى: مِزاجُها كالكافورِ؛ لِطيبِ ريحِه. وأجازه الفرَّاءُ، والزَّجَّاجُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٢٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢١٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّه يُمزَجُ بالكافورِ لِبَردِه وعُذوبتِه وطِيبِ عَرْفِه: البيضاويُّ، وابنُ كثير، والبِقاعي، والشربيني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال السعدي: (قد مُزِجَ بكافورٍ، أي: خُلِطَ به؛ ليُبَرِّدَه ويَكسِرَ حِدَّتَه، وهذا الكافورُ في غايةِ اللَّذَّةِ والسَّلامةِ مِن كُلِّ مُكَدِّرٍ ومُنَغِّصٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

وقال ابن كثير: (وقد عُلِمَ ما في الكافورِ مِن التَّبريدِ والرَّائحةِ الطَّيِّبةِ، معَ ما يُضافُ إلى ذلك مِن اللَّذاذةِ في الجنَّةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ أنَّ مِزاجَ ما في الكأسِ مِن الشَّرابِ كالكافورِ في طِيبِ رائحتِه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١١٥).

وممَّن اختار أنَّ الكافورَ اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ: الزمخشريُّ، والنسفي، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧، ٦٦٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١).

قال الزمخشري: (﴿مِزَاجُهَا﴾ ما تُمْزَجُ به ﴿كَافُورًا﴾ ماءَ كافُورٍ، وهو اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ ماؤُها في بَياضِ الكافُورِ ورائِحَتِه وبَرْدِه، و﴿عَيْنًا﴾ بدَلٌ منه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧، ٦٦٨).

﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦﴾.

﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾.

أي: هذا الكافورُ هو عَينٌ جاريةٌ يَرتَوي بها عِبادُ اللهِ[1].

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾.

أي: يتصرَّفُ عِبادُ اللهِ في عَينِ الشَّرابِ بإنباعِها وإجرائِها حيث شاؤُوا[2]!

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر جزاءَ الأبرارِ على بِرِّهم المُبَيِّنِ لِشُكرِهم؛ أتْبَعَه تَفصيلَه[3].

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾.

أي: أولئك الأبرارُ يُوفُونَ في الدُّنيا بنُذورِهم الَّتي نَذَروها طاعةً للهِ، فألزَموا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤١٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (و﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ هنا خصوصٌ في المؤمنينَ النَّاعمينَ؛ لأنَّ جميعَ الخَلقِ عِبادُه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٩، ٤١٠).

وذهب ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القَيِّم، وابنُ كَثيرٍ إلى أنَّ ﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ هنا عائدةٌ على المقرَّبينَ، والمعنى: أنَّ الأبرارَ يَشرَبونَ مِن كأسٍ مُمتَزِجٍ شَرابُها بالكافُورِ، وأمَّا المقرَّبونَ فإنَّهم يَشرَبوَن شَرابًا صافِيًا بلا مَزْجٍ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٧٨)، ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٧).

بها أنفُسَهم[١].

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾.

أي: ويَخافُونَ يومَ القيامةِ الَّذي شرُّه في غايةِ الانتِشارِ والامتِدادِ[٢].

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مَن خاف شيئًا سعَى في الأمنِ منه بكُلِّ ما عَساه ينفَعُ فيه، وكان قد ذكَرَ تذَرُّعَهم بالواجِبِ؛ أتْبَعَه المندوبَ؛ دَلالةً على أنَّهم لا رُكونَ لهم إلى الدُّنيا، ولا وُثوقَ بها، فقد جمَعوا إلى كرَمِ الطَّبعِ بالوفاءِ، ورِقَّةِ القَلبِ: شَرَفَ النَّفْسِ، بالانسلاخِ مِن الفاني، فقال[٣]:

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾.

أي: ويُطْعِمونَ الطَّعامَ -مع محَبَّتِهم إيَّاه، واشتِهائِهم له- ويُؤْثِرونَ به المِسكينَ، والصَّغيرَ الَّذي فَقَدَ أباه، والأسيرَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤١، ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال السعدي: (﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ أي: بما ألزَموا به أنفُسَهم لله مِن النُّذورِ والمعاهَداتِ، وإذا كانوا يُوفُونَ بالنَّذْرِ وهو لم يجِبْ عليهم إلَّا بإيجابِهم على أنفُسِهم، كان فِعْلُهم وقيامُهم بالفُروضِ الأصليَّةِ مِن بابِ أَوْلى وأَحْرى). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١). ويُنظر ما يأتي في الفوائد (ص: ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٧، ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٣-٥٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٨، ١٢٩)، =

= ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٨، ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٤).

قال الماوَرْدي: (في الأسيرِ ثلاثةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: أنَّه المسجونُ المُسلِمُ. قاله مجاهِدٌ. الثَّاني: أنَّه العَبدُ. قاله عِكْرِمةُ. الثَّالثُ: أسيرُ المُشرِكينَ. قاله الحَسَنُ، وسَعيدُ بنُ جُبَيرٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٦).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الأسيرُ الكافرُ بيْن المسلِمينَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، وابن أبي زَمَنِين، وابن جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٢٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٣٥).

وممَّن قال مِن السَّلفِ بأنَّ الأسيرَ هنا المرادُ به المشركُ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ في روايةٍ عنه، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٨)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٧١).

وذهب ابنُ جَريرٍ والثعلبيُّ إلى القَولِ الأوَّلِ والثَّالثِ، وهو أنَّه الحربيُّ مِن أهلِ دارِ الحَربِ يُؤخَذُ قَهْرًا بالغَلَبةِ، أو مِن أهلِ القِبلةِ يُؤخَذُ فيُحبَسُ بحَقٍّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٣، ٥٤٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٩٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالأسيرِ هنا: العبدُ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عِكْرِمةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٦٦).

قال ابنُ عاشور: (أمَّا الأسيرُ فإذ قد كانت السُّورةُ كُلُّها مَكِّيَّةً قبلَ عِزَّةِ المُسلِمينَ، فالمرادُ بالأسيرِ: العَبدُ مِن المسلِمينَ؛ إذ كان المشركونَ قد أجاعوا عَبيدَهم الَّذين أسلَموا، مِثلَ بلالٍ، وعَمَّارٍ وأمِّه، ورُبَّما سَيَّبوا بَعْضَهم إذا أضجَرَهم تعذيبُهم، وترَكوهم بلا نَفَقةٍ، والعبوديَّةُ تَنشَأُ مِن الأسْرِ، فالعَبدُ أسيرٌ؛ ولذلك يُقالُ له العاني أيضًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٤).

وقال القرطبي: (عن عَطاءٍ قال: الأسيرُ مِن أهلِ القِبلةِ وغَيرِهم. قلتُ: وكأنَّ هذا القولَ عامٌّ يجمَعُ جميعَ الأقوالِ، ويكونُ إطعامُ الأسيرِ المشرِكِ قُرْبةً إلى اللهِ تعالى، غَيْرَ أنَّه مِن صَدَقةِ التَّطَوُّعِ، فأمَّا المفروضةُ فلا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٩).

ممَّن ذهب مِن السَّلفِ إلى أنَّ هذه الآيةَ تَشمَلُ أهلَ القِبلةِ وغيرَهم: سعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ =

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال سُبحانَه: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾.

أي: يَقولُ الأبرارُ: إنَّما نُطعِمُكم طلَبًا لرضا اللهِ تعالى ورجاءَ ثَوابِه[1].

﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

أي: لا نَطلُبُ منكم مُكافأةً على ذلك، ولا نَطلُبُ منكم شُكْرًا ولا ثَناءً عليه[2].

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

---

= عنه، وعَطاءٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٥)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٩).

قال ابنُ جُزَي: (﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ عبارةٌ عن الإخلاصِ لله؛ ولذلك فسَّروه وأكَّدوه بقَولِهم: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٨).

وقال الزمخشري: (يجوزُ أن يكونَ قَولًا باللِّسانِ؛ مَنْعًا لهم عن المُجازاةِ بمِثْلِه أو بالشُّكْرِ؛ لأنَّ إحسانَهم مفعولٌ لِوَجهِ اللهِ، فلا معنَى لمكافأةِ الخَلْقِ، وأن يكونَ قَولُهم لهم لُطفًا وتفقيهًا وتنبيهًا على ما يَنبغي أن يكونَ عليه مَن أخلَصَ لله... ويجوزُ أن يكونَ ذلك بيانًا وكَشْفًا عن اعتِقادِهم وصِحَّةِ نِيَّتِهم، وإن لم يَقولوا شيئًا). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٨).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّهم يقولونَ ذلك لهم؛ تأنيسًا لهم، ودَفعًا لانكِسارِ النَّفْسِ الحاصِلِ عندَ الإطعامِ، أي: ما نُطعِمُكم إلَّا استجابةً لِما أمَرَ اللهُ، فالمُطعِمُ لهم هو اللهُ... وعن مُجاهدٍ أنَّه قال: ما تكَلَّموا به، ولكِنْ عَلِمَه اللهُ فأثْنى به عليهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذكَرَ أنَّ الأبرارَ يُحسِنونَ إلى هؤلاء المحتاجِينَ، بيَّن أنَّ لهم فيه غرَضَينِ؛ أحدُهما: تحصيلُ رِضا اللهِ، وهو المرادُ مِن قَولِه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، والثَّاني: الاحترازُ مِن خَوفِ يومِ القيامةِ، وهو المرادُ مِن قَولِه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[1].

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾.

أي: إنَّا نخافُ مِن رَبِّنا يومَ القيامةِ ذا الأهوالِ العظيمةِ، وذا الضِّيقِ والشِّدَّةِ[2].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَتعَوَّذُ مِن ضِيقِ المقامِ يومَ القيامةِ))[3].

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكَى عن الأبرارِ أنَّهم أتَوا بالطَّاعاتِ لغَرَضينِ: طَلَبِ رِضا الله، والخَوفِ مِن القيامةِ؛ بيَّنَ أنَّه أعطاهم هذينِ الغَرَضينِ؛ أمَّا الحِفظُ مِن هولِ القيامةِ فهو المرادُ بقَولِه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾، وأمَّا طَلَبُ رِضا اللهِ تعالى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٦، ٥٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال ابنُ عاشور: (قولُه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ مَقولٌ لِقَولٍ يَقولونَه في نُفوسِهم، أو يَنطِقُ به بعضُهم مع بعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٦).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٧٦٦)، والنَّسائيُّ (٥٥٣٥)، وابنُ ماجه (١٣٥٦).

قال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (٧٦٦): (حَسَنٌ صحيحٌ). وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (٧٦٦).

فأعطاهم بسَبَبِه نَضرةً في الوَجهِ، وسُرورًا في القَلْبِ[١].

وأيضًا لَمَّا كان فِعلُ الأبرارِ هذا خالصًا لله؛ سَبَّب عنه جزاءَهم[٢].

﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ﴾.

أي: فدَفَع اللهُ عن الأبرارِ شرَّ يَومِ القيامةِ[٣].

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾.

أي: وأعطاهم اللهُ حُسْنًا في وُجوهِهم، وفَرَحًا في قُلوبِهم[٤].

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال ابن كثير: (﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً﴾ أي: في وجوهِهم، ﴿وَسُرُورًا﴾ أي: في قلوبِهم. قاله الحسنُ البصريُّ، وقتادةُ، وأبو العاليةِ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. وهذه كقولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]، وذلك أنَّ القلبَ إذا سُرَّ استنار الوجهُ، قال كعبُ بنُ مالكٍ في حديثِه الطَّويلِ: «وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهُه حتَّى كأنَّه قطعةُ قمرٍ» [البخاري «٤٤١٨» ومسلم «٢٧٦٩»]، وقالت عائشةُ: «دخَل عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مسرورًا تبرقُ أساريرُ وجهِه...» الحديث. [البخاري «٦٧٧٠» ومسلم «١٤٥٩»]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٨٩)

وقال الشوكاني: (﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أيْ: أعْطاهم -بَدَلَ العُبوسِ في الكفَّارِ- نَضْرَةً في الوُجوهِ، وسُرورًا في القلوبِ. قال الضَّحَّاكُ: «والنَّضْرَةُ: البياضُ والنَّقاءُ في وُجوهِهم». وقال سعيدُ بنُ جُبَيْرٍ: «الحُسنُ والبَهاءُ»، وقيل: النَّضْرَةُ: أثرُ النِّعمةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٠).

وقال ابنُ عاشور: (جَعَلَهم يَلْقَونَ نَضْرةً وسُرورًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٨).

وقال سُبحانَه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: وجَزاهم اللهُ تعالى بسَبَبِ صَبْرِهم جَنَّةً يَدخُلونَها، وحريرًا يَلْبَسُونَه[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ ...﴾ فذكَرَ سُبْحانَه مِن أعمالِ الأبرارِ ما يُنَبِّهُ سامِعَه على جَمْعِهم لأعمالِ البِرِّ كلِّها؛ فذكَرَ سُبحانَه وفاءَهم بالنَّذرِ، وخَوْفَهم مِن ربِّهم، وإطعامَهم الطَّعامَ على محبَّتِهم له، وإخلاصَهم لرَبِّهم في طاعتِهم[2].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فيه الحَثُّ على الوَفاءِ بالنَّذرِ[3].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فيه أنَّ مجامِعَ الطَّاعاتِ مَحصورةٌ في أمْرَينِ: التَّعظيمُ لأمرِ اللهِ تعالى، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾، والشَّفَقةُ على خَلْقِ اللهِ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ﴾[4].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ ذَكَر سُبحانَه الوَفاءَ بالنَّذْرِ، وهو أضعَفُ الواجباتِ؛ فإنَّ العبدَ هو الَّذي أوجَبَه على نفْسِه بالْتِزامِه، فهو دونَ ما أوجَبَه اللهُ سُبحانَه عليه، فإذا وَفَّى للهِ بأضعَفِ الواجِبَينِ الَّذي التَزَمَه هو، فهو بأنْ يُوَفِّيَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٦).

بالواجبِ الأعظَمِ الَّذي أَوجَبَه اللهُ عليه: أَوْلَى وأَحْرَى، ومِن هاهنا قال مَن قال مِن المفَسِّرينَ: المقَرَّبونَ يُوفُونَ بطاعةِ اللهِ، ويَقومُونَ بحقِّه عليهم؛ وذلك أنَّ العبدَ إذا نَذَرَ للهِ طاعةً فوَفَّى بها، فإنَّما يَفعلُ ذلك لكَونِها صارتْ حقًّا للهِ يجبُ الوفاءُ بها، وهذا موجودٌ في حُقوقِه كلِّها، فهي في ذلك سَواءٌ[1].

٥- أنَّ مَن تَعَبَّدَ للهِ خَوفًا فهو محمودٌ، وقد أَثنى اللهُ على مَن تَعَبَّدَ خَوفًا منه مِن العذابِ؛ قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرًا﴾، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوۡمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧]، وأثنى اللهُ تعالى على مَن تعَبَّدَ طَلَبًا؛ قال تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]. وفي هذا ردٌّ على مَن ذَهَبَ مِن الصُّوفيَّةِ أو غيرِهم إلى أنَّ الأفضَلَ في التَّعَبُّدِ أَلَّا يَقصِدَ الإنسانُ حظًّا لنَفْسِه، وإنَّما يَعْبُدُ اللهَ لِذَاتِه فقط، يعني أنَّك إذا عَبَدْتَ اللهَ فلا تَقصِدْ فضْلَ اللهِ أو تحذَرْ عِقابَه، يقولون: اُعْبُدِ اللهَ للهِ! فيُقالُ لهم: لَسْتُم أكملَ حالًا مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه، وقد ذَكَرَ اللهُ عنهم أنَّهم كانوا: ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، ولستُم أكملَ حالًا ممَّن أَثنى اللهُ عليهم مِن الأبرارِ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ إلى أنْ قال: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرًا﴾، ولا شَكَّ أنَّ الإنسانَ الَّذي يَعبُدُ اللهَ سُبحانَه لِيَنالَ فضْلَه ويَنجوَ مِن عِقابِه: هو يريدُ الوُصولَ إلى رضوانِ اللهِ وإلى رُؤيةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّ مِن جملةِ النَّعيمِ في الجَنَّةِ رؤيةَ اللهِ سُبحانَه وتعالى[2].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النور)) (ص: ٢٦٨).

لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴾ أنَّ حُبَّ المساكينِ مُستَلزِمٌ لإخلاصِ العَمَلِ للهِ تعالى، والإخلاصُ هو أساسُ الأعمالِ، الَّذي لا تَثبُتُ الأعمالُ إلَّا عليه؛ فإنَّ حُبَّ المساكينِ يَقتضي إسداءَ النَّفعِ إليهم بما يُمكِنُ مِن مَنافِعِ الدِّينِ والدُّنيا، فإذا حَصَل إسداءُ النَّفْعِ إليهم حُبًّا لهم، والإحسانُ إليهم، كان هذا العَمَلُ خالِصًا[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ إخبارٌ منه سُبحانَه عنهم بإطعامِ الطَّعامِ على محبَّتِهم له، وذلك يدُلُّ على نَفاسَتِه عِندَهم، وحاجتِهم إليه، وما كان كذلك فالنُّفوسُ به أَشَحُّ، والقُلوبُ به أَعْلَقُ، واليدُ له أَمْسَكُ، فإذا بَذَلُوه في هذه الحالِ فَهُم لِمَا سِواه مِن حُقوقِ العِبادِ أَبْذَلُ؛ فذَكَر مِن حقوقِ العِبادِ بَذْلَ قُوتِ النَّفْسِ على نفاسَتِه وشِدَّةِ الحاجةِ، مُنَبِّهًا على الوَفاءِ بما دُونَه، كما ذَكَر مِن حُقوقِه الوَفاءَ بالنَّذْرِ مُنَبِّهًا على الوَفاءِ بما هو فوقَه وأَوْجَبُ منه، ونَبَّهَ بقَولِه: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أنَّه لولا أنَّ اللهَ سُبحانَه أَحَبُّ إليهم منه لَمَا آثَرُوه على ما يُحِبُّونَه، فآثَرُوا المحبوبَ الأعلَى على الأدنَى[2].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ فيه أنَّهم يتحَرَّونَ في إطعامِهم أَولى النَّاسِ وأحوجَهم[3].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ أنَّ الإخلاصَ في الصَّدَقةِ ألَّا يَسْأَلَ عِوَضَها دُعاءً مِن المُعطَى، ولا يَرجوَ بَرَكتَه وخاطرَه ولا غيرَ ذلك مِن الأقوالِ[4]، ومَن طَلَبَ مِن الفقراءِ الدُّعاءَ أو الثَّناءَ خَرَجَ مِن هذه الآيةِ؛ فإنَّ النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((مَن أتى إليكم مَعروفًا فكافِئُوه، فإنْ

---

(١) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٤) يُنظر: ((المستدرك على مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (٤/ ١٠٩).

لَمْ تَجِدُوا فادْعُوا له حتَّى تَعْلَموا أنَّكم قد كافَأْتُموه))[١]؛ ولهذا كانت عائشةُ إذا أَرسَلَتْ إلى قومٍ بهَدِيَّةٍ تقولُ للرَّسولِ: (اسمَعْ ما دَعَوا به لنا؛ حتَّى نَدْعُوَ لهم بمِثْلِ ما دَعَوْا، ويَبْقَى أَجْرُنا على اللهِ)[٢].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾، أي: بسَبَبِ ما أوجَدوه مِن الصَّبرِ على العبادةِ؛ مِن لُزومِ الطَّاعةِ، واجتنابِ المعصيةِ، ومَنْعِ أنفُسِهم الطَّيِّباتِ، وبَذْلِ المحبوباتِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ لَمْ يَذْكُرِ اللهُ عزَّ وجلَّ في الكافِرين وعذابِهم إلَّا قليلًا بالنِّسبةِ للأبرارِ، والسَّببُ أنَّه قال: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ فقط، ولَمْ يَقُلْ شيئًا مِن أعمالِهم؛ فكان الجزاءُ مختصَرًا: ﴿سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾، وذَكَر الأبرارَ، وأطالَ في ذِكْرِ ما لَهم مِن نعيمٍ؛ لأنَّه ذَكَرَ عدَّةَ أعمالٍ مِن أعمالِهم: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۞ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۞ وَيُطْعِمُونَ

---

(١) أخرجه أبو داودَ (٥١٠٩) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (٢٥٦٧)، وأحمدُ (٦١٠٦) من حديث ابنِ عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

صحَّحه النوويُّ في ((رياض الصالحين)) (١٧٢٣)، وابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٥/ ٢٥٠)-، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥١٠٩).

وصحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٧٣) وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٢٣٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (١٠/ ٢٦٧)، وقال الحاكمُ وشعيبٌ الأرناؤوط: (على شرط الشَّيخَين).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١١١).

ويُنظر في الأثرِ المذكورِ عن عائشةَ رضيَ الله عنها ما أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٠٦٢)، وجوَّد إسنادَه الألبانيُّ في تخريج ((الكلم الطيب)) (٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٢).

ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾، فلَمَّا أطالَ في ذِكْرِ أعمالِهم وأوصافِهم أطالَ في ذِكْرِ جزائِهم -بخِلافِ الكافِرين-، وهذا بلا شكٍّ مِن بلاغةِ القرآنِ الكريمِ[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ احْتُجَّ به على أنَّ الجَحيمَ بسَلاسِلِها وأغلالِها مخلوقةٌ؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿أَعۡتَدۡنَا﴾ إخبارٌ عن الماضي[2].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ استُدِلَّ به على أنَّ المؤمِنَ وإنْ دَخَلَ النَّارَ بعِصيانِه وجُرْمِه، وأُحْرِقَ في النَّارِ بقَدْرِ جنايتِه؛ لَمْ يُغَلَّ، ولَمْ يُجْعَلْ في السَّلاسِلِ حتَّى يُعْتِقَه اللهُ برحمتِه، ويَذَرَ الكافِرَ في السَّلاسِلِ والأغلالِ والسَّعيرِ الَّذي يَسْتَعِرُ عليه، كُلَّما نَضِجَ له جِلدٌ اسْتَعَرَ على الجِلْدِ الَّذي يُبَدَّلُ له، خالِدًا مُخَلَّدًا[3].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ فيه سؤالٌ: أنَّ مَزجَ الكافورِ بالمشروبِ لا يكونُ لذيذًا، فما السَّبَبُ في ذِكْرِه هاهنا؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ الكافورَ اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ، ماؤُها في بياضِ الكافورِ ورائحتِه وبَرْدِه، ولكِنْ لا يكونُ فيه طَعْمُه ولا مضَرَّتُه، فالمعنى أنَّ ذلك الشَّرابَ يكونُ ممزوجًا بماءِ هذه العَينِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ رائحةَ الكافورِ عَرَضٌ، فلا يكونُ إلا في جِسمٍ، فإذا خَلَقَ اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٥٩).

تلك الرَّائحةَ في جِرْمِ ذلك الشَّرابِ، سُمِّيَ ذلك الجِسمُ كافورًا، وإن كان طَعمُه طيِّبًا.

**الوَجهُ الثَّالثُ**: لا بأسَ في أن يَخلُقَ اللهُ تعالى الكافورَ في الجنَّةِ، لكِنْ مِن طَعمٍ طَيِّبٍ لذيذٍ، ويَسلُبَ عنه ما فيه مِن المضَرَّةِ، ثمَّ إنَّه تعالى يمزُجُه بذلك المشروبِ، كما أنَّه تعالى سلَبَ عن جميعِ المأكولاتِ والمشروباتِ ما معها في الدُّنيا مِن المَضارِّ[1].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ يدُلُّ على وُجوبِ الوَفاءِ بالنَّذْرِ؛ لأنَّه تعالى عقَّبه بـ (يَخافُونَ يَوْمًا)، وهذا يَقْتَضي أنَّهم إنَّما وفَّوْا بالنَّذْرِ خوفًا مِن شَرِّ ذلك اليومِ، والخَوفُ مِن شَرِّ ذلك اليومِ لا يَتَحَقَّقُ إلَّا إذا كان الوفاءُ به واجِبًا[2].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فيه إشعارٌ بحُسنِ عَقيدتِهم، واجتنابِهم عن المَعاصي[3].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فيه سؤالٌ: أحوالُ القيامةِ وأهوالُها كُلُّها فِعلُ اللهِ، وكُلُّ ما كان فِعلًا لله فهو يكونُ حِكمةً وصَوابًا، وما كان كذلك لا يكونُ شَرًّا، فكيف وصَفَها اللهُ تعالى بأنَّها شَرٌّ؟

**الجوابُ**: أنَّها إنَّما سُمِّيَت شَرًّا؛ لِكَونِها مضَرَّةً بمَن تَنزِلُ عليه، وصعبةً عليه، كما تُسمَّى الأمراضُ وسائِرُ الأمورِ المكروهةِ شُرورًا[4].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ فيه سُؤالٌ: كيف يُمكِنُ أن يُقالَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٧٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٥).

شَرُّ ذلك اليَوم مُستَطيرٌ مُنتَشِرٌ، مع أنَّه تعالى قال في صِفةِ أوليائِه: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ هَولَ القيامةِ شَديدٌ؛ فالسَّمَواتُ تَنشَقُّ وتَنفَطِرُ وتَصيرُ كالمُهْلِ، وتتناثَرُ الكواكِبُ، وتتكَوَّرُ الشَّمسُ والقَمَرُ، وتَفزَعُ الملائكةُ، وتُبَدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرضِ، وتُنسَفُ الجِبالُ، وتُسْجَرُ البِحارُ، وهذا الهَولُ عامٌّ يَصِلُ إلى كُلِّ المكَلَّفِينَ، على ما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج: ٢]، وقال: ﴿ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴾ [المزمل: ١٧]، إلَّا أنَّه تعالى بفَضْلِه، يؤمِّنُ أولياءَه مِن ذلك الفَزَعِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أن يكونَ المرادُ أنَّ شَرَّ ذلك اليومِ يكونُ مُستطيرًا في العُصاةِ والفُجَّارِ، وأمَّا المؤمِنونَ فهم آمِنونَ، كما قال: ﴿ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨]، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر: ٣٤]، إلَّا أنَّ أهلَ العِقابِ في غايةِ الكَثْرةِ بالنِّسبةِ إلى أهلِ الثَّوابِ؛ فأُجرِيَ الغالبُ مجرى الكُلِّ[1].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ الأسارى مِن المشرِكين يجِبُ إطعامُهم إلى أن يَرى الإمامُ رأيَه فيهم؛ مِن قَتلٍ أو غيرِ ذلك فإن قيل: لَمَّا وَجَب قَتْلُه، فكيف يَجِبُ إطعامُه؟

**الجوابُ**: القَتلُ في حالٍ لا يَمنَعُ مِن الإطعامِ في حالٍ أُخرى، ولا يَجِبُ إذا عوقِبَ بوَجهٍ أن يُعاقَبَ بوَجهٍ آخَرَ؛ ولذلك لا يَحسُنُ فيمَن يَلزَمُه القِصاصُ أن

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٥، ٧٤٦).

يُفعَلَ به ما هو دونَ القَتْلِ[١]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الأسيرِ.

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا * وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أنَّ إطعامَ الطَّعامِ هو مِن الأسبابِ المُوجِبةِ للجَنَّةِ ونَعيمِها[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا * فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أنَّ مَن خافه في الدُّنيا، وأخَذ أُهْبَتَه مِن طاعةِ ربِّه؛ أمَّنَه مِن أهوالِه، ووقَاه أفزاعَه، وكذا قال في سُورةِ (النَّملِ): ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[٣] [النمل: ٨٩].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ أنَّ الجَنَّاتِ فيها النَّعيمُ المطلَقُ الَّذي يَشملُ نَعيمَ البَدَنِ ونعيمَ الرُّوحِ؛ قال العلماءُ: («النَّضْرةُ» في الوَجهِ، و«السُّرورُ» في القَلْبِ)[٤].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ جُمِعَ لهم بيْن النَّضْرةِ والسُّرورِ، وهذا جمالُ ظواهرِهم، وهذا حالُ بواطنِهم، كما جَمَّلُوا في الدُّنيا ظواهِرَهم بشَرائعِ الإسلامِ، وبواطِنَهم بحقائقِ الإيمانِ[٥].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ أنَّ مَن ضَيَّقَ على نفْسِه في مُخالَفةِ الهوى، فإنَّه يُوَسَّعُ عليها في قَبْرِه ومَعادِه، فلمَّا كان في الصَّبرِ -الَّذي هو حَبْسُ النَّفْسِ عن الهوى- خشونةٌ وتضييقٌ، جازاهم على ذلك نُعومةَ الحريرِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٨).

(٢) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (٢/ ١٣٩).

(٥) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٨٥).

وسَعَةَ الجَنَّةِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ لَمَّا ذُكِر الفريقانِ الشَّاكر والكَفور في قولِه تعالى: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] أُريدَ التَّخلُّصُ إلى جزائِهما، والجُملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ قولَه: ﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣] يُثيرُ تَطلُّعَ السَّامِعِ إلى مَعرفةِ آثارِ هذَينِ الحالَينِ المُتردِّدِ حالُه بيْنَهما[٢].

- وابتُدِئَ بجَزاءِ الكافرِ؛ لأنَّ ذِكرَه أقرَبُ[٣]. أو قُدِّمَ وَعيدُ الكافِرينَ وقد تَأخَّرَ ذِكرُهم؛ لأنَّ الإنذارَ أهَمُّ وأنفَعُ، وتَصديرُ الكلامِ وختْمُه بذِكرِ المؤمنينَ أحسَنُ، على أنَّ في وَصْفِهم تَفصيلًا رُبَّما يُخِلُّ تَقديمُه بتَجاوُبِ أطرافِ النَّظمِ الكريمِ[٤]. أو قُدِّم؛ لأنَّ طريقَ النَّشرِ المُشَوَّشِ[٥] أفصَحُ، ولِيُعادلَ البُداءةَ

---

(١) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١).

(٥) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكَرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرَ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضَ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ. =

بالشَّاكرِ في أصلِ التَّقسيمِ، لِيَتعادلَ الخَوفُ والرَّجاءُ، وليكونَ الشاكرُ أوَّلًا وآخِرًا، ولأنَّ الانقيادَ بالوعيدِ أتمُّ؛ لأنَّه أدَلُّ على القدرةِ، لا سيَّما في حقِّ أهلِ الجاهليَّةِ الَّذين بعدَتْ عنهم معرفةُ التَّكاليفِ الشَّرعيَّةِ[1].

- وأُكِّدَ الخبَرُ عن الوَعيدِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لإدخالِ الرَّوعِ عليهم؛ لأنَّ المُتوعِّدَ إذا أكَّدَ كَلامَه بمُؤكِّدٍ فقدْ آذَنَ بأنَّه لا هَوادةَ له في وَعيدِه[2].

- وقدَّمَ الأسهَلَ في العذابِ فالأسهَلَ؛ تَرَقِّيًا[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾

- هو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الاستِئنافِ الَّذي قبْلَه مِن قولِه: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا

---

= واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلٍّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفْقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ.
وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوسِ»- هو: أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعدَها نَشْرٌ غيرُ مُرَتَّبٍ؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى، ومتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ، ومُتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ، ومتعلِّقةٌ بها.
يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٣٥).

لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]؛ فإنَّ مَن عرَفَ ما أُعِدَّ للكَفورِ مِن الجزاءِ، يَتطلَّعُ إلى مَعرفةِ ما أُعِدَّ للشَّاكرِ مِن الثَّوابِ، وأُخِّرَ تَفصيلُه عن تَفصيلِ جَزاءِ الكَفورِ، مع أنَّ ﴿شَاكِرًا﴾ [الإنسان: ٣] مَذكورٌ قبْلَ ﴿كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ[١]؛ ليتَّسِعَ المجالُ لإطنابِ الكلامِ على صِفةِ جَزاءِ الشَّاكرينَ وما فيه مِن الخَيرِ والكرامةِ، تَقريبًا للمَوصوفِ مِن المُشاهَدةِ المحسوسةِ[٢].

- وتَأكيدُ الخبَرِ عن جَزاءِ الشاكرينَ بـ (إنَّ)؛ لدَفْعِ إنكارِ المشركين أنْ يكونَ المؤمنونَ خيرًا منهم في عالَمِ الخُلودِ، ولإفادةِ الاهتمامِ بهذه البِشارةِ بالنِّسبةِ إلى المؤمنينَ[٣].

- والأبرارُ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ ...﴾ همُ الشَّاكِرون، وإيرادُ الشَّاكرينَ بعُنوانِ البِرِّ؛ للإشعارِ بما استحَقُّوا به ما نالُوه مِن الكَرامةِ السَّنيَّةِ، وزِيادةً في الثَّناءِ عليهم[٤].

- ووَصْفُ (بَرٍّ) أقْوى مِن بارٍّ في الاتِّصافِ بالبِرِّ؛ ولذلك يُقال: اللهُ بَرٌّ، ولم يُقَلْ: اللهُ بارٌّ[٥].

- والكأسُ بالهَمزةِ: الإناءُ المَجعولُ للخمْرِ، فلا يُسمَّى كأسًا إلَّا إذا كان فيه خَمرٌ، فيَجوزُ أنْ يُرادَ هنا آنيةُ الخمْرِ؛ فتكونَ (مِن) للابتداءِ، وإفرادُ كأسٍ للنَّوعيَّةِ. ويَجوزُ أنْ تُرادَ الخمرُ، فتكونَ (مِن) للتَّبعيضِ، وعلى التَّقديرينِ

---

(١) تقدَّم تعريفُه قريبًا.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٠).

فكأسٌ مُرادٌ به الجنسُ، وتَنوينُه لتَعظيمِه في نَوعِه[١].

- وابتُدِئَ في وَصْفِ نَعيمِهم بنَعيمِ لذَّةِ الشُّربِ مِن خَمْرِ الجنَّةِ؛ لِما لِلَذَّةِ الخَمْرِ مِن الاشتِهارِ بيْن الناسِ، وكانوا يَتنافَسون في تَحصيلِها[٢].

- والمِزاجُ قيل: إنَّه هنا مُرادٌ به الماءُ، والإخبارُ عنه بأنَّه كافورٌ مِن قَبيلِ التَّشبيهِ البَليغِ، أي: في اللَّونِ، أو ذَكاءِ الرَّائحةِ[٣].

- وإقحامُ فِعلِ (كان) في جُملةِ الصِّفةِ بقولِه: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾؛ لإفادةِ أنَّ ذلك مِزاجُها لا يُفارِقُها؛ إذ كان مُعتادُ النَّاسِ في الدُّنيا نُدرةَ ذلك المِزاجِ؛ لغَلاءِ ثَمَنِه، وقِلَّةِ وِجْدانِه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾

- قولُه: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ وُصِلَ فِعلُ الشُّربِ بحرْفِ الابتداءِ (مِن) أوَّلًا، وبحرْفِ الإلصاقِ -الباء- آخِرًا؛ لأنَّ الكأسَ مَبدَأُ شُربِهم وأوَّلُ غايتِه، وأمَّا العينُ فبها يَمزُجونَ شَرابَهم، فكان المعْنى: يَشرَبُ عِبادُ اللهِ بها الخمْرَ، كما تقولُ: شَرِبْت الماءَ بالعسَلِ، أو ضُمِّن ﴿يَشْرَبُ﴾ معْنى (يَروى) فعُدِّيَ بالباءِ، وإذا قلتَ: «يَرْوى بها» فقد تَضَمَّنَ معنى «يَشْرَبُ» وزيادةً. وقيل: الباءُ زائدةٌ، والمعْنى يَشرَبُها. وقيل: الباءُ بمعْنى (مِن) التَّبعيضيَّةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٨١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨١)، ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٦٨)، ((إعراب =

- و﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ مُرادٌ بهم: الأبرارُ، وهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّنويهِ بهم بإضافةِ عُبوديَّتِهم إلى اللهِ تعالَى إضافةَ تَشريفٍ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرًا﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] إلخ، وبيْنَ جُملةِ ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ﴾ [الإنسان: ١٥] إلخ، وهذا الاعتراضُ استئنافٌ بَيانيٌّ هو جَوابٌ عن سُؤالٍ مِن شأْنِ الكلامِ السَّابقِ أنْ يُثيرَه في نفْسِ السَّامعِ المُغتبِطِ بأنْ يَنالَ مِثلَ ما نالوا مِن النَّعيمِ والكَرامةِ في الآخرةِ، فيَهتَمَّ بأنْ يَفعَلَ مِثلَ ما فَعَلوا، فذُكِرَ بَعضُ أعمالِهم الصَّالحةِ الَّتي هي مِن آثارِ الإيمانِ، مع التَّعريضِ لهم بالاستزادةِ منها في الدُّنيا(٢).

- وجِيءَ بصِيغةِ المُضارِعِ ﴿يُوفُونَ﴾؛ للاستحضارِ، والدَّلالةِ على الاستمرارِ، وعلى تَجدُّدِ وَفائِهم بما عَقَدوا عليه ضَمائرَهم مِن الإيمانِ والعملِ الصَّالحِ(٣).

- والوفاءُ بالنَّذرِ مُبالَغةٌ في وَصْفِهم بالتَّوفُّرِ على أداءِ الواجِباتِ؛ لأنَّ مَن وفَّى بما أوجَبَه هو على نفْسِه لوجْهِ اللهِ، كان بما أوجَبَه اللهُ عليه أَوفَى(٤).

- والتَّعريفُ في (النَّذر) تَعريفُ الجِنسِ؛ فهو يَعُمُّ كلَّ نَذْرٍ(٥).

---

= القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٦).

ويُنظر ما تقدَّم في مُشْكِلِ الإعرابِ (ص: ٣٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٧١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٢، ٣٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

- وعُطِفَ على ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ قولُه: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾؛ لأنَّهم لَمَّا وُصِفوا بالعمَلِ بما يَنذِرونَه أُتبِعَ ذلك بذِكرِ حُسنِ نيَّتِهم، وتَحقُّقِ إخلاصِهم في أعمالِهم؛ لأنَّ الأعمالَ بالنِّيَّاتِ، فجَمَع لهم بهذا صِحَّةَ الاعتِقادِ، وحُسْنَ الأعمالِ[١].

- وصِيغةُ (يَخافون) دالَّةٌ على تَجدُّدِ خَوفِهم شرَّ ذلك اليومِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ وُصِفَ اليومُ بأنَّ له شرًّا مُستطيرًا وَصْفًا مُشعِرًا بعِلَّةِ خَوفِهم إيَّاهُ، فالمعْنى: أنَّهم يَخافون شرَّ ذلك اليومِ، فيَتجنَّبونَ ما يُفْضي بهم إلى شَرِّه مِن الأعمالِ المُتوعَّدِ عليها بالعِقابِ[٣].

- قولُه: ﴿مُسۡتَطِيرٗا﴾، أي: فاشيًا مُنتشِرًا بالغًا أقْصى المَبالغِ، والسِّينُ والتَّاءُ في (استطارَ) للمُبالَغةِ[٤].

- وذِكرُ فِعلِ ﴿كَانَ﴾؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِ الخبَرِ مِن المُخبَرِ عنه، وإلَّا فإنَّ شرَّ ذلك اليومِ ليس واقعًا في الماضي، وإنَّما يقَعُ بعْدَ مُستقبَلٍ بَعيدٍ. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ ذلك مِن التَّعبيرِ عن المُستقبَلِ بلَفظِ الماضي؛ تَنْبيهًا على تَحقُّقِ وُقوعِه[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۞ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ۞ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٦٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٣).

- قولُه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ خصَّصَ الإطعامَ بالذِّكرِ؛ لِما في إطعامِ المُحتاجِ مِن إيثارِه على النَّفْسِ، كما أفادَ قولُه: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[1].

- والتَّصريحُ بلَفظِ الطَّعامِ معَ أنَّه مَعلومٌ مِن فِعلِ (يُطْعِمُونَ) تَوطئةٌ؛ ليُبْنى عليه الحالُ، وهو ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾؛ فإنَّه لو قِيل: (ويُطعِمون مِسكينًا ويَتيمًا وأسيرًا) لَفات ما في قولِه: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ مِن معْنى إيثارِ المَحاويجِ على النَّفْسِ، على أنَّ ذِكرَ الطَّعامِ بعْدَ (يُطْعِمُونَ) يُفيدُ تَأكيدًا، مع استِحضارِ هَيئةِ الإطعامِ، حتَّى كأنَّ السَّامعَ يُشاهِدُ الهَيئةَ[2].

- قولُه: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ خصَّ هؤلاء الثَّلاثةَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ المِسكينَ عاجزٌ عن اكتِسابِ قُوتِه بنفْسِه، واليتيمَ مات أبوه، وبقِيَ عاجزًا عن الكسْبِ لصِغَرِه، والأسيرَ لا يَملِكُ لنفْسِه ضَرًّا ولا نَفْعًا ولا نَصرًا ولا حِيلةً[3].

- قولُه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: يَقولون لهم، أي: للَّذين يُطعِمونهم، فهو في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ (يُطْعِمُونَ)، وجُملةُ ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ مُبيِّنةٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾[4]. أو جُملةُ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ تَعليلٌ لبَيانِ سَببِ الإطعامِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٧).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٣٣).

- والقصْرُ المُستفادُ مِن (إنَّما) قصْرُ قلْبٍ[١] مَبنيٌّ على تَنزيلِ المُطعَمِينَ مَنزِلةَ مَن يظُنُّ أنَّ مَن أطعَمَهم يَمُنُّ عليهم، ويُريدُ منهم الجزاءَ والشُّكرَ، بِناءً على المُتعارَفِ عندَهم في الجاهليَّةِ[٢].

- قولُه: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ تقريرٌ وتأكيدٌ لِما قبْلَه[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ واقعٌ مَوقعَ التَّعليلِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[٤] [الإنسان: ٩]. وهو حالٌ مِن ضَميرِ (يَخَافُونَ) [الإنسان: ٧]، أي: يَخافون ذلك اليومَ في نُفوسِهم قائلينَ: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾، فحُكِيَ قولُهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾، وقولُهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ ...﴾ إلخ، على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المعكوسِ[٥]، والدَّاعي إلى عكْسِ النَّشرِ مُراعاةُ حُسنِ تَنسيقِ النَّظمِ؛ ليكونَ الانتقالُ مِن ذِكرِ الإطعامِ إلى ما يَقولونَه للمُطعَمينَ، والانتقالُ مِن ذِكرِ خَوفِ يومِ الحِسابِ إلى بِشارتِهم بوِقايةِ اللهِ إيَّاهم مِن شَرِّ ذلك اليومِ وما يَلْقَونه فيه مِن النَّضرةِ والسُّرورِ والنَّعيمِ[٦].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٧).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٣٤).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٦).

- قولُه: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ إلى ﴿قَطْرِيرًا﴾ [الإنسان: ٧- ١٠]، وفي هذا التَّفريعِ تَلوينٌ للحديثِ عن جَزاءِ الأبرارِ وأهلِ الشُّكورِ، وهذا بَرزخٌ للتَّخلُّصِ إلى عَودِ الكلامِ على حُسنِ جَزائِهم أنَّ اللهَ وَقاهُم شَرَّ ذلك اليومِ، وهو الشَّرُّ المُستطيرُ المذكورُ آنِفًا؛ وَقاهَم إيَّاهُ جَزاءً على خَوفِهم إيَّاهُ، وأنَّه لَقَّاهم نَضرةً وسُرورًا جَزاءً على ما فَعَلوا مِن خَيرٍ. وأُدمِجَ في ذلك قولُه: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ الجامعُ لأحوالِ التَّقوى والعملِ الصَّالحِ كلِّه؛ لأنَّ جَميعَه لا يَخْلو عن تَحمُّلِ النَّفْسِ لتَرْكِ مَحبوبٍ، أو فِعلِ ما فيه كُلفةٌ، ومِن ذلك إطعامُ الطَّعامِ على حُبِّه[1].

- والفاءُ في ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ عاطفةٌ لبَيانِ السَّببِ، أي: فبِسَبَبِ خَوفِهم وَقاهُم اللهُ، أي: دفَعَ عنهم شرَّ ذلك اليومِ ووَطْأَته[2].

- قوله: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ لعَلَّ اللهَ إنَّما خَصَّ الحريرَ؛ لأنَّه لِباسُهم الظَّاهِرُ الدَّالُّ على حالِ صاحِبِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٧، ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

## الآيات (١٢-١٨)

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾.

## غَرِيبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾: جمعُ أريكةٍ، وهي السَّريرُ في الحِجَالِ، وتسميتُها بذلك إمَّا لِكَونِها في الأرضِ مُتَّخَذةً مِن أراكٍ، وهو شجرةٌ، أو لِكَونِها مكانًا للإقامةِ، مِن قَولِهم: أَرَكَ بالمكان أُرُوكًا، وأصلُ الأُرُوكِ: الإقامةُ على رعْيِ الأَراكِ، ثمَّ تُجُوِّزَ به في غيرِه مِن الإقاماتِ، و(أرك) أصْلانِ: أحدُهما شَجَرٌ، والآخَرُ الإقامةُ[1].

﴿زَمْهَرِيرًا﴾: أي: بَردًا شديدًا[2].

﴿وَدَانِيَةً﴾: أي: قَريبةً، وأصل الدُّنُوِّ: القُرْبُ بالذَّاتِ أو بالحُكْمِ، ويُستعمَلُ في المكانِ والزَّمانِ والمَنزِلةِ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).
قال ابن عاشور: (الأريكةُ: سريرٌ عليه وِسادةٌ، معها سَتْرٌ وهو حَجَلَتُه، والحَجَلةُ: ظُلَّةٌ تُنصَبُ فوقَ السَّريرِ لِتَقيَ الحَرَّ والشَّمسَ، ولا يُسَمَّى السَّريرُ أريكةً إلَّا إذا كان معه حَجَلةٌ. وقيل: كُلُّ ما يُتوسَّدُ ويُفتَرَشُ مِمَّا له حَشوٌ: يُسَمَّى أريكةً، وإنْ لم تكُنْ له حَجَلةٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٣).

﴿قُطُوفُهَا﴾: أي: ثِمارُها، جمعُ قِطْفٍ، وهو ما قُطِف مِن ثِمارِها، وقيل: القِطفُ: هو العُنقودُ مِن النَّخلِ والعنبِ، وأصلُ (قطف): يدُلُّ على أخْذِ ثَمَرةٍ مِن شَجَرةٍ(١).

﴿قَوَارِيرَاْ﴾: جَمعُ قارورةٍ، وهي: ما قَرَّ فيه الشَّرابُ ونَحوُه مِن كُلِّ إناءٍ رقيقٍ صافٍ كالزُّجاجِ، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على تمكُّنٍ(٢).

﴿قَدَّرُوهَا﴾: أي: أتوا بها على قَدرِ رِيِّهم، بغيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونهايتِه(٣).

﴿سَلْسَبِيلًا﴾: السَّلْسَبيلُ: الشَّرابُ السَّهلُ اللَّذيذُ، يقالُ: هذا شرابٌ سَلِسٌ وسَلْسَالٌ وسَلْسَلٌ وسَلْسَبِيلٌ بمعنًى، أي: طيِّبُ الطَّعمِ، لذيذُه، سهلُ المساغِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٠)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٣٨)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٥).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢١٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٧-٥٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٤٩).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢١٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦١-٥٦٤)، ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٨، ٤١٩)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٢)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١٧٠).

قال ابن عاشور: (قيل: مشتقٌّ مِن السَّلاسةِ، وهي السهولةُ واللينُ، فيُقالُ: ماءٌ سلسلٌ، أي: عذبٌ باردٌ، قيل: زِيدَتْ فيه الباءُ والياءُ، أي: زيدتا في أصلِ الوضعِ على غيرِ قياسٍ... ومعنى ﴿تُسَمَّىٰ﴾ على هذا الوجهِ، أنها تُوصَفُ بهذا الوصفِ حتَّى صار كالعَلَمِ لها... ومِن المفسِّرينَ مَن جعَل التَّسميةَ على ظاهرِها، وجعَل ﴿سَلْسَبِيلًا﴾ علمًا على هذه العينِ، وهو أنسبُ بقولِه تعالى: ﴿تُسَمَّىٰ﴾). =

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مفصِّلًا نعيمَ أهلِ الجنَّةِ: مُتَّكِئينَ في راحةٍ ورَفاهيَةٍ على السُّررِ المُغَطَّاةِ بقُبَّةٍ مِن الثِّيابِ الفاخِرةِ، لا يَرونَ في الجنَّةِ شَمْسًا ولا بَرْدًا شَديدًا، وقَريبةً منهم ظِلالُ أشجارِ الجَنَّةِ، وسُهِّلَ لهم قَطْفُ ثمارِها تذليلًا، ويُطافُ عليهم بآنيةٍ مِن فِضَّةٍ، وأكوابٍ صافيةٍ شفَّافةٍ كالزُّجاجِ، وتلك الأكوابُ مِن فِضَّةٍ، وقد قَدَّروا الأكوابَ على قَدْرِ كِفايتِهم، فلا تَزيدُ ولا تَنْقُصُ عن ذلك، ويُسقَون فيها خَمْرًا ممزوجةً بزَنجبيلٍ، الزَّنجَبيلُ مِن عَينٍ تُسمَّى سَلْسَبيلًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى طعامَهم ولِباسَهم؛ وصَفَ مَساكِنَهم[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى أنَّه كفاهم المَخُوفَ، وحَباهم الجنَّةَ؛ أتْبَعَه حالَهم فيها وحالَها، فقال دالًّا على راحتِهم الدَّائِمةِ[2]:

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾.

---

=((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٧).

وقال أبو حيان: (والظَّاهرُ أنَّ هذه العينَ ﴿تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ بمعنى تُوصَفُ بأنَّها سلسلةٌ في الاتساعِ، سهلةٌ في المذاقِ، ولا يُحمَلُ سلسبيل على أنَّه اسمٌ حقيقةً؛ لأنَّه إذ ذاك كان ممنوعَ الصَّرفِ؛ للتأنيثِ والعلميَّةِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢١٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٢).

أي: مُتَّكِئينَ في راحةٍ وطُمَأنينةٍ ورَفاهيَةٍ على السُّررِ الَّتي أُرخِيَ عليها ما يَستُرُها ويُزَيِّنُها، فتَكونُ مُغَطَّاةً بقُبَّةٍ مِن الثِّيابِ الفاخِرةِ(١).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢، ٢٣].

﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾.

أي: لا يَرى الأبرارُ في الجنَّةِ شَمْسًا فيُؤذيَهم حَرُّها، ولا بَرْدًا شَديدًا(٢).

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اشتَكَت النَّارُ إلى رَبِّها، فقالت: يا رَبِّ، أكَلَ بَعْضي بَعْضًا، فأَذِنَ لها بنَفَسَينِ؛ نَفَسٌ في الشِّتاءِ، ونَفَسٌ في الصَّيفِ، فهو أشَدُّ ما تَجِدونَ مِنَ الحَرِّ، وأشَدُّ ما تَجِدونَ مِنَ الزَّمْهَريرِ))(٣).

﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ١٤﴾.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾.

أي: وقَريبةً منهم ظِلالُ أشجارِ الجَنَّةِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

قال ابن عاشور: (الاتِّكاءُ: جِلسةٌ بيْن الجُلوسِ والاضطجاعِ، يَستَنِدُ فيها الجالِسُ على مَرفِقِه وجَنْبِه، ويَمُدُّ رِجْليه، وهي جِلسةُ ارتياحٍ، وكانت مِن شِعارِ الملوكِ وأهلِ البَذخِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥١، ٥٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٢٦٠)، ومسلمٌ (٦١٧) واللَّفظُ له.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

قال القرطبيُّ: (قولُه تعالَى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ أيْ: ظِلُّ الأشْجارِ في الجنَّةِ قَريبةٌ مِن الأبرارِ، =

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

أي: وسُهِّلَ لهم قَطْفُ ثمارِها كيفَ شاؤُوا قُعودًا وقِيامًا ومُتَّكِئينَ[١].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَفَ طعامَهم ولِباسَهم ومَسْكَنَهم، وصَفَ بعد ذلك شَرابَهم، وقدَّمَ عليه وَصْفَ تلك الأواني الَّتي فيها يَشرَبونَ[٢].

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥﴾.

أي: ويُطافُ على هؤلاءِ الأبرارِ بآنيةٍ مِن فِضَّةٍ، ويُطافُ عليهم بأكوابٍ عَظيمةٍ

---

= فهي مُظِلَّةٌ عليهم؛ زيادةً في نَعيمِهم، وإنْ كان لا شمسَ ولا قمرَ ثَمَّ، كما أنَّ أَمْشاطَهم الذَّهَبُ والفِضَّةُ، وإنْ كان لا وَسَخَ ولا شَعَثَ ثَمَّ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٨).

وقال الواحديُّ: (﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ قال مقاتلٌ: يعني: شجَرها قَرُبَتْ منهم). ((الوسيط)) (٤/ ٤٠٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٢٧).

قال ابن كثير: (﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ أي: قريبةً إليهم أغصانُها). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠).

ويُنظر ما سيأتي (ص: ٣٦١، و٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠).

قال ابنُ جرير: (عن مجاهد: قَولُه: ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ قال: إذا قام ارتفَعَت بقَدْرِه، وإن قَعَد تدَلَّت حتَّى يَنالَها، وإن اضطَجَع تدَلَّت حتَّى ينالَها، فذلك تَذليلُها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٤).

وقال السعدي: (أي: قُرِّبَت ثَمَراتُها مِن مُريدِها تقريبًا، ينالُها وهو قائِمٌ أو قاعِدٌ أو مُضْطَجِعٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٠).

لا آذانَ لها ولا خَراطيمَ، صافيةٍ شفَّافةٍ كالزُّجاجِ[١].

﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ١٦﴾.

﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾.

أي: تلك الأكوابُ الَّتي في صَفاءِ الزُّجاجِ وشَفافيَتِه هي مِن فِضَّةٍ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٤-٥٥٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٠)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٣).

قيل: الضَّميرُ في ﴿كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ﴾ يعودُ إلى الأواني والأكوابِ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٢٦).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى الأكوابِ فقط. وممَّن ذهب إليه: الواحديُّ، وابنُ الجوزي، والبِقاعي، وأبو السعود، والألوسي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٧٦).

قال ابنُ جرير: (قَولُه: ﴿كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ﴾ يقولُ: كانت هذه الأواني والأكوابُ قواريرَ، فحَوَّلها اللهُ فِضَّةً. وقيل: إنَّما قيل: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ﴾؛ لِيَدُلَّ بذلك على أنَّ أرضَ الجنَّةِ فِضَّةٌ؛ لأنَّ كُلَّ آنيةٍ تُتَّخَذُ فإنَّما تُتَّخَذُ مِن تُربةِ الأرضِ الَّتي فيها، فدَلَّ جَلَّ ثناؤه بوَصْفِه الآنيةَ الَّتي يُطافُ بها على أهلِ الجنَّةِ أنَّها مِن فِضَّةٍ؛ لِيُعلِمَ عِبادَه أنَّ تُربةَ أرضِ الجنَّةِ فِضَّةٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٦).

وقال البِقاعي: (لَمَّا جَمَع الآنيةَ خَصَّ فقال: ﴿وَأَكۡوَابٖ﴾ جمعُ كُوبٍ، وهو كُوزٌ لا عُروةَ له، فيَسهُلُ الشُّربُ منه مِن كُلِّ مَوضِعٍ، فلا يحتاجُ عندَ التَّناوُلِ إلى إدارةٍ. ﴿كَانَتۡ﴾ أي: تلك الأكوابُ كَونًا هو مِن جِبِلَّتِها ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ أي: كانت بصِفةِ القواريرِ مِنَ الصَّفاءِ والرِّقَّةِ والشُّفوفِ، والإشراقِ والزَّهارةِ، جمعُ قارورةٍ، وهي: ما قَرَّ فيه الشَّرابُ ونَحْوُه مِن كُلِّ إناءٍ رقيقٍ صافٍ. وقيل: هو خاصٌّ بالزُّجاجِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٦، ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال ابنُ القيِّم: (القواريرُ هي الزُّجاجُ، فأخبَرَ سُبحانَه وتعالى عن مادَّةِ تلك الآنيةِ أنَّها مِن الفِضَّةِ، =

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾.

أي: قَدَّروا[١] الأكوابَ على قَدْرِ كِفايتِهم، فلا تَزيدُ ولا تَنْقُصُ عن ذلك[٢]!

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وصَف أوانيَ مَشروبِهم؛ ذكَرَ بعدَ ذلك وَصْفَ مَشروبِهم[٣]، فأتْبَعَ وَصْفَ الآنيةِ ومحاسِنِها، بوَصفِ الشَّرابِ الَّذي يحويه وطِيبِه[٤].

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾﴾.

---

= وأنَّها بصَفاءِ الزُّجاجِ وشَفافيتِه، وهذا مِن أحسَنِ الأشياءِ وأعجَبِها، وقَطَع سُبحانَه توَهُّمَ كَونِ تلك القواريرِ مِن زُجاجٍ، فقال: ﴿قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ﴾، قال مجاهِدٌ، وقَتادةُ، ومُقاتِلٌ، والكَلْبيُّ، والشَّعْبيُّ: قواريرُ الجنَّةِ مِن الفِضَّةِ، فاجتَمَع لها بياضُ الفِضَّةِ، وصَفاءُ القواريرِ). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٩٤). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٣).

قال السعدي: (وهذا مِن أعجَبِ الأشياءِ؛ أن تكونَ الفِضَّةُ الكثيفةُ مِن صَفاءِ جَوهرِها وطِيبِ مَعدِنِها على صفاءِ القواريرِ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

وقال ابنُ كثير: (وهذا ممَّا لا نظيرَ له في الدُّنيا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

(١) قال ابنُ عطية: (قَولُه تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ الضَّميرُ للملائكةِ، ويحتَمِلُ أن يكونَ للطَّائِفينَ، ويحتَمِلُ أن يكون للمُنعَّمِينَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٢). ويُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٤، ١٩٥).

وقال السعدي: (ويحتَمِلُ أنَّ المرادَ: قَدَّرَها أهلُ الجنَّةِ بنُفوسِهم بمِقدارٍ يُوافِقُ لَذَّاتِهم، فأتَتْهم على ما قَدَّروا في خواطِرِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٥٧، ٥٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٤).

أي: ويُسقَى الأبرارُ فيها[١] كأسَ خَمْرٍ ممزوجةٍ بزَنجبيلٍ[٢]!

﴿عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ١٨﴾.

أي: الزَّنجَبيلُ مِن عَينٍ تُسمَّى سَلْسَبيلًا[٣].

---

(١) قال البِقاعي: (﴿فِيهَا﴾ أي: الجنَّةِ، أو تلك الأكوابِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٤٦).

وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الجنَّةِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والنسفي، والخازن، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

وممَّن قال بأنَّ الضَّميرَ يعودُ إلى الأكوابِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤١)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال ابنُ القيِّم: (أخبَرَ سُبحانَه عن مِزاجِ شَرابِهم بشَيئَينِ: بالكافُورِ في أوَّلِ السُّورةِ، والزَّنجبيلِ في آخِرِها؛ فإنَّ في الكافورِ مِنَ البَرْدِ وطِيبِ الرَّائحةِ، وفي الزَّنجبيلِ مِنَ الحَرارةِ وطِيبِ الرَّائِحةِ: ما يُحدِثُ لهم باجتماعِ الشَّرابَينِ حالةً أخرى أكمَلَ وأطيَبَ وألَذَّ مِن كُلٍّ منهما بانفرادِه... وما ألطَفَ مَوقِعَ ذِكرِ الكافورِ في أوَّلِ السُّورةِ، والزَّنجبيلِ في آخِرِها! فإنَّ شَرابَهم مُزِجَ أوَّلًا بالكافورِ، وفيه مِنَ البَردِ ما يجيءُ الزَّنجبيلُ بَعْدَه فيَعدِلُه، والظَّاهِرُ أنَّ الكأسَ الثَّانيةَ غيرُ الأُولى، وأنَّهما نَوعانِ لَذيذانِ مِنَ الشَّرابِ، أحَدُهما مُزِجَ بكافورٍ، والثَّاني مُزِجَ بزَنجبيلٍ). ((حادي الأرواح)) (ص: ١٨٥).

وقال ابنُ كثير: (فتارةً يُمزَجُ لهم الشَّرابُ بالكافُورِ، وهو باردٌ، وتارةً بالزَّنجبيلِ، وهو حارٌّ؛ لِيَعتَدِلَ الأمرُ، وهؤلاء يُمزَجُ لهم مِن هذا تارةً، ومِن هذا تارةً، وأمَّا المقرَّبون فإنَّهم يَشرَبونَ مِن كلٍّ منهما صِرْفًا، كما قاله قَتادةُ وغيرُ واحدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٥).

قال ابنُ كثير: (قال مجاهِدٌ: سُمِّيَت بذلك؛ لسَلاسةِ سَيْلِها، وحِدَّةِ جَريِها. وقال قَتادةُ: ﴿عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا﴾: عَينٌ سَلِسةٌ مُستَقِيدٌ ماؤُها. وحكى ابنُ جريرٍ عن بعضِهم أنَّها سُمِّيَت بذلك لسَلاسَتِها في الحَلْقِ، واختار هو أنَّها تعُمُّ ذلك كُلَّه، وهو كما قال). ((تفسير ابن كثير)) =

عن ثَوْبانَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سألَ حَبرٌ مِن أحبارِ اليَهودِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن تُحفةِ[١] أهلِ الجنَّةِ حينَ يَدْخُلونَها؟ قال: زيادةُ كَبِدِ النُّونِ، قال: فما غِذاؤُهم على إثْرِها؟ قال: يُنحَرُ لهم ثَورُ الجنَّةِ الَّذي كان يأكُلُ مِن أطرافِها، قال: فما شَرابُهم عليه؟ قال: مِن عَينٍ فيها تُسَمَّى سَلْسَبيلًا. قال: صَدَقْتَ))[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ توجيهٌ إلى حُسْنِ الصُّنعِ في التَّسويةِ في التَّقديرِ والمقاساتِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ في قَولِه: ﴿ظِلَالُهَا﴾ سؤالٌ: كيف قال سُبحانَه في صِفةِ أهلِ الجنَّةِ ذلك، والظِّلُّ إنَّما يكونُ لِما يقَعُ عليه الشَّمسُ، ولا شَمسَ في الجنَّةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾؟!

**الجوابُ عن ذلك مِن أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ الظِّلالَ في الجنَّةِ عبارةٌ عن تكاثُفِ الأشجارِ وجَودةِ المباني، وإلَّا فلا شَمسَ تُؤذي هنالك حتَّى يكونَ ظِلٌّ يُجيرُ مِن حَرِّها[٤].

**الثَّاني**: أنَّ المرادَ بالظِّلالِ نَعيمُها وراحتُها، ومنه قَولُهم: عَيشٌ ظَليلٌ[٥].

---

= (٨/ ٢٩٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧١).

(١) التُّحفةُ: ما يُتحَفُ به الإنسانُ مِن الفواكِهِ والطُّرَفِ؛ مُحاسَنةً ومُلاطَفةً. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) لأبي العباس القرطبي (١/ ٥٧٤).

(٢) رواه مسلم (٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٣٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢١).

(٥) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٢٦).

**الثَّالثُ**: قيل: ظِلُّ أشجارِ الجنَّةِ مِن نُورِ قناديلِ العَرشِ -أو مِن نُورِ العَرشِ-؛ لِئلَّا تَبهَرَ أبصارَهم؛ فإنَّه أعظَمُ مِن نورِ الشَّمسِ(١)، وقيل غيرُ ذلك(٢).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ إلى قَولِه: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١] سؤالٌ: أنَّه لِمَ اقتصَرَ مِن آنيتِهم وحِلْيَتِهم على الفِضَّةِ دونَ الذَّهَبِ، ومعلومٌ أنَّ الجِنَانَ جَنَّتانِ مِن فِضَّةٍ آنيتُهما وحِلْيَتُهما وما فيهما، وجَنَّتانِ مِن ذَهَبٍ آنيتُهما وحِلْيَتُهما وما فيهما(٣)؟

**الجوابُ**: أنَّ سياقَ هذه الآياتِ إنَّما هو في وصفِ الأبرارِ ونعيمِهم مُفَصَّلًا، دونَ تفصيلِ جزاءِ المقرَّبينَ؛ فإنَّه سُبحانَه إنَّما أشار إليه إشارةً تُنَبِّهُ على ما سَكَتَ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٤٧٤).

(٢) قال الرازي: (الظِّلُّ إنَّما يوجَدُ حيثُ توجَدُ الشَّمسُ، فإن كان لا شمسَ في الجنَّةِ فكيف يحصُلُ الظِّلُّ هناك؟

والجوابُ: أنَّ المرادَ أنَّ أشجارَ الجنَّةِ تكونُ بحيثُ لو كان هناك شمسٌ لَكانت تلك الأشجارُ مُظَلِّلةً منها). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٠).

وقال ابن القيِّم: (وقد أخبَرَ سُبحانَه أنَّ في الجنَّةِ ظِلالًا، والظِّلالُ لا بُدَّ أن تَفيءَ ممَّا يُقابِلُها، فقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [المرسلات: ٤١]، وقال: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]). ثمَّ ذكَر ما خلاصتُه أنَّ هذه الظِّلالَ وغيرَها مما في الجنَّة -كالطَّعامِ والحلوَى- تَستدعي أسبابًا تتِمُّ بها، واللهُ سُبحانَه خالقُ السَّببِ والمُسَبَّبِ، وهو رَبُّ كلِّ شيءٍ ومَليكُه، لا إلهَ إلَّا هو، وقد جعَل سُبحانَه لأهلِ الجنَّةِ أسبابًا، وهو الخالقُ بالأسبابِ والحِكَمِ ما يَخلُقُه في الدُّنيا والآخرةِ، والأسبابُ مظهرُ أفعالِه وحِكمتِه، ولكنَّها تختلِفُ، ولهذا يقعُ التَّعجُّبُ مِن العبدِ لورودِ أفعالِه سبحانَه على أسبابٍ غيرِ الأسبابِ المعهودةِ المألوفةِ، ولَيست قُدرتُه سُبحانَه وتعالى مُقصِّرةً عن أسبابٍ أُخَرَ ومُسَبَّباتٍ يُنشئُها منها، كما لا تَقصُرُ قُدرتُه في هذا العالَمِ المشهودِ عن أسبابِه ومُسَبَّباتِه، وليس هذا بأهْوَنَ عليه مِن ذلك. يُنظر: ((حادي الأرواح)) (ص: ١٩١).

(٣) يُنظر ما أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

عنه، وهو أنَّ شَرابَ الأبرارِ يُمْزَجُ مِن شَرابِهم، فالسُّورةُ مَسُوقَةٌ بصفةِ الأبرارِ وجزائِهم على التَّفصيلِ؛ وذلك -واللهُ أعلَمُ- لأنَّهم أَعَمُّ مِن المقرَّبينَ وأكثرُ منهم؛ ولهذا يُخبِرُ سُبحانَه عنهم بأنَّهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ٣٩-٤٠]، وعنِ المقرَّبين السَّابقينَ بأنَّهم ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[الواقعة: ١٣-١٤]، وأيضًا فإنَّ في ذِكْرِ جزاءِ الأبرارِ تنبيهًا على أنَّ جزاءَ المقرَّبينَ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلبِ بَشَرٍ[١]!

وقيل: لا مُنافاةَ بيْنَ الأمْرَينِ؛ فتارةً يُسقَوْن بهذا، وتارةً بذاك[٢]. فوُصِفَت الآنيةُ هنا بأنَّها مِن فِضَّةٍ، أي: تَأتِيهم آنيتُهم مِن فِضَّةٍ في بعضِ الأوقاتِ، ومِن ذَهَبٍ في أوقاتٍ أُخرى، كما دلَّ عليه قولُه في سُورةِ (الزُّخرفِ): ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الزخرف: ٧١]؛ لأنَّ للذَّهبِ حُسْنًا، وللفِضَّةِ حُسْنًا، فجُعِلَت آنيتُهم مِن المَعدِنَينِ النَّفيسَينِ؛ لئلَّا يَفوتَهم ما في كلٍّ مِن الحُسنِ والجَمالِ، أو يُطافُ عليهم بآنيةٍ مِن فِضَّةٍ وآنيةٍ مِن ذهَبٍ مُتنوِّعةٍ مُتزاوِجةٍ؛ لأنَّ ذلك أبهَجُ مَنظَرًا، مِثلَ ما قال مرَّةً: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾[الإنسان: ٢١]، ومرَّةً ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]؛ وذلك لإدخالِ المَسَرَّةِ على أنفُسِهم بحُسنِ المَناظِرِ؛ فإنَّهم كانوا يَتمَنَّونَها في الدُّنيا لعِزَّةِ وُجودِها أو وُجودِ الكثيرِ منها[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَاْ * قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ فيه سؤالٌ: كيف تكونُ هذه الأكوابُ مِن فِضَّةٍ، ومِن قواريرَ؟

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٢).

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ أصلَ القواريرِ في الدُّنيا الرَّملُ، وأصلُ قواريرِ الجنَّةِ هو فِضَّةُ الجنَّةِ، فكما أنَّ اللهَ تعالى قادرٌ على أن يَقلِبَ الرَّملَ الكثيفَ زجاجةً صافيةً، فكذلك هو قادرٌ على أن يَقلِبَ فِضَّةَ الجنَّةِ قارورةً لطيفةً، فالغَرَضُ مِن ذِكرِ هذه الآيةِ التَّنبيهُ على أنَّ نِسبةَ قارورةِ الجنَّةِ إلى قارورةِ الدُّنيا كنِسبةِ فِضَّةِ الجنَّةِ إلى رملِ الدُّنيا، فكما أنَّه لا نِسبةَ بيْن هذَينِ الأصلَينِ، فكذا بيْن القارورتَينِ في الصَّفاءِ واللَّطافةِ.

**الوجهُ الثَّاني**: قال ابنُ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما: (ليس في الدُّنيا شيءٌ ممَّا في الجنَّةِ إلَّا الأسماءُ)[1]، وإذا كان كذلك فكمالُ الفِضَّةِ في بقائِها ونقائِها وشَرَفِها، إلَّا أنَّه كثيفُ الجوهَرِ، وكمالُ القارورةِ في شفافيتِها وصفائِها، إلَّا أنَّه سريعُ الانكسارِ؛ فآنيةُ الجنَّةِ آنيةٌ يَحصُلُ فيها مِن الفِضَّةِ بقاؤُها ونقاؤُها وشَرَفُ جوهرِها، ومِن القارورةِ صفاؤُها وشفافيتُها.

**الوَجهُ الثَّالثُ**: أنَّها تكونُ فِضَّةً، ولكِنْ لها صفاءُ القارورةِ، ولا يُستبعَدُ مِن قدرةِ اللهِ تعالى الجَمعُ بيْن هذينِ الوصفَينِ.

**الوَجهُ الرَّابعُ**: أنَّ المرادَ بالقواريرِ في الآيةِ ليس هو الزُّجاجَ؛ فإنَّ العَرَبَ تسَمِّي ما استدار مِن الأواني الَّتي تُجعَلُ فيها الأشربةُ ورَقَّ وصَفَا: (قارورةً)، فمعنى الآيةِ: وأكوابٍ مِن فِضَّةٍ، مُستديرةٍ صافيةٍ رقيقةٍ[2].

---

(١) أخرجه هناد في ((الزهد)) (٨) وابن جرير في ((تفسيره)) (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في ((تفسيره)) (٢٦٠) وأبو نعيم في ((صفة الجنة)) (١٢٤) والبيهقي في ((البعث والنشور)) (٣٣٢).
قال ابن تيمية في ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ١١٥): (ثابت)، وصححه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٣٧٦٩)، وقال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٤٠٨): (إسناده جيد).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥١).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ أَخْبَرَ سُبحانَه عن العَينِ الَّتي يَشْرَبُ بها المقرَّبون صِرْفًا أنَّ شَرابَ الأبرارِ يُمْزَجُ منها؛ لأنَّ أولئك أَخْلَصوا الأعمالَ كلَّها للهِ، فأُخْلِصَ شَرابُهم، وهؤلاء مَزَجُوا، فمُزِجَ شَرابُهم[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ المرادُ بالشَّمسِ حَرُّ أشعَّتِها؛ فنَفْيُ رُؤيةِ الشَّمسِ في قولِه: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ كِنايةٌ عن نفْيِ وُجودِ الشَّمسِ الَّذي يَلزَمُه انتفاءُ حَرِّ شُعاعِها، فهو مِن الكِنايةِ التَّلويحيَّةِ[٢]. أو المرادُ بالشَّمسِ حَقيقتُها، وبالزَّمهريرِ البَردُ؛ ففي الآيةِ احتِباكٌ[٣]، والتَّقديرُ: لا يَرَون فيها شَمسًا ولا قمَرًا، ولا حَرًّا ولا زَمهريرًا، والمعْنى أنَّ نُورَها مُعتدِلٌ،

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٨٤).

(٢) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّعريضُ اصطِلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ. والتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسِطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي على كثرةِ الأكَلةِ، وهي على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَل الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. والرَّمزُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ خفاءٍ في اللُّزومِ بلا تعريضٍ نحو: فلانٌ عريضُ القفا، أو عريضُ الوسادةِ؛ كناية عن بلادتِه وبلاهتِه. والإيماءُ أو الإشارةُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ وضوحِ اللُّزومِ، بلا تعريضٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥ - ١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦ - ٢٩٠).

(٣) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن أَلْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

وهواءَها مُعتدِلٌ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾

- قولُه: ﴿وَدَانِيَةً﴾ عطْفٌ على ما قبْلَها، حالٌ مِثلُها، ودَخَلَت الواوُ للدَّلالةِ على أنَّ الأمْرَينِ مُجتمِعانِ لهم، كأنَّه قِيل: وجَزاهم جَنَّةً جامِعينَ فيها بيْنَ البُعدِ عن الحرِّ والقَرِّ ودُنوِّ الظِّلالِ عليهم. أو صِفةٌ لمَحذوفٍ مَعطوفٍ على ﴿جَنَّةً﴾، أي: وجَنَّةً أُخرى دانِيةً عليهم ظِلالُها، على أنَّهم وُعِدوا جَنَّتينِ، كما في قولِه تعالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[٢] [الرحمن: ٤٦].

- وإنَّما قِيل: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ﴾، ولم يُقَلْ: منْهم؛ لأنَّ الظِّلالَ عاليةٌ عليهم[٣].

- ودُنوُّ الظِّلالِ قُرْبُها مِن أهْلِ الجنَّةِ، وإذْ لم يُعهَدْ وَصْفُ الظِّلِّ بالقُربِ فقد قيل: يَظهَرُ أنَّ دُنوَّ الظِّلالِ كِنايةٌ عن تَدلِّي الأدواحِ[٤] الَّتي مِن شَأنِها أنَّ تُظلِّلَ الجَنَّاتِ في مُعتادِ الدُّنيا، ولكنَّ الجنَّةَ لا شَمسَ فيها فيُستظَلَّ مِن حَرِّها؛ فتَعيَّنَ أنَّ تَركيبَ (دَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا) مَثَلٌ يُطلَقُ على تَدلِّي أفنانِ الجنَّةِ؛ لأنَّ الظِّلَّ المُظلِّلَ للشَّخصِ لا يَتفاوَتُ بدُنوٍّ ولا بُعدٍ[٥].

- وجُملةُ ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي: سُخِّرَت لهم قُطوفُ تلك الأدْواحِ وسُهِّلَت

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ١٩٦).

(٤) الدَّوْحَة: الشَّجَرةُ العظيمةُ ذاتُ الفُروعِ المُمتدَّةِ مِن أيِّ الشَّجرِ كانت، جمعُها دَوْحٌ، وأدْواحٌ جمْعُ الجمعِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٦/ ٣٦٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٥٧، و٣٦٦).

لهم بحيثُ لا الْتواءَ فيها ولا صَلابةَ تُتعِبُ قاطِفَها، ولا يَتمطَّونَ إليها، بلْ يَجْتنُونَها بأسهلِ تَناوُلٍ، فعُبِّرَ عن التَّيسيرِ بالتَّذليلِ. و﴿تَذۡلِيلٗا﴾ مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لذلك، أي: تَذليلًا شَديدًا مُنتهِيًا[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ ۝ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٖ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا﴾

- قولُه: ﴿وَيُطَافُ عَلَيۡهِم بِـَٔانِيَةٖ مِّن فِضَّةٖ وَأَكۡوَابٖ كَانَتۡ قَوَارِيرَاْ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ ...﴾ [الإنسان: ٥] إلخ، كما اقتضاهُ التَّناسُبُ بيْن جُملةِ ﴿يَشۡرَبُونَ﴾، وجُملةِ (يُطَافُ عَلَيْهِمْ) في الفِعليَّةِ والمُضارعيَّةِ، وذلك مِن أحسَنِ أحوالِ الوصْلِ، عاد الكلامُ إلى صِفةِ مَجالسِ شَرابِهم. وهذه الجُملةُ بَيانٌ لِما أُجمِلَ في جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ﴾ [الإنسان: ٥]، وإنَّما عُطِفَت عليها؛ لِما فيها مِن مُغايَرةٍ مع الجُملةِ المَعطوفِ عليها مِن صِفةِ آنيةِ الشَّرابِ، فلهذه المُناسَبةِ أُعقِبَ ذِكرُ مَجالسِ أهْلِ الجنَّةِ ومُتَّكآتِهم، بذِكرِ ما يَستتبِعُه ممَّا تَعارَفَه أهلُ الدُّنيا مِن أحوالِ أهلِ البَذَخِ والتَّرَفِ واللَّذَّاتِ بشُرْبِ الخمْرِ؛ إذ يُديرُ عليهم آنيةَ الخمْرِ سُقاةٌ[٢].

- قولُه: ﴿وَيُطَافُ﴾ لَمَّا كان الدَّوَرانُ بالآنيةِ متجدِّدًا، عُبِّر فيه بالمضارعِ[٣]. ﴿وَيُطَافُ﴾ أي: يَطوفُ سُقاةٌ، ذَكَرَه بالبِناءِ للمَفعولِ؛ لأنَّه لَمَّا كان الفاعلُ مَعروفًا لم تكُنْ حاجةٌ إلى ذِكرِ فاعلِ الطَّوافِ[٤]. أو قالَه بالبِناءِ للمفعولِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩١).

وبعْدُ قال: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩] بالبناءِ للفاعِلِ؛ لأنَّ المقصودَ في الأوَّلِ ما يُطافُ به لا الطَّائفونَ، بقَرينةِ قولِه: ﴿بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾، والمقصودَ في الثَّاني الطَّائفونَ، فذُكِرَ في كلٍّ منْهما ما يُناسِبُه[١].

- وعطْفُ (أكوابٍ) على (آنيةٍ) مِن عطْفِ الخاصِّ على العامِّ[٢].

- قيل: أُوثِرَ ذِكرُ آنيةِ الفِضَّةِ هنا؛ لمُناسَبةِ تَشبيهِها بالقَواريرِ في البَياضِ[٣].

- قولُه: ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ * قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: شَبيهةٌ بالقَواريرِ في صَفاءِ اللَّونِ والرِّقَّةِ، حتَّى كأنَّها تَشِفُّ عمَّا فيها. وفِعلُ ﴿كَانَتْ﴾ هنا تَشبيهٌ بَليغٌ، والمعْنى: أنَّها مِثلُ القواريرِ في شَفيفِها، وقَرينةُ ذلك قولُه: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾، أي: هي مِن جِنسِ الفِضَّةِ في لَونِ القَواريرِ[٤].

- ووَصْفُ الأكْوابِ بفِعلِ ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا۠﴾ هو مِن قَبيلِ الفِعلِ «يكونُ» في قولِه: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧]، أي: تَكوَّنَت قَواريرَ بتَكوينِ اللهِ؛ تَفخيمًا لتلك الخِلقةِ العَجيبةِ الشَّأنِ، الجامعةِ بيْن صِفتَيِ الجَوهرينِ المُتباينَينِ[٥].

- ولَفظُ ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الثَّاني يَجوزُ أنْ يكونَ تَأكيدًا لَفظيًّا لنَظيرِه؛ لزِيادةِ تَحقيقِ أنَّ لها رِقَّةَ الزُّجاجِ، فيَكونَ الوقفُ على ﴿قَوَارِيرَا۠﴾ الأوَّلِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣١٥-١٣١٨)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٩٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٣٩٢، ٣٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٤).

تَكريرًا؛ لإفادةِ التَّصنيفِ؛ فإنَّ حُسنَ التَّنسيقِ في آنيةِ الشَّرابِ مِن مُكمِّلاتِ رَونقِ مَجلسِه، فيكونَ التَّكريرُ مِثلَ ما في قولِه تعالَى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقولِ النَّاسِ: قَرأْتُ الكتابَ بابًا بابًا، فيَكونَ الوقفُ على ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الثَّاني[١].

- قُرِئَ ﴿قَوَارِيرًا﴾ الأوَّلُ والثَّاني مُنوَّنَين، وتَنوينُ الأوَّلِ لمُراعاةِ الكلماتِ الواقعةِ في الفواصلِ السَّابقةِ واللَّاحقةِ مِن قولِه: ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥] إلى قولِه: ﴿تَقۡدِيرًا﴾، وتَنوينُ الثَّاني للمُزاوَجةِ مع نَظيرِه، وقُرِئَ ﴿قَوَارِيرًا﴾ الأوَّلُ بالتَّنوينِ، ووُقِفَ عليه بالألِفِ، وهو جارٍ على التَّوجيهِ الأوَّلِ. وقُرِئَ ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الثَّاني بغَيرِ تَنوينٍ على الأصلِ، ولم تُراعَ المُزاوَجةُ، ووُقِفَ عليه بالسُّكونِ، وقُرِئَ بتَرْكِ التَّنوينِ فيهما؛ لمَنْعِ الصَّرفِ وعدَمِ مُراعاةِ الفواصلِ ولا المُزاوَجةِ[٢].

- كَلمةُ ﴿تَقۡدِيرًا﴾ في قولِه: ﴿قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرًا﴾ مَفعولٌ مُطلَقٌ مُؤكِّدٌ لعامِلِه؛ للدَّلالةِ على وَفاءِ التَّقديرِ، وعدَمِ تَجاوُزِه المطلوبَ، ولا تَقصيرِه عنه[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا﴾ أُتبِعَ وَصْفُ الآنيةِ ومَحاسنِها بوَصْفِ الشَّرابِ الَّذي يَحْويه وطِيبِه؛ فالكأسُ كأسُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

قرأ ﴿قَوَارِيرَاْ﴾ الأوَّلَ: نافعٌ وأبو جعفرٍ وابنُ كثيرٍ والكِسائيُّ وخلَفٌ وأبو بكرٍ بالتَّنوينِ بالألِفِ، وقرأها الباقونَ بدونِ تنوينٍ.

وقرأ الثَّانيةَ: نافعٌ وأبو جعفرٍ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ بالتَّنوينِ بالألِفِ، وقرأها الباقونَ بدونِ تنوينٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٤).

الخمْرِ، وهي مِن جُملةِ عُمومِ الآنيةِ المذكورةِ فيما تَقدَّمَ، ولا تُسمَّى آنيةُ الخمرِ كأْسًا إلَّا إذا كان فيها خمْرٌ، فكَونُ الخمْرِ فيها هو مُصحِّحٌ تَسميتَها كأْسًا؛ ولذلك حَسُنَ تَعديةُ فِعلِ السَّقيِ إلى الكأْسِ؛ لأنَّ مَفهومَ الكأسِ يَتقوَّمُ بما في الإناءِ مِن الخمْرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٤، ٣٩٥).

## الآيات (١٩-٢٢)

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿مُّخَلَّدُونَ﴾: أي: لا يَموتونَ، مِن الخُلْدِ وهو البقاءُ، أو: يَبقونَ على حالِهم لا يَتغيَّرونَ، ولا يَكبَرونَ، ولا يَهرَمونَ، والعربُ تقولُ للَّذي لا يَشيبُ: مخلَّدٌ، وقيل: مُحَلَّوْنَ، والتَّخْليدُ التَّحْلِيَةُ، وأصلُ (خلد): يدُلُّ على الثَّباتِ والملازَمةِ[1].

﴿عَالِيَهُمْ﴾: أي: يَعْلوهم، وأصلُ (علو): يدُلُّ على السُّمُوِّ والارتفاعِ[2].

﴿سُندُسٍ﴾: أي: رَقيقِ الحَريرِ[3].

﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾: أي: غليظُ الحَريرِ[4].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٧)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٥٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٣)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ١١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

(٣) يُنظَر: ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٩).

(٤) يُنظَر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٢)، ((تفسير ابن جرير)) (١٥/ ٢٥٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٧٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

١- قَولُه تعالى: ﴿ثَمَّ﴾ اسمُ إشارةٍ للمَكانِ البَعيدِ بمعنى (هُناك) مَبنيٌّ على الفَتحِ في محَلِّ نَصبٍ؛ ظرفُ مكانٍ مُتعَلِّقٌ بـ﴿رَأَيْتَ﴾، ومفعولُ الرُّؤيةِ غيرُ مذكورٍ؛ لأنَّ القَصدَ: وإذا صَدَرَتْ منك رؤيةٌ إلى ذلك المكانِ رَأَيْتَ كَيْتَ وكَيْتَ، فهو مُنَزَّلٌ مَنزِلةَ اللَّازِمِ. وقيل: التَّقديرُ: رأيتَ ما ثَمَّ، فـ«ما» مفعولٌ به، وهو اسمٌ مَوصولٌ حُذِفَ، وقامتَ صِلَتُه «ثَمَّ» مَقامَه، وهو قَولُ الكوفيِّينَ.

٢- قَولُه تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾: في نَصبِ ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه ظَرفٌ مُتعَلِّقٌ بمحذوفٍ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ، و﴿ثِيَابُ﴾ مُبتدَأٌ مؤخَّرٌ، كأنَّه قيل: فوقَهم ثيابُ... الثَّاني: أنَّه حالٌ مِن الضَّميرِ في ﴿عَٰلِيَهُمۡ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩]، وهو اسمُ فاعلٍ، و﴿ثِيَابُ﴾ مرفوعٌ على الفاعليَّةِ به، أي: يَطوفُ عليهم وِلْدانٌ عاليًا للمَطُوفِ عليهم ثِيابٌ، ولم يؤنِّثْ «عالِيًا»؛ لأنَّ «الثِّيابَ» غيرُ حقيقيِّ التَّأنيثِ. وقيل غَيرُ ذلك[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ويَطوفُ على الأبرارِ في الجنَّةِ بالشَّرابِ أو غَيرِه أولادٌ صِغارٌ، إذا رأيتَهم ظَنَنْتَهم -لحُسْنِهم وانتِشارِهم لخِدمةِ الأبرارِ- لُؤلؤًا مُفرَّقًا، وإذا نَظَرْتَ هناك في تِلكَ الجنَّةِ أبصَرْتَ نَعيمًا ومُلْكًا عَظيمًا، عليهم ثيابٌ مِن حريرٍ رقيقٍ أخضَرِ اللَّونِ، ومِن فَوقِها ثيابٌ مِن حريرٍ غَليظٍ له بَريقٌ ولَمَعانٌ، وحُلُّوا أساوِرَ مِن فِضَّةٍ، وسقاهم اللهُ شَرابًا طاهِرًا مُطَهَّرًا لهم مِن كُلِّ أذًى.

يُقالُ للأبرارِ: إنَّ هذا النَّعيمَ ثوابٌ لكم على ما عَمِلْتُموه في الدُّنيا، وكان سَعْيُكم بالأعمالِ الصَّالحةِ مَشكورًا مُتَقَبَّلًا.

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٦٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦١٤، ٦١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٧٨).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى ذكَرَ مَن يكونُ خادِمًا في تلك المجالِسِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذكَرَ المَطوفَ به؛ لأنَّه الغايةُ المقصودةُ- وصَفَ الطَّائِفَ؛ لِما في طَوافِه مِن العَظَمةِ المشهودةِ؛ تصويرًا لِما هم فيه مِن المُلْكِ، بعدَما نَجَوا منه من الهُلْكِ[٢].

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾.

أي: ويَدورُ على الأبرارِ في الجنَّةِ بالشَّرابِ أو غَيرِه أولادٌ صِغارٌ على سنٍّ واحِدةٍ، فلا يَهرَمونَ ولا يموتونَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٤، ٥٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال الرَّسْعَني: (قولُه تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: مُبْقَوْنَ أبدًا على شكلِ الوِلْدانِ، لا يَكبَرونَ، ولا يَنقُصونَ، ولا يَتغيَّرونَ، ولا يَموتونَ. هذا قولُ جمهورِ العُلماءِ). ((تفسير الرسعني)) (٧/ ٥٩٤) و (٨/ ٤١٩).

وقال الفرَّاء: (ويُقالُ: ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ مُقرَّطونَ. ويُقالُ: مُسَوَّرونَ). ((معاني القرآن)) (٣/ ١٢٣). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦).

قال ابن كثير: (﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: على حالةٍ واحدةٍ مُخَلَّدونَ عليها، لا يَتغيَّرون عنها، لا تَزيدُ أعمارُهم عن تلك السِّنِّ. ومَن فسَّرهم بأنَّهم مُخرَّصونَ في آذانِهم الأقْرِطةُ، فإنَّما عبَّر عن المعنى بذلك؛ لأنَّ الصَّغيرَ هو الَّذي يَليقُ له ذلك دونَ الكبيرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢).

وقال ابنُ القيِّم: (الأشبَهُ أنَّ هؤلاء الوِلدانَ مَخلوقونَ مِنَ الجنَّةِ كالحُورِ العِينِ خَدَمًا لهم وغِلْمانًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]، وهؤلاء غيرُ =

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾.

أي: إذا رأيتَ أولئك الوِلدانَ ظَنَنْتهم -لحُسْنِهم وبَياضِهم وصَفاءِ لَونِهم، وكَثرتِهم وانتِشارِهم لخِدمةِ الأبرارِ- لُؤلؤًا مُفرَّقًا[1].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر تَفصيلَ أحوالِ أهلِ الجنَّةِ؛ أتْبَعَه بما يدُلُّ على أنَّ هناك أمورًا أعلى وأعظَمَ مِن هذا القَدْرِ المذكورِ[2].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر المخدومَ والخَدَمَ؛ شَرَع في ذِكْرِ المكانِ[3].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وإذا نَظَرْتَ هناك في تِلكَ الجنَّةِ أبصَرْتَ نَعيمًا ومُلْكًا عَظيمًا وسُلطانًا باهِرًا أعَدَّه اللهُ تعالى للأبرارِ[4].

---

= أولادِهم؛ فإنَّ مِن تمامِ كرامةِ الله تعالى لهم أن يجعَلَ أولادَهم مخدومينَ معهم، ولا يَجعَلَهم غِلمانًا لهم). ((حادي الأرواح)) (ص: ٢١٦). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قيل: الخِطابُ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٣١).

وقيل: الخِطابُ لغَيرِ مُعَيَّنٍ، أي: إذا رأيتَ أيُّها الرَّائي. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٦-٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢). =

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ آخِرَ أهلِ الجنَّةِ دُخولًا الجنَّةَ، وآخِرَ أهلِ النَّارِ خُروجًا مِنَ النَّارِ: رَجُلٌ يَخرُجُ حَبْوًا[١]، فيقولُ له رَبُّه: ادخُلِ الجنَّةَ. فيقولُ: رَبِّ، الجنَّةُ مَلَأْى. فيقولُ له ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ، فكُلُّ ذلك يُعيدُ عليه: الجنَّةُ مَلْأَى. فيقولُ: إنَّ لك مِثلَ الدُّنيا عَشْرَ مِرارٍ!))[٢].

﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٖ وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر الدَّارَ وساكِنيها مِن مخدومٍ وخَدَمٍ؛ ذَكَر لِباسَهم[٣].

﴿عَٰلِيَهُمۡ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضۡرٞ وَإِسۡتَبۡرَقٞ﴾.

أي: على أولئك الأبرارِ ثيابٌ مِن حريرٍ رقيقٍ أخضَرِ اللَّونِ، ومِن فَوقِها ثيابٌ مِن حريرٍ غَليظٍ له بَريقٌ ولَمَعانٌ[٤].

---

= قيل الخِطابُ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢).

وقيل: الخِطابُ لغيرِ مُعيَّنٍ. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ، ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧).

قال الزمخشري: (ومعناه: أنَّ بصَرَ الرَّائي أيْنَما وقَع لم يَتعلَّقْ إدراكُه إلَّا بنَعيمٍ كثيرٍ، ومُلكٍ كبيرٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٣).

(١) حَبْوًا: أي: زَحْفًا. يُنظر: ((مشارق الأنوار على صحاح الآثار)) للقاضي عياض (١/ ١٧٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٧٥١١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٧-٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٦)، ((حادي =

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾.

أي: وحُلُّوا أساوِرَ مِن فِضَّةٍ يَلبَسونَها في أيديهم زِينةً لهم[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِي اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تَبلُغُ الحِلْيةُ مِن المؤمِنِ حيثُ يَبلُغُ الوَضوءُ[٢]))[٣].

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾.

أي: وسقَى اللهُ الأبرارَ شَرابًا بالِغَ الطَّهارةِ في نَفْسِه، لا كدَرَ فيه بوَجهٍ مِن الوُجوهِ، مُطَهِّرًا لهم مِن كُلِّ أذًى أو سُوءٍ[٤]!

---

= الأرواح)) لابن القيم (ص: ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣).

قال أبو عليٍّ الفارسيُّ في قولِه: ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾: (قد أُجيزَ أن يكونَ ظَرفًا، كأنَّه لَمَّا كان «عالٍ» بمعنَى «فوقَ»؛ أُجريَ مُجراهُ في هذا). ((الحجة للقراء السبعة)) (٦/ ٣٥٥).

قال الفرَّاء: (﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ﴾... جعَلوها كالصِّفةِ «فوقَهم». والعربُ تقولُ: قَومُك داخلَ الدَّارِ، فيَنصبون داخلَ الدَّارِ؛ لأنَّه محَلٌّ، فـ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ مِن ذلك). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢١٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٢).

وقيل: المعنى: يَطوفُ على الأبرارِ وِلْدانٌ، عاليًا الأبرارَ ثيابُ سُنْدُسٍ. وذلك على أنَّ ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ حالٌ مِن الهاءِ والميمِ في «يَطوفُ عليهم».

وقيل: المعنى: حَسِبْتَهم لُؤلؤًا في حالِ عُلوِّ الثِّيابِ إيَّاهم. وذلك على أنَّ ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ حالٌ مِن الهاءِ والميمِ في ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٢٠). ويُنظر ما تقدَّم في مُشْكِل الإعرابِ (ص: ٣٧٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(٢) الحِليةُ: البياضُ الحاصِلُ للمؤمِنِ يومَ القيامةِ في أعضاءِ الوُضوءِ، أي: يَبلُغُ النُّورُ. وقيل: المرادُ بـ (الحلية): الزِّينةُ في الجنَّةِ مِن السِّوارِ والخَلْخَالِ. و«الوَضوءُ» بالفتحِ، أي: ماءُ وُضوئِه مِن الأعضاءِ. يُنظر: ((شرح المصابيح)) لابن الملك (١/ ٢٣٤).

(٣) رواه مسلم (٢٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٦٩)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٢٣٥)، =

= ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

الطهور فيه قولان:

القولُ الأوَّلُ: أنَّه مبالغةٌ في كونِه طاهرًا.

قال الرازي: (فيه على هذا التفسيرِ احتمالاتٌ: أحدُها: أنَّه لا يكونُ نجسًا كخمرِ الدُّنيا. وثانيها: المبالغةُ في البعدِ عن الأمورِ المستقذرةِ، يعني ما مسَّتْه الأيدي الوَضِرةُ، وما داسَتْه الأقدامُ الدَّنسةُ. وثالثُها: أنَّها لا تَؤولُ إلى النجاسةِ؛ لأنَّها ترشحُ عرقًا مِن أبدانِهم، له ريحٌ كريحِ المسكِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٥).

ممن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: أنَّه طاهِرٌ مُنَزَّهٌ عمَّا في أمثالِه مِن شَرابِ الدُّنيا مِنَ الخبائثِ والفَسادِ والأقذارِ: الثعلبيُّ، والخازن، وجلال الدين المحلي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٠).

قال البقاعي: (﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: ليس هو كشَرابِ الدُّنيا؛ سواءٌ كان مِن الخَمرِ أو مِن الماءِ أو مِن غيرِهما). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٥٠).

وقال العُلَيمي: (﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ طاهرًا مِن الأقذارِ، لم تَدُسْه الأقدامُ، ولم تمَسَّه الأيدي الوَسِخةُ، كخَمرِ الدُّنيا، ولا يصيرُ بَولًا؛ وذلك أنَّهم إذا طَعِموا وشَربوا، فيصيرُ ما أكلوا طِيبًا يخرجُ مِن أبدانِهم كأطيَبَ مِن رِيحِ المِسكِ، وتَضمُرُ بُطونُهم، وتعودُ شَهوتُهم). ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٤٠).

والقولُ الثاني في الطَّهورِ: أنَّه المطهِّرُ؛ لأنَّه يُطهِّرُ باطنَهم عن الأخلاقِ الذَّميمةِ، والأشياءِ المؤذيةِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٥).

وممن اختار في الجملةِ أن المرادَ بقَولِه تعالى: ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾: أي أنه مُطَهِّرٌ لبواطِنِ شاربيه مِن كُلِّ أذًى ونَقْصٍ: ابنُ القيِّم، وابنُ كثير. يُنظر: ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٢٣٥)، ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) لابن القيم (ص: ١٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣).

قال ابنُ كثير: (أي: طهَّرَ بواطِنَهم مِنَ الحَسَدِ والحِقْدِ والغِلِّ والأذَى، وسائِرِ الأخلاقِ الرَّدِيَّةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَين في الجملةِ: البِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٠، ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾.

أي: يُقالُ للأبرارِ: إنَّ هذا النَّعيمَ الَّذي أُوتيتُموه في الجنَّةِ هو ثوابٌ لكم على ما عَمِلْتُموه في الدُّنيا مِن خَيرٍ[1].

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

أي: وما عَمِلْتُم مِن خَيرٍ فإنَّ اللهَ يَشكُرُه لكم، فيَتقَبَّلُه منكم ولو كان قليلًا، ويُثيبُكم عليه ثَوابًا عَظيمًا[2].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أحسَنُ مَن يُتَّخَذُ للخِدْمةِ الوِلْدانُ؛ لأنَّهم أخَفُّ حَرَكةً، وأسرَعُ مَشْيًا، ولأنَّ المخدومَ لا يتحَرَّجُ إذا أمَرَهم أو نهاهم[3].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ هذا مِن تمامِ لَذَّةِ أهلِ الجنَّةِ؛ أن يكونَ خُدَّامَهم الوِلْدانُ المخَلَّدونَ، الَّذين تَسُرُّ رؤيتُهم، ويَدخُلونَ على مَساكِنِهم آمِنينَ مِن تَبِعَتِهم، ويَأتونَهم بما يَدْعُونَ وتَطلُبُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال ابنُ عاشور: (مِن تمامِ الإكرامِ عندَ الكرامِ أن يُتْبِعوا كرامتَهم بقَولٍ يَنشَطُ له المُكرَمُ، ويُزيلُ عنه ما يَعرِضُ مِن خَجَلٍ ونَحْوِه، أي: هو جزاءٌ حَقًّا لا مُبالَغةَ في ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧).

نُفوسُهم[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنثُورًا﴾ أي: إذا رأيتَهم في انتِشارِهم في قَضاءِ حَوائِجِ السَّادةِ، وكَثْرتِهم، وصَباحةِ وُجوهِهم، وحُسْنِ ألوانِهم وثيابِهم وحُلِيِّهم؛ حَسِبْتَهم لؤلؤًا مَنثورًا، ولا يكونُ في التَّشبيهِ أحسَنُ مِن هذا، ولا في المنظَرِ أحسَنُ مِن اللُّؤلُؤِ المنثورِ على المكانِ الحَسَنِ[٢]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أنَّ أهلَ الجَنَّةِ كلَّهم ملوكٌ فيها[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ دَلَّتْ لفظةُ: ﴿عَالِيَهُمْ﴾ على كَونِ ذلك اللِّباسِ ظاهِرًا بارِزًا يُجَمِّلُ ظواهِرَهم، ليس بمَنزِلةِ الشِّعارِ الباطِنِ، بل الَّذي يُلبَسُ فوقَ الثِّيابِ للزِّينةِ والجَمالِ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ تأمَّلْ كيف جَمَعَ سُبحانَه لهم بَيْنَ نَوعَي الزِّينةِ الظَّاهِرةِ مِن اللِّباسِ والحُلِيِّ، كما جَمَعَ لهم بيْن الظَّاهرةِ والباطنةِ؛ فجَمَّلَ سُبحانَه البواطِنَ بالشَّرابِ الطَّهُورِ، والسَّواعِدَ بالأساورِ، والأبدانَ بثيابِ الحَريرِ[٥].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ فيه سؤالٌ: قال تعالى في سورةِ (الكَهفِ): ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]، فكيف جَعَل تلك الأساورَ هاهنا مِن فِضَّةٍ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٩٩).

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّهما جنَّتانِ أوانيهما وجميعُ ما فيهما مِن فِضَّةٍ، وأُخْرَيانِ أوانيهما وجميعُ ما فيهما مِن ذَهَبٍ(١).

**الثَّاني**: أنَّ قولَه: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ هذا في صِفةِ الأبرارِ، وأمَّا المقرَّبونَ فكما قال: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾(٢) [الحج: ٢٣].

**الثَّالثُ**: أنَّه لا مُنافاةَ بيْن الأمْرَينِ؛ فلَعلَّهم يُسَوَّرونَ بالجِنسَينِ؛ إمَّا على المُعاقَبةِ، أو على الجَمعِ، كما تفعَلُ النِّساءُ في الدُّنيا.

**الرَّابعُ**: أنَّ الطِّباعَ مُختَلِفةٌ، فرُبَّ إنسانٍ يكونُ استِحسانُه لبياضِ الفِضَّةِ فوقَ استِحسانِه لصُفرةِ الذَّهَبِ؛ فاللهُ تعالى يُعطي كُلَّ أحدٍ ما تكونُ رَغبتُه فيه أتَمَّ، ومَيْلُه إليه أشَدَّ. وقيل غَيرُ ذلك(٣).

٨- قولُه تعالى: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ استدَلَّ بعضُ العلماءِ بمفهومِ المُخالَفةِ في هذه الآيةِ على أنَّ الخمرَ نجِسةُ العَينِ؛ لأنَّ وصْفَه لشَرابِ أهلِ الجنَّةِ بأنَّه طَهورٌ يُفهَمُ منه أنَّ خمرَ الدُّنيا ليست كذلك، وممَّا يؤيِّدُ هذا أنَّ كلَّ الأوصافِ الَّتي مدَحَ بها تعالى خمرَ الآخرةِ مَنفيَّةٌ عن خمرِ الدُّنيا(٤). وذلك على

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٣).

ويُنظر ما تقدَّم: (ص: ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٥).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٢٦).

والخَمرُ نَجِسةٌ نجاسةً عينيَّةً باتِّفاقِ المَذاهِبِ الفِقهيَّةِ الأربَعةِ: الحنفيَّة، والمالكيَّة، والشَّافعيَّة، والحنابلة. يُنظر: ((العناية شرح الهداية)) للبابَرْتي (١٠/ ٩٩)، ((حاشية الدسوقي)) (١/ ٤٩، ٥٠)، ((المجموع)) للنووي (٢/ ٥٦٣)، ((الإنصاف)) للمَرْداوي (١/ ٣١٩).

قولٍ في التَّفسيرِ.

٩- الفرْقُ بيْنَ «سقَى» و«أسقى»: أنَّ «سَقَى» لِمَا لا كُلْفةَ معَه في السُّقْيا؛ ولهذا أوْرَدَه تعالى فِي شَرابِ الجَنَّةِ، فقال: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾. و«أَسْقَى» لِمَا فيه كُلْفةٌ؛ ولهذا أوْرَدَه في شَرابِ الدُّنْيا، فقال: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦]؛ لأنَّ السُّقْيا في الدُّنيا لا تَخْلُو مِن الكُلْفةِ أبَدًا[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾

- وُصِفَ الوِلدانُ بأنَّهم ﴿مُّخَلَّدُونَ﴾؛ للاحتِراسِ ممَّا قد يُوهِمُه اشتِقاقُ ﴿وِلْدَٰنٌ﴾ مِن أنَّهم يَشِبُّون ويَكتهِلون، أي: لا تَتغيَّرُ صِفاتُهم، فهُمْ وِلدانٌ دَومًا، وإلَّا فإنَّ خُلودَ الذَّواتِ في الجنَّةِ مَعلومٌ، فما كان ذِكرُه إلَّا لأنَّه تَخليدٌ خاصٌّ[٢].

- والحِكمةُ في تَشبيهِ الوِلدانِ باللُّؤلؤِ المَنثورِ دونَ المَنظومِ: أنَّه تعالَى أراد تَشبيهَهُم -لحُسنِهم وانتشارِهم في الخِدمةِ- باللُّؤلؤِ الَّذي لم يُثقَبْ، وهو أشدُّ صَفاءً، وأحسَنُ مَنظرًا ممَّا ثُقِبَ؛ لأنَّه إذا ثُقِب نَقَص صَفاؤه ومائيَّتُه، وما لم يُثقَبْ لا يكونُ إلَّا مَنثورًا[٣]. وقيل: شُبِّهوا باللُّؤلؤِ الرَّطبِ إذا نُثِرَ مِن صَدَفِه؛ لأنَّه أحسَنُ وأكثَرُ ماءً[٤].

---

(١) يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٣٨٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٢، ٦٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (١٠/ ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٢، ٦٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٥).

وقيل: في كَونِه منثورًا فائدتان؛ إحداهُما: الدَّلالةُ على أنَّهم غيرُ معطَّلينَ، بل مَبثوثونَ في خِدمتِهم وحوائجِهم. والثَّانيةُ: أنَّ اللُّؤلؤَ إذا كان منثورًا -ولا سيَّما على بِساطٍ مِن ذهبٍ أو حريرٍ- كان أحسَنَ لِمَنظرِه، وأبهى مِن كَونِه مجموعًا في مكانٍ واحدٍ[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ تَشبيهٌ بَليغٌ، أي: مِثلَ أحوالِ المُلكِ الكبيرِ المُتنعِّمِ ربُّه، وفائدةُ هذا التَّشبيهِ تَقريبُ المُشبَّهِ لمَداركِ العُقولِ[2].

- وفِعلُ (رَأيتَ) الأوَّلُ مُنزَّلٌ مَنزلةَ اللَّازمِ، يدُلُّ على حُصولِ الرُّؤيةِ فقطْ، لا تَعلُّقِها بمَرئيٍّ، أي: إذا وجَّهْتَ نَظَرَك، و(رَأيتَ) الثَّاني جَوابُ (إذا)، أي: إذا فَتحْتَ عَينَك تَرى نَعيمًا، والتَّقييدُ بـ (إذا) أفاد معْنى الشَّرطيَّةِ؛ فدَلَّ على أنَّ رُؤيةَ النَّعيمِ لا تَتخلَّفُ عن بصَرِ المُبصِرِ هنالك، فأفادَ معْنى: لا تَرى إلَّا نَعيمًا، أي: بخِلافِ ما يرى في جِهاتِ الدُّنيا[3].

وقيل: مَفعولُ فِعلِ الشَّرطِ مَحذوفٌ؛ حُذِفَ اقتِصارًا، والمعْنى: وإذا رمَيتَ ببَصرِك هناك. وقيل: التَّقديرُ: وإذا رَأيتَ ما ثَمَّ، فحُذِفَ (ما)[4].

٣- قولُه تعالَى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾

- قولُه: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ هذه الأشياءُ

---

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٨، ٣٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٧، ٣٩٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٥).

مِن شِعارِ الملوكِ في عُرفِ الناسِ زَمانَئذٍ، فهذا مُرتبِطٌ بقولِه: ﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾[١] [الإنسان: ٢٠].

- قولُه: ﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ عُطِفَ على ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾، وساغ عطْفُ الماضي على المُضارِعِ؛ لأنَّه مُستقبَلُ المَعنى، وللإيذانِ بتَحقيقِه[٢].

- قولُه: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ احتِراسٌ ممَّا يُوهِمُه شُرْبُهم مِن الكأْسِ المَمزوجةِ بالكافورِ والزَّنجبيلِ مِن أنْ يكونَ فيها ما في أمْثالِها المعروفةِ في الدُّنيا، ومِن الغَولِ، وسُوءِ القولِ والهَذيانِ، فعُبِّرَ عن ذلك بكَونِ شَرابِهم طَهورًا بصِيغةِ المُبالَغةِ في الطَّهارةِ، وهي النَّزاهةُ مِن الخَبائثِ، أي: مُنزَّهًا عمَّا في غيرِه مِن الخَباثةِ والفَسادِ[٣].

- وأُسنِدَ سَقْيُ الشَّرابِ إلى ربِّهم؛ إظهارًا لكَرامتِهم، أي: أمَر هو بسَقْيِهم، كما يُقالُ: أطْعَمَهم رَبُّ الدَّارِ وسَقاهم[٤]. أو أُسنِدَ سَقْيُه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه أُرِيدَ به نوعٌ آخَرُ يَفوقُ على النَّوعينِ المُتقدِّمَينِ[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ هذا الكلامُ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، والقولُ المحذوفُ يُقدَّرُ فِعلًا في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ الغائبِ في (سَقَاهُمْ)، نحْو: يُقالُ لهم، أو يقولُ لهم ربُّهم، أو يُقدَّرُ اسمًا هو حالٌ مِن ذلك الضَّميرِ، نحْو: مَقولًا لهم هذا اللَّفظُ، أو قائلًا لهم هذا اللَّفظَ. والإشارةُ إلى

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٥).

ما يكونُ حاضِرًا لَدَيهم مِن ألوانِ النَّعيمِ المَوصوفِ فيما مَضى مِن الآياتِ، والمقصودُ مِن ذلك الثَّناءُ على الأبرارِ بما أسْلَفوا مِن تَقْوى اللهِ، وتَكرِمتُهم بذلك، وتَنشيطُ أنفُسِهم بأنَّ ما أنْعَمَ به عليهمْ هو حَقٌّ لهم جَزاءً على عَمَلِهم[1].

- وإقحامُ فِعلِ ﴿كَانَ﴾ للدَّلالةِ على تَحقيقِ كَونِه جَزاءً، لا مَنًّا عليهم بما لم يَستحقُّوا[2].

- والإتيانُ بفِعلِ ﴿كَانَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾؛ للدَّلالةِ على تَحقيقِ كَونِه سَعْيًا مَشكورًا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٣-٢٦)

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾.

### غَرِيبُ الكَلِماتِ:

﴿بُكْرَةً﴾: أي: أوَّلَ النَّهارِ، وأصلُ (بكر): يدُلُّ على أوَّلِ الشَّيءِ وبَدئِه[1].

﴿وَأَصِيلًا﴾: أي: آخِرَ النَّهارِ، وما بيْنَ العَصرِ إلى اللَّيلِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مثبِّتًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم: إنَّا نحن نَزَّلْنا عليك -يا محمَّدُ- القُرآنَ تَنزيلًا مُفرَّقًا، فاصبِرْ لحُكمِ اللهِ على تبليغِ رِسالتِه، وما تَلْقاه مِن أذًى في سَبيلِ ذلك، وعلى تأخيرِ نَصرِك، ولا تُطِعْ فاجِرًا يَدعوك إلى مَعصيةِ اللهِ، أو كافِرًا باللهِ يدعوك لعبادةِ غَيْرِه.

ثمَّ يرشدُ الله سُبحانَه نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ما يُعينُه على الصَّبرِ والثَّباتِ، فيقولُ: واذكُرِ اسمَ رَبِّك -يا محمَّدُ- في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه، واسجُدْ للهِ تعالى في صَلاتِك في اللَّيلِ، وسَبِّحْه وَقتًا طَويلًا مِنَ اللَّيلِ.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ١٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٤/ ١٩٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٥).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ أوَّلًا حالَ الإنسانِ وقسَّمَه إلى العاصي والطَّائعِ؛ ذَكَرَ ما شرَّفَ به نَبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر أصنافَ الوعدِ والوَعيدِ؛ بيَّنَ أنَّ هذا الكتابَ يتضَمَّنُ ما بالنَّاسِ حاجةٌ إليه، فليس بسِحرٍ ولا كِهانةٍ ولا شِعرٍ، وأنَّه حَقٌّ(٢).

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾.

أي: إنَّا نحن نَزَّلْنا عليك -يا محمَّدُ- القُرآنَ تَنزيلًا مُفَرَّقًا بحَسَبِ الحِكْمةِ(٣).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾.

أي: فاصبِرْ لحكَمِ ربِّك القَدَريِّ -ومنه تأخيرُ نَصرِك، وما يَنالُك مِن أذًى- فلا تَسخَطْه، ولِحُكمِه الدِّينيِّ مِن القيامِ بما ألْزَمَك القيامَ به في كِتابِه، وتبليغِ رِسالتِه، وتحمُّلِ ما تَلْقاه مِن أذى المُشرِكين في سَبيلِ ذلك(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: قضائِه: القرطبيُّ، وابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: =

كما قال الله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مِن ضُروبِ إعراضِهم عن قَبولِ دَعوتِه، ضَرْبٌ فيه رَغباتٌ منهم، مِثلُ أنْ يَترُكَ قَرْعَهم بقَوارِعِ التَّنزيلِ مِن تَأفينِ رأْيِهم، وتَحقيرِ دِينِهم وأصْنامِهم، ورُبَّما عَرَضوا عليه الصِّهرَ معهم، أو بَذْلَ المالِ منهم؛ أُعقِبَ أمْرُه بالصَّبرِ على ما هو مِن ضُروبِ الإعراضِ في صَلابةٍ وشِدَّةٍ؛ بأنْ نَهاهُ عن أنْ يُطِيعَهم في الضَّربِ الآخَرِ مِن ضُروبِ الإعراضِ الواقعِ في قالَبِ اللِّينِ والرَّغبةِ[1].

---

= ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٦).

قال الشوكاني: (ومِن حُكْمِه وقَضائِه تأخيرُ نَصرِك إلى أجَلٍ اقْتَضَتْه حِكْمَتُه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٦).

وقال ابن جرير: (اصْبِرْ لِمَا امْتَحَنَك به رَبُّكَ مِن فَرائِضِه، وتبليغِ رِسالاتِه، والقيامِ بما أَلْزَمَك القيامَ به في تَنزِيلِه الَّذي أوحاه إليك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٢).

وقال ابنُ عطيَّة: (وحُكْمُ رَبِّه: هو أن يُبَلِّغَ ويُكافِحَ، ويَتحَمَّلَ المشَقَّةَ، ويَصبِرَ على الأذى؛ ليُعذِرَ اللهُ إليهم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٤).

وممَّن جمَع بيْنَ المعاني السَّابقةِ: البِقاعي، والسعديُّ:

قال البقاعي: (﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: المحسِنِ إليك بتَخصيصِه لك بهذه النِّعمةِ، على ضلالِ مَن حَكَم بضَلالِه، وعلى كلِّ ما يَنوبُك، وأَطِعْه في التَّعبُّدِ له بجميعِ ما أمَرَك به مِن الرِّفقِ، إلى أن يأمُرَك بالسَّيفِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٥٤).

وقال السعدي: (اصبِرْ لِحُكمِه القَدَريِّ، فلا تَسخَطْه، ولِحُكْمِه الدِّينيِّ، فامْضِ عليه، ولا يُعَوِّقْك عنه عائِقٌ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٣).

﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾.

أي: ولا تُطِعْ فاجِرًا يَدْعوك إلى مَعصيةِ اللهِ، أو كافِرًا باللهِ جَحُودًا لنِعَمِه يدعوك لعبادةِ غَيرِه(١).

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ٢٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نهَى عن طاعَةِ الآثمِ والكفورِ القاطِعةِ عن اللهِ؛ أمَرَ بمُلازَمةِ الموصِلِ إلى اللهِ، وهو الذِّكرُ(٢).

وأيضًا لَمَّا نَهى اللهُ سُبحانَه وتعالَى حَبيبَه صَلواتُ اللهِ عليه، عن طاعةِ الآثِمِ والكَفورِ، وحثَّه على الصَّبرِ على أذاهم، وإفراطِهم في العَداوةِ، وأراد أنْ يُرشِدَه إلى مُتاركتِهم- عقَّبَ ذلك بالأمرِ باستغراقِ أوقاتِه بالاشتِغالِ بالعِبادةِ لَيلًا ونَهارًا(٣). وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢).

قال الرازي: (كُلُّ مَن عَبَد غَيرَ اللهِ فقد اجتَمَع في حَقِّه هذان الوَصفانِ؛ لأنَّه لَمَّا عَبَد غَيْرَه، فقد عصاه وجَحَد إنعامَه). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٩).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ ... «الكَفُور» هو الآثِمُ أيضًا، لكِنَّه عَطفُ خاصٍّ على عامٍّ. وقد قيل: هما وصفانِ لموصوفٍ واحدٍ، وهو أبلَغُ). ((مجموع الفتاوى)) (٢١/ ٣٨٨). ويُنظر ما سيأتي في البلاغةِ (ص: ٣٩٨).

وقال ابن عاشور: (كان المُشرِكونَ يَعمِدونَ إلى الطَّلَبِ مِنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن يَفعَلَ ما يَرغَبونَ، مِثلُ: طَرْدِ ضُعَفاءِ المؤمِنينَ مِنَ المجلِسِ، والإتيانِ بقُرآنٍ غيرِ هذا أو تبديلِه بما يُشايِعُ أحوالَهم، وأنْ يَكُفَّ عمَّا لا يُريدونَ وُقوعَه مِن تحقيرِ آلهتِهم، والجَهْرِ بصَلاتِه؛ فحَذَّرَه اللهُ مِنَ الاستماعِ لِقَولِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢١٢، ٢١٣).

وأيضًا لَمَّا كان الصَّبرُ يُساعِدُه القيامُ بعبادةِ اللهِ، والإكثارُ مِن ذِكْرِه؛ أمَرَه اللهُ بذلك، فقال[١]:

﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾.

أي: واذكُرِ اسمَ رَبِّك -يا محمَّدُ- في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه[٢].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ٢٦﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾.

أي: واسجُدْ للهِ تعالى في صَلاتِك في اللَّيلِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤).

قيل: المرادُ: صَلِّ لرَبِّك أوَّلَ النَّهارِ صَلاةَ الصُّبحِ، وصَلِّ في آخِرِه صَلاةَ الظُّهرِ والعَصْرِ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، ومكِّيٌّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠).

وقيل: المرادُ: الذِّكْرُ باللِّسانِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبِقاعي، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٥، ١٥٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٦).

وقيل بالعُمومِ، فيَدخُلُ في ذلك: الصَّلَواتُ المكتوباتُ وما يَتْبَعُها مِن النَّوافلِ، والذِّكرُ، والتَّسبيحُ، والتَّهليلُ، والتَّكبيرُ. وممَّن ذهب إلى هذا في الجملةِ: القاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

قيل: المرادُ: صلاةُ المغرِبِ والعِشاءِ. وممَّن قال بهذا: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والماوَرْدي، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) =

﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾.

أي: وسَبِّحِ اللهَ تعالى وَقتًا طَويلًا مِنَ اللَّيلِ(١).

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ﴾ [طه: ١٣٠].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٨، ٤٩].

---

= (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٧).

وقيل: المرادُ: صلاةُ العِشاءِ، والوترُ، وقيامُ اللَّيلِ. وممَّن قال بهذا: ابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٢٣/ ٨٧).

وقيل: المراد: قيامُ اللَّيلِ. وممَّن ذهب إليه: القاسميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٧٨).

وقال ابنُ عاشور: (هذا خاصٌّ بصلاةِ اللَّيلِ فَرضًا ونَفلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

قيل: المرادُ بالتَّسبيحِ هنا: قيامُ اللَّيلِ. وممَّن قال بهذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٧).

وقيل: المرادُ: تنزيهُ اللهِ تعالى عمَّا لا يَليقُ به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠).

وقال ابن عاشور: (التَّسبيحُ: التَّنزيهُ بالقَولِ وبالاعتقادِ، ويَشملُ الصَّلَواتِ والأقوالَ الطَّيِّبةَ، والتَّدَبُّرَ في دَلائلِ صِفاتِ اللهِ وكَمالاتِه، وغَلَب إطلاقُ مادَّةِ التَّسبيحِ على الصَّلاةِ النَّافِلةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ أنَّه كان مِن المنتَظَرِ أنْ يُقالَ: «فاشكُرْ نِعمةَ رَبِّك»، ولكِنَّه عزَّ وجلَّ قال: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ مَن قام بهذا القرآنِ فلا بُدَّ أنْ يَنالَه ما يَنالُه ممَّا يحتاجُ إلى صبرٍ، وانظرْ إلى حالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ ضَرَبه قَومُه فأَدْمَوه، وهو يَمْسَحُ الدَّمَ عن وَجْهِه الشَّريفِ، ويقولُ: ((اللَّهُمَّ اغفِرْ لِقَومي؛ فإنَّهم لا يَعلَمونَ!))[١]؛ فعلى الدَّاعيةِ أنْ يكونَ صابِرًا مُحتَسِبًا[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ أنَّه لَمَّا كان لا سَبيلَ إلى الصَّبرِ إلَّا بتعويضِ القَلْبِ بشَيءٍ هو أحَبُّ إليه مِن فَواتِ ما يَصبِرُ على فَوْتِه، أمَرَه بأنْ يَذْكُرَ ربَّه سُبحانَه بُكْرةً وأَصيلًا؛ فإنَّ ذِكْرَه أعظمُ العَونِ على تَحَمُّلِ مَشاقِّ الصَّبرِ، وأنْ يَصْبِرَ لرَبِّه باللَّيلِ فيَكونَ قيامُه باللَّيلِ عَونًا على ما هو بصَدَدِه بالنَّهارِ، ومادَّةً لِقُوَّتِه ظاهِرًا وباطِنًا، ولنَعيمِه عاجِلًا وآجِلًا[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما كان يُطِيعُ أحَدًا منهم، لكِنَّ المقصودَ بَيانُ أنَّ النَّاسَ مُحتاجونَ إلى مُواصَلةِ التَّنبيهِ والإرشادِ؛ مِن أجْلِ ما تركَّبَ فيهم مِن الشَّهَواتِ الدَّاعيةِ إلى الفَسادِ، وأنَّ أحدًا لو استَغنَى عن توفيقِ اللهِ وإمدادِه وإرشادِه، لَكان أحَقُّ النَّاسِ به هو الرَّسولَ المعصومَ، ومتى ظَهَر ذلك عَرَف كُلُّ مُسلِمٍ أنَّه لا بُدَّ له مِن الرَّغبةِ إلى اللهِ، والتَّضَرُّعِ

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٣٤٧٧) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٧٩٢).

(٢) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ٢٤).

(٣) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٥).

إليه أن يَصونَه عن الشُّبُهاتِ والشَّهَواتِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾ فَضْلُ العبادةِ باللَّيلِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلٗا * فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، و(على) تُفيدُ الاستِعلاءَ، أي: أنَّه نَزَل إلى الرَّسولِ مِن فَوقٍ، وتُفيدُ أيضًا التَّحَمُّلَ؛ لأنَّه نَزَل عليه كأنَّه فوقَه، والشَّيءُ الَّذي فوقَك لا بدَّ أن تتحمَّلَه؛ ممَّا يدُلُّ على ثِقَلِ القُرآنِ. قال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[٣] [المزمل: ٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا﴾ فيه سُؤالٌ: قَولُه: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، دَخَل فيه أنْ لا تُطِعْ منهم آثمًا أو كَفُورًا، فكان ذِكْرُه بَعْدَ هذا تكريرًا؟

**الجوابُ**: الأوَّلُ أمرٌ بالمأموراتِ، والثَّاني نهيٌ عن المنهيَّاتِ، ودَلالةُ أحَدِهما على الآخَرِ بالالتزامِ لا بالتَّصريحِ، فيكونُ التَّصريحُ به مُفيدًا[٤].

٣- قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورٗا * وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا * وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا * إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا﴾ فمَن سَبَّحَ اللهَ لَيلًا طويلًا لَمْ يكُنْ ذلك اليومُ ثَقيلًا عليه، بل كان أَخَفَّ شَيءٍ عليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٨).

(٢) يُنظر: ((الكلم الطيب)) لابن تيمية (ص: ٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٨).

(٥) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٨٥).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ يَقتَضي نَهْيَ الإمامِ عن طاعةِ آثمٍ مِن العُصاةِ، أو كَفورٍ مِن المُشرِكين[1].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ فيه سُؤالٌ: كَلِمةُ (أو) تَقتضي النَّهيَ عن طاعةِ أحَدِهما، فلِمَ لَمْ يَذكُرِ (الواو)؛ حتَّى يكونَ نَهيًا عن طاعتِهما جميعًا؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّه لو قِيلَ: (ولا تُطِعْهما) لَجاز أن يُطيعَ أحَدَهما؛ لأنَّ النَّهيَ عن طاعةِ مَجموعِ شَخصَينِ لا يَقتَضي النَّهيَ عن طاعةِ كُلِّ واحِدٍ منهما وَحْدَه، أمَّا النَّهيُ عن طاعةِ أحَدِهما، فيكونُ نَهْيًا عن طاعةِ مَجموعِهما؛ لأنَّ الواحِدَ داخِلٌ في المجموعِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: تقديرُ الآيةِ: لا تُطِعْ منهم أحَدًا؛ سواءٌ كان آثِمًا أو كَفُورًا، كقَولِ الرَّجُلِ لِمَن يَسألُه شيئًا: (لا أُعطيك؛ سواءٌ سألْتَ أو سَكَتَّ)[2].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا ۞ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ فيه إشارةٌ إلى الصَّلَواتِ الخَمْسِ، فالبُكرةُ صلاةُ الصُّبحِ، والأصيلُ: الظُّهرُ والعصرُ، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾: المغربُ والعِشاءُ[3]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ تَنزِيلًا﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢١/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٥٩).

ويُنظر ما يأتي في البلاغة (ص: ٣٩٦).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٠٩)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٧٩).

- هو استِئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ مِن الاستِدلالِ على ثُبوتِ البَعثِ بالحُجَّةِ والتَّرهيبِ والوَعيدِ للكافِرينَ به، والتَّرغيبِ والوعْدِ للمؤمنينَ به بمُرهِّباتٍ ومُرغِّباتٍ هي مِن الأحوالِ الَّتي تكونُ بعْدَ البَعثِ؛ فلمَّا استُوفِيَ ذلك ثُنِيَ عِنانُ الكلامِ إلى تَثبيتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والرَّبطِ على قلْبِه؛ لدِفاعِ أنْ تَلحَقَه آثارُ الغَمِّ على تَصلُّبِ قَومِه في كُفْرِهم وتَكذيبِهم بما أُنزِلَ عليه، ممَّا شَأْنُه أنْ يُوهِنَ العَزيمةَ البشَريَّةَ، فذكَّرَه اللهُ بأنَّه نزَّلَ عليه الكتابَ؛ لئلَّا يَعبَأَ بتَكذيبِهم[1].

- وفي إيرادِ هذا بعْدَ طُولِ الكلامِ في أحوالِ الآخِرةِ: قَضاءٌ لحقِّ الاعتناءِ بأحوالِ النَّاسِ في الدُّنيا؛ فابتُدِئَ بحالِ أشرَفِ النَّاسِ، وهو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ثمَّ بحالِ الَّذين دَعاهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بيْنَ مَن ﴿يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ [الإنسان: ٢٧]، ومَن ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٩] فأدْخَلَهم في رَحمتِه[2].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) للاهتِمامِ به، وتَأكيدُ الضَّميرِ المتَّصلِ بضَميرٍ مُنفصِلٍ في قولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾؛ لتَقريرِ مَدلولِ الضَّميرِ تَأكيدًا لَفظيًّا؛ للتَّنبيهِ على عَظَمةِ ذلك الضَّميرِ؛ ليُفضِيَ به إلى زِيادةِ الاهتمامِ بالخبَرِ؛ إذ يَتقرَّرُ أنَّه فِعلُ مَن هذانِ الضَّميرانِ له؛ لأنَّه لا يَفعَلُ إلَّا فِعلًا مَنوطًا بحِكمةٍ وأقْصى الصَّوابِ. وهذا مِن الكِنايةِ الرَّمزيةِ[3]، وبعْدُ فالخبَرُ بمَجموعِه مُستعمَلٌ في لازِمِ معْناهُ، وهو التَّثبيتُ والتَّأييدُ، فمَجموعُه كِنايةٌ رَمزيَّةٌ[4]. فتَكريرُ الضَّميرِ بعْدَ إيقاعِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

اسمًا لـ (إنَّ) تَأكيدٌ على تَأكيدٍ لمعْنى اختصاصِ اللهِ بالتَّنزيلِ؛ ليَتقرَّرَ في نفْسِ رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه إذا كان هو المُنزِّلَ لم يكُنْ تَنزيلُه على أيِّ وجْهٍ نزَلَ إلَّا حِكمةً وصَوابًا، كأنَّه قِيل: ما نزَّلَ عليك القرآنَ تَنزيلًا مُفرَّقًا مُنجَّمًا إلَّا أنا، لا غَيري، وقد عرَفْتَني حَكيمًا فاعلًا لكلِّ ما أفْعَلُه بدَواعي الحِكمةِ. فاجتماعُ التَّأكيدِ على التَّأكيدِ يُفيدُ مُفادَ القصْرِ[١]؛ إذ ليس الحصرُ والتَّخصيصُ إلَّا تَأكيدًا على تَأكيدٍ[٢].

- وجاء التَّوكيدُ بـ (إنَّ) لمَضمونِ الخبَرِ ومَدلولِ المُخبَرِ عنه، وأُكِّدَ الفِعلُ بالمَصدرِ[٣].

- وإيثارُ فِعلِ ﴿نَزَّلْنَا﴾ الدَّالِّ على تَنزيلِه مُنجَّمًا آياتٍ وسُورًا تَنزيلًا مُفرَّقًا: إدماجٌ[٤]؛ للإيماءِ إلى أنَّ ذلك كان مِن حِكمةِ اللهِ تعالَى الَّتي أومَأَ إليها تَأكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ)، وتَأكيدُ الضَّميرِ المتَّصلِ بالضَّميرِ المُنفصِلِ[٥].

- وفيه تَعريضٌ بالمشركينَ الَّذين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢]، فجَعَلوا تَنزيلَه مُفرَّقًا شُبهةً في أنَّه ليس مِن عندِ اللهِ، والمعْنى: ما أنْزَلَه مُنجَّمًا إلَّا أنا، واقتَضَت حِكْمتي أنْ أُنزِلَه عليك مُنجَّمًا[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٢، ٤٠٣).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٣).

- قوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ الفاءُ هي الفصيحةُ؛ أفْصَحَتْ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، أي: إنْ عرَفْتَ هذا فاصبِرْ[١]. وهو أمْرٌ للرَّسولِ بالصَّبرِ على أعباءِ الرِّسالةِ وما يَلْقاه فيها مِن أذَى المشرِكين، وشدٌّ لعَزيمتِه ألَّا تَخورَ، وسَمَّى ذلك حُكمًا؛ لأنَّ الرِّسالةَ عن اللهِ لا خِيَرةَ للمُرسَلِ في قَبولِها، والاضْطِلاعِ بأُمورِها[٢].

- وعُدِّيَ فِعلُ (اصبِرْ) باللَّامِ؛ لتَضمُّنِ الصَّبرِ معْنى الخُضوعِ والطَّاعةِ للأمْرِ الشَّاقِّ[٣].

- وفي هذا النَّهيِ ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ تَأكيدٌ للأمرِ بالصَّبرِ؛ لأنَّ النَّهيَ عنه يَشملُ كلَّ ما يَرفَعُ مُوجباتِ الصَّبرِ المرادِ هنا، والمقصودُ مِن هذا النَّهيِ تَأييسُهم مِن استجابتِه لهم حِينَ يَقرَأُ عليهم هذه الآيةَ؛ لأنَّهم يَحسَبونَ أنَّ ما عَرَضوه عليه سيَكونُ صارِفًا له عمَّا هو قائمٌ به مِن الدَّعوةِ؛ إذ همْ بُعَداءُ عن إدراكِ ماهيَّةِ الرِّسالةِ ونَزاهةِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[٤].

- ومُقْتَضَى الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (ولا تُطِعْهم)، أو (ولا تُطِعْ منهم أحدًا)، فعُدِلَ عنه إلى ﴿ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾؛ للإشارةِ بالوصفَينِ إلى أنَّ طاعَتَهم تُفْضي إلى ارتكابِ إثمٍ أو كُفْرٍ؛ لأنَّهم في ذلك يَأمُرونَه ويَنهَونَه غالبًا، فهمْ لا يَأمُرونَ إلَّا بما يُلائِمُ صِفاتِهم[٥].

- والتَّقسيمُ بـ (أو) في قولِه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ باعتبارِ ما يَدْعونَه إليه؛ فالمعْنى: ولا تُطِعْ منهم راكبًا لِما هو إثمٌ داعيًا لك إليه، أو فاعلًا لِما

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٤).

هو كُفْرٌ داعيًا لك إليه؛ لأنَّهم إمَّا أنْ يَدْعوه إلى مُساعَدتِهم على فِعلٍ هو إثْمٌ أو كفْرٌ، أو غيرُ إثْمٍ ولا كفْرٍ؛ فنَهى أنْ يُساعِدَهم على الاثنينِ دونَ الثَّالثِ[١].

وقيل: (أو) إذا وقَعت في سياقِ النَّفيِ تُفيدُ مُفادَ واوِ العَطْفِ، فتدُلُّ على انتفاءِ المعطوفِ والمعطوفِ عليه معًا، ولا تفيدُ المفادَ الَّذي تُفيدُه في الإثباتِ، وهو كونُ الحُكمِ لأحدِ المتعاطِفَينِ[٢].

ومعْنى الآيةِ نهْيٌ عن طاعةِ أحَدِ هذينِ الموصوفينِ، ويُعلَمُ أنَّ طاعةَ كِلَيهما مَنهيٌّ عنها بدَلالةِ الفَحوى؛ لأنَّه إذا أطاعَهُما معًا فقدْ تَحقَّقَ منه طاعةُ أحَدِهما وزِيادةٌ[٣].

- والنَّهيُ عن طاعةِ كلِّ واحدٍ منْهما أبلَغُ مِن النَّهيِ عن طاعتِهما؛ لأنَّه يَستلزِمُ النَّهيَ عن أحدِهما؛ لأنَّ في طاعَتِهما طاعةَ أحَدِهما. ولو قال: لا تَضرِبْ زَيدًا وعَمْرًا، لَجاز أنْ يكونَ نَهيًا عن ضَرْبِهما جَميعًا، لا عن ضَرْبِ أحَدِهما[٤].

- و(مِن) للتَّبعيضِ، والضَّميرُ المجرورُ بها عائدٌ للمشرِكين، ولم يَتقدَّمْ لهم ذِكرٌ؛ لأنَّهم مَعلومونَ مِن سِياقِ الدَّعوةِ، أو لأنَّهم المفهومُ مِن قولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾، أي: لا كما يَزعُمُ المشرِكون أنَّك جِئتَ به مِن تِلْقاءِ نفْسِك، ومِن قولِه: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، أي: على أذَى المشرِكين. ويَؤولُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٦).

المعْنى: ولا تُطِعْ أحدًا مِن المشرِكين[١].

- والآثمُ والكَفورُ مُتلازِمانِ، فكان ذِكرُ أحَدِ الوصفينِ مُغْنِيًا عن الآخَرِ، ولكنْ جُمِعَ بيْنَهما لتَشويهِ حالِ المُتَّصِفِ بهما[٢].

- والكَفورُ وإنْ كان آثمًا، فإنَّ فيه مُبالَغةً في الكُفْرِ. ولَمَّا كان وَصْفُ الكُفورِ مُباينًا للمَوصوفِ بمجرَّدِ الإثْمِ، صَلَحَ التَّغايُرُ؛ فحَسُنَ العطْفُ[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۞ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾ في ذِكرِ الوَقتَينِ إشارةٌ إلى دَوامِ الذِّكرِ، وذِكرُ اسمِه لازمٌ لذِكرِه[٤].

- وعلى القولِ بأنَّ قولَه: ﴿فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾ يعني: فصَلِّ له صَلاتَي المَغرِبِ والعِشاءِ فقد ذَكَرَهما بالسُّجودِ تَنبيهًا على أنَّه أفضَلُ الصَّلاةِ، فهو إشارةٌ إلى أنَّ اللَّيلَ مَوضعُ الخُضوعِ[٥].

- وتَقديمُ الظَّرفِ في قولِه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ﴾؛ لِمَا في صَلاةِ اللَّيلِ مِن مَزيدِ الكُلفةِ والخُلوصِ، ومَزيدِ الفَضيلةِ؛ لأنَّ الالْتفاتَ فيه إلى جانِبِ الحقِّ أتمُّ؛ لزَوالِ الشَّاغِلِ للحواسِّ مِن حَركاتِ النَّاسِ وأصواتِهم، وسائرِ الأحوالِ الدُّنيويَّةِ؛ فكان أبْعَدَ عن الرِّياءِ، فكان الخُشوعُ فيه واللَّذَّةُ التَّامَّةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٢٧٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٢٧٦، ٢٧٧).

بحلاوةِ العِبادةِ أوْفَى[١].

- والمقصودُ بقولِه: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ صَلاةُ التَّطوُّعِ في اللَّيلِ، وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ، وقولُه: ﴿طَوِيلًا﴾ صِفةُ ﴿لَيْلًا﴾، وحيث وُصِفَ اللَّيلُ بالطُّولِ بعْدَ الأمْرِ بالتَّسبيحِ فيه، عُلِمَ أنَّ ﴿لَيْلًا﴾ أُرِيدَ به أزمانُ اللَّيلِ؛ لأنَّه مَجموعُ الوقتِ المُقابِلِ للنَّهارِ؛ لأنَّه لو أُرِيدَ ذلك المِقدارُ كلُّه لم يكُنْ في وَصْفِه بالطُّولِ جَدْوى، فتَعيَّنَ أنَّ وصْفَ الطُّولِ تَقييدٌ للأمرِ بالتَّسبيحِ، أي: سبِّحْه أكثَرَ اللَّيلِ، فهو في معْنى قولِه تعالَى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلى ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ [الإنسان: ٢، ٤]، أو يَتنازَعُه كلٌّ مِن (اسْجُدْ) و(سَبِّحْه)[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٦).

## الآيات (٢٧-٣١)

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾ ﴾.

## غَرِيبُ الكَلِماتِ:

﴿أَسۡرَهُمۡ﴾: أي: خَلْقَهم، والأَسْرُ في كلامِ العَرَبِ: شِدَّةُ الخَلْقِ، يُقالُ: فُلانٌ شَديدُ أَسْرِ الخَلْقِ: إذا كان مَعصوبَ الخَلْقِ غيرَ مُسترخٍ، و: شَدَّ اللهُ أَسْرَه، أي: قَوَّى إحكامَ خَلْقِه. وأصلُ (أسر): يدُلُّ على الرَّبطِ والتَّوثيقِ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا * يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾

قَولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّ المصدَرَ المؤَوَّلَ في محلِّ نَصبٍ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ بتَقديرِ المُضافِ السَّادِّ هو مَسَدَّه، أي: إلَّا وَقْتَ مشيئةِ اللهِ تعالى. الثَّاني: أنَّ المصدَرَ المؤوَّلَ في محلِّ نَصبٍ على نَزعِ الخافِضِ، والاستثناءُ مِن أعَمِّ الأسبابِ، أي: وَما تَشاؤُونَ بسَبَبٍ مِنَ الأسبابِ إلَّا بأنْ يَشاءَ اللهُ تعالى. الثَّالثُ: أنَّه في محلِّ نَصبٍ مُستثنًى مِن أعمِّ الأحوالِ على نِيَّةِ حَذفِ مُضافٍ، أي: وما تَشاؤُونَ في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ مَشيئةِ اللهِ تعالى.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٩)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٠/ ٤٨).

وقَولُه تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ﴾: «الظَّالِمينَ»: مَنصوبٌ على الاشتِغالِ بفِعلٍ محذوفٍ يُفَسِّرُه ﴿أَعَدَّ لَهُمۡ﴾ مِن حيثُ المعنى، لا مِن حيثُ اللَّفظُ؛ لأنَّ (أَعَدَّ) يتعدَّى باللَّامِ، تقديرُه: وعَذَّبَ الظَّالِمينَ، أو: أَوْعَدَ، ونحوُ ذلك. وجملةُ ﴿أَعَدَّ﴾ مُفَسِّرةٌ للفِعلِ المقَدَّرِ؛ فلا محلَّ لها مِن الإعرابِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى موبِّخًا المشرِكين ومنكِرًا عليهم: إنَّ مُشْرِكي قُرَيشٍ يُحِبُّونَ الحَياةَ الدُّنيا العاجِلةَ، ويَترُكونَ خَلْفَ ظُهورِهم يومَ القيامةِ الثَّقيلَ بأهوالِه وشَدائِدِه، نحنُ خَلَقْناهم وأحْكَمْنا خِلْقَتَهم، وإذا شِئْنا بَعَثْناهم يومَ القيامةِ، وأعَدْنا أجسامَهم مِن جَديدٍ مِثْلَما كانوا في الدُّنيا.

ثمَّ يحُضُّ اللهُ سُبحانَه على طاعتِه، ويحذِّرُ مِن مَعصيتِه، فيقولُ: إنَّ آياتِ هذه السُّورةِ تَذكيرٌ للنَّاسِ؛ لِيَتَّعِظوا بها ويَعْتَبِروا، فمَن شاء سَلَك طَريقًا يُوصِلُه إلى اللهِ تعالى، بالإيمانِ به، والتَّوبةِ إليه، وطاعتِه.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه نُفوذَ مَشيئتِه، وأنَّها فوقَ كلِّ مَشيئةٍ، فيقولُ: وما تَشاؤُونَ -أيُّها النَّاسُ- اتِّباعَ طَريقِ الحَقِّ إلَّا أن يَشاءَ اللهُ لكم ذلك، إنَّ اللهَ تعالى كان عَليمًا فلا يَخْفَى عليه شَيءٌ، حكيمًا فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، يُدخِلُ اللهُ تعالى مَن يَشاءُ مِن عِبادِه في رَحمتِه، وأعَدَّ للظَّالِمينَ عَذابًا مُؤلِمًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ٢٧﴾.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٢٦، ٦٢٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٨٤، ١٨٥)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٢٩/ ١٩٥).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا خاطَبَ رَسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّعظيمِ والنَّهيِ والأمرِ؛ عَدَل إلى شَرْحِ أحوالِ الكُفَّارِ والمتمَرِّدينَ(١).

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ﴾.

أي: إنَّ مُشْرِكي قُرَيشٍ يُحِبُّونَ الحَياةَ الدُّنيا، فهم حَرِيصونَ على البَقاءِ فيها، والتَّمَتُّعِ بمَلَذَّاتِها(٢).

قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴾.

أي: ويَترُكونَ خَلْفَ ظُهورِهم يومَ القيامةِ الثَّقيلَ بأهوالِه وشَدائِدِه؛ فلا يَعمَلونَ له، ولا يَسْتَعِدُّونَ له، ولا يَعْبَؤونَ به(٣).

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ * عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ﴾ [المدثر: ٨ - ١٠].

﴿ نَّحۡنُ خَلَقۡنَٰهُمۡ وَشَدَدۡنَآ أَسۡرَهُمۡۖ وَإِذَا شِئۡنَا بَدَّلۡنَآ أَمۡثَٰلَهُمۡ تَبۡدِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٧).

قال السمعاني: (يجوزُ أن يكونَ سَمَّاه ثقيلًا؛ لشِدَّةِ الهَولِ والفَزَعِ فيه، ويجوزُ أن يكونَ سَمَّاه ثقيلًا؛ لفَصلِ القضاءِ فيه بيْنَ العِبادِ وعَدْلِه معهم، وهو في غايةِ الثِّقَلِ عليهم إلَّا مَن تَدارَكَه اللهُ بفَضْلِه). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنه لَمَّا كان الإخبارُ عنهم بأنَّهم (يَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا) يَتضمَّنُ أنَّهم يُنكِرونَ وُقوعَ ذلك اليَومِ، وكان الباعثُ لهم على إنكارِه شُبهةَ استِحالةِ إعادةِ الأجسادِ بعْدَ بِلاها وفَنائِها، وكان الكلامُ السَّابقُ مَسوقًا مَساقَ الذَّمِّ لهم، والإنكارِ عليهم؛ جِيءَ هنا بما هو دَليلٌ للإنكارِ عليهم، وإبطالٌ لِشُبهتِهم، ببَيانِ إمكانِ إعادةِ خَلْقِهم، فالَّذي خَلَقَهم أوَّلَ مرَّةٍ يُعيدُهم[1]. فلَمَّا كان تَركُهم لليَومِ الثَّقيلِ على وَجهِ التَّكذيبِ الَّذي هو أقبَحُ التَّركِ، وكان تكذيبُهم لاعتقادِهم عدَمَ القدرةِ عليه؛ قال دالًّا على الإعادةِ بالابتداءِ مِن بابِ الأَولى[2]:

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾.

أي: نحنُ خَلَقْنا أولئك المُشرِكينَ وأحْكَمْنا خِلْقَتَهم، فرَبَطْنا أجزاءَ أجسادِهم بالعِظامِ والأوتارِ والأعصابِ والعُروقِ وغَيرِها؛ فصارت أجزاءُ أبدانِهم مُحكَمةً مَشدودًا بَعضُها إلى بَعضٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٥، ٥٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٨، ١٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٩، ٤١٠).

قال القرطبي: (الكَلامُ خَرَج مَخْرَجَ الامتِنانِ عليهم بالنِّعَم حينَ قابَلوها بالمعصيةِ، أي: سَوَّيتُ خَلْقَك، وأحكَمْتُه بالقُوى، ثمَّ أنت تَكفُرُ بي!). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢).

وقال السعدي: (﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: أحكَمْنا خِلقتَهم بالأعصابِ، والعروقِ، والأوتارِ، والقُوى الظَّاهرةِ والباطنةِ، حتَّى تمَّ الجسمُ واستكمل، وتمكَّن مِن كلِّ ما يُريدُه، فالَّذي أوجَدَهم على هذه الحالةِ قادرٌ على أن يُعيدَهم بعدَ مَوتِهم لجزائِهم، والَّذي نقلَهم في هذه الدَّارِ إلى =

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

أي: وإذا شِئْنا بَعَثْناهم يومَ القيامةِ، وأعَدْنا أجسامَهم مِن جَديدٍ مِثْلَما كانوا في الدُّنيا(١).

قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ - ٦٢].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا شَرَح أحوالَ السُّعَداءِ وأحوالَ الأشقياءِ، قال بَعْدَه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾، والمعنى: إنَّ هذه السُّورةَ بما فيها مِنَ التَّرتيبِ العَجيبِ، والنَّسَقِ البَعيدِ، والوَعدِ والوَعيدِ، والتَّرغيبِ والتَّرهيبِ: تَذكِرةٌ

---

= هذه الأطوارِ، لا يَليقُ به أن يَترُكَهم سُدًى، لا يُؤْمَرونَ ولا يُنْهَوْن، ولا يُثابونَ ولا يُعاقَبون). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٥)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩٧، ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ المذكورِ: الزمخشريُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المعنى: وإذا شِئْنا أهلَكْنا المُشرِكين، وجِئْنا بآخَرينَ خَيرٍ منهم، فيَكونونَ أطْوَعَ وأتْقَى لله منهم في الدُّنيا. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ في الجملةِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والنَّسَفيُّ، وأبو حيَّانَ، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٧). ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٦).

للمُتأمِّلينَ، وتَبصِرةٌ للمُستَبصِرينَ؛ فمَن شاء الخِيَرَةَ لِنَفْسِه في الدُّنيا والآخِرةِ اتَّخَذ إلى رَبِّه سَبيلًا[١].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾.

أي: إنَّ آياتِ هذه السُّورةِ تَذكيرٌ للنَّاسِ؛ لِيَتَّعِظوا بها ويَعْتَبِروا[٢].

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾.

أي: فمَن شاء سَلَك طَريقًا يُوصِلُه إلى اللهِ تعالى، وإلى جَنَّتِه ورِضوانِه، بالإيمانِ به، والتَّوبةِ إليه، وطاعتِه[٣].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ناطَ اختيارَهم سَبيلَ مَرضاةِ اللهِ بمَشيئتِهم، أعقَبَه بالتَّنبيهِ إلى الإقبالِ على طَلَبِ مَرضاةِ اللهِ؛ للتَّوسُّلِ برِضاه إلى تيسيرِ سُلوكِ سُبُلِ الخَيرِ لهم؛ لأنَّهم إذا كانوا منه بمحَلِّ الرِّضا والعنايةِ، لَطَف بهم، ويسَّرَ لهم ما يَعسُرُ على النُّفوسِ، مِن المُصابَرةِ على تَرْكِ الشَّهَواتِ المُهلِكةِ[٤].

وأيضًا لَمَّا أثبَتَ لهم المشيئةَ الَّتي هي مَناطُ التَّكليفِ، وكان رُبَّما ظَنَّ ظانٌّ أو

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١١، ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٢).

ادَّعى مُدَّعٍ في خَلْقِ الأفعالِ، كما قال أهلُ الاعتزالِ؛ قال نافيًا عنهم الاستِقلالَ[١]:

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: وما تَشاؤُونَ -أيُّها النَّاسُ- اتِّباعَ طَريقِ الحَقِّ إلَّا أن يَشاءَ اللهُ لكم ذلك؛ فلا أحَدَ يَقدِرُ على هِدايةِ نَفْسِه[٢].

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ تعالى مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالعِلْمِ التَّامِّ، فلا يَخْفى عليه شَيءٌ، ومِن ذلك عِلْمُه بمَن يَستَحِقُّ الهِدايةَ فيُيَسِّرُها له، ومَن يَستَحِقُّ الغَوايةَ فيَصرِفُه عن الهُدى، وهو متَّصِفٌ أزَلًا وأبَدًا بالحِكْمةِ البالِغةِ، فيَضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللَّائِقِ به، ومِن ذلك الهِدايةُ والإضلالُ[٣].

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾.

أي: يُدخِلُ اللهُ مَن يَشاءُ مِن عِبادِه في رَحمتِه بتَوفيقِه لسُلوكِ طَريقِه المُستَقيمِ الموصِلِ إلى جَنَّتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: وأعدَّ اللهُ تعالى للظَّالِمينَ أنفُسَهم بالشِّركِ وتَرْكِ التَّوبةِ: عَذابًا مُؤلِمًا مُوجِعًا[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا﴾ إخبارٌ منه سُبحانَه عمَّا يَمنعُ العبدَ مِن إيثارِ ما فيه سَعادتُه في الدُّنيا والآخِرةِ، وهو حُبُّ العاجِلةِ، وإيثارُها على الآخِرةِ؛ تَقديمًا لداعي الحِسِّ على داعي العَقلِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ صَحَّ به ما قاله أهلُ السُّنَّةِ مِن أنَّ للعَبدِ مَشيئةً لا تُؤَثِّرُ إلَّا بمشيئةِ اللهِ تعالى وتحريكِها لقُدرةِ العَبدِ، وانتفى مَذهَبُ القَدَريَّةِ الَّذين يَقولونَ: إنَّا نحن نَخلُقُ أفعالَنا! ومَذهَبُ الجَبْريَّةِ القائِلينَ: لا فِعْلَ لنا أصلًا[٣]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إثباتُ المشيئَتَينِ: مَشيئةِ الرَّبِّ، ومَشيئةِ العَبدِ، وفيها بيانُ أنَّ مَشيئةَ العَبدِ تابِعةٌ لمشيئةِ الرَّبِّ[٤].

٣- يجبُ أنْ نَقرِنَ كلَّ آيةٍ جاءتْ بلَفظِ المَشيئةِ أو جاءتْ مُعَلَّقةً؛ أنْ نَقرِنَها بالحِكْمةِ؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٣٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (١/ ٨١).

فالقاعدةُ: أنَّ كلَّ فِعلٍ لله تعالى مُعلَّقٌ بالمشيئةِ؛ فإنَّه مَقرونٌ بالحِكمةِ، وليس شيءٌ مِن فِعلِه سُبحانَه مُعلَّقًا بالمشيئةِ المجرَّدةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يشرعُ ولا يفعلُ إلَّا لحِكمةٍ(١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يدُلُّ على أنَّه جَفَّ القَلَمُ بما هو كائِنٌ؛ لأنَّ معنى ﴿أَعَدَّ﴾: أنَّه عَلِمَ ذلك وقضى به، وأخبَرَ عنه وكتَبَه في اللَّوحِ المحفوظِ، ومَعلومٌ أنَّ التَّغييرَ على هذه الأشياءِ مُحالٌ(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمًا ثَقِيلًا﴾ تَعليلٌ للنَّهيِ عن إطاعةِ الكافِرينَ في قولِه: ﴿وَلَا تُطِعۡ مِنۡهُمۡ ءَاثِمًا أَوۡ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]، أي: لأنَّ خُلُقَهم الانصبابُ على الدُّنيا مع الإعراضِ عن الآخرةِ؛ إذْ همْ لا يُؤمِنون بالبَعثِ، فلو أطاعَهم لَتَخلَّقَ بخُلقِهم؛ قال تعالَى: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ الآيةَ [النساء: ٨٩]؛ فمَوقعُ (إنَّ) مَوقعُ التَّعليلِ، وهي بمَنزلةِ فاءِ السَّببيَّةِ(٣).

- و(هؤلاء) إشارةٌ إلى حاضِرينَ في ذِهنِ المُخاطَبِ؛ لكَثرةِ الحديثِ عنهم، وقدْ عُلِمَ بالاستِقراءِ مِن القُرآنِ أنَّه إذا أُطلِقَ (هؤلاء) دونَ سَبْقِ ما يكونُ مُشارًا إليه، فالمَقصودُ به المشرِكون(٤).

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣٧١).
ويُنظر ما يأتي في بلاغة الآيات (ص: ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي السعود) (٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٧).

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿يُحِبُّونَ﴾ تدُلُّ على تَكرُّرِ ذلك، أي: أنَّ ذلك دَأبُهم ودَيْدَنُهم، لا يُشارِكون مع حُبِّ العاجِلةِ حُبَّ الآخرةِ[١].

- ومُتعلَّقُ ﴿يُحِبُّونَ﴾ مُضافٌ مَحذوفٌ، تَقديرُه: نَعيمَ أو مَنافعَ؛ لأنَّ الحُبَّ لا يَتعلَّقُ بذاتِ الدُّنيا[٢].

- والعاجِلةُ: صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ مَعلومٍ مِن المقامِ، تَقديرُه: الحياةَ العاجِلةَ، أو الدَّارَ العاجلةَ[٣].

- وفي إيثارِ ذِكرِ الدُّنيا بوَصْفِ ﴿ٱلْعَاجِلَةَ﴾ تَوطئةٌ للمَقصودِ مِن الذَّمِّ؛ لأنَّ وَصْفَ العاجِلةِ يُؤذِنُ بأنَّهم آثَرُوها لأنَّها عاجلةٌ، وفي ذلك تَعريضٌ بتَحميقِهم؛ إذْ رَضُوا بالدُّونِ؛ لأنَّه عاجلٌ، وليس ذلك مِن شِيَمِ أهلِ التَّبصُّرِ، فقَولُه: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ واقعٌ مَوقعَ التَّكميلِ لمَناطِ ذَمِّهم وتَحميقِهم؛ لأنَّهم لو أحَبُّوا الدُّنيا مع الاستعدادِ للآخرةِ لَمَا كانوا مَذمومينَ[٤].

- وصِيغةُ المُضارِعِ في ﴿وَيَذَرُونَ﴾ تَقْتضي أنَّهم مُستمِرُّون على ذلك، وأنَّ ذلك مُتجدِّدٌ فيهم ومُتكرِّرٌ لا يَتخلَّفون عن ذلك التَّركِ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بحُلولِ ذلك اليَومِ[٥].

- واليَومُ الثَّقيلُ: هو يومُ القيامةِ، وُصِفَ بالثَّقيلِ؛ لشِدَّةِ ما يَحصُلُ فيه مِن المَتاعبِ والكُروبِ، فهو كالشَّيءِ الثَّقيلِ الَّذي لا يُستطاعُ حمْلُه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٠٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي =

- والآيةُ مِن الاحتباكِ[١]: ذَكَر الحُبَّ والعاجِلةَ أوَّلًا؛ دَلالةً على ضِدِّهما ثانيًا، والتَّرْكَ والثِّقلَ ثانيًا؛ دَلالةً على ضِدِّهما أوَّلًا، وسرُّ ذلك: أنَّ ما ذكَره أدَلُّ على سَخافةِ العَقلِ بعَدَمِ التَّأمُّلِ للعواقِبِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾

- قولُه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ فيه افتتاحُ الجُملةِ بالمُبتدأِ المُخبَرِ عنه بالخبَرِ الفِعليِّ دونَ أنْ تُفتتَحَ بـ (خَلَقْناهم) أو (نحن خالِقون)؛ لإفادةِ تَقَوِّي الخبَرِ وتَحقيقِه بالنَّظرِ إلى المَعنِيِّينَ بهذا الكلامِ، وإنْ لم يكُنْ خِطابًا لهم، ولكنَّهم هم المَقصودُ منه. وتَقويةُ الحُكمِ بِناءٌ على تَنزيلِ أولئك المَخلوقينَ مَنزِلةَ مَن يشُكُّ في أنَّ اللهَ خَلَقَهم؛ حيثُ لم يَجْرُوا على مُوجبِ العِلمِ، فأنْكَروا أنَّ اللهَ يُعيدُ الخلْقَ بعْدَ البِلى، فكأنَّهم يُسنِدون الخلْقَ الأوَّلَ لغيرِه. وتَقوِّي الحُكمِ يَترتَّبُ عليه أنَّه إذا شاء بدَّلَ أمثالَهم بإعادةِ أجسادِهم؛ فلذلك لم يُحتَجْ إلى تَأكيدِ جُملةِ ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ﴾؛ استِغناءً بتَولُّدِ مَعناها عن معْنى الَّتي قبْلَها، وإنْ كان هو أَولى بالتَّقويةِ على مُقتضى الظَّاهرِ. وهذا التَّقَوِّي هنا مُشعِرٌ بأنَّ كَلامًا يَعقُبُه هو مَصبُّ التَّقَوِّي[٣].

- وقولُه: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ إخبارٌ بأنَّ اللهَ قادرٌ على أنْ يُبدِلَهم بناسٍ آخَرينَ، فحُذِفَ مَفعولُ ﴿شِئْنَا﴾ لدَلالةِ جَوابِ (إذا) عليه، كما هو الشَّأنُ في فِعلِ المَشيئةِ غالبًا، واجتِلابُ (إذا) في هذا التَّعليقِ للدَّلالةِ على

---

= حيان)) (١٠/ ٣٦٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٩).

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٠٩).

تَحقُّقِ القُدرةِ وقُوَّةِ الدَّاعيةِ؛ لأنَّ شأنَ (إذا) أنْ تُفيدَ اليَقينَ بوُقوعِ ما قُيِّدَ بها، بخِلافِ حرْفِ (إنْ)؛ فهو إيماءٌ إلى أنَّ حُصولَ هذه المَشيئةِ مُستقرَبُ الوُقوعِ[١].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا بمَنزلةِ النَّتيجةِ لقولِه: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ﴾ إلخ، ويُحمَلُ الشَّرطُ على التَّحقُّقِ؛ قال تعالَى: ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الذاريات: ٦]. ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ تَهديدًا لهم على إعراضِهم وجُحودِهم للبَعثِ، أي: لو شِئْنا لَأهلَكْناهم وخَلَقْنا خَلْقًا آخَرَ مِثلَهم، ويكون (إذا) مُرادًا به تَحقُّقُ التَّلازُمِ بيْنَ شَرطِ (إذا) وجَوابِها، أي: الجُملةِ المضافِ إليها، والجُملةِ المُتعلِّقِ بها[٢].

- وفِعلُ التَّبديلِ يَقتضي مُبدَّلًا ومُبدَّلًا به، وأيُّهما اعتَبَرْتَه في مَوضعِ الآخَرِ صَحَّ؛ لأنَّ كلَّ مُبدَّلٍ بشَيءٍ هو أيضًا مُبدَّلٌ به ذلك الشَّيءُ، ولا سيَّما إذا لم يكُنْ في المَقامِ غرَضٌ ببَيانِ المَرغوبِ في اقتنائِه، والمَسموحِ ببَذْلِه مِن الشَّيئينِ المُستبدَلينِ، فحُذِفَ مِن الكلامِ هنا مُتعلَّقُ ﴿بَدَّلْنَآ﴾ -وهو المَجرورُ بالباءِ-؛ لأنَّه أَولَى بالحذْفِ، وأُبقِيَ المفعولُ[٣].

- وانتصَبَ ﴿تَبْدِيلًا﴾ على المفعولِ المطلَقِ المؤكِّدِ لعامِلِه؛ للدَّلالةِ على أنَّه تَبديلٌ حَقيقيٌّ، وللتَّوصُّلِ بالتَّنوينِ إلى تَعظيمِه وأُعجوبتِه[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤١١).

للانتِقالِ مِن بَسْطِ التَّذكيرِ والاستِدلالِ إلى فَذْلكةِ[١] الغرَضِ وحَوصلتِه؛ إشعارًا بانتهاءِ المَقصودِ، وتَنبيهًا إلى فائدتِه، ووَجْهِ الانتفاعِ به، والحثِّ على التَّدبُّرِ فيه، واستثمارِ ثَمرتِه، وباعتبارِ ما تَفرَّعَ عن هذه الجُملةِ مِن قولِه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ...﴾ [الإنسان: ٢٩] إلخ، يُقوِّي مَوقعَ الفَذلكةِ للجُملةِ[٢].

- وتَأكيدُ الكلامِ بحَرْفِ (إنَّ)؛ لأنَّ حالَ المُخاطَبينَ عدَمُ اهتمامِهم بها، فهم يُنكِرون أنَّها تَذكرةٌ[٣].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ ليس على جِهةِ التَّخييرِ، بلْ على جِهةِ التَّحذيرِ مِن اتِّخاذِ غيرِ سَبيلِ اللهِ تعالَى[٤].

- وأُطلِقَت التَّذكرةُ هنا على الموعظةِ بالإقلاعِ عن عمَلٍ سيِّئٍ والإقبالِ على عمَلٍ صالحٍ، وعلى وُضوحِ الخَيرِ والشَّرِّ لِمَن تَذكَّرَ -أي: تَبصَّرَ- بتَشبيهِ حالةِ المُعرِضِ عن الخيرِ المشغولِ عنه بحالةِ النَّاسي له؛ لأنَّ شَأنَه ألَّا يُفرِّطَ فيه إلَّا مَن كان ناسيًا؛ لِما فيه مِن نفْعٍ له[٥].

---

(١) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١١).

- وفُرِّعَ على قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞ﴾ الحثُّ على سُلوكِ سَبيلِ مَرضاةِ اللهِ بقولِه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾، أي: ليس بعْدَ هذه التَّذكرةِ إلَّا العملُ بها إذا شاء المُتذكِّرُ أنْ يَعمَلَ بها، ففي قولِه: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ حثٌّ على المُبادَرةِ بذلك؛ لأنَّ مَشيئةَ المَرءِ في مُكْنَتِه، فلا يَمنَعُه منها إلَّا سُوءُ تَدبيرِه، وهذا حثٌّ وتَحريضٌ فيه تَعريضٌ بالمشرِكين بأنَّهم أبَوْا أنْ يَتذكَّروا عِنادًا وحسَدًا[1].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ مَفعولُ ﴿شَآءَ﴾ مَحذوفٌ، أي: الخيرَ لنفْسِه، وحُسنَ العاقبةِ[2].

- لا يَختلِفُ العُقلاءُ في شَرَفِ ما يُوصِلُ إلى الرَّبِّ سُبحانَه، أي: إلى إكرامِه؛ لأنَّ ذلك قَرارةُ الخَيراتِ، ولذلك عُبِّرَ برَبٍّ مُضافًا إلى ضَميرِ ﴿فَمَن شَآءَ﴾؛ إذ سَعادةُ العبْدِ في الحُظْوةِ عندَ ربِّه[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ جُملةُ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ تَتميمٌ واحتراسٌ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والتَّتميمُ: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزيادةٍ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ، ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤۡمِنٞ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِٱلۡإِثۡمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العِزَّةُ المذمومةُ المُؤثَّمُ صاحِبُها. =

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَشَآءُونَ﴾ لإفادةِ العُمومِ، والتَّقديرُ: وما تَشاؤونَ شَيئًا أو مَشيئًا، أو الطَّاعةَ، وعُمومُ الأشخاصِ يَستلزِمُ عُمومَ الأحوالِ والأزمنةِ، أي: ما تَشاؤونَ شَيئًا في وَقتٍ مِن الأوقاتِ، أو في حالٍ مِن الأحوالِ(١).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ عُلِّلَ ارتباطُ حُصولِ مَشيئتِهم بمَشيئةِ اللهِ بأنَّ اللهَ عَليمٌ حَكيمٌ، أي: عَليمٌ بوَسائلِ إيجادِ مَشيئتِهم الخيرَ، حَكيمٌ بدَقائقِ ذلك ممَّا لا تَبلُغُ إلى مَعرفةِ دَقائقِه بالكُنْهِ عُقولُ النَّاسِ؛ لأنَّ هنالك تَصَرُّفاتٍ عُلويَّةً لا يَبلُغُ النَّاسُ مَبلَغَ الاطِّلاعِ على تَفصيلِها، ولكنْ حَسْبُهم الاهتداءُ بآثارِها، وتَزكيةُ أنفُسِهم للصَّدِّ عن الإعراضِ عن التَّدبُّرِ فيها(٢).

- و(ما) نافيةٌ، والاستِثناءُ مِن عُمومِ الأشياءِ المَشيئةِ وأحوالِها وأزْمانِها. ولَمَّا كان ما بعْدَ أداةِ الاستِثناءِ حرْفَ مَصدرٍ، تَعيَّنَ أنَّ المُستثنى يُقدَّرُ مَصدرًا، أي: إلَّا شَيْءَ اللهِ (بمعْنى مَشيئتِه)، وهو صالحٌ لاعتبارِ المعْنى المَصدريِّ، ولاعتبارِ الحالةِ، ولاعتبارِ الزَّمانِ؛ لأنَّ المَصدرَ صالحٌ لإرادةِ الثَّلاثةِ باختلافِ التَّأويلِ؛ فإنْ قُدِّرَ مُضافٌ كان المعْنى: إلَّا حالَ مَشيئةِ اللهِ، أو إلَّا

---

= والاحتِراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نَوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفَعُ ذلك الاحتِمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ: التَّكميلَ.

والفَرقُ بيْنَ الاحتِراسِ والتَّتميمِ: أنَّ الاحتِراسَ يجبُ أنْ يكونَ لرَفْعِ إيهامِ خِلافِ المقصودِ، وأمَّا التَّتميمُ فإنَّه يكونُ في كلامٍ لا يُوهِمُ خِلافَ المقصودِ؛ فالنِّسبةُ بيْنَهما إذَنْ هي التَّبايُنُ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٣)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٤٩ - ٥١، ٢٤٠ - ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٢، ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤١٣).

زمَنَ مَشيئتِه، وإنْ لم يُقدَّرْ مُضافٌ كان المعْنى: لا مَشيئةَ لكمْ في الحقيقةِ إلَّا تَبعًا لمَشيئةِ اللهِ، وإيثارُ اجتلابِ (أنِ) المَصدريَّةِ مِن إعجازِ القرآنِ. ويجوزُ أنْ يكونَ فِعلَا ﴿تَشَآءُونَ﴾ و﴿يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ مُنزَّلينِ مَنزلةَ اللَّازِمِ، فلا يُقدَّرُ لهما مَفعولانِ، ويكونَ الاستِثناءُ مِن أحوالٍ، أي: وما تَحصُلُ مَشيئتُكم في حالٍ مِن الأحوالِ إلَّا في حالِ حُصولِ مَشيئةِ اللهِ، وفي هذا كلِّه إشارةٌ إلى دِقَّةِ كُنْهِ مَشيئةِ العبْدِ تُجاهَ مَشيئةِ اللهِ؛ ففي الآيةِ تَنبيهُ النَّاسِ إلى هذا المعْنى الخَفيِّ؛ ليَرقُبُوه في أنفُسِهم فيَجِدوا آثارَه الدَّالَّةَ عليه قائمةً مُتوافرةً؛ ولهذا أُطنِبَ وَصْفُ هذه المشيئةِ بالتَّذييلِ بقولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فهو تَذييلٌ أو تَعليلٌ لجُملةِ ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦ﴾ [الإنسان: ٣١]، أي: لأنَّه واجبٌ له العِلمُ والحكمةُ، فهو أعلَمُ، فمَن شاء أنْ يُدخِلَه في رَحمتِه، ومَن شاء أبْعَدَه عنها. وهذا إطنابٌ لم يَقَعْ مِثلُه في قولِه تعالَى في سُورةِ (عَبَسَ) [١١، ١٢]: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾؛ لأنَّ حُصولَ التَّذكُّرِ مِن التَّذكرةِ أقرَبُ وأمكَنُ مِن العملِ بها، المُعبَّرِ عنه بالسَّبيلِ المُوصلةِ إلى اللهِ تعالَى؛ فلذلك صُرِفَت العِنايةُ والاهتمامُ إلى ما يَلوحُ بوَسيلةِ اتِّخاذِ تلك السَّبيلِ[1].

- قولُه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ بتاءِ الخِطابِ على الالتفاتِ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٣، ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤١٥).

والالتفات: هو نقْلُ الكلامِ مِن أسلوبٍ إلى أسلوبٍ آخَرَ؛ تجديدًا لنشاطِ السَّامعِ، وصيانةً لخاطرِه مِن الملالِ والضَّجرِ بدوامِ الأسلوبِ الواحدِ على سمعِه، كالانتقالِ مِن الخِطابِ إلى الغيبةِ، أو تغييرِ ضميرِ المتكلِّمِ نفسِه تارةً يجعلُه تاءً على جهةِ الإخبارِ عن نفسِه، وتارةً يجعلُه كافًا، فيجعلُ نفسَه مخاطبًا، وتارةً يجعلُه هاءً، فيُقيمُ نفسَه مقامَ الغائبِ. وشرطُه أنْ يكونَ الضَّميرُ في المتنقلِ إليه عائدًا في نفسِ الأمرِ إلى الملتفِّ عنه، وللمتكلِّمِ والخطابِ والغيبةِ مقامات، والمشهورُ =

٥- قولُه تعالَى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بيانٌ لأحكامِ مَشيئتِه تعالى المُترتِّبةِ على عِلمِه وحِكمتِه[١]. فالجملةُ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن جُملةِ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]؛ إذ يَتساءلُ السَّامعُ عن أثَرِ مَشيئةِ اللهِ في حالِ مَن اتَّخَذَ إلى ربِّه سَبيلًا، ومَن لم يتَّخِذْ إليه سَبيلًا، فيُجابُ بأنَّه يُدخِلُ في رَحمتِه مَن شاء أنْ يَتَّخِذَ إليه سَبيلًا، وأنَّه أعدَّ لِمَن لم يَتَّخِذْ إليه سَبيلًا عَذابًا أليمًا، وأولئك هم الظَّالِمونَ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ خبَرَ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ [الإنسان: ٣٠]، وتكونَ جُملةُ ﴿كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] مُعترِضةً بيْن اسمِ (إنَّ) وخبَرِها، أو حالًا، وهي على التَّقديرينِ مُنبِئةٌ بأنَّ إجراءَ وَصفَيِ العليمِ الحكيمِ على اسمِ الجَلالةِ مُرادٌ به التَّنبيهُ على أنَّ فِعلَه كلَّه -مِن جَزاءٍ برَحمةٍ أو بعَذابٍ- جارٍ على حسَبِ عِلمِه وحِكمتِه[٢].

- وانتَصَبَ ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ على أنَّه مَفعولٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه المذكورُ على طَريقةِ الاشتغالِ، والتَّقديرُ: أوعَدَ الظَّالِمين، أو كافَأَ، أو نحْوُ ذلك ممَّا يُقَدِّرُه السَّامعُ مُناسِبًا للفِعلِ المذكورِ بعْدَه[٣].

- الآيةُ مِن الاحتباكِ[٤]: ذَكَر الإدخالَ والرَّحمةَ أوَّلًا؛ دَلالةً على الضِّدِّ ثانيًا،

---

= أنَّ الالتفاتَ هو الانتقالُ مِن أحدِها إلى الآخرِ بعدَ التَّعبيرِ بالأوَّلِ. يُنظر: ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٣١٤)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٠٠ - ٢٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٢٨).

ويُنظر ما تقدَّم في مُشْكِل الإعراب (ص: ٤٠١).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٦٥).

والعذابَ ثانيًا؛ دَلالةً على الثَّوابِ أوَّلًا، وسرُّ ذلك: أنَّ ما ذكَرَه أَولى بترغيبِ أهلِ العَدلِ فيه، وإن ساءت حالُهم في الدُّنيا، وبترهيبِ أهلِ الظُّلمِ منه، وإن حَسُنَت حالُهم في الدُّنيا[1].

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٣).

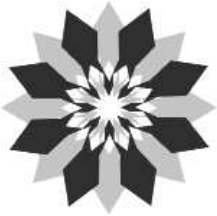

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ المُرسَلاتِ

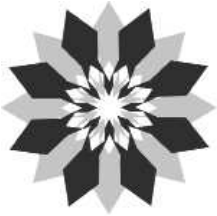

# سورةُ المُرسَلاتِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المرسَلاتِ)[١]. وسمِّيت بـ (الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا)[٢].

**وممَّا يدُلُّ على ذلك:**

١- عن عبدِ اللهِ بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه، قال: ((بَيْنَما نحنُ معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في غارٍ بمِنًى إذ نزلَت عليه ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، وإنَّه لَيَتْلوها، وإنِّي لَأَتَلَقَّاها مِن فيهِ، وإنَّ فاهُ لَرَطْبٌ بها[٣] ...)) الحديثَ[٤].

٢- عن أُمِّ الفَضلِ بنتِ الحارثِ رضيَ الله عنها، قالَتْ: ((سمِعْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرأُ في المغربِ بـ «الْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا»، ثُمَّ ما صلَّى لنا بعدَها حتَّى قَبَضه اللهُ))[٥].

## فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

**١- أنَّها نزَلتْ جملةً واحدةً**[٦].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٥).

(٢) قال ابن عاشور: (وسُمِّيَتْ في عهدِ الصَّحابةِ سورَة ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٧).

(٣) أي: لم يجِفَّ ريقُه بها، والمعنى: أنَّه لم يُمسِكْ عن التِّلاوةِ لها بعدُ، ورطوبةُ الفَمِ بها حرَكتُه للتِّلاوةِ. يُنظر: ((الإفصاح عن معاني الصحاح)) لابن هُبَيْرة (٢/ ١٩)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٣/ ٣٠٣).

(٤) أخرجه البخاري (١٨٣٠)، ومسلم (٢٢٣٤).

(٥) أخرجه البخاري (٤٤٢٩).

(٦) ذكرها السيوطيُّ فيما نزَل جمعًا لا مفرَّقًا. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) (١/ ١٣٦).

عن ابنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه، قال: ((كنَّا معَ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم في غارٍ، فنزَلتْ عليه ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾[1]، فأخَذْتُها مِن فيهِ، وإنَّ فاه لَرَطْبٌ بها، فلا أدْري بأيِّها ختَم ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أو ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾))[2].

**٢- صلَّى بها النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم في آخِرِ صَلاةٍ صلَّاها بالنَّاسِ إمامًا:**

وقد تقدَّم حديثُ أُمِّ الفضلِ بنتِ الحارثِ وسماعِها للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم يقرأُ بسورةِ (المرسَلاتِ) في صلاةِ المغربِ، وفيه: قالت: ((ثُمَّ ما صلَّى لنا بعدَها حتَّى قَبَضه اللهُ)). والمرادُ -واللهُ أعلَمُ-: ما صلَّى بعدَها إمامًا بالنَّاسِ[3].

وفي روايةٍ قالت: ((إنَّها [أي: سورةَ المرسَلاتِ] لَآخِرُ ما سمِعتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ بها في المغربِ))[4].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ المرسَلاتِ مَكِّيَّةٌ[5].

---

(١) قال ابن العربي: (وهي مِن غرائبِ القرآنِ...؛ فإنَّها نزلت على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم تحتَ الأرضِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه أحمدُ (٣٥٧٤)، وابنُ حبَّانَ (٧٠٧)، والحاكمُ (٢٩٩٤).

صحَّحه ابنُ حبَّانَ، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ٤٦)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ. والحديثُ في الصَّحيحَينِ دونَ آخِرِه: (فلا أدري ...).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٧/ ٢١).

(٤) أخرجه البخاري (٧٦٣)، ومسلم (٤٦٢).

(٥) وقيل: إلَّا آيةً منها، وهي قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]؛ فهي =

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

تخويفُ الكفَّارِ وتحذيرُهم عن الكُفرِ[١].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- القَسَمُ على وُقوعِ القيامةِ، وأنَّه آتٍ لا شَكَّ فيه، وذِكرُ بعضِ أهوالِ يومِ القيامةِ.

٢- الاستِدلالُ على وُقوعِ البَعثِ، وذِكرُ بعضِ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تعالى: من خَلْقِ الإنسانِ والأرضِ والجبالِ.

٣- وعيدُ المكذِّبين، ووصْفُ عذابِهم في الآخِرةِ.

٤- وصْفُ نعيمِ المتَّقينَ، وحُسنِ عاقبتِهم، وأنواعِ كرامتِهم.

٥- التَّعجيبُ مِن أحوالِ الكافِرين، وشِدَّةِ عِنادِهم وتعنُّتِهم.

---

= مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٠)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٠). وقد ذكر عشَرةَ أنواعٍ مِن التَّخويفاتِ اشتملت عليها السُّورةُ الكريمةُ (٣٠/ ٧٧٠ - ٧٨١).

## الآيات (١-٧)

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾: المرادُ بالمُرْسَلاتِ: الرِّياحُ، وقيل: الملائكةُ، وقيل: الأنبياءُ، والعُرْفُ: التَّتابُعُ؛ مِن قَولِ العَرَبِ: تركْتُ النَّاسَ إلى فُلانٍ عُرْفًا واحِدًا: إذا توَجَّهوا إليه فأكثَروا، والعُرْفُ على هذا: اسمٌ أُقيمَ مُقامَ الحالِ؛ لأنَّ المعنى: والرِّياحِ الَّتي أُرسِلَت مُتتابِعةً. وقيل: العُرْفُ: المعروفُ والإِحسانُ. وأصلُ (عرف): يدُلُّ على تتابُعِ الشَّيءِ مُتَّصِلًا بَعْضُه بَبعضٍ، ويدُلُّ كذلك على السُّكونِ والطُّمأنينةِ؛ لأنَّ النُّفوسَ تَسكُنُ إلى المعروفِ والإحسانِ[1].

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾: أي: الرِّياحِ الشَّديدةِ الهُبوبِ، وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[2].

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾: هم الملائِكةُ الَّتي تَنشُرُ أجنحَتها في الجوِّ، وتنشُرُ الشَّرائعَ في الأرضِ وقيل غير ذلك، وقيل: هي الرِّياحِ الَّتي تَنشُرُ السَّحابَ، وتأتي بالمطَرِ. وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠١).

﴿فَٱلْفَرِقَٰتِ فَرْقًا﴾: أي: الملائكةِ تأتي بما يَفرُقُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، والحَلالِ والحَرامِ، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (فرق): يدُلُّ على تمييزٍ بيْن شَيئَينِ[١].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾

قَولُه تعالى: ﴿عُرْفًا﴾: فيه ثلاثةُ أوجُهٍ؛ أحدُها: أنَّه مَفعولٌ مِنْ أجْلِه، أي: والمُرْسَلاتِ للإحسانِ والمَعروفِ، والعُرْفُ: ضِدُّ النُّكْرِ. الثَّاني: أنْ يَنتصِبَ على الحالِ، بمعنى: مُتتابِعةً؛ مِنْ قولِهم: جاؤُوا عُرْفًا واحِدًا: إذا جاؤوا يَتْبَعُ بَعْضُهم بعضًا. الثَّالثُ: أنْ يَنتصِبَ على إسقاطِ الخافضِ، أي: والمُرسَلاتِ بالعُرْفِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾

قولُه تعالى: ﴿ذِكْرًا﴾: مَفعولٌ به لاسمِ الفاعِلِ «المُلْقِياتِ».

قَولُه: ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾: ﴿عُذْرًا﴾: فيه أوجهٌ؛ أحدُها: أنَّه بَدَلٌ مِنْ «ذِكْرًا». الثَّاني: أنَّه مَفعولٌ به منصوبٌ بالمصدرِ ﴿ذِكْرًا﴾. الثَّالثُ: أنَّه مفعولٌ مِنْ أجْلِه، والعامِلُ فيه: إمَّا «المُلْقِيات»، وإمَّا «ذِكْرًا»، أي: فالْمُلْقِياتِ ذِكْرًا للإعذارِ والإنذارِ. الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِن «المُلْقِيات»، أو مِن الضَّميرِ فيها، أي: فالمُلْقِياتِ ذِكْرًا مُعْذِرينَ أو مُنْذِرينَ. ﴿نُذْرًا﴾: مَعطوفٌ على «عُذْرًا» منصوبٌ مِثلُه، وله حُكْمُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٢٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٨٨).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٧)، ((الدر المصون)) =

## المعنى الإجماليُّ:

افتتح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأنْ أقسَمَ بالرِّياحِ الَّتي تُرسَلُ مُتتابِعةً، وتَهُبُّ شَيئًا فشَيئًا، وبالرِّياحِ الشَّديدةِ الهُبوبِ، وبالملائكةِ الَّتي تَنشُرُ ما دُبِّرتْ على نشرِه، وبالملائِكةِ الَّتي تأتي بما يَفرُقُ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، وبالملائِكةِ الَّتي تُبَلِّغُ رُسُلَ اللهِ وَحْيَه؛ إقامةً للحُجَّةِ مِنَ اللهِ على خَلْقِه، وتحذيرًا لهم مِن عَذابِه؛ أقسَمَ سُبحانه بما تقَدَّمَ على أنَّ الَّذي يوعَدُ به النَّاسُ به مِنَ البَعثِ يومَ القيامةِ والحِسابِ والجَزاءِ: واقِعٌ لا شَكَّ فيه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالرِّياحِ الَّتي تُرسَلُ مُتتابِعةً، فيَتْبَعُ بَعْضُها بَعْضًا، وتَهُبُّ شَيئًا فشَيئًا[1].

---

= للسمين الحلبي (١٠/ ٦٣٠، ٦٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٨٩).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٠).

وممَّن ذهَب إلى أنَّ المُرسَلاتِ هي الرِّياحُ المُرسَلةُ: الواحديُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وابنُ كثير، ورجَّحه الشوكانيُّ، وابنُ عاشور، واختاره الشنقيطيُّ كما نقله عنه صاحبُ التَّتِمَّةِ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٠).

ونسَبَ السَّمْعانيُّ، والقُرطبيُّ، وابنُ القيِّمِ هذا القولَ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو صالحٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٠).

قال ابن كثير: (والأظهرُ أنَّ «المُرْسَلاتِ» هي الرِّياحُ، كما قال تعالَى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ =

= [الحجر: ٢٢]، وقال تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

وقال ابن القيِّم: (ويؤيِّدُ كَوْنَها الرِّياحَ عَطْفُ العاصِفاتِ عليها بفاءِ التَّعقيبِ والتَّسَبُّبِ، فكأنَّها أُرسِلَت فعصَفَت). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٤٣).

وقيل: هي الملائِكةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزمخشريُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٣)، ((تأويل مُشْكِل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو هُرَيرةَ، ومَسروقٌ، وأبو صالحٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، وأبو الضُّحى، والسُّدِّيُّ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨١، ٥٨٢)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٦).

وممَّن جمَع بيْن القولَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٥). ويُنظر أيضًا: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٢-١٤٤).

وقيل: المرادُ: الأنبياءُ المُرسَلونَ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٢٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو صالحٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

قال ابن عطيَّة: (قال كثيرٌ مِن المفَسِّرينَ: المُرسَلاتُ: الرُّسُلُ إلى النَّاسِ مِنَ الأنبياءِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٦).

وضعَّف ابنُ القَيِّم هذا القَولَ. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٣).

وقد اختار ابنُ جريرٍ العُمومَ، فقال: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك عندَنا أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أقسَمَ بالمُرسَلاتِ عُرْفًا، وقد تُرسَلُ عُرْفًا الملائِكةُ، وتُرسَلُ كذلك الرِّياحُ، ولا دَلالةَ تدُلُّ على أنَّ المَعْنيَّ بذلك أحدُ الجِنسَينِ دونَ الآخَرِ، وقد عَمَّ جَلَّ ثناؤُه بإقسامِه بكُلِّ ما كانت صِفتُه ما وَصَف، فكُلُّ مَن كانت صِفتُه كذلك فداخِلٌ في قَسَمِه ذلك؛ مَلَكًا أو رِيحًا أو رَسولًا مِن بني آدَمَ مُرسَلًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣).

قال القرطبيُّ: (وقيل: يحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ بالمُرسَلاتِ السَّحابَ؛ لِما فيها مِن نِعمةٍ ونِقمةٍ، عارفةً بما أُرسِلَت فيه، ومَن أُرسِلَت إليه). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٤).

كما قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان العُصوفُ للعَواصِفِ يَتعَقَّبُ الهُبوبَ، عطَفَ بالفاءِ؛ تَعقيبًا وتَسبيبًا[1]:

﴿ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ ﴾.

أي: فالرِّياحِ الشَّديدةِ الهُبوبِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠).

قال ابنُ عاشور: (﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ تَفريعٌ على المُرسَلاتِ، أي: تُرسَلُ فتَعْصِفُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالعاصِفاتِ الرِّياحُ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابن جُزَي، وأبو حيَّان، وابن كثير، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليٌّ، وابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وأبو صالحٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٨١).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهِرُ أنَّه أقسَم أوَّلًا بالرِّياحِ، فهي مُرسَلاتُه تعالى، ويدُلُّ عليه عَطفُ الصِّفةِ بالفاءِ،... وأنَّ العَصفَ مِن صفاتِ الرِّيحِ في عدَّةِ مَواضِعَ مِن القرآنِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤).

وقيل: هي الملائِكةُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: الزمخشريُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير =

﴿وَٱلنَّشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بالملائكةِ الَّتي تَنشُرُ ما دُبِّرتْ على نشرِه[1].

---

= الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه، ومسروقٌ، ومسلمُ بنُ صُبَيحٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٧٤)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٨٢).

وممَّن جمَع بيْن القولَينِ: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٥).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: الملائكةُ: الزمخشريُّ، والقرطبي، وابن جُزَي، وأبو حيَّان، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيِّم، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: أبو صالحٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٨٢).

قال أبو حيَّان: (والَّذي أراه أنَّ المُقسَمَ به شيئان؛ ولذلك جاء العطفُ بالواوِ في ﴿وَٱلنَّشِرَٰتِ﴾، والعطفُ بالواوِ يُشعِرُ بالتَّغايُرِ، بل هو مَوضوعُه في لسانِ العرَبِ... فالظَّاهِرُ أنَّه أقسَمَ أوَّلًا بالرِّياحِ، فهي مُرسَلاتُه تعالى، ويدُلُّ عليه عطفُ الصِّفةِ بالفاءِ، ... وأنَّ العصفَ مِن صفاتِ الرِّيحِ في عِدَّةِ مواضِعَ من القرآن. والقَسَمُ الثَّاني فيه تَرَقٍّ إلى أشرَفَ مِن المقسَمِ به الأوَّلِ، وهم الملائكةُ، ويكون ﴿فَٱلْفَرِقَٰتِ... فَٱلْمُلْقِيَٰتِ﴾ مِن صِفاتِهم، كما قُلْنا في عَطفِ الصِّفاتِ. وإلقاؤُهم الذِّكْرَ -وهو ما أنزَلَ اللهُ- يصِحُّ إسنادُه إليهم). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤).

وقال ابن عاشور: (... الصِّفات الَّتي عُطِفَت بالفاءِ تابعةٌ لجِنسِ ما عُطِفَت هي عليه، والَّتي عُطِفَت بالواوِ يَترجَّحُ أنَّها صِفاتُ جِنسٍ آخَرَ.

فالأرجَحُ أنَّ المُرسَلاتِ والعاصِفاتِ صِفتانِ للرِّياحِ، وأنَّ ما بَعْدَها صِفاتٌ للملائكة، والواوُ الثَّانيةُ للعطْفِ وليستْ حرْفَ قسَمٍ. ومُناسَبةُ الجمْعِ بيْن هذَينِ الجِنسينِ في القسَمِ أنَّ كِلَيْهما مِن الموجوداتِ العُلويَّةِ؛ لأنَّ الأصلَ في العطْفِ بالواوِ أنْ يكونَ المعطوفُ بها ذاتًا غيرَ المعطوفِ عليه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠).

وقال ابنُ القيِّم: (لكِنَّ هنا أمرًا يَنبغي التَّفطُّنُ له، وهو أنَّه سُبحانَه جعَل الأقسامَ في هذه السُّورةِ =

= نوعَينِ، وفَصَل أحدَهما مِن الآخَرِ، وجعَل «العاصِفاتِ» معطوفًا على «المرسَلاتِ» بفاء التَّعقيبِ؛ فصارَا كأنَّهما نوعٌ واحدٌ، ثمَّ جعَل «النَّاشِراتِ» كأنَّه قسَمٌ مُبتدَأٌ، فأتى فيه بالواوِ، ثمَّ عطَف عليه «الفارِقاتِ» و«المُلْقياتِ» بالفاءِ، فأوهَمَ هذا أنَّ «الفارِقاتِ» و«المُلْقياتِ» مُرتبطٌ بـ«النَّاشِراتِ»، وأنَّ «العاصِفاتِ» مرتبطٌ بـ «المرسَلاتِ»... ويَظهَرُ -واللهُ أعلَمُ بما أراد مِن كلامِه- أنَّ القسَمَ في هذه الآيةِ وقَع على النَّوعَينِ: الرِّياحِ والملائكةِ، ووجْهُ المُناسَبةِ أنَّ حياةَ الأرضِ والنَّباتِ وأبدانِ الحيَوانِ: بالرِّياحِ؛ فإنَّها مِن رَوْحِ الله، وقد جعَلها اللهُ تعالى نُشورًا؛ وحياةَ القُلوبِ والأرواحِ بالملائكةِ، فبِهَذَينِ النَّوعَينِ يحصُلُ نَوْعَا الحياةِ، ولهذا -واللهُ أعلَمُ- فصَل أحدَ النَّوعَينِ مِن الآخَرِ بالواوِ، وجعل ما هو تابعٌ لكلِّ نَوعٍ بعدَه بالفاءِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٤٥، ١٤٦).

قال الزمخشري: (نَشَرْنَ أجنِحَتَهنَّ في الجَوِّ عندَ انحطاطِهنَّ بالوَحْيِ، أو نَشَرْنَ الشَّرائِعَ في الأرضِ، أو نشَرْنَ النُّفوسَ الموتى بالكُفرِ والجَهلِ، بما أَوْحَينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧).

وقال القرطبي: (﴿وَٱلنَّشِرَٰتِ نَشْرٗا﴾ الملائِكةُ الموكَّلونَ بالسُّحُبِ يَنشُرونَها). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥).

وقيل: المرادُ بالنَّاشِراتِ: الرِّياحُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، وابن كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطيُّ كما نقله عنه صاحبُ التَّتِمَّةِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٠)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٠).

ونسَبَ الرَّسْعَنيُّ هذا القولَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٢٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ مسعودٍ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وأبو صالحٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٩).

قال ابن كثير: (النَّاشِراتُ هي: الرِّياحُ الَّتي تَنْشُرُ السَّحابَ في آفاقِ السَّماءِ، كما يَشاءُ الرَّبُّ عزَّ وجلَّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

وممَّن جمَع بيْنَ القولَينِ: الملائكةِ والرِّياحِ: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى العُمومِ، فقال: (إنَّ اللهَ -تعالى ذِكْرُه- أقسَمَ بالنَّاشِراتِ نَشْرًا، ولم يَخصُصْ شَيئًا مِن ذلك دونَ شَيءٍ، فالرِّيحُ تَنشُرُ السَّحابَ، والمطَرُ يَنشُرُ الأرضَ، والملائِكةُ تَنشُرُ الكُتُبَ، ولا دَلالةَ مِن وَجهٍ يَجِبُ التَّسليمُ له على أنَّ المرادَ مِن ذلك بَعضٌ دونَ بَعضٍ، فذلك على كُلِّ ما =

﴿فَٱلْفَرِقَٰتِ فَرْقًا ٤﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تأتي بما يَفرُقُ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ[1].

= كان ناشِرًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٧).

وقال السعدي: (يحتَمِلُ أنَّها الملائِكةُ تَنشُرُ ما دُبِّرَت على نَشْرِه، أو أنَّها السَّحابُ الَّتي يَنشُرُ بها اللهُ الأرضَ، فيُحييها بعدَ مَوتِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٠).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالفارقاتِ: الملائكةُ: الزَّجَّاجُ، والقرطبي، وابن كثير، والشوكاني، ونسبه ابنُ القيِّم إلى الجمهورِ. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿فَٱلْفَرِقَٰتِ فَرْقًا * فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا * عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ يعني: الملائكةَ. قاله ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومَسروقٌ، ومجاهِدٌ، وقَتادةُ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، والسُّدِّيُّ، والثَّوْريُّ. ولا خِلافَ هاهنا؛ فإنَّها تنزِلُ بأمرِ الله على الرُّسُلِ، تُفَرِّقُ بيْن الحقِّ والباطِلِ، والهُدى والغَيِّ، والحلالِ والحرامِ، وتُلْقي إلى الرُّسُلِ وحيًا فيه إعذارٌ إلى الخَلقِ، وإنذارٌ لهم عِقابَ الله إن خالَفوا أمْرَه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

وقيل: المرادُ: القُرآنُ، فهو يَفْرُقُ بيْن الحَقِّ والباطِلِ. وممَّن قال بهذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، والحسَنُ، وابنُ كَيْسانَ. ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧).

وقيل: المرادُ: الرِّياحُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٦).

قال الرَّسْعَني: (﴿فَٱلْفَرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ قال مجاهدٌ: هي الرِّياحُ تُفَرِّقُ بيْن السَّحابِ فتُبَدِّدُه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٢٨).

وقيل: المرادُ: السَّحابُ. وممَّن ذهب إليه: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٦٦).

قيل: السُّحبُ فرَّقْنَ بيْن مَن يَشكُرُ اللهَ تعالى وبيْن مَن يَكفُرُ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٨٢).

وقيلَ: شُبِّهَتِ السَّحاباتُ الماطِرةُ بالنَّاقةِ الفارِقِ -وهي الحامِلُ- الَّتي تَخرُجُ وتَنِدُّ في الأرضِ =

﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ٥﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تُبَلِّغُ رُسُلَ اللهِ وَحْيَه المُذَكِّرَ بالحَقِّ لِعبادِه[1].

﴿عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ٦﴾.

أي: وذلك الوَحيُ إقامةٌ للحُجَّةِ مِنَ اللهِ على خَلْقِه، وتحذيرٌ لهم مِن عَذابِه[2].

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ٧﴾.

أي: إنَّ الَّذي تُوعَدونَ به مِنَ البَعثِ يومَ القيامةِ والحِسابِ والجَزاءِ: لَكائِنٌ لا شَكَّ في ذلك[3].

---

= حينَ تضَعُ، شَبَّهوا السَّحابةَ الَّتي تَنْفَرِدُ مِن السَّحابِ بهذه النَّاقةِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٥).

وذهب ابنُ جريرٍ إلى عَدَمِ التَّخصيصِ بشَيءٍ مُعَيَّنٍ، فقال: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أنْ يقالَ: أَقسَمَ رَبُّنا -جَلَّ ثناؤه- بالفارِقاتِ، وهي الفاصِلاتُ بيْن الحَقِّ والباطِلِ، ولم يَخصُصْ بذلك منهنَّ بَعضًا دونَ بَعضٍ، فذلك قَسَمٌ بكُلِّ فارِقةٍ بيْن الحَقِّ والباطِلِ؛ مَلَكًا كان أو قُرآنًا أو غيرَ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٣).

حكى غيرُ واحدٍ الاتِّفاقَ وعدمَ الخلافِ في أنَّ المرادَ: الملائكةُ؛ منهم: المهدويُّ، والقرطبيُّ، وابنُ القيم، وابنُ كثير، وابنُ عاشور. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٦/ ٥٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٩).

ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤). =

كما قال تعالى حِكايةً عن الرَّاسِخينَ في العِلمِ: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ [فاطر: ٥].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ الإرسالُ نَوعانِ: إرسالُ دينٍ يُحِبُّه ويَرضاه، كإرسالِ رُسُلِه وأنبيائِه، وإرسالُ كَونٍ، وهو نَوعانِ: نوعٌ يُحِبُّه ويَرضاه، كإرسالِ ملائكتِه في تدبيرِ أمرِ خَلْقِه -على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ-، ونوعٌ لا يحِبُّه، بل يَسخَطُه ويُبغِضُه، كإرسالِ الشَّيطانِ على الكُفَّارِ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۞ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾ أنَّه مِن تمامِ عَدْلِه وإحسانِه سُبحانَه أنْ أعْذَرَ إلى عبادِه، وألَّا يُؤاخِذَ ظالِمَهم إلَّا بعدَ كَمالِ الإعذارِ، وإقامةِ الحُجَّةِ عليه(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۞ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۞ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۞ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۞ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ۞ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾

- قولُه: ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ۞ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ۞ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ۞ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ۞ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ

---

= قال الماوَرْدي: (﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ هذا جوابُ ما تقَدَّمَ مِنَ القَسَمِ؛ لأنَّ في أوَّلِ السُّورةِ قَسَمًا). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٧٧).

قيل: الخِطابُ للنَّاسِ. وممَّن قال به: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٠).

وقيل: الخِطابُ للمُشرِكين. وممَّن اختاره: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٣).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٢٠١).

ذِكْرًا﴾ صِفاتٌ لمَوصوفاتٍ قد حُذِفَت، وأُقِيمَت صِفاتُها مُقامَها[١].

- وهذا قَسَمٌ بمَخلوقاتٍ عَظيمةٍ دالَّةٍ على عَظيمِ عِلمِ اللهِ تعالَى وقُدرتِه، والمَقصودُ مِن هذا القسَمِ تأْكيدُ الخبَرِ، وفي تَطويلِ القسَمِ تَشويقُ السَّامعِ لتَلقِّي المُقسَمِ عليه[٢].

- قولُه: ﴿عُرْفًا﴾ حالٌ مُفيدةٌ معْنى التَّشبيهِ البليغِ، أي: مِثلَ عُرْفِ الفرَسِ في تَتابُعِ الشَّعرِ بَعضِه ببَعضٍ، يُقالُ: همْ كعُرْفِ الضَّبعِ، إذا تَألَّبوا، ويُقالُ: جاؤوا عُرْفًا واحدًا. وهو صالِحٌ لوَصْفِ الملائكةِ ولوَصْفِ الرِّيحِ. وقيل غيرُ ذلك[٣].

- قولُه: ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾ تَفريعٌ على ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾، إنْ أُريدَ بالمُرسَلاتِ وصْفُ الملائكةِ، فالعصْفُ تَشبيهٌ لنُزولِهم في السُّرعةِ بشِدَّةِ الرِّيحِ؛ وذلك في المُبادَرةِ في سُرعةِ الوُصولِ بتَنفيذِ ما أُمِروا به، و﴿عَصْفًا﴾ مُؤكِّدٌ للوصْفِ تَأكيدًا لتَحقيقِ الوصْفِ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ النَّشرُ: ضِدُّ الطَّيِّ، ويَكثُرُ استِعمالُه في الإظهارِ والإيضاحِ وفي الإخراجِ، فالنَّاشِراتُ إذا جُعِلَ وصْفًا للملائكةِ جاز أنْ يكونَ نَشْرَهم للوحيِ، أي: تكرير نزولِهم لذلك -على قولٍ-، وأنْ يكونَ النَّشرُ كِنايةً

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٣، ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٠)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١).

عن الوُضوحِ، أي: بالشَّرائعِ البيِّنةِ[١].

وإذا كان قولُه: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا﴾ وَصْفًا للرِّياحِ فهو نشْرُ السَّحابِ في الأجواءِ، فيكونُ عطْفُه بالواوِ دونَ الفاءِ للتَّنبيهِ على أنَّه مَعطوفٌ على ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ﴾ لا على ﴿فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ﴾؛ لأنَّ العصْفَ حالةُ مَضَرَّةٍ، والنَّشرَ حالةُ نفْعٍ[٢].

- قولُه: ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا﴾ قيل: لتَفرُّعِ الفرْقِ عن النَّشرِ عُطِفَ ﴿فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ﴾ على (النَّاشِرَاتِ) بالفاءِ، وأُكِّدَ بالمَفعولِ المُطلَقِ تَأكيدًا لتَحقيقِ الوصْفِ[٣].

- قولُه: ﴿فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا﴾ الإلقاءُ مُعبَّرٌ به عن تَبليغِ الذِّكرِ مِن العالَمِ العُلويِّ إلى أهلِ الأرضِ، بتَشبيهِهِ بإلقاءِ شَيءٍ مِن اليَدِ إلى الأرضِ، وإلقاءُ الذِّكرِ تَبليغُ المواعظِ إلى الرُّسلِ ليُبلِّغوها إلى النَّاسِ، وهذا الإلقاءُ مُتفرِّعٌ على الفرْقِ؛ لأنَّهم يَخُصُّون كلَّ ذِكْرٍ بمَن هو مُحتاجٌ إليه، فذِكرُ الكُفَّارِ بالتَّهديدِ والوعيدِ بالعَذابِ، وذِكرُ المؤمنين بالثَّناءِ والوعْدِ بالنَّعيمِ[٤].

- على القولِ بأنَّ الآياتِ إقسامٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ بطَوائفَ مِن الملائكةِ أرسَلَهنَّ بأوامِرِه فلَعلَّ تَقديمَ النَّشْرِ -نشْرِ الشَّرائعِ ونشْرِ النُّفوسِ- والفَرْقِ على الإلقاءِ؛ للإيذانِ بكَونِها غايةً للإلقاءِ، حَقيقةً بالاعتناءِ بها، أو للإشعارِ بأنَّ كُلًّا مِن الأوصافِ المَذكورةِ مُستقِلٌّ بالدَّلالةِ على استحقاقِ الطَّوائفِ الموصوفةِ بها التَّفخيمَ والإجلالَ بالإقسامِ بهِنَّ، ولو جِيءَ بها على تَرتيبِ الوُقوعِ لَرُبَّما فُهِمَ أنَّ مَجموعَ الإلقاءِ والنَّشْرِ والفرْقِ هو المُوجِبُ لِما ذُكِرَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن الاستِحقاقِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ جَوابُ القسَمِ، وزِيدَت تَأْكيدًا بـ (إنَّ)؛ لتَقويةِ تَحقيقِ وُقوعِ الجَوابِ[٢].

- و(إنَّما) في قولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ كَلِمتانِ هما (إنَّ) الَّتي هي حرْفُ تَأكيدٍ، و(ما) الموصولةُ، وليست هي (إنَّما) الَّتي هي أداةُ حصْرٍ، وما يُوعَدون هو البعثُ للجَزاءِ، وهم يَعلَمون الصِّلةَ؛ فلذلك جِيءَ في التَّعبيرِ عنه بالمَوصوليَّةِ، والخِطابُ للمشرِكين -على قولٍ-، أي: ما تَوَعَّدكم اللهُ به مِن العِقابِ بعْدَ البعثِ واقعٌ لا مَحالةَ وإنْ شكَكْتُم فيه أو نَفَيتُموه[٣].

- والواقعُ: الثَّابتُ، وأصلُ الواقعِ السَّاقطُ على الأرضِ، فعُبِّرَ به عن الشَّيءِ المُحقَّقِ؛ تَشبيهًا بالمُستقِرِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٨-١٥)

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿طُمِسَتۡ﴾: أي: مُحِيَ نُورُها، والطَّمْسُ: إزالةُ الأثَرِ بالمَحْوِ، وأصلُ (طمس): يدُلُّ على مَحوِ الشَّيءِ ومَسْحِه[1].

﴿نُسِفَتۡ﴾: أي: قُلِعَتْ وأُزِيلَتْ، وأصلُ (نسف): يدُلُّ على كَشْفِ شَيءٍ[2].

﴿أُقِّتَتۡ﴾: أي: جُمِعَتْ لِميقاتِ يومٍ مَعلومٍ. أو: جُعِلَ لها وَقتٌ مُنتَظَرٌ فجاء وحانَ، وأصلُ (وقت): يدُلُّ على حَدِّ شَيءٍ في زَمانٍ وغَيرِه[3].

﴿وَيۡلٞ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٥).

قال الراغب: (ومَن قال: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ وَيْلًا في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مَقَرًّا من النَّارِ، وثَبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (الوَيلُ في كلامِ العَرَبِ: المصائِبُ والحُزنُ والشِّدَّةُ مِن هذه المعاني، وهي لفظةٌ تُستعمَلُ في الدُّعاءِ على الإنسانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١). =

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ القيامةِ: فإذا ذَهَب ضَوءُ النُّجومِ، وإذا فُتِحَت السَّماءُ، وإذا قُلِعَت الجِبالُ وتفَتَّتَت فصارتْ هَباءً، وإذا جُمِعَ رُسُلُ اللهِ في الوَقتِ المحَدَّدِ؛ وَقَعَ ما تُوْعَدون.

لأيِّ يَومٍ أُجِّلَ اجتِماعُ الرُّسُلِ؟ ليَومِ الفَصلِ، الَّذي يَفصِلُ فيه اللهُ تعالى بيْنَ عِبادِه. وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- ما يومُ الفَصْلِ؟

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨﴾.

أي: فإذا ذَهَب ضَوءُ النُّجومِ[1].

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ٩﴾.

أي: وإذا فُتِحَت السَّماءُ وانشَقَّت[2].

قال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦].

وقال سُبحانَه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ [النبأ: ١٩].

---

= وقال الشنقيطي: (الأظهرُ أنَّ لفظةَ ﴿وَيۡلٞ﴾ كلمةُ عَذابٍ وهلاكٍ، وأنَّها مَصدرٌ لا فِعلَ له مِن لَفظِه، وأنَّ المسَوِّغَ للابتِداءِ بها -مع أنَّها نَكِرةٌ- كَونُها في مَعرِضِ الدُّعاءِ عليهم بالهَلاكِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧).

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ [الانفطار: ١].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ [الانشقاق: ١].

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ١٠﴾.

أي: وإذا قُلِعَت الجِبالُ، وتفَتَّتَتْ فصارَتْ هَباءً[١].

قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡجِبَالِ فَقُلۡ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسۡفٗا * فَيَذَرُهَا قَاعٗا صَفۡصَفٗا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجٗا وَلَآ أَمۡتٗا﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا * فَكَانَتۡ هَبَآءٗ مُّنۢبَثّٗا﴾ [الواقعة: ٥، ٦].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ [المزمل: ١٤].

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى تغييرَ السَّماءِ والأرضِ؛ ذكَرَ ما فُعِلَ ذلك مِن أجْلِه، فقال[٢]:

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ١١﴾.

أي: وإذا جُمِعَ رُسُلُ اللهِ في الوَقتِ الَّذي حُدِّدَ لذلك[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٤).
ويُنظر ما تقدَّم في ذكرِ الأحوالِ الَّتي تصيرُ إليها الجبالُ يومَ القيامةِ (ص: ٥٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٠، ٥٩١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال ابن عاشور: (لا خِلافَ في أنَّ ﴿أُقِّتَتۡ﴾ مُشتَقٌّ مِنَ الوَقتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٥).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩].

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾﴾.

أي: لأيِّ يومٍ أُخِّرت الرُّسلُ، وضُرِب لهم الأجلُ لجمعِهم[١]؟

﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ليَوم يَفصِلُ فيه اللهُ تعالى بيْنَ عِبادِه، فيَحكُمُ بيْنَهم، ويُحاسِبُهم، ويُجازِي كُلًّا بما يَستَحِقُّ[٢].

قال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

ثمَّ قال تعالى مُعَظِّمًا شَأنَ ذلك اليَومِ، ومُهَوِّلًا أمْرَه:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وأيُّ شَيءٍ أعلَمَك -يا محمَّدُ- ما يومُ الفَصْلِ[٣]؟

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

قال ابنُ عاشور: (الفَصلُ: تمييزُ الحَقِّ مِنَ الباطِلِ بالقَضاءِ والجَزاءِ؛ إذ بذلك يَزولُ الالتِباسُ والاشتِباهُ والتَّمويهُ الَّذي كان لأهلِ الضَّلالِ في الدُّنيا، فتتَّضِحُ الحقائِقُ على ما هي عليه في الواقِعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٧).

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا هَوَّلَ أمْرَ يومِ القيامةِ؛ ذَكَر ما يَقَعُ فيه مِنَ الشِّدَّةِ على وَجهِ الإجمالِ، فقال[١]:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[٢].

قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٦٠].

## الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أنَّه في مَقامِ التَّرغيبِ أوِ التَّرهيبِ فإنَّه يَنبغي التَّكرارُ، حيثُ كُرِّرَتْ الآيةُ عِدَّةَ مرَّاتٍ؛ تحذيرًا وإنذارًا، ولكلِّ مَقامٍ مَقالٌ، والتَّكرارُ قد يكونُ مِن الرَّكاكةِ ومِن البُعْدِ عن البَلاغةِ، لكِنْ إذا كان في مَوضِعٍ يَحسُنُ فيه كان ذلك مِن البَلاغةِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ انتَزَعَ النَّاسُ مِن هذه الآيةِ تأجيلَ القُضاةِ للخُصومِ في الحُكوماتِ؛ لِيَقَعَ فَصْلُ القَضاءِ عندَ تمامِ التَّأجيلِ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ جاء في هذه السُّورةِ بَعْدَ كُلِّ جُملةٍ؛ لأنَّ كُلَّ جُملةٍ منها فيها إخبارُ اللهِ تعالى عن أشياءَ مِن أحوالِ الآخِرةِ، وتقريراتٍ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٧، ٤٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٢٥٧).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦١٠).

مِن أحوالِ الدُّنيا؛ فناسَبَ أن يَذكُرَ الوَعيدَ عَقِيبَ كُلِّ جملةٍ منها للمُكَذِّبِ، بالوَيلِ في يومِ الآخِرةِ[١].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه قد كُرِّرَت هذه الجُملةُ بعَدَدِ أجزاءِ طرَفِ القَسَمِ أو أجزاءِ الجوابِ؛ لِتَكونَ كُلُّ جملةٍ منها وعيدًا على التَّكذيبِ بواحدٍ مِن تلك الأجزاءِ[٢]. وقيل: هو معَ كُلِّ آيةٍ كأنَّه مع سورةٍ مُفرَدةٍ، فلا تَكرارَ[٣]. فكلُّ آيةٍ مِن هذا الوعيدِ تَعودُ الى ما ذُكِر قبْلَها.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ الفاءُ للتَّفريعِ على قولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ [المرسلات: ٧]؛ لأنَّه لَمَّا أفاد وُقوعَ البَعثِ، وكان المُخاطَبونَ يُنكِرونه ويَتعلَّلون بعدَمِ التَّعجيلِ بوُقوعِه؛ بيَّن لهم ما يَحصُلُ قبْلَه زِيادةً في تَهويلِه عليهم، والإنذارِ بأنَّه مُؤخَّرٌ إلى أنْ تَحصُلَ تلك الأحداثُ العظيمةُ، وذلك على أنَّ الخطابَ للمشركينَ، وفيه كِنايةٌ رَمزيَّةٌ على تَحقيقِ وُقوعِه؛ لأنَّ الإخبارَ عن أمَاراتِ حُلولِ ما يُوعَدون يَستلزِمُ التَّحذيرَ مِن التَّهاوُنِ به؛ ولذلك خُتِمَت هذه الأخبارُ بقولِه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾[٤] [المرسلات: ١٩].

- وفي جوابِ (إذا) في جُملةِ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه مَحذوفٌ، تَقديرُه: فإذا طُمِسَت النُّجومُ وَقَعَ ما تُوعَدون؛ لدَلالةِ قولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ [المرسلات: ٧]. والثَّاني: أنَّه ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾، على إضمارِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩، ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٣، ٤٢٤).

القولِ، أي: يُقالُ: لأيِّ يومٍ أُجِّلتْ، فالفعلُ في الحقيقةِ هو الجوابُ، وقيل: جَوابُ (إِذَا) هذه الجملةُ: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾[1].

- وكُرِّرت كَلمةُ (إذا) في أوائلِ الجُمَلِ المَعطوفةِ على هذه الجُملةِ بعْدَ حُروفِ العطْفِ، مع إغناءِ حرْفِ العطفِ عن إعادةِ (إذا) كما في قولِه: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنسَانُ﴾ الآيةَ [القيامة: ٧ - ١٠]؛ لإفادةِ الاهتِمامِ بمَضمونِ كلِّ جُملةٍ مِن هذه الجُمَلِ؛ ليَكونَ مَضمونُها مُستقِلًّا في جَعْلِه عَلامةً على وُقوعِ ما يُوعَدون[2].

- وبِناءُ الأفعالِ في قولِه: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ بصِيغةِ المَبنيِّ لِمَا لَمْ يُسَمَّ فاعِلُه؛ لأنَّ المَقصودَ الاعتِبارُ بحُصولِ الفِعلِ، لا بتَعْيينِ فاعِلِه، على أنَّه مِن المَعلومِ أنَّ فاعِلَها هو اللهُ تعالَى؛ إذ لا يَقدِرُ عليه غيرُه[3].

٢- قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ * لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ * لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾

- جُملةُ ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ عطْفٌ على الجُملَ الثَّلاثِ المُتقدِّمةِ، فهي تَقييدٌ لوقتٍ حادثٍ يَحصُلُ، وهي ممَّا جُعِلَ مَضمونُها علامةً على وُقوعِ ما يُوعَدون به، فيَلزَمُ أنْ يكونَ مَضمونُها مُستقبَلَ الحُصولِ[4].

- قولُه: ﴿أُقِّتَتْ﴾ قدْ يكون بمعْنى: وُقِّت لها وقتٌ، على طَريقةِ الحذْفِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والإيصالِ[١].

- وليس في اللَّفظِ بَيانُ أنَّه تحصيلٌ لوَقتِ أيِّ شيءٍ، وإنَّما لم يُبيِّنْ ذلك، ولم يُعَيِّنْ؛ مِن أجْلِ أن يَذهَبَ الوَهمُ إلى كُلِّ جانبٍ، فيَكونَ التَّهويلُ فيه أشَدَّ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ لَفظُ (أيّ) يَجوزُ أنْ تكونَ اسمَ استفهامٍ مُستعمَلٍ للتَّهويلِ، ويجوزُ أنْ تكونَ (أيّ) مَوصولةً دالَّةً على التَّعظيمِ والتَّهويلِ، وهو ما يُعبَّرُ عنه بالدَّالِّ على معْنى الكَمالِ، وتكونَ صِفةً لمَوصوفٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه ما أُضِيفَت إليه (أيّ)، وتَقديرُه: ليَومٍ أيِّ يومٍ! أي: ليَومٍ عَظيمٍ، ويكونَ معْنى ﴿أُقِّتَتۡ﴾: حضَرَ مِيقاتُها الَّذي وُقِّت لها، ويكونَ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ لامَ التَّعليلِ، أي: جُمِعَت لأجْلِ اليومِ الَّذي أُجِّلَت إليه[٣].

- وقد بُولِغ في تَهويلِه بإبهامِه أوَّلًا، ثمَّ ببيانِه بأنَّه يومُ الحُكمِ والقضاءِ، ثمَّ هوَّلَ شأنَه بأنَّك لم تُحِطْ عِلمًا بكُنْهِ ذلك[٤].

- وجُملةُ ﴿أُجِّلَتۡ﴾ صِفةٌ لـ﴿يَوۡمٍ﴾، وحُذِفَ العائدُ؛ لظُهورِه، أي: أُجِّلَت إليه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٥).
وتقدَّم تعريفُ الحذف والإيصال (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٦).

- قولُه: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ﴾ بَيانٌ ليومِ التَّأجيلِ، وهو الَّذي يُفصَلُ فيه بيْنَ الخلائقِ[١]. وهو بدَلٌ من ﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ﴾ بإعادةِ الحرْفِ الَّذي جُرَّ به المُبدَلُ منه، أي: أُحضِرَت الرُّسلُ ليومٍ عَظيمٍ هو يومُ الفصْلِ. والمُبدَلُ منه والبدَلُ دَليلانِ على جَوابِ (إذا) مِن قولِه: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ﴾ [المرسلات: ٨] إلخ؛ إذ يُعلَمُ أنَّ المعْنى: إذا حصَلَ جَميعُ ما ذُكِرَ، فذلك وُقوعُ ما تُوعَدون[٢]. وذلك على قولٍ.

٣- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أصلُ التَّركيبِ: وما أدْراكَ ما هو، وإنَّما أُظهِرَ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لتَقويةِ استِحضارِ يومِ الفَصْلِ؛ قصْدًا لتَهويلِه، والاستِفهامانِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ ﴿مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ مُستعمَلانِ في معْنى التَّهويلِ والتَّعجيبِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ أيْ: أيُّ شَيءٍ جَعَلَك داريًا ما هُو؟! على أنَّ (مَا) الأُولى مُبتَدأٌ، و(أدراكَ) خبرُه، و(مَا) الثَّانيةَ خبَرٌ مقدَّمٌ، و﴿يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾ مُبتدأٌ مؤخَّرٌ، لا بالعكسِ؛ لأنَّ مَحطَّ الفائدةِ بَيانُ كَونِ يومِ الفصلِ أمْرًا بَديعًا هائلًا، لا يُقادَرُ قَدْرُه، ولا يُكتَنُه كُنْهُه، كَما يُفيدُه خَبريَّةُ (ما)، لا بَيانُ كَونِ أمرٍ بَديعٍ مِن الأُمورِ يومَ الفصلِ كما يُفيدُه عكْسُه[٤].

٤- قولُه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ استِئنافٌ لقصْدِ تَهديدِ المشركين الَّذين يَسمَعون القرآنَ، وتَهويلِ يومِ الفصْلِ في نُفوسِهم ليَحذَروه، وهو متَّصِلٌ في المعْنى بجُملةِ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ﴾ [المرسلات: ٧] اتِّصالَ أجزاءِ النَّظمِ، فمَوقعُ جُملةِ ﴿وَيۡلٞ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٨، ٧٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٢).

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ابتِداءُ الكلامِ، ومَوقعُ جُملةِ ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨] التَّأخُّرُ، وإنَّما قُدِّمَت لتُؤذِنَ بمعْنى الشَّرطِ. وقدْ حصَلَ مِن تَغييرِ النَّظمِ -على هذا الوجْهِ- أنْ صارتْ جُملةُ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بمَنزِلةِ التَّذييلِ، فحصَلَ في هذا النَّظمِ أُسلوبٌ رائعٌ، ومَعانٍ بدائعُ. وقيل: هذه الجُملةُ جوابُ (إذا)، أي: يَتعلَّقُ (إذا) بالاستقرارِ الَّذي في الخبَرِ، وهو ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، والتَّقديرُ: إذا حصَلَ كذا وكذا حلَّ الويلُ للمُكذِّبينَ، وهو كالبَيانِ لقولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾، فيَحصُلُ تَأكيدُ الوعيدِ، وعلى الوجْهِ الأوَّلِ يكونُ المرادُ بالمكذِّبينَ الَّذين كذَّبوا بالقُرآنِ، وعلى الوجْهِ الثَّاني في معْنى الجُملةِ: جَميعَ الَّذين كذَّبوا الرُّسلَ وما جاؤوهم به، وبذلك العُمومِ أفادَتِ الجُملةُ مُفادَ التَّذييلِ، ويَشملُ ذلك المشركين الَّذين كذَّبوا بالقرآنِ والبعثِ؛ إذْ هم المَقصودُ مِن هذه المواعظِ، وهم الموَجَّهُ إليهم هذا الكلامُ، فخُوطِبوا بقولِه: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾[1].

- قولُه: ﴿وَيْلٌ﴾ في الأصلِ مَصدرٌ مَنصوبٌ سادٌّ مَسدَّ فِعلِه، لكنْ عُدلَ به إلى الرَّفعِ للدَّلالةِ على ثَباتِ الهَلاكِ ودَوامِه للمَدْعوِّ عليهِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٧، ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٨/ ٧٩).

## الآيات (١٦-٢٤)

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَّهِينٍ﴾: أي: ضَعيفٍ، مُمتَهَنٍ، لا خَطَرَ له عندَ النَّاسِ، ولا يُعبأُ به، وأصلُ (مهن): يدُلُّ على احتِقارٍ وحَقارةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾: أي: الرَّحم، اسْتَقرَّ المنيُّ فيه فتَمَكَّنَ، والقرارُ هنا: مكانُ الاستِقرارِ، والمَكينُ: المتمكِّنُ، وأصلُ (قرر) هنا: يدُلُّ على تَمكُّنٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ الأدِلَّةِ على وحدانيَّتِه وقُدرتِه: أَلَمْ نُهْلِكِ المُكَذِّبينَ مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وغَيرِهم؟ ثمَّ نحن نُلحِقُ بهم في العَذابِ والهَلاكِ كُفَّارَ قُرَيشٍ وغَيرَهم مِنَ الكُفَّارِ المُكَذِّبينَ بالحَقِّ، وكذلك نُهْلِكُ كُلَّ كافِرٍ مُكَذِّبٍ مُجْرِمٍ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

ثمَّ يقولُ تعالى ممتنًّا على عبادِه، ومحتجًّا على الإعادةِ بالبُداءةِ: ألَمْ نَخْلُقْكم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٦٠١) و(٢٣/ ٥٩٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٤/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢١/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير الماوردي)) (٤/ ٤٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٢٤).

-أيُّها النَّاسُ- مِن مَنِيٍّ ضَعيفٍ، فجَعَلْناه في رَحِمِ المرأةِ مُستَقِرًّا ومحفوظًا فيه إلى وَقتِ الوِلادةِ، فقَدَرْنا على خَلْقِ النُّطفةِ إنسانًا وتصويرِه، فنِعْمَ القادِرونَ نحنُ!

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أنْ حذَّر اللهُ عزَّ وجلَّ الكافِرين وخَوَّفَهم بأنَّ يومَ الفَصلِ كائنٌ لا مَحالةَ، وأنَّ فيه مِن الأهوالِ ما لا يُدرِكُ كُنْهَهُ إلَّا علَّامُ الغُيوبِ- أردَفَ ذلك بتَخويفِهم بأنَّه أهلَك الكفَّارَ قَبْلَهم بكُفرِهم[1].

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾﴾.

أي: ألَمْ نُهْلِكِ المُكَذِّبينَ بآياتي ورُسُلي مِنَ الأُمَمِ الماضيةِ، كقَومِ نُوحٍ وعادٍ وثَمودَ وغَيرِهم[2]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٩/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

ممَّن ذهب إلى هذا المعنى المذكورِ في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وقال ابن عاشور: (الإهلاكُ: الإعدامُ والإماتةُ. وإهلاكُ الأوَّلِينَ له حالَتانِ: حالةٌ غيرُ اعتياديَّةٍ تنشَأُ عن غَضَبِ اللهِ تعالى، وهو إهلاكُ الاستئصالِ، مِثلُ إهلاكِ عادٍ وثمودَ؛ وحالةٌ اعتياديَّةٌ، وهي ما سَنَّ اللهُ عليه نظامَ هذا العالَمِ مِن حياةٍ ومَوتٍ. وكِلْتا الحالتَينِ يَصِحُّ أن تكونَ مُرادًا هنا؛ فأمَّا الحالةُ غيرُ الاعتياديَّةِ فهي تذكيرٌ بالنَّظَرِ الدَّالِّ على أنَّ اللهَ لا يَرضى عن الَّذين كذَّبوا بالبَعْثِ، وأمَّا الحالةُ الاعتياديَّةُ فدليلٌ على أنَّ الَّذي أحيا النَّاسَ يُميتُهم؛ فلا يتعَذَّرُ أن يُعيدَ إحياءَهم). =

﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧﴾.

أي: ثمَّ نُلحِقُ بهم في العَذابِ والهَلاكِ كُفَّارَ قُرَيشٍ وغَيرَهم مِنَ الكُفَّارِ المُكَذِّبينَ بالحَقِّ، فنُهلِكُهم جميعًا كما أهلَكْنا مَن قَبْلَهم(١).

﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بيَّن اللهُ تعالى أنَّه يفعلُ بهؤلاء المتأخِّرينَ مِثلَ ما يفعَلُ بأولئك المتقدِّمينَ؛ بيَّن أنَّ هذا الإهلاكَ إنَّما يَفعَلُه بهم لِكَونِهم مُجرِمينَ، فلا جَرَمَ في جميعِ المجرِمينَ؛

---

= ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٢٩٤).

وذكَر الرازي أنَّه إنْ كان المرادُ مِن الإهلاكِ هو مطلقَ الإماتةِ لم يكُنْ تخويفًا للكفَّارِ؛ لأنَّ ذلك أمرٌ حاصلٌ للمؤمنِ والكافرِ، فلا يصلُحُ تحذيرًا للكافرِ، ثمَّ قال: (لِمَ لا يَجوزُ أن يكونَ المرادُ منه الإماتةَ بالتَّعذيبِ، وقد وقع ذلك في حقِّ قُرَيشٍ وهو يوم بدرٍ؟ ولِمَ لا يجوزُ أن يكونَ المرادُ مِن الإهلاكِ معنًى ثالثًا مغايرًا للأمْرَين المذكورينِ، وهو الإماتةُ المُستعقبةُ للذَّمِّ واللَّعنِ؟ فكأنَّه قيل: إنَّ أولئك المتقَدِّمين لحرصِهم على الدُّنيا، عانَدوا الأنبياءَ وخاصَموهم، ثمَّ ماتوا، فقد فاتَتْهم الدُّنيا، وبقيَ اللَّعنُ عليهم في الدُّنيا، والعقوبةُ الأخرويَّةُ دائمًا سَرْمدًا، فهكذا يكونُ حالُ هؤلاء الكُفَّارِ الموجودِينَ، ومعلومٌ أنَّ مِثلَ هذا الكلامِ مِن أعظَمِ وُجوهِ الزَّجرِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٨).

قال البِقاعي: (لَمَّا كان الفِعلُ ﴿نُتۡبِعُهُمُ﴾ مرفوعًا، عَلِمْنا أنَّه ليس معطوفًا على ﴿نُهۡلِكِ﴾ لِيَكونَ تقديرًا، بل هو إخبارٌ للتَّهديدِ، تقديرُه: نحنُ إنْ شِئْنا ﴿نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: الَّذين في زمانِك مِن كُفَّارِ العَرَبِ وغَيرِهم؛ لتكذيبِهم لك، أو الَّذين قَرُبوا مِن ذلك الزَّمانِ، كأصحابِ الرَّسِّ وأصحابِ الفيلِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٢).

وقال السعدي: (هذه سُنَّتُه السَّابِقةُ واللَّاحِقةُ في كُلِّ مُجرِمٍ؛ لا بُدَّ مِن عذابِه، فلِمَ لا تَعتَبِرونَ بما تَرَونَ وتَسْمَعونَ؟!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

لأنَّ عُمومَ العِلَّةِ يَقتضي عُمومَ الحُكمِ[١].

وأيضًا لَمَّا هدَّد مَن واجَهَ الرُّسُلَ بالتَّكذيبِ؛ تسليةً لهم، سَلَّى مَن قَطَعوه مِن أتْباعِهم ممَّا يجِبُ وَصْلُه بهم مِن المعروفِ، فقال مُستأنِفًا مُنَبِّهًا على الوَصفِ الموجِبِ لذلك الإهلاكِ[٢]:

﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨﴾.

أي: كما أهلَكْنا المُكَذِّبينَ بي وبرُسُلي مِن الأُمَمِ الكافِرةِ، نُهْلِكُ أيضًا كُلَّ كافِرٍ مُكَذِّبٍ[٣].

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٩﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[٤].

﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر الإهلاكَ على ذلك الوَجْهِ الدَّالِّ على القُدرةِ التَّامَّةِ على البَعثِ، وعلى ما يُوعَدُ به بعدَ البَعثِ؛ أتْبَعَه الدَّلالةَ بابتداءِ الخَلْقِ، وهو أدَلُّ، فقال مُقَرِّرًا ومُنكِرًا على مَن يُخالِفُ عِلْمَه بذلك عَمَلُه[٥]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

قال الشوكاني: (أي: مِثلَ ذلك الإهلاكِ نَفعلُ بكُلِّ مُشرِكٍ؛ إمَّا في الدُّنيا، أو في الآخِرةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٦).

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ألَمْ نُوجِدْكم -أيُّها النَّاسُ- مِن مَنِيٍّ ضَعيفٍ[1].

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

أي: فجَعَلْنا مَنِيَّ الرَّجُلِ في رَحِمِ المرأةِ مُستَقِرًّا ومحفوظًا فيه[2].

﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: إلى وَقتِ الوِلادةِ[3].

قال تعالى: ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: ٥].

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿فَقَدَّرْنَا﴾ بتَشديدِ الدَّالِ، مِنَ التَّقديرِ، أي: خلَقْنا كُلَّ شَيءٍ مِن الإنسانِ بقَدْرٍ. وقيل: أي: قدَّرْنا خَلْقَ الإنسانِ على تاراتٍ مُختَلِفةٍ؛ مِن نُطْفةٍ وعَلَقةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

قال الواحديُّ: (قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرونَ في قولِه: ﴿مَّكِينٍ﴾: يريدُ الرَّحِمَ، مُكِّن فيه بأنْ هُيِّئَ لاستِقرارِه فيه إلى بُلوغِ أمَدِه الَّذي جُعِل له). ((البسيط)) (١٥/ ٥٣٨) و(٢٣/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

قال البِقاعي: (﴿إِلَىٰ قَدَرٍ﴾ أي: مِقدارٍ مِنَ الزَّمانِ قَدَّره اللهُ تعالى للوِلادةِ ﴿مَّعْلُومٍ﴾ أي: عِندَنا، مِن تِسعةِ أشهُرٍ للوِلادةِ إلى ما فَوْقَها أو دُونَها، لا يَعلَمُه غَيْرُه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٣).

ومُضْغةٍ، وما بعدَ ذلك إلى أنْ جعَلْناه إنسانًا سَوِيًّا. وقيل: قدَّرْناه شَقِيًّا وسعيدًا، وصغيرًا وكبيرًا، وأسْوَدَ وأبيَضَ، وغيرَ ذلك(١).

٢- قِراءةُ: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ بتَخفيفِ الدَّالِ، مِنَ القُدرةِ. وقيل: القِراءتانِ لُغَتانِ بمَعنى التَّقديرِ لا القُدْرةِ(٢).

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: فقَدَرْنا على خَلْقِ النُّطفةِ إنسانًا وتصويرِه، فنِعْمَ القادِرونَ نحنُ حيثُ خلَقْناه في أحسَنِ صورةٍ وهَيئةٍ(٣).

---

(١) قرأ بها نافِعٌ، والكِسائيُّ، وأبو جَعفرٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٢٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٣٥).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٢/ ٧٢)، ((الحجة للقراء السبعة)) لأبي علي الفارسي (٦/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٣).
ممن اختار أنَّ قولَه: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ مِن القُدرةِ: الثعلبي، والبغوي، والخازن، والسمين الحلبي، وجلال الدين المحلي، والعليمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٣٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٤٩).
قال القرطبي: (رُوِي عن عِكْرِمةَ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ مُخَفَّفَةً مِن القُدرةِ، وهو اختيارُ أبي عُبَيدٍ وأبي حاتِمٍ والكِسائِيِّ لقولِه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٠).
قال الخازن: (قُرِئ بالتخفيفِ مِن القُدرةِ، أي: قَدَرْنا على خلقِه، وتصويرِه كيفَ شِئْنا ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ حيثُ خَلَقْناه في أحسنِ صورةٍ وهيئةٍ). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٣). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار: ٧، ٨].

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ(١).

---

= وقال البقاعي: (﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي بعظمتِنا على ذلك، أو فجَعَلْناه على مقدارٍ معلومٍ مِن الأرزاقِ والآجالِ والأحوالِ والأعمالِ ﴿ فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ نحنُ مطلقًا على ذلك وغيرِه، أو المقدِّرونَ في تلك المقاديرِ لما لنا مِن كمالِ العظمةِ بحيثُ نجعلُ ذلك بمباشرةِ مَن أردناه منه بطوعِه واختيارِه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٣).

وممن اختار أنَّ قولَه: ﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ بمعنى قدَّرْنا بالتَّشديدِ: ابنُ قتيبةَ، والزمخشري، والنسفي، والألوسي، والسعدي، وابنُ عاشور. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣١).

قال ابن قتيبة: (﴿ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴾ بمعنى «قدَّرْنا» مشدَّدةً. يقال: قدَرْتُ كذا وقدَّرْتُه). ((غريب القرآن)) (ص: ٥٠٦). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٣).

وذكر الزمخشري أنَّ هذا القولَ أولى: (لقراءةِ مَن قرَأ: ﴿ فَقَدَّرْنَا ﴾ بالتَّشديدِ، ولقولِه: ﴿ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٩]). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩).

وقال السعدي: (﴿ فَقَدَرْنَا ﴾ أي: قَدَّرْنا ودبَّرْنا ذلك الجنينَ في تلك الظُّلماتِ، ونَقَلْناه مِن النُّطفةِ إلى العَلقةِ، إلى المضغةِ، إلى أنْ جعَله الله جسدًا، ثمَّ نفخَ فيه الرُّوحَ، ومِنهم مَن يموتُ قبلَ ذلك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾، أي: أَمَا أهلَكْنا المكَذِّبينَ السَّابِقينَ، ثمَّ نُتبِعُهم بإهلاكِ مَن كَذَّبَ مِن الآخِرينَ؟ وهذه سُنَّتُه تعالى السَّابِقةُ واللَّاحِقةُ في كُلِّ مُجرمٍ؛ لا بدَّ مِن عَذابِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لَمْ يَظْلِمْ بهذا العذابِ؛ فهم لم يُعَذَّبوا إلَّا لِجُرْمِهم[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أنَّ النَّاسَ عندَ اللهِ سَواءٌ، فكُلُّ مَنِ استَحَقَّ عِقابًا أو ثَوابًا فهو له، يعني: لَمْ نَفعلْ بهؤلاء وحْدَهم، بل حُكْمُنا هذا شامِلٌ لكلِّ مُجرمٍ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ إثباتُ الفعلِ للهِ عزَّ وجلَّ، واللهُ سُبحانَه وتعالى فَعَّالٌ لِمَا يُريدُ، والفعلُ يَقتضي التَّجَدُّدَ بحسَبِ المفعولِ، فخَلْقُ اللهِ السَّمَواتِ والأرضَ لَمْ يكُنْ أزَلِيًّا، وإنَّما كان حينَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأرضَ، وخَلْقُ اللهِ للجَنينِ في بَطنِ أُمِّه لَمْ يكُنْ أزَلِيًّا، بل هو حادثٌ حينَ حُدوثِ هذا الجَنينِ، ويَتَفرَّعُ على هذه الفائدةِ فائدةٌ أخرى، وهي إثباتُ أفعالِ اللهِ الاختياريَّةِ، خِلافًا لِمَن أَنْكَرَ ذلك، وقال: إنَّ اللهَ لا يَقومُ به فِعلٌ اختياريٌّ[٤]!

٥- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ على أنَّه لا يجوزُ إلقاءُ النُّطفةِ الَّتي في الرَّحِمِ في مُدَّةِ الأربعينَ الأُولى، لأنَّه لا يجوزُ أنْ نَتَجاسَرَ على هذا

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ٨٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

القرارِ المَكينِ، ونُخرِجَ الجَنينَ منه، لكِنَّ تحريمَه ليس كتحريمِ ما بَعْدَه مِن بُلوغِه أربعةَ أشهُرٍ(١).

٦- قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ قدْ جاء هنا التَّقريرُ على ثُبوتِ الإيجادِ بعْدَ العدَمِ إيجادًا مُتقنًا دالًّا على كَمالِ الحِكمةِ والقُدرةِ؛ ليُفضَى بذلك التَّقريرِ إلى التَّوبيخِ على إنكارِ البعثِ والإعادةِ، وإلى إثباتِ البَعثِ بإمكانِه بإعادةِ الخلْقِ كما بُدِئَ أوَّلَ مرَّةٍ، وكَفى بذلك مُرجِّحًا لوُقوعِ هذا المُمكنِ؛ لأنَّ القُدرةَ تَجْري على وَفْقِ الإرادةِ بتَرجيحِ جانبِ إيجادِ المُمكِنِ على عدَمِه(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْءَاخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ استِئنافٌ بخِطابٍ مُوجَّهٍ إلى المشركين الموجودينَ الَّذين أنْكَروا البعثَ، مُعترِضٌ بيْنَ أجزاءِ الكلامِ المُخاطَبِ به أهلُ الشِّركِ في

---

(١) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٨٩).

وهذا مذهبُ المالكيَّةِ: أنَّه لا يجوزُ ولو قبْلَ الأرْبَعينَ يومًا. يُنظر: ((الشرح الكبير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٢٦٦).

وذهَب الجُمهورُ مِن الحَنَفيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ إلى أنَّه يجوزُ إسقاطُ الجَنينِ قبْلَ نَفخِ الرُّوحِ فيه. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٣/ ١٧٦)، ((الغرر البهية)) لزكريا الأنصاري (٥/ ٣٣١)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ١٢١).

قال ابنُ باز: (إسقاطُ الجنينِ فيه تفصيلٌ؛ فإذا كان في الأربعينَ الأُولى فالأمرُ فيه أوسَعُ، ولا يَنبغي إسقاطُه، لكنْ إذا اقتَضَت المصلحةُ الشَّرعيَّةُ إسقاطَه لِمَضَرَّةٍ على الأمِّ، أو لهذا السَّبَبِ الَّذي قرَّره الأطبَّاءُ أنَّه قد يَتشوَّهُ بأسبابٍ فعَلَتْها الأمُّ: فلا حرَجَ في ذلك). ((فتاوى نور على الدرب)) (٢١/ ٤٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٠).

المَحشرِ، ويَتضمَّنُ استِدلالًا على المشرِكين الَّذين في الدُّنيا؛ بأنَّ اللهَ انتقَمَ مِن الَّذين كَفَروا بيَومِ البَعثِ؛ مِن الأُمَمِ سابِقِهم ولاحِقِهم؛ ليَحذَروا أنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بأولئك الأوَّلينَ والآخِرينَ(١).

- والاستِفهامُ للتَّقريرِ؛ استِدلالًا على إمكانِ البَعثِ بطَريقةِ قِياسِ التَّمثيلِ(٢).

- قولُه: ﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ استِئنافٌ، وهو وَعيدٌ لأهلِ مكَّةَ، يُريدُ: ثمَّ نَفعَلُ بأمثالِهم مِن الآخِرينَ مِثلَ ما فعَلْنا بالأوَّلِينَ، ونَسلُكُ بهم سَبيلَهم؛ لأنَّهم كذَّبوا مِثلَ تَكذيبِهم(٣).

- وحرْفُ (ثُم) للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ التَّهديدَ أهمُّ مِن الإخبارِ عن أهلِ المَحشرِ؛ لأنَّه الغرَضُ مِن سَوقِ هذا كلِّه، ولأنَّ إهلاكَ الآخِرينَ أشدُّ مِن إهلاكِ الأوَّلِينَ؛ لأنَّه مَسبوقٌ بإهلاكٍ آخَرَ(٤).

- ووقَعَت جُملةُ ﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مَوقِعَ البيانِ لجُملةِ ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾، وهو كالتَّذييلِ يُبيِّنُ سَببَ وُقوعِ إهلاكِ الأوَّلِينَ، وأنَّه سَببٌ لإيقاعِ الإهلاكِ بكلِّ مُجرمٍ، أي: تلك سُنَّةُ اللهِ في مُعامَلةِ المُجرِمين،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٨)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٤).
وقياسُ التَّمثيلِ: هو: حَملُ جُزئيٍّ على جُزئيٍّ آخَرَ في حُكمِه؛ لاشتِراكِهما في عِلَّةِ الحُكمِ؛ لأنَّ ذلك الحُكمَ يلزمُ المُشترَكَ الكُلِّيَّ، مِثلُ: النَّبيذُ حرامٌ؛ قياسًا على الخَمرِ، بجامِعِ الإسكارِ في كلٍّ منهما. وقياسُ التَّمثيلِ: هو القياسُ الأُصوليُّ (إلحاقُ فَرعٍ بأصلٍ في حُكمٍ؛ لِعِلَّةٍ جامعةٍ بيْنَهما).
يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ١٢٠)، ((آداب البحث والمناظرة)) للشنقيطي (٢/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٥، ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٩).

فلا مَحيصَ لكم عنها[١].

- وذِكرُ وَصْفِ المُجرِمين إيماءٌ إلى أنَّ سَببَ عِقابِهم بالإهلاكِ هو إجْرامُهم، وإنذارٌ وتَحذيرٌ مِن عاقبةِ الجُرمِ وسُوءِ أثَرِه[٢].

- قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: بآياتِ اللهِ وأنبيائِه، فليس تكريرًا، وكذا إنْ أُطلِق التَّكذيبُ أو عُلِّقَ في الموضعَينِ بواحدٍ؛ لأنَّ الوَيْلَ الأوَّلَ لعذابِ الآخرةِ، وهذا للإهلاكِ في الدُّنيا، مع أنَّ التَّكريرَ للتَّوكيدِ حسَنٌ شائعٌ في كَلامِ العرَبِ[٣].

وقيل: هو تَقريرٌ لنَظيرِه المُتقدِّمِ؛ تَأكيدًا للتَّهديدِ، وإعادةً لمعْناه، فعلى أنَّ جُملةَ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ استئنافيَّةٌ- يُقدَّرُ الكلامُ المُعوَّضُ عنه تَنوينُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ إذ يُقال لهم: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ﴾، والمرادُ بالمكذِّبينَ: المُخاطَبونَ، فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لتَسجيلِ أنَّهم مُكذِّبونَ، والمعنى: وَيلٌ يومَئذٍ لكم.

وعلى أن جُمْلةَ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ جوابُ (إذَا) أي: يَتعلَّقُ (إذا) بالاسْتِقْرارِ الَّذي في الخبَرِ، وهو ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾. والتَّقديرُ: إذا حَصَل كَذا وكَذا حَلَّ الوَيْلُ للمُكَذِّبينَ -يُقدَّرُ المحذوفُ المُعوَّضُ عنه التَّنوينُ: يومَ إذِ النُّجومُ طُمِسَت... إلخ، فتكونُ الجُملةُ تَأكيدًا لَفظيًّا لنَظيرِتها الَّتي تَقدَّمَت، والمرادُ بالمكذِّبينَ جميعُ المُكذِّبينَ، الشَّاملُ للسَّامِعينَ، وعلى الاعتِبارَينِ فتَقريرُ معْنى الجُملتَينِ حاصلٌ؛ لأنَّ اليَومَ يومٌ واحدٌ، ولأنَّ المُكذِّبينَ يَصدُقُ بالأحياءِ وبأهلِ المحشَرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٢٩، ٤٣٠). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٥٠٦).

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ * فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ * فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- الاستِفهامُ تَقريريٌّ استِدلالًا على إمكانِ البَعثِ بطَريقةِ قِياسِ التَّمثيلِ[١]، وجِيءَ به هنا على طَريقةِ تَعدادِ الخِطابِ في مَقامِ التَّوبيخِ والتَّقريعِ، وكلٌّ مِن التَّقريرِ والتَّقريعِ مِن مُقتضَياتِ تَرْكِ العطْفِ؛ لشَبَهِه بالتَّكريرِ في أنَّه تَكريرُ معْنًى وإنْ لم يكُنْ تَكريرَ لَفظٍ، والتَّكريرُ شَبيهٌ بالأعدادِ المَسرودةِ، فكان حقُّه تَرْكَ العطْفِ فيه[٢].

- قولُه: ﴿مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ الماءُ: هو ماءُ الرَّجُلِ. والمَهينُ: الضَّعيفُ، فَعيلٌ مِن مَهُنَ، إذا ضعُفَ، وهذا الوصْفُ كِنايةٌ رَمزيَّةٌ[٣] عن عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى؛ إذْ خَلَقَ مِن هذا الماءِ الضَّعيفِ إنسانًا شَديدَ القُوَّةِ عقْلًا وجِسمًا[٤].

- وحرْفُ (مِنْ) للابتداءِ؛ لأنَّ تَكوينَ الإنسانِ نشَأَ مِن ذلك الماءِ[٥].

- وقولُه: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ تَفصيلٌ لكَيفيَّةِ الخلْقِ على سَبيلِ الإدماجِ[٦] مع مُناسَبتِه؛ لأنَّ له دَخْلًا في تَبْيينِ إمكانِ الإعادةِ؛ إذ شَديدُ القُدرةِ لا يُعجِزُه شَيءٌ؛ ولذلك ذيَّلَه بقولِه: ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾[٧].

- قولُه: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ الفاءُ في قولِه: ﴿فَقَدَرْنَا﴾ للتَّفريعِ على قولِه:

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٠).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٠، ٤٣١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٣١).

(٦) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣١).

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾، أي: جعَلْناه في الرَّحمِ إلى انتهاءِ أمَدِ الحمْلِ، فقَدَرْنا أطوارَ خلْقِكم حتَّى أخْرَجْناكم أطْفالًا، والفاءُ في ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ للتَّفريعِ على (قدَرْنا)، أي: تَفريعِ إنشاءِ ثَناءٍ ومَدْحٍ، أي: فدلَّ تَقديرُنا على أنَّنا نِعمَ القادِرون، أي: كان تَقديرُنا تَقديرَ أفضلِ قادرٍ، وهذا تَنويهٌ بذلك الخلْقِ العَجيبِ بالقُدرةِ[1]. وذلك على أنَّ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ من التَّقديرِ.

- والقادِرونَ: اسمُ فاعلٍ مِن (قدَرَ) اللَّازم؛ إذا كان ذا قُدرةٍ، وبذلك يكونُ الكلامُ تَأسيسًا لا تأكيدًا -وذلك على أنَّ ﴿فَقَدَرْنَا﴾ من التَّقديرِ-، أي: فنِعمَ القادِرون على الأشياءِ. وعَلامةُ الجمْعِ للتَّعظيمِ، مِثل نُونِ (قدَرْنا)؛ فإنَّ القُدرةَ لَمَّا أتَتْ بما هو مُقْتضى الحِكمةِ كانت قُدرةً جَديرةً بالمدْحِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٢٥-٢٨)

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كِفَاتًا﴾: الكِفَاتُ: السِّتْرُ، والوِعاءُ الجامِعُ للشَّيءِ، يُقالُ: كَفَتَ الشَّيءَ: إذا ضَمَّه وجَمَعَه، والكَفْتُ: الضَّمُّ والجَمْعُ، فالأرضُ تَكفِتُ -تَحفَظُ وتَستُرُ وتَضُمُّ- الأحياءَ على ظَهْرِها، وتَكفِتُ الأمواتَ في بَطْنِها، وأصلُ (كفت): يدُلُّ على جَمعٍ وضَمٍّ[1].

﴿رَوَٰسِىَ﴾: أي: جِبالًا ثَوابِتَ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثَباتٍ[2].

﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾: أي: عالياتٍ مُرتَفِعاتٍ، وكُلُّ عالٍ فهو شامِخٌ، وأصلُ (شمخ): يدُلُّ على تعَظُّمٍ وارتِفاعٍ[3].

﴿فُرَاتًا﴾: الفُراتُ: الماءُ الشَّديدُ العُذوبةِ[4].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٩٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٨).

قَولُه تعالى: ﴿كِفَاتًا﴾: هو مَصدَرُ كَفَت يَكْفِتُ: أي: ضَمَّ وجَمَع.

و﴿أَحْيَآءً﴾: مفعولٌ به للمصدَرِ ﴿كِفَاتًا﴾، أي: تَكْفِتُ الأرضُ الأحياءَ والأمواتَ، أي: تَضُمُّهم أحياءً على ظَهْرِها، وأمواتًا في بَطْنِها. ويجوزُ نصبُ ﴿أَحْيَآءً﴾ على الحاليَّةِ مِن مفعولِ ﴿كِفَاتًا﴾ المحذوفِ؛ للعِلْمِ به، والتَّقديرُ: كِفَاتًا الإِنْسَ أحياءً وأمواتًا. وقيل غيرُ ذلك[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: أَلَمْ نَجعَلِ الأرضَ وِعاءً يَضُمُّ ويَجمَعُ جَميعَ الخَلْقِ؛ الأحياءَ على ظَهْرِها، والأمواتَ في بَطْنِها؟ وجَعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثوابِتَ عَظيمةَ الارتِفاعِ، وأسْقَيْناكم ماءً عَذْبًا سائِغًا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا دَلَّ تعالى بابتِداءِ الخَلْقِ على تمامِ قُدرتِه؛ أتْبَعَه الدَّلالةَ بانتِهاءِ أمرِه وأثنائِه، وما دَبَّر فيهما مِن المَصالحِ، فقال[2]:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٩، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٤).

أي: أَلَمْ نَجعَلِ الأرضَ وِعاءً يَضُمُّ ويَجمَعُ جَميعَ الخَلْقِ[١]؟

﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: تَجمَعُ وتَضُمُّ الأحياءَ على ظَهْرِها، والأمواتَ في بَطْنِها[٢].

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾.

أي: وجَعَلْنا في الأرضِ جِبالًا ثَوابِتَ عَظيمةَ الارتِفاعِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٧/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال ابن عطيَّة: (الكِفَاتُ: السِّترُ، والوِعاءُ الجامعُ للشَّيءِ بإجماعٍ، تقولُ: كَفَتَ الرَّجُلُ شَعرَه: إذا جمَعَه بخِرقةٍ، فالأرضُ تَكفِتُ الأحياءَ على ظَهرِها، وتَكفِتُ الأمواتَ في بَطنِها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٩). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٧/ ٢٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٤، ١٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).
قال السعدي: (﴿أَحْيَآءً﴾ في الدُّورِ، ﴿وَأَمْوَٰتًا﴾ في القُبورِ، فكما أنَّ الدُّورَ والقُصورَ مِن نِعَمِ اللهِ على عِبادِه ومِنَّتِه، فكذلك القُبورُ رَحمةٌ في حَقِّهم، وسترٌ لهم عن كَونِ أجسادِهم باديةً للسِّباعِ وغَيرِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٥).
ممَّن اختار أنَّ الرَّواسيَ: الجبالُ الثَّوابتُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، وابن عطية، والقرطبي، والنسفي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٤).
وقال ابن كثير: (﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ يعني: الجبالَ، أرسَى بها الأرضَ؛ لئلَّا تَميدَ =

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات: ٣٢، ٣٣].

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾.

أي: وأسْقَيْناكم ماءً عَذْبًا سائِغًا[١].

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝ لِّنُحْيِۦَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٧٠].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[٢].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ۝ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ استَدَلَّ به مَن قال: إنَّ

---

= وتَضْطَرِبَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩). ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

وقال البِقاعي: (﴿رَوَٰسِيَ﴾ لولاها لَمادَتْ بأهلِها، ومِن العجائِبِ أنَّ مَراسيَها مِن فَوقِها؛ خِلافًا لِمَراسي السُّفُنِ. ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ أي: هي معَ كَونِها ثَوابتَ في أنفُسِها مُثَبِّتةً لغيرِها- طوالٌ جِدًّا، عظيمةُ الارتفاعِ، كأنَّها قد تكبَّرَتْ على بقيَّةِ الأرضِ، وعلى مَن يُريدُ صُعودَها). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٥٩٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

النَّبَّاشَ يُقْطَعُ؛ لأنَّ بَطْنَ الأرضِ حِرْزٌ للكَفَنِ، فإذا نَبَش وأخَذَ منه فهو سارِقٌ[١]، فقد جُعِل القَبْرُ للمَيِّتِ كالبَيتِ للحَيِّ، فيكونُ حِرْزًا[٢]، والسَّارِقُ مِن الحِرزِ يجبُ عليه القطعُ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ يدُلُّ على وُجوبِ مُواراةِ الميِّتِ ودَفْنِه[٤]، وأنَّ دَفْنَ الميِّتِ فَرْضُ كفايةٍ؛ لأنَّ اللهَ تعالى امْتَنَّ على العِبادِ[٥] بجَعْلِ الأرضِ صالِحةً لدَفنِ الأمواتِ، فيُؤخَذُ مِنَ الآيةِ وُجوبُ الدَّفنِ في الأرضِ إلَّا إذا تعَذَّر ذلك؛ كالَّذي يموتُ في سفينةٍ بَعيدةٍ عن مراسي الأرضِ، أو لا تستطيعُ الإرساءَ، أو كان الإرساءُ يَضُرُّ بالرَّاكِبينَ، أو يُخافُ تَعَفُّنُ الجُثَّةِ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (٣/ ٨٤)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٣).

اختلَف الفقهاءُ في حُكمِ النَّبَّاشِ (الَّذي يَسرِقُ أكفانَ الموتى بعدَ دَفنِهم في قُبورِهم)؛ فيُقطَعُ عندَ الجمهورِ: المالكيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ وأبي يوسفَ مِن الحنفيَّةِ؛ وذلك على اعتبارِه سارقًا، ولا يُقطَعُ عندَ أبي حنيفةَ ومحمَّدِ بن الحسَنِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٣/ ٢٤٧) و(١٩/ ٢٠٩) و(٢٤/ ٢٩٤) و(٤٠/ ١٩).

(٤) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لِلْكِيَا الهَرَّاسي (٤/ ٤٢٨).

قال ابنُ العربي: (قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ يَقْتَضي أَنْ يُدْفَنَ فيها الميتُ بجَميعِ أجْزائِه كُلِّها مِن شَعرٍ، وظُفْرٍ، وثِيابٍ، وما يُواريه على التَّمامِ، وما اتَّصَل به وما بانَ عنه). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٥٧).

وقال الإمام أحمدُ بنُ حنبل: في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾: (تكفتونَ فيها الأحياءَ: الشعرَ والدمَ، وتدفنونَ فيها موتاكم). وقال أيضًا في هذه الآيةِ: (يُدْفَنُ ثَلَاثَةُ أَشياءَ: الأظافرُ، والشَّعرُ، والدَّمُ. ثُمَّ قال: ﴿وَأَمْوَاتًا﴾: يُدْفَنُ فيها الأمواتُ). ((الوقوف والترجل من مسائل الإمام أحمد)) للخلال بتصرفٍ يسيرٍ (ص: ١٤١).

(٥) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٥/ ٢٦٤).

فإنَّها يُرمَى بها في البَحرِ وتُثَقَّلُ بشَيءٍ؛ لِتَرسُبَ إلى غريقِ الماءِ، وعليه فلا يجوزُ إحراقُ الميِّتِ كما يفعَلُ مجوسُ الهِندِ، وكان يَفعَلُه بعضُ الرُّومانِ، ولا وَضْعُه لكواسِرِ الطَّيرِ كما كان يَفعَلُ مجوسُ الفُرْسِ[١]!

٣- قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ قد تَصدَّى الكلامُ لإثباتِ البَعثِ بشَواهدَ ثلاثةٍ؛ أحدُها: بحالِ الأُمَمِ البائدةِ في انْقِراضِها، والثَّاني: بحالِ تَكوينِ الإنسانِ، والثَّالثُ: مَصيرُ الكلِّ إلى الأرضِ، وفي كلِّ ذلك إبطالٌ لإحالَتِهم وُقوعَ البعثِ؛ لأنَّهم زَعَموا استحالتَه، فأُبطِلَت دَعْواهم بإثباتِ إمكانِ البعثِ؛ فإنَّه إذ ثَبَتَ الإمكانُ بَطَلَت الاستِحالةُ، فلمْ يَبْقَ إلَّا النَّظرُ في أدِلَّةِ تَرجيحِ وُقوعِ ذلك المُمكنِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا * أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾

- الهمزةُ في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّقريريِّ[٣].

- وقَدَّم الأرضَ؛ لأنَّ أقرَبَ الأشياءِ إلينا مِن الأُمورِ الخارجيَّةِ: هو الأرضُ[٤].

- وقدْ جاء هذا التَّقريرُ على سَننِ سابقَيْه في عدَمِ العطفِ؛ لأنَّه على طَريقةِ التَّكريرِ للتَّوبيخِ، وهو تَقريرٌ لهم بما أنْعَمَ اللهُ به عليهم مِن خلْقِ الأرضِ لهم بما فيها ممَّا فيه مَنافِعُهم، ومَحلُّ الامتِنانِ هو قولُه: ﴿أَحْيَاءً﴾، وأمَّا قولُه: ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ فتَتميمٌ[٥] .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٢).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤١٣).

وإدماجٌ[١]؛ لأنَّ فيه مُشاهَدةَ المُلازَمةِ بيْنَ الأحياءِ والأمواتِ تدُلُّ على أنَّ الحياةَ هي المقصودُ مِن الخِلقةِ، وهذا تَقريرٌ لهم بالاعترافِ بالأحوالِ المُشاهَدةِ في الأرضِ، الدَّالَّةِ على تَفرُّدِ اللهِ تعالَى بالإلهيَّةِ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ للتَّفخيمِ -مع أنَّها تَكفِتُ الأحياءَ والأمواتَ جميعًا-، كأنَّه قيل: تَكفِتُ أحياءً لا يُعَدُّون، وأمواتًا لا يُحصَرون، على أنَّ أحياءَ الإنسِ وأمواتَهم لَيسوا بجَميعِ الأحياءِ والأمواتِ. فالتنكير للتَّعظيمِ مُرادًا به التَّكثيرُ؛ ولذلك لم يُؤتَ بهما مُعرَّفَينِ باللَّامِ. وجُوِّز أنْ يكونَ للتبعيضِ بإرادةِ أحياءِ الإنسِ وأمواتِهم، وهم ليسوا بجميعِ الأحياءِ والأمواتِ، ولا ينافي ذلك التَّفخيمَ؛ نظرًا إلى أنَّه بعضٌ غيرُ محصورٍ، كثيرٌ في نفسِه. ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى: تَكفِتُكم أحياءً وأمواتًا، فيَنتصِبَا على الحالِ مِن الضَّميرِ؛ لأنَّه قد عُلِمَ أنَّها كِفاتُ الإنسِ. وقيلَ: هُو مصدرٌ نُعِتَ به للمُبالغةِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ جُمِعَ ﴿رَوَٰسِيَ﴾ على فَواعِلَ؛ لوُقوعِه صِفةً لِمُذَكَّرٍ غيرِ عاقلٍ[٤].

- ونُكِّرَ ﴿رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ و﴿مَّآءً فُرَاتًا﴾ لإفادةِ التَّبعيضِ؛ لأنَّ في السَّماءِ جِبالًا؛ قال اللهُ تعالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]، وفيها ماءٌ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٢، ٤٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٧٩، ٦٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤).

فُراتٌ كثيرٌ، بلْ هي مَنبَعُه ومَصبُّه. أو تَنوينُ ﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ و﴿مَّآءً فُرَاتًا﴾؛ للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ؛ لدَلالةِ ذلك على عَظيمِ القُدرةِ[1].

- وعُطِفَ ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ لِمُناسَبةِ ذِكرِ الجِبالِ؛ لأنَّها تَنحدِرُ منها المياهُ تَجْري في أسافِلِها، وهي الأوديةُ، وتَقِرُّ في قَراراتٍ وحِياضٍ وبُحَيراتٍ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤).

## الآيات (٢٩-٣٤)

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾: يعني: دُخانَ جَهنَّمَ إذا ارتَفَع انشَعَب وافتَرَق ثلاثَ فِرَقٍ، والتَّشَعُّبُ: تفَرُّقُ الجِسْمِ الواحِدِ فِرَقًا، وأصلُ (شعب): يدُلُّ على الافتِراقِ[1].

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾: أي: لا يُظِلُّ مِن الحرِّ، ولا يُفيدُ فائدةَ الظِّلِّ، وأصلُ (ظلل): يَدُلُّ عَلَى سَتْرِ شيءٍ لشَيءٍ، وهو الَّذي يُسَمَّى الظِّلَّ[2].

﴿ٱللَّهَبِ﴾: أي: لَهبِ النَّارِ، واللَّهَبُ ما يَعلو على النَّارِ إذا اضْطَرَمَتْ مِن أحْمَرَ وأصْفَرَ وأخْضَرَ، واللَّهَبُ: اضْطِرامُ النَّارِ، ويُقالُ للدُّخَانِ وللغُبارِ، وأصلُ (لهب): ارْتِفاعُ لِسانِ النَّارِ، ثُمَّ يُقاسُ عليه ما يُقارِبُه. تقولُ: الْتَهَبَتِ النَّارُ الْتِهابًا. وكلُّ شَيءٍ ارتَفَع ضَوْؤُه، ولَمَع لَمَعانًا شَديدًا فإنَّه يُقالُ فيه ذلك[3].

﴿كَٱلْقَصْرِ﴾: أي: كالدُّورِ الكِبارِ المُشَيَّدةِ، والحُصونِ والمدائِنِ في العِظَمِ، وهو واحِدُ القُصورِ. وقيل: القَصْرُ: أُصُولُ النَّخْلِ والشَّجَرِ العِظَامِ، جَمعُ قَصْرةٍ، مِثلُ جَمْرةٍ وجَمْرٍ، وتَمْرةٍ وتَمْرٍ. والقَصْرةُ: الواحِدةُ مِن الحَطَبِ الغَليظِ[4].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٩٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٥٣٩).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٦)، ((تفسير =

﴿جِمَٰلَتٌ﴾: الجِمالةُ: جَمْعُ الجَمَلِ المعروفِ، مِثْلُ: حَجَرٍ وحِجارةٍ. وقيل: هي حِبالُ السُّفُنِ يُجمَعُ بَعضُها إلى بَعضٍ، حتَّى تكونَ كأوساطِ الرِّجالِ، وأصلُ (جمل): يدُلُّ على تجَمُّعٍ وعِظَمِ الخَلْقِ[1].

﴿صُفْرٌ﴾: أي: سُودٌ، جمعُ أصفَرَ، يُقالُ: جمَلٌ أصفَرُ، أي: أسْوَدُ، والصُّفْرةُ: لَونٌ مِن الألوانِ الَّتي بيْن السَّوادِ والبَياضِ، وهي إلى السَّوادِ أقرَبُ، وقد سُمِّيَتْ صُفْرًا؛ لأنَّ سَوادَها يَضرِبُ إلى الصُّفرةِ، وأصل (صفر) هنا: لَوْنٌ مِن الألوانِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما يَنتظِرُ هؤلاءِ المكذِّبينَ مِن العذابِ والنَّكالِ: يُقالُ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ: سِيروا إلى النَّارِ الَّتي كُنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا، سِيروا إلى ظِلٍّ مِن دُخَانٍ ذي ثلاثِ شُعَبٍ، لا يُظِلُّ الكافِرينَ، ولا يَقِيهم مِن لَهَبِ النَّارِ.

ثمَّ يَذكُرُ اللهُ تعالى عِظَمَ شَرَرِ النَّارِ، فيقولُ: إنَّ النَّارَ مِن شِدَّةِ استِعارِها وتَلَهُّبِها تَرْمي بشَرَرٍ عَظيمٍ يَتطايَرُ منها، كالقُصورِ العاليةِ، كأنَّه جِمالٌ سُودٌ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوَعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩﴾.

---

= ابن عطية)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٣).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٨١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٩٤)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٠٨٣)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ أنْ ذكَرَ أنَّ للمُكَذِّبينَ باللهِ وأنبيائِه واليَومِ الآخِرِ العذابَ في يومِ الفَصلِ والجزاءِ؛ بيَّن هنا نوعَ ذلك العذابِ بما يَحارُ فيه أولو الألبابِ، ويَخِرُّ مِن هَولِه كُلُّ مُخْبِتٍ أوَّابٍ[1].

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ٢٩﴾.

أي: يُقالُ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ: سِيروا إلى النَّارِ الَّتي كُنتُم تُكَذِّبونَ بها في الدُّنيا[2].

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ٣٠﴾.

أي: سِيروا إلى ظِلٍّ مِن دُخَانٍ يَرتَفِعُ مِنَ النَّارِ ويَتصاعَدُ حتَّى يتشَعَّبَ إلى ثلاثِ شُعَبٍ عَظيمةٍ[3].

﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ٣١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٩/ ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤، ٤٣٥).

قال الشوكاني: (تَقولُ لهم ذلك خَزَنَةُ جهنَّمَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٣). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٥، ٤٣٦).

قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (شَأنُ الدُّخَانِ العَظيمِ إذا ارتَفَع أن يتشَعَّبَ، فيَكونون فيه إلى أن يُفرَغَ مِن الحِسابِ، كما يكونُ أولياءُ اللهِ في ظِلِّ عَرْشِه أو حيثُ شاء مِنَ الظِّلِّ إلى أن يُفرَغَ مِن الحِسابِ، ثمَّ يُؤمَرُ بكُلِّ فَريقٍ إلى مُستَقَرِّه مِن الجنَّةِ أو النَّارِ). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٩٣، ١٩٤).

وقال ابنُ عاشور: (فإنَّ النَّارَ إذا عَظُمَ اشتِعالُها تصاعَدَ دُخَانُها مِن طَرَفَيْها ووسَطِها؛ لشِدَّةِ انضِغاطِه في خُروجِه منها). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٥).

أي: لا يُظِلُّ المُكَذِّبينَ مِن حَرِّها، ولا يَقِيهم مِن لَهَبِها[١].

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: إنَّ النَّارَ مِن شِدَّةِ استِعارِها وتَلَهُّبِها تَرْمي بشَرَرٍ عَظيمٍ يَتطايَرُ منها، كأنَّه قُصورٌ عاليةٌ[٢]!

﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٣، ١٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢، ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

قال القرطبي: (واللَّهَبُ: ما يَعلو على النَّارِ إذ اضطرَمَت؛ مِن أحمَرَ، وأصفَرَ، وأخضَرَ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٢، ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠١، ٦٠٤، ٦٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).

قال ابنُ جُزَي: (والقَصرُ واحِدُ القُصورِ، وهي الدِّيارُ العِظامُ، شَبَّه الشَّرَرَ به في عَظَمَتِه وارتفاعِه في الهواءِ. وقيل: هو الغليظُ مِن الشَّجَرِ، واحِدُه قَصْرةٌ، كجَمْرةٍ وجَمْرٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٣).

وقال ابن الجوزي: (﴿كَالْقَصْرِ﴾ قرأ الجُمهورُ بإسكانِ الصَّادِ، على أنَّه واحِدُ القُصورِ المَبنيَّةِ. وهذا المعنى في روايةِ ابنِ أبي طَلْحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وهو قولُ الجُمهورِ. وقرأ ابنُ عبَّاسٍ، وأبو رَزِينٍ، ومجاهِدٌ، وأبو الجَوْزاءِ: «كَالْقَصَرِ» بفتحِ الصَّادِ. وفي أفرادِ البُخاريِّ [٤٩٣٢] مِن حديثِ ابنِ عبَّاسٍ، قال: كُنَّا نَرفَعُ الخَشَبَ بِقَصَرٍ [أي: قَدْر] ثلاثةَ أذرُعٍ أو أقَلَّ، فنَرفَعُه للشِّتاءِ، فنُسمِّيه: القَصَرَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨٥).

وقال ابنُ حجر: («فنُسَمِّيه القَصرَ» بسُكونِ الصَّادِ وبفَتحِها، وهو على الثَّاني جمعُ قَصرةٍ، أي: كأعناقِ الإبِلِ، ويؤيِّدُه قراءةُ ابنِ عبَّاسٍ: «كالقَصَرِ» بفتحتَين. وقيل: هو أصولُ الشَّجَرِ. وقيل: أعناقُ النَّخلِ. وقال ابنُ قُتَيْبةَ: القَصْرُ: البَيتُ، ومَن فَتَح أراد أصولَ النَّخلِ المقطوعةِ، شبَّهها بقَصَرِ النَّاسِ، أي: أعناقِهم، فكأنَّ ابنَ عبَّاسٍ فَسَّر قراءتَه بالفتحِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٦٨٨).

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿جِمَٰلَتٌ﴾ جَمعُ جَمَلٍ، يعني: أنَّ الشَّرَرَ كالجِمالِ الصُّفْرِ(١).

٢- قِراءةُ: ﴿جُمَالَاتٌ﴾ قيل: جَمعُ جُمالةٍ، مِنَ الشَّيءِ المُجمَلِ، وقيل: هو الحَبلُ الغَليظُ كحِبالِ السُّفُنِ والجُسورِ. وقيل: هذه القراءةُ والَّتي تليها بمعنًى واحدٍ، وهي الجِمالُ(٢).

٣- قراءة: ﴿جِمَالَاتٌ﴾ جمعُ جِمالةٍ، أو جِمالٍ، فيَكونُ جَمْعَ الجَمعِ، وهو بمعنَى القِراءةِ الأُولى، أي: أنَّ الشَّرَرَ كالجِمالِ الصُّفْرِ(٣).

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفۡرٌ ٣٣﴾.

أي: كأنَّ الشَّرَرَ الَّذي يَتطايَرُ مِن جَهَنَّمَ جِمالٌ سُودٌ(٤).

---

(١) قَرَأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، وحفصٌ عن عاصمٍ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٨)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٦٠).

(٢) قرأ بها رُوَيسٌ عن يعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٨)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ٧٥)، ((المحتسب)) لابن جني (٢/ ٣٤٧).

(٣) قرأ بها الباقونَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧). ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٩٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٥ - ٦٠٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧). وممَّن اختار القولَ المذكورَ -أنَّ المرادَ: جِمالٌ سُودٌ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وأبو عُبَيْدَةَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والقرطبي، والنسفي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٥)، ((مجاز =

= القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٤٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٦٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٧١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

قال الواحدي: (الصُّفْرُ: معناها: السُّودُ، في قَولِ المفَسِّرينَ. قال الفَرَّاء: الصُّفرُ: سُودُ الإبِلِ، لا تَرى أسْوَدَ مِنَ الإبِلِ إلَّا وهو مُشرَبٌ صُفرةً؛ لذلك سَمَّتِ العَرَبُ سُودَ الإبِلِ صُفْرًا). ((الوسيط)) (٤/ ٤٠٩). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٥).

وقال الشوكاني: (إذا كانت العَرَبُ تُسَمِّي الأسْوَدَ أصفَرَ لم يَبْقَ إشكالٌ؛ لأنَّ القُرآنَ نَزَل بلُغَتِهم، وقد نَقَل الثِّقاتُ عنهم ذلك، فكان ما في القُرآنِ هنا واردًا على هذا الاستِعمالِ العَربيِّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٤).

وقال الرَّسْعَني: (وهذا قولُ الحسَنِ، ومجاهِدٍ، وقَتادةَ، وعامَّةِ المفسِّرينَ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٣٩).

وقال الرازي: (الأكثَرونَ على أنَّ المرادَ منه: سُودٌ تَضرِبُ إلى الصُّفرةِ). ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٥).

وقال الشنقيطي: (العربُ لا تُطلِقُ الصُّفرةَ وتُريدُ السَّوادَ إلَّا في الإبِلِ خاصَّةً دونَ غيرِها... والمرادُ بـ «الصُّفْرِ»... «السُّودِ»؛ لأنَّ شرَرَ نارِ الآخرةِ أَسْوَدُ، والعربُ إنَّما تُطلِقُ الصُّفرةَ على السَّوادِ في الإبِلِ خاصَّةً دونَ غيرِها مِن سائرِ الحيواناتِ). ((العذب النمير)) (١/ ١٢٩).

وممَّن اختار أنَّ الصُّفرةَ على ظاهِرِها: الثعلبيُّ، والبغوي، والبيضاوي، والخازن، والبِقاعي، والعُلَيمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).

قال البِقاعي: (﴿صُفْرٌ﴾ جَمعُ أصفَرَ، لِلَّوْنِ المعروفِ. وقيل: المرادُ به سَوادٌ يَضرِبُ إلى صُفرةٍ كما هي ألوانُ الجِمالِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٧٩).

وقال ابن عاشور: (والصُّفْرةُ: لَونُ الشَّرَرِ إذا ابْتَعَد عن لَهيبِ نارِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).

وقال ابن جُزَي: (و﴿صُفْرٌ﴾ على ظاهِرِه؛ لأنَّ لَونَ النَّارِ يَضرِبُ إلى الصُّفرةِ. وقيل: صُفْرٌ هنا بمعنى سُودٍ، يُقالُ: جمَلٌ أصفَرُ، أي: أسْوَدُ. وهذا أَلْيَقُ بوَصفِ جهنَّمَ). ((تفسير ابن جزي)) =

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[١].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ﴾ فيه أصلٌ مِن قواعِدِ الهَندسةِ، وهو أنَّ الشَّكلَ المثَلَّثَ لا ظِلَّ له[٢]، فهو شَكلٌ إذا نُصِبَ في الشَّمسِ كَيْفَما نُصِبَ على أيِّ ضِلعٍ كان مِن أضلاعِه لا يكونُ له ظِلٌّ؛ لتَحديدِ رُؤوسِ زَواياهُ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ * كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾، وهي السُّودُ الَّتي تَضرِبُ إلى لَونٍ فيه صُفرةٌ، وهذا يدُلُّ على أنَّ النَّارَ مُظلِمةٌ؛ لَهَبُها وجَمْرُها وشَرَرُها، وأنَّها سَوْداءُ، كَريهةُ المَرْأَى، شديدةُ الحرارةِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه الله تبارك وتعالَى: ﴿انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ * انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ * لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ هذا خِطابٌ للمُكذِّبينَ في يومِ الحَشرِ، فهو

---

= (٢/ ٤٤٣).

وقال ابن كثير: (﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ أي: كالإبِلِ السُّودِ. قاله مجاهِدٌ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. واختاره ابنُ جريرٍ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ، ومجاهِدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ: ﴿جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ يعني: حِبالَ السُّفنِ. وعنه -أعني: ابنَ عبَّاسٍ-: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ قِطَعُ نُحاسٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٥٥٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٤).

مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلَّ عليه صِيغةُ الخِطابِ بالانطلاقِ دونَ وُجودِ مُخاطَبٍ يُؤمَرُ به الآنَ، والضَّميرُ المُقدَّرُ مع القَولِ المحذوفِ عائدٌ إلى المُكذِّبينَ، أي: يُقالُ للمكذِّبين[١].

- والأمْرُ بانطلاقِهم في قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّسخيرِ؛ لأنَّهم تَنطلِقُ بهم مَلائكةُ العذابِ قَسْرًا[٢].

- وما كانوا به يُكذِّبونَ هو جَهنَّمُ، وعُبِّرَ عنه بالمَوصولِ وصِلَتِه ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾؛ لِما تَتضَمَّنُه الصِّلةُ مِن النِّداءِ على خَطَئِهم وضَلالِهم[٣].

- قولُه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ أُعِيدَ فِعلُ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ على طَريقةِ التَّكريرِ؛ لقَصْدِ التَّوبيخِ أو الإهانةِ والدَّفعِ، ومِن أجْلِه أُعِيدَ فِعلُ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ وحرْفُ (إلى)، ومُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (انطَلِقوا إلى ما كُنتُم به تُكذِّبون؛ ظِلٍّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ)؛ فإعادةُ العامِلِ في البدَلِ للتَّأكيدِ في مَقامِ التَّقريعِ[٤].

- وأُرِيدَ بالظِّلِّ دُخَانُ جَهنَّمَ لكَثافتِه، فعُبِّرَ عنه بالظِّلِّ تَهكُّمًا بهم؛ لأنَّهم يَتشَوَّقون ظِلًّا يَأْوون إلى بَرْدِه، وأُفرِدَ ﴿ظِلٍّ﴾ هنا؛ لأنَّه جُعِلَ لهم ذلك الدُّخَانُ في مَكانٍ واحدٍ ليَكونوا مُتراصِّينَ تحتَه؛ لأنَّ ذلك التَّراصَّ يَزيدُهم ألَمًا[٥].

- قوله: ﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ الظَّليلُ: القَويُّ في ظِلالِه، اشتُقَّ للظِّلِّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٤، ٤٣٥)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وصْفٌ مِن اسمِه لإفادةِ كَمالِه فيما يُرادُ منه، أي: ليس هو مِثلَ ظِلِّ المُؤمنينَ؛ قال تعالَى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٥٧]. وفي هذا تَحسيرٌ لهم(١).

- والإغناءُ: جَعْلُ الغَيرِ غَنيًّا، أي: غيرَ مُحتاجٍ في ذلك الغرَضِ، وتَعديتُه بـ(مِن) على معْنى البدَليَّةِ، أو لتَضمينِه معْنى: يُبعِدُ، وبذلك سُلِبَ عن هذا الظِّلِّ خَصائصُ الظِّلالِ؛ لأنَّ شأنَ الظِّلِّ أنْ يُنفِّسَ عن الَّذي يَأوي إليه ألَمَ الحَرِّ(٢).

- وفي قولِه: ﴿ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ تَهكُّمٌ بهم، وتَعريضٌ بأنَّ ظِلَّهم غيرُ ظِلِّ المؤمنينَ؛ فقدْ أدمَجَ في معْنى ﴿لَّا ظَلِيلٖ﴾ معْنيَينِ؛ أحدُهما: التَّهكُّمُ بهم؛ لأنَّ مَفهومَ الظِّلِّ للاستِرواحِ، وهاهنا عكْسُه، كما في قولِه: ﴿وَظِلٖ مَّمۡدُودٖ ۝ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٣، ٤٤]، وثانِيهما: تَعريضٌ بأنَّ للمؤمنينَ ظِلًّا على خِلافِه؛ ليَزيدَ في تَحسُّرِهم وتنديمِهم(٣).

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ۝ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ۝ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ﴾ كالتَّعليلِ لعدَمِ غَناءِ الظِّلِّ غيرِ الظَّليلِ(٤). ويجوزُ أنْ يكونَ هذا مِن تَمامِ ما يُقالُ للمُكذِّبينَ الَّذين قِيل لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]؛ فإنَّهم بعْدَ أنْ حَصَلَ لهم اليَّأسُ ممَّا يُنفِّسُ عنهم ما يَلقَونَ مِن العذابِ، وقيل لهم: انْطَلِقوا إلى دُخَانِ جَهنَّمَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٠، ٨١)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٠).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٩).

رُبَّما شاهَدوا ساعَتَئذٍ جَهنَّمَ تَقذِفُ بشَرَرِها، فيُروِّعُهم المَنظَرُ، أو يُشاهِدونها عن بُعدٍ لا تتَّضِحُ منه الأشياءُ، وتَظهَرُ عليهم مَخايلُ تَوقُّعِهم أنَّهم بالِغون إليه، فيَزدادون رَوعًا وتَهويلًا؛ فيُقالُ لهم: إنَّ جَهنَّمَ تَرْمي بشَررٍ كالقصْرِ كأنَّه جِمالتٌ صُفرٌ. ويجوزُ أنْ يكونَ اعتِراضًا في أثناءِ حِكايةِ حالِهِم، أو في خِتامِ حِكايةِ حالِهِم؛ فضَميرُ ﴿إِنَّهَا﴾ عائدٌ إلى جَهنَّمَ الَّتي دلَّ عليها قولُه: ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، كما يُقال لِلَّذي يُساقُ إلى القتْلِ وقدْ رأى رجُلًا بيَدِه سَيفٌ، فاضطَرَبَ لرُؤيتِه؛ فيُقالُ له: إنَّه الجلَّادُ[١].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ) للاهتمامِ به؛ لأنَّهم حينَئذٍ لا يَشُكُّون في ذلك، سَواءٌ رَأَوْه أو أُخبِروا به[٢].

- والقصْرُ: البِناءُ العالي، والتَّعريفُ فيه للجنسِ، أي: كالقُصورِ؛ لأنَّه شُبِّهَ به جمْعٌ[٣].

- وفي الآيةِ تَشبيهانِ؛ فقدْ شَبَّهَ سُبحانه الشَّرَرَ بالقَصْرِ مِن جِهةِ العِظَمِ ومِن جِهةِ الطُّولِ في الهواءِ، وشبَّهَه ثانيًا لبَيانِ التَّشبيهِ بالجِمالةِ الصُّفرِ -والجِمالاتُ: جمْعُ جِمالةٍ، وهي اسمُ جمْعِ طائفةٍ مِن الجِمالِ، أي: تُشبَّهُ طَوائفُ مِن الجِمالِ مُتوزِّعةً فِرَقًا- في اللَّونِ والكَثرةِ والتَّتابُعِ والاختلاطِ وسُرعةِ الحرَكةِ. وهذا تَشبيهٌ مُركَّبٌ؛ لأنَّه تَشبيهٌ في هَيئةِ الحجْمِ معَ لَونِه مع حَرَكتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٦، ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٠، ٦٨١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٣٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٠).

- ومِن الممكنِ أنْ يُقالَ: إنَّ الضَّميرَ في قولِه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفۡرٌ﴾ عائدٌ إلى (القَصر)؛ فيذهبُ به إلى تَصويرٍ عَجيبٍ وتخييلٍ غريبٍ؛ شُبِّهتِ الشَّرارةُ حِينَ تنقَضُّ مِن النَّارِ في عِظَمِها بالقَصرِ، ثُم شُبِّهَ القصرُ المُشبَّهُ به حِينَ يأخُذُ في الارتفاعِ والانبساطِ؛ فإنَّه حينَئذٍ يَنشَقُّ عن أعدادٍ لا نِهايةَ لها، بالجِمالاتِ المتكاثرةِ، فيتصوَّرُ منها حينَئذٍ العِظَمُ أوَّلًا، والاتِّساقُ مع الكثرةِ والصُّفرةِ والحركةِ المخصوصةِ ثانيًا، فيبلغُ التَّشبيهُ إلى الذِّروةِ العُليا[1].

- وإجراءُ تِلك الأوصافِ في الإخبارِ عن النَّارِ؛ لزِيادةِ التَّرويعِ والتَّهويلِ، فإنْ كانوا يَرَون ذلك الشَّررَ -لقُرْبِهم منه- فوَصْفُه لهم لتَأكيدِ التَّرويعِ والتَّهويلِ بتَظاهُرِ السَّمعِ مع الرُّؤيةِ، وإنْ كانوا على بُعدٍ منه فالوصْفُ للكشْفِ عن حالِه الفَظيعةِ[2].

- قولُه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ تَكريرٌ لقصْدِ تَهديدِ المشرِكينَ الأحياءِ[3].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٣٩). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٥٠٦).

## الآيات (٣٥-٤٠)

﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٣٧ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ٣٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٠﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ المكذِّبينَ يومَ القيامةِ: هذا اليَومُ يومُ القيامةِ لا يَتكَلَّمُ فيه المكَذِّبونَ، ولا يُؤذَنُ لهم فيَعتَذِرونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوَعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

هذا هو اليَومُ الَّذي يَحكُمُ اللهُ تعالى فيه بيْنَ عِبادِه، جمَعْناكم -أيُّها المكَذِّبونَ- مع كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ مِنْ قَبْلِكم، فإنْ كان لكم حِيلةٌ تتخَلَّصونَ بها مِن عَذابِ النَّارِ، فافعَلوا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥﴾.

أي: في ذلك الوَقتِ والموقِفِ مِن يومِ القيامةِ لا يَتكَلَّمُ المكَذِّبونَ[1].

﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ٣٦﴾.

أي: ولا يُؤذَنُ لهم؛ لِيَعتَذِروا مِن ذُنوبِهم[2].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٩، ٦١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦٠٩)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٣٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٠). =

قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ(١).

﴿هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: هذا اليَومُ هو اليَومُ الَّذي يَحكُمُ اللهُ تعالى فيه بالعَدْلِ بيْنَ عِبادِه، جمَعْناكم فيه -أيُّها المكَذِّبونَ- مع كُفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ مِنْ قَبْلِكم(٢).

---

= قال السمعاني: (قولُه: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾؛ لأنَّه لا عُذْرَ لهم فيَعتَذِرونَ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٢).

وقال الخازن: (ليس لهم عُذرٌ في الحقيقةِ؛ لأنَّه قد تقَدَّم الإعذارُ والإنذارُ في الدُّنيا، فلمْ يَبْقَ لهم عُذرٌ في الآخرةِ، ولكِنْ رُبَّما تخَيَّلوا خَيالًا فاسِدًا أنَّ لهم عُذرًا، فلم يُؤذَنْ لهم في ذلك العُذْرِ الفاسِدِ). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٤). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨١).

قيل: إنَّ الخِطابَ في قولِه: ﴿جَمَعْنَاكُمْ﴾ للكفَّارِ المكذِّبينَ مِن هذه الأمَّةِ. وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ جرير، ومكِّيٍّ، واختاره الواحدي، والبغوي، والخازن، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٧٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨١).

وقيل: إنَّه خِطابٌ للكفَّارِ يَومَئذٍ؛ في زمَنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن اختاره: مقاتل بن سليمان، وابنُ عطيَّةَ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٥). =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: فإنْ كان لكم حِيلةٌ تتخَلَّصونَ بها مِن عَذابِ النَّارِ، فافعَلوا؛ فلا مَفَرَّ لكم مِن عَذابي[1].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ * فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٣ - ٣٥].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[2].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ فيه سؤالٌ: كيف يُمكِنُ الجَمعُ بيْنَ هذا، وبيْن قولِه تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾

---

= وقال مقاتل: (﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ يا مَعْشَرَ أهلِ مكَّةَ، وسائرَ النَّاسِ ممَّن بَعْدَكم، ﴿وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ الَّذين كذَّبوا بالبَعثِ مِن قَبْلِكم مِن الأُمَمِ الخاليةِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٤٦).

وقال ابنُ كثير: (هذه مُخاطَبَةٌ مِن الخالِقِ لِعبادِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨١، ١٨٢).

[الزمر: ٣١]، وقولِه تعالى حكايةً عن المشركينَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وقولِه: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ فيه إضمارًا، والتَّقديرُ: هذا يومُ لا يَنطِقونَ فيه بحُجَّةٍ، ولا يُؤْذَنُ لهم فيَعتَذِرونَ؛ لأنَّه ليس لهم فيما عَمِلوه عُذرٌ صحيحٌ، وجوابٌ مستقيمٌ، فإذا لم يَنطِقوا بحُجَّةٍ سليمةٍ، وكلامٍ مُستقيمٍ، فكأنَّهم لم يَنطِقوا؛ لأنَّ مَن نطَق بما لا يُفيدُ فكأنَّه لم يَنطِقْ، ونظيرُه ما يُقالُ لِمَن ذكر كلامًا غيرَ مُفيدٍ: (ما قُلْتَ شَيئًا!).

**الوجهُ الثَّاني**: أراد بقولِه: ﴿يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ تلك السَّاعةَ، وذلك القَدْرَ مِن الوقتِ الَّذي لا يَنطِقون فيه، كما تقولُ: (آتِيك يومَ يَقدَمُ فُلانٌ)، والمعنى: ساعةَ يَقدَمُ، وليس المرادُ باليَومِ كُلَّه؛ لأنَّ القُدومَ إنَّما يكونُ في ساعةٍ يَسيرةٍ، ولا يَمتَدُّ في كلِّ اليومِ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ في يومِ القيامةِ مَواقِفَ[1]؛ فإنَّه يومٌ طويلٌ، فتأتي عليهم ساعةٌ لا يَنطِقونَ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لهم فيَختَصِمونَ، ثُمَّ يكونُ ما شاء اللهُ يَحْلِفُون ويَجْحَدُون، فإذا فَعَلوا ذلك خَتَمَ اللهُ على أفواهِهم، وتُؤْمَرُ جوارحُهم فتَشْهَدُ على أعمالِهم بما صَنعوا، ثُمَّ تَنْطِقُ أَلْسِنَتُهم فيَشْهَدونَ على أنْفُسِهم بما صَنعوا؛ وذلك قولُه: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[2] [النساء: ٤٢]. وأيضًا فهذه الآيةُ ورَدَتْ عَقِيبَ قولِ خَزَنةِ جَهنَّمَ لهم: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات: ٣٠]، فيَنقادونَ

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٠)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٩).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٨٦).

ويَذهَبونَ، فقولُه: ﴿هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ مُتقيِّدٌ بهذا الوقتِ في هذا العَمَلِ، وتقييدُ المطلَقِ بسَبَبِ مقدِّمةِ الكلامِ مشهورٌ في العُرفِ[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يَقُلْ: (ولا يُؤذَنُ لهم فيَعتَذِروا) كما قال: ﴿لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ﴾ [فاطر: ٣٦]؟

**الجواب**: أنَّ قولَه: ﴿فَيَعۡتَذِرُونَ﴾ عَطفٌ على ﴿يُؤۡذَنُ﴾ مُنتَظِمٌ معه في سِلْكِ النَّفيِ، والفاءُ للتَّعقيبِ بيْنَ النَّفْيَينِ في الإخبارِ، أو لترَتُّبِ النَّفيِ الثَّاني على الأوَّلِ، ولم يَقُلْ: (فَيَعْتَذِرُوا) بالنَّصبِ في جَوابِ النَّفيِ؛ ليفيدَ الكلامُ نَفْيَ الاعتذارِ مُطلَقًا؛ إذ لا عُذْرَ لهم ولا يَعتَذِرونَ، بخِلافِ ما لو نُصِبَ وجُعِلَ جوابًا؛ فإنَّه يدُلُّ على أنَّ عَدَمَ اعتِذارِهم لعَدَمِ الإذنِ، فيُوهِمُ ذلك أنَّ لهم عُذرًا لكِنْ لم يؤذَنْ لهم فيه. وقيل: إنَّما لم يُنصَبْ في جوابِ النَّفيِ للمُحافَظةِ على رُؤوسِ الآيِ؛ لأنَّ الآياتِ بالواوِ والنُّونِ، ولو قِيلَ: (فيَعتَذِروا) لَمْ تتوافَقِ الآياتُ[2].

٣- إنْ قيل: نفْيُ النُّطقِ عنهم يدُلُّ على انتفاءِ الاعتذارِ منهم؛ إذِ الاعتذارُ لا يكونُ إلَّا بالنُّطقِ؛ فما فائدةُ قولِه عَقِبَه: ﴿وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ﴾؟

**فالجوابُ**: أنَّ معناهُ: لا يَنطِقون ابتِداءً بعُذرٍ مَقبولٍ، ولا بَعْدَ أن يُؤذَنَ لهم في الاعتِذارِ -لو أُذِنَ لهم فيه-؛ إذِ الخائفُ عادةً قد لا يَنطِقُ لِسانُه بعُذرٍ وحُجَّةٍ لخَوفِه، لكنْ إذا أُذِنَ له فيه نَطَقَ، ففائدةُ ذلك نفْيُ هذا المعْنى، أي: لا يَنطِقون ابتِداءً بعُذرٍ، ولا بعْدَ الإذنِ[3]. ويمكنُ أن يكونَ ذلك لقطعِ الرَّجاءِ، بحيث لا

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٧، ٧٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٨، ٧٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((الدر المصون)) للسمين (١٠/ ٦٤٣، ٦٤٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي =

يُتوَهَّمُ أنَّه رُبَّما يُستثنى مِن نفيِ النُّطقِ ما كان مِن قَبيلِ الاعتِذارِ.

٤- قوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمُ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ هذا مِن العَذابِ الَّذي يُعَذَّبونَه؛ إذ هو مِن نوعِ العَذابِ النَّفْسانيِّ، وقد يكونُ أوْقَعَ على العاقِلِ مِن العذابِ الجُسمانيِّ[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ * وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبَيانِ الحالةِ في ذلك اليومِ[2].

- والإشارةُ في قولِه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ﴾ إنْ كانتْ على ظاهِرِها كان المشارُ إليه هو اليومَ الحاضرَ، وهو يومُ الفصلِ، فتَكونُ الجُملةُ مِن تَمامِ ما يُقالُ لهم في ذلك اليومِ بعْدَ قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، فيكونُ في الانتقالِ مِن خِطابِهم بقولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ إلى إجْراءِ ضَمائرِ الغَيبةِ عليهم الْتِفاتٌ، يَزيدُه حُسنًا أنَّهم قدِ استَحَقُّوا الإعراضَ عنهم بعْدَ إهانتِهم بخِطابِ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، وهذا الوجْهُ أنسَبُ بقولِه تعالَى بعْدَه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]، ومَوقعُ الجُملةِ -على هذا التَّأويلِ- مَوقعُ تَكريرِ التَّوبيخِ الَّذي أفادَهُ قولُه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، وهو مِن جُملةِ ما يُقالُ لهم في ذلك اليومِ.

وإنْ كانت الإشارةُ إلى المذكورِ في اللَّفظِ، وهو يومُ الفصْلِ المُتحدَّثُ عنه بأنَّ

---

= السعود)) (٨/ ٨١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٣).

فيه الوَيْلَ للمُكذِّبينَ، كان هذا الكلامُ مُوَجَّهًا إلى الَّذين خُوطِبوا بالقرآنِ كلِّهم؛ إنذارًا للمُشرِكينَ منهم، وإنعامًا على المؤمنينَ؛ فكانتْ ضَمائرُ الغَيبةِ جاريةً على أصْلِها، وكانتْ عائدةً على المُكذِّبينَ مِن قولِه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٤]، وتكونُ الجُملةُ مُعترِضةً بيْن جُملةِ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾، وجُملةِ ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨]، واسمُ الإشارةِ الَّذي هو إشارةٌ إلى القريبِ مُستعمَلٌ في مُشارٍ إليه بَعيدٍ باعتبارِ قُرْبِ الحديثِ عنه[١].

- قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تَكريرٌ لتَهديدِ المشركينَ، مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥] الآيةَ -على أوَّلِ الوجهَينِ في مَوقعِ ذلك-، أو هو واردٌ لِمُناسَبةِ قولِه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ -على ثاني الوجهَينِ المَذكورينِ فيه- فيكونُ تَكريرًا لنَظيرِه الواقعِ بعْدَ قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩] إلى قولِه: ﴿صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٣]، اقْتَضى تَكريرَه عَقِبَه أنَّ جُملةَ ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ إلخ، تَتضَمَّنُ حالةً مِن أحوالِهم يومَ الحشْرِ لم يَسبِقْ ذِكرُها، فكان تَكريرُ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعْدَها لوُجودِ مُقتضى تَكريرِ الوَعيدِ للسَّامِعينَ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ * فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، أي: ويُقالُ لهم: هذا...[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٤).

- وهو تَكريرٌ لتَوبيخِهم بعدَ جُملةِ ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المرسلات: ٢٩]، شُيِّعَ به القولُ الصَّادرُ بطَرْدِهم وتَحقيرِهم؛ فإنَّ المَطرودَ يُشيَّعُ بالتَّوبيخِ، فهو ممَّا يُقالُ لهم يَومَئذٍ، ولم تُعطَفْ بالواوِ؛ لأنَّها وقَعَتْ مَوقعَ التَّذييلِ للطَّردِ، وذلك مِن مُقتَضَياتِ الفصْلِ، سواءٌ أكان التَّكريرُ بإعادةِ اللَّفظِ والمعْنى، أمْ كان بإعادةِ المعْنى والغرَضِ(١).

- وجُملةُ ﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ تَقريرٌ وبَيانٌ للفَصلِ بأنَّه الفصلُ في النَّاسِ كلِّهم، لجَزاءِ المُحسنينَ والمُسيئينَ كلِّهم؛ لأنَّه إذا كان يومُ الفصلِ بيْنَ السُّعداءِ والأشقياءِ وبيْنَ الأنبياءِ وأُمَمِهم، فلا بُدَّ مِن جمْعِ الأوَّلينَ والآخِرينَ؛ حتَّى يقَعَ ذلك الفصْلُ بيْنَهم، والمُخاطَبونَ بضَميرِ ﴿جَمَعْنَٰكُمْ﴾ المُشرِكونَ الَّذين سِيقَ الكلامُ لتَهديدِهم، وهم المُكذِّبون بالقُرآنِ، وقد أُنذِروا بما حلَّ بالأوَّلين أمْثالِهم مِن عَذابِ الدُّنيا، فأُرِيدَ تَوقيفُهم يَومَئذٍ على صِدقِ ما كانوا يُنذَرونَ به في الحياةِ الدُّنيا مِن مَصيرِهم إلى ما صار إليه أمْثالُهم؛ فلذلك لم يَتعلَّقِ الغرَضُ يَومَئذٍ بذِكرِ الأُمَمِ الَّتي جاءت مِن بَعْدِهم، وباعتِبارِ هذا الضَّميرِ فُرِّعَ عليه قولُه: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾، فكان تخلُّصًا إلى تَوبيخِ الحاضِرينَ على ما يَكيدونَ به للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وللمُسلِمينَ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ [الطارق: ١٥-١٧]، وأنَّ كَيدَهم زائلٌ، وأنَّ سُوءَ العُقبى عليهم. وفُرِّعَ على ذلك ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾، أي: فإنْ كان لكمْ كَيدٌ اليومَ كما كان لكمْ في الدُّنيا فافْعَلوه(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨١، ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

- والشَّرطُ في قولِه: ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ للتَّوبيخِ والتَّذكيرِ بسُوءِ صَنيعِهم في الدُّنيا، والتَّسجيلِ عليهم بالعجْزِ عن الكَيدِ يَومَئذٍ؛ حيث مُكِّنوا مِن البحثِ عمَّا عَسى أنْ يكونَ لهم مِن الكَيدِ، فإذا لم يَسْتطيعوه بعْدَ ذلك فقدْ سُجِّلَ عليهم العجْزُ[1].

- والأمْرُ ﴿فَكِيدُونِ﴾ للتَّعجيزِ، والتَّقريعِ لهم على كَيدِهم لدِينِ اللهِ وذَويه[2].

- قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ تَكريرٌ للوعيدِ والتَّهديدِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٢). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٥٠٦).

## الآيات (٤١-٤٥)

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حُسنَ عاقِبةِ المتَّقينَ يومَ القيامةِ: إنَّ المتَّقِينَ يتنَعَّمونَ في ظِلالِ الجنَّةِ، وعُيونِها الجاريةِ، وفَواكِهِها الكثيرةِ مِمَّا تَشتَهيه أنفُسُهم، ويُقالُ لهم: كُلُوا واشرَبوا بلا أذًى ولا تنغيصٍ؛ بسَبَبِ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ، وذلك جَزاؤُنا لكُلِّ مَن أحسَنَ العمَلَ في الدُّنيا.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أن بيَّن سُبحانَه ما يحلُّ بالكُفَّارِ مِن الخِزيِ والنَّكالِ يومَ القيامةِ؛ أعْقَبَه بذِكرِ ما يكونُ للمُؤمنينَ مِن السَّعادةِ والكرامةِ حينَئذٍ[1].

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه بامتِثالِ أمْرِه واجتِنابِ نَهْيِه: يتنَعَّمونَ في ظِلالِ الجنَّةِ، فلا حَرَّ ولا بَرْدَ فيها يُؤذِيهم، ولهم فيها عُيونٌ جاريةٌ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٢٩/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلٗا﴾ [النساء: ٥٧].

وقال سُبحانَه: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ * هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس: ٥٥، ٥٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ [الإنسان: ١٤].

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ٤٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر العُيونَ؛ أَتْبَعَها ما يَنشَأُ عنها[1].

﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ٤٢﴾.

أي: ولهم في الجَنَّةِ فَواكِهُ مِمَّا تَشتَهيه أنفُسُهم[2].

---

= ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣).

قال الألوسي: (﴿ظِلَٰلٍ﴾ جمعُ ظِلٍّ، ضِدُّ الضِّحِّ، وهو أعَمُّ مِن الفَيْءِ، فإنَّه يُقالُ: ظِلُّ اللَّيلِ، وظِلُّ الجنَّةِ، ويُقالُ لِكُلِّ مَوضِعٍ لم تَصِلْ إليه الشَّمسُ: ظِلٌّ، ولا يُقالُ الفَيْءُ إلَّا لِما زالَ عنه الشَّمسُ، ويُعبَّرُ به أيضًا عن الرَّفاهةِ، وعن العِزَّةِ والمَناعةِ، وعن هذا المعنى حمَل الرَّاغبُ ما في الآيةِ، والمُتبادرُ منه ما هو المعروفُ، ويؤيِّدُه ما تقدَّم في المُقابِلِ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ﴾ [المرسلات: ٣٠] إلخ ... وأيًّا ما كان فالمرادُ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ * وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أنَّهم مُستَقِرُّونَ في فُنونِ التَّرفُّهِ، وأنواعِ التَّنعُّمِ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٧).

ويُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٣٥).

وقال الشوكاني: (والمُرادُ بالعُيونِ: الأنهارُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥). =

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

أي: يُقالُ لأهلِ الجنَّةِ إكرامًا لهم: كُلُوا مِن فَواكِهِ الجنَّةِ واشرَبوا مِن عُيُونِها بلا أذًى ولا تَنغيصٍ فيما تأكُلونَ وتَشرَبونَ، وذلك جزاءٌ لكم بسَبَبِ ما كُنتُم تَعمَلونَه في الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالِحةِ(١).

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: وذلك جَزاؤُنا لِكُلِّ مَن أحسَنَ العَمَلَ في الدُّنيا(٢).

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ(٣).

---

= قال ابن جرير: (﴿وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ يَأْكُلونَ مِنها كُلَّما اشْتَهَوْا لا يَخافونَ ضُرَّها، ولا عاقِبَةَ مَكْروهِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١).

وقال الشوكاني: (والمرادُ... بالفَواكِهِ: ما يُتَفَكَّهُ به مِمَّا تَطْلُبُه أنفُسُهم، وتَسْتَدْعِيه شَهَواتُهم). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١١، ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣، ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٤).

## الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه النَّصُّ على أنَّ عَمَلَهم في الدُّنيا سبَبٌ في تمتُّعِهم بنعيمِ الجَنَّةِ في الآخِرةِ، ومِثلُه قَولُه تعالى: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1] [الأعراف: ٤٣].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۞ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۞ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فيه أنَّه تعالى لَمَّا بَعَث الكُفَّارَ إلى ظِلٍّ ذي ثَلاثِ شُعَبٍ أعَدَّ في مقابَلتِه للمُؤمِنينَ ثلاثةَ أنواعٍ مِنَ النِّعمةِ؛ أوَّلُها: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾، كأنَّه قيل: ظِلالُهم ما كانت ظليلةً، وما كانت مُغْنِيةً عن اللَّهَبِ والعَطَشِ، أمَّا المتَّقونَ فظِلالُهم ظليلةٌ، وفيها عُيونٌ عَذْبةٌ مُغْنِيةٌ لهم عن العَطَشِ، وحاجِزةٌ بيْنَهم وبيْنَ اللَّهَبِ، ومعَهم الفواكِهُ الَّتي يَشتَهونَها ويتَمَنَّونَها، ولَمَّا قال للكُفَّارِ: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾، قال للمُتَّقينَ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا﴾[2].

٢- قَولُه تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤالٌ: أنَّ اللهَ تعالى جَعَل ذلك بسَبَبِ العَمَلِ، والرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((لا يَدخُلُ أحدٌ منكم الجنَّةَ بعَمَلِه))[3]؟

**الجوابُ**: أنْ يُقالَ: «الباءُ» تأتي للسَّبَبيَّةِ، وتأتي للبَدَليَّةِ، فإذا قيل: دَخَلَ الرَّجُلُ الجنَّةَ بعمَلِه؛ فالمعنى: السَّببيَّةُ، وإذا قال: لن يَدخُلَ الجنَّةَ أحدٌ بعَمَلِه؛ فالمعنى:

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٨٠).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٥٦٧٣)، ومسلمٌ (٢٨١٦)، وأحمدُ (٧٤٧٣) واللَّفظُ له مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

البَدَليَّةُ، وهذا مَثَلٌ يُبيِّنُ هذا: بِعْتُك الثَّوبَ بدِرْهَم؛ فالباءُ للبدَليَّةِ، لأنَّ الدِّرهمَ صار عِوضًا عن الثَّوبِ، وإذا قلتُ: أَدَّبْتُ الولدَ بعَبَثِه؛ هذه للسَّببيَّةِ، إذن: كُلُّنا لن يَدخُلَ الجنَّةَ بعمَلِه؛ لأنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى لو حاسَبَنا على عمَلِنا ما قابَلَ عمَلُنا نِعمةً واحدةً مِن نِعَمِ اللهِ تعالى! فالنَّفَسُ الآنَ، الَّذي هو مِن ضرورةِ الحياةِ؛ يَخرُجُ منك ويَدخُلُ بدون تَعَبٍ، وبدونِ مشَقَّةٍ، وكم يَتَنَفَّسُ الإنسانُ في الدَّقيقةِ؟! فلو أنَّنا حُوسِبْنا على أعمالِنا بالمُعاوَضةِ والمُبادَلةِ لَكانت نعمةٌ واحدةٌ تَستَوعِبُ جميعَ العملِ! لذلك نقولُ: إنَّ الباءَ في قولِه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للسَّببيَّةِ، وليست للبدليَّةِ[1].

٣- قولُه تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالحةِ، وذلك مِن إكرامِهم؛ بأنْ جَعَل ذلك الإنعامَ حَقًّا لهم[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إثباتُ القياسِ، يعني: مِثلَ هذا الجزاءِ نَجْزي كُلَّ مُحْسِنٍ[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُرَتِّبُ الجزاءَ والعقوبةَ والثَّناءَ والقَدْحَ على الأوصافِ، لا على الأشخاصِ؛ لأنَّه هنا عَلَّقَ الجزاءَ على الإحسانِ؛ ولهذا لَمْ يأتِ شيءٌ مِن أحكامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى مُقَيَّدًا بشَخصٍ لشَخصِه أبدًا، حتَّى خصائصُ الرُّسُلِ ليست مِن بابِ خصائصِ الأشخاصِ، لكنْ مِن بابِ خصائصِ الأوصافِ؛ لأنَّ فيهم وصفًا زائدًا على غيرِهم، وهو وَصفُ النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ؛ فخُصُّوا ببعضِ الأحكامِ المُناسِبةِ لِمَقامِهم، أمَّا أنْ يُخَصَّ شخصٌ بعَيْنِه؛ لأنَّه فُلانُ بنُ فُلانٍ مَثلًا، فهذا لا يوجَدُ في الشَّريعةِ؛ لأنَّ اللهَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٩).

سُبحانَه وتعالى يُرَتِّبُ الأحكامَ ويُعَلِّقُها على الأوصافِ، لا على الأشخاصِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العمَلِ؛ فكما أحْسَنَ في عبادةِ اللهِ أحْسَنَ اللهُ إليه، وقد قال اللهُ عزَّ وجلَّ في سورةِ (الرَّحمنِ): ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]، يعني: ما جزاءُ الإحسانِ إلَّا الإحسانُ، وبهذا يَتَبيَّنُ لك كمالُ فَضْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الَّذي أَحْسَنَ إليك أوَّلًا بتوفيقِك للطَّاعاتِ والإحسانِ، ثُمَّ أَحْسَنَ إليك ثانيًا بالجزاءِ عليه[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ۝ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لذِكرِ أحوالِ المؤمِنينَ على سَبيلِ الإيجازِ، بعْدَ أنْ ذَكَر أحوالَ الكُفَّارِ على سَبيلِ الإطنابِ، فانتُقِلَ إلى ذِكرِ نَعيمِ المؤمنينَ المُتَّقينَ؛ تَنْويهًا بشَأنِهم، وتَعريضًا بتَرغيبِ المُشرِكينَ المَوجودينَ في الإقلاعِ عنه؛ ليَنالوا كَرامةَ المُتَّقينَ[٣].

ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا خِتامَ الكَلامِ الَّذي هو تَقريعٌ للمُشرِكين، حُكِيَ لهم فيه نَعيمُ المُؤمنينَ الَّذي لا يُشاهِدُه المشرِكون؛ لبُعدِهم عن مَكانِه، فيُحكَى لهم يَومَئذٍ فيما يُقالُ لهم؛ ليَكونَ ذلك أشدَّ حَسرةً عليهم، وتَنْديمًا لهم على ما فرَّطوا فيه ممَّا بادَرَ إليه المُتَّقونَ المؤمِنونَ فَفازوا، فيَكونَ هذا مِن جُملةِ القولِ الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الصافات)) (ص: ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٤).

حُذِفَ فِعلُه عندَ قولِه: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ [المرسلات: ٢٩] إلخ[١].

- وظِلالٌ: جمْعُ ظِلٍّ، وجُمِعَت الظِّلالُ هنا؛ لأنَّها ظِلالٌ كَثيرةٌ؛ لكَثرةِ شَجَرِ الجنَّةِ، وكَثرةِ المُستَظِلِّينَ بِظِلِّها، ولأنَّ لكلِّ واحدٍ منهم ظِلًّا يَتمتَّعُ فيه هو ومَن إليه، وذلك أوقَعُ في النَّعيمِ[٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ للاستِغراقِ؛ فلِكُلِّ واحدٍ مِن المُتَّقينَ كَونٌ في ظِلالٍ[٣].

- قولُه: ﴿مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ صِفةُ (فَوَاكِهَ)، قيل: جمَعَ قولُه: (فَوَاكِهَ) الفواكِهَ وغيرَها؛ فالتَّبعيضُ الَّذي دلَّ عليه حرْفُ (مِن) تَبعيضٌ مِن أصنافِ الشَّهواتِ، لا مِن أصنافِ الفَواكهِ، فأفاد أنَّ تلك الفَواكِهَ مَضمومةٌ إلى مَلاذَّ أُخرى ممَّا اشتَهَوهُ[٤].

- وجُملةُ ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، وذلك المَحذوفُ في مَوقعِ الحالِ مِن ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾، والتَّقديرُ: مَقولًا لهم: كُلوا واشْرَبوا[٥].

- والمَقصودُ مِن ذلك القولِ كَرامتُهم بعرْضِ تَناوُلِ النَّعيمِ عليهم، كما يَفعَلُه المُضِيفُ لضُيوفِه، فالأمْرُ في ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ مُستعمَلٌ في العرْضِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٥٧، ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٣).

- وقولُه: ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ وصْفٌ لمَوصوفٍ غيرِ مَذكورٍ دلَّ عليه فِعلُ ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾، وذلك المَوصوفُ مَفعولٌ مُطلَقٌ مِن ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾، مُبيِّنٌ للنَّوعِ لقصْدِ الدُّعاءِ، مِثلُ: «سَقْيًا» و«رَعْيًا» في الدُّعاءِ بالخيرِ، و«تَبًّا» و«سُحْقًا» في ضِدِّه[1].

- والباءُ في ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: لإفادةِ تَسبُّبِ ما بعْدَها في وُقوعِ مُتعلَّقِه، أي: كُلوا واشْرَبوا بسَببِ ما كُنتم تَعمَلون في الدُّنيا مِن الأعمالِ الصَّالحةِ[2].

- وجُملةُ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ ممَّا يُقالُ للمُتَّقينَ بعْدَ أنْ قِيل لهم: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ...﴾ إلخ، مَسوقةً إليهم مَساقَ زِيادةِ الكرامةِ بالثَّناءِ عليهم، أي: هذا النَّعيمُ الَّذي أنْعَمْتُ به عليكم هو سُنَّتُنا في جَزاءِ المُحسنينَ، فإذْ قدْ كُنتُم مِن المُحسِنينَ فذلك جَزاءٌ لكم نِلْتُموه بأنَّكم مِن أصحابِ الحقِّ في مِثلِه، ففي هذا هَزٌّ مِن أعطافِ المُنعَمِ عليهم، والمعْنى عليه: أنَّ هذه الجُملةَ تُقالُ لكلِّ مُتَّقٍ منْهم، أو لكلِّ جَماعةٍ منهم مُجتَمِعةٍ على نَعيمِ الجنَّةِ، ولِيَعلَموا أيضًا أنَّ أمْثالَهم في الجنَّاتِ الأُخرى لهم مِن الجَزاءِ مِثلُ ما هم يُنعَّمونَ به. ويجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُوَجَّهةً إلى المُكذِّبينَ الموجودينَ بعْدَ أنْ وُصِفَ لهم ما يُنعَّمُ به المُتَّقونَ إثْرَ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ إلخ، قُصِدَ منها التَّعريضُ بأنَّ حِرمانَهم مِن مِثلِ ذلك النَّعيمِ همُ الَّذين قَضَوا به على أنفُسِهم؛ إذْ أبَوْا أنْ يَكونوا مِن المُحسِنينَ، تَكملةً لتَنديمِهم وتَحسيرِهم الَّذي بُودِئوا به مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ إلى آخِرِه، أي: إنَّا كذلك نَجْزي المُحسنينَ، دونَ أمْثالِكم المُسيئينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ومَوقعُ هذه الجُملةِ ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ مَوقعُ التَّعليلِ لِما قبْلَها، ومِن أجْلِ الإشعارِ بهذا التَّعليلِ افتُتِحَت بحَرْفِ (إنَّ)، مع خُلوِّ المَقامِ عن التَّردُّدِ في الخبَرِ؛ إذ المَوقفُ يَومَئذٍ مَوقِفُ الصِّدقِ والحقيقةِ؛ فلذلك كانت (إنَّ) مُتمَحِّضةً لإفادةِ الاهتِمامِ بالخبَرِ، وحِينَئذٍ تَصيرُ مُغْنِيةً غَناءَ فاءِ التَّسبُّبِ، وتُفيدُ مُفادَ التَّعليلِ والرَّبْطِ. وأيضًا الجُملةُ تُفيدُ معْنى التَّذييلِ بما اشتَمَلَت عليه مِن شِبهِ عُمومِ ﴿كَذَٰلِكَ﴾، ومِن عُمومِ المُحسِنينَ؛ فاجتَمَعَ فيها التَّعليلُ والتَّذييلُ[1].

- قولُه: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ هي على الوجْهِ الأوَّلِ في جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ﴾ [المرسلات: ٤١] -وهو كَونُها ممَّا يُقالُ للمُتَّقينَ بعْدَ أنْ قِيل لهم: كُلوا واشْرَبوا... إلخ، مَسوقةً إليهم مَساقَ زِيادةِ الكرامةِ بالثَّناءِ عليهم- تَكريرٌ لنَظائرِها، واليومُ المضافُ إلى (إذ) ذاتِ تَنوينِ العِوَضِ هو يومُ صُدورِ تلك المَقالةِ، وأمَّا على الوجْهِ الثَّاني في جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ...﴾ [المرسلات: ٤١] إلخ -وهو كَونُها مُوَجَّهةً إلى المُكذِّبينَ الموجودينَ بعْدَ أنْ وُصِفَ لهم ما يُنعَّمُ به المُتَّقونَ- فهي مُتَّصِلةٌ بتلك الجُملةِ؛ لِمُقابَلةِ ذِكرِ نَعيمِ المؤمنينَ المُطنَبِ في وَصْفِه، بذِكرِ ضِدِّه للمُشرِكينَ بإيجازٍ حاصلٍ مِن كَلمةِ (وَيْل)؛ لتَحصُلَ مُقابَلةُ الشَّيءِ بضِدِّه، ولِتَكونَ هذه الجُملةُ تَأكيدًا لنَظائرِها، واليومُ المضافُ إلى (إذ) يومٌ غيرُ مَذكورٍ، ولكنَّه ممَّا يَقْتَضيهِ كَونُ المُتَّقينَ في ظِلالٍ وعُيونٍ وفَواكِهَ؛ لِيُعلَمَ بأنَّ ذلك يكونُ لهم في يومِ القيامةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢٩/ ٤٤٥). ويُنظر ما سيأتي (ص: ٥٠٦).

## الآيات (٤٦-٥٠)

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ٤٦ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٧ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ٤٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٤٩ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ٥٠﴾.

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا سوءَ عاقِبةِ المكذِّبينَ يومَ القيامةِ: يُقالُ للمُكَذِّبينَ بالبَعْثِ: كُلُوا وتمَتَّعوا في الدُّنيا قليلًا إلى آخِرِ أعمارِكم؛ إنَّكم مُجرِمونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

وإذا قِيلَ في الدُّنيا لأولئكَ المجرِمينَ: صَلُّوا للهِ تعالى، لا يَفعَلونَ.

ثمَّ يقولُ تعالى مُهدِّدًا ومتوعِّدًا: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ.

ثمَّ يختمُ اللهُ سُبحانَه هذه السُّورةَ الكريمةَ بالتَّعجيبِ مِن أحوالِهم، فيقولُ: فبأيِّ حَديثٍ بَعْدَ هذا القُرآنِ يُؤمِنونَ؟!

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ٤٦﴾.

أي: يُقالُ للمُكَذِّبينَ بالبَعْثِ: كُلُوا وتمَتَّعوا في الدُّنيا قليلًا إلى آخِرِ أعمارِكم؛ إنَّكم مُجرِمونَ بكُفْرِكم باللهِ، وتَكذيبِكم رُسُلَه، فمَصيرُ تلك اللَّذَّاتِ الانقِطاعُ، ومَصيرُكم إلى عذابِ اللهِ[1].

قال تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٥، ٤٤٦).

وقال الله سُبحانَه: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤].

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[1].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾.

أي: وإذا قِيلَ في الدُّنيا لأولئك المجرِمينَ: صَلُّوا للهِ تعالى، لا يَفعَلونَ[2].

قال تعالى: ﴿ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴾ [القلم: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ وخِزْيٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ بالحَقِّ[3].

﴿ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بالَغَ في زَجْرِ الكُفَّارِ مِن أوَّلِ هذه السُّورةِ إلى آخِرِها، وحَثَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٢-٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

قال السعدي: (مِن إجرامِهم أنَّهم إذا أُمِروا بالصَّلاةِ الَّتي هي أشرَفُ العباداتِ، وقيل لهم: ﴿ ٱرْكَعُوا۟ ﴾، امتَنَعوا مِن ذلك، فأيُّ إجرامٍ فوقَ هذا؟! وأيُّ تكذيبٍ يَزيدُ على هذا؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٦، ١٨٧).

على التَّمَسُّكِ بالنَّظَرِ والاستِدلالِ والانقيادِ للدِّينِ الحَقِّ؛ خَتَم السُّورةَ بالتَّعَجُّبِ مِن الكُفَّارِ، وبَيَّن أنَّهم إذا لم يُؤمِنوا بهذه الدَّلائِلِ اللَّطيفةِ مع تجَلِّيها ووُضوحِها، فبأيِّ حديثٍ بَعْدَه يُؤمِنونَ[1]؟!

وأيضًا لَمَّا أعْلَمَ أنَّ لهم الوَيْلَ دائِمًا؛ ذَكَر أنَّ سَبَبَه عَدَمُ الإيمانِ بالقُرآنِ، وأنَّ مَن لم يؤمِنْ بالقُرآنِ لم يُؤمِنْ بشَيءٍ أبدًا، فقال مُسَبِّبًا عن معنى الكلامِ[2]:

﴿ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

أي: فبأيِّ كلامٍ بعْدَ هذا القُرآنِ يُؤمِنونَ إنْ لم يُؤمِنوا به، معَ كَمالِ صِدْقِه، ووُضوحِ حُجَجِه[3]؟!

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية: ٦].

## الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ هذا تهديدٌ ووَعيدٌ للمُكَذِّبينَ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٨١، ٧٨٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٦١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

أنَّهم وإنْ أكَلوا في الدُّنيا وشَربوا وتمتَّعوا باللَّذَّاتِ، وغَفَلوا عن القُرُباتِ؛ فإنَّهم مُجرِمونَ يَستَحِقُّونَ ما يَستَحِقُّه المجرِمونَ، فستَنقَطِعُ عنهم اللَّذَّاتُ، وتبقَى عليهم التَّبِعاتُ[١].

## الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ أي: وإذا قيل لهم: صَلُّوا، لا يُصَلُّونَ، فعُبِّر عن الصَّلاةِ بلفظِ الرُّكوعِ؛ لأنَّه ركنٌ مِن أركانِها[٢]. والآيةُ أصلٌ في وُجوبِ الرُّكوعِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الكُفَّارَ مُخاطَبونَ بفُروعِ الشَّرائعِ، وأنَّهم حالَ كُفرِهم كما يَستَحِقُّونَ الذَّمَّ والعِقابَ بتركِ الإيمانِ، فكذلك يَستَحِقُّونَ الذَّمَّ والعِقابَ بتركِ الصَّلاةِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذَمَّهم حالَ كُفْرِهم على تَركِ الصَّلاةِ[٤]. فهذه الآيةُ الكريمةُ مِن آياتِ الاستِدلالِ على أنَّ الكُفَّارَ مُؤاخَذونَ بتَرْكِ الفُروعِ، وأكثَرُ ما يأتي ذِكْرُه مِن الفُروعِ هي الصَّلاةُ؛ مِمَّا يؤكِّدُ أنَّها هي بحَقٍّ عِمادُ الدِّينِ[٥].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ القائِلونَ بأنَّ الأمرَ للوُجوبِ استَدَلُّوا بهذه الآيةِ؛ لأنَّه تعالى ذمَّهم بمُجَرَّدِ تَرْكِ المأمورِ به، وهذا يدُلُّ على أنَّ مُجَرَّدَ الأمرِ للوُجوبِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٨١).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٠٤).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٩٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٧٨١).

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ * وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ استُدِلَّ به على كُفْرِ تاركِ الصَّلاةِ؛ فإنَّه ذَكَرَ سُبحانَه هذا بعْدَ قولِه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ﴾، ثُمَّ تَوَعَّدَهم على تَرْكِ الرُّكوعِ -وهو الصَّلاةُ إذا دُعُوا إليها-، ولا يُقالُ: إنَّما تَوَعَّدَهم على التَّكذيبِ؛ فإنَّه سُبحانَه وتعالى إنَّما أَخْبَرَ عن تَرْكِهم لها، وعليه وَقَعَ الوَعيدُ[1].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ مِنَ الوَيلِ عليهم أنَّهم تَنْسَدُّ عليهم أبوابُ التَّوفيقِ، ويُحرَمونَ كُلَّ خَيرٍ؛ فإنَّهم إذا كَذَّبوا هذا القُرآنَ الكَريمَ الَّذي هو أعلى مراتِبِ الصِّدقِ واليَقينِ على الإطلاقِ ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ﴾[2]؟!

٦- تأمَّلْ كيفَ وقَع القَسَمُ في أوَّلِ هذه السُّورةِ على المَعادِ والحياةِ الدَّائِمةِ الباقيةِ، وحالِ السُّعداءِ والأشقياءِ فيها، وقَرَّرَها بالحياةِ الأُولى في قَولِه ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [المرسلات: ٢٠]، فذكَر فيها المَبدأَ والمَعادَ، وأخلَصَ السُّورةَ لذلك؛ فحَسُنَ الإقسامُ بما يَحصُلُ به نَوْعَا الحياةِ المُشاهَدةِ، وهو الرِّياحُ والملائكةُ، فكان في القَسَمِ بذلك أبْيَنُ دليلٍ وأظهرُ آيةٍ على صِحَّةِ ما أقسَمَ عليه وتضَمَّنَتْه السُّورةُ؛ ولهذا كان المكَذِّبُ بعدَ ذلك في غايةِ الجُحودِ والعنادِ والكُفرِ؛ فاستحقَّ الوَيْلَ بعدَ الوَيلِ، فتَضاعَفَ عليه الويلُ كما تَضاعَفَ منه الكُفرُ والتَّكذيبُ، فلا أحسَنَ مِن هذا التَّكرارِ في هذا الموضِعِ، ولا أعظَمَ منه مَوقعًا؛ فإنَّه تكرَّر عَشْرَ مرَّاتٍ، ولم يُذكَرْ إلَّا في أثَرِ دليلٍ أو مَدلولٍ عليه، عَقِيبَ

---

(١) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ٤٩).

مذهبُ الحنابلةِ أنَّ تاركَ الصَّلاةِ بالكُلِّيَّةِ تَهاوُنًا أو كسلًا، كافرٌ كُفرًا مُخرِجًا مِن المِلَّةِ، واختاره ابنُ تَيميَّةَ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: (الإنصاف)) للمَرْداوي (١/ ٢٨٦)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٢/ ٢٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٢/ ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٥).

ما يوجِبُ التَّصديقَ، وما يَجِبُ التَّصديقُ به؛ فتأمَّلْه[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ مَن لَمْ يَهْتَدِ بما جاءتْ به الأنبياءُ فهو أبْعَدُ النَّاسِ عن الهُدى[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ أنَّ مِن أحسَنِ اللَّازِمِ وأبْيَنِه أنْ تُبَيِّنَ للسَّامعِ الحقَّ، ثُمَّ تقولَ له: ماذا تقولُ خِلافَ هذا؟! وأين تَذهَبُ خِلافَ هذا؟! قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، فالأمرُ مُنْحَصِرٌ في الحقِّ والباطلِ، والهدى والضَّلالِ، فإذا عَدَلْتُم عنِ الهُدى والحَقِّ، فأين العُدولُ؟ وأين المَذهَبُ[٣]؟!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ الجُملةُ مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ، وهذا المَحذوفُ في مَحلِّ نصْبٍ على الحالِ مِن المُكذِّبينَ، أي: الويلُ ثابتٌ لهم في حالِ ما يُقالُ لهم: كُلوا وتَمتَّعوا، يُقالُ لهم ذلك في الآخِرةِ؛ إيذانًا بأنَّهم كانوا في الدُّنيا أحِقَّاءَ بأنْ يُقالَ لهم، وكانوا مِن أهْلِه؛ تَذكيرًا بحالِهم السَّمِجةِ، وبما جَنَوا على أنفُسِهم مِن إيثارِ المتاعِ القليلِ على النَّعيمِ والمُلكِ الخالدِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٦).
ويُنظر ما يأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٩٤٢).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٢)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٥).

ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ مُستأنَفًا خِطابًا للمُكذِّبينَ في الدُّنيا الَّذين خُوطِبوا بقولِه تعالَى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [المرسلات: ٧]، وهو استئنافٌ ناشئٌ عن قولِه: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المرسلات: ٤٤]؛ إذ يُثيرُ في نُفوسِ المُكذِّبينَ المُخاطَبينَ بهذه القَوارِعِ ما يَكثُرُ خُطورُه في نُفوسِهم مِن أنَّهم في هذه الدُّنيا في نِعمةٍ مُحقَّقةٍ، وأنَّ ما يُوعَدونَ به غيرُ واقِعٍ؛ فقِيل لهم: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا﴾، فالأمْرُ في قولِه: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ﴾ مُستعمَلٌ في الإمهالِ والإنذارِ، أي: ليس أكْلُكم وتَمتُّعُكم بِلَذَّاتِ الدُّنيا بشَيءٍ؛ لأنَّه تَمتُّعٌ قليلٌ، ثمَّ مَأْواكم العذابُ الأبَدِيُّ؛ قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ * لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ * مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[1] [آل عمران: ١٩٥- ١٩٧].

- وجُملةُ ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ خبَرٌ مُستعمَلٌ في التَّهديدِ والوَعيدِ بالسُّوءِ، أي: إنَّ إجرامَكم مُهْوٍ بكم إلى العَذابِ، وذلك مُستفادٌ مِن مُقابَلةِ وصْفِهم بالإجرامِ بوَصْفِ ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المرسلات: ٤١] بالإحسانِ؛ إذِ الجَزاءُ مِن جِنسِ العمَلِ، فالجُملةُ واقِعةٌ مَوقعَ التَّعليلِ للتَّهديدِ[2].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ)؛ لرَدِّ إنكارِهم كَوْنَهم مُجرِمينَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٥، ٤٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦).

- وقولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ له ارتباطٌ خاصٌّ بجُملةِ ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ [المرسلات: ٤٦]؛ لِما في (تَمَتَّعُوا قَلِيلًا) مِن الكِنايةِ عن تَرَقُّبِ سُوءِ عاقِبةٍ لهم، فيَقَعُ قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مَوقعَ البَيانِ لتلك الكِنايةِ، أي: ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ الآنَ، ووَيْلٌ لكم يومَ القيامةِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على قولِه: ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٧]، والتَّقديرُ: والَّذين إذا قِيل لهم: ارْكَعوا، لا يَركَعونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ عطفًا على جُملةِ ﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ [المرسلات: ٤٦]، والانتِقالُ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ الْتِفاتٌ، وعلى كِلا الوَجْهينِ فهو مِن الإدماجِ[٢]؛ لِيَنعَى عليهم مُخالفَتَهم المُسلِمينَ في الأعمالِ الدَّالَّةِ على الإيمانِ الباطِنِ، فهو كِنايةٌ عن عدَمِ إيمانِهم؛ لأنَّ الصَّلاةَ عِمادُ الدِّينِ، والمعْنى: إذا قِيل لهم آمِنوا وارْكَعوا، لا يُؤمِنون ولا يَركَعون. ويجوزُ أنْ يكونَ عطْفًا على قولِه: ﴿إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ [المرسلات: ٤٦]. وعلى الوُجوهِ كلِّها يُفيدُ تَهديدَهم؛ لأنَّه مَعطوفٌ على التَّكذيبِ أو على الإجرامِ، وكِلاهما سَببٌ للتَّهديدِ بجَزاءِ السُّوءِ في يَومِ الفصْلِ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ سمَّى الصَّلاةَ باسمِ جُزءٍ مِن أجْزائِها، وهو الرُّكوعُ، وإنَّما خَصَّ الرُّكوعَ بالذِّكرِ معَ أنَّ الصَّلاةَ تَشتمِلُ على أفعالٍ كَثيرةٍ؛ لأنَّ العرَبَ كانوا يَأنَفون مِن الرُّكوعِ والسُّجودِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٦، ٤٤٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩)، ((إعراب =

وقيل: خَصَّ هذا الجُزءَ؛ لأنَّه يُقالُ على الخُضوعِ والطَّاعةِ، ولأنَّه خاصٌّ بصَلاةِ المُسلِمينَ[١].

- وجُملةُ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ مُتَّصِلةً بقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]، ويكونَ التَّعبيرُ بالمُكذِّبينَ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ؛ لقصْدِ وَصْفِهم بالتَّكذيبِ، والتَّقديرُ: وَيلٌ يومَئذٍ لهم أو لكم، فهي تَهديدٌ ناشئٌ عن جُملةِ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، ويكونَ اليومُ المُشارُ إليه بـ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الزَّمانَ الَّذي يُفيدُه (إذا) مِن قولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ الَّذي يُجازى فيه بالوَيلِ للمُجرِمينَ الَّذين إذا قِيل لهم: ارْكَعوا، لا يَركَعونَ، أي: لا يُؤمِنونَ، وتُفيدُ مع ذلك تَقريرًا وتَأْكيدًا لنَظيرِها المذكورِ ثانيًا في هذه السُّورةِ[٢].

- وجاء في هذه السُّورةِ بعْدَ كلِّ جُملةٍ قولُه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾؛ لأنَّ كلَّ جُملةٍ منها فيها إخبارُ اللهِ تعالَى عن أشياءَ مِن أحوالِ الآخرةِ، وتَقريراتٍ مِن أحوالِ الدُّنيا، فناسَبَ أنْ يُذكَرَ الوعيدُ عَقِيبَ كلِّ جُملةٍ منها للمُكذِّبِ بالوَيلِ في يومِ الآخرةِ[٣].

- وأيضًا قدْ تَكرَّرت آيةُ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ في هذه السُّورةِ عشْرَ مرَّاتٍ، والسِّرُّ فيها زِيادةُ التَّرهيبِ، والتَّكرارُ في مَقامِ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ مُسْتَساغٌ

---

= القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩).

حسَنٌ، لا سيَّما إذا تَغايَرَتِ الآياتُ السَّابقاتُ على المرَّاتِ المُكرَّرةِ، كما هنا(١).

وقيل: كرَّرَه في هذه السُّورةِ عندَ كلِّ آيةٍ لِمَن كذَّب؛ لأنَّه قسَمَه بيْنَهم على قَدرِ تكذيبِهم؛ فإنَّ لكلِّ مكَذِّبٍ بشَيءٍ عذابًا سِوى تكذيبِه بشَيءٍ آخَرَ، ورُبَّ شَيءٍ كذَّب به هو أعظَمُ جُرمًا مِن تكذيبِه بغيرِه؛ لأنَّه أقبَحُ في تكذيبِه، وأعظَمُ في الرَّدِّ على الله، فإنَّما يُقسَمُ له مِنَ الوَيلِ على قَدْرِ ذلك، وعلى قدرِ وِفاقِه(٢).

وقيل: ليس بتَكرارٍ؛ لأنَّه أراد بكُلِّ قولٍ منه غيرَ الَّذي أراد بالآخَرِ، كأنَّه ذكَرَ شيئًا، فقال: وَيلٌ لِمَن يُكَذِّبُ بهذا، ثمَّ ذكَرَ شيئًا آخَرَ، فقال: وَيلٌ لِمَن يُكَذِّبُ بهذا، ثمَّ ذكر شيئًا آخَرَ فقال: ويلٌ لِمَن يكَذِّبُ بهذا، ثمَّ كذلك إلى آخِرِها(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ الفاءُ في ﴿فَبِأَيِّ﴾ فَصيحةٌ تُنبِئُ عن شَرْطٍ مُقدَّرٍ، تَقديرُه: إنْ لم يُؤمِنوا بهذا القُرآنِ فبأيِّ حَديثٍ بعْدَه يُؤمِنونَ؟! وقد دلَّ على تَعيينِ هذا المُقدَّرِ ما تَكرَّرَ في آياتِ ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٩]؛ فإنَّ تَكذيبَهم بالقُرآنِ وما جاء فيه مِن وُقوعِ البعثِ(٤).

- والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في الإنكارِ التَّعجيبيِّ مِن حالِ الكافِرينَ المُكذِّبينَ، أي: إذا لم يُصدِّقوا بالقُرآنِ مع وُضوحِ حُجَّتِه، فلا يُؤمِنون بحَديثٍ غيرِه،

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣١٩-١٣٢٧)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٤)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٤٩٨، ٤٩٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٥، ٤٩٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٩/ ١٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١٠/ ٣٤٦).

والمقصودُ أنَّ القُرآنَ بالِغٌ الغايةَ في وُضوحِ الدَّلالةِ، ونُهوضِ الحُجَّةِ، فالَّذين لا يُؤمِنونَ به لا يُؤمِنونَ بكَلامٍ يَسمَعونه عَقِبَ ذلك(١).

- وقولُه: ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ يَجوزُ أنْ يُجعَلَ صِفةَ ﴿حَدِيثٍ﴾ فهو ظَرْفٌ مُستقَرٌّ(٢)، والمرادُ بالبَعديَّةِ: تَأخُّرُ الزَّمانِ، ويُقدَّرُ معْنى بالغٍ أو مَسموعٍ بعْدَ بُلوغِ القُرآنِ أو سَماعِه، سواءٌ كان حَديثًا مَوجودًا قبْلَ نُزولِ القُرآنِ، أو حَديثًا يُوجَدُ بعدَ القُرآنِ، فليس المعْنى أنَّهم يُؤمِنونَ بحديثٍ جاء قبْلَ القرآنِ مِثلِ التَّوراةِ والإنجيلِ وغَيرِهما مِن المواعظِ والأخبارِ، بل المرادُ أنَّهم لا يُؤمِنون بحَديثٍ غَيرِه بعدَ أنْ لم يُؤمِنوا بالقُرآنِ؛ لأنَّه لا يقَعُ إليهم كَلامٌ أوضَحُ دَلالةً وحُجَّةً مِن القرآنِ. ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ مُتعلِّقًا بـ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾، فهو ظَرْفٌ لَغْوٌ، ويَبْقى لَفظُ ﴿حَدِيثٍ﴾ مَنفيًّا بلا قَيدِ وَصْفِ أنَّه بعْدَ القرآنِ، والمعْنى: لا يُؤمِنون بعْدَ القرآنِ بكلِّ حَديثٍ(٣).

- وضَميرُ ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ، ولم يَتقدَّمْ ما يدُلُّ عليه في هذه السُّورةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) الظَّرْفُ المُستقَرُّ -بفتحِ القافِ-: سُمِّيَ بذلك؛ لاستِقرارِ الضَّميرِ فيه بَعْدَ حذْفِ عامِلِه، وهو الفِعلُ (استقرَّ)، ولأنَّه حينَ يصيرُ خبَرًا مثلًا يَنتقِلُ إليه الضَّميرُ مِن عامِلِه المحذوفِ ويَستقِرُّ فيه؛ وبسَببِ هذَينِ الأمْرَينِ استحقَّ عاملُه الحذفَ وُجوبًا. فإذا أُلغِيَ الضَّميرُ فيه سُمِّيَ ظرفًا لَغوًا؛ لأنَّه فَضلةٌ لا يُهتَمُّ به، وسُمِّيَ أيضًا «اللَّغوُ» لَغوًا؛ لأنَّ وُجودَه ضئيلٌ. فقولُك: كان في الدَّارِ زَيدٌ، أي: كان مُستقِرًّا في الدَّارِ زَيدٌ؛ فالظَّرفُ مُستقَرٌّ فيه، ثمَّ حُذِف الجارُّ، كما يُقالُ: المحصولُ للمَحصولِ عليه، ولم يُستحسَنْ تقديمُ الظَّرفِ اللَّغوِ، وهو ما ناصِبُه ظاهِرٌ؛ لأنَّه -إذَنْ- فَضلةٌ؛ فلا يُهتمُّ به، نحو: كان زَيدٌ جالسًا عندَك. يُنظر: ((شرح الرضي على الكافية)) (٤/ ٢١٠)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ٨٢)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٨).

ليكونَ معادًا للضَّميرِ، ولكنَّه اعتُبِر كالمذكورِ؛ لأنَّه مَلحوظٌ لأذْهانِهم كلَّ يومٍ مِن أيَّامِ دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إيَّاهم به. ويجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿بَعۡدَهُۥ﴾ عائدًا إلى القولِ المأخوذِ مِن ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]؛ فإنَّ أمْرَهم بالرُّكوعِ -الَّذي هو كِنايةٌ عن الإيمانِ- كان بأقوالِ القُرآنِ[1].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الحادي والأربعونَ

ويليه المجلدُ الثَّاني والأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ النَّبَإِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٤٤٨).

# الفهرس

# الفهرس

## سورةُ المُزَّمِّلِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٧
الآيات (١-٩) ..... ٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٩
المعنى الإجماليُّ ..... ١١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٤
الآيات (١٠-١٤) ..... ٤٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٤
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٥٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٥٥
الآيات (١٥-١٩) ..... ٦٠

غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٦٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٦٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٦١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٦٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٦٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٦٨
الآية (٢٠) ..... ٧٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٧٨
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٧٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٧٩
تَفسيرُ الآيةِ ..... ٨٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٩١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٩٣
بلاغةُ الآيةِ ..... ٩٧

## سورةُ المُدَّثِّرِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ١٠٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ١٠٧
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ١٠٧
موضوعاتُ السُّورةِ ..... ١٠٧
الآيات (١-١٠) ..... ١٠٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٠٩

المعنى الإجماليُّ ..... ١١٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١١٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٢١
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٢٣
الآيات (١١-٣٠) ..... ١٣١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٣١
المعنى الإجماليُّ ..... ١٣٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٣٤
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ ..... ١٤٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٤٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٤٩
الآية (٣١) ..... ١٦١
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٦١
المعنى الإجماليُّ ..... ١٦١
تَفسيرُ الآيةِ ..... ١٦٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٦٩
بلاغةُ الآيةِ ..... ١٧٢
الآيات (٣٢-٣٧) ..... ١٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٧٩

مُشكِلُ الإعرابِ ..... ١٧٩
المعنى الإجماليُّ ..... ١٨٠
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٨٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٨٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٨٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٨٤
الآيات (٣٨-٤٨) ..... ١٨٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ١٨٨
المعنى الإجماليُّ ..... ١٨٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ١٩٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ١٩٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ١٩٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ١٩٩
الآيات (٤٩-٥٦) ..... ٢٠٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٠٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٠٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٠٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٠٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢١٠
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢١١

## سورةُ القيامةِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٢٢١
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ..... ٢٢١
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٢٢١
مَوضوعاتُ السُّورةِ..... ٢٢١
الآيات (١-٦) ..... ٢٢٢
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٢٢٢
المعنى الإجماليُّ..... ٢٢٢
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ..... ٢٣٠
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٢٣١
بلاغةُ الآياتِ..... ٢٣٢
الآيات (٧-١٥)..... ٢٤٠
غَريبُ الكَلِماتِ..... ٢٤٠
المعنى الإجماليُّ..... ٢٤١
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٤١
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٢٤٧
بلاغةُ الآياتِ..... ٢٤٨
الآيات (١٦-١٩)..... ٢٥٤
المعنى الإجماليُّ..... ٢٥٤
تَفسيرُ الآياتِ..... ٢٥٤

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٥٧
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٥٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٦١
الآيات (٢٠-٢٥) ..... ٢٦٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٦٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٦٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٦٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٦٨
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٦٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٧٠
الآيات (٢٦-٣٥) ..... ٢٧٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٧٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٢٧٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٧٦
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٧٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٨٥
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٨٥
بلاغةُ الآياتِ ..... ٢٨٧
الآيات (٣٦-٤٠) ..... ٢٩٣
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٢٩٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٢٩٣

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٢٩٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٢٩٨
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٢٩٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٠١

## سورةُ الإنسانِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٣٠٩
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها ..... ٣٠٩
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٣١٠
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٣١٠
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٣١٠
الآيات (١-٣) ..... ٣١٢
غَرِيبُ الكَلِماتِ ..... ٣١٢
المعنى الإجماليُّ ..... ٣١٣
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣١٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣١٦
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣١٦
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣١٨
الآيات (٤-١٢) ..... ٣٢٣
غَرِيبُ الكَلِماتِ ..... ٣٢٣
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٢٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٢٦

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٢٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٣٦
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٣٩
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٤٤
الآيات (١٣-١٨) ..... ٣٥٣
غَرِيبُ الكَلِماتِ ..... ٣٥٣
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٥٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٥٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٦١
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٦١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٦٥
الآيات (١٩-٢٢) ..... ٣٧١
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٣٧١
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٧٢
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٧٣
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٧٨
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٨١
الآيات (٢٣-٢٦) ..... ٣٨٥
غَرِيبُ الكَلِماتِ ..... ٣٨٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٣٨٥
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٣٨٥

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٣٩١
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٣٩٢
بلاغةُ الآياتِ ..... ٣٩٣
الآيات (٢٧-٣١) ..... ٤٠٠
غَرِيبُ الكَلِماتِ ..... ٤٠٠
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٠٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٠١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٠١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ ..... ٤٠٧
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٠٧
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٠٨

## سورةُ المُرسَلاتِ

أسماءُ السُّورةِ ..... ٤٢١
فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها ..... ٤٢١
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ ..... ٤٢٢
مَقاصِدُ السُّورةِ ..... ٤٢٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ ..... ٤٢٣
الآيات (١-٧) ..... ٤٢٤
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٢٤
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٢٥
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٢٦

تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٢٦
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٣٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٣٣
الآيات (٨-١٥) ..... ٤٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٣٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٣٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٣٨
الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ ..... ٤٤١
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٤١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٤٢
الآيات (١٦-٢٤) ..... ٤٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٤٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٤٧
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٤٨
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٥٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٥٥
الآيات (٢٥-٢٨) ..... ٤٦٠
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٦٠
مُشكِلُ الإعرابِ ..... ٤٦٠
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٦١
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٦١

الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٦٣
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٦٥
الآيات (٢٩-٣٤) ..... ٤٦٨
غَريبُ الكَلِماتِ ..... ٤٦٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٦٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٦٩
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٧٤
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٧٤
الآيات (٣٥-٤٠) ..... ٤٧٩
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٧٩
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٧٩
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٨١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٨٤
الآيات (٤١-٤٥) ..... ٤٨٨
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٨٨
تَفسيرُ الآياتِ ..... ٤٨٨
الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ ..... ٤٩١
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ ..... ٤٩١
بلاغةُ الآياتِ ..... ٤٩٣
الآيات (٤٦-٥٠) ..... ٤٩٧
المعنى الإجماليُّ ..... ٤٩٧

تَفسيرُ الآياتِ..... ٤٩٧
الفَوائِدُ التَّرْبَويَّةُ..... ٤٩٩
الفَوائِدُ العِلْميَّةُ واللَّطائِفُ..... ٥٠٠
بلاغةُ الآياتِ..... ٥٠٢
الفهرس..... ٥٠٩

# التفسير المحرر للقرآن الكريم

## من سورة النبأ إلى سورة الانشقاق

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر

الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثاني والأربعون

الدرر السنية
www.dorar.net

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة النبأ إلى سورة الإنشقاق)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر - ١٤٤٣ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الواحد والأربعون - القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ الظهران، ١٤٤٣ هـ

١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٩-١٣-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- التفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٣ ١٤٤٣/١٣٠٠٣

رقم الإيداع: ١٤٤٣/١٣٠٠٣

ردمك: ٩-١٣-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

(ساهم في تخفيض سعر الكتاب أوقاف الشيخ أحمد محمد بغلف)

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة النبأ إلى سورة الإنشقاق)


إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف


**المجلد الثاني والأبعون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ النَّبَأِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ النَّبَإِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّبَأِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ النَّبَأِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفَسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

إثباتُ البَعثِ، وتهويلُه، وإنذارُ مُنكِريه[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- سؤالُ المُشرِكينَ عن القُرآنِ الَّذي جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم وما

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ: سُمِّيَت بذلك؛ لافتتاحِها بلَفظِ النَّبَأِ في قَولِه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٧).
قال ابنُ عاشور: (سُمِّيتْ هذه السُّورةُ في أكثَرِ المصاحِفِ، وكُتُبِ التَّفسيرِ، وكُتُبِ السُّنَّةِ «سُورةَ النَّبَأِ»؛ لِوُقوعِ كلمةِ ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ في أوَّلِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥).
وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿عَمَّ﴾ و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ تسميةً لها بأوَّلِ جملةٍ فيها. وتُسمَّى «سورةَ التَّساؤُلِ»؛ لوُقوعِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ في أوَّلِها. وتُسمَّى «سورةَ المُعْصِراتِ»؛ لقولِه تعالى فيها: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا﴾ [النبأ: ١٤]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨٧).

(٣) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبِقاعي (٣/ ١٥١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦، ٥٨).

اشتَمَل عليه مِن التَّوحيدِ والبَعثِ إلى غيرِ ذلك، وتهديدُهم بسُوءِ المصيرِ إذا ما استمَرُّوا في طُغيانِهم وإنكارِهم لِما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

٢- إقامةُ الأدِلَّةِ على وحدانيَّةِ اللهِ تعالى، وعلى عظيمِ قُدرتِه، وإمكانِ حُصولِ البَعثِ.

٣- ذِكرُ أحداثِ يومِ القيامةِ، ووَصْفُ أهوالِه.

٤- بيانُ ما أعَدَّه اللهُ سُبحانَه للكافِرينَ مِن عذابٍ في جهنَّمَ.

٥- بيانُ ما أعَدَّه اللهُ عزَّ وجلَّ للمُتَّقينَ مِن النَّعيمِ في الجنَّةِ.

٦- تقريرُ أنَّ يومَ القيامةِ حَقٌّ لا رَيبَ فيه، وأنَّه يَنبغي تقديمُ العَمَلِ الصَّالحِ مِن قَبلِ أن يأتيَ هذا اليومُ.

٧- الإنذارُ بعذابٍ قَريبٍ، وعَرْضُ الأعمالِ على العبادِ؛ خَيرِها وشَرِّها، وتمنِّي الكافِرِ في ذلك اليومِ أنْ لو كان تُرابًا.

## الآيات (١-٥)

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ۝٥﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلنَّبَإِ﴾: أي: الخَبَرِ العظيمِ الشَّأنِ، والمرادُ به هنا القُرآنُ أو البَعْثُ، وأصلُ (نبأ): الإتيانُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ، والخبرُ يَأْتي مِن مكانٍ إلى مكانٍ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بأُسلوبِ الاستِفهامِ؛ لِتَشويقِ السَّامِعِ إلى المُستفهَمِ عنه، ولتَهويلِ أَمْرِه، وتَعظيمِ شَأنِه، قائِلًا سُبحانَه: عن أيِّ شَيءٍ يَتساءَلُ مُشرِكو قُرَيشٍ؟ عن الخَبَرِ العَظيمِ، وهو القُرآنُ وما اشتَمل عليه مِن التَّوحيدِ والبَعْثِ وغيرِ ذلك، الَّذي هم فيه مُختَلِفونَ، ثمَّ قال الله تعالى متوعِّدًا ومهدِّدًا: كلَّا سيَعلَمونَ عِلْمَ اليَقينِ ما كَذَّبوا به، وعاقِبةَ تَكذيبِهم، ثُمَّ كَلَّا سيَعْلَمونَ صِدْقَ القُرآنِ ووُقوعَ البَعْثِ الَّذي كَذَّبوا به.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾.

أي: عن أيِّ شَيءٍ عَظيمٍ يَتساءَلُ مُشرِكو قُرَيشٍ[2]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥، ٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٦١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١١٢).
قال الرَّاغبُ: (النَّبَأُ: خَبَرٌ ذو فائدةٍ عَظيمةٍ يَحصُلُ به عِلمٌ أو غَلَبةُ ظَنٍّ، ولا يُقالُ للخبَرِ في الأصلِ نَبأٌ حتَّى يَتضمَّنَ هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ). ((المفردات)) (ص: ٧٨٨، ٧٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦). =

= قال الواحدي: (﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أصلُه: «عَنْ ما»، فأُدغِمَت النُّونُ في الميمِ، وحُذِفَت ألِفُ «ما»، كقَولِهم: فِيمَ، وبِمَ). ((الوسيط)) (٤/ ٤١١).

والضَّميرُ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ لكُفَّارِ قُرَيشٍ. وقيل: لجميعِ النَّاسِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ كفَّارُ مكَّةَ ومُشرِكو قُرَيشٍ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، ومكِّي، والزمخشري، والنسفي، والخازن، وأبو حيَّان، وابن كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشربيني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٨١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٥٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٨٨).

قال الواحديُّ: (قال المفسِّرونَ: لَمَّا بُعِث رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، وأخبَرَهم بتوحيدِ الله، والبعثِ بعدَ الموتِ، وتلا عليهم القرآنَ؛ جعَلوا يَتساءَلونَ بيْنَهم، فيَقولونَ: ماذا جاء به محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم؟ وما الَّذي أتى به؟ فأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾). ((الوسيط)) (٤/ ٤١١).

وقال ابن عطيَّةَ: (يحتملُ الضَّميرُ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أن يريدَ جميعَ العالَمِ، فيكونَ الاختِلافُ حينَئذٍ يُرادُ به تصديقُ المؤمنينَ، وتكذيبُ الكافِرين، ونَزَغاتُ المُلحِدين. ويحتمِلُ أن يُرادَ بالضَّميرِ الكفَّارُ مِن قُرَيشٍ، فيكونَ الاختِلافُ شكَّ بعضٍ، وتكذيبَ بعضٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٣).

فعلى الاحتمالِ الأول فالَّذين كانوا يَتساءَلون هم الكفَّارُ والمؤمِنونَ، وكانوا جميعًا يَتساءَلونَ عنه؛ أمَّا المُسلِمُ فلِيَزدادَ بصيرةً ويقينًا في دينِه، وأمَّا الكافرُ فعلى سبيلِ السُّخريةِ، أو على سبيلِ إيرادِ الشُّكوكِ والشُّبُهاتِ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦).

وذكر ابنُ عاشورٍ -على الاحتمالِ الثاني- أنَّ قولَه: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ إمَّا أن يكونَ بسُؤالِ بَعضِهم بعضًا سؤالَ مُتطَلِّعٍ للعِلمِ؛ لأنَّهم حينَئذٍ لم يَزالوا في شكٍّ مِن صِحَّةِ ما أُنبِئوا به، ثمَّ استقَرَّ أمرُهم على الإنكارِ، أو أنَّهم يَتظاهَرونَ بالسُّؤالِ، وهم موقِنونَ بانتفاءِ وُقوعِ ما يَتساءَلونَ عنه؛ فيَكونونَ قَصَدوا بالسُّؤالِ الاستِهزاءَ.

ثمَّ ذكَر ابنُ عاشور أنَّ الوَجهَ هو حَملُ الآيةِ عليهما، قال: (لأنَّ المُشرِكينَ كانوا مُتفاوِتينَ في التَّكذيبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨).

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا فَخَّم ما يَتساءَلونَ عنه، مُعَجِّبًا منهم فيه؛ بيَّنَه بقَولِه إعلامًا بأنَّ ذلك الإبهامَ ما كان إلَّا للإعظامِ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾[1].

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢﴾.

أي: يتَساءلونَ عن الخَبَرِ العَظيمِ، وهو ما اشتَمل عليه القرآنُ مِن التَّوحيدِ والبعثِ وغيرِ ذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦).

قيل: المرادُ بالنبأ -أي: الخبرِ- العظيمِ: القرآنُ. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والرازيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦).

قال الواحدي: (ومعنى: ﴿ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ القرآنُ في قولِ جميعِ المفَسِّرينَ، وهو قولُ الكَلْبيِّ، ومُقاتِلٍ، ومجاهِدٍ، وقَتادةَ، وسُفْيانَ). ((البسيط)) (٢٣/ ١١١). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٥٧).

ورواه ابنُ مَرْدويه عن ابنِ عبَّاسٍ، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٣٩٠).

وقال الواحديُّ أيضًا: (هو: القرآنُ في قولِ الجميعِ. ومعناه: الخبَرُ العظيمُ الشَّأنِ؛ لأنَّه يُنبئُ على التَّوحيدِ، وتصديقِ الرَّسولِ، والخبَرِ عمَّا يجوزُ وعمَّا لا يجوزُ، وعن البَعثِ والنُّشورِ). ((الوسيط)) (٤/ ٤١١).

ونَسَب البَغَويُّ هذا القولَ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٩٩).

وقيل: هو البَعثُ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ أبي زَمَنين، والنَّسَفيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٨٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨٨).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ النَّبأَ العَظيمَ هو رسالةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وشريعتُه، وما جاء =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ [ص: ٦٧، ٦٨].

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾.

أي: الَّذي اختَلَف فيه أهلُ مَكَّةَ(١).

---

= به مِن القرآنِ المُشتَمِلِ على التَّوحيدِ والبَعثِ وغيرِ ذلك: ابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وجلال الدين المحلي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥).

قال ابنُ عاشور: (يَشملُ كُلَّ نَبأٍ عَظيم أنبَأَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به، وأوَّلُ ذلك إنباؤُه بأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، وما تضَمَّنَه القُرآنُ مِن إبطالِ الشِّركِ، ومِن إثباتِ بَعثِ النَّاسِ يومَ القيامةِ، فما يُروى عن بعضِ السَّلَفِ مِن تعيينِ نبأٍ خاصٍّ: يُحمَلُ على التَّمثيلِ؛ فعن ابنِ عبَّاسٍ: هو القرآنُ. وعن مُجاهِدٍ وقَتادةَ: هو البَعثُ يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠).

قال ابنُ جُزَي (ويتعلَّقُ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ بفعلٍ مَحذوفٍ يُفَسِّرُه الظَّاهِرُ، تقديرُه: يَتساءَلونَ عن النَّبأ. ووقعت هذه الجُملةُ جوابًا عن الاستفهامِ، وبيانًا للمَسْؤولِ عنه، كأنَّه لَمَّا قال: عَمَّ يَتساءَلونَ؟ أجاب فقال: يَتساءَلونَ عن النَّبأِ العظيمِ. وقيل: يتعلَّقُ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ الظَّاهِرِ، والمعنى على هذا: لأيِّ شَيءٍ يَتساءَلونَ عن النَّبأِ العظيمِ؟ والأوَّلُ أفصَحُ وأبرَعُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥).

قيل: المرادُ: اختِلافُ الكُفَّارِ فيما يَصِفونَ به النَّبَأَ العَظيمَ؛ كُفْرًا وتكذيبًا به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الشَّوكانيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠، ١١).

وقيل: معنى اختلافِهم: أنَّ مِنهم مَنْ آمَنَ به، ومنهم مَن كَفَر به. وممَّن قال بهذا في الجُملةِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَيْن: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩١).

قال ابنُ جُزَي (إن كان الضَّميرُ في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ لكُفَّارِ قُرَيشٍ، فاختِلافُهم أنَّ مِنهم مَن يقطَعُ =

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٤﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ المكَذِّبونَ بالقُرآنِ والمُنكِرونَ للبَعْثِ وغيرِه ممَّا جاء به، وهم سيَعلَمونَ عِلْمَ اليَقينِ ما كَذَّبوا به، عندَ مَوتِهم ويومَ القيامةِ، وسيَعلَمونَ حَقًّا عاقِبةَ تَكذيبِهم[1].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧٠ - ٧٢].

﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ٥﴾.

أي: ثمَّ ليس الأمرُ كما يَزْعُمونَ، فهم حَتْمًا سيَعْلَمونَ صِدْقَ القُرآنِ وما اشتمَل

---

= بالتَّكذيبِ، ومنهم مَن يشُكُّ، أو يكونُ اختِلافُهم قَولَ بَعضِهم: سِحرٌ، وقولَ بَعضِهم: شِعرٌ وكِهانةٌ، وغيرَ ذلك، وإن كان الضَّميرُ لجميعِ النَّاسِ فاختِلافُهم أنَّ منهم المؤمِنَ والكافِرَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٤).

وقيل: يجوزُ أن يكونَ الاختِلافُ بالإقرارِ والإنكارِ على كَونِ ضميرِ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ للكفَّارِ أيضًا، بأن يُجعلَ ضميرُ ﴿هُمْ﴾ للسَّائلينَ والمَسْؤولينَ. يُنظر: ((حاشية الخفاجي على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٣٠٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٠٣).

وقال ابن كثير بعدَ أن ذكر أنَّ المرادَ تَساؤُلُ المشرِكين: (قوله: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ يعني: النَّاسُ فيه على قولَينِ: مؤمنٌ به، وكافرٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١).

قال البِقاعي: (﴿كَلَّا﴾ أي: ليس ما سألُوا عنه واختَلَفوا فيه بمَوضِعِ اختِلافٍ أصلًا، ولا يَصِحُّ أن يَطرُقَه رَيْبٌ بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ فلْيَنزَجِروا عن ذلك، ولْيَرْتَدِعوا قبْلَ حُلولِ ما لا قِبَلَ لهم به). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٩٣).

عليه، كوُقوعِ البَعْثِ الَّذي كَذَّبوا به، وسيَعْلَمونَ عاقِبةَ ذلك[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ سُؤالٌ، وقَولُه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ جوابُ السَّائِلِ، والمجيبُ هو اللهُ تعالى، وذلك يدُلُّ على عِلْمِه بالغَيْبِ، بل بجَميعِ المعلوماتِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائدةُ في أن يُذكَرَ الجَوابُ معه؟

**الجوابُ**: لأنَّ إيرادَ الكلام في مَعرِضِ السُّؤالِ والجوابِ أقرَبُ إلى التَّفهيمِ والإيضاحِ، ونظيرُه: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾[٣] [غافر: ١٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ عِظَمُ ما جاء به الرَّسولُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن الوَحْيِ، وأنَّه نَبأٌ عَظيمٌ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۝ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾

- قولُه: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ افتِتاحُ الكلامِ بالاستِفهامِ عن تَساؤُلِ جماعةٍ عن نَبأٍ عَظيمٍ، افتِتاحُ تَشويقٍ ثمَّ تَهويلٍ وتَفخيمِ الشَّأنِ لِما سيُذكَرُ بعدَه، كأنَّه لفَخامتِه وخُروجِه عن حُدودِ الأجناسِ المعهودةِ خَفِيَ جِنسُه فيُسأَلُ عنه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر ما يأتي (ص: ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ٢٣٢).

فهو مِن الفواتحِ البديعةِ؛ لِما فيها مِن أُسلوبٍ عَزيزٍ غيرِ مألوفٍ، ومِن تَشويقٍ بطَريقةِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ، المحصِّلةِ لتَمكُّنِ الخبرِ الآتي بعْدَه في نفْسِ السَّامعِ أكمَلَ تَمكُّنٍ(١).

- ولَمَّا كان هذا الافتتاحُ مُؤْذِنًا بعَظيمِ أمْرٍ، كان مُؤذِنًا بالتَّصدِّي لقولٍ فصْلٍ فيه، ولَمَّا كان في ذلك إشعارٌ بأهَمِّ ما فيه خَوضُهم يَومَئذٍ، يُجعَلُ افتِتاحُ الكلامِ به مِن بَراعةِ الاستِهلالِ(٢).

- وضَميرُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ ضَميرَ جَماعةِ الغائبينَ مُرادًا به المُشركونَ مِن أهلِ مكَّةَ، ولم يَسبِقْ لهم ذِكرٌ في هذا الكلامِ، ولكنَّ ذِكرَهم مُتكرِّرٌ في القرآنِ، فصاروا مَعروفينَ بالقَصدِ مِن بعضِ ضَمائرِه وإشاراتِه المُبهَمةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦).

وبراعةُ الاستِهلالِ: هي كَونُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بلْ بألْطَفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ، ومِن أحسَنِ صُوَرِ براعةِ الاستِهلالِ مَوقِعًا، وأبلَغِها معنًى: فواتحُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، ومنها الحُروفُ المقطَّعةُ؛ فإنَّها تُوقِظُ السَّامعينَ للإصغاءِ إلى ما يَرِدُ بعدَها؛ لأنَّهم إذا سمِعوها مِن النَّبيِّ الأُمِّيِّ عَلِموا أنَّها والمَتْلُوَّ بعْدَها مِن جِهةِ الوحيِ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ المتلوَّ عليهم مِن جِنسِ ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، مع عجْزِهم عن أنْ يأتوا بمِثلِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (١/ ٥٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠).

- وقيلَ: هو سؤالُ استِهزاءٍ أو تَعجُّبٍ، وإنَّما هم موقِنونَ بالتَّكذيبِ[١].

- ولَمَّا كان الاستِفهامُ مستعمَلًا في غيرِ طلبِ الفَهمِ، حَسُن تعقيبُه بالجوابِ عنه بقولِه: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، فهو بَيانٌ لشَأنِ المسؤولِ عنه إثرَ تَفخيمِه بإبهامِ أمْرِه، وتَوجيهِ أذهانِ السَّامِعينَ نحوَه، وتَنزيلِهم مَنزِلةَ المستفهِمينَ؛ فإنَّ إيرادَه على طَريقةِ الاستِفهامِ مِن علَّامِ الغُيوبِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّه لانقطاعِ قَرينِه، وانعدامِ نَظيرِه خارجٌ عن دائرةِ عُلومِ الخَلْقِ، خَليقٌ بأنْ يُعتنَى بمَعرفتِه ويُسألَ عنه، كأنَّه قيلَ: عنْ أيِّ شيءٍ يَتساءَلونَ؟ هل أُخبِرُكُم بِه؟ ثمَّ قيلَ بطَريقِ الجوابِ: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، على مِنهاجِ قولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فـ(عَنْ) مُتعلِّقةٌ بما يدُلُّ عليه المذكورُ مِن مُضمَرٍ حقُّه أنْ يُقدَّرَ بعدَها؛ مُسارَعةً إلى البيانِ، ومُراعاةً لتَرتيبِ السُّؤالِ، هذا هو الحقيقُ بالجزالةِ التَّنزيليَّةِ[٢].

- ووُصِفَ النَّبأُ بالعظيمِ هنا زيادةً في التَّنويهِ به؛ لأنَّ كَونَه واردًا مِن عالِمِ الغَيبِ زادَه عِظَمَ أوصافٍ وأهوالٍ، فوَصْفُ النَّبأِ بالعظيمِ باعتبارِ ما وُصِفَ فيه مِن أحوالِ البعثِ فيما نزَلَ مِن آياتِ القرآنِ قبْلَ هذا[٣].

وقيل: لَمَّا كان في مَقامِ التَّفخيمِ له، وصَفَه تأكيدًا بقولِه: ﴿ٱلۡعَظِيمِ﴾، مع أنَّ النَّبأَ لا يُقالُ إلَّا لخبرٍ عظيمٍ شأنُه؛ ففي ذلك تَنبيهٌ على أنَّه مِن حقِّه أن يُذعِنَ له كلُّ سامعٍ، ويَهتَمَّ بأمرِه، لا أنْ يَشُكَّ فيه ويَجعَلَه مَوضِعًا للنِّزاعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩١).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلنَّبَإِ﴾ قيل: هو تَعريفُ الجنسِ؛ فيَشملُ كلَّ نبأٍ عظيمٍ أنبَأَهم الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به[١].

- وقد وُصِفَ النَّبأُ بقولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بعدَ وصْفِه بالعظيمِ؛ تأكيدًا لخطرِه إثرَ تأكيدٍ، وإشعارًا بمَدارِ التَّساؤلِ عنه[٢].

- والضَّميرُ في ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ تأكيدٌ، وفيه معْنى الاختصاصِ، ولم يكنْ لقُرَيشٍ اختصاصٌ بالاختلافِ، لكنْ لَمَّا كان خَوضُهم فيه أكثَرَ، وتعنُّتُهم له أظْهَرَ؛ جُعِلوا كأنَّهم مَخصوصونَ به[٣].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ جِيءَ بالجُملةِ الاسميَّةِ في صِلةِ المَوصولِ دونَ أنْ يقولَ: (الَّذي يَختلِفونَ فيه) أو نحوَ ذلك؛ لتُفيدَ الجملةُ الاسميَّةُ أنَّ الاختِلافَ في أمرِ هذا النَّبأِ مُتمكِّنٌ منهم، ودائمٌ فيهم؛ لدَلالةِ الجملةِ الاسميَّةِ على الدَّوامِ والثَّباتِ[٤].

- وتَقديمُ ﴿فِيهِ﴾ على ﴿مُخْتَلِفُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بالمجرورِ، وللإشعارِ بأنَّ الاختلافَ ما كان مِن حقِّه أنْ يَتعلَّقَ به، مع ما في التَّقديمِ مِن الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾

- ﴿كَلَّا﴾ حرْفُ رَدْعٍ وإبطالٍ لشَيءٍ يَسبِقُه غالبًا في الكلامِ، يَقتضي ردْعَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١).

(٥) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

المنسوبِ إليه، وإبطالَ ما نُسِب إليه، وهو هنا رَدعٌ لِلَّذينَ ﴿يَتَسَآءَلُونَ ۞ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ۞ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ [النَّبأ: ١-٣]، وإبطالٌ لِما تَضمَّنَتْه جملةُ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ مِن تَساؤلٍ مَعلومٍ للسَّامِعينَ، فمَوقعُ الجملةِ مَوقعُ الجوابِ عن السُّؤالِ؛ ولذلك فُصِلَتْ ولم تُعطَفْ؛ لأنَّ ذلك طَريقةُ السُّؤالِ والجوابِ، والكلامُ وإنْ كان إخبارًا عنهم فإنَّهم المقصودونَ به، فالرَّدعُ موجَّهٌ إليهم بهذا الاعتبارِ، والمعنى: إبطالُ الاختِلافِ في ذلك النَّبأِ، وإنكارُ التَّساؤلِ عنه، ذلك التَّساؤلُ الَّذي أرادوا به الاستهزاءَ وإنكارَ الوُقوعِ، وذلك يُثبِتُ وُقوعَ ما جاءَ به النَّبأُ وأنَّه حقٌّ؛ لأنَّ إبطالَ إنكارِ وُقوعِه يُفْضي إلى إثباتِ وُقوعِه[١].

- والغالبُ في استعمالِ (كَلَّا) أنْ تُعقَّبَ بكلامٍ يُبيِّنُ ما أجمَلَتْه مِن الرَّدعِ والإبطالِ؛ فلذلك عُقِّبتْ هنا بقولِه: ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾، وهو زيادةٌ في إبطالِ كلامِهم بتحقيقِ أنَّهم سيُوقِنونَ بوُقوعِه، ويُعاقَبونَ على إنكارِه، فَهُمَا عِلْمانِ يَحصُلانِ لهم: عِلمٌ بحقِّ وُقوعِ البعثِ، وعِلمٌ في العِقابِ عليه، ولذلك حُذِفَ مَفعولُ ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾؛ ليَعُمَّ المَعلومَيْنِ؛ فإنَّهم عندَ الموتِ يَرَون ما سيَصيرون إليه بعدَ الموتِ[٢].

- أو حُذِفَ ما يَتعلَّقُ به العِلمُ على سبيلِ التَّهويلِ، أي: سيَعلَمونَ ما يَحُلُّ بهم[٣].

- وتَضمَّنَ هذا الإبطالُ وما بعدَه إعلامًا بأنَّ يومَ البعثِ واقعٌ، وتَضمَّنَ وعيدًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١، ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢).

- ومِن مَحاسنِ هذا الأسلوبِ في الوعيدِ أنَّ فيه إيهامًا بأنَّهم سيَعلَمونَ جوابَ سؤالِهم الَّذي أرادوا به الإحالةَ والتَّهكُّمَ، وصَوَّروهُ في صورةِ طلبِ الجوابِ، فهذا الجوابُ مِن بابِ قولِ النَّاسِ: الجوابُ ما تَرى لا ما تَسمَعُ[١].

- قولُه: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ وعيدٌ بطَريقِ الاستِئنافِ أنَّهم سوف يَعلَمونَ أنَّ ما يَتساءَلونَ عنه ويَضحكونَ منه حقٌّ، وتَعليلٌ للرَّدعِ. والتَّعبيرُ عمَّا يُلاقونَه مِن فُنونِ الدَّواهِي والعُقوباتِ بالعِلمِ؛ لوُقوعِه في مَعرِضِ التَّساؤلِ والاختِلافِ[٢].

- والسِّينُ في قولِه: ﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ للتَّقريبِ والتأكيدِ؛ أُكِّدَ الكلامُ بحرْفِ الاستِقبالِ الَّذي شأنُه إفادةُ تقريبِ المستقبَلِ[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ارتقاءٌ في الوعيدِ والتَّهديدِ؛ فإنَّ (ثُمَّ) لَمَّا عطَفَتِ الجملةَ فهي للتَّرتيبِ الرُّتبيِّ؛ وهو أنَّ مَدلولَ الجملةِ الَّتي بعدَها أَرْقى رُتبةً في الغرضِ مِن مَضمونِ الجملةِ الَّتي قبْلَها، ولَمَّا كانتِ الجملةُ الَّتي بعدَ (ثُمَّ) مِثلَ الجملةِ الَّتي قبْلَ (ثُمَّ)، تَعيَّنَ أنْ يكونَ مضمونُ الجملةِ الَّتي بعدَ (ثُمَّ) أَرْقى درجةً مِن مضمونِ نظيرِها، ومعنى ارتقاءِ الرُّتبةِ أنَّ مضمونَ ما بعدَ (ثُمَّ) أَقْوى مِن مضمونِ الجملةِ الَّتي قبلَ (ثُمَّ)، وهذا المضمونُ هو الوعيدُ، فلمَّا استُفيدَ تحقيقُ وُقوعِ المتوعَّدِ به بما أفادَهُ التَّوكيدُ اللَّفظيُّ -إذ الجملةُ الَّتي بعدَ (ثُمَّ) أكَّدَتِ الجملةَ الَّتي قبْلَها[٤]- تَعيَّنَ انصرافُ معنى ارتقاءِ رتبةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢).

(٤) جملةُ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ توكيدٌ للأُولى ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ مِن حيثُ المعنى، وإن كانتْ ليستْ توكيدًا باعتبارِ اصطلاحِ النَّحْويِّينَ؛ لأنَّه فُصِل بيْنَها وبيْنَ الَّتي قبْلَها بحرفِ العطفِ، والتَّوكيدُ لا يُفصَلُ بيْنَه وبيْنَ مؤكَّدِه بشَيءٍ مِنَ الحروفِ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥، ٢٦).

معنى الجملةِ الثَّانيةِ وهو أنَّ المتوعَّدَ به الثَّانيَ أعظَمُ ممَّا يَحسَبونَ[١].

وقيل: كُرِّرَ قولُه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾؛ لأنَّ الأوَّلَ تَوعُّدٌ للكُفَّارِ بما يَرَونَه عِندَ النَّزعِ، والثَّانيَ تَوعُّدٌ لهم بما يَصيرونَ إليه مِن عذابِ الآخِرةِ، أو الأوَّلَ تَوعُّدٌ بأهوالِ القيامةِ، والثَّانيَ تَوعُّدٌ بما بعدَها مِن النَّارِ وحَرِّها، أو الأوَّلَ رَدعٌ عن الاختِلافِ، والثَّانيَ عن الكفرِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٥).

## الآيات (٦-١٦)

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِهَٰدًا﴾: أي: فِراشًا وبِساطًا، ومَكانًا مُمَهَّدًا مُوَطَّأً، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على تَوطئةٍ وتَسهيلٍ للشَّيءِ[(١)].

﴿أَوْتَادًا﴾: جمعُ وَتِدٍ، والوَتِدُ: عُودٌ غَليظٌ، أسفَلُه أدَقُّ مِن أعلاه، يُدَقُّ في الأرضِ؛ لتُشَدَّ به أطنابُ الخيمةِ، وأصلُ (وتد): يدُلُّ على الثَّباتِ والرُّسوخِ[(٢)].

﴿سُبَاتًا﴾: أي: راحةً لأبدانِكم؛ لانقِطاعِكم فيه عن الأعمالِ، وأصلُ (سبت): يدُلُّ على راحةٍ وسُكونٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٧).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤، ١٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٦٦)، ((مقاييس اللغة)) (٣/ ١٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٢/ ١٦٥).

قال الراغب: (أصلُ السَّبْتِ: القطعُ). ((المفردات)) (ص: ٣٩٢).

وقال ابن عاشور: (والسُّباتُ: بضمِّ السِّينِ وتخفيفِ الباءِ اسمُ مصدرٍ بمعنَى السَّبْتِ، أي: =

﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾: أي: شَمسًا وَقَّادةً مُضِيئةً، والوَهَجُ: يَجمَعُ النُّورَ والحَرَّ، وأصلُ (سرج): يدُلُّ على الحُسْنِ والزِّينةِ والجَمالِ، ومِنْ ذلك السِّراجُ، سُمِّي بذلك لضِيائِه وحُسْنِه، وأصلُ (وهج): يدُلُّ على حَرٍّ وتوَقُّدٍ(١).

﴿ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾: أي: السَّحائِبِ الَّتي تَجيءُ بالمطَرِ، مأخوذٌ مِنَ العَصْرِ؛ لأنَّ السَّحابَ يَنعَصِرُ فيَخرُجُ منه الماءُ، وأصلُ (عصر): يدُلُّ على ضَغطِ شَيءٍ حتَّى يتحَلَّبَ(٢).

﴿ثَجَّاجًا﴾: أي: سَيَّالًا مُنصَبًّا بشِدَّةٍ، والثَّجَّاجُ: الكثيرُ المنصَبُّ، وأصلُ (ثجج): يدُلُّ على صَبِّ شَيءٍ(٣).

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾: أي: بَساتينَ مُلْتَفَّةً بالنَّباتِ والشَّجَرِ، والأَلْفافُ: الشَّجَرُ يَلتَفُّ بَعْضُه ببَعضٍ، وأصلُ (جنن): السَّتْرُ والتَّغطيةُ، ومنه سُمِّي البُستانُ جَنَّةً؛

---

= القطع، أي: جعلْناه لكم قطعًا لعملِ الجسدِ بحيثُ لا بُدَّ للبدنِ منه، وإلى هذا أشار ابنُ الأعرابيِّ وابنُ قُتيبةَ إذْ جَعَلا المعنى: وجَعَلْنا نومَكم راحَةً، فهو تفسيرُ معنًى). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨).

وقيل :كأنَّه إذا نام فقد انقَطَع عن النَّاسِ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٢/ ٢٦٨)، ((ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن)) لغلام ثعلب (ص: ٥٥١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٦) و(٦/ ١٤٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٦، ٨٨٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٤٠، ٢٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٥).

لأنَّه يستُرُ داخلَه بالأشجارِ، ويُغطِّيه، وأصلُ (لفف): يدُلُّ على تلَوِّي شَيءٍ على شَيءٍ[(١)].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا مَظاهِرَ قُدرتِه: ألَمْ نَجعَلِ الأرضَ مُذَلَّلةً للنَّاسِ مُمَهَّدةً يَستَقِرُّونَ عليها ويَنتَفِعونَ بها؟ وجَعَلْنا الجِبالَ مُثَبِّتةً للأرضِ؛ حتَّى لا تَضطَرِبَ بأهْلِها، وخَلَقْناكم ذُكُورًا وإناثًا؛ لِيَحصُلَ التَّزاوُجُ بَيْنَكم، وجَعَلْنا نَومَكم راحةً لكم مِن تَعَبِ سَعْيِكم وأعمالِكم بالنَّهارِ، وجَعَلْنا اللَّيلَ غِطاءً يُغَطِّيكم بظَلامِه، وجَعَلْنا النَّهارَ وَقْتًا لسَعْيِ النَّاسِ في مَصالِحِهم وأرْزاقِهم، وبَنَيْنا فَوقَكم سَبْعَ سَمَواتٍ في غايةِ القُوَّةِ والصَّلابةِ، وجَعَلْنا شَمسًا مُضيئةً شَديدةَ التَّوَقُّدِ، وأنزَلْنا مِن السَّحابِ ماءَ المطَرِ الغَزيرَ؛ لِنُخرِجَ بهذا المطَرِ أنواعَ الحُبوبِ والنَّباتاتِ، وبَساتينَ أشجارُها كثيرةٌ مُلْتَفٌّ بَعْضُها ببَعْضٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حكى اللهُ تعالى عنهم إنكارَ البَعثِ والحَشرِ، وأرادَ إقامةَ الدَّلالةِ على صِحَّةِ الحَشرِ؛ قدَّم لذلك مقدِّمةً في بيانِ كَونِه تعالى قادِرًا على جميعِ المُمكِناتِ، عالِمًا بجميعِ المعلوماتِ؛ وذلك لأنَّه مهما ثَبَت هذان الأصلانِ ثَبَت القَولُ بصِحَّةِ البَعثِ، وإنَّما أثبَت هذَينِ الأصلينِ بأنْ عدَّد أنواعًا مِن مخلوقاتِه الواقعةِ على

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢١) و(٥/ ٢٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٥)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٩٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٤).

وَجهِ الإحكامِ والإتقانِ؛ فإنَّ تلك الأشياءَ مِن جِهةِ حُدوثِها تدُلُّ على القُدرةِ، ومِن جهةِ إحكامِها وإتقانِها تدُلُّ على العِلمِ، ومتى ثَبَت هذان الأصلانِ، وثبت أنَّ الأجسامَ مُتساويةٌ في قَبولِ الصِّفاتِ والأعراضِ؛ ثبَتَ -لا مَحالةَ- كَونُه تعالى قادِرًا على تخريبِ الدُّنيا بسَماواتِها وكواكِبِها وأرضِها، وعلى إيجادِ عالَمِ الآخرةِ؛ فهذا هو الإشارةُ إلى كيفيَّةِ النَّظمِ[١].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦﴾.

أي: ألَمْ نَجعَلِ الأرضَ فِراشًا للنَّاسِ، مُذَلَّلةً لهم، يَستَقِرُّونَ عليها، ويَنتَفِعونَ بها[٢]؟

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾.

أي: وجَعَلْنا الجِبالَ مُثَبِّتةً للأرضِ، فلا تَضطَرِبُ بأَهْلِها[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥].

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَّر بما في الظَّرْفِ -الَّذي هو فَرْشُهم- مِنَ الدَّلالةِ على تمامِ القُدْرةِ؛ أتْبَعَه التَّذكيرَ بما في المظروفِ، وهو أنفُسُهم؛ لتَجتَمِعَ آياتُ الأنفُسِ والآفاقِ، فيَتبيَّنَ لهم أنَّه الحَقُّ، فقال[1]:

﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ۝٨﴾.

أي: وخَلَقْناكم ذُكُورا وإناثًا؛ لِيَحصُلَ التَّزاوُجُ بَيْنَكم، ويَخرُجَ النَّسْلُ منكم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر ما هو سبَبٌ لبقاءِ النَّوعِ؛ ذكَرَ ما هو سبَبٌ لحِفظِه مِن إسراعِ الفَسادِ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧، ١٨).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ في الجملةِ: القرطبيُّ، وابنُ كثير، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: خَلَقْناكم أصنافًا مُتقابِلةً، فهم بَيْنَ ذَكَرٍ وأُنثى، وصغيرٍ وكبيرٍ، وأسْوَدَ وأحمَرَ، وجميلٍ ودميمٍ... إلى غيرِ ذلك مِمَّا يختَلِفُ النَّاسُ فيه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٦).

وأيضًا فقد انتَقَلَ مِن الاستِدلالِ بخلْقِ النَّاسِ إلى الاستِدلالِ بأحوالِهم، وخَصَّ منها الحالةَ الَّتي هي أقوى أحوالِهم المعروفةِ شبَهًا بالموتِ الَّذي يَعقُبُه البعثُ، وهي حالةٌ متكرِّرةٌ لا يَخْلُونَ مِن الشُّعورِ بما فيها مِن العِبرةِ؛ لأنَّ تدبيرَ نظامِ النَّومِ وما يَطرَأُ عليه مِن اليقظةِ أشبَهُ حالٍ بحالِ الموتِ وما يعقُبُه مِن البعثِ[1].

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾.

أي: وجَعَلْنا نَومَكم قاطِعًا لحركتِكم، فتَحصُلُ به راحتُكم مِن تَعَبِ سَعْيِكم وأعمالِكم[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الفرقان: ٤٧].

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر النَّومَ أتْبَعَه وَقْتَه الأليقَ به، مُذَكِّرًا بنِعمةِ الظَّرْفِ الزَّمانيِّ بعدَ التَّذكيرِ بالظَّرفِ المكانيِّ، فقال[3]:

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠﴾.

أي: وجَعَلْنا اللَّيلَ غِطاءً يَتغشَّاكم سَوادُه، وتُغَطِّيكم ظُلْمَتُه، كما يُغَطِّي الثَّوبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧).

البَدَنَ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا ﴾ [الفرقان: ٤٧]

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ [الليل: ١].

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر خَلْقَ نِظامِ اللَّيلِ؛ قُوبِلَ بذِكْرِ خَلْقِ نِظامِ النَّهارِ[٢].

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾.

أي: وجَعَلْنا النَّهارَ وَقْتًا يَطلُبُ فيه النَّاسُ أرزاقَهم، ويَسعَونَ في مَصالِحِهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوۡمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان: ٤٧].

﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

ناسَبَ بعدَ ذِكرِ اللَّيلِ والنَّهارِ -وهما مِن مَظاهِرِ الأُفقِ المسمَّى سماءً- أنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠، ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦، ٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧).
قال ابن عاشور: (المَعاشُ: يُطلَقُ مصدرَ «عاش» إذا حَيِيَ، فالمَعاشُ: الحياةُ، ويُطلَقُ اسمًا لِما به عَيشُ الإنسانِ مِن طعامٍ وشرابٍ على غيرِ قياسٍ، والمعنيانِ صالحانِ للآيةِ؛ إذ يكونُ المعنى: وجعَلْنا النَّهارَ حياةً لكم، شُبِّهَتِ اليقظةُ فيه بالحياةِ، أو يكونُ المعنى: وجعَلْنا النَّهارَ معيشةً لكم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢).

يُتْبَعَ ذلك وما سبَقَه مِن خلْقِ العالَمِ السُّفليِّ بذِكرِ خلْقِ العوالِمِ العُلويَّةِ[١].

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: وبَنَيْنا فَوقَكم سَبْعَ سَمَواتٍ في غايةِ القُوَّةِ والصَّلابةِ والإحكامِ[٢].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨].

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر السَّقفَ، ذكَرَ بَعضَ ما فيه مِن أمَّهاتِ المنافِعِ[٣].

وأيضًا ذِكرُ السَّمَواتِ يُناسِبُه ذِكرُ أعظَمِ ما يُشاهِدُه النَّاسُ في فَضائِها، وذلك الشَّمسُ؛ ففي ذلك مع العِبرةِ بخَلْقِها عِبرةٌ في كَونِها على تلك الصِّفةِ، ومِنَّةٌ على النَّاسِ باستفادتِهم مِن نُورِها فوائِدَ جَمَّةً[٤].

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾.

أي: وجَعَلْنا شَمسًا مُضيئةً شَديدةَ التَّوَقُّدِ والإضاءةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧).

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا﴾ [نوح: ١٦].

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

مُناسَبةُ الانتِقالِ مِن ذِكرِ السَّمواتِ إلى ذِكرِ السَّحابِ والمطرِ قويَّةٌ[١]. ومِن ذلك أنَّها استِدلالٌ بحالةٍ أُخرى مِن الأحوالِ الَّتي أَودَعَها اللهُ تعالى في نِظامِ الموجوداتِ، وجعَلَها مَنشأً شبيهًا بحياةٍ بعدَ شبيهٍ بموتٍ أو اقترابٍ منه، ومَنشأَ تَخلُّقِ موجوداتٍ مِن ذرَّاتٍ دقيقةٍ، وتلك حالةُ إنزالِ ماءِ المطرِ مِن الأَسْحِبةِ على الأرضِ، فتُنبِتُ الأرضُ به سَنابلَ حَبٍّ وشجرًا وكَلأً، وتلك كلُّها فيها حياةٌ قريبةٌ مِن حياةِ الإنسانِ والحيوانِ، وهي حياةُ النَّماءِ، فيكونُ ذلك دليلًا للنَّاسِ على تصَوُّرِ حالةِ البعثِ بعدَ الموتِ بدليلٍ مِن التَّقريبِ الدَّالِّ على إمكانِه؛ حتَّى تَضمحِلَّ مِن نفوسِ المُكابِرينَ شُبَهُ إحالةِ البعثِ[٢].

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡمُعۡصِرَٰتِ مَآءٗ ثَجَّاجٗا ١٤﴾.

أي: وأنزَلْنا مِن السَّحابِ المُثْقَلِ بالمياهِ ماءَ المطَرِ المُنصَبَّ على الأرضِ بتَتابُعٍ وكَثْرةٍ[٣].

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَيَبۡسُطُهُۥ فِي ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ يَشَآءُ وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨].

وقال سُبحانَه: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ [عبس: ٢٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٣، ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦).

﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ١٥﴾.

أي: لِنُخرِجَ بهذا المطَرِ أنواعَ الحُبوبِ -كالقَمْحِ، والشَّعيرِ، والذُّرَةِ، والأَرُزِّ- وأنواعَ النَّباتاتِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨).

ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿حَبًّا﴾ أي: مِمَّا يأكُلُه النَّاسُ كالقمحِ والشَّعيرِ وما يُقتاتُ، ﴿وَنَبَاتًا﴾ أي: ما يكونُ قُوتًا للأنعامِ والدَّوابِّ كالحشيشِ والعشبِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والقرطبي، والنسفي، وابنُ جُزَي، والخازن، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٧٩٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧).

قال الرازي: (كلُّ شَيءٍ نبت مِن الأرضِ فإمَّا ألَّا يكونَ له ساقٌ وإمَّا أن يكونَ، فإن لم يكُنْ له ساقٌ فإمَّا أن يكونَ له أَكْمامٌ وهو الحَبُّ، وإمَّا ألَّا يكونَ له أكمامٌ وهو الحشيشُ، وهو المرادُ هاهنا بقولِه: ﴿وَنَبَاتًا﴾، وإلى هذَينِ القِسمَينِ الإشارةُ بقولِه تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡ﴾ [طه: ٥٤]. وأمَّا الَّذي له ساقٌ فهو الشَّجرُ، فإذا اجتمَع منها شَيءٌ كثيرٌ سُمِّيَتْ جَنَّةً، فثبَت بالدَّليلِ العقليِّ انحِصارُ ما يَنبُتُ في الأرضِ في هذه الأقسامِ الثَّلاثةِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١).

وقال الزَّجَّاجُ: (كلُّ ما حُصِد فهو حَبٌّ، وكلُّ ما أكَلَتْه الماشيةُ مِن الكَلأِ فهو نَباتٌ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٧٢).

وقال البِقاعي: (﴿وَنَبَاتًا﴾ يتفكَّهون ويتنزَّهون فيه، وتعتَلِفُه البهائمُ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ١٩٩).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَنَبَاتًا﴾ يأكُلُه النَّاسُ والأنعامُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٤٧).

وقال ابن كثير: (﴿حَبًّا﴾ يُدَّخَرُ للأَناسيِّ والأنعامِ، ﴿وَنَبَاتًا﴾ أي: خَضِرًا يُؤكَلُ رَطبًا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٤).

وقال أبو حيَّان: (ثَنَّى بِالنَّباتِ، فشَمِلَ كُلَّ مَا يَنْبُتُ مِن شَجَرٍ وحَشِيشٍ، ودَخَل فيه الحَبُّ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٥).

كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ [ق: ٩].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٧ - ٣٢].

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾.

أي: ونُخرِجَ بالمطَرِ بَساتينَ وحَدائِقَ أشجارُها كثيرةٌ مُجتَمِعةٌ، مُلْتَفٌّ بَعْضُها ببَعْضٍ؛ لكَثْرتِها، وتَقارُبِها، وتداخُلِ أغصانِها[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ...﴾ قرَّرَهم تعالى على النَّظَرِ في آياتِه الباهِرةِ، وغرائِبِ مخلوقاتِه التي ابتَدَعها من العَدَمِ الصِّرْفِ، وأنَّ النَّظَرَ في ذلك يُفْضي إلى الإيمانِ بما جاءت به الرُّسُلُ مِنَ البَعْثِ والجزاءِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ استِدلالٌ يَتضمَّنُ امتِنانًا، وفي ذلك الامتِنانِ إشعارٌ بحِكمةِ اللهِ تعالَى؛ إذ جعَلَ الأرضَ مُلائمةً للمخلوقاتِ الَّتي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٤، ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ١٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨).

قال ابنُ جرير: (أهلُ التَّأويلِ مُجمِعونَ على أنَّ معناه: مُلْتَفَّةٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨).

وقال ابنُ كثير: (﴿وَجَنَّٰتٍ﴾ أي: بَساتينَ وحدائِقَ مِن ثمراتٍ مُتنوِّعةٍ، وألوانٍ مُختَلِفةٍ، وطُعومٍ ورَوائِحَ مُتفاوِتةٍ، وإنْ كان ذلك في بقعةٍ واحدةٍ مِنَ الأرضِ مُجتَمِعًا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٤).

عليها؛ فإنَّ الَّذي صنَعَ هذا الصُّنعَ لا يُعجِزُه أنْ يخلُقَ الأجسامَ مرَّةً ثانيةً بعدَ بِلاها، والغرضُ مِنَ الامتنانِ هنا تذكيرُهم بفضلِ اللهِ؛ لعلَّهم أنْ يَرْعَوُوا عن المكابَرةِ، ويُقبِلوا على النَّظرِ فيما يَدْعوهم إليه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تبليغًا عن اللهِ تعالى[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ الأزواجُ: جمْعُ زَوجٍ، وهو اسمٌ للعددِ الَّذي يُكرِّرُ الواحدَ تكريرةً واحدةً، وقد وُصِف به كما يُوصَفُ بأسماءِ العَددِ؛ فقولُه: ﴿أَزْوَٰجًا﴾ أفادَ أنْ يكونَ الذَّكَرُ زَوجًا للأُنثى والعكسُ، فالذَّكَرُ زَوجٌ لأُنثاهُ، والأُنثى زوجٌ لِذَكَرِها[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾، أُعقِبَ الاستِدلالُ بخلْقِ الأرضِ وجبالِها بالاستِدلالِ بخلقِ النَّاسِ؛ للجَمعِ بيْنَ إثباتِ التَّفرُّدِ بالخلْقِ وبيْنَ الدَّلالةِ على إمكانِ إعادتِهم، والدَّليلُ في خلقِ النَّاسِ على الإبداعِ العظيمِ -الَّذي الخلْقُ الثَّاني مِن نوعِه- أمكَنُ في نُفوسِ المستدَلِّ عليهم، قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[٣] [الذاريات: ٢١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: ذُكُورًا وإناثًا مِن جِنسٍ واحِدٍ؛ لِيَسكُنَ كُلٌّ منهما إلى الآخَرِ، فتَكونَ المودَّةُ والرَّحمةُ، وتَنشَأَ عنهما الذُّرِّيَّةُ[٤].

٥- في قولِه: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ إيماءٌ إلى ما في ذلك الخلْقِ مِن حِكمةِ إيجادِ قوَّةِ التَّناسُلِ مِن اقترانِ الذَّكَرِ بالأُنثى، وهو مَناطُ الإيماءِ إلى الاستِدلالِ على إمكانِ إعادةِ الأجسادِ؛ فإنَّ القادرَ على إيجادِ هذا التَّكوينِ العجيبِ ابتِداءً بقوَّةِ التَّناسُلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦).

قادرٌ على إيجادِ مِثلِه بمِثلِ تلك الدِّقَّةِ أو أدَقَّ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ ذِكْرُ الجَعْلِ القَدَرِيِّ، ويُقابِلُه الجَعْلُ الشَّرْعيُّ، كقَولِه تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]، وقَولِه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾[٢] [المائدة: ١٠٣].

٧- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ فيه امتِنانٌ على النَّاسِ بخلْقِ نظامِ النَّومِ فيهم؛ لتحصُلَ لهم راحةٌ مِن أتعابِ العملِ الَّذي يَكْدَحونَ له في نَهارِهم؛ فاللهُ تعالى جعَلَ النَّومَ حاصلًا للإنسانِ بدونِ اختيارِه، فالنَّومُ يُلجِئُ الإنسانَ إلى قطعِ العملِ؛ لتحصُلَ راحةٌ لمجموعِه العصبيِّ الَّذي رُكنُه في الدِّماغِ، فبتِلك الرَّاحةِ يَستجِدُّ العصبُ قُواهُ الَّتي أَوهَنَها عمَلُ الحَواسِّ وحرَكاتُ الأعضاءِ وأعمالُها، بحيثُ لو تَعلَّقتْ رغبةُ أحدٍ بالسَّهرِ لا بدَّ له مِن أنْ يَغلِبَه النَّومُ، وذلك لُطفٌ بالإنسانِ؛ بحيثُ يحصُلُ له ما به مَنفعةُ مَدارِكِه قَسْرًا عليه لئلَّا يَتهاوَنَ به؛ ولذلك قيل: إنَّ أقَلَّ النَّاسِ نَومًا أقصَرُهم عُمرًا، وكذلك الحيوانُ[٣].

٨- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ مِن إتمامِ الاستِدلالِ الَّذي قبْلَه وما فيه مِن المِنَّةِ؛ لأنَّ كَونَ اللَّيلِ لِباسًا حالةٌ مهيِّئةٌ لتكيُّفِ النَّومِ، ومُعِينةٌ على هنائِه والانتفاعِ به؛ لأنَّ اللَّيلَ ظُلمةٌ عارِضةٌ في الجوِّ مِن مُزايَلةِ ضوءِ الشَّمسِ عن جزءٍ مِن كُرةِ الأرضِ، وبتلك الظُّلمةِ تَحتجِبُ المرئيَّاتُ عن الأبصارِ، فيَعسُرُ المشيُ والعملُ والشُّغلُ، ويَنحَطُّ النَّشاطُ، فتَتهيَّأُ الأعصابُ للخمولِ، ثمَّ يَغْشاها النَّومُ، فيَحصُلُ السُّباتُ بهذه المقدِّماتِ العجيبةِ، فلا جَرَمَ كان نظامُ اللَّيلِ آيةً على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩).

انفرادِ اللهِ تعالى بالخلْقِ وبديعِ تقديرِه، وكان دليلًا على أنَّ إعادةَ الأجسامِ بعدَ الفناءِ غيرُ متعذِّرةٍ عليه تعالى، فلو تَأمَّلَ المُنكِرون فيها؛ لَعَلِموا أنَّ اللهَ قادرٌ على البعثِ، فَلَمَا كذَّبوا خبرَ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به. وفي ذلك امتنانٌ عليهم بهذا النِّظامِ الَّذي فيه اللُّطفُ بهم، وراحةُ حياتِهم، لو قدَروهُ حقَّ قَدْرِه لَشَكَروا وما أَشرَكوا، فكان تذكُّرُ حالةِ اللَّيلِ سريعَ الخُطورِ بالأذهانِ عِندَ ذِكرِ حالةِ النَّومِ، فكان ذِكرُ النَّومِ مُناسَبةً للانتِقالِ إلى الاستِدلالِ بحالةِ اللَّيلِ على حسَبِ أفهامِ السَّامِعينَ[(١)].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ النَّهارُ: الزَّمانُ الَّذي يكونُ فيه ضَوءُ الشَّمسِ منتشرًا على جزءٍ كبيرٍ مِن الكُرةِ الأرضيَّةِ، وفيه عِبرةٌ بدِقَّةِ الصُّنعِ وإحكامِه؛ إذ جُعِل نِظامانِ مختَلِفانِ مَنشؤُهما سُطوعُ نورِ الشَّمسِ واحتِجابُه فوقَ الأرضِ، وهما نِعمتانِ للبَشرِ مختلِفتانِ في الأسبابِ والآثارِ؛ فنِعمةُ اللَّيلِ راجعةٌ إلى الرَّاحةِ والهدوءِ، ونعمةُ النَّهارِ راجعةٌ إلى العملِ والسَّعيِ؛ لأنَّ النَّهارَ يَعقُبُ اللَّيلَ، فيكونُ الإنسانُ قد استجَدَّ راحتَه، واستعادَ نشاطَه، ويَتمكَّنُ مِن مختلِفِ الأعمالِ؛ بسببِ إبصارِ الشُّخوصِ والطُّرقِ[(٢)].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ أنَّه سُبحانَه سمَّى الشَّمْسَ سِراجًا وضِياءً؛ لأنَّ فيها مع الإنارةِ والإشراقِ تَسخينًا وإحراقًا، فهي بالنَّارِ أشبَهُ، بخلافِ القَمَرِ؛ فإنَّه ليس فيه مع الإنارةِ تَسخينًا؛ فلهذا قال: ﴿جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾[(٣)] [يونس: ٥].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا *

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩، ٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٤/ ٣٦٨).

لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أنَّه لَمَّا ذَكَرَ سُبحانَه السِّرَاجَ الوَهَّاجَ -الَّذي به الحرارةُ واليُبُوسةُ- ذَكَرَ ما يُقابِلُ ذلك، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ والماءُ فيه رطوبةٌ وفيه بُرودةٌ، وهذا الماءُ أيضًا تَنْبُتُ به الأرضُ وتحيا به، فإذا انضاف ماءُ السَّماءِ إلى حرارةِ الشَّمسِ حَصَلَ في هذا إنضاجٌ للثِّمارِ، ونموٌّ لها على أكمَلِ ما يكونُ[١].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۞ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ أنَّه سُبحانَه يَخْلُقُ الأسبابَ والحِكَمَ[٢].

١٣- قال تعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ۞ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ في الآيةِ استِدْلالانِ: استِدلالٌ بإنزالِ الماءِ مِن السَّحابِ، واستدلالٌ بالإنباتِ، وفي هذا أيضًا مِنَّةٌ على المُعرِضينَ عن النَّظرِ في دلائلِ صُنعِ اللهِ، الَّتي هي دَواعٍ لشُكرِ المُنعِمِ بها؛ لِما فيها مِن مَنافعَ للنَّاسِ مِن رزقِهم ورزقِ أنعامِهم، ومِن تَنعُّمِهم وجَمالِ مَرائيهِم؛ فإنَّهم لو شكَروا المُنعِمَ بها لَكانوا عِندَما يَبلُغُهم عنه أنَّه يَدْعوهم إلى النَّظرِ في الأدِلَّةِ مُستعدِّينَ للنَّظرِ، بتوقُّعِ أنْ تكونَ الدَّعوةُ البالغةُ إليهم صادقةَ العزوِ إلى اللهِ، فما خَفِيَتْ عنهم الدَّلالةُ[٣].

١٤- قولُه تعالى: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ۞ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ بُيِّنَتْ حِكمةُ إنزالِ المطرِ مِن السَّحابِ بأنَّ اللهَ جعَلَه لإنباتِ النَّباتِ مِن الأرضِ؛ جمعًا بيْنَ الامتِنانِ والإيماءِ إلى دليلِ تقريبِ البعثِ؛ لِيحصُلَ إقرارُهم بالبعثِ، وشُكرُ الصَّانعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨).

(٢) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٣/ ٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾

- لَمَّا كان أعظَمُ نَبأٍ جاءهُم به القرآنُ إبطالَ إلهيَّةِ أصنامِهم، وإثباتَ إعادةِ خلْقِ أجسامِهم -وهما الأصلانِ اللَّذانِ أثارَا تكذيبَهم بأنَّه مِن عندِ اللهِ، وتألُّبَهم على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَرويجَهم تكذيبَه؛ جاء هذا الاستئنافُ بَيانًا لإجمالِ قولِه: ﴿عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ * الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾[1] [النبأ: ٢، ٣].

- قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾، بدَأَ بما هم دائمًا يُباشِرونَه[2].

- جمَعَ اللهُ لهم في هذه الآياتِ الاستدلالَ على الوحدانيَّةِ بالانفرادِ بالخلْقِ، وعلى إمكانِ إعادةِ الأجسادِ للبَعثِ بعدَ البِلى بأنَّها لا تَبلُغُ مَبلَغَ إيجادِ المخلوقاتِ العظيمةِ، ولكونِ الجُملةِ في مَوقعِ الدَّليلِ لم تُعطَفْ على ما قبْلَها[3].

- والاستِفهامُ في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ﴾ تَقريريٌّ، وهو تقريرٌ على النَّفيِ، كما هو غالبُ صِيَغِ الاستِفهامِ التَّقريريِّ؛ أنْ يكونَ بعدَه نفيٌ، والأكثرُ كونُه بحرفِ (لم)، وذلك النَّفيُ كالإعذارِ للمُقرَّرِ إنْ كان يُريدُ أنْ يُنكِرَ، وإنَّما المقصودُ التَّقريرُ بوُقوعِ جعلِ الأرضِ مِهادًا، لا بنفْيِه، فحرفُ النَّفيِ لمجرَّدِ تأكيدِ معنى التَّقريرِ، فالمعْنى: أجَعَلْنا الأرضَ مهادًا[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢، ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥١).

- قولُه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ فيه الالْتِفاتُ إلى الخِطابِ؛ للمُبالَغةِ في الإلزامِ والتَّبكيتِ، والكلامُ موجَّهٌ إلى مُنكِري البعثِ، وهم الموجَّهُ إليهم الاستفهامُ[١].

- وجعْلُ الأرضِ: خلْقُها على تلك الحالةِ؛ لأنَّ كَونَها مِهادًا أمرٌ حاصلٌ فيها مِن ابتداءِ خلْقِها ومِن أزمانِ حُصولِ ذلك لها مِن قبلِ خلْقِ الإنسانِ لا يَعلَمُه إلَّا اللهُ، والمعنى: أنَّه خلَقَها في حالِ أنَّها كالمِهادِ؛ فالكلامُ تشبيهٌ بليغٌ، ففي قولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ تشبيهٌ للأرضِ بالمِهادِ؛ إذ جُعِل سطحُها ميسَّرًا للجلوسِ عليها والاضطجاعِ، وبالأَحْرى المشيُ، وذلك دليلٌ على إبداعِ الخلقِ، والتَّيسيرِ على النَّاسِ[٢].

- والتَّعبيرُ بـ﴿نَجْعَلِ﴾ دونَ (نخلُق)؛ لأنَّ كَونَها مِهادًا حالةٌ مِن أحوالِها عِندَ خلْقِها أو بعدَه، بخلافِ فعلِ الخَلْقِ؛ فإنَّه يَتعدَّى إلى الذَّاتِ غالبًا، أو إلى الوصفِ المقوِّمِ للذَّاتِ[٣].

- ومناسَبةُ ابتداءِ الاستِدلالِ على إمكانِ البَعثِ بخلْقِ الأرضِ: أنَّ البعثَ هو إخراجُ أهلِ الحشرِ مِن الأرضِ؛ فكانتِ الأرضُ أسبَقَ شَيءٍ إلى ذهنِ السَّامعِ عِندَ الخَوضِ في أمرِ البعثِ، أي: بعثِ أهلِ القبورِ، وجعلُ الأرضِ مِهادًا يَتضمَّنُ الاستدلالَ بأصلِ خلْقِ الأرضِ على طريقةِ الإيجازِ؛ ولذلك لم يُتعرَّضْ إليه بعدُ عِندَ التَّعرُّضِ لخلقِ السَّمواتِ[٤].

- قولُه: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ الإخبارُ عن الجِبالِ بأنَّها أَوتادٌ على طريقةِ التَّشبيهِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣، ١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

البليغ؛ أيْ: كالأَوتادِ. ومُناسَبةُ ذِكرِ الجِبالِ دعا إليها ذِكرُ الأرضِ وتَشبيهُها بالمِهادِ الَّذي يكونُ داخلَ البيتِ، فلمَّا كان البيتُ مِن شأنِه أنْ يخطُرَ ببالِ السَّامعِ مِن ذِكرِ المِهادِ، كانتِ الأرضُ مُشبَّهةً بالبيتِ، فشُبِّهتْ جبالُ الأرضِ بأَوتادِ البيتِ. وأيضًا فإنَّ كثرةَ الجِبالِ النَّاتئةِ على وجهِ الأرضِ قد يخطِرُ في الأذهانِ أنَّها لا تُناسِبُ جعْلَ الأرضِ مِهادًا؛ فكان تشبيهُ الجبالِ بالأَوتادِ مُستملَحًا بمنزلةِ حُسنِ الاعتذارِ، فيجوزُ أنْ تكونَ الجبالُ مُشبَّهةً بالأَوتادِ في مجرَّدِ الصُّورةِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ الجِبالُ مُشبَّهةً بأوتادِ الخَيمةِ في أنَّها تشُدُّ الخَيمةَ مِن أنْ تَقلعَها الرِّياحُ أو تُزلزلَها[1].

- وغالِبُ سُكَّانِ الأرضِ -وخاصَّةً العربَ- لهم مَنافعُ جَمَّةٌ في الجِبالِ؛ فمنها مَسايِلُ الأَوديةِ، وقراراتُ المياهِ في سُفوحِها، ومَراعي الأنعامِ، ومُستعصَمُهم في الخوفِ، ومَراقبُ الطُّرقِ المُؤدِّيةِ إلى دِيارِهم إذا طَرَقَها العدُوُّ؛ ولذلك كثُرَ ذِكرُ الجِبالِ مع ذِكرِ الأرضِ؛ فكانتْ جملةُ ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ إدماجًا[2] مُعترِضًا بينَ جملةِ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النَّبأ: ٦] ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[3] [النَّبأ: ٨].

- وقولُه: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ معطوفٌ على التَّقريرِ الَّذي في قولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النَّبأ: ٦]، والتَّقديرُ: وأَخلَقْناكُم أزواجًا؟ فكان التَّقريرُ هنا على أصلِه؛ إذ المُقرَّرُ عليه هو وُقوعُ الخلْقِ؛ فلذلك لم يقلْ: (ألم نَخلُقْكم أزواجًا؟). والمعطوفُ عليه ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ وإنْ كان فِعلًا مضارعًا، فدخولُ (لَمْ) عليه صيَّرَه في معنى الماضي؛ لِما هو مقرَّرٌ مِن أنَّ (لم) تَقلِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤، ١٥).

(٢) يُنظر تعريفُ الإدماجِ (ص: ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥).

معنى المضارعِ إلى المُضيِّ؛ فلذلك حسُنَ عطفُ ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النَّبأ: ٦، ٧]، والكلُّ تقريرٌ على شَيءٍ مَضَى. وإنَّما عُدِلَ في ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ﴾ عن أنْ يكونَ الفعلُ فِعلًا مضارعًا مِثلَ المعطوفِ هو عليه؛ لأنَّ صِيغةَ المضارعِ تُستعمَلُ لقَصدِ استحضارِ الصُّورةِ للفعلِ؛ فالإتيانُ بالمضارعِ في ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النَّبأ: ٦] يُفيدُ استدعاءَ إعمالِ النَّظرِ في خلقِ الأرضِ والجبالِ؛ إذ هي مَرئيَّاتٌ لهم، والأكثرُ أنْ يَغفُلَ النَّاظِرونَ عن التَّأمُّلِ في دقائقِها؛ لتَعوُّدِهم بمُشاهَدتِها مِن قبْلِ سِنِّ التَّفكُّرِ؛ فإنَّ الأرضَ تحتَ أقدامِهم لا يَكادونَ يَنظُرونَ فيها، بَلْهَ أنْ يَتفكَّروا في صُنعِها، والجبالَ يَشغَلُهم عن التَّفكُّرِ في صُنعِها شُغلُهم بتجشُّمِ صُعودِها، والسَّيرِ في وَعْرِها، وحراسةِ سوائمِهم مِن أنْ تَضِلَّ في شِعابِها، وصَرفِ النَّظرِ إلى مسالكِ العدوِّ عِندَ الاعتلاءِ إلى مَراقِبِها، فأُوثِرَ الفعلُ المضارعُ مع ذِكرِ المصنوعاتِ الحَرِيَّةِ بدقَّةِ التَّأمُّلِ واستِخلاصِ الاستدلالِ؛ ليكونَ إقرارُهم ممَّا قُرِّروا به على بصيرةٍ، فلا يَجِدوا إلى الإنكارِ سبيلًا، وجيءَ بفعلِ المُضيِّ هنا وما بعدَه؛ لأنَّ مفاعيلَ فِعلِ (خلَقْنا) وما عُطِف عليه ليستْ مُشاهَدةً لهم، وذُكِرَ لهم مِن المصنوعاتِ ما هو شديدُ الاتِّصالِ بالنَّاسِ مِن الأشياءِ الَّتي تَتوارَدُ أحوالُها على مُدرَكاتِهم دوامًا، فإقرارُهم بها أيسَرُ؛ لأنَّ دَلالتَها قريبةٌ مِن البديهيِّ[(١)].

- وعُبِّر هنا بفِعلِ (الخلْقِ) دونَ (الجَعْلِ)؛ لأنَّه تكوينُ ذواتِهم، فهو أدَقُّ مِن الجَعلِ[(٢)].

- وضميرُ الخِطابِ في قولِه: ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ للمُشرِكينَ الَّذين وُجِّهَ إليهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥، ١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦).

التَّقريرُ بقولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النَّبأ: ٦]، وهو الْتفاتٌ مِن طريقِ الغَيبةِ إلى طريقِ الخِطابِ(١).

- وانتصَبَ ﴿أَزْوَاجًا﴾ على الحالِ مِن ضَميرِ الخِطابِ في (خَلَقْنَاكُمْ)؛ لأنَّ المقصودَ الاستدلالُ بخلقِ النَّاسِ وبكونِ النَّاسِ أزواجًا، فلمَّا كان المناسبُ لفعلِ (خلَقْنا) أنْ يَتعدَّى إلى الذَّواتِ؛ جيءَ بمفعولِه ضميرَ ذواتِ النَّاسِ، ولَمَّا كان المناسِبُ لكونِهم أزواجًا أنْ يُساقَ مَساقَ إيجادِ الأحوالِ، جيءَ به حالًا مِن ضَميرِ الخِطابِ في (خَلَقْنَاكُمْ)، ولو صُرِّح له بفعلٍ لَقيل: (وخلَقْناكم وجعَلْناكم أزواجًا)، على نحوِ ما تَقدَّمَ في قولِه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النَّبأ: ٦]، وما يأتي مِن قولِه: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾(٢) [النَّبأ: ٩].

- وفي قولِه: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ استِدلالٌ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ وحِكمتِه، وامتنانٌ على النَّاسِ بأنَّه خلَقَهم، وأنَّه خلَقَهم بحالةٍ تَجعَلُ لكلِّ واحدٍ مِن الصِّنفينِ ما يصلُحُ لأنْ يكونَ له زوجًا؛ لِيحصُلَ التَّعاونُ والتَّشارُكُ في الأُنسِ والتَّنعُّمِ؛ ولذلك صِيغَ هذا التَّقريرُ بتعليقِ فعلِ (خلَقْنا) بضميرِ النَّاسِ، وجعلِ ﴿أَزْوَاجًا﴾ حالًا منه؛ لِيحصُلَ بذلك الاعتبارُ بكِلا الأمْرينِ، دونَ أنْ يُقالَ: (وخلَقْنا لكم أزواجًا). وفي ذلك حَمْلٌ لهم على الشُّكرِ بالإقبالِ على النَّظرِ فيما بُلِّغَ إليهم عن اللهِ الَّذي أسعَفَهم بهذه النِّعمِ على لِسانِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتعريضٌ بأنَّ إعراضَهم عن قَبولِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ ومُكابَرتَهم فيما بلَغَهم مِن ذلك كُفرانٌ لنِعمةِ واهبِ النِّعمِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧، ١٨).

- وأُوثِرَ فِعلُ (جعَلْنا) هنا؛ لأنَّ النَّومَ كيفيَّةٌ يُناسِبُها فِعلُ الجَعْلِ لا فِعلُ الخلْقِ المناسِبُ للذَّواتِ، فإضافةُ (نوم) إلى ضميرِ المخاطَبينَ ليستْ للتَّقييدِ لإخراجِ نَومِ غيرِ الإنسانِ؛ فإنَّ نومَ الحيوانِ كلِّه سُباتٌ، ولكنَّ الإضافةَ لزيادةِ التَّنبيهِ للاستدلالِ، أي: إنَّ دليلَ البعثِ قائمٌ بَيِّنٌ في النَّومِ الَّذي هو مِن أحوالِكم، وأيضًا لأنَّ في وصفِه بسُباتٍ امتِنانًا، والامتنانُ خاصٌّ بهم؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ ﴾[1] [يونس: ٦٧].

- إنَّما أُوثِرَ لفظُ (سُباتٍ)؛ لِما فيه مِن الإشعارِ بالقطعِ عن العملِ؛ ليُقابِلَه قولُه بعدَه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾[2] [النَّبأ: ١١].

- قولُه: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا﴾، أي: يَستُرُكم بظَلامِه كما يستُرُكم اللِّباسُ، ولعلَّ المرادَ به -أي: باللِّباسِ- ما يُستتَرُ به عندَ النَّومِ مِن اللِّحافِ ونحوِه؛ فإنَّ شبَهَ اللَّيلِ به أكمَلُ، واعتبارَه في تحقيقِ المقصدِ أدْخَلُ، فهو جعَلَ اللَّيلَ محلًّا للنَّومِ الَّذي جُعِلَ مَوتًا، كما جعَلَ النَّهارَ محلًّا لليقظةِ المعبَّرِ عنها بالحياةِ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا﴾[3]. وقيل: المَعْنيُّ مِن جعْلِ اللَّيلِ لِباسًا يَحومُ حولَ وصفِ حالةٍ خاصَّةٍ باللَّيلِ عُبِّر عنها باللِّباسِ؛ فيجوزُ أنْ يكونَ اللِّباسُ محمولًا على معنى الاسمِ، وهو المشهورُ في إطلاقِه، أي: ما يَلبَسُه الإنسانُ مِن الثِّيابِ، فيكونُ وصفُ اللَّيلِ به على تَقديرِ كافِ التَّشبيهِ على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، أي: جعَلْنا اللَّيلَ للإنسانِ كاللِّباسِ له، فيجوزُ أنْ يكونَ وجهُ الشَّبَهِ هو التَّغشيةَ، وتحتَه ثلاثةُ مَعانٍ؛ أحدُها: أنَّ اللَّيلَ ساترٌ للإنسانِ كما يَستُرُه اللِّباسُ، فالإنسانُ في اللَّيلِ يَختلي بشؤونِه الَّتي لا يَرتكِبُها في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٨، ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٦).

النَّهارِ؛ لأنَّه لا يُحِبُّ أنْ تراها الأبصارُ، وفي ذلك تعريضٌ بإبطالِ أصلٍ مِن أصولِ الدَّهريِّينَ أنَّ اللَّيلَ رَبُّ الظُّلمةِ، وهو مُعتقَدُ المَجوسِ، وهم الَّذين يَعتقِدون أنَّ المخلوقاتِ كلَّها مَصنوعةٌ مِن أصلينِ -أي: إلهَينِ-: إلهِ النُّورِ، وهو صانعُ الخيرِ، وإلهِ الظُّلمةِ، وهو صانعُ الشَّرِّ. والمعنى الثَّاني مِن معنيَيْ وجهِ الشَّبهِ باللِّباسِ: أنَّه المشابَهةُ في الرِّفقِ باللَّابسِ والملاءمةِ لراحتِه، فلمَّا كان اللَّيلُ راحةً للإنسانِ، وكان مُحيطًا بجميعِ حَواسِّه وأعصابِه؛ شُبِّه باللِّباسِ في ذلك. والمعنى الثَّالثُ: أنَّ وجهَ شَبَهِه باللِّباسِ هو الوقايةُ؛ فاللَّيلُ يَقي الإنسانَ مِن الأخطارِ والاعتداءِ عليه، فكان العربُ لا يُغيرُ بعضُهم على بعضٍ في اللَّيلِ؛ وإنَّما تقَعُ الغارةُ صباحًا؛ ولذلك إذا غِيرَ عليهم يصرُخُ الرَّجُلُ بقومِه بقولِه: يا صَباحاهْ! ويُقالُ: صبَّحَهم العدوُّ، وكانوا إذا أقاموا حرَسًا على الرُّبى -ليراقِبَ ما عَسى أنْ يَطرُقَهم مِن الأعداءِ- يُقيمونَه نَهارًا، فإذا أظلَمَ اللَّيلُ نزَلَ الحرَسُ[1].

- ولَمَّا كان مُعظَمُ العملِ في النَّهارِ مِن أجْلِ المَعاشِ، أُخبِر عن النَّهارِ بأنَّه مَعاشٌ، وقد أشعَرَ ذِكرُ النَّهارِ بعدَ ذِكرِ كلٍّ مِن النَّومِ واللَّيلِ بملاحظةِ أنَّ النَّهارَ ابتداءُ وقتِ اليقظةِ الَّتي هي ضدُّ النَّومِ، فصارتْ مقابَلتُهما بالنَّهارِ في تقديرِ: وجعَلْنا النَّهارَ واليقظةَ فيه معاشًا، ففي الكلامِ اكتِفاءٌ[2] دلَّتْ عليه المقابَلةُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠، ٢١).

(٢) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتِفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ٢٨٢)، =

وبذلك حصَلَ بيْنَ الجُمَلِ الثَّلاثِ مُطابَقتانِ مِن المحسِّناتِ البديعيَّةِ لفظًا وضِمْنًا[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا﴾

- التَّعبيرُ عن خلْقِ السَّماءِ بالبناءِ مَبنيٌّ على تَنزيلِها مَنزلةَ القِبابِ المضروبةِ على الخَلقِ؛ فعُبِّرَ بالفِعلِ (بنَيْنا) في هذه الآيةِ لمعنى: خلَقْنا ما هو عالٍ فوقَ النَّاسِ؛ لأنَّ تكوينَه عاليًا يُشبِهُ البناءَ؛ ولذلك كان قولُه: ﴿فَوْقَكُمْ﴾ إيماءً إلى وَجهِ الشَّبَهِ في إطلاقِ فِعلِ (بنَيْنا)، مع ما فيه مِن تنبيهِ النُّفوسِ للاعتبارِ والنَّظرِ في تلك السَّبْعِ الشِّدادِ[٢].

- وقيل: البناءُ يكونُ أبعَدَ مِن الآفةِ والانحلالِ مِن السَّقفِ، فذَكَر قولَه: ﴿وَبَنَيْنَا﴾؛ إشارةً إلى أنَّه وإن كان سَقفًا لكِنَّه في البُعدِ عن الانحلالِ كالبناءِ؛ فالغَرَضُ مِن اختيارِ هذا اللَّفظِ هذه الدَّقيقةُ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ تقديمُ الظَّرفِ على المفعولِ ليسَ لِمُراعاةِ الفواصلِ فقط، بل للتَّشويقِ إليه؛ فإنَّ ما حقُّه التَّقديمُ إذا أُخِّر تَبْقى النَّفْسُ مترقِّبةً له، فإذا ورَدَ عليها تمكَّنَ عندَها فضلَ تمكُّنٍ[٤].

- والمرادُ بالسَّبْعِ الشِّدادِ: السَّمواتُ، فهو مِن ذِكرِ الصِّفةِ وحذفِ الموصوفِ للعِلمِ به؛ كقولِه تعالى: ﴿حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ ولذلك جاء الوصفُ

= ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٧).

باسمِ العددِ المؤنَّثِ؛ إذ التَّقديرُ: سبعُ سمواتٍ[١].

- والسِّراجُ: المِصباحُ الَّذي يُستضاءُ به، والكلامُ على التَّشبيهِ البليغِ، والغرضُ مِن التَّشبيهِ تقريبُ صِفةِ المُشبَّهِ إلى الأذهانِ، وزيدَ ذلك التَّقريبُ بوصفِ السِّراجِ بالوهَّاجِ، أي: الشَّديدِ السَّنا (الضَّوءِ). وأُوثِرَ فعلُ (جعَلْنا) دونَ (خلَقْنا)؛ لأنَّ كونَها سِراجًا وهَّاجًا حالةٌ مِن أحوالِها، وإنَّما يُعلَّقُ فعلُ الخلْقِ بالذَّواتِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾

- الثَّجَّاجُ: المُنصَبُّ بقوَّةٍ، ووَصْفُ الماءِ هنا بالثَّجَّاجِ للامتِنانِ[٣].

- وجيءَ هنا بفعلِ ﴿لِّنُخْرِجَ﴾ دونَ نحوِ (لِنُنبِتَ)؛ لأنَّ المقصودَ الإيماءُ إلى تصويرِ كيفيَّةِ بعْثِ النَّاسِ مِن الأرضِ؛ إذ ذلك المقصدُ الأوَّلُ مِن هذا الكلامِ؛ فإنَّه لَمَّا كان المَقصدُ الأوَّلُ مِن آيةِ سُورةِ (ق) هو الامتِنانَ، جِيءَ بفِعلِ (أنْبَتْنا) في قولِه: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ [ق: ٩] الآيةَ، ثمَّ أُتبِعَ ثانيًا بالاستِدلالِ به على البَعثِ بقولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، والبعثُ خُروجٌ مِن الأرضِ؛ قال تعالَى: ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ في سُورةِ (طه) [الآية: ٥٥][٤].

- قولُه: ﴿حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ بدَأَ بالحَبِّ؛ لأنَّه الَّذي يُتقوَّتُ به، كالحِنطةِ والشَّعيرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢، ٢٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦، ٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٥).

وقيل: تقديمُ الحَبِّ مع تأخُّرِه عن النَّباتِ في الإخراجِ؛ لأصالتِه وشرَفِه؛ لأنَّ غالبَه غذاءُ الإنسانِ[١].

- قَولُه: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلۡفَافًا﴾ أخَّر الجنَّاتِ في الذِّكرِ؛ لأنَّ الحاجةَ إلى الفَواكِهِ ليست ضَروريَّةً[٢].

- ووجْهُ إيثارِ لفظِ (جنَّاتٍ) أنَّ فيه إيماءً إلى إتمامِ المِنَّةِ؛ لأنَّهم كانوا يُحِبُّونَ الجنَّاتِ والحدائقَ؛ لِما فيها مِن التَّنعُّمِ بالظِّلالِ والثِّمارِ والمياهِ وجمالِ المَنظرِ؛ ولذلك أُتْبِعَتْ بوصفِ ﴿أَلۡفَافًا﴾؛ لأنَّه يَزيدُها حُسنًا، ومَساقُ الآيةِ هنا الامتِنانُ بما فيه نعيمُ النَّاسِ[٣].

- وأَلْفافٌ: اسمُ جمْعٍ لا واحدَ له مِن لفظِه، وهو مِثلُ أَوْزاعٍ وأَخْيافٍ، أي: كلُّ جَنَّةٍ مُلتفَّةٌ، أي: مُلتفَّةُ الشَّجرِ بعضِه ببعضٍ، ولَمَّا كانتِ الأشجارُ لا يَلتَفُّ بعضُها على بعضٍ في الغالبِ إلَّا إذا جمَعَتْها جَنَّةٌ، أُسنِدَ ألفافٌ إلى جنَّاتٍ بطريقِ الوَصفِ، ولعلَّه مِن مُبتكَراتِ القُرآنِ[٤].

- وبهذا الاستِدلالِ والامتنانِ خُتِمَتِ الأدِلَّةُ الَّتي أُقيمَتْ للمشركين على انفرادِ اللهِ تعالى بالإلهيَّةِ، وتَضمَّنَتِ الإيماءَ إلى إمكانِ البعثِ وما أُدمِجَ فيها مِن المِنَنِ عليهم؛ عساهم أنْ يَذكُروا النِّعمةَ فيَشعُروا بواجبِ شُكرِ المُنعِمِ، ولا يَستفظِعوا إبطالَ الشُّركاءِ في الإلهيَّةِ، ويَنظُروا فيما بلَغَهم عنه مِن الإخبارِ بالبعثِ والجزاءِ، فيَصرِفوا عقولَهم للنَّظرِ في دلائلِ تصديقِ ذلك. وقد ابتُدِئَتْ هذه الدَّلائلُ بدلائلِ خلْقِ الأرضِ وحالتِها، وجالَتْ بهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧، ٢٨).

الذِّكْرى على أهمِّ ما على الأرضِ مِن الجمادِ والحيوانِ، ثمَّ ما في الأُفقِ مِن أعراضِ اللَّيلِ والنَّهارِ، ثمَّ تَصاعَدَ بهم التَّجوالُ بالنَّظرِ في خلْقِ السَّمواتِ، وبخاصَّةٍ الشمسُ، ثمَّ نزَلَ بهم إلى دلائلِ السَّحابِ والمطرِ، فنزَلوا معه إلى ما يخرُجُ مِن الأرضِ مِن بدائعِ الصَّنائعِ ومُنتهى المنافعِ، فإذا هم يَنظُرونَ مِن حيثُ صدَروا، وذلك مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨).

ورَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ -ويُعرَفُ أيضًا بالتَّصديرِ-: هو أنْ تكونَ اللَّفظةُ بعَيْنِها تقدَّمتْ في أوَّلِ الكَلامِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِه، وبتعبيرٍ آخَرَ: هو أنْ يُجعَلَ أحدُ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ، أو المُتجانِسَينِ، أو المُلحَقَينِ بهما في أوَّلِ الفِقرةِ، ثُمَّ تُعادُ في آخِرِها، وهو على ثلاثةِ أقسامٍ؛ الأوَّلُ: أن يُوافِقَ آخِرُ الفاصِلةِ آخِرَ كَلِمةٍ في الصَّدرِ؛ كقوله تعالى: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦]، والثَّاني: أنْ يُوافِقَ أوَّلَ كَلمةٍ منه؛ كقولِه: ﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، والثَّالثُ: أنْ يُوافِقَ بعضَ كَلِماتِه؛ كقولِه: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٦١)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٣٥٤)، ((جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٥١٤).

## الآيات (١٧-٢٠)

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مِيقَـٰتًا﴾: أي: وَقْتًا ومِيعادًا، والميقاتُ: الوقتُ المضروبُ للشَّيءِ، والوَعدُ الَّذي جُعِلَ له وَقْتٌ، وأصلُ (وقت): يدُلُّ على حَدِّ شَيءٍ في زَمانٍ وغَيرِه[١].

﴿ٱلصُّورِ﴾: أي: القَرْنِ الَّذي يَنفُخُ فيه إسرافيلُ المَلَكُ الموكَّلُ به[٢].

﴿أَفْوَاجًا﴾: أي: جَماعاتٍ، والفَوجُ: الجَماعةُ مِنَ النَّاسِ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجَمُّعٍ[٣].

﴿سَرَابًا﴾: أي: هَباءً وغُبارًا مُنتَشِرًا كالسَّرابِ في عَينِ النَّاظِرِ، والسَّرابُ: ما رأيتَ مِن الشَّمسِ كالماءِ نِصفَ النَّهارِ، وأصلُ (سرب): يدُلُّ على الاتِّساعِ والذَّهابِ في الأرضِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٥).
قال ابن حجر: (مِيقاتٌ وهو مِفعالٌ مِن الوقتِ، وهو القَدْرُ المحدَّدُ للفعلِ مِن الزَّمانِ أو المكانِ). ((فتح الباري)) (٢/ ٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٥، ٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٩٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٥٥)، ((تذكرة =

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا بعضَ أهوالِ يومِ القيامةِ: إنَّ يومَ القيامةِ الَّذي يَحكُمُ اللهُ فيه بيْنَ عِبادِه يومٌ مُحَدَّدٌ بوَقتٍ مُعَيَّنٍ لجَمعِ النَّاسِ، يومَ يَنفُخُ الملَكُ في القَرْنِ لبَعْثِ النَّاسِ، فتأتونَ مِن قُبورِكم إلى مَوضِعِ العَرْضِ جَماعاتٍ، وتتشَقَّقُ السَّماءُ فتكونُ أبوابًا مَفتوحةً، وتُقلَعُ الجبالُ مِن أماكِنِها فتكونُ هَباءً.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا ١٧﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ هذا بَيانٌ لِما أجمَلَه قولُه تعالى: ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٢ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ٢، ٣]، وهو المقصودُ مِن سِياقِ الفاتحةِ الَّتي افتُتِحَتْ بها السُّورةُ، وهيَّأتْ للانتقالِ مُناسَبةُ ذِكرِ الإخراجِ مِن قولِه: ﴿لِّنُخۡرِجَ بِهِۦ حَبّٗا وَنَبَاتٗا﴾ [النَّبأ: ١٥] إلخ؛ لأنَّ ذلك شُبِّهَ بإخراجِ أجسادِ النَّاسِ للبعثِ، كما قال تعالَى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ إلى قولِه: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ في سُورةِ (ق)[1] [٩- ١١].

﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ كَانَ مِيقَٰتًا ١٧﴾.

أي: إنَّ يومَ القيامةِ الَّذي يَحكُمُ اللهُ فيه بيْنَ عِبادِه يومٌ مُحَدَّدٌ بوَقتٍ مُعَيَّنٍ لجَمعِ النَّاسِ للحِسابِ والجَزاءِ[2].

---

= الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩، ٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩). =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان: ٤٠].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾.

أي: وذلك واقِعٌ يومَ يَنفُخُ المَلَكُ في القَرْنِ لبَعْثِ النَّاسِ أحياءً يومَ القيامةِ، فتأتونَ -أيُّها النَّاسُ- مِن قُبورِكم إلى مَوضِعِ العَرْضِ للحِسابِ والجَزاءِ زُمَرًا وجَماعاتٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ما الصُّورُ؟ قال: قرنٌ يُنفَخُ فيه))(٢).

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾.

أي: وتتشَقَّقُ السَّماءُ وتَنفَرِجُ، فتكونُ أبوابًا مَفتوحةً(٣).

---

= وقال البِقاعي: (﴿كَانَ﴾ أي: في عِلْمِ اللهِ وحِكْمتِه كَونًا لا بُدَّ منه، جُعِلَ فيه كالجِبِلَّةِ في ذوي الأرواحِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨، ١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٠، ٢٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩، ٣٠).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٤٧٤٢)، وأحمدُ (٦٥٠٧) باختلافٍ يسيرٍ، والترمذيُّ (٢٤٣٠)، والنسائيُّ (١١٤٥٦) واللَّفظُ لهما.

حَسَّنه الترمذيُّ، وصَحَّح إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢/ ٥٥٠)، ووافقه الذهبي في ((التلخيص)) (٢/ ٥٥٠)، وذَكَر ثُبوتَه ابن كثير في ((تفسير القرآن)) (٥/ ٣٠٨)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (١٠/ ٩)، وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).=

كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٥].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ * وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ﴾ [الحاقة: ١٦، ١٧].

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر السَّقْفَ، ذَكَر أقرَبَ الأرضِ إليه وأشَدَّها، فقال[1]:

﴿ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ ﴾.

أي: وتُقلَعُ الجبالُ مِن أماكِنِها وتتفَتَّتُ تُرابًا، وتكونُ هَباءً، يُخيَّلُ إلى النَّاظرِ أنَّها شيءٌ، وليسَتْ بشيءٍ[2].

---

= قال البِقاعي: (﴿فَكَانَتْ﴾ أي: كُلُّها كَيْنونةً كأنَّها جِبِلَّةٌ لها ﴿أَبْوَابًا﴾ أي: كثيرةً جدًّا؛ لكثرةِ الشُّقوقِ الكبيرةِ بحيث صارت كأنَّها لا حقيقةَ لها إلَّا الأبوابُ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٢).

قيل: إنَّها تكونُ أبوابًا؛ مِن أجْلِ نُزولِ الملائكةِ. وممَّن قال بهذا: الثعلبيُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، والنسفي، وابن كثير، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

قال الماوَرْدي: (﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ فيه وجهانِ:

أحدُهما: سُيِّرَتْ أي: أُزيلَتْ عن مَواضِعِها.

الثَّاني: نُسِفَتْ مِن أُصولِها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٥).

قال ابنُ عاشور: (السَّرابُ: ما يَلُوحُ في الصَّحاري مِمَّا يُشبِهُ الماءَ وليس بماءٍ، ولكِنَّه حالةٌ في الجوِّ القَريبِ تَنشَأُ مِن تَراكُمِ أبْخِرَةٍ على سَطحِ الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ [الطور: ١٠].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ دليلٌ على كَمالِ قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ أنَّ هذه السَّبْعَ الشِّدادَ يَجعَلُها اللهُ تعالى يومَ القيامةِ كأنْ لم تكُنْ، فتكونُ أبوابًا[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ فيه سُؤالٌ: وهو أنَّ الآيةَ تُفيدُ أنَّ السَّماءَ بكُلِّيَّتِها تَصيرُ أبوابًا، فكيف يُعقَلُ ذلك؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ تلك الأبوابَ لَمَّا كَثُرت جدًّا صارت كأنَّها ليست إلَّا أبوابًا مُفَتَّحةً، كقَولِه: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]، أي: كأنَّ كُلَّها صارت عُيونًا تتفَجَّرُ.

---

= وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ عِبارةٌ عن تلاشيها وفَنائِها بعْدَ كَونِها هَباءً مُنْبَثًّا، ولم يَرِدْ أنَّ الجبالَ تعودُ تُشبِهُ الماءَ على بُعدٍ مِن النَّاظِرِ إليها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٥).

وقال الشنقيطي: (ذكَرَ جلَّ وعلا أنَّه يَجعلُ الجبالَ سَرابًا، فقال: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾. وبيَّن في موضعٍ آخَرَ أنَّ السَّرابَ عِبارةٌ عن لا شَيءَ؛ وهو قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ إلى قولِه: ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]). ((أضواء البيان)) (٣/ ٢٨٣) بتصرف.

وقال البِقاعي: (﴿وَسُيِّرَتِ﴾ أي: حُمِلَت بأيسَرِ أمرٍ على السَّيرِ ﴿ٱلْجِبَالُ﴾ على ما تَعلَمونَ مِن صَلابتِها وصُعوبتِها في الهواءِ، كأنَّها الهباءُ المنثورُ، وعلى ذلك دَلَّ قَولُه: ﴿فَكَانَتْ﴾ أي: كَيْنونةً راسخةً ﴿سَرَابًا﴾ أي: لا نرى فيها إلَّا خَيالًا يتراءى، وهي سائِرةٌ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ، ثمَّ تخفى؛ لتناثُرِ أجزائِها كالهَباءِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٢).

قال الألوسي: (﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ أي: فصارتْ بعدَ تسييرِها مِثلَ سرابٍ، فتُرى بعدَ تفَتُّتِها وارتفاعِها في الهواءِ كأنَّها جبالٌ، وليست بجبالٍ، بل غُبارٌ غليظٌ مُتراكِمٌ يُرى مِن بعيدٍ كأنَّه جبلٌ، كالسَّرابِ يُرى كأنَّه بحرٌ مثلًا، وليس به). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

**الوجهُ الثَّاني**: هذا مِن بابِ تقديرِ حَذْفِ المضافِ، والتَّقديرُ: فكانت ذاتَ أبوابٍ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ عائِدٌ إلى مُضمَرٍ، والتَّقديرُ: فكانت تلك المواضِعُ المفتوحةُ أبوابًا لِنُزولِ الملائكةِ، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[1] [الفجر: ٢٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ ذَكَر تعالى في مَواضِعَ مِن كتابِه أحوالَ هذه الجِبالِ على وُجوهٍ مُختَلِفةٍ، ويمكِنُ الجَمعُ بيْنَها:

بأنَّ **أوَّلَ أحوالِها**: الانْدِكاكُ، وهو قَولُه: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤].

**والحالةُ الثَّانيةُ لها**: أنَ تَصيرَ ﴿كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، وذَكَر اللهُ تعالى ذلك في قَولِه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٤، ٥] وقَولِه: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ [المعارج: ٨، ٩].

**والحالةُ الثَّالثةُ**: أن تصيرَ كالهَباءِ، وذلك أن تتقَطَّعَ وتتبَدَّدَ بعدَ أن كانت كالعِهْنِ، وهو قَولُه تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة: ٤ - ٦].

**والحالةُ الرَّابعةُ**: أن تُنسَفَ؛ لأنَّها مع الأحوالِ المتقَدِّمةِ قارَّةٌ في مَواضِعِها، والأرضُ تحتَها غيرُ بارزةٍ، فتُنسَفُ عنها بإرسالِ الرِّياحِ عليها، وهو المرادُ مِن قَولِه: ﴿فَقُل يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥].

**والحالةُ الخامِسةُ**: أنَّ الرِّياحَ تَرفَعُها عن وَجهِ الأرضِ، فتُطَيِّرُها شُعاعًا في

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣). ويُنظر أيضًا: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٢٦).

الهواءِ كأنَّها غُبارٌ، فمَن نَظَر إليها مِن بُعْدٍ حَسِبَها لتَكاثُفِها أجسامًا جامِدةً، وهي في الحقيقةِ مارَّةٌ، إلَّا أنَّ مُرورَها بسَبَبِ مرورِ الرِّياحِ بها صَيَّرَها مُندَكَّةً مُتفَتِّتةً، وهي قَولُه: ﴿تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، ثمَّ بَيَّن أنَّ تلك الحرَكةَ حَصَلت بقَهْرِه وتَسخيرِه، فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

**الحالةُ السَّادِسةُ**: أنْ تَصيرَ سَرابًا، بمعنى: لا شَيءَ، فمَن نَظَر إلى مَواضِعِها لم يجِدْ فيها شيئًا، كما أنَّ مَن يَرى السَّرابَ مِن بُعْدٍ إذا جاء الموضِعَ الَّذي كان يَراه فيه لم يَجِدْه شَيئًا[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ سُؤالٌ: أنَّه كيف التَّوفيقُ مع قولِه سُبحانَه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]؟

**الجوابُ**: أنَّه وردتْ نصوصٌ في اليومِ الآخِرِ مختلِفةٌ في هذا وفي غيرِه، حتَّى في بني آدمَ وَرَدَ أنهم يُحشَرون زُرْقًا -يعني: المجرِمينَ منهم- ووَرَدَ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ولا تَعارُضَ بيْنَها؛ لأنَّ يومَ القيامةِ مِقدارُه خمسونَ ألْفَ سَنَةٍ؛ فتَتغَيَّرُ الأحوالُ وتَنتقِلُ وتَختَلِفُ، وإذا كنَّا نرى أنَّ الجَوَّ يَختَلِفُ في الدُّنيا بيْن عَشِيَّةٍ وضُحاها، وبيْن يومٍ وآخَرَ، وبيْن أُسبوعٍ وأُسبوعٍ، وبيْن شَهرٍ وشَهرٍ، وبيْن السَّنَةِ أوَّلِها وآخِرِها؛ فإنَّ الجبالَ والأحوالَ يومَ القيامةِ تتغيَّرُ مِن شيءٍ إلى آخَرَ؛ ولذلك نقولُ: كلُّ النُّصوصِ في يومِ القيامةِ، الَّتي ظاهِرُها التَّعارُضُ، ليس فيها تعارُضٌ، بل تُحمَلُ على تغيُّرِ الأحوالِ[(٢)].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ۞ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣، ١٤).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٢٧).

- قولُه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ...﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ أُعقِبَ به قولُه: ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ الآيةَ [النَّبأ: ١٥] فيما قُصِدَ به مِن الإيماءِ إلى دليلِ البعثِ، وهذا رَدٌّ لسؤالِهم تَعجيلَه وعن سَببِ تَأخيرِه، وهو سؤالٌ يُريدونَ منه الاستهزاءَ بخَبَرِه، والمعنى: أنْ ليس تأخُّرُ وُقوعِه دالًّا على انتفاءِ حصولِه، وفي هذا إنذارٌ لهم بأنَّه لا يُدرَى لَعلَّه يَحصُلُ قريبًا[١].

- وأُكِّد الكلامُ بحرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ لأنَّ فيه إبطالًا لإنكارِ المُشرِكينَ وتكذيبِهم بيومِ الفَصلِ[٢].

- وأُوثِرَ التَّعبيرُ بـ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾؛ لإثباتِ شَيئينِ؛ أحدُهما: أنَّه بيَّنَ ثُبوتَ ما جحَدوهُ مِن البعثِ والجزاءِ، وذلك فصلٌ بيْنَ الصِّدقِ وكَذِبِهم، وثانيهما: القضاءُ بيْنَ النَّاسِ فيما اختلَفوا فيه، وما اعتَدى به بعضُهم على بعضٍ[٣].

- و أفاد فعلُ ﴿كَانَ﴾ أنَّ تَوقيتَه متأصِّلٌ في عِلمِ اللهِ؛ لِما اقتَضتْه حِكمتُه تعالى الَّتي هو أعلَمُ بها، وأنَّ استِعجالَهم به لا يُقدِّمُه على ميقاتِه[٤].

- قولُه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ دَلَّ السِّياقُ على متعلَّقِ ميقاتٍ، أي: كان ميقاتًا للبعثِ والجزاءِ، وكَونُ يومِ الفِصلِ مِيقاتًا كِنايةٌ تَلويحيَّةٌ[٥] عن تَحقيقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩، ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّعريضُ اصطِلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ، نحوُ قولِك للمؤْذِي: «المسلِمُ مَن سَلِمَ المسلمونَ مِن لِسانِه ويَدِه»؛ تعريضًا بنَفيِ صِفةِ الإسلامِ عن المؤذِي. والتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ =

وُقوعِه؛ إذ التَّوقيتُ لا يكونُ إلَّا بزمنٍ مُحقَّقِ الوُقوعِ ولو تأخَّرَ وأبطَأَ[١].

- قولُه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾ بدَلٌ مِن ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، وفائدةُ هذا البدلِ حصولُ التَّفصيلِ لبعضِ أحوالِ الفَصلِ وبعضِ أهوالِ يومِ الفصلِ، أو عطفُ بَيانٍ له، مُفيدٌ لزيادةِ تَفخيمِه وتهويلِه[٢].

- وبُنِيَ ﴿يُنفَخُ﴾ إلى النَّائبِ؛ لعدمِ تَعلُّقِ الغرضِ بمعرفةِ النَّافخِ؛ وإنَّما الغرضُ معرفةُ هذا الحادثِ العظيمِ، وصورةِ حصولِه[٣].

- قولُه: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ الفاءُ فصيحةٌ تُفصِحُ عن جملةٍ قد حُذِفَتْ؛ ثِقةً بدلالةِ الحالِ عليها، وإيذانًا بغايةِ سرعةِ الإتيانِ، أي: فتُبعثونَ مِن قُبورِكم، فتَأتونَ إلى الموقفِ عَقيبَ ذلكَ مِن غيرِ لُبثٍ أصْلًا[٤].

- وعُطِفَ (تَأْتون) بالفاءِ؛ لإفادةِ تَعقيبِ النَّفخِ بمَجيئِهم إلى الحِسابِ[٥].

- وحُذِفَ ما يحصُلُ بيْنَ النَّفخِ في الصُّورِ وبينَ حضورِهم؛ لزيادةِ الإيذانِ

---

= بواسِطةِ لَوازِمَ، نحوُ قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي على كثرةِ الأكَلةِ، وهي على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَلَ الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. والرَّمزُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ خفاءٍ في اللُّزومِ بلا تعريضٍ نحو: فلانٌ عريضُ القفا، أو عريضُ الوسادةِ؛ كناية عن بلادتِه وبلاهتِه. والإيماءُ أو الإشارةُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ وضوحِ اللُّزومِ، بلا تعريضٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥ - ١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦ - ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١).

بسرعةِ حصولِ الإتيانِ حتَّى كأنَّه يحصُلُ عِندَ النفخِ في الصُّورِ، وإنْ كان المعنى: يُنفَخُ في الصُّورِ فتَحْيَوْنَ فتَسيرونَ فتَأتونَ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ مَعطوفةً على جُملةِ ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ﴾، ويكون التَّعبيرُ بالفعلِ الماضي (فُتِحَت)؛ لتحقيقِ وُقوعِ هذا التَّفتيحِ حتَّى كأنَّه قد مَضى وُقوعُه[٢].

- قولُه: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾ على قِراءةِ ﴿وفُتِّحَتِ﴾ بتشديدِ الفَوقيَّةِ، فهو مُبالَغةٌ في فعلِ الفتحِ بكثرةِ الفتحِ أو شِدَّتِه؛ إشارةً إلى أنَّه فتحٌ عظيمٌ؛ لأنَّ شقَّ السَّماءِ لا يَقدِرُ عليه إلَّا اللهُ. وعلى قِراءةِ ﴿وَفُتِحَتِ﴾ بتخفيفِ الفوقيَّةِ على أصلِ الفِعلِ؛ فمجرَّدُ تعلُّقِ الفتحِ بالسَّماءِ مُشعِرٌ بأنَّه فتحٌ شديدٌ، فالتَّفتُّحُ والفتْحُ سواءٌ في المعنى المقصودِ، وهو تَهويلُ يومِ الفصْلِ[٣].

- وفُرِّع على انفِتاحِ السَّماءِ بفاءِ التَّعقيبِ ﴿فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا﴾، أي: ذاتَ أبوابٍ. على قولٍ. والإخبارُ عن السَّماءِ بأنَّها أبوابٌ جَرى على طَريقِ المبالَغةِ في الوصْفِ بذاتِ أبوابٍ؛ للدَّلالةِ على كَثرةِ المَفاتِحِ فيها حتَّى كأنَّها هي أبوابٌ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ فَكَانَتۡ سَرَابًا﴾ تَشبيهٌ بليغٌ حُذِفَتْ منه الأداةُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢).

قرأ الكوفيُّون: عاصِمٌ وحَمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ بالتَّخفيفِ، وقرأ الباقونَ بالتَّشديدِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢، ٣٣).

وحُذِف وجهُ الشَّبهِ أيضًا؛ وهو أنَّ المرئيَّ خلافُ الواقعِ، فكما يُرى السَّرابُ مِن بعيدٍ للظَّامئِ المُلْتاحِ[١] كأنَّه ماءٌ، فيَستبشِرُ به ويَخِفُّ إليه، حتَّى إذا أَدرَكَه بعدَ طُولِ الأَيْنِ[٢] لم يَجِدْه شيئًا، وكذلك تُرى الجبالُ كأنَّها جبالٌ وليستْ كذلك في نفْسِ الأمرِ؛ إذ تُرى على صورةِ الجبالِ ولم تَبقَ على حقيقتِها؛ لِتَفتُّتِ أجزائِها وانبثاثِها[٣].

- وقد أُدمِجَ في هذا التَّشبيهِ تشبيهُ حالِ الجبالِ بحالِ السَّحابِ في تَخلْخُلِ الأجزاءِ وانتفاشِها كما يَنطِقُ به قولُه تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ٥]، يُبدِّلُ اللهُ تعالى الأرضَ ويُغيِّرُ هيئتَها، ويُسيِّرُ الجبالَ على تلك الهيئةِ الهائلةِ، ثمَّ يُفرِّقُها في الهواءِ، وذلك قولُه تعالَى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾[٤].

- والتَّعبيرُ بالفِعلِ الماضي ﴿وَسُيِّرَتِ﴾؛ لتحقيقِ وُقوعِ هذا التَّسييرِ حتَّى كأنَّه قد مضى وُقوعُه[٥].

---

(١) المُلْتاح: أي: العَطِشِ. يقال: لاحَ لَوْحًا ولُواحًا: عَطِشَ. والْتاحَ مِثلُه. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (١/ ٤٠٢)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٧/ ١٠٢).

(٢) الأَيْن: الإعياء. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٥/ ٢٠٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢، ٣٣).

## الآيات (٢١-٢٠)

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿جَهَنَّمَ﴾: اسمٌ للنَّارِ الَّتي يُعذِّبُ اللهُ بها في الآخرةِ، قيل: هي أعجميَّةٌ، وقيل: هي اسمٌ عربيٌّ، سُمِّيَتْ نارُ الآخرةِ بها؛ لِبُعْدِ قَعرِها، حُكيَ أنَّه قيل: رَكِيَّةٌ جِهنامٌ، أي: بعيدةُ القعرِ، وقيل: اشتِقاقُها مِن الجُهومةِ، وهي الغِلَظُ، وسُمِّيَتْ بذلك؛ لِغِلَظِ أمْرِها في العذابِ[1].

﴿مِرْصَادًا﴾: أي: مَوضِعَ رَصْدٍ وترَقُّبٍ لأعداءِ اللهِ، فهي مِفْعَالٌ مِنَ الرَّصْدِ، وهو التَّرَقُّبُ، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على تهيُّؤٍ لرِقْبةِ شَيءٍ[2].

﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾: أي: للضَّالِّينَ المُتجاوِزينَ لحدود الله، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[3].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٩/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٩)، ((تفسير الرازي)) (٥/ ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ١٢٥، ١٢٦) و(٢٤/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٧٩٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠).

﴿مَـَٔابًا﴾: أي: مَرْجِعًا ومَصيرًا ومَأْوًى، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[١].

﴿أَحۡقَابٗا﴾: أي: دُهورًا مُتتابِعةً، جمعُ الحقبِ، أي: الدَّهرِ، وأصلُ (حقب): يدُلُّ على حَبسٍ[٢].

﴿بَرۡدٗا﴾: أي: بُرودةً تخفِّفُ عنهم حرَّ النَّارِ، وأصلُ (برد) -على ذلك-: خِلافُ الحَرِّ، وقيل: البَرْدُ في هذا المَوضِعِ النَّومُ، يُقالُ: منَعَ البَرْدُ البَرْدَ، أي: منَعَ البَرْدُ النَّومَ، قيل: سُمِّيَ النَّومُ بَرْدًا؛ لأنَّه يرخي المفاصلَ، ويُسكنُ الحرَكاتِ، وأصلُ (برد) -على ذلك-: السُّكونُ والثُّبوتُ[٣].

﴿حَمِيمٗا﴾: أي: ماءً حارًّا شَديدَ الحَرارةِ، وأصلُ (حمم) هنا: يدُلُّ على الحَرارةِ[٤].

﴿وَغَسَّاقٗا﴾: أي: ما يَسيلُ مِن جُلودِ أهلِ النَّارِ، وهو الصَّديدُ، مِن قَولِهم: غَسَقَت عَينُه: إذا انصَبَّت، والغَسَقانُ: الانصِبابُ. وقيل: هو الزَّمهريرُ الَّذي انتهى بَرْدُه، يُحرِقُهم ببَرْدِه كما تُحرِقُهم النَّارُ بحَرِّها[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٤١-٢٤٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ١٦٣، ١٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٦٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٤).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٦).

﴿وِفَاقًا﴾: أي: مُوافِقًا لأعمالِهم، والوَفْقُ: المُطابَقةُ بيْن الشَّيئَينِ، وأصلُ (وفق): يدُلُّ على مُلاءَمةِ الشَّيئَينِ[١].

﴿كِذَّابًا﴾: أي: تكذيبًا مفرطًا، وأصلُ (كذب): يدُلُّ على خِلافِ الصِّدقِ[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾

﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ يجوزُ أنْ يتعَلَّقَ بمَحذوفٍ صِفةٍ لـ «مِرْصَادًا»، أي: كائنًا للطَّاغِينَ، أو بمحذوفٍ حالٍ مِن ﴿مَـَٔابًا﴾ كان صفةً له، فلمَّا تقدَّم عليه صار حالًا منه، أي: كانت مرجِعًا ومأوًى كائنًا لهم، ويجوزُ أن يكونَ مُتعَلِّقًا بنَفْسِ «مِرْصَادًا» أو بنفْسِ «مَآبًا»؛ لأنَّه بمعنى مَرْجِعٍ.

﴿مَـَٔابًا﴾: خَبَرٌ ثانٍ لـ «كان»، أو بَدَلٌ مِن ﴿مِرْصَادًا﴾ بَدَلَ كُلٍّ مِن كُلٍّ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾

﴿جَزَآءً﴾: مفعولٌ مُطلَقٌ لِفعلٍ مَحذوفٍ، أي: يُجزَونَ بذلك جَزاءً. ﴿وِفَاقًا﴾: نَعتٌ له مَنصوبٌ[٤].

٣- قَولُه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾

«كُلَّ» مَنصوبٌ على الاشتِغالِ مَفعولٌ به لِفعلٍ محذوفٍ تقديرُه: أحصَيْنا،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٥٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٦).

يُفَسِّرُه الفِعلُ المذكورُ بَعْدُ، وجُملةُ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ تفسيريَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

﴿كِتَٰبًا﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه مفعولٌ مُطلَقٌ نائِبٌ عن المصدَرِ مِنْ معنى «أَحْصَيْنا»؛ فإنَّ الإحصاءَ والكَتْبَ يتشارَكانِ في معنى الضَّبطِ، فإمَّا أن يُؤَوَّلَ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾ بـ«كَتَبْناه» أو ﴿كِتَٰبًا﴾ بـ«إحصاءً». الثَّاني: أن يكونَ مَصدرًا مُؤَوَّلًا بُمشتَقٍّ مَنصوبٍ على الحالِ، بمعنى: مَكتوبًا في اللَّوحِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جزاءَ الكافِرينَ يومَ القيامةِ: إنَّ جَهَنَّمَ تَرصُدُ أهْلَها وتَرْقُبُهم يومَ القيامةِ، وتكونُ مَصيرًا للَّذين طَغَوا في الدُّنيا ومرجعًا في الآخِرةِ، ويَمكُثونَ فيها دُهورًا طَويلةً لا انقِضاءَ لها، لا يَذوقُونَ فيها بَرْدًا ولا شَرابًا، لكنْ يَذوقونَ ماءً شَديدَ الحرارةِ، وما يَسيلُ مِن صديدِ أهلِ النَّارِ؛ جزاءً مُوافِقًا لأعمالِهم السَّيِّئةِ في الدُّنيا.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ بهم إلى هذا العذابِ، فيقولُ: إنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ بالبَعْثِ والحِسابِ في الآخِرةِ، وكَذَّبوا بآياتِ اللهِ تعالى تكذيبًا، وكُلُّ شَيءٍ مِن أعمالِ العِبادِ أو غَيرِها مَكتوبٌ مَعدودٌ، لا يَخْفى على اللهِ تعالى منه شَيءٌ. ويُقالُ للكُفَّارِ في جَهَنَّمَ: ذُوقوا هذا العَذابَ، فلن نَزيدَكم إلَّا عَذابًا فوقَ ما أنتم فيه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٧).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّها شروعٌ في تفصيلِ أحكامِ الفصلِ الَّذي أُضيفَ إليه اليومُ، إثْرَ بيانِ هَولِه[1].

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾﴾.

أي: إنَّ جَهَنَّمَ تَرصُدُ أهْلَها وتَرْقُبُهم يومَ القيامةِ، فلا يُجاوِزُها مَن وَجَب عليه دُخولُها، واستَحَقَّ العَذابَ فيها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۞ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

وعن أبي هُرَيرةَ وأبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥).

قال البِقاعي: (﴿كَانَتْ﴾ أي: جِبِلَّةً وخَلْقًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٣).

وقال الشَّوكاني: (كانت في حُكْمِ اللهِ وقَضائِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٢).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ معنى ﴿مِرْصَادًا﴾: أنَّ جَهنَّمَ ذاتُ رَصدٍ، أي: ارتِقابٍ وتطَلُّعٍ، فتَرْقُبُ مَن يَجتازُها وتَرصُدُهم، فلا يُجاوِزُها مَن وَجَب عليه دُخولُها: ابنُ جرير، وهو ظاهِرُ اختيارِ الزَّجَّاج، واختاره الواحدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٦٦).

وممَّن ذَهَب إلى أنَّ النَّارَ مُرصَدةٌ، أي: مُعَدَّةٌ ومُهَيَّأةٌ للطَّاغِينَ: ابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

قال البَغَوي: (﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ طريقًا ومَمَرًّا، فلا سَبيلَ لأحَدٍ إلى الجنَّةِ حتَّى يَقْطَعَ النَّارَ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٠).

وقيل: معنى الآيةِ: أنَّ جَهنَّمَ مَوضِعُ رَصدٍ يَرصُدُ فيه خَزَنَةُ النَّارِ الكُفَّارَ لِيُعَذِّبوهم فيها. وممَّن ذكَرَ هذا المعنى: البِقاعي، والشوكاني، وذهب إليه ابنُ عاشور. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥).

عليه وسلَّم قال: ((يُضرَبُ الصِّراطُ بيْنَ ظَهرانَيْ[١] جَهنَّمَ، فأكونُ أنا وأُمَّتي أوَّلَ مَن يُجيزُ[٢]، ولا يتكَلَّمُ يومَئذٍ إلَّا الرُّسُلُ، ودَعْوى الرُّسُلِ يومَئذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سلِّمْ، وفي جَهنَّمَ كَلاليبُ[٣] مِثلُ شَوْكِ السَّعْدانِ[٤]، غيرَ أنَّه لا يَعلَمُ قَدْرَ عِظَمِها إلَّا اللهُ، تَخطَفُ النَّاسَ بأعمالِهم؛ فمِنهم مَن يُوبَقُ[٥] بعَمَلِه، ومِنهم مَن يُخَرْدَلُ[٦] ثمَّ يَنْجو))[٧].

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢﴾.

أي: تكونُ جَهنَّمُ للَّذين طَغَوا في الدُّنيا، فجاوَزوا حُدودَ اللهِ تعالى: مَصيرًا ومَرجِعًا في الآخِرةِ[٨].

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن أنَّ جَهنَّمَ مآبٌ للطَّاغِينَ؛ بيَّنَ كَمِّيَّةَ استِقرارِهم هناك، فقال[٩]:

---

(١) بيْنَ ظَهرانَيْ جَهنَّمَ: أي: بيْنَ طَرَفَيْها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٥٥٤).

(٢) يُجيزُ: أي: يَمضي عليه ويَقطَعُه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٠).

(٣) الكَلاليبُ: جَمعُ كَلُّوبٍ، وهو حديدةٌ مَعطوفةُ الرَّأسِ يُعلَّقُ فيها اللَّحمُ، وتُرسَلُ في التَّنُّورِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢١).

(٤) السَّعْدان: نَبتٌ له شوكةٌ عَظيمةٌ مِثلُ الحَسَكِ مِن كُلِّ الجوانِبِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٢).

(٥) يوبَقُ: أي: يُهلَكُ. يُنظر: ((أعلام الحديث)) للخَطَّابي (١/ ٥٣٣)، ((تفسير غريب ما في الصحيحين)) للحميدي (ص: ٢٩٤).

(٦) يُخردَلُ: أي: يُقطَّعُ ويُصرَعُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ٢٢).

(٧) رواه البخاري (٨٠٦) واللَّفظُ له، ومسلم (١٨٢).

(٨) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

(٩) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥).

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا ٢٣﴾.

أي: يَمكُثونَ في جَهنَّمَ مُدَدًا طَويلةً لا انقِضاءَ لها[1].

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ٢٤﴾.

أي: لا يَذوقُ الطَّاغُونَ في جَهَنَّمَ بَرْدًا يُبَرِّدُ أبدانَهم، ويَكسِرُ شِدَّةَ الحَرِّ، ولا شَرابًا يُبَرِّدُ بَواطِنَهم أو يُزيلُ عَطَشَهم[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٧٧-١٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٤، ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ: أنَّهم يَلْبَثونَ فيها أحقابًا مُتتالِيةً لا انقِضاءَ لها، كُلَّما مضى حُقبٌ تَبِعَه حُقبٌ آخَرُ: ابنُ قُتَيْبَةَ، والقرطبيُّ، وهو ظاهِرُ اختيار البِقاعي، وذهب إليه ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: أنَّهم لابِثونَ في النَّارِ أحقابًا لا يَذوقونَ فيها بَرْدًا ولا شَرابًا، أي: يُعَذَّبونَ بهذا النَّوعِ مِنَ العَذابِ أحقابًا، وثَمَّ أحقابٌ أُخَرُ لسائِرِ أنواعِ العَذابِ. وهذا القَولُ مال إليه ابنُ جرير، واختاره الزَّجَّاجُ، واستظهره الشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦، ٢٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٧٣)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٠). ويُنظر أيضًا: ((الرد على من قال بفناء الجنة والنار)) لابن تيمية (ص: ٦٤، ٦٥).

قال ابن كثير: (قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ لهلالٍ الهَجَريِّ: ما تَجِدونَ الحُقبَ في كتابِ الله المُنزَّلِ؟ قال: نَجِدُه ثمانين سَنةً، كلُّ سنةٍ اثْنا عشَرَ شهرًا، كلُّ شهرٍ ثلاثون يَومًا، كلُّ يومٍ ألْفُ سَنةٍ. وهكذا رُوِيَ عن أبي هُرَيرةَ، وعبدِ الله بنِ عَمرٍو، وابنِ عبَّاسٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وعَمرِو بنِ مَيمونٍ، والحسَنِ، وقَتادةَ، والرَّبيعِ بنِ أنسٍ، والضَّحَّاكِ. وعن الحسَنِ والسُّدِّيِّ أيضًا: سبعون سَنةً كذلك. وعن عبدِ الله بنِ عَمرٍو: الحقبُ أربعونَ سَنةً، كلُّ يومٍ منها كألْفِ سَنةٍ ممَّا تَعُدُّونَ. رواهما ابنُ أبي حاتمٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥).

قال الرَّاغبُ الأصفهانيُّ: (﴿أَحۡقَابٗا﴾ قيل: جمعُ الحُقُبِ، أي: الدَّهرِ، قيل: والحِقْبةُ ثمانونَ عامًا، وجَمْعُها حِقَبٌ، والصَّحيحُ أنَّ الحِقْبةَ مُدَّةٌ مِنَ الزَّمانِ مُبهَمةٌ). ((المفردات)) (ص: ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن =

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: لَكِنْ يَذوقونَ في جَهنَّمَ ماءً شَديدَ الحرارةِ، وما يَسيلُ مِن أهلِ النَّارِ مِن

---

= عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠).

وممَّن اختار -في الجملةِ- المعنى المذكورَ لقولِه: ﴿بَرْدًا﴾: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ، والرازي، وابن جُزَي، وأبو حيَّان، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٨٣)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٧).

قال أبو حيَّان: (الظَّاهِرُ -وهو قَولُ الجُمهورِ- أنَّ البَرْدَ هو مَسُّ الهواءِ القَرِّ، أي: لا يَمَسُّهم منه ما يُستَلَذُّ ويَكسِرُ شِدَّةَ الحَرِّ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٧).

وقيل: ﴿بَرْدًا﴾ أي: نَومًا. وممَّن اختاره: أبو عُبَيْدَةَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والسِّجِسْتانيُّ، والرَّاغبُ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٠٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٧).

ونُسِب هذا القولُ إلى ثعلبٍ، والأخفَشِ، والكِسائيِّ، والفرَّاءِ، وقُطْرُبٍ، والفضلِ بنِ خالدٍ، ومُعاذٍ النَّحْويِّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٣١).

قال الفرَّاء: (إنَّ النَّومَ لَيُبْرِدُ صاحِبَه، وإنَّ العَطْشانَ لَيَنامُ فيبردُ بالنَّومِ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٢٨).

وقال ابن جرير: (ليس هو باسمِه المعروفِ، وتأويلُ كتابِ اللهِ على الأغلبِ مِن معروفِ كلامِ العربِ، دونَ غيرِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦).

وقال ابن عاشور: (حَمْلُ الآيةِ عليه تَكَلُّفٌ لا داعِيَ إليه، وعَطْفُ ﴿وَلَا شَرَابًا﴾ يُناكِدُه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧).

وقال الزجاج: (وجائزٌ أن يكونَ لا يَذوقونَ فيها بَرْدَ رِيحٍ ولا ظِلٍّ ولا نَوْمٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٧٣).

صَديدٍ وغَيرِه، وهو معَ نتنِ رائحتِه شديدُ البرودةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿... فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتۡ لَهُمۡ ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ * يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ﴾ [الحج: ١٩، ٢٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد: ١٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ * وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ * لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤].

﴿جَزَآءً وِفَاقًا ٢٦﴾.

أي: ذلك العِقابُ للطَّاغِينَ مُوافِقٌ لأعمالِهم السَّيِّئةِ في الدُّنيا، فلم يَظْلِمْهم اللهُ تعالى، وإنَّما ظَلَموا أنفُسَهم[(٢)].

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا ٢٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن على الإجمالِ أنَّ ذلك الجزاءَ كان على وَفْقِ جُرْمِهم؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٠، ١٨١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٥١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧، ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠، ٣١).
قال ابن كثير: (والغَسَّاقُ: هو ما اجْتَمَع مِن صديدِ أهلِ النَّارِ وعَرَقِهم ودُموعِهم وجُروحِهم، فهو باردٌ لا يُسْتَطاعُ مِن بَرْدِه، ولا يُواجَهُ مَن نَتَنِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧).
ويُنظر ما تقدَّم في تفسير الآية (٥٧) من سورة (ص).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١).

شَرَح أنواعَ جَرائِمِهم[١].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: إنَّهم كانوا في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ بالبَعْثِ، ولا بأنَّهم يُحاسَبونَ ويُجازَوْنَ على أعمالِهم في الآخِرةِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧).

قال ابن جُزَي: (قيل: معنى ﴿يَرْجُونَ﴾ هنا: يَخافونَ، وقيل: ... الرَّجاءُ على أصلِه. وقيل: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾: لا يَتوَقَّعونَ أصلًا، ولا يَخطرُ ببالِهم). ((تفسير ابن جزي)) (١/ ٣٥٣) و(٢/ ٤٤٦).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿لَا يَرْجُونَ﴾ هنا أي: لا يَخافونَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جرير، وابن أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والسمعاني، والرَّسْعَني، والقرطبي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٦٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٨٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٧)، ((تفسير العليمي (٧/ ٢٦٤).

قال الواحديُّ: (لا يَخافونَ أن يُحاسَبوا. قاله مقاتلٌ، والمفسِّرونَ). ((البسيط)) (٢٣/ ١٣٤).

ونسَبَه ابنُ الجوزيِّ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٠).

وقال النَّحَّاسُ: (قيل: ﴿يَرْجُونَ﴾ بمعنى: يَخافونَ؛ لأنَّ مَن رجا شيئًا يَلحَقُه خَوفٌ مِن فَواتِه، فغلَّب إحدى الخِيفتَينِ). ((إعراب القرآن)) (٥/ ٨٤).

قال الواحدي: (﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾: لا يَخافونَ أن يُحاسَبوا، والمعنى: كانوا لا يؤمِنونَ بالبعثِ، ولا بأنَّهم يُحاسَبونَ). ((الوسيط)) (٤/ ٤١٥).

وممَّن اختار أنَّ الرَّجاءَ على أصلِه: الزَّجَّاجُ، والشَّوكانيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١).

قال الزَّجَّاجُ: (﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لا يؤمِنونَ بالبعثِ، ولا بأنَّهم يُحاسَبونَ، ويَرجونَ ثوابَ حِسابٍ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٧٤). =

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ٢٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ هذا هو النَّوعُ الثَّاني مِن قبائِحِ أفعالِ الكُفَّارِ(١).

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا ٢٨﴾.

أي: وكانوا يُكَذِّبونَ بآياتِ اللهِ تعالى تكذيبًا شَديدًا مع وُضوحِها ودَلالتِها على الحَقِّ(٢).

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بيَّن أنَّ فَسادَ حالِ الكُفَّارِ في القُوَّةِ العمَليَّةِ وفي القوَّةِ النَّظَريَّةِ بلَغ إلى أقصى الغاياتِ، وأعظَمِ النِّهاياتِ- بيَّن أنَّ تفاصيلَ تلك الأحوالِ في كَمِّيَّتِها وكيفيَّتِها معلومةٌ له، وقَدْرَ ما يُستحَقُّ عليه مِن العِقابِ مَعلومٌ له(٣).

﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ كِتَٰبٗا ٢٩﴾.

أي: وكُلُّ شَيءٍ مِن أعمالِ العِبادِ أو غَيرِها مكتوبٌ مَعدودٌ مَضبوطٌ، لا يَخْفى

---

= وقال السعدي: (﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ أي: لا يؤمِنونَ بالبعثِ، ولا أنَّ اللهَ يُجازي الخَلْقَ بالخَيرِ والشَّرِّ؛ فلذلك أهمَلوا العملَ للآخرةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧).

وقال ابن كثير: (﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ أي: لم يَكونوا يَعتَقِدونَ أنَّ ثَمَّ دارًا يُجازَوْنَ فيها ويُحاسَبونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩).

على اللهِ تعالى منه شَيءٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر: ٥٢، ٥٣].

﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا شرح أحوالَ العِقابِ أوَّلًا، ثمَّ ذكر كَونَه ﴿ جَزَآءً وِفَاقًا ﴾ [النبأ:٢٦]، ثمَّ بيَّن تفاصيلَ أفعالِهم القبيحةِ، وظَهَر صِحَّةُ ما ذكره أوَّلًا مِن أنَّ ذلك العِقابَ كان جزاءً وِفاقًا- لا جَرَمَ أعاد ذِكرَ العِقابِ[٢].

﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ ﴾.

أي: يُقالُ للكُفَّارِ في جَهَنَّمَ توبيخًا وتَقريعًا لهم: فذُوقوا هذا العَذابَ، وسنَزيدُكم عذابًا فوقَ ما أنتم فيه[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢).

قال القرطبي: (قيل: أي: كَتَبْناه في اللَّوحِ المحفوظِ لتَعرِفَه الملائكةُ. وقيل: أراد ما كُتِبَ على العِبادِ مِن أعمالِهم، فهذه كتابةٌ صَدَرَت عن الملائكةِ الموكَّلِينَ بالعبادِ بأمْرِ اللهِ تعالى إيَّاهم بالكِتابةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) =

كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ يدُلُّ على أنَّ جَهنَّمَ كانت مخلوقةً، لِقَولِه تعالى: ﴿مِرْصَادًا﴾ أي: مُعَدَّةً -على قولٍ في التَّفسيرِ-، وإذا كان كذلك كانت الجنَّةُ أيضًا كذلك؛ لأنَّه لا قائِلَ بالفَرْقِ[(١)].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ إنَّ الشِّركَ أقصى الطُّغيانِ؛ إذ المشركون باللهِ مُعرِضونَ عن عبادتِه، ومتكَبِّرون على رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ حيث أَنِفوا من قَبولِ دعوتِه، وهم المقصودُ مِن معظَمِ ما في هذه السُّورةِ، كما يصَرِّحُ به قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٢٧، ٢٨]. هذا، وإنَّ المُسلِمينَ المُستخِفِّينَ بحقوقِ اللهِ، أو المعتدينَ على النَّاسِ بغيرِ حقٍّ، واحتقارًا لا لمجرَّدِ غلَبةِ الشَّهوةِ - لهم حظٌّ مِن هذا الوعيدِ بمِقدارِ اقترابِهم مِن حالِ أهلِ الكفرِ[(٢)].

---

= (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣).
قال ابنُ عاشور: (الزِّيادةُ المنفيَّةُ في قَولِه: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ يجوزُ أن تكونَ زيادةَ نوعٍ آخَرَ مِن عذابٍ يكونُ حاصِلًا لهم، كما في قَولِه تعالى: ﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ [النحل: ٨٨]. ويجوزُ أن تكونَ زيادةً مِن نوعِ ما هم فيه مِن العذابِ، بتكريرِه في المستقبَلِ. والمعنى: فسَنَزيدُكم عذابًا زيادةً مُستَمِرَّةً في أزمِنةِ المُستقبَلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ وَجهُ الجَمْعِ بيْنَ الأحقابِ المذكورةِ هنا مع الدَّوامِ الأَبَديِّ الَّذي في آياتٍ دالَّةٍ عليه؛ مِن أَوْجُهٍ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ قَولَه: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ متعَلِّقٌ بما بَعْدَه، أي: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحۡقَابٗا﴾ في حالِ كَونِهم ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾، فإذا انقَضَت تلك الأحقابُ عُذِّبوا بأنواعٍ أُخَرَ مِن أنواعِ العَذابِ غَيرِ الحَميمِ والغَسَّاقِ. ويدُلُّ لهذا تصريحُه تعالى بأنَّهم يُعَذَّبونَ بأنواعٍ أُخَرَ مِن أنواعِ العَذابِ غيرِ الحَميمِ والغَسَّاقِ، في قَولِه تعالى: ﴿هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ۝ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ﴾ [ص: ٥٧، ٥٨].

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ هذه الأحقابَ لا تَنْقَضي أبَدًا.

**الوَجهُ الثَّالثُ**: أنَّا لو سَلَّمْنا دَلالةَ قَولِه: ﴿أَحۡقَابٗا﴾ على التَّناهي والانقِضاءِ فإنَّ ذلك إنَّما فُهِمَ مِن مفهومِ الظَّرفِ، والتَّأبيدُ مُصَرَّحٌ به منطوقًا، والمنطوقُ مُقَدَّمٌ على المفهومِ، كما تقَرَّرَ في الأُصولِ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾ أنَّه لَمَّا نُفِيَ ذَوقُ البَرْدِ والشَّرابِ فرُبَّما تُوُهِّمَ أنَّهم لا يَذُوقونَ غَيرَهما، فقال: ﴿إِلَّا حَمِيمٗا وَغَسَّاقٗا﴾[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا﴾ أنَّ الذَّوقَ لا يَختَصُّ بالفَمِ، وإنَّما هو في لُغةِ العَرَبِ: وُجودُ طَعمِ الشَّيءِ. والاستِعمالُ يدُلُّ على ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال تعالى:

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٠، ٢٥١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الفرقان)) (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٧٠).

﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق: ٩][١]؛ فلَفْظُ «الذَّوقِ» يُستَعمَلُ في كلِّ ما يُحسُّ به ويَجِدُ أَلَمَه أو لَذَّتَه[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أنَّ تفاوُتَ أهلِ النَّارِ في العَذابِ هو بحَسَبِ تَفاوُتِ أعمالِهم الَّتي دَخَلوا بها النَّارَ[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ الكُفَّارَ كانوا قد أتَوا بأنواعٍ مِنَ القبائِحِ والكبائِرِ، فما السَّبَبُ في أنْ خَصَّ اللهُ تعالى هذا النَّوعَ مِن الكُفرِ بالذِّكرِ في أوَّلِ الأمرِ؟

**الجوابُ**: لأنَّ رَغبةَ الإنسانِ في فِعْلِ الخَيراتِ وفي تَرْكِ المحظوراتِ إنَّما تكونُ بسَبَبِ أن ينتَفِعَ به في الآخِرةِ، فمَن أنكَرَ الآخِرةَ لم يُقْدِمْ على شَيءٍ مِنَ المُستحسَناتِ، ولم يُحجِمْ عن شَيءٍ مِنَ المُنكَراتِ؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ تنبيهٌ على أنَّهم فَعَلوا كُلَّ شَرٍّ، وتَرَكوا كُلَّ خَيرٍ[٤].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بالجُزْئيَّاتِ[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ذِكْرُ كِتابِ اللهِ الكَونيِّ، ويُقابِلُه الكِتابُ الشَّرعيُّ، كقَولِه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾[٦] [البقرة: ١٨٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ ردٌّ على المُعتَزِلةِ والقَدَريَّةِ

---

(١) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ٩١).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١١٠).

(٣) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣١/ ٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة النساء)) (١/ ٢٠٦).

الَّذين يُنكِرون الكتابَ السَّابقَ؛ لأنَّه مَجمَعُ الأشياءِ، فدَخَلَ فيه الخيرُ والشَّرُّ، والإيمانُ والكفرُ، وصارتْ الكتابةُ متقدِّمةً على الأفعالِ، فخَرَجَتِ الأفعالُ عليها، ولم يُمكنِ المَحيصُ عنها[١].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ فيه سؤالٌ: أليس أنَّه تعالى قال في صفةِ الكُفَّارِ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧]، فهنا لَمَّا قال لهم: ﴿فَذُوقُواْ﴾ فقد كَلَّمهم؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ تقديرَ الآيةِ: فيُقالُ لهم: ﴿فَذُوقُواْ﴾.

**الوَجهُ الثَّاني**: أن يقالَ: إنَّ قَولَه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾، أي: ولا يكَلِّمُهم بالكلامِ الطَّيِّبِ النَّافِعِ؛ فإنَّ تخصيصَ العُمومِ غيرُ بعيدٍ، لا سيَّما عندَ حُصولِ القرينةِ؛ فإنَّ قَولَه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ إنَّما ذكَرَه لبيانِ أنَّه تعالى لا ينفَعُهم، ولا يُقيمُ لهم وزنًا، وذلك لا يحصُلُ إلَّا مِن الكلامِ الطَّيِّبِ[٢].

وأيضًا فيومُ القيامةِ يومٌ طويلٌ، فيُكلِّمُهم الله تعالى في وقتٍ، ولا يُكلِّمُهم في آخَرَ.

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ هذه الآيةُ أشَدُّ الآياتِ في شِدَّةِ عَذابِ أهلِ النَّارِ. أجارنا اللهُ تعالى منها[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۞ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ كَلامٌ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٦).

مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في وصْفِ أهوالِ جهنَّمَ بعدَ أنْ فُرِغَ مِن وَصْفِ الأهوالِ العامَّةِ ليومِ القِيامةِ[١].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ في موضعِ خبرٍ ثانٍ لـ (إنَّ) مِن قولِه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النَّبأ: ١٧]، والتَّقديرُ: إنَّ يومَ الفصلِ إنَّ جهنَّمَ كانتْ مِرصادًا فيه للطَّاغينَ، والعائدُ مَحذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿مِرْصَادًا﴾، أي: مِرصادًا فيه، أي: في ذلك اليومِ؛ لأنَّ معنى المِرصادِ مُقتربٌ مِن معنى المِيقاتِ؛ إذ كِلاهما مُحدَّدٌ لجزاءِ الطَّاغينَ. ودُخولُ حرْفِ (إنَّ) في خبرِ (إنَّ) يُفيدُ تَأكيدًا على التَّأكيدِ الَّذي أفادَه حرفُ التَّأكيدِ الدَّاخلُ على قولِه: ﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾، وتكون الجُملةُ مِن تَمامِ ما خُوطِبوا به بقولِه: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النَّبأ: ١٨]. والتَّعبيرُ بالطَّاغينَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ للتَّسجيلِ عليهم بوصْفِ الطُّغيانِ، والإيماءِ إلى سَببِ جعْلِ جهنَّمَ لهم؛ لأنَّ مُقتضى الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (لكم مآبًا).

ويجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ مُستأنَفةً استِئنافًا بَيانيًّا عن جُملةِ ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا﴾ [النَّبأ: ١٧] وما لَحِقَ بها؛ لأنَّ ذلك ممَّا يُثيرُ في نفوسِ السَّامعينَ تَطلُّبَ ماذا سيَكونُ بعدَ تلك الأهوالِ، فأُجيبَ بمَضمونِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ الآيةَ؛ وعليه فليس في قولِه: ﴿لِّلطَّٰغِينَ﴾ تَخريجٌ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ[٢].

- وابتُدِئَ بذِكرِ جهنَّمَ؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ تهديدٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤، ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤).

- وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ دونَ أنْ يُقالَ: إنَّ جهنَّمَ مِرصادٌ؛ للدَّلالةِ على أنَّ جَعْلَها مِرصادًا أمرٌ مُقدَّرٌ لها[١].

- ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِرْصَادًا﴾ مَصدرًا على وزْنِ المِفعالِ، أي: رَصدًا. والإخبارُ عن جهنَّمَ بأنَّها ﴿كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ للمُبالغةِ، حتَّى كأنَّها أصلُ الرَّصدِ، أي: لا تُفْلِتُ أحدًا ممَّنْ حَقَّ عليهم دُخولُها. ويجوزُ أنْ يكونَ مِرصادٌ زِنَةَ مُبالَغةٍ للرَّاصِدِ الشَّديدِ الرَّصْدِ، مِثلَ صِفةِ (مِغيارٍ، ومِعطارٍ)، وُصِفَتْ به جهنَّمُ، ولم تَلحَقْه (ها) التَّأنيثُ؛ لأنَّ جَهنَّمَ شُبِّهتْ بالواحدِ مِن الرَّصَدِ -بتَحريكِ الصَّادِ-، وهو الواحدُ مِن الحرسِ الَّذي يقفُ بالمَرْصَدِ؛ إذ لا يكونُ الحارسُ إلَّا رجُلًا[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّاغِينَ﴾ قولُه: ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ ﴿مِرْصَادًا﴾، ومُتعلَّقُ ﴿مَآبًا﴾ مُقدَّرٌ دلَّ عليه ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾، فيكونُ كالتَّضمينِ في الشِّعرِ؛ إذ كانت بَقيَّةً لِما في القَرينةِ الأُولى في القَرينةِ المُواليةِ، فتَكونُ القرينةُ طويلةً. أو مُتعلَّقُ ﴿مِرْصَادًا﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾، والتَّقديرُ: مِرصادًا للطَّاغينَ، وقولُه: ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿مَآبًا﴾؛ قُدِّم عليه لإدخالِ الرَّوْعِ على المُشركينَ الَّذين بشِركِهم طَغَوْا على اللهِ. وهذا أحسَنُ؛ لأنَّ قرائنَ السُّورةِ قِصارٌ، فيَحسُنُ الوقفُ عندَ ﴿مِرْصَادًا﴾؛ لتكونَ قرينةً[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿لِّلطَّاغِينَ﴾ للعَهدِ؛ فالمرادُ به المُشركونَ المخاطَبونَ بقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥، ٣٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والقرينةُ: هي القطعةُ مِن الكلامِ تُجعَلُ مُزاوِجةً للأخرى، وهي أخصُّ مِن الفقرةِ، والقرينتانِ في النَّثرِ بمنزلةِ البيتِ مِن الشِّعرِ. يُنظر: ((مفاتيح التفسير)) للخطيب (٢/ ٦٧١).

﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[(١)] [النَّبأ: ١٨].

- وكلمةُ ﴿أَحْقَابًا﴾ جمعٌ مرادٌ به الطُّولُ العظيمُ والكثرةُ؛ لأنَّ أكثرَ استِعمالِ الحُقُبِ والأحقابِ أنْ يكونَ في حيثُ يُرادُ تَوالي الأزمانِ، ويُبيِّنُ هذا الآياتُ الأُخرى الدَّالَّةُ على خُلودِ المُشركينَ، فجاءتْ هذه الآيةُ على المعروفِ الشَّائعِ في الكلامِ؛ كِنايةً به عن الدَّوامِ دونَ انتهاءٍ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَآءً وِفَاقًا﴾

- استِثناءُ ﴿حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ مِن ﴿بَرْدًا﴾ أو ﴿شَرَابًا﴾ على طريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُرَتَّبِ[(٣)]، وهو استثناءٌ مُنقطِعٌ؛ لأنَّ الحميمَ ليس مِن جنسِ البَرْدِ في شيءٍ؛ إذ هو شديدُ الحرِّ، ولأنَّ الغسَّاقَ ليس مِن جنسِ الشرابِ، والمعنى: يَذوقونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٥١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٦، ٣٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧).

(٣) اللَّفُّ والنَّشْرُ: هو ذِكرُ شيئَينِ أو أشياءَ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ-، أو إجمالًا -بأن يُؤتَى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ تُذكَرُ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضُ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتَى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يَتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لَفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ المُفصَّلُ يأتي النَّشرُ اللَّاحقُ له على وجهَينِ؛ الوجهُ الأوَّلُ: أنْ يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، ويُسَمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ المُرَتَّبَ». الوجهُ الثَّاني: أنْ يأتيَ النَّشرُ على غيرِ تَرتيبِ اللَّفِّ، ويُسمَّى «اللَّفَّ والنَّشرَ غيرَ المُرتَّبِ»، وقد يُعَبَّرُ عنه بـ «اللَّفِّ والنَّشرِ المُشَوَّشِ»، أو «المعكوس». يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣).

الحميمَ إذ يُراقُ على أجسادِهم، والغسَّاقَ إذ يَسيلُ على مَواضعِ الحَرقِ فيَزيدُ ألَمَهم، وصُورةُ الاستثناءِ هنا مِن تَأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه في الصُّورةِ[١].

- وقولُه: ﴿جَزَآءً﴾ مَنْصوبٌ على الحالِ مِن ضَميرِ ﴿يَذُوقُونَ﴾، أي: حالةَ كَونِ ذلك جَزاءً، مُجازًى به، فالحالُ هنا مصدرٌ مُؤوَّلٌ بمعنى الوصفِ، وهو أبلَغُ مِن الوصفِ[٢].

- قولُه: ﴿وِفَاقًا﴾ الوِفاقُ: مَصدرُ وافَقَ، وهو مُؤوَّلٌ بالوصفِ، أي: مُوافقًا للعملِ الَّذي جُوزوا عليه، وهو التَّكذيبُ بالبعثِ وتكذيبُ القُرآنِ، كما دلَّ عليه التَّعليلُ بعدَه بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۞ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا﴾ [النَّبأ: ٢٧، ٢٨]؛ فإنَّ ذلك أصلُ إصرارِهم على الكفرِ، وهما أصلانِ: أحدُهما عدَميٌّ، وهو إنكارُ البعثِ، والآخَرُ وُجوديٌّ، وهو نِسبتُهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والقرآنَ للكَذِبِ، فعُوقِبوا على الأصلِ العدَميِّ بعِقابٍ عدَميٍّ، وهو حِرمانُهم مِن البَرْدِ والشَّرابِ، وعلى الأصلِ الوُجوديِّ بجزاءٍ وُجوديٍّ، وهو الحميمُ يُراقُ على أجسادِهم، والغَسَّاقُ يمُرُّ على جِراحِهم[٣]، أو قولُه: ﴿وِفَاقًا﴾ على حذْفِ مُضافٍ، أي: ذا وِفاقٍ لأعمالِهم، أو نفْسُ الوِفاقِ مُبالَغةً[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال في وَصْفِ عَذابِ أهلِ النارِ: ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۞ جَزَآءً وِفَاقًا﴾، وقال في وَصْفِ نَعيمِ أهلِ الجنَّةِ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ۞ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۞ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٤-٣٦]، فوَصَفَ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩١).

الجَزاءَ الأوَّلَ منهما بالوِفاقِ، ووَصَفَ الثَّانيَ بأنَّه حِسابٌ؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ اللهَ تعالَى قال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]، وقال: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فلمَّا كانت الحَسَنةُ بأضْعافِها، والسَّيِّئةُ بمِثلِها، استُعمِلَ في جَزاءِ السَّيِّئةِ أنَّه وِفاقٌ لها، غيرُ زائدٍ عليها، ولا قاصرٌ عنها، ولَمَّا كانت الحَسَنةُ بأضعافِها، استُعمِلَ في جَزائِها أنَّه عَطاءٌ يَكفي مُعطاه، ويَبلُغُ مِن مَطلوبِه مُنتهاهُ، فقال: عَطاءً بحَسبِه، أي: يَكْفيهِ ممَّا يُريدُ ويَشتهِيه، ويُغْنِيه عن طَلَبِ زِيادةٍ إليه، وإذا كان كذلك لم يَصلُحْ لكلِّ مكانٍ إلَّا ما استُعمِلَ فيه[(١)].

أو أنَّ وجهَ ذلك: أنَّ الأوَّلَ للكُفَّارِ، فناسَبَ ذِكرُ ﴿وِفَاقًا﴾، أي: جَزاءً مُوافقًا لأعمالِهم، والثَّانيَ للمؤمِنينَ، فناسَبَ ذِكرُ ﴿حِسَابًا﴾، أي: كافيًا وافيًا لأعمالِهم، مِن قولِك: حَسْبي، أي: كَفاني[(٢)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۞ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ بَيانٌ لِما وافَقَه ذلك الجزاءُ؛ لَمَّا أنْكَروا البعثَ، وجَحَدوا الآياتِ، وكذَّبوا الرُّسلَ، عُذِّبوا بأشدِّ العذابِ، ولم يُنفَّسْ عنهم الكرْبُ؛ لأنَّ كُفْرَهم أعظَمُ كُفْرٍ[(٣)].

- ومَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقعُ التَّعليلِ لجملةِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ إلى قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النَّبأ: ٢١- ٢٦]، فهي تعليلٌ لاستحقاقِهم

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٢٩)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥٠٠)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣٠٧).

الجزاءَ المذكورَ، ولذلك فُصِلَتْ، وهي مُعترِضةٌ بيْن ما قبْلَها وبيْن جُملةِ ﴿فَذُوقُواْ﴾[١] [النبأ: ٣٠].

- وحرفُ (إنَّ) للاهتِمامِ بالخَبرِ، وليستْ لردِّ الإنكارِ؛ إذ لا يُنكِرُ أحدٌ أنَّهم لا يَرْجونَ حِسابًا، وأنَّهم مُكذِّبونَ بالقُرآنِ، وشأنُ (إنَّ) إذا قُصِد بها مجرَّدُ الاهتمامِ أنْ تكونَ قائمةً مَقامَ فاءِ التَّفريعِ، مفيدةً للتَّعليلِ[٢].

- وفِعلُ ﴿كَانُواْ﴾ دالٌّ على أنَّ انتفاءَ رَجائِهم الحسابَ وصْفٌ متمكِّنٌ مِن نُفوسِهم، وهم كائِنونَ عليه، وليس المرادُ بفعلِ ﴿كَانُواْ﴾ أنَّهم كانوا كذلك فانْقضى؛ لأنَّ هذه الجملةَ إخبارٌ عنهم في حينِ نزولِ الآيةِ وهم في الدُّنيا، وليستْ ممَّا يُقالُ لهم أو عنهم يومَ القيامةِ[٣].

- قولُه: ﴿لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ الرَّجاءُ اشتهَرَ في ترقُّبِ الأمرِ المحبوبِ، والحِسابُ ليس خيرًا لهم حتَّى يُجعَلَ نفْيُ ترقُّبِه مِن قَبيلِ نفْيِ الرَّجاءِ، فكان الظَّاهرُ أنْ يُعبَّرَ عن تَرقُّبِه بمادَّةِ التَّوقُّعِ الَّذي هو تَرقُّبُ الأمرِ المكروهِ، فيَظهَرُ أنَّ وجْهَ العدولِ عن التَّعبيرِ بمادَّةِ التَّوقُّعِ إلى التَّعبيرِ بمادَّةِ الرَّجاءِ: أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا أَخبَرَ عن جَزاءِ الطَّاغينَ وعَذابِهم، تَلقَّى المُسلِمونَ ذلك بالمَسَرَّةِ، وعَلِموا أنَّهم ناجونَ ممَّا سيَلْقاهُ الطَّاغونَ، فكانوا مُترقِّبينَ يومَ الحِسابِ تَرقُّبَ رَجاءٍ، فنفْيُ رَجاءِ يومِ الحسابِ عن المُشرِكينَ جامعٌ بصَريحِه معْنى عدَمِ إيمانِهم بوُقوعِه، وبكِنايتِه رَجاءَ المؤمِنينَ وُقوعَه بطَريقةِ الكِنايةِ التَّعريضيَّةِ تَعريضًا

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٩، ٤٠).

بالمُسلِمينَ، وهي أيضًا تلويحيَّةٌ؛ لِما في لازِمِ مَدلولِ الكلامِ مِن الخَفاءِ[١].

وقيل: الرَّجاءُ هاهنا بمعنى التَّوَقُّعِ؛ لأنَّ الرَّاجيَ للشَّيءِ مُتوَقِّعٌ له، إلَّا أنَّ أشرَفَ أقسامِ التَّوَقُّعِ هو الرَّجاءُ؛ فسُمِّيَ الجِنسُ باسم أشرَفِ أنواعِه. وقيل: معنى قَولِه ﴿لَا يَرۡجُونَ﴾: لا يَخافُونَ. وقيل: إنَّ المؤمِنَ لا بُدَّ أن يَرجُوَ رَحمةَ اللهِ؛ لأنَّه قاطِعٌ بأنَّ ثوابَ إيمانِه زائِدٌ على عِقابِ جميعِ المعاصي سِوى الكُفْرِ، فقَولُه: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ لَا يَرۡجُونَ حِسَابٗا﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم ما كانوا مُؤمِنينَ[٢].

وقيل: عبَّر عن تكذيبِهم بنَفْيِ الرَّجاءِ؛ لأنَّه أبلَغُ؛ وذلك لأنَّ الإنسانَ يَطمَعُ في الخَيرِ بأدْنى احتِمالٍ[٣].

- وجِيءَ بفِعلِ ﴿يَرۡجُونَ﴾ مُضارِعًا؛ للدَّلالةِ على استِمرارِ انتفاءِ ما عُبِّر عنه بالرَّجاءِ؛ وذلك لأنَّهم كلَّما أُعيدَ لهم ذِكرُ يومِ الحسابِ جدَّدوا إنكارَه، وكرَّروا شُبُهاتِهم على نفْيِ إمكانِه؛ لأنَّهم قالوا: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ﴾[٤] [الجاثية: ٣٢].

- قولُه: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابٗا﴾ عطفٌ على ﴿لَا يَرۡجُونَ ...﴾؛ وجيءَ في جانبِ التَّكذيبِ بالفعلِ الماضي؛ لكونِ تكذيبِهم بآياتِ القُرآنِ وما اشتمَلتْ عليه مِن إثباتِ الوَحدانيَّةِ، ورسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد استقرَّ في نُفوسِهم ولم يَتردَّدوا فيه، حيثُ قالوا: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾[١] [فصلت: ٥].

- ومعنَى ﴿كِذَّابًا﴾، أي: تَكذيبًا هو في غايةِ المُبالَغةِ؛ وأُقيمَ ﴿كِذَّابًا﴾ مُقامَ التَّكذيبِ؛ للدَّلالةِ على أنَّهم كذَبوا في تَكذيبِهم، أو المُكاذَبةِ؛ فإنَّهم كانوا عِندَ المُسلِمينَ كاذِبينَ، وكان المُسلِمونَ كاذِبينَ عندَهم، فكان بيْنَهم مُكاذَبةٌ، أو كانوا مُبالِغينَ في الكذبِ مُبالَغةَ المغالبينَ فيه، وعلى المعنيَينِ يجوزُ أنْ يكونَ حالًا بمعنى كاذِبينَ أو مكاذِبينَ، ويجوزُ أنْ يكونَ للمُبالَغةِ، فيكونَ صفةً للمصدرِ، أي: تَكذيبًا مُفرِطًا كَذِبُه[٢]. أو يكونَ مفعولًا مطلَقًا مؤكِّدًا لعامِلِه؛ لإفادةِ شِدَّةِ تَكذيبِهم بالآياتِ[٣].

- وأيضًا أُوثِرَ هذا المصدرُ ﴿كِذَّابًا﴾ هنا دونَ (تَكذيبٍ)؛ لمُراعاةِ التَّماثُلِ في فَواصلِ هذه السُّورةِ؛ فإنَّها على نحْوِ ألِفِ التَّأسيسِ في القَوافي[٤]، والفواصلُ كالأسجاعِ، ويَحسُنُ في الأسجاعِ ما يَحسُنُ في القَوافي[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٨٩، ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٨، ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١).

(٤) ألِفُ التَّأسيسِ: مِن مُصطَلحاتِ عِلمِ العَروضِ والقافيةِ، وهو كلُّ ألِفٍ وقعَتْ في القافيةِ وبيْنَها وبيْنَ الرَّويِّ حرفٌ مُتحرِّكٌ يُسمَّى هذا الحَرْفُ المتحرِّكُ الدَّخيلَ، والتَّأسيسُ يَلزَمُ ذلك الموضِعَ في القَصيدةِ كُلِّها؛ ففي قولِ زيادِ بنِ مُعاويةَ الذُّبْيانيِّ -وهو في ((ديوانه)) (ص: ٤٧)-:

كِلِينـــي لِهَـــمٍّ يـــا أُمَيْمَـــةَ ناصِـــبِ ... ولَـيْـلٍ أُقـاسِـيـهِ بَـطـيءِ الـكـواكِـبِ

الألِفُ مِن «كواكِبِ» تأسِيسٌ، والكافُ دَخيلٌ، والباءُ رَويٌّ، والياءُ المتولِّدةُ مِن كَسْرةِ الباءِ وصْلٌ. يُنظر: ((القوافي)) للأخفش الأوسط (ص: ٢٨)، ((أمالي ابن الشجري)) (٢/ ٤٩١)، ((العِقد)) لابن عبد ربه (٦/ ٣٤٣)، ((عِلم العَروض والقافية)) لعبد العزيز عتيق (ص: ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ اعتِراضٌ بيْنَ الجُمَلِ الَّتي سِيقتْ مساقَ التَّعليلِ وبيْنَ جُملةِ ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النَّبأ: ٣٠]، وفائدةُ هذا الاعتراضِ المُبادَرةُ بإعلامِهم أنَّ اللهَ لا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أعمالِهم، فلا يَدَعُ شيئًا مِن سيِّئاتِهم إلَّا يُحاسِبُهم عليه؛ ما ذُكِر هنا وما لم يُذكَرْ، كأنَّه قيل: إنَّهم كانوا لا يَرْجونَ حِسابًا وكذَّبوا بآياتِنا، وفعَلوا ممَّا عدا ذلك، وكلُّ ذلك مُحصًى عندَنا[١].

وقيل: فائدةُ الاعتراضِ بقولِه: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ الإشعارُ بأنَّ تكذيبَهم البعثَ والرُّسلَ والكُتبَ، إنَّما نشَأَ مِن اعتقادِهم أنَّه تعالى لا يَعلَمُ جُزئيَّاتِ أعمالِهم وأعمالِ الرُّسلِ، فلا حِسابَ ولا بعثةَ ولا كتابَ[٢]!

- والإحصاءُ: حِسابُ الأشياءِ لضَبطِ عددِها، فالإحصاءُ كِنايةٌ عن الضَّبطِ والتَّحصيلِ[٣].

- علَى أنَّ ﴿كِتَٰبًا﴾ مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المطلَقةِ لـ ﴿أَحْصَيْنَٰهُ﴾، والتَّقديرُ: إحصاءَ كِتابةٍ، فهو مَصدرٌ بمعنى الكِتابةِ، وهو كِنايةٌ عن شدَّةِ ضَبطِ الأمورِ؛ لأنَّ الأمورَ المكتوبةَ مَصونةٌ عن النِّسيانِ والإغفالِ، فباعتبارِ كَونِه كنايةً عن الضَّبطِ جاء مَفعولًا مطلَقًا لـ (أَحْصَيْنا)[٤].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ هذا مُسبَّبٌ عن كُفرِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٦٠).

بالحِسابِ، وتَكذيبِهم بالآياتِ، وهي آيةٌ في غايةِ الشِّدَّةِ، وناهيكَ بقولِه: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ﴾، وبدَلالتِه على أنَّ تركَ الزِّيادةِ كالمُحالِ الَّذي لا يدخُلُ تحتَ الصِّحَّةِ، وبمجيئِها على طَريقةِ الالْتِفاتِ شاهدًا على أنَّ الغضبَ قد تَبالَغَ؛ وذلك أنَّه تعالى لَمَّا حكَى مآبَ الطَّاغينَ واستمرارَ لَبْثِهم في جهنَّمَ، وأنْ لا ذَوْقَ لهم فيها سِوى الحَميمِ والغَسَّاقِ، وعلَّلَ ذلك على سبيلِ الشِّكايةِ إلى الغيرِ بقولِه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لا يَخافونَ أنْ يُحاسَبوا، كنايةً عن أنَّهم كانوا يُنكِرونَ البعثَ إنكارًا بليغًا، ثمَّ عظَّم شأنَ تكذيبِهم رُسلَ اللهِ ووحْيَه بصيغةِ التَّعظيمِ وأكَّدَه بقولِه: ﴿كِذَّابًا﴾ -الْتفَتَ إليهم قائلًا: فذُوقوا أيُّها الجاحِدونَ المكذِّبونَ ذلكم الغَسَّاقَ والحميمَ، وليس لكم عندي سِوى المزيدِ مِن أنواعِ العذابِ، هذا كما تشكو إلى النَّاسِ جانبًا، ثمَّ تُقبِلُ عليهم إذا حَميتَ في الشِّكايةِ مواجهًا بالتَّوبيخِ والذَّمِّ وإلزامِ الحُجَّةِ[1].

وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَذُوقُوا۟ ...﴾ للتَّفريعِ والتَّسبُّبِ على جملةِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النَّبأ: ٢١] وما اتَّصَلَ بها، ولَمَّا غُيِّرَ أسلوبُ الخبرِ إلى الخِطابِ بعدَ أنْ كان جاريًا بطريقِ الغَيبةِ، ولم يكنْ مَضمونُ الخبرِ ممَّا يَجري في الدُّنيا فيُظَنَّ أنَّه خِطابُ تهديدٍ للمُشرِكينَ؛ تَعيَّنَ أنْ يكونَ المُفرَّعُ قولًا مَحذوفًا دلَّ عليه (ذُوقوا) الَّذي لا يُقالُ إلَّا يومَ الجزاءِ، فالتَّقديرُ: فيُقالُ لهم: ذُوقوا... إلى آخِرِه؛ ولهذا فليس في ضميرِ الخِطابِ الْتفاتٌ، فالمُفرَّعُ بالفاءِ هو فعلُ القولِ المحذوفِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٥٥، ٢٥٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١، ٤٢).

- والأمرُ في ﴿فَذُوقُواْ﴾ مُستعمَلٌ في التَّوبيخِ والتَّقريعِ، والإهانةِ والتَّحقيرِ[١].

- وقيل: فُرِّع قولُه: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ على ﴿فَذُوقُواْ﴾ ما يَزيدُ تَنكيدَهم وتحسيرَهم بإعلامِهم بأنَّ اللهَ سيَزيدُهم عذابًا فوقَ ما هم فيه[٢].

- والزِّيادةُ المنفيَّةُ في قولِه: ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ يجوزُ أنْ تكونَ زيادةً مِن نوعِ ما هم فيه مِن العذابِ بتكريرِه في المستقبَلِ، فصِيغَ التَّعبيرُ عن هذا المعنى بهذا التَّركيبِ الدَّقيقِ؛ إذ ابتُدِئ بنفْيِ الزِّيادةِ بحرفِ تأبيدِ النَّفْيِ (لن)، وأُردِفَ الاستثناءُ المقتضِي ثبوتَ نقيضِ حُكمِ المُستثنَى منه للمُستثنَى، فصارتْ دَلالةُ الاستثناءِ على معنى: سنَزيدُكم عذابًا مؤبَّدًا، وهذا مِن تأكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه، وهو أسلوبٌ طريفٌ مِن التَّأكيدِ؛ إذ ليس فيه إعادةُ لفظٍ؛ فإنَّ زيادةَ العذابِ تأكيدٌ للعذابِ الحاصلِ. ولَمَّا كان المقصودُ الوعيدَ بزيادةِ العذابِ في المستقبلِ؛ جيءَ في أسلوبِ نفيِه بحرفِ نفيِ المستقبَلِ، وهو (لَنْ) المفيدُ تأكيدَ النِّسبةِ المنفيَّةِ، وهي ما دلَّ عليه مجموعُ النَّفيِ والاستثناءِ؛ فإنَّ قيدَ تأبيدِ نفيِ الزِّيادةِ الَّذي يُفيدُه حرفُ (لَنْ) في جانبِ المُستثنَى منه، يَسْري إلى إثباتِ زيادةِ العذابِ في جانبِ المُستثنَى، فيكونُ معنى جملةِ الاستثناءِ: سنَزيدُكم عذابًا أبدًا، وهو معنى الخلودِ في العذابِ، وفي هذا الأسلوبِ ابتداءٌ مُطْمِعٌ بانتهاءٍ مُؤْيِسٍ، وذلك أشدُّ حُزنًا وغمًّا بما يُوهِمُهم أنَّ ما أُلقُوا فيه هو منتهى التَّعذيبِ، حتَّى إذا ولَجَ ذلك أسماعَهم فحَزِنوا له، أُتْبِعَ بأنَّهم يَنتَظِرُهم عذابٌ آخَرُ أشَدُّ، فكان ذلك حُزنًا فوقَ حُزنٍ، فهذا مِنوالُ هذا النَّظمِ، وهو مُؤذِنٌ بشدَّةِ الغضبِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢، ٤٣).

## الآيات (٢١-٢٦)

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَفَازًا﴾: مصدرٌ كالفَوزِ، أي: فَوزًا ونَجاةً مِنَ النَّارِ، أو مكانَ فَوزٍ ونَجاةٍ وخَلاصٍ، أو ظفرًا بما يُريدونَ، يُقالُ: فازَ بالأمرِ، إذا ظَفِرَ به. والفوزُ: الظَّفَرُ، وأصلُ (فوز): يدُلُّ على نجاةٍ[1].

﴿حَدَآئِقَ﴾: أي: بَساتينَ، جَمْعُ حَديقةٍ، وهي كلُّ بُسْتانٍ عليه حائطٌ يُحدِقُ به، وما لم يكُنْ عليه حائطٌ لم يُقَلْ له حديقةٌ، ويُقالُ للقِطعةِ مِنَ النَّخلِ: حَديقةٌ، وقيل: الحديقةُ قِطعةٌ مِن الأرضِ ذاتُ ماءٍ، سُمِّيَتْ تشبيهًا بحَدَقةِ العَينِ في الهَيئةِ وحُصولِ الماءِ فيها، يُقالُ: حَدَقُوا به وأَحْدَقُوا: أحاطوا به، تشبيهًا بإدارةِ الحَدَقةِ، وأصلُ (حدق): هو الشَّيءُ يُحيطُ بشيءٍ[2].

﴿وَكَوَاعِبَ﴾: أي: جَوَارِيَ نَواهِدَ قد تَكَعَّبَتْ ثُدِيُّهنَّ، والكاعِبُ: الجاريةُ إذا نَهَد ثَدْيُها، أي: ارتَفَع عن الصَّدْرِ، وأصلُ (كعب): يدُلُّ على نُتُوٍّ وارتفاعٍ في

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٣٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٢٦، ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨، ١١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٢٣)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (١/ ٣٥٤).

الشَّيءِ[١].

﴿أَتْرَابًا﴾: أي: مُتساوِياتٍ في السِّنِّ، والتِّرْبُ: هو الَّذي مَسَّ التُّرابَ مع تِرْبِه في وَقتٍ واحِدٍ، وأصلُ (ترب): يدُلُّ على تَساوي شَيئَينِ[٢].

﴿دِهَاقًا﴾: أي: مُتْرَعةً مَملوءةً، وقيل: مُتتابِعةً، وأصلُ (دهق): يدُلُّ على امتلاءٍ[٣].

﴿لَغْوًا﴾: أي: باطِلًا مِن القَولِ، وأصلُه يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[٤].

﴿حِسَابًا﴾: أي: كافِيًا، يقالُ: شيءٌ حِسابٌ، أيْ: كافٍ، وأحْسَبْتُ فُلانًا، إذا أعطَيْتَه ما يُرْضِيه، وأعطيتُه الكِفايةَ حتَّى قال: حَسْبي، وأصلُ (حسب) هنا: الكِفايَةُ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٠).

قال ابن جرير: (أصْلُه مِن الدَّهْقِ: وهو مُتابَعَةُ الضَّغْطِ على الإنسانِ بشِدَّةٍ وعُنْفٍ، وكذلك الكأْسُ الدِّهاقُ: مُتابَعَتُها على شارِبيها بكَثرةٍ وامْتِلاءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٨٥، ٢٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٤٩).

(٥) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٣٤)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٢٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٥).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا * حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾

﴿حَدَآئِقَ﴾: بدَلٌ منصوبٌ مِنْ ﴿مَفَازًا﴾ بَدَلَ اشتِمالٍ، أو بدَلَ بَعضٍ مِن كُلٍّ باعتِبارِ أنَّه بَعضٌ مِن مَكانِ الفَوْزِ، أو بدَلَ كُلٍّ مِنْ كُلٍّ مُبالَغةً، بأَنْ جُعِلَتْ نفْسُ هذه الأشياءِ مَفازًا[1].

٢- قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾

﴿جَزَآءً﴾: مَفعولٌ مُطلَقٌ لفِعلٍ محذوفٍ، تقديرُه: جازى المتَّقينَ بمَفازٍ جزاءً. ﴿عَطَآءً﴾ بَدَلٌ مِن ﴿جَزَآءً﴾ مَنصوبٌ مِثلَه.

﴿حِسَابًا﴾ نَعتٌ لـ﴿عَطَآءً﴾، والمعنى: كافيًا، فهو مصدرٌ مُؤَوَّلٌ بالمُشتَقِّ، مِنْ قَولِهم: أحسَبَني الشَّيءُ، أي: كَفاني[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا جزاءَ المتَّقينَ يومَ القيامةِ، وما أعدَّ لهم مِن النَّعيم: إنَّ للمُتَّقينَ فَوزًا بالجنَّةِ الَّتي يَظفَرونَ فيها بما يُريدونَ، ونَجاةً مِنَ النَّارِ؛ بَساتينَ وأعنابًا، ونِساءً شابَّاتٍ قد استدارَتْ أثداؤُهنَّ، مُتساوِياتٍ في السِّنِّ، وكُؤُوسًا مَملوءةً مِن خَمرِ الجَنَّةِ، مُتتابِعةً على شارِبيها، لا يَسمَعونَ في الجنَّةِ كَلامًا باطِلًا لا فائدةَ فيه، ولا تَكذيبًا؛ جزاءً مِن رَبِّك -يا محمَّدُ- عَطاءً كثيرًا كافيًا.

---

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦٣-٦٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى شيئًا مِن حالِ أهلِ النَّارِ؛ ذَكَر ما لأهلِ الجنَّةِ[١].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾﴾.

أي: إنَّ للَّذين اتَّقَوا سَخَطَ اللهِ وعَذابَه بامتِثالِ أمْرِه واجتنابِ نَهْيِه: فَوزًا بالجنَّةِ الَّتي يَظفَرونَ فيها بما يُريدونَ، ونجاةً مِنَ النَّارِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣، ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤).

قيل: ﴿مَفَازًا﴾ أي: نجاةً مِن النَّارِ ومِن العذابِ الَّذي أُعِدَّ للكافِرين. وممَّن اختار هذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والماتُريديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والبغويُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٦٤)، ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٨).

ومِن المفسِّرينَ مَن قال: نجاةً مِن النَّارِ إلى الجنَّةِ. ومنهم: السمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٠٦).

وقيل: ﴿مَفَازًا﴾ أي: مكانَ فَوزٍ ومَوضِعَه. وممَّن اختاره: ابنُ قُتَيْبَةَ، والسمعانيُّ، وابن عطية، والقرطبي، وأبو حيان، وجلال الدين المحلي، والشربيني، وابن عاشور. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٨٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣).

وقيل: المرادُ: الفوزُ بالجنَّةِ والنَّعيمِ، والظَّفَرُ بالمطلوبِ، والنَّجاةُ مِن النَّارِ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾﴾.

أي: بساتينَ مُحاطةً بالجُدْرانِ أو غَيْرِها، جامعةً لأصنافِ الأشجارِ المثمرةِ، ومِنها الأعنابُ[1].

---

= ٤٤٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩٢).

وقال ابن جرير: (إنَّ للمتَّقينَ مَنْجًى مِن النَّارِ إلى الجنَّةِ، ومَخلَصًا منها لهم إليها، وظَفَرًا بما طَلَبوا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧).

وقال الواحدي: (والمَفازُ: مصدرٌ كالفَوزِ، والمعنى: أنَّ لهم فَوزًا بالجنَّةِ، ونَجاةً مِن النَّارِ، وهو معنى قولِ المفسِّرينَ). ((البسيط)) (٢٣/ ١٣٦).

وقال الرازي: (والفوزُ يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ منه فوزًا بالمطلوبِ، وأن يكونَ المرادُ منه فوزًا بالنَّجاةِ مِن العذابِ، وأن يكونَ المرادُ مجموعَ الأمْرَينِ، وعندي أنَّ تفسيرَه بالفوزِ بالمطلوبِ أَولى مِن تفسيرِه بالفوزِ بالنَّجاةِ مِن العذابِ، ومِن تفسيرِه بالفوزِ بمجموعِ الأمْرَينِ -أعني: النَّجاةَ مِن الهلاكِ، والوُصولَ إلى المطلوبِ-؛ وذلك لأنَّه تعالى فسَّر المَفازَ بما بعْدَه، وهو قولُه: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ [النبأ: ٣٢]، فوجَبَ أن يكونَ المرادُ مِن المَفازِ هذا القدرَ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢١).

وقال ابن كثير: (يقولُ تعالى مخبرًا عن السُّعداءِ وما أعَدَّ لهم تعالى مِن الكرامةِ والنَّعيمِ المقيمِ، فقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ والضَّحَّاكُ: مُتنزَّهًا. وقال مجاهِدٌ، وقَتادةُ: فازوا، فنَجَوْا مِن النَّارِ. الأظهرُ هاهنا قولُ ابنِ عبَّاسٍ؛ لأنَّه قال بعدَه: ﴿حَدَآئِقَ﴾ وهي البساتينُ مِن النَّخيلِ وغيرِه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨).

وقال ابن عثيمين: (المَفازُ هو مكانُ الفَوزِ، وزمانُ الفوزِ أيضًا؛ فهم فائزون في أمْكِنَتِهم، وفائزون في أيَّامِهم). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

وقال البِقاعي: (﴿مَفَازًا﴾ أي: فَوزًا، ومَوضِعَ فَوزٍ، وزَمانَ فَوزٍ بالرَّاحةِ الدَّائمةِ مِن جميعِ ما مضى ذِكرُه للطَّاغينَ الَّذين هم أضْدادُهم). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر المساكِنَ النَّزِهةَ المُؤْنِقةَ المُعْجِبةَ؛ ذكَرَ ما يُتمَتَّعُ به[١].

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ونِساءً شابَّاتٍ قد استدارَت أثداؤُهنَّ وبَرَزَت دونَ أن تتدلَّى للأسفَلِ، وهنَّ مُتساوِياتٌ في السِّنِّ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝ عُرُبًا أَتْرَابًا ۝ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [الواقعة: ٣٥ - ٣٨].

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾.

أي: وكُؤُوسًا مَملوءةً مِن خَمرِ الجَنَّةِ، صافيةً، مُتتابِعةً على شارِبيها[٣].

---

= (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (المقدمة/ ٣٤).

قال الشوكاني: (المرادُ بالكأْسِ: الإناءُ المعروفُ، ولا يُقالُ له الكأسُ إلَّا إذا كان فيه الشَّرابُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٥).

قال ابن الجوزي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّها المَلْأَى. رواه أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال الحسَنُ، وقَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. =

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾﴾.

أي: لا يَسمَعُ المتَّقونَ في الجنَّةِ لَغطًا أو كَلامًا باطِلًا لا فائِدةَ فيه، ولا يَكذِبونَ ولا يُكَذِّبُ بَعْضُهم بعضًا في حَديثِهم[1].

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾﴾.

أي: وهذا الجَزاءُ المذكورُ للمُتَّقينَ هو عَطاءٌ كافٍ وافِرٌ كثيرٌ مِن رَبِّك- يا محمَّدُ[2].

---

= والثَّاني: أنَّها المُتَتابِعةُ. رواه مجاهِدٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال ابنُ جُبَيرٍ. وعن مجاهِدٍ كالقولَينِ. والثَّالثُ: أنَّها الصَّافيةُ. قاله عِكْرِمةُ. ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٠). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨).

والقولُ الأوَّلُ -أنَّ المرادَ بالدِّهاقِ: المُتْرَعةُ المُمتَلِئةُ- نسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى الجمهورِ، ونسَبَه الرَّازيُّ إلى أكثرِ أهلِ اللُّغةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٢).

وقال ابن جرير: (قولُه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ يقولُ: وكأسًا مَلْأَى مُتَتابِعةً على شارِبيها بكَثرةٍ وامْتِلاءٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩).

قال ابنُ عثيمين بعدَ أن ذكر الأقوالَ الثَّلاثةَ -مملوءةً، مُتَتابِعةً، صافيةً-: (لا مُنافاةَ بيْنَ هذه الأقوالِ، والآيةُ تحتَمِلُها؛ فتُحمَلُ عليها جميعًا، ويكونُ كُلُّ قَولٍ لنَوعٍ مِن المعنى). ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (المقدمة/ ٣٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣، ٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥).

قال الماوَرْدي: (﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: كافيًا. قاله الكَلْبيُّ.

الثَّاني: كَثيرًا. قاله قَتادةُ.

الثَّالث: حِسابًا لِما عَمِلوا. فالحِسابُ بمعنى العَدِّ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٨٩). =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ [المزمل: ٢٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ ما للمُتَّقينَ مِن النَّعيم بعدَ قَولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾؛ لأنَّ القرآنَ مَثانٍ؛ إذا ذُكِرَ فيه العِقابُ ذُكِرَ فيه الثَّوابُ، وإذا ذُكِرَ الثَّوابُ ذُكِرَ العِقابُ، وإذا ذُكِرَ أهلُ الخيرِ ذُكِرَ أهلُ الشَّرِّ، وإذا ذُكِرَ الحقُّ ذُكِرَ الباطِلُ. مَثانٍ؛ حتَّى يكونَ سَيْرُ الإنسانِ إلى ربِّه بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ؛ لأنَّه إنْ غَلَبَ عليه الرَّجاءُ وَقَعَ في الأمْنِ مِن مِكْرِ اللهِ تعالى، وإنْ غَلَبَ عليه الخَوفُ وَقَعَ في القُنوطِ مِن رحمةِ اللهِ تعالى، وكِلاهما مِن كبائرِ الذُّنوبِ، كِلاهما شَرٌّ؛ قال الإمامُ أحمدُ بنُ حَنبَلٍ رحمه اللهُ: (يَنبغي أنْ يكونَ الإنسانُ في عبادتِه لربِّه بيْن الخَوفِ والرَّجاءِ، فأيُّهما غَلَبَ هَلَكَ صاحِبُه)؛ لذلك تَجِدُ القرآنَ الكريمَ يأتي بهذا وبهذا، ولئلَّا تَمَلَّ النُّفوسُ مِن ذِكْرِ حالٍ واحدةٍ والإسهابِ فيها دونَ ما يُقابِلُها، وهكذا؛ مِن

---

= وممَّن ذهب إلى المعنى الأول: الزَّجَّاجُ، والبَغَويُّ، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ إلى جمهورِ المفَسِّرينَ واللُّغويِّينَ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٧٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٨).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: ابنُ قتيبة، والفيروزابادي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٤٦٠).

قال القرطبي: (﴿حِسَابًا﴾ أي: كثيرًا، قاله قَتادةُ، يُقالُ: أحسَبْتُ فُلانًا، أي: كَثَّرْتُ له العطاءَ حتَّى قال: حَسْبي). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٤).

وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ: الواحديُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩).

والمعنى الثَّالثُ هو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧).

أجْلِ أنْ يكونَ الإنسانُ حينَ يَقرأُ القُرآنَ راغبًا راهبًا، وهذا مِن بلاغةِ القُرآنِ الكَريمِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ فيه سُؤالٌ: الخَلاصُ مِنَ الهَلاكِ أهَمُّ مِن حُصولِ اللَّذَّةِ، فلِمَ أُهمِلَ الأهمُّ، وذُكِرَ غيرُ الأهَمِّ؟

**الجوابُ**: لأنَّ الخلاصَ مِن الهَلاكِ لا يَستَلزِمُ الفَوزَ باللَّذَّةِ والخَيرِ، أمَّا الفوزُ باللَّذَّةِ والخَيرِ فيَستلزِمُ الخلاصَ مِنَ الهَلاكِ؛ فكان ذِكرُ هذا أَوْلى[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَابًا﴾ عَبَّرَ عن أشجارِ الأعنابِ بثَمَرتِها؛ إعلامًا بأنَّها لا تُوجَدُ إلَّا مُوقَرةً حِمْلًا، وأنَّ ثَمَرتَها هي جُلُّ مَنفَعتِها[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ شُروعٌ في بيانِ مَحاسنِ أحوالِ المُؤمنينَ، إثرَ بيانِ سوءِ أحوالِ الكفَرةِ[٤].

وجَرَى هذا الانتقالُ على عادةِ القُرآنِ الكريمِ في تَعقيبِ الإنذارِ للمُنذَرينَ بتبشيرِ مَن هم أهلٌ للتَّبشيرِ، فانتقَلَ مِن ترهيبِ الكافِرينَ بما سيُلاقونَه إلى ترغيبِ المتَّقينَ فيما أُعِدَّ لهم في الآخِرةِ مِن كرامةٍ ومِن سلامةٍ ممَّا وقَعَ فيه أهلُ الشِّركِ؛ فالجُملةُ مُتَّصلةٌ بجُملةِ ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّاغِينَ مَآبًا﴾ [النبأ: ٢١- ٢٢]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤). ويُنظر أيضًا: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٣٥٩)، ((الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف)) للمرداوي (٦/ ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢).

وهي مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا بمُناسَبةِ مُقْتضي الانتقالِ[١].

- وافتِتاحُ الجُملةِ بحرْفِ (إنَّ)؛ للدَّلالةِ على الاهتمامِ بالخبرِ؛ لئلَّا يشُكَّ فيه أحدٌ[٢].

- وتَقديمُ خبرِ (إنَّ) ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ على اسمِها ﴿مَفَازًا﴾؛ للاهتِمامِ به تنويهًا بالمتَّقينَ[٣].

- وتَنوينُ ﴿مَفَازًا﴾ للتَّعظيمِ[٤].

- والمرادُ بالمَفازِ: الجنَّةُ ونعيمُها، وأُوثرَتْ كلمةُ ﴿مَفَازًا﴾ على كلمةِ (الجنَّةِ)؛ لأنَّ في اشتقاقِه إثارةَ النَّدامةِ في نُفوسِ المخاطَبينَ بقولِه: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النَّبأ: ١٨]، وبقولِه: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[٥] [النَّبأ: ٣٠].

٢- قولُه تعالَى: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا * وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا * وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾

- قَولُه: ﴿حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا﴾ التَّنكيرُ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَعْنَابًا﴾ يدُلُّ على تعظيمِ حالِ تلك الأعنابِ[٦].

- قَولُه: ﴿وَأَعْنَابًا﴾ خَصَّ أشجارَ العِنَبِ؛ لطِيبِها وحُسْنِها وشَرَفِها، وما فيها مِن لذَّةِ الذَّوقِ[٧].

وفيه وَجهٌ آخَرُ: أنَّه خَصَّها؛ لكَثْرتِها في تلك الحَدائِقِ[٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢١).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٠٩).

(٨) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٧).

- قولُه: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أُريدَ بالكأسِ الجِنسُ؛ إذ المعنى: وأَكْؤُسًا، وعُدِلَ عن صِيغةِ الجمْعِ؛ لأنَّ (كأسًا) بالإفرادِ أخفُّ مِن أَكْؤُسٍ وكُؤوسٍ، ولأنَّ هذا المركَّبَ جرى مَجرى المَثَلِ[(١)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾

- قولُه: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ يجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ المجرورُ عائدًا إلى الكأسِ، فتكونَ (في) للظَّرفيَّةِ المُفيدةِ تَشبيهَ تَناوُلِ النَّدامى (أي: المُجالسينَ على الشَّرابِ) للشَّرابِ مِن الكأسِ بحُلولِهم في الكأسِ، أو تكون (في) للتَّعليلِ، كما في الحديثِ: ((دَخَلَتِ امرأةٌ النَّارَ في هِرَّةٍ))[(٢)] الحديثَ، أي: مِن أجْلِ هِرَّةٍ، والمعنى: لا يَسمَعونَ لغوًا ولا كِذَّابًا منها أو عندَها، فتكون الجملةُ صفةً ثانيةً لـ (كأسًا). ويجوزُ أنْ يعودَ ضميرُ (فيها) إلى ﴿مَفَازًا﴾ باعتبارِ تأويلِه بالجنَّةِ؛ لوُقوعِه في مُقابَلةِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مِن قولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ [النَّبأ: ٢١]، أو لأنَّه أَبدَلَ ﴿حَدَآئِقَ﴾ مِن ﴿مَفَازًا﴾، وهذا المعنى نشَأَ عن أسلوبِ نَظمِ الكلامِ، حيثُ قُدِّمَ ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ إلخ، وأُخِّرَ ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾، حتَّى إذا جاءَ ضميرُ (فيها) بعدَ ذلك جازَ إرجاعُه إلى الكأسِ وإلى المَفازِ، وهذا مِن بديعِ الإيجازِ مع وَفْرةِ المَعاني، أي: لا يَسمَعونَ في الجنَّةِ الكلامَ السَّافلَ ولا الكذبَ، فلمَّا أحاطَ بأهلِ جهنَّمَ أشَدُّ الأذى بجميعِ حواسِّهم مِن جرَّاءِ حرقِ النَّارِ، وسَقْيِهم الحميمَ والغَسَّاقَ؛ لِيَنالَ العذابُ بواطنَهم، كما نالَ ظاهرَ أجسادِهم، كذلك نَفى عن أهلِ الجنَّةِ أقلَّ الأذى، وهو أذى سماعِ ما يَكرَهُه النَّاسُ؛ فإنَّ ذلك أقلُّ الأذى[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٣٣١٨)، ومسلمٌ (٢٦١٩) مطوَّلًا مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥، ٤٦).

- وكُنِّيَ عن انتفاءِ اللَّغوِ والكِذَّابِ عن شاربي خمْرِ الجنَّةِ بأنَّهم لا يَسمَعونَ اللَّغوَ والكِذَّابَ فيها؛ لأنَّه لو كان فيها لَغوٌ وكذبٌ لَسَمِعوه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ أهلَ الجنَّةِ مُنزَّهةٌ أسماعُهم عن سَقَطِ القولِ وسُفْلِ الكلامِ[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾

- قولُه: ﴿جَزَآءً﴾ مَفعولٌ مطلَقٌ لفعلٍ مَحذوفٍ، أي: جَزاهم اللهُ بذلك جزاءً، أو جَزَيْنا المتَّقينَ. وقولُه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ نعتٌ لـ ﴿جَزَآءً﴾، و﴿عَطَآءً﴾ بدَلٌ مِن ﴿جَزَآءً﴾، وفي هذا البدلِ سِرٌّ لطيفٌ، وهو الإلْماعُ إلى أنَّ ذلك تَفضُّلٌ وعَطاءٌ وجَزاءٌ مَبنيٌّ على الاستحقاقِ[٢].

- و(مِن) في قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: صادرًا مِن لَدُنِ اللهِ، وذلك تَنويهٌ بكَرَمِ هذا الجزاءِ، وعِظَمِ شَأنِه[٣].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُنْبئةِ عن التَّبليغِ إلى الكَمالِ شيئًا فشيئًا، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ مَزيدُ تشريفٍ له صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤]. وأيضًا إضافةُ (ربّ) إلى ضميرِ المخاطَبِ مُرادًا به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ للإيماءِ إلى أنَّ جَزاءَ المتَّقينَ بذلك يَشتمِلُ على إكرامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ إسداءَ هذه النِّعمِ إلى المتَّقينَ كان مِن أجْلِ إيمانِهم به، وعمَلِهم بما هداهُم إليه[٥].

- وُصِفَ الجزاءُ بـ ﴿عَطَآءً﴾ وهو اسمٌ لِما يُعطى، أي: يُتفضَّلُ به بدونِ عِوَضٍ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦، ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧).

للإشارةِ إلى أنَّ ما جُوزوا به أَوفَرُ ممَّا عَمِلوه، فكان ما ذُكِر للمتَّقينَ مِن المَفازِ وما فيه جَزاءً شكرًا لهم، وعطاءً كرَمًا مِن اللهِ تعالى وكرامةً لهذه الأُمَّةِ؛ إذ جعَلَ ثوابَها أضعافًا[١].

- وقولُه: ﴿حِسَابًا﴾ نعْتٌ لـ ﴿عَطَآءً﴾، والمعْنى: كافيًا، فهو مَصدَرٌ أُقِيمَ مُقامَ الوصْفِ، أو باقٍ على مَصدريَّتِه مُبالَغةً[٢].

- وتَنوينُ ﴿حِسَابًا﴾ للتَّكثيرِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧).

## الآيات (٢٧-٤٠)

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا ٣٨ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ٣٩ إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مَـَٔابًا﴾: أي: مَرْجِعًا يَرْجِعُ إليه بالطَّاعةِ والعملِ الصَّالحِ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾

﴿رَّبِّ﴾ بَدَلٌ أو نَعتٌ لـ﴿رَّبِّكَ﴾ في قولِه: ﴿جَزَآءٗ مِّن رَّبِّكَ﴾ [النبأ: ٣٦]، مجرورٌ مِثْلَه.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ نَعتٌ أو بَدَلٌ لـ﴿رَّبِّ﴾ الثَّاني.

- وقُرِئَ برَفعِ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ مِن أوجُهٍ؛ أحدُها: أن يكونَ «رَبُّ» خبَرَ مُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: هو رَبُّ. و«الرَّحمنُ» كذلك، أو هو مبتدأٌ خَبَرُه «لا يَملِكونَ». الثَّاني: أن يكونَ «رَبُّ» مبتدأً، و«الرَّحمنُ» خبَرَه، و«لا يملِكونَ» خَبَرًا ثانيًا، أو مُستأنَفٌ.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

الثَّالثُ: أن يكونَ «رَبُّ» مُبتدَأً، و«الرَّحمنُ» نعتًا له، و«لا يملِكونَ» خبرَ «رَبُّ».

- وقُرِئَ بَجِّر الأوَّلِ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على البَدَلِ أو النَّعْتِ لـ ﴿رَبِّكَ﴾ كما تقَدَّمَ، ورَفع الثَّاني ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على الابتداءِ[1]، والخَبَرُ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾، أو على أنَّه خَبَرُ مبتدأٍ محذوفٍ، و﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ مُستأنفٌ أو خَبَرٌ ثانٍ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا عَظَمتَه وجلالَه: جزاءً مِن ربِّك ربِّ السَّمواتِ السَّبعِ والأرضِ وما بيْنَهما مِنَ الخَلْقِ؛ الرَّحْمَنِ، لا يَقْدِرُ أحَدٌ مِنَ الخَلْقِ على مُخاطَبتِه -سُبحانَه وتعالى- يومَ القيامةِ بلا إذْنٍ، يَومَ يقومُ جِبريلُ والملائِكةُ مُصْطَفِّينَ بخُضوعٍ للهِ تعالى، لا يَتكَلَّمونَ إلَّا مَن أَذِنَ اللهُ له، وقال قَولًا حَقًّا مَرْضِيًّا للهِ تعالى، ذلك اليَومُ واقِعٌ لا مَحالةَ، فمَن شاء عَمِلَ عَمَلًا صالِحًا يَرجِعُ به إلى اللهِ تعالى.

ثمَّ يختمُ اللهُ سُبحانَه السُّورةَ الكريمةَ بإنذارٍ بليغٍ، فيقولُ: إنَّا حَذَّرْناكم -أيُّها النَّاسُ- عَذابًا قَريبًا يومَ يَنظُرُ كُلُّ إنسانٍ إلى ما عَمِلَه في حياتِه، ويَقولُ الكافِرُ: يا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا؛ فلا أُعذَّبَ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا ٣٧﴾.

---

(١) قرأ ابنُ عامرٍ، ويعقوبُ، والكوفيُّونَ: ﴿رَّبِّ﴾ بكسرِ الباءِ، والباقونَ بضَمِّها. وقرأ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ بالكسرِ: ابنُ عامرٍ وعاصِمٌ ويعقوبُ، والباقونَ بضَمِّها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦٣ - ٦٦٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه سَعةَ فَضْلِه؛ وَصَف نَفْسَه الأقدَسَ بما يَدُلُّ على عَظَمتِه؛ زيادةً في شَرَفِ المُخاطَبِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ عَظَمةَ العبدِ على حسَبِ عَظَمةِ السَّيِّدِ، فقال[1]:

﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾.

أي: خالِقِ ومالِكِ ومدَبِّرِ السَّمواتِ والأرضِ وما بيْنَهما مِن المخلوقاتِ، الرَّحمنِ الَّذي وَسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيءٍ[2].

﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾.

أي: لا يَقْدِرُ أحَدٌ مِنَ الخَلْقِ على مُخاطَبةِ اللهِ -سُبحانَه وتعالى- يومَ القيامةِ بلا إِذْنٍ[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠).

ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ في قولِه: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ يعودُ على جميعِ الخَلقِ مِن أهلِ السَّمواتِ والأرضِ: ابنُ جرير، ومكِّي، والزمخشري، والرازي، والبيضاوي، والعُلَيمي، والألوسي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

وقال ابن عثيمين: (وقولُه: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ يعني: أنَّ النَّاسَ لا يَملِكونَ الخِطابَ مِن الله، ولا يَستطيعُ أحدٌ أن يَتكلَّمَ إلَّا بإذْنِ اللهِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٦).

وقال ابن عطيَّة: (وقولُه تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ﴾ الضَّميرُ للكفَّارِ، أي: لا يَملِكونَ مِن أفضالِه وأجمالِه أن يُخاطِبوه بمَعذِرةٍ ولا غيرِها، وهذا في موطنٍ خاصٍّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٨). =

كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر أنَّ أحَدًا مِنَ الخَلْقِ لا يُمكِنُه أن يُخاطِبَ اللهَ في شَيءٍ، أو

---

= وقال أبو حيَّان: (والضَّميرُ في ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ عائدٌ على المشرِكين، قاله عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاسٍ، أي: لا يُخاطِبُ المشرِكون اللهَ. أمَّا المؤمنونَ فيشفَعون، ويَقبَلُ اللهُ ذلك منهم. وقيل: عائدٌ على المؤمنينَ، أي: لا يَملِكونَ أن يُخاطِبوه في أمرٍ مِن الأمورِ؛ لعِلْمِهم أنَّ ما يَفعَلُه عدلٌ منه. وقيل: عائدٌ على أهلِ السَّمواتِ والأرضِ. والضَّميرُ في ﴿مِنْهُ﴾ عائدٌ عليه تعالى). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠).

وقال الشوكاني: (﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: لا يَملِكونَ أن يَسألوا إلَّا فيما أذِن لهم فيه. وقال الكِسائيُّ: لا يَملِكونَ منه خِطابًا بالشَّفاعةِ إلَّا بإذْنِه. وقيل: الخِطابُ: الكلامُ، أي: لا يَملِكونَ أن يُخاطِبوا الرَّبَّ سُبحانَه إلَّا بإذْنِه؛ دليلُه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٦).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: لا يَتكلَّمونَ مع الله، ويُمنَعون مِن الكلامِ معه: الثعلبيُّ، والسمعاني، والخازن، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١١٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٦).

وممَّن اختار أنَّ المعنى: لا يَملِكونَ الكلامَ بالشَّفاعةِ إلَّا بإذْنِه: السمرقنديُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٦).

قال البيضاوي: (﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ... أي: لا يَملِكونَ خِطابَه، والاعتِراضَ عليه في ثَوابٍ أو عِقابٍ؛ لأنَّهم مَمْلوكونَ له على الاطلاقِ، فلا يَستَحِقُّونَ عليه اعتِراضًا، وذلك لا يُنافي الشَّفاعةَ بإذْنِه). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١).

وقال الماتُريدي: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾؛ هَيْبةً مِن الله تعالى، وتعظيمًا لحقِّه؛ فلا يَملِكونَ مِن هَيْبَتِه الخِطابَ بالشَّفاعةِ أو بالخُصومةِ أو بأيِّ شيءٍ كان). ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٠٠).

يُطالِبَه بشَيءٍ؛ قرَّر هذا المعنى وأكَّدَه[١]، فقال:

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾.

أي: وذلك واقِعٌ يَومَ يقومُ جِبريلُ وجميعُ الملائِكةِ مُصْطَفِّينَ بخُضوعٍ للهِ تعالى[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

قال النَّسَفي: (﴿يَوْمَ يَقُومُ﴾ إنْ جعَلْتَه ظَرفًا لـ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ لا تَقِفُ على خِطابًا، وإنْ جعَلْتَه ظَرفًا لـ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ تَقِفُ). ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٣).

وممَّن ذَهَب إلى أنَّه ظَرفٌ لِقَولِه تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾: البِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٦).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالرُّوحِ هنا جِبريلُ عليه السَّلامُ: القاسميُّ، والسعدي، وابن عثيمين، ونَسَبه النَّسَفيُّ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، والشَّعبيُّ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩).

وقيل: هم بنو آدَمَ. وقد مال إلى هذا القولِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٢).

وقيل غَيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٠٩).

قال ابن حجر: (وقد روى ابنُ إسحاقَ في تفسيرِه بإسنادٍ صحيحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: الرُّوحُ مِن الله، وخَلقٌ مِن خَلقِ الله، وصوَرٌ كبني آدَمَ، لا يَنزِلُ ملَكٌ إلَّا ومعه واحدٌ مِن الرُّوحِ. وثبت عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه كان لا يُفسِّرُ الرُّوحَ، أي: لا يُعَيِّنُ المرادَ به في الآيةِ). ((فتح الباري)) (٨/ ٤٠٢).

وقد توقَّفَ ابنُ جَريرٍ في معنى الرُّوحِ في هذه الآيةِ، فذَهَب إلى أنَّه خَلقٌ مِن خَلْقِ اللهِ تعالى، =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٢، ١٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾.

أي: لا يَتكَلَّمونَ يومَ القيامةِ إلَّا مَن أَذِنَ اللهُ له في الكلامِ، وقال قَولًا حَقًّا صائِبًا مُوافِقًا لِمَرْضاةِ اللهِ تعالى[1].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا قَرَّر أحوالَ المكَلَّفينَ في دَرَجاتِ الثَّوابِ والعِقابِ، وقَرَّر عَظَمةَ يَومِ القيامةِ؛ قال بَعْدَه[2]:

---

= اللهُ أعلَمُ به؛ فجائِزٌ أن يكونَ الرُّوحُ جِبريلَ، أو أرواحَ بني آدَمَ، أو غيرَ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٧، ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

قيل: الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ عائدٌ على جميعِ الخَلْقِ. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٣).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

واستظهر الواحديُّ أنَّ المرادَ الملائكةُ، واختاره السَّمعانيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٢).

وقيل: هو عائِدٌ على الرُّوحِ والملائكةِ. وقد جوَّز هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٥).

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾.

أي: ذلك اليَومُ العَظيمُ كائِنٌ لا مَحالةَ، ولا شَكَّ في وُقوعِه(١).

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾.

أي: فمَن شاء عَمِلَ عَمَلًا صالِحًا يَرجِعُ به إلى اللهِ تعالى(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٤).

قال الماوَرْدي: (﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّ﴾ يعني: يومَ القيامةِ، وفي تسميتِه ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ وجْهانِ؛ أحدُهما: لأنَّ مجيئَه حقٌّ، وقد كانوا على شَكٍّ. الثَّاني: أنَّ اللهَ تعالى يَحكُمُ فيه بالحقِّ بالثَّوابِ والعِقابِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٠).

ممَّن اختار الوجهَ الأوَّلَ -أي: أنَّه الكائنُ لا مَحالةَ، المُتحَقِّقُ الواقعُ الثَّابتُ وُقوعُه-: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابن جُزَي، والخازن، وأبو حيَّان، وابن كثير، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠١٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٨٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٣٩٤).

قال السعدي: (﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ﴾ هو ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الَّذي لا يَرُوجُ فيه الباطِلُ، ولا يَنفَعُ فيه الكَذِبُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

وقال ابن عثيمين: (الثَّابتُ الَّذي يقومُ فيه الحَقُّ، ويقومُ فيه العَدْلُ ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠].

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾.

أي: إنَّا حَذَّرْناكم -أيُّها النَّاسُ- عَذابًا قد دنا وقرُبَ منكم[1].

---

= قال البِقاعي: (﴿مَّـَٔابًا﴾ أي: مَرجِعًا هو المرجِعُ مِمَّا يَحصُلُ له فيه الثَّوابُ بالإيمانِ والطَّاعةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢١٤).

وقال السعدي: (﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ أي: عَمَلًا وقَدَمَ صِدْقٍ يَرجِعُ إليه يومَ القيامةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ العذابُ في الآخرة، فكُلُّ ما هو آتٍ قريبٌ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، وابن عطية، وابن كثير، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٧).

قال القرطبي: (الأظهَرُ أنَّه عذابُ الآخرةِ، وهو الموتُ والقيامةُ؛ لأنَّ مَن مات فقد قامت قيامتُه، فإن كان مِن أهلِ الجنَّةِ رأى مَقعَدَه مِنَ الجَنَّةِ، وإن كان مِن أهلِ النَّارِ رأى الخِزْيَ والهَوانَ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨).

وقال البيضاوي: (﴿أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: عذابَ الآخِرةِ، وقُرْبُه لتحقُّقِه؛ فإنَّ كُلَّ ما هو آتٍ قريبٌ، ولأنَّ مَبدَأَه الموتُ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾: العذابُ في الدُّنيا، يعني: القَتلَ ببَدرٍ، وهلاكَ الأُمَمِ الخاليةِ، وإنَّما قال: ﴿قَرِيبًا﴾؛ لأنَّها أقرَبُ مِن الآخرةِ. قاله مقاتِلٌ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٦٦).

وقال ابنُ عاشور: (العَذابُ يَصْدُقُ بعذابِ الآخِرةِ، وهو ما تقَدَّم الإنذارُ به، ويَصدُقُ بعذابِ الدُّنيا مِن القَتْلِ والأسْرِ في غَزَواتِ المسلِمينَ لأهلِ الشِّرْكِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۞ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ [المعارج: ٦، ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾.

أي: وذلك يومَ يَنظُرُ كُلُّ إنسانٍ إلى ما عَمِلَه مِن قَبْلُ في حياتِه[(١)].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦، ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين - جزء عم)) (ص: ٣٨).
ممَّن اختار أنَّ قولَه: ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ عامٌّ للمؤمنِ والكافرِ: السمرقنديُّ، والواحدي، والرازي، والبيضاوي، والعُلَيمي، والشربيني، والألوسي، وابن عثيمين، ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى أكثَرِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٦٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٦٠).
قال الواحدي: (والظَّاهِرُ أنَّ ﴿ٱلْمَرْءُ﴾ عامٌّ في كُلِّ أحدٍ؛ لأنَّ كُلَّ أحدٍ يرى في ذلك اليومِ ما كَسَب وقَدَّم وأخَّرَ مِن خيرٍ وشَرٍّ مُثبَتًا عليه في صحيفتِه). ((البسيط)) (٢٣/ ١٥٠).
وقال البِقاعي: (﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ﴾ أي: جِنْسُه، الصَّالحُ منه والطَّالِحُ، نظرًا لا مِرْيَةَ فيه ﴿مَا﴾ أي: الَّذي ﴿قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: كَسَبَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢١٥).
وقيل: المرادُ به هنا: المؤمنُ. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، والشَّوكانيُّ، وهو قولُ الحسَنِ، وقَتادةَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٦).
وقيل: المرادُ بالمرءِ هنا: الكافرُ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، وهو قولُ عَطاءٍ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٦).
قال الزمخشري: (﴿مَا﴾ يجوزُ أن تكونَ استفهاميَّةً منصوبةً بـ﴿قَدَّمَتْ﴾، أي: ينظُرُ أيَّ شَيءٍ قدَّمَتْ يَداه، ومَوصولةً منصوبةً بـ﴿يَنظُرُ﴾). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٢).

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦ - ٨].

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

أي: ويَقولُ الكافِرُ مُتحَسِّرًا يومَئِذٍ: يا لَيْتَني كُنتُ تُرابًا[1]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠، ٣١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٨).

قال ابنُ عثيمين: (﴿كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ تحتَمِلُ ثلاثةَ مَعانٍ:

المعنى الأوَّلُ: يا لَيْتَني كنتُ ترابًا فلم أُخلَقْ؛ لأنَّ الإنسانَ خُلِقَ مِن ترابٍ.

المعنى الثَّاني: يا ليتَني كنتُ ترابًا فلم أُبعَثْ، يعني: كُنتُ ترابًا في أجوافِ القُبورِ.

المعنى الثَّالثُ: أنَّه إذا رأى البهائِمَ الَّتي قضى اللهُ بيْنَها، وقال لها: كُوني تُرابًا، فكانت ترابًا؛ قال: لَيْتَني كنتُ تُرابًا، أي: كما كانت هذه البهائِمُ. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٧).

وممَّن ذهب إلى المعنى الأوَّلِ: الكرمانيُّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٠).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّالثِ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، والواحدي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠١٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٦٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٨٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الله بنُ عَمرٍو، وأبو هُرَيرةَ، وأبو الزِّنادِ عبدُ الله بنُ ذَكْوانَ، وسُفْيانُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤-٥٦).

قال الواحدي: (قال جماعةُ المفسِّرينَ: وذلك أنَّ اللهَ تعالى يَحشُرُ الدَّوابَّ، والبهائمَ، والوحشَ، فيقتصُّ لبعضِها مِن بعضٍ، ثمَّ يُقالُ لها: كُوني تُرابًا، فيَتمَنَّى الكافرُ عندَ ذلك أنَّه كان ترابًا). ((البسيط)) (٢٣/ ١٥٠).

وقال ابن كثير: (وقد ورد معنى هذا في حديثِ الصُّورِ المشهورِ، وورد فيه آثارٌ عن أبي هُرَيرةَ، =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[(١)] [النساء: ٤٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾ ذِكْرُ وَصْفِ الكافِرِ يُفهَمُ منه أنَّ المؤمِنَ ليس كذلك؛ لأنَّ المؤمِنَ وإن عَمِلَ بَعضَ السَّيِّئاتِ، وتوَقَّع العِقابَ على سَيِّئاتِه؛ فهو يَرْجو أن تكونَ عاقِبتُه إلى النَّعيمِ[(٢)].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ (ما) مَوصولةٌ، وهي مِن صِيَغِ العُمومِ، وقد استُفيدَ مِن ذلك تعميمُ رُبوبيَّتِه سُبحانَه على جميعِ المصنوعاتِ[(٣)].

٢- قولُه تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ الغرضُ مِن ذِكرِ هذا إبطالُ اعتذارِ المُشرِكينَ حينَ استشعَروا شناعةَ عبادتِهم الأصنامَ الَّتي شهَّرَ القرآنُ بها، فقالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[(٤)] [الزمر: ٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ

---

= وعبدِ الله بنِ عَمرٍو، وغيرِهما). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١١).

(١) قال مكِّي: (قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [النساء: ٤٢] الآيةَ. يومَ يَجيءُ مِن كلِّ أُمَّةٍ شهيدٌ، يتمنَّى الكافِرون ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: يَصيرون ترابًا مِثلَها، كما قال: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾). ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) (٢/ ١٣٣٣). ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠).

وَقَالَ صَوَابًا﴾ لِمَن يقولُ بتفضيلِ الملَكِ على البَشَرِ أن يتمَسَّكَ بهذه الآيةِ؛ وذلك لأنَّ المقصودَ مِن الآيةِ أنَّ الملائِكةَ لَمَّا بَقُوا خائِفينَ خاضِعينَ وَجِلينَ مُتحَيِّرينَ في مَوقِفِ جَلالِ اللهِ، وظُهورِ عِزَّتِه وكِبْريائِه، فكيف يكونُ حالُ غَيْرِهم؟! ومعلومٌ أنَّ هذا الاستِدلالَ لا يَتِمُّ إلَّا إذا كانوا أشرَفَ المخلوقاتِ[1].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ إطلاقُ صِفةِ الرَّحمنِ على مَقامِ الجلالةِ إيماءٌ إلى أنَّ إذْنَ اللهِ لِمَن يَتكلَّمُ في الكلامِ أثَرٌ مِن آثارِ رحْمَتِه؛ لأنَّه أَذِنَ فيما يحصُلُ به نفعٌ لأهلِ المَحشَرِ مِن شفاعةٍ أو استغفارٍ[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فيه سؤالٌ: لَمَّا أَذِنَ له الرَّحمنُ في ذلك القَولِ عُلِمَ أنَّ ذلك القَولَ صوابٌ لا محالةَ، فما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ الرَّحمنَ أذِنَ له في مُطلَقِ القَولِ، ثمَّ إنَّهم عندَ حُصولِ ذلك الإذْنِ لا يتكَلَّمونَ إلَّا بالصَّوابِ، فكأنَّه قيل: إنَّهم لا يَنطِقونَ إلَّا بعدَ وُرودِ الإذنِ في الكلامِ، ثمَّ بَعْدَ وُرودِ ذلك الإذْنِ يَجتَهِدونَ ولا يتكَلَّمونَ إلَّا بالكلامِ الَّذي يَعلَمونَ أنَّه صِدقٌ وصَوابٌ، وهذا مُبالَغةٌ في وَصْفِهم بالطَّاعةِ والعُبوديَّةِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٤).

والصَّوابُ في هذه المسألةِ التَّفصيلُ: وهو أنَّ صالِحي البَشَرِ أفضَلُ باعتبارِ كَمالِ النِّهايةِ، والملائكةَ أفضَلُ باعتبارِ البدايةِ؛ فإنَّ الملائكةَ الآنَ في الرَّفيقِ الأعلى مُنزَّهينَ عمَّا يُلابِسُه بنو آدَمَ، مُستَغرِقينَ في عبادةِ الرَّبِّ سُبحانَه، ولا ريبَ أنَّ هذه الأحوالَ الآنَ أكمَلُ مِن أحوالِ البَشَرِ، وأمَّا يومَ القيامةِ بعدَ دُخولِ الجنَّةِ، فيَصيرُ حالُ صالِحي البَشَرِ أكمَلَ مِن حالِ الملائكةِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٥٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣).

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ تقديرَه: لا يَتكَلَّمونَ إلَّا في حَقِّ مَن أَذِنَ له الرَّحمنُ، وقال صوابًا، والمعنى: لا يَشفَعونَ إلَّا في حَقِّ شَخصٍ أَذِنَ له الرَّحمنُ في شفاعتِه، وذلك الشَّخصُ كان ممَّن قال صَوابًا(١).

أو أنَّه لا يتكلَّمُ أحدٌ إلَّا بهذَينِ الشَّرطَينِ: أن يأذَنَ اللهُ له في الكلامِ، وأن يكونَ ما تكلَّمَ به صوابًا(٢).

٦- أنَّ الإيمانَ بالقَدَرِ لا يُنافي أنْ يكونَ للعَبْدِ مَشيئةٌ في أفعالِه الاختياريَّةِ وقُدْرتِه عليها؛ قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾(٣).

٧- قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ دلَّ على أنَّه مآبُ خَيرٍ؛ لأنَّ اللهَ لا يَرضى إلَّا بالخيرِ(٤).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ سَمَّاه إنذارًا؛ لأنَّه تعالى بهذا الوَصْفِ قد خَوَّف منه نهايةَ التَّخويفِ، وهو معنى الإنذارِ(٥).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾

- قولُه: ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ قُرِئَ برفعِ ﴿رَّبِّ﴾ ورفعِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، فـ (ربُّ) خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ هو ضميرٌ يعودُ على قولِه: ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ [النَّبأ: ٣٦]، على طَريقةِ حذفِ المسنَدِ إليه لاتِّباعِ الاستِعمالِ الواردِ على تَرْكِه،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٥).
(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨).
(٣) يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) لابن عثيمين (ص: ١١٢).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥).
(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٦).

أي: في المقامِ الَّذي يَجْري استِعمالُ البُلغاءِ فيه على حذْفِ المسنَدِ إليه[١].

- وأُتْبِعَ وصفُ ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بذِكرِ اسمٍ مِن أسمائِه الحُسنى، وهو اسمُ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، وخُصَّ بالذِّكرِ دونَ غيرِه مِن الأسماءِ الحُسنى؛ لأنَّ في معناه إيماءً إلى أنَّ ما يُفيضُه مِن خيرٍ على المتَّقينَ في الجنَّةِ هو عطاءُ رحمنٍ بهم[٢].

- وفي ذِكرِ هذه الصِّفةِ الجليلةِ تعريضٌ بالمُشركينَ؛ إذ أنكَروا اسمَ الرَّحمنِ الواردَ في القرآنِ، كما حَكى اللهُ عنهم بقولِه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾[٣] [الفرقان: ٦٠].

- قولُه: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ استِئنافٌ مقرِّرٌ لِما أفادَهُ الرُّبوبيَّةُ العامَّةُ مِن غايةِ العظَمةِ والكبرياءِ، واستقلالِه تعالى بما ذُكِر مِن الجزاءِ والعطاءِ مِن غيرِ أنْ يكونَ لأحدٍ قُدرةٌ عليه، والمرادُ نفيُ قُدرتِهم على أنْ يُخاطِبوه تعالى بشيءٍ مِن نقصِ العذابِ أو زيادةِ الثَّوابِ مِن غيرِ إذْنِه على أبلَغِ وجْهٍ وآكَدِه[٤].

ويجوزُ أنْ تكونَ هذه الجُملةُ ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِنۡهُ خِطَابٗا﴾ حالًا مِن (مَا بَيۡنَهُمَا)؛ لأنَّ ما بيْنَ السَّمواتِ والأرضِ يَشملُ ما في ذلك مِن المخلوقاتِ العاقلةِ، أو المزعومِ لها العقلُ مِثلِ الأصنامِ، فيُتوهَّمُ أنَّ مِن تلك المخلوقاتِ مَن يَستطيعُ خِطابَ اللهِ ومُراجَعتَه. ويجوزُ أنْ تكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا لإبطالِ مَزاعمِ المُشركينَ، أو للاحتراسِ لدفْعِ توهُّمِ أنَّ ما تُشعِرُ به صلةُ (ربِّ) مِن الرِّفقِ بالمَربوبينَ في تدبيرِ شؤونِهم يُسيغُ إقدامَهم على خِطابِ الرَّبِّ تعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩).

- وفعلُ ﴿يَمْلِكُونَ﴾ يعُمُّ؛ لوُقوعِه في سِياقِ النَّفيِ كما تعُمُّ النَّكِرةُ المنفيَّةُ، و﴿خِطَابًا﴾ عامٌّ أيضًا، وكِلاهُما مِن العامِّ المخصوصِ بمُخصِّصٍ منفصِلٍ؛ كقولِه عَقِبَ هذه الآيةِ: ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النَّبأ: ٣٨]، وقولِه: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥]، وقولِه: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقولِه: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[(١)] [الأنبياء: ٢٨].

- والتَّنكيرُ في ﴿خِطَابًا﴾ للتَّقليلِ، و(مِنْ) بيانٌ، والظَّرفُ حالٌ مِن ﴿خِطَابًا﴾، المعنى: ليس في أيديهم خِطابٌ كائنٌ مِن عِندِ اللهِ في أمرِ الشَّفاعةِ قَطُّ، أي: ليس لهم مَمْسَكٌ ونصٌّ يَتصرَّفونَ به في أمرِ الشَّفاعةِ[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ الجُملةُ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ قولِه تعالَى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ إلخ، ومُؤكِّدٌ له، على مَعْنى: أنَّ أهلَ السَّمواتِ والأرضِ إذا لم يَقدِروا يَومَئذٍ على أنْ يَتكلَّموا بشَيءٍ مِن جِنسِ الكلامِ إلَّا مَنْ أَذِنَ اللهُ تعالَى له منهم في التَّكلُّمِ، وقال ذلكَ المأذونُ له قَولًا صَوابًا؛ فكيفَ يَملِكون خِطابَ ربِّ العِزَّةِ مع كَونِه أخصَّ مِن مُطلَقِ الكلامِ، وأعزَّ منه مَرامًا[(٣)]؟!

- قولُه: ﴿ٱلرُّوحُ﴾ هو جِبريلُ، وتَخصيصُه بالذِّكرِ قبْلَ ذِكرِ الملائكةِ المعطوفِ عليه؛ لتشريفِ قدْرِه بإبلاغِ الشَّريعةِ[(٤)].

وقيل: اللَّامُ في ﴿ٱلرُّوحُ﴾ لتعريفِ الجِنسِ؛ فالمفردُ معها والجمعُ سواءٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١).

والمعنى: يومَ تحضُرُ الأرواحُ مَصفوفةً لِتُودَعَ في أجسادِها، وتقومُ الملائكةُ صفًّا، وإنَّما يَصطفُّ النَّاسُ في المقاماتِ الَّتي يكونُ فيها أمرٌ عظيمٌ، فصَفُّ الملائكةِ تعظيمٌ للهِ، وخضوعٌ له[١].

- وجملةُ ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾ مُؤكِّدةٌ لجُملةِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النَّبأ: ٣٧]، أُعيدَتْ بمعناها لتقريرِ المعنَى؛ إذ كان المَقامُ حَقيقًا، فالتَّقريرُ لقَصدِ التَّوصُّلِ به إلى الدَّلالةِ على إبطالِ زعْمِ المُشركينَ شَفاعةَ أصنامِهم لهم عِندَ اللهِ، وهي دَلالةٌ بطريقِ الفَحْوى[٢]؛ فإنَّه إذا نُفِيَ تَكلُّمُهم بدونِ إذْنٍ نُفِيَتْ شفاعتُهم؛ إذ الشَّفاعةُ كلامُ مَن له وجاهةٌ وقَبولٌ عِندَ سامِعِه[٣].

- ومتعلَّقُ ﴿أَذِنَ﴾ محذوفٌ، دلَّ عليه ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ﴾، أي: مَن أُذِن له في الكلامِ[٤].

- وإظهارُ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ في موضعِ الإضْمارِ؛ للإيذانِ بأنَّ مناطَ الإذنِ هو الرَّحمةُ البالغةُ، لا أنَّ أحدًا يَستحِقُّه عليه سبحانَه وتعالى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١، ٥٢).

(٢) فَحْوَى الخِطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهي عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظَمُ مِن التَّافيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَّن إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القِنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأُولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٤).

- وفعلُ ﴿وَقَالَ صَوَابًا﴾ مُستعمَلٌ في معنى المُضارِعِ، أي: ويقولُ صوابًا، فعُبِّر عنه بالماضي؛ لإفادةِ تحقُّقِ ذلك[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ كالفَذْلَكةِ[٢] لِما تَقدَّمَ مِن وَعيدٍ ووعدٍ، وإنذارٍ وتبشيرٍ، سِيقَ مساقَ التَّنويهِ بيومِ الفصلِ الَّذي ابتُدِئَ الكلامُ عليه مِن قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ [النَّبأ: ١٧]، والمقصودُ التَّنويهُ بعظيمِ ما يقَعُ فيه مِن الجزاءِ بالثَّوابِ والعِقابِ، وهو نتيجةُ أعمالِ النَّاسِ مِن يومِ وُجودِ الإنسانِ في الأرضِ[٣].

- والإشارةُ بقولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ إلى اليومِ المتقدِّمِ في قولِه: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾، ومُفادُ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ في مِثلِ هذا المَقامِ التَّنبيهُ على أنَّ المُشارَ إليه حقيقٌ بما سيُوصَفُ به بسببِ ما سبَقَ مِن حِكايةِ شُؤونِه؛ فمِن أجْلِ جميعِ ما وُصِفَ به يومُ الفصلِ كان حقيقًا بأنْ يُوصَفَ بأنَّه اليومُ الحقُّ، وما تَفرَّعَ عن ذلك مِن قولِه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾[٤].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْيَوْمُ﴾ باللَّامِ؛ للدَّلالةِ على معنى الكمالِ، أي: هو الأعظَمُ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣).

(٢) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٤).

بيْنِ ما يَعُدُّه النَّاسُ مِن أيَّامِ النَّصرِ للمُنتصِرينَ؛ لأنَّه يومٌ يُجمَعُ فيه النَّاسُ كلُّهم، ويُعطى كلُّ واحدٍ منهم ما هو أهلُه مِن خيرٍ أو شرٍّ، فكأنَّ ما عداهُ مِن الأيَّامِ المشهورةِ في تاريخِ البشرِ غيرُ ثابتِ الوُقوعِ[١].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ﴾ هذا وعيدٌ وتهديدٌ[٢].

- وفُرِّعَ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ بالفاءِ الفصيحةِ على قولِه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾؛ لإفصاحِها عن شَرْطٍ مُقدَّرٍ ناشئٍ عن الكلامِ السَّابقِ، والتَّقديرُ: فإذا عَلِمتُم ذلك كلَّه، فمَن شاءَ اتِّخاذَ مآبٍ عِندَ ربِّه فلْيَتَّخِذْه، فقدْ بانَ لكم ما في ذلك اليومِ مِن خيرٍ وشرٍّ، فلْيَختَرْ صاحبُ المشيئةِ ما يَليقُ به للمَصيرِ في ذلك اليومِ، والتَّقديرُ: مآبًا فيه، أي: في اليومِ. وهذا التَّفريعُ مِن أبدَعِ الموعظةِ بالتَّرغيبِ والتَّرهيبِ عِندَما تَسنَحُ الفُرصةُ للواعظِ مِن تهيُّؤِ النُّفوسِ لقَبولِ الموعظةِ[٣].

- والاتِّخاذُ: مُبالَغةٌ في الأخْذِ، أي: أخَذَ أخْذًا يُشبِهُ المطاوَعةَ في التَّمكُّنِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ اعتِراضٌ بيْن ﴿مَـَٔابًا﴾ [النَّبأ: ٣٩] وبيْن ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النَّبأ: ٤٠]، والمقصودُ مِن هذه الجُملةِ الإعذارُ للمُخاطَبينَ بقَوارِعِ هذه السُّورةِ؛ بحيثُ لم يَبقَ بيْنَهم وبيْنَ العِلمِ بأسبابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥).

النَّجاةِ وضِدِّها شُبهةٌ ولا خَفاءٌ، فالخبرُ -وهو ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا﴾- مُستعمَلٌ في قطْعِ العُذرِ، وليس مُستعمَلًا في إفادةِ الحُكمِ؛ لأنَّ كونَ ما سبَقَ إنذارًا أمرٌ مَعلومٌ للمُخاطَبينَ[١].

- وافتُتِح الخبرُ بحَرفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للمُبالَغةِ في الإعذارِ بتَنزيلِهم مَنزلةَ مَن يَتردَّدُ في ذلك[٢].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ جُعِلَ المسنَدُ ﴿أَنذَرۡنَٰكُمۡ﴾ فِعلًا مُسنَدًا إلى الضَّميرِ المنفصِلِ؛ لإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، مع تَمثيلِ المتكلِّمِ في مَثَلِ المتبرِّئِ مِن تَبِعةِ ما عَسى أنْ يَلحَقَ المخاطَبينَ مِن ضُرٍّ إنْ لم يَأخُذوا حِذرَهم ممَّا أنذَرَهم به[٣].

- والإنذارُ: الإخبارُ بحُصولِ ما يَسوءُ في مُستقبَلٍ قَريبٍ، وعُبِّر عنه بالمُضيِّ؛ لأنَّ أعظَمَ الإنذارِ قدْ حصَلَ بما تَقدَّمَ مِن قولِه: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا﴾ [النَّبأ: ٢١، ٢٢] إلى قولِه: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابٗا﴾[٤] [النَّبأ: ٣٠].

- قولُه: ﴿عَذَابٗا قَرِيبٗا﴾ هو عَذابُ الآخِرةِ؛ ووُصِفَ بالقَريبِ لتَحقيقِ إتيانِه حَتْمًا، ولأنَّ مَبدَأَه الموتُ، ولأنَّه قَريبٌ بالنِّسبةِ إليه تعالى وإنْ رَأَوْه بعيدًا، وسَيَرَونَه قريبًا[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٥، ٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦).

- والمَرءُ: اسمٌ للرَّجُلِ؛ إذ هو اسمٌ مُؤنَّثُه امرأةٌ. والاقتصارُ على المرْءِ جَرَى على غالِبِ استعمالِ العرَبِ في كَلامِهم؛ فالكلامُ خرَجَ مَخرَجَ الغالبِ في التَّخاطُبِ[١].

- قَولُه: ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: كَسَبَه في الدُّنيا مِن خَيرٍ وشَرٍّ، وعَبَّرَ بهما -أي: اليدَينِ-؛ لأنَّهما مَحَلُّ القُدرةِ، فكَنَّى بهما عنها، مع أنَّ أكثَرَ ما يُعمَلُ كائِنٌ بهما مُستقِلَّتَينِ به أو مُشارِكتَينِ فيه؛ خيرًا كان أو شَرًّا[٢].

- قولُه: ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ خُصَّ بالذِّكرِ مِن عُمومِ المرْءِ الإنسانُ الكافرُ الَّذي يقولُ: ﴿يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾؛ وذلك تلهُّفٌ وتندُّمٌ على ما قدَّمتْ يداهُ مِن الكُفرِ، وقد كانوا يقولونَ: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩]، فجعَلَ اللهُ عِقابَهم بالتَّحسُّرِ وتمنِّي أنْ يكونوا مِن جِنسِ التُّرابِ[٣].

وخصَّ قولَ الكافرينَ دونَ المؤمنينَ؛ لأنَّ قولَ الكافرينَ دلَّ على غايةِ الخَيبةِ، ونِهايةِ التَّحسُّرِ، ودلَّ حَذْفُ قولِ المؤمنينَ على غايةِ التَّبجُّحِ، ونِهايةِ الفرَحِ ممَّا لا يُحيطُ به الوصفُ[٤].

وعلى القولِ بأنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ٱلْمَرْءُ﴾: الكافرُ؛ لقولِه: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ﴾، فيكونُ ﴿ٱلْكَافِرُ﴾ ظاهرًا وُضِعَ مَوضعَ الضَّميرِ؛ لزِيادةِ الذَّمِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٦١).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٠، ٣٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٥).

- وهذه الآيةُ جامعةٌ لِما جاءَ في السُّورةِ مِن أحوالِ الفَريقينِ، وفي آخِرِها رَدُّ العَجُزِ على الصَّدْرِ[١] مِن ذِكرِ أحوالِ الكافِرينَ الَّذين عُرِفوا بالطَّاغينَ، وبذلك كان خِتامُ السُّورةِ بها بَراعةَ مَقطعٍ[٢].

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨).

وبراعةُ المقطعِ: أن يكونَ آخِرُ الكلامِ مُستعَذبًا حسَنًا؛ لتبقى لَذَّتُه في الأسماع، مُؤذنًا بالانتهاءِ، بحيث لا يبقى للنَّفْسِ تشَوُّفٌ إلى ما وراءَه. يُنظر: ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنويري (٧/ ١٣٥)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٤٤)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٥٦٣).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ النَّازِعاتِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ النَّازِعاتِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (النَّازعاتِ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ النَّازِعاتِ مَكِّيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

تقريرُ أنَّ البَعثَ حَقٌّ، وذِكرُ جانبٍ مِن أهوالِ القيامةِ، والرَّدُّ على المُنكِرينَ للبعثِ، وتهديدُهم وتَرهيبُهم[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- إثباتُ البَعثِ والجَزاءِ.

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لوُقوعِ القَسَمِ الإلهيِّ في أوَّلِها وافتتاحِها به، في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾، ولأنَّه لم يُذكَرْ في غَيرِها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩).

وقيل: تُسمَّى «سورةَ السَّاهرةِ»؛ لوُقوعِ لفظِ «السَّاهرةِ» في أثنائِها، ولم يقَعْ في غيرِها مِن السُّوَرِ. وتُسمَّى «سورةَ الطَّامَّةِ»؛ لوُقوعِ لفظِ «الطَّامَّةِ» فيها، ولم يقَعْ في غيرِها. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٠)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٥٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٢٦١).

٢- الرَّدُّ على المُشرِكينَ المُنكِرينَ لوُقوعِ البَعثِ.

٣- ذِكرُ جانبٍ مِن قِصَّةِ موسى عليه السَّلامُ، وإرسالِه إلى فِرعَونَ.

٤- إقامةُ الأدِلَّةِ على إثباتِ البَعثِ وأنَّه حَقٌّ، وذِكرُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ.

٥- ذِكرُ شَيءٍ مِن أحداثِ الآخِرةِ، وأهوالِ القيامةِ.

٦- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ المتَّقينَ، وسوءِ عاقِبةِ الكافِرينَ.

٧- الإجابةُ على أسئلةِ المُشرِكينَ عن وُقوعِ يومِ القيامةِ، وبيانُ أنَّ مَوعِدَ مَجيءِ هذا اليومِ مَرَدُّه إلى اللهِ وَحْدَه، وأنَّ شأنَ الرَّسولِ أن يُذَكِّرَهم بها، وأنَّها إذا حَلَّت بهم ورَأَوْها كأنَّهم مع طُولِ الزَّمَنِ لم يَلبَثوا إلَّا جُزءًا مِنَ النَّهارِ.

## الآيات (١-١٤)

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ٥ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ٦ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ٧ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ٨ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ٩ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾: أي: الملائكةِ الَّذين يَنزِعونَ أرواحَ الكُفَّارِ عن أبدانِهم نَزْعًا شديدًا، و﴿غَرۡقٗا﴾ اسمُ مَصدرٍ مِن «أغرَقَ»، وأصلُه: إغراقًا، والإغراقُ في الشَّيءِ: المُبالَغةُ فيه والوُصولُ به إلى نهايتِه، يُقالُ: أغرَقَ فُلانٌ في هذا الأمرِ: إذا أوغَلَ فيه، وبَلَغ أقصى غايتِه، وأصلُ (نزع): يدُلُّ على قَلْعِ شَيءٍ، وأصلُ (غرق): يدُلُّ على انتِهاءٍ في شَيءٍ يُبلَغُ أقصاه[1].

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾: أي: الملائكةِ الَّذين يَقبِضُون أرواحَ المؤمِنينَ بسُهولةٍ ورِفْقٍ وسُرْعةٍ؛ مِنَ النَّشْطِ: وهو السُّرعةُ في العَمَلِ، والخِفَّةُ في أخْذِ الشَّيءِ، وأصلُ (نشط): يدُلُّ على اهتِزازٍ وحَرَكةٍ[2].

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾: أي: الملائِكةِ يَنزِلونَ مِن السَّماءِ مُسرِعينَ كالفَرَسِ الجَوَادِ يُقالُ له: سابِحٌ: إذا أسرَعَ في جَرْيِه. وقيل: هم الملائِكةُ يَقبِضونَ أرواحَ المؤمِنينَ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦).

يَسُلُّونَها سَلًّا رفيقًا، ثمَّ يَدَعُونَها حتَّى تستريحَ، كالسَّابِحِ بالشَّيءِ في الماءِ يَرفُقُ به، وأصلُه مِن السَّبْحِ: وهو المَرُّ السَّريعُ(١).

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾: أي: الملائكةِ يَسبِقونَ ابنَ آدَمَ بالخَيرِ والعَمَلِ الصَّالحِ. وقيل: هم الملائكةُ يَسبِقونَ بأرواحِ المؤمِنينَ إلى الجنَّةِ، وأصلُ السَّبقِ: التَّقَدُّمُ في السَّيرِ(٢).

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرًا﴾: الملائِكةِ يَنزِلونَ بالتَّدبيرِ مِن عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وأصلُ (دبر): يدُلُّ على آخِرِ الشَّيءِ، فتدبيرُ الإنسانِ أمْرَه أنَّه يَنظُرُ إلى ما تصيرُ عاقبتُه وآخِرُه(٣).

﴿ٱلرَّاجِفَةُ﴾: أي: الصَّيحةُ، وهي النَّفخةُ الأُولى، وأصلُ (رجف): يدُلُّ على الاضطرابِ الشَّديدِ(٤).

﴿ٱلرَّادِفَةُ﴾: أي: الصَّيحةُ التَّابِعةُ لها، وهي النَّفخةُ الثَّانيةُ، وأصلُ (ردف): يدُلُّ على إتْباعِ الشَّيءِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٣).

﴿وَاجِفَةٌ﴾: أي: خائِفةٌ شَديدةُ الاضطرابِ، يُقالُ: وَجَف قلبُه يَجِفُ وَجِيفًا: إذا اضطَرَب[١].

﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾: أي: أوَّلِ خَلْقِنا، وابتداءِ أمْرِنا، فنَصيرُ أحياءً بَعْدَ الموتِ، يقالُ: رَجَع فُلانٌ في حافِرتِه، أي: رَجَع مِن حيثُ جاء، والحافِرةُ عندَ العَرَبِ: اسمُ أوَّلِ الشَّيءِ، وابتِداءِ الأمرِ، وأصلُ (حفر) هنا: أوَّلُ الأمرِ[٢].

﴿نَّخِرَةً﴾: أي: باليةً مُتفَتِّتةً، وأصلُ (نخر): يدُلُّ على صَوتٍ؛ لأنَّ هذه العِظامَ البالِيةَ خلا ما فيها، فصار الهواءُ يَنخِرُ فيها، أي: يَصُوتُ[٣].

﴿كَرَّةٌ﴾: أي: رَجْعَةٌ وإعادةٌ، والكَرُّ: الرُّجوعُ إلى الشَّيءِ[٤].

﴿زَجْرَةٌ﴾: أي: صَيحةٌ بشِدَّةٍ وانتِهارٍ، وهي النَّفخةُ في الصُّورِ للبعثِ، وأصلُ (زجر): يدُلُّ على طَردٍ بصَوتٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٧٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٨٤، ٨٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٩/ ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٥٣)، =

﴿بِٱلسَّاهِرَةِ﴾: أي: وَجهِ الأرضِ وظَهْرِها، وهي أرضٌ مُسْتَويةٌ بَيضاءُ لا نَباتَ فيها، يَجعَلُها اللهُ تعالى لجَمعِ النَّاسِ للحَشْرِ، وُصِفَتْ بما يقَعُ فيها، وهو السَّهَرُ، وأصلُ (سهر): يدُلُّ على ذَهابِ النَّومِ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ۝ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ۝ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۝ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ۝ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾

قَولُه تعالى: ﴿غَرۡقٗا﴾: مَصدَرٌ مُؤَكِّدٌ بحَذفِ الزَّوائدِ، أي: إغراقًا في النَّزعِ مِن أقاصي الأجسادِ، والنَّاصِبُ له ما قَبْلَه؛ لِمُلاقاتِه له في المعنى، أو مَنصوبٌ على الحالِ، أي: ذواتِ إغْراقٍ.

وانتِصابُ ﴿نَشۡطٗا﴾ و﴿سَبۡحٗا﴾ و﴿سَبۡقٗا﴾ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ، وأمَّا انتِصابُ ﴿أَمۡرٗا﴾ فعلى المفعوليَّةِ لاسمِ الفاعِلِ «المُدَبِّراتِ».

قَولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ﴾: ظَرفُ زَمانٍ مَنصوبٌ بفِعلٍ مُقدَّرٍ، هو جوابُ القَسَمِ تقديرُه: لَتُبعَثُنَّ؛ لدَلالةِ ما بعدَه عليه، أي: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ...﴾ إلخ: لَتُبعَثُنَّ يَوْمَ...[2].

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣).

قال الفراءُ: (كأنَّها سُمِّيت بهذا الاسمِ؛ لأنَّ فيها الحيوانَ: نومَهم، وسهرَهم). ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٢)..

وقال الواحدي: (وقال غيرُه [أي: غيرُ الفراءِ] مِن أهلِ المعاني: العربُ تسمِّي وجهَ الأرضِ مِن الفلاةِ: «ساهرةً»، أي: ذاتَ سَهَرٍ؛ لأنَّه يُسهَرُ فيها خوفًا منها). ((البسيط)) (٢٣/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٦٧، ٦٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٢٤).

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقْسِمًا على وُقوعِ البَعْثِ بلا شَكٍّ، فأقسَمَ بالملائِكةِ الَّتي تَنزِعُ أرواحَ الكُفَّارِ مِن أبْدانِهم نَزْعًا شَديدًا، وبالملائكةِ الَّتي تَقبِضُ أرواحَ المؤمِنينَ بسُهولةٍ ورِفْقٍ وسُرْعةٍ، وبالملائكةِ الَّتي تَسبَحُ في أجواءِ السَّمَواتِ وآفاقِ الأرضِ بأمرِ اللهِ تعالى، وبالملائكةِ الَّتي تُسارِعُ إلى تنفيذِ أمرِ اللهِ تعالى، وبالملائكةِ الَّتي تُدَبِّرُ ما وكَّلَها اللهُ بتَدبيرِه؛ لَتُبعَثُنَّ أيُّها النَّاسُ.

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى أهوالَ يومِ القيامةِ، فقال: يومَ تَضطَرِبُ الأرضُ وتَتزلزَلُ، فتَتبَعُ تلك الرَّجفةَ رَجفةٌ أُخرى تأتي بَعْدَها، فتَضطرِبُ قُلوبُ الكُفَّارِ المكَذِّبينَ في ذلك اليَومِ؛ مِن شِدَّةِ أهوالِه، وتكونُ أبصارُهم ذَليلةً مُنكَسِرةً.

ثمَّ حكى ما كان يقولُه المكذِّبونَ في الدُّنيا إنكارًا للبعثِ، فقال: يقولُ المكَذِّبونَ بالبَعْثِ: أنَعودُ أحياءً بَعْدَ مَوتِنا، ونُبعَثُ مِن قُبورِنا؟ كيف نُبعَثُ أحياءً إذا صِرْنا عِظامًا بالِيةً مُتفَتِّتةً؟ قالوا: إنْ حصَلَت تلك الرَّجعةُ بَعْدَ الموتِ فنحن خاسِرونَ إذَنْ.

ثمَّ قال الله تعالى ردًّا عليهم: فإنَّما هي صَيحةٌ واحِدةٌ بلا تَكرارٍ، فإذا النَّاسُ قِيامٌ مِن قُبورِهم أحياءً على ظَهْرِ أرضِ المحشَرِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالملائِكةِ الَّتي تَنزِعُ أرواحَ الكُفَّارِ مِن أبْدانِهم بشِدَّةٍ[1].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٣-١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٩). =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

وعن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((... وإنَّ العَبْدَ الكافِرَ إذا كان في انقِطاعٍ مِن الدُّنيا وإقبالٍ مِن الآخرةِ، نزل إليه مِنَ السَّماءِ مَلائِكةٌ سُودُ الوُجوهِ، معهم المُسُوحُ[(١)]، فيَجلِسونَ منه مَدَّ البَصَرِ،

= وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: الواحديُّ، والقرطبي، وابن القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال الواحدي: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّ هذا قَسَمٌ بمَلَكِ الموتِ وأعوانِه مِن الملائكةِ الَّذين يَنزِعونَ أرواحَ الكُفَّارِ عن أبدانِهم، وهو قَولُ عَليٍّ رضي الله عنه، ومسروقٍ، ومُقاتِلٍ، وأبي صالحٍ، وعطيَّةَ). ((البسيط)) (٢٣/ ١٥٥).

وقال ابن كثير: (قال ابنُ مسعودٍ، وابنُ عبَّاسٍ، ومسروقٌ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وأبو صالحٍ، وأبو الضُّحى، والسُّدِّيُّ: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾ الملائكة، يَعْنُونَ: حينَ تَنزِعُ أرواحَ بني آدَمَ، فمِنهم مَن تأخُذُ رُوحَه بعُنفٍ فتغرقُ في نَزعِها، ومِنهم مَن تأخُذُ رُوحَه بسهولةٍ وكأنَّما حَلَّتْهُ مِن نشاطٍ، وهو قولُه: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾، قاله ابنُ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٢).

وذكر ابنُ جريرٍ الخِلافَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا﴾، وأنَّ مِن المفسِّرينَ مَن قال: هم الملائكةُ الَّتي تَنْزِعُ نُفوسَ بني آدَمَ، والمَنْزوعُ نُفوسُ الْآدَمِيِّينَ. ومِنهم مَن قال: هو الموتُ يَنزِعُ النُّفوسَ. ومنهم مَن قال: هي النُّجومُ تَنزِعُ مِن أُفُقٍ إلى أُفُقٍ. ومنهم مَن قال: هي القِسِيُّ تَنزِعُ بالسَّهْمِ. ومنهم مَن قال: هي النَّفْسُ حِينَ تُنزَعُ. ثمَّ قال: (والصَّوابُ مِن القَولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكرُه أقسَمَ بالنَّازِعاتِ غَرْقًا، ولم يَخْصُصْ نازِعةً دونَ نازعةٍ، فكُلُّ نازعةٍ غَرْقًا فداخِلةٌ في قَسَمِه؛ مَلَكًا كان، أو مَوتًا، أو نَجمًا، أو قَوسًا، أو غيرَ ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١-٦٣).

(١) المُسوحُ: جمعُ المِسْحِ: وهو اللِّباسُ الخَشِنُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٩).

ثمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوتِ، حتَّى يَجلِسَ عندَ رأسِه، فيقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الخبيثةُ، اخرُجي إلى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وغَضَبٍ، فتفَرَّقُ في جَسَدِه، فيَنتَزِعُها كما يُنتَزَعُ السَّفُّودُ مِن الصُّوفِ المَبلولِ[١]! فيأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفَةَ عَينٍ حتَّى يَجعَلوها في تِلكَ المُسوحِ، ويَخرُجُ منها كأنتَنِ رِيحِ جيفةٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ! فيَصعَدونَ بها))[٢].

﴿وَٱلنَّشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الشَّدَّ مُبتَدِئًا به لأنَّه أهوَلُ؛ أتْبَعَه الرِّفْقَ، فقال[٣]:

﴿وَٱلنَّشِطَٰتِ نَشۡطٗا ٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالملائِكةِ الَّتي تَقبِضُ أرواحَ المؤمِنينَ بسُهولةٍ ورِفْقٍ، وسُرْعةٍ وخِفَّةٍ[٤].

---

(١) السَّفُّودُ: الحديدةُ الَّتي يُشوى عليها اللَّحمُ، فيَبقَى معها بقيَّةٌ مِن المحروقِ، فيَستصحِبُ عندَ الجذبِ شيئًا مِن ذلك الصُّوفِ مع قُوَّةٍ وشِدَّةٍ. يُنظر: ((شرح الطِّيبي على مشكاة المصابيح)) (٤/ ١٣٨١)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٨).

(٢) أخرجه ابن أبي شَيْبَةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمدُ (١٨٥٣٤)، والطَّيالسيُّ (٧٨٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقارِبةٍ.
صحَّح إسنادَه ابنُ جرير في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وقال ابنُ مَنْدَه في ((الإيمان)) (٣٩٨): (إسنادُه مُتَّصِلٌ مشهورٌ ثابتٌ على رَسمِ الجماعةِ). وصحَّح الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٨، ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٩).
وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ القيِّم، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عثيمين.
يُنظر: المصادر السَّابقة. =

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ المؤمِنَ إذا كان في انْقِطاعٍ مِنَ الدُّنْيا، وإقْبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهمُ الشَّمسُ، معَهم كَفَنٌ مِن أكْفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ[1] مِن حَنُوطِ الجنَّةِ، حتَّى يَجْلِسوا منه مَدَّ البَصَرِ، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ، حتَّى يَجلِسَ عندَ رأْسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخْرُجي إلى مَغفِرةٍ مِنَ اللهِ ورِضْوانٍ. فتَخرُجُ تَسِيلُ كما تَسيلُ القَطْرةُ مِن فِي السِّقَاءِ، فيأْخُذُها))[2].

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر نَوعَيِ السَّلِّ بالشِّدَّةِ والرِّفْقِ؛ ذكَرَ فِعْلَ الملائكةِ أيضًا في الجَوِّ بعدَ

= وذكَرَ ابنُ جريرٍ الخِلافَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾، وأنَّ مِن المفسِّرينَ مَن قال: هم الملائكةُ، تَنْشِطُ نفْسَ المُؤْمِنِ فتَقْبِضُها، كما يُنشَطُ العِقالُ مِن البعيرِ إذا حُلَّ عنه، ومنهم مَن قال: هو الموتُ يَنْشِطُ نفْسَ الإنسانِ، ومنهم مَن قال: هي النُّجومُ تَنْشِطُ مِن أُفُقٍ إلى أُفُقٍ... إلى غيرِ ذلك، ثمَّ قال: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤه أقسَمَ بالنَّاشِطاتِ نَشْطًا، وهي الَّتي تَنشِطُ مِن مَوضِعٍ إلى مَوضِعٍ، فتذهَبُ إليه، ولم يَخْصُصِ اللهُ بذلك شيئًا دونَ شَيءٍ، بل عَمَّ القَسَمَ بجميعِ النَّاشِطاتِ، والملائكةُ تَنشِطُ مِن موضِعٍ إلى موضِعٍ، وكذلك الموتُ، وكذلك النُّجومُ والأوهاقُ [حبلٌ تُشَدُّ به الإبلُ والخيلُ لئلَّا تَنفِرَ وتشرُدَ] وبَقَرُ الوَحشِ أيضًا تَنشِطُ، فكُلُّ ناشطٍ فداخِلٌ فيما أقسَمَ به، إلَّا أن تقومَ حُجَّةٌ يَجِبُ التَّسليمُ لها بأنَّ المَعْنِيَّ بالقَسَمِ مِن ذلك بَعضٌ دونَ بَعضٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١، ٦٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣).

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٣/ ١١٧٦).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٢٨).

التَّهَيُّؤِ للطَّيرانِ، في إقبالِها إليه ورُجوعِها عنه، فقال[١]:

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بالملائكةِ الَّتي تَسبَحُ في أجواءِ السَّمَواتِ وآفاقِ الأرضِ بأمرِ اللهِ تعالى[٢].

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ٤﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تُسارِعُ إلى تنفيذِ أمرِ اللهِ تعالى بلا تأخُّرٍ ولا إبطاءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٥، ١٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٠).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: الفَرَّاءُ، وابنُ القيِّم، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وذكَرَ ابنُ جريرٍ الخِلافَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾، وأنَّ مِن المفسِّرينَ مَن قال: هو الموتُ يَسْبَحُ في نَفْسِ ابنِ آدَمَ. ومنهم مَن قال: هي النُّجومُ تَسْبَحُ في فَلَكِها. ومنهم مَن قال: هي السُّفُنُ، ثمَّ قال: (الصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك عندي أن يُقالَ: إنَّ اللهَ جَلَّ ثناؤُه أقسَمَ بالسَّابحاتِ سَبْحًا مِن خَلْقِه، ولم يَخْصُصْ مِن ذلك بعضًا دونَ بَعضٍ، فذلك كلُّ سابحٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣-٦٤).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤١).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكورِ: ابنُ القيِّم، والبِقاعي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وذكَرَ ابنُ جريرٍ الخِلافَ في قولِه تعالى: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾، وأنَّ مِن المفسِّرينَ مَن قال: هي الملائكةُ. ومِنهم مَن قال: هي للخيلِ السَّابقةِ. ومنهم من قال: بل هي النُّجومُ يَسْبِقُ بعضُها بعضًا في السَّيْرِ. وذهب ابنُ جريرٍ إلى أنَّ القَسَمَ يَعُمُّ كُلَّ سابقٍ لِغَيرِه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٣، ٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٤).

﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾.

أي: فالملائِكةِ الَّتي تُدَبِّرُ ما وكَّلَها اللهُ بتَدبيرِه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ٦٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤١).

وقد حكى ابنُ عطيَّةَ والرَّازيُّ وابنُ القَيِّمِ الإجماعَ على أنَّ (الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا): الملائكةُ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٤٦).

ونسَبَ الماوَرْديُّ هذا القَولَ إلى الجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٤).

قال ابن كثير: (قوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ قال عليٌّ، ومجاهِدٌ، وعَطاءٌ، وأبو صالحٍ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ، والسُّدِّيُّ: هي الملائكةُ -زاد الحسَنُ: تُدَبِّرُ الأمرَ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ. يعني: بأمرِ ربِّها عزَّ وجلَّ. ولم يَختَلِفوا في هذا، ولم يَقطَعِ ابنُ جريرٍ بالمرادِ في شيءٍ مِن ذلك، إلَّا أنَّه حكى في ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ أنَّها الملائكةُ، ولا أثبتَ ولا نفَى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤).

وقال ابنُ القيِّم: (هي الملائِكةُ عندَ أهلِ الإيمانِ وأتْباعِ الرُّسُلِ عليهم السَّلامُ، وأمَّا المكَذِّبونَ للرُّسُلِ المنكِرونَ للصَّانعِ فيقولون: هي النُّجومُ... وقد دَلَّ الكِتابُ والسُّنَّةُ على أصنافِ الملائكةِ، وأنَّها موكَّلةٌ بأصنافِ المخلوقاتِ،... والمقصودُ: أنَّ اللهَ سُبحانَه وكَّل بالعالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ ملائكةً، فهي تدَبِّرُ أمرَ العالَمِ بإذْنِه ومشيئتِه وأمْرِه). ((إغاثة اللهفان)) (٢/ ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠).

ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ١٩٣).

وقال البِقاعي: (يَصِحُّ أن يكونَ [يعني: الأقسامَ المذكورةَ] للشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ والرِّياحِ والخَيلِ؛ السَّابحةِ في الأرضِ والجَوِّ؛ لِمَنفعةِ العِبادِ وتدبيرِ أُمورِهم، وبعضُها سابقٌ لبعضٍ، وبه قال بَعضُ المفَسِّرينَ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٢٠).

وجوابُ القَسَمِ قِيلَ: محذوفٌ للعِلْمِ به، وهو: لَتُبعَثُنَّ. وممَّن ذهب إلى هذا التَّقديرِ: الفَرَّاءُ، والواحديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٤).

وقال ابنُ القيِّم: (جوابُ القَسَمِ محذوفٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، وهو البَعْثُ المستلزِمُ لصِدقِ الرَّسولِ وثُبوتِ القُرآنِ، أو أنَّه مِنَ القَسَمِ الَّذي أُريدَ به التَّنبيهُ على الدَّلالةِ والعِبرةِ بالمُقسَمِ به دونَ أن =

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾.

أي: يومَ تَضطَرِبُ الأرضُ وتَتزلزَلُ[١].

﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾.

أي: تَتبَعُ تلك الرَّجفةَ رَجفةٌ أُخرى تأتي بَعْدَها[٢].

عن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا

---

= يُرادَ به مُقْسَمٌ عليه بعَينِه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٣٩).

وقيل: جوابُ القَسَمِ هو قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٦]. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٤).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥).

قال ابن عاشور: (وصريحُ الكلامِ موعظةٌ. والمقصودُ منه لازِمُه، وهو وُقوعُ البعثِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٦، ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٧).

قال الماوَرْدي: (﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ وفيهما ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: أنَّ الرَّاجِفةَ: القيامةُ، والرَّادِفةَ: البَعثُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ.

الثَّاني: أنَّ الرَّاجِفةَ: النَّفْخةُ الأُولى تُميتُ الأحياءَ، والرَّادِفةَ: النَّفخةُ الثَّانيةُ تُحْيي الموتى. قاله الحسَنُ وقَتادةُ... وقال عِكْرِمةُ: الأُولى: مِنَ الدُّنيا، والثَّانيةُ: مِنَ الآخرةِ.

الثَّالثُ: أنَّ الرَّاجِفةَ: الزَّلزلةُ الَّتي ترجفُ الأرضَ والجبالَ، والرَّادِفةَ: إذا دُكَّتا دكَّةً واحدةً. قاله مجاهِدٌ.

ويحتَمِلُ رابعًا: أنَّ الرَّاجِفةَ: أشراطُ السَّاعةِ، والرَّادِفةَ: قيامُها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٤، ١٩٥).

وكثيرٌ مِن المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالرَّاجِفةِ: النَّفخةُ الأُولى، وبالرَّادِفةِ: النَّفخةُ الثَّانيةُ. ومنهم: ابنُ جرير، والبِقاعي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٢، ٢٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).

ذَهَب ثُلُثَا اللَّيلِ قام فقال: يا أيُّها النَّاسُ، اذكُروا اللهَ، اذكُروا اللهَ، جاءت الرَّاجِفةُ، تَتْبَعُها الرَّادِفةُ، جاء الموتُ بما فيه، جاء الموتُ بما فيه))[١].

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾.

أي: قُلوبُ الكُفَّارِ المكَذِّبينَ في ذلك اليَومِ شَديدةُ الخَوفِ والاضطرابِ والقَلَقِ مِن شِدَّةِ أهوالِه[٢].

﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾.

أي: تكونُ أبصارُ أولئك الكُفَّارِ ذَليلةً مُنكَسِرةً لا تكادُ تُحَدِّقُ بها وتَنظُرُ[٣].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿خَـٰشِعَةً أَبْصَـٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤].

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ ۝١٠﴾.

أي: يقولُ المكَذِّبونَ بالبَعثِ: أنَعودُ أحياءً بعْدَ مَوتِنا، ونُبعَثُ مِن قُبورِنا[٤]؟

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٢٤٥٧) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٢١٢٤١) مختصرًا.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وحَسَّنه ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (٢/ ٣٤٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).
قال القرطبي: (أي: خائِفةٌ وَجِلةٌ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وعليه عامَّةُ المفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٨).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠)، ((الوسيط)) =

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾﴾.

أي: كيف نُبعَثُ أحياءً بعْدَ مَوتِنا إذا صِرْنا عِظامًا بالِيةً مُتفَتِّتةً[1]؟!

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٤٩].

﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴿١٢﴾﴾.

أي: قال أولئك المكَذِّبونَ: إنْ حصَلَت تلك الرَّجعةُ المزعومةُ إلى الحياةِ بعْدَ الموتِ فنحن خاسِرونَ إذَنْ[2].

---

= للواحدي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٦، ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٩، ٧٠).

قال ابن جُزَي: (اختلَفوا في معنى ﴿ٱلۡحَافِرَةِ﴾ على ثلاثةِ أقوالٍ:

أَحَدُها: أنَّها الحالةُ الأُولى. يقال: رَجَع فلانٌ في حافرتِه: إذا رجَع إلى حالتِه الأولى، فالمعنى: أَإِنَّا لَمَرْدودون إلى الحياةِ بعدَ الموتِ؟

والآخَرُ: أنَّ الحافِرةَ الأرضُ، بمعنى محفورةٍ، فالمعنى: أَإِنَّا لَمَرْدودون إلى وَجهِ الأرضِ بعدَ الدَّفنِ في القبورِ؟

والثَّالثُ: أنَّ الحافِرةَ: النَّارُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٩، ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧١، ٧٢).

قيل: وَجهُ الخَسارةِ هنا أنَّهم صائِرونَ إلى النَّارِ. وممَّن قال بهذا المعنى: مكِّيٌّ، وابنُ عطيَّة، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٧).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣). =

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾﴾.

أي: فإنَّما هي صَيحةٌ واحِدةٌ ونَفخةٌ تُنفَخُ في الصُّورِ بلا تَكرارٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الصافات: ١٩].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

= ومِن المفسِّرينَ مَن عبَّر عن معنى الخسارةِ في الآيةِ بقولِه: لَنَخسَرَنَّ بما يُصيبُنا بعدَ الموتِ. ومنهم: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤١٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٣).

وقيل: إنَّهم قالوا ذلك استِهزاءً منهم، والمعنى: أنَّها إنْ صحَّتْ فنحن إذَنْ خاسِرونَ؛ لتكذيبِنا بها. وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والنسفي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

قال البقاعي: (﴿فَإِنَّمَا هِيَ﴾ أي: القيامةُ ﴿زَجْرَةٌ﴾ أي: صَيحةٌ بانتِهارٍ تتضَمَّنُ الأمرَ بالقيامِ، والسَّوقَ إلى المحشَرِ، والمنعَ مِنَ التخَلُّفِ ﴿وَاحِدَةٌ﴾). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٢٦).

قال ابنُ كثيرٍ: (فإنَّما هو أمرٌ مِن الله لا مثنويةَ فيه، ولا تأكيد، فإذا النَّاسُ قيامٌ ينظرونَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٤).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ وهذا كقولِه تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]. يعني أنَّ الله إذا أراد شيئًا إنَّما يقولُ له: «كنْ» مرةً واحدةً فقط فيكونُ، ولا يتأخَّرُ هذا عن قولِ الله لحظةً ﴿كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ والله عزَّ وجلَّ لا يعجزُه شيءٌ). ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ٤٢).

وقال ابن عاشور: (وهذه الزَّجْرةُ هي النَّفخةُ الثَّانيةُ الَّتي في قولِه تعالَى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، فهي ثانيةٌ للَّتي قَبْلَها، وهي الرَّادِفةُ الَّتي تَقَدَّم ذِكْرُها آنِفًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٢٩٧).

وقد اختُلِف في عددِ النَّفخاتِ في الصُّور، يُنظر ما يأتي (ص: ٣٨).

وسلَّم: ((... يَصْعَقُ النَّاسُ، ثمَّ يُرسِلُ اللهُ -أو قال: يُنزِلُ اللهُ- مطَرًا كأنَّه الطَّلُّ أو الظِّلُّ، فتَنبُتُ منه أجسادُ النَّاسِ، ثمَّ يُنفَخُ فيه أُخرى، فإذا هم قِيامٌ يَنظُرونَ، ثمَّ يُقالُ: يا أيُّها النَّاسُ، هَلُمَّ إلى رَبِّكم))[١].

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ١٤﴾.

أي: فإذا النَّاسُ قِيامٌ مِن قُبورِهم أحياءً على ظَهْرِ أرضِ المحشَرِ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ عَبَّرَ بالزَّجْرِ، وهو أشَدُّ مِنَ النَّهْيِ؛ لأنَّه يكونُ للعَرْضِ؛ لأنَّها صيحةٌ لا يتخَلَّفُ عنها القيامُ أصلًا، فكان كأنَّ لِسانَ الحالِ قال عن تلك الصَّيحةِ: أيُّها الأجسادُ الباليةُ، انتهي عن الرُّقادِ، وقُومي إلى الميعادِ، بما حَكَمْنا به مِنَ المَعادِ، فقد انتهى زمانُ الحَصادِ، وآنَ أوانُ الاجتناءِ لِما قُدِّم مِنَ الزَّادِ، فيا وَيْلَ مَن ليس له زادٌ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ المرادُ بالنَّازِعاتِ وما عُطِفَ عليه: الملائِكةُ، وذُكِروا بلَفظِ التَّأنيثِ مع أنَّهم ليسُوا إناثًا؛ لأنَّه تعالى أقسَمَ بطَوائِفِها، والطَّائِفةُ

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).

قال الواحدي: (﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ يعني: وَجْهَ الأرضِ وظَهْرَها في قَولِ الجَميعِ). ((الوسيط)) (٤/ ٤١٩).

وقال القرطبي: (العَرَبُ تُسَمِّي الفَلاةَ ووَجهَ الأرضِ ساهِرةً). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٧).

مُؤَنَّثَةٌ[١].

٢- إنَّ كُلَّ حَرَكةٍ في السَّمَواتِ والأرضِ مِن حَرَكاتِ الأفلاكِ، والنُّجومِ، والشَّمسِ، والقَمَرِ، والرِّياحِ، والسَّحابِ، والنَّباتِ، والحَيوانِ: هي ناشئةٌ عن الملائكةِ الموكَّلينَ بالسَّمَواتِ والأرضِ، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، وقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾[٢] [الذاريات: ٤].

٣- قد وكَّل الله عزَّ وجلَّ ملائكةً بالعالَمِ العُلْويِّ والسُّفْليِّ؛ فهي تقومُ بتدبيرِ أمرِ العالَمِ بإذْنِه تعالى ومَشيئتِه وأَمْرِه؛ فلهذا يُضيفُ التَّدبيرَ إلى الملائكةِ تارةً؛ لِكَونِهم هم المباشِرينَ للتَّدبيرِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾، ويضيفُ التَّدبيرَ إليه، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]، وقَولِه تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٣١]؛ فهو سُبحانَه المُدَبِّرُ؛ أَمْرًا وإذْنًا ومشيئةً، والملائكةُ المُدَبِّراتُ؛ مُباشَرةً وامتِثالًا[٣].

٤- قولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ احتَجَّ به مَن يقولُ بأنَّ عددَ النَّفخِ نَفْخَتانِ[٤]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٦).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (٨/ ١٤٠).

وقد اختَلَف العُلَماءُ في عدَدِ النَّفَخاتِ في الصُّورِ على أقْوالٍ؛ فقيلَ: هُما نَفْخَتانِ: نَفْخةُ الفزَعِ والصَّعقِ، ونَفْخةُ البَعثِ. وممَّن ذهَبَ إلى هذا القَولِ: ابنُ جَريرٍ، والقُرطبيُّ، والسعديُّ، وابنُ باز، وابنُ عُثَيْمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٠/ ٢٥٤)، ((التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة)) للقرطبي (ص: ٤٩٠، ٤٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٧٢٩)، ((فتاوى نور على =

٥- قال تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، فقلوبُ الكفَّارِ ﴿وَاجِفَةٌ﴾، أي: خائفةٌ خَوفًا شديدًا. وأمَّا القِسمُ الثَّاني فقلوبُهم على عكسِ قُلوبِ هؤلاء، ويدُلُّ لهذا التَّقسيمِ قَولُه تعالى: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ﴾ بصيغةِ النَّكِرةِ، فيكونُ المعنى: وقلوبٌ على عكسِ ذلك[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ أنَّه جلَّ وعَلَا مِن قُوَّتِه وقُدْرَتِه: يَبعَثُ النَّاسَ كنَفْسٍ واحِدةٍ، فهو جلَّ وعَلَا له القُوَّةُ البالِغةُ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ابتُدِئ بالقَسَمِ بمَخلوقاتٍ ذاتِ صِفاتٍ عَظيمةٍ قسَمًا مُرادًا منه تحقيقُ ما بعْدَه مِن الخَبرِ، وفي هذا القسَمِ تهويلُ المقسَمِ به[٣].

- وفي هذه الصِّفاتِ إجمالٌ مَقصودٌ؛ لِتَذهَبَ أفهامُ السَّامِعينَ كلَّ مَذهَبٍ ممكِنٍ، فتكثُرَ خُطورُ المعاني في الأذهانِ، وتَتكرَّرَ الموعظةُ والعِبرةُ باعتبارِ

---

= الدرب)) لابن باز (٤/ ٣٢٨)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٦٧).

وقيل: هي ثَلاثُ نَفَخاتٍ، وهي: نفخةُ الفزَعِ، ونفخةُ الصَّعقِ، ونفخةُ البعثِ. وممَّن قال بذلك: ابنُ تَيميَّةَ، وابنُ كثير. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٢٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٧/ ١١٦).

وقيل: هي أربعُ نَفَخاتٍ: اثنتانِ قبْلَ يومِ القيامةِ، واثنتانِ في يومِ القيامةِ؛ فأمَّا النَّفختانِ قبْلَ القيامةِ فهُما نفخةٌ للموتِ، ونفخةٌ للبعثِ. وأمَّا النَّفختانِ يومَ القيامةِ: فنَفخةُ الفَزَعِ والصَّعقِ الَّتي يغشى فيها الخلائق -ولا يموتون- إلَّا مَن شاء اللهُ، ثمَّ نفخةٌ أخرى لقيامِهم وإفاقتِهم. وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (١٦/ ٥٥٢-٥٥٣، ٥٥٨، ٥٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٢).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠).

وَقْعِ كلِّ معنًى في نفْسٍ له فيها أشدُّ وَقْعٍ، وذلك مِن وَفرةِ المَعاني مع إيجازِ الألفاظِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ وصْفٌ مُشتَقٌّ مِن النَّزْعِ، ومعاني النَّزعِ كثيرةٌ، كلُّها تَرجِعُ إلى الإخراجِ والجَذبِ، وأقسَمَ اللهُ بالملائكةِ؛ لأنَّها مِن أشرَفِ المخلوقاتِ، وخَصَّها بهذا الوَصفِ الَّذي هو مِن تصَرُّفاتِها تَذكيرًا للمُشركينَ؛ إذْ هم في غفلةٍ عن الآخِرةِ وما بعْدَ الموتِ، ولأنَّهم شديدٌ تعلُّقُهم بالحياةِ؛ ففي القسَمِ بملائكةِ قبْضِ الأرواحِ عِظةٌ لهم وعِبرةٌ، والقسَمُ على هذا الوجهِ مناسِبٌ للغرَضِ الأهمِّ مِن السُّورةِ، وهو إثباتُ البعثِ؛ لأنَّ الموتَ أوَّلُ منازلِ الآخرةِ، فهذا مِن براعةِ الاستهلالِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا﴾ عَطفُها على النَّازعاتِ عطفُ نوعٍ على نوعٍ، أو عطفُ صِنفٍ على صِنفٍ[٣].

- و﴿سَبْحًا﴾ مَصدرٌ مؤكِّدٌ؛ لإفادةِ التَّحقيقِ، مع التَّوسُّلِ إلى تَنوينِه للتَّعظيمِ[٤].

- وأُكِّد (السَّابِقَاتِ) بالمصدرِ المرادفِ لمعناهُ -وهو ﴿سَبْقًا﴾-؛ للتَّأكيدِ، ولدَلالةِ التَّنكيرِ على عِظَمِ ذلك السَّبْقِ[٥].

- قولُه: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ التَّدبيرُ: جَوَلانُ الفِكْرِ في عواقبِ الأشياءِ، وبإجراءِ الأعمالِ على ما يليقُ بما تُوجَدُ له، فإنْ كانتِ السَّابحاتُ جماعاتِ الملائكةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٢).
وبراعةُ الاستِهلالِ تقدم تعريفُه (ص: ١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

فمعنى تدبيرِها: تنفيذُ ما نِيطَ بعُهدتِها على أكمَلِ ما أُذِنَتْ به، فعُبِّر عن ذلك بالتَّدبيرِ للأمورِ؛ لأنَّه يُشبِهُ فِعلَ المُدبِّرِ المتثبِّتِ[١].

- والفاءُ في ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا ۞ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾؛ للدَّلالةِ على تَرتُّبِهما على ما قبْلَهما بغيرِ مُهلةٍ[٢].

- قولُه: ﴿أَمۡرٗا﴾ الأمرُ: الشَّأنُ والغرَضُ المهِمُّ، وتنوينُه وتنكيرُه للتَّهويلِ والتَّفخيمِ والتَّعظيمِ. وإفرادُ الأمْرِ لإرادةِ الجنسِ، أي: أمورًا[٣].

- والعطفُ مع اتِّحادِ الكلِّ؛ لتَنزيلِ التَّغايُرِ العُنوانيِّ مَنزلةَ التَّغايُرِ الذَّاتيِّ؛ للإشعارِ بأنَّ كلَّ واحدٍ مِن الأوصافِ المعدودةِ مِن معظَّماتِ الأمورِ حقيقٌ بأنْ يكونَ على حِيالِه مناطًا لاستحقاقِ مَوصوفِه للإجلالِ والإعظامِ بالإقسامِ به مِن غيرِ انضمامِ الأوصافِ الأُخَرِ إليه[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۞ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ ۞ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾

- قولُه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ إلى ﴿خَٰشِعَةٞ﴾ قيل: هو جوابُ القَسَمِ، والمرادُ بقولِه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ هو يومُ القِيامةِ؛ لأنَّه قد عُرِفَ بمِثلِ هذه الأحوالِ في آياتٍ كثيرةٍ ممَّا سبَقَ نُزولُه، مِثل قولِه: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [الواقعة: ٤]؛ فكان في هذا الجوابِ تهويلٌ ليومِ البعثِ، وفي طيِّه تَحقيقُ وُقوعِه، فحصَلَ إيجازٌ في الكلامِ جامِعٌ بيْنَ الإنذارِ بوُقوعِه، والتَّحذيرِ ممَّا يَجري فيه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٥، ٩٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٥، ٦٦).

وقيلَ: المُقسَمُ عليه مَحذوفٌ؛ تَعْويلًا على إشارةِ ما قبْلَه مِن المقسَمِ به إليه، ودَلالةِ ما بعدَه مِن أحوالِ القيامةِ عليه، وهو (لَتُبعثُنَّ)؛ فإنَّ الإقسامَ بمَنْ يَتولَّى نزْعَ الأرواحِ ويقومُ بتدبيرِ أُمورِها يُلَوِّحُ بكونِ المقسَمِ عليهِ مِن قَبيلِ تلكَ الأمورِ لا مَحالةَ، وفيهِ مِنَ الجزالةِ ما لا يَخْفى[١].

- وجُعِلَ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ ظرفًا للمُقسَمِ عليه المضمَرِ الَّذي هو (لَتُبعثُنَّ)، وهم لا يُبعَثونَ عندَ النَّفخةِ الأُولى؛ لأنَّ المعنى: لَتُبعثُنَّ في الوقتِ الواسعِ الَّذي يقَعُ فيه النَّفختانِ، وهم يُبعَثونَ في بعضِ ذلك الوقتِ الواسعِ، وهو وقتُ النَّفخةِ الأُخرى، ودَلَّ على ذلك أنَّ قولَه: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ جُعِل حالًا عن الرَّاجِفةِ، ويجوزُ أنْ يَنتصِبَ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ بما دلَّ عليه ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾، أي: يومَ تَرجُفُ وجَفَتِ القلوبُ[٢].

وقيلَ: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ منصوبٌ بـ(اذْكُرْ)، فتكونُ الجملةُ استِئنافًا مُقرِّرًا لمضمونِ الجوابِ المُضْمَرِ، كأنَّه قيلَ لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اذكُرْ لهم يومَ النَّفختَينِ؛ فإنَّه وقتُ بَعْثِهم[٣].

وقيل: قولُه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ ظرْفٌ متعلِّقٌ بـ﴿وَاجِفَةٌ﴾، فآلَ إلى أنَّ المُقسَمَ عليه المرادَ تحقيقُه هو وُقوعُ البَعثِ بأسلوبٍ أَوقَعَ في نُفوسِ السَّامِعينَ المُنكِرينَ مِن أسلوبِ التَّصريحِ بجوابِ القسَمِ؛ إذ دلَّ على المقسَمِ عليه بعضُ أحوالِه الَّتي هي

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٢، ٣٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٦).

مِن أهوالِه؛ فكان في جوابِ القَسَم إنذارٌ. وقُدِّم الظَّرفُ على مُتعلَّقِه ﴿وَاجِفَةٌ﴾؛ لأنَّ ذلك الظَّرفَ هو الأهمُّ في جوابِ القسَمِ؛ لأنَّ المقصودَ إثباتُ وُقوعِه؛ فتقديمُ الظَّرفِ للاهتِمامِ به والعنايةِ به؛ فإنَّه لَمَّا أُكِّد الكلامُ بالقسَمِ شَمِل التَّأكيدُ مُتعلَّقاتِ الخبرِ الَّتي منها ذلك الظرفُ، والتَّأكيدُ اهتمامٌ، ثمَّ أُكِّد ذلك الظَّرفُ في الأثناءِ بقولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الَّذي هو يومَ تَرجُفُ الرَّاجفةُ؛ فحصَلتْ عِنايةٌ عظيمةٌ بهذا الخبرِ[١].

- والرَّجفُ: الاضطرابُ والاهتزازُ، والمرادُ بالرَّاجفةِ الصَّيحةُ والزَّلزلةُ الَّتي ترجُفُ الأرضُ بسببِها، جُعِلتْ هي الرَّاجفةَ مبالَغةً، وهذا هو المناسِبُ لقولِه: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾، أي: تَتْبَعُ تلك الرَّاجفةَ -أي: مسبِّبةَ الرَّجفِ- رادفةٌ، أي: واقعةٌ بعدَها. ويجوزُ أنْ يكونَ الرَّجفُ مُعبَّرًا به عن شِدَّةِ الصَّوتِ، فشُبِّهَ الصَّوتُ الشَّديدُ بالرَّجفِ، وهو التَّزلزُلُ[٢].

- وقيلَ: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي: الواقعةُ الَّتي تردُفُ الأُولى، وهي النَّفخةُ الثَّانيةُ، تابعةً لها لا قبْلَ ذلكَ، واعتبارُ امتِدادِه معَ أنَّ البعثَ لا يكونُ إلَّا عِندَ النفخةِ الثَّانيةِ؛ لتهويلِ اليومِ ببيانِ كَونِه مَوقعًا لداهيتَينِ عظيمتَينِ لا يَبْقى عندَ وُقوعِ الأُولى حيٌّ إلَّا ماتَ، ولا عندَ وُقوعِ الثَّانيةِ إلَّا بُعِثَ، ووجْهُ إضافتِه إلى الأُولى ظاهِرٌ[٣].

- وتنكيرُ ﴿قُلُوبٌ﴾ يقومُ مَقامَ الوصفِ المختصِّ، سواءٌ على حمْلِ التَّنويعِ وإنْ لم يُذكَرِ النَّوعُ المقابِلُ؛ فإنَّ المَعْنى منسحِبٌ عليه، أو على التَّكثيرِ؛ فإنَّ التَّفخيمَ كما يكونُ بالكيفيَّةِ يكونُ بالكَمِّيَّةِ أيضًا، كأنَّه قيلَ: قُلوبٌ كثيرةٌ يومَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٦، ٩٧).

إذْ يقعُ النَّفختانِ واجفةٌ[١].

- وأضافَ الأبصارَ إلى القُلوبِ، مع أنَّها لا تُضافُ إليها؛ لأنَّ فيه حذفَ مُضافٍ، أي: أبصارُ أربابِها؛ لأنَّ الأبصارَ لأصحابِ القلوبِ، وكِلاهُما مِن جوارحِ الأجسادِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۞ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ۞ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾

- قولُه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۞ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ استئنافٌ إمَّا ابتدائيٌّ بعْدَ جُملةِ القَسَمِ وجوابِه؛ لإفادةِ أنَّ هؤلاء هم الَّذين سيَكونونَ أصحابَ القُلوبِ الواجفةِ والأبصارِ الخاشعةِ يومَ ترجُفُ الرَّاجفةُ. وإمَّا استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ القسَمَ وما بعْدَه مِن الوعيدِ يُثيرُ سؤالًا في نفْسِ السَّامعِ عن الدَّاعي لهذا القسَمِ، فأُجيبَ بجملةِ ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾، أي: مُنكِرونَ البعثَ؛ ولذلك سُلِك في حِكايةِ هذا القولِ أسلوبُ الغَيبةِ شأنَ المتحدِّثِ عن غيرِ حاضرٍ[٣].

فقولُه: ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ حِكايةٌ لِما يقولُه المنكِرونَ للبعثِ المكذِّبونَ بالآياتِ النَّاطقةِ به، إثْرَ بيانِ وُقوعِه بطريقِ التَّوكيدِ القَسَميِّ، وذِكرِ مقدِّماتِه الهائلةِ، وما يَعرِضُ عندَ وُقوعِها للقُلوبِ والأبصارِ، أي: يقولونَ إذا قيلَ لهم: «إنكُم تُبعَثونَ» مُنكِرينَ له مُتعجِّبينَ منه: أإنَّا لَمَرْدودونَ بعْدَ موتِنا في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٨، ٦٩).

الحافرةِ؟! أي: في الحالةِ الأُولى؛ يَعْنونَ الحياةَ[١].

- وضَميرُ ﴿يَقُولُونَ﴾ عائدٌ إلى معلومٍ مِن السِّياقِ، وهم الَّذين شُهِروا بهذه المقالةِ، ولا يَخْفَوْنَ على المُطَّلِعِ على أحوالِهم ومخاطَباتِهم، وهم المُشرِكونَ في تكذيبِهم بالبعثِ، والمُساقُ إليه الكلامُ كلُّ مَن يَتأتَّى منه سماعُه مِن المُسلِمينَ وغيرِهم، ويجوزُ أنْ يكونَ الكلامُ مسوقًا إلى مُنكِري البعثِ على طَريقةِ الالتِفاتِ[٢].

- وحُكِيَ مَقالُهم بصِيغةِ المضارعِ ﴿يَقُولُونَ﴾؛ لإفادةِ أنَّهم مُستَمِرُّونَ عليه، وأنَّه متجدِّدٌ فيهم لا يَرْعَوُونَ عنه، وللإشعارِ بما في المضارعِ مِن استحضارِ حالتِهم بتكريرِ هذا القولِ؛ ليكونَ ذلك كنايةً عن التَّعجيبِ مِن قولِهم هذا، وقد عَلِم السَّامعُ أنَّهم ما كرَّروا هذا القولَ إلَّا وقد قالوهُ فيما مضى[٣].

- والهمزةُ في ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ﴾ للاستِفهامِ الإنكاريِّ؛ لأنَّهم أنكَروا الرَّدَّ ونَفَوْه[٤].

- وكانتْ عادتُهم أنْ يُلْقُوا الكلامَ الَّذي يُنكِرونَ فيه البعثَ بأسلوبِ الاستِفهامِ؛ إظهارًا لأنفُسِهم في مَظهَرِ المتردِّدِ السَّائلِ؛ لقَصدِ التَّهكُّمِ والتَّعجُّبِ مِن الأمرِ المستفهَمِ عنه، والمقصودُ التَّكذيبُ؛ لزعمِهم أنَّ حُجَّةَ استِحالةِ البعثِ ناهضةٌ. وجُعِل الاستِفهامُ التَّعجيبيُّ داخلًا على جُملةٍ اسميَّةٍ مؤكَّدةٍ بـ (إنَّ) وبلامِ الابتداءِ، وتلك ثلاثةُ مؤكِّداتٍ مقوِّيةٌ للخبرِ؛ لإفادة أنَّهم أَتَوْا بما يُفيدُ التَّعجُّبَ مِن الخبرِ، ومِن شدَّةِ يقينِ المُسلِمينَ به، فهم يَتعجَّبونَ مِن تصديقِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٣، ٣٦٤).

هذا الخبرِ، فضلًا عن تحقيقِه والإيقانِ به[١].

- والعربُ تقولُ: رجَعَ إلى الحافرةِ، تمثيلًا لِمَن كان في حالةٍ ففارَقَها ثمَّ رجَعَ إليها، فصار: رجَعَ في الحافرةِ، ورُدَّ إلى الحافرةِ، جاريًا مَجرى المَثَلِ[٢].

- قولُهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ هذا الاستِفهامُ إنكاريٌّ مؤكِّدٌ للاستِفهامِ الأوَّلِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه الحالةَ جديرةٌ بزيادةِ إنكارِ الإرجاعِ إلى الحياةِ بعدَ الموتِ، فهما إنكارانِ؛ لإظهارِ شدَّةِ إحالتِه[٣].

- والظَّرفُ (إذا) هو مَناطُ التَّعجُّبِ وادِّعاءِ الاستِحالةِ، أي: إذا صِرْنا عِظامًا باليةً فكيف نَرجِعُ أحياءً[٤]؟!

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ﴿قَالُوا۟﴾ بدَلُ اشتمالٍ مِن جُملةِ ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾، أُعيدَ فِعلُ القولِ؛ لِمَقاصِدَ، منها: الدَّلالةُ على أنَّ قولَهم هذا في غرَضٍ آخَرَ غيرِ القولِ الأوَّلِ؛ فالقولُ الأوَّلُ قَصْدُهم منه الإنكارُ والإبطالُ، والقولُ الثَّاني قصَدوا منه الاستهزاءَ؛ لأنَّهم لا يُؤمِنونَ بتلك الكَرَّةِ، فوصْفُهم إيَّاها بخاسرةٍ مِن بابِ الفرضِ والتَّقديرِ، أي: لو حصَلتْ كَرَّةٌ لَكانتْ خاسرةً، ونحن إذنْ خاسرونَ؛ لتكذيبِنا بها، ومنها دفْعُ توهُّمِ أنْ تكونَ جملةُ ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ استئنافًا مِن جانبِ اللهِ تعالى[٥].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مسوقٌ لحِكايةِ كُفرٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٠، ٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧١).

آخَرَ متفرِّعٍ على كفرِهم السَّابقِ[١].

- قولُه: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ عُبِّر عن قولِهم هذا بصِيغةِ الماضي دونَ المضارعِ على عَكسِ ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]؛ لأنَّ هذه المقالةَ قالوها استِهزاءً، فليستْ ممَّا يَتكرَّرُ منهم، بخِلافِ قولِهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]؛ فإنَّه حُجَّةٌ ناهِضةٌ في زعمِهم، فهذا ممَّا يَتكرَّرُ منهم في كلِّ مَقامٍ، وبذلك لم يكُنِ المقصودُ التَّعجيبَ مِن قولِهم هذا؛ لأنَّ التَّعجيبَ يَقتضي الإنكارَ، وكونُ كَرَّتِهم -أي: عَودتِهم إلى الحياةِ- عودةً خاسرةً أمرٌ محقَّقٌ لا يُنكَرُ؛ لأنَّهم يَعودونَ إلى الحياةِ خاسِرينَ لا مَحالةَ[٢]؛ فلَعلَّ توسيطَ ﴿قَالُوا۟﴾ بيْنَهما؛ للإيذانِ بأنَّ صُدورَ هذا الكُفرِ عنهم ليس بطَريقِ الاطِّرادِ والاستِمرارِ مِثلَ كُفرِهم السَّابقِ المستمرِّ صُدورُه عنهم في أوقاتِهم كافَّةً حسبَما يُنبئُ عنه حِكايتُه بصِيغةِ المضارعِ[٣].

- وقيل: عبِّر بالماضي؛ لأنَّهم ما سمَحوا بهذا القولِ إلَّا مرَّةً مِنَ الدَّهرِ، وأمَّا أغلبُ قولِهم فكان أنَّهم يكونون على تَقديرِ البعثِ أسعَدَ مِنَ المؤمنينَ على قِياسِ ما هُم عليه في الدُّنيا ونحوِ هذا مِنَ الكذِبِ على الله[٤].

- و﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى الرَّدَّةِ المستفادةِ مِن (مَرْدودونَ)، والإشارةُ إليه باسمِ الإشارةِ للمؤنَّثِ؛ للإخبارِ عنه بـ(كَرَّةٌ)، و(إذنْ) حرفُ جوابٍ وجزاءٍ للكلامِ المتقدِّمِ، لا عمَلَ لها، جِيءَ بها لإفادةِ تأكيدِ الرَّجعةِ الخاسرةِ، والتَّقديرُ: إذنْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٦).

تلك كَرَّةٌ خاسرةٌ، فقُدِّم (تلك) على حرفِ الجوابِ؛ للعنايةِ بالإشارةِ[١].

- ووصْفُ الكَرَّةِ بالخاسرةِ للمبالَغةِ؛ لأنَّ الخاسرَ أصحابُها، والمعنى: إنَّا إذنْ خاسرونَ؛ لتكذيبِنا، وتَبيُّنِ صِدقِ الَّذي أنذَرَنا بتلك الرَّجعةِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾

- الفاءُ في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ فصيحةٌ -تُفصِحُ عن جملةٍ قد حُذِفَتْ-؛ للتَّفريعِ على ما يُفيدُه قولُهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ۝ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ [النازعات: ١٠، ١١] مِن إحالتِهم الحياةَ بعدَ البِلى والفَناءِ، فتَقديرُ الكلامِ: لا عجَبَ في ذلك؛ فما هي إلَّا زجرةٌ واحدةٌ فإذا أنتم حاضِرونَ في الحشرِ[٣]؛ فهو تَعليلٌ لِمُقدَّرٍ يَقتضيه إنكارُهم لإحياءِ العِظامِ النَّخِرةِ الَّتي عبَّروا عنها بالكَرَّةِ؛ فإنَّ مَدارَه لَمَّا كان استِصعابَهم إيَّاها ردَّ عليهم ذلك، فقيلَ: لا تَستَصْعِبوها؛ فإنَّما هي صيحةٌ واحدةٌ[٤].

- قولُه: ﴿زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي النَّفخةُ الثَّانيةُ، عُبِّر عنها بها؛ تَنبيهًا على كمالِ اتِّصالِها بها، كأنَّها عَيْنُها[٥].

- في قولِه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ قَصْرٌ حقيقيٌّ[٦] مرادٌ منه تَأكيدُ الخبرِ بتنزيلِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨).

(٦) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ =

السَّامعِ مَنزِلةَ مَن يَعتقِدُ أنَّ زجرةً واحدةً غيرُ كافيةٍ في إحيائِهم[١].

- ووُصِفَتِ الزَّجرةُ بواحدةٍ تأكيدًا؛ لِما في صِيغةِ المَرَّةِ مِن معْنى الوَحدةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ إفرادَه للنَّوعيَّةِ، وإنَّما أُريدَ بكَونِها واحدةً أنَّها لا تُتْبَعُ بثانيةٍ لها، وقد وُصِفَتْ بواحدةٍ في سورةِ الحاقَّةِ بهذا الاعتبارِ[٢].

- قولُه: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ بيانٌ لترتُّبِ الكَرَّةِ على الزَّجرةِ مُفاجأةً، أي: فإذا هُم أحياءٌ على وجهِ الأرضِ بعْدَما كانوا أمواتًا في جَوفِها، أو بيانٌ لحُضورِهم الموقفَ عَقِيبَ الكَرَّةِ الَّتي عُبِّرَ عنها بالزَّجرةِ[٣].

---

= والواقِعِ، بألَّا يَتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقَصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٧٢، ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨).

- والفاءُ في ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ فاءُ الفَصيحةِ؛ للتَّفريعِ على جُملةِ ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾، و(إذا) للمُفاجأةِ؛ فالإتيانُ بها للدَّلالةِ على سُرعةِ حُضورِهم بهذا المكانِ عَقِبَ البعثِ، أي: الحُصولِ دونَ تأخيرٍ، فحصَلَ تأكيدُ معنى التَّفريعِ الَّذي أفادَتْه الفاءُ، وذلك يُفيدُ عدمَ التَّرتُّبِ بيْنَ الزَّجْرةِ والحُصولِ في السَّاهرةِ؛ فالجمعُ بيْنَ المفاجأةِ والتَّفريعِ أشدُّ ما يُعبَّرُ به عن السَّرعةِ مع إيجازِ اللَّفظِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٤، ٣٦٥).

## الآيات (١٥-٢٦)

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْمُقَدَّسِ﴾: أي: المُطَهَّرِ المُبارَكِ، وأصلُ (قدس): يدُلُّ على الطُّهرِ[١].

﴿طَغَىٰ﴾: أي: عَتا، وتَجاوَزَ حدَّه في العُدوانِ، والتَّكبُّرِ على ربِّه، وأصلُ الطُّغيانِ: مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصيانِ[٢].

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تتطهَّرَ مِن الشِّركِ، وأصلُ (زكى): يدُلُّ على نَماءٍ وطهارةٍ[٣].

﴿أَدْبَرَ﴾: أي: ولَّى مُعرِضًا، وأصلُ (دبر): آخِرُ الشَّيءِ وخَلْفُه[٤].

﴿فَحَشَرَ﴾: أي: فجمَع قَومَه وجُنودَه، وأصلُ (حشر): يدُلُّ على جَمعٍ مع سَوقٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٨٠٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٥، ٨٠٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٢٤)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٦)، ((الهداية)) =

﴿نَكَالَ﴾: النَّكالُ: العُقوبةُ والتَّنكيلُ، يُقالُ: نَكَّلْتُ بفُلانٍ، إذا عاقَبْتَه في شَيءٍ أتاه عقوبةً تُنَكِّلُ غيرَه عن ارتكابِ مِثلِه، أي: تمنَعُ وترُدُّ، والنِّكْلُ: القَيدُ؛ لأنَّه يَمنعُ الجَريَ، وأصلُ (نكل): يدُلُّ على مَنعٍ[1].

﴿لَعِبْرَةً﴾: أي: لَعِظَةً ومُعتَبَرًا وفِكرةً، والعِبرةُ: الدَّلالةُ بالشَّيءِ على مِثلِه، وحقيقتُها: الحالةُ الَّتي يُتوصَّلُ بها مِن معرفةِ المُشاهَدِ إلى ما ليس بمُشاهَدٍ، وأصلُ (عبر): يدُلُّ على النُّفوذِ والمُضِيِّ في الشَّيءِ[2].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾

﴿لَّكَ﴾: شِبهُ جُملةٍ مُتعَلِّقٌ بمَحذوفٍ خَبَرُ مُبتدأٍ محذوفٍ. و ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ متعَلِّقٌ بذلك المبتدأِ المحذوفِ، والتَّقديرُ: هل لك سَبيلٌ أو رغبةٌ إلى التَّزكيةِ.

---

= لمكي (١٢/ ٨٠٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٧).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢/ ٦٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٠٧، ٢٠٩، ٢١٠)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٣٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٣/ ٢٣).

قال ابن فارس: (أمَّا الاعتبارُ والعِبْرةُ فعِندَنا مَقيسانِ مِن عِبْرَي النَّهرِ [بفتحِ العينِ وكسرِها، أي: شطيه]؛ لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما عِبْرٌ مُساوٍ لصاحبِه فذاكَ عِبْرٌ لهذا، وهذا عِبْرٌ لذاكَ. فإذا قُلْتَ: اعْتَبَرْتُ الشَّيءَ، فكأنَّكَ نَظَرْتَ إلى الشَّيءِ فجَعَلْتَ ما يَعْنِيكَ عِبْرًا لذاكَ: فتَساوَيا عِندَك. هذا عِندَنا اشْتِقاقُ الاعْتِبارِ). ((مقاييس اللغة)) (٤/ ٢٠٩، ٢١٠).

وقال ابن القيِّم: (الاتِّعاظُ يُسمَّى اعتبارًا وعِبرةً؛ لعُبورِ المتَّعِظِ مِن النَّظيرِ إلى نظيرِه). ((إعلام الموقعين)) (١/ ١٤٩).

٢- قَولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾

قَولُه تعالى: ﴿نَكَالَ﴾: نائِبٌ عن المصدَرِ، مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ؛ لِمُلاقاتِه «أَخَذَ» في المعنى؛ لأنَّ أَخَذَه ونَكَّلَ به هنا بمَعنًى، أي: نَكَّل بالأَخْذِ نَكالَ الآخرةِ والأُولى، أو: أخَذَه أخْذَ نَكالٍ. ويجوزُ أَنْ يكونَ مفعولًا لأجْلِه، أي: لأجْلِ نَكالِه[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يَحكي الله تعالى جانبًا مِن قصَّةِ موسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ؛ تسليةً لنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ ناداه ربُّه سُبحانَه بالوادي المُبارَكِ المسَمَّى طُوًى؟ فقال له: اذهَبْ إلى فِرعَونَ؛ لأنَّه تجاوَزَ حَدَّه في التَّكَبُّرِ والعِصْيانِ، فقُلْ له: هل لك إلى أن تُطَهِّرَ نَفْسَك مِن دَنَسِ الكُفْرِ والمعاصي، وأَدُلَّك على خالقِك ورازِقِك؛ فتَخشى سَخَطَه وعَذابَه؟

فأرى موسى فِرعَونَ المُعجِزةَ الكُبرى الدَّالَّةَ على صِدْقِه، فكَذَّب فِرعَونُ بالحَقِّ وعصى، ثمَّ تولَّى ساعيًا في صَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِ موسى عليه السَّلامُ، فجَمَع فِرعَونُ قومَه وأتْباعَه وخاطَبَهم، فقال لهم: أنا رَبُّكم الأعلى! فعاقَبَه اللهُ تعالى عُقوبةَ الآخرةِ بالنَّارِ، وعُقوبةَ الدُّنيا بالغَرَقِ.

إنَّ في ذلك العِقابِ لِفِرعَونَ لَعِظَةً لِمَن يَخافُ اللهَ تعالى وعِقابَه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ١٥﴾.

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٦٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٧٦، ٦٧٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٣١، ٢٣٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٢٣١).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

وَجْهُ المناسَبةِ بيْن هذه القِصَّةِ وبيْن ما قَبْلَها مِن وَجهَينِ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ اللهَ تعالى حكى عن الكُفَّارِ إصرارَهم على إنكارِ البَعْثِ، حتَّى انتَهَوْا في ذلك الإنكارِ إلى حَدِّ الاستهزاءِ في قَولِهم: ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات:١٢]، وكان ذلك يَشُقُّ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذكَرَ قِصَّةَ موسى عليه السَّلامُ، وبيَّنَ أنَّه تَحمَّلَ المشَقَّةَ الكثيرةَ في دَعوةِ فِرعَونَ؛ لِيَكونَ ذلك كالتَّسليةِ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ فِرعَونَ كان أقوى من كُفَّارِ قُرَيشٍ، وأكثَرَ جَمعًا، وأشَدَّ شَوكةً، فلَمَّا تمَرَّد على موسى عليه السَّلامُ أخَذَه اللهُ نَكالَ الآخرةِ والأُولى، فكذلك هؤلاء المُشرِكونَ في تمَرُّدِهم عليك، إنْ أصَرُّوا أخَذَهم اللهُ، وجَعَلَهم نَكالًا[(١)].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾.

أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وما كان مِن أَمْرِه[(٢)]؟

﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

قال القرطبي: (هذا تسليةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: إنَّ فِرعَونَ كان أقوى مِن كُفَّارِ عَصْرِك، ثمَّ أخَذْناه، وكذلك هؤلاء). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٠، ٢٠١).

وقال ابن عثيمين: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه ويَصِحُّ توجيهُ الخِطابِ إليه، ويكونُ على المعنى الأوَّلِ: هل أتاك يا محمَّدُ؟ وعلى المعنى الثَّاني: هل أتاك أيُّها الإنسانُ؟). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٤).

أي: حينَ ناداه ربُّه سُبحانَه بالوادي المباركِ المطَهَّرِ المسَمَّى طُوًى[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَۖ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١١، ١٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِئِ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾.

أي: قال اللهُ لِموسى: اذهَبْ إلى فِرعَونَ مَلِكِ مِصرَ؛ لأنَّه تَجاوَزَ حَدَّه في التَّكَبُّرِ والعُدوانِ والعِصْيانِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي ۝ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: ٤٢ - ٤٤].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [القصص: ٤].

﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ١٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥).

قال ابن جرير: (وقد اختَلَفَ أهلُ التَّأويلِ في قَولِه: ﴿طُوًى﴾؛ فقال بعضُهم: هو اسمُ الوادي... وقال آخَرونَ: بلْ معنى ذلك: طَأِ الأرضَ حافيًا... وقال آخَرونَ: بلْ معنى ذلك أنَّ الواديَ قُدِّسَ طُوًى، أيْ: مَرَّتَينِ). ((تفسير ابن جرير)) (١٦/ ٢٧-٣١) و(٢٤/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٦).

أي: فقُلْ له: هل لك إلى أن تُطَهِّرَ نَفْسَك مِن دَنَسِ الكُفْرِ والمعاصي[(١)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ۞ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٥، ٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥].

﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾.

أي: قُلْ له: وهَلْ لك إلى أن أُرشِدَك وأَدُلَّك على خالقِك ورازِقِك؛ فتَخشَى سَخَطَه وعَذابَه، بامتِثالِ أوامِرِه واجتنابِ نَواهيه[(٢)]؟

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: فأرى موسى فِرعَونَ المُعجِزةَ الكُبرى الدَّالَّةَ على صِدْقِه[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠١)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠١)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٧).

قيل: المرادُ بالآيةِ الكُبرى: اليَدُ -إذ أخرَجها بَيْضاءَ للنَّاظِرينَ- والعصا إذ تحوَّلَتْ ثُعبانًا. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ويحيى بنُ سلَّامٍ، وابنُ جرير، والثعلبيُّ، والبغوي، والخازن، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (١/ ٢٥٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٧).

ونسَبَ ابنُ الجَوزيِّ هذا القولَ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٦).=

كما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٖ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٞ مُّبِينٞ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴾[الأعراف: ١٠٦ - ١٠٨].

﴿ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾.

أي: فكَذَّب فِرعَونُ بالحَقِّ الَّذي جاء به موسى، وعصى ما أمَرَه به مِن طاعةِ رَبِّه[1].

﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾.

أي: ثمَّ تولَّى فِرعَونُ مُجتَهِدًا في محارَبةِ موسى، وصَدِّ النَّاسِ عن اتِّباعِه[2].

---

= وقيل: المرادُ بالآيةِ الكبرى: اليَدُ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٩٠).

وقيل: هي العصا. وممَّن اختاره: الرَّسْعَنيُّ، والشربيني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٨).

قال الزمخشري: (الآيةُ الكُبرى: قَلْبُ العَصا حَيَّةً؛ لأنَّها كانت المقَدِّمةَ والأصلَ، والأُخرى كالتَّبَعِ لها... أو أرادهما جميعًا، إلَّا أنَّه جعَلَهما واحدةً؛ لأنَّ الثَّانيةَ كأنَّها مِن جملةِ الأُولى؛ لكَونِها تابِعةً لها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥، ٦٩٦).

وقال السمرقندي: (﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ يعني: العصا، واليَدَ، وسائرَ الآياتِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٣).

وقال السعدي: (﴿ فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴾ أي: جِنسَ الآيةِ الكُبرى، فلا يُنافي تعَدُّدَها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

قال ابن كثير: (قَولُه: ﴿ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴾ أي: في مُقابَلةِ الحقِّ بالباطِلِ، وهو جَمْعُه السَّحَرةَ؛ ليُقابِلوا ما جاء به موسى عليه السَّلامُ مِن المعجزةِ الباهِرةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥).

وقال ابن عاشور: (يجوزُ أن يكونَ ﴿ أَدْبَرَ ﴾ على حقيقتِه، أي: تَرَك ذلك المَجمَعَ بأن قام =

كما قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٠].

وقال سُبحانَه: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٣٤ - ٣٧].

﴿ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾.

أي: فجَمَع فِرعَونُ قومَه وأتْباعَه، وخاطَبَهم بصَوتٍ مُرتَفِعٍ(١).

---

= مُعرِضًا؛ إعلانًا بغَضَبِه على موسى، ويكونَ ﴿يَسْعَىٰ﴾ مُستَعمَلًا في حقيقتِه أيضًا، أي: قام يشتَدُّ في مَشْيِه، وهي مِشيةُ الغاضِبِ المُعرِضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٨).

قيل: المحشورونَ هم قَومُه وأتْباعُه وأهلُ مملكتِه. وممَّن ذهب إلى هذا في الجملةِ: ابنُ جرير، وابن عطية، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥).

وقيل: المحشورونَ هم الجنودُ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٠).

وقيل: هم السَّحَرةُ والجُنودُ. وممَّن ذهب إليه: النَّسَفي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٢).

قال القرطبي: (قيل: جمَع جُنودَه للقتالِ والمُحارَبةِ، والسَّحرةَ للمُعارَضةِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢).

وقيل: حشَر قَومَه، وجُنودَه. وممَّن اختاره: البغويُّ، والرَّسْعَني، والخازن. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٢).

وقيل: المحشورون هم السَّحرةُ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرازي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٣١).

وقيل: حشَر النَّاسَ للحُضورِ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢).

قال ابن عثيمين: (حشَر النَّاسَ -أي: جمَعَهم- ونادى فيهم بصَوتٍ مُرتفعٍ؛ لِيَكونَ ذلك أبلَغَ في نَهْيِهم عمَّا يريدُ منهم موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٨).

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾.

أي: فقال فِرعَونُ: أنا رَبُّكم الأعلى، فلا أحَدَ فَوقي، وكُلُّ رَبٍّ فهو دُوني[1]!

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا حكى عن فِرعَونَ أفعالَه وأقوالَه؛ أتْبَعَه بما عامَلَه به[2].

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥﴾.

أي: فعاقَبَه اللهُ تعالى عُقوبةَ الآخرةِ بالنَّارِ، وعُقوبةَ الدُّنيا بالغَرَقِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤١).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٢).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالآخِرةِ: الدَّارُ الآخِرةُ، وبالأُولى: الدُّنيا، فنكل به في الدُّنيا بالإغراقِ، وفي الآخرةِ بالإحراقِ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والكرماني، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والخازن، وابن كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٨٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٧)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٠٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٩٠).

وقيل: المعنى: فعاقَبَ اللهُ فِرعَونَ عُقوبةَ كَلِمتِه الأخيرةِ، وهي قَولُه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، وكَلِمتِه الأُولى الَّتي قالها مِن قَبْلُ، وهي: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: =

كما قال تعالى: ﴿ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وقال سُبحانَه: ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ * فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص: ٣٩، ٤٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ * ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: إنَّ في ذلك العِقابِ لِفِرعَونَ لَعِظَةً لِمَن يَخافُ اللهَ تعالى وعِقابَه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ

---

= ٣٨]. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وابنُ جرير، والسمعانيُّ، والقرطبي، وابن تيميَّةَ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٧٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٣١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٠).

ونسَبَ الواحديُّ هذا القولَ إلى الأكثَرينَ، ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى جمهورِ المفسِّرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وعِكْرِمةُ، ومُجاهِدٌ في روايةٍ عنه، والشَّعْبيُّ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٩٠).

قال الفرَّاءُ: (أي: أخَذَه اللهُ أخْذًا نَكالًا للآخرةِ والأُولى). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٣٣).

وقال القرطبيُّ: (والمعنَى: أمْهَلَه في الأُولَى، ثُمَّ أخَذه في الآخِرةِ، فعَذَّبَه بكَلِمَتَيْهِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٢).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٢، ١٠٣].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ مُخاطَبَةَ الرُّؤَساءِ بالقَولِ اللَّيِّنِ أمْرٌ مَطلوبٌ شرعًا وعقلًا وعُرفًا؛ ولذلك تَجِدُ النَّاسَ كالمَفطورينَ عليه، وهكذا كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخاطِبُ رؤساءَ العَشائرِ والقبائلِ، وتأمَّلِ امْتِثالَ موسى عليه السَّلامُ لِمَا أُمِرَ به[1]، فقد أمَرَه سُبحانَه أنْ يُخاطِبَ فِرعَونَ بألينِ خِطابٍ، فقال لموسى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾، وفي هذا مِن لُطْفِ الخِطابِ ولِينِه وُجوهٌ:

**أحدُها**: إخراجُ الكَلامِ مُخْرَجَ العَرْضِ، ولم يُخرِجْه مُخرَجَ الأمرِ والإلزامِ، وهو ألطَفُ، ونظيرُه قولُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ لضَيفِه المكرَمينَ: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]، ولم يَقُلْ: كُلُوا.

**الثَّاني**: قولُه: ﴿إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ والتَّزَكِّي: النَّماءُ والطَّهارةُ والبَرَكةُ والزِّيادةُ، فعَرَضَ عليه أمرًا يَقْبَلُه كلُّ عاقلٍ، ولا يَرُدُّه إلَّا كلُّ أحمَقَ جاهِلٍ.

**الثَّالثُ**: قولُه: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، ولَم يَقُلْ: أُزَكِّيك، فأضاف التَّزكيةَ إلى نفْسِه، وعلى هذا يُخاطَبُ الملوكُ.

**الرَّابعُ**: قولُه: ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أي: أكونُ دليلًا لك وهاديًا بيْن يَدَيك؛ فنَسَبَ الهِدايةَ إليه، والتَّزَكِّي إلى المُخاطَبِ، أي: أكونُ دليلًا لك وهاديًا فتَزَكَّى أنت، كما تقولُ للرَّجُلِ: هل لك أنْ أدُلَّك على كَنزٍ تأخُذُ منه ما شِئْتَ؟ وهذا أَحسَنُ مِن قَولِه: أُعطِيك.

**الخامِسُ**: قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فإنَّ في هذا ما يُوجِبُ قَبولَ ما دلَّ عليه، وهو أنَّه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٣٢).

يدعوه ويُوصِلُه إلى ربِّه فاطِرِه وخالِقِه، الَّذي أوجَدَه ورَبَّاه بنِعَمِه جَنينًا وصغيرًا وكبيرًا، وآتاه المُلْكَ، وهو نَوعٌ مِن خِطابِ الاستِعطافِ والإلزام، كما تقولُ لِمَن خرَج عن طاعةِ سيِّدِه: ألَا تُطيعُ سيِّدَك ومَوْلاك ومالِكَك؟! وتقولُ للولَدِ: ألَا تُطيعُ أباك الَّذي رَبَّاك[١]؟!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ مَعرِفةَ اللهِ تعالى مُقَدَّمةٌ على طاعتِه؛ لأنَّه ذَكَر الهدايةَ، وجَعَل الخَشْيةَ مُؤخَّرةً عنها، ومُفَرَّعةً عليها[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ يدُلُّ على أنَّ الخَشيةَ لا تكونُ إلَّا بالمَعرِفةِ، قال تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، أي: العلماءُ به، ودَلَّت الآيةُ على أنَّ الخشيةَ مِلاكُ الخَيراتِ، لأنَّ مَن خَشِيَ اللهَ أتَى منه كلُّ خيرٍ، ومَنْ أَمِنَ اجْتَرَأ على كلِّ شرٍّ، ومنه قولُه عليه السَّلامُ: ((مَنْ خَافَ أَدْلَجَ[٣]، وَمَنْ أدلَجَ بلَغ المَنزِلَ))[٤].

٤- قال تعالى: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۞ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ فجَمَع بيْن التَّزَكِّي والهُدى والخَشيةِ، كما جَمَع بيْن العِلمِ والخَشيةِ في قَولِه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وفي قَولِه: ﴿وَفِي نُسۡخَتِهَا

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٠).

(٣) أَدْلَجَ: أي: سارَ أوَّلَ اللَّيلِ. يُنظر: ((جامع الأصول)) لابن الأثير (٤/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٠).

والحديث أخرجه الترمذيُّ (٢٤٥٠) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٧٨٥١)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٨٨١).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٥٠)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((رياض الصالحين)) (٤١٠)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّن إسنادَه ابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ٢٧٩).

هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وفي قَولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦ - ٦٨]؛ وذلك لأنَّ كُلَّ واحدٍ مِن العِلمِ بالحَقِّ -الَّذي يتضَمَّنُه التَّذَكُّرُ، والذِّكْرُ الَّذي يُحدِثُه القُرآنُ-، ومِنَ الخَشيةِ المانعةِ مِن اتِّباعِ الهوى: سَبَبٌ لصلاحِ حالِ الإنسانِ، فإذا ضَعُفَ العِلمُ غلَبَ الهوى الإنسانَ، وإنْ وُجِد العِلمُ والهوى -وهما المُقتضي والدَّافعُ- فالحُكمُ للغالبِ. وإذا كان كذلك فصلاحُ بَني آدَمَ الإيمانُ والعملُ الصَّالحُ، ولا يُخرِجُهم عن ذلك إلَّا شَيئانِ؛ أحدُهما: الجهلُ المُضادُّ للعِلمِ، فيَكونونَ ضُلَّالًا، والثَّاني: اتِّباعُ الهوى والشَّهوةِ اللَّذَينِ في النَّفْسِ، فيَكونونَ غُواةً مغضوبًا عليهم[(١)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ فيه أنَّ مَن يَخشى اللهَ هو الَّذي يَنتَفِعُ بالآياتِ والعِبَرِ[(٢)].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- إنَّ اللهَ تعالى تكلَّمَ بالقرآنِ بحُروفِه ومَعانيه، فجميعُه كلامُ الله، وهو سُبحانَه نادى موسى عليه السَّلامُ بصَوتٍ سمِعه موسى؛ فإنَّه قد أخبَر أنَّه نادى موسى في غيرِ مَوضِعٍ مِن القرآنِ الكريم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾، والنِّداءُ لا يكونُ إلَّا صَوتًا باتِّفاقِ أهلِ اللُّغةِ[(٣)]. ففي قَولِه تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ﴾ دليلٌ على أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ غيرُ مخلوقٍ، تَكَلَّمَ به تكَلُّمًا؛ لأنَّ النِّداءَ كَلامٌ مَسموعٌ لا مَحالةَ، والكَلامُ للمُتكَلِّمِ، والنِّداءُ منه، وصِفةٌ مِن صِفاتِه، وهو بجَميعِ صِفاتِه غيرُ مَخلوقٍ، ثُمَّ أخبَرَ عن فِرعَونَ،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

(٣) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٣/ ١٥٥).

فقال: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾، فكان نِداءُ فِرعَونَ مخلوقًا؛ لأنَّ المنادِيَ مخلوقٌ، وكلُّ صِفةٍ تَبَعٌ للمَوصوفِ؛ فإنْ كان الموصوفُ مَخلوقًا كان كَلامُه مَخلوقًا، وإنْ كان الموصوفُ خالقًا كان كَلامُه غيرَ مَخلوقٍ(١).

٢- في قَولِه تعالى لموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ سؤالٌ: أنَّه في سورةِ (طه) قال سُبحانَه: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣]!

**والجوابُ**: أنَّه لا مُنافاةَ بيْن الآيتَينِ؛ وذلك أنَّ اللهَ تعالى أَرْسَلَ موسى أوَّلًا، ثُمَّ طَلَبَ موسى صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن ربِّه أنْ يَشُدَّ أَزْرَه بأخيه هارونَ، فأَرْسَلَ هارونَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مع موسى، فصار موسى وهارونُ كِلاهما مُرْسَلًا إلى فِرعَونَ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۞ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۞ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ إخبارٌ عن قُبْحِ أعمالِ الكُفَّارِ قبْلَ أنْ يأتيَهم الرَّسولُ(٣).

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٧٨).

قال ابن تيميَّةَ: (قد تنازَعَ النَّاسُ في حُسنِ الأفعالِ وقُبحِها؛ كحُسنِ العدلِ والتَّوحيدِ والصِّدقِ، وقُبحِ الظُّلْمِ والشِّركِ والكَذِبِ: هل يُعلَمُ بالعقلِ، أمْ لا يُعلَمُ إلَّا بالسَّمعِ؟ وإذا قيل: إنَّه يُعلَمُ بالعقلِ، فهل يُعاقَبُ مَن فعَلَ ذلك قبْلَ أن يأتيَه رسولٌ؟ على ثلاثةِ أقوالٍ معروفةٍ في أصحابِ الأئمَّةِ وغيرِهم، وهي ثلاثةُ أقوالٍ لأصحابِ الإمامِ أحمدَ وغيرِهم؛ فقالت طائفةٌ: لا يُعرَفُ ذلك إلَّا بالشَّرعِ لا بالعقلِ. وقيل: بل قد يُعلَمُ حُسنُ الأفعالِ وقُبحُها بالعقلِ. ثمَّ هؤلاء على قولَينِ: منهم مَن يقولُ: يَستَحِقُّونَ عذابَ الآخرةِ بمُجرَّدِ مُخالَفَتِهم للعقلِ، كقولِ المعتزلةِ والحنَفيَّةِ وأبي الخطَّابِ، وقولُ هؤلاء مخالِفٌ للكتابِ والسُّنَّةِ. ومنهم مَن يقولُ: بل لا يُعَذَّبونَ حتَّى يُبعَثَ إليهم رسولٌ كما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّةُ، لكنْ أفعالُهم تكونُ مذمومةً مَمْقوتةً، يَذُمُّها اللهُ ويُبغِضُها، ويُوصَفونَ بالكفرِ الَّذي يَذُمُّه اللهُ ويُبغِضُه، وإن كان لا يُعَذِّبُهم حتَّى يَبعَثَ إليهم رسولًا؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا =

٤- في قولِه: ﴿هَل لَّكَ﴾ فائدةٌ لطيفةٌ، وهي أنَّ المعنى: هل لك في ذلك حاجةٌ أو أَرَبٌ؟ ومعلومٌ أنَّ كلَّ عاقِلٍ يُبادِرُ إلى قَبولِ ذلك؛ لأنَّ الدَّاعيَ إنَّما يَدعو إلى حاجتِه ومصلحتِه، لا إلى حاجةِ الدَّاعي، فكأنَّه يقولُ: الحاجَةُ لك، وأنت المُتزَكِّي، وأنا الدَّليلُ لك والمُرشِدُ لك إلى أعظَمِ مَصالِحِك[(١)].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف قال ذلك مع أنَّه أراه الآياتِ كُلَّها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ [طه: ٥٦]، وكُلُّ آياتِه كُبْرى؟

**الجوابُ**: الإخبارُ هنا عمَّا أَراه له أوَّلَ مُلاقاتِه إيَّاه، وهو العَصا واليَدُ، وأطلَقَ عليهما: ﴿ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾؛ لاتِّحادِ مَعناهما، أو أراد بالكُبْرى: العَصا وَحْدَها؛ لأنَّها كانت مُقَدَّمةً على الأُخرى[(٢)].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ كُلَّ أحَدٍ يَعلَمُ أنَّ كُلَّ مَن كَذَّبَ اللهَ فقد عصى، فما الفائدةُ في قَولِه: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾؟

---

= مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]، فهذا يُبيِّنُ أنَّه لم يكُنْ لِيُعَذِّبَ الكفَّارَ حتَّى يَبعَثَ إليهم رسولًا، وبَيِّنٌ أنَّهم قبْلَ الرَّسولِ كانوا قد اكتَسَبوا الأعمالَ الَّتي تُوجِبُ المَقْتَ والذَّمَّ، وهي سببٌ للعذابِ، لكنْ شَرْطُ العذابِ قيامُ الحُجَّةِ عليهم بالرِّسالةِ). ((الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح)) بتصرف (٢/ ٣٠٧-٣١٤).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥، ٦٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩، ١٠٠).

**الجوابُ**: أنَّ المعنى: كَذَّب بالقَلْبِ واللِّسانِ، وعصى بأنْ أظهَرَ التَّمَرُّدَ والتَّجَبُّرَ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ۝ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾

- قولُه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ هذه الآيةُ اعتِراضٌ بيْن جُملةِ ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [النازعات: ١٣] وبيْنَ جُملةِ ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧]، الَّذي هو الحُجَّةُ على إثباتِ البعثِ، ثمَّ الإنذارُ بما بَعْدَه، دعَتْ إلى استِطرادِه مُناسَبةُ التَّهديدِ لِمُنكِري ما أخبَرَهم به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن البعثِ؛ لِتَماثُلِ حالِ المُشرِكينَ في طُغيانِهم على اللهِ ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بحالِ فِرعونَ وقَومِه، وتماثُلِ حالِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مع قَومِه بحالِ موسى عليه السَّلامُ مع فِرعونَ؛ لِيَحصُلَ مِن ذِكرِ قِصَّةِ موسى تَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على تَكذيبِ قَومِه له، ومَوعظةٌ للمُشرِكينَ وأَئِمَّتِهم مِثلِ أبي جَهلٍ وأُمَيَّةَ بنِ خلَفٍ وأضرابِهما؛ لقولِه في آخِرِها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾[٢] [النازعات: ٢٦].

- ومَعْنى ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ إنِ اعتُبِرَ هذا أوَّلَ ما أتاهُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن حَديثِه عليه السَّلامُ: ترغيبٌ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في استِماعِ حَديثِه، كأنَّه قيلَ: هل أتاكَ حَديثُه؟ أنا أُخبِرُك به، وإنِ اعتُبِرَ إتيانُه قبْلَ هذا -وهو المُتبادِرُ مِن الإيجازِ في الاقتِصاصِ- حمَلَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ على أنْ يُقِرَّ بأمْرٍ يَعرِفُه قبْلَ ذلكَ، كأنَّه قيلَ: أليس قد أتاكَ حديثُه؟ فالاستِفهامُ تَقريريٌّ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((إعراب القرآن)) =

- وقيل: الاستفهامُ في قولِه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ صُوريٌّ يُقصَدُ منه تشويقُ السَّامعِ إلى الخبرِ مِن غيرِ قَصدٍ إلى استِعلامِ المخاطَبِ عن سابقِ عِلمِه بذلك الخبرِ، فسواءٌ في ذلك عَلِمَه مِن قبْلُ أو لم يَعلَمْه؛ ولذلك لا يَنتظِرُ المتكلِّمُ بهذا الاستفهامِ جوابًا عنه مِن المسؤولِ، بل يُعقِّبُ الاستِفهامَ بتفصيلِ ما أَوْهَمَ الاستِفهامَ عنه بهذا الاستفهامِ؛ كِنايةً عن أهمِّيَّةِ الخبرِ بحيثُ إنَّه ممَّا يَتساءَلُ النَّاسُ عن عِلمِه، والخِطابُ لغيرِ معيَّنٍ، فالكلامُ موعظةٌ، ويَتْبعُه تسليةُ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ[(١)].

- وجملةُ ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ قيلَ: الجُملةُ مَقولُ قولٍ محذوفٍ، تقديرُه: «فقال: اذهَبْ». أو «قائلًا له: اذْهَبْ». ويجوزُ أنْ تكونَ جملةً مُفسِّرةً للنِّداءِ، أي: ناداه اذهَبْ، وقيل: هو على حذفِ «أن» المفسرةِ؛ لأنَّ في النِّداءِ معنَى القولِ، ويجوزُ أن تكونَ بتقديرِ (أن) المصدريةِ قبلَها حرفُ جرٍّ مقدرٍ، أي: بأنْ ناداه[(٢)].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ تَعليلٌ للأمرِ في قولِه: ﴿ٱذۡهَبۡ﴾، أو لوُجوبِ الامتِثالِ بهِ؛ ولذلك افتُتِحَتْ بحَرفِ (إنَّ) الَّذي هو للاهتِمامِ، ويُفيدُ مُفادَ التَّعليلِ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ﴾ بدَأَ مُخاطَبتَه بالاستِفهامِ الَّذي معناه العَرْضُ والتَّرغيبُ، كما يقولُ الرَّجُلُ لضَيفِه: هل لك أنْ تَنزِلَ

---

= لدرويش (١٠/ ٣٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣١٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٦).

بنا؟ وأَردَفه الكلامَ الرَّقيقَ؛ لِيَستدعيَه بالتَّلطُّفِ في القولِ، ويَستنزِلَه بالمُداراةِ مِن عُتُوِّه، وهذا ضربُ تفصيلٍ لقولِه تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[1] [طه: ٤٤].

- وقولُه: ﴿هَل لَّكَ﴾ تركيبٌ جرَى مَجرى المَثَلِ، فلا يُغيَّرُ عن هذا التَّركيبِ؛ لأنَّه قُصِد به الإيجازُ، وهو كلامٌ يُقصَدُ منه العَرْضُ[2].

- و﴿لَّكَ﴾ خبرُ مُبتدأٍ محذوفٍ، تقديرُه: هل لك رغبةٌ في كذا؟ فحُذِف (رغبةٌ) واكتُفِيَ بدَلالةِ حرفِ (في) عليه، وقالوا: هل لَك إلى كذا[3].

- وذَكَر مُوسى عليه السَّلامُ لِفِرعونَ الإلهَ الحَقَّ بوصْفِ ﴿رَبِّكَ﴾ دونَ أنْ يذكُرَ له اسمَ اللهِ العَلَمَ أو غيرَه مِن طُرُقِ التَّعريفِ؛ إلطافًا في الدَّعوةِ إلى التَّوحيدِ، وتجنُّبًا لاستِطارةِ نفْسِه نُفورًا؛ لأنَّه لا يُعرَفُ في لُغةِ فِرعونَ اسمٌ للهِ تعالى، ولو عرَّفَه له باسمِه في لغةِ إسرائيلَ لَنَفَرَ؛ لأنَّ فِرعونَ كان يَعبُدُ آلهةً باطلةً، فكان في قولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وفِرعونُ يَعلَمُ أنَّ له ربًّا: إطماعٌ له أنْ يُرشِدَه موسى إلى ما لا يُنافي عقائدَه، فيُصْغي إليه سمْعَه، حتَّى إذا سَمِع قولَه وحُجَّتَه داخَلَه الإيمانُ الحقُّ مدرَّجًا؛ ففي هذا الأسلوبِ استنزالٌ لطائرِه[4].

- قولُه: ﴿فَتَخۡشَىٰ﴾ الخَشيةُ: الخَوفُ، فإذا أُطلِقَت في لِسانِ الشَّرعِ يُرادُ بها خَشيةُ اللهِ تعالَى، ولهذا نُزِّلَ فِعلُها هنا مَنزِلةَ اللَّازمِ، فلمْ يُذكَرْ له مَفعولٌ؛ لأنَّ المَخْشيَّ مَعلومٌ، مِثل فِعلِ الإيمانِ في لِسانِ الشَّرعِ؛ يُقال: آمَنَ فُلانٌ، وفُلانٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٧٨).

مؤمنٌ، أي: مُؤمنٌ باللهِ ووَحدانيَّتِه[١].

- وتَفريعُ ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ على (أَهْدِيَكَ) إشارةٌ إلى أنَّ خشيةَ اللهِ لا تكونُ إلَّا بالمعرفةِ. وفي الاقتِصارِ على ذِكرِ الخشيةِ إيجازٌ بليغٌ؛ لأنَّ الخشيةَ مِلاكُ كلِّ خيرٍ[٢].

- وجاء تَرتيبُ الجُمَلِ أحسنَ تَرتيبٍ، حيثُ جاء تَرتيبُها في الذِّكرِ مُراعًى فيه ترتُّبُها في الحُصولِ؛ فلذلك لم يُحتَجْ إلى عطفِ ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ بفاءِ التَّفريعِ؛ إذْ كثيرًا ما يُسْتغنَى بالعَطْفِ بالواوِ مع إرادةِ التَّرتيبِ عن العَطْفِ بحرْفِ التَّرتيبِ؛ لأنَّ الواوَ تُفيدُ التَّرتيبَ بالقَرينةِ، ويُسْتغنَى بالعطْفِ عن ذِكرِ حرْفِ التَّفسيرِ في العطْفِ التَّفسيريِّ الَّذي يكونُ الواوُ فيه بمعْنى (أيْ) التَّفسيريَّةِ؛ فإنَّ ﴿أَن تَزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ﴾ في قوَّةِ المفرَدِ، والتَّقديرُ: هلْ لك في التَّزكيةِ وهِدايتي إيَّاك فخَشْيتِك اللهَ تعالَى[٣]؟

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ * فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ الفاءُ فَصيحةٌ تُفصِحُ عن جُمَلٍ قد طُويَتْ؛ تعويلًا على تفصيلِها في السُّوَرِ الأُخرى، وتفريعٌ على مَحذوفٍ يَقتضيه قولُه: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [النازعات: ١٧]، والتَّقديرُ: فذهَبَ فدَعاهُ فكَذَّبَه فأَراهُ الآيةَ الكُبرى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٧).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ١٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٨)، ((تفسير أبي =

- وأُعقِبَ فعلُ ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ بفعلِ ﴿فَكَذَّبَ﴾؛ للدَّلالةِ على شِدَّةِ عِنادِه ومُكابَرتِه، حتَّى إنَّه رأى الآيةَ فلم يَتردَّدْ ولم يَتمهَّلْ حتَّى يَنظُرَ في الدَّلالةِ، بل بادَرَ إلى التَّكذيبِ والعِصيانِ(١).

- و(ثمَّ) حرْفُ عطْفٍ للتَّرتيبِ مع التَّراخي، وأتى بها؛ لأنَّ إبطالَ الإيمانِ ونقْضَه يَقتضي زمانًا طويلًا(٢).

- وقيل: عُطِف قولُه: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ بحرفِ (ثُمَّ)؛ للدَّلالةِ على التَّراخي الرُّتَبيِّ كما هو شأنُها في عَطفِ الجُمَلِ، فأفادَتْ (ثُمَّ) أنَّ مضمونَ الجُملةِ المعطوفةِ بها أَعلى رُتبةً في الغرَضِ الَّذي تَضمَّنَتْه الجملةُ قبْلَها، أي: إنَّه ارتقى مِن التَّكذيبِ والعِصيانِ إلى ما هو أشدُّ، وهو الإدبارُ، والسَّعيُ، وادِّعاءُ الإلهيَّةِ لنفْسِه، أي: بعدَ أنْ فكَّرَ مَليًّا لم يَقتنِعْ بالتَّكذيبِ والعِصيانِ، فخَشِيَ أنَّه إنْ سكَتَ رُبَّما تَرُوجُ دعوةُ موسى بيْنَ النَّاسِ، فأرادَ الحَيطةَ لدَفْعِها وتحذيرَ النَّاسِ منها(٣).

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ﴾ الإدبارُ كِنايةٌ عن إعْراضِه عن الإيمانِ(٤). وعلى القولِ بأنَّ المرادَ: (ثمَّ أقبَلَ)، أي: أنشَأَ يَسْعى؛ فوُضِعَ مَوضعَهُ (أدبَرَ)؛ تَحاشيًا عن وصْفِه بالإقبالِ(٥).

- والسَّعيُ: شِدَّةُ المشيِ، وهو هنا مُعبَّرٌ به عن الحرْصِ والاجتهادِ في أمْرِه النَّاسَ

---

= السعود)) (٩/ ٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٠).

بعدمِ الإصغاءِ لكلامِ موسى، فهو يَجتهِدُ في مُكايَدةِ مُوسى عليه السَّلامُ، وجمَعَ السَّحَرةَ لمُعارَضةِ مُعجزتِه؛ إذ حَسِبَها سِحرًا[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾

- حُذِف مفعولُ (حشَرَ) و(نادَى) لظُهورِه؛ لأنَّ الَّذين يُحشَرونَ ويُنادَونَ هم أهلُ مَدينتِه مِن كلِّ صِنفٍ[٢].

- وعُطِف ﴿فَنَادَىٰ﴾ بالفاءِ؛ لإفادةِ أنَّه أعلَنَ هذا القولَ لهم بفَورِ حُضورِهم؛ لفَرْطِ حِرصِه على إبلاغِ ذلك إليهم[٣].

- وإسنادُ الحشرِ والنِّداءِ إلى فِرعونَ وإن لم يُباشِرْ بنفْسِه حَشْرَ النَّاسِ ولا نِداءَهم، ولكنَّه أمَرَ أتْباعَه وجُندَه، فأُسنِدَ إليه؛ لأنَّه الَّذي أمَرَ به[٤].

- وصِيغةُ الحَصرِ في ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ﴾ لرَدِّ دَعوةِ موسَى عليه السَّلامُ[٥].

- وقولُه: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ بدَلًا مِن جُملةِ ﴿فَنَادَىٰ﴾ بدَلًا مُطابِقًا بإعادةِ حرْفِ العطْفِ، وهو الفاءُ؛ لأنَّ البدَلَ قدْ يَقترِنُ بمِثلِ العاملِ في المُبدَلِ منه لقَصْدِ التَّأكيدِ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ۝ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾

- جملةُ ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ﴾ مُفرَّعةٌ عن الجُمَلِ الَّتي قبْلَها، أي: كان

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٥٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ما ذُكِر مِن تكذيبِه وعِصيانِه وكَيدِه سببًا لأنْ أخَذَه اللهُ، وهذا هو المقصودُ مِن سَوقِ القِصَّةِ، وهو مناطُ مَوعظةِ المُشرِكينَ وإنذارِهم، مع تسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وتثبيتِه[١].

- ووُرودُ فِعلِ (أخَذَه) بصِيغةِ المُضِيِّ مع أنَّ عذابَ الآخِرةِ مُستقبَلٌ ليومِ الجزاءِ، مُراعًى فيه أنَّه لَمَّا مات ابتدَأَ يذوقُ العذابَ حينَ يَرى مَنزلتَه الَّتي سيَؤولُ إليها يومَ الجزاءِ[٢].

- وتَقديمُ الآخِرةِ على الأُولى في الذِّكرِ؛ لأنَّ أمْرَ الآخِرةِ أعظَمُ[٣].

- وجاء في آخِرِ القِصَّةِ بحَوصلةٍ وفَذْلَكةٍ[٤] لِما تَقدَّمَ فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰٓ﴾؛ فهو في معْنى البَيانِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥] الآياتِ[٥].

- وتَنوينُ (عِبرةً) للتَّعظيمِ؛ لأنَّ في هذه القِصَّةِ مَواعظَ كثيرةً مِن جهاتٍ هي مَثُلاتٌ للأعمالِ وعواقبِها، ومراقبةِ اللهِ وخشْيتِه، وما يَترتَّبُ على ذلك وعلى ضدِّه مِن خيرٍ وشرٍّ في الدُّنيا والآخرةِ، وجُعِل ذلك عِبرةً لِمَن يَخْشى، أي: مَن تُخالِطُ نفْسَه خشيةُ اللهِ؛ لأنَّ الَّذين يَخشَونَ اللهَ هم أهلُ المعرفةِ الَّذين يَفهَمونَ دَلالةَ الأشياءِ على لَوازِمِها وخَفاياها[٦].

- وفي هذا تعريضٌ بالمُشرِكينَ بأنَّهم ليسوا بأهلٍ للانتفاعِ بمِثلِ هذا كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨١).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٨٢).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ١١٤).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٢).
(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

لم يَنتفِعْ بمِثلِه فِرعونُ وقَومُه. وفي القصَّةِ كلِّها تعريضٌ بسادةِ قُريشٍ مِن أهلِ الكُفرِ مِثلِ أبي جَهلٍ بتنظيرِهم بفِرعونَ، وتنظيرِ الدَّهْماءِ بالقَومِ الَّذين حشَرَهم فِرعونُ ونادى فيهم بالكفرِ، وقد عَلِم المُسلِمونَ مَضرِبَ هذا المَثَلِ؛ فكان أبو جهلٍ يُوصَفُ عِندَ المُسلِمينَ بفِرعونِ هذه الأُمَّةِ[١].

- وتأكيدُ الخبرِ بـ (إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ لتنزيلِ السَّامِعينَ الَّذين سِيقَتْ لهم القِصَّةُ مَنزِلةَ مَن يُنكِرُ ما فيها مِن المَواعِظِ؛ لعدَمِ جَرْيِهم على الاعتبارِ والاتِّعاظِ بما فيها مِن المواعظِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٨٣).

## الآيات (٢٧-٣٢)

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَمْكَهَا﴾: أي: بِناءَها وسَقْفَها، وأصلُ (سمك): يدُلُّ على عُلُوٍّ[١].

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: أي: جَعَلَها مُسْتَوِيةَ الخَلْقِ مُعَدَّلَةَ الشَّكْلِ، والتَّسويةُ: جَعْلُ الشَّيءِ سَواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعْتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ[٢].

﴿وَأَغْطَشَ﴾: أي: أظلَمَ، وأصلُ (غطش): يدُلُّ على ظُلْمةٍ[٣].

﴿دَحَىٰهَآ﴾: أي: بَسَطَها ومَدَّها مُسْتَوِيةً، وأصلُ (دحو): يدُلُّ على بَسطٍ وتمهيدٍ[٤].

﴿أَرْسَىٰهَا﴾: أي: أثبَتَها، يُقالُ: رَسَا الشَّيءُ يَرْسُو: ثبَت، وأَرْساهُ غيرُه، وأصل

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٢٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٣٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٨).

(رسو): يدُلُّ على ثَباتٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا كمالَ قُدرتِه: أأَنْتُم -أيُّها المكَذِّبونَ بالبَعْثِ- أقوى خَلْقًا أمِ السَّماءُ؟ بناها اللهُ تعالى، ورفَعَ بِناءَها، وجَعَل لَيْلَها مُظْلِمًا، وأضاء نهارَها بطُلوعِ شَمْسِها، وبَسَط اللهُ تعالى الأرضَ بعْدَ خَلْقِ السَّماءِ، وأخرَجَ مِنَ الأرضِ البِحارَ والأنهارَ، والنَّباتَ، وثبَّتَ الجِبالَ، فلا تَضطَرِبُ الأرضُ؛ لِمَنفعَتِكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ٢٧﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها انتِقالٌ مِن الاعتبارِ بأمثالِ الكُفَّارِ مِن الأُممِ الَّذي هو تخويفٌ وتهديدٌ على تكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إلى إبطالِ شُبهتِهم على نفْيِ البعثِ -وهي قولُهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠]- وما أَعقَبوهُ مِن التَّهكُّمِ المبنيِّ على توهُّمِ إحالةِ البعثِ[٢].

وأيضًا لَمَّا خَتَم اللهَ تعالى تلك القِصَّةَ؛ رَجَع إلى مخاطبةِ مُنكِري البَعْثِ، فقال[٣]:

﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٢).

أي: أأنتم -أيُّها المكَذِّبونَ بالبَعْثِ- أقوى خَلْقًا أم السَّماءُ أقوى منكم؟ فالقادِرُ على خَلْقِ السَّماءِ وهي أعظَمُ منكم: قادِرٌ على إحيائِكم بعْدَ مَوتِكم(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ * إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨١، ٨٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

﴿بَنَىٰهَا﴾.

أي: بنى اللهُ السَّماءَ، وجعَلَها سَقْفًا للأرضِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

قال الشَّوكاني: (أي: أخَلْقُكم بعدَ الموتِ وبَعْثُكم أشَدُّ عِندَكم وفي تقديرِكم أمْ خَلْقُ السَّماءِ؟ والخِطابُ لكُفَّارِ مكَّةَ، والمقصودُ به التَّوبيخُ لهم والتَّبكيتُ؛ لأنَّ مَن قَدَر على خَلقِ السَّماءِ الَّتي لها هذا الجِرْمُ العظيمُ، وفيها مِن عجائِبِ الصُّنعِ وبدائِعِ القُدْرةِ ما هو بَيِّنٌ للنَّاظِرينَ، كيف يَعجِزُ عن إعادةِ الأجسامِ الَّتي أماتها بعدَ أنْ خلقَها أوَّلَ مَرَّةٍ؟!). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٧).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٠).

قال ابنُ عثيمين: (﴿بَنَىٰهَا﴾ هذه الجُملةُ لا تتعلَّقُ بالَّتي قَبْلَها؛ ولهذا يَنبغي للقارئِ إذا قرَأَ أن يَقِفَ على قَولِه: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾، ثمَّ يَستأنِفَ فيقولَ: ﴿بَنَىٰهَا﴾، فالجُملةُ استئنافيَّةٌ لبيانِ عَظَمةِ السَّماءِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٠).

وقال أبو بكرٍ الأنباريُّ: (﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ وقفٌ حسَنٌ، ثمَّ فسَّر أمْرَها فقال: ﴿بَنَىٰهَا * رَفَعَ =

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن في السَّماءِ أنَّه بناها؛ بَيَّن بعدَ ذلك أنَّه كيف بناها، وشَرَح تلك الكيفيَّةَ مِن وُجوهٍ(١).

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾.

أي: جَعَل اللهُ بناءَ السَّماءِ عاليًا عن الأرضِ، فأتقَنَ بناءَها، فهي مُستَوِيةٌ لا ارتِفاعَ أو انخفاضَ في أرجائِها، ولا فُطورَ فيها ولا شُقوقَ(٢).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ

---

= سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧، ٢٨]. وقال بعضُ المفسِّرينَ: الوقفُ على ﴿بَنَىٰهَا﴾. ((إيضاح الوقف والابتداء)) (٢/ ٩٦٥). ويُنظر: ((المكتفى في الوقف والابتدا)) لأبي عمرو الداني (ص: ٢٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٣، ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

قال ابن الجوزي: (ومعنى ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ رَفَع ارتِفاعَها وعلوَّها في الهواءِ، ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ بلا شُقوقٍ ولا فُطورٍ ولا تفاوُتٍ يرتَفِعُ فيه بعضُها على بعضٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٧).

وقال ابن جرير: (فسَوَّى السَّماءَ، فلا شيءَ أرفَعُ مِن شيءٍ، ولا شيءَ أخْفَضُ مِن شيءٍ، ولَكِنْ جميعُها مُسْتَوِي الارْتِفاعِ والامْتِدادِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨، ٨٩).

وقال الشوكاني: (ومعنَى ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: فجَعَلَها مُسْتَوِيةَ الخَلقِ، مُعَدَّلةَ الشَّكلِ، لا تَفاوُتَ فيها ولا اعْوِجاجَ، ولا فُطورَ ولا شُقوقَ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٧).

فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣].

﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا ٢٩﴾.

﴿وَأَغۡطَشَ لَيۡلَهَا﴾.

أي: وجَعَل اللهُ ليلَ السَّماءِ مُظْلِمًا(١).

قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ [الشمس: ٤].

﴿وَأَخۡرَجَ ضُحَىٰهَا﴾.

أي: وأضاء اللهُ نهارَ السَّماءِ بطُلوعِ شَمْسِها(٢).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٣].

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف كيفيَّةَ خَلْقِ السَّماءِ؛ أتْبَعَه بكيفيَّةِ خَلْقِ الأرضِ(٣)، فقال:

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾.

أي: بَسَط اللهُ تعالى الأرضَ بعْدَ خَلْقِ السَّماءِ، ومَدَّها للسُّكنى فيها(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر الدَّحْوَ، أَتْبَعَه ما استلزَمَه مِنَ المنافِعِ؛ لتوَقُّفِ السُّكنى المقصودةِ بالدَّحْوِ عليه[1].

---

= (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

قال الأزهري: (لم يختَلِفِ المفَسِّرون أنَّ خَلْقَ الأرضِ سَبَق خَلْقَ السَّماءِ... فاللهُ جلَّ وعَزَّ خلَقَ الأرضَ أوَّلًا غيرَ مَدْحُوَّةٍ، ثمَّ خَلَق السَّماءَ، ثمَّ دحا الأرضَ، أي: بَسَطَها). ((تهذيب اللغة)) (٢/ ١٤٤). ويُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٢٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ قولَه: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ أي: بَسَطَها ومَدَّها ومَهَّدَها للسُّكْنَى: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والواحدي، وابن عطية، والبيضاوي، والنسفي، وابن جُزَي، والخازن، وأبو حيان، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٩١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٧٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٨١).

قال الرَّسْعَني: (قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه مِن المفسِّرينَ واللُّغَوِيِّينَ: ﴿دَحَىٰهَآ﴾ بمعنى: بَسَطَها. والدَّحْوُ: البَسْطُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٧).

وقال السعدي: (﴿دَحَىٰهَآ﴾ أي: أودَعَ فيها مَنافِعَها. وفسَّر ذلك بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۞ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي: ثبَّتَها في الأرضِ. فدَحْيُ الأرضِ بعدَ خلقِ السَّماءِ، كما هو نصُّ هذه الآياتِ [الكريمة]. وأمَّا خلقُ نفْسِ الأرضِ فمُتقدِّمٌ على خَلقِ السَّماءِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩] إلى أن قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

وقال ابنُ كثير: (قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ فسَّره بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (المقدمة/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠).

﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ٣١﴾.

أي: أخرَجَ اللهُ مِنَ الأرضِ البِحارَ والأنهارَ وعُيونَ الماءِ، وأخرج نَباتَها[١].

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر الأرضَ ومَنافِعَها؛ ذكَرَ المراسيَ الَّتي تمَّ بها نَفْعُها[٢].

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ٣٢﴾.

أي: وثبَّتَ اللهُ الجِبالَ، فلا تَضطَرِبُ الأرضُ وتَميدُ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ [النحل: ١٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمۡ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٣﴾.

أي: خَلَق اللهُ تعالى ذلك لِمَنفعَتِكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم مِن الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، فتتمَتَّعونَ بذلك إلى حينٍ مِنَ الزَّمانِ[٤].

قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: ٣٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ١٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠، ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ أنَّ السَّماءَ مَبنِيَّةٌ[١].

٢- قال تعالى: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، وإخراجُ الضُّحى: إبرازُ نورِ الضُّحى، وإنَّما جُعِل إظهارُ النُّورِ إخراجًا؛ لأنَّ النُّورَ طارئٌ بعدَ الظُّلمةِ؛ إذ الظُّلمةُ عدَمٌ، وهو أسبَقُ، والنُّورُ محتاجٌ إلى السَّببِ الَّذي يُنيرُه[٢].

٣- قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾، ثمَّ قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، وهذا يدُلُّ على أنَّ دَحْوَ الأرضِ بعْدَ خَلقِ السَّماءِ، مع أنَّ قولَه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩] الآيةَ: يدُلُّ على أنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، بدليلِ لَفظةِ: (ثُمَّ) الَّتي هي للتَّرتيبِ والانفصالِ، وكذلك آيةُ (فُصِّلَتْ) تدُلُّ أيضًا على خَلقِ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّه قال فيها: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ٩]، إلى أن قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ الآيةَ [فصلت: ١١].

**والجواب**: أنَّ ابنَ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما سُئل عن الجَمعِ بيْنَ آيةِ (فُصِّلَتْ) وآيةِ (النَّازعات)، فأجاب بأنَّ اللهَ تعالى خلَقَ الأرضَ أوَّلًا قبْلَ السَّماءِ غيرَ مَدْحُوَّةٍ، ثمَّ استوى إلى السَّماءِ فسَوَّاهُنَّ سَبْعًا في يومَين، ثمَّ دحا الأرضَ بعدَ ذلك، وجعَلَ فيها الرَّواسيَ والأنهارَ وغيرَ ذلك، فأصْلُ خَلقِ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، ودَحْوُها بجبالِها وأشجارِها ونحوِ ذلك بعْدَ خَلقِ السَّماءِ، ويدُلُّ لهذا أنَّه قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، ولم يَقُلْ: (خَلَقَها)، ثمَّ فسَّر دَحْوَه إيَّاها بقولِه: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ الآيةَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٥، ٨٦).

وهذا الجَمْعُ الَّذي جمَع به ابنُ عبَّاسٍ بيْن هاتَينِ الآيتَينِ واضحٌ لا إشكالَ فيه، مفهومٌ مِن ظاهرِ القرآنِ العظيمِ، إلَّا أنَّه يَرِدُ عليه إشكالٌ مِن آيةِ (البقرة) هذه، وإيضاحُه أنَّ ابنَ عبَّاسٍ جمَع بأنَّ خَلْقَ الأرضِ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ، ودَحْوَها بما فيها بعدَ خَلقِ السَّماءِ.

وفي هذه الآيةِ التَّصريحُ بأنَّ جميعَ ما في الأرضِ مخلوقٌ قبْلَ خَلقِ السَّماءِ؛ لأنَّه قال فيها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ الآيةَ [البقرة: ٢٩].

وهذا الإشكالُ مرفوعٌ مِن وجهَينِ، كلٌّ منهما تدُلُّ عليه آيةٌ مِن القرآنِ:

**الأوَّلُ**: أنَّ المرادَ بخَلقِ ما في الأرضِ جميعًا قبْلَ خَلقِ السَّماءِ: الخَلقُ اللُّغَويُّ الَّذي هو التَّقديرُ، لا الخَلقُ بالفِعلِ الَّذي هو الإبرازُ مِن العدَمِ إلى الوُجودِ، والعربُ تُسَمِّي التَّقديرَ خَلْقًا، ومنه قولُ زُهَيْرٍ[1]:

ولَأَنتَ تَفْـــري ما خَلَقْـــتَ وبَعـ ـــــضُ القَومِ يَخلُقُ ثمَّ لا يَفْري[2]

والدَّليلُ على أنَّ المرادَ بهذا الخَلقِ التَّقديرُ: أنَّه تعالى نَصَّ على ذلك في سورةِ (فُصِّلَتْ)، حيث قال: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: ١٠]، ثمَّ قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ الآيةَ [فصلت: ١١].

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّه لَمَّا خلَقَ الأرضَ غيرَ مَدْحُوَّةٍ، وهي أصلٌ لكلِّ ما فيها، كان

---

(١) يُنظر: ((ديوان زهير بن أبي سُلْمى)) (ص: ٥٦).

(٢) يَخلُقُ: أي: يُقَدِّرُ الأديمَ ويُهَيِّئُه للقَطعِ. ويَفْري: أي: يَشُقُّه كما قَدَّر. ومعنى البَيتِ: أنت إذا قدَّرْتَ أمرًا وتهَيَّأْتَ له أمضَيْتَه وأنفَذْتَه بعَزمِك وقدرتِك ولم تَعجزْ عنه، بخِلافِ غيرِك؛ فإنَّ بعضَ القَومِ يُقَدِّرُ ثمَّ لا قوَّةَ له ولا عزيمةَ على إنفاذِ ما قدَّره وإمضائِه، فالخَلْقُ: التَّقديرُ، والفَرْيُ: التَّنفيذُ. يُنظر: ((شرح ديوان زهير)) لثعلب (ص: ٩٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٧/ ٣٨١)، ((شفاء العليل)) لابن القيِّم (ص: ٥٣)، ((معارج القبول)) لحافظ حكمي (١/ ١٣٢).

كلُّ ما فيها كأنَّه خُلِق بالفعلِ؛ لِوُجودِ أصْلِه فِعلًا، والدَّليلُ مِن القرآنِ على أنَّ وُجودَ الأصلِ يُمكِنُ به إطلاقُ الخَلقِ على الفرعِ وإن لم يكُنْ مَوجودًا بالفِعلِ: قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الأعراف: ١١]. قولُه: ﴿خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ بخَلْقِنا وتصويرِنا لأبيكم آدَمَ الَّذي هو أصْلُكم.

وجمَعَ بعضُ العُلماءِ بأنَّ معنى قولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، أي: معَ ذلك، فلَفْظةُ (بَعْدَ) بمعنَى معَ، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]. وعليه فلا إشكالَ في الآيةِ[(١)].

٤- قال الله تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ دَلَّ بذِكْرِ الماءِ والمَرْعى على جميعِ ما تُخرِجُه الأرضُ قُوتًا للنَّاسِ وللحَيوانِ، حتَّى ما تُعالَجُ به الأطعِمةُ مِن حَطَبٍ للطَّبخِ؛ فإنَّه ممَّا تُنبِتُ الأرضُ، وحتَّى المِلْحُ؛ فإنَّه مِن الماءِ الَّذي على الأرضِ[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ١١-١٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٣-١٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٦٠).

قال الرَّسْعَني: (قال عبدُ الله بنُ عمر وعِكْرِمةُ وعَطاءٌ وجمهورُ المفسِّرينَ: خلَقَ الأرضَ قبْلَ السَّماءِ، ثمَّ خلَقَ السَّماءَ، ثمَّ دحى الأرضَ بعدَ خَلقِ السَّماءِ.

وحمَل القائلونَ بتَكامُلِ خَلقِ الأرضِ قبْلَ السَّماءِ «بَعْدَ» على معنى: قبْلَ، كقولِه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ومنهم مَن قال: «بَعْدَ» بمعنى: معَ، قالوا: ومنه قولُه: ﴿عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٣]، أي: معَ ذلك). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٧).

وقال الشنقيطي: (وجَمَع بعضُهم بأوجهٍ ضعيفةٍ؛ لأنَّها مَبنيَّةٌ على أنَّ خلْقَ السَّماءِ قبْلَ الأرضِ، وهو خلافُ التَّحقيقِ؛ منها: أنَّ «ثُمَّ» بمعنَى الواوِ، ومنها: أنَّها للتَّرتيبِ الذِّكْريِّ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٧).

وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ دليلٌ على أنَّ الماءَ والكَلَأَ وحِجارةَ الجِبالِ وحَطَبَه: النَّاسُ فيه شُرَكاءُ، ما لَم يَقَعْ فيها الحيازاتُ بالأملاكِ الظَّاهرةِ الَّتي تُستفادُ بوُجوهِ الفوائدِ، فإذا وَقَعَتِ الحيازاتُ فكُلُّ مَن مَلَكَ أرضًا مَلَكَ كلَّ ما تُخرِجُه مِن عَينٍ وكَلَأٍ، إلَّا ماءَ الشَّفَهِ[١] ما لَم تُجعَلْ في الظُّروفِ، والكَلَأَ مِن المارَّةِ[٢].

٦- قولُه تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ معنى ﴿أَرْسَىٰهَا﴾ أي: أَثْبَتَها وأثبَتَ بها الأرضَ أنْ تَميدَ بأهلِها، وهذا تَحقيقٌ للحقِّ، وتنبيهٌ على أنَّ الرُّسوَّ المنسوبَ إليها في مواضعَ كثيرةٍ مِن التَّنزيلِ بالتَّعبيرِ عنها بالرَّواسي ليس مِن مُقتضَياتِ ذَواتِها، بل هو بإرسائِه عزَّ وجلَّ، ولَوْلاهُ لَما ثبَتتْ في أنفُسِها، فضلًا عن إثباتِها للأرضِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ إبطالٌ لشُبهةِ المشركينَ على نفْيِ البعثِ، وجاءَ إبطالُ شُبهتِهم بقياسِ خلْقِ أجسادِهم على خلقِ السَّمواتِ والأرضِ، فقيلَ لهم: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾؛ فلذلك قيلَ لهم هنا: ﴿ءَأَنتُمْ﴾ بضميرِهم، ولم يقُلْ: آلإنسانُ أشدُّ خَلْقًا، وما هم إلَّا مِن الإنسانِ، فالخِطابُ موجَّهٌ إلى المُشركينَ الَّذين عُبِّر عنهم آنِفًا بضمائرِ الغَيبةِ مِن قولِه: ﴿يَقُولُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٠- ١٤]، وهو الْتِفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، فالجُملةُ مُستأنَفةٌ لقَصْدِ الجوابِ عن شُبهتِهم؛ لأنَّ حِكايةَ شُبهتِهم بـ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا﴾ إلى آخِرِه، تَقتضي ترَقُّبَ جوابٍ

(١) أي الماء الذي يشربُه النَّاسُ والدوابُّ. يُنظر: ((الأصل)) للشيباني (٨/ ١٥٠)، ((بدائع الصنائع)) للكاساني (٦/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٢).

عن ذلك القولِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ خِطابٌ لأهلِ مكَّةَ، أو عامٌّ للمُنكِرينَ للبعثِ بِناءً على صُعوبتِه في زَعْمِهم بطريقِ التَّوبيخِ والتَّبكيتِ بعدَما بُيِّنَ كمالُ سُهولتِه بالنِّسبةِ إلى قُدرةِ اللهِ تعالى بقولِه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾[٢].

- والاستِفهامُ في ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ تقريريٌّ، والمقصودُ مِن التَّقريرِ إلجاؤُهم إلى الإقرارِ بأنَّ خلْقَ السَّماءِ أعظَمُ مِن خلْقِهم، أي: مِن خلْقِ نَوعِهم، وهو نوعُ الإنسانِ، وهم يَعلَمونَ أنَّ اللهَ هو خالقُ السَّماءِ، فلا جَرَمَ أنَّ الَّذي قَدَرَ على خلْقِ السَّماءِ قادرٌ على خَلْقِ الإنسانِ مرَّةً ثانيةً، فيُنتِجُ ذلك أنَّ إعادةَ خلْقِ الأجسادِ بعدَ فَنائِها مَقدورةٌ للهِ تعالى؛ لأنَّه قَدَرَ على ما هو أعظَمُ مِن ذلك؛ ذلك أنَّ نظَرَهم العقليَّ غيَّمتْ عليه العادةُ، فجَعَلوا ما لم يَألَفوهُ مُحالًا، ولم يَلتَفِتوا إلى إمكانِ ما هو أعظَمُ ممَّا أحالوهُ بالضَّرورةِ[٣]. وقيلَ: الهمزةُ للاستفهامِ التَّقريعيِّ والتَّوبيخيِّ[٤].

- والسَّماءُ في قولِه: ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ يَجوزُ أنْ يُرادَ به الجنسُ، وتعريفُه تعريفُ الجِنسِ، أي: السَّمواتُ، وهي مَحجوبةٌ عن مُشاهَدةِ النَّاسِ؛ فيكونَ الاستفهامُ التَّقريريُّ مبنيًّا على ما هو مشتهرٌ بيْنَ النَّاسِ مِن عظَمةِ السَّمواتِ؛ تنزيلًا للمعقولِ مَنزِلةَ المحسوسِ. ويجوزُ أنْ يُرادَ به سماءٌ معيَّنةٌ، وهي المُسمَّاةُ بالسَّماءِ الدُّنيا الَّتي تَلوحُ فيها أضواءُ النُّجومِ، فتعريفُه تعريفُ العهدِ، وهي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٣).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٦٩).

الكُرةُ الفَضائيَّةُ المحيطةُ بالأرضِ ويَبدو فيها ضوءُ النَّهارِ وظُلْمةُ اللَّيلِ، فيكونَ الاستِفهامُ التَّقريريُّ مبنيًّا على ما هو مُشاهَدٌ لهم، وهذا أنسَبُ بقولِه: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ لعدَمِ احتياجِه إلى التَّأويلِ[١].

- في عدَمِ ذِكرِ الفاعلِ في قولِه: ﴿بَنَىٰهَا﴾ وفيما عُطِف عليه مِن الأفعالِ: مِن التَّنبيهِ على تعيُّنِه وتَفخيمِ شأنِه عزَّ وجلَّ؛ ما لا يَخْفى[٢].

- وجُملةُ ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿بَنَىٰهَا﴾، أو بدَلُ اشتِمالٍ منها، وسُلِك طَريقُ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ؛ لزِيادةِ التَّصويرِ[٣].

- والرَّفعُ: جعْلُ جِسمٍ مُعْتلِيًا، وهو مرادفٌ للسَّمْكِ، فتعديةُ فعلِ (رَفَعَ) إلى السَّمْكِ للمبالَغةِ في الرَّفعِ، أي: رَفَع رَفْعَها، أي: جَعَلَه رَفيعًا[٤].

- والفاءُ في ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ للتَّعقيبِ، وتسويةُ السَّماءِ حصَلتْ مع حصولِ سَمْكِها؛ فالتَّعقيبُ لإفادةِ السَّرعةِ في التَّسويةِ[٥].

- قوله: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ بدَأ باللَّيلِ؛ لأنَّه كان أوَّلًا، والعدمُ قبْلَ الوُجودِ[٦].

- قولُه: ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾، أي: أبْرَزَ نَهارَها، وعُبِّرَ عنه بالضُّحى؛ لأنَّه أشرَفُ أوقاتِه وأطيَبُها، وأكمَلُ أجزاءِ النَّهارِ في النُّورِ والضَّوءِ، فكان أحَقَّ بالذِّكرِ في مَقامِ الامتنانِ، وهو السِّرُّ في تأخيرِ ذِكرِه عن ذِكرِ اللَّيلِ، وفي التَّعبيرِ عن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٣٩).

إحداثِهِ بالإخراجِ؛ فإنَّ إضافةَ النُّورِ بعدَ الظُّلْمةِ أتَمُّ في الإنعامِ، وأكمَلُ في الإحسانِ[١].

- وأضاف اللَّيلَ إلى السَّماءِ في قولِه: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾؛ لأنَّ اللَّيلَ غُروبُ الشَّمسِ، وغُروبُها وطُلوعُها فيها، فأُضيفَ إليها لَمَّا كان فيها، كما قيل: نُجومُ اللَّيلِ؛ إذ كان فيه الطُّلوعُ والغُروبُ[٢]. ولأنَّه هو أوَّلُ ما يَظهَرُ عندَ الغُروبِ مِن أُفُقِ السَّماءِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

- وأضاف الضُّحى إلى السَّماءِ كما أضاف إليها اللَّيلَ في قولِه: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾؛ لأنَّ فيها سَبَبَ الظَّلامِ والضِّياءِ، وهو غروبُ الشَّمسِ وطُلوعُها[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ * أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا * وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا * مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ انتقَلَ الكلامُ مِن الاستِدلالِ بخَلْقِ السَّماءِ إلى الاستِدلالِ بخَلقِ الأرضِ؛ لأنَّ الأرضَ أقرَبُ إلى مُشاهَدتِهم، وما يُوجَدُ على الأرضِ أقرَبُ إلى عِلمِهم بالتَّفصيلِ، أو الإجمالِ القريبِ مِن التَّفصيلِ[٦].

- قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ مِن أجْلِ الاهتِمامِ بدَلالةِ خَلقِ الأرضِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠١، ١٠٢).ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٦).

وما تحتوي عليه؛ قُدِّم اسمُ الأرضِ على فِعلِه وفاعلِه، فانتصَبَ على طريقةِ الاشتغالِ[١]، والاشتغالُ يَتضمَّنُ تأكيدًا باعتبارِ الفعلِ المُقدَّرِ العامِلِ في المشتغَلِ عنه الدَّالِّ عليه الفعلُ الظَّاهرُ المشتغِلُ بضَميرِ الاسمِ المقدَّم[٢].

وقيل: انتصَبَ قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ﴾ بمُضمَرٍ مُقدَّمٍ قد حُذِفَ على شَريطةِ التَّفسيرِ لا بما ذُكِرَ بعدَهُ؛ ليُفيدَ القصرَ، وتَتعيَّنَ البَعديَّةُ في الوُجودِ، وفائدةُ تأخيرِه في الذِّكرِ إمَّا التَّنبيهُ على أنَّه قاصرٌ في الدَّلالةِ على القُدرةِ القاهرةِ بالنِّسبةِ إلى أحوالِ السَّماءِ، وإمَّا الإشعارُ بأنَّه أدْخَلُ في الإلزامِ؛ لِما أنَّ المنافعَ المَنوطةَ بما في الأرض أكثرُ، وتعلُّقَ مَصالِحِ النَّاسِ بذلكَ أظهَرُ، وإحاطتَهم بتفاصيلِ أحوالِه أكمَلُ[٣].

- وجُملةُ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ لم يَدخُلْ حرفُ العطفِ على ﴿أَخْرَجَ﴾ لوجهينِ؛ أحدُهما: أنْ يكونَ معنى (دَحاها): بسَطَها ومهَدَها للسُّكنى، ثمَّ فُسِّر

---

(١) الاشتِغالُ: هو أن يتقَدَّمَ اسمٌ واحِدٌ، ويتأخَّرَ عنه عامِلٌ مُشتَغِلٌ عن العَمَلِ في ذلك الاسمِ بالعَمَلِ في ضَميرِه مُباشَرةً، أو في سَبَبِه -أي: كلِّ شَيءٍ له صِلةٌ وعَلاقةٌ به؛ مِن قَرابةٍ، أو صداقةٍ، أو عَمَلٍ-، بحيثُ لو فُرِّغ مِن ذلك المعمولِ وسُلِّطَ على الاسمِ المتقَدِّمِ، لعَمِلَ فيه النَّصبُ لَفظًا أو محَلًّا. وأركانُ الاشتِغالِ ثلاثةٌ؛ هي:

أ- مَشغولٌ عنه: وهو الاسمُ المتقَدِّمُ.

ب- مشغولٌ: وهو الفِعلُ المتأخِّرُ.

ج- ومَشغولٌ به: وهو الضَّميرُ الَّذي تعدَّى إليه الفِعلُ بنَفْسِه أو بالوَساطةِ. يُنظر: ((أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك)) لابن هشام (٢/ ١٣٩)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) (٢/ ١٢٨)، ((النحو الوافي)) لعباس حسن (٢/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٣).

التَّمهيدُ بما لا بُدَّ منه في تَأَتِّي سُكْناها؛ مِن تسويةِ أمرِ المأكَلِ والمَشرَبِ، وإمكانِ القرارِ عليها، والسُّكونِ بإخراجِ الماءِ والمَرْعى، وإرساءِ الجبالِ وإثباتِها أوتادًا لها حتَّى تَستَقِرَّ ويُستقَرَّ عليها.

والثَّاني: أنْ يكونَ ﴿أَخْرَجَ﴾ حالًا بإضمارِ (قد)؛ كقولِه: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، وأرادَ بمَرْعاها: ما يأكُلُ النَّاسُ والأنعامُ[١].

- وقُدِّم الماءُ على المَرْعى؛ لأنَّه سببٌ في وُجودِ المَرْعى[٢].

- والرَّعيُ: تَناوُلُ الماشيةِ الكَلَأَ والحَشيشَ والقَصِيلَ[٣]؛ فالاقتصارُ على المَرْعى اكتِفاءٌ عن ذِكرِ ما تُخرِجُه الأرضُ مِن الثِّمارِ والحُبوبِ؛ لأنَّ ذِكرَ المَرْعى يدُلُّ على لُطفِ اللهِ بالعَجْماواتِ، فيُعرَفُ منه أنَّ اللُّطفَ بالإنسانِ أَحْرى؛ بدَلالةِ فَحْوى الخِطابِ[٤]، والقَرينةُ على الاكتِفاءِ[٥] قولُه بعْدَه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٠).
وقال ابن عاشور: (وجملةُ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ بدَلُ اشتِمالٍ مِن جملةِ ﴿دَحَىٰهَآ﴾؛ لأنَّ المقصدَ مِن دَحوِها بمقتضى ما يكمُلُ تيسيرَ الانتفاعِ بها. ولا يصحُّ جعلُ جملةِ ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ إلى آخِرِها بيانًا لجملةِ ﴿دَحَىٰهَآ﴾؛ لاختِلافِ معنَى الفِعلَينِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٠).

(٣) القَصِيل: ما اقتُصِل مِنَ الزَّرعِ أخضَرَ لعلْفِ الدَّوابِّ. والقصلُ: القطعُ. وقصَلَ الدابَّةَ: علَفَها القَصِيلَ. يُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١/ ٥٥٨)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٥٠٦).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١١٣).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٢).

﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾[١] [النازعات: ٣٣].

- قولُه: ﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا﴾ لعلَّ تَقديمَ إخراجِ الماءِ والمَرْعى ذِكرًا، مع تقدُّمِ الإرساءِ عليهِ وُجودًا، وشدَّةِ تعلُّقِه بالدَّحْوِ؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتِناءِ بأمرِ المأكَلِ والمشرَبِ، مع ما فيه مِن دفعِ توهُّمِ رُجوعِ ضَميرَيِ الماءِ والمَرْعَى إلى الجبالِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾

- (المتاع) يُطلَقُ على ما يُنتفَعُ به مُدَّةً؛ ففيه معنَى التَّأجيلِ. وقولُه: ﴿مَتَٰعًا﴾ إمَّا مَفعولٌ له، أي: فعَلَ ذلكَ تَمتيعًا لكُم ولأنْعامِكم؛ لأنَّ فائدةَ ما ذُكِرَ مِن البَسطِ والتَّميهدِ وإخراجِ الماءِ والمَرْعى واصلةٌ إليهم وإلى أنعامِهم؛ فإن المرادَ بالمَرْعَى ما يَعُمُّ ما يأكلُه الإنسانُ وغيرُه. وقيلَ: مَصدرٌ مُؤكِّدٌ لفعلِه المُضمَرِ، أي: متَّعكُم بذلكَ متاعًا، أو مَصدرٌ مِن غيرِ لَفْظِه؛ فإنَّ قولَه تعالَى: ﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا﴾ في معْنى: متَّع بذلكَ[٣].

- قولُه: ﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ لامُ ﴿لَّكُمۡ﴾ و(لِأَنْعَامِكُمْ) لامُ التَّقويةِ، وهو راجِعٌ إلى خَلقِ الأرضِ والجِبالِ، وذلك في الأرضِ ظاهرٌ، وأمَّا الجِبالُ؛ فلأنَّها مُعتصَمُهم مِن عدُوِّهم، وفيها مَراعي أنعامِهم تكونُ في الجبالِ مأمونةً مِن الغارةِ عليها على غِرَّةٍ، وهذا إدماجُ الامتنانِ في الاستِدلالِ؛ لإثارةِ شُكرِهم حَقَّ النِّعمةِ بأنْ يَعبُدوا المنعِمَ وحْدَه، ولا يُشرِكوا بعبادتِه غيرَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٨).

- وفي قولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] إلى ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ مُحسِّنُ الجَمْعِ ثمَّ التَّقسيمِ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٨).

والجمعُ والتَّقسيمُ: هو جمْعُ مُتعدِّدٍ تحتَ حُكمٍ، ثمَّ تقسيمُه، كقولِه تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ﴾ [فاطر: ٣٢]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٢٤).

## الآيات (٣٤-٤١)

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤ يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥ وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ٣٧ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٣٨ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٣٩ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾: أي: القيامةُ والدَّاهِيةُ الَّتي لا تُستطاعُ، والحادِثةُ الَّتي تَطُمُّ على ما سِواها، أي: تَعلو وتَغلِبُ، مأخوذٌ مِن: طَمَّ الماءُ: إذا غَمَر الأشياءَ، وأصلُ (طمم): يدُلُّ على تَغطيةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[1].

﴿وَبُرِّزَتِ﴾: أي: أُظْهِرتْ، وأصلُ (برز): ظُهورُ الشَّيْءِ وبُدُوُّه[2].

﴿وَءَاثَرَ﴾: أي: اختارَ وقَدَّم، وأصلُ (أثر) هنا: يدُلُّ على تقديمِ الشَّيءِ[3].

﴿ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾: أي: المَثوى والمَسكَنُ والمقَرُّ، والمَأْوى: مَكَانُ كلِّ شَيْءٍ ومَرجِعُه الَّذي يَعودُ إليه ليلًا أو نهارًا؛ يُقالُ: أَوَى إلى كذا، أي: انضمَّ إليه، وأصلُ (أوى) هنا: يدُلُّ على التَّجمُّعِ[4].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢١٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١ / ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((غريب القرآن)) لقاسم الحنفي (ص: ٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٣).

﴿ٱلْهَوَىٰ﴾: أي: المَيْلِ إلى الشَّهوةِ، قيل: سُمِّيَ بذلك لأنَّه يَهْوِي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كلِّ داهيةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاوِيةِ، وقيل: الهوى أصلُه مُطلَقُ المَيلِ، وأصلُ (هوي): الخُلوُّ والسُّقوطُ؛ ولذلك يُقالُ للآراءِ الزَّائفةِ: أهواءٌ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ النَّاسِ يومَ القيامةِ: فإذا جاءت الدَّاهِيةُ الكُبْرى الَّتي تَفوقُ شِدَّتُها كُلَّ شِدَّةٍ، يومَ يَتذكَّرُ الإنسانُ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خيرٍ أو شَرٍّ، وأُظهِرَت النَّارُ للنَّاسِ، فيَرَوْنَها عِيانًا؛ فأمَّا مَن جاوَزَ حَدَّه فتمَرَّدَ واستكبَرَ، وفَضَّل مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا وقدَّمَها على الآخِرةِ؛ فإنَّ النَّارَ هي مَسكَنُه، وأمَّا مَن خافَ مَقامَه بيْن يَدَيِ اللهِ تعالى للحِسابِ يومَ القيامةِ، ونهى نَفْسَه وزَجَرَها عَمَّا يُسخِطُ اللهَ تعالى؛ فإنَّ الجَنَّةَ تكونُ مَسكَنَه ومُستَقَرَّه في الآخِرةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى إنَّما ذَكَر كيفيَّةَ خَلْقِه السَّماءَ والأرضَ؛ لِيستَدلَّ بها على كَونِه قادِرًا على الحَشْرِ والنَّشرِ، فلمَّا قَرَّر ذلك وبيَّن إمكانَ الحَشْرِ عَقلًا؛ أخبَرَ بعدَ ذلك عن وُقوعِه[2].

وأيضًا لَمَّا كان الَّذي خَلَق السَّمَواتِ العِظامَ وما فيها مِن الأنوارِ والأجرامِ،

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٤، ٤٩١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٣).

والأرضَ الكَثيفةَ الغَبراءَ وما فيها مِن ضَروريَّاتِ الخَلْقِ ومَنافِعِهم- لا بُدَّ أن يَبعَثَ الخَلْقَ المكَلَّفينَ، فيُجازيَهم على أعمالِهم، فمَن أحسَنَ فله الحُسنى، ومَن أساء فلا يَلُومَنَّ إلَّا نَفْسَه- ذَكَر بعدَ هذا قيامَ السَّاعةِ، ثمَّ الجزاءَ[١].

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ ٣٤﴾.

أي: فإذا جاءت المُصِيبةُ العُظْمى والدَّاهِيةُ الكُبْرى الَّتي شِدَّتُها وهَولُها فَوقَ كُلِّ خَطْبٍ ومُصيبةٍ[٢].

قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٦].

﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ٣٥﴾.

أي: يومَ يتذكَّرُ الإنسانُ ما عَمِلَه في الدُّنيا مِن خيرٍ أو شَرٍّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ٣٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٢).

قال الرَّسْعَني: (قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ يريدُ: القيامةَ. وقيل: السَّاعةُ الَّتي يَتصَدَّعون فيها؛ فريقٌ إلى الجنَّةِ، وفريقٌ إلى السَّعيرِ. وقيل: النَّفخةُ الثَّانيةُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٢).

قال السمين الحلبي: (قولُه: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ﴾: بدَلٌ مِنْ «إذا»، أو منصوبٌ بإضمارِ فعلٍ، أي: أعني يومَ، أو: يومَ يتذكَّرُ يجري كَيْتَ وكيتَ). ((الدر المصون)) (١٠/ ٦٨١).

أي: وأُظهِرَت النَّارُ الَّتي اشتَدَّ توَقُّدُها وأُبرِزَت للنَّاسِ، فيَرَوْنَها عِيانًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٦، ٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يُؤتَى بجَهَنَّمَ يومَئِذٍ لها سَبعونَ ألْفَ زِمامٍ، مع كُلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها))[٢].

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: فأمَّا مَن جاوَزَ حَدَّه فتمَرَّدَ واستكبَرَ عن طاعةِ اللهِ تعالى وعبادتِه[٣].

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾.

أي: وفَضَّل مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا، وقدَّمَها على الآخِرةِ؛ إرضاءً لِهَواه، فعَمِل لدُنْياه، ولم يَعمَلْ لأُخْراه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١، ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾.

أي: فإنَّ مَسْكَنَه ومُستَقَرَّه في الآخِرةِ: النَّارُ الشَّديدةُ التَّوَقُّدِ[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۞ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧، ٨].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى الطَّاغيَ؛ أتْبَعَه المتَّقِيَ[٢]، فقال:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾.

أي: وأمَّا مَن خافَ مَقامَه بيْن يَدَيِ اللهِ تعالى للحِسابِ يومَ القيامةِ، فاتَّقاه بفِعْلِ أوامِرِه، واجتنابِ نَواهيه[٣].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((سَبعةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

يُظِلُّهم اللهُ في ظِلِّه يومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّه))، وذكَرَ منهم: ((ورَجُلٌ دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجَمالٍ، فقال: إنِّي أخافُ اللهَ، ورجُلٌ ذَكَر اللهَ خاليًا ففاضَتْ عَيْناه))[١].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾.

أي: ونهى نَفْسَه وزَجَرَها عن كُلِّ ما لا يُرضي اللهَ تعالى[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ٤١﴾.

أي: فإنَّ الجَنَّةَ تكونُ مَسْكَنَه ومُستَقَرَّه في الآخِرةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦].

وقال سُبحانَه: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مِن طريقةِ القُرآنِ الكريمِ: التَّصريحُ بذِكْرِ ثَوابِ الأبرارِ والمتَّقينَ والمخلِصينَ والمحسِنينَ، ومَن رَجَحَتْ حَسَناتُهم، وبذِكْرِ عِقابِ الكُفَّارِ والفُجَّارِ والظَّالِمينَ

---

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٣).

لأنفُسِهم، ومَن خَفَّتْ موازينُهم، ويَسْكُتُ عنِ القِسْمِ الَّذي فيه شائبتانِ وله مادَّتانِ، هذه طريقةُ القُرآنِ، كقولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وهذا كثيرٌ في القرآنِ. قالوا: وفي السُّكوتِ عن شأنِ صاحبِ الشَّائبتَينِ تحذيرٌ عظيمٌ وتخويفٌ له؛ فإنَّ أمْرَه مُرْجَأٌ إلى اللهِ تعالى، وليس له عليه ضَمانٌ، ولا له عِندَه وَعْدٌ، فلْيَحْذَرْ كلَّ الحذرِ، ولْيُبادِرْ بالتَّوبةِ النَّصوحِ الَّتي تُلْحِقُه بالمضمونِ لهم النَّجاةُ والفَلاحُ(١).

٢- الطُّغيانُ وإيثارُ الحياةِ الدُّنيا وشَهَواتِها: مِن مُوجِباتِ النَّارِ، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾(٢).

٣- النَّاسُ على قِسمَينِ: قِسمٌ ظَفِرَتْ به نفْسُه فمَلَكَتْه وأهلكَتْه، وصار طَوعًا لها تحتَ أوامِرِها؛ وقِسمٌ ظَفِروا بنُفوسِهم فقَهَرُوها، فصارتْ طَوعًا لهم مُنقادةً لأوامِرِهم. قال بعضُ العارفينَ: انتهى سفرُ الطَّالبينَ إلى الظَّفَرِ بأنفُسِهم، فمَن ظَفِرَ بنَفْسِه أفلَحَ وأنجَحَ، ومَن ظَفِرَتْ به نفْسُه خَسِرَ وهَلَكَ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، فالنَّفْسُ تدعو إلى الطُّغيانِ وإيثارِ الحياةِ الدُّنيا، والرَّبُّ يدعو عَبْدَه إلى خوْفِه ونَهْيِ النَّفْسِ عنِ الهوى(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أنَّ الخَشْيةَ

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٧٥).

تَمنَعُ اتِّباعَ الهوى[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ فيه سؤالٌ: أنَّه تعالى قال في سُورةِ (الشُّعَراءِ): ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠، ٩١]، فخَصَّ الغاوينَ بتبريزِها لهم؟

**الجوابُ**: أنَّها بُرِّزَت للغاوينَ، والمؤمِنونَ يَرَونَها أيضًا في الممَرِّ، ولا مُنافاةَ بيْن الأمْرَينِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أنَّ اللهَ تعالى لَم يَجعَلْ للجَنَّةِ طريقًا غيرَ مُخالَفةِ الهوى، ولَم يَجعَلْ للنَّارِ طريقًا غيرَ مُتابَعتِه[٣]!

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ متى كان الإنسانُ موَصوفًا بهذَينِ الأمْرَينِ كان بالِغًا في الفَسادِ إلى أقصى الغاياتِ، وهو الكافِرُ الَّذي يكونُ عِقابُه مُخَلَّدًا[٤].

٤- قال تعالى: ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ والإيثارُ: تَفضيلُ شَيءٍ على شَيءٍ في حالٍ لا يَتيسَّرُ فيها الجمْعُ بيْنَ أحوالِ كلٍّ منهما، ويُفهَمُ مِن فعلِ الإيثارِ أنَّ معه نَبْذًا لنعيمِ الآخِرةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٠١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١، ٩٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ التَّفريعُ على الاستِدلالِ الَّذي تَضمَّنَه قولُه: ﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧] الآياتِ؛ فإنَّ إثباتَ البعثِ يَقتضي الجزاءَ؛ إذ هو حِكمتُه، وفُرِّع على دَليلِ إثباتِ البعثِ تَذكيرٌ بالجزاءينِ، وإرشادٌ إلى النَّجْدَينِ. وإذْ قد قُدِّم قبْلَ الاستِدلالِ تحذيرٌ إجماليٌّ بقولِه: ﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ الآيةَ [النازعات: ٦] جِيءَ عَقِبَ الاستِدلالِ بتَفصيلِ ذلك التَّحذيرِ مع قَرْنِه بالتَّبشيرِ لِمَن تَحلَّى بضِدِّه؛ فلذلك عُبِّر عن البعثِ ابتِداءً بالرَّاجفةِ؛ لأنَّها مَبدؤُه، ثمَّ بالزَّجْرةِ، وأخيرًا بالطامَّةِ الكُبرى؛ لِما في هذينِ الوَصفينِ مِن معنًى يَشملُ الرَّاجفةَ وما بعْدَها مِن الأهوالِ إلى أنْ يَستقرَّ كلُّ فريقٍ في مَقَرِّه. ومِن تَمامِ المُناسَبةِ للتَّذكيرِ بيومِ الجزاءِ وُقوعُه عَقِبَ التَّذكيرِ بخلْقِ الأرضِ، والامتنانِ بما هَيَّأ منها للإنسانِ متاعًا به؛ للإشارةِ إلى أنَّ ذلك يَنتهي عِندَما يَحينُ يومُ البعثِ والجزاءِ. ويجوزُ أنْ يُجعَلَ قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ مُفرَّعًا على قولِه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]؛ فإنَّ الطامَّةَ هي الزَّجرةُ، ومَناطُ التَّفريعِ هو ما عَقَّبه مِن التَّفصيلِ بقولِه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ إلخ؛ إذ لا يَلتئِمُ تفريعُ الشَّيءِ على نفْسِه(١).

- و(إذا) ظرْفٌ للمُستقبَلِ؛ فلذلك إذا وقَعَ بعدَه الفعلُ الماضي صُرِف إلى الاستقبالِ، وإنَّما يُؤتى بعدَ (إذا) بفعلِ الماضي؛ لزيادةِ تحقيقِ ما يُفيدُه (إذا) مِن تحقُّقِ الوُقوعِ(٢).

- والطَّامَّةُ: الحادثةُ، أو الوَقعةُ الَّتي تطُمُّ، أي: تَعْلو وتَغلِبُ، بمعنى تَفوقُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٨٩، ٩٠).

أمثالَها مِن نَوعِها بحيثُ يَقِلُّ مِثلُها في نوعِها، وهذا الوصفُ يُؤذِنُ بالشِّدَّةِ والهَولِ؛ إذ لا يُقالُ مِثلُه إلَّا في الأمورِ المَهولةِ، ثمَّ بُولِغَ في تشخيصِ هَولِها بأنْ وُصِفَتْ بالكُبرى، فكان هذا أصرَحَ الكلماتِ لتصويرِ ما يُقارِنُ هذه الحادثةَ مِن الأهوالِ[1].

- وجوابُ (إذا) قولُه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧] إلخ. وقيلَ: محذوفٌ، تقديرُه: فإنَّ الجحيمَ مأواهُ[2]. وقيلَ: جوابُ (إذا) محذوفٌ يدُلُّ عليه التَّفصيلُ المذكورُ، والتَّقديرُ: كان مِن عظائمِ الأمورِ ما لا يخطُرُ في بالٍ، ولا تَراهُ عينٌ، ولا تَسمَعُ به أُذُنٌ[3].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۞ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾، وقال في سُورةِ (عَبَسَ): ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]؛ فسمَّاها الطَّامَّةَ الكُبرى في الأُولى، وسمَّاها الصَّاخَّةَ في الثَّانيةِ؛ وَجْهُ ذلك: أنَّ الطَّامَّةَ والصَّاخَّةَ وإنْ أُريدَ بهما في السُّورتَينِ شَيءٌ واحدٌ، فإنَّ اسمَ الطَّامَّةِ أرهَبُ وأنبَأُ بأهوالِ القِيامةِ؛ لأنَّها مِن قَولِهم: طمَّ السَّيلُ؛ إذا عَلا وغَلَبَ. وأمَّا الصَّاخَّةُ فالصَّيحةُ الشَّديدةُ، مِن قَولِهم: صخَّ بأُذنَيه، مِثل أصاخَ، فعُبِّرَ بها عن القِيامةِ؛ لأنَّ النَّاسَ يُصِيخون لها، فلمَّا كانت الطَّامَّةُ أبلَغَ في الإشارةِ إلى أهْوالِها، خُصَّ بها أبلَغُ السُّورتَينِ في التَّخويفِ والإنذارِ، وعلى ذلك بُنِيَت سُورةِ (النازعاتِ)، ألَا تَرى قولَه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۞ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧]، ووَصْفَ الطَّامَّةَ بالكُبْرى، وما أُتبِعَ به بَعْدُ، وابتِداءَ السُّورةِ وخِتامَها، فكلُّها تَخويفٌ وتَرهيبٌ، فناسَبَها أشدُّ العبارتينِ مَوقعًا وأرهَبُها. وأمَّا سُورةُ (عَبَسَ) فلم تُبْنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧، ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٠).

على ذلك الغرَضِ، وإنَّما بُنِيَت على قصَّةِ عبدِ اللهِ بنِ أمِّ مَكتومٍ الأعْمى، وذلك مَشهورٌ، ثمَّ وَرَدَ قولُه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ عَقِبَ التَّذكيرِ بقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ [عبس: ١١]، والتَّحريكِ للاعتبارِ بقولِه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤] إلى قولِه: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ [عبس: ٣٢]، ثمَّ أتبعَ بعْدَ ذكرِ الصَّاخَّةِ بقولِه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۞ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾ [عبس: ٣٨، ٣٩]. فسُورةُ النَّازعاتِ -على الجُملةِ- أشدُّ في التَّخويفِ والتَّرهيبِ، فناسَبَها أبلَغُ العبارتينِ مِن أسماءِ القيامةِ في التَّخويفِ والإنذارِ بحالِها، وليست سُورةُ (عَبَسَ) كسُورةِ النَّازعاتِ في التَّخويفِ والتَّرهيبِ، فناسَبَها إيرادُ اسمِ القيامةِ بالصَّاخَّةِ؛ إذ ليس في الإرهابِ كالطَّامَّةِ، فجاء كلٌّ على ما يُناسِبُ[(١)]. وقيل غيرُ ذلك[(٢)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ التَّذكُّرُ يَقتضي سَبْقَ النِّسيانِ، وهو انْمِحاءُ المعلومِ مِن الحافظةِ، والمعنى: يومَ يُذكَّرُ الإنسانُ فيَتذكَّرُ، أي: يُعرَضُ عليه عمَلُه فيَعترِفُ به؛ إذ ليس المقصودُ مِن التَّذكُّرِ إلَّا أثرَه، وهو الجزاءُ، فكُنِّيَ بالتَّذكُّرِ عن الجزاءِ[(٣)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ مَعطوفٌ على ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، وصِيغةُ الماضِي ﴿وَبُرِّزَتِ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّحقُّقِ[(٤)]. وبناه للمَفعولِ؛ لعدَمِ الغرضِ ببيانِ مُبْرِزِها؛ إذ الموعظةُ في الإعلامِ بوُقوعِ إبرازِها يومَئذٍ؛ لأنَّ الهائِلَ مُطلَقُ تَبريزِها،

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٣١-١٣٣٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٥، ٢٤٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٤٩٩، ٥٠٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٧، ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٥).

لا كونُه مِن مُعَيَّنٍ، مع الدَّلالةِ على الخِفَّةِ والسُّهولةِ؛ لكَونِه على طريقةِ كلامِ القادِرينَ[١].

- وتَبريزُ الجحيمِ: إظهارُها لأهلِها، وجيءَ بالفِعلِ المضاعَفِ ﴿وَبُرِّزَتِ﴾؛ لإفادةِ إظهارِ الجحيمِ؛ لأنَّه إظهارٌ مِن أجْلِ الإرهابِ[٢].

- قولُه: ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾، أي: لكلِّ راءٍ، ففِعلُ ﴿يَرَى﴾ مُنزَّلٌ مَنزلةَ اللَّازمِ؛ لأنَّ المقصودَ: لِمَن له بصَرٌ[٣].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ تَفصيلٌ للجوابِ المحذوفِ، تقديرُه: انقسَمَ الرَّاؤونَ قِسمَينِ: فأمَّا مَن... إلخ. أي: تفصيلٌ لحالَيِ الإنسانِ الَّذي يَتذكَّرُ ما سَعى، وتقسيمٌ له بحسَبِ أعمالِه إلى القِسمَينِ المذكورينِ. والَّذي تَستدعيهِ فخامةُ التَّنزيلِ، ويَقتضيهِ مَقامُ التَّهويلِ، أنَّ الجوابَ المحذوفَ: كان مِن عظائمِ الشُّؤونِ، ما لم تُشاهِدْهُ العيونُ[٤].

أو يَكونُ الجوابُ: ﴿فَأَمَّا ...﴾ وما بعدَه، كما تَقولُ: إذا جاءَكَ بَنو تَميمٍ، فأمَّا العاصي فأهِنْه، وأمَّا الطَّائِعُ فأكْرِمْه[٥].

وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ استِئنافيَّةٌ، والكلامُ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لبيانِ حالِ النَّاسِ في الدُّنيا[٦].

- وقُدِّم ذِكرُ الطُّغيانِ على إيثارِ الحياةِ الدُّنيا؛ لأنَّ الطُّغيانَ مِن أكبرِ أسبابِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٤، ١٠٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠١).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧١).

إيثارِ الحياةِ الدُّنيا، فلمَّا كان مسبَّبًا عنه ذُكِر عَقِبَه؛ مراعاةً للتَّرتُّبِ الطبيعيِّ[١].

- والمرادُ بالحَياةِ الدُّنيا: حُظوظُها ومنافعُها الخاصَّةُ بها، أي: الَّتي لا تُشارِكُها فيها حظوظُ الآخرةِ؛ فالكلامُ على حذفِ مُضافٍ، تقديرُه: نعيمُ الحياةِ[٢].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ تَقديرُ الآيةِ: فإنَّ الجَحيمَ هي مأواه، كما تقولُ للرَّجُلِ: غُضَّ الطَّرْفَ، تُريد: طرْفَك، وليس الألِفُ واللَّامُ بدَلًا مِن الإضافةِ، ولكن لَمَّا عُلِمَ أنَّ الطَّاغيَ هو صاحِبُ المأوَى، وأنَّه لا يَغُضُّ الرَّجُلُ طرْفَ غيرِه: تُرِكتِ الإضافةُ، ودخولُ حرْفِ التَّعريفِ في المأوى والطَّرْفِ للتَّعريفِ، لأنَّهما مَعروفانِ. أو التَّقديرُ: المأوَى له، ثمَّ حُذِفتِ الصِّلةُ لوُضوحِ المعنَى. أو التَّقديرُ: فإنَّ الجَحيمَ هي المأوَى اللَّائِقُ بمَن كان مَوصوفًا بهذه الصِّفاتِ والأخلاقِ[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ في إضافةِ المَقامِ إلى الرَّبِّ سُبحانَه تَفخيمٌ للمَقامِ، وتهويلٌ عظيمٌ، واقعٌ مِن النُّفوسِ موقعًا عظيمًا[٤].

- ونهيُ الخائفِ نفْسَه مُعبَّرٌ به عن الانكفافِ عن تَناوُلِ ما تُحِبُّه النَّفْسُ مِن المعاصي والهوى، فجُعِلتْ نفْسُ الإنسانِ بمنزلةِ شخصٍ آخَرَ يدْعوهُ إلى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٤٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠١).

السَّيِّئاتِ وهو يَنهاهُ عن هذه الدَّعوةِ، وهذا يُشبِهُ ما يُسمَّى بالتَّجريدِ[١]، يقولونَ: قالتْ له نفْسُه كذا فعصاها، ويُقالُ: نَهى قلْبَه[٢].

- وتَعريفُ الهوَى تعريفُ الجِنسِ، والتَّعريفُ في المَأْوى تعريفُ العهدِ، أي: مَأوى مَن خافَ مَقامَ ربِّه، وهو تعريفٌ مُغْنٍ عن ذِكرِ ما يُضافُ إليه (مَأْوى)، ومِثلُه شائعٌ في الكلامِ، كما في قولِه: غُضَّ الطَّرْفَ، أي: الطَّرْفَ المعهودَ مِن الأمرِ، أي: غُضَّ طَرْفَك، وقولِه: واملَأِ السَّمعَ، أي: سَمْعَك، أو يكونُ تقديرُ الكلامِ: المأْوَى له[٣].

- و﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أصلُ المَقامِ مكانُ القيامِ؛ فكانُ أصلُه مكانَ ما يُضافُ هو إليه، ثمَّ شاعَ إطلاقُه على نفْسِ ما يُضافُ إليه على طريقةِ الكنايةِ بتعظيمِ المكانِ عن تعظيمِ صاحِبِه، مِثلَ ألفاظِ: جَنابٍ، وكَنَفٍ، وذَرًى، وذلك مِن قبيلِ الكنايةِ المطلوبِ بها نِسبةٌ إلى المُكَنَّى عنه؛ فإنَّ خَوفَ مَقامِ اللهِ مُرادٌ به خَوفُ اللهِ، والمرادُ بالنِّسبةِ ما يَشملُ التَّعلُّقَ بالمفعولِ[٤].

- وتعريفُ النَّفْسِ هو للعهدِ، مِثلُ التَّعريفِ في ﴿ٱلْمَأْوَىٰ﴾[٥].

- وفي تَعريفِ أصحابِ الجحيمِ وأصحابِ الجنَّةِ بطريقِ المَوصولِ ﴿فَأَمَّا

(١) التَّجريد: أن يُنتزَعَ مِن أمرٍ ذي صِفةٍ أمرٌ آخَرُ مِثلُه في تلك الصِّفةِ، حتَّى تَصيرَ الذَّاتُ الواحدةُ ذاتَين؛ مُبالَغةً لكمالِ الوصفِ في تلكَ الذَّاتِ. كقَولِهم: لي مِنكَ صديقٌ حميمٌ، و: لَئِنْ سألْتَ فُلانًا، لَتَسْألَنَّ به بحرًا. يُنظر: ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٣/ ٢٢٩)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨، ٤٤٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٤).

مَن طَغَىٰ ...﴾ ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ ...﴾: إيماءٌ إلى أنَّ الصِّلتَينِ عِلَّتانِ في استِحقاقِ ذلك المَأْوى[١].

- وفي قولِه: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ مُحسِّنُ الجَمعِ مع التَّقسيمِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٣).

والجمعُ والتَّقسيمُ تقدَّم تعريفُه (ص: ١٩١).

## الآيات (٤٢-٤٦)

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾: أي: في أيِّ وَقتٍ وُقوعُها وقيامُها وثَباتُها واستِقرارُها؟ وأَيَّانَ: يُسأَلُ به عن الزَّمانِ المُستَقبَلِ، وأصلُ (رسو): يدُلُّ على ثُبوتٍ[1].

﴿عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾: العَشِيُّ: مِن زَوالِ الشَّمسِ إلى الصَّباحِ، أو: آخِرُ النَّهارِ، وأصلُ (عشو): يدُلُّ على ظلامٍ، وقِلَّةِ وُضوحِ الشَّيءِ، والضُّحَى: أوَّلُ اليومِ، أو انبِساطُ الشَّمسِ وامتِدادُ النَّهارِ، وسُمِّيَ الوقْتُ به، وأَصْلُه يدُلُّ على بُروزِ الشَّيءِ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: يَسأَلُك المكَذِّبونَ بالبَعْثِ -يا محمَّدُ- عن مَوعِدِ القيامةِ، فيقولونَ: متى وَقتُ قيامِها؟

ثمَّ يقولُ تعالى مجيبًا: ليس مِن شأنِك مَعرِفةُ وَقتِ قيامِ السَّاعةِ، وليس ذلك إليك، إلى رَبِّك وَحْدَه مُنتهى عِلمِها، إنَّما أنت مُكَلَّفٌ بإنذارِ مَن يَخشى قيامَ السَّاعةِ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ حالِهم عندَ قيامِ السَّاعةِ، فيقولُ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٥، ٥١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٢، ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩١) و(٤/ ٣٢٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢، ٥٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٢).

كأنَّهم يومَ يَرَوْنَ السَّاعةَ لم يَمكُثوا في الدُّنيا إلَّا وَقتًا قليلًا كمِقدارِ آخِرِ النَّهارِ أو أوَّلِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا بَيَّن بالبُرهانِ العَقليِّ إمكانَ القيامةِ، ثمَّ أخبَرَ عن وُقوعِها، ثمَّ ذَكَر أحوالَها العامَّةَ، ثمَّ ذَكَر أحوالَ الأشقياءِ والسُّعَداءِ فيها؛ قال تعالى[1]:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾﴾.

أي: يَسأَلُك المكَذِّبونَ بالبَعْثِ -يا محمَّدُ- عن مَوعِدِ القيامةِ، فيقولونَ: متى وَقتُ قيامِها[2]؟

كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال سُبحانَه: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ١٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٤).

وممَّن قال بأنَّ السَّائِلينَ هم المكَذِّبونَ بالبَعْثِ: ابنُ جرير، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال ابن عاشور: (كان سؤالُهم استِهزاءً واستِخفافًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٤).

وقال ابن عثيمين: (سؤالُ النَّاسِ عن السَّاعةِ يَنقَسِمُ إلى قِسمَينِ: سؤالُ استبعادٍ وإنكارٍ، وهذا كُفرٌ... وسؤالٌ عن السَّاعةِ يَسألُ متى السَّاعةُ؛ لِيَستعِدَّ لها، وهذا لا بأسَ به... فالنَّاسُ يَسألون النَّبيَّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، ولكِنْ تختَلِفُ نيَّاتُهم في هذا السُّؤالِ، ومهما كانت نيَّاتُهم ومهما كانت أسئلتُهم، فعِلمُ السَّاعةِ عندَ اللهِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٦).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٥، ٦].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ٤٣﴾.

أي: ليس مِن شأنِك مَعرِفةُ وَقتِ قيامِ السَّاعةِ، وليس ذلك إليك[١].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ٤٤﴾.

أي: إلى رَبِّك -يا محمَّدُ- وَحْدَه مُنتهى عِلمِ السَّاعةِ، فلا يَعلَمُ مَوعِدَ إتيانِها سِواه[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧].

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ٤٥﴾.

أي: إنَّما أنت -يا محمَّدُ- مُكَلَّفٌ بتحذيرِ مَن يَخشى قيامَ السَّاعةِ؛ فهو الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٦).

قال القاسمي: (﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ أي: في أيِّ شَيءٍ أنت مِن ذِكرِ ساعتِها لهم، أي: ليس إليك ذِكرُها؛ لأنَّها مِن الغُيوبِ، فلا معنى لسؤالِهم إيَّاك عنها). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠٣).

وقيل: ﴿فِيمَ﴾ إنكارٌ لسُؤالِهم، أي: فيمَ هذا السُّؤالُ؟ ثمَّ قيل: أنتَ مِن ذِكْراها، أي: أرسلَك وأنت خاتَمُ الأنبياءِ وآخِرُ الرُّسُلِ ذكرًا مِن أنواعِ علاماتِها، وواحِدًا مِن أقسامِ أشراطِها، فكفاهم بذلك دليلًا على دُنُوِّها ووُجوبِ الاستعدادِ لها، ولا فائِدةَ في سُؤالِهم عنها. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٦).

ينتَفِعُ بذلك، فيَعمَلُ لها، ويَستَعِدُّ مِن أجْلِها، ولم تُكَلَّفْ مَعرِفةَ وَقْتِها، أو إعلامَ النَّاسِ بمَوعِدِها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾.

أي: كأنَّهم يومَ يَرَونَ القيامةَ لم يَعِيشوا في الدُّنيا إلَّا وَقتًا قليلًا لا يَتجاوَزُ مِقدارَ آخِرِ النَّهارِ أو أوَّلِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٨).

الضَّميرُ في قَولِه تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ قيل: عائِدٌ على الكُفَّارِ المكَذِّبينَ بالبَعثِ. وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا: ابنُ جرير، والواحديُّ، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٦).

ممَّن اختار أنَّ المعنى: كأنَّهم يومَ يَرَوْنَ القيامةَ، لم يَلْبَثوا في الدُّنيا إلَّا عَشيَّةً أو ضُحاها: مقاتلُ ابنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، ومكي، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والنسفي، والخازن، وأبو حيَّان، وابن كثير، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٨١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٢٩)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٨٢)، =

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ﴾ [يونس: ٤٥].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- أخبَرَ اللهُ تعالى أنَّ آياتِه الإيمانيَّةَ القرآنيَّةَ إنَّما يَنتَفِعُ بها أهلُ التَّقوى والخَشيةِ والإنابةِ، ومَن كان قصْدُه اتِّباعَ رِضوانِه، وأنَّها يَتذكَّرُ بها مَن يَخْشاه سُبحانَه، كما قال سُبحانَه: ﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ * إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ [طه: ١ - ٣]، وقال هنا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾، وأمَّا مَن لا يُؤْمِنُ بها ولا يَرجوها ولا يَخْشاها، فلا تَنفَعُه الآياتُ العِيانيَّةُ ولا القُرآنيَّةُ(١).

---

= ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٠٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٠).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي: إذا قاموا مِن قُبورِهم إلى المَحشَرِ يَستقصِرونَ مدَّةَ الحياةِ الدُّنيا، حتَّى كأنَّها عِندَهم كانت عَشيَّةً مِن يَومٍ، أو ضُحًى مِن يَومٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٨).

وقيل: المعنى ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ في قُبورِهم ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩١).

قال ابنُ عثيمين: (﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا﴾ أي: يَرَونَ القيامةَ ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ العَشِيَّةُ مِن الزَّوالِ إلى غروبِ الشَّمسِ، والضُّحى مِن طُلوعِ الشَّمسِ إلى زَوالِها، يعني: كأنَّهم لم يَلْبَثوا إلَّا نِصفَ يَومٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٨).

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣١).

٢- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ أي: فيه أهليَّةٌ أن يَخافَها خَوفًا عظيمًا، فيَعمَلَ لها؛ لعِلْمِه بإتيانِها لا محالةَ، وعِلْمِه بمَوتِه لا محالةَ، وعِلْمِه بأنَّ كُلَّ ما تحقَّقَ وُقوعُه فهو قريبٌ، وذلك لا يناسِبُ تَعيينَ وَقْتِها؛ فإنَّ مَن فيه أهليَّةُ الخَشيةِ لا يَزيدُه إبهامُها إلَّا خَشيةً، وغَيرُه لا يَزيدُه ذلك إلَّا اجتِراءً وإجرامًا[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۞ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ لَمَّا كان عِلمُ العِبادِ للسَّاعةِ ليس لهم فيه مَصلَحةٌ دِينيَّةٌ ولا دُنيويَّةٌ، بل المصلحةُ في خَفائِه عليهم؛ طوَى سُبحانَه عِلْمَ ذلك عن جميعِ الخَلْقِ، واستأثَرَ بعِلْمِه[٢].

٢- قال الله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ يقولُ القائِلُ: إنَّما الإرساءُ للسَّفينةِ والجِبالِ، وما أشبَهَهنَّ، فكيف وُصِفَت السَّاعةُ بالإرساءِ؟

**الجوابُ**: هي بمنزلةِ السَّفينةِ إذا كانت جاريةً فَرَسَتْ، ورُسُوُّها قيامُها، وليس قيامُها كقيامِ القائِمِ على رِجْلِه ونحوِه، إنَّما هو كقَولِك: قد قام العَدلُ، وقام الحَقُّ، أي: ظَهَر وثَبَت[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا ۞ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ۞ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ قُدِّمَ الخَبَرُ في قَولِه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾؛ ليفيدَ اختصاصَ ذلك به تبارك وتعالى، وهذا صريحٌ في أنَّ عِلْمَ السَّاعةِ خاصٌّ باللهِ تعالى، لا يَطَّلِعُ عليه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نبيٌّ مُرْسَلٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٥، ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٧٠).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ فيه سؤالٌ: قَولُه: ﴿أَوْ ضُحَىٰهَا﴾، معناه: ضُحى العَشِيَّةِ، وهذا غيرُ مَعقولٍ؛ لأنَّه ليس للعَشِيَّةِ ضُحًى؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ الهاءَ والألِفَ صِلةٌ للكلامِ -أي: زائدةٌ-، يريدُ: لم يَلْبَثوا إلَّا عَشِيَّةً أو ضُحًى.

**الوَجهُ الثَّاني**: المرادُ بإضافةِ الضُّحى إلى العَشِيَّةِ إضافتُها إلى يومِ العَشِيَّةِ، كأنَّه قيل: إلَّا عَشِيَّةً أو ضُحى يَومِها، والعَرَبُ تقولُ: (آتيك العَشِيَّةَ أو غَدَاتَها).

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ النَّحْويِّينَ قالوا: يَكفي في حُسْنِ الإضافةِ أَدنى سَبَبٍ، فالضُّحى المتقَدِّمُ على عَشِيَّةٍ يَصِحُّ أن يُقالَ: إنَّه ضُحَى تلك العَشِيَّةِ، وزَمانُ المحنةِ قد يُعَبَّرُ عنه بالعَشِيَّةِ، وزَمانُ الرَّاحةِ قد يُعَبَّرُ عنه بالضُّحى؛ فالَّذين يَحضُرونَ في مَوقِفِ القيامةِ يُعَبِّرونَ عن زَمانِ مِحنتِهم بالعَشِيَّةِ، وعن زمانِ راحتِهم بضُحى تلك العَشِيَّةِ، فيقولونَ: كأنَّ عُمُرَنا في الدُّنيا ما كان إلَّا هاتَينِ السَّاعتَينِ[(١)].

٥- قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ المرادُ: ساعةٌ من نهارٍ؛ أوَّلِه أو آخِرِه، لم يَستَكْمِلوا نهارًا تامًّا، ولم يَجمعوا بيْن طَرَفَيه، على أنَّ الكُفَّارَ أيضًا يَستَقصِرونَ مدَّةَ لُبثِهم، فكأنَّهم أصنافٌ؛ بعضُهم يقولُ: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]، وبعضُهم يقولُ: ﴿إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤]، وبعضُهم يتحَيَّرُ فيقولُ: (اسْأَلِ العادِّينَ). أو أنَّ تلك أقوالُهم، والحَقُّ مِن ذلك هو ما أخبَرَ اللهُ به غيرَ مُضافٍ إلى أقوالِهم مِن أنَّ ما مضى لهم في جَنْبِ ما يأتي كأنَّه ساعةٌ مِن نهارٍ بالنِّسبةِ إلى النَّهارِ الكامِلِ! كما قال تعالى في سُورةِ يُونُسَ عليه الصَّلاةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥١).

والسَّلامُ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]، على أنَّ منهم مَن يقولُ ذلك أيضًا، كما قال تعالى في سورةِ المؤمنينَ حينَ قال تعالى: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾[1] [المؤمنون: ١١٢، ١١٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ مَنشؤُه أنَّ المُشرِكينَ كانوا يَسألونَ عن وقتِ حُلولِ السَّاعةِ الَّتي يَتوعَّدُهم بها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، كما حَكاهُ اللهُ عنهم غيرَ مرَّةٍ في القُرآنِ؛ كقولِه: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، وكان سؤالُهم استِهزاءً واستخفافًا؛ لأنَّهم عقَدوا قلوبَهم على استِحالةِ وُقوعِ السَّاعةِ، ورُبَّما طلَبوا التَّعجيلَ بوُقوعِها، وأَوهَموا أنفُسَهم وأشْياعَهم أنَّ تأخُّرَ وُقوعِها دليلٌ على اليأسِ منها؛ لأنَّهم يَتوهَّمونَ أنَّهم إذا فعَلوا ذلك مع الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لو كان صادقًا لَحَمِيَ غضَبُ اللهِ مُرسِلِه سُبحانَه فبادَرَ بإراءَتِهم العذابَ، وهم يَتوهَّمونَ شؤونَ الخالقِ كشُؤونِ النَّاسِ إذا غَضِبَ أحدُهم عَجِل بالانتقامِ طيشًا وحَنَقًا! فلا جَرَمَ لَمَّا قُضِيَ حقُّ الاستِدلالِ على إمكانِ البعثِ بإقامةِ الدَّليلِ وضربِ الأمثالِ، وعُرِّض بعِقابِ الَّذين استَخَفُّوا بها في قولِه: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٤]؛ كان ذلك مَثارًا لسؤالِهم أنْ يَقولوا: هلْ لِمَجيءِ هذه الطَّامَّةِ الكُبرى وقتٌ معلومٌ؟ فكان الحالُ مقتضيًا هذا الاستئنافَ البيانيَّ؛ قضاءً لحقِّ المَقامِ، وجوابًا عن سابقِ الكلامِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٤).

- وحُكِي فِعلُ السُّؤالِ بصِيغةِ المضارعِ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ هذا السُّؤالِ وتكرُّرِه[١].

- والسَّاعةُ: هي الطَّامَّةُ، فذِكرُ السَّاعةِ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لقصدِ استقلالِ الجملةِ بمَدلولِها، مع تَفنُّنٍ في التَّعبيرِ عنها بهذَينِ الاسمينِ: ﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ و﴿ٱلسَّاعَةِ﴾[٢].

- وجُملةُ ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ جُملةٌ مبيِّنةٌ للسُّؤالِ. و﴿أَيَّانَ﴾: اسمٌ يُستفهَمُ به عن تَعيينِ الوقتِ، والاستفهامُ مُستعمَلٌ في الاستبعادِ، وهو أيضًا كِنايةٌ عن الاستحالةِ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾

- قولُه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ واقعٌ موقعَ الجوابِ عن سؤالِهم عن السَّاعةِ باعتبارِ ما يَظهَرُ مِن حالِ سؤالِهم عن السَّاعةِ مِن إرادةِ تعيينِ وقتِها، وصرْفِ النَّظرِ عن إرادتِهم به الاستهزاءَ، فهذا الجوابُ مِن تخريجِ الكلامِ على خلافِ مُقتضى الظَّاهرِ، وهو مِن تَلَقِّي السَّائلِ بغيرِ ما يَتطلَّبُ؛ تَنبيهًا له على أنَّ الأَولى به أنْ يَهتمَّ بغيرِ ذلك، وهو مضمونُ قولِه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ﴾ [النازعات: ٤٥]، وهذا ما يُسمَّى بالأسلوبِ الحَكيمِ. والخِطابُ وإنْ كان موجَّهًا إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فالمقصودُ بُلوغُه إلى مَسامِعِ المُشرِكينَ؛ فلذلك اعتُبِر اعتبارَ جوابٍ عن كلامِهم، وذلك مُقتضى فصْلِ الجملةِ عن الَّتي قبْلَها شأنَ الجوابِ والسُّؤالِ[٤].

- و(ما) في قولِه: ﴿فِيمَ﴾ اسمُ استفهامٍ بمعنى: أيُّ شيءٍ؟ مُستعمَلةٌ في التَّعجيبِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن سُؤالِ السَّائلينَ عنها، ثمَّ توبيخِهم[١]؛ فقولُه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ تعجُّبٌ مِن كَثرةِ ذِكرِه لها، كأنَّه قيل: في أيِّ شُغلٍ واهتمامٍ أنت مِن ذِكرِها والسُّؤالِ عنها؟ والمعنى: أنَّهم يَسألونَك عنها، فلِحرصِك على جوابِهم لا تَزالُ تذكُرُها وتَسألُ عنها[٢].

وقيلَ: ﴿فِيمَ﴾ إنكارٌ لسُؤالِهم، وما بَعْدَه مِن الاستِئنافِ تعليلٌ للإنكارِ، وبيانٌ لبُطلانِ السُّؤالِ، أيْ: فيمَ هذا السؤالُ؟ ثمَّ ابتُدِئَ فقيلَ: ﴿أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ أي: إرسالُك وأنتَ خاتمُ الأنبياءِ المبعوثُ في نَسَمِ السَّاعةِ[٣] علامةً مِن علاماتِها: دليلٌ يَدُلُّهم على العِلمِ بوُقوعِها عن قريبٍ، فحَسْبُهم هذه المرتبةُ مِن العِلمِ، فـ﴿فِيمَ﴾ ليس خبرًا مقدَّمًا لِما بعدَه، بل هو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: فِيمَ هذا السُّؤالُ الواقعُ مِن الكفَرةِ؟ فتَمَّ الكلامُ عندَه، ثمَّ استأنَفَ بجملةِ ﴿أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾ بيانًا لسببِ الإنكارِ عن سؤالِهم، كأنَّه قيل: إنَّها قريبةٌ غيرُ بعيدةٍ؛ لأنَّك علامةٌ مِن علاماتِها، فإرسالُك يَكْفيهِم دليلًا على دُنُوِّها، والاهتمامِ بتحصيلِ الاعتدادِ لها، فلا معنَى لسؤالِهم عنها، فمعنى ﴿أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾: أنت مِن علاماتِها ومُذكِّراتِها[٤].

- و(في) للظَّرفيَّةِ بجعْلِ المُشرِكينَ في إحْفائِهم بالسُّؤالِ عن وقتِ السَّاعةِ كأنَّهم جعَلوا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ محوطًا بذِكرِ وقتِ السَّاعةِ، أي:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٩).

(٣) نَسَمِ السَّاعةِ: مِن النَّسيمِ، وهو أوَّلُ هُبوبِ الرِّيحِ الضَّعيفةِ: والمعنى أنَّه مبعوثٌ في أوَّلِ أشراطِ السَّاعَةِ وضَعْفِ مَجيئِها. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٢).

مُتلبِّسًا به تلبُّسَ العالِمِ بالمعلومِ[١].

- وتَقديمُ ﴿فِيمَ﴾ على المبتدأ ﴿أَنتَ﴾ للاهتِمامِ به؛ ليُفيدَ أنَّ مضمونَ الخبرِ هو مَناطُ الإنكارِ، بخلافِ ما لو قيل: أأنت في شيءٍ مِن ذِكْراها[٢]؟

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ جُملةٌ في موقعِ العِلَّةِ للإنكارِ الَّذي اقتضاهُ قولُه: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾؛ ولذلك فُصِلَتْ -أي: لم تُعطَفْ على الَّتي قبْلَها[٣].

- وفي الكلامِ إيجازٌ بالحذْفِ، تَقديرُه: إلى ربِّك عِلمُ مُنتهاها[٤].

- وتَقديمُ المجرورِ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على المبتدأ ﴿مُنتَهَاهَا﴾؛ لإفادةِ القَصْرِ[٥]، أي: لا إليك، وهذا قصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ استِئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن جملةِ ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا﴾ [النازعات: ٤٣، ٤٤]؛ وهو أنْ يَسألَ السَّامعُ عن وجْهِ إكثارِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذِكرَها وأنَّها قريبةٌ، فأُجيبَ بأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حظُّه التَّحذيرُ مِن بَغْتَتِها، وليس حظُّه الإعلامَ بتعيينِ وقتِها[٧].

وقيلَ: قولُه: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ إمَّا تقريرٌ لِما قبْلَه مِن قولِه تعالَى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا﴾ [النازعات: ٤٣]، وتحقيقٌ لِما هو المرادُ منه، وبيانٌ لوظيفتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في ذلكَ الشأنِ؛ فإنَّ إنكارَ كَونِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٥، ٩٦).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).
(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٦).
(٧) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٩٧).

شيءٍ مِن ذِكْراها ممَّا يُوهِمُ بظاهِرِه أنْ ليس له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنْ يَذكُرَها بوجهٍ مِن الوُجوهِ، فأُزيحَ ذلك ببيانِ أنَّ المَنفيَّ عنه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ذِكرُها لهم بتعيينِ وقتِها حسبَما كانوا يَسألونَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عنها، فالمَعْنى: إنَّما أنت مُنذِرُ مَن يَخْشاها، وظيفتُكَ الامتثالُ بما أُمِرتَ به مِن بيانِ اقترابِها، وتفصيلِ ما فيها مِن فُنونِ الأهوالِ كما تُحيطُ به خُبْرًا، لا تعيينُ وقتِها الَّذي لم يُفوَّضْ إليك، فما لَهم يَسألونَكَ عمَّا ليس مِن وظائفِكَ بيانُه؟! أو هو تَقريرٌ لقولِه تعالى: ﴿أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ ببَيانِ أنَّ إرسالَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -وهو خاتَمُ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ- مُنذِرٌ بمجيءِ السَّاعةِ[١].

- وأفادَتْ ﴿إِنَّمَآ﴾ قصْرَ المخاطَبِ على صِفةِ الإنذارِ، أي: تخصيصَه بحالِ الإنذارِ، وهو قصْرُ موصوفٍ على صفةٍ، فهو قصرٌ إضافيٌّ[٢]، أي: بالنِّسبةِ إلى ما اعتقَدوه فيه بما دلَّ عليه إلحافُهم في السُّؤالِ مِن كَونِه مُطَّلِعًا على الغَيبِ[٣].

- وفي إضافةِ ﴿مُنذِرُ﴾ إلى ﴿مَن يَخْشَىٰهَا﴾ أو نصْبِه به -على قِراءة أبي جعْفر: ﴿مُنذِرٌ﴾ بالتَّنوينِ[٤]- إيجازُ حذْفٍ تَقديرُه: مُنذِرُها فيَنتذِرُ مَن يَخْشاها، وقرينةُ ذلك حاليَّةٌ؛ للعِلمِ المتواترِ مِنَ القُرآنِ بأنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ كان يُنذِرُ جميعَ النَّاسِ، لا يخُصُّ قَومًا دُونَ آخَرينَ؛ فإنَّ آياتِ الدَّعوةِ مِن القرآنِ ومَقاماتِ دَعوةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّمَ لم تكُنْ إلَّا عامَّةً، ولا يُعْرَفُ مَن

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٥، ١٠٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٧).

(٤) قرأها أبو جعفرٍ بالتَّنوينِ، والباقونَ بدونِ تنوينٍ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨).

يَخْشى السَّاعةَ إلَّا بعْدَ أنْ يُؤمِنَ المؤمنُ، ولو عُرِف أحدٌ بعَينِه أنَّه لا يُؤمِنُ أبدًا لَما وُجِّهَتْ إليه الدَّعوةُ؛ فتَعيَّنَ أنَّ المرادَ: أنَّه لا يَنتفعُ بالإنذارِ إلَّا مَن يَخْشى السَّاعةَ، ومَن عَداهُ تمُرُّ الدَّعوةُ بسَمْعِه فلا يَأبَهُ بها؛ فكان ذِكرُ ﴿مَن يَخۡشَىٰهَا﴾ تنويهًا بشأنِ المؤمِنينَ، وإعلانًا لمَزيَّتِهم، وتحقيرًا للَّذين بَقُوا على الكفرِ[(١)].

- وتَخصيصُ الإنذارِ بمَن يَخْشَى مع عُمومِ الدَّعوةِ؛ لأنَّه المنتفِعُ به[(٢)].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ إمَّا تقريرٌ وتأكيدٌ لِما يُنبِئُ عنه الإنذارُ مِن سرعةِ مجيءِ المُنذَرِ به، أيْ: كأنَّهم يومَ يرَوْنَها لم يَلبَثوا بعدَ الإنذارِ بها إلَّا عَشيَّةَ يومٍ واحدٍ أو ضُحاهُ. وإمَّا ردٌّ لِما أَدْمَجوهُ في سؤالِهم؛ فإنَّهم كانوا يَسألونَ عنها بطريقِ الاستبطاءِ مُستعجِلينَ بها، وإنْ كانَ على نهجِ الاستِهزاءِ بها ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]، فالمَعْنى: كأنَّهم يومَ يَرَوْنَها لم يَلبَثوا بعدَ الوعيدِ؛ تحقيقًا للإنذارِ، ورَدًّا لاستبطائِهم؛ فهو على هذا جوابٌ عمَّا تَضمَّنَه قولُه: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢] باعتبارِ ظاهِرِ حالِ السُّؤالِ مِن طلبِ المعرفةِ بوقتِ حلولِ السَّاعةِ، واستبطاءِ وُقوعِها الَّذي يَرْمونَ به إلى تكذيبِ وُقوعِها، فأُجيبوا على طريقةِ الأسلوبِ الحكيمِ، أي: إنْ طالَ تأخُّرُ حصولِها فإنَّها واقعةٌ، وأنَّهم يومَ وقوعِها كأنَّه ما لَبِثوا في انتظارٍ إلَّا بعضَ يومٍ[(٣)].

- والعَشيَّةُ: مُعبَّرٌ بها عن مُدَّةٍ يسيرةٍ مِن زَمانٍ طويلٍ على طَريقةِ التَّشبيهِ، وهو مُستفادٌ مِن ﴿كَأَنَّهُمۡ﴾، فهو تَشبيهُ حالِهم بحالةِ مَن لم يَلبَثْ إلَّا عشيَّةً، وهذا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٨).

التَّشبيهُ مقصودٌ منه تقريبُ معنى المُشبَّهِ مِن المُتعارَفِ[١].

- وقولُه: ﴿أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ تخييرٌ في التَّشبيهِ، وفي هذا العطفِ زِيادةٌ في تقليلِ المُدَّةِ؛ لأنَّ حِصَّةَ الضُّحى أقصَرُ مِن حصَّةِ العَشيَّةِ[٢].

- وصحَّتْ إضافةُ الضُّحى إلى العَشيَّةِ؛ لِما بيْنَهما مِن الملابَسةِ؛ لاجتماعِهما في نهارٍ واحدٍ، ولم يقل: (إلا عشية أو ضحى)، بل أضافَ الضُّحى إلى العَشيِّ؛ للدَّلالةِ على أنَّ مدَّةَ لَبْثِهم كأنَّها لم تَبلُغْ يومًا كاملًا، ولكنْ ساعةً منه عَشِيَّتَه أو ضُحاهُ، فلمَّا تُرِك اليومُ أضافَهُ إلى عشيَّتِه، فهو كقولِه: ﴿لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فأصْلُ الكلامِ: لم يَلْبَثوا إلَّا ساعةً مِن نَهارٍ عَشيَّتَه أو ضُحاهُ، فوُضِعَ هذا المختصَرُ مكانَه، وقيل: الظَّاهرُ أنَّ إضافةَ (ضُحى) إلى (عَشِية) للبيانِ، ولكنَّ المرادَ التَّوكيدُ وَتحقيقُهما، نحْو: أخذْتُ بيَدِي ورأيتُ بعَيْني؛ لأنَّه مِن الإمكانِ أنْ يُرادَ بضُحى وساعةِ النَّهارُ كلُّه[٣].

وقيلَ: مُسوِّغُ الإضافةِ أنَّ الضُّحى أسبَقُ مِن العَشيَّةِ؛ إذ لا تقَعُ عشيَّةٌ إلَّا بعدَ مرورِ ضُحًى، فصارَ ضُحَى ذلك اليومِ يُعرَّفُ بالإضافةِ إلى عشيَّةِ اليومِ؛ لأنَّ العشيَّةَ أقرَبُ إلى عِلمِ النَّاسِ؛ لأنَّهم يكونونَ في العشيَّةِ بعدَ أنْ كانوا في الضُّحى، فالعشيَّةُ أقرَبُ، والضُّحى أسبَقُ. وفي هذه الإضافةِ أيضًا رعايةٌ على الفواصلِ الَّتي هي على حرفِ الهاءِ المفتوحةِ مِن ﴿أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَا﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٩٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٩٨، ٩٩).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ٢١٣).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ عَبَسَ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ عَبَسَ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ سُورةَ (عَبَسَ)[١].

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ (عَبَسَ) مَكِّيَّةٌ، ونَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

حقيقةُ دَعوةِ القُرآنِ، وكرامةُ مَن ينتَفِعُ بها، وحَقارةُ مَن يُعرِضُ عنها[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- عِتابُ اللهِ تعالى لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عتابًا رقيقًا، على ما حَدَث منه مع ابنِ أمِّ مَكتومٍ الأَعمى.

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بلَفظِ «عَبَسَ» في قَولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠١).

قال الألوسي: (وتُسمَّى سورةَ الصَّاخَّةِ، وسورةَ السَّفَرةِ، وسُمِّيَتْ في غيرِ كتابٍ سورةَ الأعمى). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٤١). ويُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: ٩٢).

وقال ابن عاشور: (وكلُّ ذلك تسميةٌ بألفاظٍ وقعتْ فيها لم تقَعْ في غيرِها مِن السُّوَرِ، أو بصاحبِ القصَّةِ الَّتي كانت سببَ نُزولِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠١).

(٢) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّة، وابن الجوزي، والقرطبي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٠٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٥٦).

(٣) يُنظر: ((المختصر في تفسير القرآن الكريم)) (ص: ٥٨٥).

٢- الثَّناءُ على القُرآنِ، وأنَّه ذِكْرى ومَوعِظةٌ لِمَن عَقَل وتدبَّرَ.

٣- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تعالى، بذِكرِ أصلِ نَشأةِ الإنسانِ، ونِعَمِ اللهِ عليه، وتَيسيرِ أسبابِ حَياتِه.

٤- التَّذكيرُ بأهوالِ يومِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه.

## الآيات (١-١٦)

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ۝١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ۝١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ۝١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ۝١٦﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَبَسَ﴾: أي: قَطَّبَ وَجْهَه، وقَبَضَ ما بيْنَ عينَيه، والعُبُوسُ: تَقطُّبُ الوَجهِ عندَ كراهيةِ أمرٍ، وأصلُ (عبس): يدُلُّ على تكَرُّهٍ[١].

﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أي: أعرَضَ، والتَّولِّي إذا وُصِلَ بـ(عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ[٢].

﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾: أي: يَتطَهَّرُ مِنَ الذُّنوبِ، وأصلُ (زكو): يدُلُّ على نَماءٍ، وزِيادةٍ، وطَهارةٍ[٣].

﴿ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾: أي: التَّذكيرُ والعِظَةُ، وأصلُ (ذكر): يدُلُّ على خِلافِ النِّسْيانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٤٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٨٠)، (إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٤٦).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٥٧).

﴿تَصَدَّىٰ﴾: أي: تَتَعَرَّضُ، وتُقبِلُ عليه[١].

﴿تَلَهَّىٰ﴾: أي: تُعْرِضُ، وتتشاغلُ عنه بغَيْرِه، يُقالُ: لهيتُ عن الشَّيءِ، وتلهَّيْتُ عنه، إذا شُغِلْتَ عنه، وتركْتَه، وأصلُ (لهو) هنا: يَدُلُّ على شُغْلٍ عن شيءٍ بشيءٍ[٢].

﴿سَفَرَةٍ﴾: السَّفَرةُ: هم الملائِكةُ الكِرامُ الكاتِبونَ، واحِدُهم سافِرٌ، يُقالُ: سَفَرْتُ: أي: كَتَبْتُ. ومنه قيل للكِتابِ: سِفْرٌ؛ لأنَّه يُبَيِّنُ الشَّيءَ ويُوضِّحُه. وقيل: هم الرُّسُلُ مِن الملائكةِ الَّذين يَسْفِرونَ بالوَحْيِ بيْن اللهِ ورُسُلِه، ومنه: سفيرُ القَومِ: الَّذي يَسعى بيْنَهم للصُّلحِ، وأصلُ (سفر): يدُلُّ على الانكِشافِ والجَلاءِ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بمُعاتَبةِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عِتابًا رقيقًا، فقال: قَطَّبَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَجْهَه، وأعرَضَ؛ بسَبَبِ مَجيءِ الرَّجُلِ الأعمى إليه، وهو مَشغولٌ بدَعوةِ رَجُلٍ مِن أشرافِ قُرَيشٍ، وما يُدْرِيك -يا مُحمَّدُ- لعَلَّ هذا الأعمى يتطَهَّرُ مِن ذُنوبِه بما يتعَلَّمُه مِنَ القُرآنِ منك، أو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص:١٥٩، ١٦٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٧١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣).

وأصلُه تتلَّهَى، فأُسْقِطتْ إحدَى التَّاءيْنِ استثقالًا لها في صدرِ الكلمةِ. يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٢)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٤٩).

يتذَكَّرُ؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما يَسمَعُ مِنَ القُرآنِ؟!

ثمَّ فصَّل اللهُ تعالى ما كان مِن نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: أمَّا الَّذي استَغْنى بمالِه وجاهِه عن الإيمانِ، وأعرَضَ عن هَدْيِك، فأنت تتعَرَّضُ له، وتُقبِلُ عليه، وتجتَهِدُ في وَعْظِه؛ رجاءَ هِدايتِه للحَقِّ، وأيُّ ضَرَرٍ عليك إذا لم يُسْلِمْ ويتطَهَّرْ مِن كُفْرِه وذُنوبِه؟! وأمَّا هذا الرَّجُلُ الأعمى الَّذي جاءك يَسْعى مُجتَهِدًا في الوُصولِ إليك؛ طَلَبًا للعِلْمِ وسَماعِ الحَقِّ، وهو يَخافُ اللهَ تعالى، فأنت تُعْرِضُ عنه!

ثمَّ قال تعالى: كَلَّا، لا تَفعَلْ ما فعَلْتَ -يا محمَّدُ- إنَّ آياتِ القُرآنِ تذكيرٌ للنَّاسِ جَميعًا، فمَن شاء مِن النَّاسِ ذَكَر هذا القُرآنَ، فاتَّعَظَ وعَمِلَ بما فيه، وهذا القُرآنُ الكريمُ مَكتوبٌ في صُحُفٍ مُكَرَّمةٍ عِندَ اللهِ تعالى، عاليةٍ رفيعةِ القَدْرِ، مُطَهَّرةٍ مِن كُلِّ دَنَسٍ وعَيبٍ، بأيدي طائِفةٍ مِنَ الملائِكةِ ذَوي خَلْقٍ حَسَنٍ وأخلاقٍ جَميلةٍ، كثيري الخَيرِ والطَّاعةِ والإحسانِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن مَعمَرٍ، عن قَتادةَ، عن أنسٍ -رَضِيَ اللهُ عنه- في قَولِه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، قال: ((جاء ابنُ أُمِّ مَكتومٍ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو يُكَلِّمُ أُبَيَّ بنَ خَلَفٍ، فأعرَضَ عنه؛ فأنزل اللهُ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، فكان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ ذلك يُكْرِمُه))، قال قَتادةُ: وأخبَرَني أنَسُ بنُ مالكٍ قال: رأَيْتُه يومَ القادسِيَّةِ وعليه دِرعٌ، ومعه رايةٌ سَوداءُ، يعني: ابنَ أُمِّ مَكتومٍ[1].

---

(١) أخرجه أبو يعلى (٣١٢٣).

=

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾.

أي: قَطَّبَ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وَجْهَه، وأعرَضَ غَضَبًا[1].

﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢﴾.

أي: بسَبَبِ مَجيءِ الرَّجُلِ الأعمى إليه، وهو مَشغولٌ بدَعوةِ رَجُلٍ مِن أشرافِ قُرَيشٍ[2].

﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣﴾.

---

= قال الوادعي في ((صحيح أسباب النزول)) (٢٦٧): (رجالُه رجالُ الصَّحيحِ).

وأخرج الموقوفَ منه مِن طرُقٍ أخرى: الحارثُ في ((المسند)) (٦٦١)، وابنُ جرير في ((التفسير)) (٢٤/ ٢١٨).

وثَّق رجالَ إسنادِه البوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٥/ ١٠٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٥٩).

قال السمعاني: (قَولُه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ هو الرَّسولُ في قولِ الجَميعِ... وقَولُه: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾... هو عبدُاللهِ بنُ أُمِّ مكتومٍ في قَولِ الجَميعِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٥). ويُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٩٢).

وقال ابنُ العربي: (لا خِلافَ أنَّها نَزَلَت في ابنِ أُمِّ مَكتومٍ الأَعمى). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٦٢).

قيل: معنى: ﴿وَتَوَلَّىٰٓ﴾: أعرَضَ بوَجْهِه. وممَّن اختاره: السمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٨٢).

وقيل: المعنى: أعرَضَ ببدَنِه. وممَّن ذهب إليه: السعديُّ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٣، ١٠٤).

أي: وما يُدْرِيك -يا مُحمَّدُ- لعَلَّ هذا الأعمى -الَّذي عَبَسْتَ وأعرَضْتَ عنه- يتَزكَّى بما يتعَلَّمُه مِنَ القُرآنِ منك؛ فيَتطَهَّرَ مِن ذُنوبِه[١].

﴿أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤﴾.

أي: أو لعَلَّه يَتذَكَّرُ ما غَفَل عنه؛ فيَتَّعِظَ ويَعتَبِرَ بما يَسمَعُ مِنَ القُرآنِ[٢].

﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥﴾.

أي: أمَّا الَّذي استَغْنى عن الإيمانِ والقُرآنِ بما لَه مِنَ المالِ والجاهِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠).

قال البِقاعي: (﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ أي: وأيُّ شَيءٍ يَجعلُك داريًا بحالِه وإن اجتَهَدْتَ في ذلك؟ فإنَّ ذواتِ الصُّدورِ لا يَعلَمُها إلَّا اللهُ تعالى). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

قال الواحدي: (﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: عن الله تعالى، وعن الإيمانِ، بما لَه مِن المالِ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٢٢).

قيل: معنى ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي: بمالِه. وممَّن اختاره: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابن عطية، وجلال الدين المحلي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٨٤).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ وابنُ أبي زَمَنِين: استغنى عن الله. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩٠)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٩٤).

وقال السمرقندي: (﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ يعني: استغنى بنَفْسِه عن ثوابِ الله). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٦). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۞ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [الليل: ٨ - ١١].

﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦﴾.

أي: فأنت -يا مُحمَّدُ- تتعَرَّضُ له، وتُقبِلُ عليه، وتجتَهِدُ في وَعْظِه؛ رجاءَ هِدايتِه للحَقِّ[1]!

﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧﴾.

---

= وقيل: ﴿ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي: أثرَى وكان ذا ثروةٍ وغِنًى. وممَّن اختاره: الثعلبيُّ، والقرطبي، وأبو حيان. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٧).

وقال البِقاعي: (﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ أي: طلَبَ الغِنى -وهو المالُ والثَّروةُ- فوجَدَه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٥٢).

قال الرازي: (قال عَطاءٌ: يريدُ: عن الإيمانِ. وقال الكلبيُّ: استغنى عن اللهِ. وقال بعضُهم: استغنى: أَثْرَى. وهو فاسِدٌ هاهنا؛ لأنَّ إقبالَ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لم يكُنْ لثَروتِهم ومالِهم حتَّى يُقالَ له: أمَّا مَن أَثْرَى فأنت تُقبِلُ عليه! ولأنَّه قال: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۞ وَهُوَ يَخۡشَىٰ﴾ [عبس: ٨، ٩]، ولم يقُلْ: وهو فقيرٌ عَديمٌ. ومَن قال: أمَّا مَنِ استغنَى بمالِه، فهو صحيحٌ؛ لأنَّ المعنى: أنَّه استغنَى عن الإيمانِ والقُرآنِ بما لَه مِنَ المالِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٤). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢١٣).

وقال ابنُ عاشور: (الاستِغناءُ: عَدُّ الشَّخْصِ نَفْسَه غَنِيًّا في أمرٍ يدُلُّ عليه السِّياقُ: قَولٌ، أو فِعلٌ، أو عِلمٌ، فالسِّينُ والتَّاءُ للحِسْبانِ، أي: حَسِبَ نَفْسَه غَنِيًّا، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ الاستغناءُ في التَّكَبُّرِ والاعتزازِ بالقُوَّةِ. فالمرادُ بـ ﴿مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ هنا: مَن عَدَّ نَفْسَه غَنِيًّا عن هَدْيِك، بأن أعرَضَ عن قَبُولِه... وليس المرادُ بـ ﴿مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ مَنِ استَغنى بالمالِ؛ إذ ليس المَقامُ في إيثارِ صاحِبِ مالٍ على فقيرٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

أي: وأيُّ ضَرَرٍ عليك -يا مُحمَّدُ- إذا لم يُسْلِمْ هذا الرَّجُلُ الَّذي استغنى، ويتطَهَّرْ من كُفْرِه وذُنوبِه؟ فلا تُبَالِ به، ولا تَكتَرِثْ بشأنِه؛ فإنَّه لا يَضُرُّك إثمُه، وليس عليك إلَّا البَلاغُ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦].

وقال سُبحانَه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ [لقمان: ٢٣].

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾.

أي: وأمَّا هذا الرَّجُلُ الأعمى الَّذي جاءك -يا مُحمَّدُ- يَمْشي مُسْرِعًا مُجتَهِدًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

قوله: (ما) في الآية: ﴿وَمَا عَلَيْكَ﴾: استفهاميَّةٌ، والمعنى: وأيُّ شَيءٍ عليك يا محمَّدُ؟ وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكي، والواحدي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٣).

وقيل: هي نافيةٌ، والمعنى: ليس عليك بأسٌ، ولا حرَجَ عليك. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: البيضاويُّ، وابن جُزَي، والنسفي، والبِقاعي، والقاسمي، والألوسي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٠٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٠).

في الوُصولِ إليك؛ طَلَبًا للعِلْمِ، وسَماعِ الحَقِّ[١].

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾.

أي: والحالُ أنَّه يَخافُ اللهَ تعالى؛ لعِلْمِه بعَظَمتِه وشِدَّةِ عَذابِه[٢].

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾.

أي: فأنت -يا مُحمَّدُ- تُعْرِضُ عن هذا الرَّجُلِ الحَريصِ على الحَقِّ، وتتشاغَلُ بدَعْوةِ ذلك الكافِرِ[٣]!

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

كأنَّه قيل: هذا القُرآنُ قد بلَغ في العَظَمةِ إلى هذا الحَدِّ العظيمِ، فأيُّ حاجةٍ به إلى أن يَقبَلَه هؤلاء الكُفَّارُ، فسَواءٌ قَبِلوه أو لم يَقبَلوه، فلا تلتَفِتْ إليهم، ولا تَشغَلْ قَلْبَك بهم، وإيَّاك وأن تُعرِضَ عمَّن آمَنَ به تطييبًا لقَلبِ أربابِ الدُّنيا[٤].

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

قال ابن عطية: (قال كثيرٌ مِن العلماءِ وابنُ زيدٍ وعائشةُ وغيرُها مِن الصحابةِ: لو كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كاتمًا شيئًا مِن الوحيِ، لكتَم هذه الآياتِ، وآياتِ قصةِ زيدٍ وزينبَ بنتِ جحشٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٥).

أي: لا تَفعَلْ ما فعَلْتَ -يا مُحمَّدُ-؛ فليس الخَيرُ في الإعراضِ عن المؤمِنِ الحَريصِ على الحَقِّ، والتَّشاغُلِ عنه بدعوةِ غَيرِه مِن الكُفَّارِ المكابِرينَ؛ إنَّ آياتِ القُرآنِ تذكيرٌ للنَّاسِ جميعًا(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

قال القرطبي: (﴿كَلَّآ﴾ كَلِمةُ رَدعٍ وزَجرٍ، أي: ما الأمرُ كما تفعَلُ مع الفريقينِ، أي: لا تَفعَلْ بَعْدَها مِثْلَها). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالضَّميرِ في قولِه: ﴿إِنَّهَا﴾: القرآنُ: البِقاعي، والألوسي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٤٤).

قال البقاعي: (﴿إِنَّهَا﴾ أي: القرآنَ، ولعَلَّه أنَّث الضَّميرَ باعتبارِ ما تُلِيَ عليهم في ذلك المجلِسِ مِن الآياتِ أو السُّوَرِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٥٦).

وقال الرازي: (لَمَّا جَعَل القرآنَ تَذْكِرةً أخرَجه على لَفظِ التَّذكِرةِ، ولو ذَكَّره لَجازَ، كما قال في موضِعٍ آخَرَ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ [المدثر: ٥٤]، والدَّليلُ على أنَّ قولَه: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ المُرادُ به القرآنُ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٥).

وبمعنى هذا القولِ مَن قال: المرادُ: آياتُ القرآنِ. ومنهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والعُلَيمي، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

وقيل: المرادُ: السُّورةُ. وممَّن قال به: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، ونسَبَه الرازيُّ إلي الأخفَشِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٥).

وقيل: المرادُ: الموعظةُ. وممَّن قال به: الزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والبغوي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٠).

وجمَعَ ابنُ جريرٍ بيْن القولَينِ الأخيرَينِ، أي أنَّ المرادَ: هذه العِظةُ، وهذه السُّورةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧).

قال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ أي: هذه السُّورةَ، أو الوَصِيَّةَ بالمساواةِ بيْن النَّاسِ في إبلاغِ العِلْمِ مِن شريفِهم ووضيعِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١).

وقال أيضًا: (مِنْ هاهنا أَمَر اللهُ عزَّ وجَلَّ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ألَّا يَخُصَّ بالإنذارِ =

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾.

أي: فمَن شاء مِن النَّاسِ ذَكَر هذا القُرآنَ، فاتَّعَظَ واعتَبَرَ وعَمِلَ بما فيه[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨، ٤٩].

وقال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩].

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وهذا القُرآنُ الكريمُ مَكتوبٌ في صُحُفٍ مُكَرَّمةٍ عِندَ اللهِ تعالى[2].

---

= أحدًا، بل يُساوي فيه بيْن الشَّريفِ والضَّعيفِ، والفَقيرِ والغَنِيِّ، والسَّادةِ والعَبيدِ، والرِّجالِ والنِّساءِ، والصِّغارِ والكِبارِ، ثمَّ اللهُ يَهْدِي مَن يشاءُ إلى صراطٍ مُستقيمٍ، وله الحِكمةُ البالِغةُ، والحُجَّةُ الدَّامِغةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣١٩).

وقال القاسمي: (قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إنَّ المعاتبةَ المذكورةَ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٠٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

قال ابن كثير: (﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: فمَن شاء ذكَرَ اللهَ في جميعِ أمورِه. ويحتملُ عَوْدُ الضَّميرِ على الوحيِ؛ لدَلالةِ الكلامِ عليه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١).

وقال ابن عاشور: (ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائِدًا إلى اللهِ تعالى؛ فإنَّ إعادةَ ضميرِ الغَيبةِ على اللهِ تعالَى دونَ ذِكْرِ معادِه في الكلامِ كثيرٌ في القرآنِ؛ لأنَّ شُؤونَه تعالَى وأحكامَه نَزَل القرآنُ لأجْلِها، فهو مَلْحوظٌ لكُلِّ سامِعٍ للقرآنِ، أيْ: فمَنْ شاءَ ذَكَر اللهَ وتَوَخَّى مَرْضاتَه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٥، ٢١٦)، ((تفسير =

﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وهي صُحُفٌ عاليةٌ، رفيعةُ المكانةِ والقَدْرِ، مُطَهَّرةٌ مِن كُلِّ دَنَسٍ وعَيبٍ[(١)].

قال سُبحانَه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢].

﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾.

أي: وهذه الصُّحُفُ المكتوبُ فيها القُرآنُ هي بأيدي طائِفةٍ مِنَ الملائِكةِ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩].

﴿كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

---

= ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦١).

قال الواحدي: (قال المفَسِّرون: يعني: اللَّوحَ المحفوظَ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٢٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٦، ١١٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

قال ابنُ جريرٍ: (﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾ يعني: في اللَّوحِ المحفوظِ، وهو المرفوعُ المطَهَّرُ عندَ اللهِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٠٨، ١٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).

قال ابن جُزَي: (﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ هي الملائِكةُ، والسَّفَرةُ: جَمعُ سافِرٍ، وهو الكاتِبُ؛ لأنَّهم يَكتُبونَ القُرآنَ. وقيل: لأنَّهم سُفَراءُ بيْن اللهِ وبيْن عَبيدِه. وقيل: يعني: القرَّاءَ مِنَ النَّاسِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣).

وقال ابنُ عثيمين: (هذا لأنَّهم سُفَراءُ بيْنَ اللهِ وبيْنَ الخَلقِ؛ فجِبريلُ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ واسِطةٌ بيْنَ اللهِ وبيْنَ الخَلقِ في النُّزولِ بالوَحْيِ، والكَتَبةُ الَّذين يَكتُبونَ ما يَعمَلُ الإنسانُ أيضًا يَكتُبونَه ويُبَلِّغونَه إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، واللهُ تعالى عالِمٌ به حينَ كتابتِه وقبْلَ كِتابتِه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).

أي: وأولئك الملائكةُ ذَوُو خَلْقٍ حَسَنٍ شَريفٍ، وأخلاقٍ حَسَنةٍ جَميلةٍ، كثيرو الخَيرِ والطَّاعةِ والإحسانِ[١].

عن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَثَلُ الَّذي يَقرَأُ القُرآنَ وهو حافِظٌ له: مع السَّفَرةِ الكِرامِ البَرَرةِ، ومَثَلُ الَّذي يقرَأُ وهو يَتعاهَدُه، وهو عليه شَديدٌ؛ فلَهُ أجْرانِ))[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ فيه الحَثُّ على التَّرحيبِ بمَن يَطلبُ الهدى، والإقبالِ عليهم في مجالِسِ العِلْمِ، وقَضاءِ حوائِجِهم، وعدمِ إيثارِ الأغنياءِ عليهم[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إلى آخرِ السِّياقِ تأديبٌ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ للخَلْقِ؛ أَلَّا يكونَ همُّهم همًّا شَخصيًّا، بل يكونُ همُّهم همًّا معنويًّا، وأَلَّا يُفَضِّلُوا في الدَّعوةِ إلى اللهِ شريفًا لِشَرَفِه، ولا عظيمًا لعَظَمتِه، ولا قريبًا لقُرْبِه، بل يكونُ النَّاسُ عندَهم سواءً في الدَّعوةِ إلى اللهِ؛ الفقيرُ والغنيُّ، الكبيرُ والصَّغيرُ، القَريبُ والبعيدُ[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ * وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ هذه فائِدةٌ كبيرةٌ هي المقصودةُ مِن بَعْثةِ الرُّسُلِ، ووَعْظِ الوُعَّاظِ، وتَذكيرِ المذَكِّرينَ؛ فإقبالُك على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).

(٢) رواه البخاري (٤٩٣٧) واللفظ له، ومسلم (٧٩٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).

مَن جاء بنَفْسِه مُفتَقِرًا لذلك منك هو الأليقُ الواجِبُ، وأمَّا تصَدِّيك وتعَرُّضُك للغَنِيِّ المُسْتغني الَّذي لا يَسألُ ولا يَستفتي؛ لعَدَمِ رَغبتِه في الخَيرِ، مع تَرْكِك مَن هو أهَمُّ منه- فإنَّه لا يَنبغي لك؛ فإنَّه ليس عليك ألَّا يَزَّكَّى، فلو لم يتَزَكَّ فلَسْتَ بمُحاسَبٍ على ما عَمِلَه مِن الشَّرِّ؛ فدَلَّ هذا على القاعِدةِ المشهورةِ، أنَّه: «لا يُترَكُ أمرٌ مَعلومٌ لأمرٍ مَوهومٍ، ولا مصلحةٌ مُتحَقِّقةٍ لمَصلحةٍ مُتوَهَّمةٍ»، وأنَّه يَنبغي الإقبالُ على طالِبِ العِلْمِ المفتَقِرِ إليه الحَريصِ عليه؛ أَزْيَدَ مِن غَيرِه[١].

- قولُه تعالى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ فيه مَزيدُ تَنفيرٍ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ عن مُصاحَبتِهم[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّه يَجِبُ الاجتهادُ في تزكيةِ التَّابعِ الَّذي عُرِفَ منه القَبولُ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ تَلَطُّفُ اللهِ عزَّ وجَلَّ بمُخاطَبةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ فقال سُبحانَه ثلاثَ جُمَلٍ لَمْ يُخاطِبْ فيها النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ لأنَّها عِتابٌ، فلو وُجِّهَتْ إلى الرَّسولِ بالخِطابِ لَكان شَديدًا عليه، لكنْ جاءتْ بالغَيبةِ ﴿عَبَسَ﴾ وإلَّا كان مقتضى الحالِ أنْ يقولَ: «عَبَسْتَ وتَوَلَّيتَ؛ أنْ جاءك الأعمى»، ولكِنَّه قال: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ فجَعَلَ الحُكْمَ للغائِبِ؛ كراهيةَ أنْ يُخاطِبَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بهذه الكَلِماتِ الغَليظةِ الشَّديدةِ، ومِن أجْلِ ألَّا يَقَعَ بمِثْلِ ذلك مَن يَقَعُ مِن هذه الأُمَّةِ، واللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٥).

سُبحانَه وتعالى وَصَفَ كتابَه العزيزَ بأنَّه بلِسانٍ عَربيٍّ مُبينٍ، وهذا مِن بَيانِه[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ عَبَّرَ عن هذا الصَّحابيِّ الجَليلِ -الَّذي هو عبدُ اللهِ بنُ أُمِّ مَكتومٍ- بلَقَبٍ يَكرَهُه النَّاسُ، مع أنَّه قال: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِ﴾ [الحجرات: ١١]؟

**الجوابُ مِن وجهينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ السِّرَّ في التَّعبيرِ عنه بلَفظِ: (الأعمَى) للإشعارِ بعُذرِه في الإقدامِ على قَطْعِ كلامِ الرَّسولِ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّه لو كان يَرَى ما هو مُشْتَغِلٌ به معَ صناديدِ الكفَّارِ، لَمَا قَطَعَ كلامَه[٢].

**الثَّاني**: جاء لَفظُ (الأعمى)؛ إشعارًا بما يُناسِبُ مِنَ الرِّفقِ به، والصَّغْوِ لِما يَقصِدُه[٣]؛ وتَرقيقًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ ليكونَ العِتابُ ملحوظًا فيه أنَّه لَمَّا كان صاحبَ ضَرارةٍ، فهو أجدَرُ بالعنايةِ به؛ لأنَّ مِثلَه يكونُ سريعًا إلى انكسارِ خاطِرِه[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ دَليلٌ على جوازِ أنْ يُلَقَّبَ الإنسانُ بوصْفِه؛ مِثلُ: الأعمى، والأعرَجِ، والأعمَشِ، وقد كان العلماءُ يَفعلون هذا، فيقولون: رواه الأعرجُ عن أبي هُرَيرةَ، رواه الأعمشُ... وهكذا، قال أهلُ العلمِ: واللَّقَبُ بالعَيبِ إذا كان المقصودُ به تعيينَ الشَّخصِ -حيث لا يُعرَف إلَّا به- فلا بأسَ به،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٢).
ويُنظر ما يأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٢). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٤).

وأمَّا إذا كان المقصودُ به تعييرَ الشَّخصِ فإنَّه حرامٌ؛ لأنَّ الأوَّلَ: إذا كان المقصودُ به تبيينَ الشَّخصِ فإنَّه تدعو الحاجةُ إليه، والثَّاني: إذا كان المقصودُ به التَّعييرَ فإنَّه لا يُقصَدُ به التَّبيينُ، وإنَّما يُقصدُ به الشَّماتةُ[١]!

٤- قولُه تعالى: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ تَحقيرٌ لأمرِ الكافرِ، وحضٌّ على الإعراضِ عنه، وتركِ الاهتمامِ به[٢]، والمعنى: عدَمُ تَزكِّيهِ ليس محمولًا عليك، أي: لستَ مؤاخَذًا بعَدمِ اهتدائِه حتَّى تَزيدَ مِن الحِرصِ على تَرغيبِه في الإيمانِ ما لم يُكلِّفْك اللهُ به، وهذا رِفقٌ مِن اللهِ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ فيه دَليلٌ لِما تقرَّر في أُصولِ الفِقْهِ مِن جوازِ الاجتهادِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووُقوعِه، وأنَّه جرَى على قاعدةِ: إعمالِ أرجَحِ المصلحتَينِ بحسَبِ الظَّاهِرِ[٤].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ * أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ * أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ * فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ * وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ غرَضُه تَعليمُ اللهِ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المُوازَنةَ بيْنَ مراتِبِ المصالِحِ، ووُجوبَ الاستقراءِ لخفيَّاتِها؛ كَيْلا يُفيتَ الاهتمامُ بالمهمِّ منها في بادئِ الرَّأيِ مُهمًّا آخَرَ مُساويًا في الأهمِّيَّةِ أو أرجَحَ. ولذلك يقولُ علماءُ أصولِ الفقهِ: إنَّ على المجتَهِدِ أنْ يَبحَثَ عن مُعارِضِ الدَّليلِ الَّذي لاحَ له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١١١).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٠٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أنَّ العَبدَ فاعِلٌ على الحقيقةِ، وله مَشيئةٌ ثابتةٌ، وله إرادةٌ جازمةٌ، وقوَّةٌ صالِحةٌ[١].

٨- قولُه تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ فيه تَعريضٌ بأنَّ موعظةَ القُرآنِ نافعةٌ لكلِّ أحدٍ تَجرَّدَ عن العِنادِ والمُكابَرةِ، فمَن لم يَتَّعِظْ بها فلأنَّه لم يَشَأْ أنْ يَتَّعِظَ[٢]، وفيه ترغيبٌ في التَّذكرةِ، وحَثٌّ على حِفظِها[٣].

٩- قال تعالى ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ في وصْفِهم بالسَّفَرةِ ثناءٌ عليهم؛ لأنَّهم يُبلِّغونَ القُرآنَ للنَّاسِ وهم حُفَّاظُه ووُعاتُه، فهذا معنى السَّفَرةِ، وفيه بِشارةٌ بأنَّهم سيَنشُرونَ الإسلامَ في الأُممِ[٤]. وذلك على أنَّ المرادَ كُتَّابُ الوَحْيِ مِن الصحابةِ.

١٠- الغالبُ في اصطلاحِ القُرآنِ أنَّ البَرَرةَ الملائكةُ، والأبرارَ الآدَميُّونَ؛ لأنَّ (بَرَرةً) أبلَغُ مِن (أبرارٍ)؛ إذ هو جمعُ بَرٍّ، وأبرارٌ جمعُ بارٍّ -على قولٍ-، وبَرٌّ أبلَغُ مِن بارٍّ، كما أنَّ عَدْلًا أبلَغُ مِن عادلٍ[٥].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾

- قولُه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ افتِتاحُ هذه السُّورةِ بفِعلينِ مُتحمِّلينِ لضميرٍ لا مَعادَ له في الكلامِ تَشويقٌ لِما سيُورَدُ بعدَهما، والفِعلانِ يُشعِرانِ بأنَّ المحكيَّ حادثٌ عظيمٌ، فأمَّا الضَّمائرُ فيُبيِّنُ إبهامَها قولُه: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٦]،

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٨، ١١٩).

(٥) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٩).

وأمَّا الحادثُ فيَتبيَّنُ مِن ذِكرِ الأَعمى ومَن استَغنى[١].

- وحُذِف مُتعلَّقُ (تَوَلَّى)؛ لظُهورِ أنَّه تَوَلٍّ عن الَّذي مَجيئُه كان سَببَ التَّولِّي[٢].

- وصِيغةُ الخبرِ في قولِه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۞ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ مُستعمَلةٌ في العِتابِ على الغَفلةِ عن المقصودِ الَّذي تَضمَّنَه الخبرُ، وهو اقتِصارُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ على الاعتناءِ بالحِرصِ على تَبليغِ الدَّعوةِ إلى مَن يَرْجو منه قَبولَها مع الذُّهولِ عن التَّأمُّلِ فيما يُقارِنُ ذلك مِن تَعليمِ مَن يَرغَبُ في عِلمِ الدِّينِ ممَّنْ آمَنَ. ولَمَّا كان صُدورُ ذلك مِن اللهِ لنبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، لم يَشَأِ اللهُ أنْ يُفاتِحَه بما يَتبادَرُ منه أنَّه المقصودُ بالكلامِ، فوَجَّهَه إليه على أسلوبِ الغَيبةِ؛ ليكونَ أوَّلُ ما يَقرَعُ سمْعَه باعثًا على أنْ يَترقَّبَ المَعنيَّ مِن ضميرِ الغائبِ فلا يُفاجِئَه العِتابُ، وهذا تلطُّفٌ مِن اللهِ برسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؛ لِيقَعَ العِتابُ في نفْسِه مُدَرَّجًا، وذلك أهوَنُ وقعًا[٣]. وقيل: التَّعرُّضُ لعُنوانِ عَماهُ؛ لزيادةِ الإنكارِ؛ كأنَّه قيلَ: تَوَلَّى لكَونِه أَعْمى، كما أنَّ الالتفاتَ في قولِه تعالَى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لذلكَ؛ فإنَّ المُشافَهةَ أدْخَلُ في تشديدِ العتابِ[٤].

وكذلِك في إسنادِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إلى ضَميرِ الرَّسولِ في حالِ الغَيبةِ إشعارٌ بأنَّ ذلك ممَّا لا يَليقُ بمنزلةِ مَن في صَدَدِ الرِّسالةِ، لا سيَّما أنَّه ما أُرسِلَ إلَّا رحمةً للعالَمينَ، وأنَّه لَعلى خُلُقٍ عظيمٍ؛ فكأنَّ العابسَ والمتولِّيَ غيرُه، ثمَّ الْتفَتَ يُخاطِبُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٤، ١٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٧).

قائلًا: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ تأنيبًا، أي: مِثلُك بتلك المنزلةِ لا يَنبغي له ذلك، وكذلك في صِفةِ الأعمى؛ مِن حيثُ اعتبارُ الجِبِلَّةِ النَّفْسانيَّةِ: مَنقصةٌ تُوجِبُ الإعراضَ والتَّولِّيَ عمَّن هو مُتَّصِفٌ بها، ومِن حيثُ مَرتبتُك مِن الخُلُقِ العظيمِ: قمْعُ النَّفْسِ، والعملُ بمُقتضى الخُلُقِ العظيمِ لا بمُقتضى شَهوةِ النَّفْسِ، أو في تلك الصِّفةِ إشعارٌ باستعمالِ التَّعطُّفِ والتَّرؤُّفِ، والتَّقريبِ والتَّرحيبِ، لا سيَّما مِن مِثلِك، وقد وصَفَك اللهُ بالخُلُقِ العظيمِ، أو في تلك الصِّفةِ مِن تمهيدِ العُذرِ، وأنَّه أَعْمى لم يَهتدِ إلى عدمِ الإقدامِ بيْنَ يدَيْك، وقطْعِ كلامِك عن كلامِ القومِ: اعتذارٌ عِندَ الكِرامِ، خُصوصًا عِندَ مِثلِك، وكنتَ للعالَمينَ بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى اللهِ بإذْنِه وسِراجًا منيرًا[1].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ الاستِفهامُ في هذا التَّركيبِ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ مُرادٌ منه التَّنبيهُ على مَغفولٍ عنه، والمعنى: أيُّ شيءٍ يَجعَلُك داريًا بحالِه؟ وإنَّما يُستعمَلُ مِثلُ هذا الأسلوبِ لقَصدِ الإجمالِ ثمَّ التَّفصيلِ[2].

- وفي قولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ إيماءٌ إلى عُذرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في تأخيرِه إرشادَ ابنِ أمِّ مَكْتومٍ؛ لأنَّ تَركيبَ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ يُستعمَلُ في التَّنبيهِ على أمْرٍ مَغفولٍ عنه -كما سبَق-، والمعنى: لعلَّه يَزَّكَّى تزكيةً عظيمةً كانتْ نفْسُه متهيِّئةً لها ساعتَئذٍ؛ إذ جاءَ مُسترشِدًا حريصًا، وهذه حالةٌ خفيَّةٌ، وكذلك عُذرُه في الحرصِ على إرشادِ المُشرِكِ بقولِه: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧]؛

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٩١، ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٥، ١٠٦).

إذ كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَخْشى تَبِعةً مِن فَواتِ إيمانِ المُشرِكِ بسببِ قطعِ المُحاوَرةِ معه، والإقبالِ على استجابةِ المؤمنِ المُسترشِدِ[١].

- وأيضًا في معْنى التَّرجِّي الَّذي يُعطيهِ ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ تَمهيدُ عُذرٍ له صلواتُ اللهِ عليه؛ جَبرًا لذلك الخِطابِ المشتمِلِ على التَّوبيخِ، يعني: أَعْذَرْناك لأنَّك حريصٌ على إسلامِ القَومِ، فأدَّى اجتهادُك إلى أنْ تُقبِلَ عليهم وتُعرِضَ عن الأعمَى، ولو دَرَيْتَ ذلك لَما فَرَطَ ذلك منك، أي: وإنْ كان خفيًّا عليك يا رسولَ اللهِ[٢].

- وقولُه: ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ قيل: هو استِئنافٌ واردٌ لبَيانِ ما يُلوِّحُ به ما قبْلَه؛ فإنَّه معَ إشعارِه بأنَّ له شأنًا مُنافيًا للإعراضِ عنه خارجًا عن دِرايةِ الغيرِ وإدْرائِه مُؤْذِنٌ بأنَّه تعالى يُدْريهِ ذلكَ، أي: لعلَّه يَتطهَّرُ بما يَقتبِسُ منكَ مِن أَوضارِ الأوزارِ بالكُلِّيَّةِ، وكلمةُ (لعلَّ) مع تحقُّقِ التَّزكِّي واردةٌ على سَننِ الكِبْرياءِ، أو على اعتبارِ مَعْنى التَّرجِّي بالنِّسبةِ إليه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الإعراضَ عنه عِندَ كَونِه مَرْجُوَّ التَّزكِّي ممَّا لا يجوزُ، فكيفَ إذا كان مقطوعًا بالتَّزكِّي كما في قولِك: لعلَّك ستَندَمُ على ما فعَلتَ؟ وفيه إشارةٌ إلى أنَّ مَن تَصدَّى لتزكيتِهم مِن الكفَرةِ لا يُرجَى منهم التَّزكِّي والتَّذكُّرُ أصلًا[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ﴾ اكتِفاءٌ[٤] عن أنْ يقولَ: (فيَنفَعَه التَّزكِّي وتَنفَعَه الذِّكرى)؛ لظهورِ أنَّ كِلَيْهما نفعٌ له[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠١)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٧).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٧).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾

- قولُه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، أي: مهْما يكُنِ الَّذي استَغنى فأنتَ له تَصدَّى، أو مهْما يكنْ شيءٌ فالَّذي استَغنى تَتصدَّى له، والمقصودُ: أنت تَحرِصُ على التَّصدِّي له، فجُعِل مضمونُ الجوابِ -وهو التَّصدِّي له- معلَّقًا على وجودِ مَن استَغنى، وملازِمًا له ملازَمةَ التَّعليقِ الشَّرْطيِّ على طريقةِ المبالغةِ[١].

- قولُه: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ الإتيانُ بضَميرِ المخاطَبِ مُظهَرًا قبْلَ المسنَدِ الفِعليِّ دونَ استتارِه في الفِعلِ يجوزُ أنْ يكونَ للتَّقَوِّي، كأنَّه قيل: تَتصدَّى له تصدِّيًا، فمَناطُ العِتابِ هو التَّصدِّي القويُّ. ويجوزُ أنْ يكونَ مفيدًا للاختِصاصِ، أي: فأنت لا غيرُك تَتصدَّى له، أي: ذلك التَّصدِّي لا يَليقُ بك، أي: لو تَصدَّى له غيرُك لَكان هَونًا، فأمَّا أنت فلا يَتصدَّى مِثلُك لمِثلِه، فمَناطُ العتابِ هو أنَّه وقَعَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جليلِ قَدْرِه[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ جملةٌ معترِضةٌ بينَ جملةِ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ [عبس: ٥] وجملةِ ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ﴾ [عبس: ٨]، والواوُ اعتراضيَّةٌ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾، قيل: (ما) نافيةٌ، أي: وليسَ عليكَ بأسٌ في ألَّا يَتزكَّى بالإسلامِ حتَّى تَهتمَّ بأمرِه وتُعرِضَ عمَّن أسلَمَ. وقيلَ: (ما) استفهاميَّةٌ للإنكارِ، أيْ: أيُّ شيءٍ عليك في ألَّا يَتزكَّى؟! ومآلُه النَّفيُ أيضًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٨).

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ [عبس: ٥]، اقتضى ذِكرَه قصْدُ المقابلةِ مع المعطوفِ عليها مقابلةَ الضِّدَّينِ؛ إتمامًا للتَّقسيمِ(١).

- والمرادُ بمَن جاءَ يَسْعى: هو ابنُ أمِّ مَكْتومٍ، فحصَلَ بمضمونِ هذه الجُملةِ تأكيدٌ لمضمونِ ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾(٢) [عبس: ١، ٢].

- والسَّعيُ: شِدَّةُ المشيِ، كُنِّيَ به عن الحِرصِ على اللِّقاءِ، فهو مُقابِلٌ لحالِ مَن استَغنى؛ لأنَّ استغناءَه استغناءُ المُمتعِضِ مِن التَّصدِّي له(٣).

- وحُذِف مفعولُ ﴿يَخۡشَىٰ﴾؛ لظهورِه؛ لأنَّ الخشيةَ في لسانِ الشَّرعِ تَنصرِفُ إلى خشيةِ اللهِ تعالى(٤).

- واختِيرَ الفعلُ ﴿يَخۡشَىٰ﴾ المضارِعُ؛ لإفادتِه التَّجدُّدَ(٥).

- قولُه: ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾ الإتيانُ بضميرِ المخاطَبِ مُظهَرًا قبْلَ المسنَدِ الفِعليِّ دونَ استتارِه في الفِعلِ يجوزُ أنْ يكونَ للتَّقَوِّي، كأنَّه قيل: تَتَلَهَّى عنه تَلَهِّيًا، فمناطُ العِتابِ هو التَّلَهِّي القَويُّ. ويجوزُ أنْ يكونَ مفيدًا للاختصاصِ، أي: فأنت لا غيرُك تَتلهَّى عنه، أي: ذلك التَّلَهِّي لا يَليقُ بك، أي: لو تَلَهَّى غيرُك لَكان هَونًا، فأمَّا أنت فلا يَتلهَّى مِثلُك عن مِثلِه، فمناطُ العتابِ هو أنَّه وقَعَ مِن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في جليلِ قَدْرِه(٦).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٠٨، ١٠٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٠٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٦)، ((تفسير أبي =

- وتقديمُ ﴿لَهُۥ﴾ في قولِه: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾، و﴿عَنۡهُ﴾ في قولِه: ﴿فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾؛ للتَّعريضِ باهتِمامِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بمَضمونِهما[1].

- وما وقَعَ في خِلالِ هذا العِتابِ مِن ذِكرِ حالِ المؤمِنِ والكافرِ إنَّما هو إدْماجٌ[2]؛ لأنَّ في الحادثةِ فُرصةً مِن التَّنويهِ بسُمُوِّ منزلةِ المؤمنِ؛ لانطواءِ قلبِه على أشعَّةٍ تُؤهِّلُه لأنْ يَستنيرَ بها ويُفيضَها على غيرِه، جمعًا بيْنَ المعاتَبةِ والتَّعليمِ، على سَننِ هَدْيِ القرآنِ الكريمِ في المناسَباتِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾

- قولُه: ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ عن المعاتَبِ عليه، أو عن مُعاوَدةِ مِثلِه؛ مِن التَّصدِّي لِمَنِ استَغنى عمَّا دعاهُ إليهِ مِن الإيمانِ والطَّاعةِ وما يُوجِبُهما مِن القرآنِ الكريمِ،

= السعود)) (٩/ ١٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٠٨، ١٠٩).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٨).

(٢) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرَضًا في غرَضٍ، أو بديعًا في بديعٍ، بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيقَ لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأُولَىٰ وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ. وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه تعالى بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواهُ- مُبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٤٤٩)، ((خِزانة الأدب)) لابن حِجَّةَ الحَمَوي (٢/ ٤٨٤)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبدالرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٤).

مُبالِغًا في الاهتمامِ بأمرِه، مُتهالِكًا على إسلامِه، مُعرِضًا بسببِ ذلكَ عن إرشادِ مَن يَسترشِدُه. وهي إبطالٌ لِما جَرَى في الكلامِ السَّابقِ ولو بالمفهومِ، كما في قولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ [عبس: ٣]، ولو بالتَّعريضِ أيضًا، كما في قولِه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عبس: ١]. ويجوزُ أنْ يَنصرِفَ الإبطالُ إلى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ خاصَّةً. ويجوزُ أنْ يكونَ تأكيدًا لقولِه: ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٧]، أي: لا تظُنَّ أنَّك مسؤولٌ عن مُكابَرتِه وعِنادِه؛ فقد بلَّغتَ ما أُمِرتَ بتبليغِه(١).

- ويجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ استِئنافًا ابتدائيًّا موجَّهًا إلى مَن كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَدْعوهُ قُبيلَ نزولِ السُّورةِ ومَن معه، وكانوا لا يَستجيبونَ إلى ما دعاهُم، ولا يُصدِّقونَ بالبعثِ، فتكونَ (كَلَّا) إبطالًا لِما نعَتوا به القرآنَ مِن أنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ أو نحو ذلك، فيكونَ ضميرُ ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ عائدًا إلى الآياتِ الَّتي قرَأَها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عليهم في ذلك المَجلِسِ، ثمَّ أُعيدَ عليها الضَّميرُ بالتَّذكيرِ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المرادَ آياتُ القرآنِ الكريمِ. ويُؤيِّدُ هذا الوجهَ قولُه تعالى عَقِبَه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧] الآياتِ، حيثُ ساقَ لهم أدِلَّةَ إثباتِ البعثِ، فكان تأنيثُ الضَّميرِ نُكتةً خصوصيَّةً؛ لتحميلِ الكلامِ هذه المَعانيَ(٢).

- قولُه: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ تَعليلٌ للرَّدعِ عمَّا ذُكِرَ ببيانِ عُلُوِّ رُتبةِ القرآنِ العظيمِ الَّذي استَغنى عنه مَن تَصدَّى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لهُ، وتحقيقُ أنَّ شأنَه أنْ يكونَ موعظةً حقيقةً بالاتِّعاظِ بها، فمَن رَغِبَ فيها اتَّعَظَ بها، ومَن رَغِبَ عنها

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٥).

-كما فعَلَ المُستغني- فلا حاجةَ إلى الاهتمامِ بأمرِه[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ﴾ استِئنافٌ بعدَ حرفِ الإبطالِ (كلَّا)، وهو استِئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ ما تَقدَّمَ مِن العتابِ ثمَّ ما عَقِبَه مِن الإبطالِ يُثيرُ في خاطِرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الحَيرةَ في كيف يكونُ العَملُ في دَعوةِ صَناديدِ قُريشٍ إذا لم يَتفرَّغْ لهم؛ لئلَّا يَنفِروا عن التَّدبُّرِ في القرآنِ، أو يُثيرُ في نفْسِه مخافةَ أنْ يكونَ قصَّرَ في شيءٍ مِن واجبِ التَّبليغِ[٢].

- قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ الضَّميرُ الظَّاهرُ في قولِه: ﴿ذَكَرَهُۥ﴾ يَجوزُ أنْ يعودَ إلى ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ [عبس: ١١]؛ لأنَّ (ماصَدَقَها)[٣] القرآنُ الَّذي كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَعرِضُه على صَناديدِ قُريشٍ قُبيلَ نزولِ هذه السُّورةِ، أي: فمَن شاءَ ذكَرَ القرآنَ وعَمِل به. ويجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى اللهِ تعالى، والذِّكرُ على كِلا الوَجهينِ: الذِّكرُ بالقلبِ، وهو تَوَخِّي الوُقوفِ عِندَ الأمرِ والنَّهيِ. والَّذي اقتَضَى الإتيانَ بالضَّميرِ وكَوْنَه ضميرَ مُذكَّرٍ مُراعاةُ الفواصلِ، وهي: ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾، ﴿مُّكَرَّمَةٖ﴾ ﴿مُّطَهَّرَةِۭ﴾، ﴿سَفَرَةٖ﴾، ﴿بَرَرَةٖ﴾[٤].

- وجُملةُ ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ قولِه: ﴿تَذۡكِرَةٞ﴾ [عبس: ١١] وقولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٤، ١١٥).

(٣) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو المَوصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يُقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٥، ١١٦).

﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: ١٣]، تَتضمَّنُ الوَعدَ والوعيدَ[١]، والفاءُ لتفريعِ مضمونِ الجملةِ على جملةِ ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ [عبس: ١١]، والفاءُ مِن جملةِ الاعتراضِ[٢].

- وأيضًا قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ استطرادٌ، وبيانُه: أنَّه لَمَّا خاطَبَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بذلك الخِطابِ الهائلِ، قيل: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، أي: إنَّ تلك المُعاتَبَةَ -على قولٍ- موعظةٌ للسَّامعينَ؛ فإنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بجلالتِه إذا عُوتِبَ بذلك الخِطابِ الفظيعِ لذلك التَّصدِّي والتَّلهِّي، فما بالُ غيرِه؟! وإذا كان كذلك، فتَذكَّرْها أيُّها السَّامعُ. وكان مِن الظَّاهِرِ أنْ يُؤخَّرَ قولُه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ عن وصفِ التَّذكرةِ، فقُدِّمَ؛ لشِدَّةِ العنايةِ بها، ولِعِظَمِ الحادثةِ عظَّمَ الكُتُبَ، ووصَفَها بتلك الأوصافِ العظيمةِ، ثمَّ قيل: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، فجمَعَ في ألفاظٍ قليلةٍ معانيَ كثيرةً، ثمَّ فصَّلَ بقولِه: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] إلى آخِرِه[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ﴾

- قولُه: ﴿فِي صُحُفٍ﴾ متعلِّقٌ بمُضمَرٍ هو صِفةٌ لـ(تذكرةٌ)، أي: كائنةٌ في صُحُفٍ مُنتسَخةٍ مِن اللَّوحِ، أو خبرٌ ثانٍ لـ(إنَّ)[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ * كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾

- لكلمةِ ﴿سَفَرَةٍ﴾ الوَقعُ العَظيمُ المُعجِزُ في هذا المَقامِ؛ فيجوزُ أنْ تكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٩٦).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٠٩).

جمعَ سافِرٍ، مِثلَ كاتِبٍ وكَتَبَةٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ اسمَ جمْعِ سَفيرٍ، وهو المرسَلُ في أمرٍ مهمٍّ، فهو فعيلٌ بمعنى فاعِلٍ[١].

- قولُه: ﴿كِرَامِ بَرَرَةٍ﴾ البَرَرةُ: جمعُ بَرٍّ، وهو الموصوفُ بكَثرةِ البِرِّ؛ فهذا مِن بابِ الوَصْفِ بالمصدرِ، وقد اختُصَّ البَرَرةُ بجمْعِ بَرٍّ، ولا يكونُ جمْعَ بارٍّ[٢].

- وفي الآياتِ السَّابقةِ تَنويهٌ بشأنِ القُرآنِ؛ لأنَّ التَّنويهَ بالآياتِ الواردةِ في أوَّلِ هذه السُّورةِ مِن حيثُ إنَّها بعضُ القُرآنِ، فأُثنِيَ على القُرآنِ بفضيلةِ أثرِه في التَّذكيرِ والإرشادِ، وبرِفعةِ مَكانتِه، وقُدسِ مَصدرِه، وكَرَمِ قَرارِه وطَهارتِه، وفَضائلِ حمَلَتِه ومُبلِّغيه؛ فإنَّ تلك المدائحَ عائدةٌ إلى القُرآنِ بطريقِ الكِنايةِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٧ - ١١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٧-٢٢)

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿نُّطۡفَةٍ﴾: النُّطفةُ: الماءُ الصَّافي، ويُعَبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُلِ والمرأةِ، وأصلُ (نطف): يدُلُّ على نَدوةٍ وبَلَلٍ[١].

﴿أَنشَرَهُۥ﴾: أي: أحياه وبعَثَه، وأصلُ (نشر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وتشَعُّبِه[٢].

﴿وَقَضۡبٗا﴾: القَضْبُ: هو العَلَفُ الرَّطْبُ الَّذي تأكُلُه الدَّوابُّ، وسُمِّيَ قَضْبًا؛ لأنَّه يُقضَبُ -أي: يُقطَعُ- بعدَ ظُهورِه مرَّةً بعدَ أُخرى، وقيل: هو كُلُّ ما يُؤكَلُ مِنَ النَّباتِ رَطْبًا، كالقِثَّاءِ والخِيارِ ونَحوِهما، وأصلُ (قضب): يدُلُّ على قَطعِ شَيءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٤٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٢/ ٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٣٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٨).

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾: أي: بساتينَ عظيمةً غِلاظَ الأَشْجارِ، مُتكاثِفًا مُلْتَفًّا شَجَرُها بَعضُه في بَعضٍ، والغُلْبُ جمعُ غَلْباءَ. يُقالُ: حَديقةٌ غَلْباءُ: إذا كانت عَظيمةَ الشَّجَرِ مُلتَفَّةً، وأصلُها مِنَ الغَلَبِ بمعنى الغِلَظِ، يقال: غَلِبَ فُلانٌ، أي: غَلُظَ عُنُقُه، ويُقالُ: اغْلَوْلَبَت الأرضُ: إذا التفَّ عُشْبُها وتكاثَفَ[١].

﴿وَأَبًّا﴾: الأَبُّ: اسمٌ للكَلَأِ والعُشْبِ الَّذي تَرْعاه الأنعامُ، مأخوذٌ مِن أَبَّ فُلانٌ الشَّيءَ: إذا قَصَده واتَّجه نَحْوَه، والكَلأُ والعُشْبُ يتَّجِهُ إليه الإنسانُ بدَوابِّه للرَّعْيِ. وقيل: الأَبُّ: المَرْعى المتهَيِّئُ للرَّعْيِ، مِن قَولِهم: أَبَّ لكذا، أي: تهيَّأَ[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾

المَصدَرُ المؤَوَّلُ ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ في محلِّ جَرٍّ بدَلُ اشتمالٍ مِن ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾؛ فإنَّ صَبَّ الماءِ لكَونِه مِن أسبابِ تكَوُّنِ الطَّعامِ كالمُشتَمِلِ عليه، والعائِدُ محذوفٌ، أي: صَبَبْنا له[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يبيِّنُ الله تعالى جانبًا مِن نِعَمِه على خَلقِه، وموقفهم منها، فيقولُ: أُهلِكَ الإنسانُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٩٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥٠).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٦٩٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٤٨)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٢٤٨).

فما أشَدَّ كُفْرَه باللهِ الَّذي خَلَقَه!

مِنْ أيِّ شَيءٍ خَلَقَ اللهُ الإنسانَ؟ خَلَقَه اللهُ مِن ماءٍ قَليلٍ -وهو المَنيُّ- فقدَّره في بَطْنِ أُمِّه أحوالًا وأطوارًا في الخَلْقِ، وهَيَّأه لِما يَصلُحُ له مِنَ الأعضاءِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ والأشكالِ، ثمَّ سهَّل اللهُ له طَريقَ الخُروجِ مِن بَطْنِ أُمِّه، وطريقَ الخيرِ والشَّرِّ، ثمَّ قَبَض اللهُ رُوحَه عِندَ انقِضاءِ أجَلِه، وجَعَل له قَبْرًا يُوارَى فيه بَدَنُه؛ إكرامًا له، ثُمَّ إذا شاء اللهُ بَعَثَ الإنسانَ بعْدَ مَوتِه، وأحياه يومَ القيامةِ؛ لِيُجازِيَه على أعمالِه.

ثمَّ يَزجُرُ اللهُ سُبحانَه الإنسانَ لتقصيرِه، فيقولُ: كَلَّا، لم يَقُمِ الإنسانُ بكُلِّ ما فَرَض اللهُ عليه!

ثمَّ يذكُرُ سُبحانَه جانبًا مِن نِعَمِه، وكيف هيَّأ للإنسانِ طَعامَه، فيقولُ: فلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِه مُتَفَكِّرًا في أسبابِ حُصولِه؛ أنَّا أنزَلْنا ماءَ المطَرِ مِنَ السَّحابِ، ثمَّ شَقَقْنا الأرضَ بخُروجِ النَّباتِ، فأنبَتْنا فيها أنواعَ الحُبوبِ، والعِنَبَ، وأنبَتْنا قتًّا رطبًا تُعْلَفُ به البهائمُ، وأنبَتْنا الزَّيتونَ، وأشجارَ النَّخيلِ، وبَساتينَ ذاتَ أشجارٍ غَليظةٍ عَظيمةٍ، وأنواعَ الفَواكِهِ، والعُشْبَ الَّذي تأكُلُه الأنعامُ؛ مَنفَعةً لكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم، تتمَتَّعونَ بها في الحياةِ الدُّنيا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نَبَّه اللهُ تعالى على عُلُوِّ القُرآنِ المكتوبِ، وجَلالةِ مِقدارِه، وعَظَمةِ آثارِه، وظُهورِ ذلك لِمَن تدَبَّرَه وتأمَّلَه حَقَّ تأمُّلِه؛ عَقَّبَه بقَولِه ناعيًا على مَن لم يُقبِلْ

بكُلِّيَّتِه عليه، داعيًا بأعظَمِ شدائدِ الدُّنيا -الَّتي هي القَتلُ- في صيغةِ الخَبَرِ؛ لأنَّه أبلَغُ[(١)]:

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧﴾.

أي: أُهلِكَ الإنسانُ، فما أشَدَّ كُفْرَه باللهِ الَّذي خَلَقَه[(٢)]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٧، ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢١).

قال ابن جُزَي: (﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ دعاءٌ عليه، على ما جَرَت به عادةُ العَرَبِ مِنَ الدُّعاءِ بهذا اللَّفظِ، ومعناه تقبيحُ حالِه، وأنَّه ممَّن يَستَحِقُّ أن يُقالَ له ذلك. وقيل: معناه: لُعِنَ. وهذا بعيدٌ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٣).

قال الرازي: (وليس المرادُ مِن الإنسانِ هاهنا جميعَ النَّاسِ، بل الإنسانُ الكافرُ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٨).

وقال ابنُ جرير: (في قَولِه: ﴿أَكۡفَرَهُۥ﴾ وجهانِ؛ أحدُهما: التَّعَجُّبُ مِن كُفْرِه مع إحسانِ اللهِ إليه، وأياديه عِندَه. والآخَرُ: ما الَّذي أكفَرَه؟ أيْ: أيُّ شَيءٍ أكفَرَه؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٠).

وممَّن ذهب إلى أنَّه تعَجُّبٌ: الواحديُّ، والقرطبي، والبيضاوي، والخازن، وأبو حيان، والبِقاعي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٥٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢١).

ممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤١٩).

وممَّن ذهب إلى أنَّه استفهامٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّيُّ بنُ أبي طالبٍ، والكرمانيُّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩١)، ((الهداية)) لمكي (١٢/ ٨٠٥٩)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٠٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠١).

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ [الحج: ٦٦].

﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨﴾.

أي: ما الشَّيءُ الَّذي خَلَق اللهُ الإنسانَ منه[١]؟

كما قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ٨ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ٩ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ١٠ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ [الطارق: ٥ - ٨].

﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩﴾.

أي: خَلَق اللهُ الإنسانَ مِن ماءٍ قَليلٍ -وهو المَنيُّ- فقدَّره في بَطْنِ أُمِّه أحوالًا وأطوارًا في الخَلْقِ؛ نُطفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضْغةً، إلى أنْ تَمَّ خَلْقُه، وهَيَّأه لِما يَصلُحُ له، ويَليقُ به مِنَ الأعضاءِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ والأشكالِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: مِن أيِّ شَيءٍ خَلَقَ الإنسانَ الكافِرَ رَبُّه، حتَّى يتكَبَّرَ ويتعَظَّمَ عن طاعةِ رَبِّه، والإقرارِ بتوحيدِه؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١١).

وقال السمعاني: (معناه: أفلَا يتفَكَّرُ هذا الكافِرُ مِن أيِّ شَيءٍ خَلَقَه اللهُ تعالى؟!). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٩).

وقال السعدي: (قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ لنِعمةِ اللهِ! وما أشَدَّ مُعانَدتَه للحَقِّ بعدَ ما تبَيَّنَ! وهو ما هو؟! هو مِن أضعَفِ الأشياءِ، خَلَقَه اللهُ مِن ماءٍ مَهينٍ!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٠، ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٥).

قال البيضاوي: (﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: فهيَّأه لِما يَصلُحُ له مِن الأعضاءِ والأشكالِ، أو: فَقَدَّرَه أطوارًا =

كما قال سبحانَه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٢ - ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ الله عنه، قال: حَدَّثَنا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو الصَّادِقُ المصدوقُ، قال: ((إنَّ أحَدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطْنِ أُمِّه أربعينَ يومًا، ثمَّ يكونُ عَلَقةً مِثلَ ذلك، ثمَّ يكونُ مُضغةً مِثْلَ ذلك، ثمَّ يَبعَثُ اللهُ مَلَكًا، فيُؤمَرُ بأَربَعِ كَلِماتٍ، ويُقالُ له: اكتُبْ عَمَلَه، ورِزْقَه، وأجَلَه، وشَقِيٌّ أو سَعيدٌ، ثمَّ يُنفَخُ فيه الرُّوحُ))(١).

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾.

أي: ثمَّ سهَّل اللهُ للإنسانِ طَريقَ الخُروجِ مِن بَطْنِ أُمِّه، وطريقَ الخَيرِ والشَّرِّ(٢).

---

= إلى أنْ أتَمَّ خلقتَه). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧).

وقال البقاعي: (﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: هَيَّأه لِما يَصلُحُ له مِنَ الأعضاءِ الظَّاهِرةِ والباطِنةِ والأشكالِ والأطوارِ، إلى أن صَلَح لذلك، ثمَّ جَعَله في ظُلُماتٍ ثلاثٍ: ظُلمةِ البَطنِ، ثمَّ الرَّحِمِ، ثمَّ المَشيمةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٦٠، ٢٦١).

وقال المهدوي: (﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾: يعني: قدَّره شقيًّا أو سعيدًا، وقيل: حسنًا أو قبيحًا، ونحوه. وقيل: نقله من حال إلى حال؛ نطفة ثم علقة، إلى أن تمَّ خلقُه). ((التحصيل لفوائد كتاب التفصيل)) (٧/ ٣٢).

وقال ابن كثير: (﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أيْ: قَدَّر أجَلَه ورِزْقَه وعملَه، وشَقِيٌّ أوْ سَعيدٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢).

(١) رواه البخاري (٣٢٠٨) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١١، ١١٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦١). =

= قال السمعاني: (قَولُه: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ أكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ على أنَّ المُرادَ منه هو الخُروجُ مِن الرَّحِمِ. وقيل مَعْناه: يسَّرَ له سبيلَ الخَيرِ. وقيل: بَيَّنَ له سَبيلَ الشَّقاوةِ والسَّعادةِ. قاله مُجاهِدٌ. والَّذي تقدَّمَه قَولُ الحسَنِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٥٩).

وممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والواحدي، وابن جُزَي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٢)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو صالِحٍ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢).

وذكر ابنُ جَريرٍ أنَّ هذا القَولَ أشبَهُ بظاهِرِ الآيةِ؛ وذلك أنَّ الخبَرَ مِن الله قَبْلَها وبَعْدَها عن صِفةِ خَلْقِه، وتدبيرِه جِسْمَه، وتصريفِه إيَّاه في الأحوالِ، فالأَولى أن يكونَ أوسَطُ ذلك نظيرَ ما قَبْلَه وبَعْدَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٣).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ: يسَّر له طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ: ابنُ كثير، والشوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٥).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: مجاهدٌ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١١).

وممَّن جمَع بيْن القولَين: البِقاعي، وابنُ عثيمين:

قال ابن عثيمين: (﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ السَّبيلُ هنا بمعنَى الطَّريقِ، يعني: يسَّر له الطَّريقَ ليخرجَ مِن بَطنِ أُمِّه إلى عالَمِ المُشاهَدةِ، ويسَّر له أيضًا بعدَ ذلك ما ذكره تعالى في قولِه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

يسَّر له ثَدْيَيْ أمِّه يتغذَّى بهما، ويسَّر له بعدَ ذلك ما فتَح له مِن خزائنِ الرِّزقِ، ويسَّر له فوقَ هذا كلِّه وما هو أهَمُّ، وهو طريقُ الهُدى والفَلاحِ، وذلك بما أرسل إليه مِن الرِّسالاتِ، وأنزَل عليه مِن الكُتبِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٥).

وقال البِقاعي: (﴿يَسَّرَهُۥ﴾ أي: سهَّل له أمْرَه في خروجِه، بأن فتَح فَمَ الرَّحِمِ، وألهَمَه أن يَنتكِسَ، وذلَّل له سبيلَ الخَيرِ والشَّرِّ، وجعَل له عقلًا يَقودُه إلى ما يسَّر له منهما). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٦١).

وقال السعدي: (﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ أي: يسَّر له الأسبابَ الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ، وهداه السَّبيلَ [وبيَّنه] وامتَحَنه بالأمرِ والنَّهيِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾.

أي: ثمَّ قَبَض اللهُ رُوحَ الإنسانِ عِندَ انقِضاءِ أجَلِه، وجَعَل له قَبْرًا يُوارَى فيه بَدَنُه؛ إكرامًا له[١].

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢﴾.

أي: ثُمَّ إذا شاء اللهُ بَعَثَ الإنسانَ بعْدَ مَوتِه، وأحياه يومَ القيامةِ؛ لِيُجازِيَه على أعمالِه[٢].

﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ مِن أنَّه قد أدَّى جميعَ ما أوجَبَ اللهُ عليه؛ فلم يَقُمِ الإنسانُ بكُلِّ ما فَرَض اللهُ عليه؛ من العَمَلِ بطاعتِه، واجتِنابِ مَعصِيَتِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢١٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

قال ابنُ الجوزي: (هل هذا عامٌّ أم خاصٌّ؟ فيه قولان:

أحَدُهما: أنَّه عامٌّ. قال مجاهِدٌ: لا يَقْضي أحدٌ أبدًا كُلَّ ما افتَرَض اللهُ عليه.

والثَّاني: أنَّه خاصٌّ للكافِرِ، لم يَقْضِ ما أُمِرَ به مِن الإيمانِ والطَّاعةِ. وقاله يحيى بنُ سَلَّامٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٢).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الأوَّلِ -أنَّه عامٌّ، وأنَّ المعنى أنَّه لا يَخلو إنسانٌ مِن تقصيرٍ-: الزمخشريُّ، والبيضاوي، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٣).

قال ابن كثير: (عن مجاهدٍ قوله: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ قال: لا يَقضي أحدٌ أبدًا كلَّ ما افتُرِض =

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ عادةَ اللهِ تعالى جاريةٌ في القُرآنِ بأنَّه كُلَّما ذَكَر الدَّلائِلَ الموجودةَ في الأنفُسِ فإنَّه يَذكُرُ عَقِبَها الدَّلائِلَ الموجودةَ في الآفاقِ، فجَرى هاهنا على تلك العادةِ، وذَكَر دلائِلَ الآفاقِ، وبدأ بما يحتاجُ الإنسانُ إليه[1].

وأيضًا لَمَّا عَدَّد تعالى نِعَمَه في نفْسِ الإنسانِ، ذَكَر النِّعَمَ فيما به قِوامُ حياتِه، وأمَرَه بالنَّظَرِ إلى طعامِه، وكيفيَّاتِ الأحوالِ الَّتي اعتوَرَت على طعامِه، حتَّى صار بصدَدِ أن يَطعَمَ[2].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾.

---

= عليه. وحكاه البَغَويُّ عن الحسَنِ البصريِّ بنحوٍ من هذا. ولم أجِدْ للمتقدِّمينَ فيه كلامًا سِوى هذا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١١).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الثَّاني: ابنُ جرير، والواحديُّ، والنسفي، والخازن، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٥).

وقيل: المرادُ: أنَّ اللهَ تعالى لم يَقْضِ ما أمَرَ به كَونًا وقَدَرًا، فهو سُبحانَه لا يَبعَثُ العِبادَ الآنَ حتَّى تَنقَضِيَ المدَّةُ الَّتي قدَّرَها، ويَفرُغَ القَدَرُ مِن بني آدَمَ مِمَّن كَتَب تعالى وُجودَهم وخُروجَهم إلى الدُّنيا، فإذا اكتَمَل ذلك بَعَث اللهُ الخلائِقَ وأعادهم كما بدَأَهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

قال ابنُ عثيمين: (وفي هذا رَدٌّ على المكَذِّبينَ بالبَعْثِ الَّذين يقولونَ: لو كان البَعثُ حَقًّا لوَجَدْنا آباءَنا الآنَ، وهذا القَولُ منهم تحَدٍّ مَكذوبٌ؛ لأنَّ الرُّسُلَ لم تَقُلْ لهم: إنَّكم تُبعَثونَ الآنَ، ولكِنَّهم قالوا لهم: إنَّكم تُبعَثونَ جَميعًا بعْدَ أن تَموتوا جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩).

أي: فلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى طَعامِه مُتَفَكِّرًا في كيفيَّةِ خَلْقِه، وتيسيرِ أسبابِ حُصولِه[١].

كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ * لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٣ - ٦٧].

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المقصودُ النَّظَرَ إلى صنائِعِ اللهِ تعالى في الطَّعامِ، وكانت أفعالُ الإنسانِ وأقوالُه في تكذيبِه بالبَعثِ أفعالَ مَن يُنكِرُ ذلك الصُّنعَ؛ قال سُبحانَه مُفَصِّلًا لِمَا يَشتَرِكُ في عِلْمِه الخاصُّ والعامُّ مِن صنائِعِه في الطَّعامِ، مؤكِّدًا؛ تنبيهًا على أنَّ التَّكذيبَ بالبَعثِ يَستلزِمُ التَّكذيبَ بإبداعِ النَّباتِ وإعادتِه، وذلك في أسلوبٍ مُبينٍ أنَّ الإنسانَ مُحتاجٌ إلى جميعِ ما في الوُجودِ، ولو نَقَص منه شيءٌ اختَلَّ أمْرُه، وبدأ أوَّلًا بالسَّماويِّ؛ لأنَّه أشرَفُ، وبالماءِ الَّذي هو حياةُ كُلِّ شَيءٍ؛ تنبيهًا له على ابتداءِ خَلْقِه[٢]:

﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾﴾.

أي: أنَّا أنزَلْنا ماءَ المطَرِ مِنَ السَّحابِ إنزالًا كَثيرًا[٣].

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: ١٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٩، ١٣٠).
قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: فلْيَنظُرْ هذا الإنسانُ الكافِرُ المنكِرُ توحيدَ اللهِ إلى طعامِه كيفَ دَبَّرَه؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾﴾.

أي: ثمَّ شَقَقْنا الأرضَ بخُروجِ النَّباتِ[١].

﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾﴾.

أي: فأنبَتْنا في الأرضِ أنواعَ الحُبوبِ؛ كالقَمحِ، والشَّعيرِ، والذُّرَةِ، والأَرُزِّ، وغَيرِ ذلك[٢].

﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وأنبَتْنا فيها العِنَبَ، وأنبَتْنا فيها قتًّا رطبًا تُعْلَفُ به البهائمُ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).
قيل: المرادُ: شَقَقْناها بالنَّباتِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٥).
وقال ابنُ عاشور: (المرادُ هنا: شَقُّ سَطحِ الأرضِ بخَرْقِ الماءِ فيه، أو بآلةٍ كالمِحْراثِ والمِسْحاةِ، أو بقُوَّةِ حَرِّ الشَّمسِ في زمَنِ الصَّيفِ؛ لتتهَيَّأَ لقَبولِ الأمطارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١).
ويُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣، ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤).
ممن اختار المعنى المذكور للقضب: ابن قتيبة، والفراء، وابن جرير، والزجاج، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والرسعني، وابن كثير، والعليمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور.
يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٨٩)، ((تفسير =

﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾﴾.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ الزَّيتونَ، وأشجارَ النَّخيلِ[(١)].

﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾﴾.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ بَساتينَ ذاتَ أشجارٍ غَليظةٍ عَظيمةٍ[(٢)].

﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾﴾.

أي: وأنبَتْنا في الأرضِ أنواعَ الفَواكِهِ الَّتي يأكُلُها النَّاسُ؛ مِن ثِمارِ الأشجارِ، وأنبَتْنا

---

= الشوكاني)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١).
قال الشوكاني: (والقَضْبُ: هو القَتُّ الرَّطْبُ الَّذي يقضبُ مَرَّةً بعدَ أُخرَى تُعْلَفُ به الدَّوابُّ، ولهذا سُمِّي قَضْبًا على مصدَرِ قَضَبَه، أيْ: قَطَعه كأنَّه لِتَكَرُّرِ قَطْعِها نفسَ القطْعِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٦). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٤).
قال ابن كثير: (والقضبُ هو: الفِصفصةُ التي تأكلُها الدوابُّ رطبةً. ويقالُ لها: القتُّ أيضًا قال ذلك ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، والضحَّاكُ. والسُّدي. وقال الحسنُ البصري: القضبُ: العلفُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤).
وقيل: هو كُلُّ ما يُقطَعُ مِنَ النَّباتِ؛ لِيَأكُلَه ابنُ آدَمَ غَضًّا طَرِيًّا؛ كالبُقولِ وغَيرِها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ عطيَّة، والبِقاعيُّ، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤١٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤).
قال الثعلبي: (﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ غِلاظَ الأشجارِ، واحدُها أغلَبُ، ومنه قيل لغَليظِ الرَّقبةِ: أغلَبُ. وقال مجاهدٌ: مُلتَفَّةً. ابنُ عبَّاسٍ: طِوالًا. قَتادةُ: الغُلْبُ: النَّخلُ الكِرامُ. عِكْرِمةُ: عِظامَ الأوساطِ. ابنُ زَيدٍ: عِظامَ الجُذوعِ والرِّقابِ). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٨).

فيها العُشْبَ والكَلَأَ مِمَّا تأكُلُه الأنعامُ[١].

﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾.

أي: أنبَتَ اللهُ ذلك كُلَّه؛ مَنفعةً لكم -أيُّها النَّاسُ- ولأنعامِكم مِنَ الإبِلِ والبَقَرِ والغَنَمِ، تتمَتَّعونَ بها في الحياةِ الدُّنيا[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [البقرة: ٣٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٢، ١٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

قال ابن جُزَي: (﴿وَأَبّٗا﴾ الأبُّ: المَرْعَى عندَ ابنِ عبَّاسٍ والجمهورِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٤).

وقال الرَّسْعَني: (﴿وَأَبّٗا﴾ ما تأكُلُه الأنعامُ. وهذا قولُ عامَّةِ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٩٥).

وقال ابن الجوزي: (﴿وَأَبّٗا﴾ فيه قَولانِ؛ أحدُهما: أنَّه ما تَرْعاه البهائمُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، واللُّغَويُّونَ. قال الزَّجَّاجُ: هو جميعُ الكَلَأِ الَّذي تَعتَلِفُه الماشيةُ. والثَّاني: أنَّه الثِّمارُ الرَّطبةُ، رواه الوالِبيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٣). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٦).

وقيل: هو كلُّ نباتٍ سِوى الفاكهةِ. وقيل: هو التِّبنُ خاصَّةً. وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٠٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٣٢).

وقد توقَّف في تفسيرِه عُمَرُ رضي الله عنه؛ فعن أنَسٍ قال: (قرأ عُمرُ بنُ الخطَّابِ رضيَ الله عنه: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، فلمَّا أتى على هذه الآيةِ: ﴿وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا﴾ قال: قد عرَفْنا الفاكهةَ، فما الأبُّ؟ قال: لَعَمْرُكَ يا ابنَ الخطَّابِ، إنَّ هذا لَهُو التَّكلُّفُ). أخرجه ابن جرير في ((تفسيره)) (٢٤/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥).

أنَّه لو فَكَّرَ الإنسانُ في نفْسِه لَزَجَرَه ما يَعلَمُ مِن عجائبِ خَلْقِها عن كُفْرِه[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ الَّتي خلَقَها اللهُ وسَخَّرَها لكم، فمَن نظَرَ في هذه النِّعَمِ أوجَبَ له ذلك شُكْرَ رَبِّه، وبَذْلَ الجُهدِ في الإنابةِ إليه، والإقبالِ على طاعتِه، والتَّصديقِ بأخبارِه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، ولم يَقُلْ: (فقبَرَه)؛ لأنَّ القابرَ هو الدَّافِنُ بيَدِه، والمُقْبِرُ هو اللهُ تعالى؛ يقالُ: قَبَرَ الميِّتَ: إذا دَفَنَه، وأقبَرَ الميِّتَ: إذا أمَرَ غَيْرَه بأن يَجعَلَه في القَبْرِ، والعَرَبُ تقولُ: بَتَرْتُ ذَنَبَ البَعيرِ، واللهُ أبتَرَه، وعَضَبْتُ قَرْنَ الثَّورِ، واللهُ أعضَبَه، وطَرَدْتُ فُلانًا عنِّي، واللهُ أَطْرَدَه، أي: صَيَّرَه طَريدًا[٣]، فأُسنِدَ الإقبارُ إلى اللهِ؛ لأنَّه ألهَمَ النَّاسَ إيَّاه، وأكَّدَ ذلك بما أمَرَ في شرائعِه مِن وُجوبِ دفنِ الميِّتِ[٤].

٢- قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ في الآيةِ دَليلٌ على أنَّ وُجوبَ دَفْنِ أمواتِ النَّاسِ بالإقبارِ دونَ الحَرْقِ بالنَّارِ، كما يَفعَلُ مَجوسُ الهِندِ، ودونَ الإلقاءِ لِسِباعِ الطَّيرِ في ساحاتٍ في الجِبالِ مَحُوطةٍ بجُدْرانٍ دُونَ سَقفٍ، كما كان يَفعَلُه مَجوسُ الفُرْسِ، وكما كان يَفعَلُه أهلُ الجاهِليَّةِ بموتى الحُروبِ والغاراتِ في الفيافي؛ إذْ لا يُوارونَهم بالتُّرابِ، وكانوا يَفتَخِرونَ بذلك ويتمَنَّونَه[٥].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٥٨). ويُنظر أيضًا: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٦)، ((إصلاح المنطق)) لابن السِّكِّيت (ص: ١٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٥). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨١).

٣- قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ مِن نِعمةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى أنْ شَرَعَ لعبادِه هذا الدَّفنَ؛ فإنَّ معنى: ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ أي: جَعَلَه في قَبْرٍ، أي: مَدفونًا؛ سَترًا عليه، وإكرامًا؛ لأنَّ البشرَ لو كانوا إذا ماتوا كسائرِ الميتاتِ: جُثَثًا تُرمَى، لَكان في ذلك إهانةٌ عَظيمةٌ للمَيِّتِ ولأهلِ الميِّتِ[١]، وأيضًا فإكرامُهم أمواتًا بالدَّفنِ؛ لئلَّا يكونَ الإنسانُ كالشَّيءِ اللَّقَى -أي: المُلْقى لِهَوانِه- يَجتنِبُ بنو جنسِه القُربَ منه، ويُهينُه الْتِقامُ السِّباعِ وتمزيقُ مَخالِبِ الطَّيرِ والكلابِ، فمَحَلُّ المِنَّةِ في قولِه: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ هو فيما فُرِّع عليه بالفاءِ بقولِه: ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، وليستِ الإماتةُ وحْدَها مِنَّةً[٢].

٤- قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ في تَعليقِ الإنشارِ بمشيئتِه تعالَى إيذانٌ بأنَّ وقتَه غيرُ متعيِّنٍ، بل هو تابعٌ لها[٣].

٥- في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ رَدٌّ لشُبهةِ الكافِرينَ؛ إذ كانوا يطلُبونَ تعجيلَ البعثِ تحدِّيًا وتهكُّمًا؛ لِيَجعَلوا عدمَ الاستجابةِ بتعجيلِه دليلًا على أنَّه لا يكونُ، فأعلَمَهم اللهُ أنَّه يقَعُ عندَما يَشاءُ اللهُ وُقوعَه، لا في الوقتِ الَّذي يَسألونَه؛ لأنَّه مَوكولٌ إلى حِكمةِ اللهِ تعالى، واستفادةُ إبطالِ قولِهم مِن طريقِ الكِنايةِ[٤].

٦- قال تعالى: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾، تعديةُ فِعلِ النَّظرِ هنا بحرفِ (إلى) تدُلُّ على أنَّه مِن نظَرِ العَينِ؛ إشارةً إلى أنَّ العِبرةَ تحصُلُ بمجرَّدِ النَّظرِ في أطوارِه، والمقصودُ التَّدبُّرُ فيما يُشاهِدُه الإنسانُ مِن أحوالِ طعامِه بالاستدلالِ بها على إيجادِ الموجوداتِ مِن الأرضِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٢٩).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ جَعَل سُبحانَه نَظَرَ الإنسانِ في إخراجِ طعامِه مِن الأرضِ دليلًا على إخراجِه هو منها بعدَ مَوتِه؛ استِدلالًا بالنَّظيرِ على النَّظيرِ(١).

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ إثباتُ الحِكَمِ والغاياتِ الَّتي جَعَلَها سُبحانَه في خَلْقِه وأمْرِه(٢).

٩- قَولُه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ...﴾ فيه امتِنانٌ، وفيه استِدلالٌ بإحياءِ النَّباتِ مِنَ الأرضِ الهامِدةِ على إحياءِ الأجسامِ بَعْدَما كانت عِظامًا باليةً، وتُرابًا مُتمَزِّقًا(٣).

١٠- قال تعالَى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ...﴾ بَعْدَما بَيَّنَ مِمَّ خُلِقَ الإنسانُ بيَّنَ هنا كيف يُطعِمُه، وفي كِلَيْهِما آيةٌ على القُدرةِ، وقد اتَّفَقت الآيتانِ على خُطُواتٍ ثلاثٍ مُتطابِقةٍ فيهما؛ فصَبُّ الماءِ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ يُقابِلُ دَفْقَ الماءِ في الرَّحِمِ، وشَقُّ الأرضِ للنَّباتِ يُقابِلُ خُروجَه إلى الدُّنيا، وإنباتُ أنواعِ النَّباتاتِ يُقابِلُ تقاديرَ الخَلْقِ المختَلِفةَ، وفي التَّنصيصِ على أنواعِ النَّباتِ مِن: حَبٍّ، وقَضْبٍ، وعِنَبٍ، ورُمَّانٍ، وزَيتونٍ، ونخيلٍ، وفواكِهَ مُتعَدِّدةٍ، وحدائِقَ مُلْتفَّةٍ؛ لظُهورِ معنى المغايَرةِ فيها، مع أنَّها مِن أصلَينِ مُشتَركينِ: الماءِ مِنَ السَّماءِ، والتُّربةِ في الأرضِ، يُسقى بماءٍ واحدٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٣).

(٢) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٣).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٣٥).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ نشَأَ عن ذِكرِ مَن استَغنى؛ فإنَّه أُريدَ به معيَّنٌ واحدٌ أو أكثرُ، وذلك يُبيِّنُه ما وقَعَ مِن الكلامِ الَّذي دارَ بيْنَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وبيْنَ صناديدِ المُشرِكينَ في المجلِسِ الَّذي دخَلَ فيه ابنُ أمِّ مَكْتومٍ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ لا تَرى أسلوبًا أغلَظَ منه، ولا أخشَنَ مَسًّا، ولا أدَلَّ على سَخَطٍ، ولا أبْعَدَ شوطًا في المَذَمَّةِ، مع تَقارُبِ طرَفَيْه، ولا أجمَعَ لِلَّائمةِ على قِصَرِ مَتنِه؛ فهذه الجُملةُ بلَغتْ نهايةَ الإيجازِ، وأرفَعَ الجَزالةِ، بأسلوبٍ غليظٍ دالٍّ على السَّخَطِ، بالِغٍ حدَّ المَذَمَّةِ، جامِعٍ للمَلامةِ، ولم يُسمَعْ مِثلُها قبْلَها، فهي مِن جَوامِعِ الكَلِمِ القرآنيَّةِ[٢].

- وفِعلُ (قُتِلَ فلانٌ) أصلُه دُعاءٌ عليه بالقَتلِ، وهي مِن أشنَعِ دعَواتِهم؛ لأنَّ القتلَ قُصارَى شدائدِ الدُّنيا وفَظائعِها، والدُّعاءُ بالسُّوءِ مِن اللهِ تعالى مُستعمَلٌ في التَّحقيرِ والتَّهديدِ؛ لظُهورِ أنَّ حقيقةَ الدُّعاءِ لا تُناسِبُ الإلهيَّةَ؛ لأنَّ اللهَ هو الَّذي يَتوجَّهُ إليه النَّاسُ بالدُّعاءِ[٣].

- وبناءُ ﴿قُتِلَ﴾ للمجهولِ متفرِّعٌ على استِعمالِه في الدُّعاءِ؛ إذ لا غرَضَ في

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٢، ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١١٩).

قاتلٍ يقتُلُه[١].

- وتعريفُ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفَ المسمَّى تعريفَ الجِنسِ، فيُفيدَ استغراقَ جميعِ أفرادِ الجنسِ، وهو استغراقٌ حقيقيٌّ، وقد يُرادُ به استغراقُ مُعظَمِ الأفرادِ بحسَبِ القَرائنِ، فتَولَّدَ بصِيغةِ الاستغراقِ ادِّعاءٌ لعدمِ الاعتدادِ بالقَليلِ مِن الأفرادِ، ويُسمَّى الاستغراقَ العُرفيَّ في اصطلاحِ عُلماءِ المعاني، ويُسمَّى العامَّ المرادَ به الخصوصُ في اصطلاحِ عُلماءِ الأصولِ، والقرينةُ هنا ما بُيِّن به كفرُ الإنسانِ مِن قولِه: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] إلى قولِه: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢]، فيكونُ المرادُ مِن قولِه: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ المُشرِكينَ المُنكِرينَ البعثَ. ويجوزُ أنْ يكونَ تعريفُ الإنسانِ تعريفَ العَهدِ لشخصٍ معيَّنٍ مِن الإنسانِ يُعيِّنُه خبرُ سببِ النُّزولِ[٢].

- قولُه: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ تنبيهٌ على أنَّهم استحَقُّوا أعظَمَ أنواعِ العِقابِ عُرفًا، وقولُه: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ تنبيهٌ على أنَّهم اتَّصَفوا بأعظَمِ أنواعِ القبائحِ والمنكَراتِ شرعًا[٣].

- وجملةُ ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ تعليلٌ لإنشاءِ الدُّعاءِ عليه دعاءَ التَّحقيرِ والتَّهديدِ، وهذا تعجُّبٌ مِن شِدَّةِ كُفرِ هذا الإنسانِ[٤].

- وحُذِفَ المتعلَّقُ بلَفظِ ﴿أَكْفَرَهُۥ﴾؛ لظُهورِه مِن لفظِ ﴿أَكْفَرَهُۥ﴾، وتقديرُه: ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٢٠، ١٢١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٧٧).

أكفَرَه باللهِ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ۞ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾

- جُملةُ ﴿أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ جُملةٌ مستأنَفةٌ مَسوقةٌ للشُّروعِ في بيانِ ما أنعَمَ عليه بعدَ المبالَغةِ في وصْفِه بكُفرانِ نِعَمِ خالِقِه[٢]. وهي أيضًا بيانٌ لجُملةِ ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]؛ لأنَّ مُفادَ هذه الجُملةِ الاستِدلالُ على إبطالِ إحالتِهم البعثَ، وذلك الإنكارُ مِن أكبرِ أُصولِ كُفرِهم[٣].

- والاستِفهامُ على معنى التَّقريرِ على حَقارةِ ما خُلِق منه[٤]؛ ولذلك أجابَ عنه بقولِه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾[٥]. وهذا الاستفهامُ صُوريٌّ، وجُعِل المُستفهَمُ عنه تَعيينَ الأمرِ الَّذي به خُلِق الإنسانُ؛ لأنَّ المَقامَ هنا ليس لإثباتِ أنَّ اللهَ خلَقَ الإنسانَ، بل المَقامُ لإثباتِ إمكانِ إعادةِ الخلْقِ بتنظيرِه بالخلْقِ الأوَّلِ، أي: كما كان خلْقُ الإنسانِ أوَّلَ مرَّةٍ مِن نُطفةٍ، يكونُ خلْقُه ثانيَ مرَّةٍ مِن كائنٍ ما[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢).

(٤) قال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ استفهامٌ على معنى التَّقريرِ على تفاهةِ الشَّيءِ الَّذي خُلِق الإنسانُ منه، وهي عبارةٌ تَصلُحُ للتَّحقيرِ والتَّعظيمِ، والقرينةُ تبيِّنُ الغرضَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٨).

وقال ابن عاشور: (وليس في ذِكرِ النُّطفةِ هنا إيماءٌ إلى تَحقيرِ أصلِ نشأةِ الإنسانِ؛ لأنَّ قصْدَ ذلك محلُّ نظرٍ، على أنَّ المَقامَ هنا للدَّلالةِ على خَلْقٍ عظيمٍ، وليس مَقامَ زَجْرِ المُتكبِّرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢).

- وجيءَ في هذا الاستِدلالِ بصُورةِ سؤالٍ وجوابٍ؛ للتَّشويقِ إلى مَضمونِه؛ ولذلك قُرِن الاستفهامُ بالجوابِ عنه[١].

- قولُه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ قُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾؛ مُحاكاةً لتقديمِ المُبيَّنِ في السُّؤالِ الَّذي اقتَضى تقديمَه كَونُه استِفهامًا يَستحِقُّ صدْرَ الكلامِ، مع الاهتِمامِ بتقديمِ ما منه الخلْقُ؛ لِما في تقديمِه مِن التَّنبيهِ للاستدلالِ على عظيمِ حِكمةِ اللهِ تعالَى؛ إذ كوَّنَ أبدَعَ مخلوقٍ معروفٍ مِن أهوَنِ شيءٍ، وهو النُّطفةُ[٢].

- وإنَّما لم يُستغنَ عن إعادةِ فِعلِ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ في جُملةِ الجوابِ مع العِلمِ به بتقدُّمِ ذِكرِ حاصِلِه في السُّؤالِ؛ لزيادةِ التَّنبيهِ على دِقَّةِ ذلك الخلْقِ البديعِ، فذِكرُ فعلِ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ الثَّاني مِن أسلوبِ المساواةِ[٣]؛ ليس بإيجازٍ، وليس بإطنابٍ[٤].

- قولُه: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ غلَبَ إطلاقُ النُّطفةِ على الماءِ الَّذي منه التَّناسُلُ، فذُكِرَتِ النُّطفةُ لتعيُّنِ ذِكرِها؛ لأنَّها مادَّةُ خلْقِ الحيوانِ؛ للدَّلالةِ على أنَّ صُنعَ اللهِ بديعٌ، فإمكانُ البعثِ حاصلٌ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) الأصلُ في الكلامِ أن يكونَ تأديةً للمعاني بألفاظٍ على مِقْدارِها، أي: بأن يكونَ لِكُلِّ معنًى قصَدَه المتكلِّمُ لفظٌ يدُلُّ عليه؛ ظاهرٌ أو مُقَدَّرٌ، وتُسمَّى دَلالةُ الكلامِ بهاتِه الكَيفيَّةِ: (مُساواةً)؛ لأنَّ الألفاظَ كانت مساويةً للمَدْلولاتِ. فإذا نقَصَتِ الألفاظُ عن عددِ المعاني مع إيفائِها بجميعِ تلك المعاني، فذلك (الإيجازُ). وإذا زادَتِ الألفاظُ على عددِ المعاني مع عدَمِ زيارةِ المعاني، فذلك (الإطنابُ). يُنظر: ((نقد الشعر)) لقدامة بن جعفر (ص: ٥٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٧٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١١٨-١٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٢، ١٢٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٢٣).

- وفُرِّع على فعلِ ﴿خَلَقَهُۥ﴾ فِعلُ ﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ بفاءِ التَّفريعِ؛ لأنَّ التَّقديرَ هنا إيجادُ الشَّيءِ على مِقدارٍ مضبوطٍ مُنظَّمٍ، أي: جعَلَ التَّقديرَ مِن آثارِ الخلْقِ؛ لأنَّه خلَقَه متهيِّئًا للنَّماءِ وما يُلابِسُه مِن العقلِ والتَّصرُّفِ وتمكينِه مِن النَّظرِ بعقلِه، والأعمالِ الَّتي يُريدُ إتيانَها، وذلك حاصِلٌ مع خلْقِه مدرَّجًا مفرَّعًا. وهذا التَّفريعُ وما عُطِف عليه إدماجٌ[١] للامتنانِ في خلالِ الاستدلالِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۞ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ۞ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾

- حرفُ (ثُمَّ) مِن قولِه: ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ تيسيرَ سبيلِ العَملِ الإنسانيِّ أعجَبُ في الدَّلالةِ على بديعِ صنعِ اللهِ؛ لأنَّه أثرُ العقلِ، وهو أعظَمُ ما في خلْقِ الإنسانِ، وهو أقوى في المِنَّةِ[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ونُصِب ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بفعلٍ يُفسِّرُه الظَّاهرُ؛ للمُبالَغةِ في التَّيسيرِ[٤].

- وتعريفُ السَّبيلِ باللَّامِ دونَ الإضافةِ؛ للإشعارِ بعُمومِه وأنَّه سبيلٌ عامٌّ[٥].

- وتقديمُ لفظِ ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ على فِعلِه؛ للاهتِمامِ بالعِبرةِ بتيسيرِ السَّبيلِ، وفيه رعايةٌ للفواصلِ[٦].

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ عطفُ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ على ﴿يَسَّرَهُۥ﴾ بحرفِ التَّراخي هو لِتَراخي الرُّتبةِ؛ فإنَّ انقراضَ تلك القُوى العقليَّةِ والحِسِّيَّةِ بالموتِ -بعدَ

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٤).

أنْ كانتْ راسخةً زمنًا ما- انقراضٌ عَجيبٌ دونَ تدريجٍ ولا انتظارِ زمانٍ يُساوي مُدَّةَ بقائِها، وهذا إدماجٌ للدَّلالةِ على عظيمِ القُدرةِ[١].

- قولُه: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ﴾ عَدَّ الإماتةَ والإقبارَ في النِّعَمِ؛ لأنَّ الإماتةَ وُصْلةٌ في الجُملةِ إلى الحياةِ الأبَديَّةِ واللَّذَّاتِ الخالصةِ، والأمرَ بالقَبْرِ تَكرِمةٌ وصيانةٌ عن السِّباعِ[٢].

- وصِيغةُ المُضيِّ في قولِه: ﴿أَمَاتَهُۥ﴾ مُستعمَلةٌ في الماضي -وهو موتُ مَن ماتَ-، والمُستقبَلِ، وهو موتُ مَن سيَموتونَ؛ لأنَّ موتَهم في المستقبَلِ مُحقَّقٌ؛ فمِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ الكثيرَ الَّذي لا يُحصى مِن أفرادِ النَّوعِ الإنسانيِّ قد صار أمرُه إلى الموتِ، وأنَّ مَن هو حيٌّ آيِلٌ إلى الموتِ لا محالةَ[٣].

- وذِكرُ جُملةِ ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ﴾ تَوطئةٌ وتَمهيدٌ لجُملةِ ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، وهذا إدماجٌ للامتنانِ في خِلالِ الاستِدلالِ[٤].

- وقولُه: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ رُجوعٌ إلى إثباتِ البعثِ، وهي كالنَّتيجةِ عَقِبَ الاستدلالِ. ووقَعَ قولُه: ﴿إِذَا شَآءَ﴾ مُعترِضًا بيْنَ جملةِ ﴿أَمَاتَهُۥ﴾ وجملةِ ﴿أَنشَرَهُۥ﴾؛ لِرَدِّ تَوهُّمِ المُشرِكينَ أنَّ عدمَ التَّعجيلِ بالبعثِ دَليلٌ على انتفاءِ وُقوعِه في المستقبَلِ، و(إذا) ظرفٌ للمُستقبَلِ، ففِعلُ المُضيِّ بعدَها مُؤوَّلٌ بالمستقبَلِ، والمعنى: ثمَّ حينَ يَشاءُ يُنشِرُه، أي: يُنشِرُه حينَ تَتعلَّقُ مشيئتُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠).

وقيل: مَحَلُّ المِنَّةِ في الإماتة هو فيما فُرِّع عليها بالفاءِ بقولِه: ﴿فَأَقۡبَرَهُۥ﴾، وليستِ الإماتةُ وحْدَها مِنَّةً. ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

بإنشارِه[١].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾

- (كَلَّا) تُفيدُ الرَّدعَ والزَّجرَ، وهو مُتوجِّهٌ إلى ما قبْلَها ممَّا يُومِئُ إليه قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٢]، أي: إذا شاء اللهُ؛ إذ يُومِئُ إلى أنَّ الكافرَ يُنكِرُ أنْ يُنشِرَه اللهُ، ويَعتَلُّ بأنَّه لم يُنشِرْ أحدًا منذُ القِدَمِ إلى الآنَ، ومَوقعُ (كَلَّا) مَوقعُ الجوابِ بالإبطالِ، ومَوقعُ جُملةِ ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ مَوقعُ العِلَّةِ للإبطالِ، أي: لو قَضى ما أمَرَه اللهُ به لَعَلِمَ بُطلانَ زَعمِه أنَّه لا يُنشَرُ. أو هو ردْعٌ للإنسانِ عمَّا هو عليه، أي: ممَّا ذُكِر قبْلَه مِن شدَّةِ كفرِه واسترسالِه عليه دونَ إقلاعٍ، فهو زجْرٌ عن مَضمونِ: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]. وقيل غير ذلك[٢].

- و﴿لَمَّا﴾ حرفُ نفْيٍ يدُلُّ على نفيِ الفعلِ في الماضي مِثلَ (لَمْ)، ويَزيدُ بالدَّلالةِ على استمرارِ النَّفيِ إلى وقتِ التَّكلُّمِ، وجُزِم هنا بـ(لَمَّا)؛ للدَّلالةِ على أنَّ العُجبَ والكِبْرَ ما زالا يُلازِمانِ الإنسانَ حتَّى السَّاعةِ الَّتي هو فيها، والمقصودُ أنَّه مستمِرٌّ على عدمِ قضاءِ ما أمَرَه اللهُ ممَّا دعاهُ إليه[٣].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۞ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۞ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۞ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۞ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۞ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۞ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۞ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۞ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾

- قولُه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في تَعدادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٠، ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٦- ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

النِّعمِ المتعلِّقةِ ببقائه بعدَ تفصيلِ النِّعم المتعلِّقةِ بحدوثه[١]. أو هو إمَّا مُفرَّعٌ على قولِه: ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢٣]، فيكونَ ممَّا أمَرَه اللهُ به مِن النَّظر، وإمَّا على قولِه: ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، فيكونَ هذا النَّظرُ ممَّا يُبطِلُ ويُزيلُ شِدَّةَ كفرِ الإنسانِ، والفاءُ مع كَونِها للتَّفريعِ تُفيدُ معنى الفَصيحةِ -الَّتي تُفصِحُ عن جملةٍ قد حُذِفَتْ-؛ إذ التَّقديرُ: إنْ أراد أنْ يَقضيَ ما أمَرَه فلْيَنظُرْ إلى طعامِه، أو إنْ أرادَ نقْضَ كُفرِه فلْيَنظُرْ إلى طعامِه[٢].

- وقولُه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إلى قولِه: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ استِدلالٌ على تقريبِ كَيفيَّةِ البعثِ، انتُقِلَ إليه في مَعرِضِ الإرشادِ إلى تَدارُكِ الإنسانِ ما أهمَلَه، وكان الانتقالُ مِن الاستدلالِ بما في خلْقِ الإنسانِ مِن بديعِ الصُّنعِ مِن دَلائلَ قائمةٍ بنفْسِه في آيةِ ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] إلى الاستدلالِ بأحوالٍ موجودةٍ في بعضِ الكائناتِ شديدةِ الملازَمةِ لحياةِ الإنسانِ -ترسيخًا للاستدلالِ، وتفنُّنًا فيه، وتَعريضًا بالمِنَّةِ على الإنسانِ في هذه الدَّلائلِ، مِن نعمةِ النَّباتِ الَّذي به بقاءُ حياةِ الإنسانِ، وحياةِ ما يَنفَعُه مِن الأنعامِ[٣].

- وجُعِلَ المنظورُ إليه ذاتَ الطَّعامِ مع أنَّ المرادَ النَّظرُ إلى أسبابِ تكَوُّنِه وأحوالِ تطوُّرِه إلى حالةِ انتفاعِ الإنسانِ به، وانتفاعِ أنعامِ النَّاسِ به، وذلك مِن أسلوبِ إناطةِ الأحكامِ بأسماءِ الذَّواتِ والمرادُ أحوالُها؛ مِثلَ قولِه تعالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣]، أي: أكْلُها، فأمَرَ اللهُ الإنسانَ بالتَّفكيرِ في أطوارِ تكَوُّنِ الحُبوبِ والثِّمارِ الَّتي بها طعامُه، وقد وُصِفَ له تطوُّرُ ذلك لِيَتأمَّلَ ما أُودِعَ إليه في ذلك مِن بديعِ التَّكوينِ، سواءٌ رأى ذلك ببصَرِه أو لم يَرَه،

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ولا يَخلو أحدٌ عن عِلمٍ إجماليٍّ بذلك، فيَزيدُه هذا الوصفُ عِلمًا تفصيليًّا، وفي جميعِ تلك الأطوارِ تمثيلٌ لإحياءِ الأجسادِ المستقرَّةِ في الأرضِ، فقد يكونُ هذا التَّمثيلُ في مجرَّدِ الهيئةِ الحاصلةِ بإحياءِ الأجسادِ، وقد يكونُ تمثيلًا في جميعِ تلك الأطوارِ بأنْ تُخرَجَ الأجسادُ مِن الأرضِ كخروجِ النَّباتِ بأنْ يكونَ بَذرُها في الأرضِ، ويُرسِلَ اللهُ لها قُوًى لا نَعلَمُها تُشابِهُ قوَّةَ الماءِ الَّذي به تَحْيا بُذورُ النَّباتِ؛ قال تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا﴾[1] [نوح: ١٧، ١٨].

- والإنسانُ المذكورُ في قولِه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ هو الإنسانُ المذكورُ في قولِه: ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، وإنَّما جيءَ باسمِه الظَّاهرِ هنا دونَ الضَّميرِ كما في قولِه: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨]؛ لأنَّ ذلك قَريبٌ مِن مَعادِه، وما هنا ابتداءُ كلامٍ؛ فعُبِّر فيه بالاسمِ الظَّاهرِ للإيضاحِ[2].

- وأُدمِجَ في أمرِ الإنسانِ بالنَّظرِ إلى الطَّعامِ مِنَّةٌ عليه بالإمدادِ بالغذاءِ الَّذي به إخلافُ ما يَضمحِلُّ مِن قُوَّتِه بسببِ جهودِ العقلِ والتَّفكيرِ الطَّبيعيَّةِ الَّتي لا يُشعَرُ بحُصولِها في داخِلِ المِزاجِ، وبسببِ كَدِّ الأعمالِ البدَنيَّةِ والإفرازاتِ، وتلك أسبابٌ لتبَخُّرِ القُوى البدَنيَّةِ، فيَحتاجُ المِزاجُ إلى تعويضِها وإخلافِها، وذلك بالطَّعامِ والشَّرابِ[3].

- وإنَّما تَعلَّقَ النَّظرُ بالطَّعامِ مع أنَّ الاستدلالَ هو بأحوالِ تكوينِ الطعامِ؛ إجراءً للكلامِ على الإيجازِ، ويُبيِّنُه ما في الجُمَلِ بعْدَه مِن قولِه: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٢٩، ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ إلى آخِرِها، فالتَّقديرُ: فلْيَنظُرِ الإنسانُ إلى خلْقِ طعامِه، وتهيئةِ الماءِ لإنمائِه، وشقِّ الأرضِ وإنباتِه، وإلى انتفاعِه به وانتفاعِ مَواشيهِ في بقاءِ حياتِهم[١].

- قولُه: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ قُرِئَ بفتحِ الهمزةِ على أنَّه بدَلُ اشتمالٍ[٢] مِن ﴿طَعَامِهِۦٓ﴾؛ لأنَّ الماءَ سببٌ لحدوثِ الطعامِ، فهو مُشتمِلٌ عليه. وقُرِئَ: ﴿إِنَّا﴾ على الاستئنافِ[٣]؛ على أنَّ الجملةَ بيانٌ لجملةِ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾؛ لتفصيلِ ما أُجمِلَ هنالك على وجهِ الإيجازِ[٤].

- وانتصَبَ ﴿صَبًّا﴾ و﴿شَقًّا﴾ على المفعولِ المطلَقِ للفِعلينِ ﴿صَبَبْنَا﴾ و﴿شَقَقْنَا﴾ مؤكِّدًا لعامِلِه؛ لِيَتأتَّى تَنوينُه؛ لِما في التَّنكيرِ مِن الدَّلالةِ على التَّعظيمِ، وتعظيمُ كلِّ شيءٍ بما يُناسِبُه[٥].

- وإسنادُ الصَّبِّ والشَّقِّ والإنباتِ إلى ضميرِ الجلالةِ في قولِه: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾؛ لأنَّ اللهَ مُقدِّرُ نظامِ الأسبابِ المؤثِّرةِ في ذلك، ومُحْكِمُ نواميسِها، ومُلهِمُ النَّاسِ استعمالَها[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٠).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ (خُلُقُه) بَدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بَدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) لابن مالك (٣/ ٢٤٩).

(٣) قرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائيُّ وخلفٌ ﴿أَنَّا﴾ بفتحِ الهمزةِ، والباقونَ بكسرِها، ووافقهم رويس في الابتداءِ. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨)، ((إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر)) لابن البناء (ص: ٥٧٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وجاء مَساقُ النَّظمِ الكريمِ لبيانِ النِّعمِ الفائضةِ مِن جَنابِه تعالى على وجهٍ بديعٍ خارجٍ عن العاداتِ المعهودةِ، كما يُنبِئُ عنه تأكيدُ الفِعلينِ بالمَصدرَينِ ﴿صَبًّا﴾ ﴿شَقًّا﴾[١].

- والفاءُ في قولِه: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا﴾ للتَّفريعِ والتَّعقيبِ، وهو في كلِّ شيءٍ بحسَبِه[٢].

- وقَدَّم العِنَبَ؛ لأنَّه أنفَعُ الفواكِهِ، يُؤكَلُ رَطْبًا ويابِسًا، ويُعصَرُ فيُتَّخَذُ منه أنواعٌ، وهو أعَمُّ وُجودًا مِنَ النَّخلِ، يُوجَدُ في عامَّةِ البلادِ، والنَّخلُ لا يكونُ إلَّا في البلادِ الحارَّةِ[٣].

- والقَضْبُ: أي: رَطْبةٌ، سُمِّيَتْ بمصدرِ قضَبَهُ، أي: قطَعَهُ؛ مبالَغةً، كأنَّها لتكرُّرِ قطعِها وتكثُّرِه نفْسُ القَطعِ[٤].

- قولُه: ﴿وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا﴾ إنَّما ذُكِرَ النَّخلُ دونَ ثمرتِه، وهو التَّمرُ، خِلافًا لِما قُرِن به مِن الثِّمارِ والفواكِهِ والكَلَأِ؛ لأنَّ منافعَ شجرِ النَّخيلِ كثيرةٌ لا تَقتصِرُ على ثَمرِه، فهم يَقتاتونَ ثمرتَه مِن تمرٍ ورُطَبٍ وبُسْرٍ، ويأكُلونَ جُمَّارَه، ويَشرَبونَ ماءَ عُودِ النَّخلةِ إذا شُقَّ عنه، ويَتَّخِذونَ مِن نَوى التمرِ علَفًا لإبِلِهم، وكلُّ ذلك مِن الطَّعامِ، فضلًا عن اتِّخاذِهم البيوتَ والأَوانيَ مِن خَشَبِه، والحُصُرَ مِن سَعَفِه، والحِبالَ مِن لِيفِه، فذِكرُ اسمِ الشَّجرةِ الجامعةِ لهذه المنافعِ أجمَعُ في الاستِدلالِ بمختلِفِ الأحوالِ، وهو إدْماجٌ للامتِنانِ بوَفرةِ النِّعَمِ[٥].

- قولُه: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا﴾ الحدائقُ: جمعُ حديقةٍ، وهي الجَنَّةُ مِن نخلٍ وكَرْمٍ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣١).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٢٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٢).

وشجرِ فَواكِهَ، وعطفُها على النَّخلِ مِن عطفِ الأعمِّ على الأخصِّ، ولأنَّ في ذِكرِ الحدائقِ إدماجًا للامتِنانِ بها. وخُصَّتِ بالذِّكرِ؛ لأنَّها مواضعُ التَّنزُّهِ والاختِرافِ، ولأنَّها تَجمَعُ أصنافًا مِن الأشجارِ[١].

- قولُه: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ إمَّا مفعولٌ له، أي: فعَلَ ذلكَ تمتيعًا لكُم ولمَواشيكُم؛ فإنَّ بعضَ النِّعَمِ المعدودةِ طعامٌ لهم، وبعضَها علَفٌ لدَوابِّهم، والالتفاتُ لتكميلِ الامتنانِ. وإمَّا مصدرٌ مؤكِّدٌ لفِعلِه المضمَرِ بحذفِ الزَّوائدِ، أي: متَّعَكم بذلك متاعًا، أو لفعلٍ مترتِّبٍ عليهِ، أي: متَّعَكم بذلك فتَمتَّعتُم متاعًا، أي: تمتُّعًا، أو مصدرٌ مِن غيرِ لفْظِه؛ فإنَّ ما ذُكِرَ مِن الأفعالِ الثَّلاثةِ في مَعْنى التَّمتيعِ[٢].

وقيل: قولُه: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمۡ﴾ حالٌ مِن المذكوراتِ، وقولُه: ﴿وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾ عُطِفَ على قولِه: ﴿لَّكُمۡ﴾، والمتاعُ: ما يُنتفَعُ به زمنًا ثمَّ يَنقطِعُ، وفيه لَفٌّ ونَشْرٌ مُشَوَّشٌ[٣]، والسَّامعُ يَرجِعُ كلَّ شيءٍ مِن المذكوراتِ إلى ما يَصلُحُ له؛ لظُهورِه، وهذه الحالُ واقعةٌ موقعَ الإدماجِ؛ أُدمِجَتِ الموعظةُ والمِنَّةُ في خلالِ الاستدلالِ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٢).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٤).

## الآيات (٣٣-٤٢)

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلصَّآخَّةُ﴾: الصَّيحةُ الشَّديدةُ الَّتي تَصُخُّ الآذانَ، أي: تُصِمُّها مِن شِدَّتِها، وأصلُ الصخِّ: الطعنُ والصكُّ، فالصاخَّةُ: الصاكَّةُ لشِدَّةِ صوتِها للآذانِ، والمرادُ بها هنا: النَّفخةُ الثَّانيةُ، وهي اسمٌ مِن أسماءِ القيامةِ، وأصلُ (صخخ): يدُلُّ على صوتٍ[١].

﴿مُّسۡفِرَةٞ﴾: أي: مُشْرِقةٌ مُضِيئةٌ مُتهَلِّلةٌ؛ مِن أسفَرَ الصُّبحُ: إذا أضاءَ وأشرَقَ، وأصلُ (سفر): يدُلُّ على انكِشافٍ وجَلاءٍ[٢].

﴿مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾: أي: فرحةٌ بما نالت مِن كرامةِ الله، واستبشَر: إذا وجَد ما يُبشِّرُه مِن الفَرَحِ، وأصلُ (بشر): يدُلُّ على ظُهورِ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجَمالٍ[٣].

﴿غَبَرَةٞ﴾: أي: غُبارٌ وكُدُورةٌ، وأصلُ (غبر) هنا: يدُلُّ على لَونٍ مِنَ الألوانِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٨١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٣٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٩، ٤٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦).

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾: أي: تَغْشاها وتَعْلوها ظُلْمةٌ وسَوادٌ، وأصلُ (رهق): يدُلُّ على غِشيانِ الشَّيءِ الشَّيءَ، وأصلُ (قتر): يدُلُّ على تجميعٍ وتضييقٍ(١).

﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾: جمعُ فاجِرٍ، وهو المُنْبَعِثُ في المعاصي والمحارِمِ، يُقالُ: فَجَرَ يَفْجُرُ فُجُورًا، فهو فاجِرٌ، والفُجورُ: الانبعاثُ والتَّفَتُّحُ في المَعاصي، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ. وقيل: الفَجْرُ: شقُّ الشيء شقًّا واسعًا، والفُجورُ: شقُّ ستر الدِّيانة(٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يختمُ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالحديثِ عن أحوالِ النَّاسِ يومَ القيامةِ، فيقولُ: فإذا جاءت القيامةُ بصَيْحَتِها العَظيمةِ الَّتي تُصِمُّ الآذانَ؛ مِن شِدَّةِ صَوتِها، وذلك واقِعٌ يومَ يَهرُبُ كُلُّ إنسانٍ مِن أخيه، وأُمِّه وأبيه، وزَوجتِه وأبنائِه؛ لكُلِّ واحدٍ مِن أولئك الأقرِباءِ يومَ القيامةِ أَمْرٌ عظيمٌ يُهِمُّه ويَشغَلُه عن غَيرِه!

وُجوهُ المُؤمِنينَ في ذلك اليَومِ مُضِيئةٌ مُشرِقةٌ، ضاحِكةٌ مُستَبشِرةٌ، ووُجوهُ الكافِرينَ يومَ القيامةِ يَعْلوها غُبارٌ وتَغْشاها ظُلْمةٌ وسَوادٌ، أولئك هم الكَفَرةُ الفَجَرةُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥١) و(٥/ ٥٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٨/ ٣٣١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٦٢٥)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٤١٣).

وقيل: أصلُه الميلُ، والفاجرُ: المائلُ عن الحقِّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر ما كان المقصودُ منه أمورًا ثلاثةً؛ أوَّلُها: الدَّلائِلُ الدَّالَّةُ على التَّوحيدِ. وثانيها: الدَّلائلُ الدَّالَّةُ على القُدرةِ على المعادِ. وثالِثُها: أنَّ هذا الإلهَ الَّذي أحسَنَ إلى عَبيدِه بهذه الأنواعِ العَظيمةِ مِنَ الإحسانِ لا يَليقُ بالعاقلِ أن يتمَرَّدَ عن طاعتِه، وأن يتكبَّرَ على عبيدِه- أتْبَعَ هذه الجُملةَ بما يكونُ مُؤَكِّدًا لهذه الأغراضِ، وهو شَرحُ أهوالِ القيامةِ؛ فإنَّ الإنسانَ إذا سَمِعَها خاف، فيَدْعوه ذلك الخَوفُ إلى التَّأمُّلِ في الدَّلائِلِ، والإيمانِ بها، والإعراضِ عن الكُفرِ، ويدعوه ذلك أيضًا إلى تَرْكِ التَّكَبُّرِ على النَّاسِ، وإلى إظهارِ التَّواضُعِ إلى كُلِّ أحدٍ، فلا جَرَمَ ذَكَرَ القيامةَ[١].

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣﴾.

أي: فإذا جاءت القيامةُ بصَيحَتِها العَظيمةِ الَّتي تُصِمُّ الآذانَ؛ مِن شِدَّةِ صَوتِها[٢].

﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤﴾.

أي: يومَ يَهرُبُ كُلُّ إنسانٍ من أخيه؛ مِن شِدَّةِ الهَولِ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٤).

قال ابنُ عطية: (الصَّاخَّةُ: اسمٌ مِن أسماءِ القيامةِ، واللَّفظةُ في حقيقتِها إنَّما هي لنفخةِ الصُّورِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

قال الشوكاني: (والظَّرفُ في قولِه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ إمَّا بدَلٌ مِن «إذا جاءَتْ»، أو منصوبٌ بمقدَّرٍ، أي: أعني، ويكونُ تفسيرًا للصَّاخَّةِ، أو بَدَلًا منها مبنيٌّ على =

كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج: ١٠ - ١٤].

﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾﴾.

أي: ويَهرُبُ كُلُّ إنسانٍ كذلك مِن أُمِّه وأبيه، فلا يَنفَعُهما بشَيءٍ[(١)]!

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: ومِن زَوجتِه الَّتي كانت مُلازِمةً له في الدُّنيا، ومِن أبنائِه الَّذين هم أحَبُّ النَّاسِ إليه[(٢)]!

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر فِرارَ المرءِ؛ أتْبَعَه بذِكْرِ سَبَبِه[(٣)].

﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾.

أي: لكُلِّ واحدٍ مِن أولئك الأقرِباءِ يومَ القيامةِ أَمْرٌ عظيمٌ يُهِمُّه ويَكفيه، فيَشغَلُه

---

= الفتح). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦١).

عن النَّظَرِ في أمْرِ غَيْرِه[١].

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تُحشَرونَ حُفاةً عُراةً غُرْلًا[٢]، فقالت امرأةٌ: أيُبصِرُ أو يَرى بَعْضُنا عَورةَ بَعْضٍ؟! قال: يا فُلانةُ ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾!))[٣].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ الله تعالى لَمَّا ذَكَر حالَ يومِ القيامةِ في الهَولِ، بَيَّن أنَّ المكَلَّفينَ فيه على قِسمَينِ: منهم السُّعَداءُ، ومنهم الأشقياءُ؛ فوَصَف السُّعَداءَ بقَولِه تعالى[٤]:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾﴾.

أي: وُجوهُ المُؤمِنينَ في ذلك اليَومِ مُضِيئةٌ مُشرِقةٌ[٥].

﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

(٢) الغُرْلُ: معناه: غيرُ مختونينَ، جمعُ أَغْرَلَ، وهو: الَّذي لم يُختَنْ وبَقِيَت معه غُرْلتُه، وهي قُلْفتُه، وهي الجِلدةُ الَّتي تُقطَعُ في الختانِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٩٣).

(٣) أخرجه مِن طُرُقٍ: الترمذيُّ (٣٣٣٢) واللَّفظُ له، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٦٤٧). قال الترمذي: (حَسَنٌ صحيحٌ)، وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٣٢). وصَحَّح إسنادَه على شرطِ الشَّيخَينِ الحاكِمُ في ((المستدرك)) (٢٩٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

أي: تَضحَكُ سُرورًا، وتَفرَحُ مُستَبشِرةً[١].

كما قال تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٩].

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر الله سبحانه وتعالى أهلَ السَّعادةِ من المؤمنين؛ ذكَرَ أضْدادَهم[٢].

فقال تعالى:

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾﴾.

أي: ووُجوهُ الكافِرينَ يومَ القيامةِ يَعْلوها غُبارٌ[٣].

﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٤٩)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٥، ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

قال الواحدي: (﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ فَرِحةٌ بما نال مِن كرامةِ الله ورِضاه). ((البسيط)) (٢٣/ ٢٤٠).

وقال ابن كثير: (﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: مسرورةٌ فَرِحةٌ مِن سُرورِ قُلوبِهم، قد ظهَرَ البِشْرُ على وُجوهِهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧).

وقال البِقاعي: (﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ أي: طالِبةٌ للبِشْرِ، وهو تغَيُّرُ البَشَرةِ مِن السُّرورِ، ومُوجِدةٌ لذلك، وهي بَيْضاءُ نَيِّرةٌ بما يُرى مِن تبشيرِ الملائكةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧١، ٢٧٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٨/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

أي: تَغْشاها ظُلْمةٌ وسَوادٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

وقال سُبحانَه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [يونس: ٢٦، ٢٧].

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾.

أي: أولئك هم الكَفَرةُ الَّذين لم تُؤمِنْ قُلوبُهم بالحَقِّ، الفَجَرةُ الَّذين كانوا يَعمَلونَ السَّيِّئاتِ مُتجَرِّئينَ على إتيانِ المحَرَّماتِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ كونُ أقرَبِ النَّاسِ للإنسانِ يَفِرُّ منهم يَقتضي هَوْلَ ذلك اليومِ؛ بحيثُ إذا رَأى ما يَحُلُّ مِن العذابِ بأقرَبِ النَّاسِ إليه، تَوهَّمَ أنَّ الفِرارَ منه يُنجيهِ مِن الوُقوعِ في مِثلِه؛ إذ

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٨).

قال البقاعي: (هم -في الأغلَبِ- المُتْرَفُونَ الَّذين يَحمِلُهم غِناهم على التَّكَبُّرِ والأَشَرِ والبَطَرِ، فلِجَمْعِهم بيْن الكُفرِ والفُجورِ، جُمِع لهم بيْن الغَبَرةِ والقَتَرةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧٣).

قد عَلِم أنَّه كان مماثلًا لهم فيما ارتكَبوهُ مِن الأعمالِ، فذُكِرتْ هنا أصنافٌ مِن القَرابةِ؛ فإنَّ القَرابةَ آصِرةٌ تكونُ لها في النَّفْسِ مَعَزَّةٌ وحِرصٌ على سلامةِ صاحِبِها وكرامتِه، والإلْفَ يُحدِثُ في النَّفْسِ حرصًا على الملازَمةِ والمقارَنةِ، وكِلا هذينِ الوِجْدانَينِ يصُدُّ صاحِبَه عن المفارَقةِ، فما ظَنُّك بهَولٍ يَغْشى على هذينِ الوِجْدانينِ فلا يَترُكُ لهما مجالًا في النَّفْسِ[1]؟!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ بِشارةٌ للمُؤمِنِ كبيرةٌ؛ لأنَّه -لا مَحالةَ- حاصلٌ له هذا الإخبارُ؛ لأنَّه قال على إثْرِه: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ فحَصَل هذا للكافرِ، وذلك للمؤمِنِ إنْ شاء اللهُ؛ إذ لَم يَذْكُرْ معهما ثالِثةً[2].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ أتبَعَ وَصْفَ الكَفَرةِ بوَصْفِ الفَجَرةِ، مع أنَّ وَصْفَ الكُفرِ أعظَمُ مِن وَصْفِ الفُجورِ؛ لِما في معنى الفُجورِ مِن خَساسةِ العَمَلِ، فذُكِرَ وَصْفاهم الدَّالَّانِ على مَجموعِ فَسادِ الاعتقادِ وفَسادِ العَمَلِ[3].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في بَيانِ أحوالِ مَعادِهم إثرَ بيانِ مَبدأِ خلْقِهم ومَعاشِهم، والفاءُ للدَّلالةِ على تَرتُّبِ ما بعْدَها على ما يُشعِرُ به لَفظُ المتاعِ مِن سُرعةِ زَوالِ هاتِيكَ النِّعمِ، وقُربِ اضْمحلالِها[4].

وقيل: الفاءُ في ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ للتَّفريعِ على اللَّومِ والتَّوبيخِ في قولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٥).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٧٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٨٦).

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، وما تَبعَهُ مِنَ الاستدلالِ على المُشرِكينَ مِن قولِه: ﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٨] إلى قولِه: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ [عبس: ٢٥]، ففُرِّع على ذلك إنذارٌ بيومِ الجزاءِ، مع مُناسبةِ وُقوعِ هذا الإنذارِ عَقِبَ التَّعريضِ والتَّصريحِ بالامتنانِ في قولِه: ﴿إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤]، وقولِه: ﴿مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾[(١)] [عبس: ٣٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾

- حرْفُ (مِنْ) في قولِه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ بمعنى التَّعليلِ الَّذي يُعَدَّى به فِعلُ الفِرارِ إلى سَببِ الفرارِ حينَ يُقالُ: فَرَّ مِن الأسدِ، وفَرَّ مِن العدوِّ، وفَرَّ مِن الموتِ. ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى المجاوَزةِ مِثلَ (عَنْ)[(٢)].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ رُتِّبتْ أصنافُ القَرابةِ في هذه الآيةِ حسَبَ الصُّعودِ مِن الصِّنفِ إلى مَا هو أَقْوَى منه؛ تدَرُّجًا في تَهويلِ ذلك اليومِ؛ فابتُدِئ بالأخِ لشِدَّةِ اتِّصالِه بأخيه مِن زمنِ الصِّبا، فيَنشَأُ بذلك إلْفٌ بيْنَهما يَستمرُّ طولَ الحياةِ، ثمَّ ارتُقِيَ مِن الأخِ إلى الأبوَينِ، وهما أشدُّ قُربًا لابنَيْهما، وانتُقِل إلى الزَّوجةِ والبنينَ، وهما مُجتمَعُ عائلةِ الإنسانِ، وأشَدُّ النَّاسِ قُربًا به ومُلازَمةً، كأنَّه قال: يَفِرُّ مِن أخيه، بل مِن أبوَيْه، بل مِن صاحِبتِه وبَنيه؛ لأنَّ تعلُّقَ القلبِ بهما أشدُّ مِن تعلُّقِه بالأبوَينِ[(٣)]. فلمَّا كان السِّياقُ للفِرارِ قدَّمَ أدناهم رُتبةً في الحبِّ والذَّبِّ فأدناهم على سبيلِ التَّرقِّي، وأخَّر الأوجَبَ في ذلك فالأوجَبَ -بخِلافِ ما في سورة (المعارِجِ)- فقال: ﴿مِنۡ أَخِيهِ﴾؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٥)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٥).

لأنَّه يألَفُه صغيرًا، وقد يَركَنُ إليه كبيرًا، مع طولِ الصَّحابةِ، وشِدَّةِ القُربِ في القَرابةِ، فيكون عندَه في غايةِ العِزَّةِ. ولَمَّا كانت الأمُّ مُشارِكةً له في الإلْفِ، ويَلزَمُ مِن حمايتِها أكثَرُ ممَّا يلزَمُ الأخ، وهو لها آلَفُ، وإليها أحَنُّ وعليها أرَقُّ وأعطَفُ؛ قال: ﴿وَأُمِّهِۦ﴾. ولَمَّا كان الأبُ أعظَمَ منها في الإلْفِ؛ لأنَّه أقرَبُ في النَّوعِ، وللولدِ عليه مِنَ العاطِفةِ لِمَا له مِن مَزيدِ النَّفعِ أكثَرُ ممَّنْ قبْلَه؛ قال: ﴿وَأَبِيهِ﴾، وأيضًا قُدِّمت الأمُّ للرَّعيِ على الفاصلةِ. ولَمَّا كانت الزَّوجةُ -الَّتي هي أهلٌ لأنْ تُصحَبَ- ألصَقَ بالفؤادِ، وأعرَقَ في الوِدادِ، وكان الإنسانُ أذَبَّ عنها عندَ الاشتدادِ؛ قال: ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾، ولعلَّه أفرَدَها إشارةً إلى أنَّها عندَه في الدَّرجةِ العُلْيا مِن المودَّةِ، بحيثُ لا يألَفُ غيرَها. ولَمَّا كان للوالدِ إلى الولدِ مِنَ المحَبَّةِ والعاطفةِ، والإباحةِ بالسِّرِّ، والمُشاوَرةِ في الأمرِ ما ليس لغَيرِه؛ ولذلك يضَيِّعُ عليه رزقَه وعُمُرَه؛ قال: ﴿وَبَنِيهِ﴾، وإن اجتمَع فيها الصَّغيرُ الَّذي هو عليه أشفَقُ، والكبيرُ الَّذي هو في قلبِه أجَلُّ، وفي عَينِه أنبَلُ، ومَن بيْنَهُما مِنَ الذَّكَرِ والأنثى[1].

- وأيضًا الابتداءُ يكونُ في كلِّ مَقام بما يُناسِبُه؛ فتارةً يَقتضي الابتداءَ بالأعلى، وتارةً بالأدنى، وهنا المناسَبةُ تقتضي الابتداءَ بالأدنى؛ لأنَّ المقصودَ بيانُ فِرارِه عن أقارِبه مفصَّلًا شَيئًا بعْدَ شَيءٍ، فلو ذُكِر الأقرَبُ أوَّلًا لم يكُنْ في ذِكرِ الأبعَدِ فائدةٌ طائلةٌ؛ فإنَّه يُعلَمُ أنَّه إذا فَرَّ مِنَ الأقرَبِ فَرَّ مِنَ الأبعَدِ، ولَمَا حصَل للمستمِعِ استِشعارُ الشِّدَّةِ مفصَّلةً، فابتُدِئ بنَفيِ الأبعَدِ منتقلًا منه إلى الأقرَبِ، فقيل أوَّلًا: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾، فعُلِم أنَّ ثَمَّ شِدَّةً توجِبُ ذلك. وقد يجوزُ أن يَفِرَّ مِن غَيرِه ويجوزُ ألَّا يَفِرَّ، فقيل: ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾؛ فعُلِم أنَّ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٠، ٢٧١).

الشِّدَّةَ أكبَرُ مِن ذلك بحيثُ توجِبُ الفِرارَ مِنَ الأبَوَين. ثمَّ قيل: ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾؛ فعُلِم أنَّها طامَّةٌ بحيثُ توجِبُ الفِرارَ ممَّا لا يُفَرُّ منهم إلَّا في غايةِ الشِّدَّةِ، وهي الزَّوجةُ والبَنونَ. ولفظُ ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ ﴾ أحسَنُ مِن زوجتِه[١].

- وكذلك أُطنِبَ بتَعدادِ هؤلاء الأقرباءِ دونَ أنْ يُقالَ: (يومَ يَفِرُّ المرءُ مِن أقرَبِ قرابتِه) مَثَلًا؛ لإحضارِ صورةِ الهَولِ في نفْسِ السَّامعِ[٢].

- وكلٌّ مِن هؤلاء القَرابةِ إذا قدَّرْتَه هو الفارَّ، كان مَن ذُكِر معه مفرورًا منه، إلَّا قولَه: ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ ﴾؛ لظُهورِ أنَّ معناهُ: والمرأةُ مِن صاحِبِها؛ ففيه اكتفاءٌ[٣]، وإنَّما ذُكِرَتْ بوصْفِ الصَّاحبةِ الدَّالِّ على القُربِ والمُلازَمةِ دونَ وصْفِ الزَّوجِ؛ لأنَّ المرأةَ قد تكونُ غيرَ حسَنةِ العِشرةِ لزَوجِها، فلا يكونُ فِرارُه منها كِنايةً عن شِدَّةِ الهَولِ، فذُكِرَتْ بوصْفِ الصَّاحبةِ[٤].

- وتعليقُ جارِّ الأقرباءِ بفعلِ ﴿يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ﴾ يَقتضي أنَّهم قد وقَعوا في عذابٍ يَخشَوْنَ تَعدِّيَه إلى مَن يَتَّصِلُ بهم[٥].

- وقد اجتمَعَ في قولِه: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ...﴾ إلى آخِرِه أبلَغُ ما يُفيدُ هَوْلَ ذلك اليومِ، بحيثُ لا يَترُكُ هَولُه للمرءِ بقيَّةً مِن رُشدِه؛ فإنَّ نفْسَ الفِرارِ للخائفِ مَسَبَّةٌ فيما تَعارَفوهُ؛ لدَلالتِه على جُبنِ صاحِبِه، وهم يَتعيَّرونَ بالجُبنِ، وكونُه يترُكُ أعَزَّ الأعِزَّةِ عليه مَسَبَّةٌ عُظْمى[٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٦/ ٧٤، ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- قولُه تعالَى: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا ابتدائيًّا؛ لزيادةِ تهويلِ اليوم، وحيثُ كان فِرارُ المرءِ مِن الأَقْرِباءِ الخَمسةِ يَقتضي فِرارَ كلِّ قَريبٍ مِن أولئك مِن مِثلِه، كان الاستِئنافُ جامعًا للجميعِ تصريحًا بذلك المُقتضَى، فقال: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾، أي: عن الاشتغالِ بغيرِه مِن المذكوراتِ، بَلْهَ الاشتغالَ عمَّن هو دونَ أولئك في القَرابةِ والصُّحبةِ[١]. أو هو استِئنافٌ واردٌ لبيانِ سببِ الفِرارِ[٢].

- وتَنوينُ ﴿شَأۡنٞ﴾ للتَّعظيمِ. وتَقديمُ الخبَرِ في قولِه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ﴾ على المبتدأِ؛ ليَتأتَّى تَنكيرُ ﴿شَأۡنٞ﴾ الدَّالِّ على التَّعظيمِ[٣].

- قولُه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ﴾ أَصْلُ الإغناءِ والغِنى: حُصولُ النَّافعِ المحتاجِ إليه، وقد استُعمِلَ هنا في معْنى الإشغالِ، والإشغالُ أعمُّ، فاستُعمِل الإغناءُ الَّذي هو نفعٌ في معنى الإشغالِ الأعمِّ؛ إيماءً إلى أنَّ المؤمِنينَ يَشغَلُهم عن قَرابتِهم المُشرِكينَ فَرْطُ النَّعيمِ، ورفْعُ الدَّرَجاتِ، كما دَلَّ عليه قولُه عَقِبَه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۞ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ﴾

- جُملةُ ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ﴾ بيانٌ لمآلِ أمرِ المذكورينَ وانقسامِهم إلى السُّعداءِ والأشقياءِ، بعْدَ ذِكرِ وُقوعِهم في داهيةٍ دَهْياءَ[٥].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قُدِّم هنا ذِكرُ وُجوهِ أهلِ النَّعيمِ على وُجوهِ أهلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٣٧).
(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٣).

الجَحيمِ، بخِلافِ قولِه في سورةِ (النازعاتِ): ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧]، ثمَّ قولِه: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات: ٤٠] إلى آخِرِه؛ لأنَّ هذه السُّورةَ أُقيمَتْ على عِمادِ التَّنويهِ بشأنِ رجُلٍ مِن أفاضلِ المؤمِنينَ، والتَّحقيرِ لشأنِ عظيمٍ مِن صناديدِ المُشرِكينَ، فكان حظُّ الفريقَينِ مقصودًا مَسوقًا إليه الكلامُ، وكان حظُّ المؤمِنينَ هو المُلتفَتَ إليه ابتداءً، وذلك مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰ﴾ [عبس: ٣] إلى آخِرِه، ثمَّ قولِه: ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ [عبس: ٥، ٦]. وأمَّا سورةُ (النازعاتِ) فقد بُنِيَتْ على تهديدِ المُنكِرينَ للبعثِ ابتداءً مِن قولِه: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ [النازعات: ٦- ٨]، فكان السِّياقُ للتَّهديدِ والوَعيدِ، وتهويلِ ما يَلقَوْنَه يومَ الحشرِ، وأمَّا ذِكرُ حظِّ المؤمِنينَ يومَئذٍ، فقد دعا إلى ذِكرِه الاسْتِطرادُ، على عادةِ القرآنِ الكريمِ مِن تعقيبِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ[(١)].

- وتَنكيرُ ﴿وُجُوهٌ﴾ الأوَّلِ والثَّاني للتَّنويعِ، وذلك مُسوِّغُ وُقوعِهما مُبتدأً[(٢)].

- قولُه: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ ﴿ضَاحِكَةٌ﴾ كِنايةٌ عن السُّرورِ. والسِّينُ والتَّاءُ في ﴿مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ قيل: هي للمُبالَغةِ، ويُقالُ: بَشَرَ، أيْ: فَرِح وسُرَّ[(٣)].

- وفي هذه الآياتِ والَّتي تليها احتِباكٌ[(٤)]: ذِكْرُ الإسفارِ والبِشْرِ أوَّلًا يدُلُّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٣٨).

(٤) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن أَلْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

الخَوفِ والذُّعرِ ثانيًا، وذِكْرُ الغَبَرةِ ثانيًا يدُلُّ عل البياضِ والنُّورِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر دليلَ الرَّاحةِ ودليلَ التَّعَبِ لظُهورِهما؛ ترغيبًا وترهيبًا[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾

- قولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ زيادةٌ في تشهيرِ حالِهم الفظيعِ للسَّامعينَ، وجيءَ باسمِ الإشارةِ؛ لزيادةِ الإيضاحِ؛ تشهيرًا بالحالةِ الَّتي سَبَّبَتْ لهم ذلك[٢]؛ فـ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى أصحابِ تلك الوُجوهِ، وما فيهِ مِن معنى البُعدِ؛ للإيذانِ ببُعدِ درَجتِهم في سُوءِ الحالِ، أي: أولئكَ المَوصوفونَ بسَوادِ الوُجوهِ وغيرِه هُمُ الكفَرةُ الفجَرةُ الجامِعونَ بينَ الكفرِ والفُجورِ؛ فلذلكَ جمَعَ اللهُ تعالى إلى سَوادِ وُجوهِهم الغَبَرةَ[٣].

- وضميرُ الفصلِ ﴿هُمُ﴾؛ لإفادةِ التَّقَوِّي[٤].

- وذِكرُ وصفِ ﴿ٱلْفَجَرَةُ﴾ بدونِ عاطفٍ يُفيدُ أنَّهم جمَعوا بينَ الكُفرِ والفُجورِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ التَّكويرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ التَّكويرِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (التَّكويرِ)[١].

وسُمِّيَتْ أيضًا بسورةِ (إذا الشَّمسُ كُوِّرَتْ)[٢]: فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَرَّه أن يَنظُرَ إلى يومِ القيامةِ كأنَّه رَأْيُ عَيْنٍ فلْيَقرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾))[٣].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

**مَن قَرَأها فكأنَّه يَنظُرُ إلى يومِ القيامةِ رَأْيَ عَينٍ:**

كما في حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما المتقدِّمِ.

## بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ التَّكويرِ مَكِّيَّةٌ، ونقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٤].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿كُوِّرَتۡ﴾، ولم يَرِدْ هذا اللَّفظُ في سُورةٍ سِواها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٣).

قال ابن عاشور: (وأكثرُ التَّفاسيرِ يُسَمُّونَها سورةَ «التَّكْوِيرِ»، وكذلك تَسْمِيَتُها في المصاحِفِ، وهو اخْتِصارٌ لِمَدْلولِ ﴿كُوِّرَتۡ﴾). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٣٩).

(٢) عُنْوِنَتْ بذلك في ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٣٩٥)، و((صحيح البخاري)) (٦/ ١٦٦) و((سنن الترمذي)) (٥/ ٤٣٣)، و((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٢٨).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٣٣)، وأحمدُ (٤٨٠٦).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٣٣)، وجوَّدَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٦٤)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٩٦)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٤٢٤).

(٤) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: =

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

بيانُ أحوالِ القيامةِ، وأهوالِها[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- ذِكرُ أهوالِ يومِ القيامةِ.

٢- التَّأكيدُ على أنَّ هذا القُرآنَ الكَريمَ مِن عندِ اللهِ تعالى، وليس مِن كَلامِ البَشَرِ، وذِكرُ صِفةِ المَلَكِ الَّذي يحمِلُه، والنَّبيِّ الَّذي يتلَقَّاه، وإثباتُ نُبُوَّتِه.

٣- بيانُ أنَّ القُرآنَ عِظَةٌ وذِكْرى لِمَن أراد الهِدايةَ.

٤- تَقريرُ أنَّ مَشيئةَ العَبدِ تابِعةٌ لِمَشيئةِ الرَّبِّ سُبحانَه وتعالى.

---

= ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٦٠).

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٣).

## الآيات (١-١٤)

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ١٣ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ١٤﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كُوِّرَتۡ﴾: أي: لُفَّت كما تُلَفُّ العِمامةُ، فذَهَب ضَوؤُها، والتَّكويرُ: تلفيفٌ على جِهةِ الاستِدارةِ، كتَكويرِ العِمامةِ، وأصلُ (كور): يدُلُّ على دَورٍ وتجَمُّعٍ[1].

﴿ٱنكَدَرَتۡ﴾: أي: تناثَرَتْ مِنَ السَّماءِ، وسَقَطَت على الأرضِ، وأصلُ (كدر) هنا: يدُلُّ على حَرَكةٍ[2].

﴿ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾: أي: النُّوقُ الحوامِلُ الَّتي قد أتَى عليها عَشَرةُ أشهُرٍ مِن حَمْلِها: سُيِّبَت وأُهمِلَت وتُرِكَت بلا راعٍ، وأصلُ (عطل): يدُلُّ على خُلُوٍّ وفَراغٍ[3].

﴿سُجِّرَتۡ﴾: أي: أُوقِدَت فصارت نارًا تَضطَرِمُ. وقيل: مُلِئتْ ونفَذ بعضُها إلى بعضٍ، فصارَتْ بحرًا واحِدًا مملوءًا. وأصلُ (سجر) على القولِ الأوَّلِ: الإيقادُ،

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٥١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥١).

وعلى القولِ الثَّاني: المَلْءُ[١].

﴿ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾: هي الجاريةُ المدفونةُ حَيَّةً، سُمِّيَت بذلك لِما يُطرَحُ عليها مِن التُّرابِ فيَؤُودُها، أي: يُثقِلُها حتَّى تموتَ، وكان بعضُ العَرَبِ يَدفِنُ البناتِ حَيَّةً؛ مَخافةَ العارِ والحاجةِ! وأصلُ (وأد): يدُلُّ على إثقالِ شَيءٍ بشَيءٍ[٢].

﴿كُشِطَتْ﴾: أي: نُزِعَت وطُوِيَت وقُلِعَت، والكَشْطُ: قَلْعٌ عن شِدَّةِ التِزاقٍ، وأصلُ (كشط): يدُلُّ على تَنحيةِ شَيءٍ وكَشْفِه[٣].

﴿سُعِّرَتْ﴾: أي: أُوقِدَت، وأصلُ (سعر): يدُلُّ على اشتِعالِ شَيءٍ واتِّقادِه[٤].

﴿أُزْلِفَتْ﴾: أي: قُرِّبَت، وأصلُ (زلف): يدُلُّ على تقَدُّمٍ في قُربٍ إلى شَيءٍ[٥].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ واصِفًا أحوالَ القيامةِ وأهوالَها، فقال

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢١/ ٥٦٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٥٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٧٦).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٨، ٤١٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٦٩، ٣٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣١٩).

تعالى: إذا لُفَّت الشَّمسُ وجُمِعَت، وطُوِيَ بَعْضُها على بَعضٍ؛ فذَهَب ضَوؤُها، وإذا النُّجومُ تساقَطَت وتناثَرَت، وإذا الجِبالُ قُلِعَت مِن أماكِنِها وسُيِّرَت عن وَجْهِ الأرضِ، وإذا النُّوقُ الحوامِلُ -وهي أنفَسُ أموالِ العَرَبِ- تُرِكَت مُهمَلةً بلا راعٍ؛ لِما دهاهم مِن الأمرِ العَظيمِ، وإذا الوُحوشُ مِن الحيواناتِ جُمِعَت يومَ القيامةِ؛ لِيَقتَصَّ اللهُ تعالى مِن بَعْضِها لبَعضٍ، وإذا البِحارُ أُوقِدَت فصارت نارًا تَضْطَرِمُ، وإذا قُرِنَ كُلُّ واحِدٍ بمَن هو مِثْلُه في الخَيرِ والشَّرِّ، وإذا البِنتُ الَّتي دُفِنَت في التُّرابِ حَيَّةً قد سُئِلَت عن الذَّنْبِ الَّذي استحَقَّتْ به القَتْلَ، وإذا صُحُفُ أعمالِ النَّاسِ عُرِضَت ونُشِرَت للحِسابِ، وإذا السَّماءُ نُزِعَت مِن مَكانِها وقُلِعَت، وإذا أُوقِدَت النَّارُ لأعداءِ اللهِ إيقادًا شديدًا، وقُرِّبَت الجنَّةُ وأُدْنِيَت لأهلِها المتَّقينَ المؤمِنينَ لِيَدخُلوها؛ إذا وَقَعَت تلك الأُمورُ المَهُولةُ المُفزِعةُ عَلِمَت وتيَقَّنَت كُلُّ نَفْسٍ ما أحضَرَتْه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ كان منها في الدُّنيا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾.

أي: إذا لُفَّت الشَّمسُ وجُمِعَت، وطُوِيَ بَعْضُها على بَعضٍ؛ فذَهَب ضَوؤُها[1].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((الشَّمسُ والقَمَرُ مُكَوَّرانِ[2] .....

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٦٩).

(٢) مُكَوَّرانِ: أي: مَطويَّانِ، ذاهِبا الضَّوءِ. وقيل: يُلَفَّانِ ويُجْمَعانِ، ويُلْقَيانِ في النَّارِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٤/ ٢٠٨)، ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٢٠).
قال القَسْطَلَّاني: (لأنَّهما عُبِدا مِن دونِ الله، وليسَ المرادُ مِن تكويرِهما فيها تعذيبَهما بذلك، لكنَّه زيادةُ تَبكيتٍ لِمَن كان يَعبُدُهما في الدُّنيا؛ لِيَعْلَموا أنَّ عبادتَهم لهما كانتْ باطِلةً). ((إرشاد الساري)) (٥/ ٢٥٩).

يومَ القيامةِ))[١].

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان التَّأثيرُ في الأعظَمِ دالًّا على التَّأثيرِ فيما دُونَه بطَريقِ الأَوْلى؛ أَتْبَعَ ذلك قَوْلَه مُعَمِّمًا بعدَ التَّخصيصِ[٢]:

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ٢﴾.

أي: وإذا النُّجومُ تهاوَتْ وتَساقَطَت مِن مَواضِعِها وتناثَرَت[٣].

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٢٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: تناثَرَتْ وتساقطَتْ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، وابن الجوزي، والرازي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والنسفي، وابن جُزَي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، ومُجاهِدٌ، والرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ، والحسَنُ البصريُّ، وأبو صالحٍ، وحمَّادُ بنُ أبي سُلَيْمانَ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) =

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بدأ بأعلامِ السَّماءِ لأنَّها أشهَرُ وأعَمُّ تَخويفًا وإرهابًا، وذكَرَ منها اثنَينِ هما أشهَرُ ما فيها وأعَمُّها نَفْعًا؛ أتْبَعَها أعلامَ الأرضِ، فقال مُكَرِّرًا للظَّرفِ؛ لِمَزيدِ الاعتناءِ بالتَّهويلِ[1]:

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾.

أي: وإذا الجِبالُ سُيِّرَت عن وَجْهِ الأرضِ بَعْدَ قَلْعِها مِن أماكِنِها[2].

كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: ٢٠].

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر أعلامَ الجَمادِ؛ أتْبَعَه أعلامَ الحَيوانِ النَّافِعِ الَّذي هو أعَزُّ أموالِ العَرَبِ

---

= لمكي (١٢/ ٨٠٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٠).

قال القرطبي: (وعن ابنِ عبَّاسٍ أيضًا: ﴿ٱنكَدَرَتْ﴾: تغيَّرَتْ، فلم يَبْقَ لها ضَوءٌ؛ لِزَوالِها عن أماكِنِها. والمعنى مُتقارِبٌ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٨). ويُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٠٧٥).

وجمع السعديُّ بيْن المعنيَيْنِ السَّابقَينِ، فقال: (﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ أي: تغيَّرَتْ، وتساقطَتْ مِن أفلاكِها). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

وأغلَبُها- على وَجهٍ دَلَّ على عِظَمِ الهَولِ؛ فقال[١]:

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾﴾.

أي: وإذا النُّوقُ الحوامِلُ الَّتي قد مَرَّ على حَمْلِها عَشَرةُ أشهُرٍ قد تَرَكها أصحابُها، وانشغَلوا عنها مع شِدَّةِ نَفاستِها لَدَيهم؛ من شِدَّةِ أهوالِ ذلك اليَومِ[٢].

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾.

أي: وإذا الحَيواناتُ البَرِّيَّةُ الَّتي لا تَأنَسُ بأحَدٍ قد بعَثَها اللهُ فجُمِعَت يومَ القيامةِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((لَتُؤَدَّنَّ الحُقوقُ[٤] إلى أهلِها يومَ القيامةِ، حتَّى يُقادَ للشَّاةِ الجَلْحاءِ مِن الشَّاةِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٠، ٣٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

قال البِقاعي: (وهي أحَبُّ أموالِ العَرَبِ إليهم، وأنفَسُها عِندَهم؛ لأنَّها تَجمَعُ اللَّحْمَ والظَّهْرَ، واللَّبَنَ والوَبَرَ... ولا يزالُ ذلك اسمَها حتَّى تَضَع لتَمامِ السَّنَةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٢٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

قال السعدي: (جُمِعَت ليومِ القيامةِ؛ لِيَقتَصَّ اللهُ مِن بَعْضِها لبَعضٍ، ويرى العبادُ كَمالَ عَدْلِه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

(٤) لَتُؤَدَّنَّ: بفتحِ الدَّالِّ المُشَدَّدةِ، وفي بعضِ النُّسخ بضَمِّها؛ فقولُه: (الحُقوقُ): بالرَّفع على الأوَّلِ، =

القَرْناءِ[١]))[٢].

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦﴾.

أي: وإذا البِحارُ صارَتْ بحرًا واحدًا، ومُلِئَت، وأُوقِدَت نارًا[٣].

---

= وبالنَّصبِ على الثَّاني. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح)) للقاري (٨/ ٣٢٠٢).

(١) الجَلْحاء هي التي لا قرنَ لها. والقَرْناء: هي الَّتي لها قَرْنٌ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٦/ ١٣٧)، ((شرح المصابيح)) لابن المَلَك (٥/ ٣٦١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨٢).

(٣) يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٩، ٢٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

وممَّن قال بأنَّ المعنى: أُوقِدَتْ: الواحديُّ، وذهب ابنُ القَيِّم إلى أنَّه أقوى الأقوالِ، واختاره السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٩، ٢٧٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأُبَيُّ بنُ كعبٍ، وابنُ عبَّاسٍ، وابنُ زَيدٍ، ومُجاهِدٌ، والحسَنُ بنُ مسلمٍ، وشِمْرُ بنُ عطيَّةَ، وسُفْيانُ، ووَهْبٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢).

وقيل: معنى: ﴿سُجِّرَتْ﴾ امتلأت بالماءِ حتَّى فاضَت به. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢).

قال ابنُ عاشور: (المرادُ: تَجاوُزُ مِياهِها مُعَدَّلَ سُطوحِها، واختلاطُ بَعضِها ببَعضٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٣).

ومنهم مَن جمَع بيْنَ تلك المعاني، كالبقاعي، فقال: (فُجِّرَ بَعْضُها إلى بعضٍ حتَّى صارت بحرًا واحدًا، ومُلِئَت حتَّى كان ما فيها أكثَرَ منها، وأُحمِيَت حتَّى كان كالتَّنُّورِ التِهابًا وتَسَعُّرًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧٨). ويُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٦)، ((تفسير القرطبي)) =

كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ [الطور: ٦].

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ٧﴾.

أي: وإذا النَّاسُ قد قُرِنَ كُلُّ واحِدٍ مِنهم بمَن هو مِثْلُه في الخَيرِ والشَّرِّ(١).

= (١٩/ ٢٣٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٦٩، ٢٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٦٣)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٤٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧١).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدُها: أنَّ التَّزويجَ بمعنى التَّنويعِ؛ لأنَّ الأزواجَ هي الأنواعُ، فالمعنى: جَعْلُ الكافِرِ مع الكافِرِ، والمؤمنِ مع المؤمنِ.

والثَّاني: زُوِّجَت نُفوسُ المؤمِنينَ بزَوجاتِهم مِنَ الحُورِ العِينِ.

والثَّالثُ: زُوِّجَت الأرواحُ والأجسادُ، أي: رُدَّت إليها عندَ البعثِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والزمخشري، وابن عطية، والرَّسْعَني، وابنُ جُزَي، وابن القيِّم -ونسَبَه للأكثَرينَ-، وابنُ كثير، والعُلَيمي، والشوكاني، والألوسي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٧٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٥، ٤٥٦)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (ص: ٢٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عمرُ بنُ الخطَّابِ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والرَّبيعُ بنُ خُثَيْمٍ، والحسَنُ في روايةٍ عنه، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وأنَّ المعنى: زُوِّجَتْ أنفُسُ المؤمِنينَ مع الحُورِ العِينِ، وزُوِّجَت أنفُسُ الكافِرينَ مع الشَّياطينِ، يعني: يُقرَنُ ابنُ آدَمَ وشيطانه في السِّلسلةِ الواحدةِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠١). =

كما قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩﴾.

أي: وإذا البِنتُ الَّتي دُفِنَت في التُّرابِ حَيَّةً قد سُئِلَت عن الذَّنْبِ الَّذي استحَقَّتْ به القَتْلَ[1]!

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٞ * يَتَوَٰرَىٰ

---

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ، والكلبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٦).

قال ابن القيِّم: (وهو راجعٌ إلى القولِ الأوَّلِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٢٣١).

وممَّن اختار القولَ الثَّالثَ وأنَّ المعنى: قُرِنَتْ بأجسادِها: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٩١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وأبو العاليةِ، وعِكْرِمةُ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والشَّعبيُّ، والحسَنُ البصريُّ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٢).

وجمَع السعديُّ بيْن القولِ الأوَّلِ والثَّاني، فقال: (﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ أي: قُرِنَ كُلُّ صاحِبِ عَمَلٍ مع نَظيرِه، فجُمِعَ الأبرارُ مع الأبرارِ، والفُجَّارُ مع الفُجَّارِ، وزُوِّج المؤمنونَ بالحُورِ العِينِ، والكافِرونَ بالشَّياطينِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

وممَّن جمَع أيضًا بيْن المعاني السَّابقةِ: البِقاعي، فقال: (﴿زُوِّجَتۡ﴾ أي: قُرِنَتْ بأبدانِها، وجُمِع كلٌّ مِن الخَلقِ إلى ما كانت نفْسُه تألَفُه وتَنزِعُ إليه، فكانوا أصنافًا، كما قال تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ * مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣]). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٧٩).

وقال ابن عاشور بعدَ أن جوَّز المعنى الأوَّلَ والثَّالثَ: (ولعلَّ قَصْدَ إفادةِ هذا التَّركيبِ لهذيْنِ المعنيَيْنِ هو مُقتضَى العُدولِ عن ذِكْرِ ما زُوِّجَتِ النُّفوسُ به. وأوَّلُ منازِلِ البعثِ اقْترانُ الأرواحِ بأجْسادِها، ثُمَّ تقسيمُ النَّاسِ إلى مَراتِبِهم للحشرِ). ((تفسير بن عاشور)) (٣٠/ ١٤٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٦، ١٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٢-٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧١).

مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

﴿ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ ﴾.

أي: وإذا صُحُفُ أعمالِ النَّاسِ الَّتي طُوِيَت بعدَ مَوتِهم قد فُتِحَت لهم، فيَطَّلِعُ كُلُّ أحَدٍ فيها على عَمَلِه[1].

كما قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا * ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة: ١٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥].

﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ ﴾.

أي: وإذا السَّماءُ نُزِعَت مِن مَكانِها، وجُذِبتْ، وقُلِعَت بقُوَّةٍ وسُرعةٍ، وأُزِيلَتْ[2].

﴿ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ ﴾.

أي: وإذا النَّارُ الشَّديدةُ التَّأجُّجِ قد أُحمِيَت لأهْلِها، واشتَدَّ توَقُّدُها ولَهيبُها[3].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٤٩)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، =

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر دارَ الأعداءِ البُعَداءِ تَرهيبًا؛ أَتْبَعَه دارَ المقَرَّبينَ السُّعَداءِ تَرغيبًا، فقال[١]:

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾﴾.

أي: وإذا الجَنَّةُ قد قُرِّبَت وأُدنِيَت لأهْلِها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٣١].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى هذه الأُمورَ الاثنَيْ عَشَرَ؛ ذَكَر الجزاءَ المرَتَّبَ على الشَّرطِ الَّذي هو مجموعُ هذه الأشياءِ، فقال[٣]:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾﴾.

أي: إذا وَقَعَت تلك الأُمورُ المَهُولةُ المُفزِعةُ عَلِمَت وتيَقَّنَت حينَئِذٍ كُلُّ نَفْسٍ ما أحضَرَتْه مِن خَيرٍ أو شَرٍّ عَمِلَتْه في الدُّنيا[٤].

---

= ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠).

قال ابنُ عاشور: (جُعِلَت بقُربٍ مِن مَحْشَرِهم، بحيث لا تَعَبَ عليهم في الوُصولِ إليها؛ وذلك كرامةً لهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانَه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ إعلامٌ بخَرابِ عالَمِ المُلْكِ والشَّهادةِ؛ تزهيدًا في كُلِّ ما يَجُرُّ إليه، وحَثًّا على عدَمِ المبالاةِ، والابتعادِ مِن التَّعَلُّقِ بشَيءٍ مِن أسبابِه[(١)].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ...﴾ هذه الأوصافُ الَّتي وَصَفَ اللهُ بها يومَ القيامةِ مِنَ الأوصافِ الَّتي تنزَعِجُ لها القُلوبُ، وتشتَدُّ مِن أَجْلِها الكُروبُ، وترتَعِدُ الفرائِصُ، وتَعُمُّ المَخاوِفُ، وتَحُثُّ أُولي الألبابِ للاستِعدادِ لذلك اليومِ، وتَزجُرُهم عن كُلِّ ما يُوجِبُ اللَّومَ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ ترغيبٌ في الأعمالِ الصَّالِحةِ والقُرَناءِ الصَّالِحينَ؛ لئلَّا يُزَوَّجَ بما يَسوءُه[(٣)]!

٤- قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ يُؤخَذُ مِن سُؤالِ المَوْؤُودةِ

---

= عطية)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠، ١٥١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٧٩).

تحريمُ الظُّلمِ لكُلِّ أحدٍ، وكَفُّ اليَدِ واللِّسانِ عن كُلِّ إنسانٍ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ سُؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْن هذه الآيةِ الكريمةِ والحَديثِ الَّذي فيه ((أنَّ الشَّمسَ تَدنو مِن الخلائقِ يومَ القيامةِ))[٢]؟

**الجوابُ**: أنَّه وَرَدَ في يومِ القيامةِ أشياءُ مُتغايرةٌ، ولكنَّ يومَ القيامةِ مِقْدارُه خمسونَ ألْفَ سَنَةٍ، فتتغيَّرُ فيها الأمورُ؛ تَدنو الشَّمسُ مِن الخلائقِ، وتُكَوَّرُ بعدَ ذلك، وكذلك أيضًا تُلْقَى في النَّارِ إهانةً لعابِديها، فيَومُ القيامةِ ليس يومًا أو شهرًا أو سَنَةً، وانظرْ إلى قَولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقولِه: ﴿وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾ [طه: ١٠٢]، واختلافٌ بيْن الزُّرْقةِ والسَّوادِ، كذلك أيضًا أخْبَر عن المشركينَ أنَّهم يقولونَ: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، وفي آيةٍ أخرى قال: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢]، فَهُم في الأوَّلِ قالوا: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣] في الآيةِ الأُولى، وفي الثَّانيةِ قال: ﴿لَوۡ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضُ وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ [النساء: ٤٢]؛ لأنَّ الحوادثَ تتغيَّرُ، فكلُّ ما أتاك مِن اختلافاتٍ في اليومِ الآخِرِ فإنَّما ذلك لطُولِ مُدَّتِه، وتَغَيُّرِ الأحوالِ فيه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إذا أُنْشِرَ الموتى للبَعثِ والحِسابِ، وزُوِّجَتِ النُّفوسُ بقُرَنائِها بالثَّوابِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١).

(٢) يُنظر ما أخرجه البخاريُّ (٣٣٤٠)، ومسلمٌ (١٩٤) من حديث أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه.

(٣) يُنظر: ((دروس الحرم المدني)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٦).

والعِقابِ؛ فلِمَ يحصُلُ هَدْمُ الأبنيةِ، وسَيْرُ الجبالِ، ودَكُّ الأرضِ، وفَطْرُ السَّماءِ، ونَثْرُ النُّجومِ، وتكويرُ الشَّمسِ؟!

**الجوابُ**: أنَّه إنَّما بُنِيَتْ لهم الدَّارُ للسُّكنى والتَّمَتُّعِ، وجَعَلَها سُبحانَه وجَعَلَ ما فيها للاعتِبارِ والتَّفَكُّرِ، والاستِدلالِ عليه بحُسْنِ التَّأمُّلِ والتَّذَكُّرِ، فلمَّا انقَضَتْ مدةُ السُّكنى، وأَجْلَاهم مِن الدَّارِ؛ خَرَّبَها لانتِقالِ السَّاكنِ منها، وفي إحالةِ الأحوالِ وإظهارِ تلك الأهوالِ بيانُ المقدرةِ بعدَ بيانِ العِزَّةِ، وتكذيبٌ لأهلِ الإلحادِ وزنادقةِ المنجِّمينَ وعُبَّادِ الكواكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ والأوثانِ، فيَعْلَمُ الَّذين كفروا أنَّهم كانوا كاذِبينَ، فإذا رأَوا آلهتَهم قد انهَدَمتْ، وأنَّ معبوداتِهم قد انتَثَرتْ وانفَطَرتْ، ومَحالَّها قد تشَقَّقتْ؛ ظهرتْ فضائِحُهم، وتَبَيَّنَ كَذِبُهم، وظَهَرَ أنَّ العالَمَ مَربوبٌ مُحْدَثٌ مُدَبَّرٌ، له ربٌّ يُصَرِّفُه كيف يشاءُ؛ تكذيبًا لملاحِدةِ الفلاسِفةِ القائِلينَ بالقِدَمِ، فكم للهِ تعالى مِن حِكمةٍ في هَدمِ هذه الدَّارِ! ودَلالةٍ على عِظَمِ عِزَّتِه وقُدرتِه وسُلطانِه، وانفرادِه بالرُّبوبيَّةِ، وانقيادِ المخلوقاتِ بأَسْرِها لقَهْرِه، وإذعانِها لمشيئَتِه. فتبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمينَ[1]!

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ الغَرَضُ مِن ذِكرِ هذه القِصَّةِ هاهنا وُجوهٌ:

**أحَدُها**: أنَّه تعالى إذا كان يومُ القيامةِ يَحشُرُ كُلَّ الحيواناتِ؛ إظهارًا للعَدْلِ، فكيف يجوزُ مع هذا ألَّا يَحشُرَ المكَلَّفينَ مِنَ الإنْسِ والجِنِّ؟!

**الثَّاني**: أنَّها تجتَمِعُ في مَوقِفِ القيامةِ مع شِدَّةِ نفْرتِها عن النَّاسِ في الدُّنيا، وتَبَدُّدِها في الصَّحاري؛ فدَلَّ هذا على أنَّ اجتِماعَها إلى النَّاس ليس إلَّا مِن هَولِ ذلك اليَومِ.

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨٢)، والجواب نقله عن أبي الوفاء ابنِ عَقِيل.

**والثَّالثُ**: أنَّ هذه الحيواناتِ بَعضُها غِذاءٌ للبَعضِ، ثمَّ إنَّها في ذلك اليومِ تَجتَمِعُ، ولا يتعَرَّضُ بَعضُها لبعضٍ، وما ذاك إلَّا لشِدَّةِ هَولِ ذلك اليَومِ[١].

٤- اللهُ سُبحانَه وتعالى يَحكُمُ في الأُمورِ المتماثِلةِ بأحكامٍ مُتماثِلةٍ؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ قَرَن النَّظيرَ بنَظيرِه، وقال: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٌ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ [القمر: ٤٣]، وقال: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: أشباهَهم ونُظَراءَهم[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ﴾ أنَّه يُقْرَنُ كلُّ صاحِبِ عَمَلٍ بشَكْلِه وَنظيرِه، فقُرِنَ بيْن المتحابِّينَ في اللهِ في الجَنَّةِ، وقُرِنَ بيْن المتحابِّينَ في طاعةِ الشَّيطانِ في الجَحيمِ؛ فالمرءُ مع مَن أَحَبَّ، شاء أو أَبَى[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ﴾ سُؤالٌ: ما معنى سُؤالِ المَوؤودةِ عن ذَنْبِها الَّذي قُتِلَت به؟ وهلَّا سُئِلَ الوائِدُ عن مُوجِبِ قَتْلِه لها؟!

**الجوابُ**: سُؤالُها وجوابُها تَبكيتٌ لقاتِلِها، وهو كتَبكيتِ النَّصارى في قَولِه لعيسى: ﴿ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: ١١٦][٤]! ونظيرُ ذلك لو أنَّ شخصًا اعتدى على آخَرَ في الدُّنيا، فأَتَوا إلى السُّلطانِ أو الأميرِ، فقال للمظلومِ: بأيِّ ذَنْبٍ ضرَبَك هذا الرَّجُلُ؟ وهو يَعرِفُ أنَّه مُعتدًى عليه؛ ليس له ذنْبٌ، لكنْ مِن أجْلِ التَّوبيخِ للظَّالِمِ، فالمَوؤدةُ تُسْأَلُ: بأيِّ ذنْبٍ قُتِلَتْ؟ توبيخًا لظالِمِها وقاتِلِها ودافِنِها[٥]،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٢٣).

(٣) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٢).

ولإدْخالِ الرَّوعِ على مَن وَأَدَها، وليَكونَ جَوابُها شَهادةً على مَن وَأَدَها؛ فيَكونَ استِحقاقُه العِقابَ أشَدَّ وأَظهَرَ[١]، أو تَوجيهُ السُّؤالِ إليْها لتَسليتِها، وإظهارِ كَمالِ الغَيظِ والسَّخَطِ لوائِدِها، وإسقاطِه عن دَرجةِ الخِطابِ، والمُبالَغةِ في تَبكيتِه[٢]؛ فيومَ القيامةِ تُسألُ الموءودةُ على أيِّ ذنْبٍ قُتِلَتْ؛ لِيَكونَ ذلك تهديدًا لقاتِلِها، فإذا سُئل المظلومُ فما ظَنُّ الظَّالِمِ إذَن[٣]؟!

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ سؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ مع الآياتِ الَّتي تَنْفي السُّؤالَ يومَ القيامةِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩]، وقَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨]؟

**الجوابُ**: أنَّ سُؤالَ المَوْؤودةِ لا يُعارِضُ الآياتِ النَّافيةَ السُّؤالَ عن الذَّنْبِ؛ لأنَّها سُئِلَت عن أيِّ ذَنبٍ قُتِلَت، وهذا ليس من ذَنْبِها، والمرادُ بسُؤالِها توبيخُ قاتِلِها وتقريعُه؛ لأنَّها هي تقولُ: لا ذَنْبَ لي! فيَرجِعُ اللَّومُ على مَن قَتَلَها ظُلْمًا[٤].

٨- إسقاطُ الحَمْلِ حَرامٌ، قال بعضُ العُلماءِ: وهو مِن الوَأْدِ الَّذي قال اللهُ تعالى فيه: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٣).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٧/ ٥٠٤).

(٥) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٣/ ٤٠٠).

وهذا مذهبُ المالكيَّةِ: أنَّه لا يجوزُ إسقاطُه ولو قبْلَ الأرْبَعينَ يومًا. يُنظر: ((الشرح الكبير وحاشية الدسوقي)) (٢/ ٢٦٦).

وذهَب الجُمهورُ مِن الحَنَفيَّةِ، والشَّافعيَّةِ، والحنابلةِ إلى أنَّه يجوزُ إسقاطُ الجَنينِ قبْلَ نَفخِ =

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ دَليلٌ على أنَّه لا يجوزُ قَتْلُ النَّفْسِ إلَّا بذَنْبٍ منها، فلا يجوزُ قَتْلُ الصَّبيِّ والمجنونِ؛ لأنَّ القَلَمَ مرفوعٌ عنهما، فلا ذَنْبَ لهما، وهذه العِلَّةُ لا يَنبغي أنْ يُشَكَّ فيها في النَّهي عن قَتلِ صِبيانِ أهلِ الحَرْبِ، وأمَّا العِلَّةُ المشترَكةُ بيْنَهم وبيْن النِّساءِ فكَونُهم ليسوا مِن أهلِ القِتالِ -على الصَّحيحِ الَّذي هو قولُ الجُمهورِ-، أو كونُهم يَصيرون للمُسلِمينَ، فأمَّا التَّعليلُ بهذا وَحْدَه في الصَّبيِّ فلا، والآيةُ تَقتضي ذَمَّ قَتْلِ كلِّ مَن لا ذَنْبَ له مِن صغيرٍ وكبيرٍ[(١)].

١٠- قال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، والمعنى: حُصولُ اليَقينِ بما لم يَكُنْ لها به عِلمٌ مِن حَقائقِ الأعْمالِ الَّتي كان عِلمُها بها أشتاتًا؛ بَعضُه مَعلومٌ على غَيرِ وَجْهِه، وبَعضُه مَعلومٌ صُورتُه مَجهولةٌ عَواقِبُه، وبَعضُه مَغفولٌ عنه؛ فنُزِّلَ العِلمُ الَّذي كان حاصِلًا للنَّاسِ في الحَياةِ الدُّنيا مَنزِلةَ عَدَمِ العِلمِ، وأُثبِتَ العِلمُ لهم في ذلك اليَومِ؛ عِلمُ أعْمالِهم مِن خَيرٍ أو شرٍّ، فيَعلَمُ ما لم يَكُنْ له به عِلمٌ ممَّا يَحْقِرُه مِن أعمالِه، ويَتذكَّرُ ما كان قد عَلِمَه مِن قبْلُ، وتَذَكُّرُ المَنسيِّ والمَغفولِ عنه نَوعٌ مِن العِلمِ[(٢)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ سُؤالٌ: أنَّ كُلَّ نفْسٍ تَعلَمُ ما

---

= الرُّوحِ فيه. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٣/ ١٧٦)، ((الغرر البهية)) لزكريا الأنصاري (٥/ ٣٣١)، ((شرح منتهى الإرادات)) للبُهُوتي (١/ ١٢١).

قال ابنُ باز: (إسقاطُ الجنينِ فيه تفصيلٌ؛ فإذا كان في الأربعينَ الأُولى فالأمرُ فيه أوسَعُ، ولا يَنبغي إسقاطُه، لكنْ إذا اقتَضَت المصلحةُ الشَّرعيَّةُ إسقاطَه لِمَضَرَّةٍ على الأمِّ، أو لهذا السَّبَبِ الَّذي قرَّره الأطبَّاءُ أنَّه قد يَتشوَّهُ بأسبابٍ فعَلَتْها الأمُّ: فلا حرَجَ في ذلك). ((فتاوى نور على الدرب)) (٢١/ ٤٣٠).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥١).

أحضَرَت؛ لِقَولِه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠]، فما معنى قَولِه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ هذا هو مِن عَكسِ كَلامِهم الَّذي يَقصِدونَ به الإفراطَ -وإن كان اللَّفظُ مَوضوعًا للقَليلِ-، ومنه قَولُه تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحجر: ٢]، وكمَن يَسألُ فاضِلًا مسألةً ظاهِرةً، ويقولُ: هل عندَك فيها شَيءٌ؟ فيقولُ: «رُبَّما حَضَر شَيءٌ»، وغَرَضُه الإشارةُ إلى أنَّ عِندَه في تلك المسألةِ ما لا يقولُ به غيرُه؛ فكذا هاهنا.

**الوَجهُ الثَّاني**: لعَلَّ الكُفَّارَ كانوا يُتعِبونَ أنفُسَهم في الأشياءِ الَّتي يَعتَقِدونَها طاعاتٍ، ثمَّ بدا لهم يومَ القيامةِ خِلافُ ذلك، فهو المرادُ مِن هذه الآيةِ[(١)]. والتَّنوينُ في ﴿نَفْسٌ﴾ إذَنْ للنَّوعِ، أي: عَلِمَت نفْسٌ كافِرةٌ أنَّ ما حَسِبَته طاعةً كان وَبالًا عليها[(٢)].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ * وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ الافتِتاحُ بحَرفِ (إذَا) افتِتاحٌ مُشوِّقٌ؛ لأنَّ (إذَا) ظَرْفٌ يَستَدعي مُتعلَّقًا، ولأنَّه أيضًا شَرطٌ يُؤذِنُ بذِكرِ جَوابٍ بعْدَه، فإذا سَمِعَه السَّامعُ تَرقَّبَ ما سيأتي بعدَه، فعندَما يَسمَعُه يَتمكَّنُ مِن نَفْسِه كَمالَ تَمكُّنٍ، وخاصَّةً بالإطْنابِ بتَكريرِ كَلِمةِ (إذَا)،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٩).
ويُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٣).

وتَعدُّدِ الجُملِ الَّتي أُضيفَ إليها اثنَتَيْ عَشْرةَ مرَّةً، فإعادةُ كَلِمةِ (إِذَا) بعدَ (واو) العَطفِ في هذه الجُمَلِ المُتعاطِفةِ إطْنابٌ، وهذا الإطْنابُ اقْتَضاه قَصدُ التَّهويلِ، والتَّهويلُ مِن مُقْتَضَياتِ الإطْنابِ والتَّكريرِ[١].

- وفي إعادةِ (إِذَا) إشارةٌ إلى أنَّ مَضمونَ كُلِّ جُملةٍ مِن هذه الجُمَلِ الثِّنتَيْ عَشْرةَ مُستقِلٌّ بحُصولِ مَضمونِ جُملةِ الجَوابِ عندَ حُصولِه، بقَطْعِ النَّظرِ عن تَفاوُتِ زَمانِ حُصولِ الشُّروطِ؛ فإنَّ زَمنَ سُؤالِ المَوْءُودةِ، ونَشرِ الصُّحُفِ أقْرَبُ لعِلمِ النُّفوسِ بما أَحضرَتْ، أقْرَبُ مِن زَمانِ تَكويرِ الشَّمسِ وما عُطِفَ عليه ممَّا يَحصُلُ قبْلَ البَعثِ[٢].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليْه في الجُمَلِ الثِّنتَيْ عَشْرةَ المُفتتَحاتِ بكَلِمةِ (إِذَا) مِن قولِه: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾، والإخبارُ عنه بالمُسنَدِ الفِعليِّ، مع إمكانِ أنْ يُقالَ: إذا كُوِّرَتِ الشَّمسُ، وإذا انكَدرَتِ النُّجومُ... وهكذا؛ لإفادةِ الاهتِمامِ بتلك الأخبارِ المَجْعولةِ عَلاماتٍ ليَومِ البَعثِ؛ تَوسُّلًا بالاهتِمامِ بأشْراطِه إلى الاهتِمامِ به وتَحقيقِ وُقوعِه؛ لأنَّ الابْتداءَ بها أَدخَلُ في التَّهويلِ والتَّشويقِ، وليُفيدَ ذلك التَّقديمُ على المُسنَدِ الفِعليِّ تَقَوِّيَ الحُكمِ وتأكيدَه في جَميعِ تلك الجُملِ؛ رَدًّا على إنْكارِ مُنكِريه؛ فلذلك قيلَ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾، ولم يُقَلْ: إذا كُوِّرَتِ الشَّمسُ، وهكذا نَظائِرُه[٣].

- وصِيغةُ الماضي في الجُملِ الثِّنتَيْ عَشْرةَ الواردةِ شُروطًا لأداةِ الشَّرطِ (إذا) مُستَعمَلةٌ في مَعنى الاستِقبالِ؛ تَنبيهًا على تَحقُّقِ وُقوعِ الشَّرطِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٤٠، ١٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٤١، ١٥٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٤١).

- وفي قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قالَ هُنا: ﴿سُجِّرَتْ﴾ -أي: أُوقِدَتْ فَصارَتْ نارًا، أو مُلِئَتْ بتَفجيرِ بَعضِها إلى بَعضٍ حتَّى تَعودَ بَحرًا واحِدًا، مِن: (سَجَرَ التَّنُّورَ): إذا مَلأَه بالحَطَبِ ليُحمِيَه، وقالَ في (الانفِطارِ): ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣]: أي: سالَتْ مِياهُها على الأرضِ، فَصارَتْ بَحرًا واحِدًا، واختَلطَ العَذبُ بالمِلحِ-؛ مُوافَقةً في الأوَّلِ لقولِه بعدَه: ﴿سُعِّرَتْ﴾؛ ليَقَعَ الوَعيدُ بتَسجيرِ البِحارِ، وتَسعيرِ النَّارِ. وفي الثَّاني لقولِه: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، أي: تَساقَطَتْ على الأرضِ[١]، فهذه الآيةُ مُناسِبةٌ لبقيَّةِ الآياتِ؛ لأنَّ معناه: تغييرُ أوصافِ تلك الأشياءِ عن حالاتِها، وتنقلِها عن أماكِنِها، فناسَبَ ذلك انفجارُ البحارِ؛ لتغيُّرِها عن حالِها مع بقائِها[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ بمُناسَبةِ ذِكرِ تَزويجِ النُّفوسِ بالأجسادِ - على قولٍ في معنى التَّزويجِ- خُصَّ سُؤالُ المَوءُودةِ بالذِّكرِ دونَ غَيرِه ممَّا يُسألُ عنه المُجرِمون يَومَ الحِسابِ؛ ذلك لأنَّ إعادةَ الأرواحِ إلى الأجسادِ كان بعْدَ مُفارَقَتِها بالمَوتِ، والمَوتُ إمَّا بِعارِضٍ جَسَديٍّ مِن انحِلالٍ أو مَرَضٍ، وإمَّا باعتِداءٍ عُدوانيٍّ مِن قَتلٍ أو قِتالٍ، وكان مِن أفظَعِ الاعتِداءِ على إزهاقِ الأرواحِ مِن أجسادِها اعتِداءُ الآباءِ على نُفوسِ أطفالِهم بالوَأْدِ؛ فإنَّ اللهَ جَعَلَ في الفِطرةِ حِرصَ الآباءِ على استِحياءِ -أي: طلَبِ حَياةِ- أبنائِهم، وجَعَلَ الأبَوَينِ سَببَ إيجادِ الأبناءِ؛ فالوَأْدُ أفظَعُ أعْمالِ أهلِ الشِّركِ. وسُؤالُ المَوْءودةِ سُؤالٌ تَعريضيٌّ مُرادٌ منه تَهديدُ وائِدِها ورُعْبُه بالعَذابِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٥٩٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٥).

(٢) يُنظر: ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) لابن جماعة (ص: ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٤).

- وأيضًا الاستِفهامُ في ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٖ﴾ تَقريريٌّ، وإنَّما سُئِلَتْ عن تَعيينِ الذَّنْبِ المُوجِبِ قَتْلَها، دُون أنْ تُسألَ عن قاتِلِها؛ لزِيادةِ التَّهديدِ؛ لأنَّ السُّؤالَ عن تَعيينِ الذَّنْبِ مَع تَحقُّقِ الوائِدِ الَّذي يَسمَعُ ذلك السُّؤالَ أنْ لا ذَنْبَ لها، إشعارٌ للوائِدِ بأنَّه غَيرُ مَعذورٍ فيما صَنَعَ بها[١].

- قولُه: ﴿قُتِلَتۡ﴾ قُرِئَ بتَشديدِ التَّاءِ[٢]؛ لأنَّ الموءودةَ اسمُ جِنسٍ، فناسَبَ التَّكثيرُ باعتبارِ الأشخاصِ[٣]، أو تُفيدُ مَعنى: أنَّه قَتلٌ شَديدٌ فَظيعٌ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾

- قولُه: ﴿نُشِرَتۡ﴾ قُرِئَ بالتَّشديدِ[٥]؛ للمُبالَغةِ في النَّشرِ، أو لكَثرةِ الصُّحُفِ المنْشورةِ، أو شِدَّةِ التَّطايُرِ[٦].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ﴾، أي: هذا الجِنسُ كلُّه؛ أفْردَه لأنَّه يُعلَمُ بالقُدرةِ على بعضِه القُدرةُ على الباقِي[٧].

و﴿كُشِطَتۡ﴾، أي: قُلعتْ بقُوَّةٍ عظيمةٍ وسُرعةٍ زائدةٍ، وأُزيلتْ عن مَكانِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٦).

(٢) قرأ أبو جعفرٍ بتشديدِ التَّاءِ، وقرأ الباقونَ بتخفيفِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٩).

(٥) قرأها نافعٌ وأبو جَعْفرٍ، وابنُ عامرٍ، ويعقوبُ، وعاصِمٌ بتخفيفِ الشِّينِ، وقرَأها الباقونَ بتَشديدِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٩).

(٧) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١).

الَّتي هي ساترةٌ له محيطةٌ به، أو عن الهواءِ المحيطِ بسَطْحِها الَّذي هو كالرُّوحِ لها، كما يُكشَطُ الإهابُ عمَّا هو ساترٌ له ومحيطٌ به مع شِدَّةِ الالتزاقِ به؛ لأنَّ ذلك يومُ الكشفِ والإظهارِ. والكشطُ: إزالةُ الإهابِ عن الحيوانِ الميِّتِ، وهو أعمُّ مِن السَّلخِ، والظَّاهرُ أنَّ السَّماءَ تَبقَى مُنشقَّةً مُنفطِرةً تَعرُجُ الملائكةُ بيْنَهما وبيْنَ أرضِ المحشرِ حتَّى يتِمَّ الحسابُ، فإذا قُضِيَ الحسابُ أُزيلتِ السَّماءُ مِن مكانِها؛ فالسَّماءُ مَكشوطةٌ، والمكشوطُ عنه هو عالَمُ الخُلودِ، ويكون ﴿كُشِطَتۡ﴾ مُعبَّرًا بها عن الإزالةِ[(١)].

- قولُه: ﴿سُعِّرَتۡ﴾ بتَشْديدِ العَينِ مُبالَغةً في الإسعارِ، أي: أُوقِدَت إيقادًا شديدًا[(٢)].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾، أي: قُرِّبتْ مِن المؤمِنينَ، ونُعِّمتْ ببَردِ العَيشِ وطِيبِ المستقَرِّ، والآيةُ مِن الاحتباكِ[(٣)]: ذِكْرُ التَّسعيرِ أوَّلًا دالٌّ على ضِدِّه في الجَنَّةِ ثانيًا، وذِكرُ التَّقريبِ ثانيًا دالٌّ على مِثلِه أولًا[(٤)].

٤- قولُه تعالَى: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ هو جَوابُ (إذَا)، على أنَّ المرادَ بها: زَمانٌ واحِدٌ مُمتَدٌّ يَسَعُ الأمورَ المذكورةَ، لكنْ لا بمَعنى أنَّها تَعلَمُ ما تَعلَمُ في كُلِّ جُزءٍ مِن أجزاءِ ذلك الوَقتِ المَديدِ، أو عِندَ وُقوعِ داهِيةٍ مِن تلك الدَّواهي، بل عندَ نَشْرِ الصُّحُفِ، إلَّا أنَّه لَمَّا كان بَعضُ تلك الدَّواهي مِن مَباديهِ وبعضُها مِن رَوادفِه نُسِبَ عِلمُها بذلك إلى زَمانِ وَقْعِ كُلِّها؛ تَهويلًا للخَطْبِ، وتَفظيعًا

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨١).

للحالِ[١]. وجُعِلَتْ مَعرفةُ النُّفوسِ لجَزاءِ أعْمالِها حاصِلةً عندَ حُصولِ مَجموعِ الشُّروطِ الَّتي ذُكِرَتْ في الجُمَلِ الثِّنتَيْ عَشْرةَ؛ لأنَّ بعضَ الأحوالِ الَّتي تَضمَّنَتْها الشُّروطُ مُقارِنٌ لِحُصولِ عِلمِ النُّفوسِ بأعمالِها، وهي الأحوالُ السِّتَّةُ المَذكورةُ أخيرًا، وبَعضُ الأحوالِ حاصِلٌ مِن قبْلُ بقَليلٍ، وهي الأحوالُ السِّتَّةُ المَذكورةُ أوَّلًا؛ فنُزِّلَ القَريبُ مَنزلةَ المُقارِنِ؛ فلِذلك جُعِلَ الجَميعُ شُروطًا لأداةِ الشَّرطِ (إِذَا)[٢].

- قولُه: ﴿نَفْسٌ﴾ نَكِرةٌ في سِياقِ الشَّرطِ، مُرادٌ بها العُمومُ، أي: عَلِمَتْ كُلُّ نفْسٍ ما أحضَرَتْ[٣].

- وأيضًا تَنكيرُ النَّفْسِ المفيدُ لثُبوتِ العِلمِ المذكورِ لفَرْدٍ مِن النُّفوسِ أو لبَعضٍ منها؛ للإيذانِ بأنَّ ثُبوتَه لجَميعِ أفرادِها قاطبةً مِن الظُّهورِ والوُضوحِ بحيثُ لا يَكادُ يَحومُ حوْلَه شائبةُ اشْتِباهٍ قطعًا، يَعرِفُه كلُّ أحدٍ ولو جِيءَ بعِبارةٍ تدُلُّ على خِلافِه، وللرَّمزِ إلى أنَّ تلكَ النُّفوسَ العالِمةَ بما ذُكِرَ -مع تَوفُّرِ أفرادِها، وتَكثُّرِ أعدادِها- ممَّا يُستقَلُّ بالنِّسبةِ إلى جَنابِ الكِبرياءِ الَّذي أُشيرَ إلى بَعضِ بَدائعِ شُؤونِه المنْبِئةِ عن عِظَمِ سُلطانِه. ويَجوزُ أنْ يَكونَ ذلك للإشعارِ بأنَّه إذا عَلِمَتْ حِينَئذٍ نفْسٌ مِن النُّفوسِ ما أحضَرَتْ، وَجَبَ على كُلِّ نفْسٍ إصلاحُ عَمَلِها؛ مَخافةَ أنْ تَكونَ هي تلك الَّتي عَلِمَتْ ما أحضَرَتْ؛ فكيفَ وكُلُّ نفْسٍ تَعلَمُه؟! على طَريقةِ قولِك -لِمَن تَنصَحُه-: لعلَّكَ ستَندَمُ

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٣٩٣).

على ما فعَلْتَ، ورُبَّما نَدِمَ الإنسانُ على ما فَعَل! فإنَّك لا تَقصِدُ بذلك أنَّ نَدَمَه مَرجُوُّ الوُجودِ لا مُتَيَقَّنٌ به، أو نادِرُ الوُقوعِ، بل تُريدُ أنَّ العاقِلَ يَجِبُ عليه أنْ يَجتَنِبَ أمرًا يُرجَى فيه النَّدَمُ، أو قَلَّ ما يَقَعُ فيه، فكيفَ به إذا كان قَطْعيَّ الوُجودِ كَثيرَ الوُقوعِ[١]؟!

- قولُه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، أُسنِدَ الإحضارُ إلى النُّفوسِ؛ لأنَّها الفاعِلةُ للأعْمالِ الَّتي يَظهَرُ جَزاؤُها يَومَئذٍ، فهذا الإسنادُ مِن إسنادِ فِعلِ الشَّيءِ إلى سَببِ فِعلِه[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ خَتَمَ الآيةَ هنا بقولِه: ﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾، وختَمَها في الانفِطارِ بقَولِه: ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥]؛ قيل: وجْهُ ذلِك: أنَّ ما في هذه السُّورةِ مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾، فقَرَأَها أرْبابُها فعَلِموا ما أحْضَرَت، وفي الانفطارِ مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾، والقُبورُ كانت في الدُّنيا، فيَذكُرون ما قدَّموا في الدُّنيا وما أخَّروا في العُقبى؛ فكلُّ خاتمةٍ لائقةٌ بمَكانِها، وهذه السُّورةُ مِن أوَّلِها شَرطٌ وجَزاءٌ، وقسَمٌ وجَوابٌ[٣].

وفيه وجهٌ آخَرُ: أنَّه رِعايةٌ للمُناسَبةِ؛ إذ شُروطُ الجَوابِ هنا طالَتْ بكَثرتِها، فحَسُنَ اختِصارُه ليُوقَفَ عليه، وشُروطُه ثَمَّ قَصُرَتْ بقِلَّتِها، فحَسُنَ بَسْطُه لتَيَسُّرِ الوَقفِ عليه حِينَئذٍ[٤]، وقيل غيرُ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٠).

(٥) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٣٨)، ((كشف المعانى فى المتشابه من المثانى)) لابن جماعة (ص: ٣٧٤، ٣٧٥).

## الآيات (١٥-٢٩)

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلۡخُنَّسِ﴾: أي: النُّجومِ الَّتي تختفي في النَّهارِ فلا تُرى، والخُنوسُ: الانقِباضُ والاستِخفاءُ، تقول: خَنَس مِن بيْنِ القَومِ، وانْخَنَسَ، أي: انقَبَض واستَخْفى، وأصلُ (خنس): يدُلُّ على استِخفاءٍ وتَستُّرٍ[١].

﴿ٱلۡجَوَارِ﴾: أي: الَّتي تَجري في فَلَكِها بسُرعةٍ، جَمعُ جاريةٍ؛ مِنَ الجَرْيِ: وهو المَرُّ السَّريعُ[٢].

﴿ٱلۡكُنَّسِ﴾: أي: النُّجومِ الَّتي تَكنِسُ -تَستَتِرُ- في أبراجِها في السَّماءِ؛ مِن: كَنَس الوَحْشُ: إذا دَخَل كِناسَه، وهو بَيتُه الَّذي يأوي إليه، وأصلُ (كنس): يدُلُّ على استِخفاءٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦١).

﴿عَسۡعَسَ﴾: أي: وَلَّى وذَهَب وأدبَرَ، أو: أقبَلَ بظَلامِه، فهو مِن الأضْدادِ، وعَسْعَسَ: مقلوبٌ عن «سَعْسَعَ»: إذا مَضَى، وأصلُ (سعع): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ[١].

﴿تَنَفَّسَ﴾: أي: أضاءَ وأسفَرَ وانتَشَر ضَوؤُه وامتدَّ وتتابَع، وأصلُ (نفس): يدُلُّ على خُروجِ النَّسيمِ كيف كان، مِن رِيحٍ أو غَيرِها[٢].

﴿مَكِينٍ﴾: أي: وَجيهٍ عِندَ اللهِ تعالى؛ مِن: مَكُنَ مَكانةً: إذا عَلَت رُتبتُه عندَ غَيرِه، وأصلُ (مكن): يدُلُّ على الموضِعِ الحاوي للشَّيءِ[٣].

﴿بِٱلۡأُفُقِ﴾: أي: الأُفُقِ الأعلى مِن ناحيةِ المَشرِقِ حيثُ تَطلُعُ الشَّمسُ، والأُفُقِ: ناحِيةُ السَّماءِ، وأصلُ (أفق): يدُلُّ على تَباعُدِ ما بيْن أطرافِ الشَّيءِ واتِّساعِه[٤].

﴿بِضَنِينٖ﴾: أي: ببَخيلٍ، والضِّنَّةُ: البُخلُ بالشَّيءِ النَّفيسِ، وأصلُ (ضنن): يدُلُّ على بُخلٍ بالشَّيءِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٥٧) و(٤/ ٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٢).

وقال الماوردي: (وأصلُه العسُّ وهو الامتلاءُ، ومنه قيل للقَدَحِ الكبيرِ: عُسٌّ؛ لامتلائِه بما فيه، فأُطلِق على إقبالِ الليلِ لابتداءِ امتلائه، وأُطلِق على إدْبارِه لاستكمالِ امتلائِه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢١٧). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٩).

(٢) يُنظَر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٣٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤١٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٧٢، ٧٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١١٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٩).

(٥) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٧)، =

﴿رَّجِيمٍ﴾: أي: مَلْعُونٍ مَطْرُودٍ، والرَّجمُ: اللَّعنُ والطَّردُ والإبعادُ، وأصلُ الرَّجمِ: الرَّميُ بالحِجارةِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

رَدَّ اللهُ تعالى في هذه الآياتِ على افتراءاتِ قُرَيشٍ الذين كذَّبوا بنُبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وزَعموا أنَّه ساحِرٌ وكاهِنٌ وشاعِرٌ ومجنونٌ، وكذَّبوا بالوَحْيِ المُنزَّلِ عليه، فأقسَمَ تعالى بالنُّجومِ العَظيمةِ الَّتي تختَفي وتَغيبُ بالنَّهارِ، والَّتي تَجري في السَّماءِ وتَكنِسُ وتَسْتَتِرُ، وأَقسَمَ باللَّيلِ إذا أقْبَلَ بظَلامِه وإذا أدبَرَ، وبالصُّبحِ إذا أقبَلَ وتَبَيَّنَ ضَوؤُه: إنَّ هذا القُرآنَ المُنزَّلَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هو تبليغُ رَسولٍ كَريمٍ على اللهِ تعالى، وهو جِبريلُ عليه السَّلامُ، وهو صاحِبُ قُوَّةٍ عَظيمةٍ، وله عِندَ اللهِ تعالى مكانةٌ عاليةٌ، ومَنزِلةٌ رَفيعةٌ، وهو مُطاعٌ في السَّماءِ بيْنَ الملائِكةِ، أَمينٌ على ما ائتَمَنَه اللهُ عليه مِن الوَحْيِ.

ثمَّ خاطَبَهم اللهُ تعالى بقَولِه: وما نَبيُّكم محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي خالَطْتُموه -يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ- وعَرَفْتُم صِدْقَه وأمانَتَه: بمَجنونٍ كما تَزعُمونَ، ولقد رأى محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِبْريلَ في صُورتِه الَّتي خَلَقَه اللهُ عليها، في أُفُقِ الشَّمسِ الأَعْلى مِن جِهةِ المَشرِقِ حيثُ تَطلُعُ الشَّمسُ، وتُرى الأشياءُ بوُضوحٍ.

وما محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ببَخيلٍ على النَّاسِ بالقُرآنِ، بل هو حَريصٌ على تبليغِ القُرآنِ إلى جميعِ النَّاسِ، وما هذا القُرآنُ بقَولِ شَيطانٍ مَلعونٍ مَطرودٍ

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (١٢/ ٥٦٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦).

مِن رَحمةِ اللهِ، مَرجومٍ بالشُّهُبِ.

ثمَّ قال تعالى موَبِّخًا لهم: فإلى أين تَذهَبونَ -أيُّها المُشرِكونَ- عن هذا القُرآنِ مع وُضوحِ الحَقِّ فيه بدَلائِلِه؟! وإلى أيِّ طَريقٍ تَعدِلونَ عنه؟!

ما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالى للخَلْقِ أجمعينَ؛ لِمَن شاء منهم أن يَستقيمَ على الحَقِّ، فيتَّبِعَه ويؤمِنَ به.

ثمَّ ختم اللهُ سُبحانَه هذه السُّورةَ الكريمةَ ببيانِ أنَّ مشيئتَه هي النَّافذةُ، فقال: وما تَشاؤونَ الاستقامةَ على الحَقِّ إلَّا إذا شاء اللهُ رَبُّ العالَمِينَ لكم ذلك.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ١٥﴾.

أي: فأُقسِمُ بالنُّجومِ العَظيمةِ الَّتي تختَفي وتَغيبُ[1].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧، ٦٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٩٤) و (١١/ ٢٧٣)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٧).

المرادُ بالخنَّسِ الجوارِ الكُنَّسِ: النُّجومُ، واختُلِف هل هي السَّبعةُ أو الخمسةُ أو جميعُ النُّجومِ.

ممَّن قال: إنَّ المرادَ السَّبعةُ (الشَّمسُ والقمرُ وزُحَلُ وعُطارِدُ والمِرِّيخُ والمُشتَري والزُّهَرةُ): ابنُ جُزَي، والسيوطيُّ، والسعدي، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦)، ((معترك الأقران)) للسيوطي (٢/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣).

وممَّن قال: إنَّها الخمسةُ (بدونِ الشَّمسِ والقمرِ): مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والرازي، والعُلَيمي، والمظهري. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/ ٤٥٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٧)، ((التفسير المظهري)) (١٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

قال ابن جُزَي: (وقيل: يعني: النَّجومَ كلَّها؛ لأنَّها تَخنِسُ في جريِها، وتَكنِسُ بالنَّهارِ، أي: تسترُ، وتختفي بضَوءِ الشَّمسِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦). =

﴿ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ١٦﴾.

أي: الَّتي تَجري في السَّماءِ وتَسْتَتِرُ[(١)].

= قيل: معنى خَنْسِ النُّجومِ: اختِفاؤُها في النَّهارِ. وممَّن قال بهذا المعنى في الجملةِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، وابن تيميَّة، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٢).

وقيل: المعنى: رُجوعُها في مَجْراها. وممَّن قال بهذا المعنى: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، واستظهره الرَّازيُّ، وذهب إليه ابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٥).

قال ابنُ عطية: (أقسَم اللهُ تعالى بالخُنَّسِ الجَوارِ الكُنَّسِ، فقال جمهورُ المفَسِّرينَ: إنَّ ذلك الدَّراريُّ السَّبعةُ: الشَّمسُ، والقَمَرُ، وزُحَلُ، وعُطارِدُ، والمِرِّيخُ، والزُّهَرةُ، والمُشتَري، وقال عليُّ ابنُ أبي طالب: المرادُ الخَمسةُ دونَ الشَّمسِ والقَمَرِ؛ وذلك أنَّ هذه الكواكِبَ تَخنِسُ في جَرْيِها، أي: تتقهقَرُ فيما تَرى العَينُ... وقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ أيضًا والحسنُ وقتادةُ: المرادُ النُّجومُ كلُّها؛ لأنَّها تخنسُ بالنَّهارِ حينَ تَخْتفي). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣).

وقال الرازي: (القَولُ الأظهَرُ: أنَّ ذلك إشارةٌ إلى رُجوعِ الكواكِبِ الخَمْسةِ السَّيَّارةِ واستقامتِها، فرُجوعِها هو الخُنوسُ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٧، ٦٨).

وقال المظهري: (الخُنُوسُ: الرُّجوعُ مِن منتهى السَّيرِ الى مكانٍ ابتدَأَ منه، والمرادُ بها الكواكِبُ الخَمسةُ المُسمَّاةُ بالمتحَيِّرةِ، وهي: عُطارِدُ، والزُّهَرةُ، والمُشْتَري، والمِرِّيخُ، والزُّحَلُ؛ فإنَّها تُرى سيَّارةً مِن المغرِبِ إلى المشرِقِ، ثمَّ تَرجِعُ الى المغرِبِ، وقد تُرى ساكنةً؛ ولذلك سُمِّيَت مُتحَيِّرةً). ((التفسير المظهري)) (١٠/ ٢٠٧، ٢٠٨).

وقال ابن جُزَي: (وقيل: يعني: بقرَ الوحشِ، فالخنسُ على هذا مِن خَنَسِ الأنفِ، والكنسُ مِن سُكْناها في كِناسِها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦). ويُنظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٦/ ٧٢).

ويُنظر الكلامُ عن (لَا أُقْسِمُ) والخلافُ فيها فيما تقدَّم (٤١/ ٢٢٣).

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٦).

والمراد بكُنوسِها: استتارُها وتواريها. وممَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ =

= سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠٢)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٧).

وممَّن اختار أنَّ كُنوسَها هو اختِفاؤُها واسْتِتارُها بالنَّهارِ تحتَ ضَوءِ الشَّمسِ: الرازيُّ، والبِقاعي، والعُلَيمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٢).

وقال الزَّجَّاج: (تَكْنِسُ: تَدخُلُ في كِنَاسِها، أي: تَغِيبُ في المواضِعِ الَّتي تَغِيبُ فيها). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٩٢). ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٣).

وقال ابنُ عطيَّةَ وابنُ جُزَي: (هي تَكنِسُ في أبراجِها، أي: تستترُ). يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦).

قال الرازي: (اختلَفوا في خُنوسِ النُّجومِ وكُنوسِها على ثلاثةِ أوجُهٍ:

فالقولُ الأظهَرُ: أنَّ ذلك إشارةٌ إلى رجوعِ الكواكبِ الخمسةِ السَّيَّارةِ واستِقامَتِها؛ فرُجوعُها هو الخُنوسُ، وكُنوسُها اخْتِفاؤُها تحتَ ضَوءِ الشَّمسِ، ولا شكَّ أنَّ هذه حالةٌ عجيبةٌ، وفيها أسرارٌ عظيمةٌ باهرةٌ.

القولُ الثَّاني: ما رُويَ عن عليٍّ وعَطاءٍ ومُقاتلٍ وقَتادةَ: أنَّها هي جميعُ الكواكبِ، وخُنوسُها عبارةٌ عن غَيبوبتِها عن البصرِ في النَّهارِ، وكُنوسُها عبارةٌ عن ظُهورِها للبصرِ في اللَّيلِ، أي: تَظهَرُ في أماكِنِها، كالوَحشِ في كُنُسِها.

والقولُ الثَّالثُ: أنَّ السَّبعةَ السَّيَّارةَ تختلِفُ مَطالِعُها ومَغارِبُها، على ما قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، ولا شكَّ أنَّ فيها مَطلِعًا واحدًا ومَغرِبًا واحدًا هما أقرَبُ المَطالِعِ والمَغارِبِ إلى سَمتِ رُؤوسِنا، ثمَّ إنَّها تأخُذُ في التَّباعُدِ مِن ذلك المَطلعِ إلى سائر المطالعِ طولَ السَّنةِ، ثمَّ ترجعُ إليه؛ فخُنوسُها عبارةٌ عن تَباعُدِها عن ذلك المطلعِ، وكُنوسُها عبارةٌ عن عَودِها إليه، فهذا محتملٌ.

فعلى القولِ الأوَّلِ يكونُ القسَمُ واقعًا بالخمسةِ المتحيِّرةِ، وعلى القولِ الثَّاني يكونُ القسَمُ واقعًا بجميعِ الكواكبِ، وعلى هذا الاحتمالِ الَّذي ذكَرْتُه يكونُ القسَمُ واقعًا بالسَّبعةِ السَّيَّارةِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٦).

وقال ابن جرير: (اختلَف أهلُ التَّأويلِ في الخُنَّسِ الجَوارِ الكُنَّسِ؛ فقال بعضُهم: هي النُّجومُ الدَّراريُّ الخَمسةُ، تَخنِسُ في مَجْراها فتَرجِعُ، وتَكنِسُ فتَستَتِرُ في بُيوتِها، كما تَكنِسُ الظِّباءُ =

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ١٧﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ إذا أقبَلَ بظَلامِه، وإذا أدبَرَ(١).

= في المغارِ... وقال آخَرونَ: هي بقَرُ الوَحشِ الَّتي تَكنِسُ في كِناسِها... وقال آخَرونَ: هي الظِّباءُ... وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أقسَمَ بأشياءَ تَخنِسُ أحيانًا -أي: تغيبُ- وتَجري أحيانًا وتَكنِسُ أخرى، وكُنوسُها: أن تأويَ في مَكانِسِها، والمكانسُ عندَ العرَبِ هي المواضعُ الَّتي تأوي إليها بقرُ الوحشِ والظِّباءُ...، وغيرُ مُنْكَرٍ أن يُستعارَ ذلك في المواضعِ الَّتي تكونُ بها النُّجومُ مِن السَّماءِ، فإذْ كان ذلك كذلك، ولم يكُنْ في الآيةِ دَلالةٌ على أنَّ المرادَ بذلك النُّجومُ دونَ البقرِ، ولا البقرُ دونَ الظِّباءِ؛ فالصَّوابُ أن يُعَمَّ بذلك كلُّ ما كانت صِفتُه الخُنوسَ أحيانًا، والجَرْيَ أخرى، والكُنوسَ بآناتٍ، على ما وصَف جلَّ ثناؤُه مِن صِفَتِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٢-١٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٦).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿عَسۡعَسَ﴾: أدبَر: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والزمخشري، وابن عطية، وابن تيميَّة، وابن القيِّم، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (١/ ١١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه، وعَطاءٌ، وزَيدُ بنُ أسْلَمَ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٥٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ القَيِّم: (الأكثرونَ على أنَّ «عَسْعَسَ» بمعنى: ولَّى، وذَهَب، وأدبَرَ. هذا قولُ: عليٍّ، وابنِ عبَّاسٍ وأصحابِه... ومَن رجَّحَ أنَّه إدبارُه احتجَّ بقَولِه تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٢- ٣٤]، فأقسَمَ سبحانه بإدبارِ اللَّيلِ، وإسفارِ الصُّبْحِ، وذلك نظيرُ عَسْعَسَةِ اللَّيلِ، وتنفُّسِ الصُّبْحِ. قالوا: والأحسَنُ أن يكونَ القَسَمُ بانصرامِ اللَّيلِ، وإقبالِ النَّهارِ عَقِيبَه مِن غَيرِ فَصْلٍ، فهذا أعظَمُ في الدَّلالةِ والعِبرةِ، بخِلافِ إقبالِ اللَّيلِ وإقبالِ النَّهارِ؛ فإنَّه لم يُعرَفِ =

= القَسَمُ في القرآنِ بهما، ولأنَّ بيْنَهما زمنًا طويلًا، فالآيةُ في انصِرام هذا ومجيءِ الآخَرِ عَقيبَه بغيرِ فَصْلٍ أبلَغُ؛ فذَكَر سُبحانَه حالةَ ضَعْفِ هذا وإدبارِه، وحالةَ قوَّةِ هذا وتنفُّسِه وإقبالِه يَطرُدُ ظُلْمةَ اللَّيلِ بتنفُّسِه، فكُلَّما تنفَّسَ هَرَبَ اللَّيلُ وأدبَرَ بيْن يديه، وهذا هو القَولُ. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (١/ ١١٨).

وحكى الفَرَّاءُ إجماعَ المفَسِّرينَ على هذا القَولِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ يُقالُ: عَسْعَسَ: إذا كان غيرَ مُستحكِمِ الظَّلامِ؛ فقيل: ذلك في أوَّلِه، وقيل: في آخِرِه، وهذا أرجَحُ؛ لأنَّ آخِرَ اللَّيلِ أفضَلُ، ولأنَّه أعقَبَه بقَولِه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: استطار واتَّسَع). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٦).

وقيل: معنى ﴿عَسۡعَسَ﴾: أقبَلَ بظَلامِه. وممَّن ذهب إليه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسِّجِسْتانيُّ، والسَّمْعانيُّ، والخازن، وابن كثير، والبِقاعي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٧، ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، والحسَنُ البصريُّ، وعطيَّةُ العَوْفيُّ، ومجاهدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٦٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٧).

قال ابنُ كثير: (وعندي أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿عَسۡعَسَ﴾ إذا أقبَلَ، وإن كان يصِحُّ استِعمالُه في الإدبارِ، لكِنَّ الإقبالَ هاهنا أنسَبُ، كأنَّه أقسَم تعالى باللَّيلِ وظَلامِه إذا أقبَلَ، وبالفَجْرِ وضيائِه إذا أشرَقَ، كما قال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [اللَّيْل: ١، ٢]، وقال: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضُّحَى: ١، ٢]، وقال: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ [الأَنْعَام: ٩٦]، وغير ذلك مِن الآياتِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨).

وقال المُبَرِّدُ -كما نقله عنه القرطبيُّ- والزَّجَّاجُ، والرَّاغبُ، وابن عجيبة: المعنيانِ (أي: أقبَلَ وأدبَرَ) يَرجِعانِ إلى شَيءٍ واحدٍ، وهو ابتداءُ الظَّلامِ في أوَّلِه، وإدبارُه في آخِرِه. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٥٠). ويُنظر أيضًا: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٢٧٥).

قال الزَّجَّاج: (يُقالُ: عَسْعَسَ اللَّيلُ: إذا أقبَلَ، وعَسْعَسَ: إذا أدبَرَ، والمعنيانِ يَرجِعانِ إلى شَيءٍ =

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ١٨﴾.

أي: وأُقسِمُ بالصُّبحِ إذا أقبَلَ وتَبَيَّنَ ضَوؤُه[١].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر المُقسَمَ به؛ أَتْبَعَه بذِكْرِ المُقسَمِ عليه[٢].

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩﴾.

أي: إنَّ مَنْ يُنزِلُ هذا القُرآنَ على محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رَسولٌ مِن عندِ اللهِ تعالى، حَسَنُ الخَلْقِ والأخلاقِ، وهو جِبريلُ عليه السَّلامُ[٣].

---

= واحدٍ، وهو ابتداءُ الظَّلامِ في أوَّلِه، وإدبارُه في آخِرِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٩٢).
وقال الرَّاغب: (أي: أقبَلَ وأدبَرَ، وذلك في مبدَأِ اللَّيلِ ومُنتَهاه، فالعَسْعَسةُ والعِسَاسُ: رِقَّةُ الظَّلامِ، وذلك في طرَفَي اللَّيلِ). ((المفردات)) (ص: ٥٦٦).
وقال ابنُ كثير: (قال كثيرٌ مِن عُلَماءِ الأُصولِ: إنَّ لَفظةَ «عَسعَسَ» تُستعمَلُ في الإقبالِ والإدبارِ على وَجهِ الاشتراكِ؛ فعلى هذا يَصِحُّ أن يُرادَ كُلٌّ منهما. والله أعلم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨).
وذكر ابنُ عاشور أنَّه أُتيَ بهذا الفعلِ لأنَّه يفيدُ حالَينِ صالحينِ للقسَمِ به فيهما؛ فهُما مِن مَظاهِرِ القدرةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).
قال البِقاعي: (﴿وَٱلصُّبۡحِ﴾ أي: الَّذي هو أعدَلُ أوقاتِ النَّهارِ ﴿إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: أضاء وأقبَلَ رَوْحُه ونَسيمُه، وأُنسُه ونَعيمُه، واتَّسَع نُورُه، وانفرج به عن اللَّيلِ دَيجورُه [أي: ظَلامُه]). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ١٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٦). =

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥].

﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: وهو صاحِبُ قُوَّةٍ عَظيمةٍ، وله عِندَ اللهِ تعالى مكانةٌ عاليةٌ، ومَنزِلةٌ رَفيعةٌ[١].

كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥].

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وهو مُطاعٌ في السَّماءِ عندَ الملائِكةِ، أَمينٌ على ما ائتَمَنَه اللهُ عليه، ومِن ذلك تبليغُه الوَحْيَ إلى أنبيائِه دونَ زيادةٍ أو نَقصٍ[٢].

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بَعدَ أنْ أَثنى اللهُ تعالى على القُرآنِ بأنَّه قَولُ رَسولٍ مُرسَلٍ مِن اللهِ، وكان قد تَضَمَّنَ ذلك ثَناءً على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّه صادِقٌ فيما بَلَّغَه عن اللهِ

---

= قال القرطبي: (﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هذا جوابُ القَسَم). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٨).

قال الشوكاني: (﴿ثَمَّ أَمِينٍ﴾... ﴿ثَمَّ﴾ ظرفُ مكانٍ للبعيدِ، والعاملُ فيه ﴿مُّطَاعٍ﴾ أوْ ما بعدَه، والمعنَى: أنَّه مُطاعٌ في السَّمَواتِ أوْ أمينٌ فيها، أيْ: مُؤْتَمَنٌ على الوحيِ وغيرِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٣).

تعالى؛ أَعقَبَه بإبْطالِ بُهْتانِ المُشرِكين فيما اختَلَقوه عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن قَولِهم: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، وقَولِهم: ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾[١] [سبأ: ٨].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر فَضْلَ الرَّسولِ المَلَكيِّ الَّذي جاء بالقُرآنِ؛ ذَكَر فَضْلَ الرَّسولِ البَشَريِّ الَّذي نَزَل عليه القُرآنُ، ودعا إليه النَّاسَ، فقال[٢]:

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: وما نَبيُّكم محمَّدٌ -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يا أهلَ مكَّةَ، الَّذي خالَطْتُموه وعَرَفْتُم صِدْقَه وأمانَتَه: بمَجنونٍ كما تَزعُمونَ[٣]!

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

وقال الله سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٠).

قال ابنُ عطيَّة: (أجمَع المفسِّرونَ على أنَّ قَولَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم﴾ يُرادُ به محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّ المُشرِكين كانوا إذا بَلَغَهم أنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخبِرُ أنَّه نَزَلَ عليه جِبريلُ بالوَحيِ مِن وَقتِ غارِ حِراءَ فما بعْدَه، استَهزَؤُوا وقالوا: إنَّ ذلك الَّذي يَتَراءى له هو جِنِّيٌّ! فكَذَّبَهم اللهُ بنَفيِ الجُنونِ عنه، ثمَّ بتَحقيقِ أنَّه إنَّما رأى جِبريلَ القَويَّ الأَمينَ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كان المجنونُ لا يُثبِتُ ما يَسمَعُه ولا ما يُبصِرُه حَقَّ الإثباتِ، فكان التَّقديرُ بعْدَ هذا النَّفيِ: «فلقد سَمِعَ مِن رَسولِنا إليه ما أُرسِلَ به حَقَّ السَّمْعِ، ما التبَسَ عليه فيه حَقٌّ بباطِلٍ»؛ عَطَفَ عليه الإخبارَ برِفعةِ شَأنِه في رُؤيةِ ما لم يَرَه غَيرُه، وأمانتِه، وجُودِه؛ فقال[(٢)]:

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: ولقد رأى محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جِبْريلَ في صُورتِه الَّتي خَلَقَه اللهُ عليها، وذلك في السَّماءِ مِن جِهةِ المَشرِقِ حيثُ تَطلُعُ الشَّمسُ، وتُرى الأشياءُ بوُضوحٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩).

قال الواحدي: (يعني: رأى محمَّدٌ جِبريلَ عليهما السَّلامُ ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ يعني: حيثُ تَطلُعُ الشَّمسُ، في قَولِ الجَميعِ). ((البسيط)) (٢٣/ ٢٧٦).

وقال ابنُ عاشور: (الأُفُقُ: الفَضاءُ الَّذي يَبْدو للعَينِ مِن الكُرَةِ الهوائيَّةِ بيْن طَرَفَي مَطلَعِ الشَّمسِ ومَغرِبِها، مِن حيثُ يَلوحُ ضَوءُ الفَجرِ ويَبدو شَفَقُ الغُروبِ، وهو يلوحُ كأنَّه قُبَّةٌ زَرقاءُ، والمعنى: رآه ما بيْن السَّماءِ والأرضِ. و﴿ٱلْمُبِينِ﴾: وَصفُ الأُفُقِ، أي: للأُفُقِ الواضِحِ البَيِّنِ، والمقصودُ مِن هذا الوَصفِ نَعتُ الأُفُقِ الَّذي تَراءى منه جِبريلُ للنَّبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه =

كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ٥ - ١٥].

وعن ابنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى جِبْريلَ له سِتُّمِئةِ جَناحٍ!))[(١)].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا انتَفَى ما يُظَنُّ مِن لَبسِ السَّمعِ وزَيغِ البصَرِ، لم يَبْقَ إلَّا ما يتعَلَّقُ بالتَّأديةِ؛ فنفى ما يُتوَهَّمُ مِن ذلك[(٢)].

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾.

## القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿بِظَنِينٍ﴾ بالظَّاءِ، مِن الظِّنَّةِ، وهي التُّهْمةُ، أي: ليس محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بمتَّهَمٍ فيما يُخبِرُهم به عن اللهِ، بل هو ثِقةٌ صادِقٌ في ذلك[(٣)].

---

= أُفُقٌ واضِحٌ بَيِّنٌ، لا تَشتَبِهُ فيه المرئيَّاتُ، ولا يُتخَيَّلُ فيه الخَيالُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٩).

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٣٢)، ومسلمٌ (١٧٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٣).

(٣) قرأَ بها ابنُ كثيرٍ، وأبو عَمرٍو، والكِسائيُّ، ورُوَيسٌ عن يَعقوبَ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٨، ٣٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٧)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٢٤).

٢- قِراءةُ: ﴿بِضَنِينٍ﴾ بالضَّادِ، مِن الضَّنِّ، وهو البُخلُ، أي: ليس محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ببَخيلٍ عليهم بالوَحْيِ، بل هو يُعَلِّمُهم ما عَلَّمَه اللهُ تعالى مِن القُرآنِ، ويُبَلِّغُهم إيَّاه(١).

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: وما محمَّدٌ ببَخيلٍ على النَّاسِ بالقُرآنِ، ولا يَمتَنِعُ مِن إخبارِهم به، بل هو حَريصٌ على تبليغِ القُرآنِ إلى جميعِ النَّاسِ(٢).

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٦٧)، ((الحجة)) لابن خالويه (ص: ٣٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٠، ٢٩١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٠).
قال ابنُ القَيِّم: (أجمَعَ المفسِّرون على أنَّ ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ هاهنا: القُرآنُ والوَحْيُ، وقال الفَرَّاءُ: يقولُ تعالى: يأتيه غَيبُ السَّماءِ، وهو مَنفوسٌ فيه، فلا يَضِنُّ به عليكم. وهذا معنًى حَسَنٌ جدًّا؛ فإنَّ عادةَ النُّفوسِ الشُّحُّ بالشَّيءِ النَّفيسِ، ولا سيَّما عمَّن لا يَعرِفُ قَدْرَه، ويَذُمُّه، ويَذُمُّ مَن هو عِندَه، ومع هذا فهذا الرَّسولُ لا يَبخَلُ عليكم بالوَحْيِ الَّذي هو أنفَسُ شَيءٍ وأجَلُّه. وقال أبو عليٍّ الفارسيُّ: المعنى: يأتيه الغَيبُ فيُبَيِّنُه ويُخبِرُ به ويُظهِرُه، ولا يَكتُمُه كما يَكتُمُ الكاهِنُ ما عندَه ويُخْفيه حتَّى يأخُذَ عليه حُلْوانًا. وفيه معنًى آخَرُ: وهو أنَّه على ثِقةٍ مِن الغَيبِ الَّذي يُخبِرُ به، فلا يخافُ أن يَنتَقِضَ ويَظهَرَ الأمرُ بخِلافِ ما أخبَرَ به، كما يَقَعُ للكُهَّانِ وغَيرِهم ممَّن يُخبِرُ بالغَيبِ؛ فإنَّ كَذِبَهم أضعافُ صِدْقِهم، وإذا أخبَرَ أحَدُهم بخبَرٍ لم يكُنْ على ثقةٍ منه، بل هو خائِفٌ مِن ظُهورِ كَذِبِه، فإقدامُ هذا الرَّسولِ على الإخبارِ بهذا الغَيبِ العَظيمِ -الَّذي هو أعظَمُ الغَيبِ- واثِقًا به، مقيمًا عليه، مُبْديًا له في كُلِّ مَجمَعٍ ومُعيدًا، مُناديًا به على صِدْقِه، مُجلِبًا به على أعدائِه: مِن أعظَمِ الأدِلَّةِ على صِدْقِه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٢٤، ١٢٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٢)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٣٨١).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر جَلالةَ كِتابِه وفَضْلَه بذِكْرِ الرَّسُولَينِ الكَريمَينِ -اللَّذَينِ وصلَ الكتابُ إلى النَّاسِ على أيدِيهما، وأثنى اللهُ عليهما بما أثنى؛ دفَعَ عنه كُلَّ آفةٍ ونَقصٍ ممَّا يَقدَحُ في صِدْقِه، فقال[1]:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: وما هذا القُرآنُ بقَولِ شَيطانٍ مَلعونٍ مَطرودٍ مِن رَحمةِ اللهِ، مَرجومٍ بالشُّهُبِ[2].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ * إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠ - ٢١٢].

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا لم يَدَعْ وَجهًا يُلَبِّسُ به على مَن لا يَعرِفُ حالَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ سَبَّبَ عنه قَولَه مُوَبِّخًا مُنكِرًا[3]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

قال ابن عطية: (﴿رَّجِيمٍ﴾ معناه: مرجومٌ مبعدٌ بالكواكبِ واللَّعنةِ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٤).

وقال البِقاعي: (﴿رَّجِيمٍ﴾ أي: مرجومٌ باللَّعنِ وغيرِه مِن الشُّهبِ؛ لأجْلِ استراقِ السَّمعِ، مطرودٌ عن ذلك). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٤).

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: فإلى أين تَذهَبونَ -أيُّها المُشرِكونَ- عن هذا القُرآنِ مع وُضوحِ الحَقِّ فيه بدَلائِلِه؟ وإلى أيِّ طَريقٍ تَعدِلونَ عنه[1]؟

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعْدَ أنْ أفاقَهم مِن ضَلالتِهم؛ أَرشَدَهم إلى حَقيقةِ القُرآنِ بقولِه[2]:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: ما هذا القُرآنُ إلَّا تذكيرٌ مِنَ اللهِ تعالى لجَميعِ الإنسِ والجِنِّ، فيتَّعِظونَ به ويَعتَبِرونَ وينتَفِعونَ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٩).

قال ابنُ كثير: (أي: فأين تَذهَبُ عُقولُكم في تكذيبِكم بهذا القُرآنِ مع ظُهورِه ووُضوحِه، وبيانِ كَونِه جاء مِن عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؟!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٠).

وقال السعدي: (﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ أي: كيف يَخطُرُ هذا ببالِكم؟ وأين عَزَبَت عنكم أذهانُكم حتَّى جعَلْتُم الحَقَّ الَّذي هو في أعلى دَرَجاتِ الصِّدقِ بمَنزِلةِ الكَذِبِ الَّذي هو أنزَلُ ما يكونُ، وأرذَلُ وأسفَلُ الباطِلِ؟! هل هذا إلَّا مِن انقِلابِ الحقائِقِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿ذِكْرٌ﴾ أي: تَذكِرةٌ وعِظَةٌ وزَجْرٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والقرطبي، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٠). =

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ٢٨﴾.

أي: وذلك إنَّما يكونُ لِمَن شاء منكم أن يَستقيمَ على الحَقِّ، فيتَّبِعَه ويؤمِنَ به، وأمَّا مَن لا يُريدُ ذلك فلن ينتَفِعَ بالقُرآنِ(١).

كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾.

أي: وما تَشاؤونَ الاسْتِقامةَ على الحَقِّ إلَّا إذا شاء الخالِقُ المالِكُ المدَبِّرُ ذلك

---

= قال السعدي: (﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ يتذَكَّرونَ به رَبَّهم، وما لَه مِن صِفاتِ الكَمالِ، وما يُنَزَّهُ عنه مِن النَّقائِصِ والرَّذائِلِ [والأمثالِ]، ويتذَكَّرونَ به الأوامِرَ والنَّواهيَ وحُكْمَها، ويتذَكَّرونَ به الأحكامَ القَدَريَّةَ والشَّرعيَّةَ والجَزائيَّةَ، وبالجُملةِ يتذكَّرون به مَصالِحَ الدَّارَينِ، ويَنالونَ بالعَمَلِ به السَّعادَتينِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٣).

وقال ابنُ عاشور: (والذِّكْرُ اسمٌ يجمَعُ معانيَ الدُّعاءِ والوَعظِ بحُسنِ الأعمالِ، والزَّجْرِ عن الباطِلِ وعن الضَّلالِ، أي: ما القرآنُ إلَّا تذكيرٌ لجميعِ النَّاسِ، يَنتَفِعونَ به في صلاحِ اعتِقادِهم، وطاعةِ اللهِ رَبِّهم، وتهذيبِ أخلاقِهم، وآدابِ بَعضِهم مع بعضٍ، والمحافَظةِ على حُقوقِهم، ودَوامِ انتظامِ جماعتِهم، وكيف يُعامِلونَ غَيرَهم مِن الأُمَمِ الَّذين لم يتَّبِعوه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥).

وقيل: قَولُه: ﴿ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، أي: شَرَفٌ لهم، يَشْرُفُ قَدْرُهم به، ويَصيرون أئمَّةً يُقتدَى بهم، ويُختَلَفُ إليهم؛ ليُتعَلَّمَ منهم. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٣٩).

وقال البِقاعي: (ما ﴿هُوَ﴾ أي: القُرآنُ الَّذي أتاكم به ﴿إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: شَرَفٌ للخَلْقِ كُلِّهم مِنَ الجِنِّ والإنسِ والملائكةِ، ومَوعِظةٌ بَليغةٌ عَظيمةٌ لهم). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٢٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨١).

لكم[١].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفۡسٍ أَن تُؤۡمِنَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠].

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۞ وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۞ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان: ٢٩ - ٣١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۞ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۞ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ أنَّ الولايةَ لها رُكنانِ: القُوَّةُ والأمانةُ، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وقال صاحِبُ مِصرَ ليوسُفَ عليه السَّلامُ: ﴿إِنَّكَ ٱلۡيَوۡمَ لَدَيۡنَا مَكِينٌ أَمِينٞ﴾[٢] [يوسف: ٥٤].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ بدَلٌ مِن ﴿لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾، والتَّقديرُ: «إنْ هو إلَّا ذِكرٌ لِمَن شاء منكم أن يَستقيمَ»، وفائدةُ هذا الإبدالِ: أنَّ الَّذين شاؤوا الاستِقامةَ بالدُّخولِ في الإسلامِ هم المنتَفِعونَ بالذِّكْرِ، فكأنَّه لم يُوعَظْ به غَيرُهم، والمعنى: أنَّ القرآنَ إنَّما ينتَفِعُ به مَن شاء أن يَستقيمَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٢)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩٣، ٢٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧١).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ الاستِقامةُ هي الاعتِدالُ، ولا عَدْلَ أقوَمُ مِن عَدلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ في شريعتِه. وفي الشَّرائعِ السَّابِقةِ كانت الشَّرائِعُ تُناسِبُ حالَ الأُمَمِ زمانًا ومكانًا وحالًا، وبعدَ بَعْثةِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كانت شريعتُه تناسِبُ الأُمَّةَ الَّتي بُعِثَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليها مِن أوَّلِ بَعْثتِه إلى نهايةِ الدُّنيا؛ ولهذا كان مِن العباراتِ المعروفةِ: «إنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ صالحٌ لكُلِّ زمانٍ ومكانٍ وحالٍ»، لو تمسَّك النَّاسُ به لَأصلَحَ اللهُ الخَلْقَ[(١)].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ ضِدُّ الاستقامةِ انحِرافانِ: انحِرافٌ إلى جانِبِ الإفراطِ والغُلُوِّ، وانحرافٌ إلى جانِبِ التَّفريطِ والتَّقصيرِ؛ ولهذا كان النَّاسُ في دِينِ اللهِ عزَّ وجَلَّ ثلاثةَ أشكالٍ: طرَفانِ ووَسَطٌ؛ طَرَفٌ غالٍ مُبالِغٌ مُتنَطِّعٌ مُتعَنِّتٌ، وطَرَفٌ آخَرُ مُفَرِّطٌ مُقَصِّرٌ مُهمِلٌ. الثَّالِثُ: وَسَطٌ بيْن الإفراطِ والتَّفريطِ، مستقيمٌ على دينِ اللهِ، هذا هو الَّذي يُحمَدُ، أمَّا الأوَّلُ الغالي، والثَّاني الجافي؛ فكِلاهما هالِكٌ[(٢)].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ أي: مَن أراد الهِدايةَ فعليه بهذا القُرآنِ؛ فإنَّه مَنجاةٌ له وهِدايةٌ، ولا هِدايةَ فيما سِواه[(٣)].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هاتان الآيَتانِ مُتضَمِّنتانِ إثباتَ الشَّرعِ والقَدَرِ، والأسبابِ والمُسَبَّبات، وفِعلِ العبدِ واستِنادِه إلى فِعْلِ الرَّبِّ، ولكُلٍّ منهما عُبوديَّةٌ مختَصٌّ بها؛ فعُبوديَّةُ الآيةِ الأُولى: الاجتِهادُ واستِفراغُ الوُسعِ، والاختيارُ والسَّعيُ. وعُبوديَّةُ الثَّانيةِ:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٠).

الاستعانةُ باللهِ والتَّوكُّلُ عليه واللَّجَأُ إليه، واستِنزالُ التَّوفيقِ والعَونِ منه، والعِلمُ بأنَّ العبدَ لا يمكِنُه أنْ يشاءَ ولا يَفْعَلَ حتَّى يَجعَلَه اللهُ كذلك. وقَولُه: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يَنْتَظِمُ ذلك كلَّه ويَتضَمَّنُه، فمَن عَطَّلَ أحدَ الأمْرَينِ فقد جَحَدَ كَمالَ الرُّبوبيَّةِ وعَطَّلَها[1].

٧- قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: الموجِدُ لهم والمالِكُ، والمحسِنُ إليهم، والمرَبِّي لهم، وهو أعلَمُ بهم منهم؛ فمِن أجْلِ ذلك لا يَقدِرونَ إلَّا على ما قَدَّرَهم عليه، ويجِبُ على كُلٍّ منهم طاعتُه، والإقبالُ بالكُلِّيَّةِ عليه سبحانه وتعالى، وشُكْرُه؛ اسْتِمْطارًا للزِّيادةِ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ حصَلَ مِن مَجموعِ الأَوصافِ الثَّلاثِ ما يُشبِهُ اللُّغزَ، يُحسَبُ به أنَّ المَوصوفاتِ ظِباءٌ أو وُحوشٌ؛ لأنَّ تلك الصِّفاتِ حَقائِقُها مِن أحوالِ الوُحوشِ. والألغازُ طَريقةٌ مُستَملَحةٌ عندَ بُلَغاءِ العَرَبِ، وهي عَزيزةٌ في كَلامِهم[3].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ هنا يُقسِمُ بحالاتِ الكواكِبِ في ظُهورِها واختِفائِها وجَرَيانِها، وبـ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، وهما أثَرانِ مِن آثارِ الشَّمسِ في غُروبِها وشُروقِها، والمُقسَمُ عليه: هو أنَّ القُرآنَ قَولُ رَسولٍ كَريمٍ، كأنَّه يقولُ: إنَّ القُرآنَ المقسَمَ عليه: حالُه في الثُّبوتِ والظُّهورِ، وحالُ النَّاسِ معه؛ كحالِ هذه الكواكِبِ الثَّوابِتِ لديكم في ظُهورِها تارةً، واختفائِها أُخرى، وكحالِ اللَّيلِ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٣).

والصُّبحِ؛ فهو عِندَ أناسٍ مَوضِعُ ثِقةٍ وهِدايةٍ، كالصُّبحِ في إسفارِه، قُلوبُهم مُتفَتِّحةٌ إليه، وعُقولُهم مُهتَدِيةٌ به؛ فهو لهم رُوحٌ ونُورٌ، وعندَ أُناسٍ مُظلِمةٌ أمامَه قُلوبُهم، عُمْيٌ عنه بصائِرُهم، وفي آذانِهم وَقْرٌ، وهو عليهم عَمًى، وأناسٌ تارةً وتارةً، كالنُّجومِ أحيانًا وأحيانًا، تارةً ينقَدِحُ نُورُه في قُلوبِهم، فتَظهَرُ مَعالِمُه فيَسيرونَ معه، وتارةً يَغيبُ عنهم نورُه، فتَخنِسُ عنه عُقولُهم وتَكنِسُ دُونَه قُلوبُهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ﴾ [البقرة: ٢٠]، وليس بعيدًا أن يُقالَ: إنَّه مِن وَجهٍ آخَرَ؛ تُعتَبَرُ النُّجومُ كالكُتُبِ السَّابِقةِ، مضى عليها الظُّهورُ في حينِها والخَفاءُ بَعْدَها، ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾: هو ظلامُ الجاهِليَّةِ، ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾: يُقابِلُه ظُهورُ الإسلامِ، وأنَّه سيَنتشِرُ انتِشارَ ضَوءِ النَّهارِ، ولا تقوى قوَّةٌ قَطُّ على حَجْبِه، وسيَعُمُّ الآفاقَ كُلَّها مهما وَقَفوا دُونَه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1] [الصف: ٨].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ * ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ * وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ مُناسَبةٌ بيْن ذِكْرِ هذه الآياتِ العُلْويَّةِ الأُفُقيَّةِ مع الرَّسولِ الَّذي أُقْسِمَ على أنَّه قولُه، وهو جِبريلُ؛ لأنَّ جِبريلَ عندَ اللهِ عزَّ وجَلَّ[2].

٤- الصُّبحُ هو الفَجْرُ، كما قال تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، وقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[3] [هود: ٨١].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٤٤).

قال عطية سالم بعدَ إيرادِ ما سبق: (وقد يكونُ في هذا الإيرادِ غرابةٌ على بعضِ النَّاسِ، ولا سيَّما وأنِّي لم أقِفْ على بحثٍ مُستَقِلٍّ فيه، ولا توجيهٍ يُشيرُ إليه، ولكِنْ مع التَّتَبُّعِ وجَدْتُ اطِّرادَه في مواضِعَ متعَدِّدةٍ، وجديرٌ بأن يُفرَدَ برِسالةٍ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٥/ ٢٩).

٥- قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، وفي التَّعبيرِ عن جِبريلَ بوَصفِ رَسولٍ إيماءٌ إلى أنَّ القولَ الَّذي يُبَلِّغُه هو رِسالةٌ مِن اللهِ، مأمورٌ بإبلاغِها كما هيَ[(١)].

٦- في قَولِه -تعالى- عن جِبريلَ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، وفي الآيةِ الثَّانيةِ عن محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ [الحاقة: ٤٠، ٤١] أنَّ الرَّسولَ يُطْلَقُ على البَشَرِ والمَلَكِ، بخِلافِ النَّبيِّ؛ فإنَّه لا يُطْلَقُ إلَّا على البَشَرِ، فيكونُ الرَّسولُ أَعَمَّ مِن حيثُ مُتَعَلَّقُه، يعني: يكونُ للبَشَرِ والملائِكةِ[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ نُسِبَ القَولُ إلى الرَّسولِ؛ لأنَّ القَولَ الصَّادِرَ إليك عن رَسولٍ يُبَلِّغُه إليك عن مُرسِلٍ له: يَصِحُّ أن تَنسُبَه إليه تارةً، وإلى رَسولِه تارةً، وكِلاهما صَحيحٌ[(٣)]، وقد ظَنَّ بَعضُ الغالِطينَ أنَّ إضافتَه إلى الرَّسولِ تقتضي أنَّه أنشَأَ حُروفَه، وهذا خَطَأٌ؛ لأنَّه لو كان جبريلُ أو محمَّدٌ هو الَّذي أنشأَ لَفْظَه ونَظْمَه، امتنَعَ أن يكونَ الآخَرُ الَّذي أنشأ ذلك، فلمَّا أضافه إلى هذا تارةً، وإلى هذا تارةً؛ عُلِمَ أنَّه أضافه إليه لأنَّه بَلَّغَه وأدَّاه، لا لأنَّه أنشأه وابتدَأَه لا لَفْظَه ولا معناه؛ ولهذا قال: ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾، ولم يقُلْ: لَقَولُ مَلَكٍ ولا نَبيٍّ، فذَكَر ذلك بلَفظِ الرَّسولِ؛ ليُبَيِّنَ أنَّه يُبَلِّغُ عن غَيرِه، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ﴾[(٤)] [المائدة: ٦٧].

٨- في هذه الآياتِ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ أقسَمَ اللهُ عزَّ وجَلَّ على أنَّ هذا القُرآنَ قَولُ هذا الرَّسولِ الكريمِ الملَكِيِّ جِبريلَ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ١٥٤).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ٥٤١، ٥٤٢).

الصَّلاةُ والسَّلامُ، وفي آيةٍ أُخرى بَيَّن اللهُ سُبحانَه وتعالى وأقسَمَ أنَّ هذا القُرآنَ قَولُ رَسولٍ كريمٍ بَشَريٍّ، في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ * وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ * إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖ﴾ [الحاقة: ٣٨ - ٤١]، فكيف يَصِفُ اللهُ القرآنَ بأنَّه قَولُ الرَّسولِ البَشَريِّ والرَّسولِ المَلَكِيِّ؟

**الجوابُ**: نعَمْ، الرَّسولُ المَلَكِيُّ بَلَّغَه إلى الرَّسولِ البَشَريِّ، والرَّسولُ البَشَريُّ بَلَّغَه إلى الأُمَّةِ، فصار قَولَ جبريلَ بالنِّيابةِ، وقَولَ محمَّدٍ بالنِّيابةِ، والقائلُ الأوَّلُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فالقرآنُ قولُ اللهِ حقيقةً، وقولُ جبريلَ باعتبارِ أنَّه بَلَّغَه لمحمَّدٍ، وقولُ محمَّدٍ باعتبارِ أنَّه بَلَّغَه إلى الأُمَّةِ[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ وُصِفَ الرَّسولُ المَلَكِيُّ في هذه السُّورةِ بأنَّه كَريمٌ، قَويٌّ، مَكِينٌ عندَ الرَّبِّ تعالى، مُطاعٌ في السَّمَواتِ، أمينٌ، فهذه خَمسُ صِفاتٍ تتضَمَّنُ تزكيةَ سَنَدِ القُرآنِ، وأنَّه سَماعُ محمَّدٍ مِن جبريلَ، وسماعُ جبريلَ مِن ربِّ العالَمينَ، فناهيك بهذا السَّنَدِ عُلُوًّا وجَلالةً! تَوَلَّى اللهُ سُبحانَه بنَفْسِه تزكيتَه[2].

١٠- في قَولِه -تعالى- عن جِبريلَ: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ تنبيهٌ على أُمورٍ:

**أحدُها**: أنَّه بقُوَّتِه يَمنعُ الشَّياطينَ أنْ تَدنوَ مِن القُرآنِ، وأنْ يَنالوا منه شَيئًا، وأنْ يَزيدوا فيه أو يَنْقُصوا منه، بل إذا رآه الشَّيطانُ هَرَبَ منه، ولَمْ يَقْرَبْه.

**الثَّاني**: أنَّه مُوالٍ لهذا الرَّسولِ الَّذي كَذَّبْتُموه، ومُعاضِدٌ له، ومُوَادٌّ له وناصِرٌ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، ومَن كان هذا القويُّ وليَّه ومِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٧٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٠).

أنصارِه وأعوانِه، ومُعَلِّمَه: فهو المَهْديُّ المنصورُ، واللهُ هاديه وناصِرُه.

**الثَّالثُ**: أنَّ مَن عادى هذا الرَّسولَ فقد عادى صاحِبَه ووليَّه جِبريلَ، ومَن عادى ذا القُوَّةِ والشِّدَّةِ فهو عُرْضَةٌ للهَلاكِ.

**الرَّابعُ**: أنَّه قادِرٌ على تنفيذِ ما أُمِرَ به لقُوَّتِه، فلا يَعْجِزُ عن ذلك، مُؤَدٍّ له كما أُمِرَ به لأمانتِه، فهو القَوِيُّ الأمينُ، وأحدُكم إذا انتَدبَ غيرَه في أمْرٍ مِن الأُمورِ لرِسالةٍ أو وِلايةٍ أو وَكالةٍ أو غَيرِها فإنَّما يَنتَدِبُ لها القَويَّ عليه، الأمينَ على فِعْلِه، وإنْ كان ذلك الأمرُ مِن أهمِّ الأُمورِ عندَه انتَدبَ له قَوِيًّا أمينًا مُعَظَّمًا ذا مكانةٍ عندَه، مُطاعًا في النَّاسِ، كما وَصَفَ اللهُ عبْدَه جبريلَ بهذه الصِّفاتِ، وهذا يدُلُّ على عَظَمةِ شأنِ المُرْسِلِ والرَّسولِ والرِّسالةِ والمُرْسَلِ إليه؛ حيثُ انتَدبَ له الكريمَ القويَّ المكِينَ عندَه، المطاعَ في الملأِ الأعلى، الأمينَ حقَّ الأمينِ؛ فإنَّ الملوكَ لا تُرسِلُ في مُهِمَّاتِها إلَّا الأشرافَ ذَوِي الأقدارِ والرُّتَبِ العاليةِ[(١)].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ أنَّ جِبريلَ له مَكانةٌ ووَجاهةٌ عِندَه سُبحانَه، وهو أقربُ الملائكةِ إليه[(٢)].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ إشارةٌ إلى عُلُوِّ مَنزلةِ جبريلَ؛ إذْ كان قَريبًا مِن ذي العَرْشِ سُبحانَه[(٣)].

١٣- في قَولِه -تعالى- عن جبريلَ: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ جنودَ جبريلَ وأعوانَه يُطيعونَه إذا نَدَبَهم لنَصرِ صاحبِه وخَليلِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ هذا الَّذي تُكَذِّبونَه وتُعادونَه سيَصيرُ مُطاعًا في الأرضِ، كما أنَّ جِبريلَ مُطاعٌ في السَّماءِ، وأنَّ كلًّا مِن الرَّسولَينِ مُطاعٌ في مَحَلِّه وقَومِه(١).

١٥- قال اللهُ تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ هذا عَظيمٌ جدًّا؛ أنَّ الرَّبَّ عزَّ وجَلَّ يُزَكِّي عَبْدَه ورَسولَه المَلَكيَّ جِبريلَ كما زكَّى عَبْدَه ورَسولَه البَشَريَّ مُحمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بقَولِه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾(٢) [التكوير: ٢٢].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ تعظيمٌ لجبريلَ بأنَّه بمَنزلةِ الملوكِ المُطاعِينَ في قَومِهم، فلَمْ يَنْتَدِبْ لهذا الأمرِ العظيمِ إلَّا مِثلَ هذا المَلَكِ المُطاعِ(٣).

١٧- قال تعالى: ﴿أَمِينٍ﴾ وَصْفُ جبريلَ بالأمانةِ؛ إشارةٌ إلى حفْظِه ما حُمِّلَه، وأدائِه له على وَجْهِه(٤).

١٨- لَمَّا كان جِبرائيلُ هو الَّذي جاء بالرِّسالةِ، وهو صاحِبُ الوَحيِ، وهو غَيبٌ عن النَّاسِ، لم يَرَوه بأبصارِهم، ولم يَسمَعوا كلامَه بآذانِهم، وزَعَم زاعِمونَ أنَّ الَّذي يأتيه شيطانٌ يُعَلِّمُه ما يقولُ، أو أنَّه إنَّما يُعَلِّمُه إيَّاه بعضُ الإنسِ- أخبَرَ اللهُ العِبادَ عن الرَّسولِ الَّذي جاء به، ونعَتَه أحسَنَ النَّعتِ، وبَيَّن حالَه أحسَنَ البَيانِ، وذلك كُلُّه إنَّما هو تشريفٌ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ونَفْيٌ عنه ما زعموه، وتقريرٌ للرِّسالةِ؛ إذ كان هو صاحِبَه الَّذي يأتي بالوَحيِ، فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، أي: أنَّ الرَّسولَ البَشَريَّ لم يَنطِقْ به مِن عِندِ نَفْسِه، وإنَّما هو مُبَلِّغٌ يقولُ ما قِيلَ له؛ فكان في اسمِ الرَّسولِ إشارةٌ إلى مَحْضِ التَّوَسُّطِ والسِّعايةِ، ثمَّ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٢٣).

وَصَفَه بالصِّفاتِ الَّتي تَنفي كلَّ عَيبٍ؛ مِنَ القُوَّةِ والمُكْنةِ والأمانةِ، والقُرْبِ مِنَ اللهِ سُبحانَه، فلمَّا استقرَّ حالُ الرَّسولِ الملَكيِّ بَيَّن أنَّه مِن جِهتِه، وأنَّه لا يجيءُ إلَّا بالخيرِ، وكان الرَّسولُ البَشَريُّ معلومًا ظاهِرُه عِندَهم، وهو الَّذي يُبَلِّغُهم الرِّسالةَ، ولولاه لَمَا أطاقُوا الأخْذَ عن الرَّسولِ الملَكِيِّ(١).

١٩- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾. في قَولِه تعالى: ﴿صَاحِبُكُم﴾ إشارةٌ إلى أنَّه قد صَحِبَكم سِنينَ قبْلَ ذلك، ولا سابِقةَ له بما تقولونَ فيه وتَرمُونَه مِن الجُنونِ والسِّحْرِ وغيرِ ذلك! وأنَّه لولا سابِقتُه وصُحبتُه إيَّاكم لَمَا استَطَعْتُم الأخْذَ عنه، أَلَا تَسمَعُه يقولُ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩](٢)؛ ففيه تنبيهٌ على نِعْمتِه على البَشَرِ وإحسانِه إليهم؛ إذْ بَعَثَ إليهم مَن يَصحَبُهم ويَصحَبونَه بَشَرًا مِثْلَهم؛ فإنَّهم لا يُطيقونَ الأخذَ عن المَلَكِ(٣).

٢٠- قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ الظَّاهِرُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ هذه السُّورةَ نزَلَت قبْلَ ليلةِ الإسراءِ؛ لأنَّه لم يَذكُرْ فيها إلَّا هذه الرُّؤيةَ، وهي الأُولى، وأمَّا الثَّانيةُ وهي المذكورةُ في قَولِه: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ * إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم: ١٣ - ١٦]، فتلك إنَّما ذُكِرَت في سُورةِ «النَّجْمِ»، وقد نزَلَت بَعْدَ سُورةِ «الإسراءِ»(٤).

٢١- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ أنَّ جِبريلَ مَلَكٌ موجودٌ في الخارجِ، يُرى بالعِيانِ، ويُدْرِكُه البصَرُ، لا كما يقولُ المتفلسِفةُ ومَن قَلَّدَهم: إنَّه

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٣٨٩، ٣٩٠).

(٣) يُنظر: ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٣٩).

ويُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٣٩).

العَقلُ الفَعَّالُ، وإنَّه ليس ممَّا يُدْرَكُ بالبصَرِ! وحقيقتُه عِندَهم أنَّه خيالٌ موجودٌ في الأذهانِ لا في الأعيانِ! وهذا ممَّا خالَفوا به جميعَ الرُّسُلِ وأتْباعَهم، وخَرَجوا به عن جَميعِ المِلَلِ؛ ولهذا كان تقريرُ رؤيةِ النَّبيِّ لجبريلَ أهمَّ مِن تقريرِ رؤيتِه لربِّه تعالى؛ فإنَّ رؤيتَه لجِبريلَ هي أصلُ الإيمانِ الَّذي لا يَتِمُّ إلَّا باعتِقادِها، ومَن أنْكَرَها كَفَرَ قَطْعًا، وأمَّا رؤيتُه لربِّه تعالى فغايتُها أنْ تكونَ مَسألةَ نزاعٍ لا يَكْفُرُ جاحِدُها بالاتِّفاقِ، فنحن إلى تقريرِ رؤيتِه لجِبريلَ أحوَجُ مِنَّا إلى تقريرِ رؤيتِه لربِّه تعالى، وإنْ كانت رُؤيةُ الرَّبِّ أعظَمَ مِن رُؤيةِ جِبريلَ ومَن دُونَه؛ فإنَّ النُّبُوَّةَ لا يَتوقَّفُ ثُبوتُها عليها البَتَّةَ(١).

٢٢- قال تعالَى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ وُصِف الأُفُقُ الَّذي تَراءى منه جِبريلُ للنَّبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ بأنَّه أُفُقٌ واضِحٌ بَيِّنٌ لا تَشتبِهُ فيه المَرئيَّاتُ، ولا يُتخيَّلُ فيه الخَيالُ، وجُعِلَتْ تلك الصِّفةُ عَلامةً على أنَّ المَرئيَّ مَلَكٌ وليس بخَيالٍ؛ لأنَّ الأخْيِلةَ الَّتي يَتخيَّلُها المَجانينُ إنَّما يَتخيَّلُونها على الأرضِ تابِعةً لهم، على ما تَعوَّدوه مِن وَقتِ الصِّحَّةِ(٢).

٢٣- قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ هذا إبْطالٌ لقَولِ المُشركينَ في الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنَّه كاهِنٌ؛ فإنَّهم كانوا يَزعُمون أنَّ الكُهَّانَ تأْتيهم الشَّياطينُ بأخبارِ الغَيبِ، قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢]، وقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ * وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]، وهُم كانوا يَزعُمون

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٩، ١٦٠).

أنَّ الكاهِنَ يَتلقَّى عن شَيطانِه، ويُسَمُّون شَيطانَه رَئِيًّا[١].

٢٤- قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ إنَّ الَّذينَ لم يَشاؤوا أنْ يَسْتَقيموا هم الكافِرونَ بالقرآنِ، وهم المَسوقُ لهم الكلامُ، ويُلْحَقُ بهم على مَقاديرَ مُتفاوِتةٍ كلُّ مَن فَرَّط في الاهتداءِ بشَيءٍ مِن القرآنِ مِن المسلمينَ؛ فإنَّه ما شاءَ أنْ يستقيمَ لِمَا فَرَطَ منه في أحوالٍ أو أزمانٍ أو أمكنةٍ، وفي هذه الآيةِ إشارةٌ بَيِّنةٌ على أنَّ مِنَ الخَطَأِ أن يُوزَنَ حالُ الدِّينِ الإسلاميِّ بميزانِ أحوالِ بَعضِ المُسلِمينَ أو مُعظَمِهم، كما يَفعَلُه بَعضُ أهلِ الأنظارِ القاصِرةِ مِنَ الغَربيِّينَ وغَيرِهم؛ إذ يَجعَلونَ وِجهةَ نَظَرِهم التَّأمُّلَ في حالةِ الأُمَمِ الإسلاميَّةِ، ويَستَخلِصونَ مِن استقرائِها أحكامًا كُلِّيَّةً يَجعَلونَها قَضايا لفَلْسفَتِهم في كُنْهِ الدِّيانةِ الإسلاميَّةِ[٢]!

٢٥- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ الأسبابَ لا تَسْتَقِلُّ بالتَّأثيرِ في مُسَبَّباتِها[٣].

٢٦- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ ما كان مِن فِعْلِ المخلوقِ فهو بمشيئةِ اللهِ[٤].

٢٧- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّ مشيئةَ الإنسانِ تابعةٌ لمشيئةِ اللهِ عزَّ وجلَّ[٥].

٢٨- في قَولِه تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦٦، ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٦٧).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٥/ ٢١٩).

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أنَّ العبدَ فاعلٌ حقيقةً، وله مَشيئةٌ وقُدرةٌ[١].

٢٩- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لا يَدُلُّ على أنَّ العبدَ ليس بفاعِلٍ لِفِعْلِه الاختياريِّ، ولا أنَّه ليس بقادرٍ عليه، ولا أنَّه ليس بمُريدٍ، بل يدُلُّ على أنَّه لا يَشاؤُه إلَّا أنْ يشاءَ اللهُ، وهذه الآيةُ ردٌّ على الطَّائِفتَينِ: المُجْبرةِ الجَهميَّةِ، والمُعتزِلةِ القَدَريَّةِ؛ فإنَّه تعالى قال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴾ فأَثْبَتَ للعَبدِ مشيئةً وفِعلًا، ثُمَّ قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ فبيَّنَ أنَّ مَشيئةَ العبدِ مُعَلَّقةٌ بمشيئةِ اللهِ، والأُولى ردٌّ على الجَبْريَّةِ، وهذه رَدٌّ على القَدَريَّةِ الَّذين يقولون: قد يشاءُ العَبدُ ما لا يَشاؤه اللهُ! كما يقولون: إنَّ اللهَ يشاءُ ما لا يَشاؤونَ[٢]! فدَلَّت الآيةُ على أنَّ مَشيئتَه سُبحانَه نافِذةٌ لا يُمكِنُ أن تُعارَضَ أو تُمانَعَ، ففي هذه الآيةِ وأمثالِها رَدٌّ على هاتَينِ الفِرقتَينِ؛ لأنَّه أثبَتَ لهم مَشيئةً، لكِنْ بخَلْقِه لا بخَلْقِهم[٣].

٣٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لَمَّا وَصَفَ نَفْسَه سُبحانَه بأنَّه لا يَخرُجُ شَيءٌ عن أَمْرِه، أَتْبَعَ ذلك الوَصْفَ بما هو كالعِلَّةِ لذلك، فقال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٤].

٣١- قولُه تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾؛ في هذه الآيةِ، وآيةِ سورةِ الإنسانِ ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۞ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠] إفْصاحٌ عن شَرَفِ

---

(١) يُنظر: ((مجموعة الرسائل والمسائل)) لابن تيمية (٥/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٤٨٨).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٦).

أهلِ الاستِقامةِ بِكَونِهم بمَحَلِّ العِنايةِ مِن رَبِّهم؛ إذْ شاءَ لهم الاستِقامةَ، وهَيَّأَهم لها[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ﴾

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ الفاءُ لتَفريعِ القَسَمِ وجَوابِه على الكَلامِ السَّابقِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ ما تَقدَّمَ مِن الكَلامِ هو بمَنزِلةِ التَّمهيدِ لِما بعْدَ الفاءِ؛ فإنَّ الكَلامَ السَّابقَ أفادَ تَحقيقَ وُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ، وهم قدْ أنكَروه، وكَذَّبوا القُرآنَ الَّذي أنذَرَهم به، فلمَّا قُضِيَ حَقُّ الإنذارِ به، وذُكِرَ أشْراطُه، فُرِّعَ عنه تَصديقُ القُرآنِ الَّذي أنذَرَهم به، وأنَّه مُوحًى به مِن عِندِ اللهِ؛ فالتَّفريعُ هنا تَفريعُ معنًى وتَفريعُ ذِكرٍ معًا[٢].

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ القَسَمُ هنا مُرادٌ به تأكيدُ الخَبَرِ وتَحقيقُه، وأُدمِجَ فيه أَوصافُ الأشياءِ المُقسَمِ بها؛ للدَّلالةِ على تَمامِ قُدرةِ اللهِ تعالَى[٣].

- و(الْخُنَّسِ): جَمعُ خانِسةٍ؛ وهي الَّتي تَخنِسُ، أي: تَختَفي. و(الجَواري): جَمعُ جارِيةٍ؛ وهي الَّتي تَجري، أي: تَسيرُ سَيرًا حَثيثًا. و(الْكُنَّسِ): جَمعُ كانِسةٍ، يُقالُ: كَنَسَ الظَّبْيُ، إذا دَخَلَ كِناسَه (بكَسرِ الكافِ)؛ وهو البَيتُ الَّذي يَتَّخِذُه للمَبيتِ. وهذه الصِّفاتُ المُرادُ بمَوصوفاتِها: الكَواكِبُ، وُصِفْنَ بذلك؛ لأنَّها تَكونُ في النَّهارِ مُختفِيةً عن الأنظارِ، فشُبِّهَتْ بالوَحشيَّةِ المُختفِيةِ في شَجَرٍ ونَحوِه، فقيلَ: (الْخُنَّسِ)، وهو مِن بَديعِ التَّشبيهِ؛ لأنَّ الخُنوسَ اختِفاءُ الوَحشِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عن أنظارِ الصَّيَّادينَ ونَحوِهم دُون سُكونٍ في كِناسٍ، وكذلك الكَواكِبُ؛ لأنَّها لا تُرى في النَّهارِ لغَلَبةِ شُعاعِ الشَّمسِ على أُفُقِها، وهي مع ذلك مَوجودةٌ في مَطالِعِها، وشَبَّهَ ما يَبدو للأنظارِ مِن تَنقُّلِها في سَمْتِ النَّاظِرين للأُفُقِ -باعتِبارِ اختلافِ ما يُسامِتُها مِن جُزءٍ مِن الكُرةِ الأرضيَّةِ- بخُرُوجِ الوَحشِ، فشُبِّهَتْ حالةُ بُدُوِّها بعْدَ احتِجابِها مع كَونِها كالمُتحَرِّكةِ بحالةِ الوَحْشِ تَجري بعدَ خُنوسِها تَشبيهَ التَّمثيلِ، وهو يَقتَضي أنَّها صارَتْ مَرئيَّةً؛ فَلذلك عَقَّبَ بعْدَ ذلك بوَصفِها بالكُنَّسِ، أي: عندَ غُروبِها، تَشبيهًا لغُروبِها بدُخولِ الظَّبْيِ أو البَقَرةِ الوَحشيَّةِ كِناسَها بعدَ الانْتِشارِ والجَريِ؛ فشُبِّهَ طُلوعُ الكوكبِ بخُروجِ الوَحشيَّةِ مِن كِناسِها، وشُبِّهَ تَنقُّلُ مَرآها للنَّاظرِ بجَرْيِ الوَحشيَّةِ عندَ خُروجِها مِن كِناسِها صَباحًا، وشُبِّهَ غُروبُها بعدَ سَيْرِها بكُنوسِ الوَحشيَّةِ في كِناسِها، وهو تَشبيهٌ بَديعٌ[(١)].

- وفي قَولِه: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ احتِباكٌ[(٢)]؛ ذِكْرُ خُنوسِ الكواكِبِ وكُنوسِها أوَّلًا يُفهِمُ ظُهورَها ثانيًا، وذِكْرُ اللَّيلِ ثانيًا يُفهِمُ حَذْفَ النَّهارِ أوَّلًا[(٣)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾

- قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ عُطِفَ القَسَمُ باللَّيلِ على القَسَمِ بالكَواكِبِ؛ لمُناسَبةِ جَرَيانِ الكَواكِبِ في اللَّيلِ، ولأنَّ تَعاقُبَ اللَّيلِ والنَّهارِ مِن أجَلِّ مَظاهِرِ الحِكمةِ الإلَهيَّةِ في هذا العالَمِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٢، ١٥٣).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٤).

- الفعلُ (عَسْعَسَ) مِن الأضْدادِ؛ يُقالُ: عَسْعَسَ، إذا أَقبَلَ ظَلامُه، وعَسْعَسَ، إذا أَدبَرَ ظَلامُه؛ وبذلك يَكونُ إيثارُ هذا الفِعلِ لإفادَتِه كِلا حالَينِ صالِحَينِ للقَسَمِ به فِيهما؛ لأنَّهما مِن مَظاهِرِ القُدرةِ؛ إذ يَعقُبُ الظَّلامَ الضِّياءُ، ثمَّ يَعقُبُ الضِّياءَ الظَّلامُ، وهذا إيجازٌ[١].

- قولُه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ عُطِفَ على القَسَمِ باللَّيلِ القسَمُ بالصُّبحِ حِينَ تَنفُّسِه -أي: انشِقاقِ ضَوئِه-؛ لمُناسَبةِ ذِكرِ اللَّيلِ، ولأنَّ تَنفُّسَ الصُّبحِ مِن مَظاهِرِ بَديعِ النِّظامِ الَّذي جَعَلَه اللهُ في هذا العالَمِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ * مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾

- ضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى القُرآنِ، ولم يَسبِقْ له ذِكرٌ، ولكنَّه مَعلومٌ مِن المقامِ في سِياقِ الإخبارِ بوُقوعِ البَعثِ؛ فإنَّه ممَّا أخبَرَهم به القرآنُ، وكذَّبوا بالقرآنِ مِن أجْلِ ذلك[٣].

- والرَّسولُ الكريمُ يُرادَ به: جِبريلُ عليْه السَّلامُ؛ وُصِفَ جِبريلُ برَسولٍ؛ لأنَّه مُرسَلٌ مِن اللهِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقُرآنِ. وإضافة (قَوْل) إلى (رَسُولٍ) لأَدْنى مُلابَسةٍ؛ لأنَّ جِبريلَ يُبَلِّغُ ألْفاظَ القُرآنِ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيَحكِيها كما أَمَرَه اللهُ تعالَى، فهو قائِلُها؛ أي: صادِرةٌ منه ألْفاظُها[٤].

- واستُطرِدَ في خِلالِ الثَّناءِ على القُرآنِ الثَّناءُ على المَلَكِ المُرسَلِ به؛ تَنويهًا بالقُرآنِ، فإجراءُ أَوصافِ الثَّناءِ على ﴿رَسُولٖ﴾ للتَّنويهِ به أيضًا، وللكِنايةِ على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٥٤، ١٥٥).

أنَّ ما نَزَل به صِدقٌ؛ لأنَّ كَمالَ القائلِ يدُلُّ على صِدقِ القَولِ[١].

- ووُصِفَ جِبريلُ بقولِه: ﴿مَكِينٍ﴾، وخُصَّ مِن أوصافِ اللهِ ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾؛ ليَدُلَّ على عِظَمِ مَنزلةِ جِبريلَ عندَ اللهِ ومَكانتِه؛ لأنَّ حالَ الشَّخصِ يَتفاوَتُ بتَفاوُتِ حالِ مَن له عندَه المنزلةُ[٢]. وأيضًا عُدِلَ عن اسمِ الجَلالةِ إلى ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾؛ لتَمثيلِ حالِ جِبريلَ ومَكانَتِه عندَ اللهِ بحالةِ الأميرِ الماضي في تَنفيذِ أمرِ المَلِكِ، وهو بمَحَلِّ الكَرامةِ لَدَيْه[٣].

- وتَوسيطُ قولِه: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ بيْنَ ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾ و﴿مَكِينٍ﴾؛ ليَتَنازَعَه كِلَا الوَصفَينِ على وَجْهِ الإيجازِ[٤].

- وفي إجْراءِ تِلك الصِّفاتِ على جِبريلَ في هذا المَقامِ إدْماجٌ[٥] لتَعظيمِ الرَّسولِ، وأنَّه بَلَغ مِن المَكانةِ وعُلُوِّ المَنزِلةِ عندَ ذي العَرشِ أنْ جعَلَ السَّفيرَ بيْنَه وبيْنَه مِثلَ هذا المَلَكِ المُقرَّبِ المُطاعِ الأَمينِ[٦].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ عَطفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]؛ فهو داخِلٌ في خَبَرِ القَسَمِ جَوابًا ثانيًا عن القَسَمِ، والمَعنى: وما هو (أي: القُرآنُ) بقَولِ مَجنونٍ -كَما تَزعُمون-، فأَبطَلَ قولَهم إبْطالًا مُؤكَّدًا ومُؤيَّدًا؛ فتأْكيدُه بالقَسَمِ وبزِيادةِ (الباء) بعْدَ النَّفيِ، وتأييدُه بما أومَأَ إليه وصْفُه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٦).

(٦) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٩).

بأنَّ الَّذي بلَّغَه صاحِبُهم؛ فإنَّ وصْفَ (صاحِب) كِنايةٌ عن كَونِهم يَعلَمون خُلُقَه وعَقلَه، ويَعلَمون أنَّه ليس بمَجنونٍ؛ إذْ شأْنُ الصَّاحِبِ ألَّا تَخفَى دَقائقُ أحوالِه على أصحابِه، والمَعنى: نَفيُ أنْ يَكونَ القُرآنُ مِن وَساوِسِ المَجانينِ؛ فسَلامةُ مُبَلِّغِه مِن الجُنونِ تَقتَضي سَلامةَ قولِه عن أنْ يَكونَ وَسوَسةً[1].

- قولُه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ التَّعرُّضُ لعُنوانِ المصاحَبةِ؛ للتَّلويحِ بإحاطَتِهم بتَفاصيلِ أحوالِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ خُبْرًا، وعِلمِهم بنَزاهتِه عليه السَّلامُ عمَّا نَسَبوه إليْه بالكُلِّيَّةِ، فالعُدولُ عن اسمِ النَّبيِّ العَلَمِ إلى ﴿صَاحِبُكُم﴾؛ لِما يُؤْذِنُ به ﴿صَاحِبُكُم﴾ مِن كَونِهم على عِلمٍ بأَحوالِه[2].

- وتَسميةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَجنونًا في قولِه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ جاءَ على المُشاكَلةِ[3] وإطْباقِ الجَوابِ على ما سُمِعَ مِن كُفَّارِ مكَّةَ، ويُؤيِّدُه أنَّ قولَه: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ جَوابُ القَسَمِ -وذلك على قولٍ-، أي: أُقسِمُ بهذه الأشياءِ أنَّ القُرآنَ نَزَلَ به جِبريلُ، وأنَّ صاحِبَكم ليس بمَجنونٍ؛ لأنَّهم قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾[4] [الحجر: ٦].

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٍ﴾ الضَّنينُ هو: البَخيلُ، أي: وما صاحِبُكم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٥٩).

(٣) المُشاكَلةُ: هي ذِكرُ الشَّيءِ بغيرِ لَفظِه؛ لِوُقوعِه في صُحبتِه، كقولِه تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، فالجزاءُ عن السَّيِّئةِ في الحقيقةِ غيرُ سيِّئةٍ، والأصلُ: وجزاءُ سيِّئةٍ عقوبةٌ مِثلُها. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للحموي (٢/ ٢٥٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٠٩)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٧١، ١٧٢).

(٤) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣١٨).

بِبَخيلٍ، أي: بِما يُوحَى إليه، وما يُخبِرُ به عن الأُمورِ الغَيْبيَّةِ طَلَبًا للانتِفاعِ بما يُخبِرُ به، بحَيثُ لا يُنبِّئُكم عنه إلَّا بعِوَضٍ تُعْطونه، وذلك كِنايةٌ عن نَفيِ أن يكونَ كاهِنًا أو عرَّافًا يَتَلقَّى الأخبارَ عن الجِنِّ؛ إذ كان المُشرِكون يَترَدَّدون على الكُهَّانِ، فأَقامَ لهم الفَرْقَ بيْنَ حالِ الكُهَّانِ وحالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالإشارةِ إلى أنَّ النَّبيَّ لا يَسألُهم عِوَضًا عمَّا يُخبِرُهم به، وأنَّ الكاهِنَ يأخُذُ على ما يُخبِرُ به ما يُسَمُّونه حُلْوانًا، فيكونُ هذا المعنى مِن قَبيلِ قولِه تعالَى: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧]، ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الأنعام: ٩٠]، ونحوِ ذلكَ، ويَتعلَّقُ ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ بقولِه: ﴿بِضَنِينٍ﴾، وحرْفُ (على) على هذا الوجْهِ بمعْنى الباءِ، مِثل قولِه تعالَى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ [الأعراف: ١٠٥]، أي: حَقيقٌ بي، أو لتَضمينِ (ضَنِين) معْنى حَريصٍ، والحرْصُ: شِدَّةُ البخلِ، أي: وما محمَّدٌ بكاتمٍ شيئًا مِن الغَيبِ، فما أخبَرَكم به فهو عَينُ ما أوحَيْناهُ إليه. وقد يكونُ البَخيلُ على هذا كِنايةً عن كاتِمٍ، وهو كِنايةٌ بمَرتَبةٍ أُخْرى عن عدَمِ التَّغييرِ، والمَعنى: وما صاحِبُكم بكاتِمٍ شَيئًا مِن الغَيبِ، أي: ما أَخبَرَكم به فهو الحَقُّ(١).

- قولُه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ عَطفٌ على ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [التكوير: ١٩]، وهذا رُجوعٌ إلى ما أقسَمَ عليه مِن أنَّ القُرآنَ قولُ رَسولٍ كَريمٍ، بعدَ أنِ استُطرِدَ بيْنَهما بتلك المُستَطْرَداتِ الدَّالَّةِ على زِيادةِ كَمالِ هذا القَولِ بقُدُسيَّةِ مَصدَرِه، ومَكانةِ حامِلِه عندَ اللهِ، وصِدقِ مُتلَقِّيه منه عن رُؤْيةٍ مُحقَّقةٍ لا تَخيُّلَ فيها؛ فكان التَّخلُّصُ إلى العَوْدِ لتَنزيهِ القُرآنِ بمُناسَبةِ ذِكرِ الغَيبِ في قولِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٢، ١٦٣).

تعالَى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ [التكوير: ٢٤]؛ فإنَّ القُرآنَ مِن أَمرِ الغَيبِ الَّذي أُوحيَ به إلى مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه كَثيرٌ مِن الأخبارِ عن أُمورِ الغَيبِ؛ الجَنَّةِ، والنَّارِ، ونَحوِ ذلك(١).

- و﴿رَّجِيمٍ﴾ فعيلٌ بمعنَى مفعولٍ، أي: مَرجوم، والمرجومُ: المُبعَدُ الَّذي يَتباعَدُ النَّاسُ مِن شَرِّه، فإذا أقبَلَ عليهم رجَموه، فهو وصْفٌ كاشفٌ(٢) للشَّيطانِ؛ لأنَّه لا يكونُ إلَّا مُتبَرَّأً منه(٣).

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ مُعترِضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥] وقولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧]، و(الفاء) لتَفريعِ التَّوبيخِ والتَّعجيزِ على الحُججِ المُتقدِّمةِ المُثبِتةِ أنَّ القُرآنَ لا يَجوزُ أنْ يَكونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٣).

(٢) الصِّفةُ الكاشفةُ: هي الَّتي تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ لأنَّ الصِّفاتِ منها صِفةٌ مقيِّدةٌ تُخرِجُ ما سِواه، ومنها صفةٌ كاشِفةٌ تبيِّنُ حقيقةَ أمرِه، فهي خبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأن تكونَ وصفًا لازمًا مختصًّا به. والصِّفةُ إذا كان لها مفهومٌ فهي مقيِّدةٌ، وإن لم يكن لها مفهومٌ فهي كاشِفةٌ، أي: مبيِّنةٌ للحقيقةِ، مثالُ ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صفةٌ كاشفةٌ، ولا مفهومَ مخالفةٍ له، فلا يصحُّ لأحدٍ أن يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وصفٌ مطابقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لموافقتِه الواقِعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ. ومِن ذلك قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقولُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٢٩٩، ٣١٤)، ((دراسات أصولية في القرآن الكريم)) للحفناوي (ص: ٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤).

كَلامَ كاهِنٍ، وأنَّه وَحيٌ مِن اللهِ بواسِطةِ المَلَكِ[١].

- و(أَيْنَ): اسمُ استِفهامٍ عن المَكانِ، وهو استِفهامٌ إنْكاريٌّ عن مَكانِ ذَهابِهم، أي: طَريقِ ضَلالِهم[٢].

ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاستِفهامُ هنا مستَعمَلًا في التَّعجيزِ عن طَلَبِ طَريقٍ يَسلُكونه إلى مَقصدِهم مِن الطَّعنِ في القُرآنِ، والمَعنى: أنَّه قد سُدَّتْ عليْكم طُرُقُ بُهْتانِكم؛ إذِ اتَّضحَ بالحُجَّةِ الدَّامِغةِ بُطلانُ ادِّعائِكم أنَّ القُرآنَ كَلامُ مَجنونٍ، أو كَلامُ كاهِنٍ، فمَاذا تَدَّعون بعدَ ذلك[٣]؟!

- وقد أُرسِلَتْ جُملةُ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ مَثلًا، ولعلَّه مِن مُبتَكَراتِ القُرآنِ. ووُجِدَ في كَلامِ بَعضِهم: أين يذهَبُ بك؟ لِمَن كان في خَطأٍ وعَمايةٍ[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾

- قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه الجُملةُ تَتنزَّلُ مَنزِلةَ المُؤكِّدةِ لجُملةِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ [التكوير: ٢٥]؛ ولذلك جُرِّدَتْ عن العاطِفِ؛ ذلك أنَّ القَصْرَ المُستَفادَ مِن النَّفيِ والاستِثْناءِ في قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يُفيدُ قَصْرَ القُرآنِ على صِفةِ الذِّكرِ، أي: لا غَيرَ ذلك، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ[٥] قُصِدَ منه إبْطالُ أنْ يَكونَ قولَ شاعِرٍ، أو قولَ كاهِنٍ، أو قولَ مَجنونٍ، فمِن جُملةِ ما أَفادَه القَصْرُ نَفيُ أنْ يَكونَ قولَ شيطانٍ رَجيمٍ، وبذلك كان فيه تأْكيدٌ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٤، ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦٥).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

لجُملةِ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾[١].

- فإنْ قِيل: القرآنُ يَشتمِلُ على أحاديثِ الأنبياءِ والأُمَمِ، وهو أيضًا مُعجِزةٌ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكيف قُصِرَ على كَونِه ذِكرًا؟

**فالجوابُ**: أنَّ القصْرَ هنا إضافيٌّ، والقصرُ الإضافيُّ لا يُقصَدُ منه إلَّا تَخصيصُ الصِّفةِ بالمَوصوفِ بالنِّسْبةِ إلى صِفةٍ أُخْرى خاصَّةٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ القَصْرُ حَقيقيًّا[٢] مُفيدًا قَصْرَ القُرآنِ على الذِّكرِ دُونَ غَيرِ ذلك مِن الصِّفاتِ؛ فإنَّ ما اشتَمَلَ عليْه مِن القَصصِ والأخبارِ مَقصودٌ به المَوعِظةُ والعِبرةُ، وأمَّا إعْجازُه فله مَدخلٌ عَظيمٌ في التَّذْكيرِ؛ لأنَّ إعْجازَه دَليلٌ على أنَّه ليس بكَلامٍ مِن صُنْعِ البشَرِ، وإذا عُلِمَ ذلك وَقَعَ اليَقينُ بأنَّه حَقٌّ[٣].

- وقولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بَدَلٌ مِن ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ بَدَلَ بَعضٍ مِن كُلٍّ، وأُعيدَ مع البَدَلِ حرفُ الجَرِّ العامِلُ مِثله في المُبدَلِ منه لتأْكيدِ العامِلِ[٤]. وأُبدِلَ مِن (العالَمينَ) قولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾؛ لِأنَّهم المُنتَفِعون بالتَّذْكيرِ[٥].

- والخِطابُ في قولِه: ﴿مِنكُمْ﴾ للَّذين خُوطِبوا بقَولِه: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ [التكوير: ٢٦]، وإذا كان القُرآنُ ذِكرًا لهم، وهم مِن جُملةِ العالَمينَ، كان ذِكْرُ ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ مِن بَقيَّةِ العالَمينَ أيضًا بحُكْمِ قِياسِ المُساواةِ؛ فَفي الكَلامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٥، ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١١٩).

كِنايةٌ عن ذلك[١].

- قولُه: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ في مَفهومِ الصِّلةِ تَعْريضٌ بأنَّ الَّذين لم يَتذَكَّروا بالقُرآنِ ما حالَ بيْنَهم وبيْنَ التَّذكُّرِ به إلَّا أنَّهم لم يَشاؤُوا أنْ يَستَقيموا، بل رَضُوا لأنفُسِهم بالاعْوِجاجِ -أي: سُوءِ العَملِ والاعتِقادِ-؛ ليَعلَمَ السَّامِعون أنَّ دَوامَ أولئك على الضَّلالِ ليس لقُصورِ القُرآنِ عن هَديِهم، بل لأنَّهم أَبَوا أنْ يَهتَدوا به؛ إمَّا للمُكابَرةِ فقد كانوا يَقولون: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ [فصلت: ٥]، وإمَّا للإعْراضِ عن تَلقِّيه؛ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾[٢] [فصلت: ٢٦].

٨- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ تَذْييلًا[٣] أو اعْتِراضًا في آخِرِ الكَلامِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ حالًا؛ والمَقصودُ التَّكْميلُ والاحْتِراسُ[٤] في مَعنى ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾، أي: ولِمَن شاءَ له ذلك مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَينِ: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسِنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٤) الاحتِراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم: التَّكميلَ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٤٥)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان =

العالَمينَ[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ تَقدَّمَ في آخِرِ سُورةِ (الإنسانِ) قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٢٩، ٣٠]، والفَرْقُ بيْنَهما: أنَّ في هذه الآيةِ وُصِفَ اللهُ تعالَى بـ ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وهو مُفيدٌ التَّعليلَ لارْتِباطِ مَشيئةِ مَن شاءَ الاستِقامةَ مِن العالَمينَ لِمَشيئةِ اللهِ؛ ذلك لأنَّه رَبُّ العالَمينَ؛ فهو الخالِقُ فيهم دَواعيَ المَشيئةِ، وأسبابَ حُصولِها المُتَسلْسِلةَ، وهو الَّذي أرشَدَهم للاستِقامةِ على الحَقِّ، وبهذا الوَصفِ ظهَرَ مَزيدُ الاتِّصالِ بيْنَ مَشيئةِ النَّاسِ الاستِقامةَ بالقُرآنِ، وبيْنَ كَونِ القُرآنِ ذِكرًا للعالَمينَ. وأمَّا آيةُ سُورةِ (الإنسانِ) فقد ذُيِّلَتْ بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، أي: فهو بعِلمِه وحِكمتِه يَنوطُ مَشيئتَه لهم الاستِقامةَ بمَواضِعِ صَلاحِيَتِهم لها، فيُفيدُ أنَّ مَن لم يَشأْ أنْ يَتَّخِذَ إلى رَبِّه سَبيلًا قد حَرَمَه اللهُ تعالى مِن مَشيئتِه الخَيرَ بعِلمِه وحِكمتِه، كِنايةً عن شَقائِهم[٢].

= في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الانفِطارِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ الانفِطارِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ: بسُورةِ (الانفِطارِ)[١].

وسُمِّيَت أيضًا بسورةِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾: فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَرَّه أن يَنظُرَ إلى يومِ القِيامةِ كأنَّه رأيُ عَينٍ فلْيَقرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾))[٢].

وعن جابرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام مُعاذٌ فصَلَّى العِشاءَ الآخِرةَ، فطَوَّلَ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أفتَّانٌ يا مُعاذُ؟! أفتَّانٌ يا مُعاذُ؟! أينَ كُنتَ عن ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾؟))[٣].

---

(١) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ سورَةَ «الانفطارِ» في المصاحفِ ومُعْظَمِ التَّفاسيرِ؛ لقولِه في مُفتتَحِها: ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٦٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٣٣)، وأحمد (٤٨٠٦).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٣٣)، وجوَّده ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٦٤)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٩٦)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٤٢٤).

(٣) أخرجه النَّسائيُّ (٩٩٧).

صَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٩٩٧).

وقال ابنُ كثيرٍ في ((الأحكام الكبير)) (٣/ ١٨٩): (أصلُ هذا الحديثِ في صَحيحِ البُخاريِّ). والحديثُ أصلُه في الصَّحيحَينِ؛ أخرجه البخاريُّ (٦١٠٦)، ومسلمٌ (٤٦٥)، ولفظُ مسلمٍ: ((اقرَأْ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾، ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾)).

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

**مَن قَرَأها فكأنَّه يَنظُرُ إلى يومِ القيامةِ رَأْيَ عَينٍ:**

كما في حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما المتقدِّمِ.

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الانفِطارِ مَكِّيَّةٌ، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[(١)].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

إثباتُ البعثِ، وبيانُ أهوالِ يومِ القيامةِ، وتنبيهُ النَّاسِ إلى وجوبِ الاستعدادِ له[(٢)].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- وَصفُ أهوالِ يومِ القيامةِ.

٢- ذِكرُ جانبٍ مِن نِعَمِ اللهِ على خَلْقِه.

٣- بيانُ أنَّ أعمالَ الإنسانِ مُوكَلٌ بها ملائِكةٌ كِرامٌ كاتِبونَ.

٤- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ الأبرارِ، وسُوءِ عاقِبةِ الفُجَّارِ.

---

(١) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤١٨))، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٠٧).

٥- بيانُ عِظَمِ يومِ الحِسابِ وشِدَّةِ هَولِه، وتجَرُّدِ النُّفوسِ مِن كُلِّ حَولٍ فيه، وتفَرُّدِ اللهِ سُبحانَه فيه بالأمرِ.

## الآيات (١-٥)

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾: أي: انشَقَّت، وأصلُ (فطر): يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[١].

﴿ٱنتَثَرَتۡ﴾: أي: تَساقَطَت مُتفرِّقةً، ونَثْرُ الشَّيءِ: نَشْرُه وتفريقُه، وأصلُ (نثر): يدُلُّ على إلقاءِ شَيءٍ مُتفرِّقٍ[٢].

﴿فُجِّرَتۡ﴾: أي: فُتِحَ بَعضُها في بعضٍ، فصارت بحرًا واحِدًا مُمتَلِئًا، وأصلُ (فجر): يدُلُّ على تَفتُّحٍ في شَيءٍ[٣].

﴿بُعۡثِرَتۡ﴾: أي: أُثِيرت، وقُلِبَ تُرابُها، وأُخرِجَ ما فيها، وأصلُ (بعثر): مُركَّبٌ مِن: بَعَث وأُثيرَ؛ فإنَّ البَعْثرةَ تتضَمَّنُ معناهما[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٥١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٣).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٣).

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالحَديثِ عن أشراطِ السَّاعةِ، فقال تعالى: إذا السَّماءُ انشَقَّت وتَصَدَّعَت يومَ القيامةِ، وإذا الكواكِبُ تَساقَطَت وتفرَّقَت، وإذا البِحارُ فُجِّرَت واختَلَط بَعضُها ببَعضٍ، فصارت جميعُها بحرًا واحِدًا، وإذا القُبورُ أُثيرَت وقُلِبَ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ، فبُعِثُوا للحِسابِ- إذا وقَعَت تلك الأمورُ عَلِمَت كُلُّ نفْسٍ حِينَها بجميعِ أعمالِها مِن خَيرٍ وشَرٍّ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ١﴾.

أي: إذا السَّماءُ مع قُوَّتَها وشِدَّةِ إحكامِها قد انشَقَّت يومَ القيامةِ[١].

كما قال تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦ﴾ [المزمل: ١٨].

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان يَلزَمُ مِن انفِطارِها وَهْيُها، وعَدَمُ إمساكِها لِما أُثبِتَ بها؛ ليَكونَ ذلك أشَدَّ تخويفًا لِمَن تحتَها بأنَّهم يَترَقَّبونَ كُلَّ وَقتٍ سُقوطَها أو سُقوطَ طائفةٍ منها فَوقَهم، فيَكونونَ بحيثُ لا يَقِرُّ لهم قَرارٌ؛ قال[٢]:

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ٢﴾.

أي: وإذا الكواكِبُ تَساقَطَت وتفرَّقَت[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٨، ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ٣﴾.

أي: وإذا البِحارُ المتفرِّقةُ في الأرضِ قد فُجِّرَت تَفجيرًا كَثيرًا، وفُتِح بعضُها إلى بعضٍ[1].

= (٨/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

قال الماوَرْدي: (﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ﴾ فيه ثلاثةُ أقاويلَ:

أحَدُها: يَبِسَت. قاله الحسَنُ.

الثَّاني: خُلِطَت فصارت بحرًا واحدًا. وهذا معنى قَولِ ابنِ عبَّاسٍ، قال: وهو سَبعةُ أبحُرٍ، فتصيرُ بحرًا واحدًا.

الثَّالثُ: فُجِّر عَذبُها في مالِحِها: ومالِحُها في عَذْبِها. قاله قَتادةُ.

ويحتَمِلُ رابعًا: أي: فاضت). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٢٠، ٢٢١).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: فُتِح بَعضُها إلى بعضٍ، فصارت بحرًا واحِدًا مُمتَلِئًا: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، ومكِّي، وابن الجوزي، والقرطبي، والبيضاوي، والقاسمي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٤)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٠٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّالثِ -وهو قريبٌ مِن القولِ السَّابقِ- أنَّه اختلاطُ العَذبِ بالمِلْحِ الأُجاجِ، وزَوالُ ما بيْنَهما مِن البَرزخِ فتَصيرُ البِحارُ بحرًا واحدًا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والثعلبي، والبغوي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٣)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦٧).

وممَّن ذهب إلى المعنى الرابع: ابنُ عاشور، فقال: (تفجيرُ البِحارِ: انطِلاقُ مائِها مِن مُستواه، وفَيضانُه على ما حولَها مِن الأرَضِينَ كما يتفَجَّرُ ماءُ العَينِ حينَ حَفْرِها...، وبذلك التَّفجيرِ يَعُمُّ الماءُ على الأرضِ، فيَهْلِكُ ما عليها، ويختَلُّ سَطْحُها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧١، ١٧٢).

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان ما سبَق مُقتَضِيًا لغَمْرِ القُبورِ، فأوهمَ أنَّ أهلَها لا يقومونَ -كما كان العَرَبُ يَعتَقِدونَ أنَّ مَن مات فات- قال دافِعًا لذلك على نَمَطِ كلامِ القادِرينَ؛ إشارةً إلى سُهولةِ ذلك عليه[1]:

﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾﴾.

أي: وإذا القُبورُ أُثيرَت وقُلِبَ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ إلى ظَهْرِها، فبَعَثَهم اللهُ تعالى أحياءً[2].

كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [العاديات: ٩].

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت هذه الشُّروطُ كُلُّها -الَّتي جُعِلَت أشراطًا على السَّاعةِ- مُوجِبةً لعُلومٍ دقيقةٍ، وتَكشِفُ كُلُّ واحدةٍ منها عن أمورٍ عَجيبةٍ، وكانت كُلُّها دالَّةً على الانتِقالِ مِن هذه الدَّارِ إلى دارٍ أُخرى لخرابِ هذه الدَّارِ؛ ناسَبَ أن يجيبَ «إذا» بقَولِه[3]:

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾.

أي: إذا وقَعَت تلك الأمورُ عَلِمَتْ كُلُّ نفْسٍ حِينَها بجميعِ أعمالِها؛ خَيْرِها

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٠).

وشَرِّها[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٥ - ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٩٨، ٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٣).

قوله: ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ قيل: المرادُ به: ما عَمِلَتْه مِن عمَلٍ صالحٍ وقَدَّمَتْه مِن خَيرٍ. وممَّن اختار هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وهو ظاهرُ اختيارِ السَّمْعانيِّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٧٢).

وقال الواحدي: (قال ابنُ مسعودٍ: ما قدَّمَتْ مِن خيرٍ... وهو قولُ الكلبيِّ، ومجاهِدٍ، وقَتادةَ، وعَطاءٍ، والقُرَظيِّ). ((البسيط)) (٢٣/ ٢٩٢).

وقيل: المرادُ: ما قدَّمَتْ مِن عمَلٍ صالحٍ أو سَيِّئٍ، أو خيرٍ أو شرٍّ. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٩).

وقولُه: ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ قيل: أي: مِن سُنَّةٍ يُعمَلُ بها بعدَ مَوتِها مما سَنَّتْه مِن سُنَّةٍ حسَنةٍ أو سَيِّئةٍ. وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جرير، وابن أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٥، ١٧٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٤٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)).

وقال الواحديُّ: (قال ابن مسعودٍ: ... وما أخَّرَتْ مِن سُنَّةٍ استُنَّ بها بعدَه. وهو قولُ الكلبيِّ، ومجاهدٍ، وقَتادةَ، وعَطاءٍ، والقُرَظيِّ). ((البسيط)) (٢٣/ ٢٩٢).

وقيل: المرادُ: ما تَرَكَتْ وضَيَّعَت مِن خَيرٍ فلمْ تَعمَلْه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٧٢).

وقال الرازي: (الأصحُّ أنَّ المقصودَ منه الزَّجرُ عن المعصيةِ، والتَّرغيبُ في الطَّاعةِ، أي: يَعلَمُ كلُّ أحدٍ في هذا اليومِ ما قدَّمَ فلمْ يُقَصِّرْ فيه، وما أخَّر فقصَّر فيه؛ لأنَّ قولَه: ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ يَقتضي فِعلًا، وما أخَّرَتْ يَقتضي تركًا، فهذا الكلامُ يَقتضي فِعلًا وتركًا، وتقصيرًا وتوفيرًا، فإنْ كان قدَّم الكبائرَ وأخَّر العملَ الصَّالحَ فمَأْواه النَّارُ، وإن كان قدَّم العملَ الصَّالحَ وأخَّر الكبائرَ فمأْواه الجنَّةُ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٣). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ لعَلَّه نَكَّرَ؛ إشارةً إلى أنَّه ينبغي لِمَن وَهَبه اللهُ عقلًا أن يُجَوِّزَ أنَّه هو المرادُ، فيَخافَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ زَجْرٌ عن المعصيةِ، وترغيبٌ في الطَّاعةِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ دَلالةٌ على سُرعةِ الانتشارِ، كبَعْثرةِ الحَبِّ مِن الكَفِّ، كما في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾[٣] [المعارج: ٤٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ دَلالةٌ على مُؤاخَذةِ الإنسانِ بما عُمِلَ به بَعْدَه مِمَّا سَنَّه مِن هُدًى أو ضَلالةٍ، كقَولِه تعالى: ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا

---

= وقيل: المرادُ بقولِه: ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ أي: مِن سيِّئةٍ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٣).

قال الماتُريدي: (أي: تَعلَمُ الأنفُسُ ما عَمِلَت إلى آخِرِ ما انتهى إليه عَمَلُها، فلا يخفى عليها شيءٌ مِن أمْرِها.

ومنهم مَن يقولُ: ما قَدَّمَت مِن خيرٍ، وأخَّرَت مِن شَرٍّ: فستَعرِفُه في ذلك اليوم.

ومنهم مَن يقولُ: عَلِمَت ﴿مَّا قَدَّمَتْ﴾ مِنَ العَمَلِ، أي: بما عَمِلَت بنَفْسِها، ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ أي: ما سَنَّت مِنَ السُّنَّةِ، فعُمِلَ بها بَعْدَها.

وهذا الَّذي ذكروه داخِلٌ في تفسيرِ الجُملةِ الَّتي ذكَرْنا أنَّها: تَعلَمُ مِن أوَّلِ ما عَمِلَت إلى آخِرِ ما انتهى إليه عَمَلُها). ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٤٤).

وقال ابنُ عطية: (قال كثيرٌ مِن المفَسِّرين في معنى قَولِه تعالى: ﴿مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾: إنَّها عبارةٌ عن جميعِ الأعمالِ؛ لأنَّ هذا التَّقسيمَ يَعُمُّ الطَّاعاتِ المعمولةَ والمتروكةَ، وكذلك المعاصي). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٤٩).

قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣] بِناءً على أنَّ المعنَى: ﴿بِمَا قَدَّمَ﴾ مُباشِرًا له، ﴿وَأَخَّرَ﴾ مِمَّا عُمِلَ به بَعْدَه مِمَّا سَنَّه مِن هُدًى أو ضَلالٍ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ سؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ يُوهِمُ ظاهِرُها أنَّ الَّذي يَعلَمُ يومَ القيامةِ ما قَدَّم وما أخَّر: نفْسٌ واحِدةٌ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على أنَّ كُلَّ نفْسٍ تَعلَمُ ما قَدَّمت وأخَّرَت، كقَولِه تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]، وقَولِه: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ.

**الجوابُ**: أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿نَفْسٌ﴾ كُلُّ نَفسٍ، والنَّكِرةُ وإن كانت لا تَعُمُّ إلَّا في سياقِ النَّفيِ أو الشَّرطِ أو الامتِنانِ، كما تقرَّر في الأُصولِ؛ فإنَّ التَّحقيقَ أنَّها رُبَّما أفادت العُمومَ بقرينةِ السِّياقِ مِن غَيرِ نَفيٍ أو شرطٍ أو امتنانٍ، كقَولِه: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ في «التَّكوير» و«الانفطار»، وقَولِه: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقَولِه: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ [الزمر: ٥٦]، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۞ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۞ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾

- الافْتِتاحُ بـ (إذَا) افْتِتاحٌ مُشوِّقٌ لِما يَرِدُ بَعدَها مِن مُتَعلَّقِها الَّذي هو جَوابُ ما في (إذا) مِن مَعنى الشَّرطِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٦/ ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٣).
ويُنظر ما تقدَّم في سورة التَّكوير (ص: ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٠).

- وصِيغةُ الماضي المُتَكرِّرةُ في قولِه: ﴿ٱنفَطَرَتۡ﴾ وما عُطِفَ عليه، مُستعمَلةٌ في المُستَقبَلِ؛ تَشْبيهًا لتَحقيقِ وُقوعِ المُستَقبَلِ بحُصولِ الشَّيءِ في الماضي[١].

- وأيضًا الجُملُ الَّتي أُضيفَ إليها (إذا) مُفتتَحةٌ بمُسنَدٍ إليْه مُخبَرٍ عنه بمُسنَدٍ فِعليٍّ دُونَ أنْ يُؤتى بالجُملةِ الفِعليَّةِ، ودُونَ تَقديرِ أفْعالٍ مَحْذوفةٍ قبْلَ الأسْماءِ؛ لقَصْدِ الاهْتمامِ بالمُسنَدِ إليه، وتَقويةِ الخَبَرِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ؛ فإنَّ الجُمَلَ المُتعاطِفةَ المُضافةَ إلى (إذا) هُنا أقَلُّ مِن اللَّاتي في سورةِ (التَّكويرِ)؛ لأنَّ المَقامَ لم يَقتَضِ تَطْويلَ الإطْنابِ كما اقْتَضاه المَقامُ في سورةِ (التَّكْويرِ)، وإنْ كان في كِلتَيهما مُقتَضٍ للإطْنابِ لكنَّه مُتفاوِتٌ[٣].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾ بَعْثرةُ القُبورِ: حالةٌ مِن حالاتِ الانقِلابِ الأرضيِّ والخَسفِ، خُصَّتْ بالذِّكرِ مِن بيْنِ حالاتِ الأرضِ؛ لِما فيها مِن الهَوْلِ باسْتِحضارِ حالةِ الأرضِ وقد أَلْقَتْ على ظاهِرِها ما كان في باطِنِ المَقابِرِ مِن جُثَثٍ كامِلةٍ ورُفاتٍ[٤].

- وكُرِّرَتْ (إذا)؛ لتَهويلِ ما في حَيِّزِها مِن الدَّواهي[٥].

- قولُه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ هذا العِلمُ كِنايةٌ عن الحِسابِ على ما قَدَّمَتِ النُّفوسُ وأخَّرَتْ[٦]؛ فهذا وَعيدٌ بالحِسابِ على جَميعِ أعمالِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٢).

المُشرِكين، وهم المَقصودُ بالسُّورةِ، كما يُشيرُ إليه قولُه بعدَ هذا: ﴿بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]، ووَعْدٌ للمُتَّقينَ، ومُختَلَطٌ لِمَن عَمِلوا عمَلًا صالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا[١].

- وأيضًا إثْباتُ العِلمِ للنَّاسِ بما قَدَّموا وأَخَّروا عندَ حُصولِ تلك الشُّروطِ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۞ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ﴾؛ لعَدَمِ الاعتِدادِ بعِلمِهم بذلك الَّذي كان في الحياةِ الدُّنيا، فنُزِّلَ مَنزِلةَ عدَمِ العِلمِ[٢].

- و﴿نَفۡسٌ﴾ نَكِرةٌ مُرادٌ بها العُمومُ[٣].

- والمَقصودُ مِن قولِه: ﴿مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ تَعميمُ التَّوقِيفِ على جَميعِ ما عَمِلَتْه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٢، ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٣).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٣٧٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (٦-١٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غَرَّكَ﴾: أي: خدَعَك، يُقالُ: غَرَرْتُ فُلانًا: أصبتُ غِرَّتَه ونِلتُ منه ما أُريدُه، والغِرَّةُ: غفلةٌ في اليقَظةِ، ويُقالُ: غرَّه بفُلانٍ، إذا أمَّنه المحذورَ مِن جهتِه وهو غيرُ مأمونٍ[١].

﴿فَسَوَّىٰكَ﴾: أي: جعلَك سَويًّا مُتساويَ الأعضاءِ والقُوى على وَفْقِ الحكمةِ ومُقتضاها، سالِمًا، والتَّسويةُ: جعلُ الشَّيءِ سَواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا سليمًا، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعْتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ[٢].

﴿فَعَدَلَكَ﴾: أي: قَوَّم خَلْقَك، وجعَلَه مُعتَدِلًا، وأصلُ (عدل): يدُلُّ على اسْتِواءٍ[٣].

﴿رَكَّبَكَ﴾: أي: وَضَعَك، وألَّف تركيبَ أعضائِك، وأصلُ (ركب): يدُلُّ على عُلُوِّ شَيءٍ شَيئًا[٤].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٠)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٨٥).

﴿بِٱلدِّينِ﴾: أي: بالجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازَيْتُه، وأصلُ (دين): جِنسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾

﴿فِيٓ أَيِّ﴾: شِبهُ جُملةٍ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بـ﴿رَكَّبَكَ﴾. و(مَا): على هذا الوَجهِ مَزيدةٌ، وجملةُ ﴿شَآءَ﴾ في محلِّ جَرٍّ نعتٌ لـ﴿صُورَةٖ﴾، والجُملةُ كُلُّها بيانٌ لِقَولِه: ﴿فَعَدَلَكَ﴾، والتَّقديرُ: فعَدَلَك: ركَّبَك في أيِّ صُورةٍ شاءَها. وجُوِّزَ أن يكونَ الجارُّ والمجرورُ في موضِعِ الحالِ، أي: ركَّبَك كائنًا في أيِّ صُورةٍ شاءَها، وجُوِّزَ أن تكونَ ﴿مَّا﴾ شَرطيَّةً في محلِّ نَصبٍ مَفعولٌ مُطلَقٌ، والتَّقديرُ: أيَّ تركيبٍ شاء ركَّبَك، و﴿شَآءَ﴾ فِعلُ الشَّرطِ، و﴿رَكَّبَكَ﴾ جوابُه، أي: إنْ شاء تركيبَك في أيِّ صورةٍ غيرِ هذه الصُّورةِ ركَّبَك فيها، والجُملةُ الشَّرطيَّةُ كلُّها في محلِّ جَرٍّ نعتٌ لـ﴿صُورَةٖ﴾، والعائِدُ محذوفٌ، وتقديرُه (فيها أو عليها)، ويكونُ ﴿فِيٓ أَيِّ﴾ عندَئذٍ مُتعَلِّقًا بـ(عَدَلَك)، أي: عَدَلَك في صُورةٍ أيِّ صورةٍ، ثمَّ استُؤنِفَ الشَّرطُ بَعْدَه، ولم يُجَوِّزوا على هذا الوَجهِ تعَلُّقَ ﴿فِيٓ أَيِّ﴾ بـ﴿رَكَّبَكَ﴾؛ لأنَّ مَعمولَ ما في حَيِّزِ الشَّرطِ لا يجوزُ تقديمُه عليه[2].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزَّجَّاج (٥/ ٢٩٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧١٠-٧١٢)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٣٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٦٩).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى معاتبًا الإنسانَ المفرِّطَ في حقِّ ربِّه: يا أيُّها الإنسانُ ما الَّذي خَدَعَك وسوَّلَ لك التَّجَرُّؤَ على الكُفْرِ برَبِّك الكريمِ وعِصيانِه؟! وهو الَّذي أوجَدَك فجَعَلك سَوِيًّا مُعتَدِلَ الخِلْقةِ، وركَّبك في أيِّ صُّورةٍ شاء أن تكونَ عليها!

ثمَّ يبيِّنُ اللهُ تعالى سببَ الغُرورِ والغفلةِ، فيقولُ: كلَّا، ليس هناك شيءٌ يَقتَضي غُرورَكم باللهِ تعالى، ولكِنَّ تكذيبَكم بالبَعثِ والحِسابِ هو الَّذي حَمَلكم على الكُفْرِ والفُسوقِ والعِصيانِ.

ثمَّ يُقرِّرُ سُبحانَه أنَّ الملائكةَ تَكتُبُ ما يَعمَلُه كلُّ إنسانٍ، فيقولُ: وإنَّ عليكم -أيُّها النَّاسُ- ملائِكةً حافِظينَ كِرامًا يُراقِبونَكم، ويُسَجِّلونَ أعمالَكم، ويَعلَمونَ ما تَفعَلونَ مِن قَولٍ أو فِعلٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ سُبحانَه في الآيةِ الأُولى عن وُقوعِ الحَشرِ والنَّشرِ؛ أتْبَعَه ما يدُلُّ عَقلًا على إمكانِه أو على وُقوعِه[1].

وأيضًا لَمَّا كان الإنسانُ إذا اعتَقَد البَعثَ قد يقولُ تهاوُنًا ببَعضِ المعاصي: المرجِعُ إلى كريمٍ، ولا يَفعَلُ بي إلَّا خيرًا؛ أنتج قَولَه مُنكِرًا سُبحانَه وتعالى على مَن يقولُ هذا اغترارًا بخَدْعِ الشَّيطانِ[2]:

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠١).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ٦﴾.

أي: يا أيُّها الإنسانُ ما الَّذي خَدَعَك وسوَّلَ لك التَّجَرُّؤَ على الكُفْرِ برَبِّك أو مَعصيتِه، وهو الكريمُ ذو الكَمالِ والجَمالِ، الَّذي ينبغي أن يُعبَدَ ويُطاعَ شُكرًا لإحسانِه، ومُقابَلةً لكَرَمِه[1]؟!

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَصَف تعالى نفْسَه بالكَرَمِ؛ ذكَرَ هذه الأُمورَ الثَّلاثةَ كالدَّلالةِ على تحَقُّقِ ذلك الكَرَمِ[2].

﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ٧﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ بتخفيفِ الدَّالِ، قيل: بمعنى: صَرَفَك اللهُ إلى أيِّ صُورةٍ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١، ٣٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠١-٣٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٩).

قيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: الكافِرُ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والواحدي، والقرطبي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٧٩).

وقيل: المرادُ: جِنسُ بني آدَمَ، فيَدخُلُ في ذلك الكُفَّارُ وعُصاةُ المؤمنينَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الرازيُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٥). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

شاءَها. وقيل: المعنى: صَرَفَك عن خِلْقةِ غَيْرِك إلى خِلْقةٍ حَسَنةٍ مُفارِقةٍ لسائِرِ الخَلْقِ. وقيل: معنى قِراءةِ التَّخفيفِ كقراءةِ التَّشديدِ، أي: عَدَلَ بعضَ أعضائِك ببعضٍ حتَّى اعتدَلَت[(١)].

٢- قِراءةُ: ﴿فَعَدَّلَكَ﴾ بتشديدِ الدَّالِ، أي: جعَلَك مُعتَدِلَ الخِلْقةِ، مُتناسِبَ الأعضاءِ[(٢)].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾.

أي: الَّذي أوجَدَك فجَعَل خَلْقَك سَوِيًّا سَلِيمًا مُتقَنًا، فصِرْتَ مُعتَدِلَ الخِلْقةِ، مُتناسِبَ الأعضاءِ[(٣)].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

---

(١) قرأ بها عاصِمٌ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخَلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظَرُ لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٢٦، ١٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٧٨)، ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٤)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٢٦، ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥، ١٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٩).

﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ٨﴾.

أي: ركَّبك اللهُ -أيُّها الإنسانُ- في أيِّ صُورةٍ شاء أن تكونَ عليها[1].

كما قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٤].

﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن سُبحانَه بالدَّلائِلِ العَقليَّةِ صِحَّةَ القَولِ بالبَعثِ والنُّشورِ على الجُملةِ؛ فَرَّع عليها شَرْحَ تفاصيلِ الأحوالِ المتعَلِّقةِ بذلك[2].

﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ٩﴾.

أي: ارتَدِعوا وانزَجِروا عن الكُفْرِ برَبِّكم ومَعْصيتِه، فالواجِبُ في حَقِّ مَن خَلَقَكم فسَوَّاكم وعَدَلَكم وصَوَّرَكم: طاعتُه وشُكْرُه؛ فلا عُذْرَ لكم في تَرْكِ ذلك، وإنَّما الَّذي يَحمِلُكم على تَرْكِه هو تكذيبُكم باليومِ الآخِرِ الَّذي يُحاسَبُ فيه النَّاسُ، ويُجازَونَ على أعمالِهم[3].

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠﴾.

أي: وإنَّ عليكم -أيُّها النَّاسُ- ملائِكةً حافِظينَ يُراقِبونَكم، ولا يُضَيِّعونَ شَيئًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٨٩، ٩٠).

قال البِقاعي: (﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: ألَّف تركيبَ أعضائِك، وجَمَعَ الرُّوحَ إلى البَدَنِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٨، ١٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٠).

مِن أعمالِكم[١].

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ١١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أثبَتَ لهم الحِفظَ، نَزَّهَهم عن الزِّيادةِ والنَّقْصِ، فقال[٢]:

﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ ١١﴾.

أي: هم ذَوُو كَمالٍ وَجمالٍ في صِفاتِهم الخِلْقِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ، لا يَظلِمونَكم، ويَكتُبونَ جميعَ أعمالِكم[٣].

كما قال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۞ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ١٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أفهَمَ الاستعلاءُ والتَّعبيرُ بالوَصْفِ -في قَولِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾- إحاطةَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٠).
ممَّن اختار أنَّ معنى: (حَافِظِينَ): يَحفَظونَ أعمالَ النَّاسِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، وابن عطية، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٠).

الاطِّلاعِ على ما يَبرُزُ مِنَ الأعمالِ؛ صَرَّحَ به فقال[١]:

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: يَعلَمُ أولئك الملائكةُ المُوَكَّلونَ بكِتابةِ أعمالِكم كُلَّ ما تَفعَلونَه؛ مِن قَولٍ أو فِعلٍ، خيرٍ أو شَرٍّ، ظاهِرٍ أو باطِنٍ[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾، يَعني: أيُّها الغافِلُ، وَراءَك هذا الخَطْبُ الجَسيمُ، والخَطَرُ العَظيمُ، وأنت قد اغتَرَرْتَ بما تَكرَّمَ عليْك رَبُّك، حيثُ خَلَقَك فسَوَّاك فعَدَلَك، في أيِّ صُورةٍ ما شاء رَكَّبَك، فاشتَغَلْتَ بذلك عن التَّزوُّدِ لدارِ القَرارِ، وأَخْلَدتَ إلى دارِ الغُرورِ.

ولَمَّا كان مُؤدَّى غَفلةِ الإنسانِ الاغْترارَ إلى الذُّهولِ عن المُستقَرِّ الأَصليِّ، نَزَّلَه مَنزِلةَ التَّكْذيبِ بيَومِ الدِّينِ، حتَّى أضرَبَ عنه بقولِه: ﴿كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾، وهذا كما تَرى مِن حالِ المُتَمادي في أُمورِ الدُّنيا مِن المُتَسمَّينَ بالإسلامِ، إذا سَمِعَ شَيئًا مِن أَمرِ الآخِرةِ تَقَبَّضَ واشْمَأزَّ؛ لِغايةِ انهِماكِه في لَذَّاتِ العاجِلةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٩)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (٢/ ٥٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٠).

قال ابنُ عثيمين: (﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ إمَّا بالمشاهَدةِ إنْ كان فِعلًا، وإمَّا بالسَّماعِ إن كان قولًا، بل إنَّ عَمَلَ القَلبِ يُطلِعُهم اللهُ عليه فيَكتُبونَه، كما قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «مَن هَمَّ بالحَسَنةِ فلم يَعمَلْها كُتِبَت حسَنةً، ومَن هَمَّ بالسَّيِّئةِ ولم يَعمَلْها كُتِبَت حَسَنةً كامِلةً» [البخاريُّ «٦٤٩١»، ومسلم «١٣١»]). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٠). ويُنظر ما يأتي في الفوائدِ (ص: ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٥). =

وهذا على أنَّ قولَه: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ -هنا- يَشملُ جميعَ العُصاةِ.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۞ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ أنَّه قد أقام اللهُ عليكم ملائِكةً كِرامًا يَكتُبونَ أقوالَكم وأفعالَكم، ويَعلَمونَ أفعالَكم، ودَخَل في هذا أفعالُ القُلوبِ وأفعالُ الجوارحِ، فاللَّائِقُ بكم أن تُكرِموهم وتُجِلُّوهم وتحتَرِموهم[1]، فعلى المسلِمِ إذا خلا بالأمرِ وسَوَّل له الشَّيطانُ أن يَفعَلَ فاحِشةً لأنَّ النَّاسَ لا يَرَونَه، وأنَّه لا يَطَّلِعُ عليه أحدٌ، كالَّذي يخلو بامرأةٍ في محَلٍّ مقفولٍ، يأمَنُ عُيونَ النَّاسِ فيه، فيُسوِّلُ له الشَّيطانُ الرِّيبةَ معها- عليه أن يَنظُرَ أنَّ اللهَ رَقيبٌ عليه، وأنَّ الملائكةَ الكِرامَ معه ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]، وعلى الشَّخصِ أن يَعبُدَ اللهَ كأنَّه يراه، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنَّه يراك[2].

٣- يُنتَزَعُ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۞ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ أنَّ هذه الصِّفاتِ الأربَعَ هي عِمادُ الصِّفاتِ المشروطةِ في كُلِّ مَن يقومُ بعَمَلٍ للأمَّةِ في الإسلامِ مِنَ الوُلاةِ وغَيرِهم؛ فإنَّهم حافِظونَ لمصالحِ ما استُحفِظوا عليه، وأوَّلُ الحِفظِ: الأمانةُ وعَدَمُ التَّفريطِ، ولا بُدَّ فيهم مِن الكَرَمِ: وهو زَكاءُ الفِطرةِ، أي: طَهارةُ النَّفْسِ، ومِنَ الضَّبطِ فيما يَجري على يديه بحيثُ لا تُضَيَّعُ المصالِحُ العامَّةُ ولا الخاصَّةُ، بأن يكونَ ما يُصدِرُه مكتوبًا أو كالمكتوبِ، مضبوطًا لا يُستطاعُ تَغييرُه، ويمكِنُ لكُلِّ مَن يقومُ بذلك العَمَلِ بعدَ القائِمِ به أو في مَغيبِه أن

---

= قال ابنُ كثير: (قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ هذا تهديدٌ، لا كما يتوهَّمُه بعضُ النَّاسِ مِن أنَّه إرشادٌ إلى الجوابِ؛ حيثُ قال: ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ حتَّى يقولَ قائلُهم: غرَّه كرمُه. بل المعنَى في هذه الآيةِ: ما غرَّك يا ابنَ آدمَ بربِّك الكريم -أي: العظيمِ- حتَّى أقدمْتَ على معصيتِه، وقابلْتَه بما لا يَليقُ؟). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٤٨٤).

يَعرِفَ ماذا أُجرِيَ فيه مِن الأعمالِ، وهذا أصلٌ عَظيمٌ في وَضعِ الملفَّاتِ للنَّوازِلِ والتَّراتيبِ، ومنه نشَأَتْ دواوينُ القُضاةِ، ودفاترُ الشُّهودِ، والخِطابُ على الرُّسومِ، وإخراجُ نُسَخِ الأحكامِ والأحباسِ وعُقودِ النِّكاحِ؛ ومِن إحاطةِ العِلمِ بما يَتعَلَّقُ بالأحوالِ الَّتي تُسنَدُ إلى المؤتَمَنِ عليها بحيثُ لا يستطيعُ أحدٌ مِنَ المخالِطينَ لوَظيفةٍ أن يُمَوِّهَ عليه شيئًا، أو أن يُلَبِّسَ عليه حقيقةً، بحيث يَنتفي عنه الغَلَطُ والخطَأُ في تمييزِ الأُمورِ بأقصى ما يمكِنُ، ويختَلِفُ العِلمُ المطلوبُ باختِلافِ الأعمالِ، فيُقَدَّمُ في كُلِّ ولايةٍ مَن هو أعلَمُ بما تقتضيه وِلايتُه مِن الأعمالِ، وما تتوَقَّفُ عليه مِن المواهِبِ والدِّرايةِ؛ فليس ما يُشتَرَطُ في القاضي يُشتَرَطُ في أميرِ الجَيشِ مَثَلًا، وبمِقْدارِ التَّفاوُتِ في الخِصالِ الَّتي تقتَضيها إحدى الوِلاياتِ يكونُ ترجيحُ مَن تُسنَدُ إليه الوِلايةُ على غيرِه؛ حِرصًا على حِفظِ مَصالحِ الأُمَّةِ، فيُقَدَّمُ في كُلِّ وِلايةٍ مَن هو أقوى كَفاءةً لإتقانِ أعمالِها، وأشَدُّ اضْطِلاعًا بممارستِها[1].

فالآيةُ كأنَّها توجيهٌ لِما ينبغي لوُلاةِ الأُمورِ مُراعاتُه في استِكتابِ الكُتَّابِ والأُمَناءِ؛ ولذا قالوا: على القاضي أن يتخَيَّرَ كاتِبًا أمينًا، حَسَنَ الخَطِّ، فاهِمًا[2].

٤- لا ألأَمَ ممَّن لا يَستَحي مِن الكريمِ العَظيمِ القَدْرِ، ولا يُجِلُّه ولا يُوَقِّرُه، وقد نَبَّه سُبحانَه على لزومِ الاستحياءِ ممَّن لا يُفارِقُنا مِن الملائكةِ وإكرامِهم بقَولِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۞ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۞ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾، أي: استَحْيُوا مِن هؤلاءِ الحافِظينَ الكرامِ، وأكرِموهم وأَجِلُّوهم أنْ يَرَوْا منكم ما تَستحْيُونَ أنْ يَراكم عليه مَن هو مِثْلُكم، والملائكةُ تتأذَّى ممَّا يتأذَّى منه بنو آدمَ، وإذا كان ابنُ آدم يتأذَّى ممَّن يَفْجُرُ ويَعْصِي بيْن يَدَيه، وإنْ كان يَعمَلُ مِثلَ عَمَلِه، فما الظَّنُّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٠، ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥١).

بأذَى الملائكةِ الكرامِ الكاتبينَ؟! واللهُ المستعانُ[(١)].

٥- عن عطاءِ بنِ أبي رباحٍ: (إنَّ مَن كان قبلَكم كانوا يكرَهونَ فُضولَ الكلامِ، وكانوا يعدُّونَ فضولَ الكلامِ ما عدا كتابَ الله تعالى أنْ يُقرأَ، أو أمرًا بمعروفٍ أو نهيًا عن منكرٍ، أو تنطِقَ في حاجتِك في معيشتِك التي لا بدَّ لك منها، أتُنكِرونَ ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾، ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٧، ١٨]؟! أمَا يَسْتحي أحدُكم لو نُشِرتْ عليه صحيفتُه التي أملاها صدرَ نهارِه أكثرَ ما فيها ليس مِن أمرِ دينِه ولا دُنياه؟!)[(٢)].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ سؤالٌ: أنَّ بِناءَ هذا الاستدلالِ على أنَّه تعالى حكيمٌ؛ ولذلك قال في سورةِ (التِّينِ) بعدَ هذا الاستِدلالِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨]، فلِمَ لَمْ يَقُلْ في هذه السُّورةِ: «ما غَرَّك بربِّك الحكيمِ»؟

**الجوابُ**: أنَّ الكريمَ يَجبُ أن يكونَ حَكيمًا؛ لأنَّ إيصالَ النِّعمةِ إلى الغَيرِ لو لم يكُنْ مبنيًّا على داعيةِ الحِكمةِ لَكان ذلك تبذيرًا لا كَرَمًا، أمَّا إذا كان مَبنيًّا على داعيةِ الحِكمةِ فحينَئذٍ يُسَمَّى كَرَمًا[(٣)].

٢- قَولُه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ إنْ قيلَ: ما مُناسَبةُ وَصْفِه بالكريمِ هنا للتَّوبيخِ على الغُرورِ؟

**فالجوابُ**: أنَّ الكريمَ يَنبغي أن يُعبَدَ ويُطاعَ؛ شُكرًا لإحسانِه، ومُقابلةً لكَرَمِه،

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٠٨).

(٢) أخرجه أبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٣/ ٣١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٤).

ومَن لم يفعَلْ ذلك فقد كَفَر النِّعْمةَ، وأضاع الشُّكرَ الواجِبَ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ سؤالٌ: أنَّ كَونَه سُبحانَه كريمًا يَقتضي أن يغتَرَّ الإنسانُ بكَرَمِه؛ فكيف جعَلَه هاهنا مانعًا مِن الاغترارِ به؟!

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**أحدُها**: أنَّ معنى الآيةِ: أنَّك لَمَّا كنتَ ترى حِلْمَ اللهِ على خَلْقِه ظَنَنْتَ أنَّ ذلك لأنَّه لا حِسابَ، ولا دارَ إلَّا هذه الدارُ، فما الَّذي دعاك إلى هذا الاغترارِ، وجَرَّأك على إنكارِ الحَشرِ والنَّشرِ؟! فإنَّ رَبَّك كريمٌ، فهو لكَرَمِه لا يُعاجِلُ بالعُقوبةِ؛ بَسطًا في مُدَّةِ التَّوبةِ، وتأخيرًا للجزاءِ إلى أن يَجمَعَ النَّاسَ في الدَّارِ الَّتي جعَلَها لهم للجَزاءِ. فالحاصِلُ أنَّ تَرْكَ المعاجَلةِ بالعُقوبةِ مِن أجْلِ الكَرَمِ، وذلك لا يَقتضي الاغترارَ بأنَّه لا دارَ بعْدَ هذه الدَّارِ.

**ثانيها**: أنَّ كَرَمَه لَمَّا بلغ إلى حيثُ لا يَمنَعُ مِن العاصي موائِدَ لُطْفِه، فبأَنْ ينتَقِمَ للمَظلومِ مِنَ الظَّالمِ كان أَوْلى، فإذَنْ كَونُه كريمًا يَقتضي الخَوفَ الشَّديدَ مِن هذا الاعتِبارِ، وتَرْكَ الجَراءةِ والاغترارِ.

**ثالِثُها**: أنَّ كَثرةَ الكرَمِ تُوجِبُ الجِدَّ والاجتِهادَ في الخِدْمةِ، والاستِحياءَ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٥٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (أتَى باسمِه ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾؛ ليُنبِّهَ على أنَّه لا ينبغي أنْ يُقابَلَ الكريمُ بالأفعالِ القبيحةِ، وأعمالِ السوءِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٢).

وقال ابنُ القيِّم: (قد يقولُ بعضُهم: إنَّه لقَّن المغترَّ حُجَّتَه، وهذا جهلٌ قبيحٌ، وإنَّما غرَّه بربِّه الغَرورُ، وهو الشَّيطانُ، ونفسُه الأمَّارةُ بالسُّوءِ وجهلُه وهواه، وأتَى سبحانَه بلفظِ ﴿ٱلۡكَرِيمِ﴾ وهو السيدُ العظيمُ المطاعُ، الذي لا ينبغي الاغترارُ به، ولا إهمالُ حقِّه، فوضَع هذا المغترُّ الغرورَ في غيرِ موضعِه، واغترَّ بمَن لا ينبغي الاغترارُ به). ((الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي)) (ص: ٢٤).

الاغترارِ والتَّواني[١].

٤- قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ على القولِ بأنَّ ﴿كَلَّا﴾ إِبْطَالٌ لِوُجُودِ مَا يَغُرُّ الإنسانَ أنْ يُشْرِكَ باللَّهِ فالآيةُ بَيانٌ لِما جَرَّأهم على الإشراكِ، وأنَّه ليس غُرورًا؛ إذ لا شُبهةَ لهم في الإشراكِ حتَّى تكونَ الشُّبهةُ كالغُرورِ، ولكِنَّهم أصَرُّوا على الإشراكِ؛ لأنَّهم حَسِبوا أنفُسَهم في مأمَنٍ مِن تَبِعَتِه، فاختاروا الاستمرارَ عليه لأنَّه هوى أنفُسِهم، ولم يعبَؤوا بأنَّه باطِلٌ صُراحٌ، فهم يُكَذِّبونَ بالجَزاءِ؛ فذلك سَبَبُ تصميمِ جَميعِهم على الشِّركِ مع تفاوُتِ مَداركِهم الَّتي لا يَخفى على بَعْضِها بُطلانُ كَونِ الحِجارةِ آلهةً، ألَا ترى أنَّهم ما كانوا يَرَونَ العَذابَ إلَّا عذابَ الدُّنيا؟! وعلى هذا الوَجهِ يكونُ فيه إشارةٌ إلى أنَّ إنكارَ البَعثِ هو جِماعُ الإجرامِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في أنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ وَكَّلَ بنا كِرامًا كاتِبينَ، يَعلَمونَ ما نَفْعَلُ، مع أنَّ اللهَ تعالى يَعلَمُ كُلَّ شَيءٍ؟

**الجوابُ**: الحِكمةُ مِن ذلك بيانُ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى نَظَّمَ الأشياءَ وقَدَّرَها، وأَحْكَمَها إحكامًا مُتقَنًا، حتَّى إنَّه سُبحانَه وتعالى جَعَلَ على أفعالِ بني آدمَ وأقوالِهم كِرامًا كاتِبينَ مُوَكَّلِينَ بهم يَكتُبونَ ما يَفعَلونَ، مع أنَّه سُبحانَه وتعالى عالِمٌ بما يَفعَلونَ قبْلَ أنْ يَفعَلوه، ولكِنْ كلُّ هذا مِن أجْلِ بيانِ كَمالِ عِنايةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ بالإنسانِ، وكمالِ حِفْظِه تبارك وتعالى، وأنَّ هذا الكونَ مُنَظَّمٌ أحسَنَ نِظامٍ، ومُحْكَمٌ أحسنَ إحكامٍ، واللهُ عَليمٌ حَكيمٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١/ ١٧٩).

٦- قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أنَّ وَصْفَ اللهِ إيَّاهم بهذه الصِّفاتِ يدُلُّ على أنَّه تعالى أثنى عليهم، وعَظَّم شَأْنَهم، وفي تَعظيمِ الكَتَبةِ بالثَّناءِ عليْهم تَعظيمٌ لأَمرِ الجَزاءِ، وأنَّه عندَ اللهِ مِن جَلائلِ الأُمورِ، ولولا ذلك لَما وَكَّلَ بضَبطِ ما يُحاسِبُ عليه ويُجازي به المَلائكةَ الكِرامَ، الحَفَظةَ الكَتَبةَ[1].

٧- ثَبَت عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّ مَن هَمَّ بالحَسَنةِ فلمْ يَعمَلْها كُتِبَت حَسَنةً، ومَن هَمَّ بالسَّيِّئةِ فلم يَعمَلْها كُتِبَت حَسَنةً[2]، والمعروفُ أنَّ الَّذي يَكتُبُ هم الملائِكةُ؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وعلى هذا فيكونُ الملائكةُ عندَهم اطِّلاعٌ على ما في القَلبِ، ولا غرابةَ في ذلك؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجَلَّ يقولُ في كتابِه الكريمِ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، فهو سُبحانَه عالِمٌ بذلك، ويجوزُ أنْ يُطْلِعَ اللهُ هؤلاء الملائكةَ على ما عَلِمَه مِن حالِ الشَّخصِ، ويكونُ عِلْمُهم بذلك بواسطةٍ مِن عِلْمِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، ويجوزُ أنْ يَعلَموا ذلك بما يَحصُلُ للقلبِ مِن حركةٍ؛ لأنَّ الهَمَّ حركةُ القَلبِ، فهو يَهُمُّ بالشَّيءِ أي: يتحَرَّكُ، فيَعلَمونَ ما يَحصُلُ بحركةِ القلبِ، وإذا كان الشَّيطانُ يجري مِن ابنِ آدمَ مجرى الدَّمِ، ويَصِلُ إلى شَغَافِ قلْبِه؛ فلا غَرْوَ أنْ يَعْلَمَ الملائِكةُ بما يَحْدُثُ للإنسانِ في قلْبِه[3].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أنَّهم يَعلَمونَ تلك الأفعالَ حتَّى

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٦٤٩١)، ومسلمٌ (١٣١) مطوَّلًا من حديث عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٤٢٧).

يُمكِنَهم أن يَكتُبوها، وهذا تنبيهٌ على أنَّ الإنسانَ لا يجوزُ له الشَّهادةُ إلَّا بعْدَ العِلْمِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ قال الحُسَينُ بنُ الفَضلِ: (حيثُ قال: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ولم يَقُلْ: «يَكْتُبونَ» دَلَّ على أنَّه لا يُكتَبُ الجميعُ، فيَخرجُ عنه السَّهوُ والخَطَأُ، وما لا تَبِعةَ فيه)[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾

- قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ استِئْنافٌ ابتِدائيٌّ؛ لأنَّ ما قبْلَه بمَنزِلةِ المُقدِّمةِ له؛ لتَهيئةِ السَّامِعِ لتَلقِّي هذه المَوعِظةِ؛ لأنَّ ما سَبَقَه مِن التَّهويلِ والإنْذارِ يُهيِّئُ النَّفْسَ لقَبولِ المَوعِظةِ؛ إذ المَوعِظةُ تَكونُ أشَدَّ تَغلْغُلًا في القَلبِ حينَئذٍ؛ لِما يَشعُرُ به السَّامعُ مِن انكِسارِ نفْسِه، ورِقَّةِ قَلْبِه، فيَزولُ عنه طُغيانُ المُكابَرةِ والعِنادِ، فخَطَرَ في النُّفوسِ تَرقُّبُ شَيءٍ بعْدَ ذلك[٣].

- والنِّداءُ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾؛ للتَّنبيهِ تَنبيهًا يُشعِرُ بالاهتِمامِ بالكَلامِ والاستِدعاءِ لسَماعِه، فليس النِّداءُ مُرادًا به طَلَبُ إقْبالٍ، ولا هو موَجَّهٌ لشَخصٍ مُعيَّنٍ أو جَماعةٍ مُعيَّنةٍ، بل مِثلُه يَجعَلُه المُتكلِّمُ مُوجَّهًا لكُلِّ مَن يَسمَعُه بقَصْدٍ أو بغَيرِ قَصْدٍ[٤].

- وتعريفُ (الإنسانِ) في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ قيل:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

هو تَعريفُ الجِنسِ، يُرادُ به العُمومُ، وهذا العُمومُ مُرادٌ به الَّذين أنْكَروا البَعثَ؛ بدَلالةِ وُقوعِه عَقِبَ الإنذارِ بحُصولِ البَعثِ، ويدُلُّ على ذلك قولُه بعْدَه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]؛ فالمَعنى: يا أيُّها الإنسانُ الَّذي أنكَرَ البَعثَ، ولا يَكونُ مُنكِرُ البَعثِ إلَّا مُشرِكًا؛ لأنَّ إنْكارَ البَعثِ والشِّركِ مُتلازِمانِ يَومَئذٍ، فهو مِن العامِّ المُرادِ به الخُصوصُ بالقَرينةِ، أو مِن الاستِغراقِ العُرفيِّ؛ لأنَّ جُمهورَ المُخاطَبينَ في ابتِداءِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ هم المُشرِكون(١).

وقيل: المقصودُ بالإنسانِ العُمومُ؛ وذلك أنَّ قولَه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ إلى قولِه: ﴿يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ﴾ كالاعتِراضِ بيْنَ قَرينتَي الجَمْعِ والتَّقسيمِ؛ فإنَّ قولَه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ﴾ عامٌّ اشتَملَ على الفُجَّارِ والأبْرارِ، وقولَه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ * وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ تَقسيمٌ تَضمَّنَ مَعنى التَّفريقِ(٢)؛ فإنَّه تعالى لَمَّا بيَّنَ أحوالَ القيامةِ بانفِطارِ السَّماءِ، وانتِثارِ الكَواكِبِ، وانفِجارِ الأبحُرِ، والبَعثِ عن القُبورِ، ثمَّ اطِّلاعِ كُلِّ نفْسٍ بَرِّها وفاجِرِها على عمَلِها، خَيرِها وشَرِّها؛ نَبَّهَ جِنسَ الإنسانِ عن رَقدةِ الغَفلةِ وسِنَةِ الجَهالةِ بقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ﴾(٣).

- وإيثارُ تَعريفِ اللهِ بوَصْفِ (رَبِّك) دُون ذِكرِ اسمِ الجَلالةِ؛ لِما في مَعنى الرَّبِّ مِن المِلْكِ والإنشاءِ والرِّفْقِ؛ ففيه تَذْكيرٌ للإنسانِ بمُوجِباتِ استِحقاقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٣، ١٧٤).

(٢) الجمْعُ والتَّقسيمُ والتَّفريقُ: أنْ يُجمعَ بيْنَ مُتعدِّدٍ في حُكمٍ، ثمَّ يُفرَّقَ -أي: يُوقعَ التَّبايُنُ بيْنَها-، ثمَّ يُضافَ لكلِّ واحدٍ ما يُناسِبُه؛ كقولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِ لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [هود: ١٠٥] الآياتِ؛ فالجمعُ في قولِه: ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفۡسٌ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾؛ لأنَّها مُتعدِّدةٌ معنًى؛ إذِ النَّكرةُ في سياقِ النَّفْيِ تَعُمُّ. والتَّفريقُ في قولِه: ﴿فَمِنۡهُمۡ شَقِيّٞ وَسَعِيدٞ﴾ [هود: ١٠٥]. والتَّقسيمُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ﴾ [هود: ١٠٦] ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ﴾ [هود: ١٠٨]. يُنظر: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣١٥)، ((حاشية الدسوقي على مختصر المعاني)) (٤/ ٧١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٥).

الرَّبِّ طاعةَ مَربوبِه؛ فهو تَعريضٌ بالتَّوبيخِ[١].

- وإجراءُ وصْفِ الكريمِ دونَ غيرِه مِن صِفاتِ اللهِ؛ للتَّذْكيرِ بنِعمتِه على النَّاسِ ولُطفِه بهم؛ فإنَّ الكَريمَ حَقيقٌ بالشُّكرِ والطَّاعةِ، وأيضًا فذِكْرُ الكريمِ والتَّعرُّضُ لعُنوانِ كَرَمِه تعالَى؛ للمُبالَغةِ في المنعِ عنِ الاغترارِ؛ فإنَّ مَحْضَ الكرَمِ لا يَقتضي إهمالَ الظَّالمِ، وتسويةَ المُوالي والمُعادِي، والمُطيعِ والعاصي؛ فهو للإيذانِ بأنَّه ليس ممَّا يَصلُحُ أنْ يَكونَ مَدارًا لاغترارِه؛ يُغْويه الشَّيطانُ ويَقولُ له: افعَلْ ما شِئتَ؛ فإنَّ رَبَّك كَريمٌ، قد تَفضَّلَ عليْك في الدُّنيا، وسيَفعَلُ مِثْلَه في الآخِرةِ، ولا يُعذِّبُ أحدًا ولا يُعاجِلُ بالعقوبةِ؛ فإنَّه قِياسٌ عَقيمٌ، وتَمنيةٌ باطِلةٌ، بل هو ممَّا يُوجِبُ المبالَغةَ في الإقْبالِ على الإيمانِ والطَّاعةِ، والاجتِنابِ عن الكُفرِ والعِصيانِ، كأنَّه قيلَ: ما حَمَلَك على عِصيانِ رَبِّك المَوصوفِ بالصِّفاتِ الزَّاجِرةِ عنه الدَّاعِيةِ إلى خِلافِه؟! فهو تَعْييرٌ وتَوبيخٌ، وليس بإطْماعٍ؛ فالدَّلالةُ على كَثرةِ كرَمِه تَستدعِي الجِدَّ في طاعتِه، لا الانهماكَ في عِصيانِه اغترارًا بكَرمِه[٢].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ صِفةٌ ثانيةٌ مُقرِّرةٌ للرُّبوبيَّةِ، مُبيِّنةٌ للكَرَمِ، مُنبِّهةٌ على أنَّ مَن قَدَرَ على ذلك بَدْءًا قَدَرَ عليه إعادةً[٣].

- والوَصفُ الثَّالثُ الَّذي تَضمَّنَتْه الصِّلةُ ﴿فَعَدَلَكَ * فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾ جامِعٌ لكَثيرٍ ممَّا يُؤذِنُ به الوَصْفانِ الأوَّلانِ ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ﴾؛ فإنَّ الخَلْقَ والتَّسويةَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٣، ٣٢٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥). ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٣٨٥-٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١).

والتَّعديلَ وتَحسينَ الصُّورةِ مِن الرِّفْقِ بالمَخلوقِ، وهي نِعَمٌ عليه، وجَميعُ ذلك تَعريضٌ بالتَّوبيخِ على كُفرانِ نِعمتِه بعِبادةِ غَيرِه[١].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ فيه تَعدادُ الصِّلاتِ وإنْ كان بَعضُها قد يُغْني عن ذِكرِ بعضٍ؛ فإنَّ التَّسويةَ حالةٌ مِن حالاتِ الخَلْقِ، وقد يُغْني ذِكرُها عن ذِكرِ الخَلْقِ، كقولِه: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، ولكنْ قُصِدَ إظْهارُ مَراتبِ النِّعمةِ، وهذا مِن الإطْنابِ المَقصودِ به التَّذْكيرُ بكُلِّ صِلةٍ، والتَّوقيفُ عليْها بخُصوصِها، ومِن مُقتَضياتِ الإطْنابِ مَقامُ التَّوبيخِ[٢].

- وفُرِّعَ فِعلُ (سَوَّاكَ) على ﴿خَلَقَكَ﴾، وفِعلُ (عَدَلَكَ) على (سَوَّاكَ) تَفْريعًا في الذِّكرِ؛ نَظَرًا إلى كَونِ مَعانيها مُترتِّبةً في اعتِبارِ المُعتبِرِ، وإنْ كان جَميعًا حاصِلًا في وَقتٍ واحِدٍ؛ إذ هي أطْوارُ التَّكْوينِ مِن حِينِ كَونِه مُضْغةً إلى تَمامِ خَلْقِه، فكان للفاءِ في عَطفِها أحسَنُ وَقْعٍ[٣].

- قولُه: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ قُرِئَ بتَشْديدِ الدَّالِ، وقُرِئَ بتَخفيفِها، وهُما مُتَقاربان، إلَّا أنَّ التَّشْديدَ يَدُلُّ على المُبالَغةِ في العَدْلِ -أي: التَّسويةِ- فيُفيدُ إتْقانَ الصُّنْعِ[٤].

- والاستِفهامُ ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ﴾ مُرادٌ به الكِنايةُ عن التَّعجُّبِ أو التَّعجيبِ مِن شأْنِ ما أُضِيفتْ إليه (أيّ)؛ لأنَّ الشَّيءَ إذا بلَغَ مِن الكَمالِ والعظَمةِ مَبلغًا قَويًّا يُتساءلُ عنه، ويُستفَهمُ عن شأْنِه، ومِن هنا نشَأَ معْنى دَلالةِ (أيّ) على

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التَّفسيرِ (ص: ٣٧٨).

الكَمالِ[١].

- قولُه: ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾، أي: في صُورةٍ أيِّ صورةٍ، أي: في صُورةٍ كامِلةٍ بَديعةٍ[٢].

- وحرفُ (فِي) للظَّرفيَّةِ الَّتي هي بمَعنى المُلابَسةِ، أي: ﴿خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ مُلابِسًا صُورةً عَجيبةً، فمَحَلُّ ﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ مَحَلُّ الحالِ مِن (كافِ) الخِطابِ، وعامِلُ الحالِ (عَدَلَكَ)، أو (رَكَّبَكَ)، فجُعِلَتِ الصُّورةُ العَجيبةُ كالظَّرفِ للمُصوَّرِ بها؛ للدَّلالةِ على تَمكُّنِها مِن مَوصوفِها[٣].

- وقولُه: ﴿مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ بَيانٌ؛ فإنَّه لَمَّا قيلَ: ﴿فَعَدَلَكَ * فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ﴾ على التَّعجُّبِ والتَّنكيرِ للتَّفخيمِ، قيلَ: ما ذلك التَّعديلُ المُفخَّمُ، العَجيبُ الشَّأنِ؟ وأُجيبَ: لا يُحيطُ الوَصفُ بذلك؛ فإنَّه كما شاءَ اللهُ رَكَّبَك، ولا يَعلَمُ ذلك إلَّا هو[٤].

- و(مَا) يَجوزُ أنْ تَكونَ مَوصولةً، ماصَدَقَها[٥]: تَركيبٌ، وهي في مَوضِعِ نَصبٍ على المَفعوليَّةِ المُطلَقةِ، و(شَاءَ) صِلةُ (مَا)، والعائِدُ مَحذوفٌ، تَقديرُه: شاءَه، والمَعنى: رَكَّبَك التَّركيبَ الَّذي شاءَه. وعُدِلَ عن التَّصريحِ بمَصدَرِ ﴿رَكَّبَكَ﴾ إلى إبهامِه بـ (ما) المَوصولةِ؛ للدَّلالةِ على تَفْخيمِ المَوصولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧).

(٥) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٨).

بـ(ما) في صِلَتِه مِن المَشيئةِ المُسنَدةِ إلى ضَميرِ الرَّبِّ الخَالِقِ المُبدِعِ الحَكيمِ، وناهيكَ بِها. ويَجوزُ أنْ تَكونَ جُملةُ ﴿شَآءَ﴾ صِفةً لـ﴿صُورَةٍ﴾، والرَّابطُ مَحذوفٌ، و(مَا) مَزيدةٌ للتَّأكيدِ، والتَّقديرُ: في صورةٍ عَظيمةٍ شاءَها مَشيئةً مُعيَّنةً، أي: عن تَدبيرٍ وتَقديرٍ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾

- و﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ عن الاغترارِ بكرَمِ اللهِ تعالَى، وجعْلِه ذَريعةً إلى الكُفرِ والمعاصِي، مع كَونِه مُوجِبًا للشُّكرِ والطَّاعةِ، وقولُه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إضْرابٌ عن جُملةٍ مُقدَّرةٍ يَنْساقُ إليها الكَلامُ، كأنَّه قيلَ بعْدَ الرَّدْعِ بطَريقِ الاعتِراضِ: وأنتم لا تَرتَدِعون عن ذلك، بل تَجترِئون على أَعظَمَ مِن ذلك، حيثُ تُكَذِّبون بالجَزاءِ والبَعثِ رأْسًا، أو بدِينِ الإسلامِ الَّذي هُمَا مِن جُملةِ أحْكامِه، فلا تُصدِّقون سُؤالًا ولا جَوابًا، ولا ثَوابًا ولا عِقابًا. وقيلَ: كأنَّه قيلَ: إنَّكم لا تَستَقيمون على ما تُوجِبُه نِعَمي عليْكم، وإرْشادي لكُم، بل تُكذِّبون... إلخ. وقيلَ: ليس الأمرُ كما تَقولون مِن أنَّه لا بَعثَ ولا نُشورَ، ثمَّ قيلَ: أنتم لا تَتَبيَّنون بهذا البَيانِ، بل تُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ. وقولُه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ فيه تَرَقٍّ مِن الأَهوَنِ إلى الأَغلَظِ(٢).

وقيل: ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ عمَّا هو غُرورٌ باللهِ، أو كالغُرورِ، ممَّا تَضمَّنَه قولُه: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦] مِن حُصولِ ما يَغُرُّ الإنسانَ بالشِّركِ، ومِن إعْراضِه عن نِعَمِ اللهِ تعالى بالكُفرِ، أو مِن كَونِ حالةِ المُشرِكِ كحالةِ المَغرورِ، والمَعنى:

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١).

إشْراكُك بخالِقِك باطِلٌ، وهو غُرورٌ، أو كالغُرورِ، ويكون قولُه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ بعدَ ﴿كَلَّا﴾ إضْرابًا انتِقاليًّا مِن غَرَضِ التَّوبيخِ والزَّجرِ على الكُفرِ إلى ذِكرِ جُرْمٍ فَظيعٍ آخَرَ، وهو التَّكذيبُ بالبَعثِ والجَزاءِ، ويَشملُه التَّوبيخُ بالزَّجرِ بسَببِ أنَّه مَعطوفٌ على تَوبيخٍ وزَجْرٍ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿كَلَّا﴾ إبْطالًا لوُجودِ ما يَغُرُّ الإنسانَ أنْ يُشرِكَ باللهِ، أي: لا عُذرَ للإنسانِ في الإشراكِ باللهِ؛ إذ لا يُوجَدُ ما يَغُرُّه به، ويَكونَ قولُه: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ﴾ إضْرابًا إبْطاليًّا، وما بعْدَ ﴿بَلْ﴾ بَيانًا لِما جَرَّأَهم على الإشراكِ، وأنَّه ليس غُرورًا[١].

- وفي صِيغةِ المُضارعِ مِن قولِه: ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إفادةُ أنَّ تَكذيبَهم بالجَزاءِ مُتَجدِّدٌ لا يُقلِعون عنه، وهو سَببُ استِمرارِ كُفرِهم. وفي المُضارعِ أيضًا استِحضارُ حالةِ هذا التَّكذيبِ استِحضارًا يَقتَضي التَّعجيبَ مِن تَكذيبِهم؛ لأنَّ معهم مِن الدَّلائلِ ما حَقُّه أنْ يقلِعَ تَكذيبَهم بالجَزاءِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩]؛ تَأكيدًا لثُبوتِ الجزاءِ على الأعمالِ. وأُكِّدَ الكلامُ بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ لأنَّهم يُنكِرون ذلك إنكارًا قويًّا[٣].

- قولُه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ تَحقيقٌ لِما يُكذِّبون به مِن الجَزاءِ، ومُفيدٌ لبُطلانِ تَكذيبِهم، يعني: أنَّكم تُكذِّبون بالجزاءِ، والكاتِبون يَكتُبون عليكم أعمالَكُم لتُجازَوا بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢١).

- و﴿لَحَٰفِظِينَ﴾ صِفةٌ لمَحذوفٍ، تَقديرُه: لَمَلائكةً حافِظينَ، أي: مُحْصينَ غيرَ مُضيِّعينَ لشَيءٍ مِن أعمالِكُم(١).

- وجُمِعَ الملائكةُ باعتِبارِ التَّوزيعِ على النَّاسِ، وإنَّما لكلِّ أحدٍ مَلَكانِ؛ قال تعالَى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٢) [ق: ١٧، ١٨].

- وفيه إنْذارٌ وتَهويلٌ وتَشويرٌ -أي: إخْجالٌ- للعُصاةِ، ولُطْفٌ للمُؤمِنينَ(٣).

- وأيضًا قولُه: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ هذا بصَريحِ معناه يُفيدُ كِنايةً عن وُقوعِ الجزاءِ؛ إذ لولا الجزاءُ على الأعمالِ لَكان الاعتناءُ بإحصائِها عبثًا(٤).

- وأُجرِيَ على الملائكةِ الموكَّلينَ بإحصاءِ أعمالِ النَّاسِ أربعةُ أوصافٍ؛ هي: الحِفظُ، والكرَمُ، والكِتابةُ، والعِلمُ بما يَعمَلُه النَّاسُ. وابتُدِئ منها بوصْفِ الحِفظِ؛ لأنَّه الغرَضُ الَّذي سِيقَ مِن أجْلِه الكلامُ، الَّذي هو إثباتُ الجزاءِ على جَميعِ الأعمالِ، ثمَّ ذُكِرَت بعْدَه صِفاتٌ ثلاثٌ بها كَمالُ الحِفظِ والإحْصاءِ، وفيها تَنويهٌ بشَأنِ الملائكةِ الحافظينَ(٥).

- والحِفظُ هنا بمعْنى الرِّعايةِ والمراقبةِ، وهو بهذا المعْنى يَتعدَّى إلى المعمولِ بحرْفِ الجرِّ، وهو (على)؛ لتَضمُّنِه معْنى المراقبةِ. والحَفيظُ: الرَّقيبُ؛ قال تعالَى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: ٦]. وهذا الاستِعمالُ هو غيرُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٧٩).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) .
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٤/ ٧١٦).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٧٩).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

استِعمالِ الحِفظِ المعدَّى إلى المفعولِ بنفْسِه؛ فإنَّه بمعْنى الحِراسةِ، نحْو قولِه: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]؛ فالحِفظُ بهذا الإطلاقِ يَجمَعُ مَعنى الرِّعايةِ والقِيامِ على ما يُوكَلُ إلى الحَفيظِ، والأمانةِ على ما يُوكَلُ إليه، وحرْفُ (على) فيه للاستِعلاءِ؛ لتَضَمُّنِه مَعنى الرِّقابةِ والسُّلطةِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٧٠).

## الآيات (١٢-١٩)

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾: أي: المؤمنينَ، الصَّادِقينَ في إيمانِهم، المُطيعينَ لرَبِّهم، قيل: أصلُ (برر) هنا: الصِّدْقُ، يُقالُ: يَبَرُّ رَبَّه، أي: يُطيعُه، وهو مِنَ الصِّدقِ. وقيل: لَمَّا كان البَرُّ خِلافَ البحرِ، وتُصُوِّرَ منه التَّوسُّعُ، اشتُقَّ منه البِرُّ، وهو التَّوسُّعُ في فِعلِ الخَيرِ، ويُقالُ: بَرَّ العبدُ ربَّه، أي: توسَّع في طاعتِه، وأصلُ (برر) هنا -على ذلك-: خلافُ البحرِ[1].

﴿ٱلۡفُجَّارَ﴾: أي: الكفَّارَ، جمعُ فاجِرٍ، وهو المُنْبَعِثُ في المعاصي والمحارِمِ، يُقالُ: فَجَرَ يَفْجُرُ فُجُورًا، فهو فاجِرٌ، والفُجورُ: الانبِعاثُ والتَّفَتُّحُ في المعاصي، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ. وقيل: الفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسعًا، والفُجورُ: شَقُّ سِتْرِ الدِّيانةِ[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١١٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ١٨٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٣١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٤٠٤).

وكلمة الأبرارُ قيل: هي جمعُ برٍّ، وقيل: جمعُ بارٍّ، وقيل: هي جمعُ برٍّ -كنَهْرٍ وأنْهارٍ، وجَدٍّ وأجدادٍ-، وجمعُ بارٍّ، كصاحِبٍ وأصحابٍ، وشاهِدٍ وأشْهادٍ. يُنظر: ((الصحاح)) للجوهري (٢/ ٥٨٨)، ((تفسير الراغب الأصفهاني)) (٣/ ١٠٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ١٢٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (٣/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥، ٦٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٤١٣).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾

﴿يَوۡمَ﴾ بالفَتحِ، وهي فتحةُ إعرابٍ؛ لإضافتِه إلى فِعلٍ مُعرَبٍ، ونصبُه على المفعوليَّةِ بإضمارِ (أعني) أو (اذكُرْ)، أو مَنصوبٌ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ على تقديرِ (يُجازَوْن)، أو (يُدانُونَ). أو هو مَنصوبٌ على البَدَلِ مِن «يَوْمَ» في قَولِه تعالى: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾. وقيل: فَتْحَتُه فتحةُ بناءٍ على رأيِ الكُوفيِّينَ، وحينَئذٍ يكونُ خَبَرَ مُبتدَأٍ محذوفٍ، أي: هو يومَ لا تملِكُ. وبُنيَ لإضافتِه إلى الفِعلِ «تَمْلِكُ» وإنْ كان مُعرَبًا، أو هو مبنيٌّ في محَلِّ رَفعٍ على البَدَلِ مِن «يَوْمُ» الَّذي قَبلَه في قَولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا أحوالَ النَّاسِ يومَ القيامةِ: إنَّ المؤمنينَ الطَّائِعينَ لَفِي جَنَّةٍ يَتنَعَّمونَ فيها، وإنَّ الكُفَّارَ العُصاةَ لَفِي نارِ الجَحيمِ، يَدخُلونَها ويُقاسُونَ حَرَّها يومَ الحِسابِ والجَزاءِ، وما هم بخارِجينَ منها، بل هم مُلازِمونَ لها أبَدًا.

ثمَّ يقولُ تعالى مبيِّنًا شدَّةَ هَولِ يَومِ القيامةِ: وما أعلَمَك ما يَومُ الحِسابِ والجَزاءِ، ثمَّ ما أعلَمَك بحقيقةِ ذلك اليَومِ العَظيمِ المَهُولِ؟!

ذلك اليَومُ الَّذي لا يَملِكُ فيه أحَدٌ نَفْعًا لِغَيرِه، ولا إنقاذَه مِمَّا هو فيه، والمُلْكُ والتَّصَرُّفُ يومَئذٍ للهِ وَحْدَه.

---

(١) يُنظر: ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي بن أبي طالب (٢/ ٨٠٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧١٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٧١).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَصَف تعالى الكِرامَ الكاتِبينَ لأعمالِ العِبادِ؛ ذكَرَ أحوالَ العامِلينَ، وقَسَّمَهم قِسمَينِ[(١)].

وأيضًا لَمَّا كانت نتيجةُ حِفظِ الأعمالِ الجَزاءَ عليها؛ أنتَجَ ذلك بيانَ ما كانت الكتابةُ مِن أَجْلِه؛ تفريقًا بيْنَ المحسِنِ والمُسيءِ، الَّذي لا يَصِحُّ في حِكمةِ حَكيمٍ ولا كَرَمِ كَريمٍ غَيرُه، بقَولِه على سبيلِ التَّأكيدِ مِن أجْلِ تكذيبِهم[(٢)]:

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣﴾.

أي: إنَّ المؤمِنينَ الطَّائِعينَ الملازِمينَ لِفعلِ الخَيراتِ وأعمالِ البِرِّ والإحسانِ: لَفِي جَنَّةٍ يَتنَعَّمونَ فيها[(٣)].

﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤﴾.

أي: وإنَّ الكُفَّارَ العُصاةَ الَّذين قَصَّروا في حُقوقِ اللهِ تعالى وحُقوقِ عِبادِه: لَفِي نارٍ شَديدةِ التَّوَقُّدِ والتَّأجُّجِ[(٤)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٧٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان السِّياقُ للتَّرهيبِ؛ وَصَف عَذابَ الفُجَّارِ، فقال[١]:

﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥﴾.

أي: يُغمَسونَ فيها فيُباشِرونَ حرَّها، ويحترِقونَ بنارِها يومَ الحِسابِ والجَزاءِ على الأعمالِ، وهو يومُ القيامةِ[٢].

﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان العَذابُ على ما نَعْهَدُه لا بُدَّ أن يَنقَضِيَ؛ بَيَّن أنَّ عَذابَه على غَيرِ ذلك[٣]، فقال:

﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦﴾.

أي: وما هم بخارِجينَ منها، بل هم مُلازِمونَ لها أبَدًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ * لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤ - ٧٧].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا عُلِمَ أنَّ الوعيدَ الأعظَمَ يومَ الدِّينِ، هَوَّل أمْرَه بالسُّؤالِ عنه إعلامًا بأنَّه أهلٌ لأن يُصرَفَ العُمُرُ إلى الاعتناءِ بأمرِه، والسُّؤالِ عن حقيقةِ حالِه سؤالَ إيمانٍ وإذعانٍ، لا سؤالَ كُفرانٍ وطُغيانٍ؛ لِيَكونَ أقعَدَ في الوَعيدِ به، فقال[1]:

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾﴾.

أي: قال اللهُ تعالى مُعَظِّمًا ومُهَوِّلًا شأنَ يومِ القيامةِ: وما أعلَمَك[2] بحقيقةِ ذلك اليومِ الَّذي يُحاسَبُ فيه النَّاسُ على أعمالِهم، ويُجازَونَ بحَسَبِها[3]؟!

﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨).

(٢) قال الرازي: (الأكثَرونَ: أنَّه خِطابٌ للرَّسولِ، وإنَّما خاطبه بذلك؛ لأنَّه ما كان عالِمًا بذلك قبْلَ الوَحْيِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٠).

ومِمَّن قال بأنَّ الخِطابَ لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٠٧).

ومِمَّن قال بأنَّ الخِطابَ عامٌّ لكُلِّ إنسانٍ: الألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٧١).

قال القاسمي: (الخِطابُ للإنسانِ المتقَدِّمِ أوَّلَ السُّورةِ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣).

قال السمرقندي: (يعني: كيف تَعلَمُ حقيقةَ ذلك اليومِ ولم تُعايِنْه؟). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٥).

وقال ابن عاشور: (المقصودُ أنَّه لا تَصِلُ إلى كُنْهِه دِرايةُ دارٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت أهوالُه زائدةً على الحَدِّ؛ كَرَّر ذلك السُّؤالَ لذلك الحالِ[١].

﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾.

أي: ثمَّ ما أعلَمَك بحقيقةِ ذلك اليومِ العَظيمِ المَهُولِ[٢]؟!

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩﴾.

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾.

أي: يومَ لا يَملِكُ فيه أحَدٌ نَفْعًا لِغَيرِه، ولا إنقاذَه مِمَّا هو فيه[٣]!

كما قال تعالى: ﴿وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا﴾ [لقمان: ٣٣].

وقال تبارَكَ وتعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓ﴾ [فاطر: ١٨].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ [الدخان: ٤١].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨، ٣٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يا بَنِي هاشِمٍ، أنقِذُوا أنفُسَكم مِن النَّارِ، يا بَنِي عبدِ المُطَّلِبِ، أنقِذُوا أنفُسَكم مِنَ النَّارِ، يا فاطِمةُ، أنقِذي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ؛ فإنِّي لا أملِكُ لكم مِنَ اللهِ شَيئًا))[(١)].

﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾.

أي: المُلْكُ والتَّصَرُّفُ يومَ القيامةِ لله وَحْدَه، لا يُنازِعُه فيه أَحَدٌ مِن خَلْقِه، فهو وَحْدَه الَّذي يُحاسِبُ الخلائِقَ، ويُجازيهم بأعمالِهم[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢٦].

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ مِن طريقةِ القُرآنِ الكريمِ التَّصريحُ بذِكْرِ ثوابِ الأبرارِ والمتَّقينَ، والمُخلِصين والمحسِنينَ، ومَن رَجَحَتْ حسناتُهم، وبذِكْرِ عِقابِ الكُفَّارِ والفُجَّارِ، والظَّالِمينَ لأَنْفُسِهم، ومَن خَفَّتْ موازينُهم، ويَسكُتُ عن القِسْمِ الَّذي فيه شائبتانِ، وله مادَّتانِ؛ هذه طريقةُ القرآنِ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى

(١) رواه البخاريُّ (٤٧٧١)، ومسلمٌ (٢٠٤) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ - ٤١]، وهذا كثيرٌ في القرآنِ. قالوا: وفي السُّكوتِ عن شأنِ صاحِبِ الشَّائبتَينِ تحذيرٌ عظيمٌ وتخويفٌ له بأنَّ أمْرَه مُرْجَأٌ إلى اللهِ تعالى، وليس له عليه ضَمانٌ، ولا له عِندَه وَعْدٌ، فلْيَحْذَرْ كلَّ الحذرِ، ولْيُبادِرْ بالتَّوبةِ النَّصوحِ الَّتي تُلْحِقُه بالمضمونِ لهم النَّجاةُ والفَلاحُ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾ تهديدٌ عَظيمٌ للعُصاةِ[٢].

٣- قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۞ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ فيه خِطابُ أعلَمِ الخَلقِ -على قولٍ في التَّفسيرِ- بأنَّه لم يُحِطْ بكُنْهِ ذلك اليَومِ، وكُرِّر ذلك، وأُوثِرَ (ثُمَّ) للتَّراخي رُتبةً؛ إشارةً إلى أنَّه مهما ترَقَّى في العِلمِ لم يَبلُغْ ذلك[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ﴾ إشارةٌ أنَّ بِرَّ القَلْبِ يُوجِبُ نعيمَ الدُّنيا[٤].

٢- أنَّ لَفْظَ (الأبرارِ) إذا أُطْلِقَ دَخَلَ فيه كُلُّ تَقِيٍّ مِن السَّابقِينَ والمقتَصِدينَ، وإذا قُرِنَ بالمقرَّبينَ كان أخَصَّ؛ قال تعالى في الأوَّلِ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۞ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾، وقال في الثَّاني: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الكوراني)) (ص: ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٠).

وذكر ابنُ القيِّم أنَّ هذا قد يُقالُ: إنَّه مُرادٌ مِن النَّعيمِ الأكبرِ، وقد يقالُ: إنَّه مفهومٌ بإشارةِ الآيةِ، ثمَّ قال عن الثَّاني: (وهو أظهَرُ). ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧١).

عِلِّيُّونَ ۞ كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ ۞ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾[1] [المطففين: ١٨ - ٢١].

٣- لَفظُ البِرِّ إذا أُطْلِقَ تَناوَلَ جميعَ ما أَمَرَ اللهُ به، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾، وقَولِه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ١٨٩]، وقَولِه: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلۡمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، فالبِرُّ إذا أُطلِقَ كان مُسَمَّاه مُسَمَّى التَّقوى، والتَّقوى إذا أُطلِقَت كان مُسَمَّاها مُسَمَّى البِرِّ، ثمَّ قد يُجمَعُ بيْنَهما، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾[2] [المائدة: ٢].

٤- قُلوبُ أهلِ البِدَعِ والمُعْرِضِينَ عن القُرآنِ، وأهلِ الغَفْلةِ عن اللهِ، وأهلِ المعاصي: في جَحيمٍ قبْلَ الجَحيمِ الأكبرِ، وقُلوبُ الأبرارِ في نَعيمٍ قبْلَ النَّعيمِ الأكبَرِ؛ ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ﴾، وهذا في دُورِهم الثَّلاثِ -الدُّنيا، والبَرْزخِ، والآخرةِ-؛ ليس مختصًّا بالدَّارِ الآخرةِ، وإنْ كان تمامُه وكمالُه وظهورُه إنَّما هو في الدَّارِ الآخِرةِ، وفي البَرزخِ دُونَ ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ١٦٩).

(٢) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٣٣).

قال ابن رجب: (وإذا قُرِنَ البِرُّ بالتَّقْوى، كما في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، فقَدْ يكونُ المُرادُ بالبِرِّ مُعامَلةَ الخَلقِ بالإحسانِ، وبالتَّقْوى: مُعامَلةَ الحقِّ بفعلِ طاعَتِه، واجْتِنابِ مُحَرَّماتِه، وقد يكونُ أُريدَ بالبِرِّ فِعْلُ الواجِباتِ، وبالتَّقْوى: اجْتِنابُ المُحَرَّماتِ). ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٩٨).

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ ٱلَّذِى تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [النمل: ٧١، ٧٢]، وفي هذه الدَّارِ دونَ ما في البَرزخِ، ولكِنْ يَمْنَعُ مِن الإحساسِ به الاستِغراقُ في سَكْرةِ الشَّهَواتِ، وطَرحُ ذلك عن القَلبِ، وعدَمُ التَّفَكُّرِ فيه[١]؛ فلا تَحسَبْ أنَّ قَولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ مقصورٌ على نعيمِ الآخِرةِ وجَحيمِها فقط، بل في دُورِهِم الثَّلاثةِ كذلك، فهؤلاء في نعيمٍ، وهؤلاء في جحيمٍ، وهل النَّعيمُ إلَّا نَعيمُ القَلبِ؟ وهل العَذابُ إلَّا عذابُ القَلْبِ؟ وأيُّ عذابٍ أشَدُّ مِنَ الخَوفِ والهَمِّ والحَزَنِ، وضِيقِ الصَّدرِ، وإعراضِه عن اللهِ والدَّارِ الآخِرةِ، وتعَلُّقِه بغيرِ اللهِ، وانقِطاعِه عن اللهِ، بكُلِّ وادٍ منه شُعبةٌ، وكُلُّ شَيءٍ تعَلَّقَ به وأحَبَّه مِن دونِ اللهِ فإنَّه يَسومُه سُوءَ العَذابِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ إشارةٌ أنَّ فُجورَ القَلبِ يُوجِبُ جَحيمَ الدُّنيا[٣].

٦- أنَّ اسمَ الفاجِرِ في عُرْفِ القُرآنِ والسُّنَّةِ يَتناوَلُ الكافِرَ قَطْعًا، كقَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ دليلٌ مِن أدِلَّةِ خُلودِ الكُفَّارِ في النَّارِ[٥]، والمرادُ بالفُجَّارِ هنا: المُشرِكونَ؛ فهم لا يَغيبونَ عن النَّارِ طَرْفةَ عَينٍ، وذلك هو

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٢٣).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٦).

(٣) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٠).

وذكر ابنُ القيِّمِ أنَّ هذا قد يُقالُ: إنَّه مرادٌ مِن الجحيمِ الأكبَرِ، وقد يقالُ: إنَّه مفهومٌ بإشارةِ الآيةِ، ثمَّ قال عن الثَّاني: (وهو أظهَرُ). ((المصدر السابق)) (ص: ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٨٥).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥١).

الخُلودُ، ونحن -أهلَ السُّنَّةِ- لا نَعتَقِدُ الخُلودَ في النَّارِ لغيرِ الكافِرِ، فأمَّا عُصاةُ المؤمِنينَ فلا يُخَلَّدونَ في النَّارِ، وإلَّا لَبَطَلَتْ فائدةُ الإيمانِ(١).

٨- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ * يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ كلُّ موضعٍ في القرآنِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّب ببيانِه؛ نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ [القارعة: ١٠، ١١]، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ﴾(٢) [الشورى: ١٧].

٩- قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ و﴿شَيۡـٔٗا﴾ اسمٌ يدُلُّ على جِنسِ المَوجودِ، والمَعنى: لا تَملِكُ نفْسٌ لِنَفْسٍ شَيئًا يُغْني عنها ويَنفَعُها، أي: ليس في قُدرَتِها شَيءٌ يَنفَعُ نفْسًا أُخْرى، وهذا يُفيدُ تأْييسَ المُشرِكين مِن أنْ تَنفَعَهم أصْنامُهم يومَئذٍ، كما قال تعالَى: ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمۡ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُمۡ أَنَّهُمۡ فِيكُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ﴾(٣) [الأنعام: ٩٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك، مع أنَّ النُّفوسَ المقبولةَ الشَّفاعةِ تَملِكُ لِمَن شَفَعَت فيه شيئًا، وهو الشَّفاعةُ؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٢).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).

وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وما كان مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).

وأخرج ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

**الجوابُ**: أنَّ المنفيَّ ثُبوتُ المُلْكِ بالسَّلْطَنة، والشَّفاعةُ ليست بطَريقِ السَّلْطَنة؛ فلا تدخُلُ في النَّفْي، ويُؤَيِّدُه قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[1]. فهي لا تَملِكُ ذلك استقلالًا، وإنَّما يكونُ ذلك بعدَ إذْنِ الله ومَشيئتِه.

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ سؤالٌ: أنَّ ظاهِرَ هذه الآيةِ تقييدُ الأمرِ بالظَّرفِ المذكورِ، ولكِنَّ الأمرَ لله في ذلك اليومِ وقبْلَ ذلك اليَومِ، كما في قَولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، وقَولِه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] أي: يتصَرَّفُ في خَلْقِه بما يَشاءُ مِن أمْرِه لا يَشرَكُه أحَدٌ كما لا يَشرَكُه أحَدٌ في خَلْقِه. فما وَجهُ التَّخصيصِ بيومِ القيامةِ؟

**والجوابُ**: أنَّ الأمرَ للهِ تعالى في يومِ القيامةِ وفيما قَبْلَه، والمُلْكُ لله في الدُّنيا وفي الآخِرةِ، لكِنَّ ظهورَ مَلَكوتِ اللهِ عزَّ وجَلَّ وأمْرِه في ذلك اليومِ أكثرُ بكثيرٍ مِن ظهورِ ملَكوتِ الله وأمْرِه في الدُّنيا، فلا أمْرَ مع أمْرِه، ولا متقَدِّمَ عليه، حتَّى ولا بكَلِمةٍ، إلَّا مَن أَذِنَ له الرَّحمنُ وقال صَوابًا، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، فيتبَيَّنُ في ذلك اليومِ أنَّه ليس هناك آمِرٌ في ذلك اليَومِ إلَّا اللهُ عزَّ وجَلَّ[2].

وأيضًا فالأمرُ إذا كان إلى اللهِ وحْدَه في ذلك اليومِ العظيمِ، فما دُونَه أَولى.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ فُصِلَتْ هذه الجُملةُ عن الَّتي قبْلَها؛ لأنَّها

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٢).

استِئنافٌ بَيانيٌّ جَوابٌ عن سُؤالٍ يَخطُرُ في نفْسِ السَّامِعِ يُثيرُه قولُه: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾ [الانفطار: ٩، ١٠] الآيةَ؛ لتَشوُّفِ النَّفْسِ إلى مَعرِفةِ هذا الجَزاءِ: ما هو؟ وإلى مَعرفةِ غايةِ إقامةِ المَلائكةِ لإحْصاءِ الأعْمالِ: ما هيَ؟ فبَيَّنَ ذلك بقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ الآيةَ. وأيضًا تَتضمَّنُ هذه الجُملةُ تَقسيمَ أصحابِ الأعمالِ؛ فهي تَفصيلٌ لجُملةِ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٢]، وذلك مِن مُقتضَياتِ فَصْلِ الجُملةِ عن الَّتي قبْلَها[١]. فقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ نَتيجةِ الحِفظِ والكِتابِ مِن الثَّوابِ والعِقابِ[٢].

- وجِيءَ بالكَلامِ مُؤكَّدًا بـ(إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ ليُساويَ البَيانُ مُبيِّنَه في التَّحقيقِ ودَفْعِ الإنْكارِ[٣].

- والظَّرفيَّةُ مِن قولِه: (فِي نَعِيمٍ) تُفيدُ تَشبيهَ دَوامِ التَّنعُّمِ لهم بإحاطةِ الظَّرفِ بالمَظروفِ بحَيثُ لا يُفارِقُه[٤].

- وكُرِّرَ التَّأكيدُ مع الجُملةِ المَعطوفةِ ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾؛ للاهتِمامِ بتَحقيقِ كَونِهم في جَحيمٍ، لا يَطْمَعون في مُفارَقتِه[٥].

- وفي تَنكيرِ النَّعيمِ والجَحيمِ مِن التَّفخيمِ والتَّهويلِ ما لا يَخْفى[٦].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨١).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨١).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٨٢).
(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢).

- قولُه: ﴿يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ إمَّا صِفةٌ لـ﴿جَحِيمٍ﴾، أو استِئنافٌ مَبنيٌّ على سُؤالٍ نَشَأَ مِن تَهويلِها، كأنَّه قيلَ: ما حالُهم فيها؟ فقيلَ: يُقاسون حَرَّها[١].

- و﴿يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ ظَرفٌ لـ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾، وذُكِرَ لبَيانِ أنَّهم يَصْلَونها جَزاءً عن فُجورِهم؛ لأنَّ الدِّينَ الجَزاءُ، ويومَ الدِّينِ يومُ الجَزاءِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾، أي: لا يَغيبون عنها طَرْفةَ عَينٍ؛ فإنَّ المُرادَ دَوامُ نَفيِ الغَيبةِ، لا نَفيُ دَوامِ الغَيبةِ؛ لأنَّ الجُملةَ الاسميَّةَ المَنفيَّةَ قد يُرادُ بها استِمرارُ النَّفيِ، لا نَفيُ الاستِمرارِ، باعتِبارِ ما تُفيدُه مِن الدَّوامِ والثَّباتِ بعْدَ النَّفيِ لا قبْلَه[٣]، فجِيءَ بالجُملةِ ﴿وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ﴾ اسميَّةً دُون أنْ يُقالَ: (وما يَغيبون عنها)، أو (وما يُفارِقونها)؛ لإفادةِ الاسميَّةِ الثَّباتَ، سَواء في الإثْباتِ أو النَّفيِ؛ فالثَّباتُ حالةٌ للنِّسبةِ الخَبريَّةِ، سَواءٌ كانت نِسبةَ إثْباتٍ أو نِسبةَ نَفيٍ، وزِيادةُ الباءِ لتأكيدِ النَّفيِ[٤].

- وتَقديمُ ﴿عَنۡهَا﴾ على مُتَعلَّقِه؛ للاهتِمامِ بالمَجرورِ، وللرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ تَفخيمٌ لِشأْنِ وهَوْلِ يومِ الدِّينِ الَّذي يُكذِّبون به، إثْرَ تَفخيمٍ وتَهويلٍ لأمْرِه بعْدَ تَهويلٍ، وكَيْفَما

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

تَصوَّرْتَه فهو فَوقَ ذلك وعلى أضْعافِه[١].

وقيل: الاستِفهامُ الأوَّلُ مُستعمَلٌ كِنايةً عن تَعظيمِ أمْرِ اليَومِ وتَهويلِه، والاستِفهامُ الثَّاني مُستعمَلٌ في معناهُ، أي: سؤالِ سائِلٍ عن حَقيقةِ يومِ الدِّينِ، كما تَقولُ: عَلِمْتَ هلْ زَيدٌ قائمٌ؟ أي: عَلِمْتَ جَوابَ هذا السُّؤالِ، ومِثلُ هذا التَّركيبِ ممَّا جَرى مَجْرى المَثَلِ، فلا يُغيَّرُ لَفْظُه[٢].

وقيل: قولُه: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ تكريرٌ للتَّهويلِ تَكريرًا يُؤْذِنُ بزِيادتِه، أي: تَجاوُزِه حَدَّ الوَصفِ والتَّعبيرِ، فهو مِن التَّوكيدِ اللَّفْظيِّ[٣]. وقيلَ: الأوَّلُ للمُؤمِنينَ، والثَّاني للكُفَّارِ[٤].

- وقَرَنَ هذا بحرفِ (ثُمَّ) الَّذي شأْنُه -إذا عَطَفَ جُملةً على أُخْرى- أنْ يُفيدَ التَّراخيَ الرُّتْبيَّ، أي: تَباعُدَ الرُّتْبةِ في الغَرَضِ المَسوقِ له الكَلامُ، وهي في هذا المَقامِ رُتبةُ العَظَمةِ والتَّهويلِ، فالتَّراخي فيها هو الزِّيادةُ[٥].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ إظْهارُ يومِ الدِّينِ في مَوقِعِ الإضْمارِ، وهو تَأْكيدٌ لهَوْلِه وفَخامتِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٤).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠١).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٣).

- قولُه: ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ بَيانٌ إجْماليٌّ لِشأْنِ يَومِ الدِّينِ إثْرَ إبْهامِه وبَيانِ خُروجِه عن عُلومِ الخَلقِ بطَريقِ إنْجازِ الوَعْدِ؛ فإنَّ نفْيَ إدْرائِهم مُشعِرٌ بالوَعْدِ الكَريمِ بالإدْراءِ[١]؛ فهو بَيانٌ للتَّهويلِ العَظيمِ المُجمَلِ الَّذي أفادَه قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧، ١٨]؛ إذ التَّهويلُ مَشعِرٌ بحُصولِ ما يَخافُه المُهَوَّلُ لهم، فأُتبِعَ ذلك بزِيادةِ التَّهويلِ مع التَّأييسِ مِن وُجْدانِ نَصيرٍ أو مُعينٍ[٢].

- وعُمومُ (نَفْس) الأُولى والثَّانيةِ في سِياقِ النَّفيِ يَقتَضي عُمومَ الحُكمِ في كُلِّ نفْسٍ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ تَذييلٌ[٤]؛ والتَّعريفُ في (الأمْر) للاستِغراقِ، والأمرُ هُنا بمَعنى: التَّصرُّفِ والإذْنِ، وهو واحِدُ الأَوامِرِ، أي: لا يأمُرُ إلَّا اللهُ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الأَمرُ مُرادِفًا للشَّيءِ، فتَغييرُ التَّعبيرِ للتَّفنُّنِ، والتَّعريفُ على كِلا الوَجْهَينِ تَعريفُ الجِنسِ المُستَعمَلُ لإرادةِ الاستِغراقِ، فيَعُمُّ كُلَّ الأُمورِ، وبذلك العُمومِ كانتِ الجُملةُ تَذْييلًا[٥].

- أَفادَتْ لامُ الاختِصاصِ في ﴿لِّلَّهِ﴾ -مع عُمومِ الأَمرِ-: أنَّه لا أمْرَ يَومَئذٍ إلَّا للهِ وحْدَه، لا يَصدُرُ مِن غَيرِه فِعلٌ، وليس في هذا التَّركيبِ صِيغةُ حَصْرٍ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٨٥).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٣٥٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

ولكنَّه آيِلٌ إلى مَعنى الحَصْرِ[١].

- وفي هذا الخِتامِ رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ[٢]؛ لأنَّ أوَّلَ السُّورةِ ابتُدِئَ بالخَبَرِ عن بَعضِ أحوالِ يَومِ الجَزاءِ، وخُتِمَتِ السُّورةُ ببَعضِ أحوالِه[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٥).

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ المُطَفِّفينَ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ المُطَفِّفِينَ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المُطَفِّفِينَ)، و﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾[(١)].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ المُطَفِّفِينَ مُختَلَفٌ فيها[(٢)]؛ فقِيلَ: مَكِّيَّةٌ[(٣)]، وقيلَ: مَدَنِيَّةٌ[(٤)].

---

(١) سُمِّيت بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٦).

وقال ابنُ عاشور: (سُمِّيَت هذه السُّورةُ في كُتُبِ السُّنَّةِ وفي بعضِ التَّفاسيرِ «سورةَ ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾»، وكذلك ترجَمَها البُخاريُّ في كتابِ التَّفسيرِ مِن «صحيحِه» [«٦/ ١٦٧»]، والتِّرمذيُّ في «جامِعِه» [«٥/ ٤٣٤»]، وسُمِّيَت في كثيرٍ مِن كُتُبِ التَّفسيرِ والمصاحِفِ «سُورةَ المطَفِّفِينَ» اختصارًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٧).

وتسمَّى أيضًا سورةَ التَّطفيفِ. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) للسخاوي (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٥١).

(٣) ممَّن اختار أنَّها مَكِّيَّةٌ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والزَّمخشريُّ، وابنُ جُزَي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٠).

(٤) ممَّن اختار أنَّها مَدَنِيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والبَغَويُّ، وابنُ كثير، والبِقاعي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦١٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٦٧)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٤٩٩).

قال ابن الجوزيِّ: (فيها ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: أنَّها مكِّيَّةٌ. قاله ابنُ مَسعودٍ، والضَّحَّاكُ، ويحيى بنُ سَلَّام.

والثَّاني: مَدَنِيَّةٌ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحَسَنُ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ، ومُقاتِلٌ، إلَّا أنَّ ابنَ عبَّاسٍ وقَتادةَ قالا: فيها ثماني آياتٍ مَكِّيَّةٌ؛ مِن قَولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ [المطففين: ٢٩] إلى آخِرِها. وقال مقاتِلٌ: فيها آيةٌ مكِّيَّةٌ، وهي قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [المطففين: ١٣].

=

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

١- التَّحْذيرُ مِن التَّطْفيفِ[(١)].

٢- الحديثُ عن الفُجَّارِ والأبرارِ، والموازنةُ بيْنَ مصيرِ كلٍّ منهما[(٢)].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- التَّحذيرُ مِن التَّطفيفِ في الكَيلِ والميزانِ، وتوَعُّدُ المطَفِّفينَ، وتذكيرُهم بيَومِ البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ.

٢- بيانُ سُوءِ عاقِبةِ الفُجَّارِ، وحُسنِ عاقِبةِ الأبرارِ، وبيانُ أنَّ صَحائِفَ أعمالِ الفُجَّارِ فى أسفَلِ سافِلينَ، وصَحائِفَ أعمالِ الأبرارِ فى أعلى عِلِّيِّينَ.

٣- ذِكرُ ما كان يَفعَلُه المُشرِكونَ مع المؤمِنينَ مِن استِهزاءٍ وإيذاءٍ.

٤- تبشيرُ المؤمِنينَ بأنَّهم يومَ القيامةِ سيَضحَكونَ مِن الكُفَّارِ كما ضَحِكَ الكُفَّارُ منهم في الدُّنيا.

---

= والثَّالثُ: أنَّها نزَلَت بيْن مكَّةَ والمدينةِ. قاله جابرُ بنُ زَيدٍ، وابنُ السَّائِبِ. وذَكَرَ هِبةُ الله بنُ سلامةَ المفسِّرُ أنَّها نزلت في الهِجرةِ بيْن مكَّةَ والمدينةِ، نِصفُها يُقارِبُ مكَّةَ، ونِصفُها يُقارِبُ المدينةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٣). ويُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: ١٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٨). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣١٥).

وذكر الإسكافي أنَّ سورةَ المطَفِّفينَ: (مَقصورةٌ على التَّرهيبِ مِن النَّارِ ووَصْفِها ومُعاقَبةِ أهْلِها، وعلى التَّرغيبِ في الجنَّةِ ونَعيمِ أهْلِها؛ ليس في السُّورةِ غيرُ هذَينِ المعنيَينِ). ((درة التنزيل وغرة التأويل)) (ص: ١٣٤٩).

## الآيات (١-٦)

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَيْلٌ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[1].

﴿لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾: أي: الَّذين يَنقُصونَ النَّاسَ حُقوقَهم في الكَيْلِ والوَزْنِ، والتَّطفيفُ: النُّقصانُ، أصلُه في الشَّيءِ الطَّفيفِ، وهو النَّزْرُ القليلُ، والمطَفِّفُ إنَّما يأخُذُ بالميزانِ شيئًا طفيفًا، وأصلُ (طفف): يدُلُّ على قِلَّةِ الشَّيءِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨).

قال الراغب: (ومَن قال: وَيْلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ وَيْلًا في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحَقَّ مَقَرًّا من النَّارِ، وثَبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨). ويُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤).

وقال ابنُ عطيَّة: (الوَيلُ في كلامِ العَرَبِ: المصائِبُ والحُزنُ والشِّدَّةُ مِن هذه المعاني، وهي لفظةٌ تُستعمَلُ في الدُّعاءِ على الإنسانِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٨١).

وقال الشنقيطي: (الأظهرُ أنَّ لفظةَ ﴿وَيْلٌ﴾ كلمةُ عَذابٍ وهلاكٍ، وأنَّها مَصدرٌ لا فِعلَ له مِن لَفظِه، وأنَّ المسَوِّغَ للابتِداءِ بها -مع أنَّها نَكِرةٌ- كَونُها في مَعرِضِ الدُّعاءِ عليهم بالهَلاكِ). ((أضواء البيان)) (٧/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٤).

قال الزَّجَّاجُ: (والمطَفِّفونَ: الَّذين يَنقُصونَ المِكْيالَ والميزانَ، وإنَّما قيل للفاعِلِ مِن هذا مُطَفِّفٌ؛ لأنَّه لا يَكادُ يَسرِقُ في المِكْيالِ والميزانِ إلَّا الشَّيءَ الحقيرَ الطَّفيفَ، وإنَّما أُخِذَ مِن طَفِّ =

﴿ٱكۡتَالُواْ﴾ ﴿كَالُوهُمۡ﴾: يُقالُ: كِلْتُ فُلانًا: أعطَيْتُه. واكتَلْتُ عليه: أخَذْتُ منه، والاكتيالُ: الأخذُ بالكَيْلِ[1].

﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾: أي: يأخُذونَ حُقوقَهم وافيةً تامَّةً، وأصلُ (وفي): يدُلُّ على إكمالٍ وإتمامٍ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالوَعيدِ الشَّديدِ للَّذين يَنقُصونَ في الكَيلِ أو الوَزنِ، فقال تعالى: عَذابٌ وهَلاكٌ للَّذين يَنقُصونَ النَّاسَ حُقوقَهم في المِكْيالِ والمِيزانِ؛ الَّذين إذا اشتَرَوا مِنَ النَّاسِ أخَذُوا حَقَّهم كامِلًا، وإذا كالُوا أو وَزَنوا لغَيرِهم مِن النَّاسِ يَنقُصونَهم حَقَّهم.

ثمَّ قال تعالى متوعِّدًا لهم: ألَا يَظُنُّ أولئك المُطَفِّفونَ أنَّهم مَبعوثونَ ليومِ الحِسابِ العَظيمِ؛ يومَ يَقومُ النَّاسُ لله رَبِّ العالَمينَ ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((لَمَّا قَدِمَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم المدينةَ كانوا مِن أخبَثِ النَّاسِ كَيْلًا، فأنزَل اللهُ سُبحانَه: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾؛

---

= الشَّيءِ، وهو جانِبُه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٢٩٧).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

فأحسَنُوا الكَيلَ بعْدَ ذلك))[١].

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ للَّذين يَنقُصونَ النَّاسَ حُقوقَهم في المِكْيالِ والمِيزانِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩].

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢﴾.

أي: الَّذين إذا اشتَرَوا مِنَ النَّاسِ ما يُباعُ بالكَيلِ أخَذُوا حَقَّهم كامِلًا بلا نَقْصٍ[٣].

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾.

أي: وإذا كالُوا أو وَزَنوا للنَّاسِ حينَ يَبيعونَ لهم ما يُكالُ أو يُوزَنُ يَنقُصونَهم حَقَّهم[٤].

---

(١) أخرجه النَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٦٥٤)، وابنُ ماجه (٢٢٢٣) واللَّفظُ له.
صَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٤٩١٩)، والحاكم في ((المستدرك)) (٢٢٤٠)، وصَحَّح إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٦٥)، وحَسَّن الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٢٢٢٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٤٩١٩).
قال ابنُ عاشور: (اجتَمَعت كَلِمةُ المفَسِّرينَ على أنَّ أهلَ يَثرِبَ كانوا مِن أخبَثِ النَّاسِ كَيلًا، فقال جماعةٌ مِنَ المفَسِّرينَ: إنَّ هذه الآيةَ نزلت فيهم؛ فأحسَنوا الكَيلَ بعدَ ذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩١، ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٦)، ((تفسير =

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه وتعالى أنَّهم أدمَنُوا على هذه الرَّذائِلِ حتَّى صارت لهم خُلُقًا مَرَنُوا عليه، وأَنِسُوا به، وسَكَنوا إليه، وكان ذلك لا يكونُ إلَّا مِمَّن أَمِنَ العِقابَ وأنكَرَ الحِسابَ- أنتَجَ ذلك الإنكارَ عليهم على أبلَغِ الوُجوهِ؛ لإفهامِه أنَّ حالَهم أهلٌ لأن يُتعَجَّبَ منه ويُستَفهَمَ عنه، وأنَّ المُستَفهَمَ عن حُصولِه عِندَهم الظَّنُّ -وذلك على قولٍ-، وأمَّا اليقينُ فلا يُتخَيَّلُ فيهم؛ لبُعدِ أحوالِهم الجافيةِ وأفهامِهم الجامدةِ عنه؛ فقال تعالى[1]:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤﴾.

أي: ألَا يَظُنُّ أولئك المُطَفِّفونَ أنَّهم مَبعوثونَ مِن قُبورِهم أحياءً بَعْدَ مَوتِهم[2]؟!

﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥﴾.

---

= السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩١، ١٩٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

قال ابنُ عثيمين: (فهؤلاء يَستَوفُونَ حَقَّهم كاملًا، ويَنقُصونَ حَقَّ غَيرِهم؛ فجَمَعوا بيْن الأمْرَينِ؛ بيْن الشُّحِّ والبُخلِ. الشُّحُّ: في طَلَبِ حَقِّهم كاملًا بدونِ مُراعاةٍ أو مُسامحةٍ. والبُخلُ: بمَنعِ ما يجِبُ عليهم مِن إتمامِ الكَيلِ والوَزنِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

قال القرطبي: (الظنُّ هنا بمعنى اليقينِ، أي: ألَا يوقنُ أولئك، ولو أيقنوا ما نقَصوا في الكيلِ والوزنِ. وقيل: الظنُّ بمعنى التردد، أي: إنْ كانوا لا يستيقنونَ بالبعثِ، فهلا ظنُّوه، حتى يتدبَّروا ويَبحثوا عنه، ويأخذوا بالأحوطِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٤).

أي: ليومٍ عَظيمٍ شأنُه، شديدةٍ أهوالُه[١]

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾.

أي: يومَ يكونُ النَّاسُ قيامًا لله رَبِّ العالَمينَ، فيُحاسِبُهم ويُجازيهم على أعمالِهم[٢].

عن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ الله عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حتَّى يَغِيبَ أحَدُهم في رَشَحِه[٣] إلى أنصافِ أُذُنَيه!))[٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ ذَمُّ التَّطفيفِ والخيانةِ في الكَيلِ والوَزنِ[٥]. فأَمرُ المكيالِ والميزانِ عَظيمٌ؛ وذلك لأنَّ عامَّةَ الخَلْقِ يحتاجونَ إلى المعامَلاتِ، وهي مَبنيَّةٌ على أمرِ المِكيالِ والميزانِ؛ فلهذا السَّبَبِ عَظَّم اللهُ أمْرَه، فقال: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٧ - ٩]، وقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٨٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٦).

(٣) في رَشَحِه: أي: عَرَقِه. يُنظر: ((مصابيح الجامع)) للدماميني (٨/ ٤٨٧).

(٤) رواه البخاريُّ (٤٩٣٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٦٢).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٨٤).

وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [الحديد: ٢٥][١]، ولا ينفَعُ فيما وقع مِن التَّطفيفِ ولا يُخلِّصُ صاحِبَه إلَّا التَّوبةُ، ورَدُّ المَظْلمةِ إلى صاحِبِها، وقال مالِكُ ابنُ دِينارٍ: (احتُضِرَ جارٌ لي، فجعل يقولُ: جبلانِ مِن نارٍ، فقلتُ له ما هذا؟ فقال لي: يا أخي، كان لي مِكيالانِ، آخُذُ بالوافي، وأُعطي بالنَّاقِصِ)[٢]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ هذه الآيةُ تحذيرٌ للمُسلِمينَ مِن التَّساهُلِ في التَّطفيفِ، وحَسْبُهم أنَّ التَّطفيفَ يَجمَعُ ظُلمًا واختِلاسًا ولُؤْمًا، والعَرَبُ كانوا يتعَيَّرونَ بكُلِّ واحدٍ مِن هذه الخِلالِ مُتفرِّقةً ويتبَرَّؤونَ منها، ثمَّ يَأتونَها مُجتَمِعةً، وناهِيكَ بذلك أَفَنًا[٣]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ الوَعيدُ على مَن يَستوفي العُقودَ تامَّةً ولا يُوَفِّيها تامَّةً[٤]!

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَيۡلٌ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ هذا مِثالٌ ذَكَرَه اللهُ عزَّ وجلَّ في الكَيلِ والوَزنِ، فيُقاسُ عليه كلُّ ما أشْبَهَه؛ فكلُّ مَن طَلَبَ حقَّه كامِلًا ممَّن هو عليه، ومَنَعَ الحقَّ الَّذي عليه: فإنَّه داخِلٌ في الآيةِ الكريمةِ؛ فمثلًا الزَّوجُ يريدُ مِن زوجتِه أنْ تعطيَه حقَّه كاملًا، ولا يَتهاوَنُ في شَيءٍ مِن حقِّه، لكِنَّه عندَ أداءِ حقِّها يَتهاوَنُ، ولا يُعطيها الَّذي لها! ورُبَّما يَنْقُصُ أكثرَ حقِّها مِن النَّفَقةِ والعِشْرةِ بالمعروفِ وغيرِ ذلك[٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٢).

والأَفَنُ: ضَعفُ الرَّأْيِ والعَقْلِ. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٣٤/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٣).

وأيضًا الموظَّفُ إذا كان يريدُ أنْ يُعطَى راتبَه كامِلًا لكِنَّه يتأخَّرُ في الحُضورِ أو يتقدَّمُ في الخُروجِ، فإنَّه مِن المطَفِّفينَ الَّذين توعَّدَهم اللهُ بالوَيلِ؛ لأنَّه لا فرقَ بيْن إنسانٍ يَكِيلُ أو يَزِنُ للنَّاسِ، وبيْن إنسانٍ مُوظَّفٍ عليه أنْ يَحْضُرَ في السَّاعةِ الفلانيَّةِ ولا يَخْرُجَ إلَّا في السَّاعةِ الفلانيَّةِ، ثُمَّ يتأخَّرُ في الحضورِ ويتقَدَّمُ في الخُروجِ! هذا مُطَفِّفٌ، وهذا المُطَفِّفُ في الوظيفةِ لو نَقَصَ مِن راتبِه ريالٌ واحِدٌ مِن عَشَرةِ آلافٍ لَقال: لماذا تَنْقُصُ! هذا مُطَفِّفٌ يَدخُلُ في هذا الوَعيدِ[1]، وأيضًا فمِن الحَيفِ والجَورِ أنْ يَتكَلَّمَ الإنسانُ في شَخصٍ كعالِمٍ أو تاجرٍ أو أيِّ إنسانٍ، ثُمَّ يَذْكُرَ مَساوِيَه -الَّتي قد يكونُ معذورًا فيها- ولا يَذْكُرَ محاسِنَه! هذا ليس مِن العَدْلِ؛ يأتي إلى عالِمٍ مِن العُلَماءِ أخطأ في مَسألةٍ وهو فيها معذورٌ، ثُمَّ يَنْشُرُ هذه المسألةَ الَّتي أخطَأَ فيها، ويَنْسَى محاسِنَ هذا العالِمِ الَّذي نفَعَ العِبادَ بكَثيرٍ مِن عِلْمِه! هذا لا شَكَّ أنَّه تطفيفٌ وجَورٌ وظُلْمٌ. إذا كنتَ تريدُ أنْ تُقَوِّمَ الشَّخصَ فلا بُدَّ أنْ تَذْكُرَ محاسِنَه ومَساوِيَه، أمَّا إذا كنتَ تريدُ أنْ تَتكَلَّمَ على خَطَأٍ معيَّنٍ لِتُحَذِّرَ النَّاسَ منه، فنَعم، اذكُرِ الخطأَ، لكنْ بقَطْعِ النَّظَرِ عن قائلِه، وقُلْ مثلًا: سَمِعْنا أنَّ بعضَ النَّاسِ يقولُ كذا وكذا، وهو خطأٌ، ثُمَّ تُبَيِّنُ الخطأَ، أمَّا أنْ تريدَ أنْ تَنشرَ مَساويَ الآخَرينَ دونَ محاسِنِهم، فهذا ظُلْمٌ وجَورٌ[2].

٥- قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ والمطَفِّفُ الَّذي يَنقُصُ الكَيلَ والوَزنَ، وأراد بهذا الَّذينَ يُعامِلونَ النَّاسَ؛ فإذا أخَذوا لأنفُسِهم استَوفَوا، وإذا دَفَعوا إلى مَن يُعامِلُهم نَقَصوا، ويَتجَلَّى ذلك في الوَزنِ والكَيلِ، وفي إظهارِ العَيبِ، وفي القَضاءِ والأداءِ والاقتِضاءِ، فمَن لم يَرْضَ لأخيه المُسلِمِ ما يَرضاه لنَفْسِه، فليس بمُنصِفٍ؛ فالَّذي يرى عَيبَ النَّاسِ ولا يرى عيبَ نَفْسِه فهو مِن هذه الجُملةِ؛

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٤٠٢).

(٢) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٥٠).

جُملةِ المطَفِّفينَ، كما قيل:

وتَعــذِرُ نفْسَــك إمَّــا أَسَــأْتَ وغــيــرُكَ بــالــعُــذرِ لا تَــعــذِرُ
وتُبصِــرُ في العَيــنِ مِنْــهُ القَذَى وفــي عَينِــكَ الجِــذْعُ لا تُبصِرُ

ومَن اقتضى حَقَّ نَفْسِه دونَ أن يَقضيَ حُقوقَ غَيرِه مِثلَما يَقتضيها لنَفْسِه، فهو مِن جُملةِ المُطَفِّفينَ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ تَنبيهٌ على أنَّ أصلَ الآفاتِ: الخُلُقُ السَّيِّئُ، وهو حُبُّ الدُّنيا المُوقِعُ في جَمعِ الأموالِ مِن غَيرِ وَجْهِها، ولو بأخَسِّ الوُجوهِ؛ التَّطفيفِ الَّذي لا يَرضاه ذو مُروءةٍ(٢)!

٧- التَّقديمُ في افتتاحيةِ هذه السُّورةِ بـ ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ يُشعِرُ بشِدَّةِ خَطَرِ هذا العَمَلِ، وهو فِعلًا خَطيرٌ؛ لأنَّه مِقياسُ اقتِصادِ العالَمِ، ومِيزانُ التَّعامُلِ، فإذا اختَلَّ أحدَثَ خَلَلًا في اقتصادِه، واختلالًا في التَّعامُلِ، وهو فسادٌ كبيرٌ، وأكبَرُ مِن هذا كُلِّه وُجودُ الرِّبا إذا بِيعَ جِنسٌ بجِنْسِه، وحَصَل تفاوُتٌ في الكَيلِ أو الوَزنِ، وفيه كما قال تعالى: ﴿فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٣) [البقرة: ٢٧٩].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الإنسانَ كما يأخُذُ مِنَ النَّاسِ الَّذي له يجِبُ عليه أن يُعطِيَهم كُلَّ ما لَهم مِن الأموالِ والمعاملاتِ، بل يَدخُلُ في عُمومِ هذا الحُجَجُ والمقالاتُ؛ فإنَّه كما أنَّ المتناظِرَينِ قد جرت العادةُ أنَّ كُلَّ واحدٍ منهما يحرِصُ على ما له مِن الحُجَجِ، فيَجِبُ عليه أيضًا أن يُبَيِّنَ ما لخَصْمِه مِنَ الحُجَجِ الَّتي لا

(١) يُنظر: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٦٩٩، ٧٠٠)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٥).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١١).
(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥٤).

يَعلَمُها، وأن يَنظُرَ في أدِلَّةِ خَصْمِه كما يَنظُرُ في أدِلَّتِه هو، وفي هذا الموضِعِ يُعرَفُ إنصافُ الإنسانِ مِن تعَصُّبِه واعتِسافِه، وتواضُعُه مِن كِبْرِه، وعَقْلُه مِن سَفَهِه[١].

٩- قال عُلَماءُ الدِّينِ: (التَّطفيفُ في كُلِّ شَيءٍ؛ في الصَّلاةِ والوُضوءِ، والكَيلِ والميزانِ)، كما أنَّ السَّرِقةَ في كُلِّ شَيءٍ، وأسوأُ النَّاسِ سَرِقةً مَن يَسرِقُ صَلاتَه؛ فلا يُتِمُّ ركوعَها ولا سُجودَها[٢]. وعن سَلْمانَ الفارسيِّ رضيَ الله عنه، قال: (الصَّلاةُ مِكيالٌ، فمَن أَوفى أَوفى اللهُ له، وقد عَلِمتُم ما قال اللهُ في الكَيلِ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾)[٣]. قال مالِكٌ: (وكان يُقالُ: في كُلِّ شَيءٍ وفاءٌ وتطفيفٌ)، فإذا توعَّد اللهُ سُبحانَه بالوَيلِ للمُطَفِّفينَ في الأموالِ، فما الظَّنُّ بالمطَفِّفينَ في الصَّلاةِ[٤]؟!

١٠- يُشعِرُ قَولُه تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أنَّ عَدَمَ الإيمانِ بالبَعْثِ أو الشَّكَّ فيه: هو الدَّافِعُ لكُلِّ سُوءٍ، والمضَيِّعُ لكُلِّ خيرٍ، وأنَّ الإيمانَ باليَومِ الآخِرِ هو المُنطَلَقُ لكُلِّ خيرٍ، والمانِعُ لكُلِّ شَرٍّ، والإيمانُ بالبَعثِ هو مُنطَلَقُ جميعِ الأعمالِ الصَّالحةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥).

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٦٦).

فيه إشارةٌ إلى حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أسوأُ النَّاسِ سرقةً الذي يسرِقُ صلاتَه. قال: وكيفَ يسرقُ صلاتَه. قال: لا يتمُّ ركوعَها ولا سجودَها)) أخرجه ابن حبان (١٨٨٨) واللفظ له، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٤٦٦٥)، والحاكم (٨٣٦).

صحَّحه ابن حبان، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٥٣٣)، وصحَّح إسنادَه الحاكمُ، وحسَّنه شعيب الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (١٨٨٨).

(٣) أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ في ((المصنَّف)) (١/ ٢٥٩) (٢٩٧٩).

(٤) يُنظر: ((الصلاة وأحكام تاركها)) لابن القيم (ص: ١٢٤). ويُنظر: ((الموطأ)) للإمام مالك (١/ ١٢).

(٥) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٧١).

١١- قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ * لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ * يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ في هذا الإنْكارِ والتَّعْجيبِ، وكَلِمةِ الظَّنِّ، ووَصفِ اليَومِ بالعِظَمِ، وقِيامِ النَّاسِ فيه للهِ خاضِعينَ، ووَصْفِه ذاتَه برَبِّ العالَمينَ: بَيانٌ بَليغٌ لعِظَمِ الذَّنْبِ وتَفاقُمِ الإثمِ في التَّطفيفِ، وفيما كان في مِثلِ حالِه مِن الحَيفِ، وتَرْكِ القِيامِ بالقِسطِ والعَملِ على السَّويَّةِ والعَدْلِ في كُلِّ أخْذٍ وإعْطاءٍ، بل في كُلِّ قَولٍ وعَملٍ، وليس ذلك كُلُّه مِن أجْلِ التَّطْفيفِ مِن حَيثُ هو التَّطفيفُ، بل مِن حَيثُ إنَّ الميزانَ قانونُ العَدْلِ والاستِقامةِ، وهو الحِكمةُ في الخَلقِ والتَّكليفِ، والحَشْرِ والنَّشْرِ، ومَن تَطفَّفَ حاوَلَ إبْطالَ حِكمةِ اللهِ في الدَّارَينِ(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ أنَّه إذا كان الوعيدُ بالوَيلِ على الشَّيءِ الطَّفيفِ، فما فَوقَه مِن بابِ أَولى(٢)!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ أنَّه إذا كان هذا الوعيدُ على الَّذين يَبخَسُونَ النَّاسَ بالمِكيالِ والميزانِ، فالَّذي يأخُذُ أموالَهم قَهْرًا أو سَرِقةً أَولى بهذا الوعيدِ مِن المُطَفِّفينَ(٣).

٣- يُفهَمُ مِن فَحْوى قَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ إلى قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ أنَّهم إذا بُعِثوا إلى ذلك اليَومِ العَظيمِ، وقام النَّاسُ لرَبِّ العالَمينَ، واجتَمَع الخلائِقُ الأوَّلونَ والآخِرونَ في صَعيدٍ واحدٍ يَنفُذُهم البَصَرُ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥).

ويُسْمِعُهم الدَّاعي: أنَّ ذلك الخائِنَ النَّاقِصَ في الكَيلِ والوَزنِ يُنادَى به على رُؤوسِ الأشهادِ، ويُفتَضَحُ على رُؤوسِ الأشهادِ يومَ القيامةِ، وفَضيحةُ القيامةِ ليست كفَضيحةِ الدُّنيا[١]!

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ في هذه الآياتِ مُبالَغاتٌ:

منها: أنَّ الوَيلَ إنَّما يُذكَرُ عند شِدَّةِ البلاءِ.

ومنها: الإنكارُ بقَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾.

ومنها: استِعظامُه تعالى لليَومِ.

ومنها: تأكيدُه بما بَعْدَه، وما يُوهِمُ ذلك وما يَقتَضيه مِن خضوعِهم وذِلَّتِهم، وفي هذا نكتةٌ، وهي كأنَّ قائِلًا يقولُ: هذا التَّشديدُ العظيمُ، والوعيدُ البليغُ، كيف يكونُ على التَّطفيفِ مع نَزارتِه وزَهادتِه، وكَرَمِ المَولى وإحسانِه؟ فأشار بقَولِه: ﴿لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إلى أنَّه مُرَبِّيهم ومَسؤولٌ عن أمورِهم، فلا يليقُ أن يُهمِلَ مِن أمورِهم شيئًا[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ أنَّ الظَّنَّ قد يُستعمَلُ بمعنى اليقينِ في اللُّغةِ العربيَّةِ[٣]. وذلك على قولٍ في الآيةِ.

٦- يومُ القيامةِ إنَّما سُمِّيَ يومَ القيامةِ؛ لوُجوهٍ ثلاثةٍ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ النَّاسَ يَقومون فيه مِن قُبورِهم للهِ عزَّ وجَلَّ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٥)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٥).

**الثَّاني**: أنَّه يُقامُ فيه العَدلُ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾ [الأنبياء: ٤٧].

**والثَّالثُ**: أنَّه يقومُ فيه الأشهادُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[1] [غافر: ٥١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾

- قولُه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ افتِتاحُ السُّورةِ باسمِ الوَيلِ مُؤذِنٌ بأنَّها تَشتَمِلُ على وَعيدٍ، فلَفْظُ (وَيْلٌ) مِن بَراعةِ الاستِهلالِ[2].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى هنا: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾، وقال في مَوضعٍ آخَرَ: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢]؛ فمعْنى هذه الآيةِ: تَحرَّوا بقدْرِ المستطاعِ مِن التَّطفيفِ ولو يَسيرًا وبعْدَ بَذْلِ الجُهدِ، ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، وهذا غايةٌ في التَّحرِّي، مع شِدَّةِ التَّحذيرِ، والتَّوعُّدِ بالويْلِ[3].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ...﴾ إلخ، صِفةٌ كاشِفةٌ[4] للمُطفِّفينَ، شارِحةٌ لكَيفيَّةِ تَطْفيفِهم الَّذي استَحقُّوا به الذَّمَّ، والدُّعاءَ بالوَيلِ[5]، ويجوزُ

(١) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٦/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٨٩).

وبراعةُ الاستهلالِ تقدَّم تعريفُها (ص: ١٥).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٥٥).

(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٥٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٤).

أنْ تكونَ صِفةً مُخصِّصةً، أو جارِيةً على الذَّمِّ.

- وجُملةُ ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ قيل: هي إدْماجٌ[١]، مَسوقةٌ لكَشْفِ عادةٍ ذَميمةٍ في تُجَّارِ الكافِرين، وهي الحِرصُ على تَوفيرِ مِقْدارِ ما يَبْتاعونه بدُونِ حَقٍّ لهم فيه، والمَقصودُ الجُملةُ المَعطوفةُ عليها، وهي جُملةُ ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾؛ فَهُم مَذْمومون بمَجْموعِ ضِمْنِ الجُملتَينِ[٢].

- قولُه: ﴿ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾، أي: اشْتَروا مِن النَّاسِ ما يُباعُ بالكَيلِ، فحُذِفَ المَفعولُ؛ لأنَّه مَعلومٌ في فِعلِ ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾، أي: اكْتالوا مَكيلًا، ومَعنى ﴿كَالُوهُمۡ﴾: باعوا للنَّاسِ مَكيلًا، فحُذِفَ المَفعولُ؛ لأنَّه مَعلومٌ[٣]. أو عَدَمُ التَّعرُّضِ للمَكيلِ والمَوزونِ في الصُّورَتَينِ ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾، ﴿كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾؛ لأنَّ مَساقَ الكَلامِ لبَيانِ سُوءِ مُعامَلتِهم في الأخْذِ والإعْطاءِ، لا في خُصوصيَّةِ المأْخوذِ والمُعْطى[٤].

- ولَمَّا كان اكْتِيالُهم مِن النَّاسِ اكْتِيالًا يَضُرُّهم ويُتحامَلُ فيه عليهم، أُبدِلَ (عَلَى) مَكانَ (مِن)؛ للدَّلالةِ على ذلك، بتَضْمينِ ﴿ٱكۡتَالُواْ﴾ مَعنى التَّحامُلِ، أي: إلْقاءِ المَشقَّةِ على الغَيرِ وظُلمِه؛ ذلك أنَّ شأْنَ التَّاجرِ وخُلُقَه أنْ يَتطلَّبَ تَوفيرَ الرِّبحِ، وأنَّه مَظِنَّةُ السَّعةِ، ووُجودِ المالِ بيَدِه؛ فهو يَستَعمِلُ حاجةَ مَن يأْتيه بالسِّلعةِ. وقيلَ: إنَّ الحَرفَينِ (مِن) و(عَلَى) يَتعاقَبانِ في هذا المَوضِعِ؛ لأنَّه حَقٌّ عليه، فإذا قالَ: اكتَلْتُ عليك، فكأنَّه قال: أخَذْتُ ما عليك، وإذا قالَ: اكتَلْتُ منك، فكقَولِه: استَوفَيْتُ منك[٥].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٩١).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي =

- وقال: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ ولم يَقُلْ: (اكْتالوا واتَّزَنوا)، كما قال في مقابِله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾؛ لأنَّ المُطفِّفين كانتْ عادَتُهم ألَّا يَأخُذوا ما يُكالُ وما يُوزَنُ إلَّا بالمِكيالِ؛ لأنَّ استِيفاءَ الزِّيادةِ بالمِكيالِ أمكَنُ لهم، وأهْوَنُ عليهم منه بالميزانِ، وإذا أَعطَوا كالُوا ووَزَنوا؛ لتَمَكُّنِهم مِن البَخْسِ فيهما[1].

أو لم يَقُلْ: (أو اتَّزَنوا)، كما قيلَ: ﴿أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ﴾ إمَّا أنْ يَكونَ صِفةً مُخصِّصةً، أو كاشِفةً، أو جارِيةً على الذَّمِّ؛ فَعَلى الأوَّلِ لا يَنبَغي ذِكرُ الوَزنِ؛ لأنَّ سَببَ النُّزولِ في قَومٍ مَخصوصينَ، وفي فِعلٍ مَخصوصٍ، وهو: الكَيلُ؛ لأنَّ مَعنى التَّطْفيفِ: البَخْسُ في الكَيلِ والوَزنِ، فيَدخُلُ في هذا العامِّ مَن نَزَلَتْ فيهم الآيةُ دُخولًا أوَّليًّا، أو يَكونُ ذِكرُ الوَزنِ لمَزيدِ الذَّمِّ، يَعني: إذا اتَّفَقَ أحْيانًا لهم وَزنٌ بما هو قانونُ العَدلِ -لقولِه تعالَى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]- يُخسِرون أيضًا[2].

أو الاقتِصارُ على قولِه: ﴿إِذَا ٱكۡتَالُواْ﴾ دُونَ أنْ يَقولَ: (وإذا اتَّزَنوا) كما قال: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾؛ اكتِفاءٌ بذِكرِ الوَزنِ في الثَّاني تَجَنُّبًا لفِعلِ (اتَّزَنوا)؛ لِقِلَّةِ دَوَرانِه في الكلامِ؛ فكان فيه شَيءٌ مِن الثِّقَلِ، ولنُكْتةٍ أُخْرى؛ وهي: أنَّ المُطفِّفين هم أهلُ التَّجْرِ، وهم يأخُذونَ السِّلَعَ مِن الجالِبينَ في الغالِبِ بالكَيلِ؛ لأنَّ الجالِبينَ يَجلِبونَ التَّمرَ والحِنطةَ ونَحوَهما ممَّا يُكالُ، ويَدفَعون لهم الأثْمانَ

= حيان)) (١٠/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٠، ١٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٣٩، ٣٤٠).

عَينًا بما يوزَنُ مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ مَسْكوكَينِ أو غَيرَ مَسْكوكَينِ؛ فلذلك اقتُصِرَ في ابْتِياعِهم مِن الجالِبينَ على الاكْتيالِ نَظرًا إلى الغالِبِ، وذكَرَ في بَيعِهم للمُبْتاعِينَ الكَيلَ والوَزنَ؛ لأنَّهم يَبيعون الأشْياءَ كَيلًا، ويَقبِضون الأثْمانَ وَزْنًا، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ التَّطْفيفَ مِن عَملِ تُجَّارِهم[١].

- والاسْتيفاءُ: أَخْذُ الشَّيءِ وافِيًا؛ فالسِّينُ والتَّاءُ في قولِه: ﴿يَسْتَوْفُونَ﴾ للمُبالَغةِ في الفِعلِ[٢].

- وفي قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ مُقابَلَةٌ أَتَتْ على أحسَنِ وَجْهٍ وأنْظَمِه، أي: إذا كان الكَيلُ مِن جِهةِ غَيرِهم استَوفَوه، وإذا كان الكَيلُ مِن جِهتِهم خاصَّةً أخْسَروه، سَواءٌ باشَروه أو لا؛ فالضَّميرُ لا يدُلُّ على مُباشَرةٍ ولا إشعارٍ أيضًا بذلك، والَّذي يدُلُّ على أنَّ الضَّميرَ لا يُعطي مُباشرةَ الفعلِ: أنَّه يَجوزُ أنْ يُقالَ: الأمراءُ همُ الَّذين يُقيمون الحدودَ لا السُّوقةُ، وليس معناه أنَّهم يُباشِرونَ ذلك بأنفُسِهم، وإنَّما مَعناهُ أنَّ فِعلَ ذلك مِن جِهتِهم خاصَّةً[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استِئنافٌ ناشئٌ عن الوَعيدِ والتَّقْريعِ للمُطفِّفينَ بالوَيلِ على التَّطْفيفِ، وما وُصِفوا به مِن الاعتِداءِ على حُقوقِ المُبتاعينَ[٤]؛ فهو استئنافٌ واردٌ لتهويلِ ما ارتكَبُوه مِن التَّطفيفِ، والتَّعجيبِ مِن اجترائِهم عليهِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩١، ١٩٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٩٢).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥).

- قولُه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ الإنكاريِّ التَّعْجيبيِّ، بحَيثُ يَسألُ السَّائلُ عن عِلمِهم بالبَعثِ، كأنَّهم لا يَخطُرُ ببالِهم، ولا يُخمِّنون تَخْمينًا أنَّهم مَبْعوثونَ ومُحاسَبون على مِقدارِ الذَّرَّةِ والخَرْدَلةِ[1]!

- و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المُطفِّفينَ، ووَضَعه مَوضِعَ ضَميرِهم للإشْعارِ بمَناطِ الحُكمِ الَّذي هو وَصفُهم؛ فإنَّ الإشارةَ إلى الشَّيءِ مُتعرِّضةٌ له مِن حَيثُ اتِّصافُه بوَصفِه، وأمَّا الضَّميرُ فلا يَتعرَّضُ لوَصفِه. وللإيذانِ بأنَّهم مُمتازونَ بذلك الوَصفِ القَبيحِ عن سائرِ النَّاسِ أكْمَلَ امتيازٍ، نازِلون مَنزِلةَ الأُمورِ المُشارِ إليها إشارةً حِسِّيَّةً؛ فالعُدولِ عن الإضْمارِ إلى اسمِ الإشارةِ في قولِه: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لقَصدِ تَمييزِهم، وتَشهيرِ ذِكرِهم في مَقامِ الذَّمِّ، ولأنَّ الإشارةَ إليهم بعْدَ وَصفِهم بالمُطَفِّفينَ تُؤذِنُ بأنَّ الوَصفَ مَلحوظٌ في الإشارةِ، فيُؤذِنُ ذلك بتَعليلِ الإنْكارِ. وما فيه مِن مَعنى البُعدِ؛ للإشْعارِ ببُعدِ دَرَجتِهم في الشَّرارةِ والفَسادِ[2].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ لامُ التَّوقيتِ، وفائدةُ لامِ التَّوقيتِ إدْماجُ الرَّدِّ على شُبهتِهم الحامِلةِ لهم على إنْكارِ البَعثِ، باعتِقادِهم أنَّه لو كان بَعثٌ لَبُعِثَتْ أمْواتُ القُرونِ الغابِرةِ، فأَوْمأَ قولُه: ﴿لِيَوۡمٍ﴾ أنَّ للبَعثِ وَقتًا مُعيَّنًا يَقَعُ عندَه لا قبْلَه[3].

- ومَعنى ﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾: أنَّهم يَكونون قِيامًا؛ فالتَّعبيرُ بالمُضارِعِ لاستِحضارِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٢، ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣).

الحالةِ[١].

- وفي تَخصيصِ (ربِّ العالَمينَ) بالذِّكرِ هنا مِن بيْنِ سائِرِ الصِّفاتِ: إشْعارٌ بالمالِكيَّةِ والتَّربيةِ، ولاستِحضارِ عَظَمتِه بأنَّه مالِكُ أَصنافِ المَخلوقاتِ؛ فلا يَمتَنِعُ عليه الظَّالمُ القَويُّ، ولا يَترُكُ حَقَّ المَظلومِ الضَّعيفِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٣).

## الآيات (٧-١٧)

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٩ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ١٧﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سِجِّينٖ﴾: على وزنِ فِعِّيلٍ مِن مادَّةِ السَّجْنِ، قيل: هي اسمٌ للأرضِ السَّابعةِ السُّفلى، وقيل: هي اسمٌ لجهنَّمَ، بإزاءِ عِلِّيِّينَ؛ سُمِّيَ ذلك المكانُ سِجِّينًا لأنَّه أشَدُّ الحَبسِ لِمَن فيه، فلا يفارِقُه، وأصلُ (سجن): يدُلُّ على حَبسٍ[1].

﴿مَّرۡقُومٞ﴾: أي: مَكتوبٌ كِتابةً بَيِّنةً تُشبِهُ الرَّقْمَ في الثَّوبِ المَنسوجِ، وأصلُ (رقم): يدُلُّ على خَطٍّ وكِتابةٍ وما أشبهَ ذلك[2].

﴿ٱلدِّينِ﴾: أي: الجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازيتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[3].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٦٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥).
قال ابن جُزَي: (هو مشتَقٌّ مِن السجنِ بمعنى الحَبسِ؛ لأنَّه سببُ الحبسِ والتَّضييقِ في جهنَّمَ، أو لأنَّه مطروحٌ في مكانِ الهَوانِ والعذابِ كالسجنِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٣٩، ٤٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٨)، ((المفردات في غريب =

﴿أَثِيمٍ﴾: أي: كثيرِ الإثمِ، مُتجاوِزٍ في الظُّلمِ، مُتمادٍ في الكُفرِ، وأصلُ (أثم): يدُلُّ على البُطءِ والتَّأخُّرِ؛ لأنَّ ذا الإثمِ بَطيءٌ عن الخَيرِ، متأخِّرٌ عنه[١].

﴿أَسَٰطِيرُ﴾: أي: أباطيلُ، جمعُ أُسطُورةٍ، وهي: ما سُطِرَ مِن أخبارِ الأوَّلِينَ وكَذِبِهم، وأصلُ (سطر): يدُلُّ على اصطِفافِ شَيءٍ[٢].

﴿رَانَ﴾: أي: غَطَّى وغَلَب، والرَّيْنُ كالصَّدَأِ يَغْشَى القَلْبَ مِن كَثرةِ المعاصي والذُّنوبِ، وكُلُّ ما غَلَبَك وعَلاك فقد رانَ بك، وران عليك، وأصلُ (رين): يدُلُّ على غِطاءٍ وسَترٍ[٣].

﴿لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: لَداخِلو الجَحيمِ ومُقاسونَ حَرَّها، والجحيمُ: النَّارُ، والصَّلَى أصلُه: الإيقادُ بالنَّارِ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ، وأصلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى متوَعِّدًا ومهدِّدًا: فارتَدِعوا -أيُّها الفُجَّارُ الظَّلَمةُ- عمَّا أنتم فيه مِن

---

= القرآن)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٤٠، ٣٧٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٩٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١١٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩) و(٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ١٣٥).

التَّطفيفِ والغَفْلةِ عن البَعثِ والحِسابِ؛ إنَّ صَحيفةَ أعمالِ الفُجَّارِ مِنَ المُطَفِّفينَ وغَيرِهم في مكانٍ ضَيِّقٍ مِنَ الأرضِ السَّابعةِ، وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بحَقيقةِ سِجِّينٍ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الفُجَّارِ؟ كِتابُ الفُجَّارِ كِتابٌ مَكتوبةٌ فيه أعمالُهم.

عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ الَّذين يُكَذِّبونَ بيَومِ الحِسابِ والجَزاءِ. ثمَّ يُبيِّنُ تعالى أوصافَ هؤلاءِ المكذِّبينَ، فيقولُ: وما يُكَذِّبُ بذلك اليَومِ إلَّا كُلُّ مُعتَدٍ على حُدودِ اللهِ، كَثيرِ الآثامِ، إذا تُلِيَت عليه آياتُ القُرآنِ قال مُكَذِّبًا: تلك أحاديثُ الأوَّلينَ وخُرافاتُهم الَّتي سُطِرَت في الكُتُبِ مِن قَبْلُ!

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه السَّببَ الَّذي حمَلَهم على أن يَقولوا في القرآنِ ما قالوا، فيقولُ: ارتَدِعوا وانزَجِروا عن هذه الأقوالِ؛ فليس الأمرُ كما زعَمْتُم أيُّها المعتَدُونَ الآثِمونَ، وإنَّما السَّبَبُ في افترائِهم هو كثرةُ الذُّنوبِ والخَطايا الَّتي حجَبَت قُلوبَهم عن الإيمانِ بالقُرآنِ، كَلَّا إنَّ أولئك المكَذِّبينَ لَمَحجوبونَ يومَ القيامةِ عن رَبِّهم، فلا يَرَونَه أبَدًا، ثمَّ إنَّهم يَدخُلونَ النَّارَ، ويَحتَرِقونَ فيها، ثمَّ يُقالُ لهم تقريعًا وتَوبيخًا: هذا هو عذابُ النَّارِ الَّذي كنتُم في الدُّنيا تُكَذِّبونَ به؛ فذُوقوه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن عِظَمَ ذلك الذَّنْبِ؛ أتْبَعَه بذِكْرِ لواحِقِه وأحكامِه[1].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ٧﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٦).

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ هؤلاءِ الكفَّارُ أنَّهم غيرُ مبعوثينَ ولا مُعذَّبينَ، فلْيَرْتَدِعوا! إنَّ صَحيفةَ أعمالِ الفُجَّارِ مِنَ المُطَفِّفينَ وغَيرِهم في مكانٍ ضَيِّقٍ مِنَ الأرضِ السَّابعةِ(١)!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٧، ٣١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٤، ١٩٥).

قال ابن الجوزي: (﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ وفيها أربعةُ أقوالٍ؛ أحدُها: أنَّها الأرضُ السَّابعةُ...

والثَّاني: أنَّ المعنى: إنَّ كتابَهم لَفي سفالٍ، قاله الحسَنُ.

والثَّالثُ: لَفي خَسارٍ، قاله عِكْرِمةُ.

والرَّابعُ: لَفي حبسٍ، فِعِّيلٌ مِن السِّجنِ، قاله أبو عُبَيْدةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٥).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ -أنَّ المرادَ الأرضُ السَّابعةُ السُّفلى-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والواحدي، والعُلَيمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: عبدُ الله بنُ عَمرٍو، وابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ، وقَتادةُ، ومجاهدٌ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، ومُغيثُ بنُ سُمَيٍّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٣، ١٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣١٥).

ونسَبَ الواحديُّ والرازيُّ هذا القولَ للأكثَرينَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣١٥)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٦).

قال الواحديُّ: (المعنى في الآيةِ: إنَّ كِتابَ عمَلَهم يُوضَعُ في الأرضِ السَّابعةِ، وذلك علامةُ خَسارِهم، ودليلٌ على خَساسةِ مَنزلتِهم، ولا يُصعَدُ به إلى السَّماءِ كما يُصعَدُ بكتابِ المؤمِنِ، وهو قَولُه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ [المُطَفِّفين: ١٨]). ((الوسيط)) (٤/ ٤٤٤).

وقال ابنُ كثير: (الصَّحيحُ أنَّ «سِجِّينًا» مأخوذٌ مِنَ السَّجْنِ، وهو الضِّيقُ؛ فإنَّ المخلوقاتِ كُلُّ ما تسافلَ منها ضاقَ، وكُلُّ ما تعالى منها اتَّسَع، فإنَّ الأفلاكَ السَّبعةَ كُلُّ واحدٍ منها أوسَعُ وأعلى مِن الَّذي دُونَه، وكذلك الأَرَضونَ كُلُّ واحدةٍ أوسَعُ مِنَ الَّتي دونَها، حتَّى ينتهيَ السُّفولُ المُطلَقُ والمحَلُّ الأضيَقُ إلى المركَزِ في وَسَطِ الأرضِ السَّابعةِ... وهو يَجمَعُ الضِّيقَ والسُّفولَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٩). =

عن البَراءِ بنِ عازبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال في حديثِه الطَّويلِ في صفةِ قبضِ الرُّوحِ، ونعيمِ القبرِ وعذابِه: ((فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبُوا كِتابَه في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفْلى، فتُطرَحُ رُوحُه طَرْحًا))(١).

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ٨﴾.

أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بحَقيقةِ سِجِّينٍ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الفُجَّارِ(٢)؟

---

= وقيل: قولُه: ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾ فُسِّر بقولُه: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ [المطففين: ٩]، فكأنَّه قيل: إنَّ كتابَهم في كتابٍ مَرقوم. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والنَّسَفي، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّان، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦١٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦).

وممَّن اختار القولَ الرَّابعَ -أي: أنَّ المرادَ بقوله: ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾: لَفي حَبْسٍ وضِيقٍ شديدٍ-: أبو عُبَيْدةَ، ونسَبَه القرطبيُّ والشَّوكانيُّ إلى الأخفَشِ والزَّجَّاجِ، وزاد الشوكانيُّ: المُبَرِّدَ. يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٤). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨).

قال القرطبي: (المعنى [أي: على هذا القولِ]: كتابُهم في حبسٍ، جُعِل ذلك دليلًا على خَساسةِ منزلتِهم، أو لأنَّه يحلُّ مِن الإعراضِ عنه والإبعادِ له محلَّ الزَّجرِ والهَوانِ). ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨).

(١) أخرجه ابنُ أبي شَيْبةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمدُ (١٨٥٣٤)، والطَّيالِسيُّ (٧٨٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ متقاربةٍ.

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (١٦٧٦) و((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحسَّنه المُنذِريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠)، وابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٢٩٠).

وصحَّح إسنادَه الطبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٠/ ٥٠٣)، وقال ابن منده في ((الإيمان)) (٣٩٨): (إسنادُه متَّصِلٌ مشهورٌ ثابتٌ على رسمِ الجماعةِ).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨). =

﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ ٩﴾.

أي: كِتابُ الفُجَّارِ هذا كِتابٌ مَسطورةٌ فيه أعمالُهم بوُضوحٍ دونَ زيادةٍ أو نَقْصٍ(١).

= قال ابنُ عطيَّة: (قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ تعظيمٌ لأمرِ هذا السِّجِّينِ، وتَعجُّبٌ منه. ويحتَمِلُ أن يكونَ تقريرَ استفهامٍ، أي: هذا ممَّا لم يكُنْ يَعرِفُه قبْلَ الوَحْيِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥١).

ومِمَّن قال بالمعنى الأول: ابنُ كثير، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

ومِمَّن ذهب إلى الاحتِمالِ الآخَرِ: الزَّجَّاجُ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

ممَّن اختار القولَ المذكورَ -أي: أنَّ ﴿مَّرۡقُومٞ﴾ بمعنى: مكتوب، قد كُتبتْ فيه أعمالُهم وسُطِرَتْ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، وابنُ أبي زَمَنِين، ومكِّي، وابن عطية، وابن الجوزي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٢٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

وقال الثعلبيُّ والبغوي والقرطبي في الجملة: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ﴾ مكتوبٌ، مُثبَتٌ عليهم، كالرَّقْمِ في الثَّوبِ، لا يُنسى ولا يُمحى حتَّى يُجازَوا به. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨).

وقيل: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ﴾ أي: مختومٌ. وممَّن اختاره: جلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٧). =

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أعلَمَ هذا بما للكِتابِ مِنَ الشَّرِّ؛ استأنَفَ الإخبارَ بما أنتَجَه مِمَّا لأصحابِه؛ فقال[1]:

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾﴾.

أي: عَذابٌ وهَلاكٌ يومَ القيامةِ للمُكَذِّبينَ[2]!

﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾﴾.

أي: الَّذين يُكَذِّبونَ في الدُّنيا بيَومِ الحِسابِ والجَزاءِ، فيُنكِرونَ البَعْثَ يومَ القيامةِ[3].

﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾﴾.

---

= قال الرازي: (معنى قولِه: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾... فيه وُجوهٌ؛ أحدُها: ﴿مَّرْقُومٌ﴾ أي: مكتوبةٌ أعمالُهم فيه.

وثانيها: قال قَتادةُ: رُقِم لهم بسوءٍ، أي: كُتِب لهم بإيجابِ النَّارِ.

وثالثُها: قال القَفَّالُ: يحتملُ أن يكونَ المرادُ: أنَّه جُعِل ذلك الكتابُ مَرقومًا، كما يَرقُمُ التَّاجرُ ثوبَه علامةً لقيمتِه، فكذلك كتابُ الفاجرِ جُعِل مَرقومًا برقْمٍ دالٍّ على شقاوتِه.

ورابعُها: المرقومُ هاهنا: المختومُ. قال الواحديُّ: وهو صَحيحٌ؛ لأنَّ الختمَ علامةٌ، فيجوزُ أن يُسمَّى المختومُ مرقومًا.

وخامِسُها: أنَّ المعنى: كتابٌ مُثبَتٌ عليهم كالرَّقْمِ في الثَّوبِ لا يَنْمَحي). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٨٧). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٨).

أي: وما يُكَذِّبُ بذلك اليَومِ إلَّا كُلُّ مُعتَدٍ على حُدودِ اللهِ، ظالمٍ لعِبادِ اللهِ، مُبالِغٍ في الانهِماكِ في المحَرَّماتِ، كَثيرِ الآثامِ والسَّيِّئاتِ(١).

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾﴾.

أي: إذا تُلِيَت عليه آياتُ القُرآنِ قال مُكَذِّبًا: تلك أحاديثُ الأوَّلِينَ وخُرافاتُهم الَّتي سُطِرَت في الكُتُبِ مِن قَبْلُ(٢)!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥].

وقال الله سُبحانَه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [النحل: ٢٤].

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بعدَ أنْ ذكر أنَّهم قالوا: إنَّ القرآنَ أساطيرُ الأوَّلينَ، وليس وحيًا مِن عندِ الله- أردَفَ ذلك بيانَ أنَّ الَّذي جرَّأهم على ذلك هي أفعالُهم القبيحةُ(٣).

﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾.

أي: ليس القُرآنُ بأساطيرِ الأوَّلِينَ كما يَزعُمُ المكَذِّبونَ، ولكِنَّ الَّذي حمَلَهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ٧٧).

على التَّكذيبِ بالحَقِّ وتَرْكِ الإيمانِ به أنَّه غَطَّى على قُلوبهم وأحاط بها ما كانوا يَعمَلونَه مِن الذُّنوبِ المُتتابِعةِ، حتَّى اسْوَدَّت قُلوبُهم، فرَأَوُا الحَقَّ باطِلًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ المؤمِنَ إذا أَذنَبَ كانت نُكتةٌ[٢] سَوداءُ في قَلْبِه، فإنْ تاب ونَزَع واستغفَرَ، صُقِلَ[٣] قَلْبُه، فإن زاد زادت، فذلك الرَّانُ الَّذي ذكَرَه اللهُ في كِتابِه: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾))[٤].

وعن حُذَيفةَ رَضِيَ الله عنه، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((تُعرَضُ الفِتَنُ على القُلوبِ كالحَصيرِ عُودًا عُودًا، فأيُّ قَلبٍ أُشرِبَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ[٥] سوداءُ، وأيُّ قَلبٍ أنكَرَها نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاءُ، حتَّى تَصيرَ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ١٩٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥، ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٩٩، ١٠٠).

(٢) النُّكْتةُ: أثَرُ الذَّنْبِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦٢٢).

(٣) صُقِلَ قَلْبُه: أي: محا الله تلك النُّكتةَ عن قلبِه فيَنْجلي. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٨/ ٤٢).

(٤) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٣٤)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١١٦٥٨)، وابنُ ماجه (٤٢٤٤) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٧٩٥٢).

قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ). وصَحَّحه ابن جريرٍ الطبريُّ في ((التفسير)) (١/ ١٤٧)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٩٣٠)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٦)، وحَسَّنه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤٢٤٤).

(٥) نُكِتَ فيه نُكتةٌ: أي: نُقِطَتْ وأَثَّرَتْ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (٨/ ٣٣٧٨).

قَلْبَينِ؛ على أبيضَ مِثلِ الصَّفا[١]، فلا تَضُرُّه فِتنةٌ ما دامَتِ السَّمَواتُ والأرضُ، والآخَرُ أسْوَدُ مُرْبَادًّا[٢] كالكُوزِ مُجَخِّيًا[٣]، لا يَعرِفُ مَعروفًا ولا يُنكِرُ مُنكَرًا إلَّا ما أُشرِبَ مِن هَواه))[٤].

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾.

أي: كَلَّا[٥] إنَّ أولئك المكَذِّبينَ لَمَحجوبونَ يومَ القيامةِ عن رَبِّهم، فلا يَرَونَه أبَدًا[٦].

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن ما لَهم مِنَ العَذابِ بالحِجابِ الَّذي هو عذابُ القَلْبِ الَّذي لا عذابَ أشَدُّ منه؛ لأنَّه يتفَرَّعُ عنه جميعُ العَذابِ- شَرَع يُبَيِّنُ بَعضَ ما تفَرَّعَ عنه مِن عذابِ

---

(١) الصَّفا: الحَجَر الأملَس؛ مِن غايةِ البَياضِ والصَّفاءِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٢) مُربادًّا: أي: صار كلَونِ الرَّمادِ؛ مِنَ الرُّبْدةِ: لونٌ بيْن السَّوادِ والغُبرةِ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٣).

(٣) كالكُوزِ مُجَخِّيًا: أي: كالكوزِ المائِلِ المنكوسِ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٣٧٨).

(٤) رواه مسلم (١٤٤).

(٥) قيل: المرادُ: نَفْيُ ما كان يقولُه هؤلاء المكَذِّبونَ بيومِ الدِّينِ مِن أنَّ لهم عندَ الله زُلْفةً. ومِمَّن قال بهذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٤).

وقيل: المرادُ: نَفْيُ ما ادَّعَوه مِن أنَّ القُرآنَ أساطيرُ الأوَّلينَ، فهو ليس كذلك لا في الواقعِ ولا في قَرارةِ أنفُسِهم؛ فلْيَرتَدِعوا عن ذلك أعظَمَ ارتِداعٍ. ومِمَّن قال بهذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥، ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٠).

القالَبِ، مؤكِّدًا مِن أجْلِ إنكارِهم، مُعَبِّرًا بأداةِ التَّراخي إعلامًا بعُلُوِّ رُتبتِه في أنواعِ العَذابِ، فقال[١]:

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾﴾.

أي: ثمَّ إنَّهم مع حِرْمانِهم رُؤيةَ اللهِ يَدخُلونَ النَّارَ، ويَحتَرِقونَ فيها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾ [الانفطار: ١٤ - ١٦].

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن ما لَهم مِنَ الفِعْلِ الَّذي هو للقَلْبِ والقالَبِ؛ أتْبَعَه القَولَ بالتَّوبيخِ والتَّبكيتِ الَّذي هو عذابُ النَّفْسِ[٣].

﴿ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾.

أي: ثمَّ يُقالُ لهم تقريعًا وتَوبيخًا: هذا هو عذابُ النَّارِ الَّذي كنتُم في الدُّنيا تُكَذِّبونَ به؛ فذُوقوه الآنَ في الآخِرةِ[٤]!

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ * ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [الذاريات: ١٣، ١٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٢).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ فردَع المطفِّفينَ عمَّا كانوا عليه مِن التَّطفيفِ، والغفلةِ عن البعثِ والحسابِ، ونَبَّهَهم على أنَّه ممَّا يَجِبُ أنْ يُتابَ عنه ويُندَمَ عليه بقوله: ﴿كَلَّآ﴾، ثمَّ أَتْبعه وَعيدَ الفُجَّارِ على العُمومِ بقولِه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ التَّحذيرُ مِن الذُّنوبِ؛ فإنَّها تَرينُ على القَلْبِ، وتُغَطِّيه شَيئًا فشَيئًا؛ حتَّى يَنطَمِسَ نُورُه، وتموتَ بَصيرتُه؛ فتَنقَلِبَ عليه الحقائِقُ، فيَرى الباطِلَ حَقًّا، والحَقَّ باطِلًا! وهذا مِن بَعضِ عُقوباتِ الذُّنوبِ[(٢)].

فالمُبادَرةُ بالعَمَلِ السَّيِّئِ سَبَبٌ لطَمسِ البَصيرةِ والطَّبعِ والرَّانِ على القُلوبِ، كما بيَّنَه اللهُ تعالى في آياتٍ كثيرةٍ، ومنها هذه الآيةُ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، وقَولُه تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗا﴾ [البقرة: ١٠]، وقَولُه جَلَّ وعلا: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[(٣)] [الصف: ٥].

٣- قال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فوصَفَهم بأنَّ كَسْبَهم رانَ على قُلوبِهم، والرَّانُ: هو ما يَعلو على القَلبِ مِن الذُّنوبِ مِن ظُلمةِ المعاصي وقَسْوتِها، ثُّم ذَكَر جزاءَهم على ذلك، وهو ثلاثةُ أنواعٍ: الحِجابُ عن رَبِّهم، ثُّم صِلِيُّ الجَحيمِ، ثمَّ التَّوبيخُ.

فأعظَمُ عَذابِ أهلِ النَّارِ حِجابُهم عن رَبِّهم عَّز وجَلَّ، ولَمَّا كانت قُلوبُهم في

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

(٣) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ١٢٨).

الدُّنيا مُظلِمةً قاسِيةً، لا يَصِلُ إليها شيءٌ مِن نورِ الإيمانِ وحقائِقِ العِرفانِ، كان جزاؤُهم على ذلك في الآخِرةِ حِجابَهم عن رؤيةِ الرَّحمنِ.

قال بعضُ العارفينَ: «مَن عَرَف اللهَ في الدُّنيا عَرَفه بقَدْرِ تعَرُّفِه إليه، وتجلَّى له في الآخِرةِ بقَدْرِ مَعرفتِه إيَّاه في الدُّنيا، فرآه في الدُّنيا رؤيةَ الأسرارِ، ويراه في الآخِرةِ رُؤيةَ الأبصارِ، فمَن لا يراه في الدُّنيا بسِرِّه، لا يراه في الآخِرةِ بعَينِه» انتهى. فخَوفُ العارفينَ في الدُّنيا مِن احتِجابِه عن بصائِرِهم، وفي الآخِرةِ مِن احتِجابِه عن أبصارِهم ونواظِرِهم[(١)].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ كِتابَهم إذا كان في سِجنٍ عَظيمٍ، أي: ضيقٍ شَديدٍ؛ كانوا هم في أعظَمَ[(٢)]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ أنَّ اسمَ الفاجِرِ في عُرْفِ القُرآنِ والسُّنَّةِ يتناولُ الكافِرَ قَطْعًا[(٣)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ النَّارَ في الأرضِ، فـ «سِجِّينٌ» هي الأرضُ السُّفلى، كذلك جاء في الحديثِ فيمَنِ احتُضِرَ وقُبِضَ مِن الكافِرينَ؛ فإنَّها لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ، ويقولُ اللهُ تعالى: ((اكتُبُوا كِتابَ عبدي في سِجِّينٍ في الأرضِ السُّفلَى، وأعيدُوه إلى الأرضِ))[(٤)]. ولو كانتِ النَّارُ في السَّماءِ لَكانت تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السَّماءِ لِيَدخُلوها، وإذا كانت في السَّماءِ لَزِمَ

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٣/ ٣٧٠).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٨).
(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٨٥).
(٤) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٤٠).

مِن دُخولِهم في النَّارِ -الَّتي في السَّماءِ- أنْ تُفَتَّحَ أبوابُ السَّماءِ[١]!

٤- كُلَّما عَلَت الجِهةُ اتَّسَعَت، وكُلَّما سَفَلت ضاقَت؛ فلهذا كان الأعلى هو الأوسَعَ، وكان الأسفَلُ هو الأضيقَ؛ ولهذا قابَلَ اللهُ تعالى بيْن عِلِّيِّينَ وبيْن سِجِّينٍ في كتابِه، فقال: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المُطَفِّفين ١٨] ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾، ولَم يَقُلْ: «في سِفْلِين» كما لَم يَقُلْ هناك: «في وِسْعِين»؛ لِيُبَيِّنَ الضِّيقَ والحَرَجَ الَّذي في المكانِ، كما بَيَّنَ سُفُولَه بمقابلتِه بـ«عِلِّيِّين»، وبَيَّنَ أيضًا سَعَةَ «عِلِّيِّين» بمُقابلةِ «سِجِّين»؛ فيكونُ قد دلَّ على العُلُوِّ والسَّعةِ الَّتي للأبرارِ، وعلى السُّفولِ والضِّيقِ الَّذي للفُجَّارِ[٢].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ التَّكذيبُ بيَومِ الجزاءِ هو مَنشَأُ الإقدامِ على السَّيِّئاتِ والجرائِم؛ ولذلك أعقَبَه بقَولِه: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: إنَّ تَكذيبَهم به جَهلٌ بحِكمةِ اللهِ تعالى في خَلْقِ النَّاسِ وتَكليفِهم؛ إذ الحِكمةُ مِن خَلْقِ النَّاسِ تقتضي تحسينَ أعمالِهم، وحِفْظَ نِظامِهم؛ فلذلك جاءتهم الشَّرائعُ آمِرةً بالصَّلاحِ، وناهيةً عن الفَسادِ، ورَتَّب لهم الجزاءَ على أعمالِهم الصَّالحةِ بالثَّوابِ والكَرامةِ، وعلى أعمالِهم السَّيِّئةِ بالعَذابِ والإهانةِ؛ كلٌّ على حَسَبِ عَمَلِه، فلو أهمَلَ الخالِقُ تَقويمَ مَخلوقاتِه، وأهمَلَ جزاءَ الصَّالحينَ والمُفسِدينَ؛ لم يكُنْ ذلك مِن حِكمةِ الخَلْقِ؛ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ * فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾[٣] [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٦٠).

وتُنظر الآثارُ الواردةُ في مكانِ جهنَّمَ في: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيمية (٤/ ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ إلى قَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٢٩، ٣٠] أنَّ مَن كَذَّبَ بالبَعْثِ فهو كافِرٌ[١].

٧- إذا طَبَعَ اللهُ على قَلبِ العَبْدِ فإنَّه يرى الباطِلَ حَقًّا، والحَقَّ باطِلًا، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يعني: كَلَّا ليس أساطيرَ الأوَّلِينَ، ولكِنْ لَمَّا كان هذا الإنسانُ قد كَسَب معاصيَ وآثامًا أظلَمَ بها قَلْبُه، اجتمَعَت هذه الآثامُ على القَلْبِ وصار لا يرى القرآنَ العظيمَ إلَّا كحِكاياتِ الأوَّلينَ، لم يَذُقْ له طَعْمًا، ولم يَستَنِرْ به قَلْبُه. والعِياذُ باللهِ[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أنَّ المعاصيَ تَحُولُ بيْن الإنسانِ وبَيْنَ الفِقهِ في دِينِ اللهِ[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ أنَّ أهلَ النَّارِ كما حُجِبَتْ قلوبُهم في الدُّنيا عن اللهِ، حُجِبُوا في الآخرةِ عن رؤيتِه، وهذا بخِلافِ حالِ أهلِ الجَنَّةِ؛ قال اللهُ تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، والَّذين أَحسَنوا هم أهلُ الإحسانِ، والإحسانُ أنْ يَعْبُدَ العبدُ ربَّه كأنَّه يَراه، كما فَسَّرَه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم لَمَّا سألَه عنه جبريلُ عليه السَّلامُ، فجَعَل جزاءَ الإحسانِ الحُسْنى -وهي الجَنَّةُ-، والزِّيادةَ -وهي النَّظرُ

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٦/ ١٤٧).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٦٤٧).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ التَّربويَّةِ (ص: ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٣٦).

إلى وجهِ اللهِ عزَّ وجلَّ- كما فَسَّرَه بذلك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم في حديثِ صُهَيبٍ وغَيرِه[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ رَدٌّ على مَن زَعَم أنَّ الكُفَّارَ يَرَونَه تعالى يومَ القيامةِ[٢]، ومفهومُ الآيةِ أنَّ المؤمِنينَ يَرَونَ رَبَّهم يومَ القيامةِ وفي الجَنَّةِ، ويتَلَذَّذونَ بالنَّظَرِ إليه أعظَمَ مِن سائرِ اللَّذَّاتِ، ويبتَهِجونَ بخِطابِه، ويَفرَحونَ بقُرْبِه[٣]، وقد احتجَّ بهذه الحُجَّةِ الشَّافعيُّ نفْسُه وغيرُه مِن الأئمَّةِ، ووَجْهُ الاستِدلالِ بها أنَّه سُبحانَه وتعالى جعَلَ مِن أعظمِ عُقوبةِ الكُفَّارِ كونَهم محجوبينَ عن رؤيتِه واستِماعِ كلامِه، فلو لم يَرَه المؤمِنونَ ولم يَسمَعوا كلامَه لَكانوا أيضًا مَحجوبينَ عنه[٤]!

١١- قِيل هنا: ﴿عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، دونَ أنْ يُقالَ: (عن رُؤيةِ ربِّهم)، أو (عن وجْهِ ربِّهم)؛ ليَكونَ الكلامُ مُفيدًا لِمَعنيينِ: حَجْبِهم عن ربِّهم -والحجبُ هو السَّترُ- والإهانةِ؛ فالحجْبُ يُستعمَلُ في المنْعِ مِن الحُضورِ لَدَى الملِكِ ولَدَى سيِّدِ القَومِ، وكِلا المعنيَينِ مُرادٌ هنا؛ لأنَّ المكذِّبين بيومِ الدِّينِ لا يَروَن اللهَ يومَ القِيامةِ حينَ يَراهُ أهلُ الإيمانِ[٥].

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ مَن رانَ على قَلْبِه كَسْبُه، وغَطَّتْه معاصيه، فإنَّه محجوبٌ عن الحَقِّ؛ ولهذا

(١) يُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٩٦).
ويُنظر ما أخرجه مسلمٌ (١٨١) من حديثِ صُهَيبٍ رضيَ الله عنه.
(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٤).
(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).
(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٩٢). ويُنظر أيضًا: ((مناقب الشافعي)) للبيهقي (١/ ٤١٩).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٠، ٢٠١).

جُوزِيَ على ذلك بأن حُجِبَ عن اللهِ كما حُجِبَ قَلْبُه في الدُّنيا عن آياتِ اللهِ[١].

١٣- قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فجَمَعَ عليهم نَوعَيِ العذابِ: عَذابِ النَّارِ، وعذابِ الحِجابِ عنه سُبحانَه، كما جَمَعَ لأوليائِه نَوعَيِ النَّعيمِ: نعيمِ التَّمَتُّعِ بما في الجَنَّةِ، ونعيمِ التَّمَتُّعِ برُؤيتِه تعالى[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ * كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ ﴿كَلَّا﴾ إبْطالٌ ورَدْعٌ لِما تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾ [المطففين: ٤] مِن التَّعجيبِ مِن فِعلِهم التَّطفيفَ، وكذا الغفلةُ عن البعثِ والحِسابِ، والمَعنى: كَلَّا بل هم مَبْعوثون لذلك اليَومِ العَظيمِ، ولتَلَقِّي قَضاءِ رَبِّ العالَمينَ؛ فهي جَوابٌ عمَّا تَقدَّمَ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ...﴾ إلخ، استِئنافٌ ابتِدائيٌّ بمُناسَبةِ ذِكرِ يومِ القِيامةِ، وهو تَعريضٌ بالتَّهديدِ للمُطفِّفين بأنْ يَكونَ عَملُهم موجِبًا كَتْبَه في كِتابِ الفُجَّارِ[٤].

وقيل: إنَّ قولَه: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ...﴾ إلخ، تعليلٌ للرَّدْعِ أو وُجوبِ الارتِداعِ بطَريقِ التَّحقيقِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٥).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦).

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْفُجَّارِ﴾ للجِنسِ مُرادٌ به: الاِستِغراقُ، أي: جَميعُ المُشرِكينَ؛ فيَعُمُّ المُطفِّفينَ وغَيرَ المُطفِّفينَ. وشُمولُ عُمومِ الفُجَّارِ لجَميعِ المُشرِكينَ؛ المُطفِّفينَ منهم وغَيرِ المُطفِّفين، يُعنى به: أنَّ المُطفِّفينَ منهم والمَقصودُ الأوَّلُ مِن هذا العُمومِ؛ لأنَّ ذِكرَ هذا الوَصفِ والوَعيدِ عليه عَقِبَ كَلِمةِ الرَّدْعِ عن أعمالِ المُطفِّفينَ قَرينةٌ على أنَّ الوَعيدَ مُوَجَّهٌ إليهم[١].

- وفي قولِه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ أظهَرَ مَوضِعَ الإضمارِ؛ تعميمًا، وتعليقًا للحُكمِ بالوصفِ[٢].

- ومَحمَلُ قولِه: ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ إنْ كان على ظاهِرِ الظَّرفيَّةِ، كان المَعنى: إنَّ كُتُبَ أعمالِ الفُجَّارِ مُودَعةٌ في مكانٍ اسمُه سِجِّينٌ، أو وَصفُه سِجِّينٌ، وذلك يُؤذِنُ بتَحقيرِه، أي: تَحقيرِ ما احْتَوى عليه مِن أَعمالِهم المَكتوبةِ فيه. وإنْ حُمِلَت الظَّرفيَّةُ في قولِه: ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾ على غَيرِ ظاهِرِها، فجَعْلُ كِتابِ الفُجَّارِ مَظروفًا في سِجِّينٍ مُعبَّرٌ به عن جَعْلِ الأعمالِ المُحصاةِ فيه في سِجِّينٍ، وذلك كِنايةٌ رَمزيَّةٌ عن كَونِ الفُجَّارِ في سِجِّينٍ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ وجُملةِ ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾، وهي تَهويلٌ لأَمرِ السِّجِّينِ تَهويلَ تَفظيعٍ لحالِ الواقِعينَ فيه، أي: هو بحَيثُ لا يَبلُغُه دِرايةُ أحَدٍ[٤].

- قَولُه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ﴾ الاستِفهامُ فيه هو مِن بابِ تفخيمِ الأمرِ وتعظيمِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣١٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥).

وكذلك قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾[(١)] [المطففين: ١٩].

- وقولُه: ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ خَبرٌ عن ضَميرٍ مَحذوفٍ يَعودُ إلى ﴿كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾، والتَّقديرُ: هو -أي: كِتابُ الفُجَّارِ- كِتابٌ مَرقومٌ، وهذا مِن حَذفِ المُسنَدِ إليه الَّذي اتُّبِعَ في حَذفِه استِعمالُ العَرَبِ[(٢)] إذا تَحدَّثوا عن شَيءٍ ثمَّ أرادوا الإخْبارَ عنه بخَبرٍ جَديدٍ[(٣)].

- والمَرقومُ: المَكتوبُ كِتابةً بَيِّنةً تُشبِهُ الرَّقْمَ في الثَّوبِ المَنسوجِ، وهذا الوَصفُ: ﴿مَّرۡقُومٞ﴾ يُفيدُ تأكيدَ ما يُفيدُه لَفظُ ﴿كِتَٰبٞ﴾[(٤)].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾

- جُملةُ ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ يَجوزُ أنْ تَكونَ مُبيِّنةً لمَضمونِ جُملةِ ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۞ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [المطففين: ٤، ٥]؛ فإنَّ قولَه: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ يُفيدُ تَنوينُه جُملةً مَحذوفةً جُعِلَ التَّنوينُ عِوَضًا عنها، تَقديرُها: يومَ إذ يَقومُ النَّاسُ لرَبِّ العالَمين وَيلٌ فيه للمُكذِّبين. ويَجوزُ أنْ تَكونَ ابتِدائيَّةً، وبيْنَ المُكذِّبين بيَومِ الدِّينِ والمُطفِّفين عُمومٌ وخُصوصٌ وَجهيٌّ[(٥)]؛ فمِن المُكذِّبين مَن هم مُطفِّفون، ومِن المُطفِّفين مُسلِمون وأهلُ كِتابٍ لا يُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ؛ فتَكونُ

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٢/ ٤٠٨).

(٢) وهو ما يُسمَّى بمُتابعةِ الاستعمالِ؛ وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٥، ١٩٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ١٩٦).

(٥) عُمومٌ وخُصوصٌ وَجْهيٌّ: هو أنْ يَجتمِعَ الطَّرَفانِ في صُورةٍ، ويَنفَرِدَا في صُورةٍ؛ مثلًا: الحمدُ والشُّكرُ، يَجتَمِعانِ في أنَّهما ثَناءٌ باللِّسانِ، ويَنفرِدُ الحمدُ في صُورةٍ؛ وهي: الثَّناءُ على الصِّفاتِ الحميدةِ، ويَنفَرِدُ الشُّكرُ في صُورةٍ؛ هي: الثَّناءُ بالقلبِ. يُنظر: ((التحبير)) للمَرْداوي (١/ ٤٢).

هذه الجُملةُ إدْماجًا لتَهديدِ المُشرِكين المُكذِّبين بيَومِ الدِّينِ، وإنْ لم يَكونوا مِن المُطفِّفين[١].

- وقدْ ذُكِرَ المُكذِّبون مُجمَلًا في قولِه: ﴿لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾، ثمَّ أُعيدَ مُفصَّلًا ببَيانِ مُتعَلَّقِ التَّكْذيبِ، وهو ﴿بِيَوْمِ ٱلدِّينِ﴾؛ لزِيادةِ تَقريرِ تَكذيبِهم في أذْهانِ السَّامِعينَ منهم ومِن غَيرِهم مِن المُسلِمينَ وأهلِ الكِتابِ؛ فالصِّفةُ هنا للتَّهديدِ، وتَحذيرِ المُطفِّفين المُسلِمينَ مِن أنْ يَستَخِفُّوا بالتَّطفيفِ فيَكونوا بمَنزِلةِ المُكذِّبين بالجَزاءِ عليه[٢].

- وفي قولِه: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيث أُفرِدَت هذه الآيةُ في هذه السُّورةِ، وتَكرَّرت في سُورةِ (المرسَلاتِ) عشْرَ مرَّاتٍ؛ قيل: ذلك لأنَّ قولَه: (وَيلٌ لهم) كَلمةٌ تُقالُ في كلِّ مَن وقَعَ في هَلَكةٍ لا يُرْجَى خَلاصُه منها، وفي هذه السُّورةِ مَذكورةٌ مَرَّةً واحدةً؛ لأنَّها مَقصورةٌ على التَّرهيبِ مِن النَّارِ ووَصْفِها ومُعاقَبةِ أهْلِها، وعلى التَّرغيبِ في الجنَّةِ ونَعيمِ أهْلِها؛ ليس في السُّورةِ غيرُ هذَين المعْنيَين، فلمَّا جُرِّدتْ لهما ذُكِرتِ الكلِمةُ عِندَ ذِكرِ ما كُتِب على المكذِّبين وأعلَمَ به كِتابُهم بما يكونُ إليه مآلُهُم، ثمَّ شُرِعَ في وَصْفِ كِتابِ الأبرارِ ومَحلِّه وتَبعيدِ ما بيْن جَزائِهم وجَزاءِ غيرِهم؛ فاكْتُفِيَ بذِكرِ الكلمةِ مرَّةً لِما بُنِيَ على اختصارِ السُّورةِ[٣].

أمَّا التَّكرارُ في سورةِ (المُرسَلاتِ) فلأنَّ كلَّ جُملةٍ منها فيها إخبارُ اللهِ تعالَى عن أشياءَ مِن أحوالِ الآخرةِ وتَقريراتٍ مِن أحوالِ الدُّنيا، فناسَبَ أنْ يُذكَرَ الوعيدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٤٩).

عَقِيبَ كلِّ جُملةٍ منها للمُكذِّبِ بالوَيلِ في يومِ الآخرةِ[١].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ وَصْفٌ لِلذَّمِّ لا للبَيانِ، كَقولِك: فَعَلَ ذلك فُلانٌ الفاسِقُ الخَبيثُ، فليسَ قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ﴾ صِفةً كاشِفةً[٢] للمُكذِّبين؛ لكَونِهم مَعلومينَ، ولا هي فارِقةٌ؛ لأنَّه لم يُرَدْ تَمييزُهم عن غَيرِهم، بل مَرفوعٌ أو مَنصوبٌ على الذَّمِّ، ويَجوزُ أنْ يُبدَلَ؛ ليُناطَ به قولُه: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ﴾[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

- قولُه: ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ﴾ صِيغةُ القَصْرِ مِن النَّفيِ والاستِثناءِ (مَا... إلَّا) تُفيدُ قَصْرَ صِفةِ التَّكذيبِ بيَومِ الدِّينِ على المُعتَدينَ الآثِمينَ الزَّاعِمينَ القُرآنَ أساطيرَ الأوَّلين، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصْرٌ حَقيقيٌّ[٤]؛ لأنَّ يومَ الدِّينِ لا يُكَذِّبُ به إلَّا غَيرُ المُتدَيِّنين؛ المُشرِكون والوَثَنيُّون وأضْرابُهم ممَّن جَمَع الأوصافَ الثَّلاثةَ، وأعظَمُها التَّكْذيبُ بالقُرآنِ؛ فإنَّ أهْلَ الكِتابِ والصَّابِئةَ لا يُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ، وكَثيرٌ مِن أهلِ الشِّركِ لا يُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ مِثلَ أَصحابِ دِيانةِ القِبْطِ؛ فالَّذين يُكذِّبون بيَومِ الدِّينِ هم مُشرِكو العَرَبِ ومَن شابَهَهم مِثلُ الدَّهْريِّين؛ فإنَّهم تَحقَّقَتْ فيهم الصِّفتان الأُولى والثَّانيةُ، وهي الاعتِداءُ والإثمُ، وهو ظاهِرٌ. وأمَّا زَعْمُ القُرآنِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٣٧٩). ويُنظر ما تقدَّم في سورة المرسلات (٤١/ ٥٠٥).

(٢) تقدَّم تعريفُها (ص: ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

أساطيرَ الأوَّلينَ فهو مَقالةُ المُشركين مِن العَرَبِ، وهم المَقصودُ ابتِداءً، وأمَّا غَيرُهم ممَّن لم يُؤثَرْ عنهم هذا القَولُ فَهُم مُتَهيِّئون لِأنْ يَقولوه، أو يَقولوا ما يُساويه أو يَؤولُ إليه؛ لأنَّ مَن لم يُعرَضْ عليهم القُرآنُ منهم لو عُرِضَ عليه القُرآنُ لكَذَّبَ به تَكذيبًا يُساوي اعتِقادَ أنَّه مِن وَضْعِ البَشَرِ، فهؤلاء وإنْ لم يَقولوا: القُرآنُ أساطيرُ الأوَّلينَ؛ فظَنُّهم في القُرآنِ يُساوي ظَنَّ المُشركين، فنُزِّلوا مَنزِلةَ مَن يَقولُه. ويَجوزُ أنْ يكونَ القَصْرُ ادِّعائيًّا[1]، ولا يُلتَفَتُ إلى تَنزيلِ مَن لم يَقُلْ ذلك في القُرآنِ، ومَعنى الادِّعاءِ: أنَّ مَن لم يُؤثَرْ عنهم القَولُ في القُرآنِ بأنَّه أساطيرُ الأوَّلين، قد جُعِلَ تَكذيبُهم بيَومِ الدِّينِ كَلَا تَكذيبٍ؛ مُبالَغةً في إبطالِ تَكذيبِ المُشركين بيَومِ الدِّينِ[2].

- و﴿أَثِيمٍ﴾ صِفةُ مُبالَغةٍ في الآثِمِ، أي: كَثيرُ الإثْمِ، مُنهَمِكٌ في الشَّهَواتِ الفانيةِ، بحَيثُ شَغَلَتْه عمَّا وَراءَها مِن اللَّذَّاتِ التَّامَّةِ الباقِيةِ، وحَمَلَتْه على إنْكارِها[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ اعتِراضٌ بالرَّدْعِ وبَيانٌ له؛ لأنَّ ﴿كَلَّا﴾ رَدْعٌ لقَولِهم: ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾، أي: إنَّ قولَهم باطِلٌ، وحرفُ ﴿بَلْ﴾ للإبْطالِ؛ تَأكيدًا لمَضمونِ ﴿كَلَّا﴾، وبَيانًا وكَشفًا لِما حَمَلَهم على أنْ يَقولوا في القُرآنِ ما قالوا، وأنَّه ما أَعْمَى بَصائِرَهم مِن الرَّيْنِ[4].

- ومَجيءُ ﴿يَكْسِبُونَ﴾ بصِيغةِ المُضارعِ دُون الماضي؛ لإفادةِ تَكرُّرِ ذلك

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٧، ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٨، ١٩٩).

الكَسْبِ وتَعدُّدِه في الماضي[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وزَجْرٌ عن الكَسْبِ الرَّائنِ[٢]. أو ﴿كَلَّآ﴾ هُنا تَأكيدٌ لـ ﴿كَلَّآ﴾ الأُولى؛ زِيادةً في الرَّدْعِ ليَصيرَ تَوبيخًا[٣].

٦- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ قيل: عُطِفَت الجُملةُ بحرفِ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ في عَطْفِها الجُملَ على التَّراخي الرُّتْبيِّ، وهو ارتِقاءٌ في الوَعيدِ؛ لأنَّه وَعيدٌ بأنَّهم مِن أَهلِ النَّارِ، وذلك أَشَدُّ مِن خِزيِ الإهانةِ، وحجبِهم عن ربِّهم[٤].

٧- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ تَقريعٌ، مع التَّأييسِ مِن التَّخفيفِ؛ فعَطفُ الجُملةِ بحَرْفِ (ثُمَّ) اقتَضَى تراخِي مَضمونِ الجُملةِ على مَضمونِ الَّتي قبْلَها، أي: بُعْدَ درجتِه في الغَرضِ المَسوقِ له الكلامُ. واقْتَضى اسمُ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ أنَّهم صاروا إلى العَذابِ. والإخبارُ عن العَذابِ بأنَّه الَّذي كانوا به يُكذِّبون، يُفيدُ أنَّه العَذابُ الَّذي تَكرَّرَ وَعيدُهم به وهُم يُكذِّبونه، وذلك هو الخُلودُ، وهو درَجةٌ أَشَدُّ في الوَعيدِ، وبذلك كان مَضمونُ الجُملةِ أَرْقى رُتبةً في الغَرَضِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٩٩، ٢٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢١، ٧٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٥).

قال الألوسي: (﴿ثُمَّ﴾ قيل: لتَراخي الرُّتبةِ، لكن بناءً على ما عندَهم؛ فإنَّ صليَ الجحيم عندَهم أشدُّ مِن حجابِهم عن ربِّهم عزَّ وجلَّ، وأمَّا عندَ المؤمنينَ لا سيَّما الوالهينَ به سبحانَه منهم فإنَّ الحجابَ عذابٌ لا يُدانيه عذابٌ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٠).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٤٤٧-٤٤٨).

مَضمونِ الجُملةِ المَعطوفةِ هي عليها[١].

ويجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إشارةً إلى جَوابِ مالكٍ خازنِ جَهنَّمَ المَذكورِ في قولِه تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧، ٧٨]؛ فطُوِيَ سُؤالُهم، واقتُصِرَ على جَوابِ مالكٍ خازنِ جَهنَّمَ اعتِمادًا على قَرينةِ عَطْفِ جُملةِ هذا المَقالِ بـ (ثُمَّ) الدَّالَّةِ على التَّراخي[٢].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿يُقَالُ﴾ للمَجهولِ؛ لعَدَمِ تَعلُّقِ الغَرَضِ بمَعرِفةِ القائِلِ، والمَقصدُ هو: القَولُ[٣].

- وجِيءَ باسمِ المَوصولِ؛ ليُذَكَّروا تَكذيبَهم به في الدُّنيا؛ تَنديمًا لهم وتَحزينًا[٤].

- وتَقديمُ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿تُكَذِّبُونَ﴾؛ للاهتِمامِ بمُعادِ الضَّميرِ، مع الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٠١، ٢٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٨-٢٨)

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ٢٤ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢٨﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عِلِّيِّينَ﴾: جَمعٌ منقولٌ مِن «عِلِّيٍّ» وهو فِعِّيلٌ مِنَ «العُلُوِّ»، كسِجِّينٍ مِنَ السَّجنِ، قيل: هو السَّماءُ السَّابعةُ تَحتَ العَرْشِ. وقيل: هو عَلَمٌ لديوانِ الخَيرِ الَّذي دُوِّنَ فيه كُلُّ ما عَمِلَتْه الملائكةُ وصُلَحاءُ الثَّقَلينِ؛ وسُمِّيَ بذلك إمَّا لأنَّه سَبَبُ الارتفاعِ إلى أعالي الدَّرَجاتِ في الجنَّةِ، وإمَّا لأنَّه مَرفوعٌ في السَّماءِ السَّابعةِ، وأصلُ (علو): يدُلُّ على ارتفاعٍ[1].

﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾: جمعُ أريكةٍ، وهي السَّريرُ في الحِجالِ، وتسميتُها بذلك إمَّا لكَونِها في الأرضِ متَّخذةً مِن أَراكٍ، وهو شجرةٌ، أو لكَونِها مكانًا للإقامةِ مِن قولِهم: أَرَكَ بالمكانِ أُرُوكًا، وأصلُ الأُرُوكِ: الإقامةُ على رَعْيِ الأَراكِ، ثمَّ تُجُوِّزَ به في غيرِه مِن الإقاماتِ، و(أرك) أصلانِ؛ أحدُهما: شَجَرٌ، والآخَرُ: الإقامةُ[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١١٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٣٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٦٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٨٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٨).

قال ابن عاشور: (الأريكةُ: سريرٌ عليه وِسادةٌ، معها سَتْرٌ وهو حَجَلَتُه، والحَجَلةُ: ظُلَّةٌ تُنصَبُ =

﴿نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾: أي: بَهْجةَ التَّنَعُّمِ وحُسْنَه، وأصلُ (نضر): يدُلُّ على حُسنٍ وجمالٍ، وأصلُ (نعم): يدُلُّ على تَرَفُّهٍ وطِيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ[١].

﴿رَّحِيقٖ﴾: الرَّحيقُ: اسمٌ للخَمْرِ الصَّافيةِ الطَّيِّبةِ[٢].

﴿مَّخۡتُومٍ﴾: أي: مختومٍ شرابُه بالرَّائحةِ المسكيَّةِ، وقيل: مَسدودٍ إناؤُه، ممنوعٍ مِن أن تمَسَّه يدٌ إلى أن يَفُكَّ خَتْمَه الأبرارُ، وأصلُ (ختم): يدُلُّ على بُلوغِ آخِرِ الشَّيءِ[٣].

﴿فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾: أي: فلْيَرغَبِ الرَّاغِبونَ، ولْيَسْتَبِقُوا في طَلَبِه، ولْتَحْرِصْ عليه نُفوسُهم، والمُنافَسةُ: مُجاهَدةُ النَّفْسِ للتَّشبُّهِ بالأفاضلِ، واللُّحُوقِ بهم مِن غيرِ إدخالِ ضرَرٍ على غيرِه، يُقالُ: نافَسْتُ في الشَّيءِ مُنافَسةً ونِفاسًا، إذا رَغِبْتَ فيه على وجهِ المُباراةِ، ومِن هذا قَولُهم: شَيءٌ نَفيسٌ، أي: هو أهلٌ أن يُتنافَسَ فيه، ويُرغَبَ فيه[٤].

---

= فوقَ السَّريرِ لِتَقيَ الحَرَّ والشَّمسَ، ولا يُسَمَّى السَّريرُ أريكةً إلَّا إذا كان معه حَجَلةٌ. وقيل: كُلُّ ما يُتوسَّدُ ويُفتَرَشُ مِمَّا له حَشوٌ: يُسَمَّى أريكةً، وإنْ لم تكُنْ له حَجَلةٌ)). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٩، ٤٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٠)، ((الصحاح)) للجوهري (٣/ ٩٨٥)، ((البسيط)) =

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾: أي: ما يُمزَجُ ويُخلَطُ به ذلك الشَّرابُ مِن تَسنيمٍ، وهو: اسمُ عَينٍ في الجنَّةِ رَفيعةِ القَدْرِ، سُمِّيَت بالتَّسنيمِ الَّذي هو مَصدَرُ سَنَّمَه: إذا رفَعَه؛ إمَّا لأنَّها أرفَعُ شَرابٍ في الجنَّةِ، وإمَّا لأنَّها تأتيهم مِن فَوقٍ، وأصلُ (مزج): يدُلُّ على خَلْطِ الشَّيءِ بغَيْرِه، وأصلُ (سنم): يدُلُّ على العُلُوِّ والارتفاعِ، ومنه سَنامُ البَعيرِ، وتسَنَّمتُ الحائِطَ: إذا عَلَوتَه[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿عَيْنًا﴾ في نَصبِه أوجُهٌ؛ أحدُها: أنَّه مَنصوبٌ على الحالِ مِنْ ﴿تَسْنِيمٍ﴾؛ لأنَّه عَلَمٌ لعَينٍ واسمٌ لِماءٍ في الجَنَّةِ، ولا يَضُرُّ كَونُه جامِدًا؛ لوَصفِه بقَولِه تعالى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾، أو لتأويلِه بمُشتَقٍّ كجاريةٍ، مع أنَّ الاشتِقاقَ غيرُ لازمٍ. الثَّاني: أنَّه مَنصوبٌ على المدحِ أو الاختِصاصِ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ. الثَّالثُ: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ الثَّانيةِ بـ «يُسْقَونَ» مُقَدَّرًا. الرَّابعُ: أنَّه مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ بـ ﴿تَسْنِيمٍ﴾ على أنَّه مَصدَرٌ مُنَوَّنٌ مُشتَقٌّ مِن سَنَّمَه: إذا رفَعَه.

وقولُه: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾: «الباءُ» إمَّا زائدةٌ، أي: يَشرَبُها، أو بمعنى «مِن»، أي: يَشرَبُ منها، أو هي على بابِها، على تَضمينِ ﴿يَشْرَبُ﴾ معنى: يَرْوَى أو يَلْتَذُّ[2].

---

= للواحدي (٢٣/ ٣٤١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨١٨)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٣٠).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٧) و(٥/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٤٢-٣٤٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٤٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٠١)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٤٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٣).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ارتَدِعوا -أيُّها الفُجَّارُ- عن تَكذيبِكم بالبَعْثِ والجَزاءِ؛ إنَّ صَحيفةَ أعمالِ المؤمِنينَ الطَّائِعينَ في مَوضِعٍ عالٍ رفيعٍ، وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بحقيقةِ عِلِّيِّينَ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الأبرارِ؟ كِتابُ الأبرارِ كِتابٌ مَسطورةٌ أعمالُهم فيه، يَحضُرُه المُقَرَّبونَ عِندَ اللهِ.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه ما أعدَّه للأبرارِ، فيقولُ: إنَّ الأبرارَ الَّذين أطاعوا اللهَ لَفِي نَعيمِ الجَنَّةِ الدَّائمِ، على السُّرُرِ يَنظُرونَ إلى وَجهِ اللهِ الكَريمِ، وإلى ما أعطاهم مِنَ النَّعيمِ، تَعرِفُ في وُجوهِهم أثَرَ النِّعمةِ والسُّرورِ، يُسقَون مِن خَمرٍ لذيذةٍ صافيةٍ مختومةٍ بالمِسْكِ؛ فلْيَجتَهِدِ المُتسابِقونَ ويُبادِرُوا في طَلَبِ ذلك النَّعيمِ. ويُمزَجُ ذلك الرَّحيقُ المختومُ ويُخلَطُ بشَرابٍ شَريفٍ مِن عَينٍ رَفيعةٍ عاليةٍ اسمُها تَسنيمٌ، وتلك العَينُ يَروَى بها المقَرَّبونَ السَّابِقونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكرَ تعالى أَمْرَ كِتابِ الفُجَّارِ وأنَّه في أسفَلِ الأمكِنةِ وأضيَقِها؛ عَقَّبَه بذِكرِ كِتابِ ضِدِّهم وهو كِتابُ الأبرارِ، وأنَّه في أعلَى الأمكنةِ وأوسَعِها وأفسَحِها؛ ليَتبيَّنَ الفَرْقُ[1].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر حالَ الفُجَّارِ المُطَفِّفينَ؛ أتْبَعَه بذِكْرِ حالِ الأبرارِ الَّذين لا يُطَفِّفونَ[2].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ١٨﴾.

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٠).

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ أولئك الفُجَّارُ مِن أنَّه لا بَعْثَ ولا حِسابَ ولا جَزاءَ؛ فلْيَرتَدِعوا عن تكذيبِهم بذلك! إنَّ صَحيفةَ أعمالِ المؤمِنينَ الطَّائِعينَ الملازِمينَ فِعْلَ الخَيراتِ وأعمالَ الإحسانِ: في مَوضِعٍ عالٍ رفيعٍ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٠٦، ٢١٠، ٢١١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٢).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ لَفِي ساقِ العرشِ، يعني: أعمالَ المؤمنينَ وحسَناتِهم). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٤).

وقيل: المرادُ: أعلى الأمكنةِ. وممَّن ذهب إليه: الزَّجَّاجُ، والقُشَيريُّ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٢٩٩)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٧٠١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٨٢).

وقيل: في السَّماءِ السَّابعةِ تحتَ العرشِ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، وابنُ الجَوزيِّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٤).

قيل: عِلِّيُّونَ هو: عَلَمٌ لديوانِ الخَيرِ الَّذي دُوِّنَ فيه كُلُّ ما عَمِلَتْه الملائكةُ وصُلَحاءُ الثَّقَلينِ. ومِمَّن قال بهذا: الزمخشريُّ، والنسفي، وابنُ جُزَي، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٢)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٠٣).

وقيل: عِلِّيُّونَ: هو اسمٌ لأعلى الجنَّةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القول: السعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ معناه: في علوٍّ وارتفاعٍ، في سماءٍ فوقَ سماءٍ، وعلوٍّ فوقَ علوٍّ. وجائزٌ أن يكونَ ذلك إلى السَّماءِ السَّابعةِ، وإلى سِدْرةِ المُنتهَى، وإلى قائمةِ العَرشِ، ولا خبَرَ يَقطَعُ العُذرَ بأنَّه مَعْنِيٌّ به بعضُ ذلك دونَ بعضٍ. والصَّوابُ أن يُقالَ في ذلك كما قال جلَّ ثناؤُه: إنَّ كتابَ أعمالِ الأبرارِ لَفِي ارتفاعٍ إلى حدٍّ قد عَلِمَ اللهُ جلَّ وعزَّ مُنْتَهاه، ولا عِلْمَ عندَنا بغايتِه، غيرَ أنَّ ذلك لا يقصرُ عن السَّماءِ السَّابعةِ؛ لإجماعِ الحُجَّةِ مِن أهلِ التَّأويلِ على ذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١).

عن البَراءِ بن عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما في حَديثِه الطَّويلِ في صفةِ قبضِ الرُّوحِ، ونعيمِ القبرِ وعذابِه، وفيه: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((فيَصعَدونَ بها، فلا يَمُرُّونَ -يعني: بها- على مَلَإٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فيقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنْتَهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا، فيَستَفتِحونَ له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبُوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنتَهَى به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبُوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ، وأَعيدوه إلى الأرضِ؛ فإنِّي منها خَلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى))[1].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان هذا أمرًا عَظيمًا؛ زاد في تعظيمِه بقَولِه[2]:

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ١٩﴾.

أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بحقيقةِ عِلِّيِّينَ الموضوعِ فيه كتابُ أعمالِ الأبرارِ[3]؟

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٤٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

والاستفهامُ هنا قيل: هو للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ. وممَّن اختاره: القرطبيُّ، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

وقيل: هو امتِنانٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه لم يكُنْ يَعلَمُ ذلك حتَّى أطْلَعَه اللهُ عليه. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٥٧).

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا عَظَّم المكانَ فعُلِمَت عَظَمةُ الكِتابِ، ابتدَأَ الإخبارَ عنه على سَبيلِ القَطْعِ؛ زيادةً في عَظَمتِه، فقال[1]:

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ٢٠﴾.

أي: كِتابُ الأبرارِ هذا هو كِتابٌ مَسطورةٌ أعمالُهم فيه بوُضوحٍ دونَ زِيادةٍ أو نَقْصٍ[2].

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا عَظَّمَه في نَفْسِه وفي مَكانِه؛ عَظَّمَه في حُضَّارِه؛ فقال[3]:

﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ٢١﴾.

أي: يَحضُرُه عِبادُ اللهِ المُقَرَّبونَ عِنْدَه[4].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٥٨، ٢٦٣)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

ممَّن ذهب إلى أنَّ ﴿يَشۡهَدُهُ﴾ بمعنى: يَحضُرُه: ابنُ الجوزيِّ، والخازنُ، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٣٣). =

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّها شُروعٌ في بَيانِ مَحاسِنِ أحوالِ الأبرارِ إثْرَ بَيانِ حالِ كِتابِهم، على طَريقةِ

= وقال الواحديُّ والبغويُّ والرازيُّ والرَّسْعَنيُّ: يَشهَدونَ ويَحضُرونَ ذلك المكتوبَ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٤٠).

وقال ابنُ عاشور: (﴿يَشۡهَدُهُ﴾ يَطَّلِعونَ عليه، أي: يُعلَنُ به عندَ المقرَّبينَ، وهم الملائِكةُ، وهو إعلانُ تَنويهٍ بصاحِبِه، كما يُعلَنُ بأسماءِ النَّابِغينَ في التَّعليمِ، وأسماءِ الأبطالِ في الكتائِبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

والمُقَرَّبونَ قيل: هم الملائِكةُ. ومِمَّن قال به: ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزيِّ، والقرطبيُّ، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: قَتادةُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢).

وقيل: هم الملائِكةُ ومَن في السَّمَواتِ مِنَ الأنبياءِ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالِحينَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: البِقاعيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وعن ابنِ عبَّاسٍ: يَشهَدُه كلُّ أهلِ السَّماءِ. وفي روايةٍ: يَشهَدُه مِن كلِّ سماءٍ مُقَرَّبوها، وقال بها الضَّحَّاكُ، وابنُ جُرَيجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٤٨).

قال البقاعي: (﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يَحضُرُه حضورًا تامًّا دائمًا -لا غَيبةَ فيه- الجماعةُ الَّذين يَعرِفُ كُلُّ أحدٍ أنَّه ليس لهم عندَ كُلِّ مَن يُعتَبَرُ تقريبُه إلَّا التَّقريبُ مِن ابتدائِه إلى انتهائِه، هم شهودُ هذا المسطورِ، وهم الملائِكةُ يُشَيِّعونَه مِن سماءٍ إلى سماءٍ، ويَحُفُّونَ به؛ سرورًا وتعظيمًا لصاحِبِه، ويَشهَدُه مَن في السَّمَواتِ مِنَ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ والصِّدِّيقينَ والشُّهَداءِ والصَّالحينَ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٢٦، ٣٢٧).

ما مَرَّ في شَأنِ الفُجَّارِ[١].

وأيضًا لَمَّا عَظَّم كِتابَهم في الآيةِ المتقَدِّمةِ؛ عَظَّم بهذه الآيةِ مَنزِلتَهم[٢].

﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ٢٢﴾.

أي: إنَّ المؤمِنينَ الَّذين أطاعوا اللهَ، وأحسَنُوا إلى عبادِ اللهِ: لَفِي نَعيمِ الجَنَّةِ الدَّائِمِ[٣].

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَر أنَّ الأبرارَ في نعيمٍ؛ بَيَّن ذلك النَّعيمَ بأمورٍ ثَلاثةٍ[٤]:

﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣﴾.

أي: هم على السُّرُرِ الَّتي أُرخِيَ عليها سُتورٌ مُزَيَّنةٌ يَنظُرونَ إلى وَجهِ اللهِ الكَريمِ، وإلى ما أعطاهم مِنَ النَّعيمِ العَظيمِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٤).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ: يَنظُرونَ إلى ما أعَدَّ الله لهم مِن النَّعيم، وما أعطاهم مِن أنواعِ الكرامةِ: ابنُ جرير، والبغويُّ، والرَّسْعَني، والبِقاعي، والقاسمي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٦)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٤٠)، ((نظم الدرر)) =

كما قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَصَف نَعيمَهم؛ أخبَرَ أنَّهم مِن عَراقَتِهم فيه يَعرِفُهم به كُلُّ ناظِرٍ إليهم[١].

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: تَعرِفُ في وُجوهِهم أثَرَ النِّعمةِ والسُّرورِ الظَّاهِرَ؛ مِنَ الحُسْنِ والبَهاءِ والنَّضارةِ[٢].

---

= للبقاعي (٢١/ ٣٢٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٤).

قال ابن القيم: (هضمَ معنى الآيةِ مَن قال: يَنظرونَ إلى أعدائِهم يُعذَّبون، أو يَنظرونَ إلى قصورِهم وبساتينِهم، أو ينظرُ بعضُهم إلى بعضٍ. وكلُّ هذا عُدولٌ عن المقصودِ إلى غيرِه، وإنَّما المعنَى ينظرونَ إلى وجهِ ربِّهم، ضدَّ حالِ الكفارِ الذين هم عن ربِّهم محجوبونَ). ((إغاثة اللهفان)) (١/ ٣٢).

وقال السعدي: (﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعدَّ الله لهم مِن النَّعيمِ، ويَنظُرونَ إلى وجهِ ربِّهم الكريمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وقال القُشَيري: (أثبتَ النَّظرَ ولم يُبيِّنِ المنظورَ إليه؛ لاختِلافِهم في أحوالِهم؛ فمِنهم مَن يَنظُرُ إلى قُصورِه، ومِنهم مَن ينظرُ إلى حُورِه، ومنهم ومنهم... ومنهم الخواصُّ فهُم على دوامِ الأوقاتِ إلى الله سُبحانَه يَنظُرونَ). ((تفسير القشيري)) (٣/ ٧٠٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٤).

قال ابنُ جُزَي: (الخِطابُ في ﴿تَعْرِفُ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، أو لكُلِّ مُخاطَبٍ مِن غيرِ تَعيينٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٢).

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كانت مجالِسُ الأُنْسِ -لا سِيَّما في الأماكِنِ النَّضِرةِ- لا تَطِيبُ إلَّا بالمآكِلِ والمَشارِبِ، وكان الشَّرابُ يدُلُّ على الأكلِ؛ قال مُقتَصِرًا عليه؛ لأنَّ هذه السُّوَرَ قِصارٌ، يُقصَدُ فيها الجَمعُ مع الاختِصارِ؛ قال[1]:

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ...﴾.

أي: يُسقَى هؤلاءِ الأبرارُ مِن خَمرٍ لذيذةٍ صافيةٍ لا كَدَرَ فيها، مختومةٍ بالمِسْكِ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٤، ٢١٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥، ٢٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٤، ١٠٥).

قال الماوَرْدي: (فيه أربعةُ تأويلاتٍ؛ أحدُها: مِزاجُه مِسْكٌ. قاله مجاهدٌ. الثَّاني: عاقِبَتُه مِسْكٌ. ويكونُ خِتامُه آخِرَه... الثَّالثُ: أنَّ طَعْمَه وريحَه مِسْكٌ... الرَّابعُ: أنَّ خَتْمَه الَّذي خُتِمَ به إناؤُه مِسْكٌ. قاله ابنُ عبَّاسٍ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٣٠).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: أنَّ هذه الخَمْرَ مختومةٌ بالرَّائحةِ المِسْكِيَّةِ، فتَفوحُ منها في آخِرِ شُرْبِهم لها رائِحةُ المِسْكِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن عطية، والقرطبي، والشوكاني، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢١٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٥).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (إذا شرِب وفرَغ ونزَع الإناءَ مِن فيه وجَد طَعْمَ المِسْكِ). ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٦٢٤).

وقال الزَّجَّاجُ: (انختَمَ ذلك بطَعْمِ المِسْكِ ورائحتِه). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٠١).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: تُختَمُ أوانيه مِن الأكوابِ والأباريقِ بمِسْكٍ مكانَ السِّدادةِ الَّتي تُغَطِّي الأوانيَ: الزمخشريُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٦).

=

﴿... وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾.

أي: فلْيَجتَهِدِ المتسابِقونَ ويُبادِرُوا في طَلَبِ ذلك النَّعيمِ[(١)]، بطاعةِ اللهِ تعالى، واجتنابِ ما يُسخِطُه، ولْيُسارِعوا؛ حِرصًا على الفَوزِ به[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ

---

= قال ابنُ عاشور: (الخِتامُ بوَزنِ كِتابٍ: اسمٌ للطِّينِ الَّذي يُختَمُ به، كانوا يجعَلونَ طِينَ الخِتامِ على مَحَلِّ السِّدادِ مِنَ القارورةِ أو الباطيةِ أو الدَّنِّ للخَمْرِ؛ لِمَنعِ تخلُّلِ الهواء إليها، وذلك أصلَحُ لاختمارِها، وزيادةِ صَفائِها، وحِفظِ رائحتِها، وجُعِلَ خِتامُ خَمرِ الجَنَّةِ بعَجينِ المِسْكِ عِوَضًا عن طِينِ الخَتْمِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٦).

وقال البِقاعي: (﴿مَّخْتُومٍ﴾ أي: فهو معَ نفاستِه سالمٌ مِن الغبارِ وجميعِ الأقذاءِ والأقذارِ. ولَمَّا كان الخَتمُ حينَ الفكِّ لا بدَّ أن يَنزِلَ مِن فُتاتِه في الشَّرابِ؛ قال: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾. وقال ابنُ مسعودٍ رضيَ الله عنه: إنَّ المرادَ بخِتامِه: آخرُ طَعمِه، فيحصلُ أنَّ خِتامَه في أوَّلِ فَتحِه وفي آخِرِ شربِه المِسكُ، وذلك يقتضي أن لا يكونَ يَفتَحُه إلَّا شاربُه، وأنَّه يكونُ على قدرِ كفايتِه فيَشرَبُه كلَّه، والعبارةُ صالحةٌ لأنْ يكونَ الختامُ أوَّلًا وآخِرًا، وهو يَجري مجرى افتِضاضِ البِكْرِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٢٩).

(١) قيل: المرادُ بقولِه ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارةُ إلى ما سبق ذِكرُه في هذه السُّورةِ مِن نَعيمِ الجنَّةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ، والبِقاعي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وقيل: اسمُ الإشارة يعودُ على الرَّحيقِ المختومِ بمِسْكٍ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٩، ٣٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٥).

أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر الشَّرابَ أتْبَعَه مِزاجَه -على ما يَتعارَفُه أهلُ الدُّنيا- لكِنْ بما هو أشرَفُ منه؛ فقال مُبَيِّنًا لحالِ هذا المَسْقِيِّ[(١)]:

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾﴾.

أي: ويُمزَجُ ذلك الرَّحيقُ المختومُ ويُخلَطُ بشَرابٍ شَريفٍ مِن عَينٍ رَفيعةٍ عاليةٍ اسمُها تَسنيمٌ[(٢)].

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: وتلك العَينُ يَروَى بها المقرَّبونَ السَّابِقونَ، وهم أعلى وأفضَلُ مِن الأبرارِ، فيَشرَبونَ منها شرابًا صافيًا خالِصًا دونَ أن يُمزَجَ بشَيءٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٧، ٢٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٥).

قال الجوهري: (تسنَّمه، أي: علاه. وقولُه تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ قالوا: هو ماءٌ في الجنَّةِ، سمِّي بذلك لأنَّه يجري فوقَ الغرفِ والقصورِ). ((الصَّحاح)) (٥/ ١٩٥٥). ويُنظر: ((غريب الحديث)) لابن قتيبة (١/ ٥٤٥)، ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٣/ ١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٥، ١٠٦).

قال ابن عثيمين: (مِن العلماءِ مَن قال: «الباءُ» بمعنى «مِن»، فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ أي: يَشرَبُ منها. ومنهم مَن قال: إنَّ ﴿يَشْرَبُ﴾ بمعنى: يَروَى، ضُمِّنَتْ معنَى يَروى، فمعنى ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ =

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ توجيهٌ إلى ما ينبغي أن تكونَ فيه المنافَسةُ؛ ففي هذه الآيةِ الكريمةِ لَفتٌ لأوَّلِ السُّورةِ؛ فإذا كان أولئك يَسعَونَ لجَمعِ المالِ بالتَّطفيفِ، فلَهُمُ الوَيلُ يومَ القيامةِ، وإذا كان الأبرارُ في نعيمٍ يومَ القيامةِ، وهذا شَرابُهم؛ فهذا هو محَلُّ المنافَسةِ، لا في التَّطفيفِ مِن أيِّ مَكيلٍ أو مَوزونٍ(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أنَّ التَّنافُسَ ليس مذمومًا مُطلَقًا، بل هو محمودٌ في الخَيرِ(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أنَّ العاقلَ يُنافِسُ في العُلُوِّ الدَّائمِ الباقي الَّذي فيه رِضوانُ اللهِ وقُرْبُه وجِوارُه، ويَرغَبُ عن العُلُوِّ الفاني الزَّائلِ الَّذي يَعْقُبُه غَضَبُ اللهِ وسَخَطُه، وانحِطاطُ العبدِ وسُفولُه، وبُعْدُه عن اللهِ وطَرْدُه عنه؛ فهذا العُلُوُّ الفاني الَّذي يُذَمُّ، وهو العُتُوُّ والتَّكبُّرُ في الأرضِ بغَيرِ الحقِّ، وأمَّا العُلُوُّ الأوَّلُ والحِرصُ عليه فهو مَحمودٌ(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ أنَّ الشَّارعَ لَمْ يَجْعَلِ الطَّاعاتِ والقُرُباتِ محَلًّا للإيثارِ، بل مَحَلًّا للتَّنافُسِ والمُسابَقةِ؛ ولهذا قال

---

= أي: يَروى بها المقرَّبون. وهذا المعنى أو هذا الوجهُ أحسَنُ مِن الوجهِ الَّذي قبْلَه؛ لأنَّ هذا الوجهَ يتضَمَّنُ شيئينِ يُرجِّحانِه؛ وهما: أوَّلًا: إبقاءُ حرفِ الجرِّ على معناه الأصليِّ. والثَّاني: أنَّ الفعلَ ﴿يَشۡرَبُ﴾ ضُمِّن معنًى أعلى مِن الشُّربِ، وهو الرِّيُّ، فكم مِن إنسانٍ يَشرَبُ ولا يَروى، لكنْ إذا رَوِيَ فقد شَرِب). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٦).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ١١٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (١/ ٨٩).

الفُقَهاءُ: «لا يُستحَبُّ الإيثارُ بالقُرُباتِ»، والسِّرُّ فيه -واللهُ أعلمُ- أنَّ الإيثارَ إنَّما يكونُ بالشَّيءِ الَّذي يَضِيقُ عن الاشتراكِ فيه، فلا يَسَعُ المؤْثِرَ والمؤْثَرَ، بل لا يَسَعُ إلَّا أحدَهما، وأمَّا أعمالُ البرِّ والطَّاعاتِ فلا ضِيقَ على العِبادِ فيها، فلو اشتركَ الألوفُ المؤلَّفةُ في الطَّاعةِ الواحدةِ لَمْ يكُنْ عليهم فيها ضِيقٌ ولا تزاحُمٌ، ووَسِعَتْهُم كلَّهم، وإنْ قُدِّرَ التَّزاحمُ فإنَّ في العَزْمِ والنِّيَّةِ الجازمةِ على فِعْلِه مِن الثَّوابِ ما لفاعلِه، فإذا قُدِّرَ فَوتُ مباشَرتِه له فلا يَفُوتُ عليه عَزْمُه ونِيَّتُه لفِعْلِه، وأيضًا فإنَّه إذا فات عليه كان في غيرِه مِن الطَّاعاتِ والقُرُباتِ عِوضٌ منه، وأيضًا فإنَّ المقصودَ رغبةُ العَبدِ في التَّقَرُّبِ إلى اللهِ، وابتغاءِ الوَسيلةِ إليه، والمنافَسةِ في مَحابِّه. والإيثارُ بهذا التَّقَرُّبِ يدُلُّ على رَغبتِه عنه، وتَرْكِه له، وعدَمِ المُنافَسةِ فيه، وهذا بخِلافِ ما يَحتاجُ إليه العَبدُ مِن طَعامِه وشَرابِه ولباسِه إذا كان أخوه محتاجًا إليه، فإذا اختَصَّ به أحدُهما فات الآخَرَ؛ فنَدَبَ اللهُ سُبحانَه عبْدَه إذا وَجَدَ مِن نفْسِه قوَّةً وصبرًا على الإيثارِ به ما لَمْ يَخْرِمْ عليه دِينًا، أو يَجْلِبْ له مَفسَدةً[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- أهلُ الجَنَّةِ نَوعانِ: سابِقونَ مُقَرَّبون، وأبرارٌ أصحابُ يمينٍ، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ * يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ * إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٍ

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٩٩، ٣٠٠).

وقال ابن القيِّم: (الله سُبحانَه وتعالَى يُحبُّ المُبادَرةَ أو المُسارَعةَ إلى خدمتِه، والتَّنافُسَ فيها؛ فإنَّ ذلك أبلَغُ في العُبوديَّةِ؛ فإنَّ المُلوكَ تحبُّ المُسارَعةَ والمُنافَسةَ في طاعتِها وخِدمَتِها، فالإيثارُ بذلك مُنافٍ لمقصودِ العُبوديَّةِ؛ فإنَّ اللهَ سُبحانَه أمَر عبدَه بهذه القُربةِ إمَّا إيجابًا وإمَّا استِحبابًا، فإذا آثَر بها ترَكَ ما أُمِر به وولَّاه غيرَه... وقد كان الصَّحابةُ يُسابِقُ بعضُهم بعضًا بالقُرَبِ، ولا يُؤْثِرُ الرَّجُلُ منهم غيرَه بها). ((الروح)) (ص: ١٣٠).

مَّخْتُومٍ ۞ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۞ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۞ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: (تُمزَجُ لأصحابِ اليَمينِ مَزْجًا، ويَشرَبُها المقرَّبونَ صِرْفًا [أي: خالصةً])[١].

٢- لَفظُ الأبرارِ إذا أُطْلِقَ دَخَلَ فيه كلُّ تَقِيٍّ مِن السَّابقينَ والمقتَصِدينَ، وإذا قُرِنَ بالمقرَّبينَ كان أخَصَّ؛ قال تعالى في الأوَّلِ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]، وقال في الثَّاني: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۞ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۞ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۞ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[٢].

٣- قَولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ استُدِلَّ به أنَّ الجَنَّةَ في أعلى عِلِّيِّينَ، وكما في قَولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حَديثِ البراءِ بنِ عازبٍ المشهورِ في صفةِ قبضِ الرُّوحِ، ونعيمِ القبرِ وعذابِه: ((فيقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ: اكتُبُوا كِتابَ عَبْدي في عِلِّيِّينَ، وأَعيدُوه إلى الأرضِ))[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ تحقيقٌ لكَونِه مَكتوبًا كِتابةً حَقيقيَّةً[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ خَصَّ تعالى كتابَ الأبرارِ بأنَّه يُكْتَبُ ويُوَقَّعُ لهم به بمَشْهَدِ المقرَّبينَ مِن الملائكةِ والنَّبيِّينَ وساداتِ المؤمنينَ -وذلك على قولٍ-، ولَمْ يَذْكُرْ شَهادةَ هؤلاء لكِتابِ الفُجَّارِ؛ تنويهًا بكتابِ الأبرارِ وما وَقَعَ لهم به، وإشهارًا له، وإظهارًا بيْن خواصِّ خلْقِه؛ كما تَكتبُ الملوكُ تواقيعَ مَن تُعَظِّمُه بيْن الأمراءِ وخواصِّ أهلِ المملكةِ؛ تنويهًا باسمِ المكتوبِ له، وإشادةً

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((الإيمان)) لابن تيمية (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) لابن عثيمين (ص: ١٣٢).
والحديث تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٤٠).

(٤) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٧٠).

بذِكْرِه، وهذا نوعٌ مِن صلاةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى وملائكتِه على عَبْدِه[١].

٦- في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ بِرَّ القَلبِ يُوجِبُ نَعيمَ الدُّنيا[٢].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ يعني: أنَّهم في نَعيمٍ في القَلبِ، وفي نعيمٍ في البَدَنِ، فهُم في أَسَرِّ ما يَكونُ[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ دليلٌ على أنَّ المؤمنَ مَندوبٌ إلى الرَّغبةِ في مَلاذِّ النُّفُوسِ وشَهَواتِها في الآخِرةِ، والسَّعيِ في اكتِسابِها، وأنَّ تَنَطُّعَ الصُّوفيَّةِ كما يَدَّعُون مِن تَرْكِ الاشتغالِ بها، والاقتصارِ على العَمَلِ الصَّالحِ الرَّضِيِّ وحْدَه، لا للرَّغبةِ في الجَزاءِ عليه مِن مُباشرةِ ما وَعَدَه اللهُ تبارك وتعالى وأَعَدَّه لأهلِ الجَنَّةِ: مذمومٌ مِن قولِهم، وغيرُ مَرْضيٍّ مِن فِعْلِهم؛ لأنَّ رِضا اللهِ جلَّ جلالُه وإنْ كان مِن أجَلِّ الجزاءِ وأعظَمِ النَّعيمِ فليس بمانعٍ مِن الرَّغبةِ في مباشرةِ مَلاذِّ النُّفُوسِ، والتَّمَتُّعِ بما هو مِن حَظِّها، وأنَّه لا يَحُطُّه مِن درجةِ طُلَّابِ الرِّضا، وإنَّما نُهُوا عنه في الدُّنيا، ونُدِبُوا إلى الزُّهدِ فيها؛ لأنَّ محظورَها يُفضِي بهم إلى المُحَرَّمِ، ويَكْسِبُهم النَّارَ، ومُباحَها يُفْضي بهم إلى الفُتورِ والكَسَلِ، والرَّغبةِ في الدُّنيا عن مباشرةِ تَعَبِ العبادةِ ونَصَبِها، ويُصَعِّبُ عليهم تَجَرُّعَ المراراتِ، ويُطَمْئِنُ إلى الرَّاحاتِ وإيثارِ الحلاواتِ عليها، فإذا دَخَلوا الجَنَّةَ وانتَقَلوا عن دارِ المِحَنِ، ورُفِعَتْ عنهم العبادةُ؛ تَلَذَّذُوا بمَحابِّ النُّفُوسِ مِن الأكلِ والشُّربِ وأنواعِ النَّعيمِ مِن مُعانَقةِ الحُورِ ومَن يُزَوَّجُون مِن الآدَميَّاتِ المُطيعاتِ، ويُرَدُّ

(١) يُنظر: ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٧٠).

(٢) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٠).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٧٢٦).

إليهم مِن الزَّوجاتِ اللَّواتي كُنَّ لهم في الدُّنيا، فلَمْ يَضُرَّهم ذلك، ولا خَشُوا مَقْتًا مِن ربِّهم، ولا حَذِروا فُتورًا عن العبادةِ؛ لأنَّه جزاءٌ لهم على ما أطاعوه في الدُّنيا، وآثَروا طاعتَه على مَلاذِّهم ومَحابِّهم فيها، أَلَا تراه يقولُ سُبحانَه: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، والقرآنُ مملوءٌ به؛ مِن قوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وكيف يكونُ مذمومًا مع قولِه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾، فلِمَ أمَرَهم إذَنْ بالتَّنافُسِ؟! ولِمَ وَصَفَه ومَلأَ القرآنَ بذِكْرِه[١]؟!

٩- في قولِه تعالى: ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ﴾ عُبِّرَ بالفِعلِ ﴿يُسۡقَوۡنَ﴾ دُونَ (يَشرَبون)؛ للدَّلالةِ على أنَّهم مَخدومون، يَخدُمُهم مَخلوقاتٌ مِن أجْلِ ذلك في الجَنَّةِ، وذلك مِن تَمامِ التَّرفُّهِ ولَذَّةِ الرَّاحةِ[٢].

١٠- قال تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞ﴾ قيل: إنَّ المرادَ بالخِتامِ: ما يَبقى في سُفْلِ الشَّرابِ مِن الثُّفْلِ[٣]، وهذا يدُلُّ على أنَّ أنهارَها تجري على المِسْكِ؛ ولذلك يَرْسُبُ منه في الإناءِ في آخِرِ الشَّرابِ كما يَرْسُبُ الطِّينُ في آنيةِ الماءِ في الدُّنيا[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۞ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أنَّ مِزاجَ شَرابِ الأبرارِ مِن التَّسنيمِ؛ وأنَّ المقرَّبينَ يَشرَبونَ منه بلا مِزاجٍ؛ وهذا لأنَّ الجزاءَ وِفاقُ العَمَلِ، فكما خَلَصَتْ أعمالُ المقرَّبينَ كلُّها للهِ خَلَصَ شرابُهم، وكما مَزَجَ الأبرارُ الطَّاعاتِ بالمباحاتِ، مُزِجَ لهم شَرابُهم؛ فمَن أَخْلَصَ أُخْلِصَ شَرابُه،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٨٧-٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٣) الثُّفْلُ: حُثَالَةُ الشَّيْءِ، وهو الثَّخينُ الَّذي يَبقَى أسفَلَ الصَّافي. يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (١/ ٨٢).

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٦).

ومَن مَزَجَ مُزِجَ شرابُه[١].

١٢- قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ لَمْ يَقُلْ: «يَشْرَبُ منها»؛ لأنَّه ضَمَّنَ قَوْلَه: «يَشْرَب» مَعْنى «يَرْوَى بها»؛ فإنَّ الشَّاربَ قد يَشْرَبُ ولا يَرْوى، فإذا قيل: «يَشرَبونَ منها» لَمْ يَدُلَّ على الرِّيِّ، فإذا قيل: «يَشربونَ بها» كان المعنى: «يَرْوَون بها»، فالمقرَّبون يَرْوَونَ بها فلا يحتاجُونَ معها إلى ما دونَها؛ فلهذا يَشرَبونَ منها صِرْفًا بخِلافِ أصحابِ اليمينِ؛ فإنَّها مُزِجَتْ لهم مَزْجًا، وهو كما قال تعالى في سورةِ (الإنسانِ): ﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٥، ٦]، فعِبَادُ اللهِ هم المقرَّبون المذكورونَ في تلك السُّورةِ؛ وهذا لأنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمَلِ في الخَيرِ والشَّرِّ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾

- حرفُ ﴿كَلَّآ﴾ رَدْعٌ وإبْطالٌ لِما تَضمَّنَه ما يُقالُ لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]، فيَجوزُ أنْ تَكونَ كَلِمةُ ﴿كَلَّآ﴾ ممَّا قيلَ لهم مع جُملةِ ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ رَدْعًا لهم؛ فهي مِن المَحكيِّ بالقَولِ. ويَجوزُ أنْ تَكونَ مُعتَرِضةً مِن كَلامِ اللهِ في القُرآنِ؛ إبْطالًا لتَكذيبِهم المَذكورِ[٣].

وقيل: حرفُ ﴿كَلَّآ﴾ تَكريرٌ، تَأكيدٌ للرَّدعِ؛ ليُعقَبَ بوَعدِ الأبْرارِ، كَما عُقِّبَ الأوَّلُ بوَعيدِ الفُجَّارِ؛ إشْعارًا بأنَّ التَّطفيفَ فُجورٌ، والإيفاءَ بِرٌّ، أو رَدْعٌ عن التَّكذيبِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ١٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي =

- قولُه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ لبَيانِ مَحلِّ كِتابِ الأبْرارِ، بعدَ بيانِ سُوءِ حالِ الفُجَّارِ، مُتَّصلًا ببَيانِ سُوءِ حالِ كِتابِهم، وفيه تَأكيدٌ للرَّدْعِ، ووُجوبِ الارتِداعِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ الآياتِ؛ قيل: يَظهَرُ أنَّ هذه الآياتِ المُنتَهيةَ بقَولِه: ﴿يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ مِن الحِكايةِ، ولَيستْ مِن الكلامِ المَحكيِّ بقَولِه: ﴿ثُمَّ يُقَالُ ...﴾ إلخ؛ فإنَّ هذه الجُملةَ بحَذافِرِها تُشبِهُ جُملةَ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ...﴾ [المطففين: ٧] إلخ، أُسلوبًا ومُقابَلةً؛ فالوَجْهُ أنْ يَكونَ مَضمونُها قَسيمًا لمَضمونِ شَبيهِها، فتَحصُلَ مُقابَلةُ وَعيدِ الفُجَّارِ بوَعدِ الأبْرارِ، ومِن عادةِ القُرآنِ تَعقيبُ الإنذارِ بالتَّبشيرِ، والعَكسُ؛ لأنَّ النَّاسَ راهِبٌ وراغِبٌ؛ فالتَّعرُّضُ لنَعيمِ الأبْرارِ إدْماجٌ[٢] اقتَضَتْه المُناسَبةُ، وإنْ كان المَقامُ مِن أوَّلِ السُّورةِ مَقامَ إنْذارٍ، ويَكونُ المُتكلِّمُ بالوَعدِ والوَعيدِ واحِدًا، وَجَّهَ كلامَه للفُجَّارِ الَّذين لا يَظُنُّون أنَّهم مَبْعوثون، وأعقَبَه بتَوجيهِ كلامٍ للأبْرارِ الَّذين هُم بضِدِّ ذلك، فتَكونُ هذه الآياتِ مُعتَرِضةً مُتَّصِلةً بحرفِ الرَّدْعِ. ويَجوزُ أنْ تَكونَ مِن المَحكيِّ بالقَولِ في ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]، فتَكونَ مَحكيَّةً بالقَولِ المَذكورِ، مُتَّصِلةً بالجُملةِ الَّتي قبْلَها وبحَرفِ الإبْطالِ، على أنْ يَكونَ القائلون لهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ على وَجْهِ التَّوبيخِ؛ أعقَبوا تَوبيخَهم بوَصفِ نَعيمِ المُؤمِنينَ بالبَعثِ تَنْديمًا للَّذين أنكَروه، وتَحسيرًا لهم على ما أفاتوه مِن الخَيرِ[٣].

---

= السعود)) (٩/ ١٢٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٧).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٢، ٢٠٣).

- وفي قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ مع الأولى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ﴾ [المُطَفِّفين: ٧] احتباكٌ[١]؛ ذِكرُ ﴿سِجِّينٖ﴾ أوَّلًا دالٌّ على الاتِّساعِ ثانيًا، وذكرُ ﴿عِلِّيِّينَ﴾ والمقرَّبينَ ثانيًا دالٌّ على أسفلِ سافلينَ والمُبعَدينَ أوَّلًا[٢].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾؛ (مَا) اسمُ استِفهامٍ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ[٣].

- وعِلِّيُّون: جَمعُ عِلِّيٍّ، وعِلِّيٌّ على وَزنِ (فِعِّيلٌ) مِن العُلُوِّ، وهو زِنةُ مُبالَغةٍ في الوَصفِ، جاءَ على صورةِ جَمْعِ المُذكَّرِ السَّالِمِ[٤]. وقيلَ: إنَّ عِلِّيِّينَ ليس جَمْعَ عِلِّيٍّ، ولكنَّه عَلَمٌ على مَكانِ الأبْرارِ في الجَنَّةِ، وصِيغَ على صِيغةِ جَمعِ المُذكَّرِ؛ لأنَّ أَصلَ تلك الصِّيغةِ أنْ تُجمَعَ بها أسْماءُ العُقلاءِ وصِفاتُهم، فاستُكمِلَ له صِيغةُ جَمعِ العُقلاءِ الذُّكورِ؛ إتْمامًا لشَرَفِ المَعنى بإعْطائِه صِيغةَ التَّذكيرِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۞ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۞ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۞ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۞ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۞ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ مَضمونُ هذه الجُملةِ قَسيمٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] إلى آخِرِها؛

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٣).

ولذلك جاءَتْ على نَسيجِ نَظْمِ قَسيمتِها افتِتاحًا وتَوصيفًا وفَصلًا، وهي مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨]؛ فمَوقِعُها مَوقِعُ البَيانِ، أو موقِعُ بَدَلِ الاشتِمالِ[١] على كِلَا الوَجهَينِ في مَوقِعِ الَّتي قبْلَها، على أنَّه يَجوزُ أنْ تَكونَ مِن الكلامِ الَّذي يُقالُ لهم، وهو المَحكيُّ بقَولِه: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]، فيَكونَ قولُ ذلك لهم تَحسيرًا وتَنديمًا على تَفريطِهم في الإيمانِ، ولا تعارُضَ بيْن الوَجهَينِ[٢]. وقيل: الجملةُ مستأنَفَةٌ استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: هذا حالُ كتابِهم، فما حالُهم؟ فأُجيبَ بما ذُكِر، أي: إنَّهم لفي نعيمٍ عظيمٍ[٣].

- وذِكرُ ﴿ٱلۡأَبۡرَارِ﴾ بالاسمِ الظَّاهِرِ دونَ ضَميرِهم، خِلافًا لِما جاءَ في جُملةِ ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]؛ تَنويهًا بوَصفِ الأبْرارِ[٤].

- وحَذفُ مَفعولِ ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ إمَّا لدَلالةِ ما تَقدَّمَ عليه مِن قولِه في ضِدِّهم: ﴿إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، والتَّقديرُ: يَنظُرون إلى رَبِّهم، وإمَّا لقَصدِ التَّعميمِ، أي: يَنظُرون كُلَّ ما يُبهِجُ نُفوسَهم ويَسُرُّهم؛ بقَرينةِ مَقامِ الوَعدِ والتَّكريمِ[٥].

- قولُه: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ كلامٌ مُستأْنَفٌ، مَسوقٌ لإيذانِ المُخاطَبِ بالالْتِفاتِ إليهم، والتَّأمُّلِ في آثارِ النَّعيمِ على وُجوهِهم[٦].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٦).

- قولُه: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ الخِطابُ لكُلِّ أَحدٍ ممَّن له حَظٌّ مِن الخِطابِ؛ للإيذانِ بأنَّ ما لَهم مِن آثارِ النِّعمةِ وأَحكامِ البَهجةِ، بحَيثُ لا يَختَصُّ برُؤيتِه راءٍ دُونَ راءٍ. والخِطابُ بمِثلِه في مَقامِ وَصْفِ الأُمورِ العَظيمةِ طَريقةٌ عَرَبيَّةٌ مَشهورةٌ[١].

- والنَّضْرةُ: البَهْجةُ والحُسنُ، وإضافةُ ﴿نَضْرَةَ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ مِن إضافةِ المُسبَّبِ إلى السَّببِ، أي: النَّضْرةُ والبَهْجةُ الَّتي تَكونُ لوَجْهِ المَسرورِ الرَّاضي؛ إذ تَبْدو على وَجْهِه مَلامِحُ السُّرورِ[٢].

- قولُه: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ نَعتٌ للرَّحيقِ، أو بدَلٌ مُفَصَّلٌ مِن مُجمَلٍ، أو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن وَصْفِ الرَّحيقِ بأنَّه مَختومٌ؛ أنْ يَسألَ سائلٌ عن خِتامِها، أيُّ شيءٍ هو مِن أصنافِ الخِتامِ؟ لأنَّ غالِبَ الخِتامِ أنْ يَكونَ بطِينٍ أو سِدادٍ[٣]. وذلك على قولٍ.

- وجُملةُ ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ مُعترِضةٌ بيْنَ جُملةِ ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ وجُملةِ ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾، ونَظْمُ التَّركيبِ في هذه الجُملةِ دَقيقٌ يَحتاجُ إلى بَيانٍ؛ وذلك أنْ نَجعَلَ (الواوَ) اعتِراضيَّةً، فقَولُه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ هو مَبدأُ الجُملةِ، وتَقديمُ المَجرورِ لإفادةِ الحَصْرِ، أي: وفي ذلك الرَّحيقِ فلْيَتَنافَسِ النَّاسُ، لا في رَحيقِ الدُّنيا الَّذي يَتَنافَسُ فيه أهلُ البَذَخِ، ويَجلِبونه مِن أَقاصي البِلادِ، ويُنفِقون فيه الأموالَ، ولَمَّا كانت (الواوُ) اعتِراضيَّةً لم يَكُنْ إشْكالٌ في وُقوعِ (فاءِ) الجَوابِ بعْدَها، و(الفاءُ) إمَّا أنْ تَكونَ فَصيحةً؛ أفْصَحَتْ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٠٦).

عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: إذا عَلِمْتُم الأوصافَ لهذا الرَّحيقِ فلْيَتَنافَسْ فيه المُتَنافِسونَ، أو التَّقديرُ: وفي ذلك فلْتَتَنافَسوا، فلْيَتَنافَسْ فيه المُتَنافِسون، فتَكونَ الجُملةُ في قُوَّةِ التَّذييلِ؛ لأنَّ المُقدَّرَ هو تَنافُسُ المُخاطَبينَ، والمُصَرَّحَ به تَنافُسُ جَميعِ المُتَنافِسينَ، فهو تَعميمٌ بعدَ تَخصيصٍ. وإمَّا أنْ تَكونَ الفاءُ فاءَ جَوابٍ لشَرطٍ مُقدَّرٍ في الكَلامِ يُؤذِنُ به تَقديمُ المَجرورِ؛ لأنَّ تَقديمَ المَجرورِ كثيرًا ما يُعامَلُ مُعامَلةَ الشَّرطِ، فالتَّقديرُ: إنْ عَلِمْتُم ذلك فلْيَتَنافَسْ فيه المُتَنافِسونَ. وإمَّا أنْ تَكونَ (الفاءُ) تَفريعًا على مَحذوفٍ على طَريقةِ الحَذفِ على شَريطةِ التَّفسيرِ، والتَّقديرُ: وتَنافَسوا -صيغة أمرٍ في ذلك- فلْيَتَنافَسِ المُتَنافِسونَ فيه، ويَكونَ الكَلامُ مُؤذِنًا بتَوكيدِ فِعلِ التَّنافُسِ؛ لأنَّه بمَنزِلةِ المَذكورِ مَرَّتَينِ، مع إفادةِ التَّخصيصِ بتَقديمِ المَجرورِ[1]. وذلك على قولٍ في المُتنافَسِ فيه.

- قولُه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾ ما فيه مِن مَعْنى البُعدِ؛ إمَّا للإشْعارِ بعُلُوِّ مَرتَبتِه وبُعدِ مَنزِلتِه، أو لكَونِه في الجَنَّةِ، أي: في ذلك خاصَّةً دونَ غَيرِه[2].

- و(لامُ) الأمرِ في ﴿فَلْيَتَنَافَسِ﴾ مُستَعمَلةٌ في التَّحريضِ والحَثِّ[3].

- قولُه: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ عَطْفٌ على قولِه: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾، والتَّسنيمُ هو المَعنيُّ بالشَّرابِ الَّذي هو أرفَعُ شَرابٍ في الجَنَّةِ. وقولُه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ في حُكمِ المُتأخِّرِ؛ قُدِّمَ لمَكانِ العِنايةِ بشَأنِه، فالمُشارُ إليه بـ (ذلك) جَميعُ ما سَبَقَ مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ...﴾ إلى آخِرِه،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٧).

وذلك على قولٍ. وفائدةُ التَّقديمِ: التَّرغيبُ والحَثُّ على التَّحرِّي والاجتِهادِ، وإيثارِ ذلك على طَلَبِ العاجِلةِ، والمُسابقةِ فيه؛ ولذلك قُدِّمَ الظَّرفُ -أي: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ﴾-، وخُصَّ التَّنافُسُ مع بِناءِ التَّفاعُلِ[1].

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٤٩، ٣٥٠).

## الآيات (٢٩-٣٦)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَتَغَامَزُونَ﴾: أي: يَغمِزُ بَعضُهم بَعضًا، ويُشِيرونَ بأَعْيُنِهم على وجهِ السُّخريةِ، والغَمزُ: الإشارةُ بالجَفنِ والحاجِبِ، ويكونُ الغمزُ أيضًا بمعنى العَيبِ، يُقالُ: غَمَزَه إذا عابه، و: ما في فُلانٍ غَميزةٌ، أي ما يُعابُ به[١].

﴿ٱنقَلَبُوٓاْ﴾: أي: انصَرَفوا ورَجَعوا، وأصلُ (قلب): يدُلُّ على صَرْفِ الشَّيءِ عن وجهٍ إلى وجهٍ، أو ردِّه مِن جِهةٍ إلى جِهةٍ[٢].

﴿فَكِهِينَ﴾: أي: فَرِحينَ مَسرورينَ مُعْجَبِينَ باستِخفافِهم بالمؤمِنينَ، وأصلُ (فكه): يدُلُّ على طِيبٍ واستِطابةٍ[٣].

﴿ثُوِّبَ﴾: أي: جُوزِيَ وأُثيبَ، وأصلُ (ثوب): يدُلُّ على عَودٍ ورُجوعٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٤)، =

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾

قَولُه تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ...﴾: في محَلِّ هذه الجُملةِ الاستفهاميَّةِ أَوجُهٌ؛

**أحَدُها**: أنَّها في محلِّ نصبٍ بعدَ إسقاطِ حرفِ الجَرِّ الَّذي هو «إلى»، فهي مُعَلِّقةٌ لـ ﴿يَنظُرُونَ﴾ قَبْلَها، أي: يَنظُرونَ هلْ ثُوِّبَ الكُفَّارُ.

**الثَّاني**: أنَّها في محَلِّ نَصبٍ مَقولٌ لقَولٍ مَحذوفٍ وَقَع حالًا مِن ضَميرِ ﴿يَنظُرُونَ﴾، أي: يَنظُرونَ مَقولًا لهم...

**الثَّالثُ**: أنَّها استِئْنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما كان يفعلُه الكُفَّارُ معَ المؤمنينَ: إنَّ الكفَّارَ كانوا في الدُّنيا يَضحَكونَ مِنَ المؤمِنينَ؛ استِهزاءً بهم، وإذا مَرُّوا بهم أشار بَعضُهم إلى بَعضٍ بأعيُنِهم؛ استِهزاءً بالمؤمِنينَ، واحتِقارًا لهم، وإذا انصَرَفَ أولئك المجرِمونَ إلى أهلِهم انصَرَفوا فَرِحينَ مَسرورينَ باستِخفافِهم بالمؤمِنينَ، وإذا رَأَوُا المؤمِنينَ قالوا: إنَّ هؤلاء لَضالُّونَ عن طَريقِ الحَقِّ. وما أرسَلَ اللهُ الكُفَّارَ وُكَلاءَ على المؤمِنينَ ليَحفَظوا أعمالَهم!

ثمَّ يُبشِّرُ اللهُ تعالى المؤمنينَ بأنَّ العاقِبةَ الطَّيِّبةَ لهم، فيقولُ: ففي اليَومِ الآخِرِ يَضحَكُ المُؤمِنونَ مِنَ الكُفَّارِ حِينَ يَرَونَهم وهم يُعَذَّبونَ، والمُؤمِنونَ في الجَنَّةِ

---

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٥).

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٥).

على السُّرُرِ يَنظُرونَ إلى وجهِ الله الكريمِ وإلى ما أُعِدَّ لهم مِن النَّعيم، وإلى الكافِرينَ وهم يُعذَّبونَ، هل جُوزيَ الكُفَّارُ على ما كانوا يَفعَلونَه في الدُّنيا بالمؤمِنينَ؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَصَف سُبحانَه كَرامةَ الأبرارِ في الآخِرةِ؛ ذَكَر بعْدَ ذلك قُبْحَ مُعامَلةِ الكُفَّارِ معهم في الدُّنيا في استِهزائِهم وضَحِكِهم، ثمَّ بَيَّن أنَّ ذلك سيَنقَلِبُ على الكُفَّارِ في الآخِرةِ، والمقصودُ منه تسليةُ المؤمِنينَ وتقويةُ قُلوبِهم[1].

وأيضًا بعْدَ أنْ ذكَرَ حالَ المُشرِكين على حِدةٍ، وذكَرَ حالَ المُسلِمينَ على حِدةٍ، أَعقَبَ بما فيه صِفةٌ لعاقِبةِ المُشرِكين في مُعامَلتِهم للمُؤمِنينَ في الدُّنيا؛ ليَعلَموا جَزاءَ الفَريقَينِ مَعًا[2].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾.

أي: إنَّ الكُفَّارَ كانوا في الدُّنيا يَضحَكونَ مِنَ المؤمِنينَ؛ استِهزاءً بهم، وسُخْريةً منهم، واحتِقارًا لهم[3].

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٦).

قال السمعاني: (قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ هم الكفَّارُ. وقيل: هذا في قومٍ مخصوصينَ مِن قريشٍ، منهم أبو جهلٍ والوليدُ بنُ المغيرةِ، والأسودُ بنُ عبدِ يغوثَ، والنَّضرُ بنُ الحارثِ وغيرُهم). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٨٤).

ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [البقرة: ٢١٢].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ * فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ * إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩ - ١١١].

﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠﴾.

أي: وإذا مَرُّوا بهم في طَريقِهم تغامَزَ أولئك المجرِمونَ، فأشار بَعضُهم إلى بَعضٍ بأعيُنِهم؛ استِهزاءً بالمؤمِنينَ، واحتِقارًا لهم(١).

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

قال ابنُ عاشور: (ضميرُ ﴿مَرُّواْ﴾ يجوزُ أن يعودَ إلى ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾، فيكونَ ضَميرُ ﴿بِهِمۡ﴾ عائِدًا إلى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، ويجوزُ العَكسُ، والمعنى: وإذا مَرَّ المؤمنونَ بالَّذين أجرَموا وهم في مجالِسِهم يتغامَزُ المجرِمونَ حينَ مرورِ المؤمنينَ، أو: وإذا مَرَّ الَّذين أجرموا بالَّذين آمَنوا وهم في عَمَلِهم وفي عُسْرِ حالِهم يتغامَزُ المجرِمونَ حينَ مُرورِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١١).

ومِمَّن قال بأنَّ المؤمنينَ هم مَن يمُرُّونَ على المجرمينَ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابن عطية، والبِقاعي، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٩).

ومِمَّن قال بأنَّ المجرِمينَ هم الَّذين يمُرُّونَ على المؤمنينَ: مكِّيٌّ، وابنُ كثير. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣).

وذهب ابنُ عثيمينَ إلى أنَّ الآيةَ تَشملُ كِلا المعنيَين، فيَحصُلُ أنَّ المجرِمينَ يَمُرُّونَ على المؤمِنينَ، ويَحصُلُ العَكسُ، وفي كلٍّ يَتغامَزُ المجرِمونَ بالمؤمنينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٦).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا وَصَفَهم في مَواضِعِ التَّرَدُّدِ والتَّقَلُّبِ؛ وصَفَهم في المنازِلِ[(١)]:

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١﴾.

أي: وإذا انصَرَفَ أولئك المجرِمونَ إلى أهلِهم في بُيوتِهم انصَرَفوا فَرِحينَ مَسرورينَ باستِخفافِهم بالمؤمِنينَ[(٢)].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٣].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ [الانشقاق: ١٣].

﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٧، ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٣، ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٢، ٢١٣).

قال السعدي: (﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ صباحًا أو مساءً ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ أي: مَسرورينَ مُغتَبِطينَ، وهذا مِن أعظَمِ ما يكونُ مِنَ الاغترارِ؛ أنَّهم جمَعوا بيْن غايةِ الإساءةِ والأمْنِ في الدُّنيا، حتَّى كأنَّهم قد جاءهم كتابٌ مِن اللهِ وعَهدٌ أنَّهم مِن أهلِ السَّعادةِ، وقد حَكَموا لأنفُسِهم أنَّهم أهلُ الهدى، وأنَّ المؤمنينَ ضالُّونَ؛ افتِراءً على الله، وتجَرُّؤًا على القَولِ عليه بلا عِلمٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وقال ابن عاشور: (والمعنى: وإذا رَجَع الَّذين أجرَموا إلى بُيوتِهم وخَلَصوا مع أهلِهم تحَدَّثوا أحاديثَ الفُكاهةِ معهم بذِكْرِ المؤمِنينَ وذَمِّهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ إذا انقلَب المجرمونَ إلى أهلِهم ﴿ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ يعني: متفكِّهينَ بما نالوه مِن السُّخريةِ بهؤلاء المؤمنينَ، فهُم يَستَهزِئونَ ويَسخَرونَ ويَتفَكَّهون بهذا؛ ظنًّا منهم أنَّهم نجَحوا وأنَّهم غلَبوا المؤمنينَ، ولكنَّ الأمرَ بالعكسِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٧).

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر مُرورَهم بهم وتغامزَهم؛ ذَكَر مُطلَقَ رُؤيتِهم لهم وما يقولونَ فيهم[(١)].

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾﴾.

أي: وإذا رَأَوُا المؤمِنينَ قالوا: إنَّ هؤلاء لَضالُّونَ عن طَريقِ الحَقِّ، وفِعْلِ الصَّوابِ[(٢)]!

كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

﴿وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ولم يُرسِلِ اللهُ الكُفَّارَ وُكَلاءَ على المؤمِنينَ ليَحفَظوا أعمالَهم، ويَنشَغِلوا بمُراقَبتِهم، ويَحكُموا عليهم، بل كَلَّفَهم اللهُ بالإيمانِ، والانشغالِ بالأعمالِ الصَّالحةِ[(٣)].

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٧).

قال ابنُ عاشور: (مُرادُهم بالضَّلالِ: فَسادُ الرَّأيِ؛ لأنَّ المُشرِكينَ لا يَعرِفونَ الضَّلالَ الشَّرعيَّ، أي: هؤلاء سَيِّئُو الرَّأيِ؛ إذ اتَّبَعوا الإسلامَ، وانسَلَخوا عن قَومِهم، وفَرَّطوا في نَعيمِ الحياةِ؛ طَمَعًا في نَعيمٍ بعدَ المَوتِ، وأقْبَلوا على الصَّلاةِ والتَّخَلُّقِ بالأخلاقِ الَّتي يَراها المُشرِكونَ أوهامًا وعَنَتًا؛ لأنَّهم بمَعزِلٍ عن مَقدِرةِ قَدْرِ الكَمالِ النَّفْسانيِّ، وما هَمُّهم إلَّا التَّلَذُّذُ الجُثمانيُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٣). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٧).

أي: ففي اليَومِ الآخِرِ يَضحَكُ المُؤمِنونَ مِنَ الكُفَّارِ حينَ يَرَونَهم وهُم يُعَذَّبونَ[(١)]!

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥﴾.

أي: والمُؤمِنونَ في الجَنَّةِ على السُّرُرِ الَّتي أُرخِيَ عليها السُّتُورُ المُزيَّنَةُ يَنظُرونَ إلى وَجهِ رَبِّهم الكريمِ، وإلى ما أُعِدَّ لهم مِن النَّعيمِ، وإلى الكافِرينَ وهم يُعذَّبونَ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٨).

قيل: المرادُ بقوله هنا: ﴿يَنظُرُونَ﴾: نَظَرُهم إلى اللهِ تعالى. وممَّن قال به: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤).

قال ابنُ القيم: (فأطلَقَ النَّظَرَ، ولم يُقَيِّدْه بمَنظورٍ دونَ مَنظورٍ، وأعلى ما نظَروا إليه وأجَلُّه وأعظَمُه هو اللهُ سُبحانَه وتعالى، والنَّظَرُ إليه أجَلُّ أنواعِ النَّظَرِ وأفضَلُها، وهو أعلى مراتِبِ الهِدايةِ؛ فقابَلَ بذلك قَولَهم: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾؛ فالنَّظَرُ إلى الرَّبِّ سُبحانَه مُرادٌ مِن هذَينِ الموضِعَينِ [أي قولِه: ﴿يَنظُرُونَ﴾ هنا وفي الآيةِ «٢٣»] ولا بُدَّ؛ إمَّا بخُصوصِه، وإمَّا بالعُمومِ والإطلاقِ، ومَن تأمَّلَ السِّياقَ لم يَجِدِ الآيتَينِ تحتَمِلانِ غيرَ إرادةِ ذلك، خُصوصًا أو عُمومًا). ((إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان)) (١/ ٣٣).

وقال السعدي: (﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما أعَدَّ اللهُ لهم مِن النَّعيمِ، ويَنظُرونَ إلى وَجهِ رَبِّهم الكريمِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦).

وقيل: المرادُ: أنَّهم يُشاهِدونَ الكُفَّارَ في العذابِ والإهانةِ، وممَّن قال به: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، والرازي، والرَّسْعَني، والبِقاعي، والعُلَيمي، والشوكاني، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٢٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٧)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٤٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣١٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ =

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ٣٦﴾.

أي: هل جُوزِيَ الكُفَّارُ على ما كانوا يَفعَلونَه في الدُّنيا حينَ يُعَذِّبُهم اللهُ في النَّارِ[1]؟!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ: أنَّه إذا كان هذا حالَ بَعضِ الَّذين أجرَموا مع بَعضِ ضَعَفةِ المُؤمِنينَ، وكذلك حالُ بَعضِ الأُمَمِ مع رُسُلِها؛ فإنَّ الدَّاعِيةَ إلى اللهِ تعالى يجِبُ عليه ألَّا يَتأثَّرَ بسُخريةِ أحدٍ منه، وأن يَعلَمَ أنَّه على سَنَنِ غَيرِه مِنَ الدُّعاةِ إلى اللهِ تعالى، وأنَّ اللهَ تعالى سيَنتَصِرُ له إمَّا عاجِلًا وإمَّا آجِلًا[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ فيه عِظةٌ شَديدةٌ لِمَن يتضَحَّكُ مِنَ المؤمِنينَ، ومِمَّن يتَّخِذونَه ضُحْكةً؛ إذْ هو شيءٌ مِن أخلاقِ الكُفَّارِ، فإذا تشَبَّه بهم أهلُ الإيمانِ خِيفَ عليهم أن يَكونوا مِثْلَهم؛ كما في الحديثِ: ((مَن تَشَبَّه بقَومٍ فهو منهم))[3]. وإنَّما يَضحَكونَ في الآخِرةِ -واللهُ

---

= ٢٢٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٠٩).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: يَنظُرونَ إلى ما أُوتوا مِن النَّعيمِ، وما أُعِدَّ لهم مِن الثَّوابِ، وما حلَّ بالمجرِمين مِن عذابِ الجحيمِ: القاسميُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٢٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٨).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٤).

(٣) أخرجه أبو داودَ (٤٠٣١) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٥١١٤) مطوَّلًا مِن حديثِ ابنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما. قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٤٠٣١): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ =

أعلَمُ-؛ لأنَّه جزاءٌ لهم وعقوبةٌ لِما كان منهم إليهم في الدُّنيا، فيُصيبُهم مِن مَضَضِه ما كان يُصيبُ المؤمِنينَ في الدُّنيا؛ فصار كالاقتِصاصِ؛ فعلى المَضحوكِ منه أن يتَّقِيَ اللهَ، ولا يَضَعَ نَفْسَه هذا الموضِعَ، وعلى الضَّاحكِ أن يجتَنِبَه في الجِدِّ والهَزْلِ؛ لأنَّه مِن عظيمِ الذَّنْبِ وفِعلِ الظَّالِمينَ، ومَن قد نَسِيَ أمرَ مَعادِه، وما هو مُفْضٍ إليه[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ قاعدةٌ ثابتةٌ لأتْباعِ الرُّسُلِ: «أنَّ أهلَ الباطلِ يُلَقِّبُون أهلَ الحقِّ بألقابِ السُّوءِ؛ تنفيرًا للنَّاسِ عن قَبُولِهم»، واللهُ تبارك وتعالى قد جَعَل لكلِّ نبيٍّ عدوًّا مِن المجرِمينَ، والعدوُّ مِن المجرِمينَ عَدوٌّ للنَّبيِّ بوَصْفِه، بدليلِ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبْلَ أنْ تأتيَه الرِّسالةُ هو عندَ العربِ الصَّادقُ الأمينُ، ويَرون أنَّه مِن أفضلِ بني هاشِمٍ، وأقوَمِهم بالعَدْلِ؛ فلمَّا جاء بالحَقِّ صار عندَهم الخائِنَ الكذوبَ! فإذا كان هؤلاء المجرِمون يُعادُونَ الرُّسُلَ بوصْفِهم؛ فمعنى ذلك أنَّ هذه المُعاداةَ ستنتقلُ إلى مَن تابَعَ هؤلاء الرُّسُلَ؛ لأنَّ المعنى الَّذي حَصَلَتْ به العداوةُ موجودٌ أيضًا في أتْباعِ الرُّسُلِ، ونستفيدُ مِن هذا: طَمْأنَةَ أتْباعِ الرُّسُلِ، وتثبيتَهم على أنَّهم سيَنالُهم مِن ألقابِ السُّوءِ ومِن المُعاداةِ مِثلُ ما نال الرُّسُلَ؛ فعليهم أنْ يُقابِلوا ذلك بالصَّبرِ والثَّباتِ والقوَّةِ، لا أنْ يَنخَذِلوا، بل عليهم أنْ يَكونوا كما كان مَتبوعُهم الَّذي أَمَرَه اللهُ قائلًا: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ

= كما في ((بلوغ المرام)) لابن حجر (٤٣٧)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٤/ ٣٥٨)، وجوَّده ابنُ تيميَّةَ في ((مجموع الفتاوى)) (٢٥/ ٣٣١)، وصحَّح إسنادَه العِراقيُّ في ((تخريج الإحياء)) (١/ ٣٥٩)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٧/ ١٢١)، وحسَّن إسنادَه ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (١٠/ ٢٨٢)، وقال الذهبيُّ في ((سير أعلام النبلاء)) (١٥/ ٥٠٩): (إسنادُه صالحٌ).

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٩٠، ٤٩١).

مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[١] [الأحقاف: ٣٥].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ أنَّ المجرمَ في أكثرِ القرآنِ: الكافِرُ، وقد حقَّقَه في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ تحريمُ السُّخْريةِ بالمُؤمِنينَ، والضَّحِكِ منهم، والتَّغامُزِ عليهم[٣].

٣- قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، أهلُ الرَّجُلِ: زَوجُه وأبناؤه، وذُكِرَ الأهلُ هنا؛ لأنَّهم يُنبسَطُ إليهم بالحديثِ؛ فلذلك قيل: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ﴾ دونَ (إلى بُيوتِهم)[٤].

٤- قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾، أي: رَجَعوا مُلْتَذِّينَ بذِكرِهم بالسُّوءِ والسُّخريةِ منهم، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا لا يَفعَلون ذلك بمَرأًى مِن المارِّينَ بهم، ويَكتَفون حِينَئذٍ بالتَّغامُزِ[٥].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ تأمَّلْ كيف قابَلَ سُبحانَه ما قاله الكُفَّارُ في أعدائِهم في الدُّنيا وسَخِروا به منهم، بضِدِّه في القيامةِ؛ فإنَّ الكُفَّارَ كانوا إذا مَرَّ بهم المؤمِنونَ يَتغامَزونَ ويَضحَكونَ منهم: ﴿وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، فقال تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٩٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٩).

ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾؛ مُقابَلةً لتَغامُزِهم وضَحِكِهم منهم[١]، فأفادت فاءُ السَّببيَّةِ في قولِه: ﴿فَٱلْيَوْمَ﴾ أنَّ استِهزاءَهم بالمُؤمِنين في الدُّنيا كان سَببًا في جَزائِهم بِما هو مِن نَوعِه في الآخِرةِ؛ إذ جعَلَ اللهُ الَّذين آمنوا يَضحَكون مِن المُشرِكين، فكان جَزاءً وِفاقًا[٢].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ أنَّ المؤمِنينَ يُسَرُّونَ بعَذابِ أعداءِ اللهِ، فعذابُهم رحمةٌ للمؤمِنينَ[٣].

٧- قَولُ مَن قال: «إنَّ الثَّوابَ في اللُّغةِ يختَصُّ بجَزاءِ الخَيرِ بالخَيرِ» غيرُ صوابٍ، بل يُطلَقُ الثَّوابُ أيضًا على جزاءِ الشَّرِّ بالشَّرِّ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[٤]، فالثَّوابُ هو المُجازاةُ على العمَلِ؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شرًّا فشَرٌّ، حتَّى الإثابةُ على الشَّرِّ تُسَمَّى ثوابًا[٥]. وقيل: جُوِّز حملُه عليه هنا على أنَّ المرادَ التَّهكُّمُ[٦].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾

---

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ التَّربويةِ (ص: ٤٩٢-٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٧).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٣١٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٤).

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَسلِيةِ المُؤمِنينَ، وتَقويةِ قُلوبِهم بِما أُعِدَّ للأبْرارِ في الجَنَّةِ(١).

وقيل: هو حِكايةٌ لبَعضِ قَبائحِ مُشركي قُرَيشٍ، وهو مِن جُملةِ القَولِ الَّذي يُقالُ يومَ القِيامةِ للفُجَّارِ المَحكيِّ بقَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧]؛ لأنَّه مُرتَبطٌ بقَولِه في آخِرِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾؛ جِيءَ بها تَمهيدًا لذِكرِ بَعضِ أَحوالِ الأبْرارِ في الجَنَّةِ(٢).

- وإذا كانتْ جُملةُ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] الآياتِ، مَحكيَّةً بالقَولِ الواقِعِ في قولِه تعالى: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين: ١٧] إلى هُنا؛ فجُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ مُتَّصلةٌ بها، والتَّعبيرُ عنهم بـ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ على طَريقةِ الالْتِفاتِ؛ إذ مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ لهم: إنَّكم كُنتم مِن الَّذين آمنوا تَضحَكون، وهكذا على طَريقِ الخِطابِ.

وإنْ كانتْ تلك الجُملةُ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] وما بعْدَها اعتراضًا، فهذه الجُملةُ مَبدأُ كَلامٍ مُتَّصِلٍ بقَولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦] واقِعٍ مَوقِعَ بَدَلِ الاشتِمالِ(٣) لمَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٦]، باعتِبارِ ما جاءَ في آخِرِ هذا مِن قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾؛ فالتَّعبيرُ بـ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ إذْنْ جارٍ على مُقتَضى الظَّاهِرِ، وليس بالْتِفاتٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٩).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٠٩).

- والافتِتاحُ بـ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾ بصورةِ الكَلامِ المُؤكَّدِ؛ لإفادةِ الاهتِمامِ بالكَلامِ، وذلك كَثيرٌ في افتِتاحِ الكَلامِ المُرادِ إعْلانُه؛ ليَتَوجَّهَ بذلك الافتِتاحِ جَميعُ السَّامِعينَ إلى استِماعِه؛ للإشْعارِ بأنَّه خبَرٌ مُهمٌّ[١].

- وعبَّرَ بالمَوصولِ وهذه الصِّلةِ: ﴿ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ ما أُخبِرَ به عنهم هو إجْرامٌ، وليَظهَرَ مَوقِعُ قولِه: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[٢] [المطففين: ٣٦].

- وتَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ في قولِه: ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾ إمَّا للقَصْرِ؛ إشْعارًا بغايةِ شَناعةِ ما فَعَلوا، أي: كانوا مِن الَّذين آمنوا يَضحَكون، مع ظُهورِ عدَمِ استِحقاقِهم لذلك. أو لِمُراعاةِ الفَواصِلِ[٣].

- ويُؤذِنُ تَركيبُ ﴿كَانُواْ ... يَضۡحَكُونَ﴾ بأنَّ الإجْرامَ -وهو ارتِكابُ الجُرْمِ، وهو: الإثمُ العَظيمُ- صِفةٌ مُلازِمةٌ لهم في الماضي. وصَوْغُ ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ بِصيغةِ المُضارِعِ؛ للدَّلالةِ على تَكرُّرِ ذلك منهم، وأنَّه دَيدَنٌ لهم[٤].

- قولُه: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ تَكريرُ فِعلِ ﴿ٱنقَلَبُواْ﴾ مِن النَّسجِ الجَزلِ في الكَلامِ؛ كان يَكْفي أنْ يُقالَ: (وإذا انقَلَبوا إلى أَهلِهم فَكِهوا)، أو (إذا انقَلَبوا إلى أَهلِهم كانوا فاكِهين)؛ وذلك لِما في إعادةِ الفِعلِ مِن زيادةِ تَقريرِ مَعناهُ في ذِهنِ السَّامِعِ؛ لأنَّه ممَّا يَنبَغي الاعتِناءُ به، ولزِيادةِ تَقريرِ ما في الفِعلِ مِن إفادةِ التَّجدُّدِ؛ حتَّى يَكونَ فيه استِحضارُ الحالةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢١٢).

- قولُه: ﴿فَكِهِينَ﴾، وفي قراءةٍ ﴿فَاكِهِينَ﴾[١] اسمُ فاعِلِ فَاكِهٍ، وهو مِن (فَكِهَ) -مِن بابِ فَرِحَ- إذا مَزَحَ وتَحدَّثَ فأَضحَكَ، والمَعْنى: فاكِهِينَ بالتَّحدُّثِ عن المُؤمِنينَ؛ فحُذِفَ مُتعَلَّقُ ﴿فَاكِهِينَ﴾؛ للعِلمِ بأنَّه مِن قَبيلِ مُتعَلَّقاتِ الأفعالِ المَذكورةِ معه[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ فيه تأكيدُ الخبَرِ بحرفِ التَّأكيدِ (إنَّ) ولامِ الابتِداءِ؛ لقَصْدِ تَحقيقِ الخَبَرِ، أي: نَسَبوا المُسلِمينَ ممَّن رَأَوهم ومِن غَيرِهم إلى الضَّلالِ بطَريقِ التَّأكيدِ[٣].

- قولُه: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾، أي: قالوا ذلك، والحالُ أنَّهم ما أُرسِلوا مِن جِهةِ اللهِ تعالى مُوكَّلينَ بهم، يَحفَظون عليْهم أحوالَهم، ويُهَيْمِنون على أعمالِهم، ويَشهَدون برُشْدِهم وضَلالِهم، وهذا تَهكُّمٌ بهم، وإشْعارٌ بأنَّ ما اجترَؤوا عليه مِن القَولِ مِن وَظائفِ مَن أُرسِلَ مِن جِهتِه تعالى؛ فإنَّ شِدَّةَ الحِرصِ على أنْ يَقولوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ كُلَّما رَأَوهم، يُشبِهُ حالَ المُرسَلِ لِيَتتبَّعَ أحوالَ أحَدٍ، ومِن شأنِ الرَّسولِ الحِرصُ على التَّبليغِ، والخَبَرُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّمِ بالمُشرِكين، أي: لم يَكونوا مُقيَّضينَ للرَّقابةِ عليهم، والاعتِناءِ بصَلاحِهم، فمَعْنى الحِفظِ هنا: الرَّقابةُ؛ ولذلك عُدِّيَ بحرفِ (على)؛ لِيَتسلَّطَ النَّفيُ على الإرسالِ والحِفظِ ومَعْنى الاستِعلاءِ الَّذي أفادَه حرفُ (على) فيَنتَفيَ حالُهم المُمَثَّلُ. وقد جُوِّزَ أنْ يَكونَ ذلك مِن جُملةِ قولِ المُجرِمين، كأنَّهم قالوا: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾، وما أُرسِلوا علينا حافِظينَ؛

(١) قرأها ﴿فَكِهِينَ﴾ أبو جعفرٍ وحفصٌ، وقرأها الباقونَ بإثباتِ ألِفِ ﴿فَاكِهِينَ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤).

إنْكارًا لصَدِّهم عن الشِّركِ، ودُعائِهم إلى الإسلام، وإنَّما قيلَ: (عليْهم)؛ نَقلًا له بالمَعنى، كما في قولِك: حَلَفَ لَيَفعَلَنَّ؛ لا بالعِبارةِ، كما في قولِك: حَلَفَ لأَفعَلَنَّ[١].

- وأيضًا تَقديمُ المَجرورِ على مُتعَلَّقِه في قولِه: ﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾؛ للاهتِمامِ بمُفادِ حرْفِ الاستِعلاءِ وبمَجرورِه، مع الرِّعايةِ على الفاصِلةِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾

- تَقديمُ (الْيَوْمَ) على ﴿يَضۡحَكُونَ﴾ للاهتِمامِ به؛ لأنَّه يومُ الجَزاءِ العَظيمِ الأَبَديِّ[٣].

- وفي قولِه: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ إليه على المُسنَدِ الفِعليِّ دونَ أنْ يُقالَ: (فاليَومَ يَضحَكُ الَّذين آمَنوا)؛ لإفادةِ الحَصْرِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ[٤] في مُقابَلةِ قولِه: ﴿كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ﴾[المطففين: ٢٩]، أي: زالَ استِهزاءُ المُشرِكين بالمُؤمِنينَ، فاليَومَ المُؤمِنونَ يَضحَكون مِن الكُفَّارِ، دُونَ العَكسِ[٥].

- وتَقديمُ ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ على مُتعَلَّقِه -وهو ﴿يَضۡحَكُونَ﴾- للاهتِمامِ بالمَضحوكِ منهم؛ تَعجيلًا لإساءتِهم عندَ سَماعِ هذا التَّقريعِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وقيل: تَقديمُ الجارِّ والمَجرورِ ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ للقَصْرِ؛ تَحقيقًا للمُقابَلةِ، أي: فاليَومَ هم مِن الكُفَّارِ يَضحَكون، لا الكُفَّارُ منهم كما كانوا يَفعَلون في الدُّنيا[١].

- وقولُه: ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ، عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: (منهم يَضحَكون)؛ لِما في الوَصفِ المُظهَرِ مِن الذَّمِّ للكُفَّارِ[٢].

- ومَفعولُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ مَحذوفٌ دَلَّ عليه قولُه: ﴿مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ﴾، تَقديرُه: يَنظُرونَهم، أي: يُشاهِدونَ المُشرِكينَ في العَذابِ والإهانةِ[٣]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ فَذْلَكةٌ[٤] لِمَا حُكِيَ مِن اعتِداءِ المُشرِكين على المُؤمِنينَ، وما تَرتَّبَ عليه مِن الجَزاءِ يَومَ القِيامةِ؛ فالمَعنى: فقدْ جُوزيَ الكُفَّارُ بما كانوا يَفعَلونَ، وهذا مِن تَمامِ النِّداءِ الَّذي يُعلَّقُ به يَوم القِيامةِ[٥].

- قولُه: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ، أي: يَقولونَ: هل ثُوِّبَ؟ وهو استِفهامٌ بمعْنى التَّقريرِ للمؤمنينَ، أي: هلْ جُوزوا بها؟ فهو استفهامٌ تَقريريٌّ وتَعجيبٌ مِن عدَمِ إفلاتِهم منه بعْدَ دُهورٍ. والخِطابُ بهذا الاستِفهامِ مُوَجَّهٌ إلى غَيرِ مُعيَّنٍ، بلْ إلى كُلِّ مَن يَسمَعُ ذلك النِّداءَ يَومَ القِيامةِ[٦].

- قولُه: ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾، ليس الجَزاءُ هو ﴿مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ١١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٥، ٢١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤١٨).

بل عبَّرَ عنه بهذه الصِّلةِ؛ لمُعادَلتِه شِدَّةَ جُرْمِهم على طَريقةِ التَّشبيهِ البَليغِ، أو على حَذفِ مُضافٍ تَقديرُه: مِثلَ، أو جَزاءَ أو عِقابَ ما كانوا يَفعَلونَ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ على نَزْعِ الخافِضِ، وهو: (باءُ السَّبَبيَّةِ)، أي: بما كانوا يَفعَلون[1].

- وفي هذه الجُملةِ ﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ مُحسِّنُ بَراعةِ المَقطَعِ[2]؛ لأنَّها جامِعةٌ لِما اشتَمَلَتْ عليه السُّورةُ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ١١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٦).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الانشِقاقِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ الانشِقاقِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ: سورةَ الانشِقاقِ[١].

وسُمِّيَت أيضًا سورةَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[٢]:

فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَرَّه أن يَنظُرَ إلى يومِ القيامةِ كأنَّه رَأْيُ عَينٍ فلْيَقرَأْ: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾))[٣].

وعن أبي رافِعٍ، قال: ((صَلَّيتُ مع أبي هُرَيرةَ العَتَمةَ، فقرَأَ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ فسجَدَ، فقُلتُ له[٤]. قال: سجَدْتُ خَلْفَ أبي القاسِمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا أزالُ أسجُدُ فيها حتَّى ألقاه))[٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَجَدْنا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) قال ابنُ عاشورٍ: (سمَّاها المفسِّرونَ وكتَّابُ المصاحفِ «سورةَ الانشِقاقِ» باعتبارِ المعنى). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٧).

(٢) وَجهُ التَّسميةِ: افتِتاحُها بقَولِه تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٧).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٣٣)، وأحمدُ (٤٨٠٦).
صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٣٣)، وجوَّده ابنُ حجر في ((فتح الباري)) (٨/ ٥٦٤)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٩٦)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٨/ ٤٢٤).

(٤) وفي روايةِ مسلم: ((فقُلتُ: تَسجُدُ فيها؟ فقالَ: نَعَمْ)).

(٥) أخرجه البخاريُّ (٧٦٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٥٧٨).

في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾))[١].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

**١- مَن قَرَأها فكأنَّه يَنظُرُ إلى يومِ القيامةِ رأيَ العَينِ:**

كما في حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما المتقدِّمِ.

**٢- فيها مَوضِعُ سَجْدةٍ:**

لِما تقدَّمَ في حديثِ أبي هُرَيرةَ، وذلك عندَ قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۞ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ﴾[٢].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الانشِقاقِ مَكِّيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

وصفُ يومِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٥٧٨) (١٠٨).

(٢) وهذا مذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ والحنابلةِ، وهو روايةٌ عن مالكٍ، واختاره ابنُ حزم. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٢/ ١٠٤)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٩)، ((الإقناع)) للحَجَّاوي (١/ ١٥٥)، (شرح مختصر خليل)) للخرَشي (١/ ٣٥٠)، ((المحلى)) لابن حزم (٣/ ٣٢٢).

(٣) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٢٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٧)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٣١). ويُنظر أيضًا: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧١).

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- ذِكرُ أهوالِ يومِ القيامةِ.

٢- الحديثُ عن أحوالِ السُّعَداءِ والأشقياءِ يومَ القيامةِ.

٣- تحذيرُ الكافِرينَ مِن سُوءِ عاقِبةِ إصرارِهم على كُفْرِهم وفُسوقِهم.

## الآيات (١-٦)

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ٣ وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ ٤ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ٦﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَأَذِنَتۡ﴾: أي: سَمِعَت وأطاعت؛ مِنَ الأَذَنِ، وهو الاستِماعُ للشَّيءِ، والإصغاءُ إليه[١].

﴿وَحُقَّتۡ﴾: أي: وحُقَّ لها أن تُطيعَ رَبَّها؛ مِن قَولِهم: هو محقوقٌ بكذا وحقيقٌ به، وأصلُ (حقق): يدُلُّ على إحكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه[٢].

﴿مُدَّتۡ﴾: أي: بُسِطَت باندِكاكِ جِبالِها وتَسويتِها، وأصلُ (مدد): يدُلُّ على اتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ[٣].

﴿وَتَخَلَّتۡ﴾: أي: خلَتْ عمَّا كان فيها غايةَ الخُلُوِّ، ولم تَتمسَّكْ منه بشَيءٍ، حتَّى لم يَبْقَ في باطِنِها شيءٌ، وأصلُ (خلو): يدُلُّ على تَعَرِّي الشَّيءِ مِن الشَّيءِ[٤].

﴿كَادِحٌ﴾: أي: ساعٍ بعَمَلِك، والكادِحُ: العامِلُ بشِدَّةٍ وسُرعةٍ واجتهادٍ، والكَدْحُ:

---

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٧).

عَمَلُ الإنسانِ وجُهدُه في الأمرِ مِن الخَيرِ والشَّرِّ حتَّى يَكدَحَ ذلك فيه، أي: يُؤَثِّرَ، وأصلُ (كدح): يدُلُّ على تأثيرٍ في شيءٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالإخبارِ عن أهوالِ القيامةِ، فقال تعالى: إذا تَشَقَّقت السَّماءُ يومَ القيامةِ وتصَدَّعَت، واستمَعَت لأمرِ رَبِّها وأطاعَتْه في تشَقُّقِها، وحُقَّ لها أن تستَمِعَ لأمْرِه وتُطيعَه، وإذا بُسِطَت الأرضُ فكانت واسِعةً مُسْتَوِيةً لا انخِفاضَ فيها ولا ارتِفاعَ، وألقَت ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ إلى سَطْحِها، واستَمَعَت لأمرِ رَبِّها وأطاعَتْه، وحُقَّ لها ذلك- إذا حَدَث ذلك رأَيْتُم أعمالَكم مِن خيرٍ أو شَرٍّ.

ثمَّ قال تعالى موجِّهًا نداءَه إلى الإنسانِ: يا أيُّها الإنسانُ إنَّك عامِلٌ ومُجِدٌّ في عَمَلِك، وساعٍ إلى ربِّك بعَمَلِك لا محالةَ ولا مَفَرَّ، فتَلْقَاه بعَمَلِك ويُجازيك عليه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ١﴾.

أي: إذا تَشَقَّقت السَّماءُ يومَ القيامةِ وتصَدَّعَت[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦].

﴿وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٩).

قال البِقاعي: (ذلك بعدَ القيامِ مِن القُبورِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٣٥).

أي: واستمَعَت لأمرِ رَبِّها وأطاعَتْه في تشَقُّقِها، وحُقَّ لها أن تستَمِعَ لأمْرِه وتُطيعَه؛ فهو رَبُّها الَّذي خلَقَها ويَملِكُها ويُدَبِّرُ أَمْرَها[١].

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بدأَ بالعالَمِ العُلويِّ؛ لِكَونِه أشرَفَ لأنَّه أعلى مكانةً ومَكانًا؛ ثَنَّى بالسُّفْليِّ[٢].

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾.

أي: وإذا بُسِطَت الأرضُ يومَ القيامةِ ومُطَّتَ بعْدَ نَسْفِ جِبالِها، فتكونُ أرضًا واسِعةً مُسْتَوِيةً لا انخِفاضَ فيها ولا ارتِفاعَ ولا انثِناءَ، وتَسَعُ النَّاسَ جَميعًا على كَثْرَتِهم[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٠-٢٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٦٩)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٠٩).

قال ابنُ عطية: (يحتَمِلُ أن يريدَ: وحُقَّ لها أن تَنْشَقَّ؛ لشِدَّةِ الهَولِ وخَوفِ اللهِ تعالى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦).

وقال البِقاعي: (﴿وَحُقَّتْ﴾ بالبناءِ للمَفعولِ، بمعنى: أنَّها مَجبولةٌ على أنَّ ذلك حَقٌّ عليها ثابتٌ لها، فهي حقيقةٌ به؛ لأنَّها مَربوبةٌ له سُبحانَه، وكُلُّ مَربوبٍ فهو حقيقٌ بالانقيادِ لرَبِّه، وهي لم تَزَلْ مُطيعةً له في ابتدائِها وانتهائِها، لكِنْ هناك يكونُ الكَشْفُ التَّامُّ لجميعِ الأنامِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩، ٢٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٠).

قال ابن عاشور: (... ومِن معاني المدِّ أن يُزالَ تَكويرُها بتمَدُّدِ جِسْمِها حتَّى تصيرَ إلى =

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَجمَعُ اللهُ يومَ القيامةِ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ في صعيدٍ واحدٍ، فيُسمِعُهم الدَّاعي، ويَنفُذُهم البَصَرُ[(١)]))[(٢)].

﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: وألقَتِ الأرضُ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ إلى سَطْحِها، فخلَتْ عمَّا كان فيها، ولم يَبْقَ فيها أحدٌ منهم[(٣)].

---

= الاستِطالةِ بعدَ التَّكويرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

(١) أي: يُحيطُ بهم بَصَرُ النَّاظِرِ لا يَخفى عليه منهم شَيءٌ؛ لاستواءِ الأرضِ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٥/ ٣٥١).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٧١٢)، ومسلمٌ (١٩٤) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٠).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ إلقاءُ الأرضِ ما في جَوفِها مِن الأمواتِ: ابنُ جرير، وابنُ عطيَّةَ ونسَبَه للجُمهورِ، وقال به ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة.

ومِمَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وسعيدٌ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٥٥).

وقيل: إلقاءُ الأرضِ يَعُمُّ الأمواتَ والكُنوزَ. ومِمَّن ذهب إليه: الزَّجَّاجُ، والواحديُّ، والزمخشري، والسعدي. يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧).

وضَعَّفه ابنُ عَطيَّةَ؛ حيث قال: (﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾: يريدُ الموتى. قاله الجمهورُ. وقال الزَّجَّاجُ: =

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥﴾.

أي: واستَمَعَت لأمرِ رَبِّها، وأطاعَتْه في إخراجِ ما في بَطْنِها من الأمواتِ، وحُقَّ لها أن تستَمِعَ لأمْرِه وتُطيعَه؛ فهو رَبُّها الَّذي خلَقَها ويَملِكُها ويُدَبِّرُ أَمْرَها[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾.

أي: يا أيُّها الإنسانُ إنَّك عامِلٌ أعمالًا تجتَهِدُ فيها سواءٌ كانت خيرًا أو شرًّا، ثمَّ تَرجِعُ إلى رَبِّك فتَلْقَاه بعَمَلِك ويُجازيك عليه[2].

---

= ومِن الكُنوزِ. وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ ذلك يكونُ وقتَ خُروجِ الدَّجَّالِ، وإنَّما تُلقي يومَ القيامةِ الموتى). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦).

وقال قَتادةُ في قولِه: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ﴾: أخرجَتْ أثقالَها وما فيها. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٣).

وقال ابنُ عاشور: (قَولُه: ﴿وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا﴾ صالحٌ للحَمْلِ على ما يُناسِبُ هذه الاحتِمالاتِ في مَدِّ الأرضِ، ومحتَمِلٌ لأن تنقَذِفَ مِن باطِنِ الأرضِ أجزاءٌ أُخرى يكونُ لانقذافِها أثَرٌ في إتلافِ الموجوداتِ؛ مِثلُ البراكينِ، واندِفاعِ الصُّخورِ العَظيمةِ، وانفِجارِ العُيُونِ إلى ظاهِرِ الأرضِ، فيكونُ طُوفانٌ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٣، ٢٣٤)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٧).

قيل: جوابُ ﴿إِذَا﴾ محذوفٌ، تقديرُه: إذا وقَعَت تلك الأمورُ قابَلَ الإنسانُ رَبَّه، أو: رأى ما عَمِلَه مِن خيرٍ أو شَرٍّ، أو رأى ثوابَه وعِقابَه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٤-٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

وقيل غيرُ ذلك. ويُنظر ما يأتي في بلاغة الآيات (ص: ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٢٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١١).

قال ابنُ جُزَي: (الكَدْحُ في اللُّغةِ هو: الجِدُّ والاجتِهادُ والسُّرعةُ، فالمعنى: إنَّك في غايةِ =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وقال سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ

---

= الاجتهادِ في السَّيرِ إلى رَبِّك؛ لأنَّ الزَّمانَ يطيرُ، وأنت في كلِّ لحظةٍ تَقطَعُ حَظًّا مِن عُمُرِك القَصيرِ، فكأنَّك سائِرٌ مُسرِعٌ إلى الموتِ، ثمَّ تلاقي ربَّك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٤).

والخِطابُ هنا لجميعِ النَّاسِ لا لإنسانٍ بعَيْنِه. ومِمَّن ذكر ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ القيِّم، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٦)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٥، ١٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢١).

وقولُه: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ ممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ على قولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ وأنَّ المعنى: «فمُلاقِي ربِّك»: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن جُزَي، والسعديُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين، ونسَبَه ابنُ عطيَّةَ لجمهورِ المتأوِّلينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠، ٢٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٧).

وممَّن اختار أنَّ الضَّميرَ يعودُ على العملِ، أي: فمُلاقٍ عمَلَك: الزَّجَّاجُ، ومكِّيٌّ، والواحدي، والنسفي، وجلال الدين المحلي. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٠٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٥٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٦)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦١٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٧٩٩).

ونحو هذا القولِ قولُ مَن قال: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي: مُلاقي جزاءِ عمَلِك، خيرًا كان أو شرًّا. ومنهم: البغويُّ، والخازن، والعُلَيمي، والألوسي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٨).

قال ابنُ القَيِّم: (﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ إنْ عاد الضَّميرُ على العَمَلِ فهو رؤيتُه في الكتابِ مَسطورًا مُثبَتًا، وإن عاد على الرَّبِّ سُبحانَه وتعالى فهو لقاؤه الَّذي وَعَد به). ((حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)) (ص: ٢٨٨).

وقال ابن كثير: (قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي: ساعٍ إلى ربِّك سَعْيًا، وعامِلٌ عمَلًا ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ ثمَّ إنَّك ستَلْقى ما عَمِلْتَ مِن خَيرٍ أو شرٍّ... ومِن النَّاسِ مَن يُعيدُ الضَّميرَ على قولِه: ﴿رَبِّكَ﴾ أي: فمُلاقٍ ربَّك، ومعناه: فيُجازيك بعَمَلِك، ويُكافئك على سَعْيِك. وعلى هذا فكِلا القولَينِ مُتلازِمٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦).

تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- مِمَّا هو جَديرٌ بالتَّنبيهِ عليه أنَّه إذا كانت السَّماءُ مع عِظَمِ جِرْمِها، والأرضُ مع مِساحةِ أَصْلِها (أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) مع أنَّها لم تتحَمَّلْ أمانةً، ولن تُسأَلَ عن واجِبٍ؛ فكيف بالإنسانِ على ضَعْفِه، وقد تحَمَّلَ أمانةَ التَّكليفِ؟! كما قال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧]، وكقولِه تعالى: ﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]؛ فكان أحَقَّ بالسَّمعِ والطَّاعةِ في كَدْحِه إلى أن يَلْقى رَبَّه لِما يُرْضِيه(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ إثباتُ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويؤخَذُ مِن ذلك: أنَّه يَجبُ على الإنسانِ أنْ يَسْتَعِدَّ لِمُلاقاةِ اللهِ، وأنْ يَعْرِفَ كيف يُلاقي اللهَ: هل يُلاقيه على حالٍ مَرْضِيَّةٍ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، أو على العَكسِ؟ ففَتِّشْ نفْسَك، واعرِفْ ما أنت عليه(٢).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ حَثٌّ على الاجتِهادِ في الإحسانِ في العَمَلِ؛ لأنَّ مَن أيقَنَ بأنَّه لا بُدَّ له مِن العَرْضِ على المَلِكِ أفرَغَ جُهْدَه في العَمَلِ بما يَحمَدُه عليه عندَ لِقائِه(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ أنَّ الإنسانَ لا بُدَّ أنْ يكونَ دائمًا في عملٍ، يجتازُ مِن عَمَلٍ إلى عَمَلٍ، ليس في حياتِه عُطْلَةٌ إطلاقًا؛ فالإنسانُ دَؤوبٌ كادِحٌ إلى أنْ يَلقى اللهَ عزَّ وجلَّ، فقد أَتَتِ «الفاءُ» بعدَ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٤٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٩).

قولِه: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ إشارةً إلى أنَّ هذا الكَدْحَ سوف يَسْتَمِرُّ إلى مُلاقاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وذلك بحُلولِ الأَجَلِ(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الأرضَ كُرَويَّةٌ؛ لأنَّ هذا إنَّما يكونُ يومَ القيامةِ، وهو يدُلُّ على أنَّها قبْلَ ذلك ليست ممدودةً، بل هي كُرَويَّةٌ، وهذا لا يعارِضُ قولَه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠]؛ لأنَّ سَطْحَها هو باعتبارِ المشاهَدةِ، فأنت الآنَ إذا وقفتَ على الأرضِ تَجِدُها مُستَوِيةً إلى مَدِّ البَصَرِ(٢).

٢- في قَولِه -تعالى- عن السَّماءِ والأرضِ: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ أنَّ الكونَ كُلَّه مُطِيعٌ مُنقادٌ لأوامِرِ اللهِ(٣)؛ فتأمَّلْ أيُّها الآدَمِيُّ البَشَرُ الضَّعيفُ كيف كانت هذه المخلوقاتُ العَظيمةُ تَسمَعُ وتُطيعُ لله عزَّ وجَلَّ هذه الطَّاعةَ العظيمةَ في ابتداءِ الخَلْقِ، وفي انتهاءِ الخَلْقِ! في ابتداءِ الخَلْقِ قال: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ١١]، وفي انتهاءِ الخَلْقِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ حُقَّ لها أن تأذَنَ: تَسمَعَ وتُطيعَ(٤).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أنَّها بعدَ أن كانت لهم كِفاتًا أحياءً وأمواتًا، وبعدَ أن كانت لهم مِهادًا، لَفَظَتْهم وتخَلَّت عنهم، وهذا ما يَزيدُ في رَهبةِ الموقِفِ وشِدَّتِه والتَّضييقِ على العِبادِ؛ وأنْ لَا مَلْجَأَ لهم ولا مَنجَى إلَّا إلى اللهِ،

(١) يُنظر: ((اللقاء الشهري)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٣٦).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة ص)) (ص: ١٥٩).
(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٨).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٠).

كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾[١] [القيامة: ١١، ١٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ أنَّ الخَلْقَ كلَّهم مَصيرُهم ومَرْجِعُهم إلى اللهِ على أيِّ طريقٍ سَلَكوا[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ * وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ * وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾

- (إذا) ظَرفٌ للزَّمانِ المُستَقبَلِ، والفِعلُ الَّذي في الجُملةِ المُضافةِ إليه (إذا) مُؤوَّلٌ بالمُستقبَلِ، وصِيغَ بالمُضِيِّ؛ للتَّنبيهِ على تَحقُّقِ وُقوعِه؛ لأنَّ أصلَ (إذا) القَطعُ بوُقوعِ الشَّرطِ[٣].

- وقُدِّمَ المُسنَدُ إليه -﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ و﴿ٱلْأَرْضُ﴾- على المُسنَدِ الفِعليِّ -﴿ٱنشَقَّتْ﴾ و﴿مُدَّتْ﴾- دُون أنْ يُقالَ: (إذا انشَقَّتِ السَّماءُ)، (وإذا مُدَّتِ الأرضُ)؛ لإفادةِ تَقَوِّي الحُكمِ، وهو التَّعليقُ الشَّرْطيُّ، أي: أنَّ هذا الشَّرطَ مُحقَّقُ الوُقوعِ، زِيادةً على ما يَقتَضيه (إذا) في الشَّرطيَّةِ مِن قَصدِ الجَزمِ بحُصولِ الشَّرطِ، بخِلافِ (إنْ)[٤].

- قولُه: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إليها؛ للإشْعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ؛ فالتَّعبيرُ بـ (رَبِّهَا) دُون غَيرِ ذلك مِن أسْماءِ اللهِ وطُرُقِ تَعريفِه؛ لِما يُؤذِنُ به وَصْفُ الرَّبِّ مِن المُلْكِ والتَّدْبيرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٦٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢١٨، ٢١٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩).

- قولُه: ﴿وَحُقَّتْ﴾، أي: جُعِلَتْ حَقيقةً بالاستِماعِ والانقِيادِ، لكنْ لا بَعْدَ أنْ لم تَكُن كذلك، بلْ في نفْسِها وحَدِّ ذاتِها، مِن قَولِهم: هو مَحقوقٌ بكذا وحَقيقٌ به، والمَعْنى: انقادَتْ لرَبِّها، وهي حَقيقةٌ بذلك، لكنْ لا على أنَّ المُرادَ خُصوصيَّةُ ذاتِها مِن بيْنِ سائرِ المَقدوراتِ، بل خُصوصيَّةُ القُدرةِ القاهِرةِ الرَّبَّانيَّةِ الَّتي يَتأتَّى لها كُلُّ مَقدورٍ، ولا يَتخَلَّفُ عنها أمرٌ مِن الأُمورِ؛ فحَقُّ الجُملةِ أنْ تَكونَ اعتِراضًا مُقرِّرًا لِما قبْلَها، لا مَعطوفةً عليه[١].

- ومُتعلَّقُ (حُقَّتْ) مَحذوفٌ دَلَّ عليْه فِعلُ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾، أي: وحُقَّتْ بذلك الانقِيادِ والتأثُّرِ، يُقالُ: حُقَّ فُلانٌ بكذا، أي: تَوجَّهَ عليْه حَقٌّ[٢].

- قولُه: ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ ذكَرَه مَرَّتَينِ؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصلٌ بالسَّماءِ، والثَّانيَ بالأرضِ، وإذا اتَّصَلَ بغيرِ ما اتَّصَلَ به الآخَرُ لا يكونُ تَكرارًا[٣].

- قولُه: ﴿وَتَخَلَّتْ﴾، أي: أَخرَجَتْ ما في باطِنِها، فلمْ يَبقَ منه شَيءٌ؛ لأنَّ فِعلَ (تَخلَّى) يدُلُّ على قُوَّةِ الخُلُوِّ عن شَيءٍ؛ لِما في مادَّة (التَّفَعُّلِ) مِن الدَّلالةِ على تَكلُّفِ الفِعلِ، كما يُقالُ: تَكرَّمَ فُلانٌ، إذا بالَغَ في الإكْرامِ، والمَعْنى: إنَّه لم يَبقَ ممَّا في باطِنِ الأرضِ شيءٌ[٤].

- وتَكريرُ (إذا) في الآيتَينِ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾؛ لاستِقلالِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢١٩).

(٣) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٦٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

كُلٍّ مِن الجُملتَينِ بنَوعٍ مِن القُدرةِ[١].

- وجَوابُ (إذَا) قيل: هو قولُه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ إلخ، وقولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ اعتِراضٌ. وقيلَ: جَوابُ (إذَا) مَحذوفٌ؛ للتَّهويلِ، والإيماءِ إلى قُصورِ العِبارةِ عن بَيانِه، أو للتَّعويلِ على ما مَرَّ في سُورةِ (التَّكويرِ) و(الانفِطارِ). وقيلَ: هو ما دَلَّ عليه قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾، تَقديرُه: لاقَى الإنسانُ كَدْحَه، وذلك على قولٍ. وقيلَ: هو قولُه تعالَى: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، وما قبْلَه اعتِراضٌ. وقيلَ: هو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ...﴾ إلخ، بإضْمارِ القولِ، أي: يُقالُ: يا أيُّها الإنسانُ[٢]، أو يكونُ قولُه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ ...﴾ جَوابَ (إذَا) باعتِبارِ ما فُرِّعَ عليه مِن قولِه: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾؛ فالمَعنى: إذا السَّماءُ انشَقَّتْ، وإذا الأرضُ مُدَّتْ؛ لاقَيتَ رَبَّك -أيُّها الإنسانُ- بعْدَ كَدْحِك لمُلاقاتِه؛ فكان قولُه: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ إدْماجًا[٣] بمَنزِلةِ الاعتِراضِ أمامَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٢).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيقَ لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيلَ: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: =

المَقصودِ. وجُوِّزَ أن يَكونَ جَوابُ (إذا) مَحذوفًا دَلَّ عليْه قولُه: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، والتَّقديرُ: إذا السَّماءُ انشَقَّتْ... إلى آخِرِه، لاقَيتَ أيُّها الإنسانُ رَبَّك[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾

- الخِطابُ لجَميعِ النَّاسِ؛ فاللَّامُ في قولِه: ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ لتَعريفِ الجِنسِ، وهو للاستِغراقِ، كما دَلَّ عليه التَّفصيلُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٧] إلى قولِه: ﴿كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا﴾ [الانشقاق: ١٥]، والمَقصودُ الأوَّلُ مِن هذا وَعيدُ المُشرِكين؛ لأنَّهم الَّذين كَذَّبوا بالبَعثِ، فالخِطابُ بالنِّسبةِ إليهم زِيادةٌ للإنذارِ، وهو بالنِّسبةِ إلى المُؤمِنينَ تَذكيرٌ وتَبشيرٌ[٢].

- وتَعليقُ مَجرورِ ﴿كَادِحٌ﴾ في هذه الآيةِ بحرْفِ (إلَى) يُؤذِنُ بأنَّ المُرادَ به: عمَلٌ يَنتَهي إلى لِقاءِ اللهِ، فيَجوزُ أنْ يُضَمَّنَ (كَادِحٌ) مَعنى: ساعٍ؛ لأنَّ كَدْحَ النَّاسِ في الحَياةِ يَتَطلَّبون بعَملِ اليَومِ عَملًا لغَدٍ، وهكذا[٣].

- و﴿كَدۡحٗا﴾ مَنصوبٌ على المَفعوليَّةِ المُطْلقةِ؛ لتَأكيدِ (كَادِحٌ) المُضمَّنِ مَعنى: ساعٍ إلى رَبِّك، أي: ساعٍ إليه لا مَحالةَ، ولا مَفرَّ[٤].

- وضَميرُ النَّصبِ في (مُلَاقِيهِ) عائِدٌ إلى الرَّبِّ، أي: فمُلاقٍ رَبَّك، أي: لا مَفرَّ لك مِن لِقاءِ اللهِ؛ ولذلك أُكِّدَ الخَبَرُ بـ (إنَّ)[٥].

---

= ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢٢).

## الآيات (٧-١٥)

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ثُبُورًا﴾: أي: هَلاكًا، والثُّبُورُ: الهَلاكُ والفَسادُ، وأصلُ (ثبر): يدُلُّ على هَلاكٍ[١].

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾: أي: يَدخُلُ النَّارَ، ويذُوقُ حَرَّها، والصَّلَى أصلُه: الإيقادُ بالنَّارِ، وأصلُ (صلى) هنا: النَّارُ، وأصلُ (سعر): يَدُلُّ على اشتعالِ الشَّيءِ واتِّقادِه وارتِفاعِه[٢].

﴿يَحُورَ﴾: أي: يَرجِعَ ويُبعَثَ، وأصلُ (حور) هنا: يدُلُّ على رُجوعٍ[٣].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مفصِّلًا عاقِبةَ ذلك الكَدْحِ مُبتَدِئًا بحالِ السُّعداءِ: فأمَّا المؤمِنُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه بيَمينِه، فسَوْفَ يُحاسَبُ يومَ القيامةِ حِسابًا سَهْلًا يَسيرًا بلا مناقَشةٍ، ويَنصَرِفُ إلى أهلِه في الجَنَّةِ مَسرورًا.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣١٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٣٠).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٥، ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٨٧).

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه حالَ الأشقياءِ، فيقولُ: وأمَّا الكافِرُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه بشِمالِه مِن خَلْفِ ظَهْرِه، فسَوْفَ يُنادي على نَفْسِه بالهَلاكِ والخُسْرانِ، ويَدخُلُ النَّارَ فيَحترِقُ فيها.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه الأسبابَ الَّتي أدَّتْ به إلى هذه العاقِبةِ، فيقولُ: إنَّه كان في الدُّنيا مسرورًا في أهلِه باتِّباعِ هَواه وفِعْلِه المعاصيَ، فَرِحًا بدُنْياه وشَهَواتِها، إنَّه ظَنَّ في الدُّنيا أنَّه لن يَرجِعَ إلى رَبِّه بعْدَ مَوتِه؛ لِيُحاسِبَه على أعمالِه، وليس الأمرُ كما يَظُنُّه هذا المكَذِّبُ بالبَعْثِ؛ فإنَّه سيُبعَثُ حَيًّا بعدَ مَوتِه، إنَّ اللهَ بصيرٌ به ومُطَّلِعٌ على أعمالِه، وسيُجازيه عليها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ عَبيدَ المَلِكِ إذا عُرِضوا عليه كان فيهم المقبولُ والمردودُ؛ بسَبَبِ أنَّ كَدْحَهم تارةً يكونُ حَسَنًا، وتارةً يكونُ سَيِّئًا؛ قال مُعَرِّفًا أنَّ الأمرَ في لقائِه كذلك على ما نَعهَدُ؛ فمَن كان مقبولًا أُعطِيَ كِتابَه بيمينِه، ومَن كان مردودًا أُعطِيَ كتابَه بشِمالِه؛ فتَرْجَمَ هذا الغَرَضَ[1] بقولِه:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧﴾.

أي: فأمَّا المؤمِنُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه، فيَتَسلَّمُه بيَدِه اليُمْنى[2].

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٣).

أي: فسوف يُحاسَبُ يومَ القيامةِ حِسابًا سَهْلًا، فتُعرَضُ عليه سَيِّئاتُه المكتوبةُ بلا مناقَشةٍ وتدقيقٍ وإطالةٍ، ولا يُؤاخَذُ بها(١).

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَـٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَـٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الإسراء: ٧١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ. فقُلتُ: أوَلَيس يقولُ اللهُ تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟! فقال: إنَّما ذلكِ العَرضُ، ولكِنْ مَن نُوقِشَ(٢) الحِسابَ يَهلِكْ))(٣).

وعن عبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: سَمِعتُ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((إنَّ اللهَ يُدْنِي المؤمِنَ فيَضَعُ عليه كَنَفَه(٤) ويَستُرُه، فيقولُ: أتَعْرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرِفُ ذَنْبَ كذا؟ فيقولُ: نَعَمْ، أيْ رَبِّ! حتَّى إذا قَرَّره بذُنُوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هَلَكَ، قال: سَتَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ، فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه))(٥).

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾.

أي: ويَنصَرِفُ إلى أهلِه في الجَنَّةِ مَسرورًا بنَجاتِه مِن الجَحِيمِ، وبما أعطاه اللهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٦، ٢٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢)، ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٧/ ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٣).

(٢) نُوقِشَ: استُقصِيَ عليه. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٢٠٨).

(٣) رواه البخاريُّ (١٠٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٧٦).

(٤) كَنَفَه: سَتْرَه. يُنظر: ((خلق أفعال العباد)) للبخاري (ص: ٧٨)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٨٧).

(٥) رواه البخاريُّ (٢٤٤١) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٧٦٨).

مِن النَّعيمِ العَظيمِ[١].

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ * إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩ - ٢٤].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾.

أي: وأمَّا الكافِرُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه، فيَتسَلَّمُه بشِمالِه مِن خَلْفِ ظَهْرِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥ - ٢٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٣٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٣).

قيل: المرادُ بـ﴿أَهْلِهِۦ﴾: زَوجاتُه مِنَ الحُورِ العِينِ، والآدَمِيَّاتِ. ومِمَّن قال بهذا: الواحديُّ، والبغويُّ، وابنُ الجَوزيِّ، والخازنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٩).

وقيل: هم: أزواجُه مِنَ الحُورِ العِينِ. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ أبي زَمَنِين، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢).

وقال الألوسي: (﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي: عَشيرتِه المؤمنينَ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٨٩).

وقال ابنُ عاشور: (الأهلُ: العَشيرةُ مِن زَوجةٍ وأبناءٍ وقَرابةٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٣).

وقال أبو السعود: (﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي: عشيرتِه المؤمنينَ، أو فريقِ المؤمنينَ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٢).

وقال الشوكاني: (﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي: ويَنصَرِفُ بعدَ الحِسابِ اليَسيرِ إلى أهلِه الَّذين هم في الجنَّةِ مِن عَشيرتِه، أو إلى أهلِه الَّذين كانوا له في الدُّنيا مِن الزَّوجاتِ والأَولادِ وقد سَبَقوه إلى الجنَّةِ، أو إلى مَن أعَدَّه اللهُ له في الجنَّةِ مِنَ الحُورِ العِينِ والوِلْدانِ المخَلَّدينَ، أو إلى جميعِ هؤلاء، مسرورًا مُبتَهِجًا بما أُوتِيَ مِنَ الخَيرِ والكرامةِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٣).

﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾﴾.

أي: فسوف يُنادي على نَفْسِه بالهَلاكِ والخُسْرانِ؛ نَدامةً وحَسرةً مِمَّا يَرى في كتابِه من السَّيِّئاتِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾.

أي: ويَنغَمِسُ في النَّارِ المُلتَهِبةِ الشَّديدةِ التَّوَقُّدِ، فيَحتَرِقُ فيها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٥، ٥٦].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر العَذابَ الَّذي لا يُطاقُ؛ أَتْبَعَه سَبَبَه؛ تَرهيبًا منه، وحثًّا على التَّوبةِ[٣].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾.

أي: إنَّه كان في الدُّنيا مسرورًا في أهلِه باتِّباعِ هَواه، ورُكوبِ شهوتِه، واقترافِ المعاصي، فَرِحًا بدُنْياه، لا يُفَكِّرُ في عاقِبةِ أعمالِه، ولا يَخافُ عَذابَ الآخِرةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤١)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٤).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير ابن =

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤﴾.

أي: إنَّ هذا الكافِرَ قد ظَنَّ في الدُّنيا أنَّه لن يَرجِعَ إلى رَبِّه بعْدَ مَوتِه؛ لِيُحاسِبَه ويُجازِيَه على أعمالِه، فلَمْ يَكُنْ يَخشَى عِقابًا أو يَرجو ثَوابًا[١].

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ١٥﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّه هذا المكَذِّبُ بالبَعْثِ؛ فإنَّه سيُبعَثُ حَيًّا بعدَ مَوتِه، واللهُ بصيرٌ به ومُطَّلِعٌ على أعمالِه، فلا يخفى عليه كُفْرُه أو عِصيانُه، وسيُجازيه على ذلك[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الكِتابُ: صَحيفةُ الأعمالِ، وجُعِلَ إيتاؤُه إيَّاه بيَمينِه شِعارًا للسَّعادةِ؛ لِما هو مُتَعارَفٌ مِن أنَّ اليَدَ اليُمْنى تَتناوَلُ الأشياءَ الزَّكيَّةَ[٣].

---

= كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٤).

قال ابن عطية: (وقولُه تعالى: ﴿فِيٓ أَهۡلِهِۦ﴾ يريدُ: في الدُّنيا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٥).

قال البِقاعي: (﴿بَصِيرًا﴾ أي: ناظِرًا له وعالِمًا به أبلَغَ نَظَرٍ وأكمَلَ عِلمٍ؛ فتَرْكُه مُهمَلًا -مع العِلمِ بأعمالِه- مُنافٍ للحِكمةِ والعَدْلِ والمُلْكِ؛ فهو شَيءٌ لا يمكِنُ في العَقْلِ بوَجهٍ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٢).

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾ دَلالةٌ على أنَّه سبحانه أعَدَّ له ولأهلِه في الجَنَّةِ ما يَليقُ به مِنَ الثَّوابِ[١].

٣- اربطْ بيْن قَولِه تعالى فيمَن أُوتِيَ كِتابَه بيَمينِه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا﴾، وهذا: ﴿كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ تجِدْ فرقًا بيْن السُّرورَين؛ فسُرورُ الأوَّلِ سرورٌ دائِمٌ -نسألُ اللهَ أن يجعَلَنا منهم-، وسرورُ الثَّاني سُرورٌ زائِلٌ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ سُؤالٌ عن وَجهِ الجَمعِ مع قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]؟

**الجوابُ**: يُؤتَى كِتابَه بشِمالِه، فيكونُ الأخذُ بالشِّمالِ، ولكِنْ تُلوى يَدُه الشِّمالُ إلى الخَلْفِ حتَّى تكونَ مِن وراءِ ظهْرِه، والجزاءُ مِن جنسِ العملِ؛ فكما أنَّ هذا الرَّجُلَ جَعَلَ كتابَ اللهِ وراءَ ظَهْرِه، أُعطِيَ كتابَه يومَ القيامةِ مِن وراءِ ظَهْرِه؛ جَزاءً وِفاقًا[٣]. وقيل: بَعضُهم يُعطَى بشِمالِه، وبعضُهم مِن وَراءِ ظَهرِه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ۞ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ بيانُ نتيجةِ سُرورِ أولئك في الدُّنيا، بأنَّهم يَصْلَونَ سَعيرًا، ولم يُبَيِّنْ سَبَبَ سُرورِ الآخَرينَ، ولكِنْ بَيَّنَه في موضِعٍ آخَرَ: وهو خَوفُهم مِنَ اللهِ في قَولِه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۞ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ۞ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦ - ٢٨]، وهنا يقالُ: إنَّ اللهَ سُبحانَه لم يجمَعْ على عَبْدِه خَوفَينِ، ولم يُعْطِه الأمْنَينِ معًا؛ فمَن خافه في الدُّنيا أمَّنَه في الآخِرةِ: ﴿وَلِمَنۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٣/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٤). ويُنظر أيضًا: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٩٩).

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن: ٤٦]، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١]، ومَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللهِ، وقضى كُلَّ شَهَواتِه، وكان لا يُبالي؛ فيُؤتى كِتابَه بشِمالِه، ويَصلَى سَعيرًا، كما في قَولِه تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ * وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٧] تكذيبًا للبَعْثِ، وقَولُه هذا هو بعَينِه المذكورُ في هذه الآياتِ: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾[(١)].

٦- السُّرورُ ورَد في القرآنِ على أَوجهٍ؛ منها: سُرورُ أهلِ الدُّنيا بدُنْياهم، كما في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، ومنها سرورُ المطيعينَ بنَعيمِ العُقْبَى، كما في قولِه: ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، وفيه تنبيهٌ على أنَّ سُرورَ الآخرةِ يُضادُّ سُرورَ الدُّنيا[(٢)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا * إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أنَّ السُّرورَ في الدُّنيا، وعدَمَ الخَوفِ مِنَ اللهِ: سَبَبُ العَذابِ يومَ القيامةِ، وقد تقرَّر في مَسلَكِ الإيماءِ والتنبيهِ[(٣)] أنَّ «إنَّ» المكسورةَ المشَدَّدةَ مِن حُروفِ التَّعليلِ، فقَولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ عِلَّةٌ لِقَولِه: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا * وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾[(٤)].

٨- قَولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ يُشعِرُ أنَّ عدَمَ الإيمانِ بالبَعثِ أو الشَّكَّ

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٧٠).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٠٩).

(٣) دلالةُ الإيماءِ والتَّنبيهِ: أن يُذكرَ وصْفٌ مُقتَرِنٌ بحُكمٍ في نصٍّ مِن نصوصِ الشَّرعِ على وجهٍ لو لم يكُنْ ذلك الوصفُ علَّةً لذلك الحُكمِ لَكان الكلامُ معيبًا. يُنظر: ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٠).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٤٥٧).

فيه: هو الدَّافِعُ لكُلِّ سُوءٍ، والمُضَيِّعُ لكُلِّ خَيرٍ، وأنَّ الإيمانَ باليَومِ الآخِرِ هو المُنطَلَقُ لكُلِّ خيرٍ، والمانِعُ لكُلِّ شَرٍّ، والإيمانُ بالبَعْثِ هو مُنطَلَقُ جميعِ الأعمالِ الصَّالحةِ كما في مُستَهَلِّ المُصحَفِ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1] [البقرة: ٢- ٤].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ إشارةٌ إلى حِكمةِ البَعْثِ للجَزاءِ؛ لأنَّ رَبَّ النَّاسِ عَليمٌ بأحوالِهم؛ فمنهم المصلِحُ، ومنهم المفسِدُ، والكُلُّ متفاوِتونَ في ذلك؛ فليس مِن الحِكمةِ أن يَذهَبَ المُفسِدُ بفَسادِه وما ألحَقَه بالموجوداتِ مِن مَضَارَّ، وأن يُهمَلَ صَلاحُ المُصلِحِ؛ فجَعَل اللهُ الحياةَ الأَبَديَّةَ، وجَعَلَها للجَزاءِ على ما قَدَّم صاحِبُها في حياتِه الأُولى[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ هذا تَفصيلُ الإجْمالِ الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، أي: رُجوعُ جَميعِ النَّاسِ أولئك إلى اللهِ؛ فمَنْ أُوتيَ كِتابَه بيَمينِه فَريقٌ مِن النَّاسِ هم المُؤمِنون، ومَن أُوتيَ كِتابَه وَراءَ ظَهْرِه فَريقٌ آخَرُ، وهم المُشرِكون، وبيْنَ مُنتهاهُما مَراتبُ، وإنَّما جاءَتْ هذه الآيةُ على اعتِبارِ تَقسيمِ النَّاسِ يَومَئذٍ بيْنَ أَتقياءَ ومُشرِكين[3].

- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢٢).

وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ﴾ احتباكٌ[١]: ذِكرُ اليَمينِ أوَّلًا يدُلُّ على الشِّمالِ ثانيًا، وذِكرُ الوراءِ ثانيًا يدُلُّ على الأمامِ أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر دليلَ المَوَدَّةِ والرِّفْقِ بالمُصافَحةِ ونَحوِها في السَّعيدِ، ودليلَ الغَدْرِ والاغتيالِ في الشَّقيِّ[٢].

- قولُه: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ حرفُ (سوفَ) أصْلُه لحُصولِ الفِعلِ في المُستَقبَلِ، والأكثرُ أنْ يُرادَ به المستقبَلُ البعيدُ، ويُقصَدُ به في الاستِعمالِ البَليغِ تَحقُّقُ حُصولِ الفِعلِ واستِمرارِه، وهو هُنا مُفيدٌ للتَّحقُّقِ والاستِمرارِ بالنِّسبةِ إلى الفِعلِ القابِلِ للاستِمرارِ، وهو ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾، وهو المَقصودُ مِن هذا الوَعدِ[٣].

- والحِسابُ اليَسيرُ: هو عَرْضُ أعمالِه عليه دونَ مُناقَشةٍ، فلا يَطولُ زَمَنُه، فيُعَجَّلُ به إلى الجَنَّةِ، وذلك إذا كانت أعمالُه صالحةً؛ فالحِسابُ اليَسيرُ كِنايةٌ عن عدَمِ المُؤاخَذةِ[٤].

- وفي قَولِه: ﴿فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ احتِباكٌ: ذِكرُ الحِسابِ اليَسيرِ -الَّذي هو الثَّمَرةُ والمسَبَّبُ- أوَّلًا يدُلُّ على حَذفِ ضِدِّه ثانيًا، وذِكرُ السُّرورِ في الأهلِ -الَّذي هو السَّبَبُ في الثَّاني- يدُلُّ على حَذفِ ضِدِّه، وهو سَبَبُ السَّعادةِ، وهو الغَمُّ، ومحاسَبةُ النَّفْسِ في الأوَّلِ. فهو احتِباكٌ في احتِباكٍ[٥].

---

(١) الاحْتِبَاك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصرِ إعجازِه، وهو مِن أَلْطفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٢، ٢٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢٣).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٤).

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۞ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾

- قولُه: ﴿فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا﴾ المُرادُ بالدُّعاءِ هنا: النِّداءُ، أي: يُنادي الثُّبورَ بأنْ يَقولَ: يا ثُبوري، أو يا ثُبورًا، كما يُقالُ: يا وَيْلي، ويا وَيْلَتَنا، والثُّبورُ: الهَلاكُ وسُوءُ الحالِ، وهي كَلِمةٌ يَقولُها مَن وَقَعَ في شَقاءٍ وتَعْسٍ، والنِّداءُ في مِثلِ هذه الكَلماتِ مُستَعمَلٌ في التَّحسُّرِ والتَّوجُّعِ مِن مَعْنى الاسمِ الواقِعِ بعْدَ حرفِ النِّداءِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۞ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۞ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ استِئنافٌ لبَيانِ عِلَّةِ ما يُلاقيه[٢]. وقيل: هذه الجُملةُ مُعترِضةٌ. وهذا القولُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن حالِهم؛ كيف انقَلَبَتْ مِن ذلك السُّرورِ الَّذي كان لهم في الحَياةِ الدُّنيا، المَعروفِ مِن أحوالِهم بما حُكِيَ في آياتٍ كَثيرةٍ، فآلُوا إلى ألَمِ النَّارِ في الآخِرةِ حتَّى دَعَوا بالثُّبورِ؟! وتأكيدُ الخَبَرِ مِن شأْنِ الأخبارِ المُستعمَلةِ في التَّعجيبِ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ تَعليلٌ لسُروره في الدُّنيا، أي: ظَنَّ أنْ لن يَرجِعَ إلى اللهِ تعالى تَكْذيبًا للمَعادِ؛ فهو تَعليلٌ لمَضمونِ جُملةِ ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ...﴾ [الانشقاق: ١٠] إلى آخِرِها. وحرفُ (إنَّ) فيها مُغْنٍ عن (فاءِ) التَّعليلِ، فالمَعْنى: يَصْلى سَعيرًا؛ لأنَّه ظَنَّ أنْ لنْ يَحُورَ، أي: لن يَرجِعَ إلى الحَياةِ بعدَ المَوتِ، أي: لأنَّه يُكَذِّبُ بالبَعثِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٤). =

- وجِيءَ بحرْفِ (لَن) الدَّالِّ على تَأكيدِ النَّفيِ وتَأييدِه؛ لحِكايةِ جَزْمِهم وقَطْعِهم بنَفيِه[١].

- قولُه: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجابٌ لِما بعْدَ ﴿لَّن﴾، وقولُه تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ تَحقيقٌ وتَعليلٌ له، أيْ: بَلى لَيَحورَنَّ البَتَّةَ؛ إنَّ ربَّه الَّذي خَلَقَه كان به وبأعمالِه الموجِبةِ للجَزاءِ بَصيرًا، بحَيثُ لا يَخْفى منها خافِيةٌ، فلا بُدَّ مِن رَجْعِه وحِسابِه وجَزائِه عليها حَتْمًا؛ فأُجيبَ بقولِه: ﴿بَلَىٰٓ﴾ الكلامُ المنفيُّ لإبطالِ نفْيِه، ومَوقعُه الاستئنافُ، وجُملةُ ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ مُبيِّنةٌ للإبْطالِ الَّذي أفادَه حرفُ ﴿بَلَىٰٓ﴾ على وَجْهِ الإجْمالِ، يَعني: إنَّ ظَنَّه باطِلٌ؛ لأنَّ رَبَّه أنْبأَه بأنَّه يُبعَثُ، والمَعنى: إنَّ رَبَّه عَليمٌ بمآلِه. وتأكيدُ ذلك بحرْفِ (إنَّ)؛ لِرَدِّ إنْكارِه البَعثَ الَّذي أَخبَرَ اللهُ به على لِسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فآلَ المَعنى الحاصِلُ مِن حَرفِ الإبْطالِ ومِن حرفِ التَّأكيدِ إلى مَعنى: أنَّ رَبَّه بَصيرٌ به، وأمَّا هو فغَيرُ بَصيرٍ بحالِه، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٢] [البقرة: ٢١٦].

- وتَقديمُ المَجرورِ ﴿بِهِۦ﴾ على مُتَعلَّقِه ﴿بَصِيرًا﴾؛ للاهتِمامِ بهذا المَجرورِ، أي: بَصيرٌ به لا مَحالةَ، مع مُراعاةِ الفَواصِلِ[٣].

---

= ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٥٢٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٢٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٣٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

## الآيات (١٦-٢٥)

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ ٢٥﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلشَّفَقِ﴾: أي: الحُمْرةِ الَّتي تكونُ عندَ مَغيبِ الشَّمسِ، وسُمِّي بذلك لرِقَّتِه، وأصلُ (شفق): يدُلُّ على رِقَّةٍ في الشَّيءِ[(١)].

﴿وَسَقَ﴾: أي: جَمَع وضَمَّ، والوَسْقُ: جَمعُ المتفرِّقِ، وضَمُّك الشَّيءَ بَعضَه إلى بعضٍ[(٢)].

﴿ٱتَّسَقَ﴾: أي: اجتَمَعَ، واستَوَى، وتَمَّ نُورُه، وهو افتَعَل مِنَ الوَسْقِ: الَّذي هو الجَمعُ[(٣)].

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾: المرادُ بالرُّكوبِ: المُلاقاةُ، والطَّبَقُ: ما طابَق غيرَه. يُقالُ: هذا طَبَقٌ لهذا: إذا طابَقه، والمعنى: لَتُلاقُنَّ حالًا كائنةً بعدَ حالٍ، كُلُّ واحدةٍ مُطابِقةٌ

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٩٧، ١٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٦).

للأخرَى، أو: يكونُ الطَّبَقُ جمعَ طَبَقةٍ، وهي المرتبةُ[١]، والمعنى: لَتَرْكَبُنَّ أحوالًا بعدَ أحوالٍ هي طبقاتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، وأصلُ (ركب): عُلُوُّ شَيءٍ شيئًا، وأصلُ (طبق): يدُلُّ على وَضعِ شَيءٍ مَبسوطٍ على مِثْلِه حتَّى يُغَطِّيَه[٢].

﴿يُوعُونَ﴾: أي: يَكتُمونَ ويَجمَعونَ في صُدورِهم مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ، وأصلُ (وعي): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ[٣].

﴿مَمْنُونٍ﴾: أي: مَقطوعٍ أو مَنقوصٍ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على قَطْعٍ[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

قَولُه تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾: هذا جوابُ القَسَم في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ [الانشقاق: ١٦]، فلا محَلَّ له مِن الإعرابِ. ﴿طَبَقًا﴾ مَفعولٌ به، على معنَى: لَتَرْكَبُنَّ وتُلاقُنَّ أحوالًا بعدَ أحوالٍ هي طبقاتٌ في الشِّدَّةِ. وقيل: منصوبٌ على الحالِ، على معنى: لَتَركَبُنَّ هذه الأحوالَ أُمَّةً بعْدَ أمَّةٍ، كأنَّه قيلَ: مُتتابعِينَ أُمَّةً بعدَ أُمَّةٍ. ﴿عَن طَبَقٍ﴾: «عن» على بابِها مِن معنَى المُجاوَزةِ، أو بمعنى «بَعْدَ»، وفي محلِّ الجارِّ والمجرورِ وَجْهانِ؛ أحَدُهما: أنَّه في محلِّ نصبٍ على الحالِ مِنْ فاعِلِ

---

(١) قال أبو السعود: (وهو أوفقُ للرُّكوبِ المُنبئِ عن الاعتِلاءِ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣٢) و(٣/ ٤٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٢٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

«تَرْكَبُنَّ»، أي: لَتَرْكَبُنَّ طبقًا مُجاوزِينَ لطَبَقٍ. والثَّاني: أنَّه صِفةٌ لـ «طَبَقًا»، أي: طبقًا مُجاوِزًا لطَبَقٍ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُقْسِمًا ببعضِ مخلوقاتِه: فأُقسِمُ بالحُمْرةِ الَّتي تَلُوحُ في الأُفُقِ بعْدَ غُروبِ الشَّمسِ، وباللَّيلِ وما جَمَع مِن مَخلوقاتٍ، وبالقَمَرِ إذا تمَّ واكتَمَل فصار بَدْرًا مُنيرًا؛ لَتَركَبُنَّ -أيُّها الناسُ- حالًا بَعْدَ حالٍ!

ثمَّ يقولُ سبحانَه منكرًا وموبخًا: فما للكافِرينَ لا يُؤمِنونَ بالآخِرةِ، ولا يُقِرُّونَ بالبَعْثِ بعدَ المَوتِ، وإذا قُرِئَ عليهم القُرآنُ لا يَسجُدونَ للهِ؟! لا يُوجَدُ ما يَمنَعُهم مِن الإيمانِ والسُّجودِ، بل هم يُكَذِّبونَ بالقُرآنِ والبَعثِ؛ عِنادًا وكِبْرًا، واللهُ أعلَمُ بما يَجمَعُه الكافِرونَ في صُدورِهم مِنَ الكُفرِ والتَّكذيبِ؛ فبَشِّرْهم -يا محمَّدُ- بعَذابٍ مُؤلِمٍ، إلَّا الَّذين تابُوا منهم فآمَنوا، وأطاعوا اللهَ تعالى؛ فأولئك لهم في الآخِرةِ أجرٌ كامِلٌ غَيرُ مَنقوصٍ ولا مَقطوعٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦﴾.

أي: فأُقسِمُ بالحُمْرةِ الَّتي تَلُوحُ في الأُفُقِ بَعْدَ غُروبِ الشَّمسِ[2].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٧٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٣٧-٧٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

قال الواحدي: (يعني: الحُمْرةَ الَّتي تكونُ بعدَ غُروبِ الشَّمسِ إلى وَقتِ العِشاءِ الآخِرةِ، وهذا قولُ المفَسِّرينَ وأهلِ اللُّغةِ جَميعًا). ((الوسيط)) (٤/ ٤٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) =

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ وما جَمَع وضمَّ فيه مِن مَخلوقاتٍ(١).

= (٨/ ٣٥٨).

وقال ابنُ عاشور: (الشَّفَقُ: اسمٌ للحُمْرةِ الَّتي تَظهَرُ في أُفُقِ مَغرِبِ الشَّمسِ إثْرَ غُروبِها، وهو ضياءٌ مِن شُعاعِ الشَّمسِ إذا حَجَبها عن عُيونِ النَّاسِ بَعضُ جِرمِ الأرضِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٧).

قال ابن جُزَي: (﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: جمَع وضمَّ، ومنه الوَسْقُ؛ وذلك أنَّ اللَّيلَ يضُمُّ الأشياءَ ويَستُرُها بظَلامِه). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٥).

قيل: المعنى: جَمَع وضَمَّ ما كان مُنتَشِرًا بالنَّهارِ في تصَرُّفِه؛ وذلك أنَّ اللَّيلَ إذا أقبَلَ أوى كُلُّ شَيءٍ إلى مأواه. ومِمَّن قال بهذا المعنى: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، والرَّسْعَني، والعُلَيمي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٩١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٥٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٣).

قال ابن جرير: (وقولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ يقولُ: واللَّيلِ وما جَمَع، مِمَّا سَكَن وهَدَأ فيه مِن ذي رُوحٍ كان يَطيرُ، أوْ يَدِبُّ نَهارًا). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٥).

وقال ابنُ عاشور: (الوَسْقُ: جَمعُ الأشياءِ بَعْضِها إلى بعضٍ، فيَجوزُ أن يكونَ المعنى: وما جَمَع ممَّا كان مُنتَشِرًا في النَّهارِ مِن ناسٍ وحَيوانٍ؛ فإنَّها تأوي في اللَّيلِ إلى مآويها؛ وذلك ممَّا جعَلَ اللهُ في الجِبِلَّةِ مِن طلَبِ الأحياءِ السُّكونَ في اللَّيلِ؛ قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [القصص: ٧٣]، وذلك مِن بديعِ التَّكوينِ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٧).

وقيل: المرادُ: النُّجومُ؛ لأنَّها تَظهَرُ في اللَّيلِ، فشَبَّه ظُهورَها فيه بوَسْقِ الواسِقِ أشياءَ مُتفرِّقةً. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٧).

وقال القاسمي: (والأظهَرُ أن يكونَ إشارةً إلى الأشياءِ كُلِّها؛ لاشتمالِ اللَّيلِ عليها. فكأنَّه تعالى أقسَمَ بجَميعِ المخلوقاتِ، كما قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٤١).

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨﴾.

أي: وأُقسِمُ بالقَمَرِ إذا تمَّ واكتَمَل فصار بَدْرًا مُنيرًا[١].

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ بفَتحِ الباءِ، على خِطابِ الواحِدِ؛ قيل: المرادُ: النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والمعنى: لتَرْكَبَنَّ -يا محمَّدُ- طَبَقًا مِن أطباقِ السَّماءِ بَعْدَ طَبَقٍ، ولَتَرتَقِيَنَّ حالًا بعدَ حالٍ. وقيل: يَذكُرُ حالاتِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن يومِ أُوحِيَ إليه إلى يومِ قَبَضه اللهُ. أو أنَّه خِطابُ الإنسانِ المتقَدِّمِ الذِّكرِ في قَولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾[٢] [الانشقاق: ٦].

٢- قراءة ﴿لَتَرۡكَبُنَّ﴾ بضَمِّ الباءِ على خِطابِ الجَمعِ[٣].

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ١٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٤٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٧).

(٢) قرأ بها ابنُ كثيرٍ، وحمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٥٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٣٧).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة في القراءات السبع)) لابن خالويه (ص: ٣٦٧)، ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٤)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٥٦)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٣٧).

أي: لَتَركَبُنَّ -أيُّها النَّاسُ- حالًا بَعْدَ حالٍ[١].

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ظَهَر المرادُ ولم يَبْقَ إلَّا العِنادُ؛ سَبَّب عن ذلك الإنكارَ على الكافرينَ والتَّوبيخَ والتَّقريعَ والتَّهديدَ؛ فقال مُعْرِضًا عن خِطابِهم إلى الغَيبةِ؛ إيذانًا باستِحقاقِهم للأخْذِ إنْ لم يَرجِعوا[٢]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٧٨)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٨٩، ٢٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٧).

قيل: المعنى: لَتَركَبُنَّ -أيُّها النَّاسُ- ممَّا تَلْقَونَ مِن شدائِدِ القيامةِ وأهوالِها أحوالًا. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، واستظهره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٩). ويُنظر أيضًا: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٧٣).

وقيل: المعنى: لَتَركَبُنَّ حالًا بعدَ حالٍ حتَّى يَصيروا إلى الله تعالى، مِن إحياءٍ، وإماتةٍ، وبعثٍ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٢).

وقريبٌ منه قولُ مَن قال: لَتَركَبُنَّ الشَّدائِدَ: الموتَ والبعثَ والحسابَ حالًا بعدَ حالٍ. وممَّن اختاره: الثعالبيُّ، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٥٦٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٤).

وقيل: المعنى: لَتَكونُنَّ نُطفةً، ثمَّ عَلَقةً، ثمَّ مُضغةً، ثمَّ تُنفَخُ الرُّوحُ، فتَحْيَونَ إلى أن تموتوا، ثمَّ تُبعَثونَ، ثمَّ تُحاسَبونَ، ثمَّ تَصيرونَ إلى الجنَّةِ أو النَّارِ. ومِمَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ القيِّم، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٤٠)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٨٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٩٢)، ((تحفة المودود بأحكام المولود)) لابن القيم (ص: ٢٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧).

وقال ابنُ كثيرٍ: (قال الحسنُ البصري: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ يقولُ: حالًا بعدَ حالٍ، رخاءً بعدَ شِدَّةٍ، وشدةً بعدَ رخاءٍ، وغنًى بعدَ فقرٍ، وفقرًا بعدَ غنًى، وصحةً بعدَ سقمٍ، وسقمًا بعدَ صحَّةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٨).

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: فما الَّذي يَمنَعُ الكافِرينَ إذَنْ مِنَ الإيمانِ بالآخِرةِ، والإقرارِ بالبَعْثِ بعدَ المَوتِ، واللهُ هو المتصَرِّفُ في الكَونِ كيف يَشاءُ، وقد ظهَرَت لهم دلائِلُ الحَقِّ، وقامت عليهم حُجَجُه البَيِّنةُ(١)؟!

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾.

أي: وما لَهم إذا قُرِئَ عليهم القُرآنُ لا يَسجُدونَ لله تَعظيمًا وخُضوعًا له(٢)؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٦)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٥١، ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٢).

قال الرازي: (قال ابنُ عَبَّاسٍ والحسَنُ وعَطاءٌ والكَلْبيُّ ومُقاتِلٌ: المُرادُ مِن السُّجودِ: الصَّلاةُ. وقال أبو مُسلِمٍ: الخُضوعُ والاستِكانةُ. وقال آخَرونَ: بل المرادُ نفْسُ السُّجودِ عندَ آياتٍ مخصوصةٍ، وهذه الآيةُ منها). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠٤).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ معنى: ﴿لَا يَسْجُدُونَ﴾: لا يُصَلُّونَ: ابنُ أبي زَمَنِين، والقرطبيُّ، والخازن، والعُلَيمي، ونسَبَه ابنُ تيميَّةَ إلى عامَّةِ العُلَماءِ ومُفَسِّري السَّلَفِ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١١٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٠٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٥١، ١٥٢).

ومِمَّن ذهب إلى أنَّ المعنى: لا يَخضَعونَ ولا يَستَكينونَ: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والزمخشري، والقاسمي، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٦٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٤٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٠).

قال البِقاعي: (أي: يَخضَعونَ بالقَلبِ ويَتذَلَّلونَ للحَقِّ بالسُّجودِ اللُّغَويِّ، فيَسجُدونَ بالقالَبِ السُّجودَ الشَّرعيَّ لِتلاوتِه). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٤٩). =

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ٢٢﴾.

أي: لا يُوجَدُ ما يَمنَعُهم مِن الإيمانِ والسُّجودِ؛ فدلائِلُ الحَقِّ واضِحةٌ ومُتوفِّرةٌ، وإنَّما مِن سَجِيَّةِ الَّذين كَفَروا وعادتِهم المُستَمِرَّةِ: التَّكذيبُ بالقُرآنِ، والبَعثِ، والجنَّةِ والنَّارِ؛ عِنادًا أو كِبْرًا منهم دونَ حُجَّةٍ وعُذرٍ[(١)]!

كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال سبحانه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ [البروج: ١٩].

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ٢٣﴾.

أي: واللهُ أعلَمُ بما يَجمَعُه الكافِرونَ في صُدورِهم مِنَ التَّكذيبِ والآثامِ[(٢)].

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢٤﴾.

أي: فبشِّرْ -يا محمَّدُ- أولئك الكافِرينَ بعَذابٍ مُوجِعٍ في غايةِ الإيلامِ[(٣)].

---

= وقيل: المرادُ به: سجودُ التِّلاوةِ. وممَّن ذهب إليه: الماتُريديُّ، واستدلَّ بالآيةِ على وُجوبِها. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٤٧٨).

لكنْ قال ابنُ الجَوزيِّ نقلًا عن القاضي أبي يعلى: (وقد احتجَّ بها قَومٌ على وُجوبِ سُجودِ التِّلاوةِ، وليس فيها دَلالةٌ على ذلك، وإنَّما المعنى: لا يَخشَعون، ألَا ترى أنَّه أضاف السُّجودَ إلى جميعِ القُرآنِ، والسُّجودُ يختصُّ بمَواضِعَ منه). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٢). ويُنظر: ((التعليق الكبير في المسائل الخلافية بين الأئمة)) لأبي يعلى (١/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١١٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) =

كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ * يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا * هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [الطور: ١١ - ١٤].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إلَّا الَّذين تابُوا منهم فآمَنوا بكُلِّ ما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وأطاعوا اللهَ تعالى، فامتَثَلوا أمْرَه واجتَنَبوا نَهْيَه؛ فأولئك لهم في الآخِرةِ أجرٌ كامِلٌ غَيرُ مَنقوصٍ، ودائِمٌ غيرُ مَقطوعٍ(١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ سؤالٌ: لِماذا يُقْسِمُ اللهُ تعالى على خَبَرِه وهو سُبحانَه الصَّادِقُ بلا قَسَمٍ؟! وكذلك يُقْسِمُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وآلِه

---

= (٨/ ٣٦٢).

وقال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ في قَولِه: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ عامٌّ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسَلَّم، ولكُلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال عامَّةُ المفَسِّرينَ: غيرُ مَقطوعٍ ولا منقوصٍ... وقد شَذَّ بَعضُ النَّاسِ فقال: غيرُ مَمْنونٍ عليهم... وهذا القَولُ مع مُخالَفتِه لأقوالِ السَّلَفِ والجُمهورِ هو خطأٌ؛ لوُجوهٍ: أحَدُها: أنَّ اللهَ يَمُنُّ علينا بكُلِّ نِعمةٍ أنعَمَ بها علينا، حتَّى بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ؛ قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]...). ((الرد على من قال بفناء الجنة والنار)) (ص: ٨٤، ٨٥).

وقال ابن كثير: (وقال بعضُهم: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ عليهم. وهذا القولُ ... قد أنكره غيرُ واحدٍ؛ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ له المِنَّةُ على أهلِ الجنَّةِ في كلِّ حالٍ وآنٍ ولَحظةٍ، وإنَّما دخَلوها بفَضلِه ورحمتِه، لا بأعمالِهم، فله عليهم المِنَّةُ دائمًا سَرْمَدًا، والحمدُ لله وحْدَه أبدًا؛ ولهذا يُلْهَمونَ تسبيحَه وتحميدَه كما يُلهَمونَ النَّفَسَ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٢).

وسلَّم على خَبَرِه، وهو صادقٌ بلا قَسَمٍ؟!

**الجوابُ**: أنَّ القَسَمَ يُؤَكِّدُ الكلامَ؛ والقرآنُ الكريمُ نَزَلَ باللِّسانِ العربيِّ، وإذا كان مِن عادتِهم أنَّهم يُؤَكِّدون الكلامَ بالقَسَمِ صار هذا الأسلوبُ جاريًا على اللِّسانِ العربيِّ الَّذي نَزَلَ به القرآنُ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ سؤالٌ: أنَّه قد ورد الحَظْرُ بأنْ يُقسَمَ بغَيرِ اللهِ تعالى، أو بصِفةٍ مِن صِفاتِه!

**الجوابُ**: أنَّ ذلك الحَظْرَ في حَقِّ الإنسانِ، وأمَّا اللهُ تعالى فإنَّه يُقسِمُ بما شاء مِن خَلْقِه[٢].

٣- قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ مُناسَبةُ الأُمورِ المُقسَمِ بها هُنا للمُقسَمِ عليه؛ لأنَّ الشَّفَقَ واللَّيلَ والقَمَرَ تُخالِطُ أَحوالًا بيْنَ الظُّلمةِ وظُهورِ النُّورِ معها، أو في خِلالِها، وذلك مُناسِبٌ لِما في قولِه: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ مِن تَفاوُتِ الأحوالِ الَّتي يَختَبِطُ فيها النَّاسُ يَومَ القِيامةِ، أو في حياتِهم الدُّنيا. ولعلَّ ذِكرَ الشَّفَقِ إيماءٌ إلى أنَّه يُشبِهُ حالةَ انتِهاءِ الدُّنيا؛ لأنَّ غُروبَ الشَّمسِ مِثلُ حالةِ المَوتِ، وأنَّ ذِكرَ اللَّيلِ إيماءٌ إلى شِدَّةِ الهَولِ يومَ الحِسابِ، وذِكرَ القَمَرِ إيماءٌ إلى حُصولِ الرَّحمةِ للمُؤمِنينَ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ القَسَمُ بالقَمَرِ مِمَّا يدُلُّ على عِظَمِ آيتِه، ودِقَّةِ دَلالتِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٠٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٣٧).

٥- استُدِلَّ بقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ على مَشروعيَّةِ سُجودِ التِّلاوةِ هنا[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أنَّ البِشارةَ قد تُطلَقُ على الإخبارِ بما يَسوءُ[٢]. فالآيةُ حُجَّةٌ في أنَّ البِشارةَ تكونُ في الخيرِ والشَّرِّ[٣].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، على القولِ بأنَّ الخِطابَ في قوله: ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ عامٌّ للرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم ولكلِّ مَن يصِحُّ منه الخِطابُ، فنحن نُبَشِّرُ كلَّ كافرٍ بعذابٍ أليمٍ يَنْتَظِرُه، كما قال تعالى: ﴿وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾[٤] [السجدة: ٣٠].

٨- قَولُه تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فيه دوامُ نعيمِ المؤمِنينَ العامِلينَ الصَّالحاتِ؛ فقولُه تعالى: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: لا يُقْطَعُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[٥] [مريم: ٦٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ * وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ * وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ * لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ الفاءُ لتَفريعِ القَسَمِ وجَوابِه على التَّفصيلِ الَّذي

(١) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (١/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٩٧).

(٤) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقم: ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فصلت)) (ص: ٥٤).

في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الانشقاق: ٧] إلى هُنا؛ فإنَّه اقتَضى أنَّ ثَمَّةَ حِسابًا وجَزاءً بخَيرٍ وشَرٍّ، فكان هذا التَّفريعُ فَذْلَكةً[١] وحَوصَلةً لِما فُصِّلَ مِن الأحوالِ، وكان أيضًا جَمعًا إجْماليًّا لِما يَعتَرِضُ في ذلك مِن الأهوالِ[٢]. وهذه الفاءُ هي الفاءُ الفَصيحةُ؛ لأنَّها في جَوابِ شَرطٍ مُقدَّمٍ، أي: إذا عرَفْتَ هذا، أو إذا تَحقَّقْتَ الرُّجوعَ بالبَعثِ، فلا أُقسِمُ[٣].

- وفي قولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ۞ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالالْتِزامِ، أو لُزومِ ما لا يَلزَمُ، ومِنهم مَن يُسمِّيه الإعْنات[٤]؛ فالآيةُ قد الْتَزَمَتِ السِّينَ قبْلَ القافِ[٥].

- قولُه: ﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۞ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ اتِّساقُ القَمَرِ: اجتِماعُ ضِيائِه،

---

(١) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلام، والتَّفريعُ عليه. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كناشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٦).

(٤) التزامُ ما لا يَلزَمُ -أو الإعنات-: هو أن يجيءَ قبْلَ حرفِ الرَّويِّ، أو ما في معناهُ مِن الفاصِلةِ، بما ليس بلازِمٍ في التَّقفيةِ، ويُلتزَمُ في بيتَينِ أو أكثَرَ مِن النَّظمِ، أو في فاصلتَينِ أو أكثَرَ مِنَ النَّثرِ، مشروطًا بعدَمِ الكُلفةِ. وهو في القرآنِ كثيرٌ، ومِنه قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۞ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ [الضحى: ٩، ١٠]؛ فقد التُزِم بحرفِ الهاءِ قبْلَ الرَّاءِ. يُنظر: ((البديع)) لابن المعتز (ص: ١٧٥)، ((الإيضاح)) للقزويني (ص: ٣٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (٣/ ٤٠٧) و(١٠/ ٤٢٨).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٢٨).

وهو (افْتِعالٌ)، مِن الوَسْقِ بمَعْنى الجَمعِ، وذلك في لَيلةِ البدْرِ، وتَقييدُ القَسَمِ به بتلك الحالةِ؛ لأنَّها مَظهَرُ نِعمةِ اللهِ على النَّاسِ بضِيائِه[١].

- وجُملةُ ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ نُسِجَ نَظمُها نَسجًا مُجمَلًا؛ لتَوفيرِ المَعاني الَّتي تَذهَبُ إليها أفهامُ السَّامِعينَ، فجاءَتْ على أَبدَعِ ما يُنسَجُ عليه الكَلامُ الَّذي يُرسَلُ إرسالَ الأمثالِ مِن الكَلامِ الجامِعِ البَديعِ النَّسْجِ الوافِرِ المَعْنى، وذلك ما جَعَلَ لإيثارِ هذَينِ اللَّفظَينِ في هذه الآيةِ خُصوصيَّةً مِن أَفْنانِ الإعجازِ القُرآنيِّ[٢].

- قولُه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، أي: لتَركَبُنَّ حالًا بعْدَ حالٍ، وهو تَهديدٌ بأَهوالِ القِيامةِ؛ فتَنوينُ (طَبَق) في المَوضِعَينِ للتَّعظيمِ والتَّهويلِ، و(عن) بمَعْنى: (بعْدَ)، والبَعديَّةُ اعتباريَّةٌ، وهي بَعديَّةُ ارتِقاءٍ، فقيل: المعنى: لَتُلاقُنَّ هَولًا أَعظَمَ مِن هَولٍ. وإطْلاقُ الطَّبَقِ على الحالةِ؛ لأنَّ الحالةَ مُطابِقةٌ لعَمَلِ صاحِبِها[٣]. وقيلَ: لَتَركَبُنَّ مَنزلةً بعْدَ مَنزِلةٍ، على أنَّ طَبَقًا اسمٌ للمَنزِلةِ، أي: لَتَصيرُنَّ مِن طَبَقِ الدُّنيا إلى طَبَقِ الآخِرةِ، أو إنَّ قَومًا كانوا في الدُّنيا مُتَّضِعينَ فارْتَفَعوا في الآخِرةِ؛ فالتَّنوينُ فيهما -﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾- للتَّنويعِ[٤]. وقيلَ: مَن كان على صَلاحٍ دَعاه إلى صَلاحٍ آخَرَ، ومَن كان على فَسادٍ دَعاه إلى فَسادٍ فَوقَه؛ لأنَّ كُلَّ شيءٍ يَجُرُّ إلى شَكلِه، فتَكونُ الجُملةُ اعتِراضًا بالمَوعِظةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وتَكونُ (عن) للمُجاوَزةِ، والتَّنوينُ للتَّعظيمِ[١].

- ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ الرُّكوبُ مُعبَّرًا به عن السَّيرِ، أي: لَتَحضُرُنَّ للحِسابِ جَماعاتٍ بعدَ جَماعاتٍ، وهذا تَهديدٌ لمُنكِريه[٢]. ويَحتمِلُ أنْ يَكونَ الرُّكوبُ مُستعمَلًا في المُتابَعةِ، أي: لَتَتَّبِعُنَّ، وحُذِفَ مَفعولُ (تَرْكَبُنَّ) بتَقديرِ: لَيَتَّبِعَنَّ بَعضُكم بَعضًا، أي: في تَصميمِكم على إنكارِ البَعثِ، ودَليلُ المَحذوفِ هو قولُه: ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾، ويَكونَ ﴿طَبَقًا﴾ مَفعولًا به[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الفاءُ) لتَرتيبِ ما بعْدَها مِن الإنكارِ والتَّعجيبِ على ما قبْلَها مِن أحوالِ القِيامةِ وأَهوالِها المُوجِبةِ للإيمانِ والسُّجودِ، أيْ: إذا كان حالُهم يومَ القِيامةِ كما ذُكِرَ -وذلك على قولٍ-، فأيُّ شَيءٍ لهم حالَ كَونِهم غَيرَ مُؤمِنينَ؟! أيْ: أيُّ شيءٍ يَمنَعُهم مِن الإيمانِ مع تَعاضُدِ مُوجِباتِه[٤]؟!

ويَجوزُ أنْ يَكونَ هذا التَّفريعُ ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ على ما ذُكِر مِن أحوالِ مَن أُوتيَ كِتابَه وراءَ ظَهرِه، وأُعيدَ عليه ضَميرُ الجَماعةِ؛ لأنَّ المُرادَ بـ (مَن) المُوصولةِ: كُلُّ مَن تَحِقُّ فيه الصِّلةُ، فجَرى الضَّميرُ على مَدلولِ (مَن)، وهو الجَماعةُ، والمَعْنى: فما لَهم لا يَخافون أهْوالَ يَومِ لِقاءِ اللهِ فيُؤمِنوا؟! ويَجوزُ أنْ يَكونَ مُفرَّعًا على قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، أي: إذا تَحقَّقْتَ ذلك، فكيف لا يُؤمِنُ بالبَعثِ الَّذين أَنكَروه؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣).

وجِيءَ بضَميرِ الغَيبةِ؛ لأنَّ المَقصودَ مِن الإنْكارِ والتَّعجيبِ خُصوصُ المُشركينَ مِن الَّذين شَمِلَهم لَفظُ الإنسانِ في قولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾؛ لأنَّ العِنايةَ بمَوعِظتِهم أهَمُّ، فالضَّميرُ الْتِفاتٌ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ تَفريعًا على قولِه: ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]، فيَكونَ مَخصوصًا بالمُشركين باعتِبارِ أنَّهم أهَمُّ في هذه المَواعِظِ، والضَّميرُ أيضًا الْتِفاتٌ. ويَجوزُ تَفريعُه على ما تَضمَّنَه القَسَمُ مِن الأحوالِ المُقسَمِ بها باعتِبارِ تَضمُّنِ القَسَمِ بها أنَّها دَلائلُ على عَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالى وتَفرُّدِه بالإلَهيَّةِ، ففي ذِكرِها تَذكِرةٌ بدَلالَتِها على الوَحدانيَّةِ، والالْتِفاتُ هُوَ هُوَ[1].

- وأيضًا الاستِفهامُ ﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مُستَعمَلٌ في التَّعجيبِ مِن عَدَمِ إيمانِهم، وفي إنْكارِ انتِفاءِ إيمانِهم؛ لأنَّ شَأنَ الشَّيءِ العَجيبِ المُنكَرِ أنْ يُسألَ عنه، وجُملةُ ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ في مَوضِعِ الحالِ؛ والحالُ هي مَناطُ التَّعجيبِ[2].

- ومُتعلَّقُ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مَحذوفٌ يدُلُّ عليه السِّياقُ، أي: بالبَعثِ والجَزاءِ. ويَجوزُ تَنزيلُ فِعلِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مَنزِلةَ اللَّازِمِ، أي: لا يَتَّصِفونَ بالإيمانِ، أي: ما سَبَبُ ألَّا يَكونوا مُؤمِنينَ؛ لظُهورِ الدَّلائلِ على انفِرادِ اللهِ تعالى بالإلَهيَّةِ، فكيف يَستَمِرُّون على الإشْراكِ به؟! والمَعْنى: التَّعجيبُ والإنكارُ مِن عدَمِ إيمانِهم مع ظُهورِ دَلائلِ صِدقِ ما دُعُوا إليه، وأُنذِروا به[3].

- قولُه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ﴾ ظَرفٌ قُدِّمَ على عامِلِه ﴿لَا يَسۡجُدُونَ﴾؛ للاهتِمامِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣١).

به، والتَّنويهِ بشأنِ القُرآنِ[١].

- على القولِ بأنَّ السُّجودَ مُستعمَلٌ بمَعْنى الخُضوعِ والخُشوعِ، فقيل: المعنى: إذا قُرِئَ عليْهم القُرآنُ لا يَخضَعون للهِ ولِمَعاني القُرآنِ وحُجَّتِه، ولا يُؤمِنون بحَقِّيَّتِه، ودَليلُ هذا المَعْنى مُقابَلتُه بقَولِه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾[٢] [الانشقاق: ٢٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ * وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾

- قولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ يَجوزُ أنَّه إضْرابٌ انتِقاليٌّ مِن التَّعجيبِ مِن عدَمِ إيمانِهم وإنْكارِه عليهم، إلى الإخْبارِ عنهم بأنَّهم مُستمِرُّون على الكُفرِ والطَّعْنِ في القُرآنِ، فالكَلامُ ارتِقاءٌ في التَّعجيبِ والإنْكارِ؛ فالإخبارُ عنهم بأنَّهم ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ والإنْكارِ؛ فلذلك عُبِّر عنه بالفِعلِ المُضارِعِ الَّذي يُفيدُ استحضارَ الحالةِ[٣].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ (بَل) إضْرابًا إبْطاليًّا، أي: لا يوجَدُ ما لِأجْلِه لا يُؤمِنونَ ولا يُصَدِّقون بالقُرآنِ، بلِ الواقِعُ بضِدِّ ذلك؛ فإنَّ بَواعِثَ الإيمانِ مِن الدَّلائِلِ مُتوفِّرةٌ، ودَواعيَ الاعتِرافِ بصِدقِ القُرآنِ والخُضوعِ لدَعوتِه مُتظاهِرةٌ، ولكنَّهم يُكذِّبون، أي: يَستَمِرُّون على التَّكذيبِ عِنادًا وكِبرياءً، ويُومِئُ إلى ذلك قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾. وفي اجتِلابِ الفِعلِ المُضارِعِ دَلالةٌ على حُدوثِ التَّكذيبِ منهم وتَجدُّدِه، أي: بل هم مُستمِرُّون على التَّكذيبِ عِنادًا، وليس ذلك اعتِقادًا، فكما نُفيَ عنهم تَجدُّدُ الإيمانِ وتَجدُّدُ الخُضوعِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٣٣).

عندَ قِراءةِ القُرآنِ، أُثبِتَ لهم تَجدُّدُ التَّكذيبِ[١].

- وقولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ لأنَّ مُقتَضى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (بل هم يُكذِّبون)؛ فعُدِلَ إلى المَوصولِ والصِّلةِ؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن ذَمِّهم بالكُفرِ؛ للإيماءِ إلى عِلَّةِ الخَبَرِ، أي: إنَّهم استَمَرُّوا على التَّكذيبِ لتَأصُّلِ الكُفرِ فيهم، وكَونِهم يُنعَتونَ به[٢]. وأيضًا وضَعَ الظَّاهرَ موضعَ المُضمَرِ؛ تعميمًا[٣].

- وفيه مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾، وقال في سُورةِ (البُروجِ): ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ [البروج: ١٩]؛ فاختُصَّ الأوَّلُ بقولِه: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ بلَفظِ المضارِعِ، والثَّاني بقولِه: ﴿فِي تَكۡذِيبٖ﴾ بلَفظِ المصدَرِ، مع اتِّحادِ المعْنى المقصودِ؛ وذلك لوَجهينِ؛ الأوَّلُ: أنَّ آيةَ الانشقاقِ تَقدَّمَها وَعيدٌ أُخرويٌّ كلُّه لم يَقَعْ بعدُ، وهم مُكذِّبون بجَميعِه، فجِيءَ هنا باللَّفظِ المَقولِ على الاستِقبالِ -وإنْ كان يَصلُحُ للحالِ- ليُطابِقَ الإخبارَ؛ لأنَّه عمَّا يأْتي ولم يقَعْ بعْدُ؛ فجِيءَ بما يُطابِقُه في استقبالِه. أمَّا آيةُ (البُروجِ) فقدْ تَقدَّمَها قولُه تعالَى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۝ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ [البروج: ١٧، ١٨]، وحديثُ هؤلاء وأَخْذُهم بتَكذيبِهم قد تَقدَّمَ ومَضى زَمانُه، وهؤلاء مُستَمِرُّون على تَكذيبِهم، فقِيل: ﴿فِي تَكۡذِيبٖ﴾، وجِيءَ بالمصدرِ؛ ليُحرِزَ تَماديَهم، وأنَّ ذلك شَأنُهم أبدًا فيما أخبَرَهم به، وفيما يَدْعوهم إليه ويَنْهاهم عنه، ولَفظُ المصدَرِ أعْطى لِما قُصِدَ مِن هذا مِن لَفظِ المضارِعِ؛ فجِيءَ في كلٍّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٤٩).

مِن الآيتَينِ بما يُناسِبُ[١]. الثَّاني: أنَّه مُراعاةٌ لفَواصلِ الآيِ، مع صِحَّةِ اللَّفظِ، وجَودةِ المعنى[٢].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ اعتِراضٌ بيْنَ جُملةِ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢]، وجُملةِ ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤]، وهو كِنايةٌ عن الإنْذارِ والتَّهديدِ بأنَّ اللهَ يُجازيهم بسُوءِ طَويَّتِهم[٣].

- ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ معنَى الإيعاءِ: جعْلُ الشَّيءِ وِعاءً، والوِعاءُ: الظَّرفُ؛ لأنَّه يُجمَعُ فيه، ثمَّ شاع إطلاقُه على جمْعِ الأشياءِ لئلَّا تَفوتَ؛ فصار مُشعِرًا بالتَّقتيرِ، واستُعمِل في هذه الآيةِ في الإخفاءِ؛ لأنَّ الإيعاءَ يَستلزِمُ الإخفاءَ[٤]. وعِلمُ اللهِ تعالَى بذلك وبكلِّ شيءٍ أمرٌ ثابتٌ، وهو كِنايةٌ عن مُجازاتِه سُبحانَه عليه. وقيل: المرادُ الإشارةُ إلى أنَّ لهم وراءَ التَّكذيبِ قبائحَ عظيمةً كثيرةً يَضيقُ عن شرحِها نِطاقُ العِبارةِ. وقيل: يَحتمِلُ أن يَكونَ المعنَى: واللهُ تعالَى أعلَمُ بما يُضمِرونَه في أنفُسِهم مِن أدِلَّةِ كَونِه -أي: القرآنِ- حقًّا؛ فيكونَ المرادُ المُبالَغةَ في عِنادِهم وتكذيبِهم على خِلافِ عِلمِهم[٥].

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥٠٥).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٤٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٣٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٢).

- قولُه: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تَفريعٌ على جُملةِ ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢]، وعلى القولِ بأنَّ التَّبشيرَ هو الإخْبارُ بِما يَسُرُّ ويَنفَعُ ففِعلُ (بَشِّرْهُمْ) مُعبَّرٌ به عن الإنْذارِ والوَعيدِ على طَريقةِ التَّهكُّمِ، فلمَّا عُلِّقَ بالفِعلِ (عَذابٌ أَليمٌ) -في قولِه: ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾- كانتْ قَرينةُ التَّهكُّمِ كَنارٍ على عَلَمٍ[1].

- قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ الاستِثناءُ مُتَّصلًا؛ إمَّا على أنَّه استِثناءٌ مِن الضَّميرِ في قولِه: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] جَريًا على تَأويلِه برُكوبِ طِباقِ الشَّدائدِ والأهْوالِ يَومَ القِيامةِ وما هو في معنى ذلك مِن التَّهديدِ، وإمَّا على أنَّه استِثناءٌ مِن ضَميرِ الجَمعِ في ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ [الانشقاق: ٢٤]، والمَعنى: إلَّا الذين يُؤمِنون مِن الَّذين هُم مُشرِكون الآنَ، وفِعلُ ﴿ءَامَنُواْ﴾ على هذا الوَجْهِ مُرادٌ به المُستقبَلُ، وعُبِّرَ عنه بالماضي؛ للتَّنبيهِ على مَعْنى: مَن تَحقَّقَ إيمانُهم، وما بيْنَهما مِن قولِه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠] إلى هُنا تَفريعٌ مُعترِضٌ بيْنَ المُستَثنى والمُستَثنى منه، خُصَّ به الأهَمُّ ممَّن شَمِلَهم عُمومُ ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩]. ويَجوزُ أنْ يَكونَ الاستِثناءُ استِثناءً مُنقَطِعًا مِن ضَميرِ ﴿فَبَشِّرْهُم﴾ [الانشقاق: ٢٤]، فهو داخِلٌ في التَّبشيرِ المُستعمَلِ في التَّهكُّمِ -على قولٍ-؛ زِيادةً في إدْخالِ الحَزَنِ عليهم؛ فحرفُ (إلَّا) بمَنزِلةِ (لكنْ)، والاستِدراكُ فيه لمُجرَّدِ المُضادَّةِ، لا لدَفْعِ تَوهُّمِ إرادةِ ضِدِّ ذلك، ومِثلُ ذلك كَثيرٌ في الاستِدراكِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٣٤، ٢٣٥).

- وقولُه: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لِما أَفادَه الاستِثناءُ مِن انتِفاءِ العَذابِ عنهم، ومُبيِّنٌ لكَيفيَّتِه ومُقارَنتِه للثَّوابِ العَظيمِ[1]، وهو استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ كأنَّ سائِلًا سأَلَ: كيف حالُهم يَومَ يَكونُ أولئك في عَذابٍ أَليمٍ[2]؟

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الثَّاني والأربعونَ

ويليه المجلدُ الثَّالثُ والأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ البُرُوجِ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٥).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# الفهرس


## سُورةُ النَّبَأِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٧
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٧
الآيات (١-٥) ..... ٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٩
المعنى الإجماليُّ: ..... ٩
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ١٤
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٤
الآيات (٦-١٦) ..... ٢١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢١
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ٣١
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٦
الآيات (١٧-٢٠) ..... ٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ٥١
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٥٣
الآيات (٢١-٣٠) ..... ٥٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٥٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٦٠
المعنى الإجماليُّ: ..... ٦١
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ٧٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٧٣
الآيات (٣١-٣٦) ..... ٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٨٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٨٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ٨٧
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٨٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ٩٣
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٩٣
الآيات (٣٧-٤٠) ..... ٩٨

غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٩٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٩٨
المعنى الإجماليُّ: ..... ٩٩
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٩٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٠٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٠٨
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١١٠

سُورةُ النَّازِعاتِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ١٢١
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ١٢١
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ١٢١
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ١٢١
الآيات (١-١٤) ..... ١٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٢٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ١٢٦
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٢٧
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٢٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٣٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٣٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٣٩
الآيات (١٥-٢٦) ..... ١٥١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٥١
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ١٥٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٥٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٦١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٦٣
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٦٦
الآيات (٢٧-٣٣) ..... ١٧٤
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٧٤
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٧٥
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٧٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٨١
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٨٤
الآيات (٣٤-٤١) ..... ١٩٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٩٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٩٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٩٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٩٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٩٩
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٠٠
الآيات (٤٢-٤٦) ..... ٢٠٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٠٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٠٧

تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٠٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢١٢
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢١٤

## سُورةُ عَبَسَ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٢٢٣
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٢٢٣
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٢٢٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٢٢٣
الآيات (١-١٦) ..... ٢٢٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٢٥
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٢٦
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٢٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢٣٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٣٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٤٠
الآيات (١٧-٣٢) ..... ٢٥١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٥١
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٢٥٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٥٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٥٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢٦٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٦٤
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٦٧
الآيات (٣٣-٤٢) ..... ٢٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٧٩
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٨٠
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٨٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٨٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٨٦

## سُورةُ التَّكويرِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٢٩٥
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٢٩٥
بيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٢٩٥
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٢٩٦
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٢٩٦
الآيات (١-١٤) ..... ٢٩٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٩٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٩٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٩٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٠٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٠٩
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣١٤
الآيات (١٥-٢٩) ..... ٣٢١

غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٢١
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٢٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٢٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٣٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٥٠

## سورةُ الانفِطارِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٣٦٣
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٣٦٤
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٣٦٤
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٣٦٤
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٣٦٤
الآيات (١-٥) ..... ٣٦٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٦٦
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٦٧
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٦٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٧١
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٧٢
الآيات (٦-١٢) ..... ٣٧٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٧٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٣٧٦
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٧٧
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٧٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٨٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٨٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٨٩
الآيات (١٣-١٩) ..... ٣٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٩٨
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٣٩٩
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٩٩
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٠٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٤٠٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٠٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٠٩

## سُورةُ المُطَفِّفينَ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٤١٧
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٤١٧
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٤١٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٤١٨
الآيات (١-٦) ..... ٤١٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤١٩
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٢٠
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٢٠

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٤٢٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٢٨
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٣٠
الآيات (٧-١٧) ..... ٤٣٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٣٦
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٣٧
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٣٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٤٤٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٤٨
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٥٢
الآيات (١٨-٢٨) ..... ٤٦٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٦٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٤٦٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٦٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٤٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٧٤
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٧٨
الآيات (٢٩-٣٦) ..... ٤٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٨٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٤٨٦
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٨٦
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٨٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٤٩٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٩٤
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٩٥

## سورةُ الانشِقاقِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٥٠٥
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ٥٠٦
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٥٠٦
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٥٠٦
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٥٠٧
الآيات (١-٦) ..... ٥٠٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٥٠٨
المعنى الإجماليُّ: ..... ٥٠٩
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٥٠٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٥١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥١٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٥١٦
الآيات (٧-١٥) ..... ٥٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٥٢٠
المعنى الإجماليُّ: ..... ٥٢٠
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٥٢١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٢٥

بلاغةُ الآياتِ: ..... ٥٢٨
الآيات (١٦-٢٥) ..... ٥٣٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٥٣٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٥٣٣
المعنى الإجماليُّ: ..... ٥٣٤
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٥٣٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٥٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٥٤٢
الفهرس ..... ٥٥٣

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر

## للقرآن الكريم

من سورة البروج إلى سورة التين

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق


الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر


الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الثالث والأربعون


الدرر السنية
www.dorar.net

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة البروج إلى سورة التين)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٤ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الثالث والأربعون - القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ الظهران، ١٤٤٤ هـ

ص، ١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٣-١٥-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- التفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٤/٣٥٣

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٣٥٣

ردمك: ٣-١٥-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة البروج إلى سورة التين)


إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف


**المجلد الثالث والأربعون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ البُرُوجِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ البُرُوجِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (البُروجِ)[١].

وسُمِّيتْ أيضًا بـ (السَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ)؛ فعن جابرِ بنِ سَمُرةَ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في الظُّهرِ والعصرِ بـ «السَّماءِ والطَّارقِ»، و«السَّماءِ ذاتِ البُرُوجِ» ونَحْوِهما مِنَ السُّوَرِ))[٢].

## فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

**كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقرأُ بها في الظُّهرِ والعَصرِ:**

كما في حديثِ جابرِ بنِ سَمُرةَ رضيَ الله عنه المتقدِّمِ.

## بيانُ المكِّيِّ والمدَنيِّ:

سورةُ البُروجِ مكِّيَّةٌ، نقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المفسِّرينَ[٣].

---

(١) وجْهُ التَّسميةِ ذِكرُ لَفظِ البُروجِ في أوَّلِها، في قولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥١٠).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٨٠٥)، وأحمدُ (٢١٠١٨) واللَّفظُ لهما، والترمذيُّ (٣٠٧)، والنسائيُّ (٩٧٩) باختلافٍ يسيرٍ.

قال الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٨٠٥): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١٨٢٧)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٣٩).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٣)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧٥).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأصحابِه عمَّا أصابَهم مِن أعدائِهم، وتثبيتُ المؤمنينَ على الحقِّ[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- افتِتاحُ السُّورةِ بقَسَمِ الله تعالى ببَعضِ مَخلوقاتِه.

٢- ذِكرُ خبرِ أصحابِ الأُخْدودِ.

٣- وعيدُ الطُّغاةِ الَّذين يَفْتِنونَ المؤمنينَ بعذابِ جهنَّمَ.

٤- البِشارةُ بنَعيمِ الجنَّةِ الَّذي يَنتظِرُ المؤمنينَ.

٥- التَّلويحُ ببَطشِ الله الشَّديدِ، وذِكرُ بعضِ صِفاتِه تعالى.

٦- ضربُ المثَلِ بقَومِ فِرعونَ وبثَمودَ، وكيفَ كانت عاقِبةُ أمرِهم.

٧- التَّنويهُ بشأنِ القرآنِ المَجيدِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٥)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٤١).

## الآيات (١-٩)

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡبُرُوجِ﴾: أي: النُّجوم؛ لأنَّها تتبَرَّجُ، أي: تظهَرُ، أو مَنازِلِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وهي اثنا عَشَرَ بُرجًا، وسُمِّيت بالبُروجِ؛ لأنَّها بالنِّسبةِ لهذه الكواكِبِ كالمنازِلِ لساكِنيها، وأصلُ (برج): البُروزُ والظُّهورُ، وأيضًا الملجأُ[١].

﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾: أي: الشَّقِّ العَظيمِ في الأرضِ يُحفَرُ مُستطيلًا، وأصلُ (خدد): يدُلُّ على امتدادٍ إلى السُّفلِ[٢].

﴿ٱلۡوَقُودِ﴾: أي: الحَطَبِ المَجعولِ للاتِّقادِ، وأصلُ (وقد): يدُلُّ على اشتِعالِ النَّارِ[٣].

﴿نَقَمُواْ﴾: أي: كَرِهُوا وأنكَروا وعابُوا، وأصلُ (نقم): يدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٧٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٧٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٣٩)، =

﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: أي: الَّذي اتَّصَف بالعِزَّة التَّامَّة: عِزَّةِ القَدْرِ -فهو عظيمُ القَدْرِ، لا يَبلُغُ أحدٌ قَدْرَه، فلا مِثلَ له، ولا نَظيرَ-، وعِزَّةِ القَهْرِ -فهو قاهرٌ غالبٌ لا يَغلِبُه شَيءٌ-، وعِزَّةِ الامتِناعِ، فهو مُمْتَنِعٌ عليه النَّقصُ بأيِّ وجْهٍ مِنَ الوُجوهِ، وأصلُ (عزز): يدُلُّ على شِدَّةٍ وقُوَّةٍ وما ضاهاهما مِن غَلَبةٍ وقَهْرٍ[1].

= ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٨٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٢٢).

(١) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزَّجَّاجي (ص: ٢٣٩)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٤٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٣/ ٢٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة السجدة)) (ص: ٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٣٦).

قال الخَطَّابيُّ: (والعِزُّ في كلامِ العَرَبِ على ثلاثةِ أوْجُهٍ:

أحَدُها: بمعنَى الغَلَبةِ، ومنه قولُهم: مَنْ عزَّ بزَّ، أي: مَنْ غَلَب سَلَبَ...

والثَّاني: بمعنَى الشِّدَّةِ والقوَّةِ...

والوجهُ الثَّالثُ: أنْ يكونَ بمعنَى نَفاسةِ القَدْرِ... فيتأوَّلُ معنى العزيزِ على هذا؛ أنَّه الَّذي لا يُعادِلُه شَيءٌ، وأنَّه لا مِثلَ له ولا نَظيرَ). ((شأن الدعاء)) (ص: ٤٧، ٤٨).

وقال الزَّجَّاجي: (العزيزُ في كلامِ العربِ على أربعةِ أوجُهٍ:

العزيزُ: الغالبُ القاهرُ، والعِزَّةُ: الغَلَبَةُ، والمُعازَّةُ: المُغالَبَةُ، ومنه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]، أي: غلَبَني في مُحاوَرةِ الكلامِ...

والعزيزُ: الجليلُ الشَّريفُ، ومنه قولُهم: إذا عَزَّ أخوكَ فهُنْ، وقولُهم: فُلانٌ يَعتَزُّ بفُلانٍ، أي: يَتجالَلُ به ويَتشرَّفُ ويَتكبَّرُ. وكذلك قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]، أي: لَيُخرِجَنَّ الجليلُ الشَّريفُ منها الذَّليلَ...

والوجهُ الثَّالثُ: أن يكونَ العزيزُ بمعنى القويِّ...

والوجهُ الرَّابعُ: أن يكونَ العزيزُ بمعنى الشَّيءِ القليلِ الوُجودِ، المُنقطِعِ النَّظيرِ، يُقالُ: عزَّ الشَّيءُ عِزَّةً فهو عزيزٌ؛ غيرُ موجودٍ.

فهذه أربعةُ أوجُهٍ في العزيزِ، يجوزُ وصْفُ الله عزَّ وجلَّ بها؛ يُقالُ: «اللهُ العزيزُ» بمعنى الغالِبِ =

﴿ٱلۡحَمِيدِ﴾: أي: المحمودِ على كلِّ حالٍ، وفي جميعِ أفعالِه وأقوالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه، والمحمودِ على ما لَه مِن الكَمالِ، وعلى نِعَمِه الَّتي أنْعَمها على خَلْقِه، المُستحِقِّ لكلِّ حمْدٍ، والحمدُ إخبارٌ عن مَحاسنِ المحمودِ معَ حُبِّه وإجلالِه وتَعظيمِه، وقيل: هو أيضًا بمعنى حامِدٍ، يَحمَدُ كُلَّ مَن يَستحِقُّ الحَمدَ منه، وأصلُ (حمد): يدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ[1].

﴿شَهِيدٌ﴾: أي: شاهِدٌ، حاضرٌ، مُطَّلِعٌ، فلا يَغيبُ عنه شَيءٌ، يَسمَعُ جميعَ الأصواتِ خَفِيِّها وجَلِيِّها، ويُبصِرُ جميعَ الموجوداتِ دقيقِها وجَليلِها، صغيرِها وكبيرِها، قد أحاط عِلْمُه بكلِّ شَيءٍ، ويَشهَدُ لعِبادِه وعلى عِبادِه بما عَمِلوه، وأصلُ (شهد): يدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعْلامٍ[2].

---

= القاهِرِ، و«اللهُ العزيزُ» أي: هو الجليلُ العظيمُ، و«اللهُ العزيزُ» بمعنى القويِّ... و«اللهُ العزيزُ» أي: هو غيرُ مَوجودِ النَّظيرِ والمِثلِ جلَّ وتعالى عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا). ((اشتقاق أسماء الله)) (ص: ٢٣٧).

وقال ابن القيِّم: (والعِزَّةُ يُرادُ بها ثلاثةُ مَعانٍ: عزَّةُ القوَّةِ، وعزَّةُ الامتِناعِ، وعزَّةُ القهرِ، والرَّبُّ تبارك وتعالى له العزَّةُ التَّامَّةُ بالاعتِباراتِ الثَّلاثِ). ((مدارج السالكين)) (٣/ ٢٤١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٨/ ٥٧١)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٠٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٩٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (١/ ٦٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٠٨، ٧٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ١٣٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٢/ ٤٦٧)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٣)، ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ١٣٢)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٤٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٩).

قال ابن الأثير: («فَعِيلٌ» مِن أبنيةِ المُبالَغةِ في «فاعِلٍ»، فإذا اعْتُبِرَ العِلمُ مُطْلَقًا فهو العَليمُ، وإذا أُضيفَ إلى الأُمورِ الباطِنةِ فهو الخَبيرُ، وإذا أُضيفَ إلى الأُمورِ الظَّاهِرةِ فهو الشَّهيدُ، وقد يُعتبَرُ =

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۞ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۞ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ۞ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۞ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿قُتِلَ﴾: قيل: هو جوابُ القَسَمِ على حَذفِ اللَّامِ منه للطُّولِ، والأصلُ «لَقُتِلَ». وقيل: على حَذفِ اللَّامِ و(قد)، والأصلُ «لَقَدْ قُتِلَ»، وعلى هذا فقَولُه: ﴿قُتِلَ﴾ خبرٌ لا دُعاءٌ عليهم. وقيل: بل هو دُعاءٌ عليهم، فلا يكونُ جوابًا. وعلى هذا فجُملةُ ﴿قُتِلَ﴾ دُعائيَّةٌ دالَّةٌ على الجَوابِ المحذوفِ، كأنَّه قيل: أُقسِمُ بهذه الأشياءِ إنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ لَمَلعونونَ أحِقَّاءُ بأن يُقالَ فيهم: قُتِلوا، كما هو شأنُ أصحابِ الأُخدودِ. وقيل: الجوابُ مَذكورٌ، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ [البروج: ١٠]، أو هو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢].

- قَولُه تعالى: ﴿ٱلنَّارِ﴾: مجرورٌ، بَدَلُ اشتِمالٍ[1] مِن ﴿ٱلۡأُخۡدُودِ﴾؛ لأنَّ الأخدودَ مُشتَمِلٌ عليها، والرَّابِطُ مُقَدَّرٌ، تقديرُه: «النَّارِ فيه»، أو أُقيمَت «أل» في ﴿ٱلنَّارِ﴾ مُقامَ الضَّميرِ، تقديرُه: ناره، ثمَّ حُذِفَ الضَّميرُ، وعُوِّضَ عنه «أل». وقيل: بَدَلُ كُلٍّ مِنْ كُلٍّ، على نِيَّةِ حَذْفِ مُضافٍ، تقديرُه: أُخدودِ النَّارِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بالقَسَمِ بالسَّماءِ ذاتِ النُّجومِ العَظيمةِ الَّتي هي بمنزلةِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما، وبيَومِ القيامةِ الموعودِ،

---

= مع هذا أن يَشهَدَ على الخَلْقِ يَومَ القيامةِ بما عَلِم). ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) (٢/ ٥١٣).

(١) سيأتي تعريفُه (ص: ٢٢٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٣)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٤٣-٧٤٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٧-٢٩٩).

وبكلِّ شاهِدٍ وكلِّ مَشهودٍ؛ ثمَّ قال سبحانَه: أُهْلِكَ ولُعِنَ الكَفَرةُ الَّذين شَقُّوا في الأرضِ خَنْدَقًا كَبيرًا متأجِّجًا بالنَّارِ العَظيمةِ الاشتِعالِ، لُعِنوا حينَ كانوا قاعِدينَ على جوانِبِ الأُخدودِ وهم يُشاهِدونَ المؤمِنينَ يَحتَرِقونَ فيه!

ثمَّ بيَّن سُبحانَه ما حمَلَهم على فِعلِ ما فعَلوا، فقال: وما أنكَرَ الكُفَّارُ وكَرِهوا مِن المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ إلَّا إيمانَهم باللهِ الغالِبِ الَّذي لا يُغلَبُ، المحمودِ على جميعِ صِفاتِه وأفعالِه، الَّذي يَملِكُ وَحْدَه السَّمَواتِ والأرضَ وما فيهِنَّ مِنَ الخلائِقِ، واللهُ مُطَّلِعٌ على كُلِّ شَيءٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ النُّجومِ العَظيمةِ الَّتي هي بمنزلةِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالبروجِ: منازلُ الشَّمسِ والقَمرِ، وهي البروجُ الاثنا عشرَ: ابنُ جرير، والزَّمخشري، والرَّسْعني، والنَّسفي، وابنُ جُزَي، والخازنُ، وجلال الدِّينِ المحلي، والعُلَيمي، ونسَبه ابنُ عطيَّةَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٦٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٠).

وهذه البروج هي: الحَمَلُ والثَّورُ والجَوْزاءُ والسَّرطانُ والأسدُ والسُّنبُلةُ والمِيزانُ والعَقْربُ والقَوسُ والجَدْيُ والدَّلْوُ والحُوتُ، فثلاثةٌ منها للرَّبيعِ، وثلاثةٌ للصَّيفِ، وثلاثةٌ للخريفِ، وثلاثةٌ للشِّتاءِ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ١٢٤).

قال ابنُ جرير: (هي اثنا عَشَرَ بُرْجًا، فمَسيرُ القَمَرِ في كُلِّ بُرجٍ منها يَومانِ وثُلُثٌ، فذلك ثمانيةٌ =

كما قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا ﴾ [الحجر: ١٦].

﴿ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ ﴾.

أي: وأُقسِمُ بيَومِ القيامةِ الَّذي وَعَد اللهُ تعالى عِبادَه بمَجيئِه والقَضاءِ فيه بيْنَهم، فيَبعَثُهم ويُحاسِبُهم ويُجازيهم فيه على أعمالِهم[(١)].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٤].

---

= وعِشرونَ منزلًا، ثمَّ يَسْتَسِرُّ لَيلتَينِ، ومَسيرُ الشَّمسِ في كُلِّ بُرجٍ منها شَهرٌ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦٢).

وقال ابنُ عاشور: (البُرجُ السَّماويُّ يتألَّفُ مِن مجموعةِ نُجوم قَريبٍ بَعضُها مِن بعضٍ، لا تختَلِفُ أبعادُها أبدًا، وإنَّما سُمِّيَ بُرجًا؛ لأنَّ المُصطَلِحينَ تخَيَّلوا أنَّ الشَّمسَ تحُلُّ فيه مدَّةً... ولَمَّا وَجَدوا كلَّ مجموعةٍ منها يُخالُ منها شَكلٌ لو أُحيطَ بإطارٍ لِخَطٍّ مفروضٍ لَأَشْبَهَ مُحيطُها مُحيطَ صُورةٍ تخيُّليَّةٍ لبعضِ الذَّواتِ مِن حَيوانٍ أو نباتٍ أو آلاتٍ؛ مَيَّزوا بعضَ تلك البُروجِ مِن بعضٍ بإضافتِه إلى اسمِ ما تُشبِهُه تلك الصُّورةُ تقريبًا... وهذه البُروجُ هي في التَّحقيقِ: سُمُوتٌ تُقابِلُها الشَّمسُ في فَلَكِها مُدَّةَ شَهرٍ كاملٍ مِن أشهُرِ السَّنةِ الشَّمسيَّةِ، يُوَقِّتونَ بها الأشهُرَ والفُصولَ بمَوقِعِ الشَّمسِ نهارًا في المكانِ الَّذي تطلُعُ فيه نجومُ تلك البُروجِ ليلًا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٨).

وقيل: المرادُ بالبروجِ: النُّجومُ، وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسَّمعاني، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٤٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٣). وقيل غير ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٠)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٢٥٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٥).

حكى الواحديُّ وابنُ عطيَّةَ اتِّفاقَ المفَسِّرينَ على أنَّ المرادَ بـ (الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ): يومُ القيامةِ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٠).

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان الجَمْعُ مِن أجْلِ العَرْضِ، وكان العَرْضُ لا بُدَّ فيه مِن شُهودٍ ومَشهودٍ عليهم وجدالٍ على عُهودٍ؛ قال[1]:

﴿ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ ﴾.

أي: وأُقسِمُ بكلِّ شاهِدٍ وكلِّ مَشهودٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٨، ٢٣٩).

اختَلَف المفَسِّرون في معنى الشَّاهِدِ والمشهودِ اختِلافًا كبيرًا، والأكثَرونَ على أنَّ الشَّاهِدَ: هو يومُ الجُمُعةِ، والمشهودَ: هو يومُ عَرَفةَ. وممَّن نسَبَه إلى الجُمهورِ: الواحديُّ، ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٥٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٦٢).

قال الرَّسْعَني: (وإلى هذا القَولِ ذَهَب عليٌّ، وابنُ عبَّاسٍ في بعضِ الرِّواياتِ عنه، وهو قَولُ أكثَرِ المفَسِّرينَ. قال بعضُهم: سُمِّيَ يومُ الجُمُعةِ شاهِدًا؛ لأنَّه يَشهَدُ على كُلِّ عامِلٍ بما عَمِلَ فيه، وسُمِّيَ يومُ عرفةَ مَشهودًا؛ لأنَّ النَّاسَ يَشهَدونَ فيه [مَوسِمَ] الحَجِّ، وتَشهَدُه الملائكةُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٦٢).

وقيل: الشَّاهِدُ: هم الخلائِقُ، والمشهودُ: هو ما في يومِ القيامةِ مِنَ العَجائبِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: الزمخشريُّ، والنَّسَفيُّ، وأبو السعودِ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٩).

وقيل: الشَّاهِدُ: هو اللهُ تعالى، والمشهودُ: هم المَعرُوضونَ للحِسابِ يومَ القيامةِ. وقد جَوَّز هذا المعنى: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٩).

قال ابن عثيمين: (ذكَرَ عُلَماءُ التَّفسيرِ في الشَّاهِدِ والمشهودِ عِدَّةَ أقوالٍ يَجمَعُها أنَّ اللهَ أقسَمَ بكلِّ شاهِدٍ وبكُلِّ مَشهودٍ، والشُّهودُ كثيرونَ؛ منهم محمَّدٌ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّمَ شهيدٌ علينا، كما قال الله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، ومنهم =

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾.

أي: أُهْلِكَ ولُعِنَ أولئك الكَفَرةُ الَّذين شَقُّوا في الأرضِ خَنْدَقًا كَبيرًا[1].

= هذه الأمَّةُ شُهَداءُ على النَّاسِ ﴿وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وأعضاءُ الإنسانِ يومَ القيامةِ تَشهَدُ عليه بما عَمِلَ مِن خَيرٍ وشَرٍّ، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤]، ومنهم الملائكةُ يَشهَدونَ يومَ القيامةِ، فكُلُّ مَن شَهِد بحَقٍّ فهو داخِلٌ في قَولِه: ﴿وَشَاهِدٍ﴾. وأمَّا المشهودُ فهو يومُ القيامةِ وما يَعرِضُ فيه مِن الأهوالِ العظيمةِ، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، فأقسَمَ اللهُ بكُلِّ شاهدٍ وبكُلِّ مَشهودٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٥).

وقال ابنُ القيِّم: (أقسَمَ سُبحانَه بالشَّاهِدِ والمَشهودِ مُطلَقَينِ غَيرَ مُعيَّنَينِ، وأعَمُّ المعاني فيه أنَّه المُدْرِكُ والمُدْرَكُ، والعالِمُ والمعلومُ، والرَّائي والمَرْئيُّ، وهذا أَلْيَقُ المعاني به، وما عَداه مِن الأقوالِ ذُكِرَت على وَجهِ التَّمثيلِ، لا على وَجْهِ التَّخصيصِ). (التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٨٩).

وقال السعدي: (﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ وشمِل هذا كلَّ مَن اتَّصَف بهذا الوصفِ، أي: مُبصِرٍ ومُبصَرٍ، وحاضرٍ ومَحضورٍ، وراءٍ ومَرئيٍّ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٣-٤٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٠، ٢٧٧، ٢٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٥).

قال ابن كثير: (هذا خَبَرٌ عن قَومٍ مِن الكفَّارِ عَمَدوا إلى مَن عِندَهم مِن المؤمِنينَ بالله عزَّ وجَلَّ، فقَهَروهم وأرَادوهم أنْ يَرْجِعوا عن دِينِهم، فأبَوْا عليهم، فحَفَروا لهم في الأرضِ أُخْدُودًا وأجَّجوا فيه نارًا، وأعَدُّوا لها وَقُودًا يُسَعِّرونَها به، ثُمَّ أرادوهم فلم يَقْبَلوا منهم، فَقَذَفوهم فيها). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦).

ويُنظر للخِلافِ في أهلِ هذه القِصَّةِ، مَن هم، وأين كانوا: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦).

وقد اختَلَف المفسِّرونَ في جوابِ القَسَمِ؛ فقيل هو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]. ومِمَّن ذهب إليه: المُبَرِّدُ، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين. يُنظر: ((المقتضب)) للمُبَرِّد =

عن صُهَيبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان مَلِكٌ فيمَنْ كان قَبْلَكم، وكان له ساحِرٌ، فلمَّا كَبِرَ قال للمَلِكِ: إنِّي قد كَبِرْتُ، فابعَثْ إلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْه السِّحرَ، فبَعَث إليه غُلامًا يعَلِّمُه، فكان في طريقِه إذا سلَكَ راهِبٌ، فقَعَد إليه وسَمِعَ كلامَه، فأعجَبَه، فكان إذا أتى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِبِ وقَعَد إليه، فإذا أتَى السَّاحِرَ ضَرَبه، فشكا ذلك إلى الرَّاهِبِ، فقال: إذا خَشِيتَ السَّاحِرَ فقُلْ: حَبَسَني أهلي، وإذا خَشِيتَ أهْلَك فقُلْ: حَبَسَني السَّاحِرُ، فبَيْنَما هو كذلك إذ أتَى على دابَّةٍ عظيمةٍ قد حَبَسَتِ النَّاسَ، فقال: اليَومَ أعلَمُ آلسَّاحِرُ أفضَلُ أمِ

= (٢/ ٣٣٧)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١١٥).

ونسَبَ السَّمعانيُّ هذا القولَ للأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٠).

وقيل: هو قولُه تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]. ومِمَّن ذهب إليه: الأخفَشُ، والخازنُ، وأبو حيَّان، والسَّمينُ الحلبيُّ، والشَّوكانيُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للأخفش (٢/ ٥٧٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٥).

وذهب ابنُ الأنباريِّ ومكِّيٌّ والزمخشريُّ إلى أنَّ جوابَ القَسَمِ محذوفٌ، وقيل إنَّ تقديرَه: لَتُبْعَثُنَّ، وذهب الزمخشريُّ وتبعه البيضاويُّ والعُلَيميُّ إلى أنَّ تقديرَه: إنَّ كُفَّارَ قُرَيشٍ مَلْعونونَ كما لُعِن أصحابُ الأخدودِ. يُنظر: ((إيضاح الوقف والابتداء)) لابن الأنباري (٢/ ٩٧٢، ٩٧٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٧٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٢٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٦).

وقال ابنُ القَيِّم: (الأحسَنُ أن يكونَ هذا القَسَمُ مُستغنيًا عن الجوابِ؛ لأنَّ القِصَّةَ للتَّنبيهِ على المقسَمِ به، وأنَّه مِن آياتِ الرَّبِّ العظيمةِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٩١).

وقال الواحديُّ: (و﴿قُتِلَ﴾ معناه: لُعِنَ. في قَولِ جميعِ المفَسِّرينَ). ((البسيط)) (٢٣/ ٣٨٤).

وقال أيضًا: (قال ابنُ الأنباريِّ: والقَتلُ إذا أُخبِرَ عن اللهِ به كان بمعنى اللَّعنةِ؛ لأنَّ مَن لَعَنَه اللهُ كان بمنزلةِ المقتولِ الهالكِ). ((الوسيط)) (٤/ ١٧٤).

الرَّاهِبُ أفضَلُ؟ فأخَذ حَجَرًا، فقال: اللَّهُمَّ إن كان أمرُ الرَّاهبِ أحَبَّ إليك مِن أمرِ السَّاحِرِ فاقتُلْ هذه الدَّابَّةَ؛ حتَّى يَمضِيَ النَّاسُ، فرماها فقَتَلها، ومضى النَّاسُ، فأتَى الرَّاهِبَ فأخبَرَه، فقال له الرَّاهِبُ: أيْ بُنَيَّ، أنت اليَومَ أفضَلُ مِنِّي، قد بلَغ مِن أمْرِك ما أرَى! وإنَّك ستُبتلَى، فإنِ ابتُلِيتَ فلا تَدُلَّ علَيَّ، وكان الغُلامُ يُبرِئُ الأكْمَهَ[1] والأبْرَصَ، ويُداوي النَّاسَ مِن سائرِ الأدواءِ، فسَمِعَ جَليسٌ للمَلِكِ كان قد عَمِيَ، فأتاه بهدايا كثيرةٍ، فقال: ما هاهنا لك أجْمَعُ إنْ أنت شفَيْتَني، فقال: إنِّي لا أَشْفي أحدًا، إنَّما يَشفي اللهُ، فإنْ أنت آمَنْتَ باللهِ دَعَوتُ اللهَ فشَفاك، فآمَنَ باللهِ فشَفاه اللهُ، فأتَى المَلِكَ فجَلَس إليه كما كان يجلِسُ، فقال له الملِكُ: مَن رَدَّ عليك بَصَرَك؟! قال: رَبِّي، قال: ولك ربٌّ غيري؟! قال: رَبِّي ورَبُّك اللهُ! فأخَذه فلم يَزَلْ يُعَذِّبُه حتَّى دَلَّ على الغلامِ، فجِيءَ بالغُلامِ، فقال له الملِكُ: أيْ بُنَيَّ، قد بلَغ مِن سِحْرِك ما تُبرِئُ الأَكْمَهَ والأبْرَصَ، وتفعَلُ وتفعَلُ! فقال: إنِّي لا أَشفي أحدًا، إنَّما يَشْفي اللهُ، فأخَذَه فلم يَزَلْ يُعَذِّبُه حتَّى دَلَّ على الرَّاهِبِ، فجيءَ بالرَّاهِبِ، فقيل له: ارجِعْ عن دينِك، فأبَى، فدَعا بالمِئْشارِ[2]، فوضَع المِئْشارَ في مَفرِقِ رأسِه[3]، فشَقَّه حتَّى وقع شِقَّاه! ثمَّ جيءَ بجليسِ المَلِكِ فقيل له: ارجِعْ عن دينِك، فأبى، فوُضِعَ المِئْشارُ في مَفرِقِ رأسِه، فشَقَّه به حتَّى وقع شِقَّاه! ثمَّ جيءَ بالغلامِ، فقيل له: ارجِعْ عن دينِك، فأبى، فدفعَه إلى نَفَرٍ مِن أصحابِه، فقال: اذهَبوا به إلى جبلِ كذا وكذا، فاصعَدوا به الجَبَلَ، فإذا بلَغْتُم ذِرْوتَه[4]، فإنْ رَجَع

(١) الأكْمَهَ: هو الَّذي يُولدُ أعمى. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ٢٠٩).

(٢) المِئْشارُ والمِنشارُ: هو آلةُ النَّشرِ والقطعِ الَّذي يُشَقُّ بها الخشَبُ. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمظهري (٦/ ١٨١)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٨/ ٣٤٦٧).

(٣) مَفرِق رأسِه: هو المكانُ الَّذي يفترِقُ فيه الشَّعرُ في وسَطِ الرَّأسِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣/ ٣٩٨).

(٤) ذِرْوتَه: أي: أعلاه. وذروةُ كلِّ شَيءٍ: أعلاه. يُنظر: ((إكمال المُعْلِم بفوائد مسلم)) للقاضي =

عن دينِه وإلَّا فاطْرَحوه، فذَهَبوا به، فصَعِدوا به الجَبَلَ، فقال: اللَّهمَّ اكْفِنِيهم بما شِئْتَ، فرَجَف بهم الجبلُ فسَقَطوا، وجاء يمشي إلى الملِكِ! فقال له المَلِكُ: ما فعَلَ أصحابُك؟! قال: كَفانِيهِمُ اللهُ، فدفعه إلى نَفَرٍ مِن أصحابِه، فقال: اذهَبوا به فاحمِلوه في قُرقُورٍ[١]، فتوسَّطوا به البَحْرَ، فإن رجَعَ عن دينِه وإلَّا فاقذِفوه، فذَهَبوا به، فقال: اللَّهمَّ اكفِنِيهم بما شِئتَ، فانكفَأَتْ[٢] بهم السَّفينةُ، فغَرِقوا، وجاء يمشي إلى المَلِكِ! فقال له المِلِكُ: ما فعل أصحابُك؟! قال: كفانيهم اللهُ، فقال للمَلِكِ: إنَّك لستَ بقاتِلي حتَّى تَفعَلَ ما آمُرُك به، قال: وما هو؟ قال: تجمَعُ النَّاسَ في صعيدٍ واحدٍ، وتَصلِبُني على جِذْعٍ، ثمَّ خُذْ سَهمًا من كِنانتي[٣]، ثمَّ ضَعِ السَّهمَ في كَبِدِ القَوسِ[٤]، ثمَّ قُلْ: باسْمِ اللهِ ربِّ الغلامِ، ثمَّ ارمِني؛ فإنَّك إذا فعَلْتَ ذلك قتَلْتَني، فجَمَع النَّاسَ في صعيدٍ واحدٍ، وصَلَبه على جِذعٍ، ثمَّ أخذَ سَهمًا مِن كنانتِه، ثمَّ وَضَع السَّهمَ في كَبِدِ القَوسِ، ثمَّ قال: باسمِ اللهِ رَبِّ الغُلامِ، ثمَّ رماه فوقع السَّهمُ في صُدْغِه[٥]، فوَضَع يَدَه في صُدْغِه في موضِعِ السَّهمِ، فمات، فقال النَّاسُ: آمَنَّا برَبِّ الغُلامِ، آمَنَّا برَبِّ الغلامِ، آمَنَّا برَبِّ الغلامِ، فأُتيَ المَلِكُ فقيل له: أرأَيْتَ ما كنتَ تَحذَرُ؟ قد -واللهِ- نزَل بك حَذَرُك؛ قد آمَنَ النَّاسُ! فأَمَر بالأُخدودِ في أفواهِ السِّكَكِ[٦]، فخُدَّتْ[٧]، .....

---

= عياض (٨/ ٥٥٦).

(١) قُرْقُورٍ: هو السَّفينةُ العظيمةُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٤/ ٤٨).

(٢) انكَفَأَت: أي: انْقَلَبَت. يُنظر: ((شرح السيوطي على مسلم)) (٦/ ٣٠٦).

(٣) الكِنانة: الوِعاءُ الَّذي فيه السِّهامُ. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (١/ ٢١).

(٤) كَبِدِ القَوسِ: أي: وسَطِها. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٤/ ٢٠٩).

(٥) صُدْغِه: هو ما بيْنَ العَينِ إلى شَحمةِ الأُذُنِ. يُنظر: ((دليل الفالحين)) لابن علان (١/ ١٦٨).

(٦) أفواهِ السِّكَكِ: أي: أبوابِ الطُّرُقِ. يُنظر: ((شرح السيوطي على مسلم)) (٦/ ٣٠٦).

(٧) فخُدَّتْ: أي: شُقَّتِ الأخاديدُ. يُنظر: ((دليل الفالحين)) لابن علان (١/ ١٦٩).

وأَضرَمَ النِّيرانَ، وقال: مَن لم يَرجِعْ عن دينِه فأَحْمُوه[١] فيها، أو قيل له: اقتَحِمْ، ففعَلوا، حتَّى جاءت امرأةٌ ومعها صَبيٌّ لها، فتقاعَسَت[٢] أن تقَعَ فيها، فقال لها الغُلامُ: يا أُمَّهْ، اصْبِري؛ فإنَّكِ على الحَقِّ))[٣].

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَمَّهم سُبحانَه وتعالى، بَيَّن وَجْهَ ذَمِّهم ببَدَلِ اشتِمالٍ[٤] مِن أُخْدودِهم، فقال[٥]:

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥﴾.

أي: وذلك الأُخدودُ متأجِّجٌ بالنَّارِ الَّتي أُضرِمَت بالحَطَبِ أو غَيرِه حتَّى اشتَدَّ توَقُّدُها ولهيبُها، واشتَعَلَت اشتِعالًا عَظيمًا[٦].

﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦﴾.

أي: لُعِنَ أولئك الكُفَّارُ حينَ كانوا قاعِدينَ على جوانِبِ الأُخدودِ وحافَاتِه[٧]!

---

(١) فأَحْمُوه: أي: ارْمُوه. يُنظر: ((شرح السيوطي على مسلم)) (٦/ ٣٠٦).

(٢) فتَقاعَسَتْ: أي: توَقَّفَت، ولَزِمَت مَوضِعَها. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٣٣).

(٣) رواه مسلم (٣٠٠٥).

(٤) سيأتي تعريفُه (ص: ٢٢٩).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٦).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٦، ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٦). =

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧﴾.

أي: وهم يُشاهِدونَ المؤمِنينَ يَحتَرِقونَ فيه[١].

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾.

أي: وما أنكَرَ الكُفَّارُ وكَرِهوا مِن المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ شَيئًا سِوى إيمانِهم باللهِ الممتَنِعِ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الغالِبِ الَّذي لا يُغلَبُ، المحمودِ على جميعِ صِفاتِه وأفعالِه، وشَرْعِه وقَدَرِه[٢].

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩].

وعن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((كان الرَّجُلُ فيمَنْ قَبْلَكم يُحفَرُ له في الأرضِ، فيُجعَلُ فيه، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رأسِه، فيُشَقُّ باثنتَينِ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه، ويُمشَطُ بأمشاطِ الحَديدِ ما دُونَ لَحمِه مِن عَظمٍ أو عَصَبٍ[٣]، .....

= قال الرَّسْعَني: (قَولُه: ﴿إِذْ﴾ ظَرْفٌ لـ «قُتِلَ»، على معنى: لُعِنوا حينَ قَعَدوا على حافَاتِ الأُخدُودِ يَعرِضونَ المؤمِنينَ على الكُفرِ أو الإحراقِ. قال مجاهِدٌ: كانوا قُعودًا على الكراسيِّ عندَ الأُخدودِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٧٢).

(١) يُنظر: ((تفبسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٧، ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٦، ١٢٧).

(٣) ما دُونَ لَحمِه: أي تحتَه أو عندَه. وفيه مِن المُبالَغةِ أنَّ الأمشاطَ تَنفُذُ مِن اللَّحمِ إلى العَظمِ والعصَبِ؛ لِحِدَّتِها وقوَّتِها. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (١٢/ ٣٧٣٤)، ((إرشاد الساري)) =

وما يَصُدُّه ذلك عن دينِه!))[١].

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالى الأوصافَ الَّتي يَستَحِقُّ بها أن يؤمَنَ به ويُعبَدَ -وهو كَونُه عزيزًا غالِبًا قادِرًا يُخشَى عِقابُه، حميدًا مُنعِمًا يجِبُ الحَمدُ على نِعَمِه، ويُرجى ثوابُه-؛ قَرَّر ذلك بقَولِه تعالى[٢]:

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

أي: الَّذي يَملِكُ وَحْدَه جَميعَ السَّمَواتِ السَّبْعِ والأرضِ، وما فيهِنَّ مِنَ الخلائِقِ[٣].

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على كُلِّ شَيءٍ، فلا يَخفى عليه شَيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، ومِن ذلك إحراقُ الكافِرينَ للمُؤمِنينَ في الأُخدُودِ، وسيُجازيهم عليه[٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ في هذه الآيةِ

---

= للقسطلاني (٦/ ٦٠).

(١) رواه البخاري (٣٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٩).

مِنَ العِبَرِ: أنَّ هؤلاء الكفَّارَ لم يأخُذوا على المسلمينَ ذَنْبًا إلَّا شيئًا واحدًا، وهو: أنَّهم يُؤمِنونَ باللهِ العزيزِ الحَميدِ! وهذا ليس بذَنْب، بل هذا هو الحقُّ، ومَن أنْكَرَه فهو الَّذي يُنْكَرُ عليه[١]، وهكذا المُشرِكُ؛ إنَّما يَنْقِمُ على الموحِّدِ تجريدَه للتَّوحيدِ، وأنَّه لا يَشُوبُه بالإشراكِ، وهكذا المبتدِعُ؛ إنَّما يَنقِمُ على السُّنِّيِّ تجريدَه مُتابَعةَ الرَّسولِ، وأنَّه لم يَشُبْها بآراءِ الرِّجالِ، ولا بشَيءٍ ممَّا خالَفَها، فصَبرُ الموحِّدِ المتَّبِعِ للرَّسولِ على ما يَنقِمُه عليه أهلُ الشِّركِ والبِدْعةِ خَيرٌ له وأنفَعُ، وأسهَلُ عليه مِن صَبْرِه على ما يَنقِمُه اللهُ ورَسولُه عليه مِن مُوافَقةِ أهلِ الشِّركِ والبِدْعةِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ أنَّه سُبحانَه عالِمٌ بأعمالِ خَلْقِه، لا يخفَى عليه خافيةٌ، وهذا وعدٌ عَظيمٌ للمُطيعينَ، ووعيدٌ للمُجرِمينَ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ إنْ قيلَ: ما وَجهُ الارتباطِ بيْن هذه الأُمورِ الثَّلاثةِ المُقسَمِ بها؟

قيل: هي بحَمْدِ اللهِ في غايةِ الارتباطِ، والإقسامُ بها مُتناوِلٌ لكُلِّ مَوجودٍ في الدُّنيا والآخِرةِ، وكُلٌّ منها آيةٌ مُستقِلَّةٌ دالَّةٌ على رُبوبيَّتِه وإلهيَّتِه؛ فأقسَمَ بالعالَمِ العُلويِّ، وهو السَّماءُ وما فيها مِن البُروجِ الَّتي هي أعظَمُ الأمكِنةِ وأوسَعُها، ثمَّ أقسَمَ بأعظَمِ الأيَّامِ، وأجَلِّها قَدْرًا، الَّذي هو مَظهَرُ مُلْكِه، وأمْرِه ونَهْيِه، وثَوابِه وعِقابِه، ومَجمَعُ أوليائِه وأعدائِه، والحُكْمِ بَيْنَهم بعِلْمِه وعَدْلِه، ثمَّ أقسَمَ بما هو أعَمُّ مِن ذلك كُلِّه، وهو الشَّاهِدُ والمشهودُ، وناسَبَ هذا القسَمَ ذِكرُ أصحابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣١).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٦٧).

ويُنظر ما يأتي في الفوائدِ العلميَّةِ (ص: ٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٥٣).

الأُخدودِ الَّذين عَذَّبوا أولياءَه وهم شُهودٌ على ما يَفعَلونَ بهم[١].

٢- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ * ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ ذكَرَ اللهُ تعالى الأوصافَ الَّتي بها يَستَحِقُّ الإلهُ أن يُؤمَنَ به ويُعبَدَ:

**فأوَّلُها**: العزيزُ، وهو القادِرُ الَّذي لا يُغلَبُ، والقاهِرُ الَّذي لا يُدفَعُ، وبالجُملةِ فهو إشارةٌ إلى القُدْرةِ التَّامَّةِ.

**وثانيها**: الحميدُ، وهو الَّذي يَستَحِقُّ الحَمدَ والثَّناءَ على ألْسِنَةِ عِبادِه المؤمنينَ، وإن كان بَعضُ الأشياءِ لا يَحمَدُه بلِسانِه فنَفْسُه شاهدةٌ على أنَّ المحمودَ في الحقيقةِ هو هو، كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وذلك إشارةٌ إلى العِلْمِ؛ لأنَّ مَن لا يكونُ عالِمًا بعواقِبِ الأشياءِ لا يُمكِنُه أن يَفعَلَ الأفعالَ الحَميدةَ، فالحَميدُ يدُلُّ على العِلْمِ التَّامِّ مِن هذا الوَجْهِ.

**وثالِثُها**: الَّذي له مُلكُ السَّمَواتِ والأرضِ، وهو مالِكُهما والقَيِّمُ بهما، ولو شاء لَأَفْناهما، وهو إشارةٌ إلى المُلْكِ التَّامِّ، وإنَّما أخَّرَ هذه الصِّفةَ عن الأوَّلَينِ؛ لأنَّ المُلْكَ التَّامَّ لا يَحصُلُ إلَّا عندَ حُصولِ الكَمالِ في القُدرةِ والعِلْمِ؛ فثَبَت أنَّ مَن كان مَوصوفًا بهذه الصِّفاتِ كان هو المُستَحِقَّ للإيمانِ به، وغَيرُه لا يستَحِقُّ ذلك البتَّةَ، فكيف حَكَم أولئك الكُفَّارُ الجُهَّالُ بكونِ مِثْلِ هذا الإيمانِ ذَنْبًا[٢]؟!

٣- قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ شأنُ أعداءِ الله دائمًا أنَّهم يَنقِمونَ على أوليائِه ما يَنبغي أن يُحَبُّوا ويُكْرَموا مِن أجْلِه، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٩، ٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢).

وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]. كذلك اللُّوطيَّةُ نقَموا مِن عِبادِ الله تَنَزُّهَهُم عن مِثلِ فِعلِهم، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. وكذلك أهلُ الإشراكِ يَنقِمونَ مِن الموحِّدينَ تجريدَهم التَّوحيدَ وإخلاصَ الدَّعوةِ والعُبوديَّةِ لله وحْدَه. وكذلك أهلُ البِدَعِ يَنقِمونَ مِن أهلِ السُّنَّةِ تجريدَ مُتابَعتِها، وتَرْكَ ما خالَفَها. وكذلك المُعَطِّلةُ يَنقِمونَ مِن أهلِ الإثباتِ إثباتَهم لله صِفاتِ كَمالِه، ونُعوتَ جلالِه، وعُلُوَّه على مَخلوقاتِه، ويُعادُونَهم على ذلك، ويَرمُونَهم مِن أجْلِه بالعَظائمِ. وكذلك الرَّافِضةُ يَنقِمونَ على أهلِ السُّنَّةِ مَحَبَّتَهم للصَّحابةِ جميعِهم، وتَرَضِّيَهم عنهم، وولايَتَهم إيَّاهم، وتقديمَ مَن قدَّمه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم منهم، وتنزيلَهم مَنازِلَهم الَّتي أنزَلَهم اللهُ ورسولُه بها. وكذلك أهلُ الرَّأيِ المُحْدَثِ يَنقِمونَ على أهلِ الحديثِ وحزبِ الرَّسولِ أخْذَهم بحديثِه، وتَرْكَهم ما خالفه. وكلُّ هؤلاء لهم نصيبٌ مِن هذه الآيةِ، وفيهم شَبَهٌ مِن أصحابِ الأُخدودِ، وبيْنَهم وبيْنَهم نسَبٌ قريبٌ أو بعيدٌ[(١)].

٤- إنَّما قال الله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ﴾؛ لأنَّ التَّعذيبَ إنَّما كان واقعًا على الإيمانِ في المستقبَلِ، ولو كَفَروا في المستقبَلِ لم يُعذَّبوا على ما مَضَى، فكأنَّه قال: إلَّا أنْ يَدومُوا على إيمانِهم[(٢)].

٥- قال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه لو شاء لَمَنَع أولئك الجبابرةَ مِن تعذيبِ أولئك المؤمِنينَ، ولَأطفَأَ نيرانَهم، ولَأماتَهم، وأشار بقَولِه: ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾ إلى أنَّ المُعتَبَرَ عندَه سُبحانَه مِن الأفعالِ عَواقِبُها؛ فهو وإن كان قد أمهَلَ لكِنَّه ما أهمَلَ؛ فإنَّه

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩١، ٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥).

تعالى يُوصِلُ ثوابَ أولئك المؤمِنينَ إليهم، وعِقابَ أولئك الكَفَرةِ إليهم[١].

وقيل: جاء وَصْفُه بالحميدِ؛ لِيُشعِرَ بأمْرَينِ؛ الأوَّلُ: أنَّ المؤمِنينَ آمَنوا رغبةً ورَهبةً؛ رغبةً في ﴿ٱلْحَمِيدِ﴾، ورهبةً مِنَ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾، وهذا كمالُ الإيمانِ -رغبةٌ ورَهبةٌ- وأحسَنُ حالاتِ المؤمِنِ. والأمرُ الثَّاني: حتَّى لا يَيأَسَ أولئك الكُفَّارُ مِن فَضْلِه ورَحمتِه، كما قال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ [البروج: ١٠]؛ إذ إعطاؤُهم المُهْلَةَ مِن آثارِ صِفتِه الحَميدِ سُبْحانَه[٢].

٦- قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ إذا كان رَبُّ العِزَّةِ سُبحانَه وتعالى، وهو على كُلِّ شيءٍ شَهيدٌ، وبكُلِّ شَيءٍ عليمٌ، ومُوكِّلٌ حَفَظةً يَكتُبونَ أعمالَ العِبادِ، ومع ذلك لم يَقْضِ بيْن الخلائِقِ بما يَعلَمُه منهم، ولا بما سجَّلَتْه ملائكتُه، ويَستَنطِقُ أعضاءَهم، ويَستَشهِدُ الرُّسُلَ على الأُمَمِ، والرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الرُّسُلِ، أي: بأنَّهم بَلَّغوا أُمَمَهم رسالاتِ اللهِ إليهم؛ فلأَلَّا يَقضيَ القاضي بعِلْمِه مِن بابِ أَوْلى[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾

- ابتُدِئتْ أغراضُ هذه السُّورةِ الكريمةِ بضَربِ المَثَلِ للَّذين فَتَنوا المُسلِمينَ بمكَّةَ بأنَّهم مِثلُ قَومٍ فَتَنوا فريقًا ممَّن آمَنَ بالله، فجَعَلوا أُخْدودًا مِن نارٍ لتَعْذيبِهم؛ ليَكونَ المَثَلُ تَثْبيتًا للمُسلِمينَ، وتَصْبيرًا لهم على أذَى المُشرِكين، وتذكيرًا لهم بما جَرى على سَلَفِهم في الإيمانِ مِن شِدَّةِ التَّعذيبِ الَّذي لم يَنَلْهم مِثلُه، ولم يَصُدَّهم ذلك عن دِينِهم. وإشعارِ المُسلِمينَ بأنَّ قوَّةَ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٨٦). ويُنظر ما يأتي (ص: ٣٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٨/ ٤٨٠).

عَظيمةٌ، فسَيَلْقى المُشركون جَزاءَ صَنيعِهم، ويَلْقى المُسلمونَ النَّعيمَ الأَبَديَّ والنَّصرَ. والتَّعريضِ للمُسلِمينَ بكَرامتِهم عندَ اللهِ تعالَى. وضربِ المثَلِ بقَومِ فِرعونَ وبثَمودَ، وكيف كانت عاقِبةُ أَمْرِهم لَمَّا كَذَّبوا الرُّسُلَ، فحَصَلَتِ العِبْرةُ للمُشركين في فَتْنِهم المُسلِمينَ، وفي تَكذيبِهم الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والتَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ[١].

- وفي افتِتاحِ السُّورةِ بهذا القَسَمِ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ۝ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ۝ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ تَشويقٌ إلى ما يَرِدُ بعْدَه، وإشْعارٌ بأهمِّيَّةِ المُقسَمِ عليه، وهو معَ ذلك يَلْفِتُ أَلْبابَ السَّامِعينَ إلى الأُمورِ المُقسَمِ بها؛ لأنَّ بَعضَها مِن دَلائلِ عَظيمِ القُدرةِ الإلَهيَّةِ المُقتَضيةِ تَفرُّدَ اللهِ تعالَى بالإلَهيَّةِ، وإبْطالَ الشَّريكِ، وبَعضَها مُذَكِّرٌ بيَومِ البَعثِ المَوعودِ، ورَمزٌ إلى تَحقيقِ وُقوعِه؛ إذ القَسَمُ لا يَكونُ إلَّا بشَيءٍ ثابتِ الوُقوعِ، وبَعضَها بِما فيه مِن الإبْهامِ يوَجِّهُ أَنفُسَ السَّامِعينَ إلى تَطَلُّبِ بَيانِه[٢].

- وأيضًا مُناسَبةُ القَسَمِ لِما أُقسِمَ عليه أنَّ المُقسَمَ عليه تَضمَّنَ العِبرةَ بقِصَّةِ أصحابِ الأُخْدودِ، ولَمَّا كانت الأخاديدُ خُطوطًا مَجْعولةً في الأرضِ مُستَعِرةً بالنَّارِ، أُقسِمَ على ما تَضمَّنَها بالسَّماءِ، بقَيدِ صِفةٍ مِن صِفاتِها الَّتي يَلوحُ فيها للنَّاظِرينَ في نُجومِها ما سَمَّاه العرَبُ بُروجًا، وهي تُشبِهُ داراتٍ مُتلَألِئةً بأنوارِ النُّجومِ اللَّامِعةِ الشَّبيهةِ بتَلَهُّبِ النَّارِ. والقَسَمُ بـ (السَّماءِ) بوَصفِ (ذاتِ البُروجِ) يَتَضمَّنُ قَسَمًا بالأمْرَينِ معًا؛ لتَلْتَفِتَ أفكارُ المُتَدبِّرينَ إلى ما في هذه المَخلوقاتِ وهذه الأحوالِ مِن دَلالةٍ على عَظيمِ القُدرةِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٦، ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٣٧).

وسَعةِ العِلمِ الإلَهيِّ؛ إذ خَلَقَها على تلك المَقاديرِ المَضبوطةِ؛ ليَنتفِعَ بها النَّاسُ في مَواقيتِ الأشهُرِ والفُصولِ. وأمَّا مُناسَبةُ القَسَمِ باليَومِ المَوعودِ فلأنَّه يَومُ القِيامةِ؛ لأنَّ اللهَ وَعَدَ بوُقوعِه؛ قال تعالَى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤]، مع ما في القَسَمِ به مِن إدماجِ[١] الإيماءِ إلى وَعيدِ أصْحابِ القِصَّةِ المُقسَمِ على مَضمونِها، ووَعيدِ أمثالِهم المُعرَّضِ بهم. ومُناسَبةُ القسَمِ بـ (شَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) قَريبةٌ مِن مُناسَبةِ القسَمِ باليَومِ الموعودِ، ويُقابِلُه في المُقسَمِ عليه قولُه: ﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾[٢].

- وتَنكيرُ ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ إمَّا للمُبالَغةِ في الكثرةِ، كأنَّه قيلَ: وما أُفرِطَتْ كَثرتُه مِن شاهِدٍ ومَشهودٍ، وإمَّا للإبْهامِ في الوصْفِ، كأنَّه قيلَ: وشاهِدٍ ومَشهودٍ لا يُكتَنَهُ وَصْفُهما[٣].

وقيلَ: ﴿وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ﴾ هذان مُنكَّرانِ، ويَنبَغي حَمْلُهما على العُمومِ؛ كقولِه: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ﴾ [التكوير: ١٤]، وإنْ كان اللَّفظُ لا يَقتَضيه، لكنَّ المَعنى يَقتَضيه؛ إذ لا يُقسَمُ بنَكِرةٍ ولا يُدْرَى مَن هي، فإذا لُوحِظَ فيها مَعنى العُمومِ اندَرَجَ فيها المَعرِفةُ؛ فحَسُنَ القَسَمُ[٤].

وقيلَ: الشَّاهِدُ: يومُ الجُمُعةِ، والمَشهودُ: يومُ عَرَفةَ، ونَكَّرَهما دُون بَقيَّةِ ما أَقسَمَ به؛ لاختِصاصِهما مِن بيْنِ الأيَّامِ بفَضيلةٍ ليست لغَيرِهما، فلمْ يَجْمَعْ بيْنَهما

(١) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٧، ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٢).

وبيْنَ البَقيَّةِ بلامِ الجِنسِ، وإنَّما لم يُعرَّفَا بلامِ العَهدِ؛ لأنَّ التَّنكيرَ أدَلُّ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ(١).

وقيل: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ مُرادٌ بهما النَّوعُ، فالشَّاهِدُ: الرَّائي، أو المَخبِرُ بحَقٍّ لإلْزامِ مُنكِرِه، والمَشهودُ: المَرئيُّ أو المَشهودُ عليه بحَقٍّ، وحُذِفَ مُتَعلَّقُ الوَصفَينِ؛ لدَلالةِ الكَلامِ عليه. وعلى مُختَلِفِ الوُجوهِ، فالمُناسَبةُ ظاهِرةٌ بيْنَ ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾، وبيْنَ ما في المُقسَمِ عليْه مِن قولِه: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾(٢).

٢- قولُه تعالَى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾

- قولُه: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ جُملةٌ دُعائيَّةٌ -على قولٍ- دالَّةٌ على الجَوابِ، كأنَّه قيلَ: أُقسِمُ بهذه الأشياءِ السَّابقةِ، إنَّهم -أي: كُفَّارَ مَكَّةَ- مَلْعونون، كما لُعِنَ أصحابُ الأُخْدودِ؛ لِمَا أنَّ السُّورةَ ورَدَتْ لتَثبيتِ المُؤمِنينَ على ما هُم عليه مِنَ الإيمانِ، وتَصبيرِهم على أذيَّةِ الكَفَرةِ، وتَذْكيرِهم بما جَرى على مَن تَقدَّمَهم مِنَ التَّعذيبِ على الإيمانِ وصَبرِهم على ذلك؛ حتَّى يأْتَسُوا بهم، ويَصبِروا على ما كانوا يَلْقَون مِن قَومِهم، ويَعلَموا أنَّ هؤلاءِ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ بمَنزِلةِ أولئك المُعَذِّبين؛ مَلْعونون مِثلَهم، أَحِقَّاءُ بأنْ يُقالَ فيهم ما قد قيلَ فيهم. فالجَوابُ دَليلٌ على لَعنةِ اللهِ على مَن فعَلَ ذلك، وطَرْدِه مِن رحمةِ اللهِ، وتَنبيهٌ لكُفَّارِ قُرَيشٍ الَّذين يُؤذونَ المُؤمِنينَ ليَفتِنوهم عن دِينِهم، على أنَّهم مَلْعونونَ، بجامِعِ ما اشتَرَكا فيه مِن تَعذيبِ المُؤمِنينَ. وقيل: تَقديرُ الجوابِ: إنَّ الأمرَ لَحقٌّ في الجزاءِ على الأعمالِ، أو: لَتُبعَثُنَّ(٣).

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٨، ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٢٩، ٧٣٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٠)، ((تفسير =

وقيلَ: الجوابُ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾؛ فيكونُ ﴿قُتِلَ﴾ خبرًا لا دُعاءً ولا شَتْمًا، ولا يَلزَمُ ذِكرُ (قدْ) في الجوابِ مع كَونِ الجوابِ ماضيًا؛ لأنَّ (قد) تُحذَفُ بناءً على أنَّ حَذْفَها ليس مَشروطًا بالضَّرورةِ. ويَتعيَّنُ على هذا أنْ يكونَ الخبَرُ مُستعمَلًا في لازمِ مَعناهُ مِن الإنذارِ للَّذين يَفتِنونَ المؤمنينَ بأنْ يَحُلَّ بهم ما حلَّ بفاتِني أصحابِ الأُخدودِ، وإلَّا فإنَّ الخبَرَ عن أصحابِ الأُخدودِ لا يَحتاجُ إلى التَّوكيدِ بالقسَمِ؛ إذ لا يُنكِرُه أحدٌ، فهو قِصَّةٌ مَعلومةٌ للعرَبِ، وتَقديرُ الكلامِ: لَقَدْ قُتِلَ أصحابُ الأُخدودِ، فيَكونُ المُرادُ مِن أصحابِ الأُخدودِ الَّذين أُلقُوا فيه، وعُذِّبوا به، ويَكونُ لَفظُ (أَصْحَابُ) مُستعمَلًا في مَعنى مُجرَّدِ المُقارَنةِ والمُلازَمةِ[1].

وقيلَ: الجَوابُ ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، أو جُملةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، والكَلامُ الَّذي بيْنَهما اعتِراضٌ قُصِدَ به التَّوطِئةُ للمُقسَمِ عليه، وتَوكيدُ التَّحقيقِ الَّذي أفادَه القَسَمُ بتَحقيقِ ذِكرِ النَّظيرِ[2].

- وقيل: صِيغةُ قولِه: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ تُشعِرُ بأنَّه إنشاءُ شَتْمٍ لهم؛ شَتْمِ خِزيٍ وغضَبٍ، وهؤلاء لم يُقتَلوا، ففِعلُ ﴿قُتِلَ﴾ ليس بخَبَرٍ، بل شَتْمٌ، نَحوَ قولِهم: قاتَلَه اللهُ! وصُدورُه مِن اللهِ يُفيدُ مَعنى اللَّعنِ، ويدُلُّ على الوَعيدِ؛ لأنَّ الغضَبَ واللَّعنَ يَستَلزِمانِ العِقابَ على الفِعلِ المَلْعونِ مِن أجْلِه. وقيلَ: هو دُعاءٌ على أَصحابِ الأُخْدودِ بالقَتلِ، والقَتلُ مُعبَّرٌ به عن أشدِّ العَذابِ، كما يُقالُ: أَهلَكَه اللهُ، أي: أَوقَعَه في أَشدِّ العَناءِ. وأيًّا ما كان فجُملةُ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ

= أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٥، ١٣٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٩، ٢٤٠).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٣، ٤٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٣٩، ٢٤٠).

﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾ على هذا مَعترِضةٌ بيْنَ القَسَمِ وما بعْدَه[١].

- قولُه: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[٢] مِن الأُخدودِ، و﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ وصْفٌ لها بأنَّها نارٌ عظيمةٌ لها ما يَرتفِعُ به لهبُها مِن الحَطَبِ الكثيرِ وأبدانِ النَّاسِ، وهو وصْفٌ للنَّارِ بغايةِ العِظَمِ[٣].

- قولُه: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ ضَميرُ ﴿هُمْ﴾ عائدٌ إلى أصحابِ الأُخْدودِ؛ فإنَّ المَلِكَ يَحضُرُ تَنفيذَ أَمرِه ومعه مَلَؤُه، أو أُريدَ بهم المأْمورونَ مِن المَلِكِ، والقُعودُ: الجُلوسُ، كُنِّيَ به عن المُلازَمةِ للأُخْدودِ؛ لئلَّا يَتهاوَنَ الَّذين يُوقِدونَ النَّارَ بتَسعيرِها، و(عَلى) للاستِعلاءِ؛ لأنَّهم لا يَقعُدونَ فوقَ النَّارِ، ولكنْ حوْلَها، وإنَّما عَبَّرَ عن القُربِ والمُراقَبةِ بالاستِعلاءِ[٤].

- وضَميرُ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ يَجوزُ أنْ يَعودَ إلى ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾؛ فمَعْنى كَونِهم شُهودًا على ما يَفعَلونه: أنَّ بَعضَهم يَشهَدُ لبَعضٍ عندَ المَلِكِ بأنَّ أَحَدًا لم يُفرِّطْ فيما وُكِّلَ به مِن تَحريقِ المُؤمِنينَ، فضَمائرُ الجَمْعِ وصِيغتُه مُوزَّعةٌ. ويَجوزُ أنْ يَعودَ ضَميرُ ﴿يَفْعَلُونَ﴾ إلى ما تَقتَضيه دَلالةُ الاقتِضاءِ[٥] مِن تَقسيمِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٠).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ(خُلُقُه) بَدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بَدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) لابن مالك (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٢).

(٥) دلالةُ الاقتضاءِ: هي دلالةُ اللَّفظِ على مقصودٍ محذوفٍ لا بدَّ مِن تقديرِه؛ لتوقُّفِ الصِّدقِ أو الصِّحَّةِ عليه. يُنظر: ((إجابة السائل شرح بغية الآمل)) لابن الأمير (ص: ٣٥٥)، ((مذكرة =

أصحابِ الأُخْدودِ إلى أُمَراءَ ومَأْمورينَ، شأْن الأعمالِ العَظيمةِ، فلمَّا أخبَرَ عن أصحابِ الأُخْدودِ بأنَّهم قُعودٌ على النَّارِ عُلِمَ أنَّهم المُوَكَّلونَ بمُراقَبةِ العُمَّالِ، فعُلِمَ أنَّ لهم أتْباعًا مِن سَعَّارينَ ووَزَعةٍ[١]، فـ(هُمْ) مُعادُ ضَميرِ (يَفْعَلُونَ)، وعلى هذا الوَجْهِ يَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿شُهُودٌ﴾ جَمْعَ شاهِدٍ، بمَعْنى: مُخبِرٍ بحَقٍّ، وأنْ يَكونَ بمَعْنى حاضِرٍ ومُراقِبٍ؛ لظُهورِ أنَّ أحَدًا لا يَشهَدُ على فِعلِ نفْسِه[٢].

- وجُملةُ ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ في مَوضِعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، كأنَّه قيلَ: قُعودٌ شاهِدينَ على فِعلِهم بالمُؤمِنينَ، وفائِدةُ هذه الحالِ تَفظيعُ ذلك القُعودِ وتَعظيمُ جُرْمِه؛ إذ كانوا يُشاهِدون تَعذيبَ المُؤمِنينَ، لا يَرْأَفون في ذلك ولا يَشمَئزُّون، وبذلك فارَقَ مَضمونُ هذه الجُملةِ مَضمونَ جُملةِ ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾، باعتِبارِ تَعلُّقِ قولِه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾[٣].

- وفي الإتْيان بالمَوصولِ في قولِه: ﴿مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن الإبْهامِ ما يُفيدُ أنَّ لِمُوقِدي النَّارِ مِن الوَزَعةِ والعَمَلةِ، ومَن يُباشِرون إلْقاءَ المُؤمِنينَ فيها، غِلْظةً وقَسوةً في تَعذيبِ المُؤمِنينَ وإهانتِهم والتَّمثيلِ بهم، وذلك زائِدٌ على الإحْراقِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ

---

= في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

(١) الوَزَعةُ: جَمعُ وازِعٍ، وهو: الَّذي يتقدَّمُ الصَّفَّ فيُصلِحُه ويُقَدِّمُ ويؤخِّرُ، ويَحبِسُ أوَّلَهم على آخِرِهم. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٣/ ١٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾

- في قولِه: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بتَوكيدِ المَدحِ بِما يُشبِهُ الذَّمَّ؛ فهو استِئنافٌ مُفصِحٌ عن بَراءتِهم عمَّا يُعابُ ويُنكَرُ بالكُلِّيَّةِ[1].

- وقيل: جُملةُ ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ في مَوضِعِ الحالِ، والواوُ واوُ الحالِ، أو عاطِفةٌ على الحالِ الَّتي قبْلَها، والمَقصودُ التَّعجيبُ مِن ظُلمِ أهلِ الأُخْدودِ أنَّهم يأْتون بمِثلِ هذه الفَظاعةِ، لا لجُرْمٍ مِن شأْنِه أنْ يُنقَمَ مِن فاعِلِه، فإنْ كان الَّذين خَدَّدوا الأُخْدودَ يَهودًا -كما كان غالِبُ أهْلِ اليَمَنِ يَومَئذٍ- فالكَلامُ مِن تأْكيدِ الشَّيءِ بِما يُشبِهُ ضِدَّه، أي: ما نَقَموا منهم شَيئًا يُنقَمُ، بل لأنَّهم آمَنوا باللهِ وحْدَه كما آمَنَ به الَّذين عَذَّبوهم. وإنْ كان الَّذين خَدَّدوا الأُخْدودَ مُشرِكين فليس الاستِثناءُ مِن تأْكيدِ الشَّيءِ بما يُشبِهُ ضِدَّه؛ لأنَّ شأْنَ تأكيدِ الشَّيءِ بِما يُشبِهُ ضِدَّه أنْ يَكونَ ما يُشبِهُ ضِدَّ المَقصودِ هو في الواقِعِ مِن نَوعِ المَقصودِ، فلذلك يُؤكَّدُ به المَقصودُ، وما هُنا ليس كذلك؛ لأنَّ المَلِكَ وجُندَه نَقَموا منهم الإيمانَ باللهِ حَقيقةً إنْ كان المَلِكُ مُشرِكًا[2].

- وإجْراءُ الصِّفاتِ الثَّلاثِ على اسمِ الجَلالةِ -وهي: ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ * ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾-؛ لِزيادةِ تَقريرِ أنَّ ما نَقَموه منهم ليس مِن شأْنِه أنْ يُنقَمَ، بل هو حَقيقٌ بأنْ يُمدَحوا به؛ لأنَّهم آمَنوا برَبٍّ حَقيقٍ بأنْ يُؤمَنَ به مِن أجْلِ صِفاتِه الَّتي تَقتَضي عِبادتَه، ونَبْذَ ما عَداه؛ لأنَّه يَنصُرُ مَواليَه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٤).

ويُثيبُهم، ولأنَّه يَملِكُهم، وما عَداه ضَعيفُ العِزَّةِ لا يَضُرُّ ولا يَنفَعُ، ولا يَملِكُ منهم شَيئًا، فيَقْوى التَّعجيبُ منهم بهذا[1].

- قولُه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ تَذييلٌ بوَعيدٍ للَّذين اتَّخَذوا الأُخْدودَ وعَذَّبوا المُؤمِنينَ، وبوَعدِ الَّذين عُذِّبوا في جَنْبِ اللهِ، ووَعيدٌ لأَمثالِ أولئك مِن كُفَّارِ قُريشٍ وغَيرِهم مِن كُلِّ مَن تَصَدَّوْا لأَذى المُؤمِنينَ، ووَعدُ المُسلِمينَ الَّذين عَذَّبَهم المُشرِكون، مِثلَ بِلالٍ وعَمَّارٍ وصُهَيبٍ وسُمَيَّةَ؛ فإنَّ عِلمَه تعالى بجَميعِ الأشياءِ -الَّتي مِن جُملتِها أعمالُ الفَريقَينِ- يَستَدْعي تَوفيرَ جَزاءِ كُلٍّ منهما حَتْمًا[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٣٧٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٤).

## الآيتان (١٠-١١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَتَنُواْ﴾: أي: أَحْرَقوا، يُقالُ: فَتنتُ الشَّيءَ: إذا أحرَقْتَه، وأصلُ (فتن): يدُلُّ على ابتلاءٍ واختبارٍ[1].

﴿ٱلۡحَرِيقِ﴾: أي: النَّارِ، وأصلُ (حرق): يدُلُّ على حرارةٍ والْتِهابٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى متوَعِّدًا: إنَّ الَّذين ابتَلَوُا المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ بإحراقِهم في النَّارِ؛ لِصَدِّهم عن الحَقِّ، ثمَّ لم يَتوبوا ممَّا فَعَلوه بهم: فلَهم عَذابُ جَهنَّمَ، ولهم عَذابُ الحَريقِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه ما أعَدَّه للمؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين آمَنُوا وعَمِلوا بطاعةِ اللهِ تعالى: لهم في الآخِرةِ جَنَّاتٌ تَجري مِن تحتِها الأنهارُ، وذلك هو الفَوزُ الكبيرُ.

### تَفسيرُ الآيتَينِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه قِصَّةَ أصحابِ الأُخدودِ؛ أتْبَعَها بما يتفَرَّعُ عليها مِن أحكامِ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٠١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢١٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٠٨).

الثَّوابِ والعِقابِ، فقال تعالى[١]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠﴾.

أي: إنَّ الَّذين ابتَلَوُا المؤمِنينَ والمُؤمِناتِ بإحراقِهم في النَّارِ؛ لصَدِّهم عن الحَقِّ، ثمَّ لم يَتوبوا ممَّا فَعَلوه بهم: فلهم عَذابُ جَهنَّمَ، ولهم عذابُ الحَريقِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٠، ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((زاد المعاد)) لابن القيم (٣/ ١٥١، ١٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٨٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٥-٢٤٧).

قال ابن عثيمين: (قال العُلماءُ: ﴿فَتَنُواْ﴾ بمعنى: أحرَقوا ... وقيل: فَتَنُوهم أي: صَدُّوهم عن دينِهم. والصَّحيحُ أنَّ الآيةَ شامِلةٌ للمعنيَينِ جميعًا... والقاعدةُ في عِلمِ التَّفسيرِ أنَّه إذا كانت الآيةُ تحتمِلُ معنيَينِ لا مُرَجِّحَ لأحَدِهما عن الآخَرِ، ولا يَتضادَّانِ؛ فإنَّها تُحمَلُ عليهما جميعًا، فنقولُ: هم فتَنوا المؤمنينَ بصَدِّهم عن سبيلِ الله، وفتَنوهم بالإحراقِ أيضًا). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٢٩).

قال الزمخشري: (يجوزُ أن يُريدَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾: أصحابَ الأخدودِ خاصَّةً، وبـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البروج: ١١]: المَطروحينَ في الأُخْدودِ. ومعنَى فتَنوهم: عذَّبوهم بالنَّارِ وأحرَقوهم... ويجوزُ أن يريدَ: ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: بَلَوْهم بالأذى على العُمومِ، و﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: المَفتُونينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والخازن، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، والشوكاني، والشنقيطي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧٤)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ١٩٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٣٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠١)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٢٨٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي =

= (١/ ٣٢٥).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: حرَّقوا، قاله ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ أَبْزَى). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧١).

وقال الرازي: (يحتمِلُ أن يكونَ المرادُ منه أصحابَ الأُخدودِ فقط، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ كلَّ مَن فعَلَ ذلك، وهذا أَوْلى؛ لأنَّ اللَّفظَ عامٌّ، والحُكمَ عامٌّ، فالتَّخصيصُ تركٌ للظَّاهرِ مِن غيرِ دليلٍ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٢).

وقال الألوسي: (والمرادُ بالَّذين فتَنوا وبالمؤمنينَ والمؤمناتِ المَفتونينَ، إمَّا أصحابُ الأُخدودِ والمُطرَحونَ فيه خاصَّةً، وإمَّا الأعَمُّ ويَدخُلُ المَذكورونَ دُخولًا أوَّليًّا، وهو الأظهَرُ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٠٠).

وقيل: المرادُ: كفَّارُ قُرَيشٍ، والفِتنةُ بمعنى المِحنةِ والتَّعذيبِ. واستظهَره ابنُ جُزَي، واختاره ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٥).

قال ابن جزي: (لقولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾؛ لأنَّ أصحابَ الأُخدودِ لم يَتوبوا، بل ماتوا على كفرِهم. وأمَّا قُرَيشٌ فمِنهم مَن أسلَمَ وتاب). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٦٩). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٢).

وذهب أكثَرُ المفَسِّرينَ إلى عدَمِ التَّفريقِ بيْن عذابِ جَهنَّمَ وعذابِ الحَريقِ، كما نقله عنهم ابنُ الجَوزيِّ، وجعَلوا كِلا العذابَينِ في جَهنَّمَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٧).

وذهب بَعضُ المفَسِّرين إلى التَّفريقِ بيْن العذابَينِ؛ بأنَّ عذابَ جَهنَّمَ في الآخرةِ، وعذابَ الحَريقِ في الدُّنيا. ومِمَّن قال بهذا: ابنُ جرير، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥).

قال الواحدي: (قال الرَّبيعُ بنُ أنسٍ: ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ يعني: في الدُّنيا؛ وذلك أنَّ النَّارَ ارتفعَتْ مِن الأُخدودِ إلى المَلِكِ وأصحابِه فأحرَقَتْهم. وهو قولُ الكلبيِّ، وذكره الفَرَّاءُ). ((البسيط)) (٢٣/ ٣٩١). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٣).

وقيل: عَذابُ جَهنَّمَ في الآخرةِ، وعذابُ الحَريقِ لهم في الدُّنيا والآخرةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعي. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٥٩).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّه يجوزُ أن يكونَ المرادُ بعذابِ الحَريقِ تعذيبَهم بنارٍ في القَبْرِ قَبلَ الحِسابِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ يحتمِلُ أن يكونَ في الآخرةِ، فيكونَ تأكيدًا لعذابِ =

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر عُقوبةَ الظَّالِمينَ؛ ذكَرَ ثوابَ المؤمِنينَ، فقال تعالى[1]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

أي: إنَّ الَّذين آمَنُوا بكُلِّ ما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا بطاعةِ اللهِ تعالى؛ فامتَثَلوا أوامِرَه، واجتَنَبوا نواهِيَه: لهم في الآخِرةِ جَنَّاتٌ تَجري مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها الأنهارُ[2].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

أي: ما يَحصُلُ في الآخِرةِ لِمَن آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِنَ النَّجاةِ مِنَ النَّارِ ودُخولِ الجنَّةِ: هو الفَوزُ الكبيرُ الَّذي لا يُدانيه فَوزٌ[3].

---

= جهنَّمَ، أو نَوعًا مِن العذابِ زيادةً إلى عذابِ جهنَّمَ. ويحتمِلُ أن يريدَ في الدُّنيا، وذلك على روايةِ أنَّ الكفَّارَ أصحابَ الأُخدودِ أحرَقَتْهم النَّارُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٣-١٣٦).

قال ابنُ جرير: (هم هؤلاء القَومُ الَّذين حَرَّقَهم أصحابُ الأُخدودِ، وغَيرُهم مِن سائرِ أهلِ التَّوحيدِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١).

وقال ابنُ عثيمين: (قال العُلَماءُ: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: مِن تحتِ أشجارِها وقُصورِها، وإلَّا فهي على السَّطحِ فَوق، ثمَّ هذه الأنهارُ جاء في الأحاديثِ أنَّها لا تحتاجُ إلى حَفرٍ، ولا تحتاجُ إلى بناءِ أُخدودٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٥)، ((نظم الدرر)) =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ في هذه الآياتِ مِن العِبَرِ: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى قد يُسَلِّطُ أعداءَه على أوليائِه، فلا تَسْتَغْرِبْ إذا سَلَّطَ اللهُ عزَّ وجلَّ الكُفَّارَ على المؤمنينَ، وقَتَلُوهم وحَرَّقُوهم، وانتَهَكوا أعراضَهم! لا تَسْتَغْرِبْ؛ فلِلَّهِ تعالى في هذا حِكمةٌ، المُصابُونَ مِن المؤمنينَ أَجْرُهم عندَ اللهِ عظيمٌ، وهؤلاءِ الكُفَّارُ المعتَدُونَ أَمْلَى لهم اللهُ سُبحانَه وتعالى، ويَسْتَدْرِجُهم مِن حيثُ لا يَعلَمونَ، والمُسلِمونَ الباقُونَ لهم عِبْرَةٌ وعِظَةٌ فيما حصَلَ لإخوانِهم[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أنَّ رحمةَ اللهِ تعالى سَبَقَتْ غَضَبَه؛ ولهذا أولئك الَّذين يُعَذِّبُون أولياءَه ويُحْرِقُونَهم بالنَّارِ يقولُ اللهُ عزَّ وجلَّ فيهم ذلك، وقد عَرَضَ عليهم التَّوبةَ، وكلُّ هذا دليلٌ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يُحِبُّ العفوَ أكثرَ مِن العِقابِ[٢]، وفيه

---

= للبقاعي (٢١/ ٣٦٠، ٣٦١). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٧).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ الإشارةَ إلى ما تقدَّم ذِكرُه ممَّا أعَدَّه اللهُ لهم في الآخرةِ مِن اختِصاصِهم بالجنَّاتِ والأنهارِ، وما أُعْطُوا مِنَ النَّعيمِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٨٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٧).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يقولُ: مَن زُحْزِحَ عن النَّارِ، وأُدخِلَ الجنَّةَ؛ فقد نَجَا نَجاءً عظيمًا). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٤٩).

وقال الألوسي: (﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى كَونِ ما ذُكِر لهم، وحِيازَتِهم إيَّاه. وقيل: للجنَّاتِ المَوصوفةِ، والتَّذكيرُ لتأويلِها بـ: ما ذُكِر). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٠١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأحزاب)) (ص: ١٨٦).

دليلٌ على سَعَةِ حِلْمِ اللهِ تعالى، وأنَّ مِن سُنَّتِه سُبحانَه وتعالى أنْ يَعْرِضَ التَّوبةَ على المُذنبينَ[١]. قال الحَسَنُ البصريُّ رحمه الله: (انظُروا إلى هذا الكَرَمِ؛ عَذَّبوا أولياءَه وفَتَنوهم، ثمَّ هو يَدْعوهم إلى التَّوبةِ!)[٢].

٣- قِصَّةُ أصحابِ الأُخدودِ -ولا سيَّما هذه الآيةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ...﴾- تدُلُّ على أنَّ المُكْرَهَ على الكُفرِ بالإهلاكِ العَظيمِ الأَوْلى له أن يَصبرَ على ما خُوِّفَ منه، وأنَّ إظهارَ كَلِمةِ الكُفرِ كالرُّخصةِ في ذلك[٣]. ورُبَّما لم يكُنْ في شريعتِهم رُخصةٌ.

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ عَطفُ المُؤمِناتِ للتَّنويهِ بشَأنِهنَّ؛ لئلَّا يُظَنَّ أنَّ هذه المزيَّةَ خاصَّةٌ بالرِّجالِ، ولزيادةِ تَفظيعِ فِعْلِ الفاتِنينَ بأنَّهم اعتَدَوا على النِّساءِ؛ والشَّأنُ ألَّا يُتعَرَّضَ لهنَّ بالغِلْظةِ[٤]!

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ لَمَّا كانت التَّوبةُ مَقبولةً قبْلَ الغَرغَرةِ ولو طال الزَّمانُ، عَبَّرَ بأداةِ التَّراخي، فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾[٥].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ لَمَّا كان سُبحانَه لا يُعَذِّبُ أحدًا إلَّا بسَبَبٍ، سَبَّبَ عن ذَنْبِهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (١/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ١٨٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٩).

وعدَمِ توبتِهم قولَه تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾[١].

٤- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ أنَّ العقوبةَ بالذُّنوبِ في الآخرةِ في جهنَّمَ تندفعُ بالتَّوبةِ؛ فإنَّ التَّائبَ مِن الذَّنْبِ كمَن لا ذَنْبَ له، والتَّوبةُ مَقبولةٌ مِن جميعِ الذُّنوبِ: الكُفْرِ، والفُسوقِ، والعِصْيانِ[٢].

٥- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ دَلالةٌ على أنَّهم لو تابوا لخَرَجوا عن هذا الوَعيدِ، وذلك يدُلُّ على القَطْعِ بأنَّ اللهَ تعالى يَقبَلُ التَّوبةَ، ويدُلُّ على أنَّ تَوبةَ القاتِلِ عَمْدًا مَقبولةٌ[٣]، وقد أَجْمَعَ المسلِمونَ أنَّها مِن الكافرِ مَقبولةٌ في جملةِ تَوبتِه مِن الكُفرِ؛ لأنَّ الإسلامَ يَجُبُّ ما كان قَبْلَه[٤].

٦- في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ إشارةٌ إلى أنَّ التَّوبةَ تَهْدِمُ ما قَبْلَها[٥].

٧- في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ أنَّه لَمَّا كان اللهُ سُبحانَه مِن رحمتِه قد تغَمَّد أولياءَه بعِنايتِه، ولم يَكِلْهم إلى أعمالِهم؛ لم يَجعَلْها سبَبَ سَعادتِهم؛ فلم يَقرِنْ بالفاءِ قَولَه: ﴿لَهُمْ﴾[٦].

٨- قَولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ قيل: إنَّما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ﴾ ولم يقُلْ: «تِلْكَ»؛ لدقيقةٍ لطيفةٍ، وهي أنَّ قَولَه: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى إخبارِ اللهِ تعالى

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٥٩).

(٢) يُنظر: ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٦/ ٢٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٤٩٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣١).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٠).

بحُصولِ هذه الجنَّاتِ، وقَولَه: (تلك) إشارةٌ إلى الجنَّاتِ، وإخبارُ الله تعالى عن ذلك يدُلُّ على كَونِه راضيًا، والفوزُ الكَبيرُ هو رِضا اللهِ، لا حُصولُ الجنَّةِ[١].

## بلاغةُ الآيتَينِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ كلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لذِكرِ وَعيدِ المُجرِمين أوَّلًا، ثمَّ يُردِفُه بذِكرِ ما أَعَدَّ للمُؤمِنينَ[٢].

- قيل: يَجوزُ أنْ يُرادَ بـ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ أصحابُ الأُخْدودِ خاصَّةً، وبـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ المُطرَحونَ؛ فيَكونَ تَتميمًا لمُجرَّدِ مَعنى ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾، مِن بابِ المُظهَرِ الَّذي وُضِعَ وأُقيمَ مَوضِعَ المُضمَرِ. وقيل: يجوزُ أنْ يُرادَ: الَّذين فَتَنوا المؤمنينَ -أي: بَلَوْهُم بالأذَى- على العُموم، فـ﴿ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ﴾ عامٌّ في كلِّ مَن ابْتَلَى المؤمنينَ والمؤمناتِ بتَعذيبٍ أو أذًى؛ فمَعنى الآيةِ تَذييلٌ للكَلامِ السَّابقِ، وتَوكيدٌ لمَعنى قولِه: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾[٣]. وقيل: الَّذين فَتَنوا المُؤمِنينَ والمُؤمناتِ هُم مُشرِكو قُرَيشٍ، وليس المُرادُ أصحابَ الأُخْدودِ؛ لأنَّه لا يُلاقي قولَه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾؛ فقولُه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ فيه تَعريضٌ للمُشرِكين بالتَّرغيبِ في التَّوبةِ، وبأنَّهم إنْ تابوا وآمَنوا سَلِموا مِن عَذابِ جَهنَّمَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٣).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٩)، وما يأتي في بلاغةِ الآياتِ (ص: ٤٥).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٥، ٢٤٦).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٦).

- وإنْ كان قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ...﴾ جوابًا للقَسَم، كان ما بيْنَ القَسَمِ وما بيْنَ هذا كَلامًا مُعترِضًا يُقصَدُ منه التَّوطِئةُ لوَعيدِهم بالعَذابِ والهَلاكِ بذِكرِ ما تُوُعِّدَ به نَظيرُهم، وإنْ كان الجَوابُ في قولِه: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ [البروج: ٤]، كان قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ بمَنزِلةِ الفَذْلَكةِ[١] لِما أُقسِمَ عليه؛ إذ المَقصودُ بالقَسَمِ وما أُقسِمَ عليه هو تَهديدُ الَّذين فَتَنوا المُؤمِنينَ والمُؤمِناتِ مِن مُشرِكي قُرَيشٍ. وتأْكيدُ الخَبَرِ بـ (إنَّ) للرَّدِّ على المُشرِكين الَّذين يُنكِرون أنْ تَكونَ عليهم تَبِعةٌ مِن فَتْنِ المُؤمِنينَ[٢].

- وجُملةُ ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ مُعتَرِضةٌ، و(ثمَّ) فيها للتَّراخي الرُّتبيِّ؛ لأنَّ الاستِمرارَ على الكُفرِ أعظَمُ مِن فِتنةِ المُؤمِنينَ[٣].

- ودُخولُ الفاءِ في خبَرِ (إنَّ) مِن قولِه: ﴿فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾؛ لأنَّ اسمَ (إنَّ) وقَعَ مَوصولًا، والموصولُ يُضمَّنُ معْنى الشَّرطِ في الاستعمالِ كثيرًا، فالتَّقديرُ: إنَّ الَّذين فَتَنوا المؤمنينَ ثمَّ إنْ لم يَتوبوا، فلَهُمْ عَذابُ جهنَّمَ؛ لأنَّ عطْفَ قولِه: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ﴾ مَقصودٌ به معْنى التَّقييدِ، فهو كالشَّرطِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ﴾ عَطفٌ في مَعنى التَّوكيدِ اللَّفظيِّ لجُملةِ (لَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ)، واقترانُها بواوِ العَطفِ للمُبالَغةِ في التَّأكيدِ، بإيهامِ أنَّ مَن يُريدُ زِيادةَ تَهديدِهم بوَعيدٍ آخَرَ، فلا يُوجَدُ أَعظَمُ مِن الوَعيدِ الأوَّلِ، مع ما بيْنَ عَذابِ جَهنَّمَ وعَذابِ الحَريقِ مِن اختِلافٍ في المَدلولِ، وإنْ كان مآلُ

(١) تقدَّم تعريفُها (٤٢/ ٥٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٤٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المَدْلولَينِ واحِدًا، وهذا ضَرْبٌ مِن المُغايَرةِ يُحسِّنُ عَطْفَ التَّأكيدِ، على أنَّ الزَّجَّ بهم في عَذابِ جَهنَّمَ قبْلَ أنْ يَذوقوا حَريقَها؛ لِما فيه مِن الخِزْيِ والدَّفْعِ بهم في طَريقِهم؛ قال تعالَى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣]، فحَصَل بذلك اختِلافُ ما بيْنَ الجُملتَينِ[١]؛ فهُما عذابانِ مُنوَّعانِ على الكُفرِ، وعلى الفِتنةِ. أو هُما واحدٌ وأنَّه مِن عطفِ التَّفسيرِ والتَّوضيحِ. أو مِن عَطفِ الخاصِّ على العامِّ للمُبالَغةِ فيه؛ لأنَّ عذابَ جهنَّمَ بالزَّمْهَريرِ والإحراقِ وغيرِهما[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ يَجوزُ أنْ يَكونَ استِئنافًا بَيانيًّا ناشِئًا عن قولِه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ المُقتَضي أنَّهم إنْ تابوا لم يكُنْ لهم عَذابُ جَهنَّمَ، فيَتَشوَّفُ السَّامِعُ إلى مَعرِفةِ حالِهم؛ أَمَقْصورةٌ على السَّلامةِ مِن عَذابِ جَهنَّمَ، أمْ هي فوقَ ذلك؟ فأُخبِرَ بأنَّ لهم جَنَّاتٍ؛ فإنَّ التَّوبةَ الإيمانُ، فلِذلك جِيءَ بصِلةِ ﴿ءَامَنُواْ﴾ دُون (تَابُوا)؛ ليَدُلَّ على أنَّ الإيمانَ والعَملَ الصَّالِحَ هو التَّوبةُ مِن الشِّركِ الباعِثِ على فَتْنِ المُؤمِنينَ، وهذا الاستِئنافُ وقَعَ مُعتَرِضًا. ويَجوزُ أنْ يَكونَ اعتِراضًا بيْنَ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠] وجُملةِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] اعتِراضًا بالبِشارةِ في خِلالِ الإنْذارِ؛ لتَرغيبِ المُنذَرينَ في الإيمانِ، ولتَثْبيتِ المُؤمِنينَ على ما يُلاقونَه مِن أذى المُشرِكينَ، على عادةِ القُرآنِ في إرْدافِ الإرهابِ بالتَّرغيبِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧).

- والتَّأكيدُ بـ (إنَّ)؛ للاهتِمامِ بالخَبَرِ[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ إشارةٌ إمَّا إلى الجَنَّاتِ المَوصوفةِ، والتَّذكيرُ لتَأويلِها بـ: ما ذُكِرَ؛ للإشْعارِ بأنَّ مَدارَ الحُكمِ عُنوانُها الَّذي يَتنافَسُ فيها المُتنافِسون؛ فإنَّ اسمَ الإشارةِ مُتعرِّضٌ لذاتِ المُشارِ إليه مِن حَيثُ اتِّصافُه بأَوصافِه المَذكورةِ، لا لِذَاتِه فقط، كما هو شأْنُ الضَّميرِ، فإذا أُشيرَ إلى الجَنَّاتِ مِن حَيثُ ذِكرُها فقد اعتُبِر منها عُنوانُها المَذكورُ حَتْمًا. وإمَّا إلى ما يُفيدُه قولُه تعالَى: ﴿لَهُمۡ جَنَّٰتٌ﴾ إلخ، مِن حِيازتِهم لها؛ فإنَّ حُصولَها لهم مُستَلزِمٌ لحِيازتِهم لها قَطْعًا، وأيًّا ما كان فما فيه مِن مَعْنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلُوِّ دَرَجتِه، وبُعدِ مَنزِلتِه في الفَضلِ والشَّرفِ، ومَحلُّه الرَّفعُ على الابتِداءِ، خَبَرُه ما بَعْدَه، أي: ذلك المَذكورُ العَظيمُ الشَّأنِ ﴿ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ﴾ الَّذي تَصغُرُ عِندَه الدُّنيا وما فيها مِن فُنونِ الرَّغائبِ بحَذافيرِها، فَعلى الأوَّلِ هو مَصدَرٌ أُطلِقَ على المَفعولِ مُبالَغةً، وعلى الثَّاني مَصدَرٌ على حالِه[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٨).

## الآيات (١٢-١٦)

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بَطْشَ﴾: البطشُ: الانتقامُ، وأصلُ (بطش): يدُلُّ على أخذِ الشَّيءِ بقَهرٍ وغَلَبةٍ[١].

﴿ٱلْوَدُودُ﴾: أي: المحِبُّ لأوليائِه، والوُدُّ أصفَى الحُبِّ وألطفُه، وأصلُ (ودد): يدُلُّ على محَبَّةٍ[٢].

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾: أي صاحبُ العَرشِ، والعرشُ معروفٌ فوقَ السَّمَواتِ، وهو الَّذي استوى اللهُ عليه، وله قَوائِمُ تَحمِلُه المَلائكةُ، وهو كالقُبَّةِ على العالَمِ، وهو سَقْفُ المَخلوقاتِ وأعلاها وأكبَرُها، والعرشُ في اللُّغةِ سَريرُ المَلِكِ، وهو سريرٌ بالنِّسبةِ إلى ما فوقَه، وكالسَّقفِ بالنِّسبةِ إلى ما تحتَه، وقيل: هو في الأصلِ شيءٌ مُسقَّفٌ، وأصلُ (عرش): يدُلُّ على ارتفاعٍ في شَيءٍ مَبْنيٍّ، وسُمِّيَ العرشُ بذلك؛ لارتفاعِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٢) و(٤/ ٤٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٦)، ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٨).

(٣) يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١/ ٢٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٦٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((البداية والنهاية)) لابن كثير (١/ ٢٠)، ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٧٤)، ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٨٢).
قال ابنُ تيميَّةَ: (فإذا كان القرآنُ قد جعَل لله عرشًا وليس هو بالنِّسبةِ إليه كالسَّقفِ، عُلِم أنَّه =

﴿ٱلْمَجِيدُ﴾: أي: الكامِلُ الشَّرَفِ والرِّفعةِ والكَرَمِ والصِّفاتِ المحمودةِ، والمجْدُ: العُلُوُّ والعَظَمَةُ، وأصلُ (مجد): يدُلُّ على بُلوغِ النِّهايةِ، ولا يكونُ إلَّا في محمودٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ أخْذَ رَبِّك -يا محمَّدُ- وانتِقامَه مِنَ الكَفَرةِ والظَّلَمةِ لَقَويٌّ عَظيمٌ؛ إنَّه هو يَبدَأُ ويُوجِدُ ما يَشاءُ مِن خَلْقِه، ثمَّ يُعيدُه بَعْدَ فَنائِه، وهو الغَفورُ لذُنوبِ عِبادِه، المحِبُّ لعبادِه التَّائِبينَ والصَّالِحينَ، صاحِبُ العَرْشِ، الكامِلُ الشَّرَفِ والرِّفعةِ والكَرَمِ والصِّفاتِ المحمودةِ، وهو فَعَّالٌ في مُلْكِه وخَلْقِه ما يُريدُه سُبحانَه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى وَعيدَ الَّذين فَتَنوا المؤمِنينَ والمؤمِناتِ أوَّلًا، وذَكَر وَعْدَ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ ثانيًا؛ أردَفَ ذلك الوَعدَ والوعيدَ بالتَّأكيدِ؛ فقال لتأكيدِ الوَعيدِ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، ثمَّ قال لتأكيدِ الوَعْدِ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾[٢].

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢﴾.

أي: إنَّ أخْذَ رَبِّك -يا محمَّدُ- وانتِقامَه مِنَ الكَفَرةِ والظَّلَمةِ لَقَويٌّ عَظيمٌ[٣]!

---

= بالنِّسبةِ إليه كالسَّريرِ بالنِّسبةِ إلى غيرِه). ((بيان تلبيس الجهمية)) (٣/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٩٧)، ((البسيط)) للواحدي (١١/ ٤٨٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٦٠، ٧٦١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨١)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وقال سُبحانَه: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾.

أي: إنَّ اللهَ وَحْدَه هو مَن يَبدَأُ بإيجادِ ما يَشاءُ مِن خَلْقِه، ثمَّ يُعيدُه بَعْدَ فَنائِه[1].

---

= قال ابن عاشور: (وبَطْشُ اللهِ يَشملُ تَعذيبَه إيَّاهم في جهنَّمَ، ويَشملُ ما قَبْلَه مِمَّا يَقَعُ في الآخرةِ، وما يقَعُ في الدُّنيا). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧، ٢٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٨).

قيل: المرادُ: يَبدَأُ إنشاءَ الخَلْقِ مِنَ العَدَمِ، ثمَّ يُعيدُهم بعدَ مَوتِهم، فيَبعَثُهم أحياءً يومَ القيامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحديُّ، والقُرطبيُّ ونسَبَه إلى أكثَرِ العُلَماءِ، واختاره: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، وابنُ جُرَيجٍ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٧١).

قال الواحدي: (﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ الخَلْقَ؛ يَخلُقُهم أوَّلًا في الدُّنيا، ويُعيدُهم أحياءً بعدَ الموتِ. وهذا قولُ المفسِّرينَ جميعًا). ((البسيط)) (٢٣/ ٣٩٢).

وقيل: المعنى: يَبدأُ العَذابَ للكُفَّارِ في الدُّنيا، ثمَّ يُعيدُ عَذابَهم في الآخِرةِ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٣).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٣)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٧١).

وذهب ابنُ عُثيمينَ إلى العُمومِ، فقال: (يعني: أنَّ الأمرَ إليه ابتِداءً وإعادةً؛ فهو الَّذي بدأ =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [العنكبوت: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الروم: ١١].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾.

أي: وهو الغَفورُ لذُنوبِ عِبادِه، فيَمحوها ويُذهِبُ آثارَها، ويَستُرُها، وهو المحِبُّ لعبادِه التَّائِبينَ والصَّالِحينَ[١].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ شُعَيبٍ عليه السَّلامُ لِقَومِه: ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ قال: مَن عادى لي وليًّا فقد آذَنْتُه[٢] بالحَرْبِ، وما تقرَّبَ إلَيَّ عَبْدي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عبدي يتقرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّه، فإذا أحبَبْتُه كُنتُ سَمْعَه الَّذي يَسمَعُ به، وبَصَرَه الَّذي يُبصِرُ به، ويَدَه الَّتي

= الأشياءَ، وإليه تنتهي الأشياءُ، الأشياءُ منه وإليه في كلِّ شَيءٍ؛ الخَلقُ مِنَ اللهِ وإليه، الشَّرائِعُ مِنَ اللهِ وإليه، كُلُّ الأمورِ مِنَ اللهِ وإليه... لم يَذكُرْ ما الَّذي يَبدَؤُه، فمعناه: يَبدأُ كُلَّ شَيءٍ، ويُعيدُ كُلَّ شَيءٍ، فكُلُّ الأمرِ بيَدِه عزَّ وجَلَّ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٧، ١٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٦)، ((النبوات)) لابن تيمية (١/ ٣٥٣، ٣٦١-٣٦٣)، ((روضة المحبين)) لابن القيم (ص: ٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٣٨).

(٢) آذَنْتُه: أي: أعلَمْتُه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٥٤٤).

يَبطِشُ بها، ورِجْلَه الَّتي يَمشي بها[١]))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ تبارَك وتعالى إذا أحَبَّ عَبدًا نادى جِبريلَ: إنَّ اللهَ قد أحَبَّ فُلانًا فأَحِبَّه، فيُحِبُّه جِبْريلُ، ثمَّ يُنادي جِبْريلُ في السَّماءِ: إنَّ اللهَ قد أحَبَّ فُلانًا فأَحِبُّوه، فيُحِبُّه أهلُ السَّماءِ، ويُوضَعُ له القَبولُ في أهلِ الأرضِ))[٣].

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ تعالى مِن صِفاتِه ما تعَلُّقُه بمَخلوقاتِه بحَسَبِ ما يَستأهِلونَه مِن جزاءٍ؛ أعقَبَ ذلك بصِفاتِه الذَّاتيَّةِ على وَجهِ الاستِطرادِ والتَّكْملةِ[٤].

---

(١) أي: يَجعَلُ اللهُ حواسَّه وآلاتِه وسائِلَ إلى رِضائه، فلا يَسمَعُ إلَّا ما يُحِبُّه اللهُ ويَرضاه. وقيل: أي: يجعَلُ اللهُ سُلطانَ حُبِّه غالِبًا عليه حتَّى لا يرى إلَّا ما يُحِبُّه اللهُ تعالى، ولا يَسمَعَ إلَّا ما يحِبُّه، ولا يَفعَلُ إلَّا ما يحِبُّه، ويكونُ اللهُ سُبحانَه في ذلك له يدًا وعَونًا ووكيلًا يَحمي سَمْعَه وبَصَرَه ويَدَه ورِجْلَه عمَّا لا يَرضاه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٥٤٤).

وقال ابن رجب: (المرادُ بهذا الكلام: أنَّ مَن اجتهَد بالتَّقرُّبِ إلى الله بالفرائضِ، ثمَّ بالنَّوافلِ؛ قرَّبه إليه، ورقَّاه مِن درجةِ الإيمانِ إلى درجةِ الإحسانِ، فيَصيرُ يَعبُدُ اللهَ على الحُضورِ والمُراقَبةِ كأنَّه يَراه، فيَمتلئُ قلبُه بمعرفةِ الله تعالى، ومحَبَّتِه، وعظَمَتِه، وخَوفِه، ومَهابَتِه، وإجلالِه، والأُنسِ به، والشَّوقِ إليه، حتَّى يَصيرَ هذا الَّذي في قلبِه مِن المعرفةِ مُشاهَدًا له بعَينِ البصيرةِ...

فمتى امتلأ القلبُ بعَظَمةِ الله تعالى، مَحَا ذلك مِن القلبِ كلَّ ما سِواه، ولم يَبْقَ للعبدِ شَيءٌ مِن نفْسِه وهَواه، ولا إرادةٌ إلَّا لِما يُريدُه منه مَولاه، فحينَئذٍ لا يَنطِقُ العبدُ إلَّا بذِكْرِه، ولا يتحرَّكُ إلا بأمْرِه، فإنْ نطَقَ نطَقَ بالله، وإنْ سَمِعَ سمِعَ به، وإنْ نظَرَ نظَرَ به، وإنْ بطَشَ بطَشَ به). ((جامع العلوم والحكم)) (٢/ ٣٤٥-٣٤٧).

(٢) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٣) رواه البخاري (٧٤٨٥) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٦٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٩).

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأَثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ ﴿الْمَجِيدِ﴾ بكَسْرِ الدَّالِ، صِفةً للعَرْشِ، أي: العَرْشُ المتَّصِفُ بالمجْدِ[١].

٢- قِراءةُ ﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ بضَمِّ الدَّالِ، صِفةً لله سُبحانَه وتعالى، أي: اللهُ المتَّصِفُ بالمجْدِ[٢].

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥﴾.

أي: هو الَّذي له العَرْشُ العظيمُ، وهو الَّذي له صِفاتُ الكَمالِ الكَثيرةُ الواسِعةُ[٣].

﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦﴾.

أي: مهما أراد شيئًا فعَله، ولا يَمنَعُه مانعٌ مِن فِعلِ ما أراد في مُلْكِه وخَلْقِه، ومِن ذلك مَغفِرةُ ذُنوبِ عِبادِه المؤمِنينَ، وشِدَّةُ البَطْشِ بالكافِرينَ والظَّالِمينَ[٤].

---

(١) قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٥٧).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٦)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٧)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٥-٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤١).

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- اقترانُ هذينِ الاسمَينِ ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ * وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ فيه ما يَهيجُ القلبَ السَّليمَ، ويأخُذُ بمَجامعِه، ويجعَلُه عاكِفًا على ربِّه -الَّذي لا إلهَ إلَّا هو، ولا رَبَّ له سِواه- عُكوفَ المُحِبِّ الصَّادقِ على محبوبِه الَّذي لا غِنَى له عنه، ولا بُدَّ له منه، ولا تَندَفِعُ ضَرورتُه بغَيرِه أبدًا[١].

و(الوَدودُ) أصلُه مِن المَوَدَّةِ، بمعنى: وادٍّ. ويَشهَدُ لذلك أنَّ (فَعولًا) في صِفاتِ اللهِ سُبحانَه وتعالى (فاعِلٌ)؛ كغَفورٍ بمعنى غافرٍ، وشَكورٍ بمعنى شاكِرٍ، وصَبورٍ بمعنى صابِرٍ، وأيضًا لاقترانِه بالغَفورِ في قَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، وبالرَّحيمِ في قَولِه: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]، وفيه سِرٌّ لطيفٌ، وهو أنَّه يحِبُّ التَّوَّابينَ، وأنَّه يحِبُّ عَبْدَه بَعْدَ المغفرةِ، فيَغفِرُ له ويُحِبُّه، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فالتَّائبُ حبيبُ اللهِ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ فيه تَنبيهٌ للعِبادِ إلى وُجوبِ عِبادتِه لاستِحقاقِه العِبادةَ لجَلالِه، كما يَعبُدونه لاتِّقاءِ عِقابِه، ورَجاءِ نَوالِه[٣].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] لَطيفةٌ في اقترانِ اسمِ «الوَدودِ» بـ«الرَّحيمِ» وبـ«الغَفورِ»؛ فإنَّ الرَّجُلَ قد يَغْفِرُ لِمَن أساء إليه، ولا يُحِبُّه، وكذلك قد يَرْحَمُ مَن لا يُحِبُّ، والرَّبُّ تعالى يَغْفِرُ لعَبْدِه إذا تاب إليه، ويَرحَمُه ويُحِبُّه

(١) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((روضة المحبين ونزهة المشتاقين)) لابن القيم (ص: ٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٩).

مع ذلك؛ فإنَّه يُحِبُّ التَّوَّابينَ، وإذا تاب إليه عَبْدُه أَحَبَّه، ولو كان منه ما كان[١]. فلا يُقالُ: بل تُغفَرُ ذُنوبُهم، ولا يَرجِعُ إليهم الوُدُّ، كما قاله بَعضُ الغالِطينَ[٢]. فاقترانُ الاسمَينِ فيه ردٌّ وإنكارٌ على مَن قال: لا يَعودُ الوُدُّ والمحبَّةُ منه سبحانَه لعَبْدِه أبدًا[٣]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أنَّ ثُبوتَ الصِّفاتِ لا يَستَلْزِمُ تَعَدُّدَ القُدَماءِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى وَصَفَ نفْسَه بأوصافٍ كثيرةٍ، مع أنَّه الواحِدُ الأحَدُ[٤].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ إثباتُ صِفةِ المحبَّةِ للهِ تعالى، وهي مِن صِفاتِه الفِعْليَّةِ؛ فإنَّ الوُدَّ: خالِصُ المحبَّةِ، ولا يجوزُ تفسيرُ المحبَّةِ بالثَّوابِ؛ لأنَّه مخالِفٌ لظاهرِ اللَّفظِ، وإجماعِ السَّلَفِ، وليس عليه دَليلٌ[٥].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ إثباتُ إرادةِ اللهِ سُبحانَه وتعالى، وهو كذلك؛ فإنَّه تعالى له إرادةٌ كامِلةٌ تامَّةٌ في خَلْقِه، حتَّى فيما يتعَلَّقُ بأفعالِ الخَلْقِ، لا يكونُ فِعْلٌ مِن النَّاسِ إلَّا بإرادةِ اللهِ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]؛ فعَلَّقَ مَشيئتَهم بمشيئتِه سُبحانَه وتعالى[٦].

٥- لَفظُ الإرادةِ في كِتابِ اللهِ تعالى نَوعانِ:

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

(٣) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٩).

(٥) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٤/ ٢٧١).

(٦) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٤٢).

إرادةٌ كَونيَّةٌ شامِلةٌ لجَميعِ المخلوقاتِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ [الإسراء: ١٦]، وقَولِه تعالى: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]، ونظائرِ ذلك.

وإرادةٌ دِينيَّةٌ أَمْريَّةٌ لا يجبُ وُقوعُ مُرادِها، كقَولِه تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[1] [النساء: ٢٧].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ رَدٌّ على المُعتَزِلةِ القائلينَ: إنَّه تعالى لا يُريدُ الشَّرَّ. وقد دَلَّت هذه الآيةُ أنَّ جَميعَ أفعالِ العِبادِ مَخلوقةٌ للهِ تعالى[2].

٧- قَولُه تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ دليلٌ على أُمورٍ:

**أحَدُها**: أنَّه سُبحانَه يَفعَلُ بإرادتِه ومَشيئتِه.

**الثَّاني**: أنَّه لم يَزَلْ كذلك؛ لأنَّه ساق ذلك في مَعرِضِ المدحِ والثَّناءِ على نَفْسِه، وأنَّ ذلك مِن كَمالِه سُبحانَه؛ فلا يجوزُ أن يكونَ عادمًا لهذا الكَمالِ في وَقتٍ مِن الأوقاتِ، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وما كان مِن أوصافِ كَمالِه ونُعوتِ جَلالِه لم يكُنْ حادِثًا بَعْدَ أنْ لم يكُنْ.

**الثَّالِثُ**: أنَّه إذا أراد شيئًا فَعَلَه؛ فإنَّ «ما» مَوصولةٌ عامَّةٌ، أي: يَفعَلُ كلَّ ما يريدُ أن يفعَلَه، وهذا في إرادتِه المتعلِّقةِ بفِعْلِه، وأمَّا إرادتُه المتعلِّقةُ بفِعلِ العَبدِ فتلك لها شأنٌ آخَرُ؛ فإنْ أراد فِعْلَ العَبْدِ ولم يُرِدْ مِن نَفْسِه أن يُعينَه عليه ويجعَلَه فاعِلًا، لم يُوجَدِ الفِعلُ وإن أراده، حتَّى يُريدَه مِن نَفْسِه أن يجعَلَه فاعِلًا.

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٣٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥١٥).

**الرَّابعُ**: أنَّ فِعْلَه سُبحانَه وإرادتَه مُتلازِمانِ؛ فما أراد أن يَفعَلَه فَعَلَه، وما فَعَلَه فقد أرادَه، بخِلافِ المخلوقِ؛ فإنَّه يُريدُ ما لا يَفعَلُ، وقد يَفعَلُ ما لا يُريدُ، فما ثَمَّ فعَّالٌ لِما يُريدُ إلَّا اللهُ وَحْدَه.

**الخامِسُ**: إثباتُ إراداتٍ متعدِّدةٍ بحَسَبِ الأفعالِ، وأنَّ كلَّ فعلٍ له إرادةٌ تخصُّه، وهذا هو المعقولُ في الفِطَرِ، وهو الَّذي يَعقِلُه النَّاسُ مِن الإرادةِ، فشَأنُه تعالى أنْ يُريدَ على الدَّوامِ، ويَفعَلَ ما يُريدُ.

**السَّادِسُ**: أنَّ كُلَّ ما صحَّ أن تتعَلَّقَ به إرادتُه جازَ فِعْلُه؛ فإذا أراد أن يَنزِلَ كُلَّ لَيلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا، وأن يَجيءَ يومَ القيامةِ لِفَصلِ القَضاءِ، وأن يُرِيَ نفْسَه لِعِبادِه، وأنْ يَتجلَّى لهم كيف شاء، وأن يُخاطِبَهم، ويَضحَكَ إليهم، وغيرَ ذلك ممَّا يريدُ سُبحانَه- لم يمتَنِعْ عليه فِعْلُه؛ فإنَّه فعَّالٌ لِما يُريدُ، وإنَّما يتوقَّفُ صحَّةُ ذلك على إخبارِ الصَّادِقِ به، فإذا أخبَرَ به وجَبَ التَّصديقُ به، وكان رَدُّهُ ردًّا لكمالِه الَّذي أخبَرَ به عن نَفْسِه، وهذا عَينُ الباطِلِ، وكذلك إذا أمكَنَ إرادتُه سُبحانَه مَحْوَ ما شاء، وإثباتَ ما شاء؛ أمكَنَ فِعْلُه، وكانت تلك الإرادةُ والفِعلُ مِن مُقتَضَياتِ كَمالِه المقَدَّسِ[1].

٨- قدِ اشتملتْ هذه السُّورةُ الكريمةُ -على اختِصارِها- مِن التَّوحيدِ على: وَصْفِه سُبحانَه بالعِزَّةِ المتضَمِّنةِ للقُدرةِ والقوَّةِ وعدمِ النَّظيرِ، والحمدِ المتضمِّنِ لصِفاتِ الكمالِ والتَّنزيهِ عن أضْدادِها، مع محَبَّتِه وإلَهيَّتِه ومُلْكِه السَّمواتِ والأرضَ المتضَمِّنِ لكمالِ غِناه وسَعَةِ مُلْكِه، وشَهادتِه على كلِّ شيءٍ المتضمِّنِ لعُمومِ اطِّلاعِه على ظَواهرِ الأمورِ وبَواطِنِها، وإحاطةِ بصرِه بمَرئيَّاتِها، وسمْعِه بمَسموعاتِها، وعِلْمِه بمعلوماتِها، ووَصْفِه بشِدَّةِ البَطشِ المتضمِّنِ لكمالِ القوَّةِ

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٥-٩٧).

والعِزَّةِ والقُدرةِ، وتَفَرُّدِه بالإبداءِ والإعادةِ المتضمِّنِ لتوحيدِ رُبوبيَّتِه، وتصرُّفِه في المخلوقاتِ بالإبداءِ والإعادةِ، وانقيادِها لقُدرتِه، فلا يَستعصي عليه منها شيءٌ، ووَصْفِه بالمغفرةِ المتضمِّنِ لكمالِ جُوْدِه وإحسانِه وغِناه ورحمتِه، ووصْفِه بالوَدودِ المتضمِّنِ لكَونِه حبيبًا إلى عبادِه، مُحِبًّا لهم، ووصْفِه بأنه ذو العرشِ الَّذي لا يَقْدُرُ قَدْرَه سِواه، وأنَّ عَرْشَه المختصَّ به لا يليقُ بغيرِه أنْ يستويَ عليه! ووصْفِه بالمَجْدِ المتضمِّنِ لسَعَةِ العِلمِ والقدرةِ والمُلْكِ والغِنى والجُودِ والإحسانِ والكرمِ، وكَونِه فعَّالًا لِما يُريدُ المتضمِّنِ لحياتِه وعِلْمِه وقدرتِه ومشيئتِه وحِكمتِه وغيرِ ذلك مِن أوصافِ كمالِه. فهذه السُّورةُ كتابٌ مستقِلٌّ في أصولِ الدِّينِ تَكفي مَن فَهِمَها؛ فالحمدُ للهِ الَّذي أَنْزَلَ على عبْدِه الكتابَ، وتبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الفُرقانَ على عبْدِه[1].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ استِئنافٌ خُوطِبَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إيذانًا بأنَّ لكُفَّارِ قَومِه نَصيبًا مَوفورًا مِن مَضمونِه، كما يُنْبِئُ عنه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ، معَ الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ فهو كَلامٌ مُستَأنَفٌ مَسوقٌ لتَسليةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عمَّا يُكابِدُه مِن كُفَّارِ قَومِه. أو هو عِلَّةٌ لمَضمونِ قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠]، أي: لأنَّ بَطْشَ اللهِ شَديدٌ على الَّذين فَتَنوا الَّذين آمَنوا به؛ فمَوقِعُ (إنَّ) في التَّعليلِ يُغْني عن فاءِ التَّسبُّبِ[2].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٧، ٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٥).

- وأُكِّدَ الكَلامُ بـ (إِنَّ) واللَّامِ[١].

- والبَطْشُ: الأَخْذُ بالعُنفِ، ووُصِفَ بالشِّدَّةِ؛ للدَّلالةِ على تَضاعُفِه وتَفاقُمِه. ووُجِّهَ الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّ بَطْشَ اللهِ بالَّذين فَتَنوا المُؤمِنينَ فيه نَصرٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَثبيتٌ له[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ هذه الجُملةُ تَصلُحُ لأنْ تَكونَ استِئنافًا ابتِدائيًّا، انتُقِلَ به مِن وَعيدِهم بعَذابِ الآخِرةِ إلى تَوعُّدِهم بعَذابٍ في الدُّنيا يَكونُ مِن بَطْشِ اللهِ، أُردِفَ به وَعيدُ عَذابِ الآخِرةِ؛ لأنَّه أوقَعُ في قُلوبِ المُشرِكين؛ إذ هُم يَحسَبونَ أنَّهم في أَمْنٍ مِن العِقابِ؛ إذ هُم لا يُصدِّقون بالبَعثِ، فحَسِبوا أنَّهم فازوا بطِيبِ الحياةِ الدُّنيا، والمَعنى: أنَّ اللهَ يَبطِشُ بهم في البَدْءِ والعَوْدِ، أي: في الدُّنيا والآخِرةِ. وتَصلُحُ لأنْ تَكونَ تَعليلًا لجُملةِ ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؛ لأنَّ الَّذي يُبْدئُ ويُعيدُ قادِرٌ على إيقاعِ البَطْشِ الشَّديدِ في الدُّنيا، وهو: الإبْداءُ، وفي الآخِرةِ، وهو: إعادةُ البَطْشِ. وتَصلُحُ لأنْ تَكونَ إدْماجًا[٣] للاستِدلالِ على إمْكانِ البَعثِ، أي: إنَّ اللهَ يُبْدِئُ الخَلْقَ ثمَّ يُعيدُه. وحُذِفَ مَفعولَا الفِعلَينِ ﴿يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾؛ لإفادةِ أنَّه يُبدِئُ المَخلوقاتِ كلَّها ويُعيدُها بأَسْرِها، ولقَصْدِ عُمومِ تَعلُّقِ الفِعلَينِ بكُلِّ ما يَقَعُ ابتِداءً، ويُعادُ بعدَ ذلك؛ فشَمِلَ بَدْءَ الخَلْقِ وإعادتَه، وهو: البَعثُ، وشَمِلَ البَطْشَ الأوَّلَ في الدُّنيا، والبَطْشَ في الآخِرةِ، وشَمِلَ إيجادَ الأَجيالِ وإخْلافَها بعدَ هَلاكِ أوائِلِها، وفي هذه الاعتِباراتِ مِن التَّهديدِ للمُشرِكين مَحامِلُ كَثيرةٌ؛ فدَلَّ باقتِدارِه على الإبْداءِ والإعادةِ على

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

شِدَّةِ بَطْشِه، وأَوعَدَ الكَفَرةَ بأنَّه يُعيدُهم كما أَبدَأَهم ليَبطِشَ بهم؛ إذ لم يَشْكروا نِعمةَ الإبْداءِ، وكَذَّبوا بالإعادةِ[١].

- وضَميرُ (هُوَ) للتَّقَوِّي، أي: لتَحقيقِ الخَبَرِ، ولا مَوقِعَ للقَصرِ هُنا؛ إذْ ليس في المَقامِ ردٌّ على مَن يَدَّعي أنَّ غيرَ اللهِ يُبدِئُ ويُعيدُ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ * ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ * فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾

- قولُه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ مَعطوفٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، ومَضمونُها قَسيمٌ لمَضمونِ ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ لأنَّه لَمَّا أُفيدَ تَعْليلُ مَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠] إلى آخِرِه، ناسَبَ أنْ يُقابَلَ بتَعليلِ مَضمونِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ [البروج: ١١] إلى آخِرِه، فعُلِّلَ بقَولِه: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾، فهو يَغفِرُ للَّذين تابوا وآمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ ما فَرَطَ منهم، وهو يُحِبُّ التَّوَّابين ويَوَدُّهم[٣].

- والوَدودُ مُبالَغةٌ في (الوادِّ)[٤].

- وخَصَّ العَرشَ في قولِه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ بإضافةِ نفْسِه تَشْريفًا للعَرشِ، وتَنبيهًا على أنَّه أَعظَمُ المَخلوقاتِ[٥]، ولأنَّه أخصُّ المخلوقاتِ بالقُربِ منه تعالى[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

- وقدْ ذُيِّلَ ذلك بصِفةٍ جامعةٍ لعَظَمته الذَّاتيَّةِ وعَظَمةِ نِعَمِه بقَولِه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، أي: إذا تَعلَّقَتْ إرادتُه بفعلٍ فَعَلَه على أكمَلِ ما تعَلَّقَتْ به إرادتُه، لا يَنقُصُه شَيءٌ، ولا يُبْطِئُ به ما أَرادَ تَعجيلَه؛ فصِيغةُ المُبالَغةِ في قولِه: ﴿فَعَّالٌ﴾ للدَّلالةِ على الكَثرةِ في الكَمِّيَّةِ والكَيفيَّةِ[1].

- وقولُه: ﴿فَعَّالٌ﴾ خبَرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، وإنَّما فَصَلَه -أي: لم يَعطِفْه على ما قبْلَه-؛ لأنَّه كالفَذْلَكةِ[2] للأوصافِ السَّابِقةِ والخاتِمةِ لها. والتَّنكيرُ لضَرْبٍ مِن التَّعظيمِ، يَتَلاشى عندَه الأوْهامُ والعُقولُ[3].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧٦).

## الآيات (١٧-٢٢)

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ٢٢﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُّحِيطُۢ﴾: أي: عالِمٌ بهم، وقادِرٌ عليهم، وهم لا يُعجِزونَه ولا يَفوتونَه، وأصلُ (حوط): يدُلُّ على الشَّيءِ يُطيفُ بالشَّيءِ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا ما يدُلُّ على شدَّةِ بَطْشِه: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ الجُنودِ الَّذين بَطَش اللهُ بهم فأهلَكَهم؛ فِرْعَونَ وثمودَ؟! ولا يَعتَبِرُ كُفَّارُ قُرَيشٍ بما حَلَّ بفِرعَونَ وثَمودَ، بل هم في تكذيبٍ بالقُرآنِ والبَعْثِ والحسابِ، واللهُ مُطَّلِعٌ على أعمالِهم، وسيُجازيهم عليها. ثمَّ يردُّ الله على المكذِّبينَ بالقرآنِ، فيقولُ: بل هو قُرآنٌ عَظيمٌ، واسِعُ المعاني والعُلومِ والهِداياتِ، كامِلُ الصِّفاتِ، كَثيرُ الخَيراتِ والبَرَكاتِ، في لَوحٍ مَحفوظٍ مَصُونٍ عن التَّغييرِ والتَّبديلِ، وعن وُصولِ الشَّياطينِ إليه.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لمَّا ذكَر الله تعالى قصصَ أصحابِ الأخدودِ وبيَّن حالَهم، ووصَف ما كان مِن إيذائِهم للمؤمنينَ- أردَف ذلك ببيانِ أنَّ حالَ الكفَّارِ في كلِّ عصرٍ كذلك[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١/ ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٥)، ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١٠٦).

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧﴾.

أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ الجنودِ الَّذين بَطَش اللهُ بهم فأهلَكَهم؛ لكُفْرِهم باللهِ ورُسُلِه[1]؟

﴿فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨﴾.

أي: فِرْعَونَ الَّذي كَذَّبَ هو وقَومُه بموسى عليه السَّلامُ، وقَومِ ثَمودَ الَّذين كَذَّبوا نبيَّهم صالِحًا عليه السَّلامُ[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ * وَفِرۡعَوۡنَ ذِى ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ [الفجر: ٩، ١٠].

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكۡذِيبٍ ١٩﴾.

أي: لا يَعتَبِرُ كُفَّارُ قُرَيشٍ بما حَلَّ بفِرعَونَ وثَمودَ؛ فسَجِيَّتُهم الدَّائِمةُ وعادتُهم المستَمِرَّةُ هي شِدَّةُ التَّكذيبِ بالقُرآنِ والبَعْثِ والجنَّةِ والنَّارِ، فهم مُنغَمِسونَ فيه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

قال ابنُ كثير: (هذا تقريرٌ لِقَولِه: ﴿إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، أي: إذا أخَذَ الظَّالِمَ أخَذَه أخذًا أليمًا شديدًا، أخْذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٢).

وممَّن قال بأنَّ الخِطابَ هنا لمحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ابنُ جرير، والقُرطُبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

وقال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ هنا موَجَّهٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يَصِحُّ أن يَتوَجَّهَ إليه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥١).

عنادًا منهم، واتِّباعًا لأهوائِهم[١].

كما قال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ﴾ [ص: ٢].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٢].

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا طَيَّبَ سُبحانَه قَلْبَ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بحِكايةِ أحوالِ الأوَّلِينَ في هذا البابِ؛ سَلَّاه بَعْدَ ذلك مِن وَجهٍ آخَرَ[٢]، فقال:

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ٢٠﴾.

أي: واللهُ مُطَّلِعٌ على أعمالِهم، وسيُجازيهم عليها؛ فهُم في قَبْضتِه، وهو قادِرٌ على عَذابِهم، فلا يُعجِزونَه[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال: ٤٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤١).
قال البِقاعي: (لَمَّا كان التَّقديرُ: نعَمْ قد أتاني ذلك وعَلِمْتُ مِن خبَرِهما وغيرِه أنَّك قادرٌ على ما تُريدُ، ولكنَّ الكفَّارَ لا يُصَدِّقونَني؛ عطَف عليه قولَه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٢).

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

تعلُّقُ هذا بما قَبْلَه هو أنَّ هذا القُرآنَ مَجيدٌ مَصونٌ عن التَّغَيُّرِ والتَّبَدُّلِ، فلمَّا حَكَم فيه بسَعادةِ قَومٍ وشَقاوةِ قَومٍ، وبتأذِّي قَومٍ مِن قَومٍ؛ امتنَع تغَيُّرُه وتبَدُّلُه؛ فوَجَب الرِّضا به، ولا شَكَّ أنَّ هذا مِن أعظَمِ مُوجِباتِ التَّسليةِ[١].

وأيضًا لَمَّا ذَكَر أنَّهم في تَكذيبٍ، وأنَّ التَّكذيبَ عَمَّهم حتَّى صارَ كالوِعاءِ لهم، وكان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد كَذَّبوه وكَذَّبوا ما جاءَ به -وهو القُرآنُ-؛ أخبَرَ تعالى عن الَّذي جاءَ به فكَذَّبوا، فقال[٢]:

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَزعُمُ الكُفَّارُ في القُرآنِ، وإنَّما هو قُرآنٌ عَظيمٌ، واسِعُ المعاني والعُلومِ والهِداياتِ، كامِلُ الصِّفاتِ، كَثيرُ الخَيراتِ والبَرَكاتِ[٣].

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَصَفَه في نَفْسِه بما يأبَى له لَحاقَ شَيءٍ مِن شُبهةٍ؛ وَصَف محَلَّه في الملأِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٣٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٦، ٣٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٤).

الأعلى إعلامًا بأنَّه لا يَطرَأُ عليه ما يُغَيِّرُه؛ فقال تعالى[١]:

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

**القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:**

١- قِراءةُ: ﴿مَحْفُوظٌ﴾ بضَمِّ الظَّاءِ، صِفةً للقُرآنِ، أي: القُرآنُ مَحفوظٌ[٢].

٢- قِراءةُ: ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ بكَسْرِ الظَّاءِ، صِفةً للَّوحِ، أي: القُرآنُ في اللَّوحِ المحفوظِ[٣].

﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: القَرآنُ مَكتوبٌ في لَوحٍ مَحفوظٍ مَصُونٍ عن التَّغييرِ والتَّبديلِ، والزِّيادةِ والنُّقصانِ، ومحفوظٍ وسالِمٍ مِن وُصولِ الشَّياطينِ إليه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٦٧).

(٢) قرأ بها نافعٌ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٧)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٣٩٦).

(٣) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٣٩٩).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٣٧)، ((الحجة للقراء السبعة)) للفارسي (٦/ ٣٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٣).
ممَّن قال في الجملةِ: إنَّ المرادَ: مَحفوظٌ مِن الزِّيادةِ والنَّقصِ، والتَّحريفِ والتَّبديلِ: ابنُ جرير، وابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٣).
وممَّن اختار أنَّ المرادَ: محفوظٌ عندَ الله تعالى مِن وُصولِ الشَّياطينِ إليه: القرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (١٩/ ٢٩٨).
وممَّن جمَع بيْن المعنيَينِ السَّابقَينِ: الواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والسعدي. يُنظر: =

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ * فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩].

---

= ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

قال ابن جرير: (وقوله: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ يقولُ تعالى ذِكرُه: هو قرآنٌ كريمٌ، مُثبَتٌ في لَوحٍ محفوظٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٦).

وقال الواحدي: (﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ عندَ الله، وهو أُمُّ الكتابِ، منه نُسِخ القرآنُ والكُتبُ، وهو الَّذي يُعرَفُ باللَّوحِ المحفوظِ مِن الشَّياطينِ، ومِن الزِّيادةِ فيه والنُّقصانِ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٦٣).

وقال ابنُ عاشور: (اللَّوحُ كائِنٌ قُدسِيٌّ مِن كائناتِ العالَمِ العُلويِّ المغَيَّباتِ... واقتَضَت هذه الآيةُ أنَّ القُرآنَ كُلَّه مُسَجَّلٌ فيه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٣).

وقال ابن عثيمين: (القرآنُ الكريمُ: هل هو مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ بهذه الآياتِ والحروفِ، أو أنَّ المكتوبَ في اللَّوحِ ذِكْرُه، وأنَّه سيَنزِلُ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، وأنَّه سيَكونُ نورًا وهُدًى للنَّاسِ، وما أشْبَهَ ذلك؟

ففيه احتِمالٌ: إنْ نَظَرْنا إلى ظاهرِ النُّصوصِ، قُلْنا: إنَّ ظاهرَها أنَّ القرآنَ كلَّه مكتوبٌ جُملةً وتفصيلًا، وإنْ نَظَرْنا إلى أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يتكلَّمُ بالقرآنِ حينَ نُزولِه، قُلْنا: إنَّ الَّذي كُتِب في اللَّوحِ المحفوظِ ذِكرُ القرآنِ، ولا يَلزَمُ مِن كَونِ ذِكْرِه في اللَّوحِ المحفوظِ أن يكونَ قد كُتِب فيه؛ كما قال الله تعالى عن القرآنِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]؛ يعني: كُتُبَ الأوَّلينَ، ومعلومٌ أنَّ القرآنَ لم يوجَدْ نصُّه في الكُتبِ السَّابقةِ، وإنَّما وُجِد ذِكرُه، ويمكنُ أن نقولَ مِثلَها في قولِه تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ * فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾، أي: ذِكرُه في هذا اللَّوحِ). ((شرح العقيدة الواسطية)) (٢/ ١٩٧، ١٩٨).

واختار في موضعٍ آخَرَ أنَّ المعنى أنَّه ذُكِر في اللَّوحِ المحفوظِ بالمَجْدِ وبالعَظَمةِ. يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٢١٣).

وقال أيضًا: (قولُه تعالى: ﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ يعني بذلك اللَّوحَ المحفوظَ عندَ الله عزَّ وجلَّ، الَّذي هو أُمُّ الكتابِ، كما قال اللهُ تبارَك وتعالى: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]. وهذا اللَّوحُ كتَبَ اللهُ به مَقاديرَ كلِّ شَيءٍ، ومِن جملةِ ما كتب به أنَّ هذا القرآنَ سيَنزِلُ على محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، فهو في لَوحٍ محفوظٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٣).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ۞ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ كان مِن نبَأِ فِرعَونَ وثمودَ فائِدتانِ:

**الأُولى**: تسليةُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَقْويتُه، وأنَّ الَّذي نَصَر رُسُلَه مِن قَبْلُ سوف يؤَيِّدُه ويَنصُرُه ويُعَزِّزُه، وهذا لا شَكَّ أنَّه يُقَوِّي العزيمةَ، ويَشحَذُ الهِمَمَ في الدَّعوةِ إلى اللهِ، وتبليغِ رِسالاتِه.

**والفائدةُ الثَّانيةُ**: تهديدٌ ووَعيدٌ شديدٌ لقُرَيشٍ الَّذين كَذَّبوا رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَقَفوا له بالمِرْصادِ، وأنَّهم ليسوا أشَدَّ قُوَّةً مِن فِرعَونَ وثَمودَ، ومع ذلك أصابَهم الدَّمارُ والهلاكُ، ووقع عليهم كَلِمةُ العَذابِ[(١)].

٢- خَتَمَ الله تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بذِكْرِ فِعْلِه وعُقوبتِه بمَن أَشْرَكَ به وكَذَّبَ رُسُلَه؛ تحذيرًا لعبادِه مِن سُلوكِ سَبيلِهم، وأنَّ مَن فَعَلَ فِعْلَهم فُعِلَ به كما فُعِلَ بهم[(٢)].

٣- أَخْبَرَ الله تعالى عن أعدائِه بأنَّهم مكذِّبون بتَوحيدِه ورِسالاتِه مع كَونِهم في قبضتِه، وهو محيطٌ بهم! ولا أَسْوَأَ حالًا ممَّن عادَى مَن هو في قبضتِه، ومَن هو قادرٌ عليه مِن كلِّ وجْهٍ وبكلِّ اعتبارٍ! فقال: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ۞ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾، فهل هناك أعجَبُ ممن كفَرَ بمَن هو محيطٌ به، وآخِذٌ بناصيتِه، قادرٌ عليه[(٣)]؟!

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ وَصْفُ القُرآنِ بأنَّه مَجيدٌ لا يَعني أنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المجْدَ وَصْفٌ للقُرآنِ نفْسِه فقط، بل هو وَصفٌ للقُرآنِ، ولِمَن تحَمَّل هذا القُرآنَ فحمَلَه، وقام بواجِبِه مِن تِلاوَتِه حَقَّ تِلاوَتِه؛ فإنَّه سيَكونُ لهم المجدُ والعِزَّةُ والرِّفعةُ[١]. فمَن تمسَّكَ بهذا القرآنِ العظيمِ فلَه المجدُ والعِزَّةُ والكَرامةُ والرِّفْعةُ؛ فيَنبغي على الأُمَّةِ الإسلاميَّةِ -أفرادِ شُعوبِها، ووُلاةِ أُمورِها- أنْ يتمَسَّكوا بالقُرآنِ العظيمِ، وألَّا يَغُرَّهم البَهْرَجُ المزَخرَفُ الَّذي يَرِدُ مِن الأممِ الكافرةِ، فيَنبِذوا كِتابَ اللهِ تعالى وسُنَّةَ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم وراءَ ظُهورِهم! فإنَّ هذا واللهِ سَبَبُ التَّأخُّرِ، فلمْ تتأخَّرْ أُمَّتُنا الإسلاميَّةُ هذا التَّأخُّرَ إلَّا بسببِ تركِ ما به عِزَّتُها وكرامتُها، وهو التَّمَسُّكُ بهذا القُرآنِ العظيمِ[٢]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ سؤالٌ عن الجَمْعِ بيْن لَفظةِ: «الجُنودِ» مع لَفظةِ «فِرْعونَ»؛ لأنَّ فِرعَونَ ليس جُندًا، وإنَّما هو رجُلٌ بعَينِه!

**الجوابُ**: أنَّ المرادَ بـ«فِرعونَ» هو وقَومُه، فاكتفى بذِكْرِه؛ لأنَّهم تَبَعٌ له، وتحتَ طاعتِه[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ مُشاكَلةٌ ومُشابهةٌ في اختيارِ فِرعَونَ هنا بعْدَ أصحابِ الأُخدودِ؛ إذ فِرعَونُ طغَى وادَّعَى الرُّبوبيَّةَ كمَلِكِ أصحابِ الأُخدودِ الَّذي قال لجليسِه: «ألَك رَبٌّ غيري؟!»[٤]، ولتعذيبِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٢، ١٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٦).
ويُنظر ما يأتي في بلاغة الآيات (ص: ٧١).

(٤) تقدَّم تخريجُه (ص: ١٧).

بني إسرائيلَ بتقتيلِ الأولادِ واستحياءِ النِّساءِ: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]، ولتقديمِ الآياتِ والبراهينِ على صِدْقِ الدَّاعيةِ؛ إذ موسى عليه السَّلامُ قَدَّم لفِرعَونَ مِن آياتِ رَبِّه الكُبرى؛ فكَذَّب وعَصى، والغلامُ قَدَّم لهذا المَلِكِ الآياتِ الكُبرى: إبراءَ الأكْمَهِ والأبرَصِ بإذْنِ اللهِ، وعَجْزِ فِرعَونَ عن موسى وإدراكِه، وعَجْزِ الملِكِ عن قَتْلِ الغُلامِ؛ إذ نجَّاه اللهُ مِن الإغراقِ والسُّقوطِ مِن قِمَّةِ الجَبَلِ؛ فكان لهذا أن يَرعويَ عن ذلك ويتفَطَّنَ للحقيقةِ، ولكِنَّ سُلطانَه أعماه كما أعمى فِرعَونَ، وكذلك آمَنَ السَّحَرةُ لَمَّا رأوا آيةَ موسى، وخَرُّوا لله سُجَّدًا، وهكذا هنا آمَنَ النَّاسُ برَبِّ الغُلامِ؛ فوقع الملِكُ فيما وقع فيه فِرعَونُ؛ إذ جمَعَ فِرعَونُ السَّحَرةَ لِيَشهَدَ النَّاسُ عَجْزَ موسى وقُدْرتَه، فانقلب الموقِفُ عليه، وكان أوَّلَ النَّاسِ إيمانًا هم أعوانُ فِرعَونَ على موسى، وهكذا هنا كان أسرَعَ النَّاسِ إيمانًا الَّذين جمَعَهم الملِكُ لِيَشهَدوا قَتْلَه للغُلامِ! فظهر تَناسُبُ ذِكرِ فِرعَونَ دونَ غَيرِه مِنَ الأُمَمِ الطَّاغيةِ السَّابقةِ، وإن كان في الكُلِّ عِظةٌ وعِبرةٌ، ولكِنْ هذا منتهى الإعجازِ في قَصَصِ القُرآنِ وأُسلوبِه[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ﴾ بيانُ أنَّ حالَ المُؤمِنينَ مع الكُفَّارِ في جميعِ الأزمِنةِ مُستَمِرَّةٌ على هذا النَّهْجِ[2].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ﴾ الوَعيدُ الشَّديدُ للكافِرينَ مِن عُقوبةِ مَن هم في قَبضتِه، وتحتَ تَدبيرِه[3].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ يعني: مِنَ التَّغييرِ والزِّيادةِ والنَّقصِ، ومحفوظٍ مِن الشَّياطينِ، وهو اللَّوحُ المحفوظُ الَّذي قد أثبتَ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

اللهُ فيه كُلَّ شَيءٍ، وهذا يدُلُّ على جَلالةِ القُرآنِ وجَزالتِه، ورِفعةِ قَدْرِه عِندَ اللهِ تعالى[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الشَّياطينَ لا يُمكِنُهم التَّنَزُّلُ به؛ لأنَّ مَحَلَّه محفوظٌ أنْ يَصِلوا إليه، وهو في نفْسِه محفوظٌ أنْ يَقْدِرَ الشَّيطانُ على الزِّيادةِ فيه والنُّقصانِ؛ فوَصَفَه سُبحانَه بأنَّه مَحفوظٌ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ووَصَفَ مَحَلَّه بالحِفْظِ في هذه السُّورةِ؛ فاللهُ سُبحانَه حَفِظَ مَحَلَّه، وحَفِظَه مِن الزِّيادةِ والنُّقصانِ والتَّبديلِ، وحَفِظَ معانيَه مِن التَّحريفِ كما حَفِظَ ألفاظَه مِن التَّبديلِ، وأقام له مَن يَحْفَظُ حُروفَه مِن الزِّيادةِ والنُّقصانِ، ومَعانيَه مِن التَّحريفِ والتَّغييرِ[٢].

٧- وَصَفَ الله تعالى كلامَه بأنه مجيدٌ -وهو أحقُّ بالمَجدِ مِن كلِّ كلامٍ- كما أنَّ المتكلِّمَ به له المجدُ كلُّه، فهو المجيدُ، وكلامُه مجيدٌ، وعَرشُه مجيدٌ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾

- قولُه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لشِدَّةِ بَطْشِه تعالَى بالظَّلَمةِ العُصاةِ، والكَفَرةِ والعُتاةِ، وكَونُه فَعَّالًا لِما يُريدُ مُتضمِّنٌ لتَسليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالإشْعارِ بأنَّه سيُصيبُ قَومَه ما أَصابَ الجُنودَ، أي: هل أتاك يا مُحمَّدُ خَبرُ الجُموعِ الكافِرةِ المُكذِّبةِ لأنبيائِهم[٤]؟ فالخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٣٥، ٤٣٦).

وسلَّم؛ للاستِدلالِ على كَونِ بَطْشِه تعالَى شَديدًا ببَطْشَينِ بَطَشَهما بفِرعَونَ وثَمودَ، بعْدَ أنْ عَلَّلَ ذلك بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ﴾ [البروج: ١٣]؛ فذلك تَعليلٌ، وهذا تَمثيلٌ ودَليلٌ(١).

- وأيضًا قولُه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ تَقريرٌ لحالِ الكَفَرةِ، أي: قد أتاك حَديثُهم، وما جَرَى لهم مع أنبيائِهم، وما حَلَّ بهم مِن العُقوباتِ بسَببِ تَكذيبِهم، فكذلك يَحُلُّ بقُريشٍ مِن العَذابِ مِثلُ ما حَلَّ بهم(٢). فـ ﴿هَلۡ﴾ في قولِه: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ﴾ قيل: إنَّها بمَعنى (قدْ)، وضُمِّنَ معْنى التَّعجُّبِ؛ بدَلالةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾؛ ليُفيدَ التَّرقِّيَ مِن التَّعجيبِ إلى التَّعجيبِ في الإضْرابِ الأوَّلِ، والتَّرقِّيَ مِن التَّكذيبِ إلى التَّكذيبِ في الإضرابِ الثَّاني؛ فأمْرُهم أعجَبُ مِن أمْرِ فِرعونَ وثَمودَ؛ لأنَّهم سَمِعوا بقَصَصِهم وبِما جَرَى عليْهم، ورَأَوا آثارَ هَلاكِهم؛ ولم يَعتَبِروا، وكَذَّبوا أَشَدَّ مِن تَكذيبِهم(٣). والاستِفهامُ هنا مُستَعمَلٌ في إرادةِ تَهويلِ حَديثِ الجُنودِ بأنَّه يُسأَلُ عن عِلمِه، وفيه تَعريضٌ للمُشرِكين بأنَّهم قد يَحُلُّ بهم ما حَلَّ بأولئك. والخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ ممَّن يُرادُ موعِظتُه مِن المُشرِكين -على قولٍ-، كِنايةً عن التَّذكيرِ بخَبَرِهم؛ لأنَّ حالَ المُتَلبِّسينَ بمِثلِ صَنيعِهم، الرَّاكِبين رُؤوسَهم في العِنادِ، كَحالِ مَن لا يَعلَمُ خَبَرَهم، فيُسأَلُ: هل بَلَغَه خَبَرُهم أو لا؟ أو خِطابًا لغَيرِ مُعيَّنٍ، تَعجيبًا مِن حالِ المُشرِكين في إعْراضِهم عن الاتِّعاظِ بذلك؛ فيَكون الاستِفهامُ مُستَعمَلًا في التَّعجيبِ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٢)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٠).

- وفي قولِه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أُبدِلَ ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ مِن ﴿ٱلْجُنُودِ﴾ بَدَلًا مُطابِقًا؛ لأنَّ المُرادَ بـ﴿فِرْعَوْنَ﴾ هو وقَومُه، ولأنَّه أُريدَ العِبرةُ بهؤلاء، والكَلامُ على حَذْفِ مُضافٍ؛ لأنَّ فِرعَونَ ليس بجُندٍ، ولكنَّه مُضافٌ إليه الجُندُ الَّذين كَذَّبوا مُوسى عليه السَّلامُ وآذَوه؛ فحُذِفَ المُضافُ لنُكْتةِ المُزاوَجةِ بيْنَ اسْمَينِ عَلَمَينِ مُفرَدَينِ في الإبْدالِ مِن الجُنودِ[١].

- واختصَرَ ما جَرى لِفرعونَ وثَمودَ؛ إذْ هُم مَذكورونَ في غيرِ ما سُورةٍ مِن القُرآنِ الكريمِ، وذكَرَ ثَمودَ؛ لشُهرةِ قِصَّتِهم في بِلادِ العرَبِ، وهي مُتقدِّمةٌ، وذكَرَ فِرعونَ؛ لشُهرةِ قِصَّتِه عندَ أهلِ الكِتابِ، وعندَ العرَبِ الجاهليَّةِ أيضًا[٢].

وأيضًا تَخصيصُ ثَمودَ بالذِّكرِ مِن بَقيَّةِ الأُمَمِ الَّتي كَذَّبَتِ الرُّسُلَ مِن العَرَبِ مِثلَ: عادٍ وقَومِ تُبَّعٍ، ومِن غَيرِهم مِثلَ: قَومِ نُوحٍ وقَومِ شُعَيبٍ؛ قيل: لِمَا اقتَضَتْه الفاصِلةُ الجاريةُ على حرْفِ الدَّالِ مِن قولِه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]؛ فإنَّ ذلك لَمَّا استَقامَتْ به الفاصِلةُ ولم يكُنْ في ذِكرِه تَكلُّفٌ، كان مِن مَحاسِنِ نَظْمِ الكَلامِ إيثارُه[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ * وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾

- قولُه: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ إضْرابٌ عن مُماثَلةِ كُفَّارِ قُريشٍ لقَومِ فِرعونَ وثَمودَ، وبَيانٌ لكَونِهم أَشَدَّ منهم في الكُفرِ والطُّغيانِ، كأنَّه قيلَ: لَيسُوا مِثلَهم في ذلك، بلْ هم أشَدُّ منهم في استِحقاقِ العَذابِ، واستِيجابِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥١).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٨/ ٣٨٢).

العِقابِ؛ فإنَّهم مُستَقِرُّونَ في تَكذيبٍ شَديدٍ للقُرآنِ الكَريمِ، أو قيلَ: ليستْ جِنايتُهم مُجرَّدَ عَدَمِ التَّذكُّرِ والاتِّعاظِ بما سَمِعوا مِن حَديثِهم، بلْ هُم مع ذلك في تَكذيبٍ شَديدٍ للقُرآنِ النَّاطقِ بذلك، لكنْ لا أنَّهم يُكذِّبون بوُقوعِ الحادِثةِ، بلْ بكَونِ ما نَطَقَ به قُرآنًا مِن عندِ اللهِ تعالى، مع وُضوحِ أمْرِه، وظُهورِ حالِه بالبيِّناتِ الباهِرةِ[1]! فهو إضْرابٌ انتِقاليٌّ إلى إعْراضِهم عن الاعتِبارِ بحالِ الأُمَمِ الَّذين كَذَّبوا الرُّسُلَ؛ وهو أنَّهم مُستَمِرُّون على التَّكذيبِ، مُنغَمِسون فيه انغماسَ المَظروفِ في الظَّرفِ، فجُعِلَ تَمكُّنُ التَّكذيبِ مِن نُفوسِهم كتَمَكُّنِ الظَّرفِ بالمَظروفِ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ إحاطةَ التَّكذيبِ بهم إحاطةُ الظَّرفِ بالمَظروفِ، لا يَترُكُ لتَذَكُّرِ ما حَلَّ بأمْثالِهم مِن الأُمَمِ مَسلَكًا لعُقولِهم؛ ولهذا لم يَقُلْ هنا: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾، كما قال في سورةِ (الانشقاقِ)[2].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ التَّكذيبِ هنا؛ لظُهورِه مِن المقامِ؛ إذ التَّقديرُ: أنَّهم في تَكذيبٍ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبالوحْيِ المنزَّلِ إليه، وبالبَعثِ[3].

- وجُملةُ ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ عَطْفٌ على جُملةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكْذِيبٍ﴾، أي: هم مُتَمَكِّنون مِن التَّكذيبِ، واللهُ يُسلِّطُ عليْهم عِقابًا لا يُفْلِتون منه[4]. وقوبِلَ جَزاءُ إحاطةِ التَّكذيبِ بالكافِرين بإحاطةِ العَذابِ بهم جَزاءً وِفاقًا؛ فقولُه: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ خَبَرٌ مُستعمَلٌ في الوَعيدِ والتَّهديدِ[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ إضْرابُ إبْطالٍ؛ ردٌّ لكُفرِهم، وإبْطالٌ لتَكذيبِهم، وتَحقيقٌ للحَقِّ؛ لأنَّ القُرآنَ جاءَهم بدَلائلَ بَيِّنةٍ، فاستِمْرارُهم على التَّكذيبِ ناشئٌ عن سُوءِ اعتِقادِهم في القُرآنِ؛ إذ وَصَفوه بصِفاتِ النَّقْصِ مِن قَولِهم: أَساطيرُ الأوَّلين، إفْكٌ مُفْترًى، قَولُ كاهِنٍ، قَولُ شاعِرٍ...؛ فكان التَّنويهُ به جامِعًا لإبْطالِ جَميعِ تُرَّهاتِهم على طَريقةِ الإيجازِ[١].

- والإخْبارُ عن الوَحيِ المُنَزَّلِ على مُحمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم باسْمِ «قُرآنٍ»، إشارةٌ عُرفيَّةٌ إلى أنَّه مُوحًى به، تَعريضٌ بإبْطالِ ما اختَلَقَه المُكذِّبون أنَّه أساطيرُ الأوَّلينَ، أو قَولُ كاهِنٍ، أو نَحوَ ذلك[٢].

- وعلى قِراءةِ الجُمهورِ ﴿مَّحْفُوظٍ﴾ بالجَرِّ، على أنَّه صِفةُ ﴿لَوْحٍ﴾، وحِفظُ اللَّوحِ الَّذي فيه القُرآنُ كِنايةٌ عن حِفظِ القُرآنِ، وقرَأَ نافِعٌ وحْدَه برَفعِ ﴿مَحْفُوظٌ﴾، على أنَّه صِفةٌ ثانيةٌ لـ (قُرآنٌ)، ويَتَعلَّقُ قولُه: ﴿فِي لَوْحٍ﴾ بـ﴿مَحْفُوظٌ﴾، وحِفظُ القُرآنِ يَستَلزِمُ أنَّ اللَّوحَ المُودَعَ هو فيه مَحفوظٌ أيضًا؛ فلا جَرَمَ حَصَلَ مِن القِراءتَينِ ثُبوتُ الحِفظِ للقُرآنِ وللَّوحِ؛ فأمَّا حِفظُ القُرآنِ فهو حِفظُه مِن التَّغييرِ ومِن تَلَقُّفِ الشَّياطينِ، قال تعالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. وأمَّا حِفظُ اللَّوحِ فهو حِفظُه عن تَناوُلِ غَيرِ المَلائكةِ إيَّاه، أو حِفظُه كِنايةً عن تَقديسِه، كقولِه تعالَى: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ * لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾[٣] [الواقعة: ٧٨، ٧٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٣٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٥٤، ٢٥٥).

ويُنظر ما تقدَّم في القراءاتِ ذاتِ الأثرِ في التَّفسيرِ (ص: ١١٢).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ الطَّارِقِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ الطَّارِقِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الطَّارِقِ)[١].

وسُمِّيَت أيضًا بـ (السَّماءِ والطَّارِقِ)؛ فعن جابرِ بنِ سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((إنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في الظُّهرِ والعَصرِ بـ «السَّماءِ والطَّارِقِ»، و«السَّماءِ ذاتِ البُروجِ» ونَحْوِهما مِنَ السُّوَرِ))[٢].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

**كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الظُّهرِ والعَصرِ:**

كما في حديثِ جابرِ بنِ سَمُرةَ -رَضِيَ اللهُ عنه- المتقَدِّمِ.

## بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الطَّارِقِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

إقامةُ الأدِلَّةِ على قدرةِ الله تعالى، وإثباتُ أنَّ هذا القرآنَ مِن عندِه سُبحانَه،

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ بذلك: ذِكرُ لَفظِ الطَّارِقِ في أوَّلِها؛ في قَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٧).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٨٠٥)، وأحمدُ (٢١٠١٨) واللَّفظُ لهما، والترمذيُّ (٣٠٧)، والنسائيُّ (٩٧٩) باختلافٍ يسيرٍ.
قال الترمذيُّ، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٨٠٥): (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١٨٢٧)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٣٩)، وصحَّحه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٢١٠١٨) وتخريج ((سنن أبي داود)) (٨٠٥).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٨)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٧٨).

وأنَّ العاقِبةَ للمُتَّقينَ[١].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- القَسَمُ على أنَّ كُلَّ نفْسٍ عليها حَفَظةٌ مِنَ الملائِكةِ.

٢- إقامةُ الأدِلَّةِ على أنَّ اللهَ تعالى قادِرٌ على البَعثِ.

٣- التَّنويهُ بشَأنِ القُرآنِ الكريمِ، وصِدقِ ما ذُكِرَ فيه من البَعثِ، وإثباتُ أنَّه مِن عندِ اللهِ تعالى.

٤- تهديدُ المُشرِكينَ، وتَثبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَعْدُه بأنَّ العاقِبةَ للمُؤمِنينَ.

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٥١).

## الآيات (١-١٠)

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢ ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ۝٤ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ۝٦ يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ۝١٠﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلطَّارِقِ﴾: أي: الكوكَبِ أو النَّجمِ الَّذي يَظهَرُ باللَّيلِ ويَختفي بالنَّهارِ، يُقالُ: طَرَقَ يَطرُقُ طُروقًا، أي: جاء لَيلًا، وأصلُ (طرق): يدُلُّ على الإتيانِ مَساءً[1].

﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: أي: المُضيءُ المتوَهِّجُ، يُقالُ: ثَقَبَ النَّجمُ: إذا أضاء، وأصلُ (ثقب): يدُلُّ على نَفاذِ الشَّيءِ[2].

﴿مَّآءٖ دَافِقٖ﴾: أي: ذي دَفْقٍ، أو مَدفوقٍ، والدَّفْقُ: صَبٌّ فيه دَفعٌ وسَيَلانٌ بسُرعةٍ، وهو المَنِيُّ، وأصلُ (دفق): يدُلُّ على دَفعِ الشَّيءِ قُدُمًا[3].

﴿ٱلصُّلۡبِ﴾: أي: الظَّهرِ، وقيل: كلُّ شَيءٍ مِن الظَّهرِ فيه فَقارٌ فهو صُلبٌ، وأصلُ

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٥١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٧٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٣٠).

قال ابن فارس: (﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ قالُوا: هو نَجْمٌ يَنْفُذُ السَّمواتِ كُلَّها نورُه). ((مقاييس اللغة)) (١/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٨٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٠٨).

(صلب) هنا: يدُلُّ على الشِّدَّةِ والقوَّةِ، وسُمِّيَ الظَّهرُ صُلْبًا؛ لِقُوَّتِه وصَلابَتِه وشِدَّتِه[١].

﴿وَٱلتَّرَآئِبِ﴾: أي: ضُلوعِ الصَّدرِ، ومَوضِعِ القِلادةِ مِنه، واحِدتُها: تَريبةٌ، وأصلُ (ترب) هنا: يدُلُّ على تساوي الشَّيئَينِ[٢].

﴿تُبْلَى﴾: أي: تُختَبَرُ وتَظهَرُ، وأصلُ (بلو): يدُلُّ على الاختبارِ[٣].

﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: أي: سرائِرُ القُلوبِ مِن العقائِدِ والنِّيَّاتِ والأعمالِ، جمعُ سريرةٍ، وأصلُ (سرر): يدُلُّ على إخفاءِ الشَّيءِ[٤].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٨٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٣٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٤).

قال ابن عاشور: (﴿ٱلصُّلْبِ﴾: العُمودِ العَظميِّ الكائنِ في وسَطِ الظَّهرِ، وهو ذو الفقراتِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٧).

قال ابن عاشور: («التَّرائِبِ»: جمعُ تَرِيبَةٍ، ويُقالُ: تَرِيبٌ. ومُحَرَّرُ أقوالِ اللُّغَوِيِّينَ فيها أنَّها عِظامُ الصَّدْرِ الَّتي بيْنَ التَّرْقُوَتَينِ والثَّدْيَينِ، ووسَموه بأنَّه مَوضِعُ القِلادةِ مِن المرأةِ. والتَّرائِبُ تُضافُ إلى الرَّجُلِ وإلى المرأةِ، ولكِنَّ أكثرَ وُقوعِها في كلامِهم في أوصافِ النِّساءِ؛ لعدمِ احْتِياجِهم إلى وَصْفِها في الرِّجالِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٨٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٦٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥).

﴿إِن﴾: نافيةٌ، ﴿كُلُّ﴾ مُبتدَأٌ، ﴿لَّمَّا﴾: أداةُ حَصرٍ بمعنَى «إلَّا»، ﴿عَلَيْهَا﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بمَحذوفٍ خَبَرٌ مُقدَّمٌ. ﴿حَافِظٌ﴾: مُبتدَأٌ مُؤخَّرٌ مرفوعٌ. والجملةُ ﴿عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ في محَلِّ رَفعٍ خَبَرُ «كُلُّ». والجُملةُ كُلُّها جوابُ القَسَمِ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ.

وقُرِئَ ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَمَا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ بتَخفيفِ «ما» في ﴿لَّمَّا﴾[1]، فـ﴿إِن﴾ هي المخَفَّفةُ مِنَ الثَّقيلةِ، و﴿لَمَا﴾: اللَّامُ فارِقةٌ، و«ما» مزيدةٌ للتَّأكيدِ، والمعنى: إنَّ الشَّأنَ كُلُّ نَفْسٍ لَعَلَيها حافِظٌ. فـ﴿عَلَيْهَا﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بمَحذوفٍ خَبَرٌ مُقدَّمٌ. ﴿حَافِظٌ﴾: مُبتدَأٌ مُؤخَّرٌ مرفوعٌ. والجملةُ «لَعَلَيْهَا حافِظٌ» في محَلِّ رَفعٍ خَبَرُ ﴿كُلُّ﴾. والجُملةُ كُلُّها في محَلِّ رَفعٍ خبَرُ «إنْ» المخَفَّفةِ مِن الثَّقيلةِ، والجُملةُ ﴿إِن كُلُّ ...﴾ جوابُ القَسَمِ أيضًا لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالسَّماءِ والطَّارِقِ الَّذي يَظهَرُ لَيلًا، ثمَّ قال تعالى: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بالطَّارِقِ؟! هو النَّجْمُ المتوَقِّدُ النَّافِذُ؛ أُقسِمُ ما مِن إنسانٍ إلَّا وعليه ملائِكةٌ حَفَظةٌ.

ثمَّ يأمُرُ اللهُ تعالى الإنسانَ بالتَّفكُّرِ في نشأتِه الأُولى، فيقولُ: فلْيَنظُرِ الإنسانُ مِن أيِّ شَيءٍ خُلِقَ؟

---

(١) قرَأ عاصِمٌ وحمزةُ وابنُ عامرٍ وأبو جَعفرٍ: ﴿لَّمَّا﴾ بتَشديدِ الميمِ، والباقونَ بتَخفيفِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٤)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٥٢)، ((موصل الطلاب إلى قواعد الإعراب)) لخالد الأزهري (ص: ١١٨، ١١٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٠٧)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٢٩٩).

ثمَّ يُجيبُ عن هذا السُّؤالِ، فيقولُ: خُلِقَ مِن مَنِيٍّ مُنصَبٍّ يَخرُجُ ذلك المنيُّ مِن بيْنِ الصُّلبِ وعِظامِ الصَّدْرِ. ومِن ثَمَّ يُبَيِّنُ اللهُ تعالى قُدرتَه على بعثِ الإنسانِ بعدَ مَوتِه، فيقولُ: إنَّ اللهَ قادِرٌ على رَجْعِ الإنسانِ حَيًّا بعْدَ مَوتِه يومَ تَظهَرُ سَرائِرُ النَّاسِ، وما كانوا يُخفونَه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، ويُجازَونَ عليه، فما للإنسانِ يومَ القيامةِ مِن قُوَّةٍ يَدفَعُ بها عذابَ اللهِ، ولا ناصِرٍ يَنصُرُه ويُنقِذُه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾.

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ، وأُقسِمُ بالطَّارِقِ الَّذي يَظهَرُ لَيلًا[1].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝٢﴾.

أي: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- بالطَّارِقِ الَّذي عظَّمْتُه بالقَسَمِ به[2]؟

﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ ۝٣﴾.

أي: هو النَّجْمُ المتوقِّدُ النَّافِذُ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠).
ممَّن اختار أنَّ معنى: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: المُضيءُ المُنيرُ، الَّذي يتَوقَّدُ ضياؤُه ويَتوهَّجُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، ومكِّي، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٨٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١١٧)، =

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر المُقسَمَ به؛ أتْبَعَه بذِكرِ المُقسَمِ عليه[1].

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ٤﴾.

أي: ما مِن إنسانٍ إلَّا وعليه ملائِكةٌ حَفَظةٌ[2].

---

= ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٩١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٠٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

قال الزمخشري: (كأنَّه يَثقُبُ الظَّلامَ بضَوئِه فيَنفُذُ فيه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٤).

قال الفرَّاءُ: (ويُقالُ: إنَّ الثَّاقِبَ هو النَّجمُ الَّذي يُقالُ له: زُحَلُ. والثَّاقِبُ: الَّذي قد ارتفَع على النُّجومِ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٥٤).

وقال القرطبيُّ: (عن ابنِ عبَّاسٍ وعَطاءٍ: ﴿ٱلثَّاقِبُ﴾: الَّذي تُرْمَى به الشَّياطينُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١).

وقال الواحدي: (﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ اسمُ الجنسِ، وأُريدَ به العُمومُ في قولِ أهلِ المعاني، وأكثَرِ أهلِ التَّفسيرِ، وهو قولُ الكلبيِّ، ومُقاتِلٍ، وقَتادةَ، والحسَنِ، والفرَّاءِ، والزَّجَّاجِ.

وقال ابنُ زَيدٍ: أراد به الثُّرَيَّا، والعربُ تُسَمِّيه النَّجمَ...

وروى أبو الجَوزاءِ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه زُحَلُ. والقولُ هو الأوَّلُ). ((البسيط)) (٢٣/ ٤٠٤، ٤٠٥).

ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٦).

وقال السعدي: (الصَّحيحُ أنَّه اسمُ جِنسٍ يَشمَلُ سائرَ النُّجومِ الثَّواقِبِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩١٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٧).

قيل: المرادُ: يَحفَظونَ أعمالَه ويُحصُونَها. ومِمَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، والسمرقنديُّ، =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ * كِرَامًا كَٰتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ أنَّ كُلَّ نفْسٍ عليها حافِظٌ؛ أتْبَعَ ذلك بوَصيَّةِ الإنسانِ بالنَّظَرِ في أوَّلِ أمرِه ونَشأتِه الأُولى؛ حتَّى يَعلَمَ أنَّ مَن أنشأه قادِرٌ على إعادتِه وجزائِه، فيَعمَلَ لذلك، ولا يُملِيَ على حافِظِه إلَّا ما يَسُرُّه في عاقِبتِه[1].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾.

أي: فلْيَنظُرِ الإنسانُ مُتفَكِّرًا مِن أيِّ شَيءٍ خلَقه ربُّه سُبحانَه[2].

---

= ومكي، والواحدي، والبغوي، وابن عطية، ونسَبَه ابنُ جُزَي للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٦٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧١).

وقيل: المرادُ: كُلُّ نفْسٍ عليها مِنَ اللهِ حافِظٌ مِن الملائكةِ يَحرُسُها مِن الآفاتِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥). ويُنظر أيضًا: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٥).

وقال البِقاعي جامِعًا بيْن هذه المعاني: (المرادُ به الجِنسُ مِنَ الملائِكةِ؛ فبَعضُهم لحِفْظِها مِن الآفاتِ، وبَعضُهم لحِفْظِها مِنَ الوَساوسِ، وبَعضُهم لحِفظِ أعمالِها وإحصائِها بالكِتابةِ، وبَعضُهم لحِفظِ ما كُتِبَ لها مِن رِزقٍ وأجَلٍ، وشَقاوةٍ أو سعادةٍ، ومَشيٍ ونِكاحٍ، وسَفَرٍ وإقامةٍ، فلا يتعَدَّى شيئًا مِن ذلك...، فإنْ قُلتَ: إنَّ الحافِظَ الملائكةُ، صَدَقْتَ، وإنْ قُلْتَ: إنَّه اللهُ، صدَقْتَ؛ لأنَّه الآمِرُ لهم والمقَدِّرُ على الحِفظِ، والحافِظُ لهم مِنَ الوهمِ والزَّيغِ، فهو الحافِظُ الحقيقيُّ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((التبيان في أقسام =

كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۞ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [عبس: ١٧، ١٨].

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾.

أي: خُلِقَ مِن مَنِيٍّ مُنصَبٍّ يخرُجُ دَفْقًا[١].

= القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧٧، ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٨).

قال ابن القيِّم: (فلْيَنظُرْ نظَرَ الفِكرِ والاسْتِدلالِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٠١).

قيل: المرادُ بالإنسانِ هنا: المكذِّبُ بالبَعثِ، المُنكِرُ له. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابن عطية، والرَّسْعَني. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨١٩٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٨٠).

وقيل: المرادُ بالإنسانِ: ابنُ آدَمَ، وكلُّ إنسانٍ. وممَّن قال به: القرطبيُّ، وابنُ عادل، والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٦٢)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٢٧٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٨).

قيل: المرادُ به: ماءُ الرَّجُلِ، وماءُ المرأةِ. ومِمَّن قال به: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والثعلبيُّ، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٧٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧٧، ٣٧٨).

ويقرِّرُ بعضُ المعاصرينَ أنَّ الماءَ الدَّافِقَ الَّذي يُخلَقُ منه الإنسانُ يُقصَدُ به ماءُ كلٍّ مِن الرَّجُلِ والمرأةِ، وسُمِّيَ دافِقًا؛ لأنَّه يَخرُجُ مِن مصدرِه متدَفِّقًا، فماءُ الرَّجُلِ يخرُجُ مِن خُصْيَتَيْه ويحمِلُ الحيواناتِ المَنَويَّةَ، وماءُ المرأةِ هو الماءُ المحيطُ بالبُوَيْضةِ في داخلِ حُوَيْصِلةٍ معروفةٍ باسم (حويصلة جراف) بالمِبْيَضِ، فإذا انفجرَتْ هذه الحُوَيْصِلةُ تدَفَّقَ هذا الماءُ لِيَدفَعَ بالبُوَيْضةِ إلى بُوقِ قناةِ الرَّحِمِ حتَّى تَلتقي بالحيَوانِ المَنَويِّ، ويخرُجُ هذا الماءُ مِن المرأةِ مرَّةً واحدةً في الشَّهرِ. يُنظر: ((مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي)) لزغلول النجار (ص: ٢٢٤)، ((خلق الإنسان =

كما قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [النحل: ٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۞ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ﴾ [النجم: ٤٥، ٤٦].

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾.

أي: يَخرُجُ هذا الماءُ -الَّذي خَلَق اللهُ منه الإنسانَ- مِن بيْنِ الصُّلبِ وعِظامِ الصَّدْرِ(١).

---

= بين الطب والقرآن)) للبار (ص: ١٢٣).

وقال ابنُ عاشور: (معنى: ﴿دَافِقٍ﴾ خارِجٌ بقُوَّةٍ وسُرعةٍ، والأشهَرُ أنَّه يقالُ على نُطفةِ الرَّجُلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٢، ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٨).

ذكر ابنُ القيِّمِ أنَّه لا خِلافَ في أنَّ المرادَ بالصُّلْبِ: صُلبُ الرَّجُلِ. يُنظر: ((إعلام الموقعين)) (١/ ١١٢، ١١٣).

واختُلِفَ في التَّرائِبِ؛ فقيل: المرادُ: تَرائِبُ المرأةِ، وهي عِظامُ الصَّدرِ في مَوضِعِ القِلادةِ وفَوقَ الثَّدْيَينِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفرَّاءُ، والواحديُّ، والزمخشري، وابن كثير، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٥٩)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٩٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧٨).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ: صُلْبُ الرَّجُلِ وتَرائبُ المرأةِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وقَتادةُ في روايةٍ عنه، والكلبيُّ، وسُفْيانُ الثَّوريُّ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥).

وقيل: المرادُ: ترائِبُ الرَّجُلِ، وهي عِظامُ صَدْرِه أيضًا. واستظهَر هذا القولَ: ابنُ القيِّمِ، ومالَ إليه السعديُّ، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ١١٢، ١١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٨).

وممَّن قال مِن السَّلفِ: إنَّ المرادَ: صُلبُ الرَّجُلِ وترائبُه: الحسَنُ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٥). =

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا قَدَر الصَّانِعُ على جَمعِ تلك الأجزاءِ المتفرِّقةِ حتَّى خَلَق منها إنسانًا سَوِيًّا، وَجَب أن يُقالَ: إنَّه بَعْدَ مَوتِه وتفرُّقِ أجزائِه لا بُدَّ أن يَقدِرَ الصَّانِعُ على جَمعِ تلك الأجزاءِ، وجَعْلِها خَلْقًا سَوِيًّا كما كان أوَّلًا؛ ولهذا السِّرِّ لَمَّا بَيَّن تعالى دَلالتَه على

= قال ابنُ عُثيمين: (إنْ قُلْنا بالقَولِ الرَّاجِحِ: إنَّ الصُّلبَ والتَّرائِبَ وَصْفانِ للرَّجُلِ؛ لأنَّ الماءَ الدَّافِقَ هو ماءُ الرَّجُلِ، أمَّا المرأةُ فلا يكونُ ماؤها دافِقًا، وعلى هذا فيكونُ الإنسانُ مخلوقًا مِن ماءِ الرَّجُلِ، لكِنْ ماءُ الرَّجْلِ وَحْدَه لا يكفي، لا بُدَّ أن يتَّصِلَ بالبُوَيْضةِ الَّتي يُفرِزُها رَحِمُ المرأةِ، فيَزدَوِجُ هذا بهذا، ويكونُ الإنسانُ مخلوقًا مِن الأمْرَينِ جميعًا، أي: مِن أبيه وأمِّه). ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٢٥).

وقيل: المرادُ: صُلْبُ الرَّجُلِ وترائبُه، وصُلبُ المرأةِ وترائبُها. وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، وابن عجيبة، والمراغي، وحسنين مخلوف. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧١)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٢٨٢)، ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٦) و(٣٠/ ١١٢)، ((صفوة البيان لمعاني القرآن)) لحسنين مخلوف (ص: ٧٩٧). ويُنظر أيضًا: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٥٥).

قال ابن عطية: (قولُه تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾، قال قَتادةُ والحسَنُ وغيرُهما: معناه: مِن بيْنِ صُلبِ كلِّ واحدٍ مِن الرَّجُلِ والمرأةِ وترائبِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧).

قال المراغي: (وهو الموافقُ لِما أثبَتَه العِلمُ حديثًا). ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١١١).

وقال أيضًا: (مِن بيْنِ الصُّلبِ والتَّرائبِ في كلٍّ مِن الرَّجُلِ والمرأةِ، كما دلَّ على ذلك عِلمُ الأجنَّةِ). ((تفسير المراغي)) (٢١/ ١٠٦).

وقد قرَّر بعضُ المعاصرينَ أنَّ كُلًّا مِن ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ -وقد سبق بيانُهما (ص: ٨٥)- يخرُجُ مِن بيْن الصُّلبِ والتَّرائبِ؛ فالغُدَدُ التَّناسُليَّةُ في الرَّجُلِ والمرأةِ تَنشأُ مِن هذا المكانِ، وتستمِرُّ تغذيتُهما منه، فالخُصْيةُ والمِبْيَضُ يَقَعانِ في بَدءِ تكوينِهما ما بيْن منتصَفِ العمودِ الفِقريِّ تقريبًا ومقابلَ أسفَلِ الضُّلوعِ. يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١١٢)، ((مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي)) لزغلول النجار (ص: ٢٢٦)، ((خلق الإنسان بين الطب والقرآن)) للبار (ص: ١٢٤).

المبدَأِ؛ فَرَّع عليه أيضًا دَلالتَه على صِحَّةِ المَعادِ؛ فقال تعالى[١]:

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ٨﴾.

أي: إنَّ اللهَ الخالِقَ قادِرٌ على رَجْعِ الإنسانِ حَيًّا بَعْدَ مَوتِه[٢].

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أقام سُبحانَه الدَّليلَ على صِحَّةِ القَولِ بالبَعْثِ والقيامةِ؛ وَصَف حالَ الإنسانِ في ذلك اليومِ، فقال تعالى[٣]:

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٢٩٧، ٣٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٣-١٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٧٩، ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥).

قال ابنُ الجوزيِّ: (وفي هذه الهاءِ قولانِ:

أحَدُهما: أنَّها تعودُ على الإنسانِ، ثمَّ في المعنى قولانِ؛ أحَدُهما: أنَّه على إعادةِ الإنسانِ حَيًّا بعْدَ مَوتِه قادِرٌ. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ. قال الزَّجَّاجُ: ويدُلُّ على هذا القَولِ قَولُه عزَّ وجلَّ: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾.

والثَّاني: أنَّه على رَجْعِه مِن حالِ الكِبَرِ إلى الشَّبابِ، ومِنَ الشَّبابِ إلى الصِّبا، ومِنَ الصِّبا إلى النُّطْفةِ: قادِرٌ. قاله الضَّحَّاكُ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّها تعودُ على الماءِ، ثمَّ في معنى الكلامِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: رَدُّ الماءِ في الإحليلِ. قاله مجاهِدٌ. والثَّاني: على رَدِّه في الصُّلْبِ. قاله عِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ. والثَّالثُ: على حَبْسِ الماءِ فلا يَخرُجُ. قاله ابنُ زَيدٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٢٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٢).

وقد ضَعَّف ابنُ القيِّمِ قَولَ مَن قال: المرادُ رَدُّ الماءِ في الإحليلِ، وقَولَ مَن قال: المرادُ رَدُّ الماءِ في الصُّلْبِ. ونَصَر القَولَ بأنَّ المرادَ رَجْعُ الإنسانِ حَيًّا يومَ القيامةِ، مِن عَشَرةِ وُجوهٍ. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢١).

أي: يَومَ تَظهَرُ سَرائِرُ النَّاسِ، فيَتبَيَّنُ ما كانوا يُخفونَه مِن خَيرٍ وشَرٍّ، ويُجازَونَ على ما يَستَحِقُّونَه مِن ثَوابٍ وعِقابٍ[١].

كما قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠].

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الامتِناعُ في الدُّنيا إمَّا بقُوَّةٍ في الإنسانِ، وإمَّا بناصرٍ خارجٍ عن نَفْسِه؛ نفى عنه تعالى ما يمتَنِعُ به[٢].

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾.

أي: فما للإنسانِ يومَ القيامةِ مِن قُوَّةٍ يَدفَعُ بها عذابَ اللهِ، ولا ناصِرٍ له يَنصُرُه ويُنقِذُه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٠).

قال ابنُ القيِّم: (أخبَرَ سُبحانَه عن حالِ الإنسانِ في يومِ القيامةِ أنَّه غَيرُ مُمتنِعٍ مِن عَذابِ اللهِ؛ لا بقُوَّةٍ منه، ولا بقُوَّةٍ مِن خارجٍ، وهو النَّاصِرُ؛ فإنَّ العَبدَ إذا وقعَ في شِدَّةٍ فإمَّا أن يَدفَعَها بقُوَّتِه أو قُوَّةِ مَن يَنصُرُه، وكِلاهما معدومٌ في حَقِّه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٠٦).

كما قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ * بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٤ - ٢٦].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أنَّه يجبُ على الإنسانِ النَّظرُ في الشَّيءِ الَّذي خُلِق منه؛ لقولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾، وظاهِرُ القُرآنِ: أنَّ النَّظَرَ في ذلك واجِبٌ، ولا دليلَ يَصرِفُ عن ذلك[١]، فيَجِبُ على كلِّ إنسانٍ أن يَنظُرَ في مَراحِلِه وتاريخِ مَراحِلِه؛ حتَّى يَفهَمَ الآخِرةَ؛ لأنَّ اللهَ أمَرَه بذلك[٢].

٢- أمْرُ الإنسانِ بأن يَنظُرَ مِمَّ خُلِقَ في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ تنبيهٌ له على حَقارةِ ما خُلِقَ منه؛ لِيَعرِفَ قَدْرَه، ويَترُكَ التَّكبُّرَ والعُتُوَّ، ويدُلُّ لذلك قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠] الآيةَ[٣]. فالآيةُ فيها عِظَةٌ للإنسانِ، وتنبيهٌ له على معرفةِ خَلْقِه، وضَعْفِ تركيبِه، وعلى ما يُزيلُ به دواعيَ الكِبْرِ والنَّخوةِ عن نفْسِه، فلا يُنازِعُ فيها خالقَه الَّذي لا يُشارِكُه في الكبرياءِ والعَظَمةِ، ولا يَستطيلُ به على المخلوقينَ؛ إذْ مَن يكونُ هذا بَدْءَ خَلْقِه، ثُمَّ يصيرُ آخِرُه إلى البِلَى والرُّفاتِ إلى أنْ يُجَدِّدَ اللهُ خَلْقَه بالنُّشُورِ يومَ يُحيي العِظامَ النَّخِرةَ والأجسامَ البالِيةَ: جديرٌ بألَّا يُفارِقَه الذُّلُّ والاستِكانةُ في جميعِ الأحوالِ[٤].

٣- أنَّ المهِمَّ العنايةُ بصَلاحِ القَلبِ؛ لأنَّه هو الَّذي عليه مَدارُ الحِسابِ يومَ

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٢/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٣٣١).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٠٩).

القيامةِ، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۞ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾، أي: تُختَبَرُ السَّرائِرُ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ لطيفةٌ في التَّعبيرِ عن الأعمالِ بالسِّرِّ، وهي أنَّ الأعمالَ نتائجُ السَّرائرِ الباطنةِ، فمَن كانت سَريرتُه صالحةً كان عمَلُه صالحًا؛ فتبدو سريرتُه على وجهِه نورًا وإشراقًا وحياءً، ومَن كانت سَريرتُه فاسدةً كان عمَلُه تابعًا لسَريرتِه، ولا اعتبارَ بصورتِه؛ فتبدو سريرتُه على وجهِه سَوادًا وظُلمةً وشَيْنًا، وإنْ كان الَّذي يبدو عليه في الدُّنيا إنَّما هو عَمَلُه لا سَريرتُه، فيومَ القيامةِ تبدو عليه سريرتُه، ويكونُ الحُكْمُ والظُّهورُ لها[٢]!

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۞ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ دَلالةٌ على أنَّه لا قُوَّةَ للعَبدِ ذلك اليومَ؛ لأنَّ قُوَّةَ الإنسانِ إمَّا أن تكونَ له لِذَاتِه، أو مُستفادةً مِن غيرِه؛ فالأوَّلُ مَنفيٌّ بقَولِه تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ﴾، والثَّاني مَنفيٌّ بقَولِه: ﴿وَلَا نَاصِرٖ﴾، ولا شَكَّ أنَّه زَجرٌ وتَحذيرٌ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَلَّ أن تَجيءَ سُورةٌ في القُرآنِ الكريمِ إلَّا وفيها ذِكرُ السَّماءِ؛ إمَّا إخبارًا عن عِظَمِها وسَعَتِها، وإمَّا إقسامًا بها، وإمَّا دُعاءً إلى النَّظَرِ فيها، وإمَّا إرشادًا للعِبادِ أن يَستَدِلُّوا بها على عَظَمةِ بانيها ورافِعِها، وإمَّا استِدلالًا منه سُبحانَه بخَلْقِها على ما أخبَرَ به مِنَ المَعادِ والقيامةِ، وإمَّا استِدلالًا منه برُبوبيَّتِه لها على وَحدانيَّتِه، وأنَّه اللهُ الَّذي لا إلهَ إلَّا هو، وإمَّا استدلالًا منه بحُسْنِها واستِوائِها والْتِئامِ أجزائِها وعدَمِ الفُطورِ فيها على تَمامِ حِكمتِه وقُدرتِه، وكذلك ما فيها مِن الكَواكِبِ والشَّمسِ والقَمَرِ والعَجائبِ الَّتي تَتقاصَرُ عُقولُ البشَرِ عن قليلِها، فكم مِن قَسَمٍ في القُرآنِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٢).

بها؛ كقَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥] ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ [الطارق: ١١] ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]! فلم يُقسِم اللهُ تعالى في كتابِه بشَيءٍ مِن مخلوقاتِه أكثَرَ مِن السَّماءِ والنُّجومِ والشَّمسِ والقَمَرِ، وهو سُبحانَه يُقسِمُ بما يُقسِمُ به مِن مخلوقاتِه؛ لتضَمُّنِه الآياتِ والعَجائِبَ الدَّالَّةَ عليه، وكلَّما كان أعظَمَ آيةً وأبلَغَ في الدَّلالةِ، كان إقسامُه به أكثَرَ مِن غَيرِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ سؤالٌ: كيف يُقْسِمُ اللهُ سُبحانَه وتعالى بالمخلوقاتِ، مع أنَّ القَسَمَ بالمخلوقاتِ شِرْكٌ؛ لِقَولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن حَلَفَ بغيرِ الله فقد كَفَرَ أو أَشْرَكَ))[٢]، وقال عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((مَن كان حالِفًا فلْيَحْلِفْ باللهِ أو لِيَصْمُتْ))[٣]؟ فلا يجوزُ الحَلِفُ بغيرِ اللهِ؛ لا بالأنبياءِ، ولا بالملائكةِ، ولا بالكَعْبةِ، ولا بالوطَنِ، ولا بأيِّ شيءٍ مِن المخلوقاتِ!

**الجوابُ**: أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى له أنْ يُقْسِمَ بما شاء مِن خَلْقِه، وإقسامُه بما يُقْسِمُ به مِن خَلْقِه يدُلُّ على عَظَمةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ لأنَّ عِظَمَ المخلوقِ يدُلُّ على عِظَمِ الخالقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ١٩٦).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٣٢٥١)، والترمذيُّ (١٥٣٥) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٦٠٧٢) مِن حديثِ عبدِ الله ابنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما.
حسَّنه الترمذيُّ، وصحَّحه ابنُ تيميَّةَ كما في ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) (١/ ٢٨)، وابنُ القيِّم في ((الوابل الصيب)) (١٨٩)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٣/ ١٤٤)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٣٢٥١).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢٦٧٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٦٤٦) من حديثِ عبدِالله بنِ عُمرَ رضيَ الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٤٦).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ سؤالٌ عن وجهِ الجَمعِ مع قولِه تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥] في أنَّ أصلَ بني آدمَ مِن الطِّينِ، والطِّينُ مِن الأرضِ.

**الجوابُ**: أنَّ الخَلْقَ هو مِن الطِّينِ باعتبارِ الأصلِ، وأنَّ الماءَ الدَّافِقَ هو باعتبارِ الفَرعِ المتولِّدِ مِن الأصلِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أنَّ الجنينَ يُخْلَقُ مِن ماءِ الرَّجُلِ وماءِ المرأةِ، خلافًا لِمَن يَزْعُمُ مِن الطَّبائعيِّينَ أنَّه إنَّما يُخْلَقُ مِن ماءِ الرَّجُلِ وَحْدَه[٢]! ففيه مِن عِلمِ التَّشريحِ أنَّ الوَلَدَ مخلوقٌ مِن ماءِ أبَوَيه معًا[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ * ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ * إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالقَسَمِ تَحقيقٌ لِما يُقسَمُ عليه، وتَشويقٌ إليه، ووَقَعَ القَسَمُ بمَخلوقَينِ عَظيمَينِ فيهما دَلالةٌ على عَظيمِ قُدرةِ خالِقِهما؛ هما: السَّماءُ، والنُّجومُ، أو نَجمٌ منها عَظيمٌ مَعروفٌ، أو ما يَبدو انقِضاضُه مِن الشُّهُبِ[٤].

- والطَّارِقُ: وَصفٌ مُشتَقٌّ مِن الطُّروقِ، وهو المَجيءُ لَيلًا، وأُبهِمَ المَوصوفُ بالطَّارِقِ ابتِداءً، ثمَّ زِيدَ إبْهامًا مَشوبًا بتَعظيمِ أمْرِه بقَولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾، ثمَّ بُيِّنَ بأنَّه ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾؛ ليَحصُلَ مِن ذلك مَزيدُ تَقرُّرٍ للمُرادِ بالمُقسَمِ به،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ٢٣).

(٢) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٨٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٨).

وهو أنَّه مِن جِنسِ النُّجوم، شَبَّهَ طُلوعَ النَّجمِ لَيلًا بطُروقِ المُسافِرِ الطَّارِقِ بَيتًا، بجامعِ كَونِه ظُهورًا في اللَّيلِ[(١)].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ استِفهامٌ مُستَعمَلٌ في تَعظيمِ أمْرِ الطَّارِقِ[(٢)].

- وأيضًا قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ تَنويهٌ بشَأنِ الطَّارِقِ إثْرَ تَفخيمِه بالإقْسامِ به، وتَنبيهٌ على أنَّ رِفعةَ قَدْرِه بحَيثُ لا يَنالُها إدراكُ الخَلْقِ، فلا بُدَّ مِن تَلَقِّيها مِن الخَلَّاقِ العَليمِ[(٣)].

- وقولُه: ﴿ٱلنَّجۡمُ﴾ خَبَرٌ عن ضَميرٍ مَحذوفٍ تَقديرُه: هو، أي: الطَّارِقُ النَّجمُ الثَّاقِبُ. والثَّقْبُ: خَرْقُ شَيءٍ مُلتَئِمٍ، وهو هُنا مُعبَّرٌ به عن ظُهورِ النُّورِ في خِلالِ ظُلْمةِ اللَّيلِ؛ شَبَّهَ النَّجمَ بمِسمارٍ أو نَحوِه، وظُهورَ ضَوئِه بظُهورِ ما يَبدو مِن المِسمارِ مِن خِلالِ الجِسمِ الَّذي يَثقُبُه مِثلَ لَوحٍ أو ثَوبٍ، ولعلَّ التَّعبيرَ بالثَّقْبِ عن بُروزِ شُعاعِ النَّجمِ في ظُلْمةِ اللَّيلِ مِن مُبتَكَراتِ القُرآنِ، ولم يَرِدْ في كَلامِ العرَبِ قبْلَ القرآنِ[(٤)].

- والتَّعريفُ في (النَّجمِ) يَجوزُ أنْ يَكونَ تَعريفَ الجِنسِ، فيَستَغرِقَ جَميعَ النُّجومِ استِغراقًا حَقيقيًّا، وكُلُّها ثاقِبٌ، فكأنَّه قيلَ: والنُّجومِ. ويَجوزُ أنْ يَكونَ التَّعريفُ للعَهدِ، إشارةً إلى نَجمٍ مَعروفٍ يُطلَقُ عليْه اسمُ «النَّجمِ» غالبًا، أي: والنَّجمِ الَّذي هو طارِقٌ، وقيلَ: أُريدَ بالطَّارِقِ نَوعُ الشُّهُبِ؛ فالتَّعريفُ في لَفظِ النَّجمِ للاستِغراقِ، وخُصَّ عُمومُه بوُقوعِه خَبَرًا عن ضَميرِ الطَّارِقِ، أي: أنَّ الشِّهابَ عندَ انقِضاضِه يُرى سائِرًا بسُرعةٍ، ثمَّ يَغيبُ عن النَّظرِ، فيَلوحُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٩).

كأنَّه استَقرَّ، فأَشبَهَ إسْراعَ السَّائِرِ لَيلًا ليَبلُغَ إلى الأحْياءِ المَعمورةِ، فإذا بَلَغَها وَقَفَ سَيْرُه[١].

- وقدْ أرادَ اللهُ عزَّ مِن قائلٍ أنْ يُقسِمَ بالنَّجمِ الثَّاقِبِ تَعظيمًا له، لِما عُرِفَ فيه مِن عَجيبِ القُدْرةِ ولَطيفِ الحِكمةِ، وأنْ يُنبِّهَ على ذلك، فجاءَ بما هو صِفةٌ مُشترَكةٌ بيْنَه وبيْنَ غَيرِه، وهو (الطَّارِقُ)، ثمَّ قال: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾، ثمَّ فَسَّرَه بقَولِه: ﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾؛ إزالةً لذلك الإبْهامِ الحاصِلِ بالاستِفهامِ، وكُلُّ هذا إظْهارٌ لفَخامةِ شَأنِه، وإجْلالِ مَحلِّه[٢].

- قولُه: ﴿إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ﴾ جَوابٌ للقَسَمِ، وما بيْنَهما اعتِراضٌ جِيءَ به لِما ذُكِرَ مِن تَأكيدِ فَخامةِ المُقسَمِ به، المُستَتبِعِ لتَأكيدِ مَضمونِ الجُملةِ المُقسَمِ عليها[٣].

- وقدْ جُعِلَ جَوابُ القَسَمِ هذا كِنايةً[٤] عن المَقْصودِ، وهو: إثْباتُ البَعثِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٥٩، ٢٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٠، ١٤١).

(٤) أطلق عليها ابنُ عاشور كنايةً تلويحيةً رمزيةً، وتَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازِم) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريضٍ، وتلويحٍ، ورمْزٍ، وإيماءٍ؛ فالتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسِطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي على كثرةِ الأكَلةِ، وهي على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَلَ الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. والرَّمزُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ خفاءٍ في اللُّزومِ بلا تعريضٍ نحو: فلانٌ عريضُ القفا، أو عريضُ الوسادةِ؛ كناية عن بلادتِه وبلاهتِه. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥ - ١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، =

فهو كالدَّليلِ على إثْباتِه؛ فإنَّ إقامةَ الحافِظِ تَستَلْزِمُ شَيئًا يَحفَظُه، وهو الأعمالُ خَيرُها وشَرُّها -وذلك على قولٍ-، وذلك يَستَلْزِمُ إرادةَ المُحاسَبةِ عليها، والجَزاءِ بما تَقتَضيه جَزاءً مُؤخَّرًا بعدَ الحياةِ الدُّنيا؛ لئلَّا تَذهَبَ أعمالُ العامِلينَ سُدًى، وذلك يَستَلْزِمُ أنَّ الجَزاءَ مُؤخَّرٌ إلى ما بعْدَ هذه الحياةِ؛ إذ المُشاهَدُ تَخلُّفُ الجَزاءِ في هذه الحياةِ بكَثْرةٍ، فلو أُهمِلَ الجَزاءُ لَكان إهْمالُه مُنافِيًا لحِكْمةِ الإلَهِ الحَكيمِ مُبدِعِ هذا الكَونِ، وهذا الجَزاءُ المُؤخَّرُ يَستَلْزِمُ إعادةَ حياةٍ للذَّواتِ الصَّادِرةِ منها الأعمالُ. وقد حصَلَ مع هذا الاستِدلالِ إفادةُ أنَّ على الأنفُسِ حَفَظَةً؛ فهو إدْماجٌ[1].

- وأيضًا قدْ تَضمَّنَ هذا الجَوابُ -زِيادةً على إفادتِه تَحقيقَ الجَزاءِ- إنْذارًا للمُشرِكين بأنَّ اللهَ يَعلَمُ اعتِقادَهم وأفعالَهم، وأنَّه سيُجازيهم على ذلك[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾

- قولُه: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ الفاءُ لتَفريعِ الأمرِ بالنَّظرِ في الخِلْقةِ الأُولى على ما أُريدَ مِن قولِه: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] مِن لَوازِمِ مَعناهُ، وهو إثْباتُ البَعثِ الَّذي أنكَروه على طَريقةِ الكِنايةِ التَّلْويحيَّةِ الرَّمْزيَّةِ؛ فالتَّقديرُ: فإنْ رَأَيْتُم البَعثَ مُحالًا فلْيَنظُرِ الإنسانُ مِمَّ خُلِقَ؛ ليَعلَمَ أنَّ الخَلْقَ الثَّانيَ ليس بأَبْعَدَ مِن الخَلْقِ الأوَّلِ، فهذه الفاءُ مُفيدةٌ مُفادَ الفاءِ الفَصيحةِ. والنَّظرُ: نَظَرُ

= ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦ - ٢٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٠).
وتقدَّم تعريفُ الإدماجِ (٤٢/ ٥١٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦١).

العَقلِ، وهو التَّفكُّرُ المُؤدِّي إلى عِلمِ شَيءٍ بالاستِدلالِ؛ فالمَأمورُ به نَظَرُ المُنكرِ للبَعثِ في أدِلَّةِ إثْباتِه، كما يَقتَضيه التَّفريعُ على ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[1] [الطارق: ٤].

- والاستِفهامُ ﴿مِمَّ خُلِقَ﴾ مُستعمَلٌ في الإيقاظِ، والتَّنبيهِ إلى ما يَجِبُ عِلمُه[2].

- وقولُه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ استِئنافٌ وَقَعَ جَوابًا عن استِفهامٍ مُقدَّرٍ، كأنَّه قيلَ: مِمَّ خُلِقَ؟ فقيلَ: خُلِقَ مِن ماءٍ ذي دَفْقٍ[3].

- وفي قولِه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ أُطنِبَ في وَصفِ هذا الماءِ الدَّافِقِ لإدْماجِ التَّعليمِ، والعِبرةِ بدَقائقِ التَّكوينِ؛ ليَستَيقِظَ الجاهِلُ الكافِرُ، ويَزدادَ المُؤمِنُ عِلمًا ويَقينًا[4].

- ووُصِفَ أنَّه ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾؛ لأنَّ النَّاسَ لا يَتفطَّنون لذلك، والخُروجُ مُستعمَلٌ في ابتِداءِ التَّنقُّلِ مِن مَكانٍ إلى مَكانٍ ولو بدُون بُروزٍ؛ فإنَّ بُروزَ هذا الماءِ لا يَكونُ مِن بيْنِ الصُّلبِ والتَّرائِبِ، وهذا مُخاطَبَةٌ للنَّاسِ بما يَعرِفون يَومَئذٍ بكَلامٍ مُجمَلٍ[5].

- قيل: أفرَدَ الأوَّلَ ﴿ٱلصُّلْبِ﴾، وجَمَعَ الآخَرَ (التَّرائِبِ) وأرادَ سُبحانَه: يَخرُجُ مِن بيْنِ الأصلابِ والتَّرائِبِ، فاكتَفى بالواحِدِ عن الجَماعةِ، كما قال تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ولم يَقُلْ: والأَرَضينَ، وعلى القولِ بأنَّ التَّرائبَ للمرأةِ فإنَّ صدرَ المرأةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٢).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦٢، ٢٦٣).

هو تَربيتُها، فيُقالُ: للمرأةِ تَرائبُ، يعني بها التَّربيةَ وما حَوالَيْها وأحاط بها، وكذلك العربُ تقولُ: رأيتُ خَلاخيلَ المرأةِ وثُدِيَّها، وإنَّما لها ثَدْيانِ وخَلْخالانِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۞ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۞ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]؛ لأنَّ السَّامِعَ يَتساءَلُ عن المَقصدِ مِن هذا الأمرِ بالنَّظرِ في أصْلِ الخِلْقةِ، وإذْ قد كان ذلك النَّظرُ نَظَرَ استِدلالٍ، فهذا الاستِئنافُ البَيانيُّ له يَتنزَّلُ مَنزِلةَ نَتيجةِ الدَّليلِ؛ فصارَ المَعنى: إنَّ الَّذي خَلَقَ الإنسانَ مِن ماءٍ دافِقٍ قادِرٌ على إعادةِ خَلْقِه بأسبابٍ أُخْرى، وبذلك يَتقَرَّرُ إمْكانُ إعادةِ الخَلْقِ، ويَزولُ ما زَعَمَه المُشرِكون مِن استِحالةِ تلك الإعادةِ[٢].

- والضَّميرُ في ﴿إِنَّهُۥ﴾ للخالِقِ؛ لدَلالةِ ﴿خُلِقَ﴾ عليه، ومَعناه: إنَّ ذلك الَّذي خَلَقَ الإنسانَ ابتِداءً مِن نُطْفةٍ ﴿عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ﴾ على إعادتِه خُصوصًا ﴿لَقَادِرٞ﴾ لَبَيِّنُ القُدرةِ، لا يَعسُرُ ويَصعُبُ عليه، ولا يَعجِزُ عنه؛ ففي مَجيءِ الفِعلِ مَجهولًا أوَّلًا، والإضمارِ قبْلَ الذِّكرِ ثانيًا؛ دَلالةٌ على أنَّ الكلامَ مِن بابِ إرخاءِ العِنانِ، أي: ما أقولُ: إنَّني أنا المُبدِئُ والمُعيدُ، بلْ أقولُ: إنَّ ذلك الَّذي تُعُورِفَ عِندَكم واشتَهَرَ وتُقِرُّون أنَّه الخالقُ؛ هو القادرُ على الإعادةِ؛ فجِيءَ بـ (إنَّ) واللَّامِ وتَنكيرِ الخبَرِ؛ ليَدُلَّ على ردٍّ بَليغٍ، وعلى إنكارٍ مُبالَغٍ منهم بأنَّه لا حشْرَ ولا نشْرَ، بلْ إمَّا تَعطيلٌ أو أمْرٌ آخَرُ كما اختَلَفَ فيه المُبْطِلون[٣].

- وضَميرُ ﴿إِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى اللهِ تعالَى، وإنْ لم يَسبِقْ ذِكرٌ لمَعادٍ، ولكنَّ بِناءَ

(١) يُنظر: ((إعراب ثلاثين سورة)) لابن خالويه (ص: ٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٤، ٢٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٨٤).

الفِعلِ للمَجهولِ في قولِه: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق: ٦] يُؤذِنُ بأنَّ الخالِقَ مَعروفٌ لا يُحتاجُ إلى ذِكرِ اسْمِه، وأُسنِدَ الرَّجْعُ إلى ضَميرِه دُون سُلوكِ طَريقةِ البِناءِ للمَجهولِ، كَما في قولِه: ﴿خُلِقَ﴾؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ إيضاحٍ وتَصريحٍ بأنَّ اللهَ هو فاعِلُ ذلك[١].

- قولُه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ السَّرائرُ: ما يُسِرُّه الإنسانُ ويُخفيه مِن نِيَّاتِه وعقائِدِه، وبَلْوُ السَّرائرِ: اختِبارُها وتَمييزُ الصَّالِحِ منها عن الفاسِدِ، وهو كِنايةٌ عن الحِسابِ عليها والجَزاءِ، وبَلْوُ الأعمالِ الظَّاهِرةِ والأقوالِ مُستَفادٌ بدَلالةِ الفَحْوى[٢] مِن بَلْوِ السَّرائرِ[٣].

- ولَمَّا كان بَلْوُ السَّرائرِ مُؤْذِنًا بأنَّ اللهَ تعالى عَليمٌ بما يَستُرُه النَّاسُ مِن الجَرائمِ، وكان قولُه: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ مُشعِرًا بالمُؤاخَذةِ على العَقائدِ الباطِلةِ والأعمالِ الشَّنيعةِ؛ فُرِّعَ عليْه قولُه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾، فالضَّميرُ عائدٌ إلى الإنسانِ، والمَقصودُ المُشرِكون مِن النَّاسِ؛ لأنَّهم المَسوقُ مِن أَجْلِهم هذا التَّهديدُ، أي: فما للإنسانِ المُشرِكِ مِن قُوَّةٍ يَدفَعُ بها عن نفْسِه، وما لَه مِن ناصِرٍ يُدافِعُ عنه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥).

(٢) فَحْوَى الخِطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولَى، كقولِه تعالَى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظَمُ مِن التَّافيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كان دونَ القِنطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأُولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١١-١٧)

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًا ١٧﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلرَّجۡعِ﴾: أي: المطَرِ؛ لأنَّه يَرجِعُ كُلَّ عامٍ ويتكَرَّرُ، وأصلُ (رجع): يدُلُّ على رَدٍّ وتَكرارٍ[(١)].

﴿ٱلصَّدۡعِ﴾: أي: النَّباتِ؛ لأنَّ الأرضَ تتصَدَّعُ -أي: تَنْشَقُّ- عنه، والصَّدعُ في اللُّغةِ: الشَّقُّ، وأصلُ (صدع): يدُلُّ على انفِراجِ شَيءٍ[(٢)].

﴿رُوَيۡدًا﴾: أي: قَليلًا، والرَّودُ: التَّرَدُّدُ في طَلَبِ الشَّيءِ برِفقٍ[(٣)].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًا﴾

جُملةُ: ﴿أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدًا﴾ لا محلَّ لها استئنافيَّةٌ مُؤكِّدةٌ للجُملةِ السَّابقةِ، وقيل: بَدَلٌ منها. ﴿رُوَيۡدًا﴾: في نَصْبِه أوجُهٌ؛ أحَدُها: أنَّه مَفعولٌ مُطلَقٌ نائِبٌ عن المصدَرِ؛

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤١٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٣٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٨).

فهو مُرادِفٌ لعامِلِه ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾. و﴿رُوَيْدًا﴾ تصغيرُ «إرْواد»[١] -أي: إمْهال، وزنًا ومعنًى- على التَّرخيم بحذفِ الزَّوائدِ، وأصلُه مِنَ الرَّوْدِ: وهو المَهْلُ وعدَمُ العجَلةِ. الثَّاني: أن يكونَ ﴿رُوَيْدًا﴾ نائبًا عن المصدَرِ؛ نعتًا لمصدَرٍ محذوفٍ، أي: أمهِلْهم إمهالًا رُوَيدًا، أي: قليلًا أو قريبًا. الثَّالثُ: أن يكونَ نائبًا عن ظَرفِ الزَّمانِ؛ نَعتًا لزَمانٍ محذوفٍ، أي: زَمانًا قليلًا. الرَّابعُ: أن يكونَ مَنصوبًا على الحاليَّةِ، أي: أمهِلْهم مُستَأنيًا بهم غَيرَ مُستعجِلٍ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُقْسِمًا أيضًا على صحَّةِ القرآنِ: أُقسِمُ بالسَّماءِ الَّتي تَرجِعُ بالمطَرِ، وبالأرضِ الَّتي تتصَدَّعُ وتَنْشَقُّ؛ إنَّ القُرآنَ لَقَولٌ فاصِلٌ، يَفصِلُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وليس هو باللَّعِبِ والباطِلِ، بل كُلُّه حَقٌّ وجِدٌّ.

ثمَّ يختمُ اللهُ سُبحانَه السُّورةَ الكريمةَ ببَيانِ ما يُدَبِّرُ الكافِرون للمؤمنينَ؛ مُسلِّيًا رسولَه صلَّى الله عليه وسلَّم، ومُبشِّرًا له بحُسنِ العاقِبةِ، فيقول: إنَّ الكافِرينَ يَكيدُونَ؛ لِيَدفَعوا بكَيْدِهم الحَقَّ، وأنا أَكيدُ بهم كَيدًا عَظيمًا، بإمْهالِهم واسْتِدْراجِهم؛ حتَّى أُهلِكَهم وهم على باطِلِهم، فأَمْهِلْ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ زَمَنًا قليلًا، ولا تَستَعجِلْ عِقابَهم!

---

(١) وقيل: هو تصغيرُ رودٍ، أي: مهلٍ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٢٥)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٥٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣١٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٩).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾.

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بعْدَ أنْ تَبيَّنَ الدَّليلُ على إمْكانِ البَعثِ؛ أُعقِبَ بتَحقيقِ أنَّ القُرآنَ حَقٌّ، وأنَّ ما فيه قولٌ فَصْلٌ؛ إبْطالًا لِما مُوِّهَ عليهم مِن أنَّ أَخبارَه غَيرُ صادِقةٍ؛ إذ قد أَخبَرَهم بإحْياءِ الرِّمَمِ البالِيةِ[١].

وأيضًا لَمَّا اشتَمَلت الجُمَلُ السَّابقةُ -على وَجازتِها- على الذِّرْوةِ العُلْيا مِن البَلاغةِ في إثباتِ البَعثِ والجَزاءِ والوَحدانيَّةِ له سُبحانَه وتعالى، إلى غيرِ ذلك مِن بُحورِ العُلومِ، فثبَتَ أنَّ القُرآنَ كلامُ اللهِ سُبحانَه وتعالى، فثَبَت أنَّ كُلَّ ما فيه حَقٌّ، معَ مُنازَعَتِهم في ذلك كُلِّه- اقتضى الحالُ الإقسامَ على حَقِّيَّتِه؛ فقال[٢]:

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١﴾.

أي: أُقسِمُ بالسَّماءِ ذاتِ المطَرِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

قال الماوَرْدي: (﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ فيه أربعةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: ذاتُ المطَرِ؛ لأنَّه يَرجِعُ في كلِّ عامٍ. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: ذاتُ السَّحابِ؛ لأنَّه يَرجِعُ بالمطَرِ. الثَّالِثُ: ذاتُ الرُّجوعِ إلى ما كانت. قاله عِكْرِمةُ. الرَّابعُ: ذاتُ النُّجومِ الرَّاجعةِ. قاله ابنُ زَيدٍ. ويحتَمِلُ خامِسًا: ذاتُ الملائِكةِ؛ لرُجوعِهم إليها بأعمالِ العِبادِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٨).

والقَولُ بأنَّ المرادَ بالرَّجْعِ: المطَرُ، حكى الواحِديُّ فيه اتِّفاقَ المُفَسِّرينَ، ومِمَّن ذهب إليه: القرطبيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير =

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الأمْرَ العُلويَّ بادِئًا به لشَرَفِه؛ أتْبَعَه السُّفليَّ[1].

---

= القرطبي)) (٢٠/ ١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةُ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو مالكٍ، وابنُ أَبْزَى، والرَّبيعُ بنُ أنسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤١٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٤٧٦).

قال السعدي: (تَرجِعُ السَّماءُ بالمطَرِ كُلَّ عامٍ، وتنصَدِعُ الأرضُ للنَّباتِ، فيَعيشُ بذلك الآدَميُّونَ والبهائِمُ، وتَرجِعُ السَّماءُ أيضًا بالأقدارِ والشُّؤونِ الإلهيَّةِ كُلَّ وَقتٍ، وتنصَدِعُ الأرضُ عن الأمواتِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠).

وعَدَّه ابنُ القيِّمِ مِن بابِ التَّفسيرِ بالمثالِ، وأنَّ المرادَ أعَمُّ مِن ذلك، فقال: (التَّحقيقُ أنَّ هذا على وَجهِ التَّمثيلِ. ورَجْعُ السَّماءِ: هو إعطاءُ الخَيرِ الَّذي يكونُ مِن جِهَتِها حالًا بَعْدَ حالٍ على مرورِ الأزمانِ تَرجِعُه رَجْعًا، أي: تُعْطيه مَرَّةً بعْدَ مرَّةٍ، والخَيرُ كُلُّه مِن قِبَلِ السَّماءِ يَجيءُ، ولَمَّا كان أظهَرَ الخَيرِ المشهودِ بالعِيانِ المطَرُ، فُسِّرَ الرَّجْعُ به، وحَسَّنَ تَفسيرَه به مُقابَلَتُه بصَدْعِ الأرضِ عن النَّباتِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٠٦).

وقيل: المرادُ: غِيابُ الشَّمسِ والقَمَرِ والنُّجومِ، وطُلوعُها. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤).

وذهَبَ البِقاعي إلى هذا المعنى وإلى ما هو أعَمُّ منه، فقال: (﴿ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ الَّتي تَرجِعُ بالدَّورانِ إلى الموضِعِ الَّذي ابتدَأَت الدَّورانَ منه، فتَرجِعُ الأحوالَ الَّتي كانت وتصَرَّمَت؛ مِن اللَّيلِ والنَّهارِ، والشَّمسِ والقَمَرِ والكواكِبِ، والفُصولِ؛ مِنَ الشِّتاءِ وما فيه مِن بَردٍ ومطرٍ، والصَّيفِ وما فيه مِن حرٍّ وصفاءٍ وسكونٍ وغيرِ ذلك؛ والنَّباتَ بعدَ تهشُّمِه وصَيرورتِه تُرابًا مختَلِطًا بتُرابِ الأرضِ، وترجِعُ الماءَ على قَولِ مَن يَقولُ: إنَّ السَّحابَ يأخُذُه مِن البَحرِ ويعلو به فيَعصِرُه في الهواءِ ثمَّ يرُدُّه إلى الأرضِ، وغيرَ ذلك مِن الأمورِ الدَّالِّ كُلٌّ منها قطعًا على أنَّ فاعِلَ ذلك قادِرٌ على إعادةِ كُلِّ ما فَنِيَ كما كان، مِن غَيرِ فَرقٍ أصلًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٨٢).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨٢).

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالأرضِ ذاتِ النَّباتِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

قال الماوَرْدي: (﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ فيها أربعةُ أقاويلَ؛ أحَدُها: ذاتُ النَّباتِ؛ لانصداعِ الأرضِ عنه. قاله ابنُ عبَّاسٍ. الثَّاني: ذاتُ الأوديةِ؛ لأنَّ الأرضَ قد انصدَعَت بها. قاله ابنُ جُرَيجٍ. الثَّالثُ: ذاتُ الطُّرُقِ الَّتي تَصدَعُها المُشاةُ. قاله مجاهِدٌ. الرَّابعُ: ذاتُ الحَرْثِ؛ لأنَّه يَصدَعُها. ويحتَمِلُ خامِسًا: ذاتُ الأمواتِ؛ لانصداعِها عنهم للنُّشورِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٤٩).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: تتشَقَّقُ بالنَّباتِ: ابنُ جرير، وابن القيم، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٦، ١٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

قال ابن كثير: (﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: هو انصِداعُها عن النَّباتِ. وكذا قال سعيدُ ابنُ جُبَيرٍ، وعِكْرِمةُ، وأبو مالكٍ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والسُّدِّيُّ، وغيرُ واحدٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦).

وقال الرَّسْعَني: (قال المفسِّرونَ واللُّغَويُّونَ: تتصدَّعُ عن النَّباتِ والأشجارِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٨٤).

وقال ابن عثيمين: (كُلُّه إشارةٌ إلى حياةِ الأرضِ بعْدَ مَوتِها، والقُرآنُ به حياةُ القُلوبِ بعْدَ مَوتِها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

وقال ابنُ القيِّم: (وفُسِّرَ الصَّدعُ بالنَّباتِ؛ لأنَّه يَصدَعُ الأرضَ، أي: يَشُقُّها، فأقسَمَ سُبحانَه بالسَّماءِ ذاتِ المطَرِ، والأرضِ ذاتِ النَّباتِ، وكُلٌّ مِن ذلك آيةٌ مِن آياتِ اللهِ تعالى الدَّالَّةِ على رُبوبيَّتِه). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ١٠٦).

وقيل: تتصَدَّعُ عن النَّباتِ والشَّجَرِ والثِّمارِ والأنهارِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: القرطبيُّ، والخازنُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٦).

وتقدَّم قولُ السعديِّ أنَّ الأرضَ تنصدعُ للنَّباتِ، وتنصدعُ عن الأمواتِ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠).

قال البِقاعي: (فجَمَع بالقَسَمِ العالَمَ العُلويَّ الَّذي هو كالرَّجُلِ، والسُّفْليَّ الَّذي هو كالمرأةِ، =

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣﴾.

أي: إنَّ القُرآنَ قَولٌ فاصِلٌ، يَفصِلُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ(١).

﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

عَطَف ﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ بعد الثَّناءِ على القُرآنِ بأنَّه «قَولٌ فَصلٌ» ردًّا على المشركينَ؛

---

= فكما أنَّ الرَّجُلَ يَسقِيها مِن مائِه فتتصَدَّعُ عن الولَدِ، فكذلك السَّماءُ تَسْقي الأرضَ فتتصَدَّعُ عن النَّباتِ، وكما أنَّها تتصَدَّعُ عن النَّباتِ بعْدَ فَنائِه وصَيرورتِه رُفاتًا، فيَعودُ كما كان؛ فكذلك تتصَدَّعُ عن النَّاسِ بعْدَ فَنائِهم، فيَعودونَ كما كانوا بإذْنِ رَبِّها مِن غيرِ فَرقٍ أصلًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٨٣).

وقال الشوكاني: (الحاصلُ أنَّ الصَّدْعَ إنْ كان اسْمًا لِلنَّباتِ فكأنَّه قال: والأرضِ ذاتِ النَّباتِ، وإنْ كان المرادُ به الشَّقَّ فكأنَّه قال: والأرضِ ذاتِ الشَّقِّ الَّذي يَخرُجُ منه النَّباتُ ونحوُه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٣٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦، ٢٦٧).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ يعني به القُرآنَ، وهذا جوابُ القَسَمِ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٠).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: القرآنُ: الواحديُّ، والقرطبي، وابن تيميَّة، وابن القيِّم. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٤٣٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٧).

وقال ابنُ عثيمين: (يَفصِلُ بيْنَ الحَقِّ والباطِلِ، وبيْنَ المتَّقينَ والظَّالِمينَ، بل إنَّه فَصْلٌ، أي: قاطِعٌ لكُلِّ مَن ناوأه وعاداه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١، ١٥٢).

وقيل: الضَّميرُ يعودُ إلى البَعْثِ بعدَ الموتِ، والمعنى: إنَّ ما أخبَرْتُكم به مِن قُدْرتي على إحيائِكم في اليَومِ الَّذي تُبْلَى فيه سرائِرُكم: قَولٌ فَصلٌ وحَقٌّ. ومِمَّن ذهب إليه: القَفَّالُ، ورجَّحَه الرازيُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٣).

إذ كانوا يَزعُمونَ أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جاء يَهزِلُ؛ إذ يخبرُ بأنَّ الموتى سيَحْيَونَ، يُريدونَ تضليلَ عامَّتِهم حينَ يَسمَعونَ قوارِعَ القُرآنِ وإرشادَه وجَزالةَ مَعانيه، يختَلِقونَ لهم تلك المعاذيرَ؛ لِيَصرِفوهم عن أن يتدَبَّروا القُرآنَ[١].

﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ١٤﴾.

أي: وليس القُرآنُ باللَّعِبِ والباطِلِ، بل كُلُّه حَقٌّ وجِدٌّ[٢].

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ١٥﴾.

أي: إنَّ الكافِرينَ المُكَذِّبينَ بالقُرآنِ يَكيدُونَ؛ لِيَدفَعوا بكَيْدِهم الحَقَّ، ويُؤَيِّدوا الباطِلَ[٣].

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ١٦﴾.

أي: وأنا أَكيدُ بهم كَيدًا عَظيمًا -جزاءَ كَيدِهم-، بإمْهالِهم واسْتِدْراجِهم؛ حتَّى أُهلِكَهم وهم على باطِلِهم، وأُظهِرَ الحَقَّ عليه ولو بعْدَ حِينٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٢).
قال البقاعي: (﴿بِٱلْهَزْلِ﴾ أي: بالضَّعيفِ المَرذولِ الَّذي لا طائِلَ تحتَه، فمِن حَقِّه ما هو عليه الآنَ مِن كَونِه مَهيبًا في القُلوبِ، مُعَظَّمًا في الصُّدورِ، يرتَفِعُ به قارِئُه وسامِعُه عن أن يُلِمَّ بهَزلٍ، ويَعْلو به في أعيُنِ العامَّةِ والخاصَّةِ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٢، ١٥٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، =

كما قال تعالى: ﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴾ [الطور: ٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥].

﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾ ﴾.

أي: فأَمْهِلْ -يا محمَّدُ- هؤلاء الكافِرينَ زَمَنًا قليلًا، ولا تَستَعجِلْ عِقابَهم؛ فإنَّه واقِعٌ بهم -لا محالةَ- في الوَقتِ الَّذي جعَلَه اللهُ مَوعِدًا لهَلاكِهم[1]!

كما قال تعالى: ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ [مريم: ٨٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان: ٢٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ أنَّ القرآنَ يَفْصِلُ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، وهو قاطِعٌ لكلِّ مَن ناوأه وعاداه؛ ولهذا نَجِدُ المسلمينَ لَمَّا كانوا يُجاهِدونَ الكُفَّارَ

---

= ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٤).

قال ابنُ الجوزي: (قَولُه تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ زعَمَ بَعضُهم أنَّه مَنسوخٌ بآيةِ السَّيفِ، وإذا قُلْنا: إنَّه وَعيدٌ، فلا نَسْخَ). ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٦٢٤). ويُنظر: ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: ١٩٦)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (٢/ ٨٩٦).

وقال ابنُ عثيمين: (في هذه الآيةِ تهديدٌ لقُرَيشٍ، وتَسليةٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم، ووَعدٌ له بالنَّصرِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٤).

بالقرآنِ نَجدُهم غَلَبوا الكُفَّارَ، وقَطَعوا دابرَهم، وقُضِيَ بيْنَهم، فلمَّا أَعرَضوا عن القرآنِ هُزِموا وأُذِلُّوا بقَدْرِ بُعْدِهم عن القرآنِ، وكلَّما ابتعَدَ الإنسانُ عن كتابِ اللهِ ابتعَدَتْ عنه العِزَّةُ، وابتعدَ عنه النَّصرُ؛ حتَّى يَرجِعَ إلى كتابِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ زجرٌ وتحذيرٌ للقَومِ، وكما أنَّه تحذيرٌ لهم فهو ترغيبٌ في خِلافِ طَريقِهم في الطَّاعاتِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ في هذَينِ الحالَينِ إيماءٌ إلى دَليلٍ آخَرَ مِن دَلائلِ إحياءِ النَّاسِ للبَعثِ[٣].

٢- قَولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ هذا هو القَسَمُ الثَّاني للسَّماءِ، والقَسَمُ الأوَّلُ ما كان في أوَّلِ السُّورةِ؛ فهناك قال: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ وبيْنَهما مُناسَبةٌ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ الأوَّلَ فيه إشارةٌ إلى الطَّارقِ الَّذي هو النَّجمُ، والنَّجمُ تُرمى به الشَّياطينُ الَّذين يَستَرِقونَ السَّمْعَ، وفي رَمْيِ الشَّياطينِ بذلك حِفْظٌ لكتابِ اللهِ عزَّ وجَلَّ، أمَّا هنا فأَقْسَمَ بالسَّماءِ ذاتِ الرَّجْعِ إنَّ هذا القُرآنَ قَولٌ فَصلٌ، فأقْسَمَ على أنَّ القرآنَ قولٌ فَصلٌ؛ فصار القَسَمُ الأوَّلُ مُناسَبتُه أنَّ فيه الإشارةَ إلى ما يُحْفَظُ به هذا القُرآنُ حالَ إنزالِه، وفي القَسَمِ الثَّاني الإشارةُ إلى أنَّ القرآنَ حياةٌ، يعني يُقالُ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ الرَّجْعُ هو المطرُ، يُسَمَّى رَجْعًا؛ لأنَّه يَرْجِعُ ويَتكَرَّرُ، ومعلومٌ أنَّ المطرَ به حياةُ الأرضِ، ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ الصَّدعُ هو الانشِقاقُ، يعني: التَّشَقُّقَ بخروجِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

النَّباتِ منه؛ فأقْسَمَ بالمطرِ الَّذي هو سببُ خروجِ النَّباتِ، وبالتَّشَقُّقِ الَّذي يَخرُجُ منه النَّباتُ، وكلُّه إشارةٌ إلى حياةِ الأرضِ بعْدَ موتِها، والقرآنُ به حياةُ القُلوبِ بعْدَ موتِها، كما قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فسمَّى اللهُ القرآنَ رُوحًا؛ لأنَّه تحيا به القُلوبُ(١).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ تأمَّلْ قولَه: ﴿يَكِيدُونَ﴾ حيثُ أَتَى بصيغةِ الجَمعِ، ﴿وَأَكِيدُ﴾ حيثُ أَتَى بصيغةِ الإفرادِ؛ فإنَّ كيدَ اللهِ تعالى أعظمُ مِن كيدِ جَميعِ كُيودِهم مهما بلَغَتْ(٢).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ ردٌّ على الجَهْميَّةِ في نَفْيِ الصِّفاتِ بالكُلِّيَّةِ، وقد أَخبَرَ اللهُ سُبحانَه عن نفْسِه بأنَّه يَكِيدُ، بلَفظِ «الكَيدِ» الَّذي أَخبَرَ به عنِ الكائدِين، وهم يُنكِرونه، يَرُدُّون نصَّ القُرآنِ(٣)! فالكَيدُ والمكرُ والمُخادَعةُ: إيصالُ الشَّرِّ إلى الغَيرِ بطَريقٍ خَفِيٍّ، ولكِنَّ ذلك نَوعانِ: قَبيحٌ، وهو إيصالُ ذلك لِمَن لا يَستَحِقُّه، وحَسَنٌ، وهو إيصالُه إلى مُستَحِقِّه عُقوبةً له؛ فالأوَّلُ مذَمومٌ، والثَّاني ممدوحٌ، والرَّبُّ تعالى إنَّما يَفعَلُ مِن ذلك ما يُحمَدُ عليه عَدلًا منه وحِكمةً، وهو تعالى يأخُذُ الظَّالِمَ والفاجِرَ مِن حيثُ لا يحتَسِبُ، لا كما يَفعَلُ الظَّلَمةُ بعِبادِه(٤).

فالله سُبحانَه يَنسُبُ إلى نَفْسِه أحسَنَ هذه المعاني، وما هو منها حِكمةٌ وحَقٌّ وصَوابٌ وجزاءٌ للمُسيءِ، وذلك غايةُ العَدْلِ والحَقِّ؛ كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥١).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ١٨٠).

(٣) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (٣/ ١٧١).

كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقَولِه: ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقَولِه: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾ [البقرة: ١٥]، وقَولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقَولِه: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، فهذا منه سُبحانَه في أعلى مَراتِبِ الحُسْنِ، وإن كان مِنَ العَبدِ قَبيحًا سَيِّئًا؛ لأنَّه ظالِمٌ فيه، ومُوقِعُه بمَن لا يَستَحِقُّه، والرَّبُّ تعالى عادِلٌ فيه، مُوقِعُه بأهلِه ومَن يَستَحِقُّه(١).

٥- ينقَسِمُ الكيدُ إلى نَوعَينِ: محمودٍ، ومَذموم؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۞ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾، وقال: ﴿ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [يوسف: ٧٦]، وإذا عُرِفَ ذلك فلا إشكالَ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أنْ يُظْهِرَ قولًا أو فِعْلًا مَقصودُه به مَقصودٌ صالحٌ، وإنْ كان ظاهِرُه خِلافَ ما قَصَدَ به، إذا كانت فيه مَصلحةٌ دينيَّةٌ، مِثلُ دَفْعِ الظُّلمِ عن نفْسِه أو غَيرِه، أو إبطالِ حِيلةٍ مُحرَّمةٍ، وإنَّما المُحَرَّمُ: أنْ يَقصِدَ بالعُقودِ الشَّرعيَّةِ غيرَ ما شَرَعَها اللهُ تعالى ورَسولُه له، فيَصيرُ مُخادِعًا للهِ تعالى ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كائدًا لدِينِه، ماكِرًا بشَرْعِه؛ فإنَّ مَقصودَه حُصولُ الشَّيءِ الَّذي حَرَّمَه اللهُ تعالى ورسولُه بتلك الحيلةِ، وإسقاطُ الَّذي أوجبَه بتلك الحيلةِ، وهذا ضِدُّ الَّذي قَبْلَه؛ فإنَّ ذلك مَقصودُه التَّوصُّلُ إلى إظهارِ دِينِ اللهِ تعالى، ودَفْعُ مَعصيتِه، وإبطالُ الظُّلمِ، وإزالةُ المنكَرِ، فهذا لونٌ، وذاك لونٌ آخَرُ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴾ أنَّه لَمَّا كان في المكَذِّبينَ -في

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٣٨٨).

عِلْمِ اللهِ- مَن يُؤمِنُ، فليس مُستَحِقًّا لإيقاعِ مِثلِ هذا التَّهديدِ؛ عَبَّرَ بالوَصفِ المقتَضي للرُّسوخِ، فقال: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، أي: فلا تَدْعُ عليهم، ولا تَستَعجِلْ لهم بالإهلاكِ؛ فإنَّا لا نَعجَلُ؛ لأنَّه لا يَعجَلُ بالعُقوبةِ إلَّا مَن يَخافُ الفَوتَ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ۝ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ الجُملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ[٢].

- وافتُتِحَ الكَلامُ بالقَسَمِ تَحقيقًا لِصدقِ القُرآنِ في الإخْبارِ بالبَعثِ وفي غَيرِ ذلك ممَّا اشتَمَلَ عليه مِن الهُدى؛ ولذلك أُعيدَ القَسَمُ بالسَّماءِ كما أُقسِمَ بها في أوَّلِ السُّورةِ، وذُكِرَ مِن أحوالِ السَّماءِ ما لَه مُناسَبةٌ بالمُقسَمِ عليه، وهو الغَيثُ الَّذي به صَلاحُ النَّاسِ؛ فإنَّ إصلاحَ القُرآنِ للنَّاسِ كإصْلاحِ المَطَرِ، وفي الحديثِ: ((مَثَلُ ما بعَثَني اللهُ به مِن الهُدى والعِلْمِ كمَثَلِ الغَيْثِ الكَثيرِ أصاب أرضًا))[٣] الحديثَ[٤].

- والرَّجْعُ، أي: المَطَرُ، والصَّدْعُ: هو ما تَتصَدَّعُ عنه الأرضُ مِن النَّباتِ، أو مَصدَرٌ مِن المَبنيِّ للمَفعولِ، وهو تَشقُّقُها بالنَّباتِ لا بالعُيونِ كما قيلَ؛ فإنَّ وصْفَ السَّماءِ والأرضِ عندَ الإقْسامِ بهما على حقِّيَّةِ القُرآنِ النَّاطقِ بالبَعثِ بما ذُكِرَ مِن الوَصفَينِ للإيماءِ إلى أنَّهما في أنفُسِهما مِن شَواهِدِه، وهو السِّرُّ في التَّعبيرِ بالصَّدعِ عنه وعن المَطَرِ بالرَّجْعِ، وذلك في تَشقُّقِ الأرضِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٧٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٢٨٢) من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

بالنَّباتِ المُحاكي للنُّشورِ حَسبَما ذُكِرَ في مَواقِعَ مِن التَّنزيلِ، لا في تَشقُّقِها بالعُيونِ[١].

- وأيضًا في اسمِ (الرَّجْعِ) مُناسَبةٌ لمَعْنى البَعثِ في قولِه: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ [الطارق: ٨]، وفي مُسمَّى (الرَّجْعِ) -وهو المَطَرُ المُعاقِبُ لمَطَرٍ آخَرَ- مُناسَبةٌ لمَعنى الرَّجْعِ البَعثِ؛ فإنَّ البَعثَ حياةٌ مُعاقَبةٌ بحياةٍ سابِقةٍ[٢].

- وعُطِفَتْ الأرضُ في القَسَمِ؛ لأنَّ بذِكرِ الأرضِ إتْمامَ المُناسَبةِ بيْنَ المُقسَمِ والمُقسَمِ عليه[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فيه الإخْبارُ بالمَصدرِ للمُبالَغةِ، أي: إنَّه لقَولٌ فاصِلٌ بيْنَ الحقِّ والباطِلِ، مبالِغٌ في ذلك كأنَّه نفْسُ الفَصلِ[٤].

- بعدَ أنْ أثنَى اللهُ سبحانَه وتعالى على القرآنِ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾، عطَفَ عليه قولَه: ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾، ووجهُ ذلك أنَّ المشركينَ كانوا يَزعُمون أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جاءَ يَهزِلُ؛ إذ يُخبِرُ بأنَّ المَوتى سيَحيَون، فردَّ اللهُ سبحانَه عليهم؛ فالهَزْلُ على هذا الوَجْهِ هو ضِدُّ الجِدِّ، أي: المَزْحُ واللَّعِبُ، ومِثلُ هذه الصِّفةِ إذا وَرَدَتْ في الكَلامِ البَليغِ لا مَحمَلَ لها إلَّا إرادةُ التَّعريضِ، وإلَّا كانتْ تَقصيرًا في المَدْحِ، لا سِيَّما إذا سَبَقَتْها مَحمَدةٌ مِن المَحامِدِ العَظيمةِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧).

- قولُه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ يُنبِئُ عن سُؤالِ سائِلٍ يَعجَبُ مِن إعْراضِهم عن القُرآنِ معَ أنَّه قولٌ فَصلٌ، ويَعجَبُ مِن مَعاذيرِهم الباطِلةِ، مِثلَ قولِهم: هو هَزْلٌ أو هَذَيانٌ أو سِحرٌ، فبيَّنَ للسَّامِعِ أنَّ عَمَلَهم ذلك كَيدٌ مَقصودٌ؛ فَهُم يَتَظاهَرون بأنَّهم ما يَصرِفُهم عن التَّصديقِ بالقُرآنِ إلَّا ما تَحقَّقوه مِن عدَمِ صِدْقِه، وهُم إنَّما يَصرِفُهم عن الإيمانِ به الحِفاظُ على سِيادتِهم، فيُضلِّلون عامَّتهم بتلك التَّعِلَّاتِ المُلفَّقةِ. والتَّأكيدُ بـ (إنَّ) لتَحقيقِ هذا الخَبَرِ؛ لغَرابتِه، وعليه فقَولُه: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ تَتْميمٌ[1] وإدْماجٌ[2]، وإنْذارٌ لهم حِينَ يَسمَعونه[3]. أو هو كلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإجابةِ عن سُؤالٍ نَشَأَ مِن فَحوى الكلامِ؛ كأنَّه قيلَ: وماذا تَتَسمَّى مُكابَرتُهم وعِنادُهم؟ فقيلَ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾[4].

- ويَجوزُ أنْ يَكونَ قولُه: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ مُوَجَّهًا إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ

---

(١) التَّتميم: مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو الإتيانُ بكلمةٍ أو كلامٍ مُتمِّمٍ للمقصودِ، أو لزِيادةِ حَسنةٍ، بحيثُ إذا طُرِحَ مِن الكلامِ نقَصَ معناه في ذاتِه، أو في صِفاتِه. أو هو الإتيانُ في كلامٍ لا يُوهِمُ غيرَ المرادِ بفَضلةٍ تُفيدُ نُكتةً. أو هو إردافُ الكلامِ بكَلمةٍ تَرفعُ عنه اللَّبسَ، وتُقرِّبُه للفَهمِ. ومِن أمثلةِ التَّتميمِ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [النساء: ١٢٤]؛ فقولُه: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تتميمٌ في غايةِ الحُسنِ. ومنه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]؛ وذلك أنَّ العِزَّةَ محمودةٌ ومذمومةٌ، فلمَّا قال: ﴿بِالْإِثْمِ﴾ اتَّضحَ المعنى وتَمَّ، وتبيَّن أنَّها العزَّةُ المذمومةُ المُؤثِّمُ صاحِبُها. يُنظر: ((تحرير التَّحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١٢٧)، ((التِّبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ٢١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١/ ١٢٠) و(٢/ ٣٣٢، ٣٣٣)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لمحيي الدِّين درويش (١/ ٤٤)، ((مفاتيح التَّفسير)) لأحمد سعد الخطيب (١/ ٢٤٠، ٢٤١).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٣).

عليه وسلَّم؛ تَسلِيةً له على أقوالِهم في القُرآنِ الرَّاجِعةِ إلى تَكذيبِ مَن جاءَ بالقُرآنِ، أي: إنَّما يَدَّعون أنَّه هَزْلٌ لقَصدِ الكَيدِ، وليس لأنَّهم يَحسَبونك كاذِبًا. وجُملةُ ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ تَثبيتٌ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ووَعدٌ بالنَّصرِ[١].

- قولُه: ﴿كَيْدًا﴾ في المَوضِعَينِ مَفعولٌ مُطلَقٌ مُؤكِّدٌ لعامِلِه، وقُصِدَ منه مع التَّوكِيدِ تَنوينُ تَنكيرِه الدَّالِّ على التَّعظيمِ[٢].

- قولُه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ الفاءُ لتَفريعِ الأمرِ بالإمْهالِ على مَجموعِ الكَلامِ السَّابقِ مِن قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ [الطارق: ١٣] بما فيه مِن تَصريحٍ وتَعريضٍ وتَبيينٍ ووَعْدٍ بالنَّصرِ، أي: فلا تَستعجِلْ لهم بطَلَبِ إنْزالِ العِقابِ؛ فإنَّه واقِعٌ بهم لا مَحالةَ[٣].

- والتَّمهيلُ: مَصدرُ مَهَّلَ، بمَعنى: أمْهَلَ، وهو الإنْظارُ إلى وَقتٍ مُعيَّنٍ أو غَيرِ مُعيَّنٍ؛ فالجَمعُ بيْنَ (مَهِّلَ) و﴿أَمْهِلْهُمْ﴾؛ للتَّأكيدِ؛ لقَصدِ زِيادةِ التَّسكينِ والتَّصبيرِ، وخولِفَ بيْنَ الفِعلَينِ في التَّعديةِ مَرَّةً بالتَّضعيفِ وأُخْرى بالهَمزِ؛ لتَحسينِ التَّكريرِ، وطَلَبًا للخِفَّةِ[٤]. فلَمَّا كرَّرَ الأمرَ تَوكيدًا خالَفَ بيْنَ اللَّفظَينِ -﴿فَمَهِّلِ﴾ و﴿أَمْهِلْهُمْ﴾- على أنَّ الأوَّلَ مُطلَقٌ، وهذا الثَّاني مُقيَّدٌ بقولِه: ﴿رُوَيْدًۢا﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٧، ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨)، = = ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٣).

- والمُرادُ بالكافِرينَ في قولِه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾: ما عادَ عليْه ضَميرُ ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٥]؛ فهو إظْهارٌ في مَقامِ الإضْمارِ؛ للنِّداءِ عليْهم بمَذمَّةِ الكُفرِ، فليس المُرادُ جَميعَ الكافِرين، بل أُريدَ الكافِرون المَعْهودون[١].

- وقولُه: ﴿رُوَيْدًۢا﴾ مَصدَرٌ مُؤكِّدٌ لفِعلِ ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾، فقد أكَّدَ قولَه: ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مَرَّتَينِ، والمَعنى: انتَظِرْ ما سيَحُلُّ بهم، ولا تَستَعجِلْ لهم؛ انتِظارَ تَربُّصٍ واتِّيادٍ، فيَكونُ ﴿رُوَيْدًۢا﴾ كِنايةً عن تَحقُّقِ ما يَحُلُّ بهم مِن العِقابِ؛ لأنَّ المُطمَئنَّ لحُصولِ شَيءٍ لا يَستعجِلُ به. وتَصغيرُ ﴿رُوَيْدًۢا﴾؛ للدَّلالةِ على التَّقليلِ، أي: مُهلةً غَيرَ طَويلةٍ[٢].

ويَجوزُ أنْ يَكونَ ﴿رُوَيْدًۢا﴾ هُنا اسمَ فِعلٍ للأَمرِ، كما في قَولِهم: رُوَيدَك؛ لأنَّ اقتِرانَه بكافِ الخِطابِ إذا أُريدَ به اسمُ الفِعلِ ليس شَرطًا، ويَكونَ الوَقفُ على قولِه: ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، و﴿رُوَيْدًۢا﴾ كلامًا مُستقِلًّا؛ فليس وُجودُ فِعلٍ مِن مَعْناه قبْلَه بدَليلٍ على أنَّه مُرادٌ به المَصدَرُ، أي: تَصبَّرْ ولا تَستَعجِلْ نُزولَ العَذابِ بهم، فيَكونَ كِنايةً عن الوَعدِ بأنَّه واقِعٌ لا مَحالةَ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم في مشكلِ الإعرابِ (ص: ١٤٨).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الأعلَى

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ الأعلَى

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ:

١- سورةَ الأَعْلى[(١)].

٢- سورةَ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾:

فعن جابِرٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَلِّي مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قَومَه، فصَلَّى لَيلةً مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العِشاءَ، ثمَّ أتى قَومَه فأَمَّهم، فافتَتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)) وفيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لِمُعاذٍ رضيَ الله عنه: ((اقرَأْ ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾))[(٢)].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِي اللهُ عنهما، قال: ((جاءَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فما رأيتُ أهلَ المدينةِ فَرِحوا بشَيءٍ فَرَحَهم به، حتَّى رأيتُ الولائِدَ[(٣)] والصِّبيانَ يقولونَ: هذا رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد جاء، فما جاء رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حتَّى قرأتُ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ في سُوَرٍ مِثلِها))[(٤)].

---

(١) قال ابنُ عاشور: (وسمَّاها أكثرُ المُفَسِّرينَ وكُتَّابُ المصاحِفِ «سورةَ الأعلَى»؛ لوُقوعِ صفةِ الأعلَى فيها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٣) الولائِد: جمعُ وليدةٍ، وهي الجاريةُ الصَّغيرةُ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٢/ ٢٥٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٩/ ٣٨٤٣).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٤١).

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

**١- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن صَلاتَيِ الجُمُعةِ والعِيدِ.**

فعن النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في العيدَينِ وفي الجُمُعةِ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾، قال: وإذا اجتمَع العيدُ والجُمُعةُ في يومٍ واحدٍ يَقرَأُ بهما أيضًا في الصَّلاتَينِ))[(١)].

وعن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقرأُ في صلاةِ الجُمُعةِ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾))[(٢)].

وعنه أيضًا: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في العيدَينِ بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَـٰشِيَةِ﴾))[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٨).

ومِن حِكَمِ قِراءةِ سورةِ الأعلى وسورةِ الغاشيةِ في صلاةِ الجُمُعةِ والعيدينِ أنَّ فيهما مِن التَّذكيرِ بأحوالِ الآخرةِ والوعدِ والوعيدِ ما يُناسِبُ قِراءَتَهما في تلكَ الصَّلواتِ الجامعةِ. يُنظر: ((عون المعبود)) للعظيم آبادي (٣/ ٣٣٣).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١١٢٥) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (١٤٢٢)، وأحمدُ (٢٠١٥٠)

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٨٠٨)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٢/ ٥٣)، وابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٨٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١١٢٥)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (١١٢٥).

(٣) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٧٧٤) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٢٠٢١٧).

صحَّحه ابنُ حزم في ((المحلى)) (٥/ ٨٢)، والألبانيُّ في ((إرواء الغليل)) (٦٤٤)، وصَحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٣/ ٣٧٢).

ووَثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٢/ ٢٠٦)، والبوصيريُّ في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (٢/ ٣٣٠)، وذَكَر ثُبوتَه ابنُ العربيِّ في ((أحكام القرآن)) (٤/ ٣٧٨).

٢- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن الرَّكعتَينِ قبْلَ الوِتْرِ.

فعن عبدِ اللهِ بن عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُوتِرُ بثلاثٍ، يقرأُ في الأولى بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثَّانيةِ بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثَّالثةِ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[١].

## بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الأعلى مَكِّيَّةٌ[٢]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

إبرازُ جانبٍ عظيمٍ مِن نِعَمِ الله تعالى الَّتي لا تُحصَى[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- استِفتاحُ السُّورةِ بتَنزيهِ اللهِ تعالى.

---

(١) أخرجه الترمذيُّ (٤٦٢)، والنسائيُّ (١٧٠٢) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (١١٧٢)، وأحمدُ (٢٧٢٠). احتجَّ به ابنُ حزم في ((المحلى)) (٣/ ٥١)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٧٠٢)، وصحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((الخلاصة)) (١/ ٥٥٦)، وابنُ المُلَقِّنِ في ((البدر المنير)) (٤/ ٣٣٨).

(٢) وقيل: إنَّها مَدَنيَّةٌ. قال ابنُ عطيَّة: (وذلك ضَعيفٌ، وإنَّما دعا إليه قَولُ مَن قال: إنَّ ذِكرَ صَلاةِ العيدِ فيها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٣٩). ويُنظر: ((تفسير جرير)) (٢٤/ ٣٠٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٧٣٧).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣١).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٦٠).

٢- إقامةُ الأدِلَّةِ على وَحدانيَّةِ اللهِ سُبحانَه.

٣- امتِنانُ اللهِ تعالى على نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتأييدُه وتَثبيتُه.

٤- ذِكرُ المُنتَفِعينَ بالذِّكرى ومَن يُعرِضُ عنها ومَصيرُه.

٥- ذِكرُ بَعضِ ما في صُحُفِ إبراهيمَ ومُوسى عليهما السَّلامُ.

## الآيات (١-٨)

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿غُثَآءً﴾: أي: يابِسًا هَشيمًا جافًّا، والغُثاءُ: ما تحطَّمَ مِن يَبْسِ البَقلِ يأتي به السَّيلُ فيَقذِفُه على جانِبِ الوادي، وأصلُ (غثي): يدُلُّ على ارتفاعِ شَيءٍ دَنِيٍّ[1].

﴿أَحْوَىٰ﴾: أي: أَسْوَدَ بَعْدَ الخُضرةِ؛ وذلك أنَّ الرَّطْبَ إذا جَفَّ يَبِسَ واسْوَدَّ، وأصلُ (حوي): يدُلُّ على جَمعٍ[2].

### المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بخِطابِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قائلًا له: نَزِّهْ ربَّك الأَعْلى -يا محمَّدُ- بقَلْبِك ولسانِك عن كُلِّ سُوءٍ ونَقْصٍ، واذكُرْه بقَولِك: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى.

ثمَّ يقولُ تعالى واصفًا ذاتَه: هو الَّذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ مِنَ العَدَمِ، فأتْقَنَه وجعَلَه في أحسَنِ صورةٍ، والَّذي قدَّرَ مَقاديرَ الخلائِقِ، فهدى كُلَّ مَخلوقٍ لتَحصيلِ مَصالِحِه، والَّذي أخرَجَ مِنَ الأرضِ النَّباتَ أخضَرَ، فجَعَلَه يابِسًا أسْوَدَ بعْدَ أن

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٤٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤١٢، ٤١٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٣٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٩).

كان مُخضَرًّا.

ثمَّ يبيِّنُ سُبحانَه جانبًا مِن مَظاهرِ فضلِه على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيقولُ: سنُلْهِمُك -يا محمَّدُ- قِراءةَ القُرآنِ، فتحفَظُه في صَدْرِك، ولا تَنْساه، إلَّا ما شاء اللهُ أن يُنسِيَكه مِن القُرآنِ؛ إنَّ اللهَ يَعلَمُ السِّرَّ والعَلانيَةَ، ونشرعُ لك -يا محَمَّدُ- شرعًا سهلًا سَمحًا مُستقيمًا عَدلًا، ونسهِّلُ عليك أفعالَ الخَيرِ وأقوالَه، ونوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسْرى في كلِّ أمرٍ مِن أُمورِ الدِّينِ والدُّنيا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾.

أي: نَزِّهْ ربَّك -يا محمَّدُ- بقَلْبِك ولسانِك عن كُلِّ سُوءٍ ونَقْصٍ، وهو الخالِقُ المالِكُ المدَبِّرُ لكُلِّ شَيءٍ، المتَّصِفُ بالعُلُوِّ المُطلَقِ؛ واذكُرْه بقَولِك: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٠٩، ٣١٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (٦/ ١٩٩)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيِّم (٢/ ١٩٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (١/ ١٩)، ((نظم الدرر)) للبِقاعي (٢١/ ٣٨٨-٣٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٣، ٢٧٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٧، ١٥٨).

قيل: معنى الآيةِ: نَزِّهْ -يا محمَّدُ- اسمَ رَبِّك الأعلى أن تُسَمِّيَ به شَيئًا سِواه، فنَهاه بذلك أن يفعَلَ ما فعله المُشرِكونَ مِن تسميَتِهم آلهتَهم باللَّاتِ أو العُزَّى؛ فاللَّاتُ قيل: مشتقَّةٌ مِن اسمِ اللهِ، أو الإلهِ، والعُزَّى: مِنَ العزيزِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٠).

قال البِقاعي: (أمَرَ أكمَلَ خَلقِه رسولَه المُنزَّلَ عليه هذا القرآنُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بتنزيهِ اسمِه؛ لأنَّه وحْدَه العالِمُ بذلك حقَّ عِلمِه، وإذا نزَّه اسمَه عن أن يَدعوَ به وثَنًا أو غيرَه أو يَضَعَه في غيرِ ما يَليقُ به؛ كان لِذَاتِه سُبحانَه أشَدَّ تَنزيهًا). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٨٨).

وهذا المعنى الَّذي ذهب إليه ابنُ جرير، جَعَله ابنُ تيميَّةَ معنًى تابعًا للمرادِ مِنَ الآيةِ، وليس هو المعنى المقصودَ بها أصالةً -أي: أنَّ مِن لازِمِ تَنزيهِ المُسمَّى تنزيهَ اسمِه-، وذهب إلى أنَّ =

عن ابنِ عبَّاسٍ رضِيَ الله عنهما: (أنَّه كان إذا قرأ...: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ قال: سُبْحانَ ربِّيَ الأعلَى)[1].

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾.

---

= قولَه: ﴿ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ يعني: مُسَمَّى رَبِّك؛ لأنَّ التَّسبيحَ ليس للاسمِ، بل لله نَفْسِه. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (٦/ ١٩٩) و (١٦/ ٣٢٣).

وقيل: المعنى: سَبِّحْ رَبَّك ذاكِرًا اسمَه، يعني: لا تُسَبِّحْه بالقَلبِ فقط، بل سَبِّحْه بالقَلبِ واللِّسانِ، وذلك بذِكْرِ اسمِه تعالى. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الواحديُّ، وابنُ القيِّم وحكاه عن شيخِه ابنِ تيميَّةَ، واختاره ابنُ عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٨).

قال الرَّسْعَني: (قال الزَّجَّاجُ وجمهورُ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ: نَزِّهْ ربَّك عن السُّوءِ، وقُلْ: سُبحانَ رَبِّيَ الأعلى). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٨٧). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٦٩).

وقال ابنُ القَيِّم: (الذِّكْرُ الحقيقيُّ محلُّه القلبُ؛ لأنَّه ضدُّ النِّسيانِ، والتَّسبيحُ نَوعٌ مِن الذِّكْرِ، فلو أُطلِقَ الذِّكرُ والتَّسبيحُ لَمَا فُهِم منه إلَّا ذلك دونَ اللَّفظِ باللِّسانِ، واللهُ تعالى أراد مِن عِبادِه الأمْرَينِ جميعًا، ولم يَقْبَلِ الإيمانَ وعَقْدَ الإسلامِ إلَّا باقترانِهما واجتماعِهما، فصار معنى الآيتَينِ [أي: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ و﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾]: سَبِّحْ رَبَّك بقَلْبِك ولسانِك، واذكُرْ رَبَّك بقَلْبِك ولسانِك، فأقحَمَ الاسمَ تنبيهًا على هذا المعنى؛ حتَّى لا يَخلوَ الذِّكرُ والتَّسبيحُ مِنَ اللَّفظِ باللِّسانِ؛ لأنَّ ذِكرَ القَلْبِ مُتعَلَّقُه المُسمَّى المَدلولُ عليه بالاسمِ دون ما سِواه، والذِّكرَ باللِّسانِ متعَلَّقُه اللَّفظُ مع مَدلولِه؛ لأنَّ اللَّفظَ لا يُرادُ لنَفْسِه، فلا يَتوهَّم أحدٌ أنَّ اللَّفظَ هو المُسَبَّحُ دونَ ما يدُلُّ عليه مِن المعنى، وعَبَّرَ لي شيخُنا أبو العبَّاسِ ابنُ تيميَّةَ -قدَّس اللهُ رُوحَه- عن هذا المعنى بعبارةٍ لطيفةٍ وَجيزةٍ، فقال: المعنى: سَبِّحْ ناطِقًا باسمِ رَبِّك، مُتكَلِّمًا به، وكذا: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠]، ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ المعنى: سَبِّحْ رَبَّك ذاكِرًا اسْمَه). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٩).

(١) أخرجه عبد الرَّزَّاق (٤٠٥١) واللَّفظُ له، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٢١٠٠).

صحَّحه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٤٨)، وصحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((صفة الصلاة)) (ص: ١٠٥).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أمَرَ سُبحانَه بالتَّسبيحِ، فكأنَّ سائِلًا قال: الاشْتِغالُ بالتَّسبيحِ إنَّما يَكونُ بَعْدَ المَعرِفةِ؛ فما الدَّليلُ على وُجودِ الرَّبِّ؟ فقال[1]:

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢﴾.

أي: الَّذي خَلَق كُلَّ شَيءٍ مِنَ العَدَمِ، فأتْقَنَه وجعَلَه في أحسَنِ هَيئةٍ مُناسِبةٍ له[2].

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾.

أي: والَّذي قدَّرَ مَقاديرَ الخلائِقِ في ذَواتِها وصِفاتِها وأحوالِها، فهدى كُلَّ مَخلوقٍ لتَحصيلِ مَصالِحِه، وألهَمَه استِعمالَ قوَّتِه وأعضائِه وفِكْرِه في ذلك[3].

كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٠، ٣٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٥٩، ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٣٩، ١٤٠)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٨٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٣٥، ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٦، ٢٧٧).

ومِمَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: القرطبيُّ، وابنُ تيميَّةَ، وابن القيِّم، وابنُ كثيرٍ، والبِقاعي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وقال الفرَّاءُ: (﴿فَقَدَّرَ﴾ خلْقَه ﴿فَهَدَىٰ﴾ الذَّكرَ لِمَأْتى الأنثى مِن البهائمِ. ويُقالُ: قدَّرَ فهدى وأضَلَّ، فاكتفى مِن ذِكرِ الضَّلالِ بذِكرِ الهدى؛ لكثرةِ ما يكونُ معه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٥٦).

وقال سُبحانَه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَىۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان: ٢].

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كانت دلائِلُ التَّوحيدِ تارةً بالنَّفْسِ وتارةً بالآفاقِ، ونَبَّه بآياتِ النَّفْسِ، فلم يَبْقَ إلَّا آياتُ الآفاقِ، وكان النَّباتُ مِن آياتِها أدَلَّ المخلوقاتِ على البَعثِ؛ قال[1]:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ٤﴾.

أي: والَّذي أخرَجَ مِنَ الأرضِ النَّباتَ الأخضَرَ[2].

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان إيباسُه وتَسويدُه بَعْدَ اخضِرارِه ونُمُوِّه: في غايةِ الدَّلالةِ على تمامِ القُدرةِ

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٧، ٢٧٨).

وقد جَعَل بَعضُ المُفَسِّرينَ المرعى خاصًّا بالأنعامِ. ومنهم: ابنُ جرير، والسمعانيُّ، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٧، ٢٧٨).

ومنهم مَن جعله عامًّا للنَّاسِ والحيواناتِ، وهو ظاهرُ اختيارِ الرازيِّ، وابنِ كثير، واختاره السعديُّ. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٠).

وكَمالِ الاختيارِ، بمُعاقَبةِ الأضْدادِ على الذَّاتِ الواحِدةِ؛ قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ أي: بَعْدَ أطوارٍ مِن زَمَنِ إخراجِه ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾[١].

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥﴾.

أي: فجَعَلَ اللهُ ذلك المَرعى يابِسًا، وجعَلَ لَونَه قَريبًا مِنَ السَّوادِ بَعْدَ أن كان مُخضَرًّا ورَطْبًا[٢].

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَه تعالى بالتَّسبيحِ، وكان التَّسبيحُ لا يَتِمُّ إلَّا بقراءةِ ما أُنزِلَ عليه مِنَ القُرآنِ، وكان يتذكَّرُ في نَفْسِه مَخافةَ أن يَنْسى؛ فأزال عنه ذلك، وبَشَّرَه بأنَّه تعالى يُقرِئُه، وأنَّه لا يَنسى، واستثنى ما شاء أن يُنسِيَه لمصلحةٍ كالنَّسخِ وغيرِه[٣].

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾.

أي: سنُلْهِمُك -يا محمَّدُ- قِراءةَ القُرآنِ رَغْمَ كَونِك أُمِّيًّا لا تَقرَأُ ولا تَكتُبُ، وتحفَظُه في صَدْرِك، فلا تَنْساه[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٥، ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

قال الواحدي: (قال المفَسِّرونَ: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا نَزَل عليه القُرآنُ أكثَرَ تحريكَ لِسانِه؛ مَخافةَ أن يَنساه، وكان لا يَفرُغُ جِبريلُ مِن آخِرِ الوَحيِ حتَّى يتكَلَّمَ هو بأوَّلِه؛ مَخافةَ النِّسيانِ، فقال الله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وهذا كقَولِه: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ [طه: ١١٤] =

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ٧﴾.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أي: إلَّا ما شاء اللهُ أن يُنسِيَكه مِن القُرآنِ -يا محمَّدُ- وَفْقَ ما تَقتَضيه حِكْمتُه البالِغةُ(١).

= الآيةَ، وكقَولِه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦] الآيةَ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٧٠).
وقال القرطبي: (هذه بُشْرى مِن الله تعالى؛ بشَّرَه بأنْ أعطاه آيةً بَيِّنةً، وهي أن يَقرأَ عليه جِبريلُ ما يقرأُ عليه مِن الوَحيِ، وهو أُمِّيٌّ لا يَكتُبُ ولا يَقرَأُ، فيَحفَظُه ولا يَنساه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٥، ٣١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٩، ٢٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).
قال ابن الجوزي: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:
أحدُها: إلَّا ما شاء اللهُ أن يَنسَخَه فتَنْساه. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ.
والثَّاني: إلَّا ما شاء اللهُ أن تَنساه ثمَّ تَذكُرَه بعدُ. حكاه الزَّجَّاجُ.
والثَّالثُ: أنَّه استِثناءٌ لا يقَعُ قال الفرَّاءُ: لم يَشَأْ أن يَنسى شيئًا، فإنَّما هو كقولِه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧، ١٠٨]، ولا يَشاءُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٢). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٦)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٦).
ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والخازن، وأبو السعود، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٦٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤١).
وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: الحسَنُ، وقَتادةُ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٩).
وممَّن جمَع بيْن القولَينِ الأوَّلِ والثَّاني -أي: أنَّ النِّسيانَ بالنَّسخِ، أو ما يَعرِضُ مِن نِسيانٍ مؤقَّتٍ ثمَّ يتذَكَّرُها: ابنُ عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٠)، ((تفسير ابن =

= عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٢).

قال ابنُ عطية: (نِسيانُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ممتَنِعٌ فيما أُمِرَ بتبليغِه؛ إذ هو معصومٌ، فإذا بَلَّغَه ووُعِيَ عنه، فالنِّسيانُ جائِزٌ على أن يتذكَّرَ بعدَ ذلك، وعلى أن يَسُنَّ، أو على النَّسْخِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٩). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٦).

قال أبو حيَّان: (مفهومُ الآيةِ في غايةِ الظُّهورِ، وقد تعسَّفوا في فَهمِها. والمعنى أنَّه تعالى أخبَرَ أنَّه سيُقرِئُه، وأنَّه لا يَنسى إلَّا ما شاء اللهُ، فإنَّه يَنْساه؛ إمَّا النَّسخُ، وإما أن يَسُنَّ، وإمَّا على أن يتذَكَّرَ. وهو صلَّى الله عليه وسلَّم معصومٌ مِن النِّسيانِ فيما أُمِر بتبليغِه، فإن وقَع نِسيانٌ فيكونُ على وجْهٍ مِن الوُجوهِ الثَّلاثةِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦).

مما يدلُّ على النَّسخِ قولُه تبارك وتعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

ومما يدلُّ على الثاني ما ورد عن المُسَوَّرِ بنِ يَزيدَ المالِكيِّ رضيَ الله عنه، قال:((شَهِدْتُ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ في الصَّلاةِ، فترَكَ شيئًا لم يَقرَأْه، فقال له رجُلٌ: يا رسولَ الله، ترَكْتَ آيةَ كذا وكذا، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: هَلَّا أَذْكَرْتَنيها)). أخرجه أبو داودَ (٩٠٧)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٢٤١)، وحسَّنه الألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٩٠٧)، وحسَّنه لغيرِه شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((سنن أبي داود)) (٩٠٧).

ومما يدلُّ على الثالثِ وهو التَّذكُّرُ بعدَ النسيانِ ما ورَد عن عائشةَ رضيَ الله عنها، قالت: ((سَمِعَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلًا يَقرأُ في سورةٍ باللَّيلِ، فقال: يَرْحَمُه اللهُ، لقدْ أَذْكَرني كذا وكذا، آيةً كنتُ أُنْسِيتُها مِن سورةِ كذا وكذا)). أخرجه البخاريُّ (٥٠٣٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٧٨٨).

وممَّن ذهب إلى القولِ الثَّالثِ: الفرَّاءُ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٦).

وعن مجاهدٍ والكَلْبيِّ: أنَّ اللهَ أنزَل: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، فلمْ يَنْسَ النَّبيُّ بعْدَ ذلك شيئًا. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٢).

قال أبو حيَّانَ: (وقال الفرَّاءُ وجماعةٌ: هذا استثناءٌ صِلةٌ في الكلامِ على سُنَّةِ الله تعالى في الاستثناءِ، وليس ثَمَّ شيءٌ أُبيحَ استثناؤُه. وأخَذ الزمخشريُّ هذا القولَ فقال: وقال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾، والغرضُ نفْيُ النِّسيانِ رأسًا، كما يقولُ الرَّجُلُ لصاحِبِه: أنت سَهيمِي فيما أَملِكُ إلَّا ما شاء الله، ولا يَقصِدُ استثناءَ شيءٍ، وهو مِن استعمالِ القِلَّةِ في معنى النَّفيِ. انتهى. وقولُ الفرَّاءِ والزمخشريِّ يجعلُ الاستثناءَ كلا استثناءٍ، وهذا لا يَنبغي أن يكونَ في كلامِ الله تعالى، بل ولا =

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾.

أي: إنَّ اللهَ يَعلَمُ العَلانيَةَ والسِّرَّ [(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾ [طه: ٧].

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨﴾.

أي: ونشرحُ لك -يا محمَّدُ- شرعًا سهلًا سَمحًا مستقيمًا عَدلًا، ونُسهِّلُ عليك أفعالَ الخَيرِ وأقوالَه، ونُوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسرى في كلِّ أمرٍ مِن أمورِ الدِّينِ والدُّنيا[(٢)].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ تنبيهٌ على استِحقاقِ اللهِ تعالى

---

= في كلامٍ فصيحٍ.

وكذلك القولُ بأنَّ «لا» في ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ للنَّهيِ، والألِفَ ثابتةٌ لأجْلِ الفاصِلةِ، وهذا قولٌ ضعيفٌ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٢).

قال الشوكاني: (قال مقاتلٌ: أي: نُهَوِّنُ عليك عمَلَ الجنَّةِ. وقيل: نُوَفِّقُك للطَّريقةِ الَّتي هي أيسَرُ وأسهَلُ. وقيل: للشَّريعةِ اليُسرى، وهي الحَنيفيَّةُ السَّهلةُ. وقيل: نُهَوِّنُ عليك الوحيَ حتَّى تَحفظَه وتَعمَلَ له. والأَولى حملُ الآيةِ على العُمومِ، أي: نُوَفِّقُك للطَّريقةِ اليُسرى في الدِّينِ والدُّنيا في كلِّ أمرٍ مِن أُمورِهما الَّتي تتوجَّهُ إليك). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١٥).

وقال البِقاعي: (﴿وَنُيَسِّرُكَ﴾ أي: نجعَلُك أنت مُهَيَّأً مُسَهَّلًا مُلَيَّنًا مُوفَّقًا ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ أي: في حِفظِ الوَحيِ وتدَبُّرِه، وغيرِ ذلك مِنَ الطَّرائِقِ والحالاتِ كُلِّها الَّتي هي ليِّنةٌ سَهلةٌ خَفيفةٌ، كما أشار إليه قَولُه: «كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له»؛ ولهذا لم يَقُلْ: ونُيَسِّرُ لك؛ لأنَّه هو مطبوعٌ على حُبِّها). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٩٧).

التَّنزيهَ مِن كلِّ نَقصٍ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ دَلالةٌ على عُلُوِّ اللهِ تعالى[٢]؛ فالأعلى مفهومٌ في اللُّغةِ أنَّه أعلى كُلِّ شَيءٍ، وفَوقَ كُلِّ شَيءٍ، واللهُ قد وَصَفَ نَفْسَه في غيرِ مَوضِعٍ مِن تَنزيلِه ووَحْيِه، وأعلَمَنا أنَّه ﴿ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] [الشورى: ٤]، أفليس العَلِيُّ -يا ذَوِي الحِجَا- ما يكونُ عاليًا، لا كما تَزعُمُ المعَطِّلةُ الجَهميَّةُ أنَّه أعلى وأسفَلُ ووسَطٌ، ومع كُلِّ شَيءٍ، وفي كُلِّ مَوضِعٍ مِن أرضٍ وسماءٍ، وفي أجوافِ جميعِ الحيوانِ! ولو تدَبَّروا الآيةَ مِن كتابِ اللهِ ووفَّقَهم اللهُ لفَهْمِها، لعَقَلوا أنَّهم جُهَّالٌ لا يَفهَمونَ ما يقولونَ، وبان لهم جَهلُ أنفُسِهم، وخَطَأُ مَقالتِهم[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ سؤالٌ: ما الفائدةُ في دُخولِ الباءِ في قَولِه: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]، ولَمْ تَدْخُلْ في قَولِه هنا: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾؟

**الجوابُ**: التَّسبيحُ يُرادُ به التَّنزيهُ والذِّكْرُ المُجَرَّدُ دونَ معنًى آخَرَ، ويرادُ به ذلك مع الصَّلاةِ، وهو ذِكْرٌ وتنزيهٌ مع عَمَلٍ؛ ولهذا تُسَمَّى الصَّلاةُ تسبيحًا، فإذا أُريدَ التَّسبيحُ المُجَرَّدُ فلا معنَى للباءِ؛ لأنَّه لا يَتعَدَّى بحَرفِ جَرٍّ؛ فلا تقولُ: سَبَّحْتُ باللهِ، وإذا أرَدْتَ المَقْرونَ بالفِعلِ -وهو الصَّلاةُ- أَدْخَلتَ الباءَ؛ تنبيهًا على ذلك المرادِ؛ كأنَّك قلتَ: سَبِّحْ مُفتَتِحًا باسمِ ربِّك، أو ناطِقًا باسمِ ربِّك، كما تقولُ: صَلِّ مُفتَتِحًا أو ناطِقًا باسمِه؛ ولهذا السِّرِّ -واللهُ أعلَمُ- دخلتِ اللَّامُ في قَولِه تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمرادُ: التَّسبيحُ الَّذي

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٧).

(٢) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٨٨).

(٣) يُنظر: ((التوحيد)) لابن خزيمة (١/ ٢٥٧).

هو السُّجودُ والخُضوعُ والطَّاعةُ، ولَمْ يَقُلْ في موضِعٍ: «سَبَّحَ اللهَ ما في السَّمَواتِ والأرضِ» كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]، وتأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، كيف قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ لَمَّا ذَكَرَ السُّجودَ باسمِه الخاصِّ؛ فصار التَّسبيحُ ذِكْرَهم له، وتنزيهَهم إيَّاه[1].

٤- قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أفادَتْ تَعديةُ فِعلِ الأمْرِ بالتَّسبيحِ هنا إلى اسمٍ أنَّ المأمورَ به قولٌ دالٌّ على تَنزيهِ اللهِ بطَريقةِ إجراءِ الأخبارِ الطَّيِّبةِ، أو التَّوصيفِ بالأوصافِ المقدَّسةِ لإثباتِها إلى ما يدُلُّ على ذاتِه تعالَى مِن الأسماءِ والمَعاني. ولَمَّا كان أقوالًا كانت مُتعلِّقةً باسمِ اللهِ باعتبارِ دَلالتِه على الذَّاتِ، فالمأمورُ به إجراءُ الأخبارِ الشَّريفةِ والصِّفاتِ الرَّفيعةِ على الأسماءِ الدَّالَّةِ على اللهِ تعالَى مِن أعلامٍ وصِفاتٍ ونحْوِها، وذلك آيِلٌ إلى تَنزيهِ المسمَّى بتلك الأسماءِ، فتَسبيحُ اسمِ اللهِ النُّطقُ بتَنزيهِه بذِكْرٍ يَليقُ بجَلالِه مِن العقائدِ والأعمالِ؛ كالسُّجودِ والحمْدِ، ويَشملُ ذلك استِحضارَ النَّاطقِ بألفاظِ التَّسبيحِ مَعانيَ تلك الألفاظِ؛ إذ المقصودُ مِن الكلامِ معْناهُ، وبتَظاهُرِ النُّطقِ مع استحضارِ المعْنى يَتكرَّرُ المعْنى على ذِهنِ المتكلِّمِ، ويَتجدَّدُ ما في نفْسِه مِن تَعظيمٍ للهِ تعالَى، وأمَّا تَفكُّرُ العبدِ في عَظَمةِ اللهِ تعالَى وتَرديدُ تَنزيهِه في ذِهنِه، فهو تَسبيحٌ لِذاتِ اللهِ ومُسمَّى اسمِه، ولا يُسمَّى تَسبيحَ اسمِ اللهِ؛ لأنَّ ذلك لا يَجْري على لَفظٍ مِن أسماءِ اللهِ تعالَى، فهذا تَسبيحُ ذاتِ اللهِ، وليس تَسبيحًا لاسمِه، فهذا مِلاكُ التَّفرقةِ بيْنَ تَعلُّقِ لَفظِ التَّسبيحِ بلَفظِ اسمِ اللهِ نحْو: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾، وبيْن تَعلُّقِه بدُونِ اسمٍ نحْو: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ﴾ [الإنسان: ٢٦]، أو قُلْنا: ﴿هُوَ ٱللَّهُ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ٢٠).

ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ﴾ [الحشر: ٢٣] إلى آخِرِ السُّورةِ، كان ذلك تَسبيحًا لاسمِه تعالَى، وإذا نَفَيْنا الإلهيَّةَ عن الأصنامِ لأنَّها لا تَخلُقُ، كان ذلك تَسبيحًا لِذاتِ اللهِ لا لاسْمِه؛ لأنَّ اسمَه لم يَجْرِ عليه في هذا الكلامِ إخبارٌ ولا تَوصيفٌ، فهذا مَناطُ الفرْقِ بيْن استعمالِ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ واستعمالِ ﴿وَسَبِّحُوهُ﴾، ومآلُ الإطلاقَينِ في المعْنى واحدٌ؛ لأنَّ كِلا الإطلاقَينِ مُرادٌ به الإرشادُ إلى مَعرفةِ أنَّ اللهَ مُنَزَّهٌ عن النَّقائصِ[(١)].

٥- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ ضلالُ مَن سَلَبُوا أسماءَ اللهِ تعالى معانيَها مِن أهلِ التَّعطيلِ، وقالوا: إنَّ اللهَ تعالى سميعٌ بلا سَمْعٍ، وبصيرٌ بلا بَصَرٍ، وعزيزٌ بلا عِزَّةٍ، وهكذا! وعَلَّلُوا ذلك بأنَّ ثبوتَ الصِّفاتِ يَستَلْزِمُ تَعَدُّدَ القُدَماءِ؛ ففي هذه الآياتِ الكريمةِ أوصافٌ كثيرةٌ لموصوفٍ واحدٍ؛ ولَمْ يَلْزَمْ مِن ثبوتِها تَعَدُّدُ القُدَماءِ[(٢)]!

٦- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ أنَّ مَعرِفتَه سُبحانَه وعِلْمَه أكبرُ العُلومِ وأعلاها؛ ووجْهُه: أنَّ العِلْمَ مُطابِقٌ للمَعلومِ[(٣)]، والعِلمُ الأعلى هو العِلمُ بالأعلى؛ فهو رَبُّ كلِّ ما سِواه، فهو الأصلُ، فكذلك العِلمُ به سَيِّدُ جميعِ العُلومِ، وهو أصلٌ لها[(٤)].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ اعلَمْ أنَّ الاسْتِدلالَ بالخَلْقِ والهِدايةِ هي الطَّريقةُ المعتَمَدةُ عندَ أكابرِ الأنبياءِ عليهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٣، ٢٧٤).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٢٤).
(٢) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٩).
(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٨٨).
(٤) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٥/ ٢٦٨).

السَّلامُ، والدَّليلُ عليه ما حكى اللهُ تعالى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ أنَّه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، وحكى عن فِرعَونَ أنَّه لَمَّا قال لموسى وهارونَ عليهما السَّلامُ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]؟ قال موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وأمَّا محمَّدٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ فإنَّه تعالى أوَّلُ ما أنزَلَ عليه هو قولُه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢]، هذا إشارةٌ إلى الخَلْقِ، ثمَّ قال: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣، ٤]، وهذا إشارةٌ إلى الهدايةِ، ثمَّ إنَّه تعالى أعاد ذِكْرَ تلك الحُجَّةِ في هذه السُّورةِ، فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾، وإنَّما وَقَع الاستِدلالُ بهذه الطريقةِ كثيرًا؛ لأنَّ العَجائِبَ والغرائِبَ في هذه الطريقةِ أكثَرُ، ومُشاهَدةَ الإنسانِ لها واطِّلاعَه عليها أتَمُّ؛ فلا جَرَمَ كانت أقوى في الدَّلالةِ[1].

٨- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ فذكَرَ سُبحانَه أربعةَ أُمورٍ عامَّةً: الخَلقُ والتَّسويةُ والتَّقديرُ والهدايةُ، وجعَل التَّسويةَ مِن تمامِ الخَلقِ، والهدايةَ مِن تمامِ التَّقديرِ.

والتَّسويةُ شامِلةٌ لجميعِ مخلوقاتِه، وما يُوجَدُ مِن التَّفاوُتِ وعدمِ التَّسويةِ فهو راجعٌ إلى عدَمِ إعطاءِ التَّسويةِ للمَخلوقِ؛ فإنَّ التَّسويةَ أمرٌ وُجوديٌّ يتعلَّقُ بالتَّأثيرِ والإبداعِ، فما عُدِمَ منها فلِعَدَمِ إرادةِ الخالقِ للتَّسويةِ، وذلك أمرٌ عَدَميٌّ يكفي فيه عدمُ الإبداعِ والتَّأثيرِ؛ فتأمَّلْ ذلك فإنَّه يُزيلُ عنك الإشكالَ في قَولِه: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣]، فالتَّفاوُتُ حاصلٌ بسَبَبِ عدمِ مشيئةِ التَّسويةِ، كما أنَّ الجَهلَ والصَّمَمَ والعَمَى والخَرَسَ والبَكَمَ يَكْفي فيها عدمُ مشيئةِ خَلْقِها وإيجادِها، والمقصودُ أنَّ كلَّ مخلوقٍ فقد سوَّاه خالقُه سُبحانَه

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٢٨).

في مَرتَبةِ خَلْقِه، وإنْ فاتَتْه التَّسويةُ مِن وَجهٍ آخَرَ لَمْ يُخْلَقْ له[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أُوثِرَ وَصْفا التَّسويةِ والهِدايةِ مِن بَينِ صِفاتِ الأفعالِ الَّتي هي نِعَمٌ على النَّاسِ، ودالَّةٌ على استحقاقِ اللهِ تعالى للتَّنزيهِ؛ لأنَّ في هذين الوَصفَينِ مُناسَبةً بما اشتمَلَت عليه مِن السُّورةِ؛ فإنَّ الَّذي يُسَوِّي خَلْقَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تسويةً تُلائِمُ ما خَلَقَه مِن أجْلِه مِن تحَمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ: لا يَفوتُه أن يُهَيِّئَه لحِفظِ ما يُوحيه إليه، وتيسيرِه عليه، وإعطائِه شَريعةً مُناسِبةً لذلك التَّيسيرِ؛ قال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وقال: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾[٢].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ بيانُ أنَّ اللهَ خَلَقَ الأشياءَ لحِكمةٍ وغايةٍ تَصِلُ إليها؛ فقد ذَكَرَ سُبحانَه خَلْقَه، وذَكَرَ هدايتَه وتعليمَه بعدَ الخَلْقِ؛ لأنَّ جميعَ المخلوقاتِ خُلِقَتْ لغايةٍ مقصودةٍ بها؛ فلا بُدَّ أنْ تُهدَى إلى تلك الغايةِ الَّتي خُلِقَتْ لها، فلا تَتِمُّ مصلحتُها وما أُريدتْ له إلَّا بهدايتِها لغاياتِها[٣].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أنَّ العَطفَ قد يكونُ لتغايرِ الصِّفاتِ مع اتِّحادِ الذَّاتِ[٤].

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أنَّ كلَّ أعمالِ النَّاسِ تابعةٌ لهَدْيِ اللهِ إيَّاهم[٥].

---

(١) يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٣٠).

(٤) يُنظر: ((النبوات)) لابن تيمية (٢/ ٧٥٩).

(٥) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (١/ ١٠٠).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أنَّه سُبحانَه خَلَقَ الحيوانَ مُهتَدِيًا إلى طَلَبِ ما ينفَعُه، ودَفْعِ ما يَضُرُّه[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ بِشارةٌ كَبيرةٌ مِنَ اللهِ لعَبْدِه ورَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أنَّ اللهَ سيُعَلِّمُه عِلمًا لا يَنساه[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أنَّه يجوزُ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَنسى ما لا يَتَعَلَّقُ بالإبلاغِ[٣].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ مُعجِزةٌ، وذلك مِن وَجهَينِ:

**الأوَّلُ**: أنَّه كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلًا أمِّيًّا؛ فحِفْظُه لهذا الكِتابِ المطَوَّلِ مِن غيرِ دِراسةٍ ولا تَكرارٍ ولا كتابةٍ: خارِقٌ للعادةِ؛ فيكونُ مُعجِزًا.

**الثَّاني**: أنَّ هذه السُّورةَ مِن أوائِلِ ما نَزَل بمكَّةَ؛ فهذا إخبارٌ عن أمرٍ عَجيبٍ غَريبٍ مخالفٍ للعادةِ سيقَعُ في المُستقبَلِ، وقد وَقَع، فكان هذا إخبارًا عن الغَيبِ؛ فيكونُ مُعجِزًا[٤].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ * إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ سُؤالٌ: أنَّ في الآياتِ دَلالةً على أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَنْسى مِن القُرآنِ ما شاء اللهُ أن يَنْساه، وقد جاءت آياتٌ كَثيرةٌ تدُلُّ على حِفْظِ القُرآنِ مِنَ الضَّياعِ، كقَولِه تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦، ١٧]، وقَولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]!

---

(١) يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (٨/ ٣٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٠).

**الجوابُ**: أنَّ القُرآنَ وإن كان محفوظًا مِنَ الضَّياعِ فإنَّ بَعْضَه يَنسَخُ بَعضًا، وإنساءُ اللهِ نَبيَّه بَعْضَ القُرآنِ في حُكمِ النَّسخِ، فإذا أنساه آيةً فكأنَّه نسَخَها، ولا بُدَّ أن يأتيَ بخَيرٍ منها أو مِثْلِها، كما صَرَّحَ به تعالى في قَولِه: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقَولِه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ [النحل: ١٠١]، وأشار هنا لعِلْمِه بحِكمةِ النَّسخِ بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾[(١)].

١٨- قال تعالى ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ مُناسَبةُ الجهْرِ وما يَخْفى أنَّ ما يَقرَؤُه الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن القُرآنِ هو مِن قَبيلِ الجهْرِ، فاللهُ يَعلَمُه، وما يَنساهُ فيُسقِطُه مِن القُرآنِ هو مِن قَبيلِ الخَفيِّ، فيَعلَمُ اللهُ أنَّه اخْتَفى في حافظتِه حِينَ القِراءةِ، فلم يَبرُزْ إلى النُّطقِ به[(٢)].

١٩- قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾، ومِن ذلك أنَّه يَعلَمُ ما يُصلِحُ عِبادَه، أي: فلذلك يَشرَعُ ما أراد، ويَحكُمُ بما يُريدُ[(٣)].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ بِشارةٌ كَبيرةٌ؛ أنَّ اللهَ يُيَسِّرُ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لليُسْرى في جميعِ أمورِه، ويَجعَلُ شَرْعَه ودِينَه يُسْرًا[(٤)].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى * ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ * فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٧).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ الافتِتاحُ بأمْرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُسبِّحَ اسمَ ربِّه بالقَولِ، يُؤذِنُ بأنَّه سيُلْقي إليه عَقِبَه بِشارةً وخيرًا له، وذلك قولُه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ...﴾ [الأعلى: ٦] الآياتِ؛ ففيه بَراعةُ استهلالٍ[١].

- وتَعريفُ ﴿ٱسْمَ﴾ بطَريقِ الإضافةِ إلى ﴿رَبِّكَ﴾ دُونَ تَعريفِه بالإضافةِ إلى عَلَمِ الجَلالةِ نحْوَ: سبِّحِ اسمَ اللهِ؛ لِما يُشعِرُ به وصْفُ (ربّ) مِن أنَّه الخالقُ المدَبِّرُ[٢].

- وإضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتَشريفِه بهذه الإضافةِ، وأنْ يكونَ له حظٌّ زائدٌ على التَّكليفِ بالتَّسبيحِ[٣].

- أُجرِيَ على لَفظِ ﴿رَبِّكَ﴾ صِفةُ ﴿ٱلْأَعْلَى﴾ وما بعْدَها مِن الصِّلاتِ الدَّالَّةِ على تَصرُّفاتِ قُدرتِه؛ فهو مُستحِقٌّ للتَّنزيهِ لصِفاتِ ذاتِه ولصِفاتِ إنعامِه على النَّاسِ بخَلْقِهم في أحسَنِ تَقويمٍ، وهِدايتِهم، ورَزقِهم، ورَزقِ أنعامِهم؛ للإيماءِ إلى مُوجِبِ الأمرِ بتَسبيحِ اسْمِه بأنَّه حَقيقٌ بالتَّنزيهِ استِحقاقًا لِذاتِه، ولِوَصْفِه بصِفةِ أنَّه خالقُ المخلوقاتِ خلْقًا يدُلُّ على العِلمِ والحِكمةِ وإتْقانِ الصُّنعِ، وبأنَّه أنعَمَ بالهُدى والرِّزقِ اللَّذَينِ بهما استِقامةُ حالِ البشَرِ في النَّفْسِ والجسَدِ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٢).

براعة الاستهلال: هي كونُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ لأجلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بلْ بألْطفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ. ينظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (ص: ٥)، ((علوم البلاغة)) لأحمد المراغي (ص: ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وأُوثِرَت الصِّفاتُ الثَّلاثُ الأُوَلُ؛ لِما لَها مِن المُناسَبةِ لغرَضِ السُّورةِ[١].

- و﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ اسمُ تفضيلٍ، حُذِفَ المُفَضَّلُ عليه؛ ليَدُلَّ على العُمومِ، يعني: الأعلى على كُلِّ شَيءٍ[٢].

- وإيثارُ وصْفِ ﴿ٱلۡأَعۡلَى﴾ في هذه السُّورةِ؛ لأنَّها تَضمَّنَت التَّنويهَ بالقُرآنِ، والتَّثبيتَ على تَلقِّيه وما تَضمَّنه مِن التَّذكيرِ؛ وذلك لعُلوِّ شَأنِه؛ فهو مِن مُتعلَّقاتِ وصْفِ العُلوِّ الإلهيِّ؛ إذ هو كَلامُه[٣].

- ومَفعولُ ﴿خَلَقَ﴾ مَحذوفٌ؛ فيَجوزُ أنْ يُقدَّرَ عامًّا، أي: خلَقَ كلَّ شَيءٍ، ويجوزُ أنْ يُقدَّرَ خاصًّا، أي: خلَقَ الإنسانَ، أو خلَقَ آدَمَ، بقَرينةِ قرْنِ فِعلِ ﴿خَلَقَ﴾ بفِعلِ (سوَّى)؛ قال تعالَى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] الآيةَ[٤].

- وعطْفُ جُملةِ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ بالفاءِ دونَ الواوِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَضمونَها هو المقصودُ مِن الصِّلةِ، وأنَّ ما قبْلَه تَوطئةٌ له؛ فالفاءُ مِن قولِه: ﴿فَسَوَّىٰ﴾ للتَّفريعِ في الذِّكرِ باعتبارِ أنَّ الخلْقَ مُقدَّمٌ في اعتبارِ المُعتبِرِ على التَّسويةِ، وإنْ كان حُصولُ التَّسويةِ مُقارِنًا لحُصولِ الخلْقِ؛ ولكَونِ التَّسويةِ مُقارِنةً للخلْقِ عُطِفَ على فِعلِ ﴿خَلَقَ﴾ فِعلُ ﴿فَسَوَّىٰ﴾ بالفاءِ المُفيدةِ التَّسبُّبَ، أي: تَرتُّبَ التَّسويةِ على الخلْقِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ١٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٥، ٢٧٦).

- وإعادةُ اسمِ المَوصولِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ وقولِه: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾، مع إغناءِ حرْفِ العطْفِ عن تَكريرِه؛ للاهتِمامِ بكلِّ صِلةٍ مِن هذه الصِّلاتِ وإثباتِها لمَدلولِ الموصولِ، وهذا مِن مُقتضَياتِ الإطنابِ[١].

- وأيضًا عطْفُ قولِه: ﴿فَهَدَىٰ﴾ بالفاءِ مِثلُ عطْفِ ﴿فَسَوَّىٰ﴾، فعُطِفَ بالفاءِ دونَ الواوِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مَضمونَه هو المقصودُ مِن الصِّلةِ، وأنَّ ما قبْلَه تَوطئةٌ له، وعَطْفُ ﴿فَهَدَىٰ﴾ على ﴿قَدَّرَ﴾ عَطْفُ المُسبَّبِ على السَّببِ، أي: فهَدَى كلَّ مُقدَّرٍ إلى ما قُدِّرَ له[٢].

- ومَفعولُ (هَدَى) مَحذوفٌ؛ لإفادةِ العُمومِ، وهو عامٌّ مَخصوصٌ بما فيه قابليَّةُ الهدْيِ، فهو مَخصوصٌ بذَواتِ الإدراكِ والإرادةِ، وهي أنواعُ الحيوانِ؛ فإنَّ الأنواعَ الَّتي خلقَها اللهُ وقدَّرَ نِظامَها ولم يُقدِّرْ لها الإدراكَ مِثل تقديرِ الإثمارِ للشَّجرِ، فذلك غيرُ مرادٍ مِن قولِه: ﴿فَهَدَىٰ﴾؛ لأنَّها مخلوقةٌ ومُقدَّرةٌ، ولكنَّها غيرُ مَهديَّةٍ لعدمِ صلاحِها للاهتداءِ. وإنْ جُعِلَ مَفعولُ ﴿خَلَقَ﴾ خاصًّا -وهو الإنسانُ- كان مَفعولُ ﴿قَدَّرَ﴾ على وِزانِه، أي: تَقديرُ كَمالِ قُوى الإنسانِ، وكانتِ الهدايةُ هِدايةً خاصَّةً، وهي دَلالةُ الإدراكِ والعقلِ[٣].

- وقيل: في قولِه: ﴿فَهَدَىٰ﴾ اكتِفاءٌ[٤]، .....

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧٦، ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧٧).

(٤) الاكتفاءُ: هو أنْ يَقتضيَ المقامُ ذِكْرَ شيئَينِ بَيْنَهما تَلازُمٌ وارتباطٌ، فيُكتفَى بأحدِهما عن الآخَرِ؛ لنُكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ومثالُ ذلك قولُ اللهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]؛ ففي قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ =

والتَّقديرُ: فهَدَى وأضَلَّ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قولُه: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ تَذكيرٌ بخَلْقِ جِنسِ النَّباتِ مِن شَجَرٍ وغيرِه، واقتُصِرَ على بَعضِ أنواعِه -وهو الكلأُ-؛ لأنَّه مَعاشُ السَّوائمِ الَّتي يَنتفِعُ النَّاسُ بها[٢]. وذلك على قولٍ.

- وإيثارُ كَلمةِ ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ دُونَ لَفظِ النَّباتِ؛ لِما يُشعِرُ به مادَّةُ الرَّعْيِ مِن نفْعِ الأنعامِ به، ونفْعِها للنَّاسِ الَّذين يَتَّخِذونها، مع رِعايةِ الفاصِلةِ[٣]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ الغُثاءُ: اليابسُ مِن النَّبْتِ، و﴿أَحۡوَىٰ﴾ أي: المَوصوفَ بالحُوَّةِ، وهي مِن الألوانِ: سُمرةٌ تَقرُبُ مِن السَّوادِ، وهو صِفةٌ لـ﴿غُثَآءً﴾؛ لأنَّ الغُثاءَ يابسٌ، فتَصيرُ خُضرتُه حُوَّةً. وهذا الوصْفُ ﴿أَحۡوَىٰ﴾ لاسْتِحْضارِ تَغيُّرِ لَونِه بعْدَ أنْ كان أخضَرَ يانعًا، وذلك دَليلٌ على تَصرُّفِه تعالَى بالإنشاءِ وبالإنهاءِ[٤].

وقيل: ﴿أَحۡوَىٰ﴾ حالٌ مِن ﴿ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾، أي: أخْرَجَ المَرعَى أحْوى، أي: للسَّوادِ مِن شِدَّةِ خُضرتِه ونَضارتِه لكَثرةِ رِيِّه، وحَسُنَ تَأخيرُ ﴿أَحۡوَىٰ﴾؛ مِن أجْلِ الفواصِلِ[٥].

- وفي وَصْفِ إخراجِ اللهِ تعالَى المرْعَى وجَعْلِه غُثاءً أحْوى، مع ما سَبَقَه

---

= تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ إيجازٌ بالحذفِ على سبيلِ الاكتِفاءِ، إذِ التَّقْديرُ: تَقيكُمُ الحَرَّ والبَرْدَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ١١٨)، ((خزانة الأدب)) لابن حجة الحموي (١/ ٢٨٢)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٥)، ((البلاغة العربية)) للميداني (٢/ ٤٨).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٤٩).

مِنَ الأوصافِ في سِياقِ المناسَبةِ بيْنَها وبيْن الغرَضِ المَسوقِ له الكَلامُ: إيماءٌ إلى تَمثيلِ حالِ القُرآنِ وهِدايتِه، وما اشتمَلَ عليه مِن الشَّريعةِ الَّتي تَنفَعُ الناسَ، بحالِ الغَيثِ الَّذي يَنبُتُ به المرْعى، فتَنتَفِعُ به الدَّوابُّ والأنعامُ، وإلى أنَّ هذه الشَّريعةَ تَكمُلُ ويَبلُغُ ما أرادَ اللهُ فيها كما يَكمُلُ المرْعى ويَبلُغُ نُضْجَه حينَ يَصيرُ غُثاءً أحْوى، وقد جاء بَيانُ هذا الإيماءِ وتَفصيلُه بقولِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ ما بَعَثَني اللهُ به مِن الهُدى والعِلمِ، كمَثَلِ الغَيثِ الكثيرِ أصاب أرضًا، فكان منها نَقيَّةٌ[١] قَبِلَت الماءَ فأنْبَتَت الكَلأَ والعُشبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادِبُ[٢] أمسَكَت الماءَ، فنَفَعَ اللهُ بها النَّاسَ، فشَرِبوا وسَقَوا وزَرَعوا...))[٣] الحديثَ[٤].

ويجوزُ أنْ يكونَ المقصودُ مِن جُملةِ ﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ إدماجَ العِبرةِ بتَصاريفِ ما أَودَعَ اللهُ في المخلوقاتِ مِن مُختلِفِ الأطوارِ مِن الشَّيءِ إلى ضِدِّه؛ للتَّذكيرِ بالفَناءِ بعْدَ الحياةِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ مُدَّةَ نَضارةِ الحَياةِ للأشياءِ تُشبِهُ المدَّةَ القصيرةَ، فجِيءَ بالحرْفِ الموضوعِ لعَطْفِ ما يَحصُلُ فيه حُكْمُ المعطوفِ بعْدَ زمَنٍ قَريبٍ مِن زمَنِ حُصولِ المعطوفِ عليه، وهو الفاءُ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ۝ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾

(١) نَقيَّةٌ: أي: طَيِّبةٌ. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (١/ ١٧٩).

(٢) الأجادِبُ: الأرضُ الصُّلبةُ الَّتي تُمسِكُ الماءَ؛ مِنَ الجَدْبِ، وهو القَحْطُ، سَمَّاها أجادِبَ؛ لأنَّها لِصَلابَتِها لا تُنبِتُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (١/ ٢٤٢)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٥/ ٤٧)، ((مرقاة المفاتيح)) للملا الهروي (١/ ٢٣٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٧٩)، ومسلمٌ (٢٢٨٢) مِن حديث أبي موسى الأشعريِّ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٨).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٧٩).

- قولُه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ الأمْرُ بالتَّسبيحِ في قولِه: ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ [الأعلى: ١] بِشارةٌ إجماليَّةٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بخَيرٍ يَحصُلُ له؛ فهذا مَوقعُ البَيانِ الصَّريحِ بوَعْدِه بأنَّه سيَعصِمُه مِن نِسيانِ ما يُقرِئُه، فيُبلِّغُه كما أُوحِيَ إليه، ويَحفَظُه مِن التَّفلُّتِ عليه، ولهذا تكونُ هذه الجُملةُ استئنافًا بَيانيًّا؛ لأنَّ البِشارةَ تُنشِئُ في نفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَرقُّبًا لوعْدٍ بخَيرٍ يأْتيهِ، فبَشَّرَه بأنَّه سيَزيدُه مِن الوحْيِ، مع ما فُرِّعَ على قولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ مِن قولِه: ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾. وإنَّما ابتُدِئَ بقولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾؛ تَمهيدًا للمَقصودِ الذي هو ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾، وإدماجًا للإعلامِ بأنَّ القرآنَ في تَزايُدٍ مُستمِرٍّ، فإذا كان قد خاف مِن نِسيانِ بعضِ ما أُوحِيَ إليه على حِينِ قِلَّتِه، فإنَّه سيَتتابَعُ ويَتكاثَرُ، فلا يَخشَى نِسيانَه؛ فقد تَكفَّلَ له عدَمَ نِسيانِه مع تَزايُدِه[1].

- والسِّينُ في قولِه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾ إمَّا للتَّأكيدِ، وإمَّا لأنَّ المرادَ إقراءُ ما أَوحَى اللهُ إليه حِينَئذٍ وما سيُوحِي إليه بعْدَ ذلك؛ فهو وَعْدٌ باستِمرارِ الوحْيِ في ضِمنِ الوعْدِ بالإقراءِ؛ فالسِّينُ عَلامةٌ على استِقبالِ مَدخولِها، وهي تُفيدُ تَأكيدَ حُصولِ الفِعلِ، وخاصَّةً إذا اقتَرَنَت بفِعلٍ حاصلٍ في وقْتِ التَّكلُّمِ؛ فإنَّها تَقْتضي أنَّه يَستمِرُّ ويَتجدَّدُ، وذلك تَأكيدٌ لحُصولِه، وإذ قد كان قولُه: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ إقراءً، فالسِّينُ دالَّةٌ على أنَّ الإقراءَ يَستمِرُّ ويَتجدَّدُ[2].

- والالْتفاتُ بضَميرِ المتكلِّمِ المعظِّمِ نفْسَه ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾؛ لأنَّ التَّكلُّمَ أنسَبُ بالإقبالِ على المبشَّرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٠).

- قولُه: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيه الالْتفاتُ إلى الاسمِ الجَليلِ؛ لتَربيةِ المهابةِ، والإيذانِ بدَورانِ المشيئةِ على عُنوانِ الأُلوهيَّةِ المسْتتبِعةِ لِسائرِ الصِّفاتِ[١].

- وجُملةُ ﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ جُملةُ اعتِراضٍ، وهي تَعليلٌ لجُملةِ ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ فإنَّ مَضمونَ تلك الجُملةِ ضَمانُ اللهِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حِفظَ القرآنِ مِن النَّقصِ العارضِ[٢].

- قولُه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ عطْفٌ على ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]، وهذا العطْفُ مِن عطْفِ الأعمِّ على الأخصِّ في المآلِ، وإنْ كان مَفهومُ الجُملةِ السَّابقةِ مُغايرًا لمَفهومِ التَّيسيرِ؛ لأنَّ مَفهومَها الحِفظُ والصِّيانةُ، ومَفهومَ المعطوفةِ تَيسيرُ الخَيرِ له[٣].

- وتَعليقُ التَّيسيرِ به عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، مع أنَّ الشَّائعَ تَعليقُه بالأُمورِ المُسَخَّرةِ للفاعلِ -كما في قولِه تعالَى: ﴿وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٦]-؛ للإيذانِ بقوَّةِ تَمكينِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن اليُسْرى والتَّصرُّفِ فيها، بحيثُ صارَ ذلكَ مَلَكةً راسخةً له، كأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ جُبِلَ عليها، كما في قولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((اعمَلُوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له))[٤]، ومعْنى اللاَّمِ في قولِه: ﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ العِلَّةُ، أي: لأجْلِ اليُسرى، أي: لقَبولِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٣٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٣٩٧، ٣٩٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨١).

(٤) أخرجه البخاريُّ (٤٩٤٥-٤٩٤٩)، ومسلمٌ (٢٦٤٧) مِن حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٢).

- ويجوزُ أنْ يُجعَلَ الكلامُ في قولِه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ جاريًا على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ بسُلوكِ أُسلوبِ القلْبِ[١]، وأنَّ الأصلَ: ونُيسِّرُ لك اليُسرى، أي: نَجعَلُها سَهلةً لك فلا تَشُقُّ عليك -وذلك على أنَّ الموصوفَ مَحذوفٌ، وتقديرُه: للشَّريعةِ. وفي وَصْفِ الشَّريعةِ -على هذا التَّقديرِ- بـ(اليُسْرى) إيماءٌ إلى استِتبابِ تَيسُّرِه لها بما أنَّها جُعِلَت يُسْرى، فلم يَبْقَ إلَّا حِفظُه مِن الموانعِ الَّتي يشُقُّ معها تَلقِّي اليُسرى، فاشتَمَلَ الكلامُ على تَيسيرَينِ: تَيسيرِ ما كُلِّفَ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: جَعْلِه يَسيرًا مع وَفائِه بالمقصودِ منه، وتَيسيرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للقيامِ بما كُلِّفَ به، ويُوجَّهُ العُدولُ عن مُقْتضى ظاهرِ النَّظمِ إلى ما جاء النَّظمُ عليه بأنَّ فيه تَنزيلَ الشَّيءِ الميسَّرِ مَنزِلةَ الشَّيءِ الميسَّرِ له، والعكْس؛ للمُبالَغةِ في ثُبوتِ الفعلِ للمفعولِ على طَريقةِ القلْبِ المقبولِ، كقولِ العرَبِ: عرَضْتُ النَّاقةَ على الحَوضِ[٢].

- واليُسرى: مُؤنَّثُ الأيسَرِ، وصِيغةُ (فُعلى) تدُلُّ على قوَّةِ الوصْفِ؛ لأنَّها مُؤنَّثُ (أفْعَلَ)[٣].

---

(١) القلبُ: هو جعلُ أحدِ أجزاءِ الكلامِ مكانَ الآخَرِ لِغَيرِ داعٍ مَعْنويٍّ، دُونَ تَعقيدٍ ولا خطأٍ ولا لَبْسٍ، وهو من تخريجِ الكلامِ على خِلافِ مُقتَضَى الظَّاهِرِ، ويَقصِدُه البُلَغاءُ تزيينًا للكلامِ. ومنه ما ليس بمُطَّرِدٍ؛ نحو: (عرَضْتُ النَّاقةَ على الحَوْضِ)، و: (أدخلتُ الخاتمَ في إصبَعي)، ومنه مُطَّرِدٌ في الكلامِ، كثير عِندَهم، حتَّى صار أكثَرَ مِنَ الأصلِ؛ نحو قولِهم: (ما كادَ يَفعلُ كذا)، يُريدونَ: كاد ما يَفعلُ. وعليه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١]، وقولُه: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [النور: ٤٠]. يُنظر: ((شرح الأبيات المشكلة الإعراب)) لأبي علي الفارسي (ص: ١٠٥)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢١١)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٥٨، ١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٢، ٢٨٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٨٢).

## الآيات (٩-١٥)

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَصْلَى﴾: أي: يَرِدُ ويدخلُ، يقالُ: صَلِيَ النَّارَ وصَلِيَ بها صُلِيًّا، وصِلِيًّا، وصلَّى: قاسَى حَرَّها وشِدَّتَها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّار[١].

﴿أَفْلَحَ﴾: أي: فاز بالمطلوبِ، ونجا مِن المرهوبِ، وأصلُ الفلاحِ: البقاءُ والفوزُ والظَّفَرُ، وإدراكُ البُغيةِ، ثمَّ قيل لكلِّ مَن عقَل وحزُمَ وتكاملتْ فيه خِلالُ الخَيرِ، والعربُ تقولُ لكلِّ مَن أصاب خيرًا: مُفلِحٌ، وأصلُ (فلح) هنا: يدُلُّ على فَوزٍ وبَقاء[٢].

﴿تَزَكَّىٰ﴾: أي: تَطَهَّر مِن الكُفرِ ومَعاصي اللهِ، وعَمِل بما أمَره اللهُ به، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على طهارةٍ ونَماءٍ وزِيادةٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٢٩٢) و(٢٢/ ١٧٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عُبَيدة (١/ ٢٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٩)، ((غريب القرآن)) للسِّجِسْتاني (ص: ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٠)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهَرَوي (٥/ ١٤٧١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٢٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (١١/ ٢٢٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّذكيرِ: فذَكِّرْ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ إذا رَجَوتَ نَفعًا في التَّذكيرِ، سيَتذَكَّرُ بالقُرآنِ ويَعتَبِرُ بمَوعِظَتِه مَن يَخْشى اللهَ تعالى، ويَبتَعِدُ الكافِرُ عن الذِّكرى، ولا ينتَفِعُ بها؛ الَّذي يَدخُلُ نارَ الآخِرةِ العُظمى، ويُقاسي شِدَّةَ حَرِّها، ثمَّ لا يَموتُ في النَّارِ ولا يَحْيا.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه حُسنَ عاقِبةِ المؤمنينَ، وأسبابَ ذلك، فيقولُ: قد نَجَح وفازَ مَن تطَهَّرَ مِن الكُفرِ والمعاصي، وذَكَر اللهَ سُبحانَه وتعالى؛ فأقبَلَ على الصَّلاةِ للهِ تعالى.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا تكَفَّل سُبحانَه بتيسيرِ جَميعِ مَصالحِ الدُّنيا والآخرةِ، أمَرَ بدَعوةِ الخَلْقِ إلى الحَقِّ[1].

وأيضًا لَمَّا أخبَرَ أنَّه يُقرِئُه ويُيسِّرُه، أمَرَه بالتَّذكيرِ؛ إذ ثَمرةُ الإقراءِ هي انتفاعُه في ذاتِه، وانتفاعُ مَن أُرسِلَ إليهم[2].

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾.

أي: فذَكِّرْ -يا محمَّدُ- بالقُرآنِ إذا رَجَوتَ نَفعًا في التَّذكيرِ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٧-٢٥٩). =

= ومِمَّن ذهب في الجملةِ إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ كثير، والبِقاعي، والسعدي، والشنقيطي. يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ تيميَّةَ: (قولُه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أمرٌ بتذكيرِ كُلِّ أحدٍ، فإن انتفَعَ كان تذَكُّرُه تامًّا نافِعًا، وإلَّا حَصَل أصلُ التَّذكيرِ الَّذي قامت به الحُجَّةُ، ودَلَّ ذلك على ذَمِّه واستِحقاقِه التَّوبيخَ، مع أنَّه سُبحانَه إنَّما قال: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾، ولم يقُلْ: ذكِّرْ مَن تَنفَعُه الذِّكْرى فقط... ولم يقُلْ: سيَنتَفِعُ مَن يَخشى؛ فإنَّ النَّفعَ الحاصِلَ بالتَّذكيرِ أعَمُّ مِن تذَكُّرِ مَن يَخشى؛ فإنَّه إذا ذَكَّر قامت الحُجَّةُ على الجميعِ، والأشقى الَّذي تجَنَّبَها حصَلَ بتذكيرِه قيامُ الحُجَّةِ عليه، واستِحقاقُه لعذابِ الدُّنيا والآخِرةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ١٦٩).

وقال الشنقيطي: (الَّذي يظهَرُ لمقَيِّدِ هذه الحروفِ -عفا الله عنه- هو بقاءُ الآيةِ الكريمةِ على ظاهِرِها، وأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعدَ أن يكَرِّرَ الذِّكرى تكريرًا تقومُ به حُجَّةُ اللهِ على خَلْقِه: مأمورٌ بالتَّذكيرِ عندَ ظَنِّ الفائدةِ... وبيانُ ذلك أنَّه تارةً يَعلمُه بإعلامِ اللهِ به، كما وقَعَ في أبي لهبٍ... وتارةً يَعلَمُ ذلك بقرينةِ الحالِ، بحيث يُبلِّغُ على أكمَلِ وَجهٍ، ويأتي بالمعجزاتِ الواضِحةِ، فيَعلَمُ أنَّ بَعضَ الأشخاصِ عالمٌ بصِحَّةِ نبُوَّتِه، وأنَّه مُصِرٌّ على الكُفرِ؛ عِنادًا ولَجاجًا، فمِثْلُ هذا لا يجِبُ تكريرُ الذِّكرى له دائمًا، بعدَ أن تكَرَّرَ عليه تكريرًا تلزَمُه به الحُجَّةُ). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ٢٥٧-٢٥٩).

ثمَّ قال الشنقيطي: (إنَّما اختَرْنا بقاءَ الآيةِ على ظاهِرِها مع أنَّ أكثرَ المفسِّرينَ على صَرفِها عن ظاهِرِها المُتبادرِ منها، وأنَّ معناها: فذكِّرْ مُطلقًا إن نفعَتِ الذِّكْرى وإن لم تنفَعْ؛ لأنَّنا نرى أنَّه لا يجوزُ صَرفُ كتابِ الله عن ظَواهِرِه المُتبادرةِ منه إلَّا لدليلٍ يجبُ الرُّجوعُ له). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: ٢٦٠). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٤، ٢٨٥).

وقيل: الكلامُ على الاكتفاءِ، والمعنى: إن نفعَتِ الذِّكْرى وإن لم تنفَعْ. وممَّن اختاره: الواحديُّ، ومكِّي، والبغوي، والعُلَيمي، والشوكاني. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢١١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١٦).

ونسَبَ أبو حيَّانَ وأبو السُّعودِ هذا القولَ إلى: الفرَّاءِ، والنَّحَّاسِ، والجُرْجانيِّ، والزهراويِّ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦). ويُنظر أيضًا: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٢٧).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر ما يأتي في الفوائد (ص: ١٥٧-١٥٩).

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أمَرَه بالتَّذكيرِ لكُلِّ أحدٍ قَسَّم النَّاسَ له إلى قِسمَينِ: قِسمٌ يَقبَلُ العلاجَ، وقِسمٌ لا يَقبَلُه؛ إعلامًا بأنَّه سُبحانَه وتعالى عالِمٌ بكُلٍّ مِنَ القِسمَينِ جملةً وأفرادًا على التَّعيينِ، ولم يَزَلْ عالِمًا بذلك، ولكِنَّه لم يُعَيِّنْ؛ ابتِلاءً منه لعبادِه؛ لتقومَ له الحُجَّةُ عليهم بما يتعارَفونَه بيْنَهم، وله الحُجَّةُ البالغةُ[1].

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾﴾.

أي: سيَتذَكَّرُ بالقُرآنِ ويَعتَبِرُ بمَوعِظَتِه مَن يَخْشى اللهَ، ويَخْشى عَذابَه[2].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٨، ٣٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ١٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٥).

قال ابنُ عطيَّة: (أخبَرَ تعالى أنَّه سيَذَّكَّرُ مَن يَخشى اللهَ والدَّارَ الآخرةَ، وهم العُلَماءُ والمؤمِنونَ؛ كلٌّ بقَدْرِ ما وُفِّقَ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٠).

وقال البِقاعي: (﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ أي: في جِبِلَّتِه نَوعَ خَشيةٍ، وهو السَّعيدُ لِما قُدِّرَ له في نَفْسِه مِن السَّعادةِ العُظمى لقَبولِ الحَنيفيَّةِ السَّمْحةِ، فيَذَّكَّرُ ما يَعلَمُ منها في نَفْسِه فيَتَّعِظُ؛ فإنَّ الخَشيةَ حامِلةٌ على كُلِّ خَيرٍ). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٣٩٩).

وقال اللهُ -عزَّ وجَلَّ- عن فِرعَونَ: ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۞ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦].

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن تعالى مَن ينتَفِعُ بالذِّكرى؛ بَيَّن مَن لا ينتَفِعُ بها[١].

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾﴾.

أي: ويَبتَعِدُ الكافِرُ عن الذِّكْرى، ولا يَنتَفِعُ بها[٢].

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ وَصْفَه الَّذي أوجَبَ له العَمَلَ السَّيِّئَ؛ ذكَرَ جَزاءَه[٣].

﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

أي: الَّذي يَدخُلُ نارَ الآخِرةِ العُظمى، فيُقاسي شِدَّةَ حَرِّها وآلامِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٣٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٥).

قيل: المرادُ بالأشقى: الكافرُ المُصِرُّ على إنكارِ المَعادِ ونحوِه، الجازمُ بنَفيِ ذلك، وهو أشقى أنواعِ الكفَرةِ. وقيل: المرادُ به: الكافرُ المُتَوغِّلُ في عداوةِ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ كالوليدِ ابنِ المُغيرةِ، وعُتبةَ بنِ ربيعةَ. وقيل: المرادُ به: الكافرُ مُطلقًا؛ فإنَّه أشقى مِن الفاسِقِ. وقيل: المُفَضَّلُ عليه كفَرةُ سائرِ الأُمَمِ؛ فإنَّه حيث كان المؤمنُ مِن هذه الأُمَّةِ أسْعَدَ مِن مُؤْمِنيهم، كان الكافرُ منها أشقى مِن كافِريهم. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧١)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۞ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٤، ١٥].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نارُكم هذه الَّتي يُوقِدُ ابنُ آدَمَ: جُزءٌ مِن سَبعينَ جُزءًا مِن حَرِّ جَهنَّمَ! قالوا: واللهِ إن كانت لَكافيةً يا رسولَ اللهِ! قال: فإنَّها فُضِّلَت عليها بتِسعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كُلُّها مِثْلُ حَرِّها))[(١)].

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

أي: ثمَّ لا يَموتُ الكافِرُ في النَّارِ الكُبْرى؛ فيَستريحَ مِن عَذابِها، ولا يَحْيا حياةً نافِعةً وخالِصةً مِنَ الآلامِ[(٢)]!

---

= القرطبي)) (٢٠/ ٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٥).

مِمَّن قال بأنَّ الكُبْرى هي نارُ الآخرةِ؛ لأنَّها أكبَرُ مِن نارِ الدُّنيا: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والبغوي، وابن الجوزي، والنسفي، وجلال الدين المحلي، والعُلَيمي، وابن عثيمين.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧١)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٥).

وقيل: المرادُ بالنَّارِ الكُبرى: الطَّبَقةُ السُّفْلى مِن أطباقِ النَّارِ. ومِمَّن ذهب إليه: الفَرَّاءُ، وأبو السعودِ، وهو ظاهرُ اختيارِ الألوسيِّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢١).

(١) رواه البخاريُّ (٣٢٦٥)، ومسلمٌ (٢٨٤٣) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٦).

ومِمَّن ذهب في الجُملةِ إلى هذا المعنى المذكور: الواحديُّ، والقرطبي، وابن كثير، والبِقاعي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السابقة. =

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾ [إبراهيم: ١٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ [فاطر: ٣٦].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((أمَّا أهلُ النَّارِ الَّذين هم أهلُها فإنَّهم لا يَموتونَ فيها ولا يَحْيَونَ))(١).

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالى وَعيدَ مَن أعرَضَ عن النَّظَرِ في دلائِلِ اللهِ تعالى؛ أتْبَعَه بالوَعدِ لِضِدِّه(٢).

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤﴾.

أي: قد نَجَح وفازَ مَن تطَهَّرَ مِن الكُفرِ والمعاصي وسَيِّئِ الأخلاقِ، فآمَنَ وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالحةَ الَّتي منها ذِكرُ اللهِ، والصَّلاةُ، والصَّدَقةُ(٣).

---

= وقيل: المعنى: أنَّ نَفْسَ أحَدِهم تصيرُ في حَلْقِه، فلا تخرُجُ؛ فيَموتَ، ولا ترجِعُ إلى مَوضِعِها مِن الجِسْمِ؛ فيَحْيا. ومِمَّن ذهب إليه: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨).

(١) رواه مسلم (١٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣١٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢١، ٢٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٣٢) و(١٦/ ١٨٤، ١٩٨)، ((تفسير =

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال سُبحانَه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧ - ٩].

وعن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: ((اللَّهُمَّ آتِ نَفْسي تَقْواها، وزَكِّها أنت خَيرُ مَن زكَّاها، أنت وَلِيُّها ومَولاها))[1].

﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾.

أي: وذَكَر اللهَ سُبحانَه وتعالى بقلبِه ولسانِه؛ فأورَثَ له ذلك إقبالًا على الصَّلاةِ للهِ تعالى[2].

---

= ابن كثير)) (٨/ ٣٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧، ٢٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٦، ١٦٧).

قال محمد رشيد رضا: (الفَلاحُ في ذلك الوَعدِ يَشملُ الفَوزَ بخَيرَيِ الدُّنيا والآخرةِ). ((تفسير المنار)) (٤/ ٤١).

وقال ابن جزي: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ يحتمِلُ أنْ يكونَ بمعنى الطَّهارةِ مِن الشِّركِ والمعاصي، أو بمعنى الطَّهارةِ للصلاةِ أو بمعنى أداءِ الزَّكاةِ وعلى هذا قال جماعةٌ: إنَّها في يومِ الفطرِ والمعنى أدَّى زكاةَ الفطرِ وذَكَر اسْمَ رَبِّه في طريقِ المصلَّى إلى أنْ يَخرُجَ الإمامُ، وصلَّى صلاةَ العيدِ، ... وقيل: المرادُ أدَّى زكاةَ مالِه وصلَّى الصلواتِ الخمسَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٥).

(١) رواه مسلم (٢٧٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢١، ٣٢٢)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٨).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ أنَّ خشيةَ اللهِ تعالى تَستَلزِمُ طاعتَه؛ فالخائفُ مِن اللهِ ممتثِلٌ لأوامرِه، مُجتنِبٌ لنَواهيه؛ فقد أَخْبَرَ سُبحانَه أنَّ مَن يخشاه يَتَذَكَّرُ، والتَّذكُّرُ هنا مُستَلزِمٌ لعبادتِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾، وقولِه: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، وقولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ﴾ [يونس: ٩] أنَّ العَبدَ كُلَّما اتَّقى زاد هُداه، وكُلَّما اهتَدى زادتْ تَقواه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ أنَّ مَنْ آمَنَ بالآخرةِ وأَشْفَقَ منها فهو الَّذي يَنْتَفِعُ بالآياتِ والمواعِظِ[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ أنَّ تَذَكُّرَ الوَعدِ والوعيدِ يُوجِبُ خَشيةَ اللهِ والحَذَرَ منه، ولا تنفَعُ الموعظةُ إلَّا لِمَنْ آمَنَ به، وخافه ورَجاه[٤].

٥- قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ يعني: تَطَهَّرَ، ويَشملُ ذلك ظاهِرَه وباطِنَه، يَتَزَكَّى **أوَّلًا**: مِن الشِّركِ بالنِّسبةِ لمعامَلةِ اللهِ، فيَعبُدُ اللهَ مُخلِصًا له الدِّينَ، لا يُرائي، ولا يُسَمِّعُ، ولا يَطلُبُ جاهًا، ولا رِئاسةً فيما يَتَعَبَّدُ به للهِ عزَّ وجَلَّ، وإنَّما يريدُ بهذا وَجْهَ اللهِ تعالى، والدَّارَ الآخرةَ.

**ثانيًا**: تَزَكَّى في اتِّباعِ الرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بحيثُ لا يَبْتَدِعُ في شريعتِه

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٢٤).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٧٢).

(٤) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٤٤٦).

لا بقليلٍ ولا كثيرٍ، لا في الاعتقادِ ولا في الأقوالِ ولا في الأفعالِ، وهذا التَّزكِّي بالنِّسبةِ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ -وهو اتِّباعُه مِن غيرِ ابتِداعٍ- لا ينطبقُ تمامًا إلَّا على طريقةِ السَّلَفِ الصَّالحِ؛ طريقةِ أهلِ السُّنَّةِ والجَماعةِ الَّذين يؤمِنونَ بكُلِّ ما وَصَفَ اللهُ به نفْسَه في كتابِه، أو على لسانِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم؛ على طريقةِ السَّلَفِ الصَّالحِ، الَّذين لا يَبتَدِعونَ في العباداتِ القَوليَّةِ ولا في العباداتِ الفِعْليَّةِ شيئًا في دِينِ اللهِ، تَجِدُهم يَتَّبِعونَ ما جاء به الشَّرعُ، خِلافًا لِمَا يَصْنَعُه بعضُ المبتَدِعةِ في الأذكارِ المبتدَعةِ؛ إمَّا في نَوعِها، وإمَّا في كَيفيَّتِها وصِفَتِها، وإمَّا في أدائِها، كما يفعَلُه بعضُ أصحابِ الطُّرُقِ مِن الصُّوفيَّةِ وغيرِهم.

**ثالثًا**: تَزَكَّى بالنِّسبةِ لمُعامَلةِ الخَلْقِ، بحيثُ يُطَهِّرُ قلْبَه مِن الغِلِّ والحِقدِ على إخوانِه المسلِمينَ، فتجدُه دائمًا طاهِرَ القَلبِ، يُحِبُّ لإخوانِه ما يُحِبُّ لنَفْسِه، لا يَرضى لأحَدٍ أنْ يَمَسَّه سُوءٌ، بل يَوَدُّ أنَّ جميعَ النَّاسِ سالِمونَ مِن كلِّ شَرٍّ، مُوَفَّقونَ لكُلِّ خَيرٍ[(١)].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ استُدِلَّ بظاهرِ الآيةِ على أنَّه يُشتَرَطُ في وُجوبِ الأمرِ بالمعروفِ مَظِنَّةُ النَّفعِ به، فإنْ جَزَم بعدَمِ الفائدةِ فيه لم يجِبْ عليه[(٢)].

٢- قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مفهومُ الآيةِ أنَّه إنْ لم تنفَعِ الذِّكْرى؛ بأنْ كان التَّذكيرُ يَزيدُ في الشَّرِّ، أو يَنقُصُ مِنَ الخَيرِ: لم تكُنِ الذِّكرى مأمورًا بها، بل مَنهِيًّا عنها؛ فالذِّكرى ينقَسِمُ النَّاسُ فيها قِسمَينِ: مُنتَفِعونَ وغيرُ مُنتفِعينَ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ٤٦٥).

فأمَّا المُنتفعونَ فقد ذكَرَهم بقَولِه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ اللهَ تعالى؛ فإنَّ خَشيةَ اللهِ تعالى وعِلْمَه بأنْ سيُجازيه على أعمالِه توجِبُ للعَبدِ الانكفافَ عن المعاصِي، والسَّعْيَ في الخَيراتِ. وأمَّا غيرُ المنتَفِعينَ فذَكَرَهم بقَولِه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى * ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾، وهي النَّارُ الموقَدةُ، الَّتي تطَّلِعُ على الأفئِدةِ[1].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ سؤالٌ: أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ كان مَبعوثًا إلى الكُلِّ، فيَجِبُ عليه أن يُذَكِّرَهم سواءٌ نفَعَتْهم الذِّكْرى أو لم تنفَعْهم[2]؛ فما المرادُ مِن تعليقِه على الشَّرطِ في قَولِه: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾؟

**الجوابُ**: أنَّ المعلَّقَ على الشَّيءِ لا يَلزَمُ أن يكونَ عَدَمًا عندَ عَدَمِ ذلك الشَّيءِ، كقَولِه: ﴿وَلَا تُكۡرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمۡ عَلَى ٱلۡبِغَآءِ إِنۡ أَرَدۡنَ تَحَصُّنٗا﴾ [النور: ٣٣]، ومنها قَولُه: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، وإذا عرَفْتَ هذا فإنَّهم ذكَروا لذِكْرِ هذا الشَّرطِ فوائِدَ:

**إحداها**: أنَّ مَن باشَرَ فِعلًا لغَرَضٍ فلا شَكَّ أنَّ الصُّورةَ الَّتي عُلِمَ فيها إفضاءُ تلك الوَسيلةِ إلى ذلك الغَرَضِ كان إلى ذلك الفِعلِ أوجَبَ مِن الصُّورةِ الَّتي عُلِمَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٢) وقد جاءت آياتٌ كثيرةٌ تدُلُّ على الأمرِ بالتَّذكيرِ مُطلقًا؛ كقولِه: ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ﴾ [الغاشية: ٢١]، وقولِه: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر: ١٧]. يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٥٧).

وقال الشنقيطي أيضًا: (تنبيهٌ: هذا الإشكالُ الَّذي في هذه الآيةِ إنَّما هو على قولِ مَن يقولُ باعتبارِ دليلِ الخِطابِ الَّذي هو مفهومُ المُخالَفةِ، وأمَّا على قولِ مَن لا يَعتبِرُ مفهومَ المُخالَفةِ شرطًا كان أو غيرَه -كأبي حنيفةَ- فلا إشكالَ في الآيةِ، وكذلك لا إشكالَ فيها على قولِ مَن لا يَعتبِرُ مفهومَ الشَّرطِ -كالباقِلَّانيِّ-، فتكونُ الآيةُ نصَّتْ على الأمرِ بالتَّذكيرِ عندَ مَظِنَّةِ النَّفعِ، وسكتَتْ عن حُكمِه عندَ عدمِ مَظِنَّةِ النَّفعِ، فيُطلَبُ مِن دليلٍ آخَرَ، فلا تُعارِضُ الآيةُ الآياتِ الدَّالَّةَ على التَّذكيرِ مُطلقًا). ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) (ص: ٢٦٠).

فيها عدمُ ذلك الإفضاءِ؛ فلذلك قال: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾.

**ثانيها**: أنَّه تعالى ذكَرَ أشرَفَ الحالتَينِ، ونَبَّه على الأُخرى، كقَولِه: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، والتَّقديرُ: «فذَكِّرْ إنْ نفَعَتِ الذِّكْرى أو لم تنفَعْ»(١).

**ثالثُها**: أنَّ المرادَ منه: البَعثُ على الانتِفاعِ بالذِّكرى، كما يقولُ المرءُ لِغَيرِه إذا بَيَّنَ له الحَقَّ: قد أوضَحْتُ لك إنْ كُنتَ تَعقِلُ، فيكونُ مُرادُه البَعْثَ على القَبولِ والانتِفاعِ به.

**رابعُها**: أنَّ هذا يَجري مَجْرى تنبيهِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه لا تنفَعُهم الذِّكْرى، كما يُقالُ للرَّجُلِ: ادْعُ فُلانًا إنْ أجابَك، والمعنى: وما أراه يُجيبُك(٢).

**خامِسُها**: أنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ دعاهم إلى اللهِ كثيرًا، وكُلَّما كانت دعوتُه أكثَرَ كان عُتُوُّهم أكثَرَ، وكان عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ يحترِقُ حَسرةً على ذلك، فقيل له: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥]؛ إذِ التَّذكيرُ العامُّ واجِبٌ في أوَّلِ الأمرِ، فأمَّا التَّكريرُ فلعَلَّه إنَّما يجِبُ عندَ رجاءِ حُصولِ المقصودِ؛ فلهذا المعنى قَيَّدَه بهذا الشَّرطِ(٣).

---

(١) قال ابن عثيمين: (إذا قُلْنا بالقَولِ الآخَرِ: أنَّ المعنى: سَواءٌ نَفَعَتْ أمْ لَمْ تَنْفَعْ، مِثلَما يُقالُ للإنسانِ: عَلِّمْ هذا إنْ كان يَنفَعُه العِلمُ، فالمعنى: كَرِّرْ عليه التَّعليمَ، وهذا أسلوبٌ معروفٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ؛ أنَّه يُقْصَدُ بالشَّرطِ الاستِمرارُ). ((لقاء الباب المفتوح)) (اللقاء رقْم: ١٥٦).

(٢) وقال ابن جُزَي: (﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ المرادُ بهذا الشَّرطِ توبيخُ الكفَّارِ الَّذين لا تَنفَعُهم الذِّكْرى، واستِبْعادُ تأثيرِ الذِّكْرى في قُلوبِهم، كقَولِك: قد أوصَيْتُك لو سَمِعتَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٢).

وقيل: معنى قَوْله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ إذْ نَفَعَتِ الذِّكْرى، مثل قَولِه تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] ومَعْناه: إذْ كُنْتُم مُؤمنين.

وقيل: المعنى: ذكِّرْ بِكُلِّ حالٍ؛ فقد نَفَعَتِ الذِّكْرى، فهو تعليقٌ بمُتحقِّقٍ، والمعنى: إن نَفَعَتْ، =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ سُؤالٌ: أنَّ العِلمَ إنَّما يُسَمَّى «تذَكُّرًا» إذا كان قد حَصَل العِلمُ أوَّلًا ثمَّ نَسِيَه، وهذه الحالةُ غيرُ حاصلةٍ للكُفَّارِ، فكيف سَمَّى اللهُ تعالى ذلك بالتَّذَكُّرِ؟!

---

= وقد نَفَعتْ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٩).

ونحو القولِ السَّابقِ قولُ مَن قال: إنَّ (إنْ) بمعنى «مَا»، أيْ: فذَكِّرْ ما نَفَعَتِ الذِّكْرى؛ لأنَّ الذِّكْرى نافِعةٌ بكُلِّ حالٍ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥١٦).

قال ابنُ عثيمين بعدَ أن ذكَرَ الخِلافَ في معنى الآيةِ: (على كلِّ حالٍ نقولُ: لا بُدَّ مِن التَّذكيرِ، حتَّى وإن ظنَنْتَ أنَّها لا تَنفَعُ؛ فإنَّها سوف تَنفَعُك أنت، وسوف يَعلَمُ النَّاسُ أنَّ هذا الشَّيءَ الَّذي ذكَّرْتَ عنه إمَّا واجبٌ وإمَّا حرامٌ، وإذا سكَتَّ والنَّاسُ يَفعَلونَ المُحَرَّمَ، قال النَّاسُ: لو كان هذا مُحَرَّمًا لذَكَّر به العلماءُ، أو لو كان هذا واجبًا لذكَّر به العلماءُ، فلا بُدَّ مِن التَّذكيرِ، ولا بدَّ مِن نشرِ الشَّريعةِ، سواءٌ نفعت أم لم تنفَعْ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٦٤).

وقال الشنقيطيُّ بعدَ أن اختار بقاءَ الآيةِ الكريمةِ على ظاهِرِها، وأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بعدَ أن يُكرِّرَ الذِّكْري تكريرًا تقومُ به حُجَّةُ الله على خَلقِه مأمورٌ بالتَّذكيرِ عندَ ظنِّ الفائدةِ، أمَّا إذا عَلِم عدمَ الفائدةِ فلا يُؤْمَرُ بشيءٍ هو عالمٌ أنَّه لا فائدةَ فيه؛ قال: (حاصلُ إيضاحِ هذا الجوابِ أنَّ الذِّكْرى تَشتَمِلُ على ثلاثِ حِكَمٍ:

الأولى: خروجُ فاعِلِها مِن عُهدةِ الأمرِ بها.

الثَّانيةُ: رجاء النَّفعِ لِمَن يُوعَظُ بها.

وبيَّن اللهُ تعالى هاتَينِ الحِكمتَينِ بقولِه تعالى: ﴿قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، وبيَّن الأُولى منهما بقولِه تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ [الذاريات: ٥٤]، وقولِه تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، ونحوِها مِن الآياتِ. وبيَّن الثَّانيةَ بقولِه: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

الثَّالثةُ: إقامةُ الحُجَّةِ على الخَلقِ، وبيَّنها تعالى بقولِه: ﴿رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وبقولِه: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا﴾ الآيةَ [طه: ١٣٤].

فالنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا كرَّر الذِّكْرى حصلَتِ الحِكمةُ الأُولى والثَّالثةُ، فإنْ كان في الثَّانيةِ طمَعٌ استمَرَّ على التَّذكيرِ، وإلَّا لم يُكلَّفْ بالدَّوامِ، والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى). ((دفع إيهام الاضطراب)) (ص: ٢٦٠).

**وجوابُه**: أنَّ لقُوَّةِ الدَّلائِلِ وظُهورِها كأنَّ ذلك العِلمَ كان حاصِلًا، ثمَّ إنَّه زال بسَبَبِ التَّقليدِ والعِنادِ؛ فلهذا أسماه اللهُ تعالى بـ «التَّذَكُّرِ»(١). أو لِما تقرَّر في الفِطَرِ(٢).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ سُؤالٌ: كيف قال ذلك، مع أنَّ الحيوانَ لا يخلو عن الاتِّصافِ بأحَدِهما؟!

**الجوابُ**: أنَّ مَعناه: لا يموتُ مَوتًا يَستريحُ به، ولا يَحْيا حياةً ينتَفِعُ بها، كقَولِه تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦].

وقيل: معناه: تَصعَدُ نَفْسُه إلى الحُلقومِ، ثمَّ لا تُفارِقُه؛ فيَموتَ، ولا ترجِعُ إلى مَوضِعِها مِن الجِسمِ؛ فيَحيا(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أنَّ الجزاءَ مِن جِنسِ العَمَلِ؛ فإنَّه لَمَّا كان الأشقَى في الدُّنيا ليس بحَيٍّ الحياةَ النَّافِعةَ، ولا مَيِّتًا عديمَ الإحساسِ؛ كان في الآخِرةِ كذلك(٤).

٧- في سُورةِ (النُّورِ) جاء قولُه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النور: ٢١]، أي: أنَّ اللهَ يُطهِّرُه مِن أدناسِ الكفْرِ والمعاصي بتَوفيقِه وهِدايتِه إلى الإيمانِ والتَّوبةِ النَّصوحِ والأعمالِ الصَّالحةِ، وهذا الَّذي دلَّت عليه هذه الآيةُ المذكورةُ لا يُعارِضُ قولَه تعالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]، ولا قولَه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾، على القولِ بأنَّ معْنى ﴿تَزَكَّىٰ﴾: تَطهَّرَ مِن أدناسِ الكفْرِ والمعاصي، ووَجْهُ ذلك في قولِه: ﴿مَن زَكَّىٰهَا﴾ أنَّه لا يُزكِّيها إلَّا بتَوفيقِ اللهِ وهِدايتِه إيَّاهُ للعمَلِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٤).

(٢) يُنظر ((تفسير ابن عاشور)) (١٦/ ١٨٥).

(٣) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٧).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٥٢).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ٢٠٦).

الصَّالحِ، وقَبولِه منه، وكذلك الأمرُ في قولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾[١].

٨- قد جُمِعَت أنواعُ الخَيرِ في قولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾؛ فإنَّ الفلاحَ نَجاحُ المرْءِ فيما يَطمَحُ إليه، فهو يَجمَعُ مَعنيَي الفوزِ والنَّفْعِ، وذلك هو الظَّفَرُ بالمُبْتغى مِن الخَيرِ[٢].

٩- قَولُه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ استُدِلَّ به على مَشروعيَّةِ صلاةِ العيدِ، وزكاةِ الفِطرِ وتقديمِها على الصَّلاةِ، والتَّكبيرِ في العِيدِ[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ۝ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ بعْدَ أنْ ثَبَّتَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَكفَّلَ له ما أزال فَرَقَه مِن أعباءِ الرِّسالةِ، وما اطمَأَنَّت به نفْسُه مِن دفْعِ ما خافَه مِن ضَعفٍ عن أدائِه الرِّسالةَ على وَجْهِها، وتَكفَّلَ له دفْعَ نِسيانِ ما يُوحَى إليه، إلَّا ما كان إنساؤُه مُرادًا للهِ تعالَى، ووعَدَه بأنَّه وفَّقه وهَيَّأَه لذلك، ويسَّرَه عليه؛ أعقَبَ ذلك بأنْ أمَرَه بالتَّذكيرِ، أي: التَّبليغِ، أي: بالاستِمرارِ عليه؛ إرهافًا لعَزْمِه، وشَحْذًا لنَشاطِه؛ ليكونَ إقبالُه على التَّذكيرِ معَ حرصٍ ومحبَّةٍ؛ فإنَّ امتِثالَ الأمرِ إذا عاضَدَه إقبالُ النَّفْسِ على فِعلِ المأمورِ به، كان فيه مَسرَّةٌ للْمأمورِ، فجمَعَ بيْن أداءِ الواجبِ وإرضاءِ الخاطِرِ؛ فالفاءُ للتَّفريعِ على ما تَقدَّمَ تَفريعَ النَّتيجةِ على المقدِّماتِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٣، ٢٨٤).

وقيل: الفاءُ في قولِه: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ هي الفصيحةُ؛ أفْصَحَتْ عن شَرطٍ مُقدَّرٍ، أي: إنْ عَلِمْتَ أنَّك مِن أربابِ الفُيوضاتِ الكَماليَّةِ بهِدايتِنا وتَوفيقِنا؛ فذكِّرْ(١).

- ومَفعولُ ﴿فَذَكِّرْ﴾ مَحذوفٌ؛ لقصْدِ التَّعميمِ، أي: فذكِّرِ النَّاسَ، ودلَّ عليه قولُه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ الآيتَين(٢).

- وجُملةُ ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مُعترِضةٌ بيْن الجُملتَينِ المُعلَّلةِ وعِلَّتِها، وهذا الاعتراضُ مَنظورٌ فيه إلى العُمومِ الَّذي اقتضاهُ حذْفُ مَفعولِ ﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: فدُمْ على تَذكيرِ النَّاسِ كلِّهم إنْ نَفَعَت الذِّكرى جَميعَهم، أي: وهي لا تَنفَعُ إلَّا البعضَ، وهو الَّذي يُؤخَذُ مِن قولِه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ الآيةَ(٣).

أوِ الشَّرطُ في قولِه: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ، وليس مُتعلِّقًا بالجُملةِ، ولا تَقييدًا لمَضمونِها؛ إذْ ليس المعْنى: فذَكِّرْ إذا كان للذِّكرى نفْعٌ، حتَّى يُفهَمَ منه بطَريقِ مَفهومِ المخالفةِ ألَّا تُذكِّرَ إذا لم تَنفَعِ الذِّكرى؛ إذْ لا وَجْهَ لتَقييدِ التَّذكيرِ بما إذا كانت الذِّكرى نافعةً؛ إذْ لا سَبيلَ إلى تَعرُّفِ مَواقعِ نفْعِ الذِّكرى؛ ولذلك كان قولُه تعالَى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥] مُؤَوَّلًا بأنَّ المعْنى: فذَكِّرْ بالقُرآنِ، فيَتذكَّرُ مَن يَخافُ وَعيدِي، بلِ المرادُ: فذَكِّرِ الناسَ كافَّةً إنْ كانت الذِّكرى تَنفَعُ جَميعَهم، فالشَّرطُ مُستعمَلٌ في التَّشكيكِ؛ لأنَّ أصْلَ الشَّرطِ بـ(إنْ) أنْ يكونَ غيرَ مَقطوعٍ بوُقوعِه، فالدَّعوةُ عامَّةٌ، وما يَعلَمُه اللهُ مِن أحوالِ النَّاسِ في قَبولِ الهُدى وعدَمِه أمرٌ اسْتأثَرَ اللهُ بعِلمِه، فأبو جَهلٍ مَدعوٌّ للإيمانِ، واللهُ يَعلَمُ أنَّه لا يُؤمِنُ، لكنَّ اللهَ لم يَخُصَّ بالدَّعوةِ مَن يُرْجى منهم الإيمانُ دُونَ غيرِهم،

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والواقعُ يَكشِفُ المقدورَ، وهذا تَعريضٌ بأنَّ في القَومِ مَن لا تَنفَعُه الذِّكرى، وذلك يُفهَمُ مِن اجتِلابِ حرْفِ (إنْ) المُقتضِي عدَمَ احتِمالِ وُقوعِ الشَّرطِ أو نُدرةَ وُقوعِه؛ ولذلك جاء بعْدَه بقولِه: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾؛ فهو استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ وما لَحِقَه مِن الاعتراضِ بقولِه: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ المُشعرِ بأنَّ التَّذكيرَ لا يَنتفِعُ به جَميعُ المُذَكَّرينَ[١].

- قولُه: ﴿مَن يَخۡشَىٰ﴾ جِنسٌ لا فرْدٌ مُعيَّنٌ، أي: سيَتذكَّرُ الَّذين يَخشَون، والضَّميرُ المُستترُ في ﴿يَخۡشَىٰ﴾ مُراعًى فيه لَفظُ (مَن)؛ فإنَّه لَفظٌ مُفرَدٌ، وقد نُزِّلَ فِعلُ ﴿يَخۡشَىٰ﴾ مَنزلةَ اللَّازِمِ فلمْ يُقدَّرْ له مَفعولٌ، أي: يَتذكَّرُ مَن الخشيةُ فِكرَتُه وجِبِلَّتُه، أي: مَن يَتوقَّعُ حُصولَ الضُّرِّ والنَّفعِ فيَنظُرُ في مَظانِّ كلٍّ ويَتدبَّرُ في الدَّلائلِ؛ لأنَّه يَخْشى أنْ يَحِقَّ عليه ما أُنذِرَ به[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ۝ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾ التَّجنُّبُ: التَّباعُدُ، وأصْلُه (تَفعَّلَ) لتَكلُّفِ الكَينونةِ بجانبٍ مِن شَيءٍ، والجانِبُ: المكانُ الَّذي هو طرَفٌ لغَيرِه، وتَكلُّفُ الكَينونةِ به كِنايةٌ عن طلَبِ البُعدِ، أي: بمَكانٍ بَعيدٍ منه، أي: يَتباعَدُ عن الذِّكرى الأشْقى[٣].

- وتَعريفُ ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ تَعريفُ الجِنسِ؛ فيَشملُ جَميعَ المشركينَ، أي: الأشقَونَ، أو اللَّامُ للعهْدِ، والمرادُ شَخصٌ بعَينِه، أو الأشْقَى مِن الكَفَرةِ؛ لتَوغُّلِه في الكُفْرِ وعَداوةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٤، ٢٨٥).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ١٥٧-١٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي =

- ووُصِفَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ بأنَّه ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾؛ لأنَّ إطلاقَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ في هذه الآيةِ في صَدْرِ مُدَّةِ البَعثةِ المُحمديَّةِ، فكان فيه مِن الإبهامِ ما يَحتاجُ إلى البَيانِ، فأُتبِعَ بوَصْفٍ يُبيِّنُه في الجُملةِ ما نزَلَ مِن القُرآنِ مِن قبْلِ هذه الآيةِ[١].

- ومُقابَلةُ ﴿مَن يَخْشَىٰ﴾ بـ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ تُؤذِنُ بأنَّ الأشْقى مِن شَأنِه ألَّا يَخْشى، فهو سادِرٌ في غُرورِه، مُنغَمِسٌ في لَهْوِه، فلا يَتطلَّبُ لنفْسِه تَخلُّصًا مِن شَقائِه[٢].

- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى﴾ احتباكٌ[٣]؛ ذَكَر الثَّمرةَ في الأوَّلِ -وهي الخَشيةُ- دليلًا على حَذْفِ ضِدِّها مِنَ الثَّاني -وهي القَسوةُ النَّاشِئةُ على الحُكمِ بالشَّقاوةِ-، وذَكَر الأصلَ والسَّبَبَ في الثَّاني -وهو الشَّقاوةُ- دليلًا على حَذفِ ضِدِّه في الأوَّلِ -وهو السَّعادةُ-؛ فالإسعادُ سَبَبٌ، والخَشيةُ ثَمرةٌ، والإشقاءُ سَبَبٌ، والقَساوةُ ثَمرةٌ ومُسَبَّبٌ، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر مَبدأَ السَّعادةِ أوَّلًا؛ حَثًّا عليه، ومآلَ الشَّقاوةِ ثانيًا تحذيرًا منه[٤].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ وَصْفُ النَّارِ بالكُبرى؛ للتَّهويلِ والإنذارِ[٥].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ (ثمَّ) للتَّراخي الرُّتبيِّ تدُلُّ على أنَّ مَعطوفَها مُتراخي الرُّتبةِ في الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ، وهو شِدَّةُ العذابِ؛ فإنَّ تَردُّدَ حالِه بيْن الحياةِ والموتِ وهو في عَذابِ الاحتراقِ، عَذابٌ أشدُّ ممَّا أفادَهُ

---

= حيان)) (١٠/ ٤٥٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٢٥).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦).

أنَّه في عَذابِ الاحتراقِ؛ ضَرورةَ أنَّ الاحتراقَ واقعٌ وقد زِيدَ فيه دَرجةٌ: أنَّه لا راحةَ منه بمَوتٍ ولا مَخلَصَ منه بحياةٍ، فمعْنى ﴿لَا يَمُوتُ﴾: لا يَزولُ عنه الإحساسُ؛ فإنَّ الموتَ فِقدانُ الإحساسِ، مع ما في هذه الحالةِ مِن الأُعجوبةِ، وهي ممَّا يُؤكِّدُ اعتبارَ تَراخي الرُّتبةِ في هذا التَّنكيلِ[١].

- وتَعقيبُ قولِه: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ بقولِه: ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ احتراسٌ[٢]؛ لدفْعِ تَوهُّمِ أنْ يُرادَ بنفْيِ المَوتِ عنهم أنَّهم اسْتَراحوا مِن العذابِ، لِما هو مُتعارَفٌ مِن أنَّ الاحتراقَ يُهلِكُ المُحرَقَ، فإذا قيل: ﴿لَا يَمُوتُ﴾ تَوهَّمَ المُنذَرون أنَّ ذلك الاحتراقَ لا يَبلُغُ مَبلَغَ الإهلاكِ، فيَبقى المُحرَقُ حيًّا، فيُظَنُّ أنَّه إحراقٌ هيِّنٌ، فيَكونُ مَسلاةً للمُهدَّدينَ، فلِدَفْعِ ذلك عُطِفَ عليه ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾، أي: حياةً خالصةً مِن الآلامِ، والقَرينةُ على الوَصْفِ المذكورِ مُقابَلةُ ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ بقولِه: ﴿يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، وليس هذا مِن قَبيلِ نفْيِ وصْفَينِ لإثباتِ حالةٍ وسَطٍ بيْن حالَتَيْهما مِثل: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥]؛ لأنَّ ذلك لا طائلَ تَحتَه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٥٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٢، ٤٥٣).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٥٢).

(٢) الاحتراس: هو التحرُّز مِن الشيءِ، والتحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشيءٍ بعيدٍ، فيُؤتَى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو: الإتيانُ في كلامٍ يُوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدْفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه البعضُ التَّكميلَ. يُنظر: ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٦، ٢٨٧).

٣- قولُه تعالَى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾

- قولُه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ذِكرَ ﴿مَن يَخۡشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠] وذِكرَ ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ [الأعلى: ١١]، يُثيرُ استِشْرافَ السَّامعِ لمَعرفةِ أثَرِ ذلك، فابتُدِئَ بوَصْفِ أثَرِ الشَّقاوةِ، فوُصِفَ ﴿ٱلۡأَشۡقَى﴾ بأنَّه ﴿يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [الأعلى: ١٢]، وأُخِّرَ ذِكرُ ثَوابِ الأتْقى؛ تَقديمًا للأهمِّ في الغرَضِ -وهو بَيانُ جَزاءِ الأشقى الَّذي يَتجنَّبُ الذِّكرى- وبقِيَ السَّامعُ يَنتظِرُ أنْ يَعلَمَ جَزاءَ مَن يَخْشى ويَتذكَّرُ، فلمَّا وُفِّيَ حقُّ المَوعظةِ والتَّرهيبةِ استُؤنِفَ الكلامُ لبَيانِ المَثوبةِ والتَّرغيبِ؛ فالمرادُ بـ﴿مَن تَزَكَّىٰ﴾ هنا عَيْنُ المرادِ بمَن يَخْشى ويَذَّكَّرُ؛ فقد عُرِّفَ هنا بأنَّه الَّذي ذَكَرَ اسمَ ربِّه، فلا جَرَمَ أنَّ ذِكرَ اسمِ ربِّه هو التَّذكُّرُ بالذِّكرى، فالتَّذكُّرُ هو غايةُ الذِّكرى المأمورِ بها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قولِه تعالَى: ﴿فَذَكِّرۡ﴾[1] [الأعلى: ٩].

- وأُتِيَ بكَلمةِ (قَدْ)؛ لِما أنَّ عندَ الإخبارِ بسُوءِ حالِ المُتجنِّبِ عن الذِّكرَى في الآخرةِ، يَتوقَّعُ السَّامعُ الإخبارَ بحُسنِ حالِ المُتذكِّرِ فيها ويَنتظِرُه[2].

- والإتيانُ بفِعلِ المُضِيِّ في قولِه: ﴿أَفۡلَحَ﴾؛ للتَّنبيهِ على المُحقَّقِ وُقوعُه مِن الآخرةِ، واقترانُه بحرْفِ (قدْ) لتَحقيقِه وتَثبيتِه، كما في قولِه تعالَى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]، وقولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]؛ لأنَّ الكلامَ مُوجَّهٌ إلى الأشقَيْنَ الَّذين تَجنَّبوا الذِّكرى؛ إثارةً لهِمَّتِهم في الالْتِحاقِ بالَّذين خَشُوا فأفْلَحوا[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧).

- ومعْنى ﴿تَزَكَّىٰ﴾ عالَجَ أنْ يكونَ زكيًّا، أي: بذَلَ استطاعتَه في تَطهيرِ نفْسِه وتَزكيتِها، فمادَّةُ التَّفعُّلِ للتَّكلُّفِ وبَذْلِ الجُهدِ[١].

- وفي قولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ قُدِّم التَّزكِّي على ذِكرِ اللهِ والصَّلاةِ؛ لأنَّه أصلُ العمَلِ بذلك كلِّه؛ فإنَّه إذا تَطهَّرتِ النَّفْسُ أشرَقَتْ فيها أنوارُ الهِدايةِ فعَلِمَت مَنافعَها، وأكثَرَت مِن الإقبالِ عليها، فالتَّزكيةُ: الارتياضُ على قَبولِ الخَيرِ، والمرادُ: تَزكَّى بالإيمانِ[٢].

- في قَولِه: ﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ۝ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ احتباكٌ[٣]؛ ذكَر أوَّلًا الصَّلَى دليلًا على حذفِ ضدِّه ثانيًا، وثانيًا: التَّزكيةَ دليلًا على حذفِ ضدِّها أوَّلًا[٤].

- وتَفريعُ ﴿فَصَلَّىٰ﴾ على (ذَكَرَ اسْمَ رَبِّه)؛ لأنَّ الذِّكرَ بمَعنيَيْه -اللِّسانيِّ والتَّذكُّرِ- يَبعَثُ الذَّاكرَ على تَعظيمِ اللهِ تعالَى، والتَّقرُّبِ إليه بالصَّلاةِ الَّتي هي خُضوعٌ وثَناءٌ[٥].

- وفيه تَرتيبٌ حسَنٌ، حيثُ رُتِّبَتْ هذه الخِصالُ الثَّلاثُ في الآيةِ على تَرتيبِ تَوَلُّدِها؛ فأصْلُها: إزالةُ الخَباثةِ النَّفسيَّةِ مِن عَقائدَ باطلةٍ وحَديثِ النَّفْسِ بالمُضمَراتِ الفاسِدةِ، وهو المُشارُ إليه بقَولِه: ﴿تَزَكَّىٰ﴾، ثمَّ استِحضارُ مَعرفةِ اللهِ بصِفاتِ كَمالِه وحِكمتِه ليَخافَه ويَرجوَه، وهو المشارُ بقولِه: ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ﴾، ثمَّ الإقبالُ على طاعتِه وعِبادتِه، وهو المشارُ إليه بقولِه: ﴿فَصَلَّىٰ﴾،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٧، ٢٨٨).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٨٨).
(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٢٩).
(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٣).
(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٨).

والصَّلاةُ تُشيرُ إلى العِبادةِ، وهي في ذاتِها طاعةٌ وامتِثالٌ يَأتي بعْدَه ما يُشرَعُ مِن الأعمالِ؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1] [العنكبوت: ٤٥].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٨).

## الآيات (١٦-١٩)

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تُؤۡثِرُونَ﴾: أي: تُقَدِّمونَ وتَختارونَ، وأصلُ (أثر) هنا: يدُلُّ على تقديمِ الشَّيءِ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: ولَكِنَّكم لا تَقومونَ بالذِّكرِ وأداءِ الصَّلاةِ؛ لأنَّكم تُقدِّمونَ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا على ثوابِ الآخِرةِ، وثوابُ اللهِ في الآخِرةِ أفضَلُ وأدوَمُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ولَذَّاتِها الفانيةِ.

ثمَّ يختمُ اللهُ تعالى السُّورةَ الكريمةَ فيقولُ: إنَّ ما أخبَرَ اللهُ تعالى به في قَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ * بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ مَذكورٌ في الصُّحُفِ الماضيةِ؛ صُحُفِ إبراهيمَ ومُوسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦﴾.

أي: ولَكِنَّكم لا تَقومونَ بالذِّكرِ وأداءِ الصَّلاةِ؛ لأنَّكم تُقدِّمونَ مَتاعَ الحياةِ الدُّنيا على ثوابِ الآخِرةِ، فتَنشغِلونَ بأُمورِ دُنياكم عن أمورِ دِينِكم[2].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٠). =

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: ١].

﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾.

أي: وثوابُ اللهِ في الآخِرةِ أفضَلُ وأدوَمُ لكم مِن مَتاعِ الدُّنيا ولَذَّاتِها القليلةِ الفانيةِ؛ فنَعيمُ الجنَّةِ كامِلٌ لا نَقْصَ فيه، وأبَدِيٌّ لا يَنتهي[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [القصص: ٦٠].

وقال جَلَّ شأنُه: ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْـَٔاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩].

وعن المُسْتَوْرِدِ بنِ شَدَّادٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((واللهِ ما الدُّنيا في الآخِرةِ إلَّا مِثلُ ما يجعَلُ أحَدُكم إِصْبَعَه هذه -وأشار بالسَّبَّابةِ- في اليَمِّ، فلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ؟!))[(٢)].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾﴾.

---

= قال ابنُ عطيَّة: (أخبَرَ تعالى النَّاسَ أنَّهم يُؤْثِرونَ الحياةَ الدُّنيا؛ فالكافِرُ يُؤثِرُها إيثارَ كُفرٍ، يرى أنْ لا آخِرةَ، والمؤمِنُ يُؤثِرُها إيثارَ مَعصيةٍ وغَلَبَةَ نَفْسٍ إلَّا مَن عَصَمَ اللهُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٢) رواه مسلم (٢٨٥٨).

أي: إنَّ ما أخبرَ اللهُ تعالى به في قَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۞ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۞ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ مذكورٌ في الصُّحُفِ الماضيةِ[1].

﴿صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩١، ٢٩٢).

وممَّن اختار القولَ المذكورَ في المرادِ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، والرَّسْعَني، والخازن، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣١٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٩٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩١).

قال ابنُ كثيرٍ بعدَ أن ذكَرَ اختيارَ ابنِ جريرٍ: (وهذا اختيارٌ حسَنٌ قويٌّ، وقد رُويَ عن قَتادةَ وابنِ زَيدٍ نحوُه، واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٣).

وقيل: المرادُ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾: أي: الَّذي ذُكِر في هذه السُّورةِ. وممَّن اختار هذا القولَ: السمرقنديُّ، والثعلبي، والسمعاني. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٨٦)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١١).

قال الرَّسْعَني: (وقيل: إنَّه إشارةٌ إلى ما في السُّورةِ كلِّها، وهو قولُ جماعةٍ؛ منهم: أبو العاليةِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٥٩٥).

قال البِقاعي: (﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: الوَعظَ العَظيمَ بالتَّسبيحِ الَّذي ذُكِرَ في هذه السُّورةِ وما تأثَّرَ عنه مِن التَّزكيةِ بالذِّكرِ الموجبِ للصَّلاةِ، والإعراضِ عن الدُّنيا والإقبالِ على الآخِرةِ؛ لأنَّه جامِعٌ لكُلِّ خَيرٍ، وهو ثابتٌ في كُلِّ شريعةٍ؛ لأنَّه المقصودُ بالحُكمِ، فهو لا يَقبَلُ النَّسْخَ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ﴾). ((نظم الدرر)) (٢١/ ٤٠٧).

وقيل: قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾. وقيل: إشارةٌ إلى القرآنِ، فالآيةُ كقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢٣).

### مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان ذلك عامًّا خَصَّ مِن بَينِه -تعظيمًا لقَدْرِ هذه الموعِظةِ- أعظَمَ الأنبياءِ الأقدَمِينَ(١).

﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾.

أي: وتلك الصُّحُفُ هي المنزَّلةُ على إبراهيمَ ومُوسى عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ(٢).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ اعلَمْ أنَّ للمؤمنينَ حظًّا مِن هذه المَوعظةِ على طُولِ الدَّهرِ، وذلك حظٌّ مُناسِبٌ لمِقدارِ ما يُفرِّطُ فيه أحدُهم ممَّا يُنجيه في الآخرةِ إيثارًا لِما يَجْتنيه مِن مَنافعِ الدُّنيا الَّتي تَجُرُّ إليه تَبِعةً في الآخرةِ على حسَبِ ما جاءتْ به الشَّريعةُ، فأمَّا الاستكثارُ مِن مَنافعِ الدُّنيا مع عدَمِ إهمالِ أسبابِ النَّجاةِ في الآخرةِ، فذلك مَيدانٌ للهِمَمِ، وليس ذلك بمَحلِّ ذمٍّ؛ قال تعالَى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾(٣) [القصص: ٧٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ الإشارةُ إلى مَدْحِ الزُّهدِ في الدُّنيا، وذَمِّ الرَّغبةِ فيها(٤).

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٠).

قال السعدي: (﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ اللَّذَينِ هما أشرَفُ المرسَلِينَ سِوى النَّبيِّ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ١٧٧).

٣- أنَّ عَمَلَ الآخرةِ لا يَصِحُّ أنْ يكونَ وَسيلةً لعَمَلِ الدُّنيا؛ فإنَّ عَمَلَ الآخرةِ أشرفُ وأعلى مِن أنْ يكونَ وسيلةً لعَمَلِ الدُّنيا الَّذي هو أدنى؛ قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۞ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1]!

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ إشارةٌ إلى التَّرغيبِ في الآخِرةِ وفي ثَوابِ اللهِ تعالى[2]، فالآخِرةُ خَيرٌ مِنَ الدُّنيا في كُلِّ وَصفٍ مَطلوبٍ، ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾؛ لكَونِها دارَ خُلدٍ وبَقاءٍ وصَفاءٍ، والدُّنيا دارُ فَناءٍ، فالمؤمِنُ العاقِلُ لا يختارُ الأردَأَ على الأجوَدِ، ولا يبيعُ لذَّةَ ساعةٍ بتَرحةِ الأبدِ؛ فحُبُّ الدُّنيا وإيثارُها على الآخِرةِ رأسُ كُلِّ خَطيئةٍ[3].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ إيثارُ الدُّنيا على الآخِرةِ إمَّا مِن فسادٍ في الإيمانِ، وإمَّا مِن فَسادٍ في العَقلِ، وما أكثَرَ ما يكونُ منهما؛ ولهذا نبَذَها رَسولُ اللهِ وراءَ ظَهْرِه هو وأصحابُه، وصَرَفوا عنها قُلوبَهم، واطَّرَحوها ولم يألَفوها، وهَجَروها ولم يَميلوا إليها، وعَدُّوها سجنًا لا جنَّةً، فزَهِدوا فيها حقيقةَ الزُّهدِ، ولو أرادوها لَنالوا منها كُلَّ محبوبٍ، ولَوَصَلوا منها إلى كلِّ مَرغوبٍ؛ فقد عُرِضَت عليه صلَّى الله عليه وسلَّم مفاتيحُ كُنوزِها فردَّها، وفاضت على أصحابِه فآثَروا بها، ولم يَبيعوا حَظَّهم مِن الآخِرةِ بها، وعَلِموا أنَّها مَعْبَرٌ ومَمَرٌّ، لا دارُ مُقامٍ ومُستَقَرٍّ، وأنَّها دارُ عُبورٍ لا دارُ سُرورٍ، وأنَّها سحابةُ صَيفٍ تَنقشِعُ عن قليلٍ، وخيالُ طَيفٍ ما استتَمَّ الزِّيارةَ حتَّى آذَنَ بالرَّحيلِ، قال النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ((ما لي وللدُّنيا؟! ما أنا والدُّنيا؟ إنَّما مَثَلي ومَثَلُ الدُّنيا كراكِبٍ ظَلَّ

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٥/ ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

تحتَ شَجرةٍ، ثمَّ راح وتَرَكها))[١].

٢- قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ في قَولِه تعالى: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ دُنُوُّ الدُّنيا مرتبةً ودَناءَتُها؛ فهي وإنْ كانت حياةً لكِنَّها دُنيا، ويَستلزِمُ ذلك الثَّناءَ على الآخرةِ؛ لأنَّ وَصْفَ الضَّرَّةِ بالعَيبِ يدُلُّ على وَصْفِ ضَرَّتِها بالكَمالِ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ نَصٌّ على أنَّ في القرآنِ مِمَّا في الصُّحُفِ الأُولى، وقد جاء ما يدُلُّ أنَّ معانيَ أُخرى كذلك في صُحُفِ إبراهيمَ وموسى، كما في سورةِ «النَّجم» في قَولِه تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ * وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾[٣] [النجم: ٣٦ - ٤٠].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ (بَلْ) هنا عاطفةٌ جُملةً عطْفًا صُوريًّا؛ فيَجوزُ أنْ تكونَ لمُجرَّدِ الانتقالِ مِن ذِكرِ المُنتفِعينَ بالذِّكرى والمُتجنِّبينَ لها، إلى ذِكرِ سَببِ إعراضِ المُتجنِّبينَ -وهم الأشْقَونَ- بأنَّ السَّببَ إيثارُهم الحياةَ الدُّنيا،

---

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٩٤، ٩٥).
والحديث أخرجه الترمذيُّ (٢٣٧٧)، وابنُ ماجه (٤١٠٩)، وأحمدُ (٣٧٠٩) واللَّفظُ له مِن حديثِ عبدِالله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.
قال الترمذيُّ: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه ابنُ القيِّم في ((عدة الصابرين)) (١/ ٢٩٩)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٠٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٦/ ٢٤٢)، وصحَّح إسنادَه ابنُ تيميَّةَ في ((الجواب الصحيح)) (٥/ ٤٨٠)، وأحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ٢٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٤٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٠٧).

وذلك على قِراءةِ ﴿يُؤثِرونَ﴾ ظاهرٌ، وأمَّا على قِراءةِ ﴿تُؤْثِرُونَ﴾[(١)] فهو إضرابٌ عن حِكايةِ أحوالِ الفَريقينِ بالانتقالِ إلى تَوبيخِ أحَدِ الفريقينِ، وهو الفريقُ الأشْقى، فالخِطابُ مُوجَّهٌ إليهم على طَريقةِ الالتِفاتِ؛ لتَجديدِ نَشاطِ السَّامعِ؛ لكيْ لا تَنقضيَ السُّورةُ كلُّها في الإخبارِ عنهم بطَريقِ الغَيبةِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ الإضرابُ إبطالًا لِما تَضمَّنَه قولُه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤] مِن التَّعريضِ للَّذين شَقُوا بتَحريضِهم على طلَبِ الفلاحِ لأنفُسِهم؛ ليَلتحِقوا بالَّذين يَخشَون ويَتزَكَّون؛ ليَبطُلَ أنْ يَكونوا مَظِنَّةَ تَحصيلِ الفلاحِ، والمعْنى: أنَّهم بُعداءُ عن أنْ يُظَنَّ بهم التَّنافسُ في طلَبِ الفَلاحِ؛ لأنَّهم يُؤثِرون الحياةَ الدُّنيا؛ فالمعْنى: بلْ أنتم تُؤثِرون مَنافِعَ الدُّنيا على حُظوظِ الآخِرةِ، وهذا كما يقولُ النَّاصحُ شَخصًا يظُنُّ أنَّه لا يَنتَصِحُ: لقد نَصَحْتُك، وما أظُنُّك تَفعَلُ[(٢)].

وقيل: قولُه: ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ فيه الْتفاتٌ في قولِه: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ -إذا كان الخِطابُ مُوجَّهًا إلى الكفَّارِ- لتَشديدِ التَّوبيخِ، وإذا كان مُوجَّهًا لهم وللمُسلمينَ؛ ففي حقِّ الكفَرةِ لتَشديدِ التَّوبيخِ، وفي حَقِّ المسلمينَ لتَشديدِ العِتابِ[(٣)].

- والإيثارُ: اختيارُ شَيءٍ مِن بيْنِ مُتعدِّدٍ، والمعْنى: تُؤثِرون الحياةَ الدُّنيا بعِنايَتِكم واهتِمامِكُم. ولم يُذكَرِ المُؤثَرُ عليه؛ لأنَّ الحياةَ الدُّنيا تدُلُّ عليه، أي: لا تَتأمَّلون فيما عَدا حَياتَكم هذه، ولا تَتأمَّلون في حياةٍ ثانيةٍ؛ فالمشرِكون

---

(١) قرأ أبو عَمرٍو ﴿يُؤْثِرُونَ﴾، وقرأ الباقونَ: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٠٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٨٩).

لا يُؤمِنون بالآخِرةِ، وإذا ذُكِّروا بالحياةِ الآخِرةِ وأُخبِروا بها، لم يُعِيروا سَمْعَهم ذلك، وجَعَلوا ذلك مِن الكلامِ الباطلِ، وهذا مَورِدُ التَّوبيخِ[١]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- قوله: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ حالٌ مِن فاعِلِ ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ مؤكِّدةٌ للتَّوبيخِ والعِتابِ، أي: تُؤثِرونَها على الآخِرةِ، والحالُ أنَّ الآخِرةَ خَيرٌ في نَفْسِها؛ لِما أنَّ نَعيمَها مع كَونِه في غايةِ ما يكونُ مِنَ اللَّذَّةِ خالِصٌ عن شائِبةِ الغائِلةِ، أبَدِيٌّ لا انْصِرامَ له، وعدَمُ التَّعرُّضِ لبَيانِ تَكدُّرِ نَعيمِ الدُّنيا بالمُنغِّصاتِ وانقِطاعِه عمَّا قَليلٍ؛ لِغايةِ ظُهورِه[٢].

- وفي قَولِه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ احتباكٌ[٣]؛ ذِكرُ الإيثارِ والدُّنُوِّ أوَّلًا يدُلُّ على التَّركِ والعلوِّ ثانيًا، وذِكرُ الخَيرِ والبقاءِ ثانيًا يدُلُّ على ضِدِّهما أوَّلًا[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ تَذييلٌ للكلامِ، وتَنويهٌ به بأنَّه مِن الكلامِ النَّافعِ الثَّابتِ في كُتُبِ إبراهيمَ ومُوسى عليهما السَّلامُ، قُصِدَ به الإبلاغُ للمشرِكينَ الَّذين كانوا يَعرِفون رِسالةَ إبراهيمَ ورِسالةَ مُوسى؛ ولذلك أُكِّدَ هذا الخبَرُ بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ؛ لأنَّه مَسوقٌ إلى المُنكِرين[٥].

- ووَجْهُ جمْعِ الصُّحفِ أنَّ إبراهيمَ عليه السَّلامُ كانتْ له صُحفٌ، وأنَّ مُوسى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٢٣).

(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢١/ ٤٠٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٠).

عليه السَّلامُ كانت له صُحفٌ كَثيرةٌ، وهي مَجموعُ صُحفِ أسفارِ التَّوراةِ[١].

- جاء نظْمُ الكلامِ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ على أُسلوبِ الإجمالِ والتَّفصيلِ؛ ليَكونَ لهذا الخبَرِ مَزيدُ تَقريرٍ في أذهانِ النَّاسِ؛ فقولُه: ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدَلٌ مِن ﴿ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٢]. وفي إبهامِها ووصْفِها بالقِدَمِ، ثمَّ بَيانِها وتَفسيرِها مِن تَفخيمِ شَأنِها؛ ما لا يَخْفى[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٧).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الغاشِيةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ الغاشِيةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الغاشِيةِ)[١].

وسُمِّيت أيضًا بسُورةِ ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾؛ فعن سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في صلاةِ الجُمُعةِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾))[٢].

وعنه أيضًا: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يَقرَأُ في العيدَينِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾))[٣].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

**كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ بها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن صَلاتَيِ الجُمُعةِ والعِيدِ.**

فعن النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرَأُ في العِيدَينِ، وفي الجُمُعةِ بـ﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿هَلۡ أَتَىٰكَ

---

(١) سُمِّيَت سورةَ الغاشيةِ لوُقوعِ لفظِ الغاشيةِ في أوَّلِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٣).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١١٢٥) واللَّفظُ له، والنسائيُّ (١٤٢٢)، وأحمدُ (٢٠١٥٠).
صَحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٨٠٨)، وابنُ عبدِ البَرِّ في ((الاستذكار)) (٢/ ٥٣)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٨٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١١٢٥)، وصَحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١١٢٥).

(٣) أخرجه النسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٧٧٤) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٢٠٢١٧).
صحَّحه ابنُ حزم في ((المحلى)) (٥/ ٨٢)، والألبانيُّ في ((إرواء الغليل)) (٦٤٤)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٣/ ٣٧٢).

حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾، قال: وإذا اجتمَع العيدُ والجُمُعةُ في يومٍ واحدٍ يَقرَأُ بهما أيضًا في الصَّلاتَينِ))[١].

وتقدَّمَ حديثَا سَمُرةَ بنِ جُندَبٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

## بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الغاشيةِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

بيانُ أحوالِ الكافِرينَ والمؤمنينَ يومَ القيامةِ[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- ذِكرُ جزاءِ الكافِرينَ والمُؤمنينَ يومَ القيامةِ.

٢- ذِكرُ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ في خَلْقِه.

٣- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالتَّذكيرِ، وتهديدُ المُشرِكينَ المُعرِضينَ بالعَذابِ.

٤- تقريرُ وُقوعِ البَعْثِ والحِسابِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٧٨). وتُنظر الحكمةُ مِن قراءتِهما فيما تقدَّم (ص: ١٢٠).

(٢) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجوزي، والقرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٤٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٨٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٣٧١).

## الآيات (١-٧)

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ٢ عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ ٣ تَصۡلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ٤ تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥ لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦ لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ ٧﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾: هي القيامةُ تَغْشى النَّاسَ بالأهوالِ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[١].

﴿نَّاصِبَةٞ﴾: تَعمَلُ ما تتعَبُ به، ومعنى النَّصَبِ: الدُّؤوبُ في العَمَلِ بالتَّعَبِ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ وإهدافٍ في استواءٍ[٢].

﴿تَصۡلَىٰ﴾: أي: تدخُلُ النَّارَ وتذُوقُ حَرَّها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ[٣].

﴿ءَانِيَةٖ﴾: أي: بالِغةِ الحرارةِ قد انتهَى غَلَيانُها، وأصلُ (أني): يدُلُّ على إدراكِ الشَّيءِ[٤].

﴿ضَرِيعٖ﴾: أي: نبتٍ ذي شَوكٍ هو أخبَثُ الطَّعامِ وأبشَعُه[٥].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٤١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣١٤)، =

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال له: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ القيامةِ الَّتي تَغشى النَّاسَ بأهوالِها وشَدائِدِها؟

ثمَّ فصَّل الله تعالى أحوالَ النَّاسِ في ذلك اليوم، فقال: في ذلك اليوم تكونُ وُجوهٌ ذَليلةً، يَعمَلُ أصحابُها أعمالًا شاقَّةً مُرهِقةً، يَدخُلونَ نارًا شَديدةَ الحرارةِ، ويُسقَونَ مِن شَرابِ عَينٍ في غايةِ الحَرارةِ، ليس لهم طَعامٌ إلَّا شَجَرٌ يابِسٌ ذو شَوكٍ، لا يُسمِنُ هذا الضَّريعُ آكِلِيه، ولا يَدفَعُ عنهم شيئًا مِن ألَمِ الجُوعِ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ ١﴾.

أي: هل بلَغَك -يا محمَّدُ- خَبَرُ القيامةِ الَّتي تَغشى النَّاسَ بأهوالِها وشَدائِدِها[1]؟

---

= ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٥٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٨٠).

وذكَرَ ابنُ فارس أنَّ (ضرع) أصلٌ صَحيحٌ يدُلُّ على لِينٍ في الشَّيءِ، ثمَّ قال: (ومِمَّا شَذَّ عن هذا البابِ: الضَّريعُ، وهو نَبْتٌ. ومُمْكِنٌ أنْ يُحْمَلَ على البابِ فيُقالُ ذلك لِضَعْفِه، إذا كان لا يُسْمِنُ ولا يُغْني مِنْ جُوعٍ). ((مقاييس اللغة)) (٣/ ٣٩٥، ٣٩٦).

وقال الزمخشري: (الضَّريعُ يَبِيسُ الشِّبْرِقِ، وهو جِنسٌ مِن الشَّوكِ تَرعاه الإبلُ ما دام رَطْبًا، فإذا يَبِسَ تحامَتْه الإبلُ، وهو سمٌّ قاتلٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢١).

قال ابنُ عثيمين: (يجوزُ أن يكونَ الخِطابُ مُوَجَّهًا للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم وَحْدَه، وأمَّتُه تَبَعٌ له، ويجوزُ أن يكونَ عامًّا لكُلِّ مَن يتأتَّى خِطابُه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧١).

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾.

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا هَوَّل أمْرَها بانبهامِها وعُمومِها، زاد في التَّهويلِ بما ذَكَر مِن أحوالِها في تفصيلِ النَّاسِ إلى شَقيٍّ وسعيدٍ، وبدأ بالشَّقِيِّ؛ لأنَّ المقامَ لإنذارِ المؤثِرينَ للحياةِ الدُّنيا[1].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢﴾.

أي: تكونُ وُجوهٌ يومَ القيامةِ ذَليلةً[2].

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾.

أي: يَعمَلُ أصحابُها أعمالًا شاقَّةً مُجهِدةً مُرهِقةً[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢).

قال البِقاعي: (أي: ذَليلةٌ مُخبِتةٌ مِنَ الخَجَلِ والفضيحةِ والخَوفِ والحَسْرةِ الَّتي لا تنفَعُ في مِثْلِ هذا الوَقتِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٤).

ذهب أكثَرُ المُفَسِّرينَ إلى أنَّ ذلك واقعٌ يومَ القيامةِ، فيُكَلَّفونَ بجَرِّ السَّلاسِلِ والأغلالِ، أو غيرِ ذلك مِن الأعمالِ الشَّاقَّةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ تيميَّةَ، والبِقاعي، والسعديُّ، وابن عثيمين. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٢).

ومِمَّن قال مِن السَّلفِ في الجملةِ إنَّ هذا العملَ والنَّصَبَ في النَّارِ والعذابِ يومَ القيامةِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والحسَنُ، وابنُ زَيدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٥٧).

وقيل: يكونُ ذلك في الدُّنيا. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: مكِّيٌّ، والقرطبي، وابن عادل. =

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

بَعْدَ أن وَصَفَهم تعالى بهذه الصِّفاتِ الثَّلاثةِ؛ شَرَح بعدَ ذلك كيفيَّةَ مَكانِهم ومَشرَبِهم ومَطعَمِهم(١).

﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾.

---

= يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢١٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٩٠).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ في روايةٍ عنه، وزَيدُ ابنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٥٧).

قال القرطبي: (ثمَّ قال: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ فهذا في الدُّنيا؛ لأنَّ الآخِرةَ ليست دارَ عَمَلٍ. فالمعنى: وُجوهٌ عامِلةٌ ناصِبةٌ في الدُّنيا، خاشِعةٌ في الآخرةِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦).

وقال البِقاعي: (ويجوزُ أن يُرادَ بها الَّذين تَعِبوا ونَصَبوا في الدُّنيا أجسامَهم وهم على غيرِ دِينِ الإسلامِ، كالرُّهبانِ مِنَ النَّصارى بعدَ النَّسخِ، وزنادقةِ المتصَوِّفةِ مِنَ الفلاسِفةِ وأتْباعِهم). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٣، ٤).

وقال القاسمي: (... وجُوِّزَ أن يكونَ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ إشارةً إلى عَمَلِهم في الدُّنيا، أي: عَمِلَت ونَصِبَت في أعمالٍ لا تُجْدي عليها في الآخِرةِ، فيكونُ بمنزلةِ: حابطةٌ أعمالُها، أو جُعِلَت أعمالُها هباءً مَنثورًا، كما يدُلُّ عليه آياتٌ أُخَرُ، ويؤيِّدُه مقابلةُ هذه الآيةِ لِقَولِه في أهلِ الجنَّةِ: ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٩]، وذلك السَّعيُ هو الَّذي كان في الدُّنيا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٠-٤٦١).

وقال السمعاني: (وقَولُه: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أي: عَمِلَت في الدُّنيا لغيرِ اللهِ، فنَصِبَت وتَعِبَت في الآخِرةِ بعَذابِ اللهِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: عِكْرِمةُ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٣٩).

أي: يَدخُلونَ نارًا مُتوَقِّدةً شَديدةَ الحرارةِ[١].

﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن تعالى مكانَهم؛ ذَكَر شَرابَهم[٢].

وأيضًا لَمَّا كان مَن في الحَرِّ أحوَجَ شَيءٍ إلى ما يُبَرِّدُ باطِنَه، قال[٣]:

﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ ٥﴾.

أي: يُسقَونَ مِن شَرابِ عَينٍ في غايةِ الحَرارةِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٣، ٤٤].

﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر شَرابَهم؛ ذَكَر طَعامَهم[٥].

﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ ٦﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٢٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٥)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٥٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٢٩٣).

أي: ليس لهم طَعامٌ إلَّا شَجَرٌ يابِسٌ ذو شَوكٍ[١].

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حَصَر أكْلَهم في هذا، وكان الضَّريعُ المعروفُ عِندَ العَرَبِ قد يَتصَوَّرُ متصَوِّرٌ أنَّه لو أُكرِهَ شَيءٌ على أكْلِه أسمنَهَ أو سَدَّ جوعتَه؛ نفى عنه فائدةَ الطَّعامِ[٢].

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ۝٧﴾.

أي: لا يَعودُ هذا الضَّريعُ على آكِلِيه بسِمَنٍ يُصلِحُ أجسادَهم، ولا يَدفَعُ عنهم شيئًا مِن أَلَمِ الجُوعِ؛ فليس مِن وَرائِه سِوى الضَّرَرِ المحْضِ[٣]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ إلى قَولِه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ دَليلٌ على اختصارِ الكلامِ، والإشارةِ إلى المعنى؛ لأنَّ الغاشيةَ -واللهُ أعلمُ- هي القيامةُ، فلَمْ يَذْكُرْ يَومَها واقتصرَ على فِعْلِها، ثُمَّ قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾، فذَكَر الوُجوهَ وحْدَها، وهي لا تكونُ مُنفَردةً عن الأجسامِ بهذه الأوصافِ إلَّا بمُشارَكَتِها، ثُمَّ قال: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾، وهي لا تَصْلاه وَحْدَها، ثُمَّ قال: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ وإنَّما تُسْقَى البُطونُ، فأَخْبَرَ بكلِّ ذلك عن الوُجوهِ؛ لأنَّها غُرَّةُ الأبدانِ، وأرفَعُ شيءٍ في الأجسادِ. واللهُ أعلمُ. وكذلك الوُجوهُ الأُخَرُ

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٩، ٣٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٧).

الَّتي وَصَفَها بالنَّاعمةِ، وهي تُنَعَّمُ مع أبدانِها ولا تَنْفَرِدُ بنَعيمِها، وتكونُ مع الأبدانِ في الجَنَّةِ العاليةِ، و﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ إلى آذانِها، فنَسَبَ كلَّ ذلك إليها اختصارًا، وفَصاحةً، وإشارةً إلى المعاني المفهومةِ عندَ العربِ الَّذين نَزَلَ القرآنُ بِلُغَتِهم(١).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أنَّ إسنادَ صِفاتِ الذَّاتِ لبَعضِ أجزائِها هو مِن أساليبِ اللُّغةِ العَربيَّةِ، وكإسنادِ الكَذِبِ والخَطيئةِ إلى النَّاصيةِ في قَولِه تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾(٢) [العلق: ١٦].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ سُؤالٌ: كيف تكونُ هذه العَينُ في نارِ جهنَّمَ، والعادةُ أنَّ الماءَ يُطفئُ النَّارَ؟!

**الجوابُ:**

**أوَّلًا:** أنَّ أمورَ الآخرةِ لا تُقاسُ بأمورِ الدُّنيا، لو أنَّها قِيسَتْ بأُمورِ الدُّنيا ما استطَعْنا أنْ نَتَصَوَّرَ كيف يكونُ، أَلَيستِ الشَّمسُ تدنو يومَ القيامةِ مِن رُؤوسِ النَّاسِ على قَدْرِ مِيلٍ؟ -والميلُ إمَّا مِيلُ الْمُكْحُلةِ، وهو نصفُ الإصبَعِ، أو مِيلُ المسافةِ: كيلو وثُلُثٌ أو نحوُ ذلك-، وحتَّى لو كان كذلك فإنَّه لو كانتِ الآخرةُ كالدُّنيا لَشَوَتِ النَّاسَ شيًّا، لكنَّ الآخرةَ لا تُقاسُ بالدُّنيا، أيضًا يُحْشَرُ النَّاسُ يومَ القيامةِ في مكانٍ واحدٍ؛ منهم مَن هو في ظُلمةٍ شديدةٍ، ومنهم مَن هو في نُورٍ ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ﴾ [التحريم: ٨]، يُحشَرونَ في مكانٍ واحدٍ ويَعرَقونَ؛ فمِنهم مَن يَصِلُ العَرَقُ إلى كَعْبِه، ومنهم مَن يَصِلُ إلى رُكبَتَيه، ومنهم مَن يَصِلُ إلى حِقْوَيه، ومع ذلك هم في مكانٍ واحدٍ. إذَن أحوالُ الآخرةِ لا يجوزُ

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ١٠٢).

أنْ تُقاسَ بأحوالِ الدُّنيا.

**ثانيًا**: أنَّ اللهَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، ها نحن الآن نَجِدُ أنَّ الشَّجَرَ الأخضرَ تُوقدُ منه النَّارُ، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ [يس: ٨٠]، الشَّجرُ الأخضَرُ رَطْبٌ، ومع ذلك إذا ضُرِبَ بعضُه ببعضٍ أو ضُرِبَ بالزَّندِ انقدَحَ وخَرَجَ منه نارٌ حارَّةٌ يابِسةٌ، وهو رَطْبٌ بارِدٌ؛ فاللهُ على كلِّ شيءٍ قَديرٌ، فهم يُسقَونَ مِن عَينٍ آنيةٍ في النَّارِ، ولا يتنافى ذلك مع قُدرةِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[(١)].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ سُؤالٌ: كيف يُوجَدُ النَّبتُ في النَّارِ؟

**الجوابُ**: لِمَ لا يجوزُ أنْ يُقالَ: إنَّ النَّبتَ يُوجَدُ في النَّارِ؟! فإنَّه لَمَّا لم يُستبعَدْ بَقاءُ بَدَنِ الإنسانِ -مع كَونِه لحمًا ودَمًا- في النَّارِ أبَدَ الآبادِ، فكذا هاهنا، وكذا القَولُ في سلاسِلِ النَّارِ وأغلالِها، وعَقاربِها وحَيَّاتِها[(٢)].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ سُؤالٌ: أنَّ هذا يُعارِضُ قولَه تعالى في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ [الحاقة: ٣٦].

**الجوابُ مِن أوجُهٍ:**

**الأول**: أنَّ الاختِلافَ بحَسَبِ مَن يَطْعَمُ مِن أهلِ النَّارِ؛ فمَن اتَّصَفَ بالصِّفةِ الأُولى فطَعَامُه مِن غِسْلينٍ، ومَن اتَّصَفَ بالثَّانيةِ فطعامُه مِن ضَريعٍ[(٣)]، فالعذابُ ألوانٌ، والمعَذَّبونَ طَبَقاتٌ؛ فمِنهم مَن لا طعامَ له إلَّا مِن غِسْلينٍ، ومنهم مَن لا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤١).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٣١).

طعامَ له إلَّا مِن ضَريعٍ، ومنهم مَن لا طعامَ له إلَّا الزَّقُّومُ، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾[1] [الحجر: ٤٤].

**الثَّاني**: أن يكونَ أحَدُهما في حالٍ، والآخَرُ في حالٍ[2].

**الثَّالِثُ**: أنَّ المعنى أنَّهم لا طعامَ لهم أصلًا؛ لأنَّ الضَّريعَ لا يَصدُقُ عليه اسمُ الطَّعام، ولا تأكُلُه البَهائِمُ، فأحرى الآدَميُّونَ! وكذلك الغِسلِينُ ليس مِنَ الطَّعامِ، فمَن طَعامُه الضَّريعُ لا طَعامَ له، ومَن طَعامُه الغِسلينُ كذلك. ومنه قَولُهم: فلانٌ لا ظِلَّ له إلَّا الشَّمسُ، ولا دابَّةَ إلَّا دابَّةُ ثَوبِه، يَعْنونَ القَمْلَ، ومُرادُهم: لا ظِلَّ له أصلًا، ولا دابَّةَ له أصلًا، وعليه فلا إشكالَ. والعِلمُ عندَ اللهِ تعالى[3]. وهذا الجوابُ خِلافُ ظاهِرِ القرآنِ.

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ مُناسَبةٌ: في أنَّ عُلومَ أهلِ الباطِلِ وأعمالَهم الَّتي كانت لغيرِ اللهِ تعالى صَيَّرَها اللهُ تعالى حميمًا سَقاهم إيَّاه، كما أنَّ طعامَهم مِن ضَريعٍ لا يُسْمِنُ ولا يُغني مِن جُوعٍ، وهو تلك العُلومُ والأعمالُ الباطِلةُ الَّتي كانت في الدُّنيا كذلك لا تُسْمِنُ ولا تُغْني مِن جُوعٍ، وهؤلاء هم الَّذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، وهم الَّذين عَنَى بقَولِه تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وهم الَّذين عَنَى بقَولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾[4] [البقرة: ١٦٧].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٤) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٥٦).

٧- وصْفُ ﴿ضَرِيعٍ﴾ بأنَّه ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ لتَشويهِه، وأنَّه تَمحَّضَ للضُّرِّ، فلا يَعودُ على آكلِيه بسِمَنٍ يُصلِحُ بعضَ ما الْتفَحَ مِن أجسادِهِم، ولا يُغْني عنْهم دفْعَ ألَمِ الجوعِ، ولعلَّ الجُوعَ مِن ضُروبِ تَعذيبِهم؛ فيَسألون الطَّعامَ فيُطعَمون الضَّريعَ، فلا يَدفَعُ عنْهم ألَمَ الجوعِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾

- هذا الاستِفهامُ تَوقيفٌ، وفائدتُه تَحريكُ نفْسِ السَّامعِ إلى تَلقِّي الخبَرِ. وقيل: المعْنى: هلْ كان هذا مِن عِلمِك لَولا ما علَّمْناك؟ وفي هذا تَعديدُ النِّعمةِ. وقيل: هلْ بمعنى (قدْ)[٢]؛ فهو استفهامٌ أُريدَ به التَّعجيبُ ممَّا في حيِّزِه، والتَّشويقُ إلى استِماعِه، والإشعارُ بأنَّه مِن الأحاديثِ البَديعةِ الَّتي حقُّها أنْ يَتناقَلَها الرُّواةُ، ويَتنافَسَ في تَلقِّيها الوُعاةُ مِن كلِّ حاضِرٍ وَبادٍ[٣].

- وأيضًا الافتتاحُ بالاستِفهامِ عن بُلوغِ خبَرِ الغاشيةِ مُستعمَلٌ في التَّشويقِ إلى مَعرفةِ هذا الخبَرِ؛ لِما يَترتَّبُ عليه مِن الموعظةِ، وكونُ الاستفهامِ بـ(هَل) المفيدةِ معْنى (قدْ) فيه مَزيدُ تَشويقٍ؛ فهو استفهامٌ صُوريٌّ يُكنَّى به عن أهمِّيَّةِ الخبَرِ، بحيث شأْنُه أنْ يكونَ بلَغَ السَّامعَ[٤]؛ فالاستفهامُ للتَّشويقِ، كقولِه تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]. ويجوزُ أن يكونَ للتَّعظيمِ؛ لِعِظَمِ هذا الحديثِ عن الغاشيةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧١).

- وأيضًا في وُرودِ الكلامِ في مِثلِ هذا بصِيغةِ الاستِفهامِ سِرٌّ لطيفٌ، ومعنًى بديعٌ؛ فإنَّ المتكلِّمَ إذا أراد أن يُخبرَ مُخاطَبَه بأمرٍ عجيبٍ يَنبغي الاعتناءُ به، وإحضارُ الذِّهنِ له، صدَّر له الكلامَ بأداةٍ تُنَبِّهُ سمْعَه وذِهْنَه للمُخبَرِ به؛ فتارةً يُصَدِّرُه بـ «ألَا»، وتارةً يُصدِّرُه بـ «هلْ»، فيقولُ: هل عَلِمتَ ما كان مِن كَيْتَ وكَيْتَ؟ إمَّا مذَكِّرًا به، وإمَّا واعظًا له مُخَوِّفًا، وإمَّا منَبِّهًا على عَظَمةِ ما يُخبِرُ به، وإمَّا مقَرِّرًا له، فقولُه تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [النازعات: ١٥] و﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١] و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] متضَمِّنٌ لتعظيمِ هذه القصصِ، والتَّنبيهِ على تدَبُّرِها، ومعرفةِ ما تضَمَّنَتْه. وفيه أمرٌ آخَرُ، وهو التَّنبيهُ على أنَّ إتيانَ هذا إليك علَمٌ مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ؛ فإنَّه مِن الغَيبِ الَّذي لا تَعلَمُه أنت ولا قَومُك، فهلْ أتاك مِن غيرِ إعلامِنا وإرسالِنا وتعريفِنا؟ أوْ لم يأتِكَ إلَّا مِن قِبَلِنا؟ فانظُرْ ظُهورَ هذا الكلامِ بصيغةِ الاستفهامِ، وتأمَّلْ عِظَمَ مَوقِعِه مِن جميعِ مَوارِدِه؛ يَشهَدْ أنَّه مِن الفصاحةِ في ذُروتِها العُلْيا[1].

- وتَعريفُ ما أُضِيفَ إليه ﴿حَدِيثُ﴾ بوَصْفِه ﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الَّذي يَقْتضي مَوصوفًا لم يُذكَرْ؛ هو إبهامٌ لزِيادةِ التَّشويقِ إلى بَيانِه الآتي؛ ليَتمكَّنَ الخبَرُ في الذِّهنِ كَمالَ تَمكُّنٍ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾

- قولُه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ إلى قولِه: ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ استِئنافٌ وقَعَ جوابًا عن سُؤالٍ نشَأَ مِن الاستِفهامِ التَّشويقيِّ؛ كأنَّه قيلَ مِن جِهتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: ما

(١) يُنظر: ((الرسالة التبوكية)) لابن القيم (ص: ٧٣، ٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٤).

أتانِي حَديثُها؛ فما هو؟ فقيلَ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ...﴾[١].

- و﴿وُجُوهٌ﴾ مُبتدأٌ، و﴿خَٰشِعَةٌ﴾ خبَرٌ، والجُملةُ بَيانٌ لحَديثِ الغاشيةِ، كما يُفيدُه الظَّرفُ مِن قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ فإنَّ (ماصَدَقَه)[٢] هو يومُ الغاشيةِ، ويكونُ تَنكيرُ ﴿وُجُوهٌ﴾ -وهو مُبتدأٌ- قُصِدَ منه النَّوعُ[٣].

- ويَتعلَّقُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بكَلمةِ ﴿خَٰشِعَةٌ﴾؛ قُدِّمَ على مُتعلَّقِه للاهتِمامِ بذلك اليَومِ[٤].

- و﴿خَٰشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ أخبارٌ ثلاثةٌ عن ﴿وُجُوهٌ﴾، والمعْنى: أناسٌ خاشِعون... إلخ، فالوُجوهُ كِنايةٌ عن أصحابِها؛ إذ يُكنَّى بالوَجْهِ عن الذَّاتِ، وقَرينةُ ذلك هنا قولُه بعْدَه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾؛ إذ جُعِلَ ضَميرُ الوُجوهِ جَماعةَ العُقلاءِ؛ فالمرادُ بالوُجوهِ في قولِه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ وقولِه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ جَميعُ الأبدانِ؛ لأنَّ ما ذُكِرَ مِن الأوصافِ لا يَختصُّ بالوُجوهِ. وأُوثِرَت الوُجوهُ بالكِنايةِ عن أصحابِها هنا وفي مِثلِ هذا المَقامِ؛ لأنَّ حالةَ الوُجوهِ تُنبِئُ عن حالةِ أصحابِها؛ إذ الوجْهُ عُنوانٌ عمَّا يَجِدُه صاحِبُه مِن نَعيمٍ أو شِقوةٍ، كما يُقالُ: خرَجَ بوَجْهٍ غيرِ الوجْهِ الَّذي دَخَلَ به[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٨).

(٢) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو الموصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يُقالَ مثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٥).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٥).

- ولَمَّا كانتْ (إذ) مِن الأسماءِ الَّتي تَلزَمُ الإضافةَ إلى جُملةٍ، فالجُملةُ المُضافُ إليها (إذ) في قولِه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ مَحذوفةٌ، عُوِّض عنها التَّنوينُ، ويدُلُّ عليها ما في اسمِ الغاشيةِ مِن لَمْحِ أصْلِ الوصفيَّةِ؛ لأنَّها بمعْنى: الَّتي تَغْشى النَّاسَ، فتَقديرُ الجُملةِ المحذوفةِ: يومَ إذ تَغْشى الغاشيةُ، أو يدُلُّ على الجُملةِ سِياقُ الكلامِ، فتُقدَّرُ الجُملةُ: يومَ إذ تَحدُثُ أو تقَعُ[(١)].

- وأُوثِرَ وصْفُ ﴿خَاشِعَةٌ﴾ و﴿عَامِلَةٌ﴾ و﴿نَّاصِبَةٌ﴾ تَعريضًا بأهلِ الشَّقاءِ؛ بتَذكيرِهم بأنَّهم تَرَكوا الخُشوعَ للهِ، والعمَلَ بما أمَرَ به، والنَّصَبَ في القِيامِ بطاعتِه، فجَزاؤهم خُشوعُ مَذلَّةٍ، وعمَلُ مَشقَّةٍ، ونصَبُ إرهاقٍ[(٢)].

٣- قولُه تعالَى: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۞ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۞ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۞ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾

- جُملةُ ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ خبَرٌ رابعٌ عن ﴿وُجُوهٌ﴾. ويجوزُ أنْ تكونَ حالًا، يُقالُ: صَلِيَ يَصْلى؛ إذا أصابَه حرُّ النَّارِ؛ وعليه فذِكرُ ﴿نَارًا﴾ بعْدَ ﴿تَصْلَىٰ﴾ لزِيادةِ التَّهويلِ والإرهابِ، وليُجْرى على ﴿نَارًا﴾ وصْفُ ﴿حَامِيَةً﴾[(٣)].

- ووَصْفُ النَّارِ بوَصْفِ ﴿حَامِيَةً﴾ لإفادةِ تَجاوُزِ حرِّها المِقدارَ المعروفَ؛ لأنَّ الحَمْيَ مِن لَوازمِ ماهيَّةِ النَّارِ، فلمَّا وُصِفَت بـ ﴿حَامِيَةً﴾ كان دالًّا على شِدَّةِ الحَمْيِ[(٤)].

- وأخبَرَ عن ﴿وُجُوهٌ﴾ خبَرًا خامسًا بجُملةِ ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾، أو هو حالٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٥، ٢٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مِن ضَميرِ ﴿تَصْلَىٰ﴾؛ لأنَّ ذِكرَ الاحتِراقِ بالنَّارِ يُحضِرُ في الذِّهنِ تَطَلُّبَ إطفاءِ حَرارتِها بالشَّرابِ، فجُعِلَ شَرابُهم مِن عَينٍ آنيةٍ(١).

- قولُه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للإجابةِ عن سُؤالٍ مُترتِّبٍ على ما سَبَق، كأنَّه قِيل: وما هو طَعامُهم بعْدَما ذُكِرَ شَرابُهم(٢)؟ فذِكرُ السَّقيِ يُحضِرُ في الذِّهنِ تَطلُّبَ مَعرفةِ ما يَطعَمونَه؛ فجِيءَ به خبَرًا سادِسًا، أو حالًا مِن ضَميرِ ﴿تُسْقَىٰ﴾، أي: يُطعَمون طَعامَ إيلامٍ وتَعذيبٍ، لا نفْعَ فيه لهمْ، ولا يَدفَعُ عنهم ألَمًا(٣).

- وضَميرُ ﴿لَهُمْ﴾ عائدٌ إلى ﴿وُجُوهٌ﴾ باعتِبارِ تَأويلِه بأصحابِ الوُجوهِ؛ ولذلك جِيءَ به ضَميرَ جَماعةِ المُذكَّرِ، والتَّذكيرُ تَغليبٌ للذُّكورِ على الإناثِ(٤).

- قولُه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ تَنكيرُ الجوعِ للتَّحقيرِ، أيْ: لا يُغْني مِن جُوعٍ ما. وتَأخيرُ نَفْيِ الإغناءِ منه؛ لمُراعاةِ الفواصلِ، والتَّوسُّلِ به إلى التَّصريحِ بنفْيِ كِلا الأمْرَينِ؛ إذْ لو قُدِّمَ لَمَا احتِيجَ إلى ذِكرِ نفْيِ الإسمانِ؛ ضَرورةَ استِلْزامِ نفْيِ الإغناءِ عن الجوعِ إيَّاه، بخِلافِ العكسِ؛ ولذلك كُرِّرَ (لا) لتَأكيدِ النَّفيِ(٥).

- وفي قولِه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّتميمِ(٦)؛ فجُملةُ ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ جُملةٌ لا يُمكِنُ طَرحُها مِن الكلامِ؛ لأنَّه لَمَّا قال:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٩).

(٦) تقدَّم تعريفُه (ص: ١١٣).

﴿لَّا يُسْمِنُ﴾ ساغَ لمُتوهِّمٍ أنْ يَتوهَّمَ أنَّ هذا الطَّعامَ الَّذي ليس مِن جِنسِ طَعامِ البشَرِ انتَفَت عنه صِفةُ الإسمانِ، ولكنْ بَقِيَت له صِفةُ الإغناءِ، فجاءت جُملةُ ﴿وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ تَتْميمًا للمعْنى المرادِ؛ وهو أنَّ هذا الطَّعامَ انتَفَت عنه صِفةُ إفادةِ السِّمَنِ والقوَّةِ كما انتَفَت عنه صِفةُ إماطةِ الجوعِ وإزالتِه. وقيل: هو مِن بابِ نفْيِ الشَّيءِ بإيجابِه، على حدِّ قَولِ امرئِ القَيسِ:

على لاحِبٍ لا يُهْتَدَى بِمَنارِهِ[1]

أي: إنَّه لا مَنارَ له أصلًا، وكما تقولُ: ليس لفُلانٍ ظِلٌّ إلَّا الشَّمسَ، تُريدُ نفْيَ الظِّلِّ على التَّوكيدِ، وليس ببَعيدٍ، والأوَّلُ أرصَنُ وأبعَدُ عن التَّكلُّفِ[2].

- قَولُه: ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ فيه احتِباكٌ[3]: نَفْيُ السِّمَنِ أوَّلاً يدُلُّ على إثباتِ الهُزالِ ثانيًا، ونَفيُ الإغناءِ مِنَ الجُوعِ ثانيًا يدُلُّ على نَفيِ الشِّبَعِ أوَّلًا[4].

---

(١) يُنظر: ((ديوان امرئ القيس)) (ص: ٩٦).
واللَّاحبُ: الطَّريقُ الواضحُ، ولم يُرِدْ أنَّ فيه منارًا لا يُهتدَى به، ولكنَّه نفَى أن يكون به منارٌ. والمعنى: لا منارَ فيه فيُهتدَى به. يُنظر: ((خزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦١).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٤٢/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨).

## الآيات (٨-١٦)

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِّسَعْيِهَا﴾: أي: لِعَمَلِها الَّذي عَمِلَتْ في الدُّنْيا مِن طاعةِ رَبِّها، والسَّعْيُ: المَشيُ السَّريعُ، وهو دُونَ العَدْوِ، ويُستعمَلُ للجِدِّ في الأمرِ، خيرًا كان أو شرًّا، وأكثَرُ ما يُستعمَلُ السَّعْيُ في الأفعالِ المحمودةِ[(١)].

﴿لَاغِيَةً﴾: أي: لَغوًا أو باطِلًا مِنَ القَولِ، واللَّغْوُ مِنَ الكَلامِ: ما لا يُعتَدُّ به، وأصلُ (لغو): يدُلُّ على الشَّيءِ لا يُعتَدُّ به[(٢)].

﴿وَأَكْوَابٌ﴾: جمعُ كوبٍ، وهو القَدَحُ لا عُرْوةَ له، وقيل: هو إناءٌ مستديرُ الرَّأسِ لا عُرْوةَ له، وقيل: هو الَّذي لا خُرطومَ له، فإذا كان لها خُرطومٌ فهو إبريقٌ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١١)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٧)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٤٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٥/ ١٦٥٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٤٧).

﴿وَنَمَارِقُ﴾: أي: وَسائِدُ ومَرافِقُ، واحدتُها: نُمْرُقةٌ ونِمْرِقةٌ[١].

﴿وَزَرَابِيُّ﴾: أي: بُسُطٌ فاخِرةٌ، واحدتُها: زَرْبِيَّةٌ[٢].

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾: أي: مَبسوطةٌ مُتفرِّقةٌ في المجالِسِ، وأصلُ (بثث): تفريقُ الشَّيءِ وإظهارُه[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ أهلِ الجنَّةِ مِن المؤمنينَ وما هم فيه مِن النَّعيمِ: وتكونُ وُجوهُ المُؤمِنينَ يَومَ القيامةِ عليها أَثَرُ النِّعمةِ؛ مِنَ البَهجةِ والسُّرورِ والنَّضرةِ، راضِينَ عَمَّا عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ صالحةٍ، حينَ وَجَدوا ثوابَها العَظيمَ في الآخِرةِ، وهم في جَنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، لا يَسمَعونَ فيها ما لا فائِدةَ فيه مِن الكَلامِ.

ثمَّ يُبيِّنُ اللهُ تعالى بعضَ صِفاتِ الجنَّةِ، فيقولُ: في تلك الجَنَّةِ العاليةِ عَينٌ جارِيةٌ مِن غَيرِ أُخدودٍ، وفي تلك الجَنَّةِ أَسِرَّةٌ عالِيةٌ مُرتَفِعةٌ، وأكوابٌ مَوضوعةٌ بيْن أيديهم، ووَسائِدُ مُرَتَّبةٌ ومَصفوفةٌ بَعضُها بجانبِ بَعضٍ، وفُرُشٌ فاخِرةٌ مُنتَشِرةٌ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٤٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر سُبحانَه وَعيدَ الكُفَّارِ؛ أَتْبَعَه بشَرحِ أحوالِ المُؤمِنينَ[١].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨﴾.

أي: يَظهَرُ على وُجوهِ المُؤمِنينَ يومَ القيامةِ أَثَرُ النِّعمةِ؛ مِنَ البَهجةِ والسُّرورِ والنَّضرةِ، والرَّاحةِ والرَّفاهِيَةِ[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٢ - ٢٤].

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩﴾.

أي: أصحابُ تلك الوُجوهِ راضُونَ عَمَّا عَمِلوه في الدُّنيا مِن أعمالٍ صالحةٍ، حينَ وَجَدوا ثوابَها العَظيمَ في الآخِرةِ[٣].

﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر السَّعْيَ؛ أَتْبَعَه ثَوابَه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩).

وأيضًا لمَّا ذَكَر وَصفَ أهلِ الثَّوابِ أوَّلًا؛ وَصَف دارَ الثَّوابِ ثانيًا[١].

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ١٠﴾.

أي: في جَنَّةٍ مُرتَفِعةٍ، وفي مَوضِعٍ عالٍ[٢].

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ١١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان ما كان مِن هذا لا يَصفُو وفيه ما يُكرَهُ مِنَ الكَلامِ، قال مُنَزِّهًا لها عن كُلِّ سُوءٍ[٣]:

﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً ١١﴾.

أي: لا يَسمَعونَ فيها أيَّ كَلِمةٍ لا فائِدةَ مِن وَرائِها[٤].

كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ [مريم: ٦٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥، ٢٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا﴾ [النبأ: ٣٥].

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ١٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤١).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٥).

أي: في تلك الجَنَّةِ العاليةِ عَينٌ جارِيةٌ بماءٍ أو بغَيرِه مِنَ الأشرِبةِ، مِن غَيرِ أُخدودٍ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحجر: ٤٥].

وقال سُبحانَه: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد: ١٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾ [الواقعة: ٣١].

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا لم يَبْقَ بَعدَ الأكلِ والشُّربِ إلَّا الاتِّكاءُ؛ قال مُفْهِمًا أنَّهم مُلوكٌ[(٢)]:

﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ ﴾.

أي: فيها أَسِرَّةٌ عالِيةٌ مُرتَفِعةٌ، يَجلِسونَ عليها أو يَضطَجِعونَ[(٣)].

كما قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧].

﴿ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان المُستريحُ يَحتاجُ إلى تَكرارِ الشُّربِ وما يَشرَبُ فيه، قال[(٤)]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩، ١٠).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢).

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾﴾.

أي: فيها أكْوابٌ[(١)]، مَوضوعةٌ بيْنَ أيديهم، كلَّما أرادوها وجَدوها حاضرةً عندَهم، قد أُعِدَّتْ لهم بأشرِبَتِها[(٢)].

---

(١) قال البِقاعي: (فهو [أي: الكُوبُ] صالِحٌ للمُناوَلةِ والشُّربِ مِن كُلِّ جِهةٍ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٢).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٦).

قال الرازي: (وفي قَولِه: ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ وُجوهٌ:

أحدُها: أنَّها مُعَدَّةٌ لِأهْلِها، كالرَّجُلِ يَلتَمِسُ مِنَ الرَّجُلِ شَيئًا فيَقولُ: هو هاهنا مَوضوعٌ، بمعنَى: مُعَدٍّ.

وثانيها: مَوضوعةٌ على حافَاتِ العُيونِ الجاريةِ، كُلَّما أرادوا الشُّربَ وَجَدوها مَمْلوءةً مِن الشَّرابِ.

وثالِثُها: مَوضوعةٌ بيْنَ أيديهم؛ لِاسْتِحْسانِهم إيَّاها؛ بسببِ كَونِها مِن ذَهَبٍ أو فِضَّةٍ أو مِن جَوهَرٍ، وتَلَذُّذِهم بالشَّرابِ منها.

ورابِعُها: أنْ يَكونَ المرادُ: مَوضوعة عن حَدِّ الكِبَرِ، أيْ: هيَ أَوْساطٌ بيْنَ الصِّغَرِ والكِبَرِ، كقَولِه: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٦]). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: مُعَدَّةٌ بأشْرِبَتِها، حاضِرةٌ عندَهم لِمَن أرادها: ابنُ عطيَّةَ، والرَّسْعَنيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المعنى: مَوضوعةٌ عندَهم بيْنَ أيديهم: البغويُّ، والخازن، والشوكاني، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦١).

وقال السعدي جامِعًا بيْن القَولَينِ السَّابقَينِ: (وُضِعَت بيْنَ أيديهم، وأُعِدَّت لهم، وصارت تحتَ طَلَبِهم واختيارِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢).

وقال ابنُ جرير: (مَوضوعةٌ على حافَةِ العَينِ الجاريةِ، كُلَّما أراد الشُّرْبَ وجَدَها مَلْأَى مِن الشَّرابِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦).

كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٠، ٧١].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ * بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ مِّن مَّعِينٖ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

﴿وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥﴾.

أي: وفيها وَسائِدُ مُرَتَّبةٌ ومَصفوفةٌ بَعضُها بجانبِ بَعضٍ، يَستَنِدونَ إليها[1].

﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان مَن هو بهذه المنزلةِ يَحتاجُ إلى المسانِدِ والفُرُشِ الزَّائِدةِ، قال تعالى[2]:

﴿وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦﴾.

أي: وفيها فُرُشٌ فاخِرةٌ جَميلةٌ كَثيرةٌ مُنتَشِرةٌ[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٦).
قال الواحدي: («نَمَارِقُ» يعني: الوَسائِدَ في قَولِ الجَميعِ، واحِدُها نُمْرُقةٌ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢، ٣٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٦).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ تنبيهٌ على أنَّ الجنَّةَ دارُ جِدٍّ وحَقيقةٍ، فلا كَلامَ فيها إلَّا لفائِدةٍ؛ لأنَّ النُّفوسَ فيها تخلَّصَت مِن النَّقائصِ كُلِّها، فلا يَلَذُّ لها إلَّا الحقائِقُ والسُّمُوُّ العَقليُّ والخُلُقيُّ، ولا يَنطِقونَ إلَّا ما يَزيدُ النُّفوسَ تَزكيةً[١].

٢- قال الله تعالى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ هذا وَعدٌ للمُؤمِنينَ بأنَّ لهم في الجنَّةِ ما يَعرِفونَ مِنَ النَّعيمِ في الدُّنيا، وقد عَلِموا أنَّ تَرَفَ الجنَّةِ لا يَبلُغُه الوَصفُ بالكلامِ، وجُمِعَ ذلك بوَجهِ الإجمالِ في قَولِه تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١]، ولكِنَّ الأرواحَ تَرتاحُ بمألوفاتِها فتُعْطاها، فيكونُ نَعيمُ أرواحِ النَّاسِ في كُلِّ عَصرٍ ومِن كُلِّ مِصرٍ في الدَّرَجةِ القُصْوى ممَّا أَلِفوه، ولا سِيَّما ما هو مألوفٌ لجَميعِ أهلِ الحَضارةِ والتَّرَفِ، وكانوا يتمَنَّونَه في الدُّنيا، ثمَّ يُزادونَ مِنَ النَّعيمِ ما لا عَينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطَرَ على قَلْبِ بَشَرٍ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ انظُرْ للتَّقابُلِ: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ عاليةٌ يَجلِسونَ عليها يَتَفَكَّهونَ ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [يس: ٥٦]، ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ يعني: ليست مرفوعةً عنهم، بل هي موضوعةٌ لهم، متى شاؤوا شَرِبوا فيها مِن أنهارِ الجَنَّةِ الأربعةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٥).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ شُروعٌ في روايةِ حَديثِ أهلِ الجنَّةِ. وتَقديمُ حِكايةِ حالِ أهلِ النَّارِ في الآياتِ السَّابقةِ؛ لأنَّه أدخَلُ في تَهويلِ الغاشيةِ وتَفخيمِ حَديثِها، ولأنَّ حِكايةَ حُسنِ حالِ أهلِ الجنَّةِ بعدَ حِكايةِ سُوءِ حالِ أهلِ النارِ ممَّا يَزيدُ المَحكيَّ حُسنًا وبَهجةً. وإنَّما لم تُعطَفْ عليها؛ إيذانًا بكَمالِ تَبايُنِ مَضمونَيهما(١).

- وكذلِك يَتبادَرُ في بادئِ الرَّأيِ أنَّ حقَّ هذه الجُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ أنْ تُعطَفَ على جُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢] بالواوِ؛ لأنَّها مُشاركةٌ لها في حُكْمِ البَيانِ لحَديثِ الغاشيةِ، كما عُطِفَت في سُورةِ (عَبَسَ) جُملةُ ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ [عبس: ٤٠] على جُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ [عبس: ٣٨]، فيَتَّجِهُ أنْ يُسأَلَ عن وَجْهِ فصْلِها عن الَّتي قبْلها، ووَجْهُ الفصلِ التَّنبيهُ على أنَّ المقصودَ مِن الاستِفهامِ في ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١] الإعلامُ بحالِ المُعرَّضِ بتَهديدِهم، وهمْ أصحابُ الوُجوهِ الخاشعةِ، فلمَّا حَصَلَ ذلك الإعلامُ بجُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢] إلى آخِرِها، تمَّ المقصودُ، فجاءتِ الجُملةُ بعْدَها مَفصولةً؛ لأنَّها جُعِلَت استِئنافًا بَيانيًّا جَوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّرٍ تُثيرُه الجُملةُ السَّابقةُ، فيَتساءَلُ السَّامعُ: هلْ مِن حَديثِ الغاشيةِ ما هو مُغايرٌ لهذا الهوْلِ؟ أي: ما هو أُنسٌ ونَعيمٌ لقَومٍ آخَرينَ، ولهذا النَّظمِ صارتْ هذه الجُملةُ بمَنزلةِ الاستِطرادِ والتَّتميمِ؛ لإظهارِ الفرْقِ بيْن حالَي الفَريقَينِ، ولتَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ؛ فمَوقعُ هذه الجُملةِ المُستأنَفةِ مَوقعُ الاعتراضِ، ولا تَنافيَ بيْنَ الاستِئنافِ والاعتراضِ، وذلك

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٤٩، ١٥٠).

مُوجِبٌ لفصْلِها عمَّا قبْلَها، وفيه جَرْيُ القرآنِ على سَنَنِه مِن تَعقيبِ التَّرهيبِ والتَّرغيبِ، فأمَّا الجُملتانِ اللَّتانِ في سُورةِ (عَبَسَ)، فلمْ يَتقدَّمْهما إبهامٌ؛ لأنَّهما مُتَّصلتانِ معًا بالظَّرفِ، وهو ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾[1] [عبس: ٣٣].

- قولُه: ﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ المرادُ بالسَّعيِ: العمَلُ الَّذي يَسعاهُ المَرءُ ليَستفيدَ منه، وعُبِّرَ به هنا مُقابِلَ قولِه في ضِدِّه: ﴿عَامِلَةٞ﴾[2] [الغاشية: ٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۞ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾

- قولُه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ﴾ خبَرٌ ثالثٌ عن ﴿وُجُوهٞ﴾، والجنَّةُ أُريدَ بها مَجموعُ دار الثَّوابِ الصَّادقُ بجنَّاتٍ كَثيرةٍ، أو أُريدَ بها الجِنسُ. ووَصْفُ ﴿جَنَّةٍ﴾ بـ﴿عَالِيَةٖ﴾؛ لزِيادةِ الحُسنِ؛ لأنَّ أحسَنَ الجنَّاتِ ما كان في المُرتفَعاتِ؛ قال تعالَى: ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، فذلك يَزيدُ حُسنَ باطِنِها بحُسنِ ما يُشاهِدُه الكائنُ فيها مِن مَناظِرَ، وهذا وصْفٌ شاملٌ لحُسنِ مَوقعِ الجنَّةِ[3].

- قولُه: ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ اللَّاغيةُ: مَصدرٌ بمعْنى اللَّغوِ، مِثلُ الكاذِبةِ للكذِبِ، والخائنةِ والعافيةِ، أي: لا يُسمَعُ فيها لَغوٌ، أو هو وصْفٌ لمَوصوفٍ مُقدَّرِ التَّأنيثِ، أو هي على معْنى النَّسبِ، أي: كَلمةً ذاتَ لَغوٍ، أو نفْسًا تَلْغو[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٢٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٨).

- ونَفْيُ سَماعِ لاغيةٍ مُكنًّى به عن انتفاءِ اللَّغوِ في الجنَّةِ، مِن بابِ:

ولا تَـــرى الـــضَّـــبَّ بـــهـــا يَـــنْـــجَـــحِـــرْ

أي: لا ضبَّ بها؛ إذ الضَّبُّ لا يَخْلو مِن الانجحارِ[١].

- وقدِ ابتُدِئَ في تَعدادِ صِفاتِ الجنَّةِ بصِفتِها الذَّاتيَّةِ، وهو كَونُها عاليةً، وثُنِّيَ بصِفةِ تَنزيهِها عمَّا يُعَدُّ مِن نَقائصِ مَجامعِ النَّاسِ ومَساكِنِ الجَماعاتِ، وهو الغَوغاءُ واللَّغوُ، وقد جُرِّدَت جُملةُ ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً﴾ مِن أنْ تُعطَفَ على ﴿عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ١٠]؛ مُراعاةً لعدَمِ التَّناسُبِ بيْنَ المُفرداتِ والجُمَلِ، وذلك حَقيقٌ بعدَمِ العطْفِ؛ لأنَّه أشدُّ مِن كَمالِ الانقطاعِ في عطْفِ الجُمَلِ، وهذا وصْفٌ للجنَّةِ بحُسنِ سُكَّانِها[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۞ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۞ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۞ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۞ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾

- قولُه: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ صِفةٌ ثالثةٌ لـ﴿جَنَّةٍ﴾ [الغاشية: ١٠]. والمرادُ جِنسُ العُيونِ، يُريدُ أنَّ فيها عُيونًا في غايةِ الكَثرةِ، وهذا وصْفٌ للجنَّةِ باستِكمالِها مَحاسنَ الجنَّاتِ، أو المرادُ عَينٌ مَخصوصةٌ، ذُكِرَت تَشريفًا لها[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٠).
والبيتُ المذكورُ نسَبه ابنُ الأَنْباري في ((شرح المُفضَّليات)) (ص: ٥٩) لعَمْرِو بنِ أَحْمَرَ الباهِليِّ، وهو شاعرٌ إسلاميٌّ.
والانْجِحارُ -بتَقديمِ الجيمِ على الحاءِ المُهمَلةِ-: الدُّخولُ في الجُحرِ وهو ما حفَرَه الهَوَامُّ والسِّباعُ لأنفُسِها. يُنظر: ((خِزانة الأدب)) للبغدادي (١٠/ ١٩٢، ١٩٣). ويُنظر أيضًا: ((أمالي المرتضى)) (١/ ٢٢٨-٢٣٠)، ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٢٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠١).

- وقولُه: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾، أي: يَجْري ماؤها ولا يَنقطِعُ، والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ[١].

- وإنَّما لم تُعطَفْ على الجُملةِ الَّتي قبْلَها؛ لاختِلافِهما؛ بالفِعليَّةِ في الأُولى، والاسميَّةِ في الثَّانيةِ، وذلك الاختلافُ مِن مُحسِّناتِ الفصْلِ؛ ولأنَّ جُملةَ ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾ مَقصودٌ منها التَّنزُّهُ عن النَّقائصِ، وجُملةَ ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ مَقصودٌ منها إثباتُ بَعضِ مَحاسنِها[٢].

- قولُه: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ صِفةٌ رابعةٌ لـ ﴿جَنَّةٍ﴾، وأُعِيدَ قولُه: ﴿فِيهَا﴾ دونَ أنْ يُعطَفَ ﴿سُرُرٌ﴾ على ﴿عَيْنٌ﴾ عطْفَ المُفرَداتِ؛ لأنَّ عطْفَ السُّررِ على ﴿عَيْنٌ﴾ يَبْدو نابيًا عن الذَّوقِ؛ لعدَمِ الجامعِ بيْن عَينِ الماءِ والسُّررِ في الذِّهنِ لولا أنْ جَمَعَها الكَونُ في الجنَّةِ؛ فلذلك كُرِّرَ ظَرفُ ﴿فِيهَا﴾ تَصريحًا بأنَّ تلك الظَّرفيَّةَ هي الجامعُ، ولأنَّ بيْن ظَرفيَّةِ العَينِ الجاريةِ في الجنَّةِ وبيْن ظَرفيَّةِ السُّررِ وما عُطِفَ عليه مِن مَتاعِ القُصورِ والأثاثِ: تَفاوُتًا؛ ولذلك عُطِفَ ﴿وَأَكْوَابٌ﴾، ﴿وَنَمَارِقُ﴾، ﴿وَزَرَابِيُّ﴾؛ لأنَّها مُتماثِلةٌ في أنَّها مِن مَتاعِ المساكنِ الفائقةِ، وهذا وصْفٌ لمَحاسنِ الجنَّةِ بمَحاسِنِ أثاثِ قُصورِها، فضَميرُ ﴿فِيهَا﴾ عائدٌ للجنَّةِ باعتبارِ أنَّ ما في قُصورِها هو مَظروفٌ فيها بواسطةٍ[٣].

- وقولُه: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ سُررٌ: جمْعُ سَريرٍ، وهو ما يُجلَسُ عليه ويُضطجَعُ عليه، فيَسَعُ الإنسانَ المُضْطَجِعَ، يُتَّخَذُ مِن خشَبٍ أو حَديدٍ له قَوائمُ ليَكونَ مُرتفِعًا عن الأرضِ. ولَمَّا كان الارتفاعُ عن الأرضِ مَأخوذًا مِن مَفهومِ السُّررِ، كان وصْفُها بـ ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ لتَصويرِ حُسنِها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٠١، ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢).

- قولُه: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ كُنِّيَ بـ ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ عن عدَمِ انقِطاعِ لَذَّةِ الشَّرابِ طعْمًا ونَشوةً، أي: مَوضوعةٌ بما فيها مِن أَشربةٍ[١].

- قولُه: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ المَبثوثةُ: المُنتشِرةُ على الأرضِ بكَثرةٍ، وذلك يُفيدُ كِنايةً عن الكَثرةِ[٢].

- وقد قُوبِلَت صِفاتُ وُجوهِ أهلِ النَّارِ بصِفاتِ وُجوهِ أهلِ الجنَّةِ؛ فقُوبِلَت صِفاتُ ﴿خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: ٢، ٣]، بصِفاتِ ﴿نَّاعِمَةٌ * لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ [الغاشية: ٨، ٩]، وقُوبِلَ قولُه: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤] بقولِه: ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية: ١٠]، وقُوبِلَ: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥] بقولِه: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ [الغاشية: ١٢]، وقُوبِلَ شَقاءُ عَيشِ أهلِ النَّارِ الَّذي أفادَه قولُه: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ * لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية: ٦، ٧]، بمَقاعِدِ أهلِ الجنَّةِ المُشعِرةِ بتَرَفِ العَيشِ مِن شَرابٍ ومَتاعٍ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٧-٢٠)

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

### غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نُصِبَتْ﴾: أي: جُعِلَت مَنصوبةً قائمةً ثابتةً، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ وإهدافٍ في استِواءٍ[١].

﴿سُطِحَتْ﴾: أي بُسِطَت ومُدَّت، وأصلُ (سطح): يدُلُّ على بَسطِ الشَّيءِ ومَدِّه[٢].

### المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى آمِرًا عِبادَه بالنَّظرِ في مخلوقاتِه الدَّالَّةِ على قُدرتِه وعَظَمتِه: أفلَا يَنظُرُ النَّاسُ إلى الإبلِ مُتفَكِّرينَ في كيفيَّةِ خَلْقِها على هذا النَّحوِ العَجيبِ؟ وإلى السَّماءِ كيف رُفِعَت هذا الارتِفاعَ العَظيمَ؟ وإلى الجِبالِ كيف أُقيمَت على هذه الهيئةِ الباهرةِ؟ وإلى الأرضِ كيف بَسَطَها اللهُ؛ لتَستَقِرَّ عليه المخلوقاتُ؟

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لمَّا ذكَر تعالى أمرَ القيامةِ، وانقسامَ أهلِها إلى أشقياءَ وسعداءَ، وعُلِم أنَّه لا سبيلَ إلى إثباتِ ذلك إلَّا بواسطةِ الخالقِ الحكيمِ؛ أتبَع ذلك بذكرِه هذه الدلائلِ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٠٩).

وذِكرِ ما العربُ مشاهدوه وملابسوه دائمًا[١].

لَمَّا وصَفَ اللهُ تعالَى الجنَّةَ بما وصَفَ، عَجِبَ الكفَّارُ مِن ذلك، فذكَّرَهم غَرائبَ صُنعِه[٢].

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾.

أي: أفلَا يَنظُرُ النَّاسُ إلى الإبِلِ مُتفكِّرينَ في كيفيَّةِ خَلْقِها على هذا النَّحوِ العَجيبِ البَديعِ[٣]؟

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٥ - ٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ * وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ * وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: ٧١ - ٧٣].

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾﴾.

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى السَّماءِ كذلك كيف رُفِعَت هذا الارتِفاعَ العَظيمَ[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٨)، ويُنظر أيضًا ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٣-١٤٥)، ((بيان تلبيس الجهمية)) لابن تيميَّة (١/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٧، ١٧٨).

كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦].

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾﴾.

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى الجِبالِ كيف أُقيمَت على هيئةٍ باهرةٍ؛ إذ هي مُنتَصِبةٌ جامِدةٌ ثابتةٌ لا تَبرَحُ مَكانَها ولا تَسقُطُ[(١)]؟

﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: أفلا يَنظُرونَ إلى الأرضِ كيف بَسَطَها اللهُ، فجَعَل لها سَطحًا تَستَقِرُّ عليه المخلوقاتُ[(٢)]؟

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ توجيهُ الأنظارِ إلى تلك المذكوراتِ الأربَعةِ؛ لِما فيها مِن عَظيمِ الدَّلائِلِ على القُدرةِ وعلى البَعْثِ، ثمَّ الإقرارُ لله تعالى بالوَحدانيَّةِ والأُلوهيَّةِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٣٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٦)، ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٧٩).

قال ابنُ تيميَّةَ: (اعلَمْ أنَّ الأرضَ قد اتَّفَقوا على أنَّها كُرَويَّةُ الشَّكلِ). ((مجموع الفتاوى)) (٥/ ١٥٠).

نَتيجةً لإثباتِ رُبوبيَّتِه تعالى لجَميعِ خَلْقِه[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى قولِه: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ حَثٌّ مِن اللهِ عزَّ وجَلَّ إلى النَّظَرِ فيها بعَينِ البَصَرِ وعَينِ البَصيرةِ؛ بعَينِ البَصَرِ الَّذي هو الإدراكُ الحِسِّيُّ، وبعَينِ البصيرةِ الَّتي هي الإدراكُ العَقليُّ؛ حتَّى نَستَدِلَّ بها على ما تدُلُّ عليه مِن آياتِ اللهِ مِن قُدرةٍ وعِلْمٍ، ورحمةٍ وحِكمةٍ وغيرِ ذلك[٢]. فالنَّظَرُ الدَّقيقُ والفِكرُ الدَّارِسُ مِمَّا قد يؤدِّي بصاحِبِه إلى الاستدلالِ على وُجودِ اللهِ تعالى وعلى قُدرتِه، كما نطق قُسُّ بنُ ساعِدةَ في الجاهليَّةِ في خُطبتِه المشهورةِ: «ليلٌ داجٍ[٣]، ونهارٌ ساجٍ[٤]، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، ونجومٌ تُزهِر، وبحارٌ تَزخَرُ، وجِبالٌ مُرْساةٌ، وأرضٌ مُدْحاةٌ، وأنهارٌ مُجْراةٌ»[٥]؛ فقد ذكَرَ السَّماءَ والجِبالَ والأرضَ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥١٦).

(٢) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ٥٨٨).

(٣) أي: مُظلِمٌ. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٦/ ٢٣٣٤).

(٤) أي: ساكِنٌ دائِمٌ. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٦/ ٢٣٧٢).

(٥) يُنظر: ((البداية والنهاية)) لابن كثير (٣/ ٢٩٩).

(٦) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥١٦، ٥١٨).

قال ابن كثير: (وهكذا أقسَمَ ضِمامٌ في سؤالِه على رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٧).

وقد روى مسلمٌ في ((صحيحه)) (١٢) عن أنَسِ بنِ مالِكٍ رضيَ الله عنه، قال:((نُهينا أنْ نَسْأَلَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن شَيءٍ، فكان يُعْجِبُنا أنْ يَجيءَ الرَّجُلُ مِن أهلِ البادِيَةِ العاقِلُ، فيَسْأَلَه، ونحنُ نَسْمَعُ، فجاء رجُلٌ مِن أهلِ البادِيَةِ، فقال: يا محمَّدُ، أتانا رَسولُكَ فزَعَم لنا أنَّك تَزعُمُ أنَّ اللهَ أرْسَلَك، قال: صَدَق، قال: فمَنْ خَلَق السَّماءَ؟ قال: اللهُ، قال: فمَنْ خَلَق الأرضَ؟ قال: اللهُ، قال: فمَنْ نَصَب هذه الجبالَ، وجَعَل فيها ما جَعَل؟ قال: الله، قال: فبالَّذي خَلَق السَّماءَ، وخَلَق الأرْضَ، ونَصَب هذه الجبالَ، آللهُ أَرْسَلَك؟ قال: نعَمْ)).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى قَولِه: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ سؤالٌ عن المناسَبةِ بيْنَ هذه الأشياءِ.

**الجوابُ مِن أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ القُرآنَ نَزَل على العَرَبِ، وكانوا يُسافِرونَ كثيرًا، وكانوا يَسيرون على الإبِلِ في المَهامِهِ والقِفارِ مُستَوحِشينَ مُنفَرِدينَ عن النَّاسِ، والإنسانُ إذا انفرد أقبَلَ على التَّفَكُّرِ في الأشياءِ؛ لأنَّه ليس معه مَن يُحادِثُه، وليس هناك مَن يَشغَلُ به سَمْعَه وبَصَرَه، فلا بُدَّ مِن أن يجعَلَ دَأْبَه الفِكرَ، فإذا فكَّرَ في تلك الحالِ فأوَّلُ ما يَقَعُ بَصَرُه على الجَمَلِ الَّذي هو راكِبُه؛ فيرى منظرًا عَجيبًا، وإن نظرَ إلى فَوقٍ لم يَرَ غَيرَ السَّماءِ، وإذا نظَرَ يمينًا وشِمالًا لم يَرَ غَيرَ الجبالِ، وإذا نظَرَ إلى تحتٍ لم يَرَ غيرَ الأرضِ؛ فكأنَّه تعالى أمَرَه بالنَّظَرِ وَقتَ الخَلوةِ والانفرادِ؛ حتَّى لا تحمِلَه داعيةُ الكِبْرِ والحَسَدِ على تَرْكِ النَّظَرِ.

**الثَّاني**: أنَّ جميعَ المخلوقاتِ دالَّةٌ على الصَّانِعِ سُبحانَه إلَّا أنَّها قِسمانِ: منها ما للشَّهوةِ فيه حَظٌّ، كالوَجهِ الحَسَنِ، والذَّهَبِ والفِضَّةِ، فهذه مع دَلالتِها على الصَّانعِ قد يمنَعُ استِحْسانُها عن إكمالِ النَّظَرِ فيها، ومنها ما لا حَظَّ فيه للشَّهوةِ، كهذه الأشياءِ؛ فأَمَر بالنَّظَرِ فيها؛ إذ لا مانِعَ مِن إكمالِ النَّظَرِ[1].

**الثَّالِثُ**: أنَّ الإبِلَ كانت أنفَسَ أموالِهم وأكثَرَها، وإنَّما جَمَع بيْنَها وبيْن ما بَعْدَها؛ لأنَّهما جاءَا على وَفْقِ عادةِ العَرَبِ في انتفاعِهم بالإبِلِ أكثَرَ، ولا يَحصُلُ إلَّا بأن ترعى وتَشرَبَ، وذلك بنُزولِ المطَرِ مِنَ السَّماءِ؛ فعَطَفَها في الذِّكرِ على الإبِلِ، ثمَّ لا بُدَّ لهم مِن حِصنٍ يَتحَصَّنونَ به، ولا شَيءَ في ذلك لهم كالجِبالِ؛

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٥، ١٤٦)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٣٠٢).

فعَطَفَها على ما قَبْلَها، فإذا فَتَّش البَدَويُّ في نَفْسِه وجَدَ هذه الأشياءَ حاضِرةً عِندَه على التَّرتيبِ المذكورِ، بخلافِ الحَضَريِّ[(١)].

**الرَّابعُ**: لَعلَّ الحِكمةَ في ذِكرِ هذه الأشياءِ التَّنبيهُ على أنَّ هذا الوجهَ مِن الاستدلالِ غيرُ مُختَصٍّ بنَوعٍ دونَ نَوعٍ، بلْ هو عامٌّ في الكلِّ على ما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، ولو ذَكَرَ غيرَها لم يكُنِ الأمرُ كذلك، لا جَرَمَ ذَكَرَ اللهُ تعالَى هذه الأمورِ، تَنبيهًا على أنَّ جَميعَ الأجسامِ العُلويَّةِ والسُّفليَّةِ، صَغيرِها وكَبيرِها، حَسَنِها وقَبيحِها؛ مُتساويةٌ في الدَّلالةِ على الخالقِ الحَكيمِ[(٢)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ اعلَمْ أنَّ تَسطيحَها لا يُنافي أنَّها كُرةٌ مُستديرةٌ قد أحاطت الأفلاكُ بها مِن جميعِ جوانِبِها، كما دَلَّ على ذلك النَّقلُ والعَقلُ والحِسُّ والمشاهَدةُ، كما هو مَذكورٌ مَعروفٌ عندَ أكثَرِ النَّاسِ، خُصوصًا في هذه الأزمنةِ الَّتي وقف النَّاسُ على أكثَرِ أرجائِها بما أعطاهم اللهُ مِن الأسبابِ المقَرِّبةِ للبَعيدِ؛ فإنَّ التَّسطيحَ إنَّما يُنافي كُرَويَّةَ الجِسمِ الصَّغيرِ جِدًّا، الَّذي لو سُطِحَ لم يَبْقَ له استِدارةٌ تُذكَرُ، وأمَّا جِسمُ الأرضِ الَّذي هو في غايةِ الكِبَرِ والسَّعةِ فيكونُ كُرَويًّا مُسَطَّحًا، ولا يَتنافى الأمْرانِ، كما يَعرِفُ ذلك أربابُ الخِبرةِ[(٣)]، ولكِنْ مع هذا ذَكَروا أنَّها ليست كُرَويَّةً مُتساويةَ الأطرافِ، بل إنَّها مُنبَعِجةٌ نحوَ الشَّمالِ والجَنوبِ، فهم يقولون: إنَّها بَيضاويَّةٌ، أي: على شَكلِ

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٩، ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٢).

قال ابنُ القَيِّمِ: (قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، ولا يُنافي ذلك كَونَها كُرويَّةً؛ فهي كُرةٌ في الحقيقةِ، لها سَطحٌ يَستَقِرُّ عليه الحيوانُ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٢٩٥). ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (٢/ ٢١٢).

البَيضةِ في انبعاجِها شَمالًا وجَنوبًا[١].

٣- قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ عقَّبَ به أمْرَ المعادِ، ورتَّبَ عليه الأمرَ بالتَّذكيرِ فقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ الآياتِ؛ لأنَّ المعنى: أفلا يَنظُرونَ إلى أنواعِ المخلوقاتِ مِن البسائطِ والمَرْكَباتِ ليَتحقَّقوا كَمالَ قُدرةِ الخالقِ سُبحانَه وتعالَى، فلا يُنكِروا اقتِدارَه على البَعثِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ لَمَّا تَقدَّمَ التَّذكيرُ بيَومِ القِيامةِ، ووُصِفَ حالُ أهلِ الشَّقاءِ بما وُصِفوا به، وكان قد تَقرَّرَ فيما نزَلَ مِن القُرآنِ أنَّ أهلَ الشَّقاءِ هم أهلُ الإشراكِ باللهِ؛ فُرِّع على ذلك إنكارٌ عليهم إعراضَهُم عن النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ، فالفاءُ في قولِه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ تَفريعُ التَّعليلِ على المُعلَّلِ؛ لأنَّ فَظاعةَ ذلك الوَعيدِ تَجعَلُ المقامَ مَقامَ استدلالٍ على أنَّهم مَحقوقون بوُجوبِ النَّظرِ في دَلائلِ الوَحدانيَّةِ الَّتي هي أصلُ الاهتداءِ إلى تَصديقِ ما أخْبَرَهم به القرآنُ مِن البَعثِ والجزاءِ، وإلى الاهتداءِ إلى أنَّ مُنشِئَ النَّشأةِ الأُولى عن عدَمٍ بما فيها مِن عَظيمِ الموجوداتِ كالجِبالِ والسَّماءِ؛ لا يُستبعَدُ في جانبِ قُدرتِه إعادةُ إنشاءِ الإنسانِ بعْدَ فَنائِه عن عدَمٍ، وهو دُونَ تلك الموجوداتِ العظيمةِ الأحجامِ؛ فكان إعراضُهم عن النَّظَرِ مَجْلبةً لِما يُجَشِّمُهم مِن الشَّقاوةِ، وما وقَعَ بيْن هذا التَّفريعِ وبيْن المُفرَّعِ عنه مِن جُملةِ ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨]؛ في مَوقعِ الاعتراضِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١٢/ ٦٦٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن =

- قولُه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ...﴾ نظمُ الآياتِ مُتوافقٌ مع فاتحةِ السُّورةِ الكريمةِ، فالخِطابُ في قولِه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ للعرَبِ، نبَّهَهم أوَّلًا بقولِه: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾، وفخَّم المُستفهَمَ منه وعظَّمَه؛ إذِ المعنى: تَنبَّهوا لهذا الأمرِ الخطيرِ، والخطْبِ الجَسيمِ، وهُبُّوا مِن رَقدةِ الغَفلةِ، فخوَّفَهم بالصَّلَى في النَّارِ، وبإطعامِ الضَّريعِ، ولَمَّا كان الضَّريعُ حَديثًا مُناسِبًا للإبلِ -وهو جِنسٌ مِن الشَّوكِ تَرعاهُ الإبلُ ما دامَ رَطْبًا- وأراد أنْ يُقرِّرَ ذلك، أتَى تَنبيهٌ آخَرُ على سَبيلِ النَّظرِ؛ ليَضُمَّ شاهدَ العقلِ مع شاهدِ النَّصِّ، وأَسَّسَ الدَّلائلَ والشَّواهدَ على حسَبِ ما أَلِفوه في بَواديهم وأوديتِهم، وعدَلَ مِن الخِطابِ إلى الغَيبةِ؛ تَوبيخًا لهم، وتَنبيهًا على مَظانِّ الافتكارِ، فقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ إلى آخِرِه[1].

- والهَمزةُ في ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ ...﴾ للاستفهامِ التَّوبيخيِّ الإنكاريِّ، إنكارًا عليهم إهمالَ النَّظَرِ في الحالِ إلى دَقائقِ صُنعِ اللهِ في بَعضِ مَخلوقاتِه[2].

- والنَّظَرُ هنا هو نظَرُ العَينِ المُفيدُ الاعتبارَ بدَقائقِ المَنظورِ، وتَعديتُه بحرْفِ (إلى) تَنبيهٌ على إمعانِ النَّظَرِ؛ ليَشعُرَ النَّاظرُ ما في المَنظورِ مِن الدَّقائقِ؛ فإنَّ قَولَهم: نظَرَ إلى كذا، أشدُّ في تَوجيهِ النَّظرِ مِن: نَظَرَ كذا؛ لِما في (إلى) مِن معْنى الانتهاءِ، حتى كأنَّ النظَرَ انْتهى عندَ المجرورِ بـ (إلى) انتهاءَ تَمكُّنٍ واستقرارٍ[3].

---

= عاشور)) (٣٠/ ٣٠٣، ٣٠٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٩).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٤).

- ولزِيادةِ التَّنبيهِ على إنكارِ إهمالِ النَّظَرِ في الحالِ إلى دَقائقِ صُنعِ اللهِ في بَعضِ مَخلوقاتِه؛ قُيِّدَ فِعلُ ﴿يَنظُرُونَ﴾ بالكَيفيَّاتِ المعدودةِ في قولِه: ﴿كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، ﴿كَيْفَ رُفِعَتْ﴾، ﴿كَيْفَ نُصِبَتْ﴾، ﴿كَيْفَ سُطِحَتْ﴾، أي: لمْ يَنظُروا إلى دَقائقِ هَيئاتِ خَلْقِها[١].

- ووَجهُ ذِكْرِ الإبِلِ خاصَّةً: أنَّ الإبِلَ أجمَعُ للمَنافِعِ مِن سائِرِ الحَيوانِ؛ لأنَّ ضُروبَه أربَعةٌ: حَلُوبةٌ، ورَكوبةٌ، وأَكولةٌ، وحَمولةٌ، والإبِلُ تجمَعُ هذه الخِلالَ الأربَعَ؛ فكانت النِّعمةُ بها أعَمَّ، وظُهورُ القُدرةِ بها أتَمَّ[٢]. فخُصَّتِ الإبِلُ بالذِّكرِ؛ لأنَّه اجتَمَعَ فيها ما تَفرَّقَ مِن المنافعِ في غَيرِها؛ مِن أكْلِ لَحمِها، وشُربِ لَبنِها، والحمْلِ عليها، والتَّنقُّلِ عليها إلى البلادِ الشَّاسِعةِ، وعَيشِها بأيِّ نَباتٍ أكَلَتْه، وصَبْرِها على العطَشِ، حتَّى إنَّ فيها ما يَرِدُ الماءَ لعَشْرٍ، وطَواعيتِها لِمَن يَقودُها، ونَهضتِها وهي باركةٌ بالأحمالِ الثِّقالِ، وكَثرةِ حَنينِها، وتأثُّرِها بالصَّوتِ الحسَنِ على غِلَظِ أكْبادِها؛ فهي أشرَفُ المَركَباتِ وأكثَرُها صُنعًا، ولأنَّها أعجَبُ ما عندَ العرَبِ مِن هذا النَّوعِ[٣].

- وإنَّما لم يَذكُرِ الفِيلَ وغيرَه ممَّا هو أعظَمُ مِن الجمَلِ؛ لأنَّ العرَبَ لم يَرَوا شَيئًا مِن ذلك ولا عَرَفوه[٤].

- وبُنِيَت الأفعالُ الأربعةُ ﴿خُلِقَتْ﴾ ﴿رُفِعَتْ﴾ ﴿نُصِبَتْ﴾ ﴿سُطِحَتْ﴾ لِمَا لمْ يُسَمَّ فاعلُه؛ للعِلمِ بفاعِلِ ذلك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٤، ٣٠٥).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٠٨، ٦٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦).

## الآيات (٢١-٢٦)

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾: أي: بمُسَلَّطٍ قاهِرٍ، والمُصَيْطِرُ: المُجْبِرُ المُكْرِهُ. وقيل: أي: قائمٍ وحافظٍ، والمُسَيْطِرُ هو المُتَعهِّدُ للشَّيءِ المُتَسلِّطُ عليه، يُقالُ: صَيْطَر وسَيْطَر بالصَّادِ والسِّينِ[(١)].

﴿تَوَلَّىٰ﴾: أي: أعرَضَ، والتَّولِّي إذا وُصِلَ بـ(عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ[(٢)].

﴿إِيَابَهُمْ﴾: أي: رُجوعَهم بعدَ الموتِ، وأصلُ (أوب): يدُلُّ على رُجوعٍ[(٣)].

### المعنى الإجماليُّ:

يأمُرُ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بدَوامِ التَّذكيرِ، فيقولُ: فذَكِّرِ النَّاسَ

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٨)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤١٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٢٢٠).

قال القرطبي: (أصْلُه مِنَ السَّطْرِ؛ لأنَّ مِن معنَى السَّطْرِ ألَّا يُتَجاوَزَ، فالكِتابُ مُسَطَّرٌ، والَّذي يَفْعَلُه مُسَطِّرٌ ومُسَيْطِرٌ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٢٥).

-يا محمَّدُ- بآياتِ اللهِ تعالى، وعِظْهُم بها؛ فما أرسَلْتُك إليهم إلَّا لتَذكيرِهم، ولَسْتَ مُتسَلِّطًا على النَّاسِ ولا قاهِرًا لهم؛ فتُكرِهَهم على الإيمانِ باللهِ وطاعتِه، لكِنْ مَن أعرَضَ عن الحَقِّ وكَفَر بعدَ تذكيرِه بآياتِ اللهِ تعالى، فيُعَذِّبُه اللهُ في الآخِرةِ عذابَ النَّارِ الأكبَرَ.

ثمَّ يختمُ الله تعالى السُّورةَ الكريمةَ فيقولُ: إنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم بعْدَ مَوتِهم، ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهم يومَ القيامةِ على أعمالِهم، وسنُجازيهم بها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ٢١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن الدَّلائِلَ على صِحَّةِ التَّوحيدِ والمَعادِ، قال لِرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾، وتذكيرُ الرَّسولِ إنَّما يكونُ بذِكرِ هذه الأدِلَّةِ وأمثالِها، والبَعْثِ على النَّظَرِ فيها، والتَّحذيرِ مِن تَرْكِ تلك، وذلك بَعْثٌ منه تعالى للرَّسولِ على التَّذكيرِ والصَّبرِ على كُلِّ عارِضٍ معه؛ وبيانُ أنَّه إنَّما بُعِثَ لذلك دونَ غَيرِه؛ فلهذا قال[1]:

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ٢١﴾.

أي: فذَكِّرِ النَّاسَ -يا محَمَّدُ- بآياتِ اللهِ تعالى، وعِظْهُم بها؛ فما أرسَلْتُك إليهم إلَّا لتَذكيرِهم[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨١). =

كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

## النَّاسِخُ والمَنسوخُ:

الآيةُ مُحكَمةٌ غَيرُ مَنسوخةٍ[١].

وقيل: هي مَنسوخةٌ بآيةِ السَّيفِ، وهي قَولُه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ...﴾[٢] [التوبة: ٥].

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

أي: لم تُبعَثْ -يا محَمَّدُ- مُتسَلِّطًا على النَّاسِ وقاهِرًا لهم؛ فتُكرِهَهم على الإيمانِ باللهِ وطاعتِه[٣].

---

= قال البِقاعي: (﴿فَذَكِّرْ﴾ كُلَّ مَن يُرجَى تذَكُّرُه وانتِفاعُه بالتَّذكيرِ -يا أشرَفَ خَلْقِنا- بما في غرائِزِهم وفِطَرِهم مِن العِلمِ الأوَّليِّ بما في هذه الأشياءِ وأمثالِها ممَّا يدُلُّ على صِحَّةِ ما نزَّلْنا عليك). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٨).

(١) وهذا ظاهِرُ اختيارِ ابنِ جريرٍ، وابنِ كثير، ورجَّحه محمد رشيد رضا، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٨)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (٧/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٧).

وقال ابن الجوزي: (وقد قال بعضُ المفسِّرينَ في معناها: لَسْتَ عليهم بمُسَلَّطٍ فتُكرِهَهم على الإيمانِ. فعلى هذا لا نَسْخَ). ((نواسخ القرآن)) (٢/ ٦٢٥).

(٢) ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وهبةُ الله بنُ سلامة، وابنُ حزم، والقرطبيُّ، وقد عزا الواحديُّ القولَ بالنَّسخِ إلى جميعِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٧٩)، ((الناسخ والمنسوخ)) لهبة الله بن سلامة (ص: ١٩٧)، ((الناسخ والمنسوخ)) لابن حزم (ص: ٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٨)، ((جامع العلوم =

كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ [الزمر: ٤١].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥].

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نفى عنهم تسَلُّطَ الدُّنيا، وكان التَّقديرُ: فمَنْ أقْبَلَ وآمَنَ فإنَّ اللهَ يُنَعِّمُه النَّعيمَ الأكبَرَ؛ قال مُستَدرِكًا قَسيمَهم في صورةِ الاستثناءِ[(١)]:

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: إلَّا مَن أعرَضَ عن الحَقِّ وكَفَر بعدَ تذكيرِه بآياتِ اللهِ تعالى[(٢)].

---

= والحكم)) لابن رجب (١/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

قال ابنُ القَيِّم: (قال المفسِّرون: المعنى: أنَّك لم تُرسَلْ مُسَلَّطًا عليهم قاهِرًا لهم جبَّارًا كالملوكِ، بل أنت عبدي ورسولي المبَلِّغُ رِسالاتي؛ فمَن أطاعك فله الجنَّةُ، ومَن عصاك فله النَّارُ). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ٦٩).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٢، ١٨٣).

قيل: الاستثناءُ هنا متَّصِلٌ. والمعنى: فذكِّرْ قَومَك -يا محمَّدُ- إلَّا مَن تولَّى منهم عنك، =

﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾﴾.

أي: فيُعَذِّبُه اللهُ في الآخِرةِ على كُفْرِه وإعراضِه عذابَ النَّارِ الَّذي لا عذابَ أعظَمُ منه[1].

كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١].

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: إنَّ إلينا مَرجِعَهم ومَصيرَهم بعْدَ مَوتِهم[2].

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

---

= وأعرَض عن آياتِ اللهِ؛ فكفَر. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٢).

وقيل: المعنى: لَسْتَ بمُسَلَّطٍ إلَّا على مَن تولَّى وكَفَر؛ فأنت مُسَلَّطٌ عليه بالجِهادِ، واللهُ يُعَذِّبُه بعدَ ذلك العذابَ الأكبَرَ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧).

قال القرطبي: (فلا نَسْخَ في الآيةِ على هذا التَّقديرِ). ((المصدر السابق)).

وقيل: الاستثناءُ هنا مُنقَطِعٌ بمعنى: «لكِنْ». ومِمَّن ذهب إليه: الواحديُّ، والقرطبي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٢). ويُنظر أيضًا: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ٦٥).

قال القرطبي: (﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استثناءٌ مُنقطِعٌ، أي: لكِنْ مَن تولَّى عن الوَعظِ والتَّذكيرِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٣).

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم ٢٦﴾.

أي: ثمَّ إنَّ علينا حِسابَهم يومَ القيامةِ على أعمالِهم، وسنُجازيهم بها[١].

قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ أنَّ مِنَ الجَهَلةِ مَن يضَعُ قَولَه تعالى هذا في غيرِ مَوضِعِه، ويَحيدُ به عن مَهْيَعِه، فيُريدُ أن يتَّخِذَه حُجَّةً على حُرِّيَّةِ التَّدَيُّنِ بيْن جماعاتِ المسلمينَ! وشتَّانَ بيْن أحوالِ أهلِ الشِّركِ وأحوالِ جامِعةِ المسلِمينَ؛ فمَن يُلحِدُ في الإسلامِ بعْدَ الدُّخولِ فيه يُستتابُ ثلاثًا، فإنْ لم يَتُبْ قُتِلَ، وإنْ لم يُقْدَرْ عليه فعلى المسلِمينَ أن يَنبذُوه مِن جامِعَتِهم، ويُعامِلوه مُعاملةَ المحارِبِ، وكذلك مَن جاء بقَولٍ أو عمَلٍ يَقتضي نَبْذَ الإسلامِ، أو إنكارَ ما هو مِن أُصولِ الدِّينِ بالضَّرورةِ، بعدَ أن يُوقَفَ على مآلِ قَولِه أو عَمَلِه، فيَلتَزِمُه ولا يتأوَّلُه بتأويلٍ مقبولٍ، ويأبى الانكِفافَ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ﴾ أنَّ الدَّاعيَ إلى اللهِ لا يَنبغي أنْ يَحزَنَ إذا لم تُقْبَلْ دعوتُه، فإذا أدَّى ما يجبُ عليه فقد بَرِئَتِ الذِّمَّةُ، والحِسابُ على اللهِ تعالى؛ فقَولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ يعني: لكِنْ مَن تولَّى وكَفَرَ -على قولٍ- ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ * إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٨٩).

قال ابن عاشور: (أي: لسْتَ مُكَلَّفًا بجَبْرِهم على التَّذَكُّرِ والإيمانِ؛ لأنَّا نُحاسِبُهم حينَ رُجوعِهم إلينا في دارِ البقاءِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٧).

فلا تحزَنْ أيُّها الدَّاعي إلى اللهِ إذا رُدَّ قولُك، أو إذا لم يُقْبَلْ لأوَّلِ مرَّةٍ؛ لأنَّك أدَّيتَ ما يجِبُ عليك[(١)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أنَّ الرُّجوعَ هو إلى اللهِ تعالى، فمهما فرَّ الإنسانُ، وطالتْ به حياةٌ فإنَّه راجعٌ إلى اللهِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]؛ فاستَعِدَّ يا أخي لهذه المُلاقاةِ، وقد قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحدٍ إلَّا سيُكَلِّمُه ربُّه ليس بيْنَه وبيْنه تَرْجُمانٌ، فيَنظُرُ أيْمَنَ منه فلا يرى إلَّا ما قَدَّمَ مِن عمَلِه، ويَنظُرُ أشْأَمَ منه -يعني: على اليَسارِ- فلا يرى إلَّا ما قَدَّمَ، وينظُرُ بيْنَ يديه فلا يرَى إلَّا النَّارَ تِلْقاءَ وجْهِه؛ فاتَّقوا النَّارَ ولو بشِقِّ تمرةٍ))[(٢)]، واللهُ عزَّ وجَلَّ يومَ القيامةِ يُقَرِّرُ العبدَ بذُنوبِه، يقولُ: فعَلْتَ كذا في يومِ كذا، حتَّى يُقِرَّ ويَعترِفَ، فإذا أقَرَّ واعترفَ قال اللهُ تعالى: ((ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ))[(٣)]، وكم مِن ذُنوبٍ سَتَرَها اللهُ عزَّ وجَلَّ! كم مِن ذُنوبٍ اقتَرَفْناها لم يَعلَمْ بها أحدٌ، ولكنَّ اللهَ تعالى عَلِمَ بها! فمَوقِفُنا مِن هذه الذُّنوبِ أنْ نستغفِرَ اللهَ عزَّ وجَلَّ، وأنْ نُكْثِرَ مِن الأعمالِ الصَّالحةِ المكفِّرةِ للسَّيِّئاتِ؛ حتَّى نلقى اللهَ عزَّ وجَلَّ ونحن على ما يُرْضيه سُبحانَه وتعالى[(٤)].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله عزَّ وجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ في قَولِه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾

(١) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ١٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٢) واللَّفظُ له، ومسلم (١٠١٦) مختصرًا من حديث عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٤١) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٧٦٨) من حديث عبدالله بن عُمَرَ رضيَ الله عنهما.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٣).

لم يَخْصُصِ اللهُ أحدًا بالتَّذكيرِ، أي: لم يَقُلْ: ذَكِّرْ فُلانًا وفُلانًا، فالتَّذكيرُ عامٌّ؛ لأنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم بُعِثَ إلى النَّاسِ كافَّةً، أي: ذَكِّرْ كلَّ أحدٍ في كلِّ حالٍ، وفي كلِّ مكانٍ؛ فذَكَّرَ النَّبيُّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وذَكَّرَ خُلَفاؤُه مِن بَعْدِه؛ الَّذين خَلَفُوه في أُمَّتِه في العِلمِ والعَمَلِ والدَّعوةِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ أنَّ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليس إلَّا مُذَكِّرًا مُبَلِّغًا، وأمَّا الهدايةُ فبِيَدِ اللهِ تعالى؛ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾[٢] [البقرة: ٢٧٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾

- الفاءُ في ﴿فَذَكِّرْ﴾ تفريعٌ على مُحصَّلِ ما سبَقَ مِن أوَّلِ السُّورةِ الَّذي هو التَّذكيرُ بالغاشيةِ وما اتَّصَلَ به مِن ذِكرِ إعراضِهم وإنذارِهم، رُتِّبَ على ذلك أمْرُ اللهِ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالدَّوامِ على تَذكيرِهم، وأنَّه لا يُؤيسُه إصرارُهم على الإعراضِ وعدَمُ ادِّكارِهم بما أُلْقِيَ إليهم مِن المواعظِ، وتَثبيتُه بأنَّه لا تَبِعةَ عليه مِن عدَمِ إصغائِهم؛ إذْ لم يُبعَثْ مُلجِئًا لهم على الإيمانِ، فالأمرُ مُستعمَلٌ في طلَبِ الاستمرارِ والدَّوامِ[٣].

- ومَفعولُ (ذكِّرْ) مَحذوفٌ، هو ضَميرٌ يدُلُّ عليه قولُه بعْدَه: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨١).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦).

- وجُملةُ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ تَعليليَّةٌ للأمْرِ بالدَّوامِ على التَّذكيرِ مع عدَمِ إصغائِهِم[(١)].

- والقصْرُ المُستفادُ بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ قصْرٌ إضافيٌّ[(٢)]، أي: أنت مُذكِّرٌ لستَ وَكيلًا على تَحصيلِ تَذَكُّرِهم، فلا تَتحرَّجْ مِن عدَمِ تَذكُّرِهم؛ فأنت غيرُ مُقصِّرٍ في تَذكيرِهم، وهذا تَطمينٌ لنفْسِه الزَّكيَّةِ صلَّى الله عليه وسلَّم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٠).

(٢) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتَرَدُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ. مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زيدٌ هناك بشاعِرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٩ - ٢٢)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٦، ٣٠٧).

- قولُه: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ تقريرٌ وتَحقيقٌ لمَعْنى الإنذارِ، أي: لستَ بمُتسَلِّطٍ عليهم تُجبِرُهم على ما تُريدُ[1]؛ فهذه الجُملةُ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[2] مِن جُملةِ القصْرِ ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ باعتبارِ جانبِ النَّفْيِ الَّذي يُفيدُه القصرُ، فنفْيُ كَونِه مُصَيطِرًا عليهم خبَرٌ مُستعمَلٌ في غيرِ الإخبارِ؛ لأنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعلَمُ أنَّه لم يُكلَّفْ بإكراهِهم على الإيمانِ، فالخبَرُ بهذا النَّفيِ مُستعمَلٌ كِنايةً عن التَّطمينِ برَفْعِ التَّبِعةِ عنه مِن جرَّاءِ استمرارِ أكثَرِهم على الكُفرِ[3].

- وتَقديمُ ﴿عَلَيْهِم﴾ على مُتعلَّقِه -وهو (مُصَيْطِرٍ)-؛ للرِّعايةِ على الفاصِلةِ[4].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ مُعترِضٌ بيْن جُملةِ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ وجُملةِ ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، والمقصودُ مِن هذا الاعتراضِ الاحتراسُ مِن تَوهُّمِهم أنَّهم أصْبَحوا آمِنينَ مِن المُؤاخَذةِ على عدَمِ التَّذكُّرِ؛ فحرْفُ (إلَّا) للاستثناءِ المنقطِعِ -على قولٍ-، وهو بمعْنى الاستِدراكِ، والمعْنى: لكنْ مَن تَولَّى عن التَّذكُّرِ ودامَ على كُفْرِه، يُعذِّبُه اللهُ العذابَ الشَّديدَ[5].

- وعلى القولِ بأنَّ الاستثناءَ في قولِه: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ استِثناءٌ مُتَّصلٌ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ (خُلُقُه) بدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٧، ٣٠٨).

فإنَّ جِهادَ الكفَّارِ وقتْلَهم تَسلُّطٌ، كأنَّه قِيل: لستَ عليهم بمُسيطِرٍ -أي: بمُتسلِطٍ- بالقتْلِ والجِهادِ إلَّا مَن تَولَّى وكَفَرَ، كأنَّه أوعَدَهم بالجهادِ في الدُّنيا، وعَذابِ النَّارِ في الآخرةِ. وقيل: هو استِثناءٌ مِن قولِه: ﴿فَذَكِّرْ﴾، أي: فذَكِّرْ إلَّا مَن انقَطَعَ طَمَعُك مِن إيمانِه وتَولَّى، فاستحَقَّ العَذابَ الأكبَرَ، وما بيْنَهما ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ اعتراضٌ[1].

- في قولِه: ﴿ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ لم يَذْكُرِ المفضَّلَ عليه، يعني: لم يَقُلْ: الأكبرَ مِن كذا؛ فهو قد بَلَغ الغايةَ في الكِبَرِ والمشَقَّةِ والإهانةِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ تَعليلٌ للعذابِ الأكبَرِ؛ أي: إنَّ إلينا رجوعَهُم بالموتِ والبَعثِ لا إلى أحدٍ سِوانا؛ لا استقلالًا ولا اشتراكًا[3]. وقيل: هو تَعليلٌ لجُملةِ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، أي: لسْتَ مُكلَّفًا بجَبْرِهم على التَّذكُّرِ والإيمانِ؛ لأنَّا نُحاسِبُهم حِينَ رُجوعِهم إلينا في دارِ البَقاءِ[4].

- والسِّرُّ في تَقديمِ الجارِّ والمجرورِ في قولِه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾؛ التَّشديدُ والمُبالَغةُ في الوعيدِ، وأنَّ إيابَهم ليس إلَّا إلى الجَبَّارِ المُقتدِرِ على الانتقامِ، وأنَّ حِسابَهم ليس إلَّا عليه تعالى، وهو الَّذي يُحاسِبُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٥، ٤٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥١).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨).

على النَّقيرِ والقِطْميرِ، وبَيانُ ذلك أنَّه تعالَى علَّل قولَه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ بقولِه: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾، والْتَفَتَ فيه مِن الغَيبةِ إلى الحِكايةِ، ومِن الاسمِ الجامعِ إلى صِيغةِ الكِبرياءِ والجَبَروتِ، وقدَّمَ الظَّرفينِ على عامِلَيْهما[١].

وقيل: يَظهَرُ أنَّ تَقديمَ خبَرِ (إنَّ) على اسْمِها لمُجرَّدِ الاهتمامِ تَحقيقًا لهذا الرُّجوعِ؛ لأنَّهم يُنكِرونه، وتَنبيهًا على إمكانِه بأنَّه رُجوعٌ إلى الَّذي أنشَأَهم أوَّلَ مرَّةٍ[٢].

- وجاء الخبَرُ مُؤكَّدًا بـ (إنَّ)، كأنَّهم وقد تَردَّدوا بحاجةٍ إلى تَأكيدِ هذا الأمرِ الَّذي أشاحُوا عنه ولم يَتدبَّروه[٣].

- ونُقِلَ الكلامُ مِن أسلوبِ الغَيبةِ في قولِه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ﴾ [الغاشية: ٢٤] إلى أُسلوبِ التَّكلُّمِ بقولِه: ﴿إِلَيْنَآ﴾ على طَريقةِ الالْتفاتِ[٤].

- والعطفُ بحرْفِ (ثُمَّ) في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ للدَّلالةِ على التَّراخي في الرُّتبةِ لا في الزَّمانِ؛ فإنَّ حِسابَهم هو الغرَضُ مِن إيابِهم، وهو أوقَعُ في تَهديدِهم على التَّولِّي، فالحسابُ قدْ يكونُ مُباشَرةً بعدَ الإيابِ، ولكنَّ التَّفاوُتَ بيْن الموقفَينِ أمرٌ لا تُكْتَنَهُ أهوالُه، ولا يَدْري أحدٌ مَداهُ، ولا يَتصَوَّرُه العقلُ على الإطلاقِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٢).

- ومعْنى (على) مِن قولِه: ﴿عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ أنَّ حِسابَهم -لتَأكُّدِه في حِكمةِ اللهِ- يُشبِهُ الحقَّ الَّذي فَرَضَه اللهُ على نفْسِه[١].

- وأيضًا هذه الجُملةُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ هي المقصودُ مِن التَّعليلِ، والَّتي قبْلَها بمعْنَى التَّمهيدِ لها والإدماجِ[٢] لإثباتِ البَعثِ، وفي ذلك إيذانٌ بأنَّ تَأخيرَ عِقابِهم إمهالٌ، فلا يَحسَبوه انفلاتًا مِن العِقابِ[٣].

- وفي تَصديرِ الجُملتَينِ بـ(إنَّ) وتَقديمِ خبَرِها، وعطْفِ الثَّانيةِ على الأُولى بكلمةِ (ثُمَّ) المفيدةِ لبُعدِ مَنزلةِ الحِسابِ في الشِّدَّةِ؛ مِن الإنباءِ عن غايةِ السَّخطِ الموجِبِ لتَشديدِ العَذابِ ما لا يَخفَى[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٩).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٢).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الفَجْرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ الفَجْرِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفَجْرِ)[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ الفَجرِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

١- تَثْبيتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٢- إثباتُ اليومِ الآخِرِ، والحسابِ بالثَّوابِ والعِقابِ[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- افتِتاحُ السُّورةِ بالقَسَمِ بخمسةِ أشياءَ شريفةٍ.

٢- تَذكيرُ المُشرِكينَ بما حَلَّ بالمكَذِّبينَ مِن قَبْلِهم، كقَومِ عادٍ وثَمودَ وفِرعَونَ.

٣- بيانُ أحوالِ الإنسانِ في حالِ غِناه وفي حالِ فَقْرِه، وأنَّ كَثرةَ النِّعَمِ ليست دليلًا على إكرامِ اللهِ للعَبْدِ، ولا التَّضييقُ دليلٌ على إهانتِه.

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ: افتتاحُها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥١٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١١).

(٢) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١١).

(٤) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٩٠).

٤- وَصفُ يومِ القيامةِ وما فيه مِن أهوالٍ، وتأسُّفُ الإنسانِ يومَئذٍ على تفريطِه.

٥- تبشيرُ أصحابِ النُّفوسِ المؤمِنةِ المطمَئِنَّةِ.

## الآيات (١-١٤)

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١ وَلَيَالٍ عَشۡرٖ ٢ وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ٥ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ ١٢ فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾.

## غَريبُ الكَلماتِ:

﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾: الشَّفعُ: هو الزَّوجُ. والوَتْرُ والوِتْرُ: هو الفَردُ، تَقولُ: كان فَرْدًا فشَفَعْتُه، فالشَّفعُ في اللُّغةِ: اثنانِ، والوتْرُ: واحدٌ، والشَّفْعُ: ضمُّ الشَّيءِ إلى مِثْلِه، وأصلُ (شفع): يدُلُّ على مُقارَنةِ الشَّيئَيْنِ[(١)].

﴿حِجۡرٍ﴾: أي: عَقْلٍ، وأصلُ (حجر): يدُلُّ على المنعِ، وسُمِّيَ العَقلُ حِجرًا؛ لأنَّه يَمنَعُ الإنسانَ مِن تعاطي ما لا يليقُ به مِن الأفعالِ والأقوالِ، كما يُسَمَّى عَقلًا؛ لأنَّه يَعقِلُه عن القبائِحِ[(٢)].

﴿ٱلۡعِمَادِ﴾: أي: أعمدةِ بيوتِهم مِن الشَّعرِ، أو بنيانِهم، أو القُدودِ الطِّوالِ، على تشبيهِ قاماتِهم بالأعمِدةِ، وأصلُ (عمد): يدُلُّ على استقامةٍ في الشَّيءِ[(٣)].

﴿جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ﴾: أي: قَطَعوا صَخرَ الجِبالِ، واتَّخَذوا فيها بُيُوتًا نَحَتوها مِنَ

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٩٧)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٠١) و(٦/ ٨٤)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٨٧)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

الصَّخرِ، والجَوْبُ: القَطعُ، تقولُ: جُبتُ البِلادَ أَجوبُها: إذا قطَعْتَها، ومنه الجَوابُ؛ لأنَّه يَقطَعُ السُّؤالَ، وأصلُ (جوب): يدُلُّ على خَرقِ الشَّيءِ[١].

﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾: أي: صاحِبِ البِناءِ المُحكَمِ والمُلكِ الثَّابِتِ، والعَرَبُ تَقولُ: هم في عزٍّ ثابتِ الأوتادِ، ومُلكٍ ثابتِ الأوتادِ، يُريدونَ أنَّه دائِمٌ شَديدٌ. وقيلَ: صاحِبُ القُوَّةِ والبَطشِ والجُنودِ والجُموعِ الكثيرةِ الَّذين يُقَوُّونَ أمْرَه، ويَشُدُّونَ مُلْكَه، كما يُقَوِّي الوَتِدُ الشَّيءَ، والوَتِدُ: عُودٌ غليظٌ شيئًا، أسْفَلُه أدَقُّ مِن أعلاه، يُدَقُّ في الأرضِ لِتُشَدَّ به أطْنابُ الخَيمةِ، وأصلُ (وتد): يدُلُّ على الثَّباتِ والرُّسوخِ[٢].

﴿سَوْطَ عَذَابٍ﴾: أي: نَصيبَ عذابٍ أو: شِدَّتَه؛ لأنَّ السَّوطَ كان عندَهم نهايةَ ما يُعَذَّبُ به، والسَّوطُ كَلِمةٌ تقولُها العَرَبُ لكُلِّ نَوعٍ مِن أنواعِ العذابِ، وأصلُ ذلك أنَّ السَّوطَ هو عذابُهم الَّذي يُعَذِّبونَ به، فجرى لكُلِّ عذابٍ؛ إذ كان فيه عندَهم غايةُ العذابِ، وأصلُ (سوط): يدُلُّ على مُخالَطةِ الشَّيءِ الشَّيءَ[٣].

﴿لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾: أي: على طريقِ العِبادِ لا يَفوتُه أحدٌ منهم، يرصُدُ عمَلَ كُلِّ إنسانٍ؛ حتَّى يُجازيَه به، والمَرْصَدُ والمِرْصادُ: الطَّريقُ، أو: المِرْصادُ: الموضِعُ الَّذي يُرصَدُ النَّاسُ فيه، وأصلُ (رصد): يدُلُّ على التَّهَيُّؤِ لِرِقْبةِ شَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢١٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧١)، ((الوسيط)) للواحدي (٣/ ٥٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ١٤).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٠٠)، =

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ * وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ * ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾

﴿إِرَمَ﴾: بَدَلٌ مِن «عادٍ» مجرورٌ، وعلامةُ جَرِّه الفتحةُ نيابةً عن الكسرةِ؛ لأنَّه ممنوعٌ مِن الصَّرفِ للعَلَميَّةِ والتَّأنيثِ. «ذَاتِ»: نَعتٌ لـ﴿إِرَمَ﴾ مجرورٌ، وعلامةُ جَرِّه الكَسرةُ.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمٌ موصولٌ مبنيٌّ في محَلِّ جَرٍّ نَعتٌ للجَمعِ المتقَدِّمِ مِن عادٍ وثمودَ وفِرعَونَ، ويجوزُ أن يكونَ نعتًا لفِرعَونَ؛ لأنَّ المرادَ هو وقومُه، واكتفى بذِكْرِه عن ذِكْرِهم، ويجوزُ قَطْعُه عن الوَصفِ للذَّمِّ، فيكونُ مَنصوبَ المحَلِّ على إضمارِ «أَذُمُّ»، أو مَرفوعَه على إضمارِ «هم»[1].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالفَجْرِ المعروفِ، وبلَيالٍ عَشْرٍ، وهي عَشْرُ ذي الحِجَّةِ، وبالشَّفعِ والوَتْرِ، وباللَّيلِ وَقتَ سَيْرِه وسَرَيانِه، فهل في قَسَمِ اللهِ بتلك الأشياءِ مَقنَعٌ وكِفايةٌ لِذي عَقلٍ ولُبٍّ؛ فيَنزَجِرَ ويَرتَدِعَ؟

ثمَّ يُخبِرُ اللهُ سبحانَه وتعالى عمَّا أنزله بالمكذِّبينَ مِن العذابِ، فيقولُ: أَلَمْ تَعلَمْ -يا محمَّدُ- كيف انتَقَم رَبُّك مِن قَبيلةِ عادٍ؛ إرَمَ ذاتِ الأعمدةِ، الَّتي لم

---

= ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٧٤٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٠).

(١) يُنظَر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٨١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٣٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢١).

يُخلَقْ ما يُماثِلُها في سائِرِ البُلدانِ؟ وكيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن قَبيلةِ ثمودَ الَّذين شَقُّوا الجِبالَ في وادِيهم، وصَنَعوا فيها بُيوتًا؟ وكيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن فِرعَونَ صاحِبِ الأوتادِ؟

هؤلاء الذَّين سَلَف ذِكْرُهم مِن عادٍ وثَمودَ وفِرعونَ قد تجاوَزوا حَدَّهم في الظُّلمِ والطُّغيانِ، فأكثَروا في البِلادِ العمَلَ بالكُفْرِ والعِصيانِ؛ فأنزَلَ رَبُّك عليهم -يا محمَّدُ- عَذابَه الشَّديدَ؛ فهَلَكوا جَميعًا، إنَّ رَبَّك مُراقِبٌ لأعمالِ الطَّاغينَ المُفسِدينَ في الدُّنيا، وسيُهلِكُهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡفَجۡرِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالفَجْرِ، وهو وقتُ ابتداءِ ظُهورِ النُّورِ في الأُفُقِ الشَّرقيِّ قبْلَ طُلوعِ الشَّمسِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٥٨٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

قال ابنُ عثيمين: (الفجر... بيْنَه وبيْنَ طُلوعِ الشَّمسِ ما بيْنَ ساعةٍ واثنتَينِ وثلاثينَ دقيقةً، إلى ساعةٍ وسَبْعَ عَشْرةَ دقيقةً، ويختَلِفُ باختلافِ الفُصولِ؛ فأحيانًا تَطولُ الحِصَّةُ ما بيْن الفَجرِ وطُلوعِ الشَّمسِ، وأحيانًا تَقصُرُ حَسَبَ الفُصولِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٦).

وقال ابن جُزَي: (أقسَمَ اللهُ تعالى بالفَجْرِ، وهو الطَّالِعُ كُلَّ يومٍ، كما أقسَمَ بالصُّبحِ. وقيل: أراد صلاةَ الفَجرِ. وقيل: أراد النَّهارَ كُلَّه. وقيل: فَجْرَ يومِ الجُمُعةِ، وقيل: فَجْرَ يومِ النَّحرِ، وقيل: فَجْرَ ذي الحِجَّةِ، ولا دليلَ على هذه التَّخصيصاتِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٨).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ في الفَجْرِ، وأنَّه الفَجْرُ المعروفُ الطَّالِعُ كُلَّ يومٍ، وهو الصُّبحُ: السَّمَرْقَنديُّ، والواحِديُّ، والزَّمَخْشَريُّ، والرَّسْعَنيُّ، وابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحَلِّيُّ، والعُلَيميُّ، وأبو السُّعودِ، والشَّوكانيُّ، والألوسيُّ، والقاسميُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٩٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ =

= ٧٤٦)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٨)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٥٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٣٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٦).

قال الواحديُّ: (﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾ قال ابنُ عَبَّاسٍ: فَجْرُ النَّهارِ. وهو روايةُ أبي نَصرٍ وأبي صالحٍ، وقَولُ عِكْرِمةَ، وزَيدِ بنِ أسلَمَ، ومحمَّدِ بنِ كَعبٍ، والأسْوَدِ بنِ يَزيدَ، قالوا: هو انفِجارُ الصُّبحِ مِن كُلِّ يومٍ). ((البسيط)) (٢٣/ ٤٨٣).

وقال ابنُ كثيرٍ: (أمَّا الفَجْرُ فمَعروفٌ، وهو: الصُّبحُ. قاله عليٌّ، وابنُ عبَّاسٍ، ومجاهِدٌ، وعِكْرِمةُ، والسُّدِّيُّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠).

وقال الرَّازي: (أقسَمَ اللهُ تعالى به لِما يَحصُلُ به مِن انقِضاءِ اللَّيلِ وظُهورِ الضَّوءِ، وانتِشارِ النَّاسِ وسائِرِ الحيواناتِ مِن الطَّيرِ والوُحوشِ في طَلَبِ الأرزاقِ، وذلك مُشاكِلٌ لنُشورِ الموتى مِن قُبورِهم، وفيه عِبرةٌ لِمَن تأمَّل، وهذا كقَولِه: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]، وقال في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨]، وتمدَّحَ في آيةٍ أُخْرى بكَونِه خالِقًا له، فقال: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٨).

وقيل: إنَّه (فَجرُ يَومٍ مُعَيَّنٍ، وعلى هذا القَولِ ذَكَروا وُجوهًا:

الأوَّلُ: أنَّه فَجْرُ يَومِ النَّحرِ؛ وذلك لأنَّ أمْرَ المَناسِكِ مِن خَصائِصِ مِلَّةِ إبراهيمَ، وكانت العَرَبُ لا تَدَعُ الحَجَّ، وهو يومٌ عظيمٌ يأتي الإنسانُ فيه بالقُربانِ، كأنَّ الحاجَّ يريدُ أن يتقرَّبَ بذَبْحِ نَفْسِه، فلمَّا عَجَز عن ذلك فَدى نَفْسَه بذلك القُربانِ، كما قال تعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٧].

الثَّاني: أراد فَجْرَ ذي الحِجَّةِ؛ لأنَّه قَرَن به قَولَه: ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٖ﴾، ولأنَّه أوَّلُ شَهرِ هذه العِبادةِ المُعَظَّمةِ.

الثَّالِثُ: المرادُ: فَجْرُ المحَرَّمِ؛ أقسَمَ به لأنَّه أوَّلُ يَومٍ مِن كُلِّ سَنةٍ، وعِندَ ذلك يحدُثُ أُمورٌ كثيرةٌ ممَّا يتكرَّرُ بالسِّنينَ؛ كالحَجِّ والصَّومِ والزَّكاةِ، واستِئنافِ الحِسابِ بشُهورِ الأهِلَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٤٨).

وممَّن خَصَّص الفَجْرَ هنا بفَجرِ يومِ النَّحرِ، وهو العاشِرُ مِن شَهرِ ذي الحِجَّةِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١).

قال ابنُ كثيرٍ: (عن مَسروقٍ، ومجاهِدٍ، ومحمَّدِ بنِ كَعبٍ: المرادُ به فَجْرُ يَومِ النَّحرِ خاصَّةً، =

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بلَيالٍ عَشْرٍ، وهي عَشْرُ ذي الحِجَّةِ(١).

= وهو خاتِمةُ اللَّيالي العَشْرِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠).

وقال الواحديُّ: (قال [أي: ابنُ عَبَّاسٍ] في روايةِ العَوْفيِّ: صلاةُ الفَجْرِ. وقال في روايةِ عُثمانَ بنِ مُحَيْصِنٍ: هو فَجْرُ المحرَّمِ، وهو قَولُ قَتادةَ، قال: أقسَمَ بأوَّلِ يومٍ مِنَ المحرَّمِ تنفَجِرُ منه السَّنَةُ. وقال في روايةِ عَطاءٍ: يريدُ صَبيحةَ يَومِ النَّحْرِ. قال الضَّحَّاكُ: هو فَجْرُ ذي الحِجَّةِ). ((البسيط)) (٢٣/ ٤٨٤، ٤٨٥).

قال ابن رجب: (وعلى جميعِ هذه الأقوالِ فالعَشْرُ يَشتَمِلُ على الفَجْرِ الَّذي أقسَمَ اللهُ به). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٦٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٨)، ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٨، ١٨٩).

نقل ابنُ جريرٍ إجماعَ الحُجَّةِ مِن أهلِ التَّأويلِ على أنَّها عَشرُ ذي الحِجَّةِ، ونقله الواحديُّ عن أكثَرِ المُفَسِّرينَ، وذهب إليه: ابنُ كثير، وابنُ رجبٍ ونَقَله عن جمهورِ المُفَسِّرينَ، واختاره البِقاعيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٠)، ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٢٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

قال الواحِديُّ: (﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وهو عَشْرُ ذي الحِجَّةِ في قَولِ جُمهورِ المفَسِّرينَ: عِكْرِمةَ، ومُقاتِلٍ، والكَلبيِّ، ومَسروقٍ، والضَّحَّاكِ، ومجاهِدٍ، وقَتادةَ، والسُّدِّيِّ، واختيارُ الفَرَّاءِ، والزَّجَّاجِ، قالوا: هي عَشْرُ الأَضحى). ((البسيط)) (٢٣/ ٤٨٥، ٤٨٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢١).

وقال ابنُ رَجَبٍ: (هذا الصَّحيحُ الَّذي عليه جمهورُ المفَسِّرينَ مِن السَّلَفِ وغَيرِهم، وهو الصَّحيحُ عن ابنِ عَبَّاسٍ، رُوِيَ عنه مِن غَيرِ وَجهٍ. والرِّوايةُ عنه: «أنَّه عَشْرُ رَمَضانَ» إسنادُها ضَعيفٌ). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٦٨).

وقيل: هي العَشْرُ الأواخِرُ مِن رَمَضانَ. وممَّن ذهب إليه: ابنُ العَرَبيِّ المالِكيُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٨٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٨٨، ١٨٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ ٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بالشَّفعِ، وأُقسِمُ بالوَتْرِ[١].

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٧).

قال الزمخشري: (﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾: إمَّا الأشياءُ كُلُّها شَفْعُها ووَتْرُها، وإمَّا شَفعُ هذه اللَّيالي ووَتْرُها، ويجوزُ أن يكونَ شَفعُها يومَ النَّحرِ، ووَتْرُها يومَ عَرَفةَ؛ لأنَّه تاسِعُ أيَّامِها، وذاك عاشِرُها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٦).

وممَّن ذهب إلى القَولِ الأوَّلِ -أي: أنَّ الشَّفعَ والوَتْرَ يَعُمُّ كلَّ الأشياءِ شَفْعَها ووَتْرَها-: ابنُ جريرٍ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٧).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ، وأنَّ المرادَ القَسَمُ بالخَلقِ، فكُلُّ شَيءٍ خَلَق اللهُ شَفْعٌ ووَتْرٌ: مجاهِدٌ، والحَسَنُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٢)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٩٣).

قال ابنُ جَريرٍ: (والصَّوابُ مِنَ القَولِ في ذلك أن يُقالَ: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أقسَمَ بالشَّفْعِ والوَتْرِ، ولم يَخْصُصْ نَوعًا مِن الشَّفْعِ ولا مِنَ الوَتْرِ دُونَ نَوعٍ بخَبَرٍ ولا عَقلٍ، فكُلُّ شَفعٍ ووَتْرٍ فهو ممَّا أقسَمَ به، ممَّا قال أهلُ التَّأويلِ إنَّه داخِلٌ في قَسَمِه هذا؛ لعُمومِ قَسَمِه بذلك). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٥، ٣٥٦).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالشَّفْعِ يَومُ النَّحرِ، وبالوَتْرِ يَومُ عَرَفةَ: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، والزَّجَّاجُ، والهَرَويُّ، والواحِديُّ ونَسَبَه لجُمهورِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٥٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ١٠١٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١١٩٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٩٠).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عَبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، والضَّحَّاكُ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٤٩).

وقيل: الشَّفْعُ هو الخَلْقُ، والوَتْرُ هو اللهُ. وممَّن اختاره: الكرمانيُّ، والعُلَيميُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٣٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٥٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٥).

وقال البِقاعيُّ: (﴿وَٱلشَّفۡعِ﴾ أي: لِمَن تعَجَّل في يومَينِ ﴿وَٱلۡوَتۡرِ﴾ أي: لِمن أتَمَّ. قاله ابنُ الزُّبَيرِ). =

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ٤﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ وَقتَ سَيْرِه وسَرَيانِه[1].

= ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٢).

وقيل غيرُ ذلك في معنى الشَّفعِ والوتْرِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٨).

قال ابنُ رجبٍ: (وقد قيلَ في الشَّفْعِ والوتْرِ أقوالٌ كثيرةٌ، وأكثَرُها لا يَخرُجُ عن أن يكونَ العَشْرُ أو بَعْضُه مُشتَمِلًا على الشَّفْعِ والوَتْرِ أو أحَدِهما). ((لطائف المعارف)) (ص: ٢٦٨).

وقال ابنُ القَيِّمِ: (ذَكَر سُبحانَه مِن جُملةِ هذه الأقسامِ ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾؛ إذ هذه الشَّعائِرُ المعَظَّمةُ منها شَفعٌ ومنها وَتْرٌ في الأمكِنةِ والأزمِنةِ والأعمالِ) وذَكَر الشَّفعَ منها والوتْرَ، ثمَّ قال: (وروى مجاهِدٌ عن ابنِ عَبَّاسٍ: الوترُ: آدَمُ، وشُفِعَ بزَوْجَتِه حَوَّاءَ. وقال في روايةٍ أخرى: الشَّفعُ: آدَمُ وحَوَّاءُ، والوترُ: اللهُ وَحْدَه. وعنه روايةٌ ثالِثةٌ: الشَّفعُ: يَومُ النَّحرِ، والوترُ: اليومُ الثَّالِثُ. وقال عِمْرانُ بنُ حُصَينٍ وقَتادةُ: الشَّفعُ والوترُ: هي الصَّلاةُ... وقال عَطيَّةُ العَوْفيُّ: الشَّفعُ: الخَلْقُ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النبأ: ٨]، والوَتْرُ: هو اللهُ. وهذا قَولُ الحَكَمِ، قال: كُلُّ شَيءٍ شَفْعٌ، واللهُ وَتْرٌ. وقال أبو صالحٍ: خلَقَ اللهُ مِن كُلِّ شَيءٍ زَوْجَينِ اثنَينِ، واللهُ وَتْرٌ واحِدٌ. وهذا قَولُ مجاهِدٍ ومَسروقٍ. وقال الحسَنُ: الشَّفعُ والوترُ: العَدَدُ كُلُّه مِن شَفعٍ ووَترٍ. وقال ابنُ زَيدٍ: الشَّفعُ والوترُ: الخَلْقُ كُلُّه مِن شَفعٍ ووَترٍ. وقال مقاتِلٌ: الشَّفْعُ: الأيَّامُ واللَّيالي، والوَترُ: اليَومُ الَّذي لا لَيلةَ بَعْدَه، وهو يومُ القيامةِ).

ثمَّ قال ابنُ القَيِّمِ: (وذُكِرَت أقوالٌ أُخَرُ هذه أصولُها، ومدارُها كلِّها على قولَينِ:

أحَدُهما: أنَّ الشَّفْعَ والوتْرَ نَوعانِ للمخلوقاتِ والمأموراتِ.

والثَّاني: أنَّ الوَتْرَ الخالِقُ، والشَّفْعَ المخلوقُ، وعلى هذا القَولِ فيكونُ قد جَمَع في القَسَمِ بيْنَ الخالِقِ والمخلوقِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٣٠) فما بَعْدَها.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٠، ٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٣، ٣٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٠).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ باللَّيلِ: العُمومُ، أي: كُلُّ ليلةٍ، دُونَ تَخصيصٍ بلَيلةٍ مُعَيَّنةٍ: ابنُ جريرٍ، والزَّجَّاجُ، والواحِديُّ ونَسَبه للأكثَرينَ، وابنُ الجوزيِّ، والرَّسْعَنيُّ، والقُرْطبيُّ، وابنُ جُزَي، والخازِنُ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٠)، =

= ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦١١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٠).

قال الرَّازيُّ: (أكثَرُ المفَسِّرينَ على أنَّه ليس المرادُ منه ليلةً مخصوصةً، بل العُمومُ، بدليلِ قَولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾). ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٠).

وقيل: المرادُ باللَّيلِ هنا لَيلةُ الأضْحى. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧).

وقال ابنُ عَطِيَّةَ: (قال مجاهِدٌ وعِكْرِمةُ والكَلبيُّ: أراد بهذا لَيلةَ جَمعٍ [أي: ليلةَ مُزدَلِفةَ]؛ لأنَّه يُسْرى فيها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٧). ويُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٩٥).

وقيل: المرادُ: ليلةُ النَّفرِ إذا خرَج الحاجُّ إلى بلَدِه. وممَّن ذهب إلى هذا: البِقاعيُّ، قال: (﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ أي: مِن لَيلةِ النَّفْرِ ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾ أي: يَنقضي كما ينقضي لَيلُ الدُّنيا وظلامُ ظُلمِها، فيَخلُفُه الفَجْرُ ويسري فيه الَّذين آبُوا إلى اللهِ راجِعينَ إلى ديارِهم بعدَ حَطِّ أوزارِهم، وقد رجع آخِرُ القَسَمِ على أوَّلِه). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٢، ٢٣).

قال ابنُ الجوزيِّ: (وفي قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ قَولانِ:

أحَدُهما: أنَّ الفِعلَ له، فيه قولانِ: أحَدُهما: إذا يَسري ذاهبًا، قاله الجُمهورُ، وهو اختيارُ الزَّجَّاجِ.

والثَّاني: إذا يَسْري مُقبلًا، قاله قتادةُ.

والقَولُ الثَّاني: أنَّ الفِعلَ لغَيرِه، والمعنى: إذا يُسْرى فيه، كما يقالُ: لَيلٌ نائمٌ، أي: يُنامُ فيه، قاله الأخفَشُ، وابنُ قُتَيبةَ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٩). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٩٥).

وقال ابنُ كثير: (قَولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ قال العَوْفيُّ عن ابنِ عبَّاسٍ: أي: إذا ذهب. وقال عَبدُ اللهِ ابنُ الزُّبَيرِ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ حتَّى يُذهِبَ بَعْضُه بَعضًا. وقال مجاهِدٌ، وأبو العاليةِ، وقتادةُ، ومالِكٌ عن زَيدِ بنِ أسلَمَ وابنِ زَيدٍ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ إذا سار. وهذا يمكِنُ حَمْلُه على ما قاله ابنُ عَبَّاسٍ، أي: ذهب. ويحتَمِلُ أن يكونَ المرادُ: إذا سار، أي: أقبَلَ. وقد يُقالُ: إنَّ هذا أنسَبُ؛ لأنَّه في مقابلةِ قَولِه: ﴿وَٱلۡفَجۡرِ﴾؛ فإنَّ الفَجْرَ هو إقبالُ النَّهارِ وإدبارُ اللَّيلِ، فإذا حُمِلَ قَولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ على إقبالِه، كان قَسَمًا بإقبالِ اللَّيلِ وإدبارِ النَّهارِ، وبالعَكْسِ، كقَولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۞ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا =

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥﴾.

أي: هل في قَسَم اللهِ بتلك الأشياءِ مَقنَعٌ وكِفايةٌ لِذي عَقلٍ ولُبٍّ؛ فيَنزَجِرَ ويَرتَدِعَ؟ فإنَّ مَنْ كان كذلك عَلِمَ أنَّ ما أقسَمَ اللهُ به أمورٌ عَظيمةٌ فيها عجائِبُ ودلائِلُ على الحَقِّ، فيتفَكَّرُ فيها، ويعتَبِرُ بها[1].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾.

أي: ألم تَعلَمْ -يا محمَّدُ- كيف انتَقَم رَبُّك مِن قَبيلةِ عادٍ[2]؟!

---

= نَنَفَّسَ﴾ [التكوير:١٧، ١٨]، وكذا قال الضَّحَّاكُ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ أي: يجري). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٤٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

قال ابنُ القيِّم: (لَمَّا تضَمَّن هذا القَسَمُ ما جاء به إبراهيمُ ومحمَّدٌ صلَّى اللهُ عليهما وسلَّم، كان في ذلك ما دَلَّ على المقسَمِ عليه؛ ولهذا عقَّب القَسَمَ بقَولِه تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾؛ فإنَّ عَظَمةَ هذا المقسَمِ به يُعرَفُ بالنُّبُوَّةِ، وذلك يحتاجُ إلى حِجْرٍ يَحجُرُ صاحِبَه عن الغَفلةِ واتِّباعِ الهوى، ويحمِلُه على اتِّباعِ الرُّسُلِ؛ لئلَّا يُصيبَه ما أصاب مَن كَذَّبَ الرُّسُلَ؛ كعادٍ وفِرعَونَ وثمودَ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٣٢).

قيل: جوابُ القَسَمِ قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. وممَّن ذهب إلى هذا: الواحديُّ، وضعَّفه ابنُ القيِّم. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٢٨).

قال الزمخشري: (المقسَمُ عليه محذوفٌ، وهو: لَيُعَذَّبُنَّ. يدُلُّ عليه قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إلى قَولِه: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧).

وقال السعدي: (الظَّاهِرُ أنَّ المُقسَمَ به هو المقسَمُ عليه، وذلك جائِزٌ مُستعمَلٌ إذا كان أمرًا ظاهِرًا مُهِمًّا، وهو كذلك في هذا الموضِعِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٤).

قال ابن عطية: (عادٌ قبيلةٌ، لا خِلافَ في ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٧). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦ - ٨].

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾.

أي: إرمَ ذاتِ الأعمدةِ[1].

---

= ممَّن اختار القولَ المذكورَ في المخاطَبِ، وأنَّ الخِطابَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم-: ابنُ جرير، والنسفي، والخلوتي. ينظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٨)، ((تفسير الخلوتي)) (١٠/ ٤٢٢).

وقال القرطبي، والخازن، والشربيني: الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، لكنَّ المرادَ به العمومُ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٤) ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٣٠).

وقال ابن عثيمين: (الخِطابُ هنا لكُلِّ مَن يُوَجَّهُ إليه هذا الكِتابُ العزيزُ، وهم البَشَرُ كُلُّهم، بل والجِنُّ أيضًا. ألم تَرَ أيُّها المخاطَبُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٠).

وقال الشوكاني: (الخطابُ للنبيِّ، أو لكلِّ مَن يصلحُ له). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٢٩).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ، وأنَّ الرُّؤيةَ هنا بمعنى العِلْمِ: السَّمرقندي، والنَّسفي، والخازنُ، والكوراني، وأبو السُّعودِ، والقِنَّوْجي، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٧٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٤)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٣٨٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير القِنَّوْجي)) (١٥/ ٢٢٠)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٦).

وقال الخازن: (قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ أي: ألم تعلَمْ، وإنَّما أُطلِق لفظُ الرُّؤيةِ على العِلم؛ لأنَّ أخبارَ عادٍ وثمودَ وفِرعونَ كانت معلومةً عندَهم). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٤).

وجوَّز ابنُ عاشور أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بَصَرِيَّةً، والمعنَى: ألم تَرَ آثارَ ما فَعَل رَبُّكَ بعادٍ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٤-٣٦٦)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

قيل: ﴿إِرَمَ﴾: هي اسمُ القبيلةِ كُلِّها. وممَّن ذهب إلى هذا: الزمخشريُّ، والعُلَيمي، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((تفسير =

= العليمي)) (٧/ ٣٥٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

وذكر ابنُ عَطِيَّةَ أنَّ ممَّا يؤيِّدُ أنَّ إِرَمَ القَبيلةُ بعَينِها: قولَ اليهودِ للعَرَبِ: (سيَخرُجُ فينا نَبيٌّ نتَّبِعُه نَقْتُلُكم معه قَتْلَ عادٍ إِرَمَ)، فهذا يقتضي أنَّها قبيلةٌ، وذكَرَ أنَّه يتَّجه على مَن قرأ ﴿بِعَادٍ * إِرَمَ﴾ أن يكون إِرَمَ أبًا لعادٍ أو جَدًّا غلب اسمُه على القبيلةِ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٨).

وممَّن قال: إنَّ إِرَمَ هو جَدُّ عادٍ: ابنُ إسحاقَ، والزَّمخشريُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((سيرة ابن هشام)) (١/ ٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨).

قال الزَّمخشريُّ: (قيل لعَقِبِ عادِ بنِ عَوْصِ بنِ إِرَمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ: عادٌ، كما يقالُ لبنى هاشِمٍ: هاشِمٌ. ثمَّ قيل للأوَّلينَ منهم عادٌ الأُولى وإِرَمُ؛ تَسميةً لهم باسْمِ جَدِّهم). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧).

وقال السَّمعانيُّ: (قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ﴾ هو أبو عادٍ؛ لأنَّهم قالوا: هو عادُ ابنُ إِرَمَ بنِ عوصِ بنِ سامِ بنِ نوحٍ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢١٩).

وقال الشِّنقيطيُّ: (عادُ بنُ إِرَمَ، وقيل: ابنُ عَوصِ بنِ إِرَمَ. فهو مِن أولادِ إِرَمَ. وإِرَمُ: اسمُ رَجُلٍ تُسَمَّى به القبيلةُ، وعادٌ مِن ذرِّيَّتِه؛ ولذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾، ثمَّ أبدَلَ منها فقال: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾). ((العذب النمير)) (٣/ ٤٧٥).

وقيل: ﴿إِرَمَ﴾: هي اسمُ قبيلةٍ مِن عادٍ. وممَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قال جُمهورُ المفَسِّرينَ: إِرَمُ مدينةٌ لهم عظيمةٌ كانت على وَجْهِ الدَّهْرِ باليَمَنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٧).

وقيل غَيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٤٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٣٩).

و﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾: قيل: معناها: ذاتُ الأعمِدةِ السَّيَّارةِ الَّتي يَنصِبونَ بها خيامَهم أثناءَ تنقُّلِهم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٤).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، والكَلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٥٠١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥). =

= وقيل: المرادُ: ذاتُ الطُّولِ؛ لأنَّ قَومَ عادٍ كانوا طِوالَ القامةِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وأبو عُبَيدةَ، والزَّجَّاجُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٦٨٧)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٢٩٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥).

وقيل: المرادُ: ذاتُ القُوَّةِ والشِّدَّةِ. وممَّن ذهب إليه: السعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٨).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٠).

والأقوالُ الثَّلاثةُ السَّابِقةُ في ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ بناءً على أنَّ إرَمَ قبيلةٌ.

وقال البِقاعيُّ: (﴿ٱلْعِمَادِ﴾ أي: البناءِ العالي الثَّابِتِ بالأعمِدةِ الَّتي لم يكُنْ في هذه الدَّارِ مِثْلُها). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٠).

وهذا القَولُ بناءً على أنَّ إرَمَ مدينةٌ.

قال ابنُ جُزَي: (مَن قال: إرَمُ: قَبيلةٌ، قال: العِمادُ أعمِدَةُ بُنيانِهم، أو أعمِدةُ بُيوتِهم مِنَ الشَّعَرِ؛ لأنَّهم كانوا أهلَ عَمودٍ، وقال ابنُ عَبَّاسٍ: ذلك كنايةٌ عن طُولِ أبدانِهم. ومَن قال: إرَمُ: مَدينةٌ، فالعِمادُ الحِجارةُ الَّتي بُنِيَت بها، وقيل: القُصورُ والأبراجُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٩).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٣).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (إنْ قُلْنا: إنَّ إرَمَ تَسميةٌ لعادٍ باسمِ جَدِّهم... وأنَّه عَطْفُ بيانٍ، كان قَولُه: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ وَصْفًا لهم بالطُّولِ المُفرِطِ...، وإنْ قُلْنا: إنَّ إرَمَ اسْمُ بَلْدَتِهم -وهو قَولُ كَثيرٍ مِنَ المفَسِّرينَ- كان قَولُه: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ صِفةً لبَلْدَتِهم، على معنى: ذاتِ الأساطينِ، أو ذاتِ البناءِ الرَّفيعِ، وقد اختلَفوا فيها؛ فقال سَعيدُ بنُ المسَيِّبِ وعِكْرِمةُ وغَيرُهما: هي دِمَشْقُ. وقال محمَّدُ بنُ كَعبٍ: الإسكَنْدريَّةُ. وقيل: هي المدينةُ الَّتي بناها شدَّادُ بنُ عادٍ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦١١). =

كما قال الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩].

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨﴾.

أي: الَّتي لم يُخلَقْ ما يُماثِلُها في سائِرِ البُلدانِ(١).

---

= قال ابنُ كثيرٍ: (ومَن زعم أنَّ المرادَ بقَولِه: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ مدينةٌ إمَّا دِمَشْقُ...، أو إسكَنْدريَّة... أو غيرُهما، ففيه نظَرٌ؛ فإنَّه كيف يلتَئِمُ الكلامُ على هذا: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ إن جعل ذلك بدلًا أو عَطْفَ بيانٍ؟! فإنَّه لا يتَّسِقُ الكلامُ حينَئذٍ. ثمَّ المرادُ إنَّما هو الإخبارُ عن إهلاكِ القَبيلةِ المُسَمَّاةِ بعادٍ، وما أَحَلَّ اللهُ بهم مِن بأسِه الَّذي لا يُرَدُّ، لا أنَّ المرادَ الإخبارُ عن مدينةٍ أو إقليمٍ!). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

قال الماوَرْديُّ: (﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ فيه وجهانِ:

أحَدُهما: لم يُخلَقْ مِثلُ مَدينتِهم ذاتِ العِمادِ في البِلادِ...

الثَّاني: لم يُخلَقْ مِثلُ قَومِ عادٍ في البلادِ؛ لطُولِهم وشِدَّتِهم). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٨).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ أعاد ابنُ زَيدٍ الضَّميرَ على العِمادِ؛ لارتفاعِها، وقال: بَنَوا عُمُدًا بالأحقافِ لم يُخلَقْ مِثْلُها في البِلادِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٧، ٣٦٨).

واختار ابنُ جُزَي أنَّها صِفةٌ للمدينةِ، قال: (وهذا أظهَرُ؛ لِقَولِه: ﴿فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾، ولأنَّها كانت أحسَنَ مَدائِنِ الدُّنيا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٧٩).

وممَّن ذهب إلى الوَجْهِ الثَّاني -أي: أنَّ الضَّميرَ في قَولِه: ﴿مِثْلُهَا﴾ يعودُ إلى القبيلةِ-: ابنُ جَريرٍ، والقُرطبيُّ، وابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٩).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٨).

قال القُرطبيُّ: (الضَّميرُ في ﴿مِثْلُهَا﴾ يرجِعُ إلى القبيلةِ... وعليه الأكثَرُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٦). =

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا بدَأَ بأولئك -لأنَّ أمْرَهم كان أعجَبَ، وقِصَّتَهم أنزَهُ وأغرَبُ-، ثَنَّى بأقرَبِ الأُمَمِ إليهم زمانًا، وأشبَهِهم بهم شأنًا، فقال[1]:

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾.

أي: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- كيف انتقَم اللهُ كذلك مِن قَبيلةِ ثَمودَ الَّذين شَقُّوا الجِبالَ في وادِيهم، وصَنَعوا فيها بُيوتًا[2]؟

كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ عَادٖ وَبَوَّأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورٗا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتٗاۖ فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا فَٰرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩].

---

= قال ابنُ كثيرٍ: (أمَّا قتادةُ وابنُ جَريرٍ فأعادا الضَّميرَ على القَبيلةِ، أي: لم يُخلَقْ مِثلُ تلك القبيلةِ في البلادِ، يعني: في زَمانِهم، وهذا القَولُ هو الصَّوابُ. وقَولُ ابنِ زَيدٍ ومَن ذَهَب مَذْهَبَه ضَعيفٌ؛ لأنَّه لو كان أراد ذلك لَقال: الَّتي لم يُعمَلْ مِثْلُها في البلادِ، وإنَّما قال: ﴿لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٥).

وممَّن ذهب إلى كِلا الوجهَين: البِقاعيُّ، فقال: (﴿مِثۡلُهَا﴾ يصِحُّ أن يعودَ الضَّميرُ على «عادٍ» باعتبارِ القبيلةِ، وعلى «إرَمَ» باعتبارِ البَلدةِ، وأوضَحَ هذا بقَولِه مُعَمِّمًا للأرضِ كُلِّها: ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي: في بِنائِها ومَرافِقِها وثِمارِها، وتَقسيمِ مِياهِها وأنهارِها، وطِيبِ أرْضِها وحُسْنِ أطيارِها، وما اجتَمَع بها ممَّا يفوتُ الحَصرَ ويُعجِزُ القُوَى؛ ولا مِثْلُ أهلِها الَّذين بَنَوها؛ في قُوَّةِ أبدانِهم، وعَظيمِ شأنِهم، وغَيرِ ذلك مِن أُمورِهم). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٧، ٢٨).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٨/ ١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٠).

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر القَبيلتَينِ مِنَ العَرَبِ، ذكَرَ بَعضَ مَن جاوَرَهم مِن طُغاةِ العَجَمِ؛ لِما في قِصَّتِهم مِن العُتُوِّ والجَبَروتِ، مع ما حَوَتْه مِن الغرائِبِ وخوارِقِ العَجائِبِ؛ فقال[1]:

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- كيف انتَقَم اللهُ كذلك مِن فِرعَونَ صاحِبِ الأوتادِ[2]؟

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٠-٣٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٤).

قيل: المرادُ بالأوتادِ: الجنودُ. وممَّن ذهب إليه: النسفيُّ، والخازن، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٩).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٩٧).

قال الخازِنُ: (سُمِّيَ بذلك؛ لكَثرةِ جُنودِه، وكَثرةِ مَضارِبِهم وخِيامِهم الَّتي كانوا يَضرِبونَها إذا نَزَلوا). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٥).

وقيل: الأوتادُ هي الأهراماتُ المعروفةُ في مِصرَ. وممَّن ذهب إلى هذا القول: المراغي، وابن عاشور، والشعراوي، وعطية سالم. يُنظر: ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢١)، ((تفسير الشعراوي)) (٧/ ٤٣٢٨)، ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٢٥).

وقيل: المرادُ: الأوتادُ المعروفةُ سواءٌ مِن خَشَبٍ أو حديدٍ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣). =

كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ﴾ [ص: ١٢].

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾﴾.

أي: هؤلاء الَّذين سَلَف ذِكْرُهم -عادٌ وثَمودُ وفِرعونُ- قد تجاوَزوا حَدَّهم في الظُّلمِ والطُّغيانِ[(١)].

﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾.

أي: فأكثَروا في البِلادِ العمَلَ بالكُفْرِ والعِصيانِ، والظُّلمِ والعُدْوانِ[(٢)].

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان ذلك مُوجِبًا للعَذابِ؛ سَبَّبَ عنه قَولَه تعالى[(٣)]:

---

= وممَّن قال في الجُملةِ بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ، وقَتادةُ، وأبو رافِعٍ، وسَعيدُ بنُ جُبَيرٍ، والحَسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ١٩٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٦٩).

قال ابنُ جرير: (أَولى هذه الأقوالِ عندي بالصَّوابِ قَولُ مَن قال: عُنِيَ بذلك: الأوتادُ الَّتي تُوتَدُ مِن خَشَبٍ كانت أو حديدٍ؛ لأنَّ ذلك هو المعروفُ مِن معاني الأوتادِ، ووُصِفَ بذلك؛ لأنَّه إمَّا أن يكونَ كان يُعَذِّبُ النَّاسَ بها، كما قال أبو رافعٍ وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وإمَّا أن يكونَ كان يُلعَبُ له بها [كما قال قَتادةُ]). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣).

وقال البِقاعي: (﴿ذِى ٱلْأَوْتَادِ﴾ أي: الَّذي ثبَّتَ مُلْكَه تَثبيتَ مَن يَظُنُّ أنَّه لا يَزولُ بالعساكِرِ والجنودِ وغَيرِهم مِن كُلِّ ما يَظُنُّ أنَّه يَشُدُّ أمْرَه؛ مِنَ الجنَّاتِ والعُيونِ والزُّروعِ والمقاماتِ الكريمةِ؛ فصارت له اليَدُ المبسوطةُ في المُلْكِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٣٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٠).

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: فأنزَلَ رَبُّك عليهم -يا محمَّدُ- عَذابَه الشَّديدَ؛ فهَلَكوا جَميعًا[1].

كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقال سُبحانَه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد: ١٠].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ * وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ * فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٥ - ١٠].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: إنَّ رَبَّك -يا محمَّدُ- مُراقِبٌ لأعمالِ الطَّاغينَ المُفسِدينَ في الدُّنيا، ومُطَّلِعٌ على أفعالِهم، وسامِعٌ لأقوالِهم؛ حتَّى يأخُذَهم ويُهلِكَهم[2].

كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٢).
وقال ابنُ عثيمين: (الخِطابُ هنا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يتوجَّهُ إليه الخِطابُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٧)، ((حاشية الخفاجي)) (٨/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٣).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُه تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ فَهِمَ منه بعضُ أهلِ العلمِ التَّحذيرَ مِنَ التَّطاوُلِ في البُنيانِ، والتَّفاخُرِ والتَّعاظُمِ بتَشييدِ الحِجارةِ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ تنبيهٌ وتقريعٌ لِمَن بعدَهم ألَّا يَعْمَلوا بمِثْلِ عَمَلِهم، فيَنزِلَ بهم ما أُنزِلَ بأولئك مع بأسِهم وشِدَّتِهم وعَدَدِهم، وأموالِهم الَّتي أنفَقوها في ذاتِ العِمَادِ -على قولٍ-، وما فعلَتْه ثمودُ بجَوبِ الصَّخرِ بالوادِ، وفِرعَونُ ذو الأوتادِ؛ فاعِلُ أفاعيلِه الهائلةِ المنكَرةِ: كيف أفناهم وأبادَهم، ومحا آثارَهم، وجعلَهم عِبرةً للمُعتَبِرينَ، وعِظَةً للمُتَّعِظينَ[٢]؟!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أنَّه لا مَلجَأَ وَلا مَهرَبَ مِنَ اللهِ إلَّا إليه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- تضَمَّنتْ هذه السُّورةُ ذَمَّ مَنِ اغتَرَّ بقُوَّتِه وسُلطانِه ومالِه، وهم هؤلاء الأُمَمُ الثَّلاثةُ: قَومُ عادٍ اغتَرُّوا بقوَّتِهم، وثمودُ اغتَرُّوا بجنَّاتِهم وعُيونِهم وزُروعِهم وبَساتينِهم، وقومُ فِرعونَ اغتَرُّوا بالمالِ والرِّياسةِ؛ فصارتْ عاقِبتُهم إلى ما قَصَّ اللهُ علينا، وهذا شأنُه دائمًا مع كلِّ مَنِ اغتَرَّ بشَيءٍ مِن ذلك؛ لا بُدَّ أنْ يُفسِدَه عليه، ويَسلُبَه إيَّاه[٤].

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٩٣)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ٧٦).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٣).

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ اللَّياليَ سابِقةٌ الأيَّامَ[١].

٣- قَولُه تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ * ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ هذا الوَصفُ البَليغُ صريحٌ بألفاظِه ومعانيه في أنَّه وَصفٌ لحَضارةٍ عُمرانيَّةٍ لا نظيرَ لها؛ فالعِمادُ لا تكونُ إلَّا في القُصورِ والأبنيةِ الباذِخةِ، والمدُنِ المخَطَّطةِ على نظامٍ مُحكَمٍ[٢]. وذلك على قول في تفسيرِ ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ -مع أنَّ الَّذي صَنَعَها الآدميُّ- دليلٌ على أنَّ الآدميَّ قد يُوصَفُ بالخَلْقِ، فيقالُ: خَلَقَ كذا، ومنه قولُ النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ في المصَوِّرينَ: ((يُقالُ لهم: أحْيُوا ما خَلَقْتُم))[٣]، لكِنَّ الخَلْقَ الَّذي يُنسَبُ للمَخلوقِ ليس هو الخَلْقَ المنسوبَ إلى اللهِ تعالى؛ الخَلقُ المنسوبُ إلى اللهِ إيجادٌ بَعْدَ عَدَمٍ، وتحويلٌ وتغييرٌ، أمَّا الخَلقُ المنسوبُ لغَيرِ اللهِ فهو مجرَّدُ تحويلٍ وتغييرٍ[٤]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ ﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾.

٥- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ الطُّغيانُ: شِدَّةُ العِصيانِ والظُّلمِ، ومعْنى طُغيانِهم في البِلادِ أنَّ كلَّ أُمَّةٍ مِن هؤلاء طَغَوا في بَلَدِهم[٥]، ولَمَّا كان بَلَدُهم مِن جُملةِ البلادِ -أي: أراضي الأقوامِ- كان طُغيانُهم في بَلَدِهم قد أوقَعَ الطُّغيانَ في البلادِ؛ لأنَّ فَسادَ البعضِ آيلٌ إلى فَسادِ الجَميعِ بسَنِّ سَننِ السُّوءِ، ولذلك تَسبَّبَ عليه مِن قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ قولُه: ﴿فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ﴾؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٣٨٧)، ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٣٩٦).

(٣) أخرجه البخاريُّ (٢١٠٥)، ومسلمٌ (٢١٠٧) من حديث عائشةَ رضيَ الله عنها.

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩١).

(٥) وقال ابن جرير: (وقولُه: ﴿فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ الَّتي كانوا فيها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٣).

الطُّغيانَ يُجرِّئُ صاحبَه على دَحْضِ حُقوقِ النَّاسِ، فهو مِن جِهةٍ يكونُ قُدوةَ سُوءٍ لأمثالِه ومَلَئِه، فكلُّ واحدٍ منهم يَطْغى على مَن هو دونَه، وذلك فَسادٌ عَظيمٌ؛ لأنَّ به اختلالَ الشَّرائعِ الإلهيَّةِ والقَوانينِ الوَضعيَّةِ الصَّالحةِ، وهو مِن جِهةٍ أُخرى يُثيرُ الحَفائظَ والضَّغائنَ في المَطغيِّ عليه مِن الرَّعيَّةِ، فيُضمِرون السُّوءَ للطَّاغينَ، وتَنْطوي نُفوسُهم على كَراهيةِ وُلاةِ الأُمورِ وتَربُّصِ الدَّوائرِ بهم، فيَكونون لهم أعداءً غيرَ مُخلِصي الضَّمائرِ، ويكونُ رِجالُ الدَّولةِ مُتوجِّسينَ منهم خِيفةً، فيَظنُّون بهم السُّوءَ في كلِّ حالٍ ويَحذَرونهم، فتَتوزَّعُ قُوَّةُ الأُمَّةِ على أفرادِها عِوَضَ أنْ تتَّحِدَ على أعدائِها، فتُصبِحُ للأُمَّةِ أعداءٌ في الخارجِ وأعداءٌ في الدَّاخلِ، وذلك يُفْضي إلى فَسادٍ عَظيمٍ؛ فلا جَرَمَ كان الطُّغيانُ سَببًا لكَثرةِ الفسادِ[1].

٦- قال تعالى: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ وذِكرُ السَّوطِ إشارةٌ إلى أنَّ ما أحلَّه بهم في الدُّنيا مِن العَذابِ العظيمِ بالقِياسِ إلى ما أعَدَّ لهم في الآخرةِ كالسَّوطِ إذا قِيسَ إلى سائرِ ما يُعذَّبُ به؛ لأنَّه يَقْتضي مِن التَّكرارِ والتَّردادِ ما لا يَقْتضيهِ السَّيفُ ولا غيرُه[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ * وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ * وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾

- القَسَمُ بهذهِ الأزمانِ مِن حيثُ إنَّ بَعضَها دَلائلُ بَديعِ صُنْعِ اللهِ وسَعةِ قُدرتِه فيما أوجَدَ مِن نِظامٍ يُظاهِرُ بَعضُه بَعضًا؛ مِن ذلك وقْتُ الفجرِ الجامعِ بيْن انتهاءِ ظُلمةِ اللَّيلِ وابتداءِ نُورِ النَّهارِ، ووَقتُ اللَّيلِ الَّذي تَمحَّضَت فيه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧١).

الظُّلمةُ، وهي مع ذلك أوقاتٌ لأفعالٍ مِن البرِّ وعِبادةِ اللهِ وحْدَه، مِثل اللَّيالي العَشْرِ، واللَّيالي الشَّفعِ، واللَّيالي الوتْرِ، والمَقصودُ مِن هذا القسَمِ تَحقيقُ المُقسَمِ عليه؛ لأنَّ القسَمَ في الكلامِ مِن طُرقِ تَأكيدِ الخبَرِ؛ إذِ القسَمُ إشهادُ المُقسِمِ ربَّه على ما تَضمَّنه كَلامُه، وقسَمُ اللهِ تعالَى مُتمحِّضٌ لقصْدِ التَّأكيدِ، والكلامُ مُوَجَّهٌ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦]، وقولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]؛ ولذلك فالقَسَمُ تَعريضٌ بتَحقيقِ حُصولِ المُقسَمِ عليه بالنِّسبةِ للمُنكِرين. وأيضًا المَقصدُ مِن تَطويلِ القسَمِ بأشْياءَ: التَّشويقُ إلى المُقسَمِ عليه[1].

- والتَّعريفُ في (الْفَجْرِ) تَعريفُ الجِنسِ، وهو الأظهرُ؛ لمُناسَبةِ عطْفِ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾. ويَجوزُ أنْ يُرادَ فجْرٌ مُعيَّنٌ؛ فقيل: أُريدَ وقْتُ صَلاةِ الصُّبحِ مِن كلِّ يومٍ، وقيل: فجْرُ يومِ النَّحرِ، وهو الفجرُ الَّذي يكونُ فيه الحَجيجُ بالمُزدلفةِ، فيَكونُ تَعريفُ (الْفَجْرِ) تَعريفَ العهْدِ[2].

- قولُه: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ جاءتْ (ليالٍ) مُنكَّرةً مِن بيْن ما أُقسِمَ به؛ لأنَّها لَيالٍ مَخصوصةٌ مِن بيْن جِنسِ اللَّيالي، العَشرُ بَعضٌ منها، فالتَّنكيرُ للتَّقليلِ. أو مَخصوصةٌ بفَضيلةٍ ليست لغَيرِها، فالتَّنكيرُ للتَّفخيمِ والتَّهويلِ. ولم تُعرَّفْ بلامِ العهْدِ، مع أنَّها ليالٍ مَعلومةٌ مَعهودةٌ؛ لأنَّ اللَّياليَ لو عُرِّفَت احتاجَتْ -لِما يُرادُ مِن اختصاصِها بالفضيلةِ- إلى مَزيدِ انضمامِ قَرينةٍ خارجيَّةٍ، بخِلافِ التَّنكيرِ؛ فإنَّ دَلالتَه على الفَضيلةِ بنفْسِه؛ لأنَّه مَوضوعٌ له مُستقلٌّ به، ولأنَّها لو عُرِّفَت لم تَتميَّزْ عن المَذكوراتِ فيما قُصِدَ منها، وانخَرَطَت في

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٦٩، ٤٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

سِلْكِها، ولو خُصِّصت منها بشَيءٍ مِن غيرِ تَغييرٍ لدَخَلَ في حدِّ اللُّغزِ[١].

- وقيل: عرَّف الفَجرَ باللَّام؛ إذْ كلُّ أحدٍ يَعرِفُه، ونكَّر اللَّياليَ العَشرَ؛ لأنَّها إنَّما تُعرَفُ بالعِلم، وفي تَعريفِ الفَجرِ ما يدُلُّ على شُهرتِه، وأنَّه الفَجرُ الَّذي يَعرِفُه كلُّ أحدٍ ولا يَجهَلُه[٢].

- قولُه: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هي لَيالٍ مَعلومةٌ للسَّامعينَ، مَوصوفةٌ بأنَّها عَشْرٌ، واستُغنِيَ عن تَعريفِها بتَوصيفِها بعشْرٍ، وإذ قد وُصِفَت بهذا العدَدِ تعيَّن أنَّها عشْرٌ مُتتابِعةٌ[٣].

- ومُناسَبةُ عطْفِ (لَيَالٍ عَشْرٍ) على (الْفَجْرِ): أنَّ الفجْرَ وقْتُ انتهاءِ اللَّيلِ، فبيْنَه وبيْنَ اللَّيلِ جامعُ المُضادَّةِ، واللَّيلُ مَظهَرٌ مِن مَظاهرِ القُدرةِ الإلهيَّةِ، فلمَّا أُريدَ عطْفُه على الفجْرِ بقولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾، خُصَّت قبْلَ ذِكرِه بالذِّكرِ ليالٍ مُبارَكةٌ؛ إذ هي مِن أفرادِ اللَّيلِ[٤].

- قولُه: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ الشَّفعُ: ما يكونُ ثانيًا لغَيرِه، والوتْرُ: الشَّيءُ المُفرَدُ، قيل: الوِترُ يومُ عَرَفةَ والشَّفعُ يومُ النَّحرِ، وهما صِفتانِ لمَحذوفٍ -أي: اليوم؛ ذلك لأنَّ يومَ النَّحرِ عاشِرُ ذي الحَجَّةِ. ومُناسَبةُ الابتداءِ بالشَّفعِ أنَّه اليومُ العاشِرُ، فناسَبَ قولَه: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾، وعلى هذا التَّفسيرِ فذِكرُ الشَّفعِ والوتْرِ تَخصيصٌ لهذينِ اليومَينِ بالذِّكرِ للاهتِمامِ، بعْدَ شُمولِ اللَّيالي العشْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٧، ٤١٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٠).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٣).

لهما[١].

- قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ عطْفٌ على ﴿وَلَيَالٍ عَشۡرٍ﴾ عطْفَ الأعمِّ على الأخصِّ، أو عطْفٌ على (الفَجْرِ) بجامِعِ التَّضادِّ. وأُقسِمَ به؛ لِما أنَّه مَظهَرٌ مِن مَظاهرِ قُدرةِ اللهِ وبَديعِ حِكمتِه[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾[٣]، أي: إذا يَمْضي، كقولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، والتَّقييدُ بذلك؛ لِما في التَّعاقُبِ مِن وُضوحِ الدَّلالةِ وقوَّتِها على كَمالِ القُدرةِ ووُفورِ النِّعمةِ؛ فالتَّقييدُ تَتميمٌ لمَعنى القُدرةِ أو النِّعمةِ[٤]؛ فمعْنى (يَسْري): يَمْضي سائرًا في الظَّلامِ، أي: إذا انْقَضى منه جُزءٌ كَثيرٌ، شُبِّهَ تقَضِّي اللَّيلِ في ظَلامِه بسَيرِ السَّائرِ في الظَّلامِ، وهو السُّرَى، كما شُبِّهَ في قولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ [المدثر: ٣٣]، وقال: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ٢]، أي: تَمكَّنَ ظَلامُه واشتَدَّ. وتَقييدُ اللَّيلِ بظَرْفِ ﴿إِذَا يَسۡرِ﴾؛ لأنَّه وقْتُ تَمكُّنِ ظُلمةِ اللَّيلِ، فحِينَئذٍ يكونُ النَّاسُ أخَذوا حَظَّهم مِن النَّومِ فاسْتَطاعوا التَّهجُّدَ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ﴾ جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن القسَمِ وما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣١٥).

(٣) قَولُه ﴿يَسۡرِ﴾ قُرِئَت بإثباتِ الياءِ وحَذْفِها؛ لأنَّها فاصِلةٌ، والفواصِلُ يجوزُ حَذْفُ الياءاتِ منها، وتدُلُّ عليها الكَسَراتُ. والعَرَبُ قد تحذِفُ الياءَ، وتكتفي بكَسْرِ ما قَبْلَها. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٧٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٢/ ١٢٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٤٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٥).

بعْدَه مِن جَوابِه، أو دَليلُ جَوابِه[١].

- والاستِفهامُ ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ تَحقيقٌ وتَقريرٌ لفَخامةِ شَأنِ المُقسَمِ بها، وكَونِها أُمورًا جَليلةً حَقيقةً بالإعظامِ والإجلالِ عندَ أربابِ العُقولِ، وتَنبيهٌ على أنَّ الإقسامَ بها أمْرٌ مُعتَدٌّ به، خَليقٌ بأنْ يؤَكَّدَ بهِ الإخبارُ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿قَسَمٌ﴾ للتَّعظيمِ، أي: قسَمٌ كافٍ ومُقنِعٌ للمُقسَمِ له إذا كان عاقلًا أنْ يَتدبَّرَ بعَقْلِه؛ فالمعْنى: هلْ في ذلك تَحقيقٌ لِما أُقسِمَ عليه للسَّامعِ المَوصوفِ بأنَّه صاحبُ حِجرٍ[٣]؟

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لِّذِي حِجْرٍ﴾ لامُ التَّعليلِ، أي: قسَمٌ لأجْلِ ذي عقْلٍ يَمنَعُه مِن المُكابَرةِ، فيَعلَم أنَّ المقسِمَ بهذا القسَمِ صادقٌ فيما أقسَمَ عليه[٤].

- وما في اسْمِ الإشارةِ (ذلكَ) مِن معْنى البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتبةِ المُشارِ إليهِ، وبُعْدِ مَنزلتِه في الشَّرفِ والفضْلِ، أيْ: هلْ فيما ذُكِرَ مِن الأشياءِ قسَمٌ -أيْ: مُقسَمٌ بهِ- لِذِي حِجرٍ يَراهُ حقيقًا بأنْ يُقسَمَ بهِ إجلالًا وتَعظيمًا؟ والمرادُ تحقيقُ أنَّ الكلَّ كذلكَ، وإنَّما أُوثِرتْ هذه الطَّريقةُ هَضْمًا للخلْقِ، وإيذانًا بظُهورِ الأمرِ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٦).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣١٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٤).

ٱلْبِلَٰدِ﴾ وقَفَ المُخاطَبَ على مَصارعِ الأُمَمِ الكافرةِ الماضيةِ مَقصودًا بذلك تَوعُّدُ قُريشٍ، ونصْبُ المَثَلِ لها[١].

- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ إمَّا دَليلُ الجَوابِ؛ إذ يدُلُّ على أنَّ المقسَمَ عليه مِن جِنسِ ما فُعِلَ بهذه الأُمَمِ الثَّلاثِ، وهو الاستئصالُ الدَّالُّ عليه قولُه: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، فتَقديرُ الجَوابِ: لَيَصُبَّنَّ ربُّك على مُكذِّبيك سَوطَ عَذابٍ كما صبَّ على عادٍ وثَمودَ وفِرعونَ. وإمَّا تَمهيدٌ للجوابِ ومُقدِّمةٌ له، إنْ جُعِلَ الجوابُ قولَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾. وما بيْنه وبيْن الآياتِ السَّابقةِ اعتراضٌ جُعِلَ كمُقدِّمةٍ لجَوابِ القسَمِ، والمعْنى: إنَّ ربَّك لَبالمِرصادِ للمُكذِّبين، لا يَخْفى عليه أمْرُهم، فيَكون تَثبيتًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فالاستِفهامُ ﴿أَلَمْ تَرَ ...﴾ تَقريريٌّ، والمُخاطَبُ به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم تَثبيتًا له، ووَعْدًا بالنَّصرِ، وتَعريضًا للمُعانِدين بالإنذارِ بمِثلِه؛ فإنَّ ما فُعِلَ بهذه الأُمَمِ الثَّلاثِ مَوعظةٌ وإنذارٌ للقَومِ الذين فَعَلوا مِثلَ فِعلِهم مِن تَكذيبِ رُسلِ اللهِ، قُصِدَ منه تَقريبُ وُقوعِ ذلك وتَوقُّع حُلولِه؛ لأنَّ التَّذكيرَ بالنَّظائرِ واستحضارَ الأمثالِ يُقرِّبُ إلى الأذهانِ الأمرَ الغريبَ الوُقوعِ، فهذه العِبَرُ جُزئيَّاتٌ مِن مَضمونِ جَوابِ القسَمِ، فإنْ كان مَحذوفًا فذِكرُها دَليلُه، وإنْ كان الجوابُ قولَه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ كان تَقديمُها على الجوابِ زِيادةً في التَّشويقِ إلى تَلَقِّيه، وإيذانًا بجِنسِ الجوابِ مِن قَبْلِ ذِكرِه؛ ليَحصُلَ بعْدَ ذِكرِه مَزيدُ تَقرُّرِه في الأذهانِ[٢].

- والرُّؤيةُ في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ رُؤيةً عِلْميَّةً تَشبيهًا للعِلمِ اليَقينيِّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٧، ٣١٨).

بالرُّؤيةِ في الوُضوحِ والانكشافِ؛ لأنَّ أخبارَ هذه الأُمَمِ شائعةٌ مَضروبةٌ بها المَثَلُ، فكأنَّها مُشاهَدةٌ، فتَكونَ (كيف) استِفهامًا مُعلِّقًا فِعلَ الرُّؤيةِ عن العمَلِ في مَفعولَين. ويَجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بَصَريَّةً، والمعْنى: ألَمْ تَرَ آثارَ ما فَعَلَ ربُّك بعادٍ؟ وتكونَ (كيف) اسمًا مُجرَّدًا عن الاستفهامِ في مَحلِّ نصْبٍ على المَفعوليَّةِ لفِعلِ الرُّؤيةِ البَصَريَّةِ[١].

- وعُدِلَ عن اسمِ الجَلالةِ إلى التَّعريفِ بإضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِ المخاطَبِ في قولِه: ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾؛ لِما في وصْفِ (ربّ) مِن الإشعارِ بالولايةِ والتَّأييدِ، ولِما تُؤذِنُ به إضافتُه إلى ضَميرِ المُخاطَبِ مِن إعزازِه وتَشريفِه[٢].

- وقد ابتُدِئَت المَوعظةُ بذِكرِ عادٍ وثَمودَ؛ لشُهرتِهما بيْن المُخاطَبينَ، وذُكِرَ بعْدَهما قَومُ فِرعونَ؛ لشُهرةِ رِسالةِ مُوسى عليه السَّلامُ إلى فِرعونَ بيْن أهلِ الكتابِ ببِلادِ العرَبِ وهم يُحدِّثون العرَبَ عنها[٣].

- وقولُه: ﴿إِرَمَ﴾ عطْفُ بَيانٍ لـ (عَادٍ) على تَقديرِ مُضافٍ، أي: سِبْطِ إِرَمَ، أو أهْلِ إِرَمَ؛ للإشارةِ إلى أنَّ المُرادَ بـ(عادٍ) القَبيلةُ الَّتي جَدُّها الأدْنى هو عادُ ابنُ عَوصِ بنِ إرَمَ -وذلك على قولٍ-، وهم عادٌ الموصوفةُ بالأُولى في قولِه تعالَى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠]؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ المُتحدَّثَ عنهم قَبيلةٌ أُخرى تُسمَّى عادًا أيضًا، كانت تَنزِلُ مكَّةَ مع العَماليقِ، يُقال: إنَّهم بَقيَّةٌ مِن عادٍ الأُولى، فعادٌ وإرَمُ اسمانِ لقَبيلةِ عادٍ الأُولى[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٠٩)، ((تفسير أبي =

- والعِمادُ: عُودٌ غَليظٌ طَويلٌ يُقامُ عليه البيتُ يُركَزُ في الأرضِ تُقامُ عليه أثوابُ الخَيمةِ أو القُبَّةِ، ويُسمَّى دِعامةً، وهو هنا مُعبَّرٌ به عن القوَّةِ؛ تَشبيهًا للقَبيلةِ القوِّيةِ بالبيتِ ذي العِمادِ، فوُصِفَت عادٌ بـ ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾؛ لقُوَّتِها وشِدَّتِها، أي: قدْ أهلَكَ اللهُ قومًا هم أشدُّ مِن القومِ الَّذين كذَّبوك[1]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

- ولامُ التَّعريفِ في ﴿ٱلۡبِلَٰدِ﴾ قيل: إنَّها للاستغراقِ العُرفيِّ، أي: في بلدانِ العرَبِ وقَبائلِهم[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾

- مُنِعَ (ثَمود) مِن الصَّرفِ؛ لأنَّ المُرادَ به الأُمَّةُ المَعروفةُ، ووُصِفَ باسمِ الموصولِ لجمْعِ المذكَّرِ في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ﴾ دونَ أنْ يقولَ: الَّتي جابَتِ الصَّخرَ، بتَأويلِ القومِ، فلمَّا وَصَفَ عَدَلَ عن تَأنيثِه؛ تَفنُّنًا في الأسلوبِ[3].

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾

- قولُه: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ التَّعبيرُ عن إنزالِ العَذابِ بالصَّبِّ؛ للإيذانِ بكَثرتِه واستِمرارِه وتَتابُعِه؛ فإنَّه عبارةٌ عن إراقةِ شَيءٍ مائعٍ أو جارٍ مَجراهُ في السَّيلانِ، كالرَّملِ والحُبوبِ، وإفراغِه بشِدَّةٍ وكَثرةٍ واستمرارٍ[4].

---

= السعود)) (٩/ ١٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣١٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٢).

- وإضافةُ ﴿سَوْطَ﴾ إلى ﴿عَذَابٍ﴾ قيل: هي مِن إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: صَبَّ عليهم عَذابًا سَوطًا، أي: كالسَّوطِ في سُرعةِ الإصابةِ، فهو تَشبيهٌ بَليغٌ(١).

- وقدْ ذَكَرَ تعالى -هاهنا- قِصَّةَ ثلاثِ فِرَقٍ مِن الكُفَّارِ المتقدِّمين -وهي: عادٌ، وثمودُ، وقومُ فِرعونَ- على سَبيلِ الإجمالِ، حيثُ قال: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ولم يُبيِّنْ كَيفيَّةَ ذلك العذابِ، وذَكَرَ في سُورةِ (الحاقَّةِ) بَيانَ ما أُبهِمَ في هذه السُّورةِ، فقال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ * وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ إلى قولِه: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ [الحاقة: ١ - ٩] الآيةَ(٢). وكلٌّ مُناسِبٌ في مَوضعِه.

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ تَذييلٌ وتَعليلٌ لإصابتِهم بسَوطِ عَذابٍ إذا قُدِّرَ جَوابُ القسَمِ مَحذوفًا، ويجوزُ أنْ تكونَ جَوابَ القسَمِ، فعلى كونِ الجُملةِ تَذييلًا تكونُ تَعليلًا لجُملةِ ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾؛ تَثبيتًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ يَنصُرُ رُسلَه، وتَصريحًا للمُعاندينَ بما عرَّضَ لهم به مِن تَوقُّعِ مُعامَلتِه إيَّاهم بمِثلِ ما عامَلَ به المُكذِّبين الأوَّلينَ، كما يُنْبِئُ عنه التَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، أي: إنَّ اللهَ بالمِرصادِ لكلِّ طاغٍ مُفسِدٍ، وعلى كَونِها جَوابَ القسَمِ تكونُ كِنايةً عن تَسليطِ العَذابِ على المشْركين؛ إذ لا يُرادُ مِن الرَّصدِ إلَّا دفْعُ المُعتدي مِن عدُوٍّ ونحْوِه، وهو المقسَمُ عليه، وما قبْلَه اعتراضًا تَفنُّنًا في نظْمِ الكلامِ؛ إذ قُدِّمَ على المقصودِ بالقسَمِ ما هو استدلالٌ عليه وتَنظيرٌ بما سبَقَ مِن عِقابِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٢).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٢).

أمثالِهم مِن الأُمَم مِن قَولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ إلخ، وهو أُسلوبٌ مِن أساليبِ الخَطابةِ؛ إذ يُجعَلُ البَيانُ والتَّنظيرُ بمَنزلةِ المُقدِّمةِ، ويُجعَلُ الغرَضُ المَقصودُ بمَنزلةِ النَّتيجةِ والعِلَّةِ إذا كان الكلامُ صالحًا للاعتبارَينِ، مع قصْدِ الاهتمامِ بالمُقدَّمِ والمُبادَرةِ به[١].

- والعُدولُ عن ضَميرِ المُتكلِّمِ أو اسمِ الجَلالةِ إلى (ربك) في قولِه: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾، وقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾: إيماءٌ إلى أنَّ فاعلَ ذلك ربُّه الَّذي شأْنُه أنْ يَنتصِرَ له؛ فهو مُؤمِّلٌ بأنْ يُعذِّبَ الَّذين كذَّبوه انتصارًا له انتصارَ المَولى لوَليِّه[٢].

- وتَعريفُ (المِرْصاد) تَعريفُ الجِنسِ، وهو يُفيدُ عُمومَ المُتعلَّقِ، أي: بالمِرصادِ لكلِّ فاعلٍ[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ كِنايةٌ عن مُجازاةِ كلِّ عاملٍ بما عَمِلَه وما يَعمَلُه؛ إذ لا يُقصَدُ الرَّصْدُ إلَّا للجَزاءِ على العُدوانِ، وفيما يُفيدُه مِن التَّعليلِ إيماءٌ إلى أنَّ اللهَ لم يَظلِمْهم فيما أصابَهُم به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

## الآيات (١٥-٢٠)

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَقَدَرَ﴾: أي: ضيَّق، فلم يُكْثِرْ مالَه، ولم يُوَسِّعْ عليه، يقال: قَدَرْتُ عليه الشَّيءَ: ضيَّقْتُه، كأنَّما جعَلْته بقَدرٍ، وقُدِر عليه الرِّزقُ، أي: أُعْطِيَ ذلك بقَدْرٍ يَسيرٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه[1].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ﴾: أي: لا يَحُضُّ بعضُكم بعضًا، وأصْلُه: تَتَحاضُّونَ، فحَذَف إحدَى التَّاءيْنِ، وأصلُ (حضض) هنا: البَعْثُ على الشَّيءِ[2].

﴿ٱلتُّرَاثَ﴾: أي: الميراثَ، وهو: أن يكونَ الشَّيءُ لقَومٍ ثمَّ يَصيرَ إلى آخَرينَ بنَسَبٍ أو سَبَبٍ[3].

﴿لَّمًّا﴾: أي: مجتَمِعًا شَديدًا، وهو أن يأكُلَ نَصيبَه ونَصيبَ غَيرِه، واللَّمُّ:

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٥٠٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٩).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٦٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

الجَمعُ الشَّديدُ، مِن قولِكَ: لَمَمتُ الطَّعامُ لَمًّا: إذا أكَلْتَه جَميعًا. والآكلُ اللَّمُّ: الَّذي يأكُلُ كُلَّ شَيءٍ يَجِدُه، لا يَسألُ عنه: أحلالٌ هو أمْ حرامٌ، ويأكُلُ الَّذي له ولغَيرِه، وأصلُ (لمم): يدُلُّ على اجْتِماعٍ ومُقارَبةٍ ومُضامَّةٍ(١).

﴿جَمًّا﴾: أي: كثيرًا، وأصلُ (جمم): يدُلُّ على كَثرةِ الشَّيءِ واجتِماعِه(٢).

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا حالَ الإنسانِ عندَ اليُسرِ والعُسرِ، والغِنى والفَقرِ: فأمَّا الإنسانُ إذا اختبَرَه رَبُّه بالغِنى، فأكرَمَه بسَعةِ الرِّزقِ، وجعَلَه مُنعَّمًا مُترَفًا؛ فيقولُ جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أكرَمَني بذلك! وأمَّا إذا اختبَرَ اللهُ الإنسانَ بالفَقْرِ، فضَيَّقَ عليه رِزْقَه؛ فيَقولُ مُتضَجِّرًا جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أذَلَّني بذلك!

ثمَّ يقولُ سُبحانَه ردًّا على قولِ الإنسانِ في هذينِ الحالَينِ، ومبيِّنًا ما هو أشنَعُ منه: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّ إغناءَه إكرامٌ له مِنَ اللهِ، وإفقارَه إهانةٌ من اللهِ، بل لا تُكرِمونَ -أيُّها النَّاسُ- اليتيمَ؛ فتُحسِنوا إليه، ولا يَحُثُّ بَعضُكم بعضًا على إطعامِ المِسكينِ، وتأكُلونَ الميراثَ أكلًا شديدًا، فتأخُذونَ منه نصيبَ غَيرِكم مِنَ النِّساءِ والصِّغارِ، وتُحِبُّونَ المالَ حُبًّا كثيرًا مُفرِطًا!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥﴾.

---

(١) يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٩٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤١٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٧).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذكر سُبحانَه أنَّ عادةَ هؤلاء الفِرَقِ كانت الطُّغيانَ، وذكَرَ أنَّ عادةَ الرَّبِّ سُبحانَه فيمَن تولَّى وكَفَر أنَّه يُعَذِّبُه -كما هدَّد به آخِرَ السُّورةِ السَّابقةِ-، ودَلَّ على ذلك بما شُوهِدَ في الأُمَمِ، وعَلَّل ذلك بأنَّه لا يَغفُلُ؛ ذَكَر عادةَ الإنسانِ مِن حيثُ هو مِن غيرِ تَقييدٍ بهؤلاء الفِرَقِ عِندَ الابتلاءِ في حالَيِ السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ؛ فقال مُشيرًا إلى جوابِ ما كانت الكُفَّارُ تَقولُه مِن أنَّهم آثَرُ عِندَ اللهِ مِنَ المُسلِمينَ؛ فلا يُساعِدُ عليهم في الدُّنيا، وكذا تَقَلُّلُ الصَّحابةِ رَضِيَ اللهُ عنهم مِنَ الدُّنْيا[1]:

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥﴾.

أي: فأمَّا الإنسانُ إذا اختبَرَه رَبُّه بالغِنى، فأكرَمَه بسَعةِ الرِّزقِ، وجعَلَه مُنعَّمًا مُترَفًا؛ فيقولُ جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أكرَمَني بذلك؛ ظنًّا منه أنَّ إكرامَ اللهِ في الدُّنيا وإنعامَه عليه دليلٌ على كرامتِه عِندَه[2]!

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٦).

قال ابنُ عطيَّة: (ذَكَر اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما كانت قُرَيشٌ تقولُه تَستَدِلُّ به على إكرامِ اللهِ تعالى وإهانتِه لعَبدِه؛ وذلك أنَّهم كانوا يَرونَ أنَّ مَن عندَه الغِنى والثَّروةُ والأولادُ فهو المُكرَمُ، وبضِدِّه المُهانُ، ومِن حيثُ كان هذا المقطَعُ غالبًا على كثيرينَ مِنَ الكُفَّارِ جاء التَّوبيخُ في هذه الآيةِ لاسمِ الجِنسِ؛ إذ يقَعُ بعضُ المؤمِنينَ في شَيءٍ مِن هذا المَنزَعِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٩).

وقال السعدي: (يخبِرُ تعالى عن طبيعةِ الإنسانِ مِن حيثُ هو، وأنَّه جاهِلٌ ظالمٌ، لا عِلْمَ له بالعواقِبِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

وقال ابنُ القَيِّم: (فالإنسانُ مِن حيثُ هو عارٍ عن كُلِّ خَيرٍ مِنَ العِلمِ النَّافِعِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وإنَّما اللهُ سُبحانَه هو الَّذي يُكمِلُه بذلك ويُعْطيه إيَّاه، وليس له ذلك مِن نَفْسِه، بل ليس له مِن نَفْسِه إلَّا الجَهْلُ المُضادُّ للعِلْمِ، والظُّلْمُ المُضادُّ للعَدْلِ، وكُلُّ عِلمٍ وعَدْلٍ وخَيرٍ فيه فمِن رَبِّه لا مِن نَفْسِه). =

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾.

أي: وأمَّا إذا اختبَرَ اللهُ الإنسانَ بالفَقْرِ، فضَيَّقَ عليه رِزْقَه؛ فيَقولُ مُتضَجِّرًا جاهِلًا بأنَّ اللهَ يمتَحِنُه: رَبِّي أذَلَّني بذلك[1]!

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حكى تعالى مِن أقوالِهم تلك الشُّبهةَ، فكأنَّه قال: بل لهم فِعلٌ هو شَرٌّ مِن هذا القَولِ، وهو أنَّ اللهَ تعالى يُكرِمُهم بكثرةِ المالِ، فلا يُؤَدُّونَ ما يَلزَمُهم فيه مِن إكرامِ اليتيمِ[2]!

﴿كَلَّا﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ الإنسانُ أنَّ إغناءَه إكرامٌ له مِنَ اللهِ، وإفقارَه إهانةٌ؛ فاللهُ يُغْني من يَشاءُ ولو كان كافِرًا، ويُفقِرُ مَن يشاءُ ولو كان مُؤمِنًا؛ ابتِلاءً منه لعبادِه بالغِنى والفَقْرِ بمُقتَضى حِكمتِه فيهم، وهو إنَّما يُكرِمُ بطاعتِه، ويُهينُ بمَعصيتِه[3].

---

= ((عدة الصابرين)) (ص: ١٩٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣، ٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٧).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣) و(٢٢/ ٤٤٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ١٠١)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ١٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٧).

قال ابن تيميَّةَ: (بل قد يُوسِّعُ عليه رِزْقَه إملاءً واستِدراجًا، وقد يَقْدِرُ عليه رِزْقَه حمايةً وصِيانةً له، وضِيقُ الرِّزقِ على عَبدٍ مِن أهلِ الدِّينِ قد يكونُ لِما له مِن ذُنوبٍ وخطايا). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٣). =

كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾.

أي: أنتم -أيُّها النَّاسُ- مَن تَستهينونَ بأمرِ اللهِ فتَعصُونَه، فلا تُكرِمونَ اليتيمَ الَّذي فقَدَ أباه دونَ سِنِّ البُلوغِ؛ فتَسُدُّوا حاجتَه، وتُحسِنوا إليه ولا تَظلِموه شيئًا[1].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الماعون: ٢].

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾﴾.

أي: ولا يَحُثُّ بَعضُكم بعضًا على إطعامِ المِسكينِ[2].

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

---

= وقال ابن القيِّم: (أي: ليس الأمرُ كما يقولُ الإنسانُ، بل قد أَبتلي بنعمتي، وأُنعِمُ ببَلائي!). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٦٠). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٤).

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).

وقال سُبحانَه: ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون: ٣].

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا دَلَّ على حُبِّ الدُّنيا بأمرٍ خارجيٍّ؛ دَلَّ عليه بأمرٍ في الإنسانِ؛ فقال تعالى[1]:

﴿ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ ﴾.

أي: وتأكُلونَ الميراثَ أكلًا شديدًا لا تَترُكونَ منه شَيئًا، فتأخُذونَ منه نصيبَ غَيرِكم مِنَ النِّساءِ والصِّغارِ[2]!

﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾.

أي: وتُحِبُّونَ المالَ حُبًّا كثيرًا مُفرِطًا، فتَحرِصونَ على جَمْعِه واقتنائِه، فلا تُنفِقونَه في الخَيرِ[3].

كما قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ [القيامة: ٢٠، ٢١].

وقال تعالى: ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٤).

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۞ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ [الهمزة: ٢، ٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

## الفَوائدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ أنَّ المتنعِّمَ لا ينبغي أن يَغفُلَ عن العاقبةِ؛ فالأمورُ بخواتيمِها، والفقيرُ والمحتاجُ لا ينبغي أن يَغفُلَ عمَّا لله عليه مِن النِّعَمِ الَّتي لا حَدَّ لها؛ مِن سلامةِ البَدَنِ والعَقلِ والدِّينِ، ودَفعِ الآفاتِ والآلامِ الَّتي لا حَدَّ لها ولا حَصْرَ؛ فلا ينبغي أن يقضيَ على نَفْسِه بالإهانةِ مُطلقًا[(١)]!

٢- قولُه تعالى: ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ذمٌّ لِمَن يَقولُ: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾؛ لأنَّه يقولُ ذلك مُفتخِرًا به على غيرِه، ومُستدِلًّا به على عُلوِّ مَنزلتِه في الآخرةِ، ومُعتقِدًا استحقاقَ ذلك على ربِّه، وأمَّا إذا قاله على وَجْهِ الشُّكرِ، والتَّحدُّثِ بنِعمةِ اللهِ تعالى، فليس بمَذمومٍ، بلْ مَمدوحٌ[(٢)].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يَتَبَصَّرَ، فيَقولَ مثلًا: لماذا أعطاني اللهُ المالَ؟ ماذا يريدُ منِّي؟ يريدُ منِّي أنْ أشكرَ، لماذا ابتلاني اللهُ بالفقرِ، بالمرضِ وما أَشْبَهَ ذلك؟ يريدُ منِّي أنْ أصبرَ. فلْيَكُنْ مُحاسِبًا لنَفْسِه؛ حتَّى لا يكونَ مِثْلَ حالِ الإنسانِ المبنيَّةِ على الجَهلِ والظُّلمِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ يعني: لم يُعْطِك ما أعطاك إكرامًا لك لأنَّك مُستَحِقٌّ، ولكنَّه تَفَضُّلٌ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١١).

منه، ولم يُهِنْك حينَ قَدَرَ عليك رِزْقَه، بل هذا مُقتَضى حِكمتِه وعَدْلِه[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ أنَّ لشأنِ اللهِ في مُعامَلتِه النَّاسَ في هذا العالَم أسرارًا وعِلَلًا لا يُحاطُ بها، وأنَّ أهلَ الجَهالةِ بمَعزِلٍ عن إدراكِ سِرِّها بأقيسةٍ وَهميَّةٍ، والاستنادِ لمألوفاتٍ عاديَّةٍ، وأنَّ الأَولى لهم أن يتطَلَّبوا الحقائقَ مِن دلائِلِها العَقليَّةِ، وأن يَعرِفوا مرادَ اللهِ مِن وَحيِه إلى رُسُلِه، وأن يَحذَروا مِن أن يَحيدوا بالأدِلَّةِ عن مَدلولِها، وأن يَستَنتِجوا الفُروعَ مِن غيرِ أُصولِها، وأمَّا أهلُ العِلمِ فهم يَضعونَ الأشياءَ مَواضِعَها، ويتوسَّمونَ التَّوسُّمَ المستَنِدَ إلى الهَدْيِ، ولا يَخلِطونَ ولا يَخبِطونَ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ * وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ تعليمٌ ألَّا نَنظُرَ إلى ظواهِرِ الأُمورِ دونَ بَواطِنِها، وإلى الجُسْمانيَّاتِ الحِسِّيَّةِ دونَ ما وراءَها مِن مَعانٍ عَقليَّةٍ، بل نَعبُرُ مِنَ الظَّواهِرِ إلى البواطِنِ، وننظُرُ مِنَ المحسوسِ إلى المعقولِ، ونجعَلُ حواسَّنا خادِمةً لعُقولِنا، ونجعَلُ عُقولَنا هي المتصَرِّفةَ الحاكِمةَ بالنَّظَرِ والتَّفكيرِ، وكما في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، فلا يَنظُرُ إلى بَهرجةِ الكَثرةِ، ولكِنْ إلى حقيقةِ وحالةِ الشَّيءِ الكثيرِ، فيَعتَبِرُ بحَسَبِهما، وأنَّه لا يجوزُ أن نغتَرَّ بالمالِ والقُوَّةِ والجاهِ وأنواعِ النَّعيمِ إذا سِيقَت إلينا، فنَحسَبَ أنَّها هي نَفْسُ الكرامةِ الرَّبَّانيَّةِ الَّتي دُعِينا إلى العَمَلِ لنَيْلِها، بل إنَّما نَعُدُّها كذلك إذا كان معها التَّوفيقُ إلى شُكرِها بالقيامِ بحُقوقِها، وصَرْفِها في وُجوهِها، ولا نغتَرَّ بحالةِ الضِّيقِ والعُسْرِ والضَّعفِ، فنَحسَبَ أنَّها إهانةٌ مِنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣١).

اللهِ لصاحِبِها، بل علينا أن ننظُرَ إلى ما معها من صَبرٍ ورجاءٍ وبِرٍّ، أو ضَجَرٍ ويأسٍ وفُجورٍ، فنَعلَمَ حينَئذٍ أنَّها مع الأُولى للتَّمحيصِ والتَّثَبُّتِ، ومع الأخيرةِ للزَّجرِ والعِقابِ بعَدْلٍ وحِكمةٍ مِن أحكَمِ الحاكِمينَ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ لم يقُلْ: «فأهانَه» مَوضِعَ «قَدَرَ عليه»؛ تعليمًا للأدَبِ معه سُبحانَه وتعالى، وصَونًا لأهلِ اللهِ عن هذه العِبارةِ؛ لأنَّ أكثَرَهم مُضَيَّقٌ عليه في دُنياه، ولأنَّ تَرْكَ الإكرامِ لا يَنحَصِرُ في كونِه إهانةً(٢)!

٧- وُقوفُ هِمَّةِ العَبدِ عندَ مُرادِ نَفْسِه فقط: مِن ضَعفِ الهِمَّةِ؛ ولهذا لامَهم اللهُ على عدمِ اهتِمامِهم بأحوالِ الخَلْقِ المحتاجينَ، فقال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾(٣).

٨- في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي لنا أنْ نُكْرِمَ الأيتامَ، وأنْ يَحُضَّ بعضُنا بعضًا على إطعامِ المساكينِ؛ لأنَّهم في حاجةٍ، واللهُ تعالى في عَونِ العَبدِ ما كان العَبدُ في عَونِ أخيه(٤).

٩- في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۞ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أنَّ الفَقرَ والغِنى ابتِلاءٌ مِنَ اللهِ لعَبْدِه؛ فليس كلُّ مَن أعطاه ووسَّعَ عليه فقد أكرَمَه، ولا كُلُّ مَن ضَيَّق عليه وقَتَّرَ عليه الرِّزقَ فقد أهانه، والإكرامُ أن يُكرَمَ العَبدُ بطاعةِ اللهِ ومحبَّتِه ومَعرفتِه، والإهانةُ أن يَسلُبَه ذلك، ولا يَقَعُ التَّفاضُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ١٦٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٨).

بالغِنى والفَقْرِ، بل بالتَّقوى[١].

١٠- قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ فبَيَّن حقيقةَ فِتنةِ المالِ إيجابًا وسَلْبًا، جمعًا وبَذْلًا؛ فبدَأَ بأقبَحِ الوُجوهِ مِنَ الإمساكِ؛ مِن عَدَمِ إكرامِ اليَتيمِ مَهيضِ الجَناحِ، مَكسورِ الخاطِرِ، والتَّقاعُسِ عن إطعامِ المسكينِ خالي اليَدِ، جائعِ البَطنِ، ساكِنِ الحَرَكةِ، وهذان الجانِبانِ أهَمُّ مُهِمَّاتِ بَذْلِ المالِ، وهم يُمسِكونَ عنها! وقد بَيَّن تعالى أنَّ هذا الجانِبَ هو اقتِحامُ العَقَبةِ عند الشِّدَّةِ، في قَولِه تعالى في سُورةِ «البَلَدِ»: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١١ - ١٦].

ومِن الجانِبِ الآخَرِ: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: الميراثَ، فلا يُعطُونَ النِّسوةَ، وهنَّ ضعيفاتُ الشَّخصيَّةِ، أحوَجُ إلى مالِ مُورِّثِهنَّ، ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ حتَّى استعبَدَكم وألهاكم التكاثُرُ فيه.

وهنا لَفتُ نَظَرٍ للفَريقَينِ؛ فمَن أُعطِيَ منهم لا ينبغي له أن يُغفِلَ طُرُقَ البَذلِ الهامَّةَ، ومَن مُنِعَ لا ينبغي له أن يَستَشرِفَ إلى ما لا ينبغي له[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ ذَمُّ جَمعِ المالِ مِن غَيرِ حِلِّه[٣].

١٢- قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ هذا ذَمٌّ للحِرْصِ على المالِ وشِدَّةِ الرَّغبةِ فيه[٤].

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (٤/ ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٢٦).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه سبحانه وتعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ إلى قَولِه: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ سؤالٌ: كيف ذمَّ سُبحانَه مَن يقولُ: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ مع أنَّه صادِقٌ فيه؛ لِقَولِه تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾، ومع أنَّه متحَدِّثٌ بالنِّعمةِ، وهو مأمورٌ بالتحَدُّثِ بها؛ لِقَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]؟!

**الجوابُ مِن أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ المذموم هو أن يقولَ ذلك مفتَخِرًا، ومعتَقِدًا استِحقاقَه ذلك، كما في قَولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، أمَّا الممدوحُ فهو أن يقولَه على وَجهِ الشُّكرِ والتَّحَدُّثِ بنعمةِ اللهِ تعالى[١]، فلا تَنافيَ بيْن إثباتِ إكرامِ اللهِ تعالى الإنسانَ بقَولِه: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ وبيْن إبطالِ ذلك بقَولِه: ﴿كَلَّا﴾؛ لأنَّ الإبطالَ واردٌ على ما قَصَده الإنسانُ بقَولِه: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ أنَّ ما ناله مِن النِّعمةِ عَلامةٌ على رِضا اللهِ عنه[٢].

**الثَّاني**: أن ينساقَ الإنكارُ والذَّمُّ إلى قَولِه: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ يعني: أنَّه إذا تُفُضِّلَ عليه بالخَيرِ وأُكرِمَ به اعتَرَف بتفَضُّلِ اللهِ وإكرامِه، وإذا لم يُتفضَّلْ عليه سَمَّى تَرْكَ التَّفَضُّلِ هوانًا، وليس بهوانٍ[٣].

**الثَّالثُ**: أن اللَّفظَ الَّذي أَخْبَرَ اللهُ به وإن كان مِثْلَ اللَّفظِ الَّذي أنكَرَه اللهُ مِن كلامِ المبتلَى! لكنَّ المعنى مختلِفٌ؛ فإنَّ المبتلَى اعتقدَ أنَّ هذه كرامةٌ مطلَقةٌ،

---

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٠).

وهي النِّعمةُ الَّتي يَقْصِدُ بها أنَّ النِّعَمَ إكرامٌ له، والإنعامَ بنعمةٍ لا يكونُ سببًا لعَذابٍ أعظمَ منها، وليس الأمرُ كذلك، بلِ اللهُ تعالى ابتلاه بها ابتلاءً لِيتبيَّنَ أيُطيعُه فيها أم يَعصيه، مع عِلْمِه بما سيكونُ مِن الأمْرَين، لكِنَّ العلمَ بما سيكونُ شيءٌ، وكونُ الشَّيءِ والعِلمُ به شَيءٌ، وأمَّا قولُه تعالى: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ فإنَّه تكريمٌ بما فيه مِن اللَّذَّاتِ؛ ولهذا قَرَنَه بقَولِه: ﴿وَنَعَّمَهُۥ﴾؛ ولهذا كانت خوارقُ العاداتِ الَّتي تُسَمِّيها العامَّةُ كرامةً ليست عندَ أهلِ التَّحقيقِ كرامةً مطلقًا، بل في الحقيقةِ الكرامةُ هي لزومُ الاستقامةِ، وهي طاعةُ اللهِ، وإنَّما تلك الخوارِقُ هي ممَّا يَبتلي اللهُ به عبدَه، فإنْ أطاعَه بها رَفَعَه، وإنْ عصاه بها خَفَضَه، وإنْ كانت مِن آثارِ طاعةٍ أُخرى، كما قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٦، ١٧]، وإذا كان في النِّعمةِ والكرامةِ هذان الوَجهانِ فهي مِن بابِ الأمرِ والشَّرعِ نعمةٌ يجبُ الشُّكرُ عليها، وفي بابِ الحقيقةِ القَدَرِيَّةِ لم تكُنْ للفاجرِ إلَّا فِتنةً ومِحنةً استوجبَ بمَعصيةِ اللهِ فيها العَذابَ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ سُؤالٌ: كيف سَمَّى اللهُ تعالى بَسْطَ الرِّزقِ وتَقديرَه ابتِلاءً؟!

**الجوابُ**: لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهما اختبارٌ للعَبدِ؛ فإذا بَسَطَ له فقد اختبَرَ حالَه: أيَشكُرُ أم يَكفُرُ؟ وإذا قَدَر عليه فقد اختبَرَ حالَه: أيَصبِرُ أم يَجزَعُ؟ فالحِكمةُ فيهما واحِدةٌ، ونحوُه قَولُه تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾[2] [الأنبياء: ٣٥].

(١) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٥٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٥٦).

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ قال: «كَلَّا»، وهذا فيه زجرٌ وتنبيهٌ؛ زجرٌ عن مِثْلِ هذا القَولِ، وتنبيهٌ على ما يُخبَرُ به ويُؤمَرُ به بَعْدَه؛ وذلك أنَّه ليس كلُّ مَن حَصَلَ له نِعَمٌ دُنيويةٌ تُعَدُّ كرامةً يكونُ اللهُ عزَّ وجَلَّ مُكرِمًا له بها، ولا كلُّ مَن قُدِرَ عليه ذلك يكونُ مُهينًا له بذلك، بل هو سُبحانَه يَبتلي عبدَه بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ؛ فقد يُعْطي النِّعَمَ الدُّنيويَّةَ لِمَن لا يُحِبُّه ولا هو كَريمٌ عندَه؛ لِيَستدرِجَه بذلك، وقد يَحمي منها مَن يُحِبُّه ويُواليه؛ لئلَّا تَنْقُصَ بذلك مَرتبتُه عندَه، أو يَقَعَ بسَبَبِها فيما يَكرَهُه منه[1].

٤- قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ اعلَمْ أنَّ مِن ضَلالِ أهلِ الشِّركِ ومِن فِتنةِ الشَّيطانِ لبَعضِ جَهَلةِ المؤمِنينَ أن يُخَيِّلَ إليهم ما يحصُلُ لأحدٍ بجَعْلِ اللهِ مِن ارتباطِ المسَبَّباتِ بأسبابِها والمعلولاتِ بعِلَلِها، فيَضَعوا ما يصادِفُ نَفعَ أحَدِهم مِن الحوادِثِ مَوضِعَ كَرامةٍ مِنَ اللهِ للَّذي صادَفَتْه منافِعُ ذلك؛ تحكيمًا للشَّاهِدِ، ومحبَّةً للنَّفسِ، ورَجمًا بالغَيبِ، وافتياتًا على اللهِ، وإذا صادَفَ أحَدَهم مِن الحوادِثِ ما جَلَبَ له ضَرًّا تَخَيَّلَه بأوهامِه انتقامًا مِنَ اللهِ قَصَدَه به؛ تشاؤمًا منهم، فهؤلاء الَّذين زَعَموا ما نالهم مِن نِعمةِ اللهِ إكرامًا مِنَ اللهِ لهم: ليسوا أهلًا لكَرامةِ اللهِ، وهؤلاء الَّذين توَهَّموا ما صادَفهم مِن فُتورِ الرِّزقِ إهانةً مِنَ اللهِ لهم: ليسوا بأحَطَّ عندَ اللهِ مِن الَّذين زعَموا أنَّ اللهَ أكرَمَهم بما هم فيه مِن نِعمةٍ. فذلك الاعتقادُ أوجَبَ تَغلغُلَ أهلِ الشِّركِ في إشراكِهم، وصَرْفَ أنظارِهم عن التَّدَبُّرِ فيما يخالِفُ ذلك، ورُبَّما جَرَّت الوساوِسُ الشَّيطانيَّةُ فِتنةً مِن ذلك لبَعضِ ضُعَفاءِ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٣٠١).

الإيمانِ وقِصارِ الأنظارِ، والجُهَّالِ بالعَقيدةِ الحَقِّ[١].

٥- (أمَّا) كَلمةُ تَفصيلٍ، ولا يَجيءُ إلَّا مُتعدِّدًا، ومِن شَرطِ مَدخولِها التَّوازُنُ بيْن الفقرتينِ والتَّقابُلُ بيْنَهما؛ فإنْ كان بعْدَ الأُولى اسمًا، فالواجبُ بعْدَ الثَّانيةِ الاسمُ، نحْوُ قولِك: أمَّا الكافرُ فكَفورٌ، وأمَّا المؤمنُ فشَكورٌ، وإنْ كان شَرطًا فشَرطًا، نحْو قولِك: أمَّا إذا أحسَنتَ إلى زَيدٍ فهو مُحسِنٌ إليك، وأمَّا إذا أسَأْتَ إليه فهو مُسيءٌ إليك، وجاء هنا الاسمُ بعْدَ الأُولى ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، والشَّرطُ بعْدَ الثَّانيةِ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾، فلا تَوازُنَ بيْنَهما.

**والجوابُ عن هذا**: أنَّ الموازنةَ حاصلةٌ؛ لأنَّ (أمَّا) التَّفصيليَّةَ تَقْتضي أنْ يكونَ مَدخولُها مُبتدأً، وخبرُها مقيَّدًا بالفاءِ، و(إذا) هاهنا لَيست بشَرْطٍ، بلْ هي ظَرفٌ، و﴿فَيَقُولُ﴾ خبَرُ المبتدأِ، ودُخولُ الفاءِ لتَضمُّنِ (أمَّا) معْنى الشَّرطِ، فيُقدَّرُ في قولِه: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾ مُبتدأٌ، فتَقديرُ الكلامِ: وأمَّا هو إذا ما ابتَلاهُ ربُّه[٢].

٦- في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ أنَّ المسكينَ حَظُّه الإطعامُ ودَفْعُ حاجتِه، أمَّا اليتيمُ فالإكرامُ؛ فإنْ كان غنيًّا فإنَّه يُكرِمُه لِيُتْمِه، ولا يُطْعَمُ لِغَناه، وإنْ كان اليتيمُ فقيرًا فإنَّه يُكرَمُ لِيُتمِه ويُطعَمُ لفَقْرِه[٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ في إضافةِ الطَّعامِ إلى المسكينِ إشارةٌ إلى أنَّه شَريكٌ للغَنيِّ في مالِه بقَدْرِ الزَّكاةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٩، ٧٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٢٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٣).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٨٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٥).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾

- الفاءُ في ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ رابطةٌ بيْن الكلامَين، ومُؤذِنةٌ بالبَونِ بيْن الأمْرينِ المُتنافيَينِ؛ وذلك أنَّه تعالَى يَطلُبُ مِن العِبادِ الطَّاعةَ والعِبادةَ، وهو بالمِرصادِ كالمُترقِّبِ الَّذي لا يَفوتُه شَيءٌ مِن أعمالِ عِبادِه، فيُحاسِبُهم على النَّقيرِ والقِطميرِ ويُجازيهم عليها، والإنسانُ غافلٌ مُولَعٌ بالتَّلهِّي، ومُنغمِسٌ في أُمورِ العاجلةِ؛ إنْ أصابَه نَصيبٌ مِن الدُّنيا اطمَأنَّ إليه، وإنْ جاوَزَه حظٌّ منها ضَجِرَ وقَنِطَ[1]؛ فدلَّت الفاءُ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ على أنَّ الكلامَ الواقعَ بعْدَها مُتَّصلٌ بما قبْلَها ومُتفرِّعٌ عليه لا مَحالةَ؛ وذلك أنَّ الكلامَ السَّابقَ اشتَمَلَ على وصْفِ ما كانت تَتمتَّعُ به الأُمَمُ المُمثَّلُ بها ممَّا أنعَمَ اللهُ عليها به مِن النِّعَمِ، وهُمْ لاهُونَ عن دَعوةِ رُسلِ اللهِ، ومُعرِضون عن طلَبِ مَرضاةِ ربِّهم، مُقتحِمون المَناكرَ الَّتي نُهُوا عنها، بَطِرون بالنِّعمةِ، مُعجَبون بعَظَمتِهم، فعُقِّبَ ذِكرُ ما كانوا عليه وما جازاهُم اللهُ به عليه مِن عَذابٍ في الدُّنيا؛ باستخلاصِ العِبرةِ؛ ففاءُ التَّفريعُ مُرتبطةٌ بجُملةِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] بما فيها مِن العُمومِ الَّذي اقتضاهُ كَونُها تَذْييلًا، والمعْنى: هذا شأْنُ ربِّك الجاري على وَفْقِ عِلمِه وحِكمتِه، فأمَّا الإنسانُ الكافرُ فيَتوهَّمُ خِلافَ ذلك؛ إذ يَحسَبُ ما يَنالُه مِن نِعمةٍ وسَعةٍ في الدُّنيا تَكريمًا مِن اللهِ له، وما يَنالُه مِن ضِيقِ عَيشٍ إهانةً أهانَه اللهُ بها، وهذا التَّوهُّمُ يَستلزِمُ ظَنَّهم

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٤٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٤).

أفعالَ اللهِ تعالَى جاريةً على غيرِ حِكمةٍ، فأعْلَمَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم والمؤمنينَ بالحقيقةِ الحقِّ، ونبَّهَهم لتَجنُّبِ تَخليطِ الدَّلائلِ الدَّقيقةِ السَّاميةِ، وتَجنُّبِ تَحكيمِ الواهمةِ والشَّاهيةِ، وذكَّرَهم بأنَّ الأحوالَ الدُّنيويَّةَ أعراضٌ زائلةٌ ومُتفاوِتةُ الطُّولِ والقِصَرِ، وفي ذلك كلِّه إبطالٌ لمُعتقَدِ أهلِ الشِّركِ وضَلالِهم الَّذي كان غالبًا على أهْلِ الجاهليَّةِ(١).

- والمرادُ بالإنسانِ هنا الجِنسُ، وتَعريفُه تَعريفُ الجِنسِ، فيَستغرِقُ أفرادَ الجِنسِ، ولكنَّه استغراقٌ عُرْفيٌّ مُرادٌ به النَّاسُ المشرِكون؛ لأنَّهم الغالبُ على النَّاسِ المُتحدَّثِ عنهم؛ فلَمَّا كان هذا غالبًا على الكفَّارِ، جاء التَّوبيخُ في هذه الآيةِ باسمِ الجِنسِ؛ إذ يقَعُ بعضُ المؤمنينَ في شَيءٍ مِن هذا المَنزعِ! وقيل: أُريدَ إنسانٌ مُعيَّنٌ(٢).

- قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ خبرٌ للمُبتدأِ الَّذي هُوَ ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾، وجِيءَ بالفاءِ لِما في (أمَّا) مِن مَعْنى الشَّرطِ، والظَّرفُ المتوسِّطُ ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ على نِيَّةِ التَّأخيرِ، كأنَّه قيلَ: فأمَّا الإنسانُ فيَقولُ: ربِّي أكْرَمَنِ وَقتَ ابتلائِه بالإنعامِ، وإنَّما تَقديمُه للإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ الإكرامَ والتَّنعيمَ بطَريقِ الابتلاءِ؛ ليتَّضِحَ اختلالُ قولِه المَحكيِّ(٣).

- وحرْفُ (أمَّا) يُفيدُ تَفصيلًا في الغالبِ، أي: يدُلُّ على تَقابُلٍ بيْن شَيئينِ مِن ذَواتٍ وأحوالٍ؛ ولذلك قد تكرَّرَ في الكَلامِ -﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٤، ٣٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٧٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٦، ٣٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦).

رَبُّهُۥ ...﴾ ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ ...﴾-؛ فليس التَّفصيلُ المُستفادُ منها بمعْنى تَبيينِ مُجمَلٍ قبْلَها، بلْ هو تَفصيلٌ وتَقابُلٌ وتَوازُنٌ، وهو ضرْبٌ مِن ضُروبِ التَّفصيلِ الَّذي تَأتي له (أمَّا)، فارتباطُ التَّفصيلِ بالكلامِ السَّابقِ مُستفادٌ مِن الفاءِ الدَّاخلةِ على (أمَّا)، فالمُفصَّلُ هنا أحوالُ الإنسانِ الجاهلِ؛ فُصِّلَت إلى حالِه في الخفْضِ والدَّعةِ، وحالِه في الضَّنكِ والشِّدَّةِ، فالتَّوازُنُ بيْن الحالينِ المُعبَّرِ عنهما بالظَّرفَينِ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ﴾ إلخ، وقولِه: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾، وهذا التَّفصيلُ ليس مِن قَبيلِ تَبيينِ المُجمَلِ، ولكنَّه تَمييزٌ وفصْلٌ بيْن شَيئينِ، أو أشياءَ تَشتبِهُ أو تَختلِطُ[(١)].

- ومعْنى ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ أعطاهُ بقَدْرٍ مَحدودٍ، ومنه التَّقتيرُ، وكلُّ ذلك كِنايةٌ عن القِلَّةِ[(٢)].

- قولُه: ﴿فَقَدَرَ﴾ قُرِئَ بالتَّخفيفِ والتَّشديدِ[(٣)]، وهما بمعنًى واحدٍ بمعنى ضَيَّقَ، وفي قراءةِ التَّشديدِ مُبالَغةٌ[(٤)].

- واقتصارُ الآيةِ على تَقتيرِ الرِّزقِ في مُقابَلةِ النِّعمةِ دُونَ غيرِ ذلك مِن العِلَلِ والآفاتِ؛ لأنَّ غالبَ أحوالِ المشركين المُتحدَّثِ عنهم صِحَّةُ المزاجِ وقُوَّةُ الأبدانِ، فلا يَهلِكون إلَّا بقتْلٍ أو هَرَمٍ فيهم وفي ذَويهم، وقد عُرِفَ هذا الاعتقادُ الضَّالُّ مِن كَلامِ أهلِ الجاهليَّةِ، وجَعَلوا هذا الغُرورَ مِقياسًا لمراتبِ النَّاسِ؛ فجَعَلوا أصحابَ الكَمالِ أهلَ المظاهرِ الفاخرةِ، ووَصَموا بالنَّقصِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٨، ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٠).

(٣) قرأ أبو جَعفرٍ وابنُ عامرٍ بتَشديدِ الدَّالِ، وقرأ الباقونَ بتَخْفيفِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٤١).

أهلَ الخَصاصةِ وضُعفاءَ النَّاسِ؛ فنَبَّهَ اللهُ على خَطأِ اعتقادِهم بمُناسَبةِ ذِكرِ مُماثِلِه ممَّا اعتَقَدَه الأُمَمُ قبْلَهم الَّذي كان مُوجِبًا صَبَّ العذابِ عليهم، وأعلَمَهم أنَّ أحوالَ الدُّنيا لا تُتَّخَذُ أصلًا في اعتبارِ الجزاءِ على العمَلِ، وأنَّ الجزاءَ المُطَّرِدَ هو جَزاءُ يومِ القيامةِ(١).

- وجُملتَا ﴿فَيَقُولُ﴾ في الموضعينِ جَوابانِ لـ(أمَّا) الأُولى والثَّانيةِ، أي: يطَّرِدُ قولُ الإنسانِ هذه المقالةَ كلَّما حَصَلَت له نِعمةٌ، وكلَّما حَصَلَ له تَقتيرُ رِزقٍ؛ فأُوثِرَ الفِعلُ المضارعُ في الجوابينِ؛ لإفادةِ تَكرُّرِ ذلك القولِ وتَجدُّدِه كلَّما حصَلَ مَضمونُ الشَّرطينِ(٢).

- وتَقديمُ ﴿رَبِّيٓ﴾ على فِعلِ ﴿أَكۡرَمَنِ﴾ وفِعلِ ﴿أَهَٰنَنِ﴾ دُونَ أنْ يقولَ: أكرَمَني ربِّي أو أهانَني ربِّي؛ لقصْدِ تَقَوِّي الحُكمِ، أي: يقولُ ذلك جازمًا به غيرَ مُتردِّدٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٢٥، ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٠، ٣٣١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٠).

قال القِنَّوجيُّ: (قُرِئَ بإثباتِ الياءِ في ﴿أَكۡرَمَنِ﴾ و﴿أَهَٰنَنِ﴾ وصلًا، وحَذْفِها وَقفًا، وقُرِئَ بإثباتِها فيهما، وقُرِئَ بحَذْفِها في الوَصْلِ والوَقْفِ اتِّباعًا لرَسمِ المصحَفِ ومُوافَقةً لرُؤوسِ الآيِ، والأصلُ إثباتُها؛ لأنَّها اسمٌ). ((تفسير القنوجي)) (١٥/ ٢٢٧). ويُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ١٨٢، ١٩٠، ١٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٤).

وقال الزَّجَّاجُ: (وما حُذِفَ مِن هذه الياءاتِ نَحْوُ ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: ٢٠] ﴿لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الإسراء: ٦٢]، ونَحوُ ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ فهو على ضَربَينِ مع النُّونِ؛ فإذا كان رأسَ آيةٍ فأهلُ اللُّغةِ يُسَمُّونَ أواخِرَ الآيِ الفواصِلَ، فيُجيزون حَذْفَ الياءاتِ كما يُجيزونَه في قوافي الشِّعرِ... فإذا لم يكُنْ آخِرَ قافيةٍ أو آخِرَ آيةٍ، فالأكثَرُ إثباتُ الياءِ، وحَذْفُها جَيِّدٌ بالِغٌ أيضًا بخاصَّةٍ مع النُّوناتِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (١/ ٣٨٩).

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ * وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ * وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا * وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾

- قولُه: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ ﴿كَلَّا﴾ زجْرٌ للإنسانِ عن قولِه: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ عندَ حُصولِ النِّعمةِ، وقولِه: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ عندَما يَنالُه تَقتيرٌ؛ فهو ردْعٌ عن اعتقادِ ذلك، فمَناطُ الرَّدعِ كِلَا القولَينِ، وهذا ردْعٌ مُجمَلٌ لم يَتعرَّضِ القرآنُ لتَبيينِه؛ اكتفاءً بتَذييلِ أحوالِ الأُمَمِ الثَّلاثِ في نِعمتِهم بقولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤] بعْدَ قولِه: ﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾[(١)] [الفجر: ١٣].

- و(بَلْ) إضرابٌ انتقاليٌّ، والمناسَبةُ بيْن الغرَضَينِ المُنتقَلِ منه والمُنتقَلِ إليه مُناسبةُ المُقابَلةِ لمَضمونِ ﴿فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ﴾ مِن جِهةِ ما تَوهَّموه أنَّ نِعمةَ مالِهم وسَعةَ عَيشِهم تَكريمٌ مِن اللهِ لهم، فنَبَّهَهم اللهُ على أنَّهم إنْ أكرَمَهُم اللهُ، فإنَّهم لمْ يُكرِموا عَبيدَه شُحًّا بالنِّعمةِ؛ إذ حَرَموا أهلَ الحاجةِ مِن فُضولِ أموالِهم، وإذ يَستزيدون مِن المالِ ما لا يَحتاجون إليه، وذلك دحْضٌ لتَفخُّرِهم بالكرَمِ والبذْلِ؛ فجُملةُ ﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ استئنافٌ كما يَقتضيهُ الإضرابُ، فهو إمَّا استئنافُ ابتداءِ كَلامٍ، وإمَّا اعتراضٌ بيْن ﴿كَلَّا﴾ وأختِها[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٠، ٧٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٠، ٧٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٠، ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٥).

- وفي قوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ الْتفاتٌ إلى الخِطابِ؛ للإيذانِ باقتضاءِ مُلاحظةِ جِنايتِه السَّابقةِ لمُشافهتِه بالتَّوبيخِ تَشديدًا للتَّقريعِ، وتَأكيدًا للتَّشنيعِ. والجمْعُ باعتبارِ مَعْنى الإنسانِ؛ إذِ المرادُ هو الجنسُ[(١)].

- وتَعريفُ اليَتيمِ هنا للجِنسِ، أي: لا تُكرِمون اليَتامَى، وكذلك تَعريفُ المسكينِ[(٢)].

- ونفْيُ الحَضِّ على طَعامِ المسكينِ نفْيٌ لإطعامِهِ بطَريقِ الأَوْلى، وهي دَلالةُ فَحوى الخِطابِ[(٣)]، أي: لقِلَّةِ الاكتراثِ بالمساكينِ لا يَنفَعونهم ولو نفْعَ وَساطةٍ، بلْهَ أنْ يَنفَعوهم بالبَذْلِ مِن أموالِهم[(٤)].

- وقد حصَلَ في هذِه الآيةِ احتباكٌ[(٥)]؛ لأنَّهم لَمَّا نُفِيَ إكرامُهم اليتيمَ، وقُوبِلَ بنفْيِ أنْ يَحُضُّوا على طَعامِ المسكينِ؛ عُلِمَ أنَّهم لا يَحُضُّون على إكرامِ أيتامِهم، أي: لا يَحُضُّون أولياءَ الأيتامِ على ذلك، وعُلِمَ أنَّهم لا يُطعِمونَ المساكينَ مِن أموالِهم. ويجوزُ أنْ يكونَ الحَضُّ على الطَّعامِ كِنايةً عن الإطعامِ؛ لأنَّ مَن يحُضُّ على فِعلِ شَيءٍ يكونُ راغبًا في التَّلبُّسِ به، فإذا تَمكَّنَ أنْ يَفعَلَه فَعَلَه[(٦)].

- و(لا تُكرِمون، ولا تَحاضُّون، وتَأكُلون، وتُحبُّون) على الخِطابِ بطَريقةِ الالْتفاتِ مِن الغَيبةِ في قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ الآياتِ؛ لقصْدِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٦، ١٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٣).

(٣) تقدَّم تعريفُها (ص: ٩٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٣).

(٥) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٢٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٣).

مُواجهتِهم بالتَّوبيخِ، وهو بالمُواجَهةِ أوقَعُ منه بالغَيبةِ[١].

- قولُه: ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ أصْلُه: تَتحاضُّون، فحُذِفَت إحْدى التَّاءينِ اختصارًا للتَّخفيفِ[٢].

- والأكلُ: مُعبَّرٌ به عن الانتِفاعِ بالشَّيءِ انتفاعًا لا يُبْقي منه شَيئًا، ولعلَّ هذا التَّعبيرَ مِن مُبتكراتِ القُرآنِ[٣].

- وأشْعَرَ قولُه: ﴿وَتَأۡكُلُونَ﴾ بأنَّ المرادَ التُّراثُ الَّذي لا حقَّ لهم فيه، ومنه يَظهَرُ وجْهُ إيثارِ لَفظِ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (وتَأكُلون المالَ)؛ لأنَّ التُّراثَ مالٌ مات صاحبُه، وأكْلُه يَقْتضي أنْ يَستحِقَّ ذلك المالَ عاجزٌ عن الذَّبِّ عن مالِه لصِغَرٍ أو أُنوثةٍ[٤].

- وتَعريفُ ﴿ٱلتُّرَاثَ﴾ عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: تُراثَ اليَتامَى[٥].

- قولُه: ﴿أَكۡلٗا لَّمّٗا﴾ اللَّمُّ: الجمْعُ، ووَصْفُ الأكلُ به وصْفٌ بالمصدرِ للمُبالَغةِ[٦].

- قولُه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا﴾ الجَمُّ: الكثيرُ، أي: حُبًّا كَثيرًا، ووَصْفُ الحُبِّ بالكثرةِ مُرادٌ به الشِّدَّةُ؛ لأنَّ الحُبَّ معنًى مِن المعاني النَّفْسيَّةِ لا يُوصَفُ بالكثرةِ الَّتي هي وَفرةُ عدَدِ أفرادِ الجِنسِ، فالجَمُّ مُعبَّرٌ به عن معْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)).

القَويِّ الشَّديدِ، أي: حُبًّا مُفرِطًا، وذلك مَحلُّ ذمِّ حُبِّ المالِ؛ لأنَّ إفراطَ حُبِّه يُوقِعُ في الحِرصِ على اكتِسابِه بالوَسائلِ غيرِ الحقِّ؛ كالغصْبِ والاختلاسِ، والسَّرقةِ وأكْلِ الأماناتِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٤).

## الآيات (٢١-٣٠)

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾: أي: زُلزِلَت الأرضُ، وحُرِّكَت تحريكًا بعدَ تحريكٍ، والدَّكُّ: الكَسرُ والدَّقُّ وحَطُّ المُرتَفِعِ مِنَ الأرضِ بالبَسْطِ، وأصلُ (دكك): يدُلُّ على تَطامُنٍ وانسِطاحٍ[(١)].

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ﴾: الوَثاقُ بفتحِ الواوِ اسْمُ مَصْدَرِ أوْثَق، وهو الرَّبْطُ، يقالُ: أَوْثَقْتُه: أي: شددتُه، والوَثاقُ والوِثاقُ: اسمان لِما يُوثَقُ به الشَّيءُ، وأصل (وثق): يدُلُّ على عَقْدٍ وإحْكامٍ[(٢)].

﴿ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾: أي: السَّاكِنَةُ الموقِنَةُ بالإيمانِ وتوحيدِ اللهِ، فلا يُخالِطُها شَكٌّ، ولا يَعْتَريها رَيْبٌ، الَّتي اطْمأَنَّتْ إلى وَعْدِ اللهِ، وصدَّقَتْ بما قال، والطُّمَأْنينةُ والاطْمِئنانُ: السُّكونُ بعدَ الانزعاجِ، وأصلُ الطُّمأنينةِ: السُّكونُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٤).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٨٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٥٢٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٦).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

١- قولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا * وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾

﴿دَكًّا دَكًّا﴾: مَجموعُ المَصدرَينِ في تأويلِ مُفرَدٍ مَنصوبٍ على الحالِ، والمعنى: مُكَرَّرًا عليها الدَّكُّ، كعَلَّمتُه الحِسابَ بابًا بابًا، أي: علَّمتُه الحِسابَ مُفَصَّلًا باعتبارِ أبوابِه. ويجوزُ أن يكونَ ﴿دَكًّا﴾ الأوَّلُ مَصدرًا مؤكِّدًا لفِعْلِه، و﴿دَكًّا﴾ الثَّاني تأكيدًا لفظيًّا للأوَّلِ.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾: مَجموعُهما في تأويلِ مُفرَدٍ مَنصوبٍ على الحالِ المفيدةِ للتَّرتيبِ، أي: مُصطَفِّينَ صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ[1].

٢- قولُه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ * وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ مَفعولٌ مُطلَقٌ على معنى التَّشبيهِ، نائبٌ عن المصدَرِ، وكذا ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾، والعَذابُ: اسمُ مَصدَرِ عَذَّب، والوَثاقُ: اسمُ مَصدَرِ أوثَقَ، والضَّميرُ فيهما يعودُ على الله تعالى، والمصدَرُ مُضافٌ إلى الفاعِلِ: والمعنى: لا يُعَذِّبُ أحدٌ تعذيبًا مِثلَ تعذيبِ اللهِ هذا الكافِرَ، ولا يُوثِقُ أحدٌ إيثاقًا مِثلَ إيثاقِ اللهِ هذا الكافِرَ؛ في الشِّدَّةِ والمُبالَغةِ، و﴿أَحَدٌ﴾ فيهما فاعِلٌ للفِعلِ قَبْلَه.

وقُرِئَ ﴿يُعَذَّبُ ... يُوثَقُ﴾ بالبناء للمَفعولِ فيهما[2]، فيكونُ ﴿أَحَدٌ﴾ فيهما نائِبَ فاعلٍ، والضَّميرُ في ﴿عَذَابَهُۥٓ... وَثَاقَهُۥٓ﴾ يعودُ على الإنسانِ الكافِرِ، والمصدَرُ مُضافٌ إلى المفعولِ: والمعنى: لا يُعَذَّبُ أحَدٌ مِثلَ تعذيبِ هذا الكافِرِ يومَئذٍ،

(١) يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٩١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٤٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٦)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) لأحمد الخراط (٤/ ١٤٥٢).

(٢) يُنظر: القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفْسيرِ (ص: ٣٤٤).

ولا يُوثَقُ أحَدٌ مِثلَ وَثاقِه، ويجوزُ عَودُ الضَّميرِ كذلك على اللهِ تعالى، والمصدَرُ مُضافٌ إلى الفاعِلِ، كالقراءةِ المتقَدِّمةِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مذكِّرًا بأهوالِ الآخرةِ: كَلَّا! فارجِعوا عن انكِبابِكم على الدُّنيا الفانيةِ؛ فإنَّه إذا دُكَّت الأرضُ يومَ القيامةِ، وزُلزِلتْ مرَّةً بعْدَ مرَّةٍ، يَنهَدِمُ كُلُّ ما عليها، وتُصبِحُ أرضًا مُستويةً، وجاء ربُّك -يا محمَّدُ- إلى المحشَرِ للفَصلِ بيْن عبادِه، وجاءت الملائِكةُ صَفًّا بعدَ صَفٍّ، وجيءَ يومَ القيامةِ بنارِ جَهنَّمَ؛ يَومَ يَتذَكَّرُ الإنسانُ أعمالَه، فلا تَنفَعُه ذِكْراه، ولا يَنفَعُه الإيمانُ والتَّوبةُ لِمَولاه! يَقولُ: يا لَيْتَني قَدَّمْتُ في الدُّنيا أعمالَ الخَيرِ والبرِّ لحياتي في الآخِرةِ، فيَومَ القيامةِ لا يُعَذِّبُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللهِ في الآخِرةِ، ولا يُوثِقُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ وَثاقِ اللهِ في الآخِرةِ لأهلِ النَّارِ. ثمَّ يختِمُ اللهُ السُّورةَ بهذه البِشارةِ للمؤمنينَ، فيقولُ: يا أيَّتُها النَّفْسُ المُطمَئِنَّةُ بالإيمانِ، الموقِنةُ باللهِ وبوَعْدِه، ارجِعي إلى رَبِّك راضيةً مَرْضِيَّةً، فادخُلِي في جُملةِ عِبادي الصَّالِحينَ، وادْخُلي جَنَّتي معهم.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه انتِقالٌ مِن تَهديدِهم بعَذابِ الدُّنيا الَّذي في قولِه: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨٧)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٢٨).

بِعَادٍ﴾ [الفجر: ٦] الآياتِ، إلى الوعيدِ بعَذابِ الآخرةِ، فإنِ استَخفُّوا بما حلَّ بالأُمَمِ قبْلَهم أو أُمهِلوا، فأُخِّرَ عنهم العذابُ في الدُّنيا؛ فإنَّ عَذابًا لا مَحيصَ لهم عنه يَنتظِرُهم يومَ القيامةِ حِينَ يَتذكَّرون قسْرًا، فلا يَنفَعُهم التَّذكُّرُ، ويَندَمون وَلاتَ ساعةَ مَندَمٍ[١].

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّٗا دَكّٗا ٢١﴾.

أي: ما هكذا ينبغي أن يكونَ الأمرُ؛ فارجِعوا عن انكِبابِكم على الدُّنيا الفانيةِ الَّتي لا يَبقى منها ولا مِن مَتاعِها شَيءٌ؛ فإنَّه إذا وقع دَكُّ الأرضِ يومَ القيامةِ ورَجُّها وزلزلتُها مرَّةً بَعْدَ مرَّةٍ، يَنهَدِمُ كُلُّ ما عليها، وتُصبِحُ أرضًا مُستويةً[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٤، ١٥].

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾.

أي: وجاء ربُّك -يا محمَّدُ- إلى المحشَرِ لحِسابِ عبادِه والقَضاءِ بيْنَهم مَجيئًا يَليقُ بجلالِه وعَظَمتِه، وجاءت الملائِكةُ صُفوفًا صَفًّا بعدَ صَفٍّ، خاضِعينَ للهِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٦/ ١٦٦)، ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ١٥١)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٧٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٩-٢٠١).

قال ابنُ كثير: (ذلك بَعْدَما يَستشفِعونَ إليه بسَيِّدِ وَلَدِ آدَمَ على الإطلاقِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بعدَما يَسألونَ أُولي العَزمِ مِنَ الرُّسُلِ واحِدًا بعدَ واحدٍ، فكُلُّهم يقولُ: لستُ بصاحِبِ =

كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

وقال سُبحانَه: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨].

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾.

أي: وجيءَ يومَ القيامةِ بنارِ جَهنَّمَ[1].

كما قال الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۞ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١١، ١٢].

وعن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه

---

= ذاكم، حتَّى تنتهيَ النَّوبةُ إلى محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فيقولُ: «أنا لها، أنا لها». فيذهَبُ فيَشفَعُ عندَ اللهِ في أن يأتيَ لفَصلِ القَضاءِ، فيُشَفِّعُه اللهُ في ذلك [يُنظر: البخاري «٧٥١٠»، ومسلم «١٩٣»]، وهي أوَّلُ الشَّفاعاتِ، وهي المقامُ المحمودُ... فيجيءُ الرَّبُّ تعالى لفَصلِ القَضاءِ كما يشاءُ، والملائكةُ يَجيئونَ بيْن يدَيه صُفوفًا صُفوفًا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٩٩).

وقال ابنُ عاشور: (﴿صَفًّا﴾ الأوَّلُ حالٌ مِنَ المَلَكِ، و﴿صَفًّا﴾ الثَّاني لم يختَلِفِ المفَسِّرونَ في أنَّه مِنَ التَّكريرِ المرادِ به التَّرتيبُ والتَّصنيفُ، أي: صَفًّا بَعْدَ صَفٍّ، أو خَلْفَ صَفٍّ، أو صِنفًا مِنَ الملائكةِ دونَ صِنفٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٨٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠١).

وسلَّم: ((يُؤْتَى بجَهنَّمَ يومَئِذٍ لها سَبْعونَ ألْفَ زِمامٍ[١]، مع كُلِّ زِمامٍ سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَها))[٢].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

أي: في ذلك اليَومِ يَتذَكَّرُ الإنسانُ عِصيانَه وطُغيانَه، وما فاته مِنَ العَمَلِ الصَّالحِ؛ فلا تَنفَعُه ذِكْراه، ولا يَنفَعُه الإيمانُ والتَّوبةُ لِمولاه[٣].

---

(١) الزِّمامُ: ما يُزَمُّ به الشَّيءُ، أي: يُشَدُّ ويُربَطُ. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) للقرطبي (٧/ ١٨٦).

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٢).

ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المرادَ: يتذَكَّرُ أعمالَه في الدُّنيا وعِصيانَه وطُغْيانَه، وتفريطَه في طاعةِ اللهِ وما يُقَرِّبُ إليه مِنَ العَمَلِ الصَّالحِ: ابنُ جريرٍ، ومَكِّيٌّ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، وابنُ كثيرٍ، والعُلَيميُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٦٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٧٣).

وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ أي: يتَّعِظُ ويَتوبُ. وممَّن اختاره: الواحِديُّ، والبَغَويُّ، وابنُ الجَوزيِّ، والخازِنُ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٨).

وممَّن قال مِنَ السَّلَفِ: إنَّ المرادَ التَّوبةُ: الضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥١٢).

واقتَصَر السَّمَرْقَنديُّ، والسَّمْعانيُّ، والنَّسَفيُّ على تفسيرِ التَّذَكُّرِ بالاتِّعاظِ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤١).

وقال الشوكاني: (يتذكَّرُ الإنسانُ، أي: يتَّعِظُ ويَذكُرُ ما فَرَط منه، ويَندَمُ على ما قَدَّمَه في الدُّنيا مِنَ الكُفرِ والمعاصي). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٥). =

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

وقال سُبحانَه: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾.

أي: يَقولُ: يا لَيْتَني قَدَّمْتُ في الدُّنيا أعمالَ الخَيرِ والبِرِّ والطَّاعةِ لحياتي الأبَديَّةِ في الآخِرةِ، فألقَى فيها ثَوابَها[1]!

كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

---

= وقال ابنُ عثيمين: (يتذَكَّرُ أنَّه وُعِدَ بهذا اليومِ، وأنَّه أُعلِمَ به مِن قِبَلِ الرُّسُلِ عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، وأُنذِروا وخُوِّفوا، ولكِنْ مَن حَقَّت عليه كَلِمةُ العذابِ فإنَّه لا يُؤمِنُ ولو جاءَتْه كُلُّ آيةٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٢).

وقال ابنُ جُزَي: (والإنسانُ هنا جِنسٌ، وقيل: يعني: عُتْبَةَ بنَ رَبيعةَ، وقيل: أُمَيَّةُ بنُ خَلَفٍ. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ هذا على حَذْفٍ تقديرُه: أنَّى له الانتِفاعُ بالذِّكْرى، كما تقولُ: نَدِمَ حينَ لم تنفَعْه النَّدامةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨١).

ممَّن نَصَّ على أنَّ المرادَ بالإنسانِ هنا الكافِرُ: السمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٣).

## القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

١- قِراءةُ: ﴿لَا يُعَذَّبُ﴾ ﴿وَلَا يُوثَقُ﴾ بفَتحِ الذَّالِ والثَّاءِ، أي: لا يُعَذَّبُ أحَدٌ مِثلَ عَذابِ هذا الصِّنفِ مِنَ النَّاسِ، وكذا لا يُوثَقُ وَثاقَه أحَدٌ(١).

٢- قِراءةُ: ﴿لَّا يُعَذِّبُ﴾ ﴿وَلَا يُوثِقُ﴾ بكَسرِ الذَّالِ والثَّاءِ. قيل: المعنى: لا يعذِّبُ أحدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللهِ في الآخِرةِ، ولا يُوثِقُ أحدٌ مِثلَ وَثاقِ اللهِ لأهلِ النَّارِ. وقيل: أي: لا يتولَّى يومَ القيامةِ عَذابَ اللهِ أحدٌ غَيْرُه؛ فالمُلْكُ له وَحْدَه، وملائِكةُ العَذابِ يَأْتَمِرونَ بأمْرِه في تعذيبِ الكافِرينَ وأَسْرِهم في القُيودِ(٢).

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾﴾.

أي: فيَومَ القيامةِ لا يُعَذِّبُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ عَذابِ اللهِ في الآخِرةِ؛ فلا أحَدَ أشَدُّ عَذابًا منه(٣).

كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

وقال سُبحانَه: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٤].

﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾.

---

(١) قرأ بها الكِسائيُّ، ويعقوبُ. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٦٣).

(٢) قرأ بها الباقون. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٠).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٤٥)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٦٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩، ٣٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٣).

أي: ولا يُوثِقُ أحَدٌ في الدُّنيا مِثلَ وَثاقِ اللهِ في الآخِرةِ لأهلِ النَّارِ؛ فلا أحَدَ أشَدُّ وَثاقًا منه[١].

كما قال تعالى: ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴾ [الإنسان: ٤].

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر حالَ مَن كانت هِمَّتُه الدُّنيا فاتَّهم اللهَ في إغنائِه وإفقارِه؛ ذَكَر حالَ مَن اطمأنَّت نَفْسُه إلى اللهِ تعالى، فسَلَّم لأمْرِه، واتَّكَل عليه[٢].

وأيضًا لَمَّا استَوعَبَ ما اقتَضاهُ المقامُ مِن الوعيدِ والتَّهديدِ والإنذارِ؛ ختَمَ الكلامَ بالبِشارةِ للمؤمنينَ الَّذين تَذكَّروا بالقرآنِ واتَّبَعوا هَدْيَه، على عادةِ القرآنِ في تَعقيبِ النِّذارةِ بالبِشارةِ والعكسِ؛ فإنَّ ذلك ممَّا يَزيدُ رَغبةَ النَّاسِ في فِعلِ الخَيرِ، ورَهبتَهم مِن أفعالِ الشَّرِّ[٣].

﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ﴾.

أي: يُقالُ[٤]: يا أيَّتُها النَّفْسُ المُطمَئِنَّةُ بالإيمانِ، الموقِنةُ باللهِ وبوَعْدِه، الثَّابِتةُ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٢، ٢٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٠).

(٤) قال الزَّمخشري: (أي: يقولُ اللهُ للمُؤمِنِ: يا أيَّتُها النَّفْسُ، إمَّا أن يُكَلِّمَه إكرامًا له... أو على لِسانِ مَلَكٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٢).

الحَقِّ[١].

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾.

أي: ارجِعي إلى اللهِ الَّذي ربَّاك بنِعَمِه وفَضْلِه، راضيةً باللهِ وثَوابِه، مَرْضِيَّةً عندَ اللهِ تعالى[٢].

كما قال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [البينة: ٨].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٧)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).

قال الزمخشري: (فإنْ قُلْتَ: متى يُقالُ لها ذلك؟ قُلتُ: إمَّا عندَ الموتِ، وإمَّا عندَ البَعثِ، وإمَّا عندَ دُخولِ الجنَّةِ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ ذلك يقالُ عندَ البَعثِ: ابنُ جرير، ومكِّيٌّ، والخازنُ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٦٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٢).

وممَّن ذهب إلى أنَّ ذلك يقالُ عندَ الموتِ: الواحِديُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيميُّ، وابنُ عُثَيمين، ونَسَبه ابنُ الجَوزيِّ للأكثَرينَ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٤).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الحسَنُ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٦٩).

وممَّن قال بكِلا القولَينِ: ابنُ القَيِّم، وابنُ كَثيرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: زَيدُ بنُ أسلَمَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٣٩٦).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٦)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ١٧٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٧).

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العبدَ المؤمِنَ إذا كان في انقِطاعٍ مِنَ الدُّنيا وإقبالٍ مِنَ الآخِرةِ، نزَلَ إليه مَلائكةٌ مِنَ السَّماءِ بِيضُ الوُجوهِ، كأنَّ وُجوهَهم الشَّمسُ، معهم كَفَنٌ مِن أكفانِ الجَنَّةِ، وحَنُوطٌ[١] مِن حَنُوطِ الجَنَّةِ، حتَّى يَجلِسوا مِنه مَدَّ البَصَرِ[٢]، ثمَّ يَجيءُ مَلَكُ المَوتِ عليه السَّلامُ حتَّى يَجلِسَ عندَ رَأسِه، فيَقولُ: أيَّتُها النَّفْسُ الطَّيِّبةُ، اخرُجي إلى مَغفرةٍ مِنَ اللهِ ورِضوانٍ، فتَخرُجُ تَسيلُ كَما تَسيلُ القَطرةُ مِن فِي السِّقاءِ، فيَأخُذُها، فإذا أخَذَها لم يَدَعُوها في يَدِه طَرْفةَ عَينٍ حتَّى يَأخُذوها فيَجعَلوها في ذَلِك الكَفَنِ وفي ذَلِك الحَنُوطِ، ويَخرُجُ مِنها كأَطيبِ نَفحةٍ[٣] مِسكٍ وُجِدَت على وَجهِ الأرضِ، فيَصعَدونَ بِها، فَلا يَمُرُّونَ بها على مَلَأٍ مِنَ الملائكةِ إلَّا قالوا: ما هذا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟! فيَقولونَ: فُلانُ بنُ فُلانٍ؛ بأحسَنِ أسمائِه الَّتي كانوا يُسَمُّونَه بها في الدُّنيا، حتَّى يَنتَهوا بها إلى السَّماء الدُّنيا، فيَستَفتِحونَ له، فيُفتَحُ لهم، فيُشَيِّعُه مِن كُلِّ سَماءٍ مُقَرَّبوها إلى السَّماءِ الَّتي تَلِيها، حتَّى يُنتَهَى به إلى السَّماءِ السَّابعةِ، فيَقولُ اللهُ عزَّ وجَلَّ: اكتُبوا كِتابَ عَبدي في عِلِّيِّينَ، وأعيدُوه إلى الأَرضِ؛ فإنِّي منها خلَقْتُهم، وفيها أُعيدُهم، ومِنها أُخرِجُهم تارةً أُخرى))[٤].

---

(١) الحَنوطُ: ما يُخلَطُ مِن الطِّيبِ لأكفانِ الموتى وأجسادِهم. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦).

(٢) مَدَّ البَصَرِ: أي: قريبًا منه. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٣/ ١١٧٦)، ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٤).

(٣) النَّفحةُ: المرَّةُ مِن نَفحِ الطِّيبِ، أي: رائحَتِه. يُنظر: ((مرعاة المفاتيح)) للمباركفوري (٥/ ٣٢٥).

(٤) أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ في ((المصنَّف)) (١٢٠٥٩)، وأحمدُ (١٨٥٣٤)، والطَّيالِسيُّ (٧٨٩)، والحاكمُ في ((المستدرك)) (١٠٧) بألفاظٍ مُتقارِبةٍ.

صحَّحَ إسنادَه الطَّبريُّ في ((مسند ابن عمر)) (٢/ ٤٩٤)، والبيهقي في ((شُعَب الإيمان)) (١/ ٣٠٠)، وصحَّحَ الحديثَ الألبانيُّ في ((صحيح الترغيب)) (٣٥٥٨)، وحسَّنه المنذريُّ في ((الترغيب والترهيب)) (٤/ ٢٨٠).

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ٣٠﴾.

أي: فادخُلِي في جُملةِ عِبادي الصَّالِحينَ الطَّائِعينَ وفي زُمْرتِهم، وادْخُلي جَنَّتي معهم[(١)].

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ دليلٌ على أنَّ الحياةَ الَّتي ينبغي السَّعيُ في أصلِها وكَمالِها، وفي تتميمِ لَذَّاتِها: هي الحياةُ في دارِ القَرارِ؛ فإنَّها دارُ الخُلْدِ والبَقاءِ[(٢)]، فالحياةُ الحقيقيَّةُ هي حياةُ الآخرةِ، ولذلك يقولُ الكافِرُ يومَ القيامةِ: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾؛ فالحياةُ الدُّنيا ليست حياةً، ووجْهُ ذلك:

**أوَّلًا**: لأنَّها مُنَغَّصةٌ؛ فكُلُّ صَفْوِها كَدَرٌ.

**وثانيًا**: أنَّها غيرُ باقيةٍ.

**وثالثًا**: أنَّ الإنسانَ مُهَدَّدٌ فيها، فلا يدري متى يجيئُه أَجَلُه صُبحًا أو مساءً، وكم مِن إنسانٍ خَرَجَ مِن أهلِه ولم ترجِعْ إلَّا جُثَّتُه! وكم مِن إنسانٍ على كُرسِيِّه فَجَأَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨١، ٤٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٩)، ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤).

الموتُ، فلم يُكْمِلِ الكتابةَ الَّتي يَخُطُّها بيَمينِه! ولهذا يقولُ الشَّاعرُ:

«لا طِيبَ للعَيــشِ ما دامتْ مُنغَّصَةً لَذَّاتُــه بــادِّكارِ المَــوتِ والهَــرَمِ»

فمهما طالتْ بك الحياةُ فسوف تَهرَمُ وتَدَعُ هذا العَيشَ الطَّيِّبَ، أو تموتُ فلا تبقى لهذا العَيشِ أصلًا[١]!

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أنَّه على المسلِمينَ أن يَحذَروا عِقابَ اللهِ، ولا يتعَرَّضوا لسَخَطِ اللهِ الموجِبِ لعِقابِه؛ لأنَّ اللهَ تعالى لا يُعَذِّبُ عَذابَه أحَدٌ، ولا يُوثِقُ وَثاقَه أحَدٌ[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱدْخُلِي جَنَّتِي﴾ أضافها اللهُ سُبحانَه إلى نفْسِه؛ للدَّلالةِ على شَرَفِها وعنايةِ اللهِ بها، وهذا يُوجِبُ للإنسانِ أنْ يَرغَبَ فيها غايةَ الرَّغبةِ، كما أنَّه يَرغَبُ في بُيوتِ اللهِ -الَّتي هي المساجدُ-؛ لأنَّ اللهَ أضافَها إلى نفْسِه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ سؤالٌ: أنَّ هذا يُوهِمُ أنَّه مَلَكٌ واحِدٌ، وقَولُه: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ يقتضي أنَّه غَيرُ مَلَكٍ واحِدٍ، بل صفوفٌ مِن جماعاتِ الملائكةِ؟

**الجوابُ**: أنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ معناه: والملائِكةُ، ونظيرُه قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾[٤] [الحاقة: ١٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ حُجَّةٌ على المُعتَزِلةِ، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة العنكبوت)) (ص: ٣٩٢، ٣٩٣).

(٢) يُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٦٢).

نظيرُ قَولِه في سورةِ (البقرةِ): ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وهي حُجَّةٌ خانِقةٌ لهم، شَديدةٌ عليهم[١]. والقاعِدةُ في أسماءِ اللهِ وصِفاتِه: أنَّ كُلَّ ما أسنده اللهُ إلى نَفْسِه فهو له نَفْسِه لا لغَيرِه، فنُجري كلامَ اللهِ تعالى ورَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على ظاهِرِه، ولا نُحَرِّفُ فيه، وعلى هذا فالَّذي يأتي هو اللهُ عزَّ وجَلَّ، وليس كما حَرَّفه أهلُ التَّعطيلِ؛ حيث قالوا: إنَّه جاء أمرُ اللهِ! فإنَّ هذا إخراجٌ للكلامِ عن ظاهِرِه بلا دَليلٍ، فاللهُ تعالى يجيءُ يومَ القيامةِ هو نَفْسُه، ولكِنْ كيف هذا المجيءُ؟ هذا هو الَّذي لا عِلْمَ لنا به، لا ندري كيف يَجيءُ، والسُّؤالُ عن مِثْلِ هذا بِدْعةٌ، كما قال الإمامُ مالِكٌ رحمه الله[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ دَلالةٌ على قِيامِ الأفعالِ الاختياريَّةِ باللهِ تعالى[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾ جوازُ إتيانِ الحالِ مِنَ المعطوفِ فقط دونَ المعطوفِ عليه[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ أنَّ النَّفْسَ في القرآنِ قد تُطْلَقُ على الرُّوحِ وَحْدَها[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ أنَّ النَّفْسَ لا تَرْجِعُ إليه سُبحانَه إلَّا إذا كانت مُطمَئِنَّةً، فهناك

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ١٩٩).

ويُنظر أيضًا: ((الرد على الجهمية)) للدارمي (ص: ٦٦).

(٣) يُنظر: ((القواعد المثلى)) لابن عثيمين (ص: ٧٠).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٩٤).

(٥) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ٢١٧).

ترجِعُ إليه، وتَدخُلُ في عبادِه، وتَدخُلُ جنَّتَه[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۞ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۞ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ۞ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾

- ﴿كَلَّآ﴾ ردْعٌ لهم عن الأعمالِ المَعدودةِ قبْلَه، وإنكارٌ لفِعلِهم[٢].

- وقولُه: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا...﴾ استئنافٌ جِيءَ به بطَريقِ الوعيدِ تَعليلًا للرَّدعِ[٣].

- وقولُه: ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ أوَّلُهما مَنصوبًا على المفعولِ المطلَقِ المُؤكِّدِ لفِعلِه، ولعلَّ تَأكيدَه هنا؛ لأنَّ هذه الآيةَ أوَّلُ آيةٍ ذُكِرَ فيها دكُّ الجِبالِ، وإذ قد كان أمرًا خارقًا للعادةِ، كان المقامُ مُقتضيًا تَحقيقَ وُقوعِه، فأُكِّدَ مَرَّتينِ هنا، ولم يُؤكَّدْ نَظيرُه في قولِه: ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ في سُورةِ الحاقةِ [١٤]؛ فقولُه: ﴿دَكًّا﴾ الأوَّلُ مَقصودٌ به تَحقيقُ الوُقوعِ. و﴿دَكًّا﴾ الثَّاني مَنصوبٌ على التَّوكيدِ اللَّفظيِّ لـ ﴿دَكًّا﴾ الأوَّلِ؛ لزِيادةِ تَحقيقِ إرادةِ مَدلولِ الدَّكِّ؛ لأنَّ دكَّ الأرضِ العَظيمةِ أمرٌ عَجيبٌ، فلِغرابتِه اقْتَضى إثباتُه زِيادةَ تَحقيقٍ لمعْناهُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٦).

ويَجوزُ أنْ يكونَ مَجموعُ المَصدرينِ ﴿دَكًّا دَكًّا﴾ في تَأويلِ مُفرَدٍ مَنصوبٍ على المفعولِ المُطلَقِ المُبيِّنِ للنَّوعِ، وتَأويلُه: أنَّه دكٌّ يَعقُبُ بَعضُه بعضًا، كما تَقولُ: قرَأتُ الكتابَ بابًا بابًا، والعرَبُ تقولُ الشَّيءَ مرَّتينِ، فتَستوعِبُ تَفصيلَ جِنسِه باعتبارِ المعْنى الَّذي دلَّ عليه لَفظُ المُكرَّرِ، فإذا قلْتَ: بيَّنْتُ له الكتابَ بابًا بابًا، فمعْناه: بيَّنْتُه له مُفصَّلًا باعتبارِ أبوابِه، فالتَّكرارُ للدَّلالةِ على الاستيعابِ وليس للتَّأكيدِ، وهذا الوجْهُ أوْفَى بحقِّ البلاغةِ؛ فإنَّه معْنًى زائدٌ على التَّوكيدِ، والتَّوكيدُ حاصلٌ بالمَصدرِ الأوَّلِ. أو الدَّكُّ كِنايةٌ عن التَّسويةِ؛ لأنَّ التَّسويةَ مِن لَوازمِ الدَّكِّ، أي: صارتِ الجِبالُ مع الأرضِ مُستوياتٍ لم يَبْقَ فيها نُتوءٌ[1].

- قولُه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ المَلَكُ: اسمُ جِنسٍ، وتَعريفُه تَعريفُ الجِنسِ، فيُرادِفُه الاستغراقُ، أي: والملائكةُ[2].

- قولُه: ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ ليس للتَّأكيدِ؛ إذِ المرادُ صفًّا بَعْدَ صفٍّ، أي: صفًّا يتلوه صَفٌّ[3].

- وفي قولِه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ﴾ إنَّما اقتُصِرَ على ذِكرِ جهنَّمَ؛ لأنَّ المقصودَ في هذه السُّورةِ وَعيدُ الَّذين لم يَتذكَّروا، وإلَّا فإنَّ الجنَّةَ أيضًا مُحضَرةٌ يَومَئذٍ؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١١)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٦، ٣٣٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٥).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٨).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٣).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٩٠ وص: ٢٩٣).

قال الله تبارك وتعالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ * وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾[١] [الشعراء: ٩٠، ٩١].

- قولُه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الأوَّلُ مُتعلِّقٌ بفِعلِ (جِيءَ)، والتَّقديرُ: وجِيءَ يومَ تُدَكُّ الأرضُ دكًّا دكًّا... إلى آخِرِه، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ الثَّاني بدَلٌ مِن ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾، والمعْنى: يومَ تُدَكُّ الأرضُ دكًّا... إلى آخِرِه، يَتذكَّرُ الإنسانُ، والعاملُ في البدَلِ والمُبدَلِ منه معًا فِعلُ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾، وتَقديمُه للاهتِمامِ، مع ما في الإطنابِ مِن التَّشويقِ؛ ليَحصُلَ الإجمالُ ثمَّ التَّفصيلُ، مع حُسنِ إعادةِ ما هو بمعْنى (إذا)؛ لزِيادةِ الرَّبطِ؛ لطُولِ الفصْلِ بالجُمَلِ الَّتي أُضِيفَ إليها (إذا)[٢].

- قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الإنسانُ هنا: قيل: هو الإنسانُ الكافرُ، وهو الَّذي تَقدَّمَ ذِكرُه في قولِه تبارك وتعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [الفجر: ١٥] الآيةَ، فهو إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لبُعدِ مَعادِ الضَّميرِ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ وجُملةِ ﴿يَقُولُ ...﴾ إلخ؛ جِيءَ به لتَحقيقِ أنَّه ليس يَتذكَّرُ حَقيقةً؛ لعَرائِه عن الجَدوَى بعدَمِ وُقوعِه في أوانِه[٤].

- ولَفظُ ﴿وَأَنَّىٰ﴾ اسمُ استِفهامٍ بمعْنى: أيْن له الذِّكرى؟ وهو استِفهامٌ مُستعمَلٌ في الإنكارِ والنَّفيِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

- قولُه: ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ فيه حذْفُ مُضافٍ، أي: ومِن أينَ له مَنفعةُ الذِّكرى[١]؟!

- قولُه: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ الجُملةُ بدَلُ اشتِمالٍ[٢] مِن جُملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾. أو استِئنافٌ وَقَعَ جَوابًا عن سُؤالٍ نَشَأَ منه، كأنَّه قيل: ماذا يقولُ عندَ تَذَكُّرِه[٣]؟ فإنَّ جُمْلةَ ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ قولًا باللِّسانِ تحسُّرًا وتَندُّمًا، فتَكونَ الجُملةُ حالًا مِن ﴿ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، أو بدَلَ اشتمالٍ مِن جُملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾؛ فإنَّ تَذكُّرَه مُشتمِلٌ على تَحسُّرٍ ونَدامةٍ. ويجوزُ أنْ يكونَ قَولُه في نفْسِه، فتَكونَ الجُملةُ بَيانًا لجُملةِ ﴿يَتَذَكَّرُ﴾[٤].

- ومَفعولُ ﴿قَدَّمۡتُ﴾ مَحذوفٌ للإيجازِ[٥].

- يَحتمِلُ أنْ تكونَ اللَّامُ في قولِه: ﴿لِحَيَاتِي﴾ للعِلَّةِ، أي: قدَّمْتُ الأعمالَ الصالحةَ مِن أجْلِ أنْ أحْيا في هذه الدَّارِ، والمرادُ: الحياةُ الكاملةُ السَّالِمةُ مِن العَذابِ؛ لأنَّ حَياتَهم في العذابِ حَياةُ غِشاوةٍ وغِيابٍ؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾[٦] [الأعلى: ١٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

- وحرْفُ النِّداءِ في قولِه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾ للتَّنبيهِ؛ اهتِمامًا بهذا التَّمنِّي في يومِ وُقوعِه[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۞ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٞ﴾

- المقصودُ مِن الكلامِ هو قولُه: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ﴾ وقولُه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]، وأمَّا ما سبَقَ مِن قولِه: ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ إلى قولِه: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَ﴾؛ فهو تَوطئةٌ وتَشويقٌ لسَماعِ ما يَجيءُ بعْدَه، وتَهويلٌ لشَأنِ ذلك اليومِ، وهو الوقتُ الَّذي عُرِّف بإضافةِ جُملةِ ﴿دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ وما بعْدَها مِن الجُمَلِ، وقد عُرِّفَ بأشراطِ حُلولِه وبما يَقَعُ فيه مِن هَولِ العِقابِ[٢].

- والتَّنوينُ في (يومَئذٍ) عِوَضٌ عن جُملةٍ تُفيدُ ما تَقدَّمَ مِن هَولِ الموقفِ[٣].

- قولُه: ﴿أَحَدٞ﴾ في الموضعينِ فاعلُ ﴿يُعَذِّبُ﴾ و﴿يُوثِقُ﴾، و﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ مِن إضافةِ المصدرِ إلى مَفعولِه، والضَّميرُ قيل: هو عائدٌ إلى الإنسانِ في قولِه: ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، وهو مَفعولٌ مُطلَقٌ مُبيِّنٌ للنَّوعِ على معْنى التَّشبيهِ البليغِ، أي: عَذابًا مِثلَ عَذابِه، وانتفاءُ المُماثلةِ في الشِّدَّةِ، أي: يُعذِّبُ عَذابًا هو أشدُّ عَذابٍ يُعَذَّبُه العُصاةُ، أي: عَذابًا لا نَظيرَ له في أصْنافِ عَذابِ المُعذَّبين. و(أحدٌ) يُستعمَلُ في النَّفيِ لاستغراقِ جِنسِ الإنسانِ، (فأحدٌ) في سِياقِ النَّفيِ يعُمُّ كلَّ أحدٍ؛ فانحصَرَ الأحدُ المُعذِّبُ -بكسْرِ الذَّالِ- في فرْدٍ، وهو اللهُ تعالَى. وانتصابُ ﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾ كانتصابِ ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ لمعْنى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٣٥).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٧٦).

التَّشبيهِ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ * ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ * فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي * وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾

- اتِّصالُ هذه الآيةِ بالآياتِ الَّتي قبْلَها في التِّلاوةِ وكِتابةِ المصحفِ، الأصلُ فيه أنْ تكونَ نَزَلَتْ مع الآياتِ الَّتي قبْلَها في نسَقٍ واحدٍ، وذلك يَقْتضي أنَّ هذا الكلامَ يُقالُ في الآخرةِ؛ فيَجوزُ أنْ يُقالَ يومَ الجَزاءِ، فهو مَقولُ قَولٍ مَحذوفٍ هو جَوابُ (إذا) في ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ [الفجر: ٢١] الآيةَ، وما بيْنَهما مُستطرَدٌ واعتراضٌ، فهذا قولٌ يَصدُرُ يومَ القِيامةِ مِن جانبِ القُدسِ مِن كَلامِ اللهِ تعالَى، أو مِن كَلامِ الملائكةِ؛ فإنْ كان مِن كَلامِ اللهِ تعالَى، كان قولُه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إظهارًا في مَقامِ الإضمارِ، بقَرينةِ تَفريعِ ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ عليه، ونُكتةُ هذا الإظهارِ ما في وصْفِ (ربّ) مِن الولاءِ والاختصاصِ، وما في إضافتِه إلى ضَميرِ النَّفْسِ المُخاطَبةِ مِن التَّشريفِ لها، وإنْ كان مِن قولِ الملائكةِ فلَفْظُ ﴿رَبِّكِ﴾ جَرى على مُقْتضى الظَّاهرِ، وعطْفُ ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ عطْفُ تَلقينٍ يَصدُرُ مِن كَلامِ اللهِ تعالَى؛ تَحقيقًا لقولِ الملائكةِ: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾. ويَجوزُ أنْ تكونَ الآيةُ استِئنافًا ابتدائيًّا جَرَى على مُناسَبةِ ذِكرِ عَذابِ الإنسانِ المشرِكِ، فتكونَ خِطابًا مِن اللهِ تعالَى لنُفوسِ المؤمنينَ المُطمئنَّةِ[٢].

- والمُطمئنَّةُ: يجوزُ أنْ يكونَ مِن سُكونِ النَّفْسِ بالتَّصديقِ لِما جاء به القرآنُ دونَ تَردُّدٍ ولا اضطرابِ بالٍ، فيكونَ ثَناءً على هذه النَّفْسِ[٣].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٣٩، ٣٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٠، ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٢).

- ووَصْفُ النَّفسِ بالمُطمئنَّةِ ليس وَصْفًا للتَّعريفِ ولا للتَّخصيصِ، أي: لتَمييزِ المُخاطَبينَ بالوصْفِ الَّذي يُميِّزُهم عمَّن عَداهم، فيَعرِفون أنَّهم المُخاطَبونَ المَأْذونونَ بدُخولِ الجنَّةِ؛ لأنَّهم لا يَعرِفون أنَّهم مُطمئنُّونَ إلَّا بعْدَ الإذنِ لهم بدُخولِ الجنَّةِ، فالوصْفُ مُرادٌ به الثَّناءُ، والإيماءُ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ، وتَبشيرُ مَن وُجِّهَ الخِطابُ إليهم بأنَّهم مُطمئنُّونَ آمنونَ. ويجوزُ أنْ يكونَ للتَّعريفِ، أو التَّخصيصِ بأنْ يَجعَلَ اللهُ إلهامًا في قُلوبِهم يَعرِفون به أنَّهم مُطمئنُّون[(١)].

- والأمرُ في ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ مُرادٌ منه تَقييدُه بالحالَينِ بعْدَه؛ وهما ﴿رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾، وهو مِن استِعمالِ الأمرِ في الوعْدِ. والإضمارُ في قولِه: ﴿فِي عِبَٰدِي﴾ وقولِه: ﴿جَنَّتِي﴾ الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى التَّكلُّمِ[(٢)].

- والرَّاضيةُ: الَّتي رَضِيت بما أُعطِيَتْه مِن كَرامةٍ، وهو كِنايةٌ عن إعطائِها كلَّ ما تَطمَحُ إليه[(٣)].

- والمَرضيَّةُ: اسمُ مَفعولٍ، وأصْلُه: مَرضيًّا عنها، فوَقَعَ فيه الحذْفُ والإيصالُ[(٤)]؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٣).

(٤) الحذفُ والإيصالُ: هو حذْفُ حرفِ الجرِّ لتضمُّنِ الفعلِ معنى فِعلٍ مُتعَدٍّ، وهو ما يُعرَفُ عندَ النُّحاةِ بنزْعِ الخافِضِ، وهذا مِن أَسَدِّ وأَدمثِ مذاهبِ العربيَّةِ؛ وذلك أنَّه موضعٌ يَملِكُ فيه المعنى عِنانَ الكلامِ فيأخُذُه إليه، ويُصرِّفُه بحسَبِ ما يُؤثِرُه عليه، مِثلُ قولِه تعالَى: ﴿فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ [يس: ٦٦]؛ فتعديةُ فِعلِ الاستباقِ إليه على حذْفِ (إلى) بطريقةِ الحذفِ والإيصالِ، أو على تَضمينِ (استَبَقوا) معنى (ابْتَدَروا)، أي: ابتَدَروا الصِّراطَ مُتسابقينَ، أي: مُسرِعينَ لِمَا دهمَهم؛ رجاءَ أن يَصِلوا إلى بُيوتِهم قبْلَ أنْ يَهلِكوا فلمْ يُبصِروا الطَّريقَ، ومِثلُ قولِه عزَّ اسمُه: ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أي: مِن قومِه. يُنظر: ((المحتسب)) لابن جنِّي (١/ ٥١)، ((الإيضاح)) للقزويني (٢/ ١٧٣)، ((السماع والقياس)) لأحمد تَيْمور باشا (ص: ٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٣/ ٥٢) و(٢٧/ ٣٢٠).

فصار نائبَ فاعلٍ بدونِ حرْفِ الجرِّ، والمقصودُ مِن هذا الوصفِ زِيادةُ الثَّناءِ مع الكِنايةِ عن الزِّيادةِ في إفاضةِ الإنعامِ؛ لأنَّ المَرْضيَّ عنه يَزيدُه الرَّاضي عنه مِن الهِباتِ والعَطايا فوقَ ما رَضِيَ به هو[١].

- وفُرِّعَ على هذه البُشرَى الإجماليَّةِ تَفصيلُ ذلك بقولِه: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾، فهو تَفصيلٌ بعْدَ الإجمالِ؛ لتَكريرِ إدْخالِ السُّرورِ على أهْلِها، والمعْنى: ادخُلي في زُمرةِ عِبادي، والمرادُ العِبادُ الصَّالحونَ؛ بقَرينةِ مَقامِ الإضافةِ، مع قَرْنِه بقولِه: ﴿جَنَّتِي﴾[٢].

- وإضافةُ (جنَّة) إلى ضَميرِ الجَلالةِ إضافةُ تَشريفٍ، وهذه الإضافةُ هي ممَّا يَزيدُ الالتفاتَ إلى ضَميرِ التَّكلُّمِ حُسنًا بعْدَ طَريقةِ الغَيبةِ بقولِه: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾[٣].

- وفيه تَكريرُ فِعلِ ﴿وَٱدۡخُلِي﴾، حيثُ لم يقلْ: (فادْخُلي جنَّتي في عِبادي)؛ للاهتِمامِ بالدُّخولِ بخُصوصِه؛ تَحقيقًا للمَسَرَّةِ لهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ البَلَدِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ البَلَدِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (البَلَدِ)[١].

## بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سورةُ البَلَدِ مَكِّيَّةٌ[٢]، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

ذِكرُ طبيعةِ الدُّنيا وما يُعانيه الإنسانُ فيها مِن مُكابَدةٍ للشَّدائدِ، وما يُوصلُه إلى السَّعادةِ[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- التَّنويهُ بشَأنِ مَكَّةَ.

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ: افتِتاحُها بقَولِ اللهِ تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٥).

وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾، وسورةَ ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، وسورةَ (العَقَبةِ). يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٣٦٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٥).

(٢) وقيل: مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٧/ ١١٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٥٤).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزيِّ، والقرطبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٥٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٥)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٠١).

٢- ما ابتُلِيَ به الإنسانُ فى الدُّنيا مِن النَّصَبِ والتَّعَبِ.

٣- ذَمُّ الاغترارِ بالقُوَّةِ، والتَّفاخُرِ.

٤- تَعدادُ نِعَمِ اللهِ تعالى على الإنسانِ.

٥- الحَضُّ على المُداوَمةِ على فِعلِ الخَيرِ، وإصلاحِ النَّفْسِ.

٦- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ المُؤمِنينَ، وسوءِ عاقِبةِ الكُفَّارِ.

## الآيات (١-١٠)

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ٤ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ٥ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ٦ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ٧ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿حِلُّۢ﴾: أي: حَلالٌ تَصنَعُ فيه ما تُريدُ مِنَ القَتلِ والأَسْرِ. وقيل: حالٌّ ساكِنٌ به، وأصلُ (حلل): يدُلُّ على فَتحِ الشَّيءِ[١].

﴿كَبَدٍ﴾: أي: مَشقَّةٍ وتَعَبٍ ومُكابَدةٍ لأُمورِ الدُّنيا والآخِرةِ، وأصلُ (كبد): يدُلُّ على شِدَّةٍ في شَيءٍ وقُوَّةٍ[٢].

﴿لُّبَدًا﴾: أي: كثيرًا مجتَمِعًا بَعضُه على بَعضٍ، مِن: تلَبَّدَ الشَّيءُ على الشَّيءِ، أي: تجَمَّعَ، وأصلُ (لبد): يدُلُّ على تكَرُّسِ الشَّيءِ بَعضِه فوقَ بَعضٍ[٣].

﴿ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾: أي: الطَّريقَينِ؛ طَريقَ الخَيرِ، وطريقَ الشَّرِّ، والنَّجْدُ: الطَّريقُ في ارتِفاعٍ. وكلُّ عَالٍ مِنَ الأرضِ: نَجْدٌ، وأصلُ (نجد): يدُلُّ على اعتِلاءٍ وإشرافٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥١)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٢٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٥٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٠٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٢٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٩١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٣)، =

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ قائلًا: أُقسِمُ بالبَلَدِ الحَرامِ العَظيمِ القَدْرِ، وهو مَكَّةُ المكَرَّمةُ، والحالُ أنَّك -يا محمَّدُ- حلالٌ به يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القتالِ فيه، وأُقسِمُ بوالِدٍ وبوَلَدِه؛ لقد خلَقْنا الإنسانَ في تَعَبٍ وشِدَّةٍ مِن أوَّلِ حياتِه إلى مَوتِه.

ثمَّ قال تعالى: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّه لن يَقهَرَه ويَغلِبَه أحَدٌ؟ يَقولُ وقد بَذَّر أموالَه في الباطِلِ وفي شَهَواتِه: أنفَقْتُ مالًا كَثيرًا! أيظُنُّ أنَّ اللهَ لم يَرَه حالَ إنفاقِ أموالِه في الباطِلِ؟

ثمَّ ذكَرَ اللهُ تعالى جانبًا مِن مَظاهِرِ نِعَمِه، فقال: ألم نجعَلْ له عينَينِ يُبصِرُ بهما، ولِسانًا وشفَتينِ؟ وبَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بهذا البَلَدِ الحَرامِ العَظيمِ القَدْرِ، وهو مَكَّةُ المكَرَّمةُ[1].

---

= ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٠).

قال السَّمْعانيُّ: (قَولُه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ معناه: أُقسِمُ، و«لا» صِلَةٌ. قال الفرَّاءُ: وهو على مَذهَبِ كَلامِ العَرَبِ، يَقولونَ: لا واللهِ لا أفعَلُ كذا، أي: واللهِ. وكذلك: لا واللهِ لَأَفْعَلَنَّ كذا، أي: واللهِ، فيجوزُ أن تكونَ «لا» صِلةً، ويجوزُ أن يكونَ رَدًّا لقَولٍ سابقٍ، وابتِداءُ القَسَمِ مِن قَولِه: واللهِ، فكذلك قَولُه: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ يجوزُ أن يكونَ «لا» صِلَةً، ويجوزُ أن يكونَ رَدًّا لزَعْمِهم مِن إنكارِ البَعْثِ أو إنكارِ نُبُوَّةِ الرَّسُولِ، والقَسَمُ مِن قَوْلِه: ﴿أُقۡسِمُ﴾، وقال الفرَّاءُ: هذا الثَّاني أَولى). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢٥). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٠٧)، ويُنظر أيضًا ما =

كما قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين: ٣].

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٢﴾.

أي: أُقسِمُ بمكَّةَ والحالُ أنَّك -يا محمَّدُ- حلالٌ به في المُستقبَلِ مِن الزَّمانِ؛ يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القِتالِ فيها[1].

---

= يأتي في الفوائد (ص: ٣٢٥ - ٣٢٦).

ممَّن اختار أنَّ معنى ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ أي: أُقسِمُ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والماوَرْديُّ، والسمعاني، والزمخشري، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي، وابن عاشور، وابن عثيمين. ومِنهم مَن نَصَّ على أنَّ (لا) صِلَةٌ مُؤكِّدةٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٣)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٠).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾: ﴿لَآ﴾ للاستِفتاحِ، أي: استفتاحِ الكلامِ وتوكيدِه، وليست نافيةً؛ لأنَّ المرادَ إثباتُ القَسَمِ، يعني: أنا أُقسِمُ بهذا البلَدِ، لكِنْ «لا» هذه تأتي هنا للتَّنبيهِ والتَّأكيدِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٠).

وقال الواحديُّ: (أجمَعَ المفَسِّرونَ على أنَّ هذا قَسَمٌ بالبلَدِ الحَرامِ، وهو مكَّةُ). ((الوسيط)) (٤/ ٤٨٨).

وممَّن نَقَل اتِّفاقَ المُفَسِّرينَ على ذلك أيضًا: ابنُ عطيَّةَ، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، والخازنُ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٨).

ونسَبَه مكِّيٌّ إلى قولِ أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٧١).

(١) يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٧).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: وأنت -يا محمَّدُ- في المستقبَلِ حلالٌ في مكَّةَ، يحِلُّ لك ما يَحرُمُ على غيرِك مِن القِتالِ فيها، فيكونُ في هذا إشارةٌ إلى فتحِ مكَّةَ، وأنَّ اللهَ سيُحِلُّ لنبيِّه القِتالَ في مكَّةَ ساعةَ الفَتحِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، والواحدي، =

= والقرطبي، وابنُ جُزَي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٢).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وأبو صالحٍ، وعَطاءٌ، وعطيَّةُ، والضَّحَّاكُ، وقَتادةُ، والحسَنُ البصريُّ، والسُّدِّيُّ، وابنُ زَيدٍ، والكلبيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٢).

قال الرَّسْعَني: (قال ابنُ عبَّاسٍ ومجاهدٌ وجمهورُ المفسِّرينَ: المعنى: وأنت يا محمَّدُ في المُستقبَلِ مِن الزَّمانِ -ونظيرُه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]- حلالٌ بهذا البلدِ، تَصنَعُ فيه ما تَشاءُ، مِن قتْلٍ وأَسْرٍ، فيكونُ خارجًا مخرَجَ البِشارةِ له، بأنَّه سيُفتَحُ عليه، فيكونُ [فيه] حِلًّا، فظهَر أثرُ ذلك يومَ الفتحِ، وأحلَّه له ساعةً مِن النَّهارِ...). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٢٨).

وقيل: المرادُ: وأنت حالٌّ مقيمٌ بمكَّةَ. وقد استظهَر هذا المعنى: أبو حيَّانَ، وممَّن ذهب إليه: القاسميُّ، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٧٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١١). ويُنظر أيضًا: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٣٠).

قال ابن عاشور: (وهو تأويلٌ جميلٌ لو ساعَد عليه ثُبوتُ استعمالِ ﴿حِلٌّ﴾ بمعنَى: حالٌّ، أيْ: مُقيمٌ في مكانٍ، فإنَّ هذا لم يَرِدْ في كُتُبِ اللُّغةِ... ولم يُعَرِّجْ عليه صاحِبُ «الكشَّافِ»، ولا أحْسِبُ إعراضَه عنه إلَّا لِعَدَمِ ثِقَتِه بصِحَّةِ استِعْمالِه. وقال الخفاجِيُّ: «والحِلُّ: صِفَةٌ أو مَصدَرٌ بمعنَى الحالِّ هنا على هذا الوجهِ، ولا عِبْرةَ بِمَن أنْكَره لعَدَمِ ثُبوتِه في كُتُبِ اللُّغةِ». اهـ وكيف يُقالُ: لا عِبْرةَ بِعَدَمِ ثُبوتِه في كُتُبِ اللُّغةِ، وهل المَرجِعُ في إثباتِ اللُّغةِ إلَّا كُتبُ أئمَّتِها؟!). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٨). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٤)، ((حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي)) (٨/ ٣٦٢).

وقيل: المعنى: وأنت حِلٌّ عندَ المشركينَ بهذا البَلَدِ، يَستَحِلُّونَ إخراجَك وقَتْلَك. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٤٦).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: شُرَحْبِيلُ بنُ سعدٍ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٠٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥١٨).

وقيل: هو نَفْيٌ للقسَمِ، والمعنى: لا أُقسِمُ بهذا البلدِ إذا لم تكُنْ فيه بعدَ خُروجِك منه. يُنظر: =

عن أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عنه، قال: ((إِنَّ خُزاعَةَ قَتَلوا رجلًا مِن بني لَيْثٍ عامَ فَتْحِ مَكَّةَ بقَتيلٍ منهم قَتَلوه، فأُخْبِر بذلك رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فرَكِب راحِلَتَه، فخَطَب، فقالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ حَبَس عن مَكَّةَ الفيلَ، وسَلَّطَ عليها رَسولَه والمُؤْمِنينَ، ألَا وإنَّها لم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، ولنْ تَحِلَّ لأحَدٍ بَعْدي، ألَا وإنَّها أُحِلَّتْ لي ساعَةً مِن النَّهارِ، ألا وإنَّها ساعَتي هذه حَرامٌ))[(١)].

وعن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِي اللَّهُ عنهما، أنَّ النَّبِيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قالَ: ((إنَّ اللَّهَ حَرَّم مَكَّةَ فلم تَحِلَّ لأحَدٍ قبلي، ولا تَحِلُّ لأحَدٍ بَعْدي وإنَّما أُحِلَّتْ لي ساعَةً مِن نَهارٍ))[(٢)].

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بوالِدٍ، وأقسِمُ بوَلَدِه[(٣)].

---

= ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٨).

(١) رواه البخاريُّ (٦٨٨٠) ومسلمٌ (١٣٥٥).

(٢) رواه البخاريُّ (١٨٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٥، ٤٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٨)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٢).

قيل: المرادُ بالوالِدِ: آدَمُ عليه السَّلامُ، وبالوَلَدِ: ذُرِّيَّتُه. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والبغوي، ونسَبَه ابنُ القَيِّمِ إلى جمهورِ المُفَسِّرينَ، واستحسَنه وقوَّاه ابنُ كثير، واختاره العُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٧).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وأبو صالحٍ، والحسَنُ البصريُّ، والسُّدِّيُّ، وسُفْيانُ الثَّوريُّ، وخُصَيفٌ، وشُرَحْبِيلُ =

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾.

أي: لقد خلَقْنا الإنسانَ في تَعَبٍ وشِدَّةٍ مِن أوَّلِ حياتِه إلى مَوتِه، يُكابِدُ أُمورَ حياتِه ومَعيشتِه، وهمومَ دُنياه وآخِرتِه[1].

= ابنُ سعدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٦)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١١).

وقيل: إنَّ اللهَ أقسَمَ بكُلِّ والدٍ ووَلَدِه، فهي عامَّةٌ تَشمَلُ كُلَّ والدٍ وكُلَّ مولودٍ. وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ جرير، وأبو حيَّان، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٢).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٦).

قال ابنُ عاشور: (الَّذي يناسِبُ القَسَمَ بهذا البَلَدِ أن يكونَ المرادُ بـ«والدٍ» إبراهيمَ عليه السَّلامُ؛ فإنَّه الَّذي اتَّخَذ ذلك البلَدَ لإقامةِ وَلَدِه إسماعيلَ وزَوجِه هاجَرَ؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، ثمَّ قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وإبراهيمُ والِدُ سُكَّانِ ذلك البلَدِ الأصليِّينَ؛ قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، ولأنَّه والِدُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ مَوصولٌ وصِلةٌ، والضَّميرُ المستَتِرُ في ﴿وَلَدَ﴾ عائِدٌ إلى «والِدٍ»، والمقصودُ: وما ولَدَه إبراهيمُ مِنَ الأبناءِ والذُّرِّيَّةِ، وذلك مخصوصٌ بالَّذين اقتَفَوا هَدْيَه، فيَشمَلُ محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٩).

وقيل: الوالدُ: النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لتقدُّمِ ذِكْرِه، وما ولَدَ: أُمَّتُه. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٨، ٤١٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٣/ ٣١٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٧٦).

قال ابنُ جرير: (هذا هو جوابُ القَسَم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (اختَلَف النَّاسُ في «الكَبَد»؛ فقال جمهورُ النَّاسِ: «الإنسانُ» اسمُ الجنسِ كُلِّه، و«الكَبَدُ» المشقَّةُ والمُكابَدةُ، أي: يُكابِدُ أمرَ الدُّنيا والآخِرةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٣).

وقال السعدي: (قَولُه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ يحتَمِلُ أنَّ المرادَ بذلك: ما يُكابِدُه ويُقاسيه =

= مِن الشَّدائدِ في الدُّنيا، وفي البَرزخِ، ويومَ يقومُ الأشهادُ، وأنَّه يَنبغي له أن يَسعى في عَمَلٍ يُريحُه مِن هذه الشَّدائِدِ، ويوجِبُ له الفَرَحَ والسُّرورَ الدَّائِمَ، وإن لم يَفعَلْ فإنَّه لا يَزالُ يُكابِدُ العَذابَ الشَّديدَ أبَدَ الآبادِ.

ويحتَمِلُ أنَّ المعنى: لقد خلَقْنا الإنسانَ في أحسَنِ تقويمٍ، وأقْوَمِ خِلقةٍ، يَقدِرُ على التَّصَرُّفِ والأعمالِ الشَّديدةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٢، ٦٣).

ممَّن اختار القولَ المذكورَ في قولِه: ﴿كَبَدٍ﴾ في الجملةِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحدي، والسمعاني، وابن عطية، والرَّسْعَني، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحَلِّي، والعُلَيمي، وأبو السعود، والشوكاني، والألوسي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٠٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٧٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٣، ٤٨٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٤)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٣)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٣٩)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ في الجملةِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وسعيدُ بنُ جُبَيرٍ، ومجاهدٌ، وقَتادةُ، والحسَنُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٠٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٥).

وممَّن قال: إنَّ المعنى: خلَقْناه مُعتَدِلَ الخَلقِ والقامةِ، مُنتصِبًا قائمًا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٢).

قال ابن كثير: (وقولُه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ رُويَ عن ابنِ مسعودٍ، وابنِ عبَّاسٍ، وعِكْرِمةَ، ومُجاهِدٍ، وإبراهيمَ النَّخَعيِّ، وخَيْثَمةَ، والضَّحَّاكِ، وغيرِهم: يعني: مُنتَصِبًا، زاد ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه: في بَطنِ أمِّه.

والكَبَدُ: الاسْتِواءُ والاستِقامةُ. ومعنى هذا القولِ: لقد خلَقْنا الإنسانَ سَويًّا مستقيمًا، كقولِه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ * ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، وكقولِه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٣).

وقال ابنُ عُثَيمين: (﴿فِى كَبَدٍ﴾ فيها مَعنيانِ: =

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥﴾.

أي: أيَظُنُّ الإنسانُ أنَّه لن يَقهَرَه ويَغلِبَه أحَدٌ؟ فاللهُ غالِبُه وقاهِرُه، وهو قادِرٌ عليه وعلى بَعْثِه وعُقوبتِه(١).

= المعنى الأوَّلُ: في استِقامةٍ، يعني: أنَّه خُلِقَ على أكمَلِ وَجهٍ في الخِلْقةِ، مُستقيمًا يَمشي على قَدَمَيه، ويرفَعُ رَأْسَه وبَدَنَه مُعتَدِلًا، والبهائِمُ بالعَكْسِ؛ الرَّأسُ على حِذاءِ الدُّبُرِ، أمَّا بنو آدَمَ فالرَّأسُ مُرتَفِعٌ أعلى البَدَنِ، فهو كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقيل: المرادُ بـ﴿كَبَدٍ﴾ مُكابَدةُ الأشياءِ ومُعاناتُها، وأنَّ الإنسانَ يُعاني المشَقَّةَ في أمورِ الدُّنيا، وفي طَلَبِ الرِّزقِ، وفي إصلاحِ الحَرْثِ وغَيرِ ذلك، ويُعاني أيضًا معاناةً أشَدَّ مع نَفْسِه ومجاهَدتِها على طاعةِ اللهِ، واجتِنابِ مَعاصي اللهِ، وهذا الجِهادُ الَّذي هو أشَقُّ مِن مُعاناةِ طَلَبِ الرِّزقِ، ولا سيَّما إذا ابتُلِيَ الإنسانُ ببيئةٍ مُنحَرِفةٍ، وصار بيْنَهم غَريبًا؛ فإنَّه سيَجِدُ المشَقَّةَ في مُعاناةِ نَفْسِه، وفي مُعاناةِ النَّاسِ أيضًا).

ثمَّ ذكَرَ القاعِدةَ: أنَّه إذا كانت الآيةُ تحتَمِلُ مَعنَيينِ فتُحمَلُ عليهما إذا لم يكُنْ بيْنَهما مُناقَضةٌ، ثمَّ قال: (﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ يَصِحُّ أن تكونَ الآيةُ شامِلةً للمعنَيَينِ، أي: في حُسنِ قامةٍ واستِقامةٍ، و﴿فِى كَبَدٍ﴾ في مُعاناةٍ لِمَشاقِّ الأمورِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٢، ٢١٣).

وقيل: التَّعريفُ في الإنسان تَعريفُ الجِنسِ، والمرادُ به خُصوصُ أهلِ الشِّركِ، والمرادُ بالكَبَدِ: التَّعَبُ الَّذي يُلازِمُ أصحابَ الشِّركِ مِن اعتِقادِهم تعدُّدَ الآلهةِ، واضطرابِ رأيِهم في الجَمعِ بيْنَ ادِّعاءِ الشُّرَكاءِ لله تعالى وبيْنَ توَجُّهِهم إلى اللهِ بطَلَبِ الرِّزقِ وبطَلَبِ النَّجاةِ إذا أصابَهم ضُرٌّ، ومِن إحالَتِهم البَعْثَ بعْدَ المَوتِ، مع اعترافِهم بالخَلْقِ الأوَّلِ. قاله ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥١).

قال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (يعني بالأحَدِ: اللهَ عزَّ وجَلَّ، يعني: نَفْسَه). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠٢).

وقال البِقاعي: (﴿أَحَدٌ﴾ أي: مِن أهلِ الأرضِ أو السَّماءِ، فيَغلِبَه؛ حتَّى إنَّه يُعانِدُ خالِقَه مع ما يَنظُرُ مِن اقتِدارِه على أمثالِه بنَفْسِه وبمَن شاء مِن جُنودِه، فيُعادي رُسُلَه عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، =

كما قال الله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٣، ٤].

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾.

أي: يَقولُ هذا الإنسانُ المبَذِّرُ أموالَه في الباطِلِ وفي شَهَواتِه ومَلَذَّاتِه: أنفَقْتُ مالًا كَثيرًا[1].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا﴾ [النساء: ٣٨].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾.

أي: أيَظُنُّ أنَّ اللهَ لم يَرَه حالَ إنفاقِ أموالِه في الباطِلِ، وأنَّه لن يُحاسِبَه ويُجازيَه

---

= ويَجحَدُ آياتِه!). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٥٢).

قال القرطبي: (أي: أيَظُنُّ ابنُ آدَمَ أنْ لن يُعاقِبَه اللهُ عزَّ وجَلَّ؟!). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤).

ويُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٣).

قال ابنُ جرير: (أهلَكْتُ مالًا كثيرًا في عَداوةِ محمَّدٍ، فأنفَقْتُ ذلك فيه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٢، ٤١٣).

وقال ابنُ عاشور: (كان أهلُ الجاهليَّةِ يتبجَّحونَ بإتلافِ المالِ ويَعُدُّونَه مَنقَبةً؛ لإيذانِه بقِلَّةِ اكتِراثِ صاحِبِه به). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٢).

على ذلك[١]؟!

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا حكى سُبحانَه عن ذلك الكافِرِ قَولَه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، أقام الدَّلالةَ على كَمالِ قُدرتِه؛ فقال تعالى[٢]:

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾.

أي: ألَمْ نجعَلْ له عينَينِ يُبصِرُ بهما[٣]؟

﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾.

أي: أوَلم نجعَلْ له لِسانًا وشفَتينِ يَستعينُ بهما على النُّطقِ أو غَيرِه مِنَ المنافِعِ[٤]؟

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾.

أي: وبَيَّنَّا له طريقَ الخَيرِ وطَريقَ الشَّرِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير الجاوي)) (٢/ ٦٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).
قال القرطبي: (المعنى: نحن فعَلْنا ذلك، ونحن نَقدِرُ على أنْ نبعَثَه ونُحصيَ عليه ما عَمِلَه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٥٥، ٥٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٥، ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير =

## الفَوائِدُ التَّربويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ أنَّه سُبحانَه سَمَّى الإنفاقَ في الشَّهَواتِ والمعاصي إهلاكًا، ووَجْهُه: أنَّه لا ينتَفِعُ المُنفِقُ بما أنفَقَ، ولا يَعودُ عليه مِن إنفاقِه إلَّا النَّدَمُ والخَسارُ والتَّعَبُ والقِلَّةُ، لا كمَن أنفَقَ في مَرضاةِ اللهِ في سَبيلِ الخَيرِ؛ فإنَّ هذا قد تاجَرَ مع الله، ورَبِحَ أضعافَ أضعافِ ما أنفَقَ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۞ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۞ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أعقَبَ سُبحانَه ما به اكتِسابُ العِلمِ، وما به الإبانةُ عن المعلوماتِ بما يُرشِدُ الفِكرَ إلى النَّظَرِ والبَحثِ، وذلك قَولُه: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾، فاستكمَلَ الكلامُ أُصولَ التَّعَلُّمِ والتَّعليمِ؛ فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ مُحِبًّا للمَعرفةِ محِبًّا للتَّعريفِ، فبِمَشاعِرِ الإدراكِ يكتَسِبُ المُشاهَداتِ -وهي أصولُ المعلوماتِ اليَقينيَّةِ-، وبالنُّطقِ يُفيدُ ما يَعْلَمُه لغيرِه، وبالهَدْيِ إلى الخَيرِ والشَّرِّ يُمَيِّزُ بيْنَ مَعلوماتِه ويُمَحِّصُها[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ سؤالٌ: أنَّ هذه الآيةَ الكريمةَ يتبادَرُ مِن ظاهِرِها أنَّه تعالى أخبَرَ بأنَّه لا يُقسِمُ بهذا البلَدِ الَّذي هو مكَّةُ المكَرَّمةُ، مع أنَّه تعالى أقسَمَ به في قَولِه تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين: ٣].

---

= القرطبي)) (٢٠/ ٦٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

قال ابنُ تيميَّةَ: (المعنى: ألَمْ نُعَرِّفْه طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ، ونُبَيِّنْه له كتَبيينِ الطَّريقَينِ العالِيَينِ؟). ((مجموع الفتاوى)) (١٠/ ٥٨٠).

وقال أبو حيَّانَ: (﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ قال ابنُ مَسعودٍ وابنُ عبَّاسٍ والجُمهورُ: طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ. وقال ابنُ عبَّاسٍ أيضًا، وعليٌّ، وابنُ المسَيِّبِ، والضَّحَّاكُ: الثَّديَينِ؛ لأنَّهما كالطَّريقَينِ لحياةِ الوَلَدِ ورِزْقِه). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٢).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٤).

**الجوابُ مِن أوجُهٍ:**

**الأوَّلُ** -وعليه الجُمهورُ-: أنَّ «لا» هنا صِلةٌ على عادةِ العرَبِ؛ فإنَّها رُبَّما لَفَظَت «لا» مِن غيرِ قَصدِ معناها الأصليِّ، بل لِمُجَرَّدِ تقويةِ الكلامِ وتوكيدِه، كقَولِه: ﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣] يعني: أن تتَّبِعَني.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ «لا» نَفيٌ لكلامِ المُشرِكينَ المكَذِّبينَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وقَولُه: ﴿أُقْسِمُ﴾ إثباتٌ مُستأنَفٌ، وهذا القَولُ وإن قال به كثيرٌ مِن العُلَماءِ فليس بوَجيهٍ؛ لِقَولِه تبارك وتعالى في سورةِ (القيامةِ): ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]؛ لأنَّ قَولَه تعالى: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ يدُلُّ على أنَّه لم يُرِدِ الإثباتَ المؤتَنِفَ بعدَ النَّفيِ بقَولِه: ﴿أُقْسِمُ﴾.

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّها حَرفُ نَفيٍ أيضًا، ووَجْهُه أنَّ إنشاءَ القَسَمِ يتضَمَّنُ الإخبارَ عن تعظيمِ المقسَمِ به، فهو نفيٌ لذلك الخبَرِ الضِّمنيِّ على سبيلِ الكِنايةِ، والمرادُ أنَّه لا يَعظُمُ بالقَسَمِ، بل هو نَفْسُه عظيمٌ أُقسِمَ به أوْ لا.

**الوَجهُ الرَّابِعُ**: أنَّ اللَّامَ لامُ الابتِداءِ أُشبِعَت فتحتُها، وأصلُ الكلامِ: لَأُقْسِمُ، والعرَبُ رُبَّما أشبعَتِ الفَتحةَ بألِفٍ، والكسرةَ بياءٍ، والضَّمَّةَ بواوٍ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ﴾ سؤالٌ عن قَسَمِ اللهِ تعالى بهذه المخلوقاتِ، وقد نُهينا عن القَسَمِ بغيرِه.

**والجوابُ عنه مِن وَجهينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ هذا مِن فِعْلِ اللهِ تعالى، واللهُ لا يُسْأَلُ عمَّا يَفعَلُ، وله أنْ يُقسِمَ سُبحانَه بما شاء مِن خَلْقِه، وهو سائلٌ غيرُ مَسؤولٍ، وحاكمٌ غيرُ محكومٍ عليه.

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٦٣-٢٦٦).
وذكَرَ الشنقيطيُّ أنَّ القولَ الثَّالثَ لا يخلو مِن بُعدٍ.

**الثَّاني**: أنَّ قَسَمَ اللهِ بهذه الآياتِ دليلٌ على عَظَمتِه وكمالِ قُدرتِه وحِكمتِه، فيكونُ القَسَمُ بها الدَّالُّ على تعظيمِها ورَفْعِ شأنِها مُتضمِّنًا للثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ بما تَقتَضيه مِن الدَّلالةِ على عَظَمتِه، وأمَّا نحن فلا نُقسِمُ بغيرِ اللهِ أو صِفاتِه؛ لأنَّنا مَنهيُّونَ عن ذلك[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ تَضَمَّنَ القَسَمُ أصلَ المكانِ وأصلَ السُّكَّانِ؛ فمَرجِعُ البلادِ إلى مكَّةَ، ومَرجِعُ العِبادِ إلى آدمَ[٢]. وذلك على قولٍ.

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ استَدَلَّ به مَن مَنَعَ قِتالَ البُغاةِ فيه[٣]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ.

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه ليس في الدُّنيا إلَّا الكَدُّ والمِحْنةُ[٤].

٦- قال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ۝ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ۝ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ هذا الدَّليلُ العقليُّ القاطعُ فيه تنبيهٌ أنَّ الَّذي جَعَلَك تُبْصِرُ وتَتكلَّمُ وتَعلَمُ: أَولى أنْ يكونَ بَصيرًا متكَلِّمًا عالِمًا، فأيُّ دليلٍ عقليٍّ قَطعيٍّ أقوى مِن هذا وأبْيَنُ وأقرَبُ إلى المعقولِ[٥]؟!

---

(١) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢١٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٣٥).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٩).

لا خِلافَ بيْن الفُقهاءِ في أنَّ مَن دخَل مِن البُغاةِ الحرَمَ مُقاتِلًا وبدأ القِتالَ فيه أنَّه يُقاتَلُ، لكنِ اختلَفوا في قتالِهم في الحرَمِ إذا لم يَبدَؤوا بالقتالِ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (١٧/ ١٨٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦٦).

(٥) يُنظر: ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٣/ ٩١٥).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ ذِكْرُ الشَّفَتينِ مع اللِّسانِ؛ لأنَّ الإبانةَ تَحصُلُ بهما معًا، فلا ينطِقُ اللِّسانُ بدونِ الشَّفَتينِ، ولا تنطِقُ الشَّفتانِ بدونِ اللِّسانِ. ومِن دقائِقِ القرآنِ الكريمِ أنَّه لم يقتَصِرْ على اللِّسانِ ولا على الشَّفَتينِ، خِلافَ عادةِ كلامِ العرَبِ أن يقتَصِروا عليه؛ يقولون: «يَنطِقُ بلِسانٍ فَصيحٍ»، ويقولون: «لم ينطِقْ ببِنتِ شَفَةٍ» أو «لم يَنبِسْ ببِنتِ شَفَةٍ»؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ استِدلالٍ، فجيءَ فيه بما لَه مزيدُ تصويرٍ لخَلْقِ آلةِ النُّطقِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾

- ابتُدِئَت السُّورةُ الكريمةُ بالقسَمِ؛ تَشويقًا لِما يَرِدُ بعْدَه، وأُطِيلَت جُملةُ القسَمِ؛ زِيادةً في التَّشويقِ[٢].

- والإشارةُ بـ(هذا) مع بَيانِه بـ﴿ٱلۡبَلَدِ﴾ إشارةٌ إلى حاضرٍ في أذهانِ السَّامِعينَ، كأنَّهم يَرَونه؛ لأنَّ رُؤيتَه مُتكرِّرةٌ لهم، وهو بلَدُ مَكَّةَ، وفائدةُ الإتيانِ باسمِ الإشارةِ تَمييزُ المُقسَمِ به أكمَلَ تَمييزٍ؛ لقصْدِ التَّنويهِ به[٣].

- والقسَمُ بالبَلدةِ -مع أنَّها لا تدُلُّ على صِفةٍ مِن صِفاتِ الذَّاتِ الإلهيَّةِ، ولا مِن صِفاتِ أفعالِه-؛ كِنايةٌ عن تَعظيمِ اللهِ تعالَى إيَّاها وتَفضيلِها[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال تعالَى في سُورةِ (التِّينِ): ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين: ٣]، ولم يَصِفْه -هنا- بالأمْنِ؛ لأنَّه لا يُناسِبُ سِياقَ المشَقَّةِ، بخِلافِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٤).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٦).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٧).

ما في (التِّينِ)؛ فإنَّ المرادَ هناك الكَمالاتُ[١].

- وجُملة ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ مُعترِضةٌ لتَسليتِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالوعْدِ بفتْحِه، على مَعْنى: وأنتَ حِلٌّ بهِ في المُستقبَلِ، و(أنت) على هذا الوجْهِ مِن بابِ التَّقديمِ للاختِصاصِ، وقيل غيرُ ذلك[٢]. والمقصودُ مِن الاعتراضِ يَختلِفُ باختلافِ مَحمَلِ معْنى ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ﴾[٣].

- وتَكريرُ لَفظِ ﴿بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لقصْدِ تَجديدِ التَّعجيبِ، ولقَصْدِ تَأكيدِ فتْحِ ذلك البلدِ العزيزِ عليه، والشَّديدِ على المشرِكين أنْ يَخرُجَ عن حَوزتِهم[٤].

وقيل: إنَّه لمْ يُكرِّرْه؛ إذِ التَّقديرُ: لا أُقسِمُ بهذا البلدِ المحرَّمِ الَّذي جُبِلَت العرَبُ على تَعظيمِه وتَحريمِه، ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾، أي: أُحِلَّ لك فيه مِن حُرُماتِه ما لمْ يَحِلَّ لأحدٍ قبْلَك ولا بعْدَك؛ مِن قتْلِ ابنِ خَطَلٍ، وقِتالِ المشركين ساعةً مِن نَهارٍ، فالمرادُ بالبلدِ الأوَّلِ الباقي على تَحريمِه، وبالثَّاني الَّذي أُحِلَّ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إكرامًا له، وتَعظيمًا لمَنزلتِه[٥].

- قولُه: ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ نُكِّرَ الوالدُ والولَدُ للإبهامِ المُستقِلِّ بالمدْحِ والتَّعجُّبِ، وجِيءَ باسمِ الموصولِ (ما) في قولِه: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ دونَ (مَن)، مع أنَّ (مَن)

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٣، ٧٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٤٠، ٤٤١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٧٩، ٤٨٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٤٩).

(٥) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٢).

أكثَرُ استعمالًا في إرادةِ العاقلِ، وهو مُرادٌ هنا؛ فعُدِلَ عن (مَن)؛ لأنَّ (ما) أشدُّ إبهامًا، فأُرِيدَ تَفخيمُ أصحابِ هذه الصِّلةِ، فجِيءَ لهم بالمَوصولِ الشَّديدِ الإبهامِ؛ لإرادةِ التَّفخيمِ، ونَظيرُه قولُه تعالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ [آل عمران: ٣٦]، يعْني: مَولودًا عَجيبَ الشَّأنِ، ولأنَّ قُوَّةَ الإبهامِ في (ما) أنسَبُ بإرادةِ الجَماعةِ دونَ واحدٍ مُعيَّنٍ(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ الجُملةُ جَوابُ القَسَمِ، وهو الغرَضُ مِن السُّورةِ(٢).

- قولُه: ﴿فِي كَبَدٍ﴾، أي: تعَبٍ ومَشقَّةٍ، وهو تَسليةٌ للرَّسولِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ممَّا كان يُكابِدُه مِن قُرَيشٍ(٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۞ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ۞ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

- قولُه: ﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾ الهَمزةُ للإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّخطئةِ(٤).

- وفي قولِه: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ أُعقِبَت مَساوي نفْسِه بمَذامِّ أقوالِه، وهو التَّفخُّرُ الكاذبُ، والتَّمدُّحُ بإتلافِ المالِ في غيرِ صَلاحٍ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٢).

- قولُه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ الاستِفهامُ للإنكارِ والتَّوبيخِ[١].

- وأيضًا قولُه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ كِنايةٌ عن عِلمِ اللهِ تعالَى بدَخيلتِه، وأنَّ افتِخارَه بالكرَمِ باطلٌ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۞ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۞ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾

- قولُه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ تَعليلٌ للإنكارِ والتَّوبيخِ في قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥]، أو قولِه: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٧]، أي: هو غافلٌ عن قُدرةِ اللهِ تعالَى، وعن عِلمِه المُحيطِ بجَميعِ الكائناتِ الدَّالِّ عليهما أنَّه خلَقَ مَشاعرَ الإدراكِ، الَّتي منها العَينانِ، وخلَقَ آلاتِ الإبانةِ، وهي اللِّسانُ والشَّفتانِ، فكيف يكونُ مُفيضُ العِلمِ على النَّاسِ غيرَ قادرٍ وغيرَ عالِمٍ بأحوالِهم[٣]؟!

- قولُه: ﴿أَلَمْ نَجْعَل﴾ الهَمزةُ للاستِفهامِ، ويجوزُ أنْ يكونَ هذا الاستِفهامُ تَقْريريًّا، وأنْ يكونَ إنكاريًّا[٤].

- والاقتِصارُ على العَينينِ؛ لأنَّهما أنفَعُ المشاعِرِ، ولأنَّ المُعلَّلَ إنكارُ ظنِّه أنْ لم يَرَه أحدٌ[٥].

- قولُه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ النَّجْدُ: الأرضُ المرتفِعةُ ارتفاعًا دُونَ الجبَلِ، وعُبِّرَ بالنَّجْدَينِ عن الخَيرِ والشَّرِّ، وجُعِلَا نَجْدينِ؛ لصُعوبةِ اتِّباعِ أحدِهما،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٤).

وهو الخيرُ، فغُلِّبَ على الطَّريقَين. أو لأنَّ كلَّ واحدٍ صعْبٌ باعتبارٍ؛ فطَريقُ الخَيرِ صُعوبتُه في سُلوكِه، وطَريقُ الشَّرِّ صُعوبتُه في عَواقبِه؛ ولذلك عُبِّرَ عنه بعْدَ هذا بـ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾[1] [البلد: ١١].

- وأُدمِجَ في هذا الاستِدلالِ امتِنانٌ على الإنسانِ بما وُهِبَه مِن وَسائلِ العَيشِ المُستقيمِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٥).

## الآيات (١١-٢٠)

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ ١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾: أي: لم يَقتَحِمْها ولا جاوَزَها، والاقتِحامُ: الدُّخولُ في الأمرِ الشَّديدِ، والمُجاوَزةُ له بشِدَّةٍ وصُعوبةٍ، والعَقَبةُ: طَريقٌ في الجَبَلِ وَعْرٌ، والعَقَبةُ مَثَلٌ ضَرَبه اللهُ لِمُجاهدةِ النَّفْسِ والهوى والشَّيطانِ في أعمالِ البِرِّ، فجعَلَه كالَّذي يتكَلَّفُ صُعودَ العَقَبةِ، يقولُ: لم يَحمِلْ على نَفْسِه المشَقَّةَ بعِتقِ الرَّقبةِ ولا الإطعامِ. وقيل: هي عَقَبةُ جَهنَّمَ، أو: هي عقَبةٌ بيْن الجنَّةِ والنَّارِ. وأصلُ (قحم): يدُلُّ على وُرودِ الشَّيءِ بدونِ رَوِيَّةٍ، وأصلُ (عقب): يدُلُّ على ارتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبةٍ[1].

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾: أي: عِتقُ مَملوكٍ وتخليصُه مِن إسارِ الرِّقِّ، وكلُّ شَيءٍ أطْلَقْتَه فقَدْ فَكَكْتَه، وأصلُ (فكك): يدُلُّ على تفَتُّحٍ وانْفِراجٍ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انْتِصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ، ومِن ذلك اشتِقاقُ الرَّقَبةِ؛ لأنَّها مُنتَصِبةٌ، ولأنَّ النَّاظِرَ لا بُدَّ يَنتَصِبُ عندَ نَظَرِه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧) و(٥/ ٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٤)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٥٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٢٧) و(٤/ ٤٣٣)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) =

﴿مَسۡغَبَةٖ﴾: أي: مَجاعةٍ، وأصلُ (سغب): يدُلُّ على جوعٍ[١].

﴿مَتۡرَبَةٍ﴾: أي: فقرٍ، يُقالُ: تَرِبَ الرَّجُلُ إذا افْتَقَر، كأنَّه لَصِقَ بالتُّرابِ، فليس له شيءٌ غير التُّرابِ، وأصلُ (ترب) هنا: التُّرابُ وما يُشتَقُّ منه[٢].

﴿بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾: أي: بالرَّحمةِ والعطفِ والتَّراحُمِ فيما بيْنَهم، وأصلُ (رحم): يدُلُّ على الرِّقَّةِ والعَطفِ والرَّأْفةِ[٣].

﴿ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾: أي: اليمينِ، أو مُشتَقَّةٌ مِن اليُمْنِ، وهو ضِدُّ الشُّؤمِ، واليُمْنُ: البَرَكةُ[٤].

---

= للهروي (٥/ ١٤٦٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٧٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤٦)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (١/ ٢٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٣)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٥/ ٥٢).

قال ابن جرير: (قوله: ﴿مَتۡرَبَةٍ﴾ إنَّما هي مَفْعَلةٌ مِن: تَرِبَ الرَّجُلُ، إذا أصابَه التُّرابُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١).

وقال الواحديُّ: (المَتْرَبةُ: مَصدَرُ قولِهم: تَرِبَ يَتْرَبُ تَرَبًا ومَتْرَبةً -مِثل مَسْغَبة- إذا افتقَر حتَّى لَصِقَ بالتُّرابِ ضُرًّا). ((البسيط)) (٢٤/ ٣٤).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢١/ ٢١٦).

قال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلماءِ: قيل لهم أصحابُ اليمينِ؛ لأنَّهم يُؤْتَونَ كُتُبَهم بأَيْمانِهم. وقيل: لأنَّهم يُذهَبُ بهم ذاتَ اليمينِ إلى الجنَّةِ. وقيل: لأنَّهم عن يمينِ أبيهم آدَمَ، كما رآهم =

﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾: أي: الشِّمالِ، وأصلُ (شأم): يدُلُّ على الجانِبِ اليَسارِ[(١)].

﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: أي: مُطبَقةٌ مُغلَقةٌ، وأصلُ (وصد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ[(٢)].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾

قَولُه تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ استُشكِلَ عَدَمُ تَكرارِ «لا» هنا، مع أنَّها دخلَت على الماضي هنا غيرَ مُفيدةٍ للدُّعاءِ، وهم قالوا: يلزمُ تَكرارُها حينَئذٍ، كما في قَولِه تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١].

وأُجيبَ: بأنَّ اللَّازِمَ تَكرارُها لَفظًا أو معنًى، وهي هنا مُكَرَّرةٌ معنًى؛ لأنَّ تفسيرَ العَقَبةِ بما فُسِّرَت به مِن الأُمورِ المتعَدِّدةِ يلزَمُ منه تفسيرُ الاقتحامِ، فيكونُ: فلا اقتَحَمَ العَقَبةَ في معنى: فلا فَكَّ رَقَبةً ولا أطعمَ يتيمًا، ويجوزُ أن يكونَ عدَمُ تكريرِ (لا) هنا استِغناءً بقَولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البلد: ١٧]، فكأنَّه قيل: فلا اقتحَمَ العقَبةَ ولا آمَنَ.

ونُقِلَ قولٌ بعدَمِ وُجوبِ تَكريرِها، وأنَّها كـ «لَمْ»، وإذا كانت «لَا» بمعنى «لَمْ»

---

= النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كذلك ليلةَ الإسراءِ. وقيل: سُمُّوا أصحابَ اليمينِ وأصحابَ المَيْمَنةِ؛ لأنَّهم مَيامينُ، أي: مُبارَكونَ على أنفُسِهم؛ لأنَّهم أطاعوا ربَّهم فدخلوا الجنَّةَ، واليُمْنُ: البَرَكةُ). ((أضواء البيان)) (٧/ ٥١٣).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٤٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢٣٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣٨٧).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢).

لم يَلزَمْ تكريرُها، كما لا يلزمُ التَّكريرُ مع «لَمْ»، فإن تكرَّرَت في موضعٍ، نحوُ: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١]، فهو كتكريرِ «لَمْ»، نحوُ: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان: ٦٧]. والمُتيَقَّنُ أكثريَّةُ التَّكرُّرِ، وأمَّا وُجوبُه فليس بمتيقَّنٍ.

﴿فَكُّ﴾ خَبَرٌ لمبتدأٍ محذوفٍ، أي: اقتِحامُ العَقَبةِ فَكُّ رقبةٍ أو إطعامٌ. ﴿يَتِيمًا﴾: مفعولٌ به للمَصدرِ ﴿إِطْعَٰمٌ﴾[1].

## المعنى الإجماليُّ:

قال الله تعالى محرِّضًا على فِعلِ الخَيرِ، وإصلاحِ النَّفْسِ: فلَمْ يَقطَعِ الغَنِيُّ العَقَبةَ الشَّديدةَ، ويَتجاوَزْها بمُجاهَدةِ النَّفْسِ ومُخالَفةِ الهوَى والشَّيطانِ، بإنفاقِ مالِه في أوجُهِ البِرِّ والإحسانِ، وما أدراك أيُّ شَيءٍ تلك العَقَبةُ؟

ثمَّ فسَّر الله تعالى ذلك، فقال: اقتِحامُ تلك العَقَبةِ تخليصُ إنسانٍ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ، أو إطعامٌ في زَمَنِ مَجاعةٍ شَديدةٍ يتيمًا ذا قَرابةٍ، أو مِسكينًا لا شيءَ له، ثمَّ يكونُ ذلك المنفِقُ معَ ذلك مِن جُملةِ الَّذين آمَنوا، وأوصَى بَعضُهم بَعضًا بالتَّحَلِّي بالصَّبرِ والرَّحمةِ بالمَساكينِ واليَتامى؛ أولئك المتَّصِفونَ بما تقدَّمَ ذِكرُه مِن الصِّفاتِ هم أصحابُ اليَمينِ.

ثمَّ بيَّن الله تعالى سوءَ عاقِبةِ الكافِرين، فقال: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ هم أصحابُ الشِّمالِ، عليهم نارٌ مُطبَقةٌ مُغلَقةٌ؛ فلا يَخرُجونَ منها أبَدًا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٢٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٨٨)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٦).

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

بَعْدَ أن بَيَّنَ اللهُ تعالى ما أنعَمَ به على الإنسانِ مِنَ النِّعَمِ الجليلةِ؛ أَتْبَعَ سُبحانَه ذلك بحَضِّه على المُداوَمةِ على فِعلِ الخَيرِ، وعلى إصلاحِ نَفْسِه، فقال تعالى[١]:

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ١١﴾.

أي: فلَمْ يَقطَعِ الغَنِيُّ العَقَبةَ الشَّديدةَ، ويتكَلَّفْ صُعودَها ويَتجاوَزْها بمُجاهَدةِ النَّفْسِ ومُخالَفةِ الهوى والشَّيطانِ، بإنفاقِ مالِه في أوجُهِ البِرِّ والخَيرِ والإحسانِ[٢].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّنَ أنَّه لا خَلاصَ مِنَ النَّكَدِ إلَّا بهذا الاقتحامِ؛ شرَعَ في تفسيرِ العَقَبةِ بادِئًا بتهويلِ أمْرِها؛ لعَظيمِ قَدْرِها[٣].

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ١٢﴾.

أي: وما أدراك أيُّ شَيءٍ تلك العَقَبةُ العَظيمةُ الَّتي حَثَّ اللهُ على اقتِحامِها[٤]؟

---

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤١٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٥، ٣٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٥).

والعقبةُ عبارةٌ عن الأعمالِ الصَّالحةِ المذكورةِ بعدُ، وفسَّرها ابنُ عبَّاسٍ بالنَّارِ، وفسَّرها ابنُ عمرَ بعقبةٍ في النَّارِ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٤)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٤/ ٣٨٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٥).

قيل: المخاطَبُ بقَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إليه: ابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، والماوَرْديُّ، والقرطبي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٤)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٧٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٧).

=

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾.

أي: تخليصُ إنسانٍ مِن رِقِّ العُبوديَّةِ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَنْ أَعتَقَ رَقَبةً مُسلِمةً أعتَقَ اللهُ بكُلِّ عُضوٍ منه عُضوًا مِنَ النَّارِ، حتَّى فَرْجَه بفَرْجِه))[(٢)].

وعن البَراءِ بنِ عازِبٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: ((جاء أعرابيٌّ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: يا رَسولَ اللهِ، عَلِّمْني عَمَلًا يُدخِلُني الجنَّةَ. فقال: لئِنْ كُنتَ أقصَرْتَ الخُطْبةَ لَقد أعرَضْتَ المسألةَ، أَعتِقِ النَّسَمةَ، وفُكَّ الرَّقَبةَ. فقال: يا رَسولَ الله، أوَلَيْسَتا بواحِدةٍ؟! قال: لا؛ إنَّ عِتقَ النَّسَمةِ أن تَفرَّدَ بعِتْقِها، وفَكَّ الرَّقَبةِ أن تُعِينَ في عِتْقِها[(٣)]))[(٤)].

---

= وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ في ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾ لغَيرِ مُعَيَّنٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٦).

قال السمينُ الحلبيُّ: (وفي الكلامِ حَذْفُ مُضافٍ دلَّ عليه ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ﴾، تقديرُه: وما أدْراكَ ما اقتِحامُ العَقَبةِ؟ فالتَّقديرُ: اقتِحامُ العَقَبةِ فَكُّ رَقَبَةٍ أو إطعامٌ، وإنَّما احْتِيج إلى تقديرِ هذا المُضافِ لِيَتطابَقَ المفسَّرُ والمفسَّرُ). ((الدر المصون)) (١١/ ٩).

وقال السعدي: (مِن بابِ أَولى فَكاكُ الأسيرِ المسلِمِ عندَ الكُفَّارِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٧١٥) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٥٠٩).

(٣) فكُّ الرقبةِ: تخليصُ الشَّخصِ مِن الرِّقِّ، وخُصَّ في هذا الحديثِ بمَن أعان في عتقِها حتَّى تعتقَ، وإذا ثبَت الفضلُ في الإعانةِ ثبَت في التفرُّدِ بالعتقِ مِن بابِ أولَى. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ١٤٦).

(٤) أخرجه أحمدُ (١٨٦٤٧) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٣٧٤)، والحاكمُ (٢٨٦١).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وكذا ابنُ حَجَر في ((فتح الباري)) (٥/ ١٧٤)، والألبانيُّ في ((صحيح =

﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ١٤﴾.

أي: أوْ تَقديمُ الطَّعامِ في زَمَنِ مَجاعةٍ شَديدةٍ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ١٥﴾.

أي: ليتيمٍ مِن أقارِبِه(٢).

﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ ١٦﴾.

أي: أوْ لِمِسكينٍ لا شيءَ له(٣).

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ١٧﴾.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

---

= الموارد)) (١٠١٧)، وصَحَّح إسنادَه الحاكِمُ، وكذا شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٣٠/ ٦٠٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٢٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٧).

قال الشوكاني: (﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ أي: لا شَيءَ له، كأنَّه لَصِقَ بالتُّرابِ؛ لفَقْرِه، وليس له مأوًى إلَّا التُّرابُ، يقالُ: تَرِبَ الرَّجُلُ يَترَبُ تَرَبًا ومَترَبةً: إذا افتَقَر حتَّى لَصِقَ بالتُّرابِ ضُرًّا). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤١).

وقال البِقاعي: (﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا﴾ أي: شَخْصًا لا كِفايةَ له ﴿ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ أي: حاجةٍ مُقعِدةٍ له على التُّرابِ، لا يَقدِرُ على سِواه!). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٦٢، ٦٣).

أي: ثمَّ إنَّ المُنفِقَ مالَه في فَكِّ الرِّقابِ، أو إطعامِ اليتيمِ القَريبِ، أو إطعامِ المِسكينِ المحتاجِ: يَنبغي أن يكونَ مع ذلك مِن جُملةِ الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به؛ فتلك القُرُباتُ إنَّما تَنفَعُ مع الإيمانِ(١).

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، ابنُ جُدْعانَ كان في الجاهِليَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، ويُطعِمُ المِسكينَ، فهل ذاك نافِعُه؟ قال: لا يَنفَعُه؛ إنَّه لم يَقُلْ يومًا: ربِّ اغفِرْ لي خطيئَتي يومَ الدِّينِ))(٢).

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

أي: ويكونُ ممَّن أوصى بَعضُهم بَعضًا بالتَّحَلِّي بالصَّبرِ(٣).

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾.

أي: ويكونُ ممَّن أوصى بعضُهم بعضًا بالرَّحمةِ بالمساكينِ واليَتامى والضُّعَفاءِ،

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٨، ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٧).

(٢) رواه مسلم (٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٧).

وسائِرِ الخَلْقِ[١].

عن النُّعْمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَثَلُ المؤمِنينَ في تَوادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم مَثَلُ الجسَدِ: إذا اشتكى منه عُضوٌ تداعَى له سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمَّى))[٢].

وعن جَريرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((لا يَرحَمُ اللهُ مَن لا يَرحَمُ النَّاسَ))[٣].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا نَوَّهَ بالَّذين آمَنوا؛ أعقَبَ التَّنويهَ بالثَّناءِ عليهم وبِشارتِهم[٤].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ١٨﴾.

أي: أولئك المتَّصِفونَ بما تقدَّمَ ذِكرُه مِن الصِّفاتِ هم أصحابُ اليَمينِ[٥].

ثمَّ بيَّن الله سُبحانَه سوءَ عاقِبةِ الكافِرين، فقال[٦]:

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٨).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٠١١)، ومسلمٌ (٢٥٨٦) واللَّفظُ له.

(٣) رواه البخاري (٧٣٧٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢١٨).
وقال البِقاعي: (﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ أي: الجانِبِ الَّذي فيه اليُمْنُ والبَرَكةُ والنَّجاةُ مِن كُلِّ هَلَكةٍ بقِسمَيهم مِن السَّابِقينَ المُقرَّبينَ، وأصحابِ اليَمينِ الأبرارِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٦٧).

(٦) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٠٧).

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ١٩﴾.

أي: والَّذين كَفَروا بآياتِ اللهِ هم أصحابُ الشِّمالِ[١].

﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ٢٠﴾.

أي: عليهم نارٌ مُطبَقةٌ؛ فلا يَخرُجونَ منها أبَدًا[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ أفاد نفْيُ الاقتحامِ أنَّه عَدَلَ عن الاهتِداءِ إيثارًا للعاجلِ على الآجِلِ، ولو عَزَمَ وصَبَرَ لَاقتَحَمَ العَقَبةَ[٣].

٢- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ. في تَفسيرِ العَقَبةِ بالمذكوراتِ؛ فَكُّ الرَّقبةِ، وإطعامُ اليتيمِ والمِسكينِ: توجيهٌ إلى ضَرورةِ الإنفاقِ حَقًّا، لا ما يدَّعيه الإنسانُ بدونِ حَقيقةٍ في قَولِه: ﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾[٤] [البلد: ٦]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

وقال البقاعي: (﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ أي: الخَصْلةِ المُكسِبةِ للشُّؤمِ والحِرْمانِ والهَلَكةِ، فهؤلاء مَشائيمُ على أنفُسِهم). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٠٩)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٥).

قال البقاعي: (﴿نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ أي: مُطبَقةُ البابِ مع إحاطَتِها بهم مِن جميعِ الجوانِبِ -بما أفهَمَتْه أداةُ الاستِعلاءِ-، ومع الضِّيقِ والوُعورةِ، وهذا لعَمْري أشَدُّ الضِّيقِ والكَبَدِ، والنَّصَبِ والنَّكَدِ!). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٦).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٣٢).

٣- إطعامُ الطَّعامِ يُوجِبُ دخولَ الجَنَّةِ، ويُباعِدُ مِن النَّارِ، ويُنجِّي منها، كما قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، وفي الحَديثِ الصَّحيحِ قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((اتَّقُوا النَّارَ ولو بشِقِّ تَمرةٍ))[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ فَضلُ الإطعامِ، خُصوصًا عِندَ الحاجةِ إليه في زَمَنِ الجُوعِ[٢].

٥- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ...﴾ جَعَلَ الأعمالَ الصَّالحةَ عَقَبةً، وعَمَلَها اقتحامًا لها؛ لِما في ذلك مِن مُعاناةِ المَشقَّةِ ومُجاهَدةِ النَّفْسِ[٣].

٦- قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ * أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ فخَصَّ أهلَ المَيْمَنةِ بأنَّهم أهلُ الصَّبرِ والمَرحَمةِ، الَّذين قامتْ بهم هاتان الخَصْلتانِ، ووَصَّوا بهما غَيرَهم، وهذا حَصرٌ لأصحابِ المَيمنةِ فيمَن قام به هذانِ الوَصفانِ. والنَّاسُ بالنِّسبةِ إليهما أربعةُ أقسامٍ: هؤلاء خيرُ الأقسامِ. وشَرُّهم مَن لا صَبْرَ له ولا رحمةَ فيه، ويَليه مَن له صَبرٌ ولا رحمةَ عِندَه، ويليه القِسمُ الرَّابعُ، وهو مَن له رحمةٌ ورِقَّةٌ، ولكِنْ لا صَبْرَ له[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ دليلٌ على أنَّ التَّواصيَ بالخَيرِ

---

(١) يُنظر: ((اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى)) لابن رجب (ص: ٧٦).
والحديث أخرجه البخاريُّ (١٤١٧)، ومسلمٌ (١٠١٦) من حديثِ عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦١، ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ٧٥). ويُنظر أيضًا: ((التحفة العراقية)) لابن تيمية (ص: ٥٨).

هو مِن محمودِ الأخلاقِ، ومَرْضِيِّ الأفعالِ، ومُكتَسبِ الفَوزِ بالجَنَّةِ، والنَّجاةِ مِن النَّارِ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أنَّه يجبُ على المرءِ أن يدُلَّ غَيرَه على طريقِ الحَقِّ، ويَمنَعَه مِن سُلوكِ طريقِ الشَّرِّ والباطِلِ ما أمكَنَه[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ الحَثُّ على التَّواصي بالرَّحمةِ مع الصَّبرِ[٣]؛ فإنَّ الصَّبرَ مِلاكُ الأعمالِ الصَّالحةِ كلِّها؛ لأنَّها لا تَخْلو مِن كَبْحِ الشَّهوةِ النَّفسانيَّةِ، وذلك مِن الصَّبرِ، والمَرحمةَ مِلاكُ صَلاحِ الجامعةِ الإسلاميَّةِ، قال تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، والتَّواصي بالرَّحمةِ فَضيلةٌ عَظيمةٌ[٤].

١٠- قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ لا بدَّ أن يَصبِرَ وأن يَرحَمَ، وهذا هو الشَّجاعةُ والكَرَمُ؛ ولهذا يَقرِنُ اللهُ بيْن الصَّلاةِ والزَّكاةِ تارةً -وهي الإحسانُ إلى الخَلْقِ، وبَيْنَهما وبيْن الصَّبرِ تارةً، ولا بُدَّ مِن الثَّلاثةِ: الصَّلاةُ، والزَّكاةُ، والصَّبرُ، لا تقومُ مَصلَحةُ المؤمِنينَ إلَّا بذلك؛ في صلاحِ نُفوسِهم، وإصلاحِ غَيرِهم، لا سيَّما كُلَّما قَوِيَت الفِتنةُ والمِحْنةُ؛ فالحاجةُ إلى ذلك تكونُ أشَدَّ، فالحاجةُ إلى السَّماحةِ والصَّبرِ عامَّةٌ لجَميعِ بني آدَمَ، لا تقومُ مَصلحةُ دِينِهم ولا دُنياهم إلَّا به؛ ولهذا جميعُهم يتمادَحونَ بالشَّجاعةِ والكَرَمِ، حتَّى إنَّ ذلك عامَّةُ ما يَمدَحُ به الشُّعراءُ في شِعْرِهم، وكذلك يتذامُّون بالبُخلِ والجُبنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٩٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦١).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ١٥٤).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ ...﴾ كلُّ موضعٍ في القرآنِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد عُقِّب ببَيانِه، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[1] [الشورى: ١٧].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ تَشَوُّفُ الشَّارعِ إلى العِتْقِ وإيقاعِه[2]، وإشعارٌ بحقيقةِ مَوقِفِ الإسلامِ مِنَ الرِّقِّ، ومدى حِرصِه وتطَلُّعِه إلى تحريرِ الرِّقابِ؛ فها هو هنا يجعَلُ عِتقَ الرَّقبةِ سُلَّمَ اقتِحامِ العَقَبةِ، وجَعَلَه عِتقًا للمُعتِقِ مِن النَّارِ، كُلُّ عُضوٍ بعُضوٍ، ومعلومٌ أنَّ كُلَّ مُسلِمٍ يسعى لذلك، وجعَلَه كَفَّارةً لكُلِّ يمينٍ، وللظِّهارِ بيْنَ الزَّوجَينِ، وكفَّارةَ القَتلِ الخطَأِ، كُلُّ ذلك نوافِذُ عِتقِ الرِّقابِ وإطلاقِها، في الوقتِ الَّذي لم يُفتَحْ للاسترقاقِ إلَّا بابٌ واحِدٌ، هو الأَسْرُ في القِتالِ مع المُشرِكينَ لا غَيرُ، وفي ذلك رَدٌّ على المُستَشرِقينَ ومَن تأثَّرَ بهم في ادِّعائِهم على الإسلامِ أنَّه مُتعَطِّشٌ لاسترقاقِ الأحرارِ[3]!

---

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).

وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وما كان مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).

وأخرج ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتمٍ، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٤).

قال ابنُ عاشور: (مُرادُهم أنَّ مَفعولَ «ما أدراك» مُحقَّقُ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للتَّهويلِ، وأن مَفعولَ «ما يُدْريك» غيرُ مُحقَّقِ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للإنكارِ، وهو في معْنى نفْيِ الدِّرايةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٣٢).

٣- قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۞ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وهو يَشملُ العِتْقَ، ويَشملُ فَكَّ الأسيرِ مِن العدُوِّ؛ فإنَّ هذا مِن فَكِّ الرِّقابِ، ففي الآيةِ دَليلٌ على فَضيلةِ العِتْقِ[١].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ﴾ أنَّ العِتقَ أفضَلُ أنواعِ الصَّدَقاتِ؛ وَجْهُه: تَقَدُّمُ العِتقِ على الصَّدَقةِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ﴾ دَلالةٌ على أنَّ الصَّدَقةَ على الأقارِبِ أفضَلُ منها على الأجانِبِ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۞ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ فَضلُ إطعامِ اليتيمِ -خصوصًا القَريبَ-، وإطعامِ المِسكينِ[٤].

٧- قال تعالى: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ استُدِلَّ بهذه الآيةِ على أنَّ المِسكينَ قد يكونُ بحيث يَملِكُ شَيئًا؛ لأنَّه لو كان لَفظُ المِسكينِ دَليلًا على أنَّه لا يملِكُ شَيئًا البتَّةَ، لَكان تقييدُه بقَولِه: ﴿ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ تكريرًا، وهو غيرُ جائزٍ[٥]. فالمُرادَ بالمِسْكينِ هاهنا الفقيرُ؛ لأنَّه لم يُطْلِقْ ذِكْرَه، ولكِنْ قَيَّدَه بصِفاتِ الفُقراءِ، بخِلافِ المِسكينِ الَّذي قد أُطْلِقَتْ صِفَتُه[٦].

---

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٥/ ٣٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٣٥٠).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٠).

وقال الشنقيطي: (وممَّا استدَلَّ به القائلونَ بأنَّ المسكينَ أحْوَجُ مِن الفقيرِ: أنَّ اللهَ قال في المسكينِ: ﴿أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾، قالوا: ﴿ذَا مَتۡرَبَةٍ﴾ أي: لا شيءَ عِندَه، حتَّى كأنَّه قد لَصِق بالتُّرابِ مِن الفَقرِ، ليس له مأوًى إلَّا التُّرابُ). ((أضواء البيان)) (٥/ ١٩٥).

(٦) يُنظر: ((الحاوي الكبير)) للماوردي (٨/ ٤٩٠). =

٨- في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ سُؤالٌ: أنَّه لَمَّا كان الإيمانُ شَرطًا للانتِفاعِ بهذه الطَّاعاتِ وجَبَ كَونُه مُقَدَّمًا عليها، فما السَّبَبُ في أنَّ اللهَ تعالى أخَّرَه عنها بقَولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**أحَدُها**: أنَّ التَّرتيبَ بالفاءِ لمجرَّدِ التَّرتيبِ الذِّكْريِّ، فكَونُه مِن الَّذين آمَنوا لا ترَتُّبَ له على ما قبْلَه إلَّا مُطلَقُ التَّرتيبِ الذِّكْريِّ، كما قيل:

«إنَّ مَن سادَ ثمَّ ساد أبوه ... ثمَّ قد ساد قَبْلَ ذلك جَدُّه»

فلم يُرِدْ بقَولِه: «ثمَّ ساد أبوه» التَّأخُّرَ في الوُجودِ، وإنَّما المعنى: ثمَّ اذكُرْ أنَّه ساد أبوه، كذلك في الآيةِ.

**ثانيها**: أنَّه يجوزُ أن يُحملَ على الظَّاهِرِ، بمعنَى: ثمَّ كان في عاقِبةِ أمْرِه مِنَ الَّذين آمَنوا، وهو أن يَموتَ مؤمنًا، فإنَّ مَن كان موافاتُه على الإيمان نفَعَتْه القُرَبُ، ومَن لا، فلا.

فالتَّراخي رُتبيٌّ، فالإيمانُ فوقَ جميعِ ما قبْلَه؛ لأنَّه يَستقِلُّ بكَونِه سببًا للنَّجاةِ، وهو شَرْطٌ في الاعتِدادِ بالأعمالِ.

**ثالثُها**: أنَّ مَن أتى بهذه القُرَبِ تقَرُّبًا إلى اللهِ تعالى قبْلَ إيمانِه بمحَمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ آمَنَ بعْدَ ذلك بمحَمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ؛ أُجِر على ما سلَف له مِن الخَيرِ[1].

---

= وقال أيضًا: (وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٥١] ولم يَقُلِ: المساكينُ؛ فدَلَّ على أنَّ الفقيرَ أمَسُّ حاجَةً وأسْوَأُ حالًا مِن المسكينِ، وقال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، فسَمَّاهم مَساكينَ ولهم سَفينةٌ، فدَلَّ على أنَّ المسكينَ أحسَنُ حالًا). ((الحاوي الكبير)) (٨/ ٤٨٩).

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٤)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٠)، ((تفسير الألوسي)) =

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ إشارةٌ إلى التَّعظيمِ لأمرِ اللهِ، وفي قَولِه: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ إشارةٌ إلى الشَّفَقةِ على خَلْقِ اللهِ، ومَدارُ أمرِ الطَّاعاتِ ليس إلَّا على هذَينِ الأصلَينِ(١).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾

- قولُه: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ يجوزُ أنْ يكونَ تَفريعَ إدماجٍ بمُناسَبةِ قولِه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، أي: هَديناهُ الطَّريقَينِ فلم يَسلُكِ النَّجْدَ المُوصِلَ إلى الخَيرِ. ويجوزُ أنْ يكونَ تَفريعًا على جُملةِ ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ [البلد: ٦]، وما بيْنَهما اعتراضًا، وتكونَ (لَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ) استِفهامًا حُذِفَ منه أداتُه، وهو استفهامُ إنكارٍ، والمعْنى: أنَّه يَدَّعي إهلاكَ مالٍ كَثيرٍ في الفسادِ مِن مَيْسِرٍ وخَمرٍ ونحْوِ ذلك، أفلا أهْلَكَه في القُرَبِ والفضائلِ، بفَكِّ الرِّقابِ، وإطعامِ المساكينِ في زمَنِ المَجاعةِ؟! فإنَّ الإنفاقَ في ذلك لا يَخْفَى على النَّاسِ، خِلافًا لِما يَدَّعيه مِن إنفاقٍ(٢).

- قولُه: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ الاقتِحامُ افتعالٌ؛ للدَّلالةِ على التَّكلُّفِ مِثلَ (اكتَسَبَ)، فشُبِّهَ تَكلُّفُ الأعمالِ الصَّالحةِ باقتحامِ عَقَبةِ الجبَلِ في شِدَّتِه على النَّفْسِ ومَشقَّتِه(٣).

---

= (١٥/ ٣٥٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٦/ ٣٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٠).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٥، ٣٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩١).

- والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ التَّوبيخِ على عدَمِ اهتداءِ هؤلاء للأعمالِ الصَّالحةِ، مع قِيامِ أسبابِ الاهتداءِ مِن الإدراكِ والنُّطقِ[١].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ اعتِراضٌ مُقحَمٌ لبَيانِ العقَبةِ، مُقرِّرٌ لمَعْنى الإبهامِ والتَّفسيرِ؛ فإنَّ ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ مُفسَّرٌ بقولِه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۞ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ﴾، والمفسَّرُ مَنفيٌّ، والمفسِّرُ كذلك؛ لاتِّحادِهما في الاعتِبارِ، كأنَّه قِيل: فلا فكَّ رقَبةً، ولا أطعَمَ مِسكينًا، ولزِيادةِ تَقريرِها وكَونِها عندَ اللهِ تعالَى بمَكانةٍ رَفيعةٍ، والمعْنى: أنَّك لم تَدْرِ كُنْهَ صُعوبتِها على النَّفْسِ، وكُنْهَ ثَوابِها عندَ اللهِ تعالَى[٢].

- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ قيل: هو حالٌ مِن ﴿ٱلۡعَقَبَةُ﴾ في قولِه: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾؛ للتَّنويهِ بها، وأنَّها لأهمِّيَّتِها يُسأَلُ عنها المخاطَبُ هلْ أعلَمَه مُعلِمٌ ما هي؟ أي: لمْ يَقتحِمِ العقَبةَ في حالِ جَدارتِها بأنْ تُقتحَمَ، وهذا التَّنويهُ يُفيدُ التَّشويقَ إلى مَعرفةِ المُرادِ مِن العقَبةِ[٣].

- و(ما) الأُولى والثَّانيةُ أيضًا في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ استفهامٌ، والتَّقديرُ: أيُّ شَيءٍ أعلَمَك ما هي العقَبةُ؟ أي: أعلَمَك جَوابَ هذا الاستفهامِ، كِنايةً عن كَونِه أمْرًا عَزيزًا يَحتاجُ إلى مَن يُعلِمُك به. والخِطابُ في قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ؛ لأنَّ هذا بمَنزلةِ المَثَلِ[٤]. وذلك على قولٍ.

- قولُه: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ قُرِئَ برَفْعِ ﴿فَكُّ﴾ وإضافتِه إلى ﴿رَقَبَةٍ﴾، ورفْعِ ﴿إِطۡعَٰمٞ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٨٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

عطْفًا على ﴿فَكُّ﴾، وجُملةُ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ بَيانٌ للعقَبةِ، والتَّقديرُ: هي فكُّ رَقَبةٍ، فحُذِفَ المُسنَدُ إليه حذْفًا لمُتابعةِ الاستِعمالِ[١]. وقُرِئَ ﴿فَكَّ﴾ بفتْحِ الكافِ على صِيغةِ فِعلِ المُضِيِّ، وبنصْبِ ﴿رَقَبَةً﴾ على المفعولِ لـ ﴿فَكَّ﴾، ﴿أو أطعَمَ﴾ بدونِ ألِفٍ بعْدَ عَينِ (إطعام) على أنَّه فِعلُ مُضيٍّ عطْفًا على ﴿فَكَّ﴾[٢]، فتكون جُملةُ ﴿فَكَّ رَقَبَةً﴾ بَيانًا لجُملةِ ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾، وما بيْنَهما اعتراضًا، أو تكون بدَلًا مِن جُملةِ ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾، أي: فلا اقتحَمَ العَقَبةَ، ولا فكَّ رَقَبةً أو أطعَمَ[٣]. ومَن قرَأَ ﴿فَكُّ﴾ بالرَّفعِ، فهو تَفسيرٌ لاقتحامِ العقَبةِ، والتَّقديرُ: وما أدْراكَ ما اقتِحامُ العقَبةِ، ومَن قرَأَ فِعلًا ماضيًا ﴿فَكَّ﴾، فلا يَحتاجُ إلى تَقديرِ مُضافٍ، بلْ يكونُ التَّعظيمُ للعَقَبةِ نفْسِها، ويَجيءُ ﴿فَكَّ﴾ بدلًا مِن ﴿ٱقۡتَحَمَ﴾[٤].

- وإيثارُ لَفظِ الرَّقَبةِ هنا؛ مع أنَ المُرادَ ذاتُ الأسيرِ أو العبْدِ؛ لأن أول ما يَخطُرُ بذِهنِ النَّاظرِ لواحدٍ مِن هؤلاء هو رَقَبتُه؛ لأنَّه في الغالِبِ يُوثَقُ مِن رَقَبتِه، وأُطلِقَ الفكُّ على تَخليصِ المأخوذِ في أسْرٍ أو مِلْكٍ؛ لمُشابَهةِ تَخليصِ الأمْرِ العَسيرِ بالنَّزعِ مِن يَدِ القابضِ المُمتنِعِ[٥].

---

(١) وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٢) قرأ بهما ابنُ كثيرٍ وأبو عَمرٍو والكِسائيُّ، والباقونَ برفعِ ﴿فَكُّ﴾ وخَفضِ ﴿رَقَبَةٍ﴾ وكَسرِ الهمزةِ في ﴿إِطۡعَٰمٞ﴾ والميمِ المرفوعةِ مع التَّنوينِ وألِفٍ قبْلَها. يُنظر: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٤٧)، ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٨).

- قولُه: ﴿أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾ إضافةُ ﴿ذِي﴾ إلى ﴿مَسۡغَبَةٖ﴾ تُفيدُ اختِصاصَ ذلك اليومِ بالمَسغبةِ، أي: يومِ مَجاعةٍ، وذلك زمَنُ البرْدِ وزمَنُ القحْطِ، ووَجْهُ تَخصيصِ اليومِ ذي المَسغبةِ بالإطعامِ فيه أنَّ الناسَ في زمَنِ المَجاعةِ يَشتَدُّ شُحُّهم بالمالِ خَشيةَ امتِدادِ زمَنِ المَجاعةِ والاحتياجِ إلى الأقواتِ، فالإطعامُ في ذلك الزَّمنِ أفضَلُ، وهو العقَبةُ، ودونَ العقَبةِ مَصاعِدُ مُتفاوِتةٌ[1].

- واليتيمُ: الشَّخصُ الَّذي ليس له أبٌ وهو دونَ البُلوغِ، ووَجْهُ تَخصيصِه بالإطعامِ أنَّه مَظِنَّةُ قِلَّةِ الشِّبَعِ؛ لصِغَرِ سِنِّه، وضَعفِ عمَلِه، وفَقْدِ مَن يَعولُه، ولِحيائِه مِن التَّعرُّضِ لطلَبِ ما يَحتاجُه؛ فلذلك رُغِّبَ في إطعامِه وإنْ لم يَصِلْ حَدَّ المَسكنةِ والفقْرِ، ووُصِفَ بكَونِه ذا مَقرَبةٍ، أي: مَقرَبةٍ مِن المُطعِمِ؛ لأنَّ هذا الوصْفَ يُؤكِّدُ إطعامَه؛ لأنَّ في كَونِه يَتيمًا إغاثةً له بالإطعامِ، وفي كَونِه ذا مَقرَبةٍ صِلةً للرَّحِمِ[2].

- إنْ كان المرادُ بالإنسانِ الجِنسَ المَخصوصَ -أي: المُشركين- كان نفْيُ فكِّ الرِّقابِ والإطعامِ كِنايةً عن انتفاءِ تَحلِّيهم بشَرائعِ الإسلامِ؛ لأنَّ فكَّ الرِّقابِ وإطعامَ الجِياعِ مِن القُرُباتِ الَّتي جاء بها الإسلامُ مِن إطعامِ الجِياعِ والمَحاويجِ، وفيه تَعريضٌ بتَعييرِ المشركينَ بأنَّهم إنَّما يُحِبُّون التَّفاخُرَ والسُّمعةَ وإرضاءَ أنفُسِهم بذلك، أو لمُؤانَسةِ الأخِلَّاءِ، وذلك غالبُ أحوالِهم، أي: لم يُطعِموا يَتيمًا ولا مِسكينًا في يومِ مَسغَبةٍ، أي: هو الطَّعامُ الَّذي يَرْضاهُ اللهُ؛ لأنَّ فيه نفْعَ المُحتاجينَ مِن عِبادِه، وليس مِثلَ إطعامِكم في المآدِبِ والولائمِ والمُنادَمةِ الَّتي لا تَعودُ بالنَّفعِ على المُطعَمينَ؛ لأنَّ تلك المَطاعمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٥٨، ٣٥٩).

كانوا يَدْعون لها أمثالَهم مِن أهْلِ الجِدَةِ والغِنى دونَ حاجةٍ إلى الطَّعامِ، وإنَّما يُريدون المُؤانَسةَ أو المُفاخَرةَ. وإنْ كان المرادُ مِن الإنسانِ واحدًا مُعيَّنًا، جاز أنْ يكونَ المعْنى على نحْوِ ما تَقدَّمَ، وجاز أنْ يكونَ ذمًّا له باللُّؤمِ والتَّفاخُرِ الكاذبِ، وفضْحًا له بأنَّه لم يَسبِقْ منه عمَلٌ نافعٌ لقَومِه قبْلَ الإسلامِ، فلم يغرَمْ غَرامةً في فَكاكِ أَسيرٍ أو مَأخوذٍ بدَمٍ، أو مَنَّ بحُرِّيةٍ على عبْدٍ[١].

- في قَولِه: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ احتِباكٌ[٢]؛ ذِكْرُ القُرْبِ أوَّلًا يدُلُّ على ضِدِّه ثانيًا، وذِكْرُ المَتْرَبةِ ثانيًا يدُلُّ على ضِدِّها أوَّلًا، وسِرُّ ذلك أنَّه ذَكَر في اليتيمِ القُرْبَ المُعَطِّفَ، وفي المِسكينِ الوَصْفَ المرَقِّقَ الملَطِّفَ؛ فهو لا يَقصِدُ بإطعامِه إلَّا سَدَّ فاقتِه، ودخَلَ فيه اليتيمُ البعيدُ والفقيرُ مِن بابِ الأَولى، وإن كان أجنبيًّا[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾

- قولُه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ قيل: (ثُمَّ) لتَراخي الإيمانِ وتَباعُدِه في الرُّتبةِ، فتدُلُّ على أنَّ مَضمونَ الجُملةِ المَعطوفةِ بها أرْقى رُتبةً في الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ مِن مَضمونِ الكلامِ المعطوفةِ عليه، فيَصيرُ تَقديرُ الكلامِ: فلا اقتحَمَ العَقَبةَ بفكِّ رقَبةٍ أو إطعامٍ، بعْدَ كونِه مُؤمنًا؛ لأنَّ الإيمانَ هو السَّابقُ المقدَّمُ على غيرِه، ولا يَثبُتُ عمَلٌ صالحٌ إلَّا به، أو يكونُ التَّراخي في الذِّكرِ، كأنَّه قيل: ثمَّ اذكُرْ أنَّه كان مِن الَّذين آمَنوا[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٥٩، ٣٦٠).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٢٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٥١، ٤٥٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عاشور)) =

- وفي فِعلِ ﴿كَانَ﴾ إشعارٌ بأنَّ إيمانَه سابقٌ على اقتِحام العقَبةِ المطلوبةِ فيه بطَريقةِ التَّوبيخِ على انتفائِها عنه، فعطْفُ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على الجُمَلِ المَسوقةِ للتَّوبيخِ والذَّمِّ، يُفيدُ أنَّ هذا الصِّنفَ مِن النَّاسِ -أو هذا الإنسان المُعيَّن- لم يكُنْ مِن المؤمنينَ، وأنَّه مَلومٌ على ما فرَّطَ فيه؛ لانتفاءِ إيمانِه، وأنَّه لو فعَلَ شيئًا مِن هذه الأعمالِ الحَسَنةِ، ولم يكُنْ مِن الَّذين آمَنوا؛ ما نَفَعَه عمَلُه شيئًا؛ لأنَّه قد انتَفى عنه الحظُّ الأعظمُ مِن الصَّالحاتِ، كما دلَّت عليه (ثُمَّ) مِن التَّراخي الرُّتبيِّ، فهو مُؤذِنٌ بأنَّه شرْطٌ في الاعتدادِ بالأعمالِ[1].

- وقال هنا: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دونَ أنْ يقولَ: (ثُمَّ كان مؤمنًا)؛ لأنَّ كَونَه مِن الَّذين آمَنوا أدَلُّ على ثُبوتِ الإيمانِ مِن الوَصفِ بمؤمنٍ؛ لأنَّ صِفةَ الجَماعةِ أقوَى، مِن أجْلِ كَثرةِ الموصوفينَ بها؛ فإنَّ كثرةَ الخَيرِ خَيرٌ. ثم في هذه الآيةِ تقويةٌ أُخرَى للوصفِ، وهو جَعْلُه بالموصولِ المُشعِرِ بأنَّهم عُرِفوا بالإيمانِ بيْنَ الفِرَقِ[2].

- وحُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ للعِلمِ به، أي: آمَنوا باللهِ وحْدَه، وبرَسولِه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ودِينِ الإسلامِ؛ فجُعِلَ الفِعلُ كالمُستغني عن المُتعلَّقِ، وأيضًا لِيَتأتَّى مِن ذِكرِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تَخلُّصٌ إلى الثَّناءِ عليهم بقولِه: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾، ولِبشارتِهم بأنَّهم أصحابُ المَيمنةِ[3].

---

= (٣٠/ ٣٦٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٠). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- وخُصَّ بالذِّكرِ مِن أوصافِ المؤمنينَ تَواصِيهم بالصَّبرِ وتَواصِيهم بالمَرحمةِ؛ لأنَّ ذلك أشرَفُ صِفاتِهم بعْدَ الإيمانِ، وهو أيضًا كِنايةٌ عن اتِّصافِهم بالمَرحمةِ؛ لأنَّ مَن يُوصي بالمَرحمةِ هو الَّذي عَرَفَ قَدْرَها وفضْلَها، فهو يَفعَلُها قبْلَ أنْ يُوصِيَ بها. وفيه تَعريضٌ بأنَّ أهلَ الشِّركِ لَيسوا مِن أهلِ الصَّبرِ ولا مِن أهْلِ المَرحمةِ[1].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ۞ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ افتتح باسمِ الإشارةِ؛ لتَمييزِهم أكمَلَ تَمييزٍ؛ لإحضارِهم بصِفاتِهم في ذِهنِ السَّامعِ، مع ما في اسمِ الإشارةِ مِن إرادةِ التَّنويهِ والتَّعظيمِ[2].

- وفي قولِه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ۞ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ خُولِفَ في التَّعبيرِ؛ فقدْ أشارَ إلى المؤمنينَ تَكريمًا لهم، وأنَّهم حاضِرون عندَه تعالَى في مَقامِ كَرامتِه، وبمنزلةِ الجالسينَ أمامَه، لا يَعْدو الأمرُ أكثَرَ مِن الإشارةِ إليهم بالبَنانِ، ثمَّ استُعمِلَ لَفظُ الإشارةِ الدَّالِّ على البُعدِ، فلمْ يُقَلْ: (هؤلاء)؛ إيذانًا ببُعدِ مَنزلتِهم عندَه، ونَيلِهم شَرَفَ الحُظوةِ والقُربِ منه، أمَّا الكافرون فقدْ ذَكَرَهم بضَميرِ الغَيبةِ إشارةً إلى أنَّهم غائبون عن مَقامِ تَجلِّياتِه وسُبحاتِ فُيوضاتِه، وأنَّهم لا يَستَأهِلون أنْ يَمُتُّوا إليه ولو بأوهَنِ الأسبابِ، وهذا مِن العَجَبِ العُجابِ، فتَدبَّرْه[3]!

- وجُملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾ تَتميمٌ لِما سِيقَ مِن ذَمِّ الإنسانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٢).

المذكورِ آنِفًا؛ إذ لم يُعقَبْ ذمُّه هنالك بوَعيدِه عِنايةً بالأهمِّ، وهو ذِكرُ حالةِ أضْدادِه ووَعْدِهم، فلمَّا قُضِيَ حقُّ ذلك ثُنِيَ العِنانُ إلى ذلك الإنسانِ، فحَصَل مِن هذا النَّظمِ البديعِ مُحسِّنُ ردِّ العَجُزِ على الصَّدرِ(١)، ومُحسِّنُ الطِّباقِ(٢) بيْن المَيْمَنةِ والمَشْأمةِ(٣).

- وضَميرُ الفصْلِ في قولِه: ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ لتَقويةِ الحُكْمِ، وليس للقصْرِ؛

---

(١) رَدُّ العَجُزِ على الصَّدرِ: هو جَعْلُ أحدِ اللَّفظَينِ المُكرَّرَينِ -المتَّفِقَينِ في اللَّفظِ والمعنَى، أو المُتجانِسَينِ المُتَّفِقَينِ في اللَّفظِ دون المعنى، أو المُلحقَينِ بهما، بأنْ جمَعَهما اشتِقاقٌ أو شبهُه- في أوَّلِ الكلامِ، ثمَّ إعادةُ ذلك في آخِرِ الكلامِ، كقولِه تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وقولِه تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]، وهو مِن جِهاتِ الحُسنِ في الكَلامِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٣٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٣٣٣)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٥٨).

(٢) الطِّباق: هو الجمعُ بيْنَ مُتضادَّينِ معَ مراعاةِ التَّقابُلِ؛ كالبياضِ والسَّوادِ، واللَّيلِ والنَّهارِ، وهو قِسْمانِ: لفظيٌّ، ومعنويٌّ؛ فمِن الطِّباقِ اللَّفظيِّ: قولُه تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا﴾ [التوبة: ٨٢]، طابَق بيْنَ الضَّحِكِ والبكاءِ، والقليلِ والكثيرِ. ومِن الطِّباقِ المعنويِّ: قولُه تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٥، ١٦]؛ معناه: ربُّنا يَعلَمُ إنَّا لَصادِقونَ. ومنه: طباق ظاهرٌ، وهو ما كان وجْهُ الضِّدِّيَّةِ فيه واضحًا. وطباقٌ خَفيٌّ: وهو أن تكونَ الضِّدِّيَّةُ في الصُّورةِ متوهَّمةٌ، فتبدو المُطابَقةُ خفيَّةً؛ لِتَعلُّقِ أحدِ الرُّكنَينِ بما يُقابِلُ الآخَرَ تعلُّقَ السَّببيَّةِ أو اللُّزومِ، كقولِه تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]؛ فإنَّ إدخالَ النَّارِ يَستلزِمُ الإحراقَ المُضادَّ للإغراقِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]؛ لأنَّ معنى القصاصِ: القتلُ، فصار القتْلُ سببَ الحياةِ. وهذا مِن أملَحِ الطِّباقِ وأخفاه. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ١١١)، ((عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح)) للبهاء السبكي (٢/ ٢٢٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٥٥ - ٤٥٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٣).

إذ قدِ استُفِيدَ القَصرُ مِن ذِكرِ الجُملةِ المُضادَّةِ الَّتي قبْلَها، وهي ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾[1].

- وجُملةُ ﴿عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ﴾ بدَلُ اشتِمالٍ[2] مِن جُملةِ ﴿هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ﴾، أو استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن الإخبارِ عنهم بأنَّهم أصحابُ المَشأمةِ[3].

- و﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿مُّؤۡصَدَةُۢ﴾، وقُدِّمَ على عاملِه؛ للاهتمامِ بتَعلُّقِ الغلْقِ عليهم تَعجيلًا للتَّرهيبِ. وقدِ استَتَبَّ بهذا التَّقديمِ رِعايةُ الفواصلِ بالهاءِ ابتداءً مِن قولِه: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾[4] [البلد: ١١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٣).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ الشَّمسِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ الشَّمسِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (الشَّمسِ)، وأيضًا: ﴿وَٱلشَّمۡسِ﴾.

وسُمِّيَت أيضًا بسُورةِ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾[١]: فعن جابرٍ، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَلِّي معَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قومَه، فصَلَّى لَيلةً مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العِشاءَ، ثمَّ أتى قَومَه فأَمَّهم، فافتَتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)). وفيه أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال لِمُعاذٍ: ((يا مُعاذُ، أفتَّانٌ[٢] أنت؟! اقرَأْ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾))[٣].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الشَّمسِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٤].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

١- التَّرغيبُ في الطَّاعاتِ، والتَّحذيرُ مِن المعاصي[٥].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بقَولِ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٥).

(٢) أفَتَّانٌ: أي: مُنَفِّرٌ عن الدِّينِ وصادٌّ عنه، فالفتنةُ على وُجوهٍ، ومعناها هاهنا: صَرفُ النَّاسِ عن الدِّينِ، وحَمْلُهم على الضَّلالِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ١٨٢)، ((فتح الباري)) لابن رجب (٦/ ٢٣٠).

(٣) أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٤) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ الجوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٢)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ١٩٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٣).

٢- تَهديدُ المُشرِكينَ بأنَّهم يُوشِكُ أنْ يُصِيبَهم عَذابٌ بسببِ كفرِهم، كما أصاب مَن قبْلَهم[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- البَدءُ بالقَسَمِ بالمخلوقاتِ العَظيمةِ؛ مِمَّا هو دليلٌ على بَديعِ صُنعِ اللهِ تعالى.

٢- ذِكرُ أحوالِ النُّفوسِ ومَراتِبِها في مَسالِكِ الهُدى والضَّلالِ.

٣- بيانُ حُسنِ عاقِبةِ مَن يُزَكِّي نَفْسَه، وسوءِ عاقِبةِ مَن يَتبَعُ هَواها.

٤- الخَبَرُ عن إهلاكِ ثَمودَ، وتهديدِ المُشرِكينَ بأنَّهم سيُصيبُهم عذابٌ كما أصاب ثمودَ إذا ما استمَرُّوا في كُفْرِهم.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٥، ٣٦٦).

## الآيات (١-١٠)

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَضُحَىٰهَا﴾: الضُّحى: ارتِفاعُ الضَّوءِ وكَمالُه، وقيل: الضُّحى هنا: النَّهارُ كُلُّه، وأصْلُه يدُلُّ على بُروزِ الشَّيءِ[١].

﴿تَلَىٰهَا﴾: أي: تَبِعَها، يقال: تلَوْتُ زَيدًا، أي: تَبِعْتُه، وأصلُ (تلو): الاتِّباعُ[٢].

﴿جَلَّىٰهَا﴾: أي: بَيَّنَها وكشَفَها، والتَّجْلِيةُ: الإظهارُ والكَشْفُ، يقالُ: جَلَّى الأمرَ يُجَلِّيه: إذا أظهَرَه وأبرَزَه وبَيَّنَه، وأصلُ (جلو): انكِشافُ الشَّيءِ وبُروزُه[٣].

﴿يَغۡشَىٰهَا﴾: أي: يُغَطِّيها، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تَغطِيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٩١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٠٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦).
قال ابن عاشور: (الضُّحَى: وَقْتُ ارْتِفاعِ الشَّمْسِ عن أُفُقِ مَشْرِقِها، وظُهورِ شُعاعِها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٦٧)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٤/ ٣٧٨).
وقال الراغب: (أصلُ الجَلْوِ: الكشفُ الظَّاهرُ). ((المفردات في غريب القرآن)) (ص: ٢٠٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، =

﴿طَحَىٰهَا﴾: أي: بسَطَها ووسَّعَها، وأصلُ (طحو): يدُلُّ على البَسطِ والمَدِّ[١].

﴿سَوَّىٰهَا﴾: أي: عَدَّل خَلْقَها، وسَوَّى أعضاءَها، والتَّسويةُ: جعلُ الشَّيءِ سَواءً، أي: مُعَدَّلًا مُقَوَّمًا، وأصْلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعْتِدالٍ بيْنَ شيئَيْنِ[٢].

﴿فُجُورَهَا﴾: الفُجُورُ: شَقُّ سِتْرِ الدِّيانةِ، يقال: فَجَرَ فُجُورًا، والفَجْرُ: شَقُّ الشَّيءِ شَقًّا واسِعًا، وأصلُ (فجر): التَّفَتُّحُ في الشَّيءِ، ومنه الفُجورُ، وهو الانْبِعاثُ والتَّفَتُّحُ في المَعاصي[٣].

﴿أَفْلَحَ﴾: أي: فاز بالمطلوبِ ونجا مِن المَرهوبِ، والفَلاحُ: الظَّفَرُ وإدراكُ البُغيةِ، والبَقاءُ، وأصلُ (فلح) هنا: يدُلُّ على فَوزٍ وبَقاءٍ[٤].

﴿زَكَّىٰهَا﴾: أي: طهَّرها مِن الكُفْرِ والمَعاصي، وأصْلَحَها بالصَّالِحاتِ مِن الأعمالِ، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على طَهارةٍ ونَماءٍ وزِيادةٍ[٥].

﴿خَابَ﴾: أي: خَسِرَ وفاتَه الظَّفَرُ. والخَيْبةُ: الحِرمانُ والخُسْرانُ، وأصلُ (خيب):

---

= ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٢٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٤٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١١٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ٣٦٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٢٥).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص:١٦٦، ٢٢٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٧).

يدُلُّ على عَدَمِ فائدةٍ، وحِرمانٍ[١].

﴿دَسَّىٰهَا﴾: أي: نَقَصَها وأخفاها بالفُجورِ والمعاصي، مِنَ التَّدسيسِ: وهو إخفاءُ الشَّيءِ في الشَّيءِ، وأصلُ (دسس): يدُلُّ على دُخولِ الشَّيءِ تحتَ خَفاءٍ وسِرٍّ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالشَّمسِ وبضَوئِها، وبالقَمَرِ إذا تَبِعَ الشَّمسَ، وبالنَّهارِ إذا أظهَرَ الشَّمسَ وضَوءَها، وباللَّيلِ إذا غَشِيَ الشَّمسَ، فذَهَب بضَوئِها، وبالسَّماءِ وبالَّذي بناها، وبالأرضِ وبالَّذي بسَطَها مِن كُلِّ جانبٍ.

ثمَّ أقسَمَ الله تعالى بكُلِّ نَفْسٍ وبالَّذي خلَقَها، وعدَّل خَلْقَها، فبَيَّنَ اللهُ للنَّفْسِ طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ، والطَّاعةِ والمَعصيةِ.

ثمَّ قال تعالى مُؤكِّدًا على أهميَّةِ تزكيةِ النَّفسِ: قد فاز مَن طهَّر نَفْسَه ونقَّاها مِنَ الشِّركِ والكُفرِ والمعاصي، ونمَّاها بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وقد خَسِرَ وشَقِيَ مَن أخفى نَفْسَه وأرداها بالرَّذائِلِ والعُيوبِ والذُّنوبِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾.

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٣٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٠٠)، ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٦١).

أي: أُقسِمُ بالشَّمسِ وبضَوئِها[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٤، ٤٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٠).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ وأنَّ المرادَ بضُحاها ضَوْؤُها: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والواحِديُّ، والزَّمَخشريُّ، والرَّسْعَنيُّ، والبيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ جُزَي، والخازِنُ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والبِقاعيُّ، والعُلَيميُّ، وأبو السُّعودِ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٧)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٤٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٠٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٠).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٠).

قال الزَّمخشريُّ: (ضُحاها: ضَوْؤُها إذا أشرَقَت وقام سُلطانُها). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٨).

وقيل: المرادُ بضُحاها: النَّهارُ. وممنَّ قال بهذا: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جَريرٍ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٥).

ومِمَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٠).

قال ابنُ جريرٍ: (اختَلَف أهلُ التَّأويلِ في معنَى قولِه: ﴿وَضُحَىٰهَا﴾؛ فقال بعضُهم: معنَى ذلك: والشَّمسِ والنَّهارِ، وكان يَقولُ: الضُّحَى: هو النَّهارُ كُلُّه... وقال آخَرونَ: معنَى ذلك: وضَوْئِها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٤).

وقال الواحِديُّ: (القَولُ الثَّالِثُ ما ذكره مقاتِلٌ، قال: أقسَمَ اللهُ بالشَّمْسِ وحَرِّها، وهو قَولُ ابنِ عَبَّاسٍ في روايةِ عَطاءٍ). ((البسيط)) (٢٤/ ٤٤). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١).

وممَّن قال بالقَولِ الثَّالِثِ مِنَ السَّلَفِ أيضًا: السُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٠).

كما قال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١].

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا افتَتَح بذِكرِ آيةِ النَّهارِ؛ أتْبَعَه ذِكرَ آيةِ اللَّيلِ، فقال[١]:

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالقَمَرِ إذا تَبِعَ الشَّمسَ، فخَرَج مُضيئًا بَعْدَها[٢].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر الآيتَينِ؛ ذَكَر ما هما آيَتاه، وبدأ بهما؛ لأنَّه لا صلاحَ للإنسانِ إلَّا بهما، كما أنَّه لا صلاحَ للبَدَنِ إلَّا بالنَّفْسِ والعَقْلِ[٣].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بالنَّهارِ إذا أظهَرَ الشَّمسَ وضَوءَها[٤].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٠، ٢٢١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١).

قيل: المرادُ بـ﴿جَلَّىٰهَا﴾: جَلَّى الشَّمسَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: الثَّعْلبيُّ، ومكِّيٌّ، والنَّسَفيُّ، وأبو حيَّانَ، والبِقاعيُّ، والشَّوكانيُّ، والألوسيُّ، والقاسميُّ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٢)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٩٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤٦)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥٨)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٠). =

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر مَعدِنَ الضِّياءِ؛ ذَكَر محَلَّ الظَّلامِ[1]، فقال:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ٤﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ إذا غَشِيَ الشَّمسَ، فذَهَب بضَوئِها[2].

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ٥﴾.

---

= قال البِقاعيُّ: (﴿إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي: جَلَّى الشَّمسَ بحِليةٍ عَظيمةٍ بَعضُها أعظَمُ مِن بعضٍ باعتبارِ الطُّولِ والقِصَرِ، والصَّحوِ والغَيمِ والضَّبابِ، والصَّفاءِ والكَدَرِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٧١).

قال أبو حيَّان: (والَّذي تَقْتَضيه الفصاحةُ أنَّ الضَّمائرَ كُلَّها إلى قولِه: ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ عائِدةٌ على الشَّمسِ). ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٦).

وقال الألوسيُّ: (والأوَّلُ أَولى [أي: عود الضَّمائرِ على الشَّمسِ] لذِكْرِ المرجِعِ، واتِّساقِ الضَّمائرِ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥٨).

وقيل: المرادُ: جَلَّى الظُّلمةَ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ أبي زَمَنِينَ، والواحِديُّ، والبغَويُّ، والخازِنُ. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٢).

قال البغَويُّ: (يعني: إذا جَلَّى الظُّلمةَ، كنايةً عن غيرِ مذكورٍ؛ لكَونِه مَعروفًا). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٨).

وقيل: المرادُ: جَلَّى الأرضَ. وقد مال إليه وقوَّاه: ابنُ كثيرٍ، وذهب إليه: السعديُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧١، ٧٢).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر الآيتَينِ ومحَلَّ أثَرِهما؛ ذكَرَ محَلَّ الكُلِّ[١]، فقال:

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.

أي: وأُقسِمُ بالسَّماءِ، وبالَّذي بناها[٢].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٨، ٥٩٦).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ -أنَّ «ما» مَوصولةٌ بمعنى: الَّذي، وأنَّ الإقسامَ بالسَّماءِ وبانيها، الَّذي هو اللهُ تبارك وتعالى-: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، وأبو عُبَيْدَةَ، وابنُ جرير، وابنُ أبي زَمَنِين، والثَّعلبيُّ، والسَّمعانيُّ، والزَّمَخشريُّ، والرَّسْعَنيُّ، والبيضاويُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، والعُلَيميُّ، وأبو السُّعودِ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٠٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٤٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٥٩).

وممَّن قال به مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ، والحسَنُ، وعطاءٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٢)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٥٣).

قال ابنُ جُزَي: (فإن قيل: لِمَ عَدَل عن «مَنْ» إلى قَولِه: «ما»، في قَولِ مَن جعلَها مَوصولةً؟ فالجوابُ: أنَّه فعَل ذلك لإرادةِ الوَصْفيَّةِ، كأنَّه قال: والقادِرِ الَّذي بناها). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦). ويُنظر ما يأتي (ص: ٣٧٩).

وقيل: «ما» مَصدريَّةٌ، والمعنى: وبِنائِها. وممَّن اختاره: الفَرَّاءُ، والمُبَرِّدُ، والزَّجَّاجُ، والقُرطبيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٣)، ((المقتضب)) للمبرد (٢/ ٥٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٤).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٢). =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ [البقرة: ٢٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧، ٢٨].

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر البِناءَ؛ ذَكَر المِهادَ[١].

﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾.

أي: وأُقسِمُ بالأرضِ، وبالَّذي بسَطَها مِن كُلِّ جانبٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر: ١٩].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾.

أي: وأُقسِمُ بكُلِّ نَفْسٍ، وبالَّذي خلَقَها، وعدَّل خَلْقَها[٣].

---

= قال ابنُ كثيرٍ: (قَولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ يحتَمِلُ أن تكونَ «ما» هاهنا مَصدريَّةً، بمعنى: والسَّماءِ وبنائِها، وهو قَولُ قتادةَ، ويحتَمَلُ أن تكونَ بمعنى «مَن» يعني: والسَّماءِ وبانيها، وهو قَولُ مجاهِدٍ، وكِلاهما متلازِمٌ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٨، ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

قال ابنُ كثيرٍ: (قال مجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، والسُّدِّيُّ، والثَّوريُّ، وأبو صالحٍ، وابنُ زَيدٍ: ﴿طَحَىٰهَا﴾: بسَطَها، وهذا أشهَرُ الأقوالِ، وعليه الأكثَرُ مِنَ المفَسِّرينَ، وهو المعروفُ عِندَ أهلِ اللُّغةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٠)، ((الوسيط)) =

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾.

أي: فبَيَّنَ اللهُ للنَّفْسِ وعَرَّفَها طريقَ الخَيرِ والشَّرِّ والطَّاعةِ والمَعصيةِ، وجعَلَها مُهَيَّأةً ومُستَعِدَّةً لسُلوكِ الطَّريقَينِ(١).

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾.

أي: قد فاز مَن طهَّر نَفْسَه ونقَّاها مِنَ الشِّركِ والكُفرِ، والمعاصي والخِصالِ الرَّذيلةِ، ونمَّاها بالإيمانِ والعِلمِ النَّافِعِ، والأعمالِ الصَّالحةِ والأخلاقِ الحَسَنةِ

---

= للواحدي (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨-٣٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢).

قيل: المرادُ بالنَّفْسِ هنا: نفْسُ آدَمَ عليه السَّلامُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١).

وقيل: المرادُ: جِنسُ نُفوسِ النَّاسِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢).

قال الثعلبي: (﴿سَوَّىٰهَا﴾: عدَّل خَلْقَها). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٣).

وقال البغوي: (﴿سَوَّىٰهَا﴾: عدَّل خلقَها، وسوَّى أعضاءَها). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٨).

وقال ابنُ عطيَّة: (تَسويتُها: إكمالُ عَقْلِها ونَظَرِها؛ ولذلك ربطَ الكلامَ بقَولِه تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾ الآيَةَ، فالفاءُ تُعطي أنَّ التَّسويةَ هي هذا الإلهامُ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨).

وقال ابنُ كثير: (خلَقَها سَوِيَّةً مُستقيمةً، على الفِطرةِ القَويمةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١).

وقال ابنُ عاشور: (التَّسويةُ: تعديلُ الخِلْقةِ، وإيجادُ القُوى الجَسَديَّةِ والعَقليَّةِ، ثمَّ تَزدادُ كيفيَّةُ القُوى، فيَحصُلُ الإلهامُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢).

قال ابنُ جُزَي: (أي: عرَّفها طريقَ الفُجورِ والتَّقوى، وجعل لها قوَّةً يَصِحُّ معها اكتِسابُ أحدِ الأمْرَينِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٦).

الحميدةِ[(١)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٣١)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢، ٢٢٣).

قال ابنُ جُزي: (﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ هذا جوابُ القَسَمِ عندَ الجُمهورِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧).

وقال الزَّمخشريُّ: (فإنْ قُلتَ: فأين جوابُ القَسَمِ؟ قلتُ: هو محذوفٌ تقديرُه: لَيُدَمْدِمَنَّ اللهُ عليهم، أي: على أهلِ مكَّةَ؛ لتَكذيبِهم رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما دَمْدَمَ على ثَمودَ لأنَّهم كذَّبوا صالحًا. وأمَّا ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ فكلامٌ تابعٌ لقَولِه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ على سبيلِ الاستطرادِ، وليس مِن جوابِ القَسَمِ في شَيءٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٠).

ممَّن اختار القَولَ المذكورَ في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ وأيضًا في ﴿دَسَّىٰهَا﴾، وأنَّ المعنى: قد أفلح مَن زكَّى نَفْسَه، وقد خاب مَن دسَّى نَفْسَه: ابنُ قُتَيبةَ، ومَكِّيٌّ، وابنُ جُزَي، والبِقاعيُّ، والعُلَيمي، والشربيني، والشَّوكاني، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشورٍ، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((تأويل مُشْكِل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٢٩٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٧٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٢).

وقيل: المعنى: قد أفلح مَن زكَّى اللهُ نَفْسَه، وقد خاب مَن دسَّى اللهُ نَفْسَه. وبه قال: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والفَرَّاءُ، وابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والسَّمعانيُّ، والبَغَويُّ، والقُرطبيُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١١)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٦٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٣).

قال ابنُ كثيرٍ: (وقَولُه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ يحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: قد أفلح مَن زكَّى نَفْسَه، أي: بطاعةِ اللهِ -كما قال قَتادةُ- وطهَّرها مِن الأخلاقِ الدَّنيئةِ والرَّذائِلِ. =

قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤].

﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ١٠﴾.

أي: وقد خَسِرَ وشَقِيَ مَن أخفى نَفْسَه وقَمَعَها وحقَّرها وأرداها بالكفرِ والرَّذائِلِ والعُيوبِ، ودنَّسَها بالسَّيِّئاتِ والذُّنوبِ[1].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أنَّ اللهَ تعالى خلَقَ تلك النَّفْسَ أوَّلًا، ثمَّ سوَّاها على حالةٍ تَقبَلُ تلَقِّيَ الإلهامِ بقِسمَيه: الفُجورِ والتَّقْوى، ثمَّ تَسلُكُ أحدَ الطَّريقَينِ، فكأنَّ مجيءَ القَسَمِ بها بعدَ تلك المُسَمَّياتِ دَلالةٌ على عِظَمِ ذاتِها، وقُوَّةِ دَلالتِها على قُدرةِ خالِقِها، ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ مُستَعِدَّةً قابِلةً لتلَقِّي إلهامِ اللهِ إيَّاها، وفي مجيئِها بعدَ الآياتِ الكَونيَّةِ مِن شَمسٍ وقَمَرٍ، ولَيلٍ ونهارٍ، وسماءٍ وأرضٍ: لَفتٌ إلى وُجوبِ التَّأمُّلِ في تلك المخلوقاتِ، يُستَلْهَمُ منها الدَّلالةُ على قُدرةِ خالِقِها، والاستِدلالُ على تغيُّرِ الأزمانِ، وحركةِ الأفلاكِ، وإحداثِ السَّماءِ بالبناءِ، وأنَّه لا بُدَّ لهذا العالَمِ مِن صانعٍ، ولا بُدَّ للمُحْدَثِ المتجَدِّدِ مِن فَناءٍ وعَدَمٍ، كما عَرَض إبراهيمُ عليه السَّلامُ على النُّمْرُوذِ نَماذِجَ الاستِدلالِ على

---

= ويُروى نحوُه عن مجاهِدٍ، وعِكْرِمةَ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ. وكقَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥]، ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أي: دسَّسَها، أي: أخمَلَها ووضَعَ منها بخِذْلانِه إيَّاها عن الهُدى، حتَّى رَكِبَ المعاصيَ، وتَرَك طاعةَ اللهِ عزَّ وجَلَّ.

وقد يحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: قد أفلح مَن زكَّى اللهُ نَفْسَه، وقد خاب مَن دسَّى اللهُ نَفْسَه، كما قال العَوفيُّ وعليُّ بنُ أبي طَلْحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٧)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٨)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٣٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧١).

الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ؛ فأشار إلى الشَّمسِ أوَّلًا، ثمَّ إلى القَمَرِ، ثمَّ انتقَلَ به إلى اللهِ سُبحانَه[١].

٢- تزكيةُ الإنسانِ نَفْسَه ضربانِ؛ أحَدُهما: بالفِعلِ، وهو محمودٌ، وإليه قَصَد بقَولِه: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾، والثَّاني: بالقَولِ، كتَزكيةِ العَدْلِ غَيْرَه، وذلك مذمومٌ أن يَفعلَه الإنسانُ بنَفْسِه، وقد نهى اللهُ تعالى عنه بقَولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢]، ونَهْيُه عن ذلك تأديبٌ لقُبحِ مَدْحِ الإنسانِ نَفْسَه عَقلًا وشَرْعًا؛ ولهذا قيل لحكيمٍ: ما الَّذي لا يَحسُنُ وإن كان حَقًّا؟ فقال: مَدْحُ الإنسانِ نَفْسَه[٢]. فلا مُعارَضةَ بيْن الآيتَينِ، فالتَّزكيةُ الَّتي يُحمَدُ عليها الإنسانُ أنْ يَعمَلَ عمَلًا صالحًا تَزْكو به نَفْسُه، والتَّزكيةُ الَّتي يُذَمُّ عليها أنْ يُدِلَّ بعَمَلِه على ربِّه ويَمدَحَ، وكأنَّه يَمُنُّ على اللهِ، يقولُ: صلَّيتُ، وتصدَّقتُ، وصُمْتُ، وحَجَجْتُ، وجاهَدْتُ، وبرَرْتُ والدي، وما أشْبَهَ ذلك! فلا يجوزُ للإنسانِ أنْ يُزَكِّيَ نَفْسَه[٣].

٣- المكَلَّفُ المخاطَبُ مِنَ الإنسانِ هو نَفْسُه، وما البَدَنُ إلَّا آلةٌ لها ومَظهَرٌ لتصَرُّفاتِها، وإنَّ صلاحَ الإنسانِ وفَسادَه إنَّما يُقاسانِ بصَلاحِ نَفْسِه وفسادِها، وإنَّما رُقِيُّه وانحطاطُه باعتِبارِ رُقِيِّ نَفْسِه وانحطاطِها، وما فَلاحُه إلَّا بزكائِها، وما خَيبتُه إلَّا بخُبثِها؛ قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أنَّ النَّفْسَ أمانةٌ عندَك، يجبُ أنْ تَرعاها حقَّ رعايتِها، وإذا عَصَيتَ ربَّك فإنَّك ظالمٌ لنَفْسِك[٥].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٣/ ١٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن باديس)) (ص: ٧٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ٢٢٤).

٥- المعاصي تُصَغِّرُ النَّفْسَ وتَقْمَعُها، وتُدَسِّيها فتَنخَفِضُ، وتَصيرُ كالَّذي يُدَسُّ في التُّرابِ، وتُحَقِّرُها؛ حتَّى تكونَ أصغرَ كلِّ شيءٍ وأحقَرَه، كما أنَّ الطَّاعةَ تُنمِّيها وتُزَكِّيها وتُكَبِّرُها وتُطَهِّرُها فترتفِعُ، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ...﴾ سؤالٌ عن قَسَمِ اللهِ تعالى بهذه المخلوقاتِ، وقد نُهينا عنِ القَسَمِ بغيرِه.

**والجوابُ عنه مِن وَجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ هذا مِن فِعْلِ اللهِ تعالى، واللهُ لا يُسأَلُ عمَّا يَفعَلُ، وله أنْ يُقْسِمَ سُبحانَه بما شاء مِن خَلْقِه، وهو سائلٌ غيرُ مسؤولٍ، وحاكمٌ غيرُ محكومٍ عليه.

الثاني: أنَّ قَسَمَ اللهِ بهذه الآياتِ دليلٌ على عَظَمتِه وكمالِ قُدرتِه وحِكمتِه، فيكونُ القَسَمُ بها الدَّالُّ على تعظيمِها ورَفْعِ شأنِها مُتضمِّنًا للثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجَلَّ بما تَقتضيه مِن الدَّلالةِ على عَظَمتِه، وأمَّا نحن فلا نُقْسِمُ بغيرِ اللهِ تعالى أو صِفاتِه؛ لأنَّنا مَنهيُّونَ عن ذلك[2].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ لَمْ يَقُلْ سُبحانَه: «ونهارِها» ولا «ضيائِها»؛ لأنَّ الضُّحى يدُلُّ على النُّورِ والحرارةِ جميعًا، وبالأنوارِ والحرارةِ تقومُ مَصالحُ العِبادِ[3].

---

(١) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٧٨)، ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (٢/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٩).

٣- قال تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ في الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ نُورَ القمَرِ مُستفادٌ مِن نورِ الشَّمسِ -أي: مِن توَجُّهِ أشِعَّةِ الشَّمسِ إلى ما يُقابِلُ الأرضَ مِنَ القَمَرِ-، وليس نَيِّرًا بذاتِه، وهذا إعجازٌ عِلميٌّ مِن إعجازِ القُرآنِ الكريمِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ سؤالٌ: لِمَ قال: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ولم يقُلْ: «ومَن بناها»؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ المرادَ هو الإشارةُ إلى الوَصفيَّةِ، كأنَّه قِيل: والسَّماءِ والقادرِ العَظيمِ الَّذي بَناها، ودلَّ على وُجودِه وكَمالِ قُدرتِه بِناؤُها. ونفْسٍ، والحَكيمِ الباهرِ الحِكمةِ الَّذي سَوَّاها؛ ولذلك أُفرِدَ ذِكرُه، وفي كَلامِهم: سُبحانَ ما سخَّرَكنَّ لنا.

**الثَّاني**: أنَّ «ما» تُستعمَلُ في موضِعِ «مَن»، كقَولِه: ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٢٢]. والاعتمادُ على الأوَّلِ[2].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ سؤالٌ: لِمَ ذَكَر في تعريفِ ذاتِ اللهِ تعالى هذه الأشياءَ الثَّلاثةَ، وهي: السَّماءُ، والأرضُ، والنَّفْسُ؟

**الجوابُ**: لأنَّ الاستدلالَ على الغائِبِ لا يمكِنُ إلَّا بالشَّاهِدِ، والشَّاهِدُ ليس إلَّا العالَمُ الجُسْمانيُّ، وهو قِسمانِ: بَسيطٌ، ومُرَكَّبٌ، والبسيطُ قِسمانِ: العُلويَّةُ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ﴾، والسُّفْليَّةُ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾، والمركَّبُ هو أقسامٌ، وأشرَفُها ذواتُ الأنفُسِ، وإليه الإشارةُ بقَولِه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٦).

سَوَّىٰهَا ﴾[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ أنَّ اللهَ تعالى خلَقَ في المؤمِنِ التَّقْوى، وفي الكافِرِ الفُجورَ[٢]، وفيه الرَّدُّ على القَدَريَّةِ[٣]. فالآية فيها دَلالةٌ على أنَّ اللهَ تعالى هو الَّذي يَجعَلُ الفُجورَ والتَّقوى في القلْبِ، وقد جاءت آياتٌ تدُلُّ على أنَّ فُجورَ العبْدِ وتَقواهُ باختيارِه ومَشيئتِه، كقولِه تعالَى: ﴿فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [فصلت: ١٧]، وقولِه تعالى: ﴿ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٦]، ونحْوِ ذلك، وقد ضلَّ في هذه المسألةِ القَدَريَّةُ والجَبْريَّةُ؛ أمَّا القَدَريَّةُ فضَلُّوا بالتَّفريطِ، حيث زَعَموا أنَّ العبْدَ يَخلُقُ عمَلَ نفْسِه استقلالًا مِن غيرِ تأثيرٍ لقُدرةِ اللهِ فيه! وأمَّا الجَبْريَّةُ فضَلُّوا بالإفراطِ، حيث زَعَموا أنَّ العبْدَ لا عمَلَ له أصلًا حتَّى يُؤاخَذَ به! وأمَّا أهْلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ فلم يُفرِّطوا ولم يُفرِطوا، فأثْبَتوا للعبْدِ أفعالًا اختياريَّةً -ومِن الضَّروريِّ عندَ جَميعِ العُقلاءِ أنَّ الحَرَكةَ الارتعاشيَّةَ لَيستْ كالحركةِ الاختياريَّةِ- وأثْبَتوا أنَّ اللهَ خالِقُ كلِّ شَيءٍ؛ فهو خالِقُ العبْدِ، وخالِقُ قُدرتِه وإرادتِه، وتأثيرُ قُدرةِ العبْدِ لا يكونُ إلَّا بمَشيئةِ اللهِ تعالَى، فالعبْدُ وجَميعُ أفعالِه بمَشيئةِ اللهِ تعالَى، مع أنَّ العبْدَ يَفعَلُ اختيارًا بالقُدرةِ والإرادةِ اللَّتَينِ خَلَقَهما اللهُ فيه فِعلًا اختياريًّا يُثابُ عليه ويُعاقَبُ[٤].

٧- إذا كان الضَّلالُ في القَدَرِ حَصَلَ تارةً بالتَّكذيبِ بالقَدَرِ والخَلْقِ، وتارةً بالتَّكذيبِ بالشَّرعِ والوعيدِ، وتارةً بتظليمِ الرَّبِّ؛ فإنَّه في هذه السُّورةِ ردٌّ على هذه الطَّوائفِ كلِّها؛ فقولُه تعالى: ﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾ إثباتٌ للقَدَرِ بقَولِه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٥٩)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٤٢).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧٠).

﴿فَأَلْهَمَهَا﴾، وإثباتٌ لفعلِ العبدِ بإضافةِ الفُجورِ والتَّقوى إلى نَفْسِه؛ لِيُعلَمَ أنَّها هي الفاجرةُ والمتَّقيةُ؛ وإثباتٌ للتَّفريقِ بيْن الحَسَنِ والقبيحِ، والأمرِ والنَّهيِ بقَولِه: ﴿فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾، وقولُه بعدَ ذلك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ إثباتٌ لفِعلِ العبدِ والوَعدِ والوعيدِ بفلاحِ مَن زَكَّى نفْسَه، وخَيبةِ مَن دَسَّاها، وهذا صريحٌ في الرَّدِّ على القَدَريَّةِ المجوسيَّةِ، وعلى الجَبْريَّةِ، وأمَّا المظلِّمون للخالقِ فإنَّه قد دلَّ على عدْلِه بقَولِه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾، والتَّسويةُ: التَّعديلُ؛ فبَيَّنَ أنَّه عادِلٌ في تسويةِ النَّفْسِ الَّتي ألهَمَها فُجورَها وتَقْواها[1].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ أنَّ الأعمالَ الصَّالحةَ تُسَمَّى زكاةً، فكلُّ ما تَزكو به النُّفوسُ مِن مالٍ أو عَمَلٍ فهو زكاةٌ شَرْعًا، لكنْ تُطلَقُ الزَّكاةُ أيضًا على المعنى الخاصِّ، أي: أنَّه يُرادُ بها بَعضُ معانيها كما في قَولِنا: زكاةُ المالِ[2].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾

- الغرَضُ مِن هذه السُّورةِ تَهديدُ المشركين بأنَّهم يُوشِكُ أنْ يُصيبَهم عَذابٌ بإشراكِهم وتَكذيبِهم برِسالةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كما أصاب ثَمودَ بإشراكِهم وعُتُوِّهم على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الَّذي دَعاهم إلى التَّوحيدِ. وقُدِّمَ لذلك تَأكيدُ الخبَرِ بالقسَمِ بأشياءَ مُعظَّمةٍ، وذُكِرَ مِن أحوالِها ما هو دَليلٌ على بَديعِ صُنْعِ اللهِ تعالَى الَّذي لا يُشارِكُه فيه غيرُه؛ فهو دَليلٌ

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٤٣).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٣/ ٨٧).

على أنَّه المنفردُ بالإلهيَّةِ، والَّذي لا يَستحِقُّ غيرُه الإلهيَّةَ، وخاصَّةً أحوالَ النُّفوسِ ومَراتِبَها في مَسالِكِ الهُدى والضَّلالِ، والسَّعادةِ والشَّقاءِ[١].

- والقسَمُ لتَأكيدِ الخبَرِ، والمقصودُ بالتَّأكيدِ هو ما في سَوقِ الخبَرِ مِن التَّعريضِ بالتَّهديدِ والوعيدِ بالاستئصالِ، وكلٌّ مِن الشَّمسِ والقمَرِ، والسَّماءِ والأرضِ، ونفْسِ الإنسانِ؛ مِن أعظَمِ مَخلوقاتِ اللهِ -ذاتًا ومعنًى- الدَّالَّةِ على بَديعِ حِكمتِه، وقَويِّ قُدرتِه، وكذلك كلٌّ مِن الضُّحى، وتُلُوِّ القمَرِ الشَّمسَ، والنَّهارِ، واللَّيلِ؛ مِن أدَقِّ النِّظامِ الَّذي جَعَلَه اللهُ تعالَى، ومُمَهِّدَ لذلك بالتَّنبيهِ على أنَّ تَزكيةَ النَّفْسِ سَببُ الفَلاحِ، وأنَّ التَّقصيرَ في إصلاحِها سَببُ الفُجورِ والخُسرانِ[٢].

- وابتُدِئَ بالشَّمسِ لمُناسَبةِ المَقامِ إيماءً للتَّنويهِ بالإسلامِ؛ لأنَّ هَدْيَه كنُورِ الشَّمسِ لا يَترُكُ للضَّلالِ مَسلَكًا. وفيه إشارةٌ إلى الوعْدِ بانتِشارِه في العالَمِ كانتشارِ نُورِ الشَّمسِ في الأُفقِ. وأُتبِعَ بالقمَرِ؛ لأنَّه يُنيرُ في الظَّلامِ كما أنارَ الإسلامُ في ابتداءِ ظُهورِه في ظُلْمةِ الشِّركِ. ثمَّ ذُكِرَ النَّهارُ واللَّيلُ معه؛ لأنَّهما مَثَلٌ لوُضوحِ الإسلامِ بعْدَ ضَلالةِ الشِّركِ، وذلك عكْسُ ما في سُورةِ اللَّيلِ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ التُّلُوُّ: التَّبَعُ، وأُريدَ به خَلْفُ ضَوئِه في اللَّيلِ ضَوءَ الشَّمسِ، أي: إذا ظَهَرَ بعْدَ مَغيبِها، فكأنَّه يَتبَعُها في مَكانِها. والقمَرُ يَتبَعُ الشَّمسَ في أحوالٍ كَثيرةٍ، وهو أيضًا يُضِيءُ في أكثَرِ لَيالي الشَّهرِ، جَعَلَه اللهُ عِوَضًا عن الشَّمسِ في عِدَّةِ لَيالٍ في الإنارةِ؛ ولذلك قُيِّدَ القسَمُ بحِينِ تُلُوِّه؛

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٥، ٣٦٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦٧).

لأنَّ تُلُوَّه للشَّمسِ حينَئذٍ تَظهَرُ منه مَظاهِرُ التُّلُوِّ للنَّاظِرينَ، فهذا الزَّمانُ مِثلُ زَمانِ الضُّحى في القسَمِ به، فكان بمَنزلةِ قسَمٍ بوَقْتِ تُلوِّه الشَّمسَ، فحَصَلَ القسَمُ بذاتِ القمَرِ وبتُلوِّه الشَّمسَ.

وأيضًا ابتُدِئَ القسَمُ بالشَّمسِ وأضوائِها الثَّلاثةِ الأصليَّةِ والمُنعكِسةِ؛ لأنَّ الشَّمسَ أعظَمُ النَّيِّراتِ الَّتي يَصِلُ نُورٌ شَديدٌ منها للأرضِ، ولِما في حالِها وحالِ أضوائِها مِن الإيماءِ إلى أنَّها مَثَلٌ لظُهورِ الإيمانِ بعْدَ الكُفْرِ، وبَثِّ التَّقْوى بعْدَ الفُجورِ؛ فإنَّ الكُفْرَ والمعاصيَ تُمثَّلُ بالظُّلمةِ، والإيمانَ والطَّاعاتِ تُمثَّلُ بالضِّياءِ؛ قال تعالَى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ [المائدة: ١٦]. وأُعقِبَ القسَمُ بالنَّهارِ بالقسَمِ باللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ مُقابلُ وَقْتِ النَّهارِ، فهو وَقْتُ الإظلامِ[١].

- قولُه: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ الضَّميرُ المُؤنَّثُ في قولِه: ﴿جَلَّىٰهَا﴾ عائدٌ إلى الشَّمسِ، فمعْنى تَجْليةِ النَّهارِ الشَّمسَ وَقْتُ ظُهورِ الشَّمسِ، والقسَمُ إنَّما هو بالنَّهارِ؛ لأنَّه حالةٌ دالَّةٌ على دَقيقِ نِظامِ العالَمِ الأرضيِّ. وقيل: الضَّميرُ عائدٌ إلى الأرضِ، أي: أضاء الأرضَ فتَجلَّت للنَّاظِرينَ؛ لظُهورِ المقصودِ، كما يُقالُ عندَ نُزولِ المطَرِ: أرسَلَتْ، يَعْنون: أرْسَلَت السَّماءُ ماءَها، وقُيِّدَ القسَمُ بالنَّهارِ بقيْدِ وَقتِ التَّجليةِ؛ إدماجًا للمِنَّةِ في القسَمِ[٢].

- قولُه: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾ تَقييدُ القسَمِ بالظُّروفِ الثَّلاثةِ ﴿إِذَا تَلَىٰهَا﴾ ﴿إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ ﴿إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾، أي: مُقسَمًا بكلِّ واحدٍ مِن هذه الثَّلاثةِ في الحالةِ الدَّالَّةِ على أعظَمِ أحوالِه وأشدِّها دَلالةً على عَظيمِ صُنْعِ اللهِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٦ - ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٦٧).

تعالَى، وتَقييدُ القسَمِ باللَّيلِ بَوقتِ تَغشِيَتِه تَذكيرٌ بالعِبرةِ بحُدوثِ حالةِ الظُّلمةِ بعْدَ حالةِ النُّورِ[١].

- قيل: لَمَّا كانت الفواصلُ تَرتَّبَت على ألِفٍ وهاءِ المُؤنَّثِ، أتى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ بالمُضارِعِ؛ لأنَّه الَّذي تَرتَّب فيه، ولو أتَى بالماضي -كالذي قبْلَه وبعْدَه- كان يكونُ التَّركيبُ: (إذا غَشِيَها)، فتَفوتُ الفاصلةُ، وهي مَقصودةٌ[٢].

- ومُناسَبةُ استِحضارِ السَّماءِ عَقِبَ ذِكرِ الشَّمسِ والقمَرِ، واستِحضارِ الأرضِ عَقِبَ ذِكرِ النَّهارِ واللَّيلِ؛ واضحةٌ. ثمَّ ذُكِرَت النَّفْسُ الإنسانيَّةُ؛ لأنَّها مَظهَرُ الهُدى والضَّلالِ، وهو المقصودُ[٣].

- قولُه: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۞ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۞ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ (ما) مَوصولةٌ، وإنَّما أُوثِرَت على (مَن)؛ لإرادةِ معْنى الوَصفيَّةِ تَفخيمًا[٤]!

- قولُه: ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ نُكِّرَت النَّفْسُ لوُجوهٍ؛ أحدُها: أنْ يُريدَ نفْسًا خاصَّةً مِن بيْنِ النُّفوسِ، وهي نفْسُ آدَمَ، كأنَّه قال: وَواحدةٍ مِن النُّفوسِ، والثَّاني: أنْ يُريدَ كلَّ نفْسٍ، ويُنكَّرُ للتَّكثيرِ، والثَّالثُ: نُكِّرَت للتَّعظيمِ والتَّفخيمِ، فنُكِّرَ لَفظُ (نفْس) دونَ بَقيَّةِ ما أُقسِمَ به؛ لأنَّه لا سَبيلَ إلى لامِ الجنسِ الدَّاخلةِ لنفْسٍ غيرِ الإنسانِ، مع أنَّها ليستْ مُرادةً؛ لقولِه تعالَى: ﴿فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾، ولا إلى لامِ العهْدِ؛ إذ ليس المرادُ نفْسًا واحدةً مَعهودةً، وبتَقديرِ أنَّه أُريدَ بها آدَمُ،

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٣).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ٤٢٢).

فالتَّنكيرُ أدَلُّ على التَّفخيمِ والتَّعظيمِ[١].

٢- قولُه تبارك وتعالَى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾

- عُطِفَ قولُه: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ على ﴿سَوَّىٰهَا﴾، فهو مُقسَمٌ به، وفِعلُ (أَلْهَمَها) في تَأويلِ مَصدَرٍ؛ لأنَّه مَعطوفٌ على صِلةِ (ما) المَصدريَّةِ -على قولٍ-، وعُطِفَ بالفاءِ؛ لأنَّ الإلهامَ ناشئٌ عن التَّسويةِ[٢].

- وتَعديةُ الإلهامِ إلى الفُجورِ والتَّقْوى في هذه الآيةِ، مع أنَّ اللهَ أعلَمَ النَّاسَ بما هو فُجورٌ وما هو تَقْوى بواسطةِ الرُّسلِ؛ باعتبارِ أنَّه لولا ما أودَعَ اللهُ في النُّفوسِ مِن إدراكِ المعلوماتِ على اختلافِ مَراتبِها، لَما فَهِموا ما تَدْعوهم إليه الشَّرائعُ الإلهيَّةُ، فلولا العُقولُ لَما تَيسَّرَ إفهامُ الإنسانِ الفُجورَ والتَّقوى، والعِقابَ والثَّوابَ[٣].

- وتَقديمُ الفُجورِ على التَّقوى مُراعًى فيه أحوالُ المُخاطَبينَ بهذه السُّورةِ، وهم المشرِكون، وأكثَرُ أعمالِهم فُجورٌ ولا تَقْوى لهم، والتَّقوى صِفةُ أعمالِ المسلمينَ، وهم قليلٌ يَومَئذٍ[٤].

- قولُه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ الجُملةُ جَوابُ القسَمِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٥٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٦٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٨)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٧٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

وحُذِفَت اللَّامُ -فلم يقلْ: (لقَدْ)-؛ لطُولِ الكلامِ، كأنَّه لَمَّا أراد به الحثَّ على تَكميلِ النَّفْسِ والمُبالَغة فيه، أقسَمَ عليه بما يَدُلُّهم على العِلمِ بوُجودِ الصانعِ، ووُجوبِ ذاتِه، وكَمالِ صِفاتِه الَّذي هو أقْصى درَجاتِ القوَّةِ النَّظريَّةِ، ويُذكِّرُهم عَظائمَ آلائِه؛ ليَحمِلَهم على الاستِغراقِ في شُكرِ نَعمائِه الَّذي هو مُنْتهى كَمالاتِ القوَّةِ العمَليَّةِ؛ فعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١]، كلامًا تابعًا على سَبيلِ الاستطرادِ لقولِه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ فإنَّ الطُّغيانَ أعظَمُ أنواعِ التَّدسيةِ. وقِيل: هو استطرادٌ بذِكرِ بَعضِ أحوالِ النَّفْسِ، وليس مِن جَوابِ القسَمِ في شَيءٍ، والجوابُ مَحذوفٌ تَقديرُه: لَيُدَمْدِمَنَّ اللهُ على كفَّارِ مكَّةَ لتَكذيبِهم رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما دَمْدَمَ على ثَمودَ لتَكذيبِهم صالحًا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وعلى هذا التَّأويلِ يكونُ قولُه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ استطرادًا لجوابِ القسَمِ على طَريقِ التَّشبيهِ[1].

- ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةً مُعترِضةً بيْن القسَمِ والجَوابِ لمُناسَبةِ ذِكرِ إلهامِ الفُجورِ والتَّقوى، أي: أفلَحَ مَن زكَّى نفْسَه واتَّبَعَ ما ألْهَمَه اللهُ مِن التَّقوى، وخابَ مَن اختارَ الفُجورَ بعْدَ أنْ أُلهِمَ التَّمييزَ بيْن الأمْرَينِ بالإدراكِ والإرشادِ الإلهيِّ. وهذه الجُملةُ تَوطئةٌ لجُملةِ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١]؛ فإنَّ ما أصابَ ثَمودَ كان مِن خَيبتِهم؛ لأنَّهم دسُّوا أنفُسَهم بالطَّغوى، وقُدِّمَ الفلاحُ على الخَيبةِ لمُناسَبةِ التَّقوى، وأُردِفَ بخَيبةِ مَن دسَّى نفْسَه؛ لتَهيئةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٥، ٣١٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٦٤، ٤٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٦، ٤٩٧).

الانتقالِ إلى المَوعظةِ بما حَصَلَ لثَمودَ مِن عِقابٍ على ما هو أثَرُ التَّدْسيةِ[١].

- وتَكريرُ (قَدْ) في قولِه تعالَى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بتَحقيقِ مَضمونِه، والإيذانِ بتَعلُّقِ القسَمِ به أيضًا أصالةً[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٠، ٣٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٤).

## الآيات (١١-١٥)

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾: أي: بِطُغْيانِها، والطَّغْوى: اسمٌ مِن الطُّغْيانِ، وأصْلُه مُجاوَزةُ الحَدِّ في العِصْيانِ[1].

﴿ٱنۢبَعَثَ﴾: أي: نَهَض، وخَرَج بسُرعةٍ ونَشاطٍ، والانبِعاثُ هو الإسْراعُ فِي الطَّاعةِ للباعِثِ، وأصلُ (بعث): الإثارةُ[2].

﴿فَعَقَرُوهَا﴾: أي: نَحَروها وقَتَلوها، وأصلُ (عقر): يدُلُّ على جَرْحِ شَيْءٍ[3].

﴿فَدَمْدَمَ﴾: أي: دَمَّر عليهم وأهلَكَهم، والدَّمْدَمةُ: إهلاكٌ باستئصالٍ، ودَمدَمَ مُكَرَّرٌ دَمَّمَ؛ للمُبالَغةِ، وأصلُ (دمم): يدُلُّ على غِشْيانِ الشَّيءِ، ومنه الدَّمْدَمةُ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٠)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٢٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١١٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٩٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١١٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٢).

قال ابنُ عاشور: (العَقرُ: أصلُه: ضَربُ البَعيرِ بالسَّيفِ على عراقيبِه؛ لِيَسقُطَ إلى الأرضِ جاثيًا، فيتَمكَّنَ النَّاحِرُ مِن نَحْرِه، وغلَب إطلاقُه على قتلِ البعيرِ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٧/ ٢٠٢).

بمعنى الإهلاكِ، وذلك لِمَا غَشَّاهم به مِن العذابِ، والإهلاكِ [١].

﴿عُقْبَٰهَا﴾: أي: عاقِبَتَها وتَبِعَتَها، وأصلُ (عقب) هنا: يدُلُّ على تأخيرِ شَيءٍ، وإتيانِه بَعْدَ غَيرِه[٢].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾

قَولُه تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾: مَنصوبٌ على التَّحذيرِ بفِعلٍ محذوفٍ، أي: احْذَروا ناقةَ اللهِ، وجملةُ «احذَروا ناقةَ اللهِ» في محَلِّ نَصبِ مَقولُ القَولِ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا ما حَلَّ بالمكَذِّبينَ السَّابقينَ: كذَّبتْ ثَمودُ بالحَقِّ الَّذي جاءَهم به رَسولُهم صالحٌ عليه السَّلامُ؛ بسَبَبِ طُغْيانِهم، حينَ نَهَض أشقى قَومِ ثَمودَ لعَقرِ النَّاقةِ، فقال لهم رَسولُهم صالحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: احذَروا ناقةَ اللهِ أن تَمَسُّوها بسُوءٍ، واحذَروا أن تمنَعوها مِن شُربِ الماءِ في يَومِها الَّذي جعَلَه اللهُ نصيبًا لها، فكَذَّبوا نَبيَّهم صالِحًا؛ فذبَحوا النَّاقةَ كُفرًا وعِنادًا، فأطبَقَ اللهُ على ثَمودَ العُقوبةَ بسبَبِ عَقْرِهم النَّاقةَ، فسَوَّى بيْنَهم جميعًا في الهَلاكِ، وعَمَّهم بالعذابِ، ولا يَخافُ اللهُ سُبحانَه ما يكونُ مِن عاقِبةِ وتَبِعةِ إهلاكِه لثَمودَ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٨)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦١).

(٣) يُنظر: ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٢٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٢٤)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٤٢).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر تعالى خَيبةَ مَن دَسَّى نَفْسَه؛ ذكَرَ فِرقةً فعَلَت ذلك؛ ليُعتبَرَ بهم[١].

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١﴾.

أي: كذَّبت ثمودُ بالحَقِّ الَّذي جاءَهم به رَسولُهم صالحٌ عليه السَّلامُ؛ بسَبَبِ طُغيانِهم[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ١٢﴾.

أي: حينَ نَهَض أشقى قومِ ثَمودَ لعَقرِ النَّاقةِ الَّتي جعَلَها اللهُ آيةً عَظيمةً لهم[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةً لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ۞ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٩).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٤٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٣، ٢٢٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤٧، ٥٤٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٤).

قال الشوكاني: (﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ العامِلُ في الظَّرفِ ﴿كَذَّبَتۡ﴾، أو ﴿بِطَغۡوَىٰهَآ﴾). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٤٧).

بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ [القمر: ٢٧ - ٢٩].

وعن عبدِ اللهِ بنِ زَمْعةَ رضيَ الله عنه، قال: ((خطَبَ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فذكَرَ النَّاقةَ، وذكَرَ الَّذي عقَرَها، فقال: ﴿إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾: انبَعَث بها رجُلٌ عزيزٌ عارِمٌ مَنيعٌ في رَهْطِه، مِثلُ أبي زَمْعةَ[(١)])))[(٢)].

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾﴾.

أي: فقال لهم رَسولُ اللهِ صالحٌ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: احذَروا ناقةَ اللهِ أن تَمَسُّوها بسُوءٍ، واحذَروا أن تَمنَعوها مِن شُربِ الماءِ في يَومِها الَّذي جعَلَه اللهُ نَصيبًا لها[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال سُبحانَه: ﴿قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ [القمر: ٢٨].

---

(١) العَزيزُ: الغالِبُ القَليلُ المِثْلِ. والعارِمُ: الجَبَّارُ الصَّعْبُ على مَن يُريدُه. والمَنيعُ في رَهْطِه: المُمتَنِعُ بسُلطانِه وعَشيرتِه. وأبو زَمْعةَ: هو الأسوَدُ بنُ المُطَّلِبِ بنِ أسَدِ بنِ عَبدِ العُزَّى، وهو جَدُّ عَبدِ اللهِ بنِ زَمْعةَ بنِ الأسودِ؛ راوي الحديثِ المَذْكورِ، وكان الأسْوَدُ أحدَ المُستَهزِئينَ برَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ومات على كُفْرِه بمكَّةَ، وقُتِلَ ابنُه زَمْعةَ يومَ بَدرٍ كافِرًا أيضًا. يُنظر: ((المفهم لما أَشْكَل من تلخيص كتاب مسلم)) لأبي العباس القرطبي (٧/ ٤٢٩)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٩٦).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٤٢)، ومسلمٌ (٢٨٥٥) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٩)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤).

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا ﴾.

أي: فكَذَّب كُفَّارُ ثمودَ نَبيَّهم صالِحًا؛ فذبَحوا النَّاقةَ كُفرًا وعِنادًا(١).

كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٧، ٧٨].

﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾.

أي: فأطبَقَ اللهُ على ثَمودَ العُقوبةَ بسبَبِ عَقْرِهم النَّاقةَ، فسَوَّى بيْنَهم جميعًا في الهَلاكِ، وعَمَّهم بالعذابِ؛ فلم يَنْجُ منهم أحَدٌ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٤).
قال ابنُ جرير: (فكَذَّبوا صالحًا في خبرِه الَّذي أخبَرَهم به مِن أنَّ اللهَ الَّذي جَعَل شِرْبَ النَّاقةِ يومًا، ولهم شِرْبُ يومٍ معلومٍ، وأنَّ اللهَ يُحِلُّ بهم نِقمَتَه إنْ هم عَقَروها... وقد يحتَمِلُ أن يكونَ التَّكذيبُ بالعَقْرِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٤٩).
وقال الواحِديُّ: (فكَذَّبوه بتَحذيرِه إيَّاهم العَذابَ بعَقْرِها، فعَقَروها). ((الوسيط)) (٤/ ٥٠٠).
وقال ابنُ كثيرٍ: (كَذَّبوه فيما جاءهم به؛ فأعقَبَهم ذلك أنْ عَقَروا النَّاقةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٤، ٢٢٥).
قال ابنُ جُزَي: (﴿فَدَمْدَمَ﴾ عبارةٌ عن إنزالِ العَذابِ بهم، وفيه تهويلٌ بِذَنْبِهم، أي: بسَبَبِ ذَنْبِهم، وهو التَّكذيبُ أو عَقْرُ النَّاقةِ ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ قال ابنُ عَطيَّةَ: معناه: فسَوَّى القَبيلةَ في الهلاكِ، لم يُفلِتْ أحَدٌ منهم. وقال الزَّمَخْشريُّ: الضَّميرُ للدَّمْدَمةِ، أي: سوَّاها بيْنَهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٩). =

كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧، ٦٨].

وقال سُبحانَه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣].

﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥﴾.

أي: ولا يَخافُ اللهُ ما يكونُ مِن عاقِبةٍ وتَبِعةِ إهلاكِه لثَمودَ(١).

---

= قال ابنُ عاشور: (المرادُ بهذه الدَّمْدَمةِ صوتُ الصَّاعقةِ والرَّجفةِ الَّتي أُهلِكوا بها... وقال أكثَرُ المفسِّرينَ: دَمْدَمَ عليهم: أطبَقَ عليهم الأرضَ... ومَن فَسَّروا «دَمْدَمَ» بمعنى: أطبَقَ عليهم الأرضَ، قالوا: معنى «سَوَّاها»: جعَلَ الأرضَ مُستويةً عليهم، لا تظهَرُ فيها أجسادُهم ولا بلادُهم، وجعَلوا ضميرَ المؤنَّثِ عائدًا إلى الأرضِ المفهومةِ مِن فِعْلِ «دمدم»). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٥). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨٣).

وقال الماوَرْديُّ: (﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: فسَوَّى بيْنَهم في الهلاكِ، قاله السُّدِّيُّ، ويحيى بنُ سلَّامٍ. الثَّاني: فسوَّى بهم الأرضَ، ذكَرَه ابنُ شَجَرةَ. ويحتَمِلُ ثالثًا: فسوَّى مَن بَعْدَهم مِنَ الأُمَمِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٥).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: ابنُ جَريرٍ، والسَّمَرْقَنديُّ، والثَّعْلبيُّ، ومَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والزَّمَخْشريُّ، وابنُ الجَوزيِّ، والرَّسْعَنيُّ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، وابنُ كثيرٍ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّي، والبِقاعيُّ، والعُلَيميُّ، وابنُ عثُيَمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٥١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٤٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٥).

وقال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (قَولُه: ﴿فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَىٰهَا﴾ يعني: فسَوَّى بيوتَهم على قُبورِهم). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧١٤).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٧٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٥). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾ تخويفٌ مِن عاقِبةِ الذُّنوبِ[(١)]، وإنذارٌ عَظيمٌ بعاقِبةِ الذَّنْبِ، فعلى كلِّ مُذنبٍ أنْ يَعتبِرَ ويَحذَرَ[(٢)].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ والمضافُ إلى الله سبحانَه نوعانِ: صفاتٌ لا تقومُ بأنفسِها، كالعِلمِ والقُدرةِ والكلامِ والسَّمعِ والبصرِ، فهذه إضافةُ صفةٍ إلى الموصوفِ بها، فعلمُه وكلامُه وإرادتُه وقدرتُه وحياتُه صفاتٌ له غيرُ مخلوقةٍ، وكذلك وجهُه ويدُه سبحانَه.

والثاني: إضافةُ أعيانٍ منفصلةٍ عنه، كالنَّاقةِ والبيتِ والعبدِ والرَّسولِ والرُّوحِ، فهذه إضافةُ مخلوقٍ إلى خالقِه، ومصنوعٍ إلى صانعِه، لكنَّها إضافةٌ تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميَّزُ به المضافُ عن غيرِه، كبيتِ الله، وإن كانت البيوتُ كلُّها مِلكًا له، وكذلك ناقةُ الله، والنُّوقُ كلُّها مِلكُه وخلقُه، لكنْ هذه إضافةٌ إلى إلهيتِه تقتضي محبتَه لها وتكريمَه وتشريفَه، بخلافِ الإضافةِ العامَّةِ إلى ربوبيتِه حيثُ تقتضي خلقَه وإيجادَه[(٣)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أنَّ القومَ

---

= قال ابنُ كثيرٍ: (قال ابنُ عبَّاسٍ: لا يَخافُ اللهُ مِن أحَدٍ تَبِعةً. وكذا قال مجاهِدٌ، والحَسَنُ، وبَكرُ ابنُ عبدِ اللهِ المُزَنيُّ، وغَيرُهم. وقال الضَّحَّاكُ والسُّدِّيُّ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أي: لم يخَفِ الَّذي عَقَرها عاقِبةَ ما صنَعَ. والقَولُ الأوَّلُ أَوْلى؛ لدَلالةِ السِّياقِ عليه. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١).

(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٥٤).

لَمَّا كانوا راضِينَ، ونادَوا العاقِرَ فعَقَرَها وَحْدَه؛ كان هذا باسمِ الجَميعِ[١]، فكانت العقوبةُ باسمِ الجَميعِ، ويؤخَذُ مِن هذا قَتْلُ الجماعةِ بالواحِدِ، وعقوبةُ الرَّبيئةِ[٢] مع الجاني[٣].

٣- الإنسانُ يُصابُ بالمصائبِ مِن عندِ نفْسِه؛ لهذا قال تعالى: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾، أي: بسبَبِ ذَنْبِهم[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾

- إنْ كانت جُملةُ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ...﴾ [الشمس: ٩] إلخ مُعترِضةً، كانتْ جُملةُ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ جَوابًا للقَسَمِ باعتِبارِ ما فُرِّعَ عليها بقولِه: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾، أي: حقًّا لقدْ كان ذلِك لذلِك. ولامُ الجوابِ مَحذوفٌ تَخفيفًا لاستِطالةِ القسَمِ، والمَقصودُ التَّعريضُ بتَهديدِ المُشركين الَّذين كذَّبوا الرَّسولَ طُغيانًا هم يَعلَمونه مِن أنفُسِهم، كما كذَّبَت ثَمودُ

---

(١) يُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٣٩٤).

(٢) الرَّبيئة: هو العَينُ والطَّليعةُ الَّذي يَنظُرُ للقَومِ؛ لئَلَّا يَدهَمَهم عَدُوٌّ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٧٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٤٣).

قال الشِّنقيطيُّ: (اللهُ مَرَّةً نَسَب العَقْرَ إلى واحِدٍ، وهو قَولُه: ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾، وتارةً نسَبَ العَقْرَ إلى الجَميعِ؛ قالوا: لأنَّهم كُلَّهم متمالِئون، وأنَّه لم يذهَبْ لعَقْرِها حتَّى اتَّفَق جميعُهم، حتَّى إنَّه لَيستأذِنُ المرأةَ في خِدْرِها، فتقولُ: نعم. فوافقوا جميعًا على عَقْرِها، والمتمالِئونَ على شَيءٍ المتَّفِقون عليه، كأنَّهم فَعَلوه كُلُّهم، وإنْ كان المباشِرُ واحِدًا منهم. هكذا قاله بعضُ العُلَماءِ، مع أنَّ عادةَ اللُّغةِ العرَبيَّةِ إسنادُ الفِعْلِ للنَّاسِ وفاعِلُه بَعْضُهم، وهو معروفٌ في كلامِ العَرَبِ، وكثيرٌ في القُرآنِ العظيمِ). ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٣/ ٥١٧). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٥).

رَسولَهم طُغيانًا، وذلك هو المحتاجُ إلى التَّأكيدِ بالقسَمِ؛ لأنَّ المشركين لم يَهْتَدوا إلى أنَّ ما حلَّ بثَمودَ مِن الاستِئصالِ كان مِن أجْلِ تَكذيبِهم رَسولَ اللهِ إليهم، فنَبَّهَهم اللهُ بهذا ليَتدَبَّروا، أو لتَنزيلِ عِلْمِ مَن عَلِمَ ذلك منهم مَنزِلةَ الإنكارِ؛ لعدمِ جَرْيِ أمْرِهم على مُوجَبِ العِلمِ، فكأنَّه قيل: أُقسِمُ لَيُصيبُكم عَذابٌ كما أصاب ثَمودَ. وإنْ كانت جُملةُ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ جَوابَ القسَمِ، فجُملةُ ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ في مَوقعِ الدَّليلِ لمَضمونِ جُملةِ ﴿وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، أي: خاب كخَيبةِ ثَمودَ[١].

- وقيل: قولُه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لتَقريرِ ما ذُكِرَ مِن فَلاحِ مَن زكَّى نفْسَه، أو زكَّاها اللهُ، وخَيْبةِ مَن دسَّى نفْسَه أو دسَّاها اللهُ[٢].

- وفي قولِه: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ﴾ فيه تَعريضٌ بتَنظيرِ مُشركي قُرَيشٍ في تَكذيبِهم بثَمودَ في أنَّ سَببَ تَكذيبِهم هو الطُّغيانُ والتَّكبُّرُ عن اتِّباعِ مَن لا يَرَون له فضْلًا عليهم[٣].

- ومَفعولُ ﴿كَذَّبَتۡ﴾ مَحذوفٌ؛ لدَلالةِ قولِه بعْدَه: ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾، والتَّقديرُ: كذَّبوا رسولَ اللهِ[٤].

- وكلٌّ مِن الطَّغوى والطُّغيانِ مَصدرٌ، والطُّغيانُ: فَرْطُ الكِبْرِ، لكنِ اختيرَ التَّعبيرُ بالطَّغْوى؛ لأنَّه أشبَهُ برُؤوسِ الآيِ[٥].

- قولُه: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾ (إذْ) مُضافٌ إلى جُملةِ ﴿ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾، وقُدِّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧١، ٣٧٢).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٧٢، ٣٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٢).

(٥) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٧).

ذِكرُ هذا الظَّرفِ عن مَوقعِه بعْدَ قولِه: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ انبعاثَ أشْقاها لعقْرِ النَّاقةِ جُزئيٌّ مِن جُزئيَّاتِ طَغْواهم، فهو أشدُّ تَعلُّقًا بالتَّكذيبِ المُسبَّبِ عن الطَّغْوى، ففي تَقديمِه قَضاءٌ لحقِّ هذا الاتِّصالِ، ولإفادةِ أنَّ انْبعاثَ أشْقاهُم لعقْرِ النَّاقةِ كان عن إغراءٍ منهم إيَّاه، ولا يَفوتُ مع ذلك أنَّه وقَعَ بعْدَ أنْ قال لهم رسولُ اللهِ: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾، ويُستفادُ أيضًا مِن قولِه: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾[1].

- والتَّفضيلُ في الشَّقاوةِ ﴿أَشْقَىٰهَا﴾؛ لأنَّ مَن تَولَّى العَقْرَ وباشَرَه كانت شَقاوتُه أظهَرَ وأبلَغَ[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾

- الفاءُ في ﴿فَقَالَ﴾ عاطِفةٌ على ﴿كَذَّبَتْ﴾، فتُفيدُ التَّرتيبَ والتَّعقيبَ، ويكونُ معْنى الكلامِ: كذَّبوا رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتَحدَّاهم بآيةِ النَّاقةِ، وحذَّرَهم مِن التَّعرُّضِ لها بسُوءٍ، ومِن مَنْعِهم شُرْبَها في نَوبتِها مِن السُّقيا. وعُطِفَ عليه ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾، أي: فيما أنْذَرَهم به، فعَقَروها بالتَّكذيبِ المذكورِ أوَّلَ مرَّةٍ غيرِ التَّكذيبِ المذكورِ ثانيًا، وهذا يَقْتضي أنَّ آيةَ النَّاقةِ أُرسِلَت لهم بعْدَ أنْ كذَّبوا، وهو الشَّأنُ في آياتِ الرُّسلِ، وهو ظاهرُ ما جاء في سُورةِ (هُودٍ)، ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ للتَّرتيبِ الذِّكري المُجرَّدِ، وهي تُفيدُ عطْفَ مُفصَّلٍ على مُجمَلٍ، فيكونَ المعْنى: كذَّبَت ثَمودُ بطَغْواها إذ انبَعَث أشْقاها، ثمَّ فُصِّلَ ذلك بقولِه: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى قولِه: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، والعقْرُ عندَ انبعاثِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٣).

وعلى القولِ بأنَّ الفاءَ في قولِه: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ للتَّرتيبِ الذِّكريِّ المجرَّدِ؛ فلا ضرورةَ إلى اعتبارِ الظَّرفِ -وهو ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾- مُقدَّمًا مِن تأخيرٍ كما سيأتي.

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٠).

أشْقاها، وعليه فلا ضَرورةَ إلى اعتبارِ الظَّرفِ -وهو ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا﴾- مُقدَّمًا مِن تَأخيرٍ[١].

- وأُعِيدَت عليهم ضَمائرُ الجمْعِ باعتِبارِ أنَّهم جمْعٌ، وإنْ كانت الضَّمائرُ قبْلَه مُراعًى فيها أنَّ ثَمودَ اسمُ قَبيلةٍ[٢].

- وعُبِّرَ عن صالحٍ عليه السَّلامُ بعُنوانِ الرِّسالةِ ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾؛ إيذانًا بوُجوبِ طاعتِه، وبَيانًا لغايةِ عُتُوِّهم وتَماديهم في الطُّغيانِ، وهو السِّرُّ في إضافةِ النَّاقةِ إلى اللهِ تعالَى في قولِه تعالَى: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾[٣].

وأيضًا إضافةُ (ناقة) إلى اسمِ الجَلالةِ؛ لأنَّها آيةٌ جَعَلَها اللهُ على صِدقِ رِسالةِ صالحٍ عليه السَّلامُ، ولأنَّ خُروجَها لهم كان خارقًا للعادةِ[٤].

- والسُّقيا: اسمُ مَصدرِ (سَقى)، وهو مَعطوفٌ على التَّحذيرِ، أي: احْذَروا سَقْيَها، أي: احْذَروا غصْبَ سَقْيِها؛ فالكلامُ على حذْفِ مُضافٍ. أو أُطلِقَ السُّقيا على الماءِ الَّذي تُسْقى منه إطلاقًا للمصدرِ على المفعولِ، فيَرجِعُ إلى إضافةِ الحُكمِ إلى الذَّاتِ، والمرادُ: حالةٌ تُعرَفُ مِن المَقامِ؛ فإنَّ مادَّةَ سُقْيا تُؤذِنُ بأنَّ المُرادَ التَّحذيرُ مِن أنْ يَسْقوا إبلَهم مِن الماءِ الَّذي في يومِ نَوبتِها[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾

- قولُه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ التَّكذيبُ المُعقَّبُ به تَحذيرُه إيَّاهم بقولِه:

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٣، ٣٧٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ تكذيبٌ ثانٍ، وهو تكذيبُهم بما اقتضاهُ التَّحذيرُ مِن الوعيدِ والإنذار بالعَذابِ إنْ لم يَحذَروا الاعتداءَ على تلك النَّاقةِ، وهو المُصرَّحُ به في آيةِ سُورةِ (الأعرافِ) في قولِه: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وبهذا الاعتبارِ استَقامَ التَّعبيرُ عن مُقابَلةِ التَّحذيرِ بالتَّكذيبِ، مع أنَّ التَّحذيرَ إنشاءٌ، فالتَّكذيبُ إنَّما يَتوجَّهُ إلى ما في التَّحذيرِ مِن الإنذارِ بالعذابِ[١].

- والعقْرُ: جَرْحُ البَعيرِ في يَدَيه ليَبرُكَ على الأرضِ مِن الألَمِ، فيُنحَرَ في لَبَّتِه[٢]؛ فالعقْرُ كِنايةٌ مَشهورةٌ عن النَّحرِ؛ لتَلازُمِهما[٣].

- وأُسنِدَ العقْرُ للجماعةِ؛ لكَونِهم راضينَ به، ومُتمالِئينَ عليه[٤]، فلمَّا رَضُوا بذلك كانوا كالفاعِلينَ له، فنُسِب التَّكذيبُ والعَقرُ إلى جميعِهم[٥].

- و(دمْدَمَ) مُكرَّرُ (دَمَمَ)؛ للمُبالَغةِ، مِثلُ كَبْكَبَ، أي: أطْبَقَ عليهم العذابَ مُكرَّرًا[٦].

- والباءُ ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: بسَببِ ذَنْبِهم، والتَّصريحُ بذلكَ مع دَلالةِ الفاءِ عليهِ؛ للإنذارِ بعاقِبةِ الذَّنْبِ؛ ليَعتبِرَ به كلُّ مُذنِبٍ[٧].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٤).

(٢) لَبَّةُ البَعيرِ: مَوضِعُ نَحْرِه، والنَّحْرُ في اللَّبَّةِ كالذَّبحِ في الحَلْقِ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٣٠٦)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٥٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٠).

(٥) يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي بن أبي طالب (١٢/ ٨٣٠٢).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٥).

(٧) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٤٩٨).

- والعُقْبى: ما يَحصُلُ عَقِبَ فِعلٍ مِن الأفعالِ مِن تَبِعةٍ لفاعِلِه أو مَثُوبةٍ، ولَمَّا كان المذكورُ عِقابًا وغَلَبةً، وكان العُرفُ أنَّ المغلوبَ يُكنِّي في نفْسِه الأخْذَ بالثَّأرِ مِن غالِبِه، فلا يَهدَأُ له بالٌ حتى يَثأَرَ لنفْسِه؛ أخبَرَ اللهُ أنَّه الغالِبُ الَّذي لا يَقدِرُ مَغلوبُه على أخْذِ الثَّأرِ منه، وهذا كِنايةٌ عن تَمكُّنِ اللهِ مِن عِقابِ المشرِكين، وأنَّ تَأخيرَ العذابِ عنهم إمهالٌ لهم وليس عن عجْزٍ، فجُملةُ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ تَذييلٌ للكلامِ، وإيذانٌ بالختامِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ قولُه: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ تَمثيلًا لحالِهم في الاستِئصالِ بحالِ مَن لم يَترُكْ مَن يَثأَرُ له، فيكونَ المثَلُ كِنايةً عن هَلاكِهم على بَكرةِ أبيهم لم يَبْقَ منهم أحدٌ[(١)].

- وعلى قِراءةِ ﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ -بفاءِ العطْفِ[(٢)] تَفريعًا على ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾- فمعْنى التَّفريعِ بالفاءِ على هذه القِراءةِ تَفريعُ العِلمِ بانتفاءِ خَوفِ اللهِ منهم مع قُوَّتِهم؛ ليَرتَدِعَ بهذا العِلمِ أمثالُهم مِن المشرِكين[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٥).

(٢) قرأ بها نافعٌ، وأبو جعفرٍ، وابنُ عامرٍ. وقرأ الباقونَ بالواوِ: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾. يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠١). ويُنظر أيضًا: ((معاني القراءات)) للأزهري (٣/ ١٥٠)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: ٧٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٦).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ اللَّيلِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ اللَّيلِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: (اللَّيلِ)، وأيضًا: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾.

وسُمِّيَت كذلك بسُورةِ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾[(١)]:

فعن جابِرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((كان مُعاذٌ يُصَلِّي مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ثمَّ يأتي فيَؤُمُّ قَومَه، فصَلَّى لَيلةً مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم العِشاءَ، ثمَّ أتى قَومَه فأَمَّهم، فافتَتَح بسُورةِ البَقَرةِ...)). وفيه أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لِمُعاذٍ: ((يا مُعاذُ، أفَتَّانٌ أنت؟! اقرَأْ ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾))[(٢)].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ اللَّيلِ مَكِّيَّةٌ[(٣)]، وحُكي الإجماعُ على ذلك[(٤)].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

بَيانُ البَونِ بيْنَ حالِ المؤمِنينَ والكافِرينَ في الدُّنيا والآخِرةِ[(٥)].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ في قَولِه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٣) وقيل: مَدَنيَّةٌ، وقيل: فيها مَدَنيٌّ. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٧/ ١٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦١).

(٤) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٨).

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- القَسَمُ على تَفاوُتِ حالِ الخَلْقِ في الإساءةِ والإحسانِ.

٢- بيانُ شَرَفِ المؤمِنينَ وفَضائِلِ أعمالِهم، ومَذَمَّة المُشرِكينَ وسُوءِ أعمالِهم، وجزاءِ كُلٍّ منهم.

٣- أنَّ اللهَ تعالى أرسَلَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للتَّذكيرِ بالحَقِّ، وأنَّ عاقِبةَ المكَذِّبينَ النَّارُ، وأنَّ المتَّقينَ يَنجونَ منها.

## الآيات (١-١١)

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿يَغۡشَىٰ﴾: يُغطِّي ويَستُرُ، وأصلُ (غشي): يدُلُّ على تغطيةِ شَيءٍ بشَيءٍ[١].

﴿تَجَلَّىٰ﴾: أي: ظهَرَ وأضاءَ، وأصلُ (جلو): يدُلُّ على انكِشافِ الشَّيءِ وبُروزِه[٢].

﴿لَشَتَّىٰ﴾: أي: مختَلِفٌ، جمْعُ شَتيتٍ، مِن الشَّتِّ، وهو التَّفرُّقُ الشَّديدُ، يُقالُ: شَتَّ جَمْعُهم، إذا تَفرَّقوا، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تفرُّقٍ[٣].

﴿بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: أي: بالجنَّةِ والثَّوابِ، وقيلَ غَيرُ ذلك، والحُسْنى: تَأنيثُ الأحسَنِ، والحُسْنُ ضِدُّ القُبْحِ، وهو عِبارةٌ عن كُلِّ مُبهِجٍ مَرغوبٍ فيه[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٧٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٠٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٥٦).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٧٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٦٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٠٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٠٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٠).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٧٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٣٥)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢).

﴿لِلۡيُسۡرَىٰ﴾: اليُسْرَى فُعلَى من اليُسْرِ، وهو ضدُّ العسرِ، وأصلُ (يسر) هنا: يدلُّ على انفتاحِ شيءٍ وَخِفَّتِه[١].

﴿لِلۡعُسۡرَىٰ﴾: مِن العُسرِ، وهو نَقيضُ اليُسْرِ، وأصلُ (عسر): يَدُلُّ على صُعوبَةٍ وشِدَّةٍ[٢].

﴿تَرَدَّىٰٓ﴾: أي: ماتَ، أو هلَك وسَقَط في جَهنَّمَ، وهو تَفَعَّل، مِنَ الرَّدى: وهو الهلاكُ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَمْيٍ وما أشْبَهَه[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا باللَّيلِ إذا غَطَّى بظَلامِه كلَّ شَيءٍ، وبالنَّهارِ إذا أضاء وظَهَر، وباللهِ الَّذي خَلَق الذَّكَرَ والأُنثى بقُدرتِه- على أنَّ أعمالَكم -أيُّها النَّاسُ- لَمُختلِفةٌ ومُتفَرِّقةٌ؛ فمِنكم المؤمِنُ والكافِرُ، والمطيعُ والعاصي.

ثمَّ فصَّل الله سبحانَه ما أجملَه، فقال: فأمَّا مَن أعطى مِن مالِه في سَبيلِ اللهِ، واتَّقى اللهَ، وصدَّق بالجنَّةِ؛ فسَنُسَهِّلُ له عمَلَ الخَيرِ الموصِلَ إلى الجنَّةِ، وأمَّا مَن بَخِلَ بمالِه، واستَغْنى عن رَبِّه سُبحانَه، وكذَّبَ بالجنَّةِ؛ فسنُسَهِّلُ عليه عمَلَ الشَّرِّ الموصِلَ إلى النَّارِ، وما يَنفَعُه مالُه إذا هوى في جَهنَّمَ.

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٠٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٨٩١).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣١٩)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٨، ١٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٥٠٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٢٩).

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾.

أي: أُقسِمُ باللَّيلِ وهو يُغَطِّي بظَلامِه الخلائقَ[1].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦).

قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي: يُغَطِّي، ولم يَذكُرْ معه مفعولًا؛ للعِلمِ به. وقيل: يَغشى النَّهارَ. وقيل: الأرضَ. وقيل: الخلائِقَ. وقيل: يَغشى كُلَّ شَيءٍ بظُلْمتِه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٠).

ومِمَّن قال: يغشَى النَّهارَ بظَلامِه: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، ومكي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٣٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٠٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦١).

ومِمَّن قال في الجملة: يُغَطِّي الأرضَ وما فيها بظَلامِه: ابنُ عطيَّة، والعُلَيميُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٨). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦).

ومِمَّن قال: يَغشى الخلائِقَ: ابنُ كثير، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

قال الشَّوكاني: (وقَولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي: يُغَطِّي بظُلمتِه ما كان مُضِيئًا. قال الزَّجَّاجُ: يَغشى اللَّيلُ الأُفُقَ وجميعَ ما بيْن السَّماءِ والأرضِ، فيَذهَبُ ضَوءُ النَّهارِ. وقيل: يَغشى النَّهارَ. وقيل: يَغشى الأرضَ. والأوَّلُ أَولى). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٠). ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣٥).

عن سَعيدِ بنِ جُبَيرٍ: (﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ قال: إذا أقبَلَ فغطَّى كُلَّ شَيءٍ). يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٣٣).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا أقسَم باللَّيلِ إذا يَغْشَى، أقسَمَ بالنَّهارِ إذا تجَلَّى؛ لأنَّ النَّهارَ إذا جاء انكشَفَ بضَوئِه ما كان في الدُّنيا مِن الظُّلْمةِ، وجاء الوَقتُ الَّذي تتحَرَّكُ فيه النَّاسُ لِمَعايشِهم[1].

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بالنَّهارِ إذا أضاء وظَهَر بنُورِه[2].

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ باللهِ الَّذي خَلَق الذَّكَرَ والأُنثى بقُدرتِه[3].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٥٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦).

قال القُرطبيُّ: (وفي المرادِ بالذَّكَرِ والأُنْثى قَولانِ؛ أحَدُهما: آدَمُ وحوَّاءُ، قاله ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، والكَلبيُّ. الثَّاني: يعني جميعَ الذُّكورِ والإناثِ مِن بني آدَمَ والبهائِمِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى خلَقَ جميعَهم مِن ذَكَرٍ وأُنثى مِن نَوعِهم. وقيل: كُلُّ ذكَرٍ وأُنثى مِن الآدَميِّينَ دونَ البهائِمِ؛ لاختِصاصِهم بوَلايةِ اللهِ وطاعتِه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٢).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنديُّ، والعُلَيميُّ، ونسَبَه الرَّسْعَنيُّ إلى الأكثَرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٥٥).

وممَّن قال به مِنَ السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، والكَلبيُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٢).

وممَّن اختار القَولَ الثَّانيَ: أبو حيَّانَ، وابنُ القَيِّم، وأبو السُّعودِ، والشَّوكانيُّ، والألوسيُّ، والقاسميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم =

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥].

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

مُناسَبةُ المُقسَمِ به للمُقسَمِ عليه: أنَّ سَعْيَ النَّاسِ منه خَيرٌ، ومنه شَرٌّ، وهما يُماثِلانِ النُّورَ والظُّلمةَ، وأنَّ سَعْيَ النَّاسِ يَنبثِقُ عن نَتائجَ؛ منها النَّافعُ، ومنها الضَّارُّ، كما يُنتِجُ الذَّكَرُ والأُنثى ذُرِّيَّةً صالحةً وغيرَ صالحةٍ(١).

وأيضًا لَمَّا ذَكَر ما هو محسوسُ التَّخالُفِ مِنَ المعاني والأجرامِ، أتْبَعَه ما هو معقولُ التَّبايُنِ مِن الأعراضِ، فقال(٢):

﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾.

أي: إنَّ أعمالَكم الَّتي تجتَهِدونَ فيها -أيُّها النَّاسُ- لَمُختلِفةٌ ومُتفرِّقةٌ؛ فمِنكم المؤمِنُ والكافِرُ، ومنكم المطيعُ والعاصي، ومنكم المُهتَدي والضَّالُّ، ومنكم المخلِصُ والمُرائي، ومنكم المتَّبِعُ والمبتَدِعُ(٣).

---

= (ص: ٥٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٦٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

ومِمَّن اختار القَولَ الثَّالِثَ: الماوَرْديُّ، وابنُ عاشورٍ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦-٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٦). =

كما قال تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وعن أبي مالِكٍ الأشعَريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كُلُّ النَّاسِ يَغْدو؛ فبائِعٌ نَفْسَه فمُعتِقُها، أو مُوبِقُها[١]))[٢].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه سُبحانَه بَيَّنَ معنى اختِلافِ الأعمالِ مِن العاقِبةِ المحمودةِ والمذمومةِ، والثَّوابِ والعِقابِ[٣].

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥﴾.

أي: فأمَّا مَن أعطى مِن مالِه فأنفَقَه في سَبيلِ اللهِ، وجَعَل بيْنَه وبيْنَ سَخَطِ اللهِ وعَذابِه حاجِزًا يَقِيه ذلك[٤].

---

= قال ابن جرير: (قَولُه: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ جوابُ القَسَمِ، والكلامُ: واللَّيلِ إذا يغشى إنَّ سَعْيَكم لشَتَّى، وكذا قال أهلُ العِلمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٦٠).

(١) قال النَّوويُّ: (معناه: كُلُّ إنسانٍ يَسْعى بنَفْسِه؛ فمِنهم مَن يَبيعُها لله تعالى بطاعتِه فيُعتِقُها مِن العذابِ، ومنهم مَن يَبيعُها للشَّيطانِ والهوى باتِّباعِهما، فيُوبِقُها، أي: يُهلِكُها). ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٠٢).

(٢) رواه مسلم (٢٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٦، ٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

قال القرطبي: (قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ قال ابنُ مَسْعودٍ: يَعْني: أبا بَكْرٍ رضيَ اللهُ عنه، وقالَه عامَّةُ المُفَسِّرينَ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٢).

﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦﴾.

أي: وصدَّق بالجنَّةِ الَّتي وعَدَ اللهُ بها المحسِنينَ المتَّقِينَ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٠، ١١].

وقال سُبحانَه حكايةً عن ذي القرنَين: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٦).

قال القُرطبيُّ: (﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: بلا إلهَ إلَّا اللهُ، قاله الضَّحَّاكُ، والسُّلَميُّ، وابنُ عبَّاس أيضًا. وقال مجاهدٌ: بالجنَّة، دليلُه قَولُه تَعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] الآيةَ. وقال قَتادةُ: بمَوْعودِ اللهِ الَّذي وَعَدَه أن يُثيبَه. زَيدُ بنُ أَسلَمَ: بالصَّلاةِ والزَّكاةِ والصَّوم. الحسَنُ: بالخَلَفِ مِن عَطائِه، وهو اختيارُ الطَّبَريِّ. وتَقدَّمَ عن ابنِ عبَّاس، وكلُّه مُتقارِبُ المَعْنى؛ إذْ كلُّه يَرجِعُ إلى الثَّوابِ الَّذي هو الجَنَّةُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٦٥).

وقال ابنُ عَطيَّةَ: (قال كَثيرٌ مِن المُفَسِّرينَ: الحُسْنى: الأجْرُ والثَّوابُ مُجْملًا). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩١).

وقال الواحديُّ: (﴿وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾: بالجَنَّة، وثَوابِ اللهِ، والخَلَفِ من اللهِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٠٣).

وقال ابنُ القيِّم: (التَّصْديقُ بالحُسْنى، وفُسِّرَتْ بلا إلهَ إلَّا اللهُ، وفُسِّرَتْ بالجَنَّة، وفُسِّرَتْ بالخَلَف، وهي أقوالُ السَّلَف... والأقوالُ الثَّلاثةُ تَرجِعُ إلى أفضَلِ الأعمالِ وأفضَلِ الجَزاء، فمَن فَسَّرَها بلا إلهَ إلَّا اللهُ فقدْ فَسَّرَها بمُفرَدٍ يَأتي بكلِّ جَمْع؛ فإنَّ التَّصْديقَ الحَقيقيَّ بلا إلهَ إلَّا اللهُ يَسْتلزِمُ التَّصديقَ بشُعَبِها وفُروعِها كلِّها. وجَميعُ أُصولِ الدِّينِ وفُروعِه مِن شُعَبِ هذه الكَلِمة...، ومَن فَسَّرَ الحُسْنى بالجَنَّة فَسَّرَها بأَعْلى أنْواعِ الجَزاءِ وكَماله، ومَن فَسَّرَها بالخَلَفِ ذَكَرَ نَوْعًا مِن الجَزاء، فهذا جَزاءٌ دُنْيويٌّ، والجَنَّةُ الجَزاءُ في الآخِرة، فرَجَعَ التَّصْديقُ بالحُسْنى إلى التَّصْديقِ بالإيمانِ وجَزائِه. والتَّحْقيقُ أنَّها تَتَناوَلُ الأمْرَين). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٥٨).

وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ [الكهف: ٨٨].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧﴾.

أي: فسَنُسَهِّلُ له عمَلَ الخَيرِ الموصِلَ إلى الجنَّةِ[١].

عن عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في جَنازةٍ، فقال: ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مَقعَدُه مِنَ النَّارِ، ومَقعَدُه مِن الجنَّةِ. قالوا: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نَتَّكِلُ على كِتابِنا، ونَدَعُ العمَلَ؟! قال: اعمَلوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ له؛ أمَّا مَن كان مِن أهلِ السَّعادةِ فيُيَسَّرُ لعمَلِ أهلِ السَّعادةِ، وأمَّا مَن كان مِن أهلِ الشَّقاءِ فيُيَسَّرُ لعَمَلِ أهلِ الشَّقاوةِ، ثمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٥ - ١٠]))[٢].

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر المُزَكِّي وثَمَرتَه؛ أتْبَعَه المُدَسِّيَ وشِقْوَتَه[٣]:

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨﴾.

أي: وأمَّا مَن بَخِلَ بمالِه فلم يُنفِقْه في سَبيلِ اللهِ، واستغنى عن رَبِّه سُبحانَه فلم

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٣)، ((التبيان)) لابن القيم (ص: ٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

وقال ابنُ عُثَيْمينَ: (﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾... في أُمورِه كلِّها؛ في أُمورِ دينِه ودُنْياه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

(٢) رواه البخاريُّ (٤٩٤٩) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩١).

يَرغَبْ في طاعتِه ولا في ثوابِه[١].

﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩﴾.

أي: وكذَّبَ بالجنَّةِ[٢].

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

أي: فسَنُسَهِّلُ عليه عمَلَ الشَّرِّ الموصِلَ إلى النَّارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢).

قيل: المرادُ: اسْتَغنى عن رَبِّه فلم يَرغَبْ في طاعتِه، وتَرَكَ عُبودِيَّتَه، ورأى أنَّه في غِنًى عن رَحْمتِه. ومِمَّن قال بهذا المعنى في الجُملةِ: ابنُ جريرٍ، ومَكِّيٌّ، والسعديُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٦٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

وقيل: المرادُ: استغنى عن ثَوابِ اللهِ فلم يَرغَبْ فيه. ومِمَّن ذهب إلى هذا القولِ: السَّمَرْقَنديُّ، والواحِديُّ، والسَّمْعانيُّ، والبَغَويُّ، وابنُ الجَوزيِّ، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٠).

وقال الثعلبي: (﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ عن ربِّه، فلمْ يَرغَبْ في ثَوابِه). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٨).

وذهَبَ البَيْضاويُّ والعُلَيْميُّ إلى أنَّ المَعْنى: اسْتَغنى بشَهَواتِ الدُّنيا ولَذَّاتِها عن نَعيمِ الآخِرةِ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٧٩).

وقال ابنُ عاشور: (وقد يُرادُ به زيادةُ طَلَبِ الغِنى بالبُخلِ بالمالِ، فتكونُ السِّينُ والتَّاءُ للطَّلَبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧٠)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤١٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦). =

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان أهلُ الدُّنيا إذا وَقَعوا في وَرطةٍ تخَلَّصوا منها بأموالِهم، قال[1]:

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

أي: وما يَنفَعُه مالُه الَّذي بَخِلَ به، وأعرَضَ بسَبَبِه عن اللهِ، إذا هوى في جَهنَّمَ[2].

---

= قال ابنُ القيِّم: (التَّيسيرُ للعُسْرى يكونُ بأمْرَينِ؛ أحَدُهما: أن يَحُولَ بيْنَه وبيْن أسبابِ الخَيرِ، فيَجري الشَّرُّ على قَلْبِه ونيَّتِه، ولِسانِه وجَوارِحِه. والثَّاني: أن يَحُولَ بيْنَه وبيْنَ الجزاءِ الأيسَرِ كما حال بيْنَه وبيْنَ أسبابِه). ((التبيان)) (ص: ٦٢).

وقال ابن عثيمين: (﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾... في أمورِه كلِّها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤، ٧٥)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٨٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٩).

قال القُرطبي: («مَا»: يحتَمِلُ أن تكونَ جَحْدًا، أي: ولا يُغْني عنه مالُه شَيئًا، ويحتَمِلُ أن تكونَ استفهامًا معناه التَّوبيخُ، أيْ: أيُّ شَيءٍ يُغْني عنه إذا هلك ووقَع في جهنَّمَ؟!). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٥، ٨٦). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٧).

ممَّن اختارَ أنَّ (ما) نافِيةٌ: النَّسَفيُّ، والعُلَيميُّ. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٨٠).

وممَّن اختارَ أنَّ (ما) استِفْهاميَّةٌ ومعناها: أيُّ شيءٍ: ابنُ جَريرٍ، ومَكِّيٌّ، والنَّيْسابوريُّ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٣)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣١٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥١١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٩).

وقال ابن كثير: (وقولُه: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ قال مجاهِدٌ: أي: إذا ماتَ. وقال أبو صالِحٍ، ومالِكٌ عن زَيدِ بنِ أسْلَمَ: إذا تَرَدَّى في النَّارِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢١).

مِمَّن اخْتارَ القَوْلَ الأوَّلَ أنَّ ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: ماتَ وهَلَكَ: مَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والقُرْطُبيُّ، والخازِنُ، والنَّيْسابوريُّ، والشَّوْكانيُّ، والسَّعْديُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٤)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٩)، ((تفسير القرطبي)) =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ فأقسَمَ باللَّيلِ وبالنَّهارِ، وفيه التَّنبيهُ على الاعتبارِ بهما في الاستِدلالِ على حِكْمةِ نِظامِ اللهِ في هذا الكَونِ، وبَديعِ قُدْرتِه[1].

٢- إنَّ ذِكْرَ العَواقبِ الحَسَنةِ مِن أجْلِ الحَثِّ على الطَّاعةِ لا يُنافي الإخلاصَ، وهذا مِن الثَّوابِ العاجِلِ، ومِن عاجِلِ بُشْرى المؤمِنِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[2].

٣- إذا رأيتَ اللهَ قد يسَّر لك عمَلَ أهلِ السَّعادةِ فأبشِرْ أنَّك مِن أهلِ السَّعادةِ، فإذا رأيتَ مِن نفْسِك الانقيادَ للصَّلاةِ والزَّكاةِ ولفِعلِ الخَيرِ، وعندَك تقوَى مِن اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فاعلَمْ أنَّك مِن أهلِ السَّعادةِ واستبشِرْ؛ لأنَّ الله قال: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ

---

= (٢٠/ ٨٥)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).

ومِمَّن اخْتارَ القَولَ الثَّانيَ -أي: تَردَّى في النَّارِ وسَقَطَ فيها-: ابنُ جَريرٍ، والسَّمْعانيُّ، والعُلَيْميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٣٩)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٨٠).

ومِمَّن جَمَعَ بَيْنَ المَعْنيَينِ السَّابقَينِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والبِقاعيُّ:

قال مُقاتِلٌ: (﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ يَعني: إذا ماتَ، وتَردَّى في النَّارِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢٢).

وقال السَّمَرْقَنْديُّ: (﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ يَعْني: ما يَنفَعُه مالُه، إذا ماتَ وتَرَكَه في الدُّنْيا، وهو يَرِدُ إلى النَّارِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩).

وقال البِقاعيُّ: (﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾: أي هَلَكَ بالسُّقوطِ في حُفْرةِ القَبْرِ والنَّارِ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٩٢).

وقال الماوَرْديُّ: (ويَحتمِلُ ثالِثًا: إذا تَردَّى في ضَلالِه، وهَوى في مَعاصيه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٨٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة المائدة)) (١/ ٢٧٢).

وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾، وإنْ رأيتَ العَكسَ؛ رأيتَ نفْسَك تَنشَرِحُ بفعلِ السَّيِّئاتِ -والعياذُ باللهِ-، وتَضيقُ ذَرْعًا بفعلِ الطَّاعاتِ؛ فاحذَرْ، وأنقِذْ نفْسَك، وتُبْ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ حتَّى يُيَسِّرَ اللهُ لك[1].

٤- إنَّ العبدَ إذا وُفِّقَ للانقيادِ للهِ سُبحانَه وتعالى سَهُلَ عليه دِينُه، وصار أيسَرَ عليه مِن كلِّ شَيءٍ، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[2].

٥- إنَّ اللهَ تعالى إذا عَلِمَ مِن العَبدِ نيَّةً صالحةً، وإرادةً للخَيرِ؛ يَسَّرَ له ذلك وأعانه عليه؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾[3].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۞ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ أقسَمَ سُبحانَه بزَمانِ السَّعْيِ -وهو اللَّيلُ والنَّهارُ- وبالسَّاعي -وهو الذَّكَرُ والأُنثى- على اختلافِ السَّعيِ، كما اختلف اللَّيلُ والنَّهارُ والذَّكَرُ والأُنثى، وسَعْيُه وزَمانُه مختَلِفٌ، وذلك دليلٌ على اختلافِ جَزائِه وثوابِه، وأنَّه سُبحانَه لا يُسَوِّي بيْن مَنِ اختلَف سَعْيُه في الجزاءِ، كما لم يُسَوِّ بيْن اللَّيلِ والنَّهارِ والذَّكَرِ والأُنثى[4].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ ظُلمةَ اللَّيلِ كانت غالِبةً لضَوءِ النَّهارِ، وأنَّ النَّهارَ يَعقُبُها، والظُّلمةُ هي أصلُ أحوالِ أهلِ الأرضِ وجَميعِ العوالَمِ المرتَبِطةِ بالنِّظامِ الشَّمسيِّ، وإنَّما أضاءت بَعْدَ أن خَلَق اللهُ

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ٥٥٨).
(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٢/ ١١٣).
(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ٥٨٧).
(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٦).

الشَّمسَ؛ ولذلك اعتُبِرَ التَّاريخُ في البَدءِ باللَّيالي، ثمَّ طَرَأ عليه التَّاريخُ بالأيَّامِ[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ سُؤالٌ عن قَسَمِ اللهِ تعالى بهذه المخلوقاتِ، وقد نُهِينا عنِ القَسَمِ بغيرِه.

**الجوابُ عنه مِن وجهَينِ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ هذا مِن فِعْلِ اللهِ تعالى، واللهُ لا يُسأَلُ عمَّا يَفْعَلُ، وله أنْ يُقْسِمَ سُبحانَه بما شاء مِن خَلْقِه، وهو سائلٌ غيرُ مسؤولٍ، وحاكمٌ غيرُ محكومٍ عليه.

**الثَّاني**: أنَّ قَسَمَ اللهِ بهذه الآياتِ دليلٌ على عَظَمتِه وكمالِ قُدرتِه وحِكمتِه، فيكونُ القَسَمُ بها الدَّالُّ على تعظيمِها ورَفْعِ شأنِها متضَمِّنًا للثَّناءِ على اللهِ عزَّ وجلَّ بما تقتَضيه مِن الدَّلالةِ على عَظَمتِه، وأمَّا نحن فلا نُقْسِمُ بغيرِ اللهِ أو صِفاتِه؛ لأنَّنا مَنهيُّونَ عن ذلك[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۞ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ قابَلَ سُبحانَه بيْنَ الذَّكَرِ والأُنثى كما قابَلَ بيْن اللَّيلِ والنَّهارِ، وكلُّ ذلك مِن آياتِ رُبوبيَّتِه؛ فإنَّ إخراجَ اللَّيلِ والنَّهارِ بواسِطةِ الأجرامِ العُلويَّةِ كإخراجِ الذَّكَرِ والأنثى بواسطةِ الأجرامِ السُّفْليَّةِ، فأخْرَجَ مِن الأرضِ ذُكورَ الحيوانِ وإناثَه على اختلافِ أنواعِها، كما أخْرَجَ مِن السَّماءِ اللَّيلَ والنَّهارَ بواسطةِ الشَّمسِ فيها[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ أنَّ الخُنْثى أحَدُهما، لا صِنفٌ ثالِثٌ[٤].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ أنَّ مِن طَبيعةِ البَشَرِ أنْ يكونَ لهم نَزَعاتٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٥).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٧٨).

مُتباينةٌ؛ فمنها نَزَعاتٌ إلى الخَيرِ والحَقِّ، ومنها نَزَعاتٌ إلى الباطِلِ والشَّرِّ[١].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أنَّه لَمَّا كان الدِّينُ يدورُ على ثلاثِ قواعِدَ: فِعْلِ المأمورِ، وترْكِ المحظورِ، وتصديقِ الخبرِ، وإنْ شئتَ قلتَ: الدِّينُ طَلَبٌ وخَبَرٌ، والطَّلَبُ نَوعانِ: طلَبُ فِعلٍ، وطلَبُ تَركٍ- فقد تضَمَّنَتْ هذه الكَلِماتُ الثَّلاثُ مراتبَ الدِّينِ أجمَعَها؛ فالإعطاءُ: فعلُ المأمورِ، والتَّقْوى: ترْكُ المحظورِ، والتَّصديقُ بالحسنى: تصديقُ الخبَرِ، فانتظمَ ذلك الدِّينَ كلَّه، وأكمَلُ النَّاسِ مَن كَمَلَتْ له هذه القُوى الثَّلاثُ[٢].

٨- قَولُه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ إلى آخِرِه: فيه رَدٌّ على القَدَريَّةِ؛ أخرج الشَّيخانِ وغَيرُهما عن عليٍّ رضيَ الله عنه أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا وقد كُتِبَ مَقعَدُه مِنَ الجنَّةِ، ومَقعَدُه مِنَ النَّارِ. فقُلْنا: يا رَسولَ اللهِ، أفلا نتَّكِلُ؟ قال: لا، اعمَلوا؛ فكُلٌّ مُيَسَّرٌ، ثمَّ قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ إلى قَولِه: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾))[٣].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ السِّينُ هنا: للتَّحقيقِ، أي: إنَّ مَنْ أَعطى واتَّقى، وصَدَّقَ بالحُسنى؛ فسيُيَسِّرُه اللهُ عزَّ وجلَّ لليُسْرى في أُمورِه كلِّها، في أمورِ دينِه ودُنياه-على قولٍ في التفسيرِ-، وكُلَّما كان الإنسانُ أتقى للهِ كانت أمورُه أيسَرَ له؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[٤] [الطلاق: ٤].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾، وقَولِه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ دَلالةٌ

---

(١) يُنظر: ((الضياء اللامع من الخطب الجوامع)) لابن عثيمين (٢/ ٢٧٤).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦٠).

(٣) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩١).
والحديثُ أخرجه البُخاريُّ (٤٩٤٧)، ومسلمٌ (٢٦٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

على أنَّ التَّوفيقَ والخِذْلانَ مِنَ اللهِ تعالى[١].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ مع قَولِه: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ﴾ سؤالٌ: كيف قابَلَ «اتَّقى» بـ«استَغْنى»؟ وهل يُمكِنُ للعبدِ أنْ يَستغنيَ عن ربِّه طَرْفةَ عَينٍ؟!

**الجَوابُ**: هذا مِن أحسَنِ المُقابَلةِ؛ فإنَّ المتَّقيَ لَمَّا استشعرَ فَقْرَه وفاقتَه وشِدَّةَ حاجتِه إلى ربِّه اتَّقاه، ولم يَتعرَّضْ لسَخَطِه وغَضَبِه ومَقْتِه بارتكابِ ما نهاه عنه؛ فإنَّ مَن كان شديدَ الحاجةِ والضَّرورةِ إلى شَخصٍ فإنَّه يتَّقي غَضَبَه وسَخَطَه عليه غايةَ الاتِّقاءِ، ويجانِبُ ما يَكرَهُه غايةَ المجانَبةِ، ويَعتمِدُ فِعْلَ ما يُحِبُّه ويُؤْثِرُه؛ فقابَلَ «التَّقْوى» بـ«الاستغناءِ»؛ تبشيعًا لحالِ تاركِ التَّقوى، ومُبالَغةً في ذَمِّه بأنْ فَعَلَ فِعْلَ المُستغني عن ربِّه، لا فِعْلَ الفقيرِ المضطرِّ إليه الَّذي لا مَلجأَ له إلَّا إليه، ولا غِنَى له عن فَضْلِه وَجُودِه وبِرِّه طَرْفةَ عَينٍ[٢]!

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ وكذا قَولُه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥] وكذا قَولُه: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥] أنَّ عامَّةَ ما يَذْكُرُه اللهُ في خَلْقِ الكُفرِ والمعاصي يَجْعَلُه جزاءً لذلك العَمَلِ، وهؤلاء وأمثالُهم بَذَلوا فيه أعمالًا عاقبَهم بها على فِعْلِ محظورٍ وترْكِ مأمورٍ، وتلك الأمورُ إنَّما كانت منهم وخُلِقَتْ فيهم؛ لكَونِهم لم يَفعَلوا ما خُلِقوا له، ولا بُدَّ لهم مِن حركةٍ وإرادةٍ؛ فلمَّا لم يَتحرَّكوا بالحسَناتِ حُرِّكوا بالسَّيِّئاتِ عَدْلًا مِن اللهِ تعالى؛ حيثُ وَضَعَ ذلك مَوضِعَه في مَحَلِّه القابِلِ له، وهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٣٧٣).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦٣).

القلبُ الَّذي لا يكونُ إلَّا عاملًا، فإذا لم يَعْمَلِ الحسَنةَ استُعمِلَ في عمَلِ السَّيِّئةِ، كما قيل: نفْسُك إنْ لم تَشْغَلْها شَغَلَتْك، وهذا الوجهُ إذا حُقِّقَ يَقْطَعُ مادَّةَ كلامِ القَدَرِيَّةِ المُكذِّبَةِ، والمُجْبِرةِ؛ الَّذين يقولون: إنَّ أفعالَ العِبادِ ليست مخلوقةً للهِ، ويَجعلونَ خَلْقَها والتَّعذيبَ عليها ظُلْمًا، والَّذين يقولون: إنَّه خَلَقَ كُفْرَ الكافِرينَ وَمعصيتَهم، وعاقَبَهم على ذلك لا لسببٍ ولا لحِكمةٍ[(١)]!

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ -على القولِ بأنَّ المرادَ العُسْرى في الأمورِ كلِّها- سؤالٌ: أنَّنا نَجِدُ أنَّ الكُفَّارَ تُيَسَّرُ أمورُهم!

**الجوابُ**: نعَمْ. قد تُيَسَّرُ أمورُهم، لكِنَّ قلوبَهم تَشْتَعِلُ نارًا وضِيقًا وحَرَجًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، ثُمَّ ما يُنَعَّمُون به فهو تنعيمُ جَسَدٍ فقط، لا تنعيمُ رُوحٍ، ثُمَّ هو أيضًا وَبَالٌ عليهم؛ لقولِ اللهِ تعالى فيهم: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ * وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣]، وقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ لَيُمْلِي للظَّالِمِ حتَّى إذا أخَذَه لم يُفْلِتْه))، ثمَّ قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾[(٢)] [هود: ١٠٢]، وهؤلاء عُجِّلَتْ لهم طيِّبَاتُهم في حياتِهم الدُّنيا، ومع ذلك فإنَّ هذه الدُّنيا جَنَّةٌ لهم بالنِّسبةِ للآخِرةِ[(٣)].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ (٤٦٨٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٥٨٣) مِن حديثِ أبي موسى الأشعَريِّ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٧).

- خُصَّ بالذِّكرِ ما في اللَّيلِ مِن الدَّلالةِ مِن حالةِ غِشْيانِه الجانبَ الَّذي يَغشاهُ مِن الأرضِ، ويَغْشى فيه مِن الموجوداتِ، فتَعُمُّها ظُلمتُه فلا تَبْدو للنَّاظِرينَ؛ لأنَّ ذلك أقْوى أحوالِه، وخُصَّ بالذِّكرِ مِن أحوالِ النَّهارِ حالةُ تَجليتِه عن الموجوداتِ وظُهورِه على الأرضِ كذلك[١].

- واختيرَ القسَمُ باللَّيلِ والنَّهارِ لمُناسَبتِه للمَقامِ؛ لأنَّ غرَضَ السُّورةِ بَيانُ البَونِ بيْن حالِ المؤمنينَ والكافِرينَ في الدُّنيا والآخرةِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ ابتُدِئَ في هذه السُّورةِ بذِكرِ اللَّيلِ، ثمَّ ذِكرِ النَّهارِ، عكْسَ ما في سُورةِ (الشَّمسِ)؛ لأنَّ هذه السُّورةَ نَزَلَت قبْلَ سُورةِ (الشَّمسِ) بمُدَّةٍ، وهي سادسةُ السُّوَرِ، وأيَّامَئذٍ كان الكُفْرُ مُخيِّمًا على النَّاسِ إلَّا نفَرًا قَليلًا، وكان الإسلامُ قدْ أخذَ في التَّجلِّي، فناسَبَ تلك الحالةَ بالإشارةِ إلى تَمثيلِها بحالةِ اللَّيلِ حينَ يَعقُبُه ظُهورُ النَّهارِ، ويتَّضِحُ هذا في جَوابِ القسَمِ بقولِه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[٣] [اللَّيل: ٤- ١١].

- قولُه: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۞ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ حُذِفَ مَفعولُ ﴿يَغۡشَىٰ﴾ لتَنزيلِ الفِعلِ مَنزلةَ اللَّازِمِ؛ لأنَّ العِبرةَ بغِشْيانِه كلَّ ما تَغشاهُ ظُلمتُه[٤].

- وأُسنِدَ إلى النَّهارِ التَّجلِّي؛ مَدْحًا له بالاستنارةِ الَّتي يَراها كلُّ أحدٍ[٥].

- وتَقييدُ اللَّيلِ بالظَّرفِ ﴿إِذَا يَغۡشَىٰ﴾، وتَقييدُ النَّهارِ بمِثلِه ﴿إِذَا تَجَلَّىٰ﴾؛ لأنَّ المُرادَ القسَمُ بكلِّ واحدٍ مِنهما في الحالةِ الدَّالَّةِ على أعظَمِ أحوالِه وأشدِّها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٧٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

دَلالةً على عَظيمِ صُنْعِ اللهِ تعالَى، وتَقييدُ القسَمِ باللَّيلِ بَوقتِ تَغشِيَتِه تذكيرٌ بالعِبرةِ بحُدوثِ حالةِ الظُّلمةِ بعْدَ حالةِ النُّورِ[١].

- وأَتَى سُبحانَه بصيغةِ المضارعِ في ﴿يَغْشَىٰ﴾؛ لأنَّه يَغْشَى شيئًا بعدَ شيءٍ، وأمَّا النَّهارُ فإنَّه إذا طَلَعَتِ الشَّمسُ ظَهَرَ وتَجَلَّى وَهْلةً واحدةً؛ ولهذا قال سُبحانَه وتعالى في سورةِ (الشَّمسِ وضُحاها): ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۞ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾[٢] [الشمس: ٣، ٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾

- في قولِه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إجمالٌ يُفيدُ التَّشويقَ إلى تَفصيلِه بقولِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ الآيةَ؛ ليَتمكَّنَ تَفصيلُه في الذِّهنِ[٣].

- وشتَّى: مُشتَقٌّ مِن الشَّتِّ، وهو التَّفرُّقُ الشَّديدُ، وأُريدَ به هنا التَّنوُّعُ والاختِلافُ في الأحوالِ، وهو كِنايةٌ عن الأعمالِ المُتخالِفةِ؛ لأنَّ التَّفرُّقَ يَلزَمُه الاختِلافُ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾

- قولُه: ﴿فَأَمَّا﴾ تَفريعٌ وتَفصيلٌ للإجمالِ في قولِه: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ [اللَّيل: ٤]، والمُحتاجُ للتَّفصيلِ هنا هو السَّعيُ المَذكورُ، ولكنْ جُعِلَ التَّفصيلُ ببَيانِ السَّاعينَ بقولِه: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ﴾؛ لأنَّ المُهِمَّ هو اختِلافُ أحوالِ السَّاعينَ ويُلازِمُهم السَّعيُ؛ فإيقاعُهم في التَّفصيلِ بحسَبِ مَساعِيهم يُساوي إيقاعَ المَساعي في التَّفصيلِ، وهذا تَفنُّنٌ مِن أفانينِ الكلامِ الفَصيحِ يَحصُلُ منه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٦٨، ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٧٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٨٠).

مَعنَيانِ، وانحصَرَ تَفصيلُ «شتَّى» في فَريقينِ: فَريقٌ مُيسَّرٌ لليُسْرى، وفَريقٌ مُيسَّرٌ للعُسْرى؛ لأنَّ الحالَينِ هما المُهِمُّ في مَقامِ الحثِّ على الخَيرِ، والتَّحذيرِ مِن الشَّرِّ، ويَندرِجُ فيهما مُختلِفُ الأعمالِ، كقولِه تعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٦- ٨]، ويَجوزُ أنْ يُجعَلَ تَفصيلُ (شتَّى) همْ مَن أعْطى واتَّقى وصدَّقَ بالحُسنى، ومَن بَخِلَ واستَغْنى وكذَّبَ بالحُسنَى، وذلك عدَدٌ يصِحُّ أنْ يكونَ بَيانًا لـ (شتَّى)[١].

- وحُذِف مَفعولَا ﴿أَعْطَىٰ﴾؛ إذ المقصودُ الثَّناءُ على المُعطِي دونَ تَعرُّضٍ للمُعطَى والعَطيَّةِ[٢]. أو حُذِفَ مَفعولُ ﴿أَعْطَىٰ﴾؛ لأنَّ فِعلَ الإعطاءِ إذا أُريدَ به إعطاءُ المالِ بدونِ عِوَضٍ، يُنزَّلُ مَنزلةَ اللَّازمِ؛ لاشتِهارِ استِعمالِه في إعطاءِ المالِ، ولذلك يُسمَّى المالُ الموهوبُ عَطاءً، وكذلك حُذِفَ مَفعولُ (اتَّقى)؛ لأنَّه يُعلَمُ أنَّ المُقدَّرَ: اتَّقى اللهَ. وكذلك فِعلُ ﴿بَخِلَ﴾ لم يُذكَرْ مُتعلَّقُه؛ لأنَّه أُريدَ به البُخلُ بالمالِ[٣]. أو حُذِف مفعولُ ﴿أَعْطَىٰ﴾؛ ليَعُمَّ كُلَّ عَطاءٍ مِن مالِه وجاهِه وجُهْدِه، حتَّى الكَلِمةِ الطَّيِّبةِ، بل حتَّى طَلاقةِ الوَجهِ[٤].

- والحُسنى: تَأنيثُ الأحسَنِ، فهي بالأصالةِ صِفةٌ لمَوصوفٍ مُقدَّرٍ، وتَأنيثُها مُشعِرٌ بأنَّ مَوصوفَها المُقدَّرَ يُعتبَرُ مُؤنَّثَ اللَّفظِ، ويَحتمِلُ أُمورًا كَثيرةً؛ فالتَّصديقُ بها الاعترافُ بوُقوعِها، ويُكنَّى به عن الرَّغبةِ في تَحصيلِها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٤٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢، ٣٨٣).

- والسِّينُ في قولِه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ وقولِه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ قيل: هي حرْفُ تنفيسٍ مُرادٌ منه الاستِمرارُ مِن الآنَ إلى آخِرِ الحياةِ[١].

- وفي قولِه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ عَدَل الكَلامَ إلى مَظهَرِ العظَمةِ؛ إشارةً إلى صعوبةِ الطَّاعةِ على النَّفْسِ، وإن كانت في غايةِ اليُسرِ في نَفْسِها؛ لأنَّها في غايةِ الثِّقَلِ على النَّفْسِ[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۞ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾

- قولُه: ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ جُعِلَ مُقابِلًا لقولِه: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾؛ فالمرادُ به الاستغناءُ عن امتثالِ أمْرِ اللهِ ودَعوتِه؛ لأنَّ المُصِرَّ على الكُفْرِ المُعرِضَ عن الدَّعوةِ يَعُدُّ نفْسَه غَنيًّا عن اللهِ مُكتفيًا بولايةِ الأصنامِ وقَومِه؛ فالسِّينُ والتَّاءُ للمُبالَغةِ في الفعلِ، وقد يُرادُ به زيادةُ طَلَبِ الغِنى بالبُخلِ بالمالِ، فتَكونُ السِّينُ والتَّاءُ للطَّلَبِ، وهذه الخِلالُ كِنايةٌ عن كَونِه مِن المشرِكين[٣].

- قولُه: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ و﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ جاء تَرتيبُ النَّظْمِ في هذه الآيةِ على عكْسِ المُتبادرِ؛ إذ جُعِلَ ضَميرُ الغَيبةِ في (سَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى) العائدُ إلى ﴿مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ هو المُيسَّرَ، وجُعِلَ ضَميرُ الغَيبةِ في (سَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) العائدُ إلى ﴿مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ هو المُيسَّرَ، أي: الَّذي صار الفِعلُ صَعْبُ الحُصولِ حاصلًا له، وإذ وَقَعَ المَجروران باللَّامِ (اليُسرى) و(العُسرى)، فيَجوزُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٣).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤١٤).
(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٠).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٢).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤١٥).

يكونَ الكلامُ جاريًا على خِلافِ مُقْتضى الظَّاهرِ بطَريقِ القلْبِ[١]؛ بأنْ يكونَ أصلُ الكلامِ: فسَنُيَسِّرُ اليُسرى له، وسَنُيَسِّرُ العُسرى له، ومُقْتضى القلبِ إفادةُ المُبالَغةِ في هذا التَّيسيرِ حتى جُعِلَ المُيسَّرُ مُيسَّرًا له والمُيسَّرُ له مُيسَّرًا، على نحْوِ ما وَجَّهوا به قولَ العرَبِ: عرَضْتُ النَّاقةَ على الحَوضِ[٢].

ويَجوزُ أنْ يكونَ معْنى الآيةِ على ظاهِرِه مِن تَيسيرِ الإنسانِ لليُسرى أو العُسرى، ويُجعَلَ اليُسرى وَصْفًا، أي: الحالةِ اليُسرى، والعُسرى، أي: الحالةِ غيرِ اليُسرى، وليس في التَّركيبِ قلْبٌ، والتَّيسيرُ بمعْنى الدَّوامِ على العمَلِ، وإذ كان الوعْدُ بتَيسيرِ اليُسرى لصاحبِ تلك الصِّلاتِ الدَّالَّةِ على أعمالِ الإعطاءِ والتَّقوى والتَّصديقِ بالحُسنى، كان سُلوكُ طَريقِ المَوصوليَّةِ للإيماءِ إلى وَجْهِ بناءِ الخبَرِ، وهو التَّيسيرُ، فتَعيَّنَ أنَّ التَّيسيرَ مُسبَّبٌ عن تلك الصِّلاتِ، أي: جَزاءً عن فِعلِها، فالمُتيسِّرُ: تَيسيرُ الدَّوامِ عليها، وتكون اليُسرى صِفةً للأعمالِ، وذلك مِن الإظهارِ في مَقامِ الإضمارِ، والأَصْلُ: مُستيسرٌ له أعمالُه، وعُدِلَ عن الإضمارِ إلى وَصْفِ اليُسرى؛ للثَّناءِ على تلك الأعمالِ بأنَّها مُيسَّرةٌ مِن اللهِ[٣].

- ولعلَّ تَصديرَ القِسْمينِ بالإعطاءِ والبُخلِ، مع أنَّ كلًّا منهما أدْنى رُتبةً ممَّا بعْدَهما في استتباعِ التَّيسيرِ لليُسرى والتَّيسيرِ للعُسرى؛ للإيذانِ بأنَّ كلًّا منهما أصلٌ فيما ذُكِرَ، وليس تَتمَّةً لِما بعْدَهما مِن التَّصديقِ والتَّقوى والتَّكذيبِ والاستغناءِ[٤].

أو إنَّما خُصَّ الإعطاءُ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ مع شُمولِ (اتَّقى)

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٨٥، ٣٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٧).

لمُفادِه، وخُصَّ البُخلُ بالذِّكرِ في قولِه: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ مع شُمولِ (استَغْنى) له؛ لتَحريضِ المسلمينَ على الإعطاءِ، فالإعطاءُ والتَّقوى شِعارُ المسلمينَ مع التَّصديقِ بالحُسنى، وضِدُّ الثَّلاثةِ مِن شِعارِ المشرِكين[1].

- قولُه: ﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ الواوُ عاطفةٌ على جُملةِ ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾، أي: سنُعجِّلُ به إلى جهنَّمَ، فالتَّقديرُ: إذا تَردَّى فيها. و(ما) نافيةٌ، والتَّقديرُ: وسَوفَ لا يُغْني عنه مالُه إذا سَقَطَ في جهنَّمَ، وذلك على قولٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ استِفهاميَّةً للإنكارِ والتَّوبيخِ، ويجوزُ على هذا الوجْهِ أنْ تكونَ الواوُ للاستئنافِ، والمعْنى: وأيُّ شَيءٍ يُغْني عنه مالُه[2]؟!

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٠٢).

## الآيات (١٢-٢١)

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَلَظَّىٰ﴾: أي: تتوقَّدُ وتَشتَعِلُ، واللَّظى: اللَّهَبُ الخالِصُ، يُقالُ: تلَظَّت النَّارُ تتلَظَّى تَلَظِّيًا: أي: توقَّدَت وتوهَّجَت وتلَهَّبَت[١].

﴿يَصْلَاهَا﴾: أي: يَدخُلُها ويُقاسي حَرَّها، وأصلُ الصَّلَى: الإيقادُ بالنَّارِ[٢].

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾: أي: أعرَضَ، والتَّولِّي إذا وُصِلَ بـ(عن) لفظًا، أو تقديرًا -كما هنا- اقتضَى معنَى الإعراضِ، وتَركِ القُربِ[٣].

﴿يَتَزَكَّىٰ﴾: أي: يَتَطَهَّرُ، ويَتنمَّى، والتَّزَكِّي: تَكَلُّفُ الزَّكاءِ، وهو النَّماءُ مِن الخيرِ، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على طهارة ونَماءٍ وزِيادةٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٦٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٩٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ١٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٥٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٣١٠)، ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٠٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩١).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾

قَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ﴾: مَنصوبٌ على الاستثناءِ المنقَطِعِ؛ لعَدَمِ اندراجِه تحتَ جِنسِ النِّعمةِ، فالمعنى: لكِنَّه فَعَل ذلك لابتغاءِ وَجْهِ رَبِّه سُبحانَه، وطَلَبِ رِضاه عزَّ وجَلَّ، لا لمكافأةِ نِعمةٍ. ويجوزُ أَنْ يكونَ مَفعولًا لأجْلِه على المعنى؛ لأنَّ المعنى: لا يُؤتِي مالَه مِن أجْلِ شَيءٍ مِن الأشياءِ إلَّا مِن أجْلِ طَلَبِ رِضا رَبِّه عزَّ وجَلَّ، لا لمكافأةِ نِعمةٍ؛ فهو استثناءٌ مُفرَّغٌ مِن أعَمِّ العِلَلِ والأسبابِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى: إنَّ علينا تَبيينَ طريقِ الهُدى للنَّاسِ، وإنَّ لنا وَحْدَنا لَلآخِرةَ والدُّنيا، والتَّصَرُّفَ فيهما؛ فحذَّرْتُكم -أيُّها النَّاسُ- نارَ جَهنَّمَ الَّتي تتوقَّدُ وتشتَعِلُ، لا يَدخُلُها ويُقاسي حَرَّها إلَّا الكافِرُ الشَّقيُّ الَّذي كذَّب بالحَقِّ، وأعرَضَ عن اتِّباعِه، وسيُباعَدُ عن النَّارِ المؤمِنُ الَّذي يتَّقي سَخَطَ اللهِ وعَذابَه، والَّذي يتصَدَّقُ بأمواله في سَبيلِ اللهِ؛ طَلَبًا لتَطهيرِ نَفْسِه، وليس إنفاقُه ليكافِئَ به مَن أنعَمَ عليه بمعروفٍ سابقٍ، ولكِنْ يَبتغي بإنفاقِه وَجْهَ رَبِّه الأعلى، ولَسوف يَرضى بما يُثيبُه اللهُ تعالى به في الآخِرةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا عَرَّفهم سُبحانَه أنَّ سَعْيَهم شَتَّى، وبَيَّن ما للمُحسِنينَ مِنَ اليُسرى، وما

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٩٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٣٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٧١).

للمُسيئينَ مِن العُسرى- أخبَرَهم بأنَّ عليه بيانَ الهُدى مِنَ الضَّلالِ[١].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

أي: إنَّ علينا أن نبَيِّنَ طريقَ الهُدى الَّذي يوصِلُ سالِكَه إلى اللهِ تعالى وجنَّتِه[٢].

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٦)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٨٣، ٨٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١٣-٢١٦) و(١٧/ ٢٣٠، ٢٣١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٦٩، ٧٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٩، ٢٣٠).

ممَّن اخْتارَ المَعْنى المَذْكورَ في الجُمْلةِ وأنَّ المُرادَ: إنَّ علينا أن نُبَيِّنَ طَريقَ الهُدى مِن طَريقِ الضَّلالِ، والحَقَّ مِن الباطِلِ، وأنَّ الهُدى هنا هو هُدى البَيانِ والإرْشادِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنْدِيُّ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والثَّعْلَبِيُّ، ومَكِّيٌّ، والواحِدِيُّ، والزَّمَخْشَرِيُّ، والرَّازِيُّ، والنَّسَفِيُّ، والخازِنُ، وأبو حَيَّانَ، والبِقاعِيُّ، والعُلَيْمِيُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٢٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٥)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٨٩)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢١٨)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣١٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٠٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٣)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٥١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٩).

وقال ابنُ القَيِّمِ: (وقيل: المعنى: مَن سلَك الهُدَى فعلى الله سبيلُه، كقولِه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]. وهذا قولُ مجاهدٍ، وهو أصحُّ الأقوالِ... وهو معنًى شريفٌ جليلٌ، يدُلُّ على أنَّ سالكَ طريقِ الهُدى يُوصِلُه طريقُه إلى اللهِ ولا بُدَّ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٦٩).

وهذا القولُ هو قولُ الفرَّاءِ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير القشيري)) (٣/ ٧٣٧).

أي: وإنَّ لنا وَحْدَنا مُلْكَ الآخِرةِ والدُّنيا، والتَّصَرُّفَ فيهما[١].

كما قال الله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤].

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

أي: فحذَّرْتُكم -أيُّها النَّاسُ- نارَ جَهنَّمَ الَّتي تتوقَّدُ وتشتَعِلُ[٢].

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾﴾.

أي: لا يَدخُلُها ويُقاسي حَرَّها إلَّا الكافِرُ الشَّقيُّ[٣].

كما قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۞ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۞ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۞ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠ - ١٣].

﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦).
قال ابنُ جرير: (عنَى بذلك جَلَّ ثناؤُه أنَّه يوفِّقُ لطاعتِه مَن أحَبَّ مِن خَلْقِه، فيُكرِمُه بها في الدُّنيا، ويُهيِّئُ له الكرامةَ والثَّوابَ في الآخرةِ، ويَخذُلُ مَن يَشاءُ خِذْلانَه مِن خَلْقِه عن طاعتِه، فيُهينُه بمعصيتِه في الدُّنيا، ويُخْزيه بعُقوبتِه عليها في الآخِرةِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦).
وقال القرطبي: (﴿لَلْآخِرَةَ﴾: الجنَّة. ﴿وَٱلْأُولَىٰ﴾: الدُّنيا. وكذا روى عَطاءٌ عن ابنِ عبَّاس، أي: الدُّنيا والآخرةُ لله تعالى. وروى أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ قال: ثوابُ الدُّنيا والآخرةِ، وهو كقَولِه تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤]، فمَن طلَبَهما مِن غيرِ مالِكِهما فقد أخطأ الطَّريقَ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٤).

أي: الَّذي كذَّب بالحَقِّ، فلم يُؤمِنْ به، وأعرَضَ عن اتِّباعِه والعمَلِ به[١].

كما قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۞ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [القيامة: ٣١، ٣٢].

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧﴾.

أي: وسيُباعَدُ عن النَّارِ المؤمِنُ الَّذي يتَّقي سَخَطَ اللهِ وعَذابَه[٢].

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر ما يتعَلَّقُ بالقُوَّةِ العِلميَّةِ؛ أَتْبَعَه ما ينظُرُ إلى القوَّةِ العَمَليَّةِ؛ فقال[٣]:

---

(١) يُنظر: ((الإخنائية)) لابن تيميَّة (ص: ٣١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٨)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عجيبة)) (٧/ ٣١٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣١).

قال ابنُ عطيَّة: (لم يختَلِفْ أهلُ التَّأويلِ أنَّ المرادَ بـ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ: أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ، ثمَّ هي تتناوَلُ كُلَّ مَن دخل في هذه الصِّفاتِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٢). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٨٧، ١٨٨)، ((منهاج السنة النبوية)) لابن تيمية (٧/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٧).

وقال الواحِديُّ: (﴿ٱلْأَتْقَى﴾ يَعْني: أبا بكرٍ في قَولِ الجَميعِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٠٥). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٥).

ونَسَبَه السَّمْعانيُّ إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٤٠).

قال ابنُ كَثيرٍ: (وقد ذكَرَ غيرُ واحِدٍ مِن المُفَسِّرينَ أنَّ هذه الآياتِ نزَلَتْ في أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضيَ اللهُ عنه، حتَّى إنَّ بعضَهم حَكى الإجْماعَ مِن المُفَسِّرينَ على ذلك. ولا شكَّ أنَّه داخِلٌ فيها، وأَوْلى الأُمَّةِ بعُمومِها؛ فإنَّ لَفْظَها لَفْظُ العُمومِ، وهو قَولُه تَعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۞ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۞ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾، ولكنَّه مُقدَّمُ الأُمَّةِ وسابِقُهم في جَميعِ هذه الأوْصافِ، وسائِرِ الأوْصافِ الحَميدةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٥).

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

أي: الَّذي يتصَدَّقُ بأمواله في سَبيلِ اللهِ؛ طَلَبًا لتَطهيرِ نَفْسِه وتَنميتِها[١].

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الإنسانُ قد يُعْطي ليزكِّيَ نَفْسَه بدَفعِ مانِّه، ومكافأةِ نِعَمِه؛ قال[٢]:

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾.

أي: وليس إنفاقُه مِن أجْلِ أن يكافِئَ مَن أنعَمَ عليه بمعروفٍ سابقٍ[٣].

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾.

أي: ولكِنْ يَبتغي بإنفاقِ مالِه وَجْهَ رَبِّه الأعلى، فهو يَطمَعُ في رُؤيتِه في الآخِرةِ[٤].

كما قال تعالى: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الروم: ٣٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٧٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٥).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((مختصر الصواعق المرسلة)) لابن القيم (ص: ٤١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٣).

أي: وأُقسِمُ إنَّ هذا المنفِقَ سيَرضى بما يُثيبُه اللهُ تعالى به في الآخِرةِ[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ إرشادٌ إلى أنَّ صاحِبَ التَّقْوى لا يَنبغي له أنْ يَتحَمَّلَ مِنَنَ الخَلْقِ ونِعَمَهم، وإنْ حَمَل منهم شيئًا بادرَ إلى جزائِهم عليه؛ لئلَّا يَتبقَّى لأحدٍ مِن الخَلْقِ عليه نِعمةٌ تُجزى، فيكونُ بعدَ ذلك عَمَلُه كلُّه للهِ وحْدَه، ليس جزاءً للمَخلوقِ على نِعمتِه[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ تنبيهٌ على أنَّ مَن ليس لمخلوقٍ عليه نِعمةٌ تُجزى لا يَفْعَلُ ما يَفعَلُه إلَّا ابتغاءَ وجْهِ ربِّه الأعلى، بخِلافِ مَن تَطَوَّقَ بنِعَمِ المخلوقينَ ومِنَنِهم؛ فإنَّه مُضطرٌّ إلى أنْ يَفعَلَ مِن أجْلِهم، ويَترُكَ مِن أجْلِهم؛ ولهذا كان مِن كمالِ الإخلاصِ ألَّا يَجعَلَ العبدُ عليه مِنَّةً لأحدٍ مِن النَّاسِ؛ لِتَكونَ مُعامَلتُه كلُّها للهِ ابتِغاءَ وَجهِه وطلب مَرضاتِه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أنَّه على المؤمنِ إذا أغناه اللهُ عزَّ وجلَّ أنْ يكونَ شاكرًا للهِ، قائمًا بما أوجَبَ اللهُ عليه مِن بَذْلِ المالِ في حقِّه، على الوَجهِ الَّذي يُرضي اللهَ عزَّ وجلَّ[٤].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أنَّه ينبغي أنْ نستحضِرَ نيَّةَ التَّقرُّبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٠)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٨٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٣٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٧٢).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٤٣٢).

في العبادةِ، والغالبُ أنَّنا نَفْعَلُ العبادةَ على أنَّنا مُلزَمون بها، فنَنْويها لتصحيحِ العمَلِ، وهذا نَقْصٌ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ سؤالٌ: في هذا دَلالةٌ على أنَّ اللهَ التزم على نَفْسِه الهدى للخَلْقِ، مع أنَّه جاءت آياتٌ كثيرةٌ تدُلُّ على عدَمِ هُداه لبعضِ النَّاسِ، كقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]، وقَولِه: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقَولِه: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٨٦] الآيةَ، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ؟

**الجوابُ**: أنَّ الهُدى يُستعمَلُ في القُرآنِ خاصًّا وعامًّا؛ فالمُثبَتُ: العامُّ، والمنفيُّ: الخاصُّ، ونَفيُ الأخَصِّ لا يستلزِمُ نَفيَ الأعمِّ، وأمَّا على قولِ مَن قال: «إنَّ معنى الآيةِ: إنَّ الطَّريقَ الَّذي يدُلُّ علينا وعلى طاعتِنا هو الهُدى لا الضَّلالُ»، وقولِ مَن قال: «إنَّ معنى الآيةِ: أنَّ مَن سلَكَ طرَيقَ الهُدى وصَل إلى اللهِ»؛ فلا إشكالَ في الآيةِ أصلًا[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾، وكذا قَولُه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وقَولُه: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١] التَّعديةُ بحرفِ الاستعلاءِ دونَ حرفِ الغايةِ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ سالكَ طريقِ اللهِ متوكِّلٌ عليه، فلا بُدَّ له مِن عبادتِه، ومِن التَّوكُّلِ عليه، فإذا قيل: «عليه الطَّريقُ المستقيمُ» تضَمَّنَ أنَّ سالكَه عليه يتوكَّلُ، وعليه تدُلُّه الطَّريقُ، وعلى عبادتِه وطاعتِه يقعُ

---

(١) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (١/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧٣).

والهُدَى الخاصُّ: هو التَّفضُّلُ بالتَّوفيقِ إلى دينِ الحقِّ، والهدَى العامُّ: هو إيضاحُ الحقِّ. يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (١/ ١٠).

ويَسقُطُ[١]. وذلك على قولٍ في تفسيرِ الآيةِ.

٣- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ التِزامٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ أنْ يُبَيِّنَ للخَلْقِ ما يَهتدونَ به إليه، والمرادُ بالهُدى هنا: هُدى البَيانِ والإرشادِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى التَزمَ على نفْسِه بيانَ ذلك؛ حتَّى لا يكونَ للنَّاسِ على اللهِ حُجَّةٌ، وهذا في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣] إلى أنْ قال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، فلا يمكِنُ للعَقلِ البشَريِّ أنْ يَسْتَقِلَّ بمعرفةِ الهدى؛ ولذلك التَزمَ اللهُ عزَّ وجلَّ بأنْ يُبَيِّنَ الهُدى للإنسانِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ * وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ إشارةٌ عظيمةٌ إلى أنَّ أمورَ الجزاءِ في الأُخرى تَجري على ما رَتَّبه اللهُ وأعلَمَ به عِبادَه، وأنَّ نِظامَ أُمورِ الدُّنيا وترَتُّبَ مُسَبَّباتِه على أسبابِه أمرٌ قد وضعه اللهُ تعالى، وأمَرَ بالحِفاظِ عليه، وأرشَدَ وهدى؛ فمَن فَرَّط في شيءٍ مِن ذلك فقد استحَقَّ ما تسَبَّب فيه[٣].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ سؤالٌ عن هذه الآيةِ الَّتي مِن أجْلِها قال أهلُ الإرجاءِ بالإرجاءِ، فزَعَموا أنَّه لا يدخُلُ النَّارَ إلَّا كافِرٌ؛ لِقَولِه: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى * ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

**الجوابُ**: أنَّ الأمرَ ليس كما ظنُّوا؛ فهذه نارٌ موصوفةٌ بعَينِها، لا يَصْلَى هذه النَّارَ إلَّا الأشقى الَّذي كَذَّب وتوَلَّى، ولأهلِ النَّارِ مَنازِلُ؛ فمِنها قَولُه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، واللهُ عزَّ وجَلَّ كُلُّ ما وعد

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٥/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٩).

عليه بجنسٍ مِنَ العذابِ فجائزٌ أن يعذِّبَ به، وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، فلو كان كُلُّ مَن لم يُشرِكْ باللهِ لا يُعَذَّبُ، لم يكُنْ في قَولِه سبحانَه وتعالى: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فائدةٌ(١).

٦- قال الله تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ بأن يكونَ قَصْدُه به تزكيةَ نَفْسِه، وتطهيرَها مِنَ الذُّنوبِ والعُيوبِ، قاصدًا به وَجْهَ اللهِ تعالى؛ فدَلَّ هذا على أنَّه إذا تضَمَّن الإنفاقُ المستحَبُّ تَرْكَ واجبٍ -كدَينٍ، ونَفَقةٍ، ونحوِهما- فإنَّه غيرُ مَشروعٍ، بل تكونُ عَطِيَّتُه مردودةً عندَ كثيرٍ مِنَ العُلَماءِ؛ لأنَّه لا يتزكَّى بفِعلِ مُستحَبٍّ يُفَوِّتُ عليه الواجِبَ(٢).

٧- قَولُه تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ استُدِلَّ به على أنه لا يُجزِئُ دفعُ الزَّكاةِ إلى الأبوَينِ صحيحَينِ كانا أو زَمِنَينِ، ولا إلى أحدٍ يَقْدَمُ منه إلى المُعطي إحسانٌ؛ لأنَّه يَصيرُ مكافأةً ومجازاةً، وإنَّما هي لِمَن لا يُكافي ولا يُجازي، ولا يَدفعُ بها

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٧).

قال ابنُ تَيميَّةَ: (وفيه... ما يُبَيِّنُ أنَّ الفَضْلَ بالصَّدَقةِ لا يكونُ إلَّا بعْدَ أداءِ الواجِبِ مِن المُعاوَضاتِ، كما قال تَعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فمَن عليه دُيونٌ مِن أثْمانٍ وقَرْضٍ وغَيرِ ذلك، فلا يُقَدِّمُ الصَّدَقةَ على قَضاءِ هذه الواجِباتِ، ولو فَعَلَ ذلك؛ فهلْ تُرَدُّ صَدقتُه؟ على قَولَينِ مَعْروفَينِ للفُقَهاءِ، فهذه الآيةُ يَحتَجُّ بها مَن [قالَ:] تُرَدُّ صَدقتُه؛ لأنَّ اللهَ تَعالى إنَّما أثْنى على مَن آتى مالَه يَتَزَكَّى، وما لأحَدٍ عندَه مِن نِعمةٍ تُجزَى، فإذا كان عندَه نِعمةٌ تُجْزى فعليه أن يَجزِيَ بها قبْلَ أن يُؤْتِيَ مالَه يَتزكَّى، فإذا آتى مالَه يَتزكَّى قبْلَ أن يَجزِيَ بها لم يكُنْ مَمْدوحًا، فيكونُ عَمَلُه مَرْدودًا؛ لقَولِه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم: «مَن عَمِلَ عَمَلًا ليس عليه أمْرُنا فهو رَدٌّ» [مسلم «١٧١٨»]). ((منهاج السنة النبوية)) (٨/ ٥٠١).

ذَمًّا، بل تكونُ للهِ عزَّ وجلَّ خالصةً لوَجهِه فقط، فإنَّما المكافأةُ تكونُ في إخراجِ الأموالِ في التَّطَوُّعِ لا في الفَرْضِ[١].

٨- قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ نبَّه بقولِه ﴿تُجْزَىٰٓ﴾ على أنَّ نعمةَ الإسلامِ الَّتي لرسولِ اللهِ على هذا الأتقى لا تُجزَى؛ فإنَّ كلَّ ذي نعمةٍ يمكنُ جزاءُ نعمتِه إلَّا نعمةَ الإسلامِ؛ فإنَّها لا يمكِنُ المنعَمَ بها عليه أنْ يَجزيَ بها، وهذا يدُلُّ على أنَّ الصِّدِّيقَ رضيَ اللهُ عنه أوَّلُ وأَولى مَن ذُكِرَ في هذه الآيةِ، وأنَّه أحقُّ الأُمَّةِ بها؛ فإنَّ عليًّا رضيَ اللهُ عنه تَرَبَّى في بيتِ النَّبيِّ، فلِرسولِ اللهِ عندَه نِعْمةٌ غيرُ نِعمةِ الإسلامِ يمكِنُ أنْ تُجزَى[٢].

٩- قولُه تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ هذه الآيةُ مِن جَوامعِ الكَلِمِ؛ لأنَّها يَندرِجُ تَحتَها كلُّ ما يَرغَبُ فيه الرَّاغبونَ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾

- قولُه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لإخبارِهم بأنَّ عليه سُبحانَه بمُقْتضى حِكمتِه بَيانَ الهُدى مِن الضَّلالِ[٤]. وهو استِئنافٌ مُقرِّرٌ لمَضمونِ الكلامِ السَّابقِ مِن قولِه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ إلى قولِه: ﴿لِلْعُسْرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٥-١٠]؛ وذلك لإلقاءِ التَّبِعةِ على مَن صار إلى العُسرى بأنَّ اللهَ أعذَرَ إليه -إذ هَداهُ بدَعوةِ الإسلامِ إلى الخَيرِ- فأعرَضَ عن الاهتداءِ باختيارِه اكتِسابَ السَّيِّئاتِ؛ فإنَّ التَّيسيرَ لليُسرى يَحصُلُ عندَ مَيلِ العبْدِ إلى عمَلِ الحَسَناتِ،

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٢٣).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٠٣).

والتَّيسيرَ للعُسرى يَحصُلُ عندَ مَيلِه إلى عمَلِ السَّيِّئاتِ[١].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بحرْفِ (إنَّ) ولامِ الابتداءِ: يُومِئُ إلى أنَّ هذا كالجوابِ عمَّا يَجِيشُ في نُفوسِ أهلِ الضَّلالِ عندَ سَماعِ الإنذارِ السَّابقِ مِن تَكذيبِه بأنَّ اللهَ لو شاءَ منهم ما دَعاهم إليه لَألجَأَهُم إلى الإيمانِ؛ فقد حُكِيَ عنهم في الآيةِ الأُخرى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُم﴾[٢] [الزخرف: ٢٠].

- وعطْفُ ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ على جُملةِ ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ﴾ تَتْميمٌ[٣] وتَنبيهٌ على أنَّ تَعهُّدَ اللهِ لعِبادِه بالهُدى فضْلٌ منه، وإلَّا فإنَّ الدارَ الآخِرةَ مِلْكُه، والدارَ الأُولى مِلْكُه بما فِيهما[٤].

- قَولُه: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ فيه تقديمُ الآخرةِ على الأُولى، مع أنَّ الأُولى متقَدِّمةٌ على الآخرةِ في الزَّمَنِ، لكِنَّه أَخَّرَها لفائدتَينِ:

الفائدةُ الأُولى: معنويَّةٌ، والفائدةُ الثَّانيةُ: لفظيَّةٌ. أمَّا المعنويَّةُ فلِأنَّ الآخرةَ أهمُّ مِن الدُّنيا، ولأنَّ الآخرةَ يَظهَرُ فيها مُلْكُ اللهِ تعالى تمامًا؛ في الدُّنيا هناك رؤساءُ، وهناك ملوكٌ، وهناك أمراءُ، يَملِكونَ ما أعطاهم اللهُ عزَّ وجلَّ مِن المُلْكِ، لكِنْ في الآخرةِ لا مُلْكَ لأحَدٍ ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]؛ فلهذا قَدَّمَ ذِكْرَ الآخرةِ مِن أجْلِ هذه الفائدةِ المعنويَّةِ. أمَّا الفائِدةُ اللَّفظيَّةُ فهي مُراعاةُ الفواصلِ؛ أواخِرِ الآياتِ، فكلُّها آخرُها ألِفٌ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۞ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۞ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ١١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٨، ٣٨٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٠).

- قولُه: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ لمُجرَّدِ التَّفريعِ الذِّكريِّ إذا كان فِعلُ (أنْذرْتُكم) مُستعمَلًا في ماضيهِ، وكان المرادُ الإنذارَ الَّذي اشتَمَلَ عليه قولُه: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ * وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ [اللَّيل: ٨- ١١]، وهذه الفاءُ يُشبهُ معْناها معْنى فاءِ الفَصيحةِ؛ لأنَّها تدُلُّ على مُراعاةِ مَضمونِ الكلامِ الَّذي قبْلَها، وهو تَفريعُ إنذارٍ مُفصَّلٍ على إنذارٍ مُجمَلٍ. ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ للتَّفريعِ المعنويِّ، فيَكونَ فِعلُ (أنذَرْتُكم) مُرادًا به الحالُ، وإنَّما صِيغَ في صِيغةِ المُضِيِّ؛ لتَقريبِ زَمانِ الماضي مِن الحالِ، وهو تَفريعٌ على جُملةِ ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ [اللَّيل: ١٢]، والمعْنى: إنَّ علينا هَدْيَكم، فأنذَرْتُكم إبلاغًا في الهُدى[(١)].

- وتَنكيرُ ﴿نَارًا﴾ للتَّهويلِ[(٢)].

- وأصْلُ ﴿تَلَظَّىٰ﴾: تَتلظَّى بتاءينِ؛ حُذِفَتْ إحداهما للاختِصارِ[(٣)].

- وقد أُتبِعَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ بصِفةِ ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ لزِيادةِ التَّنصيصِ على أنَّ المشرِكينَ المقصودُ بذلك؛ فإنَّهم يَعلَمون أنَّهم كذَّبوا الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَوَلَّوا، أي: أعْرَضوا عن القرآنِ، وقد انحصَرَ ذلك الوَصفُ فيهم يَومَئذٍ؛ فقدْ كان الناسُ في زمَنِ ظُهورِ الإسلامِ أحَدَ فَريقينِ: إمَّا كافرٌ، وإمَّا مُؤمنٌ تَقيٌّ، ولم يكُنِ الَّذين أسْلَموا يَغشَون الكَبائرَ؛ لأنَّهم أقْبَلوا على الإسلامِ بشَراشِرِهم[(٤)]؛ ولذلك عُطِفَ ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ...﴾ إلخ تَصريحًا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٨٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) أي: بكُلِّيَّتِهم. وقيل: الشَّراشِرُ: النَّفْسُ والمحبَّةُ جميعًا. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١١/ ١٨٧).

بمَفهومِ القصْرِ، وتَكميلًا للمُقابَلةِ[١].

- ووُصِفَ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ بصِلةِ ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ للصِّلةِ تَسبُّبًا في الحُكْمِ[٢].

- والأشْقى والأتْقى مُرادٌ بهما: الشَّديدُ الشَّقاءِ، والشَّديدُ التَّقْوى[٣].

- وفي قَولِه: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ إلى قَولِه: ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ احتِباكٌ[٤]؛ ذَكَرَ التَّكذيبَ أوَّلًا؛ دليلًا على حَذْفِ ضَدِّه ثانيًا، وإيتاءَ المالِ ثانيًا؛ دليلًا على حَذْفِ ضِدِّه أوَّلًا[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى * ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ * وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ * إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ * وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

- قولُه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾ الواوُ عاطفةٌ، والسِّينُ حرْفُ استقبالٍ جِيءَ به للتَّأكيدِ[٦].

- ووُصِفَ ﴿ٱلْأَتْقَى﴾ بصِلةِ ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ للصِّلةِ تَسبُّبًا في الحُكْمِ[٧].

- وجُملةُ ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ حالٌ في ضَميرِ ﴿يُؤْتِى﴾، وفائدةُ الحالِ التَّنبيهُ على أنَّه يُؤتِي مالَه لقصْدِ النَّفعِ، والزِّيادةِ مِن الثَّوابِ، تَعريضًا بالمشرِكين الَّذي يُؤتُونَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٠).
(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).
(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٢٥).
(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٩٥).
(٦) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٠٣).
(٧) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٠).

المالَ للفخْرِ والرِّياءِ والمفاسِدِ والفُجورِ[١].

- والتَّزكِّي: تَكلُّفُ الزَّكاءِ، وهو النَّماءُ مِن الخَيرِ[٢].

- قولُه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ﴾ استِئنافٌ مُقرِّرٌ لكَونِ إيتائِه للتَّزكِّي خالصًا لوَجْهِ اللهِ تعالَى، أي: ليس لأحدٍ عندَه نِعمةٌ مِن شَأنِها أنْ تُجزى وتُكافأَ، فيَقصِدَ بإيتاءِ ما يُؤتي مُجازاتَها[٣].

- قولُه: ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰٓ﴾ جَوابُ قَسَمٍ مُضمَرٍ، أيْ: وباللهِ لَسوفَ يَرْضَى، وهو وعْدٌ بالثَّوابِ الجَزيلِ الَّذي يُرْضي صاحبَه، وهذا تَتميمٌ لقولِه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى﴾؛ لأنَّ ذلك ما أفادَ إلَّا أنَّه ناجٍ مِن عَذابِ النَّارِ؛ لاقتضاءِ المقامِ الاقتِصارَ على ذلك؛ لقصْدِ المُقابَلةِ مع قولِه: ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى﴾، فتُمِّمَ هنا بذِكرِ ما أُعِدَّ له مِن الخَيراتِ[٤].

- وحرْفُ (سوف) لتَحقيقِ الوعْدِ في المُستقبَلِ، أي: يَتغلغَلُ رِضاهُ في أزمنةِ المُستقبَلِ المديدِ، واللَّامُ لامُ الابتداءِ لتَأكيدِ الخبَرِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٢).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ الضُّحى

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ الضُّحى

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الضُّحى)، وأيضًا ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾[١]:

فعن جابِرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قام مُعاذٌ فصَلَّى العِشاءَ فطَوَّلَ، فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أفَتَّانٌ أنت يا مُعاذُ؟! أين أنتَ عن ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾؟))[٢].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الضُّحى مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

### مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:

ذِكرُ ما حفَّ الله به نبيَّه مِن ألْطافِه وعِنايَتِه[٤].

---

(١) قال ابن عاشور: (سُمِّيَتْ هذه السُّورَةُ في أكثرِ المصاحِفِ وفي كثيرٍ مِن كُتُبِ التَّفسيرِ، وفي «جامِعِ التِّرْمِذِيِّ»: سُورَةَ الضُّحَى بدونِ وَاوٍ. وسُمِّيَتْ في كثيرٍ مِن التَّفاسيرِ، وفي «صحيحِ البُخاريِّ»: سُورَةَ ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ بإثْباتِ الواوِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٣)

(٢) أخرجه النسائيُّ (٩٩٧).

صحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (٩٩٧).

والحديث أصلُه في الصَّحيحِ دونَ ذِكْرِ ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾؛ أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٩١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٤).

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- بيانُ ما للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الشَّرَفِ والمَنقَبةِ.

٢- إبطالُ قَولِ المُشرِكينَ؛ إذ زَعَموا انقِطاعَ الوَحيِ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

٣- تذكيرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بجانِبٍ مِن نِعَمِ اللهِ سبُحانَه عليه.

٤- إرشادُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المُداوَمةِ على مَكارِمِ الأخلاقِ؛ شُكرًا على نِعَمِه سُبحانَه، ومِن مَظاهِرِ ذلك: العَطفُ على اليتيمِ، والإحسانُ إلى السَّائِلِ، وعدَمُ كِتمانِ نِعَمِ اللهِ تعالى.

## الآيات (١-١١)

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿سَجَىٰ﴾: أي: سَكَن وغَطَّى بظَلامِه كُلَّ شَيءٍ، يُقالُ: سَجا اللَّيلُ: إذا ادْلَهَمَّ وسَكَن، وأصلُ (سجو): يدُلُّ على سُكونٍ وإطباقٍ[(١)].

﴿مَا وَدَّعَكَ﴾: أي: ما ترَكَك، وأصلُ (ودع): يدُلُّ على التَّركِ والتَّخليةِ[(٢)].

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾: أي: ما أبغَضَك، والقَلْيُ والقِلَى: البُغضُ الشَّديدُ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٣٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٩٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٩).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٧٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٨٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٦).

قال الراغب: (مَن جعَله مِن الواوِ فهو مِنَ القَلْوِ، أي: الرَّمْيِ، ... فكأنَّ المَقلُوَّ هو الَّذي يَقذِفُه القَلبُ مِن بُغضِه فلا يَقبَلُه). ((المفردات)) (ص: ٦٨٣).

وقال ابن فارس: («قلو» القافُ واللَّامُ والحرفُ المُعْتَلُّ أصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ على خِفَّةٍ وَسُرْعَةٍ... ومِن البابِ القِلَى، وهو البغضُ. يُقالُ منه: قَلَيْتُه أقْليه قِلًى. وقدْ قالوا: قَلَيْتُه أقْلاه. والقِلَى تجافٍ عن الشَّيءِ وذهابٌ عنه). ((مقاييس اللغة)) (٥/ ١٦).

﴿فَـَٔاوَىٰ﴾: أي: ضَمَّك إلى عَمِّك، وكفاك المَؤُونةَ، وأصلُ (أوي) هنا: التجَمُّعُ[١].

﴿عَآئِلٗا﴾: أي: فَقيرًا، وأصلُ (عيل): يدُلُّ على فاقةٍ وحاجةٍ[٢].

﴿فَلَا تَقۡهَرۡ﴾: أي: لا تَحقِرْه ولا تَقْهَرْه على مالِه؛ فتَذهَبَ بحَقِّه لضَعْفِه، والقَهْرُ: الغَلَبةُ والإذلالُ، وأصلُ (قهر): يدُلُّ على غَلَبةٍ وعُلُوٍّ[٣].

﴿فَلَا تَنۡهَرۡ﴾: أي: لا تَزجُرْه، والنَّهرُ: الزَّجْرُ، ومُغالَظةُ القَولِ، مِثلُ أن يقولَ: إليكَ عَنِّي[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالنَّهارِ إذا انتشَرَ ضِياؤُه، وباللَّيلِ إذا سَكَن واشتدَّتْ ظُلمتُه، على أنَّه ما ترَكَ نبيَّه محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما أبغَضَه.

ثمَّ قال اللهُ تعالى له مُبَشِّرًا: ولَثَوابُ الآخرةِ خَيرٌ لك مِن الدُّنيا وما فيها، ولَسوفَ يُعطيك ربُّك مِنَ الخَيرِ حتَّى ترضى.

ثمَّ عَدَّد اللهُ تعالى بَعْضَ نِعَمِه على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال: ألم

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢١٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٥١)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٧)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٢).

(٤) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣).

يَجِدْك رَبُّك -يا محمَّدُ- يتيمًا، فيسَّرَ لك مَن يُؤويك ويَكفُلُك، ووجَدَك ضالًّا عن مَعرفةِ القُرآنِ والإيمانِ، فعَلَّمَك وهداك، ووجَدَك فَقيرًا فأغناك.

ثمَّ أمَرَ اللهُ تعالى رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بشُكْرِ هذه النِّعَم، فقال: فأمَّا اليَتيمَ فلا تُهِنْه ولا تَظْلِمْه، وأمَّا السَّائِلُ فلا تَنهَرْه وتَزجُرْه، وحَدِّثِ النَّاسَ بما أنعَمَ اللهُ به عليك.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن جُندَبِ بنِ عبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((اشتكى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلم يَقُمْ ليلتَينِ أو ثلاثًا، فجاءته امرأةٌ فقالت: يا محمَّدُ، إنِّي لأرجو أن يكونَ شَيطانُك قد ترَكَك، لم أرَهُ قَربَك منذُ ليلتَينِ أو ثلاثٍ! فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ [الضحى: ١ - ٣]))[(١)].

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾.

أي: أُقسِمُ بالنَّهارِ إذا انتشَرَ ضِياؤُه[(٢)].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ باللَّيلِ إذا سَكَن بأهلِه فأظلَمَ واشتدَّتْ ظُلمتُه[(٣)].

---

(١) رواه البخاريُّ (١١٢٥)، ومسلمٌ (١٧٩٧) واللَّفظُ له.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٩١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا﴾ [الأنعام: ٩٦].

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣﴾.

أي: ما ترَكَك رَبُّك -يا محمَّدُ- وما أبغَضَك[1].

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

في اتِّصالِ قولِه تعالَى: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ﴾ بما تَقدَّمَ وُجوهٌ؛

**أحدُها**: أنْ يكونَ المعْنى: أنَّ انقطاعَ الوحْيِ لا يَجوزُ أنْ يكونَ؛ لأنَّه عزْلٌ عن النُّبوَّةِ، بلْ أقْصى ما في البابِ أنْ يكونَ ذلك لأنَّه حصَلَ الاستِغناءُ عن الرِّسالةِ، وذلك أمارةُ الموتِ، فكأنَّه يُقالُ: انقِطاعُ الوحْيِ متى حصَلَ دلَّ على الموتِ، لكنَّ الموتَ خيرٌ لك؛ فإنَّ ما لَك عندَ اللهِ في الآخِرةِ خيرٌ وأفضَلُ ممَّا لك في الدُّنيا.

**وثانيها**: لَمَّا نَزَل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: ٣] حصَل له بهذا تَشريفٌ عَظيمٌ، فكأنَّه استَعظَمَ هذا التَّشريفَ، فقِيل له: ولَلآخِرةُ خيرٌ لك مِن الأُولى، أي: هذا التَّشريفُ وإنْ كان عظيمًا، فإنَّ ما لَك عندَ اللهِ في الآخِرةِ خيرٌ وأعظَمُ.

**وثالثُها**: هو أنْ يكونَ المعْنى: ولَلأحوالُ الآتيةُ خيرٌ لك مِن الماضيةِ، كأنَّه تعالَى

---

= كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

قال ابن كثير: (﴿سَجَىٰ﴾ أي: سَكَن فأظْلَمَ وادْلَهَمَّ. قاله مُجاهِدٌ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ، وغيرُهم). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

قال الواحديُّ: (هذا جوابُ القَسَم. قال المفَسِّرونَ: أبطأَ جِبريلُ على النَّبيِّ عليهما السَّلامُ، فقال المشرِكونَ: قد قلاه اللهُ ووَدَّعه؛ فأنزل اللهُ تعالى هذه الآيةَ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٠٨).

وَعَدَه بأنَّه سيَزيدُه كلَّ يومٍ عِزًّا إلى عِزٍّ، ومَنصبًا إلى مَنصبٍ، فيقولُ: لا تَظُنَّ أنِّي قَليتُك، بلْ إنِّي أَزيدُك مَنصبًا وجَلالًا[١].

﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾.

أي: ولَثَوابُ الآخرةِ خَيرٌ لك مِن الدُّنيا وما فيها[٢].

كما قال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بَيَّن تعالى أنَّ الآخِرةَ خَيرٌ له مِن الأُولى، ولكِنَّه لم يُبَيِّنْ أنَّ ذلك التَّفاوُتَ إلى أيِّ حَدٍّ يكونُ؛ فبَيَّن بهذه الآيةِ مِقدارَ ذلك التَّفاوُتِ، وهو أنَّه يَنتهي إلى غايةِ ما يتمَنَّاه الرَّسولُ ويَرتَضيه[٣].

وأيضًا فإنَّه تعالى كأنَّه لَمَّا قال: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ فقيل: ولِمَ قُلْتَ: إنَّ الأمرَ كذلك؟ فقال: لأنَّه يُعطيه كُلَّ ما يُريدُه، وذلك ممَّا لا تتَّسِعُ الدُّنيا له؛ فثَبَت أنَّ الآخِرةَ خَيرٌ له مِنَ الأُولى[٤].

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾.

أي: ولَسوفَ يُعطيك ربُّك مِنَ الخَيرِ حتَّى ترضَى[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) =

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا وَعَده ذلك الموعودَ الجليلَ؛ ذكَّرَه بنِعَمِه عليه في حالِ نَشأتِه[1].

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾.

أي: ألم يَجِدْك رَبُّك -يا محمَّدُ- يتيمًا، فيسَّرَ لك مَن يُؤويك ويَكفُلُك ويُرَبِّيك[2]؟

---

= (٥/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٥).

مِنَ المفَسِّرينَ مَن حَمَل هذا الوَعدَ على الآخرةِ، أي: سيُعطيك في الآخِرةِ. ومنهم: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ومكِّيٌّ، وابنُ كثير، وجلالُ الدِّينِ المحَلِّيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٥)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

ونسَبَ هذا القولَ إلى الجمهورِ: ابنُ عطيَّةَ، وأبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦).

وقيل: هو موعِدٌ شامِلٌ لِما أعطاه في الدُّنيا، ولِما ادَّخَر له في الآخِرةِ. ومِمَّن قال بهذا القَولِ في الجُملةِ: الزمخشريُّ، والبيضاويُّ، وابنُ جُزَي، وأبو حيَّانَ، وابنُ القيِّم، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٨).

قال ابنُ القيِّم: (وعَدَه بما تَقَرُّ به عينُه، وتَفرَحُ به نَفْسُه، ويَنشَرِحُ به صَدرُه، وهو أن يُعطيَه فيَرضى، وهذا يَعُمُّ ما يُعطيه مِنَ القُرآنِ والهُدى، والنَّصرِ وكثرةِ الأتْباعِ، ورَفْعِ ذِكْرِه وإعلاءِ كَلِمتِه، وما يعطيه بعدَ مماتِه، وما يُعطيه في موقِفِ القيامةِ، وما يُعطيه في الجنَّةِ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٧٣).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥١١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٦). =

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

أي: ووجَدَك ضالًّا عن معرفةِ القُرآنِ والإيمانِ، فعَلَّمَك القُرآنَ، وهَداك إلى الإيمانِ، وعرَّفك أحكامَ الإسلامِ، وقد كنتَ غافِلًا عن ذلك وجاهِلًا به قبْلَ النُّبُوَّةِ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨﴾.

أي: ووجَدَك فَقيرًا فأغناك[2].

---

= قال السعدي: (مات أبوه وأمُّه وهو لا يُدَبِّرُ نفْسَه، فآواه اللهُ، وكفَّله جَدَّه عبدَ المطَّلِب، ثمَّ لَمَّا مات جَدُّه كفَّلَه اللهُ عَمَّه أبا طالبٍ، حتَّى أيَّده بنَصْرِه وبالمؤمِنينَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٦).

قال ابنُ عاشور: (ليس المرادُ بالضَّلالِ هنا اتِّباعَ الباطِلِ؛ فإنَّ الأنبياءَ مَعصومون مِن الإشراكِ قبْلَ النُّبُوَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٠).

قال ابنُ تيميَّةَ: (كَثيرٌ مِن أهلِ السُّنَّةِ يقولونَ: إنَّ الأنبياءَ مَعصومون مِنَ الكُفرِ قبْلَ النُّبُوَّةِ، كما قال ذلك: ابنُ الأنباريِّ، والزَّجَّاجُ، وابنُ عَطِيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والبَغَويُّ). ((تفسير آيات أشكلت على كثير من العلماء)) (١/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٩٩)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (٢/ ٤١٩، ٤٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٠). =

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَّرَه بما أنعَمَ عليه به مِن هذه النِّعَمِ الثَّلاثِ؛ طالَبه بشُكرِها، وأداءِ حقِّها، فأوصاه بما يَفعَلُ في ثلاثٍ؛ مُقابَلةً لها، فقال مُسَبِّبًا عنه[1]:

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩﴾.

أي: فأمَّا اليتيمَ فلا تُهِنْه وتُذِلَّه، ولا تَظْلِمْه بأخذِ حَقِّه وإساءَةِ مُعامَلتِه[2].

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بدأ بما كان بدايةً له؛ ثَنَّى بما هو نهايةٌ له مِن حيثُ كَونُه يصيرُ رأسَ الخَلْقِ، فيَصيرُ محَطَّ الرِّجالِ في كُلِّ سُؤالٍ مِن عِلمٍ ومالٍ؛ فقال مقَدِّمًا له اهتِمامًا به، إشارةً إلى أنَّ جَبرَ الخواطِرِ واستِئلافَ الخَلْقِ هو مِن أعظَمِ المقاصِدِ في تمامِ الدِّينِ[3]:

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠﴾.

أي: وأمَّا الَّذي يَسألُك شَيئًا فلا تَنهَرْه وتَزجُرْه[4].

---

= قال ابن القيِّم: (أجمَعَ المفَسِّرونَ أنَّ العائِلَ هو الفَقيرُ). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٥٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١٠)، ((تفسير المراغي)) (٣٠/ ١٨٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥١٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: =

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ الله عنه، قال: ((بَيْنَما نحن جُلوسٌ مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في المسجِدِ، دخَلَ رجُلٌ على جَمَلٍ، فأناخه في المسجِدِ ثمَّ عَقَلَه[1]، ثمَّ قال لهم: أيُّكم محمَّدٌ؟ والنَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مُتَّكِئٌ بيْن ظَهرانَيْهم، فقُلْنا: هذا الرَّجُلُ الأبيضُ المتَّكِئُ. فقال له الرَّجُلُ: يا ابنَ عبدِ المطَّلِب، فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: قد أجَبْتُك. فقال الرَّجُلُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: إنِّي سائِلُك فمُشَدِّدٌ عليك في المسألةِ، فلا تَجِدْ علَيَّ في نَفْسِك، فقال: سَلْ عمَّا بدا لك، فقال: أسألُك برَبِّك ورَبِّ مَن قَبْلَك، آللهُ أرسَلَك إلى النَّاسِ كُلِّهم؟

= ٧٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٢، ٤٠٣).

قيل: المرادُ بالسَّائِلِ هنا: سائِلُ الصَّدَقةِ والمعروفِ مِن الفُقراءِ والمساكينِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، وابنُ جُزَي، ونسَبه ابنُ القيِّم إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٤).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: قَتادةُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٤٥).

وقيل: المرادُ: سائِلُ العِلمِ المُسترشِدُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: الحسَنُ، ويحيى بنُ آدَمَ، وسُفيانُ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٣٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٠)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٩)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٤٥).

وقيل: المرادُ كِلا المعنيَينِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا: ابنُ القيِّم، والبِقاعيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٢). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٩).

(١) عَقَلَه: أي: شدَّ على ساقِه مع ذراعِه حَبلًا بعدَ أن ثَنَى رُكْبَتَه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (١/ ١٦٠).

فقال: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قال: أَنشُدُك[١] باللهِ، آللهُ أمَرَك أن نُصَلِّيَ الصَّلَواتِ الخَمْسَ في اليَومِ واللَّيلةِ؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قال: أَنشُدُك باللهِ، آللهُ أمَرَك أن نَصومَ هذا الشَّهرَ مِنَ السَّنةِ؟ قال: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قال: أَنشُدُك باللهِ، آللهُ أمَرَك أن تأخُذَ هذه الصَّدَقةَ مِن أغنيائِنا فتَقسِمَها على فُقَرائِنا؟ فقال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: اللَّهُمَّ نَعَمْ. فقال الرَّجُلُ: آمَنْتُ بما جِئتَ به، وأنا رسولُ مَن ورائي مِن قومي، وأنا ضِمَامُ بنُ ثَعْلبةَ أخو بني سَعدِ بنِ بَكرٍ))[٢].

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾.

أي: وحَدِّثِ النَّاسَ بما أنعَمَ اللهُ به عليك[٣].

---

(١) أَنشُدُك: أي: أسألُك، وأصلُه مِن النَّشيدِ، وهو الصَّوتُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ٩٣).

(٢) رواه البخاريُّ (٦٣) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٢)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٠).

قال ابنُ الجوزي: (في النِّعمةِ ثلاثةُ أقوالٍ؛ أحَدُها: النُّبُوَّةُ. والثَّاني: القرآنُ. رُوِيَا عن مجاهدٍ. والثَّالثُ: أنَّها عامَّةٌ في جميعِ الخَيراتِ. وهذا قَولُ مُقاتلٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٥٩). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٣٣).

ومِمَّن قال بأنَّها النُّبُوَّةُ: الزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٤٦).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ جِنسُ النِّعَمِ؛ فهي تَعُمُّ نِعَمَ الدِّينِ والدُّنيا: الثعلبيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ القيِّم، والشوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٥٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣).

قال الفَرَّاء: (فكان القُرآنُ أعظَمَ نِعمةِ اللهِ عليه، فكان يقرَؤُه ويحَدِّثُ به وبغَيرِه مِن نِعَمِه). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ دَلالةٌ على اللُّطفِ باليَتيمِ، وبِرِّه، والإحسانِ إليه[(١)]. ولا يَدخُلُ في الآيةِ القَهرُ مِن أجْلِ الاستصلاحِ، كضَربِ التَّأديبِ؛ فهو مِن حُقوقِ التَّربيةِ، قال تعالى: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ﴾[(٢)] [البقرة: ٢٢٠].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ هذا في مُقابلةِ: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾، فإذا كان اللهُ آواك في يُتْمِك فلا تَقْهَرِ اليتيمَ، إلَّا أنْ يكونَ قهرًا في مصلحةٍ له؛ فهذا ليس قَهرًا في الحقيقةِ وإنْ كان قَهرًا ظاهريًّا، ولكنَّ المصلحةَ عظيمةٌ لهذا اليتيمِ، فلا تَقْهَرِ اليتيمَ، بل أَكرِمِ اليتيمَ، والإحسانُ إلى اليتامى وإكرامُهم مِن أوامرِ الشَّريعةِ، ومِن حَسَناتِ الشَّريعةِ؛ لأنَّ اليتيمَ الَّذي مات أبوه قبْلَ أن يَبلُغَ مُنكَسِرُ الخاطرِ، يحتاجُ إلى جَبْرٍ، يَحتاجُ إلى مَن يُسَلِّيه، وإلى مَن

---

= ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٧٥).

وممَّن قال: ﴿فَحَدِّثۡ﴾ أي: بالقرآنِ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٩٢).

وقال ابنُ القيِّم: (قَولُه ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ قال مجاهدٌ: بالقرآنِ. وقال الكلبيُّ: بمعنى: أظهِرْها. والقرآنُ أعظَمُ ما أنعَمَ اللهُ به عليه، فأمَره أنْ يُقرئَه ويُعلِّمَه. وروى أبو بشرٍ عن مجاهدٍ: حدِّثْ بالنُّبوَّةِ الَّتي أعطاك اللهُ. وقال الزَّجَّاجُ: بلِّغْ ما أُرسِلتَ به، وحدِّثْ بالنُّبوَّةِ الَّتي آتاك، وهي أجَلُّ النِّعَمِ. وقال مقاتلٌ: اشكُرْ هذه النِّعمةَ الَّتي ذكرتُ في هذه السُّورةِ. والتَّحقيقُ أنَّ النِّعَمَ تَعُمُّ هذا كُلَّه؛ فأُمِرَ ألَّا يَنهَرَ سائِلَ المعروفِ والعِلمِ، وأن يُحَدِّثَ بنِعَمِ اللهِ عليه في الدِّينِ والدُّنيا). ((التبيان)) (ص: ٧٥).

وقيل: المرادُ: كما كُنتَ عائلًا فقيرًا فأغناك اللهُ، فحَدِّثْ بنِعمةِ اللهِ عليك. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٧).

قال القاسميُّ: (سياقُ الآياتِ يدُلُّ على أنَّ هذه الآيةَ مقابلةٌ لقولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا﴾، فتكونُ النِّعمةُ بمعنى الغِنَى). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٩٣).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٠)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٢).

يُدخِلُ عليه السُّرورَ، لا سيَّما إذا كان قد بَلَغَ سِنًّا يَعرِفُ به الأُمورَ، كالسَّابعةِ والعاشرةِ وما أشْبَهَ ذلك[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ هذا في مُقابِلِ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾، وأوَّلُ ما يَدخُلُ في السَّائلِ السَّائلُ عن الشَّريعةِ وعن العِلمِ، فلا تَنْهَرْه؛ لأنَّه إذا سألك يريدُ أنْ تُبَيِّنَ له الشَّريعةَ وَجَبَ عليك أنْ تُبَيِّنَها له؛ لقولِ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] فلا تَنْهَرْه، إنْ نَهَرْتَه نَفَّرْتَه، ثُمَّ إنَّك إذا نَهَرْتَه وهو يَعتقدُ أنَّك فوقَه -لأنَّه لم يأتِ يسألُ إلَّا أنَّه يَعتقدُ أنَّك فوقَه- أصابه الرُّعبُ، واختلفتْ حَواسُّه، ورُبَّما لا يَفْقَهُ ما يُلقي إليك مِن السُّؤالِ، أو لا يَفْقَهُ ما تُلقيه إليه مِن الجوابِ، وقِسْ نفْسَك أنت، لو كلَّمتَ رجُلًا أكبرَ منك منزلةً ثُمَّ نَهَرك ضاعتْ حواسُّك، ولم تستطعْ أنْ تُرَتِّبَ فِكْرَك وعَقْلَك؛ لهذا لا تَنْهَرِ السَّائلَ، ورُبَّما يَدخُلُ في ذلك أيضًا سائلُ المالِ، يعني إذا جاءك سائِلٌ يسألُك مالًا فلا تَنْهَرْه. لكنَّ هذا العُمومَ يَدخلُه التَّخصيصُ؛ إذا عرَفْتَ أنَّ السَّائلَ في العِلمِ إنَّما يريدُ التَّعَنُّتَ، وأخْذَ رأيك وأَخْذَ رأيِ فُلانٍ وفُلانٍ حتَّى يَضربَ آراءَ العلماءِ بعضَها ببعضٍ، فهنا لك الحقُّ أنْ تَنْهَرَه، وأنْ تقولَ: يا فلانُ، اتَّقِ اللهَ، ألم تَسألْ فلانًا؟ كيف تسألُني بعدَما سألتَه؟! أتلعَبُ بدِينِ اللهِ؟! أتُريدُ إنْ أفتاك النَّاسُ بما تُحِبُّ سَكَتَّ، وإنْ أفتوك بما لا تُحِبُّ ذهبْتَ تسألُ؟! هذا لا بأسَ أنْ تَنْهَرَه؛ لأنَّ هذا النَّهْرَ تأديبٌ له، وكذلك سائلُ المالِ؛ إذا عَلِمْتَ أنَّ الَّذي سألك المالَ غنيٌّ، فلك الحقُّ أنْ تَنْهَرَه، ولك الحقُّ أيضًا أنْ تُوَبِّخَه على سُؤالِه وهو غنيٌّ، إذَنْ هذا العمومُ ﴿ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ مخصوصٌ فيما إذا اقتضَتِ المصلحةُ أنْ يُنْهَرَ، فلا بأسَ[٢]. وكذلك لا يَدخُلُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في النَّهْرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ نهيُ السَّائِلِ عن مُخالَفةِ آدابِ السُّؤالِ في الإسلامِ[١].

٤- قَولُه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي: لا يَصدُرْ منك إلى السَّائِلِ كلامٌ يَقتضي رَدَّه عن مطلوبِه بنَهْرٍ وشَراسةِ خُلُقٍ، بل أعْطِه ما تيسَّرَ عندَك، أو رُدَّه بمعروفٍ وإحسانٍ، وهذا يدخُلُ فيه السَّائِلُ للمالِ، والسَّائِلُ للعِلمِ؛ ولهذا كان المعلِّمُ مأمورًا بحُسنِ الخُلُقِ مع المتعَلِّمِ، ومُباشرتِه بالإكرامِ والتَّحَنُّنِ عليه؛ فإنَّ في ذلك مَعونةً له على مَقصَدِه، وإكرامًا لِمَن كان يَسعى في نَفعِ العِبادِ والبِلادِ[٢].

٥- يُستفادُ مِنَ النَّهيِ عن القَهْرِ والنَّهْرِ في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ النَّهيُ عمَّا هو أشَدُّ منهما في الأذى؛ كالشَّتمِ، والضَّربِ، والاستيلاءِ على المالِ، وتَرْكِه مُحتاجًا[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ هذا يَشملُ النِّعَمَ الدِّينيَّةَ والدُّنيويَّةَ. ﴿فَحَدِّثْ﴾ أي: أثْنِ على اللهِ بها، وخَصِّصْها بالذِّكرِ إن كان هناك مَصلَحةٌ، وإلَّا فحَدِّثْ بنِعَمِ اللهِ على الإطلاقِ؛ فإنَّ التَّحَدُّثَ بنِعمةِ اللهِ داعٍ لشُكْرِها، ومُوجِبٌ لتحبيبِ القُلوبِ إلى مَن أنعَمَ بها؛ فإنَّ القُلوبَ مجبولةٌ على محبَّةِ المحسِنِ[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ أنَّ التَّحَدُّثَ بنِعمةِ اللهِ على وَجهِ إظهارِ نِعمةِ اللهِ على العَبدِ، مع التَّواضُعِ؛ أنَّ هذا لا بأسَ به[٥]، خِلافًا للتَّحَدُّثِ بالنِّعمةِ افتِخارًا بها على الخَلْقِ؛ لأنَّك إذا فعلْتَ ذلك افتخارًا على الخَلْقِ كان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٢٧٨).

هذا مذمومًا، أمَّا إذا ذَكَرْتَ نعمةَ اللهِ عليك تَحَدُّثًا بالنِّعَمِ، وشُكرًا للمُنْعِمِ؛ فهذا ممَّا أَمَرَ اللهُ به[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ سُؤالٌ: كيف الجَمعُ بيْن هذه الآيةِ وبيْن قولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]؟

**الجوابُ**: أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ معناه: أنْ يَتَحَدَّثَ الإنسانُ بما أَنْعَمَ اللهُ عليه، لا أنْ يُزَكِّيَ نفْسَه على رَبِّه، وبيْنَهما فَرْقٌ: إنسانٌ يقولُ: إنَّه صلَّى، زَكَّى، صام، حَجَّ، يريدُ أنْ يُدِلَّ بعَمَلِه على ربِّه، ويُزكِّي نفْسَه على اللهِ، هذا هو الممنوعُ، لكنْ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فيقولُ: الحَمدُ للهِ، هداني بعدَ أنْ كنتُ كذا وكذا؛ فهذا لا بأسَ به[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ إقسامُه سُبحانَه على إنعامِه على رَسولِه وإكرامِه له وإعطائِه ما يُرضيه، وذلك متضَمِّنٌ لتصديقِه له، فهو قَسَمٌ على صِحَّةِ نُبُوَّتِه وعلى جزائِه في الآخرةِ، فهو قَسَمٌ على النُّبُوَّةِ والمَعادِ، وأقسَمَ بآيتَينِ عَظيمتَينِ مِن آياتِه دالَّتَينِ على رُبوبيَّتِه وحِكمتِه ورحمتِه، وهما اللَّيلُ والنَّهارُ، فتأمَّلْ مُطابَقةَ هذا القَسَمِ -وهو نورُ الضُّحى الَّذي يوافي بعدَ ظلامِ اللَّيلِ- للمُقْسَمِ عليه -وهو نورُ الوَحيِ الَّذي وافاه بعدَ احتباسِه عنه، حتى قال أعداؤه: وَدَّعَ محمَّدًا ربُّه-، فأَقْسَمَ بضَوءِ النَّهارِ بعدَ ظُلمةِ اللَّيلِ على ضَوءِ الوَحيِ ونُورِه بعدَ ظُلمةِ احتباسِه واحتجابِه، وأيضًا فإنَّ فالِقَ ظُلمةِ اللَّيلِ عن ضوءِ النَّهارِ هو الَّذي فَلَقَ ظُلمةَ الجَهلِ والشِّركِ بنُورِ الوَحيِ والنُّبُوَّةِ؛ فهذان للحِسِّ، وهذان

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ١٧٣).

للعَقلِ، وأيضًا فإنَّ الَّذي اقتضَتْ رحمتُه ألَّا يَترُكَ عِبادَه في ظُلمةِ اللَّيلِ سَرْمدًا بل هداهم بضَوءِ النَّهارِ إلى مَصالِحِهم ومَعايشِهم: لا يَليقُ به أنْ يَترُكَهم في ظُلمةِ الجَهلِ والغَيِّ، بل يَهديهم بنورِ الوَحيِ والنُّبُوَّةِ إلى مَصالحِ دُنياهم وآخِرتِهم؛ فتأمَّلْ حُسْنَ ارتباطِ المُقْسَمِ به بالمُقْسَمِ عليه، وتأمَّلْ هذه الجزالةَ والرَّونَقَ الَّذي على هذه الألفاظِ، والجلالةَ الَّتي على معانيها[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ ونُزولِه بسَبَبِ واقِعةِ إبطاءِ جِبريلَ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: دَلالةٌ على أنَّ القُرآنَ مِن عِندِ اللهِ؛ إذ لو كان مِن عندِه لَما امتَنَع[٢]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ اللَّامُ في «الآخرةِ» و «الأُولى» لامُ الجنسِ، أي: كلُّ آجِلٍ أمْرُه هو خيرٌ مِن عاجِلِه في هذه الدُّنيا وفي الأُخرى -على قولٍ-، واللَّامُ في قولِه: ﴿لَّكَ﴾ لامُ الاختِصاصِ، أي: خيرٌ مُختصٌّ بك، وهو شامِلٌ لكلِّ ما لَه تَعلُّقٌ بنفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذاتِه، وفي دِينِه، وفي أُمَّتِه، فهذا وَعدٌ مِن اللهِ تعالى بأنْ يَنشُرَ دِينَ الإسلامِ، وأنْ يُمكِّنَ أُمَّتَه مِن الخَيراتِ الَّتي يَأمُلُها النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهم[٣].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أنَّ الدُّنيا مهما طالتْ فهي قليلةٌ، ولا تُنْسَبُ للآخِرةِ[٤].

٥- قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ ولَمْ يَقُلْ: خيرٌ على الإطلاقِ! وإنَّما

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الزمر)) (ص: ٩٥).

المعنى: خيرٌ لك ولِمَن آمَنَ بك[١].

٦- قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ وقد اغترَّ بعضُهم بفَهمٍ فاسدٍ فيه، واتَّكلوا عليه، فقالوا: إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يَرضى أنْ يكونَ في النَّارِ أحدٌ مِن أُمَّتِه، وهذا مِن أقبَحِ الجَهْلِ، وأبيَنِ الكَذِبِ عليه؛ فإنَّه يَرضى بما يَرضى به ربُّه عَزَّ وجَلَّ، واللهُ تعالى يُرضيه تَعذيبُ الظَّلَمةِ والفَسَقةِ والخَوَنةِ والمصِرِّينَ على الكبائرِ، فحاشا رَسولَه أنْ يَرضى بما لا يَرضى به ربُّه تبارك وتعالى[٢]!

٧- سُورةُ الضُّحى توالى فيها قَسَمانِ، وجَوابانِ مُثبَتانِ، وجوابانِ نافيانِ؛ فالقَسَمانِ: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾، والجوابانِ النَّافيانِ: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، والجوابانِ المثبَتانِ: ﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾[٣].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ذَكَر سُبحانَه نِعَمَه على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ مِن إيوائِه بَعْدَ يُتْمِه، وهِدايتِه بعْدَ الضَّلالةِ، وإغنائِه بعدَ الفَقْرِ، فكان مُحتاجًا إلى مَن يُؤْويه ويَهْديه ويُغْنيه، فآواه رَبُّه وهَداه وأغناه؛ فأمَرَه سُبحانَه أن يُقابِلَ هذه النِّعَمَ الثَّلاثَ بما يَليقُ بها مِنَ الشُّكرِ[٤]، فكما عَدَّد اللهُ عليه هذه النِّعَمَ الثَّلاثَ وصَّاه بثلاثِ وصايا، في كُلِّ نِعمةٍ وَصِيَّةٌ مُناسِبةٌ لها؛ فبإزاءِ قَولِه: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ قَولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾، وبإزاءِ قَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ قَولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾،

(١) يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٦٤) وقد نقَلَه عن ابنِ هُبَيرةَ.

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٢٣).

(٣) يُنظر: ((ذيل طبقات الحنابلة)) لابن رجب (٢/ ١٦٣، ١٦٤) نقلًا عن ابن هُبيرةَ.

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٤).

هذا على قولِ مَن قال: إنَّ السَّائِلَ هنا هو السَّائِلُ عن العِلمِ والدِّين، وليس بسائلِ المالِ، وبإزاءِ قَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ قَولُه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، ومَن قال: إنَّ السَّائِلَ هو سائِلُ المالِ المحتاجُ جعَلَها بإزاءِ قَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، وجَعَل قَولَه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ بإزاءِ قَولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾[1].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ جاء التَّعبيرُ -واللهُ أعلمُ- بـ ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ لسَبَبٍ لفظيٍّ، وسببٍ معنويٍّ؛ أمَّا السَّبَبُ اللَّفظيُّ فمِن أجْلِ أن تتوافقَ رُؤوسُ الآياتِ مِن أوَّلِ السُّورةِ، وأمَّا السَّبَبُ المعنويُّ فإنَّه لو كان التَّعبيرُ «فآواك» اختصَّ الإيواءُ به صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، والأمرُ أوسعُ مِن ذلك؛ فإنَّ اللهَ تعالى آواه وآوى به؛ آوى به المؤمِنينَ، فنَصَرَهم وأيَّدَهم، ودَفَعَ عنهم، بل دافعَ عنهم سُبحانَه وتعالى.

وقال: ﴿فَهَدَىٰ﴾ ولم يأتِ التَّعبيرُ «فهَدَاك»؛ لِيَكونَ هذا أشملَ وأوسعَ؛ فهو قد هَدَاه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وهَدَى اللهُ به، فهو هادٍ مَهدِيٌّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

وقال: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ أي: أغناك وأغنى بك، قال اللهُ تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ [الفتح: ٢٠]. وما أكثَرَ ما غَنِمَ المُسلِمونَ مِنَ الكُفَّارِ تحتَ ظِلالِ السُّيُوفِ، غنائِمَ عظيمةً كثيرةً كُلُّها بسَبَبِ هذا الرَّسولِ الكريمِ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ اهتَدَوا بهَدْيِه، واتَّبَعوا سُنَّتَه، فنَصَرَهم اللهُ تعالى به، وغَنِموا مِن مَشارِقِ الأرضِ ومغارِبِها[2]!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾ إلى آخِرِ السِّياقِ سؤالٌ: كيف

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٤، ٤٩٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٣٦).

يَحسُنُ مِنَ الجَوَادِ أن يَمُنَّ بنِعَمِه، فيَقولَ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ﴾؟! والَّذي يؤكِّدُ هذا السُّؤالَ: أنَّ اللهَ تعالى حكى عن فِرعَونَ أنَّه قال: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨] في مَعرِضِ الذَّمِّ لفِرعَونَ، فما كان مذمومًا مِن فِرعَونَ كيف يحسُنُ مِنَ اللهِ؟!

**الجوابُ**: أنَّ ذلك يَحسُنُ إذا قَصَد بذلك أن يقوِّيَ قَلْبَه، ويَعِدَه بدَوامِ النِّعمةِ، وبهذا يظهَرُ الفَرقُ بيْن هذا الامتنانِ وبيْن امتنانِ فِرعَونَ؛ لأنَّ امتنانَ فِرعَونَ مُحبِطٌ؛ لأنَّ الغَرَضَ: «فما بالُك لا تَخدُمُني؟!»، وامتنانَ اللهِ بزيادةِ نِعَمِه، كأنَّه يقولُ: «ما لَك تَقطَعُ عنِّي رجاءَك؟! ألَسْتُ شَرَعْتُ في تربيتِك؟ أتَظُنُّني تاركًا لِما صَنعْتُ؟! بل لا بدَّ أن أتمِّمَ عليك وعلى أمَّتِك النِّعمةَ»، كما قال: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠]، أمَا عَلِمْتَ أنَّ الحامِلَ الَّتي تُسقِطُ الولَدَ قبْلَ التَّمامِ مَعيبةٌ تُرَدُّ؟! ولو أسقَطَت أو الرَّجُلُ أسقَطَ عنها بعِلاجٍ تجِبُ الغُرَّةُ[1] وتَستَحِقُّ الذَّمَّ؟! فكيف يَحسُنُ ذلك مِنَ الحيِّ القَّيومِ؟! فما أعظَمَ الفَرقَ بيْن مانٍّ هو اللهُ، وبيْن مانٍّ هو فِرعَونُ[2]!

وأيضًا فإنَّ المِنَّةَ مِنَ المخلوقِ عَيبٌ ونَقْصٌ وأذًى، وأمَّا مِنَّةُ الخالِقِ فليست كذلك، وقد قال اللهُ: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ ...﴾ [الحجرات: ١٧].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ الإيواءَ والهُدى والغِنى مِنَ اللهِ؛ لإسنادِها هنا للهِ تعالى، ولكِنْ في السِّياقِ لطيفةٌ دقيقةٌ، وهي: في مَعرِضِ التَّقريرِ يأتي بكافِ الخِطابِ: «ألَمْ يَجِدْك يتيمًا، ألم يجِدْك ضالًّا، ألم يجْدك عائلًا»؟! لتأكيدِ التَّقريرِ، ولم

(١) الغُرَّةُ: أي: مَمْلوكٌ عَبدٌ أو أَمَةٌ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٥/ ٢٠٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٦).

يُسنِدِ اليُتمَ ولا الإضلالَ ولا الفَقْرَ للهِ، مع أنَّ كُلَّه مِن اللهِ، فهو الَّذي أوقع عليه اليُتمَ، وهو سُبحانَه الَّذي منه كُلُّ ما وَجَده عليه؛ وذلك لِما فيه من إيلامٍ له صلَّى الله عليه وسلَّم[١].

١٢- قَولُه تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ يُوهِمُ ظاهِرُها أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان ضالًّا قبل الوَحيِ، مع أنَّ قَولَه تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] يدُلُّ على أنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فُطِرَ على هذا الدِّينِ الحنيفِ، ومعلومٌ أنَّه لم يُهَوِّدْه أبَواه ولم يُنَصِّراه، ولم يُمَجِّساه، بل لم يَزَلْ باقيًا على الفِطرةِ حتَّى بَعَثه اللهُ رَسولًا، ويدُلُّ لذلك ما ثَبَت مِن أنَّ أوَّلَ نُزولِ الوَحيِ كان وهو يتعبَّدُ في غارِ حِراءٍ، فذلك التَّعبُّدُ قبْلَ نُزولِ الوَحيِ دليلٌ على البقاءِ على الفِطرةِ.

**الجوابُ**: أنَّ معنى قَولِه: ﴿ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: غافِلًا عمَّا تَعلَمُه الآنَ مِنَ الشَّرائِعِ وأسرارِ عُلومِ الدِّينِ الَّتي لا تُعلَمُ بالفِطرةِ ولا بالعَقلِ، وإنَّما تُعلَمُ بالوَحْيِ؛ فهَداك إلى ذلك بما أوحى إليك، فمعنى الضَّلالِ على هذا القَولِ: الذَّهابُ عن العِلمِ، ومنه بهذا المعنى قَولُه تعالى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ويدُلُّ لهذا قَولُه تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ لأنَّ المرادَ بالإيمانِ شَرائِعُ دينِ الإسلامِ[٢].

١٣- النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يأكُلُ الصَّدَقةَ؛ لأنَّها أوساخُ النَّاسِ، ولأنَّ أَخْذَ الصَّدَقةِ مَنزِلةُ ضَعَةٍ، والأنبياءُ مُنَزَّهون عن ذلك؛ لأنَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان كما وَصَفَه اللهُ تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، والصَّدَقةُ لا تَحِلُّ للأغنياءِ،

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٦٣).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧٤).

وهذا بخِلافِ الهَديَّةِ؛ فإنَّ العادةَ جاريةٌ بالإثابةِ عليها[١].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ اختيارُ قَولِه: ﴿فَحَدِّثْ﴾ على قولِه: «فخَبِّرْ»؛ لِيَكونَ ذلك حديثًا عِندَه لا يَنساه، ويُعيدُه مرَّةً بعدَ أُخرى[٢].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ سُؤالٌ: ما الحِكمةُ في أنْ أخَّرَ اللهُ تعالى حَقَّ نَفْسِه عن حقِّ اليتيمِ والعائِلِ؟

**الجوابُ: فيه وُجوهٌ:**

**أحَدُها:** كأنَّه يقولُ: أنا غَنيٌّ، وهما مُحتاجانِ، وتقديمُ حَقِّ المُحتاجِ أَولى.

**ثانيها:** أنَّه وَضَع في حَظِّهما الفِعلَ، ورَضِيَ لنَفْسِه بالقَولِ.

**ثالثُها:** أنَّ المقصودَ مِن جميعِ الطَّاعاتِ استِغراقُ القَلْبِ في ذِكرِ اللهِ تعالى؛ فجَعَل خاتِمةَ هذه الطَّاعاتِ تحَدُّثَ القَلْبِ واللِّسانِ بنِعَمِ اللهِ تعالى؛ حتَّى يكونَ خَتْمُ الطَّاعاتِ على ذِكرِ اللهِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾

- القسَمُ ﴿وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ لتَأكيدِ الخبَرِ ردًّا على زَعْمِ المشرِكينَ أنَّ الوحْيَ انقطَعَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينَ رَأَوْه لم يَقُمِ اللَّيلَ بالقُرآنِ بِضعَ لَيالٍ؛ فالتَّأكيدُ مُنصَبٌّ على التَّعريضِ المُعرَّضِ به لإبطالِ دَعْوى المشرِكين، فالتَّأكيدُ تَعريضٌ بالمشرِكينَ، وأمَّا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلا يَتردَّدُ

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/ ٢٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ٢٠١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

في وُقوعِ ما يُخبِرُه اللهُ بوُقوعِه[١].

- وإنَّما خُصَّ وقْتُ الضُّحى هنا بالقَسَمِ؛ لأنَّ النَّهارَ يَقْوَى فيه[٢]؛ فمُناسَبةُ القسَمِ بالضُّحى واللَّيلِ: أنَّ الضُّحى وقْتُ انبثاقِ نُورِ الشَّمسِ، فهو إيماءٌ إلى تَمثيلِ نُزولِ الوحْيِ وحُصولِ الاهتِداءِ به، وأنَّ اللَّيلَ وقْتُ قِيامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقُرآنِ، وهو الوقتُ الَّذي كان يَسمَعُ فيه المشركون قِراءتَه مِن بُيوتِهم القَريبةِ مِن بَيتِه أو مِن المسجِدِ الحرامِ؛ ولذلك قُيِّدَ اللَّيلُ بظَرْفِ ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾، فلعلَّ ذلك وقْتُ قِيامِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ قال تعالَى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا * نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾[٣] [المزمل: ٢، ٣].

- وتَقديمُ اللَّيْلِ في السُّورةِ المُتقدِّمةِ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ * وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [اللَّيل: ١، ٢] باعتبارِ الأصلِ، وتَقديمُ النَّهارِ هاهنا ﴿وَٱلضُّحَىٰ * وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ باعتِبارِ الشَّرفِ[٤].

وقيل: الحِكمةُ في أنَّه تعالَى في السُّورةِ الماضيةِ قدَّمَ ذِكرَ اللَّيلِ، وفي هذه السُّورةِ أخَّرَه: أنَّ باللَّيلِ والنَّهارِ يَنتظِمُ مَصالحُ المكلَّفينَ، واللَّيلُ له فَضيلةُ السَّبقِ؛ لقولِه: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١]، وللنَّهارِ فَضيلةُ النُّورِ -بلِ اللَّيلُ كالدُّنيا، والنَّهارُ كالآخرةِ-، فلمَّا كان لكلِّ واحدٍ فَضيلةٌ لَيستْ للآخَرِ؛ لا جَرَم قُدِّمَ هذا على ذاك تارةً، وذاك على هذا أُخرى، ونَظيرُه أنَّه تعالَى قدَّمَ السُّجودَ على الرُّكوعِ في قولِه: ﴿وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣]، ثمَّ قدَّمَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٤، ٣٩٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩).

الرُّكوعَ على السُّجودِ في قولِه: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ [الحج: ٧٧]. وقيل غيرُ ذلك(١).

٢- قولُه تعالَى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾

- قولُه: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ نفْيٌ لأنْ يكونَ اللهُ قَطَعَ عنه الوحْيَ، وقد عُطِفَ عليه ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ للإتيانِ على إبطالِ مَقالتَي المشركينَ؛ إذ قال بَعضُهم: ودَّعَه ربُّه، وقال بَعضُهم: قَلَاهُ ربُّه، يُريدون التَّهكُّمَ(٢).

- والتَّوديعُ مُبالَغةٌ في الوَدْعِ؛ لأنَّ مَن وَدَعَك مُفارِقًا فقدْ بالَغَ في تَرْكِك(٣).

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿قَلَىٰ﴾؛ لدَلالةِ ﴿وَدَّعَكَ﴾ عليه، كقولِه تعالَى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وهو إيجازٌ لَفظيٌّ؛ لظُهورِ المحذوفِ، ومِثلُه قولُه: ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ ﴿فَهَدَىٰ﴾ ﴿فَأَغۡنَىٰٓ﴾، ومُراعاةً للفواصلِ(٤).

- وقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ [ضحى: ٣] بكافِ الخِطابِ؛ لأنَّ التَّوديعَ يكونُ لِمَنْ تُحِبُّ ولِمَنْ تَكْرَهُ، أمَّا في القِلَى فلمْ يقُلْ: قَلاك؛ لأنَّ القِلَى لا يكونُ إلَّا لِمَنْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣١/ ١٩٠، ١٩١).

قال ابن جماعة: (قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ﴾ قدَّم فيها القسَمَ بالليلِ، وفى «الضُّحَى» قدَّم القسَمَ بالنَّهارِ.

جوابُه: لمَّا كان المقسَمُ عليه هنا: سعيُ الإنسانِ، وغالبُه المعاصى؛ قدَّم اللَّيلَ الذى هو مظِنَّةُ الظلمةِ، ولمَّا كان المقسَمُ عليه فى الضُّحَى لطفُه بنبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم قدَّم الضُّحَى لحسنِه). ((كشف المعاني في المتشابه من المثاني)) (ص: ٣٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٦، ٣٩٧).

تَكْرَهُ[١].

- وقدْ نزَلَتْ رَدًّا على المشركين قولَهم: إنَّ محمَّدًا وَدَّعَهُ ربُّهُ وقَلَاهُ، وتَبْشيرًا له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بالكَرامةِ الحاصِلةِ والمُترَقَّبةِ، كما يُشعِرُ به إيرادُ اسمِ الرَّبِّ المُنبئِ عن التَّربيةِ والتَّبليغِ إلى الكَمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِه عليه الصَّلاة والسَّلامُ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١]، فهو كَلامٌ مُبتدَأٌ به، والجُملةُ مَعطوفةٌ على الجُمَلِ الابتدائيَّةِ، وليستْ مَعطوفةً على جُملةِ جَوابِ القسَمِ، بلْ هي ابتدائيَّةٌ، لَمَّا كان في ضِمنِ نفْيِ التَّوديعِ والقِلَى: أنَّ اللهَ مُواصِلُك بالوحْيِ إليك، وأنَّك حَبيبُ اللهِ، ولا تَرى كَرامةً أعظَمَ مِن ذلك، ولا نِعمةً أجَلَّ منه؛ أخْبَرَه أنَّ حالَه في الآخرةِ أعظَمُ مِن ذلك وأجَلُّ، وهو السَّبقُ والتَّقدُّمُ على جَميعِ أنبياءِ اللهِ ورُسلِه، وشَهادةُ أُمَّتِه على سائرِ الأُمَمِ، ورفْعُ دَرَجاتِ المؤمنينَ وإعلاءُ مَراتبِهم بشَفاعتِه، وغيرُ ذلك مِن الكَراماتِ السَّنِيَّةِ[٣].

- وما في تَعريفِ (الآخِرةِ) و(الأُولى) مِن التَّعميمِ يَجعَلُ معْنى هذه الجُملةِ في معْنى التَّذييلِ الشَّاملِ لاستِمرارِ الوحْيِ، وغيرِ ذلك مِن الخيرِ[٤].

- والآخِرةُ: مُؤنَّثُ الآخِرِ، والأُولى: مُؤنَّثُ الأوَّلُ، وغَلَبَ لَفظُ الآخرةِ في اصطلاحِ القُرآنِ الكريمِ على الحياةِ الآخِرةِ وعلى الدَّارِ الآخِرةِ، كما غَلَبَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشعراوي)) (١٥/ ٩١٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٦٩، ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٧).

لَفظُ الأُولى على حَياةِ النَّاسِ الَّتي قبْلَ انخِرامِ هذا العالَمِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ المرادُ هنا مِن كِلا اللَّفظينِ كِلا مَعنيَيه، فيُفيدُ أنَّ الحياةَ الآخرةَ خيرٌ له مِن هذه الحياةِ العاجِلةِ؛ تَبشيرًا له بالخَيراتِ الأبديَّةِ، ويُفيدُ أنَّ حالاتِه تَجْري على الانتقالِ مِن حالةٍ إلى أحسَنَ منها، فيكونَ تَأنيثُ الوَصفَينِ جاريًا على حالَتَي التَّغليبِ وحالَتَي التَّوصيفِ، ويكونَ التَّأنيثُ في هذا المعْنى الثَّاني لمُراعاةِ معْنى الحالةِ، ويُومِئُ ذلك إلى أنَّ عَودةَ نُزولِ الوحْيِ عليه هذه المرَّةَ خيرٌ مِن العَودةِ الَّتي سَبَقَت، أي: تَكفَّلَ اللهُ بألَّا يَنقطِعَ عنه نُزولُ الوحْيِ مِن بعْدُ؛ فاللَّامُ في (الآخرة) و(الأُولى) لامُ الجنسِ، أي: كلُّ آجِلِ أمْرِه هو خيرٌ مِن عاجِلِه في هذه الدُّنيا وفي الأُخرى[1].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ عطْفٌ على جُملةِ القسَمِ كلِّها، وحرْفُ الاستقبالِ لإفادةِ أنَّ هذا العطاءَ الموعودَ به مُستمِرٌّ لا يَنقطِعُ[2].

- واللَّامُ في ﴿وَلَسَوْفَ﴾ للابتداءِ، دَخَلتِ الخبرَ لتَأكيدِ مَضمونِ الجُملةِ، والمُبتدأُ مَحذوفٌ، تَقديرُه: ولَأنتَ سَوفَ يُعطيكَ... إلخ، لا للقسَمِ؛ لأنَّها لا تَدخُلُ على المضارعِ إلَّا معَ النُّونِ المؤكِّدةِ، وجمْعُها معَ (سوفَ)؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإعطاءَ كائنٌ لا مَحالةَ وإنْ تَراخَى لحِكمةٍ[3].

- وفي قولِه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ حذْفٌ؛ فقدْ حُذِفَ مَفعولُ ﴿يُعْطِيكَ﴾ الثَّاني تَهويلًا لأمْرِه، واستِعظامًا لشَأنِه، وأنَّ هذه المُعطَياتِ أجَلُّ مِن أنْ تُذكَرَ، وأكبَرُ مِن أنْ تُدرَجَ، أي: الشَّيءُ الكثيرُ؛ مِن تَوارُدِ الوحْيِ عليك بما فيه إرشادٌ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٠).

لك ولقَومِك، ومِن ظُهورِ دِينِك، وعُلوِّ كَلمتِك، وإسعادِ قَومِك بما تَشرَعُ لهم، وإعلائِك وإعلائِهم على الأُمَمِ في الدُّنيا والآخرةِ[١]؛ فقولُه: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ وَعدٌ شاملٌ لِما أعطاهُ في الدُّنيا مِن الفَوْزِ والظَّفَرِ بأعدائِه يومَ بدْرٍ ويومَ فتْحِ مكَّةَ وغيرِها، ودُخولِ النَّاسِ في الدِّينِ أفواجًا، وما فَتَحَ على الخُلفاءِ الرَّاشدينَ ومَن بعْدَهم مِن أقْطارِ الأرضِ شَرْقًا وغَرْبًا، ولِما ادَّخَرَ له مِن الثَّوابِ الَّذي لا يَعلَمُ كُنْهَه إلَّا اللهُ[٢]. فحُذِفَ المفعولُ الثَّاني لكَلمةِ ﴿يُعْطِيكَ﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ ما يَرْجوه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن خَيرٍ لنفْسِه ولأُمَّتِه، فكان مُفادُ هذه الجُملةِ تَعميمَ العطاءِ، كما أفادَتِ الجُملةُ قبْلَها تَعميمَ الأزمنةِ[٣].

- وجِيءَ بفاءِ التَّعقيبِ في ﴿فَتَرْضَىٰٓ﴾؛ لإفادةِ كَونِ العَطاءِ عاجِلَ النَّفعِ بحيث يَحصُلُ به رِضا المُعطَى عندَ العطاءِ، فلا يَترقَّبُ أنْ يَحصُلَ نفْعُه بعْدَ تَربُّصٍ[٤].

- وتَعريفُ ﴿رَبُّكَ﴾ بالإضافةِ دونَ اسمِ اللهِ العَلَمِ؛ لِما يُؤذِنُ به لَفظُ (ربّ) مِن الرَّأفةِ واللُّطفِ، وللتَّوسُّلِ إلى إضافتِه إلى ضَميرِ المخاطَبِ؛ لِما في ذلك مِن الإشعارِ بعِنايتِه برَسولِه، وتَشريفِه بإضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِه[٥].

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ استِئنافٌ مَسوقٌ مَساقَ الدَّليلِ على تَحقُّقِ الوعْدِ، أي: هو وَعْدٌ جارٍ

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٦، ٧٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٦، ٤٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

على سَنَنِ ما سَبَقَ مِن عِنايةِ اللهِ بكَ مِن مَبدأِ نَشأتِك ولُطفِه في الشَّدائدِ باطِّرادٍ، بحيث لا يَحتمِلُ أنْ يكونَ ذلك مِن قَبيلِ الصُّدَفِ؛ لأنَّ شَأنَ الصُّدَفِ ألَّا تَتكرَّرَ؛ فقد عُلِمَ أنَّ اطِّرادَ ذلك مُرادٌ للهِ تعالَى، والمقصودُ مِن هذا إيقاعُ اليَقينِ في قُلوبِ المشرِكين بأنَّ ما وَعَدَه اللهُ به مُحقَّقُ الوُقوعِ، قياسًا على ما ذَكَّرَه به مِن مُلازَمةِ لُطْفِه به فيما مَضى -وهم لا يَجهَلون ذلك- عَسى أنْ يُقلِعوا عن العِنادِ، ويُسرِعوا إلى الإيمانِ، وإلَّا فإنَّ ذلك مَساءةٌ تَبْقى في نُفوسِهم، وأشباحُ رُعبٍ تُخالِجُ خَواطِرَهم، ويَحصُلُ مع هذا المقصودِ امتنانٌ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وتَقويةٌ لاطمئنانِ نفْسِه بوَعْدِ اللهِ تعالَى إيَّاهُ[1].

- والهَمزةُ لإنكارِ النَّفيِ، وتَقريرِ المَنفيِّ على أبلَغِ وَجْهٍ، كأنَّه قيلَ: قد وَجَدَك... إلخ[2].

- وحُذِفَت مَفاعيلُ ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾، ﴿فَهَدَىٰ﴾، ﴿فَأَغْنَىٰ﴾؛ للعِلمِ بها مِن ضَمائرِ الخِطابِ قبْلَها؛ إذ يُعلَمُ أنَّه ضَميرُ المُخاطَبِ، وهو الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحذْفُها إيجازٌ، وفيه رِعايةٌ على الفواصلِ[3].

٦- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

- قولُه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ الفاءُ الأُولى فَصيحةٌ؛ تُفصِحُ عن مُقدَّرٍ، و(أمَّا)

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣١٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٣٩٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٠).

تُفيدُ شَرطًا مُقدَّرًا، تَقديرُه: مهْما يكُنْ مِن شَيءٍ، فكان مُفادُها مُشعِرًا بشَرْطٍ آخَرَ مُقدَّرٍ هو الَّذي اجتُلِبَت مِن أجْلِه فاءُ الفَصيحةِ، وتَقديرُ نظْمِ الكلامِ: إذ كنتَ تَعلَمُ ذلك وأقرَرْتَ به، فعليكَ بشُكرِ ربِّك، وبيَّن له الشُّكرَ بقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ...﴾ إلخ، وقد جُعِلَ الشُّكرُ هنا مُناسِبًا للنِّعمةِ المشكورِ عليها، وإنَّما اعتُبِرَ تَقديرُ: إذا أرَدْتَ الشُّكرَ؛ لأنَّ شُكرَ النِّعمةِ تَنساقُ إليه النُّفوسُ بدافعِ المُروءةِ في عُرفِ النَّاسِ. وصُدِّرَ الكلامُ بـ (أمَّا) التَّفصيليَّةِ؛ لأنَّه تَفصيلٌ لمُجمَلِ الشُّكرِ على النِّعمةِ، ولَمَّا كانت (أمَّا) بمعْنى: (ومهْما يكُنْ شَيءٌ)، قُرِنَ جَوابُها بالفاءِ[1].

- و﴿ٱلْيَتِيمَ﴾ مَفعولٌ لِفعلِ ﴿فَلَا تَقْهَرْ﴾، وقُدِّمَ؛ للاهتِمامِ بشَأنِه، وكذلك تَقديمُ ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ و﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ على فِعلَيهما[2].

- وقد قُوبِلَت النِّعَمُ الثَّلاثُ المُتفرِّعُ عليها هذا التَّفصيلُ بثَلاثةِ أعمالٍ تُقابِلُها، فيَجوزُ أنْ يكونَ هذا التَّفصيلُ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُرتَّبِ[3]؛ فقولُه:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٦٩)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٨٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠١).

(٣) اللَّف والنَّشْر: هو أن يُذكَرَ شَيئانِ أو أشياءُ، إمَّا تفصيلًا -بالنَّصِّ على كلِّ واحدٍ، أو إجمالًا -بأن يُؤتى بلَفظٍ يَشتمِلُ على مُتعدِّدٍ- ثمَّ يُذكَرَ أشياءُ على عدَدِ ذلك، كلُّ واحدٍ يرجِعُ إلى واحدٍ مِن المتقدِّمِ، ويُفوَّضَ إلى عقلِ السَّامعِ ردُّ كلِّ واحدٍ إلى ما يَليقُ به. فاللَّفُّ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ الَّذي يُؤتى به أوَّلًا، والنَّشرُ يُشارُ به إلى المتعدِّدِ اللَّاحقِ الَّذي يتعلَّقُ كلُّ واحدٍ منه بواحدٍ مِن السَّابقِ دونَ تعيينٍ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١١١]، أي: وقالت اليهودُ: لن يَدخُلَ الجنَّةَ إلَّا اليهودُ، وقالت النَّصارى: لن يدخُلَ الجنَّةَ إلَّا النَّصارى. وهذا لفٌّ ونَشْرٌ إجماليٌّ.

واللَّفُّ والنَّشرُ إمَّا مُرتَّبٌ، وإمَّا غيرُ مُرتَّبٍ؛ فاللَّفُّ والنَّشرُ المُرتَّبُ هو: أن يأتيَ النَّشرُ على وَفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ فيُؤتَى بما يُقابِلُ الأشياءَ المذكورةَ ويُضافُ إلى كلِّ ما يَليقُ به على التَّرتيبِ، =

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ مُقابِلٌ لقولِه: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، أي: فكَما آواكَ ربُّك وحَفِظَك مِن عَوارضِ النَّقصِ المُعتادِ لليُتْم، فكنْ أنت مُكرِمًا للأيتامِ رَفيقًا بهم، فجُمِعَ ذلك في النَّهيِ عن قَهْرِه؛ لأنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا يَقهَرون الأيتامَ.

وقولُه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ مُقابلُ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]؛ لأنَّ الضَّلالَ يَستدعي السُّؤالَ عن الطَّريقِ، فالضَّالُّ مُعتبَرٌ مِن صِنْفِ السَّائلينَ، والسَّائلُ عن الطَّريقِ قد يَتعرَّضُ لحَماقةِ المسؤولِ، فجَعَلَ اللهُ الشُّكرَ عن هِدايتِه إلى طَريقِ الخيرِ أنْ يُوسِّعَ بالَهُ للسَّائلينَ، فلا يَختَصُّ السَّائلُ بسائلِ العَطاءِ، بلْ يَشملُ كلَّ سائلٍ، وأعظَمُ تَصرُّفاتِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بإرشادِ المُسترشِدينَ، والتَّعريفُ في السَّائلِ تَعريفُ الجِنسِ، فيَعُمُّ كلَّ سائلٍ، أي: عمَّا يُسأَلُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن مِثلِه.

وقولُه: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ مُقابلُ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]؛ فإنَّ الإغناءَ نِعمةٌ، فأمَرَه اللهُ أنْ يُظهِرَ نِعمةَ اللهِ عليه بالحديثِ عنها، وإعلانِ

---

= كقولِه تعالى: ﴿وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]؛ حيث جاء اللَّفُّ بعبارةِ ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾، وجاء النَّشرُ وَفْقَ توزيعٍ مُرتَّبٍ؛ فقولُه: ﴿لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ﴾ يتعلَّقُ باللَّيلِ، وقولُه: ﴿وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ يتعلَّقُ بالنَّهارِ.

وغيرُ المرتَّبِ -وقد يُعبَّرُ عنه بـ «اللَّفِ والنَّشرِ المُشَوَّش»، أو «المعكوس»- هو: أن يأتيَ النَّشرُ على غَيرِ ترتيبِ اللَّفِّ؛ مثالُه قولُه تعالى: ﴿أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، فهذه الجُمَلُ لفٌّ مُفَصَّلٌ، وجاء بعدَها نَشْرٌ غَيرُ مُرَتَّبٍ؛ فجُملةُ ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الأُولى، ومتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّالثةِ، ومُتعلِّقةٌ بها. وجملةُ ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ ملائمةٌ للجملةِ الثَّانيةِ، ومتعلِّقةٌ بها.

يُنظر في تفصيلِ أقسامِه وأمثلةٍ على ذلك: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٢٥)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٣٢٠)، ((علوم البلاغة)) للمراغي (ص: ٣٣٠، ٣٣١)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٠٣- ٤٠٦).

شُكْرِها، وليس المرادُ بـ (نِعْمَةِ رَبِّكَ) نِعمةً خاصَّةً، وإنَّما أُريدَ الجِنسُ، فيُفيدُ عُمومًا في المَقامِ الخَطابيِّ، أي: حدِّث ما أنعَمَ اللهُ به عليك مِن النِّعَمِ، فحَصَلَ في ذلك الأمرِ شُكرُ نِعمةِ الإغناءِ، وحَصَلَ الأمرُ بشُكرِ جَميعِ النِّعَمِ لتكونَ الجُملةُ تَذييلًا جامعًا.

وإمَّا أنْ يكونَ هذا التَّفصيلُ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ غيرِ المُرتَّبِ: إنْ فُسِّرَ السَّائلُ في قولِه: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ بسائلٍ مَعروفٍ، كان مُقابلَ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]، وقولُه: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ مُقابلَ قولِه: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧]، وكان المرادُ بنِعمةِ ربِّه نِعمةَ الهِدايةِ إلى الدِّينِ الحقِّ[١].

- وفي قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۞ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ كُرِّر (أمَّا) ثلاثَ مَرَّاتٍ؛ لوُقوعِها في مُقابَلةِ ثلاثِ آياتٍ مُناسِباتٍ لها؛ وهي: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۞ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، فقال: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ واذكُرْ يُتْمَك، ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ واذكُر فقْرَك ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ الَّتي هي النُّبوَّةُ أو الإسلامُ، ﴿فَحَدِّثْ﴾ واذكُرْ ضَلالَك[٢].

- وفي قولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۞ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ ما يُعرَفُ في البلاغةِ بالالتزامِ، أو لُزومُ ما لا يَلزَمُ -ويُقالُ له أيضًا الإعناتُ[٣]- فقدْ لُزِمَت الهاءُ قبْلَ الرَّاءِ، وفي هاتَينِ الفاصلتَينِ مع الالتزامِ تَنكيتٌ عَجيبٌ؛ فإنَّه لا يَجوزُ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٩٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠١ - ٤٠٣).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٥).

(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥٤٣).

التَّبديلُ في القَرينتَينِ، ولا تَأتي كلُّ واحدةٍ مكانَ الأُخرى؛ لأنَّ النُّكتةَ في تَرجيحِ مَجيئِهما على ما جاءَتَا عليه: أنَّ اليتيمَ مَأمورٌ بأدَبِه، وأقلُّ ما يُؤدَّبُ به الانتهارُ، فلا يَجوزُ أنْ يُنْهى عن انتهارِه، وإنَّما الَّذي يُنْهى عنه قَهْرُه وغَلبتُه؛ لانكسارِه باليُتْمِ وعدَمِ ناصرِه، فمِن هاهنا تَرجَّحَ مَجيءُ كلِّ قَرينةٍ على ما جاءت عليه، ولم يَجُزِ التَّبديلُ[1].

- قيل: لَمَّا تَقدَّمَ ذِكرُ الامتنانِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بذِكرِ الثَّلاثةِ ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾، أمَرَه بثَلاثةٍ: فذكَرَ اليتيمَ أوَّلًا، وهي البدايةُ، ثمَّ ذَكَرَ السَّائلَ ثانيًا، وهو العائلُ، وكان أشرَفُ ما امتنَّ به عليه هي الهدايةَ، فتَرقَّى مِن هذينِ إلى الأشرفِ، وجَعَلَه مَقطعَ السُّورةِ، وإنَّما وُسِّطَ ذلك عندَ ذِكرِ الثَّلاثةِ؛ لأنَّه بعْدَ اليُتمِ هو زَمانُ التَّكليفِ، وهو عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مَعصومٌ مِن اقترافِ ما لا يُرْضي اللهَ عزَّ وجلَّ في القولِ والفعلِ والعقيدةِ، فكان ذِكرُ الامتنانِ بذلك على حسَبِ الواقعِ بعْدَ اليُتمِ وحالةِ التَّكليفِ، وفي الآخِرِ تَرقَّى إلى الأشرفِ، فهُما مَقصدانِ في الخِطابِ[2].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٨).

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ الشَّرْحِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ الشَّرْحِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الشَّرْحِ)[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الشَّرْحِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

بَيانُ كَرامةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ ربِّه تعالى[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- تَعدادُ ما أنعَمَ اللهُ به على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ النِّعَمِ؛ ومِن ذلك: شَرْحُ صَدرِه، ورَفْعُ قَدْرِه وذِكْرِه، ووَعْدُ اللهِ له بإزالةِ ما نَزَل به مِنَ الشَّدائِدِ والمِحَنِ.

---

(١) سُمِّيَت السُّورةُ بذلك؛ تسميةً لها بمصدرِ الفعلِ الواقعِ في مُفتتَحِها، وهو قَولُ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٨/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٧).

قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَت في مُعظَمِ التَّفاسيرِ، وفي «صحيحِ البُخاريِّ» و«جامِعِ التِّرمذيِّ» سورةَ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾، وسُمِّيَت في بعضِ التَّفاسيرِ سُورةَ «الشَّرحِ»، ومِثلُه في بعضِ المصاحِفِ المَشْرِقيَّةِ... وفي بعضِ التَّفاسيرِ تَسميتُها «سورةَ الانشِراحِ»). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٧).

(٢) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عَطِيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٢٩٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٦٧)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٣، ٤١٤).

٢- أمْرُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالمُداوَمةِ على الأعمالِ الصَّالِحةِ، والرَّغبةِ فيما عندَ الله، والإقبالِ على ذِكْرِه.

## الآيات (١-٨)

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾.

## غَريبُ الكَلماتِ:

﴿نَشْرَحْ﴾: نُفْسِحْ ونُوَسِّعْ، أو نفتَحْ، وأصلُ (شرح): يدُلُّ على الفَتحِ والبَيانِ[١].

﴿وِزْرَكَ﴾: ذَنْبَك، والوِزْرُ: الإثمُ والثِّقْلُ، وأصلُ (وزر): يدُلُّ على الثِّقْلِ في الشَّيءِ[٢].

﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾: أي: أثقَلَه حتَّى سُمِعَ نَقِيضُه، أي: صَوتُه، وأصلُ (نقض) هنا: يدُلُّ على جِنسٍ مِنَ الصَّوتِ[٣].

﴿فَٱنصَبْ﴾: فاتعَبْ، وأصلُ (نصب): يدُلُّ على إقامةِ شَيءٍ، ومنه النَّصبُ: العناءُ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يزالُ مُنتَصِبًا حتَّى يُعيِيَ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بتذكيرِ نَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بنِعَمِه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٢)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٠٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٩٤٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٦٧).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٠٢).

عليه؛ مُقَرِّرًا لها، حتَّى يُداوِمَ على شُكرِه تعالى، فقال: أَلَمْ نُوَسِّعْ لك صَدْرَك -يا محمَّدُ- ونفتَحْه للهُدى والإيمانِ، ومَعرفةِ الحقِّ، والعمَلِ به، ومِن ذلك شقُّ جِبريلَ لصَدرِك ومَلْؤُه حِكمةً وإيمانًا؟ وحطَطْنا عنك إثمَك، وغَفَرْنا لك ذَنْبَك، الَّذي أثقَلَك حَمْلُه، ورفَعْنا لك ذِكْرَك، وأعلَيْنا شَأْنَك.

ثمَّ قال سُبحانَه مُسَلِّيًا نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأتْباعَه، ومُبَيِّنًا سُنَّةً مِن سُنَنِه: فإنَّ مع الصُّعوبةِ والشِّدَّةِ سُهولةً وسَعةً وفَرَجًا، إنَّ مع الصُّعوبةِ والشِّدَّةِ سُهولةً وسَعةً وفَرَجًا.

ثمَّ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالاجتِهادِ في عبادتِه، فقال: فإذا فرَغْتَ مِن أشغالِك الدُّنيويَّةِ والأُخْرويَّةِ فاجتَهِدْ في العِبادةِ والدُّعاءِ، واجعَلْ رَغبتَك في جميعِ أعمالِك وعباداتِك مِن أجْلِ إرضاءِ رَبِّك وَحْدَه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾.

أي: ألم نُوَسِّعْ لك صَدْرَك -يا محمَّدُ- ونفتَحْه للهُدى والإيمانِ، ومَعرفةِ الحقِّ، والعمَلِ به، والقيامِ بالدَّعوةِ، وتحمُّلِ أعباءِ النُّبُوَّةِ، ومِن ذلك شَقُّ جِبريلَ لصَدرِك ومَلْؤُه حِكمةً وإيمانًا[1]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤١، ٢٤٢).

قال ابنُ عطيَّةَ: (ذهب الجُمهورُ إلى أنَّ شَرْحَ الصَّدرِ المذكورَ هو تنويرُه بالحِكمةِ، وتوسيعُه لتلَقِّي ما يُوحَى إليه، وقال ابنُ عبَّاسٍ وجماعةٌ: هذه إشارةٌ إلى شَرْحِه بشَقِّ جِبريلَ عنه في وقتِ صِغَرِه، وفي وقتِ الإسراءِ؛ إذ التَّشريحُ شَقُّ اللَّحمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٦).

وقال الثعلبي: (ألم نَفتَحْ ونُوسِّعْ ونُلَيِّنْ لك قَلْبَك بالإيمانِ والنُّبوَّةِ والعِلمِ والحِكمةِ). ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٣٢). ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٤). =

كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال سُبحانَه حكايةً عن موسى عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٥، ٢٦].

وعن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أتاه جِبريلُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يَلعَبُ مع الغِلْمانِ، فأخَذَه فصَرَعَه، فشَقَّ عن قَلْبِه، فاستخرَجَ القَلْبَ، فاستخرَجَ منه عَلَقةً، فقال: هذا حَظُّ الشَّيطانِ مِنك، ثمَّ غسَلَه في طَسْتٍ مِن ذَهَبٍ بماءِ زَمْزَمَ، ثمَّ لأَمَه، ثمَّ أعاده في مَكانِه، وجاء

---

= ممَّن اختار في الجُملةِ أنَّ المعنى: شَرَحْناه وفتَحْناه ووسَّعْناه للهُدى وشرائِعِ الدِّينِ، والإيمانِ باللهِ ومَعرفةِ الحَقِّ، حتَّى قام بما قام به مِنَ الدَّعوةِ، وقَدَر على ما قَدَر عليه مِن حَملِ أعباءِ النُّبوَّةِ وحِفظِ الوَحيِ: ابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

وقال ابنُ عاشور: (ويجوزُ أن يُجعَلَ الشَّرحُ شَرحًا بَدَنيًّا، ورُوِيَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه فَسَّر به، وهو ظاهِرُ صَنيعِ التِّرمذيِّ؛ إذ أخرجَ حديثَ شَقِّ الصَّدرِ الشَّريفِ في تفسيرِ هذه السُّورةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٩).

وممَّن جَمَع بيْن المعنَيَينِ السَّابِقَينِ للشَّرحِ: ابنُ العربيِّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن العربي (٤/ ٤١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١١٦).

قال ابنُ كثير: (شَرَحْنا لك صَدْرَك، أي: نوَّرْناه وجعَلْناه فَسيحًا رَحيبًا واسِعًا... وقيل: المرادُ بقَولِه: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ﴾ شَرْحُ صَدْرِه ليلةَ الإسراءِ... وهذا وإن كان واقِعًا، ولكِنْ لا مُنافاةَ؛ فإنَّ مِن جملةِ شَرْحِ صَدْرِه الَّذي فُعِلَ بصَدْرِه ليلةَ الإسراءِ، وما نشَأَ عنه مِن الشَّرحِ المعنويِّ أيضًا. واللهُ أعلَمُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٢٩).

الغِلْمانُ يَسْعَونَ إلى أُمِّه -يعني: ظِئْرَه- فقالوا: إنَّ محمَّدًا قد قُتِلَ! فاستَقْبَلوه وهو مُنتَقِعُ اللَّونِ، قال أنَسٌ: وقد كُنتُ أرى أَثَرَ ذلك المِخْيَطِ في صَدْرِه))[١].

وعن أنسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان أبو ذَرٍّ يُحَدِّثُ أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: فُرِج عن سَقْفِ بيتي وأنا بمكَّةَ، فنَزَل جِبريلُ ففَرَج صَدْري، ثُمَّ غَسَله بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جاءَ بطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمةً وإيمانًا، فأفْرَغه في صَدْري، ثُمَّ أطْبَقَه، ثُمَّ أخَذ بيَدي فعَرَج بي إلى السَّماءِ الدُّنْيا...))[٢].

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ عن مالِكِ بنِ صَعْصَعَةَ، رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((بَيْنا أنا عندَ البَيتِ[٣] بيْنَ النَّائِمِ واليَقْظانِ... فأُتيتُ بطَسْتٍ مِن ذَهَبٍ مُلِئَ حِكْمةً وإيمانًا، فشُقَّ مِن النَّحْرِ إلى مَرَاقِّ البَطنِ[٤]، ثُمَّ غُسِل البطنُ بماءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ مُلِئَ حِكْمةً وإيمانًا، وأُتيتُ بدابَّةٍ....)) الحديثَ[٥].

وفي روايةٍ: ((فأُتيتُ بطَسْتٍ مِن ذهَبٍ فيها مِن ماءِ زَمْزَمَ، فشُرِح صدري إلى كذا وكذا))[٦].

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾.

أي: وحطَطْنا عنك إثمَك، وغَفَرْنا لك ذَنْبَك[٧].

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾.

---

(١) رواه مسلم (١٦٢).

(٢) رواه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣).

(٣) عندَ البَيتِ: أي: الكعبة. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٢٥).

(٤) مراقِّ البطنِ: هو ما سفَل مِن البطنِ، ورقَّ مِن جلدِه. يُنظر: ((عمدة القاري)) للعيني (١٥/ ١٢٦).

(٥) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٦) رواه مسلم (١٦٤).

(٧) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٤).

أي: الَّذي أثقَلَك حَمْلُه[١].

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾.

أي: ورفَعْنا ذِكْرَك رِفعةً عَظيمةً، فأعلَيْنا شَأْنَك، ونوَّهْنا باسمِك، ونشَرْنا لك الثَّناءَ الحسَنَ العاليَ؛ تشريفًا لك وتعظيمًا[٢].

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥﴾.

أي: فإنَّ مع الصُّعوبةِ والشِّدَّةِ والضِّيقِ سُهولةً وسَعةً وفَرَجًا[٣].

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان العُسرُ مَكروهًا إلى النُّفوسِ، وكان لله سُبحانَه وتعالى فيه حِكَمٌ عظيمةٌ، وكانت الحِكَمُ لا تتراءى إلَّا للأفرادِ مِنَ العِبادِ؛ كَرَّره سُبحانَه وتعالى على طريقِ الاستِئنافِ؛ لجوابِ مَن يقولُ: وهل بَعْدَه مِن عُسْرٍ؟ مؤكِّدًا له؛ ترغيبًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٨-٢٥٠).

قال الشوكاني: (في هذا وَعدٌ منه سبحانه بأنَّ كُلَّ عُسرٍ يتيسَّرُ، وكُلَّ شَديدٍ يَهُونُ، وكُلَّ صَعبٍ يَلينُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٤).

وقال السعدي: (كُلَّما وُجِدَ عُسرٌ وصُعوبةٌ فإنَّ اليُسرَ يُقارِنُه ويُصاحِبُه). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

في أمرِه، وترَقُّبًا لِما يتسَبَّبُ عنه، مُبَشِّرًا بتكريرِه مع وَحْدةِ العُسْرِ[١].

﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ٦﴾.

أي: إنَّ الشِّدَّةَ والضِّيقَ يُصاحِبُهما السُّهولةُ والرَّخاءُ[٢].

كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((...واعلَمْ أنَّ في الصبرِ على ما تكرهُ خيرًا كثيرًا، وأنَّ النَّصرَ معَ الصَّبرِ، وأنَّ الفَرَجَ معَ الكربِ، وأنَّ معَ العُسرِ يُسرًا))[٣].

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا عَدَّد اللهُ عليه نِعَمَه السَّالِفةَ، ووعَدَه بالنِّعَمِ الآتيةِ؛ لا جَرَمَ بَعَثَه على الشُّكرِ والاجتِهادِ في العِبادةِ؛ فقال[٤]:

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٠٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣١)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٨-٢٥٠).

(٣) أخرجه مِن طُرقٍ: أحمدُ (٢٨٠٣) واللفظ له، والطَّبَرانيُّ (١١/ ١٢٣) (١١٢٤٣)، والحاكمُ (٦٣٠٤) مطَوَّلًا.

صحَّحه عبدُ الحقِّ الإشبيليُّ في ((الأحكام الشرعية الكبرى)) (٣/ ٣٣٣)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٦٨٠٦)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ١٩)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((موافقة الخُبْرِ الخَبَر)) (١/ ٣٢٧)، والسَّخاويُّ في ((المقاصد الحسنة)) (١٨٨)، وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيقِ ((مسند أحمد)) (٤/ ٢٨٧). ويُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٥٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٠٩). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠١).

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾.

أي: فإذا فرَغْتَ مِن كلِّ ما كنتَ به مشتغِلًا، مِن أمرِ دنياك وآخرتِك؛ فاجتَهِدْ في العِبادةِ والدُّعاءِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٠، ٥٢١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

قال ابن جُزَي: (والمعنى: إذا فرَغْتَ مِن أمرٍ فاجتَهِدْ في آخَرَ، ثمَّ اختُلِف في تعيينِ الأمْرَينِ؛ فقيل: إذا فرَغْتَ مِن الفرائضِ فانصَبْ في النَّوافلِ، وقيل: إذا فرغتَ مِن الصَّلاةِ فانصَبْ في الدُّعاءِ، وقيل: إذا فرغتَ مِن شُغلِ دُنياك فانصَبْ في عبادةِ ربِّك). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٣).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ أن يواصِلَ بيْن بعضِ العباداتِ وبعضٍ، فإذا فرَغ مِن عبادةٍ أتْبَعَها بأخرى -على خِلافٍ بيْنَهم في تعيينِ العِبادةِ المَفروغِ منها والَّتي يَنصَبُ إليها-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسمرقنديُّ، والكرماني، والزمخشري، وابن عطية، والرازي، والخازن، والعُلَيمي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٤٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٩٤)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٥٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٠٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٤٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٩٣).

قال الواحِديُّ: (قال قَتادةُ، والضَّحَّاكُ، ومُقاتِلٌ، والكَلْبيُّ: إذا فرَغْتَ مِنَ الصَّلاةِ المكتوبةِ فانصَبْ إلى رَبِّك في الدُّعاءِ، وارغَبْ إليه في المسألةِ يُعْطيك، ونحوَ هذا روى عبدُ الوهَّابِ ابنُ مجاهِدٍ عن أبيه، قال: إذا صَلَّيْتَ فاجتَهِدْ في الدُّعاءِ والمَسْألةِ. وقال الشَّعبيُّ: إذا فرَغْتَ مِن التَّشَهُّدِ فادْعُ لدُنْياك وآخِرَتِك. ونحوَ هذا قال الزُّهْريُّ: إذا قَضَيتَ التَّشَهُّدَ فادْعُ بعْدَ التَّشَهُّدِ بكُلِّ حاجتِك). ((البسيط)) (٢٤/ ١٣٦).

وقال ابنُ كثير: (أي: إذا فرَغْتَ مِن أُمورِ الدُّنيا وأشغالِها وقطَعْتَ علائقَها، فانصَبْ في العبادةِ، وقُمْ إليها نشيطًا فارِغَ البالِ، وأخلِصْ لرَبِّك النِّيَّةَ والرَّغبةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٣).

وقال الواحِديُّ: (وروى منصورٌ عن مجاهِدٍ: إذا فرَغْتَ بَعْدَ أمرِ دُنياك ﴿فَٱنصَبْ﴾ فصَلِّ). ((البسيط)) (٢٤/ ١٣٧).

قال السعديُّ: (أمَر اللهُ رَسولَه أصلًا والمؤمِنينَ تبَعًا، بشُكْرِه والقيامِ بواجِبِ نِعَمِه، فقال: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ أي: إذا تفرَّغْتَ مِن أشغالِك، ولم يَبْقَ في قَلْبِك ما يَعوقُه، فاجتَهِدْ في العِبادةِ والدُّعاءِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

وقال ابنُ جريرٍ: (أَولى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ قَولُ مَن قال: إنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أمَرَ نبيَّه =

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ۝٨﴾.

أي: واجعَلْ رَغبتَك إلى اللهِ، فترجُوه وَحْدَه، وتَسألُه دونَ مَن سِواه، وتتوكَّلُ عليه لا على غَيرِه[1].

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ أصحابِ الجنَّةِ الَّتي احترَقت: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ [القلم: ٣٢].

---

= أن يجعَلَ فَراغَه مِن كُلِّ ما كان به مُشتَغِلًا مِن أمرِ دُنياه وآخِرَته، ممَّا آدَى له الشُّغلُ به [أي: بلَغ منه المجهودُ والمشقَّةُ]، وأمَرَه بالشُّغلِ به: إلى النَّصَبِ في عِبادتِه، والاشتِغالِ فيما قَرَّبه إليه، ومَسألتِه حاجاتِه، ولم يَخصُصْ بذلك حالًا مِن أحوالِ فراغِه دونَ حالٍ، فسَواءٌ كُلُّ أحوالِ فَراغِه؛ مِن صلاةٍ كان فراغُه، أو جِهادٍ، أو أمْرِ دُنيا كان به مُشتَغِلًا؛ لعُمومِ الشَّرطِ في ذلك مِن غَيرِ خُصوصِ حالِ فَراغٍ دونَ حالٍ أُخرى). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٤٩٩).

وقال ابنُ عُثَيمين: (إذا فرَغْتَ مِن عَمَلٍ فانصَبْ في عَمَلٍ آخَرَ، إذا فرَغْتَ مِن عَمَلِ الدُّنيا عليك بعَمَلِ الآخِرةِ، [وإذا] فرَغْتَ مِن عمَلِ الآخِرةِ اشتغَلْتَ بأمرِ الدُّنيا). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٠).

وقال القاسميُّ: (والأظهَرُ عِندي اعتِمادًا على ما صَحَّحْناه مِن أنَّ الآيةَ مدَنيَّةٌ وأنَّها مِن أواخِرِ ما نزَلَ- أن يكونَ معنى قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ﴾ أي: فَرَغْتَ مِن مُقارَعةِ المُشرِكينَ، وظَفِرْتَ بأُمنيَّتِك منهم بمَجيءِ نَصرِ اللهِ والفَتحِ؛ فانصَبْ في العِبادةِ والتَّسبيحِ والاستِغفارِ؛ شُكرًا لله على ما أنعَمَ، وارغَبْ إليه خاصَّةً ابتِغاءَ لِمَرْضاتِه. فتكونُ الآيَتانِ بمعنى سورةِ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾. ثمَّ رأيتُ ابنَ جريرٍ نَقَل مِثْلَه عن ابنِ زَيدٍ عن أبيه، قال: فإذا فرَغْتَ مِنَ الجِهادِ؛ جِهادِ العَرَبِ، وانقطَعَ جِهادُهم، فانصَبْ لعِبادةِ اللهِ، وإليه فارغَبْ. وهو ظاهِرٌ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٤٩٧).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٨)، ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٢٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١/ ١٨١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥١).

قال السعدي: (﴿فَٱرۡغَب﴾ أي: أعظِمِ الرَّغبةَ في إجابةِ دُعائِك، وقَبولِ عِباداتِك). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ شَرَحَ اللهُ صَدْرَ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم أَتَمَّ الشَّرحِ، ووَضَعَ عنه وِزْرَه كلَّ الوَضعِ، ورَفَعَ ذِكْرَه كلَّ الرَّفْعِ، وجَعَلَ لأَتْبَاعِه حظًّا مِن ذلك؛ إذْ كلُّ مَتبوعٍ فلأَتْباعِه حظٌّ ونصيبٌ مِن حظِّ مَتبوعِهم في الخيرِ والشَّرِّ على حسَبِ اتِّباعِهم له، فأَتْبَعُ النَّاسِ لرَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أشْرَحُهم صدرًا، وأوضعُهم وِزْرًا، وأرفعُهم ذِكْرًا، وكلَّما قَويتْ مُتابَعتُه عِلمًا وعَمَلًا وحالًا وجِهادًا، قَويتْ هذه الثَّلاثةُ، حتَّى يصيرَ صاحبُها أشرحَ النَّاسِ صدرًا، وأرفعَهم في العالَمينَ ذِكْرًا، وأمَّا وَضْعُ وِزْرِه، فكيف لا يُوضَعُ عنه ومَن في السَّمواتِ والأرضِ ودَوابُّ البَرِّ والبحرِ يَستغفِرونَ له؟! وهذه الأمورُ الثَّلاثةُ مُتلازِمةٌ كما أنَّ أضْدادَها متلازِمةٌ؛ فالأوزارُ والخطايا تَقْبِضُ الصَّدرَ وتُضيِّقُه، وتُخْمِلُ الذِّكْرَ وتَضَعُه، وكذلك ضِيقُ الصَّدرِ يَضَعُ الذِّكْرَ، ويَجلِبُ الوِزْرَ، فما وَقَعَ أحدٌ في الذُّنوبِ والأوزارِ إلَّا مِن ضِيقِ صدْرِه وعدمِ انشراحِه، وكلَّما ازداد الصَّدرُ ضيقًا كان أدْعَى إلى الذُّنوبِ والأوزارِ؛ لأنَّ مُرتكِبَها إنَّما يَقصِدُ بها شَرْحَ صدْرِه، ودَفْعَ ما هو فيه مِن الضِّيقِ والحَرَجِ، وإلَّا فلو اتَّسَعَ بالتَّوحيدِ والإيمانِ ومحبَّةِ اللهِ ومعرفتِه، وانشرحَ بذلك؛ لَاستغنى عن شرْحِه بالأوزارِ؛ ولهذا أكثرُ مَن يُواقِعُ المحظورَ إنَّما يَدْفَعُ به عن نفْسِه ما فيها مِن الهَمِّ والغَمِّ والضِّيقِ، وكثيرًا ما تَبْرُدُ شَهوتُه وإرادتُه، ومع هذا يَحرِصُ على المُعاوَدةِ؛ تداويًا منه بزَعمِه[1]!

٢- قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ هذه الآيةُ لم تترُكْ للمُسلِمِ فَراغًا في وقتِه؛ لأنَّه إمَّا في عَمَلٍ للدُّنيا، وإمَّا في عمَلٍ للآخِرةِ، وقد رُوِيَ عن شُريحٍ أنَّه مَرَّ على

(١) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٧، ٢٧٨).

رجُلَينِ يتصارَعانِ، فقال: (ليس بهذا أُمِرَ الفارغُ، إنَّما قال الله تبارَك وتعالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾)[١]، ورُوِيَ عن ابنِ مسعودٍ[٢] أنَّه قال: (إنِّي لَأمقُتُ الرَّجُلَ أن أراه فارغًا، ليس في شيءٍ مِن عمَلِ الدُّنيا ولا عمَلِ الآخرةِ)[٣].

ولهذا كانت حياةُ الإنسانِ العاقلِ حياةَ جِدٍّ، كلَّما فَرَغَ مِن عمَلٍ شَرَعَ في عَمَلٍ آخَرَ، وهكذا؛ لأنَّ الزَّمنَ يفوتُ على الإنسانِ، ففي حالِ يَقظَتِه ومَنامِه، وشُغْلِه وفراغِه يسيرُ، ولا يمكنُ لأحدٍ أنْ يُمسِكَ الزَّمَنَ[٤]!

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ خَتْمُ السُّورةِ بهذينِ الأصلَينِ، وهما: تجريدُ التَّوحيدِ، وتجريدُ الطَّاعةِ بمُتابَعةِ الرَّسولِ؛ فالنَّصَبُ: التَّفَرُّغُ للعبادةِ والطَّاعةِ، والرَّغبةُ إلى اللهِ وَحْدَه: تجريدُ توحيدِه. ومتى قام العبدُ بهذينِ الأصلينِ حصَلَ له مِن شَرْحِ الصَّدرِ ووَضْعِ الوِزْرِ ورَفْعِ الذِّكْرِ بحسَبِ ما قام به، وبُدِّلَ عُسْرُه يُسرًا[٥].

٤- قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ يعني: إلى اللهِ لا إلى غيرِه؛ فارغَبْ في جميعِ أمورِك، وثِقْ بأنَّك متى عَلَّقْتَ رغبتَك باللهِ عزَّ وجلَّ فإنَّه سوف يُيَسِّرُ لك الأمورَ، وكثيرٌ مِن النَّاسِ تَنْقُصُهم هذه الحالُ، أي: يَنْقُصُهم أنْ يَكونوا دائمًا راغبينَ إلى اللهِ؛ فتَجِدُهم يَخْتَلُّ كثيرٌ مِن أعمالِهم؛ لأنَّهم لَمْ يكُنْ بيْنَهم وبيْن اللهِ تعالى صِلةٌ في أعمالِهم[٦]!

---

(١) أخرجه الفراء في ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٧٦).

(٢) يُنظر: ((مصنف ابن أبي شيبة)) (٧/ ١٠٨)، ((الزهد)) لأبي داود (ص: ١٧١)، ((المعجم الكبير)) للطبراني (٩/ ١٠٦) (٨٥٣٩)، ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (١/ ١٣٠).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٨/ ٥٧٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٠).

(٥) يُنظر: ((الكلام على مسألة السماع)) لابن القيم (ص: ٢٧٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥١).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ سؤالٌ: لِمَ ذَكَر سُبحانَه الصَّدْرَ، ولَمْ يَذكُرِ القَلْبَ؟

**الجوابُ**: لأنَّ محَلَّ الوَسوسةِ هو الصَّدرُ، على ما قال سُبحانَه: ﴿يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥]؛ فإزالةُ تلك الوَسْوَسةِ وإبدالُها بدَواعي الخَيرِ هي الشَّرحُ، فلا جَرَمَ خُصَّ ذلك الشَّرحُ بالصَّدرِ دونَ القَلْبِ[١]. أو ذلك إشارةٌ إلى شَرْحِه بشَقِّ جِبريلَ له.

٢- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ سؤالٌ: لِمَ قال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، ولم يقلْ: «ألم نشرَحْ صَدْرَك»؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**أحدُهما**: كأنَّه تعالى يقولُ: لامٌ بلامٍ؛ فأنت إنَّما تفعَلُ جميعَ الطَّاعاتِ لأَجْلي، كما قال: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه: ١٤]، فأنا أيضًا جميعُ ما أفعَلُه لأجْلِك.

**ثانيها**: أنَّ فيها تنبيهًا على أنَّ منافِعَ الرِّسالةِ عائِدةٌ إليه عليه السَّلامُ، كأنَّه تعالى قال: إنَّما شرَحْنا صَدْرَك لأجْلِك لا لأجْلي[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ سؤالٌ: هلِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُذْنِبُ؟

**الجوابُ**: نعَمْ، ولا يمكِنُ أنْ نَرُدَّ النُّصوصَ لمجرَّدِ أنْ نَستَبعِدَ وُقوعَ الذَّنْبِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٠٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

منه صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم، ونحن لا نقولُ: الشأنُ ألَّا يُذنِبَ الإنسانُ، بلِ الشَّأنُ أنْ يُغْفَرَ للإنسانِ، هذا هو المهِمُّ: أنْ يُغْفَرَ له، فكلُّ بَني آدمَ خَطَّاءٌ، وخيرُ الخَطَّائينَ التَّوَّابونَ، لا بُدَّ مِن خطيئةٍ، لكنَّ هناك أشياءَ لا يمكنُ أنْ تقع مِن الأنبياءِ، مِثلُ الكَذِبِ والخيانةِ، فإنَّ هذا لا يمكنُ أنْ يقعَ منهم إطلاقًا؛ لأنَّ هذا لو فُرِضَ وُقوعُه لَكان طعنًا في رسالتِهم، وهذا شيءٌ مستحيلٌ، وسفاسِفُ الأخلاقِ مِن الزِّنا وشِبْهِه هذا أيضًا ممتنِعٌ؛ لأنَّه يُنافي أصلَ الرِّسالةِ؛ فالرِّسالةُ إنَّما وُجِدَتْ لتَتميمِ مَكارمِ الأخلاقِ، كما قال صلَّى اللهُ عليه وآلِه وسلَّم: ((إنَّما بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ صالِحَ الأخلاقِ))[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٤٥).

والحديث أخرجه أحمدُ (٨٩٥٢) واللَّفظُ له، والحاكمُ (٤٢٢١)، والبيهقيُّ (٢١٣٠٣) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

صحَّحه الحاكمُ -وقال: (على شرطِ مُسلِمٍ)-، وابنُ عبدِالبَرِّ في ((التمهيد)) (٢٤/ ٣٣٣)، وابنُ باز في ((مجموع الفتاوى)) (٧/ ١٥٢)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢٣٤٩)، وشعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤/ ٥١٣)، وقال الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٨/ ١٩١): (رواه أحمدُ ورجالُه رجالُ الصَّحيحِ).

والقَولُ بأنَّ الأنبياءَ مَعصومونَ عن الكبائِرِ دونَ الصَّغائِرِ هو قَولُ أكثَرِ عُلَماءِ الإسلامِ وجميعِ الطَّوائِفِ، حتَّى إنَّه قَولُ أكثَرِ أهلِ الكلامِ، وأكثَرِ أهلِ التَّفسيرِ والحَديثِ، والفُقَهاءِ، بل لم يُنقَلْ عن السَّلَفِ والأئمَّةِ والصَّحابةِ والتَّابعينَ وتابعيهم إلَّا ما يُوافِقُ هذا القَولَ، وقد اتَّفَق سلَفُ الأمَّةِ وأئمَّتُها ومَن اتَّبَعَهم على ما أخبَرَ اللهُ به في كتابِه وما ثبَت عن رَسولِه مِن تَوبةِ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ مِن الذُّنوبِ الَّتي تابوا منها، وهذه التَّوبةُ رَفَع اللهُ بها دَرَجاتِهم؛ فإنَّ اللهَ يحِبُّ التَّوابينَ ويحِبُّ المتطَهِّرينَ، وعِصمَتُهم هي مِن أن يُقَرُّوا على الذُّنوبِ والخَطأِ؛ فإنَّ مَن سِوى الأنبياءِ يجوزُ عليهم الذَّنبُ والخَطأُ مِن غيرِ تَوبةٍ، والأنبياءُ عليهم السَّلامُ يَستدرِكُهم اللهُ فيَتوبُ عليهم ويبَيِّنُ لهم، وقد ذكَرَ الله تعالى مِن تَوبةِ الأنبياءِ واستغفارِهم؛ كقَولِه: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِ﴾ [البقرة: ٣٧]، وقَولِ نوحٍ عليه السَّلامُ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، وقَولِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿رَبَّنَا =

٤- في قولِه: ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ اتِّصالُ حَرفَي الضَّادِ والظَّاءِ، وهما مُتقارِبَا المخرَجِ، فرُبَّما يَحصُلُ مِن النُّطقِ بهما شَيءٌ مِن الثِّقَلِ على اللِّسانِ، ولكنَّه لا يُنافي الفَصاحةَ؛ إذ لا يَبلُغُ مَبلَغَ ما يُسمَّى بتَنافُرِ الكَلِماتِ، بلْ مِثلُه مُغتفَرٌ في كَلامِ الفُصحاءِ، والعرَبُ فُصحاءُ الألسُنِ، فإذا اقْتَضى نظْمُ الكَلامِ وُرودَ مِثلِ هَذينِ الحَرفينِ المتقارِبَينِ، لم يَعبَأِ البليغُ بما يَعرِضُ عندَ اجتماعِهما مِن بَعضِ الثِّقَلِ، ومِثلُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿وَسَبِّحْهُ﴾ [الإنسان: ٢٦] في اجتماعِ الحاءِ مع الهاءِ، وذلك حيث لا يَصِحُّ الإدغامُ. وقد أَوصى عُلماءُ التَّجويدِ بإظهارِ الضَّادِ مع الظَّاءِ إذا تَلاقَيا كما في هذه الآيةِ، وقولِه: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ﴾[1] [الفرقان: ٢٧].

٥- مِنَ الفُقهاءِ مَن استدَلَّ بقولِه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ على وُجوبِ الصَّلاةِ عليه -صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- في الخُطبةِ، وصلاةِ الجِنازةِ، واستِحبابِها عَقِبَ التَّلبيةِ[2].

---

= ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقَولِه سُبحانَه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] إلى غيرِ ذلك. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣١٩)، ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (١/ ٢٦٩).

وقال الشَّوكانيُّ: (ذهب الأكثَرُ مِن أهلِ العِلمِ إلى عصمةِ الأنبياءِ بعدَ النُّبُوَّةِ مِنَ الكبائِرِ، وقد حكى القاضي أبو بكرٍ إجماعَ المُسلِمينَ على ذلك. وكذا حكاه ابنُ الحاجِبِ وغيرُه مِن متأخِّري الأصوليِّينَ، وكذا حكَوُا الإجماعَ على عِصْمَتِهم بعدَ النُّبُوَّةِ مِمَّا يُزري بمناصِبِهم؛ كرَذائِلِ الأخلاقِ والدَّناءاتِ وسائِرِ ما يُنفِّرُ عنهم، وهي الَّتي يُقالُ لها صغائِرُ الخِسَّةِ؛ كسَرِقةِ لُقمةٍ، والتَّطفيفِ بحَبَّةٍ). ((إرشاد الفحول)) (١/ ٩٨). ويُنظر: ((المحصول)) لابن العربي (ص: ١٠٩)، ((مختصر ابن الحاجب)) (١/ ٣٩٧)، ويُنظر أيضًا: ((الشفا)) للقاضي عياض (٢/ ١٧١)، ((تفسير القرطبي)) (١/ ٣٠٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٦٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٣).

قال ابنُ القَيِّمِ في الاستِدلالِ بهذه الآيةِ على وُجوبِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ في الخُطبةِ مع أثَرِ ابنِ =

٦- قال أبو بكرِ بنُ عَيَّاشٍ: (أهلُ السُّنَّةِ يَبقَونَ ويَبقى ذِكْرُهم، وأهلُ البدعةِ يموتون ويموتُ ذِكْرُهم)؛ وذلك أنَّ أهلَ البدعةِ شَنِئُوا بعضَ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأبتَرَهم بقَدْرِ ذلك، والَّذين أَعلنوا ما جاء به النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم صار لهم نصيبٌ مِن قولِه تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾؛ فإنَّ ما أَكرمَ اللهُ به نبيَّه مِن سعادةِ الدُّنيا والآخرةِ فللْمُؤمنينَ المُتابعينَ نصيبٌ بقَدْرِ إيمانِهم، فما كان مِن خصائصِ النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ فلَمْ يُشارِكْ فيه أَحَدٌ مِن أُمَّتِه، وما كان مِن ثَوابِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ فلِكُلِّ مؤمنٍ نصيبٌ بقَدْرِ ذلك[1].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا﴾ سُؤالٌ: أنَّ اليُسرَ لا يكونُ مع العُسْرِ؛ لأنَّهما ضِدَّانِ فلا يجتَمِعانِ.

**الجوابُ**: لَمَّا كان وُقوعُ اليُسرِ بعْدَ العُسرِ بزَمانٍ قليلٍ، كان مقطوعًا به؛ فجُعِلَ كالمقارِنِ له[2]، وفي ذلك تَبشيرٌ لرَسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بحصولِ اليُسرِ عاجلًا، فلَفْظُ (مع) للمُصاحَبةِ، لَمَّا عيَّر المشركون المسلِمينَ بفَقْرِهم، وَعَدَهم اللهُ يُسرًا قَريبًا مِن زَمانِ عُسْرِهم، وقُرِنَ اليُسرُ مع العُسْرِ زِيادةً في التَّسليةِ وتَقويةِ

---

= عَبَّاس: (رَفَع اللهُ له ذِكْرَه، فلا يُذكَرُ إلَّا ذُكِرَ مَعَه)، قال: (في هذا الدَّليلِ نَظَرٌ؛ لأنَّ ذِكْرَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معَ ذِكْرِ رَبِّه هو الشَّهادَةُ له بالرِّسالةِ إذا شهِدَ لِمُرسِلِه بالوَحْدانيَّةِ). ((جلاء الأفهام)) (ص: ٣٦٨).

وقد استدَلَّ الرَّافِعيُّ على سُنِّيَّةِ الصَّلاةِ على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في القُنوتِ بقولِه تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ على ما نقَله عن المفسِّرينَ أنَّ المعنى: لا أُذكَرُ إلَّا وتُذكَرُ معي. يُنظر: ((الشرح الكبير)) (١/ ٥١٦، ٥١٧).

قال ابن حجر: (قُلْتُ: في الاستِدلالِ به نَظَرٌ؛ فإنَّه لا يُسَنُّ في أذكارِ الرُّكوعِ والسُّجودِ، ولا معَ القِراءةِ في القيامِ؛ فدَلَّ على أنَّه عامٌّ مخصوصٌ). ((التلخيص الحبير)) (١/ ٦٠٨).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٠٩).

القلْبِ، فجُعِلَ اليسرُ كالمصاحِبِ للعُسرِ في سُرعةِ مَجيئِه[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بشارةٌ عَظيمةٌ أنَّه كُلَّما وُجِدَ عُسرٌ وصُعوبةٌ فإنَّ اليُسرَ يُقارِنُه ويُصاحِبُه، حتَّى لو دخل العُسرُ جُحْرَ ضَبٍّ لَدخَلَ عليه اليُسرُ فأخرَجَه، كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وكما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((وإنَّ الفَرَجَ مع الكَرْبِ، وإنَّ مع العُسرِ يُسْرًا))[٢].

٩- كَلمةُ (مع) هنا في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مُستعمَلةٌ في قُربِ حُصولِ اليُسرِ عَقِبَ حُلولِ العُسرِ أو ظُهورِ بَوادِره، وبذلك يَندفِعُ التَّعارُضُ بيْن هذه الآيةِ وبيْن قولِه تعالَى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]؛ فهذه الآيةُ في عُسْرٍ خاصٍّ يَعرِضُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وآيةُ سُورةِ (الطَّلاقِ) عامَّةٌ، وللبَعديَّةِ فيها مَراتبُ مُتفاوِتةٌ[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ غَنيمةٌ للمؤمِنِ ليطمَئِنَّ إليه، ولا يَضيقَ صدْرُه مِن عُسْرٍ يَلْحَقُه؛ فإنَّ مع كلِّ عُسْرٍ يُسرَينِ[٤]، والعُسْرُ وإنْ تَكَرَّرَ مرَّتينِ فتَكَرَّرَ بلَفظِ المعرفةِ؛ فهو واحدٌ، واليُسْرُ تَكَرَّرَ بلَفظِ النَّكِرةِ فهو يُسرانِ؛ فالعُسْرُ محفوفٌ بيُسْرَينِ: يُسْرٌ قَبْلَه، ويُسْرٌ بعدَه؛ فلن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسرينِ[٥]، ففي تعريفِ العُسرِ بالألِفِ واللَّامِ -الدَّالَّةِ على الاستغراقِ والعُمومِ-

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧١، ٧٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٦، ٦١٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

والحديثُ تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٢٥).

(٥) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ١٥٥). =

دَلالةٌ على أنَّ كُلَّ عُسرٍ وإنْ بلغ مِن الصُّعوبةِ ما بَلَغ فإنَّ التَّيسيرَ في آخِرِه ملازِمٌ له[١]. ففَرَجُ اللهِ عزَّ وجلَّ يأتي مع شِدَّةِ الكَرْبِ؛ فكُلَّما اشتدَّ الكَرْبُ فاعلَمْ أنَّه دنا الفَرَجُ، وقد جَعَلَ سُبحانَه مقابِلَ العُسْرِ الواحِدِ يُسرَين[٢].

١١- قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، ومِن لطائفِ أسرارِ اقترانِ الفَرَجِ بالكَرْبِ، واليُسْرِ بالعُسْرِ: أنَّ الكَرْبَ إذا اشتدَّ وعَظُمَ وتناهى حَصَلَ للعبدِ الإياسُ مِن كَشْفِه مِن جهةِ المخلوقينَ، وتَعَلَّقَ قلْبُه باللهِ وَحْدَه، وهذا هو حقيقةُ التَّوكُّلِ على اللهِ تعالى، وهو مِن أعظَمِ الأسبابِ الَّتي تُطْلَبُ بها الحوائجُ؛ فإنَّ اللهَ يَكفي مَن توكَّلَ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣][٣]، وأيضًا فإنَّ المؤمنَ إذا استبطأَ الفَرَجَ، وأَيِسَ منه بعْدَ كثرةِ دُعائِه وتضَرُّعِه، ولم يَظْهَرْ عليه أثَرُ الإجابةِ؛ رَجَعَ إلى نفْسِه باللَّائمةِ، وقال لها: إنَّما أُتِيتُ مِن قِبَلِكِ، ولو كان فيكِ خيرٌ لَأُجِبْتُ، وهذا اللَّومُ أحَبُّ إلى اللهِ مِن كثيرٍ مِن الطَّاعاتِ؛ فإنَّه يُوجِبُ انكسارَ العبدِ لِمَولاه، واعترافَه له بأنَّه أهلٌ لِمَا نَزَلَ مِن البلاءِ، وأنَّه ليس بأهلٍ لإجابةِ الدُّعاءِ؛ فلذلك تُسْرِعُ إليه حينَئذٍ إجابةُ الدُّعاءِ، وتفريجُ الكُرَبِ؛ فإنَّه تعالى عندَ المُنكَسِرةِ قُلوبُهم مِن أجْلِه[٤].

١٢- قيل: إنَّ معنى قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾: إذا فرَغْتَ مِنَ الصَّلاةِ وأكمَلْتَها فانصَبْ في الدُّعاءِ، وإلى رَبِّكَ فارغَبْ في سؤالِ مَطالبِك، واستدَلَّ مَن

---

= والقاعِدةُ: أنَّ النَّكِرةَ إذا تكَرَّرَت دَلَّت على التَّعَدُّدِ، بخِلافِ المَعرِفةِ. يُنظر: ((قواعد التفسير)) للسبت (٢/ ٧١١).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الأنعام)) (ص: ١٨١).

(٣) يُنظر: ((جامع العلوم والحكم)) لابن رجب (١/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١/ ٤٩٤).

قال بهذا القَولِ على مَشروعيَّةِ الدُّعاءِ والذِّكرِ عَقِبَ الصَّلَواتِ المكتوباتِ[١].

١٣- قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ * وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ جَمَعَ نوعَيْ دُعاءِ اللهِ؛ وذلك أنَّ دُعاءَ اللهِ المذكورَ في القُرآنِ نوعانِ: دُعاءُ عبادةٍ، ودُعاءُ مسألةٍ ورَغبةٍ[٢].

١٤- الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَٱنصَبْ﴾ وقولِه: ﴿فَٱرْغَب﴾ رابطةٌ للفعلِ؛ لأنَّ تَقديمَ المعمولِ يَتضمَّنُ معْنى الاشتِراطِ والتَّقييدِ؛ فإنَّ تَقديمَ المعمولِ لَمَّا أفادَ الاختصاصَ نَشَأَ منه معْنى الاشتراطِ، وهو كَثيرٌ في الكلامِ؛ قال تعالَى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ [الزمر: ٦٦]، وقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: ٣- ٥]، وفي تَقديمِ المجرورِ قال تعالَى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، بلْ قد يُعامَلُ مُعامَلةَ الشَّرطِ في الإعرابِ بجَزْمِ الفِعلَينِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ فيه إسنادُ الفِعلِ إلى ضَميرِ العظَمةِ ﴿نَشْرَحْ﴾؛ للإيذانِ بعَظَمتِه، وجَلالةِ قَدْرِه[٤].

- وفي قولِه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استُفهِمَ عن انتِفاءِ الشَّرحِ على وَجْهِ الإنكارِ؛ مُبالَغةً في إثباتِه، وللإيذانِ بأنَّ ثُبوتَه مِنَ الظُّهورِ بحيثُ لا يَقدِرُ أحدٌ على أنْ يُجيبَ عنه بغيرِ (بَلَى)؛ فالهمزةُ في ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ للإنكارِ، والإنكارُ نفْيٌ، والنَّفيُ إذا دَخَل على النَّفيِ عاد إثباتًا، فأفاد إثباتَ الشَّرحِ وإيجابَه، فكأنَّه قِيل: شَرَحْنا لك صَدْرَك؛ ولذلك عُطِفَ عليه (وَضَعْنا)

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٤٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٨٨).

اعتبارًا للمعْنى[١].

- وقيل: هو استِفهامٌ تَقريريٌّ على النَّفيِ، والمقصودُ التَّقريرُ على إثباتِ المنفيِّ. وهذا التَّقريرُ مَقصودٌ به التَّذكيرُ مِن أجْلِ أنْ يُراعِيَ هذه المِنَّةَ عندَما يُخالِجُه ضِيقُ صَدْرٍ ممَّا يَلقاهُ مِن أذَى قومٍ يُريدُ صَلاحَهم، وإنقاذَهُم مِن النارِ، ورَفْعَ شَأنِهم بيْن الأُمَمِ؛ ليَدومَ على دَعوتِه العَظيمةِ نَشيطًا، غيرَ ذي أسَفٍ ولا كَمَدٍ[٢].

- والصَّدرُ مُرادٌ به الإحساسُ الباطنيُّ الجامعُ لمعْنى العقْلِ والإدراكِ. وشَرْحُ صَدرِه كِنايةٌ عن الإنعامِ عليه بكلِّ ما تَطمَحُ إليه نفْسُه الزَّكيَّةُ مِن الكَمالاتِ، وإعلامِه برِضا اللهِ عنه، وبِشارتِه بما سيَحصُلُ للدِّينِ الَّذي جاء به مِن النَّصرِ[٣].

- واللَّامُ في قولِه: ﴿لَكَ﴾ لامُ التَّعليلِ، وهو يُفيدُ تَكريمًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ فَعَلَ ذلك لأجْلِه[٤].

- وفي ذِكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكَ﴾ قبْلَ ذِكرِ المشروحِ سُلوكُ طَريقةِ الإبهامِ للتَّشويقِ؛ فإنَّه لَمَّا ذُكِرَ فِعلُ ﴿نَشْرَحْ﴾ عَلِمَ السَّامعُ أنَّ ثَمَّ مَشروحًا، فلمَّا وَقَعَ قولُه: ﴿لَكَ﴾ قَوِيَ الإبهامُ فازدادَ التَّشويقُ؛ لأنَّ ﴿لَكَ﴾ يُفيدُ معْنى: شَيئًا لأجْلِك، فلمَّا وَقَعَ بعْدَه قولُه: ﴿صَدْرَكَ﴾ تَعيَّنَ المشروحُ المُترقَّبُ، فتَمكَّنَ في الذِّهنِ كَمالَ تَمكُّنٍ، وللإيذانِ مِن أوَّلِ الأمرِ بأنَّ الشَّرحَ مِن مَنافِعِه عليه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٤٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٠٩).

الصَّلاةُ والسَّلامُ ومَصالِحِه، مُسارَعةً إلى إدخالِ المَسَرَّةِ في قلْبِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وكذا الكلامُ في ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ﴾ [الشرح: ٢]، ﴿لَكَ ذِكۡرَكَ﴾[(١)] [الشرح: ٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ۞ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾

- قولُه: ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ ﴿عَنكَ﴾ مُتعلِّقٌ بـ(وَضَعْنَا)، وتَقديمُه على المفعولِ الصَّريحِ مع أنَّ حقَّه التَّأخُّرُ عنه؛ لأنَّ القصْدَ إلى تَعجيلِ المَسرَّةِ، والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ؛ ليَتمكَّنَ عندَ وَقتِ وُرودِه فضْلَ تَمكُّنٍ، ولِما أنَّ في وَصْفِه نَوعَ طُولٍ، فتَأخيرُ الجارِّ والمجرورِ عنه مُخِلٌّ بتَجاوُبِ أطرافِ النَّظْمِ الكريمِ[(٢)].

- وإنَّما لم يُذكَرْ مع ﴿وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ﴾ لَفظُ (لك) بأنْ يُقالَ: (ووَضَعْنا لك وِزرَك)؛ للاستِغناءِ بقولِه: ﴿عَنكَ﴾؛ فإنَّه في إفادةِ الإبهامِ ثمَّ التَّفصيلِ مُساوٍ لكَلمةِ (لك)، وهي في إفادةِ العِنايةِ به تُساوي كَلمةَ (لك)؛ لأنَّ فِعلَ الوضْعِ المُعدَّى إلى الوِزرِ يدُلُّ على أنَّ الوضْعَ عنه، فكانتْ زِيادةُ ﴿عَنكَ﴾ إطنابًا يُشيرُ إلى أنَّ ذلك عِنايةٌ به نَظيرَ قولِه: ﴿لَكَ﴾ الَّذي قبْلَه، فحَصَلَ بذِكرِ ﴿عَنكَ﴾ إيفاءٌ إلى تَعديةِ فِعلِ (وَضَعْنَا)، مع الإيفاءِ بحقِّ الإبهامِ ثمَّ البَيانِ[(٣)].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ﴾ تَعديةُ فِعلِ ﴿أَنقَضَ﴾ إلى الظَّهرِ تَبَعٌ لتَشبيهِ المَشَقَّةِ بالحِمْلِ؛ فالتَّركيبُ تَمثيلٌ لمُتجَشِّمِ المَشاقِّ الشَّديدةِ بالحَمولةِ المُثقَلةِ بالأحمالِ تَثقيلًا شَديدًا حتَّى يُسمَعَ لعِظامِ ظَهرِها فَرقعةٌ وصَريرٌ،

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٠، ٧٧١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٩، ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٨٨).

(٣) ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٢، ٤١٣).

وهو تَمثيلٌ بَديعٌ؛ لأنَّه تَشبيهٌ مُركَّبٌ قابلٌ لتَفريقِ التَّشبيهِ على أجزائِه، ووَصْفُ الوِزرِ بهذا الوصْفِ تَكميلٌ للتَّمثيلِ بأنَّه وِزرٌ عَظيمٌ(١).

- وعطفُ ﴿وَوَضَعْنَا﴾ ﴿وَرَفَعْنَا﴾ بصِيغةِ المُضِيِّ على فِعلِ ﴿نَشْرَحْ﴾ بصِيغةِ المضارِعِ؛ لأنَّ (لَمْ) قَلَبَت زمَنَ الحالِ إلى المُضيِّ، فعُطِفَ عليه الفِعلانِ بصِيغةِ المُضيِّ؛ لأنَّهما داخِلانِ في حيِّزِ التَّقريرِ، فلمَّا لم يَقترِنْ بهما حرْفُ (لَمْ) صُيِّرَ بهما إلى ما تُفيدُه (لَمْ) مِن معْنى المُضيِّ(٢).

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ في ذِكرِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَكَ﴾ قبْلَ ذِكرِ الشَّيءِ المرفوعِ سُلوكُ طَريقةِ الإبهامِ للتَّشويقِ؛ فإنَّه لَمَّا ذُكِرَ فِعلُ (رَفَعَ) عَلِمَ السَّامعُ أنَّ ثَمَّ شيئًا مَرفوعًا، فلمَّا وَقَعَ قولُه: ﴿لَكَ﴾ قَوِيَ الإبهامُ فازدادَ التَّشويقُ؛ لأنَّ ﴿لَكَ﴾ يُفيدُ معْنى شَيئًا لأجْلِك، فلمَّا وقَعَ بعْدَه قولُه: ﴿ذِكْرَكَ﴾ تعيَّنَ الشَّيءُ المرفوعُ المُترقَّبُ، فتَمكَّنَ في الذِّهنِ كَمالَ تَمكُّنٍ، وفي تَقديمِه أيضًا تَعجيلٌ للمَسرَّةِ(٣).

- ورفْعُ الذِّكرِ مُعبَّرٌ به عن إلهامِ النَّاسِ لأنْ يَذكُروه بخَيرٍ، وذلك بإيجادِ أسبابِ تلك السُّمعةِ حتَّى يَتحدَّثَ بها النَّاسُ، فعُبِّرَ بالرَّفعِ عن حُسنِ الذِّكرِ؛ لأنَّ الرَّفعَ جَعْلُ الشَّيءِ عاليًا لا تَنالُه جَميعُ الأيْدي ولا تَدوسُه الأرجُلُ، فقد فَطَرَ اللهُ رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على مَكارمَ يَعِزُّ وُجودُ نَوعِها، ولم يَبلُغْ أحدٌ شَأْوَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٠٩، ٤١٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٦).

ما بَلَغَه منها، حتَّى لُقِّبَ في قَومِه بالأمينِ، ومِن عَظيمِ رفْعِ ذِكْرِه أنَّ اسمَه مُقترِنٌ باسمِ اللهِ تعالَى في كَلمةِ الإسلامِ، وهي كَلمةُ الشَّهادةِ(١).

٤- قولُه تعالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ذَكَّرَ الله نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ما أنْعَمَ به عليه مِن جَلائلِ النِّعَمِ، ثمَّ قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾، كأنَّه قال: خَوَّلْناك ما خوَّلْناك، فلا تَيْأَسْ مِن فضْلِ اللهِ؛ فإنَّ مع العُسرِ الَّذي أنتم فيه يُسرًا، فهو تَقريرٌ لِما قبْلَه، ووَعْدٌ كريمٌ بتَيسيرِ كُلِّ عسيرٍ له عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ وللمؤمنينَ(٢).

- والفاءُ في ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ فَصيحةٌ؛ تُفصِحُ عن كَلامٍ مُقدَّرٍ يدُلُّ عليه الاستفهامُ التَّقريريُّ هنا، أي: إذا علِمْتَ هذا وتَقرَّرْ، فاعْلَمْ أنَّ اليُسرَ مُصاحبٌ للعُسرِ(٣).

- وحرْفُ (إنَّ) للاهتِمامِ بالخبَرِ، وإنَّما لم يُستَغْنَ بها عن الفاءِ -فـ (إنَّ) تُغْني غَناءَ فاءِ التَّسبُّبِ-؛ لأنَّ الفاءَ هنا أُريدَ بها الفَصيحةُ مع التَّسبُّبِ، فلو اقتُصِرَ على حرْفِ (إنَّ) لَفاتَ معْنى الفَصيحةِ(٤).

- ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مُعترِضةً بيْن جُملةِ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] وجُملةِ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ [الشرح: ٧]؛ تَنبيهًا على أنَّ اللهَ تعالى لَطيفٌ بعِبادِه، فقدَّرَ ألَّا يَخلُوَ عُسْرٌ مِن مُخالَطةِ يُسْرٍ، وأنَّه لولا ذلك لَهَلَكَ النَّاسُ؛ قال تعالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤١٤).

دَآبَّةٍ﴾[(١)] [النحل: ٦١].

- ولَمَّا كان اليُسرُ نَقيضَ العُسرِ، كانت مُصاحَبةُ اليُسرِ للعُسرِ مُقتضيةً نقْضَ تَأثيرِ العُسرِ ومُبطِلةً لعَمَلِه، فهو كِنايةٌ رَمزيَّةٌ[(٢)] عن إدراكِ العِنايةِ الإلهيَّةِ به فيما سَبَقَ، وتَعريضٌ بالوعْدِ باستِمرارِ ذلك في كلِّ أحوالِه. وسِياقُ الكلامِ وَعْدٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنْ يُيسِّرَ اللهُ له المَصاعبَ كلَّما عَرَضَت له، فاليُسرُ لا يَتخلَّفُ عن اللَّحاقِ بتلك المَصاعبِ، وذلك مِن خَصائصِ كَلمةِ (مع) الدَّالَّةِ على المُصاحَبةِ[(٣)].

- قولُه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ليس تَكرارًا؛ فالعسرُ واحدٌ، واليسرُ اثنانِ؛ بدَليلِ تَنكيرِهما. وقيل: كُرِّرَ ذلك للتَّأكيدِ؛ لتَعزيزِ معْناهُ في النُّفوسِ، وتَمكينِه في القلوبِ، وكما يُكرَّرُ المفرَدُ في قَولِك: جاءني زَيدٌ زيدٌ، ولاطِّرادِ هذا الوعْدِ وتَعميمِه؛ لأنَّه خبَرٌ عَجيبٌ، فاليُسرانِ مُتَّحدانِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٤).

(٢) تَنقسِمُ الكِنايةُ باعتبارِ الوسائطِ (اللَّوازمِ) والسِّياقِ إلى أربعةِ أقسامٍ: تعريض، وتلويح، ورمْز، وإيماء؛ فالتَّعريضُ اصطِلاحًا: هو أنْ يُطلَقَ الكلامُ ويُشارَ به إلى معًنًى آخَرَ يُفهَمُ مِن السِّياقِ. والتَّلويحُ اصطِلاحًا: هو الَّذي كثُرَتْ وسائطُه بلا تَعريضٍ، ويُنتقَلُ فيه إلى الملزومِ بواسِطةِ لَوازِمَ؛ نحو قولِ المرأةِ في حديثِ أمِّ زَرْعٍ: (زَوجي رفيعُ العِمادِ، طويلُ النِّجادِ، عظيمُ الرَّمادِ)، فقولُها: (عظيمُ الرَّمادِ) يدُلُّ على كثرةِ الجَمرِ، وهي على كثرةِ إحراقِ الحطَبِ، وهي على كثرةِ الطَّبائخِ، وهي على كثرةِ الأكَلةِ، وهي على كثرةِ الضِّيفانِ، وهي على أنَّه مِضْيافٌ؛ فانتقَل الفِكرُ إلى جملةِ وسائطَ. والرَّمزُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ خفاءٍ في اللُّزومِ بلا تعريضٍ نحو: فلانٌ عريضُ القفا، أو عريضُ الوسادةِ؛ كناية عن بلادتِه وبلاهتِه. والإيماءُ أو الإشارةُ اصطلاحًا: هو الذي قلَّت وسائطُه، معَ وضوحِ اللُّزومِ، بلا تعريضٍ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٤٠٢ وما بعدها)، ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (١٤٥ - ١٥٥)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٢/ ٣٠٠)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ٢٨٦ - ٢٩٠).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤١٣).

كالعُسرين[١]. ومِن المُقرَّرِ أنَّ المقصودَ مِن تَأكيدِ الجُملةِ في مِثلِه، هو تَأكيدُ الحُكْمِ الَّذي تَضمَّنَه الخبَرُ، ولا شكَّ أنَّ الحُكمَ المُستفادَ مِن هذه الجُملةِ هو ثُبوتُ الْتِحاقِ اليُسرِ بالعُسرِ عندَ حُصولِه، فكان التَّأكيدُ مُفيدًا تَرجيحَ أثَرِ اليُسرِ على أثَرِ العُسرِ[٢].

- والتَّنكيرُ في اليُسرِ في الموضعينِ للتَّفخيمِ والتَّعظيمِ، كأنَّه قِيل: إنَّ مع العُسرِ يُسرًا عَظيمًا يَغلِبُ العُسرَ[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْعُسْرِ﴾ قيل: إنَّه تَعريفُ العهْدِ، أي: العُسرِ الَّذي عَهِدْتَه وعَلِمْتَه، وهو مِن قَبيلِ ما يُسمِّيه نُحاةُ الكوفةِ بأنَّ (أَلْ) فيه عِوَضٌ عن المضافِ إليه، أي: فإنَّ مع عُسْرِك يُسرًا، فتكون السُّورةُ كلُّها مَقصورةً على بَيانِ كَرامةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عندَ ربِّه تعالَى، وَعَدَ اللهُ تعالَى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ جَعَلَ الأُمورَ العَسِيرةَ عليه يَسِيرةً له، وهو ما سَبَقَ وَعْدُه له بقولِه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٨]. ويجوزُ أنْ يكونَ هذا وعْدًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولأُمَّتِه؛ لأنَّ ما يَعرِضُ له مِن عُسرٍ إنَّما يَعرِضُ له في شُؤونِ دَعوتِه للدِّينِ ولصالحِ المسلمينَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٦٤)، ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧١، ٧٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٣، ٤١٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾

- قولُه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ﴾ تَفريعٌ على ما تقرَّر مِن التَّذكيرِ باللُّطْفِ والعنايةِ ووعْدِه بتيسيرِ ما هو عَسِيرٌ عليه في طاعَتِه الَّتي أعظمُها تبليغُ الرِّسالَةِ دُونَ مَلَلٍ ولا ضَجَرٍ[١].

- والفاءُ في ﴿فَإِذَا﴾ عاطِفةٌ على مُقدَّرٍ يَستحِقُّه المقامُ. ويجوزُ جعْلُها استئنافيَّةً كأنَّها جَوابٌ لسُؤالٍ نَشَأَ، وهو: ماذا بعْدَ الشُّكرِ والعبادةِ والاجتهادِ فيهما[٢]؟

- ولم يُذكَرْ هنا مُتعلَّقُ ﴿فَرَغْتَ﴾، وسِياقُ الكلامِ يَقْتضي أنَّه لازمُ أعمالٍ يَعمَلُها الرَّسولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كما أنَّ مَساقَ السُّورةِ في تَيسيرِ مَصاعبِ الدَّعوةِ وما يحُفُّ بها، فالمعْنى: إذا أتممْتَ عَمَلًا مِن مَهامِّ الأعمالِ، فأقبِلْ على عمَلٍ آخَرَ، بحيث يَعمُرُ أوقاتَه كلَّها بالأعمالِ العَظيمةِ -وذلك على قولٍ-؛ فالمَقصودُ بالأمرِ هو ﴿فَٱنصَبْ﴾، وأمَّا قولُه: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ فتَمهيدٌ وإفادةٌ لإيلاءِ العمَلِ بعمَلٍ آخَرَ في تَقريرِ الدِّينِ ونفْعِ الأُمَّةِ، فحُذِفَ المُتعلَّقُ هنا لقصْدِ العُموم، وهو عُمومٌ عُرفيٌّ لنَوعٍ مِن الأعمالِ الَّتي دلَّ عليها السِّياقُ؛ ليَشملَ كلَّ مُتعلَّقٍ عَمِلَه ممَّا هو مُهِمٌّ[٣].

- وتَقديمُ ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ﴾ على ﴿فَٱنصَبْ﴾؛ للاهتمامِ بتَعليقِ العمَلِ بوقْتِ الفراغِ مِن غيرِه لتَتعاقَبَ الأعمالُ[٤].

- وهذه الآيةُ مِن جَوامعِ الكلِمِ القرآنيَّةِ؛ لِما احتوَت عليه مِن كَثرةِ المعاني[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٦).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٦، ٤١٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤١٧).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- قولُه: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ عُطِفَ على تَفريعِ الأمرِ بالشُّكرِ على النِّعَمِ، أَمْرٌ بطلَبِ استِمرارِ نِعَمِ اللهِ تعالَى عليه، كما قال تعالَى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾[1] [إبراهيم: ٧].

- وتَقديمُ (إلَى رَبِّكَ) على ﴿فَٱرۡغَب﴾؛ لإفادةِ الاختصاصِ، أي: إليه لا إلى غَيرِه تكونُ رَغبتُك، ولا تَسأَلْ إلَّا فضْلَه مُتوكِّلًا عليه؛ فإنَّ صِفةَ الرِّسالةِ أعظَمُ صِفاتِ الخلْقِ، فلا يَليقُ بصاحِبِها أنْ يَرغَبَ إلى غيرِ اللهِ تعالَى[2].

- وحُذِفَ مَفعولُ (ارْغَبْ)؛ ليَعُمَّ كلَّ ما يَرغَبُه النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهلْ يَرغَبُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا في الكَمالِ النَّفسانيِّ وانتشارِ الدِّينِ ونصْرِ المسلمينَ[3]؟!

- وتَعديةُ فِعلِ ﴿فَٱرۡغَب﴾ هنا بحرْفِ (إلى)؛ لِتَضمينِه معْنى الإقبالِ والتَّوجُّهِ، تَشبيهًا بسَيرِ السَّائرِ إلى مَن عِندَه حاجتُه، كما قال تعالَى عن إبراهيمَ عليه السَّلامُ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾[4] [الصافات: ٩٩].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٨).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ التِّينِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ التِّينِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (التِّينِ)، وسُمِّيت (والتِّينِ) بإثباتِ الواوِ[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ التِّينِ مَكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

إثباتُ النُّبُوَّةِ والتَّوحيدِ والمَعادِ[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- القَسَمُ على أنَّ اللهَ خَلَق الإنسانَ في أحسَنِ تقويمٍ.

٢- انحِطاطُ الإنسانِ إلى أسفَلِ سافِلينَ بالكُفرِ باللهِ تعالى.

٣- إكرامُ المؤمِنينَ بأعظَمِ المَثوباتِ.

٤- بيانُ أنَّ اللهَ أحكَمُ الحاكِمينَ.

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لافتتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ بالتِّينِ في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤١٩).

(٢) وقيل: مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٠٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٣).

(٣) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: البِقاعيُّ. يُنظر: ((مصاعد النظر)) (٣/ ٢٠٩).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٤).

## الآيات (١-٨)

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١ وَطُورِ سِينِينَ ٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾: أي: طُورِ سَيناءَ؛ والطُّورُ: اسمُ جبلٍ مخصوصٍ، وسِينِينُ لغةٌ في سيناءَ، وهو اسمٌ للمَكانِ الَّذي به الجَبَلُ الَّذي كلَّم اللهُ عليه موسى عليه السَّلامُ، وسُمِّيَ بذلك؛ لحُسْنِه أو لبَرَكَتِه أو لنَباتِه، وأصلُ (طور): يدُلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ[١].

﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾: أي: أعدَلِ قامةٍ وأحسَنِ صُورةٍ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على انتِصابٍ[٢].

﴿مَمۡنُونٖ﴾: أي: مَقطوعٍ مَنقوصٍ، وأصلُ (منن) هنا: يدُلُّ على قَطْعٍ[٣].

﴿بِٱلدِّينِ﴾: أي: بالجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازَيْتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٢، ٢٨١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٥٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٣٩)، ((تذكرة الاريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥١٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣١٨).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٧٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٢٠).

(٤) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٨)، ((المفردات)) =

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾

قَولُه تعالى: ﴿أَسْفَلَ﴾ مَفعولٌ ثانٍ لِـ «رَدَّ»، فهو بمعنى التَّصييرِ الَّذي ينصِبُ مفعولَين، وجُوِّزَ أن يكونَ المرادُ بالرَّدِّ: تغييرَ الحالِ، فهو متعَدٍّ لمفعولٍ واحِدٍ، و﴿أَسْفَلَ﴾: حالٌ مِن المفعولِ، أي: ردَدْناه حالَ كَونِه أسفَلَ.

وقَولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسمٌ مَوصولٌ مبنيٌّ في محَلِّ نَصبٍ على الاستثناءِ المتَّصِلِ مِن ضَميرِ ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾ العائِدِ على الإنسانِ؛ فإنَّه في معنى الجَمعِ، أي: ردَدْنا الإنسانَ أسفَلَ سافِلينَ مِنَ النَّارِ إلَّا الَّذين آمَنوا ... فالمؤمِنونَ لا يُرَدُّونَ أسفَلَ سافِلينَ إلى النَّارِ يومَ القيامةِ، ولا تَقبُحُ صُوَرُهم، بل يَزدادونَ بهجةً إلى بهجتِهم، وحُسْنًا إلى حُسْنِهم. وقَولُه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾: استئنافٌ بيانيٌّ مُقَرِّرٌ لِما يُفيدُه الاستثناءُ مِن خُروجِهم عن حُكمِ الرَّدِّ، ومُبَيِّنٌ لكيفيَّةِ حالِهم.

ومَن قال: إنَّ المرادَ: رَدُّه إلى الهَرَمِ والخَرَفِ وضَعفِ القُوى، فالاستثناءُ عليه مُنقَطِعٌ، أي: لكِنِ الَّذين آمَنوا...، ووَجْهُه: أنَّ الهَرَمَ والرَّدَّ إلى أرذَلِ العُمُرِ يُصابُ به المؤمِنُ كما يُصابُ به الكافِرُ، فلا يكونُ لاستثناءِ المؤمنينَ على وَجهِ الاتِّصالِ مَعنًى، وعلى ذلك فقَولُه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ في محلِّ رَفعٍ خَبَرٌ لـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والفاءُ رابطةٌ في الخَبَرِ؛ لتضَمُّنِ المبتدأِ المَوصولِ معنى الشَّرطِ، والكلامُ على معنى الاستدراكِ، كأنَّه قيل: لكِنِ الَّذين آمَنوا... فلَهم أجرٌ[1].

---

= للراغب (ص: ٣٢٣).

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٦٠)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري =

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالتِّينِ والزَّيتونِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى الأرضِ المقَدَّسةِ الَّتي يَنبُتُ فيها ذلك، ومنها بُعِثَ عيسى عليه السَّلامُ، ومُقسِمًا بجَبَلِ سَيناءَ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وبالبَلَدِ الآمِنِ؛ مكَّةَ المكَرَّمةِ -شَرَّفَها اللهُ تعالى- أقسَمَ أنَّه خلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ صُورةٍ، وأعدَلِ هَيئةٍ، مُنتَصِبَ القامةِ، سليمَ الفِطرةِ، ثمَّ هو يرُدُّه -سُبحانَه- إلى نارِ جهنَّمَ إنْ كفَر، إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ؛ فلَهم أجرٌ كامِلٌ غيرُ مَنقوصٍ ولا مَقطوعٍ.

ثمَّ وبَّخ اللهُ تعالى المشرِكينَ على التَّكذيبِ بالحسابِ والجزاءِ بعدَ ظُهورِ الدَّليلِ عليه، فقال: فما الَّذي يَجعلُك تُكذِّبُ -أيُّها الإنسانُ- بحِسابِ النَّاسِ على أعمالِهم بعدَ مَوتِهم؟! أليس اللهُ بأعدَلِ العادِلينَ في حُكْمِه بيْن عِبادِه؟!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالتِّينِ، وأقسِمُ بالزَّيتونِ، وفي ذلك إشارةٌ إلى الأرضِ المقَدَّسةِ الَّتي يَنبُتُ فيها ذلك، ومنها بُعِثَ عيسى عليه السَّلامُ[1].

---

= (٢/ ١٢٩٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٥٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٣٩٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٥١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٣).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: التِّينُ الَّذي يؤكَلُ، والزَّيتونُ الَّذي يُعصَرُ منه الزَّيتُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، ونسَبه الواحديُّ إلى أكثَرِ المفَسِّرينَ. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وقيل: المرادُ: القَسَمُ بالأرضِ المقَدَّسةِ الَّتي يَنبُتُ فيها ذلك، ومنها بُعِثَ عيسى عليه السَّلامُ، =

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾.

أي: وأُقسِمُ بجَبَلِ سَيناءَ الَّذي كَلَّم اللهُ عليه موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[(١)].

كما قال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾ [مريم: ٥٢].

﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾.

أي: وأُقسِمُ بهذا البَلَدِ الآمِنِ، وهو مكَّةُ الَّتي يأمَنُ فيها مَن يَحُلُّ بها مِن البَشَرِ وغَيرِهم[(٢)].

---

= وأُنزِلَ عليه فيها الإنجيلُ. ومِمَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ تيميَّةَ، وابنُ القيِّم. يُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٣).

قال ابن تيميَّةَ: (التِّينُ والزَّيْتونُ: هي الأرضُ الَّتي بُعِثَ فيها المسيحُ، وكثيرًا ما تُسمَّى الأرضُ بما يَنْبُتُ فيها، فيُقالُ: فلانٌ خَرَجَ إلى الكَرْمِ، وإلى الزَّيتونِ، وإلى الرُّمَّانِ، ونحوِ ذلك، ويُرادُ الأرضُ الَّتي فيها ذلك؛ فإنَّ الأرضَ تتناولُ ذَلك؛ فعَبَّرَ عنها ببَعضِها). ((منهاج السنة النبوية)) (٧/ ٢٣٠).

وقال ابنُ جُزَي: (والأظهَرُ أنَّهما الموضِعانِ مِنَ الشَّامِ، وهما اللَّذانِ كان فيهما مَولِدُ عيسى ومَسكَنُه؛ وذلك أنَّ اللهَ ذَكَر بعْدَ هذا الطُّورَ الَّذي كَلَّم عليه موسى، والبَلَدَ الَّذي بُعِثَ منه محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٤).

وذَكَر الشَّوكانيُّ أنَّ هذا القَولَ ونَحوَه فيه عُدولٌ عن المعنى الحقيقيِّ في اللُّغةِ العرَبيَّةِ، وليس فيه نَقلٌ عن الشَّارِعِ. يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٦).

وقال السعدي: (التِّينُ: هو التِّينُ المعروفُ، وكذلك الزَّيتونُ، أقسَمَ بهاتَينِ الشَّجَرتينِ؛ لكثرةِ مَنافِعِ شَجَرِهما وثَمَرِهما، ولأنَّ سُلطانَهما في أرضِ الشَّامِ؛ محَلِّ نُبوَّةِ عيسى ابنِ مريمَ عليه السَّلامُ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٨)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢١).

قال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك بالصَّوابِ: قولُ مَن قال: طُورُ سِينِينَ: جَبَلٌ معروفٌ؛ لأنَّ الطُّورَ هو الجبلُ ذو النَّباتِ، فإضافَتُه إلى سِينينَ تعريفٌ له). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٨).

وقال البِقاعي: (سِينينُ وسَيناءُ: اسمٌ للمَوضِعِ الَّذي هذا الجَبَلُ به). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٠٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٣)، ((الجواب =

كما قال تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾.

أي: لقد خلَقْنا الإنسانَ في أحسَنِ صُورةٍ وأعدَلِ هَيئةٍ، مُنتَصِبَ القامةِ، مُتناسِبَ الأعضاءِ، على الفِطرةِ السَّليمةِ(١).

---

= الصحيح)) لابن تيمية (٥/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٣٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

قال ابنُ عطيَّة: (البَلَدُ الأمينُ: مكَّةُ، بلا خِلافٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥١٠-٥١٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٣).

ومِمَّن قال في الجُملةِ بهذا المعنى المذكورِ: ابنُ جرير، والواحديُّ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال ابنُ جريرٍ: (قولُه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ وهذا جوابُ القَسَمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥١٠).

وقال القرطبي: (﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ وهو اعتِدالُه واستِواءُ شَبابِه، كذا قال عامَّةُ المفسِّرينَ، وهو أحسَنُ ما يكونُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٤).

وقال ابنُ عطيَّةَ بعدَ أن ذكر اختِلافَ النَّاسِ في تقويمِ الإنسانِ ما هو؟ وأنَّ مِنهم مَن قال: هو حُسنُ صُورتِه وحَواسِّه، ونسَبه إلى النَّخَعيِّ ومجاهِدٍ وقَتادةَ، وأنَّ منهم مَن قال: هو انتصابُ قامتِه، ومنهم مَن قال: هو عقلُه وإدراكُه اللَّذانِ زَيَّناه بالتَّمييزِ، قال: (والصَّوابُ أنَّ جميعَ هذا هو حُسنُ التَّقويمِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٠).

قال ابن عاشور: (خَلَق الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ، أي: خَلَقَه على الفِطْرةِ السَّليمةِ، مُدْرِكًا لأدِلَّةِ وُجودِ الخالِقِ ووَحدانيَّتِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٢).

وقال أيضًا: (هذا يَقتضي أنَّه تقويمٌ خاصٌّ بالإنسانِ، لا يُشارِكُه فيه غيرُه مِن المخلوقاتِ، ويتَّضِحُ =

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾.

أي: ثمَّ ردَدْناه بعدَ موتِه إلى النَّارِ إنْ لم يُطِعِ اللَّهَ ويَتَّبِعِ الرُّسلَ[1].

---

= ذلك في تعديلِ القُوى الظَّاهرةِ والباطنةِ، بحيثُ لا تكونُ إحدى قُواه مُوقِعةً له فيما يُفسِدُه، ولا يَعوقُ بعضُ قُواه البعضَ الآخَرَ عن أداءِ وظيفتِه، فإنَّ غيرَه مِن جِنسِه كان دونَه في التَّقويمِ... فأفادتِ الآيةُ أنَّ اللهَ كَوَّن الإنسانَ تكوينًا ذاتيًّا مُتناسِبًا مع ما خُلِق له نَوعُه مِن الإعدادِ لِنظامِه وحضارتِه... فإنَّ العقلَ أشرَفُ ما خُصَّ به نَوعُ الإنسانِ مِن بيْنِ الأنواعِ. فالمَرْضيُّ عندَ الله هو تقويمُ إدراكِ الإنسانِ ونظَرِه العقليِّ الصَّحيحِ؛ لأنَّ ذلك هو الَّذي تَصدُرُ عنه أعمالُ الجسَدِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٤).

وقال ابنُ عثيمين: (أقسَمَ اللهُ أنَّه خَلَق الإنسانَ ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ في أحسَنِ هيئةٍ وخِلْقةٍ و﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ فِطرةً وقَصْدًا؛ لأنَّه لا يوجَدُ أحدٌ مِن المخلوقاتِ أحسَنُ مِن بني آدَمَ خِلقةً). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٣).

وقال ابن جُزَي: (﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّ حُسْنَ التَّقويمِ هو حُسنُ الصُّورةِ، وكمالُ العقلِ والشَّبابِ والقوَّةِ، و﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: الضَّعفُ والهَرَمُ والخَرَفُ، فهو كقولِه تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِ﴾ [يس: ٦٨]، وقولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗ﴾ [الروم: ٥٤]. وقولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بعدَ هذا غيرُ مُتَّصِلٍ بما قبْلَه، والاستثناءُ على هذا القولِ مُنقطِعٌ بمعنَى: «لكِنْ»؛ لأنَّه خارجٌ عن معنى الكلامِ الأوَّلِ.

والآخَرُ: أنَّ حُسْنَ التَّقويمِ: الفِطرةُ على الإيمانِ، و﴿أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: الكفرُ أو تشويهُ الصُّورةِ في النَّارِ. والاستثناءُ على هذا متَّصِلٌ؛ لأنَّ الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ لم يُرَدُّوا أسفَلَ سافِلينَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٤).

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥).

ومِمَّن قال في الجملةِ بهذا المعنى المذكورِ: البيضاويُّ، وابنُ القيِّم، وابنُ كثير، والقاسميُّ، =

= والسعديُّ والشنقيطيُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٩٩). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٧٩).

قال البيضاوي: (﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ بأنْ جعَلْناه مِن أهلِ النَّارِ، أو إلى أسفَلِ سافِلينَ وهو النَّارُ). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٣).

ومِمَّن اختار أنَّ المعنى: ثمَّ ردَدْناه إلى سِنِّ الهَرَمِ وأرذَلِ العُمُرِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ قُتَيبةَ، وابنُ جرير، والزجاجُ، والسمرقنديُّ، والثعلبي، والبغوي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٥١)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥١٣، ٥١٦)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٥٩٥)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٤٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٧).

وقال الزَّجَّاج: (﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴾ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وقيل: إلى الضَّلالِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [العصر: ٢، ٣]، وهو -واللهُ أعلَمُ- أنْ خُلِقَ الخَلقُ على الفِطرةِ، فمَن كفَرَ وضَلَّ فهو المردودُ إلى أسفَلِ السَّافِلينَ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٤٣).

وقال ابنُ عثيمين: (كلَّما ازدادت السِّنُّ في الإنسانِ تغيَّرَ إلى أردَأَ في القوَّةِ الجسَديَّةِ، وفي الهيئةِ الجسَديَّةِ، وفي نَضارةِ الوَجهِ وغيرِ ذلك، يُرَدُّ أسفَلَ سافِلينَ. وإذا قُلْنا: إنَّ أحسَنَ تقويم تَشملُ حتَّى الفِطرةَ الَّتي جَبَلَ اللهُ الخَلْقَ عليها، والعبادةَ الَّتي تترتَّبُ أو تَنبني على هذه الفِطرةِ؛ فإنَّ هذا إشارةٌ إلى أنَّ مِنَ النَّاسِ مَن تعودُ به حالُه -والعياذُ باللهِ- إلى أن يكونَ أسفَلَ سافِلينَ بعدَ أن كان في الأعلى والقِمَّةِ مِنَ الإيمانِ والعِلمِ. والآيةُ تَشملُ المعنيَينِ جميعًا). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٣).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ الإنسانَ أخَذَ يُغَيِّرُ ما فُطِرَ عليه مِن التَّقويمِ، وهو الإيمانُ بإلهٍ واحِدٍ، وما يَقتَضيه ذلك مِن تَقْواه ومُراقَبتِه؛ فصار أسفَلَ سافِلينَ، وهل أسفَلُ مِمَّن يَعتَقِدُ إلهيَّةَ الحِجارةِ والحيوانِ الأبكَمِ؛ مِن بَقَرٍ أو تماسيحَ أو ثعابينَ، أو مِن شَجَرِ السَّمُرِ، أو مَن يَحسَبُ الزَّمانَ إلهًا ويُسَمِّيه الدَّهرَ، أو مَن يَجحَدُ وُجودَ الصَّانِعِ وهو يُشاهِدُ مَصنوعاتِه ويُحِسُّ بوُجودِ نَفْسِه؟! قال تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]. فإنْ مِلتَ إلى جانِبِ الأخلاقِ رأيتَ الإنسانَ يَبلُغُ به انحِطاطُه إلى حضيضِ التَّسَفُّلِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٧، ٤٢٨).

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا حَكَم بذلك الرَّدِّ على جميعِ النَّوعِ إشارةً إلى كثرةِ المتَّصِفِ به منهم، وكان الصَّالحُ قليلًا جِدًّا؛ جعَلَه محَطَّ الاستثناءِ، فقال[1]:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ٦﴾.

أي: إلَّا الَّذين آمَنوا بما وَجَب عليهم الإيمانُ به، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ، فإنَّهم لا يُرَدُّون إلى النَّارِ؛ ولهم أجرٌ كامِلٌ غيرُ مَنقوصٍ، دائِمٌ غيرُ مَقطوعٍ[2].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٧٩، ٢٨٠)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٢٩).

وهذا القولُ المذكورُ بِناءً على أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى النَّارِ. وتقدَّم ذِكرُ القائلينَ به.

وعلى القولِ الثَّاني في قولِه: ﴿رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ -أي: أنَّ المرادَ به: ردَدْناه إلى سِنِّ الهَرَمِ وأرذَلِ العُمُرِ- فالمعنى: إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ وقْتَ صِحَّتِهم وشَبابِهم؛ فلَهم أجرٌ غيرُ مَنقوصٍ بَعْدَ هَرَمِهم؛ حيثُ يُعطَونَ ثوابَ الأعمالِ الَّتي كانوا يَعمَلونَها زمَنَ صِحَّتِهم وشَبابِهم. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٨).

وقال ابنُ القيِّم: (إن قالوا: إنَّ الَّذي يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ هم الكفَّارُ دونَ المؤمنينَ؛ كابَروا الحِسَّ، وإن قالوا: إنَّ مِن النَّوعَينِ مَن يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ؛ احتاجوا إلى التَّكلُّفِ لصَّحةِ الاستِثناءِ، فمِنهم مَن قدَّر ذلك بأنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ لا تَبطُلُ أعمالُهم إذا رُدُّوا إلى أرذَلِ العُمُرِ، بل تجري عليهم أعمالُهم الَّتي كانوا يَعمَلونها في الصِّحَّةِ، فهذا وإن كان حقًّا فإنَّ الاستثناءَ إنَّما وقَع مِن الرَّدِّ لا مِن الأجرِ والعمَلِ، ولَمَّا عَلِم أربابُ هذا القولِ ما فيه مِن التَّكلُّفِ خَصَّ بَعضُهم الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ بقُرَّاءِ القُرآنِ خاصَّةً، فقالوا: مَن قرأ القرآنَ لا يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ. وهذا ضعيفٌ مِن وجهَينِ؛ أحَدُهما: أنَّ الاستِثناءَ عامٌّ في المؤمِنينَ؛ قارِئهم وأُمِّيِّهم، الثَّاني: أنَّه لا دليلَ على ما ادَّعَوه، وهذا لا يُعلَمُ بالحِسِّ، ولا خَبَرَ يجِبُ التَّسليمُ له يَقتضيه. واللهُ أعلَمُ). ((التبيان =

كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤، ٢٥].

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧﴾.

أي: فما الَّذي يَجعلُكَ تُكذِّبُ -أيُّها الإنسانُ- بأنَّ النَّاسَ يُحاسَبونَ على

---

= في أقسام القرآن)) (ص: ٤٧، ٤٨).

وقال الشنقيطي: (قوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فعلى أحدِ التَّفسيرَينِ في الآيةِ: أنَّ الإنسانَ إذا رُدَّ أسفَلَ سافِلينَ إلى أرذَلِ العُمُرِ، وكان هَرِمًا لا يَعقِلُ، أنَّه يُرَدُّ إلى أسفلِ السَّافِلينَ، إلَّا الَّذين آمَنوا وعمِلوا الصَّالحاتِ فلَهم مِن الأجرِ ما كان يُكتَبُ لهم، هذا وجْهٌ في الآيةِ، ولكنَّ الوجهَ الصَّحيحَ فيها عندَ المفسِّرينَ: أنَّ معنى: ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: جعَلْناه إلى دَرَكاتِ النَّارِ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ وهو الجنَّةُ). ((العذب النمير)) للشنقيطي (٢/ ٥٩٩، ٦٠٠).

وقال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّ الَّذين آمَنوا بعْدَ أن رُدُّوا أسفَلَ سافِلينَ أيَّامَ الإشراكِ، صاروا بالإيمانِ إلى الفِطرةِ الَّتي فَطَر اللهُ الإنسانَ عليها، فراجَعوا أصْلَهم إلى أحسَنِ تقويمٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٩).

وقال القرطبي: (الاستثناءُ -على قَولِ مَن قال: ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: النَّار- متَّصِلٌ، ومَن قال: إنَّه الهَرَمُ، فهو منقَطِعٌ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٥).

قال الواحديُّ: (قولُه تعالى: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ذكَرَ المفسِّرونَ فيه قَولَينِ؛ أحدُهما: غيرُ مَنقوصٍ ولا مقطوعٍ. والآخَرُ: ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: لا يُمَنُّ به عليهم). ((البسيط)) (٢٤/ ١٥٧).

وقال ابن عثيمين: (قوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ﴾ أي: ثوابٌ ﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ غيرُ مَقطوعٍ، ولا مَمنونٍ به أيضًا، فكلمةُ ﴿مَمْنُونٍ﴾ صالحةٌ لمعنَى القَطعِ، وصالحةٌ لمعنى المِنَّةِ، فهُم لهم أجرٌ لا يَنقطِعُ، ولا يُمَنُّ عليهم به، يعني أنَّهم إذا استَوفَوا هذا الأجرَ لا يُمَنُّ عليهم فيُقالُ: أعطَيْناكم وفعَلْنا وفعَلْنا، وإن كانت المِنَّةُ لله عزَّ وجلَّ عليهم بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ والثَّوابِ، كلُّها مِنَّةٌ مِن الله، لكنْ لا يمنُّ عليهم به). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٣).

وتقدَّم في (٤٢/ ٥٤٠) الكلامُ عن المعنى الثَّاني لقولِه: ﴿مَمْنُونٍ﴾ وأنَّ مِن العلماءِ مَن أنكرَه. يُنظر: ((الرد على مَن قال بفناء الجنة والنار)) لابن تيميَّة (ص: ٨٤، ٨٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٣٦٢).

أعمالِهم، ويُجازَونَ بها بعدَ الحُجَجِ الَّتي بَيَّنَها اللهُ[(١)]؟!

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا صَحَّ أنَّ تارِكَ الظَّالِمِ بغيرِ انتِقامٍ، والمحسِنِ بلا إكرامٍ: ليس على مِنهاجِ

(١) يُنظر: ((تأويل مشكل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٦)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٤).

قال ابنُ عطية: (اختُلِف في المخاطَبِ بقولِه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ فقال قتادةُ والفرَّاءُ والأخفشُ: هو محمدٌ عليه السَّلامُ، قال الله له: فماذا الذي يُكذِّبُكَ فيما تخبرُ به مِن الجزاءِ والبعثِ -وهو الدِّينُ- بعدَ هذه العبرِ التي يُوجِبُ النَّظرُ فيها صحةَ ما قلتَ، ويحتمِلُ أنْ يكونَ «الدينُ» على هذا التأويلِ جميعُ دينِه وشرعِه، وقال جمهورٌ مِن المتأولينَ: المخاطَبُ الإنسانُ الكافرُ، أي: ما الذي يجعلُك كذَّابًا بالدِّينِ، تجعلُ له أندادًا، وتزعمُ أن لا بعثَ بعد هذه الدلائلِ، وقال منصورٌ: قلْتُ لمجاهدٍ: قولُه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ يريدُ به النبيَّ صلى الله عليه وسلم؟ قال معاذَ الله، يعني به الشَّاكَّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٠). ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٧٧).

وقال الواحدي: (وعامةُ المفسِّرينَ على أنَّ هذا خطابٌ للإنسانِ المكذِّبِ بالدِّينِ). ((البسيط)) (٢٤/ ١٥٩).

وقال السمعاني: (قولُه تعالَى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ المعنَى: فما يُكذِّبُكَ أيُّها الشَّاكُّ بيومِ الحسابِ بعدَ ما شاهدْتَ مِن قُدرَةِ الله تعالى ما شاهدْتَ، هذا هو القولُ المعروفُ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٥٤).

وقال ابن جرير: (أولَى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ قولُ مَنْ قالَ: معنَى «مَا» معنَى «مَنْ». ووجهُ تأويلِ الكلامِ إلى: فمَنْ يُكَذِّبُكَ يا محمَّدُ بعدَ الَّذي جاءَكَ مِنْ هذا البيانِ مِن الله بالدِّينِ؟ يعني: بطاعَةِ اللهِ، ومُجازاتِه العِبادَ على أعمالِهم). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٤).

وقال البِقاعي: (أيْ: أيُّ شَيءٍ يَنسبُك إلى الكذبِ يا أشرَفَ الخَلقِ وأكمَلَهم نفْسًا وأتْقاهم عِرضًا وأطهَرَهم خَلقًا وخُلقًا، وعبَّر بـ «ما» إشارةً إلى أنَّ الكذبَ بهذا مع هذا الدَّليلِ القَطعيِّ الَّذي تضَمَّنَتْه هذه السُّورةُ في عِدادِ ما لا يُعقلُ، بل دُونَه). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٤٨).

العَدْلِ الَّذي شَرَعه اللهُ تعالى؛ حَسُنَ جِدًّا تكريرُ الإنكارِ بقَولِه سُبحانه وتعالى[١]:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾.

أي: أليس الله هو أعدَلَ العادِلينَ في حُكْمِه بيْن عِبادِه[٢]؟!

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

في قَولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ فَضيلةٌ لِمَن أَسَنَّ في الإسلامِ؛ لأنَّ اللهَ جلَّ جلالُه يَكتُبُ أجرَ ما كان

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٦)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥).

ومِمَّن قال في الجملة بأنَّ المرادَ: أنَّه أعدَلُ الحاكِمينَ قَضاءً بيْن خَلْقِه، وأقضَى القاضينَ، وأفصلُ الفاصِلينَ: ابنُ جرير، والواحديُّ، والبغوي، والرَّسْعَني، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٧٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٣٩٦). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٥).

قال السعدي: (﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ فهل تَقتضي حِكمتُه أن يَترُكَ الخَلقَ سُدًى، لا يُؤْمَرونَ ولا يُنهَونَ، ولا يُثابونَ ولا يُعاقَبونَ؟! أم الَّذي خلَق الإنسانَ أطوارًا بعدَ أطوارٍ، وأوصَل إليهم مِن النِّعَمِ والخَيرِ والبِرِّ ما لا يُحصونَه، ورَبَّاهم التَّربيةَ الحسَنةَ؛ لا بُدَّ أن يُعيدَهم إلى دارٍ هي مُستقَرُّهم وغايَتُهم، الَّتي إليها يَقصِدونَ، ونحوَها يَؤُمُّونَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

ومِمَّن قال بأنَّ المرادَ: أنَّه أتقَنُ الحاكِمينَ صُنعًا في خَلْقِه: القُرطبيُّ، وابنُ عادل، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٧)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٦٨).

قال ابنُ عثيمين: (هذا الاستفهامُ للتَّقريرِ؛ يُقَرِّرُ اللهُ عزَّ وجَلَّ أنَّه أحكَمُ الحاكِمينَ، وأحكَمُ هنا: اسمُ تَفضيلٍ، وهو مأخوذٌ مِنَ الحِكمةِ، ومِنَ الحُكمِ؛ فالحُكمُ الأكبَرُ الأعظَمُ الَّذي لا يُعارِضُه شيءٌ هو حُكمُ اللهِ عزَّ وجَلَّ، والحِكمةُ العُلْيا البالغةُ هي حِكمةُ اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ فهو سُبحانَه وتعالى أحكَمُ الحاكِمينَ قَدَرًا وشَرْعًا، وله الحُكمُ، وإليه يُرجَعُ الأمرُ كُلُّه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣١).

يَعمَلُه في شَبيبتِه، ولا يَقْطَعُه عنه[١]. وذلك على أنَّ معنى ﴿رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: ردَدْناه إلى سِنِّ الهَرَمِ.

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾، وقال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١] الآياتِ، وقال: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمن: ٦٨] إلى غيرِ ذلك، ولم يدُلَّ التَّقديمُ في شَيءٍ مِن هذه المواضعِ على فَضْلِ المَبدوءِ به؛ فعُلِم أنَّ التَّقديمَ ليس لازمًا للفَضلِ[٢].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أنَّ شَكْلَ الآدميِّ هو أحسنُ شَكْلٍ في المخلوقاتِ وأقوَمُه[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ سؤالٌ؛ هذه الآيةُ الكريمةُ توهِمُ أنَّ الإنسانَ يُنكِرُ أنَّ ربَّه خلَقَه؛ لِما تقرَّر في فنِّ المعاني مِن أنَّ خاليَ الذِّهنِ مِن التَّردُّدِ والإنكارِ لا يؤكَّدُ له الكلامُ -ويُسمَّى ذلك ابتدائيًّا-، والمُتردِّدَ يَحسُنُ التَّوكيدُ له بمؤكِّدٍ واحدٍ -ويُسمَّى طلَبيًّا-، والمُنكِرَ يجبُ التَّوكيدُ له بحسَبِ إنكارِه -ويُسمَّى إنكاريًّا-، واللهُ تعالى في هذه الآيةِ أكَّد إخبارَه بأنَّه خلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تقويمٍ بأربعةِ أقسامٍ، وباللَّامِ، وبـ «قد»؛ فهي ستَّةُ تأكيداتٍ، وهذا التَّوكيدُ يوهِمُ أنَّ الإنسانَ مُنكِرٌ لأنَّ ربَّه خلَقَه؛ وقد جاءت آياتٌ أخرى صريحةٌ في أنَّ الكفَّارَ يُقِرُّونَ بأنَّ اللهَ هو خالِقُهم، وهي قولُه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]؟

---

(١) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٢٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٤/ ٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة غافر)) (ص: ٤٣٥).

**الجوابُ مِن وجهَين:**

**الأوَّلُ**: هو ما حرَّره عُلماءُ البلاغةِ مِن أنَّ المُقِرَّ إذا ظهرَتْ عليه أمَارةُ الإنكارِ جُعِل كالمنكِرِ؛ فأُكِّدَ له الخبَرُ، فالكفَّارُ لَمَّا أنكَروا البعثَ ظهرَتْ عليهم أمارةُ إنكارِ الإيجادِ الأوَّلِ؛ لأنَّ مَن أقَرَّ بالأوَّلِ لَزِمه الإقرارُ بالثَّاني؛ لأنَّ الإعادةَ أيسَرُ مِن البَدءِ؛ فأكَّد لهم الإيجادَ الأوَّلَ، ويوضِّحُ هذا أنَّ اللهَ تعالى بيَّن أنَّه المقصودُ بقولِه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ أي: ما يَحمِلُك أيُّها الإنسانُ على التَّكذيبِ بالبعثِ والجزاءِ بعدَ عِلمِك أنَّ اللهَ أوجَدك أوَّلًا؟! فمَن أوجَدك أوَّلًا قادرٌ على أن يوجِدَك ثانيًا.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ القسَمَ شاملٌ لقولِه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: إلى النَّار، وهم لا يُصَدِّقونَ بالنَّارِ؛ بدليلِ قولِه تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[1] [الطور: ١٤].

٤- قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ يُؤخَذُ مِن هذه الآيةِ أنَّ الإنسانَ مخلوقٌ على حالةِ الفِطرةِ الإنسانيَّةِ الَّتي فطَرَ اللهُ النَّوعَ ليتَّصِفَ بآثارِها، وهي الفِطرةُ الإنسانيَّةُ الكامِلةُ في إدراكِه إدراكًا مُستقيمًا مِمَّا يتأدَّى مِن المحسوساتِ الصَّادِقةِ -أي: الموافِقةِ لحقائِقِ الأشياءِ، الثَّابتةِ في نفْسِ الأمرِ- بسَبَبِ سلامةِ ما تؤدِّيه الحواسُّ السَّليمةُ، وما يَتلقَّاه العَقلُ السَّليمُ مِن ذلك، ويتصَرَّفُ فيه بالتَّحليلِ والتَّركيبِ المنتظِمَين؛ بحيث لو جانبَتْه التَّلقيناتُ الضَّالَّةُ والعوائِدُ الذَّميمةُ والطَّبائِعُ المنحَرِفةُ والتَّفكيرُ الضَّارُّ، أو لو تسلَّطَت عليه تسلُّطًا ما، فاستطاع دفاعَها عنه بدَلائِلِ الحَقِّ والصَّوابِ- لَجرى في جميعِ شُؤونِه على الاستقامةِ، ولَمَا صَدَرَت منه إلَّا الأفعالُ الصَّالحةُ، ولكِنَّه قد يتعثَّرُ في ذُيولِ

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٧٦).

اغترارِه، ويُرخي العِنانَ لهَواه وشَهوتِه، فتَرمي به في الضَّلالاتِ، أو يتغَلَّبُ عليه دُعاةُ الضَّلالِ بعامِلِ التَّخويفِ أو الإطماعِ، فيُتابِعُهم طَوعًا أو كَرهًا، ثمَّ لا يلبَثُ أن يَستحكِمَ فيه ما تقلَّدَه فيَعتادُه ويَنسى الصَّوابَ والرُّشدَ! ويُفسِّرُ هذا المعنى قولُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِن مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرةِ، فأبَواه يُهَوِّدانِه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه)) الحديثَ[1]؛ ذلك أنَّ أبَوَيه هما أوَّلُ مَن يتولَّى تأديبَه وتثقيفَه، وهما أكثَرُ النَّاسِ مُلازَمةً له في صِباه، فهما اللَّذان يُلْقيانِ في نَفْسِه الأفكارَ الأُولى، فإذا سَلِمَ مِن تضليلِ أبَوَيه فقدْ سار بفِطرتِه شَوطًا، ثمَّ هو بعدَ ذلك عُرضةٌ لعديدٍ مِن المؤَثِّراتِ فيه؛ إنْ خَيرًا فخَيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ، واقتصَر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على الأبَوَين؛ لأنَّهما أقوى أسبابِ الزَّجِّ في ضَلالتِهما، وأشَدُّ إلحاحًا على ولَدِهما[2].

٥- يُستفادُ مِن قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أنَّ الإنسانَ مَفطورٌ على الخَيرِ، وأنَّ في جِبِلَّتِه جَلبَ النَّفعِ والصَّلاحِ لنَفْسِه، وكَراهةَ ما يَظُنُّه باطِلًا أو هلاكًا، ومحبَّةَ الخَيرِ والحَسَنِ مِنَ الأفعالِ؛ لذلك تَراه يُسَرُّ بالعَدْلِ والإنصافِ، ويَنصَحُ بما يَراه مجلبةً لِخَيرِ غَيرِه، ويُغيثُ المَلْهوفَ، ويُعامِلُ بالحُسنى، ويَغارُ على المُستضعَفينَ، ويَشمَئِزُّ مِن الظُّلمِ -ما دام مجرَّدًا عن رَوْمِ نفعٍ يَجلِبُه لنَفْسِه، أو إرضاءِ شَهوةٍ يُريدُ قَضاءَها، أو إشفاءِ غَضَبٍ يَجيشُ بصَدْرِه؛ تلك العَوارِضُ الَّتي تَحولُ بيْنه وبيْن فِطرتِه زمنًا- ويَهَشُّ إلى كلامِ الوُعَّاظِ والحُكَماءِ والصَّالحينَ، ويُكرِمُهم ويُعَظِّمُهم، ويَوَدُّ طُولَ بَقائِهم[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى ما خُصَّ به

(١) أخرجه البخاريُّ (١٣٥٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٦٥٨) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢٦).

الإنسانُ مِنَ العَقلِ والفَهمِ وانتِصابِ القامةِ؛ الدَّالَّةِ على استيلائِه على كُلِّ ما في هذا العالَمِ[١].

٧- تأمَّلْ حِكمةَ القرآنِ؛ لَمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢] فإنَّه ضَيَّقَ الاستثناءَ وخَصَّصَه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]، ولَمَّا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ وَسَّعَ الاستثناءَ وعَمَّمَه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يَقُلْ: «وتَواصَوا»؛ فإنَّ التَّواصيَ هو أمرُ الغيرِ بالإيمانِ والعَمَلِ الصَّالحِ، وهو قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّدِ فِعْلِه، فمَن لم يكُنْ كذلك فقد خَسِرَ هذا الرِّبحَ، فصار في خُسْرٍ، ولا يَلزَمُ أنْ يكونَ في أسفَلِ سافِلينَ؛ فإنَّ الإنسانَ قد يقومُ بما يجبُ عليه ولا يأمُرُ غيرَه، فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عنِ المنكَرِ مرتبةٌ زائدةٌ، وقد تكونُ فرضًا على الأعيانِ، وقد تكونُ فرضًا على الكفايةِ، وقد تكونُ مُستحَبَّةً[٢].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ أنَّه ما مِن شيءٍ يَحكُمُ اللهُ به إلَّا وهو حِكمةٌ عَظيمةٌ[٣].

٩- أحكامُ الله سُبحانَه لا تَجِدُ فيها عَيبًا ولا نَقْصًا[٤]؛ قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، وفيه أنَّ حُكْمَ اللهِ أحسَنُ الأحكام، فإذا كان اللهُ أحسَنَ الحاكِمينَ أحكامًا، وهو أحكمُ الحاكِمينَ؛ فمَن ادَّعى أنَّ حُكْمَ غيرِ اللهِ مِثلُ حُكْمِ اللهِ أو أحسَنُ؛ فهو كافِرٌ؛ لأنَّه مُكَذِّبٌ للقرآنِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٤/ ٣١١).

(٢) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين: الحجرات - الحديد)) (ص: ٣٣).

(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ١٨٨).

(٥) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ١٦٠).

١٠- قَولُه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ خَتَمَ سُبحانَه السُّورةَ به، وهذا تقريرٌ لمضمونِ السُّورةِ مِن إثباتِ النُّبُوَّةِ والتَّوحيدِ والمَعادِ، وحُكْمُه يَتضَمَّنُ نَصْرَه لرَسولِه على مَن كَذَّبَه وجَحَدَ ما جاء به بالحُجَّةِ والقُدرةِ والظُّهورِ عليه، وحُكْمَه بيْن عبادِه في الدُّنيا بشَرعِه وأَمْرِه، وحُكْمَه بيْنَهم في الآخرةِ بثَوابِه وعِقابِه، وأنَّ أَحْكَمَ الحاكِمينَ لا يَليقُ به تعطيلُ هذه الأحكامِ بعْدَما ظهَرتْ حِكمتُه في خَلْقِ الإنسانِ في أحسَنِ تقويمٍ، ونَقْلِه في أطوارِ التَّخليقِ حالًا بعدَ حالٍ إلى أَكْمَلِ الأحوالِ، فكيف يليقُ بأحْكَمِ الحاكِمينَ ألَّا يُجازيَ المُحسِنَ بإحسانِه، والمُسيءَ بإساءتِه؟! وهل ذلك إلَّا قَدْحٌ في حُكْمِه وحِكمتِه؟! فلِلَّهِ ما أَخْصَرَ لفظَ هذه السُّورةِ، وأعْظَمَ شأنَها، وأَتَمَّ معناها[١]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾

- ابتِداءُ الكلامِ بالقسَمِ المؤكِّدِ يُؤذِنُ بأهمِّيَّةِ الغرَضِ المَسوقِ له الكلامُ، وإطالةُ القسَمِ تَشويقٌ إلى المقسَمِ عليه[٢].

- ومعْنى القسَمِ بهذه الأشياءِ ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾: الإبانةُ عن شرَفِ البِقاعِ المُبارَكةِ، وما ظَهَرَ فيها مِن الخَيرِ والبَرَكةِ بسُكْنى الأنبياءِ والصَّالحينَ؛ فمَنبِتُ التِّينِ والزَّيتونِ مُهاجَرُ إبراهيمَ ومَولدُ عِيسى ومَنْشؤه، والطُّورُ: المكانُ الَّذي نُودِيَ منه مُوسى، ومكَّةُ: مكانُ البَيتِ الَّذي هو هُدًى للعالَمينَ، ومَولدُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ومَبعثُه[٣].

- وكذلك أُقسِمَ بالتِّينِ والزَّيتونِ مِن أجْلِ الدَّلالةِ على صِفاتٍ إلهيَّةٍ كما

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٣).

يُقسَمُ بالاسمِ لدَلالتِه على الذَّاتِ، مع الإيذانِ بالمِنَّةِ على النَّاسِ؛ لِما في هاتَينِ الثَّمرَتينِ مِن المنافعِ للنَّاسِ المُقتضيةِ الامتِنانَ عليهم بأنْ خَلَقَها اللهُ لهم؛ فَفاكهةُ التِّينِ تَنبُتُ في كلِّ البلادِ، وهي سَهلةُ النَّباتِ لا تَحتاجُ إلى كَثرةِ عَمَلٍ وعِلاجٍ. والزَّيتونُ ثَمَرةٌ نافعةٌ صالحةٌ، تَكْفي النَّاسَ حَوائجَ طَعامِهم وإضاءتِهم، فهما عَجيبانِ مِن بيْنِ أصنافِ الأشجارِ المُثمِرةِ[(١)].

- وكذلك في ابتداءِ السُّورةِ بالقسَمِ بما يَشملُ إرادةَ مَهابطِ أشهَرِ الأديانِ الإلهيَّةِ، بَراعةُ استهلالٍ لغرَضِ السُّورةِ[(٢)]؛ وهو أنَّ اللهَ سُبحانَه خلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ، أي: خَلَقَه على الفِطرةِ السَّليمةِ مُدركًا لأدِلَّةِ وُجودِ الخالقِ ووَحدانيَّتِه. وفيه إيماءٌ إلى أنَّ ما خالَفَ ذلك مِن النِّحَلِ والمِلَلِ قد حادَ عن أُصولِ شَرائعِ اللهِ كلِّها، بقطْعِ النَّظرِ عن اختلافِها في الفُروعِ، ويَكْفي في تقَوُّمِ معْنى بَراعةِ الاستهلالِ ما يَلوحُ في المعْنى مِن احتمالٍ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٤).

(٢) براعةُ الاستهلالِ: هي كَوْنُ ابتداءِ الكلامِ مُناسِبًا للمقصودِ، وأنْ يكونَ أوَّلُ الكلامِ دالًّا على ما يُناسِبُ حالَ المتكلِّمِ، مُتضمِّنًا لِمَا سِيقَ الكلامُ مِن أجْلِه مِن غيرِ تصريحٍ، بلْ بأَلْطَفِ إشارةٍ يُدرِكُها الذَّوقُ السَّليمُ، ومِن أحسَنِ صُوَرِ براعةِ الاستِهلالِ مَوقِعًا، وأبلَغِها معنًى: فواتحُ سُوَرِ القرآنِ الكريمِ، ومنها الحُروفُ المقطَّعةُ؛ فإنَّها تُوقِظُ السَّامِعينَ للإصغاءِ إلى ما يَرِدُ بعْدَها؛ لأنَّهم إذا سمِعوها مِن النَّبيِّ الأُمِّيِّ علِموا أنَّها والمَتْلُوَّ بعْدَها مِن جِهةِ الوحيِ، وفيها تنبيهٌ على أنَّ المَتلُوَّ عليهم مِن جِنسِ ما يَنظِمونَ منه كلامَهم، مع عَجْزِهم عن أنْ يأتوا بمِثلِه. يُنظر: ((التعريفات)) للجرجاني (ص: ٤٥)، ((الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم)) لعصام الدين الحنفي (١/ ١٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٤/ ٢٨٢)، ((أنوار الربيع في أنواع البديع)) لابن معصوم (١/ ٥٣)، ((علوم البلاغة)) لأحمد المراغي (ص: ٣٧٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٢، ٤٢٣).

- البلدُ الأمينُ: هو مكَّةُ، و(أَمينٌ) للمُبالَغةِ في أمْنِه، أي: آمِنٌ مَن فيه ومَن دَخَلَه، وما فيه مِن طَيرٍ وحَيوانٍ[١].

- وقولُه: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ الإشارةُ إلى البلَدِ الأمينِ للتَّعظيمِ؛ ولأنَّ نُزولَ السُّورةِ في ذلك البلَدِ، فهو حاضرٌ بمَرأًى ومَسمَعٍ مِن المُخاطَبينَ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾

- قولُه: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ مع ما عُطِفَ عليه هو جَوابُ القسَمِ، والقسَمُ عليه يدُلُّ على أنَّ التَّقويمَ تَقويمٌ خَفيٌّ، وأنَّ الرَّدَّ ردٌّ خَفيٌّ يَجِبُ التَّدبُّرُ لإدراكِه؛ فلذلك ناسَبَ أنْ يُحقَّقَ بالتَّوكيدِ بالقسَمِ؛ لأنَّ تَصرُّفاتِ مُعظَمِ النَّاسِ في عَقائدِهم جاريةٌ على حالةٍ تُشبِهُ حالةَ مَن يُنكِرونَ أنَّهم خُلِقوا على الفِطرةِ[٣]. وذلك على أنَّ المرادَ بـ﴿أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾: الفِطْرةُ السَّليمةُ.

- وحرْفُ ﴿فِيٓ﴾ يُفيدُ الظَّرفيَّةَ، والمرادُ بها معْنى التَّمكُّنِ والمِلكِ، فهي مُستعمَلةٌ في معْنى باءِ المُلابَسةِ أو لامِ المِلكِ، وإنَّما عُدِلَ عن أحدِ الحرفينِ الحقيقيَّينِ لهذا المعْنى إلى حرْفِ الظَّرفيَّةِ؛ لإفادةِ قوَّةِ المُلابَسةِ، أو قوَّةِ المِلْكِ مع الإيجازِ، ولولا الإيجازُ لَكانت مُساواةُ الكلامِ أنْ يُقالَ: لقد خَلَقْنا الإنسانَ بتَقويمٍ مَكينٍ هو أحسَنُ تَقويمٍ[٤].

- و﴿أَحۡسَنِ﴾ صِفةٌ لمَحذوفٍ، أي: في تَقويمٍ أحسَنِ تقويمٍ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٣).

- قولُه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ (ثُمَّ) لإفادةِ التَّراخي الرُّتبيِّ كما هو شَأنُها في عطْفِ الجُمَلِ؛ لأنَّ الرَّدَّ أسفَلَ سافِلينَ بعْدَ خلْقِه مَحوطًا بأحسَنِ تَقويمٍ عَجيبٌ؛ لِما فيه مِن انقلابِ ما جُبِلَ عليه، وتَغييرُ الحالةِ الموجودةِ أعجَبُ مِن إيجادِ حالةٍ لم تكُنْ، ولأنَّ هذه الجُملةَ هي المقصودُ مِن الكلامِ؛ لتَحقيقِ أنَّ الَّذين حادُوا عن الفِطرةِ صاروا أسفَلَ سافِلينَ[1]. وذلك على أنَّ المرادَ بـ﴿أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾: الفِطْرةُ السَّليمةُ.

- و﴿أَسْفَلَ﴾ قيل: اسمُ تَفضيلٍ، أي: أشدَّ سَفالةٍ، وأُضِيفَ إلى ﴿سَٰفِلِينَ﴾ أي: الموصوفينَ بالسَّفالةِ، فالمرادُ: أسفَلَ سافِلينَ في الاعتِقادِ بخالِقِه، بقَرينةِ قولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [التين: ٦]. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ ظَرْفًا، أي: مكانًا أسفَلَ ما يَسكُنُه السَّافِلونَ، فإضافةُ ﴿أَسْفَلَ﴾ إلى ﴿سَٰفِلِينَ﴾ مِن إضافةِ الظَّرفِ إلى الحالِّ فيه، ويَنتصِبُ ﴿أَسْفَلَ﴾ بـ﴿رَدَدْنَٰهُ﴾ انتصابَ الظَّرفِ، أو على نزْعِ الخافضِ، أي: إلى أسفَلِ سافِلينَ، وذلك هو دارُ العذابِ، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2] [النساء: ١٤٥].

- قولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ استثناءٌ مُتَّصلٌ مِن عُمومِ الإنسانِ، فلمَّا أخبَرَ عن الإنسانِ بأنَّه رُدَّ أسفَلَ سافِلينَ، ثمَّ استَثْنى مِن عُمومِه الَّذين آمَنوا؛ بَقِيَ غيرُ المؤمنينَ في أسفَلِ سافِلينَ، والمعْنى: أنَّ الَّذين آمَنوا بعْدَ أنْ رُدُّوا أسفَلَ سافِلينَ أيَّامَ الإشراكِ صاروا بالإيمانِ إلى الفِطرةِ الَّتي فَطَرَ اللهُ الإنسانَ عليها، فراجَعوا أصْلَهم إلى أحسَنِ تَقويمٍ -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، وعُطِفَ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ لأنَّ عَمَلَ الصَّالحاتِ مِن أحسَنِ التَّقويمِ بعْدَ مَجيءِ الشَّريعةِ؛ لأنَّها تَزيدُ الفِطرةَ رُسوخًا، ويَنسحِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٢٧، ٤٢٨).

الإيمانُ على الأخلاقِ، فيَرُدُّها إلى فضْلِها، ثمَّ يَهْديها إلى زِيادةِ الفضائلِ مِن أحاسِنِها؛ فكان عطْفُ ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ للثَّناءِ على المؤمنينَ بأنَّ إيمانَهم باعثٌ لهم على العمَلِ الصَّالحِ، وذلك حالُ المؤمنينَ حِينَ نُزولِ السُّورةِ، فهذا العطْفُ عطْفُ صِفةٍ كاشفةٍ(١).

- وفُرِّعَ على معْنى الاستِثناءِ -وهو أنَّهم لَيسوا ممَّن يُرَدُّ أسفَلَ سافِلينَ- الإخبارُ بأنَّ لهم أجْرًا عَظيمًا؛ لأنَّ الاستثناءَ أفاد أنَّهم لَيسوا بأسفَلِ سافِلينَ، فأُرِيدَ زِيادةُ البَيانِ لفضْلِهم وما أُعِدَّ لهم(٢).

- في قَولِه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ احتِباكٌ(٣)؛

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٩).

والصِّفةُ الكاشِفةُ: هي الصِّفةُ الَّتي تُميِّزُ المَوصوفَ عن سائرِ الأجناسِ، وتُبيِّنُ حَقيقتَه، فهي صفة تُبيِّنُ الواقعَ، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ؛ وهي عكسُ الصِّفةِ المُقيِّدةِ الَّتي تُخرِجُ ما سِواه، فالصِّفةُ الكاشفةُ هي خَبرٌ عن المَوصوفِ عندَ التَّحقيقِ، تُبيِّنُ ماهيَّةَ الشَّيءِ بأنْ تكونَ وَصْفًا لازمًا مُختَصًّا به؛ مِثالُ ذلك قولُه تعالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ صِفةٌ كاشفةٌ، ولا مَفهومَ مُخالَفةٍ له، فلا يَصِحُّ لأحدٍ أنْ يقولَ: أمَّا مَن عبَدَ معه إلهًا آخَرَ له بُرهانٌ به فلا مانعَ مِن ذلك! لاستِحالةِ وُجودِ بُرهانٍ على عِبادةِ إلهٍ آخَرَ معه، فقولُه: ﴿لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ وَصْفٌ مُطابِقٌ للواقعِ؛ لأنَّهم يَدْعون معه غيرَه بلا بُرهانٍ، فذِكْرُ الوصفِ لِمُوافَقتِه الواقِعَ، لا لإخراجِ المفهومِ عن حُكمِ المنطوقِ. يُنظر: ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤٥)، ((تحفة المحتاج في شرح المنهاج وحواشي الشرواني والعبادي)) (١/ ٣٣٨)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشعراء)) (ص: ٢٧)، ((دراسات أصولية في القرآن الكريم)) للحفناوي (ص: ٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٩).

(٣) الاحْتِباك: هو الحذفُ مِن الأوائلِ لِدَلالةِ الأواخِرِ، والحذفُ مِن الأواخِرِ لدَلالةِ الأوائلِ، إذا اجتمَع الحَذفانِ معًا، وله في القرآنِ نظائرُ، وهو مِن إبداعاتِ القُرآنِ وعناصِرِ إعجازِه، وهو مِن ألْطَفِ الأنواعِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٠٤)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن =

حُذِفَ أوَّلًا -بما أفهَمَتْه الآيةُ- عمَلُ السَّيِّئاتِ، وثانيًا: الإبقاءُ على أصلِ الخَلْقِ في أحسَنِ تقويمٍ على الفِطرةِ الأُولى؛ لِيَكونَ نَظْمُها في الأصلِ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ بعَمَلِ السَّيِّئاتِ؛ فله على ذلك عذابٌ مُهينٌ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ فإنَّا أبقَيْناهم على الفِطرةِ الأُولى في أحسَنِ تقويمٍ[1].

- وتَنوينُ ﴿أَجْرٌ﴾؛ للتَّعظيمِ[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ * أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾

- قولُه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ تَفريعٌ على جَميعِ ما ذُكِرَ مِن تَقويمِ خَلْقِ الإنسانِ، ثمَّ رَدِّه أسفَلَ سافِلينَ؛ لأنَّ ما بعْدَ الفاءِ مِن الكلامِ مُسبَّبٌ عن البَيانِ الَّذي قبْلَ الفاءِ، أي: فقَدْ بانَ لك أنَّ غيرَ الَّذين آمَنوا همُ الَّذين رُدُّوا إلى أسفَلِ سافِلينَ، فمَن يُكذِّبُ منهم بالدِّينِ الحقِّ بعْدَ هذا البَيانِ؟! أو: إنْ عَلِمْتَ هذا أيُّها الإنسانُ فما يُكذِّبُك، والفاءُ هي الفصيحةُ[3]؟!

- و(ما) في قولِه: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ استِفهاميَّةً، والاستِفهامُ تَوبيخيٌّ، والخِطابُ للإنسانِ المذكورِ في قولِه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤]؛ فإنَّه بعْدَ أنِ استُثنِيَ منه الَّذين آمَنوا، بَقِيَ الإنسانُ المكذِّبُ. وضَميرُ الخِطابِ الْتفاتٌ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ، ومُقتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: فما يُكذِّبُه، ونُكتةُ الالْتِفاتِ هنا أنَّه أصرَحُ في مُواجَهةِ الإنسانِ المكذِّبِ بالتَّوبيخِ، ولتَشديدِ الإنكارِ والتَّوبيخِ والتَّبكيتِ، أيْ: فما يَجعلُكَ كاذبًا بسَببِ الدِّينِ وإنكارِه بعْدَ هذه الدَّلائلِ؟!

---

= حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٣٤٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٦).

ويجوزُ أنْ تكونَ (ما) مَوصولةً، و(ماصَدَقَها)[١]: المُكذِّبُ، فهي بمعْنى (مَن)، وهي في مَحلِّ مُبتدَأٍ، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، والضَّميرُ المستترُ في ﴿ يُكَذِّبُكَ ﴾ عائدٌ إلى (ما)، وهو الرَّابطُ للصِّلةِ بالمَوصولِ، والباءُ للسَّببيَّةِ، أي: يَنسُبُك إلى الكذِبِ بسَببِ ما جِئتَ به مِن الإسلامِ، أو مِن إثباتِ البَعثِ والجزاءِ، وحُذِفَ ما أُضِيفَ إليه (بعْدُ) فبُنِيَت (بعْدُ) على الضَّمِّ، والتَّقديرُ: بعْدَ تَبيُّنِ الحقِّ، أو بعْدَ تَبيُّنِ ما ارتضاهُ لنفْسِه مِن أسفَلِ سافِلينَ. وجُملةُ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ خبرًا عن (ما)، والرَّابطُ مَحذوفٌ تَقديرُه: بأحكَمِ الحاكمينَ فيه. ويجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ دَليلًا على الخبَرِ المُخبَرِ به عن (ما) المَوصولةِ، وحُذِفَ إيجازًا؛ اكتِفاءً بذِكرِ ما هو كالعِلَّةِ له، فالتَّقديرُ: فالَّذي يُكذِّبُك بالدِّينِ يَتولَّى اللهُ الانتِصافَ منه، أليسَ اللهُ بأحكَمِ الحاكمينَ؟ والاستفهامُ تَقريريٌّ[٢].

- وجُملةُ ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ تحقيقٌ لِمَا سبَقَ، والاستِفهامُ تقريريٌّ، والمعنى: أليس الَّذي فعَلَ ذلك مِن الخَلقِ والرَّدِّ بأحْكَمِ الحاكِمِينَ صُنعًا وتدبيرًا؟ ومَن كان كذلك كان قادرًا على الإعادةِ والجزاءِ. وعلى القَولِ بأنَّ الحُكمَ بمعْنَى القَضاءِ؛ فالجملةُ مُستأنَفةٌ للتَّهديدِ والوَعيدِ؛ فهي وعيدٌ

---

(١) الماصَدَق: اسمٌ صِناعيٌّ مأخوذٌ في الأصلِ مِن كَلِمةِ (ما) الاستِفهاميَّةِ أو المَوصوليَّةِ، وكَلِمةِ (صَدَق) الَّتي هي فِعلٌ ماضٍ مِنَ الصِّدقِ، كأنْ يُقالَ مَثَلًا: على ماذا صَدَق هذا اللَّفظُ؟ فيُقالُ في الجوابِ: صدَقَ على كذا أو كذا؛ فاشتَقُّوا مِن ذلك أو نَحَتوا كَلِمةَ (ماصَدَق)، والمرادُ: الفَردُ أو الأفرادُ الَّتي يَنطَبِقُ عليها اللَّفظُ، أو: الأفرادُ الَّتي يَتحَقَّقُ فيها معنى الكُلِّيِّ. يُنظر: ((ضوابط المعرفة)) للميداني (ص: ٤٥)، ((المعجم الوسيط)) (١/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٠، ٤٣١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٦).

للكُفَّارِ، وأنَّه يَحكُم عليهم بما هُم أهلُه، وإخبارٌ بعدلِه سُبحانَه[١].

- ونَوطُ الخبَرِ بذي وَصْفٍ يُؤذِنُ بمُراعاةِ خَصائصِ المعْنى المُشتَقِّ منه الوصفُ، فلمَّا أُخبِرَ عن اللهِ بأنَّه أفضلُ الَّذين يَحكُمون بقولِه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، عُلِمَ أنَّ اللهَ يَفوقُ قَضاؤه كلَّ قَضاءٍ في خَصائصِ القضاءِ وكَمالاتِه، وهي: إصابةُ الحقِّ، وقطْعُ دابرِ الباطلِ، وإلزامُ كلِّ مَن يَقْضي عليه بالامتثالِ لقَضائِه، والدُّخولِ تحْتَ حُكمِه[٢].

- وأيضًا في الكلامِ تَعجُّبٌ وتَعجيبٌ؛ وذلك أنَّه تعالَى لَمَّا قرَّرَ أنَّه خَلَقَ الإنسانَ في أحسَنِ تَقويمٍ، ثمَّ ردَّه إلى أرذَلِ العُمُرِ -على قولٍ-؛ دلَّ على كَمالِ قُدرتِه على الإنشاءِ والإعادةِ، فسَأَلَ بعْدَ ذلك عن سَببِ تَكذيبِ الإنسانِ بالجزاءِ، كأنَّه قِيل: فما سَببُ تَكذيبَك أيُّها الإنسانُ بالجزاءِ بعْدَ هذا الدَّليلِ القاطعِ؟! وعلى هذا فقولُه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ وَعيدٌ للكفَّارِ، وأنَّه يُحكَمُ عليهم بما هو أهْلُه[٣].

تمَّ بحَمدِ الله المجلدُ الثَّالثُ والأربعونَ

ويليه المجلدُ الرَّابعُ والأربعونَ

وأوَّلُه تفسيرُ سورةِ العَلَقِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤، ٧٧٥)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٠، ٤٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٤)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٠٨).

# الفهرس

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# الفهرس

## سورةُ البُرُوجِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٧
فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها: ..... ٧
بيانُ المكِّيِّ والمدَنيِّ: ..... ٧
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٨
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٨
الآيات (١-٩) ..... ٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ١٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٢٣
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٦
الآيتان (١٠-١١) ..... ٣٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٥
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٥
تَفسيرُ الآيتَينِ: ..... ٣٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٤٠

بلاغةُ الآيتَينِ: ..... ٤٢
الآيات (١٢-١٦) ..... ٤٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٦
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٧
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٥٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٥٢
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٥٦
الآيات (١٧-٢٢) ..... ٦٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٦٠
المعنى الإجماليُّ: ..... ٦٠
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٦٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٦٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٦٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٦٩

## سورةُ الطَّارِقِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٧٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ..... ٧٧
بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٧٧
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٧٧
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٧٨

الآيات (١-١٠) ..... ٧٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٧٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٨٠
المعنى الإجماليُّ: ..... ٨١
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٨٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٩٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٩١
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٩٣
الآيات (١١-١٧) ..... ١٠٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٠٠
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ١٠٠
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٠١
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٠٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٠٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١٠٨
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١١١

## سورةُ الأعلَى

أسماءُ السُّورةِ: ..... ١١٩
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ..... ١٢٠
بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ١٢١
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ١٢١

مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ١٢١
الآيات (١-٨) ..... ١٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٢٣
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٢٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٢٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١٣١
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٣٨
الآيات (٩-١٥) ..... ١٤٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٤٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٤٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٤٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١٥٦
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٦١
الآيات (١٦-١٩) ..... ١٦٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٦٩
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٦٩
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٦٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٧٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٧٤

## سورةُ الغاشِيةِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ١٨١
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ..... ١٨١
بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ١٨٢
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ١٨٢
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ١٨٢
الآيات (١-٧) ..... ١٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٨٣
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٨٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ١٨٨
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٩٢
الآيات (٨-١٦) ..... ١٩٨
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٩٨
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٩٩
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٩٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٢٠٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٠٦
الآيات (١٧-٢٠) ..... ٢١١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢١١
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢١١

تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢١١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٢١٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢١٧
الآيات (٢١-٢٦) ..... ٢٢٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٢٠
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٢٠
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٢١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٢٢٦
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٢٧

## سورةُ الفَجْرِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٢٣٥
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٢٣٥
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٢٣٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٢٣٥
الآيات (١-١٤) ..... ٢٣٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٣٧
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٢٣٩
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٣٩
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٤٠

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢٥٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٢٥٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٥٧
الآيات (١٥-٢٠) ..... ٢٦٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٦٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٦٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٦٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢٧٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٢٧٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٨١
الآيات (٢١-٣٠) ..... ٢٨٩
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٨٩
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٢٩٠
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٩١
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٩١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٠٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٣٠١
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٠٣

## سُورةُ البَلَدِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٣١٣
بيَانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٣١٣

مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٣١٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٣١٣
الآيات (١-١٠) ..... ٣١٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣١٥
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣١٦
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣١٦
الفَوائِدُ التَّربويَّةُ: ..... ٣٢٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٣٢٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٢٨
الآيات (١١-٢٠) ..... ٣٣٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٣٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٣٣٥
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٣٦
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٣٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٤٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٣٤٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٤٨

## سُورةُ الشَّمسِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٣٥٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٣٥٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٣٥٩

مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٣٦٠
الآيات (١-١٠) ..... ٣٦١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٦١
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٦٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٦٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٧١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٣٧٣
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٧٦
الآيات (١١-١٥) ..... ٣٨٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٨٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٣٨٤
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٨٤
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٨٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٣٨٩
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٩٠

## سُورةُ اللَّيلِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٣٩٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٣٩٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٣٩٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٤٠٠

الآيات (١-١١) ..... ٤٠١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٠١
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٠٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٤١١
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٤١٢
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤١٦
الآيات (١٢-٢١) ..... ٤٢٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٢٣
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٤٢٤
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٢٤
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٢٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٤٢٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٤٣٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٣٣

## سُورةُ الضُّحى

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٤٤١
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٤٤١
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٤٤١
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٤٤٢
الآيات (١-١١) ..... ٤٤٣

غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٤٣
المعنى الإجماليُّ:..... ٤٤٤
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٤٤٥
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:..... ٤٥٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:..... ٤٥٦
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٦٢

## سُورةُ الشَّرْحِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٤٧٥
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٤٧٥
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٤٧٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ:..... ٤٧٥
الآيات (١-٨) ..... ٤٧٧
غَريبُ الكَلِماتِ:..... ٤٧٧
المعنى الإجماليُّ:..... ٤٧٧
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٤٧٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:..... ٤٨٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:..... ٤٨٧
بلاغةُ الآياتِ:..... ٤٩٣

## سُورةُ التِّينِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٥٠٥
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٥٠٥

مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٥٠٥
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٥٠٥
الآيات (١-٨) ..... ٥٠٦
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٥٠٦
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٥٠٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ٥٠٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٥٠٨
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٥١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: ..... ٥١٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٥٢١
الفهرس ..... ٥٢٩

تـم الـصـف والإخـــراج فـي مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠

# التفسير المحرر للقرآن الكريم

من سورة العلق إلى سورة الناس

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

مراجعة وتدقيق


الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر بمصر


الإشراف العام

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف

المجلد الرابع والأربعون


الدرر السنية
www.dorar.net

# التَّفْسيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة العلق إلى سورة الناس)

ح مؤسسة الدرر السنية للنشر ـ ١٤٤٤ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

التفسير المحرر للقرآن الكريم - المجلد الرابع والأربعون - القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية - ط١ الظهران، ١٤٤٤ هـ

١٧ سم × ٢٤ سم

ردمك: ٠-١٦-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن- التفسير الحديث أ- العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٤/٣٥٥

رقم الإيداع: ١٤٤٤/٣٥٥

ردمك: ٠-١٦-٨٣٥٨-٦٠٣-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٢ م

الدُّرَرُ السَّنِيَّة
www.dorar.net

المملكة العربية السعودية
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠ ٠١٣٨٦٨٠١٢٣
dorarnet dorarnet dorarrnet dorartv

# التَّفْسِيرُ المُحَرَّرُ

## للقُرآنِ الكَريمِ

(من سورة العلق إلى سورة الناس)


إعْدَادُ

القِسْمِ العِلْمِيِّ بِمُؤَسَّسَةِ الدُّرَرِ السَّنِيَّةِ

مراجعة وتدقيق

الشيخ الدكتور خالد بن عثمان السَّبت
أستاذ التفسير بجامعة عبد الرحمن بن فيصل

الشيخ الدكتور أحمد سعد الخطيب
أستاذ التفسير وعلوم القرآن في جامعة الأزهر - قنا

الإشْرَافُ العَامُّ

الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف


**المجلد الرابع والأربعون**


الدُّرَرُ السَّنِيَّة

www.dorar.net

بسم الله الرحمن الرحيم

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ العَلَقِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ العَلَقِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ: العَلَقِ[١].

وسمِّيت أيضًا: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾:

فعن جابِرٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((صلَّى مُعاذُ بنُ جَبَلٍ الأنصاريُّ بأصحابه العِشاءَ، فطَوَّل عليهم، فقال له النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أتُريدُ أن تكونَ فتَّانًا يا مُعاذُ؟ إذا أَمَمْتَ النَّاسَ فاقرَأْ بـ «الشَّمسِ وضُحاها» و﴿سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى﴾ و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ و«اللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى»))[٢].

## فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها:

**١- أنَّ الآياتِ الخَمْسَ مِن أوَّلِها هي أوَّلُ ما نزَل مِن القُرآنِ[٣].**

فعن عائشةَ، زَوجِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قالَتْ: ((كان أوَّلَ ما بُدِئَ به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الرُّؤْيَا الصَّادِقةُ في النَّومِ، فكان لا يَرى رُؤْيا إلَّا جاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ[٤]، ثُمَّ حُبِّب إليه الخلاءُ، فكان يَلْحَقُ بغارِ حِراءٍ فيَتَحَنَّثُ فيه -قال[٥]: والتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ- اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ[٦]، قبْلَ أنْ يَرْجِعَ إلى أهلِه

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لذِكْرِ لَفظِ العَلَقِ في أوَّلِها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣/ ٤٣٣).

(٢) أخرجه مسلم (٤٦٥).

(٣) وهو قولُ أكثرِ العلماءِ. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٣).

(٤) فَلَقِ الصُّبْحِ: أي: ضَوئِه وإنارَتِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٤٧١).

(٥) يَحتمِلُ أنْ يكونَ مِن كلامِ عُروةَ راوي الحديثِ عن عائشةَ، أو مَنْ دونَه مِن رواةِ الحديثِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧١٧).

(٦) اللَّيالِيَ ذواتِ العَدَدِ: اللَّيالِيَ: مَنصوبةٌ على الظَّرفِ يتعَلَّقُ بقَولِه «يتحَنَّثُ»، وإبهامُ العددِ =

ويَتَزَوَّدُ لذلك، ثُمَّ يرجِعُ إلى خَديجةَ فيَتزَوَّدُ بِمِثْلِها، حتَّى فَجِئَهُ الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءَه المَلَكُ، فقال: اقْرَأْ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ما أنا بقارِئٍ، قال: فأخَذَني فغَطَّني[١] حتَّى بَلَغ مِنِّي الجهْدَ[٢]، ثُمَّ أرْسَلَني، فقال: اقْرَأْ، قُلْتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذني فغَطَّني الثَّانيةَ حتَّى بَلَغ مِنِّي الجهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَني فقال: اقْرَأْ، قُلْتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذني فغطَّني الثَّالثةَ حتَّى بَلَغ منِّي الجهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ الآياتِ إلى قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾[العلق: ١ - ٥]))[٣].

**٢- في سُورةِ العلق سَجدةٌ.**

وذلك عندَ قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾[العلق: ١٩][٤]، وممَّا يدُلُّ على ذلك ما جاء عن أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْه، قال: ((سَجَدْنا مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[الانشقاق: ١]، و﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾[العلق: ١]))[٥].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ العَلَقِ مَكِّيَّةٌ، نَقَل الإجماعَ على ذلك غَيرُ واحِدٍ مِنَ المُفَسِّرينَ[٦].

---

= لاختلافِه، وهو بالنِّسبةِ إلى المُدَدِ الَّتي يتخَلَّلُها مَجيئُه إلى أهلِه، وإلَّا فأصلُ الخَلوةِ قد عُرِفَت مُدَّتُها، وهي شَهرٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٣).

(١) فغَطَّني: الغَطُّ: العَصْرُ الشَّديدُ والكَبْسُ. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٣٧٣).

(٢) رُوِي بفتحِ الجيمِ والنَّصْبِ أيْ: بَلَغ الغَطُّ منِّي غايةَ وُسْعي، ورُوِي بضَمِّ الجيمِ والرَّفْعِ أيْ: بَلَغ منِّي الجُهْدُ مَبْلَغَه. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٥٣)، ومسلم (١٦٠).

(٤) وهذا مذهبُ الجمهورِ مِن الحنفيَّة، والشَّافعيَّة، والحنابلة. يُنظر: ((حاشية ابن عابدين)) (٢/ ١٠٤)، ((المجموع)) للنووي (٤/ ٥٩)، ((كشاف القناع)) للبُهوتي (١/ ٤٤٧).

(٥) أخرجه مسلم (٥٧٨).

(٦) مِمَّن نَقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعي. يُنظر: ((تفسير =

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

تَثْبيتُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتهديدُ كلِّ مَن يقِفُ في وجهِ دعوةِ الإسلامِ[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- التَّنويهُ بشَأنِ القِراءةِ والكِتابةِ، والعِلمِ والتَّعَلُّمِ.

٢- التَّهديدُ لكُلِّ مَن يَقِفُ في وَجهِ دَعوةِ الإسلامِ.

٣- إعلامُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ اللهَ تعالى مُطَّلِعٌ على ما يُبَيِّتُه له أعداؤُه، وأنَّه سُبحانَه قامِعُهم، وناصِرُه عليهم.

٤- أمْرُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأن يَمضِيَ في طَريقِه، وأن يُصَلِّيَ ويقتَرِبَ مِن رَبِّه.

---

= ابن عطية)) (٥/ ٤٧٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٦٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢١٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٤)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٥١).

## الآيات (١-٥)

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿عَلَقٍ﴾: أي: دمٍ جامدٍ، جمعُ عَلَقةٍ، والعَلَقُ: التَّشَبُّثُ بالشَّيءِ، وأصلُ (علق): يدُلُّ على تعلُّقِ شَيءٍ بشَيءٍ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائلًا له: اقرَأْ -يا محمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن القُرآنِ مُفتَتِحًا بذِكرِ اسمِ رَبِّك الخالِقِ، خَلَقَ الإنسانَ مِن قِطعةِ دَمٍ غَليظٍ، اقرَأِ القُرآنَ، ورَبُّك الكَثيرُ الخَيراتِ ذو المحاسِنِ والمحامِدِ، الَّذي عَلَّمَ عِبادَه الخَطَّ بالقَلَمِ، علَّمَ الإنسانَ العُلومَ الَّتي لم يكُنْ يَعلَمُها.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١٧/ ٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٢٥)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١٣١٨)، ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥٧٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٠٠).

قال الماوَرْديُّ: (العَلَقُ جَمْعُ عَلَقةٍ، والعَلَقةُ: قِطْعةٌ مِن دَمٍ رَطْبٍ؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها تَعلَقُ لرُطوبتِها بما تَمُرُّ عليه، فإذا جَفَّتْ لم تكنْ عَلَقةً). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٠٤).

وقال ابن عاشور: (العَلَقُ: اسمُ جمعِ عَلَقةٍ، وهي قِطعةٌ قَدْرَ الأُنْمُلَةِ مِن الدَّمِ الغليظِ الجامِدِ الباقي رَطْبًا لم يَجفَّ، سُمِّي بذلك تشبيهًا لها بدودَةٍ صغيرةٍ تُسَمَّى عَلَقةً، وهي حمراءُ داكِنةٌ تكونُ في المياهِ الحُلوةِ، تمتصُّ الدَّمَ مِن الحيوانِ إذا عَلِقَ خُرْطومُها بجِلْدِه، وقد تَدخلُ إلى فَمِ الدَّابَّةِ -وخاصَّةً الخيلَ والبِغالَ- فتَعْلَقُ بلَهاتِه ولا يتَفَطَّنُ لها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

أي: اقرَأْ -يا محمَّدُ- ما أُنزِلَ إليك مِن القُرآنِ مُفتَتِحًا بذِكرِ اسمِ رَبِّك الخالِقِ[١].

عن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها أنَّها قالت: ((أوَّلُ ما بُدِئَ به رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِنَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصَّالِحةُ في النَّومِ، فكان لا يرى رُؤيا إلَّا جاءت مِثْلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثمَّ حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، وكان يخلو بغارِ حِراءٍ، فيَتحَنَّثُ فيه -وهو التَّعَبُّدُ- اللَّيالِيَ ذَواتِ العَدَدِ قبْلَ أن يَنزِعَ[٢] إلى أهْلِه، ويَتزَوَّدُ لذلك، ثمَّ يَرجِعُ إلى خديجةَ فيَتزَوَّدُ لمِثْلِها، حتَّى جاءه الحَقُّ وهو في غارِ حِراءٍ، فجاءه المَلَكُ فقال: اقرَأْ. قال: ما أنا بقارِئٍ. قال: فأخَذَني فغَطَّني حتَّى بَلَغ منِّي الجَهْدَ، ثمَّ أرسَلَني، فقال: اقرَأْ. قُلتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذَني فغَطَّني الثَّانيةَ حتَّى بَلَغ منِّي الجَهْدَ ثمَّ أرسَلَني، فقال: اقرَأْ. فقُلتُ: ما أنا بقارِئٍ. فأخَذَني فغَطَّني الثَّالِثةَ ثمَّ أرسَلَني، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ [العلق: ١ - ٣]))[٣].

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان خلْقُ الإنسانِ أوَّلَ النِّعَمِ الفائضةِ عليه من الله سبحانه وتعالَى، وأقدَمَ الدَّلائلِ الدَّالَّةِ على وُجودِه عزَّ وجلَّ وكَمالِ قُدرتِه وعِلمِه وحِكمتِه؛ وَصَفَ ذاتَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٦، ٤٣٧).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وإن كان خِطابًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوَّلًا، فهو خِطابٌ لكُلِّ أحدٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٣٢٤، ٣٢٥).

(٢) يَنْزِعَ: أي: يَرْجِعَ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٢٣).

(٣) رواه البخاري (٣) واللَّفظُ له، ومسلم (١٦٠).

تعالَى بذلكَ أوَّلًا ليَستَشهِدَ عليه السَّلامُ بِهِ على تَمكينِه تعالَى لَه مِنَ القِراءةِ[١].

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢﴾.

أي: خَلَق الإنسانَ مِن دَمٍ غَليظٍ جامدٍ[٢].

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [القيامة: ٣٨].

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣﴾.

أي: اقرَأْ -يا محمَّدُ- القُرآنَ، ورَبُّك ذو المحاسِنِ والمحامِدِ، الكامِلُ الصِّفاتِ، الكَثيرُ الخَيراتِ[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧].

﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤﴾.

أي: الَّذي عَلَّم عِبادَه الخَطَّ بالقَلَمِ؛ فانتَفَعوا بالكِتابةِ نَفْعًا عَظيمًا[٤].

كما قال تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١١٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).
قال ابنُ عطيَّة: (﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ على جهةِ التَّأنيسِ، كأنَّه يقولُ: امْضِ لِما أُمِرْتَ به، ورَبُّك ليس كهذه الأربابِ، بل هو الأكرَمُ الَّذي لا يَلحَقُه نَقصٌ، فهو يَنصُرُك ويُظهِرُك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٢٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا نَبَّه على ما في الكتابةِ مِنَ المنافِعِ الَّتي لا يُحيطُ بها غيرُه سُبحانَه وتعالى؛ لأنَّه انبَنَت عليها استقامةُ أُمورِ الدُّنيا والدِّينِ في الدُّنيا والآخِرةِ، وهي كافيةٌ في الدَّلالةِ على دَقيقِ حِكمتِه تعالى، ولطيفِ تَدبيرِه- زاد ذلك عَظَمةً على وَجهٍ يَعُمُّ غَيرَه، فقال[١]:

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾.

أي: علَّم الإنسانَ العُلومَ والأشياءَ النَّافِعةَ الَّتي لم يكُنْ يَعلَمُها[٢].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قَولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ أنَّ أوَّلَ السُّورةِ يدُلُّ على مَدحِ العِلمِ، وآخِرَها على مَذَمَّةِ المالِ، وكفى بذلك مُرَغِّبًا في الدِّينِ والعِلْمِ، ومُنَفِّرًا عن الدُّنيا والمالِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۞ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ تنبيهٌ على أنَّ العِلمَ أشرَفُ الصِّفاتِ الإنسانيَّةِ، كأنَّه تعالى يقولُ: الإيجادُ والإحياءُ والإقدارُ والرِّزقُ كَرَمٌ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٦٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٦٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

قال ابنُ جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه: عَلَّم الإنسانَ الخَطَّ بالقَلَم ولم يكُنْ يَعلَمُه، مع أشياءَ غَيرِ ذلك ممَّا عَلَّمَه ولم يكُنْ يَعلَمُه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢١).

ورُبوبيَّةٌ، أمَّا الأكرَمُ فهو الَّذي أعطاك العِلمَ؛ لأنَّ العِلمَ هو النِّهايةُ في الشَّرَفِ[١].

٣- قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ فافتتحَ سُبحانَه السُّورةَ -وهي أوَّلُ سورةٍ أنزَلها الله في كتابِه- بالأمْرِ بالقِراءةِ النَّاشئةِ عن العِلمِ، وذكَر فيها ما مَنَّ به على الإنسانِ مِن تعليمِه ما لم يعلَمْ، فذكَر فيها فضلَه بتعليمِه، وتفضيلَه الإنسانَ بما علَّمه إياه، وذلك يدلُّ على شَرَفِ التَّعليمِ والعِلمِ[٢].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ التَّنبيهُ على فَضيلةِ الكِتابةِ[٣]، وفيه إشارةٌ إلى الاهتمامِ بعِلمِ الكِتابةِ، وبأنَّ اللهَ يُريدُ أن يُكتَبَ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ما يَنزِلُ عليه مِن القُرآنِ؛ فمِن أجْلِ ذلك اتَّخَذَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كُتَّابًا للوَحيِ مِن مَبدأِ بَعثتِه[٤].

٥- إنَّ دواءَ النِّسيانِ هو الكتابةُ؛ ولهذا امْتَنَّ اللهُ عزَّ وجلَّ على عبادِه بها، فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، ثُمَّ قال: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ يعني: اقرَأْ مِن حِفْظِك، فإنْ لَمْ يكُنْ فمِنْ قَلَمِك؛ فاللهُ تبارك وتعالى بَيَّنَ لنا كيف نُداوي هذه العِلَّةَ -وهي عِلَّةُ النِّسيانِ-، وذلك بأنْ نُداويَها بالكِتابةِ، والآنَ أصبَحَتِ الكتابةُ أدَقَّ مِن الأوَّلِ؛ لأنَّه وُجِدَ -بحمدِ اللهِ- الآنَ المُسجِّلُ[٥]، وغيرُه مِن الوسائلِ الحديثةِ.

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- جِيءَ في وَصْفِ الرَّبِّ بطَريقِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾؛ لأنَّ في ذلك استِدلالًا على انفرادِ اللهِ بالإلهيَّةِ؛ لأنَّ هذا القُرآنَ سيُتْلى على المشرِكين؛ لِما تُفيدُه المَوصوليَّةُ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢١٨).

(٢) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢١٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤١).

(٥) يُنظر: ((شرح المنظومة البيقونية)) لابن عثيمين (ص: ٣٩).

مِن الإيماءِ إلى عِلَّةِ الخبَرِ، وإذا كانت عِلَّةُ الإقبالِ على ذِكرِ اسمِ الرَّبِّ هي أنَّه خالقٌ، دلَّ ذلك على بُطلانِ الإقبالِ على ذِكرِ غيرِه الَّذي ليس بخالقٍ، فالمُشركون كانوا يُقْبِلون على اسمِ اللَّاتِ واسمِ العُزَّى، وكونُ اللهِ هو الخالقَ يَعترِفونَ به؛ قال تعالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فلمَّا كان المَقامُ مَقامَ ابتِداءِ كِتابِ الإسلامِ دِينِ التَّوحيدِ، كان مُقتضيًا لذِكرِ أدلِّ الأوصافِ على وَحدانيَّتِه[١].

٢- قولُه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ إلى قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هذا القَدْرُ مِن هذه السُّورةِ هو الَّذي نَزَلَ أوَّلًا بخِلافِ بقيَّةِ السُّورةِ، فإنَّما نَزَلَ بعدَ ذلك بزَمانٍ، والحكمةُ في هذه الأوَّليَّةِ أنَّ هذه الآياتِ الخَمسَ اشتَمَلتْ على مَقاصِدِ القرآنِ، ففيها بَراعةُ الاستِهلالِ[٢]، وهي جديرةٌ أنْ تُسَمَّى «عُنوانَ القُرآنِ»؛ لأنَّ عُنوانَ الكتابِ يجمَعُ مَقاصِدَه بعبارةٍ وجيزةٍ في أوَّلِه، وبيانُ كَونِها اشتَمَلتْ على مَقاصِدِ القرآنِ أنَّها تنحَصِرُ في علومِ التَّوحيدِ والأحكامِ والأخبارِ، وقد اشتَمَلتْ على الأمرِ بالقراءةِ والبُداءةِ فيها بـ «باسْمِ اللهِ»، وفي هذه الإشارةُ إلى الأحكامِ، وفيها ما يتعلَّقُ بتوحيدِ الرَّبِّ وإثباتِ ذاتِه وصِفاتِه مِن صفةِ ذاتٍ وصِفةِ فِعلٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى أُصولِ الدِّينِ، وفيها ما يتعلَّقُ بالأخبارِ مِن قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٣].

٣- قَولُه تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ استدَلَّ به مَن قال بوُجوبِ قراءةِ التَّسميةِ في ابتداءِ كُلِّ سُورةٍ، كما أنزَلَ اللهُ تعالى وأمَرَ به[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٧).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧١٨، ٧١٩).

(٤) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٦٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢١٥). =

٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ سُؤالٌ عن توجيهِ الأمرِ بالقِراءةِ إلى نبيٍّ أمِّيٍّ!

**الجوابُ**: لا تَعارُضَ فيه؛ لأنَّ القِراءةَ تكونُ مِن مَكتوبٍ، وتكونُ مِن مَتْلوٍّ، وهنا مِن مَتْلُوٍّ يَتلوه عليه جبريلُ عليه السَّلامُ، وهذا إبرازٌ للمُعجزةِ أكثَرَ؛ لأنَّ الأمِّيَّ بالأمسِ صار مُعَلِّمًا اليومَ، وقد أشار السِّياقُ إلى نوعَيِ القِراءةِ هذَينِ؛ حيثُ جَمَع القراءةَ مع التَّعليمِ بالقَلَمِ[1].

٥- قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قَولِه: ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ في الاقتِصارِ على أمرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بالقِراءةِ، ثمَّ إخبارِه بأنَّ اللهَ عَلَّم الإنسانَ بالقَلَمِ: إيماءٌ إلى استمرارِ صِفةِ الأمِّيَّةِ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ لأنَّها وَصفٌ مُكَمِّلٌ لإعجازِ القُرآنِ؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾[2] [العنكبوت: ٤٨].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قَولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ جَمَعت هذه الآياتُ الخَمسُ مِن أوَّلِ السُّورةِ أُصولَ الصِّفاتِ الإلهيَّةِ؛ فوَصفُ الرَّبِّ يتضَمَّنُ الوُجودَ والوحدانيَّةَ، ووَصفُ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ ووَصْفُ ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ يَقتَضيانِ صِفاتِ الأفعالِ، معَ ما فيه مِنَ الاستدلالِ القَريبِ على ثُبوتِ ما أُشيرَ إليه مِنَ الصِّفاتِ بما تَقتَضيه المَوصوليَّةُ مِن الإيماءِ إلى وَجهِ بِناءِ الخَبَرِ الَّذي يُذكَرُ معها، ووَصفُ ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ يتضمَّنُ صِفاتِ الكَمالِ، والتَّنزيهَ عن النَّقائِصِ[3].

---

= ويُنظَرُ لتفصيلِ الكَلامِ في البَسْملةِ وما يَتَعلَّقُ بقِراءتِها، وهل هي آيةٌ مِن الفاتِحةِ ومِن كلِّ سورةٍ أو ليست كذلك: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٨/ ٨٣).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٠).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ أنَّه ما مِن شَيءٍ في السَّماءِ ولا في الأرضِ مِن خَفيٍّ وظاهرٍ وصَغيرٍ وكَبيرٍ إلَّا وهو مخلوقٌ للهِ عزَّ وجَلَّ؛ ولهذا قال: ﴿خَلَقَ﴾ وحَذَفَ المفعولَ؛ إشارةً للعُموم؛ لأنَّ حَذْفَ المفعولِ يفيدُ العُمومَ؛ إذْ لو ذَكَرَ المفعولَ لَتَقَيَّدَ الفِعلُ به، لو قال: خَلَقَ كذا، تَقَيَّدَ الخَلْقُ بما ذُكِرَ فقط، لكنْ إذا قال: ﴿خَلَقَ﴾ وأَطْلَقَ، صار عامًّا، فهو خالقُ كلِّ شيءٍ جلَّ وعَلا[١].

٨- قولُه تبارك وتعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الرَّبَّ معروفٌ عندَ المخاطَبينَ، وأنَّ الفِطرةَ مُقِرَّةٌ به[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ دَلالةٌ على أنَّ القَولَ بأنَّ المعرِفةَ لا تحصُلُ إلَّا بالنَّظَرِ: غَلَطٌ؛ فإنَّ أوَّلَ ما أوجَبَ اللهُ على رَسولِه وعلى المؤمِنينَ هو ما أَمَرَ به في الآيةِ الكريمةِ هنا، والَّذين قالوا: المعرِفةُ لا تحصُلُ إلَّا بالنَّظَرِ قالوا: لو حَصَلتْ بغَيرِه لَسَقَطَ التَّكليفُ بها، فيُقالُ لهم: وليس فيما قَصَّ اللهُ علينا مِن أخبارِ الرُّسُلِ أنَّ منهم أحدًا أَوجَبَها، بل هي حاصِلةٌ عندَ الأُمَمِ جَميعِهم[٣].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ وفي قَولِه: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ دَلالةٌ على ثُبوتِ صِفاتِ الكَمالِ له سُبحانَه، وأنَّه لم يَزَلْ مُتَّصِفًا بها[٤].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ جُعِلَت العَلَقةُ مَبدَأَ الخَلْقِ، ولم تُجعَلِ النُّطْفةُ مَبدأَ الخَلْقِ؛ لأنَّ النُّطفةَ اشتَهَرت في ماءِ الرَّجُلِ، فلو لم تُخالِطْه نُطفةُ المرأةِ لم تَصِرِ العَلَقةُ، فلا يتخَلَّقُ الجنينُ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ خَلْقَ الإنسانِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٧).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٣٣٩).
(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٣٢).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣٦٨).

مِن عَلَقٍ ثمَّ مَصيرَه إلى كَمالِ أشُدِّه هو خَلْقٌ يَنطوي على قُوًى كامِنةٍ، وقابِليَّاتٍ عَظيمةٍ، أقصاها قابِليَّةُ العِلمِ والكِتابةِ(١).

وأيضًا وقَعَتِ الإشارةُ إلى «العَلَقةِ» دونَ «النُّطْفةِ»؛ لأنَّه ليس كلُّ نُطْفةٍ تصيرُ ولَدًا، وذلك بعدَ الأربعينَ الأُولى في أوَّلِ الطَّورِ الثَّاني؛ ولهذا -واللهُ أعلمُ- وقعتِ الإشارةُ إليه في أوَّلِ سُورةٍ أنزَلَها على رَسولِه؛ إذْ خَلْقُه مِن عَلَقةٍ هو أوَّلُ مَبدأِ الإنسانيَّةِ، وحينَئذٍ يُكتَبُ رِزْقُه وأَجَلُه وعَمَلُه، وشَقاوتُه أو سَعادتُه(٢).

١٢- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ سُؤالٌ: أنَّه بَيَّنَ سُبحانَه في آياتٍ أُخرى أنَّه خَلَقَ الإنسانَ مِن تُرابٍ، وفي آياتٍ أخرى: خَلَقَه مِن طينٍ، وفي آياتٍ أخرى: مِن صَلْصالٍ كالفَخَّارِ، وفي آياتٍ أُخرى: مِن ماءٍ دافقٍ، وفي آياتٍ أخرى: مِن ماءٍ مَهينٍ، وفي هذه الآيةِ: مِن عَلَقٍ، فهل في هذا تناقُضٌ؟

**الجوابُ**: ليس هناك تناقُضٌ، لكِنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى يَذْكُرُ أحيانًا مَبدأَ الخَلْقِ مِن وجهٍ، ومَبدأَ الخَلْقِ مِن وَجهٍ آخَرَ؛ فخَلْقُه مِن ترابٍ لأنَّ أوَّلَ ما خُلِقَ الإنسانُ مِن التُّرابِ، ثُمَّ صُبَّ عليه الماءُ فكان طينًا، ثُمَّ استمرَّ مُدَّةً فكان حَمَأً مَسْنونًا، ثُمَّ طالتْ مُدَّتُه فكان صَلْصالًا، ثُمَّ خَلَقَه عزَّ وجلَّ لحمًا وعَظْمًا وعَصَبًا... إلى آخِرِه، هذا ابتِداءُ الخَلْقِ المتعلِّقِ بآدمَ. والخَلْقُ الآخرُ مِن بَنِيه أوَّلُ مَنْشَئِهم مِن نُطْفةٍ، وهي الماءُ المَهينُ، وهي الماءُ الدَّافِقُ، هذه النُّطْفةُ تبقى في الرَّحِمِ أربعينَ يومًا، ثُمَّ تتحَوَّلُ شيئًا فشَيئًا، وبتَمامِ الأربعينَ تتقَلَّبُ بالتَّطوُّرِ والتَّدريجِ حتَّى تكونَ دَمًا عَلَقةً(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٨).

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ أنَّ مِن إعجازِ القُرآنِ العِلميِّ ذِكْرَ العَلَقةِ؛ لأنَّ الثَّابتَ في العِلمِ الآنَ أنَّ الإنسانَ يَتخلَّقُ مِن بُويضةٍ دَقيقةٍ جِدًّا لا تُرى إلَّا بالمِرآةِ المُكبِّرةِ أضعافًا، ولا تَقبَلُ التَّخلُّقَ حتَّى تُخالِطَها نُطفةُ الرَّجُلِ، فتَمتزِجَ معها، فَتأخُذَ في التَّخلُّقِ إذا لم يَعُقْها عائقٌ، كما قال تعالَى: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ [الحج: ٥]، فإذا أخَذَت في التَّخلُّقِ والنُّموِّ امتدَّ تَكوُّرُها قَليلًا، فشابَهَت العَلَقةَ الَّتي في الماءِ[١] مُشابَهةً تامَّةً في دِقَّةِ الجِسمِ وتَلوُّنِها بلَونِ الدَّمِ الَّذي هي سابحةٌ فيه، وفي كَونِها سابحةً في سائلٍ كما تَسبَحُ العَلَقةُ[٢].

١٤- قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ فالقادِرُ على إيجادِ إنسانٍ في أحسنِ تقويمٍ مِن هذه العلقةِ، قادرٌ على جعلِك قارئًا وإن لم تكُنْ تعلَمُ القراءةَ مِن قبلِ، كما أوجَد الإنسانَ مِن تلك العلقةِ ولم يكُنْ موجودًا مِن قبلُ، ولأنَّ الذي يتعهَّدُ تلك العلقةَ حتَّى تكتمِلَ إنسانًا يتعهَّدُها بالرِّسالةِ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾ إشارةٌ إلى ما ينطوي في أصلِ خَلْقِ الإنسانِ مِن بَديعِ الأطوارِ والصِّفاتِ الَّتي جعَلَتْه سُلطانَ هذا العالَمِ الأرضيِّ[٤].

١٦- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ مجيءُ الوَصفِ هنا بـ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ بدلًا مِن أيِّ صِفةٍ أُخرى؛ لِما في هذه الصِّفةِ مِن تلاؤُمٍ للسِّياقِ ما لا يُناسِبُ مَكانَها غَيرُها؛

---

(١) يُنظر ما تقدَّم (ص: ١٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).
والمَعروفُ أنَّ العَلَقةَ -وهي الطَّورُ الثَّاني الَّذي تَنتَقِلُ إليه النُّطْفةُ- أهَمُّ ما يُميِّزُها في هذه المَرحَلةِ هو التَّعلُّقُ، فوَصْفُ العَلَقةِ العالِقةِ بجِدارِ الرَّحِمِ والمُحاطةِ بالدَّمِ المُتَجمِّدِ هو أدَقُّ وَصْفٍ لهذه المَرْحلةِ؛ ففيها جُمْلةُ تَعلُّقاتٍ. يُنظر: ((خلق الإنسان)) للبار (ص: ٣٦٧).

(٣) يُنظر: ((تتمة الأضواء)) لعطية سالم (٩/ ١٥، ١٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٨).

لعِظَمِ العَطاءِ، وجَزيلِ المِنَّةِ؛ فأوَّلًا: رحمةُ الخليقةِ بهذه القراءةِ الَّتي ربَطَت العِبادَ برَبِّهم، وكفى. وثانيًا: نِعمةُ الخَلْقِ والإيجادِ؛ فهما نِعمتانِ مُتكامِلَتانِ: الإيجادُ مِنَ العَدَمِ بالخَلْقِ، والإيجادُ الثَّاني مِن الجَهلِ إلى العِلمِ، ولا يكونُ هذا كُلُّه إلَّا مِن الرَّبِّ الأكرَمِ سُبحانَه[1].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ سمَّى اللهُ ووَصَفَ نفْسَه بالكَرَمِ، وبأنَّه الأكرَمُ بعدَ إخبارِه أنَّه خَلَقَ؛ لِيُتبيَّنَ أنَّه يُنْعِمُ على المخلوقينَ ويُوصِلُهم إلى الغاياتِ المحمودةِ، كما قال في موضعٍ آخَرَ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢، ٣]، وكما قال موسى عليه السَّلامُ: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وكما قال الخليلُ عليه السَّلامُ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]، فالخَلْقُ يتضمَّنُ الابتداءَ، والكَرَمُ يتضمَّنُ الانتهاءَ، وكما قال في أمِّ القُرآنِ: ﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، ثمَّ قال ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾، ولَفظُ الكَرَمِ لَفظٌ جامِعٌ للمحاسِنِ والمحامِدِ، لا يُرادُ به مجرَّدُ الإعطاءِ، بل الإعطاءُ مِن تمامِ معناه؛ فإنَّ الإحسانَ إلى الغيرِ تمامُ المحاسِنِ، والكَرَمُ كثرةُ الخَيرِ ويُسْرتُه[2].

١٨- قَولُه تعالى: ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ يَقتضي اتِّصافَه بالكَرَمِ في نفْسِه، وأنَّه الأكرَمُ، وأنَّه مُحْسِنٌ إلى عبادِه؛ فهو مُستحِقٌّ للحَمدِ لمحاسِنِه وإحسانِه[3].

١٩- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ أخبَرَ أنَّه «الأكرَمُ» بصيغةِ التَّفضيلِ والتَّعريفِ لها؛ فدلَّ على أنَّه الأكرَمُ وَحْدَه، بخلافِ ما لو قال: «وربُّك أكرَمُ»؛ فإنَّه لا يدُلُّ على الحَصرِ، وقَولُه: ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ يدُلُّ على الحَصرِ، ولم يَقُلْ: «الأكرَمُ مِن كذا»، بل أطلَقَ الاسمَ؛ لِيُبيِّنَ أنَّه الأكرمُ مطلقًا غيرَ مُقيَّدٍ؛ فدلَّ على أنَّه متَّصِفٌ بغايةِ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٣).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٣١٧).

الكَرَمِ الَّذي لا شيءَ فوقَه، ولا نَقْصَ فيه[١].

٢٠- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ سؤالٌ: أنَّه إذا كان تعالى تمدَّح بأنَّه عَلَّم بالقَلَمِ، وفي ذلك إشادةٌ بشأنِ القَلَم، فلماذا لم يكُنِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كاتِبًا به، ولا مِن أهْلِه، بل كان أمِّيًّا لا يقرَأُ ولا يكتُبُ؟!

**الجوابُ مِن جِهَتينِ:**

**الأُولى**: أنَّه أكمَلُ للمُعجِزةِ؛ حيث أصبحَ النَّبيُّ الأمِّيُّ مُعَلِّمًا، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

**الثَّانيةُ**: أنَّه لم يكُنْ هذا النَّبيُّ الأمِّيُّ مُغفِلًا شأنَ القَلَم، بل عُنِيَ به كُلَّ العنايةِ، وأوَّلُها وأعظَمُها أنَّه اتَّخذ كُتَّابًا للوَحْيِ يَكتُبونَ ما يُوحى إليه بيْن يَدَيه، مع أنَّه يَحفَظُه ويَضبِطُه، وتعهَّدَ اللهُ له بحِفْظِه وبضَبْطِه[٢].

٢١- قولُه تعالى: ﴿ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ كأنَّه ليس وَراءَ التَّكرُّمِ بإفادةِ الفوائدِ العِلميَّةِ تَكرُّمٌ؛ فدَلَّ على كَمالِ كَرَمِه بأنَّه علَّمَ عِبادَه ما لم يَعلَموا، ونَقَلَهم مِن ظُلمةِ الجهْلِ إلى نُورِ العِلم، ونبَّهَ على فَضلِ عِلمِ الكتابةِ؛ لِما فيه مِن المنافعِ العَظيمةِ الَّتي لا يُحيطُ بها إلَّا هو، وما دُوِّنَت العلومُ، ولا قُيِّدَت الحِكَمُ، ولا ضُبِطَت أخبارُ الأوَّلينَ ولا مَقالاتُهم ولا كُتبُ اللهِ المُنزَّلةِ؛ إلَّا بالكتابةِ، ولولا هي لَما استَقامَتْ أُمورُ الدِّينِ والدُّنيا، ولو لم يكُنْ على دَقيقِ حِكمةِ اللهِ تعالَى ولَطيفِ تَدبيرِه دَليلٌ إلَّا أمْرَ الخطِّ والقلَمِ؛ لَكفى به[٣].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٩٥).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٨، ١٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧).

٢٢- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وقد حَصَلَت مِن ذِكرِ التَّعليمِ بالقلَمِ والتَّعليمِ الأعمِّ، إشارةٌ إلى ما يَتلقَّاهُ الإنسانُ مِن التَّعاليمِ، سواءٌ أكان بالدَّرسِ أمْ بمُطالَعةِ الكُتبِ، وأنَّ تَحصيلَ العلومِ يَعتمِدُ أُمورًا ثلاثةً:

**أحدُها**: الأخْذُ عن الغيرِ بالمراجَعةِ والمُطالَعةِ، وطَريقُهما الكتابةُ وقِراءةُ الكتبِ؛ فإنَّ بالكتابةِ أمكَنَ للأُمَمِ تَدوينُ آراءِ عُلماءِ البشَرِ، ونَقْلُها إلى الأقطارِ النَّائيةِ، وفي الأجيالِ الجائيةِ.

**والثَّاني**: التَّلقِّي مِن الأفواهِ بالدَّرسِ والإملاءِ.

**والثَّالثُ**: ما تَنقدِحُ به العقولُ مِن المُستنبَطاتِ والمخترَعاتِ، وهذانِ داخلانِ تحتَ قولِه تعالَى: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وفي ذلك اطمئنانٌ لنفْسِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ عَدَمَ مَعرفتِه الكتابةَ لا يَحولُ دونَ قِراءتِه؛ لأنَّ اللهَ علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلَمْ، فالَّذي علَّمَ القراءةَ لأصحابِ المعرفةِ بالكتابةِ قادرٌ على أنْ يُعلِّمَك القراءةَ دونَ سَبْقِ مَعرفةٍ بالكتابةِ[1].

٢٣- قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ ذكَرَ التَّعليمَ بالقلَمِ الَّذي هو مِن أعظَمِ نِعَمِه على عبادِه؛ إذ به تَخلُدُ العُلومُ، وتَثبُتُ الحقوقُ، وتُعلَمُ الوصايا، وتُحفَظُ الشَّهاداتُ، ويُضبَطُ حِسابُ المعاملاتِ الواقعةِ بيْن النَّاسِ، وبه تُقَيَّدُ أخبارُ الماضينَ للباقينَ اللَّاحِقينَ، ولولا الكتابةُ لَانقطَعَت أخبارُ بَعضِ الأزمنةِ عن بعضٍ، ودَرَسَت السُّنَنُ، وتخبَّطَت الأحكامُ، ولم يَعرِفِ الخَلَفُ مَذاهِبَ السَّلَفِ، وكان مُعظَمُ الخَلَلِ الدَّاخِلِ على النَّاسِ في دينِهم ودُنياهم إنَّما يَعتريهم مِن النِّسيانِ الَّذي يمحو صُوَرَ العِلمِ مِن قُلوبِهم، فجَعَل لهم الكتابَ وِعاءً حافِظًا للعِلمِ مِنَ الضَّياعِ، كالأوعيةِ الَّتي تحفَظُ الأمتعةَ مِنَ الذَّهابِ والبُطلانِ؛ فنِعمةُ اللهِ عزَّ وجَلَّ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤١).

بتعليمِ القَلَمِ بعدَ القرآنِ مِن أجَلِّ النِّعَمِ[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾

- لم يُذكَرْ لفعلِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ مَفعولٌ؛ إمَّا لأنَّه نُزِّلَ مَنزلةَ اللَّازمِ وأنَّ المَقصودَ: أَوجِدِ القراءةَ، وإمَّا لظُهورِ المَقروءِ مِن المَقامِ، وتَقديرُه: اقرَأْ ما سنُلْقِيه إليك مِن القرآنِ[٢].

- وقولُه: ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ فيه وُجوهٌ؛ أوَّلُها: أنْ يكونَ افتتاحَ كَلامٍ بعْدَ جُملةِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ وهو أوَّلُ المَقروءِ، أي قُلْ: باسمِ اللهِ، فتَكونَ الباءُ للاستعانةِ، فيَجوزُ تَعلُّقُه بمَحذوفٍ تَقديرُه: ابتَدِئْ، ويَجوزُ أنْ يَتعلَّقَ بـ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثَّاني، فيَكونَ تَقديمُه على مَعمولِه للاهتمامِ بشَأنِ اسمِ اللهِ، ومعْنى الاستعانةِ باسمِ اللهِ ذِكرُ اسمِه عِندَ هذه القِراءةِ، وإقحامُ كَلمةِ (اسم)؛ لأنَّ الاستعانةَ بذِكرِ اسمِه تعالَى لا بذاتِه، وهذا الوجْهُ يَقْتضي أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: (باسمِ اللهِ) حِينَ تَلقَّى هذه الجُملةَ.

الثَّاني: أنْ تكونَ الباءُ للمُصاحَبةِ، ويكونَ المَجرورُ في مَوضعِ الحالِ مِن ضَميرِ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثَّاني مُقدَّمًا على عامِلِه للاختصاصِ، أي: اقرَأْ ما سَيُوحى إليك مُصاحِبًا قِراءتَك (اسْم ربِّك)، فالمُصاحَبةُ مُصاحَبةُ الفَهمِ والملاحظةِ لجَلالِه، ويكونَ هذا إثباتًا لوَحدانيَّةِ اللهِ بالإلهيَّةِ، وإبطالًا للنِّداءِ باسمِ الأصنامِ الَّذي كان يَفعَلُه المشركون؛ يَقولون: باسمِ اللَّاتِ، باسمِ العُزَّى، فهذا أوَّلُ ما جاء مِن قَواعدِ الإسلامِ قدِ افتُتِحَ به أوَّلُ الوحْيِ.

---

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٦).

الثَّالثُ: أنْ تكونَ الباءُ بمعْنى (على)، كقولِه تعالَى: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ﴾ [آل عمران: ٧٥]، أي: على قِنطارٍ، والمعْنى: اقرَأْ على اسمِ ربِّك، أي: على إذْنِه، أي: إنَّ المَلَكَ جاءك على اسمِ ربِّك، أي: مُرسَلًا مِن ربِّك، فذِكرُ (اسم) على هذا مُتعيِّنٌ(١).

- قولُه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ جاءَ باسمِ ربِّك، ولم يأتِ بلَفظِ الجَلالةِ؛ لِمَا في لفْظِ الرَّبِّ مِن معنى الَّذي ربَّاك ونظَر في مصلحتِك؛ فعُدِلَ عن اسْمِ اللهِ العَلَمِ إلى صِفةِ ﴿رَبِّكَ﴾؛ لِما يُؤذِنُ وَصْفُ الرَّبِّ مِن الرَّأفةِ بالمَربوبِ والعِنايةِ به، مع ما يَتأتَّى بذِكرِه مِن إضافتِه إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إضافةً مُؤذِنةً بتَبْليغِه عليه السَّلامُ إلى الغايةِ القاصيةِ مِنَ الكَمالاتِ البَشريَّةِ بإنْزالِ الوَحيِ المُتواتِرِ، وأنَّه المُنفرِدُ برُبوبيَّتِه عندَه، ردًّا على الَّذين جَعَلوا لأنفُسِهم أربابًا مِن دُونِ اللهِ، فجاء الخِطابُ ﴿رَبِّكَ﴾؛ ليدُلَّ على الاختصاصِ والتَّأنيسِ، أي: ليس لك رَبٌّ غيرُه(٢).

- ووَصْفُ الربِّ بقَولِه تعالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ لتَذكيرِ أوَّلِ النَّعماءِ الفائضةِ على الإنسانِ من الله تعالَى، والتَّنبيهِ على أنَّ مَنْ قدَرَ عَلى خلْقِ الإنسانِ على ما هو عليه مِن الحياةِ وما يَتْبَعُها مِنَ الكَمالاتِ العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ، مِن مادَّةٍ لم تَشَمَّ رائحةَ الحياةِ فضْلًا عن سائرِ الكَمالاتِ؛ قادرٌ على تَعليمِ القراءةِ للحيِّ العالِمِ المُتكلِّمِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٦، ٥٠٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧).

- وكذلك في قولِه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ لم يَذكُرْ مَفعولَ ﴿خَلَقَ﴾ الأوَّلِ، ثمَّ قال: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ وذلك إمَّا ألَّا يُقدَّرَ له مَفعولٌ لتَنزيلِ الفِعلِ مَنزلةَ اللَّازمِ، أي: الَّذي هو الخالقُ، وأنْ يُرادَ أنَّه الَّذي حَصَلَ منه الخلْقُ واسْتأثَرَ به، لا خالقَ سِواهُ، وإمَّا أنْ يُقدَّرَ له مَفعولٌ، ويُرادَ: خَلَقَ كلَّ شَيءٍ، فيَتناوَلَ كلَّ مَخلوقٍ؛ لأنَّه مُطلَقٌ، فليس بَعضُ المخلوقاتِ أَولى بتَقديرِه مِن بَعضٍ، ويكونَ قولُه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ تَخصيصًا للإنسانِ بالذِّكرِ مِن بيْنِ ما يَتناوَلُه الخلْقُ؛ لأنَّ التَّنزيلَ إليه، وهو أشرَفُ ما على الأرضِ، وأظهَرُ صُنْعًا وتَدْبيرًا، وأدَلُّ على وُجوبِ العبادةِ المقصودةِ مِن القراءةِ، أو أنْ يكونَ تَقديرُه: الَّذي خَلَقَ الإنسانَ؛ اعتمادًا على ما يَرِدُ بعْدَه مِن قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، فقيل: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ مُبهَمًا، ثمَّ فسَّرَه بقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ تَفخيمًا لخلْقِ الإنسانِ، ودَلالةً على عَجيبِ فِطرتِه[1].

- وجُملةُ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ بدَلًا مِن جُملةِ ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ بدَلَ مُفصَّلٍ مِن مُجمَلٍ، إنْ لم يُقدَّرْ له مَفعولٌ، أو بدَلَ بَعضٍ، إنْ قُدِّرَ له مَفعولٌ عامٌّ، وسُلِكَ طَريقُ الإبدالِ؛ لِما فيه مِن الإجمالِ ابتداءً لإقامةِ الاستِدلالِ على افتقارِ المَخلوقاتِ كلِّها إليه تعالَى؛ لأنَّ المقامَ مَقامُ الشُّروعِ في تَأسيسِ مِلَّةِ الإسلامِ، ففي الإجمالِ إحضارٌ للدَّليلِ مع الاختصارِ، مع ما فيه مِن إفادةِ التَّعميمِ، ثمَّ يكونُ التَّفصيلُ بعْدَ ذلك لزِيادةِ تَقريرِ الدَّليلِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ بَيانًا مِن ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ إذا قُدِّرَ لِفعلِ ﴿خَلَقَ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٧).

الأوَّلِ مَفعولٌ دلَّ عليه بَيانُه، فيَكونَ تَقديرُ الكلامِ: اقرَأْ باسمِ ربِّك الَّذي خَلَقَ الإنسانَ مِن عَلَقٍ[١].

- وخُصَّ خلْقُ الإنسانِ بالذِّكرِ مِن بيْنِ بَقيَّةِ المخلوقاتِ؛ لأنَّه المُطَّردُ في مَقامِ الاستدلالِ؛ إذ لا يَغفُلُ أحدٌ مِن النَّاسِ عن نفْسِه، ولا يَخْلو مِن أنْ يَخطُرَ له خاطرُ البحثِ عن الَّذي خَلَقَه وأوجَدَه؛ ولذلك قال تعالَى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، وفيه تَعريضٌ بتَحميقِ المشركين الَّذين ضلُّوا عن تَوحيدِ اللهِ تعالَى مع أنَّ دَليلَ الوَحدانيَّةِ قائمٌ في أنفُسِهم[٢]!

- قولُه: ﴿مِنۡ عَلَقٍ﴾، أيْ: دمٍ جامدٍ؛ لبَيانِ كَمالِ قُدرتِه تعالَى بإظهارِ ما بيْن حالتِه الأُولى والآخرةِ مِن التَّبايُنِ البيِّنِ. وإيرادُه بلَفْظِ الجمْعِ؛ لأنَّ الإنسانَ في معنى الجَمعِ، كقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ٢]، ولمُراعاةِ الفَواصلِ. ولعلَّه هو السِّرُّ في تَخصيصِه بالذِّكرِ مِن بيْنِ سائرِ أطْوارِ الفِطرةِ الإنسانيَّةِ، مع كَونِ النُّطفةِ والتُّرابِ أدَلَّ منْه على كَمالِ القُدرةِ؛ لكَونِهما أبعَدَ منْهُ بالنِّسبةِ إلى الإنسانيَّةِ[٣].

- وقيل: إنَّما ذُكِرَ مَن خُلِقَ مِن عَلَقٍ؛ لأنَّهم مُقِرُّون به، ولم يُذكَرْ أصْلُهم آدَمُ؛ لأنَّه ليس مُتقرِّرًا عندَ الكفَّارِ، فسِيقَ الفرْعُ، وتُرِكَ أصْلُ الخِلقةِ تَقريبًا لأفهامِهم[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٥، ٧٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٧). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠١- ٤٠٢).

- قولُه: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ جاء الأمرُ بالقِراءةِ ثانيًا تَأنيسًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، كأنَّه قِيل: امْضِ لِما أُمِرْتَ به، وربُّك ليس مِثلَ هذه الأربابِ، بلْ هو الأكرَمُ الَّذي لا يَلحَقُه نقْصٌ[1]. وقيل: قولُه: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، أي: افعَلْ ما أُمِرْتَ به؛ تَكرَّرَ للمُبالَغةِ، وتَأكيدًا للإيجابِ، وتَمهيدًا لِما يَعقُبُه مِن قولِه تعالَى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ...﴾ إلخ؛ ففِعلُ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الثَّاني تأكيدٌ لـ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ الأوَّلِ؛ للاهتمامِ بهذا الأمرِ. وقيل: الأوَّلُ مطلقٌ، والثَّاني للتَّبليغِ أو في الصَّلاةِ[2].

- قولُه: ﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ جُملةٌ مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾، فلها حُكْمُ الاستئنافِ، و(رَبُّكَ) مُبتدَأٌ، وخَبرُه إمَّا ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾، وإمَّا جُملةُ ﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾، وهذا الاستِئنافُ بَيانيٌّ، فإذا نَظَرْتَ إلى الآيةِ مُستقِلَّةً عمَّا تَضمَّنَه حَديثُ عائشةَ رضيَ الله عنها في وَصْفِ سَببِ نُزولِها، كان الاستِئنافُ ناشئًا عن سُؤالٍ يَجيشُ في خاطرِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يَقولَ: كيف أقرَأُ وأنا لا أُحسِنُ القراءةَ والكتابةَ؟ فأُجيبَ بأنَّ الَّذي علَّمَ القراءةَ بواسطةِ القَلَمِ -أي: بواسطةِ الكِتابةِ- يُعلِّمُك ما لم تَعلَمْ، وإذا قرَنْتَ بيْن الآيةِ وبيْن الحديثِ المذكورِ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٩).

وقال ابن عثيمين: (﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ﴾ ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ تَكرارٌ للأُولى، لكِنْ هل هي توكيدٌ أو هي تأسيسٌ؟ الصَّحيحُ أنَّها تأسيس، وأنَّ الأُولى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ قُرِنَت بما يتعَلَّقُ بالرُّبوبيَّةِ، و﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ قُرِنَت بما يتعَلَّقُ بالشَّرعِ؛ ... لأنَّ التَّعليمَ بالقَلَمِ أكثَرُ ما يعتَمِدُ الشَّرعُ عليه؛ إذ إنَّ الشَّرعَ يُكتَبُ ويُحفَظُ، والقُرآنَ يُكتَبُ ويُحفَظُ، والسُّنَّةَ تُكتَبُ وتُحفَظُ، وكلامَ العُلَماءِ يُكتَبُ ويُحفَظُ؛ فلهذا أعادها اللهُ مرَّةً ثانيةً). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٥٩).

كان الاستئنافُ جَوابًا عن قولِه لجِبريلَ: ((ما أنا بقارئٍ))[١]؛ فالمعْنى: لا عَجَبَ في أنْ تَقرَأَ وإنْ لم تكُنْ مِن قبْلُ عالِمًا بالقِراءةِ؛ إذ العِلمُ بالقِراءةِ يَحصُلُ بوَسائلَ أُخرَى، مِثلُ الإمْلاءِ والتَّلقينِ والإلهامِ، وقد علَّمَ اللهُ آدَمَ الأسماءَ ولم يكُنْ آدَمُ قارئًا[٢].

- ووصْفُ ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾ قيل: إنَّه مَصوغٌ للدَّلالةِ على قوَّةِ الاتِّصافِ بالكرَمِ، وليس مَصوغًا للمُفاضَلةِ، فهو مَسلوبُ المُفاضَلةِ، وقيل: هو على ظاهرِه، والمفضَّلُ عليه محذوفٌ لقصدِ العمومِ[٣].

- ومَفعولَا ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ مَحذوفانِ دلَّ عليهما قولُه: ﴿بِٱلْقَلَمِ﴾؛ إذ المَقصودُ إسنادُ التَّعليمِ إلى اللهِ تعالَى، وتَقديرُهما: علَّم الكاتِبينَ، أو علَّمَ ناسًا الكتابةَ[٤]. وفي حذْفِ المفعولِ أوَّلًا، وإيرادِه بعُنوانِ عدَمِ المَعلوميَّةِ ثانيًا مِن الدَّلالةِ على كَمالِ قُدرتِه تعالَى، وكَمالِ كَرَمِه، والإشعارِ بأنَّه تعالَى يُعلِّمُه مِن العلومِ ما لا تُحيطُ بِه العقولُ؛ ما لا يَخْفى[٥].

- ومُقْتضَى الظَّاهِرِ أنْ يُقالَ: (وعلَّمَ بالقلَمِ)، فعُدِلَ عن الإضمارِ؛ لتَأكيدِ ما يُشعِرُ به (ربُّك) مِن العِنايةِ المُستفادةِ مِن قولِه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾، وأنَّ هذه القِراءةَ شَأنٌ مِن شُؤونِ الرَّبِّ، اختَصَّ بها عَبْدَه؛ إتمامًا لنِعمةِ الرُّبوبيَّةِ عليه، وليَجرِيَ على لَفظِ الرَّبِّ وَصْفُ ﴿ٱلْأَكْرَمُ﴾[٦].

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٩).

(٣) يُنظر: ((حاشيه الشهاب علي تفسير البيضاوي))(٨/ ٣٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٣٩).

- وقيل: تَخصيصُ هذه الصِّلةِ ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ بالذِّكرِ، وجَعْلُها مُعترِضةً بيْنَ المُبتدأِ ﴿وَرَبُّكَ﴾ والخبَرِ ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛ للإيماءِ إلى إزالةِ ما خَطَرَ ببالِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن تَعذُّرِ القِراءةِ عليه؛ لأنَّه لا يَعلَمُ الكِتابةَ، فكيفَ القِراءةُ؟! إذ قال للمَلَكِ: ((ما أنا بقارئٍ)) ثَلاثَ مرَّاتٍ؛ لأنَّ قولَه: ((ما أنا بقارئٍ)) اعتذارٌ عن تَعذُّرِ امتثالِ أمْرِه بقولِه: ﴿ٱقْرَأْ﴾؛ فالمعْنى: أنَّ الَّذي علَّمَ النَّاسَ الكتابةَ بالقَلَمِ والقراءةَ قادِرٌ على أنْ يُعلِّمَك القراءةَ وأنت لا تَعلَمُ الكِتابةَ[١].

- وقولُه: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ بدَلُ اشتمالٍ[٢] مِن ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، أي: علَّمَه بِهِ وبدُونِه مِنَ الأمورِ الكُلِّيَّةِ والجُزئيَّةِ، والجَليَّةِ والخَفيَّةِ ما لم يَخطُرْ ببالِه[٣].

- وتَعريفُ ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ تَعريفَ الجِنسِ، فيكونَ ارتقاءً في الإعلامِ بما قدَّرَه اللهُ تعالَى مِن تَعليمِ الإنسانِ بتَعميمِ التَّعليمِ بعْدَ تَخصيصِ التَّعليمِ بالقَلَمِ، فعدَّدَ عليه اكتسابَ العُلومِ بعْدَ الجهْلِ بها[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٠).

(٢) بَدلُ الاشتمالِ: هو الَّذي يدُلُّ على مَعنًى في مَتْبوعِه أو صِفةٍ فيه، مِثلُ: أعْجَبَني مُحمَّدٌ خُلُقُه؛ فـ(خُلُقُه) بَدَلٌ مِن (مُحمَّدٌ)؛ بَدَلُ اشْتِمالٍ. يُنظر: ((أوضح المسالك)) لابن هشام (٣/ ٣٦٥)، ((توضيح المقاصد)) للمرادي (٢/ ١٠٣٧)، ((شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك)) لابن مالك (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨).

قال أبو العباسِ القرطبي: (﴿مَا﴾ لإبهامِها للعمومِ؛ إذ الله تعالى علَّم كلَّ واحدٍ مِن نوعِ الإنسانِ ما لم يكُنْ يعلَمُ، لكنَّ الامتنانَ إنَّما يحصُلُ بالعلومِ النَّافعةِ لا غيرُ، فهي المقصودةُ بهذا العمومِ، والله أعلمُ). ((المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم)) (٧/ ٤٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤١).

- وفيه ترتيبٌ حسنٌ بديعٌ، حيثُ عدَّدَ سُبحانه وتعالَى مَبدَأَ أمْرِ الإنسانِ ومُنتهاهُ إظهارًا لِما أنْعَمَ عليه؛ مِن أنْ نَقَلَه مِن أخسِّ المَراتبِ إلى أعْلاها؛ تَقريرًا لرُبوبيَّتِه، وتَحقيقًا لِأكْرَميَّتِه، وأشار أوَّلًا إلى ما يدُلُّ على مَعرفتِه عقْلًا، ثمَّ نبَّهَ على ما يدُلُّ عليها سَمْعًا[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥).

## الآيات (٦-١٩)

﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ١٣ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ١٩ ﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لَيَطۡغَىٰٓ﴾: أي: يَتَجاوَزُ الحَدَّ في الخُروجِ عن الحَقِّ، وأصلُ (طغى): هو مجاوَزةُ الحَدِّ في العِصْيانِ[(١)].

﴿ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾: أي: المَرجِعَ والرُّجوعَ، يُقالُ: رجَعَ إليه يرجِعُ رُجوعًا ومَرجِعًا، ورُجْعَى: مصدَرٌ على فُعْلَى. وأصلُ (رجع): يدُلُّ على رَدٍّ وتَكرارٍ[(٢)].

﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾: أي: لَنَقبِضَنَّ بناصيتِه ونَجُرُّه بها ذليلًا، والسَّفْعُ: الجَذْبُ بشِدَّةٍ، يُقالُ: سَفَعَه: إذا اقتلَعَه مِن مَوضِعِه بجَذْبِ بَعْضِه جَذبًا شَديدًا. وقيل: أي: لَنُحرِقَنَّه ولَنُسَوِّدَنَّ وَجْهَه؛ مأخوذٌ مِن سفَعَتْه النَّارُ: إذا أحرَقَتْه، وغَيَّرَت وَجْهَه إلى حالِ تسويدٍ. والنَّاصيةُ: شَعرُ مُقَدَّمِ الرَّأسِ، وقد يُعَبَّرُ بها عن جملةِ الإنسانِ، وأصلُ (سفع): يدُلُّ على السَّوادِ، وعلى تناوُلِ شَيءٍ باليَدِ[(٣)].

﴿خَاطِئَةٖ﴾: الخاطِئُ: اسمُ فاعِلٍ مِن خَطِئَ: إذا فَعَل الخطيئةَ، وهي الإثمُ والذَّنبُ،

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤١٢)، ((المفردات)) للراغب (ص٥٢٠)، ((تفسير القرطبي)) (٦/ ٢٤٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٩٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٧٣).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٨٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ١٧٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٥).

ومَصْدَرُه: الخِطْءُ، وأصلُه: يدُلُّ على تعَدِّي الشَّيءِ، والذَّهابِ عنه[١].

﴿نَادِيَهُۥ﴾: أي: قَومَه وعَشيرتَه وأهلَ مَجلِسِه، يُقالُ: نَدَوْتُ القَومَ أَنْدُوهم نَدْوًا: إذا جمَعْتَهم، ويُقالُ للمَوضِعِ الَّذي يجتَمِعون فيه: النَّادِي، وأصلُ (ندو): يدُلُّ على تجَمُّعٍ[٢].

﴿ٱلزَّبَانِيَةَ﴾: أي: ملائِكةَ العَذابِ الغِلاظَ الشِّدادَ؛ مأخوذٌ مِنَ الزَّبْنِ، وهو الدَّفعُ بشِدَّةٍ، وسُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يَدفَعونَ أهلَ النَّارِ إليها، وأصلُ (زبن): يدُلُّ على الدَّفعِ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مبيِّنًا الأسبابَ الَّتي تحمِلُ الإنسانَ على الطُّغيانِ: كَلَّا! إنَّ مِن شأنِ الإنسانِ وطَبْعِه أن يطغَى إذا كَثُرَ مالُه، ورأى نَفْسَه غَنِيًّا بما أنعمَ اللهُ عليه، مُستَغنيًا عن غَيْرِه بذلك!

ثُمَّ يَتوعَّدُ اللهُ تَعالى مَن يَطْغى ويَعِظُه، فيقول: إنَّ إلى رَبِّك -يا محمَّدُ- المَرجِعَ والمصيرَ.

ثُمَّ يقولُ تَعالى مُعَجِّبًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّمَ مِن حالِ شَقِيٍّ مِن الأشْقِياءِ وأمْثالِه: أرأَيْتَ -يا محمَّدُ- هذا الطَّاغيَ أبا جَهلٍ الَّذي يَنهاك عن الصَّلاةِ؟ فماذا لو كان هذا العَبدُ المَنهيُّ عن الصَّلاةِ على استقامةٍ وسَدادٍ في صلاتِه لرَبِّه، أو كان آمِرًا بتقوى اللهِ؟!

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٠/ ٧٦).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤١١)، ((البسيط)) للواحدي (١٤/ ٣٠٢) و(٢٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٢).

أرأَيتَ- يا محمَّدُ- هذا الَّذي كذَّبَ بالحَقِّ، وأعرَضَ عن اتِّباعِه، ألم يعلَمْ بأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليه وعلى أفعالِه وأقوالِه؟

ثُمَّ يقولُ تَعالى مُتَوعِّدًا هذا الكافِرَ الشَّقِيَّ: كَلَّا! لَئِنْ لم يتوقَّفْ عن نهيِ محمَّدٍ عن الصَّلاةِ لَنأخُذَنَّ بناصيتِه إذلالًا له؛ تلك النَّاصيةِ الكاذِبةِ في أقوالِها، الخاطِئةِ في أفعالِها.

ثُمَّ يقولُ تَعالى مُتَهكِّمًا مِن هذا الكافِرِ: فلْيَدْعُ أبو جَهلٍ أهلَ مَجلِسِه مِن قَومِه وعَشيرتِه؛ لِيَستنصِرَ بهم، ونحن سنَدعو ملائِكةَ العَذابِ الغِلاظَ الشِّدادَ.

ثُمَّ يَأمُرُ اللهُ تَعالى نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أن يُداوِمَ على عِبادةِ رَبِّه، وألَّا يَنْقادَ لنَهْيِ هذا الكافِرِ، فيقولُ: كلَّا! لا تُطِعْه -يا محمَّدُ- في نَهْيِه لك عن الصَّلاةِ، ولا تُبالِ به، واسجُدْ لرَبِّك في صَلاتِك واقتَرِبْ منه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: (قال أبو جَهلٍ: هل يُعفِّرُ محمَّدٌ وَجْهَه[1] بيْن أظهُرِكم[2]؟! فقيل: نعَمْ. فقال: واللَّاتِ والعُزَّى لئِنْ رأيتُه يَفعَلُ ذلك لَأطأَنَّ على رقَبتِه، أو لأُعفِّرَنَّ وَجْهَه في التُّرابِ، فأتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يصَلِّي؛ زعَمَ لِيَطَأَ على رَقَبتِه، قال: فما فَجِئَهم منه إلَّا وهو يَنكِصُ على عَقِبَيه، ويَتَّقي بيَدَيه. فقيل له: ما لَك؟! فقال: إنَّ بيْني وبيْنه لَخَنْدقًا مِن نارٍ وهَولًا

(١) هل يُعَفِّرُ محمَّدٌ وجْهَه: أي: يَسجُدُ ويُلصِقُه بالعَفَرِ، وهو التُّرابُ. يُنظر: ((إكمال المعلم بفوائد مسلم)) لعياض (٨/ ٣٢٩).

(٢) بيْن أظْهُرِكم: أي: بيْنَكم. يُنظر: ((المفاتيح في شرح المصابيح)) للمُظْهِري (٦/ ١٧٦).

وأجنحةً! فقال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: لو دنا منِّي لَاختَطَفَته الملائكةُ عُضوًا عُضوًا، فأنزل اللهُ عزَّ وجَلَّ -لا ندري في حديثِ أبي هُرَيرةَ، أو شَيءٌ بلَغَه[1]-: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۞ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ۞ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۞ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۞ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ۞ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ۞ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٦ - ١٣] -يعني: أبا جَهلٍ- ﴿أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۞ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ۞ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ۞ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۞ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ [العلق: ١٤ - ١٩])[2].

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ تعالى في مقَدِّمةِ السُّورةِ دلائِلَ ظاهِرةً على التَّوحيدِ والقُدرةِ والحِكمةِ بحيثُ يَبعُدُ مِن العاقِلِ ألَّا يطَّلِعَ عليها، ولا يَقِفَ على حقائِقِها؛ أتْبَعَها بما هو السَّبَبُ الأصليُّ في الغَفلةِ عنها، وهو: حُبُّ الدُّنيا، والاشتِغالُ بالمالِ والجاهِ، والثَّروةِ والقُدرةِ؛ فإنَّه لا سَبَبَ لعَمى القَلبِ في الحقيقةِ إلَّا ذلك[3].

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦﴾.

أي: ما هكذا يَنبغي أن يكونَ الإنسانُ؛ أن يُنعِمَ عليه رَبُّه بخَلْقِه وتعليمِه، ثمَّ يَكفُرَ به، ويَتجاوَزَ حَدَّه، ويَستكبِرَ عليه[4]!

---

(١) هذا مِن قولِ الرَّاوي عن أبي هريرةَ، يقولُ: لا نعلَمُ هل الإخبارُ عن إنزالِ الآيةِ داخلٌ فيما رآه أبو هريرةَ وحضَره، أو شيءٌ بلَغه عن غيرِه ممَّن حضَره ورآه. يُنظر: ((الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم)) للهرري (٢٥/ ٤٠١).

(٢) رواه مسلم (٢٧٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٠). =

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾.

أي: إنَّ مِن شأنِ الإنسانِ وطَبْعِه أن يَطغى إذا كَثُرَ مالُه، ورأى نَفْسَه غَنِيًّا بما أنعمَ اللهُ عليه، مُستَغنيًا عن غَيْرِه بذلك[1].

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨﴾.

أي: إنَّ إلى رَبِّك -يا محمَّدُ- المَرجِعَ والمصيرَ، فيُجازي ذلك الطَّاغيَ على أعمالِه[2].

﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠﴾.

أي: أرأَيْتَ -يا محمَّدُ- هذا الطَّاغيَ أبا جَهلٍ الَّذي ينهى عَبدًا للهِ -وهو محمَّدٌ

---

= قال الألوسي: (﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لمَن كفَر مِن جنسِ الإنسانِ بنعمةِ الله تعالى عليه بطغيانِه، وإن لم يُذكَرْ لدلالةِ الكلامِ عليه، وذلك لأنَّ مفتتحَ السُّورةِ إلى هذا المقطعِ يدلُّ على عظيمِ منَّتِه تعالى على الإنسانِ، فإذا قيل: ﴿كَلَّآ﴾ كان ردعًا للإنسانِ الذي قابَل تلك النِّعمَ الجلائلَ بالكفرانِ وبالطُّغيانِ، وكذلك التعليلُ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ أي: ليتجاوزُ الحدَّ في المعصيةِ واتِّباعِ هوَى النَّفسِ، ويستكبرُ على ربِّه عزَّ وجلَّ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠٣).

وقال ابنُ القيِّم: (الإنسانُ هو الإنسانُ مِن حيثُ هو، من غيرِ اختصاصٍ بواحدٍ بعَينِه). ((الروح)) (ص: ١٢٦).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (كَلَّا: هي ردٌّ على أقوالِ أبي جَهلٍ وأفعالِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٦).

قال الألوسي: (الخطابُ قيل: للإنسانِ... وجُوِّز أنْ يكونَ الخطابُ لسيدِ المخاطَبينَ صلَّى الله عليه وسلَّم... ولعلَّه الأظهرُ نظرًا إلى الخطاباتِ قبلَه). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠٤).

عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ- إذا صلَّى لله سُبحانَه عِندَ الكَعْبةِ[١]؟

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾.

أي: ماذا لو كان هذا العَبدُ المَنهيُّ عن الصَّلاةِ على استقامةٍ وسَدادٍ في صلاتِه لرَبِّه[٢]؟

﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾.

أي: أو كان آمِرًا بتقوى اللهِ والحَذَرِ مِن سَخَطِه وعَذابِه، وأنت تَزجُرُه وتتَوعَّدُه إن صلَّى، فكيف يَجدُرُ ذلك بمَن تلك صِفتُه[٣]؟!

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾.

أي: أرأَيتَ- يا محمَّدُ- هذا الَّذي كذَّبَ بالحَقِّ، وأعرَضَ عن اتِّباعِه[٤]؟

﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾.

أي: ألم يعلَمْ بأنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عليه وعلى أفعالِه وأقوالِه، وسيُجازيه على ذلك[٥]؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨).

قال ابنُ عطيَّة: (لم يختَلِفْ أحدٌ مِن المفَسِّرينَ في أنَّ النَّاهيَ: أبو جَهلٍ، وأنَّ العبدَ المصَلِّيَ: محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٣).

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يقولُ هذا الرَّجُلُ! وأُقسِمُ لَئِنْ لم يتوقَّفْ عن نهيِ محمَّدٍ عن الصَّلاةِ لَنأخُذَنَّ بمُقَدَّمِ رأسِه؛ إذلالًا له[١].

كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾.

أي: لَنأخُذَنَّ بتلك النَّاصيةِ الكاذِبةِ في أقوالِها، الخاطِئةِ في أفعالِها[٢].

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٦٣)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٤).

ومِمَّن قال في الجُملةِ بأنَّ السَّفعَ: هو الأخذُ بعُنفٍ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والقرطبيُّ، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: المصادر السَّابقة.

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِن السَّلف: ابنُ عبَّاس. يُنظر: ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٦٦).

قال ابنُ جرير: (﴿لَنَسْفَعًا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ يقولُ: لنأخُذَنَّ بمقَدَّمِ رأسِه، فلَنُضِيمَنَّه ولَنُذِلَّنَّه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦).

وقال الرازي: (هذا السَّفْعُ يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ منه إلى النَّارِ في الآخرةِ، وأنْ يكونَ المرادُ منه في الدُّنيا). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٤).

ممن اختار الأوَّلَ -أي: لَنَأْخُذَنَّ بناصِيَتِه ولَنَجُرَّنَّه إلى النَّار: ابنُ أبي زَمَنين، والسَّمعاني، والبغوي، والرَّسْعني، والعُلَيمي، والشَّوكاني. يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤٨)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٥٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٨٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٠٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٢).

وقال ابنُ جُزَي: (ويظهَرُ لي أنَّ هذا الوعيدَ نفذ عليه يومَ بدرٍ حينَ قُتِل وأُخِذ بناصيتِه فجُرَّ إلى القَليب). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٨).

وقيل: سَفْعُ النَّاصيةِ هو وَسْمُها بالسَّوادِ يومَ القيامةِ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ كثير. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠).

أي: فلْيَدْعُ أبو جَهلٍ أهلَ مَجلِسِه مِن قَومِه وعَشيرتِه؛ لِيَستنصِرَ بهم[١].

عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: ((كان رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصلِّي عندَ المقامِ، فمرَّ به أبو جهلِ بنِ هشامٍ، فقال: يا محمَّدُ ألم أنهَكَ عن هذا؟ وتوعَّدَه، فأغلَظ له رسولُ اللهِ وانتهرَه، فقال: يا محمَّدُ بأيِّ شيءٍ تُهدِّدُني؟ أما واللهِ إنِّي لأكثرُ هذا الوادي ناديًا، فأنزَل اللهُ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۞ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾، قال ابنُ عباسٍ: لو دعا ناديَه أخذتْه زبانيةُ العذابِ من ساعتِه))[٢].

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨﴾.

أي: ونحن سنَدعو ملائِكةَ العَذابِ الغِلاظَ الشِّدادَ إنْ دعا أبو جَهلٍ قَومَه[٣].

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ١٩﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يزعُمُ أبو جَهلٍ! فلا تُطِعْه في نَهْيِه لك عن الصَّلاةِ، ولا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٤٩)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١١٦٨٤)، وأحمد (٣٠٤٤) باختلافٍ يسيرٍ، وابن جرير في ((التفسير)) (٢٤/ ٥٢٥) واللفظُ له
قال الترمذي: (حسنٌ غريبٌ صحيحٌ). وقال الحاكم في ((المستدرك)) (٣٨٥٥): (صحيحُ الإسنادِ). وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) (٢٧٥): (إسنادُه صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ). وقال شعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٥/ ١٦٧): (إسنادُه صحيحٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٣٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٥).
وحُذِفَت الواوُ مِن ﴿سَنَدْعُ﴾ لَفظًا لالتِقاءِ السَّاكِنَينِ، وحُذِفَت في خَطِّ المُصحَفِ إتباعًا لِلَّفظِ، اختِصارًا وتخفيفًا. أو مشاكلةً لـ﴿فَلْيَدْعُ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤١٠).

تُبالِ به، ولا تَخْشَهْ، واسجُدْ لرَبِّك في صَلاتِك واقتَرِبْ منه[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((أقرَبُ ما يكونُ العَبدُ مِن رَبِّه وهو ساجِدٌ؛ فأكثِروا الدُّعاءَ))[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ۝ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ﴾ وعيدٌ للطَّاغي، وتحقيرٌ لغِنًى ينقَطِعُ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ أنَّ المالَ أحيانًا يُفْسِدُ صاحبَه، ويَحْمِلُه على أنْ يَستَكْبِرَ على الخَلْقِ، ويَرُدَّ الحَقَّ[٤]!

٣- قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ عِلَّةُ هذا الخُلُقِ أنَّ الاستِغناءَ تُحَدِّثُ صاحِبَه نَفْسُه بأنَّه غيرُ مُحتاجٍ إلى غَيرِه، وأنَّ غَيرَه محتاجٌ، فيرى نَفْسَه أعظَمَ مِن أهلِ الحاجةِ، ولا يزالُ ذلك التَّوَهُّمُ يَرْبو في نَفْسِه حتَّى يَصيرَ خُلُقًا،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٠، ٥٤١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٧٢، ١٧٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٦).
قال البقاعي: (﴿كَلَّآ﴾ أي: لا يَقدِرُ على دُعاءِ ناديه، ولا يَنتهي عن أذاه للمُطيعِ بالتَّهديدِ؛ فلْيَرتَدِعْ عن كُلِّ مِن ذلك). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٧٢).
وقال السعدي: (هذا عامٌّ لكُلِّ ناهٍ عن الخَيرِ، ومَنهيٍّ عنه، وإن كانت نازِلةً في شأنِ أبي جَهلٍ حينَ نهى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الصَّلاةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٠، ٩٣١).
وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالسُّجودِ هنا الصَّلاةُ، لكِنْ عَبَّر بالسُّجودِ عن الصَّلاةِ؛ لأنَّ السُّجودَ ركنٌ في الصَّلاةِ لا تَصِحُّ إلَّا به؛ فلهذا عَبَّرَ به عنها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٦).
(٢) رواه مسلم (٤٨٢).
(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٦٣).
(٤) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٣/ ٥٤٦).

حيث لا وازِعَ يَزَعُه مِن دينٍ أو تفكيرٍ صَحيحٍ؛ فيَطغى على النَّاسِ لشُعورِه بأنَّه لا يَخافُ بأسَهم؛ لأنَّ له ما يَدفَعُ به الاعتِداءَ مِن لَأْمةِ (أي: دِرعِ) سِلاحٍ، وخَدَمٍ وأعوانٍ، ومُنتَفِعينَ بمالِه مِن شُرَكاءَ وعُمَّالٍ وأُجَراءَ، فهو في عِزَّةٍ عندَ نَفْسِه، فقد بَيَّنَت هذه الآيةُ حَقيقةً نَفسيَّةً عَظيمةً مِن الأخلاقِ وعِلمِ النَّفسِ، ونَبَّهَت على الحَذَرِ مِن تَغَلْغُلِها في النَّفسِ[1].

٤- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ عِظةٌ للنَّاسِ، وتهديدٌ لِمَن يمنَعُ غَيرَه عن الطَّاعةِ[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولُه سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقَولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] هذا شَأْنُ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وأمَّا خروجُه عن هذه الصِّفاتِ فهو بفَضْلِ ربِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه؛ فليس له مِن ذاتِه إلَّا هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نعمةٍ فمِن اللهِ وَحْدَه[3].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أنَّ هذا هو الطَّبعُ الغالِبُ في الإنسانِ؛ متى استغنى عن شَيءٍ عَمِيَ عن مَواضِعِ افتِقارِه، فتغَيَّرت أحوالُه معه، وتجاوَزَ فيه ما ينبغي له الوُقوفُ عندَه، ((ولا يَمْلأُ جَوْفَ ابنِ آدَمَ إلَّا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤٢١).

(٣) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).

التُّرابُ!))[١]، ومَن كان مفتَقِرًا إلى شَيءٍ كان مُنطاعًا له، كما في حديثِ ((آخِرُ أهلِ النَّارِ خُروجًا منها))[٢]، يُقسِمُ لرَبِّه أنَّه لا يَسألُ غَيرَ ما طَلَبه، فإذا أُعطِيَه واستغنى به سأل غَيرَه حتَّى يَدخُلَ دارَ القَرارِ[٣].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ بيانُ حِكمةِ تَضييقِه تعالى للرِّزقِ على مَن ضَيَّقَه عليه، وأنَّ مِن حِكَمِ ذلك أنَّ بَسْطَ الرِّزقِ للإنسانِ قد يحمِلُه على البَغْيِ والطُّغيانِ، وكقَولِه تعالى: ﴿وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾[٤] [الشورى: ٢٧].

٤- قَولُه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ فيه مِن لُطفِ التَّعبيرِ قَولُه: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ أي: أنَّ الطُّغيانَ الَّذي وقَعَ فيه؛ عن وَهمٍ تراءى له أنَّه استَغنى سواءٌ بمالِه أو بقُوَّتِه؛ لأنَّ حقيقةَ المالِ ولو كان جِبالًا ليس له منه إلَّا ما أكَلَ ولَبِسَ وأنفَقَ، وهل يستطيعُ أن يأكُلَ لُقمةً واحِدةً إلَّا بنِعمةِ العافيةِ؟! فإذا مَرِضَ فماذا ينفَعُه مالُه؟! وإذا أكَلَها فهل يستفيدُ منها إلَّا بنِعمةٍ مِنَ اللهِ عليه؟! ومِن هذه الآيةِ أخَذَ بعضُ النَّاسِ أنَّ الغَنيَّ الشَّاكِرَ أعظَمُ مِن الفقيرِ الصَّابرِ؛ لأنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩) مطوَّلًا مِن حديثِ عبدِالله بنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦) مطوَّلًا من حديثِ عبدِالله بنِ مسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٦٢).

ثُمَّ قال البِقاعيُّ: (ولعَلَّه نَبَّهَ بهذا على أنَّ هذه الأمَّةَ المُحتاجةَ ستُفتَحُ لها خَزائِنُ الأرضِ، فيُطغيها الغِنى كما أَطْغى مَن قبلَها وإن كانوا هم يُنكِرونَ ذلك كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم...، «واللهِ ما الفَقْرَ أَخْشى عليكم، ولكن أَخْشى أن تُبسَطَ عليكم الدُّنْيا كما بُسِطَتْ على مَن كان قَبْلَكم، فتَنافَسوها كما تَنافَسوها، فتُهلِكَكم كما أَهلَكَتْهم» [البخاري «٣١٥٨»، ومسلم «٢٩٦١»] أو كما قال صلَّى الله عليه وسلَّم).

(٤) يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ٦٠).

الغِنى مُوجِبٌ للطُّغيانِ، وقد قال بعضُ النَّاسِ: الصَّبرُ على العافيةِ أشَدُّ مِنَ الصَّبرِ على الحاجةِ(١).

٥- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ لم يَقُلْ: «إنِ استَغْنى»، بل جَعَلَ الطُّغيانَ ناشئًا عن رُؤيةِ غِنَى نفْسِه، ولم يَذْكُرْ هذه الرُّؤيةَ في سورةِ (اللَّيلِ)، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ * وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [اللَّيل: ٨ - ١٠]، وهذا -واللهُ أعلمُ- لأنَّه ذَكَرَ موجِبَ طُغيانِه، وهو رؤيةُ غِنَى نفْسِه، وذَكَرَ في سورةِ (اللَّيلِ) مُوجِبَ هلاكِه، وعدَمِ تيسيرِه لليُسْرى، وهو استِغناؤه عن ربِّه بتَرْكِ طاعتِه وعُبوديَّتِه؛ فإنَّه لو افتقرَ إليه لَتَقَرَّبَ إليه بما أَمَرَه مِن طاعتِه، فِعْلَ المملوكِ الَّذي لا غِنَى له عن مَولاه طَرْفةَ عَينٍ، ولا يَجِدُ بُدًّا مِن امتثالِ أوامرِه؛ ولذلك ذَكَر معه بُخْلَه، وهو تَرْكُه إعطاءَ ما وَجَبَ عليه مِن الأقوالِ والأعمالِ وأداءِ المالِ، وجَمَعَ إلى ذلك تكذيبَه بالحُسْنى، وهي الَّتي وَعَدَ بها أهلَ الإحسانِ بقولِه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]؛ فالاستغناءُ عنِ اللهِ سببُ هلاكِ العبدِ وتيسيرِه لكُلِّ عُسْرى، ورؤيتُه غِنَى نفْسِه سَبَبُ طُغيانِه، وكِلاهما مُنافٍ للفَقرِ والعُبوديَّةِ(٢).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ رَبطٌ لطيفٌ بأوَّلِ السُّورةِ؛ إذ كان خَلْقُ الإنسانِ مِن عَلَقٍ -وهي أحوَجُ ما يكونُ إلى لُطفِ اللهِ وعِنايتِه ورَحمتِه في رَحِمِ أمِّه-، فإذا بها مُضغةٌ ثمَّ عِظامٌ، ثمَّ تُكسَى لحمًا، ثمَّ تنشَأُ خَلْقًا آخَرَ، ثمَّ يأتي إلى الدُّنيا طِفلًا رَضيعًا لا يملِكُ إلَّا البُكاءَ، فيُجري اللهُ له نهرَينِ مِن لَبَنِ أمِّه، ثمَّ يُنبِتُ له الأسنانَ، ويَفتِقُ له الأمعاءَ، ثمَّ يَشِبُّ ويَصيرُ غُلامًا يافِعًا، فإذا ما ابتلاه رَبُّه بشَيءٍ مِن المالِ أو العافيةِ فإذا هو يَنسى كلَّ ما

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: ١٤).

تقَدَّمَ! ويَنسى حتَّى رَبَّه، ويَطغى ويَتجاوَزُ حَدَّه حتَّى مع اللهِ خالِقِه ورازِقِه! كما رَدَّ عليه تعالى بقَولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1] [يس: ٧٧ - ٧٩].

٧- في قولِه تعالى: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ إيذانٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأنَّ أبا جَهْلٍ سيُكذِّبُه حينَ يَدْعوه إلى الإسلامِ وسيَتولَّى[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ إثباتُ صفةِ الرُّؤيةِ للهِ عزَّ وجلَّ[3].

٩- هناك فرقٌ بين الخاطِئِ والمُخْطِئِ؛ فالخاطِئُ -مثلًا- مَن قَتَلَ متعمِّدًا، أمَّا مَن قَتَلَ غيرَ متعمِّدٍ فهو مُخطِئٌ؛ ولذلك فإنَّ الخاطِئَ مُعَذَّبٌ، كما في قَولِه تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾، والمُخْطِئَ غيرُ مُعَذَّبٍ[4].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ مُعجزةٌ خاصَّةٌ مِن مُعجزاتِ القُرآنِ؛ فإنَّه تحَدَّى أبا جَهلٍ بهذا، وقد سَمِعَ أبو جَهلٍ القُرآنَ، وسَمِعَه أنصارُه، فلم يُقدِمْ أحدٌ منهم على السَّطْوِ على الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، مع أنَّ الكلامَ يُلهِبُ حَمِيَّتَه[5]!

١١- في قَولِه تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ أنَّه ((أقرَبُ ما يكونُ العَبدُ مِن رَبِّه وهو ساجِدٌ))[6].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (١/ ٣٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٣٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٢).

(٦) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٥). =

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ؛ لظُهورِ أنَّه في غرَضٍ لا اتِّصالَ له بالكلامِ الَّذي قبْلَه، وحرْفُ ﴿كَلَّآ﴾ ردْعٌ وإبطالٌ، وليس في الجُملةِ الَّتي قبْلَه ما يَحتمِلُ الإبطالَ والرَّدعَ؛ فوُجودُ ﴿كَلَّآ﴾ في أوَّلِ الجُملةِ دَليلٌ على أنَّ المقصودَ بالرَّدعِ هو ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾، وحقُّ (كلَّا) أنْ تَقَعَ بعْدَ كَلامٍ لإبطالِه والزَّجرِ عن مَضمونِه، فوُقوعُها هنا في أوَّلِ الكلامِ يَقْتضي أنَّ معْنى الكلامِ الآتي بعْدَها حَقيقٌ بالإبطالِ، وبرَدْعِ قائلِه، فابتُدِئَ الكلامُ بحرْفِ الرَّدعِ للإبطالِ، وللمُبالَغةِ في الزَّجرِ[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ مَوقعُ هذه الجُملةِ مَوقعُ المُقدِّمةِ لِما يَرِدُ بعْدَه مِن قولِه: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قولِه: ﴿لَا نُطِعۡهُ﴾ [العلق: ٩-١٩]؛ لأنَّ مَضمونَه كَلمةٌ شاملةٌ لمَضمونِ ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ۝ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ إلى قولِه: ﴿فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ﴾[٢] [العلق: ١٧].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ بَيانٌ للمَردوعِ، والمَردوعِ عنه[٣].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للجِنسِ، أي: مِن طَبْعِ الإنسانِ أنْ يَطْغى إذا أحسَّ مِن نفْسِه الاستغناءَ، واللَّامُ مُفيدةٌ الاستغراقَ العُرفيَّ، أي: أغلَبُ النَّاسِ في ذلك الزَّمانِ إلَّا مَن عَصَمَه خُلقُه أو دِينُه[٤].

---

= والحديث أخرجه مسلمٌ (٤٨٢) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤).

- وتَأكيدُ الخبَرِ بحرْفِ التَّأكيدِ ولامِ الابتداءِ؛ لقَصْدِ زِيادةِ تَحقيقِه لغَرابتِه، حتَّى كأنَّه ممَّا يُتوقَّعُ أنْ يَشُكَّ السَّامعُ فيه[١].

- قولُه: ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ مَفعولٌ له، أي: يَطْغى لأنْ رَأى نفْسَهُ مُستغنيًا، وتَعليلُ طُغيانِه برُؤيتِه لا بنَفْسِ الاستغناءِ؛ للإيذانِ بأنَّ مَدارَ طُغيانِه زَعْمُه الفاسدُ[٢].

- والاستِغناءُ: شِدَّةُ الغِنى؛ فالسِّينُ والتَّاءُ فيه للمُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ، مِثْلُ: استجابَ، واستقَرَّ[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾

- جُملةُ ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ مُعترِضةٌ بيْن المُقدِّمةِ والمَقصدِ، والخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أي: مَرجِعُ الطَّاغي إلى الله، وهذا مَوعظةٌ وتَهديدٌ على سَبيلِ التَّعريضِ لِمَن يَسمَعُه مِن الطُّغاةِ، وتَعليمٌ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَثبيتٌ له، أي: لا يَحزُنْك طُغيانُ الطَّاغي؛ فإنَّ مَرجِعَه إلَيَّ، ومَرجعَ الطَّاغي إلى العَذابِ؛ قال تبارك تعالَى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۞ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ [النبأ: ٢١، ٢٢]، وهي مَوعظةٌ للطَّاغي بأنَّ غِناهُ لا يَدفَعُ عنه الموتَ، والموتُ: رُجوعٌ إلى اللهِ. وتَأكيدُ الخبَرِ بـ(إنَّ) مُراعًى فيه المعْنى التَّعريضيُّ؛ لأنَّ مُعظَمَ الطُّغاةِ يَنسَون هذه الحقيقةَ بحيث يُنَزِّلون مَنزِلةَ مَن يُنكِرُها[٤].

وقيل: هو كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ لخطابِ الإنسانِ تَهديدًا له، وتَحذيرًا له مِن عاقِبةِ الطُّغيانِ، وتَحقيرًا لِما هو فيه مِن حيث مآلُه إلى البَعثِ والحِسابِ والجَزاءِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤).
(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٨).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٤).
(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٦).

على طُغيانِه، والالْتفاتُ مِن الغَيبةِ إلى الخِطابِ؛ للتَّشديدِ في التَّهديدِ[١].

- وتَقديمُ ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على ﴿ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾؛ للاهتمامِ بذلك[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۞ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۞ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾

- جُملةُ ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ إلى آخِرِها، هي المَقصودُ مِن الرَّدعِ الَّذي أفادَهُ حرْفُ ﴿كَلَّآ﴾ في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦]؛ فهذه الجُملةُ مُستأنَفةٌ استِئنافًا ابتدائيًّا مُتَّصلًا باستِئنافِ جُملةِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾[٣].

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ تَقبيحٌ وتَشنيعٌ لحالِه، وتَعجيبٌ منها[٤].

- وكَلمةُ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ تَعجيبٌ مِن حالٍ، تُقالُ لِلَّذي يُعْلَمُ أنَّه رَأى حالًا عَجيبةً، والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ، أي: أعلِمْتَ الَّذي يَنْهَى عبْدًا؟ والمُستفهَمُ عنه هو ذلك العِلمُ، والمفعولُ الثَّاني لـ (رأيتَ) مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه في آخِرِ الجُمَلِ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّعجيبِ؛ لأنَّ الحالةَ العَجيبةَ مِن شَأنِها أنْ يُستفهَمَ عن وُقوعِها استِفهامَ تَحقيقٍ وتَثبيتٍ لنَبَئِها؛ إذ لا يَكادُ يُصَدَّقُ به. ويَجوزُ أنْ تكونَ الرُّؤيةُ بَصريَّةً؛ لأنَّها حِكايةُ أمْرٍ وَقَعَ في الخارجِ، والخِطابُ في ﴿أَرَءَيْتَ﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ[٥]. وقيل: قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ هو إيذانٌ بأنَّ حالَه مِنَ الشَّناعةِ والغَرابةِ بحيثُ يجِبُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٦، ٤٤٧).

يَراها كلُّ مَن يَتأتَّى مِنْه الرُّؤيةُ، ويَقْضي منها العجَبَ[١].

- و﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ هو أبو جَهْلٍ؛ إذ قال قولًا يُريدُ به نهْيَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ يُصلِّيَ في المسجدِ الحرامِ، فقال في ناديه: (لئنْ رَأَيتُ محمَّدًا يُصلِّي في الكعبةِ لَأطأَنَّ على عُنقِه)؛ فإنَّه أراد بقولِه ذلك أنْ يَبلُغَ إلى النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فعُبِّرَ بالفِعلِ ﴿يَنْهَىٰ﴾؛ لأنَّه تَهديدٌ يَتضمَّنُ النَّهيَ عن أنْ يُصلِّيَ في المسجدِ الحرامِ، ولم يُرْوَ أنَّه نَهاهُ مُشافَهةً[٢].

- والمرادُ بالعبْدِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإطلاقُ العبْدِ هنا على معْنى الواحدِ مِن عِبادِ اللهِ، أي: شخْصٌ، وعُدِلَ عن التَّعبيرِ عنه بضَميرِ الخِطابِ؛ لأنَّ التَّعجيبَ مِن نفْسِ النَّهيِ عن الصَّلاةِ، بقَطْعِ النَّظَرِ عن خُصوصيَّةِ المُصلِّي، فشُمولُه لنَهْيِه عن صَلاةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أوقَعُ[٣].

- وأيضًا لَفظُ العَبدِ وتَنكيرُه؛ لتَفخيمِه عليهِ السَّلامُ، والدَّلالةِ على كَمالِ عُبوديَّةِ المنهيِّ، وللمُبالَغةِ في تَقبيحِ النَّهيِ واسْتِعظامِه، وتَأكيدِ التَّعجُّبِ منه[٤].

- وكذلِك صِيغةُ المضارِعِ في قولِه: ﴿يَنْهَىٰ﴾؛ لاستِحضارِ الحالةِ العَجيبةِ، وإلَّا فإنَّ نَهْيَه قدْ مضَى. والمَنهيُّ عنه مَحذوفٌ، يُغْني عنه تَعليقُ الظَّرفِ بفِعلِ ﴿يَنْهَىٰ﴾، أي: يَنْهاه عن صَلاتِه[٥].

- وقولُه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ تَعجيبٌ آخَرُ مِن حالٍ مَفروضٍ وُقوعُه، أي: أتَظُنُّه يَنْهى أيضًا عبْدًا مُتمكِّنًا مِن الهُدى فتَعجَبَ مِن نَهْيِه، والتَّقديرُ: أرأَيْتَه

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٧).

إنْ كان العبدُ على الهُدى، أيَنْهاهُ عن الهُدى؟! أو إنْ كان العبْدُ آمِرًا بالتَّقوى، أيَنْهاهُ عن ذلك؟! والمعْنى: أنَّ ذلك هو الظَّنُّ به، فيُعَجِّبُ المخاطَبَ مِن ذلك؛ لأنَّ مَن يَنْهى عن الصَّلاةِ وهي قُربةٌ إلى اللهِ، فقدْ نَهى عن الهُدى، ويُوشِكُ أنْ يَنْهَى عن أنْ يَأمُرَ أحدٌ بالتَّقوى(١).

- وفُصِلَت جُملةُ ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ لوُقوعِها مَوقعَ التَّكريرِ؛ لأنَّ فيها تَكريرَ التَّعجيبِ مِن أحوالٍ عَديدةٍ لشَخصٍ واحدٍ(٢).

- وأُتِيَ بحَرفِ الشَّرطِ (إنْ) الَّذي الغالبُ فيه عدَمُ الجَزمِ بوُقوعِ فِعلِ الشَّرطِ؛ مُجاراةً لحالِ الَّذي يَنْهى عَبدًا(٣).

- ونَظْمُ الأمرِ والتَّكذيبِ والتَّوَلِّي في سِلكِ الشَّرطِ المتردِّدِ بيْنَ الوُقوعِ وعدَمِه ليس باعتِبارِ نفْسِ الأفعالِ المذكورةِ مِن حيثُ صُدورُها عن الفاعلِ؛ فإنَّ ذلك ليس في حيِّزِ التَّردُّدِ أصلًا، بلْ باعتبارِ أوصافِها الَّتي هي كَونُها أمْرًا بالتَّقوى وتَكذيبًا وتَوَلِّيًا(٤).

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الرُّؤيةُ هنا عِلميَّةٌ، وحُذِفَ مَفعولَا فِعلِ الرُّؤيةِ اختصارًا؛ لدَلالةِ ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰٓ﴾ [العلق: ٩] على المَفعولِ الأوَّلِ، ودَلالةِ قولِه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، أو قولِه: ﴿يَنْهَىٰٓ﴾ على المفعولِ الثَّاني في الجُملةِ قبْلَها، والتَّقديرُ: أرأَيْتَه(٥).

- و﴿عَلَى﴾ للاستِعلاءِ المُفيدِ شِدَّةَ التَّمكُّنِ مِن الهُدى بحيثُ يُشبِهُ تَمكُّنَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٨).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٧٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣١).

المُسْتعلي على المكانِ[١].

- وجَوابُ ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: أيَنْهاهُ أيضًا[٢]؟!

وقيل: جَوابُ الشَّرطِ الَّذي في حيِّزِ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثَّانيةِ والثَّالثةِ في قولِه: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ و﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه هنا: إنْ كان على الهُدى أو أمَرَ بالتَّقوى، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، وإنَّما حُذِفَ؛ لدَلالةِ ذِكرِه في جَوابِ الشَّرطِ الثَّاني، وتَقديرُ جَوابِ الشَّرطِ في الثَّالثةِ ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أفلَمْ يَعلَمْ بأنَّ اللهَ يَرى، أي: على تَقديرِ الفاءِ[٣].

- قولُه: ﴿إِن كَانَ﴾ يَجوزُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا على المصلِّي، وإنَّما ضُمَّ إلى فِعلِ الصَّلاةِ الأمرُ بالتَّقْوى في قولِه: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ * أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾؛ لأنَّ أبا جَهلٍ كان يشُقُّ عليه مِن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمْرانِ: الصَّلاةُ، والدُّعاءُ إلى اللهِ تعالَى، ولأنَّه كان صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لا يُوجَدُ إلَّا في أمْرَينِ: إصلاحُ نفْسِه بفِعلِ الصَّلاةِ، وإصلاحُ غيرِه بالأمْرِ بالتَّقوى[٤].

- ولعلَّه ذَكَرَ الأمرَ بالتَّقوى في التَّعجُّبِ والتَّوبيخِ ولم يَتعرَّضْ له في النَّهيِ؛ لأنَّ النَّهيَ كان عن الصَّلاةِ والأمرِ بالتَّقوَى، فاقتَصَرَ على ذِكرِ الصَّلاةِ؛ لأنَّه دَعوةٌ بالفِعلِ، أو لأنَّ نهْيَ العبدِ إذا صلَّى يَحتمِلُ أنْ يكونَ لها ولغَيرِها، وعامَّةُ أحوالِها مَحصورةٌ في تَكميلِ نفْسِه بالعِبادةِ وغيرِه بالدَّعوةِ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦).

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ للتَّهديدِ والوَعيدِ على التَّكذيبِ والتَّولِّي[١]؟!

- والهمزةُ للاستفهامِ؛ للتَّقريرِ والتَّعجُّبِ[٢].

- والمفعولُ الأوَّلُ لـ (رَأَيْتَ) مَحذوفٌ، وهو ضَميرٌ عائدٌ إلى ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰٓ﴾ [العلق: ٩]، والتَّقديرُ: أرأَيْتَه إنْ كذَّبَ... إلى آخِرِه[٣].

- وجَوابُ ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ مُقدَّرٌ يدُلُّ عليه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، والتَّقديرُ: إنْ كذَّبَ وتَولَّى فاللهُ عالِمٌ به؛ كِنايةً عن تَوعُّدِه، وجُملةُ ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ مُستأنَفةٌ لإنكارِ جَهْلِ المُكذِّبِ بأنَّ اللهَ سيُعاقِبُه، والشَّرطُ وجَوابُه سادَّانِ مَسدَّ المَفعولِ الثَّاني[٤].

- وكذلك حُذِفَ مَفعولُ ﴿كَذَّبَ﴾؛ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه، والتَّقديرُ: إنْ كذَّبَه، أي: العبدَ الَّذي صلَّى[٥].

- وإنَّما أُفرِدَ التَّكذيبُ والتَّوَلِّي بشَرطيَّةٍ مُستقِلَّةٍ مَقرونةٍ بالجَوابِ مُصدَّرةٍ باستخبارٍ مُستأنَفٍ، ولم يُنظَمَا في سِلكِ الشَّرطِ الأوَّلِ بعَطْفِهما على (كانَ)؛ للإيذانِ باستقلالِهما بالوُقوعِ في نفْسِ الأمرِ، واستتباعِ الوعيدِ الَّذي يَنطِقُ به الجَوابُ، وأما قبلَها فأمرُ الشَّرطِ فيه ليس إلَّا لتوسيعِ الدَّائرةِ، وهو السِّرُّ في تجريدِه عن الجوابِ، والإحالةِ به على جوابِ الشَّرطيةِ بعدَه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨).

(٢) يُنظر: (إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٨، ٤٤٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٠٦).

٥- قولُه تعالَى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾، أي: يطَّلِعُ على أحوالِه مِن هُداهُ وضَلالِه، فيُجازِيه على حسَبِ ذلك، -وذلك على أنَّ الضميرَ في قولِه: ﴿إِن كَانَ﴾ يعودُ للنَّاهي-، وكُنِّيَ بأنَّ اللهَ يَرى عن الوَعيدِ بالعِقابِ، ففيه وَعْدٌ بأنَّ الله ينتصِفُ له مِنْه[١].

وقيل: المعْنى: أرأيتَ الَّذي يَنْهى عبْدًا إذا صلَّى، وهو على الهُدى وأمَرَ بالتَّقوى، والنَّاهي مُكذِّبٌ مُتوَلٍّ عن الذِّكرِ، أي: فما أعجَبَ هذا! ألمْ يَعلَمْ أبو جَهلٍ بأنَّ اللهَ تعالَى يَراهُ ويَعلَمُ فِعلَه؟! فهذا تَقريرٌ وتَوبيخٌ[٢]. وذلك على أنَّ الضَّميرَ في ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يعودُ على المُصَلِّي.

- وأيضًا قولُه: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ إكمالُ التَّوبيخِ والوعيدِ بحسَبِ التَّوقيفاتِ الثَّلاثةِ -أي: في قولِه: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ [العلق:٩، ١١، ١٣]- يَصلُحُ مع كلِّ واحدٍ منها، فجاء بها في نَسَقٍ، ثمَّ جاء بالوعيدِ الكافي بجَميعِها اختصارًا واقتِضابًا، ومع كلِّ تَقريرٍ تَكملةٌ مُقدَّرةٌ تتَّسِعُ العِباراتُ فيها، و﴿أَلَمْ يَعْلَم﴾ دالٌّ عليها مُغْنٍ[٣].

- والاستِفهامُ إنكاريٌّ، أي: كان حقُّه أنْ يَعلَمَ ذلك، ويَقِيَ نفْسَه العِقابَ[٤].

- وحُذِفَ مَفعولُ ﴿يَرَىٰ﴾؛ ليَعُمَّ كلَّ مَوجودٍ[٥].

٦- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۞ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- ﴿كَلَّا﴾ رَدعٌ لأبي جَهلٍ وخُسوءٌ له عن نَهْيِه عن عِبادةِ اللهِ تعالى، وأمْرِه بعِبادةِ اللَّاتِ[١]. وأُكِّدَ الرَّدعُ الأوَّلُ ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ﴾ -على أنَّ المرادَ بالرَّدعِ أبو جهلٍ على قولٍ- بحَرْفِ الرَّدعِ الثَّاني في آخِرِ الجُملةِ، وهو المَوقعُ الحَقيقُ بحرْفِ الرَّدعِ؛ إذ كان تَقديمُ نَظيرِه في أوَّلِ الجُملةِ؛ لِما دَعا إليه المقامُ مِن التَّشويقِ[٢].

- قولُه: ﴿لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ أُعقِبَ الرَّدعُ بالوعيدِ على فِعلِه إذا لم يَرتدِعْ ويَنتَهِ عنه. واللَّامُ مُوطِّئةٌ للقسَمِ، وجُملةُ ﴿لَنَسۡفَعَۢا﴾ جَوابُ القسَمِ، وأمَّا جَوابُ الشَّرطِ فمَحذوفٌ دلَّ عليه جَوابُ القسَمِ[٣].

- قولُه: ﴿لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ السَّفْعُ: القبْضُ على الشَّيءِ وجَذْبُه بشِدَّةٍ، والنَّاصيةُ: مُقدَّمُ شَعرِ الرَّأسِ، والأخْذُ مِن النَّاصيةِ أخْذُ مَن لا يُترَكُ له تَمكُّنٌ مِن الانفلاتِ؛ فهو كِنايةٌ عن أخْذِه إلى العَذابِ، وفيه إذلالٌ؛ لأنَّهم كانوا لا يَقبِضون على شَعرِ رَأسِ أحدٍ إلَّا لضَرْبِه أو جَرِّه، وأُكِّدَ ذلك السَّفعُ بالباءِ المَزيدةِ الدَّاخلةِ على المَفعولِ؛ لتَأكيدِ اللُّصوقِ[٤].

- والتَّعريفُ في (النَّاصيةِ) للعهْدِ التَّقديريِّ[٥]، أي: بناصيتِه، أي: ناصيةِ الَّذي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠).

قال القرطبي: (خَصَّ النَّاصيةَ بالذِّكرِ على عادةِ العَرَبِ فيمَن أرادوا إذلالَه وإهانتَه، أخَذوا بناصيتِه). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٥).

(٥) قال الشهاب الخفاجي: (العهدُ الذِّكري قد يكونُ بإعادةِ المتقدِّمِ بعينِه، وقد يكونُ بإعادةِ لازمِه ووصفِه، وإن لم يَجرِ له صريحُ ذِكرٍ، ويُسمَّى العهدَ التقديريَّ، وذلك بأنْ يُسنَدَ إلى الموصوفِ =

يَنْهى عبْدًا إذا صلَّى، وعُبِّرَ بالنَّاصيةِ عن جَميعِ الشَّخصِ، واكتُفِيَ بتَعريفِ العهْدِ عن الإضافةِ؛ إذ عُلِمَ أنَّها ناصيةُ النَّاهي[١].

- قولُه: ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ ﴿نَاصِيَةٍ﴾ بدَلٌ مِن (النَّاصيةِ)، وتَنكيرُها لاعتبارِ الجِنسِ، أي: هي مِن جِنسِ ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئةٍ[٢].

- ووُصِفَت النَّاصيةُ بالكذِبِ، والمرادُ: كاذبٌ صاحبُها، خاطئٌ صاحِبُها؛ وذلك للمُبالَغةِ، وفيه مِن الحُسنِ والجَزالةِ ما ليس في قولِك: (ناصيةٍ كاذبٍ خاطئٍ)، والمُبالَغةُ فيه أنَّ الكافرَ بَلَغَ في الكذِبِ والخطَأِ إلى حيثُ إنَّ الكذِبَ والخطَأَ ظاهِرانِ مِن ناصيتِه، على نحْوِ قَولِهم: وَجْهُه نِصفُ الجَمالِ[٣].

٧- قولُه تعالَى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۞ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۞ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾

- قولُه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ تَفريعٌ على الوَعيدِ؛ فالفاءُ الفَصيحةُ، أي: إنِ استَمرَّ في غُلَوائِه وإنْ أصرَّ على المُعانَدةِ والمُكابَرةِ، فلْيَدْعُ[٤].

- ولامُ الأمرِ في ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ للتَّعجيزِ؛ لأنَّ أبا جَهْلٍ هدَّدَ النَّبيَّ صلَّى

---

= ما يَستَدْعي تلك الصِّفةَ، فتُذكرُ الصِّفةُ معرفةً كأنَّها جرَى ذكرُها، كما إذا قيل لك: شتَمك زيدٌ، فتقولُ: أفعَل السَّفيهُ؟ فإنَّ الشَّتمَ تنبيهٌ على سفاهتِه، حتَّى كأنَّه قيل: اعتَرض لك سفيهٌ، أو أنْ يكونَ الموصوفُ عَلَمًا في تلك الصِّفةِ حقيقةً أو ادِّعاءً، فمتى ذُكِر عُلِمتْ صِفَتُه). ((حاشيته على تفسير البيضاوي)) (١/ ٣٣٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥١٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٤).

اللهُ عليه وسلَّم بكَثرةِ أنصارِه، وهم أهلُ ناديِه، فرَدَّ اللهُ عليه بأنْ أمَرَه بدَعوةِ ناديِه؛ فإنَّه إنْ دَعاهم لِيَسْطُوا على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، دَعا اللهُ مَلائكةً فأهْلَكوه، وقولُه: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ جَوابُ الأمرِ التَّعجيزيِّ، أي: فإنْ دَعا ناديَه، دَعَونا لهمُ الزَّبانيةَ[1].

- وإضافةُ النَّادي إلى ضَميرِ أبي جَهْلٍ؛ لأنَّه رَئيسُهم، ويَجتمِعون إليه[2].

- قولُه: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ (كَلَّا) رَدعٌ بعْدَ رَدعٍ، وزَجرٌ إثرَ زَجرٍ؛ فهو تَأكيدٌ للرَّدعِ والزجْرِ لأبي جهْلٍ؛ فهو رَدعٌ لإبطالِ ما تَضمَّنَه قولُه: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾، أي: وليس بفاعلٍ، وهذا تأكيدٌ للتَّحدِّي والتَّعجيزِ[3].

- قولُه: ﴿لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ هذا فَذْلَكةٌ[4] للكلامِ المُتقدِّمِ مِن قولِه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۞ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩، ١٠]، أي: لا تَترُكْ صَلاتَك في المسجدِ الحرامِ، ولا تَخْشَ منه[5].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٧٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٤).

(٤) الفَذْلَكة: مِن فَذْلَكَ حِسابَه فَذْلَكةً، أي: أنْهاهُ وفَرَغ منه، وذكَر مُجمَلَ ما فُصِّل أوَّلًا وخُلاصتَه. والفَذْلَكةُ كلمةٌ منحوتةٌ كـ (البَسملةِ) و(الحَوقَلةِ)، مِن قولِهم: (فذَلِكَ كذَا وكذَا عددًا). ويُرادُ بالفَذْلَكةِ: النَّتيجةُ لِمَا سبَق مِن الكلامِ، والتَّفريعُ عليه، ومنها فَذْلَكةُ الحسابِ، أي: مُجمَلُ تفاصيلِه، وإنهاؤُه، والفراغُ منه، كقولِه تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ بعدَ قولِه: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ [البقرة: ١٩٦]. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٧/ ٢٩٣)، ((كُنَّاشة النوادر)) لعبد السلام هارون (ص: ١٧)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٦٣٨، ٦٣٩).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٣).

- وأُكِّدَ قولُه: ﴿لَا تُطِعۡهُ﴾ بجُملةِ ﴿وَٱسۡجُدۡ﴾؛ اهتمامًا بالصَّلاةِ. وعُطِفَ عليه ﴿وَٱقۡتَرِب﴾؛ للتَّنويهِ بما في الصَّلاةِ مِن مَرضاةِ اللهِ تعالَى، بحيث جَعَل المُصلِّيَ مُقْتربًا مِن اللهِ تعالَى[١].

- والاقترابُ: افتِعالٌ مِن القُربِ، عُبِّرَ بصِيغةِ الافتعالِ؛ لِما فيها مِن معْنى التَّكلُّفِ والتَّطلُّبِ، أي: اجتهِدْ في القُربِ إلى اللهِ بالصَّلاةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ القَدْرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ القَدْرِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القَدْرِ)[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ القَدْرِ مُختَلَفٌ فيها[٢]؛ فقيل: إنَّها مَكِّيَّةٌ[٣]، وقيل: مَدَنيَّةٌ[٤].

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ بذلك: تَكرارُ لَفظِ (القَدْرِ) فيها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٥٣).

(٣) ممَّن اختار أنَّها مَكِّيَّةٌ: السمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والواحديُّ، والبغوي، والزمخشري، والرازي، والنسفي، وابن جُزَي، وابن كثير، والسعدي. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠١)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٤٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٨)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٦٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

ونَسَبَ هذا القَولَ لأكثَرِ المفَسِّرينَ وجُمهورِهم: الماوَرْديُّ، والسيوطيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١١)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٥).

(٤) وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، ومكِّيٌّ، والسمعاني، والخازن، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٦٩)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٦٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٠٥).

ونَسَبَه لأكثَرِ المفَسِّرينَ: الثعلبيُّ، والخازن، وأبو حيان، والشربيني. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٤٧)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٦٤).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مَقاصِدِ السُّورةِ:**

ذِكرُ فَضائلِ لَيلةِ القَدْرِ، والتَّنْويهُ بشَأنِ القُرْآنِ الَّذي أُنزِلَ فيها[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- التَّنويهُ بَشأنِ القُرآنِ، والإعلاءُ مِن قَدْرِه.

٢- بيانُ فَضلِ اللَّيلةِ الَّتي نَزَل فيها، وهي لَيلةُ القَدْرِ، والتَّرْغيبُ في إحْيائِها.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦١).

## الآيات (١-٥)

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ٢ لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣ تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ ٤ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ ٥﴾.

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخبرًا بأنَّه تعالى أنزَلَ القُرآنَ في لَيلةِ القَدْرِ مِن شَهرِ رَمَضانَ، ثمَّ عظَّم شأنَها قائلًا: وما أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ لَيلةُ القَدْرِ؟!

ثمَّ بيَّن الله سُبحانَه مَظاهِرَ فَضْلِها، فقال: لَيلةُ القَدْرِ في خَيرِها وبَرَكتِها وثَوابِ الأعمالِ فيها: أفضَلُ مِن ألْفِ شَهرٍ.

تَهبطُ الملائكةُ وجِبريلُ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ في لَيلةِ القَدْرِ بإذْنِ رَبِّهم مِن كُلِّ أمرٍ، وهي لَيلةٌ ذاتُ سلامةٍ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى، وذلك مِن بَعْدِ غُروبِ الشَّمسِ إلى طُلوعِ الفَجْرِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ١﴾.

أي: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في لَيلةِ القَدْرِ مِن شَهرِ رَمَضانَ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٢٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

قال الرازي: (أجمَعَ المفسِّرونَ على أنَّ المرادَ: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في لَيلةِ القَدْرِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٨).

قال ابنُ جُزَي: (وفي كَيْفيَّةِ إنْزالِه في لَيْلةِ القَدْرِ قَوْلانِ:

أحَدُهما: أنَّه ابْتَدَأَ إنْزالُه فيها. =

= والآخَرُ: أنَّه أُنزِلَ القُرآنُ فيها جُمْلةً واحِدةً إلى السَّماءِ، ثُمَّ نَزَلَ به جِبْريلُ إلى الأرضِ بطولِ عِشْرينَ سَنةً). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٩). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١١).

ممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ -أنَّ المُرادَ: أنَّ ابْتِداءَ نُزولِه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان في لَيلةِ القَدْرِ-: القاسِميُّ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٩).

وممَّن قال بهذا مِن السَّلَفِ: الشَّعْبيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٢).

وممَّن اختار القَولَ الثَّانيَ -أنَّ المرادَ إنزالُه كامِلًا مِن اللَّوحِ المحفوظِ إلى السَّماءِ الدُّنيا-: ابنُ جريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمرقنديُّ، ومكِّيٌّ، والواحِديُّ، والسَّمعانيُّ، والبَغَويُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٦٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٠)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٣).

وممَّن قالَ بهذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وسَعيدُ بنُ جُبَيْرٍ، والرَّبيعُ بنُ أنَسٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٢)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٦٧).

ومِمَّن جمَعَ بيْنَ القَولَينِ: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٧٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦، ٤٥٧).

واخْتُلِفَ في سَبَبِ تَسْميةِ لَيْلةِ القَدْرِ بذلك؛ فقيل: سُمِّيَتْ بذلك لأنَّها اللَّيلةُ الَّتي يُقَدِّرُ اللهُ تَعالى ويَحكُمُ ويَقْضي فيها أمورَ سَنةٍ كامِلةٍ. ومِمَّن ذهَبَ إلى هذا القَولِ: ابنُ قُتَيْبَةَ، وابنُ جَريرٍ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، وابنُ جُزَي، والعُلَيْمي، والشنقيطي. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٠٥)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٧/ ١٧٣).

قال البَغَويُّ: (سُمِّيَتْ لَيْلةَ القَدْرِ؛ لأنَّها لَيْلةُ تَقديرِ الأمورِ والأحكامِ، يُقدِّرُ اللهُ فيها أمْرَ السَّنةِ في عِبادِه وبِلادِه إلى السَّنةِ المُقْبلةِ). ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٣).

قال الرَّازيُّ: (وهذا القَولُ اختيارُ عامَّةِ العُلَماءِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٩).

وقال ابنُ جُزَي: (وسُمِّيَتْ لَيْلةَ القَدْرِ مِن تَقْديرِ الأمورِ فيها، أو مِن القَدْرِ بمَعْنى الشَّرَفِ، ويَترجَّحُ الأوَّلُ بقَوْلِه: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٠).

وممَّن اختارَ أنَّها سُمِّيَتْ بذلك مِن الشَّرَفِ والفَضْلِ كما قال تعالى فِي سورةِ الدُّخَانِ: ﴿إِنَّآ =

= أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣] أي: لَيْلةِ القَدْرِ والشَّرَفِ عندَ اللهِ تَعالى: ابنُ عاشورٍ، ونَسَبَه ابنُ عَطيَّةَ وغيرُه للزُّهْريِّ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٥).

وقيل: المرادُ: أنَّ لها قَدْرًا عظيمًا، وشَرَفًا كبيرًا، والأعمالُ فيها ذاتُ قَدْرٍ وشرَفٍ. ومِمَّن ذهب إلى هذا المعنى: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) (٢٢/ ١٧٨).

ومِمَّن جمَعَ بيْنَ المَعْنيَينِ السابقين في الجُملةِ (أي: الشرف والتقدير): السعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٠).

قال السعديُّ: (سُمِّيَتْ لَيْلةَ القَدْرِ؛ لِعِظَمِ قَدْرِها، وفَضْلِها عندَ اللهِ، ولأنَّه يُقدَّرُ فيها ما يكونُ في العامِ مِنَ الأجَلِ والأرْزاقِ والمَقاديرِ القَدَريَّةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

وقيلَ غيرُ ذلك في سَبَبِ التَّسْميةِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٦٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٨٩).

قال الرَّسْعنيُّ: (اخْتَلَفوا: هلْ هي باقِيةٌ، أو كانت في زَمَنِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ خاصَّةً؟ على قَولَينِ. والصَّحيحُ: أنَّها باقِيةٌ.

واختَلَفوا: هل هي مَخْصوصةٌ بشَهرِ رَمَضانَ، أو تكونُ في جَميعِ السَّنةِ؟ على قَولَينِ. والصَّحيحُ: اخْتِصاصُها بشَهرِ رمضانَ.

وذهَبَ الأكثَرونَ إلى اخْتِصاصِ الأفْرادِ مِن العَشرِ الأخيرِ منه بها، وعليه تدُلُّ الأحاديثُ الصَّحيحةُ، والآثارُ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٩٠).

وقد اختلفوا في تعيينِ ليلةِ القدرِ، وأرجاها عندَ الجمهورِ ليلةُ سبعٍ وعشرينَ، ومِن أهلِ العلمِ مَن رجَّح أنَّها تتنقَّلُ في ليالي العَشْرِ الأواخِرِ مِن رَمَضانَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢٦٢)، ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ٢٧٢).

قال ابنُ حجرٍ: (قال العلماءُ: الحِكمةُ في إخفاءِ ليلةِ القدرِ؛ ليحصلَ الاجتهادُ في التماسِها، بخلافِ ما لو عُيِّنَتْ لها ليلةٌ لاقتُصِر عليها). ((فتح الباري)) (٤/ ٢٦٦). ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥١).

وقال ابن عثيمين: (إنَّما أبهمها الله عزَّ وجلَّ لفائدتينِ عظيمتينِ:

الفائدة الأولى: بيانُ الصَّادقِ في طلبِها مِن المتكاسلِ...

الفائدة الثانية: كثرةُ ثوابِ المسلمينَ بكثرةِ الأعمالِ؛ لأنَّه كلَّما كثُر العملُ كثُر الثَّوابُ). =

كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((تحَرَّوا لَيلةَ القَدْرِ في العَشْرِ الأواخِرِ مِن رَمَضانَ))(١).

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا عُلِمَ مِنَ السِّياقِ تعظيمُ لَيلةِ القَدْرِ بعَظَمةِ ما أُنزِلَ فيها، وبالتَّعبيرِ عنها بهذا، قال مؤكِّدًا لذلك التَّعظيمِ؛ حَثًّا على الاجتهادِ في إحيائِها؛ لأنَّ للإنسانِ مِنَ الكَسَلِ والتَّداعي إلى البَطالةِ ما يُزَهِّدُه في ذلك(٢):

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾.

---

= ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ٢٧٣).

عن عائِشةَ رَضِي اللهُ عنها، قالت: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، أرأيتَ إنْ عَلِمْتُ أيُّ ليلةٍ ليلةُ القَدرِ، ما أقولُ فيها؟ قال: قُولي: اللَّهُمَّ، إنكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفوَ فاعْفُ عَنِّي)). رواه أحمد (٦/ ١٧١) (٢٥٤٢٣)، والترمذي (٣٥١٣)، وابن ماجة (٣٨٥٠)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (٤/ ٤٠٧) (٧٧١٢)، والحاكم (١/ ٧١٢). قال الترمذي: (حسنٌ صحيحٌ)، وقال الحاكم: (صحيحٌ على شرطِ الشيخيْنِ ولم يخرجاه)، وقال النووي في ((الأذكار)) (٢٤٧): (إسنادُه صحيحٌ)، وصححه ابن القيم في ((أعلام الموقعين)) (٤/ ٢٤٩)، والألباني في ((صحيح الترمذي)) (٣٥١٣).

وعن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه قال: ((... أخبَرَنا رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّها تطلُعُ يومَئذٍ لا شُعاعَ لها)). رواه مسلم (٧٦٢).

وفي لفظٍ آخَرَ لِمُسلمٍ عن أبَيِّ بنِ كَعبٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((وأمارَتُها أن تطلُعَ الشَّمسُ في صبيحةِ يَومِها بيضاءَ لا شُعاعَ لها)).

(١) رواه البخاري (٢٠٢٠)، ومسلم (١١٦٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٧٨).

أي: قال اللهُ تعالى مُفَخِّمًا شأنَها، ومُعَظِّمًا لها: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ لَيلةُ القَدْرِ[١]؟!

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾.

أي: إنَّ لَيلةَ القَدْرِ -في خَيرِها وبَرَكتِها وثَوابِ الأعمالِ فيها- أفضَلُ مِن ألْفِ شَهرٍ، ليس فيها ليلةُ القدرِ[٢].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن قام لَيلةَ القَدْرِ إيمانًا واحتِسابًا غُفِرَ له ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِه))[٣].

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾.

أي: تَهبِطُ الملائكةُ وجِبريلُ مِنَ السَّماءِ إلى الأرضِ في لَيلةِ القَدْرِ بإذْنِ رَبِّهم

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

قال ابنُ عاشور: (أي: يَعسُرُ على شَيءٍ أن يُعَرِّفَك مِقدارَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٧٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

قال ابن كثير: (عن مجاهدٍ: ليلةُ القدرِ خيرٌ مِن ألفِ شهرٍ، ليس في تلك الشُّهورِ ليلةُ القدرِ. وهكذا قال قتادةُ بنُ دعامةَ، والشافعيُّ، وغيرُ واحدٍ... وهذا القولُ بأنَّها أفضلُ مِن عبادةِ ألفِ شهرٍ، وليس فيها ليلةُ القدرِ هو اختيارُ ابنِ جريرٍ، وهو الصَّوابُ لا ما عداه). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤٣). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٧).

وقال ابنُ كثير أيضًا: (الألْفُ شَهرٍ عِبارةٌ عن ثلاثٍ وثمانينَ سَنةً وأربعةِ أشهُرٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٤٢).

وقال ابنُ عثيمين: (المرادُ بالخَيريَّةِ هنا ثوابُ العمَلِ فيها، وما يُنزِلُ اللهُ تعالى فيها مِن الخَيرِ والبَرَكةِ على هذه الأُمَّةِ؛ ولذلك كان مَن قامها إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقَدَّمَ مِن ذَنْبِه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٠، ٢٧١).

(٣) رواه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠).

لهم[(١)] مِن كُلِّ أمرٍ مِمَّا أَمَرَ اللهُ به[(٢)].

(١) قيل: تهبِطُ إلى السَّماءِ الدُّنيا. ومِمَّن قال به: الزمخشريُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨١).
وقيل: تهبِطُ إلى الأرضِ. ومِمَّن قال بهذا: الرازيُّ، والقرطبيُّ، وابنُ جُزَي، والشوكانيُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧١).
قال الرَّازي: (اختيارُ الأكثَرينَ أنَّهم يَنزِلونَ إلى الأرضِ، وهو الأوجَهُ؛ لأنَّ الغَرَضَ هو التَّرغيبُ في إحياءِ هذه اللَّيلةِ، ولأنَّه دَلَّت الأحاديثُ على أنَّ الملائِكةَ يَنزِلونَ في سائِرِ الأيَّامِ إلى مَجالِسِ الذِّكرِ والدِّينِ، فلَأَنْ يَحصُلَ ذلك في هذه اللَّيلةِ مع عُلُوِّ شَأنِها: أَولى، ولأنَّ النُّزولَ المُطلَقَ لا يُفيدُ إلَّا النُّزولَ مِن السَّماءِ إلى الأرضِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٧، ٥٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٣).
قيل: معنى ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: مِن كُلِّ أمرٍ قَضاه اللهُ في تلك السَّنةِ؛ مِن رِزقٍ، وأجَلٍ، وغيرِ ذلك. ومِمَّن ذهب إلى هذا: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، ومكِّيٌّ، والسَّمعانيُّ، والزمخشري، والرَّسْعَني، والقرطبي، والنسفي، وابنُ جُزَي، وجلال الدين المحلي، والشربيني، وأبو السعود، والشوكاني. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٧٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٢)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨١)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٩٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٦٦)، ((تفسير ابن جزي (٢/ ٥٠٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٦).
وقيلَ: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾: أي بكلِّ أمْرٍ مِن الخَيرِ والبَرَكةِ، وممَّن اختارَه: البَغَويُّ، والخازِنُ. يُنظر: ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٣).
وقيل: إنَّ المَجْرورَ يَتَعلَّقُ بما بَعْدَه، والمَعْنى: أنَّها سَلامٌ مِن كلِّ أمْرٍ، أي: سَلامةٌ مِن الآفاتِ. وممَّن اختار هذا المعنى: السَّمَرْقَنديُّ، قال: (قال عزَّ وجَلَّ: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ يَعْني: يَنزِلونَ بأمْرِ رَبِّهم ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ﴾، يَعْني: تلك اللَّيْلةُ مِن كلِّ أمْرٍ سَلامٌ، يَعْني: مِن كلِّ آفةٍ سَلامةٌ، يَعْني: في هذه اللَّيلةِ لأمَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٢). =

كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر اللهُ سُبحانَه فضائِلَ لَيلةِ القَدْرِ، كانت النَّتيجةُ أنَّها متَّصِفةٌ بالسَّلامةِ التَّامَّةِ، كاتِّصافِ الجنَّةِ -الَّتي هي سَبَبُها- بها؛ فكان ذلك أدَلَّ على عظَمَتِها[1].

﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾.

أي: لَيلةُ القَدْرِ سالِمةٌ مِن كُلِّ شَرٍّ وأذًى، وذلك مِن بَعْدِ غُروبِ الشَّمسِ إلى زَمَنِ طُلوعِ الفَجْرِ[2].

---

= قال ابنُ جُزَي: (والأَظهَرُ أنَّ الكَلامَ تَمَّ عِندَ قَولِه: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، ثُمَّ ابتدَأَ قَولَه: ﴿سَلَٰمٌ﴾). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٠).

وقال الشَّوْكانيُّ: (قَولُه: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: مِن أجْلِ كلِّ أمْرٍ مِن الأمورِ الَّتي قَضى اللهُ بها في تلك السَّنةِ. وقيلَ: إنَّ ﴿مِّن﴾ بمَعْنى اللَّامِ، أي: لكلِّ أمْرٍ. وقيلَ: هي بمَعْنى الباءِ، أي: بِكلِّ أمْرٍ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٦).

وقال ابن عاشور: (و﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ بَيانِيَّةً تُبَيِّنُ الإذْنَ مِن قولِه: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾، أيْ: بإذنِ رَبِّهم الَّذي هو في كلِّ أمرٍ. ويجوزُ أن تكونَ [مِنْ] بمعنى الباءِ، أي: تتنَزَّلُ بكُلِّ أمرٍ، مِثلُ ما في قَولِه تعالى: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، أي: بأمرِ اللهِ، وهذا إذا جعَلْتَ باءَ ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ سَببيَّةً، ويجوزُ أن تكونَ للتَّعليلِ، أي: مِن أجْلِ كُلِّ أمرٍ أراد اللهُ قَضاءَه بتَسخيرِهم). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٤).

وقال ابنُ عثيمين: (قيلَ: إنَّ ﴿مِّن﴾ بمعنى الباءِ، أي: بكُلِّ أمرٍ مِمَّا يأمُرُهم اللهُ به، وهو مُبهَمٌ لا نعلَمُ ما هو، لكِنَّنا نقولُ: إنَّ تنَزُّلَ الملائكةِ في الأرضِ عُنوانٌ على الخَيرِ والرَّحمةِ والبَرَكةِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧١). ويُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١). =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ مَن تأمَّلَ هذه السُّورةَ عَلِمَ منها ما للقُرآنِ مِن العَظَمةِ؛ فأقْبَلَ عليه بكُلِّيَّتِه يَتْلوه حَقَّ تِلاوتِه[1].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ فيه تحريضُ المُسلِمينَ على

---

= قال الزمخشري: (﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ ما هي إلَّا سلامةٌ، أي: لا يُقَدِّرُ اللهُ فيها إلَّا السَّلامةَ والخَيرَ، ويُقضَى في غيرِها بلاءٌ وسَلامةٌ. أو: ما هي إلَّا سلامٌ؛ لكَثرةِ ما يُسَلِّمونَ على المؤمنينَ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨١).

ممَّن اختارَ في الجُمْلةِ أنَّ ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: سَلامةٌ وخَيْرٌ وبَرَكةٌ، فلا شَرَّ فيها: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والثَّعْلَبيُّ، والخازِنُ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٧١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٤٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٥٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِن السَّلفِ: الضَّحَّاكُ، ومُجاهِدٌ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٩).

وممَّن اخْتارَ أنَّ ﴿سَلَٰمٌ﴾ مِن التَّسْليمِ؛ وذلك لتَسْليمِ المَلائِكةِ على المُؤمِنينَ: جَلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ. يُنظر: ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٠٧).

وممَّن قال به مِن السَّلَفِ: الشَّعْبيُّ، والكَلْبيُّ. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٨٩).

وقال عَطاءٌ: (يُريدُ: سَلامٌ على أولياءِ اللهِ، وأهْلِ طاعتِه). يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (يُطلَقُ السَّلامُ على التَّحيَّةِ والمِدْحةِ، وفُسِّرَ السَّلامُ بالخَيْرِ، والمَعْنيانِ حاصِلانِ في هذه الآيةِ؛ فالسَّلامةُ تَشملُ كُلَّ خَيرٍ؛ لأنَّ الخَيرَ سَلامةٌ مِنَ الشَّرِّ ومِنَ الأذى، فيَشملُ السَّلامُ: الغُفرانَ، وإجْزالَ الثَّوابِ، واسْتِجابةَ الدُّعاءِ بخَيرِ الدُّنيا والآخِرةِ. والسَّلامُ بمَعْنى: التَّحيَّةِ والقَولِ الحَسَنِ، مُرادٌ به ثَناءُ المَلائِكةِ على أهْلِ لَيلةِ القَدْرِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٥).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨٢).

تحيُّنِ لَيلةِ القَدْرِ بالقيامِ[١]. فيَنبغي للإنسانِ أنْ يَجتَهِدَ في كلِّ لَيالي العَشرِ الأواخرِ مِن رمضانَ حتَّى لا يُحرَمَ مِن فَضْلِ لَيلةِ القَدْرِ وأَجْرِها[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ عَرَّف بمُنتهاها؛ ليَحرِصَ النَّاسُ على كثرةِ العَمَلِ فيها قبلَ انتهائِها[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- مِن تَسديدِ تَرتيبِ المُصحفِ أنْ وُضِعَت سُورةُ (القَدْرِ) عَقِبَ سُورةِ (العَلَقِ) مع أنَّها أقَلُّ عدَدَ آياتٍ مِن سُورةِ (البيِّنةِ) وسُوَرٍ بعْدَها، كأنَّه إيماءٌ إلى أنَّ الضَّميرَ في ﴿أَنزَلۡنَٰهُ﴾ يَعودُ إلى القرآنِ الَّذي ابتُدِئَ نُزولُه بسُورةِ العلَقِ[٤].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ أجمَعَ المفَسِّرونَ على أنَّ المرادَ: إنَّا أنزَلْنا القُرآنَ في لَيلةِ القَدْرِ، ولكِنَّه تعالى تَرَكَ التَّصريحَ بالذِّكرِ؛ لأنَّ هذا التَّركيبَ يدُلُّ على عِظَمِ القُرآنِ مِن ثلاثةِ أوجُهٍ:

**أحَدُها**: أنَّه أسنَدَ إنزالَه إليه، وجعَلَه مُختَصًّا به دونَ غَيْرِه.

**والثَّاني**: أنَّه جاء بضَميرِه دونَ اسمِه الظَّاهرِ؛ شهادةً له بالنَّباهةِ والاستغناءِ عن التَّصريحِ.

**والثَّالِثُ**: تعظيمُ الوَقتِ الَّذي أُنزِلَ فيه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٤/ ٢٤٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٠/ ٤٦١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦، ٤٥٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٨).

ويُنظر ما يأتي في بلاغةِ الآيات (ص: ٧٦).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ فيه سؤالٌ: ما معنى أنَّه أُنزِلَ في لَيلةِ القَدْرِ، مع العِلمِ بأنَّه أُنزِلَ مُفرَّقًا؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** قال الشَّعبيُّ: (ابتدَأَ إنزالُه لَيلةَ القَدْرِ؛ لأنَّ البَعثَ كان في رمَضانَ).

**الوَجهُ الثَّاني:** قال ابنُ عبَّاسٍ: (أُنزِلَ إلى سماءِ الدُّنيا جملةً لَيلةَ القَدْرِ، ثمَّ إلى الأرضِ نُجومًا). أي: مفرَّقًا.

**الوَجهُ الثَّالِثُ:** أنَّ التَّقديرَ: أنزَلْنا هذا الذِّكرَ في لَيلةِ القَدْرِ، أي: في فضيلةِ لَيلةِ القَدْرِ، وبَيانِ شَرَفِها[1].

٤- قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ نُزولُ القرآنِ في زمانٍ بعَيْنِه يَقتضي فَضْلَ ذلك الزَّمانِ[2].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ صَريحٌ في أنَّ الآياتِ الأُوَلَ مِن القُرآنِ الكريمِ نَزَلت ليلًا[3].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ ذَكَرَ اللهُ تعالى نفْسَه بالعَظَمةِ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ﴾؛ لأنَّه سُبحانَه وتعالى العَظيمُ الَّذي لا شيءَ أعظمُ منه، واللهُ تعالى يَذْكُرُ نفْسَه أحيانًا بصيغةِ العَظَمةِ، مِثلُ هذه الآيةِ الكريمةِ، ومِثلُ قَولِه تعالى:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٢٨، ٢٢٩).

وضعَّف ابنُ جُزَي الوجهَ الثَّالثَ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٤٩٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٦٢).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٤/ ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٧).

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، ومِثْلُ قَولِه تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس: ١٢]، وأحيانًا يَذكُرُ نفْسَه بصيغةِ الواحدِ، مِثْلُ: ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [طه: ١٤]؛ وذلك لأنَّه واحِدٌ عظيمٌ، فباعتبارِ الصِّفةِ يأتي ضَميرُ العَظَمةِ، وباعتبارِ الوَحدانيَّةِ يأتي ضميرُ الواحِدِ(١).

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ لا تعارُضَ بيْنه وبيْن قَولِه تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ [الدخان: ٣]؛ لأنَّ اللَّيلةَ المُبارَكةَ هي ليلةُ القَدْرِ، وهي مِن شهرِ رَمَضانَ بنَصِّ قَولِه تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فما يَزعُمُه كثيرٌ مِنَ العُلَماءِ مِن أنَّ اللَّيلةَ المبارَكةَ لَيلةُ النِّصفِ مِن شَعبانَ تَرُدُّه هذه النُّصوصُ القُرآنيَّةُ(٢).

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ ليلةَ القَدْرِ ثابتةٌ باقيةٌ، خِلافًا لِمَن زعَمَ أنَّها رُفِعَت(٣).

٩- قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ * لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ كلُّ موضعٍ في القرآنِ: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ فقد عُقِّب ببَيانِه، وكلُّ موضعٍ ذُكِر بلَفظِ: ﴿ وَمَا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٦٨).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص:٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٢٣)، ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٢٩٥).

قال النووي: (وأجمَعَ مَن يُعتَدُّ به على وُجودِها ودوامِها إلى آخِرِ الدَّهرِ؛ للأحاديثِ الصحيحةِ المشهورةِ) ((شرح النووي على مسلم)) (٨/ ٥٧).

يُدۡرِيكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببَيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾[1] [الشورى: ١٧].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ خَصَّ اللهُ بها نبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأُمَّتَه حينَ جَعَلَ أعمارَهم قصيرةً، فأعطاهم فَضْلَ هذه اللَّيلةِ؛ لِيَبْلُغوا بها وحْدَها فوقَ ما بَلَغَتِ الأُمَمُ السَّالِفةُ في طُولِ أعمارِهم؛ جُودًا وكرَمًا وتفضيلًا لهذا النَّبيِّ على مَن تَقَدَّمَه مِن الأنبياءِ، وتفضيلًا لأُمَّتِه على أُمَمِهم؛ لأنَّه خاتَمُ الأنبياءِ إلى أنْ تقومَ السَّاعةُ[2].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ تفاضُلُ الأعمالِ باعتبارِ الزَّمانِ[3].

١٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾، فيه سُؤالٌ: صَحَّ عن رَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أنَّه قال: ((إنَّ لَكِ مِن الأجْرِ على قَدْرِ نَصَبِكِ ونَفَقَتِكِ))[4]، ومِن المَعْلومِ أنَّ الطَّاعةَ في ألْفِ شَهْرٍ أَشَقُّ مِن الطَّاعةِ في لَيلةٍ

---

(١) يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: ٣١٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).
وقال الفَرَّاءُ: (كلُّ ما كان في القرآنِ مِن قولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أدراه، وما كان مِن قولِه: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُدْرِه). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٨٠).
وأخرج ابنُ جرير في ((تفسيره)) (٢٣/ ٢٠٧) بسندِه عن سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَةَ، قال: (ما في القرآنِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ فلم يُخبِرْه، وما كان: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ فقد أخبَرَه). وأخرجه أيضًا ابنُ المُنذِرِ وابنُ أبي حاتم، كما في ((الدر المنثور)) للسيوطي (٦/ ٦٦٤).
قال ابنُ عاشور: (مُرادُهم أنَّ مَفعولَ «ما أدراك» مُحقَّقُ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للتَّهويلِ، وأن مَفعولَ «ما يُدْريك» غيرُ مُحقَّقِ الوقوعِ؛ لأنَّ الاستِفهامَ فيه للإنكارِ، وهو في معْنى نفْيِ الدِّرايةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((النكت الدالة على البيان)) للقصاب (٤/ ٥٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- الفاتحة والبقرة)) (٣/ ٣٥٩).

(٤) أخرجه الحاكِمُ (١٧٣٣) مِن حديثِ عائشةَ رَضيَ اللهُ عنها. =

واحِدةٍ، فكيف يُعقَلُ اسْتِواؤُهما[١]؟

**الجَوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجْهُ الأوَّلُ**: أنَّ الفِعلَ الواحِدَ قد يَخْتلِفُ حالُه في الحُسْنِ والقُبْحِ بسَبَبِ اخْتِلافِ الوُجوهِ المُنْضَمَّةِ إليه؛ فالأفْعالُ تَختَلِفُ آثارُها في الثَّوابِ والعِقابِ لاخْتِلافِ وُجوهِها، فلا يَبعُدُ أن تكونَ الطَّاعةُ القَليلةُ في الصُّورةِ مُساوِيةً في الثَّوابِ للطَّاعاتِ الكَثيرةِ.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ مَقصودَ الحَكيمِ سُبْحانَه أن يَجُرَّ الخَلْقَ إلى الطَّاعاتِ؛ فتارةً يَجعَلُ ثَمَنَ الطَّاعةِ ضِعْفَينِ، ومَرَّةً عَشْرًا، ومرَّةً سَبْعَمِئةٍ، وتارةً بحَسَبِ الأزْمِنةِ، وتارةً بحَسَبِ الأمْكِنةِ، والمَقصودُ الأصْليُّ مِن الكلِّ جَرُّ المُكلَّفِ إلى الطَّاعةِ، وصَرْفُه عن الاشْتِغالِ بالدُّنْيا[٢].

والعَمَلُ القَليلُ قد يَفضُلُ الكَثيرَ باعْتِبارِ الزَّمانِ، وباعْتِبارِ المَكانِ، وباعْتِبارِ كَيْفيَّةِ الأداءِ، كصَلاةٍ واحِدةٍ أُدِّيَتْ بجَماعةٍ؛ فإنَّها تَعدِلُ خَمْسًا وعِشْرينَ مَرَّةً صَلاةً مِثلَها أُدِّيَتْ على الانْفِرادِ، إلى غَيرِ ذلك. نَعمْ، هذه الأفضَليَّةُ قد تُعقَلُ في بعضٍ، وقد لا، كما فيما نحن فيه، ولا حَجْرَ على اللهِ عزَّ وجلَّ، ولا يَعلَمُ ما عندَه

---

= صحَّحَه الحاكمُ وقال: (على شَرْطِ الشَّيخَينِ)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٢١٦٠).

(١) قولُ بعضِ النَّاسِ: الثوابُ والأجرُ على قدرِ المشقَّةِ ليس بمستقيمٍ على الإطلاقِ، فليس الأجرُ على قدرِ المشقَّةِ في كلِّ شيءٍ، ولكنَّ الأجرَ على قدرِ منفعةِ العملِ ومصلحتِه وفائدتِه، وعلى قدرِ طاعةِ أمرِ الله ورسولِه. فأيُّ العملينِ كان أحسنَ، وصاحبُه أطوعَ وأتبعَ كان أفضلَ؛ فإنَّ الأعمالَ لا تتفاضلُ بالكثرةِ، وإنَّما تتفاضلُ بما يحصُلُ في القلوبِ حالَ العملِ، نعم كثيرًا ما يكثُرُ الثَّوابُ على قدرِ المشقَّةِ والتَّعبِ، لا لأنَّ المشقَّةَ مقصودةٌ مِن العملِ؛ ولكن لأنَّ العملَ مستلزمٌ للمشقَّةِ والتَّعبِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٢٠، ٦٢٢) و (٢٥/ ٢٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٢).

سُبحانَه إلَّا هو جَلَّ شَأنُه[١].

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴾ فيه سؤالٌ: قَولُه: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ [الصافات: ١٦٥] يُنافي قَولِه تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾؟

**الجوابُ**: نَصرِفُ الحالتَينِ إلى زمانَينِ مختَلفينِ[٢].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ نزولُ الملائكةِ إلى الأرضِ، وهذا عُنوانٌ على الرَّحمةِ والخَيرِ والبَركةِ؛ ولهذا إذا امتنَعَتِ الملائكةُ مِن دُخولِ شَيءٍ كان ذلك دليلًا على أنَّ هذا المكانَ الَّذي امتنَعَتِ الملائكةُ مِن دُخولِه قد يَخْلو مِن الخَيرِ والبَركةِ[٣].

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ أنَّ الملائكةَ تَنْتَشِرُ في الأرضِ، فيَبْطُلُ سُلطانُ الشَّياطينِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ اشتَمَلَتْ هذه الآيةُ على تَنويهٍ عَظيمٍ بالقرآنِ، فافتُتِحَت بحرْفِ (إنَّ)، وبالإخبارِ عنها بالجُملةِ الفِعليَّةِ، وكِلاهما مِن طُرقِ التَّأكيدِ والتَّقوِّي، ويُفيدُ هذا التَّقديمُ قَصرًا، وهو قصْرُ قلْبٍ[٥]؛ للرَّدِّ على

---

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧١).

(٤) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ١٨٢).

(٥) القَصرُ أو الحَصرُ هو: تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثلُ: إنَّما زَيدٌ قائمٌ، و: ما ضرَبتُ إلَّا زيدًا. وينقسِمُ إلى قَصْرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقصرِ قَلْبٍ؛ فالحقيقيُّ هو: أن يختصَّ المقصورُ بالمقصورِ عليه بحسَبِ الحقيقةِ والواقِعِ، بألَّا يتعدَّاه إلى غيرِه أصلًا، مِثلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، حيثُ قُصِر وصْفُ الإلَهيَّةِ الحقِّ على =

المشرِكين الَّذي نَفَوا أنْ يكونَ القرآنُ مُنزَّلًا مِن اللهِ تعالَى[١].

- ولَيلةُ القدْرِ: اسمٌ جَعَلَه اللهُ لِلَّيلةِ الَّتي ابتُدِئَ فيها نُزولُ القُرآنِ، ويَظهَرُ أنَّ أوَّلَ تَسميتِها بهذا الاسمِ كان في هذه الآيةِ، ولم تكُنْ مَعروفةً عندَ المسلمينَ، وبذلك يكونُ ذِكْرُها بهذا الاسمِ تَشويقًا لمَعرفتِها؛ ولذلك عُقِّبَ بقولِه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾[٢] [القدر: ٢].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡقَدۡرِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، ولم يَقُلْ: (في لَيلةِ قدْرٍ) بالتَّنكيرِ؛ لأنَّه قُصِدَ جَعْلُ هذا المُركَّبِ بمَنزلةِ العَلَمِ لتلك اللَّيلةِ كالعَلَمِ بالغَلَبةِ؛ لأنَّ تَعريفَ المُضافِ إليه باللَّامِ مع تَعريفِ المُضافِ بالإضافةِ، أوغَلُ في جَعْلِ

---

= مَوصوفٍ هو اللهُ وحْدَه، وهذا مِن قصرِ الصِّفةِ على المَوصوفِ، وهو قصرٌ حقيقيٌّ. والقصرُ الإضافيُّ: أن يكونَ المقصورُ عنه شيئًا خاصًّا، يُرادُ بالقصرِ بيانُ عدَمِ صحَّةِ ما تصوَّره بشأنِه أو ادَّعاه المقصودُ بالكلامِ، أو إزالةُ شكِّه وتردُّدِه، إذا كان الكلامُ كلُّه منحصِرًا في دائرةٍ خاصَّةٍ؛ فليس قصرًا حقيقيًّا عامًّا، وإنَّما هو قصرٌ بالإضافةِ إلى موضوعٍ خاصٍّ، يَدورُ حوْلَ احتمالَينِ أو أكثرَ مِن احتمالاتٍ محصورةٍ بعددٍ خاصٍّ، ويُستدَلُّ عليها بالقرائنِ، مِثلُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. والقصرُ الادِّعائيُّ: ما كان القصرُ الحقيقيُّ فيه مَبنيًّا على الادِّعاءِ والمبالَغةِ؛ بتنزيلِ غيرِ المذكورِ منزلةَ العدَمِ، وقصْرِ الشَّيءِ على المذكورِ وحْدَه. وقصْرُ القَلبِ: أن يَقلِبَ المتكلِّمُ فيه حُكمَ السَّامعِ؛ كقولِك: ما شاعرٌ إلَّا زَيدٌ، لِمَن يَعتقِدُ أنَّ شاعرًا في قبيلةٍ معيَّنةٍ أو طرَفٍ مُعَيَّنٍ، لكنَّه يقولُ: ما زَيدٌ هناك بشاعرٍ. وللقَصرِ طُرُقٌ كثيرةٌ؛ منها: القصرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ، والقصرُ بـ (إنَّما)، والقصرُ بتقديمِ ما حَقُّه التَّأخيرُ، وغيرُ ذلك. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ٩٢ - ١٠٠)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٥٧).

ذلك المركَّبِ لَقَبًا؛ لاجتماعِ تَعريفَينِ فيه[١].

- قولُه: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ۞ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ عظَّمَ القرآنَ مِن ثَلاثةِ أوجُهٍ؛ **أحدُها**: أنْ أسنَدَ إنْزالَه إليه، وجَعَلَه مُختَصًّا به دونَ غيرِه، وهذا مُنبِئٌ عن كَمالِ العِنايةِ به، وفي إيثارِ صِيغةِ الجمْعِ وضَميرِ العظَمةِ تشريفٌ للقرآنِ، وتَعظيمٌ دونَه كلُّ تَعظيمٍ.

**والثَّاني**: أنَّه جاء بضَميرِه دونَ اسمِه الظَّاهرِ؛ شَهادةً له بالنَّباهةِ والاستِغناءِ عن التَّنبيهِ عليه، وإيماءً إلى أنَّه حاضرٌ في أذهانِ المسلِمينَ؛ لشِدَّةِ إقبالِهِم عليه، فكونُ الضَّميرِ دونَ سبْقِ مَعادٍ إيماءٌ إلى شُهرتِه بيْنَهم.

**والثَّالثُ**: الرَّفعُ مِن مِقدارِ الوقتِ الَّذي أُنزِلَ فيه بقولِه تعالَى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾؛ لِما فيه مِنَ الدَّلالةِ على أنَّ عُلوَّ قَدرِها خارجٌ عن دائرةِ درايةِ الخَلْقِ، ولا يَدْريها إلَّا علَّامُ الغُيوبِ، كما يُشعِرُ به قولُه تعالَى: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾؛ فالمَقصودُ مِن تَشريفِ اللَّيلةِ الَّتي كان ابتداءُ إنزالِ القرآنِ فيها -على قولٍ- تَشريفٌ آخَرُ للقرآنِ بتَشريفِ زَمانِ ظُهورِه؛ تَنبيهًا على أنَّه تعالَى اختارَ لابتداءِ إنزالِه وَقْتًا شَريفًا مُبارَكًا؛ لأنَّ عِظَمَ قدْرِ الفِعلِ يَقْتضي أنْ يُختارَ لإيقاعِه أفضَلُ الأوقاتِ والأمكنةِ، فاختيارُ أفضَلِ الأوقاتِ لابتداءِ إنزالِه يُنبِئُ عن عُلوِّ قَدْرِه عندَ اللهِ تعالَى[٢].

٢- قولُه: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ تَفخيمٌ لشَأنِها، وتَنويهٌ بطَريقِ الإبهامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٧)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٦، ٤٥٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٧).

المرادِ به أنَّ إدراكَ كُنْهِها ليس بالسَّهلِ؛ لِما ينطوي عليه مِن الفضائلِ الجَمَّةِ[١].

- وأُعِيدَ اسمُ (لَيلة القَدْرِ) مَرتَّينِ على خِلافِ مُقتضى الظَّاهرِ؛ لأنَّ مُقتضى الظَّاهرِ الإضمارُ، فقُصِدَ الاهتمامُ بتَعيينِها تَعظيمًا لِلَيلتِه، فحَصَلَ تَعظيمُ لَيلةِ القدْرِ صَريحًا، وحَصَلَت كِنايةٌ عن تَعظيمِ ما أُنزِلَ فيها، وأنَّ اللهَ اختار إنْزالَه فيها؛ ليَتطابَقَ الشَّرَفانِ، وقد تَكرَّرَ هذا اللَّفظُ ثلاثَ مرَّاتٍ، والمَرَّاتُ الثَّلاثُ يَنْتهي عندَها التَّكريرُ غالبًا[٢].

٣- قولُه: ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ﴾ بَيانٌ أوَّلُ لشَيءٍ مِن الإبهامِ الَّذي في قولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ٢]؛ فلذلك فُصِلَت الجُملةُ -أي: لم تُعطَفْ على الَّتي قبْلَها-؛ لأنَّها استِئنافٌ بَيانيٌّ، كأنَّها جَوابٌ لسُؤالٍ نَشَأَ عن تَفخيمِ لَيلةِ القدْرِ، تَقديرُه: وما فَضائلُها؟ أو لأنَّها كعطْفِ البيانِ، فهي بَيانٌ إجماليٌّ لشَأنِها إثْرَ تَشويقِه عليه السَّلامُ إلى دِرايتِها؛ فإنَّ ذلكَ مُعرِبٌ عن الوعدِ بإدْرائِها[٣].

- وعدَدُ الألْفِ قيل: إنَّه مقصودٌ، وقيل: إنَّه مُستعمَلٌ في وَفرةِ التَّكثيرِ، كقولِه: واحدٌ كألْفٍ، وإنَّما جُعِلَ تَمييزُ عدَدِ الكثرةِ هنا بالشَّهرِ؛ للرَّعْيِ على الفاصلةِ الَّتي هي بحَرْفِ الرَّاءِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥١٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٨).

(٢) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٨، ٤٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٥٩)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٦٤).

=

٤- قولُه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾:

- مَوقعُ قولِه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا ﴾ إلى قولِه: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ مِن جُملةِ ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]؛ مَوقعُ الاستِئنافِ البَيانيِّ، أو مَوقعُ بدَلِ الاشتمالِ[١]، فلِمُراعاةِ هذا الموقعِ فُصِلَتِ الجُملةُ عن الَّتي قبْلَها، ولم تُعطَفْ عليها مع أنَّهما مُشترِكتانِ في كَونِ كلٍّ واحدةٍ منهما تُفيدُ بَيانًا لجُملةِ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢]، فأُوثِرَت مُراعاةُ مَوقعِها الاستِئنافيِّ أو البَدَليِّ على مُراعاةِ اشتِراكِهما في كَونِها بَيانًا لجُملةِ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾؛ لأنَّ هذا البَيانَ لا يَفوتُ السَّامعَ عندَ إيرادِها في صُورةِ البَيانِ أو البدَلِ، بخِلافِ ما لو عُطِفَت على الَّتي قبْلَها بالواوِ؛ لفَواتِ الإشارةِ إلى أنَّ تَنزُّلَ الملائكةِ فيها مِن أحوالِ خَيريَّتِها[٢].

- قولُه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ إذا ضُمَّ هذا البيانُ الثَّاني لِما في قولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ٢] مِن الإبهامِ التَّفخيميِّ؛ حَصَلَ منهما ما يدُلُّ دَلالةً بيِّنةً على أنَّ اللهَ جَعَلَ مِثلَ هذه الفَضيلةِ لكلِّ لَيلةٍ مِن لَيالي الأعوامِ تَقَعُ في مِثلِ اللَّيلةِ مِن شَهْرِ نُزولِ

---

= وقال القاسمي: (لك أن تَقِفَ في التَّفضيلِ عندَ النَّصِّ، وتُفَوِّضَ الأمرَ في تحديدِ ما فُضِّلَت عليه اللَّيلةُ بألْفِ شَهرٍ إلى اللهِ تعالى؛ فهو الَّذي يعلَمُ سَبَبَ ذلك، ولم يبيِّنْه لنا، ولك أن تُجريَ الكلامَ على عادتِهم في التَّخاطُبِ، وذلك في الكتابِ كثيرٌ... فيكونُ التَّحديدُ بالألْفِ لا مفهومَ له، بل الغَرَضُ منه التَّكثيرُ، وأنَّ أقَلَّ عَدَدٍ تَفضُلُه هو ألْفُ شَهرٍ... فهي ليلةٌ خيرٌ مِن الدَّهرِ إنْ شاء اللهُ). ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥١٦، ٥١٧).

(١) تقدَّم تعريفُه (ص: ٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٤). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٣).

القُرآنِ كَرامةً للقُرآنِ، ولِمَن أُنزِلَ عليه، وللدِّينِ الَّذي نَزَلَ فيه، وللأُمَّةِ الَّتي تتَّبعُه، ألَا تَرى أنَّ مُعظَمَ السُّورةِ كان لذِكرِ فَضائلِ لَيلةِ القدْرِ؟ فما هو إلَّا للتَّحريضِ على تطَلُّبِ العمَلِ الصَّالحِ فيها؛ فإنَّ كَونَها خَيرًا مِن ألْفِ شَهرٍ أومَأَ إلى ذلك، وبيَّنَتْه الأخبارُ الصَّحيحةُ(١).

- والتَّعبيرُ بالفِعلِ المُضارعِ في قولِه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّ هذا التَّنزُّلَ مُتكرِّرٌ في المستقبَلِ بعْدَ نُزولِ هذه السُّورةِ(٢).

- قولُه: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾، الرُّوحُ: جِبريلُ، وإنَّما أُفرِدَ بالذِّكرِ؛ تَنويهًا بفَضْلِه(٣).

- ولَفظةُ ﴿ كُلِّ ﴾ مُستعمَلةٌ في معْنى الكثرةِ للأهمِّيَّةِ، أي: في أُمورٍ كَثيرةٍ عَظيمةٍ(٤).

- وتَنوينُ ﴿أَمْرٍ﴾ للتَّعظيمِ(٥).

٥- قولُه: ﴿ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴾ بَيانٌ لمَضمونِ ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، وهو كالاحتِراسِ(٦)؛ لأنَّ تَنزُّلَ الملائكةِ يكونُ للخَيرِ ويكونُ للشَّرِّ لعِقابِ مُكذِّبي

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٣٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) الاحتِراسُ: هو التَّحرُّزُ مِن الشَّيءِ والتَّحفُّظُ منه، وهو نوعٌ مِن أنواعِ إطنابِ الزِّيادةِ، وهو أن يكونَ الكلامُ محتملًا لشَيءٍ بعيدٍ، فيُؤتى بكلامٍ يَدفعُ ذلك الاحتمالَ. أو الإتيانُ في كلامٍ يوهِمُ خلافَ المقصودِ بما يَدفَعُ ذلك الوهمَ، ويُسمِّيه بعضُهم: التَّكميلَ. يُنظر: ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٢٤٥)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقزويني (٣/ ٢٠٨)، ((البرهان =

الرُّسلِ، فأُخبِرَ هنا أنَّ تَنزُّلَ الملائكةِ لَيلةَ القدْرِ لتَنفيذِ أمْرِ الخَيرِ للمُسلِمينَ الَّذين صاموا رَمَضانَ، وقاموا لَيلةَ القدْرِ، فهذه بِشارةٌ[١].

- وتَنكيرُ ﴿سَلَٰمٌ﴾ للتَّعظيمِ، وأُخبِرَ عن اللَّيلةِ بأنَّها سَلامٌ للمُبالَغةِ؛ لأنَّه إخبارٌ بالمَصدرِ[٢].

- وتَقديمُ المُسنَدِ -وهو ﴿سَلَٰمٌ﴾- على المُسنَدِ إليهِ -وهو ﴿هِيَ﴾- لإفادةِ الاختِصاصِ، أي: ما هي إلَّا سَلامٌ، والقصْرُ ادِّعائيٌّ[٣]؛ لعدَمِ الاعتدادِ بما يَحصُلُ فيها لغَيرِ الصَّائمينَ القائمينَ[٤].

ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ مُرادًا به الإخبارُ فقطْ. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بالمصدرِ الأمرُ، والتَّقديرُ: سلِّموا سَلامًا؛ فالمصدرُ بَدلٌ مِن الفعلِ، وعُدِلَ عن نَصْبِه إلى الرَّفعِ؛ ليُفيدَ التَّمكُّنَ، والمعْنى: اجْعَلوها سَلامًا بيْنَكم، أي: لا نِزاعَ ولا خِصامَ[٥].

- وقولُه: ﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ غايةٌ لِما قبْلَه مِن قولِه: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ إلى ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾، والمَقصودُ مِن الغايةِ إفادةُ أنَّ جَميعَ أحيانِ تلك اللَّيلةِ مَعمورةٌ بنُزولِ الملائكةِ والسَّلامةِ، فالغايةُ هنا مُؤكِّدةٌ لمَدلولِ (لَيلةٍ)؛ لأنَّ اللَّيلةَ قد تُطلَقُ على بَعضِ أجْزائِها[٦].

---

= في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٦٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ٢٥١)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٤، ٤٦٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٦٥).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٦٥، ٤٦٦).

- وقيل: جِيءَ بحرْفِ ﴿حَتَّىٰ﴾ لإدخالِ الغايةِ ﴿مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾؛ لبَيانِ أنَّ لَيلةَ القدْرِ تَمتَدُّ بعْدَ مَطلعِ الفَجرِ، بحيث إنَّ صَلاةَ الفجْرِ تُعتبَرُ واقعةً في تلك اللَّيلةِ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ أنَّ نِهايتَها كنِهايةِ الفِطرِ بآخِرِ جُزءٍ مِن اللَّيلِ، وهذا تَوسعةٌ مِن اللهِ في امتدادِ اللَّيلةِ إلى ما بعْدَ طُلوعِ الفَجرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٦).

قال الواحدي: (قال ابنُ عبَّاسٍ والمفسِّرون: إلى مَطلِعِ الفجرِ. والمطلعُ: الطُّلوعُ). ((البسيط)) (٢٤/ ١٩٨).

وقال السعدي: (﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: مبتداها مِن غُروبِ الشَّمسِ، ومنتهاها طلوعُ الفجرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ أي: إلى مطلعِ الفجرِ، وإذا طلَع الفجرُ انتهَتْ ليلةُ القَدْرِ). ((تفسير ابن عثيمين: جزء عم)) (ص: ٢٧٢).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ البَيِّنةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ البَيِّنةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ البَيِّنةِ[١].

وسُمِّيت أيضًا: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[٢]، فعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لأُبَيِّ بنِ كَعبٍ: إنَّ اللهَ أمَرَني أن أقرَأَ عليكَ: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. قال: وسَمَّاني لك؟! قال: نعم. فبَكَى))[٣].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ البَيِّنةِ مَدَنيَّةٌ[٤].....

---

(١) سمِّيت بذلك لوُرودِ لَفظِ البَيِّنةِ فيها، في قَولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾.

(٢) سمِّيت بذلك لأنَّها أوَّلُ جُملةٍ افتُتِحَت بها. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٧).
وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿لَمۡ يَكُنِ﴾ وسورةَ القَيِّمةِ، وسورةَ المُنفَكِّينَ، وسورةَ البَرِيَّةِ، وسورةَ الإنْفِكاكِ. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٣)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣٨٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٠٩)، ومسلم (٧٩٩).

(٤) وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيْمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقندي، وابن أبي زَمَنِين، والثعلبي، والماوَرْدي، والرازي، وابن جُزَي، والسيوطي، وأبو السعود، والقاسمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٤/ ٧٧٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٥٩)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٧)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠١)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٨٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٠).
ونَسَب هذا القَولَ إلى الجُمهورِ: الماوَرْديُّ، وابنُ الجوزيِّ، والعزُّ بنُ عبدِ السَّلامِ، والقُرطبيُّ، والخازنُ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير العز بن عبد السلام)) (٣/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٣٨)، ((تفسير =

وقيل: مَكِّيَّةٌ[١].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

توبيخُ المشرِكينَ وأهلِ الكِتابِ على تكذيبِهم بالقرآنِ والرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وبيانُ مآلِهم ومآلِ المؤمنينَ[٢].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- توبيخُ أهلِ الكِتابِ والمُشرِكينَ على إصرارِهم على ضَلالِهم مِن بَعْدِ أن تبَيَّنَ لهم الحَقُّ.

٢- التَّعجيبُ مِن تناقُضِ أحوالِهم، وبيانُ أنَّ كُفرَهم كان بسَبَبِ جُحودِهم وعِنادِهم وحَسَدِهم للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.

٣- التَّسجيلُ عليهم بأنَّهم شَرُّ البَرِيَّةِ، وأنَّ المؤمِنينَ هم خَيرُ البَرِيَّةِ.

٤- الثَّناءُ على الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، وذِكرُ جزائِهم في الآخِرةِ.

---

= الخازن)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٨).

(١) وممَّن اختار أنَّها مَكِّيَّةٌ: المهدويُّ، والبغوي، والزمخشري، وابن عطية، والثعالبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((التحصيل)) للمهدوي (٧/ ١٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧)، ((تفسير الثعالبي)) (٥/ ٦١٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١١).

ونَسَب هذا القَولَ إلى الجُمهورِ: ابنُ عطيَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٨).

## الآيات (١-٥)

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿مُنفَكِّينَ﴾: أي: زائِلينَ عن كُفْرِهم، والانفِكاكُ: الانفِصالُ والبَينونةُ مِنَ الشَّيءِ بَعْدَ الملابَسةِ والاجتِماعِ، وأصلُ (فكك): يدُلُّ على تفتُّحٍ وانفِراجٍ[(١)].

﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾: أي: محمَّدٌ رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. والبَيِّنةُ: الحُجَّةُ الظَّاهِرةُ الَّتي يَتمَيَّزُ بها الحَقُّ مِنَ الباطِلِ، وأصلُ (بين): يدُلُّ على انكِشافِ الشَّيءِ[(٢)].

﴿قَيِّمَةٌ﴾: أي: مُستَقيمةٌ صادِقةٌ عادِلةٌ، وأصلُ (قوم): يدُلُّ على انتِصابٍ[(٣)].

﴿حُنَفَآءَ﴾: أي: مُسلِمينَ مائِلينَ عن العقائِدِ الزَّائِغةِ، جمعُ حَنيفٍ: وهو المائِلُ عن الدِّينِ الباطِلِ إلى الدِّينِ الحَقِّ، المُقبِلُ على الله، المُعرِضُ عمَّا سِواه، وأصلُ الحنَفِ: المَيلُ عن الشَّيءِ بالإقبالِ على آخَرَ، وأصْلُه مَيلٌ في إبهامَي

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٣٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٠٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٢٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٠٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٢).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٣، ١٥٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٢).

القَدمَينِ مِن كلِّ واحدةٍ على صاحِبَتِها، وأصلُ (حنف): يدُلُّ على المَيلِ[(١)].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ سُبحانَه هذه السُّورةَ الكريمةَ قائِلًا: لم يكُنِ الكُفَّارُ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى والمُشرِكينَ عَبَدةِ الأصنامِ بتارِكينَ دينَهم مِن قَبلِ أن تأتيَهم علامةٌ واضِحةٌ مِن رَبِّهم تَدُلُّهم على الحَقِّ، وتلك البَيِّنةُ هي رَسولُ اللهِ محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَقرأُ عليهم القُرآنَ المكتوبَ في صُحُفٍ مُنَزَّهةٍ عن كُلِّ سُوءٍ، في تلك الصُّحُفِ كُتُبٌ مُستقيمةٌ.

ثمَّ بيَّن سبحانَه ما كان عليه أهلُ الكتابِ مِن جَحدٍ للحقِّ معَ علمِهم به، فقال: وما تفَرَّق اليَهودُ والنَّصارى في شأنِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلَّا بعْدَما بعَثَه اللهُ؛ فكَذَّب به بعضُهم، وآمَنَ بَعضُهم!

ثمَّ بيَّن الله تعالى ما كان يجِبُ عليهم أن يَفْعلوه، فقال: وما أُمِروا إلَّا بعِبادةِ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢٤٥)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٩/ ٣١٩)، ((جلاء الأفهام)) لابن القيم (١/ ٢٦٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٩٦)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٣٥٩، ٤١٢).

قال ابن فارس: (الحَنَف: اعْوِجاجٌ في الرِّجْلِ إلى داخِلٍ. ورجُلٌ أحنَفُ، أي: مائِلُ الرِّجْلَينِ، وذلك يكونُ بأنْ تَتَدانَى صُدورُ قَدَمَيْه ويَتَباعَدَ عَقِباه. والحَنيفُ: المائِلُ إلى الدِّينِ المستقيمِ). ((مقاييس اللغة)) (٢/ ١١٠).

وقيل: الحَنيفُ: المسلمُ المستقيمُ، وذلك بناءً على قولِ مَن قال: إنَّ الحَنيفَ هو المستقيمُ مِن كلِّ شيءٍ. والحنَفَ: الاستقامةُ، وجعَلوا الرَّجُلَ الَّذي تُقبلُ إحدَى قَدَميه على الأُخرى، إنَّما قِيل له: أحنَفُ، على جهةِ التَّفاؤُلِ، كما قِيل للمَهْلَكةِ مِن البلادِ: المَفازَةُ، بمعنَى الفَوزِ بالنَّجاةِ منها والسَّلامةِ، وكما قِيل لِلَّديغِ: السَّليمُ؛ تَفاؤلًا له بالسَّلامةِ مِن الهلاكِ، وما أشْبَهَ ذلك. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٦٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ٥٩١)، ((تفسير الماوردي)) (٢/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٣/ ١٤٦).

اللهِ وَحْدَه مُخلِصينَ مُسلِمينَ مائِلينَ عن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، وأُمِروا بإقامةِ الصَّلَواتِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ، وذلك الَّذي أُمِروا به مِنَ التَّوحيدِ وإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ: هو دينُ الإسلامِ المُستقيمُ العادِلُ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾.

أي: لم يكُنِ الكُفَّارُ مِنَ اليَهودِ، والنَّصارى، والمُشرِكينَ عَبَدةِ الأوثانِ والأصنامِ: بتارِكينَ لدينِهم مِن قَبلِ أن تأتيَهم علامةٌ واضِحةٌ مِن رَبِّهم تَدُلُّهم على الحَقِّ[1].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨٦، ١٨٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧١، ٤٧٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٦).

و﴿مِنْ﴾ للتَّبيينِ. وممَّن اختاره: الكرمانيُّ، والبيضاوي، وأبو السعود، والألوسي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٦٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (١/ ١٤٢)، ((تفسير الألوسي)) (١/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).

وقيل: ﴿مِنْ﴾ للتَّبعيضِ. يُنظر: ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٦٩).

قال ابن جُزَي: (ومعنى ﴿مُنفَكِّينَ﴾: مُنفَصِلينَ، ثمَّ اختُلِف في هذا الانفصالِ على أربعةِ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّ المعنى: لم يَكونوا مُنفصِلينَ عن كُفرِهم حتَّى تأتيَهم البَيِّنةُ؛ لِتَقومَ عليهم الحُجَّةُ.

الثَّاني: لم يَكونوا منفصِلينَ عن معرفةِ نُبوَّةِ سيِّدِنا محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم حتَّى بعثه اللهُ.

الثَّالثُ: اختاره ابنُ عطيَّةَ، وهو: لم يَكونوا منفصلينَ عن نظَرِ الله وقُدرتِه حتَّى يَبعَثَ الله إليهم رسولًا يُقيمُ عليهم الحُجَّةَ.

الرَّابعُ: وهو الأظهَرُ عندي، أنَّ المعنى: لم يَكونوا لِيَنفَصِلوا مِن الدُّنيا حتَّى بعث الله لهم سيِّدُنا محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم فقامت عليهم الحُجَّةُ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠١).

ممَّن اختار القولَ الأوَّلَ في الجملةِ -أي: زائلينَ عن كُفرِهم وشِركِهم، ومُفارِقينَ لدينِهم ومُنتَهِينَ عنه ومُنفصِلينَ عن ضَلالِهم-: الزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِين، والثعلبيُّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والزمخشري، وابن الجوزي، والرَّسْعَني، والقرطبي، والخازن، والعُلَيمي، والشوكاني، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير ابن أبي =

= زمنين)) (٥/ ١٥١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٦٩٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٦).

قالوا: و﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ﴾ أي: حتَّى أتَتْهم، مُستقبَلٌ بمعنى الماضي. يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٠).

وممَّن اختار القولَ الثَّانيَ -أي: مُفترِقينَ في أمرِ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم-: ابنُ جرير، والنَّحَّاسُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٢)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٦٨).

قال النَّحَّاس: (لم يكُنِ الكفَّارُ متفرِّقينَ إلَّا مِن بَعدِ أن جاءهم الرَّسولُ؛ لأنَّهم فارَقوا ما عِندَهم مِن صفةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فكفَروا بعدَ البَيانِ. وهذا القولُ في العربيَّةِ أَوْلى؛ لأنَّ ﴿مُنفَكِّينَ﴾ لو كان بمعنى زائلينَ لَاحتاج إلى خبَرٍ، ولكن يكونُ مِن انفَكَّ الشَّيءُ مِن الشَّيءِ، أي: فارَقه). ((إعراب القرآن)) (٥/ ١٦٨).

ونحو ذلك قولُ أبي السعود: (﴿مُنفَكِّينَ﴾: أي: عمَّا كانوا عليه مِن الوعدِ باتباعِ الحقِّ والإيمانِ بالرسولِ المبعوثِ في آخرِ الزمانِ، والعزمِ على إنجازِه). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٢)

وممَّن اختار القولَ الثَّالثَ: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ تيميَّةَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٤٩٤).

قال ابن تيميَّةَ عن هذا القولِ: (هو أصَحُّ الأقوالِ لفظًا ومعنًى؛ أمَّا مِن جهةِ اللَّفظِ ودَلالتِه وبيانِه فإنَّ هذا اللَّفظَ هو مُستعمَلٌ فيما يُلزَمُ به الإنسانُ بغيرِ اختياره، ويُقهَرُ عليه إذا تخلَّصَ منه، فقولُه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ أي: لم يَكونوا مَتروكينَ باختيارِ أنفُسِهم يَفعلونَ ما يَهْوونَه لا حَجْرَ عليهم، كما أنَّ المُنفَكَّ لا حَجْرَ عليه. وهو لم يقُلْ: «مَفْكُوكينَ»، بل قال: ﴿مُنفَكِّينَ﴾، وهذا أحسَنُ؛ فإنَّه نفيٌ لِفِعْلِهم، ولو قال «مَفكوكينَ» كان التَّقديرُ: لم يَكونوا مُسَيَّبينَ مُخَلَّيْنَ، فهو نفْيٌ لِفعلِ غيرِهم. والمقصودُ أنَّهم لم يَكونوا مَتروكينَ لا يُؤْمَرونَ ولا يُنْهَوْنَ ولا تُرسَلُ إليهم رُسلٌ، بل يَفعلون ما شاؤوا ممَّا تَهواه الأنفُسُ! والمعنى: أنَّ اللهَ ما يُخلِّيهم ولا يَترُكُهم، فهو لا يَفُكُّهم حتَّى يَبعَثَ إليهم رسولًا، وهذا كقولِه: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ=

كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا يَأۡتِينَا بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمۡ تَأۡتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ۞ وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ﴾ [طه: ١٣٣، ١٣٤].

﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنَّه أجمَلَ البيِّنةَ، ثمَّ فصَّلها فيما بَعْدَها، فقال[1]:

﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢﴾.

أي: وتلك البَيِّنةُ هي رَسولٌ مِنَ اللهِ -وهو محمَّدٌ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم- يَقرأُ عليهم القُرآنَ المكتوبَ في صُحُفٍ مُنَزَّهةٍ عن كُلِّ سُوءٍ[2].

---

= سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦] لا يُؤمَرُ ولا يُنهَى، أي: أيَظُنُّ أنَّ هذا يكونُ؟! هذا ما لا يكونُ الْبَتَّةَ، بل لا بُدَّ أن يُؤمَرَ ويُنهَى). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٤٩٤، ٤٩٥).

قال الواحديُّ: (وهذه الآيةُ مِن أصعَبِ ما في القرآنِ نظمًا وتفسيرًا، وقد تخبَّط فيها الكبارُ مِن العُلماءِ، وسلَكوا في تفسيرِها طُرقًا لا تُفضي بهم إلى الصَّوابِ). ((البسيط)) (٢٤/ ٢٠٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٦٩).

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٤٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٦، ٢٧٧).

قال ابن كثير: (يعني: محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وما يَتلوه مِن القُرآنِ العظيمِ، الَّذي هو مُكتَتَبٌ في الملأِ الأعلى، في صُحُفٍ مُطَهَّرةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٦).

وقال السعدي: (محفوظةٌ عن قِرْبانِ الشَّياطينِ، لا يَمَسُّها إلَّا المطَهَّرونَ؛ لأنَّها في أعلى ما يكونُ مِن الكَلامِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

قال الماوَرْدي: (﴿يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾ يعني: القُرآنَ. ويحتَمِلُ ثانيًا: يتعقَّبُ بنُبوَّتِه نُزولَ الصُّحُفِ المطَهَّرةِ على الأنبياءِ قَبْلَه). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٦). =

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾.

أي: في تلك الصُّحُفِ كُتُبٌ مُستقيمةٌ ليس فيها خَطَأٌ؛ لأنَّها مِن عِندِ اللهِ تعالى[1].

---

= وقيل: (جائزٌ أن يكونَ قَولُه: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا﴾: القرآنَ وسائرَ الصُّحُفِ؛ لأنَّ سائرَ الصُّحُفِ فيه). يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٥٩٠).

قال السمرقندي: (ويُقالُ: سُمِّيَ القُرآنُ صُحُفًا؛ مِن كثرةِ السُّوَرِ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٧).

قال الماوَرْدي: (﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ فيه وَجهانِ؛ أحَدُهما: يعني: كُتُبَ اللهِ المستقيمةَ الَّتي جاء القُرآنُ بذِكْرِها، وثبت فيه صِدْقُها. حكاه ابنُ عيسى. الثَّاني: يعني: فُروضَ اللهِ العادِلةَ. قاله السُّدِّيُّ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٦).

وقال ابنُ أبي زَمَنِين: (﴿قَيِّمَةٌ﴾ أي: مُستَقيمةٌ لا عِوَجَ فيها، يعني: الَّتي جاءَتْ بها الأنبياءُ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥١).

وقال ابنُ عاشور: (معنى كَونِ الكُتُبِ كائنةً في الصُّحُفِ: أنَّ الصُّحُفَ الَّتي يُكتَبُ فيها القُرآنُ تَشتَمِلُ على القُرآنِ، وهو يَشتَمِلُ على ما تضَمَّنَتْه كُتُبُ الرُّسُلِ السَّابِقينَ مِمَّا هو خالِصٌ مِن التَّحريفِ والباطِلِ، وهذا كما قال تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨، ١٩]، فالقُرآنُ زُبدةُ ما في الكُتُبِ الأُولى ومَجمَعُ ثَمَرتِه؛ فأُطلِقَ على ثَمَرةِ الكُتُبِ اسمُ كُتُبٍ... [أو] المرادُ بالكُتُبِ أجزاءُ القُرآنِ أو سُوَرُه، فهي بمَثابةِ الكُتُبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٧). ويُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٥٩٠).

وممَّن اختار في الجملةِ أنَّ المرادَ: الأحكامُ المكتوبةُ فيها، ﴿قَيِّمَةٌ﴾ أي: عادلةٌ، مُستقيمةٌ، غيرُ ذاتِ عِوَجٍ، تُبيِّنُ الحقَّ مِن الباطِلِ: الواحديُّ، والسمعاني، والبغوي، وابن عطية. يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٢١)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧).

قال السمعاني: (والكتابُ يأتي بمعنَى الحُكمِ، والكُتُبُ بمعنى الأحكامِ). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٣).

وقال ابن عطيَّة: (فيه حذفُ مُضافٍ، تقديرُه: فيها أحكامُ كُتبٍ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٧).=

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤﴾

أي: وما تفرَّق اليَهودُ والنَّصارى في شأنِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فكَذَّبوا به إلَّا بعْدَما بعَثَه اللهُ، فتفرَّقوا فيه؛ فكَذَّب به بعضُهم، وآمَنَ بَعضُهم، وقد كانوا قبْلَ مَبعَثِه مُتَّفِقينَ على نُبوَّتِه وتَصديقِه(١)!

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾.

أي: وما أَمَر اللهُ اليَهودَ والنَّصارى إلَّا بعِبادتِه مُفْرِدينَ له الطَّاعةَ، لا يُشارِكونَ في عبادَتِه معَه غيرَه(٢).

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

---

= قال السعدي: (﴿كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ أي: أخبارٌ صادِقةٌ، وأوامِرُ عادِلةٌ تَهدي إلى الحَقِّ وإلى صِراطٍ مُستقيم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

وقال مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ: (إنَّما سُمِّيَت ﴿كُتُبٌ﴾؛ لأنَّ فيها أمورًا شَتَّى كثيرةً مِمَّا ذَكَر اللهُ -عزَّ وجَلَّ- في القرآنِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٣٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٦٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٠).

وقال سُبحانَه: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

﴿حُنَفَآءَ﴾.

أي: مائِلينَ ومُعرِضينَ عن الشِّركِ إلى التَّوحيدِ، مُستَقيمينَ على دينِ الإسلامِ[(١)].

قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ * قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣].

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

**مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر أصْلَ الدِّينِ أتْبَعَه الفُروعَ؛ فبدأ بأعظَمِها الَّذي هو مَجمَعُ الدِّينِ، ومَوضِعُ التَّجَرُّدِ عن العَوائِقِ، فقال[(٢)]:

﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

أي: وأُمِروا بإقامةِ الصَّلواتِ بحُدودِها وشُروطِها وأركانِها في أوقاتِها[(٣)].

﴿وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٢٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٥).

مُناسَبتُها لِما قَبْلَها:

لَمَّا ذَكَر تعالى صِلةَ الخالِقِ؛ أتْبَعَها صِلةَ الخلائِقِ، بقَولِه تعالى[١]:

﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

أي: وأُمِروا بإيتاءِ الزَّكاةِ إلى أهلِها المُستَحقِّينَ لها[٢].

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

أي: وذلك الَّذي أُمِروا به مِنَ التَّوحيدِ وإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ: هو دينُ الإسلامِ المُستقيمُ العادِلُ[٣].

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ فيه تنبيهٌ على ما يجِبُ مِن تحصيلِ الإخلاصِ مِن ابتداءِ الفِعْلِ إلى انتِهائِه[٤].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ تحريمُ الرِّياءِ[٥]،

---

(١) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٣).

(٥) يُنظر: ((رياض الصالحين)) للنووي (ص: ٤٥٧)، ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٦/ ٣٣٨).

وأنَّه يجبُ على الإنسانِ أنْ يُخْلِصَ النِّيَّةَ للهِ سُبحانَه وتعالى في جميعِ عباداتِه، وألَّا يَنوِيَ بعباداتِه إلَّا وَجْهَ اللهِ تعالى، والدَّارَ الآخِرةَ(١).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ فيه أنَّ الكَمالَ في كُلِّ شَيءٍ إنَّما يَحصُلُ إذا حَصَلَ الأصلُ والفَرعُ معًا؛ فقَومٌ أطنَبوا في الأعمالِ مِن غَيرِ إحكامِ الأُصولِ، وهم اليَهودُ والنَّصارى والمجوسُ، فإنَّهم رُبَّما أتعَبوا أنفُسَهم في الطَّاعاتِ، ولكِنَّهم ما حَصَّلوا الدِّينَ الحَقَّ، وقَومٌ حَصَّلوا الأصولَ وأهملوا الفُروعَ، وهم المُرجِئةُ الَّذين قالوا: (لا يَضُرُّ الذَّنبُ مع الإيمانِ)! واللهُ تعالى خطَّأَ الفريقَينِ في هذه الآيةِ، وبيَّنَ أنَّه لا بُدَّ مِن العِلمِ والإخلاصِ، في قَولِه تعالى: ﴿مُخۡلِصِينَ﴾، ومِنَ العَمَلِ، في قَولِه تعالى: ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ﴾ المجموعُ كُلُّه هو ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾، أي: البيِّنةِ المُستقيمةِ المعتَدِلةِ، فكما أنَّ مجموعَ الأعضاءِ بَدَنٌ واحِدٌ، كذا هذا المجموعُ دِينٌ واحِدٌ(٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- الشِّركُ المُطلَقُ في القُرآنِ لا يَدخُلُ فيه أهلُ الكِتابِ، وإنَّما يَدخُلونَ في الشِّركِ المُقيَّدِ؛ قال تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ فقد جَعَلَ سُبحانَه هنا المُشرِكينَ قِسمًا غيرَ أهلِ الكتابِ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ﴾ [الحج: ١٧] فجَعَلَهم قِسمًا غيرَهم، فأمَّا دُخولُهم في المُقيَّدِ ففي قَولِه تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (١/ ١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٥).

إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، فوَصَفَهم بأنَّهم مُشرِكونَ، وسببُ هذا أنَّ أصلَ دِينِهم الَّذي أَنْزَلَ اللهُ به الكُتُبَ وأَرسَلَ به الرُّسُلَ ليس فيه شِركٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥]، ولكِنَّهم بَدَّلوا وغَيَّروا، فابتدَعوا مِن الشِّركِ ما لَمْ يُنَزِّلْ به اللهُ سُلطانًا؛ فصار فيهم شِرْكٌ باعتبارِ ما ابتدَعوا، لا باعتبارِ أصلِ الدِّينِ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، ولم يقُلْ: (مِنَ اليَهودِ والنَّصارى)؟

**الجوابُ**: لأنَّ قَولَه: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ يدُلُّ على كَونِهم عُلَماءَ، وذلك يَقتضي إمَّا مَزيدَ تَعظيمٍ، فلا جرَمَ ذُكِروا بهذا اللَّقَبِ دونَ اليَهودِ والنَّصارى، أو لأنَّ كَونَه عالِمًا يَقتضي مَزيدَ قُبحٍ في كُفْرِه، فذُكِروا بهذا الوَصفِ؛ تنبيهًا على تلك الزِّيادةِ مِن العِقابِ[(٢)].

٣- قَولُه تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴾ فَسَّرَ الله تعالى قولَه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ بـ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ وبـ(الْمُشْرِكِينَ)، فهذا يَقتضي كوْنَ الكُلِّ واحِدًا في الكُفرِ، فمِن ذلك قال العُلَماءُ: الكُفرُ كُلُّه مِلَّةٌ واحِدةٌ؛ واستُدِلَّ به على توارُثِ أهلِ الكفرِ فيما بيْنَهم[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٥/ ٢١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٩). ويُنظر أيضًا: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٤١).
وهو مذهبُ الإمامَينِ أبي حنيفةَ والشَّافعيِّ، وروايةٌ عن الإمامِ أحمدَ: أنَّه يَثبُتُ التَّوارُثُ =

٤- قولُه تعالى: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ ظاهرُه أنَّ الرَّسولَ يَقرَأُ المَكتوبَ مِن الكِتابِ، مع أنَّه مُنتفٍ في حقِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لكَونِه أُمِّيًّا، فالمرادُ أنَّه يَتْلو ما في الصُّحفِ عن ظَهرِ قَلبِه[١]، ولا يَقرَؤُه من صُحُفٍ، فمعنى ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا﴾ يَتْلو ما هو مكتوبٌ في صُحُفٍ، والقرينةُ ظاهِرةٌ، وهي اشتِهارُ كَونِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أمِّيًّا[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ إقامةُ الحُجَّةِ على أهلِ الشَّرائعِ، وذَمُّ تَفرُّقِهم واختلافِهم، وأنَّ ذلك بعدَ أنْ جاءتهم البَيِّنةُ[٣].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ * وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ أنَّ أهلَ التَّوراةِ والإنجيلِ قبْلَ النَّسخِ والتَّبديلِ مُسلِمونَ حُنفاءُ على مِلَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ استُدِلَّ به على وُجوبِ النِّيَّةِ في العِباداتِ؛ لأنَّ الإخلاصَ لا يكونُ بدُونِها[٥]. فالأصلُ المُستقِرُّ في جميعِ العباداتِ المقصودةِ: أنَّها لا تَصِحُّ إلَّا بنِيَّةٍ؛ لهذه الآيةِ[٦]. فالله

= بيْنَهم وإنِ اختلفَتْ مِلَلُهم. وذهب الإمامُ مالكٌ إلى أنَّهم ثلاثُ مِلَلٍ: فاليهودُ مِلَّةٌ، والنَّصارى مِلَّةٌ، ومَن عَداهم مِلَّةٌ. وعندَ الإمامِ أحمدَ في روايةٍ عنه: هم مِلَلٌ شَتَّى. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٢/ ٣٠٩).

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٠٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء)) لابن تيمية (١/ ٢٧٩).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٩٥).

(٦) يُنظر: ((شرح العمدة لابن تيمية- كتاب الحج)) (٢/ ٥٨٢).

سُبحانَه لم يأمُرْهم إلَّا بعَمَلٍ هو عبادةٌ قد أخلَصَ عامِلُها النِّيَّةَ فيها لرَبِّه عزَّ وجلَّ، ومَعلومٌ أنَّ النِّيَّةَ جُزءٌ مِن العبادةِ، بل هي رُوحُ العبادةِ؛ فعُلِمَ أنَّ العَمَلَ الَّذي لم يُنْوَ ليس بعِبادةٍ، ولا مأمورٍ به، فلا يكونُ فاعِلُه متقرِّبًا إلى اللهِ تعالى، وهذا ممَّا لا يَقْبَلُ نِزاعًا[١].

٨- قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ قد استدَلَّ كثيرٌ مِنَ الأئمَّةِ -كالزُّهْريِّ والشَّافِعيِّ وأحمدَ- بهذه الآيةِ الكريمةِ على أنَّ الأعمالَ داخِلةٌ في الإيمانِ[٢]، فقد جَعَلَ سُبحانَه عبادةَ اللهِ تعالى، وإخلاصَ القلبِ، وإقامَ الصَّلاةِ، وإيتاءَ الزَّكاةِ؛ كلَّه: مِن الدِّينِ[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ في هذه الآيةِ رَدٌّ صَريحٌ على أولئك الَّذين يُنادُونَ بدونِ عِلمٍ إلى وَحْدةِ الأديانِ! فهذا النَّصُّ الصَّريحُ بأنَّ ذلك الَّذي جاء به القرآنُ هو دِينُ القَيِّمةِ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وهي أفعَلُ تفضيلٍ، فلا يمكِنُ أن يُعادَلَ ويُساوى مع غيرِه أبدًا! وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]، فأخَذَ الله العَهدَ على جميعِ الأنبياءِ لَئِنْ أدركوا محمَّدًا صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَيُؤمِنُنَّ به ولَيَنصُرُنَّه ولَيَتَّبِعُنَّه، وقد أخبَرَ الرُّسُلُ أُمَمَهم بذلك؛ فلم يَبْقَ مجالٌ في هذا الوقتِ ولا غيرِه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٣/ ١٨٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ٤٨).

(٣) يُنظر: ((لمعة الاعتقاد)) لابن قدامة (ص: ٢٦).

لدعوةِ الجاهِليَّةِ بعُنوانٍ مُجَوَّفٍ (وَحدةُ الأديانِ!)، بل الدِّينُ الإسلاميُّ وَحْدَه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[١] [آل عمران: ٨٥].

١٠- في قَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أنَّ النَّاسَ لم يُؤمَروا بشَيءٍ يَتعلَّقُ بأُمورِ الدُّنيا، أو بشَيءٍ يُكلِّفُهم، بل هو شيءٌ سَهلٌ عليهم وهو: عِبادةُ اللهِ عزَّ وجلَّ[٢]!

١١- التَّعبيرُ بالفِعلِ المُسنَدِ للمَجهولِ ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ مُفيدٌ مَعنيَينِ، أي: ما أُمِروا في كِتابِهم إلَّا بما جاء به الإسلامُ، أو المعْنى: وما أُمِروا في الإسلامِ إلَّا بمِثلِ ما أمَرَهُم به كِتابُهم؛ فلا مَعذرةَ لهم في الإعراضِ عن الإسلامِ على كِلا التَّقديرينِ[٣].

١٢- قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ المَقصودُ إقامةُ الحُجَّةِ على أهلِ الكتابِ وعلى المشرِكين تَبَعًا لهم بأنَّهم أعْرَضوا عمَّا هم يَتطلَّبونه؛ فإنَّهم جَميعًا مُقرُّون بأنَّ الحَنيفيَّةَ هي الحقُّ، والمشرِكون يَزعُمون أنَّهم يَطلُبون الحَنيفيَّةَ ويَأخُذون بما أدْرَكوه مِن بَقاياها، ويَزعُمون أنَّ اليهوديَّةَ والنَّصرانيَّةَ تَحريفٌ للحَنيفيَّةِ[٤].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ هذا الكلامُ مَسوقٌ مَساقَ نقْلِ الأقوالِ المُستغرَبةِ المُضطرِبةِ الدَّالَّةِ

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٤٨).

(٢) يُنظر: ((لقاء الباب المفتوح)) لابن عثيمين (اللقاء رقْم: ٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٨٢).

على عدَمِ ثَباتِ آراءِ أصْحابِها؛ فهو مِن الحِكايةِ لِما كانوا يَعِدون به، فهو حِكايةٌ بالمعْنى، كأنَّه قِيل: كُنتُم تَقولون: لا نَترُكُ ما نحنُ عليه حتَّى تَأتِيَنا البيِّنةُ، وهذا تَعريضٌ بالتَّوبيخِ بأُسلوبِ الإخبارِ المُستعمَلِ في إنشاءِ التَّعجيبِ أو الشِّكايةِ مِن صَلَفِ المُخبَرِ عنه، وهو استعمالٌ عَزيزٌ بَديعٌ؛ فالخبَرُ مُوجَّهٌ لكلِّ سامعٍ، ومَضمونُه قَولٌ كان صدَرَ مِن أهلِ الكتابِ واشتَهَرَ عنهم وعُرِفوا به، وتَقرَّرَ تَعلُّلُ المشرِكينَ به لأهلِ الكتابِ حينَ يَدْعُونهم إلى اتِّباعِ اليَهوديَّةِ أو النَّصرانيَّةِ، فيَقولون: لمْ يَأتِنا رسولٌ كما أتاكم؛ قال تعالَى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ * أَوۡ تَقُولُواْ لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡ﴾ [الأنعام: ١٥٦، ١٥٧]. وتَقرَّر تَعلُّلُ أهلِ الكتابِ به حِينَ يَدْعوهم النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للإسلامِ؛ قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٍ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ﴾ [آل عمران: ١٨٣] الآيةَ، وشُيوعُه عن الفريقينِ قَرينةٌ على أنَّ المرادَ مِن سِياقِه دَمْغُهم بالحُجَّةِ، وبذلك كان التَّعبيرُ بالمُضارعِ المُستقبَلِ في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ مُصادفًا المَحَزَّ[1]؛ فإنَّهم كانوا يَقولون ذلك قبْلَ مَجيءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وحاصلُ المعْنى: أنَّكم كُنتم تَقولون: لا نَترُكُ ما نحنُ عليه مِن الدِّينِ حتَّى تَأتِيَنا البيِّنةُ، أي: العلامةُ الَّتي وُعِدْنا بها، وقد جُعِلَ ذلك تَمهيدًا وتَوطئةً لقولِه بعْدَه: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾ إلخ[2].

- قولُه: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أي: اليهودُ والنَّصارَى، وإيرادُ

(١) المَحَزُّ: مَوضِعُ الحَزِّ، أي: القَطعِ. وأصابَ المحَزَّ: عبارةٌ عن فِعلِ الأمرِ على ما يَنبَغي ويَليقُ. يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ٧١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٧٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧١، ٤٧٢).

الصِّلةِ فِعلًا؛ لِما أنَّ كُفْرَهم حادثٌ بعْدَ أنبيائِهم[١].

- ومُتعلَّقُ ﴿مُنفَكِّينَ﴾ مَحذوفٌ، دلَّ عليه وَصْفُ المُتحدَّثِ عنهم بصِلةِ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾، والتَّقديرُ: مُنفكِّين عن كُفْرِهم وتاركينَ له، سواءٌ كان كُفْرُهم إشراكًا باللهِ، مِثل كُفرِ المشركينَ، أو كان كُفْرًا بالرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٢].

- والبيِّنةُ: الحُجَّةُ الواضحةُ والعلامةُ على الصِّدقِ، ولعلَّ إيثارَ التَّعبيرِ بها هنا؛ لأنَّها أحسَنُ ما تُترجَمُ به العبارةُ الواقعةُ في كُتبِ أهلِ الكتابِ ممَّا يَحومُ حولَ معْنى الشَّهادةِ الواضحةِ لكلِّ مُتبصِّرٍ، كما وَقَعَ في إنْجيلِ مَتَّى لَفظُ: (شَهادة لجَميعِ الأُمَمِ)، ولعلَّ التزامَ هذه الكلمةِ هنا مرَّتينِ كان لهذه الخُصوصيَّةِ[٣].

- والتَّعريفُ في (البيِّنة) تَعريفُ العهْدِ الذِّهنيِّ، وهو أنْ يُرادَ مَعهودٌ بنَوعِه لا بشَخْصِه، كقَولِهم: ادخُلِ السُّوقَ، لا يُريدون سُوقًا مُعيَّنةً، بلْ ما يُوجَدُ فيه ماهيَّةُ سُوقٍ، فالمعرَّفُ بهذه اللَّامِ هو في المعْنى نَكِرةٌ، فكأنَّه قِيل: حتَّى تَأتِيَهم بيِّنةٌ. ويَجوزُ أنْ يكونَ التَّعريفُ لمَعهودٍ عندَ المخبَرِ عنهم، أي: البيِّنةُ الَّتي هي وَصايا أنْبيائِهم، فهي مَعهودةٌ عندَ كلِّ فَريقٍ منهم وإنِ اختَلَفوا في تَخيُّلِها، وابتَعَدوا في تَوهُّمِها بما تُمْليه عليهم تَخيُّلاتُهم واختلاقُهُم[٤].

وقيل: التَّعريفُ في قولِه: ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾ للتَّفخيمِ، أي: هو البيِّنةُ الَّتي لا مَزيدَ عليها، أو البيِّنةُ كلُّ البيِّنةِ؛ لأنَّ التَّعريفَ قد يكونُ للتَّفخيمِ، وكذا التَّنكيرُ، وقد جمَعَهما اللهُ هاهنا في حقِّ الرَّسولِ عليه السَّلامُ؛ فبَدَأَ بالتَّعريفِ، وهو لفظ ﴿ٱلْبَيِّنَةُ﴾، ثمَّ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ثنَّى بالتَّنكيرِ فقال: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، أي: هو رَسولٌ، وأيُّ رسولٍ[١]!

- قيل: إنَّما قدَّمَ أهلَ الكتابِ على المشركين هنا في قولِه: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ ...﴾ مع أنَّ كُفرَ المشركين أشدُّ مِن كُفرِ أهلِ الكتابِ؛ لأنَّ لأهلِ الكتابِ السَّبْقَ في هذا المقامِ؛ فهمُ الَّذين بَثُّوا بيْن المشركين شُبهةَ انطباقِ البيِّنةِ الموصوفةِ بيْنَهم، فأيَّدوا المشركين في إنكارِ نُبوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بما هو أتقَنُ مِن تُرَّهاتِ المشركين؛ إذ كان المشركون أُمِّيِّينَ لا يَعلَمون شيئًا مِن أحوالِ الرُّسلِ والشَّرائعِ، فلمَّا صَدَمَتْهم الدَّعوةُ المُحمَّديةُ، فَزِعوا إلى اليهودِ ليَتلقَّوا منهم ما يرُدُّون به تلك الدَّعوةَ، وخاصةً بعْدَ ما هاجَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إلى المدينةِ، فالمَقصودُ بالإبطالِ ابتداءً هو دَعْوى أهلِ الكتابِ، وأمَّا المشركون فتَبَعٌ لهم[٢].

وقيل: لأنَّ السُّورةَ مَدَنيَّةٌ، فكأنَّ أهلَ الكِتابِ هم المقصودونَ بالذِّكْرِ.

وقيل: لأنَّهم لكَونِهم عُلَماءَ يَقتَدي غيرُهم بهم، فكان كُفرُهم أصلًا لكُفرِ غَيرِهم؛ فلهذا قُدِّموا في الذِّكرِ.

وقيل: لأنَّهم كانوا عُلَماءَ بالكُتُبِ، فكانت قُدرتُهم على معرفةِ صِدقِ محمَّدٍ أتَمَّ، فكان إصرارُهم على الكُفرِ أقبَحَ[٣]. فالعالِمُ لَمَّا كان أَولى باتِّباعِ الحَقِّ، وأشَدَّ جُرمًا عندَ فِعلِ ما يقتَضي اللَّومَ؛ بدأ بقَولِه: ﴿مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: مِنَ اليَهودِ والنَّصارى الَّذين كان أصلُ دينِهم حَقًّا[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً * فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ يَجوزُ أنْ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٣٩).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٨٦).

يكونَ الكلامُ انتَهى عندَ قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾؛ فيكونَ الوقفُ هناك، ويكونَ قولُه: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ إلى آخِرِها جُملةً مُستأنَفةً استئنافًا بَيانيًّا، أي: هي رسولٌ مِن اللهِ، يعني: لأنَّ ما في البيِّنةِ مِن الإبهامِ يُثيرُ سُؤالَ سائلٍ عن صِفةِ هذه البيِّنةِ، وهي جُملةٌ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ إلى آخِرِها، وبيْن جُملةِ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البينة: ٤].

ويجوزُ أنْ يكونَ ﴿رَسُولٞ﴾ بدَلًا مِن ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾، فيَقْتضي أنْ يكونَ مِن تَمامِ لَفظِ (بيِّنة)؛ فيكونَ مِن حِكايةِ ما زَعَموه، وأُريدَ بذلك إبطالُ مَعاذيرِهم، وإقامةُ الحُجَّةِ عليهم بأنَّ البيِّنةَ الَّتي يَنتظِرونها قد حلَّت، ولكنَّهم لا يَتدبَّرون، أو لا يُنصِفون، أو لا يَفقَهون، قال تعالَى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩]، وتَنكيرُ ﴿رَسُولٞ﴾ للنَّوعيَّةِ المرادِ منها تَيسيرُ ما يُستصعَبُ، وفي هذا التَّبيينِ إبطالٌ لمَعاذيرِهم، كأنَّه قيل: فقدْ جاءتْكم البيِّنةُ، على حدِّ قولِه تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٖ وَلَا نَذِيرٖۖ فَقَدۡ جَآءَكُم بَشِيرٞ وَنَذِيرٞ﴾ [المائدة: ١٩]، وهو يُفيدُ أنَّ البيِّنةَ هي الرَّسولُ، وذلك مِثلُ قولِه تعالَى: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ۝ رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الطلاق: ١٠، ١١]، وفي هذا تَذكيرٌ بغَلَطِهم؛ فإنَّ كُتبَهم ما وَعَدَت إلَّا بمَجيءِ رَسولٍ معه شَريعةٌ وكِتابٌ مُصدِّقٌ لِما بيْن يَدَيْه[1].

- قولُه: ﴿رَسُولٞ﴾ بدَلٌ مِن ﴿ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ -على قولٍ- بدَلَ كلٍّ مِن كلٍّ، على سَبيلِ المُبالَغةِ، جُعِلَ الرَّسولُ نفْسَ البيِّنةِ، وعُبِّرَ عنه عليهِ السَّلامُ بالبيِّنةِ؛ للإيذانِ بغايةِ ظُهورِ أمرِه، وكَونِه ذلكَ المَوعودَ في الكتابَين، وللإعلامِ بأنَّ ذاتَه كانت بيِّنةً على نُبوَّتِه؛ لأنَّه كان في نِهايةٍ مِن الجِدِّ في تَقريرِ النُّبوَّةِ، وفي غايةٍ مِن الصِّدقِ، وكَمالٍ مِن العقْلِ[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٥، ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢، ٢٣٩، ٢٤٠)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٢٨)، =

- ولعلَّ السِّرَّ في جَعْلِه البيِّنةَ تَوطئةً لذِكرِ الرَّسولِ، التَّعريضُ بهم وبقَولِهم: النَّبيُّ الموعودُ الَّذي هو مَكتوبٌ في التَّوراةِ والإنجيلِ، كما وبَّخَهم بقولِه: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، ولهذا السِّرِّ أيضًا أُفرِدَ ذِكرُهم عن المشركين في قولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾، كأنَّهم عُيِّروا بالتَّفرُّقِ وهم أهلُ الكتابِ؛ لأنَّ جُحودَ العالِمِ أقبَحُ مِن إنكارِ الغافلِ[(١)].

- قولُه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿رَسُولٌ﴾، أو بمُضمَرٍ هو صِفةٌ لـ﴿رَسُولٌ﴾ مُؤكِّد لِما أفادَه التَّنوينُ مِن الفَخامةِ الذَّاتيَّةِ بالفَخامةِ الإضافيَّةِ، أي: رَسولٌ وأيُّ رَسولٍ كائنٌ منْهُ تعالى. ولم يُسلَكْ طَريقُ الإضافةِ؛ ليَتأتَّى تَنوينُ ﴿رَسُولٌ﴾، فيُشعِرَ بتَعظيمِ هذا الرَّسولِ[(٢)].

- وجُملةُ ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا ...﴾ إلخ صِفةٌ ثانيةٌ، أو حالٌ، وهي إدماجٌ[(٣)] بالثَّناءِ

---

= ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٢).

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٢٨).

ويُنظر ما تقدَّم في الفوائد (ص: ٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٦).

(٣) الإدماجُ: أنْ يُدمِجَ المتكلِّمُ غرضًا في غَرضٍ، أو بديعًا في بديعٍ بحَيثُ لا يَظهرُ في الكلامِ إلَّا أحدُ الغرَضينِ أو أحدُ البَديعينِ؛ فهو مِن أفانينِ البَلاغةِ، ويكونُ مرادُ البليغِ غَرَضينِ فيَقرِنُ الغرضَ المَسوقَ له الكلامُ بالغرضِ الثَّاني، وفيه تَظهرُ مَقدرةُ البليغِ؛ إذ يأتي بذلك الاقترانِ بدونِ خروجٍ عن غَرَضِه المسوقِ له الكلامُ ولا تَكلُّفٍ، بمعنى: أن يَجعلَ المتكلِّمُ الكلامَ الَّذي سِيقَ لِمعنًى -مِن مَدحٍ أو غيرِه- مُتضمِّنًا معنًى آخَرَ، كقولِه تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]؛ فهذا مِن إدماجِ غرَضٍ في غَرَضٍ؛ فإنَّ الغرَضَ منها تَفرُّدُه تعالى بوصْفِ الحمدِ، وأُدمِجَ فيه الإشارةُ إلى البعثِ والجزاءِ، وقيل: أُدمِجتِ المبالَغةُ في المطابَقةِ؛ لأنَّ انفرادَه بالحمدِ في الآخِرَةِ -وهي الوقتُ الَّذي لا يُحمَدُ فيه سِواه- مبالَغةٌ في الوَصفِ بالانفرادِ بالحَمْدِ. يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ٢٩٨)، ((علوم البلاغة البيان المعاني البديع)) للمراغي (ص: ٣٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (١/ ٣٣٩)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ٤٢٧).

على القرآنِ[١].

- والتِّلاوةُ: إعادةُ الكلامِ دونَ زِيادةٍ عليه ولا نقْصٍ منه، سواءٌ كان كلامًا مَكتوبًا أو مَحفوظًا عن ظَهرِ قلْبٍ، ففِعلُ ﴿يَتْلُواْ﴾ مُؤذِنٌ بأنَّه يَقرَأُ عليهم كَلامًا لا تُبدَّلُ ألْفاظُه، وهو الوحْيُ المُنزَّلُ عليه[٢].

- والصُّحفُ: الأوراقُ والقَراطيسُ الَّتي تُجعَلُ لأنْ يُكتَبَ فيها، وتكونُ مِن رَقٍّ أو جِلدٍ، أو مِن خِرَقٍ، وتَسميةُ ما يَتْلوه الرَّسولُ صُحفًا باعتِبارِ ما سيَؤولُ إليه؛ لأنَّه مَأمورٌ بكِتابتِه، فهو عندَ تِلاوتِه سيَكونُ صُحفًا، وهذا إشارةٌ إلى أنَّ اللهَ أمَرَ رَسولَه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بكِتابةِ القرآنِ في الصُّحفِ وما يُشبِهُ الصُّحفَ مِن أكتافِ الشَّاءِ والخِرَقِ والحِجارةِ، وأنَّ الوحْيَ المُنزَّلَ على الرَّسولِ سُمِّيَ كِتابًا في قولِه تعالَى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] مِن أجْلِ هذا المعْنى[٣].

- ووُصِفَت الصُّحفُ بـ ﴿مُّطَهَّرَةً﴾، وهو وَصْفٌ مُشتقٌّ مِن الطَّهارةِ، أي: كَونُ مَعانيه لا لَبْسَ فيها، ولا تَشتمِلُ على ما فيه تَضليلٌ، وهذا تَعريضٌ ببَعضِ ما في أيْدي أهلِ الكتابِ مِن التَّحريفِ والأوهامِ[٤].

- والقَيِّمةُ: المُستقيمةُ، أي: شَديدةُ القيامِ الَّذي هو هنا مُعبَّرٌ به عن الكَمالِ والصَّوابِ، وهذا مِن تَشبيهِ المَعقولِ بالمَحسوسِ تَشبيهًا بالقائمِ لاستِعدادِه للعملِ النافعِ، وضِدُّه العِوَجُ؛ قال تعالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢]، أي: لم يَجعَلْ فيه نقْصَ الباطلِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٦).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٧٧).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

والخطَأِ، فالقيِّمةُ مُبالَغةٌ في القائمِ، مِثلُ السيِّدِ للسائدِ، والميِّتِ للمائتِ، وتَأنيثُ الوصْفِ؛ لاعتبارِ كَونِه وَصْفًا لجمْعٍ[١].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ كلامٌ مَسوقٌ لغايةِ تَشنيعِ أهلِ الكِتابِ خاصَّةً، وتَغليظِ جناياتِهم ببَيانِ أنَّ ما نُسِبَ إليهم مِن الانفكاكِ[٢] لم يكُنْ لاشتباهٍ مَا في الأمرِ، بلْ كان بعْدَ وُضوحِ الحقِّ، وتَبيُّنِ الحالِ، وانقطاعِ الأعذارِ بالكُلِّيَّةِ، وهو السِّرُّ في وصْفِهم بإيتاءِ الكتابِ المُنبِئِ عن كَمالِ تَمكُّنِهم مِن مُطالَعتِه والإحاطةِ بما فِي تَضاعيفِه مِن الأحكامِ والأخبارِ، الَّتي مِن جُملتِها نُعوتُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بعْدَ ذِكْرِهم فيما سبَقَ بما هُو جارٍ مَجْرى اسمِ الجنسِ للطائفتينِ[٣].

- وهو ارتقاءٌ في الإبطالِ، وهو إبطالٌ ثانٍ لدَعْواهم بطَريقِ النَّقضِ الجَدَليِّ المُسمَّى بالمُعارَضةِ، وهو تَسليمُ الدَّليلِ، والاستدلالُ لِما يُنافي ثُبوتَ المَدلولِ[٤]، وهذا إبطالٌ خاصٌّ بأهْلِ الكتابِ اليهودِ والنَّصارى؛ ولذلك أظْهَرَ فاعلَ ﴿تَفَرَّقَ﴾ ولم يَقُلْ: (وما تَفرَّقوا إلَّا مِن بعْدِ ما جاءتْهم البيِّنةُ)؛ إذ لو أُضمِرَ لتُوهِّمَتْ إرادةُ المشركين مِن جُملةِ معادِ الضَّميرِ، فيَجوزُ أنْ تكونَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٧، ٤٧٨).

(٢) أي: عمَّا كانوا عليه مِن الوعدِ باتباعِ الحقِّ، والإيمانِ بالرسولِ المبعوثِ في آخرِ الزمانِ. يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٥).

(٤) ذكر أبو الوليدِ الباجي أنَّ معنى المُعارَضةِ: (أن يَستدِلَّ المُستَدِلُّ بدَليلٍ، فيُسَلِّمَ السَّائلُ صِحَّتَه، ويُعارِضَه بدليلٍ مِثْلِه أو أقوى منه)، ثمَّ ذكر أنَّه إذا (عارَضه بمِثلِ دليلِه أو بما هو أقوى منه، فلا حُجَّةَ للمُستدِلِّ؛ لأنَّ للسَّائلِ أن يقولَ له: إذا تساوى الدَّليلانِ فلِمَ تَعلَّقْتَ بالدَّليلِ الَّذي استَدلَلْتَ به دونَ ما يُخالِفُه مِن الدَّليلِ الَّذي عارَضْتُك به، ويلزمُ المُستدِلَّ ترجيحُ دليلِه على دليلِ السَّائلِ، وإلَّا كان مُنقَطِعًا). ((الحدود في الأصول)) (ص: ١٢٦).

الواوُ للعطْفِ عاطفةً إبطالًا على إبطالٍ، ويَجوزُ أنْ تكونَ واوَ الحالِ[١].

- وجُمِعَ بيْن أهلِ الكتابِ والمشركينَ أوَّلًا، ثمَّ أُفرِدَ أهلُ الكِتابِ في قولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾؛ للدَّلالةِ على شَناعةِ حالِهم؛ لأنَّهم كانوا على عِلمٍ به؛ لوُجودِه في كُتبِهم، وعِلمِهم بنُبوَّتِه، وأنَّهم لَمَّا تفرَّقوا مع عِلمِهم كان غيرُهم ممَّن لا كِتابَ له أدخَلَ في هذا الوصْفِ وأَولى[٢]. أو لأنَّ المُشرِكينَ لم يُقَرُّوا على دينِهم، فمَنْ آمَنَ فهو المرادُ، ومَن لم يؤمِنْ قُتِلَ، بخِلافِ أهلِ الكِتابِ الَّذين يُقَرُّونَ على كُفْرِهم ببَذْلِ الجِزيةِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾

- قولُه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ جُملةٌ حاليَّةٌ مَسوقةٌ لبَيانِ قُبْحِ ما فَعَلوا واسْتِسماجِه، وهو التَّفرُّقُ بعْدَ مَجيءِ البيِّنةِ الَّتي يجِبُ أنْ يَصدَعَ بها كلُّ مَن له مُسْكةٌ -أي: بقيَّةٌ- مِن عقْلٍ[٥].

- وهذا إبطالٌ ثالثٌ لتَنصُّلِهم مِن مُتابَعةِ الإسلامِ بعِلَّةِ أنَّهم لا يَترُكون ما هُمْ عليه حتَّى تَأتِيَهم البيِّنةُ، وزَعْمِهم أنَّ البيِّنةَ لم تَأتِهم، وهو إبطالٌ بطَريقِ القولِ بالمُوجَبِ[٦] في الجدَلِ، أيْ: إذا سَلَّمْنا أنَّكم مُوصونَ بالتَّمَسُّكِ بما

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٢).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٣).

(٦) القولُ بالموجَبِ في اصطلاحِ الأصوليِّينَ: هو تسليمُ ما جعَله المُستَدِلُّ موجِبًا لعِلَّتِه مع استبقاءِ الخِلافِ، ومعنى ذلك: أن يسلِّمَ الخَصمُ الدَّليلَ الَّذى استدلَّ به المستدِلُّ، إلَّا أنَّه يقولُ: هذا الدَّليلُ ليس فى محلِّ النزاعِ، إنَّما هو في غيرِه؛ فيبقَى الخلافُ بيْنَهما. ومنه قولُه تعالى: ﴿يَقُولُونَ=

أنتم عليه لا تَنْفَكُّونَ عنه حتَّى تأتِيَكم البيِّنَةُ، فليسَ في الإسلامِ ما يُنافي ما جاءَ به كتابُكم لأنَّ كِتابَكم يَأْمُرُ بما أمَر به القرآنُ، وهو عبادةُ اللَّهِ وحدَه دونَ إشراكٍ، وذلك هو الحنيفِيَّةُ وهي دينُ إبراهيمَ الَّذي أخَذ عليهم العهدَ به، فذلك دينُ الإسلامِ وذلك ما أُمِرْتُمْ به في دينِكم[1].

- ومُتعلَّقُ ﴿أُمِرُوٓاْ﴾ مَحذوفٌ للعُمومِ، أي: ما أُمِروا بشَيءٍ إلَّا بأنْ يَعبُدوا اللهَ، أو التَّقديرُ: وما أُمِروا بما أمَرْناهم به مِن شَرائعَ وأحكامٍ[2].

- والغرَضُ مِن السِّياقِ إظهارُ تَوبيخِ أهلِ الكِتابِ، والنَّعْيُ على تَعكيسِ أمْرِهم؛ لأنَّ جُملةَ قولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ الآيةَ إمَّا حالٌ مِن فاعلِ ﴿تَفَرَّقَ﴾ مُقرِّرةٌ لجِهةِ الإشكالِ، أو عطْفٌ على جُملةِ قولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ يعني: كان مِن مُوجبِ اتِّفاقِ الكتابيينِ -أي: ما معهم، وهذا

---

= لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فقد قال رأسُ النِّفاقِ ابنُ سَلولَ: ﴿لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ﴾ مِن غزوةِ بني المُصْطَلِقِ ﴿لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ﴾ -يَقصِدُ نفْسَه- ﴿مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّ﴾ يعني: محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم وأصحابَه؛ فأجابه الله تبارك وتعالى بمُوجَبِ قولِه مع عدمِ تسليمِه له، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾؛ فإنه لَمَّا ذكر صِفةً -وهي العزَّةُ- وأثبَت لها حُكمًا -وهو الإخراجُ مِن المدينةِ-، ردَّ عليه ربُّ العِزَّةِ تبارك وتعالى بأنَّ هذه الصِّفةَ ثابتةٌ لكن لا لِمَن أراد ثُبوتَها له؛ فإنَّها ثابتةٌ لغيرِه، باقيةٌ على اقتضائِها للحُكمِ، وهو الإخراجُ؛ فالعزَّةُ موجودةٌ لكن لا له، بل للهِ ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم وللمؤمنينَ. يُنظر: ((المنهاج)) للباجي (ص: ١٧٣)، ((الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة)) لابن الجوزي (ص٣٣٥)، ((تشنيف المسامع بجمع الجوامع)) للزركشي (٤ / ٣٦١)، ((البحر المحيط)) للزركشي (٥/ ٢٩٧)، ((شرح المحلِّي على جمع الجوامع)) (٢ / ٣١٦)، ((غاية الوصول شرح لب الأصول)) لزكريا الأنصاري (ص: ١٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٧٩، ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٣).

القُرآن المجيد- على دِينِ التَّوحيدِ؛ المُوافقةُ مع مَن يُوافِقُهم فيه، ومُعاضدتُه، والتَّفادي عن مُخالَفتِه والتَّفرُّقِ عنه، وهمْ قد عَكَسوا! ونظْمُ الآيةِ أنَّه تعالَى لَمَّا عيَّر أهلَ الكتابِ والمشركين في تَقاعُدِهم عمَّا وَعَدوا مِن أنفُسِهم، وما كانوا يَقولون قبْلَ المَبعثِ: لا نَنفَكُّ عن دِيننا حتَّى يُبعَثَ النَّبيُّ الموعودُ، ثمَّ بيَّن ما لَهم مِن الخِزيِ دُنيا، والنَّكالِ دُنيا وعُقبى، وما لأعدائِهم مِن الَّذين قامُوا على ما وَعَدوا تخجيلًا لأولئك وتَحسيرًا لهم، مِن قولِه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ؛ وَسَّطَ بيْن الكلامينِ النَّعْيَ على أهلِ الكِتابِ خاصَّةً، وأظهَرَ أنَّهم أشدُّ غَيًّا وعِنادًا، حيث خالَفوا مع ما يُوجِبُ المُوافَقةَ[١].

- وحُنفاءُ: جمْعُ حَنيفٍ، وهو لقَبٌ للَّذي يُؤمِنُ باللهِ وحْدَه دونَ شَريكٍ، وهذا الوصْفُ تَأكيدٌ لمعْنى ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، مع التَّذكيرِ بأنَّ ذلك هو دِينُ إبراهيمَ عليه السَّلامُ الَّذي مُلِئَت التَّوراةُ بتَمجيدِه واتِّباعِ هَدْيِه[٢].

- وفي عطْفِ ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ على ﴿لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ المُقيَّدِ بالإخلاصِ، واختصاصِهما بالذِّكْرِ دونَ سائرِ العِباداتِ: الدَّلالةُ على شَرَفِهما، واستِبدادِهما بشَرْطِ الإخلاصِ[٣]، وكَونِهما العبادتَينِ اللَّتَينِ مَن قام بهما قام بجَميعِ شرائعِ الدِّينِ[٤].

- قولُه: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ مِن عِبادةِ الله تعالَى، والإخلاصِ، وإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ. وما في الإشارةِ مِن معْنى البُعدِ؛ للإشعارِ بعُلوِّ

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٣١ - ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨١).

(٣) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣١).

رُتبةِ هذا الدِّينِ، وبُعدِ مَنزلتِه[١].

- و﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ إضافتُه على بابِها؛ فتكونَ ﴿ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ مُرادًا به غيرُ المرادِ بـ﴿دِينُ﴾ ممَّا هو مُؤنَّثُ اللَّفظِ ممَّا يُضافُ إليه دِينٌ، أي: دِينُ الأُمَّةِ القيِّمةِ أو دِينُ الكُتبِ القيِّمةِ، وهذا إلزامٌ لهم بأحَقِّيَّةِ الإسلامِ، وأنَّه الدِّينُ القيِّمُ. وقيل: أضافَ الدِّينَ إلى القيِّمةِ وهي نَعْتُه؛ لاختلافِ اللَّفظَينِ. أو هو مِن بابِ إضافةِ الشَّيءِ إلى نفْسِه، ودَخَلَت الهاءُ للمَدْحِ والمُبالَغةِ[٢].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٤).

## الآيات (٦-٨)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡبَرِيَّةِ﴾: أي: الخَلْقِ، مأخوذٌ مِن بَرَأَ اللهُ الخَلْقَ، أي: خلَقَهم، وأصلُ (برأ) هنا: يدُلُّ على خَلْقٍ[1].

﴿عَدۡنٖ﴾: أي: إقامةٍ وخُلدٍ، واستقرارٍ وثَباتٍ، وأصلُ (عدن): يدُلُّ على الإقامةِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مُبيِّنًا سوءَ عاقِبةِ هؤلاءِ الجاحِدينَ مِن أهلِ الكتابِ ومِن المشركينَ: إنَّ الكُفَّارَ -مِن اليَهودِ والنَّصارى والمُشرِكينَ- في نارِ جَهنَّمَ ماكِثينَ فيها، أولئك هم شَرُّ الخَليقةِ.

ثمَّ يُبيِّنُ سُبحانَه حُسنَ عاقبةِ المؤمنينَ، فيقولُ: إنَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ أولئك هم خَيرُ الخَليقةِ، ثوابُهم عِندَ رَبِّهم جنَّاتُ إقامةٍ دائِمةٍ تجري الأنهارُ مِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٢٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٢٣٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٥٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٣٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٢٤٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٥٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ١٤٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٢٧).

تحتِها، ماكِثينَ في الجنَّةِ أبَدًا، رَضِيَ اللهُ عنهم ورَضُوا عنه، ذلك الثَّوابُ الكريمُ لِمَن خاف اللهَ تعالى.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر حالَ الكُفَّارِ أوَّلًا في قَولِه: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [البينة: ١]، ثمَّ ذَكَر ثانيًا حالَ المؤمنينَ في قَولِه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [البينة: ٥]؛ أعاد في آخِرِ هذه السُّورةِ ذِكرَ كِلا الفَريقَينِ، فبَدَأ أيضًا بحالِ الكُفَّارِ[١].

وأيضًا بعْدَ أنْ أنْحَى على أهلِ الكتابِ والمشرِكين معًا، ثمَّ خصَّ أهْلَ الكتابِ بالطَّعنِ في تَعلُّلاتِهم، والإبطالِ لشُبهاتِهم الَّتي يُتابِعُهم المشرِكون عليها؛ أعْقَبَه بوَعيدِ الفريقَينِ جَمْعًا بيْنَهما، كما ابتَدَأَ الجمْعَ بيْنَهما في أوَّلِ السُّورةِ؛ لأنَّ ما سَبَقَ مِن المَوعظةِ والدَّلالةِ كافٍ في تَذليلِ أنفُسِهم للمَوعظةِ[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾.

أي: إنَّ الكُفَّارَ مِن اليَهودِ، والنَّصارى، والمُشرِكينَ باللهِ: في نارِ جَهنَّمَ يومَ القيامةِ، ماكِثينَ فيها أبَدًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٢، ٤٨٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾.

أي: أولئك الكُفَّارُ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى والمُشرِكينَ هم شَرُّ الخَليقةِ الَّتي خَلقَها اللهُ[١].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَر الأعداءَ، وبدأَ بهم؛ أتْبَعه الأولياءَ، فقال[٢]:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧﴾.

أي: إنَّ الَّذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالِحاتِ: أولئك هم خَيرُ الخَليقةِ الَّتي خلَقَها اللهُ تعالى[٣].

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا خَصَّ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ بالخَيريَّةِ؛ ذكَرَ ثَوابَهم[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٧٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٤).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٧).

﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾.

أي: ثَوابُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ في الآخِرةِ عِندَ رَبِّهم: جنَّاتُ إقامةٍ دائِمةٍ لا تَحوُّلَ عنها، تجري الأنهارُ مِن تحتِ قصورِها وأشجارِها بلا انقِطاعٍ[(١)].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾.

أي: ماكِثينَ في الجنَّةِ أبَدًا، يتنعَّمونَ في كُلِّ وَقتٍ بلا موتٍ ولا خروجٍ[(٢)].

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾.

أي: رَضِيَ اللهُ عنهم؛ بسَبَبِ إيمانِهم وطاعتِهم له، ورَضُوا هم عن اللهِ؛ لِمَا آتاهم مِن النَّعيمِ[(٣)].

﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

أي: ذلك الثَّوابُ الكريمُ والنَّعيمُ العَظيمُ يكونُ لِمَن خاف اللهَ في الدُّنيا وعَظَّمَه؛ فامتَثَل أوامِرَه، واجتَنَب نواهِيَه[(٤)].

قال تعالى: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ۞ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ۞ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٣).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ هذا تنبيهٌ على أنَّ وَعيدَ عُلَماءِ السُّوءِ أعظَمُ مِن وَعيدِ كُلِّ أحَدٍ[١].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ...﴾ أنَّه لَمَّا ذَكَرَ اللهُ حُكْمَ الكُفَّارِ مِن اليَهودِ والنَّصارى والمُشرِكينَ، ذَكَرَ حُكْمَ المؤمِنينَ، والقرآنُ الكريمُ مَثَانٍ تُثَنَّى فيه المعاني، فيُؤتى بالمعنى وما يُقابِلُه، ويأتي بأصحابِ النَّارِ وأصحابِ الجَنَّة، ويأتي بآياتِ التَّرهيبِ وآياتِ التَّرغيبِ، وهَلُمَّ جرًّا؛ مِن أجْلِ أنْ يكونَ الإنسانُ سائرًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ بيْنَ الخَوفِ والرَّجاءِ، ولئلَّا يَمَلَّ؛ فإنَّ تنويعَ الأساليبِ وتنويعَ المواضيعِ لا شَكَّ أنَّه يعطي النَّفْسَ قوَّةً واندِفاعًا، بخلافِ ما لو كان الكَلامُ على وتيرةٍ واحدةٍ؛ فإنَّ الإنسانَ قد يَمَلُّ ولا تتحرَّكُ نَفْسُه[٢]!

٣- أنَّ مَن كان مؤمنًا كاملَ الإيمانِ فإنَّه يَرى أنَّه أعَزُّ خَلْقِ اللهِ سُبحانَه وتعالى؛ قال عزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، وكما أنَّ المؤمِنَ أكرمُ الخَلْقِ عندَ اللهِ وأعزُّهم، فالكافِرُ أذَلُّهم عندَ اللهِ وأحَطُّهم؛ قال اللهُ سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾، فلا يجوزُ للمُسلمِ أنْ يَستَذِلَّ أمامَ الكافِرِ[٣]!

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (٣/ ٣٢٠).

فِيهَآ أَبَدًاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ هذه الآيةُ إذا ضُمَّ إليها آيةُ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، صار المجموعُ دليلًا على فَضْلِ العِلمِ والعُلَماءِ؛ فهذه الآيةُ المذكورةُ مِن سورةِ (فاطرٍ) دَلَّت على أنَّ العالِمَ يكونُ صاحِبَ الخَشيةِ، وقولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ يدُلُّ على أنَّ صاحِبَ الخَشيةِ تكونُ له الجنَّةُ[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، أي: خاف المُحسِنَ إليه خوفًا يَليقُ به، فلم يَركَنْ إلى التَّسويفِ والتَّكاسُلِ، ولم يُطَبِّعْ نَفْسَه بالشَّرِّ بالجَري مع الهوى في التَّطَعُّمِ بالمحَرَّماتِ، بل كان ممَّن يَطلُبُ معاليَ الأخلاقِ، فيَستفتي قَلْبَه فيما يُرضي رَبَّه، فكان تواتُرُ إحسانِه يَزيدُه خوفًا، فيَزيدُه شُكرًا؛ فإنَّ الخَشيةَ مِلاكُ الأمرِ، والباعِثُ على كُلِّ خَيرٍ[٢].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ اسمُ الإشارةِ مُنصَبٌّ على مجموعِ الجزاءِ المتقَدِّمِ، وهو للَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، وهنا يقولُ: إنَّه لِمَن خَشِيَ رَبَّه؛ مِمَّا يفيدُ أنَّ تلك الأعمالَ تَصدُرُ منهم عن رَغبةٍ ورَهبةٍ؛ رَغبةٍ فيما عندَ اللهِ، ورَهبةٍ مِنَ اللهِ[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ ذكَرَ: ﴿كَفَرُواْ﴾ بلَفظِ الفِعْلِ، ﴿وَٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ باسمِ الفاعِلِ؟

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ١٩٨، ١٩٩).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٥٤).

**الجوابُ**: تنبيهًا على أنَّ أهلَ الكِتابِ ما كانوا كافِرينَ مِن أوَّلِ الأمرِ، بخلافِ المُشرِكينَ؛ فإنَّهم وُلِدوا على عبادةِ الأوثانِ، وإنكارِ الحَشْرِ والقيامةِ(١).

٢- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ فيه سُؤالٌ: أنَّ المُشرِكينَ كانوا يُنكِرونَ النُّبُوَّةَ، ويُنكِرونَ القيامةَ، أمَّا أهلُ الكتابِ فكانوا مُقِرِّينَ بكُلِّ هذه الأشياءِ، إلَّا أنَّهم كانوا مُنكِرينَ لنبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فكان كُفرُ أهلِ الكِتابِ أخَفَّ مِن كُفرِ المُشرِكينَ، وإذا كان كذلك، فكيف يجوزُ التَّسويةُ بيْن الفريقَينِ في العَذابِ؟

**الجوابُ**: أنَّ الفريقَينِ وإن اشتَرَكا في ذلك، لكِنَّه لا يُنافي اشتِراكُهم في هذا القَدْرِ تَفاوُتَهم في مَراتِبِ العَذابِ(٢).

٣- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ فيه سؤالٌ: ما السَّبَبُ في أنَّه لم يقُلْ هاهنا: (خَالِدينَ فيها أبَدًا)، وقال في صِفةِ أهلِ الثَّوابِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾ [البينة: ٨]؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: التنبيهُ على أنَّ رَحمتَه تعالى أَزيدُ مِن غَضَبِه.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ العُقوباتِ والحُدودَ والكَفَّاراتِ تتداخَلُ، أمَّا الثَّوابُ فأقسامُه لا تتداخَلُ(٣).

٤- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ فيه سُؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه تعالى: ﴿هُمۡ شَرُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ٱلْبَرِيَّةِ﴾؟

**الجوابُ**: أنَّه يُفيدُ النَّفيَ والإثباتَ، أي: هم دونَ غَيرِهم[١].

٥- التَّرَضِّي يكونُ عن الصَّحابةِ، ويكونُ عن التَّابعينَ، ويكونُ عن تابعي التَّابعينَ، ويكونُ عمَّن كان عابدًا للهِ على الوجهِ الَّذي يَرضاه إلى يومِ القيامةِ، ودليل ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۞ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾، ذلك لِمَن خَشِيَ ربَّه إلى يومِ القيامةِ، لكنْ جَرَتْ عادةُ المُحَدِّثِينَ رحِمَهم اللهُ أنْ يَخُصُّوا الصَّحابةَ بالتَّرضِّي عنهم؛ ومَن بَعْدَهم بالتَّرحُّمِ عليهم؛ فيَقولوا في الصَّحابيِّ: رضيَ اللهُ عنه، ويقولوا فيمَن بعدَ الصَّحابةِ: رحِمَه اللهُ، ولكنْ لو أنَّك قلتَ للصَّحابيِّ: رحِمه اللهُ، وفي غيرِه: رضيَ اللهُ عنه؛ فلا حَرَجَ عليك، إلَّا إذا خَشِيتَ أنْ يَتوهَّمَ السَّامعُ بأنَّ التَّابعيَّ صحابيٌّ؛ والصَّحابيَّ تابعيٌّ! فهنا لا بُدَّ أنْ تُبَيِّنَ فتقولَ: قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ -وهو مِن الصَّحابةِ- رحمه اللهُ، أو قال مجاهِدٌ -وهو مِن التَّابعينَ- رضيَ اللهُ عنه؛ حتَّى لا يَتوهَّمَ أحدٌ أنَّ ابنَ مسعودٍ مِن التَّابعينَ، ومُجاهِدًا مِن الصَّحابةِ[٢]!

٦- قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قد استدَلَّ بهذه الآيةِ أبو هُريرةَ وطائفةٌ مِنَ العُلَماءِ على تفضيلِ المؤمِنينَ مِنَ البَرِيَّةِ على الملائِكةِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٧).

(٢) يُنظر: ((فتاوى نور على الدرب)) لابن عثيمين (١/ ٦٧٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٨).

المنقولُ عن السَّلَفِ أنَّ صالِحي البَشَرِ أفضَلُ مِن الملائكةِ، ونَقَل ابنُ القَيِّمِ عن ابنِ تيميَّةَ أنَّ صالِحي البشَرِ أفضَلُ باعتبارِ كَمالِ النِّهايةِ، والملائكةَ أفضَلُ باعتبارِ البدايةِ؛ فإنَّ الملائكةَ الآنَ =

٧- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أنَّ الخشيةَ تُوجِبُ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالِحَ[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا﴾ أنَّ الجَنَّةَ لا تَفْنَى[٢]، وفيه بِشارةٌ بأنَّها مَسكَنُهم الخالِدُ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ كَلامٌ مُستأنَفٌ مَسوقٌ للشُّروعِ في بَيانِ حالِ الفَريقينِ في الآخرةِ، بعْدَ بَيانِ حالِهم في الدُّنيا[٤]، فالجُملةُ استئنافٌ ابتدائيٌّ[٥].

- وذَكَر المُشرِكينَ؛ لئلَّا يُتوهَّمَ اختِصاصُ الحُكْمِ بأهلِ الكتابِ حسَبَ اختصاصِ مُشاهَدةِ شَواهدِ النُّبوَّةِ في الكِتابِ بهم[٦].

- وقُدِّمَ أهلُ الكتابِ على المشرِكينَ في الوَعيدِ؛ استِتباعًا لتَقديمِهم عليهم

= في الرَّفيقِ الأعلى مُنَزَّهونَ عمَّا يُلابِسُه بنو آدَمَ، مُستَغرِقونَ في عبادةِ الرَّبِّ تعالى، ولا ريبَ أنَّ هذه الأحوالَ الآنَ أكمَلُ مِن أحوالِ البَشَرِ، وأمَّا يومَ القيامةِ بعدَ دُخولِ الجنَّةِ فيصيرُ حالُ صالِحي البشَرِ أكمَلَ مِن حالِ الملائكةِ. قال ابنُ القَيِّمِ: (وبهذا التَّفصيلِ يَتبيَّنُ سِرُّ التَّفضيلِ، وتتَّفِقُ أدِلَّةُ الفَريقَينِ، ويُصالَحُ كُلٌّ منهم على حَقِّه). ((بدائع الفوائد)) (٣/ ١٦٣). ويُنظر: ((مجموع فتاوى ابن تيمية)) (٤/ ٣٥٢). وهذه المسألةُ مِن فُضولِ المسائلِ، ولا يترتَّبُ عليها عمَلٌ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة فاطر)) (ص: ٢٠٣).

(٢) يُنظر: ((تعليق مختصر على لمعة الاعتقاد)) لابن عثيمين (ص: ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٢، ٤٨٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٦).

في سَببِه، ولأنَّ مُعظَمَ الرَّدِّ كان مُوجَّهًا إلى أحوالِهم مِن قولِه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إلى قولِه: ﴿دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٤، ٥]، ولأنَّه لو آمَنَ أهلُ الكتابِ لَقامت الحُجَّةِ على أهلِ الشِّركِ[١]، ولأنَّ جنايةَ أهلِ الكتابِ في حقِّ الرَّسولِ عليه السَّلامُ كانت أعظَمَ؛ لأنَّ المشركين رأَوْه صغيرًا، ونشأ فيما بيْنَهم، ثمَّ سفَّهَ أحلامَهم، وأبطَلَ أديانَهم، وهذا أمرٌ شاقٌّ، أمَّا أهلُ الكتابِ فقد كانوا يَستَفتِحونَ برسالتِه، ويُقِرُّون بمَبعَثِه، فلمَّا جاءهم أنكَروه مع العِلمِ به؛ فكانت جنايَتُهم أشَدَّ[٢].

- وتَأكيدُ الخبَرِ بـ (إنَّ)؛ للرَّدِّ على أهلِ الكتابِ الَّذين يَزعُمون أنَّهم لا تَمَسُّهم النَّارُ إلَّا أيَّامًا مَعدودةً؛ فإنَّ الظَّرفيَّةَ الَّتي اقتَضَتْها ﴿فِي﴾ تُفيدُ أنَّهم غيرُ خارِجينَ منها، وتَأكَّدَ ذلك بقَولِه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، وأمَّا المشرِكون فقدْ أنْكَروا الجَزاءَ رَأسًا[٣].

- قولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ...﴾ إيرادُ الجُملةِ الاسميَّةِ؛ للإيذانِ بتَحقُّقِ مَضمونِها لا مَحالةَ، أو أنَّهم فيها الآنَ؛ على تَنزيلِ مُلابَستِهم لِما يُوجِبُها مَنزِلةَ مُلابستِهم لها[٤].

أو الإخبارُ عنهم بالكَونِ في نارِ جهنَّمَ إخبارٌ بما يَحصُلُ في المُستقبَلِ بقَرينةِ مَقامِ الوعيدِ؛ فإنَّ الوعيدَ كالوعْدِ يَتعلَّقُ بالمُستقبَلِ، وإنْ كان شأنُ الجُملةِ الاسميَّةِ غيرِ المُقيَّدةِ بما يُعيِّنُ زَمانَ وُقوعِها أنْ تُفيدَ حُصولَ مَضمونِها في الحالِ، كما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).
(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٤٦).
(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).
(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٦).

تقولُ: زَيدٌ في نِعمةٍ[١].

- وجُملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ كالنَّتيجةِ لكَونِهم في نارِ جَهنَّمَ خالِدينَ فيها؛ فلذلك فُصِلَت عن الجُملةِ الَّتي قبْلَها، وهو إخبارٌ بسُوءِ عاقبتِهم في الآخرةِ[٢].

- وقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إليهم باعتبارِ اتِّصافِهم بما هُم فيه مِن القبائحِ المذكورةِ، وما فيه مِن مَعْنى البُعدِ للإشعارِ بغايةِ بُعدِ مَنزلتِهم في الشَّرِّ، أي: أولئكَ البُعداءُ المذكورونَ ﴿هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ شرُّ الخَليقةِ، أي: أعمالًا، فيكونُ في حيِّزِ التَّعليلِ لخُلودِهم في النَّارِ، أو شرُّهم مقامًا ومَصيرًا، فيكونُ تَأكيدًا لفَظاعةِ حالِهم[٣].

- وأُدخِلَ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بيْن اسمِ (إنَّ) وخبَرِها؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بالحكْمِ الواردِ بعْدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ الأوصافِ الَّتي قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٤].

- وتَوسيطُ ضَميرِ الفصْلِ (هُمْ)؛ لإفادةِ اختِصاصِهم بكَونِهم شرَّ البَريَّةِ، لا يُشارِكُهم في ذلك غيرُهم مِن فِرَقِ أهلِ الكفْرِ[٥].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ قُوبِلَ حالُ الكَفرةِ مِن أهلِ الكِتابِ وحالُ المشركينَ بحالِ الَّذين آمَنوا بعْدَ أنْ أُشيرَ إليهم بقولِه: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]؛ استيعابًا لأحوالِ الفِرَقِ في الدُّنيا والآخرةِ، وجَرْيًا على عادةِ القُرآنِ في تَعقيبِ نِذارةِ المُنذَرينَ ببِشارةِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

المُطمَئنِّينَ، وما تَرتَّبَ على ذلك مِن الثَّناءِ عليهم.

وقُدِّمَ الثَّناءُ عليهم على بِشارتِهم، على عَكسِ نظْمِ الكلامِ المُتقدِّمِ في ضِدِّهم؛ ليكونَ ذِكرُ وَعْدِهم كالشُّكرِ لهم على إيمانِهم وأعمالِهم؛ فإنَّ اللهَ شَكورٌ، والجُملةُ استئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عن تَكرُّرِ ذِكرِ الَّذين كَفَروا مِن أهلِ الكتابِ والمشْرِكين؛ فإنَّ ذلك يُثيرُ في نُفوسِ الَّذين آمَنوا مِن أهلِ الكتابِ والمشرِكين تَساؤلًا عن حالِهم؛ لعلَّ تَأخُّرَ إيمانِهم إلى ما بعْدَ نُزولِ الآياتِ في التَّنديدِ عليهم يَجعَلُهم في انحطاطِ دَرَجةٍ، فجاءت هذه الآيةُ مُبيِّنةً أنَّ مَنْ آمَنَ منهم هو مَعدودٌ في خَيرِ البَريَّةِ[١].

أو قَدَّمَ اللهُ الثَّناءَ على المؤمنينَ الَّذين عَمِلوا الصَّالحاتِ على ذِكْرِ جزائِهم؛ لأنَّ ثناءَ اللهِ عليهم أعظَمُ مَرتبةً، وأعلى مَنقَبةً؛ فلذلك قَدَّمَه على الجزاءِ الَّذي هو جزاؤُهم في يومِ القيامةِ[٢].

- وأُدخِلَ اسمُ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بيْنَ اسمِ (إنَّ) وخبَرِها؛ للتَّنبيهِ على أنَّهم أحرياءُ بالحكْمِ الواردِ بعدَ اسمِ الإشارةِ مِن أجْلِ الأوصافِ الَّتي قبْلَ اسمِ الإشارةِ[٣].

- وتَوسيطُ ضَميرِ الفصلِ (هم)؛ لإفادةِ اختِصاصِهم بكَونِهم خيرَ البَريَّةِ، لا يُشارِكُهم في ذلك غيرُهم مِن البشَرِ[٤].

٣- قولُه تعالَى: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾

- جُملةُ ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ إلى آخِرِها مُبيِّنةٌ لجُملةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٤، ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٨٤، ٤٨٥).

﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾، و﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ظرْفٌ وقَعَ اعتراضًا بيْنَ ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ وبيْنَ ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾؛ للتَّنويهِ بعِظَمِ الجزاءِ بأنَّه مُدَّخرٌ لهم عندَ ربِّهم تَكرمةً لهم؛ لِما في ﴿عِندَ﴾ مِن الإيماءِ إلى الحُظوةِ والعِنايةِ، وما في لَفظِ ﴿رَبِّهِمْ﴾ مِن الإيماءِ إلى إجزالِ الجزاءِ بما يُناسِبُ عِظَمَ المُضافِ إليه (عِند)، وما يُناسِبُ شَأنَ مَن يَرُبُّ أنْ يَبلُغَ بمَربوبِه عَظيمَ الإحسانِ[١].

- وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ * جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فيه عِدَّةُ مُبالَغاتٍ؛ وهي: تَقديمُ المدْحِ بالخَيريَّةِ، وذِكرُ الجزاءِ المُؤذِنِ بأنَّ ما مُنِحوا في مُقابَلةِ ما وُصِفوا به، والحُكْمُ عليه بأنَّه مِن ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾، والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُنبئةِ عن التَّربيةِ والتَّبليغِ إلى الكَمالِ، مع الإضافةِ إلى ضَميرِهم، وجمْعُ جنَّاتٍ، وتَقييدُها إضافةً ووَصْفًا بما تَزدادُ لها نَعيمًا، وتَأكيدُ الخُلودِ بالتَّأبيدِ، وذلك كلُّه فيه مِن الدَّلالةِ على غايةِ حُسنِ حالِهم ما لا يَخْفى[٢].

- وإضافةُ ﴿جَنَّٰتُ﴾ إلى ﴿عَدْنٍ﴾ لإفادةِ أنَّها مَسكَنُهم؛ لأنَّ العَدْنَ الإقامةُ، أي: ليس جَزاؤهم تَنزُّهًا في الجنَّاتِ، بلْ أقوى مِن ذلك بالإقامةِ فيها[٣].

- وجُعِلَ جَزاءُ الجماعةِ جمْعَ الجنَّاتِ؛ فيَجوزُ أنْ يكونَ على وَجْهِ التَّوزيعِ، أي: لكلِّ واحدٍ جنَّةٌ، ويَجوزُ أنْ يكونَ لكلِّ أحدٍ جنَّاتٌ مُتعدِّدةٌ، والفضلُ لا يَنحصِرُ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٢٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٨٦).

- وجَرْيُ النَّهرِ مُعبَّرٌ به عن انتقالِ السَّيلِ تَشبيهًا لسُرعةِ انتقالِ الماءِ بسُرعةِ المشْيِ، وإسنادُ الجرْيِ إلى الأنهارِ تَوسُّعٌ في الكلامِ؛ لأنَّ الذي يَجْري هو ماؤُها، وهو المُعتبَرُ في ماهيَّةِ النَّهرِ[١].

- قولُه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ تَذييلٌ[٢] آتٍ على ما تَقدَّمَ مِن الوعْدِ للَّذين آمَنوا، والوعيدِ للَّذين كَفَروا، بُيِّنَ به سَببُ العَطاءِ وسَببُ الحِرمانِ، وهو خَشيةُ اللهِ تعالَى بمَنطوقِ الصِّلةِ ومَفهومِها، وماصَدَقَ[٣] (مَنْ خَشِيَ رَبَّهُ) هم المؤمِنون، واللَّامُ للمِلكِ، أي: ذلك الجَزاءُ للمؤمنينَ الَّذين خَشُوا ربَّهم، فإذا كان ذلك مِلكًا لهم لم يكُنْ شَيءٌ منه مِلْكًا لغَيرِهم، فأفاد حِرمانَ الكفَرةِ المُتقدِّمِ ذِكرُهم، وتمَّ التَّذييلُ[٤].

- والتَّعرُّضُ لعُنوانِ الرُّبوبيَّةِ المُعربةِ عن المالكيَّةِ والتَّربيةِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الخَشيةِ، والتَّحذيرِ مِن الاغترارِ بالتَّربيةِ[٥].

- وأيضًا في ذِكرِ الرَّبِّ هنا دونَ أنْ يُقالَ: (ذلك لِمَن خَشِيَ اللهَ) تَعريضٌ بأنَّ الكفَّارَ لم يَرْعَوا حقَّ الرُّبوبيَّةِ؛ إذ لم يَخْشَوا ربَّهم، فهُم عَبيدُ سُوءٍ[٦].

---

(١) يُنظر: (تفسير ابن عاشور) (٣٠/ ٤٨٦).

(٢) التَّذييل: هو أن يُذَيِّلَ المتكلِّمُ كلامَه بعْدَ تمامِ معناهُ بجملةٍ تحقِّقُ ما قبْلَها، وذلك على ضربَين: ضرْبٍ لا يَزيدُ على المعنى الأوَّلِ، وإنَّما يؤكِّدُه ويحقِّقُه. وضرْبٍ يُخرِجُه المتكلِّمُ مخرجَ المثلِ السَّائرِ؛ ليشتهرَ المعنى؛ لكثرةِ دوَرانِه على الألسنةِ. يُنظر: ((البديع)) لأسامة بن منقذ (ص: ١٢٥)، ((تحرير التحبير)) لابن أبي الإصبع (ص: ٣٨٧)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (٤/ ١٧٩، ١٨٠)، ((البلاغة العربية)) لحبنكة (٢/ ٨٦- ٨٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٦، ٤٨٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٧).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٧).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ الزَّلْزَلَةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الزَّلْزَلةِ[١]. وسُمِّيتْ أيضًا بسورةِ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾[٢].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الزَّلزلةِ مُختَلَفٌ فيها[٣]؛ فقيل: مَكِّيَّةٌ[٤]. وقيل: مَدَنيَّةٌ[٥].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ:**

إثْباتُ البعْثِ وما في يومِ القيامةِ مِن أهوالٍ، والجزاءِ على الأعمالِ مِن خَيرٍ

---

(١) وَجهُ التَّسميةِ بذلك: ذِكرُ لَفظِ الزَّلْزلةِ فيها، في قَولِه: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، وهي تسميةٌ بالمعنى لا بحِكايةِ بَعضِ كَلِماتِها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٩).

(٢) قال ابنُ عاشور: (سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ في كَلامِ الصَّحابةِ سورةَ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾... وكذلك عَنوَنَها البُخاريُّ والتِّرمذيُّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٨٩).

وذكَر أيضًا مِن أسمائِها: سورةَ (الزلزالِ)، وسورةَ (زُلزلت). يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((الإتقان)) للسيوطي (١/ ٥٤).

(٤) ممَّن اختار أنَّها مَكِّيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، ومكِّيٌّ، والبغويُّ، والرازي، والخازن، وابن كثير. يُنظر: ((تفسير مقاتل)) (٤/ ٧٨٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٨٩)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٥٩).

(٥) وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: الزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِين، والواحديُّ، والزمخشري، وابن جُزَي، والشربيني، وأبو السعود. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٨).

ونسَبَ ابنُ الجَوزيِّ هذا القولَ للجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٧).

أو شَرٍّ[١].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

١- ذِكرُ يومِ القيامةِ، وما اشتَمَل عليه مِن أهوالٍ.

٢- التَّأكيدُ على أنَّ كُلَّ إنسانٍ سيُجازى على حَسَبِ عَمَلِه في الدُّنيا مِن خَيرٍ أو شَرٍّ.

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٠)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٧٥).

## الآيات (١-٨)

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿زُلْزِلَتِ﴾: أي: حُرِّكَتْ حَرَكةً شَديدةً، ورَجَفَتْ واهْتَزَّتْ، والزِّلْزالُ هو التَّحْريكُ الشَّديدُ(١).

﴿أَثْقَالَهَا﴾: أي: مَوتاها، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ(٢).

﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾: أي: يَرجِعونَ عن مَوقِفِ الحِسابِ فِرَقًا؛ لِيَنزِلوا منازِلَهم مِن الجنَّةِ والنَّارِ، ومفردُ أشتاتٍ: شَتٌّ، وأصلُ (صدر): يدُلُّ على خِلافِ الوِرْدِ، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تَفرُّقٍ(٣).

---

(١) يُنظر: ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٣/ ٨٢٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٢٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣).

قال ابن عاشور: (فِعلُ «زلْزَلَ» مَأخوذٌ مِن الزَّلِلِ، وهو زَلَقُ الرِّجلَينِ، فلمَّا عَنَوا شِدَّةَ الزَّلِلِ ضاعَفوا الفِعلَ؛ للدَّلالةِ بالتَّضعيفِ على شِدَّةِ الفِعلِ، كما قالوا: كَبْكَبَه، أي: كبَّه، ولَمْلَمَ بالمكانِ، مِن اللَّمِّ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٠).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٧)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧١).

قال الهَرَويُّ: (﴿أَثْقَالَهَا﴾ يُقالُ: مَوْتاها؛ لأنَّها تَثقُلُ بهم). ((الغريبين في القرآن والحديث)) (١/ ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٧٧، =

﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾: أي: زِنَةَ نَملةٍ صَغيرةٍ. وقِيلَ: الذَّرُّ: ما يُرى في شُعاعِ الشَّمسِ مِنَ الهباءِ، وأصلُ (ثقل): يدُلُّ على ضِدِّ الخِفَّةِ، وأصلُ (ذرر): يدُلُّ على لَطافةٍ وانتِشارٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ قائِلًا: إذا حُرِّكَت الأرضُ يومَ القيامةِ واضطَرَبت، وأخرَجَت ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ للحِسابِ والجَزاءِ، وقال الإنسانُ حينَئِذٍ: ما للأرضِ زُلزِلَت وأخرَجَت أثقالَها؟! في ذلك اليَومِ تتكَلَّمُ الأرضُ بما فعَل النَّاسُ على ظَهْرِها مِن خَيرٍ أو شَرٍّ؛ بسَبَبِ وَحْيِ اللهِ إليها، وإذْنِه لها بذلك، وفي ذلك اليَومِ ينصَرِفُ النَّاسُ عن مَوقِفِ الحِسابِ فِرَقًا؛ ليرى كُلُّ واحدٍ منهم جزاءَ عَمَلِه؛ فمَن يَعمَلْ في الدُّنيا وَزنَ ذَرَّةٍ خَيرًا يَرَه ويجِدْ ثوابَه في الآخِرةِ، ومَن يَعمَلْ في الدُّنيا وَزنَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه ويجِدْ ثوابَه في الآخِرةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾.

أي: إذا حُرِّكَت الأرضُ يومَ القيامةِ تحريكَها الشَّديدَ، واضطَرَبت اضطِرابَها العَظيمَ[٢].

---

= ٣٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٤٤٥)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٩).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ١٢٧)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٥٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٨٢) و(٢/ ٣٤٣)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٣)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).
قال ابن عاشور: (وجملةُ: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ إلخ جَوابُ ﴿إِذَا﴾... والتَّقديرُ يومَ إذْ تُزَلْزَلُ الأرضُ وتُخرِجُ أثقالَها ويَقولُ النَّاسُ: ما لَها؛ تُحَدِّثُ أخبارَها... إلخ). ((تفسير ابن =

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾.

أي: وأخرَجَت الأرضُ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ، فيَبعَثُهم اللهُ أحياءً للحِسابِ والجَزاءِ[1].

---

= عاشور)) (٣٠/ ٤٩٢). ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٧٣).

وقيل: العاملُ في: ﴿إِذَا﴾ فِعلٌ مُضمَرٌ يَقتضيه المعنى، وتقديرُه: تُحشَرون أو تُجازَون. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٠).

قال ابنُ الجَوْزيِّ: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ فيه قَوْلانِ:

أحَدُهما: ما فيها مِن المَوْتى، قالَه ابنُ عبَّاسٍ.

والثَّاني: كُنوزُها، قالَه عَطِيَّةُ.

وجمَعَ الفَرَّاءُ بيْنَ القَولَينِ، فقال: لفَظَتْ ما فيها مِن ذهَبٍ أو فِضَّةٍ أو مَيِّتٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٧).

مِمَّن اختارَ القولَ الأوَّلَ: ابنُ جَريرٍ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ جُزَي، واقتَصَر عليه ابنُ كَثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٠).

وممَّن قال بذلك مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، ومُجاهِدٌ، وابنُ جُبَيْرٍ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٩٠)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٥٩٢).

وقال ابنُ جُزَي: (﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾: يَعني: المَوْتى الَّذين في جَوْفِها، وذلك عندَ النَّفْخةِ الثَّانيةِ في الصُّورِ. وقيلَ: هي الكُنوزُ، وهذا ضَعيفٌ؛ لأنَّ إخْراجَها للكُنوزِ وَقْتَ الدَّجَّالِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣).

وقال ابنُ عَطيَّةَ: (وليسَتِ القِيامةُ مَوْطنًا لإخْراجِ الكُنوزِ، وإنَّما تُخرِجُ كُنوزَها وَقْتَ الدَّجَّالِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠).

وقال الألوسيُّ: (وهذه الكُنوزُ على هذا القَولِ غيرُ الكُنوزِ الَّتي تخرجُ أيَّامَ الدَّجَّالِ على ما وَرَدَتْ به الأخبارُ، وذلك بأن تُخرِجَ بَعضًا في أيَّامِه وبَعضًا عندَ النَّفْخةِ الثَّانيةِ، ولا بُعْدَ في أن تكونَ بَعْدَ الدَّجَّالِ كُنوزٌ أيضًا فتُخرِجَها معَ ما كان قد بَقِيَ يَومَئذٍ). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٣٤).

وممَّن جمَعَ بيْن المَعنيَينِ السَّابقَينِ لأثْقالِها: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنديُّ، والثَّعْلَبيُّ، =

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣، ٤].

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾.

أي: ويَقولُ الإنسانُ حينَئذٍ: أيُّ شَيءٍ عرَض للأرضِ، وما الَّذي حدَث، وما شأنُها(١)؟!

---

= والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والنَّسَفيُّ، وجَلالُ الدِّينِ المَحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ، والشربينيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٣)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٦)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٢)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٦٩)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٤).

قال القرطبي: (معنى ﴿مَا لَهَا﴾ أي: ما لَها زُلزِلَت؟! وقيل: ما لَها أخرَجَت أثقالَها؟!). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٨).

وممَّن جمع بيْن المعنيَينِ: القاسِميُّ. يُنظر: ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٦).

قال ابنُ عطيَّة: (قَولُ الإنسانِ: ﴿مَا لَهَا﴾ هو قولٌ على معنى التَّعجُّبِ مِن هَولِ ما يَرى، قال جمهورُ المفَسِّرينَ: الإنسانُ هنا يرادُ به الكافِرُ، وهذا ممكِنٌ؛ لأنَّه يرى ما لم يَظُنَّ به قطُّ ولا صَدَّقَه، وقال بعضُ المتأوِّلينَ: هو عامٌّ في المؤمِنِ والكافِرِ؛ فالكافِرُ على ما قدَّمْناه، والمؤمِنُ وإن كان قد آمَنَ بالبعثِ فإنَّه استَهْوَل المَرأى، وقد قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «ليس الخبَرُ كالمُعايَنةِ» [أخرجه أحمدُ «٢٤٤٧»، وابنُ حِبَّانَ «٦٢١٣»، والحاكمُ «٣٢٥٠»، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) «٥٣٧٤»، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) «٤/ ٢٦١»]). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠).

وقال الماوَرْديُّ: (وفي المرادِ بهذا الإنسانِ قولان:

أحدُهما: أنَّ المرادَ جميعُ النَّاسِ مِن مؤمنٍ وكافرٍ، وهذا قولُ مَن جعَله في الدُّنيا مِن أشراطِ =

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾.

أي: في ذلك اليَومِ تتكَلَّمُ الأرضُ بما فعَل النَّاسُ على ظَهْرِها مِن خَيرٍ أو شَرٍّ، فتَشهَدُ عليهم بأعمالِهم[1].

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾.

أي: تُحدِّثُ الأرضُ أخبارَها؛ بسَبَبِ وَحْيِ اللهِ إليها، وإذْنِه لها بذلك[2].

---

= السَّاعةِ؛ لأنَّهم لا يَعلمونَ جميعًا أنَّها مِن أشراطِ السَّاعةِ في ابتداءِ أمرِها حتَّى يتحقَّقوا عُمومَها؛ فلذلك سأَل بعضُهم بعضًا عنها.

الثَّاني: أنَّهم الكفَّارُ خاصَّةً، وهذا قولُ مَن جعَلها زلزلةَ القيامةِ؛ لأنَّ المؤمنَ يَعترِفُ بها، فهو لا يَسألُ عنها، والكافرُ جاحدٌ لها؛ فلذلك يَسألُ عنها). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣١٩).

ممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإنسانِ: الكافرُ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسَّمرقندي، ومكِّي، والواحدي، والسَّمعاني، والقرطبي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٩٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بالإنسانِ: الجنسُ، وعُمومُ النَّاسِ، وأنَّه يَشملُ كلَّ فردٍ مِن أفرادِ الإنسانِ: ابنُ جرير، والزَّمخشريُّ، والرَّسْعَني، والبيضاوي، والنَّسفي، وأبو حيَّان، والشَّوكاني، وابنُ عاشور، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٥٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٣)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٦٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٤).

وقال ابنُ عاشور: (قال النَّاسُ: ما لَها، أي: النَّاسُ الَّذين هم أحياءٌ ففَزِعوا وقال بعضُهم لبعضٍ، أو قال كُلُّ أحدٍ في نَفْسِه حتَّى استوى في ذلك الجَبانُ والشُّجاعُ، والطَّائِشُ والحكيمُ؛ لأنَّه زلزالٌ تَجاوَزَ الحَدَّ الَّذي يَصبِرُ على مِثْلِه الصَّبورُ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١١)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦﴾.

أي: في ذلك اليَومِ يَنصَرِفُ النَّاسُ عن مَوقِفِ الحِسابِ فِرَقًا كثيرةً؛ ليرى كُلُّ واحدٍ منهم عمَلَه الَّذي عَمِل، وجزاءَه عليه مِن الثَّوابِ في الجنَّةِ، أو العِقابِ في النَّارِ(١).

= (٢٠/ ١٤٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٤٩، ١٥٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٦).

قال الماوَرْديُّ: (﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ فيه قَوْلانِ:

أحَدُهما: أنَّه يَومَ القِيامةِ يَصدُرونَ مِن بَيْنِ يَدَيِ اللهِ تعالى فِرَقًا فِرَقًا، مُختَلِفينَ في قَدَرِهم وأعمالِهم؛ فبَعضُهم إلى الجَنَّةِ وهُمْ أصحابُ الحسَناتِ، وبَعضُهم إلى النَّارِ وهم أصحابُ السَّيِّئاتِ. قالَه يَحيى بنُ سَلَّامٍ.

الثَّاني: أنَّهم في الدُّنيا عنْدَ غَلَبَةِ الأهْواءِ يَصدُرونَ فِرَقًا؛ فبَعضُهم مُؤمِنٌ وبَعضُهم كافِرٌ، وبَعضُهم مُحسِنٌ وبَعضُهم مُسِيءٌ، وبَعضُهم مُحِقٌّ وبَعضُهم مُبطِلٌ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٢٠).

ممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ في الجُملةِ -أي: أنَّ المَعْنى: أنَّهم يَنصَرِفونَ مِن مَوقِفِ الحِسابِ بعْدَ العَرْضِ فِرَقًا مُختَلِفينَ ما بيْنَ سَعيدٍ وشَقِيٍّ، مِنهم مَن يَأخُذُ ذاتَ اليَمينِ إلى الجَنَّةِ، ومِنهم مَن يَأخُذُ ذاتَ الشِّمالِ إلى النَّارِ-: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابن جرير، والسَّمَرْقَنديُّ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والثَّعْلَبيُّ، ومَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، وابنُ الجَوْزيِّ، والرَّسْعنيُّ، وابنُ جُزَي، والخازِنُ، وابنُ كَثيرٍ، وجَلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٩١)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٩٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٧٨)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٠٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦١)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢). =

كما قال تبارك وتعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۞ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ

---

= وقيلَ: المَعْنى: يَصدُرُ النَّاسُ مِن قُبورِهم إلى مَوقِفِ الحِسابِ مُتَفَرِّقينَ بحَسَبِ مَراتِبِهم؛ مِن مُؤمِنٍ وكافِرٍ، وآمِنٍ وخائِفٍ، ومُطيعٍ وعاصٍ، وسَعيدٍ وشَقِيٍّ. وممَّن اختارَه في الجُملةِ: البَيْضاويُّ، والبِقاعيُّ، والشَّوْكانيُّ، والقاسِميُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٦).

قال ابنُ عطيَّةَ: (... قال جُمْهورُ النَّاسِ: الوِرْدُ: هو الكَونُ في الأرْضِ بالمَوْتِ والدَّفْنِ. والصَّدْرُ: هو القِيامُ للبَعْثِ، وأشْتاتًا: مَعْناه: قَوْمٌ مُؤمِنونَ، وقَوْمٌ كافِرونَ، وقَوْمٌ عُصاةٌ مُؤمِنونَ، والكُلُّ سائِرٌ إلى العَرْضِ ليرى عَمَلَه، ويَقِفَ عليه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١١).

وأمَّا قَولُه: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فقيلَ: أي: ثَوابَها وجَزاءَها. وممَّن اختارَه: مَكِّيٌّ، والماوَرْديُّ، والكرمانيُّ، والقُرْطُبيُّ، وجَلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ، والشَّوْكانيُّ. يُنظر: ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٣٩٢)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٢٠)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٧٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٠)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٥).

قال الواحديُّ: (قَولُه: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ: لِيُرَوا جَزاءَ أعمالِهم. والمَعنى: أنَّهم يَرجِعونَ عن المَوقِفِ فِرَقًا لِيُرَوا مَنازِلَهم في الجَنَّةِ أو النَّارِ). ((البسيط)) (٢٤/ ٢٢٨).

وقيلَ: المَعْنى: أنَّ اللهَ يُريهم أعْمالَهم الَّتي عَمِلوها. وممَّن اختارَه: السَّمْعانيُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٦).

قال الخازِنُ: (قيلَ: مَعْناه: لِيُرَوا صَحائِفَ أعْمالِهم الَّتي فيها الخَيْرُ والشَّرُّ). ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٥٩).

وممَّن جَمَع بيْنَ المَعْنَيَينِ السَّابِقَينِ: ابنُ جَريرٍ، والسعديُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

قال ابنُ جرير: (فيَرى المُحسِنُ في الدُّنْيا المُطيعُ للهِ عمَلَه وما أَعَدَّ اللهُ له يَوْمَئِذٍ مِن الكَرامةِ على طاعتِه إيَّاه كانت في الدُّنْيا، ويَرى المُسِيءُ العاصي للهِ عمَلَه وجَزاءَ عَمَلِه وما أَعَدَّ اللهُ له مِن الهَوانِ والخِزْيِ في جَهنَّمَ على مَعْصيتِه إيَّاه كانت في الدُّنْيا، وكُفْرِه به). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢).

ٱلْأَخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ [الروم: ١٤ - ١٦].

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾.

أي: فمَن يَعمَلْ في الدُّنيا خَيرًا ولو كان بمِقْدارِ وَزنِ ذَرَّةٍ، فإنَّه سيَراه ويَجِدُ ثَوابَه في الآخِرةِ(١).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٧).

قيلَ: المُرادُ بالذَّرَّةِ: النَّمْلةُ الصَّغيرةُ. وممَّن اخْتارَه: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والزَّمَخْشَريُّ، وابنُ عطيَّةَ، والرَّسْعَنيُّ، والنَّسَفيُّ، وابنُ جُزَي، وابنُ كَثير، وجَلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والعُلَيْميُّ، والشَّوْكانيُّ، والقاسِميُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٩١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٣)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٠٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨١٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٧).

قال مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ: (يَعني: وَزْنَ نَملةٍ؛ أَصغَرِ النَّمْلِ الأَحمَرِ الَّتي لا تَكادُ نَراها مِن صِغَرِها). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٧٩١).

وقيلَ: الذَّرُّ: ما يُرَى في شُعاعِ الشَّمْسِ مِن الهَباءِ. وممَّن اخْتارَه: السَّمَرْقَنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٠٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢١).

قال السعديُّ في هذه الآيةِ والتي تليها: (هذا شامِلٌ عامٌّ للخَيْرِ والشَّرِّ كُلِّه؛ لأنَّه إذا رأى مِثْقالَ الذَّرَّةِ الَّتي هي أَحقَرُ الأشياءِ، وجُوزِيَ عليها، فما فَوْقَ ذلك مِن بابِ أَوْلى وأَحْرى!). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢). ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٢).

وقال القُرْطُبيُّ: (وهي [أي: الذَّرَّةُ] في الجُملةِ عِبارةٌ عن أَقَلِّ الأشْياءِ وأَصغَرِها). ((تفسير القرطبي)) (٥/ ١٩٥). =

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سُئِلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن الحُمُرِ، فقال: ما أُنزِلَ علَيَّ فيها إلَّا هذه الآيةُ الجامِعةُ الفاذَّةُ[١]: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾))[٢].

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر الخَيرَ؛ أتْبَعَه ضِدَّه، فقال[٣]:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾.

أي: ومَن يَعمَلْ في الدُّنيا شَرًّا ولو كان بمِقْدارِ وَزنِ ذَرَّةٍ، فإنَّه سيَراه ويَجِدُ جَزاءَه في الآخِرةِ[٤].

قال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

---

= وقال ابنُ العربي: (قَد اتَّفق العُلَماءُ على عُمومِ هذه الآيةِ). ((أحكام القرآن)) (٤/ ٤٤٠).

(١) الفَاذَّةُ: أي: المُنْفَرِدةُ في معناها. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٢٦٦).

(٢) رواه البخاري (٣٦٤٦)، ومسلم (٩٨٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٦٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٤).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قولُه تبارك وتعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا...﴾ فيه التَّحذيرُ والتَّخويفُ مِن زلزلةِ الأرضِ[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ هذا مُضافٌ، والمضافُ يَقتضي العُمومَ، وظاهرُه أنَّهم يَرَونَ الأعمالَ؛ الصَّغيرَ والكبيرَ -وذلك على قولٍ-، إلَّا ما غَفَرَه اللهُ مِن قَبْلُ بحَسَناتٍ أو دُعاءٍ، أو ما أَشْبهَ ذلك؛ فهذا يُمْحَى، كما قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤]؛ ولهذا يجبُ على الإنسانِ ألَّا يُقْدِمَ على شَيءٍ لا يُرضِي اللهَ عزَّ وجلَّ؛ لأنَّه يَعلَمُ أنَّه مكتوبٌ عليه، وأنَّه سوف يُحاسَبُ عليه[٢].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ فيه الحثُّ على الأعمالِ الصَّالحةِ[٣]، والتَّرغيبُ في قَليلِ الخَيرِ وكَثيرِه، والتَّحذيرُ مِن قليلِ الشَّرِّ وكَثيرِه[٤]، ومَن فَقِهَ ذلك لم يُحَقِّرْ ذَنبًا وإن دَقَّ؛ لأنَّه يجتَمِعُ إلى أمثالِه فيَصيرُ كَبيرًا[٥]! وفيه أنَّ العَمَلَ لا يَضِيعُ مهما قَلَّ، حتَّى لو كان مِثقالَ ذرَّةٍ أو أقَلَّ؛ فإنَّه لا بُدَّ أنْ يراه الإنسانُ ويَطَّلِعَ عليه يومَ القيامةِ[٦].

٤- عن إبراهيمَ التَّيْميِّ، قال: (سمِعتُ الحارثَ بنَ سُويدٍ يقرأُ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٨٧).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (ص: ٢٩٠).

(٤) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٦).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٨).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٠).

حتَّى بلَغ ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ...﴾، قال: فبكى، ثمَّ قال: إنَّ هذا الإحصاءَ شديدٌ)[١].

٥- (جاء سائلٌ إلى بابِ عائشةَ رضيَ الله عنها، فقالت لجاريتِها: أطعِميه، فذهَبت ثمَّ رجَعت، فقالت لها: ما وجدْتُ شيئًا أُطعِمُه، قالت: ارجِعي فابتَغي له، فرجَعَتْ، فوجَدَتْ تمرةً، فأتَت بها، فقالت عائشةُ: أعطيه إيَّاها؛ فإنَّ فيها مَثاقيلَ ذرَّةٍ إنْ تُقُبِّلتْ)[٢]. (وأتَى سعدَ بنَ مالِكٍ سائِلٌ وبينَ يَدَيْه طَبَقٌ عليه تَمْرٌ، فأَعْطاه تَمْرةً، فقَبَض يَدَه، أو قال: فكَفَّ يَدَه، فقال: إنَّ اللهَ تَعالى يَقبَلُ مِنَّا الذَّرَّةَ والخَرْدَلَةَ، فكائِنٌ في هذه مَثاقيلُ ذَرٍّ)[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ شَهادةُ الأرضِ؛ مِن أجْلِ بيانِ عَدْلِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّه سُبحانَه وتعالى لا يُؤاخِذُ النَّاسَ إلَّا بما عَمِلوه، وإلَّا فإنَّ اللهَ تعالى بكلِّ شيءٍ مُحيطٌ، ويكفي أنْ يقولَ لعِبادِه جَلَّ وعلا: عَمِلتُم كذا وعَمِلتُم كذا، لكنْ مِن بابِ إقامةِ العَدلِ، وعدمِ إنكارِ المجرمِ؛ لأنَّ المجرمينَ يُنكِرون أنْ يَكونوا مُشرِكين؛ قال اللهُ تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾[٤] [الأنعام: ٢٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أنَّ الأرضَ يومَ القيامةِ تَشهَدُ على ما عُمِلَ فيها مِن خَيرٍ وشَرٍّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مصنف ابن أبي شيبة)) (٧/ ٢٢٦).

(٢) يُنظر: ((شُعَب الإيمان)) للبيهقي (٥/ ١٣٢).

(٣) يُنظر: ((الأموال)) لابن زنجويه (٢/ ٧٦٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٥).

(٥) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٤/ ١٦٥).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ انتَزَع بَعضُهم مِن هذه الآيةِ أنَّ: «حَدَّثَنا» و«أخبَرَنا» سَواءٌ، وهو قولُ مالكٍ وغَيرِه، خِلافًا لِمَن فَرَّق بيْنَهما وقال: «أخبَرَنا» يجوزُ أن يُقالَ في المسموعِ على العالِمِ مِن غَيرِ لَفظِه، و«حَدَّثَنا» لا يُقالُ إلَّا فيما سُمِعَ مِن لَفظِ العالِمِ، وهو قَولُ ابنِ وَهبٍ[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ فيه سؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ: (أوحى إليها)؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّ ﴿أَوْحَىٰ لَهَا﴾، أي: أوحى إليها.

**الوَجهُ الثَّاني:** لَعَلَّه إنَّما قال: ﴿لَهَا﴾، أي: فعَلْنا ذلك لأجْلِها؛ حتَّى تتوسَّلَ الأرضُ بذلك إلى التَّشَفِّي مِنَ العُصاةِ[٢].

**الوَجهُ الثَّالِثُ:** عَدَل عن قَولِه (إليها) إلى قَولِه تعالى: ﴿لَهَا﴾؛ إيذانًا بالإسراعِ في الإيحاءِ[٣].

٥- قال تبارك وتَعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ هذه الآيةُ الكريمةُ تَقتضي أنَّ كلَّ إنسانٍ كافِرًا كانَ أو مُسلمًا يُجازى بالقليلِ مِنَ الخَيرِ والشَّرِّ.

وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ هذا العُمومِ، أمَّا مَا فعَله الكافِرُ مِن الخَيرِ فالآياتُ تُصرِّحُ بإحباطِه، كقولِه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ

(١) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٢٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٠٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧٤).

وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥، ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، وكقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ.

وأمَّا ما عمِلَه المُسلمُ مِن الشَّرِّ فقد صرَّحت الآياتُ بعَدمِ لُزومِ مؤاخَذتِه به؛ لاحتِمالِ المَغفرةِ أو لوعدِ اللهِ بها، كقَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقَولِه: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، إلى غيرِ ذلك مِن الآياتِ.

**والجوابُ عن هذا مِن ثلاثةِ أوجهٍ:**

**الأوَّلُ**: أنَّ الآيةَ مِن العامِّ المخصوصِ، والمعنى: فمَن يَعمَلْ مِثقالَ ذرَّةٍ خَيرًا يَرَه إنْ لم يُحبِطْه الكُفرُ؛ بدليلِ آياتِ إحباطِ الكفرِ عمَلَ الكفَّارِ، ومَن يَعمَلْ مثقالَ ذرَّةٍ شَرًّا يَرَه إن لم يَغفِرْه اللهُ له؛ بدليلِ آياتِ احتمالِ الغُفرانِ والوَعْدِ به.

**الثَّاني**: أنَّ الآيةَ على عُمومِها، وأنَّ الكافِرَ يَرى جزاءَ كلِّ عمَلِه الحسَنِ في الدُّنيا، كما يدُلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ الآيةَ [هود: ١٥]، وقولُه: ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠]، وقولُه تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [النور: ٣٩]، والمُؤمنُ يَرى جزاءَ عمَلِه السَّيِّئِ في الدُّنيا بالمَصائِبِ والأمْراضِ والآلامِ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّ الآيةَ أيضًا على عُمومِها، وأنَّ معناها أنَّ المُؤمنَ يَرى كلَّ مَا قدَّم مِن خيْرٍ وشَرٍّ، فيَغفِرُ اللهُ له الشَّرَّ ويُثيبُه بالخيْرِ، والكافِرُ يَرى كلَّ ما قدَّم مِن خيْرٍ وشَرٍّ، فيُحبِطُ ما قدَّمَ مِن خيْرٍ، ويجازِيه بما فعَل مِن الشَّرِّ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ نبَّه به على أنَّ ما فوقَ الذَّرَّةِ يراه، قليلًا كان أو كثيرًا، وهذا يُسَمَّى مَفهومَ الخِطابِ، وهو أن يكونَ المذكورُ والمسكوتُ عنه في حُكمٍ واحدٍ، بل يكونُ المسكوتُ عنه بالأَولى في ذلك الحُكمِ، كقَولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾[٢] [الإسراء: ٢٣].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ قيامُه سُبحانَه بالقِسْطِ، وقيامُه على كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ؛ فهو لا يَظْلِمُ مِثقالَ ذرَّةٍ[٣]، يُحصي أعمالَ العِبادِ، أي: يَضْبِطُها بالعدَدِ، فلا يَنْقُصُ أحدًا شَيئًا[٤].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أنَّ الثَّوابَ على قَدْرِ العَمَلِ[٥].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ أنَّ العمَلَ يُطْلَقُ على القَولِ والفِعلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص: ٢٨١). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٤).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٤/ ١٨٢).

(٤) يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) لابن عثيمين (ص: ٢٥٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة القصص)) (ص: ٢٦٥).

(٦) يُنظر: ((القول المفيد على كتاب التوحيد)) لابن عثيمين (٢/ ٣١٨).

١٠- قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: (أحكمُ آيةٍ في القرآنِ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾)[١].

١١- قَولُه تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ استُدِلَّ به على أنَّ الأعمالَ تُوزنُ[٢]، ووجهُ الدَّلالةِ: أنَّ تقديرَ الآيةِ: فمَن يَعمَلْ عمَلًا مِثقالَ ذرَّةٍ، وفيه سؤالٌ عن وَزْنِ العمَلَ مع أنَّه ليس جِسمًا يمكِنُ أنْ يوضَعَ في الميزانِ، بلِ العمَلُ عمَلٌ انتهى وانقضى؟

**الجوابُ:**

**أوَّلًا:** على المرءِ أنْ يُصَدِّقَ بما أخْبَرَ اللهُ تعالى به ورسولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أمورِ الغَيبِ، وإنْ كان عقْلُه قد يَحارُ فيه ويَتَعَجَّبُ، ويقولُ: كيف يكونُ هذا؟! فعليه التَّصديقُ؛ لأنَّ قدرةَ اللهِ تعالى فوقَ ما نتصوَّرُ، فالواجِبُ على المسلمِ أنْ يُسَلِّمَ ويَستَسلِمَ ولا يقولَ: كيف؟ لأنَّ أمورَ الغيبِ فوقَ ما يتصوَّرُ.

**ثانيًا:** أنَّ اللهَ تعالى يَجعَلُ هذه الأعمالَ أجسامًا توضَعُ في الميزانِ وتَثْقُلُ وتَخِفُّ، واللهُ تعالى قادرٌ على أنْ يَجْعَلَ الأمورَ المعنويَّةَ أجسامًا، كما صَحَّ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنَّه قال ((يُؤتَى بالموتِ كهَيئةِ كَبْشٍ أمْلَحَ، فيُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجَنَّةِ، فيَشْرَئِبُّون[٣] ويَنظُرونَ، فيقولُ: هل تَعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ:

---

(١) يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٦٦).

(٢) قال ابنُ عُثَيمينَ: (الَّذي يُوزَنُ العَمَلُ، ولكن رُبَّما يكونُ بعضُ النَّاسِ تُوزَنُ صَحائِفُ أعمالِه، وبعضُ النَّاسِ يُوزَنُ هو بنفْسِه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٩).
وقال ابنُ أبي العِزِّ: (ثَبَت وزنُ الأعمالِ والعاملِ وصحائِفِ الأعمالِ، وثَبَت أنَّ الميزانَ له كِفَّتانِ. واللهُ تعالى أعلمُ بما وراءَ ذلك مِن الكيفيَّاتِ). ((شرح الطحاوية)) (٢/ ٦١٣). ويُنظر: ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٢-٧٤).

(٣) فيَشْرَئِبُّونَ: أي: يَرفَعونَ رُؤوسَهم إلى المُنادي. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٨٥).

نَعم، هذا الموتُ -وكلُّهم قد رآه- ثمَّ يُنادي: يا أهلَ النَّارِ، فيَشْرَئِبُّون ويَنظُرون، فيقولُ: هل تَعرِفون هذا؟ فيَقولون: نعم، هذا الموتُ، وكلُّهم قد رآه))، مع أنَّه في صورةِ كَبشٍ، والموتُ معنًى ليس جِسمًا، ولكنَّ اللهَ تعالى يَجْعَلُه جسمًا يومَ القيامةِ، ((فيُذْبَحُ، ثمَّ يقولُ: يا أهلَ الجَنَّةِ خُلودٌ فلا مَوْتَ، ويا أهلَ النَّارِ خُلودٌ فلا موتَ))[١]، وبهذا يَزولُ الإشكالُ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۞ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾

- افتِتاحُ الكلامِ بظَرْفِ الزَّمانِ ﴿إِذَا﴾ مع إطالةِ الجُمَلِ المُضافِ إليها الظَّرفُ، تَشويقٌ إلى مُتعلَّقِ الظَّرفِ؛ إذ المَقصودُ ليس تَوقيتَ صُدورِ النَّاسِ أشتاتًا لِيُرَوا أعمالَهُم، بلِ الإخبارُ عن وُقوعِ ذلك، وهو البعثُ، ثمَّ الجزاءُ، وفي ذلك تَنزيلُ وُقوعِ البَعثِ مَنزلةَ الشَّيءِ المُحقَّقِ المَفروغِ منه، بحيث لا يُهِمُّ النَّاسَ إلَّا مَعرفةُ وَقتِه وأشراطِه، فيكونُ التَّوقيتُ كِنايةً عن تَحقيقِ وُقوعِ المُوقَّتِ[٣].

- وإنَّما بُنِيَ فِعلُ ﴿زُلْزِلَتِ﴾ بصِيغةِ النَّائبِ عن الفاعلِ؛ لأنَّه مَعلومٌ فاعلُه، وهو اللهُ تعالَى[٤].

- وانتَصَبَ ﴿زِلْزَالَهَا﴾ على المفعولِ المُطلَقِ المؤكِّدِ لِفعلِه؛ إشارةً إلى هَولِ

(١) أخرجه البخاريُّ (٤٧٣٠) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٨٤٩) مِن حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٨٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٩١).

ذلك الزِّلزالِ[١].

- وأُضيفَ الزِّلزالُ إلى الأرضِ؛ لإفادةِ تَمكُّنِه منها وتَكرُّرِه، حتَّى كأنَّه عُرِفَ بنِسبتِه إليها؛ لكَثرةِ اتِّصالِه بها، أو ليَدُلَّ على أنَّها زُلزِلَت الزِّلزالَ المخصوصَ بها على مُقْتضى المَشيئةِ المَبْنيَّةِ على الحِكَمِ البالغةِ، وهو الزِّلزالُ الشَّديدُ الَّذي لا غايةَ وَراءَه، أو زِلزالَها العَجيبَ الَّذي لا يُقادَرُ قَدْرُه، أو زِلزالَها الدَّاخلَ في حيِّزِ الإمكانِ[٢].

فقولُه: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ ليس مِن التَّكرارِ؛ فإنَّ إضافةَ الزِّلزالِ يفيدُ معنًى زائدًا، وهو زِلزالُها المختَصُّ بها، المعروفُ منها، المتوقَّعُ منها، كما تقولُ: غَضِبَ زيدٌ غضَبَه، وقاتَلَ قِتالَه، أي: غضَبَه الَّذي يُعْهَدُ منه، وقِتالَه المختَصَّ به الَّذي يُعْرَفُ منه[٣].

- وإعادةُ لَفظِ ﴿ٱلْأَرْضُ﴾ في قولِه: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ التَّقريرِ، وتَفخيمِ هَولِ السَّاعةِ، أوْ للإيماءِ إلى تبَدُّلِ الأرضِ غَيرَ الأرضِ، أو لأنَّ إخراجَ الأثقالِ حالُ بَعضِ أجزائِها[٤].

- والتَّعريفُ في ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ قيل: هو تَعريفُ الجِنسِ المُفيدُ للاستغراقِ، أي: وقال النَّاسُ: ما لَها؟ على أنَّ الكافرَ يقولُ هذا بطَريقِ التَّعجُّبِ، والمؤمنَ يَقولُه

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٨).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٤٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٩).

بطَريقِ الاستعظامِ؛ فالمؤمنُ -وإنْ كان مُؤمنًا بالبعثِ- فإنَّه استَهوَلَ المَرْأى.

وقيل: ذلك قولُ الكافرِ؛ لأنَّه يَرى ما لم يَقَعْ في ظنِّه قطُّ ولا صَدَّقَه، لأنَّه كان لا يُؤمِنُ بالبعثِ، فأمَّا المؤمنُ فيَقولُ: هذا ما وعَدَ الرَّحمنُ وصَدَقَ المُرسَلون[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا * يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ حُذِفَ مَفعولُ ﴿تُحَدِّثُ﴾ الأوَّلُ لظُهورِه، أي: تُحدِّثُ الإنسانَ؛ لأنَّ الغرَضَ مِن الكلامِ هو إخبارُها، لا ذِكرُ الخلْقِ؛ لِما فيه مِن التَّهويلِ، وتَعظيمِ اليومِ[٢].

- قولُه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ يَتعلَّقُ بفِعلِ ﴿تُحَدِّثُ﴾، ومعْناه: تُحدِّثُ أخبارَها بسَببِ إيحاءِ ربِّك لها، وأمْرِه إيَّاها بالتَّحديثِ، ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ﴾ بدَلًا مِن ﴿أَخْبَارَهَا﴾، وأُظهِرَت الباءُ في البدَلِ؛ لتَوكيدِ تَعديةِ فِعلِ ﴿تُحَدِّثُ﴾ إليه، كأنَّه قِيل: يَومَئذٍ تُحدِّثُ بأخبارِها بأنَّ ربَّك أَوحى لها؛ لأنَّك تَقولُ: حدَّثْتُه كذا، وحدَّثْتُه بكذا[٣].

- وعُدِّيَ فِعلُ ﴿أَوْحَىٰ﴾ باللَّامِ؛ لتَضمينِ ﴿أَوْحَىٰ﴾ معْنى (قال)، وإلَّا فإنَّ حقَّ ﴿أَوْحَىٰ﴾ أنْ يَتعدَّى بحرْفِ (إلى)[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٨٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٣). =

- وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ بدلٌ مِن جُملةِ ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، والجَوابُ هو فِعلُ ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾، وقولُه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يَتعلَّقُ به، وقُدِّمَ على مُتعلَّقِه للاهتمام، وهذا الجوابُ هو المَقصودُ مِن الكَلامِ؛ لأنَّ الكَلامَ مَسوقٌ لإثباتِ الحَشْرِ، والتَّذكيرِ به، والتَّحذيرِ مِن أهوالِه؛ فإنَّه عندَ حُصولِه يَعلَمُ النَّاسُ أنَّ الزِّلزالَ كان إنذارًا بهذا الحشْرِ[١].

- وصُدورُ النَّاسِ: الخُروجُ مِن مَحلِّ اجتماعِهم، يُقالُ: صدَرَ عن المكانِ، إذا تَرَكه وخَرَج منه، ومنه: الصَّدَرُ عن الماءِ بعْدَ الوِرْدِ، فأُطلِقَ هنا فِعلُ ﴿يَصْدُرُ﴾ على خُروجِ النَّاسِ إلى الحشْرِ جَماعاتٍ، أو انصرافِهم مِن المَحشرِ؛ تَشبيهًا بانصرافِ النَّاسِ عن الماءِ بعْدَ الوِردِ[٢].

- وبُنِيَ فِعلُ ﴿لِّيُرَوْا﴾ إلى النَّائبِ؛ لأنَّ المقصودَ رُؤيتُهم أعمالَهم، لا تَعيينُ مَن يُرِيهم إيَّاها[٣].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ تَفريعٌ على قولِه: ﴿لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦] تَفريعَ الفَذْلَكةِ[٤]، انتقالًا للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ بعْدَ الفَراغِ مِن إثباتِ البَعثِ والجزاءِ، والتَّفريعُ قاضٍ بأنَّ هذا يكونُ عَقِبَ ما يَصدُرُ النَّاسُ أشتاتًا[٥].

- وقولُه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ ...﴾ تَفصيلٌ لِقولِه: ﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا

---

= ويُنظر ما تقدَّم في الفوائدِ (ص: ١٩٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) تقدَّم تعريفُها (ص: ٥٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٤).

أَعْمَـٰلَهُمْ﴾، والأعمالُ جمْعٌ مُضافٌ يُفيدُ الشُّمولَ والاستغراقَ، و﴿يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ مُقيَّدٌ بقولِه: ﴿أَشْتَاتًا﴾، فيُفيدُ أنَّهم على طَرائقَ شتَّى للنُّزولِ في مَنازِلِهم مِن الجنَّةِ والنَّارِ، بحسَبِ أعمالِهم المُختلِفةِ، ومِن ثَمَّ كانت الجنَّةُ ذاتَ دَرَجاتٍ، والنَّارُ ذاتَ دَرَكاتٍ. وقد ورَدَت الآيةُ لبَيانِ الاستِقصاءِ في عرْضِ الأعمالِ والجزاءِ عليها؛ لقولِه تعالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وهي مِن الجوامعِ الحاويةِ لفَوائدِ الدِّينِ أصولًا وفُروعًا[١].

- والذَّرَّةُ: النَّملةُ الصَّغيرةُ في ابتداءِ حَياتِها -على قولٍ-، و«مِثقالُ ذَرَّةٍ» مَثَلٌ في أقلِّ القِلَّةِ[٢].

- ولَمَّا كان الكلامُ مَسوقًا للتَّرغيبِ والتَّرهيبِ معًا، أُوثِرَ جانبُ التَّرغيبِ بالتَّقديمِ في التَّقسيمِ؛ تَنْويهًا بأهلِ الخَيرِ[٣].

- وإنَّما أُعِيدَ قولُه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾ دونَ الاكتفاءِ بحرْفِ العطْفِ؛ لأنَّ الأوَّلَ مُتَّصلٌ بقولِه: ﴿خَيْرًا يَرَهُۥ﴾، والثانيَ مُتَّصِلٌ بقولِه: ﴿شَرًّا يَرَهُۥ﴾، ولتَكونَ كلُّ جُملةٍ مُستقِلَّةَ الدَّلالةِ على المُرادِ؛ لتَختَصَّ كلُّ جُملةٍ بغَرَضِها مِن التَّرغيبِ أو التَّرهيبِ، فأهمِّيَّةُ ذلك تَقْتضي التَّصريحَ والإطنابَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٤٩٥).

(٤) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٢، ٦٢٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٥).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ العادِياتِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ العادِياتِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (العادِيات)[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ العادِياتِ مكِّيَّةٌ[٢]، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

بَيانُ ما جُبِلَ عليه الإنسانُ، وحَثُّه على أن يَتزَوَّدَ بالعمَلِ الصَّالحِ[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

١- القَسَمُ بالخَيلِ، والتَّنويهُ بشَأنِ الجِهادِ والمُجاهِدينَ.

٢- ذِكْرُ كُفرانِ الإنسانِ، وبَيانُ ما جُبِلَ عليه مِن شِدَّةِ مَحبَّةِ المالِ، والحِرصِ عليه.

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بقولِه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٧).

قال ابنُ عاشورٍ: (وسُمِّيَت في بَعضِ كُتُبِ التَّفسيرِ سُورةَ «والعادياتِ» بإثباتِ الواوِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٧).

(٢) ونسَب القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ إلى الجمهورِ: ابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٧).

وقيل: مَدَنيَّةٌ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٦)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٧).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: البِقاعيُّ. يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٣٧).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٨١).

٣- وَعظُ النَّاسِ بأنَّ وَراءَهم حِسابًا بعدَ الموتِ؛ تَحريضًا على التَّزوُّدِ بالعملِ الصَّالحِ.

## الآيات (١-١١)

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾: أي: الخَيلِ العادِيَةِ في سَبيلِ اللهِ عزَّ وجَلَّ تَضبَحُ، والعَدْوُ: السَّيرُ بسُرْعةٍ، والضَّبْحُ: صَوتُ أجوافِها إذا عَدَتْ، وهو النَّفَسُ، وأصلُ (عدو): يدُلُّ على تجاوُزٍ في الشَّيءِ، وأصلُ (ضبح): يدُلُّ على صَوتٍ[١].

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾: أي: الخَيلِ تُوري النَّارَ بحوافِرِها إذا وقَعَت على الحِجارةِ، يُقالُ: وَرَى الزَّندُ: إذا خرَجَت نارُه، والإيراءُ: إخراجُ النَّارِ، والقَدْحُ هو الضَّربُ والصَّكُّ[٢].

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾: أي: الخَيلِ الَّتي تُغيرُ على العَدُوِّ عندَ الصَّباحِ، يُقالُ: أغارَ على العَدُوِّ: هَجَم عليهم دِيارَهم، وأوْقَع بهم، وأغارَ الفرَسُ: إذا أسْرَعَ في العَدْوِ، وأصلُ (غور) هنا: يدُلُّ على إقدامٍ على أخذِ مالٍ قَهرًا أو حَربًا[٣].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٨٥) و(٤/ ٢٤٩)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٨١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٦٧) و(٦/ ١٠٤)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٠١)، =

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾: أي: الخَيلُ تُثيرُ الغُبارَ بحوافِرِها بمكانِ عَدْوِها، يُقالُ: ثارَ الغُبارُ والدُّخَانُ: إذا ارتفَعَ، وأصلُ (ثور): يدُلُّ على انبعاثِ الشَّيءِ، والنَّقْعُ: الغُبارُ السَّاطِعُ المُثارُ(١).

﴿لَكَنُودٌ﴾: أي: لَكَفورٌ جَحودٌ؛ مِن كَنَدِ النِّعمةَ: أي: كَفَرها ولم يَشكُرْها، وأصلُ (كند): يدُلُّ على القَطعِ، وسُمِّي الكَنودُ بذلك لأنَّه يَكْنُدُ الشُّكرَ، أيْ: يَقْطَعُه(٢).

﴿بُعْثِرَ﴾: أي: أُثيرَ وأُخرِجَ، والبعثرةُ: قلبُ الشَّيءِ وإثارتُه، بجَعلِ أعلاهُ أسْفَلَه، وأسْفَلِه أعلاهُ(٣).

﴿وَحُصِّلَ﴾: أي: مُيِّزَ وبُيِّنَ، وأُظهِرَ وجُمِعَ، كإظهارِ اللُّبِّ مِنَ القِشْرِ وجَمْعِه، والتَّحْصيلُ: إخراجُ اللُّبِّ مِنَ القُشورِ، كإخراجِ الذَّهَبِ مِن حَجَرِ المعدِنِ، والبُرِّ مِنَ التِّبنِ، والحاصِلُ مِن كُلِّ شيءٍ ما حَصَل وذَهَب ما سِواه، وأصلُ (حصل): جَمعُ الشَّيءِ(٤).

---

= ((المفردات)) للراغب (ص: ٦١٨)، ((المصباح المنير)) للفيومي (٢/ ٤٥٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٩٥)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٤)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٤١).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٤٤).

(٣) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٠)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٠٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٣٣)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (١/ ٢٠٦).

(٤) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٦)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٦٨)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٢/ ٤٥٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٤٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٤).

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا *... أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾

قَولُه: ﴿ضَبْحًا﴾: مَنصوبٌ على المفعوليَّةِ المُطلَقةِ بفِعلٍ محذوفٍ جملتُه حالٌ، والتَّقديرُ: تَضبَحُ ضَبحًا. أو مَنصوبٌ على الحالِ؛ لتأويلِه بالمشتَقِّ، أي: ضابحاتٍ. ومَن قال: إنَّ الضَّبحَ نَوعٌ مِنَ السَّيرِ والعَدْوِ[1]، فهو عندَه مَصدَرٌ مؤكِّدٌ لـ «العادياتِ».

﴿قَدْحًا﴾: مَصدَرٌ مُؤَكِّدٌ لـ «الموريات»؛ لأنَّ الإيراءَ مِنَ القَدْحِ، يُقالُ: قَدَحَ فأَوْرى: إذا أخرَجَ النَّارَ. ويجوزُ أن يكون حالًا؛ لتأويلِه بالمشتَقِّ، أي: قادحاتٍ، أو مَفعولًا مُطلَقًا لفِعلٍ محذوفٍ جُملتُه حالٌ، أي: تَقْدَحُ قَدْحًا.

﴿صُبْحًا﴾: منصوبٌ على الظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ، أي: الَّتي تُغيرُ وقْتَ الصُّبحِ.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾: مَعطوفٌ على اسمِ الفاعِلِ قبْلَه، وهو العادياتُ، وما بَعْدَه؛ لكَونِه في تأويلِ الفِعلِ؛ لوُقوعِه صِلةً للمَوصولِ؛ فإنَّ الألِفَ واللَّامَ في الأسماءِ المشتَقَّةِ أسماءٌ مَوصولةٌ، فالكلامُ في قُوَّةِ: واللَّاتي عَدَوْنَ فأَوْرَينَ فأغَرْنَ فأثَرْنَ.

﴿بِهِۦ﴾ الباءُ ظرفيَّةٌ، والضَّميرُ للمَكانِ الدَّالِّ عليه السِّياقُ، وإنْ لم يَجْرِ له ذِكرٌ؛ لأنَّ الإثارةَ لا بدَّ لها من مكانٍ.

وقيل: ضَميرُ ﴿بِهِۦ﴾ للصُّبحِ، والباءُ ظَرفيَّةٌ، أي: فهيَّجْنَ في ذلك الوَقتِ نَقْعًا، أي: غُبارًا.

وجُوِّزَ كونُ ضَميرِ ﴿بِهِۦ﴾ للعَدْوِ الدَّالِّ عليه «العاديات»، والباءُ للسَّببيَّةِ أو

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٩).

للمُلابَسةِ. ﴿جَمْعًا﴾: مَفعولٌ به للفِعلِ «وَسَطَ».

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ قَولُه: ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾: في العامِلِ فيها أوجُهٌ؛ أحَدُها: محذوفٌ دَلَّ عليه ﴿لَخَبِيرٌ﴾، ولا يجوزُ أن يَعمَلَ فيه ﴿لَخَبِيرٌ﴾؛ لأنَّ ما في حيِّزِ «إنَّ» لا يتقدَّمُ عليها، أي: إذا بُعثِرَ جُوزوا. الثَّاني: مَفعولُ ﴿يَعْلَمُ﴾ المحذوفُ هو العامِلُ في ﴿إِذَا﴾، أي: أفلَا يَعلَمُ مآلَه إذا بُعثِرَ مَن في القُبورِ. الثَّالِثُ: أنَّ ﴿إِذَا﴾ خارِجةٌ عن الظَّرفيَّةِ مَفعولٌ به لـ﴿يَعْلَمُ﴾، على معنى: أفلا يعلَمُ ذلك الوَقتَ ويَعرِفُ تحَقُّقَه. وقيل: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ في محَلِّ نَصبٍ سَدَّت مَسَدَّ مَفعولَيْ ﴿يَعْلَمُ﴾ المُعلَّقةِ عن العَمَلِ؛ لوُجودِ اللَّامِ في خَبَرِ «إنَّ»، ولذا كُسِرَت هَمزتُها. وهي استئنافٌ تعليليٌّ لا محَلَّ لها مِنَ الإعرابِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالخَيلِ المُسرِعةِ حتَّى يُسمَعَ تَرَدُّدُ أنفاسِها مِن أجوافِها، الَّتي تُوقِدُ شَرَرَ النَّارِ بحوافِرِها حينَ تصطَكُّ بالحِجارةِ أثناءَ عَدْوِها، والَّتي تُغيرُ على العَدُوِّ وَقتَ الصَّباحِ، فتُهَيِّجُ الغُبارَ في مَوضِعِ الإغارةِ، فتَصيرُ في ذلك الموضِعِ وَسْطَ جَمْعِ الأعداءِ؛ أقسَمَ اللهُ بهذا على أنَّ الإنسانَ كَفورٌ لنِعَمِ رَبِّه عليه، وأنَّ الإنسانَ شاهِدٌ على نَفْسِه بذلك، وأنَّه شَديدُ المحبَّةِ للمالِ، حريصٌ عليه.

ثمَّ قال الله تعالى مُزَهِّدًا في الدُّنيا، ومُرَغِّبًا في الآخرةِ، ومُنَبِّهًا على ما يَستَقْبِلُه الإنسانُ مِن الأهوالِ: أفلا يَعلَمُ هذا الإنسانُ مآلَه إذا أخرَجَ اللهُ ما في القُبورِ

(١) يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٥٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٦)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٣٠٠)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٨١ - ٩٢)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٤٢ - ٤٤٦)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٩٠).

مِنَ الأمواتِ، وأظهَرَ ما في قُلوبِ العِبادِ؟! إنَّ رَبَّهم خَبيرٌ بهم يومَ القيامةِ، وسيُجازيهم بما يَستَحِقُّونَ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالخَيلِ المُسرِعةِ الَّتي تَعْدو بقُوَّةٍ حتَّى يُسمَعَ تَرَدُّدُ أنفاسِها مِن أجوافِها[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧٠، ٥٧٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٣)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٧٥-٧٨)، ((الفروسية)) لابن القيم (ص: ١٣٠، ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩١، ٢٩٢).

قال ابنُ الجَوزيِّ: (قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ﴾ فيه قَولانِ:

أحدُهما: أنَّها الإبلُ في الحجِّ...

والثَّاني: أنَّها الخَيلُ في سبيلِ الله). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٠).

ممَّن اخْتارَ أنَّ المُرادَ بها: الخَيلُ: ابنُ جَرير، والزَّجَّاجُ، والسَّمْعانيُّ، والزَّمَخْشَريُّ، والرَّازيُّ وعَزاه إلى أكثَرَ المُحَقِّقينَ، والقُرْطُبيُّ وعَزاه إلى عامَّةِ المُفَسِّرينَ وأهْلِ اللُّغةِ، والنَّسَفيُّ، والخازِنُ، وابنُ كثير، والعُلَيْميُّ، والشربينيُّ، والشوكانيُّ وعَزاه للجُمهورِ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧٤)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٧٠)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٣)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٨)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩١).

ممن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ، والحسَنُ، وعَطاءٌ، ومجاهِدٌ، وأبو العاليةِ، وعِكْرِمةُ، والضَّحاكُ، وقَتادةُ، وعطيَّةُ، والرَّبيعُ، والكلبيُّ. يُنظر((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٠).

وممَّن قال: إنَّ المُرادَ بها الإبلُ: عليٌّ، وابنُ مَسْعودٍ، وإبراهيمُ، وعُبَيْدُ بنُ عُمَيْرٍ، ومحمَّدُ بنُ =

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر عَدْوَها، أتْبَعَه ما يَنشَأُ عنه، فقال عاطفًا بأداةِ التَّعقيبِ؛ لأنَّ العَدْوَ بحيثُ يتسبَّبُ عنه، ويتعَقَّبُه الإيراءُ[١]:

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢﴾.

أي: الَّتي تُوقِدُ شَرَرَ النَّارِ بحَوافِرِها حينَ تصطَكُّ بالحِجارةِ أثناءَ عَدْوِها[٢].

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ العَدْوَ وما يتأثَّرُ عنه؛ ذكَرَ نتيجتَه وغايتَه، فقال[٣]:

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣﴾.

أي: الَّتي تُغِيرُ على العَدُوِّ وقْتَ الصَّباحِ[٤].

---

= كَعْبٍ القُرَظيُّ، والسُّدِّيُّ، وأبو صالِحٍ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٣٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٢).

(٢) يُنظر: ((الفروسية)) لابن القيم (ص: ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٢).

قال السعدي: (أي: تَقدَحُ النَّارَ مِن صَلابةِ حوافِرِهنَّ وقُوَّتِهنَّ إذا عَدَوْنَ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٧٨، ٥٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٢).

قال القُرْطُبيُّ: (كانوا إذا أرادوا الغارةَ سَرَوْا ليلًا، ويَأتونَ العَدُوَّ صُبْحًا؛ لأنَّ ذلك وقْتُ غَفْلةِ النَّاسِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٥٨).

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾﴾.

أي: فتُهَيِّجُ الغُبارَ في مَوضِعِ الإغارةِ[١].

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾﴾.

أي: فتَصيرُ في ذلك الموضِعِ وَسْطَ جَمْعِ الأعداءِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٥، ٤٦٦).

قَولُه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي: بمَكانِ عَدْوِها، وهو وإن لم يَتقدَّمْ له ذِكْرٌ لكنْ في الكَلامِ دَليلٌ عليه. وقيلَ: الضَّميرُ يَرجِعُ للوَقْتِ، وهو الصُّبحُ، وهو وَقْتُ الإغارةِ. وقيلَ: للعَدْوِ الَّذي دَلَّ عليه ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ﴾، وتكونُ الباءُ سببيَّةً. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٤٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠١).

وممَّن اختارَ القَولَ الأوَّلَ -أنَّ الضَّميرَ يَعودُ على اسْمِ مَكانِ العَدْوِ-: ابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، ومَكِّيٌّ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والخازِنُ، والعُلَيْميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٠)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥٣)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٠٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤١٩).

وممَّن اختارَ القَولَ الثاني -أنَّ المُرادَ بقَوْلِه: ﴿بِهِۦ﴾: وقْتُ الصُّبحِ-: الزَّمَخْشَريُّ، وابنُ عَطِيَّةَ، والبَيْضاويُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧١).

وممَّن قال بالقَولِ الثَّالِثِ في الجُملةِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ -وقال: بجَرْيِهنَّ يَعْني بحَوافِرِهنَّ-، والكِسائيُّ وعَزاه إليه الرَّازيُّ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ، وزادا معَ العَدْوِ: الإغارةَ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٠٢)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠١).

قال البِقاعي: (فدخلَتْ في وسَطِ ذلك الجَمعِ؛ لشَجاعتِها؛ وقوَّتِها، وطَواعيتِها، وشجاعةِ =

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا ذَكَر المُقسَمَ به؛ ذكَرَ المُقسَمَ عليه، وهو أمورٌ ثلاثةٌ[١]، فقال:

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ٦﴾.

أي: إنَّ الإنسانَ لَكَفورٌ لنِعَمِ رَبِّه عليه، بَخيلٌ بإعطاءِ المالِ الَّذي لدَيه[٢].

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ ٧﴾.

أي: وإنَّ الإنسانَ لَشاهِدٌ على نَفْسِه بحالِه وأعمالِه وأقوالِه بأنَّه كَفورٌ لنِعَمِ رَبِّه عليه[٣].

---

= فُرْسانِها). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٤)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٢، ٥٠٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٣).

قال القُرْطُبيُّ: (هذا جَوابُ القَسَمِ، أي: طُبِعَ الإنسانُ على كُفْرانِ النِّعْمةِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

قال ابنُ عطيَّةَ: (قَولُه تَعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾ يَحتَمِلُ الضَّميرُ أن يَعودَ على اللهِ تَعالى، وقالَه قَتادةُ، أي: ورَبُّه شاهِدٌ عليه، ونفسُ هذا الخَبَرِ يَقْتضي الشَّهادةَ بذلك، ويَحتمِلُ أن يَعودَ على الإنسانِ، أي: أفعالُه وأقوالُه وحالُه المعلومةُ مِن هذه الأخلاقِ تشهَدُ عليه، فهو شاهِدٌ على نفسِه بذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٤).

ومِمَّن ذهَبَ إلى أنَّ الضَّميرَ يَعودُ على اللهِ تَعالى: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جَريرٍ، وحَكاه الثَّعْلَبيُّ والبَغَويُّ والقُرْطُبيُّ عن أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٥)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٦)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((تفسير الثعلبي)) =

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا كان مِن العجائِبِ أن يَكفُرَ أحَدٌ إحسانَ المنعِمِ، وهو شاهِدٌ على نَفْسِه؛ ذكَرَ الحامِلَ له على ذلك حتَّى هان عليه، فقال[1]:

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ ٨﴾.

أي: وإنَّ الإنسانَ لَشَديدُ المحبَّةِ للمالِ؛ فهو حريصٌ عليه، بَخيلٌ به[2].

---

= (١٠/ ٢٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٢).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، ومُجاهِدٌ، وقَتادةُ، وسُفْيانُ الثَّوْريُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٥٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨١، ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٦٠٤).

وممَّن اخْتارَ عَوْدَ الضَّميرِ على الإنسانِ: ابنُ جُزَي، والبِقاعيُّ، والسعديُّ، والشنقيطيُّ. ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٦)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣)، ((العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير)) (٢/ ٢٧٥) و (٥/ ٣٢٧).

وممَّن قال بهذا القَولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، ومحمَّدُ بنُ كَعبٍ القُرَظيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (٨/ ٦٠٤).

قال ابنُ عثيمين: (الصَّوابُ أنَّ الآيةَ شامِلةٌ لهذا وهذا؛ فاللهُ شَهيدٌ على ما في قَلبِ ابنِ آدَمَ، وشهيدٌ على عمَلِه، والإنسانُ أيضًا شهيدٌ على نَفْسِه، لكِنْ قد يُقِرُّ بهذه الشَّهادةِ في الدُّنيا، وقد لا يُقِرُّ بها فيَشهَدَ على نَفْسِه يومَ القيامةِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٣).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٨٨، ٥٨٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٣). =

كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال سُبحانَه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠].

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا عَدَّ على الإنسانِ قبائِحَ أفعالِه؛ خَوَّفَه[١].

وأيضًا لَمَّا كان المالُ فانيًا لا يَنبغي لعاقِلٍ أن يُعَلِّقَ أمَلَه به، فضلًا عن أن يُؤْثِرَه على الباقي؛ نبَّهَه على ذلك بتهديدٍ بليغٍ، فقال[٢]:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩﴾.

أي: أفلا يَعلَمُ هذا الإنسانُ -الجَحودُ لنِعَمِ رَبِّه، المحِبُّ للمالِ- مآلَه إذا أخرَجَ اللهُ ما في القُبورِ مِنَ الأمواتِ[٣]؟

---

= قال القرطبي: (قَولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: الإنسانَ، مِن غَيرِ خلافٍ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٢).

وقال ابنُ القيِّم: (الخيرُ هنا المالُ باتِّفاقِ المفَسِّرينَ، والشَّديدُ: البَخيلُ مِن أجْلِ حُبِّ المالِ؛ فحُبُّ المالِ هو الَّذي حمَلَه على البُخلِ. هذا قولُ الأكثَرينَ). ((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: ٨١).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٥)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٤). =

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار: ٤].

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾.

أي: ومَيَّز اللهُ وأظهَرَ ما في قُلوبِ العِبادِ مِنَ الإيمانِ والكُفرِ، والخَيرِ والشَّرِّ[1].

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾.

أي: إنَّ رَبَّ النَّاسِ خَبيرٌ بهم يومَ القيامةِ؛ فهو مُطَّلِعٌ على بواطِنِهم، ولا يَخفى عليه شَيءٌ مِن أمرِهم، وسيُجازيهم بما يَستَحِقُّونَ[2].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۞ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۞ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۞ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۞ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أقسَمَ تعالى بفَرَسِ الغازي؛ لِما فيه مِن مَنافِعِ الدُّنيا والدِّينِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ الإنسانَ يجِبُ عليه أن يُمسِكَه لا للزِّينةِ والتَّفاخُرِ، بل

---

= قال ابنُ عطيَّة: (قَولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ توقيفٌ على المآلِ والمصيرِ، أي: أفلا يعلَمُ مآلَه فيَستَعِدَّ له؟!). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٥).

وقال ابنُ عثيمين: (قال: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ فيَعمَلَ لذلك، ولا يكونَ هَمُّه المالَ؟!). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٥)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٧).

لهذه المنفعةِ[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ فيه تفضيلُ الجِهادِ والمجاهِدينَ، على أنَّ معنَى العادياتِ خيلُهم[٢].

٣- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ في طبعِ الإنسانِ الكُنودُ لربِّه، أي: كُفرانُ نعمتِه، فالإنسانُ لا يخلو مِن أحوالٍ مآلُها إلى كُفرانِ النِّعمةِ؛ بالقولِ والقصدِ، أو بالفعلِ والغفلةِ؛ فالإشراكُ كُنودٌ، والعصيانُ كُنودٌ، وقلَّةُ مُلاحَظةِ صَرفِ النِّعمةِ فيما أُعطِيتْ مِن أجْلِه كُنودٌ، وهو مُتفاوِتٌ، فهذا خُلقٌ مُتأصِّلٌ في الإنسانِ؛ فلذلك أيقَظَ اللهُ له النَّاسَ لِيَريضوا أنفُسَهم على إماتةِ هذا الخُلقِ مِن نُفوسِهم، كما في قولِه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولِه: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]، وقولِه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[٣] [العلق: ٦-٧].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ فيه مَذَمَّةُ حُبِّ المالِ، وهو جِبِلَّةٌ في الإنسانِ إلَّا مَن هَذَّبه الإسلامُ، إلَّا أنَّ الذَّمَّ ينصَبُّ على شِدَّةِ الحُبِّ الَّتي تحمِلُ صاحِبَها على إضاعةِ الحُقوقِ، أو تعَدِّي الحُدودِ[٤].

٥- قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾، والخَيرُ: المالُ، ففيه الحَثُّ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٥٩).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٩٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٢، ٥٠٣).

(٤) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٦٧).

على الزُّهدِ[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ أنَّه يجِبُ على العبدِ أنْ يُصَحِّحَ ما في قَلبِه؛ لأنَّ المدارَ عليه[٢].

٧- أنَّ مَن ظَنَّ أنَّ إعدادَ القبرِ وبناءَه وتعظيمَه وتحسينَه ينفعُه، فقد تمنَّى على اللهِ الأمانيَّ الكاذبةَ، وإنَّما يكونُ في قبْرِه بحسَبِ ما في قلْبِه، وكُلَّما كان الإيمانُ في قلْبِه أعظَمَ كان في قبْرِه أَسَرَّ وأَنْعَمَ؛ قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾، فقد جَمَعَ سُبحانَه هنا بيْن ما في القُبورِ وما في الصُّدورِ[٣].

## الفَوائدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا﴾ أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أَقْسَمَ بالخَيلِ في كتابِه، وذلك يدُلُّ على شَرَفِها وفَضْلِها عِندَه[٤]. عن عُروةَ البارقي رضي الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ((الخيلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يومِ القيامةِ: الأجرُ والمغنمُ))[٥].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ فيه سُؤالٌ: هذا يدُلُّ على أنَّ الإنسانَ شاهِدٌ على كُنودِ نَفْسِه، أي: مُبالَغتِه في الكُفرِ، وقد جاءت آياتٌ أُخَرُ تدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٤]، وقَولِه تبارك وتعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٩٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة الشورى)) (ص: ٢١٧).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٤/ ٢٢٠).

(٤) يُنظر: ((الفروسية)) لابن القيم (ص: ١٣٠).

(٥) رواه البخاري (٣١١٩)، ومسلم (١٨٧٣) واللفظ له.

[الزخرف: ٣٧]، وقَولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ:** أنَّ شَهادةَ الإنسانِ بأنَّه كَنودٌ هي شَهادةُ حالِه بظُهورِ كُنودِه، والحالُ رُبَّما تَكفي عن المقالِ.

**الوَجهُ الثَّاني:** أنَّ شَهادتَه على نَفْسِه بذلك يومَ القيامةِ، كما يدُلُّ له قَولُه تعالى: ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وقَولُه تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وقَولُه تعالى: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١].

**الوَجهُ الثَّالِثُ:** أنَّ الضَّميرَ في قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ راجِعٌ إلى رَبِّ الإنسانِ المذكورِ في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، وعليه فلا إشكالَ في الآيةِ، ولكِنْ رجوعُه إلى الإنسانِ أظهَرُ؛ بدليلِ قَولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[1] [العاديات: ٨].

٣- قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقَولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] هذا شَأْنُ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وأمَّا خروجُه عن هذه الصِّفاتِ فهو بفَضْلِ ربِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه؛ فليس له مِن ذاتِه إلَّا

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٣).

هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نعمةٍ فمِن اللهِ وَحْدَه[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾، فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾، ولم يقلْ: (بُعْثِرَ مَن في القُبورِ)؟ ثم إنَّه لَمَّا قال: ﴿مَا فِي الْقُبُورِ﴾، فلِمَ قال: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾، ولم يقلْ: (إنَّ رَبَّها بها يَومَئذٍ لَخَبيرٌ)؟

**الجوابُ**: هو أنَّ ما في الأرضِ مِن غيرِ المُكلَّفينَ أكثرُ، فأُخرِجَ الكلامُ على الأَغلَبِ، أو يُقالُ: إنَّهم حالَ ما يُبعَثُون لا يَكونُون أَحياءً عُقلاءَ، بل بعدَ البَعثِ يَصيرون كذلك، فلا جَرَمَ كان الضميرُ الأوَّلُ ضميرَ غيرِ العُقلاءِ، والضَّميرُ الثَّاني ضميرَ العُقلاءِ[٢].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ جمَعَ سُبحانَه بيْن القُبورِ والصُّدورِ، كما جمَعَ بيْنَهما النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قَولِه: ((مَلأَ اللهُ أجوافَهم وقُبورَهم نارًا))[٣]؛ فإنَّ الإنسانَ يُواري صدْرُه ما فيه مِن الخَيرِ والشَّرِّ، ويواري قَبْرُه جِسْمَه؛ فيُخْرِجُ الرَّبُّ جِسْمَه مِن قبْرِه، وسِرَّه مِن صدْرِه، فيَصيرُ جسْمُه بارزًا على الأرضِ، وسِرُّه باديًا على وجْهِه، كما قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ [الرحمن: ٤١]، وقال: ﴿سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾ [القلم: ١٦][٤]. فالتَّناسُبُ بيْن الآيتَينِ ظاهِرٌ؛ فبَعْثَرةُ ما في القُبورِ إخراجٌ للأجسادِ مِن بَواطنِ الأرضِ، وتَحصِيلُ ما في الصُّدورِ إخراجٌ لِما في الصُّدورِ، ممَّا تُكِنُّه

---

(١) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٦٢٨) مِن حديثِ عبدِالله بنِ مَسعودٍ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٣).

الصُّدورُ[١].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ يدُلُّ على أنَّ النِّيَّاتِ يُحاسَبُ بها، كما يُحاسَبُ على ما يَظهَرُ مِن آثارِها[٢].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ فيه سؤالٌ: الضَّميرُ في قَولِه: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ﴾ عائدٌ إلى الإنسانِ، وهو واحِدٌ؟

**الجوابُ**: الإنسانُ في معنى الجَمعِ، كقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، ثمَّ قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [العصر: ٣]، ولولا أنَّه للجَمعِ وإلَّا لَمَا صَحَّ ذلك[٣].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ قَيَّدَ سُبحانَه كَونَه خبيرًا بهم ذلك اليومَ، وهو خَبيرٌ بهم في كلِّ وقتٍ؛ إيذانًا بالجزاءِ، وأنَّه يُجازيهم في ذلك اليومِ بما يَعلَمُه منهم؛ فذُكِرَ العِلمُ، والمرادُ لازِمُه[٤]. فالمرادُ بذلك الجزاءُ بالأعمالِ الناشئُ عن علمِ الله واطِّلاعِه[٥].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ يدُلُّ على كَونِه تعالى عالِمًا بالجُزئيَّاتِ الزَّمانيَّاتِ؛ لأنَّه تعالى نَصَّ على كَونِه عالِمًا بكيفيَّةِ أحوالِهم في ذلك اليومِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٤).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢١٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٤).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۞ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۞ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۞ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۞ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾

- قولُه: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ القَدْحُ: حَكُّ جِسمٍ على آخَرَ ليَقدَحَ نارًا، وذلك كِنايةٌ عن الإمعانِ في العَدْوِ، وشِدَّةِ السُّرعةِ في السَّيرِ[١].

- وفي قولِه: ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ أسْنَدَ الإغارةَ -الَّتي هيَ مُباغَتةُ العدُوِّ للنَّهبِ، أو للقتْلِ، أو للأسْرِ- إليَها، وهيَ حالُ أهْلِها؛ إيذانًا بأنَّها العُمدةُ في إغارتِهم، أو لأنَّ الخيلَ أو إبلَ الغزْوِ أسبابٌ للإغارةِ ووَسائلُ[٢].

- و﴿صُبْحًا﴾ ظَرفُ زَمانٍ، فإذا فُسِّرَ (المُغيرات) بخَيلِ الغُزاةِ، فتَقييدُ ذلك بوَقتِ الصُّبحِ؛ لأنَّهم كانوا إذا غَزَوا لا يُغيرون على القومِ إلَّا بعْدَ الفَجرِ؛ ولذلك كان مُنذِرُ الحيِّ إذا أنْذَرَ قَومَه بمَجيءِ العدُوِّ، نادى: يا صَباحاهُ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ تَخصيصُ إثارةِ الغُبارِ بالصُّبحِ -وذلك على قولٍ-؛ لأنَّه لا يَثورُ أو لا يَظهَرُ ثَوَرانُه باللَّيلِ، وبهذا ظَهَرَ أنَّ الإيراءَ الَّذي لا يَظهَرُ في النَّهارِ المَذكورَ في قولِه: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ واقعٌ في اللَّيلِ، ولله درُّ شَأنِ التَّنزيلِ[٤]!

- ومِن بَديعِ النَّظمِ وإعجازِه: إيثارُ كَلِماتِ (العادياتِ وضَبْحًا، والمُورياتِ وقَدْحًا، والمُغيراتِ وصُبْحًا، ووسَطْنَ وجَمْعًا) دونَ غيرِها؛ لأنَّها بِرَشاقَتِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٤٢).

تَتحمَّلُ أنْ يكونَ المُقسَمُ به خَيلَ الغزْوِ ورَواحِلَ الحجِّ[١].

- قولُه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ عُطِفَت هذه الأوصافُ الثَّلاثةُ الأُولى بالفاءِ؛ لأنَّ أُسلوبَ العرَبِ في عطْفِ الصِّفاتِ وعطْفِ الأمكنةِ أنْ يكونَ بالفاءِ، وهي للتَّعقيبِ، والأكثَرُ أنْ تكونَ لتَعقيبِ الحُصولِ كما في هذه الآيةِ. والفاءُ العاطفةُ لقولِه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ عاطفةٌ على وَصْفِ المُغيراتِ، والمعطوفُ بها مِن آثارِ وَصْفِ المُغيراتِ، وليستْ عاطفةً على صِفةٍ مُستقِلَّةٍ مِثلَ الصِّفاتِ الثَّلاثِ الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ إثارةَ النَّقْعِ وتَوسُّطَ الجمْعِ مِن آثارِ الإغارةِ صُبْحًا، ولَيْسا مُقسَمًا بهما أصالةً، وإنَّما القسَمُ بالأوصافِ الثَّلاثةِ الأُولى؛ فلذلك غُيِّرَ الأُسلوبُ في قولِه: ﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾؛ فجِيءَ بهما فِعلَينِ ماضيَينِ، ولم يَأتِيَا على نسَقِ الأوصافِ قبْلَهما بصِيغةِ اسمِ الفاعلِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ الكلامَ انتَقَلَ مِن القسَمِ إلى الحِكايةِ عن حُصولِ ما تَرتَّبَ على تلك الأوصافِ الثَّلاثةِ ما قُصِدَ منها مِن الظَّفَرِ بالمَطلوبِ الَّذي مِن أجْلِه كان العدْوُ والإيراءُ والإغارةُ عَقِبَه، وهي الحُلولُ بدارِ القَومِ الَّذين غَزَوْهم إذا كان المُرادُ بالعادياتِ الخيلَ، أو بُلوغُ تَمامِ الحجِّ بالدَّفْعِ عن عَرَفةَ إذا كان المرادُ بالعادياتِ رَواحلَ الحَجيجِ؛ فإنَّ إثارةَ النَّقعِ يَشعُرون بها عندَ الوصولِ حينَ تَقِفُ الخيلُ والإبلُ دَفْعةً، فتُثيرُ أرْجُلُها نقْعًا شَديدًا فيما بيْنَهما، وحينَئذٍ تَتوسَّطْنَ الجمْعَ مِن النَّاسِ[٢].

- وأيضًا الفاءاتُ في قولِه: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا * فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا * فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا * فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا * فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ للدَّلالةِ على تَرتُّبِ ما بعْدَ كُلٍّ مِنها على ما

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠١، ٥٠٢).

قبْلَها؛ فإنَّ تَوسُّطَ الجمْعِ مُترتِّبٌ على الإثارةِ المُترَتِّبةِ على الإيراءِ المُترتِّبِ على العَدْوِ[١].

- وفي المُخالَفةِ بيْن المَعطوفِ والمعطوفِ عليه في هذه الآياتِ سِرٌّ بَديعٌ، وهو تَصويرُ هذه الأفعالِ في النَّفْسِ، وتَجسيدُها أمامَ العينِ؛ فإنَّ التَّصويرَ يَحصُلُ بإيرادِ الفعلِ بعْدَ الاسمِ؛ لِما بيْنَهما مِن التَّخالُفِ، وهو أبلَغُ مِن التَّصويرِ والتَّجسيدِ بالأسماءِ المُتناسِقةِ، وكذلك التَّصويرُ بالمُضارعِ بعْدَ الماضي، وإنَّما وُصِفَت بالأوصافِ الثَّلاثِ؛ ليُرتَّبَ عليها ما قُصِدَ مِن الظَّفَرِ بالفتْحِ وغَلَبةِ العدُوِّ، فأوقَعَ الفِعلَينِ الماضيَينِ مُسبَّبَينِ عن أسماءِ الفاعِلينَ، فأفاد أنَّ تلك المُداوَمةَ إنَّما حقَّقَت هاتَينِ البُغْيَتَينِ[٢].

- ومُناسَبةُ القَسَمِ بهذه المَوصوفاتِ دونَ غيرِها -إنْ أُريدَ بالعادياتِ وما عُطِفَ عليها خَيلُ الغُزاةِ-، هو التَّهويلُ والتَّرويعُ؛ لإشعارِ المشركين بأنَّ غارةً تَترَقَّبُهم، وهي غَزوةُ بدْرٍ، وإنْ أُريدَ رَواحلُ الحَجيجِ فالقَسَمُ بها مِن أجْلِ أنْ يُصدِّقَ المشركون بوُقوعِ المقسَمِ عليه؛ لأنَّ القَسَمَ بشَعائرِ الحجِّ لا يكونُ إلَّا بارًّا، حيث هم لا يُصدِّقون بأنَّ القرآنَ كَلامُ اللهِ، ويَزعُمونه قولَ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

٢- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ﴾

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٠، ١٩١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٧٨٦)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٥٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٢).

قال ابنُ عاشور: (وعلى وجهِ أنَّ المُقسَمَ به رَواحلُ الحجِّ، فالقَسَمُ بها لتَعظيمِها بما تُعينُ به على مَناسكِ الحجِّ، واختيرَ القَسَمُ بها؛ لأنَّ السَّامعينَ يُوقِنونَ أنَّ ما يُقسَمُ عليه بها مُحقَّقٌ؛ فهي مُعظَّمةٌ عندَ الجَميعِ مِن المشركين والمسلِمينَ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٤٩٩).

- الألِفُ واللَّامُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للجنسِ، وهو يُفيدُ الاستغراقَ غالبًا، أي: إنَّ في طَبْعِ الإنسانِ الكُنودَ لرَبِّه، أي: كُفرانَ نِعمتِه[١].

- وتَقديمُ ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ لإفادةِ الاهتمامِ بمُتعلَّقِ هذا الكُنودِ؛ لتَشنيعِ هذا الكُنودِ بأنَّه كُنودٌ للرَّبِّ الَّذي هو الأحقُّ بالشُّكرِ، وأعظَمُ ذلك شِركُ المشرِكينَ، ولذلك أُكِّدَ الكلامُ بلامِ الابتداءِ الدَّاخلةِ على خبَرِ (إنَّ)؛ للتَّعجيبِ مِن هذا الخبَرِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، شَهيدٌ، أي: مُقِرٌّ، والمعْنى: أنَّ الإنسانَ مُقِرٌّ بكُنودِه لرَبِّه مِن حيث لا يَقصِدُ الإقرارَ، والمَقصودُ مِن هذه الجُملةِ تَفظيعُ كُنودِ الإنسانِ بأنَّه مَعلومٌ لصاحبِه بأدْنى تَأمُّلٍ في أقوالِه وأفعالِه. ويَجوزُ أنْ يكونَ شَهيدٌ بمعْنى عَليم، ومُتعلَّقُ (شَهيدٌ) مَحذوفًا دلَّ عليه المَقامُ، أي: عَليمٌ بأنَّ اللهَ ربُّه، أي: بدَلائلِ الرُّبوبيَّةِ، ويكونَ قولُه: ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ بمعْنى: مع ذلك، أي: مع ذلك الكُنودِ هو عَليمٌ بأنَّه ربُّه مُستحِقٌّ للشُّكرِ والطَّاعةِ لا للكُنودِ، والجارُّ والمَجرورُ في مَوضعِ الحالِ، وذلك زِيادةٌ في التَّعجيبِ مِن كُنودِ الإنسانِ[٣].

- وقيل: ضَميرُ ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عائدٌ إلى (رَبِّه)، أي: وإنَّ اللهَ على ذلك لَشَهيدٌ، والمَقصودُ أنَّ اللهَ يَعلَمُ ذلك في نفْسِ الإنسانِ، وهذا تَعريضٌ بالتَّحذيرِ مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٢، ٥٠٣).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠٤، ٥٠٥).

الحِسابِ عليه[١].

- وتَقديمُ ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ على (شَهِيدٌ)؛ للاهتمامِ والتَّعجيبِ، ومُراعاةِ الفاصلةِ[٢].

- قولُه: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٌ﴾ نظْمُ الآيةِ أنْ يُقالَ: وإنَّه لشَديدُ الحُبِّ للخَيرِ، فلمَّا تقدَّمَ الحُبُّ قال: ﴿لَشَدِيدٌ﴾، وحُذِفَ مِن آخِرِه ذِكرُ الحُبِّ؛ لأنَّه قد جَرى ذِكرُه، ولِرؤوسِ الآيِ[٣].

- وتَقديمُ ﴿لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ﴾ على مُتعلَّقِه؛ للاهتمامِ بغَرابةِ هذا المُتعلَّقِ، ولمُراعاةِ الفاصلةِ[٤].

٤- قولُه تعالَى: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ فُرِّعَ على الإخبارِ بكُنودِ الإنْسانِ وشُحِّه استفهامٌ إنكاريٌّ عن عدَمِ عِلمِ الإنسانِ بوَقتِ بَعثرةِ ما في القبورِ، وتَحصيلِ ما في الصُّدورِ، فإنَّه أمرٌ عَجيبٌ كيف يَغفُلُ عنه الإنسانُ[٥]؟!

- وقولُه: ﴿أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ...﴾ تَهديدٌ ووَعيدٌ، والهمزةُ في ﴿أَفَلَا﴾ للإنكارِ، والفاءُ للعطْفِ على مُقدَّرٍ يَقتضيه المقامُ، أي: أيَفعَلُ ما يَفعَلُ مِن المَقابحِ، فلا يَعلَمُ، أو ألَا يُلاحِظُ فلا يَعلَمُ حالَهُ إذا بُعِثَ مَن في القُبورِ مِن المَوتى[٦]؟!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٥).

(٣) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٥، ٢٨٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٥).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٨).

- ومَفْعولا ﴿يَعْلَمُ﴾ مَحذوفانِ اقتِصارًا، ولا دَليلَ في اللَّفظِ على تَعيينِ تَقديرِهما، فيُوكَلُ إلى السَّامعِ تَقديرُ ما يَقْتضيهِ المَقامُ مِن الوعيدِ والتَّهويلِ، ولِيَذهَبَ السَّامعُ في تَقديرِه كلَّ مَذهبٍ مُمكِنٍ قصْدًا للتَّهويلِ(١).

- وخُصَّ أعمالُ الصُّدورِ والقُلوبِ بالذِّكرِ؛ لأنَّها الأصلُ، وتُرِكَ ذِكرُ أعمالِ الجَوارحِ؛ لأنَّها تابعةٌ لأعمالِ القلوبِ؛ فإنَّه لولا تَحقُّقُ البَواعثِ والإراداتِ في القلوبِ لَما حَصَلَت أفعالُ الجَوارحِ؛ ولذلك جَعَلَها تعالَى الأصلَ في الذَّمِّ، فقال: ﴿ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، والأصْلَ في المدْحِ، فقال: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾(٢) [الأنفال: ٢].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ جُملةٌ مُستأنَفةٌ استئنافًا بَيانيًّا ناشئًا عن الإنكارِ، أي: كان شَأنُهم أنْ يَعلَموا اطِّلاعَ اللهِ عليهم إذا بُعثِرَ ما في القُبورِ، وأنْ يَذكُروه؛ لأنَّ وَراءَهم الحِسابَ المُدقَّقَ، وتُفيدُ هذه الجُملةُ مُفادَ التَّذييلِ(٣).

- وتَقديمُ ﴿بِهِمْ﴾ على عامِلِه -وهو ﴿لَّخَبِيرٌ﴾- للاهتمامِ به؛ ليَعلَموا أنَّهم المقصودُ بذلك(٤).

وأيضًا قولُه: ﴿بِهِمْ﴾ و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مُتعلِّقانِ بـ (خَبيرٌ)؛ قُدِّمَا عليه لمُراعاةِ الفواصلِ(٥).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٣، ٢٦٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٨، ٥٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٥٩).
والتذييلُ تقدَّم تعريفُه (ص: ١٢٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٢).

- وكَنَّى عنهم بعْدَ الإحياءِ الثَّاني بضَميرِ العُقلاءِ ﴿بِهِمْ﴾ بعْدَما عبَّرَ عنهم قبْلَ ذلك بـ ﴿مَا﴾؛ بِناءً على تَفاوُتِهم في الحالَينِ؛ إيذانًا بصَلاحيتِهم للخِطابِ بعدَ نفْخِ الرُّوحِ، وبعَدَمِها قبْلَه[1].

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣١، ٣٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩١، ١٩٢).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ القارِعَةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ القارِعَةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (القارِعَة)[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ القارِعَةِ مكِّيَّةٌ، ونقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

الحديثُ عن أهْوالِ يومِ القِيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

١- ذِكرُ أهوالِ يومِ القِيامةِ.

٢- إثباتُ الجَزاءِ على الأعمالِ، وبَيانُ أحوالِ السُّعَداءِ والأشْقياءِ.

---

(١) سُمِّيت السُّورةُ بذلك؛ لمفتتحِها: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٩).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ في ذلك: الماوَرْديُّ، وابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٣٩).

(٣) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٣٩)، ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٨٧).

## الآيات (١-١١)

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾: أي: القيامةُ الَّتي تَقرَعُ قُلوبَ العِبادِ بالمَخافةِ، وسُمِّيَت بذلك؛ لأنَّها تَقرَعُ النَّاسَ بالأهوالِ الشَّديدةِ، وأصلُ (قرع): يدُلُّ على ضَربِ الشَّيءِ[١].

﴿ٱلْمَبْثُوثِ﴾: أي: المنتَشِرِ المتفرِّقِ، وأصلُ (بثث): يدُلُّ على التَّفريقِ[٢].

﴿كَٱلْعِهْنِ﴾: أي: الصُّوفِ المصبوغِ، وأصلُ (عهن): يدُلُّ على لِينٍ وسُهولةٍ[٣].

﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾: أي: المفرَّقِ بَعضُ أجزائِه عن بَعضٍ. والنَّفْشُ: تَشعيثُ الشَّيءِ بأصابِعِك حتَّى يَنتَشِرَ، وأصلُ (نفش): يدُلُّ على انتِشارٍ[٤].

﴿هَاوِيَةٌ﴾: الهاوِيةُ: المكانُ المنخَفِضُ بيْنَ الجَبَلَينِ الَّذي إذا سَقَط فيه

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٨٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٧٢)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤١٢).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٧)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٠٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٤٨٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ١٧٥)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٥٩٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٦١)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٦٤)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٧/ ٤٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٢).

إنسانٌ أو دابَّةٌ هلَك، يُقالُ: سَقَط في الهاويةِ، وأُريدَ بها هنا جهنَّمُ، وقيل: هي اسمٌ لجهنَّمَ. وأصلُ (هوي): يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ[١].

﴿حَامِيَةٌ﴾: أي: شديدةُ الحرارةِ[٢].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُفَخِّمًا شأنَ القيامةِ، قائِلًا سُبحانَه: القيامةُ الَّتي تَقرَعُ النَّاسَ وتُزعِجُهم، أيُّ شَيءٍ تلك القِيامةُ؟! وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- بتلك القارعةِ العَظيمةِ؟! يومَ يَخرُجُ النَّاسُ مِن قُبورِهم كالفَراشِ المنتَشِرِ المتفَرِّقِ، وتكونُ الجِبالُ كالصُّوفِ المندوفِ الَّذي يَتطايرُ في الجَوِّ.

ثمَّ بيَّن سُبحانَه أحوالَ السُّعداءِ والأشقياءِ في هذا اليومِ، فقال: فأمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوازينُ حَسَناتِه فهو في حياةٍ طَيِّبةٍ في الجنَّةِ، وأمَّا مَن خَفَّت موازينُ حَسَناتِه، فمَأْواه ومَسكَنُه جهنَّمُ البَعيدُ قَعْرُها، يَهْوِي فيها على رأسِه، وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ تلك الهاويةُ؟! هي نارٌ شَديدةُ الحَرارةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾.

أي: السَّاعةُ الَّتي تَقرَعُ النَّاسَ وتُزعِجُهم، وذلك عندَ النَّفخِ في الصُّورِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٤).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٧٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٢٥٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٢١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٦).
قال السعدي: (﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مِن أسماءِ يومِ القيامةِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تَقرَعُ النَّاسَ وتُزعِجُهم بأهوالِها). ((تفسير السعدي)) (ص:٩٣٣).

﴿ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ ﴾.

أيْ: أيُّ شَيءٍ تلك القارِعةُ المَهُولةُ[١]؟!

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ ﴾.

أي: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- بتلك القارعةِ العَظيمةِ[٢]؟!

كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٣].

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان قولُه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ مُنبِئًا عن الوعدِ الكَريمِ بإعلامِها؛ أنْجَزَ ذلكَ بقولِه تعالَى[٣]:

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ ﴾.

أي: يومَ يَخرُجُ النَّاسُ مِن قُبورِهم كالفَراشِ المنتَشِرِ المتفرِّقِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٦).

قال ابن جرير: (يقولُ تعالى ذِكْرُه لنَبيِّه محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: وما أشْعَرَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ القارِعةُ؟). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٣).

وقال ابنُ عاشور: (الخِطابُ في ﴿أَدْرَىٰكَ﴾ لغيرِ مُعَيَّنٍ، أي: وما أدراك أيُّها السَّامِعُ؟). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٦). =

ولَمَّا كانت الجِبالُ أشَدَّ ما تكونُ؛ عظَّم الرَّهبةَ بالإخبارِ بما يُفعَلُ بها، فقال تعالى[١]:

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾.

أي: وتكونُ الجِبالُ يومَ القيامةِ كالصُّوفِ المندوفِ الَّذي تتفرَّقُ أجزاؤُه، وتتطايرُ في الجَوِّ[٢].

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ اللهَ تعالى لَمَّا وَصَف يومَ القيامةِ؛ قسَّمَ النَّاسَ فيه إلى قِسمَينِ[٣]، فقال تعالى:

---

= قال الشوكاني: (وانتصابُ الظَّرفِ بفعلٍ مَحْذوفٍ تَدُلُّ عليه القارعةُ، أي: تَقرَعُهم يومَ يكونُ النَّاسُ... إلخ. ويجوزُ أنْ يكونَ منصوبًا بتقديرِ: اذكُرْ. وقال ابنُ عطيَّةَ ومَكِّيٌّ وأبو البقاءِ: هو منصوبٌ بنفْسِ القارعةِ. وقيل: هو خبرُ مُبتدَأٍ محذوفٍ، وإنَّما نُصِب لإضافتِه إلى الفعلِ، فالفتحةُ فتحةُ بناءٍ لا فتحةُ إعرابٍ، أي: هي يومَ يكونُ... إلخ. وقيل: التَّقديرُ: سَتَأْتيكم القارعةُ يومَ يكونُ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٤). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٦)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٠٩)، ((مشكل إعراب القرآن)) لمكي (٢/ ٨٣٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) لأبي البقاء العكبري (٢/ ١٣٠١).

وقال الواحديُّ: (الفَراشُ: ما تراه يتهافَتُ في النَّارِ، شبَّه النَّاسَ في وقتِ البَعثِ بالفَراشِ؛ لأنَّهم إذا بُعِثوا ماجَ بعضُهم في بعضٍ، والفَراشُ إذا ثار لم يتَّجِهْ لجهةٍ واحدةٍ؛ فدلَّ على أنَّهم إذا بُعِثوا فَزِعوا، فاختلَفوا في المقاصِدِ على جهاتٍ مُختلِفةٍ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٤٦).

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

قال البِقاعي: (﴿كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: الصُّوفِ المصبوغِ؛ لأنَّها مُلوَّنةٌ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ [فاطر: ٢٧]). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٧).

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ ﴾.

أي: فأمَّا مَن ثَقُلَت موازينُ حَسَناتِه فرجَحَت على سيِّئاتِه[١].

﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ ﴾.

أي: فهو في حياةٍ طَيِّبةٍ في الجنَّةِ يَرضى عنها[٢].

كما قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨].

وقال سُبحانَه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۞ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَن يَدخُلُ الجنَّةَ يَنعَمُ لا يَبأَسُ، لا تَبلى ثِيابُه، ولا يَفنى شَبابُه!))[٣].

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ وأبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يُنادي مُنادٍ: إنَّ لكم أنْ تَصِحُّوا فلا تَسْقَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَحْيَوْا فلا تَموتوا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَشِبُّوا فلا تَهْرَموا أبدًا، وإنَّ لكم أن تَنْعَموا فلا تَبْأَسوا أبدًا))[٤].

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ ﴾.

أي: وأمَّا مَن خَفَّت مَوازينُ حَسَناتِه فرجَحَت سَيِّئاتُه على حَسَناتِه إن كانت

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٨).

(٣) رواه مسلم (٢٨٣٦).

(٤) رواه مسلم (٢٨٣٧).

له حَسَناتٌ[(١)].

﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾.

أي: فمَأْواه ومَسكَنُه في مَوضِعٍ بَعيدٍ قَعْرُه، يَهْوِي فيه على رأسِه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٣).

قال ابنُ عثيمين: (إمَّا أنَّه الكافِرُ الَّذي ليس له أيُّ حَسَنةٍ؛ لأنَّ حَسَناتِ الكافِرِ يُجازى بها في الدُّنيا، ولا تنفَعُه في الآخرةِ، أو أنَّه مُسلِمٌ، ولكِنَّه مُسرِفٌ على نَفْسِه، وسيِّئاتُه أكثَرُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٨).

ويُنظر ما يأتي في الفوائدِ (ص: ١٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٦٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٤، ٥١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٨).

قال ابنُ جُزَي: (﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُهما: أنَّ الهاويةَ جهنَّمُ؛ سُمِّيت بذلك لأنَّ النَّاسَ يَهْوُون فيها، أي: يَسْقُطون، و«أُمُّه» معناه: مَأْواه، كقَولِك: المدينةُ أمُّ فُلانٍ، أي: مَسْكَنُه، على التَّشْبيهِ بالأمِّ الوالِدةِ؛ لأنَّها مأوى الوَلَدِ ومَرجِعُه.

الثَّاني: أنَّ الأمَّ هي الوالِدةُ، و«هاويةٌ»: ساقِطةٌ، وذلك عبارةٌ عن هلاكِه، كقَولِك: أُمُّه ثَكْلى: إذا هلَك.

الثَّالِثُ: أنَّ المعنى: أمُّ رأسِه هاويةٌ في جهنَّمَ، أي: ساقِطةٌ فيها؛ لأنَّه يُطرَحُ فيها منكوسًا). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٠٧).

ممَّن اختار القَولَ الأوَّلَ -أنَّ أُمَّه بمعنى: مَأْواه ومَسْكَنُه-: الفَرَّاءُ، والزَّجَّاجُ، وابنُ أبي زَمَنِينَ، والواحِديُّ، والبَغَويُّ، والرَّسْعَنيُّ، والنَّسَفيُّ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٧)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٦)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٢٩٧)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧١٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

وممَّن قال به مِنَ السَّلفِ: ابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٤).

وممَّن اختار في الجُملةِ القَولَ الثَّانيَ -أي: أنَّ ذلك عبارةٌ عن هلاكِه-: الأخفَشُ، والمبَرِّدُ، =

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَةٞ ١٠ ﴾.

أي: قال اللهُ مُفَخِّمًا شَأنَها، ومُعَظِّمًا أمْرَها: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيَّ شَيءٍ تلك الهاويةُ[1]؟!

﴿ نَارٌ حَامِيَةُۢ ١١ ﴾.

أي: هي نارٌ قد بلغت الغايةَ في شِدَّةِ الحَرارةِ[2].

كما قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ العَبدَ لَيتكَلَّمُ بالكَلِمةِ ما يَتبيَّنُ ما فيها، يَهوي بها في النَّارِ أبْعَدَ ما بيْنَ المَشرِقِ

---

= وأبو عليٍّ الجُرْجانيُّ ونَسَبه إليهم الواحِديُّ، واختاره الزَّمخشريُّ. يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٢٦٧)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٠).

وقال ابنُ عُثَيمين: (﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴾... يعني: أنَّه مآلُه إلى نارِ جَهنَّمَ -والعياذُ باللهِ-. وقيل: إنَّ المرادَ بالأُمِّ هنا: أمُّ الدِّماغِ، والمعنى: أنَّه يُلْقى في النَّارِ على أمِّ رأسِه -نسألُ اللهَ السَّلامةَ-. وإذا كانت الآيةُ تحتَمِلُ مَعنَيَينِ لا يترجَّحُ أحَدُهما على الآخَرِ ولا يَتنافيانِ، فإنَّه يُؤخَذُ بالمعنيَينِ جميعًا، فيُقالُ: يُرمَى في النَّارِ على أمِّ رأسِه، وأيضًا ليس له مأوًى ولا مَقصدٌ إلَّا النَّارُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٨).

وقال ابنُ جريرٍ: (فمَأْواه ومَسْكَنُه الهاويةُ، الَّتي يَهوِي فيها على رأسِه في جهنَّمَ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٥).

والمَغرِبِ!))[١].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((نارُكم هذه الَّتي يُوقِدُ ابنُ آدَمَ: جُزءٌ مِن سَبعينَ جُزءًا مِن حَرِّ جَهنَّمَ. قالوا: واللهِ إنْ كانت لَكافيةً يا رَسولَ اللهِ! قال: فإنَّها فُضِّلَت عليها بتِسْعةٍ وسِتِّينَ جُزءًا، كُلُّها مِثلُ حَرِّها))[٢].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۞وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾، قُرِنَ بيْنَ النَّاسِ والجِبالِ؛ تَنبيهًا على تَأثيرِ تلك القارِعةِ في الجِبالِ حتَّى صارتْ كالعِهنِ المَنفوشِ! فكيف يكونُ حالُ الإنسانِ عندَ سَماعِها؟! فالوَيلُ ثمَّ الوَيلُ لابنِ آدَمَ إنْ لم تتدارَكْه رحمةُ رَبِّه[٣]!

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ فيه سُؤالٌ: إذا أخبَرْتَ عن شَيءٍ بشَيءٍ فلا بُدَّ أن تَستفيدَ منه عِلمًا زائدًا، وقَولُه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ يفيدُ كَونَه جاهِلًا به، فكيف يُعقَلُ أن يكونَ هذا خَبَرًا؟

**الجوابُ**: قد حصَلَ لنا بهذا الخبَرِ عِلمٌ زائدٌ؛ لأنَّا كُنَّا نظُنُّ أنَّها قارعةٌ كسائرِ القوارِعِ، فبهذا التَّجهيلِ عَلِمْنا أنَّها قارِعةٌ فاقت القوارِعَ في الهَولِ والشِّدَّةِ[٤].

٢- كلُّ موضعٍ في القُرآنِ: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ ﴾ فقد عُقِّب ببيانِه؛ نحوُ قولِه تعالى:

---

(١) رواه البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨) واللَّفظُ له.

(٢) رواه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣) واللَّفظُ له.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٦).

﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ * يَوۡمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلۡفَرَاشِ ٱلۡمَبۡثُوثِ ﴾، وقوله: ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾، وكلُّ موضع ذُكِر بلَفظِ: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ﴾ لم يُعقَّبْ ببَيانِه، نحوُ قولِه تعالى: ﴿وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾[1] [الشورى: ١٧].

٣- في قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ دليلٌ على أنَّ يومَ القيامةِ فيه موازينُ[2].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، فيه سؤال: كيف قال فيمَن خفَّتْ موازينُه: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، أي: فمَسْكنُه النَّارُ، مع أنَّ كثيرًا مِن المؤمنينَ سيِّئاتُهم راجحةٌ على حَسَناتِهم؟

---

(١) يُنظر: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (٢/ ٥٩٧).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٧١-٧٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٢٩٩).

قال الشنقيطي: (وظاهِرُ القُرآنِ تعَدُّدُ هذه الموازينِ؛ لأنَّه قال في سورةِ «الأنبياءِ»: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ...﴾ [الأنبياء: ٤٧]...، وقال في «القارعة»:... ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ * وَأَمَّا مَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، وقال في سورة «المؤمنون»: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ * فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ * وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ...﴾ [المؤمنون: ١٠١ - ١٠٣]؛ فهذه الآياتُ تعبِّرُ بالجَمعِ في الميزانِ، وظاهِرُها التَّعَدُّدُ. وذهبت جماعةٌ مِن العُلَماءِ إلى أنَّ الميزانَ واحِدٌ). ((العذب النمير)) (٣/ ٧٦).

وقال ابن عثيمين: (اختلَف العُلَماءُ في الميزانِ: هل هو واحِدٌ أو متعَدِّدٌ؛ على قولَين؛ وذلك لأنَّ النُّصوصَ جاءت بالنِّسبةِ للمِيزانِ مَرَّةً بالإفرادِ، ومرَّةً بالجَمعِ... والَّذي يظهَرُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ الميزانَ واحدٌ، لكِنَّه مُتعَدِّدٌ باعتبارِ المَوزونِ). ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (٢/ ٤٣).

وقال ابنُ حجر: (والَّذي يترجَّحُ: أنَّه ميزانٌ واحدٌ، ولا يُشكِلُ بكَثرةِ مَن يُوزَنُ عمَلُه؛ لأنَّ أحوالَ القيامةِ لا تُكَيَّفُ بأحوالِ الدُّنيا). ((فتح الباري)) (١٣/ ٥٣٨).

**الجوابُ مِن وجهَين:**

**الوجهُ الأوَّلُ:** قولُه ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ لا يدُلُّ على خُلودِه فيها، فيَسكُنُ المؤمنُ فيها بقدْرِ ما تَقتضيهِ ذُنوبُه، ثمَّ يَخرُجُ منها إلى الجنَّةِ.

**الوجهُ الثَّاني:** المُرادُ بخِفَّةِ الموازينِ خُلوُّها مِن الحَسَناتِ بالكُلِّيَّةِ، وتلك مَوازينُ الكفَّارِ[1].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ الكريمةُ تدُلُّ على أنَّ الهاويةَ وَصْفٌ لا علَمٌ للنَّارِ؛ إذ تَنوينُها يُنافي كونَها اسمًا مِن أسماءِ النَّارِ؛ لأنَّها على تَقديرِ كَونِها مِن أسماءِ النَّارِ يَلزَمُ فيها المَنعُ مِن الصَّرفِ للعَلَميَّةِ والتَّأنيثِ. وقولُه تعالى: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾، يدُلُّ على أنَّ الهاويةَ مِن أسماءِ النَّارِ؟

**الجوابُ:** أنَّ في معنى قولِه تعالى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ ثلاثةَ أَوْجُهٍ للعُلماءِ، اثنانِ منها لا إشكالَ في الآيةِ عليهما، والثَّالثُ: هو الَّذي فيه الإشكالُ المَذكورُ. أمَّا اللَّذانِ لا إشكالَ في الآيةِ عليهما:

**فالأوَّلُ:** أنَّ المعنى: ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾، أي: أُمُّ رَأسِه هاويةٌ في قَعرِ جهنَّمَ؛ لأنَّه يُطرَحُ فيها مَنكوسًا؛ رأسُه أسفَل ورِجلاهُ أعلى، ورُوِيَ هذا القولُ عن قَتادةَ وأبي صالحٍ وعِكْرِمةَ والكَلْبيِّ وغيرِهم، وعلى هذا القَولِ فالضَّميرُ في قولِه: ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾، عائدٌ إلى مَحذوفٍ، دَلَّ عليه المَقامُ، أي: أُمُّ رأسِه هاويةٌ في نارٍ، ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾.

**الوجهُ الثَّاني:** أنَّه مِن قَولِ العَربِ إذا دَعَوْا على الرَّجُلِ بالهَلَكةِ، قالوا: (هَوَتْ أُمُّه)؛ لأنَّه إذا هوَى -أي: سقطَ وهلَكَ- فقد هَوَتْ أُمُّه ثكلًا وحُزنًا، وعلى هذا

(١) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٤).

القَولِ فالضَّميرُ في قولِه: ﴿هِيَهْ﴾، للدَّاهِيةِ الَّتي دَلَّ عليها الكلامُ.

**الوجهُ الثَّالِثُ**: الَّذي فيه الإشكالُ: أنَّ المعنى: فأُمُّه هاوِيةٌ، أي مَأْواهُ الَّذي يُحيطُ به ويَضُمُّهُ هاوِيةٌ، وهي النَّارُ؛ لأنَّ الأُمَّ تُؤوِي وَلَدَها وتَضُمُّه، والنَّارُ تَضُمُّ هذا العاصِيَ، وتكونُ مَأواهُ. والجوابُ على هذا القَولِ: أنَّه نكَّرَ الهاوِيةَ في مَحلِّ التَّعريفِ مِن أجْلِ الإشعارِ بخُروجِهم عن المَعهودِ للتَّفخيمِ والتَّهويلِ، ثمَّ بعْدَ إبهامِها لهذهِ النُّكتةِ، قَرَّرها بوَصفِها الهائلِ بقَولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ * نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾. وهذا الجوابُ الَّذي يَدخُلُ في حَدِّ نَوعٍ مِن أنواعِ البَديعِ المعنويِّ، يُسمِّيهِ عُلماءُ البَلاغةِ: (التَّجريدَ)[1]، فالنَّارُ سُمِّيَت الهاوِيةَ لغايةِ عُمْقِها، وبُعْدِ مَهْواها، وخَصَّها البعضُ بالبابِ الأسفلِ مِن النَّارِ، فانتَزَعَ منها هاوِيةً أُخرى مِثلَها في شِدَّةِ العُمقِ وبُعْدِ المَهوَى مُبالغةً في عُمْقِها، وبُعْدِ مَهْواها[2].

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ﴾ هاءُ السَّكْتِ إشارةٌ إلى أنَّ ذِكْرَها ممَّا يَكرُبُ القَلبَ حتَّى لا يَقدِرَ على الاسترسالِ في الكلامِ، أو إلى أنَّها مما يَنبغي للسَّامِعِ أن يَقرَعَ بهذا الاستِفهامِ عنها سَمْعَه فيَسكُتَ لسَماعِ الجَوابِ وفَهْمِه غايةَ السُّكوتِ، ويُصغِيَ غايةَ الإصغاءِ[3].

---

(١) التَّجريد: هو اعتقادُ أنَّ في الشَّيءِ مِن نفْسِه معنًى آخَرَ كأنَّه مباينٌ له، فيخرجُ ذلك إلى ألفاظِه بما اعتقَد ذلك؛ كقولِهم: لئن لَقيتَ زَيدًا لَتلقيَنَّ معه الأسدَ؛ فظاهرُ هذا أنَّ فيه مِن نفْسِه أسدًا، وهو عَيْنُه هو الأسدُ، لا أنَّ هناك شيئًا منفصلًا. ويُطلقُ عندَ البعضِ على عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ كأنَّ الخاصَّ جُرِّد مِن العامِّ، وأُفرِد بالذِّكرِ؛ تفضيلًا. وله إطلاقاتٌ أخرى في البديعِ والمعاني. يُنظر: ((التبيان في البيان)) للطِّيبي (ص: ١٦٠ - ١٦٣)، ((البرهان في علوم القرآن)) للزركشي (٣/ ٤٤٨)، ((موجز البلاغة)) لابن عاشور (ص: ١٦٥، ١٦٦)، ((مفاتيح التفسير)) لأحمد سعد الخطيب (ص: ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب)) للشنقيطي (ص:٢٨٤-٢٨٦).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٤).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾

- الافتِتاحُ بلَفظِ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ افتِتاحٌ مُهوِّلٌ، وفيه تَشويقٌ إلى مَعرفةِ ما سيُخبَرُ به[١].

- قولُه: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مَرفوعٌ إمَّا على الابتداءِ، و﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ خبَرُه، ويكونُ هناك مُنتهى الآيةِ؛ فالمعْنى: القارعةُ شَيءٌ عَظيمٌ هي، وهذا يَجْري على أنَّ الآيةَ الأُولى تَنْتهي بقولِه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾، وإمَّا أنْ تكونَ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ الأوَّلُ مُستقِلًّا بنفْسِه، وعُدَّ آيةً عندَ أهلِ الكوفةِ، فيُقدَّرَ خبَرٌ عنه مَحذوفٌ، نحْوُ: القارعةُ قريبةٌ، أو يُقدَّرَ فِعلٌ مَحذوفٌ، نحْوُ: أتَتِ القارعةُ، ويكونَ قولُه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ استئنافًا للتَّهويلِ[٢].

- قولُه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ (ما) الاستفهاميَّةُ خبَرٌ، و﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ مُبتدَأٌ، لا بالعكسِ؛ لأنَّ مَحطَّ الفائدةِ هو الخبَرُ لا المُبتدأُ، ولا رَيبَ في أنَّ مَدارَ إفادةِ الهَولِ والفَخامةِ هاهنا هو كَلمةُ ﴿مَا﴾ لا ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾، أيْ: أيُّ شَيءٍ عَجيبٍ هيَ في الفَخامةِ والفَظاعةِ[٣]؟!

- وإعادةُ لَفظِ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ عُدِلَ عن أنْ يُقالَ: القارعةُ ما هِيَهْ؛ لِما في لَفظِ القارعةِ مِن التَّهويلِ والتَّرويعِ[٤].

- وقولُه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ تَأكيدٌ لهَولِها وفَظاعتِها ببَيانِ خُروجِها

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٠٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٠٩، ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٠).

عن دائرةِ عُلومِ الخلْقِ، على معْنى: أنَّ عِظَمَ شَأنِها بحيث لا تَكادُ تَنالُه دِرايةُ أحدٍ حتَّى يُدْرِيَك بها[١].

- وفي قولِه: ﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّكريرِ، والمرادُ به: تَهويلٌ لشَأنِها، وتَفخيمٌ لفَظاعتِها[٢].

٢- قولُه تبارك وتعالَى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾

- قولُه: ﴿يَوْمَ﴾ مَفعولٌ فيه مَنصوبٌ بفِعلٍ مُضمَرٍ دلَّ عليه وَصْفُ ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾؛ لأنَّه في تَقديرِ: تَقرَعُ، أو دلَّ عليه الكلامُ كلُّه، فيُقدَّرُ: تكونُ، أو تَحصُلُ يومَ يكونُ النَّاسُ كالفَراشِ، وجُملةُ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ﴾ مع مُتعلَّقِها المَحذوفِ بَيانٌ للإبهامَينِ اللَّذَينِ في قولِه: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٢] وقولِه: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ٣]، أو مَنصوبٌ بإضمارِ (اذكُرْ)، كأنَّه قِيل بعْدَ تَفخيمِ أمرِ القارعةِ وتَشويقِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى مَعرفتِها: اذكُرْ يومَ يكونُ النَّاسُ... إلخ؛ فإنَّه يُدْريكَ ما هيَ[٣].

- والمَقصودُ بهذا التَّوقيتِ زيادةُ التَّهويلِ بما أُضيفَ إليه (يومَ) مِن الجُملتينِ المُفيدتَينِ أحوالًا هائلةً، إلَّا أنَّ شَأنَ التَّوقيتِ أنْ يكونَ بزَمانٍ مَعلومٍ، وإذ قدْ كان هذا الحالُ المُوقَّتُ بزَمانِه غيرَ مَعلومٍ مَداهُ، كان التَّوقيتُ له إطماعًا في

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٨٥).

تَعيينِ وَقتِ حُصولِه؛ إذ كانوا يَسأَلون: متَى هذا الوعدُ؟ ثمَّ تَوقيتُه بما هو مَجهولٌ لهم إبهامًا آخَرَ للتَّهويلِ، والتَّحذيرِ مِن مُفاجأتِه، وأُبرِزَ في صُورةِ التَّوقيتِ؛ للتَّشويقِ إلى البَحثِ عن تَقديرِه، فإذا باءَ الباحثُ بالعجْزِ أخَذَ بحِيطةِ الاستعدادِ لحُلولِه بما يُنجيه مِن مَصائبِه الَّتي قُرِعَت به الأسماعُ في آيٍ كَثيرةٍ، فحصَلَ في هذه الآيةِ تَهويلٌ شَديدٌ بثَمانيةِ طُرقٍ؛ وهي: الابتداءُ باسمِ القارعةِ المُؤذِنِ بأمرٍ عَظيمٍ، والاستفهامُ المُستعمَلُ في التَّهويلِ، والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ أوَّلَ مرَّةٍ، والاستفهامُ عمَّا يُنبِئُ بكُنْهِ القارعةِ، وتَوجيهُ الخِطابِ إلى غيرِ مُعيَّنٍ -وذلك على قولٍ-، والإظهارُ في مَقامِ الإضمارِ ثانيَ مرَّةٍ، والتَّوقيتُ بزَمانٍ مَجهولٍ حُصولُه، وتَعريفُ ذلك الوقتِ بأحوالٍ مَهولةٍ[(١)].

- وجُملةُ ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ مُعترِضةٌ بيْن جُملةِ ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ وجُملةِ ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [القارعة: ٦] إلخ، وهو إدماجٌ لزِيادةِ التَّهويلِ[(٢)].

- وفي قولِه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ تَشبيهانِ رائعانِ، وهو تَشبيهٌ مُرسَلٌ مُجمَلٌ[(٣)]؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١١، ٥١٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥١٢).

وتقدَّم تعريفُ الإدماج (ص: ١٦١).

(٣) التَّشبيهُ: هو إلحاقُ شَيءٍ بذي وصفٍ في وصْفِه. وقيل: أن تُثبِتَ للمُشَبَّهِ حُكمًا مِن أحكامِ المُشَبَّهِ به. وقد اتَّفَق الأدباءُ على شرَفِه في أنواعِ البلاغةِ، وأنَّه إذا جاء في أعقابِ المعاني أفادها كمالًا، وكساها حلَّةً وجمالًا، وهو جارٍ في كلامِ العربِ، بل هو أكثرُ كلامِهم. ويَنقسِمُ التَّشبيهُ عدَّةَ تقسيماتٍ باعتباراتٍ عِدَّةٍ؛ فمنه: التَّشبيهُ المُفرَدُ. ومنه: التَّشبيهُ المُركَّبُ: وهو الَّذي يكونُ وجْهُ الشَّبَهِ فيه مُنتزَعًا مِن مُتعدِّدٍ، أو مِن أمورٍ مجموعٍ بعضُها إلى بعضٍ، كقولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ =

وَجْهَ الشَّبهِ حُذِفَ، ففي الأوَّلِ وُجوهُ الشَّبَهِ كَثيرةٌ؛ منها:

- الطَّيشُ الَّذي لَحِقَهم.

- وانتشارُهم في الأرضِ.

- ورُكوبُ بَعضِهم بَعضًا.

- والكثرةُ الَّتي لا غَناءَ فيها.

- والضَّعفُ والتَّذلُّلُ وإجابةُ الدَّاعي مِن كلِّ جِهةٍ.

- والتَّطايُرُ إلى النَّارِ للاحتراقِ مِن حيث لا تُريدُ الاحتراقَ، وفي أمثالِهم: أضعَفُ مِن فَراشةٍ وأذلُّ وأجهَلُ.

**وأوجُهُ الشَّبَهِ في تَشبيهِ الجِبالِ بالعِهنِ المَنفوشِ كَثيرةٌ أيضًا؛ منها:**

- تَفتُّتُها وانهيارُها.

- وصَيْرُورتُها كالعِهنِ لتَفرُّقِ أجزائِها.

- ثمَّ صَيرورتُها كالهَباءِ.

- وكثرةُ الألوانِ؛ لأنَّ الجِبالَ مُختلِفةُ الألوانِ بحِجارتِها ونَبْتِها[1].

---

= ﴿ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]؛ فالتَّشبيهُ مُركَّبٌ مِن أحوالِ الحِمارِ. وخصَّ البَيانيُّون لفظَ «التَّمثيلِ» بالتَّشبيهِ المُركَّبِ. ويَنقسِمُ باعتبارٍ آخَرَ إلى: مؤكَّدٍ: وهو الَّذي حُذِفت فيه أداةُ التَّشبيهِ، نحو: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، أي: مِثلَ مَرِّ السَّحابِ. ومُرْسَلٍ: وهو الَّذي لم تُحذَفْ فيه الأداةُ. ومُفَصَّلٍ: وهو الَّذي ذُكِرَ فيه وجْهُ الشَّبَهِ. ومُجمَلٍ: وهو الَّذي لم يُذْكَرْ فيه وَجْهُ الشَّبَهِ. وبَليغٍ: وهو الَّذي لم تُذْكَرْ فيه أداةُ التَّشبيهِ ولا وَجْهُ الشَّبَهِ. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ٣٣٢ وما بعدها)، ((البرهان)) للزركشي (٣/ ٤١٤، ٤٢٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (٣/ ١٤٦)، ((إعراب القرآن وبيانه)) لدرويش (١/ ٦٦)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (٢/ ١٦١).

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٨٩، ٧٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير =

- وإعادةُ كَلمةِ ﴿وَتَكُونُ﴾ مع حرْفِ العطْفِ في قولِه: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾؛ للإشارةِ إلى اختِلافِ الكَونَين؛ فإنَّ أوَّلَهما كَونُ إيجادٍ، والثَّانيَ كَونُ اضمحلالٍ، وكِلاهما عَلامةٌ على زَوالِ عالَمٍ وظُهورِ عالَمٍ آخَرَ[١]، ولأنَّ التَّكريرَ في مِثلِ هذا المقامِ أبلَغُ في التَّحذيرِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ تَفصيلٌ لِما في قولِه: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤] مِن إجمالِ حالِ النَّاسِ حِينَئذٍ، فذلك هو المَقصودُ بذِكرِ اسمِ النَّاسِ الشَّاملِ لأهلِ السَّعادةِ وأهلِ الشَّقاءِ؛ فلذلك كان تفَصيلُه بحالَين: حالٍ حسَنٍ، وحالٍ فَظيعٍ؛ فهو بَيانٌ إجماليٌّ لتَحزُّبِ النَّاسِ إلى حِزبينِ، وتَنبيهٌ على كَيفيَّةِ الأحوالِ الخاصَّةِ بكلٍّ منهما إثْرَ بَيانِ الأحوالِ الشَّاملةِ للكُلِّ[٣].

- قولُه: ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ جمَع فيهما المِيزانَ مع أنَّه واحدٌ -على أحدِ القولَين-، باعتِبارِ تَعدُّدِ المَوزوناتِ والمَوزونِ لهم. وقيل: هي جمْعُ مَوزونٍ[٤]. وقيل: إنَّ العَربَ قد تُوقِعُ لفظَ الجَمعِ على الواحِدِ تفخيمًا له. وقيل: إنَّه يُنصَبُ لكُلِّ عبدٍ مِيزانٌ[٥].

---

= أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٢، ٥١٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٣).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٣٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (١/ ٤٦٤)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (٣/ ٧٦)، ((مجموع =

- قولُه: ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ قيل: أي: مَرْضِيَّةٍ لا مكروهةٍ، فهي ممَّا جاء فيه فاعِلٌ بمعنَى مَفْعولٍ؛ لأنَّ ذلك مَدْحٌ للعِيشةِ، والعَرَبُ تَفعَلُ ذلك في المدْحِ والذَّمِّ، فتقولُ: هذا لَيلٌ نائِمٌ، وسِرٌّ كاتِمٌ، وماءٌ دافِقٌ، فيُوَجِّهون الفِعلَ إليه، وهو في الأصلِ مَفعولٌ لِما يُرادُ مِنَ المدْحِ أو الذَّمِّ. وقيل: ﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي: ذاتِ رِضًا، على النِّسبةِ بالصِّيغةِ[1]. وقيل: وُصِفَت العِيشةُ بـ﴿رَّاضِيَةٍ﴾؛ لأنَّها سَبَبُ الرِّضا، أو زَمانُ الرِّضا[2].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾

- جُملةُ ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ إخبارٌ عنه بالشَّقاءِ وسُوءِ الحالِ، والكلامُ قيل: إنَّه تَمثيلٌ لحالِ مَن خفَّت مَوازينُه يَومَئذٍ بحالِ الهالكِ في الدُّنيا؛ لأنَّ العرَبَ يُكَنُّون عن حالِ المَرْءِ بحالِ أُمِّه في الخَيرِ والشَّرِّ؛ لشِدَّةِ مَحبَّتِها ابْنَها، فهي أشدُّ سُرورًا بسُرورِه، وأشدُّ حُزنًا بما يَحزُنُه، فكأنَّه قيل: وأمَّا مَن خفَّت مَوازينُه فقدْ هَلَكَ. ويَجوزُ أنْ يكونَ (أُمُّه) مُعبَّرًا به عن مَقرِّه ومآلِه؛ لأنَّه يَأوي إليه كما يَأْوي الطِّفلُ إلى أُمِّه، فقدْ قِيل للمَأوى: أُمٌّ، على التَّشبيهِ؛ لأنَّ الأُمَّ مَأوى الولَدِ ومَفزَعُه. ويَجوزُ أنْ يكونَ (أُمُّه) على حذْفِ مُضافٍ، أي: أمُّ رَأسِه، وهي أعْلى الدِّماغِ، وهاويةٌ: ساقطةٌ، مِن قَولِهم: سَقَطَ على أمِّ رَأسِه، أي: هَلَكَ[3].

---

= فتاوى ورسائل العثيمين)) (٨/ ٤٩٩).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ١٩٠).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ٢٣٣)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١٠/ ٤٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٥)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٣٣٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٤، ٥١٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٤).

٥- قولُه تعالَى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ * نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ تَقريرٌ للهاويةِ بعْدَ إبْهامِها، وإشعارٌ بخُروجِها عنِ الحُدودِ المَعهودةِ؛ للتَّفخيمِ والتَّهويلِ[١].

- وجُملةُ ﴿نَارٌ حَامِيَةُۢ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ﴾، والمعنى: هي نارٌ حاميةٌ، وهذا مِن حذْفِ المُسنَدِ إليه[٢] الَّذي اتُّبِعَ في حذْفِه استِعمالُ أهلِ اللُّغةِ[٣].

- ووَصْفُ ﴿نَارٌ﴾ بـ ﴿حَامِيَةُۢ﴾ مِن قَبيلِ التَّوكيدِ اللَّفظيِّ؛ لأنَّ النَّارَ لا تَخْلو عن الحَمْيِ، فوَصْفُها به وَصْفٌ بما هو مِن معْنى لَفظِ ﴿نَارٌ﴾، فكان كذِكرِ المُرادِفِ، كقولِه تعالَى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ﴾[٤] [الهمزة: ٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٤).

(٢) وهو ما يُسمَّى بمُتابَعةِ الاستعمالِ؛ وذلك أنَّ العرَبَ إذا أجْرَوا حَديثًا على شَيءٍ، ثمَّ أخبَروا عنه، الْتَزَموا حَذفَ ضَميرِه الَّذي هو مُسنَدٌ إليه؛ إشارةً إلى التَّنويهِ به كأنَّه لا يَخْفى. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسكاكي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٢/ ٣٤٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ
# سُورَةِ التَّكاثُرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ التَّكاثُرِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ التَّكاثُر[١].

وسُمِّيت أيضًا بسُورةِ ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[٢]، فعن عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أَتَيْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يَقرأُ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ...))[٣].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ التَّكاثُرِ مكِّيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٤].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

النَّهيُ عمَّا يَجُرُّ إلى العذابِ، والتَّذكيرُ بالسُّؤالِ يومَ القِيامةِ[٥].

---

(١) سُمِّيَت بذلك؛ لذِكْرِ لَفْظِ التَّكاثُرِ فيها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٠).
قال ابنُ عاشورٍ: (سُمِّيَت في مُعْظَمِ المصاحِفِ ومُعْظمِ التَّفاسيرِ «سُورةَ التَّكاثُرِ»، وكذلك عَنْوَنَها التِّرْمذيُّ في «جامِعِه»... وسُمِّيَت في بَعضِ المصاحِفِ «سُورةَ أَلْهاكم»، وكذلك تَرْجَمَها البُخاريُّ في كتابِ التَّفْسيرِ من «صَحيحِه»). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٧).
وسُمِّيَت أيضًا بسُورةِ المَقْبَرةِ. يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥١).

(٢) يُنظر: ((تفسير عبد الرزاق)) (٣/ ٤٥٦)، ((سنن الترمذي)) (٥/ ٤٤٧)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٥٨)، ((تفسير ابن عرفة)) (٤/ ٣٤٣).

(٣) رواه مسلمٌ (٢٩٥٨).

(٤) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرْطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٨٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٦)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٤١).
ونسَبَ ابنُ عاشورٍ القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ للجُمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٧). ويُنظر أيضًا: ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٤).

(٥) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٢، ٢٣٣).

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

١- النَّهيُّ عن التَّفاخُرِ والتَّكاثُرِ.

٢- الحَضُّ على التَّزَوُّدِ مِن العمَلِ الصَّالحِ، وعلى ما يُنجِّي مِن العَذابِ.

٣- التَّأكيدُ على أنَّ يومَ القِيامةِ حَقٌّ، وعلى أنَّ الحِسابَ حَقٌّ، وعلى أنَّ الجَزاءَ حَقٌّ.

## الآيات (١-٨)

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: أي: شَغَلكم، وأصلُ (لهو) هنا: يدُلُّ على شُغلٍ عن شَيءٍ بشَيءٍ[١].

﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: أي: التَّباهي والتَّفاخرُ بكَثرةِ المالِ والعَدَدِ وغيرِ ذلك، والتَّكاثرُ أن يَطلُبَ الرَّجُلُ أن يكونَ أكثَرَ مِن غيرِه، وأصلُ (كثر): يدُلُّ على خِلافِ القِلَّةِ[٢].

﴿ٱلْجَحِيمَ﴾: أي: النَّارَ، والجُحْمَةُ: شدَّةُ تأجُّجِ النَّارِ، ومنه: الجحيمُ، وأصْلُ (جحم): الحرارةُ وشِدَّتُها[٣].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾

قَولُه تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ العِلمُ هنا بمعنى المعرفةِ المتعدِّيةِ لمفعولٍ واحدٍ، وهو محذوفٌ، تقديرُه: تعلمونَ سوءَ عاقِبةِ التَّفاخُرِ. ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢١٣)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٣٥٠)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ١٧٥).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٨)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٦)، ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٠، ٣١).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٧٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٢٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ١٨٧).

توكيدٌ لَفظيٌّ للجُملةِ الأُولى والعَطفُ هنا بـ «ثُمَّ» صُوريٌّ؛ لأنَّ بيْن الجملتَينِ تمامَ الاتِّصالِ، فلا تُعطَفُ الثَّانيةُ على الأُولى عَطفًا حقيقيًّا، فالتَّكريرُ للتَّأكيدِ، و«ثُمَّ» للدَّلالةِ على الأبلَغيَّةِ؛ أنَّ الثَّانيَ أبلَغُ مِن الأوَّلِ. والمؤكَّدُ والمؤكِّدُ إنْ كانا جملتَينِ وأُمِنَ توهُّمُ كَونِ الثَّانيةِ غيرَ مُؤَكِّدةٍ، فالأجودُ الفَصلُ بيْنَهما بعاطِفٍ كما هنا.

وقَولُه تعالى: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ جوابُ ﴿لَوْ﴾ محذوفٌ؛ لدَلالةِ ما قَبْلَه عليه، وهو ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾، أي: لو تَعلَمونَ عِلمَ اليقينِ لَشغَلَكم ما تَعلَمونَ عن التَّكاثُرِ وغَيرِه، أو نحوُ ذلك. ﴿عِلْمَ﴾: مَفعولٌ مُطلَقٌ، وإضافتُه لليقينِ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفتِه، أي: العِلمَ اليَقينَ.

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ ﴿لَتَرَوُنَّ﴾: اللَّامُ واقِعةٌ في جوابِ قَسَمٍ محذوفٍ، أي: واللهِ لَتَرَوُنَّ. تَرَوُنَّ: فِعلٌ مُضارِعٌ مرفوعٌ، وعلامةُ رَفعِه النُّونُ المحذوفةُ لتوالي الأمثالِ، والواوُ: في محلِّ رَفعٍ فاعِلٌ. والنُّونُ للتَّوكيدِ حَرفٌ لا محَلَّ له مِنَ الإعرابِ، والجُملةُ لا محَلَّ لها مِن الإعرابِ جَوابُ القَسَمِ المقدَّرِ، وجُملةُ القَسَمِ المقَدَّرِ وجَوابِه استئنافيَّةٌ لا محَلَّ لها مِن الإعرابِ؛ فالوَقفُ على ﴿الْيَقِينِ﴾ واجِبٌ.

وقَولُه تعالى: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾: مَفعولٌ مُطلَقٌ نائِبٌ عن المصدَرِ؛ لأنَّه صِفةُ مَصدَرٍ مُقدَّرٍ، أي: لَتَرَوُنَّها الرُّؤيةَ الَّتي هي نفْسُ اليقينِ وخالِصَتُه، أو لأنَّه مُلاقيه في المعنى؛ فالرُّؤيةُ والمُعايَنةُ شَيءٌ واحِدٌ، كأنَّه قيل: لَتُعايِنُنَّها عِيانًا[1].

---

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٧)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٧٨)، ((التبيان في إعراب القرآن)) للعكبري (٢/ ١٣٠٢)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ٩٨، ٩٩)، ((تمهيد القواعد)) لناظر الجيش (٧/ ٣٣٠٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥٣)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٣٩٨).

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ موبِّخًا مَن انشَغل عن طاعتِه قائلًا: شَغَلكم عن طاعةِ اللهِ -أيُّها النَّاسُ- التَّكاثُرُ بالأموالِ والأولادِ حتَّى مُتُّمْ ودُفِنتُم في المقابِرِ.

ثمَّ قال الله تعالى متوَعِّدًا مَن يفعلُ ذلك: فانزَجِروا عن الالتِهاءِ بالتَّكاثُرِ، فسوف تَعلَمونَ بعْدَ مَوتِكم خطأَ ذلك وسُوءَ عاقبتِه.

ثمَّ قال سُبحانَه مؤكِّدًا: ثُمَّ سوف تَعلَمونَ بعْدَ مَوتِكم خطأَ ذلك وسُوءَ عاقبتِه، كلَّا لو تَعلَمونَ عِلمًا يقينيًّا أنَّ اللهَ سيَبعَثُكم يومَ القيامةِ، ويُحاسِبُكم على أعمالِكم، لَمَا ألهاكم التَّكاثُرُ عن طاعةِ اللهِ.

ثمَّ قال تعالى: أُقسِمُ إنَّكم سترَونَ الجَحيمَ في الآخِرةِ، ثُمَّ أُقسِمُ إنَّكم سترَونَ الجحيمَ في الآخِرةِ رُؤيةً حقيقيَّةً مُؤكَّدةً، ثُمَّ أُقسِمُ إنَّكم ستُسأَلونَ يومَ القيامةِ عمَّا تنعَّمتُم به في الدُّنيا.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾.

أي: شَغَلكم عن طاعةِ اللهِ -أيُّها النَّاسُ- التَّكاثُرُ بالأموالِ والأولادِ، وغيرِ ذلك مِن مَتاعِ الدُّنيا[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٢).

قال ابنُ القيِّم: (كُلُّ ما يُكاثِرُ به العَبدُ غَيْرَه سوى طاعةِ اللهِ ورَسولِه، وما يَعودُ عليه بنَفعِ مَعادِه؛ فهو داخِلٌ في هذا التَّكاثُرِ، فالتَّكاثُرُ في كُلِّ شَيءٍ؛ مِن مالٍ، أو جاهٍ، أو رياسةٍ، أو نِسوةٍ، أو حديثٍ، أو عِلمٍ، ولا سِيَّما إذا لم يحتَجْ إليه، والتَّكاثُرُ في الكُتُبِ والتَّصانيفِ، وكثرةِ المسائلِ وتفريعِها وتوليدِها، والتَّكاثُرُ أن يَطلُبَ الرَّجُلُ أن يكونَ أكثَرَ مِن غيرِه، وهذا مذمومٌ إلَّا فيما يقرِّبُ إلى اللهِ؛ فالتَّكاثُرُ فيه مُنافَسةٌ في الخَيراتِ، ومُسابَقةٌ إليها). ((الفوائد)) (ص: ٣٠، ٣١).=

كما قال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠].

﴿حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ ٢﴾.

أي: دُمتُم على تلك الحالِ إلى أن مُتُّمْ ودُفِنتُم في المقابِرِ[(١)]!

عن عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((أَتَيْتُ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يَقرأُ: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: يقولُ ابنُ آدَمَ: مالي، مالي، وهل لك -يا ابنَ آدَمَ- مِن مالِك إلَّا ما أكَلْتَ فأفنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فأبلَيتَ، أو تصدَّقْتَ فأمضَيتَ؟!))[(٢)].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يقولُ العَبدُ: مالي، مالي، إنَّما له مِن مالِه ثلاثٌ: ما أكَلَ فأفْنَى، أو لَبِسَ فأبْلَى، أو أعطَى فاقتَنى[(٣)]، .....

---

= ويُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٧١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

وقال ابن القيِّم أيضًا: (ليس في اللَّفظِ ولا في السُّنَّةِ الصَّحيحةِ ولا في أدِلَّةِ العَقلِ ما يَقتضي اختِصاصَ الخِطابِ بالكُفَّارِ، بل ظاهِرُ اللَّفظِ وصَريحُ السُّنَّةِ والاعتبارُ يدُلُّ على عُمومِ الخِطابِ لكُلِّ مَن اتَّصَف بإلْهاءِ التَّكاثُرِ له؛ فلا وَجْهَ لتَخصيصِ الخِطابِ ببَعضِ المتَّصِفينَ بذلك). ((عدة الصابرين)) (ص: ١٩٠، ١٩١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠١).

واستظَهر ابنُ عاشورٍ أنَّ المُخاطَبَ بها فريقٌ مِن المُشركينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٥٩٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٦٨)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٢، ٤٧٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٣).

(٢) رواه مسلم (٢٩٥٨).

(٣) اقتنى: أي: ادَّخَره لنَفْسِه في الآخرةِ. يُنظر: ((كشف المشكل من حديث الصحيحين)) لابن الجوزي (٣/ ٥٨٥).

وما سِوى ذلك فهو ذاهِبٌ وتارِكُه للنَّاسِ))[١].

﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ﴾.

أي: ما هكذا ينبغي أن تفعَلوا؛ فانزَجِروا عن الالتِهاءِ بالتَّكاثُرِ، فسوف تَعلَمونَ بعْدَ مَوتِكم خطأَ ذلك، وسُوءَ عاقِبَتِه[٢].

﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ ﴾.

أي: قال اللهُ تعالى مؤكِّدًا هذا التَّهديدَ والوَعيدَ: ثمَّ انزَجِروا عن الانشِغالِ بالتَّكاثُرِ عن طاعةِ اللهِ؛ فسوف تَعلَمونَ إذا نزَل بكم الموتُ خطَأَ ذلك، وسُوءَ عاقبتِه[٣].

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أُعيدَ الزَّجرُ ثالِثَ مرَّةٍ؛ زيادةً في إبطالِ ما هم عليه مِن اللَّهوِ عن التَّدَبُّرِ في أقوالِ القُرآنِ، لعَلَّهم يُقلِعونَ عن انكبابِهم على التَّكاثُرِ ممَّا هم يَتكاثَرونَ فيه[٤].

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ ﴾.

أي: انزَجِروا عن الانشِغالِ بالتَّكاثُرِ؛ فلو تَعلَمونَ الآنَ قبْلَ مَوتِكم عِلمًا يقينيًّا

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠٠)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٢٨، ٢٢٩)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٧٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١).

أنَّ اللهَ سيَبعَثُكم يومَ القيامةِ ويُحاسِبُكم ويُجازيكم على أعمالِكم، لَمَا ألْهاكم التَّكاثُرُ عن طاعةِ اللهِ، ولحَرَصتُم عليها(١).

عن أَنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خَطَب رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم خُطبةً ما سَمِعتُ مِثْلَها قَطُّ، قال: لو تَعلَمونَ ما أعلَمُ لَضَحِكتُم قليلًا، ولَبَكَيتُم كثيرًا!))(٢).

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ﴾.

أي: أُقسِمُ إنَّكم ستَرَونَ الجَحيمَ في الآخِرةِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠١)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٣١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٧)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١، ٥٢٢).

قال الشوكاني: (وجَوابُ «لو» محذوفٌ، أيْ: لَشغَلَكم ذلك عن التَّكاثُرِ والتَّفاخُرِ، أوْ لَفعَلْتُم ما يَنفعُكم مِن الخَيرِ، وترَكْتُم ما لا يَنفَعُكم مِمَّا أنتم فيه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٧).

(٢) رواه البخاري (٤٦٢١) واللَّفظُ له، ومسلم (٢٣٥٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٥).

قال القُرطبي: (الخِطابُ للكُفَّارِ الَّذين وجَبَت لهم النَّارُ. وقيل: هو عامٌّ كما قال: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم: ٧١]، فهي للكُفَّارِ دارٌ، وللمُؤمِنينَ ممَرٌّ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧٤).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الخِطابَ للمُشرِكينَ: ابنُ جرير، وابنُ عادل. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠٢)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤٨٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٢).

وممَّن قال بأنَّ الخِطابَ عامٌّ لجَميعِ النَّاسِ: ابنُ جُزَي، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٠). ويُنظر أيضًا: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧).

قال ابنُ كثير: (هذا تفسيرُ الوعيدِ المتقَدِّمِ، وهو قَولُه: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، توعَّدَهم بهذا الحالِ، وهي رؤيةُ النَّارِ الَّتي إذا زفَرَت زَفرةً خَرَّ كُلُّ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ونبيٍّ مُرسَلٍ على =

كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ [النازعات: ٣٦].

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧﴾.

أي: ثُمَّ أُقسِمُ إنَّكم ستَرَونَ الجحيمَ في الآخِرةِ رُؤيةً حقيقيَّةً مُؤكَّدةً بأبصارِكم، لا تَشُكُّونَ في مُشاهَدتِها[1].

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾.

أي: ثُمَّ أُقسِمُ إنَّكم ستُسأَلونَ يومَ القيامةِ عن جميعِ ما تنعَّمتُم به في الدُّنيا[2].

---

= رُكبتَيه؛ مِن المَهابةِ والعَظَمةِ ومُعايَنةِ الأهوالِ، على ما جاء به الأثَرُ المرويُّ في ذلك). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٨، ٥١٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

قال ابن عثيمين: (﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ تَأكيدٌ لرُؤْيَتِها، فهي تُرَى يومَ القِيامةِ، يُؤتَى بها تُجَرُّ بسَبعينَ ألْفَ زِمامٍ، كلُّ زِمامٍ يَجُرُّه سَبعونَ ألْفَ مَلَكٍ، والملائكةُ عِظامٌ شِدادٌ، فما ظَنُّكَ بهذه النَّارِ -والعِياذُ باللهِ- إنَّها نارٌ كبيرةٌ عَظيمةٌ، أعاذَنا الله منها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٥) بتصرفٍ.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠٢، ٦١١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٧/ ٤٤) و (١٧/ ١٨٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

قال ابنُ الجوزيِّ: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ اختَلَفوا: هل هذا السُّؤالُ عامٌّ أم لا؟ على قَولَينِ؛ أحَدُهما: أنَّه خاصٌّ للكُفَّارِ، قاله الحَسَنُ. والثَّاني: عامٌّ، قاله قَتادةُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٦).

ممَّن اختار أنَّه عامٌّ: ابنُ عَطيَّةَ، والرَّسْعَنيُّ، والخازِنُ، وأبو حيَّانَ، وابنُ القَيِّمِ، والعُلَيميُّ، والشَّوكانيُّ، وابنُ عُثَيمينَ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥١٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٢١)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧)، ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٨)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٢٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٥٩٨)، ((تفسير ابن =

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ أوَّلَ ما يُسأَلُ عنه يومَ القيامةِ -يعني: العَبدَ مِن النَّعيمِ- أن يُقالَ له: أَلَمْ نُصِحَّ لك جِسْمَك، ونُرْوِيَك[1] مِن الماءِ البارِدِ؟))[2].

وعن أبي هُرَيرةَ رضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في حديثِ الرُّؤيةِ

---

= عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٥).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ به الكُفَّارُ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والرَّازيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٢٠)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧٤).

وقال ابنُ عثيمين: (الصَّوابُ: أنَّ المرادَ المؤمِنُ والكافِرُ، كُلٌّ يُسأَلُ عن النَّعيم، لكِنَّ الكافِرَ يُسأَلُ سُؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ، والمؤمِنَ يُسأَلُ سُؤالَ تذكيرٍ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٥).

وقال النَّحَّاس: (ظاهِرُ الكلامِ يدُلُّ على أنَّه عامٌّ، وأنَّ الإنسانَ مَسؤولٌ عن كلِّ نعيمٍ تنعَّمَ به في الدُّنيا، مِن أين اكتَسَبه؟ وما قَصَد به؟ وهل فَعَل ما غَيرُه أَولى منه؟). ((إعراب القرآن)) (٥/ ١٧٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: عن شُكرِه؛ فإنَّه لا يُبيحُ شَيئًا ويُعاقِبُ مَن فَعَله، ولكِنْ يَسألُه عن الواجِبِ الَّذي أوجبه معه، وعمَّا حَرَّمه عليه: هل فرَّط بتركِ مأمورٍ، أو فِعلِ محظورٍ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ١٨٠).

وقال السعدي: (﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الَّذي تنعَّمتُم به في دارِ الدُّنيا: هل قُمتُم بشُكرِه، وأدَّيتُم حَقَّ اللهِ فيه، ولم تَستعينوا به على معاصيه، فيُنعِّمَكم نعيمًا أعلى منه وأفضلَ، أم اغترَرْتُم به ولم تَقوموا بشُكْرِه، بل رُبَّما استعنْتُم به على معاصي اللهِ، فيُعاقِبَكم على ذلك؟). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

(١) هو بإثباتِ الياءِ، فيحتمِلُ أنَّه معطوفٌ على المجزوم، وفيه إثباتُ حرفِ العلَّةِ معَ الجازم، وهو لغةٌ، ويحتمِلُ أنَّه منصوبٌ بعدَ واوِ المعيةِ. يُنظر: ((السراج المنير شرح الجامع الصغير)) للعزيزي (٢/ ٨٩).

(٢) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٥٨) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ (٧٣٦٤)، والحاكمُ (٧٢٠٣).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وكذا ابنُ العرَبيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٤٠٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٥٨)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٧٣٦٤)، وصَحَّح إسنادَه الحاكِمُ.

الطَّويلِ، وفيه قال: ((... فيَلْقى العَبدَ فيَقولُ: أيْ فُلُ[١]، أَلَمْ أُكرِمْكَ، وأُسَوِّدْكَ[٢]، وأُزَوِّجْكَ، وأُسَخِّرْ لك الخَيْلَ والإبِلَ، وأَذَرْكَ تَرْأَسُ وتَرْبَعُ[٣]؟))[٤].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((خرَج رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ذاتَ يَومٍ -أو لَيلةٍ- فإذا هو بأبي بَكرٍ وعُمَرَ، فقال: ما أخرَجَكما مِن بُيوتِكما هذه السَّاعةَ؟ قالا: الجُوعُ، يا رَسولَ اللهِ... فلمَّا أنْ شَبِعوا ورَوُوا قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لأبي بكرٍ وعُمَرَ: والَّذي نَفْسي بيَدِه، لَتُسأَلُنَّ عن هذا النَّعيمِ يومَ القيامةِ؛ أخرَجَكم مِن بُيوتِكم الجُوعُ، ثمَّ لم تَرجِعوا حتَّى أصابكم هذا النَّعيمُ!))[٥].

وعن الزُّبَيرِ بنِ العَوَّامِ رَضِيَ الله عنه، قال: ((لَمَّا نزَلَت: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ قال الزُّبَيرُ: يا رَسولَ اللهِ، فأيُّ النَّعيمِ نُسأَلُ عنه، وإنَّما هما الأسْوَدانِ: التَّمرُ والماءُ؟! قال: أمَا إنَّه سيَكونُ!))[٦].

---

(١) أيْ فُلُ: معناه: يا فُلانُ. وقيل: إنَّها ترخيمُها. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٣/ ٩٢٣)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٣).

(٢) أُسَوِّدْك: أي: أجعَلْك سَيِّدًا. والسَّيِّدُ: الَّذي يَفوقُ قومَه فيَنقادونَ له. يُنظر: ((كشف المشكل)) لابن الجوزي (٣/ ٥٦٢).

(٣) ترأَسُ: أي: تكونُ رئيسًا على قَومِك. وتَربَعُ أي: تأخُذُ المِرباعَ، وهو رُبُعُ الغَنيمةِ، وقيل: معناه ترَكْتُك مُستريحًا، لا تحتاجُ إلى مَشقَّةٍ وتَعَبٍ؛ من قَولِهم: ارْبَعْ على نَفْسِك؛ أي: ارْفُقْ بها. والمعنى: أَلَمْ أجعَلْك رئيسًا مُطاعًا؛ لأنَّ المَلِكَ كان يأخُذُ الرُّبُعَ مِنَ الغَنيمةِ في الجاهِليَّةِ دونَ أصحابِه. يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (٢/ ١٨٦)، ((شرح النووي على مسلم)) (١٨/ ١٠٤).

(٤) رواه مسلم (٢٩٦٨).

(٥) رواه مسلم (٢٠٣٨).

(٦) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٥٦) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (٤١٥٨)، وأحمدُ (١٤٠٥).
حسَّنه الترمذيُّ، وكذا الألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٤١٥٨)، وصَحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ٣)، وحَسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ٢٥).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ قَولُه تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رَدعٌ وتنبيهٌ على أنَّه لا يَنبغي للنَّاظِرِ لنَفْسِه أن تكونَ الدُّنيا جميعَ هَمِّه، ولا يَهتَمَّ بدِينِه، وقَولُه تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ إنذارٌ لِيَخافوا فيَنتَبِهوا عن غَفلتِهم، وقَولُه تعالى: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكريرٌ للتَّأكيدِ، و﴿ثُمَّ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ الثَّانيَ أبلَغُ مِن الأوَّلِ وأشدُّ، كما يُقالُ للمَنصوحِ: أقولُ لك، ثمَّ أقولُ لك: لا تفعَلْ، والمعنى: سوف تَعلَمونَ الخطَأَ فيما أنتم عليه إذا عايَنْتُم ما قُدَّامَكم مِن هَولِ لقاءِ اللهِ تعالى، وأنَّ هذا التَّنبيهَ نصيحةٌ لكم، ورحمةٌ عليكم[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في الآيةِ تهديدٌ عظيمٌ للعُلَماءِ؛ فإنَّها دَلَّت على أنَّه لو حصل اليقينُ بما في التكاثُرِ والتفاخُرِ مِنَ الآفةِ، لتركوا التكاثُرَ والتفاخُرَ، وهذا يقتضي أنَّ من لم يترُكِ التكاثُرَ والتفاخُرَ لا يكونُ اليقينُ حاصِلًا له، فالوَيلُ للعالِمِ الذي لا يكونُ عامِلًا، ثمَّ الويلُ له[٢]!

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ لم يأتِ في التَّنزيلِ ذِكرُ المقابِرِ إلَّا في هذه السُّورةِ، والدخولُ إليها ومشاهدتُها مِن أعظَمِ الدَّواءِ للقَلْبِ القاسي؛ لأنَّها تُذكِّرُ الموتَ والآخِرةَ، وذلك يحمِلُ على قِصَرِ الأمَلِ، والزُّهدِ في الدُّنيا، وتَركِ الرَّغبةِ فيها[٣]. قال العُلَماءُ: ينبغي لمن أراد عِلاجَ قَلْبِه، وانقِيادَه بسلاسِلِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧٠).

القَهْرِ إلى طاعةِ رَبِّه أن يُكثِرَ مِن ذِكرِ هاذِمِ[١] اللَّذَّاتِ، ومُفَرِّقِ الجماعاتِ، ومُوتِمِ البَنينَ والبناتِ، ويواظِبَ على مُشاهَدةِ المحتَضَرينَ، وزيارةِ قُبورِ أمواتِ المُسلِمينَ؛ فهذه ثلاثةُ أمورٍ يَنبغي لِمَن قسا قلبُه ولَزِمَه ذَنْبُه أن يستعينَ بها على دواءِ دائِه، ويَستصرِخَ بها على فِتَنِ الشَّيطانِ وأعوانِه، فإنِ انتفَعَ بالإكثارِ مِن ذِكرِ الموتِ، وانجَلَت به قساوةُ قَلْبِه، فذاك، وإنْ عَظُمَ عليه رانُ قَلْبِه، واستحكَمَت فيه دواعي الذَّنبِ، فإنَّ مُشاهَدةَ المحتَضَرينَ وزيارةَ قُبورِ أمواتِ المُسلِمينَ تَبلُغُ في دَفعِ ذلك ما لا يَبلُغُه الأوَّلُ؛ لأنَّ ذِكرَ الموتِ إخبارٌ للقَلبِ بما إليه المصيرُ، وقائِمٌ له مقامَ التَّخويفِ والتَّحذيرِ[٢].

٤- مَن أكلَ مِن الطَّيِّباتِ ولم يَشْكُرْ فهو مذمومٌ؛ قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، أي: عن الشُّكرِ عليه[٣].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التَّكاثُرُ مُطلقًا ليس بمذموم؛ لأنَّ التَّكاثُرَ في العِلمِ والطَّاعةِ والأخلاقِ الحميدةِ ليس بمذموم إذا كان المرادُ أن يَقتديَ به غيرُه. وإنَّما المذمومُ ما يكونُ الباعِثُ عليه الاستكبارَ وحُبَّ الجاهِ والغَلَبةِ، والفَخرَ بما لا سعادةَ حقيقيَّةً فيه، وليست السعادةُ الحقيقيَّةُ إلَّا فيما يرجِعُ إلى العِلمِ والعَمَلِ، أو إلى ما يُعِينُ عليهما مِن الأمورِ الخارجيَّةِ[٤]. فالألِفُ واللَّامُ في ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ليسا للاستغراقِ، بل للمَعهودِ السَّابِقِ، وهو التَّكاثُرُ في الدُّنيا ولَذَّاتها

(١) هاذِم: بذالٍ مُعجَمةٍ، أي: قاطِع، أمَّا بمُهمَلةٍ فمعناه: مُزيلُ الشَّيءِ مِن أصلِه. يُنظر: ((فيض القدير)) للمُناوي (٢/ ٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٧١).

(٣) يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (٥/ ٥٤٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٥٥).

وعلائِقِها؛ فإنَّه هو الَّذي يمنَعُ عن طاعةِ اللهِ تعالى وعُبوديَّتِه[١].

٢- قَولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أبلَغُ في الذَّمِّ مِن «شَغَلَكم»؛ فإنَّ العامِلَ قد يَستعمِلُ جوارحَه بما يَعمَلُ وقلْبُه غيرُ لاهٍ به؛ فاللَّهوُ هو ذُهولٌ وإعراضٌ[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في هذا دَليلٌ على صِحَّةِ القَولِ بعذابِ القَبرِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى ذِكْرُه أخبَرَ عن هؤلاء القَومِ الَّذين ألْهاهم التَّكاثُرُ أنَّهم سيَعلَمونَ ما يَلقَونَ إذا هم زاروا القُبورَ؛ وَعيدًا منه لهم وتهَدُّدًا[٣].

٤- قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فجعَلَ الغايةَ زيارةَ المقابِرِ دونَ الموتِ؛ إيذانًا بأنَّهم غيرُ مُستَوطِنينَ ولا مُستقِرِّينَ في القُبورِ، وأنَّهم فيها بمنزلةِ الزَّائرينَ يَحضُرونَها مدَّةً ثمَّ يَظْعَنونُ عنها، كما كانوا في الدُّنيا زائرينَ لها، غيرَ مُستقِرِّينَ فيها، ودارُ القَرارِ هي الجنَّةُ أو النَّارُ[٤].

٥- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ تنبيهٌ على أنَّ الزائرَ لا بُدَّ أنْ يَنتَقِلَ عن مَزارِه؛ فهو تنبيهٌ على البَعثِ[٥].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ استدَلَّ به عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧٠).

(٢) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٠٠).

وذكَر ابنُ القيِّمِ أنَّ عليَّ بنَ أبي طالبٍ رضِي الله عنه وغيرَه مِن السَّلفِ فهِموا مِن الآيةِ عذابَ القبرِ. يُنظر: ((عدة الصابرين)) (ص: ١٨٨).

(٤) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٣).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥١٧).

-رحمه اللهُ- على أنَّ الزَّائِرَ لا بُدَّ أن يرجِعَ إلى وطَنِه، وأنَّ القُبورَ ليست بدارِ إقامةٍ، وكذلك يُذكَرُ عن بعضِ الأعرابِ أنَّه سَمِعَ قارئًا يقرأُ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، فقال: (واللهِ ما الزَّائِرُ بمقيمٍ، واللهِ لَنُبعَثَنَّ)؛ لأنَّ الزَّائِرَ -كما هو معروفٌ- يَزورُ ويَرجِعُ، فقال: (واللهِ لَنُبعَثَنَّ)، وهذا هو الحَقُّ، وبهذا نَعرِفُ أنَّ ما يَذْكُرُه بعضُ النَّاسِ الآنَ في الجرائدِ وغيرِها؛ يقولُ عن الرَّجُلِ إذا مات: إنَّه انتقلَ إلى مَثْواه الأخيرِ؛ أنَّ هذا كلامٌ باطلٌ وكَذِبٌ؛ لأنَّ القُبورَ ليست هي المثوى الأخيرَ، بل لو أنَّ الإنسانَ اعتقدَ مدلولَ هذا اللَّفظِ لَصار كافرًا بالبَعثِ، والكفرُ بالبعثِ رِدَّةٌ عن الإسلامِ، لكنَّ كثيرًا مِن النَّاسِ يَأخُذونَ الكَلِماتِ ولا يَدرُونَ ما معناها، ولعَلَّ هذه موروثةٌ عن المُلْحِدين الَّذين لا يُقِرُّون بالبَعثِ بعدَ الموتِ؛ لهذا يجِبُ تجنُّبُ هذه العبارةِ، فلا يُقالُ عن القَبرِ: إنَّه المثوى الأخيرُ؛ لأنَّ المثوى الأخيرَ إمَّا الجنَّةُ وإمَّا النَّارُ في يومِ القيامةِ[(١)].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فيه سُؤالٌ: شأنُ الزَّائِرِ أن ينصَرِفَ قريبًا، والأمواتُ مُلازِمونَ القُبورَ، فكيف يُقالُ: إنَّه زار القَبرَ؟

**الجوابُ**: أنَّ سُكَّانَ القُبورِ لا بُدَّ أن يَنصَرِفوا منها[(٢)].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ يدُلُّ على أنَّ البَرزخَ دارٌ مَقصودٌ منها النُّفوذُ إلى الدَّارِ الباقيةِ؛ لأنَّ اللهَ سَمَّاهم زائرينَ، ولم يُسَمِّهم مُقيمينَ؛ فدَلَّ ذلك على البَعثِ والجزاءِ بالأعمالِ في دارٍ باقيةٍ غيرِ فانيةٍ[(٣)].

٩- قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٣). ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٧٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤٧٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٣).

عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ ذكرَ اللهُ سُبحانَه في كِتابِه مَراتِبَ اليَقينِ، وهي ثلاثةٌ: حَقُّ اليَقينِ، وعِلمُ اليَقينِ، وعَيْنُ اليَقينِ:

**أوَّلُها**: عِلمُه، وهو التَّصديقُ التَّامُّ به؛ بحيثُ لا يَعرِضُ له شَكٌّ ولا شُبهةٌ تَقدَحُ في تَصديقِه، كعِلمِ اليَقينِ بالجنَّةِ مثلًا، وتَيَقُّنِهم أنَّها دارُ المُتَّقينَ ومَقَرُّ المُؤمنينَ، فهذه مَرتَبةُ العِلمِ؛ لِتَيَقُّنِهم أنَّ الرُّسلَ أَخبَروا بها عن اللهِ، وتَيَقُّنِهم صِدْقَ المُخبِرِ.

**المَرتَبةُ الثَّانيةُ**: عَيْنُ اليَقينِ؛ وهي مَرتَبةُ الرُّؤيةِ والمُشاهَدةِ، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾، وبيْنَ هذه المَرتَبةِ والَّتي قبلَها فَرْقُ ما بيْنَ العِلمِ والمُشاهَدةِ؛ فاليَقينُ للسَّمعِ، وعَيْنُ اليَقينِ للبَصرِ.

**المَرتَبةُ الثَّالثةُ**: مَرتَبةُ حَقِّ اليَقينِ؛ وهي مُباشَرةُ الشَّيءِ بالإحساسِ به، كما إذا أُدخِلُوا الجنَّةَ وتَمتَّعُوا بما فيها، فهُم في الدُّنيا في مَرتَبةِ عِلمِ اليَقينِ، وفي المَوقِفِ حينَ تُزْلَفُ وتُقرَّبُ منهم حتَّى يُعاينُوها في مَرتَبةِ عَيْنِ اليَقينِ، وإذا دَخلُوها وباشَرُوا نَعيمَها في مَرتَبةِ حَقِّ اليَقينِ[1].

فعِلْمُ اليَقينِ: ما عَلِمَه بالسَّماعِ والخبرِ والقياسِ والنَّظَرِ، وعَينُ اليقينِ: ما شاهَده وعايَنَه بالبصَرِ، وحَقُّ اليقينِ: ما باشَرَه ووَجَدَه وذاقَه وعَرَفَه بالاعتبارِ؛ فالأوَّلُ: مِثلُ مَن أُخْبِرَ أنَّ هناك عَسَلًا، وصَدَّقَ المُخْبِرَ، أو رأى آثارَ العسَلِ فاستدلَّ على وُجودِه. والثَّاني: مِثلُ مَن رأى العَسَلَ وشاهَدَه وعايَنَه، وهذا أعلى، كما قال النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ليس الخبرُ كالمُعايَنةِ))[2]. والثَّالثُ: مِثلُ

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ١٩١، ١٩٢).

(٢) أخرجه أحمدُ (١٨٤٢)، وابنُ حِبَّانَ (٦٢١٣)، والطَّبَرانيُّ في ((المعجم الأوسط)) (٢٥) مِن حديث ابنِ عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما.
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، والحاكمُ في ((المستدرك)) (٣٢٥٠)، والألبانيُّ في ((صحيح الجامع)) (٥٣٧٤)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٣/ ٣٤١)، وحسَّنه ابنُ حجر في =

مَن ذاق العَسَلَ ووَجَدَ طَعْمَه وحَلاوتَه، ومَعلومٌ أنَّ هذا أعلى مِمَّا قبْلَه[١].

١٠- قال تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ ﴿ لَتَرَوُنَّ ﴾ هذه الجُملةُ مُستقِلَّةٌ مُستأنَفةٌ لا صِلةَ لها بما قَبْلَها، وهي جُملةٌ قَسَميَّةٌ، فيها قَسَمٌ مُقَدَّرٌ، والتَّقديرُ: واللهِ لتَرَوُنَّ الجحيمَ، وليست جوابَ «لو»؛ ولهذا يجبُ على القارئِ أن يقِفَ عندَ قَولِه تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾. ونحن نَسمَعُ كثيرًا مِن الأئمَّةِ يُصَلُّونَ فيقولونَ: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾، وهذا الوَصلُ إمَّا غَفلةٌ منهم ونِسيانٌ، وإمَّا أنَّهم لم يتأمَّلوا الآيةَ حَقَّ التَّأمُّلِ، وإلَّا لو تأمَّلوها حَقَّ التَّأمُّلِ لَوجدوا أنَّ الوَصلَ يُفسِدُ المعنى؛ لأنَّه إذا قال: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ صارت رؤيةُ الجَحيمِ مَشروطةً بعِلْمِهم، وهذا ليس بصَحيحٍ؛ لذلك يجِبُ التَّنبُّهُ والتَّنبيهُ لهذا. وأيضًا فالمشروعُ أن يقفَ الإنسانُ عندَ رأسِ كلِّ آيةٍ[٢].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ الْتَحم آخِرُها بأوَّلِها على وَجهٍ هو مِن ألطَفِ الخِطابِ، وأدَقِّ المسالِكِ في النَّهي عمَّا يجُرُّ إلى العذابِ؛ لأنَّ العاقِلَ إذا عَلِمَ أنَّ بيْنَ يَدَيه سُؤالًا عن كُلِّ ما يَتلَذَّذُ به، عَلِمَ أنَّه يَعوقُه ذلك في زمَنِ السُّؤالِ عن لَذاذاتِ الجنَّةِ العَوالِ الغَوالِ؛ فكان خَوفُه مِن مُطلَقِ السُّؤالِ مانِعًا له عن التَّنَعُّمِ بالمُباحِ، فكيف بالمكروهِ، فكيف ثَمَّ كيف بالمحَرَّمِ؟! فكيف إذا كان السُّؤالُ مِن مَلِكٍ تَذوبُ لهيبتِه الجِبالُ؟ فكيف إذا كان السُّؤالُ على وَجهِ العِتابِ؟ فكيف إذا جَرَّ إلى العَذابِ[٣]؟!

---

= ((موافقة الخُبْر الخَبَر)) (٢/ ١٣٨).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٠/ ٦٤٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٢، ٢٣٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾

- في قَولِه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أعرَضَ عن ذِكْرِ المتكاثَرِ به؛ إرادةً لإطلاقِه وعُمومِه، وأنَّ كلَّ ما يُكاثِرُ به العبدُ غيرَه سِوى طاعةِ اللهِ ورَسولِه، وما يَعودُ عليه بنفعِ معادِه: فهو داخِلٌ في هذا التَّكاثرِ[١]. وأيضًا لم يُعيِّن -سُبحانه- المتكاثَرَ به، بل ترَكَ ذِكْرَه؛ لأنَّ المَذمُومَ هو نفْسُ التَّكاثُرِ بالشَّيءِ، لا المتكاثَرِ به، كما يقال: (شَغَلكَ اللَّعِبُ واللَّهوُ)، ولم يذكرْ ما يَلعبُ ويَلهُو به[٢].

- وحُذِفَ المُلْهى عنه، فلم يقلْ: ألهاكم عن كذا؛ للتَّعظيمِ المأخوذِ مِن الإبهامِ بالحذفِ، والمُبالَغةِ في الذمِّ حيثُ أشار إلى أنَّ ما يُلهي مذمومٌ، فضلًا عن الملهي عن أمرِ الدِّينِ[٣].

وعلى القولِ بأنَّ الخِطابَ للمُشركينَ: فلم يَذكُرِ المُلْهَى عنه لظُهورِ أنَّه القرآنُ والتَّدَبُّرُ فيه، والإنصافُ بتصديقِه، وهذا الإلهاءُ حَصَل منهم وتَحَقَّق كما دَلَّ عليه حِكايَتُه بالفعلِ الماضي[٤].

- والتَّعبيرُ بالفعلِ الماضي في ﴿زُرْتُمُ﴾ لتَنزيلِ المُستقبَلِ مَنزِلةَ الماضي؛ لأنَّه مُحقَّقٌ وُقوعُه[٥]. وقيل غيرُ ذلك[٦].

٢- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أُتبِعَ الخبَرُ

(١) يُنظر: ((الفوائد)) لابن القيم (ص: ٣٠).

(٢) يُنظر: ((عدة الصابرين)) لابن القيم (ص: ١٨٣). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧١).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥١٩).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٢٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧١)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٤٧٧).

المُستعمَلُ في التَّوبيخِ بالوعيدِ والإنذارِ على ذلك بعْدَ الموتِ، وبحرْفِ الزَّجرِ والإبطالِ بقولِه: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فأفاد ﴿كَلَّا﴾ زَجْرًا وإبطالًا لإلْهاءِ التَّكاثُرِ، وتَنبيهًا على أنَّ العاقلَ يَنْبغي له ألَّا يكونَ جَميعُ هَمِّه ومُعظَمُ سَعيِه للدُّنيا؛ فإنَّ عاقبةَ ذلك وَبالٌ وحَسرةٌ[١].

- وقولُه: ﴿سَوْفَ﴾ لتَحقيقِ حُصولِ العِلمِ، وحُذِفَ مَفعولُ ﴿تَعْلَمُونَ﴾؛ لظُهورِ أنَّ المرادَ: تَعلَمون سُوءَ مَغبَّةِ ما أنتُم عليه إذا عاينتُم عاقبَتَه[٢].

- وأُكِّدَ الزَّجرُ والوَعيدُ بقولِه: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فعُطِفَ عطْفًا لَفظيًّا بحَرْفِ التَّراخي أيضًا؛ للإشارةِ إلى تَراخي رُتبةِ هذا الزَّجرِ والوَعيدِ عن رُتبةِ الزَّجرِ والوَعيدِ الَّذي قبْلَه، فهذا زَجرٌ ووَعيدٌ مُماثلٌ للأوَّلِ، لكنَّ عَطْفَه بحَرْفِ (ثمَّ) اقْتَضى كَونَه أقْوى مِن الأوَّلِ؛ لأنَّه أفادَ تَحقيقَ الأوَّلِ وتَهويلَه، فجُملةُ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تَوكيدٌ لَفظيٌّ لجُملةِ ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يَنزِلُ بكم مِن عَذابٍ في القبرِ، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عندَ البَعثِ أنَّ ما وُعِدتُم به صِدقٌ، أي: تُجعَلُ كلُّ جُملةٍ مُرادًا بها تَهديدٌ بشَيءٍ خاصٍّ، وهذا مِن مُسْتَتْبَعاتِ التَّراكيبِ والتَّعويلِ على مَعونةِ القرائنِ بتَقديرِ مَفعولٍ خاصٍّ لكلٍّ مِن فِعلَيْ ﴿تَعْلَمُونَ﴾، وليس تَكريرُ الجُملةِ بمُقتضٍ ذلك في أصلِ الكلامِ، ومُفادُ التَّكريرِ حاصلٌ على كلِّ حالٍ[٣]. وقيل: كرَّر اللفظَينِ؛ لأنَّ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٩، ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، =

أحدَهما توعُّدٌ غيرُ ما تُوعِّدَ به الآخَرُ؛ فالأوَّلُ توعُّدٌ بما يَنالُهم في الدُّنيا، والثَّاني توعُّدٌ بما أُعِدَّ لهم في الأُخرى. وقيل: الأوَّلُ ما يَلقَوْنه عندَ الفِراقِ إذا بُشِّروا بالمصيرِ إلى النَّارِ، والثاني ما يَرَوْنه مِن عذابِ القبرِ؛ فكِلاهُما عذابٌ في الدُّنيا، إلَّا أنَّ أحدَهما غيرُ الآخَرِ، وهو مِثلُه في الشِّدَّةِ؛ فلذلك أُعيدَ بتلك اللَّفظةِ. وإذا حُمِل على عذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخرةِ، لم يكُنْ تَكرارًا[1].

وفيه وجْهٌ آخَرُ: أنَّه تهديدٌ ووعيدٌ، فناسَبَه التَّكريرُ تَحقيقًا وتثبيتًا؛ كقولِه: ﴿ٱلْحَآقَّةُ * مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١، ٢]، و﴿ٱلْقَارِعَةُ * مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ [القارعة: ١، ٢]، وما أتى مِن مِثلِ هذا[2].

٣- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾

- جُملةُ ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ تَهويلٌ وإزعاجٌ؛ لأنَّ حذْفَ جَوابِ ﴿لَوْ﴾ يَجعَلُ النُّفوسَ تَذهَبُ في تَقديرِه كلَّ مَذهبٍ مُمكِنٍ؛ لِما في حَذْفِه مِن مُبالَغةِ التَّهويلِ، يعني: لو تَعلَمون عِلمَ اليقينِ لَتبيَّنَ لكم حالٌ مُفظِعٌ عَظيمٌ، أو لَفَعلْتُم ما لا يُوصَفُ ولا يُكتَنهُ، وهي بَيانٌ لِما في ﴿كَلَّا﴾ مِن الزَّجْرِ[3].

- قَولُه: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي: لو تَعْلَمونَ ما بَيْنَ أيديكم عِلْمَ الأمرِ

---

= ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٦٩، ٥٧٠).

(١) يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٦٨)، ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٥).

(٢) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢١، ٥٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٠).

المتيَقَّنِ، أي: كعِلْمِكم ما تَسْتَيقِنونَه مِنَ الأُمورِ، فالعِلْمُ مُضافٌ للمَفعولِ، واليَقينُ بمعنى المتيَقَّنِ، صِفةٌ لمُقَدَّرٍ، وجُوِّز كونُ الإضافةِ مِن إضافةِ المَوصوفِ إلى صِفَتِه، أي: العِلمَ اليَقينَ، وفائِدةُ الوَصْفِ ظاهِرةٌ بِناءً على أنَّ العِلْمَ يُطلَقُ على غَيرِ اليَقينِ[1].

- قولُه: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ؛ لأنَّ ما سَبَقَه مِن الزَّجرِ والرَّدعِ المُكرَّرِ، ومِن الوعيدِ المُؤكَّدِ على إجمالِه؛ يُثيرُ في نفْسِ السَّامعِ سُؤالًا عمَّا يُترقَّبُ مِن هذا الزَّجرِ والوَعيدِ، فكان قولُه: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ جَوابًا عمَّا يَجيشُ في نفْسِ السَّامعِ، وهو جَوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ أُكِّدَ به الوعيدُ، وأُوضِحَ به ما أنْذَرَهم منه بعْدَ إبهامِه تَفخيمًا[2].

- وعلى القولِ بأنَّ الخِطابَ للمُشركينَ فالإخبارُ عن رُؤيتِهم الجَحيمَ كِنايةٌ عن الوُقوعِ فيها؛ فإنَّ الوُقوعَ في الشَّيءِ يَستلزِمُ رُؤيتَه، فيُكنَّى بالرُّؤيةِ عن الحُضورِ، وأُكِّدَ ذلك بقولِه: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾؛ قصْدًا لتَحقيقِ الوعيدِ بمَعناهُ الكِنائيِّ[3].

- وكُرِّرَ القسَمُ مَعطوفًا بحرْفِ ﴿ ثُمَّ ﴾ في قولِه: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾؛ تَغليظًا في التَّهديدِ، وزِيادةً في الوَعيدِ والتَّهويلِ، وتَأكيدًا له. وقيل: الأُولى إذا رَأَتْهم مِن مَكانٍ بعيدٍ، والثَّانيةُ إذا وَرَدوها. أو الأوَّلُ قبْلَ دُخولِهم الجَحيمَ، والثَّاني بعْدَه؛ ولهذا قال عَقِبَه: ﴿ عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾. أو المرادُ بالأُولى المَعرفةُ،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٢، ٥٢٣).

وبالثَّانيةِ الإبصارُ[١].

- وعَينُ اليَقينِ: اليقينُ الَّذي لا يَشوبُه تَردُّدٌ، فلَفظُ (عَينِ) مُعبَّرٌ به عن حَقيقةِ الشَّيءِ الخالصةِ، غيرِ النَّاقصةِ ولا المُشابِهةِ، وإضافةُ ﴿عَيْنَ﴾ إلى ﴿ٱلْيَقِينِ﴾ بَيانيَّةٌ[٢].

- وفي قولِه: ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ تَأكيدٌ للرُّؤيةِ بأنَّها يَقينٌ، وأنَّ اليقينَ حَقيقةٌ[٣].

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ على القولِ بأنَّ الخِطابَ للمشركينَ: فقد أُعقِبَ التَّوبيخُ والوعيدُ على لَهْوِهم بالتَّكاثُرِ عن النَّظرِ في دَعوةِ الإسلامِ، مِن حيثُ إنَّ التَّكاثُرَ صَدَّهم عن قَبولِ ما يُنجِّيهم؛ بتَهديدٍ وتَخويفٍ مِن مُؤاخَذتِهم على ما في التَّكاثُرِ مِن نَعيمٍ تَمتَّعوا به في الدُّنيا ولم يَشكُروا اللهَ عليه بقولِه: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أي: عن النَّعيمِ الَّذي خُوِّلْتُموه في الدُّنيا، فلمْ تَشكُروا اللهَ عليه وكان به بَطَرُكم[٤].

- وعُطِفَ هذا الكلامُ بحرْفِ ﴿ثُمَّ﴾ الدَّالِّ على التَّراخي الرُّتبيِّ في عطْفِه الجُمَلَ مِن أجْلِ أنَّ الحِسابَ على النَّعيمِ الَّذي هو نِعمةٌ مِن اللهِ أشدُّ عليهم؛ لأنَّهم ما كانوا يَترقَّبونه؛ لأنَّ تَلبُّسَهم بالإشراكِ وهُمْ في نَعيمٍ أشدُّ كُفرانًا للَّذي أنْعَمَ عليهم[٥]. وذلك على القولِ بأنَّ الخِطابَ للمشرِكين.

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٤)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٣).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٢٤).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

- والجُملةُ المضافُ إليها (إذْ) مِن قولِه: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ مَحذوفةٌ دلَّ عليها قولُه: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦]، أي: يومَ إذ تَرَونَّ الجَحيمَ فيُغلَّظُ عليكم العَذابُ[١]. وذلك على القولِ بأنَّ الخِطابَ للمشرِكين.

- قولُه: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ السُّؤالُ عن النَّعيمِ المُوجَّهُ إلى المشرِكين هو غيرُ السُّؤالِ الَّذي يُسأَلُه كلُّ مُنعَمٍ عليه فيما صَرَفَ فيه النِّعمةَ؛ فإنَّ النِّعمةَ لَمَّا لم تكُنْ خاصَّةً بالمُشرِكين -خِلافًا للتَّكاثُرِ- كان السُّؤالُ عنها حَقيقًا بكلِّ مُنعَمٍ عليه وإنِ اختَلَفَت أحوالُ الجَزاءِ المُترتِّبِ على هذا السُّؤالِ. فالكلُّ سيُسْأَلُ، ولكنْ سُؤالُ الكافرِ سُؤالُ تَوبيخٍ؛ لأنَّه قد تَرَكَ الشُّكرَ، وسُؤالُ المؤمنينَ سُؤالٌ لتَرتيبِ الثَّوابِ على الشُّكرِ، أو مِن أجْلِ المُؤاخَذةِ بالنَّعيمِ الحرامِ[٢].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٤، ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢١٢).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ العَصْرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ العَصْرِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (العَصْرِ)[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ العَصْرِ مكِّيَّةٌ، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

بَيانُ مَن هُم أهْلُ الخُسرانِ، ومَن هُم أهلُ السَّعادةِ[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

١- القَسَمُ بالعَصرِ على ثُبوتِ الخُسرانِ للإنسانِ.

---

(١) سمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بالقَسَمِ الإلهيِّ في قولِه: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٢).

قال ابن عاشور: (وسُمِّيتْ في بعضِ كتبِ التَّفسيرِ وفي «صحيحِ البخاريِّ» سورةَ «والعصرِ» بإثباتِ الواوِ على حكايةِ أوَّلِ كلمةٍ فيها، أيْ: سورةُ هذه الكلمةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٧).

(٢) نقَل الإجماعَ على ذلك: البِقاعيُّ. يُنظر: ((مصاعد النظر)) (٣/ ٢٤٥).

ونسَب ابنُ الجَوزيِّ، وأبو حيَّانَ، والشَّوكانيُّ القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ إلى الجمهورِ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٠).

وقيل: السُّورةُ مدَنيَّةٌ. يُنظر: المصادر السَّابقة.

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٤٩٩). ويُنظر أيضًا: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٢).

٢- إثباتُ نَجاةِ وفَوْزِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، والمُوصِي بَعضُهم بَعضًا بالحَقِّ والصَّبرِ.

## الآيات (١-٢)

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾.

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُقسِمًا بالعَصرِ على أنَّ كُلَّ إنسانٍ في خَسارةٍ وهَلاكٍ، إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ، وأوصى بعضُهم بَعضًا باتِّباعِ دِينِ الإسلامِ، وبالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعن معصيةِ اللهِ، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١﴾.

أي: أُقسِمُ بالعَصرِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٢٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٧).

قال ابنُ الجوزي: (﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ فيه ثلاثةُ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّه الدَّهرُ. قاله ابنُ عبَّاسٍ، وزَيدُ بنُ أسلَمَ، والفرَّاءُ، وابنُ قُتَيبةَ. وإنَّما أقسَمَ بالدَّهرِ؛ لأنَّ فيه عِبرةً للنَّاظرِ مِن مُرورِ اللَّيلِ والنَّهارِ على تقديرٍ لا يَنخَرِمُ.

والثَّاني: أنَّه العَشيُّ، وهو ما بيْن زَوالِ الشَّمسِ وغُروبِها. قاله الحسَنُ، وقَتادةُ.

والثَّالثُ: صلاةُ العَصرِ. قاله مقاتلٌ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٧).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ بالعَصرِ: الدَّهرُ وعُمومُ الزَّمَنِ: الفرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبةَ، وابنُ جرير، وابنُ كثير، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٨)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٧). =

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢﴾

أي: إنَّ كُلَّ إنسانٍ لَفي خَسارةٍ وهَلاكٍ[1].

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

أي: إلَّا الَّذين آمَنوا بكُلِّ ما وجَبَ عليهم الإيمانُ به[2].

كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي حَديثِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه في قِصَّةِ سُؤالِ جِبريلَ عليه السَّلامُ، قال للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: أخبِرْني عن الإيمانِ، فقال: ((أن تؤمِنَ باللهِ

---

= قال السعدي: (أقسَمَ تعالى بالعَصرِ الَّذي هو اللَّيلُ والنَّهارُ؛ محَلُّ أفعالِ العِبادِ وأعمالِهم). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: صلاةُ العَصرِ: السمرقنديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦١٥).

وقال مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ: (أقسَمَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بعَصرِ النَّهارِ، وهو آخِرُ ساعةٍ مِنَ النَّهارِ، وأيضًا «العَصرُ» سُمِّيَت العَصرَ حينَ تصَوَّبَت الشَّمسُ للغُروبِ، وهو عَصرُ النَّهارِ؛ فأقسَمَ اللهُ عزَّ وجَلَّ بصلاةِ العَصرِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٢٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٧، ٣٠٨).

قال الواحدي: (قال أهلُ المعاني: الخُسْرُ: هلاكُ رأسِ المالِ، والإنسانُ في هلاكِ نَفْسِه وعُمُرِه -وهما أكثَرُ رأسِ مالِه- إلَّا المؤمِنَ العامِلَ بطاعةِ اللهِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٥١).

وقال السعدي: (الخاسِرُ ضِدُّ الرَّابِحِ، والخَسارُ مَراتِبُ متعَدِّدةٌ مُتفاوِتةٌ؛ قد يكونُ خَسارًا مُطلَقًا، كحالِ مَن خَسِرَ الدُّنيا والآخِرةَ، وفاتَه النَّعيمُ، واستحَقَّ الجحيمَ، وقد يكونُ خَسارًا مِن بَعضِ الوُجوهِ دونَ بَعضٍ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤). ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٣٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٠٨).

وملائِكَتِه وكُتُبِه ورُسُلِه واليَومِ الآخِرِ، وتُؤمِنَ بالقَدَرِ؛ خَيرِه وشَرِّه))[١].

﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾.

أي: وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ الظَّاهِرةَ والباطِنةَ بإخلاصٍ للهِ، ومُتابَعةٍ لِرَسولِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ[٢].

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾.

أي: وأوصى بعضُهم بَعضًا بلُزومِ القُرآنِ، واتِّباعِ دِينِ الإسلامِ[٣].

﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾.

أي: وأوصى بَعضُهم بَعضًا بالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعن معصيةِ اللهِ، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ[٤].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- عن بعضِ السَّلفِ قال: (تعلَّمْتُ معنَى سورةِ العَصرِ مِن بائعِ الثَّلجِ، كان يَصيحُ ويقولُ: «ارحَموا مَن يَذوبُ رأسُ مالِه، ارحَموا مَن يَذوبُ رأسُ مالِه»،

---

(١) رواه مسلم (٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٣)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ١٣٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٤)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥١)، ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١١).
قال السعدي: (التَّواصي بالصَّبرِ على طاعةِ اللهِ، وعن معصيةِ اللهِ، وعلى أقدارِ اللهِ المؤلِمةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

فقلتُ: هذا معنى ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، يمُرُّ به العصرُ فيَمضي عُمُرُه ولا يَكتسِبُ، فإذا هو خاسِرٌ)[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ في هذا الاستثناءِ تنبيهٌ على أنَّ كُلَّ ما دعاك إلى طاعةِ اللهِ فهو الصَّلاحُ، وكُلَّ ما شغَلَك عن اللهِ بغَيرِه فهو الفَسادُ[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ فيه وعيدٌ شديدٌ؛ وذلك لأنَّه تعالى حكَمَ بالخَسارِ على جميعِ النَّاسِ، إلَّا مَن كان آتيًا بهذه الأشياءِ الأربعةِ؛ وهي: الإيمانُ، والعمَلُ الصَّالحُ، والتَّواصي بالحَقِّ، والتَّواصي بالصَّبرِ؛ فدَلَّ ذلك على أنَّ النَّجاةَ مُعَلَّقةٌ بمَجموعِ هذه الأمورِ، وأنَّه كما يَلزَمُ المكَلَّفَ تحصيلُ ما يخُصُّ نفْسَه، فكذلك يَلزَمُه في غيرِه أُمورٌ؛ منها: الدُّعاءُ إلى الدِّينِ، والنَّصيحةُ، والأمرُ بالمعروفِ، والنَّهيُ عن المنكَرِ، وأن يُحِبَّ له ما يحِبُّ لنَفْسِه[٣].

٤- قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ دلَّ استِثناءُ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ مِن أنْ يَكونوا في خُسرٍ على أنَّ سَببَ كَونِ بَقيَّةِ الإنسانِ في خُسرٍ هو عدَمُ الإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ؛ بدَلالةِ مَفهومِ الصِّفةِ[٤]، وعُلِمَ مِن المَوصولِ أنَّ الإيمانَ والعمَلَ الصَّالحَ هما

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٧٨). ويُنظر أيضًا: ((المدهش)) لابن الجوزي (ص: ٣٥٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٢٨٢).

(٤) مَفهومُ الصِّفةِ: هو تَعليقُ الحُكمِ على الذَّاتِ بأحدِ الأوصافِ، نحو: في الغنمِ السَّائمةِ زكاةٌ، فتخصيصُ الغنمِ بالسَّومِ لو لم يكُنْ للفرقِ بينَ السَّائمةِ وغيرِها في الحكمِ لكان تطويلًا بلا فائدةٍ. يُنظر: ((نهاية السول شرح منهاج الوصول)) للإسنوي (ص: ١٥٠)، ((البحر المحيط =

سَببُ انتفاءِ إحاطةِ الخُسرِ بالإنسانِ[١].

ولم يَكْتَفِ منهم بمعرفةِ الحقِّ والصَّبرِ عليه، حتَّى يُوصِيَ بعضُهم بعضًا به، ويُرْشِدَه إليه، ويَحُضَّه عليه[٢].

٥- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ يدُلُّ على أنَّ الحَقَّ ثقيلٌ، وأنَّ المِحَنَ تُلازِمُه؛ فلذلك قُرِنَ به التَّواصي[٣].

٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ يدُلُّ على إقامةِ المصالحِ الدِّينيَّةِ كُلِّها؛ فالعقائدُ الإسلاميَّةُ والأخلاقُ الدِّينيَّةُ مُندَرِجةٌ في الحَقِّ، والأعمالُ الصَّالحةُ وتجنُّبُ السَّيِّئاتِ مُندَرِجةٌ في الصَّبرِ، والتَّخلُّقُ بالصَّبرِ مِلاكُ فَضائلِ الأخلاقِ كلِّها؛ فإنَّ الارتياضَ بالأخلاقِ الحَميدةِ لا يَخْلو مِن حمْلِ المرْءِ نفْسَه على مُخالَفةِ شَهواتٍ كَثيرةٍ، ففي مُخالَفتِها تَعَبٌ يَقْتضي الصَّبرَ عليه حتَّى تَصيرَ مَكارمُ الأخلاقِ مَلَكةً لِمَن راضَ نفْسَه عليها، كما قال عَمْرُو بنُ العاصِ:

إذا المَرْءُ لم يَتْرُكْ طَعامًا يُحِبُّهُ ... ولم يَنْهَ قلْبًا غاويًا حيثُ يَمَّمَا
فيُوشِكُ أنْ تَلْفَى له الدَّهرَ سُبَّةً ... إذا ذُكِرَتْ أمْثالُها تَملأُ الفَمَا

وكذلك الأعمالُ الصَّالحةُ كلُّها لا تَخْلو مِن إكراهِ النَّفْسِ على تَرْكِ ما تَميلُ إليه، وفي الحديثِ: ((حُفَّتِ الجنَّةُ بالمَكارِهِ، وحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَواتِ))[٤].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ جمَعَ سُبحانَه بيْن «تواصَوا

---

= في أصول الفقه)) للزركشي (٥/ ١٥٥)، ((مذكرة في أصول الفقه)) للشنقيطي (ص: ٢٨٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: ٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٣).

والحديث أخرجه مسلم (٢٨٢٢) من حديث أنسِ بنِ مالكٍ رضيَ الله عنه.

بالحَقِّ» الَّذي يَدفَعُ الشُّبُهاتِ، وبيْن الصَّبرِ الَّذي يَكُفُّ عن الشَّهَواتِ، وقد جَعَل سُبحانَه إمامةَ الدِّينِ مَنوطةً بهذَين الأمْرَينِ، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[1] [السجدة: ٢٤].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ لا بُدَّ مِن التَّواصي بالحَقِّ والصَّبرِ؛ إذ إنَّ أهلَ الفَسادِ والباطِلِ لا يقومُ باطِلُهم إلَّا بصبرٍ عليه أيضًا، لكِنِ المؤمنونَ يَتواصَونَ بالحَقِّ والصَّبرِ، وأولئك يتواصَونَ بالصَّبرِ على باطِلِهم، كما قال قائِلُهم: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ [ص: ٦]، فالتَّواصي بالحَقِّ بدونِ الصَّبرِ -كما يفعَلُه الَّذين يقولونَ: آمَنَّا باللهِ، فإذا أُوذِيَ أحَدُهم في اللهِ جَعَل فِتنةَ النَّاسِ كعذابِ اللهِ، والَّذين يَعبُدونَ اللهَ على حَرْفٍ، فإنْ أصاب أحَدَهم خيرٌ اطمأنَّ به، وإنْ أصابَتْه فتنةٌ انقَلَب على وجْهِه خَسِرَ الدُّنيا والآخرةَ- والتَّواصي بالصَّبرِ بدونِ الحَقِّ: كِلاهما مُوجِبٌ للخُسرانِ، وإنَّما نجا مِن الخُسرانِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالِحاتِ، وتواصَوا بالحَقِّ وتواصَوا بالصَّبرِ، وهذا موجودٌ في كلِّ مَن خرَج عن هؤلاء مِن أهلِ الشَّهَواتِ الفاسِدةِ، وأهلِ الشُّبُهاتِ الفاسِدةِ؛ أهلِ الفُجورِ، وأهلِ البِدَعِ[2].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ فيه فضيلةُ الصَّبرِ على تزكيةِ النَّفْسِ، ودَعوةِ الحَقِّ[3].

١٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ أفادتْ صِيغةُ التَّواصي بالحقِّ وبالصَّبرِ أنْ يكونَ شَأنُ حَياةِ المؤمنينَ قائمًا على شُيوعِ التَّواصي بهما دَيدنًا لهم، وذلك يَقْتضي اتِّصافَ المؤمنينَ بإقامةِ الحقِّ، وصَبْرِهم على المَكارِهِ

(١) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (٢/ ١٦٧).

(٢) يُنظر: ((جامع الرسائل)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٨).

في مَصالحِ الإسلامِ وأُمَّتِه؛ لِما يَقتضيهِ عُرفُ النَّاسِ مِن أنَّ أحدًا لا يُوصي غيرَه بمُلازَمةِ أمرٍ إلَّا وهو يَرى ذلك الأمرَ خَليقًا بالمُلازَمةِ؛ إذ قَلَّ أنْ يُقدِمَ أحدٌ على أمرٍ بحَقٍّ هو لا يَفعَلُه، أو أمرٍ بصَبرٍ وهو ذو جَزَعٍ، وقد قال اللهُ تعالَى تَوبيخًا لبني إسرائيلَ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[1] [البقرة: ٤٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أَقْسَمَ سُبحانَه وتعالى بالدَّهرِ -الَّذي هو زمنُ الأعمالِ الرَّابحةِ والخاسرةِ- على أنَّ كلَّ واحدٍ في خُسْرٍ إلَّا مَن كَمَّلَ قوَّتَه العِلميَّةَ، وقوَّتَه العَمَليَّةَ[2]، والمراتِبُ أربعةٌ، وباستِكمالِها يحصُلُ للشَّخصِ غايةُ كمالِه: إحداها: مَعرِفةُ الحَقِّ. الثَّانيةُ: عَمَلُه به. الثَّالثةُ: تعليمُه مَن لا يحسِنُه. الرَّابعةُ: صَبرُه على تعَلُّمِه والعَمَلِ به وتعليمِه؛ فذكَرَ تعالى المراتِبَ الأربعةَ في هذه السُّورةِ، وأقسَمَ سُبحانَه في هذه السُّورةِ بالعَصْرِ إنَّ كُلَّ أحدٍ في خُسْرٍ إلَّا الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، وهم الَّذين عَرَفوا الحَقَّ وصَدَّقوا به. فهذه مرتبةٌ. ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، وهم الَّذين عَمِلوا بما عَلِموه مِن الحَقِّ، فهذه مرتبةٌ أُخرى. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وصَّى به بعضُهم بعضًا؛ تعليمًا وإرشادًا، فهذه مرتبةٌ ثالثةٌ. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ صَبَروا على الحَقِّ، ووصَّى بعضُهم بعضًا بالصَّبرِ عليه والثَّباتِ، فهذه مرتبةٌ رابعةٌ. وهذا نهايةُ الكمالِ؛ فإنَّ الكمالَ أن يكونَ الشَّخصُ كامِلًا في نَفْسِه، مُكَمِّلًا لغيرِه، وكَمالُه بإصلاحِ قوَّتَيه العِلميَّةِ والعَمَليَّةِ؛ فصلاحُ القُوَّةِ العِلميَّةِ بالإيمانِ، وصلاحُ القُوَّةِ العَمليَّةِ بعمَلِ الصَّالحاتِ، وتكميلِه غَيرَه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٤).

(٢) يُنظر: ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (١/ ٢٥).

بتعليمِه إيَّاه، وصَبرِه عليه، وتوصيتِه بالصَّبرِ على العِلمِ والعَملِ؛ فهذه السُّورةُ على اختِصارِها هي مِن أجمَعِ سُوَرِ القُرآنِ الكريمِ للخَيرِ بحذافيرِه، والحَمدُ للهِ الَّذي جَعَل كِتابَه كافيًا عن كُلِّ ما سِواه، شافيًا مِن كُلِّ داءٍ، هاديًا إلى كُلِّ خَيرٍ؛ لذا قال الشَّافعيُّ رَضِيَ اللهُ عنه: (لو فكَّر النَّاسُ كُلُّهم في هذه السُّورةِ لَكَفَتْهم)[١]، فهذه السُّورةُ ميزانٌ للأعمالِ يَزِنُ المؤمنُ بها نفْسَه، فيَبينُ له بها رِبحُه مِن خُسرانِه[٢]. لذا كان حقيقًا بالإنسانِ أن يُنفِقَ ساعاتِ عُمرِه -بل أنفاسَه- فيما يَنالُ به المطالبَ العاليةَ، ويخلصُ به مِن الخُسرانِ المُبينِ، وليس ذلك إلَّا بالإقبالِ على القرآنِ وتفَهُّمِه وتدَبُّرِه، واستِخراجِ كُنوزِه، وإثارةِ دفائنِه، وصَرفِ العنايةِ إليه، والعُكوفِ بالهمَّةِ عليه؛ فإنَّه الكفيلُ بمصالحِ العبادِ في المَعاشِ والمَعادِ، والموصلِ لهم إلى سبيلِ الرَّشادِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ أنَّ الَّذين اتَّصفوا بهذه الصِّفاتِ الأربَعِ هم الرَّابِحونَ، ومَن سِواهم فهو خاسِرٌ عصْرَه، وهذه الحِكمةُ مِن أنَّ اللهَ أَقْسَمَ بالعَصرِ دونَ غيرِه؛ لأنَّ العصرَ هو خزائنُ الأعمالِ، فإذا لم يَقُمِ الإنسانُ بهذه الصِّفاتِ الأربَعِ خَسِرَ عصْرَه، وكان عُمُرُه خَسارةً[٤].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ فيه سُؤالٌ: الآيةُ يدُلُّ ظاهِرُها على أنَّ هذا المخبَرَ عنه أنَّه في خُسرٍ إنسانٌ واحِدٌ، بدليلِ إفرادِ لَفظةِ الإنسانِ، واستثناؤُه مِن ذلك الإنسانِ الواحِدِ لَفظًا قَولَه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

(١) يُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (١/ ٥٦، ٥٧).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- سورة آل عمران)) (٢/ ٢٨١).

يَقتضي أنَّه ليس إنسانًا واحِدًا؟

**الجوابُ**: أنَّ لَفظَ (الإنسانِ) وإنْ كان واحِدًا فالألِفُ واللَّامُ للاستغراقِ، يَصيرُ المفرَدُ بسَبَبِهما صيغةَ عُموم، وعليه فمعنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: إنَّ كُلَّ إنسانٍ؛ لدَلالةِ (أل) الاستغراقيَّةِ على ذلك[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، فيه سُؤالٌ: قال تعالى في سُورةِ التِّينِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤، ٥]، فهناك يدُلُّ على أنَّ الابتِداءَ مِن الكَمالِ، والانتِهاءَ إلى النُّقصانِ، وهاهنا يدُلُّ على أنَّ الابتِداءَ مِن النُّقصانِ، والانتِهاءَ إلى الكَمالِ، فكيفَ وَجهُ الجَمْعِ؟

**الجوابُ**: أنَّ المَذكُورَ في سُورةِ التِّينِ أَحوالُ البَدَنِ -وذلك على قَولٍ في التَّفسيرِ-، وهاهنا أَحوالُ النَّفْسِ، فلا تَناقُضَ بيْن القَولَينِ[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ لم يبيِّنْ نوعَ الخُسرانِ في أيِّ شَيءٍ، بل أطلَقَ؛ ليَعُمَّ[٣].

٦- تأمَّلْ حِكمةَ القرآنِ؛ لَمَّا قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ فإنَّه ضَيَّقَ الاستثناءَ وخَصَّصَه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾، ولَمَّا قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] وَسَّعَ الاستثناءَ وعَمَّمَه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦] ولم يَقُلْ: «وتَواصَوا»؛ فإنَّ التَّواصيَ هو أمْرُ الغَيرِ بالإيمانِ والعمَلِ الصَّالحِ -وهو قَدْرٌ زائدٌ على مجرَّدِ فِعْلِه- فمَن لم يكُنْ كذلك فقد خَسِرَ هذا الرِّبحَ، فصار في خُسْرٍ، ولا يَلْزَمُ أنْ يكونَ في أسفَلِ

---

(١) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٠).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ٨٩).

سافِلينَ؛ فإنَّ الإنسانَ قد يقومُ بما يجبُ عليه ولا يأمُرُ غيرَه؛ فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنَّهيَ عن المنكَرِ مرتبةٌ زائدةٌ، وقد تكونُ فرضًا على الأعيانِ، وقد تكون فرضًا على الكفايةِ، وقد تكون مُستحَبَّةً.

والتَّواصِي بالحَقِّ يَدخُلُ فيه الحَقُّ الَّذي يجِبُ، والحَقُّ الَّذي يُستحَبُّ، والصَّبرُ يَدخُلُ فيه الصَّبرُ الَّذي يجِبُ، والصَّبرُ الَّذي يُستحَبُّ، فهؤلاء إذا تَواصَوا بالحَقِّ وتَواصَوا بالصَّبرِ حصلَ لهم مِن الرِّبحِ ما خَسِرَه أولئك الَّذين قامُوا بما يجِبُ عليهم في أَنفُسِهم ولم يَأمُروا غيرَهم به، وإنْ كان أولئك لم يَكونوا مِن الَّذين خَسِروا أنفُسَهم وأَهْلِيهم؛ فمُطلَقُ الخَسارِ شَيءٌ، والخَسارُ المُطلقُ شَيءٌ، وهو سُبحانَه إنَّما قال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، ومَن رَبِحَ في سِلعةٍ وخَسِرَ في غيرِها قد يُطلقُ عليه أنَّه في خُسرٍ وأنَّه ذو خُسرٍ؛ كما قال عبدُ الله بنُ عُمرَ رَضِيَ الله عنهما: (لقد فَرَّطْنا في قَراريطَ كثيرةٍ)[1]، فهذا نَوعُ تَفريطٍ، وهو نَوعُ خُسرٍ بالنِّسبةِ إلى مَن حَصَّلَ رِبْحَ ذلك.

ولَمَّا قال في سُورةِ (والتِّينِ): ﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾، قال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، فقَسَّمَ النَّاسَ إلى هَذينِ القِسمَينِ فقط، ولَمَّا كان الإنسانُ له قُوَّتانِ: قُوَّةُ العِلمِ وقُوَّةُ العَمَلِ، وله حالَتانِ: حالةُ يَأتَمِرُ فيها بأَمْرِ غيرِه، وحالةٌ يأمُرُ فيها غيرَه؛ استَثنَى سُبحانَه مَن كمَّلَ قُوَّتَه العِلميَّةَ بالإيمانِ، وقُوَّتَه العَمَليَّةَ بالعمَلِ الصَّالِحِ، وانقادَ لأمْرِ غيرِه له بذلك، وأمَرَ غيرَه به- مِن الإنسانِ الَّذي هو في خُسرٍ، فإنَّ العبدَ له حالتانِ: حالةُ كَمالٍ في نَفْسِه، وحالةُ تَكمِيلٍ لغيرِه؛ وكَمالُه وتَكمِيلُه مَوقوفٌ على أمْرَينِ: عِلمٌ بالحَقِّ وصَبرٌ عليه، فتَضمَّنَت الآيةُ جَميعَ مَراتِبِ الكَمالِ الإنسانيِّ؛ مِن العِلمِ النَّافِعِ، والعَملِ الصَّالِحِ، والإحسانِ إلى

(١) أخرجه البخاري (١٣٢٤)، ومسلم (٩٤٥).

نَفْسِه بذلك وإلى أَخيهِ به، وانقِيادِه وقَبولِه لِمَن يَأمُرُه بذلك[١].

٧- قولُه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، وقولُه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]، وقولُه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقولُه: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] هذا شَأْنُ الإنسانِ مِن حيثُ ذاتُه ونفْسُه، وأمَّا خروجُه عن هذه الصِّفاتِ فهو بفَضلِ ربِّه وتوفيقِه له ومِنَّتِه عليه، لا مِن ذاتِه؛ فليس له مِن ذاتِه إلَّا هذه الصِّفاتُ، وما به مِن نِعمةٍ فمِن اللهِ وَحْدَه[٢].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾، ولم يقلْ: (ويَتواصَونَ)؛ لأنَّ الغَرضَ مَدحُهم بما صدَر عنهم في الماضي، وذلك يُفيدُ رَغبتَهم في الثَّباتِ عليه في المُستقبَلِ[٣].

٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ اختيرَ التَّعبيرُ بالوصيَّةِ؛ إشارةً إلى الرِّفقِ في الأمرِ بالمعروفِ والنَّهيِ عن المنكَرِ، واستعمالِ اللِّينِ بغايةِ الجُهدِ[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ فيه إثباتُ نجاةِ وفَوزِ الَّذين آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ، والدَّاعينَ منهم إلى الحَقِّ[٥].

---

(١) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٥).

(٢) يُنظر: ((الروح)) لابن القيم (ص: ١٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٢).

(٤) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٨).

## بلاغةُ الآياتِ:

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾

- أقسَمَ اللهُ تعالَى بالعَصْرِ قَسَمًا يُرادُ به تَأكيدُ الخبَرِ، كما هو شَأنُ أقسامِ القرآنِ الكريمِ، والمُقسَمُ به مِن مَظاهرِ بَديعِ التَّكوينِ الرَّبَّانيِّ الدَّالِّ على عَظيمِ قُدرتِه وسَعةِ عِلمِه، وأيًّا ما كان المرادُ منه هنا؛ فإنَّ القسَمَ به باعتبارِ أنَّه زمَنٌ يُذكِّرُ بعَظيمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى في خلْقِ العالَمِ وأحوالِه، وبأُمورٍ عَظيمةٍ مُبارَكةٍ، مِثلِ الصَّلاةِ المَخصوصةِ، أو عصْرٍ مُعيَّنٍ مُبارَكٍ؛ فقيل: أقسَمَ بصَلاةِ العصْرِ؛ لفَضْلِها، ولأنَّ التَّكليفَ في أدائِها أشقُّ؛ لتَهافُتِ النَّاسِ في تِجاراتِهم ومَكاسِبِهم آخِرَ النَّهارِ، واشتِغالِهم بمَعايِشِهم. أو أقسَمَ بالعَشيِّ كما أقسَمَ بالضُّحى؛ لِما فيهما جَميعًا مِن دَلائلِ القُدرةِ. أو أقسَمَ بالزَّمانِ؛ لِيُذَكِّرَ بما فيه مِن النِّعَمِ وأضْدادِها لتَنبيهِ الإنسانِ على أنَّه مُستعِدٌّ للخُسرانِ والسَّعادةِ، والتَّعريضِ بنَفْيِ ما يُضافُ إلى الزَّمانِ مِن الخُسرانِ؛ لأنَّ النَّاسَ تُضيفُ كلَّ شَيءٍ له، ووجهُ نفيِه عنه أنَّ اللهَ لَمَّا أقسَمَ به وعظَّمَه، عُلِم أنَّه لا خُسرانَ له، ولا دخْلَ له فيه، وإضافتُه للإنسانِ تُشعِرُ بأنَّه صِفةٌ له لا للزَّمانِ[(١)].

- التَّعريفُ في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للجِنسِ؛ ولذلك استثنى منه الَّذين آمَنوا، فهو استثناءٌ متَّصِلٌ[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٣، ٧٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٧)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣٩٤، ٣٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٢٨، ٥٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٧)، ((تفسير ابن =

- والظَّرفيَّةُ في قولِه: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أفادتْ تَشبيهَ مُلازَمةِ الخُسرِ بإحاطةِ الظَّرفِ بالمَظروفِ، فكانت أبلَغَ مِن أنْ يُقالَ: إنَّ الإنسانَ لَخاسرٌ[١].

- وتَنكيرُ ﴿خُسْرٍ﴾ قيل: للتَّعظيم، أي: في خُسرٍ عظيمٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ للتَّنويعِ، أيْ: نوعٍ مِن الخُسرِ غيرِ ما يَعرِفُه الإنسانُ[٢].

- ومَجيءُ هذا الخبَرِ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ على العُموم، مع تَأكيدِه بالقسَمِ، وحرْفِ التَّوكيدِ في جَوابِه؛ يُفيدُ التَّهويلَ والإنذارَ بالحالةِ المُحيطةِ بمُعظَمِ النَّاسِ[٣].

فقَرَن الله تعالى بهذه الآيةِ قرائِنَ تدُلُّ على مُبالَغتِه تعالى في بيانِ كَونِ الإنسانِ في خُسرٍ:

**أحَدُها**: قَولُه: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ يفيدُ أنَّه كالمغمورِ في الخُسرانِ، وأنَّه أحاط به مِن كُلِّ جانبٍ.

**وثانيها**: كَلِمةُ (إنَّ)؛ فإنَّها للتَّأكيدِ.

**وثالثُها**: حرفُ اللَّامِ في ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾[٤].

- وأعقَبَ بالاستثناءِ بقولِه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الآيةَ، فيَتقرَّرُ الحُكْمُ تامًّا في نفْسِ السَّامعِ مُبيِّنًا أنَّ النَّاسَ فَريقانِ: فريقٌ يَلحَقُه الخُسرانُ، وفَريقٌ

---

= عاشور)) (٣٠/ ٥٣٠، ٥٣١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٥٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣١).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٠).

لا يَلحَقُه شَيءٌ منه[١].

- وقدْ أفاد استثناءُ المُتَّصِفينَ بمَضمونِ الصِّلةِ ومَعطوفِها إيماءً إلى عِلَّةِ حُكمِ الاستثناءِ، وهو نَقيضُ الحُكمِ الثَّابتِ للمُسْتثنى منه؛ فإنَّهم لَيسوا في خُسرٍ مِن أجْلِ أنَّهم آمَنوا وعَمِلوا الصَّالحاتِ[٢].

- والتَّعريفُ في قولِه: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تَعريفُ الجنسِ مُرادٌ به الاستِغراقُ، أي: عَمِلوا جَميعَ الأعمالِ الصَّالحةِ الَّتي أُمِروا بعَمَلِها بأمْرِ الدِّينِ، وعَمَلُ الصَّالحاتِ يَشملُ تَرْكَ السَّيِّئاتِ[٣].

- وعُطِفَ على عمَلِ الصَّالحاتِ التَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالصَّبرِ وإنْ كان ذلك مِن عمَلِ الصَّالحاتِ، عَطْفَ الخاصِّ على العامِّ؛ للاهتِمامِ به؛ لأنَّه قد يُغفَلُ عنه، يُظَنُّ أنَّ العمَلَ الصَّالحَ هو ما أثَرُه عمَلُ المَرءِ في خاصَّتِه، فوَقَعَ التَّنبيهُ على أنَّ مِن العمَلِ المأمورِ به إرشادَ المسلمِ غَيرَه ودَعوتَه إلى الحقِّ، فالتَّواصي بالحقِّ يَشملُ تَعليمَ حَقائقِ الهدْيِ وعَقائدِ الصَّوابِ، وإراضةَ النَّفْسِ على فَهْمِها بفِعلِ المعروفِ وتَرْكِ المُنكَرِ، والتَّواصي بالصَّبرِ عطْفٌ على التَّواصي بالحقِّ عطْفَ الخاصِّ على العامِّ أيضًا، وإنْ كان خُصوصُه خُصوصًا مِن وَجْهٍ؛ لأنَّ الصَّبرَ تَحمُّلُ مَشقَّةِ إقامةِ الحقِّ، وما يَعترِضُ المُسلمَ مِن أذًى في نفْسِه في إقامةِ بَعضِ الحقِّ[٤].

فتَخصيصُ هَذا التَّواصِي بالذِّكرِ مع انْدراجِه تحتَ التَّواصِي بالحقِّ؛ لإبرازِ كَمالِ الاعتناءِ بهِ، وللمُبالَغةِ؛ لأنَّه يدُلُّ على أنَّ الخاصَّ -لكَمالِه- بَلَغَ إلى مَرتبةٍ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣١).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٣٢، ٥٣٣).

خَرَجَ بها عن الاندراجِ تحتَ العامِّ على ما عُرِفَ في أمثالِه. أو لأنَّ الأوَّلَ عبارةٌ عن رُتبةِ العِبادةِ الَّتي هيَ فِعلُ ما يَرضَى به اللهُ تعالَى، والثَّانيَ عبارةٌ عن رُتبةِ العُبوديَّةِ الَّتي هي الرِّضا بما فَعَلَ اللهُ تعالَى؛ فإنَّ المُرادَ بالصَّبرِ ليسَ مُجرَّدَ حَبْسِ النَّفْسِ عمَّا تَتشوَّقُ إليهِ مِن فِعلٍ وتَرْكٍ، بلْ هو تَلقِّي ما ورَدَ منه تعالَى بالجَميلِ والرِّضا به ظاهرًا وباطنًا[١].

- وفي قولِه: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ كُرِّرَ فِعلُ التَّواصِي؛ لاختِلافِ المفعولَينِ، وهما ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ و﴿بِٱلصَّبْرِ﴾[٢].

- ولعلَّه سُبحانه وتعالَى إنَّما ذَكَرَ سَببَ الرِّبحِ دونَ الخُسرانِ؛ اكتِفاءً ببَيانِ المَقصودِ، وإشعارًا بأنَّ ما عدَا ما عُدَّ يُؤدِّي إلى خُسرٍ ونقْصِ حظٍّ، أو تَكرُّمًا؛ فإنَّ الإبهامَ في جانبِ الخُسرِ كَرَمٌ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٧)، ((حاشية الشهاب على البيضاوي)) (٨/ ٣٩٥).

(٢) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٤، ٢٥٥)، ((بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٢)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٦).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الهُمَزَةِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ الهُمَزَةِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الهُمَزَةِ[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الهُمَزَةِ مكِّيَّةٌ، نقلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

ذِكرُ أَوصافِ الهالِكين[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

التَّهديدُ الشَّديدُ لِمَن يَعِيبُ النَّاسَ، ويَتهَكَّمُ بهم، ويَتطاوَلُ عليهم، بسَببِ كَثرةِ مالِه، وجُحودِه للحَقِّ، وبَيانُ عُقوبتِه.

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتتاحِها بقَولِه تعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾.
وسُمِّيَت أيضًا سُورةَ ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ﴾، وسورةَ (الحُطَمةِ)؛ لوُقوعِ هذه الكَلِمةِ فيها. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٥).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩١)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٨)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨١)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٤٧).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٣).

## الآيات (١-٩)

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿وَيْلٌ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[١].

﴿هُمَزَةٍ﴾: أي: عيَّابٍ مُغتابٍ للنَّاسِ، وهَمْزُ الإنسانِ: اغتيابُه والطَّعنُ في عِرْضِه، وأصلُ (همز): يدُلُّ على ضَغطٍ وعَصرٍ[٢].

﴿لُّمَزَةٍ﴾: أي: عَيَّابٍ، واللَّمْزُ: الاغتيابُ وتَتَبُّعُ المَعايبِ، وأصلُه الإشارةُ بالعَينِ ونَحوِها. وقيل: الهُمَزةُ: الَّذي يَعِيبُك في الغَيْبِ، واللُّمَزةُ: الَّذي يَعيبُك في الوَجْهِ. وقيل العَكسُ. وأصلُه اللَّمزُ، وهو العَيبُ[٣].

﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾: أي: لَيُطرَحَنَّ ويُقذَفَنَّ، وأصلُ (نبذ): يدُلُّ على طَرحٍ وإلقاءٍ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨).

قال الرَّاغبُ: (ومَن قال: ﴿وَيْلٌ﴾: وادٍ في جهنَّمَ، فإنَّه لم يُرِدْ أنَّ «ويلًا» في اللُّغةِ هو موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد: مَن قال اللهُ تعالى ذلك فيه فقد استحقَّ مقرًّا مِن النَّارِ، وثبَت ذلك له). ((المفردات)) (ص: ٨٨٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٣/ ١٥٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ٦٥)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (١١/ ٥٠٥)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٩٦)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٥).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٨٠)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٨)، ((الكليات)) =

﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾: أي: النَّارِ؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تَحطِمُ كُلَّ شَيءٍ وتَكسِرُه، وأصلُ (حطم): يدُلُّ على كَسرِ الشَّيءِ[١].

﴿ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾: جمْعُ فؤادٍ، وهو القلبُ؛ سمِّيَ بذلك لحرارَتِه، أو لتَوقُّدِه، وأصلُ (فأد): يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[٢].

﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾: أي: مُطبَقةٌ مُغلَقةٌ، وأصلُ (وصد): يدُلُّ على ضَمِّ شَيءٍ إلى شَيءٍ[٣].

﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾: أي: مَمدودةٍ مُطَوَّلةٍ، وأصلُ (مدد): يدُلُّ على اتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ في استِطالةٍ[٤].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بوعيدِ طائفةٍ مِنَ النَّاسِ، فقال تعالى: عَذابٌ وهلاكٌ يومَ القيامةِ لكُلِّ طعَّانٍ عيَّابٍ للنَّاسِ، الَّذي جمَعَ مالًا كثيرًا وأحصى عدَدَه، يَظُنُّ أنَّ ذلك سيُخَلِّدُه في الدُّنيا!

ثمَّ زجر اللهُ سُبحانَه هذا المَغرورَ، وبَيَّن سُوءَ عاقِبَتِه، فقال: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ هذا الإنسانُ! أُقسِمُ لَيُطرَحَنَّ يومَ القيامةِ في النَّارِ الَّتي تَحطِمُ وتَكسِرُ ما يُلقَى فيها!

---

= للكفوي (ص: ٩٩١).

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٠١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٧٨)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٦٩)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٦/ ١١٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣١٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٧٢)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠٤).

(٤) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٢٦٩)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٦٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٦٠).

ثمَّ قال تعالى مُهَوِّلًا أمْرَها، ومُبَيِّنًا بعضَ صِفاتِها: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ تلك الحُطَمةُ؟! هي نارُ اللهِ الشَّديدةُ التَّوَقُّدِ بالنَّاسِ والحِجارةِ، الَّتي تَبلُغُ مِن شِدَّتِها قلوبَ الكافِرينَ، وتَنفُذُ إليها، إنَّ تلك النَّارَ مُطبَقةٌ عليهم ومَسدودةٌ بأعمِدةٍ ممدودةٍ في النَّارِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ١﴾.

أي: عَذابٌ شديدٌ وهلاكٌ يومَ القيامةِ لكُلِّ طعَّانٍ عيَّابٍ للنَّاسِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٦، ٦٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢١)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٢١)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين الحلبي (٤/ ٢٥٩).

قال ابنُ جُزَي: (﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ هو -على الجُملةِ- الَّذي يَعيبُ النَّاسَ ويأكُلُ أعراضَهم). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٢). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٤).

واختلَف المفسِّرون في الفَرْقِ بيْن الهُمَزةِ واللُّمَزةِ على أقوالٍ:

فقيل: الهُمَزَةُ: الَّذي يَعيبُ النَّاسَ مِن خَلْفِهم، واللُّمَزةُ: مَن يَعيبُهم مُواجَهةً. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتِلُ بنُ سُلَيمانَ، والكرْمانيُّ، والنَّسَفيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٣٧)، ((تفسير الكرماني)) (٢/ ١٣٨٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٧٨).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: سَعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وقَتادةُ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨٥).

وقيل بعَكسِ ذلك؛ فالهُمَزةُ: الَّذي يَطعُنُ في وَجهِ الرَّجُلِ، واللُّمَزةُ: الَّذي يَغتابُه مِن خَلْفِه إذا غاب. يُنظر: ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٨٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨١، ١٨٢).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: أبو العاليةِ، والحَسَنُ، وعطاءُ بنُ أبي رَباحٍ، ومجاهِدٌ في روايةٍ عنه. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٧)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٨).

وقيل: الهَمَّازُ: بالقَولِ، واللَّمَّازُ: بالفِعلِ. وممَّن ذهب إلى هذا القَولِ: ابنُ كثيرٍ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨١). =

= وقيل بعَكسِ ذلك؛ فالهَمَّازُ: الَّذي يَعيبُ النَّاسِ ويَطعُنُ عليهم بالإشارةِ والفعلِ. واللَّمَّازُ: الَّذي يَعيبُهم بقَولِه. وممَّن قال بهذا: أبو القاسِمِ النَّيْسابوريُّ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((إيجاز البيان)) لأبي القاسم النيسابوري (٢/ ٨٩٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٥).

وممَّن قال بنَحْوِ هذا القَولِ مِنَ السَّلَفِ: مجاهِدٌ في روايةٍ عنه، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦١٨)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٠٣).

قال ابنُ عاشور: (هُمَزةٌ: وَصفٌ مُشتَقٌّ مِنَ الهَمزِ، وهو: أن يَعيبَ أحدٌ أحدًا بالإشارةِ بالعَينِ أو بالشِّدقِ أو بالرَّأسِ، بحَضْرتِه أو عندَ تولِّيه... ولُمَزةٌ: وَصفٌ مُشتَقٌّ مِنَ اللَّمزِ، وهو المواجَهةُ بالعَيبِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٧).

وذكر الزَّمَخْشريُّ أنَّ المرادَ: الكَسْرُ مِن أعراضِ النَّاسِ، والغَضُّ منهم، واغتيابُهم، والطَّعنُ فيهم، وتَبِعَه: البَيضاويُّ، وأبو السُّعودِ، والألوسيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٦٠).

وقال الفَرَّاءُ وأبو عُبَيدةَ والزَّجَّاجُ والشَّوكانيُّ: الهُمَزَةُ اللُّمَزَةُ: الَّذي يغتابُ النَّاسَ ويَغُضُّهم، والظَّاهِرُ عَدَمُ تَفريقِهم بيْنَهما. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٩)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (٢/ ٣١١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦١)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٢).

ويُنظر أيضًا: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٢).

وقيل: الهُمَزةُ اللُّمَزةُ: العيَّابُ الطعَّانُ، وكِلاهما بمعنًى واحِدٍ. وممَّن اختاره: ابنُ السِّكِّيت، والبِقاعيُّ، والعُليميُّ. يُنظر: ((إصلاح المنطق)) لابن السِّكِّيت (ص: ٣٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٣٠).

وقال ابنُ أبي زَمَنِينَ: (هو الَّذي يَطعُنُ على النَّاسِ). ((تفسير ابن أبي زمنين)) (٥/ ١٦٢).

وقال النَّحَّاسُ: (يُقالُ: لَمَزه يَلمِزُه: إذا عابه، ومنه: فُلانٌ هُمَزةٌ لُمَزةٌ، أي: عَيَّابٌ للنَّاسِ، ويقالُ: اللُّمَزةُ هو الَّذي يَعيبُ في سِرٍّ، وإنَّ الهُمَزةَ هو الَّذي يُشيرُ بعَيْنَيه، وهذا كُلُّه يَرجِعُ إلى أنَّه يَعيبُ). ((معاني القرآن)) (٣/ ٢٢٠).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٣٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٨٨).

قال الرَّازيُّ بعْدَ أن ذكَرَ الخِلافَ: (واعلَمْ أنَّ جميعَ هذه الوُجوهِ مُتَقارِبةٌ راجِعةٌ إلى أصلٍ واحدٍ، وهو الطَّعْنُ وإظهارُ العَيبِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٤). ويُنظر: ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٦٨).

قيل: نزَلَت هذه السُّورةُ في الأخنَسِ بنِ شَرِيقٍ؛ لأنَّه كان كثيرَ الوَقيعةِ في النَّاسِ، وقيل: في =

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقال سُبحانَه: ﴿هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ﴾ [القلم: ١١].

﴿ٱلَّذِي جَمَعَ مَالٗا وَعَدَّدَهُۥ ٢﴾.

أي: الَّذي جمَعَ مالًا كثيرًا وأحصى عدَدَه، فهو حريصٌ على حِفْظِه وعَدَمِ نَقْصِه، وألَّا يُنفِقَ منه في سَبيلِ اللهِ[1].

كما قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ۞ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النساء: ٣٦، ٣٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨].

﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ ٣﴾.

أي: يَظُنُّ هذا الحَريصُ على مالِه البَخيلُ به أنَّ ذلك سيُخَلِّدُه في الدُّنيا[2]!

---

= أُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ، وقيل: في الوَليدِ بنِ المُغيرةِ. قال ابنُ جُزَي: (ولَفْظُها مع ذلك على العُمومِ في كُلِّ مَنِ اتَّصَفَ بهذه الصِّفاتِ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٢).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (ولا مُنافاةَ بيْنَ الأقوالِ، وأن يكونَ نَزَلت بسَبَبِ المذكورينَ، ولَفْظُها عامٌّ يَشملُ مَن نزَلَت فيه وغَيرَه). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٢٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٠)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٢٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

قال الزَّمخشريُّ: (أي: طوَّلَ المالُ أمَلَه، ومَنَّاه الأمانيَّ البعيدةَ، حتَّى أصبح لفَرطِ غَفلتِه وطُولِ أمَلِه يحسَبُ أنَّ المالَ تَرَكه خالِدًا في الدُّنيا لا يموتُ! أو يَعمَلُ مِن تَشييدِ البُنيانِ المُوثَقِ =

﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ٤﴾.

أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّ هذا الإنسانُ؛ فلْيَرتَدِعْ عن ذلك! وأُقسِمُ لَيُطرَحَنَّ يومَ القيامةِ في النَّارِ الَّتي تَحطِمُ وتَكسِرُ ما يُلقَى فيها[1]!

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ٥﴾.

أي: وما الَّذي أعلَمَك -يا محمَّدُ- أيُّ شَيءٍ تلك الحُطَمةُ العظيمةُ الشَّأنِ[2]؟!

﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ٦﴾.

أي: هي نارُ اللهِ المُسَعَّرةُ الَّتي تتوقَّدُ بالنَّاسِ والحِجارةِ[3].

---

= بالصَّخرِ والآجُرِّ وغَرْسِ الأشجارِ وعِمارةِ الأرضِ عَمَلَ مَن يَظُنُّ أنَّ مالَه أبقاه حيًّا، أو هو تعريضٌ بالعمَلِ الصَّالحِ، وأنَّه هو الَّذي أخلَدَ صاحِبَه في النَّعيمِ، فأمَّا المالُ فما أخلَدَ أحدًا فيه). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥).

وقال البِقاعيُّ: (يجوزُ أن يكونَ ذلك كنايةً عن أنَّه عَمِلَ بانهماكِه في المعاصي، والإعراضِ عن اللهِ عزَّ وجَلَّ، والإقبالِ على التَّوسُّعِ في الشَّهواتِ والأعراضِ الزَّائلاتِ؛ عَمَلَ مَن يظُنُّ أنَّه لا يموتُ!). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٢٤٥).

وقال السعدي: (﴿يَحۡسَبُ﴾ بجَهْلِه ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ في الدُّنيا؛ فلذلك كان كَدُّه وسَعْيُه كُلُّه في تنميةِ مالِه الَّذي يظُنُّ أنَّه ينَمِّي عُمُرَه، ولم يَدْرِ أنَّ البُخلَ يَقصِفُ الأعمارَ، ويُخرِبُ الدِّيارَ، وأنَّ البِرَّ يَزيدُ في العُمُرِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤).

وقال ابنُ عُثَيمين: (يعني: يظُنُّ هذا الرَّجُلُ أنَّ مالَه سيُخَلِّدُه ويُبْقيه؛ إمَّا بجِسْمِه، وإمَّا بذِكْرِه... أي: أخلَدَ ذِكْرَه، أو أطالَ عُمُرَه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٦).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢١)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٩، ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٤)، ((تفسير الجلالين)) (ص: ٨٢١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٧).

كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ٧﴾.

أي: الَّتي تبلُغُ مِن شِدَّتِها قُلوبَ الكافِرينَ وتَنفُذُ إليها[١]!

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الاطِّلاعُ على الفُؤادِ مَظِنَّةَ الموتِ، وفي الموتِ راحةٌ مِنَ العذابِ؛ أشار إلى خُلودِهم فيها، وأنَّهم لا يموتونَ ولا ينقَطِعُ عنهم العذابُ؛ فقال[٢]:

﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٞ ٨﴾.

أي: إنَّ تلك النَّارَ مُطبَقةٌ على أولئك الَّذين تقدَّمَ ذِكرُ صِفاتِهم، ومُغلَقةٌ أبوابُها عليهم[٣].

﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ ٩﴾.

أي: مُطبَقةٌ ومَسدودةٌ بأعمِدةٍ ممدودةٍ في النَّارِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٢)، ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: ١٨٦)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٧).
قال ابنُ عطيَّة: (يحتَمِلُ أن يكونَ المعنى: أنَّها لا يَتجاوَزُها أحدٌ حتَّى تأخُذَه بواجِبِ عقيدةِ قَلْبِه ونيَّتِه، فكأنَّها مُطَّلِعةٌ على القُلوبِ بإطْلاعِ اللهِ تعالى إيَّاها). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٢). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤١).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٢)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٦)، ((حادي الأرواح)) لابن القيم (ص: ٥٣)، ((تفسير =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في قَولِه تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ إلى آخِرِ السُّورةِ: حكى اللهُ سُبحانَه وتعالى ذلك علينا، وبيَّنَه لنا في هذه السُّورةِ لا لمجرَّدِ أنْ نتلوَه بألسِنَتِنا، أو نَعرِفَ معناه بأفهامِنا، لكنَّ المرادَ أنْ نَحذَرَ مِن هذه الأوصافِ الذَّميمةِ: عَيبِ النَّاسِ بالقَولِ، وعَيبِ النَّاسِ بالفِعلِ، والحِرْصِ على المالِ، حتَّى كأنَّ الإنسانَ إنَّما

---

= السعدي)) (ص: ٩٣٤).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ معنى ذلك: أنَّ الأبوابَ مُوصَدةٌ بعَمَدٍ: الزمخشريُّ، وابنُ القيِّمِ، والسعديُّ. يُنظر: المصادر السَّابقة.

قال الزمخشري: (والمعنى: أنَّه يُؤكِّدُ يَأسَهُم مِن الخُروجِ وتَيَقُّنَهم بحَبسِ الأبَدِ، فتُؤصَدُ عليهم الأبوابُ، وتُمدَّدُ على الأبوابِ العُمُدُ؛ استِيثاقًا في استِيثاقٍ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٦). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٣٧).

وقال السمعاني: (أَولى الأقاويلِ هو أنَّها مُطبَقةٌ بعَمَدٍ، يعني: مسدودةً). ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٨١).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ أي: ممدودةٍ على جميعِ النَّواحي والزَّوايا؛ حتَّى لا يتمكَّنَ أحدٌ مِن فَتْحِها أو الخروجِ منها). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٨).

وقال الواحديُّ في المُرادِ بالعَمَدِ: (الَّذي عليه الأكثرُ: أنَّها أوتادُ الأَطباقِ الَّتي تُطبَقُ على أهلِ النَّارِ). ((البسيط)) (٢٤/ ٣١٥).

وقال ابنُ عاشور: (قوله: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ حالٌ: إمَّا مِن ضَميرِ «عليهم» أي: في حالِ كَونِهم في عَمَدٍ، أي: مَوثُوقِينَ في عَمَدٍ... وإمَّا حالٌ مِن ضَميرِ «إنَّها»، أي: أنَّ النَّارَ المُوقَدةَ في عَمَدٍ، أي: مُتوسِّطةٌ عَمدًا كما تكونُ نارُ الشِّواءِ إذ تُوضَعُ عَمَدٌ وتُجعَلُ النَّارُ تَحتَها). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤١، ٥٤٢).

وممَّن قال في الجملةِ بأنَّ المرادَ أنَّهم مُوثَقونَ في عَمَدٍ: البيضاويُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٨).

وقيل: المعنى: أنَّهم يُعذَّبونَ بعَمَدٍ في النَّارِ، واللهُ أعلَمُ بصفةِ تعذيبِهم بها. وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ جرير. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٦).

خُلِقَ للمالِ لِيَخلُدَ له، أو يَخلُدَ المالُ له[١]!

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ هذانِ الوَصفانِ مِن مُعاملةِ أهلِ الشِّركِ للمُؤمِنينَ يومَئذٍ، ومَن عامَلَ مِنَ المسلمينَ أحدًا مِن أهلِ دينِه بمِثلِ ذلك، كان له نصيبٌ مِن هذا الوَعيدِ[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ﴾ ذكَرَه بلَفْظِ (النَّبذِ) الدَّالِّ على الإهانةِ؛ لأنَّ الكافِرَ كان يَعتقِدُ أنَّه مِن أهلِ الكَرامةِ[٣].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلْحُطَمَةِ﴾ الفائِدةُ في ذِكْرِ جَهنَّمَ بهذا الاسمِ هاهنا مِن وُجوهٍ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: الاتِّحادُ في الصُّورةِ، كأنَّه تعالى يقولُ: إنْ كُنتَ هُمَزةً لُمَزةً، فوراءَكَ الحُطَمةُ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّ الهامِزَ بكَسْرِ عَينٍ لِيَضعَ قَدْرَه فيُلقيَه في الحضيضِ، فيقولُ تعالى: وراءَكَ الحُطَمةُ، وفي الحَطْمِ كَسرٌ، فالحُطَمةُ تَكسِرُك وتُلْقيك في حَضيضِ جَهنَّمَ، لكِنَّ الهُمَزةَ ليس إلَّا الكَسرَ بالحاجِبِ، أمَّا الحُطَمةُ فإنَّها تكسِرُ كَسرًا لا تُبْقي ولا تَذَرُ!

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّ الهمَّازَ اللَّمَّازَ يأكُلُ لحمَ النَّاسِ، والحُطَمةَ أيضًا اسمٌ للنَّارِ؛ مِن حيثُ إنَّها تأكُلُ الجِلدَ واللَّحمَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

٣- تأمَّلْ قولَه تعالى: ﴿ٱلْحُطَمَةِ﴾ مع فِعْلِ هذا الفاعلِ ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، فـ «حُطَمَةٌ» «هُمَزَةٌ لُمَزَةٌ» على وزنٍ واحدٍ؛ لِيكونَ الجزاءُ مُطابقًا للعَمَلِ حتَّى في اللَّفظِ[١]!

٤- قال تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾، ووَصْفُ نارٍ بـ(مُوقَدة) يُفيدُ أنَّها لا تَزالُ تَلتهِبُ ولا يَزولُ لَهيبُها؛ فليس الوصْفُ بالمُوقَدةِ هنا تَأكيدًا[٢].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ يُفيدُ المبالغةَ في العَذابِ مِن وُجوهٍ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ قَولَه: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ يَقتضي أنَّه موضِعٌ له قَعرٌ عَميقٌ جِدًّا كالبئرِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّه لو شاء يجعَلُ ذلك الموضِعَ بحيثُ لا يكونُ له بابٌ، لكِنَّه بالبابِ يُذَكِّرُهم الخروجَ؛ فيَزيدُ في حَسْرتِهم.

**الوَجهُ الثَّالِثُ**: أنَّه قال: ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾، ولم يقُلْ: (مُؤصَدةٌ عليهم)؛ لأنَّ قَولَه: ﴿عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ يُفيدُ أنَّ المقصودَ أوَّلًا كونُهم بهذه الحالةِ، وقَولَه: (مُؤصَدةٌ عليهم) لا يفيدُ هذا المعنى بالقَصْدِ الأوَّلِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾

- يَجوزُ أنْ يكونَ السَّببُ في نُزولِها خاصًّا والوعيدُ عامًّا؛ ليَتناوَلَ كلَّ مَن باشَرَ ذلك القَبيحَ، وليَكونَ جاريًا مَجرى التَّعريضِ بالواردِ فيه؛ فإنَّ ذلك أزجَرُ له وأنْكى فيه، فإذا كان الواردُ فيه الأخنَسَ أو أُميَّةَ أو الوليدَ، ويُجاءُ باللَّفظِ على العُمومِ تَعريضًا، كان أزجَرَ له وأنْكى فيه؛ إذ لم يُصرَّحْ باسْمِه

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٦).

حتَّى يَلبَسَ لِمَن كافَحَه به جِلدَ النَّمرِ، بلْ يَبعَثُه على الفِكرِ في أحوالِ نفْسِه، وأنَّه هلْ دَخَلَ في هذا العامِّ أوَّلَ النَّاسِ بما اغتابَ به خَيرَ البَريَّةِ ونقَصَ مِن حقِّه[١]؟

- كَلمةُ (وَيْلٌ له) دُعاءٌ على المَجرورِ اسمُه باللَّامِ بأنْ يَنالَه الوَيلُ، وهو سُوءُ الحالِ، والدُّعاءُ هنا مُستعمَلٌ في الوعيدِ بالعِقابِ[٢].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ ...﴾، وقال في سُورةِ (الأنبياءِ): ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ [الأنبياء: ١٨]؛ لأنَّ ثَمَّةَ قالوا: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤]، فقال: ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾، وهاهنا نكَّرَ؛ لأنَّه لا يَعلَمُ كُنْهَه إلَّا اللهُ[٣].

- وكَلمةُ (كلّ) تُشعِرُ بأنَّ المُهدَّدينَ بهذا الوعيدِ جَماعةٌ، وهم الَّذين اتَّخَذوا هَمْزَ المسلِمينَ ولَمْزَهم دَيدنًا لهم، فعَمَّ حُكمُها الَّذين نَزَلَتْ فيهم السُّورةُ ومَن كان على شاكِلتِهم مِن المشركينَ ولم تُذكَرْ أسْماؤهمْ[٤].

- قولُه: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ بناءُ (فُعَلَة) مِن أبْنيةِ المُبالَغةِ، يدُلُّ على كَثرةِ صُدورِ الفِعلِ المُصاغِ منه، وعلى تَمكُّنِ الوصْفِ مِن الموصوفِ، وأنَّ ذلك صار عادةً لِصاحِبِه[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٧١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٥، ٥٣٦).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٦، ٥٣٧).

- وقَعَ قولُه: ﴿هُمَزَةٍ﴾ وَصْفًا لمَحذوفٍ تَقديرُه: وَيلٌ لكلِّ شَخصٍ هُمَزةٍ، فلمَّا حُذِفَ مَوصوفُه صار الوصْفُ قائمًا مَقامَه، فأُضيفَ إليه (كلّ)[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ أُتبِعَ قولُه: ﴿هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ بقولِه: ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾؛ لزِيادةِ تَشنيعِ صِفتَيْه الذَّميمتَينِ بصِفةِ الحِرصِ على المالِ، وإنَّما يَنشَأُ ذلك عن بُخلِ النَّفْسِ، والتَّخوُّفِ مِن الفقْرِ، والمَقصودُ مِن ذلك دُخولُ أولئك الَّذين عُرِفوا بهَمْزِ المسلمينَ ولَمْزِهم الَّذين قِيل: إنَّهم سَببُ نُزولِ السُّورةِ؛ لتَعيينِهم في هذا الوعيدِ[٢].

- وتَنكيرُ ﴿مَالًا﴾؛ للتَّفخيمِ والتَّكثيرِ المُوافقِ لقَولِه تعالَى: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾[٣].

- قولُه: ﴿جَمَعَ مَالًا﴾ قُرِئَ ﴿جَمَّعَ﴾ بالتَّشديدِ[٤]؛ مُزاوِجًا لقولِه: (عَدَّدَهُ)، وهو مُبالَغةٌ في (جَمَعَ)، وعلى قِراءةِ التَّخفيفِ دلَّ تَضعيفُ (عَدَّدَهُ) على معْنى تَكلُّفِ جَمْعِه بطَريقِ الكِنايةِ؛ لأنَّه لا يُكرِّرُ عدَّه إلَّا ليَزيدَ جَمْعَه[٥].

- ومعْنى (عَدَّدَهُ): أكثَرَ مِن عَدِّه، أي: حِسابِه؛ لشِدَّةِ وَلَعِه بجَمْعِه؛ فالتَّضعيفُ للمُبالَغةِ في (عدَّ) ومُعاوَدتِه[٦].

٣- قولُه تعالَى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ يَجوزُ أنْ تكونَ هذِه الجُملةُ حالًا

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨).

(٤) قرأ أبو جعفرٍ وابنُ عامرٍ وحَمزةُ والكِسائيُّ وخلَفٌ ورَوحٌ بتَشديدِ الميمِ، وقرأ الباقونَ بتَخفيفِها. يُنظر: ((النشر في القراءات العشر)) لابن الجزري (٢/ ٤٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٦).

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٨).

مِن ﴿هُمَزَةٍ﴾؛ فيكونَ مُستعمَلًا في التَّهكُّمِ عليه في حِرصِه على جمْعِ المالِ وتَعديدِه؛ لأنَّه لا يُوجَدُ مَن يَحسَبُ أنَّ مالَه يُخلِدُه، فيكونَ الكلامُ مِن قَبيلِ التَّمثيلِ، أو تكونَ الحالُ مُرادًا بها التَّشبيهُ، وهو تَشبيهٌ بَليغٌ. ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ مُستأنَفةً، والخبَرُ مُستعمَلًا في الإنكارِ، أو على تَقديرِ هَمزةِ استفهامٍ مَحذوفةٍ مُستعمَلًا في التَّهكُّمِ أو التَّعجيبِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً استئنافًا بَيانيًّا واقعًا في سُؤالٍ، كأنَّه قِيلَ: ما بالُه يَجمَعُ المالَ ويَهتَمُّ به[1]؟

- وإظهارُ قولِه: ﴿مَالَهُۥٓ﴾ في مَوقعِ الإضمارِ؛ لزِيادةِ التَّقريرِ[2].

- وجِيءَ بصِيغةِ المُضيِّ في ﴿أَخۡلَدَهُۥ﴾ لتَنزيلِ المُستقبَلِ مَنزلةَ الماضي؛ لتَحقُّقِه عندَه، وذلك زِيادةٌ في التَّهكُّمِ به بأنَّه مُوقِنٌ بأنَّ مالَه يُخلِدُه حتَّى كأنَّه حَصَل إخلادُه وثَبَت[3].

٤- قولُه تعالَى: ﴿كَلَّاۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾

- ﴿كَلَّا﴾ إبطالٌ لأنَ يكونَ المالُ مُخْلِدًا لهم، وزجْرٌ عن التَّلبُّسِ بالحالةِ الشَّنيعةِ الَّتي جَعَلَتْهم في حالِ مَن يَحسَبُ أنَّ المالَ يُخلِدُ صاحِبَه، أو إبطالٌ للحِرصِ في جمْعِ المالِ جمْعًا يَمنَعُ به حُقوقَ اللهِ في المالِ مِن نَفَقاتٍ وزَكاةٍ[4].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٨، ٥٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨، ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٧٩).

- قولُه تعالى: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ ناشئٌ عمَّا تَضمَّنَتْه جُملةُ ﴿يَحۡسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخۡلَدَهُۥ﴾ مِن التَّهكُّم والإنكارِ، وما أفادَه حرْفُ الزَّجرِ مِن معْنى التَّوعُّدِ، واللَّامُ جَوابُ قسَمٍ مَحذوفٍ. وهذا الاستئنافُ مُبيِّنٌ لعِلَّةِ الرَّدعِ، أيْ: واللهِ لَيُطرَحَنَّ -بسَببِ تَعاطيه للأفعالِ المَذكورةِ- في الحُطَمةِ[١].

- وفي قولِه: ﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ بعْدَ ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾ مُقابَلةٌ لَفظيَّةٌ رائعةُ البلاغةِ؛ فإنَّه لَمَّا وَسَمَه بهذه السِّمةِ بصِيغةٍ دلَّت على أنَّها راسخةٌ فيه ومُتمكِّنةٌ منه، أتْبَعَ المُبالَغةَ المُتكرِّرةَ في الهُمَزةِ واللُّمَزةِ بوَعيدِه بالنَّارِ الَّتي سمَّاها الحُطَمةَ؛ لِما يُكابِدُ فيها مِن هَولٍ، ويَلقى فيها مِن عَذابٍ، واختارَ في تَعيينِها صِيغةَ مُبالَغةٍ على وَزْنِ الصِّيغةِ الَّتي ضمَّنَها الذَّنْبَ المُقترَفَ حتَّى يَحصُلَ التَّعادُلُ بيْن الذَّنْبِ والجزاءِ، فهذا الَّذي ضَرِيَ بالذَّنْبِ[٢] جَزاؤه هذه الحُطَمةُ الَّتي هي ضاريةٌ أيضًا تَحطِمُ كلَّ ما يُلْقى فيها[٣].

- والظَّاهرُ أنَّ اللَّامَ في ﴿ٱلۡحُطَمَةِ﴾ لتَعريفِ العهْدِ؛ لأنَّه اعتُبِرَ الوصْفُ عَلَمًا بالغَلَبةِ على شَيءٍ يَحطِمُ، وأُرِيدَ بذلك جَهنَّمُ، وأنَّ إطلاقَ هذا الوصْفِ على جهنَّمَ مِن مُصطَلحاتِ القرآنِ، وليس في كَلامِ العرَبِ إطلاقُ هذا الوصْفِ على النَّارِ[٤].

- وجُملةُ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ في موضعِ الحالِ مِن قولِه: ﴿ٱلۡحُطَمَةُ﴾،

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٣٩).

(٢) ضَرِيَ بالشَّيءِ: أي: اعتادَه ولَهِجَ به. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٣/ ٨٦)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: ١٨٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري- حاشية ابن المُنَيِّر)) (٤/ ٧٩٥)، ((حاشية الطِّيبي على الكشاف)) (١٦/ ٥٦٩)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨٠، ٥٨١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠).

والرَّابطُ إعادةُ لَفظِ الحُطَمةِ، وذلك إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ للتَّهويلِ. وأيضًا ما فيها مِن الاستفهام، وفِعلِ الدِّرايةِ يُفيدُ تَهويلَ الحُطَمةِ، ببَيانِ أنَّها ليستْ مِنَ الأُمورِ الَّتي تَنالُها عُقولُ الخلْقِ[١].

- وجُملةُ ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ جَوابٌ عن جُملةِ ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾، مُفيدٌ مَجموعُهما بَيانَ الحُطَمةِ ما هيَ، ومَوقعُ الجُملةِ مَوقعُ الاستئنافِ البَيانيِّ، والتَّقديرُ هي -أي: الحُطَمةُ- نارُ اللهِ، فحُذِفَ المُبتدَأُ مِن الجُملةِ جَرْيًا على طَريقةِ استعمالِ أمثالِه مِن كلِّ إخبارٍ عن شَيءٍ بعْدَ تَقدُّمِ حَديثٍ عنه وأوصافٍ له[٢].

- وإضافةُ ﴿نَارُ﴾ إلى اسمِ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ للتَّرويعِ بها بأنَّها نارٌ خَلَقَها القادرُ على خلْقِ الأُمورِ العَظيمةِ؛ ففي إضافتِها إليهِ سُبحانَه، ووَصْفِها بالإيقادِ مِن تَهويلِ أمْرِها ما لا مَزيدَ عليهِ[٣].

- وكذلِك وُصِفَت ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ وَصْفًا ثانيًا بـ ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾، والاطِّلاعُ يَجوزُ أنْ يكونَ بمعْنى الإتيانِ مُبالَغةً في (طَلَعَ)، أي: الإتيانُ السَّريعُ بقوَّةٍ واستيلاءٍ؛ فالمعْنى: الَّتي تَنفُذُ إلى الأفئدةِ فتُحرِقُها في وَقتِ حَرْقِ ظاهرِ الجسَدِ[٤].

- وتَخصيصُ الأفئدةِ بالذِّكرِ؛ لأنَّ الفُؤادَ ألْطَفُ ما في البدَنِ وأشدُّه تَألُّمًا بأدْنى أذًى يَمَسُّه، فكيف إذا اطَّلَعَت عليه نارُ جَهنَّمَ واستَولَتْ عليه؟! أو لأنَّها مَواطنُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠).

(٢) يُنظر: ((المصدران السابقان)).

وتقدَّم تعريفُ متابعةِ الاستعمالِ (ص: ٢٥٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤١).

الكفْرِ، والعَقائدِ الفاسِدةِ، والنِّيَّاتِ الخبيثةِ، ومَنشأُ الأعمالِ القَبيحةِ[١].

٥- قولُه تعالَى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ هذه الجُملةُ يَجوزُ أنْ تكونَ صِفةً ثالثةً لـ ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ [الهمزة: ٦] بدونِ عاطفٍ. ويَجوزُ أنْ تكونَ مُستأنَفةً استئنافًا ابتدائيًّا، وتَأكيدُها بـ(إنَّ)؛ لتَهويلِ الوعيدِ[٢] والتَّأكيدُ أيضًا لأنَّهم يُكذِّبونَ بها[٣].

- قولُه: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ المُمدَّدةُ: المَجعولةُ طَويلةً جدًّا، وهو اسمُ مَفعولٍ مِن (مدَّدَه)، إذا بالَغَ في مَدِّه، أي: الزِّيادةِ فيه[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤١، ٥٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ١٩٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤١).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٢).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الفِيلِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ الفِيلِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الفِيل)[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الفِيل مكِّيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

١- بَيانُ ما فُعِلَ بأصحابِ الفيلِ[٣].

٢- تَثبيتُ المؤمنينَ على الحَقِّ[٤].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

بَيانُ جَزاءِ أصحابِ الفِيلِ، ومَكْرِهم، ورَدِّ كَيدِهم في نَحرِهم، وما نَزلَ بهم مِن العُقوبةِ، وما آلَ إليه أمْرُهم مِن سُوءِ العاقِبةِ.

---

(١) سُمِّيَتْ هذه السُّورةُ بذلك؛ لذِكرِ حادِثةِ الفيلِ فيها في قولِه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٤).

وسُمِّيتْ أيضًا: سورةَ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٣).

(٢) ممَّن نقَلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٣)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٠)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٧)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

(٤) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٥٠٩).

## الآيات (١-٥)

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿كَيْدَهُمْ﴾: أي: مَكْرَهم، وسَعْيَهم في تخريبِ الكعبةِ، واستِباحةِ أهلِها، وأصلُ (كيد): يدُلُّ على مُعالَجةٍ لشَيءٍ بشِدَّةٍ، وكلُّ شُيءٍ تُعالِجُه فأنتَ تَكيدُه[١].

﴿تَضْلِيلٍ﴾: أي: تَضييعٍ وبُطلانٍ وذَهابٍ، وأصلُ (ضلل): يدُلُّ على ضَياعِ الشَّيءِ وذَهابِه في غيرِ حقِّه[٢].

﴿أَبَابِيلَ﴾: أي: كثيرةً مُتفرِّقةً يَتبَعُ بَعضُها بَعضًا، كقَطيعِ الإبِلِ، قيل: واحِدُها إبَّالةٌ وإبُّولٌ وإبِّيلٌ. وقيل: هو جَمْعٌ لا واحِدَ له[٣].

﴿سِجِّيلٍ﴾: أي: طينٍ مُتحَجِّرٍ، وقيل: أصلُها فارسيٌّ (سَنك وكِل) أي: الحَجَر والطِّين[٤].

﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾: أي: كزَرعٍ وتِبْنٍ أكلَتْه الدَّوابُّ فراثَتْه، فيَبِسَ وتفرَّقَت أجزاؤُه، أو كوَرَقِ زَرْعٍ قد أكَلَتْ منه الدَّوابُّ وبَقِيَ منه بَقايا، أو أكَلَتْ حَبَّه فبَقِيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٤٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٢٣)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٢٨)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٧٥٠).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٥٦)، ((عمدة الحفاظ)) للسمين (٢/ ٣٨٤).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٩)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٥٤٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٦).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٧)، ((تفسير ابن جرير)) (١٢/ ٥٢٦)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٨٠)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٢٣٧).

بِدونِ حَبِّه، وقيل: المرادُ بالعَصفِ قِشرُ البُرِّ، يعني: الغِلافَ الَّذي تكونُ فيه حَبَّةُ القَمحِ. وأصلُ (عصف): يدُلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[١].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، قائِلًا له: ألَمْ تَرَ -يا محمَّدُ- كيف فَعَل رَبُّك بجَيشِ أَبرَهةَ الَّذين صَحِبوا الفِيلَ لهَدْمِ الكَعبةِ؟ ألم يَجعَلِ اللهُ سَعْيَهم في هَدْمِ الكَعبةِ في ضلالٍ وضَياعٍ؟ وأرسَلَ عليهم جَماعاتٍ كثيرةً مِنَ الطَّيرِ يَتبَعُ بَعضُها بعضًا، ترميهم بحِجارةٍ مِن طينٍ صُلبٍ يابِسٍ؛ فجعَلَهم اللهُ مِثلَ زَرعٍ أكلَتْه الدَّوابُّ فراثَتْه، فيَبِسَ وتفرَّقَت أجزاؤُه!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾.

أي: ألم تَرَ -يا محمَّدُ- كيف فَعَل رَبُّك بجَيشِ أَبرَهةَ الحَبَشيِّ مَلِكِ اليَمَنِ، الَّذين صَحِبوا الفِيلَ، واتَّجَهوا إلى مكَّةَ لهَدْمِ الكَعبةِ[٢]؟

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٣٩)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٣٢٨)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٥٤١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٩٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

قال البيضاوي: (الخِطابُ للرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو وإنْ لم يَشهَدْ تلك الوقعةَ لكنْ شاهَدَ آثارَها، وسَمِعَ بالتَّواتُرِ أخبارَها، فكأنَّه رَآها). ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٩). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥).

وقال أبو السعود: (والرُّؤيةُ عِلميَّةٌ. أي: ألم تَعلَمْ عِلمًا رَصينًا متاخمًا للمُشاهَدةِ والعَيانِ، باستِماعِ الأخبارِ المُتواتِرةِ، ومُعايَنةِ الآثارِ الظَّاهِرةِ). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٠).

وقال ابن جرير: (ألم تَنظُرْ يا محمَّدُ بعَيْنِ قلبِك، فترى بها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧).=

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا فَتَح اللهُ على رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مَكَّةَ، قام في النَّاسِ فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ثمَّ قال: إنَّ اللهَ حَبَس عن مَكَّةَ الفِيلَ، وسَلَّط عليها رَسولَه والمؤمِنينَ، فإنَّها لا تَحِلُّ لأحدٍ كان قَبْلي، وإنَّها أُحِلَّت لي ساعةً مِن نهارٍ، وإنَّها لا تَحِلُّ لأحدٍ بَعْدي))(١).

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾.

أي: ألم يَجعَلِ اللهُ سَعْيَهم في هَدْمِ الكَعبةِ، وصَرْفِ النَّاسِ عنها: في ضلالٍ وضَياعٍ؛ فلم يَتِمَّ لهم مَكْرُهم الَّذي اجتَهَدوا في حُصولِه(٢)؟

---

= وقال ابن عاشور: (ويجوزُ أن تكونَ الرُّؤيةُ بَصريَّةً بالنِّسبةِ لِمَن تَجاوَزَ سِنُّه نَيِّفًا وخمسينَ سَنةً عندَ نُزولِ الآيةِ، ممَّن شَهِدَ حادِثَ الفيلِ غُلامًا أو فَتًى). يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥).

وقال القرطبي: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ولكِنَّه عامٌّ، أي: ألَمْ تَرَوا ما فعَلْتُ بأصحابِ الفِيلِ؟ أي: قد رأيتُم ذلك، وعرَفْتُم مَوضِعَ مِنَّتي عليكم، فما لَكم لا تؤمِنونَ؟!). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ١٨٧). ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٥).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (قد تواتَرَت قِصَّةُ أصحابِ الفيلِ، وأنَّ أهلَ الحَبَشةِ النَّصارى سارُوا بجَيشٍ عظيمٍ، معهم فيلٌ؛ لِيَهدِموا الكَعبةَ لَمَّا أهانَ بعضُ العَرَبِ كنيستَهم الَّتي باليَمَنِ، فقَصَدوا إهانةَ الكعبةِ، وتعظيمَ كنايسِهم؛ فأرسلَ اللهُ عليهم طيرًا أهلَكَهم، وكان ذلك عامَ مَولِدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم). ((الجواب الصحيح)) (٦/ ٥٥). ويُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٩٤).

وقال الرسعني: (كان مِن حديثِ أصحابِ الفيلِ فيما ذكَر بعضُ أهلِ العلمِ عن سعيدِ بنِ جبيرٍ وعكرمةَ عن ابنِ عباسٍ وعمَّن لقي مِن علماءِ أهلِ اليمنِ وغيرِهم: أنَّ أبرهةَ بنَ الصباحِ الأشرمَ -مَلِكَ اليمنِ- بنَى كنيسةً بصنعاءَ، وسمَّاها «القُلَّيس»، وأراد أنْ يصرِفَ إليها حجَّ العربِ، فخرَجَ رجلٌ مِن كنانةَ فقَعَد فيها [أي: أحدَث] ليلًا، فبلَغ أبرهةَ ذلك، فقال: مَن اجترأ على ذلك؟ فقيل: رجلٌ مِن العربِ مِن أهلِ ذلك البيتِ، سمِع بالذي قلتَ، فصنَع هذا، فحلَف ليسيرَنَّ إلى الكعبةِ حتَّى يهدمَها). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٣٢).

وقال ابن عطيَّة: (الجُمهورُ على أنَّه فيلٌ واحِدٌ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٣).

(١) رواه البخاريُّ (٢٤٣٤)، ومسلمٌ (١٣٥٥) مطوَّلًا.

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير القرطبي)) =

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ ﴾.

أي: وأرسَلَ اللهُ عليهم جماعاتٍ كثيرةً مُتفرِّقةً مِنَ الطُّيورِ يَتبَعُ بَعضُها بعضًا، فَوجًا بعْدَ فَوجٍ[١].

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ ﴾.

أي: تَرمي تلك الطُّيورُ أصحابَ الفِيلِ بحِجارةٍ مِن طينٍ صُلبٍ يابِسٍ[٢].

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾.

أي: فجعَلَهم اللهُ مِثلَ زَرعٍ أكلَتْه الدَّوابُّ فراثَتْه، فيَبِسَ وتفرَّقَت أجزاؤُه[٣]!

---

= (٢٠/ ١٩٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٨٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٢٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٥٧)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٥٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٣٢)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٥٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٤).

وممَّن ذهب إلى المعنى المذكور: ابنُ جرير، والثعلبيُّ، والواحديُّ، والسمعانيُّ، وابنُ عطيَّةَ، والرَّسْعَنيُّ، والخازنُ، والعُلَيميُّ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٣)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٢٩٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٤)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٨٥)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٤)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٣٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٧٤)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٣٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٦).

وقيل: جعَلَهم كوَرَقِ الزَّرْعِ الَّذي جَفَّ وأُكِلَ: أي: وقَعَ فيه الأُكَالُ، وهو أن يأكلَه الدُّودُ ويجوفَه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: الزَّجَّاجُ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٥٨).

وقيل: المعنى: كزَرعٍ أكلَتْه الدَّوابُّ وداسَتْه بأقدامِها حتى تفتَّتَ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥١)، ((تفسير =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- في مُجْمَلِ هذه السُّورةِ العظيمةِ بيانُ ما فُعِلَ بأصحابِ الفيلِ، وأنَّ كيدَهم صار في نُحورِهم، وهكذا كلُّ مَن أراد الحقَّ بسوءٍ؛ فإنَّ اللهَ تعالى يَجعَلُ كَيدَه في نَحْرِه[١].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ فيه تذكيرٌ بأنَّ اللهَ تعالى غالِبٌ على أمْرِه[٢].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ تضَمَّن التَّذكيرَ بأنَّ الكعبةَ حَرَمُ اللهِ، وأنَّ اللهَ حماه ممَّن أرادوا به سُوءًا[٣].

٢- في تسليطِه سُبحانَه لنَبيِّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على هذا البلدِ، وتمليكِه إيَّاه ولأُمَّتِه مِن بعْدِه: ما دلَّ على صِحَّةِ نُبُوَّتِه؛ فإنَّ اللهَ حَبَسَ عنه مَن يريدُه بالأذى، وأهلَكَه؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ

---

= ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

وقيل: المأكولُ يعني البالي. وممَّن اختاره: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والسَّمَرْقَنْديُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٥٣)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٢).

قال ابنُ جُزَي: (وفي تَشْبيههم به ثلاثةُ أوجُه:

الأوَّلُ: أنَّه شَبَّههم بالتِّبنِ إذا أكلَتْه الدَّوابُّ ثمَّ راثَتْه، فجَمَع التَّلَفَ والخِسَّةَ، ولكِنَّ اللهَ كنَّى عن هذا على حَسَبِ أدَبِ القُرآنِ.

الثَّاني: أنَّه أراد وَرَقَ الزَّرعِ إذا أكلَتْه الدُّودُ.

الثَّالِثُ: أنَّه أراد كعَصْفٍ مأكولٍ زَرْعُه وبَقِيَ هو لا شَيءَ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٤٣، ٥٤٤).

* وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾، ثُمَّ سَلَّطَ عليه رَسولَه وأُمَّتَه، كما قال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ حَبَسَ عن مكَّةَ الفيلَ، وسَلَّطَ عليها رسولَه والمؤمِنينَ))[١]؛ فإنَّ الرَّسولَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وأُمَّتَه إنَّما كان قَصْدُهم تعظيمَ البَيتِ وتكريمَه واحترامَه؛ ولهذا أنكَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يومَ الفتحِ على مَن قال: اليومَ تُستَحَلُّ الكعبةُ! وقال: ((هذا يومٌ يُعَظِّمُ الله فيه الكعبةَ))[٢].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، مع أنَّ هذه الواقِعةَ وقَعَت قبْلَ المبعَثِ بزمانٍ طويلٍ؟!

**الجوابُ**: المرادُ مِن الرُّؤيةِ العِلمُ والتَّذكيرُ، وهو إشارةٌ إلى أنَّ الخبَرَ به متواتِرٌ، فكان العِلمُ الحاصِلُ به ضروريًّا مُساويًا في القوَّةِ والجَلاءِ للرُّؤيةِ؛ ولهذا السَّبَبِ قال لغَيرِه على سَبيلِ الذَّمِّ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١]، لا يُقالُ: فلِمَ قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦]؛ لأنَّ الفَرقَ أنَّ ما لا يُتصَوَّرُ إدراكُه لا يُستَعمَلُ فيه إلَّا العِلمُ؛ ككَونِه قادرًا، وأمَّا الَّذي يُتصَوَّرُ إدراكُه كفِرارِ الفِيلِ فإنَّه يجوزُ أن يُستعمَلَ فيه الرُّؤيةُ[٣].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ لم يتكَرَّرْ في القُرآنِ ذِكرُ إهلاكِ أصحابِ الفيلِ خِلافًا لقَصَصِ غَيرِهم مِن الأُمَمِ؛ لوَجهَينِ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ إهلاكَ أصحابِ الفيلِ لم يكُنْ مِن أجْلِ تكذيبِ رَسولٍ مِنَ اللهِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: ألَّا يتَّخِذَ منه المشرِكونَ غُرورًا بمكانةٍ لهم عندَ اللهِ، كغُرورِهم

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٩٤).

والحديث أخرجه البخاريُّ (٤٢٨٠) مِن حديثِ عُروةَ بنِ الزُّبَيرِ.

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٨٩).

بقَولِهم المحكيِّ في قَولِه تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٩] الآيةَ، وقَولِه: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] [الأنفال: ٣٤].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾، فيه سؤالٌ: أنَّ أصحابَ هذا الجَيشِ نَصارى، وهُم أهْلُ دِينٍ وكِتابٍ، وأهلُ مكَّةَ وَثَنِيُّونَ لا دِينَ لهم، والكَعبةُ مُمتَلِئةٌ بالأصنامِ، فكيف أهلَكَ اللهُ النَّصارَى أصحابَ الدِّينِ، ولم يُسَلِّطْهم على الوَثَنِيِّينَ؟

**الجَوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوجهُ الأوَّل**: أنَّ الجَيشَ ظالِمٌ باغٍ، والبَغيُ مَرتَعُه وَخِيمٌ، ولو كان المَظلومُ أقلَّ مِن الظَّالِمِ.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ الوَثَنِيَّةَ اعتِداءٌ على حَقِّ اللهِ في العِبادةِ، وغَزوَ هذا الجَيشِ اعتِداءٌ على حُقوقِ العِبادِ.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنَّه إرهاصٌ لمَولدِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إذ وُلِدَ في هذا العامِ نَفْسِه.

**الوجهُ الرَّابعُ**: أنَّ الأصلَ في نَشأةِ البَيتِ وإقامتِه، إنَّما هو اللهُ الَّذي أمَر برفعِ قَواعِدِه، وإقامةِ... في رِحابِه، وكان طاهِرًا مُطَهَّرًا للعاكِفينَ فيه والرُّكَّعِ السُّجودِ، وإنَّما الوَثَنِيَّةُ طارِئةٌ عليه، وإلى أَمدٍ قَصيرٍ مَداهُ، ودَنا مُنتهاهُ لدِينٍ جَديدٍ. والمَسيحِيَّةُ بنَفْسِها تَعلمُ ذلك، وتَنُصُّ عليه، وتُبَشِّرُ به، فكانت مُعتَدِيةً

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٤).

على الحَقَّيْنِ معًا: حَقِّ الله في بَيتِه، والَّذي تَعلَمُ حُرْمتَه وما لَه، وحَقِّ العِبادِ الَّذين حَولَه[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ الهَمْزةُ للاستفهامِ التَّقريريِّ، وهو يُفيدُ نفْيَ المُقرَّرِ بإثباتِه؛ للثِّقةِ بأنَّ المُقرَّرَ لا يَسَعُه إلَّا إثباتُ المَنفيِّ، والتَّقريرُ مُستعمَلٌ في التَّكريمِ؛ إشارةً إلى أنَّ ذلك كان إرهاصًا للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وفيه مع ذلك تَعريضٌ بكُفرانِ قُرَيشٍ نِعمةً عَظيمةً مِن نِعَمِ اللهِ عليهم؛ إذْ لم يَزالوا يَعبُدون غيرَه[٢]!

- وتَعليقُ الرُّؤيةِ بكَيفيَّةِ فِعلِه عزَّ وجَلَّ لا بنفْسِه، وإيثارُ ﴿كَيْفَ﴾ دونَ غيرِه مِن أسماءِ الاستِفهامِ، أو المَوصولِ، فلم يقلْ: (ألم تَرَ ما فعَل ربُّك)، أو (الَّذي فعَلَ ربُّكَ)؛ للدَّلالةِ على حالةٍ عَجيبةٍ يَستحضِرُها مَن يَعلمُ تَفصيلَ القِصَّةِ، ولتَهويلِ الحادثةِ، والإيذانِ بوُقوعِها على كَيفيَّةٍ هائلةٍ، وهَيئةٍ عَجيبةٍ دالَّةٍ على عِظَمِ قُدرةِ اللهِ تعالَى، وكَمالِ عِلمِه وحِكمتِه، وعِزَّةِ بَيتِه، وشَرَفِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ فإنَّ ذلك مِن الإرهاصاتِ؛ إذ رُوِيَ أنَّها وَقَعَت في السَّنةِ الَّتي وُلِدَ فيها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم[٣].

- وأيضًا أُوثِرَ لَفظُ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ دونَ غيرِه؛ لأنَّ مَدلولَ هذا الفِعلِ يعُمُّ أعمالًا كَثيرةً لا يدُلُّ عليها غيرُه[٤].

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٠٧). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٤، ٥٤٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥).

- وجِيءَ في تَعريفِ اللهِ سُبحانَه بوَصْفِ (ربّ) مُضافًا إلى ضَميرِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؛ إيماءً إلى أنَّ المَقصودَ مِن التَّذكيرِ بهذه القصَّةِ تَكريمُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وتَشريفُه وإشادةٌ مِن ذِكْرِه، إرْهاصًا لنُبوَّتِه؛ إذ كان ذلك عامَ مَولِدِه، كأنَّه قال: ربُّك مَعبودُك هو الَّذي فعَلَ ذلك، لا أصنامُ قُرَيشٍ؛ إسافٌ، ونائلةُ، وغيرُهما[١].

٢- قولُه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ بَيانٌ إجْماليٌّ لِمَا فعَلَه الله تعالَى بهمْ، والهمْزةُ للتَّقريرِ؛ ولذلكَ عُطِفَ على الجملةِ الاستفهاميَّةِ ما بَعْدَها[٢].

- وسمَّى حَرْبَهم كَيدًا؛ لأنَّه عمَلٌ ظاهرُه الغضَبُ مِن فِعلِ الكِنانيِّ الَّذي قَعَدَ في القُلَّيسِ[٣]، وإنَّما هو تَعِلَّةٌ تَعلَّلوا بها لإيجادِ سَببٍ لحرْبِ أهلِ مكَّةَ وهدْمِ الكَعبةِ؛ ليَنصرِفَ العرَبُ إلى حَجِّ القُلَّيسِ في صَنعاءَ فيَتنصَّروا. أو أُريدَ بكَيدِهم بناؤُهم القُلَّيسَ مُظهِرينَ أنَّهم بَنَوْا كَنيسةً وهم يريدون أنْ يُبطِلوا الحجَّ إلى الكَعبةِ، ويَصرِفوا العربَ إلى صَنعاءَ[٤].

- والتَّضليلُ: جَعْلُ الغيرِ ضالًّا، أي: لا يَهتدي لمُرادِه، وهو هنا تَعبيرٌ عن الإبطالِ، وعدَمِ نَوالِ المَقصودِ؛ لأنَّ ضَلالَ الطَّريقِ عدَمُ وُصولِ السَّائرِ[٥].

- وعُبِّرَ بحَرْفِ الظَّرفيَّةِ عن معْنى المُصاحَبةِ الشَّديدةِ، أي: أبطَلَ كَيدَهم

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٥، ٥٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٨)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٨٦).

(٣) القُلَّيس: بِيعةٌ كانت بصنعاءَ اليَمينِ للحبشةِ، بناها أبرهةُ وهدمَتْها حِمْيَرُ. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (٣/ ٩٦٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٦/ ٣٩٢).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٨). ويُنظر أيضًا: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩١).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٨).

بتَضليلٍ، أي: مُصاحِبًا للتَّضليلِ لا يُفارِقُه[١].

٣- قولُه: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ يَجوزُ أنْ يُجعَلَ مَعطوفًا على جُملةِ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ [الفيل: ١]، أي: وكيف أرسَلَ عليهم طَيرًا مِن صِفتِها كَيْتَ وكَيتَ؛ فبَعْدَ أنْ وَقَعَ التَّقريرُ على ما فَعَلَ اللهُ بهم مِن تَضليلِ كَيدِهم، عُطِفَ عليه تَقريرٌ بعِلمِ ما سُلِّطَ عليهم مِن العِقابِ على كَيدِهم؛ تَذكيرًا بما حلَّ بهم مِن نِقمةِ اللهِ تعالَى لقَصْدِهم تَخريبَ الكَعبةِ، فذلك مِن عِنايةِ اللهِ ببَيتِه؛ لإظْهارِ تَوطئتِه لبَعثةِ رَسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بدِينِه في ذلك البلَدِ، إجابةً لدَعوةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ، فكما كان إرسالُ الطَّيرِ عليهم مِن أسبابِ تَضليلِ كَيدِهم، كان فيه جَزاءٌ لهم؛ ليَعلَموا أنَّ اللهَ مانعٌ بَيتَه، وتكونَ جُملةُ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ مُعترِضةً بيْنَ الجُملتَينِ المُتعاطِفتَينِ. ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ عطْفًا على جُملةِ ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، فيكونَ داخلًا في حيِّزِ التَّقريرِ الثَّاني بأنَّ اللهَ جَعَل كَيدَهم في تَضليلٍ، وخُصَّ ذلك بالذِّكرِ؛ لجمْعِه بيْنَ كونِه مُبطِلًا لكَيدِهم، وكَونِه عُقوبةً لهم. ومِجيءُ ﴿وَأَرْسَلَ﴾ بلَفظِ الماضي باعتِبارِ أنَّ المضارِعَ في قولِه: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ قُلِبَ زَمانُه إلى المُضِيِّ؛ لدُخولِ حرْفِ (لمْ)، فكأنَّه قيل: أليسَ جَعَل كَيدَهم في تَضليلٍ[٢]؟

- وقال: ﴿طَيْرًا﴾ على التَّنكيرِ: إمَّا للتَّحقيرِ؛ فإنَّه مهما كان أحقَرَ كان صُنعُ اللهِ أعجَبَ وأكبَرَ، أو للتَّفخيمِ، كأنَّه يقولُ: طَيرًا وأيُّ طيرٍ؟ تَرمي بحجارةٍ صغيرةٍ فلا تُخطِئُ المَقتَلَ[٣]!

- و﴿أَبَابِيلَ﴾، أيْ: طوائفَ وجَماعاتٍ، جمْعُ إبَّالةٍ -على قولٍ-، وهيَ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٨، ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٤٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩١).

الحُزمةُ الكبيرةُ مِن الحطَبِ، شُبِّهَتْ بها الجَماعةُ مِن الطَّيرِ في تَضامِّها، فوَصْفُ الطَّيرِ بـ﴿أَبَابِيلَ﴾ على وَجْهِ التَّشبيهِ البَليغِ[١].

٤- قولُه: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ حالٌ مِن ﴿طَيْرًا﴾، وجِيءَ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لاستحضارِ الحالةِ، بحيث تُخيَّلُ للسَّامعِ كالحادثةِ في زمَنِ الحالِ[٢].

٥- قولُه: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ العصْفُ: وَرَقُ الزَّرعِ، وهو جمْعُ عَصْفةٍ. والعصْفُ إذا دَخَلَتْه البهائمُ فأكَلَتْه داسَتْه بأرجُلِها وأكَلَت أطرافَه، وطَرَحَتْه على الأرضِ بعدَ أنْ كان أخضَرَ يانعًا، أو شُبِّهوا بتِبْنٍ أكَلَتْه الدَّوابُّ وَراثَتْه، ولكنَّه جاء على ما عليه آدابُ القرآنِ، كقولِه: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، أو شُبِّهوا بورَقِ الزَّرعِ إذا أُكِل، أي: وقَعَ فيه الأُكالُ، وهو أنْ يَأكُلَه الدُّودُ، أو أُريدَ: الَّذي أُكِلَ حَبُّه، فبَقِيَ فارغًا. وهذا تَمثيلٌ لحالِ أصحابِ الفيلِ بعْدَ تلك النَّضْرةِ والقُوَّةِ، كيف صاروا مُتساقِطينَ على الأرضِ هالِكينَ[٣]!

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٧٩٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٤٩، ٥٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٣٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥١).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ قُرَيْش

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ قُرَيْش

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (قُرَيْش) و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ قُرَيشٍ مكِّيَّةٌ، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

تَذكيرُ أهْلِ مكَّةَ بجانبٍ مِن نِعَمِ اللهِ تعالى عليهم[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

١- ذِكرُ المِنَّةِ على قُرَيشٍ، بأنَّ اللهَ مكَّنَ لهم السَّيْرَ في الأرضِ للتِّجارةِ برِحْلَتَيِ الشِّتاءِ والصَّيفِ.

---

(١) سُمِّيَتِ السُّورةُ بالجملةِ الأولى منها، ولذِكرِ لَفظِ قُرَيشٍ في مَطلَعِها -ولم يَقَعْ في غيرِها- في قولِه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾. يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٣).

(٢) ممَّن نقلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٥)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٥٠).

ونسَب القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ إلى الأكثَرينَ: الماوَرْديُّ، ونسَبه إلى الجمهورِ: ابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، وأبو حيَّانَ. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٧).

ونُسِب القولُ بأنَّها مَدَنيَّةٌ إلى الضَّحَّاكِ، والكَلْبيِّ. يُنظر المصادر السَّابقة.

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٥١٣).

٢- تَحضِيضُهم على العِبادةِ، وشُكرِ الإحسانِ.

٣- ذِكرُ المِنَّةِ عليهم بإطعامِهم مِن جُوعٍ، وتَأمِينِهم مِن المَخاوِفِ.

## الآيات (١-٤)

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿لِإِيلَٰفِ﴾: أي: لأُلْفَتِهم واعتيادِهم، والإيلافُ: مَصدَرُ آلَفْتُ الشَّيءَ: إذا لَزِمْتَه وتعوَّدْتَ عليه، وأصلُ (ألف): يدُلُّ على انضمامِ الشَّيءِ إلى الشَّيءِ[1].

## مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ * إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ اللَّامُ في «إيلافِ» مُتعَلِّقةٌ بقَولِه: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾، ودخَلَت الفاءُ لِما في الكلامِ مِن معنى الشَّرطِ، أي: فإنْ لم يَعبُدوه لسائِرِ نِعَمِه فلْيَعبُدوه لإيلافِهم. أو هي مُتعَلِّقةٌ بفِعلٍ مُقَدَّرٍ، تقديرُه: اعجَبوا لإيلافِ قُرَيشٍ. أو مُتعَلِّقةٌ بقَولِه تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ [الفيل: ٥].

﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ﴾: مجرورٌ على البَدلِ مِن «إيلافِ» الأُولى، أو توكيدٌ لَفظيٌّ له، وهو مَصدَرٌ مضافٌ لفاعِلِه. رِحْلَةَ: مَفعولٌ به للمَصدَرِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بذِكْرِ مِنَّةٍ أخرى على قُرَيشٍ إثْرَ ذِكْرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٣١)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩١).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ١١١)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٧٢)، ((الجدول في إعراب القرآن)) لمحمود صافي (٣٠/ ٤٠٩).

نِعمَتِه عليهم بإهلاكِ عَدُوِّهم، وهي مِنَّةُ اجتِماعِهم واعتيادِهم كُلَّ عامٍ القيامَ برِحلةٍ في الشِّتاءِ إلى اليَمَنِ، ورِحلةٍ في الصَّيفِ إلى الشَّامِ للتِّجارةِ.

ثمَّ أرشَدَهم إلى شُكرِ هذه النِّعمةِ العظيمةِ، فقال: فلْيَعبُدوا رَبَّ البَيتِ الحرامِ، الَّذي أطعَمَهم مِنَ الجُوعِ، وآمَنَهم مِنَ الخَوفِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢﴾.

أي: لاجتِماعِ قَبيلةِ قُرَيشٍ[1] واعتيادِهم كُلَّ عامٍ القيامَ برِحلةٍ في الشِّتاءِ إلى

---

(١) قال الزَّجَّاجُ: (هذه اللَّامُ قال النَّحْويُّون فيها ثلاثة أوجُه:
قيل: هي مَوصولةٌ بما قَبْلَها، المعنى: فجعَلَهم كعَصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قُرَيشٍ، أي: أهلَكَ اللهُ أصحابَ الفيلِ؛ لِتَبْقى قُرَيشٌ وما قد أَلِفُوا مِن رحلةِ الشِّتاءِ والصَّيفِ.
وقال قومٌ: هذه لامُ التَّعَجُّبِ، فكان المعنى: اعجَبوا لإيلافِ قُرَيشٍ.
وقال النَّحْويُّونَ الَّذين تُرتضى عربيَّتُهم: هذه اللَّامُ معناها متَّصِلٌ بما بَعْدُ: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ﴾، والمعنى: فلْيَعبُدْ هؤلاء ربَّ هذا البيتِ لإيلافِهم رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ). ((معاني القرآن وإعرابه)) (٥/ ٣٦٥).
وممَّن ذهب إلى المعنى الأول: السمرقنديُّ، والواحديُّ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٥).
قال السعدي: (قال كثيرٌ مِن المفسِّرينَ: إنَّ الجارَّ والمجرورَ مُتعَلِّقٌ بالسُّورةِ الَّتي قَبْلَها، أي: فعَلْنا ما فعَلْنا بأصحابِ الفيلِ؛ لأجْلِ قُرَيشٍ وأمْنِهم، واستِقامةِ مَصالِحِهم، وانتِظامِ رِحلتِهم في الشِّتاءِ لليَمَنِ، والصَّيفِ للشَّامِ؛ لأجْلِ التِّجارةِ والمكاسِبِ؛ فأهلك اللهُ مَن أرادهم بسُوءٍ، وعَظَّم أمْرَ الحَرَمِ وأهلِه في قُلوبِ العَرَبِ، حتَّى احترَموهم، ولم يَعترِضوا لهم في أيِّ سَفرٍ أرادوا). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥). ويُنظر: ((تأويل مُشْكِل القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٣٥).
وقال ابنُ كثير: (هذه السُّورةُ مفصولةٌ عن الَّتي قَبْلَها في المصحَفِ الإمامِ، كَتَبوا بيْنَهما سَطرَ بسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ، وإن كانت متعَلِّقةً بما قبْلَها، كما صَرَّح بذلك محمَّدُ بنُ إسحاقَ، وعبدُ الرَّحمنِ بنُ زَيدِ بنِ أسْلَمَ؛ لأنَّ المعنى عِندَهما: حَبَسْنا عن مكَّةَ الفيلَ، وأهلَكْنا أهْلَه لِإيلافِ قُرَيشٍ، أي: لائتِلافِهم واجتماعِهم في بَلَدِهم آمِنينَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩١).
وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّاني: ابنُ جرير، فقال: (معنى الكلامِ: اعجَبُوا لإيلافِ قُرَيشٍ =

اليَمَنِ، ورِحلةٍ في الصَّيفِ إلى الشَّامِ للتِّجارةِ الَّتي كان بها قِوامُ عَيشِهم[١].

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾.

## مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمَّا تقرَّر أنَّ الإنعامَ لا بُدَّ أن يُقابَلَ بالشُّكرِ والعُبوديَّةِ؛ لا جَرَمَ أُتبِعَ ذِكرُ النِّعمةِ

---

= رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ، وتَرْكِهم عبادةَ ربِّ هذا البَيتِ، الَّذي أطعَمَهم مِن جوعٍ وآمَنَهم مِن خَوفٍ؛ فلْيَعبُدوا ربَّ هذا البَيتِ، الَّذي أطعَمَهم مِن جوعٍ وآمنَهم مِن خَوفٍ، والعَرَبُ إذا جاءت بهذه اللَّامِ فأدخَلوها في الكلامِ للتَّعَجُّبِ اكتَفَوا بها دليلًا على التَّعجُّبِ مِن إظهارِ الفِعلِ الَّذي يَجلِبُها). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٩).

وممَّن ذهب إلى المعنى الثَّالثِ: الزمخشريُّ، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٤).

قال الزمخشري: (﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ متعلِّقٌ بقَولِه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾، أمَرَهم أن يَعبُدوه لأجْلِ إيلافِهم الرِّحلَتينِ... على معنى: أنَّ نِعَمَ اللهِ عليهم لا تُحصى، فإنْ لم يَعبُدوه لسائرِ نِعَمِه فلْيَعبُدوه لهذه الواحِدةِ الَّتي هي نِعمةٌ ظاهِرةٌ). ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٠، ٨٠١).

وقال الشوكاني: (قُرَيْشٌ هم: بنو النَّضرِ بنِ كِنانةَ بنِ خُزَيمةَ بنِ مُدرِكةَ بنِ إلياسَ بنِ مُضَرَ، فكُلُّ مَن كان مِن ولَدِ النَّضرِ فهو قُرَشيٌّ، ومَن لم يَلِدْه النَّضرُ فليس بقُرَشيٍّ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٠٩). ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٤٩، ٦٥١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠١)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٦٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

قال القرطبي: (كانت إحدى الرِّحلتَينِ إلى اليَمَنِ في الشِّتاءِ؛ لأنَّها بلادٌ حاميةٌ، والرِّحلةُ الأخرى في الصَّيفِ إلى الشَّامِ؛ لأنَّها بلادٌ باردةٌ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠٦).

وقال ابن عاشور: (صارتْ مكَّةُ وسطًا تُجلبُ إليها السِّلعُ مِن جميعِ البلادِ العربيَّةِ، فتوزَّعُ إلى طالبيها في بقيةِ البلادِ، فاستغنى أهلُ مكَّةَ بالتِّجارةِ؛ إذ لم يَكونوا أهلَ زَرعٍ ولا ضَرعٍ؛ إذ كانوا بوادٍ غيرِ ذي زرعٍ، وكانوا يَجلبونَ أقواتَهم...، زيادةً على ما جُعِل لهم معَ مُعظَمِ العربِ مِن الأشهُرِ الحُرُمِ، وما أُقيمَ لهم مِن مَواسِمِ الحجِّ وأسواقِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

بطَلَبِ العُبوديَّةِ[١].

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣﴾.

أي: فلْيَعبُدوا اللهَ رَبَّ البَيتِ الحرامِ الَّذي جَعَل لهم بسَبَبِه خيرًا كثيرًا، فيَشكُروه بإخلاصِ العبادةِ له دونَ ما سِواه[٢].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١].

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾.

أي: الَّذي أطعَمَ قُرَيشًا مِنَ الجُوعِ، فكفاهم ذلك[٣].

كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾.

أي: وآمَنَهم مِنَ الخَوفِ، فلا يَعتَدي عليهم أحدٌ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٢)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٤-٦٥٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦١).

قال الواحدي: (كانوا يُسافِرونَ آمِنينَ، لا يتعَرَّضُ لهم أحدٌ، وكان غيرُهم لا يأمَنُ في سَفَرِه ولا في حَضَرِه). ((الوسيط)) (٤/ ٥٥٧).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وقال سُبحانَه: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ في هذا إشارةٌ إلى تمامِ قُدرتِه سُبحانَه وتعالى، وأنَّه إذا أراد شيئًا يسَّر سببَه؛ لأنَّ التَّدبيرَ كُلَّه له، يَخفِضُ مَن يَشاءُ وإن عَزَّ، ويَرفَعُ مَن يَشاءُ وإن ذَلَّ؛ ليُثمِرَ اعتِقادُ ذلك حُبَّه، والانقِطاعَ لعبادتِه، والاعتمادَ عليه في كُلِّ نَفعٍ ودَفعٍ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ رَغَدُ الرِّزقِ والأمْنُ مِنَ المخاوِفِ مِن أكبَرِ النِّعَمِ الدُّنيويَّةِ الموجِبةِ لشُكرِ اللهِ تعالى[(٢)].

فالآيةُ فيها أنَّ على المسلمينَ أفرادًا وجماعاتٍ أن يُقابِلوا نِعَمَ اللهِ بالشُّكرِ، وأن يَشكُروها بالطَّاعةِ والعبادةِ للهِ، وأن يَحذَروا كُفْرانَ النِّعَمِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٦٠، ٢٦١).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١١٢).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ إنَّ اللهَ سُبحانَه تارةً يُضيفُ نَفْسَه إلى البيتِ، ويخَصِّصُه بالرُّبوبيَّةِ كما في قولِه هنا: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾، وتارةً يُضيفُ البَيتَ إلى نفْسِه، كما في قولِه: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾[1] [البقرة: ١٢٥]، وذلك على سَبيلِ التَّشريفِ والتَّعظيمِ، وقال سُبحانَه في مَوضِعٍ آخَرَ: ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا﴾ [النمل: ٩١]، ثمَّ قال بَعْدَها: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾؛ احترازًا مِن أنْ يَتَوَهَّمَ واهِمٌ بأنَّه ربُّ البلدةِ وحْدَها، فقال: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾، لبيانِ عُمومِ مُلْكِه؛ لئلَّا يَدَّعِيَ المشركونَ أنَّه ربٌّ للبلدةِ فقط، أمَّا هنا فالمقامُ مقامُ تعظيمِ للبَيتِ؛ فناسَبَ ذِكْرُه وَحْدَه[2].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ قَولُه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾ مَن استجابَ لهذا الأمرِ جَمَعَ اللهُ له بيْنَ أمْنِ الدُّنيا وأمْنِ الآخِرةِ، ومَن عصاه سَلَبَهما منه، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[3] [النحل: ١١٢، ١١٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ فيه سؤالٌ: ما الفائِدةُ في قَولِه: ﴿مِّن جُوعٍ﴾؟

**الجوابُ: فيه فوائِدُ:**

**الفائدةُ الأُولى**: التَّنبيهُ على أنَّ أمرَ الجُوعِ شَديدٌ، ومنه قَولُه تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٢).

يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ ﴾ [الشورى: ٢٨].

**الفائدةُ الثَّانيةُ**: تذكيرُهم الحالةَ الأُولى الرَّديئةَ المؤلِمةَ، وهي الجوعُ؛ حتى يَعرِفوا قَدْرَ النِّعمةِ الحاضِرةِ.

**الفائدةُ الثَّالثةُ**: التَّنبيهُ على أنَّ خيرَ الطَّعامِ ما سَدَّ الجَوعةَ؛ لأنَّه لم يَقُلْ: (وأشبَعَهم)؛ لأنَّ الطَّعامَ يُزيلُ الجُوعَ، أمَّا الإشباعُ فإنَّه يُورِثُ البِطْنةَ[١].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴾، فيه دليلٌ على أنَّ دَعوةَ الأنبياءِ مُستجابةٌ؛ لأنَّ الخليلَ -عليه وعلى نبيِّنا الصَّلاةُ والسَّلامُ- دعا لأهلِ الحَرَمِ بقَولِه: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، وقال: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقال: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ [البقرة: ١٢٩]؛ فأطعَمَهم اللهُ مِن جُوعٍ، وآمَنَهم مِن خَوفٍ، وبَعَث فيهم رسولًا منهم يَتلو عليهم آياتِه[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ * إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴾ افتِتاحٌ مُبدِعٌ؛ إذ كان بمَجرورِ بلامِ التَّعليلِ، وليس بإثْرِه بالقُربِ ما يَصلُحُ للتَّعليقِ به؛ ففيه تَشويقٌ إلى مُتعلَّقِ هذا المجرورِ، وزادَه الطُّولُ تَشويقًا؛ إذ فُصِلَ بيْنَه وبيْنَ مُتعلَّقِه بخمْسِ كَلماتٍ، فيَتعلَّقُ ﴿لِإِيلَٰفِ ﴾ بقولِه: ﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ ﴾، وذلك على قولٍ. وتَقديمُ هذا المَجرورِ للاهتمامِ به؛ إذ هو مِن أسبابِ أمْرِهم بعِبادةِ اللهِ الَّتي أعْرَضوا عنها بعِبادةِ الأصنامِ، وأصْلُ نظْمِ الكلامِ: لِتَعبُدْ قُريشٌ رَبَّ هذا البَيتِ الَّذي أطْعَمَهم مِن جُوعٍ، وآمَنَهم مِن خَوفٍ؛ لإيلافِهم رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ،

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٢٩٩).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١١٢، ١١٣).

فلمَّا اقْتَضى قصْدُ الاهتمامِ بالمَعمولِ تَقديمَه على عامِلِه، تَولَّدَ مِن تَقديمِه معْنى جَعْلِه شَرطًا لعامِلِه، فاقترَنَ عامِلُه بالفاءِ الَّتي هي مِن شَأنِ جَوابِ الشَّرطِ، فالفاءُ الدَّاخلةُ في قَولِه: (لِيَعْبُدُوا) مُؤْذِنةٌ بأنَّ ما قبْلَها في قوَّةِ الشَّرطِ، أي: مُؤذِنةٌ بأنَّ تَقديمَ المَعمولِ مَقصودٌ به اهتمامٌ خاصٌّ وعِنايةٌ قَويَّةٌ هي عِنايةُ المُشترِطِ بشَرْطِه، وتَعليقُ بَقيَّةِ كَلامِه عليه لِما يَنتظِرُه مِن جَوابِه، وهذا أُسلوبٌ مِن الإيجازِ بَديعٌ.

ويَجوزُ أنْ تُجعَلَ اللَّامُ مُتعلَّقةً بفِعلِ (اعْجَبوا) مَحذوفًا يُنبِئُ عنه اللَّامُ؛ لكَثرةِ وُقوعِ مَجرورٍ بها بعْدَ مادَّةِ التَّعجُّبِ، أي: اعْجَبوا لإيلافِ قُريشٍ رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ، وتَرْكِهم عِبادةَ ربِّ هذا البيتِ! وعلى ذلك تكونُ الفاءُ في قَولِه: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ تفريعًا على التَّعجيبِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿لِإِيلَٰفِ﴾ مُتعلِّقًا بما في سُورةِ (الفيلِ) مِن قولِه: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥]، وهذا بمَنزلةِ التَّضمينِ في الشِّعرِ، وهو أنْ يَتعلَّقَ معْنى البيتِ بالَّذي قبْلَه تَعلُّقًا لا يصِحُّ إلَّا به، فالمَعْنى: أنَّه أهلَكَ مَنْ قَصَدَهم مِنَ الحبَشةِ؛ لِيَتسامَعَ النَّاسُ فيَتهيَّبُوا لهمْ زِيادةَ تَهيُّبٍ، ويُحترَمُوا فضْلَ احترامٍ؛ حتَّى يَنتظِمَ لهُم الأمنُ في رِحلتَيْهِم، فَلا يَجترِئَ عليهم أحدٌ. وقيلَ: يَتعلَّقُ بمُضمَرٍ تَقديرُه: فَعَلْنا مَا فَعَلْنا مِنْ إهلاكِ أصحابِ الفيلِ لإيلافِ، فذُكِرَ ذلك للامتنانِ عليهم؛ إذ لو سُلِّطَ عليهم أصحابُ الفيلِ لَتَشتَّتوا في البلادِ والأقاليمِ، ولم تَجتمِعْ لهم كَلمةٌ[(١)].

- والإيلافُ: صِيغةُ الإفعالِ فيه للمُبالَغةِ؛ لأنَّ أصْلَها أنْ تدُلَّ على حُصولِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٠، ٨٠١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٤، ٥٥٥).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٢٨٦).

الفعلِ مِن الجانبَينِ، فصارت تُستعمَلُ في إفادةِ قوَّةِ الفِعلِ[١].

- وإضافةُ (إيلاف) إلى (قُريش) على معْنى إضافةِ المصدَرِ إلى فاعِلِه، وحُذِفَ مَفعولُه؛ لأنَّه هنا أُطلِقَ بالمعْنى الاسميِّ لتلك العادةِ، فهي إضافةٌ مَعنويَّةٌ بتَقديرِ اللَّامِ[٢].

- وأُطلِقَ الإيلافُ في قَولِه: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾، ثمَّ أُبدِلَ عنه المُقيَّدُ بالرِّحلتينِ ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾؛ تَفخيمًا لأمْرِ الإيلافِ، وتَذكيرًا بعَظيمِ النِّعمةِ فيه[٣].

وأيضًا أفاد هذا التَّكرارُ بيانَ المفعولِ، وهو ﴿رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ﴾. وقيل: إيلافُهم الثَّاني تأكيدٌ للأوَّلِ[٤].

وقيل: ﴿إِۦلَٰفِهِمۡ﴾ عطْفُ بَيانٍ مِن (إِيلَافِ قُرَيْشٍ)، وهو مِن أُسلوبِ الإجمالِ فالتَّفصيلِ للعِنايةِ بالخبَرِ؛ ليَتمكَّنَ في ذِهنِ السَّامعِ[٥].

- وإضافةُ ﴿رِحۡلَةَ﴾ إلى ﴿ٱلشِّتَآءِ﴾ مِن إضافةِ الفِعلِ إلى زَمانِه الَّذي يقَعُ فيه؛ فقدْ يكونُ الفِعلُ مُستغرِقًا لزَمانِه، مِثلُ قولِك: سَهَرُ اللَّيلِ وقدْ يكونُ وَقتًا لابتدائِه، مِثلُ صَلاةِ الظُّهرِ[٦]. وظاهرُ الإضافةِ أنَّ رِحلةَ الشِّتاءِ والصَّيفِ مَعروفةٌ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٥٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩١).

(٤) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٥)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٦، ٥٥٧).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٥٧).

مَعهودةٌ، وهما رِحلتانِ، فعطْفُ ﴿وَٱلصَّيۡفِ﴾ على تَقديرِ مُضافٍ، أي: ورِحلةَ الصَّيفِ؛ لظُهورِ أنَّه لا تكونُ رِحلةٌ واحدةٌ تبتدَأُ في زَمانَينِ، فتَعيَّن أنَّهما رِحلتانِ في زَمنَينِ[١].

- وإفرادُ ﴿رِحۡلَةَ﴾، معَ أنَّ المُرادَ رِحْلَتا الشِّتاءِ والصَّيفِ؛ لِأمْنِ الإلْباسِ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ * ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ وَجْهُ تَعليلِ الأمْرِ بتَوحيدِهم اللهَ بخُصوصِ نِعمةِ هذا الإيلافِ مع أنَّ للهِ عليهم نِعَمًا كَثيرةً؛ لأنَّ هذا الإيلافَ كان سَببًا جامعًا لأهمِّ النِّعَمِ الَّتي بها قِوامُ بَقائِهم[٣].

- وتَعريفُ (ربّ) بالإضافةِ إلى ﴿هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: فلْيَعبُدوا اللهَ؛ لِما يُومِئُ إليه لَفظُه مِن استحقاقِه الإفرادَ بالعِبادةِ دونَ شَريكٍ، وأُوثِرَ إضافةُ (ربّ) إلى ﴿هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ﴾ دونَ أنْ يُقالَ: (ربَّهم)؛ للإيماءِ إلى أنَّ البيتَ هو أصلُ نِعمةِ الإيلافِ بأنْ أمَرَ إبراهيمَ ببِناءِ البيتِ الحرامِ، فكان سَببًا لرِفعةِ شَأنِهم بيْن العرَبِ، وذلك إدماجٌ[٤] للتَّنويهِ بشَأنِ البيتِ الحرامِ وفضْلِه[٥].

- والبَيتُ مَعهودٌ عندَ المُخاطَبينَ، والإشارةُ إليه (هذا)؛ لأنَّه بذلك العهْدِ كان كالحاضرِ في مَقامِ الكلامِ، على أنَّ (البَيت) بهذا التَّعريفِ باللَّامِ صار عَلَمًا بالغَلَبةِ على الكَعبةِ، و(ربِّ البيتِ) هو اللهُ، والعرَبُ يَعترِفون بذلك[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٥٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

(٤) تقدَّم تعريفُه (٤٢/ ٥١٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٠).

(٦) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٦٠، ٥٦١).

- وتَمكَّنَ هنا هذا اللَّفظُ (البَيت)؛ لتَقدُّمِ حِمايتِه في السُّورةِ الَّتي قبْلَها[١].

- وأُجرِيَ وَصْفُ الرَّبِّ بطَريقةِ المَوصولِ ﴿ ٱلَّذِىٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴾؛ لِما يُؤذِنُ به مِن التَّعليلِ للأمرِ بعِبادةِ ربِّ البيتِ الحرامِ بعِلَّةٍ أُخرى زِيادةً على نِعمةِ تَيسيرِ التِّجارةِ لهم، وذلك ممَّا جَعَلَهم أهلَ ثَراءٍ، وهما نِعمةُ إطعامِهم وأمْنِهم[٢].

- والتَّنكيرُ في ﴿جُوعٖ﴾ و﴿خَوۡفِۭ﴾ للتَّعظيمِ، يعني: أطْعَمَهم بالرِّحلتَينِ مِن جُوعٍ شَديدٍ كانوا فيه قبْلَهما، وآمَنَهم مِن خَوفٍ عَظيمٍ، وهو خَوفُ أصحابِ الفِيلِ، أو خَوفُ التَّخطُّفِ في بَلدِهم ومَسايِرِهم[٣]. أو التَّنكيرُ في ﴿جُوعٖ﴾ و﴿خَوۡفِۭ﴾ للنَّوعيَّةِ لا للتَّعظيمِ؛ إذ لم يَحُلَّ بهم جُوعٌ وخَوفٌ مِن قبْلُ[٤].

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٠)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦١).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الماعُونِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ الماعُونِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الماعُون)[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الماعُونِ مكِّيَّةٌ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

التَعجِيبُ مِن حالِ المُكذِّبينَ بالبَعثِ، وتَفظِيعُ أعمالِهم[٣].

---

(١) سمِّيَت بذلك؛ لذِكرِ لَفظِ الماعُونِ فيها دُونَ غيرِها، في قولِه: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٣).

وتُسَمَّى أيضًا سورةَ (الدِّينِ)، و(أرَأَيْتَ)، و(التَّكذيبِ)، و(اليتيمِ). يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٧)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٣)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٨)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٣).

(٢) ونَسَبَه للجُمهورِ: ابنُ الجَوزيِّ، وأبو حيَّانَ. وقِيلَ: مَدَنيَّةٌ، ونُسِبَ إلى ابنِ عبَّاسٍ وقَتادةَ، واختاره القاسِميُّ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٥٢).

وقيل: مكِّيَّةٌ، ثلاثُ آياتٍ الأُوَلُ، مدَنيَّةُ البَقيَّةِ. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، وابنُ جُزَي، والفيروزابادي، والسيوطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٦)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ١٠٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٦٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤).

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

١- التَّعجِيبُ مِن حالِ مَن كذَّبُوا بالبَعثِ.

٢- الشِّكايةُ مِن الجافِينَ على الأيتامِ والمَساكِينِ.

٣- ذَمُّ السَّاهِينَ عن الصَّلاةِ والمُرائينَ فيها، والمانِعينَ النَّفْعَ والمَعُونةَ عن النَّاسِ.

## الآيات (١-٧)

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿بِٱلدِّينِ﴾: أي: بالجزاءِ والحسابِ، يُقالُ: دِنْتُه بما صَنَع، أي: جازَيْتُه، وأصلُ (دين): جِنْسٌ مِن الانْقِيادِ، والذُّلِّ[١].

﴿يَدُعُّ﴾: أي: يَدفَعُ بشِدَّةٍ، والدَّعُّ في اللُّغةِ: الدَّفعُ في قَسوةٍ وعُنفٍ، وأصلُ (دعع): يدُلُّ على دَفعٍ[٢].

﴿يَحُضُّ﴾: أي: يَحُثُّ ويأمُرُ، والحَضُّ: الحَثُّ، وهو أن تَطلُبَ مِن غَيرِك فِعلًا بتأكيدٍ، وتُلِحُّ في ذلك الطَّلبِ، وأصلُ (حضض): يدُلُّ على البَعْثِ على الشَّيءِ[٣].

﴿فَوَيْلٌ﴾: أي: عَذابٌ وهَلاكٌ. وقيلَ: وَيلٌ: وادٍ في جَهنَّمَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (١/ ٢٣)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٣٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٣١٩)، ((البسيط)) للواحدي (٢٣/ ٢٩٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٣٢٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٥٢٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٥٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٨).

(٣) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٢٩/ ١٣٩) و(٣٠/ ٥٦٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢/ ١٦٣)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٧٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٨٨٨). ويُنظر ما تقدَّم في سورةِ الهُمَزةِ (ص: ٣٠٦).

﴿سَاهُونَ﴾: أي: لاهُون مُتشاغِلونَ، وأصلُ (سهو): يدُلُّ على الغَفْلةِ والسُّكونِ[١].

﴿يُرَآءُونَ﴾: أي: لا يُريدونَ اللهَ بأعمالِهم، يُقالُ: راءى فُلانٌ يُرائي، وفَعَل ذلك رِئاءَ النَّاسِ: وهو أن يَفعَلَ شَيئًا لِيَراه النَّاسُ[٢].

﴿ٱلْمَاعُونَ﴾: أي: كُلَّ ما يُستعانُ به ويُنتَفَعُ به، كالفأسِ والدَّلْوِ ونَحوِهما مِن مَتاعِ البَيتِ اليَسيرِ، والماعونُ: فاعُولٌ مِنَ المَعْنِ: وهو الشَّيءُ القَليلُ[٣].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مخاطِبًا نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، بقَولِه سُبحانَه: أرأَيْتَ -يا محمَّدُ- الَّذي يُكذِّبُ بوُقوعِ الجَزاءِ يومَ القيامةِ؟ فذلك مِن صِفَتِه أنَّه يَدفَعُ اليتيمَ بشِدَّةٍ وعُنفٍ، ولا يُكرِمُه، ولا يَحُثُّ الآخَرينَ على إطعامِ المِسكينِ!

ثمَّ قال الله تعالَى متوَعِّدًا: فعَذابٌ وهَلاكٌ للمُصَلِّينَ الَّذين هم عن صَلاتِهم لاهُون مُتشاغِلونَ، فيُؤخِّرونَها حتَّى يَخرُجَ وقتُها، ويُخِلُّونَ بشُروطِها وأرَكانِها وواجِباتِها، الَّذين هم يُراؤُونَ النَّاسَ بصَلاتِهم؛ طَلَبًا لثَناءٍ، أو رجاءً لنَفعٍ، ويَمنَعونَ النَّاسَ مِنَ الانتفاعِ بما لديهم، ممَّا لا يَتضَرَّرونَ ببَذْلِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١﴾

(١) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ١٠٧)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٥٨).

(٢) يُنظر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٤٧٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٦٠).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٠)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٦٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٨).

أي: أرأيتَ -يا محمَّدُ- الَّذي يُكذِّبُ بوُقوعِ الجَزاءِ ثوابًا وعِقابًا يومَ القيامةِ، فهو لا يُطيعُ اللهَ بفِعلِ أوامِرِه واجتنابِ نواهيه[1]؟

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢﴾.

أي: فذلك مِن صِفَتِه أنَّه يدفَعُ اليتيمَ بشِدَّةٍ وعُنفٍ، ولا يُكرِمُه[2].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

ممَّن ذهَبَ في الجُملةِ إلى المعنى المَذكورِ للدِّينِ: ابنُ جَريرٍ، والواحِديُّ، وابنُ كَثيرٍ، والسعديُّ، ونسَبَه الرَّازيُّ إلى أكثَرِ المُفَسِّرينَ. يُنظر: المصادِرُ السَّابِقةُ.

وممَّن قال مِن السَّلفِ بأنَّ المُرادَ بالدِّينِ هنا: الحِسابُ والجَزاءُ: ابنُ عبَّاسٍ في رِوايةٍ عنه، وعِكْرِمةُ، ومُجاهِدٌ، وابنُ جُرَيْجٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٧)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٥٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٥٦)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٥).

وقد جَوَّزَ البَيْضاويُّ والقاسِميُّ أن يكونَ المُرادُ بالدِّينِ: الإسْلامَ. يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٥٢).

قال الشوكاني: (قِيل: الرُّؤْيةُ: هي البصَرِيَّةُ، فيَتَعَدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وهو الموصولُ، أي: أأبصرْتَ المُكَذِّبَ. وقيلَ: إنَّها بمعنَى أخبِرْني فيتَعَدَّى إلى اثنيْنِ. الثَّاني محذوفٌ، أيْ: مَنْ هو). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١١).

وقال أيضًا: (الخِطابُ لرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، أو لكُلِّ مَن يَصلُحُ له). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١١). ويُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٧٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

قال ابنُ عطيَّةَ: (أي: ارقُبْ فيه هذه الخِلالَ السَّيِّئةَ تَجِدْها، ودَعُّ اليَتيمِ: دَفْعُه بعُنفٍ، وذلك إمَّا أن يكونَ المعنى: عن إطعامِه والإحسانِ إليه، وإمَّا أن يكونَ: عن حَقِّه ومالِه، فهذا أشَدُّ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٧).

وممَّن ذهَبَ إلى المعنى الأوَّلِ: السعديُّ، وابنُ عاشورٍ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٦).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِن السَّلفِ: مُجاهِدٌ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٨). =

كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ [الفجر: ١٧].

﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾.

أي: ولا يَحُثُّ الآخَرينَ على إطعامِ المِسكينِ المحتاجِ للطَّعامِ[١].

كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الفجر: ١٨].

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذكَرَ أوَّلًا عَمودَ الكفْرِ -وهو التَّكذيبُ بالدِّينِ-؛ ذَكَرَ ما يَترتَّبُ عليه ممَّا يَتعلَّقُ بالخالِقِ، وهو عِبادتُه بالصَّلاةِ[٢].

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾.

أي: فعَذابٌ وهَلاكٌ للمُصَلِّينَ الَّذين هم عن صَلاتِهم لاهُون مُتشاغِلونَ؛ فلا يُحافِظونَ على أدائِها في أوقاتِها، إنَّما يُؤخِّرونَها حتَّى يَخرُجَ الوقتُ، ويُخِلُّونَ

---

= وممَّن ذهَبَ إلى المعنى الثَّاني: ابنُ جَريرٍ، والزَّجَّاجُ، والسَّمَرْقَنْديُّ، والواحِديُّ، وابنُ كَثيرٍ، والشَّوْكانيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٨)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٦٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٣)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١١).

وممَّن قال بنَحوِ هذا القَولِ مِن السَّلَفِ: ابنُ عبَّاسٍ، وقَتادةُ، والضَّحَّاكُ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٨)، ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٥١).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٩)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٧).

قال الشوكاني: (﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يَحُضُّ نَفْسَه ولا أهْلَه ولا غيرَهم على ذلك؛ بُخلًا بالمالِ، أو تكذيبًا بالجَزاءِ). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢).

بشُروطِها وأركانِها وواجباتِها[(١)].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٥٩، ٦٦٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣/ ٤٢٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨١).

قال الواحِديُّ: (قال أكثَرُ المُفَسِّرينَ: معنى «عنها ساهونَ»، أي: يَغفُلوا عنها حتَّى يَذهَبَ وَقْتُها. وهو قَولُ سَعدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ، ومُقاتِلٍ، والحسَنِ؛ قالوا: السَّهْوُ عنها تَضْييعُ وَقْتِها حتَّى يَفوتَ). ((البسيط)) (٢٤/ ٣٥٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٧١).

وقال ابنُ القَيِّمِ: (قد فَسَّرَ أصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ السَّهْوَ عنها بأنَّه: تَأخيرُها عن وَقْتِها، كما ثبَتَ ذلك عن سَعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ). ((الصلاة وأحكام تاركها)) (ص: ٧٢).

وذكَرَ في مَوضِعٍ آخَرَ أنَّ السَّهوَ إمَّا عن الوَقتِ، وإمَّا عن الحُضورِ الواجِبِ والخُشوعِ، وصَوَّبَ أنَّه يَعُمُّ النَّوعَينِ. يُنظر: ((مدارج السالكين)) (١/ ٥٢٤).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، فأثبَتَ لهم صَلاةً، وجعَلَهم ساهينَ عنها، فعُلِمَ أنَّهم كانوا يُصَلُّونَ مع السَّهوِ عنها، وقد قال طائِفةٌ مِن السَّلفِ: بل هو السَّهوُ عمَّا يجِبُ فيها، مِثلُ تَركِ الطُمَأْنينةِ، وكِلا المَعْنيَينِ حَقٌّ، والآيةُ تَتناوَلُ هذا وهذا). ((مجموع الفتاوى)) (١٥/ ٢٣٤). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) (٢٢/ ٢٤).

وقال ابنُ جَرير: (أَوْلى الأقوالِ في ذلك عِندي بالصَّوابِ بقَولِه: ﴿سَاهُونَ﴾: لاهُونَ، يَتغافَلونَ عنها؛ وفي اللَّهوِ عنها والتَّشاغُلِ بغَيْرِها، تَضْييعُها أحيانًا، وتَضْييعُ وَقْتِها أخرى. وإذا كان ذلك كذلك صَحَّ بذلك قَولُ مَن قال: عُنِيَ بذلك تَرْكُ وَقْتِها، وقَولُ مَن قال: عُنِيَ به تَرْكُها؛ لِما ذَكَرْتُ قبلُ مِن أنَّ في السَّهوِ عنها المَعانيَ الَّتي ذَكَرْتُ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦٣).

وقال ابنُ كَثير: (﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، قال ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه: يَعني: المُنافِقينَ، الَّذين يُصَلُّونَ في العَلانيَةِ ولا يُصَلُّونَ في السِّرِّ؛ ولهذا قال: ﴿لِّلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الَّذين هُم مِن أهْلِ الصَّلاةِ وقد الْتَزَموا بها، ثمَّ هم عنها ساهونَ؛ إمَّا عن فِعْلِها بالكُلِّيَّةِ، كما قالَه ابنُ عبَّاسٍ، وإمَّا عن فِعْلِها في الوقتِ المُقَدَّرِ لها شَرْعًا، فيُخرِجُها عن وَقْتِها بالكُلِّيَّةِ، كما قالَه مَسْروقٌ، وأبو الضُّحى...، وإمَّا عن وَقْتِها الأوَّلِ فيُؤَخِّرُونَها إلى آخِرِه دائمًا أو غالِبًا. وإمَّا عن أدائِها بأرْكانِها وشُروطِها على الوَجْهِ المَأْمورِ به. وإمَّا عن الخُشوعِ فيها، والتَّدَبُّرِ لِمَعانيها؛ فاللَّفظُ يَشمَلُ هذا كلَّه، ولكلِّ مَن اتَّصَفَ بشَيءٍ مِن ذلك قِسْطٌ مِن هذه الآيةِ. ومَن اتَّصَفَ بجَميعِ ذلك فقدْ تَمَّ نَصيبُه مِنها، وكَمَلَ له النِّفاقُ العَمَليُّ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٣).

قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقال سُبحانَه: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩].

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦﴾.

أي: الَّذين هم يُراؤُونَ النَّاسَ بصَلاتِهم إذا صَلَّوا أمامَهم، فلا يُصَلُّونَ إخلاصًا للهِ تعالى، ورغبةً في ثَوابِه، ورهبةً مِن عِقابِه، وإنَّما يُصَلُّونَها لِيَراهم المؤمِنونَ؛ طَلَبًا لثَناءٍ، أو رجاءً لنَفعٍ[(١)].

﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّه لَمَّا شَرَح أمْرَ الصَّلاةِ؛ أعقَبَه بذِكرِ الصِّلاتِ[(٢)]. فلمَّا بيَّن حالَهم معَ الخالقِ؛ بيَّن حالَهم معَ المخلوقينَ، وأنَّهم لا أحْسَنوا عِبادةَ رَبِّهم، ولا أحْسَنوا إلى خَلْقِه.

وأيضًا فإنَّه بيَّن أنَّ مَن هو بتلك الصِّفةِ يَغلِبُ عليه الشُّحُّ[(٣)].

﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ٧﴾.

أي: ويَمنَعونَ النَّاسَ مِنَ الانْتِفاعِ بما لَدَيهم، ممَّا لا يَتَضَرَّرونَ ببَذْلِه، فلا

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦٤)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢١٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨١، ٢٨٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٩٥).

يُعينونَهم بإعارتِه[١].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ يجبُ على المرءِ أنْ يَنظُرَ في نفْسِه: هل هو ممنِ اتَّصَفَ بهذه الصِّفاتِ أو لا؟ إنْ كان ممَّن اتَّصَفَ بهذه الصِّفاتِ -قد أضاع الصَّلاةَ، وسَهَا عنها، ومَنَعَ الخيرَ عن الغيرِ- فلْيَتُبْ ولْيَرجِعْ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦٥، ٦٧٨)، ((أحكام القرآن)) للجصاص (٣/ ٦٤٣)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٥٨)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (٢/ ٦٩٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨٢)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٩).

قال الواحِديُّ: (أكثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ الماعونَ: اسْمٌ لِما يَتَعاوَرُه النَّاسُ بَيْنَهم مِن الدَّلْوِ، والفَأسِ، والقِدْرِ، وما لا يُمنَعُ، كالماءِ والمِلْحِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٥٨).

وقال ابنُ القَيِّم: (الماعونُ: اسْمٌ جامِعٌ لجَميعِ ما يُنتفَعُ به، فذكَرَ بعضُ السَّلفِ هذا للسَّائلِ تَمثيلًا وتَنبيهًا بالأَدْنى على الأعلى، فإذا كان الوَيْلُ لِمَن منَعَ هذا، فكيف بمَن منَعَ ما الحاجةُ إليه أَعظَمُ؟! وإذا كان العبدُ يُسألُ عن شُكرِ الماءِ البارِدِ، فكيف بما هو أعظَمُ نَعيمًا منه؟!). ((الصواعق المرسلة)) (٢/ ٦٩٩).

وقال السعديُّ: (﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ أي: يَمنَعونَ إعْطاءَ الشَّيءِ الَّذي لا يَضُرُّ إعْطاؤُه على وَجْهِ العارِيَّةِ، أو الهِبةِ، كالإناءِ، والدَّلْوِ، والفَأسِ، ونَحوِ ذلك ممَّا جَرَتِ العادةُ ببَذْلِه والسَّماحةِ به). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

وعن عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه قال: (﴿ٱلْمَاعُونَ﴾: مَنْعُ الزَّكاةِ والفَأسِ والدَّلْوِ والقِدْرِ). أخرَجه ابنُ جَريرٍ في ((تفسيره)) (٢٤/ ٦٧٧).

وقال ابنُ كَثيرٍ بعْدَ أن ذكَرَ أقوالَ السَّلفِ في الماعونِ: (وقال عِكْرِمةُ: رأسُ الماعونِ زكاةُ المالِ، وأدْناه: المُنْخُلُ والدَّلْوُ والإبْرةُ. رواه ابنُ أبي حاتِمٍ. وهذا الَّذي قالَه عِكْرِمةُ حسَنٌ؛ فإنَّه يَشملُ الأقوالَ كلَّها، وتَرجِعُ كلُّها إلى شيءٍ واحِدٍ، وهو تَرْكُ المُعاوَنةِ بمالٍ أو مَنْفَعةٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٧).

إلى اللهِ، وإلَّا فلْيَبشُرْ بالوَيلِ -والعياذُ باللهِ-، وإنْ كان قد تَنَزَّهَ عن ذلك فلْيَبشُرْ بالخيرِ، والقرآنُ الكريمُ ليس المقصودُ منه أنْ يَتلوَه الإنسانُ لِيَتعَبَّدَ للهِ تعالى بتلاوتِه فقط، المقصودُ أنْ يَتَأَدَّبَ به؛ ولهذا قالتْ عائشةُ رضيَ اللهُ عنها: ((فإنَّ خُلُقَ نَبيِّ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان القرآنَ))[١]، خُلُقُه يعني أخلاقَه الَّتي يَتخَلَّقُ بها يأخُذُها مِن القُرآنِ الكريمِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه الحَثُّ على إكرامِ اليتيمِ والمساكينِ، والتَّحضيضِ على ذلك[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ فيه مُراعاةُ الصَّلاةِ، والمحافظةُ عليها وعلى الإخلاصِ فيها وفي جميعِ الأعمالِ[٤].

٤- إخْلاصُ الدِّينِ هو أصْلُ دينِ الإسْلامِ؛ ولِذلك ذَمَّ اللهُ الرِّياءَ في مِثلِ قَولِه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ [النساء: ١٤٢] إلى غيرِ ذلك[٥].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ فيه الحَثُّ على فِعلِ المعروفِ، وبَذْلِ الأموالِ الخفيفةِ، كعاريَّةِ الإناءِ والدَّلوِ والكتابِ، ونحوِ ذلك؛ لأنَّ اللهَ ذَمَّ

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٥) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٨/ ٢٥٧). ويُنظر أيضًا: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٢٩٩).

مَن لم يفعَلْ ذلك[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ الحَثُّ على العاريَّةِ[٢]، فإذا احتاج قَومٌ مِن إنسانٍ إلى أنْ يُعيرَهم دَلوًا يَستقُونَ به، أو قِدْرًا يَطبُخون فيها، أو فأسًا يَحفِرون به؛ فإنَّه يجبُ بدَلالةِ الآيةِ بَذْلُه مجَّانًا، إذا كان صاحبُها مُستغنيًا عن تلك المنفعةِ وعِوَضِها[٣].

٧- المُؤمنُ له الإخلاصُ والإحسانُ، والفاجرُ له الكُفرُ والبُخلُ، وقد ذَمَّ اللهُ سُبحانَه هَذينِ الخُلُقينِ المُهلِكَينِ في غيرِ مَوضعٍ مِن كِتابِه، كقولِه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ * وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾، والرِّياءُ ضِدُّ الإخلاصِ، ومَنْعُ الماعونِ ضِدُّ الإحسانِ[٤].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تبارك وتعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ خَصَّ المكَذِّبينَ بيَومِ الدِّينِ بمَنْ يَرتكِبُ هذين الأمْرَين: دَعَّ اليَتيمِ، وعدَمَ الحَضِّ على إطعامِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٢٩٩).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٩٨).

قال ابن عثيمين: (ومَنْعُ الماعونِ يَنقسِمُ إلى قِسمَينِ:

القِسمُ الأوَّلُ: قِسمٌ يأثَمُ به الإنسانُ.

القِسمُ الثَّاني: قِسمٌ لا يأثمُ به، لكن يَفوتُه الخيرُ.

فما وجَب بَذْلُه فإنَّ الإنسانَ يأثمُ بمَنعِه، وما لم يجِبْ بَذْلُه فإنَّ الإنسانَ لا يأثمُ بمَنعِه، لكن يَفوتُه الخيرُ. مِثالُ ذلك: إنسانٌ جاءه رجلٌ مضطرٌّ يقولُ: أعطني ماءً أشربُه، فإن لم أشرَبْ متُّ، فبَذْلُ الإناءِ له واجبٌ، يأثمُ بتَركِه الإنسانُ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((التبيان في أقسام القرآن)) لابن القيم (ص: ٨٢).

المِسكينِ؟

**الجوابُ**: أنَّهما نَموذَجانِ ومِثالانَ فقط[١]، واقتَصَر عليهما [لا] على معنى: أنَّ الصَّادِرَ عَمَّن يُكَذِّبُ بالدِّينِ ليس إلَّا ذلك؛ لأنَّا نَعلَمُ أنَّ المكَذِّبَ بالدِّينِ لا يقتَصِرُ على هذينِ، بل على سَبيلِ التَّمثيلِ، كأنَّه تعالى ذكَرَ في كُلِّ واحدٍ مِن القِسمَينِ مِثالًا واحِدًا؛ تنبيهًا بذِكْرِه على سائِرِ القبائِحِ، أو مِن أجْلِ أنَّ هاتَينِ الخَصلتينِ كما أنَّهما قبيحانِ مُنكَرانِ بحَسَبِ الشَّرعِ، فهما أيضًا مُستنكَرانِ بحسَبِ المروءةِ والإنسانيَّةِ[٢].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ذَكَر اللهُ تعالى في تعريفِ مَن يُكَذِّبُ بالدِّينِ وَصفَينِ: أحَدُهما مِن بابِ الأفعالِ، وهو قَولُه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾، والثَّاني مِن بابِ التُّروكِ، وهو قَولُه: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾، والفاءُ في قَولِه ﴿فَذَٰلِكَ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: لَمَّا كان كافِرًا مُكَذِّبًا كان كُفرُه سَبَبًا لدَعِّ اليتيمِ[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه سُؤالٌ: أليس قد لا يحُضُّ المرءُ في كثيرٍ مِن الأحوالِ، ولا يكونُ آثِمًا؟

**الجوابُ**: لأنَّ غَيرَه يَنوبُ مَنابَه، أو لأنَّه لا يُقبَلُ قَولُه، أو لمفَسدةٍ أُخرى يتوقَّعُها، أمَّا هاهنا فذَكَر أنَّه لا يَفعَلُ ذلك إلَّا لأنَّه مُكَذِّبٌ بالدِّينِ[٤].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ:

---

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١١٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٣٠٢).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٣٠٣).

(ولا يُطعِمُ المِسكينَ)؟

**الجوابُ**: إذا مَنَع اليَتيمَ حَقَّه، فكيف يُطعِمُ المِسكينَ مِن مالِ نَفْسِه؟! بل هو بخيلٌ مِن مالِ غَيرِه، وهذا هو النِّهايةُ في الخِسَّةِ، فلأنْ يكونَ بخيلًا بمالِ نَفْسِه أَولى، وضِدُّه في مَدحِ المؤمنينَ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾[١] [العصر: ٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ في إضافةِ (طعام) إلى (المسكينِ) دليلٌ على أنَّه يَستَحِقُّه[٢].

٦- قَولُه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: ٥٩]، وقَولُه: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] هذه الآياتُ تَقتضي ذَمَّ مَن تَرَكَ شيئًا مِن واجباتِ الصَّلاةِ وإنْ كان في الظَّاهرِ مُصَلِّيًا، مِثلُ أنْ يَترُكَ الوقتَ الواجبَ، أو يَترُكَ تكميلَ الشَّرائطِ والأركانِ مِن الأعمالِ الظَّاهرةِ والباطنةِ[٣].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ فيه سُؤالٌ: كيف توعَّدَ اللهُ السَّاهيَ عن الصَّلاةِ، مع أنَّه غيرُ مُؤاخَذٍ بالسَّهوِ؟

**الجوابُ**: المرادُ بالسَّهوِ هنا: التَّغافُلُ والتَّكاسُلُ عن أدائِها، وقِلَّةُ الالتِفاتِ إليها، وذلك فِعلُ المنافِقينَ أو الفَسَقةِ مِنَ المُسلِمينَ، لا ما يتَّفِقُ فيها مِن السَّهْوِ بالوَسوَسةِ أو حديثِ النَّفْسِ ممَّا لا صُنعَ للعَبدِ فيه[٤]. وقد فَرَّق العُلَماءُ بيْن السَّهْوِ في الشَّيءِ

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٠٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٧١).

(٤) يُنظر: ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٢٩).

والسَّهْوِ عن الشَّيءِ؛ فالسَّهْو في الشَّيءِ ليس بمذمومٍ، بخلافِ السَّهْوِ عن الشَّيءِ؛ فإنَّه مذمومٌ؛ ولذا قال اللهُ عزَّ وجلَّ ذامًّا السَّاهينَ عن الصَّلاةِ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ السَّهْوَ في الشَّيءِ تَرْكٌ له مِن غيرِ قصْدٍ، والسَّهْوُ عن الشَّيءِ تَرْكٌ له مع القَصدِ[1]. وقد ورد عن عَطاءِ بنِ دينارٍ، أنَّه قالَ: (الحمدُ للَّهِ الَّذي قالَ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، ولم يقُلْ: في صَلاتِهم)[2].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أنَّه ليس السَّهْوُ عنها تَرْكَها، وإلَّا لم يَكونوا مُصَلِّينَ، وإنَّما هو السَّهْوُ عن واجبِها؛ إمَّا عن الوَقتِ، وإمَّا عن الحُضورِ والخُشوعِ، والصَّوابُ أنَّه يَعُمُّ النَّوعَينِ؛ فإنَّه سُبحانَه أثبَتَ لهم صلاةً، ووَصَفَهم بالسَّهْوِ عنها؛ فهو السَّهْوُ عن وقْتِها الواجِبِ، أو عن إخلاصِها وحُضورِها الواجِبِ؛ ولذلك وَصَفَهم بالرِّياءِ، ولو كان السَّهْوُ سَهْوَ تَرْكٍ لَمَا كان هناك رِياءٌ[3]!

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تبارك وتعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ * فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾

- قولُه: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الاستِفهامُ مُستعمَلٌ في تَشويقِ السَّامعِ إلى مَعرفةِ مَن سِيقَ لهُ الكلامُ، والتَّعجيبِ مِن حالِ المُكذِّبين بالجَزاءِ، وما أورَثَهم التَّكذيبُ مِن سُوءِ الصَّنيعِ؛ فالتَّعجيبُ مِن تَكذيبِهم بالدِّينِ وما تَفرَّعَ عليه مِن دَعِّ اليَتيمِ، وعدَمِ الحَضِّ على طَعامِ المسكينِ، وقد صِيغَ هذا التَّعجيبُ في نظْمٍ مُشوِّقٍ؛

(١) يُنظر: ((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (١٤/ ١٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٦٤)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٠٥).

(٣) يُنظر: ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٥٢٤).

لأنَّ الاستِفهامَ عن رُؤيةِ مَن ثَبَتَت له صِلةُ المَوصولِ يذهبُ بذِهنِ السَّامعِ مَذاهبَ شتَّى مِن تَعرُّفِ المَقصدِ بهذا الاستِفهامِ؛ فإنَّ التَّكذيبَ بالدِّينِ شائعٌ فيهم؛ فلا يكونُ مَثارًا للتَّعجُّبِ، فيَترقَّبُ السَّامعُ ماذا يَرِدُ بعْدَه؟ وهو قولُه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾[1].

- يجوزُ أنْ تكونَ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ هي الَّتي بمعْنى أخْبِرْني، فتَتعدَّى لاثنَينِ؛ أحدُهما ﴿ٱلَّذِى﴾، والآخَرُ مَحذوفٌ، تَقديرُه: أليس مُستحِقًّا عَذابَ اللهِ؟ أو: مَن هو؟ ويَجوزُ أنْ تكونَ مِن رُؤيةِ البصَرِ، فلا يكونُ في الكلامِ حذْفٌ؛ فالرُّؤيةُ البَصريَّةُ يَتعدَّى فِعلُها إلى مَفعولٍ واحدٍ؛ فإنَّ المُكذِّبينَ بالدِّينِ مَعروفونَ، وأعمالُهم مَشهورةٌ، فنُزِّلَت شُهرتُهم بذلك مَنزلةَ الأمْرِ المُبصَرِ المُشاهَدِ. وهَمزةُ الاستفهامِ تدُلُّ على التَّقريرِ والتَّفهيمِ؛ ليَتذكَّرَ السَّامعُ مَن يَعرِفُه بهذه الصِّفةِ[2].

- قولُه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ الفاءُ لعطْفِ الصِّفةِ الثَّانيةِ على الأُولى ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾؛ لإفادةِ تَسبُّبِ مَجموعِ الصِّفتينِ في الحُكْمِ المَقصودِ مِن الكلامِ، وذلك شَأنُها في عطْفِ الصِّفاتِ إذا كان مَوصوفُها واحدًا؛ فمَعْنى الآيةِ: عطْفُ صِفتَيْ دَعِّ اليَتيمِ وعَدَمِ إطعامِ المِسكينِ على جُرْمِ التَّكذيبِ بالدِّينِ، وهذا يُفيدُ تَشويهَ إنكارِ البَعثِ بما يَنشَأُ عن إنكارِه مِن المَذامِّ ومِن مُخالَفةٍ للحقِّ، ومُنافاةٍ لِما تَقتضيهِ الحِكمةُ مِن التَّكليفِ، وفي ذلك كِنايةٌ عن تَحذيرِ المسلمينَ مِن الاقترابِ مِن إحْدى هاتَينِ الصِّفتينِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٥).

بأنَّهما مِن صِفاتِ الَّذين لا يُؤمِنون بالجَزاءِ[١].

وقيل: الفاءُ هي الفَصيحةُ؛ لأنَّها جَوابُ شرْطٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: هَلْ عرَفْتَ الَّذي يُكذِّبُ بالجزاءِ أو بالإسلام؟ فإنْ لم تَعرِفْه، أو إنْ أردتَ أنْ تَعرِفَه؛ فهو الَّذي يَدفَعُ اليَتيمَ دفْعًا عَنيفًا، ويَزجُرُه زَجْرًا قَبيحًا، ولا يَحُضُّ على طَعامِ المِسكينِ؛ لعدَمِ اعتقادِه بالجزاءِ؛ ولذلك رتَّبَ الجُملةَ على ﴿يُكَذِّبُ﴾ بالفاءِ[٢].

- وفي إقحامِ اسمِ الإشارةِ واسمِ المَوصولِ بعْدَ الفاءِ -في قَولِه: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى﴾-: زِيادةُ تَشويقٍ؛ حتَّى تَقرَعَ الصِّلةُ سَمْعَ السَّامعِ، فتَتمكَّنَ منه كَمالَ تَمكُّنٍ[٣].

أو وُضِع اسمُ الإشارةِ المُتعرِّضُ لوَصْفِ المُشارِ إليهِ مَوضعَ الضَّميرِ؛ للإشعارِ بعِلَّةِ الحُكمِ، والتَّنبيهِ بما فيه مِن معْنى البُعدِ على بُعدِ مَنزلتِه في الشَّرِّ والفسادِ[٤].

- وأيضًا الإشارةُ إلى الَّذي يُكذِّبُ بالدِّينِ باسمِ الإشارةِ (ذلك)؛ لتَمييزِه أكمَلَ تَمييزٍ حتَّى يَتبصَّرَ السَّامعُ فيه وفي صِفَتِه، أو لتَنزيلِه مَنزِلةَ الظَّاهرِ الواضحِ بحيث يُشارُ إليه[٥].

- وجِيءَ في ﴿يُكَذِّبُ﴾، و﴿يَدُعُّ﴾، و﴿يَحُضُّ﴾ بصِيغةِ المُضارعِ؛ لإفادةِ تَكرُّرِ ذلك منه ودَوامِه، وهذا إيذانٌ بأنَّ الإيمانَ بالبَعثِ والجزاءِ هو الوازِعُ الحقُّ الَّذي يَغرِسُ في النَّفْسِ جُذورَ الإقبالِ على الأعمالِ الصَّالحةِ حتَّى

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤، ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤١)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٣)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٣).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٤).

يَصيرَ ذلك لها خُلقًا إذا شَبَّتْ عليه، فزَكَتْ وانساقَتْ إلى الخيرِ بدُونِ كُلفةٍ، ولا احتياجٍ إلى آمِرٍ، ولا إلى مَخافةٍ ممَّن يُقيمُ عليه العُقوباتِ، حتَّى إذا اخْتَلى بنَفْسِه وأَمِنَ الرُّقباءَ جاء بالفَحشاءِ والأعمالِ النَّكراءِ[١].

- وكُنِّيَ بنَفْيِ الحضِّ عن نفْيِ الإطعامِ؛ لأنَّ الَّذي يَشُحُّ بالحضِّ على الإطعامِ هو بالإطعامِ أشَحُّ[٢].

٢- قولُه تعالَى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۞ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾

- قولُه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾ الفاءُ إمَّا لرَبْطِ ما بعْدَها بشَرْطٍ مَحذوفٍ، كأنَّه قيلَ: إذا كان ما ذُكِرَ مِن عدَمِ المبالاةِ باليتيمِ والمسكينِ مِن دَلائلِ التَّكذيبِ بالدِّينِ، ومُوجِباتِ الذَّمِّ والتَّوبيخِ؛ ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ﴾. وإمَّا لتَرتيبِ الدُّعاءِ عليهم بالوَيلِ على ما ذُكِرَ مِن قَبائحِهم؛ فمَوقعُ الفاءِ صَريحٌ في اتِّصالِ ما بعْدَها بما قبْلَها مِن الكلامِ على معْنى التَّفريعِ والتَّرتُّبِ والتَّسبُّبِ[٣].

- قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ صِفةٌ للمُصَلِّينَ مُقيِّدةٌ لحُكمِ المَوصوفِ؛ فإنَّ الويلَ للمُصلِّي السَّاهي عن صَلاتِه لا للمُصلِّي على الإطلاقِ، فيكونُ قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾ تَرشيحًا للتَّهكُّمِ الواقعِ في إطلاقِ وَصْفِ المُصلِّينَ عليهم[٤]. وذلك على أنَّ وَصْفَهم بـ (الْمُصَلِّينَ) المرادُ عَدَمُه، أي: الَّذِينَ لا يُصَلُّونَ.

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٤، ٨٠٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٦، ٥٦٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٧).

- وعُدِّيَ ﴿سَاهُونَ﴾ بحرْفِ ﴿عَن﴾؛ لإفادةِ أنَّهم تَجاوَزوا إقامةَ صَلاتِهم وتَرَكوها[١]. فمعنى (عن): أنَّهم ساهونَ عنها سَهْوَ تَركٍ لها، وقِلَّةِ التِفاتٍ إليها، وذلك فِعلُ المنافِقينَ أو الفَسَقةِ مِن المسلِمينَ[٢]. وذلك على قولٍ.

- ومَفعولُ (يَمنَعون) الأوَّلُ مَحذوفٌ، أي: النَّاسَ أو الطَّالبينَ، و﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ مَفعولُه الثَّاني[٣].

- وتَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخبَرِ الفِعليِّ في قَولِه: ﴿هُمْ يُرَآءُونَ﴾ لتَقويةِ الحكْمِ، أي: تَأكيدِه[٤].

- قولُه: ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ هذا ذمٌّ لهم بمُنْتهى البُخلِ[٥].

- وفي قَولِه: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ * وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ كُرِّرَ ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ﴾ ولم يُقتصَرْ على مرَّةٍ واحدةٍ؛ لامتناعِ عطْفِ الفِعلِ على الاسمِ، ولم يُقَلْ: (الَّذين همْ يَمنَعون)؛ لأنَّه فِعلٌ، فحَسُنَ عطْفُ الفِعلِ على الفعلِ[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٥)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٩٤).

(٣) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٦٨).

(٦) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٥)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٦).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الكَوْثَرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ الكَوْثَرِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (الكَوْثَرِ)[(١)].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الكَوْثَرِ مَدنيَّةٌ، وقِيلَ: مكِّيَّةٌ[(٢)].

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لافتِتاحِها بذِكْرِ الكَوثرِ في قولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٧).

وسُمِّيَتْ أيضًا: سورةَ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾، وسورةَ (النَّحْرِ). يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٨)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧١).

(٢) ممَّن اختار القولَ بأنَّها مَدَنيَّةٌ: ابنُ كثير، وابنُ حَجَر، والسيوطيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٤٩٨)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٩/ ٤١)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٢).

والقولُ بأنَّها مكِّيَّةٌ نَسبَهُ للجُمهورِ: ابنُ الجَوزيِّ، وأبو حيَّانَ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧١).

قال ابنُ عاشور: (وهل هي مكِّيَّةٌ أو مَدَنيَّةٌ؟ تَعارضَت الأقوالُ والآثارُ في أنَّها مكِّيَّةٌ أو مدَنيَّةٌ تَعارُضًا شَديدًا، فهي مكِّيَّةٌ عندَ الجُمهورِ، واقتَصرَ عليه أكثرُ المُفسِّرينَ، ... وعن الحسَنِ وقَتادةَ ومُجاهِدٍ وعِكْرِمةَ: هي مدَنيَّةٌ، ويَشهَدُ لهم ما في «صحيح مسلم» عن أنسِ بنِ مالكٍ: «بَيْنا رَسولُ اللهِ ذاتَ يَومٍ بيْن أَظهُرِنا إذ أَغفَى إغفاءَةً ثمَّ رَفعَ رأسَه وقال: أُنزِلَت علَيَّ آنِفًا سُورةٌ، فقرأ: بسم اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ [الكوثر: ١- ٣] ...» الحديثَ. وأَنَسٌ أسْلَمَ في صَدرِ الهِجرةِ، فإذا كان لفظُ «آنِفًا» في كلامِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مُستعمَلًا في ظاهرِ مَعناهُ -وهو الزَّمنُ القريبُ- فالسُّورةُ نزلَت منذ وَقتٍ قَريبٍ مِن حُصولِ تلك الرُّؤيا. ومُقتضَى ما يُروَى في تَفسيرِ قولِه تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ أن تكونَ السُّورةُ مكِّيَّةً، ومُقتضَى ظاهرِ تَفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ مِن أنَّ النَّحرَ في الحجِّ أو يومَ الأضحَى تكونُ السُّورةُ مدَنيَّةً، ويَبعَثُ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ ليس ردًّا على كلامِ العاصي بنِ وائلٍ ...). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧١، ٥٧٢).=

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

بِشارَةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالخَيرِ الجَزيلِ مِن الله[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

١- بَيانُ المِنَّةِ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّه أُعطِيَ الخيرَ الكثيرَ.

٢- أَمْرُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بأنْ يَشكُرَ اللهَ على ذلك بالإقبالِ على العِبادَةِ.

٣- إخبارُه صلَّى الله عليه وسلَّم بأنَّ مُبْغِضَه مُنقَطِعٌ عن كلِّ خَيرٍ.

---

= وقال البِقاعي: (حديثُ... أنسٍ رضيَ الله عنه يدُلُّ على أنَّها مدَنيَّةٌ؛ لقولِه: «بيْنَ أَظهُرِنا في المَسجِدِ» [مسلم (٤٠٠)]). ((مصاعد النظر)) (٣/ ٢٥٥).

(١) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٥٢١). ويُنظر أيضًا: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٥٥).

## الآيات (١-٢)

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡكَوۡثَرَ﴾: أي: الخَيرَ الكَثيرَ، والنَّهرَ الَّذي تَرِدُه أُمَّتُه صلَّى الله عليه وسلَّم في القيامةِ، والكَوثَرُ: فَوعَلٌ، مِنَ الكَثرةِ، وأصلُ (كثر): يدُلُّ على خِلافِ القِلَّةِ[١].

﴿وَٱنۡحَرۡ﴾: أي: اذبَحْ، والنَّحرُ: مَوضِعُ القِلادةِ مِن الصَّدرِ، ونَحَرْتُه: أصَبْتُ نَحْرَه، ومنه: نحرُ البعيرِ، ويُقالُ لذَبْحِ البَعيرِ: النَّحْرُ؛ لأنَّ مَنحَرَه في صَدْرِه[٢].

﴿شَانِئَكَ﴾: أي: مُبغِضَك وعَدُوَّك، وأصلُ (شنأ): يدُلُّ على البُغضِ والتَّجَنُّبِ للشَّيءِ[٣].

﴿ٱلۡأَبۡتَرُ﴾: المُنقَطِعُ عن الخَيرِ، وأصلُ (بتر): يدُلُّ على القَطْعِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٦٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٧١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨٩).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٤٠٠)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٣٨٠)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٧٩٤)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٢٩٦).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٢١٧)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٩)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٤١).

(٤) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤١)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٨٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ١٩٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٧٩).

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مخاطِبًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، ومُبشِّرًا له بقَولِه: إنَّا أعطَيْناك -يا محمَّدُ- نَهرًا في الجنَّةِ اسمُه الكوثَرُ.

ثُمَّ أمَرَه اللهُ تَعالى بالشُّكْرِ على هذه المِنَّةِ، فقال: فاشكُرِ اللهَ تعالى بأن تُصَلِّيَ مُخلِصًا له، وأن تَنحَرَ له وَحْدَه.

ثُمَّ بَشَّرَ اللهُ سُبْحانَه نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم ببِشارةٍ أُخْرى، فقال: إنَّ مُبغِضَك -يا محمَّدُ- هو المنقَطِعُ عن كلِّ خَيرٍ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾.

أي: إنَّا أعطيناك -يا محمَّدُ- نَهرًا في الجنَّةِ اسمُه الكَوثَرُ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٢٩-٥٣١).

قال ابنُ الجَوْزيِّ: (وفي الكَوثَرِ سِتَّةُ أقْوالٍ؛ أحَدُها: أنَّه نَهْرٌ في الجَنَّةِ...، والثَّاني: أنَّ الكَوثَرَ: الخَيْرُ الكَثيرُ الَّذي أُعطِيَ نَبيُّنا صلَّى الله عليه وسلَّم، قالَه ابنُ عبَّاسٍ. والثَّالِثُ: العِلمُ والقُرآنُ، قالَه الحَسَنُ. والرَّابِعُ: النُّبوَّةُ، قالَه عِكْرِمةُ. والخامِسُ: أنَّه حَوْضُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم الَّذي يَكثُرُ النَّاسُ عليه، قالَه عَطاءٌ. والسَّادِسُ: أنَّه كَثْرةُ أَتْباعِه وأمَّتِه، قالَه أبو بَكْرِ بنُ عيَّاشٍ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٧).

ممَّن اخْتارَ القَولَ المَذْكورَ؛ أنَّ المُرادَ بالكَوثَرِ نَهْرٌ في الجَنَّةِ: مُقاتِلُ بنُ سُلَيْمانَ، وابنُ جَريرٍ، والبَغَويُّ، وابنُ الجَوْزيِّ، والرَّسْعَنيُّ، والخازِنُ، وأبو حَيَّانَ، وابنُ حَجَرٍ، والعُلَيْميُّ، والشِّرْبينيُّ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٧٩)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣١٤)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٢)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٤٨)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٨٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٦)، ((فتح الباري)) لابن حجر (٨/ ٧٣٢)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٤٤)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٥٩٥). =

عن أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا عُرِجَ بالنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى السَّماءِ قال: أُتِيتُ على نهرٍ حافَتاه قِبابُ اللُّؤلؤِ مُجَوَّفًا، فقُلتُ: ما هذا يا جِبريلُ؟!

= قال ابنُ كَثيرٍ: (وقد صَحَّ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّه فَسَّرَه بالنَّهْرِ...، وهكذا رُوِيَ عن أَنَسٍ، وأبي العالِيةِ، ومُجاهِدٍ، وغَيرِ واحِدٍ مِن السَّلفِ: أنَّ الكَوثَرَ: نَهْرٌ في الجَنَّةِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٢).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (قال أَنَسٌ، وابنُ عُمَرَ، وابنُ عبَّاسٍ، وجَماعةٌ مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ: الكَوثَرُ: نَهْرٌ في الجَنَّةِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٩).

قال الرَّازيُّ: (المَشْهورُ والمُسْتَفيضُ عندَ السَّلَفِ والخَلَفِ أنَّه نَهْرٌ في الجَنَّةِ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣١٣).

وقال الواحِديُّ: (أكثَرُ المُفَسِّرينَ على أنَّ الكَوثَرَ نَهْرٌ في الجَنَّةِ). ((الوسيط)) (٤/ ٥٦٠).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (الَّذي عليه جُمهورُ المفَسِّرينَ وتدُلُّ عليه الأخبارُ والآثارُ: أنَّه نهرٌ في الجنَّةِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٤٨).

وقال ابنُ حَجَرٍ: (والكَوثرُ فَوعَلٌ مِن الكَثرةِ، سُمِّيَ بها النَّهرُ؛ لكثرةِ مائِه وآنِيَتِه، وعِظَمِ قَدْرِه وخَيرِه). ((فتح الباري)) (٨/ ٧٣١).

وقال ابنُ جَريرٍ: (وصَفَه اللهُ بالكَثرةِ؛ لعِظَمِ قَدْرِه). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٨٥).

وممَّن اخْتارَ القَولَ الثَّانيَ، وأنَّ المُرادَ العُمومُ، أي: أنَّ الكَوثَرَ هو الخَيرُ الكَثيرُ، ومنه النَّهرُ الَّذي يُقالُ له: الكَوثَرُ، والحَوْضُ: السَّمَرْقَنديُّ، والقُشَيْريُّ، والبَيْضاويُّ، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ تيميَّةَ، واختارَه البِقاعيُّ، والسعديُّ، وابنُ عُثَيْمينَ. يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٢٧)، ((تفسير القشيري)) (٣/ ٧٧٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣١، ٥٣٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٨٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٢).

وأخرج البخاريُّ في ((صحيحه)) (٦٥٧٨) بسندِه عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ الله عنهما، قال: (الكَوثرُ: الخَيرُ الكثيرُ الَّذي أعطاهُ اللهُ إيَّاه. قال أبو بِشْرٍ: قلتُ لسعيدٍ: إنَّ أُناسًا يَزْعُمونَ أنَّه نَهرٌ في الجنَّةِ؟ فقال سعيدٌ: النَّهَرُ الَّذي في الجَنَّةِ مِن الخَيرِ الَّذي أعطاهُ اللهُ إيَّاه).

قال ابن حجر: (حاصلُ ما قاله سعيدُ بنُ جُبَيرٍ: أنَّ قولَ ابنِ عبَّاسٍ: إنَّه الخيرُ الكثيرُ، لا يُخالِفُ قولَ غيرِه: أنَّ المرادَ به نهرٌ في الجنةِ؛ لأنَّ النَّهرَ فردٌ مِن أفرادِ الخَيرِ الكثيرِ، ولعلَّ سعيدًا أَوْمأَ إلى أنَّ تأويلَ ابنِ عبَّاسٍ أَولى؛ لِعُمومِه، لكنْ ثبَت تخصيصُه بالنَّهرِ مِن لَفظِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فلا مَعْدِلَ عنه). ((فتح الباري)) (٨/ ٧٣٢).

قال: هذا الكَوثَرُ))[١].

وعن أَنَسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((بَيْنا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم ذاتَ يومٍ بيْنَ أظهُرِنا إذ أغفى إغفاءةً[٢]، ثمَّ رَفَع رأسَه مُتبَسِّمًا! فقُلْنا: ما أضحَكَك يا رَسولَ اللهِ؟! قال: أُنزِلَت علَيَّ آنفًا سُورةٌ، فقرأ: بِسمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۞ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۞ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾، ثمَّ قال: أتَدْرُونَ ما الكَوثَرُ؟ فقُلْنا: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ. قال: فإنَّه نَهرٌ وعَدَنِيه ربِّي عزَّ وجَلَّ، عليه خَيرٌ كثيرٌ، هو حَوضٌ تَرِدُ عليه أُمَّتي يومَ القيامةِ[٣]، آنيَتُه عدَدُ النُّجومِ، فيُختَلَجُ[٤] العَبدُ منهم، فأقولُ: ربِّ إنَّه مِن أُمَّتي! فيَقولُ: ما تدري ما أحدَثَت بَعْدَك!))[٥].

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر مِنَّتَه عليه؛ أمَرَه بشُكْرِها[٦].

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢﴾.

أي: فاشكُرِ اللهَ تعالى -يا محمَّدُ- على الكَوثَرِ الَّذي أعطاك، بأن تُصَلِّيَ مُخلِصًا

---

(١) رواه البخاري (٤٩٦٤).

(٢) أَغْفى إغْفاءةً: نامَ نَوْمًا خَفيفًا. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١/ ١٦٣).

(٣) قال ابن كثير: (ومعنَى ذلك: أنَّه يَشْخبُ [أي يسيلُ ويجري] مِن الكوثَرِ -وهو في الجنَّةِ- ميزابانِ إلى الحوضِ، والحوضُ في موقفِ القيامةِ قبلَ الصِّراطِ؛ لأنَّه يُخْتَلَجُ عنه، ويُمْنَعُ منه أقوامٌ قد ارْتَدُّوا على أعقابِهم...، وجاء مُصَرَّحًا به أنَّه في العَرَصاتِ...، وأمَّا الكوثَرُ فإنَّه نهرٌ في الجنَّةِ). ((البداية والنهاية)) (١٩/ ٤٢٦).

(٤) يُختلَجُ: أي: يُنتزَعُ ويُقتطَعُ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٤/ ١١٣).

(٥) رواه مسلم (٤٠٠).

(٦) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).

له، وأن تَنحَرَ له وَحْدَه دونَ ما سِواه[١].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩٦، ٦٩٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٢-٥٠٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٣).

قال ابنُ الجَوْزيِّ: (قَولُه عزَّ وجَلَّ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ وفي هذه الصَّلاةِ ثلاثةُ أقْوالٍ؛ أحدُها: أنَّها صَلاةُ العيدِ. وقال قَتادةُ: صلاةُ الأَضْحى. والثَّاني: أنَّها صلاةُ الصُّبْحِ بالمُزْدَلِفةِ، قالَه مُجاهِدٌ. والثَّالِثُ: الصَّلَواتُ الخَمْسُ، قاله مُقاتِلٌ.

وفي قَولِه عزَّ وجَلَّ: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ خمسةُ أقوالٍ؛ أحدُها: اذبَحْ يَومَ النَّحْرِ، رواه عليُّ بنُ أبي طَلْحةَ عن ابنِ عبَّاسٍ، وبه قال عَطاءٌ ومُجاهِدٌ والجُمهورُ. والثَّاني: وَضْعُ اليُمْنى على اليُسْرى عندَ النَّحْرِ في الصَّلاةِ، رواه أبو الجَوْزاءِ عن ابنِ عبَّاسٍ، وهو قَولُ عليٍّ رَضيَ اللهُ عنه، قال ابنُ جَريرٍ: فيَكونُ المعنى: ضَعِ اليُمْنى على اليُسْرى عندَ النَّحْرِ في الصَّلاةِ. والثَّالثُ: أنَّه رَفْعُ اليَدَينِ بالتَّكْبيرِ إلى النَّحْرِ، قالَه أبو جَعفرٍ محمَّدُ بنُ عليٍّ. والرَّابعُ أنَّ المعنى: صَلِّ للهِ، وانْحَرْ للهِ؛ فإنَّ ناسًا يُصَلُّونَ لغَيْرِه، ويَنحَرونَ لغَيْرِه، قاله القُرَظيُّ. والخامِسُ: أنَّه اسْتِقبالُ القِبْلةِ بالنَّحْرِ، حَكاه الفَرَّاءُ). ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٨). ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٨٠)، ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٩٦).

قال ابنُ عثيمين: (﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ المرادُ بالصَّلاةِ هنا: جميعُ الصَّلواتِ، وأوَّلُ ما يَدخُلُ فيها الصَّلاةُ المقرونةُ بالنَّحْرِ، وهي صلاةُ عيدِ الأضحى، لكِنَّ الآيةَ شامِلةٌ عامَّةٌ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ الصَّلَواتِ المفروضةَ والنَّوافِلَ، صَلواتِ العيدِ والجُمُعةِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٣). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٢٩).

وقال الرَّسْعَنيُّ: (أمَّا قَولُه: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ فقال عامَّةُ المُفَسِّرينَ: اذبَحْ يَومَ النَّحرِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٥٠).

وقال ابنُ كَثيرٍ بعْدَ أن ذكَرَ ما قيلَ في معنى النَّحرِ: (كلُّ هذه الأقوالِ غَريبةٌ جدًّا، والصَّحيحُ القَولُ الأوَّلُ؛ أنَّ المُرادَ بالنَّحرِ ذَبْحُ المَناسِكِ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٣).

وقال ابنُ جَريرٍ: (أَوْلى هذه الأقوالِ عندي بالصَّوابِ: قَولُ مَن قال: معنى ذلك: فاجْعَلْ صَلاتَك كلَّها لرَبِّك خالِصًا دونَ ما سِواه مِن الأنْدادِ والآلِهةِ، وكذلك نَحْرُك اجْعَلْه له دونَ الأوْثانِ؛ شُكرًا له على ما أعْطاك مِن الكَرامةِ والخَيرِ الَّذي لا كُفْءَ له، وخَصَّك به، مِن إعْطائه إيَّاك الكَوثَرَ. وإنَّما قُلْتُ: ذلك أَوْلى الأقوالِ بالصَّوابِ في ذلك؛ لأنَّ اللهَ جَلَّ ثَناؤُه أَخبَرَ نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم =

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أنَّ الله -تعالى- لَمَّا بَشَّرَه بالنِّعَمِ العظيمةِ، وعَلِمَ -تعالى- أنَّ النِّعمةَ لا تَهنَأُ إلَّا إذا صارَ العدوُّ مَقهورًا؛ لا جَرَمَ وَعَدَه بقَهرِ العَدوِّ(١).

وأيضًا لَمَّا أمَرَه باستِغراقِ الزَّمانِ في عِبادَةِ الخالقِ، والإحسانِ إلى الخَلائقِ بأعلَى الخَلائقِ؛ عَلَّلَه بما حاصِلُه أنَّه لا شاغِلَ له ولا حاجةَ أصلًا تُلِمُّ به، فقال(٢):

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾.

أي: إنَّ مُبغِضَك -يا محمَّدُ- هو المنقَطِعُ عن كلِّ خَيرٍ، ومِن ذلك حُسنُ الذِّكْرِ(٣).

---

= بما أَكرَمَه به مِن عَطِيَّتِه وكَرامتِه، وإنْعامِه عليه بالكَوثَرِ، ثُمَّ أَتْبَعَ ذلك قَولَه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، فكان مَعْلومًا بذلك أنَّه خَصَّه بالصَّلاةِ له والنَّحرِ على الشُّكْرِ له على ما أعْلَمَه مِن النِّعْمةِ الَّتي أنْعَمَها عليه، بإعْطائِه إيَّاه الكَوثَرَ، فلم يكنْ لِخُصوصِ بعضِ الصَّلاةِ بذلك دونَ بعضٍ، وبعضِ النَّحرِ دونَ بعضٍ وَجْهٌ؛ إذ كان حَثًّا على الشُّكْرِ على النِّعَمِ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩٦).

قال ابنُ تيميَّةَ: (وقد امتَثَلَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمْرَ رَبِّه، فكان كَثيرَ الصَّلاةِ لرَبِّه، كَثيرَ النَّحْرِ، حتَّى نَحَرَ بيَدِه في حَجَّةِ الوَداعِ ثَلاثًا وسِتِّينَ بَدَنةً، وكان يَنحَرُ في الأعْيادِ وغَيْرِها). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٣٢).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٢٢).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٩١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٦٩٧)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٦٣)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥١٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٢٩١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٣، ٣٣٤). =

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ لم يَقُلْ: (أعطَينا الرَّسولَ) أو (النَّبيَّ) أو (العالِمَ) أو (المُطيعَ)؛ لأنَّه لو قال ذلك لَأشعَرَ أنَّ تلك العَطيَّةَ وقَعَت مُعَلَّلةً بذلك الوَصفِ، فلمَّا قال: ﴿أَعۡطَيۡنَٰكَ﴾ عُلِمَ أنَّ تلك العَطيَّةَ غيرُ مُعَلَّلةٍ بعِلَّةٍ أصلًا، بل هي مَحْضُ الاختيارِ والمشيئةِ، كما قال: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا﴾ [الزخرف: ٣٢]، ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾[1] [الحج: ٧٥].

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾ في إسنادِ الإعطاءِ إليه دونَ الإيتاءِ إشارةٌ إلى أنَّ ذلك إيتاءٌ على جهةِ التَّمليكِ؛ فإنَّ الإعطاءَ دونَه كثيرًا ما يُستعمَلُ في ذلك، ومنه قولُه تعالى لِسُليمانَ عليه السَّلامُ: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ [ص: ٣٩] بعْدَ قولِه: ﴿وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا﴾ [ص: ٣٥]. وقيلَ: فيه إشارةٌ إلى أنَّ المُعطَى وإن كان كثيرًا في نَفْسِه قَليلٌ بالنِّسبةِ إلى شأْنِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بناءً على أن الإيتاءَ لا يُستعمَلُ إلَّا في الشَّيءِ العظيم، كقولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا﴾ [سبأ: ١٠] و﴿ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]، والإعطاءُ يُستعمَلُ في القليلِ والكثيرِ، كما قال تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٤]، ففيه مِن تَعظيمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ما فيه. وقيلَ: التَّعبيرُ بذلك؛ لأنَّه بالتَّفضُّلِ أَشْبَهُ، بخلافِ الإيتاءِ، فإنَّه قد يكونُ واجِبًا، ففيهِ إشارةٌ إلى الدَّوامِ والتَّزايُدِ أبدًا؛ لأنَّ التَّفضُّلَ

---

= قال الرَّاغب: (زَعَموا أنَّ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم يَنقَطِعُ ذِكْرُه إذا انقطَعَ عُمُرُه؛ لفقْدانِ نَسْلِه، فنبَّه تعالى أنَّ الَّذي ينقَطِعُ ذِكرُه هو الَّذي يَشْنَؤُه، فأمَّا هو فكما وصَفَه اللهُ تعالى بقَولِه: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ [الشرح: ٤]؛ وذلك لجَعْلِه أبًا للمُؤمِنينَ، وتقييضِ مَن يُراعيه ويُراعي دِينَه الحَقَّ). ((المفردات)) (ص: ١٠٧).

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣١١، ٣١٢).

نَتيجةُ كَرمِ اللهِ تعالى، غيرِ المُتناهِي[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ أبلَغُ مِن: (فَصَلِّ لله)؛ لأنَّ لَفظَ الرَّبِّ يُفيدُ التَّربيةَ المتقَدِّمةَ المشارَ إليها بقَولِه: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ﴾، ويُفيدُ الوَعدَ الجَميلَ في المستقبَلِ أنَّه يُرَبِّيه ولا يَترُكُه[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾، فيه سُؤالٌ: المَذكورُ عَقِبَ الصَّلاةِ هو الزَّكاةُ، فلِمَ كان المَذكورُ هاهنا هو النَّحرَ؟

**الجوابُ**: أمَّا على قَولِ مَن قال: المُرادُ مِن الصَّلاةِ: صلاةُ العيدِ، فالأمرُ ظاهرٌ فيه. وأمَّا على قَولِ مَن حَمَلَه على مُطلقِ الصَّلاةِ؛ فلِوُجوهٍ:

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّ المُشرِكينَ كانت صَلَواتُهم وقَرابينُهم للأَوثانِ، فقِيلَ له: اجعَلْهما للهِ.

**الوجهُ الثَّاني**: أنَّ مِن النَّاسِ مَن قال: إنَّه -عليه السَّلامُ- ما كان يَدخُلُ في مِلكِه شَيءٌ مِن الدُّنيا، بل كان يَملِكُ بقَدرِ الحاجةِ، فلا جَرَمَ لم تجِبِ الزَّكاةُ عليه، أمَّا النَّحرُ فقد كان واجِبًا عليه.

**الوَجهُ الثَّالثُ**: أنَّ أعزَّ الأموالِ عندَ العَربِ هو الإبِلُ، فأمَرَه بنَحْرِها، وصَرفِها إلى طاعةِ الله تعالى؛ تَنبيهًا على قَطعِ العَلائقِ النَّفْسانيَّةِ عن لَذَّاتِ الدُّنيا وطَيِّباتِها[٣].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾ الذَّبحُ في مَوضِعِه أفضَلُ مِن الصَّدَقةِ بثَمَنِه ولو زاد، كالهدايا والأضاحيِّ؛ فإنَّ نَفْسَ الذَّبحِ وإراقةِ الدَّمِ مقصودٌ؛ فإنَّه عِبادةٌ مَقرونةٌ بالصَّلاةِ، كما قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ﴾، وقال: ﴿ قُلۡ

(١) يُنظر: ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٨٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣١٩).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٣١٩).

إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، ففي كلِّ مِلَّةٍ صلاةٌ ونَسيكةٌ لا يقومُ غيرُهما مقامَهما؛ ولهذا لو تَصَدَّقَ عن دمِ المُتعةِ والقِرانِ بأضعافِ أضعافِ القيمةِ لَمْ يَقُمْ مَقامَه، وكذلك الأضحيَّةُ(١).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أَمَرَه اللهُ أنْ يَجْمَعَ بيْن هاتَينِ العِبادتَينِ العَظيمتَينِ، وهُما الصَّلاةُ والنُّسُكُ الدَّالَّتانِ على القُربِ، والتَّواضُعِ والافتقارِ، وحُسْنِ الظَّنِّ، وقوَّةِ اليقينِ، وطُمَأنينةِ القَلبِ إلى اللهِ وإلى عِدَتِه وأَمْرِه، وفَضْلِه وخَلَفِه، عَكْسُ حالِ أهلِ الكِبْرِ والنَّفرةِ، وأهلِ الغِنى عن اللهِ، الَّذين لا حاجةَ في صَلاتِهم إلى رَبِّهم يَسألونَه إيَّاها، والَّذين لا يَنحَرونَ له؛ خَوفًا مِن الفَقرِ، وترْكًا لإعانةِ الفُقَراءِ وإعطائِهم، وسوءَ ظَنٍّ منهم بربِّهم؛ ولهذا جَمَعَ اللهُ بيْنَهما في قَولِه تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، والنُّسُكُ هي الذَّبيحةُ ابتغاءَ وَجْهِه(٢).

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ أنَّ الصَّلاةَ والنُّسُكَ هما أَجَلُّ ما يُتَقَرَّبُ به إلى اللهِ؛ فإنَّه أتى فيهما بالفاءِ الدَّالَّةِ على السَّبَبِ؛ لأنَّ فِعْلَ ذلك -وهو الصَّلاةُ والنَّحرُ- سَبَبٌ للقيامِ بشُكرِ ما أعطاه اللهُ إيَّاه مِن الكَوثرِ والخَيرِ الكثيرِ، فشُكْرُ المنعِمِ عليه وعِبادتُه أَعْظَمُها هاتان العبادتانِ، بلِ الصَّلاةُ نهايةُ العباداتِ وغايةُ الغاياتِ، كأنَّه يقولُ: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ الخيرَ الكثيرَ -على قولٍ-، وأنعَمْنا عليك بذلك؛ مِن أَجْلِ قيامِك لنا بهاتَينِ العِبادتينِ شُكرًا لإنعامِنا عليك، وهما السَّبَبُ لإنعامِنا عليك بذلك، فقُمْ لنا بهما؛ فإنَّ الصَّلاةَ والنَّحرَ محفوفانِ بإنعامٍ قَبْلَهما وإنعامٍ بَعْدَهما، وأَجَلُّ العباداتِ الماليَّةِ النَّحرُ، وأَجَلُّ العباداتِ البَدَنيَّةِ الصَّلاةُ، وما يَجتَمِعُ للعبدِ في الصَّلاةِ لا يَجتمِعُ له في غيرِها مِن سائرِ

(١) يُنظر: ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: ٦٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣١).

العباداتِ، كما عَرَفَه أربابُ القُلوبِ الحَيَّةِ وأصحابُ الهِمَمِ العاليةِ، وما يَجتمعُ له في نَحْرِه مِن إيثارِ اللهِ، وحُسْنِ الظَّنِّ به، وقُوَّةِ اليقينِ، والوُثوقِ بما في يَدِ اللهِ: أمرٌ عَجيبٌ إذا قارَنَ ذلك الإيمانُ والإخلاصُ[١].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ عن عَطاءٍ قال: (فَصَلِّ صلاةَ العِيدِ)؛ ففي الآيةِ مَشروعيَّةُ صلاةِ العيدِ، والأضحيَّةِ، وتأخيرِها عن الصَّلاةِ[٢]. وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ. والأُضحيَّةُ مِن أعظمِ شعائرِ الإسلامِ، وهي النُّسُكُ العامُّ في جميعِ الأمصارِ، والنُّسُكُ مَقْرونٌ بالصَّلاةِ في قَولِه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، وقد قال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، فأَمَرَ بالنَّحْرِ كما أَمَرَ بالصَّلاةِ[٣].

٩- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ استدَلَّ به مَن قال بأنَّ الأُضحيَّةَ كانت واجبةً على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٤].

١٠- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ استدَلَّ به مَن قال بأنَّ وَقتَ الأضحيَّةِ بَعْدَ مُضِيِّ قَدْرِ الصَّلاةِ خاصَّةً، ولم يعتَبِرِ الخُطبتَينِ[٥].

١١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ في ظاهِرِ الآيةِ أنَّ الإبلَ أفضَلُ

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٣/ ١٦٢).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٠).

(٥) يُنظر: ((المصدر السابق)).

مذهَبُ الحَنَفيَّةِ، والحَنابلةِ أنَّ وقتَ الأضحيَّةِ يَبدأُ بعْدَ صلاةِ العيدِ، واختارَه الطَّحاويُّ، والشَّوكانيُّ، وابنُ عُثيمين. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزَّيْلَعي و((حاشية الشِّلْبي)) (٦/ ٤)، ((الفروع)) لابن مفلح (٦/ ٩٢)، ((شرح معاني الآثار)) للطحاوي (٤/ ١٧٤)، ((الدراري المضية)) للشوكاني (٢/ ٣٤٣)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٧/ ٤٥٩).

مِن البَقَرِ والغَنَمِ في الضَّحايا، لأنَّه تعالى أمَرَ بالنَّحرِ، والنَّحرُ إنَّما يكونُ فيها. وقال مالِكٌ رحمه اللهُ تعالى: الغَنَمُ أفضَلُ، وقد ضَحَّى رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بكَبشَينِ(١)، ويُحمَلُ الأمرُ بالنَّحرِ في الآيةِ إنْ جعَلْناها في الضَّحِيَّةِ خارجًا على ما كان الأكثَرُ عِندَهم في ذلك الوَقتِ، وهو الإبِلُ؛ فلذلك خَصَّ النَّحْرَ، وبيَّن النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقَولِه وفِعْلِه أنَّ الغَنَمَ أفضَلُ، وأيضًا فإنَّما فُدِيَ ابنُ إبراهيمَ عليهما السَّلامُ مِن الذَّبحِ بكَبْشٍ(٢).

١٢- الذَّبحُ لغَيرِ اللهِ شِركٌ أكبَرُ؛ لأنَّ الذَّبحَ عبادةٌ، كما أمر به في قَولِه تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾، وقَولِه سُبحانَه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٣) [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

١٣- قَولُه تَعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ فيه إشارةٌ إلى أنَّك لا تَتأسَّفُ على شيءٍ مِن الدُّنْيا، كما ذَكَرَ ذلك في آخِرِ (طه) و(الحِجْرِ) وغَيْرِهما، وفيها الإشارةُ إلى تَرْكِ الالْتِفاتِ إلى النَّاسِ وما يَنالُك مِنهم، بلْ صَلِّ لرَبِّك وانْحَرْ(٤).

١٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱنْحَرْ﴾ فيه سُؤالٌ: لِمَ لَمْ يقلْ: (ضَحِّ)؛ حتَّى يَشملَ جميعَ أنواعِ الضَّحايا؟

---

(١) أخرجه البخاريُّ (٥٥٥٨)، ومسلمٌ (١٩٦٦) مِن حديثِ أنَسٍ رضيَ الله عنه.

(٢) يُنظر: ((أحكام القرآن)) لابن الفرس (٣/ ٦٢٩).

مَذهَبُ الجُمهورِ مِن الحَنَفيَّةِ والشَّافِعيَّةِ والحَنابِلةِ: أنَّ أَفضَلَ الأضاحي البَدَنةُ، ثُمَّ البَقَرةُ، ثمَّ الشَّاةُ. يُنظر: ((شرح مختصر الطحاوي)) للجَصَّاص (٧/ ٣٢٦)، ((المجموع)) للنَّووي (٨/ ٣٩٦)، ((كشاف القناع)) للبُهُوتي (٢/ ٥٣٠).

ومَذهَبُ المالِكيَّةِ أن أَفضَلَها الغَنَمُ، ثمَّ البَقَرُ، ثمَّ الإبِلُ. يُنظر: ((بداية المجتهد)) لابن رشد (١/ ٤٣٠)، ((الذخيرة)) للقرافي (٤/ ١٤٣).

(٣) يُنظر: ((فتاوى أركان الإسلام)) لابن عثيمين (ص: ١٤٧).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣٢، ٥٣٣).

**الجوابُ**: أنَّ الصَّلاةَ أعظَمُ العباداتِ البَدَنيَّةِ؛ فقُرِنَ بها أعظَمُ أنواعِ الضَّحايا، وأيضًا فيه إشارةٌ إلى أنَّك بعْدَ فَقْرِك تصيرُ بحيثُ تَنحَرُ المِئةَ مِنَ الإبلِ(١)!

١٥- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أنَّ مَن شَنَأَ شيئًا ممَّا جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم فله مِن ذلك نَصيبٌ، قال أبو بكرِ بنُ عَيَّاش: «إنَّ أهلَ السُّنَّةِ يَبقَونَ ويَبقى ذِكْرُهم، وأهلَ البدعةِ يموتون ويموتُ ذِكْرُهم»؛ وذلك أنَّ أهلَ البدعةِ شَنَؤُوا بعضَ ما جاء به الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم، فأَبْتَرَهم بقَدْرِ ذلك، والَّذين أَعلنوا ما جاء به النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم صار لهم نصيبٌ مِن قَولِه تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]؛ فإنَّ ما أَكرمَ اللهُ به نبيَّه مِن سعادةِ الدُّنيا والآخِرةِ فللمؤمِنينَ المتابِعينَ نَصيبٌ بقَدْرِ إيمانِهم، فما كان مِن خصائصِ النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ فلَمْ يُشارِكْ فيه أحدٌ مِن أُمَّتِه، وما كان مِن ثوابِ الإيمانِ والأعمالِ الصَّالحةِ فلكلِّ مُؤمنٍ نَصيبٌ بقَدْرِ ذلك(٢).

١٦- قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ فكلُّ مَن شنَأه أو أبغَضه وعاداه فإنَّ اللهَ يَقطعُ دابِرَه، ويَمحَقُ عَيْنَه وأثَرَه(٣).

## بلاغةُ الآياتِ:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾

- افتِتاحُ الكلامِ بحرْفِ التَّأكيدِ (إنَّ)؛ للاهتمامِ بالخبَرِ، والإشعارِ بأنَّه شَيءٌ عَظيمٌ يَستتبِعُ الإشعارَ بتَنويهِ شَأنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والكلامُ مَسوقٌ مَساقَ البِشارةِ، وإنشاءِ العَطاءِ، لا مَساقَ الإخبارِ بعَطاءٍ سابقٍ(٤).

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٢٠).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٨/ ٣٨).

(٣) يُنظر: ((الصارم المسلول على شاتم الرسول)) لابن تيمية (ص: ١٦٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٢).

- وأُرِيدَ مِن هذا الخبَرِ بِشارةُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإزالةُ ما عسى أنْ يكونَ في خاطِرِه مِن قولِ مَن قال فيه: هو أبتَرُ، فقُوبِلَ معْنى ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾ بمعْنى الكَوثرِ؛ إبطالًا لِقولِهم[١].

- وضَميرُ العَظَمةِ (نا) مُشعِرٌ بالامتنانِ بعَطاءٍ عَظيمٍ[٢].

- والكَوثرُ: اسمٌ في اللُّغةِ للخَيرِ الكثيرِ، صِيغَ على زِنةِ فَوعَلٍ، ولَمَّا وَقَعَ هنا فيها مادَّةُ الكُثْرِ، كانتْ صِيغتُه مُفيدةً شِدَّةَ ما اشتُقَّت منه، بِناءً على أنَّ زِيادةَ المَبْنى تُؤذِنُ بزِيادةِ المعْنى، أي: المُفرِطُ في الكثرةِ[٣].

- وقولُه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ اعتِراضٌ، والفاءُ للتَّفريعِ على البِشارةِ بإعطاءِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم الكَوثرَ بأنْ يَشكُرَ ربَّه عليها؛ فإنَّ الصَّلاةَ أفعالٌ وأقوالٌ دالَّةٌ على تَعظيمِ اللهِ، والثَّناءِ عليه، وذلك شُكرٌ لنِعمتِه. وناسَبَ أنْ يكونَ الشُّكرُ بالازديادِ ممَّا عاداهُ عليه المشرِكون وغيرُهم ممَّن قالوا مَقالتَهم الشَّنعاءَ: إنَّه أبتَرُ؛ فإنَّ الصَّلاةَ للهِ شُكرٌ له، وإغاظةٌ للَّذين يَنْهَونه عن الصَّلاةِ؛ كما قال تعالَى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ * عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩، ١٠]؛ لأنَّهم إنَّما نَهَوه عن الصَّلاةِ الَّتي هي لِوجْهِ اللهِ دونَ العِبادةِ لأصنامِهم، وكذلك النَّحرُ للهِ[٤].

- وكان المُقتضى أنْ يقولَ: (فصَلِّ لنا)، ولكنَّه انتَقَلَ مِن المُضمَرِ إلى المُظهَرِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٣).

(٢) يُنظر: ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٦، ٨٠٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٢، ٥٧٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٣).

على سَبيلِ الالْتفاتِ مِن التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ؛ اهتمامًا بذِكرِ (رَبِّكَ)، وتَعظيمًا له، ولِما في لَفظِ الرَّبِّ مِن الإيماءِ إلى استِحقاقِه العِبادةَ مِن أجْلِ رُبوبيَّتِه؛ لأنَّ مَن يُرَبِّيك يَستحِقُّ العِبادةَ، فضْلًا عن فَرْطِ إنعامِه[1]. فمِن فَوائِدِ الآيةِ اللَّطيفةِ الالْتِفاتُ في قَوْلِه: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾، الدَّالَّةِ على أنَّ رَبَّك مُسْتحِقٌّ لِذلك، وأنت جَديرٌ بأن تَعبُدَه وتَنحَرَ له[2].

- وإضافةُ (ربّ) إلى ضَميرِ المُخاطَبِ؛ لقَصْدِ تَشريفِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وتَقريبِه، وفيه تَعريضٌ بأنَّه يَرُبُّه ويَرأَفُ به[3].

- قولُه: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ في تَفريعِ الأمرِ بالنَّحرِ مع الأمْرِ بالصَّلاةِ على أنْ أعطاهُ الكوثرَ: خُصوصيةٌ تُناسِبُ الغرَضَ الَّذي نزَلَت السُّورةُ له؛ ألَا تَرى أنَّه لم يَذكُرِ الأمرَ بالنَّحرِ مع الصَّلاةِ في قَولِه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨]؟ ويَظهَرُ أنَّ هذه تَسليةٌ لرَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم عن صَدِّ المشركينَ إيَّاهُ عن البيتِ في الحُدَيْبيَةِ، فأعْلَمَه اللهُ تعالَى بأنَّه أعطاهُ خيرًا كثيرًا، أي: قدَّرَه له في المستقبَلِ، وعبَّرَ عنه بالماضي؛ لتَحقيقِ وُقوعِه[4].

- وأفادتِ اللَّامُ مِن قولِه: ﴿لِرَبِّكَ ﴾ أنَّه يَخُصُّ اللهَ بصَلاتِه، فلا يُصلِّي لغيرِه، ففيه تَعريضٌ بالمشرِكينَ بأنَّهم يُصَلُّون للأصنامِ بالسُّجودِ لها والطَّوافِ حَوْلَها، وفيه تَنذيرٌ بالكفَّارِ حيث كانت صَلاتُهم مُكاءً وتَصديةً، ونحْرُهم

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٤)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٥٩٧ - ٥٩٩).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٦/ ٥٣٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٤).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)).

للأصنامِ[١]. وقيلَ: فيها التَّعْريضُ بحالِ الأَبتَرِ الشَّانِئِ، الَّذي صَلاتُه ونُسُكُه لغَيْرِ اللهِ[٢].

- وعطْفُ ﴿وَٱنْحَرْ﴾ على ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ يَقْتضي تَقديرَ مُتعلَّقِه مُماثِلًا لمُتعلَّقِ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾؛ لدَلالةِ ما قبْلَه عليه، فالتَّقديرُ: وانحَرْ له، وهو إيماءٌ إلى إبطالِ نحْرِ المُشرِكين قُربانًا للأصنامِ[٣].

- والأمْرُ بالنَّحرِ دونَ الذَّبحِ تَغليبٌ للَفظِ النَّحرِ، وهو الَّذي رُوعِيَ في تَسميةِ يومِ الأضحى يومَ النَّحرِ، ولِيَشملَ الضَّحايا في البُدنِ والهَدايا في الحجِّ، أو ليَشملَ الهَدايا الَّتي عُطِّلَ إرسالُها في يومِ الحُدَيبيَةِ، ويُرشِّحُ إيثارَ النَّحرِ رَعْيُ فاصلةِ الرَّاءِ في السُّورةِ[٤].

- وخَصَّ هاتَين العِبادتينِ بالذِّكرِ؛ لأنَّهما مِن أفضَلِ العِباداتِ، وأجَلِّ القُرُباتِ، ولأنَّ الصَّلاةَ تتضَمَّنُ الخُضوعَ في القَلْبِ والجوارحِ للهِ، وتنقُّلَها في أنواعِ العُبوديَّةِ، وفي النَّحرِ تقَرُّبٌ إلى اللهِ بأفضَلِ ما عندَ العَبدِ مِنَ النَّحائِرِ، وإخراجُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٤). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٤، ٥٧٥).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٧٥).

وقال ابنُ عثيمين: (﴿وَٱنْحَرْ﴾ أي: تقَرَّبْ إليه بالنَّحرِ، والنَّحْرُ يختَصُّ بالإبلِ، والذَّبحُ للبَقَرِ والغَنَمِ، لكِنَّه ذكَرَ النَّحرَ؛ لأنَّ الإبلَ أنفَعُ مِن غيرِها بالنِّسبةِ للمَساكينِ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٣).

وسبَقَ وجْهٌ آخَرُ، وهو أنَّه ذكَرَ النَّحرَ؛ حمْلًا على ما كان الأكثَرَ عِندَهم في ذلك الوَقتِ، وهو الإبلُ. ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٣٠-٣٣١).

للمالِ الَّذي جُبِلَت النُّفوسُ على محبَّتِه والشُّحِّ به[١].

- قولُه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ استِئنافٌ يَجوزُ أنْ يكونَ استِئنافًا ابتدائيًّا، ويَجوزُ أنْ تكونَ الجُملةُ تَعليلًا[٢].

- وفي قَوْلِه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ أنْواعٌ مِن التَّأكيدِ؛ أحَدُها: تَصْديرُ الجُمْلةِ بإنَّ. الثَّاني: الإتْيانُ بضَميرِ الفَصْلِ الدَّالِ على قُوَّةِ الإسْنادِ والاخْتِصاصِ. الثَّالثُ: مَجيءُ الخَبَرِ على أَفعَلِ التَّفْضيلِ دونَ اسْمِ المَفْعولِ. الرَّابعُ: تَعْريفُه بـ «اللَّامِ» الدَّالَّةِ على حُصولِ هذا المَوْصوفِ له بتَمامِه، وأنَّه أَحَقُّ به مِن غَيْرِه، ونَظيرُ هذا في التَّأكيدِ قَولُه تَعالى: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٣] [طه: ٦٨].

- واشتمالُ الكلامِ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ على صِيغةِ قصْرٍ، وعلى ضَميرِ غائبٍ، وعلى لَفظِ ﴿ٱلْأَبْتَرُ﴾: مُؤذِنٌ بأنَّ المقصودَ به ردُّ كَلامٍ صادرٍ مِن مُعيَّنٍ، وحِكايةُ لَفظٍ مُرَادٍ بالرَّدِّ، وكانوا يَصِفون مَن ليس له ابنٌ بـ (أبتَرَ)، فأنْزَلَ اللهُ هذه السُّورةَ، فحصَلَ القصْرُ في قَولِه: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾؛ لأنَّ ضَميرَ الفصلِ يُفيدُ قصْرَ صِفةِ الأبتَرِ على الموصوفِ -وهو شانئُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم- قصْرَ المُسنَدِ على المسنَدِ إليه، وهو قَصْرُ قلْبٍ[٤]، أي: إنَّ مَن أبْغَضَك مِن قَومِك لمُخالَفتِك لهم هُو الأبتَرُ لا أنت[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٥).
ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٥).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيميَّة (١٦/ ٥٣٣).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٧، ٨٠٨)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٥، ٥٧٦).

- ولَمَّا كان وَصْفُ الأبتَرِ في الآيةِ جِيءَ به لمُحاكاةِ قولِ القائلِ: (محمَّدٌ أبتَرُ) إبطالًا لقولِه ذلك، وكان عُرْفُهم في وَصْفِ الأبتَرِ أنَّه الَّذي لا عَقِبَ له؛ تعيَّنَ أنْ يكونَ هذا الإبطالُ ضَرْبًا مِن الأُسلوبِ الحَكيمِ، وهو تَلقِّي السَّامعِ بغَيرِ ما يَترقَّبُ، بحَمْلِ كَلامِه على خِلافِ مُرادِه؛ تَنبيهًا على أنَّ الأحقَّ غيرُ ما عَناهُ مِن كَلامِه، وذلك بصَرْفِ مُرادِ القائلِ عن الأبتَرِ الَّذي هو عَديمُ الابنِ الذَّكَرِ إلى ما هو أجدَرُ بالاعتبارِ، وهو النَّاقصُ حظِّ الخَيرِ[1].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٧).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الكافِرُونَ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ الكافِرُونَ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الكافِرونَ[١].

وسُمِّيَت أيضًا بسُورةِ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢]؛ فعن عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُوتِرُ بثَلاثٍ، يَقرأُ في الأولى بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثَّانيةِ بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثَّالثةِ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[٣].

## فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

**١- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ بها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن الرَّكعتَينِ قبْلَ الوِترِ:**

كما في حديثِ عبدِ اللهِ بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، المتقدِّم.

**٢- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ بها وبـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في رَكعتَيِ الفَجرِ:**

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لوُقوعِ لَفظِ ﴿ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في فاتِحَتِها في قَولِه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٩).

(٢) وسُمِّيت أيضًا: سورةَ الكافِرين -على أنَّ المرادَ: سورةُ ذِكْرِ الكافِرين، أو نداءِ الكافِرين-، وسورةَ الإخلاصِ، وسورةَ العبادةِ، وسورةَ الدِّينِ؛ لقولِه: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾. يُنظر: ((جمال القراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٤)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٤٨)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٨٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٧٩).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٤٦٢)، والنَّسائيُّ (١٧٠٢) واللَّفظُ له، وابنُ ماجه (١١٧٢)، وأحمدُ (٢٧٢٠). صحَّح إسنادَه النَّوويُّ في ((الخلاصة)) (١/ ٥٥٦)، وابنُ الملقِّنِ في ((البدر المنير)) (٤/ ٣٣٨)، وصحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن النسائي)) (١٧٠٢).

عن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رَسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم قَرأَ في رَكعتَيِ الفَجرِ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[١].

وعن عائشةَ رضيَ الله عنها، قالت: كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُصلِّي... ركعتَينِ قبْلَ الفَجرِ، وكان يقولُ: ((نِعْمَ السُّورَتانِ هُما، تَقرَؤُونَهما في الرَّكعَتَينِ قبْلَ الفَجرِ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[٢].

**٣- سَمِعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلًا يَقرأُ بها في الرَّكعةِ الأُولى مِن رَكعتَيِ الفَجرِ فامْتَدَحَهُ:**

عن جابرٍ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رجُلًا قامَ فركَعَ رَكعتَيِ الفَجرِ فَقرأَ في الرَّكعةِ الأُولى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ حتَّى انْقَضَت السُّورةُ، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: هذا عَبدٌ عَرَفَ رَبَّه. وقرأَ في الآخرةِ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتَّى انقَضَت السُّورةُ، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: هذا عَبدٌ آمَنَ برَبِّه))[٣].

**٤- يُستَحَبُّ قِراءتُها عندَ النَّومِ، وهي بَراءَةٌ مِن الشِّرْكِ:**

عن نَوْفَلٍ الأَشْجَعيِّ رضيَ الله عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال له: اقرَأْ عندَ مَنامِك ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، قال: ثُمَّ نَمْ على خاتِمَتِها؛ فإنَّها

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٦).

(٢) أخرجه ابنُ ماجه (١١٥٠)، وأحمدُ (٢٦٠٢٢) واللَّفظُ له، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٤٦١).
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، والألبانيُّ في ((صحيح ابن ماجه)) (٩٥٠)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٣/ ١٤٩).

(٣) أخرجه الطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (١٧٧٤)، وابنُ حِبَّانَ (٢٤٦٠)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٢٥٢٤).
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٨٩)، وجوَّد إسنادَه الألبانيُّ في ((أصل صفة الصلاة)) (٢/ ٤٥٦)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٤٦٠).

بَراءَةٌ مِن الشِّرْكِ))[١].

## بَيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ الكافِرونَ مكِّيَّةٌ، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

البَراءةُ المُطلَقةُ بيْنَ الموحِّدِينَ والمُشرِكين[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:**

أمْرُ الله تعالى نبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم أن يُعلِنَ بَراءَتَه مِن الكافِرين، وأن يَنفِيَ عِبادتَه لمَعبُوداتِهم الباطِلةِ، ويَنفِيَ أن يَكونوا عابِدينَ للإلهِ الحقِّ الَّذي يَعبُدُه، وأن يُعلِنَ بَراءتَه مِن دِينِهم، فلَهُم دِينُهم وله دِينُه.

---

(١) أخرجه أبو داودَ (٥٠٥٥)، والترمذيُّ (٣٤٠٣)، والنَّسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠٦٣٧)، وأحمدُ (٢٣٨٠٧) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٥٥٢٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٥٥)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٦١)، وقال شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريجِ ((سنن أبي داود)) (٥٠٥٥): (حسنٌ على اضطرابٍ في إسنادِه).وقال شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريجِ ((سنن أبي داود)) (٥٠٥٥): (حسنٌ على اضطرابٍ في إسنادِه). وصحَّحَ إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢٠٧٧).

(٢) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّة. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٧).

ونسَب القولَ بأنَّها مكِّيَّةٌ إلى الجمهورِ: ابنُ الجَوزيِّ، وأبو حَيَّانَ. يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٨).

ورُوِيَ عن قَتادةَ أنَّها مَدَنيَّةٌ. يُنظر: المصدران السَّابقان.

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٨).

## الآيات (١-٦)

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾.

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مُخاطِبًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، بقَولِه تعالى:

قُلْ -يا محمَّدُ- لجَميعِ الكافِرينَ مُعْلِنًا البَراءةَ مِن دينِهم وعِبادتِهم: يا أيُّها الكافِرونَ بالله، لا أعبُدُ ما تَعبُدونَه الآنَ، ولا أنتم -أيُّها الكافِرونَ ما دُمْتُم مُستَمِرِّينَ على ضَلالِكم- عابِدونَ اللهَ الَّذي أعبُدُه، ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدْتُموه -أيُّها الكافِرونَ- مِن مَعبوداتٍ باطِلةٍ، ولا أنتم -أيُّها الكافِرونَ ما دُمتُم مُستَمِرِّينَ على كُفْرِكم- عابِدونَ اللهَ الَّذي أعبُدُه، لكم دِينُكم الَّذي تبَرَّأتُ منه، ولِيَ دِينُ الإسلامِ والتَّوحيدِ.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- لجَميعِ الكافِرينَ بالله، ما داموا متَّصِفينَ بالكُفرِ وثابِتينَ عليه: يا أيُّها الكافِرونَ باللهِ[1].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٤٠، ٥٤٥، ٥٦١، ٥٦٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٥).

قال ابن كثير: (قيل: إنَّهم مِن جَهْلِهم دعَوْا رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلَّم إلى عبادةِ أوثانِهم سَنةً، ويَعبُدونَ مَعبودَه سَنةً! فأنزَل اللهُ هذه السُّورةَ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧). ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣١). =

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢﴾.

أي: لا أعبُدُ ما تَعبُدونَه الآنَ مِن مَعبوداتٍ باطِلةٍ، صِفاتُها ناقِصةٌ؛ فليست أهلًا لعبادتِها[1].

= وقال ابنُ تيميَّةَ: (الخِطابُ للمُشرِكينَ كُلِّهم؛ مَن مضى، ومَن يأتي إلى يومِ القيامةِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٤٥).

وقال ابنُ كثيرٍ: (هذه السُّورةُ سُورةُ البَراءةِ مِنَ العمَلِ الَّذي يَعمَلُه المُشرِكونَ، وهي آمِرةٌ بالإخلاصِ فيه؛ فقَولُه: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ شَمِلَ كُلَّ كافرٍ على وجهِ الأرضِ، ولكِنَّ المواجَهينَ بهذا الخِطابِ هم كُفَّارُ قُرَيشٍ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٨).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥١، ٥٥٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٦).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ معنى هذه الآيةِ والَّتي تَليها: لا أعبُدُ ما تَعبُدونَ في الحالِ، ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدُ في الحالِ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والواحدي، والسمعاني، والبغوي، والنسفي، ونسَبه القرطبيُّ للأخفَشِ والمُبَرِّدِ. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٧١)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٨٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٢٨).

وقيل: المعنى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ في المُستقبَلِ مِن الزَّمانِ ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ اليومَ، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾ في المُستقبَلِ ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرَّسْعَني، والغَرْناطي. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٨، ٨٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٥٤)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٥١١).

واختار ابنُ تيميَّةَ أنَّ قولَه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ يَتناوَلُ نفْيَ عبادتِه لِمَعبودِهم في الزَّمانِ الحاضرِ والزَّمانِ المُستقبَلِ، وقولَه: ﴿مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يَتناوَلُ ما يَعبُدونَه في الحاضرِ والمُستقبَلِ. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٢).

كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ [الزمر: ٦٤].

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا بدأَ بما هو الأحَقُّ بالبُداءَةِ، وهو البَراءةُ مِن الشِّركِ؛ لأنَّه مِن دَرءِ المَفاسِدِ، فأبلَغَ في ذلك بما هو الحَقيقُ بحالِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وكانوا هُم يَعبُدون اللهَ على وَجهِ الإشراكِ، وكانت العِبادةُ مع الشِّركِ غيرَ مُعتَدٍّ بها بوَجهٍ- نفَى عِبادَتَهم له في الجُملةِ الاسميَّةِ الدَّالَّةِ على الثَّباتِ، فقال[1]:

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣﴾.

أي: ولا أنتم -أيُّها الكافِرونَ ما دُمْتُم مُستَمِرِّينَ على ضَلالِكم- عابِدونَ اللهَ الَّذي أعبُدُه، المتَّصِفَ بصِفاتِ الكَمالِ سُبحانَه وتعالى[2].

﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤﴾.

أي: ولا أنا عابِدٌ ما عَبَدتُموه -أيُّها الكافِرونَ- مِن مَعبوداتٍ باطلةٍ؛ فأنا مُتبَرِّئٌ مِن آلهتِكم وعبادتِكم الباطِلةِ، ولا أقْبَلُها أبدًا[3].

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٠-٥٥٣، ٥٥٥-٥٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٣، ٥٥٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧، ٥٠٨).

ممَّن اختار في الجملةِ أنَّ هذه الآيةَ والَّتي تَليها لا تَكرارَ فيهما -وأنَّ المعنى: ولا أنا عابدٌ ما عبَدْتُم في الاستقبالِ، ولا أنتم عابِدونَ ما أعبُدُ في الاستقبالِ، وهذا في قَومٍ أعْلَمَه اللهُ أنَّهم لا يؤمِنونَ-: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزَّجَّاجُ، والنحاس، والثعلبي، ومكِّي، والواحدي، =

= والسمعاني، والبغوي، وابن عطية، والنسفي. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٨٨٧)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٧١)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ١٩٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣١٥)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٤٧٣)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: ١٢٣٧)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٢٩٤)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣١)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٨٧).

وقيل: المعنى -بناءً على أنَّه لا تَكرارَ أيضًا-: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ﴾ أي: ولا كنتُ قَطُّ عابدًا فيما سلَف ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾: أي: ما فعَلْتُ ذلك في الجاهليَّةِ، فكيف تَتَوقَّعونَه مِنِّي في الإسلام؟! ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾ أي: ما عبَدْتُم في زمانٍ مِن الأزمانِ ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾. وممَّن اختاره: الزمخشريُّ، والرَّسْعَنيُّ، والغَرْناطيُّ. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٨، ٨٠٩)، ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٥٤)، ((ملاك التأويل)) للغرناطي (٢/ ٥١١).

وقيل: (ما) في قولِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ مَصدريَّةٌ، وهي مع الفعلِ في تأويلِ المَصدرِ، أي: ولا أعبُدُ عِبادتَكم، ولا تَعبُدونَ عبادتي. وأمَّا (ما) في الآيتَينِ الأُولَيَينِ فمَوصولةٌ بمعنى (الَّذي). وممَّن اختاره في الجملةِ: ابنُ كثير، والعُلَيميُّ، ونسَبه الرَّازيُّ إلى أبي مسلمٍ الخُراسانيِّ. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٤٨)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٣٠).

وقال ابن تيميَّةَ في قولِه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وقولِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾: (فالأوَّلُ نفْيُ الفعلِ في الماضي والمُستقبَلِ، والثَّاني نفْيُ قَبولِه في الماضي مع الحاضرِ والمُستقبَلِ، فقولُه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أي: نَفْسي لا تَقْبَلُ ولا يَصلُحُ لها أن تَعبُدَ ما عَبَدْتُموه قَطُّ، ولو كنتم عَبَدْتُموه في الماضي فقط، فأيُّ معبودٍ عبَدْتُموه في وقتٍ فأنا لا أقْبَلُ أن أعبُدَه في وقتٍ مِن الأوقاتِ. ففي هذا مِن عُمومِ عبادتِهم في الماضي والمُستقبَلِ، ومِن قوَّةِ بَراءَتِه وامتِناعِه وعدَمِ قَبولِه لهذه العبادةِ في جميعِ الأزمانِ: ما ليس في الجملةِ الأُولى. تلك تضمَّنَتْ نفْيَ الفعلِ في الزَّمانِ غيرِ الماضي، وهذه تضمَّنَتْ نفْيَ إمكانِه وقَبولِه لِما كان معبودًا لهم ولو في بعضِ الزَّمانِ الماضي فقط، والتَّقديرُ: ما عبَدْتُموه ولو في بعضِ الأزمانِ الماضيةِ فأنا لا يُمكِنُني ولا يَسوغُ لي أن أعبُدَه أبدًا). ((مجموع الفتاوى)) (١٦/ ٥٥٤). واستحسَنه ابنُ كثير، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٧).

وقيل: الآياتُ فيها تَكرارٌ، وهو للتَّأكيدِ. وممَّن اختاره: الفرَّاءُ، والشَّوكانيُّ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٨٨)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٠). ويُنظر أيضًا: ((تأويل مشكل القرآن)) =

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥﴾.

أي: ولا أنتم -أيُّها الكافِرونَ ما دُمْتُم مُستَمِرِّينَ على كُفْرِكم- عابِدونَ اللهَ الَّذي أعبُدُه دائِمًا[1].

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦﴾.

أي: لكم -أيُّها الكافِرونَ- دِينُكم الَّذي تبَرَّأتُ منه، وهو الكُفرُ باللهِ، ولِيَ دِينُ الإسلامِ والتَّوحيدِ الَّذي أؤمِنُ به[2].

قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمۡ عَمَلُكُمۡۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعۡمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

---

= لابن قتيبة (ص: ١٥١).

قال القرطبيُّ: (أمَّا وجْهُ التَّكرارِ فقد قيل: إنَّه للتَّأكيدِ في قَطعِ أطماعِهم، كما تقولُ: واللهِ لا أفعَلُ كذا، ثمَّ واللهِ لا أفعَلُه. قال أكثَرُ أهلِ المعاني: نزَل القرآنُ بلِسانِ العرَبِ، ومِن مَذاهِبِهم التَّكرارُ إرادةَ التَّأكيدِ والإفهامِ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٢٦). ويُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣١٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٢)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣١)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٠-٥٥٣، ٥٥٥-٥٥٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٠٧، ٥٠٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٠٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٨).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قولُه: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ يدُلُّ على أنَّكم مختصُّونَ بدينِكم لا أشرَكُكم فيه، وأنا مختَصٌّ بدِيني لا تَشْرَكوني فيه... وليس في هذه الآيةِ أنَّه رَضِيَ بدينِ المُشرِكينَ ولا أهلِ الكتابِ، كما يَظُنُّه بعضُ المُلْحِدينَ، ولا أنَّه نهى عن جهادِهم كما ظَنَّه بعضُ الغالِطينَ، وجعَلَوها منسوخةً! بل فيها بَراءتُه مِن دينِهم، وبَراءتُهم مِن دينِه، وأنَّه لا تضُرُّه أعمالُهم، ولا يُجزَونَ بعَمَلِه، ولا يَنفَعُهم، وهذا أمْرٌ مُحكَمٌ لا يَقبَلُ النَّسْخَ، ولم يَرْضَ الرَّسولُ بدينِ المُشرِكينَ ولا أهلِ الكِتابِ طَرْفةَ عَينٍ قَطُّ). ((الجواب الصحيح)) (٣/ ٥٨، ٥٩). ويُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٤٠، ١٤١).

وقال سُبحانَه: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَاۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ في هذه السُّورةِ مَنهَجٌ إصلاحيٌّ، وهو عدَمُ قَبولِ أنصافِ الحُلولِ؛ لأنَّ ما عرَضَه المُشرِكونَ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم مِنَ المشارَكةِ في العبادةِ -على ما قيل في سبب نُزولِها- يُعتبَرُ في مقياسِ المَنطِقِ حَلًّا وسَطًا؛ لاحتمالِ إصابةِ الحَقِّ في أحدِ الجانِبَينِ، فجاء الرَّدُّ حاسِمًا وزاجِرًا وبشِدَّةٍ؛ لأنَّ فيما عَرَضوه مُساواةً للباطِلِ بالحَقِّ، وفيه تعليقُ المُشكلةِ، وفيه تقريرُ الباطِلِ إنْ هو وافَقَهم ولو لحظةً[1].

٢- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هذا يَشمَلُ كُلَّ كافرٍ، سواءٌ كان مِن المُشرِكينَ، أو مِنَ اليَهودِ، أو مِنَ النَّصارى، أو مِن الشُّيوعيِّينَ، أو مِن غَيرِهم، كُلُّ كافرٍ يجبُ أنْ تُناديَه بقَلْبِك أو بلِسانِك -إنْ كان حاضِرًا-؛ لِتَتبَرَّأَ منه ومِن عِبادتِه[2].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- السُّوَرُ المُفتتَحةُ بالأمرِ بالقَولِ خَمسُ سُوَرٍ: ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ [الجن: ١]،

(١) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٥).

وسورةُ الكافِرونَ، وسورةُ الإخلاصِ، والمُعَوِّذتانِ؛ فالثَّلاثُ الأُوَلُ لقَولٍ يُبَلِّغُه، والمُعَوِّذتانِ لقَولٍ يَقولُه لِتَعويذِ نَفْسِه(١).

٢- إنَّ سورتَيْ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ هُما سُورَتَا الإخلاصِ؛ فـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ فيها إخلاصُ القَصْدِ، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها إخلاصُ العقيدةِ، فالتَّوحيدُ في ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ توحيدٌ عِلْميٌّ عَقَدِيٌّ، وفي ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ عَمَليٌّ إراديٌّ(٢).

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ليس في الدُّنيا لفظٌ أشنَعُ ولا أبشَعُ مِن لَفظِ الكافِرِ؛ وذلك لأنَّه صِفةُ ذَمٍّ عندَ جميعِ الخَلْقِ، سواءٌ كان مُطلَقًا أو مُقَيَّدًا(٣).

٤- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لَمْ يَقُلْ سُبحانَه: «يا أيُّها المُشرِكونَ»، فتناولَتِ السُّورةُ كلَّ كافرٍ، سواءٌ كان ممَّن يُظهِرُ الشِّركَ، أو كان فيه تعطيلٌ لِمَا يَستَحِقُّه اللهُ، واستِكبارٌ عن عِبادتِه، والتَّعطيلُ شَرٌّ مِن الشِّركِ، وكلُّ مُعَطِّلٍ فلا بُدَّ أنْ يكونَ مُشرِكًا، والنَّصارى مع شِرْكِهم لهم عباداتٌ كثيرةٌ، واليهودُ مِن أقلِّ الأممِ عِبادةً وأبْعَدِهم عن العبادةِ للهِ وحْدَه، لكنْ قد يَعْرِفونَ ما لا تَعْرِفُه النَّصارى، لكنْ بلا عبادةٍ وعَمَلٍ بالعِلمِ؛ فهم مَغضوبٌ عليهم، وأولئك ضالُّون، وكِلاهما قد بَرَّأَ اللهُ منهم رسولَه والمؤمِنينَ(٤).

٥- قال تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نَفْيُ العِبادَةِ مُطلقًا ليس نفيًا لِمَا قد يُسمَّى عِبادةً مع التَّقييدِ. والمُشرِكُ إذا كان يَعبُدُ اللهَ ويَعبُدُ غيرَه فيُقالُ: إنَّه يَعبُدُ اللهَ وغيرَه، أو يَعبُدُه مُشرِكًا به، لا يُقالُ: إنَّه يَعبُدُ مُطلقًا. والمُعَطِّلُ الَّذي لا يَعبُدُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨١).

(٢) يُنظر: ((الشرح الممتع على زاد المستقنع)) لابن عثيمين (٧/ ٢٦٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٦٦).

شيئًا شَرٌّ منه، والعِبادةُ المُطلقَةُ المُعتدِلةُ هي المَقبولةُ، وعِبادةُ المُشركِ ليست مَقبولةً[١].

٦- في قَولِه تعالى: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ إلى آخرِ السُّورةِ: اشتِمالُ هذه السُّورةِ على النَّفيِ المَحْضِ، فهذا هو خاصَّةُ هذه السُّورةِ العظيمةِ؛ فإنَّها سورةُ براءةٍ مِن الشِّركِ، كما جاء في وَصْفِها أنَّها (بَراءةٌ مِن الشِّركِ)[٢]، فمَقصودُها الأعظمُ هو البراءةُ المُطلَقةُ بيْنَ الموحِّدينَ والمُشركين؛ ولهذا أَتَى بالنَّفيِ في الجانبَينِ تحقيقًا للبَراءةِ المطلوبةِ، هذا معَ أنَّها متضَمِّنةٌ للإثباتِ صريحًا، فقولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ براءةٌ مَحْضَةٌ، ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ إثباتُ أنَّ له مَعبودًا يَعبُدُه، وأنتم بَريئونَ مِن عبادتِه، فتضمَّنتِ النَّفيَ والإثباتَ، وطابقَتْ قولَ إمامِ الحُنَفاءِ: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ * إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وطابقَتْ قولَ الفِتْيةِ الموحِّدينَ: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]؛ فانتظَمَتْ حقيقةَ «لا إلهَ إلَّا اللهُ»؛ ولهذا كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقْرِنُها بسُورةِ ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ في سُنَّةِ الفَجرِ، ويقرأُ بهما في الوترِ[٣]؛ فإنَّ هاتَينِ السُّورتَينِ سُورتَا الإخلاصِ، وقد اشتمَلَتا على نَوعَيِ التَّوحيدِ الَّذي لا نجاةَ للعَبدِ ولا فلاحَ إلَّا بهما، وهما: **توحيدُ العِلمِ والاعتقادِ**

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٧٤).

(٢) يُنظر ما أخرجه أبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٤٠٣)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٦٣٧)، وأحمد (٢٣٨٠٧) من حديث نوفل الأشجعي رضي الله عنه.
صحَّحه ابنُ حبانَ في ((صحيحه)) (٥٥٢٦)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٥٥)، وحسَّنه ابنُ حجرٍ في ((نتائج الأفكار)) (٣/ ٦١)، وصحَّحَ إسنادَه الحاكمُ في ((المستدرك)) (٢٠٧٧)، وقال شُعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريجِ ((سنن أبي داود)) (٥٠٥٥): (حسنٌ على اضطرابٍ في إسنادِه).

(٣) يُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٤١).

المتضمِّنُ تنزيهَ اللهِ عمَّا لا يَليقُ به مِن الشِّركِ والكُفرِ والوَلَدِ والوالِدِ، وأنَّه إلهٌ أَحَدٌ صَمَدٌ، لم يَلِدْ؛ فيكونَ له فَرعٌ، ولم يولَدْ؛ فيكونَ له أصلٌ، ولم يكُنْ له كُفُوًا أحدٌ؛ فيكونَ له نظيرٌ، ومع هذا فهو الصَّمَدُ الَّذي اجتمَعَت له صِفاتُ الكَمالِ كُلُّها؛ فتضَمَّنت السُّورةُ إثباتَ ما يَليقُ بجلالِه مِن صِفاتِ الكَمالِ، ونَفْيَ ما لا يليقُ به مِنَ الشَّريكِ أصلًا وفَرْعًا ونظيرًا، فهذا توحيدُ العِلْمِ والاعتقادِ.

**والثَّاني: توحيدُ القَصدِ والإرادةِ**، وهو ألَّا يُعبَدَ إلَّا إيَّاه، فلا يُشْرَكَ به في عبادتِه سِواه، بل يكونُ وَحْدَه هو المعبودَ، وسورةُ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مُشتَمِلةٌ على هذا التَّوحيدِ؛ فانتظَمَت السُّورتانِ نَوعَيِ التَّوحيدِ، وأخلصَتا له، فكان صلَّى الله عليه وسلَّم يَفتَتِحُ بهما النَّهارَ في سُنَّةِ الفَجْرِ، وكان يُوتِرُ بهما[1]، فسُنَّةُ الفجرِ تجري مَجرَى بدايةِ العملِ، والوترُ خاتمتُه[2].

٧- تَخصِيصُ البَراءةِ مِن الشِّرْكِ بشِرْكِ مُشرِكي العَربِ غلَطٌ عَظيمٌ، وإنَّما هي بَراءةٌ مِن كلِّ شِركٍ، فقولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ خِطابٌ للكُفَّارِ مُطلقًا، فإذا قال اليَهودُ: نحن نَقصِدُ عِبادةَ الله، كانوا كاذِبينَ، سَواءٌ عرَفوا أنَّهم كاذِبونَ أو لم يَعرِفوا، كما يقولُ النَّصارَى: إنَّا نَعبُدُ اللهَ وَحْدَه وما نحن بمُشرِكين، وهم كاذِبون؛ لأنَّهم لو أرادوا عِبادَته لَعَبدوهُ بما أمَرَ به، وهو الشَّرعُ، لا بالمَنسُوخِ المُبَدَّلِ. وأيضًا فالرَّبُّ الَّذي يَزعُمون أنَّهم يَقصِدون عِبادتَه هو عِندَهم رَبٌّ لم يُنزِلِ الإنجيلَ ولا القُرآنَ، ولا أَرسلَ المَسيحَ ولا محمَّدًا، بل هو عندَ بَعضِهم فَقيرٌ، وعندَ بعضِهم بَخيلٌ، وعندَ بعضِهم عاجِزٌ، وعندَ بعضِهم لا يَقدِرُ أن يُغيِّرَ ما شَرَعَه، وعندَ جَميعِهم أنَّه أيَّد الكاذِبينَ المُفتَرِينَ عليه الَّذين يَزعُمون أنَّهم رُسُلُه،

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٩٧).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٨).

وليسوا رُسُلَه، بل هُم كاذِبون سَحَرةٌ، قد أيَّدَهُم ونَصَرَهم، ونَصَر أتْباعَهم على أوليائِه المُؤمِنينَ؛ لأنَّهم عندَ أنفُسِهم أَولياؤُه دُون النَّاسِ، فالرَّبُّ الَّذي يَعبُدونَه هو دائمًا يَنصُرُ أعداءَه! فهُم يَعبُدونَ هذا الرَّبَّ، والرَّسولُ والمُؤمِنونَ لا يَعبُدونَ هذا المَعبُودَ الَّذي تَعبُدُه اليَهودُ؛ فهو مُنَزَّهٌ عمَّا وَصَفَت به اليَهودُ مَعبُودَها مِن جِهَةِ كَوْنِه مَعبودًا لهم، مُنَزَّهٌ عن هذه الإضافةِ، فليس هو مَعبودًا لليَهودِ، وإنَّما في جِبِلَّاتِهم صِفاتٌ ليست هي صِفاتِه، زَيَّنَها لهم الشَّيطانُ، فهم يَقصِدون عِبادةَ المُتَّصِفِ بتلك الصِّفاتِ، وإنَّما هو الشَّيطانُ! فالرَّسولُ والمُؤمنونَ لا يَعبُدونَ شيئًا تَعبُدُه اليَهودُ، وإن كانوا يَعبُدونَ مَن يَعبُدونَه[1].

٨- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ فيه سُؤالٌ: هذه الآيةُ تدُلُّ بظاهِرِها على أنَّ الكُفَّارَ المُخاطَبينَ بها لا يَعبُدونَ اللهَ أبدًا، مع أنَّه دَلَّت آياتٌ أُخَرُ على أنَّ منهم مَن يؤمِنُ باللهِ تعالى، كقَولِه: ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦ﴾ الآيةَ [العنكبوت: ٤٧]؟

**الجوابُ مِن وَجهَينِ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّه خِطابٌ لجِنسِ الكُفَّارِ وإن أسلَموا فيما بَعْدُ، فهو خِطابٌ لهم ما داموا كُفَّارًا، فإذا أسلَموا لم يَتناوَلْهم ذلك؛ لأنَّهم حينَئذٍ مؤمِنونَ لا كافِرونَ، وإن كانوا منافِقينَ فهم كافِرونَ في الباطِنِ، فيَتناوَلُهم الخِطابُ.

**الوَجهُ الثَّاني**: هو أنَّ الآيةَ مِنَ العامِّ المخصوصِ، وعليه فهي في خُصوصِ الأشقياءِ المُشارِ إليهم بقَولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ الآيةَ[2] [يونس: ٩٦].

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٦٣، ٥٦٤).

(٢) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٨٩).

٩- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ تكريرُ الفِعل بلَفظِ المُستقبَلِ حينَ أَخْبَرَ عن نفْسِه -صلَّى الله عليه وسلَّم-، وبلَفظِ الماضي حينَ أَخْبَرَ عنهم؛ ففي ذلك سِرٌّ، وهو الإشارةُ والإيماءُ إلى عِصمةِ اللهِ تعالى له عن الزَّيغِ والانحرافِ عن عبادةِ مَعبودِه، والاستبدالِ به غيرَه، وأنَّ معبودَه واحدٌ في الحالِ والمآلِ على الدَّوامِ، لا يَرضى به بدَلًا، ولا يَبغي عنه حِوَلًا، بخِلافِ الكافِرين؛ فإنَّهم يَعبُدونَ أهواءَهم، ويَتَّبِعون شَهَواتِهم في الدِّينِ وأغراضَهم، فهُم بصَدَدِ أنْ يَعبُدوا اليومَ معبودًا وغَدًا غيرَه؛ فقال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يعني: الآنَ، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ أنا الآنَ أيضًا، ثُمَّ قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ يعني: ولا أنا فيما يُستَقبَلُ يَصدُرُ منِّي عبادةٌ لِمَا عبدتُم أيُّها الكافِرونَ، وأشبَهَتْ «ما» هنا رائحةَ الشَّرطِ؛ فلذلك وَقَعَ بعْدَها الفِعلُ بلَفظِ الماضي وهو مُستقبَلٌ في المعنى، كما يَجيءُ ذلك بعْدَ حرفِ الشَّرطِ، كأنَّه يقولُ: مهما عبَدْتُم مِن شَيءٍ فلا أعبُدُه أنا[1].

١٠- إنْ قيلَ: ما الفائدةُ في قَولِه: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾؟ وهل أفادَ هذا معنًى زائدًا على ما تَقدَّمَ؟

**فالجوابُ**: الحِكمةُ -واللهُ أعلَمُ- أنَّ النَّفيَ الأوَّلَ أفاد البَراءةَ، وأنَّه لا يُتصوَّرُ منه ولا يَنْبغي له أنْ يَعبُدَ مَعبودِيهم، وهمْ أيضًا لا يَكونونَ عابِدينَ لِمَعبودِه، وأفادَ آخِرُ السُّورةِ إثباتَ ما تَضمَّنَه النَّفيُ مِن جِهتِهم مِن الشِّركِ والكفْرِ الَّذي هو حظُّهم وقِسْمُهم ونَصيبُهم، فجَرى ذلك مَجرى مَن اقتسَمَ هو وغيرُه أرضًا، فقال له: لا تَدخُلُ في حدِّي، ولا أدخُلُ في حَدِّك؛ لك أرْضُك، ولي أرْضي، فتَضمَّنَت الآيةُ أنَّ هذه البَراءةَ اقتَضَت أنَّا اقتَسَمْنا خُطَّتَنا بيْنَنا، فأصابَنا التَّوحيدُ والإيمانُ؛ فهو نَصيبُنا وقِسْمُنا الَّذي نَختَصُّ به لا تَشْرَكونا فيه، وأصابَكم الشِّركُ باللهِ والكفْرُ

(١) يُنظر: ((نتائج الفكر في النحو)) للسهيلي (ص: ١٤٣)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٥).

به؛ فهو نَصيبُكم وقِسْمُكم الَّذي تَختصُّون به لا نَشْرَكُكم به[١].

١١- قَولُه تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ هذه كَلِمةٌ تَقتضي براءتَه مِن دِينِهم، ولا تَقتضي رِضاه بذلك، كما قال تعالى في الآيةِ الأخرى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]، ومَن ظَنَّ مِن الملاحدةِ أنَّ هذا رِضًا منه بدِينِ الكُفَّارِ فهو مِن أكذَبِ النَّاسِ وأكفَرِهم[٢].

١٢- هذه السُّورةُ مِن السُّوَرِ الَّتي يَستحيلُ دُخولُ النَّسخِ في مَضمونِها؛ فإنَّ أحكامَ التَّوحيدِ الَّتي اتَّفقتْ عليه دعوةُ الرُّسُلِ يَستحيلُ دخولُ النَّسخِ فيها، وهذه السُّورةُ أخلَصَتِ التَّوحيدَ؛ ولهذا تُسمَّى سورةَ الإخلاصِ[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ * لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بـ ﴿قُلْ﴾؛ للاهتِمامِ بما بعْدَ القولِ بأنَّه كَلامٌ يُرادُ إبلاغُه إلى النَّاسِ بوَجهٍ خاصٍّ، مَنصوصٌ فيه على أنَّه مُرسَلٌ بقَولٍ يُبلِّغُه، وإلَّا فإنَّ القرآنَ كلَّه مَأمورٌ بإبلاغِه[٤].

- وفيه مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قال هنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دونَ (يا أيُّها الَّذين كَفَروا)، وسِرُّه: إرادةُ الدَّلالةِ على أنَّ مَن كان الكُفْرُ وَصْفًا ثابتًا له لازِمًا لا يُفارِقُه؛ فهو حَقيقٌ أنْ يَتبرَّأَ اللهُ منه، ويكون هو أيضًا بَريئًا مِن اللهِ، فحَقيقٌ

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٩).
(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٢٦٨).
(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٤٠).
(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٠).

بالموحِّدِ البَراءةُ منه، فكان ذِكرُه في مَعرِضِ البَراءةِ الَّتي هي غايةُ البُعدِ والمجانَبةِ بحَقيقةِ حالِه الَّتي هي غايةُ الكفْرِ -وهو الكفْرُ الثَّابتُ اللَّازِمُ- في غايةِ المُناسَبةِ، فكأنَّه يقولُ: كما أنَّ الكفْرَ لازمٌ لكمْ ثابتٌ لا تَنتَقِلون عنه، فمُجانَبتُكم والبَراءةُ منكم ثابتةٌ دائمًا أبدًا؛ ولهذا أتى فيها بالنَّفيِ الدَّالِّ على الاستمرارِ لمُقابَلةِ الكفْرِ الثَّابتِ المستمرِّ[1].

- وقولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ إخبارٌ عن نفْسِه بما يَحصُلُ منها، والمعْنى: لا تَحصُلُ مِنِّي عِبادتي ما تَعبُدون في أزمنةٍ في المُستقبَلِ تَحقيقًا -وذلك على قولٍ-، ونَفْيُ عِبادتِه آلهتَهم في المُستقبَلِ يُفيدُ نَفْيَ أنْ يَعبُدَها في الحالِ بدَلالةِ فَحْوى الخِطابِ[2]، ولأنَّهم ما عَرَضوا عليه إلَّا أنْ يَعبُدَ آلهتَهم بعْدَ سَنةٍ مُستقبَلةٍ -على ما قيل في سببِ نُزولِ السُّورةِ-؛ ولذلك جاء في جانبِ نَفْيِ عِبادتِهم للهِ بنَفْيِ اسمِ الفاعِلِ الَّذي هو حَقيقةٌ في الحالِ بقولِه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ﴾، أي: ما أنتُم بمُغيِّرينَ إشراكَكُم الآنَ؛ لأنَّهم عَرَضوا عليه أنْ يَبتدِئوا هم فيَعبُدوا الرَّبَّ الَّذي يَعبُدُه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم سَنةً، فيما يُروَى، وبهذا تَعلَمُ وَجْهَ المُخالَفةِ بيْن نظْمِ الجُملتينِ في أُسلوبِ الاستعمالِ البليغِ[3].

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٣٩).

(٢) فَحْوَى الخِطابِ -ويُسمَّى تنبيهَ الخطابِ، ومفهومَ الموافقةِ-: هو إثباتُ حُكمِ المنطوقِ به للمَسكوتِ عنه بطريقِ الأَولى، كقولِه تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فيه تنبيهٌ على النَّهيِ عن ضربِهما وسَبِّهما؛ لأنَّ الضَّربَ والسَّبَّ أعظمُ مِن التَّأْفيفِ، وكذلك قولُه تعالَى: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فيه تنبيهٌ على أنَّه يُؤدِّي ما كانَ دونَ القِنْطارِ، ففي هذه الآيةِ نَبَّه بالأعلَى على الأدنَى، وفي الآيةِ الأولى نَبَّه بالأدنَى على الأعلَى. يُنظر: ((الفقيه والمتفقه)) للخطيب البغدادي (١/ ٢٣٣)، ((تقريب الوصول إلي علم الأصول)) لابن جُزَي (ص: ١٦٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨١، ٥٨٢).

- وقولُه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ عطْفٌ على ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٣] عطْفَ الجُملةِ على الجُملةِ؛ لمُناسَبةِ نفْيِ أنْ يَعبُدوا اللهَ، فأُردِفَ بنَفْيِ أنْ يَعبُدَ هو آلهتَهم، وعَطْفُه بالواوِ صارِفٌ عن أنْ يكونَ المَقصودُ به تَأكيدَ ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، فجاء به على طَريقةِ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ بالجُملةِ الاسميَّةِ؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ، وبكَونِ الخبَرِ اسمَ فاعلٍ دالًّا على زَمانِ الحالِ، فلمَّا نَفَى عن نفْسِه أنْ يَعبُدَ في المُستقبَلِ ما يَعبُدونه بقَولِه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ -على قولٍ-، صرَّحَ هنا بما تَقتضيهِ دَلالةُ الفَحْوى على نَفْيِ أنْ يَعبُدَ آلهتَهم في الحالِ بما هو صَريحُ الدَّلالةِ على ذلك؛ لأنَّ المَقامَ يَقْتضي مَزيدَ البَيانِ، فاقْتَضى الاعتمادَ على دَلالةِ المَنطوقِ إطنابًا في الكلامِ؛ لتَأييسِهم ممَّا راوَدُوه عليه، ولمُقابَلةِ كَلامِهم المَردودِ بمِثلِه في إفادةِ الثَّباتِ، وحصَلَ مِن ذلك تَقريرُ المعْنى السَّابقِ وتَأكيدُه، تَبَعًا لمَدلولِ الجُملةِ لا لمَوقعِها؛ لأنَّ مَوقِعَها أنَّها عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، وليستْ تَوكيدًا لجُملةِ ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ بمُرادِفِها؛ لأنَّ التَّوكيدَ لِلَّفظِ بالمُرادِفِ لا يُعرَفُ إلَّا في المُفرَداتِ، ولأنَّ وُجودَ الواوِ يُعيِّنُ أنَّها مَعطوفةٌ؛ إذ ليس في جُملةِ ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ واوٌ حتَّى يكونَ الواوُ في هذه الجُملةِ مُؤكِّدًا لها[(١)].

- وجِيءَ بالفِعلِ الماضي في قَولِه: ﴿مَّا عَبَدتُّمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على رُسوخِهم في عِبادةِ الأصنامِ مِن أزمانٍ مَضَت، وفيه رَمْزٌ إلى تَنزُّهِه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن عِبادةِ الأصنامِ مِن سالِفِ الزَّمانِ، وإلَّا لَقال: ولا أنا عابدٌ ما كنَّا نَعبُدُ[(٢)].

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٢، ٥٨٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٨٣).

- قولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ [الكافرون: ٤]؛ لبَيانِ تَمامِ الاختِلافِ بيْن حالِه وحالِهم، وإخبارٌ بأنَّهم لا يَعبُدونَ اللهَ إخبارًا ثانيًا؛ تَنْبيهًا على أنَّ اللهَ أعلَمَه بأنَّهم لا يَعبُدون اللهَ، وتَقويةً لدَلالةِ هذَينِ الإخبارينِ على نُبوَّتِه صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فقدْ أخْبَرَ عنهم بذلك، فمات أولئك كلُّهم على الكُفْرِ، وكانتْ هذه السُّورةُ مِن دَلائلِ النُّبوَّةِ، وقد حصَلَ مِن ذِكرِ هذه الجُملةِ بمِثلِ نَظيرتِها السَّابقةِ تَوكيدٌ للجُملةِ السَّابقةِ تَوكيدًا للمعْنى الأصليِّ منها، وليس مَوقِعُها مَوقعَ التَّوكيدِ؛ لوُجودِ واوِ العطْفِ في قَولِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾؛ ولذلك فالواوُ في قَولِه هنا: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ عاطفةٌ جُملةً على جُملةٍ مِن أجْلِ ما اقتَضَتْه جُملةُ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ مِن المُناسَبةِ. ويَجوزُ أنْ تكونَ جُملةُ ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ تَأكيدًا لَفظيًّا لنَظيرتِها السَّابقةِ بتَمامِها بما فيها مِن واوِ العطْفِ في نَظيرتِها السَّابقةِ، وتَكونَ جُملةُ ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ مُعترِضةً بيْن التَّأكيدِ والمُؤكَّدِ، والمَقصودُ مِن التَّأكيدِ تَحقيقُ تَكذيبِهم في عَرْضِهم أنَّهم يَعبُدون ربَّ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم[1].

- و(ماصَدَقَ)[2] ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ هو اللهُ تعالَى، وعُبِّرَ بـ(ما) المَوصولةِ؛ لأنَّها مَوضوعةٌ للعاقلِ وغيرِه، وإنَّما تَختَصُّ (مَن) بالعاقلِ؛ فلا مانعَ مِن إطلاقِ (ما) على العاقلِ إذا كان اللَّبْسُ مَأمونًا[3].

أو إيثارُ (مَا) في ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ على (مَنْ)؛ لأنَّ المرادَ هو الوَصفُ، كأنَّه قيلَ: ما أعبُدُ مِنَ المعبودِ العَظيمِ الشَّأنِ الَّذي لا يُقادَرُ قدْرُ عَظَمتِه، فـ(ما) يُؤتَى بها

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٣، ٥٨٤).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٢).

لقصْدِ الإبهامِ؛ لتُفيدَ المُبالَغةَ في التَّفخيمِ[١].

أو لم يَقُلْ: (مَن) مع أنَّه القِياسُ؛ رِعايةً لمُقابِلِه (ما) في قَولِه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، أو لأنَّ المُرادَ الصِّفةُ، كأنَّه قال: لا أعبُدُ الباطلَ، ولا تَعبُدون الحقَّ. وقيل: إنَّ (ما) مَصدريَّةٌ، أي: لا أعبُدُ عِبادتَكم، ولا تَعبُدون عِبادتي[٢].

- وأيضًا (ما) في قَولِه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فيها عُمومٌ وإجمالٌ يَصلُحُ لِما لا يَعلَمُ، ولِصِفاتِ مَن يَعلَمُ[٣].

- وقيل: لم يَحتَجْ أنْ يقولَ فيهم: (ولا أنتمْ عابِدون ما عبَدْتُ) كما قال في نفْسِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾؛ لأنَّ كلَّ مُؤمنٍ فهو مَأمورٌ بقِراءةِ هذه السُّورةِ، ومنهم مَن كان مَعبودُه غيرَ اللهِ، فلو قال: (ولا أنتمْ عابِدون ما عبَدْتُ) لَقالوا: بل نحنُ نَعبُدُ ما كنتَ تَعبُدُ لَمَّا كنتَ مُشرِكًا، بخِلافِ ما إذا قال: (ولا أنتمْ عابِدون ما أعبُدُه في هذا الوقتِ)، ولم يَقُلْ: (ما أنا عابدٌ له)؛ إذ نفْسُه قد

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٢)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦١)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٠).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٢٢٨).

قال ابن القيِّم: (المقصود هنا ذِكرُ المعبودِ المَوصوفِ بكَونِه أهلًا للعِبادةِ مُستحِقًّا لها، فأتى بـ «ما» الدَّالَّةِ على هذا المعنى، كأنَّه قيل: ولا أنتم عابِدونَ مَعبوديَ المَوصوفَ بأنَّه المعبودُ الحقُّ، ولو أتى بلَفظةِ «مَن» لَكانت إنَّما تدُلُّ على الذَّاتِ فقط، ويكونُ ذِكرُ الصِّلةِ تعريفًا لا أنَّه هو جهةُ العبادةِ، ففَرْقٌ بيْنَ أنَّ كَوْنَه تعالى أهلًا لأنْ يُعبَدَ تعريفٌ مَحْضٌ، أو وصْفٌ مُقتَضٍ لعبادتِه، فتأمَّلْه؛ فإنَّه بديعٌ جدًّا، وهذا معنى قولِ مُحقِّقي النُّحاةِ: إنَّ «ما» تأتي لِصفاتِ مَن يعلمُ، ونظيرُه: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]، لَمَّا كان المرادُ الوصفَ وأنَّه هو السَّببُ الدَّاعي إلى الأمرِ بالنِّكاحِ وقصده، وهو الطِّيبُ، فتُنكَحُ المرأةُ المَوصوفةُ به؛ أتى بـ «ما» دونَ «مَنْ». وهذا بابٌ لا يَنخرِمُ، وهو مِن ألْطَفِ مَسالِكِ العربيَّةِ). ((بدائع الفوائد)) (١/ ١٣٤).

لا تكونُ عابدةً له مُطلَقًا، وقد يجوزُ أنْ يَعبُدَ الواحدُ مِن النَّاسِ غيرَ اللهِ في المستقبَلِ، فلا يكونُ مَن لم يَعبُدْ ما يَعبُدُه في المستقبَلِ مَذمومًا، بخلافِ المؤمنِ الَّذي يُخاطِبُ بهذه السُّورةِ غيرَه؛ فإنَّه حِينَ يَقولُها ما يَعبُدُ إلَّا اللهَ، فهو يقولُ للكفَّارِ: ولا أنتمْ عابِدون ما أعبُدُه الآنَ(١).

- وذَكَر النَّفيَ عن الكُفَّارِ في الجُملتَينِ لِتُقارِبَ كلُّ جُملةٍ جُملةً؛ فلمَّا قال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ فنَفى الفعلَ قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، ثمَّ لَمَّا زاد النَّفيَ بنَفْيِ جَوازِ ذلك وبَراءةِ النَّفْسِ منه؛ ذَكَرَ ما يدُلُّ على كَراهتِه له وقُبحِه، ونَفَى أنْ يَعبُدَ شيئًا ممَّا عَبَدوه ولو في بعضِ الزَّمانِ، قال: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، بلْ أنتم بَريئونَ مِن عِبادةِ ما أعبُدُه، فليس لِبَراءتي، وكَمالِ بَراءتي، وبُعدي مِن مَعبودِكم، وكَمالِ قُرْبي إلى اللهِ في عِبادتي له وحْدَه لا شَريكَ له؛ يكونُ لكم نَصيبٌ مِن هذه العِبادةِ، بلْ أنتُم أيضًا في هذه الحالِ لا تَعبُدون ما أعبُدُ؛ لا في الحالِ الأُولى ولا في الثَّانيةِ، ولو اقتصَرَ في تَبرِّيهم مِن عِبادةِ اللهِ على الجُملةِ الأُولى لم يكُنْ فيها تَبرئةٌ لهم في هذه الحالِ الثَّانيةِ، فبَرَّأَهم مِن مَعبودِه حينَ البَراءةِ الأُولى الخاصَّةِ، وحِينَ البَراءةِ الثَّانيةِ العامَّةِ القاطعةِ، وهمْ لم يَختلِفْ حالُهم في الحالينِ، بلْ هم فيهما لا يَعبُدون ما يَعبُدُ، فلم يكُنْ في تَغييرِ العبارةِ فائدةٌ، وإنَّما غُيِّرَت العِبارةُ في حقِّه وحقِّ المؤمنينَ لتَغييرِ المعنيَينِ(٢).

- وقولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ وإنْ كان لَفظُها خبَرًا ففيها معنى الإنشاءِ كسائرِ أَلْفاظِ الإنشاءاتِ، كقولِه: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وقولِه ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وقولِه: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٥٥٧، ٥٥٨).

تُشْرِكُونَ ﴾[الأنعام: ٧٨]، فكلُّ هذه الأقوالِ فيها معْنى الإنشاءِ لها يُنشِئُه المؤمنُ في نفْسِه مِن زيادةِ البَراءةِ مِن الشِّركِ؛ فإنَّ الشِّركَ والكفرَ أعظَمُ أمراضِ القُلوبِ، فأُمِرَ المؤمنُ بقولٍ يُوجِبُ في قلْبِه مِن البَراءةِ مِن الشِّركِ ما لم يكُنْ في قلْبِه قبْلَ ذلك[1].

- ولم يَأتِ النَّفيُ في حقِّهم إلَّا باسمِ الفاعلِ ﴿عَٰبِدُونَ﴾، وفي جِهتِه جاء بالفعلِ المستقبَلِ تارةً ﴿أَعْبُدُ﴾، وباسمِ الفاعِلِ ﴿عَابِدٌ﴾ أُخرى؛ فذلك -والله أعلَمُ- لحكمةٍ بَديعةٍ؛ وهي أنَّ المقصودَ الأعظَمَ بَراءتُه مِن مَعبودِيهم بكلِّ وجْهٍ، وفي كلِّ وقْتٍ، فأتى أوَّلًا بصِيغةِ الفعلِ الدَّالَّةِ على الحدوثِ والتَّجدُّدِ، ثمَّ أتى في هذا النَّفيِ بعَينِه بصِيغةِ اسمِ الفاعلِ الدَّالَّةِ على الوصْفِ والثُّبوتِ، فأفاد في النَّفيِ الأوَّلِ أنَّ هذا لا يقَعُ مِنِّي، وأفادَ في الثَّاني أنَّ هذا ليس وَصْفي ولا شَأْني، فكأنَّه قال: عِبادةُ غيرِ اللهِ لا تكونُ فِعلًا لي ولا وَصْفًا، فأتى بنَفيَينِ لِمَنْفيَّينِ مَقصودينِ بالنَّفيِ، وأمَّا في حقِّهم فإنَّما أتَى بالاسمِ الدَّالِّ على الوصْفِ والثُّبوتِ دونَ الفِعلِ، أي: أنَّ الوصفَ الثَّابتَ اللَّازمَ العائدَ للهِ مُنتَفٍ عنكم، فليس هذا الوصْفُ ثابتًا لكم، وإنَّما ثَبَتَ لِمَن خصَّ اللهَ وحْدَه بالعِبادةِ لم يُشرِكْ معه فيها أحدًا، وأنتمْ لَمَّا عَبَدْتُم غيرَه، فلَسْتُم مِن عابِديه وإنْ عَبَدوه في بعضِ الأحيانِ؛ فإنَّ المشرِكَ يَعبُدُ اللهَ ويَعبُدُ معه غيرَه؛ فتَأمَّلْ هذه النُّكتةَ البَديعةَ كيف تَجِدُ في طَيِّها أنَّه لا يُوصَفُ بأنَّه عابدُ اللهِ وعَبْدُه المستقيمُ على عِبادتِه إلَّا مَن انقطَعَ إليه بكُلِّيَّتِه، وتَبتَّلَ إليه تَبتيلًا، لم يَلتفِتْ إلى غيرِه، لم يُشرِكْ به أحدًا في عِبادتِه، وأنَّه وإنْ عَبَدَه وأشْرَكَ به غيرَه فليس عابدًا للهِ ولا عَبْدًا له، وهذا مِن أسرارِ هذه السُّورةِ العظيمةِ الجليلةِ[2].

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٥٥٩، ٥٦٠).

(٢) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٧).

- وأيضًا أتَى النَّفيُ في هذه السُّورةِ بأداةِ (لا) دونَ (لن)؛ وذلك لأنَّ النَّفيَ بـ(لا) أبلَغُ منه بـ(لنْ)، وأنَّ (لا) أدلُّ على دَوامِ النَّفيِ وطُولِه مِن (لنْ)، وأنَّها للطُّولِ والمَدِّ الَّذي في نَفْيِها طالَ النَّفيُ بها واشتَدَّ، وأنَّ هذا ضِدُّ ما فَهِمَتْه الجَهميَّةُ والمعتزلةُ مِن أنَّ (لن) إنَّما تَنفي المستقبَلَ، و(لا) تَنْفي الحالَ المستمِرَّ النَّفيِ في الاستقبالِ، فالإتيانُ بـ(لا) مُتعيِّنٌ هنا، واللهُ أعلَمُ[1].

وقيل: النَّفيُ بـ(لن) أبلَغُ، لكنَّه لم يأتِ بها لأنَّ المُبالَغةَ إنَّما يُحتاجُ إليها في موضِعِ التُّهمةِ، وقد عَلِمَ كُلُّ أحدٍ مِن محمَّدٍ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ أنَّه ما كان يَعبُدُ الصَّنَمَ قبْلَ الشَّرعِ، فكيف يَعبُدُه بعْدَ ظُهورِ الشَّرعِ؟! بخِلافِ أصحابِ الكَهْفِ؛ فإنَّهم لَمَّا بالَغوا قالوا: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ [الكهف: ١٤]؛ فإنَّه وُجِدَ منهم ذلك فيما قَبلُ[2].

- وفي تَكرارِ الأفعالِ في هذِه الآياتِ قَولانِ[3]:

**القولُ الأوَّلُ**: أنَّه لا تَكرارَ فيها، وفيه وُجوهٌ:

**أحدُها**: أنَّه نَفى أوَّلًا عِبادتَه في المستقبَلِ؛ لأنَّ (لا) الغالبُ أنَّها تَنْفي المُستقبَلَ، ثمَّ عَطَفَ عليه ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نفْيًا للمُستقبَلِ على سَبيلِ المُقابَلةِ، ثمَّ قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ نفْيًا للحالِ؛ لأنَّ اسمَ الفاعلِ العامِلَ الحقيقةُ فيه دَلالتُه على الحالِ، ثمَّ عُطِفَ عليه ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ نفْيًا للحالِ على سَبيلِ المُقابَلةِ، فانتَظَمَ المعْنى: أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم لا يَعبُدُ ما يَعبُدونَ، لا حالًا ولا مُستقبَلًا، وهمْ كذلك؛ إذ قدْ حتَّمَ اللهُ مُوافاتَهم على الكفْرِ.

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٧، ١٣٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٣٢).

(٣) يُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٤٦-٣٤٨).

**وثانيها**: أنْ يُقلَبَ، فيُجعَلَ الأوَّلُ للحالِ، والثَّاني للاستقبالِ.

**وثالثُها**: المَقصودُ مِن الأُولَيَينِ المَعبودُ، و(ما) بمعْنى (الَّذي)، أي: لا أعبُدُ الأصنامَ ولا تَعبُدونَ اللهَ، وفي الأُخريَيْنِ (ما) مَصدريَّةٌ، أي: ولا أنا عابدٌ مِثلَ عِبادتِكم المَبنيَّةِ على الشَّكِّ، ولا أنتمْ عابِدون مِثلَ عِبادتي المَبنيَّةِ على اليقينِ.

**ورابعُها**: أنْ تُحمَلَ الأُولى على نفْيِ الاعتبارِ الَّذي ذَكَروه، والثَّانيةُ على العامِّ بجَميعِ الجِهاتِ، أي: لا أعبُدُ ما تَعبُدون رَجاءَ أنْ تَعبُدوا اللهَ، ولا أنتمْ عابِدون رَجاءَ أنْ أعبُدَ صَنَمَكم، ثمَّ قال: ولا أنا عابدٌ صَنَمَكم لغرَضٍ مِن الأغراضِ، بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ، وكذا أنتم لا تَعبُدون اللهَ لغَرَضٍ مِن الأغراضِ، مِثالُه: مَن يَدْعو غَيرَه إلى الظُّلمِ لغرَضِ التَّنعُّمِ، فيقولُ: لا أظلِمُ لغَرَضِ التَّنعُّمِ، بلْ لا أظلِمُ أصلًا، سواءٌ كان للتَّنعُّمِ أو غيرِه.

**وخامسُها**: لَمَّا كان قولُه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ مُحتمِلًا أنْ يُرادَ به الآنَ، ويَبْقى المُستقبَلُ مُنتظرًا ما يكونُ فيه؛ جاء البَيانُ بقولِه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، أي: أبدًا وما حَيِيتُ، ثمَّ جاء قولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ الثَّاني حَتْمًا عليهم أنَّهم لا يُؤمِنون أبدًا، فهذا معْنى التَّرديدِ في هذه السُّورةِ، وهو بارعُ الفَصاحةِ، وليس بتَكرارٍ فقطْ.

**وسادسُها**: أُريدَ به العبادةُ فيما يُستقبَلُ، والمعنى: لا أفعَلُ في المستقبَلِ ما تَطلُبونه مِنِّي مِن عِبادةِ آلهتِكم، ولا أنتم فاعِلون فيه ما أطلُبُه منكم مِن عِبادةِ إلهي، ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾، أي: وما كنتُ قَطُّ عابدًا فيما سَلَفَ ما عَبَدْتُم فيه، يعني: ما عُهِدَ مِنِّي قَطُّ عِبادةُ صَنَمٍ في الجاهليَّةِ، فكيف يُرْجى منِّي في الإسلامِ؟! ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: وما عبَدْتُم في وقْتٍ ما أنا على عِبادتِه الآنَ.

**والقولُ الثَّاني**: هو أنْ يُسلَّمَ حُصولُ التَّكرارِ، وهو لوَجهينِ:

**أحدُهما**: أنَّ التَّكرارَ يُفيدُ التَّوكيدَ، وكلَّما كانتِ الحاجةُ إلى التَّوكيدِ أشدَّ كان التَّكريرُ أحسَنَ، ومِن مذاهبِ العربِ واستعمالاتِهم أنَّهم إذا أرادوا التَّأكيدَ كرَّروا، والقُرآنُ قدْ نزَلَ بلِسانِ العَربِ، ولا مَوضعَ أحوجُ إلى التَّأكيدِ مِن هذا المقامِ؛ لأنَّهم رَجَعوا إليه في هذا المعنى مِرارًا، وطَمِعوا فيه لِما رَأَوا فيه مِن الحرْصِ على إيمانِهم؛ فقولُه: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ تأكيدٌ لقولِه: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾، وقولُه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٥] تأكيدٌ لقولِه: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ [الكافرون: ٣]، وفائدةُ هذا التَّأكيدِ هنا قطْعُ أطماعِ الكُفَّارِ عن أنْ يُجيبَهم رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم إلى ما سألوه مِن عِبادتِه آلهتَهم، وتَحقيقُ الإخبارِ بمُوافاتِهم على الكُفْرِ، وأنَّهم لا يُسلِمونَ أبدًا.

**وثانيهما**: أنَّهم ذَكَروا تلك الكلمةَ مرَّتينِ، يعني: تَعبُدُ آلهتَنا شَهرًا، ونَعبُدُ إلهَك شَهرًا، وتَعبُدُ آلهتَنا سَنةً، ونَعبُدُ إلهَك سَنةً، فأتَى الجوابُ على التَّكرارِ على وَفْقِ قَولِهم، وفيه ضَربٌ مِن التَّهكُّمِ؛ فإنَّ مَن كرَّرَ الكلمةَ الواحدةَ لغرَضٍ فاسدٍ، فإنَّه يُجازى لدَفْعِ تلك الكلمةِ على سَبيلِ التَّكرارِ استخفافًا[(١)].

- وعُبِّر بـ (ما) الَّتي لغيرِ العُقلاءِ في المواضعِ الأربعةِ؛ لأنَّه يجوزُ ذلك، والنُّكتةُ في ذلك أنْ يَجريَ الكلامُ على نمطٍ واحدٍ ولا يَختلِفَ[(٢)].

- قَولُه: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ تَذييلٌ وفَذْلَكةٌ[(٣)] للكلامِ السَّابقِ بما فيه مِن

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٠٨، ٨٠٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٣)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦١٠، ٦١١)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٥٩، ٥٦٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٠٢ - ٦٠٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٠، ٦٢١)، ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٥٨).

(٣) تقدَّم تعريفُه (ص: ٥٤).

التَّأكيداتِ، وقد أُرسِلَ هذا الكلامُ إرسالَ المَثَلِ[١].

- قَولُه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، أي: لكمْ شِركُكم ولي تَوحيدِي، وهذا غايةٌ في التَّبرُّؤِ، ولَمَّا كان الأهمُّ انتِفاءَه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ مِن دِينِهم؛ بَدَأَ بالنَّفيِ في الجُمَلِ السَّابقةِ بالمَنسوبِ إليه[٢].

- قَولُه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ تَقريرٌ لقولِه تعالَى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، وقولِه تعالَى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، كما أنَّ قولَه تعالَى: ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ تَقريرٌ لقولِه تعالَى: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، والمَعْنى: أنَّ دِينَكم -الَّذي هو الإشراكُ- مَقصورٌ على الحُصولِ لكم، لا يَتجاوَزُه إلى الحُصولِ لي أيضًا كما تَطمَعونَ فيه، فلا تُعلِّقُوا بهِ أمانيَّكُم الفارغةَ؛ فإنَّ ذلكَ مِن المُحالاتِ، وأنَّ دِيني -الَّذي هو التَّوحيدُ- مَقصورٌ على الحُصولِ لي لا يَتجاوَزُه إلى الحُصولِ لكُم أيضًا؛ لأنَّكم علَّقْتُموه بالمُحالِ الَّذي هو عِبادتي لآلهتِكم، أو استِلامي إيَّاها، ولأنَّ ما وعَدْتُمُوه عَينُ الإشراكِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ هذا تَقريرًا لقولِه تعالَى: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أيْ: ولِي دِيني لا دِينُكم[٣].

- وفي كِلْتا الجُملتينِ: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ قُدِّمَ المُسنَدُ على المسنَدِ إليه؛ ليُفيدَ قصْرَ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ، أي: دِينُكم مَقصورٌ على الكَونِ بأنَّه لكم لا يَتجاوَزُكم إلى الكونِ لي، ودِيني مَقصورٌ على الكَونِ بأنَّه لا يَتجاوَزُني إلى كَونِه لكمْ، أي: لأنَّهم مُحقَّقٌ عَدَمُ إسلامِهم، فالقصْرُ قصْرُ إفرادٍ[٤]، واللَّامُ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٤).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦١).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٧).

(٤) القَصرُ أو الحَصرُ: هو تَخصيصُ شَيءٍ بشَيءٍ وحَصْرُه فيه، ويُسمَّى الأمرُ الأوَّلُ: مَقصورًا، =

في الموضعَينِ لشِبهِ المِلكِ، وهو الاختصاصُ أو الاستحقاقُ[١].

- وأيضًا قدَّمَ قِسْمَهم ونَصيبَهم على قِسْمِه ونَصيبِه هنا، وفي أوَّلِ السُّورةِ قدَّمَ ما يَختَصُّ بهم؛ وذلك لوَجْهينِ:

**الوجهُ الأوَّلُ**: أنَّ السُّورةَ لَمَّا اقتَضَت البَراءةَ، واقتسامَ دِينَي التَّوحيدِ والشِّركِ بيْنَه وبيْنَهم، ورَضِيَ كلٌّ بقِسْمِه، وكان المُحِقُّ هو صاحبَ القِسمةِ، وقد بَرَّزَ النَّصيبينِ، ومَيَّزَ القِسْمينِ، وعُلِمَ أنَّهم راضونَ بقِسْمِهم الدُّونِ الَّذي لا أردَأَ منه، وأنَّه هو قدِ استَولى على القِسمِ الأشرَفِ والحظِّ الأعظَمِ بمَنزلةِ مَن اقتسَمَ هو وغيرُه سمًّا وشِفاءً، فرَضِيَ مُقاسِمُه بالسُّمِّ؛ فإنَّه يقولُ له: لا تُشارِكُني في قِسْمِي، ولا أشارِكُك في قِسْمِك؛ لك قِسْمُك، ولي قِسْمي، فتَقديمُ ذِكرِ قِسْمِه هاهنا أحسَنُ وأبلَغُ، كأنَّه يقولُ: هذا هو قِسْمُك الَّذي آثَرْتَه بالتَّقديمِ وزَعَمْتَ أنَّه أشرَفُ القِسمينِ وأحقُّهما بالتَّقديمِ، فكان في تَقديمِ ذِكرِ قِسْمِه مِن التَّهكُّمِ به

= والثَّاني: مقصورًا عليه؛ مِثل: إنَّما زيدٌ قائمٌ، و: ما ضربتُ إلَّا زيدًا. ويَنقسِمُ إلى قصرٍ حقيقيٍّ، وقصرٍ إضافيٍّ، وادِّعائيٍّ، وقَصْرِ قَلْبٍ. ويَنقسِمُ القَصرُ أو الحَصرُ باعتبارٍ آخَرَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: قصْرُ إفرادٍ، وقصْرُ قَلْبٍ، وقَصْرُ تعيينٍ؛ فالأوَّل: يُخاطَبُ به مَن يَعتقِدُ الشَّرِكةَ؛ نحو: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النحل: ٥١]، خُوطِبَ به مَن يَعتقِدُ اشتِراكَ اللهِ والأصنامِ في الأُلوهيَّةِ. والثَّاني: يُخاطَبُ به مَن يَعتقِدُ إثباتَ الحُكمِ لغيرِ مَن أثبتَه المُتكلِّمُ له؛ نحو: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، خُوطِبَ به نُمْرودُ، الَّذي اعتَقد أنَّه هو المحيي المميتُ دون اللهِ. والثَّالثُ: يُخاطَبُ به مَن تَساوَى عندَه الأمْرانِ، فلمْ يَحكُمْ بإثباتِ الصِّفةِ لواحدٍ بعَيْنِه، ولا لواحدٍ بإحْدى الصِّفتَينِ بعَيْنِها. يُنظر: ((مفتاح العلوم)) للسَّكَّاكي (ص: ٢٨٨)، ((الإيضاح في علوم البلاغة)) للقَزْويني (١/ ١١٨) و(٣/ ٦)، ((التعريفات)) للجُرْجاني (١/ ١٧٥، ١٧٦)، ((الإتقان)) للسيوطي (٣/ ١٦٧)، ((جواهر البلاغة)) للهاشمي (ص: ١٦٧، ١٦٨)، ((البلاغة العربية)) لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني (١/ ٥٢٥).

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٤).

والنِّداءِ على سُوءِ اختيارِه وقُبْحِ ما رَضِيَه لنفْسِه؛ مِن الحُسنِ والبيانِ ما لا يُوجَدُ في ذِكرِ تَقديمِ قِسْمِ نفْسِه.

**والوجهُ الثَّاني**: أنَّ مَقصودَ السُّورةِ بَراءتُه صلَّى الله عليه وسلَّم مِن دِينِهم ومَعبودِهم، هذا هو لُبُّها ومَغْزاها، وجاء ذِكرُ بَراءتِهم مِن دِينِه ومَعبودِه بالقصْدِ الثَّاني مُكمِّلًا لبَراءتِه ومُحقِّقًا لها، فلمَّا كان المقصودُ بَراءتَه مِن دِينِهم بدَأَ به في أوَّلِ السُّورةِ، ثمَّ جاء قولُه: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مُطابِقًا لهذا المعنى، أي: لا أُشارِكُكم في دِينِكم ولا أُوافِقُكم عليه، بلْ هو دِينٌ تَختصُّون أنتم به لا أشْرَكُكم فيه أبدًا، فطابَقَ آخِرُ السُّورةِ أوَّلَها[1].

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيِّم (١/ ١٣٩، ١٤٠).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ النَّصْرِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ النَّصْرِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّصْر)[١].

## فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

**أنَّها آخِرُ سُورةٍ نَزلَت كامِلةً:**

عن عُبَيْدِ الله بنِ عبدِ الله بنِ عُتْبةَ، قال: (قال لي ابنُ عبَّاسٍ: تَعلَمُ آخِرَ سُورةٍ نَزلَت مِن القُرآنِ نَزلَت جَميعًا؟ قلتُ: نعمْ، ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾، قال: صَدقْتَ)[٢].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ النَّصرِ مَدَنيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٣].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

---

(١) سُمِّيتْ بذلك؛ لذِكرِ النَّصرِ في مُفتَتَحِها في قَولِ الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٧).
وتُسمَّى أيضًا سورةَ ﴿إِذَا جَآءَ﴾، وسورةَ ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، وسورةَ التَّوديعِ؛ لِما فيها مِن الإيماءِ إلى وفاةِ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم وتَوديعِه الدُّنيا وما فيها. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٨)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٤)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٩١).

(٢) رواه مسلم (٣٠٢٤).

(٣) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٨)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠١)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٢٩)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٦٨).

الإعلامُ بتَمامِ الدِّينِ[١].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

١- وَعدُ اللهِ تعالى لنَبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالنَّصرِ والفَتحِ.

٢- البِشارَةُ بدُخولِ خَلائقَ كَثيرةٍ في الإسلامِ.

٣- أمْرُ الله سُبحانَه نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بالمُواظَبةِ على التَّسبيحِ بحَمدِه واستِغفارِه.

(١) يُنظر: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٦٨).

## الآيات (١-٢)

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَفۡوَاجٗا﴾: أي: جماعاتٍ كثيرةً، فَوجًا بعْدَ فَوجٍ، وأصلُ (فوج): يدُلُّ على تجَمُّعٍ[1].

﴿تَوَّابَۢا﴾: التَّوَّابُ فعَّالٌ مِن تابَ يَتوبُ: أي: يُوفِّقُ العبدَ للتَّوبةِ، ويَقْبَلُها منه، وحقيقةُ التَّوبةِ الرُّجوعُ إلى اللهِ بالْتِزامِ فِعلِ ما يُحِبُّ، وتَرْكِ ما يَكْرَهُ، وأصلُ (توب): يدُلُّ على الرُّجوعِ[2].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ مخاطِبًا نَبيَّه صلَّى الله عليه وسلَّم، بقَولِه تعالى:

إذا نصَرَكَ اللهُ -يا محمَّدُ- على أعدائِك، وتحقَّق لك فَتحُ مكَّةَ، ورأَيتَ العَرَبَ يَدخُلونَ في الإسلامِ جماعاتٍ كثيرةً؛ فنَزِّهْ رَبَّك عن النَّقائِصِ والعُيوبِ تَنزيهًا مُقترِنًا بحَمْدِه، واطلُبْ منه محوَ ذُنوبِك؛ إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالتَّوبةِ على

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٥)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٨)، ((المفردات)) للراغب (ص: ٦٤٦)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤١٩).

(٢) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٦٢)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (١/ ٩٠)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٥٧)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (١/ ٣١٣)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٧٦).

وقال ابن جرير: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ يقولُ: إنَّه كان ذا رُجوعٍ لعَبْدِه المُطيعِ إلى ما يُحِبُّ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٣).

عِبادِه.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١﴾.

أي: إذا نصَرَكَ اللهُ -يا محمَّدُ- على أعدائِك، وتحقَّق لك فَتحُ مكَّةَ[1].

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢﴾.

أي: ورأَيتَ العَرَبَ -يا محمَّدُ- يَدخُلونَ في الإسلامِ الَّذي أرسلَك اللهُ به

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٥)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٦٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٨٧-٥٩٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٣٩).

قال ابنُ عاشور: (النَّصرُ: الإعانةُ على العَدُوِّ، ونَصرُ اللهِ يَعقُبُه التَّغَلُّبُ على العَدُوِّ. والفَتحُ: امتِلاكُ بلَدِ العَدُوِّ وأرضِه). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٠).

وفي المرادِ بالنَّصرِ قَولانِ؛ أحدُهما: نصرُ الرَّسولِ على قُرَيشٍ.

والثَّاني: نَصْرُه على كلِّ مَن قاتَله مِن أعدائِه، فإنَّ عاقبةَ النَّصرِ كانت له. يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٥٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٠).

قال ابنُ عطيَّةَ: (النَّصرُ الَّذي رآه رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم هو غلَبَتُه لقُرَيشٍ ولِهَوازِنَ وغيرِ ذلك). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٢).

وقال الماوَرْدي: (وفي هذا الفتحِ قَولانِ؛ أحدُهما: فتحُ مكَّةَ، قاله الحسَنُ، ومُجاهِدٌ. الثَّاني: فتحُ المدائنِ والقُصورِ، قاله ابنُ عبَّاسٍ، وابنُ جُبَيرٍ. وقيل: ما فتحه عليه مِن العُلومِ). ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٦٠).

وقال ابنُ عطيَّةَ: (الفَتحُ: هو فَتحُ مكَّةَ والطَّائِفِ ومُدُنِ الحجازِ وكثيرٍ مِنَ اليمَنِ). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٢).

وقال ابنُ كثير: (المرادُ بالفَتحِ هاهنا فَتحُ مكَّةَ قَولًا واحِدًا؛ فإنَّ أحياءَ العرَبِ كانت تَتلَوَّمُ [أي: تنتظر] بإسلامِها فَتحَ مكَّةَ، يقولونَ: إنْ ظَهَر على قَومِه فهو نبيٌّ، فلمَّا فتح اللهُ عليه مكَّةَ دخَلوا في دينِ اللهِ أفواجًا، فلم تَمْضِ سنَتانِ حتَّى استَوْسَقَت جزيرةُ العَربِ إيمانًا، ولم يَبْقَ في سائِرِ قبائِلِ العَرَبِ إلَّا مُظهِرٌ للإسلامِ، وللهِ الحَمدُ والمِنَّةُ). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٣). ويُنظر: ((صحيح البخاري)) (٤٣٠٢).

جماعاتٍ كثيرةً، فَوجًا بعْدَ فَوجٍ[١].

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا نزَلَت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: أتاكم أهلُ اليَمَنِ، هم أرَقُّ قُلوبًا، الإيمانُ يَمانٍ، الفِقهُ يَمانٍ، الحِكمةُ يَمانيَةٌ))[٢].

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ٣﴾.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾.

أي: فنَزِّهْ -يا محمَّدُ- رَبَّك عن النَّقائِصِ والعُيوبِ تنزيهًا مُقترِنًا بحَمْدِه، وهو وَصْفُه بصِفاتِ الكَمالِ محبَّةً له وتعظيمًا، واطلُبْ منه محوَ ذُنوبِك[٣].

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُكثِرُ مِن قَولِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه، أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه. فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أَراكَ تُكثِرُ مِن قَولِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه، أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه. فقال: خَبَّرَني ربِّي أنِّي سأرى علامةً في أمَّتي، فإذا رأيتُها أكثَرْتُ مِن قَولِ: سُبحانَ اللهِ وبحَمْدِه،

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٥)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٠)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣١٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٤).

قال ابنُ عطيَّةَ: (دُخولُ النَّاسِ في الإسلامِ أفواجًا كان بيْن فَتحِ مكَّةَ إلى موتِه صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٢). ويُنظر: ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (٦/ ٧٨).

(٢) أخرجه أحمدُ (٧٧٢٢)، وعبدُ الرَّزَّاقِ في ((التفسير)) (٣٧٢٦).

صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تخريج ((مسند أحمد)) (١٤/ ١٤٩)، والألبانيُّ على شَرطِ الشَّيخَينِ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٣٣٦٩)، وشعيبٌ الأرناؤوط على شَرطِ الشَّيخَينِ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٣/ ١٥٦).

وقال ابنُ حَجَرٍ في ((الكافي الشاف)) (٣٢٧): (أصلُه في مسلمٍ دونَ ما في أوَّلِه، وله شاهِدٌ).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٠٧، ٧١٣)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣١)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٠)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤١).

أستَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليه، فقد رأيتُها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فَتحُ مكَّةَ، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾))[١].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُكثِرُ أن يقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: سُبحانَك اللَّهمَّ رَبَّنا وبحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي؛ يَتأوَّلُ القُرآنَ[٢]))[٣].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: (كان عُمَرُ يُدخِلُني مع أشْياخِ بَدْرٍ، فقال بعضُهم: لِمَ تُدخِلُ هذا الفتى معنا ولنا أبناءٌ مِثْلُه؟! فقال: إنَّه مِمَّن قد عَلِمتُم، فدعاهم ذاتَ يومٍ ودعاني معهم، وما رُئِيتُه[٤] دعاني يومَئذٍ إلَّا لِيُريَهم مِنِّي[٥]، فقال: ما تَقولون في: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ حتَّى ختَمَ السُّورةَ؟ فقال بعضُهم: أُمِرْنا أن نحمَدَ اللهَ ونَستَغفِرَه إذا نصَرَنا وفَتَح علينا، وقال بعضُهم: لا ندري، أو لم يَقُلْ بعضُهم شيئًا، فقال لي: يا ابنَ عبَّاسٍ، أكذاك تقولُ؟ قُلتُ: لا، قال: فما تقولُ؟ قلتُ: هو أجَلُ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أعْلَمَه اللهُ له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ فَتحُ مكَّةَ، فذاك علامةُ أجَلِك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾، قال عُمَرُ: ما أعلَمُ منها إلَّا ما تَعلَمُ)[٦].

---

(١) رواه مسلم (٤٨٤).

(٢) يَتأوَّل القرآنَ: أي يَفعلُ ما أُمِر به. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٢/ ٢٩٩).

(٣) رواه البخاري (٤٩٦٨)، ومسلم (٤٨٤).

(٤) رُئِيتُه: أي: ظَنَنْتُه. يُنظر: ((إرشاد الساري)) للقسطلاني (٦/ ٣٩٥).

(٥) لِيُريَهم مِنِّي: أي: بعضَ فضيلتي. يُنظر: ((الكواكب الدراري)) للكرماني (١٦/ ١٣٩).

(٦) رواه البخاري (٤٢٩٤).

﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾.

أي: إنَّ اللهَ مُتَّصِفٌ أزَلًا وأبدًا بالتَّوبةِ على عِبادِه، فيُوَفِّقُهم إليها، ويَقْبَلُها منهم[١].

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٦].

وقال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ الأمورُ الفاضِلةُ تُختَمُ بالاستغفارِ، كالصَّلاةِ والحَجِّ، وغيرِ ذلك، فأمْرُ اللهِ لرَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم بالحَمدِ والاستغفارِ في هذه الحالِ إشارةٌ إلى أنَّ أجَلَه قد اقترب؛ فلْيَستعِدَّ ويتهيَّأْ للقاءِ رَبِّه، ويختِمْ عُمُرَه بأفضَلِ ما يجِدُه صَلَواتُ اللهِ وسَلامُه عليه[٢]. فالواجبُ على الإنسانِ أن يَحرِصَ في آخِرِ عُمُرِه على الإكثارِ مِن طاعةِ الله، ولا سيَّما ما أوجَبَ اللهُ عليه، وأن يُكثِرَ مِن الاستِغفارِ والحَمدِ[٣].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ إشارةٌ إلى أنَّه سُبحانَه يَقْبَلُ تَوبةَ المستغفِرينَ المُنيبينَ إليه؛ فهو تَرغيبٌ في الاستغفارِ، وحَثٌّ على التَّوبةِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٣)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٧٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٢).
قال القرطبي: (﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾: أي: على المُسَبِّحينَ والمُستَغفِرينَ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٣).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦).

(٣) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ١٤٠).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥١٨).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تبارك وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ * وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا * فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ الإخبارُ بذلك كُلِّه قبْلَ وُقوعِه إخبارٌ بغَيبٍ؛ فهو مِن أعلامِ النُّبُوَّةِ[1].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ إعلامٌ منه سُبحانَه لنَبيِّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بدُنُوِّ أجَلِه، وهذا مِن أدَقِّ الفَهمِ وألطَفِه، ولا يُدْرِكُه كلُّ أحدٍ؛ فإنَّه سُبحانَه لم يُعَلِّقِ الاستغفارَ بعَمَلِه، بل عَلَّقَه بما يُحدِثُه هو سُبحانَه مِن نِعمةِ فَتْحِه على رَسولِه ودُخولِ النَّاسِ في دِينِه، وهذا ليس بسَبَبٍ للاستغفارِ؛ فعُلِمَ أنَّ سببَ الاستغفارِ غيرُه، وهو حُضورُ الأجَلِ الَّذي مِن تمامِ نعمةِ اللهِ على عَبْدِه توفيقُه للتَّوبةِ النَّصوحِ والاستغفارِ بيْن يَدَيه؛ لِيَلْقَى ربَّه طاهِرًا مُطهَّرًا مِن كلِّ ذنْبٍ، فيَقْدَمَ عليه مسرورًا راضيًا مَرْضيًّا عنه، ويدُلُّ عليه أيضًا قولُه: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾، وهو صلَّى الله عليه وسلَّم كان يُسَبِّحُ بحَمدِه دائمًا، فعُلِمَ أنَّ المأمورَ به مِن ذلك التَّسبيحِ بعْدَ الفتحِ ودُخولِ النَّاسِ في هذا الدِّينِ أمرٌ أكبَرُ مِن ذلك المتقدِّمِ، وذلك مُقَدِّمةٌ بيْن يَدَي انتقالِه إلى الرَّفيقِ الأعلى، وأنَّه قد بَقِيت عليه مِن عُبوديَّةِ التَّسبيحِ والاستِغفارِ الَّتي تُرَقِّيه إلى ذلك المقامِ بقيَّةٌ، فأَمَرَه بتوفيتِها، ويدُلُّ عليه أيضًا أنَّه سُبحانَه شَرَعَ التَّوبةَ والاستغفارَ في خواتيمِ الأعمالِ؛ فشَرَعَها في خاتمةِ الحجِّ وقيامِ اللَّيلِ، وكان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا سَلَّمَ مِن الصَّلاةِ استغفرَ ثلاثًا[2]، فعُلِمَ أنَّ التَّوبةَ مَشروعةٌ عَقِيبَ الأعمالِ الصَّالحةِ، فأَمَرَ رسولَه بالاستِغفارِ عَقِيبَ توفيتِه ما عليه مِن تبليغِ الرِّسالةِ والجِهادِ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٠).

(٢) يُنظر ما أخرجه مسلم (٥٩١) من حديث ثَوْبانَ رضيَ الله عنه.

في سبيلِه حينَ دَخَلَ النَّاسُ في دِينِه أفواجًا، فكأنَّ التَّبليغَ عبادةٌ قد أكمَلَها وأدَّاها؛ فشُرِعَ له الاستِغفارُ عَقِيبَها[١].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ لم يقلْ: (في دينِ الرَّبِّ)، ولا سائرِ الأسماءِ؛ لأنَّ هذا الاسمَ أعظَمُ الأسماءِ -على قولٍ-؛ لدَلالتِه على الذَّاتِ والصِّفاتِ، فكأنَّه يقولُ: هذا الدِّينُ إن لم يكُنْ له خَصلةٌ سِوى أنَّه دينُ اللهِ، فإنَّه يكونُ واجِبَ القَبولِ. وقيل غير ذلك[٢].

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ يدُلُّ على فَضلِ التَّسبيحِ والتَّحميدِ؛ حيثُ يُجعَلُ كافيًا في أداءِ ما وَجَب عليه مِن شُكرِ نِعمةِ النَّصرِ والفَتحِ[٣].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ فيه استِحبابُ التَّسبيحِ في الرُّكوعِ والسُّجودِ[٤]، عن عائشةَ رضيَ الله عنها قالت: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُكثِرُ أن يقولَ في رُكوعِه وسُجودِه: سُبحانَك اللَّهُمَّ رَبَّنا وبحَمْدِك، اللَّهُمَّ اغفِرْ لي؛ يَتأوَّلُ القُرآنَ))[٥].

---

(١) يُنظر: ((إعلام الموقعين)) لابن القيم (١/ ٢٦٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٤١).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٢/ ٣٤٣).

(٤) وهذا مذهبُ الجمهورِ؛ مِن الحنفيَّةِ، والمالكيَّةِ، والشافعيَّةِ، وهو روايةٌ عن أحمدَ، وقولُ أكثرِ الفُقهاءِ. يُنظر: ((تبيين الحقائق)) للزيلعي (١/ ١٠٧)، ((التاج والإكليل)) للموَّاق (١/ ٥٣٨)، ((نهاية المحتاج)) للرملي (١/ ٤٩٩)، ((المغني)) لابن قدامة (١/ ٣٦٢).
وذهَب الحنابلةُ، والظَّاهريَّةُ إلى أنَّ التَّسبيحَ في الرُّكوعِ والسُّجودِ واجبٌ، واختارَه ابنُ تيميَّةَ، وابنُ بازٍ، وابنُ عُثَيمين. يُنظر: ((كشاف القناع)) للبهوتي (١/ ٣٤٧)، (شرح صحيح البخاري)) لابن بطال (٢/ ٤١٤)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢٢/ ٥٥٠)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (٣٠/ ١٤)، ((الشرح الممتع)) لابن عثيمين (٣/ ٣٢٠).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص:٣٠١). =

٦- في قَولِه تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ اقترانُ التَّسبيحِ بالحَمدِ، فالباءُ هنا للمُصاحَبةِ؛ وذلك لأنَّه إذا كان التَّسبيحُ مصحوبًا بالحَمدِ فإنَّه به يَتحقَّقُ الكَمالُ؛ لأنَّ الكَمالَ لا يَتحقَّقُ إلَّا بانتفاءِ العيوبِ، وثُبوتِ صِفاتِ الكَمالِ؛ فانتفاءُ العُيوبِ مأخوذٌ مِن قَولِه: ﴿ فَسَبِّحْ ﴾؛ لأنَّ التَّسبيحَ معناه التَّنزيهُ عن كلِّ نَقصٍ وعَيبٍ، وثبوتُ الكمالاتِ مأخوذٌ مِن قولِه: ﴿بِحَمْدِ ﴾؛ لأنَّ الحمدَ هو وَصفُ المحمودِ بالصِّفاتِ الكامِلةِ[(١)].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ إشارةٌ إلى قُربِ وفاةِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ويحتَمِلُ أن يكونَ فيه إشارةٌ إلى أنَّ قِلَّةَ الفُتوحِ في زمانِه صلَّى الله عليه وسلَّم لا صُنْعَ له فيه؛ لأنَّ سببَه قِصَرُ مُدَّتِه، فمعنى المغفرةِ له: رَفْعُ الملامةِ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم[(٢)].

٨- قال اللهُ تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ أمَرَ بالتَّسبيحِ والحَمدِ؛ لِيَكونَ شُكرًا على النَّصرِ والفَتحِ وظُهورِ الإسلامِ، وأمَرَه بذلك وبالاستغفارِ عندَ اقترابِ أجَلِه؛ ليَكونَ ذلك زادًا للآخِرةِ وعُدَّةً للِقاءِ اللهِ[(٣)].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ أمْرُه سُبحانَه للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالتَّسبيحِ بحَمْدِه، والاستغفارِ في هذه الحالِ، وهذا لا يَقتضي أنَّه لا يُشرَعُ في غَيرِها، أو لا يُؤمَرُ به غَيرُه، بل يَقتضي أنَّ هذا سَبَبٌ لِمَا أُمِرَ به -وإنْ كان مأمورًا به في مواضعَ أُخَرَ- كما يُؤْمَرُ الإنسانُ بالحَمدِ والشُّكرِ على نِعمةٍ وإنْ كان مأمورًا بالشُّكرِ على غيرِها، وكما يُؤمَرُ بالتَّوبةِ مِن

---

= والحديث أخرجه البخاريُّ (٤٩٦٨)، ومسلمٌ (٤٨٤) من حديث عائشةَ رضيَ الله عنها.

(١) يُنظر: ((شرح رياض الصالحين)) لابن عثيمين (٢/ ١٤٥).

(٢) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٧/ ٣٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٠).

ذَنْبٍ وإنْ كان مأمورًا بالتَّوبةِ مِن غيرِه، لكنْ هو أُمِرَ أنْ يَختِمَ عمَلَه بهذا، فغيرُه أحوَجُ إلى هذا منه، وقد يَحتاجُ العَبدُ إلى هذا في غيرِ هذه الحالِ، كما يَحتاجُ إلى التَّوبةِ؛ فهو محتاجٌ إلى التَّوبةِ والاستِغفارِ مُطلقًا[١].

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُ﴾ سؤالٌ: أنَّ اللهَ تبارك وتعالى أنزَلَ على نبيِّه صلَّى الله عليه وسلَّم: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا * لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، والفَتحُ قد حَصَل، فيكونُ المعلولُ حاصلًا، وهو المغفرةُ، فكيف يدعو بالمغفِرةِ؟

**الجوابُ**: أنَّ هذا مِن بابِ كَمالِ التَّذَلُّلِ مِن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم للهِ عزَّ وجلَّ، وأنَّ هذا مِن بابِ التَّأكيدِ لِمَا ثَبَتَ، والتَّوكيدُ لِمَا ثَبَتَ أمرٌ معلومٌ في اللُّغةِ العربيَّةِ[٢].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾

- قولُه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ عُطِفَ الفتْحُ على النَّصرِ؛ لأنَّهما مُتغايِرانِ؛ فالنَّصرُ الإغاثةُ والإظهارُ على العدُوِّ، ومنه: نصَرَ اللهُ الأرضَ؛ غاثَها، والفتحُ: فتْحُ البلادِ[٣].

- والمُرادُ بالفتْحِ: فتْحُ مكَّةَ، كما يُشعِرُ به التَّعريفُ بلامِ العهْدِ، وهو المعهودُ في قَولِه تعالَى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا * لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا * وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١١/ ٦٨٩).

(٢) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٢/ ١٠٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٢).

٣]؛ فإضافةُ ﴿نَصْرُ﴾ إلى ﴿ٱللَّهِ﴾ تُشعِرُ بتَعظيم هذا النَّصرِ، وأنَّه نصْرٌ عَزيزٌ، خارقٌ للعادةِ، اعْتَنى اللهُ بإيجادِ أسبابِه، ولم تَجْرِ على مُتعارَفِ تَولُّدِ الحَوادثِ عن أمثالِها[١]، فمعناه: نَصرٌ لا يَليقُ إلَّا باللهِ، ولا يَليقُ أن يَفعَلَه إلَّا اللهُ، أو لا يليقُ إلَّا بحِكمتِه، ويُقالُ: (هذا صَنعةُ زَيدٍ)، إذا كان زيدٌ مَشهورًا بإحكامِ الصَّنعةِ، والمرادُ منه تعظيمُ حالِ تلك الصَّنعةِ، فكذا هاهنا. أو: لأنَّه إجابةٌ لدُعائِهم: ﴿مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، فيقولُ: هذا الَّذي سألْتُموه[٢].

وقيل: مُتعلَّقُ النَّصرِ والفتْحِ مَحذوفٌ؛ وهو نصْرُ رَسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم والمؤمنينَ على أعْدائِهم، وفتْحُ مكَّةَ وغيرِها عليهم؛ كالطَّائفِ ومُدنِ الحِجازِ وكثيرٍ مِن اليمَنِ. وقيل: نصْرُه صلَّى الله عليه وسلَّم على قُرَيشٍ، وفتْحُ مكَّةَ[٣].

وقيلَ: المرادُ: جِنسُ نصْرِ الله تعالَى ومُطلَقُ الفتْحِ؛ فإنَّ فتْحَ مكَّةَ لَمَّا كانَ مِفْتاحَ الفُتوحِ ومَناطَها -كما أنَّ نفْسَها أمُّ القُرَى وإمامُها- جُعِلَ مَجيئُه بمَنزلةِ مَجيءِ سائرِ الفُتوحِ، وعُلِّقَ بِه أمْرُه عليه السَّلامُ بالتَّسبيحِ والحمْدِ[٤].

٢- قولُه تعالَى: ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ النَّاسُ: اسمُ جمْعٍ يدُلُّ على جَماعةٍ مِن الآدَميِّينَ، والتَّعريفُ في هذه الآيةِ قيل: هو للاستِغراقِ العُرفيِّ، أي: جَميعَ النَّاسِ الَّذين يَخطُرون بالبالِ؛ لعَدَمِ إرادةِ مَعهودينَ مُعيَّنينَ، ولاستحالةِ دُخولِ كلِّ إنسانٍ في دِينِ اللهِ بدَليلِ المُشاهَدةِ، فالمعْنى: ورَأيتَ العرَبَ، أو: ورَأيتَ ناسًا كَثيرينَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٢، ٥٦٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٨).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٢، ٥٩٣).

٣- قولُه تعالَى: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ قُرِنَ التَّسبيحُ بالحمْدِ بباءِ المُصاحَبةِ -على قولٍ- المُقتضيةِ أنَّ التَّسبيحَ لاحقٌ للحمْدِ؛ لأنَّ باءَ المُصاحَبةِ بمعْنى (مع)، فهي مِثلُ (مع) في أنَّها تَدخُلُ على المَتبوعِ، فكان حمْدُ اللهِ على حُصولِ النَّصرِ والفتْحِ ودُخولِ النَّاسِ في الإسلامِ شيئًا مَفْروغًا منه لا يحتاجُ إلى الأمرِ بإيقاعِه؛ لأنَّ شَأنَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم أنَّه قدْ فَعَلَه، وإنَّما يحتاجُ إلى تَذكيرِه بتَسبيحٍ خاصٍّ لم يَحصُلْ مِن قبْلُ في تَسبيحاتِه، وباستغفارٍ خاصٍّ لم يَحصُلْ مِن قبْلُ في استِغفارِه[1]. والحمْدُ مُضافٌ للمَفعولِ، أي: فسَبِّحْه حامدًا له، أي: نزِّهْه عمَّا لا يَليقُ به، وأثبِتْ له ما يَليقُ به، فهي داخلةٌ في حيِّزِ الأمرِ. وقيل: الباءُ للاستعانةِ، والحمدُ مُضافٌ إلى الفاعلِ، أي: سبِّحْه بما حَمِدَ به نفْسَه، كقولِه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾؛ إذ ليس كلُّ تسبيحٍ بمحمودٍ[2].

- والأمرُ بالاستغفارِ مع التَّسبيحِ في قَولِه: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ تَكميلٌ للأمرِ بما هو قِوامُ أمْرِ الدِّينِ؛ مِن الجمْعِ بيْنَ الطَّاعةِ، والاحتراسِ مِن المَعصيةِ، ولأنَّ الاستغفارَ مِن التَّواضُعِ للهِ وهضْمِ النَّفْسِ، فهو عِبادةٌ في نفْسِه[3].

- وتَقديمُ التَّسبيحِ والحمْدِ على الاستِغفارِ؛ لأنَّ التَّسبيحَ راجعٌ إلى وَصْفِ اللهِ تعالَى بالتَّنزُّهِ عن النَّقصِ، وهو يَجمَعُ صِفاتِ السَّلبِ، فالتَّسبيحُ مُتمحِّضٌ لجانبِ اللهِ تعالَى، ولأنَّ الحمْدَ ثَناءٌ على اللهِ لإنعامِه، وهو أداءُ العبْدِ ما يَجبُ عليه لشُكرِ المُنعِمِ، فهو مُستلزِمٌ إثباتَ صِفاتِ الكَمالِ لله الَّتي هي مَنشَأُ إنعامِه على عَبْدِه، فهو جامعٌ بيْنَ جانبِ اللهِ وحظِّ العبْدِ، وأمَّا الاستغفارُ فهو

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٣).

(٢) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥١٧)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٠٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١١، ٨١٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٤)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٩). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٣٨٠).

حظٌّ للعبْدِ وَحْدَه؛ لأنَّه طلَبُه مِن اللهِ أنْ يَعفُوَ عمَّا يُؤاخِذُه عليه[١].

- وأيضًا في تَقديمِ الأمرِ بالتَّسبيحِ والحمْدِ على الأمرِ بالاستِغفارِ تَمهيدٌ لإجابةِ استغفارِه، على عادةِ العرَبِ في تَقديمِ الثَّناءِ قبْلَ سُؤالِ الحاجةِ؛ فإنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لم يكُنْ يَخْلو عن تَسبيحِ اللهِ، فأُريدَ تَسبيحٌ يُقارِنُ الحمْدَ على ما أُعطِيَه مِن النَّصرِ والفتْحِ ودُخولِ الأُمَّةِ في الإسلامِ[٢].

- وعطْفُ الأمرِ باستِغفارِ اللهِ تعالَى على الأمرِ بالتَّسبيحِ مع الحمْدِ يَقْتضي أنَّه مِن حيِّزِ جَوابِ ﴿إِذَا﴾، وأنَّه استغفارٌ يَحصُلُ مع الحمْدِ، فيدُلُّ على أنَّه استغفارٌ خاصٌّ؛ لأنَّ الاستغفارَ الَّذي يعُمُّ طلَبَ غُفرانِ التَّقصيرِ ونحوه مَأمورٌ به مِن قبْلُ، وهو مِن شَأنِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ فقدْ قال: ((إنَّه لَيُغَانُ[٣] على قَلْبي، وإنِّي لَأَستَغفِرُ اللهَ في اليَومِ مِئةَ مَرَّةٍ))[٤]، فكان تَعليقُ الأمرِ بالتَّسبيحِ وبالاستغفارِ على حُصولِ النَّصرِ والفتْحِ إيماءً إلى تَسبيحٍ واستغفارٍ يَحصُلُ بهما تَقرُّبٌ لم يُنْوَ مِن قبْلُ، وهو التَّهيُّؤُ لِلِقاءِ اللهِ، وأنَّ حَياتَه الدُّنيويَّةَ أوشَكَت على الانتهاءِ، وانتهاءِ أعمالِ الطَّاعاتِ والقُرُباتِ الَّتي تَزيدُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم في رفْعِ دَرَجاتِه عندَ ربِّه، فكان هذا إيذانًا باقترابِ وَفاةِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بانتقالِه مِن حَياةِ تَحمُّلِ أعباءِ الرِّسالةِ إلى حَياةٍ أبَديَّةٍ في العُلويَّاتِ المَلَكيَّةِ، والكلامُ مِن قَبيلِ الكِنايةِ الرَّمزيةِ[٥]، وهي لا تُنافي إرادةَ المعْنى الصَّريحِ بأنْ يُحمَلَ الأمرُ بالتَّسبيحِ والاستغفارِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٥).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٩٤).

(٣) أي: يُطبَقُ ويُستَرُ ويُغَطَّى. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٦١٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٢) من حديث الأغَرِّ المُزَنيِّ رضيَ الله عنه.

(٥) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٤٩٨).

على معْنى الإكثارِ مِن قَولِ ذلك[١].

- وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يقولَ: (فسَبِّحْ بحَمْدِه)؛ لتَقدُّمِ اسمِ الجَلالةِ في قَولِه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ﴾، فعُدِلَ عن الضَّميرِ إلى الاسمِ الظَّاهرِ -وهو ﴿رَبِّكَ﴾- لِما في صِفةِ (ربّ) وإضافتِها إلى ضَميرِ المُخاطَبِ مِن الإيماءِ إلى أنَّ مِن حِكمةِ ذلك النَّصرِ والفتْحِ ودُخولِ النَّاسِ في الإسلامِ نِعمةً أنعَمَ اللهُ بها عليه إذ حَصَلَ هذا الخيرُ الجليلُ بواسطتِه، فذلك تَكريمٌ له وعِنايةٌ به، وهو شَأنُ تَلطُّفِ الرَّبِّ بالمَربوبِ؛ لأنَّ مَعناهُ السِّيادةُ المَرفوقةُ بالرِّفقِ والإبلاغِ إلى الكَمالِ[٢].

- قولُه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ تَذييلٌ للكلامِ السَّابقِ كلِّه، وتَعليلٌ لِما يَقْتضي التَّعليلَ فيه مِن الأمرِ باستغفارِ ربِّه باعتبارِ الصَّريحِ مِن الكلامِ السَّابقِ[٣].

- وتَوَّابٌ: مِثالُ مُبالَغةٍ مِن: تابَ عليه، أيْ: مُبالِغًا في قَبولِ تَوبتِهم[٤].

- وقد اشتَمَلَت جُملةُ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ على أربعةِ مُؤكِّداتٍ؛ هي: (إنَّ)، و(كان)، وصِيغةُ المُبالَغةِ في التَّوَّابِ، وتَنوينُ التَّعظيمِ فيه، وحيثُ كان التَّوكيدُ بـ(إنَّ) هنا غيرَ مَقصودٍ به ردُّ إنكارٍ ولا إزالةُ تَردُّدٍ -إذ لا يُفرَضانِ في جانبِ المُخاطَبِ صلَّى الله عليه وسلَّم- فقدْ تَمحَّضَ (إنَّ) لإفادةِ الاهتمامِ بالخبَرِ بتَأكيدِه، وقدْ تَقرَّرَ أنَّ مِن شَأنِ (إنَّ) إذا جاءت على هذا الوجْهِ أنْ تُغنِيَ غَناءَ فاءِ التَّرتيبِ والتَّسبُّبِ، وتُفيدَ التَّعليلَ ورَبْطَ الكلامِ بما قبْلَه كما تُفيدُه الفاءُ. وإذ قدْ كان الكلامُ تَذييلًا وتَعليلًا للكلامِ السَّابقِ؛ تعيَّنَ أنَّ حذْفَ

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٤).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٥٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٦)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٠٦).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢٠٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٦).

مُتعلَّقِ ﴿تَوَّابًا﴾ يُقدَّرُ بنَحْوِ: على التَّائبينَ، وهذا المُقدَّرُ مُرادٌ به العُمومُ، وهو عُمومٌ مَخصوصٌ بالمَشيئةِ تُخصِّصُه أدِلَّةُ وَصْفِ الرُّبوبيَّةِ. ولَمَّا ذُكِرَ دَليلُ العُمومِ عَقِبَ أمْرِه بالاستغفارِ أفاد أنَّه إذا استَغفَرَه غَفَرَ له، دَلالةً تَقْتضيها مُستتبَعاتُ التَّراكيبِ، فأفادتْ هذه الجُملةُ تَعليلَ الأمرِ بالاستِغفارِ؛ لأنَّ الاستغفارَ طَلَبُ الغَفْرِ، فالطَّالبُ يَترقَّبُ إجابةَ طَلَبِه، وأمَّا ما في الجُملةِ مِن الأمرِ بالتَّسبيحِ والحمْدِ فلا يَحتاجُ إلى تَعليلٍ؛ لأنَّهما إنشاءُ تَنزيهٍ وثَناءٍ على اللهِ تعالى. ومِن وَراءِ ذلك أفادَتِ الجُملةُ إشارةً إلى وَعْدٍ بحُسنِ القَبولِ عندَ اللهِ تعالَى حِينَما يَقدَمُ على العالَمِ القُدسيِّ، وهذا معنًى كِنائيٌّ؛ لأنَّ مَن عُرِفَ بكَثرةِ قَبولِ تَوبةِ التَّائبينَ شَأنُه أنْ يُكرِمَ وِفادةَ الوافِدينَ الَّذين سَعَوا جُهودَهم في مَرْضاتِه بمُنْتهى الاستطاعةِ؛ فهذه الجُملةُ بمَدلولِها الصَّريحِ ومَدلولِها الكِنائيِّ ومُستتبَعاتِها؛ تَعليلٌ لِما تَضمَّنَتْه الجُملةُ الَّتي قبْلَها مِن معنًى صَريحٍ أو كِنائيٍّ يُناسِبُه التَّعليلُ بالتَّسبيحِ والحمْدِ باعتبارِهما تَمهيدًا للأمرِ بالاستغفارِ لا يَحتاجانِ إلى التَّعليلِ، أو يُغْني تَعليلُ المُمهَّدِ له بهما عن تَعليلِهما، ولكنَّهما باعتبارِ كَونِهما رمْزًا إلى مُداناةِ وَفاةِ رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يكونُ ما في قَولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ مِن الوعْدِ بحُسنِ القَبولِ تَعليلًا لمَدلولِهما الكِنائيِّ، وأمَّا الأمرُ بالاستغفارِ فمُناسَبةُ التَّعليلِ له بقَولِه: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا﴾ ناهِضةٌ باعتبارِ كِلْتا دَلالتَيْه الصَّريحةِ والكِنائيَّةِ، أي: إنَّه مُتقبِّلٌ استِغفارَك ومُتقبِّلُك بأحسَنِ قَبولٍ، شَأنَ مَن عُهِدَ منه الصَّفْحُ والتَّكرُّمُ[1].

- ومُقْتضَى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: (إنَّه كان غفَّارًا)، فيَجْري الوصْفُ على ما يُناسِبُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٦، ٥٩٧).

قولَه عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا﴾ [نوح: ١٠]؛ فقيل: المرادُ مِن الاستغفارِ ليس قولَه: أستغفِرُ اللهَ، ولكنْ أن يَتوبَ إليه، ويَطلُبَ منه المغفرةَ بالتَّوبةِ. ويجوزُ أن يكونَ فيه إضمارٌ، كأنَّه قال: واستغفِرْه، وتُبْ إليه؛ إنَّه كان تَوَّابًا. ويجوزُ أن يكونَ احتباكًا[١]، والأصلُ: واستغفِرْه إنَّه كان غَفَّارًا، وتُبْ إليه إنَّه كان تَوَّابًا، فاستُغنيَ بذِكْرِ الاستغفارِ في السُّؤالِ عن ذِكرِه في الجوابِ، وأحرى أن يُستغنى بذِكرِ التَّوبةِ في الجَوابِ عن ذِكرِها في السُّؤالِ. وقيل: اختيارُ ﴿تَوَّابٗا﴾ على (غَفَّارًا) مع أنَّه الَّذي يَستدعيه ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ ظاهِرًا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الاستغفارَ إنَّما يَنفعُ إذا كان مع التَّوبةِ[٢].

ولأنَّ وصْفَ (توَّاب) أشَدُّ مُلاءَمةً لإقامةِ الفاصلةِ مع فاصلةِ ﴿أَفۡوَاجٗا﴾؛ لأنَّ حرْفَ الجيمِ وحرْفَ الباءِ كِلَيْهما حرْفٌ مِن الحُروفِ المَوصوفةِ بالشِّدَّةِ، بخِلافِ حرْفِ الرَّاءِ؛ فهو مِن الحُروفِ الَّتي صِفتُها بيْن الشِّدَّةِ والرِّخوةِ[٣]. وقيل غيرُ ذلك[٤].

---

(١) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٦٣٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٤٩٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٧، ٥٩٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٤٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٧، ٥٩٨).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ المَسَدِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ المَسَدِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (المَسَدِ)[١].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ المَسَدِ مكِّيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ مِن المُفسِّرينَ[٢].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

الإخبارُ عن شَقاءِ أبي لَهبٍ وامرأتِه[٣].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

١- الإخبارُ عن أبي لَهبٍ بالهَلاكِ والخُسرانِ.

٢- عدَمُ إغناءِ مالِه عنهُ ولا كَسْبِه.

٣- تَوَعُّدُه وامرأتِه بدُخولِ النَّارِ.

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لذِكرِ لَفظِ (المَسَدِ) فيها في قولِه: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٢).

وسُمِّيَت أيضًا بسورةِ ﴿تَبَّتْ﴾ و﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، وسورةِ (أبي لهبٍ) على تقديرِ: سورةِ ذِكْرِ أبي لهبٍ. يُنظر: ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٧٩)، ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٥٩٩).

(٢) ممَّن نقلَ الإجماعَ على ذلك: ابنُ عطيَّةَ، وابنُ الجَوزيِّ، والقُرطُبيُّ، والبِقاعيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠٢)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٤)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٧٦).

(٣) يُنظر: ((التفسير الوسيط)) لطنطاوي (١٥/ ٥٣٧).

## الآيات (١-٥)

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿تَبَّتْ﴾: أي: خَسِرَتْ وهلَكَتْ، وأصلُ (تبب): يدُلُّ على خُسرانٍ[١].

﴿جِيدِهَا﴾: أي: عُنُقِها[٢].

﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾: المسَدُ: ما فُتِلَ مِن أيِّ شَيءٍ كان، قيل: إنَّه سِلْسلةٌ فُتِلَتْ مِن الحديدِ فَتْلًا مُحكَمًا، ولُوِيَت ليًّا شَديدًا، وقيل: المسَدُ: اللِّيفُ، وأصلُ (مسد): يدُلُّ على فَتْلِ شَيءٍ وطَيِّه[٣].

### مُشكِلُ الإعرابِ:

قَولُه تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾

قَولُه تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ مَعطوفٌ على الضَّميرِ في ﴿سَيَصْلَىٰ﴾، وسوَّغ هذا العَطفَ دونَ توكيدٍ الفَصْلُ بالمفعولِ، أي: سيَصْلَى هو وامرأتُه نارًا. ﴿حَمَّالَةَ

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٢٠٩، ٥٤١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٣٤١)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٥).

(٢) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٩٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ١٨٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (١/ ٤٩٨)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٨٧).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٤٣١)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ٣٢٣)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٤١٧)، ((تحفة الأريب)) لأبي حيان (ص: ٢٨٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨١)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٨٨٢).

ٱلۡحَطَبِ﴾: مَنصوبٌ على الذَّمِّ، مَفعولٌ به لفِعلٍ محذوفٍ، أي: أَذُمُّ حمَّالةَ. وجملةُ (أَذُمُّ) مُعترِضةٌ بيْنَ الحالِ؛ جملةِ ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ﴾، وصاحِبِها «امرَأتُه»، على تقديرِ: وتَصْلَى هي النَّارَ مُسَلْسلةً. وقيل: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾: نَصبٌ على الحالِ مِن «امرأتُه» و﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ -على هذا- نَكِرةٌ؛ لإفادتِه الاستقبالِ، فإضافتُه لَفظيَّةٌ.

ويجوزُ رَفعُ «امرَأتُه» على الابتداءِ، و﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ﴾ جملةٌ في محَلِّ رَفعٍ خَبَرُ المُبتدَأِ[1].

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه تعالى: خَسِرَت وهلَكَت يدا أبي لَهَبٍ، وقد تحَقَّقَت خَسارتُه هو وهَلاكُه، لم يَنفَعْه مالُه وما كَسَبَه مِن الأولادِ أو غَيرِهم، سيَدخُلُ نارًا ذاتَ إحراقٍ شَديدٍ هو وزَوجتُه الحمَّالةُ للحَطَبِ، في عُنُقِ امرأتِه حَبلٌ مَفتولٌ!

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ١﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم خَرَج إلى البَطحاءِ[2]، فصَعِدَ إلى الجَبَلِ فنادى: يا صَباحاه! فاجتمَعَت إليه قُرَيشٌ، فقال:

(١) يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٩٨)، ((البسيط)) للواحدي (٢٤/ ٤١٥)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (١١/ ١٤٤)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٨)، ((المجتبى من مشكل إعراب القرآن)) لأحمد الخراط (٤/ ١٤٩٠).

(٢) البَطْحاءُ والأَبْطَحُ: مَسِيلٌ واسعٌ فيه دِقاقُ الحصى، والمرادُ هنا: مَسِيلُ وادي مكَّةَ. يُنظر: ((الصَّحاح)) للجوهري (١/ ٣٥٦)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٧/ ٤٣٨).

أرأَيْتُم إنْ حدَّثْتُكم أنَّ العَدُوَّ مُصَبِّحُكم أو مُمَسِّيكم، أكنتُم تُصَدِّقوني؟! قالوا: نعم، قال: فإنِّي نَذيرٌ لكم بيْنَ يدَيْ عذابٍ شديدٍ. فقال أبو لهَبٍ: ألِهذا جمَعْتَنا؟! تبًّا لك! فأنزَلَ اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ إلى آخِرِها))[١].

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾.

أي: خَسِرَتْ وهلَكَتْ يدا أبي لَهَبٍ، وقد تحَقَّقَت خَسارتُه هو وهَلاكُه[٢]!

عن طارقٍ المُحارِبيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((رأيتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم بسوقِ ذي المَجازِ، وأنا في بِياعةٍ[٣] أَبيعُها، فمَرَّ وعليه جُبَّةٌ له حَمراءُ، وهو يُنادي بأعلى صَوتِه: أيُّها النَّاسُ، قولوا: لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ تُفلِحوا، ورجُلٌ يَتْبَعُه بالحِجارةِ قد أدمى كعبَيْه وعُرقُوبَيه[٤]! وهو يقولُ: يا أيُّها النَّاسُ، لا تُطيعوه؛ فإنَّه كَذَّابٌ! قُلتُ: مَن هذا؟ قالوا: هذا غُلامُ بني عبدِ المطَّلِبِ. قلتُ: فمَن هذا الَّذي يَتْبَعُه يَرميه بالحِجارةِ؟ قالوا: عَمُّه عبدُ العُزَّى، وهو أبو لَهَبٍ!))[٥].

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾.

---

(١) رواه البخاريُّ (٤٩٧٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٢٠٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٢٩-٣٣١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

قال الواحدي: (أبو لهَبٍ هو ابنُ عبدِ المطَّلِبِ، عَمُّ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، واسمُه عبدُ العُزَّى). ((البسيط)) (٢٤/ ٤٠٩).

(٣) البِياعةُ: السِّلعةُ. يُنظر: ((نخب الأفكار)) للعيني (١١/ ٤٨٦)، ((تاج العروس)) للزَّبيدي (٢٠/ ٣٦٧).

(٤) العُرْقوبُ: هو العَصَبةُ الَّتي فوقَ العَقِبِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٣١).

(٥) أخرجه ابنُ أبي شَيْبَةَ (٣٧٧٢٠) واللَّفظُ له، وابنُ خُزَيْمةَ (١٥٩)، وابنُ حِبَّانَ (٦٥٦٢).

صحَّحه ابنُ خُزَيْمةَ، وابنُ حِبَّانَ، وابنُ حزم في ((المحلى)) (٩/ ١١٢)، وابنُ المُلَقِّنِ في ((البدر المنير)) (١/ ٦٨٠).

أي: لم يَنفَعْه مالُه وما كَسَبَه مِن الأولادِ أو غَيرِهم؛ فيَدفَعَ عنه شيئًا مِن عذابِ اللهِ[١].

قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ١١].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أخبَرَ تعالى عن حالِ أبي لهَبٍ في الماضي بالتَّبابِ، وبأنَّه ما أغنى عنه مالُه وكَسْبُه؛ أخبَرَ عن حالِه في المستقبَلِ بأنَّه سيَصلَى نارًا[٢].

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

أي: سيَدخُلُ أبو لهبٍ نارًا ذاتَ شَرَرٍ ولَهيبٍ وإحراقٍ شَديدٍ، لا تَسكُنُ ولا تَخمُدُ أبدًا[٣].

قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٤، ١٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٧)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٤)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٣، ٦٠٤)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٦، ٣٤٧).

قال ابنُ عاشور: (ما: نافيةٌ، ويجوزُ أن تكونَ استفهاميَّةً للتَوبيخِ والإنكارِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٤).

وقال الشوكاني: (﴿مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أيْ: ... ما جَمَع مِن المالِ ولا ما كَسَب مِن الأرباحِ والجاهِ، أو المرادُ بقولِه: ﴿مَالُهُۥ﴾: ما وَرِثه مِن أبيه، وبقولِه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ الَّذي كسَبه بنفسِه. قال مجاهدٌ: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مِن وَلَدٍ، ووَلَدُ الرَّجُلِ مِن كَسْبِه). ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٦٩)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٨)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٣٨).

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

أن أعقَبَ ذمَّ أبي لهَبٍ ووَعيدَه بمِثْلِ ذلك لامرأتِه؛ لأنَّها كانت تُشارِكُه في أذى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وتُعينُه عليه(١).

﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ٤﴾.

أي: وسيَدخُلُ معه النَّارَ زَوجتُه الحامِلةُ للحَطَبِ(٢).

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٧).

قال البِقاعي: (﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ أي: أمُّ جميلٍ -أختُ أبي سُفْيانَ بنِ حَربِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عبدِ شَمسِ ابنِ عبدِ مَنافِ بنِ قُصَيٍّ- مِثْلُ زَوجِها في التَّبابِ والصِّلِيِّ مِن غيرِ أن يُغْنيَ عنها شيءٌ مِن مالٍ ولا حَسَبٍ ولا نَسَبٍ). ((نظم الدرر)) (٢٢/ ٣٤١).

قيل: المرادُ: أنَّها كانت تحمِلُ حَطَبًا ذا شَوكٍ فتَضَعُه في طريقِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، وابنُ جرير، والزمخشريُّ، والنسفيُّ، وأبو السعود. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩١٤)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢١)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٥)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٩٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١١).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وعطيَّةُ الجَدَليِّ، والرَّبيعُ بنُ أنَسٍ، ومُرَّةُ الهَمْدانيُّ والضَّحَّاكُ، وابنُ زَيدٍ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧١٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٢٧)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥).

قال ابنُ عاشور: (فيَحتَمِلُ أنَّها صِفتُها في جهنَّمَ، ويحتَمِلُ أنَّها صِفتُها الَّتي كانت تعمَلُ في الدُّنيا بجَلْبِ حَطَبِ العِضاهِ [الأشجار التي لها شوك]؛ لتَضَعَه في طريقِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، على طريقةِ التَّوجيهِ والإيماءِ إلى تعليلِ تعذيبِها بذلك). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٦).

وقيل: المعنى: أنَّها كانت تمشي بالنَّميمةِ؛ إيقادًا للعداوةِ. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجُملةِ: الفَرَّاءُ، وابنُ قُتَيْبَةَ. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٢٩٩)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢).

=

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

أي: في عُنُقِ امرأةِ أبي لهَبٍ حَبلٌ مَفتولٌ(١).

= وممَّن قال بهذا القولِ مِن السَّلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وعِكْرِمةُ، والحسَنُ، وقَتادةُ، والثَّوْريُّ، والسُّدِّيُّ. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢٠)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٢٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥).

قال النَّيْسابوريُّ: (والأكثَرونَ على أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ أنَّها كانت تَمشي بالنَّميمةِ). ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٩١).

وممَّن ذهب إلى الجَمعِ بيْن معنى حَمْلِها الشَّوكَ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ونَثْرِه في طريقِه إيذاءً له، ومَشْيِها بالنَّميمةِ لحَمْلِ النَّاسِ على مُعاداتِه صلَّى الله عليه وسلَّم، وحَمْلِها الحَطَبَ في الآخرةِ تعذيبًا لها: البِقاعيُّ. يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٣٤١، ٣٤٢).

قال ابنُ كثير: (﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ وكانت زَوجتُه مِن ساداتِ نِساءِ قُرَيش، وهي: أُمُّ جَميلٍ، واسمُها أَروَى بنتُ حَربِ بنِ أُمَيَّةَ، وهي أُختُ أبي سُفْيانَ. وكانت عَونًا لزَوجِها على كُفرِه وجُحودِه وعِنادِه؛ فلهذا تكونُ يومَ القِيامَة عَونًا عليه في عَذابِه في نارِ جَهنَّمَ؛ ولهذا قال: ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ يعني: تَحمِلُ الحَطبَ فتُلقِي على زَوجِها، ليَزدادَ على ما هو فيه، وهي مُهيَّأةٌ لذلك، مُستَعِدَّةٌ له). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٥).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢٢، ٧٢٥)، ((معاني القرآن)) للزجاج (٥/ ٣٧٦)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٧).

قال ابنُ جُزَي: (في المرادِ به ثلاثةُ أقوالٍ:

الأوَّلُ: أنَّه إخبارٌ عن حَمْلِها الحَطَبَ في الدُّنيا...

والآخَرُ: أنَّه حالُها في جهنَّمَ يكونُ كذلك، أي: يكونُ في عُنُقِها حَبلٌ.

الثَّالِثُ: أنَّها كانت لها قِلادةٌ فاخِرةٌ، فقالت: لَأُنفِقَنَّها على عداوةِ محمَّدٍ). ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٢). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٦٧، ٣٦٨).

وقال السَّمَرْقَنْديُّ: (قال أكثَرُ أهلِ التَّفسيرِ: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ يعني: في الآخِرةِ في عُنُقِها سِلسلةٌ مِن حديدٍ، وتحتَها نارٌ، وفوقَها نارٌ). ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣٣).

وقيل: إنَّ المسَدَ هو اللِّيفُ، وممَّن اختاره: ابنُ جُزَي، وجلالُ الدِّينِ المحلِّيُّ، والشَّوكانيُّ، والسعديُّ، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٢)، ((تفسير الجلالين)) (ص: =

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- إنَّ سورةَ ﴿تَبَّتۡ﴾ نزَلَتْ في أبي لهبٍ وامرأتِه، وهما مِن أشرَفِ بطنَينِ في قُرَيشٍ، وهو عَمُّ عَلِيٍّ، وهي عمَّةُ مُعاويةَ، واللَّذان تَداوَلا الخِلافةَ في الأُمَّةِ هذانِ البَطنانِ: بنو أميَّةَ، وبنو هاشمٍ، وأمَّا أبو بكرٍ وعُمَرُ فمِن قبيلتَينِ أبْعَدَ عنه صلَّى الله عليه وسلَّم، واتَّفَقَ في عَهدِهما ما لم يَتَّفِقْ بَعْدَهما، وليس في القرآنِ ذَمُّ مَن كَفَرَ به صلَّى الله عليه وسلَّم باسمِه إلَّا هذا وامرأتُه؛ ففيه أنَّ الأنسابَ لا عِبرةَ بها، بل صاحِبُ الشَّرَفِ يكونُ ذَمُّه على تَخَلُّفِه عن الواجبِ أعظَمَ، كما قال تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾ [الأحزاب: ٣٠] الآيةَ[(١)].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ * وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ وَصْفُ بَعْلِها وهو يَصْلَى، وهي تَحْمِلُ الحَطَبَ عليه -وذلك على قولٍ في التَّفسيرِ-، كما أعانَتْه على الكُفرِ؛ فيكونُ مِن حَشْرِ الأزواجِ، وفيه عِبرةٌ لكلِّ مُتعاوِنَينِ على الإثمِ، أو على إثمٍ ما، أو عُدوانٍ ما[(٢)].

---

= ٨٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٢٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٧).

قال ابنُ عثيمين: (يعني: أنَّها متقَلِّدةٌ حَبلًا مِنَ اللِّيفِ، تخرُجُ به إلى الصَّحراءِ لتَربِطَ به الحَطَبَ الَّذي تأتي به لتضَعَه في طريقِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٧).

وقال ابنُ قُتَيْبَةَ: (أمَّا المسَدُ، فهو عندَ كثيرٍ مِن النَّاسِ: اللِّيفُ دونَ غيرِه. وليس كذلك، إنَّما المسَدُ: كلُّ ما ضُفِر وفُتِل مِن اللِّيفِ وغيرِه). ((تأويل مشكل القرآن)) (ص: ١٠٣).

وقال ابن جرير: (وأَوْلى الأقوالِ في ذلك عندي بالصَّوابِ، قولُ مَن قال: هو حبلٌ جُمِع مِن أنواعٍ مُختَلِفةٍ). ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢٥).

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٦/ ٦٠٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٦/ ٦٠٣).

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ ورَدَ عن ابنِ عبَّاسٍ والضَّحَّاكِ وغَيرِهما: أنَّها كانت تأتي بالشَّوكِ تَطرَحُه باللَّيلِ في الطَّريقِ، فيُفهَمُ منه أنَّ مِن شُعَبِ الإيمانِ: إماطةَ الأذى عن الطَّريقِ؛ لأنَّه تعالى عَدَّ ضِدَّه مِن خِصالِ الكُفَّارِ[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ﴾، فيه سُؤالٌ: ما السَّببُ في أنه لم يقلْ: (قُلْ: تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ)، وقال في سُورةِ الكافِرون: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾؟

**الجوابُ**: قيل: لأنَّ قَرابةَ العُمومةِ تَقتضي رِعايةَ الحُرمةِ، فلهذا السَّببِ لم يقلْ له: (قُلْ تَبَّتْ...)؛ لِئَلَّا يكونَ مُشافِهًا لعَمِّه بالشَّتْمِ، بخِلافِ السُّورةِ الأُخرَى؛ فإنَّ أولئك الكُفَّارَ ما كانوا أعمامًا له.

وقيل أيضًا: لَمَّا شَتَمُوك، فاسكُت حتَّى تَندَرِجَ تحتَ هذه الآيةِ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وإذا سَكَتَّ أنتَ، أَكونُ أنا المُجيبَ عنكَ[٢].

٢- قَولُه تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ ليس مِن التَّكرارِ؛ لاختلافِ مَقصودِ الفِعلَينِ؛ فإنَّ الأولَ منهما دُعاءٌ يُرادُ به الإنشاءُ، والثَّاني خَبَرٌ، أي: «تَبَّتْ يدا أبي لهَبٍ، وقد تَبَّ»[٣].

٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ﴾ استُدِلَّ به على جوازِ تَكنيةِ الكافِرِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥١)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٥٨٩).

(٣) يُنظر: ((جامع المسائل)) لابن تيمية (٨/ ٣٥٧)، ويُنظر ما يأتي (ص: ٤٠٣).

(٤) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠١).

٤- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ فيه سُؤالٌ: لِماذا كنَّاه، والتَّكنيةُ مِن بابِ التَّعظيمِ؟

**الجوابُ مِن وُجوهٍ:**

**الوَجهُ الأوَّلُ**: أنَّه لَمَّا كانت التَّكنيةُ قد تكونُ اسمًا، خَرَج عن إفادةِ التَّعظيمِ.

**الوَجهُ الثَّاني**: أنَّه كان اسمُه عبدَ العُزَّى، فعَدَل عنه إلى كُنيتِه؛ لأنَّ في اسمِه عِبادةَ العُزَّى، وذلك لا يُقِرُّه القرآنُ العزيزُ، ولأنَّ ذِكرَه باسْمِه خِلافُ الواقعِ حَقيقةً؛ لأنَّه عبدُ اللهِ لا عبْدُ العُزَّى.

**الوَجهُ الثَّالثُ**: أنَّه لَمَّا كان مِن أهلِ النَّارِ، ومآلُه إلى نارٍ ذاتِ لهَبٍ، وافَقَت حالُه كُنيتَه؛ فكان جديرًا بأن يُذكَرَ بها، ويُقالَ: (أبو لهَبٍ)، كما يُقالُ: (أبو الشَّرِّ) للشِّرِّيرِ، و(أبو الخيرِ) للخَيِّرِ، والأبُ: يُطلَقُ على مُلازِمٍ ما أُضِيفَ إليه، كقولِهم: «أبُوها وكَيَّالُها»، وكما كُنِّيَ إبراهيمُ عليه السَّلامُ أبا الضِّيفانِ، فكانتْ كُنيةُ أبي لَهَبٍ صالحةً مُوافِقةً لحالِه مِن استِحقاقِه لَهَبَ جَهنَّمَ، فصار هذا التَّوجيهُ كِنايةً عن كَونِه جَهنَّميًّا؛ ليُنتقَلَ مِن جَعْلِ أبي لَهَبٍ بمعْنى مُلازِمِ اللَّهَبِ إلى لازمِ تلك المُلازَمةِ في العُرفِ، وهو أنَّه مِن أهْلِ جَهنَّمَ.

**الوَجهُ الرَّابعُ**: كُنِّيَ بذلك لتلَهُّبِ وَجنَتَيه وإشراقِهما، فيَجوزُ أن يُذكَرَ بذلك تهكُّمًا به وبافتخارِه بذلك، واحتِقارًا له. وقد قيل: إنَّه كان يُكنَّى بذلك في الجاهليَّةِ لُحسْنِه وإشراقِ وَجْهِه، وإنَّه اشتَهَرَ بتلك الكُنيةِ.

**الوَجهُ الخامِسُ**: أنَّه كان بكُنيتِه أشهَرَ منه باسمِه العَلَمِ، فلمَّا أُريدَ تَشهيرُه بدَعوةِ السَّوءِ وأنْ تَبْقى سِمةً له، ذُكِرَ الأشهَرُ مِن عَلَمَيْه[1]. .....

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٤)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥٠)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣١، ٦٣٢)، =

وقيلَ غيرُ ذلك[١].

٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ فيه آيةٌ باهِرةٌ مِن آياتِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ فإنَّ اللهَ أنزَلَ هذه السُّورةَ، وأبو لهَبٍ وامرأتُه لم يَهلِكا، وأخبَرَ أنَّهما سيُعَذَّبانِ في النَّارِ ولا بُدَّ، ومِن لازِمِ ذلك أنَّهما لا يُسلِمانِ؛ فوقَعَ كما أخبَرَ عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ[٢]، ففي هذه السُّورةِ معجزةٌ ظاهرةٌ، ودليلٌ واضحٌ على النُّبوَّةِ[٣].

٦- قال الله تبارك وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾، ولو كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُداهِنُ أحدًا في الدِّينِ ويُسامِحُه فيه، لَكانت تلك المُداهَنةُ والمُسامَحةُ مع عَمِّه الَّذي هو قائمٌ مَقامَ أَبيهِ، فلمَّا لم تَحصُلْ هذه المُداهَنةُ معه، انقَطعَتِ الأَطماعُ، وعَلِمَ كلُّ أحدٍ أنَّه لا يُسامِحُ أحدًا في شَيءٍ يَتعلَّقُ بالدِّينِ أَصلًا[٤].

٧- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ استدَلَّ به الشَّافعيُّ رحمه الله على صِحَّةِ أنكِحةِ الكُفَّارِ[٥]؛ فقد سَمَّاها اللهُ تعالى امرأتَه بعَقدِ النِّكاحِ الواقِعِ في الشِّرْكِ. وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾

---

= ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠١، ٦٠٢).

(١) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٣٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥١٥).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥٠، ٣٥١).

(٥) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠١).

مذهبُ جمهورِ الفُقهاءِ مِن الحنفيَّةِ والشَّافعيَّةِ -على الصَّحيحِ-، والحنابلةِ، وهو قولٌ عندَ المالكيَّةِ: أنَّ نكاحَ الكفَّارِ -غيرِ المرتدِّينَ- بعضِهم لبعضٍ صحيحٌ. يُنظر: ((الموسوعة الفقهية الكويتية)) (٤١/ ٣١٩).

[التحريم: ١١]، فسَمَّاها «امرأتَه». والصَّحابةُ رضيَ الله عنهم غالبُهم إنَّما وُلِدُوا مِن نِكاحٍ كان قبْلَ الإسلامِ في حالِ الشِّرْكِ، وهُم يُنسَبونَ إلى آبائِهم انتِسابًا لا رَيبَ فيه عندَ أحدٍ مِن أهلِ الإسلامِ، وقد أَسلَمَ الجَمُّ الغَفيرُ في عَهدِ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فلم يأمُرْ أحدًا منهم أن يُجدِّدَ عَقْدَه على امرأتِه[١].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قَولُه تعالَى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾

- افتِتاحُ السُّورةِ بالتَّبابِ مُشعِرٌ بأنَّها نَزَلَت لتَوبيخٍ ووَعيدٍ، فذلك بَراعةُ استهلالٍ[٢] مِثلَ ما تُفتتَحُ أشعارُ الهِجاءِ بما يُؤذِنُ بالذَّمِّ والشَّتمِ[٣].

- والتَّبُّ: الخُسرانُ والهلاكُ، والكلامُ دُعاءٌ وتَقريعٌ لأبي لَهَبٍ دافَعَ اللهُ به عن نَبيِّه بمِثلِ اللَّفظِ الَّذي شَتَمَ به أبو لَهَبٍ محمَّدًا صلَّى الله عليه وسلَّم جَزاءً وِفاقًا[٤].

- وإسنادُ التَّبِّ إلى اليَدَينِ؛ لأنَّ العمَلَ أكثَرُ ما يكونُ بهما، وهو في الحقيقةِ للنَّفْسِ، فالمرادُ: هَلاكُ جُملتِه. وقيل: إنَّما خُصَّت اليَدانِ بالذِّكرِ؛ لأنَّه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لَمَّا جَمَعَ أقاربَه فأنْذَرَهم، قال أبو لَهَبٍ: تَبًّا لك، ألِهذا دَعَوْتَنا؟! وأخَذَ حَجَرًا ليَرمِيَه به، فنَزَلَت[٥]. وفي حديث طارقٍ المُحارِبيِّ رضيَ الله عنه أنَّ أبا لهبٍ كان يَتْبَعُ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بالحِجارةِ قد

(١) يُنظر: ((أحكام أهل الذمة)) لابن القيم (٢/ ٦١٤). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٣٢/ ١٧٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٠).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٠١).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٥٠).

أدمى كعبَيْه وعُرقُوبَيه[١]؛ فوَقَعَ الدُّعاءُ على يَدَيْه؛ لأنَّهما سَببُ أذى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم[٢].

- وجُملةُ ﴿وَتَبَّ﴾ إمَّا مَعطوفةٌ على جُملةِ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ عطْفَ الدُّعاءِ على الدُّعاءِ إذا كان إسنادُ التَّبابِ إلى اليَدَينِ لأنَّهما آلةُ الأذى بالرَّمي بالحِجارةِ، فأُعِيدَ الدُّعاءُ على جَميعِه؛ إغلاظًا له في الشَّتْمِ والتَّقريعِ، وتُفيدُ بذلك تَأكيدًا لجُملةِ ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾؛ لأنَّها بمَعناها، وإنَّما اختَلَفَتا بالكُلِّيَّةِ والجُزئيَّةِ، وذلك الاختلافُ هو مُقْتضى عَطْفِها، وإلَّا لَكان التَّوكيدُ غيرَ مَعطوفٍ؛ لأنَّ التَّوكيدَ اللَّفظيَّ لا يُعطَفُ بالواوِ، وإمَّا أنْ تكونَ في مَوضعِ الحالِ، والواوُ واوَ الحالِ، ولا تَكون دُعاءً، وإنَّما إخبارٌ بعْدَ دُعاءٍ، والتَّعبيرُ بالماضي لتَحقُّقِ وُقوعِه، وكأنَّ ذلك قدْ حصَلَ؛ فيكونَ الكلامُ قبْلَه مُستعمَلًا في الذَّمِّ والشَّماتةِ به، أو لطَلَبِ الازديادِ، فيَتمحَّضُ الكلامُ قبْلَه لمَعْنى الذَّمِّ والتَّحقيرِ دونَ معْنى طَلَبِ حُصولِ التَّبابِ له. وقيلَ: الأوَّلُ إخبارٌ عن هَلاكِ عَمَلِه؛ لأنَّ الأعمالَ تُزاوَلُ غالبًا بالأيدي، والثَّاني إخبارٌ عن هَلاكِ نفْسِه[٣].

٢- قَولُه تعالَى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾

- قَولُه: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ استِئنافٌ ابتدائيٌّ للانتقالِ مِن إنشاءِ الشَّتمِ والتَّوبيخِ إلى الإعلامِ بأنَّه آيِسٌ مِن النَّجاةِ مِن هذا التَّبابِ، ولا

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٥٠).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٥، ٥٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠١).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٣).

يُغْنيه مالُه، ولا كسْبُه، أي: لا يُغْني عنه ذلك في دفْعِ شَيءٍ عنه في الآخرةِ[١].

- والتَّعبيرُ بالماضي في قَولِه: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ﴾؛ لتَحقيقِ وُقوعِ عدَمِ الإغناءِ[٢].

- قَولُه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مَوصولٌ وصِلتُه، والعائدُ مَحذوفٌ جوازًا؛ لأنَّه ضَميرُ نصْبٍ، والتَّقديرُ: وما كَسَبَه، أي: ما جَمَعَه، والمرادُ به: ما يَملِكُه مِن غيرِ النَّعَمِ؛ مِن نُقودٍ وسِلاحٍ، ورَبْعٍ وعُروضٍ، وطَعامٍ. ويَجوزُ أنْ يُرادَ بمالِه: جَميعُ مالِه، ويكونَ عطْفُ ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مِن ذِكرِ الخاصِّ بعْدَ العامِّ؛ للاهتِمامِ به، أي: ما أغْنى عنه مالُه التَّالِدُ، وهو ما وَرِثَه عن أبيهِ عبدِ المُطَّلبِ، وما كَسَبَه هو بنفْسِه، وهو طَريفُه[٣]. وقيلَ غيرُ ذلك.

ويَجوزُ أنْ تكونَ (ما) في قَولِه: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ استفهامًا في معْنى الإنكارِ، أيْ: أيَّ شَيءٍ يُغْني عنه مالُه؟! وأيَّ شَيءٍ كَسَبَ؟ على وَجْهِ التَّقريرِ والإنكارِ[٤].

- قَولُه: ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ﴾ بَيانٌ لجُملةِ ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ أي: لا يُغْني عنه شَيءٌ مِن عَذابِ جَهنَّمَ[٥].

- قَولُه: ﴿سَيَصۡلَىٰ﴾ السِّينُ للاستِقبالِ وإنْ تَراخى الزَّمانُ، وهو وَعيدٌ كائنٌ إنجازُه لا مَحالةَ وإنْ تَراخى وَقْتُه، فالسِّينُ لتَأكيدِ الوَعيدِ وتَشديدِه[٦].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٣).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٠٤).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٤، ٨١٥)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٦، ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٤).

(٦) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٤).

- ووَصْفُ النَّارِ بـ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ لزيادةِ تَقريرِ المُناسَبةِ بيْن اسمِه وبيْن كُفْرِه؛ إذ هو أبو لَهَبٍ، والنَّارُ ذاتُ لَهَبٍ، وهو ما تَقدَّمَ الإيماءُ إليه بذِكرِ كُنيتِه، وفي وَصْفِ النَّارِ بذلك زِيادةُ كَشْفٍ لحقيقةِ النارِ، وهو مِثلُ التَّأكيدِ[١].

٣- قَولُه تعالَى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدٖ﴾

- قَولُه: ﴿حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ ﴿حَمَّالَةَ﴾ على وَزْنِ (فعَّالة)؛ للمُبالَغةِ[٢].

- وقُدِّمَ الخبَرُ مِن قولِه: ﴿فِي جِيدِهَا﴾؛ للاهتِمامِ بوَصْفِ تلك الحالةِ الفَظيعةِ الَّتي عُوِّضَت فيها بحَبْلٍ في جِيدِها عن العِقدِ الَّذي كانت تُحلِّي به جِيدَها في الدُّنيا، فتُربَطُ به؛ إذ قد كانت هي وزَوجُها مِن أهلِ الثَّراءِ، وسادةِ أهلِ البَطْحاءِ[٣].

- والجِيدُ: العُنقُ، وغَلَبَ في الاستِعمالِ على عُنقِ المرأةِ وعلى مَحلِّ القِلادةِ منه، فقَلَّ أنْ يُذكَرَ العُنقُ في وَصْفِ النِّساءِ في الشِّعرِ العربيِّ إلَّا إذا كان عُنقًا مَوصوفًا بالحُسنِ، والمعروفُ أنْ يُذكَرَ العُنقُ إذا ذُكِرَ الحَلْيُ أو الحُسنُ؛ فإنَّما حَسُنَ هنا ذِكرُ الجيدِ في حُكْمِ البلاغةِ؛ لأنَّها امرأةٌ، والنِّساءُ تُحلِّي أجْيادَهنَّ، وأمُّ جَميلٍ لا حَلْيَ لها في الآخِرةِ إلَّا الحبْلُ المَجعولُ في عُنقِها، فلمَّا أُقِيمَ لها ذلك مُقامَ الحَلْيِ ذُكِرَ الجِيدُ معه[٤].

- وفي قَولِه: ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدٖ﴾ ما يُعرَفُ في البَلاغةِ بالتَّهكُّمِ؛ فقدْ صوَّرَها تَصويرًا فيه مُنتهَى الخِسَّةِ والقَماءةِ، والمعْنى ﴿فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١١)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٦).

مَّسَدٍ﴾: مِن الحِبالِ، وأنَّها تَحمِلُ تلك الحُزمةَ وتَربِطُها في جِيدِها؛ تَخسيسًا لحالِها، وتَصويرًا لها بصُورةِ بَعضِ الحطَّاباتِ مِن المَواهِنِ -جمْعُ ماهِنٍ، وهي الخادِمُ- لتَمتعِضَ مِن ذلك، ويَمتعِضَ زَوجُها، وهما في بَيتِ العِزِّ والشَّرفِ، وفي مَنصبِ الثَّروةِ والجِدَةِ[1].

وقيل: إنَّما عُبِّرَ عن قِلادتِها بـ﴿حَبۡلٞ مِّن مَّسَدٖ﴾ على جِهةِ التَّفاؤُلِ لها، وذِكرِ تَبرُّجِها في هذا السَّعيِ الخَبيثِ[2].

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٦)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١١)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٥)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٦٨).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الإِخْلاصِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سُورةُ الإخْلاصِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ الإخْلاصِ[١].

وسُمِّيت أيضًا بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فعن أبي الدَّرْداءِ رضِيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((أَيَعْجِزُ أحَدُكم أن يَقرأَ في لَيلةٍ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قالوا: وكيف يَقرأُ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ))[٢].

ويُطلَقُ عليها مع سورتَي (الفَلَقِ) و(النَّاسِ): (المُعَوِّذاتُ):

عن عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((أمَرَني رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن أَقرأَ بالمُعَوِّذاتِ[٣] .....

---

(١) قال الفيروزابادي: (سُمِّيت سورةَ الإخلاصِ؛ لأَنَّها خالصُ التَّوحيدِ؛ وسببُ خلاصِ أهْلِه). ((بصائر ذوي التمييز)) (٢/ ١٧٣).

وقال ابن عاشور: (واشْتُهِرَ هذا الاسمُ؛ لاختِصارِه، وجَمْعِه مَعانيَ هذه السُّورةِ؛ لأنَّ فيها تعليمَ النَّاسِ إخلاصَ العبادَةِ لله تعالَى، أي: سلامةَ الاعتقادِ مِن الإشراكِ باللهِ غيرَه في الإلَهيَّةِ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٩).

وقال ابنُ عثيمين: (سُمِّيت به؛ لأنَّ اللهَ تعالى أخلَصَها لنَفْسِه، فلَمْ يَذكُرْ فيها إلَّا ما يَتعَلَّقُ بأسمائِه وصِفاتِه، ولأنَّها تُخَلِّصُ قارِئَها مِن الشِّركِ والتَّعطيلِ). ((مذكرة على العقيدة الواسطية)) (ص: ١٣).

وسُمِّيت أيضًا: الأساسَ، والمقشقِشةَ [أي: المبرئة، وهو مِن قَشْقَشَ المريضُ: إذا صحَّ وبَرِئَ]، والتَّوحيدَ، والتَّجريدَ... إلى غيرِ ذلك، وقد ذكروا لها أكثرَ من عِشرينَ اسْمًا. يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٥٧)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٠٩).

(٢) أخرجه مسلم (٨١١).

وأخرجه البخاري (٥٠١٥) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٣) قال ابنُ حجر: (المُعَوِّذاتِ أي: السُّوَرِ الثَّلاثِ، وذكَر سورةَ الإخلاصِ معهما تغليبًا؛ لِما اشتمَلَت عليه مِن صفةِ الرَّبِّ، وإن لم يصرَّحْ فيها بلَفظِ التَّعويذِ). ((فتح الباري)) (٩/ ٦٢).

في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[١].

## فضائلُ السُّورة وخصائصُها:

### ١- أنَّها تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ:

عن أبي الدَّرْداءِ رضيَ الله عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، قال: ((أَيَعْجِزُ أحَدُكم أن يَقرأَ في لَيلةٍ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قالوا: وكيف يَقرأُ ثُلُثَ القُرآنِ؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ))[٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضيَ الله عنه: ((أنَّ رجلًا سمِع رجلًا يقرأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ يردِّدُها، فلمَّا أصبَح جاء إلى رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم فذكَر ذلك له، وكأنَّ الرَّجلَ يتقالُّها، فقال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: والذي نَفْسي بيدِه إنَّها لتعدلُ ثلثَ القرآنِ))[٣].

---

(١) أخرجه أبو داودَ (١٥٢٣)، والنَّسائيُّ (١٣٣٦)، وأحمدُ (١٧٤١٧) واللَّفظُ لهم، والترمذيُّ (٢٩٠٣) باختلافٍ يسيرٍ.
صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٢٠٠٤)، وابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٢٩٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٥٢٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ٦٣٤). وذكر ابنُ باز في ((الفوئد العلمية)) (٦/ ٣٣٥) أنَّ له طرقًا جيِّدةً.

(٢) تقدَّم تخريجُه قريبًا.
قال ابن تيميَّةَ: (القُرآنُ باعتبارِ معانيه ثلاثةُ أثلاثٍ: ثُلُثٌ توحيدٌ، وثُلُثٌ قَصَصٌ، وثُلُثٌ أمْرٌ ونَهْيٌ؛ لأنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ، والكلامُ: إمَّا إنشاءٌ، وإمَّا إخبارٌ، والإخبارُ: إمَّا عن الخالقِ، وإمَّا عن المخلوقِ، والإنشاءُ: أمرٌ ونهيٌ وإباحةٌ؛ فـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيها ثُلُثُ التَّوحيدِ، الَّذي هو خَبَرٌ عن الخالقِ). ((اقتضاء الصراط المستقيم)) لابن تيمية (٢/ ٣٩٣).
وقال ابن عثيمين: («تعدلُ ثلثَ القرآنِ» يعني أجرها كأجرِ ثلثِ القرآنِ، لكنَّها لا تجزئُ عن القرآنِ، ولهذا لو قرَأها الإنسانُ مثلًا ثلاثَ مرَّاتٍ بدلَ قراءةِ الفاتحةِ في الصلاةِ لا تجزئُ). ((شرح رياض الصالحين)) (٤/ ٦٧٦). ويُنظر: ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: ٩٢).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٣).

**٢- أَمَر الرَّسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم بقِراءةِ المُعَوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ) في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ:**

كما في حديثِ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضِيَ الله عنه، وقد تقدَّم.

**٣- ما أُنزِلَ مِثلُ المُعَوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ) في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الفُرقانِ:**

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((... لَقِيتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال لي: يا عُقْبَةُ بنَ عامِرٍ، ألَا أُعَلِّمُك سوَرًا ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ، ولا في الزَّبورِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الفُرقانِ مِثلُهُنَّ؟ لا يأتِيَنَّ عليك لَيلةٌ إلَّا قَرَأْتَهُنَّ فيها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. قال عُقْبَةُ: فما أَتَتْ عليَّ لَيلةٌ إلَّا قَرأْتُهُنَّ فيها، وحُقَّ لي ألَّا أَدَعَهُنَّ وقد أَمَرَني بهِنَّ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم[1]).

**٤- مَن قَرأَ المعوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ) صباحًا ومَساءً ثلاثًا تَكْفِيه مِن كلِّ شَيءٍ:**

عن عبدِ الله بنِ خُبَيبٍ رضِيَ الله عنه، قال: ((خرَجْنا في لَيلةٍ مَطِيرةٍ وظُلْمةٍ شديدةٍ نَطلُبُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُصَلِّي لنا، فأدرَكْتُه فقال: قُلْ. فلمْ أَقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. فلمْ أقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. قلتُ: ما أقولُ؟ قال: قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ حينَ تُمْسي وحينَ تُصبِحُ ثلاثَ مرَّاتٍ تَكفيكَ مِن

---

(١) أخرجه أحمدُ (١٧٤٥٢) واللَّفظُ له، وهَنَّادٌ في ((الزهد)) (٢/ ٤٩٣)، وابنُ أبي الدنيا في ((مكارم الأخلاق)) (٢٠) كلاهما مختصرًا.

صحَّح إسنادَه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٦/ ٨٥٩)، وحسَّن إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٨/ ٦٥٥)، ووثَّق رجالَه الهَيْثَميُّ في ((مجمع الزوائد)) (٧/ ١٥١)، والشَّوكانيُّ في ((تحفة الذاكرين)) (ص: ٤٤٤).

كلِّ شَيءٍ[١]))[٢].

**٥- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا اشتكى رقَى نفْسَه بالمعوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ):**

عن عائشةَ رَضِيَ الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا اشْتكى يَقرأُ على نفْسِه بالمُعَوِّذاتِ ويَنْفُثُ[٣]، فلمَّا اشْتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرَأُ عليه وأمْسَحُ بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكَتِها))[٤].

**٦- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُعَوِّذُ نفْسَه بالمعوِّذاتِ (ومنها سورةُ الإخلاصِ) إذا أَوَى إلى فِراشِه:**

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أوَى إلى فِراشِه كُلَّ لَيلةٍ جَمَع كَفَّيْه، ثُمَّ نَفَث فيهما فقَرَأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمسَحُ بهما ما اسْتَطاع

---

(١) قيل: المعنى: تَكفيك مِن كلِّ شَيءٍ تَخْشى منه كائنًا ما كان، وتَدفَعُ عنك كلَّ سوءٍ. ويحتملُ أن يكونَ معناه: تُغْنيك عمَّا سِواها. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٥/ ١٦٧١)، ((مرقاة المفاتيح)) لعليٍّ القاري (٤/ ١٤٨٥)، ((تحفة الذاكرين)) للشوكاني (ص: ٩٧).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٥٠٨٢)، والترمذيُّ (٣٥٧٥) واللَّفظُ له، والنَّسائيُّ (٥٤٢٨)، وعبدُ الله بنُ أحمدَ في ((زوائد المسند)) (٢٢٦٦٤).

صحَّحه ابنُ دقيقِ العيدِ في ((الاقتراح)) (ص: ١٢٨)، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (٢/ ٣٤٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (٥٠٨٢)، وصحَّح إسنادَه النوويُّ في ((الأذكار)) (ص: ١٠٧)، وحسَّنه ابنُ باز في ((مجموع فتاواه)) (٢٦/ ٢٦).

(٣) النَّفثُ: هو نفخٌ لطيفٌ مِن الفَمِ معه ريقٌ خفيفٌ أو بلا ريقٍ. يُنظر: ((شرح المشكاة)) للطِّيبي (٥/ ١٦٥١)، ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٠٩)، ((إرشاد الساري)) للقَسْطَلَّاني (٨/ ٣٩٣).

(٤) أخرجه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).

مِن جَسَدِه، يَبْدَأُ بهما على رَأْسِه ووَجْهِه وما أَقْبَلَ مِن جَسَدِه، يَفعَلُ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ))[١].

**٧- مَن دَعا بما تَضَمَّنَتْه مِن أسماءٍ فقد دَعا الله باسمِه الأعظَمِ:**

عن بُرَيْدةَ رضيَ الله عنه: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم سَمِعَ رجُلًا يقولُ: اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ بأنَّكَ أنتَ اللهُ الأحَدُ الصَّمَدُ، الَّذي لم يَلِدْ ولم يولَدْ، ولم يَكُنْ له كُفُوًا أحَدٌ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: لَقد سألَ اللهَ باسْمِه الأعظَمِ، الَّذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ به أجابَ))[٢].

**٨- مَن أحَبَّها دخَل الجنَّةَ:**

عن أَنَسٍ رضيَ الله عنه، قال: ((كان رجُلٌ مِن الأنصارِ يَؤُمُّهم في مَسجدِ قُباءٍ، وكان كُلَّما افتتَح سورةً يَقرأُ بها لهم في الصَّلاةِ ممَّا يُقرأُ به افتتَح بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتَّى يَفرُغَ منها ثمَّ يَقرأُ سورةً أخرى معها، وكان يَصنعُ ذلك في كلِّ ركعةٍ، فكلَّمهُ أصحابُه فقالوا: إنَّك تَفتَتِحُ بهذه السُّورةِ ثمَّ لا ترى أنَّها تُجزئُكَ حتَّى تَقرأَ بأخرى، فإمَّا أنْ تَقرأَ بها وإمَّا أنْ تَدَعَها وتَقرأَ بأخرى. فقال: ما أنا بتارِكِها، إنْ أحبَبْتُم أنْ أَؤُمَّكم بذلك فعَلْتُ، وإنْ كَرِهْتُم تَرَكْتُكم، وكانوا يَرَوْنَ أنَّه مِن أفضَلِهم، وكَرِهوا أنْ يَؤُمَّهم غيرُه، فلمَّا أتاهم النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

(٢) أخرجه أبو داودَ (١٤٩٣)، والترمذيُّ (٣٤٧٥)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (٧٦٦٦)، وابنُ ماجه (٣٨٥٧)، وأحمدُ (٢٣٠٤١) واللَّفظُ له.

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (٨٩١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (١٤٩٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٤٩٣)، وصحَّح إسنادَه ابنُ باز في ((فتاوى نور على الدرب)) (٢/ ١٣٢).

أخبَروه الخبَرَ، فقال: يا فُلانُ، ما يَمْنَعُك أنْ تَفعلَ ما يأمُرُك به أصحابُك؟ وما يَحمِلُك على لُزومِ هذه السُّورةِ في كلِّ ركعةٍ؟ فقال: إنِّي أُحِبُّها. فقال: حُبُّكَ إيَّاها أدخَلكَ الجنَّةَ))[١].

**٩- مَن أَحَبَّ القِراءةَ بها أَحَبَّه اللهُ، وهي صِفَةُ الرَّحمنِ:**

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم بَعَثَ رجُلًا على سَرِيَّةٍ[٢]، وكان يَقرأُ لأصْحابِه في صَلاتِهم فيَختِمُ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلَمَّا رَجَعوا ذَكَروا ذلك للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال: سَلُوهُ لأيِّ شَيءٍ يَصنَعُ ذلك، فسَأَلوه، فقال: لأنَّها صِفةُ الرَّحمنِ، وأنا أُحِبُّ أنْ أقرَأَ بها، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: أَخْبِرُوهُ أنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّه))[٣].

**١٠- سَمِعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلًا يقرأُ بها فقال: ((وَجَبَتْ له الجنَّةُ)):**

عن أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم سمِعَ رجُلًا يقرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتَّى ختَمها، فقال: وَجَبَتْ، قيل: يا رسولَ اللهِ، ما وجبَتْ؟ قال: الجنَّةُ، قال أبو هُرَيرةَ: فأرَدْتُ أنْ آتيَه فأُبَشِّرَه، فآثَرْتُ الغَداءَ معَ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، وفَرِقْتُ أن يَفوتَني الغداءُ معَ رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ رجَعْتُ إلى الرَّجُلِ، فوجَدْتُه قد ذهَبَ))[٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٧٤م).

(٢) السَّرِيَّة: هي طائفةٌ مِن الجَيشِ يَبلُغُ أَقْصاها أربَعَمِئةٍ تُبعَثُ إلى العَدوِّ، وجَمْعُها: السَّرايا، سُمُّوا بذلك؛ لأنَّهم يَكونُون خُلاصةَ العَسْكرِ وخيارَهم، مِنَ الشَّيءِ السَّرِيِّ النَّفيسِ. يُنظر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٢/ ٣٦٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

(٤) أخرجه الترمذيُّ (٢٨٩٧)، والنَّسائيُّ (٩٩٤)، وأحمدُ (١٠٩١٩) واللَّفظُ له.
صحَّحه ابنُ عبدِ البَرِّ في ((التمهيد)) (٧/ ٢٥٤)، وابنُ العربيِّ في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٤٠)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٨٩٧).

**١١- سَمِعَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلًا يَقرأُ بها في الرَّكعةِ الثَّانيةِ مِن رَكعَتَيِ الفَجرِ فقال: ((هذا عَبْدٌ آمَنَ برَبِّه)):**

عن جابرٍ رضيَ الله عنه: ((أنَّ رجُلًا قام فرَكَعَ رَكْعَتَيِ الفَجرِ... وقرأَ في الآخِرةِ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتَّى انقَضَت السُّورةُ، فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم: هذا عَبدٌ آمَنَ برَبِّه))[(١)].

**١٢- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ بها في رَكعةِ الوِتْرِ:**

عن عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُوتِرُ بثلاثٍ، يقرأُ في الأُولى بـ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾، وفي الثَّانيةِ بـ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وفي الثَّالثةِ بـ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[(٢)].

**١٣- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يَقرأُ بها في سنَّةِ الفجرِ:**

عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ((كان رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم يُصلِّي... ركعتينِ قبلَ الفجرِ، وكان يقولُ: نِعْمَ السُّورَتانِ هُما، تَقرَؤُونَهما في الرَّكعَتَينِ قَبلَ الفَجرِ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾))[(٣)].

---

(١) أخرجه الطَّحاويُّ في ((شرح معاني الآثار)) (١٧٧٤)، وابنُ حِبَّانَ (٢٤٦٠)، والبَيْهَقيُّ في ((شُعَب الإيمان)) (٢٥٢٤).

صحَّحه ابنُ حِبَّانَ، وحسَّنه ابنُ حجر في ((نتائج الأفكار)) (١/ ٤٨٩)، وقوَّى إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((صحيح ابن حبان)) (٢٤٦٠)، وجوَّد إسنادَه الألبانيُّ في ((أصل صفة الصلاة)) (٢/ ٤٥٦).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٣٩٧).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١١٥٠)، وأحمد (٢٦٠٢٢) واللفظ له، وابن حبان في ((صحيحه)) (٢٤٦١).

صحَّحه ابن حبان، والألباني في ((صحيح ابن ماجه)) (٩٥٠) وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((المسند)) (٤٣/ ١٤٩).

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنِيِّ:

سُورةُ الإخلاصِ مكِّيَّةٌ، وقيلَ: مَدَنيَّةٌ[١].

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

بيانُ ما يَجِبُ لله تعالَى مِن صِفاتِ الكمالِ، وبيانُ ما يَجِبُ تَنْزيهُه عنه مِن النَّقائصِ والأمثالِ[٢].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

١- إثباتُ وَحدانيَّةِ الله تعالى.

٢- أنَّ لله تعالى صِفاتِ الكمالِ، ولا يُقصدُ في الحوائجِ غيرُه.

٣- إبطالُ أن يكونَ اللهُ والدًا، أو أن يكونَ مولودًا.

٤- تنزيهُ الله عن النَّظيرِ والمثيلِ.

---

(١) ونسَب القولَ بأنَّها مكيةٌ للجمهورِ: النَّسَفيُّ، وابنُ عاشور. يُنظر: ((تفسير النسفي)) (٣/ ٦٩٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١١).

وقيل: مَدَنيَّةٌ. وممَّن اختاره: السمعانيُّ، والسيوطيُّ. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٢)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ٥٥).

قال القُرطُبيُّ: (سورةُ الإخلاصِ مكِّيَّةٌ في قولِ ابنِ مسعودٍ، والحسَنِ، وعَطاءٍ، وعِكْرِمةَ، وجابرٍ. ومَدَنيَّةٌ في أحَدِ قَولَيِ ابنِ عبَّاسٍ، وقَتادةَ، والضَّحَّاكِ، والسُّدِّيِّ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٤٤). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٦٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٠٢).

(٢) يُنظر: ((اجتماع الجيوش الإسلامية)) لابن القيم (٢/ ٩٤). ويُنظر أيضًا: ((مصاعد النظر)) للبقاعي (٣/ ٢٨٠).

## الآيات (١-٤)

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

## غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿أَحَدٌ﴾: الأحدُ هو الَّذي لا ثانيَ له، ولم يَسبِقْه في أوَّليَّتِه شيءٌ، الَّذي توحَّدَ بجميعِ الكَمالاتِ، وتفرَّدَ بالجَلالِ والعَظَمةِ، فلا شَريكَ له ولا مِثلَ ولا نَظيرَ(١).

﴿ٱلصَّمَدُ﴾: أي: الَّذي لا جَوْفَ له، والسَّيِّدُ الَّذي يُصمَدُ إليه -أي: يُقصَدُ- في الأُمورِ، وأصلُ (صمد): يدُلُّ على القَصْدِ(٢).

﴿كُفُوًا﴾: أي: مَثيلًا أو نظيرًا، وأصلُ (كفأ): يدُلُّ على التَّساوي في الشَّيئَينِ(٣).

---

(١) يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله)) للزجاجي (ص: ٩٠)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للسعدي (ص: ١٦٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٩).

قال الخَطَّابيُّ: (قال النَّحْويُّونَ: أصْلُه في الكلامِ: الوَحَدُ، ويُقالُ: وَحُدَ الشَّيءُ يَوْحَدُ فهو وَحَدٌ. كما يُقالُ: حَسُنَ الشَّيءُ يَحْسُنُ فهو حَسَنٌ. ثمَّ أبْدَلُوا عن الواوِ الهَمْزةَ). ((شأن الدعاء)) (ص: ٨٢).

الفرق بيْن الواحِدِ والأحَدِ مِن وُجوهٍ:

منها: أنَّ الواحِدَ يُفيدُ وَحدةَ الذَّاتِ فقط، والأحَدَ يُفيدُه بالذَّاتِ والمعاني.

ومنها: أنَّ الواحِدَ في جِنسِ المَعدودِ، وقد يُفتتَحُ به العددُ، والأحَدَ يَنقطِعُ معه العددُ.

ومنها: أنَّ الأحدَ يَصلُحُ في الكلامِ في مَوضِعِ الجُحودِ، والواحدَ في موضعِ الإثباتِ، تقولُ: لَمْ يَأْتِني مِن القَومِ أحَدٌ، وجاءَني منهم واحدٌ، ولا يُقالُ: جاءني منهم أحدٌ. يُنظر: ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٨)، ((شأن الدعاء)) للخطابي (ص: ٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٠٨)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٣/ ٣٠٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٢)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٥٦٥).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٥/ ١٨٩)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٢).

## المعنى الإجماليُّ:

افتَتَح اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: قُلْ -يا محمَّدُ- مُعَرِّفًا باللهِ تعالى: هو المتفَرِّدُ بالوَحدانيَّةِ في ذاتِه وصِفاتِه، اللهُ الكاملُ في صِفاتِه الَّذي افتقَرَتْ إليه جميعُ مَخلوقاتِه، لم يَلِدْ أحَدًا ولم يَلِدْه أحَدٌ، وليس له مُساوٍ ولا نَظيرٌ سُبحانَه وتعالى.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- مُعَرِّفًا باللهِ تعالى: هو المتفَرِّدُ بالوَحدانيَّةِ في ذاتِه وصِفاتِه، فلا نَظيرَ له ولا شَريكَ[(١)].

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾.

أي: اللهُ الكاملُ في صِفاتِه، الَّذي افتقَرَتْ إليه جميعُ مَخلوقاتِه[(٢)].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٢٩)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٢٦)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٦)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢١٤، ٢١٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٩).
قال مقاتلٌ: (﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ يعني: الَّذي لا جَوفَ له كجَوفِ المخلوقينَ. ويُقالُ: الصَّمَدُ: السَّيِّدُ الَّذي تَصمُدُ إليه الخلائِقُ بحوائِجِهم، وبالإقرارِ والخُضوعِ). ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٢٦).
وقال ابنُ تيميَّةَ: (وتفسيرُ «الصَّمَدِ» بأنَّه الَّذي لا جَوفَ له: مَعروفٌ عن ابنِ مَسعودٍ مَوقوفًا ومرفوعًا، وعن ابنِ عبَّاسٍ، والحسَنِ البَصريِّ، ومجاهدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وعِكْرِمةَ، والضَّحَّاكِ، والسُّدِّيِّ، وقَتادةَ، وبمعنى ذلك قال سعيدُ بنُ المسَيِّبِ؛ قال: هو الَّذي لا حَشْوَ له. وكذلك قال ابنُ مسعودٍ: هو الَّذي ليست له أحشاءٌ. وكذلك قال الشَّعْبيُّ: هو الَّذي لا يأكُلُ ولا يَشرَبُ. وعن محمَّدِ بنِ كَعبٍ القُرَظيِّ وعِكْرِمةَ: هو الَّذي لا يخرُجُ منه شيءٌ. وعن مَيسَرةَ قال: هو =

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾.

أي: لم يَلِدْ أحَدًا مِنَ الإنسِ والجِنِّ والملائِكةِ أو غَيرِهم، ولم يَلِدْه أحَدٌ؛ فهو الأوَّلُ الَّذي ليس قَبْلَه شَيءٌ[1].

كما قال تعالى: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ

---

= المُصمَتُ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٢١٥).

وقيل: الَّذي يُقصَدُ في طَلَبِ الحوائجِ، فجَميعُ الخلائِقِ مُفتَقِرونَ إليه. وممَّن ذهب إلى هذا المعنى في الجملةِ: ابنُ قُتَيْبةَ، والزَّجَّاجُ، والسعديُّ، وابنُ عاشور، وذكَرَ ابنُ تيميَّةَ أنَّه قولُ طائفةٍ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ، وجُمهورِ اللُّغَويِّينَ. يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((تفسير أسماء الله الحسنى)) للزجاج (ص: ٥٨)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٧)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢١٤، ٢١٥).

وذهب ابنُ تيميَّةَ إلى أنَّ كِلا القولَينِ حَقٌّ وصوابٌ، فقال: (الاسمُ «الصَّمَدُ» فيه للسَّلَفِ أقوالٌ متعَدِّدةٌ، قد يُظَنُّ أنَّها مختَلِفةٌ، وليس كذلك، بل كُلُّها صوابٌ، والمشهورُ منها قَولانِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٢١٤، ٢١٥).

وقال ابنُ كثير: (قال الحافِظُ أبو القاسِمِ الطَّبَرانيُّ في كتابِ السُّنَّةِ له بعْدَ إيرادِه كثيرًا مِن هذه الأقوالِ في تفسيرِ «الصَّمَدِ»: وكُلُّ هذه صحيحةٌ، وهي صفاتُ رَبِّنا عزَّ وجَلَّ، وهو الَّذي يُصمَدُ إليه في الحوائِجِ، وهو الَّذي قد انتهى سُؤدُدُه، وهو الصَّمَدُ الَّذي لا جَوفَ له، ولا يأكُلُ ولا يَشرَبُ، وهو الباقي بعْدَ خَلْقِه. وقال البَيْهَقيُّ نحوَ ذلك أيضًا). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢٩).

قال ابن عثيمين: (رُويَ عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّ الصَّمدَ هو الكاملُ في عِلمِه، الكاملُ في حلمِه، الكاملُ في عِزَّتِه، الكاملُ في قُدرتِه، إلى آخِرِ ما ذُكِر في الأثرِ. وهذا يعني أنَّه مُستَغْنٍ عن جميعِ المخلوقاتِ؛ لأنَّه كاملٌ، وورد أيضًا في تفسيرِها أنَّ الصَّمدَ هو الَّذي تَصمُدُ إليه الخلائقُ في حوائجِها، وهذا يعني أنَّ جميعَ المخلوقاتِ مُفتَقِرةٌ إليه، وعلى هذا فيكونُ المعنى الجامعُ للصَّمدِ هو: الكاملَ في صِفاتِه، الَّذي افتقرَتْ إليه جميعُ مَخلوقاتِه). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٤٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣٧)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣٤)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٠).

شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠، ١٠١].

وقال سُبحانَه: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا * لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٥].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٢، ٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((قال اللهُ: كَذَّبَني ابنُ آدَمَ ولم يكُنْ له ذلك، وشتَمَني ولم يكُنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّايَ فقَولُه: لن يُعيدَني كما بدأني! وليس أوَّلُ الخَلْقِ بأهْوَنَ عليَّ مِن إعادتِه، وأمَّا شَتمُه إيَّايَ فقَولُه: اتَّخَذ اللهُ ولَدًا! وأنا الأحَدُ الصَّمَدُ، لم أَلِدْ ولم أُولَدْ، ولم يكُنْ لي كُفْئًا أحَدٌ))[(١)].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن رَسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم قال: ((اللَّهمَّ أنت الأوَّلُ فليس قَبْلَك شَيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بَعْدَك شَيءٌ))[(٢)].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

أي: وليس للهِ مُساوٍ ولا نَظيرٌ، أو مَثيلٌ وشَبيهٌ[(٣)].

كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) رواه البخاري (٤٩٧٤).

(٢) رواه مسلم (٢٧١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٣٨، ٧٣٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٧)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٤٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٥)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٠).

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ نفَى عن نَفْسِه الأُصولَ والفُروعَ والنُّظَراءَ، وهي جِماعُ ما يُنسَبُ إليه المخلوقُ مِن الآدَميِّينَ والبهائِمِ، والملائكةِ والجِنِّ، بل والنَّباتِ، ونحوِ ذلك؛ فإنَّه ما مِن شيءٍ مِن المخلوقاتِ إلَّا ولا بُدَّ أن يكونَ له شَيءٌ يُناسِبُه: إمَّا أصلٌ، وإمَّا فَرعٌ، وإمَّا نظيرٌ، أو اثنانِ مِن ذلك، أو ثلاثةٌ، وهذا في الآدَميِّينَ والجِنِّ والبهائِمِ ظاهِرٌ، وأمَّا الملائِكةُ فإنَّهم وإن لم يتَوالَدوا بالتَّناسُلِ فلَهم الأمثالُ والأشْباهُ[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ فيه الرَّدُّ على اليَهودِ والنَّصارى، والمَجوسِ والمُشرِكين، والحُلوليَّةِ والاتِّحاديَّةِ، وجميعِ الأديانِ الباطِلةِ[(٢)].

٣- قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وإنَّما نُفِيَ أنْ يكونَ اللهُ والدًا وأنْ يكونَ مَولودًا في الزَّمنِ الماضي؛ لأنَّ عَقيدةَ التَّولُّدِ ادَّعَت وُقوعَ ذلك في زمَنٍ مَضَى، ولم يَدَّعِ أحدٌ أنَّ اللهَ سيَتَّخِذُ ولَدًا في المُستقبَلِ[(٣)].

٤- إنَّ سورتَيْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ هما سُورتا الإخلاصِ، وقد اشتمَلَتا على نوعَيِ التَّوحيدِ الَّذي لا نجاةَ للعَبدِ ولا فلاحَ إلَّا بهما، وهما: **توحيدُ العِلمِ والاعتقادِ** المتضمِّنُ تنزيهَ اللهِ عمَّا لا يَليقُ به مِن الشِّركِ والكُفرِ والوَلَدِ والوالِدِ، وأنَّه إلهٌ أَحَدٌ صَمَدٌ، لم يَلِدْ؛ فيكونَ له فَرعٌ، ولم يولَدْ؛

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٣٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٩).

فيكونَ له أصلٌ، ولم يكُنْ له كُفُوًا أحدٌ؛ فيكونَ له نظيرٌ، ومع هذا فهو الصَّمَدُ الَّذي اجتمَعَت له صِفاتُ الكَمالِ كُلُّها؛ فتضَمَّنت السُّورةُ إثباتَ ما يليقُ بجلالِه مِن صِفاتِ الكَمالِ، ونَفْيَ ما لا يليقُ به مِنَ الشَّريكِ أصلًا وفَرْعًا ونظيرًا، فهذا توحيدُ العِلْمِ والاعتقادِ.

**والثَّاني: توحيدُ القَصدِ والإرادةِ**، وهو ألَّا يُعبَدَ إلَّا إيَّاه، فلا يُشْرَكَ به في عبادتِه سِواه، بل يكونُ وَحْدَه هو المعبودَ، وسورةُ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مُشتَمِلةٌ على هذا التَّوحيدِ؛ فانتظَمَت السُّورتانِ نَوعَيِ التَّوحيدِ، وأُخلِصَتا له، فكان صلَّى الله عليه وسلَّم يَفتَتِحُ بهما النَّهارَ في سُنَّةِ الفَجْرِ[1]، وأيضًا فإنَّه كان يُوتِرُ بهما[2]، فيَكونانِ خاتِمةَ عَمَلِ اللَّيلِ[3]. فسُنةُ الفجر تَجري مجرى بدايةِ العملِ، والوترُ خاتمتُه؛ ولذلك كان مِن السُّنَّةِ صلاةُ سنةِ الفجرِ والوترِ بهاتينِ السورتينِ؛ سورتي الإخلاصِ: [﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾]، فهما الجامعتانِ لتوحيدِ العلمِ والعملِ، وتوحيدِ المعرفةِ والإرادةِ، وتوحيدِ الاعتقادِ والقصدِ[4].

٥- تضَمَّنتْ هذه السُّورةُ العظيمةُ نفْيَ نوعينِ عن اللهِ تعالى؛ أحدُهما: المُماثَلةُ، ودلَّ على نَفْيِها قولُه تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ مع دَلالةِ قَولِه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ على ذلك؛ لأنَّ أحَديَّتَه تَقتضي أنَّه مُتفرِّدٌ بذاتِه وصِفاتِه، فلا يُشارِكُه في ذلك أحدٌ، والثَّاني: نفْيُ النَّقائصِ والعُيوبِ، وقد نفى منها التَّوَلُّدَ مِن الطَّرفَينِ، وتضَمَّنتْ إثباتَ جميعِ صِفاتِ الكَمالِ بإثباتِ الأحَديَّةِ؛ فالصَّمَديَّةُ

(١) يُنظر ما أخرجه مسلم (٧٢٦).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٣١).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (١/ ١٣٨).

(٤) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (١/ ٣٠٦).

تُثبِتُ الكمالَ المنافيَ للنَّقائصِ، والأَحَديَّةُ تُثبِتُ الانفرادَ بذلك؛ فإنَّ الأَحَديَّةَ تَقتضي انفرادَه بصِفاتِه، وامتيازَه عن خَلْقِه بذاتِه وصفاتِه، والصَّمَديَّةُ تَقتضي إثباتَ جميعِ صِفاتِ الكَمالِ ودوامِها وقِدَمِها؛ فإنَّ السَّيِّدَ الَّذي يُصمَدُ إليه لا يكونُ إلَّا مُتَّصِفًا بجَميعِ صِفاتِ الكَمالِ الَّتي استحَقَّ مِن أجْلِها أنْ يكونَ صَمَدًا، وأنَّه لم يَزَلْ كذلك ولا يَزالُ؛ فإنَّ صَمَديَّتَه مِن لَوازِمِ ذاتِه لا تَنفَكُّ عنه بحالٍ، ومِن هنا فُسِّرَ الصَّمَدُ بالسَّيِّدِ الَّذي قد انتهى سُؤدُدُه، وفُسِّرَ بالَّذي ليس فوقَه أحَدٌ[١].

٦- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ومعناه: أنَّ اللهَ مُنفرِدٌ بالإلَهيَّةِ لا يُشارِكُه فيها شَيءٌ مِن الموجوداتِ، وهذا إبطالٌ للشِّركِ الَّذي يَدينُ به أهلُ الشِّركِ، وللتَّثليثِ الَّذي أحْدَثَه النَّصارى المَلكانيَّةُ[٢]، وللثَّنَويَّةِ عندَ المَجوسِ[٣]، وللعَدَدِ الَّذي لا يُحْصى عندَ البَراهمةِ[٤]، فقولُه: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ نَظيرُ قولِه في الآيةِ الأُخرى: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١]، وهذا هو المعْنى الَّذي يُدرِكُه المُخاطَبونَ بهذه الآيةِ السَّائلونَ عن نِسبةِ اللهِ، أي: حَقيقتِه، فابتُدِئَ لهم بأنَّه واحدٌ؛ ليَعلَموا أنَّ الأصنامَ لَيست مِن الإلَهيَّةِ في شَيءٍ. ثمَّ إنَّ الأَحَديَّةَ تَقْتضي الوُجودَ لا مَحالةَ؛ فبَطَلَ قَولُ المُعطِّلةِ والدَّهريِّينَ[٥].

٧- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ لا يُطلَقُ هذا اللَّفظُ على أحَدٍ في

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٤).

(٢) يُنظر: ((المِلَل والنِّحَل)) للشَّهْرَسْتاني (٢/ ٢٧).

(٣) الثَّنَويَّةُ: فِرقةٌ تَزعُمُ أنَّ النُّورَ والظُّلْمةَ صانِعانِ أزَليَّانِ قديمانِ، والنُّورَ منهما فاعلُ الخَيراتِ والمنافِعِ، والظَّلامَ فاعلُ الشُّرورِ والمَضارِّ، وأنَّ الأجسامَ ممتزجةٌ مِن النُّورِ والظُّلمةِ! يُنظر: ((الفَرْق بين الفِرَق)) للبغدادي (ص: ٢٦٩)، ((المِلَل والنِّحَل)) للشهرستاني (٢/ ٤٩).

(٤) يُنظر: ((الملل والنحل)) للشهرستاني (٣/ ٩٥).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٥، ٦١٦).

الإثباتِ إلَّا على اللهِ عزَّ وجَلَّ؛ لأنَّه الكامِلُ في جميعِ صِفاتِه وأفعالِه[١]، وليس في المَوجُوداتِ ما يُسمَّى أَحَدًا في الإثباتِ مُفردًا غيرَ مُضافٍ إلَّا اللهُ تعالى؛ بخِلافِ النَّفْيِ وما في مَعناهُ: كالشَّرطِ والاستِفهامِ، وإنَّما استُعمِلَ في العددِ المُطلقِ، يُقالُ: أَحَدٌ، اثْنانِ. ويُقالُ: أَحَدَ عَشَرَ. وفي أوَّلِ الأيَّامِ يُقالُ: يَومُ الأَحَدِ[٢].

٨- مَذهَبُ السَّلَفِ والأئمَّةِ إثباتُ الصِّفاتِ، ونَفْيُ مُماثَلتِها لصِفاتِ المخلوقاتِ؛ فاللهُ تعالى مَوصوفٌ بصِفاتِ الكَمالِ الَّذي لا نَقْصَ فيه، مُنَزَّهٌ عن صِفاتِ النَّقصِ مُطلَقًا، ومُنَزَّهٌ عن أن يُماثِلَه غَيرُه في صِفاتِ كَمالِه؛ فهذان المَعْنَيانِ جمَعَا التَّنزيهَ، وقد دلَّ عليهما قَولُه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ﴾؛ فالاسمُ «الصَّمَدُ» يتضَمَّنُ صِفاتِ الكَمالِ، والاسمُ «الأحَدُ» يتضَمَّنُ نَفيَ المِثْلِ[٣].

٩- هذه السُّورةُ فيها الاسمانِ: «الأحَدُ» و«الصَّمَدُ»، وكلٌّ منهما يدُلُّ على الكَمالِ؛ فقولُه: «أَحَدٌ» يدُلُّ على نَفيِ النَّظيرِ، وقولُه: «الصَّمَدُ» -بالتَّعريفِ- يدُلُّ على اختصاصِه بالصَّمَديَّةِ؛ ولهذا جاء التَّعريفُ في اسمِه «الصَّمدِ» دونَ «الأحَدِ»؛ لأنَّ أحدًا لا يُوصَفُ به في الإثباتِ غيرُه، بخِلافِ «الصَّمَدِ»؛ فإنَّ العربَ تُسَمِّي السَّيِّدَ صَمَدًا[٤]، فالصَّمَدُ يُسمَّى به غيرُ اللهِ، فأتى فيه بالألِفِ واللَّامِ؛ ليدُلَّ على أنَّه سُبحانَه هو المُستحِقُّ لكمالِ الصَّمَديَّةِ؛ فإنَّ الألِفَ واللَّامَ تأتي لاستغراقِ الجِنسِ تارةً، ولاستغراقِ خصائصَ أُخرى، كقَولِك: زَيدٌ هو الرَّجُلُ، أي: الكامِلُ في صِفاتِ الرُّجولةِ؛ فكذلك قولُه: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: الكامِلُ في صفاتِ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٢٧، ٥٢٨).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٣٥).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٥/ ٣٢٩).

(٤) يُنظر: ((المصدر السابق)) (١٧/ ١٤٢).

الصَّمَديَّةِ، وأمَّا الأحَدُ فلم يَتَسَمَّ به غيرُ اللهِ؛ فلم يُحتَجْ فيه إلى الألِفِ واللَّامِ[١].

١٠- قَولُ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، لم يقُلْ: اللهُ صَمَدٌ، بل قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، فبَيَّن أنَّه المستَحِقُّ لأن يكونَ هو الصَّمَدَ دونَ ما سِواه؛ فإنَّه المستوجِبُ لغايَتِه على الكَمالِ، والمخلوقُ وإن كان صَمَدًا مِن بَعضِ الوُجوهِ فإنَّ حقيقةَ الصَّمَديَّةِ مُنتَفيةٌ عنه؛ فإنَّه يَقبَلُ التَّفَرُّقَ والتَّجزئةَ، وهو أيضًا مُحتاجٌ إلى غيرِه؛ فإنَّ كُلَّ ما سِوى اللهِ مُحتاجٌ إليه مِن كُلِّ وَجهٍ، فليس أحَدٌ يَصمُدُ إليه كُلُّ شَيءٍ ولا يَصمُدُ هو إلى شَيءٍ إلَّا اللهُ تبارك وتعالى، وليس في المخلوقاتِ إلَّا ما يَقبَلُ أن يتجَزَّأَ ويتفرَّقَ وينقَسِمَ وينفَصِلَ بَعضُه مِن بعضٍ، واللهُ سُبحانَه هو الصَّمَدُ الَّذي لا يجوزُ عليه شَيءٌ مِن ذلك، بل حقيقةُ الصَّمَديَّةِ وكَمالُها له وَحْدَه واجِبةٌ لازِمةٌ، لا يُمكِنُ عدَمُ صَمَديَّتِه بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ، كما لا يمكِنُ تثنيةُ أحَديَّتِه بوَجهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ فهو أحَدٌ لا يُماثِلُه شَيءٌ مِن الأشياءِ بوَجهٍ مِن الوُجوهِ[٢].

١١- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ردٌّ على ثلاثِ طوائفَ مُنحرفةٍ مِن بني آدَمَ، وهم: المُشرِكون، واليهودُ، والنَّصارى؛ لأنَّ المُشرِكينَ جَعَلوا الملائكةَ الَّذين هم عِبَادُ الرَّحمنِ إناثًا، وقالوا: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، واليهودَ قالوا: عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ، والنَّصارى قالوا: المَسيحُ ابنُ اللهِ، فكَذَّبَهم اللهُ بقَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾؛ لأنَّه عزَّ وجلَّ هو الأوَّلُ الَّذي ليس قَبْلَه شيءٌ، فكيف يكونُ مولودًا[٣]؟!

١٢- قال اللهُ تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ إذا كان اللهُ سُبحانَه مُنَزَّهًا عن

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٠). ويُنظر أيضًا: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٢٣٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٠).

أنْ يَخرُجَ منه مادَّةُ الولَدِ الَّتي هي أشرَفُ الموادِّ، فلأنْ يُنَزَّهَ عن خروجِ مادَّةِ غيرِ الولَدِ أَولى، وكذلك تنزيهُه نفْسَه عن أنْ يُولَدَ، فلا يكونُ مِن مِثْلِه: تنزيهٌ له عن أنْ يكونَ مِن سائرِ الموادِّ بطَريقِ الأَولى؛ فمَن أثْبَتَ للهِ ولَدًا فقد شَتَمَه[١]!

١٣- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيه سُؤالٌ: إذا كان ادِّعاءُ الوَلَدِ قد وَقَع، وجاء الرَّدُّ عليه، فإنَّ ادِّعاءَ الوِلادةِ لم يقَعْ، فلماذا ذَكَر نَفْيَه مع عَدَمِ ادِّعائِه؟

**الجوابُ**: أنَّ مَن جَوَّز الوِلادةَ له وأن يكونَ له وَلَدٌ، فقد يجَوِّزُ الوِلادةَ عليه وأن يكونَ مولودًا؛ فجاء نَفْيُها تتمَّةً للنَّفيِ والتَّنزيهِ، كما في حديثِ البَحرِ؛ كان السُّؤالُ عن الوُضوءِ مِن مائِه فقط، فجاء الجوابُ عن مائِه ومَيْتَتِه[٢]؛ لأنَّ ما احتَمَل السُّؤالَ في مائِه يحتَمِلُ الاشتباهَ في مَيتتِه[٣]. وأيضًا فقد نفَى الله عن نفْسِه سُبحانَه خصائصَ آلهةِ المشرِكينَ؛ فإنَّ منهم مَن عَبَدَ المسيحَ، ومنهم مَن عَبَدَ العُزَيْرَ، وهما مَولودانِ، ونفْيُ الولادةِ يدُلُّ على نفْيِ المتولِّدِ بطَريقِ الأَولى[٤].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ إثباتُ الصِّفاتِ الَّتي تُسَمَّى «الصِّفاتِ السَّلبيَّةَ» أي: المنفيَّةَ[٥].

---

(١) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٥).

(٢) أخرجه أبو داودَ (٨٣)، والترمذيُّ (٦٩)، والنسائيُّ (٥٩)، وابنُ ماجه (٣٨٦)، وأحمدُ (٨٧٣٥) مِن حديثِ أبي هُرَيرةَ رضيَ الله عنه.
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وصحَّحه البخاريُّ كما في ((الاستذكار)) لابن عبدِالبَرِّ (١/ ١٩٧)، وابنُ حِبَّانَ في ((صحيحه)) (١٢٤٣)، والنوويُّ في ((المجموع)) (١/ ٨٢)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (٣٨٦).

(٣) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٥٤).

(٤) يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٧).
ويُنظر ما يأتي في البلاغةِ (ص: ٤٣٠).

(٥) يُنظر: ((فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام)) لابن عثيمين (٦/ ٥٠٠).

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ فيه سُؤالٌ: لماذا اقتَصَر على ذِكرِ الماضي، ولم يقُلْ: (لن يَلِدَ)؟

**الجوابُ**: إنَّما اقتَصَر على ذلك؛ لأنَّه وَرَد جوابًا عن قَولِهم: وَلَدَ اللهُ، والدَّليلُ عليه قَولُه تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥١، ١٥٢]، فلمَّا كان المقصودُ مِن هذه الآيةِ تكذيبَ قَولِهم، وهم إنَّما قالوا ذلك في الماضي؛ لا جَرَمَ ورَدَت الآيةُ على وَفْقِ قَولِهم[١].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ دَلَّ على أنَّ اللهَ سُبحانَه وتعالى أحَدٌ، أي: في ذاتِه وصِفاتِه، لا شَبيهَ ولا شَريكَ ولا نظيرَ ولا نِدَّ له، سُبحانَه وتعالى[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ نفْيٌ للشُّرَكاءِ والأنْدادِ يَدخُلُ فيه كلُّ مَن جَعَلَ شيئًا كُفُوًا للهِ في شَيءٍ مِن خَواصِّ الرُّبوبيَّةِ، مِثلُ خَلْقِ الخَلْقِ، والإلَهيَّةِ، كالعِبادةِ له ودُعائِه ونحوِ ذلك، وفي هذا وغيرِه بَيانُ اشتِمالِ كِتابِ اللهِ على إبطالِ قَولِ مَن يَعتقِدُ في أحدٍ مِن البشَرِ الإلَهيَّةَ باتِّحادٍ، أو حُلولٍ، أو غيرِ ذلك[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

- افتِتاحُ هذه السُّورةِ بالأمرِ بالقَولِ؛ لإظهارِ العِنايةِ بما بعْدَ فِعلِ القولِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٦٣، ٣٦٤).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٤٨).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (٢/ ٤٤٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٢).

- ولَفظُ ﴿هُوَ﴾ ضَميرُ الشَّأنِ، ومَدارُ وَضْعِه مَوضِعَه معَ عدَمِ سَبْقِ ذِكرِه الإيذانُ بأنَّه مِن الشُّهرةِ والنَّباهةِ بحيثُ يَستَحضِرُه كلُّ أحدٍ، وإليه يُشيرُ كلُّ مُشيرٍ، وإليه يَعودُ كلُّ ضَميرٍ، والسِّرُّ في تَصديرِ الجُملةِ بضَميرِ الشَّأنِ ﴿هُوَ﴾: التَّنبيهُ مِن أوَّلِ الأمرِ على فَخامةِ مَضمونِها، وجَلالةِ حيِّزِها، مع ما فيه مِن زِيادةِ تَحقيقٍ وتَقريرٍ؛ فإنَّ الضَّميرَ لا يُفهَمُ منه مِن أوَّلِ الأمرِ إلَّا شَأنٌ مُبهَمٌ لهُ خطَرٌ جَليلٌ، فيَبْقى الذِّهنُ مُترقِّبًا لِما أمامَه ممَّا يُفسِّرُه ويُزيلُ إبهامَه، فيَتمكَّنُ عندَ وُرودِه له فضْلَ تَمكُّنٍ[1].

- قولُه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ إشارةٌ إلى مَن هو خالِقُ الأشياءِ وفاطِرُها، وفي طَيِّ ذلك وَصْفُه بأنَّه قادرٌ عالِمٌ؛ لأنَّ الخلْقَ يَسْتدعي القُدرةَ والعِلمَ؛ لكَونِه واقعًا على غايةِ إحكامٍ واتِّساقٍ وانتظامٍ، وفي ذلك وَصْفُه بأنَّه حيٌّ سَميعٌ بَصيرٌ، ولَمَّا اقْتَضى الفَرْدانيَّةُ قَطْعَ السَّبيلِ مِن الغيرِ، أثبَتَ له صِفةَ الصَّمَدانيَّةِ؛ ليكونَ الالتجاءُ إليه، ولَمَّا عُلِمَ مِن ذلك ثُبوتُ الذَّاتِ المُستلزِمةِ للصِّفاتِ مِن الخالِقيَّةِ والعالِميَّةِ، والقادِريَّةِ، والحَييَّةِ، والإلَهيَّةِ؛ أُريدَ بَيانُ كَمالِها، وأنَّها مُباينةٌ لصِفاتِ المَخلوقاتِ فيما مَضى ويُستقبَلُ[2].

- وابتُدِئَ باسمِه تعالَى العَلَم (الله) قبْلَ إجراءِ الأخبارِ عليه؛ ليَكونَ ذلك طَريقَ استحضارِ صِفاتِه كلِّها عندَ التَّخاطُبِ بيْن المسلمينَ، وعندَ المُحاجَّةِ بيْنَهم وبيْن المشرِكينَ؛ فإنَّ هذا الاسمَ مَعروفٌ عندَ جَميعِ العرَبِ، فمُسمَّاهُ لا نِزاعَ في وُجودِه، ولكنَّهم كانوا يَصِفونه بصِفاتٍ تَنزَّهَ عنها[3].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ جُملةٌ ثانيةٌ مَحكيَّةٌ بالقَولِ المحكيِّ به جُملةُ

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٢)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦٣٦، ٦٣٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٣).

﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فهي خبَرٌ ثانٍ عن الضَّميرِ (هو)، والخبَرُ المُتعدِّدُ يَجوزُ عطْفُه وفصْلُه، وإنَّما فُصِلَت عن الَّتي قبْلَها؛ لأنَّ هذه الجُملةَ مَسوقةٌ لتَلقينِ السَّامعينَ، فكانت جَديرةً بأنْ تكونَ كلُّ جُملةٍ مُستقِلَّةً بذاتِها غيرَ مُلحَقةٍ بالَّتي قبْلَها بالعطْفِ، على طَريقةِ إلْقاءِ المسائلِ على المُتعلِّم، نحوُ قولِك: عَنترةُ مِن فُحولِ الشُّعراءِ، عَنترةُ مِن أبطالِ الفُرسانِ؛ ولهذا الاعتبارِ وَقَعَ إظهارُ اسمِ الجَلالةِ في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، وكان مُقْتضى الظَّاهرِ أنْ يُقالَ: هو الصَّمَدُ[١].

وقيل: إخلاءُ هذه الجُملةِ عن العاطفِ؛ لأنَّها كالنَّتيجةِ للأُولى أو الدَّليلِ عليها[٢].

- وتَكريرُ الاسمِ الجَليلِ (الله) في قَولِه: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ * ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ مَن لَم يَتَّصِفْ به لم يَستحِقَّ الأُلوهيَّةَ، ولتَكونَ كلُّ جُملةٍ منْهما مُستقِلَّةً بذاتِها، غيرَ مُحتاجةٍ إلى ما قبْلَها[٣].

- وصِيغةُ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ صِيغةُ قصْرٍ بسَببِ تَعريفِ المُسنَدِ؛ فتُفيدُ قصْرَ صِفةِ الصَّمَديَّةِ على اللهِ تعالَى، وهو قصْرُ قَلبٍ[٤] لإبطالِ ما تَعوَّدَه أهلُ الشِّركِ في الجاهليَّةِ مِن دُعائِهم أصنامَهم في حَوائجِهم، والفزَعِ إليها في نَوائبِهم حتَّى نَسُوا اللهَ[٥].

٣- قولُه تعالَى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٢، ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٧)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٤)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٢).

(٤) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٤).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٨).

- قولُه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ إمَّا كِنايةٌ عن كَونِه تعالَى مُتعاليًا عن الجِنسيَّةِ؛ لأنَّ مَن جانَسَ شيئًا اتَّخَذَ مِن جِنسِه صاحبةً، ومَن اتَّخَذَ صاحبةً حصَلَ التَّوالدُ. أو بالعكْسِ؛ بأنْ يُقالَ: كيف يَكونُ له وَلَدٌ وأنَّه ما اتَّخَذَ صاحبةً؟ لأنَّ الولادةَ لا تكونُ إلَّا بيْن زَوجينِ مِن جِنسٍ واحدٍ، وهو مُتعالٍ عن مُجانِسٍ، فلم يَصِحَّ أنْ تَكونَ له صاحبةٌ، فلم تَصحَّ الوِلادةُ[1].

- وأيضًا جُملةُ ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ عطْفٌ على جُملةِ ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، أي: ولم يَلِدْه غيرُه، وهي بمَنزلةِ الاحتِراسِ[2]؛ سَدًّا لتَجويزِ أنْ يكونَ له والدٌ، فأُردِفَ نفْيُ الولدِ بنَفْيِ الوالدِ، وإنَّما قُدِّمَ نفْيُ الولَدِ -معَ أنَّ التَّولُّدَ أسبقُ وُقوعًا عن الولادةِ في حقِّ مَن هو متوَلِّدٌ-؛ وذلك لأنَّه أهمُّ؛ إذ قد نَسَبَ أهلُ الضَّلالةِ الولَدَ إلى اللهِ تعالَى ولم يَنسُبوا إلى اللهِ والدًا، فالولادةُ لم يَدَّعِها أحدٌ في حقِّه سُبحانَه، وإنما ادَّعَوا أنَّه وَلَدَ؛ فإنَّ مُشرِكي العَربِ قالوا: الملائكةُ بَناتُ الله، وقالت اليَهودُ: عُزَيْرٌ ابنُ الله، وقالت النَّصارَى: المَسيحُ ابنُ الله، ولم يَدَّعِ أحَدٌ أنَّ له والِدًا، فلهذا السببِ بَدأَ بالأَهمِّ، فقال: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾، ثُم أشارَ إلى الحُجَّةِ، فقال: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾، كأنَّه قِيلَ: الدَّليلُ على امتِناعِ الوَلَدِيَّةِ، اتِّفاقُنا على أنَّه ما كان وَلدًا لغيرِه[3].

وفيه الإيماءُ إلى أنَّ مَن يكونُ مَولودًا مِثلَ عِيسى لا يكونُ إلهًا؛ لأنَّه لو كان الإلهُ مَولودًا لَكان وُجودُه مَسبوقًا بعَدَمٍ لا مَحالةَ، وذلك مُحالٌ؛ لأنَّه لو كان مَسبوقًا بعَدَمٍ لَكان مُفتقِرًا إلى مَن يُخصِّصُه بالوُجودِ بعْدَ العدَمِ، فحَصَلَ مِن مَجموعِ جُملةِ

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٨)، ((حاشية الطيبي على الكشاف)) (١٦/ ٦٣٦).

(٢) تقدَّم تعريفُه (ص: ٧٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٦٣، ٣٦٤)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (٢/ ٥٤٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٨، ٦١٩).

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ إبطالُ أنْ يكونَ اللهُ والدًا لمَولودٍ، أو مَولودًا مِن والدٍ بالصَّراحةِ، وبَطَلَت إلَهيَّةُ كلِّ مَولودٍ بطَريقِ الكِنايةِ، فبَطَلَت العقائدُ المَبنيَّةُ على تَولُّدِ الإلهِ، فلمَّا أبْطَلَت الجُملةُ الأُولى إلَهيَّةَ إلهٍ غيرِ اللهِ بالأصالةِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وأبطَلَت الجُملةُ الثَّانيةُ إلَهيَّةَ غيرِ اللهِ بالاستحقاقِ ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾؛ أبْطَلَت هذه الجُملةُ إلَهيَّةَ غيرِ اللهِ بالفَرعيَّةِ والتَّولُّدِ بطَريقِ الكِنايةِ[١].

- وكذلِك قولُه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ تَنصيصٌ على إبطالِ زعْمِ المُفترينَ في حقِّ المَلائكةِ والمَسيحِ؛ ولذلكَ ورَدَ النَّفيُ على صِيغةِ الماضِي، أو ليُطابِقَ قولَه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾[٢].

- والتَّصريحُ بقولِه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ مع كَونِهم مُعترِفين بمَضمونِه؛ لتَقريرِ ما قبْلَه وتَحقيقِه بالإشارةِ إلى أنَّهما مُتلازمانِ؛ إذِ المَعهودُ أنَّ ما يَلِدُ يُولَدُ، وما لا فَلا، ومِن قَضيَّةِ الاعترافِ بأنَّه لم يُولَدِ الاعترافُ بأنَّه لا يَلِدُ[٣].

- وجُملةُ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ في معْنى التَّذييلِ للجُمَلِ الَّتي قبْلَها؛ لأنَّها أعمُّ مِن مَضمونِها؛ لأنَّ تلك الصِّفاتِ المُتقدِّمةَ -صَريحَها، وكِنايتَها، وضِمْنيَّها- لا يُشبِهُه فيها غيرُه، مع إفادةِ هذه انتفاءَ شَبيهٍ له فيما عَداها، مِثلَ صِفاتِ الأفعالِ، والواوُ في قَولِه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ اعتراضيَّةٌ، وهي واوُ الحالِ. ويَجوزُ كَونُ الواوِ عاطفةً إنْ جُعِلَت الواوُ الأُولى عاطفةً، فيكونُ المَقصودُ مِن الجُملةِ إثباتَ وصْفِ مُخالَفتِه تعالَى للحوادثِ، وتكونُ استفادةُ معْنى التَّذييلِ تَبَعًا للمعْنى، والنُّكَتُ لا تَتزاحَمُ[٤]. فيصحُّ أن

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٣).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦١٩، ٦٢٠).

يَشتمِلَ الكلامُ على أكثَرَ مِن نُكتةٍ دونَ أن تتعارَضَ.

- وتَقديمُ خبَرِ (كان) ﴿كُفُوًا﴾ على اسْمِها ﴿أَحَدٌ﴾؛ للرِّعايةِ على الفاصلةِ، وللاهتِمامِ بذِكرِ الكُفوِ عَقِبَ الفِعلِ المنفيِّ؛ ليَكونَ أسْبَقَ إلى السَّمعِ. وتَقديمُ المجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ على مُتعلَّقِه -وهو ﴿كُفُوًا﴾-؛ للاهتمامِ باستحقاقِ اللهِ نفْيَ كَفاءةِ أحدٍ له، فكان هذا الاهتمامُ مُرجِّحًا تَقديمَ المجرورِ على مُتعلَّقِه وإنْ كان الأصلُ تَأخيرَ المتعلَّقِ إذا كان ظَرْفًا لَغْوًا[1].

- وارتَبَطَت هذه الجُمَلُ الثَّلاثُ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ بالواوِ دونَ الثَّلاثِ الأُولى؛ لأنَّ قولَه: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ مُحقِّقٌ ومُقرِّرٌ لِما قبْلَه، وكذلك تَرْكُ العطْفِ في قَولِه: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ لأنَّه مُؤكِّدٌ للصَّمَديَّةِ؛ لأنَّ الغنيَّ عن كلِّ شَيءٍ المُحتاجَ إليه كلُّ ما سِواهُ، لا يكونُ والدًا ولا مَولودًا، ووَصَلَ بيْن الثَّلاثِ المتأخِّرةِ؛ لأنَّها سِيقَت لغَرَضٍ ومعْنًى واحدٍ، وهو نفْيُ المُماثَلةِ والمُناسَبةِ عنه تعالَى بوَجْهٍ مِن الوُجوهِ[2].

- وتَتميَّزُ سُورةُ الإخلاصِ بالإيجازِ، ويُبيِّنُ ذلك أنَّها:

أ- اشتَمَلَت على اسمينِ مِن أسماءِ اللهِ تعالَى يَتضَمَّنانِ جَميعَ أوصافِ الكَمالِ، وهما الأحَدُ والصَّمَدُ؛ لأنَّهما يدُلَّانِ على أَحَديَّةِ الذَّاتِ المُقدَّسةِ المَوصوفةِ بجَميعِ أوصافِ الكَمالِ، وبَيانُ ذلك أنَّ الأحَدَ يُشعِرُ بوُجودِه الخاصِّ الَّذي لا يُشارِكُه فيه غيرُه، والصَّمَدَ يُشعِرُ بجَميعِ أوصافِ الكَمالِ؛ لأنَّه الَّذي انْتَهى إليه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨١٨، ٨١٩)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٧)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٢، ٥٧٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٠)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦١٧).

(٢) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦١٦، ٦١٧).

سُؤْدُدُه، فكان مَرجِعُ الطَّلبِ منه وإليه، ولا يَتِمُّ ذلك على وَجْهِ التَّحقيقِ إلَّا لِمَن حاز جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ، وذلك لا يَصلُحُ إلَّا للهِ تعالَى.

ب- تَضمَّنَت تَوجيهَ الاعتقادِ وصِدقَ المَعرفةِ، وما يَجِبُ إثباتُه للهِ مِن الأَحَديَّةِ المُنافيةِ لمُطلَقِ الشَّرِكةِ، والصَّمَديَّةِ المُثبِتةِ له جَميعَ صِفاتِ الكَمالِ الَّذي لا يَلحَقُه نقْصٌ.

ج- وتَضمَّنَت نفْيَ الولدِ والوالدِ المُقرِّرَ لكَمالِ الغنَى.

د- وتَضمَّنَت نَفْيَ الكُفْءِ المُتضمِّنَ لنفْيِ الشَّبيهِ والنَّظيرِ[1].

(١) يُنظر: ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦١٩).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ الفَلَقِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ الفَلَقِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيت هذه السُّورةُ بسورةِ (الفَلَقِ)[١].

وسمِّيت أيضًا ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾؛ فعن عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ رضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألم تَرَ آياتٍ أُنزِلَتِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾))[٢].

ويُطلَقُ عليها معَ سورةِ (النَّاسِ): (المُعَوِّذَتانِ)، ومعَ (النَّاسِ والإخلاصِ): (المُعَوِّذاتُ):

فعن عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ رضِيَ الله عنه، قال: قال لي رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أُنْزِل، أو أُنْزِلَتْ علَيَّ آياتٌ لم يُرَ مِثْلُهنَّ قَطُّ، المُعَوِّذتَينِ[٣]))[٤].

وعنه أيضًا رضيَ الله عنه، قال: ((أمَرَني رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم أن أَقرأَ بالمُعَوِّذاتِ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[٥].

---

(١) سُمِّيت هذه السُّورةُ بذلك؛ لذِكْرِ لَفظِ الفَلَقِ في أوَّلِها في قولِه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٦).

وسُمِّيت أيضًا مع سورةِ النَّاسِ بالمقشقشتين، أي: تبرِّئان مِن النِّفاقِ. يُنظر: ((جمال القراء وكمال الإقراء)) لعلم الدين السخاوي (ص: ٩٤)، ((الإتقان في علوم القرآن)) للسيوطي (١/ ١٩٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٣).

(٢) أخرجه مسلم (٨١٤).

(٣) منصوبٌ بفعلٍ مَحذوفٍ، أي: أعني: المُعَوِّذَتَينِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٣/ ١٦٩).

(٤) أخرجه مسلم (٨١٤).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٦).

## فضلُها وخصائصُها:

**١- تستحبُّ قراءتُها في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ:**

عن عُقْبَةَ بنِ عامِرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم أنْ أقرَأَ بالمُعَوِّذاتِ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))(١).

**٢- ما أُنزِلَ مِثلُ المُعَوِّذاتِ في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الفُرقانِ:**

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((... لَقِيتُ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، فقال لي: يا عُقْبَةُ بنَ عامِرٍ، ألَا أُعَلِّمُك سوَرًا ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ، ولا في الزَّبورِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الفُرقانِ مِثلُهُنَّ؟ لا يأتِيَنَّ عليك لَيلةٌ إلَّا قَرأْتَهُنَّ فيها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. قال عُقْبَةُ: فما أَتَتْ علَيَّ لَيلةٌ إلَّا قَرأْتُهُنَّ فيها، وحُقَّ لي ألَّا أَدَعَهُنَّ وقد أَمَرَني بهِنَّ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم))(٢).

**٣- مَن قَرأَ المُعَوِّذاتِ حينَ يُمسِي وحينَ يُصبِحُ ثلاثًا تَكفِيه مِن كلِّ شَيءٍ:**

عن عبدِ الله بنِ خُبَيْبٍ رضيَ الله عنه، قال: ((خرَجْنا في لَيلةٍ مَطِيرةٍ وظُلْمةٍ شديدةٍ نَطلُبُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُصَلِّي لنا، فأدرَكْتُه فقال: قُلْ. فلمْ أَقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. فلمْ أقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. قلتُ: ما أقولُ؟ قال: قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ حينَ تُمْسي وحينَ تُصبِحُ ثلاثَ مرَّاتٍ تَكفيكَ مِن كلِّ شَيءٍ))(٣).

---

(١) تقدَّم تخريجُه قريبًا.

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٧).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٧).

**٤- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا اشتَكَى رقَى نفْسَه بالمُعَوِّذاتِ:**

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا اشْتَكى يَقرأُ على نفْسِه بالمُعَوِّذاتِ ويَنْفُثُ، فلمَّا اشْتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرَأُ عليه وأمْسَحُ بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكَتِها))[(١)].

**٥- كان النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم يُعوِّذُ نفْسَه بالمُعَوِّذاتِ إذا أوَى إلى فِراشِه:**

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أوَى إلى فِراشِه كُلَّ لَيلةٍ جَمَع كَفَّيْه، ثُمَّ نَفَث فيهما فقَرَأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمسَحُ بهما ما اسْتَطاع مِن جَسَدِه، يَبْدَأُ بهما على رَأْسِه ووَجْهِه وما أقْبَلَ مِن جَسَدِه، يَفعَلُ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ))[(٢)].

**٦- آياتُ سورتَيِ الفَلَقِ والنَّاسِ لم يُرَ مِثلُهنَّ فيما أُنزِل على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم:**

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((ألم تَرَ آياتٍ أُنزِلَتِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ[(٣)]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾))[(٤)].

**٧- أُمِر النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقراءتِها معَ سورةِ النَّاسِ لَمَّا سُحِر:**

عن زَيْدِ بنِ أرْقَمَ رضيَ الله عنه، قال: ((سَحَرَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلٌ

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٨).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٩).

(٣) ((لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ)): أي: في بابِهما وهو التَّعَوُّذُ. يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) للقاري (٤/ ١٤٦٧).

(٤) أخرجه مسلم (٨١٤).

مِن اليَهودِ، فاشْتَكى، فأَتاهُ جِبريلُ -عليه السَّلامُ- بالمُعوِّذَتيْنِ، وقال: إنَّ رجُلًا مِن اليَهودِ سحَرَكَ، والسِّحرُ في بِئرِ فُلانٍ، فأرسَلَ عليًّا، فجاءَ به، فأمَرَه أنْ يَحُلَّ العُقَدَ، ويَقرَأَ آيةً، فجعَلَ يقرَأُ ويَحُلُّ، حتَّى قام النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كأنَّما أُنشِطَ مِن عِقالٍ[1]، فما ذكَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم لذلك اليَهوديِّ شيئًا ممَّا صنَعَ، ولا أراهُ في وَجْهِه))[2].

## بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سورةُ الفَلَقِ، مُختلَفٌ فيها؛ فقيل: مكِّيَّةٌ، وقيل: مَدَنيَّةٌ[3].

---

(١) أُنشِط مِن عِقالٍ: أي: حُلَّ مِن وَثاقٍ. يُنظر: ((معالم السنن)) للخَطَّابي (٣/ ١٠٢).

(٢) أخرجه عبدُ بنُ حُمَيد (٢٧١)، والطَّحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (٥٩٣٥).

قال شعيبٌ الأرناؤوطُ في تخريج ((شرح مشكل الآثار)) (٥٩٣٥): (إسنادُه على شرطِ مسلمٍ).

والحديث أخرجه دونَ ذِكْرِ المعوِّذتَينِ: النَّسائيُّ (٤٠٨٠)، وأحمدُ (١٩٢٨٦).

صحَّحه الألبانيُّ في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (٢٧٦١)، والوادعيُّ في ((الصحيح المسند)) (٣٥١).

(٣) ممَّن اختار أنَّها مكِّيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحدي، والسمعاني، والزمخشري، وابن جُزَي، وأبو السعود، والقاسمي، والسعدي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٤/ ٩٣١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٧٩)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣٦)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧٢)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٠)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٤)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٤).

وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: الثعلبيُّ، ومكِّي، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والخازن، وابن كثير، والفيروزابادي، والعُلَيمي. يُنظر: ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٣٧)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٥٠٥)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٣٢)، ((تفسير ابن الجوزي)) (٤/ ٥٠٧)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٦٩)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٤٩٩)، ((تفسير ابن كثير)) =

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

الاسْتِعاذةُ مِن جميعِ أنواعِ الشُّرورِ عُمومًا وخُصوصًا[1].

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

الاستعاذةُ باللهِ مِن الشُّرورِ، والأوقاتِ الَّتي يَكثُرُ فيها حُدوثُ الشَّرِّ، ومِن شرِّ السَّحَرةِ والحاسِدينَ.

---

= (٨/ ٥٣٠)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٦)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٦٣).

(١) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

## الآيات (١-٥)

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ٥﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡفَلَقِ﴾: أي: الصُّبحِ المتصَدِّعِ عن الظُّلمةِ، وأصلُ (فلق): يدُلُّ على فُرجةٍ في الشَّيءِ[1].

﴿غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: أي: اللَّيلِ المُظلِمِ إذا دَخَل واشتدَّ ظَلامُه، وأصلُ (غسق): يدُلُّ على ظُلمةٍ، وأصلُ (وقب): يدُلُّ على غَيبةِ شَيءٍ[2].

﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾: أي: السَّواحِرِ اللَّاتي يَنفُثْنَ في عُقَدِ الخَيطِ حينَ يَرقِينَ عليها. والنَّفْثُ: النَّفخُ؛ قيل: مع ريقٍ، وقيل: بدونِ ريقٍ، وأصلُ (نفث): يدُلُّ على خُروجِ شَيءٍ مِن فَمٍ، وأصلُ (عقد): يدُلُّ على شَدٍّ[3].

### المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: قُلْ -يا محمَّدُ- متعَوِّذًا باللهِ وَحْدَه: ألتجِئُ وأستجيرُ بخالِقِ الصَّباحِ المتصَدِّعِ عن الظُّلمةِ، مِن شَرِّ كُلِّ مخلوقٍ، ومِن

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٦٧)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٥٢)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٣).

(٢) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٣٥٣)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٤٢٥) و(٦/ ١٣١)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٣)، ((الكليات)) للكفوي (ص: ٦٧٣).

(٣) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٤/ ٨٦) و(٥/ ٤٥٧)، ((تفسير البغوي)) (٨/ ٥٩٦)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٧)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤٠)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٢١).

شَرِّ اللَّيلِ إذا دَخَل واشتدَّ ظَلامُه، ومِن آيتِه: القمرِ، ومِن شَرِّ السَّاحِراتِ اللَّاتي يَنفُثْنَ في عُقَدِ الخُيوطِ وَقتَ السِّحرِ، ومِن شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَد.

## تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾.

### سَبَبُ النُّزولِ:

عن زَيدِ بنِ أرقَمَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَحَرَ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم رجُلٌ مِن اليَهودِ، فاشتكى، فأتاه جِبريلُ، فنَزَل عليه بالمعَوِّذتَينِ وقال: إنَّ رجُلًا مِنَ اليَهودِ سحَرَك، والسِّحرُ في بئرِ فُلانٍ، فأرسَلَ عليًّا فجاء به، فأمَرَه أن يَحُلَّ العُقَدَ، ويَقرَأَ آيةً، فجَعَل يَقرَأُ ويَحُلُّ، حتَّى قام النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم كأنَّما أُنشِطَ مِن عِقالٍ، فما ذكَرَ رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم لذلك اليَهوديِّ شَيئًا مِمَّا صَنَع به، ولا أراه في وَجْهِه!))[1].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((سَحَرَ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يَهوديٌّ مِن يَهودِ بني زُرَيْقٍ، يُقالُ له: لَبِيدُ بنُ الأعصَمِ، حتَّى كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُخَيَّلُ إليه أنَّه يَفعَلُ الشَّيءَ وما يَفعَلُه، حتَّى إذا كان ذاتَ يومٍ أو ذاتَ لَيلةٍ دعا رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم، ثمَّ دعا، ثمَّ دعا، ثمَّ قال: يا عائِشةُ، أشَعَرْتِ أنَّ اللهَ أفتاني فيما استفتَيتُه فيه؟ جاءني رجُلانِ فقَعَد أحدُهما عندَ رأسي، والآخَرُ عندَ رِجْلَيَّ، فقال الَّذي عندَ رأسي للَّذي عندَ رِجْليَّ، أو الَّذي عند رِجْليَّ للَّذي عندَ رأسي: ما وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قال: مَطبوبٌ[2]، قال: مَن طَبَّه؟ قال: لَبِيدُ بنُ

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩٦).

(٢) مَطْبوبٌ: أي: مسحورٌ، يُقالُ: طُبَّ الرَّجلُ بالضمِّ: إذا سُحِر، يُقالُ: كَنَوْا عن السِّحرِ بالطِّبِّ تفاؤلًا، كما قالوا لِلَّدِيغِ سَليمٌ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٢٨). ويُنظر أيضًا: =

الأعصَمِ، قال: في أيِّ شَيءٍ؟ قال: في مُشْطٍ[١] ومُشاطةٍ[٢]، قال: وَجُفٍّ[٣] طَلْعةِ ذَكَرٍ، قال: فأين هو؟ قال: في بئرِ ذي أروانَ[٤]، فأتاها رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم في أُناسٍ مِن أصحابِه، ثمَّ قال: يا عائشةُ، واللهِ لَكأنَّ ماءَها نُقاعةُ الحِنَّاءِ، ولَكَأنَّ نَخْلَها رُؤوسُ الشَّياطينِ. فقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، أفلا أحرَقْتَه؟ قال: لا، أمَّا أنا فقد عافاني اللهُ، وكَرِهْتُ أن أُثيرَ على النَّاسِ شَرًّا؛ فأَمَرْتُ بها فدُفِنَت))[٥].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- متعَوِّذًا باللهِ وَحْدَه: ألتجِئُ وأستجيرُ بخالِقِ الصَّباحِ المتصَدِّعِ عن الظُّلمةِ[٦].

---

= ((الأضداد)) لابن الأنباري (ص: ٢٣١)، ((الغريبين في القرآن والحديث)) للهروي (٤/ ١١٥٥).

(١) المُشْط: هو الآلةُ المعروفةُ الَّتي يُسرَّحُ بها شَعرُ الرَّأسِ واللِّحيةِ. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٠/ ٢٢٩).

(٢) المُشاطة: الشَّعرُ الَّذي يَسقُطُ مِن الرَّأسِ واللِّحيةِ عندَ التَّسريحِ بالمُشطِ. يُنظر: ((المُعْلِم بفوائد مسلم)) للمازَري (٣/ ١٦٢).

(٣) الجُفُّ: وِعاءُ الطَّلعِ، وهو الغِشاءُ الَّذي عليه. يُنظر: ((المُعْلِم بفوائد مسلم)) للمازَري (٣/ ١٦٢).

(٤) هي بئرٌ بالمدينةِ في بُستانِ بني زُرَيْقٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٤/ ١٧٧).

(٥) رواه البخاري (٣٢٦٨)، ومسلم (٢١٨٩) واللَّفظُ له.

(٦) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤١، ٧٤٥)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٥)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٠)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

قال ابن عطيَّة: (الخِطابُ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، والمرادُ هو وآحادُ أمَّتِه). ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٨). ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٥).

قال الرَّسْعَنيُّ: (﴿ٱلْفَلَقِ﴾: الصُّبحِ، في قولِ الحسَنِ، ومجاهِدٍ، وسعيدِ بنِ جُبَيرٍ، وقَتادةَ، وعامَّةِ المفسِّرينَ واللُّغَويِّينَ والعُرفِ). ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٧٥).

قال ابن كثير: (قال ابن جرير: والصَّوابُ... أنَّه فَلَقُ الصُّبحِ. وهذا هو الصَّحيحُ، وهو اختيارُ البُخاريِّ رحمه الله في «صحيحه»). ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٥). ويُنظر: ((تفسير ابن =

كما قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

وعن زِرِّ بنِ حُبَيشٍ، قال: ((سألْتُ أُبَيَّ بنَ كَعبٍ عن المعَوِّذتَينِ؟ فقال: سألتُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: قيل لي، فقُلتُ. فنحن نقولُ كما قال رَسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم))[(١)].

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾.

أي: ألتجِئُ وأستجيرُ باللهِ مِن شَرِّ كُلِّ مخلوقٍ فيه شَرٌّ؛ مِنَ الإنسِ والجِنِّ، والحيواناتِ والرِّياحِ، وغيرِ ذلك[(٢)].

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((كان رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يتعوَّذُ مِن الجانِّ وعَينِ الإنسانِ، حتَّى نزَلَت المعَوِّذتانِ، فلَمَّا نزَلَتا أخَذَ بهما، وتَرَك ما سِواهما))[(٣)].

وعن خَوْلَةَ بنتِ حَكيمٍ السُّلَميَّةِ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: سَمِعتُ رَسولَ اللهِ

---

= جرير)) (٢٤/ ٧٤٥)، ((صحيح البخاري)) (٦/ ١٨١).

قال ابن عثيمين: (الفَلَقُ: الإصباحُ. ويجوزُ أن يكونَ أعمَّ مِن ذلك: أنَّ الفَلَقَ كلُّ ما يَفلِقُه اللهُ تعالى مِن الإصباحِ، والنَّوى، والحَبِّ). ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٢).

وقال الزَّجَّاجُ: (الفَلَقُ: جميعُ المخلوقاتِ، وفَلَقُ الصُّبحِ مِن ذلك). ((معاني القرآن)) (٥/ ٣٧٩).

ويُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٤، ٥٠٥).

(١) رواه البخاري (٤٩٧٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤٥)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٥)، ((تفسير النيسابوري)) (٦/ ٦٠١)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٢).

(٣) أخرجه الترمذيُّ (٢٠٥٨) واللَّفظُ له، والنَّسائيُّ (٥٤٩٤)، وابنُ ماجه (٣٥١١).

قال الترمذي: (حسَنٌ غريبٌ). وصَحَّحه الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٠٥٨)، وصحَّح إسنادَه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٢٤/ ٤٦٨).

صلَّى الله عليه وسلَّم يقولُ: ((مَن نَزَل مَنزِلًا ثمَّ قال: أعوذُ بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَق، لم يَضُرَّه شَيءٌ حتَّى يَرتحِلَ مِن مَنزِلِه ذلك))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((جاء رجُلٌ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فقال: يا رَسولَ اللهِ، ما لَقِيتُ مِن عَقربٍ لَدَغَتْني البارِحةَ! قال: أمَا لو قُلْتَ حينَ أمسَيتَ: أعوذُ بكَلِماتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَق، لم تَضُرَّك))(٢).

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣﴾.

أي: وأعوذُ باللهِ مِن شَرِّ اللَّيلِ إذا دَخَل واشتدَّ ظَلامُه، وأعوذُ بالله مِن آيتِه وهو القمرُ(٣).

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٩).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤٥، ٧٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٥، ٥٣٣، ٥٣٤)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٦)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧، ٦٢٨).

وقال ابنُ القيِّم: (قال أكثَرُ المفسِّرينَ: إنَّه اللَّيلُ. ونسَبَه لابنِ عبَّاسٍ والحسَنِ ومجاهِدٍ، ثمَّ ذكَرَ أنَّ الغَسَقَ الظُّلْمةُ، ثمَّ ذكر أنَّ في تسميةِ اللَّيلِ غاسقًا قولًا آخَرَ: أنَّه مِن البَرْدِ، واللَّيلُ أبرَدُ مِن النَّهارِ، والغَسَقُ البَرْدُ. قال: (ولا تَنافيَ بيْنَ القَولَينِ؛ فإنَّ اللَّيلَ باردٌ مُظلِمٌ، فمَن ذكَرَ بَرْدَه فقط أو ظُلْمَتَه فقط اقتصَر على أحَدِ وصْفَيه، والظُّلْمةُ في الآيةِ أنسَبُ لمكانِ الاستِعاذةِ؛ فإنَّ الشَّرَّ الَّذي يُناسِبُ الظُّلْمةَ أَولى بالاستعاذةِ مِن البَرْدِ الَّذي في اللَّيلِ؛ ولهذا استعاذ برَبِّ الفَلَقِ الَّذي هو الصُّبحُ والنُّورُ مِن شرِّ الغاسِقِ الَّذي هو الظُّلْمةُ، فناسَبَ الوصفُ المُستعاذُ به للمعنى المطلوبِ بالاستِعاذةِ)، وأجاب عن حديثِ عائشةَ أنَّ الغاسِقَ إذا وقَبَ هو القمَرُ، فقال: (هذا التَّفسيرُ حَقٌّ، ولا يُناقِضُ التَّفسيرَ الأوَّلَ، بل يوافِقُه ويَشهَدُ بصِحَّتِه؛ فإنَّ اللهَ تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، فالقَمَرُ هو آيةُ اللَّيلِ وسُلطانُه، فهو أيضًا غاسِقٌ إذا وَقَب، والنَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم أخبَرَ عن القَمَرِ بأنَّه غاسِقٌ إذا وَقَب، وهذا خبَرٌ صِدقٌ، وهو أصْدَقُ الخبَرِ، ولم يَنْفِ عن اللَّيلِ اسمَ الغاسِقِ إذا وَقَب، وتخصيصُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم له بالذِّكرِ لا يَنفي شُمولَ الاسمِ لِغَيرِه، والسَّبَبُ الَّذي لأجْلِه =

كما قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ [الإسراء: ٧٨].

وعن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم نَظَر إلى القَمَرِ فقال: يا عائِشةُ، استَعيذي باللهِ مِن شَرِّ هذا؛ فإنَّ هذا هو الغاسِقُ إذا وَقَب))[1].

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

عُطِفَ ﴿ شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾ على شَرِّ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ وقْتٌ يَتحيَّنُ فيه السَّحَرةُ إجراءَ شَعوذتِهم؛ لئلَّا يَطَّلِعَ عليهم أحَدٌ[2].

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ٤ ﴾.

---

= أمَرَ اللهُ بالاستعاذةِ مِن شَرِّ اللَّيلِ وشَرِّ القَمَرِ إذا وَقَب هو أنَّ اللَّيلَ إذا أقبَلَ فهو محلُّ سُلطانِ الأرواحِ الشِّرِّيرةِ الخبيثةِ، وفيه تنتشِرُ الشَّياطينُ، وفي الصَّحيحِ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أخبَرَ أنَّ الشَّمسَ إذا غرَبَت انتشَرَت الشَّياطينُ [البخاري (٣٢٨٠) ومسلم (٢٠١٢)]. ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢١٧، ٢١٨).

وقال ابنُ تيميَّةَ: (ولا مُنافاةَ بيْنَ تَفسيرِه باللَّيلِ وبالقَمَرِ؛ فإنَّ القَمَرَ آيةُ اللَّيلِ). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٥٣٤).

وذكر ابنُ تيميَّةَ أيضًا أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم أمَر عائشةَ بالاستعاذةِ منه مع ظُهورِه، فالقمرُ آيةُ اللَّيلِ، فأمْرُه بالاستِعاذةِ مِن ذلك أمرٌ بالاستعاذةِ مِن آيةِ اللَّيلِ ودليلِه وعلامتِه، والدَّليلُ مُستلزِمٌ للمَدلولِ، فإذا كان شرُّ القمَرِ موجودًا فشَرُّ اللَّيلِ موجودٌ، وللقمرِ مِن التَّأثيرِ ما ليس لغيرِه، فتكونُ الاستِعاذةُ مِن الشَّرِّ الحاصِلِ عنه أقوى. يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٦).

(١) أخرجه الترمذيُّ (٣٣٦٦)، والنسائيُّ في ((السنن الكبرى)) (١٠١٣٧)، وأحمدُ (٢٥٨٠٢).
قال الترمذي: (حسَنٌ صحيحٌ)، وكذا قال الألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٣٣٦٦). وصَحَّحه ابنُ العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٦/ ٤٠٩)، وقال ابن حجر -كما في ((الفتوحات الربانية)) لابن علان (٤/ ٣٣٤)-: (حسَنٌ غريبٌ)، وحسَّنه شعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (٤٠/ ٣٧٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٨).

أي: وأعوذُ باللهِ مِن شَرِّ السَّاحِراتِ اللَّاتي يَنفُثْنَ في عُقَدِ الخُيوطِ وما أشبَهَها؛ حتَّى ينعَقِدَ ما أرَدْنَه مِنَ السِّحرِ(١).

كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

عُطِفَ شَرُّ الحاسدِ على شَرِّ السَّاحرِ المَعطوفِ على شَرِّ اللَّيلِ؛ لمُناسَبةٍ بيْنَه وبيْن المعطوفِ عليه مُباشَرةً، وبيْنه وبيْن المَعطوفِ عليه بواسطةٍ؛ فإنَّ ممَّا يَدْعو

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤٩)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٣٩)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤١٢)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

قال الرازي: (السَّاحِرُ إذا أخذَ في قراءةِ الرُّقْيةِ أخَذَ خَيطًا، ولا يزالُ يَعقِدُ عليه عَقْدًا بعدَ عَقْدٍ، ويَنفُثُ في تلك العُقَدِ، وإنَّما أنَّث ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾؛ لوُجوهٍ:

أحَدُها: أنَّ هذه الصِّناعةَ إنَّما تُعرَفُ بالنِّساءِ؛ لأنَّهنَّ يَعقِدنَ ويَنفُثْنَ؛ وذلك لأنَّ الأصلَ الأعظَمَ فيه رَبطُ القَلبِ بذلك الأمرِ، وإحكامُ الهِمَّةِ والوَهمِ فيه، وذلك إنَّما يتأتَّى مِنَ النِّساءِ...

وثانيها: أنَّ المرادَ مِن ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾: النُّفوسُ.

وثالثُها: المرادُ منها الجماعاتُ؛ وذلك لأنَّه كُلَّما كان اجتماعُ السَّحَرةِ على العمَلِ الواحِدِ أكثَرَ كان التَّأثيرُ أشَدَّ). ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٧٤). ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢١).

وممَّن فَسَّر النَّفَّاثاتِ بالنِّساءِ السَّاحراتِ: ابنُ جرير، وابنُ تيميَّةَ، والسعديُّ، وابنُ عاشور، وابنُ عثيمين. يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٤٩)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٣).

وممَّن ذهب في الجملةِ إلى أنَّ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ هنَّ الأرواحُ والأنفُسُ النَّفَّاثاتُ، لا النِّساءُ النَّفَّاثاتُ؛ لأنَّ تأثيرَ السِّحرِ إنَّما هو مِن جهةِ الأنفُسِ الخبيثةِ، والأرواحِ الشِّرِّيرةِ، وسُلطانُه إنَّما يظهَرُ منها: ابنُ القيِّم، والألوسيُّ. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢١، ٢٢٢)، ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٢٠).

الحاسدَ إلى أذى المَحسودِ أنْ يَتطلَّبَ حُصولَ أذاهُ؛ لتَوهُّم أنَّ السِّحرَ يُزيلُ النِّعمةَ الَّتي حَسَدَه عليها، ولأنَّ ثَوَرانَ وجْدانِ الحسَدِ يَكثُرُ في وَقتِ اللَّيلِ؛ لأنَّ اللَّيلَ وقْتُ الخَلْوةِ، وخُطورِ الخواطِرِ النَّفسيَّةِ، والتَّفكُّرِ في الأحوالِ الحافَّةِ بالحاسدِ وبالمحسودِ[١].

وأيضًا لَمَّا كان أعظَمُ حاملٍ على السِّحرِ وغَيرِه مِن أذى النَّاسِ: الحسَدَ[٢]، مع اشتِراكِهما في التَّأثيرِ الخَفيِّ للحالِ -بإذْنِ الله تعالى-؛ قال عزَّ وجلَّ:

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾.

أي: وأعوذُ باللهِ مِن شَرِّ كُلِّ حاسِدٍ مِن الإنسِ والجِنِّ يتمَنَّى زَوالَ نِعمةِ اللهِ عن غَيرِه، إذا حَسَده وأراده بسُوءٍ بعَينِه الخبيثةِ، أو بقَولِه أو بفِعْلِه[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤١٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥١، ٧٥٢)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٨)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٨-٢٢٩، ٢٣٣، ٢٣٥)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٠)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٣).

قال الألوسي: (ذكروا أنَّ العائنَ والحاسدَ يَشتَرِكانِ في أنَّ كلًّا منهما تَتكيَّفُ نفْسُه وتَتوَجَّهُ نحوَ مَن تُريدُ أذاه، إلَّا أنَّ العائنَ تتكيَّفُ نفْسُه عندَ مُقابَلةِ العَينِ والمُعايَنةِ، والحاسدَ يَحصُلُ حسَدُه في الغَيبةِ والحُضورِ. وأيضًا العائنُ قد يَعينُ مَن لا يَحسُدُه مِن حَيوانٍ وزَرعٍ، وإن كان لا يَنفَكُّ مِن حسدِ صاحِبِه). ((تفسير الألوسي)) (١٥/ ٥٢٢). ويُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣١).

وقال ابن القيِّم بعْدَ أنْ ذكر أنَّ الحاسِدَ أعَمُّ مِنَ العائِنِ؛ فكُلُّ عائِنٍ حاسِدٌ، وليس كلُّ حاسِدٍ عائنًا: (وأصْلُه مِن إعجابِ العائنِ بالشَّيءِ، ثمَّ تَتْبَعُه كيفيَّةُ نفْسِه الخبيثةِ، ثمَّ تستعينُ على تنفيذِ سمِّها بنَظرةٍ إلى المَعينِ، وقد يَعينُ الرَّجُلُ نفْسَه، وقد يَعينُ بغيرِ إرادَتِه، بل بطَبْعِه، وهذا أردَأُ ما يكونُ مِن النَّوعِ الإنسانيِّ). ((زاد المعاد)) (٤/ ١٥٤).

وقال السعدي: (ويَدخُلُ في الحاسِدِ العائِنُ؛ لأنَّه لا تَصدُرُ العَينُ إلَّا مِن حاسِدٍ شِرِّيرِ الطَّبعِ، خَبيثِ النَّفْسِ). ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

عن عائِشةَ رَضِيَ اللهُ عنها، قالت: ((كان إذا اشتكى رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم رقاه جبريلُ، قال: باسْمِ اللهِ يُبْرِيك، ومِن كُلِّ داءٍ يَشْفيك، ومِن شَرِّ حاسِدٍ إذا حَسَد، وشَرِّ كُلِّ ذي عَينٍ))[١].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فيه استِحبابُ التَّعَوُّذِ مِمَّا ذُكِرَ فيه[٢].

٢- في المعَوِّذتَينِ الاستِعاذةُ مِن كُلِّ مكروهٍ جملةً وتفصيلًا؛ فإنَّ الاستعاذةَ مِن شَرِّ ما خَلَق تَعُمُّ كُلَّ شَرٍّ يُستعاذُ منه، سواءٌ كان في الأجسامِ أو الأرواحِ، والاستعاذةَ مِن شَرِّ الغاسِقِ -وهو اللَّيلُ- وآيتِه -وهو القَمَرُ- تتضَمَّنُ الاستعاذةَ مِن شَرِّ ما ينتَشِرُ فيه مِن الأرواحِ الخبيثةِ الَّتي كان نورُ النَّهارِ يَحولُ بيْنَها وبيْن الانتشارِ، فلمَّا أظلَمَ اللَّيلُ عليها انتشَرَت وعاثَتْ، والاستعاذةَ مِن شَرِّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ تتضَمَّنُ الاستعاذةَ مِن شَرِّ السَّواحِرِ وسِحْرِهنَّ، والاستعاذةَ مِن شَرِّ الحاسِدِ تتضَمَّنُ الاستعاذةَ مِن النُّفوسِ الخبيثةِ المُؤذِيةِ بحَسَدِها ونَظَرِها.

والسُّورةُ الثَّانيةُ تتضَمَّنُ الاستعاذةَ مِن شَرِّ شياطينِ الإنسِ والجِنِّ؛ فقد جمعت السُّورتانِ الاستعاذةَ مِن كُلِّ شَرٍّ، ولهما شأنٌ عظيمٌ في الاحتراسِ والتَّحَصُّنِ مِن الشُّرورِ قبْلَ وُقوعِها؛ ولهذا أوصى النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عُقْبَةَ بنَ عامرٍ رضيَ الله عنه بقِراءتِهما عَقِبَ كُلِّ صلاةٍ[٣]، وفي هذا سِرٌّ عظيمٌ في استدفاعِ الشُّرورِ

(١) رواه مسلم (٢١٨٥).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٢).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٦).

مِن الصَّلاةِ إلى الصَّلاةِ، وقال: ((ما تعوَّذ مُتَعَوِّذٌ بمِثْلِهما))[١]، وقد ذُكِرَ أنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم سُحِرَ، وأنَّ جبريلَ نَزَل عليه بهما، فجَعَل كُلَّما قرَأَ آيةً منهما انحَلَّت عُقدةٌ، حتَّى انحَلَّت العُقَدُ كُلُّها، وكأنَّما أُنشِطَ مِن عِقالٍ[٢].

٣- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ ذَكَر اللهُ عزَّ وجَلَّ الغاسِقَ إذا وَقَب، والنَّفَّاثاتِ في العُقَدِ، والحاسِدَ إذا حسَدَ؛ لأنَّ البلاءَ كُلَّه في هذه الأحوالِ الثَّلاثةِ يكونُ خَفيًّا، اللَّيلُ سَترٌ وغِشاءٌ. ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] يَكمُنُ به الشَّرُّ ولا يُعلَمُ به. ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ أيضًا السِّحرُ خَفيٌّ لا يُعلَمُ. ﴿حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ العائِنُ أيضًا خَفيٌّ تأتي العينُ مِن شَخصٍ تَظُنُّ أنَّه مِن أحَبِّ النَّاسِ إليك وأنت مِن أحَبِّ النَّاسِ إليه، ومع ذلك يُصيبُك بالعَينِ؛ لهذا السَّبَبِ خَصَّ اللهُ هذه الأمورَ الثَّلاثةَ؛ الغاسِقَ إذا وَقَب، والنَّفَّاثاتِ في العُقَدِ، والحاسِدَ إذا حَسَد، وإلَّا فهي داخِلةٌ في قَولِه تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾[٣]. وقيل: معنى الاستعاذةِ مِن الغاسِقِ والنَّفَّاثاتِ والحاسِدِ بعْدَ قولِه: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ -مع أنَّه عامٌّ في كُلِّ ما يُستعاذُ منه-: التَّنبيهُ على أنَّ هذه الشُّرورَ أعظَمُ أنواعِ الشَّرِّ[٤].

٤- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ

---

(١) أخرجه مطوَّلًا أبو داودَ (١٤٦٣) واللَّفظُ له، والطَّحاويُّ في ((شرح مشكل الآثار)) (١٢٧)، والطَّبَرانيُّ (١٧/ ٣٤٥) (٩٥٠) مِن حديثِ عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه.
صحَّحه ابنُ القيِّم في ((المنار المُنِيف)) (٩١)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن أبي داود)) (١٤٦٣)، وشعيبٌ الأرناؤوط في تخريج ((سنن أبي داود)) (١٤٦٣).

(٢) يُنظر: ((زاد المعاد)) لابن القيم (٤/ ١٦٦، ١٦٧).
وحديثُ السِّحرِ المذكورُ تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٧٥).

إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۞ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ حاصِلُ هذه السُّورةِ العُظمى في معناها الأبدَعِ الأَسْمى الاستعاذةُ باللهِ -بذِكْرِ اسمِه «الرَّبِّ» المقتضي للإحسانِ والتَّربيةِ بجَلْبِ النِّعَمِ ودَفعِ النِّقَمِ- مِن شَرِّ ما خلَقَ، ومِنَ السِّحرِ والحَسَدِ(١).

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ۞ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۞ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۞ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ۞ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وَقَعَ ترتيبُ المُستعاذِ منه في هذه السُّورةِ على كَمالِ التَّرتيبِ، انتِقالًا مِن الأعمِّ الأعلى الأبعَدِ إلى الأخصِّ الأقرَبِ الأسفَلِ، فجُعِلَتْ أربعةَ أقسامٍ:

**الأوَّلُ**: مِن شَرِّ المخلوقاتِ عُمومًا.

**والثَّاني**: شَرُّ الغاسقِ إذا وَقَبَ؛ فدَخَلَ فيه ما يُؤَثِّرُ مِن العُلْويَّاتِ في السُّفْليَّاتِ مِن اللَّيلِ، وما فيه مِن الكواكِبِ كالثُّرَيَّا وسُلْطانِه الَّذي هو القَمَرُ، ودَخَلَ في ذلك سِحْرُ التَّمزيجاتِ(٢) الَّذي هو أعلى السِّحرِ وأرفَعُه.

**الثَّالِثُ**: شَرُّ النَّفَّاثاتِ في العُقَدِ، وهُنَّ السَّواحِرُ.

**والرَّابعُ**: الحاسِدُ، وهي النُّفوسُ المُضِرَّةُ سَفَهًا؛ فانتظَمَ بذلك جميعُ أسبابِ الشُّرورِ(٣).

٦- في قَولِه تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ سِرٌّ في الاستعاذةِ بربِّ الفَلَقِ

---

(١) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤١٩).

(٢) سحرُ التَّمزيجاتِ -وهو أقوى ما يكونُ مِن السِّحرِ- أن يمزجَ بيْن القُوى النَّفْسانيَّةِ الخبيثةِ الفعَّالةِ، والقُوى الطَّبيعيَّةِ المُنفَعِلةِ. يُنظر: ((إعلام الموقعين عن رب العالمين)) لابن القيم (٣/ ٢٥٧).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٣٥).

في هذا الموضِعِ؛ فإنَّ الفَلَقَ الصُّبحُ الَّذي هو مَبدأُ ظُهورِ النُّورِ، وهو الَّذي يَطْرُدُ جيشَ الظَّلامِ، وعَسْكَرَ المفسِدينَ في اللَّيلِ، فيأوي كلُّ خبيثٍ وكلُّ مُفْسِدٍ وكلُّ لِصٍّ وكلُّ قاطعِ طريقٍ إلى سَرَبٍ[١] أو كِنٍّ[٢] أو غارٍ، وتأوي الهَوامُّ إلى أحجِرَتِها، والشَّياطينُ الَّتي انتشرتْ باللَّيلِ إلى أمكنَتِها ومحالِّها؛ فأمَرَ اللهُ تعالى عبادَه أنْ يَستعيذوا بربِّ النُّورِ الَّذي يَقْهَرُ الظُّلْمةَ ويُزيلُها، ويَقهَرُ عَسْكَرَها وجَيْشَها؛ ولهذا ذَكَرَ سُبحانَه أنَّه يُخرِجُ عبادَه مِن الظُّلماتِ إلى النُّورِ، ويَدَعُ الكُفَّارَ في ظُلُماتِ كُفْرِهم؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[٣] [البقرة: ٢٥٧].

٧- في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ وقَولِه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١] سؤالٌ: كيف جاء امتثالُ هذا الأمرِ بلَفظِ الأمرِ والمأمورِ به، ومعلومٌ أنَّه إذا قيل: قُلِ: «الحَمدُ للهِ»، وقُلْ: «سُبحانَ اللهِ»؛ فإنَّ امتثالَه أنْ يقولَ: «الحَمدُ للهِ»، و«سُبحانَ اللهِ»، ولا يقولَ: «قُلْ سُبحانَ اللهِ».

**الجوابُ**: هذا هو السُّؤالُ الَّذي أوردَه أُبَيُّ بنُ كَعبٍ على النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعَينِه، وأجابَه عنه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ حيثُ قال صلَّى الله عليه وسلَّم: ((قيل لي، فقُلْتُ))[٤]. وتحتَ هذا السِّرِّ أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم ليس له في القُرآنِ إلَّا بلاغُه، لا أنَّه هو أنْشَأَه مِن قِبَلِ نفْسِه، بل هو المُبَلِّغُ له عن اللهِ، وقد قال اللهُ له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ فكان يَقتضي البلاغُ التَّامُّ أنْ

---

(١) السَّرَب: الحَفيرُ تحتَ الأرضِ. يُنظر: ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ٩٦).

(٢) الكِنُّ: وِقاءُ كلِّ شيءٍ وسِتْرُه، والغارُ ونحوُه يُسكَنُ فيه، والجمعُ: أكْنانٌ وأكِنَّةٌ. يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (٩/ ٣٣٥)، ((القاموس المحيط)) للفيروزابادي (ص: ١٢٢٨).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٩).

(٤) أخرجه البخاري (٤٩٧٧).

يقولَ: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ كما قال اللهُ، وهذا هو المعنى الَّذي أشار إليه النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بقَولِه: ((قيل لي، فقُلْتُ))، أي: أنِّي لَسْتُ مُبتَدِئًا، بل أنا مُبَلِّغٌ، أقولُ كما يُقالُ لي، وأُبَلِّغُ كلامَ رَبِّي كما أنزَلَه إلَيَّ، وفي هذا ردٌّ على المُعتَزِلةِ والجَهميَّةِ وإخوانِهم مِمَّن يقولُ: هذا القُرآنُ العربيُّ وهذا النَّظْمُ كلامُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم ابتَدأَ هو به! ففي هذا الحديثِ أبْيَنُ الرَّدِّ لهذا القَولِ، وأنَّه صلَّى الله عليه وسلَّم بَلَّغَ القولَ الَّذي أُمِرَ بتبليغِه على وَجْهِه ولفْظِه، حتَّى إنَّه لَمَّا قيلَ له: «قُلْ»، قال هو: «قُلْ»؛ لأنَّه مُبَلِّغٌ مَحْضٌ، وما على الرَّسولِ إلَّا البَلاغُ[1].

٨- في سُورةِ الفَلَقِ الاستِعاذةُ مِن شَرِّ المخلوقاتِ عمومًا وخصوصًا؛ ولهذا قيل فيها: ﴿بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾؛ فإنَّ فالِقَ الإصباحِ بالنُّورِ يُزيلُ بما في نُورِه مِن الخيرِ ما في الظُّلمةِ مِن الشَّرِّ، وفالِقَ الحَبِّ والنَّوى بعْدَ انعقادِهما يُزيلُ ما في عُقَدِ النَّفَّاثاتِ؛ فإنَّ فَلْقَ الحَبِّ والنَّوى أعظمُ مِن حَلِّ عُقَدِ النَّفَّاثاتِ، وكذلك الحسَدُ هو مِن ضِيقِ الإنسانِ وشُحِّهِ لا يَنشَرِحُ صَدْرُه لإنعامِ اللهِ؛ فرَبُّ الفَلَقِ يُزيلُ ما يَحصلُ بضيقِ الحاسِدِ وشُحِّه، وهو سُبحانَه لا يَفْلِقُ شيئًا إلَّا بخيرٍ، فهو فالِقُ الإصباحِ بالنُّورِ الهادي والسِّراجِ الوَهَّاجِ الَّذي به صلاحُ العِبادِ، وهو فالِقُ الحَبِّ والنَّوى بأنواعِ الفواكهِ والأقواتِ الَّتي هي رِزْقُ النَّاسِ ودَوابِّهم، والإنسانُ محتاجٌ إلى جَلْبِ المنفعةِ مِن الهُدى والرِّزقِ، وهذا حاصِلٌ بالفَلْقِ، والرَّبُّ الَّذي فَلَقَ للنَّاسِ ما تحصُلُ به منافعُهم يُستعاذُ به ممَّا يَضُرُّ النَّاسَ، فيُطْلَبُ منه تمامُ نعمتِه بصَرفِ المؤذِياتِ عن عبْدِه الَّذي ابتدأَ بإنعامِه عليه، وفَلْقُ الشَّيءِ عن الشَّيءِ هو دليلٌ على تمامِ القُدرةِ، وإخراجُ الشَّيءِ مِن ضِدِّهِ كما يُخرِجُ الحَيَّ مِن

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٠٢).

الميِّتِ والميِّتَ مِن الحَيِّ، هذا مِن نَوعِ الفَلْقِ؛ فهو سُبحانَه قادِرٌ على دَفْعِ الضِّدِّ المؤذِي بالضِّدِّ النَّافعِ[١].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ ردٌّ على مَن قال: إنَّ اللهَ لم يَخلُقِ الشَّرَّ[٢]!

١٠- في قَولِه تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ سؤالٌ عن الجَمعِ مع قَولِه صلَّى الله عليه وسلَّم: ((والشَّرُّ ليس إليك))[٣]؟

**الجوابُ**: أنَّ الفَرقَ بيْنَهما ظاهرٌ؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أضاف الشَّرَّ إلى المخلوقِ، أمَّا إلى اللهِ فلا يُضافُ الشَّرُّ، فلا شكَّ أنَّ اللهَ هو الَّذي قَدَّرَ الشَّرَّ، لكنْ قَدَّرَ الشَّرَّ في مَفعولاتِه، أمَّا تقديرُه لهذا الشَّرِّ فهو لحِكمةٍ عظيمةٍ يترتَّبُ عليها مِن المصالحِ ما يَجعَلُها غيرَ مكروهةٍ، لكنْ فَرْقٌ بيْن المفعولِ وبيْن الفِعلِ والفاعِلِ؛ فالفاعِلُ هو اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو المُقَدِّرُ، وهذا لا شَكَّ نُحِبُّه على كلِّ حالٍ، وفِعْلُه أيضًا خيرٌ على كلِّ حالٍ، أمَّا مَفعولُه ففيه خيرٌ وفيه شَرٌّ[٤]، فالشَّرُّ لا يُضافُ إلى الرَّبِّ تعالى لا وصفًا ولا فِعلًا، ولا يتسمَّى باسمِه بوجهٍ مِن الوُجوهِ، وإنَّما يَدخُلُ في مفعولاتِه بطريقِ العُمومِ[٥]. والشَّرُّ مُسنَدٌ في الآيةِ إلى المخلوقِ المفعولِ، لا إلى خَلقِ الرَّبِّ تعالى الَّذي هو فِعلُه وتكوينُه؛ فإنَّه لا شرَّ فيه بوجهٍ ما؛ فإنَّ الشَّرَّ لا يَدخُلُ في شيءٍ مِن صِفاتِه ولا في أفعالِه، كما لا يَلحَقُ ذاتَه تبارَك وتعالى؛ فإنَّ ذاتَه لها الكمالُ المُطلَقُ الَّذي لا نقْصَ فيه بوَجهٍ مِن

---

(١) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٨).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٣٠٢).

(٣) رواه مسلم (٧٧١) من حديث عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضيَ الله عنه.

(٤) يُنظر: ((شرح العقيدة السفارينية)) لابن عثيمين (١/ ٣٧٣).

(٥) يُنظر: ((شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)) لابن القيم (ص: ٢٧٠).

الوُجوهِ، وأوصافُه كذلك لها الكمالُ المُطلَقُ والجلالُ التَّامُّ، ولا عيبَ فيها ولا نقصَ بوَجهٍ ما، وكذلك أفعالُه كلُّها خَيراتٌ مَحْضةٌ، لا شرَّ فيها أصلًا[(١)].

١١- قال اللهُ تعالى: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ أي: مِن شَرِّ جميعِ المخلوقاتِ، ومنه النَّفْسُ؛ لأنَّ النَّفْسَ أمَّارةٌ بالسُّوءِ، فإذا قُلْتَ: ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ فأوَّلُ ما يدخُلُ فيه نَفْسُك[(٢)].

١٢- أمَرَ اللهُ تعالى بالاستِعاذةِ مِن ﴿شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، وهو اللَّيلُ إذا أَظلَمَ؛ فإنَّه يَنتشِرُ فيه شَياطينُ الجِنِّ والإنسِ، والاستِعاذةُ مِن القَمرِ لأنَّه آيةُ اللَّيلِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ شَرَّ اللَّيلِ المَخوف لا يَندفِعُ بإشراقِ القَمرِ فيه، ولا يَصيرُ بذلك كالنَّهارِ، بل يُستَعاذُ منه وإنْ كان مُقْمِرًا[(٣)].

١٣- في قَولِه تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ﴾ دَلالةٌ على تأثيرِ السِّحْرِ، وأنَّ له حقيقةً، وقد أنكَرَ ذلك طائفةٌ مِن أهلِ الكلامِ مِن المعتزلةِ وغيرِهم، وقالوا: إنَّه لا تأثيرَ للسِّحْرِ البَتَّةَ؛ لا في مرَضٍ ولا قَتْلٍ، ولا حَلٍّ ولا عَقْدٍ! قالوا: وإنَّما ذلك تخيُّلٌ لأعيُنِ النَّاظِرينَ، لا حقيقةَ له سِوى ذلك! وهذا خلافُ ما تواترتْ به الآثارُ عن الصَّحابةِ والسَّلَفِ، واتَّفَقَ عليه الفُقَهاءُ، وأهلُ التَّفسيرِ والحديثِ، وأربابُ القلوبِ مِن أهلِ التَّصَوُّفِ، وما يَعْرِفُه عامَّةُ العقلاءِ، والسِّحْرُ الَّذي يُؤَثِّرُ مَرَضًا وثِقلًا، وحَلًّا وعقدًا، وحُبًّا وبُغضًا، وتَزيينًا وغيرَ ذلك مِن الآثارِ: موجودٌ تَعرِفُه عامَّةُ النَّاسِ، وكثيرٌ منهم قد عَلِمَه ذَوقًا بما أُصيبَ به منه، وقَولُه تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ﴾ دليلٌ على أنَّ هذا النَّفْثَ يَضُرُّ المسحورَ في حالِ غَيبتِه عنه، ولو كان الضَّرَرُ لا يَحصُلُ إلَّا بمُباشَرةِ البَدَنِ ظاهِرًا -كما

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢١٠، ٢١١).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٢).

(٣) يُنظر: ((لطائف المعارف)) لابن رجب (ص: ٧٣).

يقولُه هؤلاء- لم يكُنْ للنَّفْثِ ولا للنَّفَّاثاتِ شَرٌّ يُستعاذُ منه، وأيضًا فإذا جاز على السَّاحرِ أنْ يَسْحَرَ جميعَ أعيُنِ النَّاظِرينَ مع كثرتِهم حتَّى يَرَوُا الشَّيءَ بخِلافِ ما هو به، مع أنَّ هذا تَغَيُّرٌ في إحساسِهم، فما الَّذي يُحِيلُ تأثيرَه في تغييرِ بعضِ أعراضِهم وقُواهم وطِباعِهم؟ وما الفَرقُ بيْن التَّغييرِ الواقِعِ في الرُّؤيةِ، والتَّغييرِ في صفةٍ أُخرى مِن صفاتِ النَّفْسِ والبَدَنِ؟ فإذا غَيَّرَ إحساسَه حتَّى صار يرى السَّاكِنَ متحَرِّكًا، والمتَّصِلَ مُنفَصِلًا، والميِّتَ حَيًّا، فما المُحيلُ لأن يغَيِّرَ صِفاتِ نَفْسِه حتَّى يجعلَ المحبوبَ إليه بغيضًا، والبغيضَ محبوبًا، وغيرِ ذلك مِن التَّأثيراتِ[١]؟! فالسِّحرُ له حقيقةٌ يُخشى مِن ضَرَرِه، ويُستعاذُ باللهِ منه ومِن أهْلِه[٢].

١٤- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ سؤالٌ: أنَّ السِّحْرَ يكونُ مِن الذُّكورِ والإناثِ، فلِمَ خَصَّ الاستعاذةَ مِن الإناثِ دونَ الذُّكورِ؟

**الجوابُ**: أنَّ النَّفَّاثاتِ هنا هُنَّ الأرواحُ والأنفُسُ النَّفَّاثاتُ، لا النِّساءُ النَّفَّاثاتُ -على قولٍ في التَّفسير-؛ لأنَّ تأثيرَ السِّحْرِ إنَّما هو مِن جهةِ الأنْفُسِ الخَبيثةِ، والأرواحِ الشِّرِّيرةِ، وسُلطانُه إنَّما يَظْهَرُ منها؛ فلهذا ذُكِرَتِ النَّفَّاثاتُ هنا بلَفظِ التَّأنيثِ دونَ التَّذكيرِ[٣]. أو: أنَّه جيءَ بصِفةِ المؤَنَّثِ؛ لأنَّ الغالِبَ عندَ العَرَبِ أن يتعاطى السِّحرَ النِّساءُ؛ لأنَّ نِساءَهم لا شُغلَ لهُنَّ بعدَ تهيئةِ لَوازمِ الطَّعامِ والماءِ والنَّظافةِ؛ فلذلك يَكثُرُ انكِبابُهنَّ على مِثْلِ هاته السَّفاسِفِ مِن السِّحرِ والتَّكَهُّنِ ونحوِ ذلك، فالأوهامُ الباطِلةُ تتفَشَّى بيْنَهنَّ[٤].

١٥- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال ابنُ عبَّاسٍ وعَطاءٌ:

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٢١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٨). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٤٨).

(مِن نَفْسِ ابنِ آدَمَ وعَينِه)؛ ففيه أنَّ العَينَ حَقٌّ[١].

١٦- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحاسِدُ هو الَّذي يحِبُّ زوالَ النِّعمةِ عن المحسودِ، فيَسعى في زَوالِها بما يَقدِرُ عليه مِنَ الأسبابِ؛ فاحتِيجَ إلى الاستِعاذةِ باللهِ مِن شَرِّه، وإبطالِ كَيْدِه، فهذه السُّورةُ تضَمَّنَت الاستعاذةَ من جميعِ أنواعِ الشُّرورِ عُمومًا وخُصوصًا[٢].

١٧- في قَولِه تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ جاء في السُّورةِ ذِكْرُ الحاسدِ دونَ العائنِ؛ لأنَّه أعمُّ، فكلُّ عائنٍ حاسِدٌ ولا بُدَّ، وليس كلُّ حاسدٍ عائنًا، فإذا استعاذ مِن شَرِّ الحَسَدِ دَخَلَ فيه العَينُ، وهذا مِن شُمولِ القُرآنِ الكريمِ وإعجازِه وبلاغتِه[٣].

١٨- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ قال بَعضُ الحُكَماءِ: بارَزَ الحاسِدُ رَبَّه مِن خمسةِ أوجُهٍ:

**أحَدُها**: أنَّه أبغَضَ كُلَّ نِعمةٍ ظهَرَت على غَيرِه.

**وثانيها**: أنَّه ساخِطٌ لِقسمةِ رَبِّه، كأنَّه يقولُ: لِمَ قَسَمْتَ هذه القِسمةَ؟

**وثالثُها**: أنَّه ضادَّ فِعلَ اللهِ، أي: أنَّ فَضلَ اللهِ يُؤتيه مَن يشاءُ، وهو يَبخَلُ بفَضلِ اللهِ.

**ورابِعُها**: أنَّه خَذَل أولياءَ اللهِ، أو يُريدُ خِذْلانَهم وزَوالَ النِّعمةِ عنهم.

**وخامِسُها**: أنَّه أعان عَدُوَّه إبليسَ[٤].

---

(١) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

(٣) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٣).

(٤) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦٠).

وقد قيل: ليس شيءٌ مِن الشرِّ أضرُّ مِن الحسدِ؛ لأنَّه يصِلُ إلى الحاسدِ خمسُ عقوباتٍ، قبلَ أنْ يصِلَ إلى المحسودِ مكروهٌ:

**أولُها**: غمٌّ لا ينقطِعُ. **والثاني**: مصيبةٌ لا يؤجرُ عليها. **والثالثُ**: مذمَّةٌ لا يُحمدُ بها. **والرابعُ**: يُسخِطُ عليه الربَّ. **والخامسُ**: تُغلَقُ عليه أبوابُ التَّوفيقِ[١].

١٩- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ شَرُّ الحاسِدِ ومَضَرَّتُه إنَّما تَقَعُ إذا أمضى حَسَدَه، فحينَئذٍ يَضُرُّ بقَولِه أو بفِعْلِه أو بإصابتِه بالعَينِ؛ فإنَّ عينَ الحَسُودِ قاتِلةٌ، وأمَّا إذا لم يُمْضِ حَسَدَه ولم يتصَرَّفْ بمُقْتضاه فشَرُّه ضَعيفٌ[٢]. فالحاسِدُ لا يَضُرُّ إلَّا إذا ظَهَر حَسَدُه بفِعلٍ أو قَولٍ، وذلك بأن يحمِلَه الحَسَدُ على إيقاعِ الشَّرِّ بالمحسودِ، فيَتبعَ مَساوِيَه، ويَطلُبَ عَثَراتِه، والحسَدُ أوَّلُ ذَنْبٍ عُصِيَ اللهُ به في السَّماءِ، وأوَّلُ ذَنبٍ عُصِيَ به في الأرضِ؛ فحَسَد إبليسُ آدَمَ، وحَسَد قابيلُ هابيلَ[٣].

٢٠- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أصلُ الحَسَدِ هو بُغضُ نِعمةِ اللهِ على المحسودِ، وتمَنِّي زوالِها؛ فالحاسِدُ عَدُوُّ النِّعَمِ، وهذا الشَّرُّ هو مِن نفْسِ الحاسِدِ وطَبْعِها، ليس هو شيئًا اكتسَبَه مِن غَيرِها، بل هو مِن خُبثِها وشَرِّها، بخِلافِ السِّحرِ؛ فإنَّه إنَّما يكونُ باكتسابِ أمورٍ أُخرى، واستِعانةٍ بالأرواحِ الشَّيطانيَّةِ؛ فلهذا -واللهُ أعلَمُ- قَرَن في السُّورةِ بيْن شَرِّ الحاسِدِ وشَرِّ السَّاحِرِ؛ لأنَّ الاستعاذةَ مِن شَرِّ هذينِ تَعُمُّ كُلَّ شَرٍّ يأتي مِن شياطينِ الإنسِ والجِنِّ؛ فالحسَدُ مِن شياطينِ الإنسِ والجِنِّ، والسِّحرُ مِنَ النَّوعَينِ[٤].

---

(١) يُنظر: ((تنبيه الغافلين)) للسمرقندي (ص: ١٧٧، ١٧٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٥٩).

(٤) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٣).

٢١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يَعُمُّ الحاسِدَ مِن الجِنِّ والإنسِ؛ فإنَّ الشَّيطانَ وحِزبَه يَحسُدونَ المؤمِنينَ على ما آتاهم اللهُ تعالى مِن فَضْلِه، كما حَسَد إبليسُ أبانا آدَمَ، وهو عَدُوٌّ لذُرِّيَّتِه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]، ولكِنَّ الوَسواسَ أخَصُّ بشياطينِ الجِنِّ، والحَسَدَ أخَصُّ بشياطينِ الإنسِ، والوَسواسُ يَعُمُّهما، والحَسَدُ يَعُمُّهما أيضًا، فكِلا الشَّيطانينِ حاسِدٌ مُوسوِسٌ؛ فالاستعاذةُ مِن شَرِّ الحاسِدِ تتناوَلُهما جميعًا؛ فقد اشتمَلَت السُّورةُ على الاستعاذةِ مِن كُلِّ شَرٍّ في العالَمِ(١).

٢٢- قال اللهُ تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ الحامِلُ على الحسَدِ أصْلُه أمْرانِ:

**الأوَّلُ**: ازدراءُ المحسودِ.

**والثَّاني**: إعجابُ الحاسِدِ بنَفْسِه(٢).

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾

- الخِطابُ بلَفظِ ﴿قُلۡ﴾ للنَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، وإذ قد كان قُرآنًا كان خِطابُ النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم به يَشمَلُ الأُمَّةَ حيث لا دَليلَ على تَخصيصِه به؛ فلذلك أمَرَ النَّبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم بَعضَ أصحابِه بالتَّعوُّذِ بهذه السُّورةِ، فتكونُ صِيغةُ الأمرِ المُوجَّهةُ إلى المُخاطَبِ مُستعمَلةً في مَعنيَيِ الخِطابِ مِن تَوجُّهِه إلى مُعيَّنٍ -وهو الأصلُ-، ومِن إرادةِ كلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه، وهو طَريقٌ مِن طُرقِ الخِطابِ تدُلُّ على قَصْدِه القرائنُ، فيكونُ مِن

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٣٥).

(٢) يُنظر: ((تتمة أضواء البيان)) لعطية سالم (٩/ ١٦٥).

استعمالِ المُشتركِ في مَعْنَيَيه، واستعمالُ صِيغةِ التَّكلُّمِ في فِعلِ ﴿أَعُوذُ﴾ يَتبَعُ ما يُرادُ بصِيغةِ الخِطابِ في فِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ فهو مَأمورٌ به لكلِّ مَن يُريدُ التَّعوُّذَ بها[١].

- ولَفظُ الرَّبِّ هنا أوقَعُ مِن سائرِ أسمائِه تعالَى؛ لأنَّ الإعاذةَ مِن المَضارِّ تَربيةٌ[٢].

- وفِي تَعليقِ العِياذِ باسمِ الرَّبِّ المُضافِ إلى الفَلَقِ المُنبئِ عن النُّورِ عَقِيبَ الظُّلمةِ، والسَّعةِ بعْدَ الضِّيقِ، والفَتْقِ بعْدَ الرَّتْقِ؛ عِدَةٌ كَريمةٌ بإعاذةِ العائذِ مِمَّا يَعوذُ منْه، وإنجائِه منْه، وتَقويةٌ لرَجائِه بتَذكيرِ بَعضِ نَظائرِه، ومَزيدُ تَرغيبٍ له في الجِدِّ والاعتناءِ بقَرْعِ بابِ الالتِجاءِ إليه تعالَى[٣].

- ورَبُّ الفَلَقِ: هو اللهُ سُبحانَه؛ لأنَّه الَّذي خَلَقَ أسبابَ ظُهورِ الصُّبحِ، وتَخصيصُ وَصْفِ اللهِ بأنَّه ربُّ الفَلَقِ دونَ وصْفٍ آخَرَ؛ لأنَّ شرًّا كثيرًا يَحدُثُ في اللَّيلِ مِن لُصوصٍ، وسِباعٍ، وذَواتِ سُمومٍ، وتَعذُّرِ السَّيرِ، وعُسرِ النَّجدةِ، وبُعدِ الاستِغاثةِ، واشتِدادِ آلامِ المَرْضى، حتَّى ظنَّ بَعضُ أهلِ الضَّلالةِ اللَّيلَ إلهَ الشَّرِّ، والمعْنى: أعوذُ بفالِقِ الصُّبحِ مَنجاةً مِن شُرورِ اللَّيلِ؛ فإنَّه قادرٌ على أنْ يُنجِيَني في اللَّيلِ مِن الشَّرِّ كما أنْجى أهلَ الأرضِ كلَّهم بأنْ خَلَقَ لهم الصُّبحَ، فوُصِفَ اللهُ بالصِّفةِ الَّتي فيها تَمهيدٌ للإجابةِ[٤].

- وكُرِّرَ ﴿مِن شَرِّ﴾ أربعَ مرَّاتٍ؛ لأنَّ شرَّ كلٍّ منهما غيرُ شرِّ البَقيَّةِ عنها[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٥، ٦٢٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٦).

(٥) يُنظر: ((أسرار التكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٧)، ((بصائر ذوي التمييز)) =

أو ذُكِرَت كَلمةُ ﴿ مِن شَرِّ ﴾ أربعَ مرَّاتٍ مع أنَّ حرْفَ العطفِ مُغْنٍ عن إعادةِ العامِلِ؛ قصْدًا لتَأكيدِ الدُّعاءِ؛ تَعرُّضًا للإجابةِ، وهذا مِن الابتهالِ، فيُناسِبُه الإطنابُ[١].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ فيه تَخصيصٌ لبَعضِ الشُّرورِ بالذِّكرِ مع اندراجِه فيما قبْلَه؛ للحاجةِ الماسَّةِ إلى الاستعاذةِ منه؛ لكَثرةِ وُقوعِه، ولأنَّها الأسبابُ القَريبةُ للمَضرَّةِ، ولأنَّ تَعيينَ المُستعاذِ منه أدَلُّ على الاعتناءِ بالاستعاذةِ، وأدْعَى إلى الإعاذةِ[٢]. أو فائدةُ التَّخصيصِ تَعظيمُ شرِّها، ودفْعُ تَوهُّمِ أنَّه لا شرَّ لها؛ لخَفائِه فيها، وأنَّه يَلحَقُ الإنسانَ مِن حيث لا يَعلَمُ، كأنَّما يُغتالُ به[٣].

- والغاسِقُ: وَصْفُ اللَّيلِ إذا اشتَدَّت ظُلمتُه، يُقالُ: غَسَقَ اللَّيلُ يَغسِقُ؛ إذا أظْلَمَ؛ فالغاسقُ صِفةٌ لمَوصوفٍ مَحذوفٍ؛ لظُهورِه مِن معْنى وَصْفِه[٤].

- وإضافةُ الشَّرِّ إلى اللَّيلِ؛ لمُلابَستِه له بحُدوثِه فيه. وتَنكيرُ ﴿غَاسِقٍ﴾؛ لعَدَمِ شُمولِ الشَّرِّ لجَميعِ أفرادِه، ولا لكُلِّ أجزائِه. أو تَنكيرُ ﴿غَاسِقٍ﴾ للجِنسِ؛ لأنَّ المرادَ جِنسُ اللَّيلِ، وتَنكيرُ ﴿غَاسِقٍ﴾ في مَقامِ الدُّعاءِ يُرادُ به العُمومُ؛ لأنَّ مَقامَ الدُّعاءِ يُناسِبُ التَّعميمَ[٥].

---

= للفيروزابادي (١/ ٥٥٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٣).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٢)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٦)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٣).

ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤٥١).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧).

(٥) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٢)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن =

- وتَقييدُ ذلك بظَرْفِ ﴿إِذَا وَقَبَ﴾، أي: إذا اشتَدَّت ظُلمتُه؛ لأنَّ ذلك وقْتٌ يَتحيَّنُه الشُّطَّارُ[١] وأصحابُ الدَّعارةِ والعَيثِ؛ لتَحقُّقِ غَلَبةِ الغفْلةِ والنَّومِ على النَّاسِ فيه، فحُدوثُ الشَّرِّ فيه أكثرُ، والتَّحرُّزُ منه أصعَبُ وأعسَرُ؛ فخُصَّ بالتَّعوُّذِ أشدُّ أوقاتِ اللَّيلِ توقُّعًا لحُصولِ المَكروهِ[٢].

٣- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾

- إنَّما جُعِلَت الاستِعاذةُ مِن النَّفَّاثاتِ لا مِن النَّفْثِ، فلم يُقَلْ: إذا نَفَثْنَ في العُقَدِ؛ للإشارةِ إلى أنَّ نَفْثَهنَّ في العُقَدِ ليس بشَيءٍ يَجلِبُ ضرًّا بذاتِه، وإنَّما يَجلِبُ الضُّرَّ النَّافثاتُ، وهنَّ مُتعاطياتُ السِّحرِ؛ لأنَّ السَّاحرَ يَحرِصُ على ألَّا يَترُكَ شَيئًا ممَّا يُحقِّقُ له ما يَعمَلُه مِن أجْلِه إلَّا احتالَ على إيصالِه إليه[٣].

- وعرَّفَ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ ونكَّر ما قبْلَها وما بعْدَها؛ لأنَّ كلَّ نفَّاثةٍ لها شرٌّ، وليس كلُّ غاسقٍ وحاسدٍ له شرٌّ[٤]، أو تَعريفُ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ، وهو في معْنى النَّكرةِ؛ فلا تَفاوُتَ في المعْنى بيْنَه وبيْن قولِه: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ﴾ [الفلق: ٣] وقولِه: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾ [الفلق: ٥]، وإنَّما أُوثِرَ لَفظُ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ بالتَّعريفِ؛ لأنَّ التَّعريفَ في مِثلِه للإشارةِ إلى أنَّه حَقيقةٌ مَعلومةٌ للسَّامعِ، وتَعريفُ ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ باللَّامِ إشارةٌ إلى أنَّهنَّ مَعهوداتٌ

---

= عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧).

(١) الشُّطَّارُ: جمعُ الشَّاطِرِ، وهو مَن أعيا أهْلَه ومؤدِّبَه خُبثًا ومَكرًا. يُنظر: ((تاج العروس)) للزَّبيدي (١٢/ ١٧١).

(٢) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢١)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٤)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٧، ٦٢٨).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٢)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٣، ٦٣٤).

بيْن العرَبِ[١].

أو التَّعريفُ إمَّا للعهدِ، أوْ للإيذانِ بشُمولِ الشَّرِّ لجَميعِ أفرادِهِنَّ، وتَمَحُّضِهنَّ فيه[٢].

٤- قولُه تعالَى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

- تَخصيصُ ذِكرِ الحسَدِ؛ لأنَّه العُمدةُ في إضرارِ الإنسانِ، بلِ الحيوانِ وغَيرِه[٣].

- وتَقييدُ الاستِعاذةِ مِن شرِّ الحاسدِ بوَقتِ ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأنَّه حِينَئذٍ يَندفِعُ إلى عمَلِ الشَّرِّ بالمَحسودِ حِينَ يَجيشُ الحسَدُ في نفْسِه، فتَتحرَّكُ له الحِيَلُ والنِّيَّاتُ لإلحاقِ الضُّرِّ به، فلا يَعودُ ضَررٌ منه قبْلَ ذلك إلى المحسودِ، بل يُخَصُّ به؛ لاغتِمامِه بسُرورِه[٤]. وقيل: المرادُ مِن الحسَدِ في قَولِه: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ حسَدٌ خاصٌّ، وهو البالِغُ أشَدَّ حَقيقتِه؛ فلا إشكالَ في تَقييدِ الحسَدِ بـ﴿حَسَدَ﴾[٥].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٩).

(٢) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٥).

(٣) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٤٨)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٦)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٥)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٠).

(٥) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٠).

قال ابن القيِّم: (وتأمَّلْ تقييدَه سُبحانَه شرَّ الحاسِدِ بقولِه: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأنَّ الرَّجُلَ قد يكونُ عندَه حسَدٌ ولكنْ يُخْفيه، ولا يُرَتِّبُ عليه أذًى بوَجْهٍ ما؛ لا بقلبِه ولا بلِسانِه ولا بيَدِه، بل يَجِدُ في قلبِه شيئًا مِن ذلك ولا يُعامِلُ أخاه إلَّا بما يُحِبُّ اللهُ، فهذا لا يكادُ يَخلو منه أحدٌ إلَّا مَن عصَمَه اللهُ. وقيل للحسَنِ البصريِّ: أيَحْسُدُ المؤمنُ؟ قال: ما أنساك إخوةَ يوسُفَ! لكنَّ الفرقَ بيْن القوَّةِ الَّتي في قلبِه مِن ذلك وهو لا يُطيعُها، ولا يأْتَمِرُ بها، بل يَعصيها طاعةً لله، وخَوفًا وحَياءً منه، وإجلالًا له أن يَكرَهَ نِعَمَه على عِبادِه، فيَرى ذلك مُخالَفةً لله، وبُغضًا لِما يُحِبُّ اللهُ، ومحَبَّةً لِما يُبغِضُه، فهو يجاهِدُ نفْسَه على دفْعِ ذلك، ويُلزِمُها بالدُّعاءِ للمحسودِ، وتمَنِّي زيادةِ الخَيرِ =

- وفي قَولِه: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ * وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق: ٣-٥] مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قُيِّدَ بالظَّرفِ في قَولِه تعالَى: ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾، وفي قَولِه: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾، فلم تَقَعِ الاستِعاذةُ مِن شرِّ هَذينِ إلَّا بتَقييدِ الوُقوبِ في الغاسقِ، ووُقوعِ الحسَدِ مِن الحاسدِ، وأُطلِقَ حكْمُ الاستعاذةِ مِن شرِّ النَّفَّاثاتِ -وهُنَّ السَّاحراتُ- ولم يُقَلْ: (إذا نَفثْنَ) أو (سَحَرْنَ)، فيُقيَّدَ كما قُيِّدَ ما قبْلُ وما بعْدُ؛ ووجْهُ ذلك: أنَّ قولَه سُبحانه في سُورةِ (طه): ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ [طه: ٦٩] إطلاقٌ حاكمٌ بتَماديه وتَمادي حُكمِه على تلك الصِّفةِ المذمومةِ، فلم يكُنِ التَّقييدُ في آيةِ الفَلَقِ لو قِيل: (إذا كذا) ليُطابِقَ ما وَرَدَ في سُورةِ (طه) مِن الإطلاقِ، والسِّحرُ شَرٌّ مُطلَقٌ؛ فوَرَدَ التَّعوُّذُ منه مُطلَقًا. أمَّا الغاسقُ فإنَّه اللَّيلُ إذا أظلَمَ، وليس الشَّرُّ منه بما هو لَيلٌ مُظلِمٌ، إنَّما هو سِتْرٌ لِذَوي الشَّرِّ؛ لاحتِجابِهم بظُلمتِه عن أعيُنِ النَّاسِ، فيُوقِعون فيه شَرَّهم، فالشَّرُّ فيه لا منه، ألَا تَرى أنَّه لأهلِ الخيرِ رَحمةٌ ونِعمةٌ، وكذلك لكلِّ مَن لا يَترصَّدُه لشَرٍّ، وتَردَّدَ ذِكرُ اللَّيلِ في غيرِ ما آيةٍ في كِتابِ اللهِ مَعدودًا في نِعَمِ اللهِ تعالَى على عِبادِه، وهو شَقيقُ النَّهارِ في تلك. ثمَّ إنَّه مِن حيثُ هو لِباسٌ وسِترٌ عن الأعيُنِ، فيُمكِنُ فيه لأهلِ الشَّرِّ ما لا يُمكِنُهم في نَهارِهم، فيَسْتَحكِمُ فيه شَرُّهم عندَ امتدادِ ظُلْمتِه؛ لأمْنِهم مِن النَّاسِ في ذلك، فتَبيَّنَ أنَّه ليس شَرًّا بما هو لَيلٌ، إنَّما الشَّرُّ فيه وعندَه، لا به بما هو لَيلٌ ولا منه، ولا يَتمكَّنُ مَطلوبُ ذوي الشَّرِّ إلَّا في ظُلمتِه، فنِسبةُ الشَّرِّ إليه بهذا الوجْهِ، والإضافةُ في لِسانِ العرَبِ تكونُ بأدْنى مُلابَسةٍ.

---

= له، بخِلافِ ما إذا حقَّق ذلك وحسَدَ، ورتَّب على حسَدِه مُقتضاه مِن الأذى بالقلبِ واللِّسانِ والجَوارحِ؛ فهذا الحسدُ المذمومُ هو كلُّه حسَدُ تمنِّي الزَّوالِ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٣٦).

وأمَّا الحاسدُ فإنَّ القائمَ بنفْسِه مِن هذه الصِّفةِ قبْلَ أنْ يُمضِيَ يُمكِنُ أنْ يُنفِذَها حَسَدًا، ويُمكِنُ أنْ يُنفِذَها غِبطةً، فإذنْ لا يَتبيَّنُ كَونُه حسَدًا إلَّا بعْدَ أنْ يُمضِيَ ويُوقِعَ، ألَا تَرى اتِّحادَ ما يَقومُ بالنَّفْسِ أوَّلًا مِن هذه الصِّفةِ. بَيانُ ذلك أنَّ كلَّ عاقلٍ -بما هو عاقلٌ- إذا رأى نِعمةً على غيرِه مِن دِينٍ أو دُنيا، أعجَبَتْه وتَمنَّاها لنفْسِه، فإنْ أراد زَوالَها عمَّن ظَهَرَت عليه، وانفرادَه هو بها؛ فهذا هو الحسَدُ المذمومُ، وإنْ تَمنَّى مِثلَها أو أكثَرَ، وبَقاءَ تلك على صاحبِها؛ فهذه هي الغِبطةُ، وهي مِن صِفاتِ المؤمنينَ. فقد وضَحَ أنَّه إنَّما يكونُ حَسَدًا ويُوصَفُ بتلك الصِّفةِ عندَ ظُهورِه ووُقوعِه على الصِّفةِ المذمومةِ، وأمَّا قبْلَ ذلك فلا شَرَّ فيه ولا هو شرٌّ، فلمَّا كان حالُ الحسَدِ على ما ذُكِرَ، وحالُ الغاسقِ على ما تَقدَّم؛ لذلك وَقَعَ التَّقييدُ في الاستعاذةِ مِن شَرِّهما بالظَّرفِ فقِيل: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾ و﴿إِذَا حَسَدَ﴾، ولم يقَعْ تَقييدٌ في الاستعاذةِ مِن شرِّ السَّحَرةِ، وجاء كلٌّ مِن ذلك على ما يُناسِبُ[1].

(١) يُنظر: ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥١٧، ٥١٨).

# تَفْسيرُ

# سُورَةِ النَّاسِ

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# سورةُ النَّاسِ

## أسماءُ السُّورةِ:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (النَّاسِ)[١].

وسُمِّيت أيضًا بسورةِ ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؛ فعن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألم تَرَ آياتٍ أُنزِلَتِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ، ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾، و ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾))[٢].

وتُسمَّى بالمُعَوِّذَتينِ هي وسُورةُ (الفَلَقِ)، وبالمُعَوِّذاتِ هي وسُورةُ (الفَلَقِ) و(الإخلاصِ)؛ فعن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: قال لي رَسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أُنْزِل، أو أُنزِلَتْ علَيَّ آياتٌ لم يُرَ مِثْلُهنَّ قَطُّ، المُعَوِّذَتَينِ[٣]))[٤].

وعنه أيضًا قال: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ أقرَأَ بالمُعوِّذاتِ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[٥].

## فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها:

### ١- تستحبُّ قِراءَتُها في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ:

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((أمَرَني رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أنْ أقرَأَ بالمُعوِّذاتِ في دُبُرِ كلِّ صَلاةٍ))[٦].

---

(١) سُمِّيت هذه السورةُ بذلك؛ لتَكرارِ لَفظِ النَّاسِ فيها خَمْسَ مرَّاتٍ. يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٧). وتقدَّم (ص: ٤٣٧) أنَّها تسمَّى هي وسورةُ الفلقِ بالمقشقشتينِ.

(٢) أخرجه مسلم (٨١٤/ ٢٦٤).

(٣) هو منصوبٌ بفعلٍ محذوفٍ: أي: أعني المعوِّذَتينِ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (٦/ ٩٦).

(٤) أخرجه مسلم (٨١٤/ ٢٦٥).

(٥) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٠٩-٤١٠).

(٦) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٠٩-٤١٠).

**٢- ما أُنزِلَ مِثلُ المُعَوِّذاتِ في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الفُرقانِ:**

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: ((... لَقِيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فقال لي: يا عُقْبَةُ بنَ عامرٍ، ألَا أُعَلِّمُك سوَرًا ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ، ولا في الزَّبورِ، ولا في الإنجيلِ، ولا في الفُرقانِ مِثلُهُنَّ؟ لا يأتِيَنَّ عليك لَيلةٌ إلَّا قَرأْتَهُنَّ فيها: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾. قال عُقْبَةُ: فما أَتَتْ علَيَّ لَيلةٌ إلَّا قَرأْتُهُنَّ فيها، وحُقَّ لي ألَّا أَدَعَهُنَّ وقد أَمَرَني بهِنَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم))[(١)].

**٣- مَن قَرأَ المُعَوِّذاتِ حينَ يُمسِي وحينَ يُصبِحُ ثلاثًا تَكفِيه مِن كلِّ شَيءٍ:**

عن عبدِ الله بنِ خُبَيْبٍ رضيَ الله عنه، قال: ((خرَجْنا في لَيلةٍ مَطِيرةٍ وظُلْمةٍ شديدةٍ نَطلُبُ رَسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم يُصَلِّي لنا، فأدرَكْتُه فقال: قُلْ. فلمْ أَقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. فلمْ أقُلْ شيئًا، ثمَّ قال: قُلْ. قلتُ: ما أقولُ؟ قال: قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمُعَوِّذَتَينِ حينَ تُمْسي وحينَ تُصبِحُ ثلاثَ مرَّاتٍ تَكفيكَ مِن كلِّ شَيءٍ))[(٢)].

**٤- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذا اشتَكَى رقَى نفْسَه بالمُعَوِّذاتِ:**

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا اشْتَكى يَقرأُ على نفْسِه بالمُعَوِّذاتِ ويَنْفُثُ، فلمَّا اشْتَدَّ وَجَعُه كنتُ أقرَأُ عليه وأمْسَحُ بيَدِه؛ رجاءَ بَرَكَتِها))[(٣)].

---

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٧).

(٢) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٦٨).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٦)، ومسلم (٢١٩٢).

**٥- كان النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُعَوِّذُ نفْسَه بالمُعَوِّذاتِ إذا أوَى إلى فِراشِه:**

عن عائشةَ رضيَ الله عنها: ((أنَّ النَّبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم كان إذا أوَى إلى فِراشِه كُلَّ لَيلةٍ جَمَع كَفَّيْه، ثُمَّ نَفَث فيهما فقَرَأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمسَحُ بهما ما اسْتَطاع مِن جَسَدِه، يَبْدَأُ بهما على رَأْسِه ووَجْهِه وما أقْبَلَ مِن جَسَدِه، يَفعَلُ ذلك ثلاثَ مرَّاتٍ))[(١)].

**٦- لم يُرَ مِثلُ آياتِ سورتَيِ الفَلَقِ والنَّاسِ فيما أُنزِل على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:**

عن عُقْبَةَ بنِ عامرٍ رضيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ألم تَرَ آياتٍ أُنزِلتِ اللَّيلةَ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾))[(٢)].

**٧- أُمِر النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بقراءتِها معَ سورةِ الفَلَقِ لَمَّا سُحِر:**

عن زَيدِ بنِ أرْقَمَ رضيَ الله عنه، قال: ((سَحَرَ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رجُلٌ مِن اليَهودِ، فاشْتَكى، فأَتاهُ جِبريلُ -عليه السَّلامُ- بالمُعوِّذَتيْنِ، وقال: إنَّ رجُلًا مِن اليَهودِ سَحَرَك، والسِّحرُ في بِئرِ فُلانٍ، فأرسَلَ عليًّا، فجاءَ به، فأمَرَه أنْ يَحُلَّ العُقَدَ، ويَقرَأَ آيةً، فجعَلَ يَقرأُ ويَحُلُّ حتَّى قام النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كأنَّما أُنشِطَ مِن عِقالٍ، فما ذكَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لذلك اليَهوديِّ شيئًا ممَّا صنَعَ، ولا أراهُ في وَجْهِه))[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠١٧).

(٢) أخرجه مسلم (٨١٤).

(٣) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩٦).

## بَيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:

سُورةُ النَّاسِ مُختلَفٌ فيها؛ فقيلَ: مكِّيَّةٌ، وقيلَ: مَدَنيَّةٌ(١).

## مَقاصِدُ السُّورةِ:

**مِن أهَمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:**

الاستِعاذَةُ مِن شَرِّ ما يُوَسْوِسُ في الصُّدورِ(٢).

## مَوضوعاتُ السُّورةِ:

**مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها هذه السُّورةُ:**

الاستِعاذَةُ باللهِ رَبِّ النَّاسِ ومَلِكِهم وإلَهِهم مِن شَرِّ الشَّيطانِ، والَّذي مِن صِفاتِه أنَّه وَسْواسٌ خَنَّاسٌ، يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَّاسِ، وأنَّه قد يكونُ مِن الجِنِّ ويكونُ مِن الإنسِ.

---

(١) ممَّن اختار أنَّها مكِّيَّةٌ: مقاتلُ بنُ سُلَيمانَ، والزَّجَّاجُ، والسمرقنديُّ، والواحديُّ، والزمخشري، وابنُ جُزَي، وابن عادل، والشربيني، وأبو السعود، والقاسمي، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير مقاتل ابن سليمان)) (٤/ ٩٤١)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٨١)، ((تفسير السمرقندي)) (٣/ ٦٣٨)، ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٣)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٩)، ((تفسير ابن عادل)) (٢٠/ ٥٧٦)، ((تفسير الشربيني)) (٤/ ٦١٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣١).
وممَّن اختار أنَّها مَدَنيَّةٌ: الماتُريديُّ، والثعلبيُّ، ومكِّيٌّ، والسمعاني، والبغوي، والرازي، والخازن، وابن كثير، والعُلَيمي، والفيروزابادي، والسعدي. يُنظر: ((تفسير الماتريدي)) (١٠/ ٦٥٩)، ((تفسير الثعلبي)) (١٠/ ٣٤١)، ((الهداية إلى بلوغ النهاية)) لمكي (١٢/ ٨٥١٣)، ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير البغوي)) (٥/ ٣٣٦)، ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٧٦)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٠٣)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٠)، ((تفسير العليمي)) (٧/ ٤٦٨)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٧)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٧).

(٢) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٤).

## الآيات (١-٦)

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾.

### غَريبُ الكَلِماتِ:

﴿ٱلۡخَنَّاسِ﴾: أي: الشَّيطانِ الَّذي يَخنِسُ -أي: يَرجِعُ ويَتأخَّرُ ويَستَتِرُ- إذا ذُكِرَ اللهُ عزَّ وجَلَّ، وأصلُ (خنس): يدُلُّ على استِخفاءٍ وتَستُّرٍ[1].

### المعنى الإجماليُّ:

افتَتَحَ اللهُ تعالى هذه السُّورةَ الكريمةَ بقَولِه: قُلْ -يا محمَّدُ- متعَوِّذًا باللهِ وَحْدَه: ألتَجِئُ وأستجيرُ برَبِّ النَّاسِ، مَلِكِ النَّاسِ، مَعبودِ النَّاسِ الحَقِّ؛ مِن شَرِّ الشَّيطانِ الَّذي يُوسوِسُ بالشَّرِّ ويَرجِعُ عن العَبدِ إذا ذكَرَ رَبَّه، الَّذي يُلقي وَساوِسَه في صُدورِ النَّاسِ، مِن شَياطينِ الجِنِّ وشياطينِ الإنسِ.

### تَفسيرُ الآياتِ:

﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١﴾.

أي: قُلْ -يا محمَّدُ- متعَوِّذًا باللهِ وَحْدَه: ألتَجِئُ وأستجيرُ برَبِّ النَّاسِ الَّذي يُدَبِّرُ أمورَهم، ويُصلِحُ أحوالَهم[2].

---

(١) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: ٥٤٢)، ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: ٢١٤)، ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (٢/ ٢٢٣)، ((تذكرة الأريب)) لابن الجوزي (ص: ٤٧٨)، ((التبيان)) لابن الهائم (ص: ٤٨٣).

وذكر ابنُ القيِّمِ أنَّ الخَنَّاسَ فَعَّالٌ مِن خَنَسَ يَخنِسُ، وأنَّه مأخوذٌ مِن معنيَينِ؛ الأوَّلُ: مِن التَّواري والاختِفاءِ بعْدَ ظُهورٍ، والثَّاني: التَّأخُّرُ والرُّجوعُ إلى وراء. يُنظر: ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٥٥، ٢٥٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٧)، ((تفسير =

﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ ﴾.

أي: مَلِكِ جَميعِ النَّاسِ، فهُم تحتَ سُلطانِه وتدبيرِه، وقُدرتِه وقَهْرِه، ويَنفُذُ فيهم أمْرُه وقضاؤُه دونَ غَيرِه[١].

﴿ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ ﴾.

أي: مَعبودِ النَّاسِ الحَقِّ، المُستَحِقِّ للعبادةِ وَحْدَه، وكُلُّ مَعبودٍ سِواه باطِلٌ[٢].

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا أكمَلَ الاستِعاذةَ مِن جميعِ وُجوهِها الَّتي مَدارُها الإحسانُ أو العَظَمةُ، أو القَهرُ أو الإذعانُ والتَّذَلُّلُ؛ ذكَرَ المُستعاذَ منه، فقال[٣]:

﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ﴾.

أي: ألتَجِئُ وأستجيرُ برَبِّ النَّاسِ مِن شَرِّ الشَّيطانِ الَّذي يُوسوِسُ بالشَّرِّ، والَّذي يَذهَبُ عن العبدِ ويتأخَّرُ ويختَفي إذا ذكَرَ رَبَّه[٤].

---

= الشوكاني)) (٥/ ٦٤٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٩).

(١) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥٣)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٢٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤٢)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٥).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥٣)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٧)، ((تفسير القاسمي)) (٩/ ٥٧٩)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٥).

(٣) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٣٠).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥٣-٧٥٦)، ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦١، ٢٦٢)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٥)، ((تفسير ابن كثير)) (٨/ ٥٣٩)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٥).

قال القرطبي: (ووُصِف بالخنَّاسِ؛ لأنَّه كثيرُ الاختفاءِ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ =

كما قال تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

وقال سُبحانَه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ * وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٠ - ٢٠٢].

وعن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((ما مِنكم مِن أحَدٍ إلَّا وقد وُكِّلَ به قَرينُه مِنَ الجِنِّ. قالوا: وإيَّاك يا رسولَ اللهِ؟ قال:

---

= [التكوير: ١٥] يعني: النُّجومَ؛ لاختِفائِها بعْدَ ظُهورِها. وقيل: لأنَّه يَخنِسُ إذا ذكَر العبدُ الله؛ أي: يتأخَّرُ). ((تفسير القرطبي)) (٢٠/ ٢٦٢). ويُنظر: ((تفسير الماوردي)) (٦/ ٣٧٨).

وممَّن قال في الجُملةِ بأنَّ معنى الخَنَّاسِ: الَّذي يَتأخَّرُ أو يُدبِرُ إذا ذكَرَ العَبدُ رَبَّه: السَّمْعانيُّ، والزمخشري، والنسفي، والخازن، والسعدي، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٤)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٠٠)، ((تفسير الخازن)) (٤/ ٥٠٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٨)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٥).

قال ابنُ القيِّم: (الخنَّاسُ مأخوذٌ مِن ... الاختفاءِ، والرُّجوعِ والتَّأخُّرِ؛ فإنَّ العبدَ إذا غَفَل عن ذِكرِ اللهِ جَثَم على قَلْبِه الشَّيطانُ، وانبسَطَ عليه وبَذَر فيه أنواعَ الوَساوِسِ الَّتي هي أصلُ الذُّنوبِ كُلِّها، فإذا ذكَرَ العَبدُ رَبَّه واستعاذ به انخنَسَ وانقَبَض كما يَنخَنِسُ الشَّيءُ لِيَتوارى، وذلك الانخناسُ والانقباضُ هو أيضًا تجَمُّعٌ ورُجوعٌ وتأخُّرٌ عن القَلبِ إلى خارجٍ، فهو تأخُّرٌ ورُجوعٌ معه اختِفاءٌ، وخَنَس وانخنَسَ يدُلُّ على الأمْرَينِ معًا). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٥٥، ٢٥٦).

وقال ابن عاشور: (والخنسُ والخنوسُ: الاختفاءُ. والشَّيطانُ يُلقَّبُ بـ «الخنَّاسِ»؛ لأنَّه يَتَّصِلُ بعقلِ الإنسانِ وعَزمِه مِن غيرِ شُعورٍ منه، فكأنَّه خنَس فيه، وأهلُ المكرِ والكَيدِ والتَّختُّلِ خنَّاسونَ؛ لأنَّهم يَتحَيَّنونَ غَفَلاتِ النَّاسِ، ويَتسترونَ بأنواعِ الحِيَلِ؛ لكيلا يَشعُرَ النَّاسُ بهم...، ولأنَّ خواطرَ الشَّرِّ يهمُّ بها صاحبُها فيُطرِقُ ويَترَدَّدُ ويَخافُ تَبِعاتِها، وتَزجُرُه النَّفْسُ اللَّوَّامةُ، أو يَزَعُه وازِعُ الدِّينِ أو الحياءِ أو خَوفِ العِقابِ عندَ الله أو عندَ النَّاسِ، ثمَّ تُعاوِدُه حتَّى يَطمئنَّ لها ويَرتاضَ بها، فيُصمِّمَ على فعلِها فيَقترِفَها، فكأنَّ الشَّيطانَ يَبدو له ثمَّ يَختفي، ثمَّ يَبدو ثمَّ يَختفي حتَّى يَتمَكَّنَ مِن تَدْلِيَتِه بغُرورٍ). ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٤).

وإيَّاي، إلَّا أنَّ اللهَ أعانَني عليه فأسْلَمَ[١]؛ فلا يأمُرُني إلَّا بخَيرٍ))[٢].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((يَعقِدُ الشَّيطانُ على قافيةِ رأسِ أحَدِكم إذا هو نامَ ثلاثَ عُقَدٍ، يَضرِبُ كُلَّ عُقدةٍ: عليكَ لَيلٌ طويلٌ؛ فارقُدْ! فإنِ استيقَظَ فذَكَرَ اللهَ انحَلَّت عُقْدةٌ، فإنْ توَضَّأَ انحَلَّت عُقْدةٌ، فإن صلَّى انحَلَّت عُقْدةٌ؛ فأصبَحَ نَشيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وإلَّا أصبَحَ خَبيثَ النَّفسِ كَسْلانَ))[٣].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا نُودِيَ للصَّلاةِ أدبَرَ الشَّيطانُ وله ضُراطٌ؛ حتَّى لا يَسمَعَ التَّأذينَ، فإذا قُضِيَ النِّداءُ أقْبَلَ، حتَّى إذا ثُوِّبَ[٤] بالصَّلاةِ أدبَرَ، حتَّى إذا قُضِيَ التَّثويبُ أقبَلَ؛ حتَّى يَخطِرَ بيْنَ المرءِ ونَفْسِه، يقولُ: اذكُرْ كذا، اذكُرْ كذا، لِما لم يكُنْ يَذكُرُ، حتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ لا يَدري كَمْ صَلَّى!))[٥].

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا ذَكَر صِفةَ المُستعاذِ منه، ذكَرَ إبرازَه لصِفتِه بالفِعلِ، فقال[٦]:

---

(١) فأَسْلَم: برفعِ الميمِ وفَتحِها، وهُما روايتانِ مشهورتانِ، فمَن رفَع قال: معناه: أسْلَمُ أنا مِن شَرِّه وفِتْنَتِه، ومَن فتَح قال: إنَّ القَرينَ أسْلَمَ -مِن الإسلامِ- وصار مؤمنًا لايأمُرُني إلَّا بخَيرٍ. يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٧/ ١٥٧).

(٢) رواه مسلم (٢٨١٤).

(٣) رواه البخاريُّ (١١٤٢) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٧٧٦).

(٤) التَّثويبُ: المرادُ به: الإقامةُ؛ فإنَّه رُجوعٌ إلى النِّداءِ، يُقالُ: ثابَ الرَّجُلُ، إذا رجَع. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن رجب (٣/ ٤٢٥).

(٥) رواه البخاريُّ (٦٠٨) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (٣٨٩).

(٦) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٣٣).

﴿ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾.

أي: الَّذي يُلقي في صُدورِ النَّاسِ على وَجهِ الخَفاءِ والتَّكريرِ بالمعاني الباطِلةِ، فيُزَيِّنُ لهم الضَّلالَ، ويَحُثُّهم على الشَّرِّ، ويُثَبِّطُهم عن الخَيرِ[(١)].

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

**مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:**

لَمَّا كان الَّذي يُعَلِّمُ الإنسانَ الشَّرَّ تارةً مِنَ الجِنِّ، وأُخرَى مِنَ الإنسِ؛ قال مُبَيِّنًا للوَسواسِ؛ تحذيرًا مِن شياطينِ الإنسِ كالتَّحذيرِ مِن شياطينِ الجِنِّ، مُقَدِّمًا الأهَمَّ الأضَرَّ[(٢)]:

﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾.

أي: أعوذُ باللهِ مِن شَياطينِ الجِنِّ وشياطينِ الإنسِ الَّذين يُوَسوِسونَ بالشَّرِّ في صُدورِ النَّاسِ[(٣)].

---

(١) يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (٤/ ٥٧٥)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٠-٢٦٢)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٣٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٨).

(٢) يُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (٢٢/ ٤٣٤).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٤٠)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٠٦)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤٣)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٦).

ممَّن اختار في الجملةِ القولَ المذكورَ -وهو أنَّ قولَه: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيانٌ للَّذي يُوَسوِسُ، وأنَّهما نَوعانِ: إنْسٌ وجِنٌّ؛ فالجِنِّيُّ يوسوِسُ في صدورِ الإنسِ، والإنسيُّ أيضًا يوسوِسُ إلى الإنسيِّ-: السمعانيُّ، وابن عطية، والنسفي، وابن تيميَّةَ، وابن جُزَي، وابن القيِّم، والكوراني، والشوكاني، والسعدي، وابن عاشور، وابن عثيمين. يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (٦/ ٣٠٨)، ((تفسير ابن عطية)) (٥/ ٥٤٠)، ((تفسير النسفي)) (٣/ ٧٠٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن =

= تيمية (١٧/ ٥٠٩)، ((الرد على المنطقيين)) لابن تيمية (ص: ٥٠٦)، ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣٠)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٦)، ((تفسير الكوراني)) (ص: ٤٦٦)، ((تفسير الشوكاني)) (٥/ ٦٤٣)، ((تفسير السعدي)) (ص: ٩٣٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥)، ((تفسير ابن عثيمين- جزء عم)) (ص: ٣٥٦).

وقال ابن تيميَّةَ: (القولُ الصَّحيحُ الَّذي عليه أكثرُ السَّلفِ أنَّ المعنى: مِن شرِّ المُوَسْوِسِ مِن الجِنَّةِ ومِن النَّاسِ، مِن شياطينِ الإنسِ والجنِّ). ((الرد على المنطقيين)) (ص: ٥٠٦).

قال ابن القيِّم: (فالمُوَسْوِسُ نَوعانِ: إنسٌ وجِنٌّ؛ فإنَّ الوَسْوَسةَ هي الإلقاءُ الخَفيُّ في القلبِ، وهذا مشتركٌ بيْن الجِنِّ والإنسِ، وإن كان إلقاءُ الإنسيِّ ووَسوستُه إنَّما هي بواسِطةِ الأُذُنِ، والجِنِّيُّ لا يحتاجُ إلى تلك الواسِطةِ؛ لأنَّه يَدخُلُ في ابنِ آدَمَ ويَجري منه مَجرى الدَّمِ، على أنَّ الجِنِّيَّ قد يَتمَثَّلُ له ويُوَسْوِسُ إليه في أُذُنِه كالإنسيِّ). ((بدائع الفوائد)) (٢/ ٢٦٦).

وقيل: قولُه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ هو بيانٌ للنَّاسِ المُوَسْوَسِ في صُدورِهم، والمعنى: يُوَسْوِسُ في صُدورِ النَّاسِ الَّذين هُم مِن الجِنِّ والإنسِ، أي: المُوَسْوَسُ في صُدورِهم قِسمانِ: إنسٌ وجِنٌّ، فالوَسْواسُ يُوَسْوِسُ للجِنِّيِّ كما يُوَسْوِسُ للإنسيِّ. وممَّن اختار هذا القولَ: الفَرَّاءُ، وابنُ جرير. يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (٣/ ٣٠٢)، ((تفسير ابن جرير)) (٢٤/ ٧٥٦).

وقد ردَّ هذا القولَ وضعَّفه غيرُ واحدٍ؛ منهم: الزمخشريُّ، والبيضاوي، وابنُ تيميَّةَ، وابن القيم، وأبو السعود، وابن عاشور. يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥٠٩)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٣)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥).

وقيل: المعنى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ الَّذي هو الجِنَّةُ، ومِن شَرِّ النَّاسِ. وممَّن اختاره: الزَّجَّاجُ، والنَّحَّاسُ. يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (٥/ ٣٨١)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (٥/ ٢٠٠).

قال ابنُ تيميَّةَ: (قَولُه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ لبَيانِ الوَسْواسِ، أي: الَّذي يُوسوِسُ مِنَ الجِنَّةِ ومِن النَّاسِ في صُدورِ النَّاسِ؛ فإنَّ اللهَ تعالى قد أخبَرَ أنَّه جَعَل لكُلِّ نَبيٍّ عدوًّا شَياطينَ الإنسِ والجِنِّ، يُوحي بعضُهم إلى بعضٍ زُخْرُفَ القَولِ غُرورًا، وإيحاؤُهم هو وسوستُهم... فالَّذي يوسوِسُ في صدورِ النَّاسِ: نُفوسُهم، وشياطينُ الجِنِّ، وشياطينُ الإنسِ. والوَسْواسُ الخنَّاسُ يتناوَلُ وَسوسةَ الجِنَّةِ، ووَسوسةَ الإنسِ... وأمَّا قَولُ الفَرَّاءِ: إنَّ المرادَ: مِن شَرِّ الوَسْواسِ الَّذي يُوسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ؛ الطَّائفتَينِ مِنَ الجِنِّ والإنسِ، وإنَّه سَمَّى الجِنَّ ناسًا كما سَمَّاهم =

كما قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال الله سُبحانَه وتعالى: ﴿ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وعن صَفِيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ رَضِيَ اللهُ عنها، عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ الشَّيطانَ يَجري مِن ابنِ آدَمَ مَجرى الدَّمِ))(١).

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((يأتي الشَّيطانُ أحَدَكم، فيقولُ: مَن خَلَق كذا؟ مَن خَلَق كذا؟ حتَّى يقولَ: مَن خَلَق رَبَّك؟! فإذا بلَغَه فلْيَستَعِذْ باللهِ ولْيَنْتَهِ(٢))(٣).

## الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ

---

= رِجالًا، وسَمَّاهم نفَرًا- فهذا ضعيفٌ؛ فإنَّ لفظَ النَّاسِ أشهَرُ وأظهَرُ وأعرَفُ مِن أن يحتاجَ إلى تنويعِه إلى الجِنِّ والإنسِ... وكذلك قَولُ الزَّجَّاجِ: إنَّ المعنى ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ﴾ الَّذي هو الجِنَّةُ، ومِن شَرِّ النَّاسِ- فيه ضَعفٌ وإن كان أرجَحَ مِنَ الأوَّلِ؛ لأنَّ شَرَّ الجِنِّ أعظَمُ مِن شَرِّ الإنسِ، فكيف يُطلِقُ الاستعاذةَ مِن جميعِ النَّاسِ، ولا يَستعيذُ إلَّا مِن بَعضِ الجِنِّ؟!). ((مجموع الفتاوى)) (١٧/ ٥٠٩-٥١٢). ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (٨/ ٧٨١).

(١) رواه البخاري (٧١٧١).

(٢) ولْيَنْتَهِ: أي: عن الاسْتِرسالِ معه في ذلك، بل يَلجأُ إلى الله في دفْعِه، ويَعلَمُ أنَّه يريدُ إفسادَ دينِه وعقلِه بهذه الوَسوَسةِ، فيَنبغي أن يَجتَهِدَ في دفْعِها، بالاشتِغالِ بغيرِها. يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٦/ ٣٤٠).

(٣) رواه البخاريُّ (٣٢٧٦) واللَّفظُ له، ومسلمٌ (١٣٤).

وَٱلنَّاسِ ﴾ فيه تعليمُ المُسلِمينَ التَّعَوُّذَ بذلك، فيكونُ لهم مِن هذا التَّعَوُّذِ ما هو حَظُّهم مِن قابليَّةِ التَّعَرُّضِ إلى الوَسْواسِ، ومع السَّلامةِ منه بمِقْدارِ مَراتِبِهم في الزُّلْفى[(١)].

٢- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ * مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ * ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ * مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴾ فيه ذَمُّ الوَسْواسِ، ونَدْبُ الاستعاذةِ منهم[(٢)].

## الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:

١- قَولُ اللهِ تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ فيه سُؤالٌ: لا يَخفى ما بيْن هذَينِ الوَصفَينِ اللَّذَينِ وُصِفَ بهما هذا اللَّعينُ الخبيثُ مِنَ التَّنافي؛ لأنَّ الوَسْواسَ كثيرُ الوَسْوَسةِ لِيُضِلَّ بها النَّاسَ، والخَنَّاسَ كَثيرُ التَّأخُّرِ والرُّجوعِ عن إضلالِ النَّاسِ؟

**الجوابُ**: أنَّ لكُلِّ مَقامٍ مَقالًا، فهو وَسْواسٌ عندَ غَفلةِ العَبدِ عن ذِكْرِ رَبِّه، خَنَّاسٌ عندَ ذِكرِ العَبدِ رَبَّه تعالى، كما دَلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقَولُه تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الآيةَ[(٣)] [النحل: ٩٩].

٢- في قَولِه تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ تأمَّلْ حِكمةَ القُرآنِ الكريم وجلالتَه كيف أوقَعَ الاستِعاذةَ مِن شَرِّ الشَّيطانِ الموصوفِ بأنَّه الوَسْواسُ الخَنَّاسُ الَّذي يُوَسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ، ولم يَقُلْ: «مِن شَرِّ وَسْوَستِه»؛ لِتَعُمَّ الاستِعاذةُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل)) للسيوطي (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)) للشنقيطي (ص: ٢٩٠).

شَرَّه جميعَه؛ فإنَّ قولَه: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ يَعُمُّ كلَّ شَرِّه[١].

٣- في قَولِه تعالى: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ تأمَّلْ كيف جاء بناءُ ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ مُكَرَّرًا؛ لتكريرِه الوَسْوَسةَ الواحِدةَ مِرارًا حتَّى يَعْزِمَ عليها العبدُ، وجاء بناءُ ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ على وزنِ «الفَعَّالِ» الَّذي يتكَرَّرُ منه نوعُ الفِعلِ؛ لأنَّه كُلَّما ذُكِرَ اللهُ انْخَنَسَ، ثُمَّ إذا غَفَلَ العبدُ عاوَدَه بالوَسْوَسةِ؛ فجاء بناءُ اللَّفظَينِ مُطابقًا لمعنَيَيهما[٢].

٤- قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾، وجيءَ مِن هذا الفِعلِ بوَزنِ فَعَّالٍ الَّذي للمُبالَغةِ دونَ الخانِسِ والمُنخَنِسِ؛ إيذانًا بشِدَّةِ هُروبِه ورُجوعِه وعِظَمِ نُفورِه عند ذِكرِ اللهِ، وأنَّ ذلك دأبُه ودَيدَنُه، لا أنَّه يَعرِضُ له ذلك عندَ ذِكرِ اللهِ أحيانًا، بل إذا ذُكِرَ اللهُ هَرَب وانخنَسَ وتأخَّرَ؛ فإنَّ ذِكرَ اللهِ هو مِقْمَعَتُه الَّتي يُقمَعُ بها كما يُقمَعُ المفسِدُ والشِّرِّيرُ بالمَقامِعِ الَّتي تَردَعُه؛ مِن سِياطٍ وحديدٍ وعِصِيٍّ ونحوِها؛ فذِكرُ اللهِ يَقمَعُ الشَّيطانَ ويُؤلِمُه ويُؤذيه كالسِّياطِ والمَقامِعِ الَّتي تُؤذي مَن يُضرَبُ بها؛ ولهذا يكونُ شيطانُ المؤمِنِ هزيلًا ضئيلًا مُضنًى؛ ممَّا يُعَذِّبُه ويَقمَعُه به مِن ذِكرِ اللهِ وطاعتِه[٣].

٥- قال اللهُ تعالى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ وَصَفَه بأعظَمِ صِفاتِه، وأشَدِّها شَرًّا، وأقواها تأثيرًا، وأعَمِّها فسادًا، وهي الوَسْوَسةُ الَّتي هي مَبادئُ الإرادةِ؛ فإنَّ القَلْبَ يكونُ فارِغًا مِنَ الشَّرِّ والمعصيةِ، فيُوسوِسُ إليه ويُخطِرُ الذَّنْبَ ببالِه، فيُصَوِّرُه لنَفْسِه ويُمَنِّيه ويُشَهِّيه؛ فيَصيرُ شَهوةً، ويُزَيِّنُها له ويُحَسِّنُها ويُخَيِّلُها له في خيالٍ تَميلُ نَفْسُه إليه؛ فيصيرُ إرادةً، ثمَّ لا يزالُ يُمَثِّلُ ويُخَيِّلُ، ويُمَنِّي ويُشَهِّي، ويُنَسِّي عِلْمَه بضَرَرِها، ويَطوي عنه سوءَ عاقِبَتِها؛ فيَحُولُ بيْنَه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٧).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٦).

(٣) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٢/ ٢٥٥).

وبينَ مطالعتِه، فلا يرى إلَّا صورةَ المعصيةِ والْتِذاذَه بها فقط، ويَنسى ما وراءَ ذلك؛ فتَصيرُ الإرادةُ عزيمةً جازِمةً، فيَشتَدُّ الحِرصُ عليها مِن القَلْبِ، فيَبعَثُ الجُنودَ في الطَّلَبِ، فيَبعَثُ الشَّيطانُ معهم مَدَدًا لهم وعَونًا[1]!

٦- قال اللهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ وَسْوَسةُ الشَّيطانِ في صَدْرِ الإنسانِ بأنواعٍ كثيرةٍ؛ منها: إفسادُ الإيمانِ والتَّشكيكُ في العقائِدِ، فإن لم يَقدِرْ على ذلك أمَرَه بالمعاصي، فإنْ لم يَقدِرْ على ذلك ثَبَّطه عن الطَّاعاتِ، فإن لم يقدِرْ على ذلك أدخَلَ عليه الرِّياءَ في الطَّاعاتِ لِيُحبِطَها، فإنْ سَلِمَ مِن ذلك أدخَلَ عليه العُجْبَ بنَفْسِه، واستكثارَ عَمَلِه، ومِن ذلك أنَّه يُوقِدُ في القَلبِ نارَ الحسَدِ والحِقدِ والغَضَبِ؛ حتَّى يَقودَ الإنسانَ إلى شَرِّ الأعمالِ وأقبَحِ الأحوالِ. وعِلاجُ وَسوَستِه بثلاثةِ أشياءَ؛ واحِدُها: الإكثارُ مِن ذِكرِ اللهِ. وثانيها: الإكثارُ مِن الاستعاذةِ باللهِ منه، ومِن أنفَعِ شَيءٍ في ذلك قراءةُ هذه السُّورةِ. وثالِثُها: مُخالَفتُه والعَزمُ على عِصيانِه[2].

٧- تأمَّلِ السِّرَّ في قَولِه تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ولم يَقُلْ: «في قُلوبِهم»، والصَّدرُ هو ساحةُ القَلبِ وبَيتُه؛ فمِنْه تَدخُلُ الوارداتُ إليه فتَجتَمِعُ في الصَّدرِ، ثُمَّ تَلِجُ في القَلبِ، فهو بمنزلةِ الدِّهليزِ له، ومِن القَلبِ تَخرُجُ الأوامرُ والإراداتُ إلى الصَّدرِ، ثُمَّ تتفرَّقُ على الجنودِ، ومَن فَهِمَ هذا فَهِمَ قولَه تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ فالشَّيطانُ يَدخُلُ إلى ساحةِ القَلبِ وبَيتِه، فيُلقي ما يريدُ إلقاءَه في القَلبِ، فهو مُوَسوِسٌ في الصَّدرِ، ووَسْوَستُه واصِلةٌ إلى القلبِ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠] ولم يَقُلْ: «فيه»؛ لأنَّ المعنى: أنَّه

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٥٧، ٢٥٨).

(٢) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣٠).

أَلْقَى إليه ذلك وأوصَلَه فيه؛ فدَخَلَ في قَلْبِه[١].

٨- في قَولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ أنَّ للإنسِ شياطينَ يُستعاذُ مِن شَرِّهم، كما أنَّ للجِنِّ شياطينَ يُستعاذُ منهم[٢].

٩- في قَولِه تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ سُؤالٌ: أنَّه إنْ كان أصلُ الشَّرِّ كلِّه مِن الوَسْواسِ الخَنَّاسِ، فلا حاجةَ إلى ذِكْرِ الاستعاذةِ مِن وَسْواسِ النَّاسِ؛ فإنَّه تابعٌ لوَسْواسِ الجِنِّ!

**الجوابُ**: بلِ الوَسْوسةُ نَوعان: نوعٌ مِن الجِنِّ، ونوعٌ مِن نُفوسِ الإنسِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]، فالشَّرُّ مِن الجِهَتينِ جميعًا، والإنسُ لهم شياطينُ كما للجِنِّ شياطينُ، والوَسْوسةُ مِن جنسِ «الوشوشةِ» -بالشِّينِ المعجمةِ-؛ يُقالُ: فلانٌ يُوشوِشُ فُلانًا، وقد وَشْوَشَه: إذا حَدَّثَه سِرًّا في أُذُنِه، وكذلك الوَسْوسةُ، ومنه وَسْوسةُ الحُلِيِّ، لكنْ هو بالسِّينِ المُهمَلةِ أخَصُّ[٣].

١٠- إنْ قيلَ: لِمَ خُتِمَ القُرآنُ بالمُعَوِّذَتينِ، وما الحِكمةُ في ذلك؟

**فالجوابُ مِن ثلاثةِ أَوجُهٍ:**

**الأوَّل**: لَمَّا كان القُرآنُ مِن أعظَمِ النِّعَمِ على العِبادِ، والنِّعَمُ مَظِنَّةُ الحَسدِ؛ فختمَ بما يُطفِئُ الحَسدَ مِن الاستِعاذَةِ باللهِ.

**الثَّاني**: أنَّه يَظهرُ أنَّ المُعَوِّذَتينِ خُتِمَ بهما لأنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم

---

(١) يُنظر: ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (٢/ ٢٦٢).

(٢) يُنظر: ((الإكليل في استنباط التنزيل)) للسيوطي (ص: ٣٠٣).

(٣) يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (١٧/ ٥١٦).

قال فيهما: ((أُنزِلَت عليَّ آياتٌ لم يُرَ مِثلُهنَّ قَطُّ))[١]، كما قال في فاتحة الكتاب: ((ما أُنزِلَتْ في التَّوراةِ ولا في الإنجيلِ ولا في الزَّبُورِ ولا في الفُرقانِ مِثْلُها))[٢]، فافتُتِحَ القُرآنُ بسُورةٍ لم يَنزِلْ مِثلُها، واختُتِمَ بسُورتَينِ لم يُرَ مِثلُهما؛ ليجمعَ حُسنَ الافتِتاحِ والاختِتامِ، ألا ترَى أنَّ الخُطَبَ والرَّسائلَ والقَصائدَ وغيرَ ذلك مِن أَنواعِ الكلامِ إنَّما يُنظَرُ فيها إلى حُسنِ افتِتاحِها واختِتامِها.

**الوجهُ الثَّالثُ**: أنه يَظهرُ أيضًا أنَّه لَمَّا أُمِرَ القارئُ أن يَفتَتِحَ قِراءتَه بالتَّعَوُّذِ مِن الشَّيطانِ الرَّجيمِ، خُتِمَ القُرآنُ الكريمُ بالمُعَوِّذَتينِ لِيُحصِّلَ الاستِعاذةَ باللهِ عندَ أوَّلِ القِراءَةِ وعندَ آخِرِ ما يَقرأُ مِن القِراءةِ، فتكونُ الاستِعاذةُ قد اشتَملت على طَرَفَي الابتِداءِ والانتِهاءِ، ولِيَكونَ القارئُ مَحفوظًا بحِفظِ اللهِ الَّذي استَعاذَ به مِن أوَّلِ أَمْرِه إلى آخِرِه، وباللهِ التَّوفيقُ، لا رَبَّ غيرُه[٣].

## بلاغةُ الآياتِ:

١- قولُه تعالَى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۞ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۞ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾

- شابَهَت فاتحةُ هذه السُّورةِ فاتحةَ سُورةِ (الفَلَقِ)، إلَّا أنَّ سُورةَ (الفَلَقِ) تَعَوُّذٌ مِن شُرورِ المَخلوقاتِ مِن حَيوانٍ وناسٍ، وسُورةَ (الناسِ) تَعوُّذٌ مِن شُرورِ مَخلوقاتٍ خَفيَّةٍ، وهي الشَّياطينُ، والأمرُ بالقولِ يَقْتضي المُحافَظةَ على هذه الألفاظِ؛ لأنَّها الَّتي عيَّنَها اللهُ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ليَتعوَّذَ بها، فإجابتُها مَرجوَّةٌ؛ إذ ليس هذا المَقولُ مُشتمِلًا على شَيءٍ يُكلَّفُ به أو يُعمَلُ حتَّى يَكونَ

(١) تقدَّم تخريجُه (ص: ٤٩٣).

(٢) أخرجه مطوَّلًا الترمذيُّ (٢٨٧٥) واللَّفظُ له، وأحمدُ (٩٣٤٥) مِن حديثِ أبي هريرةَ.
صحَّحه الترمذيُّ، وابنُ جرير في ((التفسير)) (٨/ ٧٥)، والألبانيُّ في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٨٧٥)، وشعيبٌ في تخريج ((مسند أحمد)) (١٥/ ٢٠١). ويُنظر ما تقدَّم (ص: ٤١١).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٣٠).

المرادُ: قُلْ لهم كذا، كما في قَولِه تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١]، وإنَّما هو إنشاءُ معنًى في النَّفْسِ تدُلُّ عليه هذه الأقوالُ الخاصَّةُ[١].

- والخِطابُ بلَفظِ ﴿قُلْ﴾ للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وإذ قد كان قُرآنًا كان خِطابُ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم به يَشملُ الأُمَّةَ حيث لا دَليلَ على تَخصيصِه به؛ فلذلك أمَرَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بَعضَ أصحابِه بالتَّعوُّذِ بهذه السُّورةِ، فتكونُ صِيغةُ الأمرِ المُوجَّهةُ إلى المُخاطَبِ مُستعمَلةً في مَعنيَي الخِطابِ مِن تَوجُّهِه إلى مُعيَّنٍ، وهو الأصلُ، ومِن إرادةِ كلِّ مَن يَصِحُّ خِطابُه، وهو طَريقٌ مِن طُرقِ الخِطابِ تدُلُّ على قَصْدِه القرائنُ، فيكونُ مِن استعمالِ المُشتركِ في مَعْنيَيه، واستعمالُ صِيغةِ التَّكلُّمِ في فِعلِ ﴿أَعُوذُ﴾ يَتبَعُ ما يُرادُ بصِيغةِ الخِطابِ في فِعلِ ﴿قُلْ﴾؛ فهو مَأمورٌ به لكلِّ مَن يُريدُ التَّعوُّذَ بها[٢].

- ولَمَّا كانت مَضرَّةُ الدِّينِ -وهي آفةُ الوَسوسةِ- أعظَمَ مِن مَضرَّةِ الدُّنيا وإنْ عَظُمَت، جاء البِناءُ في الاستِعاذةِ منها بصِفاتٍ ثَلاثٍ (الرَّبُّ، والمَلِكُ، والإلهُ) في قَولِه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾، وإنِ اتَّحَدَ المطلوبُ، وفي الاستعاذةِ مِن ثَلاثٍ (الغاسقُ، والنَّفَّاثاتُ، والحاسدُ) بصِفةٍ واحدةٍ، وهي الرَّبُّ، وإنْ تَكثَّرَ الَّذي يُستعاذُ منه[٣].

- وأيضًا لَمَّا كانتِ الاستعاذةُ في السُّورةِ المُتقدِّمةِ مِن المَضارِّ البَدنيَّةِ، وهي تعُمُّ الإنسانَ وغيرَه، والاستِعاذةُ في هذه السُّورةِ مِن الأضرارِ الَّتي تَعرِضُ

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٢٥، ٣٠/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((المصدر السابق)) (٣٠/ ٦٢٥، ٦٢٦) و(٣٠/ ٦٣٢).

(٣) يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٩).

للنُّفوسِ البَشريَّةِ وتخُصُّها[١]؛ عمَّمَ الإضافةَ ثَمَّ، وخصَّصَها بالنَّاسِ هاهنا، فكأنَّه قِيل: أعوذُ مِن شرِّ المُوَسوسِ إلى النَّاسِ برَبِّهم، الَّذي يَملِكُ أُمورَهم، ويَستحِقُّ عِبادتَهم[٢].

- وأيضًا في قَولِه: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ إن قيل: لِمَ قَدَّم وَصْفَه تعالى ﴿بِرَبِّ﴾ ثمَّ بـ ﴿مَلِكِ﴾ ثمَّ بـ ﴿إِلَٰهِ﴾؟

**فالجوابُ**: أنَّ هذا على التَّرتيبِ في الارتقاءِ إلى الأعلى؛ وذلك أنَّ الرَّبَّ قد يُطلَقُ على كثيرٍ مِن النَّاسِ، فيُقالُ: فُلانٌ رَبُّ الدَّارِ، وشِبهُ ذلك، فبدأ به لاشتراكِ معناه، وأمَّا المَلِكُ فلا يُوصَفُ به إلَّا آحادٌ مِنَ النَّاسِ، وهم الملوكُ، ولا شَكَّ أنَّهم أعلى مِن سائِرِ النَّاسِ؛ فلذلك جاء به بعْدَ الرَّبِّ، وأمَّا الإلهُ فهو أعلى مِن المَلِكِ؛ ولذلك لا يدَّعي الملوكُ أنَّهم آلهةٌ، فإنَّما الإلهُ واحِدٌ لا شَريكَ له ولا نَظيرَ؛ فلذلك خُتِمَ به[٣].

وقيل: رُتِّبَت أوصافُ اللهِ بالنِّسبةِ إلى النَّاسِ تَرتيبًا مُدرَّجًا؛ فإنَّ اللهَ خالِقُهم، ثمَّ هم غيرُ خارِجينَ عن حُكْمِه إذا شاء أنْ يَتصرَّفَ في شُؤونِهم، ثمَّ زِيدَ بَيانًا بوَصْفِ إلَهيَّتِه لهم؛ ليَتبيَّنَ أنَّ رُبوبيَّتَه لهم وحاكميَّتَه فيهم لَيستْ كرُبوبيَّةِ بَعضِهم بعضًا وحاكميَّةِ بَعضِهم في بَعضٍ[٤].

- وعُرِّفَ (رب) بإضافتِه إلى النَّاسِ دونَ غَيرِهم مِن المَربوبينَ؛ لأنَّ الاستعاذةَ مِن شرٍّ يُلْقِيه الشَّيطانُ في قُلوبِ النَّاسِ، فيَضِلُّون ويُضِلُّون، فالشَّرُّ المُستعاذُ

---

(١) قال أبو السعود: (مَن جعَل مدارَ تخصيصِ الإضافةِ مجرَّدَ كَونِ الاستعاذةِ مِن المَضارِّ المختصَّةِ بالنُّفوسِ البشَريَّةِ فقد قصَّر في تَوفيةِ المقامِ حقَّه). ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (٢/ ٥٢٩).

(٤) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٢، ٦٣٣).

منه مَصبُّه إلى النَّاسِ، فناسَبَ أنْ يُستحضَرَ المُستعاذُ إليه بعُنوانِ أنَّه ربُّ مَن يُلْقون الشَّرَّ، ومَن يُلْقى إليهم؛ ليَصرِفَ هؤلاء، ويَدفَعَ عن الآخَرينَ، كما يُقالُ لِمَولى العبْدِ: يا مَولى فُلانٍ، كُفَّ عنِّي عَبْدَك[١].

وقيلَ: ذكَر أنَّه رَبُّ النَّاسِ على التَّخصيصِ؛ وذلك لأنَّ أَشرفَ المَخلوقاتِ في العالَمِ هُم النَّاسُ. أو لأنَّ المَأمورَ بالاستِعاذةِ هو الإنسانُ، فإذا قرأَ الإنسانُ هذه، صارَ كأنَّه يقولُ: يا رَبِّ، يا مَلِكي، يا إلَهِي[٢].

- قولُه: ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ عطْفُ بَيانٍ؛ جِيءَ به لبَيانِ أنَّ تَربيتَه تعالَى إيَّاهم لَيستْ بطَريقِ تَربيةِ سائرِ المُلَّاكِ لِما تحْتَ أيْديهم مِن مَماليكِهم، بلْ بطَريقِ المُلكِ الكاملِ والتَّصرُّفِ الكُلِّيِّ والسُّلطانِ القاهرِ، وكذا قولُه تعالَى: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾؛ فإنَّه لبَيانِ أنَّ مُلْكَه تعالَى ليس بمُجرَّدِ الاستيلاءِ عليهم، والقِيامِ بتَدْبيرِ أُمورِهم، وسِياستِهم، والتَّولِّي لتَرتيبِ مَبادئِ حِفظِهم وحِمايتِهم كما هو قُصارَى أمْرِ المُلوكِ، بلْ هو بطَريقِ المعبوديَّةِ المُؤسَّسةِ على الأُلوهيَّةِ المُقتضيةِ للقُدْرةِ التَّامَّةِ على التَّصرُّفِ الكُلِّيِّ فيهم؛ إحياءً وإماتةً، وإيجادًا وإعدامًا، فقولُه: ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ خاصٌّ لا شَرِكةَ فيه، فجُعِلَ غايةً للبَيانِ، ولم يُكتَفَ بإظهارِ المُضافِ إليه -الَّذي هو ﴿ٱلنَّاسِ﴾- مرَّةً واحدةً؛ لأنَّ عطْفَ البيانِ بمَنزلةِ عَلَمٍ للاسمِ المُبيَّنِ، ففيه مَزيدٌ مِن البَيانِ والكشْفِ والتَّقريرِ، فكان مَظِنَّةً للإظهارِ دونَ الإضمارِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٣)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٨)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٢).

(٢) يُنظر: ((تفسير الرازي)) (٣٢/ ٣٧٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٨)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٣)، ((إعراب =

وقيل: قَولُه: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ المَلِكُ هو المتَّصِفُ بالأمرِ والنَّهي، وذلك يَختصُّ بالنَّاطِقينَ؛ ولهذا قال: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ ولم يَقُلْ: مَلِكِ الأشياء، وأمَّا قولُه: ﴿ مَلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ -على قراءةٍ- [الفاتحة: ٤] فتقديرُه: «الْمَلِكُ في يومِ الدِّين»؛ لقولِه: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]. ويحتَمِلُ أنْ يكونَ خَصَّ النَّاسَ بالذِّكرِ في قَولِه تعالى: ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾؛ لأنَّ المخلوقاتِ جمادٌ ونامٍ، والنَّامي صامتٌ وناطقٌ، والنَّاطقُ متكلِّمٌ وغيرُ متكلِّمٍ، فأشرفُ الجميعِ المتكلِّمُ، وهم ثلاثةٌ: الإنسُ، والجِنُّ، والملائكةُ، وكلُّ مَن عَدَاهم جائزٌ دُخولُه تحتَ قبضتِهم وتصَرُّفِهم، وإذا كان المرادُ بالنَّاسِ في الآيةِ المتكلِّمَ، فمَن مَلَكوه في مُلْكِ مَن مَلَكَهم؛ فكان في حُكْمِ ما لو قال: «مَلِكِ كلِّ شيءٍ»، مع التَّنويهِ بذِكْرِ الأشرَفِ، وهو المتكلِّمُ(١).

- وتَخصيصُ الإضافةِ بالنَّاسِ مع انتظامِ جَميعِ العالَمينَ في سِلكِ رُبوبيَّتِه تعالَى ومَلَكوتيَّتِه وأُلوهيَّتِه؛ للإرشادِ إلى مَنهجِ الاستِعاذةِ المَرْضيَّةِ عندَه تعالَى الحقيقةِ بالإعاذةِ؛ فإنَّ تَوسُّلَ العائذِ بربِّه وانتِسابَه إليه تعالَى بالمَربوبيَّةِ والمَمْلوكيَّةِ والعُبوديَّةِ في ضِمنِ جنسٍ هو فرْدٌ مِن أفرادِه؛ مِن دَواعي مَزيدِ الرَّحمةِ والرَّأفةِ، وأمْرُه تعالَى بذلك مِن دَلائلِ الوعْدِ الكريمِ بالإعاذةِ لا مَحالةَ، ولأنَّ المُستعاذَ منه شرُّ الشَّيطانِ المَعروفِ بعَداوتِهم، ففي التَّنصيصِ على انتظامِهم في سِلكِ عُبوديَّتِه تعالَى ومَلكوتِه رمْزٌ إلى إنْجائِهم مِن ملْكةِ الشَّيطانِ وتَسلُّطِه عليهم، حسبَما يَنطِقُ به قولُه تعالَى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ

---

= القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٢٥).

(١) يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (١٣/ ٣٦٧). ويُنظر أيضًا: ((المفردات في غريب القرآن)) للراغب (ص: ٧٧٤).

عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾[1] [الحجر: ٤٢].

- وقيل: خُصَّ النَّاسُ بالذِّكرِ في الثَّلاثةِ الأُولى مع أنَّه تعالَى ربُّ كلِّ شَيءٍ، ومَليكُه، وإلَهُه؛ تَشريفًا لهم، وتَفضيلًا على غَيرِهم[2].

٢- قولُه تعالَى: ﴿ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ﴾ الوَسواسُ اسمٌ بمعْنى الوَسوسةِ، والمرادُ به الشَّيطانُ المُوسوِسُ، سُمِّيَ بالمَصدَرِ مُبالَغةً، كأنَّه وَسوسةٌ في نفْسِه؛ لأنَّها صَنْعَتُه وشُغلُه الَّذي هو عاكفٌ عليه، أو أُرِيدَ ذو الوَسواسِ[3].

وقيل: الوَسواسُ: المُتكلِّمُ بالوَسوسةِ، وهي الكَلامُ الخَفيُّ، فالوَسواسُ اسمُ فاعلٍ، والتَّعريفُ في ﴿ٱلۡوَسۡوَاسِ﴾ تَعريفُ الجِنسِ[4].

٣- قولُه تبارك وتعالَى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾

- قولُه: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بَيانٌ للشَّيطانِ المُوَسوِسِ على أنَّ الشيطانَ ضَربانِ: جِنِّيٌّ وإنسيٌّ؛ كما قال تعالَى: ﴿عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗا﴾ [الأنعام: ١١٢]؛ فـ (مِن) في قَولِه: ﴿مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بَيانيَّةٌ بيَّنَت الَّذي يُوسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ بأنَّه جِنسٌ يَنحَلُّ إلى صِنفَينِ: صِنفٌ مِن الجِنَّةِ، وهو أصْلُه، وصِنفٌ مِن النَّاسِ، وما هو إلَّا تَبَعٌ ووَلِيٌّ للصِّنفِ الأوَّلِ، ووَجْهُ الحاجةِ إلى هذا البَيانِ خَفاءُ ما

---

(١) يُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦).

(٢) يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٤، ٦٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٦).

(٣) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٣)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٩)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٧).

(٤) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٣).

يَنجَرُّ مِن وَسوسةِ نَوعِ الإنسانِ؛ لأنَّ الأُمَمَ اعْتادوا أنْ يُحذِّرَهم المُصلِحون مِن وَسوسةِ الشَّيطانِ، ورُبَّما لا يَخطُرُ بالبالِ أنَّ مِن الوَسواسِ ما هو شَرٌّ مِن وَسواسِ الشَّياطينِ، وهو وَسوسةُ أهلِ نَوعِهم، وهو أشدُّ خطَرًا، وهم بالتَّعوُّذِ منهم أجدَرُ؛ لأنَّهم منهم أقرَبُ، وهُمْ عليهم أخطَرُ، وأنَّهم في وَسائلِ الضُّرِّ أدخَلُ وأقدَرُ. ويَجوزُ أنْ تكونَ ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ للتَّبعيضِ، أي: كائنًا مِن الجِنَّةِ والنَّاسِ، فهي في مَوضعِ الحالِ، أي: ذلك المُوسوسُ هو بَعضُ الجِنَّةِ وبعضُ النَّاسِ. ويَجوزُ أنْ يكونَ ﴿مِنَ﴾ مُتعلِّقًا بلَفظِ ﴿يُوَسْوِسُ﴾، ومعْناهُ: ابتِداءُ الغايةِ، أي: يُوسوِسُ في صُدورِهم مِن جِهةِ الجِنِّ ومِن جِهةِ النَّاسِ(١).

- وفي قَولِه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ مُناسَبةٌ حسَنةٌ، حيثُ قُدِّمَ ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ على ﴿ٱلنَّاسِ﴾ هنا؛ لأنَّهم أصلُ الوَسواسِ، بخِلافِ تَقديمِ الإنسِ على الجنِّ في قَولِه تعالَى تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]؛ لأنَّ خُبثاءَ النَّاسِ أشدُّ مُخالَطةً للأنبياءِ مِن الشَّياطينِ؛ لأنَّ اللهَ عَصَمَ أنْبياءَه مِن تَسلُّطِ الشَّياطينِ على نُفوسِهم؛ قال تعالَى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ فإنَّ اللهَ أرادَ إبلاغَ وَحْيِه لأنبيائِه، فزَكَّى نُفوسَهم مِن خُبثِ وَسوسةِ الشَّياطينِ، ولم يَعصِمْهم مِن لَحاقِ ضُرِّ النَّاسِ بهم، والكَيدِ لهم؛ لضَعْفِ خَطَرِه؛ قال تعالَى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ولكنَّه

(١) يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (٤/ ٨٢٤)، ((تفسير البيضاوي)) (٥/ ٣٥٠)، ((تفسير أبي حيان)) (١٠/ ٥٧٩)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٥)، ((تفسير أبي السعود)) (٩/ ٢١٧)، ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥)، ((إعراب القرآن)) لدرويش (١٠/ ٦٢٥).

ضَمِنَ لرُسلِه النَّجاةَ مِن كلِّ ما يَقطَعُ إبلاغَ الرِّسالةِ إلى أنْ يَتِمَّ مُرادُ اللهِ[١].

- وتَكريرُ كَلمةِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في هذه الآياتِ المَرَّتينِ الأُولَيَينِ باعتِبارِ معنًى واحدٍ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ؛ لقَصْدِ تَأكيدِ رُبوبيَّةِ اللهِ تعالَى ومُلْكِه وإلَهيَّتِه للنَّاسِ كلِّهم. وأمَّا تَكريرُه المرَّةَ الثَّالثةَ بقولِه: ﴿فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾؛ فهو إظهارٌ مِن أجْلِ بُعدِ المعادِ. وأمَّا تَكريرُه المرَّةَ الرَّابعةَ بقولِه: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾؛ فلأنَّه بَيانٌ لأحَدِ صِنفَيِ الَّذي يُوسوِسُ في صُدورِ النَّاسِ، وذلك غيرُ (ماصَدَقَ)[٢] كَلمةِ النَّاسِ في المرَّاتِ السَّابقةِ، واللهُ يَكْفِينا شَرَّ الفَريقينِ، ويَنفَعُنا بصالِحِ الثَّقلَينِ[٣].

---

(١) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥).

(٢) تقدَّم تعريفُه (٤٣/ ٥٢٧).

(٣) يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (٣٠/ ٦٣٥، ٦٣٦).

وقيل غيرُ ذلك. يُنظر: ((درة التنزيل وغرة التأويل)) للإسكافي (ص: ١٣٧٢-١٣٧٥)، ((أسرار التَّكرار في القرآن)) للكرماني (ص: ٢٥٧، ٢٥٨)، ((ملاك التأويل)) لأبي جعفر الغرناطي (٢/ ٥١٩)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (١/ ٥٥٧)، ((فتح الرحمن)) للأنصاري (ص: ٦٣٤).

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# الحمد للّه على التمام

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

تمَّ بفَضلِ اللهِ العظيمِ، ذي الإحسانِ العَميمِ، الفَراغُ من تفسيرِ القرآنِ الكريمِ (التَّفسِيرِ المُحَرَّر) بعد عمل عشرِ سنواتٍ متواصِلة، على نحوٍ جامعٍ شاملٍ، يُعينُ على تدَبُّرِ كتابِ اللهِ ومعْرِفةِ معانيهِ والعَمَلِ بما فيه؛ فالحَمدُ لله الذي هدى ووفَّقَ لهذا، والحَمدُ للهِ الذي بنِعمتِه تتِمُّ الصَّالحاتُ، واللهُ المرجوُّ أن يتقبَّلَ هذا السِّفرَ المبارَكَ بقَبولٍ حَسَنٍ، وأن يضَعَ له القَبولَ بَينَ عِبادِه، فيَظَلَّ نِبراسًا مُضيئًا للدُّروبِ، وهاديًا للقُلوبِ.

ونسألُ الله تبارَك وتعالى أنْ يَجزيَ خيرًا كلَّ مَن شارَك في هذا العملِ مِن الناحيةِ العلميَّةِ أو الفنيَّةِ، أو ساهم في إنجازِه ودعَمه، وأنْ يُثقِّلَ مَوازينَهم.

هذا وما كان في هذا الكتابِ مِن صوابٍ فمِن الله وحدَه، فهو المحمودُ والمستعانُ، وما كان فيه مِن خطأٍ فمنَّا ومِن الشَّيطانِ، ويَأْبى الله إلَّا أنْ يَتَفَرَّدَ بالكمالِ.

نسخة إلكترونية حقوقها للناشر لا يسمح باقتنائها إلا بقيمتها
ولا نُجيز نشرها ولا تداولها

للحصول على نسخة إلكترونية شرعية بمبلغ زهيد جدا (اضغط هنا)

# الفهارس

- فهرس الموضوعات
- فهرس مراجع التفسير المحرر

# فهرس الموضوعات

## سُورةُ العَلَقِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٧
فَضائِلُ السُّورةِ وخَصائِصُها: ... ٧
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٨
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٩
الآيات (١-٥) ..... ١٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٠
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٠
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٠
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ١٤
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٣
الآيات (٦-١٩) ..... ٣١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣١
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ٤٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٤

## سُورةُ القَدْرِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٥٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٥٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٦٠
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٦٠
الآيات (١-٥) ..... ٦١
المعنى الإجماليُّ: ..... ٦١
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٦١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٦٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ٦٩
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٧٤

## سُورةُ البَيِّنةِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٨٥
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٨٥
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٨٦
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٨٦
الآيات (١-٥) ..... ٨٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٨٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ٨٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٨٩

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٩٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .... ٩٦
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٠٠
الآيات (٦-٨) ..... ١١٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١١٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ١١٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١١٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١١٦
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١١٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٢٠

## سُورةُ الزَّلْزَلةِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ١٢٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ١٢٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ١٢٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ١٣٠
الآيات (١-٨) ..... ١٣١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٣١
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٣٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٣٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٤٠
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٤١
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٤٦

## سُورةُ العادِياتِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ١٥٣
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ١٥٣
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ١٥٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ١٥٣
الآيات (١-١١) ..... ١٥٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٥٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ١٥٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٥٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٥٩
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٦٥
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٦٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٧١

## سُورةُ القارِعَةِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ١٨١
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ١٨١
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ١٨١
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ١٨١
الآيات (١-١١) ..... ١٨٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ١٨٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ١٨٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ١٨٣

الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ١٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ١٨٩
بلاغةُ الآياتِ: ..... ١٩٣

سُورةُ التَّكاثُرِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٢٠٣
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٢٠٣
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٢٠٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٢٠٤
الآيات (١-٨) ..... ٢٠٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٠٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٢٠٥
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٠٧
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٠٧
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢١٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢١٥
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٢٠

سُورةُ العَصْرِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٢٢٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٢٢٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٢٢٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٢٢٩
الآيات (١-٣) ..... ٢٣١
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٣١
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٣١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢٣٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٣٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٤٢

سُورةُ الهُمَزَةِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٢٤٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٢٤٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٢٤٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٢٤٩
الآيات (١-٩) ..... ٢٥٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٥٠
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٥١
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٥٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢٥٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٥٨
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٥٩

سُورةُ الفِيلِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٢٦٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٢٦٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٢٦٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٢٦٩

الآيات (١-٥) ..... ٢٧٠
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٧٠
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٧١
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٧١
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢٧٤
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٧٤
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٧٧

## سُورةُ قُرَيْش

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٢٨٣
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٢٨٣
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٢٨٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٢٨٣
الآيات (١-٤) ..... ٢٨٥
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٢٨٥
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٢٨٥
المعنى الإجماليُّ: ..... ٢٨٥
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٢٨٦
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٢٨٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٢٩٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٢٩١

## سُورةُ الماعُونِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٢٩٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٢٩٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٢٩٩
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٣٠٠
الآيات (١-٧) ..... ٣٠١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٠١
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٠٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٠٢
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٠٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٣٠٩
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣١٢

## سُورةُ الكَوْثَرِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٣١٩
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٣١٩
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٣٢٠
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٣٢٠
الآيات (١-٣) ..... ٣٢١
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٢١
المعنى الإجماليُّ: ..... ٣٢٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٢٢
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: . ٣٢٧
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٣٢

## سُورةُ الكافِرُونَ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٣٤١
فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها: ٣٤١
بَيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ:..... ٣٤٣
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٣٤٣
مَوضوعاتُ السُّورةِ:..... ٣٤٣
الآيات (١-٦) ..... ٣٤٤
المعنى الإجماليُّ:..... ٣٤٤
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٤٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٤٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:.. ٣٤٩
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٥٥

## سُورةُ النَّصْرِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٣٧١
فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها: ٣٧١
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:..... ٣٧١
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٣٧١
مَوضوعاتُ السُّورةِ:..... ٣٧٢
الآيات (١-٣) ..... ٣٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٧٣
المعنى الإجماليُّ:..... ٣٧٣
تَفسيرُ الآياتِ:..... ٣٧٤
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٧٧
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:.. ٣٧٨
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٣٨١

## سُورةُ المَسَدِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٣٩١
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:..... ٣٩١
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٣٩١
مَوضوعاتُ السُّورةِ:..... ٣٩١
الآيات (١-٥) ..... ٣٩٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٣٩٢
مُشكِلُ الإعرابِ: ..... ٣٩٢
المعنى الإجماليُّ:..... ٣٩٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٣٩٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٣٩٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ:.. ٣٩٩
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٠٢

## سُورةُ الإِخْلاصِ

أسماءُ السُّورةِ: ..... ٤٠٩
فضائلُ السُّورة وخصائصُها: ٤١٠
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ:..... ٤١٦
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٤١٦
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٤١٦

الآيات (١-٤) ..... ٤١٧
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤١٧
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤١٨
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤١٨
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٢١
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٢٧
سورةُ الفَلَقِ
أسماءُ السُّورةِ: ..... ٤٣٧
فضلُها وخصائصُها: ..... ٤٣٨
بَيانُ المَكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٤٤٠
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٤٤١
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٤٤١
الآيات (١-٥) ..... ٤٤٢
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٤٢
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٤٢
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٤٣
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٥٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٦٠
سورةُ النَّاسِ
أسماءُ السُّورةِ: ..... ٤٦٩
فضائلُ السُّورةِ وخصائصُها: ٤٦٩
بَيانُ المكِّيِّ والمَدَنيِّ: ..... ٤٧٢
مَقاصِدُ السُّورةِ: ..... ٤٧٢
مَوضوعاتُ السُّورةِ: ..... ٤٧٢
الآيات (١-٦) ..... ٤٧٣
غَريبُ الكَلِماتِ: ..... ٤٧٣
المعنى الإجماليُّ: ..... ٤٧٣
تَفسيرُ الآياتِ: ..... ٤٧٣
الفَوائِدُ التَّربَويَّةُ: ..... ٤٧٩
الفَوائِدُ العِلميَّةُ واللَّطائِفُ: .. ٤٨٠
بلاغةُ الآياتِ: ..... ٤٨٤
الفهارس ..... ٤٩٥

# فهرس مراجع التفسير المحرر

١- آداب البحث والمناظرة: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق: سعود ابن عبد العزيز العريفي، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد - مجمع الفقه الإسلامي بجدة.

٢- الآداب الشرعية والمنح المرعية: لمحمد بن مفلح بن محمد، أبي عبد الله، شمس الدين، الناشر: عالم الكتب.

٣- الإبانة الكبرى: لعبيد الله بن محمد، ابن بَطَّة العكبري، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض.

٤- الإبانة عن أصول الديانة: لعلي بن إسماعيل، أبي الحسن الأشعري، تحقيق: فوقية حسين محمود، الناشر: دار الأنصار، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ.

٥- الإبانة عن معاني القراءات: لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: عبد الفتاح إسماعيل شلبي، الناشر: دار نهضة مصر للطبع والنشر.

٦- إتحاف الخيرة المهرة: لأحمد بن أبي بكر البوصيري، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى،١٤٢٠ هـ.

٧- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين: لمحمد مرتضى الزبيدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٨- إتحاف المهرة: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: زهير بن ناصر الناصر، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٩- إتحاف ذوي الألباب في قوله تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: لمرعي بن يوسف الكرمى، ضبط نصه وعلق عليه: حازم خنفر، الناشر: منشورات منتديات كل السلفيين، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م.

١٠- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر: لأحمد بن محمد بن أحمد الدمياطي، تحقيق: أنس مهرة، الناشر: دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١١- الإتقان في علوم القرآن: لعبد الرحمن بن أبي بكر، السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ.

١٢- آثار ابن باديس: لعبد الحميد محمد بن باديس، تحقيق: عمار طالبي، الناشر: دار ومكتبة الشركة الجزائرية، الطبعة: الأولى، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

١٣- اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية: لمحمد بن أبي بكر ابن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣١هـ.

١٤- الآحاد والمثاني: لابن أبي عاصم، تحقيق: باسم فيصل أحمد الجوابرة، الناشر: دار الراية، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

١٥- الأحاديث المختارة: لمحمد بن عبد الواحد المقدسي، ضياء الدين، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

١٦- أحاديث معلة: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: دار الآثار، اليمن، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ.

١٧- أحكام الأضحية والذكاة (مطبوع ضمن كتاب الصيد الثمين في رسائل ابن عثيمين): لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثقة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.

١٨- الأحكام السلطانية: لعلي بن محمد الماوردي، الناشر: دار الحديث، القاهرة.

١٩- أحكام القرآن الكريم: لأحمد بن محمد بن سلامة، الطحاوي، تحقيق: سعد الدين أونال، الناشر: مركز البحوث الإسلامية التابع لوقف الديانة التركي، إستانبول، الطبعة: الأولى، المجلد (١): ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، المجلد (٢): ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٢٠- أحكام القرآن للشافعي: لأحمد بن الحسين الخراساني، كتب هوامشه: عبد الغني عبد الخالق، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢١- أحكام القرآن: لأحمد بن علي، أبي بكر الجصاص، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٢٢- أحكام القرآن: لعبد المنعم بن عبد الرحيم، ابن الفرس، تحقيق: طه بن علي بوسريح، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٢٣- أحكام القرآن: لعلي بن محمد بن علي، الكيا الهراسي، تحقيق: موسى محمد علي وعزت عيد عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ.

٢٤- أحكام القرآن: لمحمد بن عبد الله، ابن العربي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا،

الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ.

٢٥- إحكام النظر في أحكام النظر بحاسة البصر: لعلي بن محمد، أبي الحسن ابن القطان، تحقيق: إدريس الصمدي، راجعه وضبطه: فاروق حمادة، الناشر: دار القلم، دمشق، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٢٦- أحكام أهل الذمة: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: يوسف ابن أحمد البكري، وشاكر بن توفيق العاروري، الناشر: رمادى للنشر، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٢٧- الإحكام في أصول الأحكام: لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم ، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت.

٢٨- أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: لمحمد بن عبد الله، أبي الوليد الأزرقي، دراسة وتحقيق: علي عمر، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة: الأولى.

٢٩- اختلاف الأئمة العلماء: ليحيى بن هُبَيْرَة بن محمد، تحقيق: السيد يوسف أحمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٣٠- الاختيارات الفقهية (لابن تيمية): لعلي بن محمد بن عباس ابن اللحام، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٧هـ.

٣١- الإخنائية (أو الرد على الإخنائي): لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: أحمد ابن مونس العنزي، الناشر: دار الخراز، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٣٢- أدب الدنيا والدين: لعلي بن محمد، الماوردي، الناشر: دار مكتبة الحياة، تاريخ النشر: ١٩٨٦م.

٣٣- أدب الكاتب: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: محمد الدالي، الناشر: مؤسسة الرسالة.

٣٤- الأدب المفرد: لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ.

٣٥- الأذكار: ليحيى بن شرف النووي، الناشر: مكتبة المؤيد، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣٦- الأذكار: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٣٧- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود): لمحمد ابن محمد بن مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٨- إرشاد الفحول: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد حسن إسماعيل، الناشر:

دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٣٩- إرواء الغليل: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ.

٤٠- إزالة الإشكال عن آية ﴿بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾: لمنصور العيدي، الطبعة: الأولى، ١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م.

٤١- الأزمنة والأمكنة: لأحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٤٢- أساب نزول القرآن: لعلي بن أحمد الواحدي، تحقيق: ماهر ياسين الفحل، الناشر: دار الميمان، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

٤٣- الاستذكار: ليوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

٤٤- الاستغاثة في الرد على البكري: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، دراسة وتحقيق: عبد الله بن دجين السهلي، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

٤٥- الاستقامة: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ.

٤٦- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ليوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٤٧- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعلي بن أبي الكرم محمد، ابن الأثير، الناشر: دار الفكر، بيروت عام النشر: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٤٨- أسرار التكرار في القرآن (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان): لمحمود بن حمزة بن نصر، الكرماني، (تاج القراء)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، مراجعة وتعليق: أحمد عبد التواب عوض، الناشر: دار الفضيلة.

٤٩- أسرار ترتيب القرآن (تناسق الدُّرر في تناسب السُّور): لعبد الرحمن ابن أبي بكر السُّيوطي، تحقيق: مرزوق علي إبراهيم، الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٢م.

٥٠- الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: لمحمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة، الناشر: مكتبة السنة، الطبعة: الرابعة.

٥١- اشتقاق أسماء الله: لعبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي، تحقيق: عبد رب الحسين المبارك، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٥٢- الإصابة في تمييز الصحابة: لأحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

٥٣- إصلاح المنطق: ليعقوب بن إسحاق، ابن السكيت، تحقيق: محمد مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٥٤- الأصنام: لهشام بن محمد بن السائب الكلبي، تحقيق: أحمد زكي باشا، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ٢٠٠٠م.

٥٥- أصول السرخسي: لمحمد بن أحمد بن أبي سهل، السرخسي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٥٦- أصول الفقه (إجابة السائل شرح بغية الآمل): لمحمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، تحقيق: القاضي حسين بن أحمد السياغي وحسن محمد مقبولي الأهدل، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦م.

٥٧- أصول الفقه: لمحمد بن مفلح، شمس الدين، حققه وعلق عليه وقدم له: فهد بن محمد السَّدَحَان، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٥٨- الأضداد: لمحمد بن القاسم، أبي بكر الأنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م.

٥٩- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ.

٦٠- الاعتصام: لإبراهيم بن موسى، الشاطبي، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الناشر: دار ابن عفان، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٦١- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث: لأحمد ابن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠١هـ.

٦٢- الإعجاز والإيجاز: لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبي منصور الثعالبي، الناشر: مكتبة القرآن، القاهرة.

٦٣- إعراب القرآن الكريم: لقاسم حميدان دعاس، الناشر: دار المنير، دار الفارابى،

دمشق، ١٤٢٥هـ.

٦٤- إعراب القرآن وبيانه: لمحيي الدين بن أحمد مصطفى درويش، الناشر: دار الإرشاد للشؤون الجامعية، حمص، دار اليمامة، دمشق، بيروت، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤١٥ هـ.

٦٥- إعراب القرآن: لأحمد بن محمد، أبي جعفر النَّحَّاس، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ.

٦٦- إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم: للحسين بن أحمد بن خالويه، أبي عبد الله، الناشر: مطبعة دار الكتب المصرية (١٣٦٠هـ-١٩٤١م).

٦٧- إعراب ما يشكل من ألفاظ الحديث النبوي: لعبد الله بن الحسين، أبي البقاء العكبري، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الحميد هنداوي، الناشر: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، مصر، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٦٨- أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري): لحمد بن محمد الخطابي، تحقيق: محمد ابن سعد بن عبد الرحمن آل سعود، الناشر: جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

٦٩- أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة (٢٠٠ سؤال وجواب في العقيدة الاسلامية): لحافظ بن أحمد بن علي الحكمي، تحقيق: حازم القاضي، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٢هـ.

٧٠- أعلام الموقعين عن رب العالمين: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٧١- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض.

٧٢- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض.

٧٣- الإقناع في القراءات السبع: لأحمد بن علي بن أحمد، ابن الباذش، الناشر: دار الصحابة للتراث.

٧٤- الإقناع في مسائل الإجماع: لعلي بن محمد الفاسي، أبي الحسن ابن القطان، تحقيق: حسن فوزي الصعيدي، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى،

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م.

٧٥- آكام المرجان في أحكام الجان: لمحمد بن عبد الله الشبلي، تحقيق: إبراهيم محمد الجمل، الناشر: مكتبة القرآن، مصر، القاهرة.

٧٦- الإكليل في استنباط التنزيل: لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، تحقيق: سيف الدين عبد القادر الكاتب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٧٧- الإكليل في المتشابه والتأويل: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، خرج أحاديثه وعلق عليه: محمد الشيمي شحاته، الناشر: دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، مصر.

٧٨- إكمال المعلم بفوائد مسلم: لعياض بن موسى بن عياض، تحقيق: يحيى إسماعيل، الناشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٧٩- أمالي ابن الحاجب: لعثمان بن عمر، ابن الحاجب، دراسة وتحقيق: فخر صالح سليمان قدارة، الناشر: دار عمار، الأردن، دار الجيل، بيروت عام النشر: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٨٠- أمراض القلب وشفاؤها: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، الناشر: المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٩٩هـ.

٨١- الأموال: لحميد بن مخلد، ابن زنجويه، تحقيق: شاكر ذيب فياض، الناشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٨٢- الأموال: للقاسم بن سلام، أبي عبيد، تحقيق: خليل محمد هراس، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٨٣- الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار: ليحيى بن أبي الخير العمراني، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٨٤- الانتصار للقرآن: لمحمد بن الطيب، أبي بكر الباقلاني، تحقيق: محمد عصام القضاة، الناشر: دار الفتح، عَمَّان، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م.

٨٥- الأنساب: لعبد الكريم بن محمد السمعاني، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ.

٨٦- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين، البصريين والكوفيين: لعبد الرحمن بن محمد، الأنباري، الناشر: المكتبة العصرية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٨٧- الإنصاف في معرفة الراجح من الخلاف: لعلي بن سليمان المرداوي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية.

٨٨- أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل: لمحمد بن أبي بكر، زين الدين الرازي، تحقيق: عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى، الناشر: دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م.

٨٩- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: لعبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٩٠- أهوال القبور: لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق: عاطف صابر شاهين، الناشر: دار الغد الجديد، المنصورة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٩١- أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك: لعبد الله بن يوسف، ابن هشام، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٩٢- إيضاح الوقف والابتداء: لمحمد بن القاسم، أبي بكر الأنباري، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، الناشر: مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق عام النشر: ١٣٩٠هـ -١٩٧١م.

٩٣- الإيمان ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته: للقاسم بن سلام، أبي عبيد، تحقيق: محمد نصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ -٢٠٠٠م.

٩٤- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث: لإسماعيل ابن كثير، تحقيق: أحمد محمد شاكر عناية: مكتب الأجهوري للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥ هـ.

٩٥- باهر البرهان فى معانى مشكلات القرآن: لمحمود بن أبي الحسن (علي) بن الحسين الغزنوي، الشهير بـ (بيان الحق)، تحقيق: سعاد بنت صالح (رسالة علمية)، الناشر: جامعة أم القرى، مكة المكرمة، عام النشر: ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٩٦- البحر المحيط في أصول الفقه: لمحمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، الناشر: دار الكتبي، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٩٧- البحر المحيط في التفسير: لمحمد بن يوسف بن حيان الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.

٩٨- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: لأحمد بن محمد بن المهدي ابن عجيبة،

تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: حسن عباس زكي، القاهرة، الطبعة: ١٤١٩هـ.

٩٩- بداية المجتهد ونهاية المقتصد: لمحمد بن أحمد، أبي الوليد ابن رشد الحفيد، الناشر: دار الحديث، القاهرة، تاريخ النشر: ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

١٠٠- البداية والنهاية: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

١٠١- البداية والنهاية: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٠٢- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: لعلاء الدين الكاساني الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة النشر: ١٩٨٢م.

١٠٣- بدائع الفوائد: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت.

١٠٤- البرهان فى تناسب سور القرآن: لأحمد بن إبراهيم بن الزبير، أبي جعفر الغرناطي، تحقيق: محمد شعباني، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، المغرب، ١٤١٠هـ.

١٠٥- البرهان في علوم القرآن: لمحمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

١٠٦- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: لمحمد بن يعقوب الفيروزابادى، تحقيق: محمد علي النجار، الناشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ.

١٠٧- البصائر والذخائر: لعلي بن محمد بن العباس، أبي حيان التوحيدي، تحقيق: وداد القاضي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٠٨- بغية الطلب في تاريخ حلب: لعمر بن أحمد بن هبة الله، ابن العديم، تحقيق: سهيل زكار، الناشر: دار الفكر.

١٠٩- بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: موسى الدويش، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥هـ.

١١٠- البلاغة العربية: لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني، الناشر: دار القلم، دمشق،

الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

١١١- بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: لفاضل صالح السامرائي، الناشر: شركة العاتك لصناعة الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١١٢- بيان المعاني: لعبد القادر بن ملا حويش السيد محمود آل غازي العاني، الناشر: مطبعة الترقي، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٨٢هـ - ١٩٦٥م.

١١٣- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

١١٤- البيان في مذهب الإمام الشافعي: ليحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني، تحقيق: قاسم محمد النوري، الناشر: دار المنهاج، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ- ٢٠٠٠ م.

١١٥- البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة: لمحمد بن أحمد بن رشد، أبي الوليد، تحقيق: محمد حجي وآخرون، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .

١١٦- تاج العروس من جواهر القاموس: لمحمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الملقب بمرتضى الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.

١١٧- تاريخ أصبهان (أخبار أصبهان): لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ-١٩٩٠م.

١١٨- تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك): لمحمد بن جرير، أبي جعفر الطبري، ومعه (صلة تاريخ الطبري): لعريب بن سعد القرطبي، الناشر: دار التراث، بيروت، الطبعة: الثانية - ١٣٨٧ هـ.

١١٩- تاريخ الطبري: لمحمد بن جرير، أبي جعفر الطبري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

١٢٠- تاريخ المدينة: لعمر بن شبة البصري، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، عام النشر: ١٣٩٩ هـ.

١٢١- تاريخ بغداد: لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، تحقيق: مصطفى عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

١٢٢- تاريخ دمشق: لعلي بن الحسن بن هبة الله، ابن عساكر، تحقيق: عمرو ابن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع عام النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

١٢٣- تأويل مشكل القرآن: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٤- التبصرة في القراءات السبع: لمكي بن أبي طالب، تحقيق: محمد غوث الندوي، الناشر: الدار السلفية، الهند، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٢٥- التبصرة: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

١٢٦- التبصرة: لعلي بن محمد الربعي، اللخمي، دراسة وتحقيق: أحمد عبد الكريم نجيب، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

١٢٧- التبيان في إعراب القرآن: لعبد الله بن الحسين العكبري، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: عيسى البابي الحلبي وشركاه.

١٢٨- التبيان في أقسام القرآن: لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

١٢٩- التبيان في تفسير غريب القرآن: لأحمد بن محمد، ابن الهائم، الناشر: دار الصحابة للتراث بطنطا، مصر، الطبعة: الأولى، ١٩٩٢م.

١٣٠- التبيان في تفسير غريب القرآن: لأحمد بن محمد، ابن الهائم، تحقيق: ضاحي عبد الباقي محمد، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

١٣١- التجريد: لأحمد بن محمد القدوري، تحقيق: مركز الدراسات الفقهية والاقتصادية (محمد أحمد سراج - علي جمعة محمد)، الناشر: دار السلام، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

١٣٢- تحبير التيسير في القراءات العشر: لمحمد بن محمد بن يوسف، ابن الجزري، تحقيق: أحمد محمد مفلح القضاة، الناشر: دار الفرقان، الأردن، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١٣٣- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن: لعبد العظيم بن عبد الواحد، ابن أبي الإصبع، تقديم وتحقيق: حفني محمد شرف، الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي.

١٣٤- تحرير ألفاظ التنبيه: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبد الغني الدقر، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٣٥- التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، من تفسير الكتاب المجيد): لمحمد الطاهر بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م.

١٣٦- التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل: لأحمد بن عمار المهدوي، تحقيق: مجموعة من الباحثين، إصدارات وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

١٣٧- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: لمحمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣٨- تحفة المودود بأحكام المولود: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٩١هـ.

١٣٩- تحقيق منيف الرتبة لمن ثبت له شريف الصحبة: لخليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي، تحقيق: عبد الرحيم محمد أحمد القشقري، الناشر: دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

١٤٠- تخريج الكشاف: لعبد الله بن يوسف الزيلعي، تحقيق: سلطان فهد الطبيشي، الناشر: دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

١٤١- التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار: لعبد الرحمن بن أحمد ابن رجب، تحقيق: بشير محمد عيون، دار النشر: مكتبة المؤيد، الطائف، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

١٤٢- تذكرة الأريب في تفسير الغريب: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: طارق فتحي السيد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ.

١٤٣- ترتيب الأمالي الخميسية: ليحيى بن الحسين الشجري، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ.

١٤٤- الترغيب والترهيب: لإسماعيل بن محمد بن الفضل الملقب بقوام السنة، تحقيق: أيمن بن صالح بن شعبان، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

١٤٥- التسعينية: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، دراسة وتحقيق: محمد بن إبراهيم العجلان، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

١٤٦- التسهيل لعلوم التنزيل: لمحمد بن أحمد، ابن جزي، تحقيق: عبد الله الخالدي،

الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ.

١٤٧- تشنيف المسامع بجمع الجوامع: لمحمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، دراسة وتحقيق: سيد عبد العزيز - عبد الله ربيع، الناشر: مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

١٤٨- تعظيم قدر الصلاة: لمحمد بن نصر المَروزي، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي، الناشر: مكتبة الدار، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ.

١٤٩- تعليق مختصر على كتاب لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد: لمحمد بن صالح العثيمين، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: مكتبة أضواء السلف، الطبعة: الثالثة ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

١٥٠- تفسير ابن أبى حاتم: لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا.

١٥١- تفسير ابن باديس ((في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير)): لعبد الحميد محمد الصنهاج، علق عليه وخرج آياته وأحاديثه: أحمد شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٥٢- تفسير ابن عرفة: لمحمد بن محمد ابن عرفة، تحقيق: جلال الأسيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨م.

١٥٣- التفسير البسيط: لعلي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، تحقيق: مجموعة محققين (أصل تحقيقه في ١٥رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد ابن سعود، ثم قامت لجنة علمية من الجامعة بسبكه وتنسيقه)، الناشر: عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ.

١٥٤- التفسير البياني للقرآن الكريم: لعائشة محمد علي عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة: السابعة.

١٥٥- تفسير الثوري: لسفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

١٥٦- تفسير الجلالين: لجلال الدين محمد بن أحمد المحلي، وجلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى.

١٥٧- تفسير الراغب الأصفهاني: للحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق الجزء

الأول: محمد عبد العزيز بسيوني، الناشر: كلية الآداب - جامعة طنطا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ. تحقيق الجزء الثاني والثالث: عادل بن علي الشِّدِي، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ. تحقيق الجزء الرابع والخامس: هند بنت محمد بن زاهد سردار، الناشر: كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٥٨- تفسير الشعراوي: لمحمد متولي الشعراوي، الناشر: مطابع أخبار اليوم سنة ١٩٩١م.

١٥٩- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): لمحمد رشيد بن علي رضا، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م.

١٦٠- تفسير القرآن العزيز: لمحمد بن عبد الله بن عيسى، ابن أبي زمنين، تحقيق: حسين ابن عكاشة ومحمد بن مصطفى الكنز، الناشر: الفاروق الحديثة، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

١٦١- تفسير القرآن العظيم: لابن المنذر، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩ هـ.

١٦٢- تفسير القرآن العظيم: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ.

١٦٣- تفسير القرآن الكريم - الفاتحة والبقرة: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٦٤- تفسير القرآن الكريم - سورة آل عمران: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

١٦٥- تفسير القرآن الكريم - سورة النور: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٦٦- تفسير القرآن الكريم- جزء عم: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

١٦٧- تفسير القرآن الكريم- سورة الأحزاب: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٦٨- تفسير القرآن الكريم- سورة الحديد: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ.

١٦٩- تفسير القرآن الكريم- سورة الروم: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٠- تفسير القرآن الكريم- سورة الزمر: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧١- تفسير القرآن الكريم- سورة السجدة: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٢- تفسير القرآن الكريم- سورة الشعراء: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٧٣- تفسير القرآن الكريم- سورة الشورى: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ.

١٧٤- تفسير القرآن الكريم- سورة العنكبوت: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٥- تفسير القرآن الكريم- سورة الفرقان: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

١٧٦- تفسير القرآن الكريم- سورة القصص: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٧- تفسير القرآن الكريم- سورة النساء: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ.

١٧٨- تفسير القرآن الكريم- سورة النمل: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٧٩- تفسير القرآن الكريم- سورة سبأ: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٨٠- تفسير القرآن الكريم- سورة غافر: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ.

١٨١- تفسير القرآن الكريم- سورة فاطر: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة

الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٨٢- تفسير القرآن الكريم- سورة فصلت: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ.

١٨٣- تفسير القرآن الكريم- سورة لقمان: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ ابن عثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦ هـ.

١٨٤- تفسير القرآن الكريم- سورة يس: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ.

١٨٥- تفسير القرآن: لمنصور بن محمد السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم، الناشر: دار الوطن، الرياض، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

١٨٦- التفسير القرآني للقرآن: لعبد الكريم يونس الخطيب، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة.

١٨٧- تفسير الماتريدي (تأويلات أهل السنة): لمحمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، تحقيق: مجدي باسلوم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

١٨٨- تفسير المراغي: لأحمد بن مصطفى المراغي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م.

١٨٩- التفسير المظهري: للمظهري، محمد ثناء الله، تحقيق: غلام نبي التونسي، الناشر: مكتبة الرشدية، الباكستان، الطبعة: ١٤١٢ هـ.

١٩٠- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج: لوهبة بن مصطفى الزحيلي، الناشر: دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤١٨ هـ.

١٩١- تفسير الموطأ: لعبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الأنصاري، أبو المطرف القَنَازِعي، حققه وقدم له وخرج نصوصه: عامر حسن صبري، الناشر: دار النوادر - بتمويل وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

١٩٢- التفسير الوسيط للقرآن الكريم: لمحمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧م- ١٩٩٨م.

١٩٣- تفسير آيات أَشكلت على كثير من العلماء: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق:

عبد العزيز بن محمد الخليفة، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

١٩٤- تفسير آيات من القرآن الكريم (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الخامس): لمحمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجد، تحقيق: محمد بلتاجي، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

١٩٥- تفسير سورة النور: لمحمد الأمين الشنقيطي، الناشر: دار المجتمع، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

١٩٦- تفسير عبد الرزاق: لعبد الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني، تحقيق: محمود محمد عبده، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

١٩٧- تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم: لمحمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، تحقيق: زبيدة محمد سعيد عبد العزيز، الناشر: مكتبة السنة، القاهرة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٩٨- تفسير مقاتل بن سليمان: لمقاتل بن سليمان، أبي الحسن البلخى، تحقيق: عبد الله محمود شحاته، الناشر: دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ.

١٩٩- تفسير يحيى بن سلام: ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، تقديم وتحقيق: هند شلبي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.

٢٠٠- تقريب التدمرية: لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٢٠١- تقريب الوصول إلى علم الأصول (مطبوع مع: الإشارة في أصول الفقه): لمحمد ابن جزي الكلبي، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٢٠٢- التقييد الكبير في تفسير كتاب الله المجيد: لأحمد بن محمد البسيلي التونسي، الناشر: كلية أصول الدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٢٠٣- تلخيص العلل المتناهية: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: ياسر إبراهيم محمد، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ه

٢٠٤- تلخيص كتاب الاستغاثة (الرد على البكري): لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد علي عجال، الناشر: مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٢٠٥- تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد (شرح التسهيل): لمحمد بن يوسف، ناظر الجيش، دراسة وتحقيق: علي محمد فاخر وآخرين، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ.

٢٠٦- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد: ليوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبد الكبير البكري، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، الطبعة: الأولى، ١٣٨٧هـ.

٢٠٧- التنبيه على أوهام أبي علي في أماليه: لعبد الله بن عبد العزيز البكري، تحقيق: دار الكتب والوثائق القومية - مركز تحقيق التراث، الناشر: مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة: الثانية ٢٠٠٠ م.

٢٠٨- تهذيب الآثار (الجزء المفقود): لمحمد بن جرير، أبي جعفر الطبري، تحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٠٩- تهذيب الأسماء واللغات: ليحيى بن شرف النووي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢١٠- تهذيب اللغة: لمحمد بن أحمد بن الأزهري، أبي منصور، تحقيق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠١م.

٢١١- توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم: لأحمد بن إبراهيم بن حمد، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٦هـ.

٢١٢- التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق وتذكرة أولي الألباب في طريقة الشيخ محمد بن عبد الوهاب: لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، الناشر: دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ -١٩٨٤م.

٢١٣- التوضيح لشرح الجامع الصحيح: لعمر بن علي ابن الملقن، تحقيق: خالد الرباط وجمعة فتحي، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، ١٤٢٩هـ.

٢١٤- توضيح مقاصد العقيدة الواسطية: لعبد الرحمن بن ناصر البراك، الناشر: دار التدمرية، الطبعة: الثالثة، ١٤٣٢ هـ.

٢١٥- التوقيف على مهمات التعاريف: لمحمد المدعو بعبد الرؤوف ابن تاج العارفين المناوي، الناشر: عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٢١٦- التيجان في ملوك حمير: لعبد الملك بن هشام الحميري المعافري، تحقيق: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، الناشر: مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، الجمهورية العربية اليمنية، الطبعة: الأولى، ١٣٤٧ هـ.

٢١٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنَّان: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢١٨- تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢١٩- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري): لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي - بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٠- جامع البيان عن تأويل آي القرآن (تفسير الطبري): لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، محمود محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٢١- جامع الرسائل: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: دار العطاء، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٢- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم: لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: السابعة: ١٤٢٢هـ.

٢٢٣- جامع المسائل: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد عزير شمس، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٤- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري): لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٢٥- جامع بيان العلم وفضله: ليوسف بن عبد الله، ابن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

٢٢٦- الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي): لمحمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ.

٢٢٧- جزء في تفسير الباقيات الصالحات: لخليل بن كيكلدي العلائي، تحقيق: بدر الزمان محمد شفيع النيالي، الناشر: مكتبة الإيمان، المدينة المنورة.

٢٢٨- جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار العروبة، الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ.

٢٢٩- جلباب المرأة المسلمة: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار السلام للنشر والتوزيع، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢ م.

٢٣٠- جمال القراء وكمال الإقراء: لعلي بن محمد بن الشافعي، دراسة وتحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي (أصل الكتاب رسالة دكتوراة)، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٣١- الجمل في النحو: للخليل بن أحمد بن عمرو الفراهيدي، تحقيق: فخر الدين قباوة، الطبعة: الخامسة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٣٢- جمهرة الأمثال: للحسن بن عبد الله العسكري، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٢٣٣- جمهرة اللغة: لمحمد بن الحسن بن دُرَيد الأزدي، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٨٧م.

٢٣٤- جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر: جمعها وقرأها وقدم لها: عادل سليمان جمال، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.

٢٣٥- الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: مجموعة محققين، الناشر: دار العاصمة، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ.

٢٣٦- الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية،

الناشر: دار المعرفة، ١٤١٨هـ.

٢٣٧- الجواهر الحسان في تفسير القرآن: لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ.

٢٣٨- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة.

٢٣٩- حاشية السِّندي على سنن النسائي: لمحمد بن عبد الهادي، نور الدين السندي، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٢٤٠- حاشية السندي على مسند الإمام أحمد بن حنبل: لمحمد بن عبد الهادي السندي، تحقيق: طارق عوض الله، الناشر: دار المأثور للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣١ه - ٢٠١٠ م.

٢٤١- حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي (عناية القاضى وكفاية الراضى على تفسير البيضاوي): لأحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، الناشر: دار صادر، بيروت.

٢٤٢- حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي: لمحمد ابن مصلح الدين بن مصطفى، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢٤٣- حاشيتا القونوي وابن التمجيد على البيضاوي: لإسماعيل بن محمد ومصلح الدين بن إبراهيم الرومي المحقق: عبد الله محمود مُحَمَّد عمر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٢٤٤- الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي: لعلي بن محمد بن محمد، الماوردي، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٩ م.

٢٤٥- حجة القراءات: لعبد الرحمن بن محمد ابن زنجلة، تحقيق: سعيد الأفغاني، الناشر: دار الرسالة.

٢٤٦- الحجة في القراءات السبع: للحسين بن أحمد بن خالويه، تحقيق: عبد العال سالم مكرم، الناشر: دار الشروق، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠١هـ.

٢٤٧- الحجة في بيان المحجة: لقَوَّام السنة أبي القاسم الأصبهاني، تحقيق: محمد بن ربيع المدخلي، ومحمد أبو رحيم، الناشر: دار الراية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٢٤٨- الحجة للقراء السبعة: للحسن بن أحمد بن عبد الغفار، تحقيق: بدر الدين قهوجي وبشير جويجابي، راجعه ودققه: عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق ، الطبعة: الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م.

٢٤٩- حراسة الفضيلة: لبكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الحادية عشر، ١٤٢٦هـ.

٢٥٠- حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر: لشيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة، أبي الحسن القفطي، المعروف بابن الحاج القناوي، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٢٥١- حسن التنبه لما ورد في التشبه: لمحمد بن محمد الغزي، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

٢٥٢- الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بالسيف بين يدي الساعة: لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الناشر: دار المأمون، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٩٩٠م.

٢٥٣- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني، الناشر: السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢٥٤- حلية الأولياء: لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٥هـ.

٢٥٥- حماسة الخالديين (الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين): لمحمد بن هاشم الخالدي، وسعيد بن هاشم الخالدي، تحقيق: محمد علي دقة، الناشر: وزارة الثقافة، الجمهورية العربية السورية، عام النشر: ١٩٩٥م.

٢٥٦- حياة الحيوان الكبرى: لمحمد بن موسى بن عيسى، أبي البقاء الدميري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ.

٢٥٧- الحيوان: لعمرو بن بحر الجاحظ، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ.

٢٥٨- خلق أفعال العباد: لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، الناشر: دار المعارف السعودية، الرياض.

٢٥٩- خلق الإنسان بين الطب والقرآن: لمحمد علي البار، الناشر: الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٦٠- الدُّر المصون في علوم الكتاب المكنون: لأحمد بن يوسف، السمين الحلبي، تحقيق: أحمد محمد الخراط، الناشر: دار القلم، دمشق.

٢٦١- الدُّر المنثور: لعبد الرحمن بن أبي بكر السُّيوطي، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٢٦٢- درء تعارض العقل والنقل (أو: موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول): لأحمد ابن عبد الحليم، ابن تيمية، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧ هـ.

٢٦٣- الدراري المضية: لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٢٦٤- دراسات لأسلوب القرآن الكريم: لمحمد عبد الخالق عضيمة، تصدير: محمود محمد شاكر، الناشر: دار الحديث، القاهرة، .

٢٦٥- الدراية في تخريج أحاديث الهداية: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: مكتبة الفيصلية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

٢٦٦- الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية: لعبد الرحمن ابن ناصر سعدي، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٢٦٧- درة التنزيل وغرة التأويل: لمحمد بن عبد الله الأصبهاني المعروف بالخطيب الإسكافي، دراسة وتحقيق وتعليق: محمد مصطفى آيدين، الناشر: جامعة أم القرى، وزارة التعليم العالي سلسلة الرسائل العلمية الموصى بها، معهد البحوث العلمية مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٢٦٨- درج الدرر في تفسير الآي والسور: لعبد القاهر بن عبد الرحمن، الجرجاني، دراسة وتحقيق: (الفاتحة والبقرة) وليد بن أحمد بن صالح الحسين، (وشاركه في بقية الأجزاء): إياد عبد اللطيف القيسي، الناشر: مجلة الحكمة، بريطانيا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

٢٦٩- الدرر السنية في الأجوبة النجدية: جمعه عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الطبعة: السادسة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٢٧٠- دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب: لمحمد الأمين بن محمد المختار

الشنقيطي، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، توزيع: مكتبة الخراز، جدة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٢٧١- دلائل النبوة: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، دار الريان للتراث القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٢٧٢- دليل البلاغة القرآنية - سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران: لمحمد بن سعد الدبل، الناشر: بدون، الطبعة: الثانية، ١٤٣١هـ.

٢٧٣- ديوان الإمام الشافعي: تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، الطبعة: الثانية - ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٢٧٤- ديوان العرجي: جمعه وحققه وشرحه: سجيع جميل الجبيلي الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٨م.

٢٧٥- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر: لعبد الرحمن بن محمد، ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٢٧٦- ديوان المتنبي: لأحمد بن حسين، أبي الطيب المتنبي، الناشر: دار بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٧٧- ديوان النمر بن تولب العكلي: جمع وشرح وتحقيق: محمد نبيل طريفي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٠م.

٢٧٨- ديوان امرئ القيس: لامرئ القيس بن حجر الكندي، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٢٧٩- ديوان زهير بن أبي سلمى: شرحه وقدم له: الأستاذ علي حسن فاعور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٢٨٠- الذخيرة: لأحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، القرافي، تحقيق: جزء (١، ٨، ١٣): محمد حجي جزء (٢، ٦): سعيد أعراب جزء (٣ - ٥، ٧، ٩ - ١٢): محمد بو خبزة، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤م.

٢٨١- الذريعة إلى مكارم الشريعة: للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى، تحقيق: أبو اليزيد أبو زيد العجمي، الناشر: دار السلام، القاهرة، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٢٨٢- ذم الهوى: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: مصطفى عبد الواحد مراجعة: محمد الغزالي .

٢٨٣- ذيل طبقات الحنابلة: لعبد الرحمن بن أحمد بن رجب، تحقيق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

٢٨٤- الرحلة في طلب الحديث: لأحمد بن علي بن ثابت، أبي بكر الخطيب البغدادي، تحقيق: نور الدين عتر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٣٩٥هـ.

٢٨٥- الرد على الجهمية والزنادقة: لأحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين، الناشر: دار الثبات للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى.

٢٨٦- الرد على الجهمية: لعثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٢٨٧- الرد على الشاذلي في حزبيه، وما صنفه في آداب الطريق: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.

٢٨٨- الرد على المنطقيين: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٢٨٩- الردود والنقود شرح مختصر ابن الحاجب: لمحمد بن محمود بن أحمد البابرتى، تحقيق: (جـ ١) ضيف الله بن صالح بن عون العمرى - (جـ ٢) ترحيب بن ربيعان الدوسري، الناشر: مكتبة الرشد ناشرون، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

٢٩٠- رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله بن محمد المديفر، الناشر: مطابع الشرق الأوسط، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٢٩١- الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، الناشر: مطبعة المدني، المؤسسة السعودية، القاهرة، مصر، الطبعة: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٢٩٢- الرسالة التبوكية (زاد المهاجر إلى ربه): لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد جميل غازي، الناشر: مكتبة المدني، جدة.

٢٩٣- الرسالة القشيرية: لعبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق: عبد الحليم محمود، محمود بن الشريف، الناشر: دار المعارف، القاهرة.

٢٩٤- رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب: لعلي بن إسماعيل، أبي الحسن الأشعري، تحقيق: عبد الله شاكر محمد الجنيدي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: ١٤١٣هـ.

٢٩٥- الرقة والبكاء: لعبد الله بن محمد، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد خير رمضان يوسف، الناشر: دار ابن حزم، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

٢٩٦- رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز: لعبد الرازق بن رزق الله الرسعني، دراسة وتحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، الناشر: مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

٢٩٧- روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي): لعبد الرحمن ابن أحمد ابن رجب، جمع وترتيب: طارق بن عوض الله بن محمد، الناشر: دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٩٨- روح البيان: لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٢٩٩- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: لمحمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٣٠٠- الرُّوح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدَّلائل من الكتاب والسُّنة: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٠١- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: لعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، تحقيق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٣٠٢- الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صلَّى اللَّه عليه وسلَّم (وعليه حواشٍ لجماعةٍ من العلماء منهم الأمير الصنعاني): لمحمد بن إبراهيم، ابن الوزير، اعتنى به: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.

٣٠٣- الروض المعطار في خبر الأقطار: لمحمد بن عبد الله الحِميرى، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٨٠م.

٣٠٤- روضة الطالبين وعمدة المفتين: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: زهير الشاويش،

الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق، عمان، الطبعة: الثالثة، ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٣٠٥- روضة المحبين ونزهة المشتاقين: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٠٦- رياض الصالحين: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٣٠٧- رياض الصالحين: ليحيى بن شرف النووي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٤هـ.

٣٠٨- زاد المسير في علم التفسير: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٠٩- زاد المعاد في هدي خير العباد: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون: ١٤١٥هـ.

٣١٠- الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي: لمحمد بن أحمد بن الأزهري، تحقيق: مسعد عبد الحميد السعدني، الناشر: دار الطلائع.

٣١١- الزاهر في معاني كلمات الناس: لمحمد بن القاسم، أبي بكر الأنباري، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

٣١٢- الزهد والورع والعبادة: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، تحقيق: حماد سلامة ومحمد عويضة، الناشر: مكتبة المنار، الأردن، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣١٣- الزهد: لأحمد بن محمد بن حنبل، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٣١٤- الزهر النضر في حال الخضر: لأحمد بن علي، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: صلاح مقبول أحمد، الناشر: مجمع البحوث الإسلامية - جوغابائي نيودلهي، الهند، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣١٥- زهرة التفاسير: لمحمد بن أحمد بن مصطفى أبو زهرة، الناشر: دار الفكر العربي.

٣١٦- سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد: لمحمد بن يوسف الصالحي الشامي، تحقيق وتعليق: عادل أحمد

عبد الموجود، وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

٣١٧- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير: لمحمد ابن أحمد الخطيب الشربيني، الناشر: مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة، ١٢٨٥هـ.

٣١٨- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى.

٣١٩- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى.

٣٢٠- السنة: لأبي بكر ابن أبي عاصم، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ.

٣٢١- سنن ابن ماجه: لمحمد بن يزيد، ابن ماجه القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٣٢٢- سنن أبي داود: لسليمان بن الأشعث، أبي داود السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: دار الفكر.

٣٢٣- سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد بن محمد شاكر، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: بدون، بدون

٣٢٤- سنن الترمذي: لمحمد بن عيسى، أبي عيسى الترمذي ، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٢٥- سنن الدارقطني: لعلي بن عمر الدارقطني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٣٢٦- سنن الدارقطني: لعلي بن عمر الدارقطني، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبدالموجود، الناشر: دار المعرفة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٢٧- سنن الدارقطني: لعلي بن عمر، أبي الحسن الدارقطني، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: بدون، ١٣٨٦هـ.

٣٢٨- سنن الدارمي: لعبد الله بن عبدالرحمن، أبي محمد الدارمي، تحقيق: فواز أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣٢٩- السنن الصغير: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: جامعة الدراسات الإسلامية، كراتشي، باكستان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٣٠- السنن الكبرى: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، الناشر: مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند ببلدة حيدر آباد، الطبعة: الأولى، ١٣٤٤هـ.

٣٣١- السنن الكبرى: لأحمد بن شعيب، أبي عبد الرحمن النسائي، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٣٣٢- سنن النسائي: لأحمد بن شعيب، أبي عبدالرحمن النسائي، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٣٣٣- سنن سعيد بن منصور: لسعيد بن منصور، أبي عثمان، تحقيق: سعد بن عبد الله بن عبد العزيز آل حميد، الناشر: دار العصيمي، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٣٤- سير أعلام النبلاء: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م.

٣٣٥- سيرة ابن إسحاق: لمحمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق: محمد حميد الله، الناشر: معهد الدراسات والأبحاث للتعريف.

٣٣٦- السيرة النبوية: لعبد الملك بن هشام المعافري، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الثانية، ١٣٧٥هـ، ١٩٥٥م.

٣٣٧- السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمود إبراهيم زايد، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٣٣٨- شجرة المعارف والأحوال وصالح الأعمال: لعز الدين بن عبد السلام السلمي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م - ١٤٢٤هـ.

٣٣٩- شرح (مسائل الجاهلية لمحمد بن عبد الوهاب): لصالح بن فوزان ابن عبد الله الفوزان، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٥م.

٣٤٠- شرح ابن الناظم على ألفية ابن مالك: لمحمد ابن الإمام جمال الدين محمد

ابن مالك، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م.

٣٤١- شرح أسماء الله الحسنى: لعبد السلام بن عبد الرحمن الإشبيلي، دار الكتب العلمية.

٣٤٢- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة: لهبة الله بن الحسن اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، الناشر: دار طيبة، السعودية، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣٤٣- شرح الأربعين النووية: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر.

٣٤٤- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: لعلي بن محمد بن عيسى، نور الدين الأُشْمُوني، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨مـ.

٣٤٥- شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو: لخالد بن عبد الله الجرجاوي الأزهري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م.

٣٤٦- شرح السنة: للحسين بن مسعود بن محمد البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٤٧- شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن): للحسين بن عبد الله الطيبي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٣٤٨- شرح العقيدة الأصفهانية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: حسين محمد مخلوف، الناشر: دار الكتب الإسلامية.

٣٤٩- شرح العقيدة الأصفهانية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، - ١٤٢٥هـ.

٣٥٠- شرح العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية): لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ.

٣٥١- شرح العقيدة الطحاوية: لمحمد بن علاء الدين علي، ابن أبي العز، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعبد الله بن المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: العاشرة،

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٣٥٢- شرح العقيدة الواسطية: لمحمد بن صالح العثيمين، تحقيق: سعد فواز الصميل، الناشر: دار ابن الجوزي، الرياض، الطبعة: الخامسة: ١٤١٩هـ.

٣٥٣- شرح العقيدة الواسطية: لمحمد خليل هراس، تعليق: محمد بن صالح بن عثيمين، تحقيق: علوي بن عبد القادر السقاف، الناشر: الدرر السنية، الظهران، الطبعة: الثامنة، ١٤٣٦هـ.

٣٥٤- شرح العمدة في بيان مناسك الحج والعمرة: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، تحقيق: صالح بن محمد الحسن، الناشر: مكتبة الحرمين، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

٣٥٥- شرح الكوكب المنير: لمحمد بن أحمد الفتوحي، ابن النجار، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، الناشر: مكتبة العبيكان، الطبعة: الثانية ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ م.

٣٥٦- شرح الواحدي لديوان المتنبي: تحقيق: ياسين الأيوبي وقصي الحسين، الناشر: دار الرائد العربي، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٣٥٧- شرح تسهيل الفوائد: لمحمد بن عبد الله، ابن مالك، تحقيق: عبد الرحمن السيد، محمد بدوي المختون، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٣٥٨- شرح ثلاثة الأصول: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الثريا للنشر، الطبعة: الرابعة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

٣٥٩- شرح ديوان الحماسة: لأحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي، تحقيق: غريد الشيخ وضع فهارسه العامة: إبراهيم شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

٣٦٠- شرح ديوان المتنبي: لعبد الرحمن البرقوقي، الناشر: دار الكتاب العربي، الطبعة: الأولى، ١٩٨٦م.

٣٦١- شرح رياض الصالحين: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦ هـ.

٣٦٢- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: لعبد الله بن يوسف بن أحمد، جمال الدين، ابن هشام، تحقيق: عبد الغني الدقر، الناشر: الشركة المتحدة للتوزيع، سوريا.

٣٦٣- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب: لمحمد بن عبد المنعم الجوجري، تحقيق: نواف بن جزاء الحارثي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٤م.

٣٦٤- شرح صحيح البخارى: لعلي بن خلف بن عبد الملك، ابن بطال، تحقيق: ياسر ابن إبراهيم، الناشر: مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٣٦٥- شرح عمدة الفقه (من أول كتاب الصلاة إلى آخر باب آداب المشي إلى الصلاة): لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: خالد بن علي بن محمد المشيقح، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٣٦٦- شرح عمدة الفقه (من كتاب الطهارة والحج): لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: سعود صالح العطيشان، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

٣٦٧- شرح قواعد الإعراب: لمحمد بن مصطفى القُوجَوي، شيخ زاده، دراسة وتحقيق: إسماعيل إسماعيل مروة، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

٣٦٨- شرح كتاب سيبويه: للحسن بن عبد الله السيرافي، تحقيق: أحمد حسن مهدلي، وعلي سيد علي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٨ م.

٣٦٩- شرح كفاية المتحفظ (تحرير الرواية في تقرير الكفاية): لمحمد بن الطيب الفاسي، تحقيق: علي حسين البواب، الناشر: دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٣٧٠- شرح مختصر التحرير: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: مؤسسة الشيخ محمد ابن صالح العثيمين الخيرية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

٣٧١- شرح مختصر الروضة: لسليمان بن عبد القوي الطوفي الصرصري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٧٢- شرح مختصر الطحاوي: لأحمد بن علي، أبي بكر الرازي، تحقيق: عصمت الله عنايت الله محمد، ومحمد عبيد الله خان، وزينب محمد حسن فلاتة، أعد الكتاب للطباعة وراجعه وصححه: سائد بكداش، الناشر: دار البشائر الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.

٣٧٣- شرح مراقي السعود المسمى (نثر الورود): لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع .

٣٧٤- شرح مشكل الآثار: لأحمد بن محمد بن سلامة، أبي جعفر الطحاوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٤٩٤ م.

٣٧٥- شرح مشكل الوسيط: لعثمان بن عبد الرحمن، ابن الصلاح، تحقيق: عبد المنعم خليفة أحمد بلال، الناشر: دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م.

٣٧٦- شرح مصابيح السنة: لمحمد بن عز الدين عبد اللطيف، ابن الملك، تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب، الناشر: إدارة الثقافة الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٣٧٧- شرح معاني الآثار: لأحمد بن محمد بن سلامة، أبي جعفر الطحاوي، تحقيق: محمد زهري النجار ومحمد سيد جاد الحق، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٣٧٨- شرح مقدمة التفسير: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

٣٧٩- شرح نظم الورقات: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ.

٣٨٠- شعب الإيمان: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

٣٨١- شعب الإيمان: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: عبد العلي عبد الحميد حامد، وأشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٣٨٢- الشعر والشعراء: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، الناشر: دار الحديث، القاهرة عام النشر: ١٤٢٣ هـ.

٣٨٣- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض بن موسى (مذيلًا بالحاشية المسماة مزيل الخفاء عن ألفاظ الشفاء) لأحمد بن محمد الشمنى، الناشر: دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع: ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

٣٨٤- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، الناشر: دار المعرفة، بيروت : ١٣٩٨هـ.

٣٨٥- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم: لنشوان بن سعيد الحميرى، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري ومطهر بن علي الإرياني ويوسف محمد عبد الله، الناشر: دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، سورية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.

٣٨٦- الصارم المسلول على شاتم الرسول: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية.

٣٨٧- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: لإسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

٣٨٨- صحيح ابن حبان: لمحمد بن حبان بن أحمد، أبي حاتم، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ.

٣٨٩- صحيح ابن خزيمة: لمحمد بن إسحاق بن خزيمة، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: بدون، ١٣٩٠هـ.

٣٩٠- صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق، الطبعة: الأولى ١٤١٤هـ.

٣٩١- صحيح البخاري: لمحمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ.

٣٩٢- صحيح الترغيب والترهيب: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ.

٣٩٣- صحيح الجامع الصغير: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ.

٣٩٤- الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة دار القدس، صنعاء، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٣٩٥- الصحيح المسند من أسباب النزول: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: دار ابن حزم، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ.

٣٩٦- الصحيح المسند من أسباب النزول: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الرابعة ١٤٠٨هـ.

٣٩٧- الصحيح المسند من دلائل النبوة: لمقبل بن هادي الوادعي، الناشر: مكتبة صنعاء الأثرية، الطبعة: الثانية ١٤٢٤هـ.

٣٩٨- صحيح سنن ابن ماجه: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة: الأولى، ١٤٠٧هـ.

٣٩٩- صحيح سنن أبي داود: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤٠٠- صحيح سنن الترمذي: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٠١- صحيح سنن النسائي: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٤٠٢- صحيح مسلم: لمسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٤هـ.

٤٠٣- صحيح موارد الظمآن: لمحمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصميعي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٠٤- صفات الله عزَّ وجلَّ الواردة في الكتاب والسُّنة: لعَلَوي بن عبد القادر السَّقَّاف، الناشر: الدرر السنية، الظهران، الطبعة: الرابعة، ١٤٣٢هـ.

٤٠٥- صفة جزيرة العرب: للحسن بن أحمد، ابن الحائك الهمداني، الناشر: مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٤ م.

٤٠٦- الصَّفدية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: مكتية ابن تيمية، مصر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٤٠٧- صفوة البيان لمعاني القرآن: لحسنين محمد مخلوف، الناشر: لجنة الاحتفالات بمقدم القرن الخامس عشر الهجري، الإمارات العربية المتحدة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ ه- ١٩٨٢م.

٤٠٨- الصلاة وأحكام تاركها: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: مكتبة الثقافة،

المدينة المنورة.

٤٠٩- الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطِّلة: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤١٠- صيد الخاطر: لعبد الرحمن بن علي بن محمد، أبي الفرج ابن الجوزي، بعناية: حسن المساحي سويدان، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٤١١- ضعيف الأدب المفرد: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: بدون، الناشر: دار الصديق، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٤١٢- ضعيف الترغيب والترهيب: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: بدون، الناشر: مكتبة المعارف، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

٤١٣- ضعيف الجامع الصغير: لمحمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ.

٤١٤- ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة: لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الرابعة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٤١٥- الضياء اللامع من الخطب الجوامع: لمحمد بن صالح العثيمين، الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٤١٦- طبقات الشافعية الكبرى: لعبد الوهاب بن علي، تاج الدين السبكي، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤١٣هـ.

٤١٧- الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد بن منيع، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.

٤١٨- الطبقات الكبرى: لمحمد بن سعد، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٦٨م.

٤١٩- الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز: ليحيى بن حمزة، المؤيد بالله، الناشر: المكتبة العنصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤٢٠- طرح التثريب في شرح التقريب: لعبد الرحيم بن الحسين العراقي - أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم، أبو زرعة ولي الدين، الطبعة المصرية القديمة، وصورتها دور عدة منها (دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي).

٤٢١- طريق الهجرتين وباب السعادتين: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار السلفية، القاهرة، الطبعة: الثانية ١٣٩٤هـ.

٤٢٢- عارضة الأحوذي: لمحمد بن عبدالله، ابن العربي، تحقيق: صدقي جميل العطار، الناشر: دار الفكر، تاريخ النشر: ١٤١٥هـ

٤٢٣- عالم الملائكة الأبرار: لعمر بن سليمان الأشقر، الناشر: مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م.

٤٢٤- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٤٢٥- العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، تحقيق: خالد بن عثمان السبت، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ.

٤٢٦- العرش: لمحمد بن أحمد بن عثمان، الذهبي، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

٤٢٧- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح: لأحمد بن علي، بهاء الدين السبكي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٤٢٨- العظمة: لعبد الله بن محمد، أبي الشيخ الأصبهاني، تحقيق: رضاء الله ابن محمد إدريس المباركفوري، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٢٩- العقود: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، وناصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة السنة المحمدية، الطبعة: الأولى، ١٣٨٦هـ.

٤٣٠- العلل المتناهية: لعبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: إرشاد الحق الأثري، الناشر: إدارة ترجمان السنة.

٤٣١- عمدة التفسير: لأحمد بن محمد شاكر، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثانية، ١٤٢٦هـ.

٤٣٢- عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ: لأحمد بن يوسف بن عبد الدائم، السمين الحلبي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٤٣٣- عمدة القاري شرح صحيح البخاري: لمحمود بن أحمد العيني، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٣٤- العنوان في القراءات السبع: لإسماعيل بن خلف بن سعيد المقرئ السرقسطي، تحقيق: زهير زاهد وخليل العطية، الناشر: عالم الكتب، بيروت عام النشر: ١٤٠٥هـ.

٤٣٥- العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم: لمحمد بن إبراهيم، ابن الوزير، حققه وضبط نصه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٤٣٦- العيال: لعبد الله بن محمد، ابن أبي الدنيا، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٣٧- عيون الأخبار: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت: ١٤١٨هـ.

٤٣٨- غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني: لأحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني، دراسة وتحقيق: محمد مصطفي كوكصو، الناشر: جامعة صاقريا كلية العلوم الاجتماعية، تركيا: ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٤٣٩- غرائب التفسير وعجائب التأويل: لمحمود بن حمزة بن نصر الكرماني، الناشر: دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة.

٤٤٠- غريب القرآن المسمى بنزهة القلوب: لمحمد بن عُزير السجستاني، تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، الناشر: دار قتيبة، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

٤٤١- غريب القرآن: لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: أحمد صقر، الناشر: دار الكتب العلمية، : ١٣٩٨ هـ.

٤٤٢- الغريبين في القرآن والحديث: لأحمد بن محمد الهروي، تحقيق ودراسة: أحمد فريد المزيدي، قدم له وراجعه: فتحي حجازي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٤٤٣- غوامض الأسماء المبهمة والأحاديث المسندة في القرآن: لعبد الرحمن ابن

عبد الله السهيلي، تحقيق: هيثم عياش، الناشر: دار الفكر العربي، دار الوسام، ١٩٨٨م.

٤٤٤- الفتاوى الكبرى: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، ومصطفى عبدالقادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٤٤٥- فتاوى اللجنة الدائمة - المجموعة الأولى: جمع وترتيب: أحمد بن عبد الرزاق الدويش، الناشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء - الإدارة العامة للطبع، الرياض.

٤٤٦- فتاوى نور على الدرب: لعبدالعزيز بن عبد الله بن باز، الناشر: الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء- الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.

٤٤٧- فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

٤٤٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: محب الدين الخطيب، الناشر: المكتبة السلفية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٤٤٩- فتح الباري: لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: طارق بن عوض الله، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤٢٢هـ.

٤٥٠- فتح البيان في مقاصد القرآن: لمحمد صديق خان، تحقيق: عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، ١٤١٢هـ.

٤٥١- الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد صبحي حلاق، الناشر: مكتبة الجيل الجديد، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ.

٤٥٢- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن: لزكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي، تحقيق: محمد علي الصابوني، الناشر: دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

٤٥٣- فتح الرحمن في تفسير القرآن: لمجير الدين بن محمد العليمي، اعتنى به تحقيقًا وضبطًا وتخريجًا: نور الدين طالب، الناشر: دار النوادر (إصدارات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - إدارة الشؤون الإسلامية)، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٤٥٤- فتح الرحيم الملك العلام في علم العقائد والتوحيد والأخلاق والأحكام المستنبطة من القرآن: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي (١٣٠٧هـ ـ ١٢٧٦هـ) اعتنى به: عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، الناشر: دار الفضيلة، الجزائر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٤٥٥- الفتح القدسي في آية الكرسي: لإبراهيم بن عمر البقاعي، تحقيق: سعود بن عبد الله الفنيسان، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٥٦- فتح القدير (مطبوع مع الهداية للمرغيناني ونتائج الأفكار لقاضي زاده): لكمال الدين محمد بن عبد الواحد، ابن الهمام، الناشر: دار الفكر.

٤٥٧- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ.

٤٥٨- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار زمزم، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

٤٥٩- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: لعبد الرحمن بن حسن بن محمد ابن عبد الوهاب، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة: السابعة: ١٣٧٧هـ.

٤٦٠- فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام: لمحمد بن صالح العثيمين، تحقيق وتعليق: صبحي بن محمد رمضان، أم إسراء بنت عرفة بيومي، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م.

٤٦١- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف): لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي، مقدمة التحقيق: إياد محمد الغوج، القسم الدراسي: جميل بني عطا، المشرف العام على الإخراج العلمي للكتاب: محمد عبد الرحيم سلطان العلماء، الناشر: جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤ هـ - ٢٠١٣ م.

٤٦٢- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية (حاشية الجمل على الجلالين): لسليمان بن عمر، المعروف بالجمل، الناشر: المطبعة الشرفية العامرة، مصر، الطبعة: الأولى، سنة ١٣٠٣هـ.

٤٦٣- الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية: لمحمد بن علان الصديقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٤٦٤- الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية: لعبد القاهر بن طاهر البغدادي، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٧٧م.

٤٦٥- الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق): لأحمد بن إدريس بن عبد الرحمن، القرافي، الناشر: عالم الكتب.

٤٦٦- الفروق اللغوية: للحسن بن عبد الله ، أبي هلال العسكري، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، الناشر: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

٤٦٧- الفصل في الملل والأهواء والنحل: لأبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة.

٤٦٨- الفصول المفيدة في الواو المزيدة: لخليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي، تحقيق: حسن موسى الشاعر، الناشر: دار البشير، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٤٦٩- فضائل القرآن: لإسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: أبي إسحاق الحويني، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

٤٧٠- فضائل القرآن: للقاسم بن سلام، أبي عبيد، تحقيق: مروان العطية، ومحسن خرابة، ووفاء تقي الدين، الناشر: دار ابن كثير (دمشق، بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ-١٩٩٥م.

٤٧١- فضل قيام الليل والتهجد: لمحمد بن الحسين الآجري، تحقيق: عبد اللطيف بن محمد الجيلاني الآسفي، الناشر: دار الخضيري، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٧٢- فقه أشراط الساعة: لمحمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، الناشر: الدار العالمية للنشر والتوزيع، الطبعة: السادسة، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٤٧٣- فقه اللباس والزينة: إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية. إشراف علوي بن عبد القادر السقاف، الطبعة: الأولى. ١٤٣٨ هـ.

٤٧٤- فقه اللغة وسر العربية: لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل، أبي منصور الثعالبي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٤٧٥- الفقيه والمتفقه: لأحمد بن علي، أبي بكر الخطيب البغدادي، المحقق: عادل بن يوسف الغرازي، الناشر: دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ.

٤٧٦- فهم القرآن ومعانيه: للحارث بن أسد المحاسبي، تحقيق: حسين القوتلي، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٨هـ.

٤٧٧- الفواتح الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية: لنعمة الله بن محمود النخجواني، الشيخ علوان، الناشر: دار ركابي للنشر، الغورية، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٤٧٨- فوائد مستنبطة من سورة يوسف عليه السلام: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، اعتنى به وعلق عليه: أشرف بن عبد المقصود، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٤٧٩- الفوائد: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ.

٤٨٠- فيض القدير شرح الجامع الصغير: لعبد الرؤوف المناوي، الناشر: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦هـ.

٤٨١- القاموس المحيط: لمحمد بن يعقوب الفيروزابادى، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثامنة: ١٤٢٦هـ.

٤٨٢- القدر: لجعفر بن محمد الفريابي، تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.

٤٨٣- القرآن ونقض مطاعن الرهبان: لصلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٤٨٤- قضاء الأرب في أسئلة حلب: لعلي بن عبد الكافي، تقي الدين السبكي، تحقيق محمد عالم عبد المجيد الأفغاني المكتبة التجارية، مكة المكرمة مصطفى أحمد الباز.

٤٨٥- قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان: لأحمد بن علي القلقشندي، تحقيق: إبراهيم الإبياري، الناشر: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢ م.

٤٨٦- قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن: لمرعي بن يوسف الكرمى، تحقيق: سامي عطا حسن، الناشر: دار القرآن الكريم، الكويت.

٤٨٧- قواعد الأحكام في مصالح الأنام: لعبد العزيز بن عبد السلام، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

٤٨٨- القواعد الحسان لتفسير القرآن: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٤٨٩- قواعد العقائد: لمحمد بن محمد الغزالي، تحقيق: موسى محمد علي، الناشر: عالم الكتب، لبنان، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٤٩٠- القواعد النورانية الفقهية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٣٧٠هـ.

٤٩١- القواعد والأصول وتطبيقات التدبر: لخالد بن عثمان السبت، الناشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦م.

٤٩٢- القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع: لمحمد بن عبدالرحمن السخاوي، تحقيق: بشير محمد عيون، الناشر: مكتبة المؤيد.

٤٩٣- القول السديد شرح كتاب التوحيد: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: المرتضى الزين أحمد، الناشر: مجموعة التحف النفائس الدولية، الطبعة: الثالثة.

٤٩٤- القول المحمود في تنزيه داود (عليه السلام): لتقي الدين السبكي الشافعي، قدم لها وعلق عليها: حسام الحفناوي.

٤٩٥- القول المفيد على كتاب التوحيد: لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ.

٤٩٦- الكامل في التاريخ: لعلي بن أبي الكرم محمد، ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٩٧- الكامل في الضعفاء: لعبد الله بن عدي بن عبدالله، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ.

٤٩٨- الكامل في القراءات والأربعين الزائدة عليها: ليوسف بن علي، أبي القاسم اليشكري ، تحقيق: جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، الناشر: مؤسسة سما للتوزيع والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

٤٩٩- الكامل في اللغة والأدب: لمحمد بن يزيد، أبي العباس المبرد ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٥٠٠- كتاب التوحيد: لمحمد بن عبد الوهاب النجدي، حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: أبو مالك الرياشي أحمد بن علي بن كثنى القفيلي، الناشر: مكتبة عبد الرحمن، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

٥٠١- كتاب الصيام من شرح العمدة: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري، الناشر: دار الأنصاري، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٥٠٢- كتاب العين: للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٥٠٣- الكتاب: لعمرو بن عثمان، سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

٥٠٤- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (تفسير الزمخشري): لمحمود ابن عمرو الزمخشري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٧هـ.

٥٠٥- كشف الأسرار شرح أصول البزدوي: لعبد العزيز بن أحمد، علاء الدين البخاري، الناشر: دار الكتاب الإسلامي.

٥٠٦- كشف المشكل من حديث الصحيحين: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: علي حسين البواب، الناشر: دار الوطن، الرياض.

٥٠٧- كشف المعانى فى المتشابه من المثانى: لمحمد بن إبراهيم، بدر الدين ابن جماعة، تحقيق: عبد الجواد خلف، الناشر: دار الوفاء، المنصورة، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

٥٠٨- الكشف والبيان عن تفسير القرآن: لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، تحقيق: أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: نظير الساعدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

٥٠٩- الكفاية في علم الرواية: لأحمد بن علي بن ثابت، أبي بكر الخطيب البغدادي، تحقيق: أبي عبد الله السورقي، وإبراهيم حمدي المدني، الناشر: المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

٥١٠- الكليات: لأيوب بن موسى، أبي البقاء الكفوي، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت.

٥١١- كناشة النوادر: لعبد السلام محمد هارون، الناشر: مكتبة الخانجي، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٥١٢- الكنز الثمين في سؤالات ابن سنيد: لابن عثيمين إعداد: فهد بن عبد الله بن إبراهيم السنيد، الناشر: الدار العالمية للنشر والتوزيع.

٥١٣- الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري: لمحمد بن يوسف، شمس الدين الكرماني، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان الطبعة الأولى: ١٣٥٦هـ -

١٩٣٧م، الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٥١٤- اللامات: لعبد الرحمن بن إسحاق، أبي القاسم الزجاجي، تحقيق: مازن المبارك، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٥١٥- لباب التأويل في معاني التنزيل (تفسير الخازن): لعلي بن محمد ابن إبراهيم الخازن، تحقيق: محمد علي شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٥١٦- اللباب في علوم الكتاب: لعمر بن علي بن عادل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ.

٥١٧- لسان العرب: لمحمد بن مكرم ابن منظور، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.

٥١٨- لطائف الإشارات: لعبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، الطبعة: الثالثة.

٥١٩- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف: لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، الناشر: دار ابن حزم للطبع والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٥٢٠- لقط المرجان في أحكام الجان: لجلال الدين السيوطي، دراسة وتحقيق: مصطفى عاشور الناشر: مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.

٥٢١- لمعة الاعتقاد: لعبد الله بن أحمد، ابن قدامة، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.

٥٢٢- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية: لمحمد بن أحمد السفاريني، الناشر: مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م.

٥٢٣- مباحث التفسير: لأحمد بن محمد، بدر الدين الرازي، دراسة وتحقيق: حاتم بن عابد بن عبد الله القرشي، الناشر: كنوز إشبيليا، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٥٢٤- مباحث في إعجاز القرآن: لمصطفى مسلم، الناشر: دار القلم، دمشق، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

٥٢٥- المبسوط في القراءات العشر: لأحمد بن الحسين بن مِهْران النيسابورى، تحقيق: سبيع حمزة حاكيمي، الناشر: مجمع اللغة العربية، دمشق: ١٩٨١ م.

٥٢٦- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لنصر الله بن محمد، ابن الأثير الكاتب، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠ هـ.

٥٢٧- مجاز القرآن: معمر بن المثنى، أبي عبيدة البصري، تحقيق: محمد فواد سزگين، الناشر: مكتبة الخانجى، القاهرة، الطبعة: ١٣٨١ هـ.

٥٢٨- مجالس ثعلب: لأحمد بن يحيى ثعلب، شرح وتعليق: عبد السلام محمد هارون. النشرة الثانية، دار المعارف مصر.

٥٢٩- المجروحين: لمحمد بن حبان البستي، تحقيق: حمدي عبدالمجيد السلفي، الناشر: دار الصميعي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٣٠- مجلة المنار: مجموعة من المؤلفين، محمد رشيد بن علي رضا وغيره.

٥٣١- مجمع الأمثال: لأحمد بن محمد النيسابوري، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٥٣٢- مجمع الزوائد: لعلي بن أبي بكر الهيثمي، الناشر: مؤسسة المعارف، ١٤٠٦هـ.

٥٣٣- مجموع الفتاوى: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، اعتنى بها: أنور الباز، وعامر الجزار، الناشر: دار الوفاء، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٦هـ.

٥٣٤- مجموع الفتاوى: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، جمع وترتيب: عبد الرحمن ابن محمد بن قاسم، الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ.

٥٣٥- مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي: لعبد الرحمن بن رجب الحنبلي، تحقيق: طلعت بن فؤاد الحلواني، الناشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

٥٣٦- مجموع فتاوى ومقالات متنوعة: لعبد العزيز بن باز، جمع وإشراف: محمد بن سعد الشويعر، الناشر: دار القاسم للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى: ١٤٢٠ هـ.

٥٣٧- المجموع: ليحيى بن شرف النووي، الناشر: دار الفكر.

٥٣٨- مجموعة الرسائل والمسائل: لأحمد بن عبد الحليم، ابن تيمية، علق عليه: السيد

محمد رشيد رضا، الناشر: لجنة التراث العربي.

٥٣٩- مجموعة رسائل في التوحيد والإيمان (مطبوع ضمن مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب، الجزء الأول): لمحمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجد، تحقيق: إسماعيل بن محمد الأنصاري، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٥٤٠- محاسن التأويل: لمحمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، الناشر: دار الكتب العلميه، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٥٤١- المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: لعثمان بن جني، أبي الفتح الموصلي، الناشر: وزارة الأوقاف-المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الطبعة: ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٥٤٢- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطية): لعبد الحق ابن غالب ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٤٣- المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة: لخالد بن سليمان المزيني، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ.

٥٤٤- المحكم والمحيط الأعظم: لعلي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م.

٥٤٥- المحلى بالآثار: لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، الناشر: دار الفكر، بيروت.

٥٤٦- المحلى: لابن حزم، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الجيل.

٥٤٧- مختار الصحاح: لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر، زين الدين الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الناشر: المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

٥٤٨- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم: لمحمد ابن محمد ابن عبد الكريم ابن الموصلي، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٤٩- مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية: لمحمد بن علي البعلي، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ.

٥٥٠- مختصر فقه الصلاة: إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، الناشر: مؤسسة الدرر السنية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

٥٥١- مختصر فقه الطهارة: إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، الناشر: الدرر السنية، الظهران، الطبعة: الأولى، ١٤٣٥هـ.

٥٥٢- المختصر في تفسير القرآن الكريم: تصنيف: جماعة من علماء التفسير، إشراف: مركز تفسير للدراسات القرآنية، الطبعة: الثالثة، ١٤٣٦هـ.

٥٥٣- مختصر منهاج القاصدين: لأحمد بن عبد الرحمن، أبي العباس ابن قدامة، قدم له: الأستاذ محمد أحمد دهمان، الناشر: مكتبة دار البيان، دمشق عام النشر: ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م.

٥٥٤- المخصص: لعلي بن إسماعيل بن سيده المرسي، تحقيق: خليل إبراهم جفال، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

٥٥٥- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ.

٥٥٦- مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي): لعبد الله بن أحمد ابن محمود حافظ الدين النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي - راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م.

٥٥٧- مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة: لزغلول النجار، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٥٥٨- المذكر والمؤنث: لمحمد بن القاسم، أبي الحسن الأنباري، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة مراجعة: رمضان عبد التواب، الناشر: جمهورية مصر العربية - وزارة الأوقاف - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - لجنة إحياء التراث، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.

٥٥٩- مذكرة في أصول الفقه: لمحمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الخامسة، ٢٠٠١م.

٥٦٠- مراتب الإجماع في العبادات والمعاملات والاعتقادات: لعلي بن أحمد بن سعيد ابن حزم الظاهري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٦١- مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: لمحمد بن عمر نووي الجاوي، تحقيق: محمد أمين الصناوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٥٦٢- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: لعبد المؤمن بن عبد الحق، القطيعي، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٥٦٣- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع: لجلال الدين السيوطي، قرأه وتممه: عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر، الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦ هـ.

٥٦٤- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: لعلي بن سلطان محمد الملا الهروي القاري، الناشر: دار الفكر، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٥٦٥- المسائل البصريات: لأبي علي الفارسي، تحقيق: محمد الشاطر أحمد محمد أحمد، الناشر: مطبعة المدني، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

٥٦٦- المستدرك: لمحمد بن عبد الله، أبي عبد الله الحاكم، تحقيق: عبد السلام بن محمد ابن عمر علوش، الناشر: دار المعرفة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٢٧هـ.

٥٦٧- المستدرك: لمحمد بن عبدالله، الحاكم، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٥٦٨- مسند ابن عباس: لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة.

٥٦٩- مسند أبي عوانة: ليعقوب بن إسحاق، أبي عوانة، تحقيق: بدون، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٥٧٠- مسند أبي يعلى: لأحمد بن علي بن المثنى، أبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة: بدون، ١٤٠٤هـ.

٥٧١- مسند أحمد: لأحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ.

٥٧٢- مسند البزار: لأحمد بن عمرو بن عبد الخالق، أبي بكر البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، الناشر: مؤسسة علوم القرآن، بيروت ، مكتبة العلوم والحكم، المدينة، الطبعة: بدون، ١٤٠٩هـ.

٥٧٣- مسند الحارث: للحارث ابن أبي أسامة، تحقيق: حسين أحمد صالح الباكري، الناشر: مركز خدمة السنة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ.

٥٧٤- مسند الحميدي: لعبد الله بن الزبير، أبي بكر الحميدي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، مكتبة المتنبي، القاهرة.

٥٧٥- مسند الطيالسي: لسليمان بن داود، أبي داود الطيالسي، تحقيق: محمد عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٥٧٦- مسند عبد بن حميد: لعبد الحميد بن حميد، تحقيق: مصطفى العدوي، الناشر: دار بلنسية للنشر والتوزيع، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ.

٥٧٧- مشارق الأنوار على صحاح الآثار: للقاضي عياض بن موسى، الناشر: المكتبة العتيقة ودار التراث.

٥٧٨- مشكل إعراب القرآن: لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٥هـ.

٥٧٩- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور (المقصد الأسمى في مطابقة اسم كل سورة للمسمى): لإبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٥٨٠- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: لأحمد بن محمد بن علي الفيومي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت.

٥٨١- مصنف ابن أبي شيبة: لعبدالله بن محمد، أبي بكر بن أبي شيبة، تحقيق: محمد عوامة، الناشر: طبعة الدار السلفية الهندية القديمة.

٥٨٢- مصنف عبدالرزاق: لعبدالرزاق بن همام، أبي بكر الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

٥٨٣- المطالب العالية: لأحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق: غنيم بن عباس بن غنيم وآخر، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٥٨٤- مطالع الأنوار على صحاح الآثار: لإبراهيم بن يوسف، ابن قرقول، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة قطر، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.

٥٨٥- المطلع على ألفاظ المقنع: لمحمد بن أبي الفتح البعلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط وياسين محمود الخطيب، الناشر: مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣ م.

٥٨٦- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول: لحافظ بن أحمد ابن علي الحكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ.

٥٨٧- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي): للحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٥٨٨- معالم السنن (شرح سنن أبي داود): لحمد بن محمد الخطابي، الناشر: المطبعة العلمية، حلب، الطبعة: الأولى، ١٣٥١ هـ - ١٩٣٢م.

٥٨٩- معاني القرآن: لأبي الحسن الأخفش، تحقيق: هدى محمود قراعة، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٥٩٠- معاني القراءات: لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، الناشر: مركز البحوث في كلية الآداب- جامعة الملك سعود، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٥٩١- معاني القرآن وإعرابه: لإبراهيم بن السري بن سهل، أبي إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، الناشر: عالم الكتب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٥٩٢- معاني القرآن: لأحمد بن محمد، أبي جعفر النحاس، تحقيق: محمد علي الصابوني، الناشر: جامعة أم القرى، مكة المرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.

٥٩٣- معاني القرآن: ليحيى بن زياد الفراء، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة: الأولى.

٥٩٤- معجم (مقاييس اللغة): لأحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، ١٣٩٩هـ.

٥٩٥- معجم ابن الأعرابي: لأبي سعيد ابن الأعرابي، تحقيق: عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ.

٥٩٦- معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب): لياقوت بن عبد الله الحموي،

تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

٥٩٧- المعجم الأوسط: لسليمان بن أحمد، أبي القاسم الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبدالمحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.

٥٩٨- معجم البلدان: لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥م.

٥٩٩- معجم الصحابة: لعبد الله بن محمد، أبي القاسم البغوي، تحقيق: محمد الأمين بن محمد الجكني، الناشر: مكتبة دار البيان، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .

٦٠٠- المعجم الصغير: لسليمان بن أحمد، أبي القاسم الطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، دار عمار، عمان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٦٠١- معجم الفروق اللغوية: للحسن بن عبد الله، أبي هلال العسكري، تحقيق: بيت الله بيات، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٦٠٢- المعجم الكبير: لسليمان بن أحمد، أبي القاسم الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية، ١٩٨٣م.

٦٠٣- المعجم الوسيط: قام بإخراجه (إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وحامد عبد القادر ومحمد النجار) إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الناشر: دار الدعوة.

٦٠٤- معجم متن اللغة: لأحمد رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة، بيروت: ١٣٧٧ - ١٣٨٠هـ.

٦٠٥- المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم: لموهوب بن أحمد، أبي منصور الجواليقي، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، الناشر: مطبعة دار الكتب، الطبعة: الثانية، ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

٦٠٦- معرفة السنن والآثار: لأحمد بن الحسين، أبي بكر البيهقي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: جامعة الدراسات الإسلامية كراتشي بباكستان، دار الوعي حلب، دار قتيبة دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٦٠٧- معرفة الصحابة: لأحمد بن عبد الله، أبي نعيم الأصبهاني، تحقيق: عادل بن يوسف

العزازي، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٦٠٨- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لعبد الله بن يوسف، ابن هشام، تحقيق: مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥م.

٦٠٩- المغني: لعبد الله بن أحمد بن محمد، أبي محمد موفق الدين ابن قدامة، الناشر: مكتبة القاهرة: ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

٦١٠- مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني: لمحمد بن محمود، أبي العلاء الكرماني، دراسة وتحقيق: عبد الكريم مصطفى مدلج، تقديم: محسن عبد الحميد، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

٦١١- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): لمحمد بن عمر، فخر الدين الرازي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٠هـ.

٦١٢- مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار: لعبد العزيز بن محمد السلمان.

٦١٣- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة: لمحمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦١٤- المفردات في غريب القرآن: للحسين بن محمد، الراغب الأصفهانى، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.

٦١٥- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام: لجواد علي، الناشر: دار الساقي، الطبعة: الرابعة ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.

٦١٦- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: لأحمد بن عمر، أبي العباس القرطبي، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو وأحمد محمد السيد ويوسف علي بديوي ومحمود إبراهيم بزال، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م.

٦١٧- المقاصد الحسنة: لمحمد بن عبدالرحمن السخاوي، تحقيق: محمد عثمان الخشت، الناشر: دار الكتب العربي، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ.

٦١٨- المقتضب: لمحمد بن يزيد بن عبد الأكبر، أبي العباس المبرد، تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة، الناشر: عالم الكتب، بيروت.

٦١٩- المقدمات الممهدات: محمد بن أحمد، أبي الوليد ابن رشد، تحقيق: محمد

حجي، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

٦٢٠- المكتفى في الوقف والابتدا: لعثمان بن سعيد الداني، تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان، الناشر: دار عمار، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

٦٢١- ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: لأحمد بن إبراهيم بن الزبير، أبي جعفر الغرناطي ، وضع حواشيه: عبد الغني محمد علي الفاسي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٢٢- ملخص فقه العبادات: إعداد القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية، إشراف علوي ابن عبد القادر السقاف، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧ هـ.

٦٢٣- الملل والنحل: لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني، الناشر: مؤسسة الحلبي.

٦٢٤- المنار المنيف في الصحيح والضعيف: لمحمد بن أبي بكر، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الأولى، ١٣٩٠هـ -١٩٧٠م.

٦٢٥- منار الهدى في بيان الوقف والابتدا: لأحمد بن عبد الكريم الأشموني ومعه المقصد لتلخيص ما في المرشد لزكريا بن محمد الأنصاري، تحقيق: شريف أبو العلا العدوي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

٦٢٦- مناقب الإمام أحمد: لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٩ هـ.

٦٢٧- مناهج الجدل في القرآن الكريم: لزاهر عواض الألمعي، الطبعة: الثانية، ١٤٠٠هـ.

٦٢٨- المنتخب من غريب كلام العرب: لعلي بن الحسن الهنائي الأزدي، تحقيق: محمد ابن أحمد العمري، الناشر: جامعة أم القرى (معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

٦٢٩- المنتقى: لعبدالله بن علي بن الجارود، تحقيق: عبدالله عمر البارودي، الناشر: مؤسسة الكتاب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٦٣٠- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ.

٦٣١- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج: ليحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢ هـ.

٦٣٢- المهذب في فقة الإمام الشافعي: لإبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي، الناشر: دار الكتب العلمية.

٦٣٣- المهذب: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: ياسر إبرهيم محمد، الناشر: دار الوطن للنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦٣٤- الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري: للحسن بن بشر الآمدي: تحقيق: المجلد الأول والثاني السيد أحمد صقر، الناشر: دار المعارف، المجلد الثالث: عبد الله المحارب، الناشر: مكتبة الخانجي، الطبعة: الأولى، ١٩٩٤ م.

٦٣٥- الموافقات: لإبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، الناشر: دار ابن عفان، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ.

٦٣٦- المواهب الربانية من الآيات القرآنية: لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، المحقق: عمر بن عبد الله المقبل، الناشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢ ه- ٢٠١١ م.

٦٣٧- موجز البلاغة: لمحمد الطاهر ابن عاشور، الناشر: المطبعة التونسية نهج سوق البلاط عدد ٥٧، تونس، الطبعة: الأولى.

٦٣٨- الموسوعة القرآنية: لإبراهيم بن إسماعيل الأبياري، الناشر: مؤسسة سجل العرب، الطبعة: ١٤٠٥ هـ.

٦٣٩- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة: إشراف وتخطيط ومراجعة: مانع بن حماد الجهني، الناشر: دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠ هـ.

٦٤٠- الموضوعات: لعبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: نور الدين شكري بوياحيلار، الناشر: أضواء السلف، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٦٤١- الموطأ: لمالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة: بدون، ١٤٠٦ هـ.

٦٤٢- الموطأ: لمالك بن أنس، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية، أبو ظبي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ

- ٢٠٠٤ م.

٦٤٣- ميزان الاعتدال: لمحمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٦٤٤- ناسخ القرآن العزيز ومنسوخه: لهبة الله بن عبد الرحيم، شرف الدين ابن البارزي الحموي، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٦٤٥- الناسخ والمنسوخ رواية أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السلمي: لمحمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، تحقيق: حاتم صالح الضامن، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٦٤٦- الناسخ والمنسوخ في القرآن العزيز وما فيه من الفرائض والسنن: للقاسم بن سلام، أبي عبيد، دراسة وتحقيق: محمد بن صالح المديفر (أصل التحقيق رسالة جامعية)، الناشر: مكتبه الرشد، شركة الرياض، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٦٤٧- الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم: لعلي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٦٤٨- الناسخ والمنسوخ: لأحمد بن محمد بن إسماعيل، أبي جعفر النَّحَّاس، تحقيق: محمد عبد السلام محمد، الناشر: مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٦٤٩- الناسخ والمنسوخ: لقتادة بن دعامة بن قتادة، تحقيق: حاتم صالح الضامن، كلية الآداب، جامعة بغداد، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

٦٥٠- الناسخ والمنسوخ: لهبة الله بن سلامة بن نصر المقري، تحقيق: زهير الشاويش ، ومحمد كنعان، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤ هـ.

٦٥١- النُّبوَّات: لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، الناشر: أضواء السلف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ.

٦٥٢- نتائج الفكر في النَّحو: لعبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السُّهيلي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ.

٦٥٣- النحو الوافي: لعباس حسن، الناشر: دار المعارف، الطبعة: الخامسة عشرة.

٦٥٤- نسب قريش: لمصعب بن عبد الله، أبي عبد الله الزبيري، تحقيق: ليفي بروفنسال، الناشر: دار المعارف، القاهرة، الطبعة: الثالثة.

٦٥٥- النشر في القراءات العشر: لمحمد بن محمد بن يوسف، ابن الجزري، تحقيق: علي محمد الضباع، الناشر: المطبعة التجارية الكبرى .

٦٥٦- نصب الراية لأحاديث الهداية: لعبد الله بن يوسف الزيلعي، تحقيق: إدارة البحث العلمي، الناشر: دار الحديث.

٦٥٧- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: لإبراهيم بن عمر البقاعي، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.

٦٥٨- نقد الشعر: لقدامة بن جعفر، الناشر: مطبعة الجوائب، قسطنطينية، الطبعة: الأولى، ١٣٠٢هـ.

٦٥٩- النكت الشنيعة في بيان الخلاف بين الله تعالى والشيعة: لإبراهيم بن صبغة الله الحيدري، تحقيق وتعليق: عبد العزيز بن صالح المحمود الشافعي، الناشر: مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

٦٦٠- النُّكت والعيون (تفسير الماوردي): لعلي بن محمد بن حبيب الماوردي، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٦١- النهاية في غريب الحديث والأثر: للمبارك بن محمد الجزري، ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، : ١٣٩٩هـ.

٦٦٢- نواسخ القرآن (ناسخ القرآن ومنسوخه): لعبد الرحمن بن علي، أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمد أشرف علي المليباري، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ.

٦٦٣- نيل الأوطار: لمحمد بن علي الشوكاني، الناشر: دار الفكر، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

٦٦٤- الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه: لمكي بن أبي طالب، الناشر: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، الشارقة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.

٦٦٥- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع: لجلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الناشر: المكتبة التوفيقية، مصر.

٦٦٦- هواتف الجنان: لعبد الله بن محمد، ابن أبي الدنيا، تحقيق: محمد الزغلي، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٦٦٧- الوابل الصيب من الكلم الطيب: لمحمد بن أبي بكر بن أيوب، ابن قيم الجوزية، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة، الطبعة: الثالثة، ١٩٩٩م.

٦٦٨- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لعلي بن أحمد الواحدي، تحقيق: صفوان عدنان داودي، الناشر: دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٦٦٩- الوسيط في تفسير القرآن المجيد: لعلي بن أحمد الواحدي، تحقيق: مجموعة محققين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ.

٦٧٠- الوهم والإيهام: لعلي بن محمد بن القطان، تحقيق: الحسين آيت سعيد، الناشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ.

٦٧١- ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن: لمحمد بن عبد الواحد، المعروف بغلام ثعلب، حققه وقدم له محمد بن يعقوب التركستاني، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

تم الصف والإخراج في مؤسسة
الدُّرَر السَّنِيَّة
www.dorar.net
nashr@dorar.net ٠٥٥٦٩٨٠٢٨٠